الثقافة

مجلة أسبوعية للاجتماع والآداب والعلوم والفنون

AL-THAQAFA

الإدارة: بالقاهرة – عابدين – شارع الكرداسي رقم ٩ تليفون ٤٢٩٩٢

العدد ١ — « الثلاثاء ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ — ٣ يناير سنة ١٩٣٩ » — السنة الأولى

الفهرس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١ قرش صاغ

لماذا نصدر المجلة

فى الشرق كنوز لا يفنيها الإنفاق ، من أدب أو علم عربى وفارسى وهندى وغيرها ، جار عليها الزمان فدفن بعضها ، فهى فى حاجة إلى أيد عاملة ، وعقول راجحة ، ونفوس قوية ، تتبع الخطط المحكمة للعثور عليها ، واستخراجها من مكامنها ، حتى تكون ثروة للبائسين ، ومتاعا للمثقفين ، وزينة للناظرين ، وأصدأ بعضها حتى خيل للرائى أنها نحاس وهى ذهب ، أو زجاج وهى درر ، فهى تنتظر من يجلوها ، ويزيل عنها ما غشيها ، حتى ترد إليها قيمتها ، وتظهر حقيقتها ، وباعد فى بعضها بين زمانه وزماننا ، فلم تطب له نفوسنا ، ولم تسغه أذواقنا ، مع ما له من قيمة كبيرة وقدر عظيم ، لا يحتاج إلا إلى تحوير قليل وتعديل بسيط ليوافق ذوق العصر ويلائم العصر

وفى الغرب علم زاخر وأدب وافر ، حالت بيننا و بينه حوائل ، فهو مكتوب بلغة غير لغتنا ، و يتأثر ببيئة اجتماعية غير بيئتنا ، ويعرض لمشاكل قد تختلف فى ظواهرها عن مظاهرنا ، ومع هذا فنحن مرتبطون بهذا العلم الغربى والأدب الغربى ، والمدنية الغربية ، طوعا أو كرهاً ، تدفعنا فى تيارها دفعاً ، وتؤثر فى حياتنا أثراً بليغاً ، شعرنا أم لم نشعر ، وشئنا أم لم نشأ

ذلك لأن المدنية الحديثة بمخترعاتها وآلاتها كسرت الحواجز بين الشعوب ، ووثقت الصلات بينها حتى فى حالات العداء ، وجعلت العالم كله جسما واحداً ، يشعر كل جزء بما ينال بعضه من خير وشر وسعادة وشقاء ، ويتأثر بما يناله أى جزء آخر من التقدم فى علمه وأدبه وحضارته

أصبح الشرق مرتبطاً بالغرب ارتباطاً وثيقاً فى كل مرفق من مرافق الحياة : فى الحركات السياسية ، فى الحركة العلمية والأدبية والفنية ، فى المادة وفى العقل ، فى كل شئ

ومن الخير للشرق أن يقف على هذه الحركات فيتصرف فيها عن خبرة ، ويحكم فيها عن علم ، ويسايرها أو يعارضها عن درس ، فذلك أصح لحكمه ، وأوفق لغرضه ، وأليق بإنسانيته

***

هذه الكنوز الشرقية التى وصفنا ، وهذه الثروة الغربية التى ذكرنا ، لايقوم بحقها — بل لا يؤدى عشر معشارها — كل المجلات العربية على اختلاف أنواعها ومناهجها وإقليمها ، وهى — إلى الآن — لا تزال محتاجة إلى مئات المجلات بجانبها تعالج هذه الثروات من نواحيها المختلفة ، وبكفاياتها المتعددة

وقد أحسنا القدرة على أن نشارك فى هذا العمل الجليل ، وننزل فى هذا الميدان الخطير ، فتقدمنا نعمل مع العاملين ، ونحمل عبئنا مع الحاملين ، ونجاهد مع المجاهدين ، لا نشعر نحو إخواننا « أصحاب المجلات » إلا شعور الفرق المختلفة فى الجيش الواحد ، هزيمة الفرقة هزيمة الجيش ، ونصرة الفرقة نصرة الجيش ، والكل يعمل ، والكل يتعاون

لا نريد حربا إلا حرب الآراء ، فهى حرب خير من سلم ، وصراع خير من مهادنة ، وقد علمتنا الأيام أن الرأى

مع أدبائنا المعاصرين

للدكتور طه حسين بك

يقال إن التفكير ظاهرة اجتماعية لا فردية ، بمعنى أن الفرد لا يفكر ولا يقدر ولا يروّى إلا من حيث هو عضو من أعضاء الجماعة التي يعيش فيها والتي يستحضرها في نفسه استحضاراً ملحوظاً أو غير ملحوظ حين يفكر أو يقدر أو يروى . ولولا أنه يلحظ أمثاله ونظراءه الذين سيظهرون على خواطره ، وآرائه لما فكر ولا قدر ولا روى . ومعنى ذلك أن هذا الإنسان الفرد الذي ينشأ في جزيرة نائية ، مقطوعة الصلة بحياة الناس ، أو يضطر إليها قبل أن يتم نضجه العقلي فيعيش فيها مفكراً مقدراً ومرويا متدبراً ثم يستكشف حقائق الأشياء ، وأصول التفكير والنطق . هذا الإنسان صورة من صور الأساطير لم يوجد ولم يعرف وليس من اليسير أن يوجد أو يعرف . ويقال إن مصدر هذا أن التفكير أثر من آثار اللغة ومظهر من مظاهرها ، لا سبيل إلى أن يوجد بدونها ، لأن الخواطر والآراء مهما تكن لا تستطيع أن تخطر للنفس أو تلائمها أو تستقر فيها إلا إذا اتخذت لها من الألفاظ صوراً وأزياء تمنحها الوجود وتمكنها من الخطور على البال والاستقرار في الضمير والخضوع لما تخضع له الخواطر في نفس المفكرة من التواصل والتقاطع ، ومن التقارب والتباعد ، ومن الائتلاف والافتراق .

يقال هـذا ويقال أكثر من هذا ، ولست أدرى — وما يعنيني أن أدرى — أحق هذا أم باطل ، وخطأ هذا أم صواب ! وإنما الشيء الذي يظهر أنه لا يقبل الشك ولا يحتمل الجدال ، هو أن الانتاج الأدبي ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن يكون إلا في الجماعة التي تسمع الأثر الأدبي أو تقرؤه فتتأثر به ، راضية عنه أو ساخطة عليه ، معجبة به أو زاهدة فيه . وإذا جاز أن يوجد الفرد الذي يفكر لنفسه ويستكشف لنفسه حقائق الأشياء ، وأصول التفكير والنطق . فما أظن من الجائز أن يوجد الفرد الذي يصور خواطره وآراءه في الألفاظ التي تنطق أو تكتب ، وتسمع أو تقرأ ، وهو لا يريد بهذا التصوير إلا نفسه ، ولا يوجه هذا التعبير

لا تنجلى صحته إلا بعد أن يُصْهَر في البوتقة ، أما حرب شخص لشخص في شخصيته وجماعة لجماعة في ذاتها لا في آرائها ، فسخافة نربأ بأنفسنا عنها ، ونصغر في جانب الغرض الأسمى الذي نرمى إليه

ولا نريد مالا فالمجلة العربية — مهما راجت — لا تنيل ثروة ولا تكسب غنى ، فكيف إذا كانت لجماعة كبيرة تنفق عليها عن سخاء ، وتسمو إلى الجد ، ولا تنزل إلى التجارة ؟

ولجنة التأليف بحمد الله غنية بأعضائها ، غنية بتخصصها ، ففيها العالم من كل صنف ، وفيها الأديب من كل نوع ، وفيها الفنان في كل فن ، حصلوا كثيراً من العلم والأدب ، فرأوا من واجبهم أن يشركوا في علمهم وأدبهم أكبر عدد ممكن في مختلف الأقطار ، فكانت « مجلة الثقافة » ، كما أنها قوية بالتفاف قلوب الأدباء والعلماء حولها يمدونها بثمار علومهم ، ونتاج تفكيرهم ، وغزير ما تجرى به أقلامهم

فهي تتقدم للعالم الشرقي مؤمنة بقدرتها — بنفسها وبأصدقائها — شاعرة بتبعتها ، مقدرة لواجبها ، واثقة بقرائها ، فإلى الأمام والله يوفقها ؟

أحمد أمين

إلا إليها . وقد يخيل إلى الأديب ذى الشخصية القوية الممتازة الذى يغلو فى الامتياز حتى يشذ عن معاصريه ، أنه لا يكتب للناس ولا ينتج لهم ، لأنه واثق أو كالواثق بأن الناس لن يفهموا عنه ولن يسمعوا له ، فهو إنما يكتب ليرضى نفسه بإظهار ما يكتب وإعلان ما يسر . ولكن هذا الأديب إن وجد — وما أكثر ما يوجد — إنما يخدع نفسه عن حقيقة الأمر ، فلولا أنه يريد أن يظهر الناس على ما يفكر ويقدر فى يوم من الأيام لما صور تفكيره وتقديره فى الألفاظ والعبارات ، ولما أودعه الصحف وأسره إلى الأوراق

وأظرف من هذا أن الأديب الممتاز قد لا يكتفى بتصوير خواطره وآرائه فى الألفاظ والعبارات وإيداعها الصحف والأوراق ، ولكنه يرسلها إلى المطبعة ، فإذا خرجت من المطبعة نسخاً كثيرة فرقها على المكتبات لتذيعها فى الناس ، ولعله أن يشارك فى إرسالها إلى الصحف ، ولعله أن يرسلها إلى النقاد ليقرءوها ولينقدوها وليحكموا عليها وليعلنوا إلى الناس ما يكون لهم فيها من رأى ، ولعله أن يغضب إذا لم يجد لخواطره وآرائه صدى فيما تكتبه الصحف ، وفيما يتحدث به الناس . وهو مع ذلك يؤكد لنفسه — وللناس — أنه لم يقصد بما كتب وما أذاع إلى الجمهور ، وإنما جاشت فى نفسه خواطر فلم ير من إظهارها بداً ، وخطرت له آراء فلم يجد عن إذاعتها منصرفا

وأظرف من هذا كله أن الأديب قد يجد على النقاد أن أهملوا كتابه أو أعرضوا عنه ، وقد يتهمهم بالحسد ويصمهم بالغيرة ، وقد يعتب على هذا الناقد أو ذاك من أصدقائه لأنه لم ينوه بكتابه فى الصحف ، ولم يختصه بفصل أو بقطعة من فصل من هذه الفصول التى يذيعها فى كل أسبوع

كل ذلك وهو لم يكتب للناس وإنما كتب لنفسه ، ولم يفكر للناس وإنما فكر لنفسه ، ولا يخطر للأديب أنه إذا أراد إرضاء نفسه فليس فى حاجة إلى الكتابة ، وليس فى حاجة إلى أن يتحدث إلى الناس ، لأنه فى هذا النحو أو ذاك ووقوفه عند هذا الرأى أو ذاك ، إنما حسبه أن يفكر فيما يشاء ، وكيف يشاء ، ليرضى إن أراد الرضى وليسخط إن أراد السخط ، وليذوق كل ما يعقبه التفكير والشعور والحس من اللذات والآلام

هذا خداع من الأديب لنفسه حيناً وللناس أحياناً . والحق الذى لا شك فيه أن الأديب أجدر الناس بأن يكون هذا الحيوان الاجتماعى الذى تحدث عنه الفيلسوف القديم ، فهو لا يعيش إلا بالناس وهو لا يعيش إلا للناس . منهم يستمد خواطره وآراءه ، وإليهم يوجه خواطره وآراءه . يبتهج إن غذوا حسه وشعوره وعقله بالظواهر والحوادث والواقعات ، ويتم إن أحس أنهم يسيغون ما يقدم إليهم من غذاء . وهو مفلس إن عاش فى بيئة لا تغذو الحس والشعور والعقل ، وهو مبتئس إن عاش فى بيئة لا تستمتع ولا تظهر له أنها تستمتع بما يقدم إليها من ثمرات

وفى الصلة بين الأديب وقرائه أو قل بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك — كما يقول أصحاب الاقتصاد — شئ من الدعابة والعبث وشئ من الملل والتيه ، يتيح للأديب أن يغضب حين لا يكون للغضب موضع ، وأن يرضى حين لا تدعو الدواعى إلى الرضى ، ويتيح للجمهور أن يشتط فى الطلب ، وأن يتجنى فيلح فى التجنى ، وأن يقصر حين تحسن العناية ، وأن يعنى حين يحسن الإهمال . وأمور الانتاج والاستهلاك فى الأدب جارية على هذا منذ أقدم العصور ، ويظهر أنها ستجرى على هذا ما دام فى الناس أدباء ينتجون وقراء يستهلكون

هذا الشاعر ، أو هذا الكاتب ساخط على الجمهور ، أو متنكر له ، أو متبرم به ، يوسعه لوماً وتأنيباً ، ويلح عليه بالتوبيخ والتقريع ، ويتمنى أن تنقطع بينه وبينه الصلة ، ويود لو تبتر بينه وبينه الأسباب . والجمهور مع ذلك راض عنه ، رفيق به ، متحبب إليه ؟ يرى فيما يوجه

إليه من اللوم والتأنيب نصحاً ورشدا ، ويجد فيما يسوق إليه من التوبيخ والتقريع لذة ومتاعا ! ويلقى سخطه العنيف بالابتسام الحلو الرقيق ! وهذا الشاعر أو الكاتب يتلطف الجمهور ويترضاه ، ويسرف في التلطف له وابتغاء الوسائل إلى قلبه ؛ ولكن الجمهور لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، ولا يقف عند ما يهدى إليه من هذه الأزهار النضرة التي تتملق أحب الغرائز إليه وآثرها عنده

ومن هنا يكون بين الأدباء من يلائم عصره ومن لا يلائمه ، ومن يفهم في عصره ومن لا يفهم إلا بعد عصره بقرون . ومن هنا يكون بين الأدباء من يتاح له المجد السريع ، ويكون منهم من يتاح له المجد البطيء . ومن هنا يكون بين الأدباء من يفسد الجد عليه أمره وفنه ، ويكون بينهم من يفسد الاخفاق عليه أمره وفنه ، ويكون بينهم من يتاح له القصد في ذلك ، فلا يبطره الفوز ، ولا يوئسه الاخفاق ، وإنما يسلك بين ذلك سبيلا وسطا ، فيلتمس لذته ومتعته في فنه وفي آثاره ، أكثر مما يلتمس لذته ومتعته في رضى الناس عنه وإعجابهم به وتهالكهم عليه .

والمهم أن الأديب مهما يكن أمره ، كائن اجتماعى لا يستطيع أن ينفرد ، ولا أن يستقل بحياته الأدبية ، ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس ، فكان صدى لحياتهم ، وكانوا صدى لانتاجه ، وكان مرآة لما يجدون من لذة وألم ، ومن نعيم وبؤس ، وكانوا مرآة لما يذيع فيهم من رأى وخاطر ، وما يقدمه به من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها

وهو في حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة ، وإلى أن يراها قوية متينة ، مترددة بينه وبينهم كما يتردد الرسول بين المحبين . ذلك يدفعه إلى العمل ، وينشطه للانتاج ، ويغذو نفسه بالمعانى ، ويثير فيها الخواطر والآراء ، ويشيع في لغته القوة والحدة والنشاط . ويلائم بين هذه اللغة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسمعونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في جمهور الناس . ومن هنا ينشأ لون من الأدب هو الذى يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ، ويحققها على أتم وجه وأقواه وأنفعه ، لأنه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يختصمان حيناً ويأتلفان حيناً آخر ، وهما الأديب والجمهور . وهذا اللون الجديد من الأدب هو النقد الذى يبلغ إلى الناس رسالة الأديب فيدعوهم إليها ويرغبهم فيها ، أو يصرفهم عنها ويزهدهم فيها . والذى يبلغ الأديب صدى رسالته في نفوس الناس وحسن استعدادهم لها أو شدة ازورارهم عنها ، أو فتورهم بالقياس إليها . ولعله أن يبين للأديب أسباب إقبال الناس عليه وإعراضهم عنه . ولعله أن ينصح للأديب بما يزيد إقبال الناس عليه إن كانوا مقبلين ، ويخفف إعراضهم عنه إن كانوا معرضين ، فهو الرسول الحكيم الذى نصح القدماء باتخاذه لذوى الحاجات . هو حكيم بالقياس إلى الجمهور ، لأنه يدل الناس على ما يحسن أن يقرءوا ، وعلى ما يحسن أن يفهموا مما يقرءون . وهو رسول حكيم بالقياس إلى الأديب ، لأنه يبين للأديب مواقع فنه من الناس ، وقد يدله على الخطأ إن وقع فيه ليتجنبه ، وعلى الصواب إن وفق إليه ليتزيد منه ، وقد يدله على التقصير الفنى ليتقيه ، وعلى الاجادة الفنية ليتفيأها فيما يستأنف من الآثار

ولكن هذا النقد الأدبى لا ينشئ نفسه ولا يقوم بالرسالة في الهواء بين الأديب وقرائه ، وإنما ينشئه إنسان أديب له في أكثر الأحيان ما للأديب المنتج من الخصال المحمودة والمذمومة ، يخادع نفسه ويخادع الناس في كثير من الأحيان عن فنه ، وعما يقصد إليه بهذا الفن . فما أكثر ما يخيل الناقد إلى نفسه ! وما أكثر ما يخيل إلى الناس أنه لا ينقد هذا الكتاب أو ذاك إلا لنفسه لا رغبة في النقد وإيثاراً له وإرضاء لميله الطبيعي إلى أن تستقر أمور الصواب والخطأ ، وأمور الإحسان والإساءة الفنية في نصابها ! وهو في حقيقة الأمر إنما ينقد لنفسه

وللناس كما يبتهج الأديب المنشئ لنفسه وللناس ، يجد اللذة والمتاع فى الإنشاء نفسه ، لأنه تخلص من عبء ثقيل ، ولأنه تأثير فى غيره من الناس وتسلط عليهم ، ولأنه فعل إيجابى إذا أردت الإيجاز ، كما يجد اللذة والمتاع فى تأثر الناس به وفهمهم عنه وإكبارهم له وإعجابهم بما يدعو إليه . وكما يجد اللذة والمتاع أحياناً فى مقاومة الناس له وازورارهم عنه ، وتشددهم فى الإنكار عليه ، وفيما يستتبعه ذلك من أخذ ورد ، ومن جذب ودفع ، ومن جدال وحوار ومن خصام ومراء أيضاً

فى الناقد الخليق بهذا الوصف مزايا الأديب الخليق بهذا الوصف وعيوبه ، لا يكادان يفترقان إلا فى أن أحدهما — وهو الأديب — يتخذ طبائع الأشياء وحقائقها مادة لأدبه ، وموضوعاً لإنتاجه ، على حين يتخذ أحدهما الآخر وهو الناقد صور الأشياء ونماذجها أى الأدب نفسه مادة للنقد وموضوعاً . ومع ذلك فليس من المحقق أن الناقد لا يلم بطبائع الأشياء وحقائقها ، وربما كان المحقق عكس ذلك ، فما أكثر ما يحتاج الناقد إلى أن يعالج الموضوع الذى عالجه الأديب ليبين أو ليتبين ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة ، وما عسى أن يكون الأديب قد سلك إلى تذليل هذه الصعوبة من طريق ، وما عسى أن يكون الأديب قد وفق إليه من إجادة أو قد تورط فيه من إساءة

فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معانى الكلمة . والنقد آخر الأمر أدب بأسع معانى الكلمة أيضاً ، وربما أتيحت للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشئ ، فالناقد مرآة تمرأه كالأديب ، والقراء مرآة للناقد كما أنهم مرآة للأديب أيضاً . ولكن الناقد مرآة صافية واضحة جلية كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلاء ، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارئ ، وكما تعكس صورة الناقد . فالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث : نفسية المنشئ المؤثر ، ونفسية القارئ المتأثر ، ونفسية الناقد الذى يقضى بينهما بالعدل ويزن أمرهما بالقسطاس

وواضح جداً أنى إنما أعظم من أمر النقد وأكبر من شأنه وأرفعه إلى هذه السماء الممتازة التى تظل الأدباء والقراء جميعاً ، لأنى أريد أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة كما يقال — فرصة إصدار « الثقافة » — لأعرج منها إلى هذه السماء الممتازة ، ولأشرف منها على الأدباء والقراء جميعاً ، فى فصول من النقد أتناول بها تأثير أولئك وتأثر هؤلاء ، وما ينبغى لى أن أقصر فى ذات نفسى ولا أن أضعها حيث يجب أن توضع من الأدباء والقراء . فإن هذا التواضع لم يصبح ملائماً للمبدع فى هذه الأيام . وإنما ينبغى لى أن أستطيل وأن أتكلف الاستطالة ، وأن أرتفع وأتكلف الارتفاع ، لأنى لا أريد أن أقبل على الأدباء والقراء مسالماً ولا موادعاً ، وإنما أريد أن أقبل عليهم مخاصماً وملحاً فى الخصام . والله يعلم ما أفعل ذلك حباً فى الخصام أو إيثاراً له أو رغبة فى الاستعلاء والكبرياء . وإنما أفعل ذلك تعمداً لإيقاظ قوم نيام ، قد طال عليهم النوم حتى كاد يشبه الموت . وهؤلاء القوم النيام هم الأدباء والقراء . أولئك ينتجون وهم نيام ، قد أمنوا النقد أو استيأسوا منه ، فهم ينتجون فى فتور ، ويرضون عن أنفسهم أو يسخطون عليها ، لأنهم قد اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضى أو يبين عن السخط . وهؤلاء يقرءون وهم نائمون ، قد تعودوا أن ينفقوا الوقت بين حين وحين بقراءة هذا الكتاب أو ذاك ، لهذا الأديب أو ذاك ، لم تدعهم إلى القراءة رغبة قوية ولا خصومة عنيفة ، حول رأى من الآراء أو مذهب من مذاهب الإنشاء ، وإنما دعتهم العادة إلى القراءة . دعتهم العادة ودعاهم الفراغ الثقيل أيضاً . فماذا تريد أن يصنع الرجل المثقف حين تنبئه الصحف بأن فلاناً قد أخرج كتاباً ؟ وماذا تريد أن يصنع حين يتحدث إليه الناس عن هذا الكتاب ويسألونه عن رأيه فيه ؟ لا بد من أن يلم به

إلمامة يسيرة قصيرة، ترفع عنه اللوم وتبرئه من مذمة الجهل وتتيح له أن يقول إذا سئل: نعم لقد رأيت هذا الكتاب ونظرت فيه، ولست أرى به بأساً، أو أنا أرى به بعض البأس. والناس لا ينتظرون منه أكثر من هذا، وهو لا ينتظر منهم إذا سألهم أكثر من هذا أيضاً. وكذلك ينتج الأدباء وهم نيام فكأنهم يحلمون بالانتاج، ويقرأ القراء وهم نيام فكأنهم يحلمون بالقراءة!

ويشمل الحياة الأدبية في مصر فتور مهلك أو مدن من الهلاك. ولا بد من أن ينجاب هذا الفتور، ولا بد من أن يذاد هذا النوم، ولا بد من أن ينتبه الأدباء ويقرأ القراء وهم أيقاظ. والنقد وحده كفيل بإيقاظهم. ولكنه لن يبلغ أسماعهم فيما يظهر إلا إذا رفع صوته رفعاً عنيفاً وهز النائمين هزاً قوياً، واضطرهم إلى هذه الحركة المضطربة التي يضطر إليها النائم المغرق في النوم حين يزعجه الصوت المرتفع أو الهز العنيف. وما من شك في أن النائم الذي يستيقظ وجلا مضطرباً يمقت موقظه أشد المقت. وأنا مستعد والحمد لله لأتلقى مقت النائمين الذين أريد إيقاظهم. بل يظهر أني مستعد لأكثر من هذا، فإن النائم إذا أفاق وثاب إليه رشده وعادت إليه نفسه كف عن المقت واللوم في أكثر الأحيان ورضي عن موقظه وحمد له عنفه. ولكني مستعد فيما يظهر لتقبل اللوم المستمر والمقت المتصل، لأني أرى في ذلك تقوية لهذه الحياة الأدبية التي اشتدت حاجتها في هذه الأيام إلى القوة والنشاط، ولأني أخشى إذا أيقظت النائمين بالعنف ثم عدت في أمرهم إلى الهدوء والدعة أن يعودوا إلى الراحة وأن يستحبوا النوم. وما أدري ماهذا الجنيّ الذي يلح علي ويريدني على ألا أنام ولا أنيم. وقد حاولت أن أستنقذ منه نفسي وأن أغريه بغيري من النقاد فلم أبلغ مما أردت شيئاً!

وهذه كتب كثيرة قد ظهرت منذ أعوام لطائفة من أدبائنا الشيوخ والشباب، قد جمعها لي هذا الجني جمعاً ووضعها بين يدي وضعاً، وهو يلح علي في أن أقرأها، وفي أن أنقدها، وفي أن أذيع رأيي فيها وحكمي عليها، وفي أن أتعرض من أجل ذلك للوم اللائمين وسخط الساخطين! والغريب أن هذا الجني الماكر أمين ناصح لا يريد أن يخدعني عن نفسي، ولا عن الناس! فهو يزعم لي أن الأدباء سيلقونني بمثل ما أبدؤهم به أو بشر مما أبدؤهم به. فقد ظهرت لي كتب وستظهر لي كتب. وأي كتاب يستطيع أن يظفر بالرضى كله، وأي كتاب من كتب الناس لا يأتيه النقد من هذا الوجه أو ذاك. وإذن فسينقد الناس كتبي كما أنقد كتبهم، وسيكيلني الناس بالصاع صاعين، وبالباع باعين، كما قال لي الأستاذ العقاد في بعض رسائله منذ أكثر من عشر سنين. وإذن فهذا الجني يصور لي نتيجة هذا النشاط الذي أستأنفه على أنها رد ونقد وخصومة وحكومة، واضطراب في الجدل والحوار، ويخيرني بين هذه الحياة العنيفة الخصبة، وبين حياة أخرى هادئة وادعة، ولكنها عقيمة مجدبة، لا نقد فيها ولا رد، ولا خصومة فيها ولا حكومة، ولا جدال فيها ولا حوار، وإنما هي حياة الراحة والعافية والجمود. وواضح جداً أني أختار الأولى. ومتى رأى الناس أني أختار اليسير مما يعرض لي من الأمور؟

أمر الأدباء، وأمري إلى الله، إذن فلنستأنف حياة النقد والرد التي عرفناها في بعض أوقاتنا، فذقنا منها هذه اللذة المؤلمة، وهذه الحلاوة المرة التي لا يستقيم بدونها مزاج الأديب!

وليكن أول ما نبلو به أنفسنا من ذلك كتاب صديقنا «أحمد أمين» زعيم لجنة التأليف والترجمة والنشر وزعيم مجلة «الثقافة». فإن أحب شيء إليّ أن أبدأ بمداعبة أقرب الأدباء إليّ، وأدناهم مني وآثرهم عندي

طه حسين

في التاريخ السياسي المعاصر:

الصراع بين الدكتاتورية والديموقراطية

لمحرر الثقافة السياسي

منذ أعوام ثلاثة يشهد العالم أعظم صراع عرفه التاريخ بين نظامين سياسيين واجتماعيين هما: الديموقراطية والدكتاتورية. وقد بلغ هذا الصراع الهائل ذروته في شهر سبتمبر الماضي حينما تفاقمت المسألة التشكوسلوفاكية وأصرت ألمانيا على مطالبها في ضم منطقة السوديت الألمانية التي أدمجت في تشيكوسلوفاكيا منذ سنة ١٩١٩ بمقتضى معاهدة الصلح. وشعر العالم كله في هذه الأيام القلائل أنه يجوز أخطر أزمة دولية عرفها منذ نهاية الحرب الكبرى، وأنه كان حقاً على وشك الانفجار والانحدار إلى هاوية حرب عالمية أخرى.

ذلك أنه في الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٦ سبتمبر ألقى سيد ألمانيا وزعيمها خطبته الشهيرة التي ارتعدت لها فرائص جميع الذين يروعهم خطر الحرب، وأنذر فيها تشيكوسلوفاكيا والدول الديمقراطية والعالم أجمع، بأن صبره قد بلغ النهاية، وأنه إذا لم تذعن تشيكوسلوفاكيا لإرادته وتنزل لألمانيا عن منطقة السوديت حسبما حددت وبينت في البلاغ الألماني النهائي، وذلك في يوم أول أكتوبر، فإن ألمانيا تعرف كيف تأخذ حقها بيديها في ذلك اليوم ذاته، ولن يثنيها عن عزمها شيء في هذا العالم، وعلى الدول الديمقراطية أن تحتمل جميع التبعات التي تترتب على ذلك الانفجار.

فهل كان الهر هتلر يعني ما يقول يومئذ؟ وهل كان يعتزم حقاً أن يخوض غمار الحرب إذا لم تحقق مطالبه؟ هذا ما لا يزال سراً من أسرار التاريخ. بيد أننا وقد كنا يومئذ في ألمانيا، مركز الاضطرام، ومسرح الحوادث، نستطيع أن نقول إن كل ما في ألمانيا في تلك الآونة كان يشعر بأن الحرب على الأبواب. فمنذ منتصف شهر سبتمبر كانت المظاهرات الحماسية والاستعراضات العسكرية الكبرى تخترق شوارع العواصم الألمانية باستمرار، والدعوة إلى الخدمة العسكرية تنهال على مختلف الطبقات، ويتساءل الناس باستمرار: «هل تقع الحرب؟» وقد ساد الاضطراب والجزع في جميع مراكز الأعمال، وهرع معظم الأجانب إلى مغادرة ألمانيا. وكانت المناورات الجوية الليلية تجرى باستمرار، حتى إن النمسا وفينا قطعنا ثلاثة أيام متوالية في ظلام دامس منذ ١٩ إلى ٢٢ سبتمبر. وكانت شوارع العاصمة النمسوية وأحياؤها تبدو في هذه الليالي الرهيبة كتلاً من الحلك المروع، لا ترى الناس والأشياء إلا أشباحاً سوداء. وقيل بعدئذ إن هذا الظلام لم يكن إلا ستاراً لنقل عدد عظيم من الجند وكميات وافرة من الذخائر إلى حدود تشيكوسلوفاكيا.

وقطع الناس في اليومين التاليين لإلقاء الزعيم (هتلر) لخطبته ساعات عصيبة حقاً، فيها كان شبح الحرب يبدو قوياً في الأفق، وقد ساد الوجوم كل مكان وكل محيا، واستشعر معظم الناس أن الكارثة تكاد تنقض على العالم. ولكن حدث في مساء الأربعاء ٢٨ سبتمبر أن أذاع الراديو في كل مكان، أن مؤتمراً سيعقد في صباح الغد في ميونيخ من رؤساء الدول الأربع العظمى، ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وانكلترا، وأن الأمل معقود بالوصول إلى حل يصون السلام ويقي العالم شر الخطر الرهيب. فنزل النبأ على الناس كالغيث، ودوت صيحات الفرح والارتياح في كل مكان.

وكان أن عقد مؤتمر ميونيخ في اليوم التالي من رؤساء الدول الأربع في صباح يوم الخميس. وكان أن سلمت

الدولتان الديمقراطيتان الكبيرتان انكلترا وفرنسا ، بجميع مطالب ألمانيا في ضم منطقة السوديت ، مما يعرفه العالم أجمع ومما لا حاجة بنا إلى تفصيله .

* * *

وقيل غداة مؤتمر ميونيخ إن السلام قد أنقذ وإن التضحية التي أرغمت تشيكوسلوفاكيا على أدائها بالتنازل عن بعض أراضيها لم تكن شيئاً مذكوراً ، إلى جانب أهوال حرب مروعة كانت وشيكة الضرام ، وإن عصراً جديداً من التفاهم والوئام سيبدأ بين الدول الدكتاتورية والدول الديمقراطية .

ولكن أولئك الذين يؤثرون تسمية الأشياء بمسمياتها ، ويرون الأمور بعين الحقيقة ، رأوا يومئذ في مؤتمر ميونيخ رأياً آخر ، هو أن الدكتاتورية أحرزت فيه ظفراً عظيماً لم تكن تحلم به ، وأصيبت الديمقراطية بهزيمة شنيعة بل بكارثة حقة سيكون لها أبعد الآثار .

وفي سير الحوادث ما يدل حقيقة على أن يوم ميونيخ كان يوماً عصيباً على الديمقراطية ، وكان يوماً حاسماً في سير ذلك الصراع الهائل الذي يضطرم بينها وبين الدكتاتورية ، ففيه لم تغنم ألمانيا مناطق السوديت من تشيكوسلوفاكيا فقط ، بل غنمت سيادة أوربا الوسطى وسيادة القارة كلها ، وحطمت حصن الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا — وقد كانت في الواقع حصناً للديمقراطية في أوربا الوسطى — وقضت على التحالف الصغير ، وعلى جميع مظاهر التوازن الدولي الذي أنفقت الدول الغربية عشرين عاماً في إقامته في أوربا الوسطى .

والآن تبدو ألمانيا سيدة القارة الأوربية ، وتعمل بنشاط عظيم لدفع نفوذها وسيادتها نحو الجنوب والشرق ، وقد أصبحت دول أوربا الوسطى : تشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا والدول البلقانية حتى تركيا في متناول نفوذها ، وصار يتعذر على هذه الدول أن تتجه إلى محالفة دولة أخرى أو إلى تعضيد أي نفوذ آخر .

كان يوم ميونيخ إذن يوم فصل رجحت فيه كفة الدكتاتورية ، وكان نهاية مرحلة من الظفر ، لم يك شك في رأي السياسيين العمليين أن ألمانيا ستبلغها ، ما دامت الدول الديمقراطية سائرة على سياسة التسليم والإذعان في كل ضربة تنزلها بها الدول الدكتاتورية .

وقد بلغت الدكتاتورية هذه المرحلة من الظفر في فترة وجيزة ترجع إلى ثلاثة أعوام فقط . ففي ربيع سنة ١٩٣٦ حققت إيطاليا مشروعها الجرئ في غزو الحبشة وضمها إلى أملاكها أمام سمع العالم وبصره ، ولم تعبأ بأية معارضة أو احتجاج . وفي الوقت نفسه احتلت ألمانيا منطقة « الرين الحرام » التي فرضت عليها بمقتضى معاهدة فرساي ، وأعلنت بطلان جميع النصوص العسكرية التي تضمنتها هذه المعاهدة ، والتي كانت تغل يدها عن إنشاء قواتها الدفاعية . ولم تتحرك فرنسا التي ترتبط هذه الخطوة بسلامتها أشد الارتباط ، لأن انكلترا لم تر يومئذ وجهاً للاعتراض على استرداد ألمانيا لحريتها في شؤون الدفاع القومي ، ولم تستطع فرنسا من جانبها أن تقوم بأي اجراء منفرد . وكانت السياستان البريطانية والفرنسية يومئذ على خلاف من جراء المسألة الحبشية ، ولم تخف هذه الحقيقة على ألمانيا ؛ وكما خذلت فرنسا انكلترا في المسألة الحبشية ، فكذلك رأت انكلترا أن ترد بخذلان فرنسا أمام ألمانيا في المسألة العسكرية .

على أن الدول الديمقراطية ارتكبت يومئذ أعظم أخطائها ، ولم تدرك أن هذا الضعف من جانبها ، سيؤدي في فترة وجيزة إلى قلب التوازن الدولي بصورة لم يسبق حدوثها .

ذلك أن ألمانيا اتمت ظفرها في الرين ، واتمت إيطاليا ظفرها في الحبشة ، بتدبير الحرب الأهلية الاسبانية

وتسليح فرانكو ، ومده بمعاونات عسكرية عظيمة ؛ وكان أن اضطرمت نار الحرب الاسبانية في يوليو من هذا العام ، وما زالت تضطرم إلى يومنا . وكان هدف الدولتين ظاهراً وهو إقامة حكومة دكتاتورية حليفة في اسبانيا ، تعتمد على معاونتهما ؛ وتستطيع عند الحاجة أن تناوئ انكلترا وفرنسا ؛ وأن تغدو خطرا على مواصلاتهما في البحر الأبيض المتوسط ؛ ومع أن فرانكو لم يحرز النصر النهائي بعد ، فان الحالة في اسبانيا تثير اليوم أعظم المخاوف في انكلترا وفرنسا .

وفي خريف سنة ١٩٣٧ ، عقدت ألمانيا وإيطاليا تحالفهما المشهور بمحور برلين رومه ؛ ومن ذلك التاريخ تنقسم أوربا إلى معسكرين واضحين : معسكر الدكتاتورية وقوامه ألمانيا وإيطاليا ؛ ومعسكر الديمقراطية وقوامه فرنسا وانكلترا ؛ ويتخذ الصراع بين الفريقين صورة واضحة عنيفة . هذا ومن جهة أخرى فقد استطاعت سياسة « المحور » أن تستدرج اليابان إلى عقد ميثاق ثلاثي غرضه الظاهر مكافحة الشيوعية ، وغايته الحقيقية تعاون الدول الثلاث على تحقيق المآرب الاستعمارية . فألمانيا وإيطاليا تعضدان توغل اليابان في الصين ، وهذا التوغل خطر واضح على المصالح الانكليزية والفرنسية في الشرق الأقصى . واليابان تستطيع في الوقت نفسه أن تشغل جارتها الأسيوية الكبيرة « روسيا » التي تقف في شرق أوربا إلى جانب الدول الديمقراطية .

هذا وبينا تتفاقم المسألة الاسبانية في أوائل سنة ١٩٣٨ ويبدو ظفر الجنرال فرانكو قريباً بسحق الجمهورية الاسبانية وإقامة الحكم الدكتاتوري في اسبانيا مفتاح البحر الأبيض من الغرب ، إذا بحوادث أوربا الوسطى تتطور بسرعة مدهشة ، وإذا ألمانيا تنقض في يومي ١٢ و ١٣ مارس على النمسا فتحتلها ، وتعلن ضمها إليها أمام أوربا قبل أن تفيق من دهشتها وذهولها ، وإذا موسوليني الذي سبق أن حشد جيوشه فيما وراء ممر « برنر » في سنة ١٩٣٤ ، حينما حاول النازي في النمسا الاستيلاء على الحكم ، يسارع فيقر عمل هتلر في ضم النمسا ويؤيده ؛ والعالم كله يتساءل : كيف تسامح إيطاليا الفاشستية إلى هذا الحد في حدوث ما اعتبرته قبل بضعة أعوام خطرا على سلامتها وتأهبت لمقاومته بقوة السلاح ؟

وكان استيلاء ألمانيا على النمسا نذيرا بانهيار التوازن الدولي في أوربا الوسطى ؛ وانهيار جمهورية تشيكوسلوفاكيا التي أنشأها الحلفاء الظافرون في معاهدة الصلح لتكون مخفرا وحصناً للديمقراطية في أوربا الوسطى ؛ فلم تمض أشهر قلائل حتى تفاقمت مشكلة السوديت الألمان ، وعملت ألمانيا على إذكائها بكل ما وسعت ؛ وكان مؤتمر ميونيخ واقتطاع ألمانيا لمناطق السوديت وانهيار تشيكوسلوفاكيا كدولة قوية مستقلة ، وظهور ألمانيا الكبرى بصورة من القوة والسلطان في الشئون الأوربية لم يشهدها التاريخ .

* * *

كان مؤتمر ميونيخ خاتمة للمأساة التشيكوسلوفاكية ، ولكنه كان فاتحة لمأساة أعظم وأخطر ، هي مأساة القارة الأوربية بأسرها .

فأوربا اليوم تجوز مرحلة من الاضطراب الفكري لم تعرفها منذ الحرب الكبرى ، والأفق السياسي مكفهر لا يكاد يصفو يوما واحدا ، والأزمات الدولية تتوالى بسرعة ، والعالم كله يرقب هذا الغموض بجزع ويحاول أن يتعرف المصير الذي يتحدر إليه .

لم يبق خافياً أن مثار الاضطراب العالمي الحاضر كله هو تلك المعركة الهائلة التي تضطرم اليوم بين الدكتاتورية والديمقراطية ، وهي معركة تخرج اليوم عن صفتها العلمية

وتغدو معركة عالمية ، تتعدى أوربا إلى أمريكا وآسيا ، وتشغل الرأى العام فى جميع الأمم المتمدنة .

وأظهر خواص هذا الصراع اليوم هو مظاهر القوة التى تبدو بها الدول الدكتاتورية ، فهى ما زالت تخرج خلال الفترة الأخيرة من نصر إلى نصر ، وتقدم على تحقيق برامجها ومشاريعها بثبات وجرأة ؛ بينا الدول الديمقراطية تخرج من هزيمة إلى أخرى ، وتنتهى فى كل أزمة بالإذعان والتسليم ، وتتمسك بنظرياتها وتقاليدها السياسية القديمة ؛ هذا بينا يلجأ خصومها إلى الوسائل العملية الناجعة ، ومن ورائهم قوات عظيمة مسلحة استطاعوا إنشاءها بجهود جبارة وما زالوا يستزيدون منها ، وشعارهم دائماً الفصل للقوة ، وأن عصبة الأمم ، ونظرية السلامة الاجماعية ، ومشاريع نزع السلاح وأمثالها ، إن هى إلا أحلام عقيمة ؛ وأن العهود والمواثيق الدولية لا قيمة لها متى كانت عثرة فى سبيل الأمانى والغايات القومية .

وبينا نرى الحكومات فى الدول الدكتاتورية راسخة قابضة على ناصية الحكم بقوة واستمرار ، لا ينازعها فى الداخل أو يقف فى سبيلها منازع ، إذا بالدول الديمقراطية تقوم عليها حكومات برلمانية سريعة التقلب ، وإذا بها تعثر فى الكفاح والمقاومة ، لأن نظمها وتقاليدها البرلمانية وما تلقى أحياناً من المعارضة وتجاذب الآراء والقوى ، يحول دون سرعة الإقدام والبت فى المواقف والأزمات الخطيرة .

وقد ظهر فى أثناء الأزمة الدولية الأخيرة فى سبتمبر الماضى ، أن ألمانيا وإيطاليا تتفوقان فى الأهبة الحربية الشاملة ، والمعدات العسكرية ، على الدول الديمقراطية ، وأنهما استطاعتا أن تقوما فى ذلك الظرف الدقيق بتعبئة عسكرية سريعة اعتمدتا عليها فى تدعيم وجهة نظرهما ، وفى إحراز فوز حاسم فى مؤتمر ميونيخ ، وهما مازالتا اليوم تواليان العمل السياسى اعتماداً على هذه القوة ، فألمانيا تبسط نفوذها السلمى على أوربا الوسطى ودول البلقان ، وتطالب بمستعمراتها السابقة بقوة ووعيد ، وإيطاليا تطالب بغنائم ومزايا استعمارية جديدة وتغرق فى الوعيد والتحدى .

واليابان من جانبها وهى ركن الدكتاتورية فى الشرق الأقصى تتوغل فى الصين وتستولى على أراضيها وعواصمها تباعاً ، دون أن تستطيع قوة أن تقف فى سبيلها .

فهل معنى ذلك كله أن كفة الدكتاتورية قد رجحت أو أنها سترجح نهائياً ؟ وأن معسكر الديمقراطية سيرغم على الخضوع والتنازل باستمرار ؟ وأن انكلترا وفرنسا سيقضى عليهما بفقد تفوقهما السياسى القديم ، وتغدوان من الدول الثانوية بعد أن كانتا فى طليعة الدول العظمى ؟

يقول بعض أنصار الدكتاتورية إن الامبراطورية البريطانية صائرة إلى الانحلال ، وإنها تعانى الآن بوادر الداء الأولى ؛ وإن الشعب الفرنسى قد فقد بفعل المؤثرات الاشتراكية والشيوعية فضائله القديمة ، ودخلت فرنسا فى دور انحلالها ، وإن المستقبل يبسم للدكتاتورية ، وسيكون لها .

وهذا تصوير تطبعه المبالغة . نعم إن الديمقراطية قد أصابتها فى الأعوام الأخيرة عدة ضربات وهزائم واضحة ، وقد فقدت بلا ريب كل ما جنته من ظفرها فى الحرب الكبرى بتحطيم معاهدة فرساى ؛ وقد ارتكبت عدة أخطاء خطيرة ، وأبدت كثيراً من التردد والضعف فى مختلف الأزمات الدولية . ولكن يلاحظ أولا أن الديمقراطية قد شعرت بالخطر المحدق بها من جراء تهاونها وتخاذلها ، ونهضت لدرئه بنفس الوسائل التى لجأ إليها خصومها ، أعنى بالتسليحات الضخمة ، والاستعدادات العسكرية العظيمة . وإذا كانت الدول الدكتاتورية قد بلغت فى ذلك مدى عظيماً ، فإنه يلاحظ أنها قد استنفدت فى بلوغه كل طاقتها ومواردها ، وأنها قد ضحت فى سبيله بالاقتصاد القومى ، وأضحت تنوء تحت أعباء ومتاعب اقتصادية هائلة . أما الدول الديمقراطية فإنها ما زالت

تستطيع ، بالاعتماد على مواردها القومية والاستعمارية العظيمة ، أن تمضى فى ذلك أشواطاً بعيدة ، وأن هذا التنافس فى التسليح سوف ينتهى بفوزها وتفوقها ؛ وليس أدل على ذلك مما تدعو إليه ألمانيا اليوم من تحديد التسليحات ، وذلك خشية من تخلفها فى هذا المضمار الذى لا تقوى عليه مواردها وجهودها ، ومحاولة منها أن تستبق مرحلة التفوق التى بلغتها .

والمعسكر الديمقراطى بعد ذلك أكثر عددا ، فهو يشمل بريطانيا وفرنسا وروسيا من الدول الأوربية العظمى ، وقد يشمل بعض الدول الثانوية مثل بولونيا ورومانيا وبلجيكا حسبما تدل عليه التطورات الأخيرة . وأهم من ذلك أنه يشمل الولايات المتحدة (أمريكا) وهى اليوم أشد دول العالم خصومة لألمانيا وللمعسكر الدكتاتورى ، وأشدها حماسة فى المناداة بمقاومته وتحطيمه .

أما المعسكر الدكتاتورى فهو ينطوى اليوم على محور برلين روما . ولكن مما يشك فيه أن يستمر هذا التحالف بين ألمانيا وإيطاليا طويلا على قوته وتضامنه . وهو قد فقد كثيرا من قوته منذ استولت ألمانيا على النمسا ، وفقدت إيطاليا بذلك كل نفوذها فى أوربا الوسطى . هذا فضلا عن أن الفاشستية تنظر بعين القلق إلى مجاورة ألمانيا الكبرى لحدود إيطاليا الشمالية . أما الميثاق الثلاثى المعقود بينهما وبين اليابان فهو ميثاق خيالى ؛ واليابان لا تفكر إلا فى مصالحها فى الشرق الأقصى ، ولا تقبل أن تكون ألعوبة فى يد الدول الفاشستية تتخذها أداة للتوازن الأوربى ، وهو ما يرمى إليه محور برلين روما .

هذا وقد بلغ الصراع بين المعسكرين اليوم مداه فى ميدان السلم ؛ وبلغت الديمقراطية فى تساهلها وتنازلها أقصى الحدود ؛ فأى اصطدام جديد بين المعسكرين قد يضرم شرارة الحرب التى رأت الديمقراطية أن تتفادى حتى اليوم شرارها بكل الوسائل .

والدكتاتورية مازالت تؤمن بالاعتماد على تجاربها الناجحة وتحقيق أمانيها بطريق الوعيد والتحدى ، وهو الطريق الذى نجحت فى سلوكه حتى اليوم ؛ وليس أدل على ذلك مما وقع أخيراً بين إيطاليا وفرنسا ، حيث قامت فى إيطاليا حركة عنيفة شبه رسمية المطالبة بتونس ونيس وكورسيكا ، ولكن هذه المظاهرة العنيفة لم تسفر إلا عن إحداث رد فعل عكسى فى فرنسا حيث أبدت فرنسا عزمها بمظاهرات رسمية وشعبية على الدفاع عن كل شبر من الأرض تخفق عليه رايتها ، وإيطاليا أعرف الناس بأنها لا تستطيع أن تحقق شيئا من هذه المطالب إلا بحرب هائلة تنتصر فيها ، ولكنها تتوسل بها كما هو واضح لتحقق فى قناة السويس وتونس وجيبوتى مطالب أقل خطورة وأيسر منالا .

ومن جهة أخرى فانه يلاحظ أن هنالك تحولا فى تيارات السياسة الأوربية لم يعرف حتى اليوم أثره ومداه ، فالميثاق البولونى السوفيتى الذى عقد فجأة بين بولونيا وروسيا والذى أثار فى ألمانيا دهشة واضطرابا ، ومظاهر التقرب بين فرنسا وألمانيا التى انتهت بإصدار التصريح الفرنسى الألمانى بعدم الاعتداء ، وما يقال عن محاولة التقرب بين ألمانيا وروسيا ، وما يعتزمه رئيس الوزارة البريطانية من زيارة روما لتوثيق الروابط الإيطالية الانكليزية ، وربما الإيطالية الفرنسية ؛ كل هذه وقائع وتطورات ستحدث أثرها بلا ريب فى الوضع الدولى فى أوربا ، وفى سير الصراع بين الكتلة الدكتاتورية ، والكتلة الديمقراطية .

والخلاصة أن الديمقراطية قد خسرت إلى اليوم فى هذا النضال كثيرا من المزايا العسكرية والسياسية ، وقد فقدت كثيرا من هيبتها السياسية ، ومن سيطرتها القديمة على القارة الأوربية ، وعلى سير الحوادث الدولية . ولكن الفرصة ما تزال سانحة أمامها لاسترداد كل شىء ، والزمن حليفها ، ومواردها التى لا تنضب ، خير كفيل بتفوقها فى معركة مالية طويلة المدى .

(***)



هنا في كل أسبوع ، تحت مصباحي الأخضر ، أعرض كل حياتي الليلية . حياة رحيبة مضيئة زاخرة بشتى الألوان . ميدانها لا في المراقص وحانات الليل بل في حجرتي المنزوية ومقعدي الواسع قرب خزانة كتبي . حياة الليل عندي هي حياة النفس في اتصالها النبيل بما أقرأ في ساعات السكون ، وفي إصغائها الطويل إلى الخواطر والأفكار التي تعمر عالمي الصامت .

* * *

صدفت نفسي البارحة عن القراءة . فلم أدر ما أصنع . وإذا يدي تعبث على غير علم مني برسالة جاءتني منذ يومين ، إنها من فتاة لم تجاوز العشرين تريد الاشتغال بالأدب ، وتسألني في إصرار أن آذن لها بمقابلة كي تبسط لي أمرها وتتلقى فيه رأيي . وذكرت ما عبر رأسي عندئذ من صور . إني أعرف المرأة التي تعطي الأدب حياتها . إنها المرأة التي لم تجد رجلا تمنحه هذه الحياة . ولكنها ما زالت في أول الشباب . إذن لعلها تشعر أن الطبيعة قد جردتها من ذلك السحر الذي تسيطر به على قلب الرجل . والمرأة إذا جردت من هذا « الرداء » فليس أمامها إلا أن ترتدي مسوح الراهبات . ولعل في « رهبنة الفكر » قوة جديدة قد تستخدمها المرأة في طرق باب الأمل من جديد . على أي حال لا بأس من مقابلة الفتاة . فضربت لها موعداً بمكتبي هذا الصباح . فحضرت . وما كاد بصري يقع عليها حتى انقلب كل شيء في رأسي ، وفسدت الصور في سرعة البرق . فالفتاة التي أمامي جميلة رشيقة أنيقة . إنها من ذلك الطراز الذي يخطر في حلبات السباق في أحدث الأزياء ، ناثراً في الهواء أحدث العطور ، تاركا خلفه في كل خطوة آلاف النظرات والحسرات والتنهدات . إنها من ذلك النوع الذي يرى في المقاصير الأولى من المسارح ليالي الافتتاح ، فيلقي الهمس والافتتان في صدور الجماهير . اضطرب أمري وقلت في نفسي : « ليس هاهنا مكان هذه الفتاة ! » . ورأت ما بي فبادرت بالتحية وقالت في ابتسام ، وهي تجلس حيث أشرت إليها بالجلوس :

— أريد منك يا أستاذ أن تصارحني في كل شيء .

فقلت لها كالمخاطب لنفسي وعيني ما تزال تفحصها :

— بل أنا الذي أرجو أن تصارحيني بكل شيء ...

فأطرقت قليلا ، وقد أرخت أهدابا ألقت على خدها ظلالا :

— إني يا سيدي ... أحب الأدب .

فقلت على الفور :

— إن الأدب يا سيدتي يتشرف بهذا الحب ...

وبدا على وجهي الارتياب فقلت :

— لكن ...

— لكن ؟

— ماذا تقصدين بالضبط أيتها الآنسة ... ؟ أرجو منك أن تفصحي قليلا ...

فأطرقت مرة أخرى . وكأنها لا تعرف كيف تبدأ

الحديث . ثم رفعت عينيها ، وأخذت تتأمل المكان الذى أعيش فيه . فلم تجد شيئاً باهجاً . فلا زهرة متفتحة ، ولا أثاث أنيق ، ولا حيطان زاهية اللون ، ولا ضوء كثير باهر !

فرأيت كأن صدرها قد ضاق ، وأنها تريد التنفس ، وأن شفتيها القرمزيتين تهتزان ، وأنها تكاد تصيح على الرغم منها : « أهذا جو الأدب ؟ » .

ولحظتها تنظر إلى النافذة وهى عارية ليس عليها أستار ، وأمامها بناء عال يحجب عنها الشمس . فخيل إلى أنها تقول :

— أيكفيك هذا النور ؟ ...

فأجبتها فى هدوء :

— يكفينا دائماً النور الذى فى نفوسنا !

فلم يبد على الفتاة أنها فهمت عنى . فإن سطور وجهها ما زالت تنم عن خيبة الأمل !

على أن الذى أدهشنى هو بقاؤها بعد ذلك !

ما الذى دفعها إلى المجئ ؟ وما الذى ربطها إلى هذا المقعد الساعة ؟ ونظرت إليها ملياً ثم قلت :

— إذا صدقت فراستى أيتها الآنسة فأنت لم تخلق للأدب !

فقالت فى غير تحمس وهى تبحث بعينيها عبثاً عن مرآة فى الحجرة :

— لم لا ؟

فلم أحر جواباً : لم أستطع أن أذكر لها السبب . إنها جميلة . إن الآدمى قد يعطى الأدب « حياته » ، لكنه لا يعطى الأدب « جماله » . وأردت أن أستخرج سرها فقلت لها :

— أى أنواع الأدب تحبين ؟

فظهر عليها الارتباك . لكنها أسرعت تخفيه بحركة من يدها فتحت بها حقيبتها الصغيرة وأخرجت منها مرآتها وإصبع أحمرها ، وجعلت تتزين وهى تقول :

— لست أفضل نوعاً على نوع .

فحدوت إليها النظر ثم سألتها فجأة :

— لماذا شرفتنى بالزيارة ؟

فأجابت وهى تنظر فى مرآتها الصغيرة :

— لأنى ... سمعت عنك كثيراً ...

— أقرأت لى شيئاً ؟

— بالطبع ...

— ماذا قرأت لى ؟

— آه ...

وتظاهرت بالنسيان ومحاولة التذكر . فلم أرد المضى فى إحراجها . ولزمت الصمت . وجعلت أصابعى تعبث لحظة برسائلها . وأدركت أن هذه الفتاة تسخر منى . فما أكثر الفتيات المغرورات اللاتى يلذ لهن مداعبة الرجال المنزلين ، والهزء بالنساك المترهبين ! فقلت لها فى شىء من الجفاء :

— أيتها الآنسة ! لماذا كتبت إلىّ تقولين إنك تريدين الاشتغال بالأدب ؟

فقالت وهى تعيد مرآتها وإصبع أحمرها إلى حقيبتها :

— لأنى أريد ذلك . أهو شىء عسير الاشتغال بالأدب ؟

فلم أعرف كيف أجيبها . وشعرت فى نفسى بما يشعر به رجل الدين ، إذ يرى شخصاً يقذف محرابه بحصاة ، ولعلها رأت منى ذلك . فهى لا تخلو من ذكاء يلمع فى عينيها الجميلتين ، فبادرت تقول لى :

— أأعترف لك بالحقيقة ؟

وصمتت قليلا . وتأملت نفسى فى جلستى وعباءتى وقلنسوتى ، وتأملت عبارتها الأخيرة ، فخيل إلىّ أنى راهب نايس يحادث الغانية . ورفعت الفتاة رأسها . وأقبلت علىّ تقول :

— الحقيقة أنى لا أحب الأدب . ولم أقرأ كتاباً قط منذ تركت المدرسة . ولا شيء يثقل على نفسى مثل الكتابة والقراءة . إنى لا أكتب رسالة إلى إحدى صديقاتى حتى أتناول بعدها قرصاً من الاسبيرين . إنى أحب السينما وسباق الخيل والرقص والموسيقى ...

فقاطعتها قائلا :

— « الجاز » طبعاً !

فقالت فى نبرة المتحدث عن شيء مفهوم بالبداهة :

— طبعاً .

فتنهدت وقلت كالمخاطب لنفسى :

— ألم أقل إن فراستى قد صدقت ...

ولم تترك لى الفتاة وقتاً المضى فى الكلام . فأسرعت تقول :

— نعم . ولكنى مع ذلك أريد ...

فلم أملك نفسى وصحت :

— تريدين ماذا ؟

فارتفع صوتها فى قوة وعزيمة :

— أريد أن أحب الأدب .

فلبثت فمى مفتوحاً من الدهشة . ولم أدر ماذا أقول لهذه الفتاة المدللة :

— أتحسبين أيتها الآنسة أن الأدب فتى جميل من فتيان الرقص ، أو حصان « فافورى » من خيول السباق ؟

فتجهم وجه الجميلة وأسدلت أهدابها الطويلة . ورأيت كأن غماماً كثيفاً يمر أرجاء نفسها . وأخيراً انتفضت وقالت متوسلة :

— أرجوك ، أرجوك ! لا تردنى خائبة يائسة !

فقلت فى رفق :

— أنا طوع أمرك يا سيدتى . لكن ... فلنتكلم فى حدود المعقول .

— نعم . اجعلنى أحب الأدب ، بأى ثمن ، مهما كان الثمن .

— هذا يا سيدتى غير معقول !

— لماذا ؟

— لأن الحب لا يطلب ولا يشترى . وأنت أدرى منى بذلك .

فهمست فى ألم :

— نعم ، هذا صحيح ... آه ! ...

وأثر فى نفسى يأسها . وذكرت أنى لم أسألها بعد عما يدفعها إلى هذا الطلب الغريب . فالتفت إليها أستوضحها الأمر . فأسرعت قائلة :

— لا تسألنى ! ما الفائدة ، ما دمت لا تملك لى شيئاً ! ...

ونهضت تريد الانصراف ، فنهضت وأنا أفكر فى أمرها . ومدت إلىّ يدها مودعة وهى تقول :

— إنى آسفة لإزعاجك . إنى فتاة حمقاء ، كنت أعتقد أن كل شيء فى الامكان ! ...

فقلت لها ويدها فى يدى :

— نعم ، كل شيء فى الامكان ، ما دامت الإرادة قوية والدافع نبيلا .

فجذبت يدها فى لطف وقالت على عجل :

— وإذا ضمنت لك قوة الإرادة ، ونبل الدافع ، أتعدنى بالمساعدة ؟

ورأيت فى عينيها بريقاً ينم عن أمل متجدد ؛ فشق علىّ أن أطفئه بكلمة . غير أنى خشيت أن أقطع على نفسى عهداً لا أستطيع الوفاء به ، وأنا أجهل بعد كل شيء فى الموقف . فأنا فى ضباب ، ونحن نتكلم فى أمور يختلف معناها باختلاف المتكلم . وكلمة « الأدب » لها عندى

الثقافة

مجلة أسبوعية للاجتماع والآداب والعلوم والفنون

AL-THAQAFA

الإدارة : بالقاهرة — عابدين — شارع الكرداسي رقم ٩ تليفون ٤٢٩٩٢

العدد الثانى — « الثلاثاء ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ — ١٠ يناير سنة ١٩٣٩ » — السنة الأولى

الفهرس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١ قرش صاغ

بين الغرب والشرق

أو المادية والروحانية

كنت أقرأ في الكتاب القيم الذي أصدره حديثاً أخي الدكتور طه حسين في « مستقبل الثقافة في مصر » ، فاستوقف نظري تخطئته لمن يقول : « إن الحضارة الأوربية مادية مسرفة في المادية لا تتصل بالروح أو لا تكاد تتصل به ، وهي من أجل ذلك مصدر شر كثير تشقى به أوربا ويشقى به العالم كله أيضاً »

وقد رد على هذا الرأي « بأن الحضارة الأوربية عظيمة الحظ من المادية ، ولكن من الكلام الفارغ والسخف الذي لا يقف عنده عاقل أن يقال إنها قليلة الحظ من هذه المعاني السامية التي تغذو الأرواح والقلوب ... ومن الخطأ أن يقال إن هذه الحضارة المادية قد صدرت عن المادة الخالصة ، إنها نتيجة العقل ، إنها نتيجة الخيال ، إنها نتيجة الروح الخصب المنتج ، نتيجة الروح الحي الذي يتصل بالعقل فيغذوه وينميه ، ويدفعه إلى التفكير ثم إلى الإنتاج ثم إلى استغلال الإنتاج ، لا نتيجة هذا الروح العاكف على نفسه الفارغ لها ، الفاني فيها ، الذي تفسد الأثرة عليه أمره ، فلا ينفع ولا ينتفع ، ولا يفيد ولا يستفيد » . إلى أن يقول : « هؤلاء الذين يخاطرون في الطيران ، فيلقون فيه الموت شنيعاً بشعاً ، ليسوا ماديين ، لأنهم يضحون بحياتهم في سبيل تقدم العلم وبسط سلطان العقل على عناصر الطبيعة الجامحة .. إن هذه الحضارة الأوربية المادية هي التي تضحي في كل يوم بكثير من الأنفس في سبيل العلم وفي سبيل السيطرة الطبيعية » الخ

* * *

استوقف نظري هذا الفصل وأثار تفكيري ، وترددت في نفسي هذه الأسئلة : هل الحق أن الحضارة الأوربية مادية وروحية معاً أو هي مادية فقط ؟ وهل الحق أن الشرق لا يمتاز بروحانية ؟ وهل الحق أنه إن امتاز بروحانية فهي روحانية قليلة القيمة ، باعثة على الفناء ، تدور حول نفسها ولا تنتج شيئاً ؟ وقلت : لعل وجه الصواب يتضح إذا نحن حددنا معنى المادية والروحانية ، ثم نظرنا بعد في ضوء هذا إلى الشرق والغرب

لقد قال كثير من الكتاب والفلاسفة إن الشرق موطن الروحانية ، والغرب موطن المادية ، كالذي يقوله بلدوين في كتابه « معجم الفلسفة » عند الكلام في الإسكندرية : « إن الشرق والغرب اختلطا في الإسكندرية ، وامتزجت آراء رومة واليونان والشام ، في المدنية والعلوم والدين ، بآراء الشرق الأقصى في ذلك ، فنشأت قضية جديدة ، عمل على إيجادها بحث الغرب وإلهام الشرق » فما الذي يعني بالمادية والإلهام أو الروحانية ؟

من الواضح جداً أننا إن عنينا بمادية الغرب عنايته التامة فقط بالمادة التي يرمز إليها بالمال من ذهب وفضة وأوراق مالية ونحو ذلك ، فهذا قول ظاهر البطلان كما يقول « الدكتور » . فالمدنية الأوربية مملوءة بالعواطف ، من عاطفة حب تقوى أحياناً حتى تصل إلى الانتحار ، وعاطفة إعجاب ببطولة وإعجاب بجمال ، وازدراء لنذالة وكراهة لقبح ، وإحسان إلى فقير ، وتضحية نفس ومال لوطن ، ونحو ذلك

من مظاهر العواطف التي قد يفوق فيها الغربيون الشرقيين ، مع ما شهر به الأولون من مادية ، والآخرون من روحانية . والمدنية الأوربية كذلك مملوءة بالعقل ، فالعلم يسير سيراً حثيثاً في الحضارة الأوربية وهو يسبق الشرق فيه بمراحل . والغربيون الآن أساتذة الشرق في الرياضة والطبيعة والكيمياء . وكل فرع من فروع العلم ، وليس هذا العلم مستعبداً للمال ولكن يستغله المال ، ولا بأس عليه من ذلك ، بل نرى في هذه البيئات الأوربية علماء كانوا المثل الأعلى للتضحية من أجل العلم ، فمنهم من أعرض عن المال ودواسه بقدميه في سبيل تجربة يستكشفها أو نظرية يحققها ، بل منهم من ضحى بنفسه للعلم فمات شهيد اختبار يختبره أو فكرة يبرهن عليها . وأين ذلك كله من دعوى المادية في الحضارة الأوربية ؟

إن كان هذا هو معنى المادية فالدعوى — كما يقول الدكتور — ظاهرة البطلان ، ولكن ألا يوجد معنى آخر يستقيم به الفرق ؟

هناك معنى آخر قد يكون أقرب إلى الصواب ، وهو أن معنى المادية تفسير ظواهر هذا العالم على أساس المادة من غير التفات إلى عالم آخر روحي وراء هذا العالم ، وبناء كل وسائل الحياة وكل ظواهر المدنية والحضارة والثقافة على أساس المادة وحدها

فليس العقل إلا شكلا من أشكال المادة الدائمة التغير والتنوع ، وليست أفعال الانسان مهما دقت إلا نتيجة لمواد الجسم ، وليست كل الظواهر النفسية من فكر وإرادة وعاطفة إلا نتيجة للمخ المادي من حيث عمله وحجمه وتركيبه . والعالم « كساقية جحا » تملأ من البحر وتفرغ في البحر . وكل مظاهر الكون من مظاهر السماء ومظاهر الأرض ، وغنى من اغتنى وفقر من افتقر ، وذكاء الذكي وغباء الغبي ، وأدق الأمور النفسية والاجتماعية ليس إلا نتيجة المادة .

هذا هو معنى المادية ، وهو — كما يظهر لي — النظر المسيطر على الحضارة الأوربية ، فالقدرة العلمية الهائلة في الحضارة الأوربية اتجهت نحو المادة وأتت فيها بالعجب العجاب ، ولا غرابة في ذلك فالمادة معبودها ، فطبيعي أن تتجه نحوها بكل قواها تستكشف كل يوم استكشافاً جديداً وتخترع اختراعاً جديداً ، فكهرباء وبخار ولاسلكي ونحو ذلك مما لا يحصى ولا يعد

ثم إن هذه الأشياء المادية كلها تستغل في الحياة المادية ، في المنازل ، في دور السينما ، في الإقامة والسفر ، في الجد والهزل ، في كل مرفق من مرافق الحياة . بل والأخلاق الأوربية الحديثة وضعت على هذا الأساس . فأهم الأخلاق ما أفاد هذه الحياة المادية كالنظام ، والمحافظة على الزمن ، والاقتصاد ، ومراعاة الصحة . وأما التواضع والحياء والتفكير في النفس ونحوها فتأتي آخر القائمة ، على أنهم في شك من قيمتها الخلقية ، وهم على حق في ذلك ما دام الأساس هو الحياة الواقعية

ثم الحياة الاجتماعية كلها نظمت على هذا الأساس المادي ، من استمتاع باللذائذ ما لم يؤذ الغير . وبناء المعاملات كلها على أساس من الاقتصاد لا روح له ، بل وأعمال الخير كلها من إحسان المحسنين وتبرعات المتبرعين واكتتاب المكتتبين لبناء مستشفيات وملاجئ ونحوها ، إنما أساسها كلها تحسين هذه الحياة الواقعة ، ورفع البؤس عنها ، وإيصال أكبر قسط من السعادة

أو اللذة إلى أهلها . وهكذا

***

أما الروحانية فترى أن المادة وحدها عاجزة عن أن تشرح كل مايحدث فى العالم ، بل لايفسرها إلا القول بوجود شىء غير مادى ، شىء روحانى وراء هذا الشىء المادى . فالفكر وظواهر العقل ليس نتيجة المخ المادى ، نعم إن المخ آلة التفكير ، ولكن يستحيل أن يكون الفكر الإنسانى الذى يشعر بشخصيته وبحرية إرادته نتيجة لمادة لاتحس ولا تشعر مهما كانت حالتها من دقة تركيبها وحسن نظامها

وأعمال الإنسان وظواهر الوجود والذكاء والغباء وحدوث المألوف وغير المألوف والغنى والفقر وأحداث القدر والموت والحياة ونحو ذلك كله ، لايمكن تفسيرها تفسيراً مقنعاً إذا اقتصر فى هذا التفسير على المادة وحركاتها ، بل لا بد أن ينضم إليها شىء روحانى

فالإيمان بعالم روحانى بجانب العالم المادى من نفس وإله وعالم آخر هو أوضح خصائص الروحانية

وهذا النوع من النظر هو الذى يسود الشرق ، فهو يؤمن بالإلهام الذى لا يعلل ، كما يؤمن بالمنطق الذى يعلل ، على حين أن النزعة المادية لا تؤمن إلا بسبب ومسبب ، وعلة ومعلول ، ومقدمة ونتيجة

والشرق — على العموم — أميل إلى أن يدخل فى حسابه العالم الروحانى والعالم المادى معاً ، يؤمن بالقدر خيره وشره ، ويحسب ما بعد الموت كما يحسب قبل الموت ، وإذا تطلب السعادة طلبها من ناحية إيمانه ومن ناحية تعديل نفسه ، أكثر مما يطلبها من ناحية تعديل الظروف الخارجية ، ولم يبن معاملاته على أساس اقتصادى مادى ، بل يبنيه على أن فيه جانبا كبيرا لله أو نحو ذلك ، وإذا أحسن فليس يدقق فى حسابه ويتساءل : مانتيجة هذا الاحسان فى العالم المادى ؟ بل يرضيه أن يكون قد أرضى ربه ونفسه ، وإذا قوّم الأخلاق فلا يقتصر فى تقويمها على النظر فى نتيجة هذه الأخلاق بالنسبة للعالم الواقعى ، بل نتيجتها فى الدنيا والأخرى معاً ، وليس يرى مبدأ « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، بل كل عمل فيه ما لقيصر وفيه ما لله

وقد تغلب النزعة الروحية على بعض الأفراد ، فترى أثر ذلك فى التصوف والانقطاع إلى العبادة ، ونظام الخانقاهات ونحوها . وهو أمر شائع فى الشرق ونابع من الشرق

ولعل سيادة هذه النزعة فى الشرق جعلته مهبط الأديان . فالأديان الثلاثة الكبرى وهى : الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية ، ظهرت فى الشرق ، وانتقلت منه إلى الغرب

***

ولست أنكر أن فى الغرب روحانية ، وأن فى الشرق مادية . ففى الغرب روحانيون قد يفوقون بعض روحانيى الشرق ، صفاء نفس ، وقوة يقين ، وتقديراً للأعمال بميزان الروح ؛ كما أن فى الشرق ماديين قد يفوقون بعض ماديى الغرب إمعاناً فى تقدير المادة ، واقتصارا على ميزان الأعمال بميزانها ؛ ولكن الحكم فى مثل هذه المسائل العامة لا ينبنى إلا على الأعم الأغلب ، لا على القليل النادر

كما أنى لا أنكر أن فى الغرب ديناً وديناً كثيراً ، ونظماً دينية دقيقة ، وكنائس فخمة ، ومعابد عظيمة ؛ ولكنى أدعى — على ما يظهر لى — أن نظرة الغربى إلى الدين ، على وجه العموم ، تخالف نظرة الشرقى إليه ؛ وقد

يكون أهم هذا الخلاف من ناحيتين : إحداهما أنه يسود الغربي النظر إلى الدين كنظام اجتماعي ، والثانية أن نظرة الدين لا تتغلغل في كل شيء عند الغربي تغلغلها عند الشرقي

* * *

هذه هي المادية والروحانية في نظري ، والمادية بالمعنى الذي شرحت تلتئم مع ما نرى في الغرب من علم غزير وعواطف فياضة وتضحيات كثيرة ، ولكن هذا كله لم يمنع من أنها صبغت الحضارة الأوروبية صبغة خاصة تخالف روحانية الشرق بالمعنى الذي أبنت

وقد غزا الغرب الشرق لا بسيوفه ومدافعه وطياراته فحسب ، بل غزاه أيضاً بحضارته ونظراته إلى الحياة ، وكان من الطبيعي — وقد انكسرت قوة الشرق الحربية أمام قوة الغرب الحربية — أن يظن الشرق أن نظرة الغربي إلى الحياة خير من نظرته ، وحضارته خير من حضارته ، فاستسلم لها ، وسار في طريقها ، وفتح لها صدره ، وأسلس لها قياده ، وباع روحانيته الشرقية الموروثة بالمادية الغربية الحديثة ، وإن كانت الصفقة لم تتم بعدُ

أما أن الخير للعالم أن تسوده كله هذه النظرة الغربية ، فلا يكون في العالم إلا حضارة واحدة ، أو أن يحتفظ الشرق بروحانيته ويبني عليها حضارة جديدة ، وأن يكون في العالم لونان : لون مادي تمثله الحضارة الغربية ، ولون روحاني تمثله الحضارة الشرقية ، ثم تتعاون الحضارتان كما يتعاون جسم الإنسان ونفسه ؟ فذلك موضوع آخر له مجال آخر .

أحمد أمين

مع أدبائنا المعاصرين
«فيض الخاطر»
للأستاذ أحمد أمين
بقلم الدكتور طه حسين بك

أنفق صباه وأول شبابه تلميذاً وطالباً كما أنفقناها جميعاً ، ولكنه ذهب إلى الكتاب لجلس على الحصير ، وشارك في حياة الكتاب كلها ، إلا ما كان من غمس الأيدي إلى المرافق في ماجور الفول النابت ، وفي ماجور المخلل ، فقد كان الكتاب قريباً من داره ، وكان يتغدى مع أسرته . ثم تحول عن الكتاب إلى المدرسة الدينية ، فشارك في حياتها المنظمة المتأثرة بتقليد الفرنجة عصراً ، ثم تحول إلى الأزهر الشريف ، فعاد إلى الحياة المحافظة الخالصة التي تأثرت بها أسرته تأثراً شديداً ، فقد كان أبوه من علماء الأزهر . ثم اتصل بمدرسة القضاء ، فانتقل من المحافظة الخالصة التي كان يلطفها تأثير الشيخ محمد عبده ، إلى محافظة معتدلة كان ينظمها ويشرف عليها عاطف بركات في مدرسة القضاء . ثم خرج من هذه المدرسة ، وجعل يبحث عن نفسه فلا يهتدي إليها ، أو لا يكاد يهتدي إليها . وجعل أصدقاؤه والمتصلون به يبحثون عن نفسه أيضاً فلا يهتدون إليها ، أو لا يكادون يهتدون إليها . بحث عن نفسه بين الفقهاء الذين يفرغون للفقه درساً وبحثاً ، وبين الفقهاء الذين يفرغون للفقه تنفيذاً وتطبيقاً ، فكان معلماً ، وكان قاضياً شرعياً . وبحث عن نفسه بين الفلاسفة الذين ينظرون ويقرءون ويتفلسفون فيما ينظرون وما يقرءون ، فحاول الترجمة في الفلسفة ، والكتابة في الأخلاق ، ولكنه لم يرض عن نفسه فقيهاً ولا قاضياً ولا متفلسفاً . وما أظن

أن أصدقاءه والمتصلين به قد رضوا عنه في هذه الأطوار كلها ، فقد كانوا يرونه أرفع منها منزلة ، وأبعد أمدا ، وأوسع أفقا . على أنهم اهتدوا إلى ناحية مشرقة من نواحيه حين ألفوا لجنتهم هذه التي ملأت الدنيا علما وأدبا ، وكلاما وكتبا ، والتي لم يكفها ذلك كله ، حتى أرادت أن تشق على الناس بهذه الصحيفة التي تفرضها عليهم كل أسبوع ؛ فاختاروه رئيسا للجنتهم هذه ، وجعلوا يجددون انتخابه لرياسة هذه اللجنة كل عام منذ أنشئت إلى الآن ، وقد نيف عمرها على العشرين ، وأحسبها قد بلغت عيدها الفضي ، كما يقول الفرنجة ، أو كادت تبلغه . فقد عرف منه أصدقاؤه إذن جدا وحزما ، وصدقا وإخلاصا ، ونصحا للمتصلين به والعاملين معه ، فآثروه بخير ما يؤثر به الصديق الصديق من الحب والثقة . ولكنهم ظلوا حائرين في أمره ، كما كان هو حائرا في أمر نفسه ، لا يعرفون أين يضعونه : أيضعونه بين الفقهاء ؟ أيضعونه بين القضاة ؟ أيضعونه بين الفلسفين ؟ وأذكر أني رأيته منذ اثنى عشر عاما أو نحو ذلك ، فإذا هو ضيق بكل شيء ، منصرف عن كل شيء ، يريد أن يفرغ لنفسه ، أو يريد أن يفرغ من نفسه لشيء يشغله عنها وعن الناس ، ويشعره بأن لحياته خطرا وأثرا . ثم اتصل بالجامعة وفرغ لها ، ونهض بتكاليفها ، وما هي إلا أشهر حتى أخذ يلمح نفسه من بعيد كما يلمح المسافر في الصحراء علما من هذه الأعلام التي تهدى الناس وتعصمهم من الجور عن قصد السبيل ، وجعل يدنو من نفسه قليلا ، وكلما دنا منها شيئا ظهرت له واضحة مشرقة ، حتى إذا كان منها غير بعيد أخذه شيء من الذهول ، مصدره الرضى والأمن والطمأنينة ، بعد السخط والخوف والقلق ، فكان أشبه شيء بأولئك اليونان الذين لقوا ما لقوا ، وشقوا ما شقوا ، في سفرهم البعيد ورحلتهم الشاقة ، إلى بلاد الفرس وفي عودتهم منها ، حتى إذا استيأسوا من الأمن ، وأشرفوا على المكروه ، بدا لهم البحر ، فعاد إليهم الأمل ، وامتلأت قلوبهم رجاء ، وصاحوا في صوت رجل واحد : البحر البحر . وكان بحر صاحبنا الأدب العربي ، وكانت الصيحة الأولى لصاحبنا « فجر الاسلام » . وما هي إلا أن يبلغ الساحل ويندفع في هذا البحر الذي انتهى إليه ، حتى يعرف نفسه حق المعرفة ، ويصاحبها مصاحبة العالم بها المستقصى لأسرارها ، البصير بدخائلها ، المستغل لكنوزها ؛ وإذا هو يظهر ما أظهر من « ضحى الاسلام » ، ويخرج من خرج من الشباب ، وينشر ما نشر من الفصول والمقالات ، ويؤلف ما ألف من الكتب في صميم الأدب ، أو على هامشه ؛ وإذا أصدقاؤه يهتدون إلى نفسه أيضا ، فيرضون ويطمئنون ، ثم يقبلون على ما جعل يقدم إليهم من ثمرات فينعمون ويستمتعون . وإذا هذه النفس التي كانت غامضة حتى على صاحبها ، تظهر وتبهر وتشرق ، حتى يعرفها القريب والبعيد ، وحتى تنشر من ضوئها الهادئ المشرق رداء رقيقا شفافا ، ولكن فيه حرارة تبعث الحياة . وإذا هذا الرداء يغمر الشرق العربي كله ، ثم يتجاوزه إلى الشرق الاسلامي ، ثم تمتد أطراف منه حتى تبلغ الغرب المسيحي فتعجب وتروق . والطريف أني كنت أسأله اليوم عن نفسه ، أيعرفها ؟ فإذا هو لا يعرف منها شيئا ، أو لا يعلم أنه يعرف منها شيئا . هو يعرف نفسه ولا يعرفها ! يعرفها معرفة لا شعورية ، يضبطها ويملكها ويستغلها ويصرف أمورها كما يريد ، أو كما يسر لتصريفها ، فإذا سألته عن ذلك لم يعرف منه شيئا ، أو لم يحسن أن يصور لك منه شيئا . وأظن أني قد وصلت الآن إلى الصورة الدقيقة التي تمثل صديقنا أحمد أمين

فهو رجل قد جمع هاتين الخصلتين المحببتين إلى النفوس : خصلة الذكاء النافذ البعيد العميق ، وخصلة البساطة الهادئة الظريفة التي تثير على شفتيك — وقد تدفعك أحيانا — إلى

أن تغرق فى الضحك إغراقاً . ضعه أمام مسألة من مسائل العلم الأدبى ، أو أمام مشكلة من مشكلات الحياة العملية ، وثق بأنك سترى رجلاً نافذ البصيرة صادق الرأى ، نافذاً من المشكلات إلى أعماقها . ثم تحدث إليه عن نفسه ، أو تحدث إليه فى أيسر ما يتحدث فيه الناس ، أو راقبه فى أيسر حياته اليومية ، فى ذهابه إلى الجامعة ، وعودته إلى داره ، فى ذهابه إلى لجنة النشر ، وزيارته لأصدقائه ، فسترى منه طرائف الأعاجيب ، سترى منه ألوان السهو وفنون النسيان ، والإقدام على ما كان يجب أن ينصرف عنه ، والانصراف عما كان يجب أن يقدم عليه ، والتنبه لذلك كله بعد وقوعه ، واختلاط الأمر عليه بعد أن ينتبه لما تورط فيه

وهناك صورة أخرى دقيقة لصديقنا أحمد أمين ، تأتلف من متناقضين ، وأنا أعلم أن الناس قد زعموا منذ فكروا أن النقائض لا تجتمع ، ولكنها تجتمع فى صديقنا أحمد أمين ، ولن يعدم الفلاسفة تعليلا لاجتماع النقائض هذه ، فهم قادرون على كل تعليل .

هذه الصورة الدقيقة الثانية تأتلف من الهدوء الهادئ ومن الثورة الثائرة . فأحمد أمين هادئ قد عرف بذلك حتى ضربت به الأمثال فيه ، وهو ثائر قد عرف بذلك حتى أشفق الذين يحبونه منه وأشفقوا عليه . فهم يحذرون فيما يكون بينهم وبينه من صلة أن يؤذوه فيدفعه ذلك إلى الثورة ، وهم يشفقون عليه إن غضب ، لأنهم لا يعرفون أحداً يتأثر بالغضب كما يتأثر به .

وستقول إنى قد أطلت وأسهبت ، وبسطت فى المقدمة ولم أبلغ كتاب «فيض الخاطر» بعد ، ولكن ثق أيها القارئ الكريم ، بأن كتاب «فيض الخاطر» ليس إلا خلاصة طريفة عذبة ممتعة لهاتين الصورتين ، ولهذه التناقضات التى تؤلف هاتين الصورتين . فى هذا الكتاب ذكاء أحمد أمين وبساطته ، وفى هذا الكتاب هدوء أحمد أمين وثورته .

وذلك أن تقرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، وأن تعرض ما فيه من الفصول والمقالات على هذه الخصال الأربع ، فستجدها ممثلة فيه أصدق تمثيل وأقواه . تراها تتمثل جملة وتتمثل تفاريق ، تراه فى فصل واحد ذكياً بسيطاً ، وهادئاً ثائراً ، وتراه فى فصل آخر وقد غلبت خصلة أو خصلتان من هذه الخصال على ما كتب ، فظهر الذكاء والهدوء ، وظهرت البساطة والثورة . وتستطيع أن تلائم بين هذه الخصال كما أحببت جمعاً وتفريقاً ، وحذفاً وإثباتاً ، فلن يفلت منها فصل من فصول الكتاب .

وفى الكتاب ستون وثلثمائة صفحة ، وفيه أربعة وسبعون فصلا ، وقد قسم لى أحمد أمين من صحف الثقافة قدراً معيناً لا ينبغى أن أعدوه ، فلا تنتظر منى أن أفصل لك القول فى الكتاب تفصيلا ، وما أدرى أى الأمرين خير لأحمد أمين نفسه : هذا الإيجاز الذى أضطر إليه اضطراراً ، فأخفى من محاسنه وعيوبه ما كان فى إظهاره بعض النفع ، أم هذا الإطناب الذى أطمع فيه ولا أظفر به ، والذى كان يتيح لى أن أظهر صديقنا على بعض أشكال نفسه ، فأرضيه حيناً ، وقد أسخطه حيناً آخر . ولكنى مع ذلك مضطر إلى أن أقف عند مواضع قليلة من هذا الكتاب ، لأبين ما وصفت من هذه التناقضات التى يأتلف منها صديقنا أحمد أمين .

وأول ما أقف عنده بالطبع هو مقدمة الكتاب ، لا لأنها أول ما أقرأ من الكتاب ، فقد قرأته كله مجتمعاً ومتفرقاً ، ولكن لأنها تدعو إلى الوقوف . فأحمد أمين ينبئنا بأنه إنما نشر هذه الفصول — لأنها قطع من نفسه يحرص عليها حرصه على الحياة ، ويجتهد فى تسجيلها إجابة لغريزة حب البقاء — والطريف الذى لا أشك فيه أنه قد كتب هذا الكلام صادقاً حين كتبه ، ولكنه صدق مصدره الاقتناع والاندفاع ، لا الهدوء والروية ، وأنا

أعرف أن من الأدباء من يرون آثارهم الأدبية قطعاً من نفوسهم يجهرون بذلك ويرددونه ، ولكنهم إذا سئلوا عنه لم يحققوه ، وإذا امتحنوا فيه لم يثبتوا عليه . فما عسى أن تكون قطع النفس هـذه ؟ وهل من الحق أن الكاتب — وإن كان أحمد أمين — يحرص على آثاره حرصه على الحياة ؟ وهل لو امتحن صديقنا في ذلك يثبت للامتحان ويحرص على هذه المقالات حرصه على الحياة ، ويدافع عنها كما يدافع عن حياته ، ويتأذى لما يصيبه فيها كما يتأذى لما يصيبه في حياته ؟ كلا . إنما هو كلام أدباء لا أكثر ولا أقل ، وإلا فويل لأصدقائه إذا نقدوه في هذه الفصول واشتدوا عليه في النقد ، وألحوا عليه في التحليل والتعليل والتأويل ، إنهم إذن يؤذونه في حياته ، ويشرحون نفسه تشريح الحقيقة ، لا تشريح المجاز ، وهم أرفق به وأحب له من ذلك . أفتراه إنما قال لهم هذا ليصرفهم عن نقد هذه الفصول ، ويرغبهم عما قد ينالونها به من التشريح والتحليل ؟ كلا . فأنا أعرفه رحب الصدر سمح الخلق ، محتملا للنقد ، ولكنه أديب أحب أثراً من آثاره ، وعبر عن هذا الحب ، فغلا كما يغلو الأدباء ، وخرج عما هو معروف به من الأناة والرزانة والهدوء .

وأخرى في هذه المقدمة ، ليست أقل من هذه ظرفاً ، وهي مذهبه الفني ، فهو من أصحاب المعاني لا من أصحاب الألفاظ ، وهو يؤثر الإيجاز ويكره الأطناب ، وهو يؤثر القصد ، ويكره الزينة . وكل هذا حسن ، وكل هذا يقبل من الأستاذ حين يقوله ، لأنه يقوله صادقاً فيه ، مؤمناً به . ولكن دع المقدمة وامض في قراءة الكتاب ، فسترى فيه فصولا تروع بألفاظها أكثر مما تروع بمعانيها ، وسترى فيه فصولا تعجب بإطنابها أكثر مما تعجب بإيجازها ، وسترى فيه فصولا تروق زينتها أكثر مما تروق بإيثارها للقصد ، واكتفائها بلبسة التفضل . والأستاذ صادق مخلص حين كتب هذه الفصول التي تروع باللفظ لا بالمعنى ، وتعجب بالأطناب لا بالإيجاز ، وتروق بالزينة لا بالقصد ؛ وهو مناقض لنفسه في هذا المذهب الفني الذي صوره وقضى به على نفسه ، ولكنه أديب ، وليس على الأديب بأس من التناقض ؛ فهو لا يتناقض في لحظة واحدة ، ولا في حال واحدة ، ولا في ظروف بعينها . ولكن ما يكتبه من الآثار يمثل لحظات مختلفة من حياته ، فيظهر مختلفاً متبايناً كما اختلفت هذه اللحظات وتباينت ، وإلا فاقرأ «من غير عنوان» صفحة ٢١ ، وحدثني : أموجز هو أم مطنب ؟ أرائع هو بلفظه أم بمعناه ؟ قصة المقال يسيرة جداً . فقد ساء هضم الأستاذ فساء رأيه في الحياة ، وحسن هضم الأستاذ فحسن رأيه في الحياة ، وليس في المقال أكثر من هذا ، إذا حصلت ما فيه . ولكنه أدى هذا المعنى اليسير القريب المألوف ، الذي لا يحتاج تصوره وأداؤه إلى ذكاء خارق ، ولا إلى علم عميق ، أداه في ثلاث صفحات ونصف صفحة من كتابه ، فراعك وراقك وأعجب لأنه أطنب وأسهب ، وافتن في اختيار اللفظ ونقض ما قال من أنه يؤثر الإيجاز على الأطناب ، والقصد على الزينة والحلية

وللأستاذ أحمد أمين قصة ظريفة ، فقد خطر له ذات يوم أن الأدب القوي خير من الأدب الضعيف ، وأكبر الظن أنه كان قد ضاق ببعض ما يكتب المحدثون ، وببعض ما قرأ من أدب القدماء ، فاندفع ، وما أكثر ما يندفع الأستاذ أحمد أمين إذا اقتنع ، ومد ظل الضعف على الأدب العربي كله ، ووصمنا في قديمنا وحديثنا وصمة مؤذية حقاً ، لم يتردد الكاتب التركي الأديب إسماعيل أدهم في قبولها وتسجيلها في «الرسالة» على أنها حقيقة لا جدال فيها . ولكن هذا الفصل الذي كتبه الأستاذ مندفعاً مجلاً ، أحفظ بعض الأدباء ، فكتبت إلى الأستاذ أرميه بأنه

(البقية على صفحة ٤٣)

في التاريخ السياسي :

تونس بين فرنسا وإيطاليا

لمحرر «الثقافة» السياسي

لما أسفر مؤتمر ميونيخ في آخر سبتمبر الماضي عن موافقة انكلترا وفرنسا على تمزيق تشيكوسلوفاكيا وضم منطقة السوديت لألمانيا ، تفاديا لحرب كان خطرها يلمع في الأفق ، رأى البعض بحق أن مؤتمر ميونيخ لم يكن خاتمة الأزمة الدولية التي كادت تضرم شرارة الحرب ، ولكنه كان بالعكس فاتحة لها ، وأن تضحية الدولتين الديمقراطيتين العظيمتين لحليفتهما تشيكوسلوفاكيا سوف تثير أزمات جديدة أشد خطورة وأبعد مدى

وقد تحقق ظن هؤلاء الذين لم يهللوا لمؤتمر ميونيخ ، ولم يؤمنوا بأنه كان انتصارا لقضية السلام ، وإنما كان هزيمة للديمقراطية أمام الوعيد والقوة ، فإنه لم تمض أسابيع قلائل على اقتطاع ألمانيا لمنطقة السوديت التي لم تكن قط منذ القرون أرضاً ألمانية ، حتى استطاعت ألمانيا أن تنشب ظفرها بسط نفوذها القوى على تشيكوسلوفاكيا وأمم الوسط كلها ، وحتى تلاشى أمامها كل نفوذ آخر ، واختل التوازن الأوربي بصورة لم يعرفها من قبل ، وتفاقمت مسألتا ممل ودانزج ؛ ولما حاولت بولونيا أن تحوط لسلامتها ضد الخطر الجرماني الذي أخذ يطوقها ، بتوثيق علائقها مع روسيا السوفييتية ، ردت السياسة الألمانية بالعمل لاثارة مشكلة جديدة هي المشكلة الأوكرانية ، وهي مشروع جرىء يرمي إلى اقتطاع الأجزاء الواقعة من أوكرانيا تحت حكم روسيا وبولونيا ورومانيا وضمها جميعاً في دولة جديدة تنشأ باسم أوكرانيا الكبرى . وتحقيق هذا الحلم الجرماني الجديد ، يعتبر ضربة خطيرة لبولونيا ، كما أنه يعتبر أول خطوة عملية في تمزيق روسيا السوفييتية وسحقها .

ومن جهة أخرى ، فقد ظهرت فجأة في إيطاليا حركة جديدة للمطالبة بنصيبها من المغانم ؛ وإيطاليا هي الطرف الآخر من محور برلين روما . وقد حقق الطرف الأول ، أعني ألمانيا ، خلال العام المنصرم كل ما كان يصبو إليه ، فضمت النمسا ومنطقة السوديت إلى ألمانيا ، وحقق مشروع السيادة الجرمانية في أوربا الوسطى (Mittel Europa) ، وآزرت إيطاليا هذه المشاريع كلها طوعاً أو كرهاً ، بالرغم من أنها كانت ضربة لنفوذها ومصالحها في أوربا الوسطى ؛ وذلك انتظارا منها لتحقيق مشاريعها في البحر الأبيض بمؤازرة ألمانيا ؛ وقد لاح لايطاليا أن الفرصة قد سنحت لتقديم مطالبها ؛ ففي أوائل ديسمبر ألقى الكونت شيانو وزير الخارجية خطبته عن سياسة إيطاليا الخارجية أمام « البرلمان الفاشستي » وأشار إلى « أماني إيطاليا الطبيعية » وعندئذ هتف النواب الفاشستيون بالمطالبة « بكورسيكا ونيس وتونس » ، وقامت على أثر ذلك في إيطاليا مظاهرات كثيرة تهتف بهذا الهتاف ، وأيدت الصحافة الايطالية ، وهي صحافة شبه رسمية ، هذه المطالب ؛ ومع أن الكونت شيانو قد أجاب على احتجاج فرنسا في هذا الصدد ، بأن الحكومة الايطالية لا تسأل إلا عن مسلكها ومطالبها الرسمية ، ومع أن السنيور موسوليني لم يذكر في خطبه السياسية اللاحقة شيئاً عن هذه المطالب ، فإن هذه الحركة المدبرة بلا ريب قد كشفت عما تجيش به إيطاليا الفاشستية من الأماني البعيدة في العمل لتحقيق حلمها في البحر الأبيض وجعله كما تنادي بحراً إيطاليا (Mare Nostrum) .

ونحن نعرف أن فرنسا استولت على جزيرة كورسيكا ثالثة الجزائر الايطالية الكبرى بعد صقلية وسردانية ، في سنة ١٧٦٨ بموافقة حكومة جنوه التي كانت تتبعها الجزيرة

يومئذ ، وأنها استعادت نيس من مملكة سردانية سنة ١٨٦٠ ، وقد كانت من أملاكها قبل ذلك ، وأنها غزت تونس وفرضت حمايتها عليها في سنة ١٨٨١

وإذا كانت كورسيكا قد غدت أرضا فرنسية منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، وغدت نيس كما كانت ثغرا فرنسيا ، وإذا كانت مطالب إيطاليا في شأنهما لا يمكن أن تحمل على محمل الجد ، فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بتونس

ذلك أن تونس ليست مستعمرة فرنسية ولا ملكا فرنسيا ، وما زالت مثل مراكش « حماية فرنسية » فقط ، ولإيطاليا فيها مطامع قديمة معروفة . وهي ما زالت تصر عليها وتجاهر بها وتستند فيها إلى ظروف واعتبارات خاصة

* * *

وقبل أن نناقش هذه المطامع الإيطالية والظروف التي تستند إليها ، يجدر بنا أن نقدم لمحة عن تاريخ تونس الحديث والظروف التي انتهت بها إلى الانضواء تحت حماية فرنسا

كانت تونس حتى أوائل القرن السادس عشر إمارة مستقلة في ظل الدولة الحفصية ؛ ثم افتتحها أمير البحر التركي خير الدين باشا سنة ١٥٢٥ من يد أميرها الحفصي الحسن بن محمد ، واستغاث الحسن بشارلكان ملك اسبانيا ، فبعث إلى تونس حملة احتلت بعض الثغور والمواقع ، وعاد الحسن إلى العرش حينا ، ولكن الأمور لم تستقر ، وعاد الترك فانتزعوا تونس من يد مولاي الحميد خلف الحسن ؛ واستمر التنازع بين الترك والأسبان زهاء نصف قرن ، حتى بعث السلطان سليم الثاني إلى تونس في سنة ١٥٧٣ حملة قوية اضطرت الأسبان إلى الجلاء ، وضمت تونس إلى أملاك السلطان ، وعين لحكمها أحد الباشوات . ولكن لم يمض سوى قليل حتى اضطربت الأمور ، وتحرك جند الانكشارية وعزلوا « الباشا » وأقاموا منهم حاكما أطلق عليه لقب « الداي » . واستمر هؤلاء « الدايات » يحكمون تونس باسم السلطان زهاء قرن وثلث قرن ، وكان ينافس « الداي » في النفوذ « البك » أو « الباي » الذي كان يتولى جمع الضرائب والإشراف على شئون القبائل ؛ وما زال نفوذ هؤلاء « البايات » في ازدياد ، حتى انتهى الأمر بأن استطاعت أسرة مراد التي تولت مركز « الباي » مدداً متعاقبة ، التغلب على « الداي » إبرهيم وانتزاع السلطة من يده (سنة ١٧٠٥) . وعلى أثر ذلك قامت ثورة بين الجند وانتهت بإقامة « باي » جديد هو الحسين بن علي ، فأقام في تونس في ظل السلطان نوعاً من الملكية الوراثية استمر إلى يومنا

وكانت أحوال تونس مضطربة في تلك العصور ؛ وكانت أعمال القرصان البربر في البحر الأبيض المتوسط ومعظمهم من الجزائر وتونس ، تثير سخط الأمم الأوروبية وبخاصة فرنسا وانجلترا ، وتحملها على التفكير في أمر تونس والتعرض لشئونها ؛ وأرسلت انجلترا وفرنسا إلى المياه التونسية أكثر من حملة انتقامية ؛ وفي سنة ١٨١٨ وجهت الدول مجتمعة إلى الباي مذكرة احتجاج شديدة على أعمال القرصنة ، ومن جهة أخرى فقد أخذ الاستعمار الأوربي الذي بدأ في ذلك الحين يقتسم افريقية ، يرقب تونس باهتمام وجشع ، وما كادت فرنسا تتم فتح الجزائر حول منتصف القرن الماضي حتى أخذت تتجه صوب تونس ، وترى في افتتاحها تتمة طبيعية لافتتاح الجزائر . وكانت إيطاليا من جهة أخرى حتى قبل أن تحقق وحدتها تهتم بأمر تونس وتطمع في امتلاكها أسوة بما فعلت فرنسا في الجزائر ، فلما حققت وحدتها ، وتبوأت مكانتها بين الدول الأوربية ، اشتد اهتمامها بمصير تونس ، وأخذت تمهد لتوطيد قدمها فيها بواسطة جاليتها الكبيرة ، والاستيلاء على بعض الأعمال والمصالح الاقتصادية ، وكانت فرنسا من جانبها تمد « الباي » بالقروض ؛ وتذرعت الدول كعادتها باضطراب الأحوال

الادارية والاقتصادية ، وفرضت على تونس رقابة مالية قوامها انجلترا وفرنسا وإيطاليا ؛ ولم تكن انجلترا بمعزل عن شئون تونس ، فقد اتجه إليها « الباى » يطلب عونها ، ولم تكن فكرة إعلان الحماية عليها بعيدة عن السياسة الانكليزية التى ترى فى قربها من مالطة عاملاً هاماً فى تدعيم سيادة انكلترا البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، بل لقد مهدت انكلترا بالفعل لمطامعها فى تونس بوضع المشاريع العامة مثل السكك الحديدية والماء والنور وبعض الأعمال العامة فى أيد بريطانية ، ولكن فرنسا استطاعت بعد ذلك أن تقنع انكلترا بأن تترك لها حرية العمل فى تونس نظير موافقة فرنسا على احتلال انكلترا لجزيرة قبرص

واستمر الصراع الاستعمارى على أشده حيناً بين فرنسا وإيطاليا . ولما شعرت فرنسا أن إيطاليا تعد عدتها للاستيلاء على تونس ، بادرت من جانبها بالعمل ؛ ففى أوائل سنة ١٨٨١ سارت قوة فرنسية من الجزائر واخترقت حدود تونس بحجة مطاردتها لبعض القبائل المتمردة ، وما كادت تنفذ إلى قلب تونس حتى ألقت قناعها وسارت تواً إلى العاصمة ، وسارت فى الوقت نفسه قوة بحرية فرنسية من طولون إلى ثغر بنزرت ؛ واضطر « الباى » أن ينزل عند مطالب الغزاة وأن يوقع فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ عهداً بقبول الحماية الفرنسية ؛ وتعرف هذه المعاهدة بمعاهدة « باردو » نسبة إلى القصر الذى وقعت فيه ، وفيها يتعهد « الباى » بألا يفاوض أحداً فى الخارج إلا عن يد « المقيم الفرنسى » . ولم تسقط تونس دون مقاومة ، فاضطرمت ثورات محلية فى القيروان وصفاقس وغيرهما ، ولكنها أخمدت بسرعة ، وتم بذلك مشروع فرنسا فى الاستيلاء على تونس ، وتأيدت معاهدة « باردو » بمعاهدة « المرسى » فى ٨ يونيه سنة ١٨٨٣ ولم يجد احتجاج الباب العالى الذى كانت تتبعه تونس من الوجهة الاسمية ، واعترفت انكلترا بمركز فرنسا فى تونس فى نفس العام ، وتبعتها معظم الدول الأوربية ثم الباب العالى فى سنة ١٨٩٢ . أما إيطاليا فلم تعترف به إلا فى سنة ١٨٩٦

ويقوم نظام تونس السياسى فى الوقت الحاضر على المعاهدة المتقدمة ، فهى حماية فرنسية تمثل فرنسا فيها « مقيم عام » هو فى الوقت نفسه وزير خارجية « الباى » ورئيس مجلس نظاره ، ويعاونه مجلس استشارى يجتمع مرتين فى العام لبحث الميزانية ، ويتألف من مندوبى المجالس البلدية والغرف التجارية والشركات الزراعية وبعض النواب الوطنيين

***

ولقد كانت المسألة التونسية مثار احتكاك دائم بين فرنسا وإيطاليا ، وكانت إيطاليا مذ أفلتت منها تونس ترى أنها اغتصبت منها اغتصابا ، وأن فرنسا ارتكبت بافتتاحها اعتداء خطيراً على أمانى إيطاليا وعلى حقوقها الطبيعية ؛ ولما خاب أمل إيطاليا فى تونس ، وجه وزيرها كرسبى بطل أمانيها الاستعمارية اهتمامه إلى الحبشة ، ولكن هذه الأمانى سحقت فى موقعة « عدوة » إلى حين . وإيطاليا ترجع مطالبها فى تونس بالأخص إلى جاليتها الكبيرة التى يبلغ عددها اليوم نحو مائة ألف إيطالى ، وتقول إنها هى التى قامت بتمدين تونس وتنظيم عمرانها ، وأدت أعظم قسط فى تقدمها وازدهارها ؛ وقد كانت هذه الجالية الكبيرة والمصالح الهامة التى تمثلها موضع اتفاقات متعاقبة مع فرنسا ترتب لها حقوقاً وامتيازات خاصة ، وكان آخرها اتفاق لافال — موسولينى ، الذى عقد فى يناير سنة ١٩٣٥ ، وبه حصلت إيطاليا على امتداد جديد لامتيازات هؤلاء الرعايا ، يمتد فيما يتعلق بالمهن الحرة حتى سنة ١٩٤٥ ، وفيما يتعلق بالمدارس حتى سنة ١٩٥٥ ، وفيما يتعلق بالجنسية حتى سنة ١٩٦٥ ، وبعد ذلك تتلاشى جميع هذه الحقوق

والامتيازات ويخضع الرعايا الايطاليون وكل مصالحهم فى تونس لنصوص القانون العـام ؛ وقد حقق هذا الاتفاق أيضاً لايطاليا بعض المزايا الاستعمارية الأخرى ، وذلك بتعديل حدود لوبيا مما يلى تونس تعديلا جديداً ، تحصل فيه إيطاليا على شقة كبيرة من الأرض ، وإعطائها بعض جزر البحر الأحمر المواجهة لأرتريا ، ومنحها مقداراً من الأسهم فى سكة الحديد الممتدة من جيبوتى إلى أديس أبابا

على أن إيطاليا تنظر اليوم إلى المسألة من ناحية أخرى . ومن يتأمل خريطة البحر الأبيض ويتأمل موقع تونس من صقلية وسردانية ، يدرك فى الحال أهمية تونس العسكرية والبحرية . فساحل تونس مما يلى رأس بونة لا يبعد أكثر من مائتى ميل من ساحل صقلية ، ولا يبعد أكثر من ثمانين ميلا من جزيرة بانتلاريا الايطالية . وفى وسع إيطاليا متى وضعت يدها على تونس أن تشطر البحر الأبيض المتوسط إلى شطرين ، وأن تغلقه من الوسط ، وأن تقطع المواصلة إذا شاءت بين شرقيه وغربيه ، وفى ذلك ما فيه من الخطر الجسيم على الامبراطورية البريطانية ، وعلى أملاك فرنسا الأفريقية وفيما وراء البحار

وفرنسا تدرك حق الادراك أهمية تونس وما ينطوى عليه فقدها من الأخطار الجسيمة ، ومن ثم كان موقفها الصريح الحازم من المطالب الايطالية ، فهى ترفضها كل الرفض ، وهى كما صرح رئيس وزارتها ووزير خارجيتها على استعداد لأن تدافع عن كل شبر من الأرض تخفق عليه الراية الفرنسية ؛ وانكلترا ليست أقل من فرنسا اهتماماً بأمر تونس ، لأنها تشعر بنفس الأخطار تهددها ، ومن ثم فقد كان تبادل التصريح بين الدولتين ، بأن كلتيهما على أهبة لمعاونة الأخرى بكل قواها إذا ما وقعت عليها حرب اعتدائية من دولة أخرى

وتريد وجهة النظر الفرنسية على ذلك أنه إذا كان لايطاليا فى تونس مائة ألف من الرعايا ، فان لفرنسا مائة ألف وعشرة آلاف[1] . ثم إن هذه الجالية الايطالية الكبيرة ليست كلها مع إيطاليا ، وأهم أفرادها وأغناهم هم اليهود الذين تنكرهم الفاشستية وتود الخلاص منهم ، ولا يودون الانضواء تحت لوائها ؛ ومعظم الجالية الايطالية من أصحاب الحرف ، والعمال والفقراء الذين لا يجدون قوتهم فى الوطن الأصلى ، والذين لا يناصرون المبادئ الفاشستية ؛ ولا يزيد أنصار الفاشستية بين الجالية الايطالية فى تونس على عشرين ألفاً ، فاستناد إيطاليا فى مطالبها الفادحة إلى حقوق رعاياها وإلى مصالحهم ، هو حجة واهية الأساس ، ومن المغالطة أن ينسب تقدم تونس إلى جهود هؤلاء الرعايا ، فقد بذل الفرنسيون فى تونس جهوداً عظيمة لتمدينها وتنظيم حياتها الاقتصادية والعمرانية ، هذا فضلا عن أن تونس جزء لا يتجزأ من الامبراطورية الفرنسية فى شمال أفريقية

***

وقد أعلنت إيطاليا فرنسا أخيراً بنقضها لاتفاق يناير سنة ١٩٣٥ لأنه لم يعد يتفق مع الظروف ، ولا مع أمانى إيطاليا ، ولأنه لم ينفذ ولم تحافظ فرنسا على نصوصه أو روحه ، بل اشتركت غداة عقده فى العقوبات الاقتصادية التى نظمتها عصبة الأمم ضد إيطاليا ، وبذلك وقفت موقفاً عدائياً لا يتفق مع التسوية الودية التى كان يراد تحقيقها

ويتلخص الرد الفرنسى على إيطاليا فى أن فرنسا ما زالت تعتبر اتفاق سنة ١٩٣٥ قائماً وأنه يحقق نهائياً تسوية المسائل المعلقة بين فرنسا وإيطاليا ، فاذا كانت إيطاليا ترى نقضه ، فانه لا يسع فرنسا إلا أن تأخذ علماً بهذا النقض ، وإن المعاهدات لا تنقض بفعل الزمن ، وإلا فان فى وسعها أيضاً أن تنقض معاهدة سنة ١٨٩٦ التى سويت بمقتضاها حالة الايطاليين فى تونس

(١) يبلغ سكان تونس زهاء مليونين ونصف مليون .

وتؤكد إيطاليا أن لها مطالب مشروعة سوف تقدمها في الوقت المناسب وبالصورة المناسبة ، وتؤكد فرنسا من جانبها أنها لن تبذل أية تضحية أخرى ؛ وتستند إيطاليا في مطالبها إلى معاهدة لندن المعقودة في سنة ١٩١٥ إبان الحرب الكبرى ، وفيها تتعهد فرنسا أن تعوض إيطاليا نظير دخولها في الحرب إلى جانبها ببعض المزايا الاستعمارية ، والمفهوم أن هذه المطالب فضلا عما ترغب إيطاليا تحقيقه لرعاياها ومصالحها في تونس من الضمانات الخاصة ، تتضمن طلب الاشتراك في إدارة قناة السويس والاستيلاء على سكة حديد جيبوتي ، بيد أن هنالك من يرى أن إيطاليا قد تطالب إما بتونس ذاتها ، وإما بتخلي فرنسا عنها لتكون منطقة دولية حرة على مثال طنجة ، أو أنها قد تطالب على الأقل بامتلاك السومال الفرنسي (جيبوتي)

ومما يلاحظ أن ألمانيا تؤيد إيطاليا في موقفها على لسان صحافتها الرسمية ؛ وليس بعيداً أن يكون الدفاع إيطاليا في هذه المغامرة الجديدة أثر من وحي برلين ؛ فمن مصلحة ألمانيا الواضحة أن تنهمك إيطاليا بمطامعها وأمانيها في البحر الأبيض المتوسط ، وأن تترك شؤون أوربا الوسطى نهائيا لألمانيا ؛ ولكن طريق إيطاليا إلى أمانيها الاستعمارية ليس سهلا ولا مذللا كطريق برلين في أوربا الوسطى ، بل تكتنفه صعاب ومخاطر لا نهاية لها

والمفهوم أن رومة تنتظر زيارة مستر تشمبرلين في ١١ يناير (غداً) ، لتقدم إليه مطالبها الاستعمارية الجديدة ، وتطلب إليه الوساطة في تحقيقها لدى فرنسا كما توسط في تحقيق مطالب برلين لدى تشيكوسلوفاكيا ؛ فلننتظر إذن لنرى ماذا يمكن أن يسفر عنه هذا المجهود الجديد الذي يحاول رئيس الوزارة البريطانية أن يبذله في سبيل السلام

(***)

مشاكلنا الاجتماعية
وحظها من عنايتنا

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

السياسة تشغل من وقتنا وتفكيرنا وجهدنا أكثر مما ينبغي. فهي لدينا حديث المجالس والأندية، ومثار الجدل والتنازع، وأساس الصداقة والخصومة. ورجال السياسة يتمتعون بيننا بمكانة لا يدانيهم فيها سواهم، فأسماؤهم ملء الأفواه، وصورهم ملء العيون، وحركاتهم ومناقشاتهم شغل الجماهير وملهاتهم، وتفاصيل حياتهم العامة والخاصة تكاد تكون معروفة لدى أكثر الناس

ونحن نغلو في تقدير أثر السياسة ومبلغ جهود رجالها، فنرجع كل ما نجده من خلل أو نقص في شؤوننا العامة إلى عوامل سياسية، ونعلق كل أمل في إصلاح حالنا ومداواة عللنا على تغير الأحوال السياسية

وقد ساقتنا هذه النظرة إلى نوع من التواكل جعلنا نحمل رجال السياسة عبء كل إصلاح، وننتظر منهم القدرة على حل كل مشكلة، وكان من شأنها أن غلب علينا شيء من الركود صرفنا عن بذل أي جهد أو تفكير في مسائلنا الاجتماعية، ومال بنا إلى إرجاء ذلك كله إلى حين يتهيأ الجو السياسي الملائم!

وأظن أن الأوان قد آن لتعديل هذه النظرة، فلمشاكل تتفاقم يوما بعد يوم، وظروفنا الاجتماعية تزداد تعقدا بازدياد عدد السكان وتقدم المدنية، وظروف العالم المضطربة لا تدع للأمم المتخلفة في استكمال أسباب القوة فرصة لتدارك ما يفوتها بخمولها وترددها وبطئها

والسياسة — أو على الأصح ما أصبح لها من مدلول في عرفنا — لا يصح أن تكون شغل الأمة الشاغل

ثم إن هناك لحظات في حياة كل أمة تجتاز فيها مرحلة دقيقة، وتتعرض لها ظروف امتحان شديدة. ففي هذه اللحظات التاريخية يخفق كل قلب تلهفا على مصير بلاده، وتتضاءل المسائل الخاصة والمسائل الجزئية، وتصبح المسألة الوطنية الكبرى شغل كل لب ومبعث كل تفكير ونشاط. وقد مر بنا نحن المصريين مثل هذه اللحظات التي نسينا فيها أنفسنا وشؤوننا الخاصة، وأقبلنا بكل عواطفنا على الاشتغال بالسياسة العامة، أو مسألة المسائل الوطنية الكبرى

ولكن ذلك إذا كان واجبا وطنيا هاما في مثل تلك الظروف، فإنه في الأحوال العادية لا يكون محل الجماهير ولا مجال نشاطهم وتدخلهم، بل الواجب أن يكون عمل فئة قليلة من الرجال السياسيين الذين يعكفون على تتبع الأحداث الدولية وتفهم تياراتها الخفية، وترقب الفرص المواتية لتحديد علاقاتنا الدولية على وجه يحقق مصالحنا، ويكفل سلامتنا بقدر ما تستطيع الدبلوماسية البصيرة الحاذقة اليقظة أن تفعله

وخليق بنا أن ندع هؤلاء الرجال لمهامهم الدقيقة ولا نفسد عليهم عملهم بتدخلنا، ولا نشغل أنفسنا بهم أو نشغلهم بنا، فإن ذلك أحرى أن يكلل جهودهم بالنجاح

وفي ميدان النشاط الاجتماعي متسع لكل عامل، ولدينا من المسائل العامة ما يكفي لأن يشغل كل قادر على التفكير والعمل

فنحن أمة فقيرة، دخلها القومي لا يكفي الفرد في المتوسط إلا لعيشة الكفاف، ولدينا موارد غفل تحتاج للرؤوس والأيدي لاستغلالها، وزيادة الانتاج القومي الذي يرفع مستوى المعيشة ويزيد في قوة الشعب

البلاد بحاجة إلى نهضة صناعية واسعة، تنتفع بالخامات التي نجدها في البلاد وتحولها إلى مصنوعات تكفينا بعض ما نستورده من الخارج، وتهيئ لفريق من أبنائها العاطلين أسباب العمل

وإذا كان بنك مصر وشركاته قد أدوا للبلاد بعض الخدمات العظيمة في هذا الباب . فإن نواحي العمل الممكنة لا تزال كثيرة ، ولا يزال في الاستطاعة خلق صناعات مصرية كثيرة تقوم على الخامات المصرية بالأيدي المصرية . وفي البلاد أراض زراعية فسيحة بائرة لا ينتفع بها ، وهي بحاجة إلى مشروعات واسعة لإصلاحها واستغلالها وزيادة الانتاج القومي تبعاً لذلك

وفي الناحية الزراعية متسع لنشاط جديد في مقاومة الآفات وإدخال الطرق الحديثة ، وتنظيم الحياة التعاونية بين الفلاحين . وكل ذلك كفيل بحفظ ثروة البلاد وزيادتها

ومشكلة التجارة مشكلة كبرى تقتضي جهوداً قوية منظمة لحلها وتحويلها إلى تجارة مصرية ينتفع بها المصريون ويعمل فيها المصريون

فأسواقنا يسيطر عليها الساليون الأجانب ، وتجارة الصادر والوارد يختص خيرها وسطاء من غير أبناء البلاد ، وتجارة التجزئة موزعة توزيعاً سيئاً يضعف ربحها ويحقق كسادها . وتجارنا لم يستفيدوا من نظم التعاون وأساليب العرض والدعاية الحديثة . وفي هذا كله مجال للدرس الاجتماعي وللإصلاح المفيد الذي يعود بالخير على البلاد والأفراد

وفي البلاد بؤس فاش سببه ضعف الانتاج القومي وقصر أبواب العمل المفتحة للمصريين ، يتجلى في جيوش المتسولين والمتشردين والعاجزين والعاطلين . ويزداد تجلياً في النساء ، وهم أكثر من نصف الأمة ، فهؤلاء تزداد دائرة العمل في وجوههن ضيقاً ، ويتضاعف بؤسهن بالترمل والطلاق وكثرة العيال ، فيلجئهن ذلك إلى مزالق اجتماعية خطيرة

وفي هذه المشاكل مجال للخدمة الاجتماعية الكبيرة لعلاج الحال وتلافي الأسباب الباعثة عليها ، وتنظيم البر الوقائي والبر العلاجي تنظيما يصون هذه الأرواح المضيعة ، والقوى التي لا تنتفع بها البلاد ، بل قد تكون مصدر فساد وضرر

ويتصل بالفقر والبؤس ، مشكلة الجرائم الكثيرة المنتشرة ، كالسرقة والنصب والنهب وغيرها من المسائل التي تتطلب درساً اجتماعياً دقيقاً لعلاجها وتلافيها ، لا الاكتفاء في حلها بإصدار القوانين وتنفيذها

وفينا جهل أغلق علينا أبواب الفكر ، وحرمنا نور العلم ، وجعلنا فريسة للمخابيل والمشعوذين ، وأقعدنا عن وسائل العمل الناجع في الحياة . ومشاكل التعليم الصحيح ، وتربية الأمة التربية التي تجعل من أبنائها أعضاء نافعين في الوطن ، مشاكل تتطلب جهود الباحثين والمجربين ، وعدم الركون في حلها على الجهود الرسمية وحدها

وفينا ضعف صحي جعلنا فريسة لأمراض متوطنة كثيرة ، وأضعف حيويتنا ونشاطنا . وفي مجال العمل الوقائي والعلاجي متسع للجهود الانسانية النافعة

وشبابنا مسرف متلاف ، يعبث بماله ووقته ، وهو بحاجة إلى تنظيم لفراغه وتهيئة وسائل التسلية البريئة له ، وبث الروح الرياضي السامي فيه ؛ وهذا باب واسع من أبواب العمل الاجتماعي

وبيوتنا ونوادينا وريفنا ومدننا ومآكلنا وملبسنا ، وكل شؤوننا بحاجة إلى جهود منظمة تتولاها بالإصلاح والتهذيب ؛ وحيثما وجهت بصرك ألفيت مشكلة اجتماعية تتطلب الحل

والحل لا يكون إلا بانصراف جماعة لبحثها ودرس أسبابها ونتائجها والعوامل المحيطة بها ، ومحاولة تجربة بعض الوسائل لعلاجها ، وأخيرا وضع خطة شاملة للإصلاح في تلك المسألة تقوم عليها تلك الجماعة ، وتكون عدى للحكومة في سيرها في ذلك السبيل

أفلا ترى معي أن خدمة البلاد تتطلب جهودا كبيرة في نواحي كثيرة ، وأننا لو أحسنا توزيع أنفسنا على تلك النواحي لما قل أثر تلك الجهود نفعاً للوطن عما يبذله السياسيون ، مع عظيم تقديرنا لفضلهم ؟

محمد عبد الواحد خلاف



مضت سبع ليال ، وأنا أفكر تحت مصباحي الأخضر في أمر تلك الفتاة . لقد وعدتها بالمعونة وتركتها تعتمد عليَّ . ولقد ذهبت على أن تعود إليَّ . ولقد تم بيننا الاتفاق على أن تزورني مرة كل أسبوع . ولكني حتى الآن لم أعرف السبيل إلى هداية هذه الفتاة إلى دين « الفكر » . لقد بدأ يداخلني الشك في نجاح مهمتي . إن الراهب يستطيع أن يهدي الغانية الضالة إلى حظيرة السماء بغير عناء ، لأن جمال الفضيلة ظاهر للعيان . وفكرة الخير والشر في ذاتها لا تحتاج إلى برهان . ومبادئ العقائد الإلهية في مقدورها بغير إعداد طويل أو تدليل وتعليل أن تنفذ وشيكا إلى القلوب . أما شؤون الفكر والأدب فهي شيء لا يغرس في كل الأحيان غرساً . إنها نزعة من نزعات الطبع قد تولد في الإنسان أو لا تولد . فكيف ألقي بذوراً في أرض لم يهيئها ربها للإنبات والأزهار . ولكن ... مهلا ، في اعتقادي أن كل نفس إنسانية قد هيأها ربها لالتقاط طيب البذور ، وأعدها لاستقبال نور الجمال . إنما العبرة بالباذر ، والأمر مرهون بقدرة الكاشف عن أسرار الحسن العلوي . لا ينبغي أن أرتاب مرة أخرى في رسالة راهب الفكر . ولا يجب أن أضيع بعد اليوم وقتاً في مذاكرة هذه المسألة . إنما عليَّ أن أوجه همي إلى التفكير في الطريقة التي سأتبعها في معونة الفتاة . وضاق صدري من طول البحث عبثاً كل تلك الليالي . وخطر لي أن أسترشد بما فعله راهب تاييس . فمدت يدي إلى كتاب أناتول فرانس . إني لم أفتحه منذ نحو أربع عشرة سنة ، ولقد نسيت ما فيه . فغرقت بين صفحاته ليلتين . عجباً ..! لكأني أقرؤه للمرة الأولى . إني لم أفرغ منه بعد . لقد قرأت أكثر من نصفه . فاتضحت لعيني أشياء . ما أشقى الآدميين ! لقد كتب عليهم العمى ، وهم يحسبون أن لهم عيوناً مبصرة . إنا لا نبصر حقيقة الأشياء إلا بعيوننا الداخلية ، ولا ندرك حقيقة الأمور إلا باتصالها واصطدامها بجوهر مشاعرنا . إني مهما بلغت من سمو العقل وذروة الفكر ، ما كنت أنفذ إلى أعماق الراهب « بافنوس » إلا اليوم . نعم اليوم ، لأني أشعر بما كان يشعر به ، وأحس أن الظروف تضعني في الموقف الذي وضعته فيه . هنالك مع ذلك فرق بيننا : إنه هو الذي ترك صومعته في بطن الصحراء ، ومشى الليالي الطويلة حافي الأقدام ، يطأ الحشرات ، ويأكل عشب الأرض ليذهب إلى الغانية الجميلة « تاييس » في مدينة الإسكندرية كي يهديها إلى نور السماء . إنه تجشم من أجلها الأخطار والأهوال . ما الذي حمله على ذلك ؟ إن تلك الفكرة لم تنشأ في رأسه إلا فجأة ذات مساء ، إذ خطر له طيفها الجميل ، وذكر رؤيته إياها أول مرة في مدينة البحر قبل أن يهب الدين حياته ، وذكر تحرقه شوقاً إليها في ذلك الوقت مثل غيره من بقية المغرمين . ولكن حب العقيدة طوى حب المرأة فاعتصم بالوحدة في قلب الصحراء . حتى بدا له اليوم ذلك الخاطر العجيب ، أن يقوم بتلك

المعجزة، وبريع هذه الغانية للدين. ولقد التهمتُ الصفحات شوقاً للوصول إلى ذلك الموقف من الكتاب، حيث يقف الراهب أمام تاييس، لأعرف وسائله وأفقه كأنه التي استطاعت أن تهز تلك النفس الرائعة، وتبهر تلك الأعين الناعسة، وتفتح ذلك القلب الفاجر العابث، لجمال نبيل لم يكن له به من قبل عهد!

كانت تلك الكلمات التي انطلق بها لسان الراهب بافنوس إذ وقف وجهاً لوجه أمام الجميلة هي هذه: «إني أحبك يا تاييس، أحبك أكثر من حياتي، وأكثر من ذاتي. من أجلك غادرت صحرائي. من أجلك لفظت شفتاي — المكتوب عليهما الصمت — ما لا ينبغي أن تلفظ. ومن أجلك سمعت أذني ما لا ينبغي أن تسمع. من أجلك اضطربت نفسي، وتفتح قلبي، وانبعثت منه أفكار كأنها ينابيع دافقة يردها الطير والحمام. ومن أجلك مشيت الليل والنهار خائضاً غمار رمال تسكنها العفاريت. من أجلك سرت بقدمي العارية فوق العقارب والثعابين. نعم، أحبك، أحبك. لا على مثال هؤلاء الرجال الذين يجيئونك محترقين في مطالب الجسد، كأنهم الذئاب الضارية، أو الثيران الثائرة. إنك محبوبة لدى هؤلاء، ولكنه حب السبع للغزال. إن غرامهم المفترس يفتك بك حتى قرارة نفسك. أما أنا أيتها المرأة، فإني أحبك حب الروح، حب الحقيقة، أحبك في الله، ولدهور الدهور. إن ما أحمله لك في صدري هو حرارة الحق. هو الإحسان الإلهي. وإني لأعدك بما هو خير من النشوة الفانية، والحلم الزائل. أعدك بأفراح السماء. إن النعيم الذي آتيك به لا ينتهي أبداً. إنه لعجب من العجب. إنه لإعجاز يفوق كل إعجاز! ولو قدر لسعداء هذه الدنيا أن يلمحوا مجرد ظله لخروا في الحال أمواتاً من الدهشة! أيتها السماء اشهدي، إني لن أترك هذه المرأة حتى أضع في جسدها روحاً مماثلا لروحي. فالهميني كلاماً ملتهباً يذيبها كما تذوب الشمعة تحت أنفاسي...

«أيتها المرأة، ألا فلتكن أصابعي قدرة على أن تصنعك من جديد، وتطبعك بطابع جمال جديد، لتصيحي بعدئذ وأنت تذرفين العبرات من الفرح: اليوم فقط قد ولدت، اليوم فقط رأيت النور!»

لم أقرأ أكثر من ذلك. لقد أدركت النتيجة. إن الرجل الذي يستطيع أن يلقي في أذن امرأة مثل هذه الكلمات لابد بالغ منها ما يريد. إن المرأة، هذه الزهرة الأرضية السماوية في آن، لتتفتح أكمامها لمجرد تساقط لفظ «الحب» الندي، مهما كان الثوب الذي يتخذه «الحب»، ومهما كانت غاياته ومراميه. إن إيمان المرأة هو الحب. هاهنا السبيل الهين السهل الذي يوصل المرأة إلى الإيمان، إلى كل إيمان. وعندئذ اختلج قلبي. إن موقفي من الفتاة يختلف وينبغي أن يختلف عن موقف الراهب من الغانية، لا لأن قلبي لا يستطيع أن يتلقى حباً بهذه الفتاة، بل لأنه لا ينبغي له أن يفعل، ومع ذلك فإن الحب أيضاً هو الذي قاد الفتاة إلى مكان عزلتي، مجتازة صحرائي الفكرية على قدميها الصغيرتين وحذائها ذي الكعب العالي الذي لم يطأ غير البساط الوثير والرخام اللامع والزهر المتساقط على عشب الحدائق. نعم، حبها خطيبها المثقف هو الذي أتى بها من عالمها إلى عالمي...

* * *

لبثت أنتظرها هذا الصباح في ساعة الموعد، فلم تأت. فقلت لنفسي وأنا أتنفس الصعداء:

— لقد استردها عالمها النضير وجذبتها دنياها البراقة. وكفيت أنا مؤونة النفخ في دمية من طين وتراب!

على أني لم أستطع أن أخفي ما قام في أعماق نفسي من اضطراب، لست أدري له سبباً ولا أفهم له تعليلاً: إنما

هو نوع من الشعور بالأسف العميق. على ماذا؟ ولماذا؟.. لا أستطيع أن أجيب. فالأمر يخرج من نطاق ذهني الواعي:

وطرق الباب بغتة. وظهر رجل نوبي في ثياب نظيفة أعلمني أنه سائق سيارتها. وقدم إليّ رسالة منها وانصرف. إنها تعتذر من تخلفها عن الميعاد. وتقول إنها الآن في لباس « التنيس ». وإنها خجلت من القدوم إليّ والمثول في حضرة كاهن الفكر بهذه الثياب. وإنها لا تجد بعد من نفسها الشجاعة على تضحية مثل هذا الصباح الرطب الجميل في سبيل شيء وإن كان هذا الشيء هو الأدب والفكر. وإنها الساعة تستنشق الهواء ملء رئتيها وتعرض شعرها المرسل وذراعيها العاريتين لشمس هذا الشتاء البديع. وإنها تتأمل النيل يلمع في مجراه الأخضر كأنه سيف ملقى فوق أعشاب حديقة. أو كأنه شريط من الفضة فوق قبعة خضراء. وهنا تسألني الصفح عن إيراد هذا التشبيه. فهي لم تنس بعد أنها امرأة، وأن طراز القبعات الحديث ما زال يشغل من التفاتها أكبر مكان. وختمت كلامها بتكرير التماس المغفرة، راجية مني أن أستبعد ما قد يخالجني من سوء ظن بها، وأن أثق بثباتها على العهد، وتمسكها برغبتها، وإيمانها بقوة عزيمتها، ونجاحها آخر الأمر فيما وطنت النفس عليه من السمو بروحها وفكرها إلى المستوى اللائق بخطيبها الحبيب إلى قلبها...

إنها كتبت بالطبع هذه الرسالة بخط سريع رديء، وعبارات لا تخلو من أخطاء في الهجاء، وأسلوب فطري أقرب إلى أسلوبها في الحديث من أسلوب الكاتب في الأداء. ولكن... أي نفحة عاطرة تنبعث من هذا الكلام؟ وأي نفس حية ذكية تكاد تثب من بين هذه السطور؟ إذا صدق ظني فإن هذه الفتاة نبع صاف، لا ينقصه غير الكشف عن أعماقه حتى يتدفق ماؤه العذب يروي النفوس وينعش الأذهان. إن جوهر الروح الأدبي عند هذه الفتاة وهي لا تدري. فالأدب روح قبل كل شيء، أما الأسلوب فأداة تكتسب فيما بعد بالمران الكثير والصبر الطويل. وليس المنشود لهذه الفتاة فيما أعتقد حذق الأسلوب الأدبي من حيث هو خلق وإنشاء، بل من حيث هو روح فني، داخل نفسها البلورية فتنطلق لسانها بالحديث الرفيع، وتطلق من صدرها المشاعر العالية والأفكار السامية...

آه: إن سبيلي الآن قد أشرق بالنهار المبين، وعملي قد تحددت خطوطه وأركانه. إني أريد أنا أيضاً أن أخلق هذه الفتاة خلقا جديدا، وأن أجعل منها عروساً تمرح بشعرها المرسل وروحها الفني في مروج الفكر الرحبة الزاهرة، أريد أن أجعلها ملكة من ملكات المجالس ممن جاءت أخبارهن في التواريخ، تعرف كيف تمس بصولجان روحها نفوس الرجال كما يمس المرود العين، فإذا تلك النفوس قد تفتحت لترى ما لم تر. وإذا النشاط قد دب فيها، فتثمر القرائح وتنهض الهمم. وإذا الخير قد فاض، والحياة قد نبضت في الأشياء والكائنات...

آه... إن المرأة هي كنز الكنوز. ولكنه مدفون في سابع طبقات الأرض، فمن ذا يستخرجه غير ساحر من حذاق الكهان؟ بل هي معجزة المعجزات، مطوية في سابع طبقات السماء، فمن ذا يستنزلها غير راهب شديد الإخلاص، قوي الإيمان؟؟!.

توفيق الحكيم

أنا الغريق ...

بقلم
أحمد ضيف
وكيل دار العلوم

المدينة في سكون ورهب ، والناس واجمون يروحون ويجيئون في خفة وسرعة ، يلفهم الليل في سواده ، لأن مدينة باريس الزاهية — مدينة النور المشرقة — أمست حالكة مظلمة . وقد انقلب ما فيها من سرور ومرح لا يفارقان سكانها إلى بؤس واستسلام إلى القضاء

كان ذلك في شهر ديسمبر سنة ١٩١٧ والحرب مستعرة ، والناس يتنابهم اليأس والرجاء ، ويخرق نفوسهم حنينهم إلى أقربائهم ، من أزواج وأبناء ، وأصدقاء وأخلاء ، وصلة بإنسان قريب أو بعيد . ثم إلى ما تؤول إليه أمة بأسرها ملأت الأرض علما وحضارة ، وأقبل عليها يغترف من علمها العدو والصديق ، ويتشبه بها في آدابها ، ويقتبس من فنونها أمم الأرض جميعا . ولا تزال باريس حتى في هذه المحنة كعبة القصاد ومحط الرواد

كان ذلك وأنا سائر في طريق من أجمل طرق باريس ، وفي حي من أنضر أحيائها ، كنت أسكن قريباً منه ، فقال لي صاحبي الذي كان يرافقني :

— لو أن قنبلة نزلت علينا الآن ماذا يكون من أمرنا ؟

فقلت :

— نذهب هباء ! كما ذهب ويذهب من هو خير منا ، ولم ينهدم العالم ، ولن يفنى بسبب ذلك ، ولعل الله يحقق قولك

فقال صاحبي :

— أعوذ بالله من هذه النفس المتشائمة !

ثم ذهبنا إلى منزلي ، وجلسنا نتحدث ، والحديث ذو شجون . وأخيرا دعاني إلى أن أذهب لزيارة صديق له كان يسكن بالقرب مني ، فأجبت دعوته ، وسرنا إلى شارع ضيق مظلم ، فدخلنا بابا يشبه أن يكون مغلقا ، ورأيناه بجواره من الداخل حجرة تكاد تكون مظلمة ، خرجت من باب هذه الحجرة امرأة عجوز بدين ، ذات صدر عريض ضخم ، ورأس كبير على عنق قصير وقالت :

— من تريدون ؟

فقال صاحبي : — السيد سيمون

فقالت ورفعت رأسها إلى سماء البيت وأشارت بيدها :

— إلى اليمين في الطبقة الثالثة

ثم قالت : نعم لقد رجع الآن مع زوجته الجميلة !

قالت ذلك في لهجة تعجب ، ثم خفضت من صوتها واقتربت وقالت :

— أوه . ربما أقام ، ثلاث ليال أو أربع في الأسبوع ، لأنه يعبدها !

ثم سكتت قليلا وأصلحت من شعرها وربطت ميدعها ، فناداها زوجها من الحجرة فقالت :

— نعم ، نعم

ورجعت تلتفت إلينا وقالت في صوت خافت :

— هي تعبد ، هي جميلة جدا ، وغمزت بعينيها ، ورفعت حاجبيها وقالت بصوت عال كأنها تريد أن تخفي عن زوجها موضوع الحديث :

— نعم يا سادتي ، الحرب من أشد أهوال الحياة ، إلى اليمين في الطبقة الثالثة . ورجعت إلى حجرتها !

فصعدنا في سلم مظلم ، ولكنه أشبه بالمضيء ، لأن مصباحا ضئيلا كان يرشد الصاعدين إرشاداً ضئيلا .

ووصلنا إلى باب المسكن ، فدفعنا الجرس ، ففتح الباب ، وإذا زوجة صديقنا في مبذلها ووجهها الجميل الفتان ، الذى بدا في ضآلة ضوء مصباح البيت كأنه كوكب درى يتلألأ . فصاحت بزوجها والتفتت وراءها وقالت :

— ها هو صديقنا جيل (ثم صاحت) سيمون ، سيمون ، صديقنا جيل وصاحبه

ودعتنا إلى الدخول في حجرة الاستقبال وقالت :

— ما أحسن هذه المصادفة ، لقد كنت أنا وزوجى في حاجة إلى من يؤنسنا ، يالها من سعادة ! (ثم صاحت مرة أخرى) سيمون سيمون ! ما هـذا ؟ ألم أقل لك إن صديقنا جيل وصاحبه قد حضرا ؟!

فأجابها :

— أنا آت في الحال

وجاء سيمون في ثوبه المنزلى وقال :

— عفواً ، عفواً

وسلم وجلس ، فخرجت زوجته من الحجرة وقال جيل :

— إننا لم نرك من زمن طويل ، إن مارسيل (زوجته) تذكرك دائماً ، لأنها تحب حديثك

وجلسنا معا في تلك الحجرة وعلامة التعب تبدو على سيمون ، ولكن روعة شبابه وحيوية نظراته ، وحسن قده ونضارة وجهه كانت تطمس علامة هذا الاعياء

قال : آه إن كل ما تملته أنى جالس في بيتى هـذه الليلة . ما أشد أهوال الحرب ! لقد مللنا هذه الحياة

ثم نظر إلى جيل نظرة تنم عن قلق في نفسه وحيرة شديدة وقال :

— ثلاث سنين ونحن معرضون للموت كل يوم وليلة . اللهم إن هذا لا يطاق !

وحول نظره إلىَّ وقال :

— إنك يا سيدى لا تتصور ولا يخطر ببالك ما هى الحرب . إنك لسعيد ، لوددت أن أكون قد متّ قبل أن أرى هذه الأهوال !

ثم نادى :

— مارسيل . مارسيل . ألا تحجلين ؟ أين أنت ؟

لجاءت مارسيل على عجل ، فنظر إليها سيمون نظرة تعجب وقال :

— آه . لا . لا ... إنك كنت تتزينين وهؤلاء السادة عندك وفى انتظارك !

فهزت مارسيل رأسها وضحكت وهى تدلُّ على زوجها . فقال سيمون :

— إنك جميلة بدون تطرية . ثق بذلك

فقالت مارسيل :

— ما أجمل هـذا الملق من زوج لزوجته في جمع من الناس !

فقال سيمون :

— آه . المرأة . المرأة . كل هواها في أن تحب وتعبد

فاتجهت مارسيل إلى مفتاح المصباح وأطفأته ، فصاح بها زوجها :

— إنك لمجنونة !

فلم تحفل بقوله ، والتفتت إلينا وقالت :

— أليس جميلاً ، أن نجلس أمام هـذا الموقد يسطع علينا لونه الأزرق البنفسجى ويضىء مجلسنا ، فيلون وجوهنا بألوان مختلفة ؟

وإذا بالحجرة ومن فيها كأنها لوحة مصور . وأخذت مارسيل تحرك النار في الموقد فزاد لهيب النار الساطع على وجهها من جمالها ، وصارت تندلع منه ألسنة ملتهبة من

الأزرق والأحمر والبنفسجي ، وتجتمع كل هذه الألوان وتختلط بعضها ببعض ، فتكوّن كتلة من لهب جميل وتنسج خيوطا من نار كأنها خيوط سندسية أو لازوردية ، تحركها الريح فتضطرب اضطرابا وتمثل في خفقانها خفقان القلوب أو تمثل راية متعددة الألوان يعبث بها النسيم ، ومارسيل في جوارها قد احمرت وجنتاها . فكنا بين نارين !...

قال لها زوجها سيمون :

— غنينا صوتاً مما تعرفين

فنظرت إلينا وقالت :

— وهل تريدون ذلك ؟!

فقلنا — وكيف لا !؟

فجلست أمام البيان وأخذت تعزف وغنت :

كلا لن يتسنى لك أن تعرف من أهيم به الآن
ولا إن كنت أهواك أم أبغضك
ولا إن كنت أهزأ أم لا أزال أتألم
عبثا تود أن تقرأ في عيني الحائرتين حبي لك
إنك تود أن تعرف ما بنفسي
لن يتسنى لك ذلك أبداً !

وسكتت فصفقنا فقال زوجها :

— ويل لنا نحن الرجال ، الحب والنساء ، هذا كل ما لدينا في الحياة ، وكل ما يملأ السمع والبصر فينا !

فقالت مارسيل :

— بل ويل لنا نحن النساء ، نضحي بكل شيء ونعمل كل شيء لنرضي الرجال ، وهم غاضبون علينا دائماً . ومن الغريب أنهم يهيمون بنا ويحقدون علينا : الرجال لا يرضيهم شيء من المرأة

ثم تنهدت في خفة ورشاقة وقالت :

— يا للنساء من الرجال !

فهم زوجها بالقيام وأشار مصباح الحجرة وتناول كتابا كان على الرف وقال :

— اسمعي أناتول فرانس وهو يتحدث إليكن ؛ وفتح صفحة من الكتاب وقرأ :

« المرأة أساس العمران . لأنها مسيطرة عليه ، إذ لا يعمل شيء إلا بها ومن أجلها . هي مربية الرجل ، تعلمه الفضائل الجميلة الجذابة ، وحسن المعاشرة والفطنة . وهذه الكبرياء التي تخشى أن تؤول إلى تعنت ، وهي التي ترشد بعض الناس إلى الطريق الذي يجعله موضع الاعجاب من غيره ، وتهديه إلى كل وسيلة تساعده على عدم الاشمئزاز منه . وهي التي تبين للرجل أن العالم معقد ولكنه منظم تنظيما دقيقا ، أكثر مما يتخيله الناس في المجامع السياسية ، وتحمله على التفكير في أن الأحلام التي تحدثها العواطف النفسية وتنشأ من سيطرة العقائد لا يغلبها غالب ، وأن العقل ليس له سلطان على النفوس »

فقالت مارسيل — مرحى ! مرحى ! أناتول فرانس أعظم رجل فهم المرأة !

فقال زوجها — وكيف لا يكون ذلك ؟ أأزيدك من دلال المرأة على الرجل وسيطرة العاطفة على العقل ، هذا موسيه يقول ، وتناول كتابا آخر وأخذ يتصفحه ثم قال :

— ترى ماذا تقولين لي يا ذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء إذا بحت لك بحبي ؟ .

الحب كما تعلمين ينبوع أسقام مضنية ، بل هو سقم لا يعرف الشفقة وإنك لتتجرعين آلامه . مع هذا فقد تتوعدينني بالعقاب

* * *

نينون ! إنك لبارعة ! فقد خفي عليّ انصرافك عن قم أتنبأ به ، فإذا قلت لك : إن ستة أشهر قد انصرمت

فى صمت وسكون، أخفت آلامى المبرحة، وآمالى الساعة ربما تقولين إنك تعلمين ذلك

* * *

فإذا قلت لك: إن جنونا حلوا صيرنى ظلاً من ظلالك، وحملنى على ألا أفارق خطواتك، وإن شيئاً من الشك والوجد — كما تعلمين — جعلك أجمل ما تكونين. قد تقولين: لا أظن ذلك

* * *

وإذا قلت لك: إنى أحفظ فى سويداء قلبى كل صغيرة وكبيرة من مسامراتك وإن نظرة ارتياب منك — كما تعلمين — تجعل تلك العيون السماوية الزرقاء لهيبا مشتعلاً. إذاً لتحرمين علىّ رؤيتك

* * *

وإذا قلت لك: إن السهاد ينتابنى كل ليلة، وإن البكاء يحملنى كل يوم وإنى أدعو الله جاثيا. ينبوت! ألا تعلمين أنك عند ما تضحكين تظن النحلة أن فمك زهرة قرمزية. إذا قلت لك ذلك ربما تضحكين منى!

* * *

سيخفى عليك أمرى، فسأجئ إليك صامتا أجلس فى ضوء مصباحك واتحدث معك، فأسمع صوتك، وأستنشق عبيرك. ولك أن ترتابى فى حبى، وأن تظنى بى الظنون، وأن تضحكى منى، ولكن لن ينسى لعينيك أن تعرفا لماذا تنظران إلىّ شزراً!

* * *

سأجنى فى الخفاء زهرات حافلة بالأسرار، وفى المساء أجلس خلفك وأسمع عزف يدك على البيان، وأشعر بقدك الرشيق يتلوى بين ذراعى كغصن عيد وأنت غارقة فى لجة الأنغام المرقصة!

* * *

فإذا جن علينا الليل، وبددت النوى شملنا، ودخلت حجرتى وأرخيت سدولها تناوبتنى ذكريات أيقظت فى نفسى الغيرة، فهناك — وأنا وحدى أمام الله — أهيم فرحا وسروراً، أفتح قلبى وكأنه خزانة من ذهب، فأجده مملوءاً بحبك

* * *

إنى أحب وأعرف أن أكتم حبى، أحب ومثلى لا يذاع له سر، فما أعز سرى! وما أعز سقمى وحبى، لقد أقسمت أن أحب فى غير أمل ولا رجاء، ولكن فى سعادة وهناء. إنى أراك وكفى. كلا لم أخلق لهذه السعادة الجلى كى أموت بين ذراعيك أو أعيش تحت قدميك. وا أسفا! كل شىء ينبئ بذلك حتى آلامى!

* * *

ولما انتهى هزت مارسيل رأسها وأطفأت مصباح الحجرة وقالت:

— موسيه كان شاعراً مجنونا. فقد هام بجورج صاند، وهامت هى بغيره. ولو كنت رجلاً ما أحببت امرأة تنصرف عنى أو تخدعنى فى غرامى. ثم قامت وهزت كتفيها وخطت خطوات فى تبختر ودلال وقالت:

— أيها الصديق. إنكم أيها الرجال أعجوبة الأيام!

وكان اللهب فى الموقد قد اشتد وأرسل أشعته وحرارته فى كل جانب من جوانب الحجرة، وخيل إلىّ أننا فى موقف غرام، أو فى حالة من الحالات، أو فى حلم من الأحلام، وشعرنا بحرارة الموقف وقسوته. فقال صديق:

— نفتح النافذة

فقالت مارسيل:

— كيف؟ ألا تخاف البرد؟ أما أنا فلا أحتمله. فسكت جيل. ولم أكن رأيت فى حياتى ظلمة أجمل

من الضوء ، ولا ضيقا أوسع من الفضاء ، مثل هذه الليلة وفى تلك الحجرة . ثم نظرت مارسيل إلى جميل وقالت :

— كيف حالك ؟ ألا تزال فى تلك الحال النفسية المظلمة ؟ ومالت بجانبها على زوجها ، فانحسر عنها جلبابها فأسرعت بزره ، ونظرت فى مرآة موضوعة على الموقد وأصلحت من شعرها وكأنها تعجب بجمالها وقالت فى تيه ودلال :

— آه . يا لحياة الانسان ! مسكين أنت يا جميل ، لقد تعانى من آرائك فى الحياة ، وعدم فهمك لها ما لا يعانيه الجاهل المجهول . ثق أيها الصديق بأنك مخطىء ، إنك شاب لا تفكر إلا فى التمتع بالحياة ، وتود أكثر مما يمكن ، فلا تكاد ترضى بشىء ، فمن هنا خطؤك ، ومن هنا يؤسك

فضحك جميل وقال :

— تظنين ذلك ياسيدتى ؟ ولكن ما خفى عليك كثير ، ولو علمته لعرفت أنى محق

ونظر سيمون إليها وقال :

— الآن علمتم أن زوجى ليست فاتنة فقط ، بل هى مع ذلك فيلسوفة

ثم نظر إليها وقال :

— يا عزيزتى ، دعينا من هذا واسقنا شيئا ، فانك ربة المنزل ، وقد أنستك الفلسفة أن تقومى بواجب التحية لضيوفك .

ثم رجع الحديث فى الحرب وأهوالها ، فقال سيمون :

— لقد حاولت مرات أن أجىء إلى باريس وأمكث مع زوجى ثلاثة أيام لأستريح قليلا من رؤية هذه الفظائع التى كانت تحيط بى ليل نهار

ثم نظر إلى مقطبا وجهه وقال :

— كنت فى موقف غريب ، وسأعود إليه ، فان مكانى فوق دوحة عالية ، أرصد الأعداء بمنظار عظيم ، لأرى حركاتهم ، والجهات التى يقصدون إليها . وكنت ويا لفظاعة الموقف وهوله ، ألاقى من وقت لآخر قدم جندى تطير وتمر ، فتضربنى فى وجهى ، أو رأسا بلا رقبة تحدق إلى عيناه ، أو ذراعا بلا كف تقع على رأسى ، فأفزع من هول هذه المناظر القاسية ، ثم تعودت رؤية هذه الأهوال وقسوة الانسان على الانسان ، ووحشية البشر ، ففقدت ذلك الاحساس الانسانى ، إحساس الشفقة والرحمة ، حتى لقد كنت أرتاح إذا رأيت فرنسيا يبطش بألمانى فيقطعه إربا إربا !

ثم قال : تمر بالانسان أوقات يكون فيها أفظع من الوحوش الضارية إذا نسى إنسانيته ، أو دفعه الحقد إلى اغتيال غيره . على أن كثيرا من هؤلاء الجنود أنفسهم كانوا سيقتلون أو يقتلون ، فهان الأمر عليهم ، وأصبحوا لا يرون فى ذلك ما يدعو إلى الشفقة بمن يريد أن يقتلهم .

(البقية فى العدد القادم) **أحمد ضيف**

نفرتيتي

للدكتور زكي محمد حسن

أمين دار الآثار العربية

يفخر القسم المصري من متاحف الدولة في برلين بتمثال صغير لرأس الملكة نفرتيتي زوج الملك اخناتون، من ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية القديمة (انظر الصورة المواجهة لهذه الصفحة)

وقد كشفت هذه التحفة الفنية النادرة سنة ١٩٠٦ على يد بعثة ألمانية كانت تنقب عن الآثار في مصر. ويبلغ ارتفاع هذا التمثال ٤٨ سنتمتراً، وهو من الحجر الجيري الملون. ولا يظن أنه أصل مقصود لذاته، بل يرجح أنه أنموذج يستعان به في صناعة تماثيل أخرى، وذلك لأن تماثيل الرأس أو التماثيل النصفية لم تكن أمراً شائعاً في مصر القديمة. ومهما يكن من شيء، فهو ينسب إلى مصنع مثال ذاع صيته في «تل العمارنة»، هو المثال «توتموزيس» الذي عاش في عصر اخناتون وزوجه نفرتيتي. وقد نال هذا التمثال شهرة واسعة حتى صار قبلة الزائرين في متحف برلين، وأصبح اسمه يجري على ألسنة المشتغلين بالفنون والآثار. ويرجع ذلك إلى أسباب مجتمعة أهمها ذلك الوقار والشعور بالعظمة الملكية، وتلك الجاذبية الفتانة والابتسامة النادرة الخفية، وهذا الهدوء، والجلال، وما إلى ذلك من براعة الفن التي تحف بهذه التحفة الفنية وتتجلى منها؛ فتكسبها سموا على سائر الآثار الفنية التي ترجع إلى عصر اخناتون. ذلك فضلا عن أن المثال قد أصاب أبعد حدود التوفيق في إتقان الأنف الدقيق والفم والأذنين، وفي التباين بين حجم التاج الضخم ودقة العنق واستطالته، وفي حسن اختيار الالوان الطبيعية الجميلة.

ولا يفوتنا أن نذكر ما كان لنفرتيتي من شأن خطير في التاريخ المصري، فإن زوجها أمينوفيس الرابع ثار على عبادة الإله آمون واتخذ لنفسه ولشعبه إلهاً جديداً هو «أتون» أو قرص الشمس، وغير اسمه إلى «اخناتون»، وجعل نفسه رئيس هذا الدين الجديد وزعيم كهنته، واتخذ لنفسه عاصمة جديدة، مكانها اليوم «تل العمارنة» وكانت الملكة نفرتيتي تساعده في مهمته هذه، بل إنها كانت أكثر تحمساً منه للدين الجديد، فقد دلت البحوث العلمية على أن اخناتون أراد في نهاية حكمه أن يرجع إلى عبادة آمون — ولعل ذلك كان تلبية لرغبة والدته الملكة «تي» — فأغضب هذا التحول نفرتيتي، فانفصلت عن زوجها وسكنت قصراً في أقصى الشمال من «تل العمارنة» وسمته «قصر أتون»

وكان لاخناتون ونفرتيتي بنات، تزوجت إحداهن «توت عنخ أتون»، ولما مات أخناتون وزوج ابنته الكبرى، نادت نفرتيتي وأنصارها بتوت عنخ أتون ملكا على مصر، وظل الاخير نحو ثلاث سنين في تل العمارنة مخلصاً لديانة «أتون»، ثم قرر الرجوع إلى طيبة وإلى عبادة آمون، فظلت نفرتيتي وحدها في تل العمارنة. ولعلها الملكة المصرية التي كتبت إلى ملك الحيثيين تطلب إليه أن يبعث إليها بأحد أبنائه ليكون زوجاً لها بعد أن مات زوجها الملك المصري. وأجابها ملك الحيثيين إلى طلبها فأرسل إليها أحد أبنائه. ولكنه قتل على يد «حرمحب» مؤسس الأسرة التاسعة عشرة

زكي محمد حسن

صور من التاريخ الإسلامي :

زياد بن أبي سفيان

للأستاذ عبد الحميد العبادي

١

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسة ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك علماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار

***

ولد زياد بالطائف في السنة الأولى للهجرة من أب قرشي هو أبو سفيان على المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كلدة المعروف طبيب العرب . وتعلم في كتاب من كتاتيب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فنشأ قارئاً كاتباً حاسباً . ثم اعتنق الإسلام في أغلب الظن عند ما أسلمت ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن غزوان إلى الأبلة وجنوبي العراق ليكون ردءاً لسعد بن أبي وقاص ، كان الفتى زياد فيمن انتدب للخروج معه ، وكان هو الذي يقسم لهم الغنائم ، وأجروا عليه كل يوم درهمين .

ثم ولى لسعد ديوانه فكان هو الذي يكتب الناس ويدونهم . فلما فتحت جلولاء سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمر وبعث بالحساب مع زياد وكلفه استئذان الخليفة في الانسياح في أرض فارس . فلما قدم الوفد المدينة كلم زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذكاء الفتى الناشئ وفصاحة لسانه ، وقوة جنانه ، وأحب أن يستزيد من اختباره فسأله : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟ فأجاب الفتى : والله ما على وجه الأرض رجل أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ فلما كان الغد قام في الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في بلاد فارس ، فازداد عمر إعجابا به وقال : هذا الخطيب المصقع . ولم يكن الإعجاب قاصراً على عمر ، بل لقد أعجب بزياد من سمعه يومئذ من أكابر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : لو كان هذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه ! فيقال إن أبا سفيان همس في أذنه بقوله إنه هو أبوه الذي ولده حقا . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مصرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها زياد فيمن نزلها من ثقيف واتخذها مقرا مدى حياته بوجه عام . ولما ولى عمر المغيرة بن شعبة على البصرة سنة ١٦ هـ ورمى المغيرة بما رمى به ، وهم عمر برجمه ، لم ينجه من الهلاك إلا شهادة شهدها زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة سبباً في درء الحد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته ، وانعقدت بينهما من ذلك الوقت أواصر المودة والصداقة

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبي موسى الأشعري سنة ٢٣ ، كان مما احتجوا به عليه عند عمر أنه فوض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد فتى حدث ، ليست له سن ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد أبو موسى عليهم بقوله : إني وجدت له نبلا ورأيا ، فأسندت إليه عملي . وقد قبل عمر قول أبي موسى متأثراً لا شك بالصورة التي كانت

زياد فى ذهنه ، ولكنه أحب أن يتحقق بنفسه إلام صار أمر ذلك الشاب فى مدى سبع سنوات ، فأمر أبا موسى أن يشخص إليه زياداً . وقدم زياد على عمر قدمته الثانية وقام بباب عمر . فلما خرج عمر وجد شاباً حسن الهيئة ، له ذؤابة ، وعليه ثياب بيض من كتان ، فابتدره بقوله : ما هذه الثياب ؟ فأخبره زياد . فقال : كم ثمنها ؟ فأخبره زياد بشيء يسير ، وصدقه عمر . ثم قال له : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال ما صنعت فى أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتى فأعتقتها ، واشتريت بالثانى ربيبى عبيداً فأعتقته . قال الخليفة : وفقت ! ثم اختبر عمر قدرته على الكتابة فأمره أن يكتب فى معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة ، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر ، ثم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيهاً ، فرده إلى البصرة وأمر أمراءها أن يسيروا برأيه . وكذلك لم تخب فراسة عمر فى ذلك الشاب منذ رآه عند قدومه عليه لسبع سنوات خلت بأخماس جلولاء ، ولم تزده الأيام إلا ثقة به واطمئناناً إليه ، كما أن هاتين القدمتين غرست لذلك الخليفة فى قلب زياد إكبارا ومحبة جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذى يتأثره ويقتدى به .

ولما شخص عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل عثمان إلى خراسان غازيا سنة ٣١ هـ استخلف على البصرة زياداً فقام بأمرها فى غيبته خير قيام على صعوبة حكم ذلك المصر فى تلك الأيام .

فلما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التى انتهت بمقتل عثمان ، واستخلف على بن أبى طالب ، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشة وطلحة والزبير ، لم يحرك زياد فى تلك الفتن ساكناً ، ولم يخض فيها مع الخائضين ، ولا ألقى فى نارها حطباً ، بل اعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستخفياً فى بعض دور البصرة ينتظر ما تنجلى الأمور . ولم يكن أمر زياد خافياً على علىّ ، فإنه بعد أن ظفر بخصومه فى وقعة الجمل سنة ٣٦ وجاءه عبد الرحمن بن أبى بكرة ، وهو ابن أخى زياد لأمه ، مستأمناً مبايعاً ، قال له على : وأين عمك المتربص المتقاعد بى ؟ . فقال : والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد ، وإنه على مسرتك لحريص ، ولكن بلغنى أنه يشتكى ، أفأعلم لك علمه ثم آتيك ؟ وكتم علياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه . فقال على : إمش أمامى فاهدنى إليه ! ففعل . فلما دخل عليه قال : تقاعدت عنى وتربصت ! ووضع يده على صدره وقال : هذا وجع بين ! ! فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره . ثم استشاره على وأراده على إمرة البصرة ، فامتنع زياد من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس . . . وسأكفيكه وأشير عليه . واتفقا على عبد الله بن عباس . إلا أن علياً ولى زياداً خراج البصرة وبيت مالها ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال على إخلاصاً له ، وقد لبث على إخلاصه وولائه له إلى أن انتهت حياة على نفسه . ويتضح هذا الإخلاص فى حادثين وقعا فى ذلك الوقت فى أهم النواحى التابعة لعلى ، فى البصرة وفارس ، وهما يبينان مقدرة زياد ودهاءه وسعة حيلته . أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبى بكر بمصر سنة ٣٩ هـ واضطرب الأمر على علىّ خرج إليه بالكوفة عبد الله ابن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة . ودهم زياداً غداة رحيل ابن عباس أمر عظيم ، فإن معاوية أنفذ إلى البصرة عبد الله بن الحضرمى ناعياً مقتل عثمان ومحركا لأهل البصرة على علىّ . ونظر زياد فوجد نفسه فى قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده . فأعمل الرأى والحيلة . ولما كان ابن الحضرمى قد نزل فى بنى تميم فإن زياداً أسرع

فنزل ومعه الأموال فى قبيلة الأزد العادية هى وحليفتها بكر بن وائل لتميم . وكان لنزوله فى الأزد معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزد بالذود عنه كائناً ما كان الأمر . وكتب زياد إلى على يخبره بالحال ويستمده . فصوب على رأيه وأنفذ إليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدى التميمى . وقد استطاع جارية أن يرد قومه من متابعة ابن الحضرمى ثم سار إلى ابن الحضرمى فقضى عليه وعلى أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال

أما الحادث الآخر فخلاصته أنه عند ما اضطرب الأمر على على طمع الفرس فى استعادة استقلالهم ، فمنعوا الخراج واضطرمت فارس ناراً . فأشار ابن عباس على على أن يولى زياداً على فارس وكرمان ففعل . قال الطبرى : « ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة فقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس ، فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً . وفعل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار فى كورها ومناهم فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فنزلها وحصن قلعة بها ... فكانت تسمى قلعة زياد ، فحمل إليها الأموال سنة ٤٠ هـ » .

ولقد أثنى عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى .

والظاهر أن زياداً لم يحصن قلعة اصطخر ويحمل إليها الأموال لمجرد التحصن فيها من العجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرى فوق ذلك إلى غرض آخر . لقد رأى بثاقب ذهنه وبعيد نظره أن الصراع المنيف الناشب بين على ومعاوية آيته لا محالة بغلبة معاوية ، ورأى فى الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً فى إحفاظ معاوية بأخذه جانب على ، هذا إلى مضاضة كان يحسها فى قرارة نفسه تجعله لا يسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن فى مكانه الحريز وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض معاوية وهو فى حصنه ويساومه مساومة الند للند ولا ينزل إليه إلا على شروط يمليها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يخطر له ببال ، فنى عام ٤٠ قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأصبح زياد ومعاوية فى حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا نجد رجلين متعاديين عداء غريباً . كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فسافة الخلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاء ، وأوسعهما حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادئ بفتح باب المفاوضة والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل على إلى زياد يتهدده ويتوعده ، ويعرض فى الوقت نفسه بولادة أبى سفيان له . فلم يسع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه ، فقام فى الناس خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب ! كتب إلى يتهددنى وبينى وبينه ابنا عم رسول الله فى تسعين ألفاً واضعى سيوفهم على عواتقهم لا ينثنون ، لئن خلص إلى الأمر ليجدنى أحمر ضراباً بالسيف ! . وكذلك أعرض زياد ونأى بجانبه ، معللاً نفسه بأنه لا تزال بينه وبين معاوية الحسن بن على وعبد الله ابن عباس . وأتبع وعيده بأن انتقل إلى القلعة ومعه الأموال وامتنع بها ، وذلك سنة ٤١ هـ

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية ، وقدم معاوية الكوفة ليتلقى أمر العراق والشرق جميعاً ، وخلا ما بين

زياد ومعاوية مرة أخرى . وعاد معاوية يجاذب زياداً الحبل ولكن فى غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما فى ذمته من مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك فى أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه . ولكن زياداً أصم سمعه عن تلك الدعوة الخلابة . فلم يسع معاوية عند ذلك إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بسر بن أبى أرطاة عامله على البصرة بأخذ الأكابر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبة ، عامله على الكوفة ، بالشخوص إلى البصرة واستصفاء أموال زياد التى كانت فى يد عبد الرحمن بن أبى بكرة ، وتعذيب عبد الرحمن إن امتنع من أدائها . ولكن زياداً لم تلن قناته إزاء هذا الجد من معاوية فى أمره . وهم بسر بأن يقتل أبناء زياد فعلا لولا أن تدخل فى الأمر أخوه لأمه أبو بكرة ، على ما بينه وبين زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التى شهدها زياد فى حادث المغيرة . فقد شفع فى أبناء زياد لدى معاوية فشفعه فيهم ، وكتب إلى بسر بأن يخلى سبيلهم .

واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعاً . وبينا الحال كذلك إذا برجل يثق به معاوية ولزياد عنده يد مشكورة ، ومنة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل بطبيعة الحال هو المغيرة بن شعبة . قالوا إنه دخل يوماً على معاوية وهو بالكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه المنتصح
فإذا بحت بسر فإلى ناصح يكتمه أو لا تبح

فقال : يا أمير المؤمنين : إن تستودعنى تستودع ناصحاً شفيقاً ، وورعاً وثيقاً ، فما ذاك ؟ . قال : قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها ، فلم أنم ليلتى فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال : ما زياد هناك ؟ فقال معاوية : داهية العرب ، معه الأموال ، متحصن بقلاع فارس ، يدبر ويربص الحيل . ما يؤمنى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعادها على الحرب جذعة ؟ قال المغيرة : أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى إتيانه ؟ . قال : نعم ! فأته وتلطف له ! . فأتى المغيرة زياداً وأعلمه بنزول الحسن عن الأمر ، وأن الأولى له أن يصل حبله بحبل معاوية . وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم ، وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية .

قدم زياد على معاوية بدمشق فى سنة ٤٣ ، ورفع إليه حساب فارس ، فأحسن معاوية لقاءه وصدق كل ما قال ، ثم أنزله الكوفة كما طلب . إلا أنه لم يركن إليه كل الركون ، فقد كتب إلى المغيرة يأمره بأخذ زياد ورءوس أصحاب على بالكوفة بحجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق بحضور صلاة الجماعة ، فكانوا يصلونها معه .

بيد أن معاوية كان أدهى من أن يقف فى أمر زياد عند هذا الحد . لقد أراد أن يستخلصه ويجتذبه إلى جانبه جملة ، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفايته ومواهبه العظيمة ، ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا محا من نفس زياد ما كان يحس من الضاضة ، بأن يعلن على رءوس الأشهاد صحة ما كان يتهامس به الناس من نسبة زياد إلى أبى سفيان . وتفصيل ذلك أن زيادا كان حتى ذلك الوقت لا يعرف له أب على التعيين ، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد ، وهو عبد رومى كان للحارث بن كلدة ، وبعضهم ينسبه إلى أبى سفيان ، وبعضهم ينسبه إلى أمه فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أبيه أيا كان ذلك الأب . إلا أن ذلك الغموض فى النسب لم يلحق زيادا منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسمى المراتب كما رأينا ، وهذا مما يدل على سماحة الرأى العام ونبله فى ذلك الزمان . فما كان من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبى سفيان الذى سبقت الإشارة إليه ، وبشهادة شهود شهدوا ببنوة زياد لأبى سفيان ، وأعلن فى الآفاق أن زياداً أخوه لأبيه .

ولقد أكبر معاوية بعمله هذا دهشة الرأى العام ، وامتعاض بنى أمية ، وسخط بعض رجال الفقه والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقد نظروا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذى قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد فى هذه المسألة التى وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبى سفيان ، حكم الاسلام بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم فى الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم وعدها سفاحا . فكان لمعاوية فى الأمر نظر أوسع من نظرهم وتقدير أبلغ من تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسى يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام يقضى باصطناع تلك الشخصية الفذة والانتفاع بها فى إدارة الدولة .

ولقد كان معاوية مرتاح الفكر والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشت المقالة ، واشتد النكير عليه ، قام فى الناس فقال : أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية ، وأن الاسلام لم يزدنى إلا عزا ، وإنى لم أتكثر بزياد من قلة ، ولكن عرفت حقاً فوضعته موضعه . ألا إن يكن معاوية قد أظهر فى هذه المسألة شيئا ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر الخليفة المهدى العباسى الذى أمر فى سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان قريش وردهم إلى ثقيف ؟

(تتمة الموضوع فى العدد القادم)

عبد الحميد العبادى

الفن الحديث

تاريخه ونزعاته

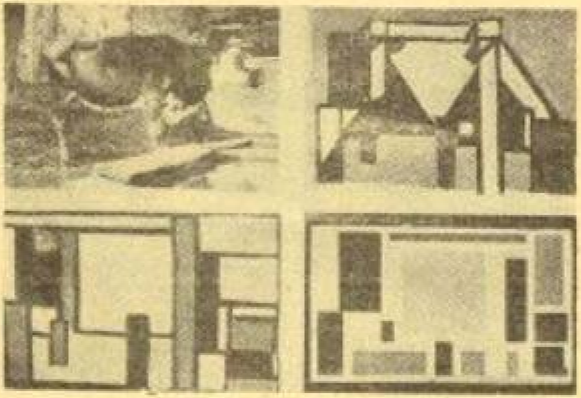
للأستاذ محمد يوسف همام

إن لفن كل عصر من العصور صفة تلازمه . فكان فن القرن الخامس عشر ميالا لمحاكاة الطبيعة ، واشتهر فن الفلمنك سكان أوربا الشمالية ببيان التفاصيل الظاهرية ، أما فن الفلورنسيين في إيطاليا ، فقد كان أبعد مدى من ذلك ، لأنه قام على أساس قواعد المنظور والتقصير والتشريح والحركة ، وما إليها

أما في أوائل القرن العشرين وما قبله بقليل ، فقد تحولت الرغبة كثيراً عن ذلك ، بعد أن وصل التصوير الطبيعي إلى قمته خلال القرون الخمسة الماضية ، فاقتضت جرأة بعض الفنانين ورغبتهم في الابتكار ، نبذ محاكاة الطبيعة والاقلاع عن تصوير مظاهرها تصويرا حرفيا ، وعمدوا إلى تجاربهم المختلفة في هذه السبيل ، فنشأت النزعات العديدة ، ثم انتهوا إلى ما سموه (Abstract Art) أي الفن التجريدي ، ولم يقتصر الأمر على التصوير ، بل تعداه إلى الحفر وعمل التماثيل . ولا يمكن للجماهير أن تقدر قيمة هذه الفنون الحديثة ، إلا إذا درستها من غير تحزب للطبيعة

ومن المفروض أن التصوير الطبيعي هو إنشاء يتكون من محاكاة الطبيعة في اللون والخطوط والضوء والظل ، والمفهوم أن المحاكاة لا تفقد تلك المظاهر ما لها من قيمة فنية ، ولكنها قد تشوه بعضاً من نقائها وصفائها . ولذلك يصر الفنان الحديث على أن ينصرف عن محاكاة الطبيعة ، ويعمد إلى ابتكاراته المجردة

وقد يؤدي هذا المنطق إلى ضعف في التصوير ، وحذف لكثير من المزايا ، ومن معالم التعرف على الموضوع ، والتمتع ببهجة القدرة الفنية على صنعة التكوين والإنشاء الطبيعي . ولكن الفنان التجريدي (Abstract) يفضل الفقر في هذه النواحي في فنه ، على تشويه المظهر المعنوي للطبيعة (شكل ١)



شكل ١ «تحوير معنوي لشكل بقرة — من عمل دوسبرج سنة ١٩١٨»

نزعة التأثريين Imdressionism :

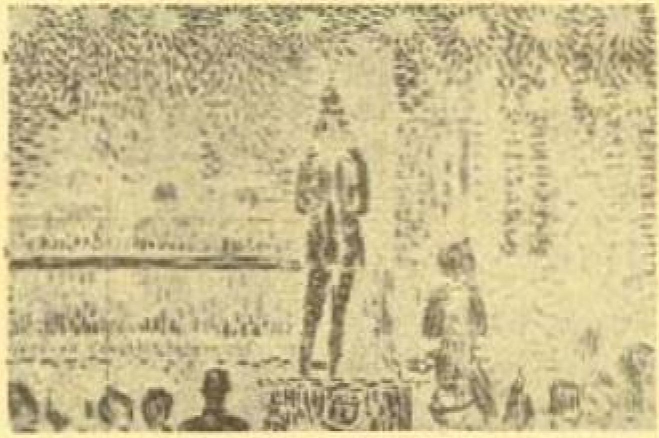
يتغير مظهر الأشياء بتغير سقوط الضوء عليها . فمظهر الشجرة في الصباح غيره بعد الظهر ، ثم غيره قرب



شكل ٢ «رصيف البناء — من تصوير سيرا سنة ١٨٨٣»

الغروب ، لأن لونها والضوء الموزع عليها ، والظلال التي تتخلل كتلها ، تختلف كل الاختلاف بين كل لحظة وأخرى ، فإذا صورنا تلك الشجرة مرة كل ساعة مثلا ، تتكون لدينا مجموعة صور ، لكل واحدة منها مظهرها الخاص . هذا هو الأساس الذي بنى عليه التأثريون طريقتهم

ثم عمدوا إلى أن تكون ألوانهم براقة تمثل ضوء الشمس ، ووضعوها على شكل بقع وشرط من ألوان مختلفة فكان للتباين البادي بينها أثر في إكساب الصورة بريقاً يشبه بريق الشمس ، وضوءاً يحاكي ضوءها . وهكذا تقدم بعض الفنانين الفرنسيين للجمهور سنة ١٨٦٣ ، فأقاموا معرضاً كانت له ضجته ، لأن صوره خالفت ما ألفه الناس في فن التصوير . (انظر الأشكال ٢ و ٣ و ٤)



شكل ٣ « في المعرض — عمل سيرا »

ولما كثرت معروضات التأثريين بدأ الناس يألفونها . وكان مونيه الفرنسي أحد زعماء هذه الحركة ، يخرج في عربة ومعه الكثير من اللوحات المعدة للرسم عليها . فيقضي اليوم بطوله يصور الشكل الواحد عدة مرات ، كل مرة في لوحة على حسب تحول الضوء .

وسئل مانيه ، وهو فنان فرنسي آخر من أتباع النزعة ، عن أهم شخص في صورة رسمها ، فكان جوابه التاريخي المشهور : « إن أهم شخص في أي صورة هو الضوء »

ونشأ سيزان الفرنسي ، وهو زعيم ثالث ، متشبعاً بهذه الطريقة ، ولكنه بعد مدة أراد أن يحول الفن التأثري إلى فن أكثر رسوخاً مما كان ، ليصبح له مركز خالد كما للفن القديم ، فنحا به نحواً جديداً ، وجاهد طويلاً حتى ترك تراثاً عظيماً ، لم يقدره له العالم إلا بعد وفاته

وكان له ولأتباعه هذه الطريقة الجديدة المحورة عن التأثريين سموها « مابعد التأثريين »

والطابع الذي يميز هذه النزعة هو الرغبة في التوفيق بين الفن التأثري الحديث ، وبين الفن الكلاسيكي القديم ، باتخاذ طريق متوسط بين رغبة المغالاة في تصوير الضوء وأثره ، التي هي أساس نزعة التأثريين ، وبين التشبث بالمحاكاة الحرفية لعناصر الطبيعة ووحدتها ، التي هو الطابع التقليدي للفن القديم . ويتضح ذلك جلياً في صورة



شكل ٤ « بهجة الحياة — عمل ماتيس »

« اللاعبين بالورق » لسيزان التي لم يعد الضوء « أهم شخص



شكل ٥ « اللاعبون بالورق — تصوير سيزان »

فيها » كما قال مانيه ، ولو أنه متقن ووافٍ ، كما أن التعبير عن عنصر الطبيعة في بيان الأبعاد والمساحات والمظهر العام للموضوع متوفر وجلي ، رغماً عن البساطة التامة التي انتهجها سيزان في طريقة تصويره الجديدة التي وضح لنا بها قطعة فذة من الحياة فأبدع الإيضاح



شكل ٦ « صورة فان جوك لنفسه »

وقد نحا كل من جوجان الفرنسي وفان جوك الهولندي هذا النحو الجديد في الرسمين المصورين في شكلي ٦ و ٧ . وثلاثتهم في الظهار ذخيرة فنية عظيمة :



شكل ٧ — « تاهتي » تصوير جوجان

محمد يوسف همام

مقتطفات

ماذا كانوا منذ عشرين سنة ؟

هتلر — موسوليني — فرانكو — مصطفى كمال — أنتوني ايدن — روزفلت — وليم موريس الأديب وغيرهم

منذ عشرين سنة وضعت الحرب أوزارها ، وما كان أحد يحلم بذلك يومئذ ...

فى ذلك الحين ترك المستر نيفل تشمبرلن وزارة « العمل الأهلى » التى ظل يتولاها طوال سنوات الحرب وذهب ليستريح فى جناحه الخاص فى فندق أرمين

وكان « الجاويش » أدولف هتلر مريضاً فى أحد المستشفيات القريبة من برلين يعانى آلام إصابة بغاز الخردل ، أصابته وهو يحارب فى صفوف الفيلق السادس عشر الاحتياطى من فيالق المشاة الألمان

وكان بنيتو موسولينى وشيك الخروج من أحد المستشفيات الإيطالية ، يجاهد لكسب قوته بالتحرير فى إحدى صحف المعارضة ، تفيض نفسه ألماً لمصير بلاده ، وحقداً على القائمين بالأمر فيها

وكان الضابط « هور بليشا » يطوف فى بعض نواحى الشرق القريب فى زى ضباط « فرقة الجواسيس الإنجليز » ذوى الشارات الخضراء

وكان فرانكلين روزفلت معروفاً لأصدقاء الرئيس ولسون بالنشاط والذكاء والإخلاص فى خدمة رئيسه ، وقد ذاع صيته بعض الشىء على أثر توفيقه فى عمله بقسم الدعاية الملحق بالأسطول الأمريكى الراسى فى المياه الأوربية .

وكان « المشير » مصطفى كمال فى طريقه إلى مركز قيادته الجديد فى فلسطين ، بعد خلاف حاد قام بينه وبين القائد العام الألمانى بشأن الخطة التى تتبع لإيقاف تقدم المارشال اللنبى

وكان الضابط النشيط فرانسسكو فرانكو يحارب قرب أوفيدو فى صفوف فيلق المشاة الثالث الأسبانى ، وكان جنوده يشكون سوء معاملته لهم

وكان الكابتن أنتونى ايدن يقود الفرقة العشرين من فرق « الرماة الملكية الإنجليزية » فى أشد مراكز الجيش الإنجليزى المحارب فى فرنسا خطراً

وكان ألبرت أينشتين يبحث ويعمل فى معمله للوصول إلى قوانين النسبية التى كانت سبباً فى ذيوع صيته فيما بعد ، وكانت الحكومة الألمانية الامبراطورية ، لا تفتأ تواليه بالمال والتشجيع لمواصلة أبحاثه على رغم ما كانت تعانيه من الضائقات فى أواخر الحرب وفى أعقابها

وكان المستر وليام موريس — صاحب السيارة المعروفة باسمه — يجاهد بيديه كعامل بسيط فقير فى أحد مصانع الذخيرة بمدينة كاولى ، وكان أمله العريض فى إمكان صنع سيارة رخيصة أملا وحلماً

وكانت جامعة أكسفورد شبه خالية من طلبتها وأساتذتها ، لا يعمر قاعات الدرس فيها إلا فريق قليل من الطلبة يلاحظ الرائى بينهم الطالب المدس هكسلى .

فرج من حرج !

قرأ أحد النواب الفرنسيين ذات صباح مقالا عنيفاً يهاجمه فيه الكاتب هجوماً بلغ حد الاهانة ، فبلغ به الغضب مبلغاً عظيماً ، وأسرع إلى صديق له يسأله عن السبيل الذى يستطيع به أن يرد هذه الاهانة : أيدعو

الصحفى إلى مبارزة ؟ أيقاضيه ؟ أم يطلب منه أن يعتذر رسميا ؟

ولكن صديقه كان رجلا عاقلا جدا ، إذ ابتسم وقال : « لا عليك ياصاحبي من هذا كله ، فإن نصف قراء الصحيفة لم يلاحظوا هذا المقال ، ونصف الذين لاحظوه لم يقرأوه ، ونصف الذين قرأوه لم يفهموه ، ونصف الذين فهموه لم يصدقوه ، ونصف الذين صدقوه لا أهمية لهم ...

« فماذا يبقى بعد ذلك ؟ »

رأى جديد فى نابليون

سمع قيصر الروسيا الأخير بأن هناك فلاحاً يعيش فى أحد أطراف الامبراطورية ، ويزعم أنه رأى نابليون فى أثناء حملته الروسية ، فأمر بإحضار الرجل بين يديه وبذل فى ذلك مالا طائلا

فلما مثل الرجل فى محضر القيصر تهافت الكبراء والعظماء ليسمعوا حديث هـذا الفلاح عن أعظم حادث فى تاريخ الروسيا الحديث

وبدأ أحدهم فسأله : « هل رأيت نابليون ؟ »

فأجاب الرجل : « أجل . لقد مر بجيشه بقريتى »

فسأله : « فحدثنا إذن كيف رأيته ؟ »

فاعتدل الرجل فى مكانه وأنشأ يقول :

« لقد كان رجلا طويلا جداً . . ذا لحية بيضاء تتدلى على صدره ... » !

عزاء بلزاك

كان بلزاك (القصصى الفرنسى) يعيش فى أثناء شبابه فى غرفة خاوية على عروشها ، لا أثاث فيها ولا مدفأة ، ولا يزين جدارها رسم ، ولا يغطى أرضها غطاء ، وكان البرد يؤذيه وقلة الأثاث تجهده ... ولكنه استعاض عن ذلك بشيء لا يرضى به إلا أديب . لقد كتب على أحد الجدران : « مرآة مذهبة من البندقية » وبجانب ذلك « دولاب من الخشب المشغول العظيم » ، وعلى الجدار الآخر « مدفأة عظيمة مشتعلة دائماً » ، وكتب فوق ذلك « ساعة عظيمة ذات أعمدة من البرونز » ، وكتب على الجدار الذى وضع سريره إلى جانبه « صورة بريشة رافائيل ... » .

وبهذا أثث غرفته كلاماً !

قوة الإيحاء

رأى الجراح الانجليزى المعروف بروس بورتر فتاة هزيلة مهدمة القوى تقرأ قصة مسلسلة تنشرها إحدى المجلات ، بطلتها فتاة هزيلة مسكينة تتابعت عليها الأحداث والنوازل ، فأسرع من تلقاء نفسه وقابل مؤلف القصة وسأله عن مصير بطلته ، فأجابه بأن مصيرها الموت ، فسأله أن يعدل عن هـذا الرأى وأن يغير ختام القصة ، فوافق المؤلف وأنجى البطلة من الموت .. فلم تلبث القارئة المريضة أن شفيت !

أسعار التصفيق

تستأجر المسارح الفرنسية رجالا يصفقون فى المسرح لكبار المخرجين والممثلين ، وتتقدم على ذلك أجوراً مختلفة . وإليك بيان القيم التى حددها مسرح مشهور فى باريس لطوائف المصفقين والهاتفين :

التصفيق عند دخول سيد عظيم	٢٥ فرنكا
التصفيق عند دخول سيدة	١٥ «
التصفيق العادى أثناء التمثيل	١٠ فرنكات
التصفيق المستمر	١٨ فرنكا
طلبات الإعادة والهتاف	٥٠ فرنكا

وبهذا يكون التصفيق صناعة رائجة لا بأس بها !

العناصر النادرة فى الهواء

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

إن هذا الغلاف الهوائى المحيط بالأرض يموج بالأسرار، رغم كل ما عرف الإنسان عنه إلى الآن . وإذا كان اكتناه هذه الأسرار من شأن العلم ، فإن من شأن الثقافة الإلمام بما قد انكشف للعلم بالفعل ، مما كان سراً بالأمس وأصبح اليوم واقعاً معروفاً ينتفع أو يعتبر به الإنسان

والإنسان لم يعرف جوهر تركيب الهواء إلا فى القرن الثامن عشر على أيدى رجال مثل شيله Scheele ، وبريستلى Priestley ، ورذرفورد Rutherford ، وكافنديش Cavendish . ومكث الناس بعدهم أكثر من قرن يعتقدون أن الهواء بعد تخليصه من قليل ثانى أكسيد الكربون الذى فيه وتجفيفه لا يتركب إلا من الغازين اللذين سماهما لافوازييه Lavoisier بالأكسيجين والأزوت ، بنسبة الخمس فى الحجم من الأول ، والأربعة الأخماس من الثانى ، أو بنسبة ٢١٪ و٧٩٪ لمن يريد أن يكون أقرب إلى التحقيق

لكن كافنديش كان أقرب العلماء جميعاً إلى الكشف عن أن الهواء الجاف المنقى يحوى غازاً آخر غير الأزوت والأكسيجين

فقد شاهد أنه إذا مزج مقداراً من الهواء بما يكفى من الأكسيجين ليتحد بجميع الأزوت بواسطة الشرر الكهربائى ، ثم تخلص من ناتج التفاعل ، وتخلص كذلك من الأكسيجين الزائد ، بقيت عنده فقاعة استعصت عليه فلم يستطع التخلص منها بوجه من الوجوه

وقد وصف كافنديش تجربته هذه للجمعية الملكية البريطانية سنة ١٧٨٥ ، ونوه بفقاعة الغاز التى تخلفت من الهواء ، وعجز الشرر الكهربائى أن يجعلها تتحد بالأكسيجين . لكن هذه النقطة من تجربة كافنديش مرت لم يأبه بها أحد ، ومرت فقاعة الغاز لم ينتبه أحد إلى أنها لا يمكن أن تكون من الأزوت ما دامت لم تتكيف تكيفه ولم تتحد بالأكسيجين كما اتحد . أما كافنديش فإنه بعد أن أدى حق الأمانة العلمية بذكر الفقاعة التى استعصت عليه ، لم يتتبع الموضوع وراء هذا . فكان كمن أداه المطاف إلى باب وراءه سر عظيم فوقف عند الباب ولم يستفتح . وله العذر فإن استفتاح باب سر تلك الفقاعة كان يقتضى أولا تحضير أمثالها ، وتحضيرها وحدها استنفد من كافنديش ومساعده ثلاثة أسابيع ، كانا يتناوبان فيها إدارة الآلة الاحتكاكية لتوليد الشرر الكهربائى اللازم لتجربته . ولو لم تقعده هذه الصعوبة عن متابعة الموضوع لما استطاع أن يستنتج أكثر من أن الأزوت الجوى ليس أزوتاً صرفاً ، وأن الهواء يحوى بجانب الأكسيجين والأزوت قليلا من غاز آخر يخالفهما فى الخواص . أما ماهية هذا الغاز فلم يكن الأوان قد آن للكشف عنها ، فإن الوسائل العلمية اللازمة للوصول إلى سر فقاعة كافنديش لم تتيسر للعلم إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

مر على تجربة كافنديش أكثر من قرن نسيها العلماء فيه ، حتى جاء اللورد ريلى أستاذ الفلسفة الفطرية فى المعهد الملكى بلندن وقام ببحوثه فى كثافة العناصر الغازية ، والأزوت من بينها ، فوجد اختلافاً بسيطاً بين كثافة الأزوت الجوى والأزوت المحضر من المواد الكيماوية لم يمكنه تفسيره : وجد أن وزن اللتر من الأزوت الجوى ١٫٢٥٧١ من الجرام ومن الأزوت الكيماوى ١٫٢٥٠٧ من الجرام ، أى أنه وجد الأزوت الجوى أثقل من الأزوت

الكيمياوي بنسبة ١٫٠٠٥١ : ١ وهو فرق ضئيل تمر به أكثرنا غير ناظر إليه يحسبه فرق خطأ في التجربة .
ولكن لا كذلك حسب ريلي ، فإنه كان يعلم أن تقديره صحيح إلى الرقم الرابع العشري ، فالخلاف في الرقم العشري الثالث لا يمكن أن يكون إلا خلافاً حقيقياً يحتاج إلى تفسير

وكان التفسير الذي خطر للورد ريلي هو أن الأزوت له صورتان إحداهما أكثف من الأخرى : فالصورة الأخف هي الأزوت الكيمياوي العادي المعروف أن جزيئه يحتوي ذرتين ، والصورة الأخرى الأكثف فرض أن جزيئها يحتوي أكثر من ذرتين وأنها توجد في الأزوت الجوي . هكذا ظن ريلي ، لكنه أراد أن يشرك العالم الكيمياوي معه في الرأي ، فنشر في سنة ١٨٩٣ خطاباً في مجلة الفطرة (Nature) يستفتي به الكيمياويين في ذلك الخلاف الذي وجده بين الكثافتين

واستجاب له من بين الكيمياويين الأستاذ وليم رمزي أستاذ الكيمياء في جامعة لندن — وقد نال لقب سير بعد ذلك — فرأى أن الفرق بين الكثافتين راجع إلى وجود عنصر جديد في الأزوت الجوي كثافته أكبر من كثافة الأزوت

وفضل العلم على غيره من ألوان الفلسفة أن الرأي فيه يمكن تمحيصه بالرجوع إلى التجربة . هنالك ذكر هذان العالمان تجربة كافنديش ، وعجبا حين وجدا أن تلك التجربة هي كل ما في تاريخ العلم من دليل على تجانس الأزوت الجوي ، رغم ما فيها مما يشير إلى عدم تجانسه . عندئذ اتفق العالمان على أن يمحصا رأيهما في الموضوع بتجارب يجريانها لتحضير ذلك الغاز الكثيف ، كل بطريقته التي يختارها ، ليمتحناه بعد ذلك ، على أن يخبر كل منهما صاحبه بما يقع له .

فأما اللورد ريلي فاختار أن يحضر الغاز بإجراء تجربة كافنديش بالوسائل الحديثة . وقد فعل ، وحصل على مقدار مذكور من الغاز ، وقدر كثافته فوجد النسبة بينها وبين كثافة الأزوت النقي كنسبة ١٫٠٤٢ : ١ تقريباً

وأما الأستاذ رمزي فكان قد لاحظ في إحدى تجارب محاضراته أمام فصله أن المغنزيوم إذا احترق في حيز محدود من الهواء ، لم يقتصر اتحاده على الأكسجين ولكنه يشمل الأزوت أيضاً . فقر رأيه على الانتفاع بهذه الخاصة في تحضير الغاز الجديد من الأزوت الجوي ، وذلك بإمراره مقداراً محدوداً من الأزوت الجوي مرات كثيرة على المغنزيوم المحمى . وقد فعل ، فوجد بعد سبعة أيام أن حجم الأزوت نقص فصار نحواً من $\frac{1}{20}$ من الحجم الأصلي ، وأن كثافته النسبية — أي بالنسبة إلى كثافة الإيدروجين المتخذة وحدة — ارتفعت إلى ١٦٫١ في حين أن الكثافة النسبية للأزوت هي ١٤ ، فلم يبق عنده شك في أن الأزوت الجوي به غاز أكثف من الأزوت النقي . واستمر في إمرار الغاز بعد أن جدد المغنزيوم فنزل الحجم فصار نحو $\frac{1}{80}$ من حجمه الأصلي ، وارتفعت الكثافة النسبية إلى ١٩٫٩٤ في عشرة أيام ثم ثبتت على ذلك

لم يبق عند ريلي ورمزي شك في أنهما قد كشفا في الهواء عن غاز جديد ، فأعلنا كشفهما المجمع العلمي البريطاني المنعقد في أكسفورد في أغسطس سنة ١٨٩٤ . لكن دعواهما لم تمر من غير نقد ، بل لقيت غير قليل من الاعتراض ، لأن الكيمياويين من ناحية وجدوا من البعيد أن يكون في الهواء غاز يبلغ نحو ١٪ منه ثم لا يعثر عليه أحد في أكثر من قرن مر على اكتشاف تركيب الهواء ، ولأن العالمين الكبيرين من ناحية أخرى أسرعا في إعلان كشفهما قبل أن يبحثا خواص الغاز . وكان من أثر ذلك أن عادا إلى استئناف بحثهما بمقادير كبيرة من الغاز تمكنهما من بحث

خواصه بحثاً يقطع السبيل على كل شك معقول . فاستطاع ريلى أن يحضر نحو لترين منه بنفس طريقته الأولى ، ولكن بجهاز أوسع يتسع لنحو خمسين لتراً من الهواء . واستطاع رمزى أن يحضر بجهازه وطريقته مقداراً أقل من ذلك

وامتحنا خواص الغاز الذى سمياه بالأرجون ، وهى كلمة معناها « قليل الاتحاد » ، وذلك لعدم تفاعله مع الأكسيجين والمغنزيوم فى تلك الظروف . فأثبتا عن طريق تقدير سرعة الصوت فيه أن جزيئه مكون من ذرة واحدة فقط . وهى تجربة بسيطة ، والحساب المؤدى إلى تلك النتيجة منها أبسط ، لكن لا سبيل إلى شرحهما الآن . وإذا كان جزىء الأرجون مكوناً من ذرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون الأرجون مركباً ، وإذن فهو عنصر جديد كما ظن رمزى ، لا صورة جديدة للأزوت كما كان يظن ريلى

وامتحنا طيف الأرجون لينظرا أشبيه هو بطيف أحد العناصر المعروفة ؟ أم هو طيف جديد كما ينبغى أن يكون إذا كان الغاز عنصراً جديداً . فوجداه ذا طيف جديد فيه خطوط طيفية لا تنطبق على خطوط أى طيف آخر ، فجاء ذلك مؤيداً تمام التأييد لعنصرية الأرجون

وامتحناه من الناحية الكيمياوية فحاولا بكل سبيل أن يحملاه على الاتحاد بالمواد الفعالة كلها ، كالصديوم والبوتاسيوم والكلور والفلور ، فلم يفلحا فى حمله على الاتحاد بشىء . وكان حجم الأرجون فى كل تجربة يظل فى آخرها كما كان فى أولها لم ينقص منه شىء . وكان طيفه بعد كل تجربة هو عينه قبلها ، لم يلحقه أدنى تغيير . فأيقن العالمان أنهما منه أمام ظاهرة جديدة ، إذ لم يكن فى العناصر قبل الأرجون عنصر هامد عديم الفاعلية يأبى أن يتحد بشىء مطلقاً من العناصر الفعالة فى جميع الظروف

ولما استوفيا من بحثهما ما استوفيا أعلناه أمام الجمعية الملكية البريطانية فى يناير سنة ١٨٩٥ . وصار الأرجون بعد ذلك شغل جماعة من العلماء : فمنهم من شغل نفسه بتحسين طريقة تحضيره ، ليجعلها أسرع وأنجع ، وقد نجحوا فى ذلك . ومنهم من جعل يدرس من خواص الأرجون ما درس رمزى وريلى ، فكانت نتائجه فى صميمها كنتائجهما . ومنهم من جعل يدرس من خواصه الطبيعية ما لم يدرس رمزى وريلى . ومنهم من جعل يبحث عن نسبة الأرجون فى الهواء فى بلدان مختلفة أو على ارتفاعات مختلفة ، فلم يجدوا نسبته تختلف فى الهواء إلا قليلا . ومنهم من جعل يبحث عنه حيث يتفشى الهواء : فى ماء النهر وماء البحر وفى الأسماك وفى النبات وفى الدم ، فوجدوه فى كل ذلك . ومنهم من جعل يبحث عنه فى الأحجار المعدنية فوجدوه فى بعضها ، وفى المياه المعدنية فوجدوه فى كثير منها

وأخيراً لما اخترعت المصابيح الغازية الكهربائية ، واكتشف بعض مخترعيها أن وجود غاز غير فعال فى المصباح مما يزيد فى عمر السلك لأنه يعوق تبخره ، بل مما يزيد فى ضوء المصباح إذا كان السلك على شكل خاص ، لم يجدوا خيراً من الأرجون يتخذونه لهذه الغاية . فهو منذ عام ١٩١٤ يحضر بكثرة من الهواء ليستعمل فى بعض تلك المصابيح

وفى مارس من عام ١٨٩٥ ، أى بعد نحو شهرين من إعلان الأستاذين ريلى ورمزى بحثهما ، كتب الأستاذ رمزى إلى الجمعية الملكية البريطانية ينبئها أنه قد كشف عن غاز آخر جديد . وتتابعت كشوفه حتى بلغ ما اكتشفه من إخوة الأرجون فى الهواء أربعة غازات أندر منه اكتشفها فى بضع سنين .

محمد أحمد الغمراوى

الأمراض العصبية والعقلية

بحث سيكولوجي

للدكتور بنيامين بهمان
الطبيب بمستشفى الأمراض العقلية

الأمراض العصبية والاضطرابات العقلية تزداد انتشاراً في العالم أجمع زيادة تتمشى مع مدنية هذا العصر ، وتكون في المدن أكثر منها في الريف ، وفي البلاد الصناعية أكثر منها في البلاد الزراعيـة ، وما يلفت النظر في بلادنا أن زيادة انتشارها جاءت فجأة في السنوات الأخيرة ، وأنها تسير بسرعة كبيرة ، مما يتزعج له الكثيرون لأنهم لم يألفوا ذلك في الماضي ، ولم تكن البلاد تتوقع هذه الزيادة ، فلم تعد الوسائل اللازمة والضرورية لمجابهة هذه الحالة ومعالجة هذه الأمراض والوقاية منها ، كما فعلت الأمم الأخرى . ولذا تواجه البلاد مشكلة اجتماعية مزعجة ، وإني أعتقد أن في بلادنا ما يزيد عن ٥٠ ألف مريض بمرض عقلي ، بينما المستشفيات المعدة لهـا لا تسع أكثر من أربعة آلاف مريض فقط ، والمصابون بالأمراض العصبية والاضطرابات النفسية أكثر من هذا بكثير ، ولا يوجد لهم في البلاد كلها مستشفى واحد ، كما أن طرق الوقاية منها معدومة بتاتاً ، وهذا أمر من الخطورة بمكان عظيم !

قلت إن هذه الأمراض تزداد انتشاراً تبعاً لتقدم المدنية ، وذلك لأن المدنية الحديثة وحضارة هذا العصر تحمل الناس أعباء ثقيلة هي فوق طاقة الكثيرين ، كذلك نجد الأمور والانقلابات في هذه الأيام تسير وتتغير بسرعة شديدة ، لا تدع للناس الفرصة الكافية لأن يألفوها أو يروضوا أنفسهم عليها ، بينما في الأجيال السالفة كانت الأحوال تسير ببطء وعلى وتيرة واحدة ألفها الناس ، ورتبوا معيشتهم عليها ، والتقلبات كانت نادرة الحصول ، كما أنه كان لكل شعب تقاليد وفلسفة وتعاليم وأنظمة سياسية واجتماعية ثابتة نوعاً ما . وأما الآن فقد أصبح العالم مضطرباً غير مستقر على حال ، كثير التغيرات والتقلبات ، وأصبح الكفاح لأجل المعيشة عسيراً بينما طرق التعليم والتربية لم تتغير كثيراً . وإذا كانت تلك الطرق في الماضي متفقة ومناسبة للأحوال والأجيال السالفة ، فقد أصبحت غير ملائمة لهذا العصر ، لأنها لا تؤهل الشخص لمجابهة ما ينتظره من كفاح ومنافسة ، ولا تعده إعداداً يجعله قادراً على التمشي مع تقلبات الأحوال المستمرة بالسرعة المطلوبة

أقول هذا لأني أعرف جيداً أن الأمراض النفسية ناشئة عن خوف المريض من مواجهة الأمر الواقع والحقائق الراهنة . والتحليلات النفسانية تدلنا في كل حالة نحللها على أن خوف الشخص هذا يؤدي إلى محاولته الهروب تخلصاً من المأزق الذي يجد نفسه فيه ، عوضاً عن أن يجابهه ويقف أمامه وجهاً لوجه . ومحاولة الهروب هذه تتخذ صورة حالة مرضية ؛ فمثلا إذا أجبرت بنت على زواج رجل تكرهه ولأسباب لديها لا تقبله ، فإنها تواجه هذا الموقف بإحدى الطرق الآتيـة : إما أن تتحدى هذا الزواج وتقف أمامه معارضة وترفضه بشجاعة ، مهما كلفها ذلك ومهما كانت نتيجته ، أو أنها تجبن لأنها لا تأنس في نفسها المقدرة على مثل هذا الموقف ، وفي هذه الحالة قد يخلق عقلها مرضاً عصبياً يكون حائلا بينها وبين هذا الزواج تخلصاً من هذه الورطة . أو أنها تقبل ذلك الزواج متضررة وتغش نفسها على أمل أن تعتاد تدريجياً بعد الزواج على قبول من ترفضه الآن ، فإذا هي فشلت بعد الزواج في محاولتها ، وهذا ما يحدث غالباً ، فإنها تتعرض لأن تصاب بأمراض نفسية واضطرابات عصبية مختلفة ومتفاوتة الدرجات . فالطريقة الأولى هي طبعاً طريقة صحيحة سليمة العاقبة ، بينما الطريقتان

الأخيرتان تتضمنان هروب البنت من الأمر الواقع تخلصاً منه بدون أي تدبير متعمد ، وذلك عن طريق ما تسميه العقل الباطن أو اللاشعور . وإليكم حالة إيضاحية :

استشارني قريباً أحد الآباء في أمر ابنته التي تبلغ من العمر ١٩ سنة ، وهو رجل ذكي محترم ، لكنه محافظ بل رجعي — وإن كان قد علم ابنته تعليما حديثاً — أصيبت هذه البنت فجأة بنوبات دوار وإغماء شديد وقيء مستمر حال دون تغذيتها ، فاعتراها الضعف والهزال حتى أصبحت هيكل عظام لا تقوى على الوقوف بل ولا الجلوس في سريرها ، وفشلت محاولات كثير من الأطباء في علاجها . ولما فحصت تلك البائسة لاحظت على وجهها علامات القلق والاضطراب النفساني والرعب الشديد ، ولم أجد بأعضاء جسمها مرضاً يبرر حالتها ، فواجهت والدها بقولي : « إن ابنتك لا بد أن تكون قد خطبت حديثاً لرجل لا تميل إليه ، وهذا أمر توهمته ورجحته ، ولم أسمعه من المريضة » فلم يرتح الوالد لسؤالي ، ولعله اعتبره تدخلا مني فيما لا يعنيني وأجابني متضرراً بأن ابنته قد خطبت حقيقة لرجل مسن وله أولاد من سيدة أخرى ، إلا أنه رجل طيب القلب ذو جاه ، أما عن ميل ابنته لهذا الزواج فقد قرر أن هذا أمر لا يعنيها هي ، بل من خصائصه هو ، وأنه لذلك لم يستشرها فيه ، فنصحته بأن يقول لوالدة المريضة أن تهمس في أذنها بأن هذه الخطبة قد فسخت ، ولم يمض يوم واحد على ذلك حتى وقف القيء ، وابتدأت البنت تأكل وزالت نوبات الدوار والإغماء بغير احتياج إلى تعاطي أي دواء !

يتضح جلياً من هذه الحادثة كيف أن مظهر المرض النفسي اتخذ شكل مرض جسمي ، وكيف أنه كان وسيلة تحايل ابتدعها عقل البنت الباطن دون أن تشعر به أو تدركه ليخلصها من المأزق الذي فرض عليها فرضاً ، فالبنت حين عجزت عن أن تجابه الأمر الواقع والحقيقة الراهنة حل اللاشعور مشكلتها بالهروب إلى حالة مرضية ، أنالها ما تريد ، وهو عدم وقوع هذا الزواج ، ولكنها في سبيل ذلك دفعت ثمناً غالياً هو إصابتها بالمرض العصبي

وسنة الطبيعة واحدة لا تتغير فهي « كافح أو اهرب » وهي سنة تجري على الإنسان والحيوان على السواء . وليس من السهل شرح الطرق المتعددة التي يسلكها العقل في سبيل هروبه هذا ، فكثيراً ما تكون الطرق معقدة وملتوية ، ويكفي أن ألفت النظر وأنبه بقوة إلى أن السبب الأساسي في الأمراض العقلية والنفسية والعصبية هو عدم مقدرة المريض على تكييف نفسيته وفقاً لظروفه وأحواله الصعبة ، إما لصعوبة ظروفه أو لضعف في نفسيته ، ومن ثم خوفه من مجابهة مشاكله ، فيهرب منها تفادياً من الحرج

لنأخذ الآن نوعاً من الأمراض العقلية لنظهر اتباعها لنفس السنة ، وليكن ذلك النوع الذي يزداد انتشاراً عندنا في السنوات الأخيرة وهو « العته المبكر أو جنون الشباب » ، يكون المريض به عادة منذ طفولته هادئاً مؤدباً ، مطيعاً لوالديه مؤدياً لواجباته ، خجولا قليل الاختلاط بالغير ، ميالا للعزلة ملازماً لوالديه قلما يبارح المنزل ، لا ينقصه الذكاء ، بل ربما يكون متفوقاً على أقرانه في الدراسة ، ولذا تجده محبوباً من والديه أكثر من إخوته الأشقياء ، مفضلا عنهم ، يمدحونه ويدللونه ويعدونه مثالا للطيبة ، ومن طباعه التي تلاحظ عليه أحياناً أنه عنيد فإذا صمم على شيء ما تشبث بفكره ، واستحال تحويله عنه ، ويكون تصرف والديه الغالب مشجعاً له على التمادي في خطته (ولهم بعض العذر في ذلك لأنه عندهم مثال الطيبة) وذلك لجهلهم حقيقة حاله ، بل قد يصعب عليهم إدراكها وتصديقها حتى بعد أن تشرح لهم ، وذلك أن علامات الطيبة هذه التي يلاحظونها في ابنهم ويشجعونها فيه إن هي إلا علامات مرض عقلي فيه . فهدوؤه وميله للعزلة دليل على انسحابه من عالم الحقيقة

الذى يهابه ويخشى ما يقتضيه من كفاح ، وتجده فى سكونه وعزلته يبنى لنفسه تدريجياً عالماً خيالياً تتحقق فيه آماله العظيمة التى تعجز نفسه عن تحقيقها

وتزداد نفسه على مر الأيام طموحاً لأن العلم يشجعه على ذلك ويزينه له والأهل يدفعونه اليه ، وتزداد فى الوقت نفسه صعوباته وعقباته فى سبيل النجاح ، فيزداد انسحابه من عالم الحقيقة وتكثر أحلامه ، ويهرب تدريجيا إلى حالة المرض التى يجد فيها خلاصه وتعزيته ، حتى إذا بلغ سنه بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين صار عرضة إلى أن أى صدمة نفسية عنيفة أو مجهود عقلى زائد أو مرض جسمى شديد يسبب له الإصابة بمرض العته المبكر ، بل قد يصيبه هذا المرض ، ولو لم تنشأ هذه الأسباب وتصبح أحلامه وخيالاته حقائق يعتقد فيها ويؤمن بصحتها ، فتراه مثلا يعتقد أنه ملك أو وزير أو ثرى أو نبى .. الخ ، ويرى رأى العين ما لا وجود له ، فتلا يرى أنه موضع تكريم الناس وتبجيلهم ويسمعهم يمتدحونه أو يعتقد أنهم يغارون منه ، ويراهم يضطهدونه ويحاربونه ويسخرون منه ، ويسمع أصواتهم تشتمه أقبح الشتائم الخ . أى أن هـذا المريض يصير فى حالة حلم ويعيش تبعاً لهذا الحلم دون أن يشعر بأنه مجرد حلم ، وبذا يكون هروبه من الحقيقة هروباً تاماً

إذن فالأمراض العصبية والأمراض العقلية — على الرغم من اختلافها اختلافاً كبيراً — متشابهة فى طريقة تكوينها ونشأتها ، غير أن الهروب من الحقيقة الراهنة فى حالة الأمراض العصبية يكون هروباً جزئياً يظل معه العقل صحيحاً سليماً ، بينما يكون الهروب فى حالة الأمراض العقلية هروباً كلياً كاملاً تزول معه حالة التعقل . وإذا أمعنا النظر قليلاً وجدنا أن المريض يبدو عليه فى الحالة الأولى أنه يحاول أن يضلل غيره ، ولكنه فى الحقيقة يحاول أن يغش نفسه . والفرق بين المرضين قد لا يدركه كل إنسان لأن معظم الأمراض العقلية ، إن لم يكن كلها ، يظهر فى البداية بمظاهر وعلامات الأمراض العصبية ، ولا يستطيع أن يميز بين النوعين إلا الطبيب الإخصائى . ولهذا السبب تختلط تلك الأمراض على الناس ويخشى كل مصاب بمرض عصبى من أن مرضه سينتهى به إلى مرض عقلى ، وهذا خطأ محض ، فإن الاصابة بالمرض العصبى تكسب المريض فى الغالب مناعة تحصنه من الاصابة بالمرض العقلى

ويصح أن يقال بوجه عام إن المريض بمرض عصبى أو مرض نفسى يظل إلى حد كبير متصلاً بالحقيقة الراهنة ، شديد الرغبة فى التوفيق بين نفسيته والظروف المحيطة به ، على الرغم مما يجد فى ذلك من صعوبة كبيرة تنشأ عن نزاع نفسانى داخلى ، ويكون على إدراك تام بأعراض المرض عنده مجداً فى الخلاص منها ، فيتلهف على العلاج ويعاون الطبيب المعالج ، ويسعى لتجربة جميع الوسائل التى يسمع عنها ويرجو أن تحقق له الشفاء . وعلى عكس ذلك تماماً يكون المريض بمرض عقلى ، إذ أنه يفقد الصلة بالحقيقة الراهنة ولا يستشعر رغبة فى أن يوفق بين نفسيته والظروف المحيطة به ، وتظهر عليه أعراض المرض فى صورة معتقدات وتصرفات مختلة لا يشعر بغرابتها ، ولذا لا يمكن تحويله عنها بالحجة ، كما أنه لا يقتنع بأنه مريض ، ومن ثم يكون علاجه صعباً لأنه إذا حاول الطبيب معالجته فلا يعاونه أقل معاونة

والاضطرابات النفسية والأمراض العقلية كثيرة الأنواع . وهناك عدة أسباب تعمل معاً ، ويكون من شأنها إصابة الشخص بأحد تلك الأمراض ، وقد شرحت فيما سبق السبب الأساسى الذى يجعل الشخص مستعداً لتلك الاصابة إذا ما صادفته فى حياته بعض الأسباب الأخرى ، مثل الأمراض الجسمية المتعددة والمجهودات العقلية والانفعالات الشديدة التى يتعرض لها الإنسان عندما تحل به كارثة أو يصيبه الفشل . وهذه الأسباب تعترض جميع الناس فى

حياتهم ، لكنها لا تسبب الأمراض العصبية أو العقلية لهم جميعاً . وإنما يصاب بها من الناس من تولد عندهم الاستعداد لها كما تقدم

ولكل مرض من تلك الأمراض أعراض خاصة وشكل يتميز به عن غيره . وشرح هذه الأمراض وأعراضها وكيفية نشأة كل منها ونموه بالتفصيل أمر لا يعنينا فى مقال كهذا . لكن هناك أعراضاً أساسية سائدة فيها جميعاً ، يصح أن نقول كلمة عنها إتماماً للفائدة ، فمن أهم هذه الأعراض أن المريض يكون متردداً فى أعماله — يفكر كثيراً ويعمل قليلاً — يكون خائفاً على الدوام من أن يقدم على عمل فيخطىء فيه أو يلام عليه أو ينتقد من أجله . وهو يتردد ولا يتخذ قراراً نهائياً فى أى موضوع كان مهما كان تافهاً وإذا اتخذه يصعب عليه تنفيذه خوفاً من المسئولية ومن كلام الناس ونقدهم . يتوقع دائماً حدوث الكوارث وحلول المصائب والأمراض به وبمن يحبه ، حتى وإن كان يدرك جيداً أن ما يتوقع حدوثه غير معقول ، ولا يجد لمخاوفه تلك أى مبرر ، وإنما هو مجرد شعور يحس به ويضطرب له ومثل هذا المريض قد يكون سليم التفكير صحيح العقل بل ذكياً ونبيهاً ، غير أننا نجده ينقاد لشعوره وإحساسه وانفعالاته أكثر مما ينقاد لمنطقه وتفكيره السليم

واستيلاء الرعب والخوف عليه يزيده تفكيراً فى نفسه ومرضه واشتغالاً بحالته فيقل إنتاجه العملى ، ويشعر دائماً بالتعب والضعف والعجز عن العمل ، فيصبح ضحية قوته التى تصرف كلها لتغذيته بالتفكير فى ناحية واحدة تدور حول نفسه ومرضه ، تلك القوة التى لو انصرفت كلها أو بعضها لناحية عمل منتج لأراحت نفسه وبعثت فيها الثقة بقدرتها ، وعند ذلك تتلاشى مخاوفه ويقف تردده فتزول الأعراض الأخرى التى تصحب مرضه وتعذبه ويسير فى طريق الشفاء

ويستنتج مما تقدم أن طبيعة الخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، تكونان كامنتين فى نفس المريض حتى ولو كان ظاهره يدل على عكس ذلك ، وتتجلى طبيعته وتنكشف حقيقته عند ما تتهيأ ظروفه لذلك ، ومثل هذا الشخص يكون استعداده لتلك الأمراض كبيراً ، وكذلك يكون الشخص الذى لم يعود نفسه مواجهة الحقائق بشجاعة ، فإما أن يقهرها ويفوز ، وإما أن تغلبه فيرضخ لها ويكيف حياته تبعاً لنتائجها ، غير مستشعر خيبة الفشل ولا ضائق به صدراً ، ومن هنا يظهر أثر المنزل ونظام الأسرة فى الإصابة بتلك الأمراض ، فإن الطفل الذى ينشأ على الجرأة والاقدام ومواجهة الحقائق بشجاعة وحلها حلاً معقولاً ناجحاً بغير خوف ولا تردد ، مثل هذا الطفل يشب رجلاً أقل استعداداً لتلك الأمراض والاضطرابات وأكثر مقاومة لها

وليست تنشئة الطفل على تلك الصفات بالأمر الهين ، فهى تتطلب من الوالدين حذراً فى سلوكهم نحوه بحيث تكون معاملتهم له متفقة مع قواعد التربية وفى تصرفاتهم ومعاملاتهم على مرأى ومسمع منه . فأساليب التربية التى يستخدمها الوالدان ، ومن عهد إليهم بتربية الطفل معهما ، يجب أن تكون مشجعة له على الاعتماد على نفسه ، والاستقلال فى لعبه ، والابتكار فى أشغاله اليدوية ، فتستغل فاعليته (activity) أكبر استغلال . كما أن الجو العائلى الذى يعيش فيه يجب أن تسوده المحبة والوفاق والهدوء ، ذلك لأن معيشة الطفل فى وسط الخلافات والمشاحنات المستمرة تجعله عرضة للاضطرابات النفسية وترسم فى مخيلته صوراً قد تكون لها أسوأ الآثار فى تصرفاته المستقبلة ، وفيما قد يصيبه وهو كبير من أمراض عصبية أو عقلية

بنيامين بهجار

مع أدبائنا المعاصرين

(بقية المنشور على صفحة ٨)

لا قلب له ، أو بأن له قلباً ولكنه لا يخفق ، ووارحتاه للأستاذ الصديق القوي العنيف ، الذي لا يحب أدب الضعف ، وإنما يحب أدب القوة ، لقد رمته الآلهة فأصمته ، وإذا هو يكتب فصلا من أروع فصوله عنوانه « القلب » . وإذا هو يصور لنا في هذا الفصل أدباً قوياً ضعيفاً ، خشناً ناعماً ، عنيفاً ليناً ، مصدر قوته بغض صاحبه لقلبه ، ومصدر ضعفه حرص صاحبه على أن يكون له قلب حساس ، واستمتاع صاحبه برقة الشعور ودقة الحس ، وتأثر صاحبه بما يتأثر به الأدباء ، فيدفعون إلى الضعف حين يحتاجون إلى الضعف ، وإلى القوة حين يحتاجون إلى القوة . وأظرف من هذا كله أن الأستاذ أحمد أمين نفسه لا يؤمن بأن الأدب العربي كله أدب ضعف . وإنما خطر له هذا الخاطر ذات يوم أو ذات لحظة ، فسيطر عليه كدأب غيره من الأدباء ، فكتب هذا الفصل ، وأنت واجد في هذا الكتاب نفسه دفاعه عن الأدب العربي ، وإلحاحه بالنقد العنيف على الذين يعرضون عن هذا الأدب ويزهدون فيه ، ويصورونه أو يتصورونه على غير وجهه . والأستاذ صادق في الحالين ، لأنه أديب يتأثر بالخاطر الطارئ والفكرة العارضة ، فيكتب وينشر ، وما دام أثره الأدبي قطعة من نفسه ، وهو يحرص عليه حرصه على الحياة ، ويسجله إجابة لغريزة حب البقاء ، فهو يثبت كل ما كتب وينشره مجتمعاً ، لا يحفل بما يكون فيه من تناقض أو اختلاف ، وليس عليه من ذلك بأس ، فهو أديب ، ونفس الأديب معرضة لهذا التناقض وهذا الاختلاف ، ومن حق الناس عليه أن يروا نفسه في جميع أطوارها ، وأن يظهروا على ما تضطر إليه من الاضطراب والاختلاف

وأريد أن أقف مع الأستاذ أحمد أمين عند فكاهة ظريفة في كتابه ، وهو هذا المقال الذي أشرت إليه ، والذي عنوانه «من غير عنوان» . فهل لهذا المقال عنوان ؟ أم هو خلو من العنوان ؟ فإن تكن الأولى فكيف يكون المقال بغير عنوان ؟ وإن تكن الثانية فما موضع هذه الكلمات الثلاث التي نجدها في الفهرس ، ونجدها على رأس المقال ؟ كيف يتصور الأستاذ مقالا له عنوان وهو من غير عنوان ؟ أما أنا فأتصور هذا تصوراً واضحاً كل الوضوح ! فهو لون من ألوان التناقض الذي يبيحه الأدباء لأنفسهم ، والذي شاع وذاع في هذه الأيام ، واصطنعته الصحف السياسية فيما يكون من معارضتها للحكومات القائمة . فتراها تنشر الفصول أو أشباه الفصول بهذا العنوان «من غير تعليق» ، لأنها ترى في نشر ما تنشر من الأخبار غنى عن الشرح والتفصيل . ولكني أعترف بأن «من غير عنوان» هذه أروع وأبدع من هذه الكلمة التي ذاعت في الصحف السياسية .

وبعد ، فقد كنت أريد أن أشق على الأستاذ ، وأن أشتط على كتابه ، وأن أظهر بعض الأشياء التي لا يكون النقد اللاذع نقداً لاذعاً بدونها ، وأنا بعد حريص على أن يكون نقدي لاذعاً في هذه المقالات ، ولكني قد بلغت هذا الموضع من مقالي ، وإذا أنا قد جاوزت القدر المقسوم لي من «الثقافة» . ومع ذلك فهناك شيئان لا أستطيع أن أختم هذا الفصل دون أن ألم بهما وأشير إليهما : فأما أولهما فهو أن الأستاذ أحمد أمين يسرف في حبه للمعاني وإعراضه عن جمال اللفظ ، وتغاليه في أن يكون قريباً سهلا ، وسائغاً مألوفاً ، ومفهوماً من العامة وأوساط الناس ، حتى يضطره ذلك إلى أن يصطنع بعض الاستعمالات العامية التي لا حاجة إليها ، ولا تدعو النكتة الفنية إلى استعمالها ، وإنما هو تعمد من الأستاذ وتكلف يفسد عليه

الجمال الأدبي أحياناً . ويغري بعض نقاده بأن يزعموا أن إنشاءه ليس إنشاء أدبياً ، وهو مع ذلك من أحسن ما يكون الإنشاء الأدبي ، لو لم يتظرف صاحبه — أحياناً — بلهجة تنحه ، متعمداً لذلك ، متكلفاً له ، مسرفاً فيه . وما أضرب لذلك إلا مثلا واحداً ، وهو « قصة الجبار » الذي يقدره الريق بضخامته ، ويقدر الدلني بنجاحته ! ويسمه ذلك بالكوم، ويسمه هذا بالرطل . هذا كلام لا حاجة إليه ، إلا أن يتعمد الأستاذ التظرف به والتقرب إلى لغة العامة . وما إني أكره أن أهبط إلى العامة ، بل يجب أن أدنو منهم ، ويجب أن أرفعهم إلى حيث يتذوقون الأدب الرفيع ، هــذه هي الديمقراطية الصحيحة ، ولكن يجب أن نحتاط أشد الاحتياط ، فقد نسيء فهم الديمقراطية الأدبية ، فتفسد الأدب ونبتذله . والأستاذ بعــد هذا قدوة لقرائه وطلابه والمعجبين به ، فليحذر أن يجب إليهم الإسفاف والابتذال .

هذا أحد الأمرين ، والأمر الآخر يتصل ببساطة الأستاذ التي أشرت إليها في أول هذا الفصل . فما أكثر ما يقف الأســتاذ عند الأوليات التي لا تخفى على أحد فيبسطها بسطاً ويفصلها تفصيلا ، ويطيل فيها كأنه يعالج بعض المشكلات الغامضة . تلك عيب الأساتذة ، قد تعودوا أن يبسطوا لطلابهم أيسر الأمور وأهونها ، فهم يحطون الطلاب حتى حين يكتبون . على أن بساطة الأستاذ لا تقف عند هذا الحد ، فهو مؤمن بالعلم وبالقوانين ، وأريد قوانين المنطق والطبيعة ، إيماناً لا يخلو من البساطة التي تشبه أو تكاد تشبه البراءة . وانظر إليه يريد إصلاح الذوق وترقيته ، كما ينظم تعلم الطبيعة والرياضــة والكيمياء . وانظر إليه في كل نقده للحياة الاجتماعية ، فهو يأخذ هذه الأمور كلها بالجد ، ويعالجها كما يعالج فصلا من فصول « ضحى الإسلام » .

وكيف أستطيع أن أودع الأستاذ الصديق دون أن أثني أجمل الثناء ، وأخلصه ، على هذه الفصول الحلوة التي تصور الحيــاة المصرية تصويرا رائعاً ساذجاً أخاذاً ، كفصل « سيدنا » ؟ بل كيف أودع الأستاذ الصديق دون أن أعجب أشد الإعجاب بمقاله « سلطة الآباء » ، هذا الذي صور فيه تطورنا الاجتماعي أبرع تصوير وأروعه وأسرعه إلى القلوب ، وإن كان قد امتاز فيه بأخص ما يمتاز به الأديب العنيف ، من الإسراف والإغراق والجموح ، وأظهر حياتنا الحديثة مظلمة أكثر مما ينبغي ، ، سيئة أكثر مما هي . وأنا على ذلك أرحم هذا الأب البائس الشقي ، وأرثي له من هذا الذل الذي طرأ عليه ، بعد أن كان عزيزاً كريماً .

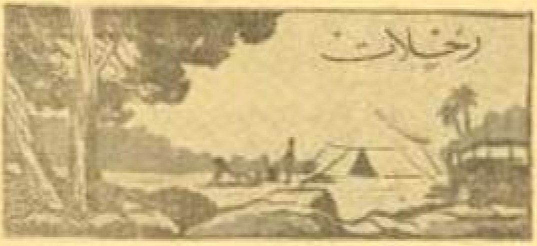
طه حسين

الزعماء الفلسطينيون

في القاهرة

وفد إلى القاهرة زعماء فلسطين قادمين من منفاهم في سيشل ، فرحبت بهم مصر ، واستقبلتهم استقبالا رائعاً يليق بمقامهم ، وما بذلوا من تضحية في سبيل بلادهم ، وما أدوا من الخدمة الحقة لوطنهم .

و « الثقــافة » تهنئهم بسلامة العودة ، وتتمنى لهم التوفيق في مهمتهم ، وأن تحل مشكلة فلسطين في المؤتمر القادم على أساس العدل المطلق لا على أساس مراعاة المصالح الخاصة ، وأن يكون إطلاق سراحهم من سيشل منتهياً إلى ما انتهى إليه إطلاق سراح « سعد » وصحبه من « سيشل » ، بعقد معاهدة تتضمن الاعتراف بحقوق الأمة ، وبدء عهد جديد أساسه التحالف والتفاهم والاتجاه بالبلاد إلى العمل الإيجابي .



عشرة أيام فى العراق

للأستاذ الدمرداش محمد

٢ — فى الطريق بين القاهرة وبغداد :

فى دمشق

عدت من الغوطة إلى المدينة واتخذت طريقى إلى سوق حميدية ، وهو شارع طويل مسقوف يقع بالقرب من «مرجه» تقوم على جوانبه حوانيت الأقمشة والمردوات ، فوجدته غاصا بالسيدات من جميع الطبقات يتنقلن بين الدكاكين متبرجات منقبات ، ينتقين ملابس العيد ويساومن فى الأسعار ويناهضن التجار ولا يشترين إلا بعد عناء . ولا تجد فرقا كبيراً بين معروضات سوق حميدية بدمشق ومعروضات الغورية أو الموسكى بمصر ، فأكثرها من البضائع الأوروبية التى تغمر أسواقنا وأسواق الشام والعراق على السواء . ونصيب المنسوجات الوطنية فى هذه المعروضات قليل لا يتعدى بعض أصناف الحرير الطبيعى من طابع دمشق وصنعها . والواقع أن الشرق بعد أن نبذ قديمه لم يجد فى أن يستحدث لنفسه جديداً بل اعتمد على أوربا فى كل شىء .

ومع شدة ازدحام السوق بالنساء وتكدسهن فى الحوانيت فإنى لم ألحظ من جانبهن أو من جانب التجار والمارة أى خروج على الآداب ، بل كن وكانوا فى تعفف واحتشام .

ويقع فى نهاية سوق حميدية الجامع الأموى : بناء ضخم وجدران عالية وباب فخم ويتوسط الجامع صحن فسيح مكشوف يتسع لألوف المصلين تحيط به بوائك شاهقة تحملها صفوف من العمد العالية ، ويمتاز الإيوان القبلى بكثرة النقوش والزخارف ، قد كسيت جدرانه بالقيشانى والرخام الملون وفيه القبلة والمنبر وكلاهما من الرخام المطعم وأرض



(منظر لصحن الجامع الأموى ومئذنته)

الإيوان مفروشة بالسجاد ، ويتوضأ المصلون من صنابير ركبت ببعض الأعمدة ، وأقيم تحتها أحواض لتصريف المياه . والجامع مقصد الزائرين والمصلين والمتعبدين من أهل دمشق والجهات المجاورة ، لا تسمع فيه لغواً ولا ترى فيه ما ينفر ، ولا تصطدم عند أبوابه بالمرضى والشحاذين ، كما هو الحال عندنا فى أضرحة الأولياء والصالحين .

خرجت من الجامع واتخذت طريقى فى الحى المحيط به وهو كثير الشبه بحى سوق السلاح عندنا هندسة وعمارة : شوارعه ضيقة متعرجة وبيوته عتيقة بعضها كبير وبعضها صغير لا تختلف عن بعضها كثيراً ، فالباب ثقيل مصنوع من الخشب قطعة واحدة ، ركبت فى وسطه سماعة كبيرة من النحاس وتحتها ثقب للمفتاح وثقب السقاطة وأعلى الباب نافذة عليها شباك من قضبان حديدية غليظة ، والمنزل من طابقين الأرضى قليل الفتحات والعلوى كثير النوافذ والشبابيك من «الشيش» من ورائه زجاج . ويوجد بالحى زوايا وحانات وأسبلة كلها على النمط التركى القديم ، وقد أصلحت بلدية دمشق إحدى هذه الدور وجعلتها مقراً لدار الكتب ، كما أصبح غيرها مصانع للأحذية أو النسيج أو مخازن للعيش . والحى على قدمه ، والتواء مسالكه ، وعدم استواء أرضه ، لا بأس بنظافته ، ومعظم سكانه الآن من الطبقة الفقيرة ، وتجوب أزقته عربات العيش ، والخضار حاملة البرتقال والكرنب والقرنبيط ، وهى من أنواع ذات حجم صغير رأيتها مزروعة فى بساتين الغوطة .

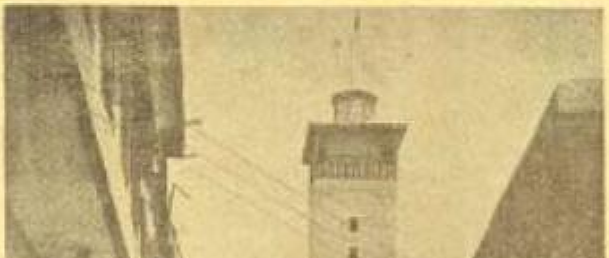
وخبز دمشق جيد الطعم ، يصنعونه من القمح ، والرغيف منه مستطيل مسطح قليل السمك ، يحدثون به خروقاً على طوله ، فيكون أتم نضجاً وأشهى طعماً ، وفى العراق يصنعون الخبز بنفس الطريقة .

وانتقلت من حارة إلى أخرى ومن زقاق إلى آخر حتى وقفت أمام ضريح فوقه قبة وأمامه حديقة صغيرة غير معتنى بها فسألت : لمن يكون هذا الضريح ؟

فأجاب شيخ كان جالساً على دكة بالقرب من باب الضريح : هذا قبر السلطان صلاح الدين ، وأشار بيده إلى إحدى قبتين حقيرتين مهدمتين !

فأخذتنى دهشة ، وتوجهت إليه بالكلام : هل يرقد تحت هذه القبة الوضيعة البطل العظيم قاهر الصليبيين ؟

فأطرق الشيخ ، ودعانى للجلوس بجانبه ، وطلب لى قهوة وطيب خاطرى ، وقال : يا بنى ! ليت صلاح الدين لم يولد ،



(منظر لشارع فى الحى المحيط بالجامع الأموى)

قلت : ولماذا ؟ هل لم تفكر حكومة هـذه البلاد فى تجديد القبة ؟

قال : كلا ! كل حكومة تولت الحكم بهذه البلاد كان لها مشروع لتجديد الضريح وإقامته على الشكل اللائق بعظمة صلاح الدين ، ولـكن لأسباب غير معروفة لم يتم تنفيذ أى مشروع منها .

قلت : مجيبا : هل يرجع ذلك إلى قلة المـال ، أو لاختلاف الآراء ؟

قال : لا هذا ولا ذاك ؛ وهل تختلف الآراء فى القيام بمثل هذا الواجب ؟ ولـكن ماذا أقول لك ؟ هنـاك يا أخى عوامل خفية تحول دون تنفيذ مشروع التجديد ثم أطرق برأسه ، وأشاح بوجهه وهو يتمتم بصوت خافت : ستنهدم القبة يوما ما على هـذا الجثمان الطاهر ، وتتحول إلى خرابة وتندثر معالمها ، ويختفى قبر صلاح الدين من الشام والدنيا معا .

قلت : كذا ؟

فأجاب : هكذا .

انصرفت عن الشيخ وأنا أتأمل فى كلامه ، متمنياً على الله أن يسـوق لهذا الضريح فى القريب العاجل أحد أغنياء المسلمين ليقيم عليه من فيض ماله قبة تكون بين القباب أرسخ أساساً وأرفع بناء ، إعلاء لـكلمة الحق والدين وتمجيداً للبطولة واعترافاً بفضل صلاح الدين منقذ الاسلام من براثن الهمجية .

ثم مازلت سائراً فى هذه الناحيـة على غير قصد حتى خرجت إلى طريق ينتهى إلى الجبل فعدت أدراجى إلى ميدان مرجة مارا بشارع واسع تقوم على جانبيه الحوانيت والمساجد وعيادات الأطباء ، ويكثر فيـه الباعة المتجولون يحملون أصناف الحلوى والمأكولات على صوان من نحاس ، ويقيم باعة الأحذية على أرصفة الشارع يعرضون أنواعاً جيدة الصنع رخيصة الثمن اشترى أحد الرفقاء زوجاً منها من جلد أسود لامع بعشرين قرشاً .

ودمشق أو الشام كما يسميها أهلها مدينة كبيرة خفيفة الروح ، جميلة الوقع ، جوها دافئ فى الشتاء ، حار فى الصيف ، وشوارعها نظيفة مبلطة ، تضاء ليلا بالـكهرباء ، وأهلها ينعمون بملاحة الوجه ونظافة الملبس ، وجودة الصحة ، والنساء أصغر قداً من الرجال وأسرع حركة ، والدمشقى شديد العصبية لدنياه ودينه ، فلا تجد بينهم الدخيل والأجنبى إلا بقلة ظاهرة ، والتجارة فى يد أهل البلاد ، وهى فى كساد بسبب ضعف القدرة على الشراء الناشئ من انخفاض قيمة النقد السورى لارتباطه بالفرنك الفرنسى ، ولا تجد صعوبة فى التعامل بالجنيه المصرى الورقى فى الشام أو العراق وقيمته نحو سبع ليرات سورية فى الشام ودينار فى العراق .

دخلت إحدى المكاتب وسألت عن نوع الـكتب المصرية التى تقرأ بالشام ، فقال الـكتبى : إن معظم الـكتب الأدبية والدينية التى تطبع بمصر تجد لها سوقاً رائجة هنا ، وكذلك الـكتب التى تخرجها لجنة التأليف والترجمة والنشر . وكذلك رأيت جريدة الأهرام وبعض المجلات المصرية تباع على القهوات فى ميدان مرجة .

(لها بقية)

صفحة القراء

جاءنا من حضرات القراء رسائل كثيرة تنم عن حسن الظن والتقـدير فنشكرهم ، ونكتفى بهذه الإشارة إلى رسائلهم . كما وردت رسائل أخرى من بعض الفضلاء يقترح فيها كاتبوها بعض الاقتراحات النافعة أو ينقدون فيها المجلة نقداً قيما ، وسنحلها محل التقدير ونشير إليها فى الأعداد القادمة

(طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر)

الثقافة

مجلة اسبوعية للاجتماع والآداب والعلوم والفنون

AL-THAQAFA

الإدارة : بالقاهرة — عابدين — شارع الكردي رقم ٩ تليفون ٤٢٩٩٢

العدد ١ | « الثلاثاء ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ — ٣ يناير سنة ١٩٣٩ » | السنة الأولى

الفهرس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ١ قرش صاغ

لماذا نصـــــدر المجلة

فى الشرق كنوز لا يفنيها الإنفاق ، من أدب أو علم عربى وفارسى وهندى وغيرها ، جار عليها الزمان فدفن بعضها ، فهى فى حاجة إلى أيد عاملة ، وعقول راجحة ، ونفوس قوية ، تتبع الخطط المحكمة للعثور عليها ، واستخراجها من مكامنها ، حتى تكون ثروة للبائسين ، ومتاعا للمقوين ، وزينة للناظرين ، وأصدأ بعضها حتى خيل للرائى أنها نحاس وهى ذهب ، أو زجاج وهى درر ، فهى تنتظر من يجلوها ، ويزيل عنها ما غشيها ، حتى ترد إليها قيمتها ، وتظهر حقيقتها ، وباعد فى بعضها بين زمانه وزماننا ، فلم تطب له نفوسنا ، ولم تسغه أذواقنا ، مع ما له من قيمة كبيرة وقدر عظيم ، لا يحتاج إلا إلى تحوير قليل وتعديل يسيط ليوافق ذوق العصر ويلائم العصر

وفى الغرب علم زاخر وأدب وافر ، حالت بيننا وبينه حوائل ، فهو مكتوب بلغة غير لغتنا ، ويتأثر ببيئة اجتماعية غير بيئتنا ، ويعرض لمشاكل قد تختلف فى ظواهرها عن مظاهرنا ، ومع هذا فنحن مرتبطون بهذا العلم الغربى والأدب الغربى . والمدنية الغربية ، طوعا أو كرها ، تدفعنا فى تيارها دفعا ، وتؤثر فى حياتنا أثراً بليغاً ، شعرنا أم لم نشعر ، وشئنا أم لم نشأ

ذلك لأن المدنية الحديثة بمخترعاتها وآلاتها كسرت الحواجز بين الشعوب ، ووثقت الصلات بينها حتى فى حالات العداء ، وجعلت العالم كله جسما واحداً ، يشعر كل جزء بما ينال بعضه من خير وشر وسعادة وشقاء ، ويتأثر بما يناله أى جزء آخر من التقدم فى علمه وأدبه وحضارته

أصبح الشرق مرتبطاً بالغرب ارتباطاً وثيقاً فى كل مرفق من مرافق الحياة : فى الحركات السياسية ، فى الحركة العلمية والأدبية والفنية ، فى المادة وفى العقل ، فى كل شىء

ومن الخير للشرق أن يقف على هذه الحركات فيتصرف فيها عن خبرة ، ويحكم فيها عن علم ، ويسايرها أو يعارضها عن درس ، فذلك أصح لحكمه ، وأوفق لغرضه ، وأليق بإنسانيته

***

هذه الكنوز الشرقية التى وصفنا ، وهذه الثروة الغربية التى ذكرنا ، لا يقوم بحقها — بل لا يؤدى عشر معشارها — كل المجلات العربية على اختلاف أنواعها ومناهجها وإقليمها ، وهى — إلى الآن — لا تزال محتاجة إلى مئات المجلات بجانبها تعالج هذه الثروات من نواحيها المختلفة ، وبكفاياتها المتعددة

وقد أحسسنا المقدرة على أن نشارك فى هذا العمل الجليل ، وننزل فى هذا الميدان الخطير ، فتقدمنا نعمل مع العاملين ، ونحمل عبئنا مع الحاملين ، ونجاهد مع المجاهدين ، لا نشعر نحو إخواننا « أصحاب المجلات » إلا شعور الفرق المختلفة فى الجيش الواحد ، هزيمة الفرقة هزيمة الجيش ، ونصرة الفرقة نصرة الجيش ، والكل يعمل ، والكل يتعاون

لا نريد حرباً إلا حرب الآراء ، فهى حرب خير من سلم ، وصراع خير من مهادنة ، وقد علمتنا الأيام أن الرأى

مع أدبائنا المعاصرين

للدكتور طه حسين بك

يقال إن التفكير ظاهرة اجتماعية لا فردية ، بمعنى أن الفرد لا يفكر ولا يقدر ولا يروّى إلا من حيث هو عضو من أعضاء الجماعة التي يعيش فيها والتي يستحضرها في نفسه استحضاراً ملحوظاً أو غير ملحوظ حين يفكر أو يقدر أو يروى . ولولا أنه يلحظ أمثاله ونظراءه الذين سيظهرون على خواطره وآرائه لما فكر ولا قدر ولا روى . ومعنى ذلك أن هذا الإنسان الفرد الذي ينشأ في جزيرة نائية ، مقطوعة الصلة بحياة الناس ، أو يضطر إليها قبل أن يتم نضجه العقلي فيعيش فيها مفكراً مقدراً ومروياً متدبراً ثم يستكشف حقائق الأشياء ، وأصول التفكير والنطق . هذا الإنسان صورة من صور الأساطير لم يوجد ولم يعرف وليس من اليسير أن يوجد أو يعرف . ويقال إن مصدر هذا أن التفكير أثر من آثار اللغة ومظهر من مظاهرها ، لا سبيل إلى أن يوجد بدونها ، لأن الخواطر والآراء مهما تكن لا تستطيع أن تخطر للنفس أو تلابسها أو تستقر فيها إلا إذا اتخذت لها من الألفاظ صوراً وأزياء تمنحها الوجود وتمكنها من الخطور على البال والاستقرار في الضمير والخضوع لما تخضع له الخواطر في نفس المفكرة من التواصل والتقاطع ، ومن التقارب والتباعد ، ومن الائتلاف والافتراق .

يقال هذا ويقال أكثر من هذا ، ولست أدرى — وما يعنيني أن أدرى — أحق هذا أم باطل ، وخطأ هذا أم صواب ! وإنما الشيء الذي يظهر أنه لا يقبل الشك ولا يحتمل الجدال ، هو أن الإنتاج الأدبي ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن يكون إلا في الجماعة التي تسمع الأثر الأدبي أو تقرؤه فتتأثر به ، راضية عنه أو ساخطة عليه ، معجبة به أو زاهدة فيه . وإذا جاز أن يوجد الفرد الذي يفكر لنفسه ويستكشف لنفسه حقائق الأشياء ، وأصول التفكير والنطق ، فما أظن من الجائز أن يوجد الفرد الذي يصور خواطره وآراءه في الألفاظ التي تنطق أو تكتب ، وتسمع أو تقرأ ، وهو لا يريد بهذا التصوير إلا نفسه ، ولا يوجه هذا التعبير

لا تنجلي صحته إلا بعد أن يُصْهَرَ في البوتقة ، أما حرب شخص لشخص في شخصيته وجماعة لجماعة في ذاتها لا في آرائها ، فسخافة نربأ بأنفسنا عنها ، وصغار في جانب الغرض الأسمى الذي نرمي إليه

ولا نريد مالا فالمجلة العربية — مهما راجت — لا تنيل ثروة ولا تكسب غنى ، فكيف إذا كانت لجماعة كبيرة تنفق عليها عن سخاء ، وتسمو إلى الجد ، ولا تنزل إلى التجارة ؟

ولجنة التأليف بحمد الله غنية بأعضائها ، غنية بتخصصها ، ففيها العالم من كل صنف ، وفيها الأديب من كل نوع ، وفيها الفنان في كل فن ، حصلوا كثيراً من العلم والأدب ، فرأوا من واجبهم أن يشركوا في علمهم وأدبهم أكبر عدد ممكن في مختلف الأقطار ، فكانت « مجلة الثقافة » ، كما أنها قوية بالتفاف قلوب الأدباء والعلماء حولها يمدونها بثمار عقولهم ، ونتاج تفكيرهم ، وخير ما تجرى به أقلامهم

فهي تتقدم للعالم الشرقي مؤمنة بقدرتها — بنفسها و بأصدقائها — شاعرة بتبعتها ، مقدرة لواجبها ، واثقة بقرائها ، فإلى الأمام والله يوفقها ؟

أحمد أمين

إلا إليها . وقد يخيل إلى الأديب ذي الشخصية القوية الممتازة الذي يغلو في الامتياز حتى يشذ عن معاصريه ، أنه لا يكتب للناس ولا ينتج لهم ، لأنه واثق أو كالواثق بأن الناس لن يفهموا عنه ولن يسمعوا له ، فهو إنما يكتب ليرضي نفسه بإظهار ما يكتب وإعلان ما يسر . ولكن هذا الأديب إن وجد — وما أكثر ما يوجد — إنما يخدع نفسه عن حقيقة الأمر ، فلولا أنه يريد أن يظهر الناس على ما يفكر ويقدر في يوم من الأيام لما صور تفكيره وتقديره في الألفاظ والعبارات ، ولما أودعه الصحف وأسره إلى الأوراق

وأظرف من هذا أن الأديب الممتاز قد لا يكتفي بتصوير خواطره وآرائه في الألفاظ والعبارات وإيداعها الصحف والأوراق ، ولكنه يرسلها إلى المطبعة ، فإذا خرجت من المطبعة نسخاً كثيرة فرقها على المكتبات لتذيعها في الناس ، ولعله أن يشارك في إرسالها إلى الصحف ، ولعله أن يرسلها إلى النقاد ليقرءوها ولينقدوها وليحكموا عليها وليعلنوا إلى الناس ما يكون لهم فيهـا من رأي ، ولعله أن يغضب إذا لم يجد لخواطره وآرائه صدى فيما تكتبه الصحف ، وفيما يتحدث به الناس . وهو مع ذلك يؤكد لنفسه — وللناس — أنه لم يقصد بما كتب وما أذاع إلى الجمهور ، وإنما جاشت في نفسه خواطر فلم ير من إظهارها بداً ، وخطرت له آراء فلم يجد عن إذاعتها منصرفا

وأظرف من هذا كله أن الأديب قد يجد على النقاد أن أهملوا كتابه أو أعرضوا عنه ، وقد يتهمهم بالحسد ويصمهم بالغيرة ، وقد يعتب على هذا الناقد أو ذاك من أصدقائه لأنه لم ينوه بكتابه في الصحف ، ولم يختصه بفصل أو بقطعة من فصل من هذه الفصول التي يذيعها في كل أسبوع

كل ذلك وهو لم يكتب للناس وإنما كتب لنفسه ، ولم يفكر للناس وإنما فكر لنفسه ، ولا يخطر للأديب أنه إذا أراد إرضاء نفسه فليس في حاجة إلى الكتابة ، وليس في حاجة إلى أن يتحدث إلى الناس ، لأنه في هذا المعنى أو ذاك ووقوفه عند هذا الرأي أو ذاك ، إنما حسبه أن يفكر فيما يشاء ، وكيف يشاء ، ليرضى إن أراد الرضى وليسخط إن أراد السخط ، وليذوق كل ما يعقبه التفكير والشعور والحس من اللذات والآلام

هـذا خداع من الأديب لنفسه حيناً وللناس أحياناً . والحق الذي لا شك فيه أن الأديب أجدر الناس بأن يكون هذا الحيوان الاجتماعي الذي تحدث عنه الفيلسوف القديم ، فهو لا يعيش إلا بالناس وهو لا يعيش إلا للناس . منهم يستمد خواطره وآراءه ، وإليهم يوجه خواطره وآراءه . يفنى إن غذوا حسه وشعوره وعقله بالظواهر والحوادث والواقعات ، ويتم إن أحس أنهم يسيغون ما يقدم إليهم من غذاء . وهو مفلس إن عاش في بيئة لا تغذو الحس والشعور والعقل ، وهو مبتئس إن عاش في بيئة لا تستمتع ولا تظهر له أنها تستمتع بما يقدم إليها من ثمرات

وفي الصلة بين الأديب وقرائه أو قل بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك — كما يقول أصحاب الاقتصاد — شيء من الدعابة والعبث وشيء من الدل والتيه ، يبيح للأديب أن يغضب حين لا يكون للغضب موضع ، وأن يرضى حين لا تدعو الدواعي إلى الرضى ، ويبيح للجمهور أن يشتط في الطلب ، وأن يتجنى فيلح في التجني ، وأن يقصر حين تحسن العناية ، وأن يعنى حين يحسن الإهمال . وأمور الانتاج والاستهلاك في الأدب جارية على هـذا منذ أقدم العصور ، ويظهر أنها ستجرى على هذا ما دام في الناس أدباء ينتجون وقراء يستهلكون

هذا الشاعر ، أو هذا الكاتب ساخط على الجمهور ، أو متنكر له ، أو متبرم به ، يوسعه لوما وتأنيبا ، ويلح عليه بالتوبيخ والتقريع ، ويتمنى أن تنقطع بينه وبينه الصلة ، ويود لو تبتر بينه وبينه الأسباب . والجمهور مع ذلك راض عنه ، رفيق به ، متحبب إليه ؛ يرى فيما يوجه

إليه من اللوم والتأنيب نصحاً ورشداً ، ويجد فيما يسوق إليه من التوبيخ والتقريع لذة ومتاعا ! ويلق سخطه العنيف بالابتسام الحلو الرقيق ! وهذا الشاعر أو الكاتب يتلطف الجمهور ويترضاه ، ويسرف فى التلطف له وابتغاء الوسائل إلى قلبه ؛ ولكن الجمهور لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، ولا يقف عند ما يهدى إليه من هذه الأزهار النضرة التى تتملق أحب الغرائز إليه وآثرها عنده

ومن هنا يكون بين الأدباء من يلائم عصره ومن لا يلائمه ، ومن يفهم فى عصره ومن لا يفهم إلا بعد عصره بقرون . ومن هنا يكون بين الأدباء من يتاح له الجد السريع ، ويكون منهم من يتاح له الجد البطئ . ومن هنا يكون بين الأدباء من يفسد الجد عليه أمره وفنه ، ويكون بينهم من يفسد الاخفاق عليه أمره وفنه ، ويكون بينهم من يتاح له القصد فى ذلك ، فلا يبطره الفوز ، ولا يوئسه الاخفاق ، وإنما يسلك بين ذلك سبيلا وسطا ، فيلتمس لذته ومتعته فى فنه وفى آثاره ، أكثر مما يلتمس لذته ومتعته فى رضى الناس عنه وإعجابهم به وتهالكهم عليه .

والمهم أن الأديب مهما يكن أمره ، كائن اجتماعى لا يستطيع أن ينفرد ، ولا أن يستقل بحياته الأدبية ، ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس ، فكان صدى لحياتهم ، وكانوا صدى لانتاجه ، وكان مرآة لما يجدون من لذة وألم ، ومن نعيم وبؤس ، وكانوا مرآة لما يذيع فيهم من رأى وخاطر ، وما يقدمه لهم من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها

وهو فى حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة ، وإلى أن يراها قوية متينة ، مترددة بينه وبينهم كما يتردد الرسول بين المحبين . ذلك يدفعه إلى العمل ، وينشطه للانتاج ، ويغذو نفسه بالمعانى ، ويثير فيها الخواطر والآراء ، ويشيع فى لغته القوة والحدة والنشاط . ويلائم بين هذه اللغة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسمعونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم فى جمهور الناس . ومن هنا ينشأ لون من الأدب هو الذى يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ، ويحققها على أتم وجه وأقواه وأنفعه ، لأنه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يختصمان حيناً ويأتلفان حيناً آخر ، وهما الأديب والجمهور . وهذا اللون الجديد من الأدب هو النقد الذى يبلغ إلى الناس رسالة الأديب فيدفعهم إليها ويرغبهم فيها ، أو يصرفهم عنها ويزهدهم فيها . والذى يبلغ الأديب صدى رسالته فى نفوس الناس وحسن استعدادهم لها أو شدة ازورارهم عنها ، أو فتورهم بالقياس إليها . ولعله أن يبين للأديب أسباب إقبال الناس عليه وإعراضهم عنه . ولعله أن ينصح للأديب بما يزيد إقبال الناس عليه إن كانوا مقبلين ، ويخفف إعراضهم عنه إن كانوا معرضين ، فهو الرسول الحكيم الذى نصح القدماء باتخاذه لذوى الحاجات . هو حكيم بالقياس إلى الجمهور ، لأنه يدل الناس على ما يحسن أن يقرءوا ، وعلى ما يحسن أن يفهموا مما يقرءون . وهو رسول حكيم بالقياس إلى الأديب ، لأنه يبين للأديب مواقع فنه من الناس ، وقد يدله على الخطأ إن وقع فيه ليتجنبه ، وعلى الصواب إن وفق إليه ليتزيد منه ، وقد يدله على التقصير الفنى ليتقيه ، وعلى الاجادة الفنية ليتقيها فيما يستأنف من الآثار

ولكن هذا النقد الأدبى لا ينشئ نفسه ولا يقوم بالرسالة فى الهواء بين الأديب وقرائه ، وإنما ينشئه إنسان أديب له فى أكثر الأحيان ما للأديب المنتج من الخصال المحمودة والمذمومة ، يخادع نفسه ويخادع الناس فى كثير من الأحيان عن فنه ، وعما يقصد إليه بهذا الفن . فما أكثر ما يخيل الناقد إلى نفسه ! وما أكثر ما يخيل إلى الناس أنه لا ينقد هذا الكتاب أو ذاك إلا لنفسه لا رغبة فى النقد وإيثاراً له وإرضاء لميله الطبيعى إلى أن تستقر أمور الصواب والخطأ ، وأمور الإحسان والإساءة الفنية فى نصابها ! وهو فى حقيقة الأمر إنما ينقد لنفسه

وللناس كما ينتج الأديب المنشئ لنفسه وللناس ، يجد اللذة والمتاع فى الإنشاء نفسه ، لأنه تخلص من عبء ثقيل ، ولأنه تأثير فى غيره من الناس وتسلط عليهم ، ولأنه فعل إيجابى إذا أردت الإيجاز ، كما يجد اللذة والمتاع فى تأثر الناس به وفهمهم عنه وإكبارهم له وإيمانهم بما يدعو إليه . وكما يجد اللذة والمتاع أحياناً فى مقاومة الناس له وازورارهم عنه ، وتشددهم فى الإنكار عليه ، وفيما يستتبعه ذلك من أخذ ورد ، ومن جذب ودفع ، ومن جدال وحوار ومن خصام ومراء أيضاً

فى الناقد الخليق بهذا الوصف مزايا الأديب الخليق بهذا الوصف وعيوبه ، لا يكادان يفترقان إلا فى أن أحدهما — وهو الأديب — يتخذ طبائع الأشياء وحقائقها مادة لأدبه ، وموضوعاً لإنتاجه ، على حين يتخذ أحدهما الآخر وهو الناقد صور الأشياء ونماذجها أى الأدب نفسه مادة للنقد وموضوعاً . ومع ذلك فليس من الحق أن الناقد لا يلم بطبائع الأشياء وحقائقها ، وربما كان الحق عكس ذلك . فما أكثر ما يحتاج الناقد إلى أن يعالج الموضوع الذى عالجه الأديب ليبين أو ليتبين ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة ، وما عسى أن يكون الأديب قد سلك إلى تذليل هذه الصعوبة من طريق ، وما عسى أن يكون الأديب قد وفق إليه من إجادة أو قد تورط فيه من إساءة

فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معانى الكلمة . والنقد آخر الأمر أدب بأصح معانى الكلمة أيضاً ، وربما أتيحت للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشئ ، فالناقد مرآة لقرائه كالأديب ، والقراء مرآة للناقد كما أنهم مرآة للأديب أيضاً . ولكن الناقد مرآة صافية واضحة جلية كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلاء ، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارئ ، وكما تعكس صورة الناقد . فالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث : نفسية المنشئ المؤثر ، ونفسية القارئ المتأثر ، ونفسية الناقد الذى يقضى بينهما بالعدل ويزن أمرهما بالقسطاس

وواضح جداً أنى إنما أعظم من أمر النقد وأكبر من شأنه وأرفعه إلى هذه السماء الممتازة التى تظل الأدباء والقراء جميعاً ، لأنى أريد أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة كما يقال — فرصة إصدار « الثقافة » — لأعرج منها إلى هذه السماء الممتازة ، ولأشرف منها على الأدباء والقراء جميعاً ، فى فصول من النقد أتناول بها تأثير أولئك وتأثر هؤلاء ، وما ينبغى لى أن أقصر فى ذات نفسى ولا أن أضعها حيث يجب أن توضع من الأدباء والقراء . فإن هـذا التواضع لم يصبح ملائماً للمبدع فى هذه الأيام . وإنما ينبغى لى أن أستطيل وأن أتكلف الاستطالة ، وأن أرتفع وأتكلف الارتفاع ، لأنى لا أريد أن أقبل على الأدباء والقراء مسالماً ولا موادعاً ، وإنما أريد أن أقبل عليهم مخاصماً وملحاً فى الخصام . والله يعلم ما أفعل ذلك حباً فى الخصام أو إيثاراً له أو رغبة فى الاستعلاء والكبرياء . وإنما أفعل ذلك تعمداً لإيقاظ قوم نيام ، قد طال عليهم النوم حتى كاد يشبه الموت . وهؤلاء القوم النيام هم الأدباء والقراء . أولئك ينتجون وهم نيام ، قد أمنوا النقد أو استيأسوا منه ، فهم ينتجون فى فتور ، ويرضون عن أنفسهم أو يسخطون عليها ، لأنهم قد اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضى أو يبين عن السخط . وهؤلاء يقرءون وهم نائمون ، قد تعودوا أن ينفقوا الوقت بين حين وحين بقراءة هـذا الكتاب أو ذاك ، لهذا الأديب أو ذاك ، لم تدعهم إلى القراءة رغبة قوية ولا خصومة عنيفة ، حول رأى من الآراء أو مذهب من مذاهب الإنشاء ، وإنما دعتهم العادة إلى القراءة . دعتهم العادة ودعاهم الفراغ الثقيل أيضاً . فماذا تريد أن يصنع الرجل المثقف حين تنبئه الصحف بأن فلاناً قد أخرج كتاباً ؟ وماذا تريد أن يصنع حين يتحدث إليه الناس عن هذا الكتاب ويسألونه عن رأيه فيه ؟ لا بد من أن يلم به

إلمامة يسيرة قصيرة ، ترفع عنه اللوم وتبرئه من مذمة الجهل وتتيح له أن يقول إذا سئل : نعم لقد رأيت هذا الكتاب ونظرت فيه ، ولست أرى به بأساً ، أو أنا أرى به بعض البأس . والناس لا ينتظرون منه أكثر من هذا ، وهو لا ينتظر منهم إذا سألهم أكثر من هذا أيضاً . وكذلك ينتج الأدباء وهم نيام فكأنهم يحلمون بالانتاج ، ويقرأ القراء وهم نيام فكأنهم يحلمون بالقراءة !

ويشمل الحياة الأدبية في مصر فتور مهلك أو مدن من الهلاك . ولا بد من أن ينجاب هذا الفتور ، ولا بد من أن يذاد هذا النوم ، ولا بد من أن ينشىء الأدباء ويقرأ القراء وهم أيقاظ . والنقد وحده كفيل بإيقاظهم . ولكنه لن يبلغ أسماعهم فيما يظهر إلا إذا رفع صوته رفعاً عنيفاً وهز النائمين هزا قويا ، واضطرهم إلى هذه الحركة المضطربة التي يضطر إليها النائم المغرق في النوم حين يزعجه الصوت المرتفع أو الهز العنيف . وما من شك في أن النائم الذي يستيقظ وجلا مضطرباً يمقت موقظه أشد المقت . وأنا مستعد والحمد لله لأتلقى مقت النائمين الذين أريد إيقاظهم . بل يظهر أني مستعد لأكثر من هذا ، فإن النائم إذا أفاق وثاب إليه رشده وعادت إليه نفسه كف عن المقت واللوم في أكثر الأحيان ورضى عن موقظه وحمد له عنفه . ولكني مستعد فيما يظهر لتقبل اللوم المستمر والمقت المتصل ، لأني أرى في ذلك تقوية لهذه الحياة الأدبية التي اشتدت حاجتها في هذه الأيام إلى القوة والنشاط ، ولأني أخشى إذا أيقظت النائمين بالعنف ثم عدت في أمرهم إلى الهدوء والدعة أن يعودوا إلى الراحة وأن يستحبوا النوم . وما أدري ماهذا الجني الذي يلح علي ويدفعني على ألا أنام ولا أنيم . وقد حاولت أن أستنقذ منه نفسي وأن أغريه بغيري من النقاد فلم أبلغ مما أردت شيئاً

وهذه كتب كثيرة قد ظهرت منذ أعوام لطائفة من أدبائنا الشيوخ والشباب ، قد جمعها لي هذا الجني جمعاً ووضعها بين يدي وضعاً ، وهو يلح علي في أن أقرأها ، وفي أن أنقدها ، وفي أن أذيع رأيي فيها وحكمي عليها ، وفي أن أتعرض من أجل ذلك للوم اللائمين وسخط الساخطين ! والغريب أن هذا الجني الماكر أمين ناصح لا يريد أن يخدعني عن نفسي ، ولا عن الناس ! فهو يزعم لي أن الأدباء سيلقونني بمثل ما أبدؤهم به أو بشر مما أبدؤهم به . فقد ظهرت لي كتب وستظهر لي كتب . وأي كتاب يستطيع أن يظفر بالرضى كله ، وأي كتاب من كتب الناس لا يأتيه النقد من هذا الوجه أو ذاك . وإذن فسينقد الناس كتبي كما أنقد كتبهم ، وسيكيلون الناس بالصاع صاعين ، وبالباع باعين ، كما قال لي الأستاذ العقاد في بعض رسائله منذ أكثر من عشر سنين . وإذن فهذا الجني يصور لي نتيجة هذا النشاط الذي أستأنفه على أنها رد ونقد وخصومة وحكومة ، واضطراب في الجدل والحوار ، ويخيرني بين هذه الحياة العنيفة الخصبة ، وبين حياة أخرى هادئة وادعة ، ولكنها عقيمة مجدبة ، لا نقد فيها ولا رد ، ولا خصومة فيها ولا حكومة ، ولا جدال فيها ولا حوار ، وإنما هي حياة الراحة والعافية والخمود . وواضح جداً أني أختار الأولى . ومتى رأى الناس أني أختار اليسير مما يعرض لي من الأمور ؟

أمر الأدباء ، وأمري إلى الله ، إذن فلنستأنف حياة النقد والرد التي عرفناها في بعض أوقاتنا ، فذقنا منها هذه اللذة المؤلمة ، وهذه الحلاوة المرة التي لا يستقيم بدونها مزاج الأديب !

ولكن أول ما تلقو به أنفسنا من ذلك كتاب صديقنا « أحمد أمين » زعيم لجنة التأليف والترجمة والنشر وزعيم مجلة « الثقافة » . فإن أحب شيء إلي أن أبدأ بمداعبة أقرب الأدباء إلي ، وأدناهم مني وآثرهم عندي

طه حسين

فى التاريخ السياسى المعاصر :

الصراع بين الدكتاتورية والديموقراطية

لمحرر الثقافة السياسى

منذ أعوام ثلاثة يشهد العالم أعظم صراع عرفه التاريخ بين نظامين سـيـاسيين واجتماعيين هما : الديموقراطية والدكتاتورية . وقد بلغ هـذا الصراع الهائل ذروته فى شهر سبتمبر المـاضى حينما تفاقمت المسألة التشكوسلوفاكية وأصرت ألمانيا على مطالبها فى ضم منطقة السوديت الألمانية التى أدمجت فى تشيكوسلوفاكيا منذ سـنة ١٩١٩ بمقتضى معاهدة الصلح . وشعر العالم كله فى هذه الأيام القلائل أنه يجوز أخطر أزمة دولية عرفها منذ نهاية الحرب الكبرى ، وأنه كان حقاً على وشك الانفجار والانحدار إلى هاوية حرب عالمية أخرى .

ذلك أنه فى الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٦ سبتمبر ألقى سيد ألـمـانيا وزعيمها خطبته الشهيرة التى ارتعدت لها فرائص جميع الذين يروعهم خطر الحرب ، وأنذر فيـها تشيكوسلوفاكيا والدول الديمقراطيـة والعالم أجمع ، بأن صبره قد بلغ النهـاية ، وأنه إذا لم تذعن تشيكوسلوفاكيا لارادته وتنزل لألمانيا عن منطقـة السوديت حسبما حددت وبينت فى البلاغ الألـمـانى النهائى ، وذلك فى يوم أول أكتوبر ، فان ألمـانيا تعرف كيف تأخذ حقها بيديها فى ذلك اليوم ذاته ، ولن يثنيها عن عزمها شىء فى هذا العالم ، وعلى الدول الديمقراطية أن تحتمل جميع التبعات التى تترتب على ذلك الانفجار .

فهل كان الهر هتلر يعنى ما يقول يومئذ ؟ وهل كان يعتزم حقاً أن يخوض غمار الحرب إذا لم تحقق مطالبـه ؟ هذا مالا يزال سراً من أسرار التاريخ . بيد أننا وقد كنا يومئذ فى ألمـانيا ، مركز الاضطرام ، ومسرح الحوادث ، نستطيع أن نقول إن كل ماق ألـمـانيا فى تلك الآونة كان يشعر بأن الحرب على الأبواب . فمنذ منتصف شهر سبتمبر كانت المظاهرات الحماسية والاستعراضات العسكرية الكبرى تخترق شوارع العواصم الألمانية باستمرار ، والدعوة إلى الخدمة العسكرية تنهال على مختلف الطبقات ، ويتساءل الناس باستمرار : « هل تقع الحرب ؟ » وقد ساد الاضطراب والجزع فى جميع مراكز الأعمال ، وهرع معظم الأجانب إلى مغادرة ألمانيا . وكانت المناورات الجوية الليلية تجرى باستمرار ، حتى إن ألمـانيا وفينا قطعتا ثلاثة أيام متوالية فى ظلام دامس منذ ١٩ إلى ٢٢ سبتمبر . وكانت شوارع العاصمة النمسوية وأحياؤها تبدو فى هذه الليـالى الرهيبة كتلاً من الحلك المروع ، لا ترى الناس والأشياء إلا أشباحاً سوداء . وقيل بعدئذ إن هـذا الظلام لم يكن إلا ستاراً لنقل عدد عظيم من الجنـد وكميات وافرة من الذخائر إلى حدود تشيكوسلوفاكيا .

وقطع الناس فى اليومين التاليين لالقاء الزعيم (هتلر) لخطبته ساعات عصيبة حقاً ، فيها كان شبح الحرب يبدو قوياً فى الأفق ، وقد ساد الوجوم كل مكان وكل محيا ، واستشعر معظم الناس أن الكارثة تكاد تنقض على العالم . ولكن حدث فى مساء الأربعاء ٢٨ سبتمبر أن أذاع الراديو فى كل مكان ، أن مؤتمراً سيعقد فى صباح الغد فى ميونيخ من رؤساء الدول الأربع العظمى ، ألـمانيا وإيطاليا وفرنسا وانكلترا ، وأن الأمل معقود بالوصول إلى حل يصون السلام ويقى العالم شر الخطر الرهيب . فنزل النبأ على الناس كالغيث ، ودوت صيحات الفرح والارتياح فى كل مكان .

وكان أن عقد مؤتمر ميونيخ فى اليوم التالى من رؤساء الدول الأربع فى صـباح يوم الخميس . وكان أن سلمت

الدولتان الديمقراطيتان الكبيرتان انكلترا وفرنسا ، بجميع مطالب ألمانيا في ضم منطقة السوديت ، مما يعرفه العالم أجمع ومما لا حاجة بنا إلى تفصيله .

* * *

وقيل غداة مؤتمر ميونيخ إن السلام قد أنقذ وإن التضحية التي أرغمت تشيكوسلوفاكيا على أدائها بالتنازل عن بعض أراضيها لم تكن شيئاً مذكوراً ، إلى جانب أهوال حرب مروعة كانت وشيكة الضرام ، وإن عصراً جديداً من التفاهم والوئام سيبدأ بين الدول الدكتاتورية والدول الديمقراطية .

ولكن أولئك الذين يؤثرون تسمية الأشياء بمسمياتها ، ويرون الأمور بعين الحقيقة ، رأوا يومئذ في مؤتمر ميونيخ رأياً آخر ، هو أن الدكتاتورية أحرزت فيه ظفراً عظيما لم تكن تحلم به ، وأصيبت الديمقراطية بهزيمة شنيعة بل بكارثة حقة سيكون لها أبعد الآثار .

وفي سير الحوادث ما يدل حقيقة على أن يوم ميونيخ كان يوما عصيباً على الديمقراطية ، وكان يوما حاسما في سير ذلك الصراع الهائل الذي يضطرم بينها وبين الدكتاتورية ، ففيه لم تغنم ألمانيا مناطق السوديت من تشيكوسلوفاكيا فقط ، بل غنمت سيادة أوربا الوسطى وسيادة القارة كلها ، وحطمت حصن الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا — وقد كانت في الواقع حصناً للديمقراطية في أوربا الوسطى — وقضت على التحالف الصغير ، وعلى جميع مظاهر التوازن الدولي الذي أنفقت الدول الغربية عشرين عاما في إقامته في أوربا الوسطى .

والآن تبدو ألمانيا سيدة القارة الأوربية ، وتعمل بنشاط عظيم لدفع نفوذها وسيادتها نحو الجنوب والشرق ، وقد أصبحت دول أوربا الوسطى : تشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا والدول البلقانية حتى تركيا في متناول نفوذها ، وصار يتعذر على هذه الدول أن تتجه إلى محالفة دولة أخرى أو إلى تعضيد أي نفوذ آخر .

كان يوم ميونيخ إذن يوم فصل رجحت فيه كفة الدكتاتورية ، وكان نهاية مرحلة من الظفر ، لم يك شك في رأي السياسيين العمليين أن ألمانيا ستبلغها ، ما دامت الدول الديمقراطية سائرة على سياسة التسليم والإذعان في كل ضربة تنزلها بها الدول الدكتاتورية .

وقد بلغت الدكتاتورية هذه المرحلة من الظفر في فترة وجيزة ترجع إلى ثلاثة أعوام فقط . ففي ربيع سنة ١٩٣٦ حققت إيطاليا مشروعها الجريء في غزو الحبشة وضمها إلى أملاكها أمام سمع العالم وبصره ، ولم تعبأ بأية معارضة أو احتجاج . وفي الوقت نفسه احتلت ألمانيا منطقة « الرين الحرام » التي فرضت عليها بمقتضى معاهدة فرساي ، وأعلنت بطلان جميع النصوص العسكرية التي تضمنتها هذه المعاهدة ، والتي كانت تغل يدها عن إنشاء قواتها الدفاعية . ولم تتحرك فرنسا التي ترتبط هذه الخطوة بسلامتها أشد الارتباط ، لأن انكلترا لم تر يومئذ وجها للاعتراض على استرداد ألمانيا لحريتها في شؤون الدفاع القومي ، ولم تستطع فرنسا من جانبها أن تقوم بأي اجراء منفرد . وكانت السياستان البريطانية والفرنسية يومئذ على خلاف من جراء المسألة الحبشية ، ولم تخف هذه الحقيقة على ألمانيا ؛ وكما خذلت فرنسا انكلترا في المسألة الحبشية ، فكذلك رأت انكلترا أن ترد بخذلان فرنسا أمام ألمانيا في المسألة العسكرية .

على أن الدول الديمقراطية ارتكبت يومئذ أعظم أخطائها ، ولم تدرك أن هذا الضعف من جانبها ، سيؤدي في فترة وجيزة إلى قلب التوازن الدولي بصورة لم يسبق حدوثها .

ذلك أن ألمانيا اتبعت ظفرها في الرين ، واتبعت إيطاليا ظفرها في الحبشة ، بتدبير الحرب الأهلية الاسبانية

وتسليح فرانكو ، ومده بمعاونات عسكرية عظيمة ؛ وكان أن اضطرمت نار الحرب الاسبانية فى يوليو من هذا العام ، وما زالت تضطرم إلى يومنا . وكان هدف الدولتين ظاهراً وهو إقامة حكومة دكتاتورية حليفة فى اسبانيا ، تعتمد على معاونتهما ؛ وتستطيع عند الحاجة أن تناوئ انكلترا وفرنسا ؛ وأن تغدو خطرا على مواصلاتهما فى البحر الأبيض المتوسط ؛ ومع أن فرانكو لم يحرز النصر النهائى بعد ، فان الحالة فى اسبانيا تثير اليوم أعظم المخاوف فى انكلترا وفرنسا .

وفى خريف سنة ١٩٣٧ ، عقدت ألمانيا وإيطاليا تحالفهما المشهور بمحور برلين رومه ؛ ومن ذلك التاريخ تنقسم أوربا إلى معسكرين واضحين : معسكر الدكتاتورية وقوامه ألمانيا وإيطاليا ؛ ومعسكر الديمقراطية وقوامه فرنسا وانكلترا ؛ ويتخذ الصراع بين الفريقين صورة واضحة عنيفة . هذا ومن جهة أخرى فقد استطاعت سياسة « المحور » أن تستدرج اليابان إلى عقد ميثاق ثلاثى غرضه الظاهر مكافحة الشيوعية ، وغايته الحقيقية تعاون الدول الثلاث على تحقيق المآرب الاستعمارية . فألمانيا وإيطاليا تعضدان توغل اليابان فى الصين ، وهذا التوغل خطر واضح على المصالح الانكليزية والفرنسية فى الشرق الأقصى . واليابان تستطيع فى الوقت نفسه أن تشغل جارتها الأسيوية الكبيرة « روسيا » التى تقف فى شرق أوربا إلى جانب الدول الديمقراطية .

هذا وبينما تتفاقم المسألة الاسبانية فى أوائل سنة ١٩٣٨ ويبدو ظفر الجنرال فرانكو قريباً بسحق الجمهورية الاسبانية وإقامة الحكم الدكتاتورى فى اسبانيا مفتاح البحر الأبيض من الغرب ، إذا بحوادث أوربا الوسطى تتطور بسرعة مدهشة ، وإذا ألمانيا تنقض فى يومى ١٢ و ١٣ مارس على النمسا فتحتلها ، وتعلن ضمها إليها أمام أوربا قبل أن تفيق من دهشتها وذهولها ، وإذا موسولينى الذى سبق أن حشد جيوشه فيما وراء ممر « برنر » فى سنة ١٩٣٤ ، حينما حاول النازى فى النمسا الاستيلاء على الحكم ، يسارع فيقر عمل هتلر فى ضم النمسا ويؤيده ؛ والعالم كله يتساءل : كيف تسامح إيطاليا الفاشستية إلى هذا الحد فى حدوث ما اعتبرته قبل بضعة أعوام خطرا على سلامتها وتأهبت لمقاومته بقوة السلاح ؟

وكان استيلاء ألمانيا على النمسا نذيرا بانهيار التوازن الدولى فى أوربا الوسطى ؛ وانهيار جمهورية تشيكوسلوفاكيا التى أنشأها الحلفاء الظافرون فى معاهدة الصلح لتكون مخفرا وحصناً للديمقراطية فى أوربا الوسطى ؛ ثم تمض أشهر قلائل حتى تفاقمت مشكلة السودوت الألمان ، وعملت ألمانيا على إذكائها بكل ما وسعت ؛ وكان مؤتمر ميونيخ واقتطاع ألمانيا لمناطق السودوت وانهيار تشيكوسلوفاكيا كدولة قوية مستقلة ، وظهور ألمانيا الكبرى بصورة من القوة والسلطان فى الشئون الأوربية لم يشهدها التاريخ .

* * *

كان مؤتمر ميونيخ خاتمة للمأساة التشيكوسلوفاكية ، ولكنه كان فاتحة لمأساة أعظم وأخطر ، هى مأساة القارة الأوربية بأسرها .

فأوربا اليوم تجوز مرحلة من الاضطراب الفكرى لم تعرفها منذ الحرب الكبرى ، والأفق السياسى مكفهر لا يكاد يصفو يوما واحدا ، والأزمات الدولية تتوالى بسرعة ، والعالم كله يرقب هذا الغموض بجزع و يحاول أن يتعرف المصير الذى ينحدر إليه .

لم يبق خافياً أن مثار الاضطراب العالمى الحاضر كله هو تلك المعركة الهائلة التى تضطرم اليوم بين الدكتاتورية والديمقراطية ، وهى معركة تخرج اليوم عن صفتها العلمية

وتغدو معركة عالمية ، تتعدى أوربا إلى أمريكا وآسيا ، وتشغل الرأى العام فى جميع الأمم المتمدنة .

وأظهر خواص هذا الصراع اليوم هو مظاهر القوة التى تبدو بها الدول الدكتاتورية ، فهى ما زالت تخرج خلال الفترة الأخيرة من نصر إلى نصر ، وتقدم على تحقيق برامجها ومشاريعها بثبات وجرأة ؛ بينا الدول الديمقراطية تخرج من هزيمة إلى أخرى ، وتنتهى فى كل أزمة بالإذعان والتسليم ، وتتمسك بنظرياتها وتقاليدها السياسية القديمة ؛ هذا بينا يلجأ خصومها إلى الوسائل العملية الناجعة ، ومن ورائهم قوات عظيمة مسلحة استطاعوا إنشاءها بجهود جبارة وما زالوا يستزيدون منها ، وشعارهم دائما الفصل للقوة ، وأن عصبة الأمم ، ونظرية السلامة الاجتماعية ، ومشاريع نزع السلاح وأمثالها ، إن هى إلا أحلام عقيمة ؛ وأن العهود والمواثيق الدولية لا قيمة لها متى كانت عثرة فى سبيل الأمانى والغايات القومية .

وبينا نرى الحكومات فى الدول الدكتاتورية راسخة قابضة على ناصية الحكم بقوة واستمرار ، لا ينازعها فى الداخل أو يقف فى سبيلها منازع ، إذا بالدول الديمقراطية تقوم عليها حكومات برلمانية سريعة التقلب ، وإذا بها تعثر فى الكفاح والمقاومة ، لأن نظمها وتقاليدها البرلمانية وما تلقى أحيانا من المعارضة وتجاذب الآراء والقوى ، يحول دون سرعة الإقدام والبت فى المواقف والأزمات الخطيرة .

وقد ظهر فى أثناء الأزمة الدولية الأخيرة فى سبتمبر الماضى ، أن ألمانيا وإيطاليا تتفوقان فى الأهبة الحربية الشاملة ، والمعدات العسكرية ، على الدول الديمقراطية ، وأنهما استطاعتا أن تقوما فى ذلك الظرف الدقيق بتعبئة عسكرية سريعة اعتمدتا عليها فى تدعيم وجهة نظرهما ، وفى إحراز فوز حاسم فى مؤتمر ميونيخ ، وهما مازالتا اليوم تواليان العمل السياسى اعتمادا على هذه القوة ، فألمانيا تبسط نفوذها الساحق على أوربا الوسطى ودول البلقان ، وتطالب بمستعمراتها السابقة بقوة ووعيد ، وإيطاليا تطالب بمغانم ومزايا استعمارية جديدة وتغرق فى الوعيد والتحدى .

واليابان من جانبها وهى ركن الدكتاتورية فى الشرق الأقصى تتوغل فى الصين وتستولى على أراضيها وعواصمها تباعا ، دون أن تستطيع قوة أن تقف فى سبيلها .

فهل معنى ذلك كله أن كفة الدكتاتورية قد رجحت أو أنها سترجح نهائيا ؟ وأن معسكر الديمقراطية سيرغم على الخضوع والتنازل باستمرار ؟ وأن انكلترا وفرنسا سيقضى عليهما بفقد تفوقهما السياسى القديم ، وتغدوان من الدول الثانوية بعد أن كانتا فى طليعة الدول العظمى ؟

يقول بعض أنصار الدكتاتورية إن الامبراطورية البريطانية سائرة إلى الانحلال ، وإنها تعانى الآن بوادر الداء الأولى ؛ وإن الشعب الفرنسى قد فقد بفعل المؤثرات الاشتراكية والشيوعية فضائله القديمة ، ودخلت فرنسا فى دور انحلالها ، وإن المستقبل يبسم للدكتاتورية ، وسيكون لها .

وهذا تصوير تطبعه المبالغة . نعم إن الديمقراطية قد أصابتها فى الأعوام الأخيرة عدة ضربات وهزائم واضحة ، وقد فقدت بلا ريب كل ما جنته من ظفرها فى الحرب الكبرى بتحطيم معاهدة فرساى ؛ وقد ارتكبت عدة أخطاء خطيرة ، وأبدت كثيرا من التردد والضعف فى مختلف الأزمات الدولية . ولكن يلاحظ أولا أن الديمقراطية قد شعرت بالخطر المحدق بها من جراء تهاونها وتخاذلها ، ونهضت لدرئه بنفس الوسائل التى لجأ إليها خصومها ، أعنى بالتسليحات الضخمة ، والاستعدادات العسكرية العظيمة . وإذا كانت الدول الدكتاتورية قد بلغت فى ذلك مدى عظيما ، فإنه يلاحظ أنها قد استنفدت فى بلوغه كل طاقتها ومواردها ، وأنها قد ضحت فى سبيله بالاقتصاد القومى ، وأضحت تنوء تحت أعباء ومتاعب اقتصادية هائلة . أما الدول الديمقراطية فإنها ما زالت

تستطيع ، بالاعتماد على مواردها القومية والاستعمارية العظيمة ، أن تمضى فى ذلك أشواطاً بعيدة ، وأن هذا التنافس فى التسليح سوف ينتهى بفوزها وتفوقها ؛ وليس أدل على ذلك مما تدعو إليه ألمانيا اليوم من تحديد التسليحات ، وذلك خشية من تخلفها فى هذا المضمار الذى لا تقوى عليه مواردها وجهودها ، ومحاولة منها أن تستبق مرحلة التفوق التى بلغتها .

والمعسكر الديمقراطى بعد ذلك أكثر عددا ، فهو يشمل بريطانيا وفرنسا وروسيا من الدول الأوربية العظمى ، وقد يشمل بعض الدول الثانوية مثل بولونيا ورومانيا وبلجيكا حسبما تدل عليه التطورات الأخيرة . وأهم من ذلك أنه يشمل الولايات المتحدة (أمريكا) وهى اليوم أشد دول العالم خصومة لألمانيا وللمعسكر الدكتاتورى ، وأشدها حماسة فى المناداة بمقاومته وتحطيمه .

أما المعسكر الدكتاتورى فهو ينطوى اليوم على محور برلين روما . ولكن مما يشك فيه أن يستمر هذا التحالف بين ألمانيا وإيطاليا طويلا على قوته وتضامنه . وهو قد فقد كثيرا من قوته منذ استولت ألمانيا على النمسا ، وفقدت إيطاليا بذلك كل نفوذها فى أوربا الوسطى . هذا فضلا عن أن الفاشستية تنظر بعين القلق إلى مجاورة ألمانيا الكبرى لحدود إيطاليا الشمالية . أما الميثاق الثلاثى المعقود بينهما وبين اليابان فهو ميثاق خيالى ؛ واليابان لا تفكر إلا فى مصالحها فى الشرق الأقصى ، ولا تقبل أن تكون ألعوبة فى يد الدول الفاشستية تتخذها أداة للتوازن الأوربى ، وهو ما يرمى إليه محور برلين روما .

هذا وقد بلغ الصراع بين المعسكرين اليوم مداه فى ميدان السلم ؛ وبلغت الديمقراطية فى تساهلها وتنازلها أقصى الحدود ؛ فأى اصطدام جديد بين المعسكرين قد يضرم شرارة الحرب التى رأت الديمقراطية أن تتفادى حتى اليوم تجنبها بكل الوسائل .

والدكتاتورية مازالت تؤمن بالاعتماد على تجاربها الصاخبة وتحقيق أمانيها بطريق الوعيد والتحدى ، وهو الطريق الذى نجحت فى سلوكه حتى اليوم ؛ وليس أدل على ذلك مما وقع أخيراً بين إيطاليا وفرنسا ، حيث قامت فى إيطاليا حركة عنيفة شبه رسمية المطالبة بتونس وبنس وكورسيكا ، ولكن هذه الظاهرة العنيفة لم تسفر إلا عن إحداث رد فعل عكسى فى فرنسا حيث أبدت فرنسا عزمها بمظاهرات رسمية وشعبية على الدفاع عن كل شبر من الأرض تخفق عليه رايتها ، وإيطاليا أعرف الناس بأنها لا تستطيع أن تحقق شيئا من هذه المطالب إلا بحرب هائلة تنتصر فيها ، ولكنها تتوسل بها كما هو واضح لتحقق فى قناة السويس وتونس وجيبوتى مطالب أقل خطورة وأيسر منالا .

ومن جهة أخرى فإنه يلاحظ أن هنالك تحولا فى تيارات السياسة الأوربية لم يعرف حتى اليوم أثره ومداه ، فالميثاق البولونى السوفييتى الذى عقد فجأة بين بولونيا وروسيا والذى أثار فى ألمانيا دهشة واضطرابا ، ومظاهر التقرب بين فرنسا وألمانيا التى انتهت بإصدار التصريح الفرنسى الألمانى بعدم الاعتداء ، وما يقال عن محاولة التقرب بين ألمانيا وروسيا ، وما يعتزمه رئيس الوزارة البريطانية من زيارة روما لتوثيق الروابط الايطالية الانكليزية ، وربما الايطالية الفرنسية ؛ كل هذه وقائع وتطورات ستحدث أثرها بلا ريب فى الوضع الدولى فى أوربا ، وفى سير الصراع بين الكتلة الدكتاتورية ، والكتلة الديمقراطية .

والخلاصة أن الديمقراطية قد خسرت إلى اليوم فى هذا النضال كثيرا من المزايا العسكرية والسياسية ، وقد فقدت كثيرا من هيبتها السياسية ، ومن سيطرتها القديمة على القارة الأوربية ، وعلى سير الحوادث الدولية . ولكن الفرصة ما تزال سانحة أمامها لاسترداد كل شىء ، والزمن حليفها ، ومواردها التى لا تنضب ، خير كفيل بتفوقها فى معركة عالية طويلة المدى . (٭٭٭)



هنا في كل أسبوع ، تحت مصباحي الأخضر ، أعرض كل حياتي الليلية . حياة رحبة مضيئة زاخرة بشتى الألوان . ميدانها لا في المراقص وحانات الليل بل في حجرتي المزوية ومقعدي الواسع قرب خزانة كتبي . حياة الليل عندي هي حياة النفس في اتصالها النبيل بما أقرأ في ساعات السكون ، وفي إصغائها الطويل إلى الخواطر والأفكار التي تعمر عالمي الصامت .

* * *

صدفت نفسي البارحة عن القراءة . فلم أدر ما أصنع . وإذا يدي تعبث على غير علم مني برسالة جاءتني منذ يومين ، إنها من فتاة لم تجاوز العشرين تريد الاشتغال بالأدب ، وتسألني في إصرار أن آذن لها بمقابلة كي تبسط لي أمرها وتتلقى فيه رأيي . وذكرت ما عبر رأسي عندئذ من صور . إني أعرف المرأة التي تعطي الأدب حياتها . إنها المرأة التي لم تجد رجلا تمنحه هذه الحياة . ولكنها ما زالت في أول الشباب . إذن لعلها تشعر أن الطبيعة قد جردتها من ذلك السحر الذي تسيطر به على قلب الرجل . والمرأة إذا جردت من هذا « الرداء » فليس أمامها إلا أن ترتدي مسوح الراهبات . ولعل في « رهبنة الفكر » قوة جديدة قد تستخدمها المرأة في طرق باب الأمل من جديد . على أي حال لا بأس من مقابلة الفتاة . فضربت لها موعداً بمكتبي هذا الصباح . فحضرت . وما كاد بصري يقع عليها حتى انقلب كل شيء في رأسي ، وفسدت الصور في سرعة البرق . فالفتاة التي أمامي جميلة رشيقة أنيقة . إنها من ذلك الطراز الذي يخطر في حلبات السباق في أحدث الأزياء ، ناثراً في الهواء أحدث العطور ، تاركا خلفه في كل خطوة آلاف النظرات والحسرات والتنهدات . إنها من ذلك النوع الذي يرى في المقاصير الأولى من المسارح ليالي الافتتاح ، فيلقي الهمس والافتتان في صدور الجماهير . اضطرب أمري وقلت في نفسي : « ليس هاهنا مكان هذه الفتاة ! » . ورأت ما بي فبادرت بالتحية وقالت في ابتسام ، وهي تجلس حيث أشرت إليها بالجلوس :

— أريد منك يا أستاذ أن تصارحني في كل شيء .

فقلت لها كالمخاطب لنفسي وعيني ما تزال تفحصها :

— بل أنا الذي أرجو أن تصارحيني بكل شيء ...

فأطرقت قليلا ، وقد أرخت أهدابا ألقت على خدها ظلالا :

— إني يا سيدي ... أحب الأدب .

فقلت على الفور :

— إن الأدب يا سيدتي يتشرف بهذا الحب ...

وبدا على وجهي الارتياب فقلت :

— لكن ...

— لكن ؟

— ماذا تقصدين بالضبط أيتها الآنسة ... ؟ أرجو منك أن تفصحي قليلا ...

فأطرقت مرة أخرى . وكأنها لا تعرف كيف تبدأ

الحديث . ثم رفعت عينيها ، وأخذت تتأمل المكان الذى أعيش فيه . فلم تجد شيئا باسما . فلا زهرة مفتحة ، ولا أثاث أنيق ، ولا حيطان زاهية اللون ، ولا ضوء كثير باهر !

فرأيت كأن صدرها قد ضاق ، وأنها تريد التنفس ، وأن شفتيها القرمزيتين تهتزان ، وأنها تكاد تصيح على الرغم منها : « أهذا جو الأدب ؟ » .

ولحظتها تنظر إلى النافذة وهى عارية ليس عليها أستار ، وأمامها بناء عال يحجب عنها الشمس . فخيل إلى أنها تقول :

— أيكفيك هذا النور ؟ ...

فأجبتها فى هدوء :

— يكفينا دائما النور المضئ فى نفوسنا !

فلم يبد على الفتاة أنها فهمت عنى . فإن سطور وجهها ما زالت تنم عن خيبة الأمل !

على أن الذى أدهشنى هو بقاؤها بعد ذلك !

ما الذى دفعها إلى المجئ ؟ وما الذى ربطها إلى هذا المقعد الساعة ؟ ونظرت إليها مليا ثم قلت :

— إذا صدقت فراستى أيتها الآنسة فأنت لم تخلقى للأدب !

فقالت فى غير تحمس وهى تبحث بعينيها عبثا عن مرآة فى الحجرة :

— لم لا ؟

فلم أحر جوابا ؛ لم أستطع أن أذكر لها السبب . إنها جميلة . إن الآدمى قد يعطى الأدب « حياته » ، لكنه لا يعطى الأدب « جماله » . وأردت أن أستخرج سرها فقلت لها :

— أى أنواع الأدب تحبين ؟

فظهر عليها الارتباك . لكنها أسرعت تخفيه بحركة من يدها فتحت بها حقيبتها الصغيرة وأخرجت منها مرآتها وإصبع أحمرها ، وجعلت تتزين وهى تقول :

— لست أفضل نوعا على نوع .

فحدجت إليها النظر ثم سألتها فجأة :

— لماذا شرفتنى بالزيارة ؟

فأجابت وهى تنظر فى مرآتها الصغيرة :

— لأنى ... سمعت عنك كثيراً ...

— أقرأت لى شيئاً ؟

— بالطبع ...

— ماذا قرأت لى ؟

— آه ...

وتظاهرت بالنسيان ومحاولة التذكر . فلم أرد المضى فى إحراجها . ولزمت الصمت . وجعلت أصابعى تعبث لحظة برسائلها . وأدركت أن هذه الفتاة تسخر منى ، فما أكثر الفتيات المغرورات اللاتى يلذ لهن مداعبة الرجال المتزلين ، والهزء بالنساك المترهبين ! فقلت لها فى شئ من الجفاء :

— أيتها الآنسة ! لماذا كتبت إلىّ تقولين إنك تريدين الاشتغال بالأدب ؟

فقالت وهى تعيد مرآتها وإصبع أحمرها إلى حقيبتها :

— لأنى أريد ذلك . أهو شئ عسير الاشتغال بالأدب ؟

فلم أعرف كيف أجيبها . وشعرت فى نفسى بما يشعر به رجل الدين ، إذ يرى شخصاً يقذف محرابه بحصاة ، ولعلها رأت منى ذلك . فهى لا تخلو من ذكاء يلمع فى عينيها الجميلتين ، فبادرت تقول لى :

— أأعترف لك بالحقيقة ؟

وصمتت قليلا . وتأملت نفسى فى جلستى وعباءتى وقلنسوتى ، وتأملت عبارتها الأخيرة ، فخيل إلىّ أنى راهب ناسك يحادث الغانية . ورفعت الفتاة رأسها . وأقبلت علىّ تقول :

— الحقيقة أنى لا أحب الأدب . ولم أقرأ كتاباً قط منذ تركت المدرسة . ولا شيء يثقل على نفسى مثل الكتابة والقراءة . إنى لا أكتب رسالة إلى إحدى صديقاتى حتى أتناول بعدها قرصاً من الاسبيرين . إنى أحب السينما وسباق الخيل والرقص والموسيقى ...

فقاطعتها قائلا :

— « الجاز » طبعاً !

فقالت فى نبرة المتحدث عن شيء مفهوم بالبداهة :

— طبعاً .

فتنهدت وقلت كالمخاطب لنفسى :

— ألم أقل إن فراستى قد صدقت ...

ولم تترك لى الفتاة وقتاً للمضى فى الكلام . فأسرعت تقول :

— نعم . ولكنى مع ذلك أريد ...

فلم أملك نفسى وصحت :

— تريدين ماذا ؟

فارتفع صوتها فى قوة وعزيمة :

— أريد أن أحب الأدب .

فلبثت فمى مفتوحاً من الدهشة . ولم أدر ماذا أقول لهذه الفتاة المدللة :

— أتحسبين أيتها الآنسة أن الأدب فتى جميل من فتيان الرقص ، أو حصان « فافورى » من خيول السباق ؟

فتجهم وجه الجميلة وأسدلت أهدابها الطويلة . ورأيت كأن غماماً كثيفاً يمر أرجاء نفسها . وأخيراً انتفضت وقالت متوسلة :

— أرجوك ، أرجوك ! لا تردنى خائبة يائسة !

فقلت فى رفق :

— أنا طوع أمرك يا سيدتى . لكن ... فلنتكلم فى حدود المعقول .

— نعم . اجعلنى أحب الأدب ، بأى ثمن ، مهما كان الثمن .

— هذا يا سيدتى غير معقول !

— لماذا ؟

— لأن الحب لا يطلب ولا يشترى . وأنت أدرى منى بذلك .

فهمست فى ألم :

— نعم ، هذا صحيح ... آه ! ...

وأثر فى نفسى يأسها . وذكرت أنى لم أسألها بعد عما يدفعها إلى هذا الطلب الغريب . فالتفت إليها أستوضحها الأمر . فأسرعت قائلة :

— لا تسألنى ! ما الفائدة ، ما دمت لا تملك لى شيئاً ! ...

ونهضت تريد الانصراف ، فنهضت وأنا أفكر فى أمرها . ومدت إلىّ يدها مودعة وهى تقول :

— إنى آسفة لإزعاجك . إنى فتاة حمقاء ، كنت أعتقد أن كل شيء فى الامكان ! ...

فقلت لها ويدها فى يدى :

— نعم ، كل شيء فى الامكان ، ما دامت الإرادة قوية والدافع نبيلا .

فجذبت يدها فى لطف وقالت على عجل :

— وإذا ضمنت لك قوة الإرادة ، ونبل الدافع ، أتعدنى بالمساعدة ؟

ورأيت فى عينيها بريقاً ينم عن أمل متجدد ؛ فشق علىّ أن أطفئه بكلمة . غير أنى خشيت أن أقطع على نفسى عهداً لا أستطيع الوفاء به ، وأنا أجهل بعد كل شيء فى الموقف . فأنا فى ضباب ، ونحن نتكلم فى أمور يختلف معناها باختلاف المتكلم . وكلمة « الأدب » لها عندى

الثقافة

مجلة أسبوعية للاجتماع والآداب والعلوم والفنون

AL-THAQAFA

الإدارة : بالقاهرة – عابدين – شارع الكردي رقم ٩ تليفون ٤٢٩٩٢

العدد الثاني — « الثلاثاء ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ — ١٠ يناير سنة ١٩٣٩ » — السنة الأولى

الفهرس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١ قرش صاغ

بين الغرب والشرق
أو المادية والروحانية

كنت أقرأ فى الكتاب القيم الذى أصدره حديثاً أخى الدكتور طه حسين فى « مستقبل الثقافة فى مصر » ، فاستوقف نظرى تخطئته لمن يقول : « إن الحضارة الأوربية مادية مسرفة فى المادية لا تتصل بالروح أو لا تكاد تتصل به ، وهى من أجل ذلك مصدر شر كثير تشقى به أوربا ويشقى به العالم كله أيضاً »

وقد رد على هذا الرأى « بأن الحضارة الأوربية عظيمة الحظ من المادية ، ولكن من الكلام الفارغ والسخف الذى لا يقف عنده عاقل أن يقال إنها قليلة الحظ من هذه المعانى السامية التى تغذو الأرواح والقلوب ... ومن الخطأ أن يقال إن هذه الحضارة المادية قد صدرت عن المادة الخالصة ، إنها نتيجة العقل ، إنها نتيجة الخيال ، إنها نتيجة الروح الخصب المنتج ، نتيجة الروح الحى الذى يتصل بالعقل فيغذوه وينميه ، ويدفعه إلى التفكير ثم إلى الإنتاج ثم إلى استغلال الإنتاج ، لا نتيجة هذا الروح العاكف على نفسه الفارغ لها ، الفانى فيها ، الذى تفسد الأثرة عليه أمره ، فلا ينفع ولا ينتفع ، ولا يفيد ولا يستفيد » . إلى أن يقول : « هؤلاء الذين يخاطرون فى الطيران ، فيلقون فيه الموت شنيعاً بشعاً ، ليسوا ماديين ، لأنهم يضحون بحياتهم فى سبيل تقدم العلم وبسط سلطان العقل على عناصر الطبيعة الجامحة .. إن هذه الحضارة الأوربية المادية هى التى تضحى فى كل يوم بكثير من الأنفس فى سبيل العلم وفى سبيل السيطرة الطبيعية » الخ

* * *

استوقف نظرى هذا الفصل وأثار تفكيرى ، وترددت فى نفسى هذه الأسئلة : هل الحق أن الحضارة الأوربية مادية وروحية معاً أو هى مادية فقط ؟ وهل الحق أن الشرق لا يمتاز بروحانية ؟ وهل الحق أنه إن امتاز بروحانية فهى روحانية قليلة القيمة ، باعثة على الفناء ، تدور حول نفسها ولا تنتج شيئاً ؟ وقلت : لعل وجه الصواب يتضح إذا نحن حددنا معنى المادية والروحانية ، ثم نظرنا بعد فى ضوء هذا إلى الشرق والغرب

لقد قال كثير من الكتاب والفلاسفة إن الشرق موطن الروحانية ، والغرب موطن المادية ، كالذى يقوله بلدوين فى كتابه « معجم الفلسفة » عند الكلام فى الإسكندرية : « إن الشرق والغرب اختلطا فى الإسكندرية ، وامتزجت آراء رومة واليونان والشام ، فى المدنية والعلوم والدين ، بآراء الشرق الأقصى فى ذلك ، فنشأت قضية جديدة ، عمل على إيجادها بحث الغرب وإلهام الشرق » فما الذى يعنى بالمادية والإلهام أو الروحانية ؟

من الواضح جداً أننا إن عنينا بمادية الغرب عنايته التامة فقط بالمادة التى يرمز إليها بالمال من ذهب وفضة وأوراق مالية ونحو ذلك ، فهذا قول ظاهر البطلان كما يقول « الدكتور » . فالمدنية الأوربية مملوءة بالعواطف ، من عاطفة حب تقوى أحياناً حتى تصل إلى الانتحار ، وعاطفة إعجاب ببطولة وإعجاب بجمال ، وازدراء للنذالة وكراهة للقبح ، وإحسان إلى فقير ، وتضحية نفس ومال لوطن ، ونحو ذلك

من مظاهر العواطف التي قد يفوق فيها الغربيون الشرقيين ، مع ما شهر به الأولون من مادية ، والآخرون من روحانية . والمدنية الأوربية كذلك مملوءة بالعقل ، فالعلم يسير سيراً حثيثاً في الحضارة الأوربية وهو يسبق الشرق فيه بمراحل . والغربيون الآن أساتذة الشرق في الرياضة والطبيعة والكيمياء . وكل فرع من فروع العلم ، وليس هذا العلم مستعبداً للمال ولكن يستغله المال ، ولا بأس عليه من ذلك ، بل نرى في هذه البيئات الأوربية علماء كانوا المثل الأعلى للتضحية من أجل العلم ، فمنهم من أعرض عن المال وداسه بقدميه في سبيل تجربة يستكشفها أو نظرية يحققها ، بل منهم من ضحى بنفسه للعلم فمات شهيد اختبار يختبره أو فكرة يبرهن عليها . وأين ذلك كله من دعوى المادية في الحضارة الأوربية ؟

إن كان هذا هو معنى المادية فالدعوى — كما يقول الدكتور — ظاهرة البطلان ، ولكن ألا يوجد معنى آخر يستقيم به الفرق ؟

هناك معنى آخر قد يكون أقرب إلى الصواب ، وهو أن معنى المادية تفسير ظواهر هذا العالم على أساس المادة من غير التفات إلى عالم آخر روحي وراء هذا العالم ، وبناء كل وسائل الحياة وكل ظواهر المدنية والحضارة والثقافة على أساس المادة وحدها

فليس العقل إلا شكلا من أشكال المادة الدائمة التغير والتنوع ، وليست أفعال الانسان مهما دقت إلا نتيجة لمواد الجسم ، وليست كل الظواهر النفسية من فكر وإرادة وعاطفة إلا نتيجة للمخ المادى من حيث عمله وحجمه وتركيبه . والعالم « كساقية جحا » تملأ من البحر وتفرغ في البحر . وكل مظاهر الكون من مظاهر السماء ، ومظاهر الأرض ، وغنى من اغتنى وفقر من افتقر ، وذكاء الذكي وغباء الغبي ، وأدق الأمور النفسية والاجتماعية ليس إلا نتيجة المادة . هذا هو معنى المادية ، وهو — كما يظهر لي — النظر السيطر على الحضارة الأوربية ، فالقدرة العلمية الهائلة في الحضارة الأوربية اتجهت نحو المادة وأتت فيها بالعجب العجاب ، ولا غرابة في ذلك فالمادة معبودها ، فطبيعي أن تتجه نحوها بكل قواها تستكشف كل يوم استكشافاً جديداً وتخترع اختراعاً جديداً ، فكهرباء وبخار ولاسلكي ونحو ذلك مما لا يحصى ولا يعد

ثم إن هذه الأشياء المادية كلها تستغل في الحياة المادية ، في المنازل ، في دور السينما ، في الإقامة والسفر ، في الجد والهزل ، في كل مرفق من مرافق الحياة . بل والأخلاق الأوربية الحديثة وضعت على هذا الأساس . فأهم الأخلاق ما أفاد هذه الحياة المادية كالنظام ، والمحافظة على الزمن ، والاقتصاد ، ومراعاة الصحة . وأما التواضع والحياء والتفكير في النفس ونحوها فتأتي آخر القائمة ، على أنهم في شك من قيمتها الخلقية ، وهم على حق في ذلك ما دام الأساس هو الحياة الواقعية

ثم الحياة الاجتماعية كلها نظمت على هذا الأساس المادى ، من استمتاع باللذائذ ما لم يتأذ الغير . وبناء المعاملات كلها على أساس من الاقتصاد لا روح له ، بل وأعمال الخير كلها من إحسان المحسنين وتبرعات المتبرعين واكتتاب المكتتبين لبناء مستشفيات وملاجئ ونحوها ، إنما أساسها كلها تحسين هذه الحياة الواقعة ، ورفع البؤس عنها ، وإيصال أكبر قسط من السعادة

أو اللذة إلى أهلها . وهكذا

* * *

أما الروحانية فترى أن المادة وحدها عاجزة عن أن تشرح كل مايحدث فى العالم ، بل لا يفسرها إلا القول بوجود شيء غير مادى ، شيء روحانى وراء هذا الشيء المادى . فالفكر وظواهر العقل ليس نتيجة المخ المادى ، نعم إن المخ آلة التفكير ، ولكن يستحيل أن يكون الفكر الإنسانى الذى يشعر بشخصيته وبحرية إرادته نتيجة لمادة لاتحس ولا تشعر مهما كانت حالتها من دقة تركيبها وحسن نظامها

وأعمال الإنسان وظواهر الوجود والذكاء والغباء وحدوث المألوف وغير المألوف والغنى والفقر وأحداث القدر والموت والحياة ونحو ذلك كله ، لا يمكن تفسيرها تفسيراً مقنعاً إذا اقتصر فى هذا التفسير على المادة وحركاتها ، بل لا بد أن ينضم إليها شيء روحانى

فالإيمان بعالم روحانى بجانب العالم المادى من نفس وإله وعالم آخر هو أوضح خصائص الروحانية

وهذا النوع من النظر هو الذى يسود الشرق ، فهو يؤمن بالإلهام الذى لا يعلل ، كما يؤمن بالمنطق الذى يعلل ، على حين أن النزعة المادية لا تؤمن إلا بسبب ومسبب ، وعلة ومعلول ، ومقدمة ونتيجة

والشرق — على العموم — أميل إلى أن يدخل فى حسابه العالم الروحانى والعالم المادى معاً ، يؤمن بالقدر خيره وشره ، ويحسب ما بعد الموت كما يحسب قبل الموت ، وإذا تطلب السعادة طلبها من ناحية إيمانه ومن ناحية تعديل نفسه ، أكثر مما يطلبها من ناحية تعديل الظروف الخارجية ، ولم يبن معاملاته على أساس اقتصادى مادى ، بل يبنيه على أن فيه جانبا كبيرا لله أو نحو ذلك ، وإذا أحسن فليس يدقق فى حسابه ويتساءل : ما نتيجة هذا الاحسان فى العالم المادى ؟ بل يرضيه أن يكون قد أرضى ربه ونفسه ، وإذا قوّم الأخلاق فلا يقتصر فى تقويمها على النظر فى نتيجة هذه الأخلاق بالنسبة للعالم الواقعى ، بل نتيجتها فى الدنيا والأخرى معاً ، وليس يرى مبدأ « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، بل كل عمل فيه ما لقيصر وفيه ما لله

وقد تغلب النزعة الروحية على بعض الأفراد ، فترى أثر ذلك فى التصوف والانقطاع إلى العبادة ، ونظام الخانقاهات ونحوها . وهو أمر شائع فى الشرق ونابع من الشرق

ولعل سيادة هذه النزعة فى الشرق جعلته مهبط الأديان . فالأديان الثلاثة الكبرى وهى : الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية ، ظهرت فى الشرق ، وانتقلت منه إلى الغرب

* * *

ولست أنكر أن فى الغرب روحانية ، وأن فى الشرق مادية . ففى الغرب روحانيون قد يفوقون بعض روحانيى الشرق ، صفاء نفس ، وقوة يقين ، وتقديراً للأعمال بميزان الروح ؛ كما أن فى الشرق ماديين قد يفوقون بعض ماديى الغرب إمعاناً فى تقدير المادة ، واقتصاراً على ميزان الأعمال بميزانها ؛ ولكن الحكم فى مثل هذه المسائل العامة لا ينبنى إلا على الأعم الأغلب ، لا على القليل النادر

كما أنى لا أنكر أن فى الغرب ديناً ودِيناً كثيراً ، ونظماً دينية دقيقة ، وكنائس فخمة ، ومعابد عظيمة ؛ ولكنى أدعى — على ما يظهر لى — أن نظرة الغربى إلى الدين ، على وجه العموم ، تخالف نظرة الشرقى إليه ؛ وقد

يكون أهم هذا الخلاف من ناحيتين : إحداهما أنه يسود الغربى النظر إلى الدين كنظام اجتماعى ، والثانية أن نظرة الدين لا تتغلغل فى كل شىء عند الغربى تغلغلها عند الشرقى

* * *

هذه هى المادية والروحانية فى نظرى ، والمادية بالمعنى الذى شرحت تلتئم مع ما نرى فى الغرب من علم غزير وعواطف فياضة وتضحيات كثيرة ، ولكن هذا كله لم يمنع من أنها صبغت الحضارة الأوروبية صبغة خاصة تخالف روحانية الشرق بالمعنى الذى أثبت

وقد غزا الغرب الشرق لا بسيوفه ومدافعه وطياراته فحسب ، بل غزاه أيضاً بحضارته ونظراته إلى الحياة ، وكان من الطبيعى — وقد انكسرت قوة الشرق الحربية أمام قوة الغرب الحربية — أن يظن الشرق أن نظرة الغربى إلى الحياة خير من نظرته ، وحضارته خير من حضارته ، فاستسلم لها ، وسار فى طريقها ، وفتح لها صدره ، وأسلس لها قياده ، وباع روحانيته الشرقية الموروثة بالمادية الغربية الحديثة ، وإن كانت الصفقة لم تتم بعدُ

أما أن الخير للعالم أن تسوده كله هذه النظرة الغربية ، فلا يكون فى العالم إلا حضارة واحدة ، أو أن يحتفظ الشرق بروحانيته ويبنى عليها حضارة جديدة ، وأن يكون فى العالم لونان : لون مادى تمثله الحضارة الغربية ، ولون روحانى تمثله الحضارة الشرقية ، ثم تتعاون الحضارتان كما يتعاون جسم الانسان ونفسه ؟ فذلك موضوع آخر له مجال آخر .

أحمد أمين

مع أدبائنا المعاصرين

«فيض الخاطر»

للأستاذ أحمد أمين

بقلم الدكتور طه حسين بك

أنفق صباه وأول شبابه تلميذا وطالبا كما أنفقناهما جميعاً ، ولكنه ذهب إلى الكتاب فجلس على الحصير ، وشارك فى حياة الكتاب كلها ، إلا ما كان من عمس الأيدى إلى المرافق فى ماجور الفول النابت ، وفى ماجور المخلل ، فقد كان الكتاب قريباً من داره ، وكان يتغدى مع أسرته . ثم تحول عن الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فشارك فى حياتها المنظمة المتأثرة بتقليد الفرنجة عصرا ، ثم تحول إلى الأزهر الشريف ، فعاد إلى الحياة المحافظة الخالصة التى تأثرت بها أسرته تأثرا شديدا ، فقد كان أبوه من علماء الأزهر . ثم اتصل بمدرسة القضاء ، فانتقل من المحافظة الخالصة التى كان يلطفها تأثير الشيخ محمد عبده ، إلى محافظة معتدلة كان ينظمها ويشرف عليها عاطف بركات فى مدرسة القضاء . ثم خرج من هذه المدرسة ، وجعل يبحث عن نفسه فلا يهتدى إليها ، أو لا يكاد يهتدى إليها . وجعل أصدقاؤه والمتصلون به يبحثون عن نفسه أيضاً فلا يهتدون إليها ، أو لا يكادون يهتدون إليها . بحث عن نفسه بين الفقهاء الذين يفرغون للفقه درسا وبحثا ، وبين الفقهاء الذين يفرغون للفقه تنفيذا وتطبيقا ، فكان معلما ، وكان قاضيا شرعياً . وبحث عن نفسه بين الفلاسفة الذين ينظرون ويقرءون ويتفلسفون ما ينظرون وما يقرءون ، فحاول الترجمة فى الفلسفة ، والكتابة فى الأخلاق ، ولكنه لم يرض عن نفسه فقيها ولا قاضيا ولا متفلسفا . وما أظن

أن أصدقاءه والمتصلين به قد رضوا عنه فى هذه الأطوار كلها ، فقد كانوا يرونه أرفع منها منزلة ، وأبعد أمدا ، وأوسع أفقا . على أنهم اهتدوا إلى ناحية مشرقة من نواحيه حين ألفوا لجنتهم هذه التى ملأت الدنيا علما وأدبا ، وكلاما وكتبا ، والتى لم يكفها ذلك كله ، حتى أرادت أن تشق على الناس بهذه الصحيفة التى تفرضها عليهم كل أسبوع ؛ فاختاروه رئيسا للجنتهم هذه ، وجعلوا يجددون انتخابه لرياسة هذه اللجنة كل عام منذ أنشئت إلى الآن ، وقد نيف عمرها على العشرين ، وأحسبها قد بلغت عيدها الفضى ، كما يقول الفرنجة ، أو كادت تبلغه . فقد عرف منه أصدقاؤه إذن جدا وحزما ، وصدقا وإخلاصا ، ونصحا للمتصلين به والعاملين معه ، فآثروه بخير ما يؤثر به الصديق الصديق من الحب والثقة . ولكنهم ظلوا حائرين فى أمره ، كما كان هو حائرا فى أمر نفسه ، لا يعرفون أين يضعونه : أيضعونه بين الفقهاء ؟ أيضعونه بين القضاة ؟ أيضعونه بين الفلسفين ؟ وأذكر أنى رأيته منذ اثنى عشر عاما أو نحو ذلك ، فإذا هو ضيق بكل شىء ، منصرف عن كل شىء ، يريد أن يفرغ لنفسه ، أو يريد أن يفرغ من نفسه لشىء يشغله عنها وعن الناس ، ويشعره بأن لحياته خطرا وأثرا . ثم اتصل بالجامعة وفرغ لها ، ونهض بتكاليفها ، وما هى إلا أشهر حتى أخذ يلمح نفسه من بعيد كما يلمح المسافر فى الصحراء علما من هذه الأعلام التى تهدى الناس وتعصمهم من الجور عن قصد السبيل ، وجعل يدنو من نفسه قليلا ، وكلما دنا منها شيئا ظهرت له واضحة مشرقة ، حتى إذا كان منها غير بعيد أخذه شىء من الذهول ، مصدره الرضى والأمن والطمأنينة ، بعد السخط والخوف والقلق ، فكان أشبه شىء بأولئك اليونان الذين لقوا ما لقوا ، وشقوا ما شقوا ، فى سفرهم البعيد ورحلتهم الشاقة ، إلى بلاد الفرس وفى عودتهم منها ، حتى إذا استيأسوا من الأمن ، وأشرفوا على المكروه ، بدا لهم البحر ، فعاد إليهم الأمل ، وامتلأت قلوبهم رجاء ، وصاحوا فى صوت رجل واحد : البحر البحر . وكان بحر صاحبنا الأدب العربى ، وكانت الصيحة الأولى لصاحبنا « فجر الاسلام » . وما هى إلا أن يبلغ الساحل ويندفع فى هذا البحر الذى انتهى إليه ، حتى يعرف نفسه حق المعرفة ، ويصاحبها مصاحبة العالم بها المستقصى لأسرارها ، البصير بدخائلها ، المستغل لكنوزها ؛ وإذا هو يظهر ما أظهر من « ضحى الاسلام » ، ويخرج من خرج من الشباب ، وينشر ما نشر من الفصول والمقالات ، ويؤلف ما ألف من الكتب فى صميم الأدب ، أو على هامشه ؛ وإذا أصدقاؤه يهتدون إلى نفسه أيضا ، فيرضون ويطمئنون ، ثم يقبلون على ما جعل يقدم إليهم من ثمرات فينعمون ويستمتعون . وإذا هذه النفس التى كانت غامضة حتى على صاحبها ، تظهر وتبهر وتشرق ، حتى يعرفها القريب والبعيد ، وحتى تنشر من ضوئها الهادئ المشرق رداء رقيقا شفافا ، ولكن فيه حرارة تبعث الحياة . وإذا هذا الرداء يغمر الشرق العربى كله ، ثم يتجاوزه إلى الشرق الاسلامى ، ثم تمتد أطراف منه حتى تبلغ الغرب المسيحى فتعجب وتروق . والطريف أنى كنت أسأله اليوم عن نفسه ، أيعرفها ؟ فإذا هو لا يعرف منها شيئا ، أو لا يعلم أنه يعرف منها شيئا . هو يعرف نفسه ولا يعرفها ! يعرفها معرفة لا شعورية ، يضبطها ويملكها ويستغلها ويصرف أمورها كما يريد ، أو كما يسر لتصريفها ، فإذا سألته عن ذلك لم يعرف منه شيئا ، أو لم يحسن أن يصور لك منه شيئا . وأظن أنى قد وصلت الآن إلى الصورة الدقيقة التى تمثل صديقنا أحمد أمين

فهو رجل قد جمع هاتين الخصلتين الحبيبتين إلى النفوس : خصلة الذكاء النافذ البعيد العميق ، وخصلة البساطة الحادة الطريفة التى تجرى على شفتيك — وقد تدفعك أحيانا — إلى

أن تغرق في الضحك إغراقاً . ضعه أمام مسألة من مسائل العلم الأدبي ، أو أمام مشكلة من مشكلات الحياة العملية ، وثق بأنك سترى رجلا نافذ البصيرة صادق الرأي ، نافذاً من المشكلات إلى أعماقها . ثم تحدث إليه عن نفسه ، أو تحدث إليه في أيسر ما يتحدث فيه الناس ، أو راقبه في أيسر حياته اليومية ، في ذهابه إلى الجامعة ، وعودته إلى داره ، في ذهابه إلى لجنة النشر ، وزيارته لأصدقائه ، فسترى منه طرائف الأعاجيب ، سترى منه ألوان السهو وفنون النسيان ، والإقدام على ما كان يجب أن ينصرف عنه ، والانصراف عما كان يجب أن يقدم عليه ، والتنبه لذلك كله بعد وقوعه ، واختلاط الأمر عليه بعد أن ينتبه لما تورط فيه

وهناك صورة أخرى دقيقة لصديقنا أحمد أمين ، تأتلف من متناقضين ، وأنا أعلم أن الناس قد زعموا منذ فكروا أن النقائض لا تجتمع ، ولكنها تجتمع في صديقنا أحمد أمين ، ولن يعدم الفلاسفة تعليلا لاجتماع النقائض هذه ، فهم قادرون على كل تعليل .

هذه الصورة الدقيقة الثانية تأتلف من الهدوء الهادئ ومن الثورة الثائرة . فأحمد أمين هادئ قد عرف بذلك حتى ضربت به الأمثال فيه ، وهو ثائر قد عرف بذلك حتى أشفق الذين يحبونه منه وأشفقوا عليه . فهم يحذرون فيما يكون بينهم وبينه من صلة أن يؤذوه فيدفعه ذلك إلى الثورة ، وهم يشفقون عليه إن غضب ، لأنهم لا يعرفون أحداً يتأثر بالغضب كما يتأثر به .

وستقول إني قد أطلت وأسهبت ، وبسطت في المقدمة ولم أبلغ كتاب «فيض الخاطر» بعد ، ولكن رفقاً أيها القارئ الكريم ، فإن كتاب «فيض الخاطر» ليس إلا خلاصة طريفة عذبة ممتعة لهاتين الصورتين ، ولهذه التناقضات التي تؤلف هاتين الصورتين . في هذا الكتاب ذكاء أحمد أمين وبساطته ، وفي هذا الكتاب هدوء أحمد أمين وثورته .

ولك أن تقرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، وأن تعرض ما فيه من الفصول والمقالات على هذه الخصال الأربع ، فستجدها ممثلة فيه أصدق تمثيل وأقواه . تراها تتمثل جملة وتتمثل تفاريق ، تراه في فصل واحد ذكياً بسيطاً ، وهادئاً ثائراً ، وتراه في فصل آخر وقد غلبت خصلة أو خصلتان من هذه الخصال على ما كتب ، فظهر الذكاء والهدوء ، وظهرت البساطة والثورة . وتستطيع أن تلائم بين هذه الخصال كما أحببت جمعاً وتفريقاً ، وحذفاً وإثباتاً ، فلن يفلت منها فصل من فصول الكتاب .

وفي الكتاب ستون وثلثمائة صفحة ، وفيه أربعة وسبعون فصلا ، وقد قسم لي أحمد أمين من صحف الثقافة قدراً معيناً لا ينبغي أن أعدوه ، فلا تنتظر مني أن أفصل لك القول في الكتاب تفصيلا ، وما أدري أي الأمرين خير لأحمد أمين نفسه : هذا الإيجاز الذي أضطر إليه اضطراراً ، فأخفي من محاسنه وعيوبه ما كان في إظهاره بعض النفع ، أم هذا الإطناب الذي أطمع فيه ولا أظفر به ، والذي كان يتيح لي أن أظهر صديقنا على بعض أشكال نفسه ، فأرضيه حيناً ، وأسخطه حيناً آخر . ولكني مع ذلك مضطر إلى أن أقف عند مواضع قليلة من هذا الكتاب ، لأبين ما وصفت من هذه التناقضات التي يأتلف منها صديقنا أحمد أمين .

وأول ما أقف عنده بالطبع هو مقدمة الكتاب ، لا لأنها أول ما أقرأ من الكتاب ، فقد قرأته كله مجتمعاً ومتفرقاً ، ولكن لأنها تدعو إلى الوقوف . فأحمد أمين ينبئنا بأنه إنما نشر هذه الفصول — لأنها قطع من نفسه يحرص عليها حرصه على الحياة ، ويجتهد في تسجيلها إجابة لغريزة حب البقاء — والظريف الذي لا أشك فيه أنه قد كتب هذا الكلام صادقاً حين كتبه ، ولكنه صدق مصدره الاقتناع والاندفاع ، لا الهدوء والروية ، وأما

أعرف أن من الأدباء من يرون آثارهم الأدبية قطعاً من نفوسهم يجهرون بذلك ويرددونه ، ولكنهم إذا سئلوا عنه لم يحققوه ، وإذا امتحنوا فيه لم يثبتوا عليه . فما عسى أن تكون قطع النفس هـذه ؟ وهل من الحق أن الكاتب — وإن كان أحمد أمين — يحرص على آثاره حرصه على الحياة ؟ وهل لو امتحن صديقنا في ذلك يثبت للامتحان ويحرص على هذه المقالات حرصه على الحياة ، ويدافع عنها كما يدافع عن حياته ، ويتأذى لما يصيبه فيها كما يتأذى لما يصيبه في حياته ؟ كلا . إنما هو كلام أدباء لا أكثر ولا أقل ، وإلا فويل لأصدقائه إذا نقدوه في هذه الفصول واشتدوا عليه في النقد ، وألحوا عليه في التحليل والتعليل والتأويل ، إنهم إذن يؤذونه في حياته ، ويشرحون نفسه تشريح الحقيقة ، لا تشريح المجاز ، وهم أرفق به وأحب له من ذلك . أفتراه إنما قال لهم هذا ليصرفهم عن نقد هذه الفصول ، ويرغبهم عما قد ينالونها به من التشريح والتحليل ؟ كلا . فأنا أعرفه رحب الصدر سمح الخلق ، محتملا للنقد ، ولكنه أديب أحب أثراً من آثاره ، وعبر عن هذا الحب ، فغلا كما يغلو الأدباء ، وخرج عما هو معروف به من الأناة والرزانة والهدوء .

وأخرى في هذه المقدمة ، ليست أقل من هذه ظرفاً ، وهي مذهبه الفني ، فهو من أصحاب المعاني لا من أصحاب الألفاظ ، وهو يؤثر الإيجاز ويكره الأطناب ، وهو يؤثر القصد ، ويكره الزينة . وكل هذا حسن ، وكل هذا يقبل من الأستاذ حين يقوله ، لأنه يقوله صادقاً فيه ، مؤمناً به . ولكن دع المقدمة وامض في قراءة الكتاب ، فسترى فيه فصولا تروع بألفاظها أكثر مما تروع بمعانيها ، وسترى فيه فصولا تعجب بإطنابها أكثر مما تعجب بإيجازها ، وسترى فيه فصولا تروق زينتها أكثر مما تروق بإيثارها للقصد ، واكتفائها بلبسة التفضل . والأستاذ صادق مخلص حين كتب هذه الفصول التي تروع باللفظ لا بالمعنى ، وتعجب بالأطناب لا بالإيجاز ، وتروق بالزينة لا بالقصد ؛ وهو مناقض لنفسه في هذا المذهب الفني الذي صوره وقضى به على نفسه ، ولكنه أديب ، وليس على الأديب بأس من التناقض ؛ فهو لا يتناقض في لحظة واحدة ، ولا في حال واحدة ، ولا في ظروف بعينها . ولكن ما يكتبه من الآثار يمثل لحظات مختلفة من حياته ، فيظهر مختلفاً متبايناً كما اختلفت هذه اللحظات وتباينت ، وإلا فاقرأ «من غير عنوان» صفحة ٢١ ، وحدثني : أموجز هو أم مطنب ؟ أرائع هو بلفظه أم بمعناه ؟ قصة المقال يسيرة جداً . فقد ساء هضم الأستاذ فساء رأيه في الحياة ، وحسن هضم الأستاذ فحسن رأيه في الحياة ، وليس في المقال أكثر من هذا ، إذا حصلت ما فيه . ولكنه أدى هذا المعنى اليسير القريب المألوف ، الذي لا يحتاج تصوره وأداؤه إلى ذكاء خارق ، ولا إلى علم عميق ، أداه في ثلاث صفحات ونصف صفحة من كتابه ، فراعك وراقك وأعجب لأنه أطنب وأسهب ، وأنق في اختيار اللفظ ونقض ما قال من أنه يؤثر الإيجاز على الأطناب ، والقصد على الزينة والحلية .

وللأستاذ أحمد أمين قصة ظريفة ، فقد خطر له ذات يوم أن الأدب القوي خير من الأدب الضعيف ، وأكبر الظن أنه كان قد ضاق ببعض ما يكتب المحدثون ، وببعض ما قرأ من أدب القدماء ، فاندفع ، وما أكثر ما يندفع الأستاذ أحمد أمين إذا اقتنع ، ومد ظل الضعف على الأدب العربي كله ، ووصمنا في قديمنا وحديثنا وصمة مؤذية حقاً ، لم يتردد الكاتب التركي الأديب إسماعيل أدهم في قبولهـا وتسجيلها في «الرسالة» على أنها حقيقة لا جدال فيها . ولكن هذا الفصل الذي كتبه الأستاذ مندفعاً محلاً ، أحفظ بعض الأدباء ، فكتبت إلى الأستاذ أرميه بأنه

(البقية على صفحة ٤٣)

في التاريخ السياسي :

تونس بين فرنسا وإيطاليا

لمحرر «الثقافة» السياسي

لما أسفر مؤتمر ميونيخ في آخر سبتمبر الماضي عن موافقة انكلترا وفرنسا على تمزيق تشيكوسلوفاكيا وضم منطقة السوديت لألمانيا ، تفادياً لحرب كان خطرها يلمع في الأفق ، رأى البعض بحق أن مؤتمر ميونيخ لم يكن خاتمة الأزمة الدولية التي كادت تضرم شرارة الحرب ، ولكنه كان بالعكس فاتحة لها ، وأن تضحية الدولتين الديمقراطيتين العظيمتين لحليفتهما تشيكوسلوفاكيا سوف تثير أزمات جديدة أشد خطورة وأبعد مدى

وقد تحقق ظن هؤلاء الذين لم يهللوا لمؤتمر ميونيخ ، ولم يؤمنوا بأنه كان انتصاراً لقضية السلام ، وإنما كان هزيمة للديمقراطية أمام الوعيد والقوة ؛ فانه لم تمض أسابيع قلائل على اقتطاع ألمانيا لمنطقة السوديت التي لم تكن قط منذ القرون أرضاً ألمانية ، حتى استطاعت ألمانيا أن تستغل ظفرها ببسط نفوذها القوى على تشيكوسلوفاكيا وأمم الوسط كلها ، وحتى تلاشى أمامها كل نفوذ آخر ، واختل التوازن الأوربي بصورة لم يعرفها من قبل ، وتفاقمت مسألتا ممل ودانزج ؛ ولما حاولت بولونيا أن تتحوط لسلامتها ضد الخطر الجرماني الذي أخذ يطوقها ، بتوثيق علائقها مع روسيا السوفيتية ، ردت السياسة الألمانية بالعمل لاثارة مشكلة جديدة هي المشكلة الأوكرانية ، وهي مشروع جرىء يرمي إلى اقتطاع الأجزاء الواقعة من أوكرانيا تحت حكم روسيا وبولونيا ورومانيا وضمها جميعاً في دولة جديدة تنشأ باسم أوكرانيا الكبرى . وتحقيق هذا الحلم الجرماني الجديد ، يعتبر ضربة خطيرة لبولونيا ، كما أنه يعتبر أول خطوة عملية في تمزيق روسيا السوفيتية وسحقها .

ومن جهة أخرى ، فقد ظهرت فجأة في إيطاليا حركة جديدة للمطالبة بنصيبها من المغانم ؛ وإيطاليا هي الطرف الآخر من محور برلين روما . وقد حقق الطرف الأول ، أعني ألمانيا ، خلال العام المنصرم كل ما كان يصبو إليه ، فضمت النمسا ومنطقة السوديت إلى ألمانيا ، وحقق مشروع السيادة الجرمانية في أوربا الوسطى (Mittel Europa) ، وآزرت إيطاليا هذه المشاريع كلها طوعاً أو كرهاً ، بالرغم من أنها كانت ضربة لنفوذها ومصالحها في أوربا الوسطى ؛ وذلك انتظاراً منها لتحقيق مشاريعها في البحر الأبيض بمؤازرة ألمانيا ؛ وقد لاح لايطاليا أن الفرصة قد سنحت لتقديم مطالبها ؛ ففي أوائل ديسمبر ألقى الكونت شيانو وزير الخارجية خطبته عن سياسة إيطاليا الخارجية أمام « البرلمان الفاشستي » وأشار إلى « أماني إيطاليا الطبيعية » وعندئذ هتف النواب الفاشستيون بالمطالبة « بكورسيكا ونيس وتونس » ، وقامت على أثر ذلك في إيطاليا مظاهرات كثيرة تهتف بهذا الهتاف ، وأيدت الصحافة الايطالية ؛ وهي صحافة شبه رسمية ، هذه المطالب ؛ ومع أن الكونت شيانو قد أجاب على احتجاج فرنسا في هذا الصدد ، بأن الحكومة الايطالية لا تسأل إلا عن مسلكها ومطالبها الرسمية ، ومع أن السنيور موسوليني لم يذكر في خطبه السياسية اللاحقة شيئاً عن هذه المطالب ، فإن هذه الحركة المدبرة بلا ريب قد كشفت عما تجيش به إيطاليا الفاشستية من الأماني البعيدة في العمل لتحقيق حلمها في البحر الأبيض وجعله كما تنادي بحراً إيطاليا (Mare Nostrum) .

ونحن نعرف أن فرنسا استولت على جزيرة كورسيكا ثالثة الجزائر الايطالية الكبرى بعد صقلية وسردانية ، في سنة ١٧٦٨ بموافقة حكومة جنوه التي كانت تتبعها الجزيرة

يومئذ، وأنها استعادت نيس من مملكة سردانية سنة ١٨٦٠، وقد كانت من أملاكها قبل ذلك، وأنها غزت تونس وفرضت حمايتها عليها في سنة ١٨٨١

وإذا كانت كورسيكا قد غدت أرضا فرنسية منذ أكثر من قرن ونصف قرن، وغدت نيس كما كانت ثغرا فرنسيا، وإذا كانت مطالب إيطاليا في شأنهما لا يمكن أن تحمل على محمل الجد، فإن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بتونس

ذلك أن تونس ليست مستعمرة فرنسية ولا ملكا فرنسيا، وما زالت مثل مراكش « حماية فرنسية » فقط، ولإيطاليا فيها مطامع قديمة معروفة. وهي ما زالت تصر عليها وتجاهر بها وتستند فيها إلى ظروف واعتبارات خاصة

***

وقبل أن نناقش هذه المطامع الإيطالية والظروف التي تستند إليها، يجدر بنا أن نقدم لمحة عن تاريخ تونس الحديث والظروف التي انتهت بها إلى الانضواء تحت حماية فرنسا

كانت تونس حتى أوائل القرن السادس عشر إمارة مستقلة في ظل الدولة الحفصية؛ ثم افتتحها أمير البحر التركي خير الدين باشا سنة ١٥٣٥ من يد أميرها الحفصي الحسن بن محمد، واستغاث الحسن بشارلكان ملك اسبانيا، فبعث إلى تونس حملة احتلت بعض الثغور والمواقع، وعاد الحسن إلى العرش حينا، ولكن الأمور لم تستقر، وعاد الترك فانتزعوا تونس من يد مولاي الحميد خلف الحسن؛ واستمر التنازع بين الترك والاسبان زهاء نصف قرن، حتى بعث السلطان سليم الثاني إلى تونس في سنة ١٥٧٣ حملة قوية اضطرت الأسبان إلى الجلاء، وضمت تونس إلى أملاك السلطان، وعين لحكمها أحد الباشوات. ولكن لم يمض سوى قليل حتى اضطربت الأمور، وتحرك جند الانكشارية وعزلوا « الباشا » وأقاموا منهم حاكما أطلق عليه لقب « الداى ». واستمر هؤلاء « الدايات » يحكمون تونس باسم السلطان زهاء قرن وثلث قرن، وكان ينافس « الداى » في النفوذ « البك » أو « الباى » الذي كان يتولى جمع الضرائب والاشراف على شئون القبائل؛ وما زال نفوذ هؤلاء « البايات » في ازدياد، حتى انتهى الأمر بأن استطاعت أسرة مراد التي تولت مركز « الباى » مددا متعاقبة، التغلب على « الداى » إبرهيم وانتزاع السلطة من يده (سنة ١٧٠٥). وعلى أثر ذلك قامت ثورة بين الجند وانتهت بإقامة « باى » جديد هو الحسين بن على، فأقام في تونس في ظل السلطان نوعاً من الملكية الوراثية استمر إلى يومنا

وكانت أحوال تونس مضطربة في تلك العصور؛ وكانت أعمال القرصان البربر في البحر الأبيض المتوسط ومعظمهم من الجزائر وتونس، تثير سخط الأمم الأوربية وبخاصة فرنسا وانجلترا، وتحملها على التفكير في أمر تونس والتعرض لشئونها؛ وأرسلت انجلترا وفرنسا إلى المياه التونسية أكثر من حملة انتقامية؛ وفي سنة ١٨١٨ وجهت الدول مجتمعة إلى الباى مذكرة احتجاج شديدة على أعمال القرصنة، ومن جهة أخرى فقد أخذ الاستعمار الأوربي الذي بدأ في ذلك الحين يقتسم افريقية، يرقب تونس باهتمام وجشع، وما كادت فرنسا تتم فتح الجزائر حول منتصف القرن الماضي حتى أخذت تتجه صوب تونس، وترى في افتتاحها تتمة طبيعية لافتتاح الجزائر. وكانت إيطاليا من جهة أخرى حتى قبل أن تحقق وحدتها تهتم بأمر تونس وتطمع في امتلاكها أسوة بما فعلت فرنسا في الجزائر، فلما حققت وحدتها، وتبوأت مكانتها بين الدول الأوربية، اشتد اهتمامها بمصير تونس، وأخذت تمهد لتوطيد قدمها فيها بواسطة جاليتها الكبيرة، والاستيلاء على بعض الأعمال والمصالح الاقتصادية، وكانت فرنسا من جانبها تمد « الباى » بالقروض؛ وتذرعت الدول كعادتها باضطراب الأحوال

الإدارية والاقتصادية ، وفرضت على تونس رقابة مالية قوامها انجلترا وفرنسا وإيطاليا ؛ ولم تكن انجلترا بمعزل عن شئون تونس ، فقد اتجه إليها « الباى » يطلب عونها ، ولم تكن فكرة إعلان الحماية عليها بعيدة عن السياسة الانكليزية التى ترى فى قربها من مالطة عاملاً هاماً فى تدعيم سيادة انكلترا البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، بل لقد مهدت انكلترا بالفعل لمطامعها فى تونس بوضع المشاريع العامة مثل السكك الحديدية والماء والنور وبعض الأعمال العامة فى أيد بريطانية ، ولكن فرنسا استطاعت بعد ذلك أن تقنع انكلترا بأن تترك لها حرية العمل فى تونس نظير موافقة فرنسا على احتلال انكلترا لجزيرة قبرص

واستمر الصراع الاستعمارى على أشده حيناً بين فرنسا وإيطاليا . ولما شعرت فرنسا أن إيطاليا تعد عدتها للاستيلاء على تونس ، بادرت من جانبها بالعمل ؛ ففى أوائل سنة ١٨٨١ سارت قوة فرنسية من الجزائر واخترقت حدود تونس بحجة مطاردتها لبعض القبائل المتمردة ، وما كادت تنفذ إلى قلب تونس حتى ألقت قناعها وسارت تواً إلى العاصمة ، وسارت فى الوقت نفسه قوة بحرية فرنسية من طولون إلى ثغر بنزرت ؛ واضطر « الباى » أن ينزل عند مطالب الغزاة وأن يوقع فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ عهداً بقبول الحماية الفرنسية ؛ وتعرف هذه المعاهدة بمعاهدة « باردو » نسبة إلى القصر الذى وقعت فيه ، وفيها يتعهد « الباى » بألا يفاوض أحداً فى الخارج إلا عن يد « المقيم الفرنسى » . ولم تسقط تونس دون مقاومة ، فاضطرمت ثورات محلية فى القيروان وصفاقس وغيرهما ، ولكنها أخمدت بسرعة ، وتم بذلك مشروع فرنسا فى الاستيلاء على تونس ، وتأيدت معاهدة « باردو » بمعاهدة « المرسى » فى ٨ يونيه سنة ١٨٨٣ ولم يجد احتجاج الباب العالى الذى كانت تتبعه تونس من الوجهة الاسمية ، واعترفت انكلترا بمركز فرنسا فى تونس فى نفس العام ، وتبعتها معظم الدول الأوروبية ثم الباب العالى فى سنة ١٨٩٢ . أما إيطاليا فلم تعترف به إلا فى سنة ١٨٩٦

ويقوم نظام تونس السياسى فى الوقت الحاضر على المعاهدة المتقدمة ، فهى حماية فرنسية يمثل فرنسا فيها « مقيم عام » هو فى الوقت نفسه وزير خارجية « الباى » ورئيس مجلس نظاره ، ويعاونه مجلس استشارى يجتمع مرتين فى العام لبحث الميزانية ، ويتألف من مندوبى المجالس البلدية والغرف التجارية والشركات الزراعية وبعض النواب الوطنيين

***

ولقد كانت المسألة التونسية مثار احتكاك دائم بين فرنسا وإيطاليا ، وكانت إيطاليا منذ أفلتت منها تونس ترى أنها اغتصبت منها اغتصابا ، وأن فرنسا ارتكبت باقتناصها اعتداء خطيراً على أمانى إيطاليا وعلى حقوقها الطبيعية ؛ ولما خاب أمل إيطاليا فى تونس ، وجه وزيرها كرسبى بطل أمانيها الاستعمارية اهتمامه إلى الحبشة ، ولكن هذه الأمانى سحقت فى موقعة « عدوة » إلى حين . وإيطاليا ترجع مطالبها فى تونس بالأخص إلى جاليتها الكبيرة التى يبلغ عددها اليوم نحو مائة ألف إيطالى ، وتقول إنها هى التى قامت بتمدين تونس وتنظيم عمرانها ، وأدت أعظم قسط فى تقدمها وازدهارها ؛ وقد كانت هذه الجالية الكبيرة والمصالح الهامة التى تمثلها موضع اتفاقات متعاقبة مع فرنسا ترتب لها حقوقاً وامتيازات خاصة ، وكان آخرها اتفاق لافال — موسولينى ، الذى عقد فى يناير سنة ١٩٣٥ ، وبه حصلت إيطاليا على امتداد جديد لامتيازات هؤلاء الرعايا ، تمتد فيما يتعلق بالمهن الحرة حتى سنة ١٩٤٥ ، وفيما يتعلق بالمدارس حتى سنة ١٩٥٥ ، وفيما يتعلق بالجنسية حتى سنة ١٩٦٥ ، وبعد ذلك تتلاشى جميع هذه الحقوق

والامتيازات ، وتخضع الرعايا الإيطاليون وكل مصالحهم في تونس لنصوص القانون العام ؛ وقد حقق هذا الاتفاق أيضاً لإيطاليا بعض المزايا الاستعمارية الأخرى ، وذلك بتعديل حدود لوبيا مما يلي تونس تعديلا جديداً ، تحصل فيه إيطاليا على شقة كبيرة من الأرض ، وإعطائها بعض جزر البحر الأحمر المواجهة لأرتريا ، ومنحها مقداراً من الأسهم في سكة الحديد الممتدة من جيبوتي إلى أديس أبابا

على أن إيطاليا تنظر اليوم إلى المسألة من ناحية أخرى . ومن يتأمل خريطة البحر الأبيض ويتأمل موقع تونس من صقلية وسردانية ، يدرك في الحال أهمية تونس العسكرية والبحرية . فساحل تونس مما يلي رأس بونة لا يبعد أكثر من مائتي ميل من ساحل صقلية ، ولا يبعد أكثر من ثمانين ميلا من جزيرة بانتلاريا الإيطالية . وفي وسع إيطاليا متى وضعت يدها على تونس أن تشطر البحر الأبيض المتوسط إلى شطرين ، وأن تغلقه من الوسط ، وأن تقطع المواصلة إذا شاءت بين شرقيه وغربيه ، وفي ذلك ما فيه من الخطر الجسيم على الامبراطورية البريطانية ، وعلى أملاك فرنسا الأفريقية وفيما وراء البحار

وفرنسا تدرك حق الادراك أهمية تونس وما ينطوي عليه فقدها من الأخطار الجسيمة ، ومن ثم كان موقفها الصريح الحازم من المطالب الايطالية ، فهي ترفضها كل الرفض ، وهي كما صرح رئيس وزارتها ووزير خارجيتها على استعداد لأن تدافع عن كل شبر من الأرض تخفق عليه الراية الفرنسية ؛ وانكلترا ليست أقل من فرنسا اهتماماً بأمر تونس ، لأنها تشعر بنفس الأخطار تهددها ، ومن ثم فقد كان تبادل التصريح بين الدولتين ، بأن كلتيهما على أهبة لمعاونة الأخرى بكل قواها إذا ما وقعت عليها حرب اعتدائية من دولة أخرى

وتريد وجهة النظر الفرنسية على ذلك أنه إذا كان لإيطاليا في تونس مائة ألف من الرعايا ، فان لفرنسا مائة ألف وعشرة آلاف[1] . ثم إن هذه الجالية الإيطالية الكبيرة ليست كلها مع إيطاليا ، وأهم أفرادها وأغناهم هم اليهود الذين تنكرهم الفاشستية وتود الخلاص منهم ، ولا يودون الانضواء تحت لوائها ؛ ومعظم الجالية الايطالية من أصحاب الحرف ، والعمال والفقراء الذين لا يجدون قوتهم في الوطن الأصلي ، والذين لا يناصرون المبادئ الفاشستية ؛ ولا يزيد أنصار الفاشستية بين الجالية الايطالية في تونس على عشرين ألفاً ، فاستناد إيطاليا في مطالبها الفادحة إلى حقوق رعاياها وإلى مصالحهم ، هو حجة واهية الأساس ، ومن المغالطة أن ينسب تقدم تونس إلى جهود هؤلاء الرعايا ، فقد بذل الفرنسيون في تونس جهوداً عظيمة لتمدينها وتنظيم حياتها الاقتصادية والعمرانية . هذا فضلا عن أن تونس جزء لا يتجزأ من الامبراطورية الفرنسية في شمال أفريقية

***

وقد أعلنت إيطاليا فرنسا أخيراً بنقضها لاتفاق يناير سنة ١٩٣٥ لأنه لم يعد يتفق مع الظروف ، ولا مع أماني إيطاليا ، ولأنه لم ينفذ ولم تحافظ فرنسا على نصوصه أو روحه ، بل اشتركت غداة عقده في العقوبات الاقتصادية التي نظمتها عصبة الأمم ضد إيطاليا ، وبذلك وقفت موقفاً عدائياً لا يتفق مع التسوية الودية التي كان يراد تحقيقها

ويتلخص الرد الفرنسي على إيطاليا في أن فرنسا ما زالت تعتبر اتفاق سنة ١٩٣٥ قائماً وأنه يحقق نهائياً تسوية المسائل المعلقة بين فرنسا وإيطاليا ، فاذا كانت إيطاليا ترى نقضه ، فانه لا يسع فرنسا إلا أن تأخذ علماً بهذا النقض ، وإن المعاهدات لا تنقض بفعل الزمن ، وإلا فان في وسعها أيضاً أن تنقض معاهدة سنة ١٨٩٦ التي سويت بمقتضاها حالة الايطاليين في تونس

(١) يبلغ سكان تونس زهاء مليونين ونصف مليون .

وتؤكد إيطاليا أن لها مطالب مشروعة سوف تقدمها في الوقت المناسب وبالصورة المناسبة ، وتؤكد فرنسا من جانبها أنها لن تبذل أية تضحيـة أخرى ؛ وتستند إيطاليا في مطالبها إلى معاهدة لندن المعقودة في سنة ١٩١٥ إبان الحرب الكبرى ، وفيهـا تتعهد فرنسا أن تعوض إيطاليا نظير دخولها في الحرب إلى جانبها ببعض المزايا الاستعمارية ، والمفهوم أن هـذه المطالب فضلا عما ترغب إيطاليا تحقيقه لرعاياها ومصالحها في تونس من الضمانات الخاصة ، تتضمن طلب الاشتراك في إدارة قناة السويس والاستيلاء على سكة حديد جيبوتي ، بيد أن هنـالك من يرى أن إيطاليا قد تطالب إما بتونس ذاتها ، وإما بتخلي فرنسا عنها لتكون منطقة دولية حرة على مثال طنجة ، أو أنها قد تطالب على الأقل بامتلاك السومال الفرنسي (جيبوتي)

ومما يلاحظ أن ألمانيا تؤيد إيطاليا في موقفها على لسان صحافتها الرسمية ؛ وليس بعيداً أن يكون الدفاع إيطاليا في هذه المغامرة الجديدة أثراً من وحي برلين ؛ فمن مصلحة ألمانيا الواضحة أن تنهمك إيطاليا بمطامعها وأمانيها في البحر الأبيض المتوسط ، وأن تترك شؤون أوربا الوسطى نهائيا لألمانيا ؛ ولكن طريق إيطاليا إلى أمانيها الاستعمارية ليس سهلا ولا مذللا كطريق برلين في أوربا الوسطى ، بل تكتنفه صعاب ومخاطر لا نهاية لها

والمفهوم أن رومة تنتظر زيارة مستر تشمبرلين في ١١ يناير (غداً) ، لتقدم إليـه مطالبها الاستعمارية الجديدة ، وتطلب إليـه الوساطة في تحقيقها لدى فرنسا كما توسط في تحقيق مطالب برلين لدى تشيكوسلوفاكيا ؛ فلننتظر إذن لنرى ماذا يمكن أن يسفر عنه هذا المجهود الجديد الذي يحاول رئيس الوزارة البريطانية أن يبذله في سبيل السلام

(***)

نهضة جديدة في الأدب العربي

رأت لجنة التأليف والترجمة والنشر بمعونة وزارة المعارف تغذية الأدب العربي بخير ما أنتجه الأدب الغربي فعهدت إلى نخبة من الكتاب ترجمة بعض عيون الأدب الانجليزي والفرنسي ، وقد أتمت من ذلك ترجمة وطبع الكتب الآتية :

(١) جان دارك	تأليف برنارد شو	وترجمة الدكتور أحمد زكي بك
(٢) تس	تأليف توماس هاردي	وترجمة فخري أبو السعود
(٣) الطلسم	تأليف سكوت	وترجمة الأستاذ محمود محمود
(٤) السمفونية الريفية	تأليف أندريه جيد	وترجمة الدكتور حسن كامل
(٥) الأغنياء والفقراء	تأليف ﻫ . ج ويلز	وترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

وثمن الكتاب الأول ١٥ قرشا والثاني ١٥ والثالث ١٥ والرابع ١٢ والخامس ١٠ قروش

ولمن يشترى مجموعة كاملة من هذه الكتب خصم ٣٠٪ ، وتطلب من اللجنة ومن المكاتب الشهيرة

مشاكلنا الاجتماعية
وحظها من عنايتنا
للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

السياسة تشغل من وقتنا وتفكيرنا وجهدنا أكثر مما ينبغي . فهي لدينا حديث المجالس والأندية ، ومثار الجدل والتنازع ، وأساس الصداقة والخصومة . ورجال السياسة يتمتعون بيننا بمكانة لا يدانيهم فيها سواهم ، فأسماؤهم ملء الأفواه ، وصورهم ملء العيون ، وحركاتهم ومناقشاتهم شغل الجماهير وملهاتهم ، وتفاصيل حياتهم العامة والخاصة تكاد تكون معروفة لدى أكثر الناس

ونحن نغلو في تقدير أثر السياسة ومبلغ جهود رجالها ، فنرجع كل ما نجده من خلل أو نقص في شؤوننا العامة إلى عوامل سياسية ، ونعلق كل أمل في إصلاح حالنا ومداواة عللنا على تغير الأحوال السياسية

وقد ساقتنا هذه النظرة إلى نوع من التواكل جعلنا نحمل رجال السياسة عبء كل إصلاح ، وننتظر منهم القدرة على حل كل مشكلة ، وكان من شأنها أن غلب علينا شيء من الركود صرفنا عن بذل أي جهد أو تفكير في مسائلنا الاجتماعية ، ومال بنا إلى إرجاء ذلك كله إلى حين يتهيأ الجو السياسي الملائم !

وأظن أن الأوان قد آن لتعديل هذه النظرة ، فالمشاكل تتفاقم يوما بعد يوم ، وظروفنا الاجتماعية تزداد تعقدا بازدياد عدد السكان وتقدم المدنية ، وظروف العالم المضطربة لا تدع للأمم المتخلفة في استكمال أسباب القوة فرصة لتدارك ما يفوتها بخمولها وترددها وبطئها

والسياسة — أو على الأصح ما أصبح لها من مدلول في عرفنا — لا يصح أن تكون شغل الأمة الشاغل

ثم إن هناك لحظات في حياة كل أمة تجتاز فيها مرحلة دقيقة ، وتتعرض لها ظروف امتحان شديدة . ففي هذه اللحظات التاريخية يخفق كل قلب تلهفا على مصير بلاده ، وتتضاءل المسائل الخاصة والمسائل الجزئية ، وتصبح المسألة الوطنية الكبرى شغل كل لب ومبعث كل تفكير ونشاط . وقد مر بنا نحن المصريين مثل هذه اللحظات التي نسينا فيها أنفسنا وشؤوننا الخاصة ، وأقبلنا بكل عواطفنا على الاشتغال بالسياسة العامة ، أو مسألة المسائل الوطنية الكبرى

ولكن ذلك إذا كان واجبا وطنيا عاما في مثل تلك الظروف ، فإنه في الأحوال العادية لا يكون عمل الجماهير ولا مجال لنشاطهم وتدخلهم ، بل الواجب أن يكون عمل فئة قليلة من الرجال السياسيين الذين يعكفون على تتبع الأحداث الدولية وتفهم تياراتها الخفية ، وترقب الفرص المواتية لتحديد علاقاتنا الدولية على وجه يحقق مصالحنا ، ويكفل سلامتنا بقدر ما تستطيع الدبلوماسية البصيرة الحاذقة اليقظة أن تفعله

وخليق بنا أن ندع هؤلاء الرجال لمهامهم الدقيقة ولا نفسد عليهم عملهم بتدخلنا ، ولا نشغل أنفسنا بهم أو نشغلهم بنا ، فإن ذلك أحرى أن يكلل جهودهم بالنجاح

وفي ميدان النشاط الاجتماعي متسع لكل عامل ، ولدينا من المسائل العامة ما يكفي لأن يشغل كل قادر على التفكير والعمل

فنحن أمة فقيرة ، دخلها القومي لا يكفي الفرد في المتوسط إلا لعيشة الكفاف ، ولدينا موارد عطل تحتاج للرؤوس والأيدي لاستغلالها ، وزيادة الانتاج القومي الذي يرفع مستوى المعيشة ويزيد في قوة الشعب

البلاد بحاجة إلى نهضة صناعية واسعة ، تنتفع بالخامات التي نجدها في البلاد وتحولها إلى مصنوعات تكفيها بعض ما تستورده من الخارج ، وتهيء لفريق من أبنائها العاطلين أسباب العمل

وإذا كان بنك مصر وشركاته قد أدوا للبلاد بعض الخدمات العظيمة في هذا الباب ، فإن نواحي العمل الممكنة لا تزال كثيرة ، ولا يزال في الاستطاعة خلق صناعات مصرية كثيرة تقوم على الخامات المصرية بالأيدي المصرية . وفي البلاد أراض زراعية فسيحة بائرة لا ينتفع بها ، وهي بحاجة إلى مشروعات واسعة لاصلاحها واستغلالها وزيادة الانتاج القومي تبعاً لذلك

وفي الناحية الزراعية متسع لنشاط جديد في مقاومة الآفات وإدخال الطرق الحديثة ، وتنظيم الحياة التعاونية بين الفلاحين . وكل ذلك كفيل بحفظ ثروة البلاد وزيادتها

ومشكلة التجارة مشكلة كبرى تقتضي جهوداً قوية منظمة لحلها وتحويلها إلى تجارة مصرية ينتفع بها المصريون ويعمل فيها المصريون

فأسواقنا يسيطر عليها الساليون الأجانب ، وتجارة الصادر والوارد يختص خيرها وسطاء من غير أبناء البلاد ، وتجارة التجزئة موزعة توزيعاً سيئاً يضعف ربحها ويحقق كسادها . وتجارنا لم يستفيدوا من نظم التعاون وأساليب العرض والدعاية الحديثة . وفي هذا كله مجال للدرس الاجتماعي وللاصلاح المفيد الذي يعود بالخير على البلاد والأفراد

وفي البلاد بؤس فاش سببه ضعف الانتاج القومي وقصر أبواب العمل المفتحة للمصريين ، يتجلى في جيوش المتسولين والمتشردين والعاجزين والعاطلين . ويزداد تجلياً في النساء ، وهم أكثر من نصف الأمة ، فهؤلاء تزداد دائرة العمل في وجوههن ضيقاً ، ويتضاعف بؤسهن بالترمل والطلاق وكثرة العيال ، فيلجئهن ذلك إلى مزالق اجتماعية خطيرة

وفي هذه المشاكل مجال للخدمة الاجتماعية الكبيرة لعلاج الحال وتلافي الأسباب الباعثة عليها ، وتنظيم البر الوقائي والبر العلاجي تنظيماً يصون هذه الأرواح المضيعة ، والقوى التي لا تنتفع بها البلاد ، بل قد تكون مصدر فساد وضرر

ويتصل بالفقر والبؤس ، مشكلة الجرائم الكثيرة المنتشرة ، كالسرقة والنصب والنهب وغيرها من المسائل التي تتطلب درساً اجتماعياً دقيقاً لعلاجها وتلافيها ، لا الاكتفاء في حلها باصدار القوانين وتنفيذها

وفينا جهل أغلق علينا أبواب الفكر ، وحرمنا نور العلم ، وجعلنا فريسة للمخالين والمشعوذين ، وأقعدنا عن وسائل العمل الناجح في الحياة . ومشاكل التعليم الصحيح ، وتربية الأمة التربية التي تجعل من أبنائها أعضاء نافعين في الوطن ، مشاكل تتطلب جهود الباحثين والمجربين ، وعدم الركون في حلها على الجهود الرسمية وحدها

وفينا ضعف صحي جعلنا فريسة لأمراض متوطنة كثيرة ، وأضعف حيويتنا ونشاطنا . وفي مجال العمل الوقائي والعلاجي متسع للجهود الانسانية النافعة

وشبابنا مسرف متلاف ، يعبث بماله ووقته ، وهو بحاجة إلى تنظيم لفراغه وتهيئة وسائل التسلية البريئة له ، وبث الروح الرياضي السامي فيه ؛ وهذا باب واسع من أبواب العمل الاجتماعي

وبيوتنا ونوادينا وريفنا ومدننا ومآكلنا وملبسنا ، وكل شؤوننا بحاجة إلى جهود منظمة تتولاها بالاصلاح والتهذيب ؛ وحيثما وجهت بصرك لقيت مشكلة اجتماعية تتطلب الحل

والحل لا يكون إلا بانصراف جماعة لبحثها ودرس أسبابها ونتائجها والعوامل المحيطة بها ، ومحاولة تجربة بعض الوسائل لعلاجها ، وأخيراً وضع خطة شاملة للاصلاح في تلك المسألة تقوم عليها تلك الجماعة ، وتكون عدى للحكومة في سيرها في ذلك السبيل

أفلا ترى معي أن خدمة البلاد تتطلب جهوداً كبيرة في نواحي كثيرة ، وأننا لو أحسنا توزيع أعمتنا على تلك النواحي لما قل أثر تلك الجهود نفعاً للوطن عما يبذله السياسيون ، مع عظيم تقديرنا لفضلهم ؟

محمد عبد الواحد خلاف



مضت سبع ليال ، وأنا أفكر تحت مصباحي الأخضر في أمر تلك الفتاة . لقد وعدتها بالمعونة وتركتها تعتمد عليّ . ولقد ذهبت على أن تعود إليّ . ولقد تم بيننا الاتفاق على أن تزورني مرة كل أسبوع . ولكني حتى الآن لم أعرف السبيل إلى هداية هذه الفتاة إلى دين « الفكر » . لقد بدأ يداخلني الشك في نجاح مهمتي . إن الراهب يستطيع أن يهدي الغانية الضالة إلى حظيرة السماء بغير عناء ، لأن جمال الفضيلة ظاهر للعيان . وفكرة الخير والشر في ذاتها لا تحتاج إلى برهان . ومبادئ العقائد الإلهية في مقدورها بغير إعداد طويل أو تدليل وتعليل أن تنفذ وشيكا إلى القلوب . أما شئون الفكر والأدب فهي شيء لا يغرس في كل الأحيان غرساً . إنها نزعة من نزعات الطبع قد تولد في الإنسان أو لا تولد . فكيف ألقي بذوراً في أرض لم يهيئها ربها للإنبات والأزهار . ولكن ... مهلا ، في اعتقادي أن كل نفس إنسانية قد هيأها ربها لالتقاط طيب البذور ، وأعدها لاستقبال نور الجمال . إنما العبرة بالباذر ، والأمر مرهون بقدرة الكاشف عن أسرار الحسن العلوي . لا ينبغي أن أرتاب مرة أخرى في رسالة راهب الفكر . ولا يجب أن أضيع بعد اليوم وقتاً في مذاكرة هذه المسألة . إنما عليّ أن أوجه همي إلى التفكير في الطريقة التي سأتبعها في معونة الفتاة . وضاق صدري من طول البحث عبثاً كل تلك الليالي . وخطر لي أن أسترشد بما فعله راهب تاييس . فمددت يدي إلى كتاب أناتول فرانس . إني لم أفتحه منذ نحو أربع عشرة سنة ، ولقد نسيت ما فيه . فعرفت بين صفحاته ليلتين . عجباً ..! لكأني أقرؤه للمرة الأولى . إني لم أفرغ منه بعد . لقد قرأت أكثر من نصفه . فاتضحت لعيني أشياء . ما أشقى الآدميين ! لقد كتب عليهم العمى ، وهم يحسبون أن لهم عيوناً مبصرة . إنا لا نبصر حقيقة الأشياء إلا بعيوننا الداخلية ، ولا ندرك حقيقة الأمور إلا باتصالها واصطدامها بجوهر مشاعرنا . إني مهما بلغت من سمو العقل وذروة الفكر ، ما كنت أنفذ إلى أعماق الراهب « بافنوس » إلا اليوم . نعم اليوم ، لأني أشعر بما كان يشعر به ، وأحس أن الظروف تضعني في الموقف الذي وضعته فيه . هنالك مع ذلك فرق بيننا : إنه هو الذي ترك صومعته في بطن الصحراء ، ومشى الليالي الطويلة حافي الأقدام ، يطأ الحشرات ، ويأكل عشب الأرض ليذهب إلى الغانية الجميلة « تاييس » في مدينة الاسكندرية كي يهديها إلى نور السماء . إنه تجشم من أجلها الأخطار والأهوال . ما الذي حمله على ذلك ؟ إن تلك الفكرة لم تنشأ في رأسه إلا فجأة ذات مساء ، إذ خطر له طيفها الجميل ، وذكر رؤيته إياها أول مرة في مدينة البحر قبل أن يهب الدين حياته ، وذكر تحرقه شوقاً إليها في ذلك الوقت مثل غيره من بقية المغرمين . ولكن حب العقيدة طوى حب المرأة فاعتصم بالوحدة في قلب الصحراء . حتى بدا له اليوم ذلك الخاطر العجيب ، أن يقوم بتلك

المعجزة، ويربح هذه الغانية للدين. ولقد التهمتُ الصفحات شوقاً للوصول إلى ذلك الموقف من الكتاب، حيث يقف الراهب أمام تاييس، لأعرف وسائله وأفقه كأنه التي استطاعت أن تهز تلك النفس الآثمة، وتبهر تلك الأعين الناعسة، وتفتح ذلك القلب الفاجر العابث، لجمال نبيل لم يكن له به من قبل عهد!

كانت تلك الكلمات التي انطلق بها لسان الراهب بافنوس إذ وقف وجهاً لوجه أمام الجميلة هي هذه: « إني أحبك يا تاييس، أحبك أكثر من حياتي، وأكثر من ذاتي. من أجلك غادرت صحرائي. من أجلك لفظت شفتاي — المكتوب عليهما الصمت — ما لا ينبغي أن تلفظ. ومن أجلك سمعت أذني ما لا ينبغي أن تسمع. من أجلك اضطربت نفسي، وتفتح قلبي، وانبعثت منه أفكار كأنها ينابيع دافقة يردها الطير والحمام. ومن أجلك مشيت الليل والنهار خائضاً غمار رمال تسكنها العفاريت. من أجلك سرت بقدمي العارية فوق العقارب والثعابين. نعم، أحبك، أحبك. لا على مثال هؤلاء الرجال الذين يجيئونك محترقين في مطالب الجسد، كأنهم الذئاب الضارية، أو الثيران الثائرة. إنك محبوبة لدى هؤلاء، ولكنه حب السبع للغزال. إن غرامهم المفترس يفتك بك حتى قرارة نفسك. أما أنا أيتها المرأة، فإني أحبك حب الروح، حب الحقيقة، أحبك في الله، ولدهور الدهور. إن ما أحمله لك في صدري هو حرارة الحق. هو الإحسان الإلهي. وإني لأعدك بما هو خير من النشوة الفانية، والحلم الزائل. أعدك بأفراح السماء. إن النعيم الذي آتيك به لا ينتهي أبداً. إنه لعجب من العجب. إنه لإعجاز يفوق كل إعجاز! ولو قدّر لسعداء هذه الدنيا أن يلمحوا مجرد ظله لخروا في الحال أمواتاً من الدهشة! أيتها السماء اشهدي، إني لن أترك هذه المرأة حتى أضع في جسدها روحاً مماثلا لروحي. فاهمسي كلاماً ملتهباً يذيبها كما تذوب الشمعة تحت أنفاسي...

«أيتها المرأة، ألا فلتكن أصابعي قادرة على أن تصنعك من جديد، وتطبعك بطابع جمال جديد، لتصيحي بعدئذ وأنت تذرفين العبرات من الفرح: اليوم فقط قد ولدت، اليوم فقط رأيت النور! »

لم أقرأ أكثر من ذلك. لقد أدركت النتيجة. إن الرجل الذي يستطيع أن يلقي في أذن امرأة مثل هذه الكلمات لابد بالغ منها ما يريد. إن المرأة، هذه الزهرة الأرضية السماوية في آن، لتتفتح أكمامها لمجرد تساقط لفظ « الحب » الندي، مهما كان الثوب الذي يتخذه « الحب »، ومهما كانت غاياته ومراميه. إن إيمان المرأة هو الحب. هاهنا السبيل الهين السهل الذي يوصل المرأة إلى الإيمان، إلى كل إيمان. وعندئذ اختلج قلبي. إن موقفي من الفتاة يختلف وينبغي أن يختلف عن موقف الراهب من الغانية، لا لأن قلبي لا يستطيع أن يخلق حباً بهذه الفتاة، بل لأنه لا ينبغي له أن يفعل، ومع ذلك فإن الحب أيضاً هو الذي قاد الفتاة إلى مكان عزلتي، مجتازة صحرائي الفكرية على قدميها الصغيرتين وحذائها ذي الكعب العالي الذي لم يطأ غير البساط الوثير والرخام اللامع والزهر المتساقط على عشب الحدائق. نعم، حبها خطيبها المثقف هو الذي أتى بها من عالمها إلى عالمي...

***

لبثت أنتظرها هذا الصباح في ساعة الموعد، فلم تأت. فقلت لنفسي وأنا أتنفس الصعداء:

— لقد استردها عالمها الغني وجذبتها دنياها البراقة. وكفيت أنا مؤونة النفخ في دمية من طين وتراب!

على أني لم أستطع أن أخفي ما قام في أعماق نفسي من اضطراب، لست أدري له سبباً ولا أفهم له تعليلاً: إنما

هو نوع من الشعور بالأسف العميق . على ماذا ؟ ولماذا ؟ .. لا أستطيع أن أجيب . فالأمر يخرج عن نطاق ذهني الواعي :

وطرق الباب بغتة . وظهر رجل نوبي في ثياب نظيفة أعلمني أنه سائق سيارتها . وقدم إليّ رسالة منها وانصرف . إنها تعتذر من تخلفها عن الميعاد . وتقول إنها الآن في لباس « التنيس » . وإنها خجلت من القدوم إليّ والمثول في حضرة كاهن الفكر بهذه الثياب . وإنها لا تجد بعد من نفسها الشجاعة على تضحية مثل هذا الصباح الرطب الجميل في سبيل شيء وإن كان هذا الشيء هو الأدب والفكر . وإنها الساعة تستنشق الهواء على رئتيها وتعرض شعرها المرسل وذراعيها العاريتين لشمس هذا الشتاء البديع . وإنها تتأمل النيل يلمع في مجراه الأخضر كأنه سيف ملقى فوق أعشاب حديقة . أو كأنه شريط من الفضة فوق قبعة خضراء . وهنا تسألني الصفح عن إيراد هذا التشبيه . فهي لم تنس بعد أنها امرأة ، وأن طراز القبعات الحديث ما زال يشغل من التفاتها أكبر مكان . وختمت كلامها بتكرير التماس المغفرة ، راجية مني أن أستبعد ما قد يخالجني من سوء ظن بها ، وأن أثق بثباتها على العهد ، وتمسكها برغبتها ، وإيمانها بقوة عزيمتها ، ونجاحها آخر الأمر فيما وطنت النفس عليه من السمو بروحها وفكرها إلى المستوى اللائق بخطيبها الحبيب إلى قلبها . . .

إنها كتبت بالطبع هذه الرسالة بخط سريع رديء ، وعبارات لا تخلو من أخطاء في الهجاء ، وأسلوب فطري أقرب إلى أسلوبها في الحديث من أسلوب الكاتب في الأداء . ولكن . . . أي نفحة عاطرة تنبعث من هذا الكلام ؟ وأي نفس حية ذكية تكاد تثب من بين هذه السطور ؟ إذا صدق ظني فإن هذه الفتاة نبع صاف ، لا ينقصه غير الكشف عن أعماقه حتى يتدفق ماؤه العذب يروي النفوس وينعش الأذهان . إن جوهر الروح الأدبي عند هذه الفتاة وهي لا تدري . فالأدب روح قبل كل شيء ، أما الأسلوب فأداة تكتسب فيما بعد بالمران الكثير والصبر الطويل ، وليس المنشود لهذه الفتاة فيما أعتقد حذق الأسلوب الأدبي من حيث هو خلق وإنشاء ، بل من حيث هو روح فني داخل نفسها البلورية فتنطلق لسانها بالحديث الرفيع ، وتطلق من صدرها المشاعر العالية والأفكار السامية . . .

آه ! إن سبيلي الآن قد أشرق بالنهار المبين ، وعملي قد تحددت خطوطه وأركانه . إني أريد أنا أيضاً أن أخلق هذه الفتاة خلقاً جديداً ، وأن أجعل منها عروساً تمرح بشعرها المرسل وروحها الفتي في مروج الفكر الرحبة الزاهرة ، أريد أن أجعلها ملكة من ملكات المجالس ممن جاءت أخبارهن في التواريخ ، تعرف كيف تمس بصولجان روحها نفوس الرجال كما يمس المرود العين ، فإذا تلك النفوس قد تفتحت لترى ما لم تر . وإذا النشاط قد دب فيها ، فتثمر القرائح وتنهض الهمم . وإذا الخير قد فاض ، والحياة قد نبضت في الأشياء والكائنات . . .

آه . . . إن المرأة هي كنز الكنوز . ولكنه مدفون في سابع طبقات الأرض ، فمن ذا يستخرجه غير ساحر من حذاق الكهان ؟ بل هي معجزة المعجزات ، مطوية في سابع طبقات السماء ، فمن ذا يستنزلها غير راهب شديد الإخلاص ، قوي الإيمان ؟ ؟ ! .

توفيق الحكيم

أنا الغريق ...

بقلم
أحمد ضيف
وكيل دار العلوم

المدينة في سكون ورهب ، والناس واجمون يروحون ويجيئون في خفة وسرعة ، يلفهم الليل في سواده ، لأن مدينة باريس الزاهية — مدينة النور المشرقة — أمست حالكة مظلمة . وقد انقلب ما فيها من سرور ومرح لا يفارقان سكانها إلى بؤس واستسلام إلى القضاء

كان ذلك في شهر ديسمبر سنة ١٩١٧ والحرب مستعرة ، والناس يتنازعهم اليأس والرجاء ، ويحرق نفوسهم حنينهم إلى أقربائهم ، من أزواج وأبناء ، وأصدقاء وأخلاء ، وصلة بإنسان قريب أو بعيد . ثم إلى ما تؤول إليه أمة بأسرها ملأت الأرض علماً وحضارة ، وأقبل عليها يغترف من علمها العدو والصديق ، ويتشبه بها في آدابها ، ويقتبس من فنونها أمم الأرض جميعاً . ولا تزال باريس حتى في هذه المحنة كعبة القصاد ومحط الرواد

كان ذلك وأنا سائر في طريق من أجمل طرق باريس ، وفي حي من أنضر أحيائها ، كنت أسكن قريباً منه ، فقال لي صاحبي الذي كان يرافقني :

— لو أن قنبلة نزلت علينا الآن ماذا يكون من أمرنا ؟

فقلت :

— نذهب هباء ! كما ذهب ويذهب من هو خير منا ، ولم ينهدم العالم ، ولن يفنى بسبب ذلك ، ولعل الله يحقق قولك

فقال صاحبي :

— أعوذ بالله من هذه النفس المتشائمة !

ثم ذهبنا إلى منزلي ، وجلسنا نتحدث ، والحديث ذو شجون . وأخيراً دعاني إلى أن أذهب لزيارة صديق له كان يسكن بالقرب مني ، فأجبت دعوته ، وسرنا إلى شارع ضيق مظلم ، فدخلنا باباً يشبه أن يكون مغلقاً ، ورأيناه بجواره من الداخل حجرة تكاد تكون مظلمة ، خرجت من باب هذه الحجرة امرأة عجوز بدين ، ذات صدر عريض ضخم ، ورأس كبير على عنق قصير وقالت :

— من تريدون ؟

فقال صاحبي : — السيد سيمون

فقالت ورفعت رأسها إلى سماء البيت وأشارت بيدها :

— إلى اليمين في الطبقة الثالثة

ثم قالت : نعم لقد رجع الآن مع زوجته الجميلة !

قالت ذلك في لهجة تعجب ، ثم خفضت من صوتها واقتربت وقالت :

— أوه . ربما أوافق ، ثلاث ليال أو أربع في الأسبوع ، لأنه يعبدها !

ثم سكتت قليلاً وأصلحت من شعرها وربطت ميدعها ، فناداها زوجها من الحجرة فقالت :

— نعم ، نعم

ورجعت تلتفت إلينا وقالت في صوت خافت :

— هي تعبد ، هي جميلة جداً ، وغمزت بعينيها ، ورفعت حاجبها وقالت بصوت عال كأنها تريد أن تخفي عن زوجها موضوع الحديث :

— نعم يا سادتي ، الحرب من أشد أهوال الحياة ، إلى اليمين في الطبقة الثالثة . ورجعت إلى حجرتها !

فصعدنا في سلم مظلم ، ولكنه أشبه بالمضيء ، لأن مصباحاً ضئيلاً كان يرشد الصاعدين إرشاداً ضئيلاً .

ووصلنا إلى باب المسكن ، فدفعنا الجرس ، ففتح الباب ، وإذا زوجة صديقنا فى مبذلها ووجهها الجميل الفتان ، الذى بدا فى ضآلة ضوء مصباح البيت كأنه كوكب درى يتلألأ . فصاحت بزوجها والتفتت وراءها وقالت :

— ها هو صديقنا جيل (ثم صاحت) سيمون ، سيمون ، صديقنا جيل وصاحبه

ودعتنا إلى الدخول فى حجرة الاستقبال وقالت :

— ما أحسن هذه المصادفة ، لقد كنت أنا وزوجى فى حاجة إلى من يؤنسنا ، يالها من سعادة ! (ثم صاحت مرة أخرى) سيمون سيمون ! ما هـذا ؟ ألم أقل لك إن صديقنا جيل وصاحبه قد حضرا ؟!

فأجابها :

— أنا آت فى الحال

وجاء سيمون فى ثوبه المنزلى وقال :

— عفواً . عفواً

وسلم وجلس ، فخرجت زوجته من الحجرة وقال جيل :

— إننا لم نرك من زمن طويل . إن مارسيل (زوجته) تذكرك دائماً ، لأنها تحب حديثك

وجلسنا معاً فى تلك الحجرة وعلامة التعب تبدو على سيمون ، ولكن روعة شبابه وحيوية نظراته ، وحسن قده ونضارة وجهه كانت تطمس علامة هذا الاعياء

قال : آه إن كل ما تلته أنى جالس فى بيتى هـذه الليلة . ما أشد أهوال الحرب ! لقد مللنا هذه الحياة

ثم نظر إلى جيل نظرة تنم عن قلق فى نفسه وحيرة شديدة وقال :

— ثلاث سنين ونحن معرضون للموت كل يوم وليلة . اللهم إن هذا لا يطاق !

وحول نظره إلىّ وقال :

— إنك يا سيدى لا تتصور ولا يخطر ببالك ما هى الحرب . إنك لسعيد ، لوددت أن أكون قد متّ قبل أن أرى هذه الأهوال !

ثم نادى :

— مارسيل . مارسيل . ألا تعجلين ؟ أين أنت ؟

لجاءت مارسيل على عجل ، فنظر إليها سيمون نظرة تعجب وقال :

— آه . لا . لا ... إنك كنت تتزينين وهؤلاء السادة عندك وفى انتظارك !

فهزت مارسيل رأسها وضحكت وهى تدلّ على زوجها . فقال سيمون :

— إنك جميلة بدون تطرية . ثقى بذلك

فقالت مارسيل :

— ما أجمل هـذا الملق من زوج لزوجته فى جمع من الناس !

فقال سيمون :

— آه . المرأة . المرأة . كل هواها فى أن تحب وتعبد

فاتجهت مارسيل إلى مفتاح المصباح وأطفأته ، فصاح بها زوجها :

— إنك لمجنونة !

فلم تحفل بقوله ، والتفتت إلينا وقالت :

— أليس جميلاً ، أن نجلس أمام هـذا الموقد يسطع علينا لونه الأزرق البنفسجى ويضىء مجلسنا ، فيلون وجوهنا بألوان مختلفة ؟

وإذا بالحجرة ومن فيها كأنها لوحة مصور . وأخذت مارسيل تحرك النار فى الموقد فزاد لهيب النار الساطع على وجهها من جمالها ، وصارت تندلع منه ألسنة ملتهبة من

الأزرق والأحمر والبنفسجي ، وتجتمع كل هذه الألوان وتختلط بعضها ببعض ، فتكوّن كتلة من لهب جميل وتنسج خيوطا من نار كأنها خيوط سندسية أو لازوردية ، تحركها الريح فتضطرب اضطرابا وتمثل في خفقانها خفقان القلوب أو تمثل راية متعددة الألوان يعبث بها النسيم ، ومارسيل في جوارها قد احمرت وجنتاها . فكنا بين نارين !...

قال لها زوجها سيمون :

— غنّنا صوتا مما تعرفين

فنظرت إلينا وقالت :

— وهل تريدون ذلك ؟ !

فقلنا — وكيف لا ! ؟

فجلست أمام البيان وأخذت تعزف وغنت :

كلا لن يتسنى لك أن تعرف من أهيم به الآن
ولا إن كنت أهواك أم أبغضك
ولا إن كنت أهزأ أم لا أزال أتألم
عبثا تود أن تقرأ في عيني الحائرتين حبي لك
إنك تود أن تعرف ما بنفسي
لن يتسنى لك ذلك أبداً !

وسكتت فصفقنا فقال زوجها :

— ويل لنا نحن الرجال ، الحب والنساء ، هذا كل ما لدينا في الحياة ، وكل ما يملأ السمع والبصر فينا !

فقالت مارسيل :

— بل ويل لنا نحن النساء ، نضحي بكل شيء ونعمل كل شيء لنرضي الرجال ، وهم غاضبون علينا دائما . ومن الغريب أنهم يهيمون بنا ويحقدون علينا : الرجال لا يرضيهم شيء من المرأة

ثم تنهدت في خفة ورشاقة وقالت :

— يا للنساء من الرجال !

فهم زوجها بالقيام وأشار مصباح الحجرة وتناول كتابا كان على الرف وقال :

— اسمعي أناتول فرانس وهو يتحبب إليكن ؛ وفتح صفحة من الكتاب وقرأ :

« المرأة أساس العمران . لأنها مسيطرة عليه ، إذ لا يعمل شيء إلا بها ومن أجلها . هي مربية الرجل ، تعلمه الفضائل الجميلة الجذابة ، وحسن المعاشرة والفطنة . وهذه الكبرياء التي تخشى أن تؤول إلى تعنت ، وهي التي ترشد بعض الناس إلى الطريق الذي يجعله موضع الإعجاب من غيره ، وتهديه إلى كل وسيلة تساعده على عدم الاشمئزاز منه . وهي التي تبين للرجل أن العالم معقد ولكنه منظم تنظيما دقيقا ، أكثر مما يتخيله الناس في المجامع السياسية ، وتحمله على التفكير في أن الأحلام التي تحدثها العواطف النفسية وتنشأ من سيطرة العقائد لا يغلبها غالب ، وأن العقل ليس له سلطان على النفوس »

فقالت مارسيل — مرحى ! مرحى ! أناتول فرانس أعظم رجل فهم المرأة !

فقال زوجها — وكيف لا يكون ذلك ؟ أزيدك من دلال المرأة على الرجل وسيطرة العاطفة على العقل ، هذا موسيه يقول ، وتناول كتابا آخر وأخذ يتصفحه ثم قال :

— ترى ماذا تقولين لي يا ذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء إذا بحت لك بحبي ؟ .

الحب كما تعلمين ينبوع أسقام مضنية ، بل هو سقم لا يعرف الشفقة وإنك لتتجرعين آلامه . مع هذا فقد تتوعدينني بالعقاب

* * *

نينون : إنك لبارعة ! فقد خفي عليّ انصرافك عن فم أتنبأ به ، فإذا قلت لك : إن ستة أشهر قد انصرمت

فى صمت وسكون ، أخفت آلامى المبرحة ، وآمالى السانحة ربما تقولين إنك تعلمين ذلك

* * *

فاذا قلت لك : إن جنونا حلواً صيرنى ظلاً من ظلالك ، وحملنى على ألا أفارق خطواتك ، وإن شيئاً من الشك والوجد — كما تعلمين — جعلك أجمل ما تكونين . قد تقولين : لا أظن ذلك

* * *

وإذا قلت لك : إنى أحفظ فى سويداء قلبى كل صغيرة وكبيرة من مسامراتك وإن نظرة ارتياب منك — كما تعلمين — تجعل تلك العيون السماوية الزرقاء لهيبا مشتعلاً . إذاً لتحرمين علىّ رؤيتك

* * *

وإذا قلت لك : إن السهاد ينتابنى كل ليلة ، وإن البكاء يحملكنى كل يوم وإنى أدعو الله جاثيا . تبتون ! ألا تعلمين أنك عند ما تضحكين تظن النحلة أن فمك زهرة قرمزية . إذا قلت لك ذلك ربما تضحكين منى !

* * *

سيخفى عليك أمرى ، فسأجيء إليك صامتا أجلس فى ضوء مصباحك وأتحدث معك ، فأسمع صوتك ، وأستنشق عبيرك . ولك أن ترتابى فى حبى ، وأن تظنى بى الظنون ، وأن تضحكى منى ، ولكن لن ينسى لعينيك أن تعرفا لماذا تنظران إلىّ شزراً !

* * *

سأجنى فى الخفاء زهرات حافلة بالأسرار ، وفى المساء أجلس خلفك وأسمع عزف يدك على البيان ، وأشعر بقدك الرشيق يتلوى بين ذراعى كغصن مَيَد وأنت غارقة فى لجة الأنغام المرقصة !

* * *

فاذا جن علينا الليل ، وبددت النوى شملنا ، ودخلت حجرتى وأرخيت سدولها تناوبتنى ذكريات أيقظت فى نفسى الغيرة ، فهناك — وأنا وحدى أمام الله — أهيم فرحا وسروراً ، أفتح قلبى وكأنه خزانة من ذهب ، فأجده مملوءاً بحبك

* * *

إنى أحب وأعرف أن أكتم حبى ، أحب ومثلى لا يذاع له سر ، فما أعز سرى ! وما أعز سقمى وحبى ، لقد أقسمت أن أحب فى غير أمل ولا رجاء ، ولكن فى سعادة وهناء . إنى أراك وكفى . كلا لم أخلق لهذه السعادة الحلى كى أموت بين ذراعيك أو أعيش تحت قدميك . وا أسفا ! كل شىء بنى ُبذلك حتى آلامى !

* * *

ولما انتهى هزت مارسيل رأسها وأطفأت مصباح الحجرة وقالت :

— موسيه كان شاعراً مجنونا . فقد هام بجورج صاند ، وهامت هى بغيره . ولو كنت رجلاً ما أحببت امرأة تنصرف عنى أو تخدعنى فى غرامى . ثم قامت وهزت كتفيها وخطت خطوات فى تبختر ودلال وقالت :

— أيها الصديق . إنكم أيها الرجال أعجوبة الأيام !

وكان اللهيب فى الموقد قد اشتد وأرسل أشعته وحرارته فى كل جانب من جوانب الحجرة ، وخيل إلىّ أننا فى موقف غرام ، أو فى حانة من الحانات ، أو فى حلم من الأحلام ، وشعرنا بحرارة الموقف وقسوته . فقال صديق :

— نفتح النافذة

فقالت مارسيل :

— كيف ؟ ألا تخاف البرد ؟ أما أنا فلا أحتمله . فسكت جميل . ولم أكن رأيت فى حياتى طلعة أجمل

من الضوء ، ولا ضيقاً أوسع من الفضاء ، مثل هذه الليلة وفى تلك الحجرة . ثم نظرت مارسيل إلى جميل وقالت :

— كيف حالك ؟ ألا تزال فى تلك الحال النفسية المظلمة ؟ ومالت بجانبها على زوجها ، فانحسر عنها جلبابها فأسرعت بِرَدِّه ، ونظرت فى مرآة موضوعة على الموقد وأصلحت من شعرها وكأنها تعجب بجمالها وقالت فى تيه ودلال :

— آه . يا لحياة الانسان ! مسكين أنت يا جميل ، لقد تعانى من آرائك فى الحياة ، وعدم فهمك لها ما لا يعانيه الجاهل المجهول . ثق أيها الصديق بأنك مخطىء ، إنك شاب لا تفكر إلا فى التمتع بالحياة ، وتود أكثر مما يمكن ، فلا تكاد ترضى بشىء ، فمن هنا خطؤك ، ومن هنا بؤسك

فضحك جميل وقال :

— تظنين ذلك ياسيدتى ؟ ولكن ما خفى عليك كثير ، ولو علمته لعرفت أنى محق

ونظر سيمون إليها وقال :

— الآن علمتم أن زوجى ليست فاتنة فقط ، بل هى مع ذلك فيلسوفة

ثم نظر إليها وقال :

— يا عزيزتى ، دعينا من هذا واسقينا شيئاً ، فأنت ربة المنزل ، وقد أنستك الفلسفة أن تقومى بواجب التحية لضيوفك .

ثم رجع الحديث فى الحرب وأهوالها ، فقال سيمون :

— لقد حاولت مرات أن أجىء إلى باريس وأمكث مع زوجى ثلاثة أيام لأستريح قليلا من رؤية هذه الفظائع التى كانت تحيط بى ليل نهار

ثم نظر إلى مقطبا وجهه وقال :

— كنت فى موقف غريب ، وسأعود إليه ، فإن مكانى فوق دوحة عالية ، أرصد الأعداء بمنظار عظيم ، لأرى حركاتهم ، والجهات التى يقصدون إليها . وكنت ويا لفظاعة الموقف وهوله ، ألاقى من وقت لآخر قدم جندى تطير وتجىء ، فتضربنى فى وجهى ، أو رأساً بلا رقبة تحدق إلى عيناه ، أو ذراعاً بلا كف تقع على رأسى ، فأفزع من هول هذه المناظر القاسية ، ثم تعودت رؤية هذه الأهوال وقسوة الانسان على الانسان ، ووحشية البشر ، ففقدت ذلك الاحساس الانسانى ، إحساس الشفقة والرحمة ، حتى لقد كنت أرتاح إذا رأيت فرنسيا يبطش بألمانى فيقطعه إربا إربا !

ثم قال : تمر بالانسان أوقات يكون فيها أفظع من الوحوش الضارية إذا نسى إنسانيته ، أو دفعه الحقد إلى اغتيال غيره . على أن كثيراً من هؤلاء الجنود أنفسهم كانوا سيقتلون أو يقتلون ، فهان الأمر عليهم ، وأصبحوا لا يرون فى ذلك ما يدعو إلى الشفقة بمن يريد أن يقتلهم .

(البقية فى العدد القادم) **أحمد ضيف**

نفـــرتيتى

للدكتور زكى محمد حسن

أمين دار الآثار العربية

يفخر القسم المصرى من متاحف الدولة فى برلين بتمثال صغير لرأس الملكة نفرتيتى زوج الملك اخناتون، من ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية القديمة (انظر الصورة المواجهة لهذه الصفحة)

وقد كشفت هذه التحفة الفنية النادرة سنة ١٩٠٦ على يد بعثة ألمانية كانت تنقب عن الآثار فى مصر. ويبلغ ارتفاع هذا التمثال ٤٨ سنتمتراً، وهو من الحجر الجيرى الملون. ولا يظن أنه أصل مقصود لذاته، بل يرجح أنه أنموذج يستعان به فى صناعة تماثيل أخرى، وذلك لأن تماثيل الرأس أو التماثيل النصفية لم تكن أمراً شائعاً فى مصر القديمة. ومهما يكن من شيء، فهو ينسب إلى مصنع مثال ذاع صيته فى «تل العمارنة»، هو المثال «توتموزيس» الذى عاش فى عصر اخناتون وزوجه نفرتيتى. وقد نال هذا التمثال شهرة واسعة حتى صار قبلة الزائرين فى متحف برلين، وأصبح اسمه يجرى على ألسنة المشتغلين بالفنون والآثار. ويرجع ذلك إلى أسباب مجتمعة أهمها ذلك الوقار والشعور بالعظمة الملكية، وتلك الجاذبية الفتانة والابتسامة النادرة الخفية، وهذا الهدوء، والجلال، وما إلى ذلك من براعة الفن التى تحف بهذه التحفة الفنية وتتجلى منها؛ فتكسبها سموا على سائر الآثار الفنية التى ترجع إلى عصر اخناتون. ذلك فضلا عن أن المثال قد أصاب أبعد حدود التوفيق فى إتقان الأنف الدقيق والفم والأذنين، وفى التباين بين حجم التاج الضخم ودقة العنق واستطالته، وفى حسن اختيار الالوان الطبيعية الجميلة.

ولا يفوتنا أن نذكر ما كان لنفرتيتى من شأن خطير فى التاريخ المصرى، فإن زوجها أمينوفيس الرابع ثار على عبادة الإله آمون واتخذ لنفسه ولشعبه إلهاً جديداً هو «أتون» أو قرص الشمس، وغير اسمه إلى «اخناتون»، وجعل نفسه رئيس هذا الدين الجديد وزعيم كهنته، واتخذ لنفسه عاصمة جديدة، مكانها اليوم «تل العمارنة» وكانت الملكة نفرتيتى تساعده فى مهمته هذه، بل إنها كانت أكثر تحمساً منه للدين الجديد، فقد دلت البحوث العلمية على أن اخناتون أراد فى نهاية حكمه أن يرجع إلى عبادة آمون — ولعل ذلك كان تلبية لرغبة والدته الملكة «تى» — فأغضب هذا التحول نفرتيتى، فانفصلت عن زوجها وسكنت قصراً فى أقصى الشمال من «تل العمارنة» وسمته «قصر أتون»

وكان لاخناتون ونفرتيتى بنات، تزوجت إحداهن «توت عنخ أتون»، ولما مات أخناتون وزوج ابنته الكبرى، نادت نفرتيتى وأنصارها بتوت عنخ أتون ملكا على مصر، وظل الاخير نحو ثلاث سنين فى تل العمارنة مخلصاً لديانة «أتون»، ثم قرر الرجوع إلى طيبة وإلى عبادة آمون، فظلت نفرتيتى وحدها فى تل العمارنة. ولعلها الملكة المصرية التى كتبت إلى ملك الحيثيين تطلب إليه أن يبعث إليها بأحد أبنائه ليكون زوجاً لها بعد أن مات زوجها الملك المصرى. وأجابها ملك الحيثيين إلى طلبها فأرسل إليها أحد أبنائه. ولكنه قتل على يد «حرمحب» مؤسس الاسرة التاسعة عشرة

زكى محمد حسن

صور من التاريخ الإسلامي :

زياد بن أبي سفيان

للأستاذ عبد الحميد العبادي

١

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسة ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك علماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار

***

ولد زياد بالطائف في السنة الأولى للهجرة من أب قرشي هو أبو سفيان على المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كلدة المعروف طبيب العرب . وتعلم في كتاب من كتاتيب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فنشأ قارئاً كاتباً حاسباً . ثم اعتنق الإسلام في أغلب الظن عند ما أسلمت ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن غزوان إلى الأبلة وجنوبي العراق ليكون ردءاً لسعد بن أبي وقاص ، كان الفتى زياد فيمن انتدب للخروج معه ، وكان هو الذي يقسم لهم الغنائم ، وأجروا عليه كل يوم درهمين .

ثم ولى لسعد ديوانه فكان هو الذي يكتب الناس ويدونهم . فلما فتحت جلولاء سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمر وبعث بالحساب مع زياد وكلفه استئذان الخليفة في الانسياح في أرض فارس . فلما قدم الوفد المدينة كلم زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذكاء الفتى الناشئ وفصاحة لسانه ، وقوة جنانه ، وأحب أن يستزيد من اختباره فسأله : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟ فأجاب الفتى : والله ما على وجه الأرض رجل أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ فلما كان الغد قام في الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في بلاد فارس ، فازداد عمر إعجابا به وقال : هذا الخطيب المصقع . ولم يكن الإعجاب قاصراً على عمر ، بل لقد أعجب بزياد من سمعه يومئذ من أكابر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : لو كان هذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه ! فيقال إن أبا سفيان همس في أذنه بقوله إنه هو أبوه الذي ولده حقا . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مصرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها زياد فيمن نزلها من ثقيف واتخذها مقرا مدى حياته بوجه عام . ولما ولى عمر المغيرة بن شعبة على البصرة سنة ١٦ هـ ورمى المغيرة بما رمى به ، وهم عمر برجمه ، لم ينجه من الهلاك إلا شهادة شهدها زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة سبباً في درء الحد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته ، وانعقدت بينهما من ذلك الوقت أواصر المودة والصداقة

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبي موسى الأشعري سنة ٢٣ ، كان مما احتجوا به عليه عند عمر أنه فوض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد فتى حدث ، ليست له سن ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد أبو موسى عليهم بقوله : إني وجدت له نبلا ورأيا ، فأسندت إليه عملي . وقد قبل عمر قول أبي موسى متأثراً لا شك بالصورة التي كانت

زياد فى ذهنه، ولكنه أحب أن يتحقق بنفسه إلام صار أمر ذلك الشاب فى مدى سبع سنوات، فأمر أبا موسى أن يشخص إليه زياداً. وقدم زياد على عمر قدمته الثانية وقام بباب عمر. فلما خرج عمر وجد شاباً حسن الهيئة، له ذؤابة، وعليه ثياب بيض من كتان، فابتدره بقوله: ما هذه الثياب؟ فأخبره زياد. فقال: كم ثمنها؟ فأخبره زياد بشئ يسير، وصدقه عمر. ثم قال له: كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال ما صنعت فى أول عطاء خرج لك؟ قال: اشتريت والدتى فأعتقتها، واشتريت بالثانى ربيبى عبيداً فأعتقته. قال الخليفة: وفقت! ثم اختبر عمر قدرته على الكتابة فأمره أن يكتب فى معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر، ثم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيهاً، فرده إلى البصرة وأمر أمراءها أن يسيروا برأيه. وكذلك لم تخب فراسة عمر فى ذلك الشاب مذ رآه عند قدومه عليه لسبع سنوات خلت بأخماس جلولاء، ولم تزده الأيام إلا ثقة به واطمئناناً إليه، كما أن هاتين القدمتين غرست لذلك الخليفة فى قلب زياد إكبارا وتجلة جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذى يتأثره ويقتدى به.

ولما شخص عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل عثمان إلى خراسان غازيا سنة ٣١ هـ استخلف على البصرة زياداً فقام بأمرها فى غيبته خير قيام على صعوبة حكم ذلك المصر فى تلك الأيام.

فلما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التى انتهت بمقتل عثمان، واستخلف على بن أبى طالب، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشة وطلحة والزبير، لم يحرك زياد فى تلك الفتن ساكناً، ولم يخض فيها مع الخائضين، ولا ألقى فى نارها حطباً، بل اعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره، وأقام مستخفياً فى بعض دور البصرة ينتظر ما تنجلى الأمور. ولم يكن أمر زياد خافياً على على، فإنه بعد أن ظفر بخصومه فى وقعة الجمل سنة ٣٦ وجاءه عبد الرحمن بن أبى بكرة، وهو ابن أخى زياد لأمه، مستأمناً مبايعاً، قال له على: وأين عمك المتربص المتقاعد بى؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد، وإنه على مسرتك لحريص، ولكن بلغنى أنه يشتكى، فأعلم لك علمه ثم آتيك؟ وكتم علياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه. فقال على: إمش أمامى فاهدنى إليه! ففعل. فلما دخل عليه قال: تقاعدت عنى وتربصت! ووضع يده على صدره وقال: هذا وجع بين!! فاعتذر إليه زياد، فقبل عذره. ثم استشاره على وأراده على إمرة البصرة، فامتنع زياد من قبولها وقال: بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس... وسأكفيكه وأشير عليه. واتفقا على عبد الله بن عباس. إلا أن علياً ولى زياداً خراج البصرة وبيت مالها، وأمر ابن عباس أن يسمع منه.

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال على إخلاصاً له، وقد لبث على إخلاصه وولائه له إلى أن انتهت حياة على نفسه. ويتضح هذا الإخلاص فى حادثين وقعا فى ذلك الوقت فى أهم النواحى التابعة لعلى، فى البصرة وفارس، وهما يبينان مقدرة زياد ودهاءه وسعة حيلته. أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبى بكر بمصر سنة ٣٩ هـ واضطرب الأمر على على خرج إليه بالكوفة عبد الله ابن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة. ودهم زياداً غداة رحيل ابن عباس أمر عظيم، فإن معاوية أنفذ إلى البصرة عبد الله بن الحضرمى ناعياً مقتل عثمان ومحركاً لأهل البصرة على على. ونظر زياد فوجد نفسه فى قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده. فأعمل الرأى والحيلة. ولما كان ابن الحضرمى قد نزل فى بنى تميم فإن زياداً أسرع

فنزل ومعه الأموال فى قبيلة الأزد المعادية هى وحليفتها بكر بن وائل لتميم . وكان لنزوله فى الأزد معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزد بالذود عنه كائناً ما كان الأمر . وكتب زياد إلى على يخبره بالحال ويستمده . فصوب على رأيه وأنفذ إليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدى التميمى . وقد استطاع جارية أن يرد قومه عن متابعة ابن الحضرمى ثم سار إلى ابن الحضرمى فقضى عليه وعلى أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال

أما الحادث الآخر فخلاصته أنه عند ما اضطرب الأمر على على طمع الفرس فى استعادة استقلالهم ، فمنعوا الخراج واضطرمت فارس ناراً . فأشار ابن عباس على على أن يولى زياداً على فارس وكرمان ففعل . قال الطبرى : « ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة فقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس ، فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً . وفعل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار فى كورها ومناهم فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فنزلها وحصن قلعة بها ... فكانت تسمى قلعة زياد ، فحمل إليها الأموال سنة ٤٠ هـ » .

ولقد أثنى عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى .

والظاهر أن زياداً لم يحصن قلعة اصطخر ويحمل إليها الأموال لمجرد التحصن فيها من العجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرى فوق ذلك إلى غرض آخر . لقد رأى بثاقب ذهنه وبعيد نظره أن الصراع المنيف الناشب بين على ومعاوية أنه لا محالة بغلبة معاوية ، ورأى فى الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً فى إحفاظ معاوية بأخذه جانب على ، هذا إلى مضاضة كان يحسها فى قرارة نفسه تجعله لا يسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن فى مكانه الحريز وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض معاوية وهو فى حصنه ويساومه مساومة الند للند ولا ينزل إليه إلا على شروط يمليها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يخطر له ببال ، ففى عام ٤٠ قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأصبح زياد ومعاوية فى حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا نجد رجلين متعاديين عداء غريباً . كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فسافة الخلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاء ، وأوسعهما حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادئ بفتح باب المفاوضة والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل على إلى زياد يتهدده ويتوعده ، ويعرض فى الوقت نفسه بولادة أبى سفيان له . فلم يسع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه ، فقام فى الناس خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب ! كتب إلى يتهددنى وبينى وبينه ابنا عم رسول الله فى تسعين ألفاً واضعى سيوفهم على عواتقهم لا ينثنون ، لئن خلص إلى الأمر ليجدنى أحمز ضراباً بالسيف ! . وكذلك أعرض زياد ونأى بجانبه ، معللاً نفسه بأنه لا يزال بينه وبين معاوية الحسن بن على وعبد الله ابن عباس . وأتبع وعيده بأن انتقل إلى القلعة ومعه الأموال وامتنع بها ، وذلك سنة ٤١ هـ

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية ، وقدم معاوية الكوفة ليتلقى أمر العراق والشرق جميعاً ، وخلا ما بين

زياد ومعاوية مرة أخرى . وعاد معاوية يجاذب زياداً الحبل ولكن في غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما في ذمته من مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك في أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه . ولكن زياداً أصم سمعه عن تلك الدعوة الخلابة . فلم يسع معاوية عند ذلك إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بسر بن أبي أرطاة عامله على البصرة بأخذ الأكابر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبة ، عامله على الكوفة ، بالشخوص إلى البصرة واستصفاء أموال زياد التي كانت في يد عبد الرحمن بن أبي بكرة ، وتهديد عبد الرحمن إن امتنع من أدائها . ولكن زياداً لم تلن قناته إزاء هذا الجد من معاوية في أمره . وهم بسر بأن يقتل أبناء زياد فعلا لولا أن تدخل في الأمر أخوه لأمه أبو بكرة ، على ما بينه وبين زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التي شهدها زياد في حادث المغيرة . فقد شفع في أبناء زياد لدى معاوية فشفعه فيهم ، وكتب إلى بسر بأن يخلي سبيلهم .

واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعاً . وبينا الحال كذلك إذا برجل يثق به معاوية ولزياد عنده يد مشكورة ، ومنة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل بطبيعة الحال هو المغيرة بن شعبة . قالوا إنه دخل يوماً على معاوية وهو بالكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه المنتصح
فإذا بحت بسر فإلى ناصح يكتمه أو لا تبح

فقال : يا أمير المؤمنين : إن تستودعني تستودع ناصحاً شفيقاً ، وورعاً وثيقاً ، فما ذاك ؟ . قال : قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها ، فلم أنم ليلتي فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال : ما زياد هناك ؟ فقال معاوية : داهية العرب ، معه الأموال ، متحصن

بقلاع فارس ، يدبر ويربص الحيل . ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعة ؟ قال المغيرة : أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه ؟ . قال : نعم ! فأته وتلطف له ! . فأتى المغيرة زياداً وأعلمه بنزول الحسن عن الأمر ، وأن الأولى له أن يصل حبله بحبل معاوية . وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم ، وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية .

قدم زياد على معاوية بدمشق في سنة ٤٣ ، ورفع إليه حساب فارس ، فأحسن معاوية لقاءه وصدق كل ما قال ، ثم أنزله الكوفة كما طلب . إلا أنه لم يركن إليه كل الركون ، فقد كتب إلى المغيرة يأمره بأخذ زياد ورؤوس أصحاب علي بالكوفة كحجر بن عدي الكندي وعمرو بن الحمق بحضور صلاة الجماعة ، فكانوا يصلونها معه .

بيد أن معاوية كان أدهى من أن يقف في أمر زياد عند هذا الحد . لقد أراد أن يستخلصه ويجتذبه إلى جانبه جملة ، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفايته ومواهبه العظيمة ، ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا محا من نفس زياد ما كان يحس من الضاضة ، بأن يعلن على رؤوس الأشهاد صحة ما كان يتهامس به الناس من نسبة زياد إلى أبي سفيان . وتفصيل ذلك أن زيادا كان حتى ذلك الوقت لا يعرف له أب على التعيين ، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد ، وهو عبد رومي كان للحارث بن كلدة ، وبعضهم ينسبه إلى أبي سفيان ، وبعضهم ينسبه إلى أمه فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أبيه أيا كان ذلك الأب . إلا أن ذلك الغموض في النسب لم يلحق زيادا منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب كما رأينا ، وهذا مما يدل على سماحة الرأي العام ونبله في ذلك الزمان . فما كان من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبي سفيان الذي سبقت الإشارة إليه ، وبشهادة شهود شهدوا ببنوة زياد لأبي سفيان ، وأعلن في الآفاق أن زياداً أخوه لأبيه .

ولقد أنكر معاوية بعمله هذا دهشة الرأي العام ، وامتعاض بني أمية ، وسخط بعض رجال الفقه والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقد نظروا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذي قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد في هذه المسألة التي وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبي سفيان ، حكم الاسلام بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم في الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم وعدها سفاحا . فكان لمعاوية في الأمر نظر أوسع من نظرهم وتقدير أبلغ من تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسي يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام يقضي باصطناع تلك الشخصية الفذة والانتفاع بها في إدارة الدولة .

ولقد كان معاوية مرتاح الفكر والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشت القالة ، واشتد النكير عليه ، قام في الناس فقال : أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزها في الجاهلية ، وأن الاسلام لم يزدني إلا عزا ، وإني لم أتكثر بزياد من قلة ، ولكن عرفت حقاً فوضعته موضعه . ألا إن يكن معاوية قد أظهر في هذه المسألة شيئا ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر الخليفة المهدي العباسي الذي أمر في سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان قريش وردهم إلى ثقيف ؟

(تتمة الموضوع في العدد القادم) **عبد الحميد العبادي**

الفن الحـــــديث

تاريخه ونزعاته

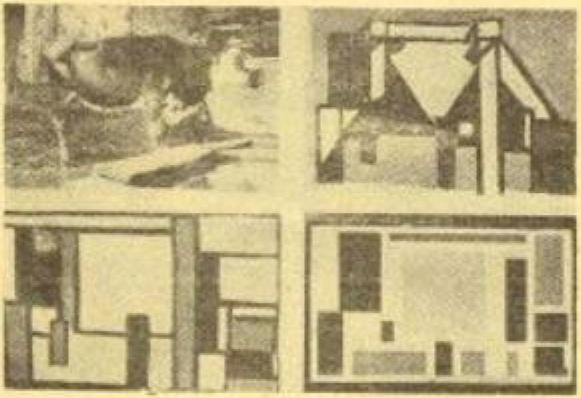
للأستاذ محمد يوسف همام

إن لفن كل عصر من العصور صفة تلازمه . فكان فن القرن الخامس عشر ميالا لمحاكاة الطبيعة ، واشتهر فن الفلمنك سكان أوربا الشمالية ببيان التفاصيل الظاهرية ، أما فن الفلورنسيين فى إطاليا ، فقد كان أبعد مدى من ذلك ، لأنه قام على أساس قواعد المنظور والتقصير والتشريح والحركة ، وما إليها

أما فى أوائل القرن العشرين وما قبله بقليل ، فقد تحولت الرغبة كثيراً عن ذلك ، بعد أن وصل التصوير الطبيعى إلى قمته خلال القرون الخمسة الماضية ، فاقتضت جرأة بعض الفنانين ورغبتهم فى الابتكار ، نبذ محاكاة الطبيعة والاقلاع عن تصوير مظاهرها تصويرا حرفيا ، وعمدوا إلى تجاربهم المختلفة فى هذه السبيل ، فنشأت النزعات العديدة ، ثم انتهوا إلى ما سموه (Abstract Art) أى الفن التجريدى ، ولم يقتصر الأمر على التصوير ، بل تعداه إلى الحفر وعمل التماثيل . ولا يمكن للجماهير أن تقدر قيمة هذه الفنون الحديثة ، إلا إذا درستها من غير تحزب للطبيعة

ومن المفروض أن التصوير الطبيعى هو إنشاء يتكون من محاكاة الطبيعة فى اللون والخطوط والضوء والظل ، والمفهوم أن المحاكاة لا تفقد تلك المظاهر ما لها من قيمة فنية ، ولكنها قد تشوه بعضاً من نقائها وصفائها . ولذلك يصر الفنان الحديث على أن ينصرف عن محاكاة الطبيعة ، ويعمد إلى ابتكاراته المجردة

وقد يؤدى هذا المنطق إلى ضعف فى التصوير ، وحذف لكثير من المزايا ، ومن معالم التعرف على الموضوع ، والتمتع ببهجة القدرة الفنية على صنعة التكوين والإنشاء الطبيعى . ولكن الفنان التجريدى (Abstract) يفضل الفقر فى هذه النواحى فى فنه ، على تشويه المظهر المعنوى للطبيعة (شكل ١)



شكل ١ «تحوير معنوى لشكل بقرة — من عمل دوسبرج سنة ١٩١٨»

نزعة التأثريين Imdressionism :

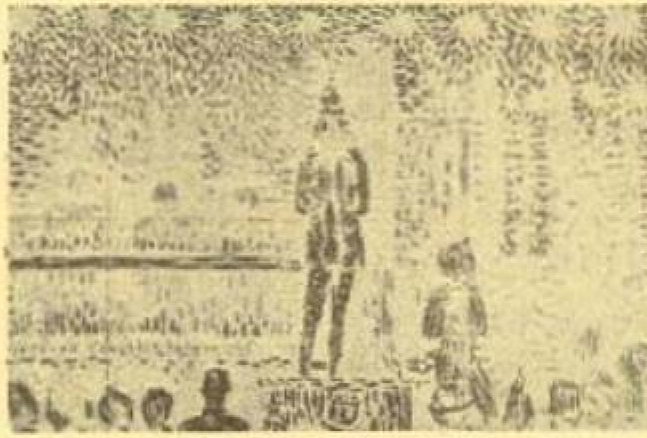
يتغير مظهر الأشياء بتغير سقوط الضوء عليها . فمظهر الشجرة فى الصباح غيره بعد الظهر ، ثم غيره قرب



شكل ٢ «رصيف البناء — من تصوير سيرا سنة ١٨٨٣»

الغروب ، لأن لونها والضوء الموزع عليها ، والظلال التي تتخلل كتلتها ، تختلف كل الاختلاف بين كل لحظة وأخرى ، فإذا صورنا تلك الشجرة مرة كل ساعة مثلا ، تتكون لدينا مجموعة صور ، لكل واحدة منها مظهرها الخاص . هذا هو الأساس الذي بنى عليه التأثريون طريقتهم

ثم عمدوا إلى أن تكون ألوانهم براقة تمثل ضوء الشمس ، ووضعوها على شكل بقع وشرط من ألوان مختلفة فكان للتباين البادي بينها أثر في إكساب الصورة بريقاً يشبه بريق الشمس ، وضوءاً يحاكي ضوءها . وهكذا تقدم بعض الفنانين الفرنسيين للجمهور سنة ١٨٦٣ ، فأقاموا معرضاً كانت له ضجته ، لأن صوره خالفت ما ألفه الناس في فن التصوير . (انظر الأشكال ٢ و٣ و٤)



شكل ٣ « في المعرض — عمل سيرا »



شكل ٤ « بهجة الحياة — عمل ماتيس »

ولما كثرت معروضات التأثريين بدأ الناس يألفونها . وكان مونيه الفرنسي أحد زعماء هذه الحركة ، يخرج في عربة ومعه الكثير من اللوحات المعدة للرسم عليها . فيقضي اليوم بطوله يصور الشكل الواحد عدة مرات ، كل مرة في لوحة على حسب تحول الضوء .

وسئل ماتيه ، وهو فنان فرنسي آخر من أتباع النزعة ، عن أهم شخص في صورة رسمها ، فكان جوابه التاريخي المشهور : « إن أهم شخص في أي صورة هو الضوء »

ونشأ سيزان الفرنسي ، وهو زعيم ثالث ، متشبعاً بهذه الطريقة ، ولكنه بعد مدة أراد أن يحول الفن التأثري إلى فن أكثر رسوخاً مما كان ، ليصبح له مركز خالد كالفن القديم ، فنحا به نحواً جديداً ، وجاهد طويلاً حتى ترك تراثاً عظيماً ، لم يقدره له العالم إلا بعد وفاته .

وكان له ولأتباعه هذه الطريقة الجديدة المحورة عن التأثريين سموها « مابعد التأثريين »

والطابع الذي يميز هذه النزعة هو الرغبة في التوفيق بين الفن التأثري الحديث ، وبين الفن الكلاسيكي القديم ، باتخاذ طريق متوسط بين رغبة المغالاة في تصوير الضوء وأثره ، التي هي أساس نزعة التأثريين ، وبين التشبث بالمحاكاة الحرفية لعناصر الطبيعة ووحداتها ، التي هو الطابع التقليدي للفن القديم . ويتضح ذلك جلياً في صورة

«اللاعبين بالورق» لسيزان التي لم يعد الضوء «أهم شخص



شكل ٥ «اللاعبون بالورق — تصوير سيزان»

فيها» كما قال مانيه، ولو أنه متقن ووافٍ، كما أن التعبير عن عنصر الطبيعة في بيان الأبعاد والمساحات والمظهر العام للموضوع متوفر وجلي، رغما عن البساطة التامة التي انتهجها سيزان في طريقة تصويره الجديدة التي وضح لنا بها قطعة فذة من الحياة فأبدع الإيضاح



شكل ٦ «صورة ڤان جوك لنفسه»

وقد نحا كل من جوجان الفرنسي وڤان جوك الهولندي هذا النحو الجديد في الرسمين المصورين في شكلي ٦ و٧. وثلاثتهم في الظهار ذخيرة فنية عظيمة :



شكل ٧ — «تاهي» تصوير جوجان

محمد يوسف همام

مقتطفات

ماذا كانوا منذ عشرين سنة ؟

هتلر — موسولينى — فرانكو — مصطفى كمال — أنتونى ايدن — روزفلت — وليم موريس الأديب وغيرهم

منذ عشرين سنة وضعت الحرب أوزارها ، وما كان أحد يحلم بذلك يومئذ ...

فى ذلك الحين ترك المستر بيفل تشمبرلن وزارة « العمل الأهلى » التى ظل يتولاها طوال سنوات الحرب وذهب ليستريح فى جناحه الخاص فى فندق أرمين

وكان « الجاويش » أدولف هتلر مريضاً فى أحد المستشفيات القريبة من برلين يعانى آلام إصابة بغاز الخردل ، أصابته وهو يحارب فى صفوف الفيلق السادس عشر الاحتياطى من فيالق المشاة الألمان

وكان بنيتو موسولينى وشيك الخروج من أحد المستشفيات الإيطالية ، يجاهد لكسب قوته بالتحرير فى إحدى صحف المعارضة ، تفيض نفسه ألماً لمصير بلاده ، وحقداً على القائمين بالأمر فيها

وكان الضابط « هور بليشا » يطوف فى بعض نواحى الشرق القريب فى زى ضباط « فرقة الجواسيس الإنجليز » ذوى الشارات الخضراء

وكان فرانكلن روزفلت معروفاً لأصدقاء الرئيس ولسون بالنشاط والذكاء والإخلاص فى خدمة رئيسه ، وقد ذاع صيته بعض الشىء على أثر توفيقه فى عمله بقسم الدعاية الملحق بالأسطول الأمريكى الراسى فى المياه الأوربية .

وكان « المشير » مصطفى كمال فى طريقه إلى مركز قيادته الجديد فى فلسطين ، بعد خلاف حاد قام بينه وبين القائد العام الألمانى بشأن الخطة التى تتبع لإيقاف تقدم المارشال اللنبى

وكان الضابط النشيط فرانسسكو فرانكو يحارب قرب أوفيدو فى صفوف فيلق المشاة الثالث الأسبانى ، وكان جنوده يشكون سوء معاملته لهم

وكان الكابتن أنتونى ايدن يقود الفرقة العشرين من فرق « الرماة الملكية الإنجليزية » فى أشد مراكز الجيش الإنجليزى المحارب فى فرنسا خطراً

وكان ألبرت أينشتين يبحث ويعمل فى معمله للوصول إلى قوانين النسبية التى كانت سبباً فى ذيوع صيته فيما بعد ، وكانت الحكومة الألمانية الامبراطورية ، لا تفتأ توالية بالمال والتشجيع لمواصلة أبحاثه على رغم ما كانت تعانيه من الضائقات فى أواخر الحرب وفى أعقابها

وكان المستر وليام موريس — صاحب السيارة المعروفة باسمه — يجاهد بيديه كعامل بسيط فقير فى أحد مصانع الذخيرة بمدينة كاولى ، وكان أمله العريض فى إمكان صنع سيارة رخيصة أملا وحلماً

وكانت جامعة أكسفورد شبه خالية من طلبتها وأساتذتها ، لا يعمر قاعات الدرس فيها إلا فريق قليل من الطلبة يلاحظ الرائى بينهم الطالب الدس هكسلى .

فرج من حرج !

قرأ أحد النواب الفرنسيين ذات صباح مقالا عنيفاً يهاجمه فيه الكاتب هجوما بلغ حد الاهانة ، فبلغ به الغضب مبلغاً عظيما ، وأسرع إلى صديق له يسأله عن السبيل الذى يستطيع به أن يرد هذه الاهانة : أيدعو

الصحفى إلى مبارزة ؟ أيقاضيه ؟ أم يطلب منه أن يعتذر رسميا ؟

ولكن صديقه كان رجلا عاقلا جدا ، إذ ابتسم وقال : « لا عليك يا صاحبى من هذا كله ، فإن نصف قراء الصحيفة لم يلاحظوا هذا المقال ، ونصف الذين لاحظوه لم يقرأوه ، ونصف الذين قرأوه لم يفهموه ، ونصف الذين فهموه لم يصدقوه ، ونصف الذين صدقوه لا أهمية لهم ...

« فماذا يبقى بعد ذلك ؟ »

رأى جديد فى نابليون

سمع قيصر الروسيا الأخير بأن هناك فلاحاً يعيش فى أحد أطراف الامبراطورية ، ويزعم أنه رأى نابليون فى أثناء حملته الروسية ، فأمر بإحضار الرجل بين يديه وبذل فى ذلك مالا طائلا

فلما مثل الرجل فى محضر القيصر تهافت الكبراء والعظماء ليسمعوا حديث هـذا الفلاح عن أعظم حادث فى تاريخ الروسيا الحديث

وبدأ أحدهم فسأله : « هل رأيت نابليون ؟ »

فأجاب الرجل : « أجل . لقد مر بجيشه بقريتى »

فسأله : « حدثنا إذن كيف رأيته ؟ »

فاعتدل الرجل فى مكانه وأنشأ يقول :

« لقد كان رجلا طويلا جداً . . ذا لحية بيضاء تتدلى على صدره ... » !

عزاء بلزاك

كان بلزاك (القصصى الفرنسى) يعيش فى أثناء شبابه فى غرفة خاوية على عروشها ، لا أثاث فيها ولا مدفأة ، ولا يزين جدارها رسم ، ولا يغطى أرضها غطاء ، وكان البرد يؤذيه وقلة الأثاث تجهمه ... ولكنه استعاض عن ذلك بشىء لا يرضى به إلا أديب . لقد كتب على أحد الجدران : « مرآة مذهبة من البندقية » وبجانب ذلك « دولاب من الخشب المشغول المطعم » ، وعلى الجدار الآخر « مدفأة عظيمة مشتعلة دائماً » ، وكتب فوق ذلك « ساعة عظيمة ذات أعمدة من البرونز » ، وكتب على الجدار الذى وضع سريره إلى جانبه « صورة بريشة رافاييل ... » .

وبهذا أثث غرفته كلاماً !

قوة الإيحاء

رأى الجراح الانجليزى المعروف بروس بروس بورنز فتاة هزيلة مهدمة القوى تقرأ قصة مسلسلة تنشرها إحدى المجلات ، بطلتها فتاة هزيلة مسكينة تناوحت عليها الأحداث والنوازل ، فأسرع من تلقاء نفسه وقابل مؤلف القصة وسأله عن مصير بطلته ، فأجابه بأن مصيرها الموت ، فسأله أن يعدل عن هـذا الرأى وأن يغير ختام القصة ، فوافق المؤلف وأنجى البطلة من الموت .. فهل تلبث القارئة المريضة أن شفيت !

أسعار التصفيق

تستأجر المسارح الفرنسية رجالا يصفقون فى المسرح لكبار المخرجين والممثلين ، وتتقدم على ذلك أجوراً مختلفة . وإليك بيان القيم التى حددها مسرح مشهور فى باريس لطوائف المصفقين والهاتفين :

التصفيق عند دخول سيد عظيم	٢٥ فرنكا
التصفيق عند دخول سيدة	١٥ »
التصفيق العادى أثناء التمثيل	١٠ فرنكات
التصفيق المستمر	١٨ فرنكا
طلبات الإعادة والهتاف	٥٠ فرنكا

وبهذا يكون التصفيق صناعة رائجة لا بأس بها !

العناصر النادرة فى الهواء

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

إن هذا الغلاف الهوائى المحيط بالأرض يموج بالأسرار ، رغم كل ما عرف الإنسان عنه إلى الآن . وإذا كان اكتناه هذه الأسرار من شأن العلم ، فإن من شأن الثقافة الإلمام بما قد انكشف للعلم بالفعل ، مما كان سراً بالأمس وأصبح اليوم واقعاً معروفاً ينتفع أو يعتبر به الإنسان

والإنسان لم يعرف جوهر تركيب الهواء إلا فى القرن الثامن عشر على أيدى رجال مثل شيله Scheele ، وبريستلى Priestley ، ورذرفورد Rutherford ، وكافنديش Cavendish . ومكث الناس بعدهم أكثر من قرن يعتقدون أن الهواء بعد تخليصه من قليل ثانى أكسيد الكربون الذى فيه وتجفيفه لا يتركب إلا من الغازين اللذين سماهما لفوازييه Lavoisier بالأكسيجين والأزوت ، بنسبة الخمس فى الحجم من الأول ، والأربعة الأخماس من الثانى ، أو بنسبة ٢١٪ و٧٩٪ لمن يريد أن يكون أقرب إلى التحقيق

لكن كافنديش كان أقرب العلماء جميعاً إلى الكشف عن أن الهواء الجاف النقى يحوى غازاً آخر غير الأزوت والأكسيجين

فقد شاهد أنه إذا مزج مقداراً من الهواء بما يكفى من الأكسيجين ليتحد بجميع الأزوت بواسطة الشرر الكهربائى ، ثم تخلص من ناتج التفاعل ، وتخلص كذلك من الأكسيجين الزائد ، بقيت عنده فقاعة استعصت عليه فلم يستطع التخلص منها بوجه من الوجوه

وقد وصف كافنديش تجربته هذه للجمعية الملكية البريطانية سنة ١٧٨٥ ، ونوه بفقاعة الغاز التى تخلفت من الهواء ، وعجز الشرر الكهربائى أن يجعلها تتحد بالأكسيجين . لكن هذه النقطة من تجربة كافنديش مرت لم يأبه بها أحد ، ومرت فقاعة الغاز لم ينتبه أحد إلى أنها لا يمكن أن تكون من الأزوت ما دامت لم تتكيف تكيفه ولم تتحد بالأكسيجين كما اتحد . أما كافنديش فإنه بعد أن أدى حق الأمانة العلمية بذكر الفقاعة التى استعصت عليه ، لم يتتبع الموضوع وراء هذا . فكان كمن أداه المطاف إلى باب وراءه سر عظيم فوقف عند الباب ولم يستفتح . وله العذر فإن استفتاح باب سر تلك الفقاعة كان يقتضى أولا تحضير أمثالها ، وتحضيرها وحدها استنفد من كافنديش ومساعده ثلاثة أسابيع ، كانا يتناوبان فيها إدارة الآلة الاحتكاكية لتوليد الشرر الكهربائى اللازم لتجربته . ولو لم تقعده هذه الصعوبة عن متابعة الموضوع لما استطاع أن يستنتج أكثر من أن الأزوت الجوى ليس أزوتاً صرفاً ، وأن الهواء يحوى بجانب الأكسيجين والأزوت قليلا من غاز آخر يخالفهما فى الخواص . أما ماهية هذا الغاز فلم يكن الأوان قد آن للكشف عنها ، فإن الوسائل العلمية اللازمة للوصول إلى سر فقاعة كافنديش لم تتيسر للعلم إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

مر على تجربة كافنديش أكثر من قرن نسيها العلماء فيه ، حتى جاء اللورد ريلى أستاذ الفلسفة الفطرية فى المعهد الملكى بلندن وقام ببحوثه فى كثافة العناصر الغازية ، والأزوت من بينها ، فوجد اختلافاً بسيطاً بين كثافة الأزوت الجوى والأزوت المحضر من المواد الكيماوية لم يمكنه تفسيره : وجد أن وزن اللتر من الأزوت الجوى ١٫٢٥٧١ من الجرام ووزن الأزوت الكيماوى ١٫٢٥٠٧ من الجرام ، أى أنه وجد الأزوت الجوى أثقل من الأزوت

الكيمياوى بنسبة ١٫٠٠٥١ : ١ وهو فرق ضئيل يمر به أكثرنا غير ناظر إليه يحسبه فرق خطأ فى التجربة . ولكن لا كذلك حسب ريلى ، فانه كان يعلم أن تقديره صحيح إلى الرقم الرابع العشرى ، فالخلاف فى الرقم العشرى الثالث لا يمكن أن يكون إلا خلافاً حقيقياً يحتاج إلى تفسير

وكان التفسير الذى خطر للورد ريلى هو أن الأزوت له صورتان إحداهما أكثف من الأخرى : فالصورة الأخف هى الأزوت الكيمياوى العادى المعروف أن جزيئه يحتوى ذرتين ، والصورة الأخرى الأكثف فرض أن جزيئها يحتوى أكثر من ذرتين وأنها توجد فى الأزوت الجوى . هكذا ظن ريلى ، لكنه أراد أن يشرك العالم الكيمياوى معه فى الرأى ، فنشر فى سنة ١٨٩٣ خطاباً فى مجلة الفطرة (Nature) يستفتى به الكيمياويين فى ذلك الخلاف الذى وجده بين الكثافتين

واستجاب له من بين الكيمياويين الأستاذ وليم رمزى أستاذ الكيمياء فى جامعة لندن — وقد نال لقب سير بعد ذلك — فرأى أن الفرق بين الكثافتين راجع إلى وجود عنصر جديد فى الأزوت الجوى كثافته أكبر من كثافة الأزوت

وفضل العلم على غيره من ألوان الفلسفة أن الرأى فيه يمكن تمحيصه بالرجوع إلى التجربة . هنالك ذكر هذان العالمان تجربة كافنديش ، وتحيا حين وجدا أن تلك التجربة هى كل ما فى تاريخ العلم من دليل على تجانس الأزوت الجوى ، رغم ما فيها مما يشير إلى عدم تجانسه . عندئذ اتفق العالمان على أن يمحصا رأيهما فى الموضوع بتجارب يجريانها لتحضير ذلك الغاز الكثيف ، كل بطريقته التى يختارها ، ليمتحناه بعد ذلك ، على أن يخبر كل منهما صاحبه بما يقع له .

فأما اللورد ريلى فاختار أن يحضر الغاز بإجراء تجربة كافنديش بالوسائل الحديثة . وقد فعل ، وحصل على مقدار مذكور من الغاز ، وقدر كثافته فوجد النسبة بينها وبين كثافة الأزوت النقى كنسبة ١٫٤٢ : ١ تقريباً

وأما الأستاذ رمزى فكان قد لاحظ فى إحدى تجارب محاضراته أمام فصله أن المغنزيوم إذا احترق فى حيز محدود من الهواء لم يقتصر اتحاده على الأكسيجين ولكنه يشمل الأزوت أيضاً . فقر رأيه على الانتفاع بهذه الخاصة فى تحضير الغاز الجديد من الأزوت الجوى ، وذلك بإمراره مقداراً محدوداً من الأزوت الجوى مرات كثيرة على المغنزيوم المحمى . وقد فعل ، فوجد بعد سبعة أيام أن حجم الأزوت نقص فصار نحواً من ١/١٠ من الحجم الأصلى ، وأن كثافته النسبية — أى بالنسبة إلى كثافة الإيدروجين المتخذة وحدة — ارتفعت إلى ١٦٫١ فى حين أن الكثافة النسبية للأزوت هى ١٤ ، فلم يبق عنده شك فى أن الأزوت الجوى به غاز أكثف من الأزوت النقى . واستمر فى إمرار الغاز بعد أن جدد المغنزيوم فنزل الحجم فصار نحو ١/٨٠ من حجمه الأصلى ، وارتفعت الكثافة النسبية إلى ١٩٫٩٤ فى عشرة أيام ثم ثبتت على ذلك

لم يبق عند ريلى ورمزى شك فى أنهما قد كشفا فى الهواء عن غاز جديد ، فأعلنا كشفهما المجمع العلمى البريطانى المنعقد فى أكسفورد فى أغسطس سنة ١٨٩٤ . لكن دعواهما لم تمر من غير نقد ، بل لقيت غير قليل من الاعتراض ، لأن الكيمياويين من ناحية وجدوا من البعيد أن يكون فى الهواء غاز يبلغ نحو ١٪ منه ثم لا يعثر عليه أحد فى أكثر من قرن مر على اكتشاف تركيب الهواء ، ولأن العالمين الكبيرين من ناحية أخرى أسرعا فى إعلان كشفهما قبل أن يبحثا خواص الغاز . وكان من أثر ذلك أن عادا إلى استئناف بحثهما بمقادير كبيرة من الغاز تمكنهما من بحث

خواصه بحثاً يقطع السبيل على كل شك معقول . فاستطاع ريلى أن يحضر نحو لترين منه بنفس طريقته الأولى ، ولكن بجهاز أوسع يتسع لنحو خمسين لتراً من الهواء . واستطاع رمزى أن يحضر بجهازه وطريقته مقداراً أقل من ذلك

وامتحنا خواص الغاز الذى سمياه بالأرجون ، وهى كلمة معناها « قليل الاتحاد » ، وذلك لعدم تفاعله مع الأكسيجين والمغنزيوم فى تلك الظروف . فأثبتا عن طريق تقدير سرعة الصوت فيه أن جزيئه مكون من ذرة واحدة فقط . وهى تجربة بسيطة ، والحساب المؤدى إلى تلك النتيجة منها أبسط ، لكن لا سبيل إلى شرحهما الآن . وإذا كان جزىء الأرجون مكوناً من ذرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون الأرجون مركبا ، وإذن فهو عنصر جديد كما ظن رمزى ، لا صورة جديدة للأزوت كما كان يظن ريلى

وامتحنا طيف الأرجون لينظرا أشبيه هو بطيف أحد العناصر المعروفة ؟ أم هو طيف جديد كما ينبغى أن يكون إذا كان الغاز عنصراً جديداً . فوجداه ذا طيف جديد فيه خطوط طيفية لا تنطبق على خطوط أى طيف آخر ، فجاء ذلك مؤيداً تمام التأييد لعنصرية الأرجون

وامتحناه من الناحية الكيمياوية فحاولا بكل سبيل أن يحملاه على الاتحاد بالمواد الفعالة كلها ، كالصديوم والبوتاسيوم والكلور والفلور ، فلم يفلحا فى حمله على الاتحاد بشىء . وكان حجم الأرجون فى كل تجربة يظل فى آخرها كما كان فى أولها لم ينقص منه شىء . وكان طيفه بعد كل تجربة هو عينه قبلها ، لم يلحقه أدنى تغيير . فأيقن العالمان أنهما منه أمام ظاهرة جديدة ، إذ لم يكن فى العناصر قبل الأرجون عنصر خامد عديم الفاعلية يأبى أن يتحد بشىء مطلقا من العناصر الفعالة فى جميع الظروف

ولما استوفيا من بحثهما ما استوفيا أعلناه أمام الجمعية الملكية البريطانية فى يناير سنة ١٨٩٥ . وصار الأرجون بعد ذلك شغل جماعة من العلماء : فمنهم من شغل نفسه بتحسين طريقة تحضيره ليجعلها أسرع وأنجع ، وقد نجحوا فى ذلك . ومنهم من جعل يدرس من خواص الأرجون ما درس رمزى وريلى ، فكانت نتائجه فى صميمها كنتائجهما . ومنهم من جعل يدرس من خواصه الطبيعية ما لم يدرس رمزى وريلى . ومنهم من جعل يبحث عن نسبة الأرجون فى الهواء فى بلدان مختلفة أو على ارتفاعات مختلفة ، فلم يجدوا نسبته تختلف فى الهواء إلا قليلا . ومنهم من جعل يبحث عنه حيث يتنفس الهواء : فى ماء النهر وماء البحر وفى الأسماك وفى النبات وفى الدم ، فوجدوه فى كل ذلك . ومنهم من جعل يبحث عنه فى الأحجار المعدنية فوجدوه فى بعضها ، وفى المياه المعدنية فوجدوه فى كثير منها

وأخيراً لما اخترعت المصابيح الغازية الكهربائية ، واكتشف بعض مخترعيها أن وجود غاز غير فعال فى المصباح مما يزيد فى عمر السلك لأنه يعوق تبخره ، بل مما يزيد فى ضوء المصباح إذا كان السلك على شكل خاص ، لم يجدوا خيراً من الأرجون يتخذونه لهذه الغاية . فهو منذ عام ١٩١٤ يحضر بكثرة من الهواء ليستعمل فى بعض تلك المصابيح

وفى مارس من عام ١٨٩٥ ، أى بعد نحو شهرين من إعلان الأستاذين ريلى ورمزى بحثهما ، كتب الأستاذ رمزى إلى الجمعية الملكية البريطانية ينبئها أنه قد كشف عن غاز آخر جديد . وتتابعت كشوفه حتى بلغ ما اكتشفه من إخوة الأرجون فى الهواء أربعة غازات أندر منه اكتشفها فى بضع سنين .

محمد أحمد الغمراوى

الأمراض العصبية والعقلية

بحث سيكولوجي

للدكتور بنيامين بهمان

الطبيب بمستشفى الأمراض العقلية

الأمراض العصبية والاضطرابات العقلية تزداد انتشاراً في العالم أجمع زيادة تتمشى مع مدنية هذا العصر ، وتكون في المدن أكثر منها في الريف ، وفي البلاد الصناعية أكثر منها في البلاد الزراعيـة ، وما يلفت النظر في بلادنا أن زيادة انتشارها جاءت فجأة في السنوات الأخيرة ، وأنها تسير بسرعة كبيرة ، مما يتزعج له الكثيرون لأنهم لم يألفوا ذلك في الماضي ، ولم تكن البلاد تتوقع هذه الزيادة ، فلم تعد الوسائل اللازمة والضرورية لمجابهة هذه الحالة ومعالجة هذه الأمراض والوقاية منها ، كما فعلت الأمم الأخرى . ولذا تواجه البلاد مشكلة اجتماعية مزعجة ، وإني أعتقد أن في بلادنا ما يزيد عن ٥٠ ألف مريض بمرض عقلي ، بينما المستشفيات المعدة لها لا تسع أكثر من أربعة آلاف مريض فقط ، والمصابون بالأمراض العصبية والاضطرابات النفسية أكثر من هذا بكثير ، ولا يوجد لهم في البلاد كلها مستشفى واحد ، كما أن طرق الوقاية منها معدومة بتاتاً ، وهذا أمر من الخطورة بمكان عظيم !

قلت إن هذه الأمراض تزداد انتشاراً تبعاً لتقدم المدنية ، وذلك لأن المدنية الحديثة وحضارة هذا العصر تحمل الناس أعباء ثقيلة هي فوق طاقة الكثيرين ، كذلك نجد الأمور والانقلابات في هذه الأيام تسير وتتغير بسرعة شديدة ، لا تدع للناس الفرصة الكافية لأن يألفوها أو يروضوا أنفسهم عليها ، بينما في الأجيال السالفة كانت الأحوال تسير ببطء وعلى وتيرة واحدة ألفها الناس ، ورتبوا معيشتهم عليها ، والتقلبات كانت نادرة الحصول ، كما أنه كان لكل شعب تقاليد وفلسفة وتعاليم وأنظمة سياسية واجتماعية ثابتة نوعاً ما . وأما الآن فقد أصبح العالم مضطرباً غير مستقر على حال ، كثير التغيرات والتقلبات ، وأصبح الكفاح لأجل المعيشة عسيراً بينما طرق التعليم والتربية لم تتغير كثيراً . وإذا كانت تلك الطرق في الماضي متفقة ومناسبة للأحوال والأجيال السالفة ، فقد أصبحت غير ملائمة لهذا العصر ، لأنها لا تؤهل الشخص لمجابهة ما ينتظره من كفاح ومنافسة ، ولا تعده إعداداً يجعله قادراً على التمشي مع تقلبات الأحوال المستمرة بالسرعة المطلوبة .

أقول هذا لأني أعرف جيداً أن الأمراض النفسية ناشئة عن خوف المريض من مواجهة الأمر الواقع والحقائق الراهنة . والتحليلات النفسانية تدلنا في كل حالة نحللها على أن خوف الشخص هذا يؤدي إلى محاولته الهروب تخلصاً من المأزق الذي يجد نفسه فيه ، عوضاً عن أن يجابهه ويقف أمامه وجهاً لوجه . ومحاولة الهروب هذه تتخذ صورة حالة مرضية ؛ فمثلا إذا أجبرت بنت على زواج رجل تكرهه ولأسباب لديها لا تقبله ، فإنها تواجه هذا الموقف بإحدى الطرق الآتيـة : إما أن تتحدى هذا الزواج وتقف أمامه معارضة وترفضه بشجاعة ، مهما كلفها ذلك ومهما كانت نتيجته ، أو أنها تجبن لأنها لا تأنس في نفسها المقدرة على مثل هذا الموقف ، وفي هذه الحالة قد يخلق عقلها مرضاً عصبياً يكون حائلا بينها وبين هذا الزواج تخلصاً من هذه الورطة . أو أنها تقبل ذلك الزواج متضررة وتغش نفسها على أمل أن تعتاد تدريجياً بعد الزواج على قبول من ترفضه الآن ، فإذا هي فشلت بعد الزواج في محاولتها ، وهذا ما يحدث غالباً ، فإنها تتعرض لأن تصاب بأمراض نفسية واضطرابات عصبية مختلفة ومتفاوتة الدرجات . فالطريقة الأولى هي طبعاً طريقة صحيحة سليمة العاقبة ، بينما الطريقتان

الأخيرتان تتضمنان هروب البنت من الأمر الواقع تخلصاً منه بدون أى تدبير متعمد، وذلك عن طريق ما تسميه العقل الباطن أو اللاشعور. وإليكم حالة إيضاحية:

استشارنى قريباً أحد الآباء فى أمر ابنته التى تبلغ من العمر ١٩ سنة، وهو رجل ذكى محترم، لكنه محافظ بل رجعى — وإن كان قد علم ابنته تعليما حديثاً — أصيبت هذه البنت فجأة بنوبات دوار وإغماء شديد وقىء مستمر حال دون تغذيتها، فاعتراها الضعف والهزال حتى أصبحت هيكل عظام لا تقوى على الوقوف بل ولا الجلوس فى سريرها، وفشلت محاولات كثير من الأطباء فى علاجها. ولما فحصت تلك البائسة لاحظت على وجهها علامات القلق والاضطراب النفسانى والرعب الشديد، ولم أجد بأعضاء جسمها مرضاً يبرر حالتها، فواجهت والدها بقولى: « إن ابنتك لا بد أن تكون قد خطبت حديثاً لرجل لا تميل إليه، وهذا أمر توهمته ورجحته، ولم أسمعه من المريضة » فلم يرتح الوالد لسؤالى، ولعله اعتبره تدخلا منى فيما لا يعنينى وأجابنى متضرراً بأن ابنته قد خطبت حقيقة لرجل مسن وله أولاد من سيدة أخرى، إلا أنه رجل طيب القلب ذو جاه، أما عن ميل ابنته لهذا الزواج فقد قرر أن هذا أمر لا يعنيها هى، بل من خصائصه هو، وأنه لذلك لم يستشرها فيه، فنصحته بأن يقول لوالدة المريضة أن تهمس فى أذنها بأن هذه الخطبة قد فسخت، ولم يمض يوم واحد على ذلك حتى وقف القىء، وابتدأت البنت تأكل وزالت نوبات الدوار والإغماء بغير احتياج إلى تعاطى أى دواء!

يتضح جلياً من هذه الحادثة كيف أن مظهر المرض النفسى اتخذ شكل مرض جسمى، وكيف أنه كان وسيلة تحايل ابتدعها عقل البنت الباطن دون أن تشعر به أو تدركه ليخلصها من المأزق الذى فرض عليها فرضاً، فالبنت حين عجزت عن أن تجابه الأمر الواقع والحقيقة الراهنة حل اللاشعور مشكلتها بالهروب إلى حالة مرضية، أملاً فيما تريد، وهو عدم وقوع هذا الزواج، ولكنها فى سبيل ذلك دفعت ثمناً غالياً هو إصابتها بالمرض العصبى

وسنة الطبيعة واحدة لا تتغير فهى « كافح أو اهرب » وهى سنة تجرى على الإنسان والحيوان على السواء. وليس من السهل شرح الطرق المتعددة التى يسلكها العقل فى سبيل هروبه هذا، فكثيرا ما تكون الطرق معقدة وملتوية، ويكفى أن ألفت النظر وأنبه بقوة إلى أن السبب الأساسى فى الأمراض العقلية والنفسية والعصبية هو عدم مقدرة المريض على تكييف نفسيته وفقاً لظروفه وأحواله الصعبة، إما لصعوبة ظروفه أو لضعف فى نفسيته، ومن ثم خوفه من مجابهة مشاكله، فيهرب منها تفاديا من الحرج

لنأخذ الآن نوعا من الأمراض العقلية لنظهر اتباعها لنفس السنة، وليكن ذلك النوع الذى يزداد انتشاراً عندنا فى السنوات الأخيرة وهو « العته المبكر أو جنون الشباب »، يكون المريض به عادة منذ طفولته هادئاً مؤدباً، مطيعاً لوالديه مؤدياً لواجباته، خجولا قليل الاختلاط بالغير، ميالا للعزلة ملازما لوالديه قلما يبارح المنزل، لا ينقصه الذكاء، بل ربما يكون متفوقاً على أقرانه فى الدراسة، ولهذا نجده محبوباً من والديه أكثر من إخوته الأشقياء، مفضلا عنهم، يمدحونه ويدللونه ويعدونه مثالا للطيبة، ومن طباعه التى تلاحظ عليه أحيانا أنه عنيد فإذا صمم على شىء ما تشبث بفكره، واستحال تحويله عنه، ويكون تصرف والديه الغالب مشجعاً له على التمادى فى خطته (ولهم بعض العذر فى ذلك لأنه عندهم مثال الطيبة) وذلك لجهلهم حقيقة حاله، بل قد يصعب عليهم إدراكها وتصديقها حتى بعد أن تشرح لهم، وذلك أن علامات الطيبة هذه التى يلاحظونها فى ابنهم ويشجعونها فيه إن هى إلا علامات مرض عقلى فيه. فهدوؤه وميله للعزلة دليل على انسحابه من عالم الحقيقة

الذي يهابه ويخشى ما يقتضيه من كفاح ، وتجد في سكونه وعزلته يبني لنفسه تدريجياً عالماً خيالياً تتحقق فيه آماله العظيمة التي تعجز نفسه عن تحقيقها

وتزداد نفسه على مر الأيام طموحاً لأن العلم يشجعه على ذلك ويزينه له والأهل يدفعونه اليه ، وتزداد في الوقت نفسه صعوباته وعقباته في سبيل النجاح ، فيزداد انسحابه من عالم الحقيقة وتكثر أحلامه ، ويهرب تدريجياً إلى حالة المرض التي يجد فيها خلاصه وتعزيته ، حتى إذا بلغ سنه بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين صار عرضة إلى أن أي صدمة نفسية عنيفة أو مجهود عقلي زائد أو مرض جسمي شديد يسبب له الإصابة بمرض العته المبكر ، بل قد يصيبه هذا المرض ، ولو لم تنشأ هذه الأسباب وتصبح أحلامه وخيالاته حقائق يعتقد فيها ويؤمن بصحتها ، فتراه مثلا يعتقد أنه ملك أو وزير أو ثري أو نبي .. الخ ، ويرى رأي العين ما لا وجود له ، فتلا يرى أنه موضع تكريم الناس وتبجيلهم ويسمعهم يمتدحونه أو يعتقد أنهم يغارون منه ، ويراهم يضطهدونه ويحاربونه ويسخرون منه ، ويسمع أصواتهم تشتمه أقبح الشتائم الخ . أي أن هذا المريض يصير في حالة حلم ويعيش تبعاً لهذا الحلم دون أن يشعر بأنه مجرد حلم ، وبذا يكون هروبه من الحقيقة هروباً تاماً

إذن فالأمراض العصبية والأمراض العقلية — على الرغم من اختلافها اختلافاً كبيراً — متشابهة في طريقة تكوينها ونشأتها ، غير أن الهروب من الحقيقة الراهنة في حالة الأمراض العصبية يكون هروباً جزئياً يظل معه العقل صحيحاً سليماً ، بينما يكون الهروب في حالة الأمراض العقلية هروباً كلياً كاملاً تزول معه حالة التعقل . وإذا أمعنا النظر قليلاً وجدنا أن المريض يبدو عليه في الحالة الأولى أنه يحاول أن يضلل غيره ، ولكنه في الحقيقة يحاول أن يغش نفسه . والفرق بين المرضين قد لا يدركه كل إنسان لأن معظم الأمراض العقلية ، إن لم يكن كلها ، يظهر في البداية بمظاهر وعلامات الأمراض العصبية ، ولا يستطيع أن يميز بين النوعين إلا الطبيب الإخصائي . ولهذا السبب تختلط تلك الأمراض على الناس ويخشى كل مصاب بمرض عصبي من أن مرضه سينتهي به إلى مرض عقلي ، وهذا خطأ محض ، فإن الاصابة بالمرض العصبي تكسب المريض في الغالب مناعة تحصنه من الاصابة بالمرض العقلي

ويصح أن يقال بوجه عام إن المريض بمرض عصبي أو مرض نفسي يظل إلى حد كبير متصلاً بالحقيقة الراهنة ، شديد الرغبة في التوفيق بين نفسيته والظروف المحيطة به ، على الرغم مما يجد في ذلك من صعوبة كبيرة تنشأ عن نزاع نفساني داخلي ، ويكون على إدراك تام بأعراض المرض عنده مجداً في الخلاص منها ، فيتلهف على العلاج ويعاون الطبيب المعالج ، ويسعى لتجربة جميع الوسائل التي يسمع عنها ويرجو أن تحقق له الشفاء . وعلى عكس ذلك تماماً يكون المريض بمرض عقلي ، إذ أنه يفقد الصلة بالحقيقة الراهنة ولا يستشعر رغبة في أن يوفق بين نفسيته والظروف المحيطة به ، وتظهر عليه أعراض المرض في صورة معتقدات وتصرفات مختلة لا يشعر بغرابتها ، ولذا لا يمكن تحويله عنها بالحجة ، كما أنه لا يقتنع بأنه مريض ، ومن ثم يكون علاجه صعباً لأنه إذا حاول الطبيب معالجته فلا يعاونه أقل معاونة

والاضطرابات النفسية والأمراض العقلية كثيرة الأنواع . وهناك عدة أسباب تعمل معاً ، ويكون من شأنها إصابة الشخص بأحد تلك الأمراض ، وقد شرحت فيما سبق السبب الأساسي الذي يجعل الشخص مستعداً لتلك الاصابة إذا ما صادفته في حياته بعض الأسباب الأخرى ، مثل الأمراض الجسمية المتعددة والمجهودات العقلية والانفعالات الشديدة التي يتعرض لها الإنسان عندما تحل به كارثة أو يصيبه الفشل . وهذه الأسباب تعترض جميع الناس في

حياتهم ، لكنها لا تسبب الأمراض العصبية أو العقلية لهم جميعاً . وإنما يصاب بها من الناس من تولد عندهم الاستعداد لها كما تقدم

ولكل مرض من تلك الأمراض أعراض خاصة وشكل يتميز به عن غيره . وشرح هذه الأمراض وأعراضها وكيفية نشأة كل منها وتموه بالتفصيل أمر لا يعنينا في مقال كهذا . لكن هناك أعراضاً أساسية سائدة فيها جميعاً ، يصح أن نقول كلمة عنها إتماماً للفائدة ، فمن أهم هذه الأعراض أن المريض يكون متردداً في أعماله — يفكر كثيراً ويعمل قليلاً — يكون خائفاً على الدوام من أن يقدم على عمل فيخطئ فيه أو يلام عليه أو ينتقد من أجله . وهذا يتردد ولا يتخذ قراراً نهائياً في أي موضوع كان مهما كان تافهاً وإذا اتخذه يصعب عليه تنفيذه خوفاً من المسئولية ومن كلام الناس ونقدهم ، يتوقع دائماً حدوث الكوارث وحلول المصائب والأمراض به وعن يحبه ، حتى وإن كان يدرك جيداً أن ما يتوقع حدوثه غير معقول ، ولا يجد لمخاوفه تلك أي مبرر ، وإنما هو مجرد شعور يحس به ويضطرب له ومثل هذا المريض قد يكون سليم التفكير صحيح العقل بل ذكياً ونبيهاً ، غير أننا نجده ينقاد لشعوره وإحساسه وانفعالاته أكثر مما ينقاد لمنطقه وتفكيره السليم

واستيلاء الرعب والخوف عليه يزيده تفكيراً في نفسه ومرضه وانشغالاً بحالته فيقل إنتاجه العملي ، ويشعر دائماً بالتعب والضعف والعجز عن العمل ، فيصبح ضحية قوته التي تصرف كلها لتعذيبه بالتفكير في ناحية واحدة تدور حول نفسه ومرضه ، تلك القوة التي لو انصرفت كلها أو بعضها لتأدية عمل منتج لأراحت نفسه وبعثت فيها الثقة بقدرتها ، وعند ذلك تتلاشى مخاوفه ويقف تردده فتزول الأعراض الأخرى التي تصحب مرضه وتعذبه ويسير في طريق الشفاء

ويستنتج مما تقدم أن طبيعة الخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، تكونان كامنتين في نفس المريض حتى ولو كان ظاهره يدل على عكس ذلك ، وتتجلى طبيعته وتنكشف حقيقته عندما تتهيأ ظروفه لذلك ، ومثل هذا الشخص يكون استعداده لتلك الأمراض كبيراً ، وكذلك يكون الشخص الذي لم يعود نفسه مواجهة الحقائق بشجاعة ، فإما أن يقهرها ويجوز ، وإما أن تغلبه فيرضخ لها ويكيف حياته تبعاً لنتائجها ، غير مستشعر خيبة الفشل ولا ضائق به صدراً ، ومن هنا يظهر أثر المنزل ونظام الأسرة في الإصابة بتلك الأمراض ، فإن الطفل الذي ينشأ على الجرأة والإقدام ومواجهة الحقائق بشجاعة وحلها حلاً معقولاً ناجحاً بغير خوف ولا تردد ، مثل هذا الطفل يشب رجلاً أقل استعداداً لتلك الأمراض والاضطرابات وأكثر مقاومة لها

وليست تنشئة الطفل على تلك الصفات بالأمر الهين ، فهي تتطلب من الوالدين حذراً في سلوكهم نحوه بحيث تكون معاملتهم له متفقة مع قواعد التربية وفي تصرفاتهم ومعاملاتهم على مرأى ومسمع منه . فأساليب التربية التي يستخدمها الوالدان ، ومن عهد إليهم بتربية الطفل معهما ، يجب أن تكون مشجعة له على الاعتماد على نفسه ، والاستقلال في لعبه ، والابتكار في أشغاله اليدوية ، فتستغل فاعليته (activity) أكبر استغلال . كما أن الجو العائلي الذي يعيش فيه يجب أن تسوده المحبة والوفاق والهدوء ، ذلك لأن معيشة الطفل في وسط الخلافات والمشاحنات المستمرة تجعله عرضة للاضطرابات النفسية وترسم في مخيلته صوراً قد تكون لها أسوأ الآثار في تصرفاته المستقبلة ، وفيما قد يصيبه وهو كبير من أمراض عصبية أو عقلية

جمال ياسين ...

مع ادبائنا المعاصرين

(بقية المنشور على صفحة ٨)

لا قلب له ، أو بأن له قلباً ولكنه لا يخفق ، ووارحمتاه للأستاذ الصديق القوى العنيف ، الذى لا يحب أدب الضعف ، وإنما يحب أدب القوة ، لقد رمته الآنسة فاصمته ، وإذا هو يكتب فصلا من أروع فصوله عنوانه « القلب » . وإذا هو يصور لنا فى هذا الفصل أدباً قوياً ضعيفاً ، خشناً ناعماً ، عنيفاً ليناً ، مصدر قوته غضب صاحبه لقلبه ، ومصدر ضعفه حرص صاحبه على أن يكون له قلب حساس ، واستمتاع صاحبه برقة الشعور ودقة الحس ، وتأثر صاحبه بما يتأثر به الأدباء ، فيدفعون إلى الضعف حين يحتاجون إلى الضعف ، وإلى القوة حين يحتاجون إلى القوة . وأظرف من هذا كله أن الأستاذ أحمد أمين نفسه لا يؤمن بأن الأدب العربى كله أدب ضعف . وإنما خطر له هذا الخاطر ذات يوم أو ذات لحظة ، فسيطر عليه كدأب غيره من الأدباء ، فكتب هذا الفصل ، وأنت واجد فى هذا الكتاب نفسه دفاعه عن الأدب العربى ، وإلحاحه بالنقد العنيف على الذين يعرضون عن هذا الأدب ويزهدون فيه ، ويصورونه أو يتصورونه على غير وجهه . والأستاذ صادق فى الحالين ، لأنه أديب يتأثر بالخاطر الطارئ والفكرة العارضة ، فيكتب وينشر ، وما دام أثره الأدبى قطعة من نفسه ، وهو يحرص عليه حرصه على الحياة ، ويسجله إجابة لغريزة حب البقاء ، فهو يثبت كل ما كتب وينشره مجتمعاً ، لا يحفل بما يكون فيه من تناقض أو اختلاف ، وليس عليه من ذلك بأس ، فهو أديب ، ونفس الأديب معرضة لهذا التناقض وهذا الاختلاف ، ومن حق الناس عليه أن يروا نفسه فى جميع أطوارها ، وأن يظهروا على ما تضطر إليه من الاضطراب والاختلاف

وأريد أن أقف مع الأستاذ أحمد أمين عند فكاهة ظريفة فى كتابه ، وهو هذا المقال الذى أشرت إليه ، والذى عنوانه «من غير عنوان» . فهل لهذا المقال عنوان ؟ أم هو خلو من العنوان ؟ فإن تكن الأولى فكيف يكون المقال بغير عنوان ؟ وإن تكن الثانية فما موضع هذه الكلمات الثلاث التى نجدها فى الفهرس ، ونجدها على رأس المقال ؟ كيف يتصور الأستاذ مقالا له عنوان وهو من غير عنوان ؟ أما أنا فأتصور هذا تصوراً واضحاً كل الوضوح ؛ فهو لون من ألوان التناقض الذى يبيحه الأدباء لأنفسهم ، والذى شاع وذاع فى هذه الأيام ، واصطنعته الصحف السياسية فيما يكون من معارضتها للحكومات القائمة . فتراها تنشر الفصول أو أشباه الفصول بهذا العنوان «من غير تعليق» ، لأنها ترى فى نشر ما تنشر من الأخبار غنى عن الشرح والتفصيل . ولكنى أعترف بأن «من غير عنوان» هذه أروع وأبدع من هذه الكلمة التى ذاعت فى الصحف السياسية .

وبعد ، فقد كنت أريد أن أشق على الأستاذ ، وأن أشتط على كتابه ، وأن أظهر بعض الأشياء التى لا يكون النقد اللاذع نقداً لاذعاً بدونها ، وأنا بعد حريص على أن يكون نقدى لاذعاً فى هذه المقالات ، ولكنى قد بلغت هذا الموضع من مقالى ، وإذا أنا قد جاوزت القدر المقسوم لى من «الثقافة» . ومع ذلك فهناك شيئان لا أستطيع أن أختم هذا الفصل دون أن ألم بهما وأشير إليهما : فأما أولهما فهو أن الأستاذ أحمد أمين يسرف فى حبه للمعانى وإعراضه عن جمال اللفظ ، وتغاليه فى أن يكون قريباً سهلا ، وسائغاً مألوفاً ، ومفهوماً من العامة وأوساط الناس ، حتى يضطره ذلك إلى أن يصطنع بعض الاستعمالات العامية التى لا حاجة إليها ، ولا تدعو النكتة الفنية إلى استعمالها ، وإنما هو تعمد من الأستاذ وتكلف يقصد عليه

الجمال الأدبي أحياناً . ويغري بعض نقاده بأن يزعموا أن إنشاءه ليس إنشاء أدبياً ، وهو مع ذلك من أحسن ما يكون الانشاء الأدبي ، لو لم يتظرف صاحبه — أحياناً — بلهجة قسنجه ، متعمداً لذلك ، متكلفاً له ، مسرفاً فيه . وما أضرب لذلك إلا مثلا واحداً ، وهو « قصة الخيار » الذي يقدره الريفي بضخامته ، ويقدره المدني بنحافته ! ويبيعه ذلك بالكوم ، ويبيعه هذا بالرطل . هذا كلام لا حاجة إليه ، إلا أن يتعمد الأستاذ التظرف به والتقرب إلى لغة العامة . وما إني أكره أن أهبط إلى العامة ، بل يجب أن أدنو منهم ، ويجب أن أرفعهم إلى حيث يتذوقون الأدب الرفيع ، هذه هي الديمقراطية الصحيحة ، ولكن يجب أن نحتاط أشد الاحتياط ، فقد نسيء فهم الديمقراطية الأدبية ، فتفسد الأدب وتبتذله . والأستاذ بعد هذا قدوة لقرائه وطلابه والمعجبين به ، فليحذر أن يحبب إليهم الاسفاف والابتذال .

هذا أحد الأمرين ، والأمر الآخر يتصل ببساطة الأستاذ التي أشرت إليها في أول هذا الفصل . فما أكثر ما يقف الأستاذ عند الأوليات التي لا تخفى على أحد فيبسطها بسطاً ويفصلها تفصيلا ، ويطيل فيها كأنه يعالج بعض المشكلات الغامضة . وتلك عيب الأساتذة ، قد تعودوا أن يبسطوا لطلابهم أيسر الأمور وأهونها ، فهم يحفظون الطلاب حتى حين يكتبون . على أن بساطة الأستاذ لا تقف عند هذا الحد ، فهو مؤمن بالعلم وبالقوانين ، وأريد قوانين النطق والطبيعة ، إيماناً لا يخلو من السذاجة التي تشبه أو تكاد تشبه البراءة . وانظر إليه يريد إصلاح الذوق وترقيته ، كما ينظم تعلم الطبيعة والرياضة والكيمياء . وانظر إليه في كل نقده للحياة الاجتماعية ، فهو يأخذ هذه الأمور كلها بالجد ، ويعالجها كما يعالج فصلا من فصول « ضحى الاسلام » .

وكيف أستطيع أن أودع الأستاذ الصديق دون أن أثني أجمل الثناء ، وأخلصه ، على هذه الفصول الحلوة التي تصور الحياة المصرية تصويراً رائعاً ساذجاً أخاذاً ، كمقال « سيدنا » ؟ بل كيف أودع الأستاذ الصديق دون أن أعجب أشد الاعجاب بمقاله « سلطة الآباء » ، هذا الذي صور فيه تطورنا الاجتماعي أبرع تصوير وأروعه وأسرعه إلى القلوب ، وإن كان قد امتاز فيه بأخص ما يمتاز به الأديب العنيف ، من الاسراف والاغراق والجموح ، وأظهر حياتنا الحديثة مظلمة أكثر مما ينبغي ، وسيئة أكثر مما هي . وأنا على ذلك أرحم هذا الأب البائس الشقي ، وأرثي له من هذا الذل الذي طرأ عليه ، بعد أن كان عزيزاً كريماً .

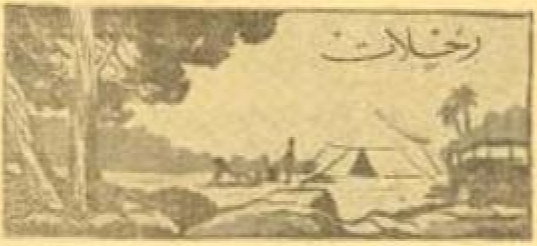
طه حسين

الزعماء الفلسطينيون

في القاهرة

وفد إلى القاهرة زعماء فلسطين قادمين من منفاهم في سيشل ، فرحبت بهم مصر ، واستقبلتهم استقبالا رائعاً يليق بمقامهم ، وما بذلوا من تضحية في سبيل بلادهم ، وما أدوا من الخدمة الحقة لوطنهم .

و « الثقافة » تهنئهم بسلامة العودة ، وتتمنى لهم التوفيق في مهمتهم ، وأن تحل مشكلة فلسطين في المؤتمر القادم على أساس العدل المطلق لا على أساس مراعاة المصالح الخاصة ، وأن يكون إطلاق سراحهم من سيشل منتهياً إلى ما انتهى إليه إطلاق سراح « سعد » وصحبه من « سيشل » ، بعقد معاهدة تتضمن الاعتراف بحقوق الأمة ، وبدء عهد جديد أساسه التحالف والتفاهم والاتجاه بالبلاد إلى العمل الايجابي .



عشرة أيام فى العراق

للأستاذ الدمرداش محمد

٢ — فى الطريق بين القاهرة وبغداد :

فى دمشق

عدت من الغوطة إلى المدينة واتخذت طريقى إلى سوق حميدية ، وهو شارع طويل مسقوف يقع بالقرب من «مرجة» تقوم على جوانبه حوانيت الأمتعة والمردوات ، فوجدته غاصا بالسيدات من جميع الطبقات يتنقلن بين الدكاكين متبرجات منقبات ، ينتقين ملابس العيد ويساومن فى الأسعار ويناهضن التجار ولا يشترين إلا بعد عناء . ولا تجد فرقاً كبيراً بين معروضات سوق حميدية بدمشق ومعروضات القورية أو الموسكى بمصر ، فأكثرها من البضائع الأوروبية التى تغمر أسواقنا وأسواق الشام والعراق على السواء . ونصيب المنسوجات الوطنية فى هذه المعروضات قليل لا يتعدى بعض أصناف الحرير الطبيعى من طابع دمشق وصنعها . والواقع أن الشرق بعد أن نبذ قديمه لم يجد فى أن يستحدث لنفسه جديداً بل اعتمد على أوربا فى كل شىء .

ومع شدة ازدحام السوق بالنساء وتكدسهن فى الحوانيت فإنى لم ألحظ من جانبهن أو من جانب التجار والمارة أى خروج على الآداب ، بل كن وكانوا فى تعفف واحتشام .

ويقع فى نهاية سوق حميدية الجامع الأموى : بناء ضخم وجدران عالية وباب فخم ويتوسط الجامع صحن فسيح مكشوف يتسع لألوف المصلين تحيط به بوائك شاهقة تحملها صفوف من العمد العالية ، ويمتاز الإيوان القبلى بكثرة النقوش والزخارف ، قد كسيت جدرانه بالقيشانى والرخام الملون وفيه القبلة والمنبر وكلاهما من الرخام المطعم وأرض



(منظر لصحن الجامع الأموى ومئذنته)

الإيوان مفروشة بالسجاد ، ويتوضأ المصلون من صنابير ركبت ببعض الأعمدة ، وأقيم تحتها أحواض لتصريف المياه . والجامع مقصد الزائرين والمصلين والمتعبدين من أهل دمشق والجهات المجاورة ، لا تسمع فيه لغواً ولا ترى فيه ما ينفر ، ولا تصطدم عند أبوابه بالمرضى والشحاذين ، كما هو الحال عندنا في أضرحة الأولياء والصالحين .

خرجت من الجامع واتخذت طريقي في الحي المحيط به وهو كثير الشبه بحي سوق السلاح عندنا هندسة وعمارة : شوارعه ضيقة متعرجة وبيوته عتيقة بعضها كبير وبعضها صغير لا تختلف عن بعضها كثيراً ، فالباب ثقيل مصنوع من الخشب قطعة واحدة ، ركبت في وسطه سماعة كبيرة من النحاس وتحتها ثقب للمفتاح وثقب السقاطة وأعلى الباب نافذة عليها شباك من قضبان حديدية غليظة . والمنزل من طابقين الأرضي قليل الفتحات والعلوي كثير النوافذ والشبابيك من «الشيش» من ورائه زجاج . ويوجد بالحي زوايا وحانات وأسبلة كلها على النمط التركي القديم ، وقد أصلحت بلدية دمشق إحدى هذه الدور وجعلتها مقراً لدار السكتب ، كما أصبح غيرها مصانع للأحذية أو النسيج أو مخابز للعيش . والحي على قدمه ، والتواء مسالكه ، وعدم استواء أرضه ، لا بأس بنظافته ، ومعظم سكانه الآن من الطبقة الفقيرة ، وتجوب أزقته عربات العيش ، والخضار حاملة البرتقال والكرنب والقرنبيط ، وهي من أنواع ذات حجم صغير رأيتها مزروعة في بساتين الغوطة .

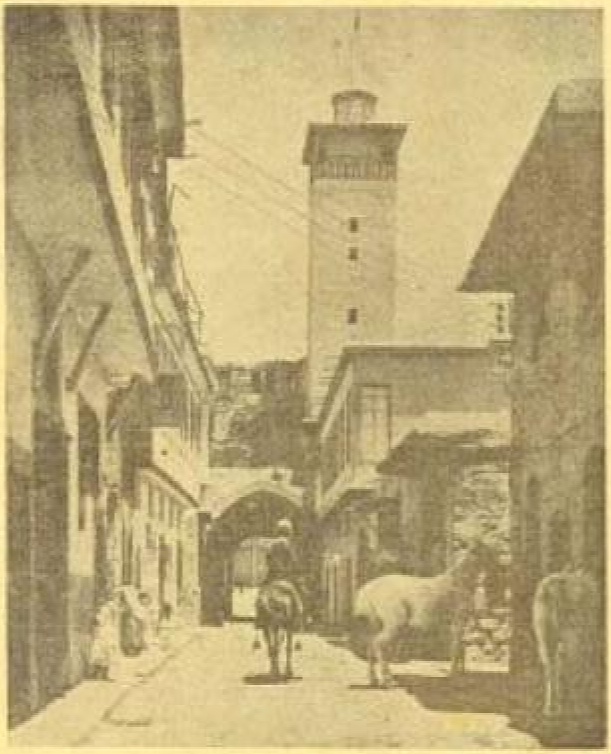
وخبز دمشق جيد الطعم ، يصنعونه من القمح ، والرغيف منه مستطيل مسطح قليل السمك ، يحدثون به خروقاً على طوله ، فيكون أتم نضجاً وأشهى طعماً ، وفي العراق يصنعون الخبز بنفس الطريقة .

وانتقلت من حارة إلى أخرى ومن زقاق إلى آخر حتى وقفت أمام ضريح فوقه قبة وأمامه حديقة صغيرة غير معتنى بها فسألت : لمن يكون هذا الضريح ؟

فأجاب شيخ كان جالساً على دكة بالقرب من باب الضريح : هذا قبر السلطان صلاح الدين ، وأشار بيده إلى إحدى قبتين حقيرتين مهدمتين !

فأخذتني دهشة ، وتوجهت إليه بالكلام : هل يرقد تحت هذه القبة الوضيعة البطل العظيم قاهر الصليبيين ؟

فأطرق الشيخ ، ودعاني للجلوس بجانبه ، وطلب لي قهوة وطيب خاطري ، وقال : يا بني ! ليت صلاح الدين لم يولد ،



(منظر لشارع في الحي المحيط بالجامع الأموي)

قلت: ولماذا؟ هل لم تفكر حكومة هـذه البلاد في تجديد القبة؟

قال: كلا! كل حكومة تولت الحكم بهذه البلاد كان لها مشروع لتجديد الضريح وإقامته على الشكل اللائق بعظمة صلاح الدين، ولـكن لأسباب غير معروفة لم يتم تنفيذ أي مشروع منها.

قلت: عجبا! هل يرجع ذلك إلى قلة المـال، أو لاختلاف الآراء؟

قال: لا هذا ولا ذاك! وهل تختلف الآراء في القيام بمثل هذا الواجب؟ ولـكن ماذا أقول لك! هنـاك يا أخي عوامل خفية تحول دون تنفيذ مشروع التجديد

ثم أطرق برأسه، وأشاح بوجهه وهو يتمتم بصوت خافت: ستنهدم القبة يوما ما على هـذا الجثمان الطاهر، وتتحول إلى خرابة وتندثر معالمها، ويختفي قبر صلاح الدين من الشام والدنيا معا.

قلت: كذا!

فأجاب: هكذا.

انصرفت عن الشيخ وأنا أتأمل في كلامه، متمنياً على الله أن يسـوق لهذا الضريح في القريب العاجل أحد أغنياء المسلمين ليقيم عليه من فيض ماله قبة تكون بين القباب أرسخ أساساً وأرفع بناء، إعلاء لـكلمة الحق والدين وتمجيداً للبطولة واعترافاً بفضل صلاح الدين منقذ الاسلام من براثن الهمجية.

ثم مازلت سائراً في هذه الناحيـة على غير قصد حتى خرجت إلى طريق ينتهي إلى الجبل فصدت أدراجي إلى ميدان مرجة مارا بشارع واسع تقوم على جانبيه الحوانيت والمساجد وعيادات الأطباء، ويكثر فيـه الباعة المتجولون يحملون أصناف الحلوى والمأكولات على صوان من نحاس، ويقيم باعة الأحذية على أرصفة الشارع يعرضون أنواعا جيدة الصنع رخيصة الثمن اشترى أحد الرفقاء زوجاً منها من جلد أسود لامع بعشرين قرشا.

ودمشق أو الشام كما يسميها أهلها مدينة كبيرة خفيفة الروح، جميلة الموقع، جوها دافئ في الشتاء، حار في الصيف، وشوارعها نظيفة مبلطة، تضاء ليلا بالكهرباء، وأهلها ينعمون بملاحة الوجه ونظافة الملبس، وجودة الصحة، والنساء أصغر قداً من الرجال وأسرع حركة، والدمشقي شديد العصبية لدنياه ودينه، فلا تجد بينهم الدخيل والأجنبي إلا بقلة ظاهرة، والتجارة في يد أهل البلاد، وهي في كساد بسبب ضعف القدرة على الشراء الناشئ من انخفاض قيمة النقد السوري لارتباطه بالفرنك الفرنسي، ولا تجد صعوبة في التعامل بالجنيه المصري الورق في الشام أو العراق وقيمته نحو سبع ليرات سورية في الشام ودينار في العراق.

دخلت إحدى المكاتب وسألت عن نوع الكتب المصرية التي تقرأ بالشام، فقال الكتبي: إن معظم الكتب الأدبية والدينية التي تطبع بمصر تجد لها سوقاً رائجة هنا، وكذلك الكتب التي تخرجها لجنة التأليف والترجمة والنشر. وكذلك رأيت جريدة الأهرام وبعض المجلات المصرية تباع على القهوات في ميدان مرجة.

(لها بقية)

صفحة القراء

جاءنا من حضرات القراء رسائل كثيرة تنم عن حسن الظن والتقـدير فنشكرهم، ونكتفي بهذه الإشارة إلى رسائلهم. كما وردت رسائل أخرى من بعض الفضلاء يقترح فيها كاتبوها بعض الاقتراحات النافعة أو ينقدون فيها المجلة نقداً قيما، وسنحلها محل التقدير ونشير إليها في الأعداد القادمة

(طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين، مصر)

الثقافة

مجلة أسبوعية للاجتماع والآداب والعلوم والفنون

AL-THAQAFA

الإدارة : بالقاهرة - عابدين - شارع الكردى رقم ٩ تليفون ٤٢٩٩٢

العدد ٣ | « الثلاثاء ٢٦ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ — ١٧ يناير سنة ١٩٣٩ » | السنة الأولى

الفهرس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١ قرش صاغ

بين الأزهر ودار العلوم

وإن شئت فقل بين الأزهر ودار العلوم وقسم اللغة العربية فى كلية الآداب ، فهذه المعاهد الثلاثة تتنازع الاختصاص فى تدريس اللغة العربية فى المدارس ، وكل يدلى بحجته فى أحقيته . ولا أريد أن أتعرض هنا لمن هو أحق ، وأيهم أليق بأن يسند إليه العمل ، فهذا القول لا يحل المشكلة من أساسها ، وسيبقى النزاع ويستمر الخصام وتتابع الحكومات فتنصر هذا الفريق يوماً وذاك آخر ، وقد تدخل السياسة فى الأمر فتقضى فيه بحكم السياسة لا بحكم التربية والتعليم .

إنما المشكلة الكبرى والتبعة العظمى فى نظرى هى موافقة الحكومات المتتابعة على إيجاد معاهد ثلاثة لتخريج صنف واحد لغرض واحد ، مع أن معهداً واحداً وأقل من معهد واحد يكفى لتحقيق هذا الغرض !

لو كان إنشاء المعاهد لا يتطلب مالا ولا يكلف عيناً ، لقلنا مع هذا إنه ضرب من العبث ونوع من الترف ، فكيف وهو يتطلب المال الكثير يوضع فى ميزانية الحكومة ، ويتطلب الجهد الكثير فى تحضير هذا الصنف وإعداد هذا النوع ؟

قد نجارى الرأى القائل بأن قسم اللغة العربية فى كلية الآداب إنما أنشىء للثقافة العربية العامة والبحث النظرى الجامعى ، من غير نظر إلى وظيفة ولا تدريس ، ولكن هذا لا يحل المشكلة ، لأنا نرى بعض خريجيه يدخل معهد التربية ليكون معلماً فيكون له الحق أن يدخل خصماً ثالثاً فى النزاع بين الأزهر ودار العلوم

وحتى إذا اكتفينا بالنظر إلى الأزهر ودار العلوم رأينا كلا منهما يعد أبناءه ليكونوا مدرسين ، فهم يدرسون علم التربية وطرق التدريس ، أعنى أنهم يعدونهم إعداداً خاصا ولا يقتصرون على تثقيفهم ثقافة عامة ، فيصبحون ومثلهم فى ذلك مثل المدرسة الحربية ومدرسة البوليس

فهل مما يدل على سعة نظر الحكومات أن تنشىء مدرستين للبوليس وهى فى حاجة إلى مدرسة واحدة ؟ أو هل سمعت بشركة حازمة واحدة تنشىء معملين لإخراج مادة واحدة فى بلد لا يحتاج إلا إلى معمل واحد ؟

شأن المدارس الخاصة غير شأن المدارس العامة ، فمن الحق للحكومة أن تنشىء ما لا يحصى من مدارس ابتدائية وثانوية ، ولها الحق أن تنشىء جامعة فى القاهرة وجامعة فى الاسكندرية وجامعة فى أسيوط وجامعة فى أسوان ، فمن الحق لها بل من الواجب عليها أن تنشىء ما تستطيع من هذه المدارس للثقافة العامة ، وهى إذ تفعل ذلك تشكر كل الشكر

ولكن ليس من حقها أن تنشىء مدرستى بوليس لتخريج ألف والبلد فى حاجة إلى خمسمائة

فكيف ساغ لها أن تنشىء ثلاث مدارس فنية خاصة لتخريج معلمين للغة العربية تنفق عليها المال الكثير ، والأمة فى حاجة إلى مدرسة واحدة من هذا النوع ؟ وكيف ساغ لها أن تسرف هذا الإسراف الكبير فى إنفاق هذه الأموال على الكماليات ، بل ليس على الكماليات ، ولكن على خلق أسباب النزاع ، والبلاد فى أشد حاجة إلى الضروريات ، والفلاح لا يشرب ماء صافياً ولا يستطيع أن يعيش عيشة صحية ؟

وأين كانت الحكومة يوم قررت إنشاء قسم اللغة العربية بكلية الآداب ورصدت له المال فى ميزانيتها وبين سمعها وبصرها دار العلوم ؟

(البقية على الصفحة المواجهة)

مع أدبائنا المعاصرين

«رجعة أبى العلاء»

للأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الدكتور طه حسين بك

كنت أريد أن أخصص هذا الحديث لكتاب آخر من كتب الأستاذ العقاد لم يظفر بما هو أهل له من النقد ولم يستقبل بما هو أهل له من الاحتفاء، وهو قصة «سارة».

وكنت أتأهب لقراءة هذه القصة للمرة الثانية لأجدد العهد بها وأتذكر ما سنح لى من الخواطر أثناء قراءتها الأولى. وإذا البريد يحمل إلى من الأستاذ العقاد كتابه «رجعة أبى العلاء» هدية مشكورة. فأعرضت عن فائنة القاهرة إلى حكيم المعرة، وهذا أيسر مايستحقه منى الحكيم الشيخ. ثم أعرضت عن نقد تلك القصة الغرامية إلى نقد هذه الصورة الفلسفية، وهذا أيسر ما ينبغى لمثلى من إيثار الجد المر على الدعابة الحلوة.

وقد رغبنى فى نقد هذا الكتاب أمران: الأول أنه كتاب جديد لم يقرأه أكثر الناس وإن كان بعض القراء قد ألموا بهذا الفصل أو ذاك من فصوله حين كانت تنشر فى البلاغ. ومن الخير أن نعرف إلى القراء كتاباً جديداً لا يعرفونه أو لا يكادون يعرفونه، فنجمع بذلك بين النقد الذى نقصد إليه وبين التعريف الذى قد يدفع إلى القراءة ويرغب فيها. والثانى أنى قد أمليت كتابين فى أبى العلاء ظهر أحدهما منذ خمسة وعشرين عاماً وأرجو أن يظهر الثانى فى الأسابيع المقبلة إن شاء الله. فأنا أحب أبا العلاء وأكلف به وأحب التحدث عنه والتحدث إليه والاستماع للذين يتخذونه موضوعاً للحديث ومناقشتهم حين يخوضون من حياته وأدبه وفلسفته فى هذا الباب أو ذاك. ولم أكن قد قرأت ما نشر الأستاذ العقاد من فصول كتابه هذا فى البلاغ، أو لم أكن قرأت إلا فصلا واحداً من هذه الفصول، ثم صرفتنى عنها شواغل الحياة وانتظار أن يظهر الكتاب جملة بعد أن ظهر تفاريق. وقد جلست

وأين كانت الحكومة يوم قررت إنشاء كلية اللغة العربية بالأزهر ورصدت لها المال فى ميزانيتها وبين سمعها وبصرها دار العلوم وكلية الآداب؟

كنت أفهم أن الحكومة الرشيدة تتساءل إذ ذاك فى صراحة: هل تصلح دار العلوم للبقاء أو لا تصلح؟ فإن كانت صالحة أو تقبل الإصلاح فلا تجيز كلية اللغة العربية فى الأزهر ولا قسم اللغة العربية فى كلية الآداب، إلا إذا أريد بهما الثقافة العامة فى اللغة العربية من غير تدريس فى التربية وعلم النفس وطرق التدريس وما إلى ذلك، وإن لم تكن صالحة ولا قابلة للاصلاح قررت إغلاقها، ولديها العدد الكثير الذى لا يجد وظائف حتى تنشئ المعهد الجديد، إما فى الأزهر أو فى كلية الآداب وتتم الدراسة فيه.

أما أن توافق على إنشاء هذا وذاك كما توافق على إقرار ذاك، فعمل أقل ما يوصف به أنه عدم تقدير للمواقف مع وضوحها وتأكدها

ثم هذه هى المشكلة التى يجب حلها الآن، أما حلها بمسابقات أو تعيين عدد من هذا وعدد من ذاك وعدد من ذاك، فمعالجة سطحية ومسكنات عرضية، لا يلجأ إليها الطبيب الماهر ولا يكتفى بها، لأنها لا تستأصل المرض.

أحمد أمين

إلى الكتاب جلستين في ليلتين فجنيت منه ثمراً حلواً وظفرت منه بمتاع قيم ، ووجدت فيه لنفسي غذاء كما وجدت فيه لنفسي فكاهة ، وكما وجدت فيه عن نفسي ترويحاً وعليها ترفيها . ورأيي في الأستاذ العقاد وفي آثاره الأدبية والفلسفية معروف ، فهو من هؤلاء الأدباء القليلين الذين لا يقرؤون لقطع الوقت ، ولا يستعان بهم على احتمال الفراغ ، وإنما يقرؤون لالتماس الفائدة ، واكتساب العلم ، واجتلاب المتعة . وهو من هؤلاء الأدباء القليلين الذين لا نقرأ آثارهم اليوم لننساها غداً وإنما نقرؤها ثم نستبق الكثير منها في أنفسنا ولا نخلص منها حتى ولو بذلنا الجهد في ذلك ، لأن صاحبها لم يكتبها عن سهولة ولم ينتجها في يسر ، ولم يتناولها من قريب ، وإنما جد فيها واجتهد ، وكد فيها واحتمل المشقة ، فكان ما حصله منها خليقاً أن يثبت ويستقر ، وأن تتصل به الأيام . وهو أيضاً من هؤلاء الأدباء القليلين الذين لا نقرؤهم في سهولة ويسر ، ولا نفهمهم في غير جهد وكد ، وإنما نقرؤهم في أناة وروية ، ونفهمهم بعد نظر وتفكير ، لأنهم يكتبون عن أناة وروية ، وينتجون بعد نظر وتفكير . وقد أنفق الأستاذ العقاد في تأليف هذا الكتاب نوعين من الجهد هما خليقان بالرضى كله والإعجاب كله والثناء كله : فأما أول هذين الجهدين فهو جهد البحث والدرس والمراجعة والاستقصاء ، وسؤال اللزوميات عما أضمرت وما أظهرت ، واستخبارها عما أسرت وما أعلنت ، يجدّ معها في هذا السؤال حيناً ويمزح معها حيناً آخر ، يرفق بها في هذا الاستخبار مرة ويعنف بها مرة أخرى ، يستخلص منها ما عندها أحياناً ويفرض عليها ما عنده أحياناً أخرى .

وأما الجهد الثاني فهو جهد التروية والتفكير ، وجهد القياس والاستنتاج . فالأستاذ العقاد ليس مؤرخاً في هذا الكتاب ، ولكنه مؤرخ ومتنبئ ، إن صح هذا التعبير ، بل قل إنه مؤرخ ومتنبئ ، وواصف محقق أيضاً ، يتحدث إلينا عما كان ، ويتحدث إلينا عما هو كائن ، ويتحدث إلينا عما سيكون ، أو عما يقدر أنه سيكون . لم يرد أن يصور إلينا أبا العلاء فحسب ، أو قل لم يرد أن يصور إلينا أبا العلاء كما كان ، وإنما أراد أن يصوره كما يمكن أن يكون لو أن الله أنشره ورده إلى الحياة . والله وحده هو القادر على أن ينشر أبا العلاء ، وهو القادر على أن يعطينا من أبي العلاء الصورة الصادقة ، لو أن أبا العلاء عاش في هذا الزمن الذي نعيش فيه . فأما نحن فنتكلفون حين نحاول ما لا طاقة لنا به ، ونطلب ما لا سبيل لنا إليه ، ومن التكلف ما ينتهي بأصحابه إلى الاخفاق ، ويضطرهم إلى الإحالة ، ويدفعهم إلى ألوان من السخف ، ومن التكلف أيضاً ما يخلّي بأصحابه ما أرادوا ، ولكنه ينتهي بهم إلى خير مما أرادوا ، ويتيح لهم إمتاع قرائهم بلون من ألوان الأدب طريف ، وهذا هو الذي كتب للأستاذ العقاد . فقد أراد أن يعطينا صورة من أبي العلاء لو عاش في هذا العصر ، فأعطانا صورة من الأستاذ العقاد الذي يعيش في هذا العصر ، وما أحسبنا قد خسرنا شيئاً بل أعتقد أننا قد ربحنا كثيراً . فمن أعسر الأشياء وأبعدها عن متناول الأديب مهما يكن ذكي القلب نافذ البصيرة أن يبلغ الغاية من تصور الحقيقة التاريخية ، فكيف باختراع الصورة لشيء لم يكن وليس من الممكن أن يكون ! أريد أن أقول إن من أصعب الأشياء على الأديب أن يعطينا صورة صادقة من أبي العلاء نفسه كما عرفته المعرة ، وكما عرفه معاصروه ، فكيف السبيل إلى أن يعطينا الأديب صورة من أبي العلاء العصري الذي لا يعرفه أحد ولا يمكن أن يعرفه أحد ، لأنه لم يوجد وليس يمكن أن يوجد ؟ وأقل الناس علماً بالتاريخ الأدبي وممارسة لصناعته يعرفون أن كثيراً من المؤرخين ربما خيل إليهم أنهم يصورون هذا

الكاتب أو ذاك وهذا المفكر أو ذاك ، ولكنهم في حقيقة الأمر لا يصورون إلا أنفسهم ، يعكسون أنفسهم على رجال التاريخ ويصفون أنفسهم حين يصفون رجال التاريخ . يفهمون النصوص الأدبية كما يستطيعون ، وكما تريد طبائعهم وأمزجتهم ، لا كما أراد الأدباء والمفكرون الذين أملوا هذه النصوص أو كتبوها . فكيف بالمؤرخ الأدبي إذا أراد أن يبعث شخصاً من أشخاص التاريخ ويمنحه حياة جديدة معاصرة لا يكاد يعتمد فيها إلا على الشواهد والقرائن ، ولا يكاد يستمدها إلا من الوهم والخيال ؟

وكذلك أراد الأستاذ العقاد أن يرد أبا العلاء إلى الحياة فلم يصنع شيئاً ، وإنما أحيا لنا من أبي العلاء ذلك الشخص المعروف أو الذي لا نعرف من أمره كل شيء ، ولعلنا نجهل من أمره أكثر مما نعرف ، وليس على الأستاذ العقاد بأس من ذلك ، فقد حاول شيئاً لا سبيل إليه ، وحاوله وهو يعلم أن لا سبيل إليه . أراد الدعابة والمزاح فلا ينبغي أن يحمل عليه الجد والتحقيق . وأظرف من هذا أن الأستاذ العقاد أراد أن يرحل بأبي العلاء بعد أن بعثه بعثاً جديداً ، وأن يطوف به في أقطار الأرض فلم يصنع شيئاً ، وإنما ارتحل به في طائفة من الكتب التي قرأها ، وفي ألوان من العلم الذي أحاط به ، وفي فنون من الآراء التي أتقنها واستقصاها ، ذلك لأن الأستاذ العقاد نفسه لم يرحل ولم يطوف في أقطار الأرض ، وإنما ارتحل وهو مقيم وطوف وهو مستقر ، وعرف الدنيا وهو لم يتجاوز حدود مصر . وهذه مزية من مزايا الأستاذ وفضيلة من فضائله ، ولكن الله لا يكلف الناس فوق ما يطيقون ، وبائعة السجاير مهما تكن جميلة لا تستطيع أن تعطيك إلا ما عندها كما يقول الفرنسيون . وعند الأستاذ العقاد أدب وعلم وفلسفة ، فقد ملأ يديك أدباً وعلماً وفلسفة ، ولكنه لم يرحل إلى أوربا ولا أمريكا فلا يستطيع أن يرحل بك ولا بأبي العلاء إلى أوربا ولا إلى أمريكا . يرحل بك وبأبي العلاء في ألمانيا وفي الروسيا وفي السويد والنورويج والدانمرك ، وفي بلاد الانجليز وفي اسبانيا وفي أمريكا ، ولكنه لا يريك من هذه البلاد شيئاً ، ولا يظهرك ولا يظهر أبا العلاء إلا على بعض ما عنده من آراء أصحابها وبعض سيرهم ، وينتهي بك إلى مصر ، فيظهرك منها على طبيعتها الرائعة ونهرها الجميل . ذلك لأنه يعرف مصر ، قد رآها رأي العين ، فهو قادر على أن يعطيك منها شيئاً . وهو أمين كل الأمانة ، ولا يستطيع أن يعطيك من أوربا ولا من أمريكا شيئاً لأنه لا يعرفهما . أستغفر الله واستغفر الأستاذ العقاد ، بل لأنه لم يرهما رأي العين ، ولم يلم بهما إلا من طريق الكتب .

وأظرف من هذا وذاك أن الأستاذ العقاد أراد أن يغلب خياله على عقله فلم يصنع شيئاً ، لأن عقله كان في هذه المرة أقوى من خياله . وماذا تريد أن يصنع وهو يعرض المشكلات الفلسفية والسياسية والاجتماعية العليا ، وله في كل هذه المشكلات آراؤه ومذاهبه ؟ أتراه يعرض عن هذه الآراء والمذاهب ويرسل خياله القوي على سجيته ؟ ولكن في هذا خطراً شديداً ، فقد يجمح الخيال وقد يمضي إلى غير غاية ، وقد يؤيد من الرأي ما لا يرى العقل . والأستاذ العقاد ديمقراطي مخلص يبغض الشيوعية كل البغض ، ويبغض الفاشية كل البغض ، ويؤثر ما في الديمقراطية من الاعتدال والقصد ، فلا بد من أن يفرض هذا كله على أبي العلاء ، ولا بد من أن يظهر لنا أبا العلاء ديمقراطياً معتدلا عدواً لسلطان موسوليني وهتلر وستالين ، بل للأستاذ العقاد ميل إلى بعض الديمقراطيات دون بعضها الآخر ، فهو يؤثر ديمقراطية أهل الشمال ، فلا بد من أن يفرض هذا على أبي العلاء ، فأبو العلاء إذن يؤثر أهل السويد والنورويج والدانمرك على شعوب أوربا كلها . والأستاذ العقاد يعجب بما في حياة الإنجليز من توازن ، فلا بد من أن يعجب أبو العلاء من هذا

التوازن أيضاً . وكذلك أصبح أبو العلاء صورة للأستاذ العقاد ، ولم يصبح الأستاذ العقاد صورة لأبى العلاء . والمسألة التى تحتاج إلى جواب ، ولكنا لم نظفر بهذا الجواب هى هذه : أيرضى أبو العلاء عن هذه الصورة التى فرضها عليه الأستاذ العقاد لو أنه عرفها أم يسخط عليها ؟. أما الأستاذ العقاد نفسه فيجيبنا بأن أبا العلاء لا يرضى عن هذه الصورة ، لأن أبا العلاء لا يريد أن يكون شيئاً غير أبى العلاء . ففيم إعطاؤنا هذه الصورة ؟ وفيم عرضها علينا ؟ وفيم إزعاج الشيخ عن مرقده ؟ وفيم تكليفه السفر فى الطائرات والقطارات والسفن وتكليفه ما لا يطيق وما لا يحب ؟ فى شىء واحد هو هذا العبث الخصب ، وهذا اللعب الممتع ، الذى يعمد إليه الأديب ليعطيك ما عنده ، وليظهرك على ما فى نفسه . وما ينبغى لك أن ترسم للأديب طريقه أو تفرض عليه هذه الخطة أو تلك فى الإنتاج ، وإنما ينبغى أن تقبل منه مايعطيك راضيا عنه أو ساخطا عليه . قابلا له أو نافراً منه وأن تحمد له ما يبذل من الجهد والمحاولة لإمتاعك وإرضاء نفسك ، سواء أوفق إلى ما يريد وإلى ما تريد من ذلك أم لم يوفق . فلنحمد للأستاذ العقاد جهده ولنشكر له محاولته ولنسجل له كثيراً من التوفيق فى تصوير أبى العلاء القديم ، وإن كنا نظن أنه قد أخطأ من صورة الشيخ بعض ملامحها ، وذهب فى تفسير بعض شعره مذاهب ما أظنه كان يرضاها وما أظنها تلائم الحق من أمره . فقد روى[1] الأستاذ العقاد من حديث أبى العلاء عن الخمر مثلا شعراً كثيراً ، وهو يرى أن الشيخ لعله قد ذاق الخمر فى الأديرة التى ألم بها ، وهذا جائز ، وجائز أيضاً أنه ذاقها فى غير الأديرة حين كان يعيش عيشة الشعراء فى الطور الأول من حياته ، بل جائز أيضاً أنه قد ذاقها فى بغداد حين كان يعيش عيشة الفلاسفة والعلماء ، ولكنى لا أحسبه شرب الخمر أو هم بشربها بعد العزلة كما يظن الأستاذ ، وما أحسبه اشتاق إليها ، وما أرى أن فى شعره ما يصور هذا الشوق ، وإنما هى مذاهب الرجل فى التعبير والتصوير ، لا ينبغى أن تؤخذ على ظاهرها .

ويجرى الأستاذ العقاد بين أبى العلاء وتلميذه حواراً يكثر فيه الاستشهاد بالقرآن الكريم . وأكبر الظن أن هذا النوع من الحوار وهذا النحو من الاستدلال لا يلائم روح أبى العلاء ، وإنك لتقرأ « الفصول والغايات » ، وهو كتاب وعظ وتمجيد لله فيما يقول صاحبه ، فتعجب لقدار استشهاد أبى العلاء بالقرآن والحديث . وقد لاحظت أن الرجل لا يستشهد بهما إلا على اللغة ، وعلى اللغة وحدها . ثم إن الأستاذ يحمل أبا العلاء من هذا الاستدلال ما لا يطيق ، فهو يجرى على لسان أبى العلاء[1] أن الكثرة لا رأى لها ، وهو يحمل أبا العلاء على أن يستشهد لذلك بآيات من القرآن الكريم كقول الله تعالى : « ولكن أكثرهم لا يعقلون » وكقوله : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ، وما أظن إلا أن الأستاذ يوافقنى على أن هذا النحو من الاستدلال شديد الخطر ، بل هو قد نبه على ذلك بالنص ، فأجرى على لسان التلميذ أن الله يأمر بالشورى ، ثم أجرى على لسان أبى العلاء أن الله يأمر بسؤال أهل الذكر ، ويفضل العلماء على غير العلماء . وواضح جدا أن كل هذه الآيات ملائمة أشد الملاءمة لمواضعها التى جاءت فيها ولأغراضها التى سيقت إليها ، وإننا نتكلف شططاً من الأمر حين نسوقها للاستدلال على أن للكثرة رأيا فى الحكم أو على أن الكثرة لا رأى لها فيه . وقد أراد الأستاذ أن يجعل لأبى العلاء منزلة بين أبى نواس وبين عمر الخيام ؛ وما أدرى أموفق

(البقية على صفحة ٤٦)

(١) صفحة ٤٧ .

(١) صفحة ١٢٣

أسعفوا التاريخ

للأستاذ عبد العزيز البشرى

ليت شعرى لو سألت ، بعد عشر سنين مثلا ، شاباً ممن سيتضحهم العصر يومئذ ، بل لو سألت اليوم شاباً ممن هم فى الثلاثين فما دون — أن يجلو عليك صورة من الحياة المصرية ، وأعنى حياة المدن قبل ثلاثين سنة فقط ، فكيف تراه يقول ؟

أخشى ألا يقول شيئاً قط ، لأنه لا يكاد يعرف منها شيئاً قط !

لقد حالت الكثرة الكثيرة من أساليب حياتنا فى هذه المدة القصيرة بسرعة لا أحسبها كانت مما يدخل فى حساب مؤرخ ولا عالم اجتماعى ، ولا غير هذين من سائر المفكرين

ويحسب المرء منا أن يلتفت بالذاكرة إلى ما قبل أربعين سنة خلت أو ثلاثين ، ويقلّبها فى نواحى حياتنا لترجع إليه بصفة قوم غير القوم ، وناس لا يكاد يربطهم شبه بهذا الناس :

لقد تغيرنا سريعاً جداً فى أخلاقنا ، وآدابنا ، وأسلوب سكنانا ، وطعامنا ، ولبسنا ، وسمرنا ، ولهونا ، وغنائنا ، وزواجنا ، وأعراسنا ، ومآتمنا ، وسائر أسبابنا . فلم يبق شيئاً من ذلك فينا إلا الأقل من القليل . ولا شك أنه كذلك فى طريق التطور والتحوير

وكذلك تختفى من الوجود صورة أمة ، لتحل فى موضعها صورة أخرى ، إذا قدر لحياتنا قرار قريب .

وإذا كان « لكل سائلة قرار » كما يقول الشاعر ، فلا شك فى أننا نسلك الآن برزخاً بين عيشين مختلفين أشد الاختلاف ، مفترقين أبلغ الافتراق ، عيشين لا يكاد يتسع التصور لأنهما لأمة واحدة ، وخاصة فى مثل هذا الزمن القصير !

وليس يتسع هذا المقام ، بالضرورة ، لاستقصاء كل ما تناوله التطور الشديد فى بلادنا . ويكفينا أن نعرض الآن نموذجاً واحداً يصلح أن يكون مثلا للجميع :

كان نساء الطبقتين العليا والوسطى ، فى هذا العهد القريب ، لا يتبذلن فى الطريق إلا مقنّعات محجوبات أمنع حجاب . فللرأس غطاء ، وللوجه غطاء ، ولسائر الجوارح غطاء . بحيث لا يظهر منهن إلا العيون من خَلَل البراقع ، وأطراف البنان فى قبضهن على مصاريع المُلاء .

وكانت هذه الأغطية تختلف باختلاف البيئات . فالسيدة أو الفتاة المتوسطة الحال ، تتلفف فى الملاءة التالية نوعاً ، وقد تكون من الحرير (الكريشة) . وكيفما كان الأمر ، فهى تلبسها على زى خاص . لا ترسلها كما ترسلها نساء الطبقة الدنيا . بل إنها لتضيق على مدار الخصر ، وتُضيِّق على ما دونه حتى الكعبين .

وأما قناع الوجه فالبرقع الأسود ، يرسل من أسفل الجبين إلى غاية الصدر ، ويحلى من وسط أعلاه بحلية من الذهب غالباً ، أو من الفضة المموهة بالذهب أحياناً ، وتدعى هذه الحلية « عروسة » البرقع . ولا حاجة إلى وصفها ، فلا تزال يضعها بعض « بنات البلد » .

وأما الطبقة (المتأنية) فيتخذن ، فى العادة ، الحرير (الحبر) . وأما الوجوه فيسترها بقناع أبيض لا « عروسة » له ولا سواها من الحلى ، وربما وضعن بدل القناع (اليشمق) وهذا كان خاصاً بالطبقة (الأرستقراطية) جدا ، لا يشركهن فيه غيرهن ، وربما اتخذ نساء الطبقة الوسطى الحرير (الحبر) إذا دعت بعض المناسبات كحضور الأعراس والزيارات ذات الخطر .

ولم يكن التجمل بالمساحيق وما يؤدى مؤداها إلا نادراً جداً . وأكثر ما يكون ذلك في الأعراس ونحوها . وكان الإفراط فيه والمداومة عليه معيبا ، وكانت السيدة التي تلزمه موضع حديث السيدات وإنكارهن ، وكثيراً ما يتخذنها موضعاً للأسمار !

وكيفما كانت الحال ، فإن هذا الضرب من التبهّج (أعني تلوين الوجوه) لم يكن ليؤذن به قط لفتاة ، بل لست أغلو إذا زعمت أنه كان منكراً من سيدة ليست ذات بعل . وإن فتاة تفعل هذا لهي حقيقة بإرسال الألسن وذهاب الأقاويل ، وإقفال بيوت الأشراف في وجهها ، وانقباض المجالس دونها ، وتحرّجها بغشيانها !

* * *

والآن ، وبهذه السرعة السريعة . لقد تجرد نساء هاتين الطبقتين وفتياتهما من أرديتهن الخارجية جملة . ونضون الأقنعة فلا قناع ألبتة . وقصّرن الثياب ، وربما حسرن عن الأذرع ، حتى لقد يبلغ النظر أعلى الكتف وأسفلها جميعاً . ولست ترى هؤليّاء ولا هؤليّاء باديات في الطرق إلا كذلك ، وأما صقل العوارض ودهانها بالمساحيق البيضاء ، وصبغ الشفاه بالأحمر القانى أو الأحمر الضارب إلى الصفرة ، فلقد أصبح هذا وأمسى من ضرورات السعى في الطريق ، بل كاد يصبح وعسى مما تعاب المرأة بتركه ، وتعيّر إذا هي تخلّت عنه !

ولقد تصادفك البنت في الطريق ، وهي لما تتجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد صبغت شفتيها بالأحمر صبغاً ، ولا أقول دهنتهما دهناً ! ولقد كثر ذلك وشاع وفشا حتى أضحى لا يلفت من الناس شيئاً من العجب ، وخاصة عند الناجين الذين لم يشهدوا الأمهات والأخوات منذ بضع عشرات من الأعوام .

ولقد كان التيار جارفاً إلى حد أن سيدة لم تستطع أن تحدث في طريقه أو تثبت ابنتها ، وأن رجلا مهما يكن (محافظا) شديد الحرص على التقاليد ، لم يستطع أن يملك عن جرف هذا التيار امرأته أو فتاته . بل إن بروز المرأة اليوم في الطريق ملففة مقنعة ، هو الذي يسترعى النظر وقد يستدعى العجب !

بل إنك لقد تجد في طريقك السيدة وقد درّفت على الستين أو طمت في السبعين ، أي ممن نشأن في الحجاب ، وتوارين في شتى الألفاف دهراً غير قصير . لقد تراهن اليوم سافرات الوجوه ، مبديات ما أبقى المقص من شعر الرؤوس ، بارزات الأذرع والنحور ، مقصرات الثياب إلى ما يتجاوز أعلى السوق . وقد بالغن في التبهج والتجمل بألوان الصبغ والدّهان !

وأرجو من القارئ ألا يفهم أني أسوق هذا الكلام على جهة الانكار ، أو أني أبغي وعظاً أو أطلب نصحاً . إنما أنا في هذا الحديث مؤرخٌ واصفٌ لا أكثر ولا أقل . أذكر ما كان في بعض أسباب عيشنا من ثلاثين عاماً فقط ، وما صرنا إليه بعد هذه الأعوام . وصفوة القول أننا في هذه المدة القصيرة جداً في مراحل تحول الأمم قد تطورنا تطوراً شديدا ، وتغيرنا تغيراً كبيراً ، ومع هذا فإنه لم تستقر بنا الحال بعد إلى قرار !

* * *

وبعد ، فلقد أصبح من الواجب الحتم ، والحال ما ذكرنا ، أن يشمّر جماعة من مشيخة الكاتبين في تسجيل هذا التاريخ القريب في مدته ، وقد شهدوه وعاشوا فيه . وعرفوا الجليل والدقيق من مظاهر الحياة في إبانه . وإلا عفت معالمه ، وامحت رسومه ، وعزّ على الناس بعد أربعين أو خمسين عاماً أن يتلمسوه ويتصوروه كاملا واضحا ، لأنهم لا يجدون إليه السبيل .

ولقد قلت : «القريب في مدته» لأنه أضحى بعيداً جداً

فى شخصه وصورته . وقد أحضرنى هذا المعنى قول متمم ابن نويرة فى أخيه مالك :

فلما تفارقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

اللهم إنى أخشى ما أخشاه أن تهاون قرب العهد بهذا الصدر من التاريخ الذى شهدنا أطرافه ، فيصرفنا هذا التهاون عن تدوينه وتسجيله ووصف مظاهر الحياة المصرية فيه . ثم يلتفت إليه أبناؤنا أنفسهم ، ولا أقول أحفادنا ، فلا يصيبون فى التماسه وتمثله إلا عنتاً كثيراً !

هذا عصر محمد على الكبير وما تقدمه بقليل ، ولا أمعن فى التاريخ متقهقراً إلى عهود المماليك ، فالأيوبيين ، فالفاطميين فمن قبلهم . أقول : لولا بعثة الحملة الفرنسية ، ولولا المستر (لين) الانجليزى ، ما عرفنا كثيراً من عادات الأجداد ، بل ما عرفنا ماذا كانت تلبس الجدات !

إن إهمال التاريخ ، لقرب العهد به ، كثيراً ما يجنى على حقائق التاريخ ، وخاصة إذا أعقبته رجات وطفرات كهذه الرجات والطفرات التى جازت بنا . وكادت تأتى على كل شىء من أخلاقنا وآدابنا وتقاليدنا وعاداتنا وسائر أسبابنا .

وإن من رحمة الله بهذا التاريخ القريب أن كان فيه (الفوتغراف) يسجل الصور ، وأن قام فيه (الفونغراف) يسجل الأصوات ، وأن شاعت فيه الصحافة فسجلت أهم الأحداث . على أن هذا كله لا يغنى عن التسجيل الباقى يصف ما أخطأته تلك الوسائل ، ويتحسس إلى ما لا تسلكه من بواطن الأشياء .

أرجو أن يشمّر بعض مشيخة الكاتبين فى هذا ، تفقيهاً لأبنائنا ، وبراً بتاريخنا لا ينقطع على هذه الصورة ، وتيسيراً لسعى المصلحين الاجتماعيين ؟

عبد العزيز البشرى

فى التاريخ السياسى المعاصر :

قناة السويس
فى مهب المطامع الدولية
لمحرر الثقافة السياسى

قناة السويس قناة مصرية تجرى فى أرض مصرية ؛ وكل ما هنالك أن مصر اضطرت فى ظروف خاصة أن تمنح حق استثمارها لشركة مالية أجنبية ، ينتهى عقد امتيازها سنة ١٩٦٨ أعنى بعد ثلاثين سنة ؛ ثم يعود استثمار القناة إلى مصر تنظمه ، وتجبى موارده وفق مشيئتها

ولم تكن مصر تفكر مطلقاً حينما أذنت بشق هذه القناة منذ ثمانين عاما فى أرضها لتخدم الملاحة الدولية ، ولتعاون فى تقدم المواصلات البحرية لجميع الأمم ، أن وجود القناة سيغدو يوما خطراً على سيادتها ، وأنه سيغدو بالأخص موضعاً للمنافسات والأطماع الدولية المختلفة ، حتى من جانب دول ليست لها بالقناة أكثر من صلات الملاحة العادية .

ولكن مصر لم تدخر جهدا للمحافظة على سيادتها الإقليمية فى منطقة القناة ، ولم تترك فرصة للتنويه بهذا الحق الطبيعى الواضح ؛ وقد ظهر ذلك جلياً فى مناسبتين تاريخيتين عظيمتين : الأولى فى سنة ١٩١٠ حينما رفضت الجمعية العمومية المصرية الموافقة على ما طلبته شركة قناة السويس من مد امتياز القناة لمدة جديدة ، والثانية حينما عقدت معاهدة الصداقة المصرية البريطانية فى أغسطس سنة ١٩٣٦ ؛ فقد نص فيها فى المادة الثامنة منها : « على أن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر » ، وذلك بالرغم مما نصت عليه المادة نفسها من أن « القناة طريق على

للمواصلات ، كما أنها طريق حيوى للمواصلات بين أجزاء الامبراطورية البريطانية » ، وهو ما لا يتعارض مطلقاً مع كون مصر هي صاحبة السيادة المطلقة على القناة .

ومصر من جانبها لم تشكى يوما فى معارضة نظام الملاحة الحرة الذى تقرر منذ إنشاء القناة ، ثم تأيد بنص المادة الأولى من اتفاقية قناة السويس التى عقدت فى استانبول فى اكتوبر سنة ١٨٨٨ بين بريطانيا العظمى وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا واسبانيا وهولنده وروسيا وتركيا ؛ وتنص هذه المادة ، التى تعتبر حتى اليوم دستور القناة الأساسى على أن قناة السويس « يجب دائماً أن تكون حرة مفتوحة فى وقت الحرب والسلم معاً ، لكل سفينة تجارية أو حربية دون تفرقة بين الرايات » ، « وأن القناة لا يمكن أن تخضع مطلقاً لمزاولة حق الحصار » ؛ ومع أن انكلترا علقت يومئذ تنفيذ الاتفاقية « على وجوب اتفاقها مع ظروف مصر يومئذ » حتى لا تتعارض مع سياستها فى مصر ، فإنها عادت فى سنة ١٩٠٤ ، وعقدت مع فرنسا اتفاقاً أقرت فيه نصوص اتفاقية استانبول بلا قيد ولا شرط .

وكان من أثر هذه الحرية المطلقة التى كفلتها المعاهدات للقناة ، أن استطاع الأسطول الروسى الذاهب لمحاربة اليابان أن يجوز القناة فى سنتى ١٩٠٤ و١٩٠٥ ، فى حين أنه حرم المرور فيها قبل ذلك على السفن الحربية الأسبانية التى كانت ذاهبة لمقاتلة السفن الأمريكية فى مياه الفيليبين سنة ١٨٩٨ ، وذلك قبل عقد الاتفاق الفرنسى الانكليزى .

وأن إيطاليا استطاعت فى سنتى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ أن ترسل جميع قواتها ومهماتها العسكرية لغزو الحبشة بواسطة قناة السويس ، دون أن يتعرض لها أحد ، وذلك بالرغم من الظروف الدقيقة التى كانت تحيط بهذا المشروع

***

والآن بعد أن افتتحت إيطاليا الحبشة ، وأعلنت قيام الامبراطورية الايطالية ؛ وكشفت عن بعض مطامعها الاستعمارية ، بما أثارت أخيراً حول تونس وجيبوتى من مطالب ودعاوى ، تعود مسألة قناة السويس فتغدو مثار البحث والجدل مرة أخرى .

ذلك أن إيطاليا لها مطالب فى شأن قناة السويس لم تحجم عن المجاهرة بها على لسان صحافتها ، وإن لم تتقدم بها بصفة رسمية . وتتلخص هذه المطالب فى وجوب إعادة النظر فى دستور قناة السويس ، وفى إدارتها ، وفى رسوم المرور بها ؛ فالقناة يجب فى نظر إيطاليا أن تغدو طريقاً دولياً ، ويجب أن تمثل إيطاليا فى مجلس إدارتها تمثيلا يتناسب مع أهمية مصالحها التجارية والاستعمارية ، ويجب أن تخفض رسوم المرور بها تخفيضاً معقولا .

وتدلل الصحف الايطالية على ذلك بأن نسبة السفن الايطالية التى كانت تمر فى القناة قبل الحرب لم تكن تتجاوز واحداً فى المائة ، ولكنها ارتفعت منذ سنة ١٩٣٦ إلى عشرين فى المائة ، وأن إيطاليا أصبحت من حيث مجموع السفن التى تمر بالقناة فى المرتبة الثانية بعد انكلترا مباشرة ، وأصبحت تتفوق فى ذلك على فرنسا ، وألمانيا ، وهولنده .

وأنها مع ذلك ، ومع ما بلغته مصالحها الاستعمارية بعد فتح الحبشة من الأهمية والخطورة ، لا تزال محرومة من الاشتراك فى إدارة قناة السويس ، مرغمة على أداء الرسوم الفادحة التى تقررها شركة القناة وفق مشيئتها .

تلك هى النظرية الايطالية الجديدة فى شأن قناة السويس ؛ بيد أن هذه المطالب التى تصطبغ فى الظاهر بالصبغة الاقتصادية تنطوى من جهة أخرى على اعتبارات سياسية وعسكرية لا تخفى ؛ وهذه الاعتبارات ليست فى الواقع إلا جزءاً من المشكلة الامبراطورية العامة ، أو مشكلة

التنافس الدولى على السيادة فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

وإيطاليا تشعر منذ فتح الحبشة ، أن امبراطوريتها الجديدة فى شرق أفريقية لا يمكن أن تكفل سلامتها بصورة مرضية ، ما دامت بريطانيا العظمى قابضة بواسطة تحالفها مع مصر على قناة السويس باب البحر الأحمر من الشمال ، وعلى بوغاز باب المندب بابه من الجنوب ، وترى أن القناة كما أنها طريق امبراطورى لبريطانيا وفرنسا وهولندة يجب أيضاً أن تكون فى الوقت نفسه طريقاً امبراطوريا إيطاليا .

بل يرى بعض الغلاة من الساسة الفاشستيين أن إيطاليا أحق الدول بالسيطرة على قناة السويس ، لأن بريطانيا وفرنسا وهولندة تستطيع كل منها أن تتخذ إلى مستعمراتها طريق « الكاب » ، بينما ترى إيطاليا نفسها مضطرة إلى الاعتماد على طريق قناة السويس وحده ؛ وهؤلاء الغلاة هم أصحاب الفكرة القائلة بوجوب اشتراك إيطاليا فى الدفاع عن القناة مع انكلترا ، وهى فكرة أذاعتها الصحافة الإيطالية فى الربيع الماضى لمناسبة عقد الاتفاق الانكليزى الايطالى ، ولكنها لم تلق بالطبع صدى يذكر .

* * *

تلك هى المطالب والأمانى الإيطالية فى شأن قناة السويس ، وتلك هى الاعتبارات الظاهرة أو الخفية التى تستند إليها .

وأول ما يلاحظ فى شأن هذه الأمانى أنها تغفل حقيقة هامة ، هى أن القناة ملك لمصر ، وأنها تخترق أرضاً هى جزء لا يتجزأ من المملكة المصرية ، وأن لمصر الكلمة الأولى والأخيرة فى كل ما يتعلق بمصير القناة ذاتها .

فالقول بوجوب اعتبار القناة طريقاً دولياً للملاحة لا يمكن الأخذ به ، بل لا يمكن أن يكون موضوع مناقشة ، وإلا جاز لنا أن نعتبر هذا القول فيما يتعلق بقناة « بناما » الأمريكية ، وقناة « كيل » الألمانية ، وقناة « كورنث » اليونانية ، وقناة « ميدى » الفرنسية ، وهذا ما لا يمكن أن تسلم به أية دولة تحرص على سيادتها وسلامة أراضيها .

وأما وجوب إعادة النظر فى دستور القناة وفى إدارتها وفى رسوم المرور بها ، فيلاحظ أولاً أن امتياز القناة ممنوح لشركة مالية ذات أسهم ، وأن منشئها الكونت دى لسبس منشئ القناة ، أصدر حين إنشائها ٤٠٠ ألف سهم عرضها للبيع فى جميع البلدان ، فاشترى الفرنسيون منها ٢٠٨ آلاف سهم ، واشترى خديو مصر المغفور له إسماعيل باشا ١٧٠ ألف سهم ، بيعت فيما بعد إلى الحكومة البريطانية بمبلغ أربعة ملايين جنيه ، ولم يشتر الإيطاليون من الأسهم سوى ٢٧١٩ سهماً . وأما اليوم فأسهم شركة قناة السويس تبلغ ٨٠٠ ألف سهم يحمل الفرنسيون منها ٥٣ ٪ والبريطانيون ٤٥ ٪ .

ويتألف مجلس شركة القناة الآن من ٣٢ عضواً منهم تسعة عشر فرنسياً ، وعشرة من البريطانيين وعضوين مصريين وعضو هولندى ؛ ومجلس الادارة هو الذى يتولى تنظيم شئون القناة وتقرير رسوم المرور وغيرها ، كما يتولى مجلس إدارة أية شركة مالية أخرى شئونها الإدارية والمالية .

وأما عن حركة المرور فى القناة فيلاحظ أن الملاحة الإيطالية كانت قبل الحرب الحبشية فى المؤخرة ، ولم تتقدم نسبة مرور السفن الإيطالية فى القناة إلا أيام الحرب الحبشية ، نظراً لما اقتضته الاستعدادات العسكرية من إرسال الجند والذخيرة والمؤن ؛ وقد أخذت هذه النسبة الآن فى الهبوط بعد استقرار الأمور نوعا فى الحبشة ، ولهذا تلح إيطاليا الآن فى تحقيق رغائبها قبل أن تهبط هذه النسبة إلى المستوى العادى .

وإيطاليا بالرغم من كونها تستند مطالبها إلى اعتبارات اقتصادية ترى أن تتقدم بها من الطريق السياسي ، لأنها على يقين من أن مجلس إدارة القناة ، وهو خاضع في تصرفاته لرأي حملة الأسهم ، لن يوافق على شيء من مطالبها ، لأنها لا تشاطر في رأس المال بأي قسط يسمح لها بإبداء الرأي فضلاً عن إملائه .

***

وأما عن موقف مصر ، وهو الذي يجب أن يحسب حسابه في كل ما يتعلق بشئون القناة الجوهرية ، فهو واضح كل الوضوح ، فمصر لا تستطيع أن تقر أي تصرف من شأنه أن يمس حقوقها في السيادة على منطقة القناة التي يجب أن تظل مصرية مهما كانت الظروف والأحوال ، أو تمس مستقبل القناة ذاتها ، لأن إدارة القناة ستعود إلى مصر في المستقبل القريب ، ويجب أن لا تحرم مصر مقدماً من ثمرات ملكيتها للقناة متى عاد إليها حق استثمارها .

والذي نعلمه في ذلك هو أن الحكومة المصرية لم تترك هذه المناسبة تمر دون أن تلفت ذوي الشأن إلى استمساك مصر بجميع حقوقها في السيادة على القناة ، وفي كل ما يتعلق باستثمارها .

والمفهوم من جهة أخرى أن مطالب إيطاليا في شأن القناة كانت ضمن ما تناولته محادثات رومة الأخيرة بين السنيور موسوليني ومستر تشامبرلن ؛ ولكن هذه المحادثات لا يمكن إلا أن تكون تمهيدية ، ولا يمكن الآن أن يقطع في شأنها بشيء واضح ، لأنها ليست كما قدمنا إلا جزءاً من المشكلة العامة المتعلقة بمطالب إيطاليا الاستعمارية ، وحلها ليس متوقفاً على رأي انكلترا وحدها ، بل هنالك فرنسا التي يتجه إليها أعظم قسط من هذه المطالب ؛ ولا بد لنا من أن ننتظر قليلاً لنرى إلى أي اتجاه يمكن أن تسير .

***

مطالعات أشتات

على هامش العلوم

٢ – الصوف

للدكتور أحمد زكي بك

في هذا البرد القارس ، لم أجد موضوعاً أشهى من الحديث في الصوف ، ومن الأحاديث ما يُدفئ .

في اللغة : الصوف للشاء كالشعر للمعزى .

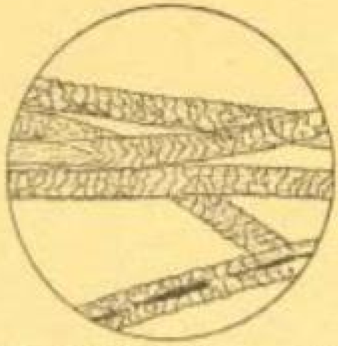
وشعرات الشعر تتراءى في العين مستطيلة كالقلم ، أما شعرات الصوف فملتوية متموّجة . وتتراءى الشعرتان تحت المكرسكوب وعليهما تحازيز تختلف أشكالا ، فقد تدور خطوطها حول الشعرة ، وقد تتقاطع وقد تتصالب ، وقد تنحني وتتذبذب . وقد تَغلُظ وتتراكب هذه التحازيز فتتراءى كقشر السمك . وقشر السمك تسميه العرب سَفَطاً ، وواحدته سفطة . ولكل حيوان ذي شعر أو صوف تحزيزته الخاصة ، ومنها يُستدل عليه .



شعرات الانسان وبعض أنواع القردة كما تتراءى تحت المجهر : اليسرى للانسان والأخريات للقردة

غير أن الصوف يمتاز بسفطه المتراكب بعضه على بعض ، وبكثرة هذا السفط ، فقد يبلغ ٤٠٠٠ سفطة في البوصة الواحدة في الصوف الدقيق القصير ، ومتوسط ما يبلغه في الصوف الطويل ٢٠٠٠ . وهذا السفط هو الذي يُمكّن الناس من تلبيده وغزله ، إذ لولاه لانسلّت الشعرات عند الشد بعضها عن بعض فلم تتماسك . ويختلف

هذا السفط في نوعه ومقداره باختلاف أنواع الشاء ومصادر الأصواف .



شعرات من صوف كما تتراءى تحت المجهر بعد غسل ما عليها من الدهن . مكبرة نحو ٢٥٠ مرة

وسبب هذا السَّفَط أن الشعرة تنمو على ما هو معروف من جُذُورها ، فلو أنها خرجت بانتظام واستمرار من ثقب جامد دائريّ لكانت كالعصا الملساء ، ولكنها تخرج على دفعات من ثقب الجلد وهو حيّ متحرك ، فالذي يرى عليها من تجاريع ذات أشكال إنما هو من آثار ذلك

وبشعرات الصوف تموّجات على طولها تساعد على فتله وغزله ، وعدد هذه التموجات يختلف باختلاف أنواع الصوف ، وعددها في السنتيمتر من الصوف القصير الرقيق يبلغ نحو ١٥ موجة ، وقد يبلغ في الصوف الطويل الغليظ موجتين أو ثلاثاً . ولهذا التموّج خطره ، فهو سبب مرونة الصوف . فاذا أنت شددت الصوف تمدّد ولم تنقطع شعراته ، وإنما تنبطح موجاته ، فاذا أرخيته عاد إلى سابق طوله . ومن المواد الكيميائية ما يفسد هذه المرونة فينقبض الصوف فلا يعود إلى طوله .

وطول الشعرات يختلف باختلاف الأنواع كذلك ، فالصوف القصير يبلغ طول شعرته من ٦ إلى ٧ سنتيمترات ، أما الطويل فيبلغ فيه طول الشعرة من ٢٥ إلى ٣٠ سنتيمترا . والصوف يرقّ ويسمك ؛ فالأنواع الرقيقة يبلغ قطر الشعرة فيها نحو ١٦ جزءا من ألف جزء من المليمتر ، والأنواع السميكة يبلغ قطر الشعرة فيها نحو ٥٠ جزءا .

وتحمل الشعرة من الصوف القصير الرقيق من ثلاثة جرامات إلى خمسة قبل أن تنقطع ، وتحمل الشعرة من الصوف الطويل من ستة جرامات إلى اثنى عشر جراماً . ويبلغ وزن ما تحمله الشعرة من بعض الأصواف الانجليزية ثلاثين جراماً

ولون الصوف الغالب هو البياض ، ولكن يوجد منه الأسود والبنيّ والأصفر والرمادىّ . والصباغة تطلب الأبيض ، ولكن بعضهم يطلب الألوان الطبيعية الأخرى إذ يغزلونها للأنسجة الأخشن كالشيلان والأقمشة الاسكتلندية Highland tweeds . وهذه الألوان تثبت عند الغسل مهما اشتد . وهي تقاوم الأحماض والقلويات ، ولكنها تضعف في ضوء الشمس

وصبغة الشعرة الملوّنة بالطبيعة توجد في نخاعها . فأنت لو قطعت شعرة بالعرض ، كما تقطع خيارة أو موزة ، لتراءى سطحها المقطوع تحت الكرسكوب مكوّنا من طبقات ثلاث ، أوسطها الطبقة النخاعية ، تحوطها الطبقة القشرية ، وهذه تحوطها الطبقة الخارجية السَّفَطية .

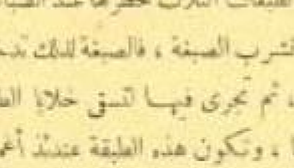


قطاع مستعرض لشعرة صوف كما يتراءى تحت المجهر : ن هو النخاع ، س الطبقة السفطية ، والطبقة السميكة التي بينهما ذات الخلايا الكبيرة هي الطبقة القشرية

والطبقة النخاعية قد تتسع حتى تبلغ ربع قطر الشعرة أو ثلثها ، وهي في مجراها من الشعرة قد تضيق حتى تنعدم ، وقد تكون ثم تنعدم ثم تكون في الشعرة الواحدة فتظهر صورتها كصف من جزر متسلسلة . وقد تملئ هذه الطبقة النخاعية بالخلايا ، وقد تفرغ منها ويحل الهواء محلها . وهي من الشعرة قناتها تجري فيها عصاراتها . وهي مستقر المادة الملونة في الصوف الطبيعي ، لهذا تبين هذا القناة أكثر من غيرها تحت المجهر . وقد تفيض هذه المادة فتلون كذلك خلايا الطبقة القشرية ، ويحدث هذا في الصوف ما بين البني والأسود ، أي حيث يغمق اللون . أما الطبقة الثالثة الخارجة السفطية فهي قرنية شفافة لا تقبل اللون .

ولهذه الطبقات الثلاث خطرها عند الصباغة . فالطبقة السفطية لا تشرب الصبغة ، فالصبغة لذلك تدخل الشعرات من قنواتها ، ثم تجري فيها لتسقي خلايا الطبقة القشرية وتستقر فيها ، وتكون هذه الطبقة عندئذ أعمق في اللون مما عداها

والصوف يقبل التلبد قبولاً كبيراً ، فتخرج من تلبده أثواب دقيقة لا مغزولة ولا منسوجة . وشعرات الصوف في الثوب الملبد يتماسك بعضها ببعض في غير نظام ولكنه تماسك قوي . ولهذا التماسك أسباب : منها ما على الشعرات من سفط فهذا تتشابك حروفه في الشعرات



صورة توضح كيف تتشابك حروف السفط بين الشعرة والشعرة عند تلبد الصوف

فتترابط . ويزيد حروف هذا السفط نتوءاً فعل الأحماض والقلويات وكيميائيات أخرى ، حتى غلي الماء . وسبب آخر للتلبد هو ما بشعرات الصوف من تموجات تعين على تلويها بعضها في بعض . وسبب ثالث هو تركيب الطبقة السفطية نفسها ، فهي قرنية من نوع يطري ويتلزج بفعل الماء والحرارة والضغط ، وهي مجتمعة جميعها في عملية التلبد ، فتتلازج الشعرات أو بعضها وتتلاحم عند البرد وزوال الضغط

والصوف أكثر امتصاصاً لرطوبة الهواء من القطن والحرير وغيرهما من ألياف النسيج ، وهو يستطيع أن يحبس من الماء في جو مشبع به نحواً من ثلث وزنه . وهذا عامل خطير في التجارة لا بد من ضبطه وإلا بيع الماء بثمن الصوف . كذلك لا بد من تبينه وتقديره في الصناعة ذاتها ، فرطوبة الألياف تغير من خواصها الطبيعية تغييراً كبيراً

والصوف على الشاة به دهن تفرزه غدد بجلدها ، فهذا يلوذ بالشعرات فيحميها من التكسر والتقصف ، ويفرق بينها وبين أخواتها فيمنعها من التلبد . ودهن الصوف قد يبلغ نحواً من ٤٠ في المائة من وزنه . من أجل هذا كان الصوف دسم الملمس في بلاده . وأول تحضير الصوف للنسج غسل هذا الدهن عنه بالصابون

وللصوف بريق يهم الصانعة والناس جميعاً . وهذا البريق يشتد في بعض الأصواف الطبيعية ويضعف في بعضها ، ومرجع هذا إلى سفط الشعرات . فالشعرات ذات السفط الكثير تنال هذه الكثرة بصغر حجمها وقلة سطحها فيقل بذلك ضوء الشمس المنعكس من سطوحها . وهذا يحدث في الصوف القصير الشعرة . أما طويلها فيعكس الكثير من الضوء على سفطاته الواسعة ، فيلمع ويشتد بريقه

ويتركب الصوف من عناصر خمسة ، أكثرها الكربون أو الفحم ، ثم يأتي بعده الأكسجين فالأزوت فالايدروجين فالكبريت . والذي يلحظ في هذا التركيب كبر نسبة

الأزوت فيه فهى تبلغ نحو ١٩ فى المائة من وزنه . فإذا أحرقت فتيلة منه انطلق الأزوت على الأغلب فى صورة غاز النشادر ، ثم تتفحم الفتيلة متقاصرة مكونة كرات من الفحم المتعقد . وهى تحترق ببطء ، ولكنها لا تشتعل أو لا تكاد ، وتخرج منها رائحة كرائحة الريش المحروق . وهى فى اشتعالها تخالف فتائل القطن — وعناصرها الكربون والأكسجين والايدروجين — فهذه تشتعل اشتعالا سريعاً أى بلهب كبير وضاء ، ثم لا يبقى من الفتائل إلا رماد لا يستقيم بين الأصبعين

والماء الغالى يؤثر فى الصوف ، لا سيما إن طالت مدة غليه به ، فهو يتحلل بذلك بعض التحلل ، ويفقد شيئاً من متانته

والصوف يقاوم الحوامض ، وهو قلّ أن يتغير بها بل هو يمتص منها حتى يكتفى . ولكنه لا يثبت أمام القلويات كالصودا الكاوية . فإذا أنت أغليت الصوف بمحلول مخفف من الصودا الكاوية تحتوى المائة سنتيمتر منه خمسة جرامات أو ستة من الصودا ، إذن لذاب الصوف كله فى بضع دقائق (القطن لا يفعل ذلك) . ومن هذا يتضح السبب فى النصيحة التى تهدى دائماً فى غسل الصوف : أن يغسل بالصابون التى ذى القلوية القليلة ، وأن لا يغلى به ، لا سيما فيما يختص بالأنسجة الرقيقة الثمينة

وقد تقضت قرون عديدة والناس تجنى من الشاة ما تجود به من صوف عفو الطبيعة وبقدر ما يأذن به التقليد المتوارث فى تربية الماشية . ثم تدخل العلم رويداً رويداً فعلّمنا منافع التهجين . علمنا أننا نستطيع بتخليط الأنساب بين الذرارى من قطعان مختلفة الأوطان والأجواء ، أن نزيد فى لحم الشاة إن أردنا لحما ، أو نزيد فى جودة شعرها إن أردنا صوفاً ، وأن نخالف ونبادل بين الأنساب بطرائق مرسومة وقوانين مرقومة ، لنحصل من صوفها على رفيعه وناعمه إن أردناه رفيعاً ناعماً ، أو قويه وخشنه إن أردنا خشناً قوياً ، أو الوسط بين هذا وذاك إن شئناه وسطا . ولكل من هذه الأجناس مطالب فى الصناعات . وبهذا التهجين انتشرت الشياه فى أراض لم تكن تعرف الأظلاف ، وطاب لها العيش فى أجواء لم تكن لتطيب لها ، منها الجاف والمطير والحار والبارد والجبلى والساحلى . وبهذا التهجين انتقلت تجارة الصوف ، أو انتقل مركز ثقلها ، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب

ففى استراليا اليوم من الأغنام مائة وعشرون مليوناً أو تزيد ، وهى أولى الأمم التى تنتج الصوف ، ولم يكن بها منه شىء يذكر منذ قرن ، وفى أمريكا الجنوبية خمسون مليوناً أو تزيد ، وفى الولايات المتحدة أربعون مليوناً ، وفى ولاية جنوبى أفريقية نحو من ثلاثين مليوناً ، ومثلها فى الجزر البريطانية ، ونحو من مائة وسبعين مليوناً فى سائر القارة الأوربية ، وكل هذه الذرارى أغراب فى مواطنها الحاضرة أو نصف أغراب ، وأكثرها وأجودها به الدم العربى بما يحمل من نفحات البيد ورائحة الثريد

ذلك أن العرب لما عبروا البحر إلى الأندلس حملوا معهم من أغنامهم قطعاناً حلّت فى البلد الجديد الطيب محلا طيباً ، فتناسلت وتكاثرت ، وظل صوفها مشهوراً من بعد ذلك فى أوربا جميعها . وصارت اسبانيا مصدر الصوف الناعم الذى تنسج منه الملابس الجيدة فى أمم الغرب ، وظلت كذلك قروناً . ونتج عن هذا أن اتجهت أنظار هذه الأمم إلى إدخال تلك الأغنام إلى بلادها ، فأدخلت فى سكسونيا فى عام ١٧٦٥ ، وأدخلت فى بلاد المجر عام ١٧٧٥ وفى فرنسا عام ١٧٧٦ ، وفى الولايات المتحدة عام ١٨٠٩ . وفى هذه البلاد خلطت هذه الأغنام العربية بأغنام تلك البلاد خلطاً مدروساً مقدراً ، فأنتجت أنسالا من بعد أخرى حملت أصوافاً أجود كثيراً مما عرفته تلك البلاد

قبل ذلك . وأسموا هذه الأغنام الإسبانية بالأغنام المرينيّة Merino



شاة مرينية عربية الدم بعد تهجينها

حتى انجلترا ، ذلك المعقل القديم للصوف ، تمنعت طويلا ، ولكنها اضطرت أخيراً إلى تهجين شائها بالدم العربيّ :

اعتزت انجلترا من قديم الدهور بصوفها ، وجاءت ملوكها تنهض بصناعة نسجه فيها ، فجلبت له النُسّاج الفلمنكيين من وراء البحر ، وحاطته بسياج من القوانين فمنعت تصديره إلى القارة الأوربية ، وكانت أممها تطلبه طلبَ عزيز ، وجعلت على تصديره ضريبة صارت على الأيام مصدراً كبيراً لدخل التاج . وزاد الناتج منه في تلك الجزُر على المستهلك فيها فنزل سعره ، ولكنهم صمدوا على منعه من الخروج . واضطر شارل الثاني في القرن السابع عشر أن يزيد في استهلاكه المحليّ ، فأصدر قانوناً يحتم على الناس أن يكفنوا موتاهم في أكفان من صوف . ولما جاء القرن الثامن عشر وقارب الختام كان في انجلترا نحو من ١٢٠٠٠٠٠٠ من الشاء ، درّت عليها من المنسوجات الصوفية ما قاربت قيمته ١٢٠٠٠٠٠٠ من الجنيهات ، وشغلت من رجالها مليون عامل . ومع كل هذا الاعتزاز بالصوف المحليّ ، ومع كل هذه القوانين المانعة المشاحة التي أصدرتها دفاعاً عنه ، ومع ازدهار التجارة ووفرة الخير ، لم تجد انجلترا بداً في آخر الأمر من الالتجاء إلى الشاة العربية ، أو كما أسموها المرينية ، لأن الأمم الأخرى فعلت ذلك فجاد صوفها وطاب وفاق . فبدأت أول الأمر باستيراد الصوف المرينيّ ، وبلغ ما استوردته من اسبانيا عام ١٨٠٠ نحواً من ستة ملايين من الأرطال . ولكنها خافت من أن يطرد الوارد فيزاحم الأهليّ ويزحمه ، فارتأى جورج الرابع (١٧٦٢ — ١٨٣٠) أن يستحضر من اسبانيا عوضاً عن الصوف عدداً من أغنامها المرينية . ولكنه لم يلبث أن وجد أن أرض انجلترا وجوها لا يصلحان لتربية المريني الخالص ، فلم يجد بداً من تهجينه بالأهلي . واستمر التهجين بمختلف الشياه الانجليزية ، حتى نتجت أنواع تألفت واستطاعت العيش في المناخ الجديد ، واستطاعت انجلترا بذلك أن تحتفظ لصناعة صوفها الراقية بخامات من الصوف راقية

أحمد زكي

صور من التاريخ الإسلامي :

زياد بن أبي سفيان

للأستاذ عبد الحميد العبادي

— ٢ —

كانت دعوة معاوية زيادا في سنة ٤٤ ، وسرعان ما عرضت الظروف التي رأى معاوية أن ينتفع فيها بكفاية أخيه الجديد ومواهبه . ذلك بأن البصرة قد اختلت أمورها اختلالا كبيرا ، فكثر في نواحيها عيث الخوارج ، والتلصص وقطع الطرق ، وفشت في البلد نفسه الآفات التي تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة إلى الحضارة والترف ، فكثر الفسق وشاع الفجور . وزاد الطين بلة تعصب القبائل بعضها على بعض ، مما جعل البلد يحيا حياة جاهلية إلى حد بعيد . ولقد عجز من ولاهم معاوية أمر البصرة عن إصلاح تلك الحال ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والادارة يضع الأمور في مواضعها ، ويرد فساد ذلك المصر إلى صلاح . ولم ير معاوية أقدر على الاضطلاع بذلك العبء الجسيم من زياد ، فولاه في سنة ٤٥ على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الأبلة وما إليها

رأى زياد أن الحال تقتضي حزما وعزما وشدة في بعض المواطن وصرامة ، ولكنه جهد في أن يعمل بالسياسة العمرية القديمة ، سياسة الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وإن يكن قد طبقها تطبيقاً حرفياً دقيقاً في حالات معدودة قصد الإرهاب وإلقاء الرعب في نفوس المفسدين ، وقد وضع لسياسته برنامجاً أعلنه في خطبته البتراء التي خطبها الناس بالمسجد الجامع لأول دخوله البصرة . فقد أعلن عزمه على هدم المواخير ومحال الفساد ، فقال : « ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا » . ونهى عن دلج الليل نهياً باتاً ضرباً على أيدي المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب وذلك في قوله : « وإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه » . ونهى عن دعوى الجاهلية منعاً لتعصب القبائل بعضها على بعض : « وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه » وأعلن تضامن الناس في حفظ النظام : « وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم . . . أو تستقيم لي قناتكم » . إلا أن زيادا وإن كان قد شد الوطأة على أصحاب الريب والفساد فإنه سكن خواطر الصلحاء ، وجهد في استمالة المنحرفين عنه : « فمن كان محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته » ، ثم بين لهم حرصه على مصلحتهم : « واعلموا أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً . أيها الناس ... عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا »

وكان زياد عند قوله ، فما تعلق عليه أحد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده هذا في حالات تعد على أصابع اليد الواحدة ، بقصد الإرهاب ، لا حباً في سفك الدماء ، فاستقامت أمور البصرة ، ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر في نواحيها ، فاستكفى كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فكسر بذلك شرة تلك الفرقة العاتية ، وعم الأمن أطراف البصرة ونواحيها حتى قال زياد : « لو فقد حبل بيني وبين خراسان لعرفت من أخذه »

* * *

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفى المغيرة بن شعبة فى سنة ٥٠ لم يتردد معاوية فى ضم إمارة الكوفة وأعمالها إلى زياد

كان الخطر بالكوفة آتياً لا من قبل أهل الريب والفساد والخوارج وتعصب القبائل كما كانت الحال بالبصرة ، ولكن من قبل الشيعة الذين كانوا لا يعترفون بسلطان معاوية والذين وجدوا فى لعن علىّ على منابرهم فرصة لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله والترحم على أبى تراب ، ولقد رأى معاوية فيهم خطرا جوهريا على حكمه فأمر المغيرة بن شعبة بمراقبتهم

وكان المغيرة بن شعبة فى أخريات حياته رجل رفق ولين وإيثار للعافية ، فكان يكتفى من الشيعة بالإخلاد إلى السكون وعدم مخالفة الجماعة ويدعهم بعد ذلك يقولون ما شاءوا . فلما أسندت ولاية الكوفة إلى زياد قدمها وشد الوطأة على رؤساء الشيعة حجر بن عدى وأصحابه ، وطوى ما بينه وبينهم من صداقة قديمة ، إيثارا منه على عادته لأداء واجبه نحو الحكومة التى يخدمها . ولما أحس منهم المقاومة لسلطانه والمجاهرة بلعن معاوية وعماله والترحم على على ، قبض على حجر بن عدى وبضعة عشر رجلاً كانوا زعماءهم ، واستشهد ناساً من وجوه أهل الكوفة على أن حجراً وأصحابه قد خالفوا الجماعة وشقوا عصا الطاعة ، ثم بعث بهم وبالشهادة عليهم إلى معاوية . وهنا يتورط هذا السياسى المحنك فى الأمر ويضيق بهؤلاء النفر حلمه الشهور ، فيأمر بقتل ستة منهم فيهم حجر بن عدى ، قتلوا صبراً بمرج عذراء بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ

وهدأت أحوال الكوفة على أثر ذلك إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب إلى معاوية يقول : إنى قد ضبطت العراق بشمالى ويمينى فارغة ؛ يعرض برغبته فى أن تضم إليه الحجاز كما ورد فى بعض الروايات . فضم إليه معاوية الحجاز وما إليها

ولم تطل حياة زياد بعد هذا الحادث فقد أصابه الفالج وتوفى فى رمضان عام ٥٣ هـ ، ودفن بالثوية بظاهر الكوفة

* * *

ذلك تصوير عام لحياة زياد السياسية . ومنه نرى أن زياداً كان سياسيا حازماً يعرف مواضع الشدة ومواضع اللين ، ويلبس لكل حال لبوسها ويداوى كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثانى ، وكان يتأثره ويحب سماع الحديث عنه ويعمل بسنته ويقضى بقضائه

وأما ما كانت الحال فقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للمصلحة العامة ، ولا أدل على ذلك من موقفه من معاوية عند ما أراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فقد رأى زياد أن الأمر جد خطير ، وأن واجبه نحو الإسلام والمسلمين يحتم عليه ألا يعين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً مؤدباً ينصح له فيه بالتريث وعدم العجلة ، وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخط الخطوة الأخيرة فى هذا الأمر إلا بعد موت زياد

ذلك وجه الحق فى أمر ذلك السياسى الذى عاش فى أيام فتن واضطراب ونقلة من عصر النبوة والخلافة إلى عصر الملك والسياسة : أخذ بالحزم ، وأداء للواجب ، ونصح لولى الأمر . ومع ذلك فثم روايات تصور زياداً طائش السيف سفاكا للدماء بغير حق ، فتزعم أنه قتل الأبرياء بالبصرة ، وأنه قطع أيدى ثمانين أو ثلاثين رجلا حصبوه وهو على المنبر بالكوفة ، وأنه دفن رجلا من أصحاب حجر حيا . إن هذه الروايات وأمثالها متهمة لأنها صادرة عن رواة الشيعة المنحرفين عن بنى أمية ومؤرخى بنى العباس الذين قضوا على الدولة الأموية . وإلا فكيف يتصور أن ينال زياد بإجماع الأخبار رضا الأئمة المهديين عمر وعثمان وعلى ، وثقة عمالهم سعد وأبى موسى وابن عامر وابن عباس ، وإعجاب الفرس وولاءهم ، ثم ينقلب بمجرد وضعه يده فى يد معاوية سفاكا سفاحاً ؟ ألا إن

بسبب الوضع والانتحال أو المبالغة على أقل تقدير واضح في تلك الروايات من غير مراء.

***

وكما كان زياد سياسياً حازماً ، فقد كان إدارياً بارعاً ، لا يكاد يلحق به في ذلك الميدان من رجال الصدر الأول إلا قليل . والظاهر أنه تلقف صناعة الادارة أثناء عمله بفارس للامام علي وذلك بمباشرته الدهاقين وسماعه أخبار الأكاسرة الأولين . عني بعمارة فارس والعراق . فأما فارس فقد بلغه أن الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج سنة فاقتدى بهم في ذلك فعمرت فارس عمارة عظيمة ، وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية الري بالنسبة له ، فحفر عدة أنهار ، منها نهر معقل ونهر الأبلة ونهر دبيس ، وأكثر من الأقطاع وإحياء الموات . قال المدائني : « وكان يقطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين ، فإن عمرها وإلا أخذها منه »

وقد عمر العراق لعهده عمارة عظيمة . روى البلاذري أن جباية كور البصرة على عهد زياد بلغت ستين ألف ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة آلاف ألف فقط ، وينفق الباقي في أعطيات الجند وعامة ضروب الإصلاح . وبلغت جباية كور الكوفة على عهده أربعين ألف ألف درهم كان يرسل منها إلى معاوية تلثي ما يرسل إليه من جباية البصرة ، وينفق ما تبقى في مختلف شئون الكوفة

وعني بأمر الأسواق ، فكان يراقب الأسعار مراقبة دقيقة متوخياً مصلحة الجمهور في ذلك . قال المدائني : « غلا الطعام على عهد زياد ، فدفع إلى التجار مالاً فابتاعوا به طعاماً ، وقال زيدوا ربحاً ربحاً ، فلما رخص الطعام ارتجع ماله » . وربما تنكر ونزل إلى السوق واختبر الموازين والمكاييل بنفسه ، وكان يوقع العقوبة الموجعة بمن يطفف كيلا أو يخسر ميزاناً

وعني العناية كلها بالشرطة والجند ، فاتخذ حرساً مؤلفاً من خمسمائة رجل لا يبرحون المسجد ، وجعل الشرطة ٤٠٠٠ رجل ، وبلغت مقاتلة البصرة في زمنه ثمانين ألفاً ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفاً . وجعل جند البصرة أخماساً وجند الكوفة أرباعاً ، مازجاً بين القبائل المتباعدة الأنساب ليؤلف بينها ، ويضعف من تعصب بعضها على بعض ، وولى على كل خمس أو ربع رجلا من قبل الحكومة بدل سيد القبيلة كما كانت الحال من قبل ، ونقل إلى خراسان خمسين ألفاً من عرب المصرين ، وجعلهم أرباعاً على نظام جند الكوفة ، فكان ذلك بدء استعمار العرب ذلك الأقليم . وكانت أعطيات الجند وأرزاقهم وأرزاق عيالاتهم تصرف إليهم من دار الرزق في مواعيد معينة من السنة ، وأكثر ما كان ذلك في المحرم ورمضان

روى البلاذري أن زياداً سأل أحد جلسائه فقال : ألست تعلم أن الأسواق قائمة وأن الأعطيات والأرزاق تخرج إلى شهر معلوم ويبيع البائع إلى شهر معلوم ؟ قال : بلى ! قال : لله الحمد ! لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا .

وكان زياد شغف بالبناء ، مع ذوق فيه وحب للنظافة العامة . بنى بالبصرة دار الامارة وهدم مسجدها ، وكان من القصب ، ثم وسعه وبناه بالآجر والجص وسقفه بالساج ، ونقل أساطينه من جبل الأهواز ، وأنشأ به المقصورة يدخل إليها من دار الامارة مباشرة دون أن يتخطى الناس . ويروى أنه حين بنى المسجد ودار الامارة جعل يطوف فيهما وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه : أترون خللا ؟ فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه ! فقال : بلى ! هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود ، لو كانت أغلظ من سائر الأساطين . قالوا ولم يؤت من تلك الأساطين قط تصديع ولا عيب . وقد قال شاعر من شعراء ذلك الوقت في فخامة بناء ذلك المسجد :

بني زياد لذكر الله مصنعة
من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تعاور أيدي الإنس ترفعها
إذاً لقلنا من اعمال الشياطين

وكذلك وسع مسجد الكوفة واتخذ به مقصورة وفرش صحنه وصحن مسجد البصرة بالحصباء حتى لا تترب أيدي المصلين

وقال المدائني : كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أصحت برفع ما بين يدي فنائه من الطين فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقي في محله . ويأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات ثم إنه اشترى عبيدا ووكلهم بذلك .

وكان زياد يعني بمظهره الرسمي للخاصة والعامة على السواء . كان يشتو بالبصرة ويصيف بالكوفة وكان له مجلس يحضره أشراف المصر يدخلون عليه فيه على السابقة والشرف والحسن ، ويسمرون عنده فيه جالسين على الكراسي ، وهو أول من جلس بين يديه على الكراسي ، وكان لا يطعم وحده ولكن مع الصحابة والشرط والقافلة ومن حضر ، وكان يغدي الناس ويعشيهم كل يوم إلا يوم الجمعة فكان يعشيهم فقط ، وكان له قبة يشرف منها على عرض الجند كلما أراد ذلك ، وكان إذا برز من دار الامارة في موكب فخم يسار فيه بين يديه بالحراب والأعمدة ، وهو أول من سير بين يديه كذلك

***

ولسيرة زياد الخاصة طرافة وروعة ، كان زياد في صباه حسن الهيئة ، حسن الثياب ، ذا ذؤابة . وقد وصفه من رآه في أواخر حياته فقال : رأيته فيه حمرة ، وفي عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية ، مخروطها ، عليه قميص مرقوع . وقد أجمع الرواة على أن زياداً كان من أخطب الخطباء ، وأنه كان كاتباً بليغاً ، ومحدثاً لبق الحديث . قال الشعبي : « ما رأيت أحداً يتكلم إلا أحببت أن يسكت مخافة أن ينقطع ، إلا زياداً فإنه لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن » .

وكان أباً باراً ببنائه وأبنائه الكثيرين ، وصديقاً وفياً لم يخل بصداقة المغيرة ولا صداقة بدر بن حارثة الغداني الشاعر ، على قلة كلف زياد بالشعر ، ومع ما عرف به بدر من معاقرة الشراب . وإن يكن قد تنكر لحجر بن عدي فمن أجل الواجب وحده تنكر . وفوق كل شيء فقد كان زياد عفيفاً لم تؤخذ عليه هنة في حياته الخاصة ، زاهداً في الدنيا غير حريص عليها . روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه أن زياداً لم يكن من القراء ، ولا الفقهاء ، ولكن كان يعد في الزهاد . وقال الأصمعي : مكث زياد على العراق تسع سنين لم يضع لبنة على لبنة ، ولم يغرس شجرة . يريد أنه لم يختص نفسه ببناء ولا زرع تعففا وزهدا . وكان يقول : أغبط الناس حالا رجل له دار لا يجري عليه كراؤها وزوجة صالحة قد رضيته ، فهما راضيان بعيشهما ، لا يعرفنا ولا نعرفه

ولما مات زياد رثاه غير واحد من الشعراء ، وقال فيه صديقه بدر بن حارثة :

صلى الإله على قبر وطهره عند الثوية يسفي فوقه المور
أدت إليه قريش نعش سيدها
فثم كل التقى والبر مقبور
أبا المغيرة والدنيا مغيرة وإن من غر بالدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة
وكان عندك للنكراء تنكير
ولا تلين إذا عوسرت معتسرا
وكل أمرك ما يوسرت تيسير
لم يعرف الناس مذ كفنت سيدهم
ولم يجل ظلاماً عنهم نور
والناس بعدك قد خفت حلومهم
كأنما نفخت فيها الأعاصير

قد يقال تلك زفرة صديق محزون لفراق صديقه ، ولكن العواطف النبيلة ، لا يهيجها عادة إلا ما هو نبيل حقاً .

عبد الحميد العبادي

خــــواطر وآراء

أغانينا :

بمَ نعلل غلبة الحزن على أغانينا ؟ فهي ما بين لوعة فراق ، أو حرقة اشتياق ، أو حسرة على مفقود ، أو لهفة على موجود ، أو توجع لصدود ، أو شكوى من الزمان ، أو تألم لحرمان ، أو افتقاد للوفاء في الخلان . وألحانها ترجيع الأنات ، وترديد الزفرات ، وتقطيع العبرات ، وإرسال الآهات تلو الآهات .

أيكون ذلك صدى لجراح دفينة في النفس خنقها الواقع ، وأطلقها سيل الوجدان ؟ أو يكون أثر الجد العاثر والأمل الحائر ، شاع في حياتنا القومية ، وخدعنا عنه الأنفس في ظاهر الحياة ؟ ولكنه غلبنا على أمرنا حتى انطلقت طبيعتنا المستورة في الإفصاح عن ذاتها في عالم الفن الحر .

أو تكون فكرة الموت التي كانت تغلب على كل تفكير وتصرف في الحياة لدى آبائنا المصريين الأقدمين قد استقرت في كياننا الباطن ، فهي أبدا جاثمة وراء تفكيرنا الواعي ، مخيمة على كل حركاتنا اللاشعورية ، صابغة حياتنا الفلسفية والفنية كلها بلون قاتم حزين ؟

لا أدرى لأى يرجع حال غنائنا ، ولكن الذى أدريه أنى أعتى لو لم تكن العلة شيئاً منها جميعا . وأحس أننا في حياتنا الجديدة بحاجة إلى فن جديد .

الطريق المعبد :

كنت أتحدث إلى صديق في أن من أكبر نقط الضعف في أخلاقنا العملية ، أننا نميل دائما إلى أن نسلك الطرق المعبدة في كل تصرفاتنا في الحياة ، ولا نفكر في شق طرق جديدة ولو كانت السبل المطروقة مزدحمة ملتوية .

فى تعلمنا نسير على الأسلوب المألوف الذى ينتهى بنا إلى باب من أبواب الرزق ، مسدود فى وجوه الكثيرين ، ومع ذلك لا يزال الاقبال على هذا السبيل مترايداً ، والنفور من تغيير الاتجاه عاما .

فى تجارتنا نسلك مسالك عامة التجار فى اختيار السلع التى نتجر بها ، وطرق ترتيبها ، والاعلان عنها ، على الرغم من ضعف نجاحها .

وفى زراعتنا نكاد طرقنا لا تختلف عما كان يعمله آباؤنا الفراعنة إلا قليلا .

وفى أعراسنا ، ومآتمنا ، واجتماعاتنا ؛ نسير على النهج المألوف ونبدؤها ونختمها على الطريقة المكررة المعادة .

وفى كل أحوالنا العامة والخاصة تجد هذا التكرار الممل لمظاهر واحدة فقدت روعتها وتأثيرها .

ولو نزعنا فى كل شؤوننا نزعة مستقلة أصيلة وحملنا على الابتكار والتفنن والتجديد فيها لكانت حياتنا أوفر إنتاجاً وأكثر نشاطاً وأملأ بالهمة والأمل . قال لى صاحبى : هذا حق ، ولكن ألا ترى معى أنكم وقد بدأتم حياتكم الصحفية بإخراج « الثقافة » خليقون أن تشقوا لنا فيها طرقاً صحفية جديدة . قلت ذلك ما نحاول أيها الصديق . وسترى إن شاء الله حياة هذه الصحيفة حياة تطور مستمر وتجديد والله ولى التوفيق .

محمد عبد الواحد خلاف

أنا الغـريق ...

بقلم
أحمد ضيف
وكيل دار العلوم

— ٢ —

وعند ما رجعنا من زيارة صديقنا سيمون كانت الطائرات تحلق فى سماء باريس فى ذهاب وجيئة يصم أزيزها الآذان ، ترتفع تارة ارتفاعا يحجبها عن النظر ، وتظهر طوراً حتى يظن الناظر إليها أنها تكاد تمس سطوح المنازل ، تبطئ فى سيرها أحيانا وكأنها فى حالة اطمئنان وهدوء ، وتسرع طوراً كأنها فى خوف ورعب تريد أن تفلت من عدو يقفو أثرها أو كأنها غراب البين أو نذير السوء !

وقد رافقت صاحبي إلى محطة المترو ولم نتكلم فى أثناء الطريق لأننا كنا فى شبه ذهول ، وودعته ورجعت إلى منزلى ، فخلعت ملابسى وتناولت كتابا أقرأ منه فقرات كعادتى قبل النوم . وفجأة سمعت منادياً ينادى :

— الضوء ! الضوء ! أغلقوا النوافذ وأطفئوا المصابيح ، ثم سمعت نذير السوء وهو صفير رجال الشرطة ، ذلك الصفير المزعج الذى يخلع القلوب ، وأعقبه صوت طلقات المدافع فى سماء المدينة ينذر بوصول طيارات الأعداء إلى قلب باريس . ثم نادى مناد آخر فى انزعاج وتلهف وهو يذرع الطرق ويصيح :

— إلى الكهوف . إلى الكهوف .

وكانوا أعدوا الطبقات السفلى من المنازل للالتجاء إليها وقت الغارات ووضعوا على أبوابها مصابيح زرقاء قاتمة للاهتداء إليها وقت الحاجة

ثم سمعت صراخا وبكاء من الحجرة التى بجانبى وكنت أعلم أنها تسكنها سيدة أمريكية فى سن الشيخوخة مع ابنتها وهى فتاة فتية أعرفها لأنها كانت تجلس بجوارى حول المائدة ، ثم خرجت الفتاة مذعورة فى قميص النوم الشفاف ، تصيح وتقول : أمى . أمى . من يأتينى بها الآن ؟ ثم صاحت ثانية وأصابتها نوبة عصبية فوقعت ، وانحسر ثوبها عن جسمها فكشف عن ساقيها ، وبرز صدرها واحمرت وجنتاها وهى تتصبب عرقا وتبكى وتصيح : أمى . أمى . وقد تدحرجت على الأرض فزاد ذلك من رعبى وأشفقت عليها ، ولكنى آثرت أن أنجو بنفسى ، فتركتها ملقاة على الأرض وفررت إلى الشارع أبحث عن ملجأ ألتجئ إليه ، وكان أمامى منزل به كهف فنزلت إليه ، وإذا بالناس تتدفع إليه اندفاعا ، وتتزاحم بالمناكب ، وقد اختلط الحابل بالنابل من سيد ومسود وكبير وصغير ورجال ونساء .

هذه حاملة طفلها تلفه فى جلبابها ، وتلك تحيط بها أولادها مذعورين باكين . وهذا شيخ يكاد يقعده العجز عن المقاومة ، ويدفعه الخوف والبرد إلى أن يحشر حشراً بين الفتيان والفتيات ، ولات ساعة شفقة أو رحمة . كل يفكر فى نفسه . وكأن هذا الكهف جزء من سفينة نوح ، يجمع كل صنف من الناس !

والشرطى ينادى من حين إلى حين :

— أطفئوا الأنوار : إلى الكهوف ! إلى الكهوف

أما أنا فشغلت بالنظر إلى هذا الجمع الحاشد وما فيه من قبح وجمال ، وقلت : هذه لوحة مصور ، فكان منظر هذا الجمع يشبه ما نقرؤه فى الكتب السماوية عن يوم الحشر ، وقد ظهرت أمزجة مختلفة ، فكنت لا أعرف إن كان هذا موقف جد أو هزل ، إذ كان من بين هؤلاء من يتظرف ويتهكم ويضحك ويسخر ، ومن بين النساء من كانت تبكى وتتألم ، فكنت أنظر إلى هؤلاء وهؤلاء ،

فأضحك وأبكي معا ، وأنسى ما هنالك من أهوال ، وأتألم من سخرية المقادير بالبشر ، فيخيل إلى أننا فى ملهى من ملاهى التمثيل لنشاهد قصة تمثل أمامنا . وكأن هذا الجمع وما فيه فصل من فصول قصة هزلية يتخلل مأساة كبيرة من حياة البشر !

رأيت شيخا يحدث زوجته ، وكان هــذا الشيخ ذا لحية طويلة قد وخطها الشيب ، وهو طويل القامة معتدل القد ، نحيف القوام كثير الحركة ، لا يكاد يستقر فى مكان ، تشتعل عيناه ذكاء ، كثير الالتفات ، وكلما تلفت ضحك ، وكلما تكلم تهكم ، تبدو عليه البساطة والطلاوة فى آن واحد ، مسرور دائما ! يخاطب الحاضرين وكأنه يعرف كل إنسان . نظر فقال فى سخرية وتهكم : إذن أيها السيدات والسادة ، اضحكوا مني ما هذا العبوس ؟

ثم التفت إلىَّ وقال : أليس كذلك ياسيدى الاسبانى ؟ وظن أنى من أهل اسبانيا . فقلت بدون تفكير :

— نعم !

ثم ضاق صدرى من هذا المكان لأنه كان أشبه بالسجن منه بشيء آخر ، وانقبضت نفسى كلما رأيت الأضواء الشمعة هناك أشبه بسحب متقطعة تعلو رؤوس هذا الجمع الحاشد وتمتزج بأنفاسه المتصاعدة ، فتنشر خيوطا من ضباب أو دخانا يملأ النفس بؤسا . والناس بين واجم وخائف ومتشجع ، ثم نظراتهم عن ذهول وحيرة . أما أنا فكنت أنظر تارة إلى هــذا الجمع فأرى صورة من صور الحياة الانسانية التى تجمع بين الخبيث والطيب والقبيح والجميل ، والسعادة والبؤس ، والخوف والرجاء ، والشجاعة والجبن و ... و ... فأعجب من ذلك ، وأحيانا كانت تظلم نفسى من تلك الصورة التى تتجسم فى شكل بؤس وشقاء ، فيغلبنى الكدر فأتنهد تنهدا كنت أخشى أن يعقبــه إجهاش بالبكاء فأكون أضحوكة بين الناس !

فآثرت الخروج من هذا المكان وقصدت إلى ميدان النجم المعروف ورأيت أن أحتمي ببناء قوس النصر هناك ، لأنه بناء ضخم شاهق ، لا تخترقه القنابل ، ولا تؤثر فيه المقذوفات .

وكانت الطائرات لا تزال تجيء وتروح ، وترفرف فى جوف الفضاء ، فوقفت قليلاً أنظر إلى السماء . وفجأة سمعت صوتاً مرعباً وكأنما سقطت السماء على الأرض ، فالتفت إلى مكان هذا الصوت فاذا بسيل من نار يتدفق ، أعقبه انفجار شديد على الأرض ، فاعترتني هزة شديدة من الخوف ، رفعت جسمي ودفعت به إلى بعد . ثم سمعت دوياً آخر وإذا بجسم ملتهب يقع على منزل فينهار ركن من أركانه ، فاعترتنى رعدة كرعدة الجبان عندما رأيت النار تمتد إلى حجرة وتأكل أثاثها ، وقد رأيت بها امرأة مع طفلها الصغير قد روعتها النار ولهيبها .

وسمعت صراخا متصاعدا من الجهة التى وقعت فيها القنبلة الأولى ، ثم علمت بعدُ أن تلك القنبلة سقطت على محطة الترام فقتلت سبعين نفسا بين رجال ونساء وأطفال . فنكصت على عقبي وعدت إلى بيتي ، ودوى المدافع لم ينقطع وأزيز الطائرات يملأ الفضاء ، وكلما مر إنسان فى الطريق رأيته يجرى مذعورا خائفا كأنما يفر من الموت ، أو كالذى يتخبطه الشيطان من المس !

***

أشرقت الشمس فى الصباح ونشرت أشعتها فى أنحاء المدينة ، وقد اخترقت هذه الأشعة الضباب الذى ملأ الفضاء قبل الشروق ، ولكنه ما لبث أن تمزق وذاب . فخرجت أجول فى شوارع المدينة أستطلع الأخبار لأقف على آثار هذه الغارة الجوية . فرأيت سكونا يسود الشوارع والطرق ووجوما يظهر على كل سائر ، وكل واحد كأنه فى ذهول يسير خفيــة لا يريد أن يقربه أحد . وكان يخيل إلى أن المدينة وما فيها من إنسان وحيوان وجماد قد غشيتها غاشية من بؤس وتعاسة ، والقلق يجول فى النفوس والريبة فى

الظفر والخوف من غلبة الأعداء، تدعو إلى اليأس، والدعوة إلى طلب السلم بأي ثمن كان

سرت سيراً حثيثاً أنظر يمنة ويسرة، فكنت لا أرى إلا وجوهاً كئيبة ونفوساً مبتئسة. حتى وصلت إلى ميدان الأوبرا، فرأيت جمعاً حاشداً، فاقتربت منه، وإذا هوة سحيقة، قالوا إن مقذوفاً نارياً نزل هناك فأحدث هذه الهوة

وسمعت أحد الواقفين يقول:

— إن قنبلة سقطت على مصرف الكريدي ليونيه فاخترقت السقف، ونزلت في البهو، فقتلت الحارس.

وقال آخر:

— لا شك أنهم كانوا يقصدون هدم الأوبرا، ومن حسن الطالع أن هذا البناء الفني الجميل سلم من أيدي هؤلاء الأوباش الأنذال.

وسمعنا منادياً ينادي، وكان من بائعي الصحف اليومية: «ستون طائرة حلقت في سماء باريس، مائة قنبلة، عشرون إصابة، هدم جزء من الكريدي ليونيه، قتل سبعين في محطة المترو بميدان النجم، أسر طيار ألماني في غابة فان سين!

رجعت إلى منزلي وعزمت على مغادرة باريس إلى مدينة بوردو بالجنوب. ثم ذهبت إلى مقر البوليس لأحصل على إذن لي بالسفر بدون أن أخبر أحداً من أصدقائي.

سار القطار إلى بوردو وسط زوبعة شديدة وأمطار غزيرة، وصقيع يتناثر من السماء وبرد تصطك منه الأسنان. كنت أنظر من النافذة فأرى ذرات الصقيع تتساقط وتطير في الفضاء، وتكسو الأرض حلة بيضاء والقطار يخترق السهول والوهاد والربى والوديان

وكان البرد شديداً، ولكن كان بالقطار أنابيب مملوءة بالماء الساخن، وضعت أسفل المقاعد، ترسل حرارة تمتد في العربة فتذهب بحدة البرد وتلطف الهواء. فكنا في جلستنا مطمئنين

وكانت (العربة) التي ركبتها من عربات الدرجة الثالثة — برغم قدمها وذهاب دهانها وتكسر بعض أجزائها — نظيفة ليس بها من القذارة إلا ما تركته أقدام الراكبين من أثر ما علق بالأرض من أحذيتهم.

وكانت نوافذ العربة كأنما غشيها من أثر الصقيع نسيج شفاف صورت عليه نقوش مختلفة، منتظمة وغير منتظمة، وأحياناً كثيفة تحجب ما وراءها، والصقيع يسيل عليها فيتقطع، فيمثل وجه إنسان أو حيوان أو صورة نبات.

ثم أشعلوا المصابيح فانتشر في (العربة) نوع من الابتئاس بدخول الليل. وما زال النهار يجري ويفر أمامنا كأنما يخاف أن ندركه حتى اختفى بين تلك الوهاد والحقول، ولفنا الليل بسواده وكأنما نسير على غير هدى، فانقبض صدري. ووددت لو أن هذا القطار سار قدماً إلى أن يقذف بنا في عالم آخر، أو يثب بنا في جوف المحيط

ورأيت بجانبي أحد الجنود يدخن في غليونه وبيده صحيفة يومية يقرؤها. ومن وقت إلى آخر يلقي الصحيفة على ركبتيه، ويدخل إصبعه في فوهة الغليون ويضغط به على التبغ، ثم يخرج ولاعة يغمزها بأصبعه فتتقد فيشعل بها غليونه

وكان هذا الجندي في نحو الأربعين من عمره، ذا لحية مصفرة تنذر بالشيب، طويل الشارب، طويل الأنف، أحمر الوجنتين، يتخللهما خيوط لازوردية من أثر شرب النبيذ. أزرق العينين، كبير الرأس، كثيف شعره، صبيح الوجه كأنه يبتسم دائماً.

وقد وضع في جواره على المقعد سيفه وحمله، وبينما يشعل غليونه سقط من فمه، فانتفضت واقفاً خوفاً من أن يحترق ثوبي. فنظر إليّ وقال:

— عفواً، عفواً يا سيدي.

وأشعل غليونه. ثم التفت إليّ ثانية كأنه يريد أن يقرأ في وجهي شيئاً، وهز رأسه في حيرة وتعجب. وقال:

— أخبرني يا سيدي. ألست جندياً؟!

قلت : لا .

قال : عجيب ! إذاً أنت فى الخدمة السرية ؟

قلت : لا يا سيدى

فسمعت حديثنا سيدة كانت بجوارنا . فقالت هى أيضاً متعجبة ، وكأنها مستفهمة :

— لست جندياً يا سيدى ؟ !

قلت : لا يا سيدتى

قالت : ما أسعدك ! ولكن لماذا ؟

فقال الجندى : السيد اسبانى ، أليس كذلك ياسيدى ؟

لم أجبه . فنظرتْ إلىّ تلك السيدة وقالت :

— زوجى فى سنك وشاب مثلك .

ثم تنهدت وقالت :

— مسكين أنت يافرنسواى . ترى أين أنت الآن ؟ أحى أنت أم ميت ؟

وبكت . فنظر إليها الجندى وقال :

— سيدتى . سيدتى . لا تفعلى هذا . كونى فرنسية شجاعة . ألو . ألو . لا تبكى . إن امرأة فرنسية لا تبكى على زوج يصد الأعداء عن فرنسا .

فأجهشت بالبكاء . فقال الجندى :

— سيدتى العزيزة . اذكرى فرنسا . اذكرى بلدك الذى يريد العدو أن يفترسه . إننا يا سيدتى نعمل لفرنسا ، ونموت لتحيا فرنسا .

فنظرت إليه السيدة نظرة ارتياب تنم عن حقد كامن فى نفسها ، والدموع تتساقط على خديها وقد وردها الشجن ، وبللها البكاء . وقالت بصوت متهدج يقطعه تنهداتها وشهيقها وإجهاشها بالبكاء :

— أجل يا سيدى . ها نحن نموت لتعيش فرنسا ونعمل لفرنسا

وسكتت قليلا . ثم حدقت فى وجه الجندى وقالت :

— إنك يا سيدى لست متزوجاً ، وليس لك أولاد . أليس كذلك ؟ فأجاب الجندى :

— بلى ياسيدتى .

فقالت : ما أسعدك ! إن حب الأسرة والتفكير فى مصير أبناء صغار ليس لهما موضع من قلبك ، وربما لا تعرف إلى اليوم وفى هذه السن معنى الشفقة . إنك ياسيدى خال من التبعات ، ولذلك أجدك — وأنت جندى راجع من ميدان القتال وقد شاهدت هناك الأهوال — فرحاً مسروراً

فأجابها : — نعم ياسيدتى . فرح مسرور . وماذا أعمل ؟ أليس من الشرف أن أموت فى سبيل الدفاع عن بلادى ؟ ألا ترين يا سيدتى أن الرجال الأنذال يموتون من أجل متعة يتمتعون بها يوماً أو ليلة ؟ أو ليس الموت فى سبيل الدفاع عن الوطن خيراً من هذا ؟

وسكت قليلا ، ثم قال :

— أو ليس الرجل يموت أحياناً من عثرة فى الطريق ، أو من حادث سيارة ، أو تصادم قطار ؟ وليس له مفخرة ولا شرف يكسبه ؟ لابد من الموت . فلنمت من أجل بلادنا . ولتحى لتعيش فرنسا

فقالت السـيدة ، وقد خفضت رأسها وصوتها ، ورددت قوله :

— أجل . أجل . نموت لتعيش فرنسا ! ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وعيناها تشتعلان غيظاً وقالت :

— بل نموت ليعيش رجال السياسة وأرباب الأموال . إن رجلا يجلس فى مكتبه تلعب به الأهواء ، يدفع الناس إلى القتال ، فتموت أم ، وترمل نساء ، وتيتم أطفال ، وتهدم أسر

ووقف القطار فى محطة فى الطريق . فنادى مناد :

— إلى ردو . إلى ردو . اركبوا . اركبوا أيها المسافرون . ثم صاح :

— احترسوا . القطار يسير

وصفر القطار قلأ بصفيره الجو وتنفس وشهق وسار إلى ردو

(لها بقية) **أحمد ضيف**

قبة الصخرة

للدكتور زكى محمد حسن

أمين دار الآثار العربية

كان الحرم الشريف مقدساً منذ العصور القديمة ، فبنى عليه سيدنا سليمان معبداً ذاع صيته . وقد شيد فيه عبدالملك ابن مروان بناء من الحجر مثمن الشكل ، تعلوه قبة وفى وسطه الصخرة المقدسة ، التى يروى أن النبى عليه السلام وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء . ولذا يسمى هذا البناء قبة الصخرة (انظر الصورة المواجهة لهذه الصفحة) ، وإن كان يعرف أحياناً باسم جامع عمر ، لأن عمر بن الخطاب كان قد أقام فى موضعه مصلى صغيراً من الخشب ، قبل أن يقيم عبد الملك بن مروان على أنقاضه البناء الحالى بين عامى ٦٨ و٧٢ هجرية (٦٨٧ و ٦٩١ بعد الميلاد) .

ويبلغ طول هذه الصخرة ١٨ متراً من الشمال إلى الجنوب و١٣ متراً من الشرق إلى الغرب ، كما يبلغ أقصى ارتفاع لها فوق أرض البناء متراً ونصف متر . وتحت الصخرة مغارة ينزل إليها بإحدى عشرة درجة فى الجهة الجنوبية الشرقية .

ومهما يكن من شىء فإن البناء مقسم من الداخل إلى ثلاث مناطق دائرية يفصل كلاً منها عن الأخرى صفان مستديران من الأعمدة والدعائم . وفى الوسط سياج من الخشب المدهون يحيط بالصخرة المقدسة التى يطوف حولها الزائرون فى المناطق المذكورة .

ولكن هذا الشكل المثمن لم يظهر ثانية فى تصميم الجوامع الإسلامية ، وظلت قبة الصخرة فريدة فى عمارتها ؛ لأن تصميمها كان ملائماً كل الملاءمة ليحيط بالصخرة المقدسة فى الحرم الشريف ؛ بينما كانت الجوامع المستطيلة ذات الصحن المفتوح أوفق للعبادة الإسلامية ، فاتخذها المسلمون واحتفظوا بها زهاء أربعة قرون .

وقد كان الجانب الخارجى من جدران البناء ، وكانت القبة نفسها مغطاة بالفسيفساء التى استبدلت سنة ١٥٤٥ على يد السلطان سليمان القانونى بلوحات من القاشانى المدهون جلبنا من صناعة تبريز فى إيران .

والقبة قائمة فوق اسطوانة محمولة على أعمدة ضخمة . وقد كان استخدام القباب معروفاً فى الشام وأرمينية قبل بناء قبة الصخرة ، كما كان فى الشام كنائس ذات قباب فوق أبنية مثمنة الشكل ، وعلى كل حال فإن هـذا الأثر بديع بتناسب عناصره وغنى زخارفه ، ولا سيما الفسيفساء التى تزين كثيراً من أجزائه الداخلية . وليس غريبا أن يكون للمسلمين مثل هذا الأثر الخالد ، بعد أن انتشر الإسلام ، واتسع أفق الفن فى أعين العرب ، وأصبح لخلفاء بنى أمية بلاط ملكى له ترفه وأبهته ، وكان تسامحهم الدينى أكبر عون لهم على استخدام الصناع والفنانين من أهل البلاد المفتوحة ، ولا سيما الشام التى ازدهرت فيها قبيل الفتح العربى مدرسة من أرقى مدارس الفن الهلينى ، فقدر لفنانيها أن يساهموا فى بناء صرح الفن البزنطى بنصيب وافر .

على أن قبة الصخرة ليست الآن على الحال التى كانت عليها فى عصر بنائها فإن أكثر الزخارف يرجع إلى عصر متأخر ، اللهم إلا زخارف الفسيفساء المكونة من رسوم الأشجار ومن الأوانى التى تخرج منها الفروع النباتية ومن رسوم الأهلة والنجوم .

وطبيعى أن يلاحظ علماء الآثار أن عناصر الزخرفة والعمارة فى قبة الصخرة كانت هلينية أو بزنطية أو سورية مسيحية أو رومانية مما لا محل لتفصيله هنا ، فحسبنا أن ننبه إلى فخامة هذا الأثر من لم يسعدهم الحظ بزيارته ، والشعور بالعظمة والجلال اللذين ينبعثان منه .

زكى محمد حسن

نظرات فى الأدب الغربى :

المرأة والأدب

للأستاذ فخرى أبو السعود

كانت المرأة فى الفنون منذ القديم منزلة عليا . إذ كانت الفنون تدور حول جمال هذا الكون ، وكانت المرأة مجلى الجمال الأعظم ورمزه الأقرب إلى النفوس ، فهتف الشعر دائماً بجمالها وبحبها ، واتخذها الصور والمثال رمزاً لكل ما حاولا تصويره وتمثيله من معانى الجمال والفضيلة والسمو ، فإذا أراد المصور والمثال التعبير عن العدالة أو الحقيقة أو الحرية أو الطبيعة أو الليل والنهار أو جمال الربيع ، لم يتبادر إلى ذهنه إلا جمال المرأة ومحاسن تكوينها رمزاً لما أراد تصويره من معانى الجمال والسمو . وأمعن الخيال الانسانى فى تفننه وتساميه ، فاخترع الغابات السحرية والوديان والجنات ، وأسكنها العرائس الشاردة ، وأنزل الحور العين على ضفاف الجداول السحرية ، وفى مياه البحار النائية

ظلت المرأة فى الشعر رمز الجمال ومثابة الحب ومطمح القلوب وهوى النفوس ، وأنشودة الشعراء المتفتحة أفئدتهم للحب ، المتعبدة للجمال ، المتسامية إلى المثل العليا ، والآفاق البعيدة من الشعور والمعانى ؛ وظل مكان المرأة فى الأدب مقصوراً فى الغالب على ذلك : كانت رمز جمال وحب ، تلهج بجمالها ألسنة الشعراء ولا تلهج بغيره ، ويترنمون بحبها وهى تكاد تكون بنجوة عن ذلك الترنم ، وبمعزل عن الأدب والفن طراً . والشاعر الذى يترنم بمحاسنها لا يتطلب لديها صفة غير ذلك الجمال وما يتبعه من خفر ودلال وعفة وبراءة .

كذلك ظلت علاقة المرأة بالأدب زمناً طويلا ، ورغم ضيق نطاق هذه العلاقة ، وضيق أفق هذه النظرة إلى المرأة ، فقد نجم عنها أدب غنى مترامى الأطراف يتمثل فى أشعار النسيب الغزيرة فى شتى اللغات ، وهكذا كانت علاقة المرأة بالأدب فى الغرب إلى عهد النهضة الأوربية وإلى ما بعدها بزمن طويل ، لم يكن للمرأة الانجليزية أو الفرنسية — إذا استثنينا آحاداً من نساء الطبقة المترفة الأرستقراطية — مشاركة فى إنشاء الآداب ولا مساهمة فى الاستمتاع بها ، ولا يكاد يكون لها فى غير أشعار النسيب ذكر ، وانقضى عصر شكسبير وملتون ، ولم يلتمع فى سماء الأدب الانجليزى اسم امرأة ذات أدب يعتد به

ثم تغيرت الحال تغيراً تدريجياً فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بتوطد أحوال أوربا الغربية بعد ركود الحروب الدينية واستقرار المجتمع شيئاً فشيئاً ، فبدأت حال المرأة الاجتماعية تتحسن ومكانتها فى عالم الفكر تعلو ، بدأت المرأة من جانبها تقبل على الآداب وتشارك فيها ، وبدأ الأدباء من جانبهم — وكأنهم قد افتقدوا أثر المرأة بينهم — يهيبون بها إلى الدخول فى مضمار الأدب ، ويتوجهون إليها بعناياتهم الأدبية ، وينحون بآدابهم النحو الذى يلائمها ويجتذبها ويساعد على ترقية مركزها الاجتماعى ورفع مستواها العقلى والارتقاء بالمجتمع عامة من ذلك الطريق

يمثل حركة الأدباء هذه فى انجلترا كاتبان تعاونا فى العمل الأدبى برهة هما « أديسون » و « ستيل » اللذان أصدرا صحفاً جعلا همهما الأول فيها إرضاء القارئات قبل القارئين ؛ فتناولا من الموضوعات ما يمت إليهن بصلة ، والتزما فى أسلوبهما السلاسة والرقة وعفة القول ، وتناولا شؤون الأسرة فى أسلوب سام مهذب لم يكن يعرف قبل ذلك ، وبنفس ذلك الأسلوب نقدا من الأحوال والأزياء النسائية السائدة فى عصرهما ما استهجناه ، مازجين الدعابة والرقة بالجد والصراحة ، وما تزال مقالاتهما فى هذه الشؤون رغم انصرام عهدها ممتعة حالية ، ومنها مقالات أديسون « لباس الرأس

النسائي » و « تدريب عسكرى فى استعمال المراوح » و « مذكرات يومية لسيدة »

ومن بعض نقده لتلك الثياب الفضفاضة التى درجت النساء فى ذلك العهد على ارتدائها ، وهى الثياب التى تنبعج خارجة من الخصر كأنها خيمة تغطى النصف الأسفل من الجسم ، يقول أديسون : « المرأة عندى مخلوق جميل ساحر له أن يتحلى بالفراء والريش واللآلىء والماسات والجوهر والحرير ، وعلى الثعلب أن يلقى جلده عند قدميها ليحاك لها معطفاً ، وعلى الطاووس والببغاء والبجعة أن تشترك فى صنع أرديتها ، وعلينا أن نغوص فى اليم طلباً للأصداف ، ونطلب الأحجار الثمينة فى الصخور ، وعلى كل جانب من جوانب الطبيعة أن يساهم فى تزيين مخلوق هو أبدع مبدعات الطبيعة طراً ، بكل هـذا سأسمح للنساء ، أما ذلك الثوب الذى كنت أتحدث عنه فلا أستطيع أن أسمح به ، ولن أسمح به أبداً . . . »

بهذا الأسلوب المهذب الفكه كان أديسون وستيل يعالجان حماقات العصر الاجتماعية ، ويجتذبان اهتمام المرأة بالأدب ، فكان لهما عظيم الأثر فى رقية الأخلاق وتهذيب الآداب ورفع منزلة المرأة الثقافية والاجتماعية ، ولم ينصرم القرن الثامن عشر حتى ظهرت نساء متأدبات كثيرات ، وبدأ الأدب يرى بين دفتيه منشآت للنساء بجانب منشآت الرجال . وكان أول ضرب من الكتابة اتجهت إليه النساء الرسائل يبادلنها الأصدقاء ، ويبادلنها كبار رجال الأدب ، ومن كبار كاتبات الرسائل فى القرن الثامن عشر فى انجلترا « ليدى مونتاجيو » التى كان زوجها سفيراً لدولته فى الآستانة ، وكانت تكاتب صاحباتها من الشرق سنين ، ومنهن مدام « داربلاى » التى امتد بها العمر من منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف الذى يليه ، ونالت ثناء الدكتور « جونسون » ورثاء « ماكولى »

وكان لهؤلاء النسـاء المثقفات أثر فى الأدب غير تلك الرسائل الشائقة ، إذ كانت كثيرات منهن حريصات على الاتصال بأعلام الأدب فى عصورهن ، ومن ثم غدت دور بعضهن منتديات للأدب والنقد والذوق الجميل ، وغدا « صالون » كل سيدة مثقفة منهن عكاظاً تتبارى فيه ألسنة البلغاء وتزدهر فيه فنون القول ، وقد كانت نساء فرنسا أسبق إلى هذا النشاط الأدبى من نساء انجلترا ، ولا غرو فقد ظلت فرنسا زمناً طويلاً تقود القارة الأوربية فى مضامير المدنية والآداب والأزياء ، فنبغت فى القرن السابع عشر مدام دى سيفنييه التى كان بيتها مرتاد ذوى الآداب والفنون ، والتى ما تزال رسائلها إلى ابنتها خاصة وإلى غيرها من أقربائها عامة كنزاً من كنوز الأدب والتاريخ معاً ، وإن لم تقصد كاتبتها بها الانشاء الأدبى ، كما كانت لكتابات معاصرتها مدام لافاييت آثار فى الأدب يعتد بها

ونبغت فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر وعهد الثورة الفرنسية أديبتان كان لهما فى المجتمع مكان رفيع ، وكان بيتاهما منتدى الأدباء والساسة ورجال الحرب ، إحداهما مدام ركاميه التى عرفت بجمالها الرائع وخلف الفن لجمالها صوراً شتى ، واتصلت الصـداقة بينها وبين شاتوبريان فى أواخر حياتيهما ، والأخرى مدام دى ستايل ابنة الوزير المشهور نكر ، التى كان منتداها مثابة الناقمين على حكم نابليون ، والتى نفيت من أجل ذلك وصودر بعض كتبها ، وقد كتبت فى الأدب والفن والسياسة والقصة ، ومن خير كتبها كتاب عن ألمانيا ما زال ما كتبته فيه عن جيته وشلر وكانت من خير ما كتب عنهم

بدأ النساء المتأدبات بالرسائل يودعنهـا ملاحظاتهن ومشاعرهن ، فلما ثبتت أقدام بعضهن فى مضمار الأدب اجترأن على ضرب من الأدب أخطر ، فعالجن القصة يسردن فيها ملاحظاتهن وشعورهن أيضاً ، ولكن على نحو أوسع وأدق وأظهر فنية وأحوج إلى المهارة والاتقان . وكانت القصة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر قد ارتقت وتوطدت قواعدها وبرع فيها رجال كثيرون ، ومع أنها كانت أحدث ضروب الأدب ظهوراً — أحدث من الشعر

والدرامة والمقالة وغيرها — فإن المرأة نزعت إلى مباراة الرجل في مضمار القصة مغفلة تلك الضروب الأدبية القديمة .

وقد لقيت المرأة في هذا المجال نجاحاً كبيراً ، وعالجت القصة ممن ذكرنا من النساء ، مدام دى ستايل وإن لم تصب نجاحاً كبيراً ، وعالجتها مدام داربلاى فنالت نجاحاً عظيما وبشرت كتبها بعصر القصة النسوية الباهر المقبل . وإنما نجحت المرأة في كتابة القصص أعظم النجاح الذى صادفته في عالم الأدب لملاءمة القصة لمكاتبها ومنازعها ، فالقصة الحديثة هي قصة اجتماعية تدرس أحوال المجتمع وتصف أخلاق الأفراد ومسالكهم في الجماعات ، والمرأة بغرائزها وطبيعة حياتها هي محور المجتمع ومركز الأسرة ، ولها بشؤون الاجتماع والمعاملات والأحاديث خبرة ، ولها إلى كل ذلك ميل فوق ما لها من خبرة أو ميل إلى شيء آخر ، فلا غرو إذا نجحت المرأة الموهوبة في تسجيل ملاحظاتها وتجارب خبرتها وحياتها في قالب القصة الفنية المحكمة الصوغ

فبعد أن كتبت مدام داربلاى خير قصصها ، ظهرت في انجلترا القصصية الكبيرة جين أوستين التي عاشت بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعالجت القصة بميل طبيعي ونجاح باهر وهي في الخامسة عشرة من سنها ، وكان جمهورها القارئ في بدئ الأمر أخواتها اللاتي كن يطربن لتلك الصور الرائعة التي تصور فيها أختهن الشخصيات التي يعرفنها حق المعرفة ويسخرن من عاداتها ولوازمها الخلقية ، بيد أن كتابات جين أوستين هذه التي أطربت أخواتها ما لبثت هي بعينها أن أطربت الجمهور المتعلم في انجلترا كلها حين قدر لها أن تطبع ، وبلغ من حفاوة القراء بآثارها أن الوصي على عرش انجلترا نفسه أعرب عن إعجابه بها ورغبته في أن تعالج فنوناً من القصة اختارها ، ولكن جين أوستين لم تلتفت إلى ما اختار

كان التعليم ينتشر في خلال القرن الثامن عشر وكان للمرأة حظ منه عظيم ، وكان انتشاره من أسباب اتساع الجمهور القارئ والمتأدب من النساء ، وفي القرن التاسع عشر ازداد التعليم انتشاراً ، وفي النصف الثاني منه أصبح إلزاميا في ممالك غربي أوربا فازدهر الأدب النسائي في ذلك القرن ازدهاراً عظيما ، ونبغت في انجلترا من القصصيات النابهات الأخوات برونتي ومسز جاسكل وجورج اليوت — وهو اسم أدبي اختارته تلك الكاتبة — كما نبغت من الفرنسيات جورج صاند ، ومعظم هؤلاء الكاتبات كن بنات قسيسات ، ذلك لأن القسس كانت لهم في فرنسا وفي انجلترا خاصة منزلة مكينة في القرن الماضي ، بل كان أغلب الطلاب الذين يذهبون إلى أكسفورد وكمبردج يبغون درس الدين ، وكان كثير من الأدباء الذين نبغوا في ذلك العهد قد أرسلوا إلى الجامعة على رغبة من آبائهم وأمهاتهم في أن يروا أبناءهم في مقبل العهد قسساً ، ومن هؤلاء الأدباء رسكن ووليام موريس

وقد صور توماس هاردى هذه النزعة إلى التخرج في الدين في روايته «تس سليلة دربرفيل» ، فما أكثر القسس بها ، والقس كلير الأكبر يرى أن الذهاب إلى الجامعة إذا لم يتوج بالتخرج في اللاهوت مثله كمثل مقدمة كتاب بغير كتاب ، وهو لذلك يهيء بنيه الثلاثة لهذا المصير ، ولكن الابن الثالث يتمرد ويأبى تلك الحرفة ويؤثر غيرها — كما فعل رسكن ووليام موريس — فيغتم الوالد والأم لذلك أي اغتمام وينتهي الأمر بعدم ذهاب الابن إلى الجامعة قطعاً

كان القسس في القرن الماضي — ولا يزالون — طبقة مثقفة راقية تتمتع برخاء العيش ووفرة الفراغ ، فكانت وسائل التفرغ للأدب متوفرة لديهم ، وكان بنوهم يستغلون تلك الوسائل معهم ويستغلون المكتبات القيمة التي يجمعها آباؤهم فينشئون في جو أدبي منذ نعومتهم ، وكان أكثر أولئك القسس بالطبع يقيمون في الأقاليم ، ومن ثم نرى جين أوستين ومسز جاسكل وغيرهما من القصصيات بنات القسس يتوفرن في قصصهن على تصوير الحياة الريفية ، وفي قصصهن أوصاف للريف الانجليزي والشخصيات

الريفية لن تزال غرراً فى الأدب

إلى القصة اتجهت النساء الأديبات وفيها انتصرن أبهر انتصاراتهن الأدبية ، وتركن فيها آثاراً من الطراز الأول تبارى خير آثار القصصيين . أما الشعر فلم تطمح إليه منهن إلا القليلات ، ولم تنبغ فيه منهن إلا أفراد ، ولم تبلغ واحدة منهن منزلة عظماء الشعراء ، لأن الشعر لا يلائم طباع المرأة كما تلائمها القصة : فالشعر مبنى على نظرة عامة وأفق واسع وقوة ومضاء لا تتوفر لكثير من النساء ، واللاتى نبغن فى الشعر منهن نبغن فى الضروب الملائمة لطباعهن : فأنشأن المقطوعات الغنائية والعاطفية الرقيقة . ومن أرق شاعرات القرن التاسع عشر فى انجلترا كريستينا روزتى أخت الشاعر المصور دانتى جبرييل روزتى ، واليزابث باريت براوننج زوج الشاعر العظيم براوننج ، كما كانت الأخوات برونتى ينظمن الشعر بجانب تأليفهن القصص ، وأشهر شاعرات فرنسا المحدثات مدام دى نوای التى توفيت منذ سنوات

أما العاصرات من الأديبات فأكثر من أن يحصين ، وقد جلن فى كل مضمار من مضامير الأدب ، من القصة إلى الشعر إلى المقالة إلى السياسة إلى الاجتماع ، هذا وقد كانت للنساء فى الأدب الغربى منذ النقت إليه وساهمن فيه آثار أخرى عدا التأليف والانشاء ، فكن بشغفهن بالأدب مصدر تشجيع ومهبط وحى لكثير ممن عرفن من أدباء ، ومنهن من عاونت زوجها فى حياته الأدبية أجل معاونة كزوج توماس كارليل ، ومن أجل مظاهر التعاون الأدبى بين الزوجين أو بين الأصدقاء والأقرباء من الجنسين ، أن زوج وليام موريس حين افتتح مصنعه كانت تتولى عنه التطريز ، وأن روزتى رسم بقلمه الصور التى تحلى ديوان أخته كريستينا ، وأن روزتى هذا طالما استلهم الشعر من حبه لزوجه فى حياتها ثم من وجده عليها بعد موتها ، وبلغ من لجيعته بموتها أن دفن معها جانباً كبيراً من مخطوطاته ، ومن أمثلة الزوجين الأديبين اللذين يمارسان الأدب ويشتهر كل منهما لدى الجمهور ، الشاعر براوننج وزوجه اليزابث سالفة الذكر ، والكاتبان المعاصران ليونارد وفرجينيا وولف

ومن الزوجات من أعوزتهن الهبة الأدبية التى عرف بها أزواجهن ، ولكنهن عوضن ذلك بأن كتبن تراجم لأزواجهن بعد مماتهم يشغف بها الجمهور المتلهف إلى أخبار أولئك الكتاب ، وممن فعلن ذلك زوج توماس هاردى ، كما أن مذكرات أخت الشاعر العظيم وردزورث ما تزال من أهم مصادر تاريخ ذلك الشاعر ، وقد كانت أخته من أشد الناس ولعاً بشعره ، وأعظمهم تقديراً له ، حين كانت أغلبية النقاد تنحى عليه بمرير النقد والتهجين . وتعصبت الكاتبات للكاتبات من بنات جنسهن تعصباً جميلا : فكتبن السير بعضهن عن بعض ، مفندات مزاعم الناقدين والحاسدين ! ومن خير هذه التراجم ترجمة مسز جاسكل لشارلوت برونتى .

إن الجمال أثبت صفات المرأة ، وهى بفضله ستظل دائماً مثابة الفن ومدار الأدب ، وكل أدب يخلو من ذكرها وتمجيد جمالها ، أدب جاف مقفر عبوس ، كما أن الأدب الذى يقتصر أثر المرأة فيه على أشعار النسيب ينظمها الشعراء المتغزلون ، هو أيضاً شعر ناقص متخلف ، وليس يجمل فى المجتمع الراقى المتسامى أن تظل المرأة دمية صماء بكماء ، تلهج بمفاتنها الألسنة وهى عن العابدين وعن جميع المائلين فى صمم وفى عمى . وليس يبلغ الأدب ما يُراد له من كمال ورقة وسمو فى الشعور حتى تساهم المرأة فيه مساهمة إيجابية كاتبةً وقارئةً ، إذا قرأتَ حفزت الكاتبين على التسامى والنبل فيما يقولون وما يفكرون ، وإذا كتبت بثت فى الأدب من آثار عقليتها الحساسة وطباعها الرقيقة ما لا يستغنى الأدب عنه مهما زخر بآثار الرجال .

فخرى أبو السعود

مشكلة الامتحانات في مصر

للأستاذ إسماعيل القباني

— ١ —

[تأخذ الامتحانات في مصر صورة مرهبة ، ويحس الناس آثارها السيئة تتغلغل في كل نواحي التعليم ، ويشفقون من أن تصبح الغاية من التعليم هي اجتياز تلك الامتحانات ، بغير نظر إلى قواعد التربية الصحيحة . ولذلك رأت رابطة التربية الحديثة بحث هذه المشكلة من جميع نواحيها ، وتناولها رجالها بالدرس الدقيق ، رجاء أن يصلوا إلى نتائج تخفف من حدتها وتهذب من طريقتها ، حتى تصبح أداة صالحة للحكم على كفاية التلميذ من غير إرهاق له ولا لمعلميه ووالديه . وكان خاتمة تلك البحوث ذلك البحث القيم الذي ألقاه وكيلها في اجتماع عقد بدار الجمعية الجغرافية منذ أيام برياسة سعادة وكيل المعارف ، حضره عدد كبير من رجال التربية والتعليم . ونظراً لأهمية هذا الموضوع الخطير ، رأينا تلخيص هذه المحاضرة على دفعتين ، نتناول في الأولى أنواع الامتحانات وأغراضها وعيوبها ، وفي الثانية بحث أساليب الامتحانات الحديثة في البلاد الأجنبية ، واقتراحات الأستاذ القباني لعلاجها في مصر] .

المحرر

بدأ المحاضر بالإشارة إلى الأغراض المختلفة التي تقصد من الامتحانات ، وضرورة التمييز بينها . فالامتحان قد يكون أداة تعليمية يستخدمها المدرس في دروسه ، كما يستخدم الأسئلة الشفوية ، وقد يكون أساساً لنقل التلاميذ من فرقة إلى فرقة ، أو لتقسيمهم إلى فصول متجانسة في الفرقة الواحدة ، وقد يكون امتحاناً توجيهياً للكشف عن نوع الدراسة ، أو نوع المهنة التي يليق لها الطالب ، أو امتحاناً للقبول لتبين مبلغ استعداد الطالب لنوع معين من الدراسة ، وقد يكون امتحاناً نهائياً لمعرفة مقدار ما أفاده الطالب في مرحلة معينة من مراحل التعليم ، وقد يكون امتحاناً مهنياً للكشف عما إذا كان الطالب قد أصبح أهلا لمزاولة مهنة معينة ، كالهندسة أو الطب أو العمل الكتابي بالمصالح . الخ .

ثم بين المحاضر أن طبيعة الامتحان والمسائل التي يثيرها تختلف باختلاف الغرض المقصود منه ، فمن الخطأ مثلا محاولة الجمع بين امتحان إتمام الدراسة الابتدائية وامتحان القبول بالمدارس الثانوية ، لأنه ليس كل من يتم الدراسة الابتدائية يكون لديه الاستعداد العقلي الكافي للنجاح في الدراسة الثانوية النظرية ، كما أنه ليس كل من يتم الدراسة الثانوية يكون لديه الاستعداد العقلي الكافي للإفادة من التعليم الجامعي الحق . وفي امتحان إتمام دراسة ما تُعنى باختبار مقدار تحصيل الطالب والصفات التي كسبها منها ، أما في امتحان القبول لدراسة جديدة فأهم ما يجب أن نوجه إليه عنايتنا هو الكشف عن القدرات العقلية ، وبصفة خاصة عن المواهب الطبيعية التي تؤهل الطالب للنجاح في هذه المرحلة الجديدة . وهنا تساءل المحاضر : هل امتحاناتنا المألوفة تؤدي أي واحدة من هاتين الوظيفتين على وجه مرض ؟ هل تعطينا حكماً صحيحاً عن تحصيل الطلبة والقدرات التي اكتسبوها من دراساتهم ؟ أو عن استعداداتهم العقلية ومواهبهم الطبيعية ؟

وبعد أن شرح رأي علماء النفس في ماهية الاستعدادات العقلية ، ونوع العمليات الفكرية التي يبرز فيها الذكاء ، بين أن امتحاناتنا لا تختبر في التلميذ قوة الفهم والابتكار ، والقدرة على استنباط العلاقات بين الأشياء والحقائق ، والبراعة في تطبيق المعلومات واستخدامها عند التصرف في المواقف الجديدة ، بقدر ما تختبر فيه الحفظ الآلي ، والقدرة على سرد حقائق مخزونة في الذهن من غير أن تقيم لنا دليلا على أنه قد هضمها وأصبح قادراً على الانتفاع بها . وقد ضرب لذلك أمثلة كثيرة من أسئلة الامتحانات العامة في السنوات الأخيرة على اختلاف مراحلها وموادها ، نذكر منها ما يلي :

١ — تكلم عن محاربة الغش والاختلاس .
(شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩٣٤) .

٢ — ترجم لرفاعة بك وبين أثره في التعليم في مصر .
(شهادة الدراسة الثانوية القسم العام سنة ١٩٣٧) .

٣ — ارسم خريطة لحوض السودان مبيناً عليها حدوده وأنهر خطاته .

صف سطح هذا الإقليم ونباته ، واشرح أهميته فى ماشية النيل .

(شهادة الدراسة الثانوية القسم العام سنة ١٩٣٨) .

٤ — ا أذكر قانون بويل واشرح طريقة واحدة لإثباته .

ب صف مقياس الكثافة المعاد « الإيدرومتر » ، وبين طريقة تدريجه واستعماله .

(شهادة الدراسة الثانوية القسم العام سنة ١٩٣٨) .

٥ — اشرح نظرية « المثل » عند أفلاطون .

(شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص سنة ١٩٣٨) .

٦ — عرف الذرة والوزن الذرى ، والجزئ والوزن الجزئى وأثبت العلاقة بين الوزن الجزئى والكثافة النسبية .

(شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص سنة ١٩٣٨) .

٧ — صف الجهاز التنفسى فى جميع رتب الفقاريات « الحيوانات الفقرية » مبيناً ذلك بالرسم .

(شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص سنة ١٩٣٨) .

وأمثال هذه الأسئلة كثيرة فى جميع المواد ، وظاهر أن الإجابة عنها لا تتطلب من التلميذ أكثر من أن يحفظ بضع صفحات معينة من الكتاب المقرر عليه ، حتى إذا حان موعد الامتحان أفرغها على ورقة الإجابة كما هى من غير تصرف . ومثل هذه الأسئلة لا يقيس الذكاء ، بل إنه لا يمكن أن يكون مقياساً صحيحاً لتحصيل المدرسى ، فالمعلومات لا تصبح علما أو ثقافة بالمعنى الصحيح إلا بعد أن يتشربها العقل ويهضمها ، أى يتفاعل معها حتى تصبح جزءاً من نسيجه ، فينمو بما اكتسبه منها ، ويصير بعد امتصاصها أقدر على التصرف فى المشاكل التى تعرض له مما كان قبلا . وفى هذه الحالة لا يكون اختبار قيمة هذه المعلومات عن طريق استعادتها من العقل كما هى ، بل عن طريق قياس القوة التى أضافتها إلى العقل .

وإذا كان أقسى نقد يوجه إلى التعليم فى مدارسنا أنه لا يربى شخصية الطلاب ، ولا ينمى فيهم الصفات التى تعدهم للكفاح فى الحياة ولخدمة المجتمع ، فلا شك فى أن الامتحانات التى من النوع السابق من أكبر العوامل التى توجه التعليم ذلك التوجيه الناقص . فالمدارس لا تتحرج من أن تصرف الوقت فى حشو أذهان تلاميذها بما سماه الأستاذ هوايتهد الإنجليزى « الأفكار الخامدة » ، وهى « الأفكار التى يقتصر العقل على استقبالها من غير أن يستخدمها أو يختبر صحتها أو يحولها إلى صور جديدة » ، وهى تضن بوقت التلاميذ أن يصرف فى مطالعة حرة ، أو بحث شخصى ، أو نشاط اجتماعى ، أو هواية عملية ، أو رياضة بدنية ، أو غير ذلك من النواحى التى تنمى الشخصية ، وتكون الخلق المتين .

هذا إلى أن الامتحانات العمومية من أقوى عوامل الجمود فى التعليم ، لأنها تتطلب التوحيد فى المناهج والأساليب ، فتحول بذلك دون مراعاة المدارس لحاجات البيئة المحلية وتمشيها مع الحوادث التى تثير اهتمام المجتمع ، وتمنعها من مسايرة ميول تلاميذها وإطلاق الحرية المعقولة لهم فى الدراسة ، كما أنها تحد من حرية المعلمين فى اختيار مادة الدروس وطرق التدريس .

ثم إن شبح الامتحان الماثل دائماً للأذهان يدفع المدرسين إلى إرهاق التلاميذ بالواجبات المنزلية ، ويدفع الآباء إلى الضغط على أبنائهم فى الاستذكار غافلين عما يلزم لصحتهم من راحة ورياضة ، ويدفع التلاميذ عند اقتراب موعد الامتحان إلى مواصلة الليل بالنهار فى مجهود مُضْنٍ ينتهى فى كثير من الأحيان بإضعاف أجسامهم وإتلاف أعصابهم . وليس العهد بتقرير الدكتور على إبراهيم باشا عن صحة طلبة كليات الجامعة ببعيد .

بعد هذا التنقل الحاضر إلى البحث عن مبلغ دقة الامتحانات من حيث هى أداة للقياس ، وبعبارة أخرى ، البحث عما إذا كانت الدرجة التى يحصل عليها طالب فى مادة من المواد تدل بالضبط على حقيقة قوته فى هذه المادة . وعرض نتيجة تجربة قام بها على امتحانات وسط السنة ببعض مدارس القاهرة فى سنة ١٩٣٠ . والفكرة التى قامت عليها هذه التجربة هى أن من علامات المقياس المضبوط — كالمسطرة أو الميزان — أننا إذا قسنا به الشيء الواحد مرتين فلا بد أن تتفق نتائج القياس فى الحالتين .

فإذا كان الامتحان مقياساً مضبوطاً لتحصيل الطالب ، فإننا إذا امتحنا فصلا من التلاميذ امتحانين متكافئين من جميع الوجوه في مادة واحدة وفي وقتين متقاربين ، وجب أن تتفق درجات كل تلميذ في الامتحانين . فلتحقيق ذلك اتفق الحاضر مع نظار مدارس التوفيقية وشبرا والخديوية والابراهيمية الثانوية ، ومدرسة العباسية الابتدائية ، على إعادة امتحان بعض الفصول في مادة معينة لكل فصل منها ، عقب عودة التلاميذ من إجازة وسط السنة . واتخذت جميع الاحتياطات لجعل الامتحان الثاني في كل مادة مكافئاً تماماً لامتحان وسط السنة في تأليفه وتصحيحه . وقد أخطر التلاميذ عن الامتحان مقدماً في بعض الفصول كي يستعدوا له ، وأعطى البعض الآخر من غير إخطار سابق ، للمقارنة بين النتائج في الحالتين .

وقد ظهر من نتيجة التجربة أن أكثر من ربع التلاميذ الذين امتحنوا في مختلف المواد بالمدارس الثانوية قد نجحوا في أحد الامتحانين ورسبوا في الآخر ، مما يجعل نجاحهم أو رسوبهم في أي الامتحانين قابلا للطعن ، وأن الغالبية الكبرى منهم — ٨٩ تلميذاً من ١٥٩ — اختلفت درجاتهم اختلافاً محسوساً في الامتحان الثاني عنها في الأول ، وهناك ستة تلاميذ كانت درجاتهم في أحد الامتحانين أقل من ٢٠ ./. من النهاية العظمى ، وفي الامتحان الآخر أكثر من ٦٠ ./. منها ، أو كانت في أحد الامتحانين أقل من ٤٠ ./. من النهاية العظمى وفي الامتحان الآخر أكثر من ٨٠ ./. منها .

ولوحظ أن الدرجات تزيد في الامتحان الثاني عنها في الأول أحياناً ، وتنقص عنها أحياناً ، ودليلا على أن اختلاف الدرجات لا يرجع إلى نقص اهتمام التلاميذ بالامتحان الثاني وعدم استعدادهم له ، بل يرجع إلى أسباب متصلة بطبيعة الامتحان ، وأهمها أن الامتحان مقياس ذاتي ، أي تتوقف نتيجته على تقدير الشخص الذي يقوم به ، سواء أكان ذلك من حيث اختيار الأسئلة والحكم على مدى ملاءمتها لقوى الطلاب ، أم من حيث تصحيح أوراق الإجابة وتقدير الدرجة التي تستحقها .

وبالنظر إلى كل هذه العيوب التي لمسناها في الامتحانات تساءل الحاضر : هل يمكن أن نستغني عنها بتاتاً ؟ والجواب أن هذا غير متيسر لأننا لم نتوصل بعد إلى شيء عملي يمكن أن يقوم بالوظائف التي تؤديها . وقد يقال : لماذا لا نكتفي بالمقاييس التي ابتكرها العلماء لقياس الذكاء والملكات العقلية المختلفة ؟ وهذه المقاييس في الواقع مفيدة جدا في الكشف عن استعدادات التلاميذ الطبيعية ، التي يهمنا أن نعرفها كي نحسن توجيههم إلى أنواع التعليم اللائقة لهم . ولكنها لا تقيس إلا الناحية الفكرية من شخصية الإنسان ، أما الميول والصفات الخلقية الضرورية للنجاح في الدراسة وفي الحياة العملية ، كالثقة بالنفس والاجتهاد والمثابرة وضبط النفس ، فليس لها إلى الآن مقاييس علمية يمكن الوثوق بنتائجها . ومن جهة أخرى ، فإن مقاييس الذكاء والملكات الخاصة لا تقيس القدرات التي اكتسبها الطالب من دراسته ، ولذلك لا تكفي للحكم عليه حكما كاملا ، وينبغي أن نكمل نتائجها بمقاييس تقيس قوته العلمية لاسيما في مراحل التعليم الراقية .

وقد ابتكر علماء التربية نوعا جديدا من الاختبارات لقياس مقدار تحصيل التلاميذ العلمي قياسا موضوعيا — أي لا تتوقف نتيجته على تقدير المختبر — وتسمى « الاختبارات المقننة » ، ويشتمل الاختبار منها على عدد كبير جدا من الأسئلة القصيرة ، قد يبلغ المئات ، والاجابة عن كل سؤال لا تتجاوز في العادة كلمة واحدة ، أو علامة بسيطة ، توضع في المكان المخصص لها في كراسة الاجابة . ويعتقد الكثيرون — وبخاصة في أمريكا — أن هذه الاختبارات تغني عن الامتحانات المألوفة ، ولكن أكثر رجال التربية في البلاد الأخرى لا يشاطرونهم هذا الرأي .

(البقية على الصفحة التالية)



مضى أسبوع آخر . وجلست هذا الصباح أنتظر . إنه اليوم المحدد لمجيئها . وخطر لي خاطر ، فقمت إلى النافذة أبحث عن الشمس . إنها مختفية اليوم خلف الغمام ، والنهار قاتم ، والجو بارد . لا شيء يحول إذن بينها وبين الحضور . ولم يخب ظني ؛ فما إن وافت الساعة ، حتى طرق بابي ودخلت الفتاة في معطف من الفراء الثمين . وحيتني بابتسامة مرحة ، وأخذت تخلع قفازها وتقول :

— ها أنذا أجيء بلا تأخير .

فنظرت إلى النافذة ، وقلت في نبرة تهكم غير ملحوظ :

— « الثليس » هذا الصباح غير مرغوب فيه ؟ !

فقالت في صوت الجاد :

— نعم ، الطبيعة كئيبة والشمس غائبة .

فقلت على الفور :

— فعلى « الأدب » إذن أن يبسم لك ويشرق .

فسرها هذا الجواب . وجلست أمامي كالطفل « العاقل » الذي ينتظر تفاحة بهيجة تقدم له بعد قليل . ومرت لحظة دون أن أقول شيئا ، ولم أعرف في الحقيقة ما أقول ولا ما أصنع ! وجعلت عيني تفحص فراءها ووجهها وشعرها الذي ألح فيه يد الحلاق البارع ومكواه ! وذكرت عندئذ — لست أدري لماذا — تلك الكلمات الملتهبة التي قالها الراهب «بافنوس» مخاطباً « تاييس » . فاختلج قلبي ، لكني ملكت نفسي سريعا ؛ وضحكت للمقارنة ، ضحكة خفيفة مفتعلة ، فهمتها الفتاة بالطبع على غير وجهها ، فأسرعت تقول :

— أتراني لست جديرة .... ؟

لفظتها أيضا كالطفل الذي يخشى أن يحرم الحبة الموعودة ، فقلت لها وأنا أفكر مطرقا ، وكأني أناجي نفسي :

— إنك جديرة أن أجنبك مرارة الدواء . إنك تكرهين الكتب . ولست أدري كيف أقدم لك الأدب بغير الكتب . ويشق على نفسي أن أرغمك على ما تكرهين ! ...

وسكت . وجعلت أتأمل ما قلت . تخيل إلى أني مخطئ . لا شيء يكتسب على هذه الأرض بغير جهد ، وبغير إرغام النفس على الكد ؛ وكلما سما الغرض كبرت المشقة . إني أمام هذه الفتاة كأب أمام طفله ، فلا ينبغي أن أحجم عن أخذها بالشدة ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، ينبغي أن تحب الكتب إذا أرادت لفكرها سموا . ولا شيء غير ذلك . فلأكن حاسماً قاطعاً في القول . فإما أن تذعن وتروض نفسها على حب المطالعة ، وتصغي إلى نصحي ،

وعلى كل حال فهذه الاختبارات لا تحل مشكلتنا ، لأنها في مجموعها لا تقل عن الامتحانات العادية — بل قد تفوقها كثيرا — في توجيه الطلاب إلى الاعتماد على اختزان الحقائق المفردة غير المترابطة في ذاكرتهم .

والخلاصة أن الامتحانات إن كانت شرا فهي شر لا بد منه ، والواجب أن نبحث عن وسائل إصلاحها حتى تخلص مما يثير شكوانا من العيوب والشوائب . وهذا ما سيتبين في المقال التالي .

وتصدع بأمرى ، وتبدى لى الأقل حسن استعدادها لمعاونتى فى الخطة التى أنتهجها لها ، وإما أن تنصرف منذ الآن غير آملة فى شىء ، فإنى لا أصنع المستحيل . وتغير وجهى ، واتخذت ملامحى لوناً آخر كله صرامة ، وفتحت فمى لأعلنها تكل هذا . ولكن شيئاً أغلق فمى وسكن ثائرى . إنه خوف غامض يسبح فى أعماق نفسى . نعم ، إنى أخاف أن ينفر هذا العصفور الجميل فينطلق هاربا زاهدا فى تعلم التغريد على يدى ، قانعاً بما كان فيه من زقزقة جوفاء فوق الغصون . ونظرت إليها مترددا حائرا :

— أيتها الآنسة .... !

وأدركت بذكائها شيئاً كثيرا مما يجول بخاطرى ، فبادرت تقول لى :

— لا تخف . إنى سأقوم بما تأمرنى به . لقد قلت لك إنى قوية الإرادة !

فتشجعت وقلت لها :

— أتقرئين ؟ !

فقالت فى الحال :

— كل ما تأمرنى بقراءته .

فاندفعت قائلا :

— وتكتبين ؟ !

فقالت بغير توقف :

— كل ما تأمرنى بكتابته .

فصحت فرحا :

— المسألة إذن قد حلت .

فقالت فى شىء من التفكير :

— نعم ، إنى أستطيع أن أجد دائما وقتاً كافيا قبل النوم للقراءة والكتابة ، وأنا فى فراشى تحت مصباحى الوردى . لكن هنالك صعوبة واحدة ...

فقلت قلقا :

— ما هى ؟ !

فقالت كالمخاطبة لنفسها :

— إنك بالطبع ستمتحننى فيما أقرأ . وأقول لك مقدماً إنى ساقطة فى الامتحان . . .

فضحكت :

— إنك لتسيئين الظن بقيمتك .

فابتسمت :

— لا . إن عيبى الأكبر هو أنى لا أطيق مطلقاً أن أقف موقف من يؤدى امتحاناً . إن كل ما قرأت يطير من رأسى عند ذلك كالدخان . ولن أستطيع أن أثبت لك أنى قرأت بالفعل .

فبدا على وجهى الارتياب :

— أيتها الآنسة ! أتخاتلين علىّ وتدبرين من الآن خطط الهروب ؟

فضحكت عن ثغرها البديع :

— ثق أن فكرة الهرب بعيدة عن رأسى . ولكنى أبين لك مواضع ضعفى حتى تكون على حذر !

ففكرت فى قولها لحظة . ثم صحت كمن وجد الفرج :

— اسمعى أيتها الآنسة . قد اهتديت إلى وسيلة ترضيك .

— ما هى ؟

— ما قولك فى أنى أنا الذى أقف بين يديك موقف من يؤدى الامتحان ؟

فضحكت حتى كادت تدمع عيناها :

— أنت ؟ أنا أمتحنك أنت ؟

— ولم لا ؟

وتناولت كتاباً قريباً من يدى وقلت لها :

— ستقرئين هذا الكتاب ، وعند زيارتك المعتادة فى الأسبوع المقبل توجهين إلىّ ما شئت من أسئلة . ولن أوجه أنا إليك سؤالا واحداً .

فنظرت إلىّ نظرة من يقول : « بالك من ماكر » ولم يسعها إلا الاذعان . فتناولت من يدى الكتاب ووزنته فى كفها وقالت :

— أقرأ كل هذا فى أسبوع ؟

فأجبتها :

— اقرئي بعضه . اقرئي عشر صفحات أو خمساً . لست أطلب إليك قراءة كتاب بأكمله . أنا نفسي قلما أقرأ كتاباً بأكمله .

فنظرت إليّ دهشة !

— عجباً ! وكيف تلم بموضوع الكتاب إذن ؟

فقلت لها باسماً :

— ليس يعنيني في كل الأحوال الإلمام بموضوع الكتاب . إني مثلي مثل الطاهي الذي يدخل مطابخ الآخرين . إنه ليس محتاجاً في كل مرة أن يتناول أكلة كاملة ليحكم على جودة الصناعة . بل يكفيه أن يأخذ « لعقة » من كل إناء ، فيدرك في الحال كيف صنع اللون ، وماذا استعمل في إعداده وماذا أدخل في تركيبه .

فقالت : — ولكني أنا . . .

ففهمت مرادها :

— نعم ، أنت أيضاً أكتفي منك بهذا القدر . إن الأسئلة التي ستوجهينها إليّ عن الصفحات التي قرأتها ، ستدلني على مبلغ تذوقك في عالم المعاني . فكمية الصفحات التي تقرئينها لا دخل لها في الأمر ، إلا من حيث تذوقك وعدم تذوقك لما تقرئين .

فصمتت قليلا . وأرخت أهدابها . وفتحت الكتاب وجعلت تقلب صفحاته وهي تفكر . ثم قالت في براءة وسذاجة وهي تقرأ عنوان الكتاب :

— « تاييس » ؟ من تاييس ؟

فأجبت وقد ابتسمت ابتسامة غامضة :

— ستعرفين . . إذا قرأت .

***

نعم . كان الكتاب الذي وضعته بين يدي الفتاة هو كتاب « أناتول فرانس » لماذا فعلت ذلك على وجه التحقيق ؟ ألأنه كان قريباً من متناول يدي تلك اللحظة ، أم أنه تدبير مقصود . في الواقع أنهما الأمران معاً . إن هذا الكتاب قد فرغت من قراءته البارحة . ولم أقرأه إلا من أجلها هي . وأود لو تقرؤه هي أيضاً . ففيه مواقف أحب أن أعرف مدى فهمها إياها . ومن يدري ؟ لعل اختيار هذا الكتاب لها من أول الأمر توفيق مني . فقد تدرك منه بعقلها أو بشعورها قداسة ذلك الجمال العلوي الذي نبذت في سبيله « تاييس » كل عرض الدنيا وتراثها وبهجتها . وهذا بعض ما أريده لهذه الفتاة : أن يعمر قلبها نور جديد منبعه السماء لا الأرض . وأن تؤمن إيماناً ساذجاً بالجمال المعنوي الذي لا تعرف اليوم معناه ولا مداه . كل هذا قد تستشفه من قراءة « تاييس » . ولكن . . . أخشى أن تستشف شيئاً آخر . أخشى أن يستطيع ذكاؤها إماطة اللثام عن شخصية الراهب « بافنوس » . وأن تنفذ عيناها إلى أعماق عواطفه ، فترى ما لا أريد لها الآن أن تراه . لماذا ؟ وهنا اختلجت نفسي مرة أخرى . لا . إن المقارنة بعيدة . ويبنغي دائماً أن تكون بعيدة . إذا فطنت الفتاة إلى أي شبه بيني وبين « بافنوس » فقد انتهى كل شيء بيننا . إني لن أتردد يومئذ عن رجائها في عدم المجيء . . .

***

ونهضت الفتاة بالكتاب . ووضعت قفازها في أصابعها . ومدت يدها مودعة :

— أرجو أن لا يشغلني شيء عن قراءة هذا الكتاب ، حتى أعود إليك الأسبوع القادم رافعة الرأس ! . .

وابتسمت . ولكن الهواجس كانت ما تزال تساورني فمددت يدي إليها لا للتحية ، بل لاسترداد الكتاب :

— أخشى أن أكون قد أسأت الاختيار . ردي هذا الكتاب ، وخذي كتاباً آخر . . .

وظهر القلق والاضطراب جلياً في صوتي . فتفرست الفتاة بعينيها البراقتين في وجهي . وقالت في عزيمة :

— لا . إني أريد أن أعرف من هي « تاييس » !

توفيق الحكيم

أياصـــوفيا

للأستاذ محمود فؤاد مرابط

بنيت اسطنبول على سبع رابيات مثل زميلتها روما . وتبدو منازلها المغطاة بجملونات القرميد الأحمر تتخللها الجوامع الفخمة ذات المآذن الرفيعة ، والقباب الشامخة التي تظهر بجلالها مرتفعة عن جميع الأبنية . وفي الطرف الشرقي للمدينة قصر طوب قابو سراي Top kapi Sarayi الذي كان مقر سلاطين آل عثمان من الفتح إلى عهد السلطان عبد المجيد . وإذا أمعنت النظر وجدت بجانبه جامعاً ضخماً موطد الدعائم وفي أركانه أربع مآذن غليظة لا تشبه المآذن الأخرى التي تلفت النظر برشاقتها وخفتها . وترى قبة مفرطحة فطساء كأنها انخفضت لتختبئ وراء الدعائم السائدة وكأنها خجلة من الظهور أمام القباب الإسلامية المندفعة نحو السماء ، قباب المعمار خير الدين والمعمار محمد أغا والمعمار سنان



جامع أياصوفيا

هذا الأثر الذي لا يجذب النفوس بظواهره هو أياصوفيا الشهيرة التي تعتبر آية الفن البيزنطي ومن معجزات فن العمارة . فإذا أردت أن تعجب بها وتقدرها حق قدرها فادخلها وتمتع بجمالها الخاص

بنيت أياصوفيا في النصف الأول من القرن السادس ب . م . في عهد الامبراطور يوستينيانوس ، فقد نشبت في زمانه ثورة كادت تنزع تاجه عن رأسه لولا امرأته تيودورا التي كان لها موقف لا يزال التاريخ يذكره ، فإن الامبراطور قرر الهرب هو ووزراؤه ، فوقفت امرأته أمامهم وقالت لهم بصوت ملؤه الحزم والعزم : « خير لنا أن نموت في ثيابنا الامبراطورية القرمزية من أن نهرب » ثم هرعت إلى طنف القصر وخطبت في الشعب الثائر فأخمدت الثورة بدهائها وسحر جمالها . فلما ثبت يوستينيانوس على العرش أراد أن يمجد الخالق وأن يشكر الحكمة الآلهية Hagia Sophia ببناء أثر فخم يفوق الآثار التي كانت موجودة في زمانه ، فاستحضر من الأناضول المعماريين الشهيرين « أنتميوس دي ترال » و « إيزودور دي ميليه » Anthémius de Tralle و Isodore de Milet وهما من الذين درسوا على مبادئ العمارات الشرقية كما قال شارل ديل Ch. Diehe العالم في الآثار البيزنطية . ويتحقق قوله إذا علمنا أن عمل الأقبية والقباب هو من أساليب العمارات الكلدية والساسانية والسورية . وعلى ذلك يعتبر الفن البيزنطي فناً شرقياً ، ويمكننا أن نفاخر بهذين المعماريين كما نفاخر بفنوننا الإسلامية

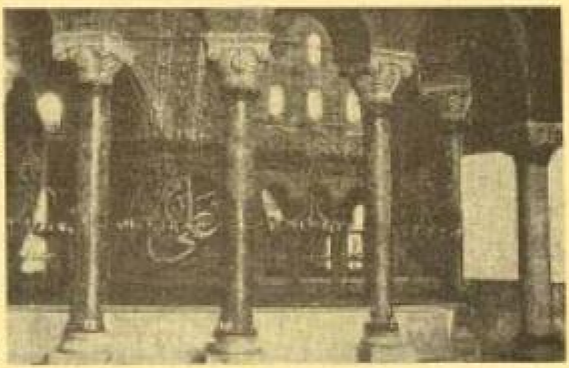
وقد صمم البناء على تخطيط مربع يبلغ طول ضلعه ٧٧ متراً متجهاً نحو بيت المقدس بالضلع الذي به الشرقية absidc وهي التي تعادل المحراب في الجوامع . ويعلو البناء قبة من أكبر قباب العالم يبلغ طول قطرها ٣١ متراً ، وهي محمولة على أربعة عقود نصف دائرية ترتكز أطرافها على أربعة أكتاف مربعة . ويحف بها نصف قبة من

جهتين متقابلتين . وقد استحضرت المواد اللازمة للبناء من جميع أقطار الشرق . فيه ثمانية أعمدة ضخمة كل منها من



منظر داخلي في جامع أياصوفيا

كتلة واحدة تقع على الجانبين الأيمن والأيسر ، وهي من البرش الأخضر العتيق وجلبت من افزوس الواقعة بجنوبي أزمير ، وبه ثمانية أعمدة أخرى تحت نصف القبة الصغيرين وهي من البورفير الأحمر ، وجلبت من مصر . والجدران مغشاة بالرخام المختلف الألوان والمرمر الذي يتقابل عروقه المجزعة يتكون منها أشكال زخرفية بديعة ، وفي البناء عدا



منظر داخلي في جامع أياصوفيا

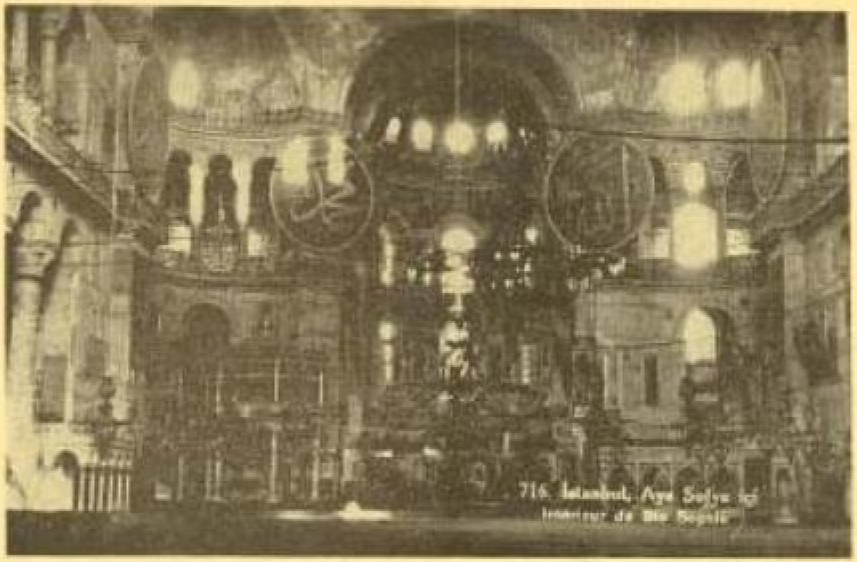
ذلك كثير من المواد النفيسة التي يتطلبها الفن البيزنطي .

وقد استغرق بناء أياصوفيا خمس سنين ، واحتفل بافتتاحها في يوم ٢٧ ديسمبر سنة ٥٣٧ ب. م. وكان يوماً مشهوداً ، إذ دعي فيه الملوك والأمراء من مشارق الأرض ومغاربها ، ورجال الدين والحكام وكبار رجال الدولة . وركب الامبراطور عربة الحفلات تجرها سبعة أزواج من الجياد ، ويتقدم العربة الحرس الامبراطوري ويحف بها من الجانبين رجال البلاط . ولما وصل هذا الركب الفاخر نزل الامبراطور من العربة ودخل أياصوفيا هو ومن معه من المدعوين ، فذهل الحاضرون من عظمة الكنيسة وفخامة أبنيتها وأعجبوا بجمال زخارفها وزهاء ألوانها الطبيعية التي لا تتغير مدى الأزمان ، فهي من أنواع الرخام الملون وأصناف المرمر المعرق وأشكال الفسيفساء التي تتوهج ألوانها لمعاناً وتتلألأ قطعها الذهبية ببريق يخطف الأبصار . ولما اتجهت الأنظار إلى القبة الهائلة المحلقة فوق الرؤوس على ارتفاع يبلغ ٥٦ متراً انبهر الحضور ورفعوا رؤوسهم نحو سمت القبة إعجاباً . ولما رأى يوستينيانوس ذلك علم أن أمنيته قد تحققت وأن هذا البناء هو الأثر الخالد في زمانه وأجلها ، فخفق قلبه طرباً ولمعت عيناه لمعة الظفر والانتصار ، وهرول نحو وسط الكنيسة تحت القبة ورفع ذراعيه إلى السماء وصرخ بأعلى صوته : « شكراً لك يا إلهي فأنت اصطفيتني لبناء بيتك المقدس . ويا سليمان قد تفوقت عليك » يريد بهذا القول أن أياصوفيا فاقت معبد سليمان الذي كان يعتبر أعظم أثر في ذلك الزمان

وعندما فتح الأتراك مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الفاتح أياصوفيا ، وكان عمره خمساً وعشرين سنة فنطق بالشهادتين وأمر الحفاظ بقراءة القرآن الكريم ، فكان لترتيلهم تحت هذه القبة العتيقة ما جعل في النفوس رهبة وخشوعاً . ثم صلى بالناس فاعتبرت

أياصوفيا من ذلك اليوم جامعاً تقام فيه الشعائر . وقد كان عمله هذا من الحكمة والعقل بمكان ، إذ كان سبباً في تقديس هذا الأثر ومنع الأيدى من تخريبه . وقد حافظ عليه الأتراك ورمموه عدة مرات حتى بقى كما كان إلى يومنا هذا ، وقد بنى السلطان محمد الفاتح مئذنة . وبنى السلطان بايزيد الثانى مئذنة أخرى . وبنى السلطان سليم الثانى مئذنتين سنة ١٥٦٩ . فأكسبت هذه المآذن الأربع الكنيسة

اللوحات الأربع الأخرى أسماء الخلفاء الراشدين : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . وهذه اللوحات من عمل الخطاط « تكنجى زاده ابراهيم افندى » . وقد اتبعت هذه الطريقة فى جميع جوامع اسطنبول ، ولكننا نجد الكتابات فيها على الجدران . وقد جعلت لها اطارات من نفس البانى ، وقد حجبت الصور الفسيفسائية المسيحية بأياصوفيا بطبقة من الجير لمخالفتها للدين الإسلامى



منظر داخلى فى جامع أياصوفيا

البزنطية شيئاً كثيراً من الرشاقة ، كما قال ديوجين مايار فى كتابه « أثينا » . وقد أضاف الفن الإسلامى المحراب والمنبر والدكة والشرفة المغطاة بالقفص وهى على يسار المحراب ، وتسمى « هنكار محفلى » أى المكان الذى يصلى فيه السلطان يوم الجمعة وله مدخل من وراء الجامع . وقد عُلّق فى صدر المكان فى الأركان الأربعة فوق الأكتاف ست لوحات مستديرة كتب على الأولى منها لفظ الجلالة : « الله » وعلى الثانية اسم النبى « محمد » ، ثم كتبت على

وقد أرادت الحكومة التركية بالاتفاق مع لجنة الآثار إظهار ما بأياصوفيا من الصور الدينية القديمة ، وبدئ فى العمل منذ أربع سنوات ، وظهر منها إلى الآن صور غاية فى الجمال والبهاء . وبذلك زالت صفة الجامع الإسلامية ، وصارت أياصوفيا أثراً من الآثار التى يزورها السياح ورجال الفن . وقد رفعت الأبسطة التى كان المسجد مفروشاً بها فظهر جزء مستطيل الشكل يبلغ طوله نحو ثلاثة أمتار

وعرضه مترين تقريباً ، وهو بالقرب من المنبر ، مبلط بقطع على أشكال هندسية من أنواع الرخام المختلف الألوان التي استعمل في الأعمدة وفي كسوة الجدران . ويقال إن الامبراطور جلس على عرشه في هذا المكان يوم الاحتفال بافتتاح الكنيسة . وقد أزيلت اللوحات المستديرة ولم يمكن إخراجها من الأبواب لأن قطر كل منها يبلغ ثمانية أمتار ، وستوضع في متحف خاص مع القطع الأخرى التي نزعت

شيء ، سيبقى على حاله كالمنبر والمحراب وغير ذلك . وكنت أخشى إزالة الكتابة الجميلة التي في سمت القبة على شكل دائري ، وهي تعتبر من أحسن الخطوط وتعد مفخرة من مفاخر فن الخط عند الأتراك ، وهي عبارة عن آية النور الشريفة التي أولها : « الله نور السموات والأرض » ، ولكنها ولله الحمد باقية ، وتجد هذه الآية مكتوبة في سمت كثير من قباب الجوامع باسطنبول

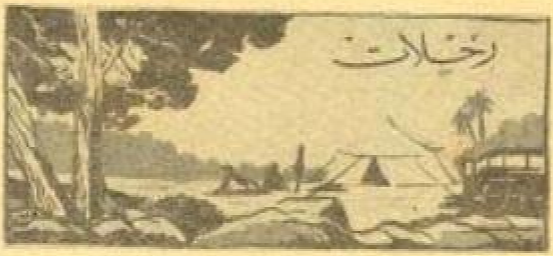


منظر داخلي في جامع أياصوفيا

من المسجد ، وقد يتساءل الناس : هل في نية لجنة الآثار هدم المآذن وإزالة الأبنية التي أضافها الأتراك حتى يعود الأثر كما كان ؟ ولكن الحوادث أثبتت خلاف ذلك . فالزلزال الذي حدث منذ سنتين باسطنبول هدم النصف العلوي من المئذنة الجنوبية ، وقد رأيت في صيف هذا العام أنه قد أعيد بناؤها وصارت على حالتها الأصلية . وسألت عن الأعمال التي ستجرى في داخل أياصوفيا فتيقنت أن كل

فما تقدم نعلم ما وصل إليه فن العمارة البيزنطية ، وكان من نتائجه إلهام معماريي الأتراك بعد الفتح ، فاستنبطوا بعض قواعده وأبدعوا فناً جديداً يخالف الفن السلجوقي ، صارت له شخصية بارزة في الفن الإسلامي ، وقد تخلفت منه آثار في جوامع اسطنبول وأدرنه ، لا تزال إلى اليوم شاهدة على مجد الفن الإسلامي بفخامتها وجمالها .

محمود فؤاد مرابط



عشرة أيام فى العراق

للأستاذ الدمرداش محمد

٣ — فى الطريق بين دمشق وبغداد :

فى الصــــحراء

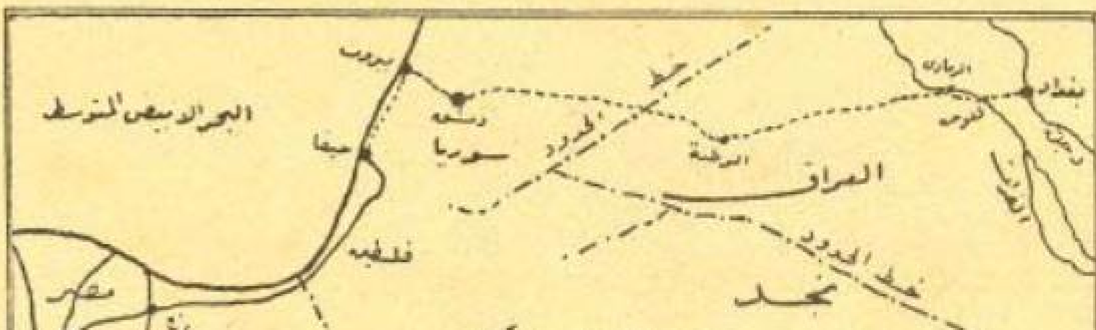
وعند الظهر غادرنا دمشق قاصدين بغداد فى سيارة كبيرة تتسع لعشرين راكباً تابعة لشركة عيد الأنكرلى ، وهى معدة إعداداً خاصاً لسفريات الصحراء ، ومزودة بخزان للماء وبمقاعد مريحة تتزلق إلى الخلف فى حالة استخدامها فى الليل كسرير للنوم ، وكان معظم الركاب من الأطباء الذاهبين لحضور المؤتمر الطبى العربى الذى كان على وشك الانعقاد ببغداد أثناء عطلة عيد الأضحى

وكان سائقنا فتى من أهل دمشق عاقلا رزيناً ، واثقاً بنفسه ، خبيراً بعمله ، عارفاً للطريق ، يتقى الزمجات ، ويطمئن عند « المطبات » ، ويفتخر بأنه عبر الصحراء مائة مرة من غير أن يضل مرة ، أو تصاب سيارته بسوء !

اخترقنا شوارع دمشق وبساتين الغوطة ، ثم وصلنا إلى نقطة الجمرك بين العراق وسوريا على حدود الصحراء ، فأشر عماله على جوازات السفر ، ثم دخلنا بادية الشام — فضاء شاسع ، أرضها صفراء حمراء ، كلأها قليل ، وماؤها نادر ، يسقط عليها المطر فى الشتاء أحياناً فيجعل سطحها ليناً لزجاً ، تسيخ فيه عجلات السيارات فتترك وراءها على الأرض شريطاً غائراً ممدوداً ، بين الغوطة بالشام وقلعة الرمادى على الفرات ، تتبعه السيارات فى عبورها الصحراء فى الذهاب والعودة بين سوريا والعراق

كان قد طال بنا السفر فتحادثنا طويلا ، وسكتنا طويلا ، وتسامرنا طويلا ، وتمازحنا طويلا ، وتراشقنا طويلا بالنكات ، وضحكنا طويلا للحلو منها والبائخ ، وتألمنا طويلا وشكونا واشتكينا وتشاحنا وتراضينا ، وثرنا وهدأنا ، وأكلنا وشربنا وتثاءبنا وغفونا وصحونا ، والساعات تمر تلو الساعات والصحراء كما بدأناها لها أول وليس لها آخر !

وقبيل الغروب أبصرنا عن يسارنا قلعة على ربوة بالقرب من الطريق ، يرفرف على ساريتها العلم الفرنسى ، وهى بالقرب



من خط الحدود بين سوريا والعراق ، وبعد قليل عبرنا الحدود بين قائمين من الحجر طلى سطحهما بالحبر



فى الطريق بين دمشق وبغداد
افترشنا أديم الصحراء لتناول غذاء الغروب

أدبر النهار وأقبل الليل واشتد البرد ، وبدت الصحراء موحشة مخيفة يسودها سكون رهيب كسكون المقابر ، وتملكنا الملل وحل بنا التعب فخفتت أصواتنا واسترخت أجسامنا ، وانكمشنا فى المقاعد ، وأحكمنا سد النوافذ ، وسحبنا المعاطف ، وأملنا الرؤوس وأطبقنا الجفون ، وأطفأ السائق النور ، وبدأ الغطيط وعلا الشخير بنغمات وتوقيع ، بين تمديد وتقصير ، وتشديد وتبسيط ، وقطع وتوصيل ، وصفير وزحير وزئير . وطال الحال على هذا المنوال حتى خلت أن جوف السيارة جوقة يتبارى أفرادها فى عزف أنكر الأصوات ، كل هذا وسيارتنا تجد إلى الأمام بعزم شديد لا تخاف ولا تتزعزع ولا تنثنى ولا تنحنى ، ولا تكل ولا تمل ولا تئن ، تنهب الأرض نهباً وتطوى المسافات طياً ، تواصل السير بالنهار وبالليل ، لا تبالى بحلكة الظلام ولا بوعورة الطريق

استيقظت على صوت حركة غير عادية بين الركاب ، وأبصرتهم يتطلعون جهة الشرق إلى بصيص من ضوء يلمع تارة ويخبو تارة ، والسائق يقول لسائليه : ها قد وصلنا بئر الرطبة ، ونظرت إلى الساعة فإذا الوقت منتصف الليل ،

ثم وقفت بنا السيارة أمام بوابة كبيرة يحرسها جندى فى لباس عربى شاكى السلاح ، ثم أقبل نحو السيارة ضابط عراقى فى كامل زيه العسكرية وسأل السائق : هل سعادة محمد العشماوى بك وكيل المعارف المصرية بين الركاب ؟ فأجاب السائق بالإيجاب

فتقدم الضابط نحو العشماوى بك ، وبعد أن رفع يده بالتعظيم ، قال بصوت جهورى : ياسعادة الضيف العظيم ، إنى موفد من قبل حكومتى للترحيب بكم ولأكون فى معيتكم ، وسيكون لى عظيم الشرف فى قيادة حرس الشرف لسيارتكم حتى قلعة الرمادى . فتلقاه العشماوى بك واقفاً مرحباً ، وبعد أن شكر حكومة العراق على هذا التكريم البالغ بعبارات تناسب المقام ، دعاه الضابط ودعا معه جميع الركاب لتناول الشاى فى القشلاق

والقشلاق بناء كبير يحيط به سور ، وفى شماليه مطار الرطبة ، وداخل السور ثكنات الجنود ولوكاندة معدة للنوم والطعام لمن يريد بأجر لا يزيد على نصف جنيه فى الليلة .

وفى (ميس) الضباط تناولنا الشاى والكعك والفواكه وسط مجالى الترحيب والتبجيل ، ومحطة الرطبة تضاء بالكهرباء ، وتسقى من آبار فى نفس المنطقة — وعندها تتلاقى عدة طرق برية وهوائية



فى الطريق بين دمشق وبغداد
وقفت بنا السيارة فى الصحراء على بركة ماء تخلفت من السيل

وبعد ساعة استأنفنا السير ، وسيارة مدرعة يقودها الضابط تتقدمنا وسيارة أخرى تتبعنا ، وقد كان استقبال العشماوى بك هذا الاستقبال الفخم مفاجأة سارة ، كما كان موضع إعجاب الركاب وحسن تقديرهم ومدار حديثهم فترة طويلة . ولم نلبث طويلا حتى غلبنا النعاس وغفا .

واستقبلنا صباح اليوم التالى بوجوه شاحبة وعيون ذابلة ورؤوس مصدوعة وشعر منفوش وهيئة رثة . وألقيت إلى الصحراء بنظرة ، فإذا هى كما بدأناها لها أول وليس لها آخر

وفى الضحى ظهرت بوادر العمران : الله أكبر ! هذه أسراب القطا تحوم فوقنا ، وذاك قطيع من الجمال يرعى ، وهؤلاء بعض البدو على ظهور الخيل أوقفوها لينظروا إلينا ، وهذه خيامهم ، وهذه طريق معبدة تسير فى محاذاة أنابيب البترول الذاهبة عبر الصحراء إلى فلسطين ، وهذه قرية وسط النخيل ، وهذه بساتين ، وهذه قلعة الرمادى ، وهؤلاء رجال ونساء وصبية وقفوا على تل يلوحون لنا بأيديهم ، وهذا شارع المدينة ندخله ، ثم تقف السيارة قرب نهايته أمام ديوان الحكومة ، وإذا بحاكم الولاية ورئيس الشرطة وكبار الموظفين والأعيان وبعض الآنسات المعلمات يخرجون للترحيب بسعادة العشماوى بك أيضاً باسم الحكومة ، وبعد التحيات والتسليمات دعونا لتناول طعام الغداء فى لوكاندة قريبة ، وذهبت تواً إلى دورة المياه فغسلت وجهى وتوضأت وأصلحت هندامى ، وصليت ركعتين ، ثم دعيت للجلوس بجانب العشماوى بك على مائدة الرياسة على يسار حاكم الولاية ، وبعد أن أكلنا هنيئاً مريئاً استأنفنا السير جهة الجنوب فى طريق معبدة ، على هامش الصحراء متبعين مجرى نهر الفرات

وبعد ساعة مررنا بسن الذبان حيث يوجد مطار كبير للقوة الجوية الانجليزية ، وبعد ساعة أخرى عبرنا الفرات على جسر من الحديد إلى شاطئه الأيسر عند بلدة «فلوجه» ، واتجهنا نحو الشرق فى طريق تخترق صحراء فاصلة بين الفرات ودجلة ، وعند تمام الساعة الرابعة مساء وصلنا أطراف الكرخ ، إحدى ضواحى بغداد ، وهنا انتظرنا قليلا على جانب الطريق حتى مر جلالة الملك غازى ذاهباً إلى قصره خارج بغداد ، وكان راكباً سيارة صغيرة لونها أصفر يقودها بنفسه ويتقدمها عسكرى مرور على «موتسيكل»

وقصر الملك لا يبعد كثيراً عن الطريق العام ، تحيط به حديقة وأشجار عالية وفى مواجهته على الجانب الآخر من الطريق قصر الأمير عبد الإله

وقبيل الغروب وصلنا مبنى إدارة الجمارك حيث كان فى استقبالنا جمع غفير من كبار الموظفين والأطباء والأعيان ، فتقدم سعادة السيد طه الراوى وكيل وزارة المعارف العراقية مرحباً باسم وزارة المعارف ، والسيد الدكتور الزهاوى كبير أطباء العراق مرحباً باسم إدارة الصحة العامة نائبين فى ذلك عن الحكومة



فى الطريق بين دمشق وبغداد
فى قلعة الرمادى : المستقبلون وركاب السيارة

وفى فناء الجمارك ودعنا مطية الصحراء شاكرين ، وركبنا السيارات فدرجت بنا فى شوارع منسقة مغروس على حواشيها أشجار وحدائق ، وعند مدخل الكرخ شاهدنا تمثالا للمغفور له الملك فيصل ، يمثله ممتطياً صهوة جواده ، وبعد قليل عبرنا نهر دجلة على جسر من القوارب إلى الرصافة حيث نزلنا بلوكاندة «مود» ضيوفاً على الحكومة العراقية .

(لها بقية)

من أنحاء العالم

هل تنشأ دولة أوكرانية فى الروسيا ؟

تحاول النازية الألمانية أن تقضى على جارتها الروسيا بكل الوسائل ، فهى لا تفتأ تندد بها وبأساليبها ، وتذيع عنها أسوأ الدعايات فى كل مكان ، ولا تتأخر عن تهديدها وتوعد رجالها بكل شر . وآخر ابتكاراتها فى هذه السبيل مشروع إنشاء دولة أوكرانية مستقلة فى جنوبى الروسيا .

وأوكرانيا كما هو معروف ، إقليم فى جنوبى الروسيا شمالى البحر الأسود ، يسكنه الأوكرانيون المعروفون بولائهم للقيصرية الماضية ، حتى إنهم رفضوا الاعتراف بالحكومة الشيوعية عند اعلانها سنة ١٩١٧ ، ولم يخضعوا إلا بعد حرب طويلة ، ولهذا يسمون الآن بالروس البيض ، ولا تطمئن إليهم الحكومات الشيوعية المتعاقبة ، وتبذل جهداً عظيماً فى مراقبتهم مخافة أن يهبوا بثورة تقلب النظام الحاضر ، وهم مستقلون إلى حد كبير فى شئونهم الداخلية ، إذ يكونون جمهورية داخلة فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية .

لهذا أعلنت حكومة برلين عزمها على معونة الأوكرانيين وتخليصهم من نير الاستبداد الشيوعى ، فأرسلت تستدعى أحد الزعماء الأوكرانيين ، المعروفين بعدائهم لحكومة موسكو — وكان منفياً — إلى برلين ، فقابل هتلر مقابلة طويلة حضرها مستشار الرئيس هتلر فى مسائل الأجناس الهر الفرد روزنبرج ، ووضع فيها أساس الدعاية للدولة الجديدة . وقد ذكرت الحكومة الألمانية ، فى بيان أذاعته ، أن قيام هذه الدولة لن يستغرق أكثر من عام ونصف عام . وأعلنت الصحف الألمانية أن ألمانيا لا تريد من ورائه إلا تحرير الأوكرانيين المعذبين من نير الروس ، وأنها لهذا مستعدة بالمال والرجال لمساعدة الأوكرانيين على بلوغ هذه الغاية .

وقد تخوفت الحكومة الروسية من هذه الدعوة الألمانية الجديدة ، فانتدب ستالين الجنرال لوردتى رئيس هيأة النظام الداخلى ، وأرسله إلى بلاد الأوكرانيين لمراقبة الأحوال ، والقضاء على كل حركة ترمى إلى تحقيق هذا المشروع الألمانى . وبدأ ستالين يعيد النظر فى الدستور الروسى الجديد ، لأن المادة السابعة عشرة منه تبيح لأية جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتى الانفصال والاستقلال بنفسها إذا شاءت .

وقد لاحظت السلطات الروسية بشىء من القلق سفر الدوق الكبير فلادمير سليل آل رومانوف من منفاه فى فرنسا إلى برلين ، لأن الاشاعات طارت بأنه ذاهب لمقابلة هتلر للنظر فى أمر تنظيم الدولة الأوكرانية . ولا يخفى أن فلادمير هذا يتزعم جميع طوائف الروس الملكيين المبعدين عن روسيا ، أو المشترين فى نواحيها (وفى نواحى أوكرانيا على الخصوص) . وقد أقام له الروس فى باريس حفل وداع عظيم لبسوا فيه حللهم القديمة ، واصطفوا لتحيته فى بهو فندق الاحتفال ، وعاملوه معاملة رعية لملك ، ووقف فى خدمته الأميرال كدروف قائد البحرية الروسية الملكية سابقاً ، وصلى الجميع صلاة شكر قد قادها بطريق الكنيسة الأرثوذكسية الملكية السابق

وقد تحدث الأمير إلى الصحفيين فأعلن إليهم أنه يأبى أن يقبل عرش أوكرانيا لأنه يصر على أن يحتل عرش روسيا كلها ولا يقبل تجزئة وطنه بحال ، وأكد لهم أنه لا ينوى التفاهم مع الحكومة الألمانية على شىء من هذا القبيل . ولا يدرى أحد ماذا سيكون مصير هذه الحركة الخطيرة !

إيدن في أمريكا:

تبذل الحكومة البريطانية الآن جهداً عظيماً في الدعاية لمحاربة الدعايات النازية والفاشية في مختلف بلاد العالم ، وقد لاحظ الناس نشاط الانجليز الأخير في عواصم الدول الأوربية وتعدد زيارات الوزراء الانجليز لوزراء الدول الأخرى ، ومن أعظم هذه الزيارات ما قام به الوزير الانجليزى الأشهر أنتونى روبرت إيدن من زيارة الولايات المتحدة الأمريكية وتجوله في كبريات بلادها وإلقائه الخطب الرنانة فيها دعاية لبلاده ودفاعاً عن مبادئها . وعلى الرغم من اختلاف المستر إيدن مع تشمبرلين فان هذا الأخير اهتم بهذه الرحلة اهتماماً جعل لها صفة شبه رسمية ، وجعل لها أعظم الأثر في العلاقات بين انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد زار إيدن الرئيس روزفلت ولبث معه حوالى الساعة . والمعروف أن إيدن يعجب بروزفلت الإعجاب كله ، وقد أعلن ذلك في مناسبات عدة . ويقال الآن في النوادى السياسية إن إيدن سوف يعين سفيراً لبريطانيا في وشنطن

دلاديه في تونس وفورصقة:

وهذا مثل آخر من أمثلة النشاط الجديد الذى دب في الحكومات الديموقراطية ، فقد ريعت الحكومة الفرنسية من مطالب إيطاليا في تونس وفورصقه ، وخافت أثر الدعاية العظيمة التي تبثها إيطاليا في هذه النواحى والاستعدادات الحربية في ليبيا ، فقرر دلاديه رئيس الوزارة الفرنسية الطواف بتونس وفورصقه في مظاهرة عسكرية .

وقد تمت الزيارة وسط مظاهر خلابة من الأبهة الفرنسية والجلال العسكرى ، واستقبل رئيس الوزارة الفرنسية استقبالاً شعبياً عسكرياً — مدبراً طبعاً — في تونس خطب فيه الرئيس شاكراً للتونسيين ولاءهم وثقتهم بالفرنسيين ، واضطر رجال الحكومة التونسية إلى مجاملته بمثل هذا الكلام طبعاً ، وفي كورسا أقيمت المظاهرات لاستقباله وحضر عدداً من الحفلات الشعبية شارك الناس فيها في أعيادهم ومسراتهم

والفرنسيون الآن مهتمون بأمر تونس اهتماماً ظاهراً ، فهم يقيمون التحصينات العسكرية على حدودها الشرقية ، ويبذلون جهدهم الآن في إنشاء خط دفاعى من الحصون الأرضية على مثال خط ماجينو شمالى فرنسا ، وفي النية استبدال المسيو أريك لابون حاكم تونس المدنى بحاكم عسكرى للإشراف على الاستعدادات الدفاعية هناك ، وتأهباً للطوارئ

الحرب الصينية اليابانية:

لا يعرف الآن على وجه التحقيق ماذا سيفعل اليابانيون بعد استيلائهم على هنكاو وكانتون ، والساحل الصينى الآن بيدهم كله ، والإشاعات متضاربة في نوع الحكم الذى ستقيمه في هذه النواحى ، ويقول الكثيرون إنها تنوى التوغل في الداخل بعد أن صار في يدها الساحل كله لإكمال الاستيلاء على الصين الداخلية

بيد أن الأخبار الأخيرة تدل على أن سلطان اليابانيين في الأماكن التى استولوا عليها مهدد الآن بخطر عظيم ، إذ أن الصينيين كفوا عن الحرب النظامية ، وتحولت قواتهم كلها إلى حرب عصابات على طول الساحل من شنغهاى إلى كانتون ، فالمراكز اليابانية كلها والمعسكرات التى أنشئوها

وخطوط المواصلات بالسيارات أو بالقاطرات . والمطارات ومستودعات الذخيرة وغيرها مهددة بهجوم العصابات الصينية المسلحة التي تنقض عليها من المرتفعات وتنزل بها الخسائر الفادحة . ويؤكد العارفون بأحوال الصين أن اليابان تتكبد الآن خسائر فادحة من أثر هذا الأسلوب المرهق في الحرب ، وأنها إذا استمر الحال كذلك ستتخلى عن كثير مما بيدها ، نظراً لفداحة النفقات التي بذلتها وقلة الكسب « الحقيق » الذي أصابته من هذه الحرب الفنية ، ونشاط الصينيين الذي قد يؤدي إلى خروج كل شيء من يدها .

وقد أكد ذلك القائد الانجليزي أرثر ولستون قائد الجيش الانجليزي المقيم في الصين في حفل أقامه له جنوده بمناسبة اعتزاله الخدمة ، قال : « مادام الجنرال شانج حاكما في الصين فلن ينال اليابانيون منهم كثيراً . . إن قواد الجيش الياباني في الصين الآن متعبون جداً ، ولن تستطيع اليابان إبقاء جيش عظيم في الصين لحماية ممتلكاتها من العصابات زمناً طويلا ، لأن التطور الأخير في الحرب يهدد كل ما بيدها فهي مضطرة إلى حراسة الساحل كله حراسة فعالة »

إيطاليا ونفقات الحرب والدفاع :

حينما تسامع الكونت تون دي ربفل وزير الدفاع الايطالي بأن بريطانيا قررت إنفاق ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٠٠ جنيه لتسليح بلادها ، وأن فرنسا أفردت ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٢٤ جنيه لهذا الغرض ، وأن اليابان أرصدت ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٣٣ من الجنيهات لنفقات حرب الصين وحدها ، قرر هو الآخر زيادة اعتمادات الدفاع والتسليح الايطالية من ٠٠٠ ٠٠٠ ٩٤ من الجنيهات إلى ٠٠٠ ٠٠٠ ١٩٤ من الجنيهات أي زيادة مائة مليون كاملة في السنة المقبلة .

مع أدبائنا المعاصرين

(بقية المنشور على صفحة ٦)

هو في هذا إلى الصواب أم غير موفق ؟ ولكني أعلم أن أبا العلاء خليق أن يقرن إلى أبيقور في مذهبه الخلق وفي إعراضه عن اللذات لأنها لا يمكن أن تتاح له كاملة .

وهناك هناة كنت أحب أن يبرأ منها الكتاب ، فقد تصور تلميذ أبي العلاء أن الشيخ يمكن أن يكون قاضياً لقضاة وقاض واحد للمعرة يكفيها ، وما أحسب أنها قد كان لها قضاة في عصر أبي العلاء ، وقد جرى على لسان التلميذ[1] وعلى لسان الشيخ[2] كلام أهمل فيه النحو بعض الاهمال . وما أظن أن أبا العلاء كان ينصب أو يجر حيث يجب الرفع ، وما أظن أنه كان يقبل من تلميذه أن يضع « من » مكان « ما » . وما أشك في أن هذا من خطأ المطبعة ولكنه خليق أن ينبه إليه .

وفي الكتاب ذكر لحيرة المتنبي[3] التي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . وما أعرف أن المتنبي حائر ، وإنما المتنبي مسرف في الإسراع يعرض ناقته للعطب ، فلا يغني عنه إسراعه في السرعة شيئاً ، فلا حيرة هناك ولا حائر .

وبعد ، فإن في الكتاب فصولا رائعة رائقة ، يجد فيها القارئ من اللذة والمتاع ما لا تغض منه هذه الملاحظات ، ولو لم يكن فيه إلا أنه يمكن القارئ الشاب من الالمام بهذه الآراء التي تصطدم ويشتد بينها الصراع في حياة العالم الحديث ، ويعرض الأستاذ العقاد من هذه الآراء ، لكان هذا خليقاً أن يجعل قراءته مصدر نفع متصل وغذاء للعقل والروح معاً .

طه حسين

---

(١) صفحة ٢٣٢
(٢) صفحة ١٨٩
(٣) صفحة ٢٤٨

مقتطفات

قيمة الخبرة !

كان لتوماس أديسون المخترع المعروف مساعد ذكى اسمه هتشنسون ، نبغ فى فن الآلات نبوغا عظيما جعله موضع ثقة كبار أصحاب المصانع ، فكانوا يستشيرونه فيما يعرض لهم من المسائل الفنية ، ويستقدمونه لإصلاح ما يستعصى عليهم إصلاحه من عطب الآلات

فاستقدمه صاحب مصنع ذات يوم لإصلاح آلة معطلة فلم يكد الخبير يفحصها حتى طلب مطرقة ، ثم جعل يتحسس الآلة بيده ومطرقته وأذنه ، ثم طرق جزءاً منها طرقة خفيفة أمر بعدها بإدارة الآلة ، فدارت كأن لم يكن بها عطب !

وتقدم بعد ذلك إلى صاحب المصنع يطالبه بأربعمائة ريال أجرا لذلك الإصلاح ! فدهش الرجل وقال :

— أربعمائة دولار أجرا عن طرقة واحدة ؟ ! إنها لا تساوى غير دولار واحد ...

فأجاب هتشنسون :

— صدقت ! إن الطرقة نفسها لا تساوى أكثر من ذلك الدولار ؛ ولكن الثلثمائة والتسعة والتسعين دولاراً الباقية هى أجرة معرفة الجزء الذى ينبغى طرقه ... إنها قيمة الخبرة !

قطط ذات صفة رسمية !

لا تزال مصلحة البريد الانجليزية تحتفظ فى إدارتها بعدد لا بأس به من السنانير لاتقاء شر الفيران وغيرها من الهوام ، ولهذه القطط مرتبات مقررة ونظام ثابت للعلاوات والترقيات ! فكان مرتب القط قبل الحرب سبعة بنسات فى الأسبوع ، فلما زيدت مرتبات موظفى البريد جميعاً فى أثناء الحرب ، منحت القطط « الأميرية » علاوة لابلاغ مرتبها إلى شلن كامل فى الأسبوع !

وعلى ناظر مكتب البريد أن يحتفظ بملف خاص لكل قط من مرءوسيه ، ولا بد أن يستوفى بعض البيانات الخاصة بمرتب القط ، والمهمة التى يؤديها ؛ ولا بد كذلك أن يبين لون القط وسنه وتاريخ التحاقه بالخدمة ، وما إلى ذلك !

ولا بد أن يراعى ناظر المكتب مرءوسيه من القطط ، ويتثبت من قيامها بمهام وظائفها على الوجه الأكمل ؛ وقد كتب أحد النظار فى تقرير رفعه إلى مدير البريد ما يلى : « القط الملحق بهذا المكتب كفء ، ونشيط ، ويقوم بأعماله على وجه مرضٍ جدا ، ولم يخطئ إلا مرة واحدة ، إذ فر منه فأر أشهب بعد مطاردة عنيفة ، ولكنه استطاع فى الليلة التالية القبض عليه ، وإن نشاطه وكفاءته واجتهاده فى أداء واجبه لما يستحق التنويه ويدفع بى إلى طلب زيادة المرتب المقرر له ومنحه علاوة بنسبة ٢٠٪ من مرتبه الحالى فى حدود التعليمات واللوائح المالية » .

حيلة بارعة !

تلقى أحد الجنود الايرلنديين المحاربين فى فرنسا أثناء الحرب الماضية خطابا من زوجته تشكو فيه سوء حال الأرض لعدم وجود رجال أشداء تستطيع استخدامهم فى حرثها وفلاحتها

فلم يكد يقرأ الخطاب ، حتى بادر بالرد فى خطاب قال فيه لزوجته : « لا داعى لحرث الأرض ، دعيها كما هى لأنى أخبئ فيها سلاحا » .

وفتح الرقباء فى مصلحة البريد الخطاب ، كما كانت العادة أيام الحرب الكبرى ، فلم يكادوا يقرأون مقال الجندى حتى خفوا إلى مزرعته ، ومضوا يحفرون أرضها حتى قلبوا عاليها سافلها ، ولم يدعوا شبرا فيها إلا حفروه لعمق بضع أقدام

وريعت الزوجة لهول ما رأت ، فكتبت إلى صاحبها تنبئه بالخبر ، وتبكى مصير الأرض التى أتلفها الجند ، ولم يدعوا جزءاً فيها مستويا ...

وانبسطت أسارير الجندى وهو يقرأ خطاب زوجته ، ثم كتب إليها مسرعا : « حسنا ... ... إذن فازرعى البطاطس ... ! »

بين المجلة والقراء

— ١ —

كتب « الدكتور ناجي » إلى المجلة ينتقد ما سيجريه الدكتور طه حسين بك من نقد الأدباء المعاصرين ، ويخاطبه بقوله : « أنت صادق أتم الصدق في إحساسك بالعصر الأدبي الشبيه بالموت ، ولكني لست من رأيك في أن الحركة التي ستثيرونها بواسطة النقد « بالكرباج » والبناء بواسطة المعاول ستثمر أي ثمرة ، فأنت تعرف أثر المظاهرات في الشارع المقفر الساكن . جمهور يهتف ويصيح ، ثم ضوضاء جند وعصي بوليس . ثم يرجع السكون الميت إلى الشارع المقفر . وقد انجلت المعركة عن أشلاء سخيفة من العصي والطوب والأحذية المتروكة والطرابيش الممزقة » .

إلى أن يقول : « إن الجمهور اليوم يصعد درجاً مظلماً ، وكل بضاعته في ذلك الدرج أعواد من الثقاب . فماذا تريدون أن تصنعوا به ؟ تخطفون من أيدي الناس أعواد الثقاب ، وبعد أن تتركوهم يتخبطون في الظلمات تمدون لهم بالأنوار ؟ أهذه خطتكم ؟ خطة هدم وفتك وتقتيل ، ثم أين المصابيح ؟! »

ثم ينتقد المجلة في قيامها على الجمود واحتكارها سوق الأدب ويقول : « إن من يطالع مجلة مشروعة تحرص على بابها يجب أن يطبعها بطابع جديد ، لقد تسمع المرء غناء من أم كلثوم فيعجبه أشد الحب ، فإذا كررت الأغنية كل يوم انطلقت النفس تطلب نوعاً من الغناء مختلفاً ، ولو كان أقل طلاوة وأردأ صنفاً » الخ .

« الثقافة » تشكر الدكتور على غيرته ونقده ، وتظن أنه سيغير رأيه إذا قرأ مقالات النقد في المجلة ورأى أنها ستهدم وتبني وتقرع وتشجع ، وتقول للمحسن أحسنت وللمخطئ أخطأت ، حسبما ترى وترى كتابها ، و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، وكل ما تطلبه من الكتاب الناقدين أن يصوروا ما يشعرون به نحو الآثار الأدبية تصويراً صادقاً ، وكل ما تطلبه من الكتاب المنقودين أن يفسحوا صدورهم للنقد ، فلا يسرفوا في الغضب منه ، ولا يحملهم ذلك الغضب أن يكسروا قلمهم أو يطفئوا أعواد ثقابهم ، كما يعبر « الدكتور » ، بل أن يجدوا في أن يستعيضوا من أعواد الثقاب بمصابيح الكهرباء .

كما سيرى الناقد الفاضل أن « المجلة » ليست احتكاراً لشيوخ الأدب ، بل هي مفتوحة للشيوخ والشبان على السواء ، لا تجل شيخاً لشيخوخته ، ولا تحقر من شأن شاب لشبابه ، وإنه ليسرنا كل السرور أن يساهم الدكتور وأمثاله من شبان الأدب في المجلة بأدبهم الرفيع ، وأن يسمعونا نغماتهم الجديدة بجانب نغمات الشيوخ القديمة ، فتطمع « المجلة » أن تكوّن من ذلك كله موسيقى كاملة . على أننا نكره أشد الكره أن يكون أساس التقسيم في الأدب الشيخوخة والشباب ، فذلك أليق بدفاتر الإحصاء وسجلات المواليد . إنما التقسيم الصحيح يجب أن يكون أساسه الإحسان والإساءة ، سواء أكان ذلك من شيوخ أم من شباب .

— ٢ —

وتقد « المجلة » ناقد فاضل بتوجيه نظرها إلى العناية بتصوير الحركة العلمية والأدبية في أوربا ، تصويراً واضحاً صحيحاً ، حتى يستطيع القارئ أن يلم بما في العالم الحديث من علم وأدب ، ويساير الحركة ويجاري الزمان .

و « الثقافة » تشكره على نقده وتبشره بأن ذلك في خطتها من يوم وضعت ، وأنها عهدت إلى خيرة من أدبائها وعلمائها أن ينقلوا إليها صورة ما تتمخض عنه أوربا من علم وأدب ، فتلخص خير الكتب وما أثارت من نقد ، وتسجل ما في معاهد العلم وما يدور فيها من بحث

(طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر)

الثقافة

مجلة أسبوعية للاجتماع والآداب والعلوم والفنون

AL-THAQAFA

الإدارة : بالقاهرة – عابدين – شارع الكردى رقم ٩ تليفون ٤٢٩٩٢

العدد الرابع | « الثلاثاء ٤ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — ٢٤ يناير سنة ١٩٣٩ » | السنة الأولى

الفهرس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ قرشًا فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١ قرش صاغ

فى التاريخ السياسى المعاصر :

المسألة الفلسطينية
وهل دخلت فى دور الفصل

لمحرر «الثقافة» السياسى

انتهت المسألة الفلسطينية فيما يرجى إلى مرحلة الفصل ، فق أيام قلائل يعقد فى لندن مؤتمر دعت إليه الحكومة البريطانية لمعالجة هذه المسألة ، وسيمثل فيه فضلا عن الانجليز والعرب واليهود ، مصر وسوريا والعراق وشرق الأردن والمملكة السعودية واليمن ، بصفتها جميعاً ذات شأن وذات رأى فى مسألة تهم جميع الأمم العربية والإسلامية .

وإقدام الحكومة البريطانية بعد طول التردد على اتخاذ هذه الخطوة الجديدة ، يدل على تطور عميق فى فهم السياسة البريطانية للمسألة الفلسطينية ؛ فبعد أن كانت ترى فيها مسألة انكليزية استعمارية فقط تعالجها بإيفاد اللجان واتخاذ القرارات ، أضحت ترى فيها مسألة عربية إسلامية ، يجب أن تعالج بهذه الصفة ، واستطاعت أخيراً أن تقدر ما تشعر به الأمم العربية جميعاً نحو شقيقتها الصغرى ، من العطف البالغ والتضامن الوثيق ، وما لعواطفها ورأيها من قيمة يجب أن يحسب حسابها فى مستقبل العلائق بين بريطانيا العظمى والعالم العربى .

والواقع أن المسألة الفلسطينية تبلغ اليوم ذروة التفاقم والتعقيد ، فمنذ أكثر من عامين تشهد الأمم العربية ، ويشهد العالم كله ، فى فلسطين ، منظراً يفتت الأكباد ، منظر أمة صغيرة عزلاء تقاتل بكل ما وسعت فى سبيل الاحتفاظ بحقها فى الحياة الحرة الكريمة ، وتأبى أن تخضع للاستعمار القوى يترل بها أقسى ضرباته ، ويحاول بجميع وسائل القمع أن يخضعها لصولته ومشيئته ، وأن يخمد صوتها المدوى الذى ما فتىء يزعجه ، ويذكره بأن للأمم قوى معنوية هائلة لا تقهرها الجيوش .

ومنذ أكثر من عامين ترتدى فلسطين ثوب الحداد الدائم ، فلا تقرأ عنها كل يوم سوى أنباء الحوادث الدامية التى جعلت منها وهى البلد الأمين الوادع ، ساحة حرب مروعة لا يخمد أوارها .

وفلسطين لا تبغى مع ذلك حرباً ولا قتالا ، وكل ما تبغيه هو أن يرد إليها حقها المغصوب ، وأن يرفع عنها كابوس الاستعمار اليهودى الذى فرض عليها بقوة النار والسيف ، وأن تعالج قضيتها بما يحقق أمانيها القومية التى آمن بعدالتها الأصدقاء والخصوم على السواء .

* * *

خرجت فلسطين من الحرب الكبرى كما خرجت معظم الأمم العربية مصفدة بأغلال الاستعمار والاحتلال الأجنبى ، بيد أنها خصت دون غيرها بمحنة لا مثيل لها ، فقد حكم عليها فضلا من وضعها تحت الانتداب البريطانى ، بأن تغدو وطناً قومياً لليهود ، وفقاً لتصريح أصدرته الحكومة البريطانية بذلك قبل نهاية الحرب بعام (نوفمبر سنة ١٩١٧) وهو تصريح بلفور الشهير الذى يبدو اليوم بكل شناعته وكل ما ينطوى عليه من أخطاء سياسية وتاريخية ، والذى يخلق اليوم من المسألة الفلسطينية للسياسة البريطانية مشكلة من أعقد المشاكل وأخطرها .

كان تصريح بلفور بإنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين وليد ظروف وعوامل خاصة ، وكان نتيجة لمساومات السياسة والمصالح المتبادلة ، فى وقت اشتد فيه الأمر على بريطانيا وحلفائها ؛ وعرفت اليهودية أن تنتهز الفرصة السانحة ، وأن تستدر عطف الحلفاء على قضيتها ، وأن تصور حلمها القديم فى صورة أمنية قومية يسهل تحقيقها إذا آزرها الحلفاء كما آزرتهم ؛ وكانت فرنسا أول من استجاب لدعوة اليهودية ، فوجهت حكومتها إلى رئيس اللجنة الصهيونية التنفيذية فى يونيه سنة ١٩١٧ تصريحاً

رسمياً بالعطف والتأييد لمشروع الوطن القومى اليهودى ، ثم تلتها الحكومة البريطانية ، فأصدرت تصريحاً فى ٢ نوفمبر من نفس العام فى صورة خطاب وجهه اللورد بلفور وزير الخارجية إلى اللورد روتشيلد عميـد اليهودية الانكليزية ، وتلى فى مجلس العموم البريطانى ، وهذا نصه : « إن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وسوف تبذل ما فى وسعها لتحقيق هذه الغاية . ومن المفهوم أنه لن يعمل شىء مما قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين ، ولا الحقوق أو المركز السياسى التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر » .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى دخلت الجيوش الانكليزية فلسطين واستولت على بيت المقدس ؛ وبدئ فى الحال بتطبيق عهد بلفور ، وفتحت فلسطين على مصراعيها للمهاجرين اليهود من سائر أنحاء العالم ، ورأت فلسطين نفسها أمام خطر جديد لم يلبث أن بدا بكل روعته ، شبح إفناء يهدد الأمة الفلسطينية فى صميم كيانها ووجودها .

ويكفى لكى نقدر فداحة هذا الخطر الذى يصل اليوم إلى ذروته أن نلقى نظرة على أرقام الهجرة اليهودية ؛ فنى سنة ١٩٢٢ ، بلغ سكان فلسطين ٧٥٧ر٢٠٠ نسمة منهم ٨٣ر٧٩٤ من اليهود والباقى من العرب . وفى سنة ١٩٣٠ بلغ عدد السكان ٨٤٣ر١٣٢ منهم ١٦٢ر٤٦٧ من اليهود ؛ ويبلغ عدد السكان اليوم نحو مليون ومائة ألف ، منهم زهاء ٤٠٠ ألف من اليهود ، أعنى نحو أربعين فى المائة من مجموع سكان فلسطين ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك ما تتمتع به هذه الأقلية القوية من وسائل الكفاح الاقتصادى والاجتماعى ، وما تحظى به من نفوذ قوى فى الحكومة وفى جميع المرافق العامة ، مما يجعلها فى الواقع فى مركز الأكثرية المتحكمة ، أدركنا أى خطر داهم يهدد الأمة الفلسطينية ويقض مضاجعها .

على أن خطر اليهودية على فلسطين لا يقف عند هذا الحد ، فإن اليهودية لا تخفى أنها تنظر إلى فلسطين كأنها أرض الوطن القديم وتراث الآباء والأجداد ، وهى ترجع فى نظريتها هذه إلى ما قبل ألفى عام . وقد كانت اليهودية المشتتة فى أنحاء العالم تعتبر فلسطين دائماً مثوى تراثها الروحى ؛ ولكن الصهيونية تذهب إلى أبعد من ذلك فتعتبر فلسطين ميراث اليهودية المغصوب ، ومقر الوطن القومى اليهودى ؛ وهى لا تذكر فى ذلك حكم التاريخ وقد قضى بأن تؤول فلسطين إلى الأمة العربية ، وأن يفتتحها العرب منذ ألف وثلثمائة وخمسين عاما لتغدو من ذلك التاريخ منزلهم ومثواهم وميراثهم القومى .

ومن ثم فإن الصهيونية ، اعتماداً على هذه النظرية الباطلة ، ترمى إلى تحويل فلسطين إلى أرض يهودية ، ولكنها تخفى غايتها الحقيقية وراء الاعتبارات الاقتصادية ، فتزعم أن فلسطين يمكن أن تتسع من الوجهة الاقتصادية لهجرة ثلاثة ملايين من اليهود .

على أن العرب لم يفتهم منذ الساعة الأولى أن يفطنوا إلى ذلك الخطر الذى يهدد كيانهم ، فمنذ عشرين عاماً تكافح فلسطين هذا الخطر بكل ما وسعت ، وتضطرم بالثورة من آن لآخر ؛ وكان لها فى سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٣ و ١٩٣٦ ، مواقف جهاد رائع ، تجلى فيها عزمها على الذود عن كيانها ووجودها صريحاً قاطعاً ؛ والسياسة البريطانية فيما بين ذلك تلجأ إلى وسائل القمع أحياناً ، وتكتفى بإرسال اللجان ، واتخاذ القرارات النظرية ؛ وقد أيدت هذه اللجان غير مرة عدالة قضية العرب فيما أصابهم من ضروب الحيف والظلم ، وفيما وقع على حقوقهم المشروعة من صنوف العدوان .

ولم تذق فلسطين منذ وثبتها الأخيرة ، أعنى منذ نحو ثلاثة أعوام ، طعماً للسكينة أو الاستقرار ؛ وجرت الحكومة البريطانية ومشت على خطتها المعروفة ، فأرسلت لجنة ملكية

جديدة برآسة اللورد بيل لدرس المسألة الفلسطينية من جديد ، وتقديم ما تراه من مقترحات لحلها ؛ فقامت اللجنة بمهمتها ، وتقدمت في صيف سنة ١٩٣٧ بحل غريب هو أن تقسم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وأن تبقى مدينة القدس منطقة دولية تحت الانتداب البريطاني ، وخصت الدولة اليهودية بالقسم الغربي الساحلي الذي يحتوي على أخصب وأغنى البقاع ، وخصت الدولة العربية بالقسم الشرقي الصحراوي مع اتخاذ ثغر يافا مخرجاً بحرياً له . على أنه ما كاد يذاع مشروع اللجنة لتمزيق فلسطين بهذه الصورة ، حتى قابله العرب بمنتهى السخط والإنكار ، وبادرت الأمم العربية إلى إبداء تضامنها الوثيق مع شقيقتها الصغرى ، فاحتجت على مشروع التقسيم بصفة رسمية ، واضطرمت عواصم العالم العربي كلها بمظاهرات الاحتجاج ، وأعربت الحكومة المصرية في تصريحاتها الرسمية عن تأييدها لفلسطين ، وألفتت الحكومة البريطانية وجهة نظرها في وجوب العمل على إنصاف العرب وتحقيق أمانيهم .

وهكذا فشل مشروع التقسيم منذ البداية ، ولم تبد الحكومة الانجليزية ذاتها حماسة في قبوله ، وكان لما شاهدته من صداه السيء في العالم العربي بلا ريب أكبر الأثر في عدولها عنه ، وفي اتجاهها إلى البحث عن سبل أخرى لحل المسألة الفلسطينية ، وكان أن انتهت بعد أكثر من عامين إلى اتخاذ خطوتها الأخيرة من الدعوة إلى مؤتمر عام تشهده الأمم العربية كلها ، يعقد في أواخر يناير الحالي أو أوائل فبراير .

***

ومن الصعب أن نتكهن الآن بشيء من نتائج هذا المؤتمر ؛ غير أنه يلوح لنا من الحلول التي تقترحها بعض الدول العربية مثل العراق ، وشرق الأردن ، والمملكة السعودية ، والتي أذيع بعضها أخيراً ، أن الرأي مستقر على تأييد فلسطين في المطالبة بأمرين جوهريين ، الأول إلغاء الانتداب البريطاني ، والثاني إلغاء تصريح بلفور بإنشاء الوطن القومي اليهودي ووقف الهجرة اليهودية ؛ والمرجو أن تكون السياسة البريطانية مقتنعة بوجوب الاستماع إلى هذين المطلبين العادلين اللذين يعتبر تحقيقهما شرطاً جوهرياً لأية تسوية للقضية الفلسطينية يمكن أن يرضاها العرب .

وعلى أي حال ، فإن أي حل لا يكفل للعرب حقوق الأكثرية في بلادهم لا يمكن قبوله ، ولابد أن يحصل العرب على المواثيق اللازمة بأن يبقى اليهود دائماً في فلسطين أقلية محدودة ؛ وألا تطغى هذه الأقلية بأي حال على حقوق الأكثرية صاحبة البلاد .

أما الأساس الجديد الذي يمكن أن تبنى عليه علائق فلسطين وبريطانيا العظمى ، فليس من العسير الاتفاق عليه ، ومن الممكن أن تنظم هذه العلائق بمعاهدة فلسطينية بريطانية تحقق للعرب أمانيهم القومية ، وتكفل في الوقت نفسه مصالح بريطانيا المشروعة في الدفاع عن المواصلات الامبراطورية .

ومن المحقق أن بريطانيا العظمى تكسب كثيراً بتحقيق أماني العرب ، ولا يقتصر كسبها على تحويل فلسطين من معسكر خصيم إلى أمة حليفة فقط ، بل يتعدى ذلك إلى تدعيم صداقتها مع باقي الأمم العربية والاسلامية ؛ فأماني فلسطين ، إنما هي أماني العالم العربي والاسلامي كله ؛ والسياسة البريطانية ليست في حاجة إلى المزيد للاقتناع بهذه الحقيقة الساطعة ؛ وإذا كانت بريطانيا اليوم أشد ما تكون حاجة إلى الصداقات فإن العالم العربي كله يمد يده لمصافحتها يوم تحل مسألة فلسطين حلا موفقاً .

وإن مصر لتغتبط إذ تضم صوتها في مؤتمر لندن إلى صوت الأمة الفلسطينية الشقيقة ، مؤيدة مطالبها مصرة على وجوب انصافها ، وإن الشعب المصري كله ليبتهل إلى الله بأن يحقق أماني الشقيقة العزيزة حتى تستطيع بعد طول الكفاح أن تتبوأ مكانتها الحقة بين الأمم .

(***)

الظرف والظرفاء

للأستاذ أحمد أمين

لما بلغت الحضارة الإسلامية أوجها ، في العصر العباسي ، وامتزج العرب بالفرس والهنود والأتراك وغيرهم من الأمم ، وكثرت الأموال وكثر الفراغ ؛ تأنق الناس في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وحديثهم وطرق حياتهم ، وتبع ذلك وجود عادات وتقاليد للطبقة المهذبة من تمسك بها عد ظريفاً ، ومن خرج عنها عد ثقيلا ؛ ورأينا الناس في تلك العصور يلتفتون إلى الظريف ويهتمون به ويبالغون في تقديره والحفاوة به . وكتب الأدب تروى نوادر الظرفاء في أحاديثهم وأفعالهم ، وذلك من أكبر ما يدل على رقة الذوق وسموه .

ومن أظرف ما في ذلك الباب كتاب معروف اسمه « الموشّى » ألفه أديب اسمه أبو الطيب محمد بن إسحق ابن يحيى الوشّاء ، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وفي أوائل الرابع ، ولم نعرف حياته بالتفصيل ، ولكنا نعلم أنه كان نحوياً ، وأخذ النحو عن مشاهير النحويين أمثال ثعلب والمبرد ، وأنه كان معلماً في كتّاب ببغداد ، وألف كتباً كثيرة في النحو واللغة والأدب .

ولعل أفضل كتبه كتاب « الوشى » هذا ، وقيمته الكبرى جاءت من أنه حاول فيه أن يضع قوانين للظرف والظرفاء ، وأن يبين عادات ظرفهم في نواحي حياتهم ؛ وكان غريباً على نحوي ، وعلى معلم كتّاب أن يتجه هذا الاتجاه ، فحقّ أن يتجه إليه إلا ارستقراطي في نزعته غني في بيئته ، متصل بالطبقة الراقية ، واقف على عاداتها ، ولكنا نجد في تاريخ حياته أنه كان يعلّم بعض حظايا الخلفاء ، فهم يذكرون أن « مثنية » إحدى جوارى « المعتمد على الله » كانت من تلاميذه ، وأنه كان يعلّم في قصور الخلفاء . فلعل هذه النزعة جاءت من هذا الاتصال بالبلاط العباسي ، وناهيك بما كان فيه من ترف ونعيم ، وظرافة ولباقة .

في هذا الكتاب الصغير ثروة كبيرة من الذوق ، وفيه يحاول أن يضع قوانين للظرف ، وفي هذا مشقة كبيرة ، إذ أن هذا العمل يتطلب اطلاعاً واسعاً على معيشة ظراف الناس ، وطرقهم في الحياة ، كما يتطلب دقة في الملاحظة وسمواً في الذوق ؛ وفوق ذلك فإن الذوق من قديم صعب تحليله ، وصعب شرحه ، وصعب ضبطه ، ولكنه تغلب على هذه الصعوبات جميعها ، ونجح في عمله نجاحاً كبيراً .

ففيه فصل طريف عنوانه « شرائع المروءة وصفتها » ، ينقل فيه أنظار الناس إلى ما هي المروءة ، فيذكر أن بعض حكماء الفرس سئل : أي شيء أشد تهجيناً للمروءة ؟ فقال : « للملوك صغر الهمة ، وللعلماء الصلف ، وللفقهاء الدوى ، وللنساء قلة الحياء ، وللعامة الكذب » . وروَى عن ابن عمر أنه قال : « ما حلى رجل حلا أنقل من المروءة » ؛ فقال له أصحابه : صف لنا ذلك . فقال : « ما له عندى حد أعرفه ، إلا أنى ما استحييت من شيء قط علانية إلا استحييت منه سراً » . وكان أيوب السجستاني يقول : « لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان : العفة عن الناس والتجاوز عنهم » .

وهكذا ظل يروى آراء الناس من فرس وعرب ، وغيرهم في المروءة ، ثم استخلص قوانينها .

* * *

وعقد في الكتاب باباً سماه « سنن الظرف » ، فحدثنا فيه أنه كان يسأل العلماء والأدباء عن رأيهم في الظارف ، ويسأل « بعض متظرفات القصور » عن رأيهن في الظرف ، ثم قص علينا قصصاً قصيرة لحوادث جرت للظرفاء ،

وكيف فالوا ، وكيف تصرفوا ؟ ويخرج من ذلك كله إلى قوله : « إن الظرف أنبل ما استعمله العقلاء ، وصبا إليه الأدباء ، وتزينوا به عند أوداّئهم ، وتحلوا به عند أخلائهم ؛ وربما تكلفه قوم ليسوا من أهله ، وإنه من المطبوعين أحسن منه من المتكلفين ، والمتكلف علامات تظهر في حركاته ، وتبين في لحظاته ، لا يسترها بتصنعه ، ولا تغيب بتستره ، وإن المطبوع على الظرف ليشهد له القلب عند معاينته بحلاوته ، وتسكن النفس عند لقائه إلى مجالسته ، ودلائله واضحة في مشيته وزيه ولفظه » الخ . ومن رأيه أن أكبر علامات الظرف الحب ، وقد دعاه ذلك إلى أن يستعرض الحب وأنواعه ، وطائفة ممن أحبوا فعفوا ، ومن أحبوا فسقطوا ؛ وصوّر لنا صورة صادقة لبيوت القيان في بغداد في عصره ، وكيف كانت تتدفق فيها الأموال ، وكيف كانت تلعب القيان بعقول الشبان ، ويظهرن لهم الود والحب ، حتى يأتين على أموالهم ، فإذا الحب ينقلب إلى صد وطرد ؛ وتاريخ كل مدنية يعيد نفسه .

ثم أخذ يفصل ما أجمل ، فيذكر لنا عادات الظرفاء في كل باب من أبواب الحياة .

فقص علينا أن الظرفاء يتجنبون في الملبس الألوان الزاهية ، فهو يقول : « ليس يستحسن لبس الثياب الشنعة الألوان ، المصبوغة بالطيب والزعفران ، لأن ذلك من لبس النساء ، ولبس القينات والاماء » . ويلتفت إلى شيء دقيق جدا ، وهو أن عادة الظرفاء مراعاة الانسجام في ألوان ما يلبسون ، فيختم الباب بقوله : « وأحسن الزي ما تشاكل واتطبق ، وتقارب واتفق » .

وأبان عادة الظرفاء في لبس النعال وألوانها ، وزيهم في الخواتم والفصوص والتعطر والطيب ، والفروق الدقيقة في ذلك كله بين الرجال والنساء .

ثم ذكر عادة الظرفاء في الطعام ، فهم يصغرون اللقم ، ويتحرزون من الشره ، ولا يزحمون ما بين أيديهم من الرقفان ، ولا يلطخون أصابعهم ، ولا يعجلون في مضغهم ولا يجاوزون ما بين أيديهم ، ولا يأكلون شيئاً من الكواميخ والمالح ولا يتخللون على المائدة قبل أن تفرغ ، الخ .

وقد ذكر أن أحب شيء إلى الظرفاء من الأزهار الورد ، ففضلوه على غيره وأطنبوا في مدحه ، وأفرطوا في نعت حسنه ، وشبهوه بالوجنات الحمر ، ونسبوه إلى الخمر ، وحيي بعضهم بعضاً به فقال بعضهم :

عشية حياني بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وقال آخر :

تمتع من الورد القليل بقاؤه ... فإنك لم يفجعك إلا فناؤه
وودعه بالتقبيل والشم والبكا ... وداع حبيب بعد حول لقاؤه

ولا يعدل الورد عند الظرفاء في الأزهار ، إلا التفاح في الأثمار ، فكانوا يرون أن التفاح يهدئ أشجانهم ، ويسكن أحزانهم ، وليس في هداياهم ما يعادله ، ولا في ألطافهم ما يشاكله ، ولهم عند نظرهم إليه أنين ، وعند استنشاق رائحته حنين . وقد تفننوا في إهدائه ، وكتابة الأشعار ووضع الرموز عليه .

ثم نراه بعد ذلك انتقل من الظرف في الحسيات إلى الظرف في المعنويات ، فالأدباء الظرفاء « لا يداخلون أحداً في حديثه ، ولا يتطلعون على قارئ في كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مُسرّ سرّه ، ولا يسألون عما ووري عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه ، والظرفاء لا يتثاءبون (في المجلس) ولا يتمطون ولا يفرقعون أكفهم ، ولا يشبكون أصابعهم ، ولا يمدون أرجلهم ، ولا يحكون أجسادهم ، ولا يعبثون بأنوفهم . . . ولهم حسن التأني فيما يريدونه ، ولطيف الحيل فيما يحاولونه ، وحق التلطف لما يطلبونه ، حوائجهم سرية ، وسرائرهم

مخفية ، وحيلهم لطيفة ، يوردون الأمور مواردها ، ويصدرونها مصادرها » .

ثم ذكر أنهم إذا أهدوا فهم يهدون الشيء اللطيف الخفيف « كالتفاحة الواحدة والأترجة الواحدة ، والغصن من الريحان ، والطاقة من النرجس ، وغير ذلك من الشيء القليل ، فتستحسن هداياهم وتستظرف ، ويفرح بها ويستطرف . . . ومن ذلك كتبهم الملاح ، وألفاظهم الصحاح ، التي يستعطفون بها القلوب ، ويسترون بها العيوب ، وما يضمنونها من مليح المكاتبة وطرائف المعاتبة ، وجميل المطالبة وشكيل الداعبة » .

وقد أحال « ما يجب على ظرفاء الكتاب » على كتاب له آخر وضعه لهذا الغرض سماه « فرج المهج » لم نعثر عليه .

غير أنه أورد في كتابنا هذا نماذج من مكاتبات الظرفاء نعرض للقارئ نموذجا منها : كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات — سروري إذا رأيتك كوحشتي لك إذا لم أرك ، وحفظي لك مغيبك ، كودتي لك في مشهدك ، وإني لصافي الأديم ، غير نغِل ولا متغير ، فامنحني من مودتك ، مزين لذاذة مشربك ، وكن لي كأنا ، فوالله ما عجبت من ناحيتك إلا وأنا محنى الضلوع إليك والسلام . فكتب إليه محمد — يا أخي ما زلت عن مودتك ، ولا حلت عن أخوتك ، ولا استبطأت نفسي لك ، ولا استزدتها في محبتك ، وإن شخصك لماثل نصب طرفي ، ولقلما يخلو من ذكرك قلبي ، ولله در الذي يقول :

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى
لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي
يذكرنيك الشوق حتى كأنني
أناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

وكتب بعض الظرفاء إلى صديق له : « أبدك الله بوفاء

الأدب من النزوع إلى الجفاء ، وجعل آخر سخطك موصولاً بأول الرضاء والسلام » .

وهكذا يمضي في استعراض نماذج للظرفاء من النثر والشعر . ثم يحكي لنا ما كان يتفنن فيه الظرفاء من نقش جمل فنية أو أشعار رقيقة على خواتيمهم وعلى تفاحهم ، وما كان ينقشه ظراف الجوارى على قمصانهن وأرديتهن وأكمامهن وعصائبهن ومناديلهن وزنانيرهن ، وعلى نعالهن وخفافهن ، وما كن يكتبنه بالحناء على راحهن وأقدامهن ، وما كان يكتب الظرفاء من الأشعار الرقيقة على القناني والكاسات والأقداح وأواني الفضة والذهب ، وعلى آلات الموسيقى من العيدان والطبول والدفوف والنايات ، وما كان يتفنن به الأدباء من إهداء أقلام قد نقش عليها أبيات ظراف .

وختم كتابه بقوله : « هذه جملة مما بلغنا وفيها كفاية لمن اكتفى ، وبيان لمن تبين واقتفى . وما استوعبنا كل ما انتهى إلينا ، ولو قصدنا إلى تكثيره لما استصعب علينا . . وقد أدينا بعض ما بلغنا ، ووصفنا بعض ما استحسنا . . . وإلى الله نرغب في السلامة والسلام .

هذا عرض سريع لكتاب واحد في الظرف والظرفاء يدلنا على ما كان للحضارة الاسلامية من عناية حتى في أدق الأمور وأرقها وأظرفها ، وأنها لم يفتها شيء حتى في وضع قوانين للياقة أو « الاتيكيت » كما يسمونها ، وأن ذلك الكتاب القيم يصف حالة اجتماعية رآها مؤلفه ، وقد مضى عليها الآن أكثر من ألف عام ، فماذا يكون شأنها لو سارت في طريقها من غير أن يعوقها عائق أو يدمرها مدمر ؟(١)

أحمد أمين

(١) يسمى هذا الكتاب كتاب الوشى وقد طبع في « ليدن » سنة ١٨٨٦ طبعة أنيقة ، ثم طبع في مصر سنة ١٩٠٧ طبعة رخيصة وضيعة .

الثقافة والنظر الأخلاقي

للأستاذ محمد خلف الله

المدرس بكلية الآداب

يستعمل الكتّاب المعاصرون كلمة « ثقافة » يريدون بها في الغالب ما يريده إخوانهم الغربيون من كلمة (Culture) وقد اقترن حظ الكلمة العربية بحظ نظيرتها من بنات الفرنجة . فكل تحديد في معنى الثانية يتردد صداه في معنى الأولى

فأما الكلمة الغربية فقد ظلت حينا غير واضحة المعالم ، خصوصا بين علماء الاجتماع وعلماء الانسان ، فكان ما يسميه الأولون إنتاجا أو تراثا اجتماعيا أو تقاليد ، يسميه الآخرون ثقافة ويعرفونه بأنه « مجموع ما أنتج الانسان من حضارة » ، وأحيانا يجعلونه و « المدنية » (Civilisation) مترادفين ، ومنهم من لا يرتضي هذا الترادف فيعتبر الثقافة أوسع مدلولا من المدنية ، إذ الأولى تشمل الأنظمة والمعتقدات التي صاحبت الانسان الأول في أدوار ترقيه من وحشية وهمجية وحياة فطرية ساذجة ، حتى وصل في سلم الترقي إلى ما يسمى دور المدنية . على أن كثيرا من علماء التاريخ والاجتماع ، إذ يستعملون (Culture) ، إنما يعنون بها على العموم الصفات العامة المميزة لحياة قوم من الأقوام

* * *

أما كلمتنا العربية فهي في قواميسنا اللغوية أحد مصادر ثَقُفَ (على وزن كَرُمَ) أي صار حاذقا خفيفا فطنا ، والثِّقاف ما تسوّى به الرماح وثقفه (بالتشديد) سوّاه ، فالمادة كما ترى في مدلولاتها الأصلية والمجازية تفيد الوصف بالخفة والحذق وكون الشيء أو الشخص مسوّى مقوما .

ونحن في أسلوبنا العادي إذ نصف شخصا بأنه مثقف نعني أنه وافر الأدب ، جم التهذيب ، مصقول الجوانب . وقد نتوسع فنعني بذلك كونه على جانب من العلم والأدب والمعرفة ، ونضع المناهج للطلاب فنفرد فيها طائفة من البحوث العامة في الآداب والفنون نسميها « ثقافة عامة » ، ونؤلف في الأدب فنبحث أثر الثقافات المختلفة فيه ، ونفرق بين طوائف الكتاب والشعراء عندنا ، فنقول إن ثقافة هذا عربية خالصة ، وإن هذا قد أخذ بحظ من الثقافة الانجليزية أو الفرنسية ، وإن ثقافة من نوع خاص تغلب في هذه أو تلك من المدارس

ولو أن سائلا سألنا : « ما الفرق بين الثقافة والمدنية ؟ » لكان من المحتمل أن يجيب بعضنا : إنهما مترادفان ، ويجيب الآخرون : إن الثقافة ناحية من نواحي المدنية ، وقد يجيء بعضنا بجواب غير هذين

* * *

هذا الغموض في لفظتين كثيرتي الورود في الدراسات الانسانية حدا ببعض العلماء المحدثين من الغربيين (وعلى الخصوص من الألمان والانجليز) أن يحددوا معنى كل من اللفظتين ، فاعتبروا الثقافة (Culture) الناحية الروحية من حياة الناس ، والمدنية (Civilisaiton) الناحية المادية منها : فثقافة أمة ما — على هذا — تشمل دينها وأدبها ونظمها الأخلاقية وتقاليدها وأساطيرها والنواحي الوجدانية من فنونها . أما علومها ومخترعاتها وما إلى ذلك من جوانب حياتها فانها تدخل تحت مدلول المدنية .

* * *

وبعد فان أهم ما يقصده العلماء من مثل هذا التحديد أن يحللوا الظواهر الانسانية إلى عواملها ، حتى يصلوا بتحليلهم إلى البسيط منها ، وحتى يضعوا دراسة الانسان في مختلف شعبها على أساس علمي مضبوط . وقد خطوا في هذه السبيل خطوات موفقة فحددوا مفاهيم الذكاء

والنبوغ والعاطفة والوجدان والخلق والمزاج وطائفة أخرى كبيرة من الحدود لم يكن الناس يتفقون على مدلولاتها فى خطابهم أو فى كتاباتهم . وفكرة الثقافة تشغل الآن حيزاً كبيراً فى دراسات علم النفس الاجتماعى ، وعلى الخصوص ما ارتبط منها بموازنة ثقافة بثقافة ، أو بدراسة تأثير إحدى ثقافتين فى الأخرى

هذه الناحية الأخيرة من دراسة الثقافة — إلى طرافتها — تهم مصر بوجه خاص ، ذلك لأن بلدنا لا يزال يرسل من خيرة شبابه المتعلمين مجموعات كبيرة إلى الممالك الراقية ، يدرسون فى معاهدها ، ويعيشون بين أهلها ، ويأخذون بحظ كبير من آدابها وعلومها ، وهم لا شك يحملون معهم إلى الخارج نوعاً من الثقافة (مصريا غربيا) ، فما يلقون عصا التسيار فى بلد غربى حتى تجد ثقافتهم بيئة جديدة ذات مظهر واضح فى حياتها واجتماعها ، فتحتك الثقافتان ، وتتبادلان التأثير ، كل حسب قوتها وعناصر الحياة فيها . وإذا عرفنا أن كثيراً من المصريين يقضون فى الخارج عدداً من السنوات ، أدركنا مبلغ تعرضهم للتأثر الثقافى فى البيئات الأوربية المختلفة ، وما قد ينجم عن ذلك بعد رجوعهم إلى مصر من اختلاف فى وجهات النظر وفى المقاييس الأخلاقية والاجتماعية التى تنظم سلوك الأفراد وتفكيرهم

شغلت هذه الناحية بعض تفكير المصريين فى انجلترا ، فجعلوها موضع المحاضرة والمناظرة فى النادى المصرى «بلندن» وفى نادى الفراعنة «بكمبردج» وعمل عليها بحث «سيكولوجى» تناول أثر الثقافة فى النظر الأخلاقى ، بأن درس مجموعتين اختلفتا ثقافة ، وتشابهتا عدداً وذكاء ، وتعليما (على قدر المستطاع) : إحداهما مجموعة الطلبة المصريين فى الجامعات الانجليزية ، والأخرى مجموعة مساوية لها من الطلبة الانجليز فى جامعة لندن

وأهم ما يلفت النظر من نتائج هذا البحث أن أنواع المقاييس الأخلاقية لم تختلف كثيراً فى المجموعتين ، فقد انقسم أفراد كل منهما — من حيث وجهة النظر فى الحكم على بعض الحوادث الأخلاقية — أربعة أقسام :

(١) فريق جعلوا نصب أعينهم ما يترتب على العمل من نتائج مادية .

(٢) وفريق غلبوا جانب الأثر الاجتماعى للعمل الذى يحكمون عليه .

(٣) وآخرون نظروا إلى وحى الضمير فقرروا أن الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى

(٤) وفريق رابع نظروا إلى الناحيتين معا : ناحية الضمير ، وناحية الأثر الاجتماعى ، واعتبروهما متكاملتين لا غنى لاحداهما عن الأخرى

ومن الطريف أن تطبيق هذا البحث — فى شكل معدل — على حوالى ثلثمائة من الأطفال الانجليز بين السادسة والثانية عشرة من العمر ، برهن على أن هذا التقسيم — أو ما يقرب منه — موجود بين الأطفال أيضا .

وإذا نظرت إلى الأفراد من حيث موقفهم من مصدر المسئولية الأخلاقية وجدتهم ينقسمون فرقا قريبة من هذه . فمنهم من يأخذ المسئولية كما يفرضها عليه سلطان خارجى ، ومنهم من يستمد سلطتها من العرف والاجتماع ، ومنهم من يرجعها إلى وازع الضمير ، ومنهم من يعتبرها منبعثة عن مصدرين : صوت الضمير ، وروح الاجتماع

كذلك تشابهت المجموعتان من حيث القواعد العامة التى كانت هادية لأفراد كل منهما فى حكمهم على بعض الجرائم الأخلاقية :

ا — فأفظع الجرائم فى نظرهم ما أدى إلى انتهاك حرمة الحياة الانسانية وخرق نظام العدل بين الناس

ب — وأقل من هذه سوءاً ما عاد بالضرر على الناس وزعزع الثقة والاطمئنان بين الأفراد ، كالسرقة والكذب والنفاق

حـ — وأقل الأنواع قبحا تلك التي يمكن أن تعتبر نقائص في ذات مرتكبها، وضعفا في شخصيته، لا يتعدى أثره في الغالب إلى غيره من الناس، كالسكر، والجرى وراء الشهوات الجنسية غير المشروعة

* * *

أما ناحية الخلاف بين الثقافتين. وهي التي تهمنا أكثر. فقد تجلت — لا في الفروق بين المصريين والانجليز فحسب — ولكن أيضا بين المصريين أنفسهم، حسب مدة إقامتهم في انجلترا

ظهر أحد هذه الفروق في موقف أفراد كل من المجموعتين تجاه المشكلات الأخلاقية والاجتماعية التي تواجه الناس في حياتهم اليومية: من تعارض العقل والرغبة، وتصادم المبادئ الروحية والمادية، والتوفيق بين إطاعة السلطة من جهة، والتمسك بالحرية الشخصية من جهة أخرى. فقد جاءت إجابات الانجليز عن هذه المسائل مقررة لمبدأ الفردية، فالفرد هو الذي يحكم بين عقله ورغبته، وهو الذي يحاول أن يفهم الدين والقانون فهما مستقلا، والحرية الشخصية مقدمة عندهم على إطاعة السلطة (إلا عند ٣٠٪ منهم وهؤلاء اشترطوا أن تكون السلطة عادلة).

أما الاجابات المصرية فقد برهنت على نقص ظاهر في نواحي الحرية الفردية. وتجلى الأفراد في مظهر المغلوب على أمره، الذي تنزو به رغباته الجامحة فلا يستطيع إلى ردها سبيلا. وكانت الغالبية المصرية في جانب إطاعة السلطة إذا تعارضت ومبدأ الحرية الفردية

اختلفت وجهة النظر الأخلاقية عند المجموعة المصرية — كما أشرنا — حسب اختلاف المدة التي قضاها كل فرد في انجلترا: فالوافدون حديثا من مصر لا يرون في السلوك الانجليزي شيئا كثيرا جديرا بالاعجاب، ولا يروقهم من الأنظمة الانجليزية (أخلاقية واجتماعية) شيء كثير يستحق أن يوصي المصريون بتقليده. وآراء هذا الفريق الذي لم تمض عليه بعد سنة واحدة في انجلترا، تبرز النتيجة التي وصل إليها البحث، وهي أن الغالب أن هذه السنة الأولى سنة مقاومة فعالة أو سالبة من جانب القادم الجديد لما حوله من الظروف والمؤثرات، فهو ينظر إلى كل شيء نظرة قلق وإبهام، وهو مشغول بأن يثبت قدمه في هذه الأرض الغريبة ويتغلب على صعوبات اللغة وظروف الاجتماع

أما الفريق الثاني وهم الذين مضى على إقامتهم في انجلترا سنتان أو ثلاث أو أربع، فقد أثبت البحث وجود ظاهرتين متعارضتين فيهم تسبق إحداهما الأخرى وتجر إليها: الأولى تفكك في الشخصية، وإهمال لقوانين الأخلاق، وإطاعة للرغبات والأهواء، واستهتار بالعرف والمجتمع، والثانية تربية الخلق من جديد، وتهذيب الوجدانات والانفعالات وضبطها، والاقتداء بالانجليز في هدوئهم وتريثهم ومعالجتهم الأمور في روح الحكمة والحزم، وتوفيقهم بين حرية الفرد وإطاعة القوانين

وأظهر ما لوحظ في الفريق الثالث (وهم من زادت مدتهم على أربع سنوات أو خمس، وفرغوا من دراستهم، وأوشكوا أن يشدوا رحالهم إلى وطنهم) أنهم مشغولون بتنظيم شخصياتهم، والتوفيق بين عناصرها، وإقرار كل شيء في نصابه، واعتبار الأخلاقية مظهرا للشخصية الكاملة يتعاون فيها الظاهر والباطن، والنظر إلى الدين لا على أنه نظام مفروض فرضا، ولا على أنه شيء يتبدد وراء الظهور، ولكن على أنه شرعة منظمة للحياة، موجهة لها، معينة على إصلاح نواحيها المختلفة. وإذا سئل هؤلاء: «ما الذي تظنون أنكم استفدتموه مدة إقامتكم في انجلترا؟» أجاب معظمهم: «تهذيب الشخصية واتخاذ قانون أخلاق حر منظم للسلوك»

ولقد يطول بنا القول لو أننا أردنا الاستشهاد لما ذكرنا من النقط، ولكنا نكتفي بذكر النتائج العامة التي أدى

(البقية على صفحة ١٧)



عادت الفتاة بعد أسبوع وطرحت أمامي الكتاب ، وتنفست الصعداء كأنها تلقي حملا ثقيلا . فبادرت أسألها وأنا أحد البصر إليها قلقاً :

— أقرأته ؟

فتجنبت النظر إليّ . وقالت :

— بضع صفحات وضاق صدري ...

فتنفست الصعداء أنا بدوري ، اطمئناناً . إنها إذن لم تعرف شيئاً مما احتواه . غير أن شعور الراحة هذا لم يطل كثيراً . فسرعان ما انقلب الأمر ، وأحسست الأسف والغيظ وخيبة الرجاء لما حدث . فالتفت إليها قائلا في صوت الحانق :

— إذن فشلت التجربة !

فقالت وهي تصبغ شفتيها بأصبع الأحمر :

— ليس الذنب ذنبي .

فلم يعجبني هذا الجواب . ولم أرض كثيراً عن مسلكها . وهممت أن أنهرها طالباً إليها أن تكف عن هذا التزين والتصنع في حضرتي ، وأن تحرص قليلا على احترام الفكر . ولكني ذكرت أن ليس لي عليها هذا الحق . وأن الذنب حقيقة ذنبي ؛ إذ أسرفت في حسن الظن بعقلها ، ووضعت بين يديها كتاباً لا تستطيع أن تقدر قيمته .

وفرغت من أمر تبرجها . فالتفتت إليّ وقرأت على وجهي كل تلك المشاعر ، فابتسمت وقالت :

— أغضبت ؟ ألم تقل لي إنك تكتفي مني بقراءة بضع صفحات ؟ ها أنذا قد فعلت !

نعم . لقد قلت لها ذلك حقاً . فما الذي أغضبني ؟ لا شك أن في نفسي منبعاً مجهولا تنبعث منه كل هذه المشاعر المتناقضة . فنظرت إليها وقد عاد إليّ الهدوء :

— نعم ...

ثم تفكرت قليلا وقلت وأنا أعبث بصفحات الكتاب :

— وما الذي منعك عن المضي في قراءته ؟

فقالت وهي مطرقة :

— الملل .

فقلت لها :

— إنه ليس كتاباً مملا . شهد الله لقد استيقظت في جوف الليل لأقرأ فيه . ولم يستطع النوم أن يقهرني وهو معي .!

فقالت في ابتسامة غامضة :

— لا أعجب . إنك تحب سير الرهبان والمعتزلين . أما أنا فما الذي يحملني على متابعة القراءة في صفحات كلها وصف لنساك الصحراء الذين يعيشون في بطون الرمال مع العقارب والثعابين ، وينفقون شبابهم وأعمارهم مع أطياف الملائكة وأشباح العفاريت ؟!

ونظرت الفتاة حولها على الرغم منها . وجال بصرها في المكان . وانتقلت عيناها سريعاً من أكداس الكتب القديمة المرصوصة كأنها المقابر تحوي أفكاراً بغير جماجم وأرواحا بغير أجساد ، إلى النافذة المغلقة التي تحجب الشمس

والهواء كأنها فوهة جب أو كوة دير ، إلى ذلك المصباح الأخضر الذى يشرف على حياتى المظلمة بأجنحته النورانية كأنه ملاك لطيف ، ويفترس فى ذات الوقت أعمار ليالىّ الجميلة ليلة ليلة كأنه غول أو عفريت مخيف !

وعاد بصرها من هذه الرحلة القصيرة فى أنحاء المكان ووقع علىّ . وأحسست شعاع عينيها ينفذ فى روحى . فأطرقت .

وساد صمت قطعته الفتاة بقولها :

— إنى بدأت أرتاب ...

لفظتها فى صوت منخفض وكأنها تخاطب نفسها .

فرفعت رأسى وقد سرت فى جسمى رعدة .

وأردت أن أستفسرها مرمى عبارتها ، ولكنها سبقت فى الكلام :

— أتذكر يوم جئتك أول مرة ، ورأيت نور الشمس لا يدخل هذا المكان ؟

فقلت كمن لا يفهم المقصود :

— نعم . . أذكر .

فمضت تقول :

— أتذكر ماذا أجبتنى عند ذاك ؟

فقلت :

— لا . لست أذكر .

فقالت للفور :

— لقد كان جوابك : إنا نكتفى دائماً بالنور المضىء فى نفوسنا !

فقلت كمن يؤمن على قول بديهى أو نص سماوى :

— هذا صحيح .

فبادرت تقول :

— لا . هذا ليس بصحيح .

فحملقت فيها دهشاً . ورأت اتساع حدقتى . فقالت باسمة :

— أيدهشك هذا القول ؟ أظنك ستدهش أيضاً إذا قلت لك شيئاً آخر !

— ماذا ستقولين ؟

— شيئاً لا يخطر لك على بال .

— إن خيال الروائى يتسع لكل شىء .

فابتسمت مرتابة :

— إلا ما سأقول . .

فلم أطق صبراً :

— إذن قولى وأسرعى . إنك بارعة فى التشويق .

فقالت فى تؤدة :

— أريد أن أرجو منك أن تشرفنى بالحضور لتشاهدنى فى لعب « التنيس » صباح الغد .

فنظرت إليها ملياً لأرى مبلغ جدها من هزلها . ونظرت إلىّ خائفة لترى مبلغ حلمى من غضبى ... وفكرت فى الأمر . ماذا أقول لهذه الفتاة ؟ ! لكن ... قبل كل شىء لا ينبغى أن أثور . ولتأخذ الأمور باللين والرفق .

— أيتها الآنسة . ماذا تقصدين ؟

فنظرت إلىّ بعينين مبتسمتين :

— أكلامى مغلق مظلم يحتاج إلى نور كثير ؟

— من غير شك .

فحدجتنى بنظرة غريبة :

— تقول هذا ، أنت الذى اعتدت الحياة فيما هو مغلق مظلم ! ...

فصدمتنى هذه الجملة . ولكنها أسرعت تشير بيدها إلى المكان :

— لست أقصد طبعاً غير هذا !

فلم أحر جواباً . ولبثت بلا حراك أنظر إليها وأسأل نفسى : أتراها ترسل الكلام بسيطاً بريئاً ، أم أنها تنطق بكلام مبطن بمعان أخرى غير المدلول الظاهر ؟ إذا كان هذا الأمر الأخير فهو عجب من العجب ! ولى أن أبحث

عما ترمى إليه أولا ، وعما علمها لغة الرموز ثانياً . على أنه يحسن بى أن أحتاط . فلا شىء منها يتم بعد عن أنجاد بعينه . ويخيل دائماً أن أمر الظن يهواجسى . فليست هذه أول مرة تختلط فيها الأشياء برأسى . إن خيالى الذى اعتاد طويلا خلق الأشباح من الحقائق ، وذهنى الذى تعمره مخلوقات ، بعضها يعيش فى الحياة وبعضها يعيش فى الكتب ، ونفسى التى تسبح فى أعماقها عوالم ، وتقوم بين طياتها دول وتدول دول ، وتشرق شموس وتغيب شموس . وروحى المنعزلة التى تدور فى فلك لها يسدمها بعيدة عن مدار الأرض . كل هذا يقصينى أحياناً عن حقائق هذه الحياة . ويضعنى فى موضع من يرى الدنيا من خلال كرة بلورية يحملها يد ساحر ساحر ، فوق دخان البخور وغمام الأوهام ! على أن هذا الساحر فى حالتى إنما هو أنا نفسى . نعم أنا الذى صنعت بيدى كرة البلور . أنا الذى خلقت من مادة ذهنى دنيا أخرى ، مماثلة للأولى . أنا الذى أضع كلا العالمين فى كف . وإذا أنا ألعب بالكرتين لعب الحواة حتى التبس على الأمر . وما عدت أميز عالم الوهم من عالم الحقيقة . نعم ، تلك كارثتى الكبرى . وتلك هى النقمة التى تصب على كل ساحر !

* * *

واسترسلت فى تأملاتى حتى نسيت وجود الفتاة . وإذا صوتها الرقيق ينبهنى ويخرجنى إلى منطقة الوعى .

— لم أتلق جوابك بعد . أتأتى لتشاهدنى غداً ؟

— لتشاهدتك غداً ؟

— فى لعب « التنبى » كما قلت لك .

فقلت كالمخاطب لنفسى :

— ما شاء الله ! ما شاء الله !

فقالت باسمة :

— ليس هذا جواباً .

فقلت حانقاً :

— أهنئك وأهنئ نفسى لهذا النجاح الباهر ! لم يكفنا العجز عن إدخالك عالم الفكر ، حتى تعملى أنت على إخراجنا إلى عالم اللعب ! !

فرأيت منها أنها ضحكت . نعم ، ضحكت بفمها الجميل ضحك السرور المرح ، ومضت فى ذلك وأكثرت ، حتى كادت تضحكنى ، وخشيت على جلال موقفى ، وعلى طبيعتى الجادة ، وعلى سمو العلاقة التى بيننا ، ونبل الغاية التى نرمى إليها ، فلكت نفسى فى الحال ، وقلت فى شىء من الصرامة :

— أخبرينى ، كيف خطرت لك هذه الفكرة ؟ وما الذى دفعك اليوم إلى مثل هذا الطلب ؟ وكيف تهيأ لك أن تحادثينى فى مثل هذه الأشياء ؟ ولماذا ؟ . .

فقاطعتنى قائلة :

— السبب بسيط .

وسكتت كالمفكرة . فاستعجلتها :

— ما هو هذا السبب البسيط ؟

فرفعت رأسها :

— تلك الصفحات التى قرأتها من كتاب « تاييس » أفهمتنى أن الراهب « بافنوس » هو الذى ذهب إلى الغانية فى ملعبها لينتشلها . أنت أيضا ينبغى أن تفعل ذلك . يجب أن تهبط إلى ملعبى لترتفع بى . هكذا يفعل الرسل والأنبياء دائما . يهبطون إلى الناس ، حتى يستطيعوا بعد ذلك أن يصعدوا بهم إلى السماء . ولم يحدث قط غير ذلك . ولا تنتظر أن أصعد أنا إليك تواً بغير أن تهبط أنت إلىّ ، وتأخذ بيدى

سمعت منها هذا الكلام وأنا لا أكاد أصدق أذنى . . ولقد اشتبه على الأمر ، وخيل إلى أنها سريرتى التى تدوى بهذا الكلام وتصبه فى أذنى . . . ولكن فم الفتاة يتحرك وصوتها ينطلق جلياً صافياً كأنه يتدفق من ينبوع ! . . .

توفيق الحكيم

الحسن الصباح

فيلسوف ومتآمر

وزعيم ديني وسياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في أواخر القرن الخامس الهجري ، بينما كانت الدولة الفاطمية بمصر ترفع لواء الشيعة الديني والسياسي ، كانت الدعوة الشيعية في فارس والعراق ، تتمخض عن فرقة أخرى تنتمي كالخلافة الفاطمية إلى الامامة الاسماعيلية ، وتشق طريقها إلى السلطان والملك بأساليب عجيبة لم تعرفها من قبل أية فرقة إسلامية أخرى . وكان سلطان الشيعة السياسي الذي حققه الفاطميون في مصر بفتوحهم وإقامة دولتهم الباذخة ، قد أخذ في الضعف والانحلال . ولكن الدعوة الشيعية لبثت مع ذلك قوية تضطرم في المشرق . وكانت تتجه دائماً إلى الخلافة الفاطمية لتستمد منها الالهام والعضد الروحي ، ولكنها كانت تتخذ مع ذلك صبغة محلية تكيفها الحوادث والظروف .

وكانت هذه الفرقة المذهبية الجديدة تنطوي منذ البداية تحت علم الامامة الاسماعيلية ، بيد أنها عرفت فيما بعد في مختلف الأقطار بأسماء مختلفة مثل الملحدة والمزدكية والتعليمية والباطنية ، وعرفت في الشام أيام الصليبيين بالحشيشية . والباطنية أشهر ألقابهم وأخصها ، أطلق عليهم لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تأويل تنزيلا (١) . ولأنهم من جهة أخرى كانوا يحرصون على كتمان دعوتهم وغاياتهم (٢) يبثونها في الخفاء ، ولا يبدونها إلا لخاصة الصحب والتلاميذ .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩ (هامش الفصل)

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ .

ومؤسس هذه الدعوة الاسماعيلية الباطنية وواضع أصولها ومنظم دعاتها رجل تقدم لنا سيرته العجيبة صفحة من أغرب صحف الدعوات السرية ، هو الحسن بن علي الصباح الحميري ، وهو شخصية تذكرنا أعمالها وقوة خلالها بأعظم زعماء الحركات السرية والارهابية الحديثة ، بل سنرى فيما يلي أن الحركات الثورية والارهابية الحديثة التي هزت أركان العروش والدول ، قد تقتبس كثيراً من نظمها وتعاليمها السرية من نظم الحسن وتعاليمه ، وأن الحسن كان إمام هذا الفن وأستاذه الذي لا يجارى .

كان الحسن الصباح إماماً من أئمة الدعوة السرية في عصر كانت الدعوة فيه أنفذ سلاح لغزو المجتمعات والجماهير . وكان قطباً من أقطاب الخفاء يحيطه الخفاء بسياج من القوة والروع ، وكانت فلسفته أعظم عناصر قوته ، ذلك لأن الحسن لم يكن متآمراً وداعية فقط ، بل كان أيضاً كما سنرى فيلسوفاً يطبع فلسفته كثير من الذكاء والطرافة ؛ وكان ينظر من خلال فلسفته إلى العالم والمجتمع بمنظاره الخاص ، ويتخذ منها قانوناً خاصاً للحكم على الأشخاص والأشياء والحوادث .

***

ظهر الحسن في عصر كان الاسلام يستقبل فيه مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، ويستجمع قواه ليخوض مع النصرانية في ميدان الحروب الصليبية معركة جديدة ، من معارك الحياة والموت . وكان مولده في طوس من أعمال خراسان في حدود الثلاثين بعد المائة الرابعة . وكان والده الصباح فقيها متواضعا يعتنق مذهب الشيعة الرافضة في الخفاء ، ويستتر بثوب من التقشف والورع . وكان ينتحل لنفسه نسبة عربية ويزعم أنه سليل الصباح الحميري . وقضى الحسن صباه في طوس ، ودرس الفقه والحديث على المحدث الشهير موفق الدين النيسابوري ، وكان من زملائه

فى الدراسة اثنان تألق نجمهما فيما بعد وأصبحا من أعلام العصر ، وهما الشاعر الأشهر عمر الخيام والوزير الكبير نظام الملك . وكانت طوس يومئذ مركزاً للدراسات الدينية الخطيرة ، وفيها ولد وظهر فى نفس العصر أعظم فلاسفة الاسلام ، الروحيين ونعنى حجة الاسلام الغزالى ، وكانت أيضا مركزاً للدعوات الدينية السرية ، ومهبطا لأقطاب الدعاة ، وفيها تلقى الحسن الدعوة الاسماعيلية منذ حداثته . ويحدثنا الحسن عما خالجه يومئذ من تردد فى قبولها ، وما كان يعتقده من أن مذهب الاسماعيلية إنما هو مذهب الفلاسفة ، وأن إمامهم خليفة مصر الفاطمى إنما هو مفكر من المفكرين الفلاسفة ، وكيف انتهى أخيراً إلى اعتناق المذهب ، وغدا من تلاميذ عبد الملك بن عطاش أحد أقطاب دعوتهم ، ثم صحبه إلى الرى شابا يضطرم إخلاصا للدعوة وحماسة فى بثها (١)

ودرس الحسن الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء التى كانت فى عصره علوماً رفيعة . وكانت سلاحاً يشهره الأذكياء والأدعياء على البسطاء والعامة . وكان صديقه ورفيق صباه نظام الملك قد شق طريقه إلى السلطان والمجد ، فاتصل به يلتمس عونه وعضده ، فألحقه بخدمة السلطان . وقربه السلطان وحظى لديه بما أبدى من فطنة وبراعة . ولكنه لم يلبث أن انقلب على صديقه والمحسن إليه يحاول الايقاع به . وأوجس نظام الملك خشية من دسه ونفوذه ، فعمل على إقصائه ، واتهمه بالالحاد وبث الدعوة الاسماعيلية ، فأقصاه السلطان وغادر البلاط ساخطاً يلتمس لنشاطه آفاقاً أخرى .

وكانت هذه مرحلة التكوين والاستعداد فى حياة

(١) رجعنا فى ذلك إلى ما أورده مسيو Jourdain المستشرق الفرنسى فى مذكرة استقاها من مخطوطات إسماعيلية محفوظة بدار المكتبة الوطنية بباريس ووجهها إلى المؤرخ Michaud صاحب تاريخ الحروب الصليبية . انظر Michaud : T. I. P 474 et suiv.

الحسن . وكان هذا الرهط المستتر من الدعاة يتجه دائماً إلى مصر وإمامها الفاطمى قطب الدعوة وملاذها ، ورمز سلطانها وسيادتها ، فالى مصر اتجهت أنظار الحسن ، وشجعه شيخه عبد الملك لما آنس فيه من مقدرة وإخلاص ، على السفر إليها ليحظى برؤية إمامها المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، وليستمد منه التأييد والعون . فسار الحسن إلى مصر وهبطها فى حدود الثمانين (نحو سنة ٤٨٠ هـ)(١) وفى رواية أخرى أن الحسن سار إلى مصر فراراً من نقمة حاكم الرى إذ اتهمه ببث الدعوة الالحادية والتستر على نفر من دعاة المصريين (٢) . ولما وصل إلى مصر لقى منتهى الحفاوة ، واستقبله داعى الدعاة الشريف طاهر القزوينى وعدة من الشيوخ الأكابر عند الحدود . ورحب به الخليفة المستنصر بالله وأكرم وفادته ، وأفرد لاقامته منزلا خاصا ، وقربه وأمره بدعاء الناس إلى إمامته . ولبث الحسن بمصر ثمانية عشر شهراً يتمتع فيها بتأييد الخليفة ورعايته وثقته ، ويدرس أساليب الدعوة على أساتذة دار الحكمة المصرية ، التى لبثت بالرغم من تقلص نفوذها القديم ، أعظم مركز علمى لتلقين الدعوات السرية . بيد أنه لم يستطع أن يحرز من النفوذ ما كان يطمح إليه . ذلك أن الخليفة الفاطمى لم يكن يومئذ أكثر من زعيم روحى ، وكانت مصاير الحكم والسلطان قد انتهت يومئذ كلها إلى أمير الجيوش بدر الجمالى المتغلب على الدولة والمستأثر بشؤونها . ولم يوفق الحسن إلى الحظوة لدى أمير الجيوش ، إذ كان يوجس خيفة من نياته ومشاريعه . واستحكم الجفاء بين الرجلين . ولما ثارت مسألة ولاية العهد واختار المستنصر ولده نزاراً لولاية عهده ، أيده الحسن فى اختياره بحماسة . ولكن خالفه أمير الجيوش وحزبه ، واختار ولد الخليفة المستعلى

(١) مذكرة مسيو جوردان المشار إليها .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ .

لولاية العهد ، وكان هذا الخلاف منشأ فرقة إسماعيلية تحت « بالنزارية » نسبة لنزار ولد المستنصر . وسخط أمير الجيوش على الحسن لتناوئه ، وانتهز هذه الفرصة لحمل الخليفة على إقصائه ، وأمر به فاعتقل في بعض قلاع دمياط ، بيد أنه استطاع غير بعيد أن يفر من معتقله ، وأن يجوز في بعض السفن إلى ساحل الشام .

ونزل الحسن في حلب وأقام بها حيناً ، ثم رحل إلى بغداد فخوزستان وأصفهان ويزد وكرمان ، وهو يبث دعوته أينما حل . وكان يبثها في الواقع في مهاد خصبة تجتاحها الدعوات السرية منذ بعيد . بيد أن الحسن لم يكن رجلا نظريا يقف عند الدعوة والمثل النظرية ، وإنما كان رجل عمل يرى في الدعوة مرحلة تمهيدية ويتطلع إلى اجتناء ثمراتها العملية . وكانت فارس تقدم يومئذ بنظمها الاقطاعية وأحوالها السياسية والاجتماعية المضطربة إلى المغامرين خير الفرص . وكانت المنطقة الشمالية الغربية ما بين الديلم والعراق تتخللها عدة قلاع منيعة شاهقة تقع في هضاب وعرة ، ويستطيع المسيطر عليها أن يبسط سيادته على تلك المنطقة كلها . فإلى هذه المنطقة اتجهت أنظار الحسن . وكان الاسماعيلية قد بدأوا بالفعل حركتهم العنيفة فرفعوا لواء الثورة في أنحاء همذان ، وحاربوا جند السلطان ، واستطاع أحد زعمائهم أحمد بن عطاش ولد الشيخ عبد الملك أن يستولي على قلعة شاه دز بالقرب من أصفهان ، وأن يتخذها قاعدة للهجوم والدفاع . أما الحسن فوجه اهتمامه إلى ولاية روزبار الواقعة في شمالي قزوين وإلى قلعتها المنيعة ألموت . وكان قد بث دعاته إلى هاتيك القلاع والحصون يبثون الدعوة بين الجند ويفسدون ولاءهم وعقائدهم . وكان حاكم القلعة من قبل ملكشاه علويا يدعى أبا مسلم وهو صهر لنظام الملك ، فاتصل به الحسن وتوثقت بينهما أواصر الصداقة . ولبث الحسن يتحين الفرص ؛ وفي ذات مساء وثب بصاحب القلعة في جمع من أنصاره فأخرجه منها واستولى عليها . وكان ذلك في السادس من رجب سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) .

وبادر السلطان بإرسال الجند إلى ألموت لاستردادها ، فضيقوا الحصار عليها وجهد الحسن وأنصاره داخلها ، فعندئذ فكر في اغتيال نظام الملك خصيمه ومطارده الحقيق ، فدس عليه فتى من دعاته ، فاغتاله ذات مساء من شهر رمضان (سنة ٤٨٥) وقتل القاتل لوقته (١) . ووقع الاضطراب في البلاط واستدعى السلطان جنده فرحلوا عن ألموت وتنفس الحسن الصعداء . ثم بادر إلى تحصين القلعة وملأها بالرجال والذخائر والأقوات ، وغرس حولها الأشجار الباسقة ، وغدت ألموت — ومعناها « تعليم العقاب » — تسيطر بقوتها ومناعتها على ولاية روزبار كلها .

ولم يمض سوى قليل حتى توفي السلطان ملكشاه ، ووقع الخلاف بين ولديه محمود وبركيارق ، وانتهز الاسماعيلية فرصة الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستولوا على عدد كبير من القلاع والحصون في قوهستان وأصفهان وهمذان وغيرها ، واستفحل أمر ابن عطاش صاحب قلعة شاه دز وبسط سلطانه على كثير من أنحاء أصفهان . وازداد الاسماعيلية قوة حين حالفهم السلطان بركيارق على أخيه ، ونشطوا إلى مطاردة الأمراء السلجوقية حلفاء السلطان محمود واغتالوا عدة منهم ، وبثوا الرعب والروع في أنحاء فارس وفشت دعوتهم بين الجند والعامة وغدوا قوة يخشى بأسها . وكان بركيارق نفسه أول من خشي بطشهم فانقلب إلى قتالهم . وفتك بجموعهم في أنحاء مملكته . ولما انتهت الحرب الأهلية بين أبناء ملكشاه وعقد الصلح بينهم جد

(١) الروضتين في تاريخ الدولتين ج ١ ص ٢٥ وابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ . وكلاهما يبدي في روايته أن نظام الملك توفي قتيلا بيد الباطنية . وابن خلدون صريح في أن القتل تم بتحريض الحسن ، ولكن ابن الأثير يقدم لنا في ذلك رواية أخرى (ج ١٠ ص ٧٠ و ٧١) .

الأمراء السلاجقة محاربة الإسماعيلية ، وأثخن فيهم السلطان محمد بن ملكشاه وأفنى جموعهم في أنحاء أصفهان ، وحاصر ابن عطاش في شاه در واستبسل الإسماعيلية في الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئاً ، ووقعت القلعة أخيراً في قبضة السلطان وأسر ابن عطاش وآله ولقوا أروع موت .

وليس من موضوعنا أن نتتبع أدوار هذه المعركة التي اضطرمت في فارس بين الإسماعيلية والأمراء السلاجقة وخلفائهم التتار . ويكفي أن نقول إنها استطالت زهاء قرن ونصف قرن بسط الإسماعيلية خلالها حكم إرهاب حقيقي على الأنحاء الشمالية ، ولم يظفر السلاطين بالقضاء على دولتهم المروعة إلا بعد جهود جبارة متوالية .

* * *

في ذلك الحين كان الحسن الصباح ممتنعاً في « ألموت » معقله ومركز سلطانه ؛ وكان صعوده إلى « ألموت » بدء مرحلة جديدة في حياته وحياة طائفته . ومن ذلك الحين ينتظم الإسماعيلية إلى دولة حقيقية ، ويغدو الحسن الصباح زعيماً لدولة دينية سياسية ، دولة من نوع خاص يتمتع زعيمها قبل كل شيء بصفة الإمامة الروحية ، ويستند إلى قوة خفية غير ظاهرة ، قوامها جيش من الدعاة والفدائيين المتعصبين ، يتشحون بأثواب من الزهد والورع ويعتمدون على غزو الأذهان والعقول ، وعلى سلاح المؤامرة والغيلة ، ويؤيدون تعاليمهم الخفية بالخناجر المستورة ، ومثلهم الفلسفية والروحية بأعمال عنف مروعة . والواقع أن دولة الإسماعيلية الباطنية لم تكن سوى جمعية سرية هائلة ، وضع الحسن نظمها ومبادئها المدهشة ، ولبث أعواماً طويلة يرعاها ويوطدها في عزلة ، حتى غدت قوة عظيمة تحدث آثارها العميقة في حوادث العصر وتطوراته .

(النقل ممنوع — لما نبعه) **محمد عبد الله عنان**

الثقافة والنظر الأخلاقي

(بقية المنشور على صفحة ١٠)

إليها البحث ، نسوقها في قالب فرض علمي ، يعرض بعد على محك النقد والتجربة :

(١) تتفق الجماعات المتمدنة غالباً فيما يوجد لديها من المقاييس الأخلاقية

(٢) المستوى الثقافي لجماعة ما عامل أساسي في تقرير أهمية كل من المقاييس الأخلاقية الموجودة فيها

(٣) تغيُّر البيئة الثقافية يُنتج تغيراً في وجهة النظر الأخلاقي

(٤) الشعوب الراقية في مدنيتها تؤثر على الأفراد الأجانب (الوافدين عليها والذين يقيمون بين ظهرانيها ولو إلى حين) في ثقافتهم ، وعلى الأخص في تفكيرهم الأخلاقي والاجتماعي

محمد خلف الله

التحليـــل النفسى

متقولة بتصرف من الإنجليزية

يرى الناس عادة أن الطفل مخلوق طاهر النفس ، نقى العقل ، وأن نياته إزاء الغير بريئة لا غبار عليها ، وأن خلقه يعلو عن كل نقد أو تأنيب . على أن سلوك الأطفال فى سنى حياتهم الأولى ليس خلوا من الإدراك والفهم والتفكير ؛ وإن كان تفكيرهم هذا ليس كله مبنياً على المنطق ، وإنما يستند على الخيال إلى حد بعيد .

وللطفل فيا يتعلق بالحسن أو القبح ، والخير أو الشر ، أفكار راسخة يتمسك بها تمسكا عجيبا ؛ وتؤثر هذه الأفكار فى سلوكه وموقفه إزاء والديه تأثيرا مدهشا !

ومن خصائص عقل الطفل أن عالمه الذى يعيش فيه عالم يعج بالحياة ، فلا يوجد فى بيئته كائنات غير حية ، فهو لهذا يطعم دميته ويدفئها ويحنو عليها ويعاقبها ، وإذا أقفل الباب على أنامله فآلمه ، فانه يرتاح ويهدأ إذا هو رفسه برجله . . وهكذا . فهو يعامل الجمادات المحيطة به كما يعامل غيرها من الكائنات الحية . وهذه الكائنات الحية وغير الحية ، المتحركة والساكنة ، لها أثرها الكبير فى نفسيته .

وعقل الطفل فى هذا ، وفى كثير من الوجوه ، أشبه بعقل الانسان البدائى الذى يعتقد أن الحياة تدب فى كل شىء ، أو أن قوة سحرية مبهمة تتحكم فى سلوك الإنسان والحيوان ، وفى قوى الطبيعة المختلفة .

ولكن كيف توصلنا إلى كل هذه المعلومات ؟

توصلنا إليها من الملاحظات المتعددة التى عملت على الأطفال فى مدارس الحضانة ، وكذلك من التحليل النفسى . فقد وجه علم النفس الحديث عنايته للطفل ، فكشف لنا عن كثير من الغرائب ، واستطاع بالتحليل النفسى إزاحة الستار عن كثير من الأسرار التى فسرت سلوك الأطفال وأوضحته

ولأجل أن تنكشف لنا الطبيعة البشرية بأجلى معانيها ، لا يجوز أن نكتفى بملاحظة السلوك الظاهرى العادى المهذب الذى يقره الناس ويوافقون عليه ، بل يجب أن نضيف إلى هذا نتيجة فحصنا للسلوك الشاذ ، لنكشف عن النواحى المختبئة غير المصقولة من طبيعة الانسان . وقد نجح التحليل النفسى نجاحا كبيرا فى كشف ما وراء السلوك الشاذ ، بعد ما وجه عنايته إلى علاج الأمراض النفسية والعقلية المختلفة ، ومنها الهستريا ، وجنون الشك ، وجنون القلق ، والانقباض الشديد المزمن ، والهبوط العقلى ، وغير ذلك

وقد كشف لنا علماء النفس — قبيل ظهور الدكتور فرويد (Freud) صاحب طريقة التحليل النفسى ونظريته — أنه لكى نعرف منشأ المرض العقلى ، والسبب الذى نسب إليه ظهور أعراضه — كفقد الذاكرة ، أو الصرع ، أو الإغماء ، أو غير ذلك — لا بد لنا من فحص ذاكرة المريض ، والكشف عما تحتويه من خبرات الماضى وحوادثه

ولكن تبين أن هذا من الصعوبة بمكان ، لأن المريض لم يتمكن من إدراك علاقة واضحة بين ما عنده من أعراض وما فى عقله الباطن من آثار . أما المناقشة المنطقية المعقولة فانها لم تجد فتيلا فى إيضاح هذه العلاقة ، وظهر كأنما هناك مقاومة من جانب المريض ضد تحسنه وشفائه . ولكن تمكن المعالج تحت تأثير التنويم المغناطيسى من جعل المريض يستعيد من حوادث الماضى ما ثبت أن له علاقة مباشرة وأثراً فعالاً فى ظهور أعراض المرض . ولما وضعت المريض هذه الذكريات فى صيغة انفعالية شديدة انقشعت فى الحال أعراض المرض .

كشف فرويد بعد ذلك بقليل ، أننا إذا تمكنا من جعل المريض يفكر بحرية وطلاقة واسترسال في الحوادث التي تقع له في أحلامه ، فإن تسلسل الأفكار يأتي لشعوره ببعض الذكريات المرتبطة مباشرة بأعراض مرضه ، والسببية لظهورها . وكشف لنا أيضاً أن استدراج هذه الذكريات المنسية من اللاشعور إلى الشعور كاف لاختفاء أعراض المرض .

وقد تغيرت نظرة علماء النفس إلى العقل تغيراً كبيراً منذ ظهور التحليل النفسي . فبعد أن كان العقل في نظر العلماء (إلى خمسين سنة مضت) أمراً بسيطاً نصل إلى معرفته بفحص الشعور [١] . أصبح الآن أمراً مركباً ، ولا بد لمعرفته من الغوص فيما يسمى باللاشعور [٢] . ولعل أهم ما كشفه فرويد هو نشاط ذلك العقل اللاشعوري

ويمكننا أن نلخص نظرية فرويد في أن الإنسان يولد وعنده مجموعة من الغرائز التي تندفع لاشباع نفسها ، ولابد لاشباع هذه الغرائز من حدوث التفاعل بين الطفل أو بين غرائزه ، وبين ما يحيط به ، أو بين العالم الداخلي للطفل والعالم الخارجي [٣] ، ونتيجة هذه التفاعلات تكوين ما يسمى بالذات أو النفس أو العقل الشعوري أو الشخصية الظاهرة

والمسألة لا تنتهي عند هذا ، فالنفس تنمو بامتصاصها لصفات الأشخاص الذين يؤثرون في حياة الطفل في أيامه الأولى . ويبق الطفل في هذه الأيام الأولى معتمداً على أبويه في سلامة حياته وتغذيته ، ومده بكثير من اللذات الجثمانية

وفوق هذا ، فإن نتيجة معاملة الأبوين للطفل من حنو أو قسوة أو محبة ، أو تذبذب بين القسوة والعطف ، وما يشعر به الطفل نحوهما من محبة أو كراهية أو عدم اطمئنان أو غير ذلك ، كل هذا يتغلغل في نفس الطفل تغلغلا عميقاً . ومهما جد في حياته بعد خروجه من دور الطفولة من العوامل ، فإنه يظل يتأثر حتى بعد تمام نموه بتلك الآثار العقلية اللاشعورية ، التي تكونت في نفسه أيام الطفولة .

فكأن التحليل النفسي يعتمد اعتماداً كبيراً على فهم عقل الطفل ، والوقوف على طريقة إدراكه لما حوله من كائنات ، ومعرفته لاتجاهات ميله وإعراضه ، وكشف حاجاته الغريزية وميوله الانفعالية . وقد ثبت أن قليلا جداً من البالغين أمكنهم أن ينسلخوا من اتجاهات الآراء والميول والعقائد التي كونوها في عهد طفولتهم . فكأن من ينظر إلى العالم بمنظار علم النفس التحليلي يجد أن الناس كلهم تقريباً ما زالوا في مهودهم أطفالا .

وعند إجراء التحليل النفسي على شخص ما ، فإنه سرعان ما يدرك أن ما لديه من اضطرابات نفسية ، وأن اتجاهات ميوله وتحيزه ، وخوفه وكراهيته ومحبته وتحمسه ، وحتى خلقه ، كلها ترجع في أصلها إلى خبرات الطفولة وحوادثها .

وليس هناك من ينكر — حتى علماء التحليل النفسي مع ما ينسبون من الأهمية لأثر الطفولة في سلوك الكبار — أن ما نعمله نحن البالغين تحت بعض الصلة إلى المشاكل التي تقابلنا في كل يوم ، والتي نكافحها حتى نتغلب عليها أو نفر منها مبررين فرارنا هذا ، ومعتقدين بنجاحنا مهما كنا في ذلك مخادعين لأنفسنا . ومع الاعتراف بهذه الصلة ، فإننا عند فحص العوامل النفسية المتأصلة ، التي تؤثر في الشخصية ، نجد الطفولة هي الباقية الراسخة . وكل ما يحدث

---

(١) وهو ما نشعر به أو ما يمكن بسهولة أن نشعر به من حالات السرور والألم والحب والكراهية والتفكير والفهم والتذكر والتصور والرغبة والتردد والتصميم . . إلى غير ذلك

(٢) وهو ما لا نشعر به وما لا يمكن أن نشعر به إلا بطرق خاصة ، وهي طرق التحليل النفسي

(٣) فيشبع ميله للبحث عن الطعام بحدوث تفاعل بينه وبين أمه ، أو بينه وبين زجاجته ، أو بينه وبين أصابعه في حالة مص الأصابع ، ويشبع ميله للاستطلاع بحدوث تفاعل بينه وبين الضوء الصغير الذي يتأرجح أمام عينيه أو بينه وبين الصندوق المقفل الذي يسمل به أبوه إلى المنزل . . إلى غير ذلك

من عويل الأطفال وصياحهم هو تحوله فى شكله الظاهرى إلى طرق التعبير والكلام التى نشاهدها فى الكبار . وأما ما وراء ذلك من طفولة فإنه باق ثابت . وسواء استسغنا هذا الرأى أو لفظناه ، فالواقع أن ميولنا ولماتنا ، واتجاهاتنا فى المحبة والكراهية والخوف وغير ذلك ، يحددها ما كسبناه منها فى طفولتنا نتيجة لمعاملاتنا مع آبائنا وأهلينا . ومن أمثلة ذلك أن كراهية شخص المحسوبية الأهل والأقارب ، والامعان فى عدم مد يد المساعدة لهم ، قد لا ترجع إلى التفانى فى إقامة العدل ، وإنما قد تكون مسببة من غيرته أيام طفولته من شقيق له كان مقرباً أكثر منه إلى والديه . وما نسمعه عن كراهية رجل للنساء قد يرجع إلى عدم ثقة المرء أيام طفولته بأمه ، التى كانت تهمل شئونه وملذاته ولا تعطف على حاجاته . وكذلك الجرى وراء المرأة ، والسعى إلى مغازلتها ، والتحبب إليها ، قد يكون من تعطش المرء لأم تحنو عليه ، ومن أن هذا التعطش لم يُرو عليله رياً كافياً أيام الطفولة . ويحث الرجل عند زواجه عن سيدة تحبه وتحنو عليه وتقضى له كل مصالحه ، وبعبارة أخرى تحل نفسها فى حياته محل الأم المشفقة الحنون ، المهتمة بمصالحه ، والقلقة على أحواله وأموره ، قد يرجع إلى أن فطامه أيام طفولته لم يصادف فى نفسه قبولا ، وإنما صادف ألماً لأنه كان مدللا ولأن أمه شغلت عنه بطفل آخر أو بأمر آخر . وهكذا ، يمكننا أن نأتى بآلاف الأمثلة ، ونحللها بنفس الطريقة على ضوء نتائج التحليل النفسى .

والواقع أن النتائج التى وصل إليها علم النفس ، بالتدرج من الحياة العقلية للكبار إلى حياتهم العقلية فى طفولتهم ، قد أدهشت الناس إلى حد كبير . ولكن الذى أدهشهم أكثر من ذلك ، هو نتائج فحصهم وتحليلهم لعقول الأطفال أنفسهم . وتختلف طريقة تحليل الكبار عن طريقة تحليل الأطفال . فالكبار لغة واضحة ، يستخدمونها عندما يسترسلون فى أفكارهم وعندما يسطون أحلامهم ،

وأما الأطفال فلهم طرق خاصة للتعبير عن حياتهم العقلية . وأفصح هذه الطرق وأجلاها بياناً هى طريقة اللعب . ولهذا يعتمد علم النفس الحديث على طريقة خاصة لتحليل لعب الأطفال . ويلاحظ أن الأطفال لا يلعبون عبثاً ولهوا ولمجرد قتل الوقت ، وإنما هم يلعبون ليصيبوا أهدافاً معينة . ويقومون فى ذلك بأدوار تمثيلية يعبرون فيها عن رغباتهم ومخاوفهم . والذين يدركون هذه اللغة الخيالية للطفل ، يكشفون عادة الأشخاص والحوادث التى تمثل فى هذه الأدوار . مثال ذلك الطفل الذى يمثل وضع القطرة فى عين دميته ، إنما ينفس عن رغبة كامنة فى نفسه ، لأن أمه أمسكته وضغطت عليه ووضعت القطرة فى عينيه . وهذا فى مجموعه عملية غير سارة لا يرضاها ، وإنما يقبل الاذعان لها تحت الضغط ؛ فهو يود لو ينتقم ممن حوله ، ولكن أنى له هؤلاء ، حتى ينتقم منهم ! فيقوم بتمثيل هذا الدور ، وفيه الفرجة الكافية عن نفسه ، والاشباع لرغبته فى الانتقام . كذلك الطفل الذى يجلس دميته أمامه ويطلب منها أن تسمع الكلام ، وألا تتحرك ، وأن تجلس هادئة ؛ إنما يبين بصورة غريبة ثورته على مثل هذه الأوامر التى تملى عليه من وقت لآخر ، ويريد أن يشعر بالسرور والنشوة اللذين يشعر بهما الكبار عند إخضاعه لأوامرهم . والطفل الذى يجمع لعبه ويسمى كل واحدة منها ويلاعبها جميعاً ألعاباً مختلفة هو فى الغالب طفل وحيد تتوق نفسه إلى الزملاء من سنه ليؤنس وحشته بهم .

والطفل الذى يلعب بمفرده يستغرق ويسترسل فى حديث طويل ، يبدو لنا كأنما هو حديث فردى يقوم به وحده . وإذا تأملناه ، نجد أنه حديث اجتماعى يجرى بين نفسه من ناحية وبين لعبه من ناحية أخرى . ونلاحظ فى هذه الرواية أن اللعبة الواحدة تمثل فى الأوقات المختلفة أدواراً مختلفة ، وأن الطفل يتحدث عن مخاوفه ورغباته ، وأن هذه المخاوف والرغبات غير المشبعة ترتبط مباشرة

بنواحي المحبة والكراهية الناشئة من علاقته ومعاملاته مع والديه وإخوته وأخواته .

وإذا كان من يقوم بملاحظة الطفل فاهما لعمله ، متقنا لفنه ، فإن موقفه من الطفل لا يظل موقف متفرج مدة طويلة ، وإنما سرعان ما يندمج مع الطفل في لعبه ، ويصبح زميلاً له في ذلك . وأما محافظة الشخص على موقف الملاحظ المتفرج فإنه يجعل الطفل حذراً حريصاً يخشى إنما هو لعب بطلاقة وحرية أن تكتشف أسراره لهذا المتفرج . ولكن كياسة المختص بالتحليل هي التي تجعل الطفل ينطلق في لعبه ، وبذلك يصل المحلل إلى قرارة نفسه . وكل من الانطلاق في اللعب والتفاهم التام بين المحلل والطفل يكفي لجعل الطفل يتخلص مما على نفسه من كابوس ، ويتحرر من الكثير من مخاوفه وأسباب قلقه ، وتبدأ دوافع الكراهية ودوافع العنف تغير اتجاهاتها فتأخذ في الافصاح عن نفسها صوراً بنائية بدلا من الصور الهدمية .

معنى هذا ، أن تحليل لعب الطفل تحليلا نفسياً يعمل على إزالة أسباب الخوف والقلق ، وطرح أسباب الكراهية والعنف ، وعوامل الشذوذ في الخلق ، وبهذا يدخل الحياة حراً طليقا خفيف الحب ، قدراً على الاستقلال في فكره وفي عمله .

فياحبذا لو تمكنا من معالجة جميع الأطفال عن طريق اللعب ، وبذلك يصبح عالم الكبار عالم أشخاص مترني الخلق ، واضحي البصيرة ، بدلاً من أن يكون عالم أطفال كبار يتملقون ويتملصون بين الأذرع القوية لآثار الطفولة الطاغية .

عبد العزيز القوصي

الأستاذ المساعد لعلم النفس بمعهد التربية

مونا ليزا دل جيوكوندا

Mona Lisa del Gioconda

للمصور ليوناردو دا فنشى

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

كان ليوناردو دا فنشى Leonardo da Vinci أحد الأعلام الثلاثة ، الذين ازدهر بهم الفن الإيطالى فى عصر النهضة ، وهم : ليوناردو ورفائيل وميشيل أنجلو .

وقد ولد الأول فى فنشى من أعمال فلورنسة سنة ١٤٥٢ ، وظهرت ميوله للفنون الجميلة منذ طفولته . وسرعان ما حاز قصب السبق فى التصوير والنحت والعمارة والشعر والموسيقى ، والطبيعة والفلسفة ؛ ولكن مواهبه فى الرسم والتصوير هى التى رفعت اسمه فى سماء الفن ، ثم خلدت ذكره بعد وفاته سنة ١٥١٩ . ولا غرو ، فإن دقة رسومه ، وتوفيقه فى اختيار ألوانه ومزجها ، وبراعته فى توزيع الضوء ، وعنايته بكل جزء من أجزاء الجسم الإنسانى ، كل ذلك جعل آثاره الفنية تفيض بالحياة وقوة التعبير . ولكن أكثرها لم يصل إلينا . وجل المعروف منها صور دينية مسيحية . على أن ليوناردو رسم فى فلورنسة ، بعد أن جاوز الأربعين ، بعض صور نسائية حازت إعجاباً لا حدَّ له .

ومهما يكن من شىء ، فإن أشهر منتجات ليوناردو وأحبها إلى الهواة ، صورة السيدة مونا ليزا جيراردينى ، زوج « فرانسسكو دل جيوكوندو » من كبار التجار بفلورنسة فى بداية القرن السادس عشر . وهذه اللوحة الفنية مصورة على خشب ، ويبلغ ارتفاعها ٧٧ سنتمتراً وعرضها ٥٣ سنتمتراً . (انظر الصورة فى الصفحة المواجهة) . وقد اشتراها الملك فرانسوا الأول بما يقرب من ألفى جنيه وهى تساوى الآن أضعاف هذا المبلغ .

وعلى كل حال فإنها اليوم محط أنظار الزائرين فى متحف اللوفر بباريس ، كما أقبل كبار المصورين على رسم نسخ منها لعرضها فى المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة .

وترى مونا ليزا فى هذه اللوحة جالسة على مقعد سندت عليه ذراعها اليسرى ، وفى شفتيها الحمراوين شبه ابتسامة عجيبة ، ورداؤها الأخضر له كمَّان من نسيج أصفر ، وفى أرض اللوحة مناظر تلال ومجار مائية ، وإلى اليمين رسم قنطرة .

ويقال إن ليوناردو فنشى فى تصوير هذه اللوحة أربعة أعوام ، وقد يفهم من ذلك أنه لم يكن يعمل فيها إلا فى فترات متباعدة .

ومهما يكن من شىء فقد أعجب القوم بهذه الصورة منذ عصر ليوناردو ، حتى إن جيورجيو فاسارى Georgio Vasari المصور الإيطالى الذى صنف تراجم رجال الفن الإيطاليين وعاش بين عامى ١٥١١ و ١٥٧٤ كتب عنها : « إن من يريد أن يرى إلى أى حد يستطيع الفن أن يصور الطبيعة تصويراً صادقاً ، عليه أن يتأمل فى صورة مونا ليزا ، فهى عمل إلهى لا يكاد يكون فى طاقة البشر ، وهى شىء عجيب ، وحية كالطبيعة نفسها » .

وتناقل الناس الإعجاب بهذه الصورة جيلا بعد جيل ، وكتب مئات الشعراء والكتاب عن هذه المرأة ذات الابتسامة الشيطانية الساحرة ، والوجه الذى تشع منه الرقة والإناقة ، والتواضع والهدوء ، مع الثقة بالنفس والشعور بالانتصار ، والجسم الكامل الذى لا عيب فيه .

وقال بعضهم : إنها صورة المرأة الوحيدة التى أحبها ليوناردو ، وذهب آخرون إلى أنها مثال الجنس اللطيف الساحر الفتان ، الذى كان يكرهه ليوناردو ، ويخشى بأسه ويعتقد أنه أصل كل بلاء !

(البقية على صفحة ٣٠)

العلاقة بين الفصحى والعامية

للأستاذ إسحق موسى الحسيني

عني العلماء منذ زمن طويل بدرس العلاقة بين اللغة العربية الفصحى واللغات العامية . وأعني بالفصحى لغة الكتابة والقراءة والخطابة ، وباللغات العامية اللهجات العامية التي يتكلم بها العربُ اليوم في مختلف أقطارهم . ولكنهم لم يصلوا إلى رأي فاصل في هذا الموضوع .

وهم في ذلك فريقان :

فريق يزعم أن اللغة الفصحى هي لغة الأدب قديماً ، ولغة القراءة والكتابة — مع شيء من التحوير — حديثاً ولكنها لم تدر في يوم من الأيام على ألسنة العرب . ودليلهم على ذلك أن القبائل العربية التي ما زالت محافظة على لهجاتها في الجزيرة العربية تتكلم بلهجات بعيدة عن الفصحى ، وأن الشعوب العربية المنتشرة في أطراف الأرض تتكلم بلهجات عامية أيضاً . فأين هي آثار اللغة الفصحى ؟

ويذهب الفريق الثاني خلاف رأي الفريق الأول ، ويقرر أن اللغة الفصحى لا بد من أن تكون ذات نشأة طبيعية كسائر لغات العالم . ولذلك لا مناص من أن نفرض شيوعها على الألسنة في زمن ما ، بعيد أو قريب ، وفي بيئة ما ، اتسعت أو ضاقت . ويستندون في رأيهم هذا إلى ثلاثة أدلة :

الأول : أن اللغة الفصحى — وإن كانت اليوم لغة أدبية — لا بد من أن تكون متطورة عن أصل من أصول الكلام ، أو اللهجات التي ظهرت في الجزيرة العربية ويقولون : إن اللغة اللاتينية التي هي اليوم لغة أدبيةٌ ، وأمٌّ للهجات عامية ، عرفت فيما بعد بالفرنسية والإيطالية والبرتغالية ، كانت لغةَ الكلام . وإذن ليس هناك ما يمنع أن تكون الفصحى كاللاتينية — من هذه الناحية — انتقلت من اللسان إلى الكتاب ، وتفرع عنها ما تفرع من لهجات

والدليل الثاني : أن هناك نصوصاً قديمة وروايات عديدة تثبت أن الفصحى لم تكن لغةَ الأدب فحسب ، بل كانت لغة الكلام عند بعض القبائل العربية ، ومن ذلك نص قديم طريف رواه عُمارة اليمني في كتابه « تاريخ اليمن » قال :

« جبالا عَكاد فوق مدينة الزرايب ، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ، لم تتغير لغتهم ، بحكم أنهم لم يختلطوا قطّ بأحدٍ من أهل الحاضرة في مناكحهم ولا مساكنهم . وهم أهل قرار لا يظعنون عنه . وقد أذكر أني دخلت زبيد في سنة ٥٣٠ أطلب الفقه دون العشرين . فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن في شيء من الكلام ، فأقسم الفقيه نصرُ الله بنُ سالم الحضرمي بالله : لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة . فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت إذا لقيته يقول : مرحبا بمن حنثت في يميني لأجله ، ولما زارني والدي وسبعة من إخواني إلى زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم ، فلا والله ما لحن أحدٌ منهم إلا لحنة واحدة نقموها عليه » ... وهذا دليل لا شبهة فيه على أن قبيلة عُمارة تكلمت العربية الفُصحى .

والدليل الثالث : أن بعض الباحثين في تاريخ القبائل العربية حديثاً سمع بعض القبائل تتكلم الفصحى إلى يومنا هذا . قال الأستاذ فؤاد حمزة في كتابه « قلب الجزيرة العربية » الذي طبع سنة ١٩٣٣ :

« وأهل نجد أصرحُ لغةً من أهل الحجاز ، لقرب هؤلاء من الحرمين ، واختلاطهم بالأجانب ، ولُبعد أولئك عن كل تلك العوامل . ولكن أفصحَ اللهجات وأقربَها إلى الفصحى فيما نعتقد ، هي اللهجات الجبلية الواقعة ما بين جنوبي الحجاز وشمالي اليمن . وكثيراً ما سمعنا أهلَ هذه البلاد يلفظون الكلمات من مخارجها الصحيحة ، ويتكلمون بما هو أقربُ إلى الفصيح من سواه ، وبعض البُداة من أهل هذه المنطقة يُخرجون جملا ، يظن منها الانسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على ذلك النحو ، بينما أن الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ، فيجيء كلامُهم فصيحا مُعربا لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظنها في الأقطار العربية المتمدنة مهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البداهة » ...

هذا هو مُجمَلُ رأى الفريقين المختلفين .

***

على أن الناحية التاريخية من هذا الموضوع لا خطر لها ، وإن كانت الأدلة التي يسوقها الفريق الثاني لا تترك مجالا للشك في صحة ما يذهبون إليه .

فالأمر الذي يسترعي الانتباه في الأقطار العربية جميعاً هو وجود لغتين مستقلتين في بيئة وأمة واحدة . فهناك لغة فصيحة هي لغةُ الكتاب والقلم ، ولغة عامية ساذجة تتكلم بها الجماهير العربية . وهذه اللغة العامية تختلف باختلاف الأقطار العربية ، ففي بعضها طويلة الحركات مع شيء من الامالة ، كما هي الحال في القطر الشامي ، وفي بعضها قصيرة الحركات مع شيء من الاعتدال ، كما هي الحال في القطر المصري ، وفي بعضها متوسطة الحركات ، كما هي الحال في بعض أنحاء الجزيرة العربية ، وبعض الأقطار ينفرد بمفردات وتراكيب واصطلاحات لا نظير لها في سائر الأقطار . بيد أن جميع اللهجات العامية تشترك بفقدان أكثر الحركات

الاعرابية وبعض الأصوات القديمة والضمائر والأدوات .

وليس وجود لغتين ، فصحى وعامية ، بالأمر الغريب في تاريخ الشعوب . فاللهجات العامية شائعة فيما نعرف من بلدان أوربا . فهي موجودة في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا . ومما يروى أن الأستاذ المرحوم جبر ضومط قابل أستاذاً إسوجيا وقال له : « سعداً لكم أيها الأوربيون فان في بلادكم لغة واحدة ، أما نحن ففي بلادنا لغتان متباينتان » . فأجابه الأستاذ الاسوجي : « السعد لكم أنتم معشر العرب ، فان لغتكم العامية قريبة من الفصحى ، أما نحن فعندنا لهجات تكاد تكون منقطعة الصلة باللغة الأدبية » . بيد أن خطر العامية في تلك البلدان دون خطرها في الأقطار العربية . ذلك لأن نسبة الأمية في أوربا أقل مما هي في البلاد العربية ، ولأن الحركة العلمية والأدبية في أوربا أقوى وأعم مما هي في بلادنا ، ولأن رقعة البلد الأوربي أشدُّ تماسكا واتصالا ، سياسيا وثقافيا ، من رقعة البلد العربي . فهذه الأسباب تجعل خطر العامية في البلدان الأوربية ضعيفا للغاية .

أما البلدان العربية فانها تواجه مشكلة خطيرة تحق .

فاذا سافر عربي من قطر إلى قطر ، شعر أن لغته العامية تحدث له مشاكل مضحكة حينا ومكدرة حينا آخر . وأنه يجد التفاهم عسيراً في كثير من الأحيان . أذكر أن شابا شاميا ذهب إلى مدرسة فرنسية في القاهرة ، وكان حينما يتحدث إلى الطلاب أو المعلم بلهجته يثير ضحكهم جميعا . فالتجأ إلى الفرنسية يخاطبهم بها ، كي ينجو من الاستهزاء .

وإذا أراد عربي أن يخطب في حفل أو أن يتحدث في موضوع بلغة فصيحة ، وجب عليه أن يعنى بأمرين اثنين في وقت واحد ، بالفكر الذي هو جوهر الموضوع وباللغة الفصيحة الخالية من الأخطاء . وفي ذلك تقييد للمتكلم ، وضيم للفكر .

يضاف إلى ذلك أن معلمي العربية في مختلف الأقطار العربية يجدون أكبر عناء في الوصول إلى غرضهم ذلك لأن اللهجة العامية أشد أثراً في عقول الطلاب من اللغة الفصيحة ، لأن الأولى هي لغة الأم والأب ، ولغة النشأة والبيئة ، والثانية لغة المدرسة ، بل لغة الدرس فحسب . ولا شك في أن لغة البيئة تقهر لغة الصنعة . وأن الذوق السليم الذي يكتسبه الطالب في المدرسة يضعف بفساد السليقة الغالبة على لغة البيئة . والواقع أن معلم العربية يهدم ويبني في وقت واحد

ونلحظ من جهة أخرى أن ما ينشأ في البيئة من حكم وأمثال وحكايات ونوادر تروى بالعامية . وإن دونت بالفصحى فقدت رونقها . وبذلك تخسر الأمة مصدراً خصبا للأدب الحديث

ولهذه الصعوبات دعا نفر من الناس إلى استعمال العامية بدلا من الفصحى . وكتبت في هذا الموضوع أبحاث . بل هب بعضهم وألف فيها كتبا . ومن ذلك كتيب ألفه الخوري مارون غصن في بيروت وأسماه « في مشلو مليكتاب » ضمنه حكايات وأغاني وأحاديث عامة

ولكن هذه الدعوة ماتت وهي في المهد ، بل ولدت ميتة ، ولم يقدر لها الله أن تنجح في قطر من الأقطار على كثرة ما مهد لها بين الناس . وقد دعا إلى القضاء على هذه الدعوة عدة أسباب :

فن جهة أخذ التحسس بالقومية العربية يقوى ويشتد . واللغة أبرز مظهر من مظاهر القومية ، بل هي رمز القومية وأوثق رباط بين الناطقين بها . وهي إلى ذلك وسيلة التفاهم الوحيدة بين الأمم العربية في مختلف أقطارها

ومن جهة ثانية قوي الشعور بقيمة التراث العربي في المدارس العالية والجامعات . وما كان لعاقل أن يضحي بتاج حضارة ازدهرت قروناً طويلة ورفعت قوماً إلى الرتبة الأولى بين الأمم الساهمة في تكوين العلوم والآداب الانسانية

ومن جهة ثالثة تقرر في أذهان الناس أن اللغة ليست ألفاظا مرصوفة ، وإنما هي علوم وآداب وعواطف مصوغة في ألفاظ . فالتخلي عن الفصحى إنما هو رجوع بالفكر العربي إلى حالة السذاجة والجهل التي كانت عليها الأمة في أوائل نشأتها ، وهو دفن لتراث الأمة التليد وقطع لتاريخها المجيد

ومن جهة رابعة أدرك قادة الفكر أن الفصحى ليست لغة علم فحسب ، وإنما هي لغة دين ثابت الأركان

ومن جهة خامسة أخذت نسبة المثقفين تزداد ازدياداً مدهشا بحق . والمثقفون هم قادة الرأي . ومن الطبيعي أن يتمسكوا بلغة العلم والأدب وأن يمكنوا لها ما استطاعوا .

* * *

لم تعد الفكرة تتجه بعد هذا كله نحو إحياء اللهجات العامية ، بل أخذت تتجه نحو تثبيت الفصحى ونشرها . وتنشط العلماء والأدباء والزعماء يلتمسون أفضل الوسائل لتسهيل الفصحى وإذاعتها بين الناس . وهذه هي الحركة التي نشهد آثارها اليوم في الأقطار العربية الناهضة في الجامع والمعاهد والصحف .

(القدس) إسحق موسى الحسيني

أنا الغريق ...

للدكتور أحمد ضيف

وكيل دار العلوم

— ٣ —

دخلنا مدينة « بوردو » فى المساء ، وكان أحد أصدقائى قد أرشدنى إلى نزل هناك ، فتوجهت إليه ونزلت به . وفى الصباح خرجت أجول فى الطرق ، فرأيت فرقاً عظيماً بين باريس والمدن الأخرى .

وكنت شاهدت قبل ذلك غير هذه المدينة ، فعلمت أنه ليس فى فرنسا من المدن ما يشبه باريس فى جمالها ، وخفة روحها ، ومظاهر الحضارة بها ؛ وليست الحال كذلك فى بلاد الإنجليز ، فإن كل مدينة هناك تكاد تضارع لندن فى كل شىء ، حاشا سعة العاصمة وما فيها من مرافق مختلفة ، ونشاط اجتماعى وسياسى . وتكاد تجد فى بلاد الانجليز صبغة واحدة فى المساكن والنظام « العائلى » والحياة الاجتماعية . أما فى فرنسا فإنك تحس الفرق فى العادات والأخلاق واللغة ، فإن اللهجة الباريسية هى أصح اللهجات ، وأرقها رنينا فى الآذان . والمرأة الباريسية غير المرأة الفرنسية فى المدن الأخرى ؛ والذوق الباريسى الفنى غير أذواق سكان المدن الأخرى ؛ والتجارة والصناعة ، والجد والهزل فى جملته غيره فى باريس .

وأول شىء لفت نظرى هناك لهجة السكان ، وأذواقهم فى أحاديثهم ، وملابسهم التى يحاولون فيها محاكاة عاصمتهم ؛ ولكنهم لا يصلون إلى ذلك .

والباقى هناك قديمة ، أكثرها كئيب ، والطرق ضيقة ؛ والمدينة كلها تكاد تكون صورة من عصور مضت ، ولكن الصبغة اللاتينية أظهر ما تكون هناك فى خفة الإدراك ، وحضور الذهن ، وعدم المبالاة بتوالى الأيام . فقد كنا هناك لا نكاد نلمح فى وجوه الناس أو نفوسهم شيئاً من شبح الحرب ، ولا نرى لذلك أثراً سوى بعض الجنود الذين كانوا يقضون إجازاتهم ويفدون من الساحل الغربى للمحيط الأطلنطى آتين بأسلحتهم وعددهم وخيولهم من أمريكا لمساعدة الحلفاء .

وعند ما رجعت إلى النزل بادرنى صاحبه وقال لى :

— عليك أن تذهب فى الحال يا سيدى إلى مركز الشرطة ! !

فقلت :

— سأذهب بعد يوم أو يومين لتسجيل اسمى هناك ، والحصول على إذن بالبقاء هنا ، لأنى أعلم أن لى حق البقاء ثلاثة أيام بدون ترخيص من الشرطة .

فقال ، وقد هز رأسه استهزاء :

— كان ذلك يا سيدى وقت السلم ، أما الآن فلا بد أن تذهب فى الحال ، وإلا قضيت الليلة بلا طعام !

فقلت :

— وكيف ذلك ؟ ! قال :

— إنه لا يمكنك أن تحصل على كسرة من الخبز ، ولا جرام من السكر إلا بإذن من الشرطة .

فذهبت إلى بيت الشرطة ، فوجدت أمامه سرباً من نساء ، ورجال كأنه عقد منظوم ، رجل وراء امرأة ، وامرأة فى ذيل رجل ، وطفل خلف فتاة ، والغنى مع الفقير ، والصغير كالكبير ، والسيد كالمسود . هذا يدفع من أمامه ، وهذه ترفع رأسها لتستنشق هواء نقياً .

قالت امرأة لشيخ كان ملتصقاً بها :

— سيدى ، رفقاً بالنساء فإنى أكاد أختنق . فأجابها :

— وأنا أيضاً أختنق يا سيدتى !

فقالت غاضبة :

— إذن ... فقال :

— إذن تقفين كما نقف جميعاً إلى أن يأتى دورك ، أو ترجعين إلى منزلك !

وألح عليها بكلكله ؛ فالتفتت وراءها وقالت :

— أنت وحش !

فمدّ عنقه إليها وقال :

— وأنت بقرة !

فقالت غاضبة :

— وأنت جمل !

فتقدم الشرطى ، وكان واقفاً لحفظ النظام ، وقال :

— سيدى ! سيدتى ! صه . صه !

فنظرتْ إلى المتخاصمين عجوز كانت واقفة خارج الصفوف وقالت :

— أولادنا وأزواجنا تذبح فى ساحة الحرب ، وتقتل بهم ، وأنتم هنا تتنابذون بالشتم والسب ! ...

ثم نظرتُ ورائى فرأيت خلفى سلسلة من رجال ونساء ، وشعرت بضغط على جسمى من كل جهة ، وكان هذا الشعور يدفعنى إلى الاشمئزاز من هـذا الموقف ، ورائحة الطاهى والطاهية ، والخادم والخادمة ، والبائع والبائعة تفوح من كل جهة ؛ حتى كنت أترك مكانى وأقفل راجعاً وأنا كقطعة لحم بين قطعتين من خبز مجرتين . وصارت هذه السلسلة من الناس تتقدم حلقة حلقة ، حتى وجدتنى داخل حجرة بها شرطى يوزع صحفاً مقسمة تشبه طوابع البريد فى المقدار والشكل ، على كل طابع تاريخ يوم من أيام الشهر ، كتب بجواره « ثلثمائة جرام » . فلما تقدمت إلى الشرطى نظر إلىّ ، ولم يكن فى الناس شاب غيرى . فقال :

— أرنى أوراقك .

فأخرجت له جواز السفر ، فنظر فيه وتصفحه ، ثم حدق فى ثانية وقال :

— أنت أجنبى ؟ فقلت :

— نعم . قال :

— ولماذا أنت هنا ؟ ! قلت :

— سأمكث قليلاً ثم أعود إلى بلدى . قال :

— حسن . وأعطانى الصحيفة . وقال :

— يجب أن تمر هنا كل ثلاثة أيام !

فخرجت ورجعت إلى الفندق .

وكانت تجلس بباب الفندق الذى نزلت به امرأة كهلة ، كلما مررت بها رأيتها منهمكة فى تطريز قطعة من نسيج ؛ لتجعلها غطاء لنضدة ، أو لتزين بها مقعدا من مقاعد النزل . وكان يخيل إلىّ أنها لا تفكر فى شىء إلا فى إبرتها وخيطها ، وتجهد نفسها ليكون عملها متقنا ، حتى لقد كانت تنسى عملها الذى ترتزق منه ، وهو حراسة الباب ، ومعرفة الداخل والخارج . وكنتُ أمر بها فتعجبنى نظراتها من تحت منظارها الذى كان متدليا على أرنبة أنفها ، ويوشك أن يسقط من أقل حركة أو تلفت منها . وكنت عند ما أمر بالقرب منها أريد أن أنبهها إلى أن إنساناً يمر بالباب ، مداعبة لها ، فأضرب الأرض بقدمى ضربة تشبه أن تكون عثرة ، فتلتفت إلى جهة الصوت ، فأشير برأسى إشارة تحية ، فتهز هى رأسها وتقول كعادتها ، ردا على تحيتى :

— سيدى ! وتعود إلى عملها .

وكان يعجبنى منها شعرها الأبيض اللامع ، وأدبها الجم فى حديثها وسؤالها وجوابها ، مما يدل على نبالة أصلها .

وقفتُ مرة أمامها أحاول أن أتحدث معها ، فنظرتْ إلىّ ، وأحسّتْ أنى أميل إليها بعض الميل ، فقالت :

— اجلس يا سيدى !

ولمحت على وجهى التردد فى الجلوس بجوارها، وشعرت بأنى أستنكف أن أجلس مع خادمة، فقالت :

— إنى لست خادمة يا سيدى ! وسكتت هنيهة، ثم قالت :

— أجل . أجل . أنا خادمة الآن ! وتنهدت، ثم قالت :

— لعن الله الحرب، وقاتل الله عليوم !

ورفعت منظارها وأخرجت من مثنيتها منديلا مسحت به دمعة سالت على خدها، ثم طوت منظارها ووضعته أمامها وقالت :

— إنى يا سيدى روسية، من أسرة معروفة فى موسكو، وقد هاجرت إلى فرنسا خفية أو هربا، لأن هؤلاء الصعاليك الموغاء، الذين قتلوا القيصر ومثلوا به وبأسرته، طغوا هناك باسم الإصلاح الاجتماعى وإبادة الظلم، ففررت منهم لما خفتهم .

قلت : إذن أنت يا سيدتى من النبلاء !

قالت : أجل وا أسفاه . لقد قتلوا أهلى، وسلبوا أموالنا ومزقوا أعراضنا . وهم الآن يغيرون على الأسر الكبيرة كالوحوش الضارية، فى غير رحمة ولا شفقة ؛ ويظنون أن فى هـذا إصلاحا . والحق أنهم عطشى إلى الدماء، وأنهم عصابة لصوص .

فقلت : يقولون يا سيدتى إن عدوان الحكام هنالك، واستشار الظلم هما اللذان حملا الشعب على أن يثور ويفتك بكبار القوم .

قالت : ياسيدى . إن ظلم الشعوب لملوكهم وأسرابهم أعظم من ظلم الملوك لشعوبها . وإن هؤلاء الثائرين يريدون المساواة بين الناس . ويرون أن السيد والخادم يتساويان فى كل شىء . ويقولون إن كل إنسان يؤدى عمله فى الحياة، وإن النظام الاجتماعى يحتاج إلى العامل كما يحتاج إلى العالم . ومن أجل ذلك لا يرون فرقاً بين عمل العالم المحقق الذى يسبر الكون بآرائه، والعامل الجاهل الذى يعمل عمل الآلة الصماء، فكل منهما — فى رأيهم — يعمل وينتج ويفيد الانسانية . ثم قالت :

— هذا غريب ياسيدى فتلك أحلام وأخطاء، ومتى كان الناس متساوين . إن هذا الحلم لم يتحقق فى أمة من الأمم، ولا فى عصر من عصور التاريخ، وأقل نظرة فى الناس وأحوالهم وفطرهم تدل على حماقة من يفكرون فى هذه المساواة الخيالية .

وهزت رأسها ثم قالت :

— سترى ماذا يكون من جراء ذلك . وإذا تحقق ما يريده هؤلاء الناس فستخرج الأموال من أيدى أصحابها الذين ورثوها عن آبائهم، أو آلت إليهم بجدهم إلى أيد أخرى اغتصبتها اغتصاباً . ويكون معنى ذلك أن الملكية انتقلت من يد إلى يد، ويصبح الفقير غنياً، والغنى فقيراً، ويستأثر هذا بما كان يستأثر به ذاك، ويحل الثانى محل الأول ويصبح هؤلاء المصلحون كأسلافهم من أصحاب الأثرة، ولا يفكرون إلا فى شئونهم .

فقلت : ياسيدتى إنهم يريدون النصفة بين الناس، أو كما يقولون، يريدون أن يوزعوا الثروة على الفقراء، كل على قدر حاجته .

قالت : وهل تظن أن هذا النوع من المساواة يبقى دهراً طويلاً ؟

قلت : قد يكون ذلك .

قالت : فإذا أخذت أنا جزءاً من ضيعة، وأخذت أنت جزءاً مثله، وكنت أنت نشيطاً مجداً عاقلاً، وأنا خاملة جاهلة غبية بطيء، فماذا يكون من أمرى ؟ ألا تصبح بعد قليل ثرياً غنياً، وأبقى أنا فقيرة معدمة ؟ أظن أنك ترى مثلى أن الله لم يخلق الناس سواء .

فوجدتني غير قادر على التمادي في هذا الجدل فقطعت الحديث معها . ثم عادت إلى منظارها ووضعته فوق أرنبة أنفها ورجعت إلى نظرتها ونظرت إلى من تحت هذا المنظار وهزت رأسها وقالت :

— آه يا سيدي ! آه يا سيدي ! ليس أصدق من قول المسيح : « خلقنا لنتألم » !

فاتجهت إلى خادم النزل ، وكان هذا الخادم هرما محنى الظهر ، ينظر بعينين واسعتين يفصحان عن كثير من حوادث الدهر وتجاريبه ، ثرثاراً ، كثير الالتفات والحركة ، لا يفارق منفضته (الريشة) ، كلما مر بشيء من أثاث ألقى عليه ريشته ليزيل ما به من التراب .

فقلت له : أخبرني يا سيدي ، أين أتناول طعامي ؟

فقال : إننا يا سيدي في أوقات عصيبة ، وأنت الآن في بلد غريب ، فأشير عليك بتجنب الاسراف !

وهز رأسه وقال :

— عفوا ، ليست هذه نصيحة ، فأنت أعلم بذلك مني !

فقلت : إذن ... ...

قال : أدلك على مطعم يختلف إليه المتواضعون من الطبقة الوسطى ، ثم قال :

— لا ، لا ، أعني طبقة العمال ، وأنت تفهم جيداً ، إننا الآن في حرب لا في سلم ، وإن الاقتصاد واجب علينا .

قلت : فهمت ، ثم ماذا ؟

قال : أعني أنه لا يرد على هذا المطعم إلا طبقة من عامة الشعب !

قلت : إذن لا أذهب إليه !

قال : بل يجب أن تذهب ، لأن معاشرة العمال وتعرف أخلاقهم شيء جدير بالعناية ، فهم السواد الأعظم من الجمهور . هم فقراء ، ولكنهم شجعان . وسكت قليلا كأنما يفكر في شيء ، ثم قال :

— أجل . إنهم شجعان ، هؤلاء المساكين الذين يدافعون عن الوطن ، فإن هذه الحرب الدهماء يا سيدي قائمة على رؤوسهم ، هم يحملون أعباء الحياة !

قلت : ألا ترى أن الأغنياء أيضا يحملون أعباء كأعبائهم ، ويسيرون دفة الحياة بأموالهم ، وينفقون من هذه الأموال بقدر ما ينفق هؤلاء من جهودهم ؟

فنظر إلى بعينين لامعتين ذابلتين وهز رأسه وقال :

— لا يا سيدي ، ليسوا سواء .

ثم دلني على هذا المطعم ، فرأيت دكانة على بابه الزجاجي ستائر رقيقة رقيقة ، تستر نصفه الأسفل ، وعلى لوحة من الزجاج العبارة الآتية مكتوبة بدهان أزرق وأحمر معا : « الوجبة فرنك ونصف فرنك ، والاشتراك في عشر وجبات أحد عشر فرنكا » .

فدفعت الباب ، فقابلتني امرأة في العقد الخامس من عمرها . كانت تضع الصحاف على الموائد وترصفها رصفا ، فنظرت إلىّ وقالت :

— تفضل بالدخول يا سيدي . وأعدت لي مكانا وقالت :

— هنا محلك يا سيدي .

وابتسمت في وجهي ابتسامة كاذبة ، ومالت إلىّ بعينيها وافتر ثغرها عن أسنان صناعية مهشمة ، وبدا وجهها ذابلا ، وكانت أذرعتها العارية مفتولة قوية ، ولم تكن ملامحها تدل على شيء من رقة المرأة أو أنوثة النساء ، حتى كان يخيل إلىّ وهي تتكلم في شيء من الخشونة في صوتها وحركاتها أنها رجل لا امرأة ، بل كان النظر إليها يدعو إلى الاشمئزاز منها ، لأنها امرأة خرجت عن طبيعة النساء ، والمرأة العجوز إذا فقدت معنى الأنوثة اشمأز منها الناس ، بخلاف الشيوخ من الرجال الذين مسختهم الأيام ، فقد تكون الشيخوخة وسيلة من وسائل العطف عليهم والميل إليهم . وكانت ساحة هذا المطعم مملوءة بصفوف من الموائد

الخشبية العارية ، ومقاعد كالمقاعد التي يجلس عليها تلاميذ المدارس عندنا وقت تناول الطعام .

ورأيت في صدر هذا المطعم باباً صغيرا على فوقه لوح به صورة جماعة من كبار ضباط الجيش ، وفي ناحية من نواحي الجدار الأيمن صندوق به ثقوب مربعة ، كل ثقب به فوطة مطوية داخل سور خشبي ، وعلى حافة كل مربع رقم يميزه عن سواه ، خصصت كل واحدة منها المترددين على هذا المطعم ؛ وكان في الجهة المقابلة لهذا الجدار صورة نابليون في إطار بال وهو راجع من بلاد الروس مع فرسانه سائرين وسط الثلوج .

قالت لي هذه المرأة المهيبة :

— ماذا تأكل يا سيدي ؟ قلت :

— ماذا لديك ؟ قالت :

ضلع خروف مشوي ، بطاطس مقلي ، كرنب ، ضلع خنزير لذيذ جدا ؛ ثم كررت قولها : ضلع خنزير لذيذ ، فاختر منها صنفين ، وأشير عليك بطلب ضلع الخنزير !

قلت : لا يا سيدتي ، أنا لا آكل ذلك !

قالت ، ومدت شفتيها وتكلمت بصوت خافت كأنها تدللني : لماذا يا صغيري ؟ هذا لذيذ ! . .

ثم رفعت صوتها كأنها تسخر بي . وقالت :

— لقد ظلمت نفسك !

وذهبت لتحضر لي ما أريده . فدخل رجل في سن الخمسين ، طويل القامة ، عظيم الجسم ، ذو شارب طويل ، تدلى على فمه حتى أخفى شفتيه !

فرفع قبعته العريضة الحافة وقال (يحيي الحاضرين) :

— سادتي ، سيداتي

ووضع قبعته على مشجب كان بجوار الباب ، وكان يلبس سروالا قديما من المخمل (القطيفة) ظهر من جيبه مقياس خشبي (متر) وكان على وجهه أثر غبار من الجص ، فعرفت أنه بناء . ثم مد يده إلى الصندوق الذي بالحائط ، وأخذ منه فوطة وضعها حول عنقه ، وتدلت على صدره كما يصنع الحلاقون عندنا ، وجلس أمامي ، فجاءت له صاحبة المطعم بزجاجة من نبيذ ، وصحفة حساء فارغة ، وذهبت ، فتناول الزجاجة وصب النبيذ في الصحفة حتى ملأها ورفعها إلى فمه ، وأخذ يعب ما فيها عباً . فلما أزال الصحفة عن فمه كان قد أتى على كل ما فيها ثم تنهد استحساناً : حا . حا .

وكان شاربه الطويل قد انغمس في النبيذ ، فتساقط منه رذاذ فأخذ يمصه بعد أن أدخله في فمه بين أسنانه ، فأنفت من هذا الرجل ، وكان غيره من الآكلين على مثل هذا النحو ، فخرجت من هذا المطعم ولم أعد إليه .

(لها بقية) **أحمد ضيف**

جيوكوندا

(بقية المنشور على صفحة ٢٢)

بيد أن بعض النقاد عرض لهذه الصورة في العصر الحديث ، وذهب إلى أن إعجاب الجماهير بها إعجابا لا حد له راجع إلى التأثر بآراء السلف في هذا السبيل . وكتب أحدهم : « إن الرأى في قيمة تحفة من التحف قد ينتشر انتشار الوباء من كاتب إلى آخر ، حتى يتاح له شخص عنيد لا يتأثر بآراء الغير ، فيستطيع أن يثبت في بعض الأحيان أن تسعين في المائة من المادحين إنما يعجبون بما طلب منهم أن يعجبوا به » .

وفي الحق أن شهرة هذه اللوحة الفنية تسبق رؤيتها . وليس بعيداً أن يقف أمامها زائر عادي لم يسمع بها ، ولا يطأطئ الرأس لأقوال النقاد والأخصائيين فيها ، فلا يجد في وجهها ذلك السر الذي يتحدثون عنه .

ومهما يكن من شيء فإن أحداً لا يستطيع أن يشك في أنها صورة متقنة لسيدة جميلة فيها ذكاء ، وفتنة ، وثقة بالنفس ! ! !

زكي محمد حسن

من أحاديث العلوم

للدكتور السويسى

أقمار جديدة :

المريخ كوكب كالأرض يدور حول الشمس . وهو أكبر من الأرض ٣٠٠ مرة . ويستغرق ١٢ سنة ليدور حول الشمس دورة تدورها الأرض فى سنة . وهو بعيد عن الشمس بعداً كبيراً ، ولهذا يناله من حرارتها الشىء القليل . ويتركب جلد المريخ من كرة من الصخر يعلوها أقيانوس من الماء يبلغ عمقه آلافاً من القامات ، ولكنه متجمد من شدة البرودة . وعلى سطحه زوابع هائلة صارخة تشجُّ وجهه فتصبغه باللون الأحمر والأرجوانىّ والبنىّ . ويحجب هذه الزوابعَ عن عين الفلكى جوٌّ للمريخ كثيف الضباب ثقيله .

وللأرض قمر واحد ، ولكن لهذا المريخ الهائل أقماراً عدة ، اكتشف الأربعة الأولى منها جليليو Galileo عام ١٦١٠ بمنظار من خشب طوله قدمان . وهذه الأقمار الأربعة تدور حول المريخ فى سرعة كبيرة ، وهى تعطيه وجهها دائماً . وأوضاعها فيما بينها تختلف اختلافاً بيّناً كل ليلة . وهى قد تختفى وراءه أو تدخل فى ظله فلا تَبين . وللمريخ عدا هذه الأربعة الأقمار خمسة أخرى أقلّ نوراً . أولها اكتشف فى مرصد لِكْ Lick بجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة عام ١٨٩٢ ، وثانيها وثالثها اكتشفا فى نفس المرصد عام ١٩٠٤ — ١٩٠٥ . ورابعها اكتشف فى مرصد جرينتش Greenwich عام ١٩٠٨ . وفى عام ١٩١٤ كان طالب متخرّج من الجامعة حديثاً — واسمه نكلسن Nicholson — ينظر إلى الأقمار فى مرصد لِكْ فلمح قمراً للمريخ جديداً كان هو القمر التاسع .

واليوم يعلن معهد كرنيجى أن الدكتور نكلسن — وقد ظل فى كاليفورنيا يرقب النجوم من عام ١٩١٤ — قد اكتشف للمريخ قمرين جديدين هما القمر العاشر والحادى عشر . فما الذى أقعده عن كشفهما أربعة وعشرين عاما انصرمت منذ كشفه القمر التاسع ؟ أو ما الذى جدّ حتى استطاع اليوم ما عجز عنه بالأمس ؟ جدّ أن أجهزة الفلك ضُمّ إليها جهاز جديد هائل : تلسكوب أو منظار مقرِّب ، قطر مرآته مائة بوصة أو نحو ٢½ من الأمتار ، وقد أقيم على جبل ولسن بأمريكا Mt. Wilson . ويُسمّى التلسكوب والمرصد الذى يضمّه باسم الجبل .

ثم تأتينا الأخبار بأن تلسكوبا جديداً فى سبيل البناء ، قطر مرآته مائتا بوصة أو نحو من خمسة أمتار ، وهو يبنى فى أمريكا أيضاً بلد كل كبير . وهذا المنظار سيكون فى وسعه أن يلمّ من شعاعات الكواكب أو النجوم ويعكس منها إلى عين الناظر أربعة أمثال ما يعكس منظار المائة بوصة . ويرجو الفلكيون أن تنكشف بوساطته بلايين من نجوم هى الآن فى عالم الخفاء !

دجاج لا يعرف ما تراب الأرض :

الأصل فى الدجاج أنك تتصوره طليقاً يجرى على الأرض ينبش ترابها بأظافره فيلتقط منه الحبّ . ولكن يظهر أن هذا النوع من الدجاج الذى نعهده أصبح لا يوافق المدنية الحاضرة ، لأن مساكن المدن ليس فيها الساحات التى تتسع لجرى الأطفال ، دعْ جرى الدجاج ، وهى لا تحتمل قذارته . وهى قذارة يخطُّها الدجاج على الأرض حيث سار ، فلا حصر لمكانها ، وليس لها من الوجهة الصحية ضابط . إذن لا بد من دجاج لا يجرى ، بل يقضى حياته جاثماً أو واقفاً ، ومع هذا يأكل ويسمن ويبيض !

فهذا هو الدجاج الجديد الذي استنبطته الولايات المتحدة فجعلت منه صناعة جديدة كاملة ، تجرى كل أدوارها بين جدران ناطحات السحاب في مدن الولايات الكبيرة مثل نيويورك وشيكاجو .

وقد استغرق استنباطه سنوات عديدة . ومشروع هذه الصناعة الجديدة ناجح من الوجهة الاقتصادية . وقد بلغ من نجاحه أنك تجد الآن بعضاً من كبار فنادق تلك المدن تفرّخ دجاجها وتربّيه في أدوارها العليا ، وهو ينزل من تلك الأدوار إلى مطابخها مباشرة فلا يرى الشارع . وكذلك البيض ، إلا ما استُبقى منه للتفريخ .

والدجاج على هذا النظام لا يحتاج إلى عناية كبيرة ، فالرجل الواحد يستطيع أن يُعنَى بـ ١٥٠٠٠ دجاجة ! فالدجاجة الواحدة تسكن قفصاً هو لها وحدها ، فإذا باضت



عاملة تعنى بالدجاج في خزاناته

سقطت البيضة منه من ذات نفسها لخرجت فمرّت بجهاز يَرْقُم عليها من ذات نفسه أيضاً رقمَ القفص الذي بيضت فيه ، وبهذا يعرف العامل كم تبيض الدجاجة . فإذا نقص بيضها عما يرجى منها ذُبحت للموائد .

وقد يخال المرء أن الدجاج على هذا النظام الذي هو أشبه بنظام الحبس ، في هذا السجن وتحت هذه الظروف التي تتعارض مع الطبيعة معارضة كبيرة ، لا يمكن أن يَصِحّ ويَطيب . ولكن الواقع يثبت غير ذلك ، فالدجاج تظهر عليه مظاهر الصحة والاطمئنان . بل هو في الحق صحيح سليم ، فنسبة الوفيات فيه دون نسبتها في الدجاج الذي يربَّى حينما اتفق على الطريقة المتوارثة . ذلك لأن العناية الصحية به وهو حبيس أسهل منها وهو حر طليق .

وكان من فوائد هذه الحبسة أن أحد البحّاث استطاع أن يجرى عليها تجارب كالتي يجريها العلماء في المعامل على الجمادات . ومن تجاربه الغريبة تجربة تأثير الموسيقى فيها ، وقد وجد أن الموسيقى تزيد في بيضها ٢٠ ٪ ، ومن أجل هذا أخذ يذيع عليها الألحان العذبة من مذياع يعمل من الصباح الباكر إلى ما بعد غروب الشمس !

دوار البحر :

كل من ركب البحر لأول مرة لا يمكن أن ينسى ماذا فعل البحر بمعدته وبصفراء كبده . ركبه مرتاحاً مطمئناً يرجو فيه الهواء الطيب والغذاء الشهيّ والوقت السعيد ، فلا تمضي ساعات حتى تجدكَ في مخدعك منبطحاً في جو فاسد قليل هواؤه ، وحتى تجد رائحة الطعام ، بل ذكره ، يغرى جوفك بمعاودة التفريغ . سألتُ صديقاً : هل تمنيتَ الموت أبداً ؟ قال : نعم لما أصبت في البحر ساعات أفرّغ ثم أفرّغ ثم خلت أن هذا قد يدوم أربعة أيام .

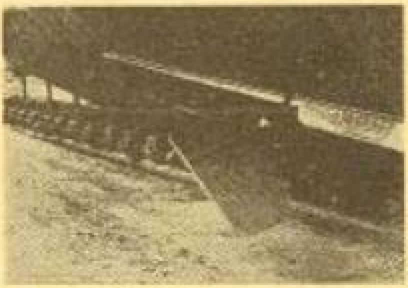
والسفينة إذا اضطرب البحر لها حركتان مألوفتان ، حركة رأسية ، وحركة جانبية . ففي الحركة الرأسية تغوص السفينة برأسها في الماء رافعةً ذيلها ثم تعود فترفع الرأس وتغوص بالذيل . وفي الحركة الجانبية تميل السفينة على جانبها الأيمن ثم على جانبها الأيسر ، وهكذا دواليك .

وشر الحركتين وأفعلهما في النفس غثياناً تلك الحركة الجانبية الخبيثة.

وقد حاول العلماء أن يعالجوا دُوار البحر فسلكوا له طريقين: أحدهما علاج الإنسان والآخر علاج السفينة.

أما الانسان فقد اكتشفوا له في السنوات الأخيرة عدةً من مواد كيميائية صنعوها حبوباً يبلعها المسافر عند إحساسه بالخطر. واشترطوا أن يكون البلع قبل الاحساس بنصف ساعة أو نحوها، ومن أين للرجل المسكين، أو للمرأة وهي أكثر مسكنة، أن تضرب في الغيب فتعلم بالضبط متى تقع الواقعة، وهي واقعة علم الله تأتي الناس بغتة وعلى غير استحياء في أسوأ الظروف وأوجبها للهدوء والاستقرار؟ على أن الذين استطاعوا التخمين الصائب قال بعضهم إنها تنفع، وقال آخرون إنه لا نفع فيها إلا بمقدار ما تنخدع بها الأنفس فتأمن وتستقر. والويل لمن باع في أمنه واستقراره.

أما السفينة فآخر ما حاولوه في أمرها صفائح من الفولاذ السميك دَوّارة ركّبوها في قاع السفينة تحت



قاع سفينة تظهر فيه مروحة مثبتة فيه بمحور

الماء. وتدور هذه الصفائح على محاور دوران المراوح مخترقة بطن السفينة في اتجاه متعامد عليها، وتتصل هذه المحاور في بطن السفينة بجهاز أوتوماتيكي يضبط ازوائها من ذات نفسه، فيحرك المراوح ليعاكس بها حركة السفينة النابية في البحر المضطرب. وقد جربوا هذه المراوح في سفينة تجري في بحر هادئ فاضطربت أشد اضطراب كأنها في بحر هائج.

ويسأل سائل: عالجنا الإنسان والسفينة، فهل من علاج للبحر؟ والجواب نعم: الزيت يُصبّ عليه فيهدّئ من أعصابه ويلطّف من أمواجه، فهو يمتد على الماء كالبساط الصقيل فيتزلق الماء من تحته انزلاقاً لا مقاومة فيه. ولكن أين الزيت الذي تغطّى به البحار؟

عين تُعار:

قرنية العين هو الغشاء الشفاف الظاهر البرّاق الذي يعلوها ومنه تنفذ أشعة الضوء إلى إنسانها.

وهذا الغشاء يفسد ويتعطل وتتعطل به وظيفة النظر إن قليلاً وإن كثيراً. وقد استطاع الطب في السنوات القليلة الأخيرة أن يستعير القرنيات من الأموات فيهبها للأحياء، فيعود البصر الذاهب أو يقوى الضعيف. وقد نجحت هذه العمليات نجاحاً كبيراً. ومن آخر ما يروى في صددها أن قسيساً سمع بها فتعلّق بها أمله، فكتب إلى اثني عشر رجلاً من المساجين قد حكم عليهم بالإعدام، يستعيرهم عيونهم من بعد موتهم فلم يفز منهم بطائل.

وجرت الأيام فإذا بالقسيس يُدعى إلى سرير صديقة كانت في النزع الأخير. وكانت في الثمانين من عمرها. وأجرى القس المراسم المألوفة فطيّب نفسها واطمأنت. ورفعت بصرها إلى السماء ثم قالت: «إني أرى الله على عرشه. إني أرى الجنة. ألا ما أطيب! ألا ما أجمل!» ثم أغمضت عينيها.

عندئذ هبّت بناتها في تأثر شديد، ووهبتا للقس عينيها. قالتا: «نرجو أن يكون لك منهما ذكرى حية من ذكراها».

وقد حقق الطبّ رجاءهما من بعد ذلك.

العربي

أنباء الفن والأدب:

الفنانون المصريون
فى معرض البندقية

للمرة الأولى ساهم الفنانون المصريون فى معرض عالمى ذى صفة فنية محضة ، وعنى بذلك معرض بيانال فى البندقية . ولقد حظى الجناح المخصص لهذه المعروضات بالزيارة الرسمية السامية لحضرة صاحب الجلالة ملك إيطاليا وصاحبة السمو الملكى أميرة سافوا ، وجلالة الملكة ماري ومعها صاحبات السمو الملكى الأميرات ، فكانت أعمال الفنانين المصريين موضع التقدير العالى والثناء الجميل ،



النائمة — محمود مختار

كما احتفت بها الصحافة الدولية والجمهور من سائر الأجناس .

ولقد عرضت أخيراً هذه التماثيل والصور واللوحات فى قاعة العرض الكبرى فى فندق الكونتننتال ، تنويهاً بها ، واحتفالا بعودتها الظافرة وما أحرزته فى الخارج من شرف المكانة ، وطيب الذكر .

وكان فن النحت ممثلا أروع تمثيل فى مخلفات المرحوم محمود مختار أول مثالى مصر الحديثة وأعظمهم . وإن الناظر إلى ما أبدعه من الدمى للفلاحات المصريات ، لا يتقضى إعجابه بخطوط هذا القوام السمهرى ورشاقته ، والفنان مختار يؤدى



الأحلام — محمود مختار

حية خاصة بكل منهم تتجلى فيما يخلقونه من أشكال .

أما التصوير ، فلا خلاف في أن الذين يسترعون الأنظار ويستوقفونها من المصورين ، هما محمود سعيد ومحمد ناجى ، وإذا كان أحدهما يذكرنا بالآخر ، فكما يذكرنا النقيض بالنقيض ، فالأول يشير إلى ظلمة الأعماق ، أعماق الغرائز في النفس الإنسانية ، ناطقة في الأجسام المشدودة المتوترة ، والصدور الكامنة الناهدة ، والنظرة الثابتة الحادة ، وألوان الأعشاب الحارة ، والشفاه المتقدة . وفى الجملة يشير إلى هذه القوى المظلمة ، قوى الجنس المكبوتة .

وإلى جانب هذه النوازع المظلمة ، الكامنة القوة ، المقيدة الحركة ، يصدمنا ناجى بنور ألوانه الساطع وحركته الخفيفة السارية ، فهو مفتون بالنور يطارده ، ويتصيد لمعاته ، ويثبتها بريشته على لوحاته العريضة ، كما تصيدها مرة ، لا يطامن من وهجها ، ولا يكسر من حدتها ، ولا يمازج تآلفها وترويضها ، فلا غرو أن تخطف البصر ، وتتعب العين في أول الأمر ، حتى إذا اعتادها الناظر طرب لها وعرف قدرها ، واستمتع بها .

ومن نوابغ المصورين غير هذين ، أحمد صبرى ويوسف كامل



بائع — للمثال إبراهيم جابر

المعنى كله في بساطة مدهشة تتركز فيها قوة أسلوبه ، وهو أسلوب شخصى وقومى معاً .

ويأتى بعد المثال مختار الذى عاجلته المنية في العنفوان وقبل الأوان ، طلائع من المثالين الناشئين ، أمثال أحمد عثمان ، ومنصور فرج منصور ، وسعيد حامد الصدر ، وعبد القادر رزق ، وإبراهيم جابر ، جمعوا إلى الصناعة الفنية التى تلقوها في معاهد الفن في مصر وأتموها في الخارج ،



رالس من زعماء الحبشة — للمصور محمد ناجى

وراغب عياد . وقد اختص كل منهم بناحية . فالأول ينزع إلى تصوير الأشخاص وحياة المرأة في الخدر أو قاعة الاستقبال . والثاني إلى المقابلة بين النور والظل في الريف على الأكواخ والمنازل الفقيرة . والأخير تحلو له مظاهر الحياة الشعبية ، ويعاشر في صوره طبقات العامة بملابسهم المتنوعة وحركاتهم المرحة وعبوسهم الطليق .

ولا نحب أن ننسى لبيب تادرس بمناظره الطبيعية الخاوية الساجية . كما نذكر الفنانين : على كامل الديب وحسين محمود فوزى ونحميا سعد وغيرهم ، وهم أجمعون لهم حاضر حميد ومستقبل زاهر سعيد .

وبالجملة ، فإن هذا المعرض ، وإن لم يضم جميع الفنانين ، إلا أنه جاء أقرب ما يكون إلى التعبير عن النهضة الفنية عندنا ، واستئناف مصر الحديثة لماضي مصر الخالدة ، مهد الفنون الجميلة من قديم . (ص)



اللحن الحزين — للمصور أحمد صبرى



ميدان قروجان — المصور يوسف كامل

من أحسن ما يُروى
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

تمهيد :

كان يقال فى حكمة الأوائل : « اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون » .

ويحسن بى — قبل أن أتحدث بأحسن ما حفظتُ — أن أنبه إلى أمور خمسة :

(١) أرى أن الذوق الأدبىّ وملكة النقد الفنىّ إنما يخلقان ، وينموان فى نفوس المتأدبين بكثرة ما يحفظون ويقرءون من جيد الكلام نظماً ونثراً ، ويتذوقون وجوه الكمال والارتفاع فيما حفظوا ، ونواحىَ النقص والانحطاط فيما تركوا ، ثم يدأبون على تطبيق مالم يسمعوا على ما سمعوا ، وقياس مالم يعلموا على ما علموا ؛ وهكذا حتى تُصبح ملكاتهم قادرةً على ابتكار ضروب فى النقد لم يُسبَقوا إليها ، وطرق جديدة فى تمييز الكلام لم يدلّهم عليها أحد .

(٢) أرى أن الفساد والضعف فى الشعر الحديث يرجعان إلى عدة أسباب ، أقواها أن ناشئة الشعراء فى هذا العصر لم يرجعوا فى تعلم الشعر إلى مصادره التى منها بُعث وفيها شبّ واكتهل ، فلم يقرءوا من شعر الفحول المتقدمين إلا قليلا ، ولو فعلوا لأكسبهم ذلك الشعرُ تقويماً لألسنتهم ، وتحسيناً واضحاً فى أساليبهم ، وحياةً قويةً فى عباراتهم ، وتعلموا من ذلك الشعر كيف يُبرزون إحساساتِهم وعواطفَهم وأخيلتَهم فى صور واضحة الدلالة بيّنة المعالم لا غموض فيها ولا التواء ، لكنهم رجعوا فى تعلم الشعر إلى ما يُنشر فى الصحف كلَّ حين من شعر الضعفاء ، وطَبَعِىٌّ أن الفرع أضعف من الأصل ، والتابع فى الدرجة الثانية من متبوعه

(٣) لا أريد فى هذه المختارات أن أكلف نفسى فوق مقدرتها ، باختيار ما يوافق جميع الأذواق ولا أكثرها ، فإن الناس تختلف أذواقهم فى تقدير مقطوعات الشعر وغيره من الفنون اختلافا بيّنا ، وذلك لتنوّع الرغبات باختلاف الثقافات ، وتباين البيئات والظروف المحيطة بكل منهم ، وَحسبى أن أختار ما أراه حسناً مفيداً موافقاً لأصحاب الذوق الأدبى الرفيع الذى كوّنه الاطلاع الواسع والإحاطة التامة بالأدب العربىّ فى جميع عصوره ، فإن رأى سوى هؤلاء غير ما أرى فله رأيه

(٤) ربما لايبلغ رتبة الحُسن الكامل فى رأيى غير بيتين أو ثلاثة ، فأضطر إلى إثبات أبيات قبلها لم تبلغ رتبتها فى الحُسن ، وإنما أثبتها ليكمل المعنى ويتصل السياق ، وتكون هذه الأبيات التى أضطر إلى إثباتها بمثابة قاعدة لهذا التمثال البديع فى فنه .

(٥) رأيتُ أن أضبط ألفاظ تلك المقطوعات ضبطا كاملا ، وأفسر ما يحتاج إلى التفسير من غريبها ، وأشرحَ ما أراه محتاجا إلى الشرح من غوامض عباراتها وأبياتها ، تيسيراً للانتفاع بها على جميع طبقات المثقفين ، متوخياً إبراز ما فى كل مقطوعة من وجوه الحسن والكمال الداعية إلى اختيارها ، مع الإيجاز فى ذلك قدر المستطاع

ابن الرومىّ يصف (وحيد) المغنية ويشبب بها :

لم أقصد فى اختيار هذه المقطوعة إلى عبارات ضخمة فخمة ، أو أسلوب ذهب به صاحبه مذهب العرب الأولين فى قوة النسج ومتانته ، أو فنّ لفظىّ بديع الصنع ،

فالمقطوعة خالية من ذلك كله ، وهى أشبه بلغة الكتاب وطريقتهم فى تأدية المعانى ، منها بلغة الشعراء وطريقتهم فى ذلك ، لما تراه فيها من بسط للمعنى وسهولة فى الألفاظ لا يكادان يتفقان إلا فى النثر . ألا ترى إلى إجمال المعنى ثم تفصيله فى البيتين الرابع والخامس ؟ وإنما قصدتُ فى اختيارها إلى ما أحسّه فيها من قوة التفكير ودقة التصوير والإحاطة بالمعنى من جميع نواحيه أو أكثرها ، والاتجاهات المبتكرة غير المبتذلة المطروقة فى التشبيب بالقيان وصفة غنائهن ، وإبراز الصور البديعة فى ثوب من البيان السهل المُشرق البعيد من الصناعة ، وتكلف فنونٍ من التحسين اللفظى

تلك نبذة مجملة عما أراه من وجوه الحُسن فى هذه المقطوعة وهى تغنى عن التفصيل ، قال :

يا خليلَيَّ تيَّمَتْنِي وَحِيدُ
فَفُؤَادِي بِهَا مُعَنًّى عَمِيدُ (١)
غادةٌ زانَها مِنَ الغُصْنِ قَدٌّ
وَمِنَ الظَّبْيِ مُقْلَتانِ وَجِيدُ
وَزَهاها مِنْ فَرْعِها وَمِنَ الخَدْ
دِ ذَاكَ السَّوادُ وَالتَّوْرِيدُ (٢)
وَغَرِيرٍ بِحُسْنِها قالَ : صِفْها
قُلْتُ : أمْرانِ ، هَيِّنٌ وَشَدِيدُ (٣)
يَسْهُلُ القَوْلُ : إنَّها أحْسَنُ الأشْ
ياءِ طُرًّا ، وَيَعْسُرُ التَّحْدِيدُ

(١) العميد : الذى أضناه الحب وأسقمه .

(٢) فرع المرأة : شعرها التام الوافى .

(٣) الغرير : الجاهل .

تَتَجَلَّى لِلنَّاظِرِينَ إلَيْها
فَشَقِيٌّ بِحُسْنِها وَسَعِيدُ
ظَبْيَةٌ تَسْكُنُ القُلُوبَ وَتَرْعَا
ها وَقُمْرِيَّةٌ لَها تَغْرِيدُ (١)
تَتَغَنَّى كَأَنَّها لا تُغَنِّي
مِنْ سُكُونِ الأَوْصالِ وَهْيَ تُجِيدُ (٢)
لا تَراها هُناكَ تَجْحَظُ عَيْنٌ
لكَ مِنْها وَلا يَدِرُّ وَرِيدُ (٣)
مِنْ هُدُوٍّ وَلَيْسَ فِيهِ انْقِطاعٌ
وَسُجُوٍّ وَما بِهِ تَبْلِيدُ (٤)
مَدَّ فِي شَأْوِ صَوْتِها نَفَسٌ كا
فٍ كَأَنْفاسِ عاشِقِيها مَدِيدُ (٥)
وَأَرَقُّ الدَّلالِ وَالغُنْجُ مِنْهُ
وَبَراهُ الشَّجا فَكادَ يَبِيدُ (٦)
فَتَراهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيا
مُسْتَلَذٌّ بَسِيطُهُ وَالنَّشِيدُ

(١) القمرية : طائر يشبه الحمام أبيض ، حسن الصوت ، وحكاية صوته تشبه ضحك الإنسان

(٢) الأوصال : الأعضاء . يشير بهذا البيت والذى بعده إلى أن الغناء طبيعة لها لا تتكلف فيه تكلفاً يخرجها عن سمتها وهيئتها بتحريك أعضائها وتشويه عينيها ونحو ذلك ، كما نرى فى بعض المغنين عندنا

(٣) جحظت العين : نتأت حدقتها .

(٤) يريد بالسجو هنا : إرسال الصوت فى سكون واطمئنان .

(٥) شأو الصوت : غايته التى ينتهى إليها .

(٦) الغنج والدلال : كلاهما بمعنى واحد . والشجا : الحزن . ويبيد : يبلى .

فيه وشيٌ وفيه حَلْيٌ من النغـ
ـمِ مصوغٌ يختالُ فيه القصيدُ
طابَ فوها وما ترجِّعُ فيه
كلُّ شيءٍ لها بذاك شهيدُ
نغمٌ ينقعُ الصدى وغناءٌ
عندهُ يوجدُ السرورُ الفقيدُ (١)
فلها الثغرُ لاثمٌ مستزيدُ
ولها الدهرُ سامعٌ مستعيدُ
ما تعاطى القلوبَ إلا أصابتْ
بهواها منهنَّ حيثُ تريدُ
عيبُها أنها إذا غنَّت الأحـ
ـرارَ ظلُّوا وهمْ لديها عبيدُ
واستزادتْ قلوبُهمْ من هواها
برُقاها وما لديهمْ مزيدُ (٢)

ليتَ شعري إذا أدامَ إليها
كرَّةَ الطرفِ مبدئٌ ومعيدُ
أهي شيءٌ لا تسأمُ العينُ منه
أمْ لها كلَّ ساعةٍ تجديدُ
بل هي العيشُ لا يزالُ متى أسته
رضَ يُبلي غرائبًا ويُبيدُ
منظرٌ ، مستمعٌ ، معانٍ من اللهـ
ـوِ ، عتادٌ لمن يحبُّ عتيدُ (١)
ما تراءينَ ، نظرةٌ منكِ موتٌ
لي مميتٌ ، ونظرةٌ تخليدُ
نتلاقى فلحظةٌ منكِ وعدٌ
بوصالٍ ولحظةٌ تهديدُ

أحمد الزين

(١) ينقع الصدى : يروي الظمأ
(٢) شبه غناءها وما فيها من حسن تبلغ به ما تريد من القلوب برقى الساحر التي يتوصل بها إلى ما يشاء

(١) عتاد كل شيء : ما يصلح له وعتد لإعداده

مرتبات الموظفين فى عصبة الأمم

يتقاضى سكرتيرها العام مرتباً ضخماً ليتمكن من الظهور بالمظهر اللائق وظيفته ، ولينفق منه على الولائم التى لا تخلو منهـا داره يوماً فى الأسبوع ، وهذا المرتب قدره ١٣٠٠٠٠٠ فرنك فى العام . ويتقاضى مدير مكتب العمل الدولى ٨٤٠٠٠٠ فرنك فى العـام ، خلا نفقات أسفاره وما يعطى له بين الحين والحين أجراً على أبحاث خاصة وأعمال لا يحق نفعها . ويتقاضى كل من مساعدى السكرتير العام ٦٧٥٠٠٠ فرنك . وفى العصبة كذلك مائة موظف وأحد عشر موظفاً تتراوح مرتباتهم بين ٥٠٠٠٠ وخمسة آلاف فرنك فى العـام . ولدى العصبة كذلك هيئة كاملة من الكتاب على الآلة الكاتبة والعارفين بفن الاختزال ، يتقاضون مرتبات تتراوح بين ٤٣٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ فرنك فى العام

وهـذه الآلاف كلها ، يدفعها حضرات الأعضـاء الواظبون على دفع الاشتراك إلى اليوم . وقد قلَّ عددهم جداً !



عشرة أيام فى العراق

للأستاذ الدمرداش محمد

---

٤ — فى مدينة بغداد :

وصلنا بغداد مساء يوم الأحد ٦ فبراير سنة ١٩٣٨ بعد أن قطعنا بالقطار وبالسيارة ١٧٠٠ كيلومتر ، أى قدر المسافة بين القاهرة وأسوان مرتين ، ونزلنا بلوكاندة (مود) وهى لوكاندة قديمة مشهورة ، وقد استجد ببغداد غيرها أحسن منها بناء وأوفر استعدادا ، وللوكاندة وجهتان تطل إحداهما على الشارع الرئيسى للمدينة (شارع الرشيد) ، وتطل الأخرى على نهر دجلة .

جلست فى الشرفة فى ضوء القمر أنظر إلى منازل الشاطئ المقابل : شاطئ الكرخ ، وإلى دجلة وماء دجلة ، وإلى جسر القوارب ، وإلى منازل الرصافة ، وإلى شجر النخيل ، وإلى القوارب الراسية فى النهر ، وإلى السماء ، وإلى الأرض ؛ وأطيل النظر ، وأعيد ذلك وأكرره ، فلم يوح إلىّ المشهد بشىء عن عظمة بغداد الغابرة !

احتسيت فنجاناً من القهوة ، ودخنت سيجارة ، وارتديت معطفى ، وغيرت مكانى وجلست فى مقعد أوسع ، ثم حاولت أن أستشعر شيئاً عن عظمة بغداد : بغداد عاصمة الرشيد ، مقر الخلافة ، مقر الثروة والغنى والبذخ والجاه العريض ، مقر الأدب والعلم والقصور العامرة ، مهبط الشعر والفن والخيال الرائع ، فلم أجد صدى لكل ذلك فى نفسى ، فنازل الرصافة كمنازل مصر القديمة على النيل عتيقة لا جمال فيها ولا فخامة ، ومنازل الكرخ على الشاطئ المقابل كمنازل الجيزة على النيل ، عتيقة كذلك لا جمال فيها ولا فخامة . ودجلة بين الرصافة والكرخ كالنيل وقت انخفاضه بين مصر العتيقة والجيزة ، ماؤه عكر وشواطئه عارية لا جمال فيها ولا تجميل !



جسر القوارب على دجلة

ثم احتجب القمر واشتد البرد ، فدخلت بهو اللوكاندة حيث وجدت فى ركن منه مجلساً ضم خيرة رجال التعليم بالعراق ، أتوا للترحيب بنا والتعرف إلينا ، فتكرم سعادة الشباوى بك وقدمنى للحاضرين ، وكان سعادة السيد طه الراوى مدير عام المعارف (وكيل الوزارة) يتكلم عن التعليم بالعراق ، ماضيه وحاضره ومستقبله بعبارة هادئة متزنة ، ثم تعرفت بالسيد تحسين ابراهيم مدير عام البحث الفنى والسيد

يوسف عز الدين المفتش العام والسيد هاشم الألوسي مدير منطقة معارف بغداد والسيد عبد الجبار شلبي مدير التعليم الابتدائي ، وكان مما عنوا باطلاعنا عليه بصفة خاصة بعض المشاكل التعليمية والاجتماعية التي تواجه رجال التعليم بالعراق ، فإذا بينها وبين ما تواجهه نحن في مصر شبه كبير : فمسألة تعليم البنت ، ومسألة اختيار نوع التعليم الذي يلائم البيئة والحاجة ، ومسألة التعليم العالي والجامعي ، كل هذه وما شابهها لا تزال مشكلات يحاولون حلها على وجه يتفق وحاجة الشعب العراقي وتقاليده .

وظهر لي من سياق الحديث ومن زياراتنا لبعض المدارس والمعاهد الدينية فيما بعد أن رجال التعليم في العراق أكثر منا حرية واستقلالا في حل مشاكلهم ، وذلك لأسباب كثيرة : منها أنهم يبنون على أساس حديث معظمه من وضع أيديهم ، كما أنهم غير مقيدين لدرجة كبيرة بتقاليد قديمة موروثة وغير ملزمين باحترامها والمحافظة عليها ومراعاتها فيما جل من الأمور أو صغر . وبسبب هذه الحرية والاستقلال وتحللهم من قيود القديم وتحديدهم المقاصد التي يتوخونها في التعليم والأغراض التي يرمون إليها ، أمكنهم أن يضعوا نظامهم التعليمي على أسس بسيطة خالية من التعقيد والتبذير ، وأن يرقوا بالتعليم في زمن وجيز إلى مستوى يحسدهم عليه كثير من الأمم الشرقية المجاورة لهم . ومما لاحظته أن الوسط المدرسي عندهم قليل التباين والاختلاف . فالتعليم الابتدائي مثلا نوع واحد ، فليس هناك تعليم أولي قديم وتعليم أولي جديد وتعليم إلزامي ، بل تعليم ابتدائي واحد للجميع . ومدارس تخريج المعلمين تخضع لنظام واحد وروح واحدة . والتدريب العسكري إجباري في جميع المعاهد المتوسطة وما فوقها من غير تفرقة أو تمييز

ومما يغبط عليه رجال التعليم بالعراق ثلاثة أمور هامة : أولها استعدادهم الحسن لقبول النصيحة والمعونة الخارجية .

وثانيها ديمقراطيتهم في تصريف الأمور والتفاهم عليها ، فقد قيل لي إن ناظر المدرسة مهما كانت درجتها يمكنه أن يخاطب مباشرة بالتلفون أو المكاتبة أو المقابلة كل الكبار في وزارة المعارف ، من الوزير فنازلا ، في الأمور المتعلقة بمدرسته من غير أن يكون ذلك موضع لوم أو تذمر أو استغراب . وثالثها انتفاعهم بكل الكفايات المتخصصة من غير نظر إلى اعتبار السن أو الماهية ، فالشبان العائدون من البعثات في الخارج يعينون في وظائف فنية هامة لا يصل إليها شباننا إلا بعد سنوات طويلة .

ومما لاحظته في هذا الباب أيضاً وجود صلة صداقة متبادلة بين رجال المعارف وحكام الأقاليم ، ففي زيارة الحلة وفي زيارة بعقوبة عاصمة مديرية ديالة كان حاكم الاقليم ومفتشو المعارف الذين رافقونا يتحدثون في أمور التعليم المتعلقة بالمنطقة حديثاً ودياً ويتناقشون في الإجراءات مناقشة الندم فيها صالح التعليم وصالح الاقليم ، فيطالبهم المدير بأمور ويطالبونه بأمور من غير أن تشعر من نغمة الحديث أو طريقته أن هناك آمراً ومأموراً .

وفي صباح اليوم التالي خرجت إلى شارع الرشيد ومشيت فيه مسافة طويلة ورأيت يد الإصلاح تعمل بجد في تنظيفه وتنظيمه . ولا تزال بعض المباني القديمة بارزة في الشارع خارجة عن خط التنظيم . ثم دخلت بعض الحارات والأزقة وهي في مجموعها كثيرة الشبه بحي الجمالية بالقاهرة ، فنازلها من طابقين ، ولا تزال بعضها محتفظاً بطابعه الشرقي القديم من مشربيات وزخرفة من الجص على هامش الأبواب ونوافذ عليها قضبان الخ . ويستخدم أهل بغداد

ملحوظة : ميزانية التعليم في العراق تبلغ نحو ٩٠٠ ألف جنيه أي نحو ٢٠ ٪ من الميزانية العامة وعدد المدارس الابتدائية ٧٠٠ مدرسة بها نحو ٣٠٠٠ معلم ومعلمة و ٧٥٠٠٠ تلميذ وتلميذة ، وعدد المدارس الثانوية والمتوسطة ٤٥ مدرسة وخمس مدارس عالية هي الطب والصيدلة والحقوق والمعلمين والحربية .

فى بناء المساكن طوباً مشوياً لونه ضارب إلى الصفرة، ويتركون ظاهرها من غير طلاء اكتفاء بلون الطوب، كما أنهم قلما يركبون على الشبابيك دلفاً من الخشب بل يكتفون بدلف الزجاج. والغالب أن تختص كل عائلة بمنزل مستقل، ولهذا كانت أجور المساكن ببغداد مرتفعة. وأما المساكن التى على النظام الحديث فقليلة ولا توجد إلا فى بعض الأحياء المستجدة.



ضريح السيدة زبيدة فى خارج بغداد

ثم تجولت فى أسواق المدينة، وبعضها ضيق ضيق من النوع المسقوف، والحوانيت صغيرة كثيرة الشبه بحوانيت سوق النحاسين بالقاهرة، والحركة فيها هادئة، ومعظم الزبائن من الرجال، وأما النساء فعددهن قليل ومعظمهن من الفلاحات (نساء العشائر)، سافرات الوجوه يلبسن إزاراً أسود واسعاً، ويضعن فوق رؤوسهن «العصبة» و«الكلس»، ويكثرن من الوشم على الذقن والشفاه، ودخلت سوق الصاغة ومعظم معروضاته من الفضة المشغولة، وبعضها مطعم بالمينا السوداء من صناعة الصابئة. وفى العودة إلى اللوكاندة التقيت فى شارع الرشيد بسيدات تلوح عليهن النعمة، يسرن وحيدات سافرات الوجوه يلبسن العباءة السوداء (العبا)، ويغلب عليهن طول القامة، ونحافة الجسم، وبياض الوجه، وحسن الملامح.

وفى الضحى توجهنا لزيارة البلاط الملكى، وهو يقع فى شمالى المدينة، وقيدنا أسماءنا فى السجل، وقابلنا هناك معالى السيد رشيد الخوجه السكرتير الخاص لجلالة الملك غازى، ومعالى السيد عبد الله الملوحى رئيس التشريفات.

ومن البلاط ذهبنا لزيارة ضريح المغفور له الملك فيصل، وهو عبارة عن قبة عالية يحملها بناء مضلع الشكل جميل الوضع والموقع.

ثم انتقلنا إلى ديوان رياسة الوزارة، حيث قابلنا فخامة الرئيس جميل بك المدفعى مقابلة لطيفة، وهو جم التواضع يلبس البدلة والسدارة (الفيصلية) — رأيته فى مأدبة سعادة عزام بك، لا يتكلم إلا قليلا، وإذا أعجبه كلام الآخرين أومأ برأسه علامة الاستحسان، وإذا اشترك فى الحديث ضمن رأيه الخاص. وقال لى بعض الحاضرين: إن المدفعى بك يتمتع بمحبة الشعب واحترام الأحزاب، تقلد أمور الدولة عقب محنة المرحوم بكر باشا صدقى قائد الجيش، وكانت البلاد على شفا حرب أهلية، فتوسل بحكمته وحزمه ودهائه إلى تلطيف الحالة وإعادة السكينة. ورأيته نائباً عن جلالة الملك غازى فى حفلة افتتاح المؤتمر الطبى وهو يخطب، فكان واضح الصوت رصين العبارة، وكانت خطبته متينة قصيرة خالية من التنميق.

وديوان الرياسة بسيط يتكون من غرفتين فى الطابق العلوى من بناء قديم، إحداهما للسكرتير والأخرى لفخامة الرئيس، وغرفة السكرتير فيها بعض المقاعد ومكتب واحد لسكرتير واحد، استأذناه فى الزيارة فدخل وعاد يدعونا للمقابلة على الفور.

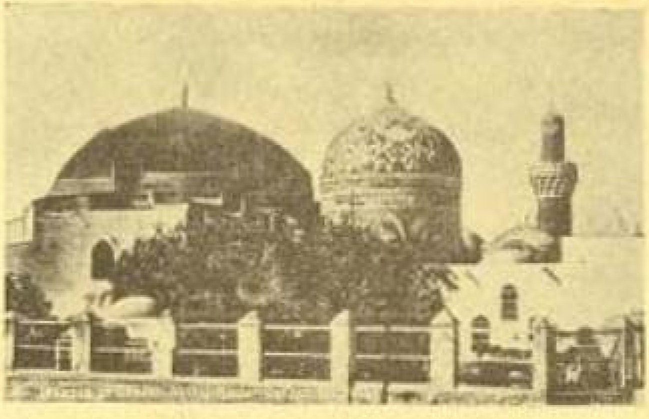
ثم قصدنا وزارة المعارف ولتشرفنا بمقابلة معالى الشيخ

محمد رضا الشبيبي في مكتبه، ودار الحديث بيننا طويلا حول ما تجرى عليه في مصر وما يجرى عليه العراق فيما يتعلق بميزانية التعليم ونظمه وأغراضه، ودرجة تقدمه وانتشاره. وتناول العشماوى بك الموضوع بالشرح والتعليق، فصادف الكلام هوى في نفس الوزير فأنصت باهتمام، وكنا كلما هممنا بالانصراف طلب المزيد. والوزير يلبس العمامة والجبة والقفطان والعباءة على طريقة علماء النجف، وهو من وجهاء الشيعة ومعدود من كبار أدباء العراق. رأيته في الوليمة التي أقامها سعادة صبحي بك أمين العاصمة السابق تكريماً لنا؛ فكان كثير الصمت لا يتكلم إلا همساً؛ وأحياناً يسر بالنكتة إلى أقرب الجالسين منه فيرتفع صوتهم بالضحك. ورأيته في الموكاهد لما أتى لرد الزيارة فكان كثير المجاملة لطيف الباسطة.

وديوان وزارة المعارف في بناء قديم أيضاً من طابق واحد، ولا يقيم فيه عادة إلا الوزير والمديرون، وأما المفتشون ومديرو التعليم فيقيمون في مناطقهم بالأقاليم.

ثم توجهنا لزيارة دار المعلمين الابتدائية فاستقبلنا ناظرها الأستاذ السيد خالد الهاشمي وأساتذتها، وألقى حضرته كلمة لطيفة ضمنها ما في نفسه ونفس زملائه من المودة والإعجاب بالنهضة المصرية، ورد عليه العشماوى بك بكلمة أخرى شرح فيها ما رآه من مظاهر النهضة العراقية، وما يتمناه للقطر الشقيق من تقدم ورقي.

وعند الظهر توجهنا جميعاً لزيارة دار المفوضية المصرية ببغداد، واستقبلنا سعادة عبد الرحمن بك عزام في داره استقبالا حافلا. وعزام بك شخصية بارزة محترمة محبوبة جداً من العراقيين شعباً وحكومة، ومعدود هناك من أصحاب الدار، فيقصده الكبير والصغير للوساطة والشورة. ودعانا سعادته في داره مرة على الشاى ومرتين على العشاء، الأولى مع أفراد أسرته وموظفي المفوضية، والثانية مع فخامة رئيس الحكومة ووزير المعارف ومديريها. ويمتاز عزام بك بنزعة عربية واضحة، وحديثه طريف لطيف، يحدثك عن شئون مصر والعراق وإيران وأفغان وتركيا، بصراحة العربي الصميم المطلع على خفايا الأمور، ويرجع بك إلى ماضيه في الحرب العظمى، وجهاده مع عرب طرابلس، واختباراته ومساعيه. سألته: هل نهضة الشرق الحالية نهضة حقيقية؟ قال: بلا شك، ولكن يعوزها المال والرجال؛ أما المال فللقيام بالمشروعات العمرانية التي يفتقر إليها الشرق أكبر افتقار، وأما الرجال فللحكم الصالح الذي أساسه العدل الشامل والتنظيم المتين.



منظر خارجي لجامع سيدي الجيلاني

حدثنا أحد الرفقاء قال: بين العراق وانجلترا معاهدة كالتي بين مصر وانجلترا، ومن نصوصها شرط يقضي بشراء السلاح اللازم لجيش العراق من انجلترا دون غيرها، ففي وزارة فخامة السيد حكمت سليمان أبطأت المصانع الانجليزية في توريد ما طلبته العراق من السلاح، فولت العراق وجهها شطر ألمانيا، واستوردت حاجتها منه، فقام نزاع بين الطرفين على هذه المسألة، وبعد مشادة طويلة لجأ الطرفان إلى التحكيم، وانتخبوا عزام بك حكماً. ثم قال: أتدرى ما الذي حكم به؟

قلت : لا .

قال : فقضى لنا بصواب ما عملناه .

قلت : بارك الله فيه ، وهل دهشتم لهذا الحكم ؟

قال : لا . لم ندهش للحكم نفسه ، فقد كنا واثقين من عدالة قضيتنا ، ومن حسن تقدير الحكم لظروفنا ، ولكن الذي أدهشنا حقاً هو سلوك السفير البريطاني ؛ فإنه كان أول من توجه بالتهنئة لمرام بك على هذا الحكم !

وبعد الظهر زرنا برفقة السيد رشيد على العبيدي معتمد نادي المعارف ، مسجدي الشيخ عبد القادر الجيلاني وحضرة الإمام الأعظم أبي حنيفة ، وكلاهما من جوامع السنية من الطراز التركي فيهما ضخامة البناء ، وبراعة الهندسة ، ولكن ليس فيهما رشاقة الفن الذي يتجلى في جوامع الشيعة : ورأيت على قبر الإمام الأعظم لوحة تحيط بالضريح مكتوباً فيها بخط جميل قصيدة من الشعر مطلعها :

إذا ما الناس فقها قايسونا بآراء من الفتيا طريفة
أتيناهم بمقياس عتيـــد مصيب من طراز أبي حنيفة

ثم توجهنا لزيارة حضرة الإمامين الكاظميين (موسى الكاظم ومحمد الجواد) خارج بغداد ، واستقبلنا في مدخل



تركية الضريح في جامع الكاظمية



منظر خارجي لجامع الكاظمية

الحرم شيخ الخدام ، وهو وقور الطلعة كبير العمامة ، يلف على طربوشه الطويل عمامة خضراء ، فطاف بنا أرجاء المكان ، وكان غاصاً بالرجال والنساء ، جماعات جماعات ، ومع كل جماعة مطوف يرتل دعاء بعبارة محزنة وصوت تخنقه العبرات ، وهم من حوله يولولون ويبكون ويرددون ما يقول

والجامع تحفة فنية غاية في الإبداع : بجدرانه المغطاة بالقيشاني الأزرق ، وقبابه المكسوة بصفائح الذهب ، ومآذنه الرشيقة الجميلة ، وقطع المرايا اللامعة التي تتلألأ على العقود والأعمدة ، وتركية الفضة على الضريح ، كل ذلك نسيج من الفن الرائع لا يغني فيه الوصف بل يجب أن تتمتع برؤيته العين .

(للكلام بقية)

الدمرداش محمد

بين المجلة والقراء

تحية وسلاما

« وبعد فقد كانت ساعة مباركة تلك التي فكرتم فيها بإصدار « الثقافة » ... وزادني سروراً أني رأيت مجلتكم « تفتح صدرها لكل باحث يوجه المجلة إلى ما قد تكون غفلت عنه أو يستحسن لها ما لم تلتفت إليه » ...

« والآن وقد استمرأتم مجلتكم وانتشرها العالم العربي ، فهل لكم أن تعنوا بدراسة الأدباء السوريين ومؤلفاتهم ؟ إذ أن الأكثرية الساحقة عندكم لا تعرف من كتابنا شيئاً ، وهل تشمل تلك البحوث في الغد التي سينشرها الدكتور طه حسين المؤلفين السوريين ومتعلميهم ؟ ما إخالكم إلا فاعلين لأن النهضة العربية في جميع الأقطار تحتاج إلى تعاون وتعاضد ، ونحن بانتظار رد إلى مجلتكم يحقق مأمولنا الأمثل »

دمشق « نجيب »

(الثقافة) تشكر الكاتب على حسن ظنه كما تشكره على حسن توجيهه ، والحق أن إخواننا السوريين والعراقيين والحجازيين يعرفون عن أدباء مصر ومؤلفاتهم أكثر مما يعرفه المصريون عن أدباء الشام والعراق وكتابهم . وهذا تقصير لا ينكر ، ولكنا نرى أن الذي يتحمل تبعة ذلك أدباء مصر وأدباء الأقطار الشرقية على السواء ، فأدباء مصر يجب أن يعرفوا القراء بآداب غيرهم كما أن أدباء الأقطار الشرقية يجب أن يساهموا في ذلك . فالثقافة توجه نظر الأدباء المصريين إلى هذا الواجب ، كما تفتح صدرها للمقالات القيمة التي يكتبها أدباء سوريا والعراق وغيرهما للتعريف بأدبائهم ومؤلفاتهم .

***

وردت على المجلة كتب كثيرة يطلب أصحابها أن تعنى المجلة بالشعر كما عنيت بالنثر ، وقد رأت « الثقافة » على رأيهم فأنشأت باباً جديداً تعرض فيه خير ما في الشعر العربي القديم والحديث ، مضبوطاً مشروحاً ، كما ستنشر في هذا الباب خير ما يرد علينا من شعر المعاصرين . وموعدنا العدد القادم .

***

أرجو — ومعي كثير من القراء — أن تدونوا في أسفل الصفحات معاني الكلمات الغريبة الاستعمال التي ترد في بعض المقالات . . . .

محمد عز الدين خليل — طالب

(الثقافة) هناك كلمات واصطلاحات يمكن الطالب أن يرجع إليها في المعاجم ، وهذه لا يصح شرحها ، بل على كل طالب أن يعتمد فيها على نفسه ويعودها البحث والدرس وكشف ما غمض ، فذلك خير من أن يحمل غيره عبء كل شيء ، وما يحصله الطالب بنفسه خير ألف مرة مما يحصله له غيره ، ومن العار على مجلة أن تشرح كلمة دكتاتورية وديمقراطية وما هي نايلس ، ومعنى مفردات لغوية يعرفها القاصر بمجرد بحثه عنها في المعجم الذي بين يديه ، كما أن من العار أن يرضى الطالب بجهله لهذه الكلمات ، فيمر عليها من غير بحث ودرس حتى تقدمها له مجلة سيارة ، ولكن هناك كلمات من الصعب على الطالب العثور عليها فيما بين يديه من معاجم ، كأن يكون لها استعمال خاص في أوساط خاصة وهذه لا نألو جهداً في شرحها عند استعمالها .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين ـ القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢

العدد الخامس | « الثلاثاء ١١ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — ٣١ يناير سنة ١٩٣٩ » | السنة الأولى

الفهرس

الجامعة العربية

صورة من صورها المعنوية

لمحرر « الثقافة » السياسى

للدول القوية منطق تستأثر بتطبيقه ، فإذا اجتمع رأيها على أمر من الأمور ترى فيه وحدة الباعث والمصلحة ، أقدمت على إبرامه وتنفيذه وفق مشيئتها ، دون أن تحسب حساباً لما قد يثيره موقفها أو عملها فى نفوس الغير من شك أو اعتراض .

ولكنها تأبى على غيرها من الدول الضعيفة مثل هذا الحق ؛ فإذا اجتمع فريق من الدول الصغرى على أمر من الأمور ترى فى تحقيقه تحقيقاً لصالحه المشترك ، فانها ، أى الدول الكبرى ، تستقبل مثل هذا الاجماع ، إذا لم يكن لها يد فى عقده وتوجيهه ، بكثير من الشك والاعتراض ، وقد ترى فيه عملا غير ودى تحاربه بكل قواها .

وقد رأينا الدول الغربية الكبرى تجتمع فى العصر الأخير فى مختلف المناسبات والمؤتمرات ، لتتفق على اقتسام الأمم الضعيفة وامتلاكها ، أو اتخاذها على الأقل مناطق

نفوذ سياسي واقتصادي ، ورأيناها تنظم هذا العدوان على حريات الأمم الضعيفة بمعاهدات دولية معروفة ، لم تحجم عن عقدها والعمل بما فيها .

ورأيناها كلما همت جماعة من هذه الأمم المغلوبة للتفاهم على مقاومة هذا العدوان المنظم ، بالكفاح المعنوي والوسائل السلمية التي لا تملك سواها ، تنكر عليها كل حق في التفاهم والتآزر ، وتنزعج لأية حركة تبذل في هذا السبيل ، وتعمل لمقاومتها وإحباطها بكل ما وسعت .

وهكذا لبثت الأمم الغربية طوال القرن الماضي ، وحتى العصر الأخير ، تنكر على الأمم الشرقية كل حركة في سبيل توثيق أواصر الجامعة المشتركة ، الجامعة الإسلامية ، أو الجامعة العربية ، أو الجامعة الأسيوية ، أو ما إليها من حركات التفاهم المشترك ؛ وتتخذ من كل دعوة نظرية ، أو سعي عملي في سبيل حركة من هذه الحركات ، نذير خطر مشترك على النفوذ الغربي ، يجب العمل على مقاومته وسحقه .

بيد أنه يلوح لنا أن العالم الغربي قد تغير اليوم ، فهو يرى ، أو على الأقل يرى فريق منه ما لم يكن يرى بالأمس ؛ أجل ، يرى هذا الفريق في نفس الحركات التي كان يخشاها بالأمس ما يشجعه اليوم على قبولها ، بل على تعضيدها والأخذ بناصرها .

كانت بريطانيا العظمى وفرنسا قبل الحرب تحرجان لأية حركة أو بادرة لها صلة بالجامعة الإسلامية أو الجامعة العربية ؛ ذلك لأن كلا منهما تبسط نفوذها على فريق كبير من أمم تدين بالإسلام وتنطق بالعربية ، وكانت كل منهما تخشى أن يعقد أي تفاهم أو أية رابطة بين هذه الأمم الشقيقة ، فتزيد في قواها المعنوية ، وتذكي رغبتها في الجهاد في سبيل حقوقها وحرياتها .

ولكن السياسة البريطانية أدركت بعد طول التجارب ، وعلى ضوء التطورات الدولية الأخيرة خطأ هذه النظرية ؛

وهنالك ما يبعث على الأمل بأن فرنسا سوف تحذو حذوها في فهم هذه الحقيقة التي طال الأمد على إغفالها .

* * *

شهدنا في مصر في الأسابيع الأخيرة مظهراً رائعاً من مظاهر التفاهم والتآزر بين الأمم العربية ؛ فقد اجتمعت وفود هذه الأمم الشقيقة في مصر شقيقتها الكبرى ، لتعنى جميعاً بمسألة عربية إسلامية طال العهد بها حتى تفاقمت ، وأضحت تتطلب حلاً سريعاً عادلاً ، هي المسألة الفلسطينية .

وشهدنا خلال المآدب العديدة التي أقيمت لهذه المناسبة ، والاجتماعات الرسمية التي عقدت لبحث المسألة الفلسطينية ، ما يغتبط له قلب كل عربي وكل مسلم ؛ شهدنا أمراء العرب الكرام ، وزعماء الأمم العربية ، ورؤساء حكوماتها ، يلتفون حول رئيس الحكومة المصرية ، ويتوافرون جميعاً على بحث الموضوع المشترك ، بحث الاخوة الأشقاء ، يلتمسون جميعاً بروح المحبة والوئام ، طريقاً لتوحيد الرأي ، وتوجيه السعي المشترك ، إلى خير ما يمكن أن يسفر عنه لتحقيق أماني الأمة الفلسطينية .

وسمعنا بوشند في غير مناسبة من الأمراء العرب ورجالاتهم تنويهاً بأهمية هذه الرابطة العربية الوثيقة ، ودعوة إلى تمكينها ودوامها لخير الإسلام والعرب ، ثم سمعنا رئيس الحكومة المصرية يشيد بها في حفل رسمي في عبارات حماسية يقول فيها : « ليس يعدل سعادتنا باجتماعكم اليوم في عاصمة المملكة المصرية ، إلا فخارنا باختياركم مصر للتشاور في حل المشكلة التي طال عليها الزمن ؛ فهذا الاجتماع يعيد أمام بصائرنا صوراً شتى من ماض مشترك بيننا جميعاً ، وفي كل صورة منها ذكريات مجيدة يحق لكل واحد من أبناء البلاد العربية المختلفة أن يجعل منها موضع فخاره ، لأن بلاده التي يقيم اليوم بها ، قد اشتركت فيها بحظ عظيم ؛ وهل ينسى أحد منكم ، وهل ننسى نحن ما سجله التاريخ بأحرف من نور في العهود المختلفة ، حين

كانت القاهرة المعزة وجهة الجميع وقبلة أنظارهم ؟ »

ويقول سمو الأمير فيصـل فى كلمته رداً على رئيس الحكومة المصرية : « إنه لأول مرة فى التاريخ الحديث تشهد هذا المظهر البارز لتضافر الأقطار العربية وتعاونها ؛ ولأول مرة نقف من بعضنا مجتمعين على هذا المنوال » .

وفى حفل آخر يشيد رئيس الحكومة العراقية بالجامعة العربية ويدعو إليها صراحة فيقول : « إننا وإن دعتنا مصر العزيزة للنظر فى أمر معين ، إلا أن شعورنا يدفعنا إلى أن نأمل فى أن يكون اجتماعنا التاريخى هـذا احتفالا بوضع الحجر الأساسى لتكوين جامعة دولية من الأقطار العربيـة والشرقية الممثلة هنا ، ترمى إلى غاية إنشائية سلمية شاملة غير هدامة تقوم على أساس إحقاق الحق ، وتوطيـد العدل ، ودفع الظلم عن هذه الأقطار ، وتنهض بها بالتعاون والتآزر إلى ما تصبو إليه ، وليس من وراء هذه الغاية تهديد لأحد » .

أليس فى هذه الإشارات الرسمية الصريحة من الزعماء والرؤساء المسئولين ، ما يحمل على الاعتقاد بأن فكرة الجامعة العربية قد تحققت فى معنى من المعانى ، وأن هذا التعاون الوثيق بين الأمم العربيـة فى بحث الشئون المشتركة إنمـا هو فاتحة عهد جديد فى السياسة العربية والإسلامية يبشر بكثير من الخير والأمل ؟ .

* * *

ولقد تناولت بعض الصحف الانكليزية والفرنسيـة التى عرفت من قبل بتوجسها وخصومتها لكل تقرب أو تعاون بين الأمم العربية ، هـذا المظهر الجديد من اجتماع الأمم العربية واتحاد كلمتها ، بشئ من الاعتدال لم نعهده فيها من قبل ، ولكن تناوله البعض الآخر من الصحف الاستعمارية بكثير من التوجس والريب ، وصوره فى صورة خطر داهم على نفوذ بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأدنى .

ويتساءل مراسل إحدى الصحف الفرنسية الكبرى فى جزع : أليست هذه الحركة التى نشهدها الآن فى مصر ، والتى تقودها مصر وترعاها ، هى الجامعة العربية بعينها ؟ وماذا تبغى هذه الكتلة العربية الإسلاميـة الجديدة أن تعمل لتحقيقه ؟ أليست تبغى العمل على تقويض كل نفوذ لانكلترا وفرنسا ، وإرغامهما على الانسحاب من كل بقعة تحتلانها فى الجزيرة العربية ؟ إن مثل هذه الحركة إذا تفاقمت ، فقد تزيد فى مخاوف انكلترا وفرنسا ، وفى تشددهما إزاء أمانى الأمم العربية ؛ وقد يحمل ذلك فرنسا بالأخص على أن تعدل نهائيا عن إبرام المعاهدة السورية ، التى يرى البعض إبرامها ضربة قاضية على مركز فرنسا الأدبى والعسكرى فى الشرق الأدنى .

ذلك ما يهمس به بعض الكتاب والساسة الغربيين الذين لا يريدون أن يفهموا الأمور على حقيقتها ؛ بيد أن هذا التصوير الذى كان بالأمس مثار التهويل والارجاف ، لا محل له اليوم ؛ فقد تطورت الحوادث الدولية بصورة تجعل من المرغوب فيه أن تقدر بريطانيا العظمى وفرنسا أمانى الأمم العربية والإسلاميـة قدرها ، وألا يبذل أى جهد للحول دون تفاهمها أو توثيق روابطها ، وأن تفهم كل منهما أن قيام جبهة عربية إسلامية موحدة فى صورة من الصور ، إنما هو عامل هام فى استقرار السلام فى العالم العربى والإسلامى ، الذى تربطهما به روابط قوية : ذلك أن العالم العربى والإسلامى يغـدو اليوم بحكم الظروف والأحوال حليفاً طبيعياً للديمقراطية التى تمثلها بريطانيـا وفرنسا ؛ أولا لأن معظم الأمم العربية والإسلامية ترتبط ببريطانيا وفرنسا بروابط المصالح المشتركة ، وبعضها يرتبط برابطة التحالف ، كما هو الشأن بين مصر وبريطانيا ، والعراق وبريطانيا ، وكما يرجى أن يكون الشأن بين سوريا وفرنسا ، وفلسطين وبريطانيا ؛ وثانياً لأن الأمم العربية والاسلامية الفتية ، وهى أمم ديموقراطية بطبيعة تكوينها ، وطبيعة الدين السمح الذى تعتنقه ، وكونها كافحت ، أو ما زالت تكافح فى سبيل حريتها ، أمم تؤمن بقضية الحرية الإنسانية ، والحريات القومية ؛ وهى بذلك لا يمكن أن تؤمن بالنظم الدكتاتورية أو الاستبدادية ، أو أن تجنح

إليها ، لأنها تخالف عقليتها وأمانيها ، ومن ثم كان اتجاهها إلى المعسكر الديموقراطي الذي تقوده بريطانيا وفرنسا .

وليس من شك في أن صداقة العالم العربي والإسلامي للديموقراطية ، أو بعبارة أخرى لبريطانيا وفرنسا ، إنما هي عامل يجب أن يحسب حسابه في المعركة الهائلة التي تضطرم اليوم بين الدكتاتورية والديمقراطية ، والتي يوشك أن يتقد ضرامها بين آونة وأخرى ؛ وبريطانيا وفرنسا تعرفان قيمة هذه الصداقة ، ولا سيما في مثل هذه الظروف العصيبة التي تجتازانها ، وليس من صالحهما أن يعمل شيء لنقض من قيمتها ؛ ولا ريب أن تفاهم الأمم العربية والإسلامية لن يكون موجهاً إلى أحد ، وإنما هو كما قال رئيس الحكومة العراقية ، تفاهم إنشائي لا تحدوه أية غاية هدامة ؛ وهو يرمي قبل كل شيء إلى التعاون والتآزر بين الأمم العربية والاسلامية على تحقيق أمانيها المشروعة ، وذلك بالوسائل السلمية المحضة ، وبالاعتماد على قوى هذا التضامن المعنوية والأدبية .

ويلوح لنا من موقف بريطانيا الحاضر إزاء المسألة الفلسطينية ودعوتها الأمم العربية جميعاً إلى الاشتراك في بحثها ، أن السياسة البريطانية بدأت تفهم تضامن العالم العربي والإسلامي على وجهه الحقيق ، وتقدر ما يمكن أن يترتب من عقد أواصر التفاهم بين هذه الكتلة المتحابة من الأمم العربية وبين بريطانيا العظمى ؛ وإذا وفقت السياسة البريطانية ووفق مؤتمر لندن إلى وضع حل شريف عادل للمسألة الفلسطينية ، فإن هذا التفاهم بين الفريقين يقوى ، ويغدو من أهم عوامل الاستقرار في الشرق الأدنى .

والأمل معقود بأن تحذو فرنسا حذو حليفتها بريطانيا ، فتقدر هذا التفاهم بين الأمم العربية قدره الحقيق ، وتعمل من جانبها على تحقيق أماني سوريا المشروعة ، وتبادر إلى إبرام معاهدة الصداقة السورية التي طال الأمد على إغفالها بعد أن تضافرت الجهود في سبيل عقدها .

(***)

المستر فلبي ومؤتمر فلسطين

يقال إن مستشار جلالة الملك ابن سعود المستر جون بردجر فيلبي ، هو صاحب فكرة المؤتمر الذي سيعقد بعد قليل لبحث المسألة الفلسطينية ، وأنه نصح وزير المستعمرات الإنجليزي مالكولم ماكدونالد بتنفيذها ، فقبل رأيه ونفذه كما هو معروف . والمشهور عن فيلبي أنه من أعرف الإنجليز ببلاد العرب وقضيتهم ، فلا يبعد أن تكون الحكومة الإنجليزية سألته رأيه في هذا الموضوع ، فأفتى بعقد المؤتمر ، ولكن الظاهر أن طريقة تنفيذ الفكرة لم ترضه . وإليك حديثاً له مع صحفي انجليزي ينقد فيه طريقة تكوين هذا المؤتمر ، ويبدي رأيه في تعديلها حتى يؤتي المؤتمر الثمرة المطلوبة ، قال المستر فلبي :

« إن الأسباب التي استبعد من أجلها المفتي من عضوية المؤتمر ليست وجيهة ولا مقبولة ، إنني على ثقة من أن الحكومة لا تملك برهاناً واحداً تؤيد به التهم التي توجهها إليه وتبعده عن المؤتمر بسببها » . ثم قال : « ومما يؤسف له حقاً أن سوريا ولبنان غير ممثلتين في هذا المؤتمر ، ومسألة فلسطين أمس بهما وأكثر أهمية لهما منها لأي بلد آخر من البلاد التي دعيت للمؤتمر . ولا بد أن يتدارك المسئولون هذا الخطأ ويدعوا ممثلي هذين البلدين للاشتراك في أعماله » . ثم قال وكأنه يوجه الحديث إلى مندوبي البلاد العربية ويلفت نظرهم إلى مسألة المسائل في المؤتمر ، قال : « وإني لفي شك مما إذا كان المندوبون سيناقشون الأساس القانوني للانتداب نفسه ... فإذا حدث وتعرضوا له وطلبوا الفصل فيه ، فأظن أن أبواب محكمة لاهاي مفتوحة أمامهم ، يستطيعون أن يعرضوا الأمر عليها ، لتقرر ما إذا كان وعد بالفور ، والوعود التي قطعها لورنس على نفسه للعرب ، تتعارض مع فكرة الانتداب وروحه » .



أدهشني قول الفتاة حقيقة . وعجبت أن شفتيها اللتين لا تعرفان غير مس إصبع الأحمر يمكن أن يخرج من بينهما هذا الكلام العميق . نعم إن الرسل والأنبياء ينبغي أن يتركوا سماءهم ويهبطوا إلى الأرض كي يصعدوا بالبشر . هنا قوة الأنبياء والرسل . وهنا التجربة القاسية والامتحان الصارم الذي كتب عليهم أن يجوزوه . فعلى الرسول أن ينزل بين الناس ويمر بأدرانهم ، كما يمر شعاع الشمس بدود الأرض وحشرات التراب ، ويخرج من بينها وضاءً نقيا لم يعلق به من القذر شيء . ثم هو فوق ذلك يخترق بطون الأشياء وصدور الكائنات فيملؤها صحة وقوة . ويرتفع طاهراً كما نزل طاهراً ، بعد أن عمر الوجود بالطهر والنور . ذلك هو النبي الحق . لطيف كالضوء ، خفيف كالهواء ، إنه من مادة السماء ، فهو دائم الاتصال بها مهما تركها . أما من هبط فرسب ولم يستطع العودة إلى الأعالي فهو الرسول الكاذب . وإن الأرض لخداعة . وإن جمالها لبراق . وإن ابتسامتها لمغرية . وإنها لتنتقم أحياناً من أولئك الهابطين لاستنقاذ البشر من بين أحضانها . ويلذ لها أن توقعهم في حبالها وتمرغهم في أوحالها وتضحك من أجنحتهم البيضاء ، وقد عفرها التراب ، ومن أرديتهم المقدسة وقد لطخها الطين ! . . وتذكرت « بافنوس » مرة أخرى ، وتخيلت كارثته ومأساته . . . .

***

ولقد تركت الفتاة تمضي ذلك اليوم دون أن أصغي إلى طلبها . فقد قلت لها إني لن أغادر مكاني ولا كتبي من أجل شيء . ومهما يكن من أمر حججها القوية فإني لا أستطيع على كل حال أن أخرج مع فتاة ، أو أن أذهب لشاهدتها وهي تلعب « التنيس » . وإن كل صلاتي بها لا تعدو ، ولا ينبغي أن تعدو الفرض النبيل الذي جاءت له ، وهو التحدث في شئون الفكر . . .

***

مر يومان على زيارة الفتاة ، وإذا الباب يطرق علي . إنه ليس موعدها . فمن الطارق ؟ وأذنت في الدخول . وإذا أنا أمام شاب حسن المنظر ، أنيق الثياب ، مشرق الوجه ، لطيف الإشارة ، كل شيء فيه يدعو إلى احترامه ومحبته والإيناس به . فحياني . وقدمت له مقعداً فجلس وقال :

— إنك لا تعرفني . ولكني أعرفك من كتبك . منذ زمن طويل . ولست أدري ما الذي أقعدني حتى الآن عن الحضور إليك ! من الأمانة أن أبادر فأقول إن الفضل في حثي على القدوم يرجع إلى . . . شخص آخر .

فنظرت إليه نظرة السؤال ، فمضى يقول :

— إلى خطيبتي .

فأدركت من الفور . . . غير أني رأيت أن أتريث ، فقلت له :

— ألي الشرف أن تكون هي أيضاً من بين قرائي ؟

فقال :

— أشد قرائك تحمساً !

فأبديت دهشتي :

— كيف ذلك ؟

فقال مبتسما :

— إن لهذه المسألة قصة طويلة . ولكني أكتفي الآن بالقول : إن خطيبتي التي كانت تكره الكتب قد بدأت منذ أسابيع تقبل على القراءة على نحو أدهشني . لقد قرأت كتاب « تاييس » في ثلاث ليال ...

فملكت نفسي حتى لا يبدو على وجهي العجب . إن الفتاة قد كذبت على إذن يوم ردت إلى الكتاب قائلة إنها لم تطالع منه سوى بضع صفحات ! لماذا فعلت ذلك ؟ ولم أسترسل في التفكير ، فقد مضى الشاب يقول :

— وإنها تقرأ الآن كتبك كلها ، وتكاد تفرغ منها . وإنها تناقشني فيها مناقشة تحرجني أحياناً . وتسألني عنك أسئلة لا أستطيع عنها جواباً ، وأمس حينما أخبرتها أني لم أرك قط سخرت مني ، ثم غضبت ، وأقسمت أنها لن تراني حتى أراك وأزورك وتنشأ بيننا صلة !

فقلت للشاب :

— إني سعيد بمعرفتك ، وأود لو ألقي عليك سؤالا : أسبق لخطيبتك أن رأتني ؟

فأجاب الشاب من فوره :

— لست أظن !

فازداد عجبي ! إن الفتاة لم تخبره إذن بزيارتها لي . إن مسلك الفتاة غريب ! وكتمت ما في نفسي ، والتفت إلى الشاب :

— وما السر في إقبال خطيبتك على القراءة أخيرا ، بعد طول الإعراض ؟

فقال الشاب :

— لست أدري . وهذا ما يوقعني في الحيرة !

فقلت كالخاطب لنفسي ، وأنا مطرق أفكر :

— نعم ، هذا ما يحيرني أنا أيضا !

ونظر الشاب إلى مستفهما :

— أنت أيضا ؟

فقلت :

— نعم . إن الإنسان لا يحب الكتب بين يوم وليلة !

فقال الشاب :

— إن خطيبتي على جانب هائل من الذكاء ، وقوة العزيمة !

فقلت في نبرة الارتياب :

— هذا أيضا لا يكفي لتعليل الأمر .

ومر برأسي عندئذ خاطر فبادرت أسأل الشاب :

— أرأيتها قرأت شيئاً آخر غير « تاييس » ، وغير كتبي ؟!

فأجاب على الفور :

— لا . لم تقرأ غير ذلك ، ولم تحادثني في غير ذلك .

وهنا أدركت ، أو خيل إلى أني أدركت السبب الحقيق . إنها تقرأ لا للقراءة ولا للثقافة . ولكن ... للاستكشاف . إنها تريد أن تنقب عن شيء وترفع النقاب عن شيء .. آه المرأة ... ينبغي أن نستثير فضولها وأن نوقظ حب الاستطلاع فيها حتى نحملها على فعل العجائب ! فهمت الآن كل شيء . لقد نجحت عفواً ومن حيث لا أتوقع نجاحا باهراً في وضع يدي على مبدأ الطريق . وفي سرعة لم تخطر لي على بال قد ظفرت بنتائج رائعة . كان ينبغي أن أعرف من أول الأمر أن الوسيلة الأولى للترغيب في القراءة هي استثارة الفضول الشخصي . فإذا أردنا من طفل أن يجهد في مطالعة رسالة فلنخبره أن فيها كلاما عن هدايا ولعب ستهدى إليه ، وأخبارا ستدخل عليه

السرور . أما القراءة المجردة التي يبتغى منها اللذة الفكرية العليا وحدها والاستمتاع بالجمال الذهني لذاته ، فهي التي دونها المصاعب ، وهي التي تحتاج في اكتساب ملكتها إلى زمن ومران . على أن هنالك أمراً ما زال يكتنفه الظلام : ما هو هذا الفضول الذي دفع الفتاة إلى قراءة « تاييس » كلها في ليال ثلاث ، وإلى مطالعة كتبي بهذا التحمس والنشاط ؟ أتراها استطاعت النفوذ إلى أعماق شخصية الراهب « بافنوس » ؟ أتراها أرادت بعد ذلك النفوذ إلى حقيقة شخصيتي في أعماق كتبي ؟ ! إذا كان هذا ما رمت إليه فما هو الدافع ؟ .. ألحظت شيئاً .. ؟؟ كلا . إني أفترض لهذه الفتاة من الذكاء ما لا يمكن أن يحوى مثله عقل امرأة !

* * *

وقطع الشاب عليّ تأملاتي بقوله :

— كان ينبغي أن أقول ساعة دخولي الآن إن الغرض من زيارتي أيضاً هو تقديم خالص شكري وإظهار اعترافي بالجميل ... إذ لولا كتبك ...

فرفعت رأسي وقلت على عجل :

— كتبي لم تصنع شيئاً . إن خطيبتك لها من غير شك نفس رفيعة وإحساس دقيق وروح نبيل ...

فقال الشاب في نبرة حارة :

— نعم ، ولكن هذه النفس الرفيعة النبيلة لم تظهر لي وتشرق لعيني وبصيرتي إلا أخيراً ، إلا يوم قرأتك . إنها يا سيدي قد انقلبت مخلوقاً آخر في خلال أسابيع . لطالما تمنيت أن أرى زوجتي في صورة أخرى أرفع وأسمى من هذه الصورة التافهة للفتاة الطائشة التي لا تعرف غير « الخياطة » و « السينما » و « السباق » و « التنس » و « السيارة » و « الحلاق » و « التواليت » . تلك الفتاة الجاهلة ذات التعليم الزائف ، التي لا يعدو حديثها بضع عبارات فرنسية تلوكها في سماجة كلما أحرجتها الظروف . تلك الفتاة المسكينة المغرورة التي تحسب أنها متمدنة لأنها عرفت كيف تصنع بين أناملها إصبع الأحمر . تلك الفتاة التي تعرف أن لها فماً يجب أن يملأ ، ولا تعرف أن لها رأساً يجب أن يملأ أيضاً ، إذا أرادت أن تجعل من نفسها شخصاً جديراً بالاحترام . إني كنت أقنط يا سيدي من المرأة في بلادنا . ولطالما قلت لخطيبتي إنها قد تظفر مني بالعطف ، ولكنها لن تظفر قط بالاجلال الواجب لها إلا إذا عرف عقلها كيف يخاطب عقلي . وهي لن تبلغ هذه المرتبة حتى تقرأ ما أقرأ وتتذوق من شئون الفكر ما أتذوق ، وتستطيع أن تسد فراغ حياتنا الطويلة المستقبلة بحديثها الطلي المفعم بألوان الغذاء الفكري المهضوم !

ومضى الشاب في مثل هذا القول . وأنا أصغى إليه في ظاهر الأمر . ولكني في الحقيقة كنت أفكر في مشكلة بدت لي الساعة : إن هذا الشاب لا يعرف أن خطيبته قد زارتني مراراً قبل اليوم . إنها لم تخبره وهذا شأنها . ولكني أنا . . . هل يجوز لي أن أمضي في صمتي ولا أفضي إليه بما حدث ؟ هل يليق بي الكتمان ؟ على أني من جهة أخرى أخشى إذا أنا أخبرته أن أرتكب حماقة وأعرض الفتاة لغضبه وأضعها موضع الحرج لإخفائها الأمر عنه ! ماذا أصنع ؟ أأنتظر حتى أبحث الموقف مع الفتاة ؟

لكن . . . هيهات فبسطت له اليوم ما كان من شأنها معي ، ويعلم هو أني لم أفاتحه والظرف مناسب والفرصة مواتية . فماذا يكون موقفي ؟ !

آه ! لماذا فعلت الفتاة ذلك ؟ تباً للنساء ! اللهم الهمني مخرجاً ! ....

توفيق الحكيم

بين القول والعمل

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

من الظواهر التي تسترعي النظر فينا، أنك تلقى الرجل الذكي وتتحدث إليه في شؤوننا العامة، فتجده، بلطف حيلته، يسوق الحديث إلى ناحية خاصة من نواحيها، ويسمعك آراء طريفة فيها، ويبهرك بإحاطته بمسائلها، وإدراك ما ظهر وما خفي منها، وفهم مواطن الضعف فيها؛ ويعرض بلباقة لما ينبغي أن يتبع في إصلاحها، فتخرج من الحديث وأنت تحسبك قد وقعت على الخبير فيها، وظفرت بالرجل الحق الذي يستطيع حسن القيام على هذا الأمر، وتوجيهه في طريق الإنتاج المثمر. وتمر الأيام، وتسمع أن الرجل قد أفلح في حمل الناس على أن يعهدوا له بتوليه، فتطمئن نفسك إلى أن الأمور أخيرا قد وضعت في نصابها، وتتوقع أن ترى له في هذا الميدان آثاراً بينة. ولكنه يخيب ظنك وظنون من أخذوا مثلك بلباقته، فهو يسير سيرة من سبقوه، يبقي ما أبقوه ويترك ما تركوه، ولا تحس له أثراً خاصا في توجيه العمل الذي ملأ الدنيا من قبل عنه. وقد تلقاه بعد ذلك فإذا هو فاتر الاهتمام بهذا الأمر، منصرف الذهن إلى غيره مما ليس في يده من الشؤون، وإذا أشرت إليه برفق إلى ما كان ينتظر منه، راوغ وحاول شغلك بحديث غيره، فإذا ضيقت عليه الخناق، راح يتلمس لنفسه المعاذير، ويلقي تبعة الركود والتقصير طورا على ظروف الأحوال، وطورا على من يعاونه من العمال، وحيناً على قلة تشجيع الرؤساء، وضعف تقديرهم للأكفاء.

وأحسبك لا تجد تفسيرا لهذه الظاهرة إلا أحد أمور ثلاثة: أن يكون هذا الرجل قوالا، يحسن تنميق الألفاظ، والتشدق بطريف الآراء، فإذا جد الجد، وحان وقت العمل كان عاجزاً عن أن يحقق بالفعل ما ردده بالقول، وأن يضع موضع التنفيذ ما جرى به لسانه من الآراء. أو أن يكون رجلا مرائياً خداعا، لا يدلي بآرائه الطريفة إلا كوسيلة للدعاوة لنفسه — يبهر بها الأسماع، ويكسب بها الأنصار حتى يصل إلى المكانة التي يشتهيها، فإذا وصل وجد أنه نال بغيته، فلا يعني بتحقيق ما منى الناس به، ولا يعود لما كان فيه من الاهتمام به. بل ينصرف إلى غيره من الشئون التي تتعلق بها مطامعه في الخطوة التالية. يلقي حولها شباكه، ويعد لها العدة الجديدة من خداع ورياء، وشقشقة لسان ودعوى عريضة. أو أن يكون العامل مخلصاً ضعيف العزيمة سريع الخور، ويكون تيار العمل الجاري قويا يكتسح كل من يعارضه، ويغلب المجدد الراغب في الاصلاح على أمره، فيضطر بعد جهاد قصير الأمد أن يلقي سلاحه ويجري مع التيار، ويكون شأنه شأن غيره ممن رضوا بالواقع، وقنعوا بالسلامة في الحياة، ولعل من الخير للعامل الجاد في الاصلاح أن يقتصد فيما يعتزم من الخطط، وألا يواجه العمل إذا أتيحت له الفرصة بحرب سافرة، وأن يحتال لما يقصد إليه بالصبر والأناة والرفق، حتى يرى الناس منه أعمالا جديدة، صالحة قوية، لم تعهد لها بقرع الطبول، وليس له أن تفتر عزيمته، إذا رأى من دونه ممن لا يجيد غير صناعة الاعلان والدعاية، يظفر بما لم يظفر به من الحظوة لدى الناس. فحسبه هو أن تطمئن نفسه إلى أنه يؤدي واجبه أكمل أداء. وكل زيف إلى ظهور. « فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين ».

الحسن الصباح

فيلسوف ومتآمر

وزعيم دينى وسياسى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

وقد وضع الحسن قواعد مذهبه ومبادئ طائفته بالفارسية ، فى عدة رسائل فلسفية كلامية ، نقل إلينا خلاصتها مواطنه ومعاصره الفقيه والمتكلم البارع أبو الفتح الشهرستانى[١] فى كتابه « الملل والنحل » . وقد عاش الشهرستانى فى ذلك العصر المضطرب ، الحافل بالحروب والثورات الداخلية ، وعاصر حركات الاسماعيلية ووثباتهم فى فارس ، وعاصر إمامهم الحسن منذ « صعوده » إلى ألموت حتى وفاته ، ونقل إلينا تعاليمه قبل أن تمتد إليها يد التغيير والتبديل . وإليك خلاصة هذه التعاليم التى جعلها الحسن دستورا لدعوته ، والتى تدل بكثير من الطرافة فى الابتكار والمحاجة .

يقول الحسن بوجوب الدعوة إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان ومكان ، وإن الفرقة الناجية تتميز من سائر الفرق بأن لها إماما وليس لغيرهم إمام . ويقول فى معرفة البارى بضرورة استعمال العقل والنظر إلى جانب المعلم الصادق ، وأن الناس فى ذلك فرقتان ، قالت الأولى بوجوب الاستعانة فى معرفة الله بالمعلم الصادق ، وأنه لا بد من معرفته أولا والظفر به ثم التعلم منه . وقالت الثانية بالأخذ فى كل علم من معلم وغير معلم ، وأن الحق مع الفرقة الأولى فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين ؛ وإذ تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين . قال وبالاحتياج عرفنا الامام ، وبالامام عرفنا مقادير الاحتياج ، كما بالجواز عرفنا الوجوب ، أى واجب الوجود ، وبه عرفنا مقادير الجواز فى الجائزات .

ثم يقول الحسن إن فى العالم حقا وباطلا ، وإن علامة الحق هى الوحدة وعلامة الباطل هى الكثرة ، وإن الوحدة مع التعليم ، والكثرة مع الرأى ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الإمام ، والرأى مع الفرق المختلفة ، وهى مع رؤسائها . وجعل الحق والباطل والتشابه بينهما من وجه والتمايز بينهما من وجه ، التضاد فى الطرفين ، والترتب فى أحد الطرفين ميزاناً يزن به جميع ما يتكلم فيه ، ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب وسائر المتضادات ؛ وطريقته أن يرجع فى كل مقالة وكلمة إلى إثبات المعلم ، وأن التوحيد هو التوحيد والنبوة معا ، حتى يكون توحيداً ، وأن النبوة هى النبوة والإمامة معا ، حتى يكون نبوة . ولم يتعد فى مسألة الألوهية قوله إن إلهنا هو إله محمد ، وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ، والرسول هو الهادى إليه . وقد منع الحسن العامة عن الخوض فى العلوم ، وكذلك الخاصة عن مطالعة كتبه المتقدمة إلا من استطاع منهم فهمها .

هذه خلاصة الآراء والمبادئ التى أقام عليها الحسن

(١) كان مولد الشهرستانى فى سنة ٤٦٧ هـ ، ووفاته سنة ٥٤٨ بشهرستان من أعمال خراسان .

الصباح دعوته وجعلها دستوراً لطائفته . وقد ذكر لنا الشهرستانى بعد إيرادها أنه كثيراً ما ناظر القوم أى الاسماعيلية فى هذه المقدمات ، فلم يظفر منهم بطائل ، وإنه كثيراً ما نعى عليهم التسليم والتقليد دون المحاجة والاقناع (١) .

وليس من موضوعنا أن نناقش هذه الآراء والمبادئ فذلك شأن المتكلمين ، وقد ناقشوها فى مواطن كثيرة . وقد وضع الغزالى مواطن الحسن ومعاصره رسالة خاصة فى تفنيد مبادئ الاسماعيلية الباطنية أسماها « فضائح الباطنية » وحمل فيها عليهم وعلى مبادئهم حملة شديدة ، ووصف مذهبهم إجمالا فيما يأتى : « أما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات ويتطرق إلى النظار من الاختلافات ، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستبصر ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق ويكشف عن المشكلات ، وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام معصوم يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين . هذا مبتدأ دعوتهم . ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين فى فن واحد بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه ، بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم » .

ثم يقول : « والمنقول عنهم الاباحة المطلقة ، ورفع الحجاب ، واستباحة المحظورات ، واستحلالها ، وإنكار الشرائع ، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم »(٢)

* * *

كانت هذه الدعوة الفلسفية الكلامية تمثل فى برنامج الحسن جانبه المعنوى والنظرى فقط . أما الجانب العملى فكانت تحدوه نزعة إلحادية حقيقية ؛ وكان شعار الحسن الحق الواقعى ، « أنه لا شىء حق وكل شىء مباح » . بيد أنه كان يتشح بثوب من الورع الفياض ، ويسبغ على آرائه وخططه صبغة دينية عميقة ، ويستظل بلواء الإسلام الحق والإمامة المقدسة ، ويتظاهر بأنه لا يبغى سوى توطيد كلمة الدين وقمع البدع والضلال . وكان النظام السرى المدهش الذى وضعه لطائفته أنفذ أسلحته وأمضاها . وكانت الطائفة تتدرج فى مراتب سبع سرية ، على رأسها الرئيس أو السيد أو الشيخ ، وهو اللقب الذى اختاره الحسن وآثره على ألقاب الملك والامارة ، وعرف فيما بعد « بشيخ الجبل » نظراً لامتناع الشيخ فى قلعته الجبلية الشاهقة . ويلى الشيخ المقدمون فالدعاة فالرفاق فالفداويون ، وهم عماد الطائفة وسر قوتها وسيفها المشهر دائماً على أعناق خصومها ؛ ثم الحراس والهاربون ثم التلاميذ . ولا يقف أهل المراتب الأخيرة على شىء من أسرار الدعوة وغاياتها ، ولا يقف عليها سوى كبار المقدمين والدعاة ، وأهل المراتب الصغرى آلات صماء توجه حيثما وكيفما أريد .

وقد استعان الحسن فى تنظيم طائفته بخبرة واسعة بالناس والطبيعة البشرية ، وكان يعرف حق المعرفة ما يمكن اجتناؤه من الدعوة السرية ، وما جناه الفاطميون بواسطتها من الظفر والسلطان ، فكانت وسيلته وسلاحه النافذ فى تأييد هيبته وسلطانه . وكان يعلم من دراسة عميقة للسياسة والتاريخ ، أن الإلحاد والفساد الخلقى قد يعاونان أحياناً على إسقاط أسرة ، ولكنهما لا يعاونان قط على تأسيس أخرى . وقد تفيد الفوضى المحكومين أحياناً ، ولكنها يجب ألا تكون قط غاية الحكام ، وأن الكتلة التى تخضع لواحد أو أكثر لا تمكن قيادتها إلا بقوانين

(١) الشهرستانى — الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ — ٣٦

(٢) الغزالى فى رسالة فضائح الباطنية التى طبعت بعناية المستشرق جولد سهر ومهد لها بمقدمة طويلة بالألمانية وطبعت فى ليدن (ص ٨ و ١٠)

وأصول أخلاقية ودين مستنير ، فهذه وحدها كفيلة بطاعة الشعوب وسلامة الأمراء[1] .

وعاش الحسن فى ألَموت فى عزلة مطبقة يؤلف كتب الدعوة ويسهر على مصاير طائفته وسلطانه . وفى عهده ازدهرت الطائفة واستطاعت بسلسلة من المغامرات والمعارك المتواصلة أن تبسط سلطانها على عدد من الحصون والمعاقل القوية فى العراق والشام . وغدا الاسماعيلية فى الواقع قوة سياسية يحسب حسابها ولا سيما فى فارس ، ولما استفحل أمر الطائفة هب الأمراء السلاجقة إلى محاربتها وسحقها كما رأينا . وانتهت المرحلة الأولى من النضال بسحقهم وزوال نفوذهم من منطقة أصفهان . أما الحسن فلبث ممتنعاً فى ألَموت يعمل على توطيد نفوذه فى منطقة روزبار . ولما وقع الخلاف بين أبناء ملكشاه عمل الاسماعيلية على توسيع نفوذهم ، وأثخنوا فى تلك الأنحاء ، وقطعوا طرق القوافل ، وأسرفوا فى الاعتداء والسفك والنهب . وبسط الحسن فى تلك الأنحاء حكم إرهاب حقيق . فاستغاث الناس بالسلطان ؛ وحاول السلطان أن يدعو الحسن إلى طاعته بالحسنى . وهنا روى أن الحسن حينما وفد عليه رسول السلطان يدعوه إلى طاعته دعا أمامه باثنين من رجاله وأمر أحدهما أن يغمد خنجره فى قلبه وأن يلق الثانى بنفسه من أعلى الحصن ، ففعلا فى الحال وهلكا على الأثر . ثم قال الحسن للرسول قل لمولاك يطيعنى هكذا سبعون ألفاً من الرجال المخلصين .

فعندئذ سير السلطان وهو يومئذ محمد بن ملكشاه جنده لمحاربة الاسماعيلية والاستيلاء على ألَموت معقلهم ، وتوالت حملاته عليهم ، ولكنهم استطاعوا هزيمتها جميعاً . فلم ير السلطان بداً من أن يشهر عليهم حرباً عظيمة فأرسل إليهم فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م) جيشاً ضخماً بقيادة الأمير أنوشتكين شيركير ، فهاجمهم واستولى على عدة من قلاعهم ، وغادر الاسماعيلية الحصون المفتوحة إلى ألَموت فتحصنوا بها ، وجمع الحسن قواته واستعد للمعركة الحاسمة . ثم سار أنوشتكين إلى ألَموت ، وضرب حولها الحصار الصارم ، وبنى حولها المساكن لجنده . وطال الحصار أعواماً ولقى الاسماعيلية أهوالاً فى جلب الأقوات والمؤن وأشرفوا على الهلاك . وعددهم شبح الموت جوعاً . وكاد اليأس يحملهم على التسليم ولم ينقذهم من القضاء المحتوم سوى موت السلطان محمد (٥١١هـ) . وعندئذ اضطر أنوشتكين أن يرفع الحصار ، وأن يرحل فطارد الاسماعيلية مؤخرته واستولوا على ما خلفه من الأقوات والأسلاب ، وقويت بذلك نفوسهم وآمالهم وعاد سلطانهم كما كان خطراً مروعاً

— ٣ —

إلى ذلك الحين قطع الحسن فى ألَموت منذ استيلائه عليها زهاء ثلاثين عاماً ، يوطد زعامته الدينية وسلطانه السياسى براعة مدهشة . وكان يحرص جد الحرص على إمامته الدينية ، ويحيطها بجميع المظاهر الصارمة المؤثرة ؛ وكان يعيش فى منتهى التقشف ، ويشتد فى تطبيق أصول الدين وفرائضه ، ويسود الزهد المطبق والطاعة العمياء كل مكان ، وتحرم الخمر والموسيقى وكل الملاذ والملاهى الدنيوية المحرمة . وكان الشيخ أو السيد (وهو اللقب الذى اتخذه الحسن) يرتدى دائماً الثياب على طريقة النيصنة ، ويرتدى الرفاق والفدائية أثواباً بيضاء وأحذية وأحزمة حمراء . وكان يلازم معقله طوال السنين لا يغادره مطلقاً ، بل يقال إنه مدى إمامته فى ألَموت ، وقد طالت خمسة وثلاثين عاماً ، لم يظهر فى شرفة قصره أكثر من مرتين[1] .

وعاش الحسن طويلاً بعد أهله وصحبه جميعاً ، وسقط معظم أكابر دعاته صرعى الخناجر ؛ وفى أواخر حياته شابت الوحشية طباعه ، وتفاقمت صرامته وقسوته ، حتى إنه قتل

(١) فون هامر Von Hammer فى كتابه عن الاسماعيلية أو الحشيشية ص ٨٣ .

(١) مذكرة مسيو جوردان المشار إليها .

ولديه بيديه ، أولها وهو «الأستاذ» الذي كان يرجى أن يخلفه في رياسة الطائفة ، لأنه اتهم بالاشتراك في مقتل حسين القيني مقدم قوهستان ، وهو من خاصة الدعاة المقربين ؛ والثاني لأنه شرب الخمر . بيد أنه لاريب أن هنالك بواعث أخرى حملت الحسن على هذه الصرامة الدموية ، فربما خشي من دسائس ولديه ، وقد سئما حكمه الطويل ، وبغيا من تولى السلطة مكانه ، وربما رآهما الحسن غير خليقين بخلافته في رياسة تقتضي كثيراً من المواهب والصفات الرفيعة ، فاعتزم أن يسحق الأسرة ، وأن يترك خلافته للأصلح من دعاته . ذلك أن روابط الدم والقرابة لم يكن لها كبير حساب في جماعة توثق روابطها قبل كل شيء بأواصر الجريمة والدم المسفوك(١) .

ويقول لنا فون هامار في هذا الموطن : « إن الحسن كان جامداً خلال سلطانه ، ولكنه كان يدفعه إلى أطراف خراسان والشام . وكان يوجه بقفه خناجر أتباعه الفدائية ، وكان أداة رائعة للقدر كالوباء والحرب ، كارثة على الملوك الضعفاء والشعوب المنحلة » .

وقد ترك لنا المؤرخ الفارسي « ميرخوند » في كتابه «روضة الصفا» نبذة طويلة عن تاريخ الاسماعيلية في فارس ، وأهمية روايته في أنها منقولة عن التاريخ الذي وضعه الوزير عطاء الملك وزير السلطان هولاكو عن الاسماعيلية ، منقولا عن كتبهم وأوراقهم بعد أن سقطت ألموت في يد السلطان وفي الاسماعيلية مصرعهم في فارس سنة ٦٥٠ هـ ، وتاريخ ميرخوند هو مرجعنا في كثير من الوقائع والتفاصيل التي أوردناها(٢) .

* * *

وتوفي الحسن الصباح في ألموت سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) بعد أن حكم خمسة وثلاثين عاماً ، وقد أشرف على التسعين من عمره .

(١) فون هامار .
(٢) مذكرة مسيو جوردان .

وكان الحسن كما رأيت رجلا من أفذاذ الرجال ومغامراً يفيض ذكاء وجرأة وإقداماً ، وكان مفكراً من أعظم مفكري عصره ، وقد شق إلى الرياسة والملك طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر ، فذلل وعره وصعابه بدهاء ، وبعد نظر ثاقب ومعرفته بالناس والحوادث ؛ وإذا كان قد لجأ في تحقيق خططه وغاياته إلى وسائل مروعة وأساليب مثيرة يأباها الولاء والشرف والخلق الأمثل ، فهو لم يكن في ذلك إلا مطبقاً لنوع من السياسة المكيافيلية ، قبل عصر المكيافيلية ، وهي سياسة لا تحجم اليوم عنها ولا تأنف من اتباعها في عصرنا دول عظيمة قوية . وإذا كان قد اختار هذه الأساليب الدموية لإنشاء دولته وتوطيد سلطانه ، فإنه لم يكن يقصد فيما يرجح أن ينحدر الاسماعيلية إلى ذلك الدرك الإجرامي الأسفل الذي انحدروا إليه على يد خلفائه ، والذي انتهوا فيه إلى جمعية ناهبة من السفاكين والأشقياء المرتزقة الذين تجردوا من كل المثل والغايات .

وتنوه الرواية الاسلامية بشجاعة الحسن وقوة رأيه ، وبراعته في مختلف العلوم والفنون(١) . ويعتبره فون هامار عبقرية عظمى(٢) .

(النقل ممنوع) **محمد عبد الله عنان**

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣٢ — أبو الفدا ج ٢ ص ٢١٤
(٢) مذكرة مسيو جوردان .

مع الزمان :

يرحم الله أبا ذر

جلس جندب بن جنادة فى واد من الوديان التى كانت قبيلة غفار تضرب فيها بيوتها وكان يرعى صرمة من الإبل هى كل ما يملك من هذه الدنيا ، يشترك فيها مع أخيه أنيس وأمهما العجوز . وكان جندب رجلا قويا طويل القامة كث الشعر عريض الصدر ، فكان كثير التبرم برقة حاله وقلة ماله ، ويزيد حنقه كلما رأى سادة قومه وقد خرجت عبيدهم تسوق الإبل آلافا لترعى وترد الماء ولا تترك لصرمته من العشب والماء إلا ما لا يغنى . وكان كلما تأمل فى هؤلاء السادة لم يجد إلا رجالا دونه فى بسطة الجسم وقوة الاحتمال ، ولم يبصر منهم إلا جهلا وسخفاً ، يقضون حياتهم بين خمر ونساء ويسجدون لحجارة يسمونها بأسماء ، ويزعمون أنها آلهتهم التى تهبهم الحياة والسلطان ، ويتقربون إليها ويسودون على الناس فى حمايتها .

وكان جندب كلما رأى ذلك جاشت نفسه وترك الصرمة لأخيه أنيس ، ثم خرج إلى أطراف القفر وقد امتلأ قلبه بالغيظ والثورة .

فإذا رأى صرم الأغنياء فى حماية العبيد خارجة إلى مرعاها يسوقها العبيد ، وقف لها حتى اقتربت منه ، ثم أقبل على العبيد فأسرهم وساق الإبل أمامه إلى منزله ، وجعل يتغنى وهو سائر بها ، بعد أن تكون نفسه قد هدأت واطمأنت منذ شعر بأنه قد سطا بهؤلاء السادة أهل الكبرياء والبطر . فإذا ما مر فى طريقه بأحد تلك الأنصاب الحجرية القبيحة النحت التى كان القوم يتخذونها آلهة ليخضعوا بها رقاب الأتباع ، وليجعلوها حامية لمظالمهم وستاراً لمخازيهم ، وقف عليه ثم التمس حجراً صلباً فأهوى به على الوثن فهشمه وحطمه ، ومضى بعد ذلك فى سبيله يتغنى وهو خفيف القلب ، لأنه قد شفى غليله من ظلم هؤلاء السادة الأغنياء ومن ضلال الأوثان وخرافتها .

وفيما كان جندب جالساً فى وادى قومه يوماً يرعى صرمته ويتذكر الوقائع التى سلب فيها ما سلب من تلك الإبل القليلة التى يرعاها ، مر به رجل من جيرانه فحياه ضاحكا وقال له :

« إيه جندب . كيف أنت ؟ »

فقال له جندب جاداً : « مرحباً بك . من أين أقبلت ؟ »

قال الرجل : « جئت من مكة . وقد وجدت فيها خبراً يسرك » .

قال جندب : « وما ذاك يا ابن العم ؟ » .

قال الرجل : « رجل قام هناك يدعو إلى ما تحب من كسر الأوثان ، وإلى ما ترتاح إليه من التسوية بين الناس . رجل لا يرهب العظماء ، ولا يتكبر على الفقراء » .

قال جندب : « وما خبر ذلك الرجل ؟ » .

فأجاب الجار : « كان عهدى به منذ أيام ، والناس يتحدثون بأمره ، والعظماء كارهون له ساخطون عليه ، ولعلهم لا يمهلونه » .

فقام جندب مسرعاً إلى بيته فلقى أخاه وقال له :

« هل لك أن ترعى إبلنا وتعنى بأمنا حتى أعود إليك ؟ »

قال أنيس أخوه : « إلى أين ؟ » .

قال جندب : « إلى مكة ، فقد قال لى فلان ابن فلان إن رجلاً ظهر بها يكره الأوثان ، ويشتم لا يرهب العظماء ، ويقرب الفقراء ، وإنى لأحب أن أراه » .

قال أنيس : « هو كما تشاء . فإنى أحب من ذلك مثل ما تحب . ولقد كنت بمكة منذ شهر فسمعت الناس يتحدثون عن رجل منهم يكون هو الذى أتاك نبؤه . يقولون إنه شاعر أو كاهن ، ولكنى سمعت قوله فرأيته لا يتسم على وزن شعر ولا على قول كهانة ، بل هو قول حسن يدعو إلى الله وإلى مكارم الأخلاق » .

فقال جندب : « لقد زدتنى شوقاً إلى رؤيته » .

ثم مضى عنه بعد أن تزود بعض الزاد وسار إلى مكة . فلما دخلها خشى أن يسأل الناس عن ذلك الرجل الذى ظهر فيهم ، فقد عرف أن أهل مكة له كارهون ، وأنهم لا يطيقون أن يروا رجلاً يتقرب إليه . وقضى يومه يبحث عنه فلا يجده ، حتى أدركه الليل فذهب إلى المسجد ليقضى فيه ليلته . وهناك مر به رجل فعرف أنه غريب فعطف عليه ورحمه ، وأخذه إلى منزله ليؤويه ، ولم يسأل أحد الرجلين صاحبه عن شىء . وكان ذلك الرجل الذى أضاف جندباً على بن أبى طالب ابن عم الرسول ، ولم يكن جندب هذا غير الذى نعرفه باسم أبى ذر الغفارى ، ولم يكن الرجل الذى قطع أبو ذر الفيافى ليراه إلا محمداً رسول الله عليه الصلاة والسلام .

بقى أبو ذر على حاله تلك ثلاثة أيام لا يستطيع أن يعرف مكان محمد ، ولا يجرؤ أن يسأل أحداً عنه خوفاً من قريش . ثم بدا له أن يسأل ذلك الرجل الكريم الذى آواه فى منزله تلك الليالى الثلاث ، وقد اطمأن إلى حسن جواره وسماحة خلقه . فجعل يستوثق منه بالمواثيق لئن أفشى إليه الذى يريد ليكتمن عليه وليسترنه . حتى إذا اطمأن إلى موثقه أخبره أنه قد بلغه خروج رجل بمكة يزعم أنه نبى ، فجاء ليلقاه ويسمع منه . فقال له على وقد امتلأ قلبه فرحاً : « إنى غاد إليه فاتبع أثرى حتى تصل إليه » .

وذهب على يمشى على حذر وسار أبو ذر يمشى من خلفه ، حتى انتهيا إلى مكان محمد ، ودخل على ولم يجد أحداً يخشاه ، وسار أبو ذر فى أثره حتى دخل وهو يترقب ، فرأى رجلاً جميل المنظر ، حسن السمت ، تبدو عليه السكينة ، ويشع من عينيه نور السلام . ثم سمعه يتحدث ، فسمع حكمة وموعظة ، وقولاً يدخل إلى القلب فيستقر فيه . فما قام حتى أسلم من ساعته ، وكان المسلمون عند ذلك لا يزيدون على أربعة أو خمسة من أصحاب الرسول . ولما قام يستأذن فى الخروج سأل النبى فقال : « ما تأمرنى ؟ »

فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمرى » .

غير أن أبا ذر كان رجلاً لا يطيق أن يكتم فى نفسه قولة يراها قالة الحق ، فقال : « والذى نفسى بيده لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام فى المسجد على ملأ من قريش » .

ثم قام فدخل المسجد فنادى بأعلى صوته : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ووقف ينظر إلى القوم وقد فزعوا من مجالسهم وتواثبوا نحوه يقولون : « رجل صبأ . رجل صبأ » . ثم أقبلوا عليه يضربونه حتى صرع وارتمى على الأرض كالقتيل .

وكان العباس عم الرسول بين الجلوس ، وهو يومئذ على دين قريش ، فقام إليه وأكب عليه وقال للقوم : « قتلتم الرجل يا معشر قريش . أنتم تجار وطريقكم على مضارب قومه « غفار » ، فتريدون أن يقطع عليكم الطريق ؟ » فأمسكوا عنه وجعلوا يؤذونه بالقول والسباب . وسار أبو ذر بعد أن شفى قلبه من النداء بالحق ، وعاد إلى قومه كما أمره الرسول .

أقام أبو ذر فى قومه بعد ذلك سنين طويلة ، انتشر الإسلام فى أثنائها بين أهل مكة . ثم هاجر النبى وأصحابه

إلى يثرب ، وبدأوا جهادهم فى مواقع بدر وأحد والخندق ، ولكن أبا ذر كان فى تلك السنوات الطويلة مقيماً فى قومه لم يشترك فى موقعة من تلك المواقع . ثم قدم على الرسول بعد ذلك . فأول ما نسمع عنه أنه كان يرعى لقاح النبى فى مكان اسمه الغابة على مسيرة يوم من المدينة ، فأغار عليها عيينة ابن حصن الفزارى فى أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا فى إغارتهم ابناً لأبى ذر .

لم يظهر أبو ذر فى ذلك الموقف بما كان يظهر به أبطال الجهاد من شدة الوطأة على العدو ، ولم يقف فى وجه المغيرين وقفة المستقتل المستميت ، ولم يحتل عليه ويراوغه مراوغة الداهية الحوّلى ، بل أرسل الصريخ إلى المدينة يستنجد بالمسلمين ، فخرج لإغاثته جماعة كان فيهم سلمة ابن الأكوع ، أسرع إلى العدو مفردا يسير على رجليه ، فأدرك جمعاً من فوارس فزارة ، فما زال بهم يراوغهم ويراميهم ، ويرصد لهم ثم يكر عليهم ، حتى رجع منهم بعد أن أتم ما خرج من أجله ، وعاد منصورا وحده وقد انهزم عنه الجمع الكثير المدل بقوته ، فاستنقذ لقاح الرسول ، واستلب كثيرا من سلاح أعدائه ومتاعهم .

رحم الله أبا ذر ، فقد كان جريئاً فى قولة الحق ، يتحمل الأذى فى سبيل الجهر بها ، ويصبر على عقيدته لا يحيد عنها ، وإن أصابه فى سبيلها أشد الألم والعسف ، ولكنه لم يكن رجل الحرب والجلاد .

خرج الرسول فى جمع عظيم من المسلمين يقصد غزو الروم فى تبوك ، واستعد المسلمون لذلك السفر استعدادا كبيرا ، فقد كانت الشقة بعيدة والأوان أشد القيظ . وكانت عدة أصحابه ثلاثين ألفا من الناس ، ومعهم عشرة آلاف من الخيل ، فلم يتخلف عن السير معه فى تلك الغزوة إلا جماعات اعتذر بعضهم بأعذار قبلت منهم ، وتعلل آخرون بعلل لم تكن مقبولة . وكان أبو ذر فيمن تخلف

عن الخروج ، ولكنه كان غير ظنين فى إسلامه ، ولم يكن مريباً فى إخلاصه . منعه عن الخروج أنه كان يرى السفر بعيدا والشقة كبيرة ، وحيلته فى العدة قليلة ضئيلة . ولم يكن رجل القتال الذى لا يترك فرصة تتهيأ له فيه ، ولم يكن له من ماضى جهاده ما يجعل تخلفه محل إنكار ولوم ، فتركه الرسول ، لم يعذره ، ولم يؤنبه . ولما ذكر أمر تخلفه بعد ذلك ، قال النبى : « دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . ولكن نفس أبى ذر كانت نفس الشهيد ، وإن لم تكن نفس المحارب أخى الهيجاء . فلما رأى نفسه قد تخلف عن المسلمين ، وفاته ما هم مقبلون عليه من تحمل المشقة ، ومعاناة السير فى الفيافى ، يضربون فى كبدها فى وقدة الحر الشديد ، لا يثنيهم شىء عن الرغبة فى الجهاد ، لم يستطع المقام ، ولم يستقر له بالمدينة قرار . وجعل يلتمس المطية فلم يجدها ، أو لعله قد وجد المطية ولكنها لم تكن مما يقوى على مثل ذلك السفر الطويل ، فلم يترفق بنفسه ، بل أطاع النداء الذى رآه نداء الواجب ، وحمل متاعه على ظهره ، وسار على قدميه فى آثار جيش المسلمين يضرب فى الصحراء وحده .

ونزل النبى يوما فى بعض منازله ، فرفع الآل شخصا ، فنظره ناظر من المسلمين فقال : « يا رسول الله هذا رجل يمشى على الطريق وحده » ، فنظر رسول الله إلى الآل ، ثم قال : « كن أبا ذر » ، فلما تأمله القوم مقبلا قالوا : « هو أبو ذر » ! فقال النبى : « يرحم الله أبا ذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » . فقد عرف عليه الصلاة والسلام أن ذلك الرجل يرى الرأى فيتبعه ما رآه حقا ، وإن خالفه الناس جميعا ، وإن تحمل فى سبيله أن يكون وحده ، وأن يموت وحده .

كان أبو ذر أثيرا عند النبى ، قريباً إلى قلبه ، وقد

وصفه بالخير فى أحاديث كثيرة ، فقال عنه مرة : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذر » . وأوصاه مرة بأشياء جعله عليها أميناً ، وكان من بينها أن يقول الحق وإن كان مرا ، وألا يخاف فى الله لومة لائم . ولكن رجل العقيدة والمبادئ ، قد لا يكون أهلا لمعاناة الأعمال وتولى أمور الناس ، بل إنه ليكون أعجز عن معاناة أمور الدنيا ، إذا عظم حظه من البحث وراء الحقيقة ، والتماس سبيل الحكمة الخالصة . وكان أبو ذر من هؤلاء الذين اتجهوا إلى المعانى المجردة ، وعنوا بالتمسك بها ؛ فلم يدع له ذلك قدرة على المسايرة والمعاملة . فقد سأل النبى مرة أن يؤمره إمارة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » . وقال له مرة أخرى فى مثل هذا المعنى : « إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمَّرنّ على اثنين ، ولا تولَّين مال يتيم » . وقال عنه على بن أبى طالب : إنه « وعى علما عجز فيه » .

وقد قدر لأبى ذر أن يشهد فى آخر حياته محنة شديدة من أجل قولة الحق ، وفى سبيل العقيدة التى يرى أنها الحق . وتحمل فى سبيل ذلك ما تحمل من الشدائد ، وعانى ما عانى من الآلام ، حتى مات شهيد التمسك بما يراه الحق .

لما كثرت الأموال فى خزائن الدولة الاسلامية فى خلافة عثمان ، تغيرت حياة الناس بعض التغير ، وتبدلت نظرة القواد والولاة فى الدولة كثيرا من التبدل

ولكن رجل المبدأ والعقيدة أبا ذر بقى على سالف سيرته ، وأبى أن ينحرف عن ماضى خطته فى الحياة ، فبقى إلى آخر حياته لا ينسى يوم سأل النبى أصحابه فقال : « أيكم يلقانى على الحال التى أفارقه عليها ؟ » فقال أبو ذر : « أنا » ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « صدقت ! » ، فكان لا يزال يأخذ نفسه بالزهد أخذا ، ولا يتسامح أن ينحرف عما كان عليه مع الرسول ، وكان يرى واجبه أن يدعو الناس إلى ما دعاهم إليه النبى ، ويجهر فيهم بتلك الدعوة وإن كرهوها ، كما جهر فى أول إسلامه بالشهادة فى مكة على ملأ من قريش

ذهب ليقيم بالشام فرأى أن الولاة أخذوا يعيشون بها عيشة الروم والفرس ، وأن الناس ساروا بالحياة مثل سيرة ولاتهم ، فكنزوا الأموال ، وأقاموا البنيان وأقبلوا على التنعم والترفه . فلم يرقه أن يسكت وأبى إلا أن يصيح فيهم صيحة يشفى بها قلبه ويؤدى واجبه ، فجعل يدعو الناس للعودة إلى بداوتهم ، ويأمرهم ببذل الذهب الذى خزنوه ، وجعل يقول لهم : « لا ينبغى لأحد منكم أن يدخر ذهبا ولا فضة ، بل يجب عليكم أن تنفقوا كل أموالكم فى سبيل الله » ثم صاح فى الولاة فقال لهم : « لا ينبغى لكم أن تجعلوا للدولة خزانة تسمونها مال الله ، فليست الأموال إلا أموال المسلمين تنفقونها فى سبيل الله ، ولا تدخروا لأنفسكم منها شيئا ما دام فى المسلمين فقير » .

ووجدت صيحته قبولا عند الفقراء ، وجعل العامة يتناقلون أقواله ويعيدونها بين أنفسهم ، حتى ضجر منه حاكم الشام ، وكان عند ذلك معاوية بن أبى سفيان . فأرسل يشكوه إلى الخليفة عثمان ، ويقول إنه يوشك أن يفسد عليه الرعية ، ويدعوها إلى الثورة والعصيان . فكتب إليه عثمان يدعوه إلى المدينة ، فأطاع وأسرع إليه ، لأنه إن كان يرى واجبه أن يدعو إلى ما يراه الحق ، فقد كان يرى من واجبه كذلك أن يطيع أمير المؤمنين . وأقام فى المدينة بجوار الخليفة يدعو إلى ما كان يدعو إليه بالشام ، فدعاه عثمان إلى ترك تلك الدعوة فأبى ، وكان لا يتحرج أن يدخل عليه فيجهر عنده رأيه ويدعوه إلى اتباع مذهبه . فإذا زجره عثمان وأمره بأمر أسرع إلى الطاعة والإذعان وقال له : « لو أمرتنى

أن آخذ بعرقوبي قتب لأخذت بهما حتى أمرت » . فلما رأى تشدد عثمان في نهيه عن مذهبه طلب منه أن يأذن له في الخروج إلى مكان بعيد عن المدينة ، حتى لا يجد حوله من تجب عليه دعوته ، وحتى يكون له العذر في وحدته أن عسك عن الجهر بعقيدته . فأذن له عثمان في الخروج إلى الربذة على مسيرة يوم من المدينة ، فخرج أبو ذر إلى منفاه مختاراً راضياً ، وهو قرير العين بأنه أدى الأمانة ما استطاع إليها سبيلاً .

وكان أبو ذر في حياته مصداقاً لما رأى من عقيدته . فكان كل ما في بيته من الأثاث لا يقوّم بأكثر من دراهم معدودة ، وسئل مرة : أليس له ثوب غير الذي عليه ؟ فقال لسائله : « لو كان لي لرأيته علي » . فقال له الرجل يحاوره : « لقد رأيت عليك منذ أيام ثوبين » فقال أبو ذر :

« يا ابن أخي أعطيتهما من هو أحوج إليهما مني » .

فقال السائل : « والله إنك لمحتاج إليهما » .

فأجاب أبو ذر : « اللهم غفراً . إنك لمعظم للدنيا . أليس ترى علي هذه البردة ، ولي أخرى للمسجد ، ولي أعنز نحلبها ، ولي أحمرة نحتمل عليها ميرتنا ، وعندنا من يخدمنا ويكفينا مهنة طعامنا ، فأي نعمة أفضل مما نحن فيه ؟ »

وقال : « إني لأخاف أن أحاسب بالفضل » .

وكان لا يكتفي بأن يأخذ نفسه بهذا النمط من الحياة بل كان لا يرضى عن أحد بدّل وغيّر ، ومال إلى خطة في الحياة غير خطته ، وإن كان ذلك أعز أصحابه وأكرمهم عليه

لقيه أبو موسى الأشعري يوماً وكان له صديقاً ، فأقبل عليه يسلم ويحيي قائلا : « مرحباً بأخي » ، فقال له : « إليك عني . لست بأخيك . إنما كنت أخاك قبل أن تستعمل » ولقيه أبو هريرة يوماً فأقبل عليه يحييه . فقال له أبو ذر : « إليك عني . هل كنت عملت لهؤلاء ؟ » قال أبو هريرة : « نعم » . قال : « هل تطاولت في البناء ؟ أو اتخذت زرعاً أو ماشية ؟ » فأجاب : « لا » فقال له : « أنت أخي . أنت أخي » .

وما زال أبو ذر في الفلاة بالربذة وحده مع زوجته ، حتى وافاه أجله ، فلم تجد امرأته أحداً يساعدها على دفنه ، حتى أقبل عليها ركب يقصد المدينة من العراق ، فساعدها أصحابه على تجهيزه ودفنه ، ولما مات لم يكن له من الثياب ما يكفي أن يكون له كفنا ، ولم يكن لامرأته ثوب يسعه ، فأوصى ألا يكفن في ثوب أحد كان أميراً على إمارة ، أو كان عريفاً أو نقيباً أو بريداً أو عاملا من عمال دولة كان يعتقد أنها غيّرت وبدّلت وحادت عن الجادة التي أوصاهم النبي بلزومها .

وكان في الركب الذين دفنوه رجل من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو عبد الله بن مسعود ، فلما رآه وعرف قصته بكى وهو يدفنه وقال : « يرحمك الله أبا ذر . صدق رسول الله . تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك » . ثم أخذ يحدث أصحابه بما قاله عنه النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك .

محمد فريد أبو حديد

حاشية : سأل بعض الفضلاء عن الثغر الذي قتل فيه عبد الله بن قيس الحارثي ، فهو من ثغور ساحل آسيا الصغرى .

صُوَرٌ مِنَ الحَيَاة

عهـــــــد وثيق

للأستاذ أحمد أمين

التقيا في الصباح على ميعاد ، لينجزا عملا سريعاً لم يستطيعا أن يعملاه أثناء الأسبوع لكثرة شواغلهما ، وتوزع جهودهما ، فهما أيام العمل كالحصان قد شدت يداه ورجلاه ، بل وشعره ، بحبال وخيوط تجذبه إلى جهات مختلفة متناقضة ، يميناً ويساراً وأماماً وخلفاً ، فهو لا يستطيع أن يقطع شوطه ويبلغ مداه .

فليكن يوم الجمعة الخالي من أعباء « الوظيفة » ، المخصص للراحة ، هو يوم إنجاز العمل المتأخر الذي لا بد أن يكون .

بدآ في الصباح ، ولذهما العمل وطاب ، واستغرقا فيه ، فلم يشعرا بوجودهما ولا زمانهما ولا مكانهما ، ولا بأي شيء حولهما . وإذا كأنهما كانا في حلم لذيذ ، فإذا أرجلهما مثلوجة من رطوبة المكان ، وبطونهما خاوية من تفاهة الإفطار ، وعقولهما مجهدة من كثرة العمل . والتفتا لما عملا وما بقي ، فوجدا أن لم يتم من العمل إلا نصفه أو انقص منه قليلا .

إذن فلنشحذ عزائمنا ، ولا نفترق حتى يتم عملنا ، ولنتكلم في التليفون ألا ينتظرونا في الغداء ، ولنأخذ غداءنا في مطعم قريب نستريح بعده قليلا ، ثم نستأنف العمل حتى يتم ، ولننم بعد ذلك في راحة ضمير وعناء جسم ، فذلك خير من أن ننام في راحة جسم وعناء ضمير .

م : هيا بنا !

ح : إلى أين ؟

م : إلى مطعم « الكرسال » .

ح : يا أخي ، طالما انتقدتك على هذه النزعة الغريبة عندك : تفضل الصنع الأجنبي والقهى الأجنبي والمطعم الأجنبي وكل شيء أجنبي ، كأنك أجنبي ، وفي هذا خطر على مال الوطني وجهد الوطني ونتاج الوطني ! إن « كانْت » الفيلسوف الألماني وضع قاعدة أخلاقية لطيفة تعرف بها صلاحية الشيء وفساده ، فقال : « إذا أردت أن تعرف شيئاً صالحاً أو فاسداً فعممه » فإذا أردت أن تكذب فافرض أن الناس كلهم يكذبون ، فهل تبقى أمة على الكذب العام ؟ يكذب كل رئيس فيها على كل مرءوس وكل مرءوس على كل رئيس في كل ما يقول ، وتكذب الزوجة على زوجها والزوج على زوجته ، والآباء على أبنائهم في كل ما يقولون . فإن نحن طبقنا هذه النظرية تبين فساد نظرك في جلاء ووضوح ، فلو أن كل مصري أراد أن يشتري شيئاً أو يبيع شيئاً أو يأكل شيئاً أو يلبس شيئاً ، استقصاه من الأجنبي ، ما بقي في مصر مطعم وطني ولا مقهى ولا دكان . وأين أنت ومطعم فلان الوطني ؟ : قصر منيف تحول إلى مطعم وطني فاخر نظيف ، صاحبه مصري وخادمه مصري ولحمه مصري وطهيه مصري . إن طلبت اللذة فهو ألذ

من الكورسال ، وإن طلبت النظافة والاتقان فكذلك ، وإن أردت نفع المصرى فهذا وجهه .

م : حرام عليك . ألم تنس ما كنا فيه من عمل عقلى مضن فتريد أن تزيده ضنى وجهداً — حتى فى الطريق — بمحاضرتك الفلسفية ؟ ولا تنسى « كانت » وفلسفته ، وإذا تركتك استرسلت إلى شوبنهور وشيلر ولسنج ، وأتيت على البقية الباقية من رأسى وعقلى . ارحمنى يرحمك الله ، وتكلم فى حديث خفيف يدخل السرور علينا ويذهب بعنائنا ، ولأبرهن لك على صدق فى قولى بقبول ما اقترحت وتنفيذ ما أردت ، من غير حاجة إلى محاضرة عن « كانت » . فلنذهب إلى المطعم الوطنى .

* * *

محل لطيف ورائحة شواء تدخل الخياشيم فيجرى لها الريق وتتفتح الشهية ، وبين أشواك وملاعق ، ومنظر أكلة يبشر بأنهما سيلعبان هذا الدور قريباً .

يا غلام ! هيِّئ لنا مكاناً منفرداً وإن علا ثمنه ، وأكثر لنا من الكوامخ من كل صنف ، طحينة ، ولبن ، ومخللات ، وابعث لنا برئيسك سريعاً .

وفى لحظة واحدة تم كل ذلك ، فعيِّ المكان وأعد إعداداً حسناً وصفت عليه الأطباق والأشواك والسكاكين والملاعق وإبريق الماء النظيف الرائق تسطع عليه الشمس فيلمع كالدر ، وامتلأت المائدة بالكوامخ ، وإن تطرفت فقل « السلطات » المختلفة والعيش النقب وحضر سيد الخدم فى سرعة عجيبة !

رطل ونصف من الكباب ، ليس بالسمين ولكن .

نعم .

بسرعة مدهشة تساوى سرعتك فى سؤالنا .

خمس دقائق فقط وإن تأخرت فعشر ، ولكن لا ترد فوراً ما عمل" يتنظرنا والساعة الآن الواحدة والنصف .

« حاضر » . فى أقل من ذلك يحضر الطلب .

وأخذا يداعبان العيش النقب والسلطة واستساغا الطعم فزادا ، وحلا الحديث فتحدثا ، وراعى (ح) صديقه (م) فلم يتحدث فى الفلسفة ، وكلما انحدر إليها من غير شعور تنبه إلى قول صاحبه فعدل ، وتخلل الحديث فكاهات طريفة استثارت الضحك العميق ، حتى خيل إليهما أن لو حضر لهما خروف مشوى لا رطل ونصف لأتيا عليه .

وخلا فى الحديث من باب إلى باب والضحك يتابع « والسلطة » والخبز يضؤلان . وإذا بالحديث يدور حول الغضب وأسبابه ونتائجه ، وإذا بالسيد ح يقول :

— ألاحظ أن المصريين سريعو الغضب فهم يغضبون من أقل شىء ، ومن لا شىء ! ثم إذا غضبوا لم يقفوا عند حد ، فشبانهم إذا غضبوا حطموا ودمروا ، وصغارهم إذا غضبوا صاحوا بكل ما يستطيعون من قوة وضربوا الأرض بأرجلهم ، وقد يضربون الحائط برءوسهم ، وشيوخهم إذا غضبوا أفسدوا عملهم وأضاعوا صداقتهم ، ولم يفرقوا بين العمل العام والعلاقات الشخصية ، ولا أدرى أذلك ناشىء من حرارة جوهم وطبيعة مزاجهم ، أم هو يرجع إلى التربية ! فأنى أرى أن البلاد الباردة يغلب عليها ضبط العاطفة وقلة الانفعال ، فهل هذا كسبوه من برودة البلاد أو من تعويدهم أطفالهم ألا يبالغوا فى الانفعال ؟ لقد حُدِّثت عن مدرس انجليزى أراد طلبته أن يغيظوه فوضعوا حذاء بالياً على مكتبه ، وظنوا أنه يهيج لذلك ويخبط ويضرب ، ويجرى تحقيقاً دقيقاً فيمن دبر هذه المكيدة ومن وضع الحذاء ، ونحو ذلك من أسئلة لا تنتهى ، فما إن دخل المدرس الفصل ورأى الحذاء على مكتبه حتى أخذه بيده ووضعه على الأرض وقال : « تحدثت إليكم فى الدرس الماضى عن كذا وأريد أن أحدثكم فى هذا الدرس عن كذا » واستمر فى درسه ، فصفق الطلبة إعجاباً بمسلك أستاذهم وضبط عواطفه ! ولو

حدثت هذه الحادثة فى مصر لمدرس مصرى لانقلبت السماء على الأرض ، وقامت لها المدرسة وقعدت ، ولشغلت المدرسة أسابيع ، وقد تشغل وزارة المعارف أيضاً !

م : لا تنس أنك قد عدت إلى الفلسفة والمحاضرة مرة أخرى .

ح : لا تؤاخذنى يا أخى ، فإنى لم أستطع أن أغير طبعى ، ولكن اسمح لى أن أكمل حديثى فى كلمة قصيرة . إنا قادمون على عمل جليل ، وقد رأيت أن أكثر الأعمال فى مصر تفشل من سرعة الغضب ، فتعال معى نضع صيغة « عهد وثيق » نقسم بها ألا نغضب أبداً ، وإذا غضبنا لم يؤثر ذلك فى عملنا .

م : الساعة الآن الثانية والنصف ، وقد مضت ساعة ولم يحضر الأكل ، وقد كدنا نشبع من « السلطة » . ودق بالملعقة على الصحن ، فلم يسمع أحد ، ثم دق ودق فحضر الخادم

— نعم !

— مضت ساعة والأكل لم يحضر . ناد رئيسك .

وتابع الحديث ولم يحضر أحد ، وبعد قليل دخل خادم آخر عليهما ، وظن أنهما انتهيا من أكلهما وشربهما ، وأنهما يعطلان الغرفة أكثر مما يلزم ، فسألهما هل يريدان قهوة ، ومن أى نوع هى !

وتابع الحديث ثانية أو ثالثة . لا أدرى !

ونظر (ح) فى الساعة فإذا هى الثالثة ، فقام ولحقه (م) وتركا يستفسران عما تم . فإذا سيد الخدم قد نسى الطلب ولا أكل ولا إعداد ولا توصية .

وانفجر السيد (ح) انفجارة كالبركان إذا قذف ، ودوى صوته فى المكان كله يهدد ويؤنب وبهت الحاضرون ، وتصلبت الأيدى على الأشواك ، ووقفت اللقم فى الأفواه ، وسكتت الأسنان عن المضغ ، وحدقت العيون فى هذا الصارخ وهذا المصروخ فيه ، وانقلبت صالة الأكل إلى صالة محاضرات يشرح فيها ما يجب على الوطنى أن يعمل لسمعة وطنه ، أو فصلاً فى مدرسة يؤنب فيها الأستاذ تلاميذه .

وساد الجميع رهبة . ماذا حدث ؟ ماذا كان ؟

— لا مؤاخذة .

وخرجا .

م : لا تغضب ، وأشفق على نفسك . إن « كانت » يقول : « إذا أردت أن تعرف خطأ شىء أو صوابه فعممه » ، فماذا يحدث لو غضب كل الناس هذا الغضب ؟ والآن إلى أين ؟

ح : إلى الكورسال ، فإذا أراد المصريون أن ينجحوا فليس على المتهاون وحده يقع عبء التضحية ، بل يجب أن يتحملها أيضاً المتبع بإحسانه ما ينبغى .

م : هذا حكم الغاضب ، والغاضب لا حكم له .

أحمد أمين

السـيـاسة القطنية فى بندقة

للدكتور محمد عزيز فكرى

اليوم ، وقد مجت النفوس حديث السياسة الحزبية بوجه خاص ، والسياسة الخارجية بوجه عام ، لكثرة ما أوقعتنا فيه من شقاق وعراك ، وما جرّته علينا من متاعب وتقلقل وعدم استقرار ، وقلة ما قدمتنا لنا من ثمر ؛ قد يلذ لنا أن نتكلم عن نوع آخر من السياسة ، سياسة منتجة ، ألا وهى « السياسة القطنية » .

ونعنى بسياسة محصول زراعى الخطة التى ينبغى أن تسير عليها البلاد فى إنتاج وتصريف هذا المحصول ؛ وقديماً لم تكن الحاجة ماسة إلى وضع سياسة زراعية كما هو الحال اليوم ، فقد تغيرت نظم العلاقات الاقتصادية بين البلدان وبعضها تغيرا شاملا كاملا .

والقطن ولا ريب أهم محاصيلنا الزراعية ، ودعامة ثروتنا القومية . فهو يكوّن وحده ما يربى على ٩٠٪ من صادراتنا . لذلك كان حقا علينا وضع سياسة له تعنى بصيانته ورعايته من وقت زرعه إلى وقت تصريفه ، فتعنى من ثم بثروتنا القومية ، ورفاهة حياتنا المادية .

وليس مركز القطن فى العالم مما يحسد عليه ، فهو سيئ بالنسبة المنتج وللغزال معا . وقد تدهورت أسعاره خاما ومصنوعا فى السنين الأخيرة إلى حد أوقع المتصلين به جميعاً من زارع وصانع وتاجر فى أزمات مالية خانقة ، إذ تحالفت على هذا المحصول عوامل الكساد ، فمن زيادة فاحشة فى الناتج منه ، إلى هبوط سحيق فى المستهلك من مصنوعاته ، إلى منافسة حادة من الألياف الصناعية التى تشابهه صفة وتفوقه رخصا ، إلى غير ذلك من العوامل الأخرى الكثيرة . وحال القطن فى مصر ليست إلا صورة مصغرة من مركزه فى العالم . والنظر فى شؤونه الحاضرة والمقبلة من ألزم ما يلزم ، وهو ما نسميه « بالسياسة القطنية » . وأول من عنى بدراسة هذه السياسة عناية صحيحة بمصر ، وجمع أشتاتها هو المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا الذى وضع بها مذكرة فى عام ١٩٣٠ لا تزال إلى الآن هدياً للباحثين الذين يبغون انتهاج أحسن الخطط التى يجب أن تسير عليها سياسة القطن فى مصر . وسنتكلم فيما يلى عن السياسة القطنية كما نراها اليوم من نواح ثلاثة : المقدار والنوع والتصريف .

أما من حيث المقدار الذى يحسن بمصر أن تنتجه فى السنين الحالية فيظهر بادىء ذى بدء أنه ما دام المتوج العالمى من القطن زائداً عن المستهلك منه زيادة عظيمة ، فيكون من الخطل بل من الخطر زيادة ذلك الانتاج ، ويكون العمل على تخفيضه أمراً محتوماً ، وهذا ما فطنت إليه أمريكا التى تنتج وحدها نحو ٤٠٪ من المحصول العالمى ، فأنقصت المساحة القطنية ببلادها نحو الربع ، فنقص انتاجها نحو خمسة ملايين بالة من القطن الشعر ، (أو نحو ٢٥ مليون قنطار) وهو ما يعادل محصول القطن المصرى مثلين ونصف مثل على أقل تقدير .

أما فى مصر فإننا ننظر إلى تحديد المساحة القطنية من وجهتين : الأولى — أثر هذا التحديد فى الانتاج العالمى ، ومن ثم على رفع الأسعار ، والثانية — العلاقة بين ما نربحه من هذا المحصول وبين ما يمكن أن نحله محله من محاصيل أخرى .

فأما عن تحديد المساحة القطنية فهو إن جاز في مملكة كأمريكا كبيرة الأثر في الانتاج العالمي للقطن ، فإنه لا ينطبق على مصر التي لا تزيد مجموع إنتاجها كله عن مليوني بالة ، وعلى فرض نقص المساحة نحو الربع — وهو نقص كبير بالنسبة إلينا — فإن محصولنا ينقص نحو نصف مليون بالة على أكثر تقدير ، وهو مقدار قليل الأثر جدا في المحصول العالمي الذي يصل أحيانا إلى ٤٠ مليون بالة ، ومن ثم لن تكون له جدوى في رفع الأسعار . هذا فضلا عن أن تجربة أمريكا الخاصة بنقص المساحة القطنية فيها أظهرت فشل هذه الخطة ، ما دام هذا النقص ليس شاملا كل الممالك المنتجة .

وأما عن العلاقة بين ما نربحه من القطن وبين ما يمكن أن يحل محله إذا أقللنا من مساحته فهو عامل جوهري جداً في تحديد المساحة ، لأنه ما دام القطن أربح لنا من غيره من المحاصيل التي ننتجها ، فإنه سيظل بطبيعة الحال محتفظا بأكبر مساحة ممكنة في دورتنا الزراعية . وكل سياسة تناقض ذلك لن يكون وراءها إلا خسارة مادية للزارع في مصر . ويؤسفني أن أقول إن القطن لا يزال سيد محاصيلنا جميعا ، وإنه إلى أن يأتي اليوم الذي نوفق فيه إلى إيجاد ما يغنينا عنه — وما أشد حاجتنا إلى ذلك — سنظل أرقاء لهذا السيد العزيز .

وليست المساحة وحدها هي العامل الوحيد المسيطر على المقدار الناتج من المحصول ، بل هناك عامل آخر لا يقل عنه أهمية ، وهو غلة الفدان الواحد . وليس هناك شك أو تردد في وجوب العمل على زيادتها ما استطعنا إلى تلك الزيادة سبيلا ، فإن في ذلك زيادة مضمونة في الربح إذا ظل سعر البيع ثابتاً ، أو فيه زيادة لمقدرتنا على تحمل هبوط السعر سواء أكان ذلك الهبوط خارجاً عن طوقنا أم مصطنعاً من ناحيتنا لتصريف محصولنا .

ويتسنى إحداث هذه الغاية بطرق عدة أهمها زرع أصناف من القطن وافرة الغلة وتعديل العمليات الزراعية والسمادية ثم مقاومة الآفات الضارة .

هذه هي الناحية الأولى لسياستنا القطنية ناحية المقدار وهي كما ترى ترتكز على عدم تحديد المساحة القطنية وتركها حرة ، وعلى العمل على زيادة غلة الفدان الواحد

أما عن الناحية الثانية وهي نوع الأقطان التي ننتجها فإنه ليس بخاف أن الأقطان المصرية خير أقطان العالم قاطبة ، من حيث طول التيلة ونعومتها ودقتها ومتانتها . بيد أنها تختلف فيما بينها اختلافاً بيناً من حيث الصفات ، فيقع السكلاريدس في رأس القائمة والأشموني في ذيلها . وقد أتى على مصر حين من الدهر كان إنتاجها من السكلاريدس يربى على ٧٠ في المائة من محصولها ، ومن الأشموني ما يقل عن ٣٠ في المائة منه . ولم تلبث الحال أن تغيرت فقل الناتج من السكلاريدس ونظائره من الأقطان المصرية الطويلة الشعر الممتازة ، حتى هبطت إلى نحو ١٠ في المائة من مجموع المحصول بينما زاد الناتج من الأشموني ونظائره من الأقطان المصرية القصيرة الشعر غير الممتازة حتى وصل إلى نحو ٦٠ في المائة ، ثم ظهرت أقطان أخرى بين بين بلغت نسبتها نحو ٢٥ في المائة من المحصول كله . وكان إقبال مصانع القطن على شراء الأقطان الرخيصة داعياً إلى اتجاهنا إلى الإنتاج الكثير من الأقطان غير الممتازة ، وتحولنا بعض الشيء عن الأقطان العالية ، وكنا في ذلك مضطرين لا مختارين . ولم نلبث طويلا حتى ساورتنا الشكوك في صحة هذا الاتجاه الجديد . وقد حدا بنا إلى هذا التشكك أمران : أولهما محاولة الممالك الأخرى المنتجة للقطن — القديم منها والحديث — إنتاج الأقطان الطويلة التيلة ، وبخاصة المصري المشار بها ، في حين انصرفنا نحن عنها . وثانيهما المنافسة الشديدة التي تعرضت لها أقطاننا بنزولنا بها إلى

مستوى القالبية الساحقة من أقطان العالم . إذ أننا فرطنا في الانتفاع بما خصتنا به الطبيعة ، ولم نعد من ظروف ملائمة كفيلة بإنتاج أحسن الأقطان . فلما أن وضح لنا خطر سياسة الانتاج الكمي فقط تعدت خطتنا إلى الانتاج الكيفي أيضاً ، محاولين إخراج أصناف جديدة تجمع بين وفرة المحصول وحسن الصفات . وقد تبدلت الحال فعلا في السنتين الأخيرتين ، فقل إنتاجنا من الأقطان القصيرة التيلة ، وزاد من الأقطان الممتازة بطول تيلتها . والآمال معقودة الآن على أصناف جديدة أخرى سترفع من مستوى أقطاننا إلى نحو ما كانت عليه أيام ازدهار السكلاريدس .

من هذا نرى أن الناحية الثانية من نواحي سياستنا القطنية وهي ناحية النوع ، تتطلب الآن إنتاج أقطان جيدة من حيث صفات التيلة ووفرة المحصول .

ولننتقل الآن إلى الناحية الثالثة من سياستنا القطنية ، ألا وهي ناحية التصريف . وسنتناولها من حيث السعر ومن حيث الأسواق . فأما من حيث السعر فيجب أن تتجه هذه السياسة نحو البيع بأسعار منخفضة ، تكسبنا عملاء جديدين ، وتستبقي لنا عملاءنا الأقدمين ، وتكون لنا عدة في ميدان المنافسة . وقد آن لنا أن نعرف أن أقطاننا لم تعد تتمتع بهذا المركز الممتاز الحصين الذي كان لها إلى عهد غير بعيد ، وأن كل سياسة ترمي إلى رفع أسعار أقطاننا رفعاً مصطنعاً سياسة فاشلة غير محمودة العاقبة . ومن العوامل التي تساعدنا على تخفيض أسعارنا غير ما ذكرت من زراعة أصناف وفيرة الغلة ومن تعديل طرق الزراعة والتسميد ومقاومة الآفات ، تخفيض نفقات الإنتاج إلى أدنى حد ممكن .

أما عن الأسواق فإنه غير خاف أننا نزرع أقطاننا لبيعها خارج مصر ، ومن ثم علينا أن نعنى بإيجاد أسواق كثيرة لتصريفها ، وأن نذلل جميع العقبات التي تعترضها . وقد كثر الكلام في هذا الموضوع ، وكان للمرحوم أحمد عبد الوهاب باشا فيه جولة عظيمة الأثر أثناء رحلاته في أوروبا ، كما أنه تألفت لجنة خاصة للدعاية للأقطان المصرية وترويجها في الخارج .

أما سوقنا المحلية للقطن الخام فإنها لا تزال صغيرة جداً ومحدودة ، إذ أنها لا تستهلك إلى الآن إلا نحو ثلاثة أرباع مليون قنطار من محصول يتراوح بين ٨ و١٠ ملايين قنطار . والواقع أنه مهما زاد الاستهلاك المحلي لأقطاننا فإنه لا يعدو غير جزء صغير من محصولنا . وتتجه سياستنا القطنية نحو حماية الاستهلاك المحلي حماية تكفل له الزيادة والنمو ، لا كوسيلة لاستهلاك جزء من أقطاننا فحسب ، بل كوسيلة لاستخدام عدد كبير من الصناع المصريين والأيدي المصرية . وهذا الترفيه عن صناعة النسيج في مصر هو في الحقيقة جزء من برنامج واسع النطاق يرمي إلى تشجيع الصناعة بصفة عامة في مصر ، لما فيها من أبواب رزق وكسب جديدة للمصريين أنفسهم ، ولما يتبع التطور الصناعي من رقي في كفاءة أفراد الأمة ، ومقدرتهم الإنتاجية ، ومن زيادة الاعتماد على مواردنا الطبيعية والإفادة منها .

هذه هي السياسة القطنية مختصرة موجزة . وهي تتلخص في أنه ما دام لم يوجد بعد البديل الكافي للقطن في مصر — مع حاجتنا الماسة إلى هذا البديل — ولكي نتلافى كارثة قطنية خانقة ، يجب العمل على « تصريف محصولنا من أقطان ممتازة بسعر منخفض » وذلك بزيادة غلة الفدان وتخفيض نفقات الإنتاج ، فتزداد ثروتنا القومية وتقوم على أساس وطيد .

محمد عزيز فكري

«كرسى» من النحاس

باسم السلطان المملوكى محمد بن قلاوون

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

كانت صناعة التحف من النحاس المطعّم[1] بالفضة من أزهر الصناعات بمصر فى عصر المماليك . وكان السلاطين والأمراء والأغنياء يحرصون على اقتناء تلك التحف ويوصون بعملها خصيصاً لهم . وقد وصل إلينا عدد كبير منها ، نرى بينه الأباريق والمسارج والشماعد ، والأوعية المختلفة الشكل والمقلمات والمباخر وآنية الزهور وما إلى ذلك . ولكن أخطرها شأناً وأرفعها قيمةً «كرسيان» من نحاس أصفر محفوظان بدار الآثار العربية فى القاهرة ، ويعدان من أنفس ما فيها من كنوز فنية . وهما من نوع «كراسى العشاء» التى عرفها الشرق الإسلامى ، ولا تزال بعض أنواعها الخشبية مستخدمة فى ريفه حتى اليوم

وقد نال أحد هذين الكرسيين شهرة عالمية ، فصار من بدائع الفنون الإسلامية التى يحرص مؤرخو الفنون على تصويرها ، ويمنى الهواة رؤيتها ؛ ولا يتردد أى متحف من المتاحف فى دفع آلاف الجنيهات للحصول على مثلها .

ومهما يكن من شىء فهو «كرسى» أو خوان صغير من نحاس أصفر منشورى الشكل مسدس الأضلاع (انظر الصورة فى الصفحة المواجهة) مخرّم وملبس بالفضة ، وارتفاعه ثمانون سنتيمتراً . وأصله من مارستان السلطان قلاوون .

أما الأسباب التى جعلت لهذه التحفة الفنية ما لها من قيمة جليلة فإن أبينها ما يأتى :

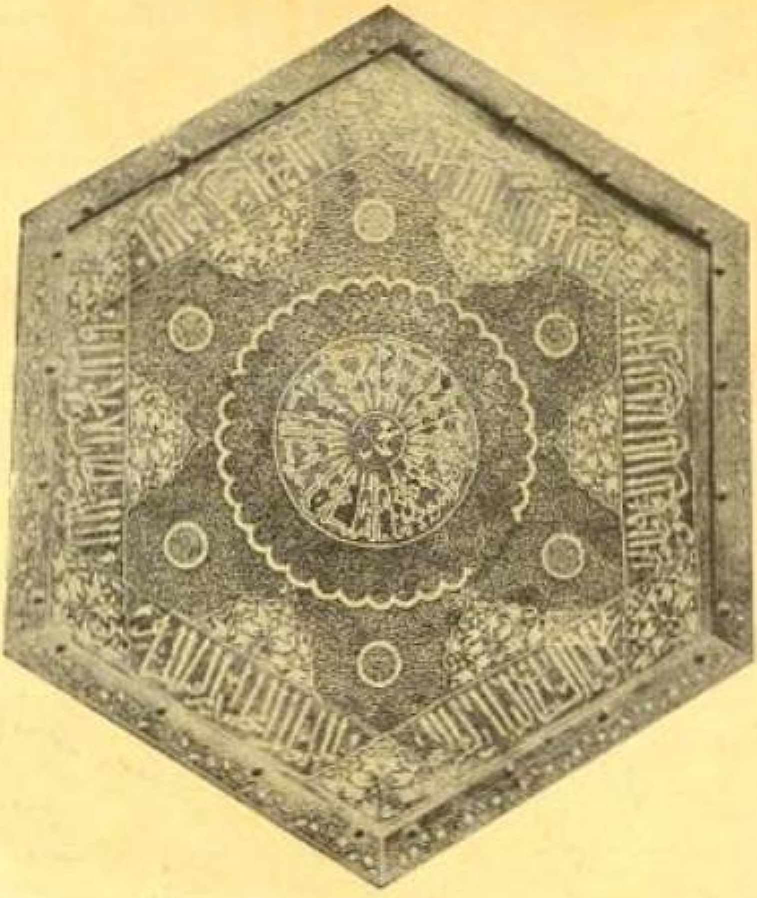
أولاً — أن هذا الكرسى نادر جداً ، فإننا لا نعرف من نوعه فى العالم كله إلا الكرسى الآخر فى دار الآثار العربية ، والصينية العليا (القرصة) من كرسى يشبههما ، وهى محفوظة الآن بمتحف اللوفر بباريس .

ثانياً — أنه باسم سلطان جليل من سلاطين المماليك ، فإن فى وسط «قرصته» عصابة مستديرة من الكتابة الكوفية ذات الزخارف والحروف المتداخلة فى بعضها ، والمدببة فى أعلاها كأسنة الرماح . ونص هذه الكتابة : «عز مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن قلاوون» . وفى القرصة عدا ذلك ست مناطق فيها كتابة بالخط النسخى المملوكى ونصها : «عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العامل المجاهد المرابط الثاغر المؤيد المنصور سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين ، مجير المظلومين من الظالمين ، ناصر الملة المحمدية ، ناصر الدنيا والدين ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى» (انظر الشكل رقم ٢) .

أما جوانب الكرسى الستة فإن كلا منها مكون من أربع «حشوات» مخرّمة بينها قضبان ، وعلى الحشوات والقضبان كتابات منزلة بالفضة لا تختلف كثيرا عن الكتابة سالفة الذكر . وفيها دوائر عليها رسوم بط صغير ،

(١) التطعيم أو التلبيس أو الترصيع أو التركيب ، ويسمونه فى الاصطلاح الفنى «التكفيت» من (الفارسية والتركية) طريقة فى الزخرفة قوامها حفر رسوم على السطح المطعّم ثم ملء التفروق التى تؤلف هذه الرسوم بقطع أخرى من مادة أغلى قيمة . والكلمة الفرنسية للتطعيم incrustation والانجليزية inlaying والألمانية eingelegte Arbeit والإيطالية intarsiatura

وفيها أيضاً جامات مستديرة مكتوب فيها : « عز لمولانا السلطان » ، ومما يلفت النظر فى كتابات هذا الكرسى عبارة « ناصر الملة المحمدية » ، وهو لقب لم يرد كثيراً بين ألقاب السلاطين والمماليك .



(شكل ٢) « قرصة » كرسى السلطان قلاوون

ثالثاً — أن على أرجل هذا الكرسى كتابة عليها تاريخ صناعته واسم الصانع . وهذا أمر غير شائع فى الفنون الاسلامية ، وإليك نص هذه الكتابة :

« عمل العبد الفقير ، الراجى عفو ربه ، المعروف بابن المعلم الأستاذ محمد بن سنقر البغدادى السنانى ، وذلك فى تاريخ سنة ثمانية وعشرين وسبعمائة فى أيام مولانا الملك الناصر عز نصره » .

وقصارى القول أن هذه التحفة الملكية لا تكاد تقدر بثمن ، وذلك لندرتها ، واتقان صناعتها ، وجمال شكلها ، وتناسب أجزائها ، ودقة زخارفها ، وما لصاحبها من عظم الشأن ، ولأنها مؤرخة ، وعليها اسم صانعها .

زكى محمد حسن

برتراند رسل

الشك قبل اليقين

للاستاذ زكى نجيب محمود

برتراند رَسِلْ فيلسوف انجليزى معاصر ، بل هو زعيم الفلاسفة الإنجليز المعاصرين ، أنفق الشطر الأول من حياته العلمية فى دراسة الرياضة والمنطق ، فأكسباه وضوحاً فى التفكير لا يكاد يدنو منه فى ذلك أحد من معاصريه ... ولم تكد تضع الحرب الكبرى أوزارها حتى خرج برتراند رسل من صمته الدفين تحت أكداس المنطق والرياضة ، وانطلق فى العالم كالشعلة المتدلعة يخطف الأبصار ويأخذ الألباب ، جازعاً مما شهده العالم من صراع وقتال ، وقد راعه أن يرى ألوف الشباب يسيرون فى خيلاء وزهو ليلاقوا حتفهم فى حومة الوغى ! فبدأ يفكر فى وسيلة الخلاص ، فكانت هذه الكتب التى أخرجها للناس ، وهذه الفصول التى يذيعها فيهم حيناً بعد حين .

وأول ما يستوقفنى من رَسِلْ أسلوبه فى التفكير ، لأنه أسلوب أومن به وأحتذيه ، فهو يأبى أن يكون فى تفكيره فرداً فى قطيع ، ويقف عند المسائل وقفات تقصر أو تطول ، حتى يتبين فيها الرشد من الغى ؛ وليس أبغض على نفسه من رأى يأخذ به الناس فى تسليم لا يقبل الشك ، بل ليس أبغض على نفسه من هذه الأفكار التى يطلق عليها الناس اسم « البديهيات » ثم يقبلون عليها إقبالا لا روية فيه ، ولكم هلل وكبر حين سمع رجال نهضوا يتحدون قداسة تلك البداهة ، وألحوا يطلبون لكل بديهية ما يؤيدها من دليل ، وكم هلل وكبر حين سمع بمن أثبت أن الخطين المتوازيين قد يلتقيان ، وأن الكل قد لا يكون أكبر من جزئه ؛ ذلك أن رَسِلْ يحب لنا أن نفكر أحراراً من كل أغلال وأصفاد ، ويحب لنا أن نشك حتى يتبين اليقين .

وهل فى العالم كله حقيقة واحدة تستعصى على الشك ؟ ستقول : نعم ، وهل أشك أو يجوز أن أشك فى أن هذا مكتب أمامى ، صنع من الخشب ، وطلى باللون الأصفر ، وانتثرت فوقه الكتب والأوراق ؟ ستقول هذا ، وسيجيبك رسل بأن الشك فى هذا جائز بل واجب ؛ ولو أمعنت فى الفكر لألفيت هذه الأمور الساذجة العابرة تحتمل كثيراً من التفكير ...

انظر معى إلى مكتبك كرة أخرى ، ما لونه ؟ لا تقل فى بساطة الأطفال إنه أصفر ، لأن ألوف الألوان تتعاقب عليه طول النهار والليل ، كلما اختلف مقدار الضوء الساقط . ولو رسمه فنان عشرين صورة فى يوم واحد فى أوقات مختلفة لخرجت كل صورة على شئ من الخلاف مع سائر الصور ... وما شكله ؟ ستقول : مستطيل السطح مثلا ، مع أنك لم تره مرة واحدة فى حياتك مستطيلا ، وإن خالجك الشك ، فاجلس وحاول أن ترسم ما تراه على الورق ، إذن لوجدت السطح يضيق هنا وينفرج هناك ، بل لو جلس حوله عشرون راسماً لما وجدت رسمين اثنين يتطابقان ، فليس لمكتبك شكل واحد بل أشكال متعددة وإن شئت لك أنه مستطيل . ثم ما ملمسه ؟ ستسرع إلى الجواب بأنه ناعم مصقول ، ولكن تريث قليلا وانظر إليه بمجهر وحدثنى كيف تراه ، ستراه وديانا وجبالا وهضابا تحت زجاجة المجهر ، وكلما

اختلف النظار شدة وضعفاً اختلف معه سطح المكتب نعومة وخشونة ، فأى هذه الصور جدير أن يكون صوابا ؟ وأيها محكوم عليه بالبطلان ؟

وحسبى هذا ، فلن أطيل الوقوف عند مكتبك ، ولعلى قد وفقت إلى شيء أرجو مخلصاً أن ترسخ جذوره فى العقول ، وهو ألا يلقى الانسان أحكامه جزافا ، وألا يسرع إلى تصويب رأيه وتخطئة غيره إلا بالدليل والبرهان ، فما قد رأينا أتفه الأشياء يحتمل اختلاف الرأى . . . . والأصول الأولى التى نتشربها عن رُسُلٍ ، ونتشربها عن إيمان وعقيدة ، هى أنه إذا كان فى الموضوع رأيان ، فحكّم العقل ، ولا تقض فى الأمر بهواك ، وإنه من الغفلة أن يقضى الرجل العادى فى أمر اختلف فيه العلماء والخبراء ؛ فينبغى أن يكون لنا الضمير العلمى فى شئون الحياة جميعاً ، ولو نجحنا فى ذلك وحده كان كفيلا للبشرية بالنهوض السريع . خذ لذلك أمثلة سريعة مقتضبة : يقول بعض علماء الاقتصاد : إن الاشتراكية سبيل النجاة بالانسانية مما رهقها من الكوارث الفاجعة ، فينهض قوم يعارضون ويزعمون أنها نزعة لا تتفق وطبيعة الانسان ، ولو اصطنع هؤلاء ضميراً علمياً ، لما ضاقوا صدرا بالرأى الجديد ، ولأفسحوا له فى مجال التجربة ، لعله يجود على البشر بخير موفور ... نسمع عن أهل التبت أن المرأة يحل لها أن تتزوج أكثر من رجل ، ويسمع المسيحيون عن المسلمين أنهم يجيزون للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة ، فيقابل كل فريق مايسمعه عن الفريق الآخر بشيء من النقد ، ولو اتخذ أسلوب التفكير الصحيح لتريث فى حكمه ، لعله يسخر من صواب .

ونريد شيئا من الشك ، أو بعبارة أخرى نريد للعقل أن يسيطر ، وللعاطفة أن تنكمش حين نصدر الأحكام ، لأنها مضللة مفسدة للرأى فى أكثر الأحيان ، ومع ذلك فالناس يصدرون كثيرا عن عواطفهم حين يفكرون . . . . فلو قام فرد بين الناس يزعم أنه ملك انجلترا ، لحكم عليه الإنجليز بالخبل والجنون ، وأودعوه السجن أو البيمارستان ، ليسلم الناس من شره وأذاه ، أما إن نهض هذا الفرد بعينه وزعم للناس أن الأمة الإنجليزية تنزل بين الأمم منزلة الملك بين الناس ، لرفعوه وأكبروه ؛ مع أن الموقفين فى عين الأجنبى المحايد متساويان : فى الأول يعلو بنفسه باطلا ، وفى الثانى يسمو بأمته باطلا . ولكن الموقف الأول صادف فى الناس نفوراً لأنه يصدم رغباتهم ، وصادف الثانى إعجاباً وقبولا لأنه يتفق وهواهم ؛ والواقع — كما أشرت — أن لا فرق بين الحالتين ، سوى أن هذا جنون جماعة ، وذلك جنون فرد واحد ، وسينزل على رأسك السخط والغضب إن ناقشت الجماعة فى موضوع جنونها ، كما تعرض نفسك للخطر إن ناقشت الفرد المخبول فى موضوع جنونه ... فانظر كم يصدر الناس فى حكمهم عن الهوى ؛ ثم هم يصدرون عن عواطفهم حين يفكرون ، ثم يقيمون الدليل العقلى بعد ذلك ، وهم يلوون هذا الدليل العقلى حيث شاءوا ، حتى يجيء مطابقاً لما أرادوا ؛ ونحن نطالبهم أن يعكسوا الوضع ، فيبدءوا بالمنطق العقلى لينتهى بهم إلى حيث يريد الله له أن ينتهى .

ولكن هذا عسير شاق ، فلنخفف الأمر بعض الشيء ، ونقول : إن غريزة الانسان شطران ، شطر يعمل على امتداد الحياة ، حياة الفرد فى شخصه أولا وفى نسله ثانياً ، وشطر من شأنه أن يكافح الآخرين وينافسهم ليظفر لنفسه بنصيب الأسد ، وليهيئ لنفسه أسباب الأمن والنجاة ، على فرض أن غيره مصدر خطر واعتداء . . . أما الشطر الأول من الغريزة فينبع منه الحب والفن وكثير من متع الحياة ، وأما الثانى ففروعه المنافسة والوطنية والحروب . والأخلاق السائدة بيننا اليوم تقمع الجانب الأول أو تحاول أن تقمعه ، وتشجع الجانب الثانى وتستحثه وتقويه ، ولو انعكس الأمر لاهتدينا إلى الصواب ، فلنترك للغريزة أن تتصرف بطبعها فيما يمس دوام الحياة ، فليس من الخطر أن ننساق مع الغرائز والعواطف فى الحب والفن ؛ ولكن

(البقية على صفحة ٣٥)

من أحاديث العلوم

للدكتور السويسى

الشمس تشهد خسوف القمر

من المعروف أن خسوف القمر يحدث بأن تقع الأرض بين الشمس والقمر فتحجبه عنها . ومعنى هذا أننا نحن سكان هذا الكوكب الأرضى ، لا نستطيع عند الخسوف أن نرى الشمس والقمر فى آن واحد



ولكن حدث فى الخسوف الأخير على الشاطئ الغربى للمحيط الأطلسى ، أن القمر عند ما أشرق أشرق مخسوفاً كامل الخسوف قبل أن تغرب الشمس بست دقائق ، ومعنى هذا أن الناس على ذلك الشاطئ الغربى رأوا الشمس والقمر والخسوف قائم ! !

أما تفسير هذا ، فهو أن القمر عند ما أشرق كانت الشمس قد غربت فعلا . ولكن أشعتها المنبعثة إلى الأرض تتكسر عند دخولها هواء أرضنا ، فتنثنى وتميل إلينا ، فتتراءى لنا الشمس مرتفعة عن الأفق بنحو قطر وبعض قطر من قرصها . فارتفاعها عن الأفق والقمر على خسوفه ارتفاع مكذوب[1] .

ومعنى هذا أيضاً أن الشمس هكذا تكون عند كل غروب . فأذان المغرب الذى نسمعه أذان كذلك مكذوب يجىء بعد وقته بست دقائق !

(١) القمر يمكن رؤيته برغم خسوفه التام ووقوعه كاملا فى ظل الأرض . ذلك لأن الشمس ترسل أشعتها حول أطراف الأرض ، وهذه تتكسر عند دخولها فى هواء الأرض ، فإذا نفذت من الهواء إلى ناحية القمر نفذت منحنية فناله منها مقدار قليل ولكنه يكفى لاظهاره لعين الانسان على الأرض .

« كششان » الصوف

تتركب شعرة الصوف من ثلاث طبقات ، أولها طبقة النخاع ، وهى قناة تجرى فى وسط الشعرة ، ثم تأتى بعدها الطبقة القشرية ، ثم تأتى بعد هذه الطبقة الخارجية وشكلها تحت المجهر كقشر السمك (على ما ورد فى العدد الثالث من الثقافة) .

ومن أكثر ما يعانيه صناع الصوف (والجمهور أيضاً) أن الصوف لا يبقى على طوله عند الغسل . فهو إذا بُلّ فى الماء انكمشت طبقته الداخلية النخاعية وطبقته القشرية وجرّا معهما الطبقة الخارجية السميكة ، فضمر الصوف وفقد مابين ١٠ و ٣٠ فى المائة من حجمه .

وقد قضى الكيميائيون أعواماً يحاولون فيها إيجاد طريقة تمنع الصوف من الضمور والتقاصر ، ولكن من غير جدوى ، إلى أن اهتدى حديثاً كيميائيان إلى طريقة ناجحة واحدة فى وقت واحد . وكلتا الطريقتين تعتمد على استخدام هيبو كلوريت الأميل ، أو البيوتيل Amyl or butyl hypochlorite ، وهما مادتان ذواتا نسب قريب بالمسحوق الجيرى المعروف القاصر للألوان . فالصوف إذا نُقع فى محلول أيهما على درجة ٤٠ مئوية ، امتص من الكلور ١½ فى المائة من وزنه . وعندئذ يمكن أن يغسل الصوف فى الماء البارد ، أو وهو يغلى دون أن يقصر طوله .

وقد سجل المخترعان اكتشافهما ، وتوارت عليهما الاستعلامات الكثيرة من مصانع كثيرة ، لا سيما وأن إحدى الوزارات فى أمم الغرب جربت هذا المخترع على ٩٠ ياردة من الصوف — وهو مقدار يكفى لصنع ٥٠ قميصاً — وقررت أن « النتيجة مرضية » .

تعريف السكران

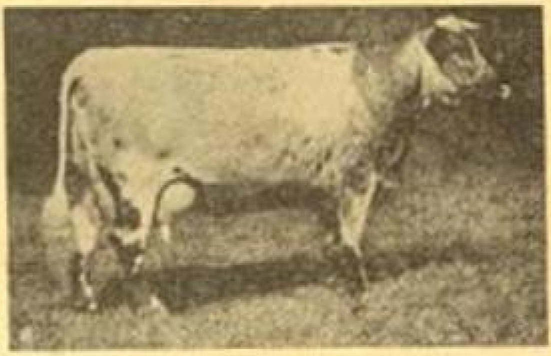
تحدث في الغرب حوادث سيارات كثيرة يُتهم فيها السائقون بالسكر ، حتى إذا جيء بهم إلى المحاكم أنكروا التهمة ، فلا تستطيع تلك المحاكم إثباتاً أو نفياً ، إلا أنها تعتمد على رجال الشرطة فيما يصفون من أمر المتهم ساعة التلبس ، ورجل الشرطة كثيراً ما يحار ، ويكون كل اعتماده على رائحة فم الرجل ، وليس عليها في الطب اعتماد ، فهي تبقى بعد زوال السكر ، وتكون حيث لا يكون سكر .

لهذا قامت بعض الجامعات تبحث في تعريف السكر ، وبعد البحث قضت بأن أقصى ما يستطيعه المرء من الشراب ولا يسكر هو ١٣ أكواب من البيرة على الريق ، أو ضعفها على الطعام ، وأن هذا القدر يوجد في الدم ½ جزء من ألف من الجرام من الكحول ، في كل سنتيمتر من الدم ، وأن أكثر الشاربين حساسية لا يتأثر به عند القيادة . كذلك قضت بأن هذا القدر من الكحول إذا زاد حتى بلغ ١½ جزء من ألف من الجرام أسكر كل الناس ، ولم يستطع أحد مغالبته . أما بين هذين الحدين فيختلف تأثر الناس حسب طبائعهم .

لهذا نصحت الجامعة البوليس بأن يعرف السكران بأنه الرجل الذي يوجد في السنتيمتر من دمه ساعة التلبس مقدار من الكحول يزيد على ½ جزء من ألف من الجرام .

بقرة تضرب رقماً قياسياً في اللبن

احتفل نادى الماشية بجرزى بأمريكا ببقرة حلوب أنتجت من اللبن في العام الرسمي — والعام الرسمي عند البقر ٣٠٥ أيام هي وحدها المعول عليها في الإحصاء — ١٧١٢١ رطلاً من اللبن ، أنتجت من السمن ألف رطل ، أي مقداراً يزيد على وزن البقرة بنحو عشرين رطلاً .



والبقرة التي اعتزت بهذا الفخر قبلها في أمريكا كانت قد أنتجت ٩٩٥,٩ رطلاً من السمن . ونذكر بقصد المقارنة وإعطاء فكرة عن مبلغ هذا الإنتاج أن كلية الزراعة بالقاهرة تعتز بجاموسة حلوب — لا بقرة — هي أحسن ما في مصر ، تنتج في العام ٧٠٠٠ رطل من اللبن تنتج نحو ٥٠٠ رطل من السمن . والبقرة المصرية تنتج نصف ما تنتجه هذه الجاموسة .

مرتبات العلماء

أجرى أحد العلماء بحثاً في مرتبات إخوانه العلماء ، ممن بلغوا مرتبة مشهودة في البحوث الصناعية . فجمع منهم ٧٢ اسماً في أمة واحدة . وبحث عن مرتباتهم فلم يهتد إلى مرتبات ٣٧ منهم . ووجد أن ٢٩ يتناولون في السنة دون الـ ٣٠٠٠ جنيه . ووجد أن عشرة من الستة عشر الباقين يتناولون ٥٠٠٠ جنيه ، وأن أربعة منهم يتناولون ١٠٠٠٠ جنيه . أولهم خبير فوتوغرافي ، وثانيهم مهندس طبيعي ، وثالثهم كيميائي ، ورابعهم صيدلي . ثم قارن هذه المرتبات بما يتقاضاه أمثالهم العلماء في الجامعات فوجد الأخيرة تتصاغر عن المقارنة تصاغراً كبيراً .

السوربنى

نباتاتنا الطبية

الكركديه

زهر السودان

بقلم الأستاذ محمد سعيد الأزهرى

كلما سرحت الطرف حولى وجدت أرض مصر الخصبة تنبت نباتات قيمة ، يعرض عنها عامة الشعب ، لجهلهم منافعها ، ولا يعيرها المتعلمون اهتماما ، تهاونا وتكاسلا ، ولو أن كل خبير بهذه النباتات أجهد نفسه قليلا لأمكننا أن نوفر على أنفسنا آلاف الجنيهات ، تدفعها مصر سنويا ثمنا للأدوية المشتراة من الخارج .

فى منطقة قنا جرب نبات الكركديه فنجح نجاحا باهرا ، وهذا النبات ينمو جيدا فى الجو الحار ، فهو من نباتات السودان المشهورة ، ولذلك يطلقون عليه اسم (زهر السودان) يستعمله خاصة الناس فى الصعيد كمشروب شاى فى الشتاء ، ومنقوع مبرد فى الصيف .

أثار اهتمامى هذا النبات ، فأخذت أبحث عما كتب عنه فى كتب النباتات الطبية ، فلم أجد شيئا يبل الأوام وينقع غلة المتعطش للمعرفة . وعندما أوشك اليأس أن يتسرب لنفسى ، وجدت كتيبا صغيرا كتب باللغة العربية ذكره ، وذكر عنه بعض أسطر ليست نتيجة لبحث باحث ، ولكنها تشير إلى وجوده بالسودان ، وطريقة استعماله لدى المصريين .

أجهدت نفسى لبحث هذا النبات الشائع استعماله ، المجهول لدى المتعلمين جهلا تاما ؛ فخرجت بالمعلومات الآتية :

اسم هذا النبات العلمى : Hibiscus Sabdariffa ، ويسمونه باللغة الفرنسية Oseille Rouge ، وبالانجليزية Indian Sorrel .

وهو من فصيلة النباتات الخبازية شجيرى يزرع من بذوره فى شهر فبراير ، ويجنى عند إتمام نضجه فى شهر ديسمبر .

وشجيراته ارتفاعها حوالى متر ، وله أوراق مكففة خضراء ذات بقع حمراء على كلا السطحين ، وهى متبادلة على السيقان ، وأزهاره لها لون جميل جذاب ، وثماره حمراء غامقة (محافظ متفتحة ذات خمسة مساكن) ، وكل زهرة لها سبلات حمراء وفوق الكأس (Epicalyx) ، وسبلات الثمار وما تحت الكأس حمراء غامقة فى اللون ، وهى التى تستعمل لعمل المشروب الحمضى اللذيذ الطعم الذى اشتهر النبات من أجله .

أما عن الصفات التشريحية ، فالأوراق بها الثغور على سطحى الورقة ، وهى واسعة ومحاطة بثلاث خلايا إحداها أكبر من الخليتين الأخريين ، والخليتان الصغيرتان موازيتان لفتحة الثغر .

وإذا قطعنا فى الورقة قطاعا مستعرضا وجدنا أن العرق المتوسط محدب الطرفين . والأوراق تحتوى على بلورات أوكسلات الجير وردية الشكل . أما عن الساق فإذا قطعنا فيه قطاعا عرضيا وجدنا أن تركيبه لا يختلف عن سيقان ذوات الفلقتين ، ولكن نلاحظ أن بالقشرة مجموعة من الألياف كثيرة جداً ، وكذلك فى منطقتى اللحاء والخشب .

وفى القطاع الطولى نرى الألياف الكبيرة والأوعية الخشبية منقبة ، ويجاورها خلايا بها بلورات أوكسلات الجير وردية الشكل ، والخلايا البينية طولها ١٠ خلايا وعرضها خليتان .

أما السبلات الحمراء ، فسوارية الشكل هى وما تحتها ، إذا قطع فيها قطاع عرضى أو سحقت نرى فيها تحت المجهر أوعية خشبية حلزونية وخلايا متخشبة ، وأليافا وكمية هائلة من أوكسلات الجير .

ولقد حاولت إجراء بعض تجارب كيميائية على هذا الجزء الأخير المستعمل من الثمرة ، أى السبلات وما تحتها ، إذ أن الثمرة بعد نضجها تظل السبلات وما تحتها متصلا بها ، ويجف ويصير لونه أحمر قاتماً وبعد الجفاف ينزع باليد ويستعمل لتحضير مثل الكركديه اللطيف الطعم . وقد أهدتنى تجاربى إلى ما يأتى :

أولا — المادة الحمراء الموجودة تنتمى إلى فصيلة المواد الكيميائية الملونة المسماة (anthocyanidines& anthocyanins) لأن المعروف أن هذه المواد هى الموجودة غالبا فى الأزهار والثمار . ومن المعروف كذلك أن هذه الألوان تختلف من حمراء إلى زرقاء إلى عديمة اللون ، نظراً لطبيعة السائل الخلوى فى الأزهار ، فإذا كان حمضيا كان لونه أحمر ، وإذا كان متعادلا كان عديم اللون ، وإذا كان قلويا كان أزرق وهى تذوب فى الماء ، والكحول المحمض بحامض الخليك أو حامض الكلوردريك والماء الغالى يذيبها بسرعة عن الماء البارد وهى لا تذوب فى الأثير مطلقاً .

ثانياً — أن الخلاصة المائية لهذه السبلات حامضية مما يدل على وجود بعض الأحماض العضوية فيها .

ثالثاً — أن هذه السبلات غنية جداً بأوكسلات الجير وكربونات الجير .

وهذه الخلاصة تحوّل محلول فهلنج مما يدل على وجود سكريات سداسية أو شيء أشبه بذلك .

رابعاً — الخلاصة المائية لا تحتوى على تنين ولا حامض بيروجاليك (مواد قابضة) ولا أشباه قلويات ولا جلوكوزيدات

والخلاصة من كل هذا : —

(١) أن النبات له مستقبل باهر فى الصيدلة لأن تلك المادة الملونة الحمراء موجودة بنسبة عالية فيها تمكننا أن نستغنى عن الحشرة القرمزية التى تحضر منها (الكرمين) والتى تستعمل بكثرة فى الصيدلة ولوازم الزينة ، وهى غالية جداً فى الثمن ، فثمن الكيلو أكثر من جنيه مصرى

(ب) نظراً لأن هذا النبات ليست موجودة به أحماض معدنية ولا مواد قابضة ، فهو كمشروب منعش سيكون له مستقبل زاهر .

(حـ) نظراً لوجود ألياف متينة كثيرة فى سيقان النبات ، ربما اتجه النظر إلى استعمالها فى الصناعة مثل الجوت والقنب .

(د) نظراً لوجود أوكسلات الجير بكثرة فى هذا النبات ، فهو يصلح كمصدر نباتى لتحضير حامض الأوكساليك الذى يستعمل فى تحضير مواد الطلاء .

وبهذه العجالة المقتضبة أحب أن أوجه نظر الشعب المتعلم إلى التدقيق فى بحث نباتاتنا المصرية التى لم تبحث بعد ، فربما أغنتنا عن شبيهاتها من النباتات الأجنبية .

المطاعنة — قنا **محمد سعيد الأزهرى**
صيدلى كيماوى

(الثقافة) : بمناسبة هذا المقال نذكر أن نبات الكركديه هو أحد منتجات الهند وقد دُرس أمره فى كلكتا دراسة علمية عام ١٩٠٨ وقبله . ودرس من وجهة الصبغة الحمراء التى يحتويها فى جامعة ليدز Leeds بإنجلترا عام ١٩٠٩ . وهو يزرع بكثرة فى الهند فى أحر بقاعها ، وفى جزيرة سيلان كذلك . ويُطلب هناك للشراب المستخرج من الزهرات ، وللألياف المستخرجة من سيقانه وتسمى فى التجارة Rozella Hemp أو قنب روزلا . وتستخدم زهرته كذلك للصبغ فى بعض جهات الهند ، وقد فصلت المادة الصابغة من النبات فعلا ودُرست وعُرف أنها تنتسب إلى نفس الصبغة التى بزهرة القطن . وقد بلغت الصبغة المستخرجة من ٥٠٠ جرام من الزهر جراما ونصف جرام تقريبا .

الفن الحديث

تاريخه ونزعاته

للاستاذ محمد يوسف همام

جماعة الشياطين "Fauves" :

كان جوجان من زعماء نزعة ما بعد التأثريين "Post-impressionism" الذين تحمسوا للضوء وتأثيره، وعملوا على التوفيق بين رغبة التغالى فى تصويره، وبين الرأى الذى نبت بعد ذلك داعياً إلى أن يكون الفن الحديث أكثر رسوخاً، حتى يصبح له مركز خالد كما كان للفن القديم. ثم تأثر جوجان بفن سيزان وعمد إلى التبسيط، فأجرى من التجارب الشيء الكثير. ولما كانت ميوله وأحلامه دائماً متجهة شطر جزر المحيط الهادى وشعوبها حيث الحياة على فطرتها، فإنه سافر إليها وهناك شرع فى التصوير بتبسيط يتناسب مع بساطة المعيشة هناك وسهولتها. ثم عاد إلى باريس فى أواخر القرن التاسع عشر ممهداً لنزعة جديدة، وداعياً لتحرير المدنية والفن من كثير من قيودهما العصرية.

وكانت قد حلت بالطبقات المثقفة فى ذلك العصر موجة ركود، وصفها المؤرخون على أنها « نهاية خاملة لقرن من النشاط، أدت بهم إلى مدنية موبوءة ». ثم دب الصحو فى الأذهان، وصاح الفنانون قائلين: « إن عليهم وحدهم واجباً مقدساً يجب أن يقوموا به، هو تحرير فن التصوير الحديث من قيوده التى أصبح يرسف فيها، بعد أن أصبح موبوءاً تبعاً لوباء التفشى فى المدنية الحديثة، وإن عليهم وحدهم أن يبدءوا بالفن لنشأة طفل حديث، أو نشأة شخص بدائى على الفطرة ». وبذلك هبت بنزعة « ما بعد التأثريين » عاصفة تغيير وتبديل، وظهرت جماعة من المصورين سنة ١٩٠٥، أطلقوا على أنفسهم اسم الشياطين Fauves جعلوا نصب أعينهم البعد بالتصوير الحديث عن المغالاة فى تصوير نواحى التفكير العلمى.



شكل ١ « سيدة » — تصوير ماتيس

وربما كان الداعي لاتخاذهم كلمة الشياطين اسماً لهم ، هو الرغبة في التشبه بهم في السرعة والقدرة والمجازفة ، ولكني أربأ بهم عن روح الشر التي يوحي بها هذا الاسم ، فقد كانوا مخلصين في عزيمتهم ، جادين في نياتهم الحسنة ، لما كانوا يعملون على تبسيط التصوير وتيسيره ، وعلى استعمال أقل الوسائل للوصول إلى أقصى قوى التعبير ، كما نرى في صورة زعيمهم هنري ماتيس لسيدة . وها نحن إذ نتأملها نبادر بالإعجاب بها لقوة إخراجها والسهولة البادية في رسمها ، فتظل ذكراها في أذهاننا دائماً .

نزعة التكعيب Cubism :

علمنا أنه في نهاية القرن الماضي وفي بداية القرن العشرين ، اتجه الميل إلى فن الزنوج وأهل العصور الأولى . وقد عمد بعض فناني ذلك العصر إلى بديهية علمية في التعدين وعلم طبقات الأرض ، تقول : إن البلورة هي أبسط



شكل ٢ — «الخياطة» تصوير ليجيه سنة ١٩١٠

أشكال التكوين ، فاتخذوها نواة لتفكيرهم ، وعملوا على أن يطبقوا نظام البلورة على تصويرهم . وحدا بهم منطقهم هذا إلى القول بأنه لكي تكون صورهم مبسطة وعلى الفطرة ، يجب أن تمحى منها الأقواس والمنحنيات ، وأن يصبح رسمهم للوجوه والأجسام وغيرها مكوناً من خطوط وأشكال هندسية ذات أضلاع مستقيمة ، لأنها أبسط أنواع الخطوط . وظهرت رسوم كل من جورج براك الفرنسي وبابلو بيكاسو الإيطالي ، وهما مؤسسا تلك النزعة ، على هذا النمط . وكان ليجيه الفرنسي من أشهر أتباعهما ، وله صور تكعيبية عديدة ، منها صورة الخياطة ، وهي مثال جيد لهذه النزعة في طورها الأول .

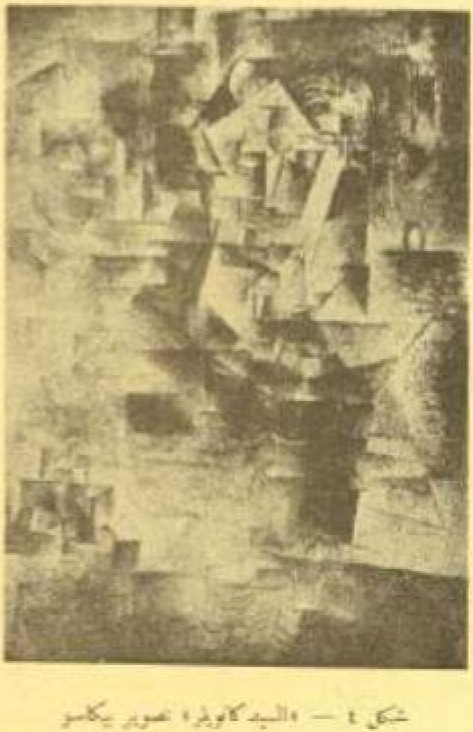
ثم نظموا تفكيرهم ، وصاغوا أساس نزعتهم في صورة قانون قالوا فيه : « إنه ما دامت القوة والجمال صنوان ، وإن الخط المستقيم أقوى من الخط المنحني ، فلا بد أن تكون



شكل ٣ — «رأس سيدة» تصوير بيكاسو ١٩٠٨ — ١٩٠٩
تحولت أجزاء الوجه إلى أشكال هندسية فظهرت الصورة كأنها حفر في خشب

الصورة المكونة من خطوط مستقيمة أقوى من تلك المكونة من خطوط منحنية ، ومن ثم فهى أجمل منها » . وفى هذا المنطق خطأ بيّن ، فالزهرة مثلا جميلة ، رغم تقوس وريقاتها ، والقنطرة المقوسة أقوى من القنطرة الأفقية المحملة على عمادين رأسيين ، كما هو ثابت فى فن العمارة ، وأكثر منها جمالا

ولو اقتصر أمر نزعة التكعيب على هذا النحو لاستتب الأمر على حال معين ، ولكنه انتقل من تحوير الشكل العادى لخطوط ومكعبات وأشكال هندسية مستقيمة ، إلى تقسيمه إلى أجزاء هندسية يبعثرها الفنان بدون نظام فى غير مواضعها الأصلية . فقد عرف عن بيكاسو أنه كان لا يقنع بالتكعيب العادى ، بل يعمد إلى تحوير أى نموذج ، مهما كان سهلا ، إلى شكل غامض لا يفسر بسهولة ، مكون من قطع بعضها مرسوم من على ، وبعضها مرسوم من

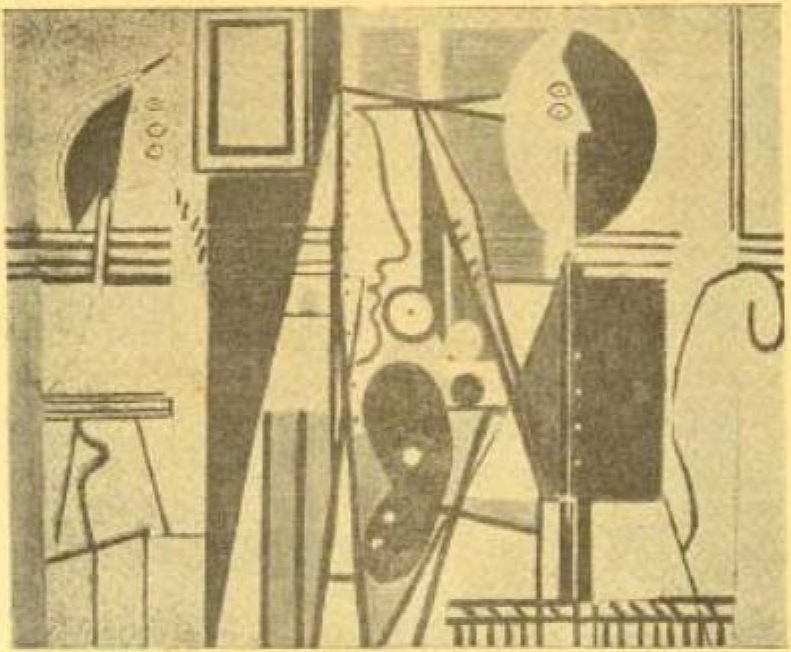


شكل ٤ — «السيد كانويلر» تصوير بيكاسو

جانبه ، والبعض الآخر مرسوم من أسفله . وهو يقول إنه يراها وهى فى هذه الأوضاع التى اختارها ، ذات مظهر أقوى مما يراه غيره ، وكان لا يعنى بترتيب هذه الأجزاء ، ترتيباً متجانساً متجاورا فى أماكنها الحقيقية ، بل ينقلها كما يشاء ، وكان لا يهمه أن يتركنا فى حيرة لا نفهم رسومه ، ولا نتركها على طبيعتها التى خلقت عليها . وإنك إذا تأملت صورته التى سماها « السيد كانويلر » لوجدت نفسك أمام لغز قد تفسر منه رسم قطعة من صدريته ، وجزءاً من سلسلة ساعته فى وسط الصورة ، وفوقها بعض ملامح العين والأنف والأذن . أما بقية جسم « السيد كانويلر » فمبعثرة ضمن أوراقه وملفاته وأدوات مكتبه ، وبضعة أشياء لا يمكن لغير راسمها أن يتعرف إليها .

وإلى القارئ صورة أخرى لبيكاسو هى « المصور ونموذجه » رسمها سنة ١٩٢٨ فنالت مكاناً معروفاً فى الأوساط الفنية (شكل ٥) . وقد صور بيكاسو نفسه فيها جالساً فى الجهة اليمنى من الصورة أمام حامل التصوير ، وفى إحدى يديه لوحة الألوان وفى الأخرى سكين الألوان . وهو مستغرق فى التصوير عن نموذج حىّ اتخذ وضعاً معيناً فى الجانب الأيسر من الحجرة ، وقد رسم منه على قماش اللوحة الظاهر فى وسط الصورة شكلاً جانبياً لوجهه ، وهناك خلف الوجه المذكور منضدة سطحها أحمر (فى الأصل) عليه تفاحة خضراء ، وقد علقت فوقها مرآة ذات إطار ، وتفاحتان موضوعتان على قاعدة النافذة ، صُوِّرت إحداهما بالقرب من رسم الوجه . ومما يلاحظ على هذه الصورة ، أن كل ما فيها مرسوم بالتكعيب وعلى أصول الرسم المعنوى abstract إلا شكل الوجه الجانبى المرسوم على قماش اللوحة فإنه مرسوم بالطريقة الطبيعية العادية . فإذا لاحظنا أن هذه الصورة مرسومة سنة ١٩٢٨ وقت أن كانت نفسية بيكاسو قد تناولتها عوامل جديدة نشأت عن بزوغ النزعات الأخرى التى تلت

التكعيب والتي كان له في تطوراتها شأن كبير ، زالت الدهشة من نفوسنا لهذا التغيير الذي عاد فزعزع طريقته التكعيبية . وقد أراد بيكاسو أن يصور رؤيته الموضوع ، فرسم حزمة من الأشعة تخرج من عينيه ثم تتقاطع على ذنب سكين الألوان ، وتعود فتنتشر بعده حتى تسقط على قماش اللوحة فتكشف عن رسم الوجه الجانبي .



شكل ٥ — «المصور وموضوعه» تصوير بيكاسو ١٩٢٨

وعلى هذا النحو تطورت النزعة الجديدة ، وهي التي كانت ترمي في البداية إلى التبسيط على نمط فنون الزنوج وأهل العصور الأولى ، وانتهت كما ترى إلى التجريد والتعقيد والغموض ! (همام)

برتراند رسل

(بقية المنشور على صفحة ٢٧)

ينبغي أن تخضع للعقل وأحكامه فيما يتصل بمن تكالفهم وتنافسهم . فاستلهم عاطفتك إن شئت في أصدقائك ومحبيك ، ولكني ألح في أن تحكم العقل ، والعقل وحده ، في أعدائك وكارهيك ، والعداوة قد تكون في الآراء كما تكون في الطبقات والأشخاص ؛ ابدأ منذ اليوم في أن تقف موقف الشك إزاء الآراء والأشخاص والطبقات والأمم التي لم تكن تصادف عندك القبول والرضى ، فلعلها صواب .

وأنا أدعوك إلى هذا عالماً بما أنت ملاقيه من عقبات وصعاب ، فالإنسان بطبعه ينزع إلى إكبار نفسه ، فلن تجد بين الناس من يرتاب في قدرته وفي عراقة أصله وفي ذكاء أبنائه إن كان له أبناء ، ثم لن تجد بين الناس من يرتاب في فضل مهنته وطبقته ، وفي سمو عشيرته وأمته ؛ بل أعم من هذا وأشمل ، أن الإنسان لا يشك لحظة في أنه أفضل من الحيوان بعقله ، وسرعان ما يحكم على بعض فظائع الانسان أنها « وحشية » مع أنها من أعمال الانسان ، ثم يزعم أن الكون كله لم يخلق إلا ليهيء للانسان سعادته ؛ فإن كان هذا رأي الانسان في نفسه ، فعسير جداً أن يظن بها الخطأ والضلال ، وأن يستمع للآخرين استماع العاقل العادل .

ولكن برتراند رسل لا ييأس من الإصلاح ، ويدعو إلى شيء هو سبيل الإصلاح ولا إصلاح بغيره ، وذلك أن يصطنع الناس في تفكيرهم شيئاً من الشك ليبلغوا اليقين .

زكي نجيب محمود

مشكلة الامتحانات فى مصر

للأستاذ إسماعيل القبانى

— ٢ —

[أبنا فى العدد الثالث عن أنواع الامتحانات وأغراضها وعيوبها . وها نحن نلخص فى هذا المقال الثانى بحث أساليب الامتحانات الحديثة فى مختلف البلاد الأجنبية ، وشيع هذا باقتراحات الأستاذ القبانى لمعالجة المشكلة فى مصر] المحرر

بعد أن فرغ المحاضر من إظهار عيوب الامتحانات انتقل إلى وصف بعض أنظمة الامتحانات الحديثة فى البلاد الأخرى ، ليبين أساليبها فى معالجة المشكلة ، وقد اختار من تلك الأنظمة ما يعالج نواحى كالتى نعانيها فى مصر . فبدأ بالامتحانات التى تعقدها سلطات التعليم المحلية فى انجلترا لتلاميذ المدارس الأولية عند سن الحادية عشرة ، لانتقاء من يمنحون المجانية بالمدارس الثانوية ، وقد اتجه الميل أخيراً لجعلها أساساً عاماً للقبول بهذه المدارس .

يعنى فى هذه الامتحانات باختبار الذكاء الطبيعى أكثر من العناية باختبار التحصيل . وتقتصر مواد الامتحان فى الغالب على اللغة الإنجليزية والحساب ، وذلك لأن وضع امتحان واحد لتلاميذ منطقة كاملة فى مواد كالتاريخ والجغرافيه ومبادئ العلوم ، من شأنه أن يؤدى إلى توحيد المناهج وجمودها ، ويسلب التعليم حيويته ، إذ يحد من حرية المعلمين فى التمشى مع ميول التلاميذ وظروف الحياة المحلية . ثم إن من السهل أن يتحول الامتحان فى مواد كالسابقة إلى السؤال عن أشياء يكفى فيها الاعتماد على الذاكرة ، ولذلك يفضلون عدم الامتحان فيها على التعرض لما فى هذا النوع من الأسئلة من أضرار تعليمية ؛ خصوصاً وأن اللغة والحساب هما نواة الدراسة الثانوية ، فلا يستطيع الطالب النجاح فيها إلا إذا كان قد بلغ فيهما مستوى معيناً من القوة ، أما سائر المواد الأخرى فكل نقص فى مقدرته فيها يسهل تعويضه .

وتضيف بعض سلطات التعليم إلى الامتحان ورقة عامة تشتمل على عدد كبير من الأسئلة المتنوعة التى يقصد منها قياس ذكاء الطالب ومقدار استفادته من خبرته العامة . وفى السنين الأخيرة أخذ كثير من السلطات يعطى بدل هذه الورقة اختباراً دقيقاً للذكاء تضعه هيئة إخصائية من علماء النفس . وفى هذه الحالة إما أن تضم درجاته إلى درجات اللغة الانجليزية والحساب ، أو تبقى منفصلة عنها للمقارنة ، خصوصاً فى حالة الطلبة القريبين من الحد الأدنى للقبول .

وتلاقى مسألة العمر اهتماماً كبيراً ، لأن عقل الطفل ينمو تبعاً لزيادة العمر ، فليس من المعقول أن نقارن مقدرة تلميذ فى الحادية عشرة وآخر فى الخامسة أو السادسة عشرة ، ونحكم على الأول بأنه أقل ذكاء من الثانى لمجرد أنه نقص عنه بضع درجات فى الامتحان ، بل الواجب مقارنة مقدرة جميع التلاميذ فى عمر واحد . وقد ثبتت أهمية مراعاة العمر من بحث أجراه المحاضر على تلاميذ السنة الرابعة الابتدائية فى سنة ١٩٣٢ ، إذ قاس ذكاء عدد من فصول هذه الفرقة بمدارس النيرة والأمير فاروق ومحمد على والجمعية الخيرية

الاسلامية ، ثم بحث من طبقات الذكاء لتلاميذ كل عمر من الأعمار . وعرض جدولا يبين نتيجة هذا البحث ، ومنه نرى أن التلاميذ الذين كانت أعمارهم دون الثالثة عشرة — وعددهم ١٦٠ — لم يكن منهم دون المتوسط فى الذكاء إلا ١٢ تلميذا ، أى ٧٫٥ ٪ ، والباقون جميعاً متوسطون أو فوق المتوسط فى الذكاء ، ومنهم ٥١ تلميذا ، أى نحو ٣٢ ٪ ، من طبقات الذكاء الممتازة . أما التلاميذ الذين كانت أعمارهم فوق ١٤ سنة ، وعددهم ٧٠ ، فلم يكن فيهم تلميذ واحد يفوق فى ذكائه المتوسط ، وليس فيهم إلا تسعة ، أى نحو ١٣ ٪ ، متوسطون فى الذكاء ، والباقون جميعاً دون المتوسط ، ومنهم ١٧ ، أى نحو ربعهم من أحط طبقات الغباوة .

وبعض هؤلاء الأغبياء ينجحون يوما ما فى امتحان شهادة الدراسة الابتدائية ، وقد يحصلون فيه ، بحكم سنهم وكثرة إعادتهم للدروس ، على درجات عالية ، فتفضلهم المدارس الثانوية فى القبول وفى منح المجانية ، على التلاميذ الأذكياء الذين حصلوا على درجات أقل فى الامتحان لصغر سنهم . فإذا علمنا أن التلميذ لا يرجى له نجاح فى التعليم الثانوى إذا كان ذكاؤه دون المتوسط ، ولا يرجى له نجاح فى الدراسة الجامعية إلا إذا كان ذكاؤه فوق المتوسط على الأقل ، أدركنا مبلغ العبث فى قبول أولئك التلاميذ الذين زادت أعمارهم على ١٤ سنة بالمدارس الثانوية ، وبالأولى فى منحهم المجانية فيها .

وتعالج مسألة العمر فى امتحانات القبول والمجانية الانجليزية التى نحن بصددها بتحديد سن الدخول فى هذه الامتحانات بين ١١ سنة و ١٢ سنة عادة ، ثم بتصحيح درجات الامتحان تبعاً للفروق البسيطة بين أعمار التلاميذ ، فيتخذ عمر ١١ سنة مثلا أساساً ، ويخصم من درجات كل تلميذ نسبة معينة فى نظير كل شهر يزيده عن ذلك .

وتتخذ لجان الامتحان احتياطات كثيرة لضبط الحكم على مقدرة التلاميذ الذين تقرب درجاتهم من الحد الأدنى للقبول زيادة أو نقصاً ، بأن ترجع إلى نتيجة اختبار الذكاء ونتيجة الامتحان الشفوى إذا كان قد أجرى عليهم ، وكثيراً ما ترجع إلى تقارير نظار مدارسهم عنهم .

والمتأمل فى نظام هذا الامتحان يرى كيف تحول نظم الامتحان فى انجلترا مرنة خاضعة للأغراض التعليمية ، بعكس الحاصل عندنا من إخضاع نظم التعليم ونشاط المدارس للامتحان .

ويتجلى حرص الانكليز على ألا تكون امتحاناتهم العامة من عوامل الجمود فى التعليم وخنق شخصية المدارس فيما يسمى « امتحان الشهادة المدرسية » (School Certificate Examination) ، وهو يقابل عندنا امتحان شهادة الدراسة الثانوية القسم العام . فلكى لا يفرض الامتحان على المدارس خطة واحدة ، ويلزم التلاميذ بدراسة مواد معينة بصرف النظر عن ميولهم ، يسمح للطالب بحرية واسعة فى اختيار المواد التى يمتحن فيها . فتقسم جميع المواد التى يمكن تدريسها بالمدارس الثانوية عادة إلى ٤ مجموعات ، تشتمل الأولى منها على الدين واللغة الإنكليزية والتاريخ ، وتشتمل الثانية على اللغات الأجنبية المختلفة ، والثالثة على الرياضة وفروع العلوم ، وقد تضم الجغرافية إليها باعتبارها علماً طبيعياً ، أو إلى المجموعة الأولى باعتبارها ثقافة اجتماعية . أما المجموعة الرابعة فتشمل الرسم والأشغال اليدوية والموسيقى والتدبير المنزلى .

والطالب حر فى اختيار المواد التى يتقدم فيها للامتحان بشرط ألا يقل عددها عن خمس ولا يزيد على ثمان . وكل ما يشترط لمنحه الشهادة أن ينجح فى خمس مواد مختلفة بشرط أن تكون منها مادة من كل من المجموعات الأولى والثانية والثالثة . أى أنه مطالب بأن يبرهن على بلوغه

مستوى معقولا فى مادة من مواد الثقافة الاجتماعية ، ولغة أجنبية ، والرياضة أو أحد فروع العلوم ، ثم فى مادتين أخريين يختارهما كما يشاء ، فله أن يختار اللغة اللاتينية والجغرافية ، أو يختار الموسيقى والأشغال اليدوية .

بعد ذلك انتقل المحاضر إلى وصف نظام امتحان إتمام الدراسة الثانوية ببروسيا فى عهد الجمهورية ، وهو نظام وضعه المرحوم الدكتور بكر (Becker) وزير معارف بروسيا فى ذلك الوقت ، وجعله جزءاً من خطة الإصلاح الشاملة التى أدخلها على التعليم الثانوى . وأساس هذا النظام اعتقاد المربين الألمان بأن الامتحان العام الذى يقوم به ممتحنون من خارج المدرسة ليست لهم دراية بشخصية الطالب لا يمكن أن يعطى حكماً صحيحاً عن الطلبة . وهذا الاعتقاد مبنى على نظرتهم إلى الثقافة ، فهى ليست معلومات وحقائق علمية ، بل هى نمو فى شخصية الطالب . فإذا قيل إن الغاية من التعليم الثانوى « الثقافة العامة » ، فليس معنى هذا أن يلم الطالب بجميع أنواع العلوم ، بل أن تنمى شخصيته من جميع نواحيها . فالثقافة العامة ، على حد قولهم ، لا تعنى « أن الطالب قد درس مادة أو مجموعة من المواد ترى هيئة عالية من هيئات المجتمع أنها ضرورية لتثقيفه ، بل تعنى أنه صار على اتصال حى عميق بما يلائم شخصيته من أدوات الثقافة ويساعد على تنميتها ، ويجعلها فى الوقت نفسه قابلة للاستمتاع بالانتاج الثقافى لغيرها » .

والامتحان العام لا يمكن أن يختبر الثقافة إذا فهمت على هذا الوجه . فالمدرس الذى يحتك بالتلميذ يوماً بعد يوم هو وحده الذى يستطيع أن يحكم إلى أى حد اقتصر الطالب على مجرد استيعاب المعلومات ، وإلى أى حد أمكنه أن يجمع إلى كسب المعلومات تنمية شخصيته وتوسيعها . ولذلك جعل امتحان إتمام الدراسة الثانوية امتحاناً محلياً يعقد فى كل مدرسة على حدة ، وتؤلف لجنته من ناظر المدرسة ومدرسى الفصل الذى تقدم منه الطلبة للامتحان برياسة مندوب يمثل الدولة ، وهو فى الغالب المفتش الذى يشرف على شئون المدرسة فى لجنة التعليم المحلية ، وفى بعض الأحيان ينتدب الناظر نفسه ليمثل الدولة ويرأس اللجنة .

ويقدم كل طالب يرغب فى دخول الامتحان إلى ناظر المدرسة طلباً يحتوى على تقرير واف عن المناهج التى درسها مع بيان المواد والموضوعات التى اتجهت عنايته الخاصة إليها أكثر من غيرها . وعليه أن يبين المواد التى يختارها للامتحان التحريرى حيثما يسمح نظام الامتحان بالاختيار ، كما أن من حقه أن يختار مادة للامتحان الشفوى يجب أن يبرهن فيها على كفايته الخاصة ؛ وله فوق ذلك أن يقدم بدل جزء من الامتحان التحريرى بحثاً شخصيا قام به فى خلال السنة ، بشرط أن يحصل على موافقة مدرسيه .

وتجتمع جمعية مدرسى الفصل قبل موعد الامتحان ، لتقدم تقريرا وافيا عن حالة كل طالب ، يشمل صفاته العقلية والخلقية ، وميوله ومواهبه ونواحى نشاطه الخاصة ؛ كما يشمل مبلغ اندماجه فى حياة المدرسة العامة ، وفى أية هيئة من هيئات الشباب الملحقة بها ، كالكشافة . وعلى أساس هذا التقرير يتقرر السماح للطالب بدخول الامتحان ، أو عدم السماح له .

كما أن هذه الجمعية تنظر قبيل موعد الامتحان فى عمل الطالب الدراسى خلال السنة النهائية ، وفى ضوء تقديرهم هذا والتقرير السابق يصدرون حكمهم العام عن جدارة الطالب . ولهذا الحكم أهمية كبيرة ، فقد يحدث أن يرسب الطالب فى الامتحان التحريرى أو الشفوى ، ولكنه يمنح الشهادة إذا كان رأى جمعية المدرسين عنه جيداً . أى أن الصفات الخلقية الممتازة ، وقوة الشخصية تعتبر معوضة لما قد يكون عليه الطالب من ضعف فى بعض نواحى التحصيل العلمى .

ومن هذا نرى أن النظام الألماني ، مع احتفاظه بالامتحان النهائي للدراسة الثانوية ، قد صيره أقرب ما يكون إلى الامتحان الشخصي الذي تراعى فيه ميول كل طالب ومميزاته الخاصة ، وجعل لتقدير المدرسين لكفاية الطالب وشخصيته وزناً كبيراً في نتيجة الامتحان ، مع الاحتفاظ بالقدر اللازم من الرقابة الخارجية عليه .

ويشبه هذا النظام ، من بعض الوجوه نظام امتحان إتمام الدراسة الثانوية الذي اقترحته لجنة تابعة لرابطة التعليم في بلجيكا ، وهي هيئة لها نفوذ عظيم في أوساط المعلمين ، وفي المقامات الرسمية ؛ وقد بحث هذا النظام في المؤتمر الذي عقد في بروكسل في الصيف الماضي لبحث « المشاكل العملية في المدارس الحديثة » . ويرمي هذا الامتحان إلى الكشف عن مقدار الفائدة العقلية التي كسبها الطالب ، لا من التعليم وحده ، بل من تجاريبه الشخصية في الحياة أيضاً . وهذه الفائدة لا تقاس بمقدار الحقائق التي يعرفها الطالب ، بل بمدى قدرته على استخدام هذه الحقائق في حل مسائل جديدة عليه . ولذلك كان الشرط الأساسي في تأليف أسئلة الامتحانات ألا تكون مادة السؤال مما سبق للطالب دراسته ، بل مادة جديدة يستطيع أن يطبق معلوماته عليها .

وقد طبقت اللجنة هذه المبادئ على مواد الامتحان المختلفة ، وأتى المحاضر بأمثلة تبين أسلوب الامتحان وأنواع الأسئلة في كل مادة ، ففي أدب اللغة مثلا ينبغي ألا توضع أسئلة عن الكتب التي درست في الفصل ، لأن هذا قد يشجع الطالب على سرد رأي مدرسه عن هذه الكتب ، وإنما توضع عن مطالعات الطالب الخاصة . فيكلف قبل الامتحان بتقديم قائمة بالكتب التي قرأها في غير حصص الدراسة ، وتوجه أسئلة الامتحان إلى معرفة حكمه الشخصي على هذه الكتب وأساليب مؤلفيها وذوقهم ، ويطالب بتعزيز أحكامه بنصوص يختارها ، وبالموازنة بين أحكامه وأحكام غيره في الموضوع الواحد .

وقد أشار المحاضر في ختام محاضرته إلى امتحانات النقل ، فقال إنه لم يجد بين الأمم ذات الأنظمة الحديثة أمة تحتم أن يكون نقل التلاميذ من فرقة لأخرى في المدرسة الواحدة على أساس امتحان رسمي ، بل المتبع أن يترك أمر النقل لناظر المدرسة ومدرسيها ، ينظمونه على حسب حاجات التلاميذ وما تقضي به مصلحتهم التعليمية . ودعا إلى الثقة بالمعلمين وإشعارهم بالمسئولية ، فإن هذا خليق بأن يثير اهتمامهم بعملهم ، ويزيد شعورهم بكرامة مهنتهم ، وأن يجعل نقل التلاميذ على أساس صحيح .

وفيما يلي ملخص الاقتراحات العملية التي استخلصها المحاضر من هذا البحث :

(١) أن يجعل النقل من فرقة إلى أخرى في جميع مدارس التعليم العام على أساس حكم جمعية مدرسي الفصل على مقدرة كل طالب ، ويمكن للمدرسين أن يراعوا في تقديرهم نتائج الاختبارات غير الرسمية التي يعطونها لفصولهم في خلال السنة .

(٢) أن يلغى امتحان إتمام الدراسة الابتدائية ، ويكتفى بشهادة غير رسمية تمنحها كل مدرسة ابتدائية لتلاميذها على أساس تقدير المدرسين لعملهم خلال المرحلة بأجمعها ، وبصفة خاصة خلال السنة النهائية . وينبغي أن تبين في هذه الشهادة نواحي قوة الطالب وملكاته الخاصة وصفاته الخلقية البارزة ، كي تكون معينة على توجيهه في مراحل الدراسة التالية .

(٣) أن تعقد امتحانات للقبول بالمدارس الثانوية ، يكون كل امتحان منها خاصاً بتلاميذ منطقة من مناطق القطر التعليمية ، ويراعى أن يكون الغرض من هذه

الامتحانات الكشف عن ذكاء الطلبة أكثر من قياس مقدار تحصيلهم ، وتكون فى اللغتين العربية والانكليزية والحساب ، ويحسن أن يضم إلى ذلك اختبار للذكاء .

وتجعل حدود السن للدخول فى هذه الامتحانات من الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة على الأكثر .

أما المدارس الفنية المتوسطة فتكفى للقبول بها الشهادة التي تمنحها المدارس الابتدائية الأميرية لتلاميذها ، مع مراعاة قوة التلميذ فى المواد العملية . ويجوز أن يعقد لتلاميذ المدارس الحرة الذين يتقدمون للالتحاق بها امتحان قبول خاص .

(٤) ما دام الغرض من امتحانات القبول السابقة اختبار الذكاء الطبيعى لا مقدار المعلومات ، فلا يصبح ثمة معنى لعقد امتحان ملحق فيها . وما دام النقل فى جميع فرق التعليم العام يبنى على أساس تقدير المدرسين لقوة الطلاب ، تمكن بذلك الاستغناء عن الامتحانات الملحقة من التعليم العام ، إلا فى الامتحان النهائى للدراسة الثانوية الذى سيرد الكلام عليه فى الفقرة الآتية .

(٥) أن يعقد امتحان عام فى نهاية مرحلة الثقافة العامة بالمدارس الثانوية ، يكون الغرض منه اختبار مقدار ما أفاده الطالب من تعليمه من مقدرة عقلية وثقافة صحيحة ، لا مقدار ما استذكره من ألفاظ وحقائق . ولذلك ينبغى أن تكون جميع أسئلته من النوع الذى يستلزم استخدام الطالب لمعلوماته وتطبيقها على حالات جديدة .

ويسمح للطلبة بشىء من الحرية فى اختيار المواد التى يمتحنون فيها ، كما يراعى فى كل مادة أن يكون هناك مجال واسع للاختيار من بين أسئلتها .

وتمنح للناجحين فى هذا الامتحان شهادة تسمى شهادة إتمام الدراسة الثانوية العامة .

(٦) ألا يقبل بالمرحلة التوجيهية كل ناجح فى الامتحان السابق ، بل يشترط فى القبول بها حصول الطالب على نسبة فى المجموع أعلى من النهاية الصغرى المقررة للنجاح . أما من لم يحصلوا على هذه النسبة من الناجحين فيوجهون إلى أنواع التعليم غير الجامعى ، أو إلى الأعمال الحرة ، أو إلى الوظائف الحكومية غير الفنية .

ويعقد فى نهاية المرحلة التوجيهية امتحان للقبول بالجامعة ، يراعى فيه مثل ما روعى فى امتحان القبول بالمدارس الثانوية من البحث عن استعدادات الطالب الطبيعية وملكاته الخاصة ، مع تقدير المستوى الثقافى الذى بلغه فى المواد التى اتجه إليها تخصصه .

(٧) أن يفصل فصلا تاما بين الامتحانات المدرسية فى التعليم العام وبين التوظف فى الحكومة ، فلا تكون شهادة إتمام الدراسة الثانوية فى حد ذاتها مؤهلة للتعيين فى وظيفة ما ، ولا يحدد لها مربوط معين ، وإنما تؤهل حاملها لدخول امتحان المسابقة للتعيين فى الوظائف الكتابية أو الإدارية .

(٨) أن يعنى فى جميع الامتحانات العامة عناية شديدة باختيار واضعى الأسئلة والمصححين ، ممن لهم حنكة ودراية بأساليب الامتحان الصحيحة ، ويعدل عن نظم التصحيح الآلية ، ويوضع بدلها نظام يكفل الدقة فى تقدير الدرجات مع صحة الحكم على قيمة الاجابة من حيث هى دليل على تفكير الطالب وهضمه للموضوع . ووضع هذا النظام يحتاج إلى بحث تفصيلى خاص .

(٩) أن تعدل وزارة المعارف عن جعل نتائج المدرسين والنظار فى الامتحانات العامة أساس الحكم على كفايتهم ، ويتبع هذا أن تعدل عن نشر الجداول التى تحتوى على المقارنة بين نتائج المدارس المختلفة فى الامتحانات العامة ، لأن هذا يثير منافسة غير مرغوب فيها فى تحقيق غرض جزئى ناقص من أغراض التعليم .

من أحسن ما يُروى

دراسة واختيار

للأستاذ أحمد الزين

البحترىُّ يصف (الكامل) وهو قصرٌ بناه المعتزُّ بالله الخليفةُ العباسىُّ المعروف :

قصدتُ فى اختيار هذه القطعة إلى ما فيها من فنٍّ لفظىٍّ رفيع ، لا تلمح فيه أثراً للتكلّف ولا للإسراف ، مع طلاوةٍ فى العبارة تكسوها رونقاً وبهجة ، ورقّةٍ فى النسج وسهولةٍ فى الأداء ؛ فالفن اللفظىّ فى هذه المقطوعة غالبٌ على فنّ التفكير ، وليس فيها معنى يلفت الذهنَ إليه بطرافته وغرابته ، وفيها غير ما ذكرتُ أنها تريك صورة من الفنّ العربىّ ، فى تشييد الأبنية الضخمة وما كان يُتّخذ فى حيطانها وسقوفها من زينة وزخرف ويُغرَسُ فيها من بساتين ويُختار لها من مواقع . وهى صورة إن لم تكن كاملةً فهى دقيقة فى بعض النواحى القليلة التى تعرّض الشاعر لوصفها ؛ قال :

لَمَّا كَمُلْتَ رَوِيَّةً وعَزِيمَةً
أَعْمَلْتَ رَأْيَكَ فى ٱبْتِنَاءِ ٱلْكَامِلِ
ذُعِرَ ٱلْحَمَامُ وقَدْ تَرَنَّمَ فَوْقَهُ
مِنْ مَنْظَرٍ خَطِرِ ٱلْمَزَلَّةِ هَائِلِ
رُفِعَتْ لِمُخْتَرِقِ ٱلرِّيَاحِ سُمُوكُهُ
وزَهَتْ عَجَائِبُ حُسْنِهِ ٱلْمُتَخَايِلِ (١)

(١) سموك البناء : أعاليه ، الواحد سمك بفتح السين وسكون الميم .

وكَأَنَّ حِيطَانَ ٱلزُّجَاجِ بِجَوِّهِ
لُجَجٌ يَمُجْنَ عَلَى جُنُوبِ سَوَاحِلِ
وكَأَنَّ تَفْوِيفَ ٱلرُّخَامِ إِذَا ٱلْتَقَى
تَأْلِيفُهُ بِٱلْمَنْظَرِ ٱلْمُتَقَابِلِ (١)
حُبُكُ ٱلْغَمَامِ رُصِفْنَ بَيْنَ مُنَمَّرٍ
ومُسَيَّرٍ ومُقَارِبٍ ومُشَاكِلِ (٢)
لَبِسَتْ مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلصَّقِيلِ سُقُوفُهُ
نُورًا يُضِيءُ عَلَى ٱلظَّلَامِ ٱلْحَافِلِ
فَتَرَى ٱلْعُيُونَ يَجُلْنَ فِى ذِى رَوْنَقٍ
مُتَلَهِّبِ ٱلْعَالِى أَنِيقِ ٱلشَّاكِلِ
وكَأَنَّمَا نُشِرَتْ عَلَى بُنْيَانِهِ
سِيَرَاءُ وَشْىِ ٱلْيُمْنَةِ ٱلْمُتَوَاصِلِ (٣)
أَعْنَتْهُ دِجْلَةُ إِذْ تَلَاحَقَ فَيْضُهَا
عَنْ صَوْبِ مُنْسَجِمِ ٱلرَّبَابِ ٱلْهَاطِلِ (٤)
وتَنَفَّسَتْ فِيهِ ٱلصَّبَا فَتَعَطَّفَتْ
أَشْجَارُهُ مِنْ حُيَّلٍ وحَوَامِلِ (٥)

(البقية على الصفحة التالية)

(١) تفويف الرخام : تخطيطه كما تفوّف الثياب ، أى تجعل فيها خطوط . ويشير بهذا البيت والذى بعده إلى حسن الذوق فى تأليف ألوان الرخام بعضها إلى بعض ومحاذاة المجالس فى ألوانه كل إلى ما يناسبه .

(٢) حُبُك الغمام : الخطوط والطرائق التى تُرى فيه ، الواحدة حبيكة . والمنمّر : ما فيه نقط تخالف لونه الواحدة نمرة بضم النون . والمسيّر ما فيه سيور .

(٣) سيراء وشى اليمنة ، يريد ثيابا فيها خطوط صفر كانت تنسج باليمن قديما .

(٤) الرباب : السحاب الأبيض .

(٥) الحيل جمع حائل ، وهى كل أنثى لم تحمل ؛ وأراد بالحيل والحوامل غير المثمر والمثمر من الشجر .

الشبيهان ... مصادفة

قصة قصيرة بقلم أدمون جالو

عضو المجمع الأدبي الفرنسي

تعريف بالقصة

(إدمون جالو من أشهر الكتاب فرنسا في الأدب ، والفلسفة ، والنقد . وقد عالج كتابة القصة . فكان فيها موفقا ، بقدر ما وفق حول تميز ، وتراه في هذه الأقصوصة يحاول تطبيق مبدأ فلسفي على الخليقة الإنسانية . لقد وجد شخصان في وطن واحد وفي عصر واحد ، يشبه أحدهما الآخر شبهاً تاما . فما سبب ذلك ؟ وماذا يترتب عليه ، وهل هو مصادفة ، أو نتيجة لقاعدة ثابتة ؟ وما مدى هذا التشابه ، من الناحية الفنية ؟ هذه هي الأسئلة التي تجيب عليها القصة ، إجابة مقنعة ... أو ... الأفضل أن نترك الحكم للقارئ ...)

حدث لي أنا أيضاً أمر خارق للعادة ، أبلغ في غرابته مما رويت لي . وأنا لا أحب كثرة التفكير فيه ، ولكن الخبر جدير بالرواية لكم ، لأنني فهمت أن الغاية من اجتماعنا أن يروي كل منا أغرب ما وقع له ، فقد جلب أحدنا ذلك الرجل الذي كان مجهولا منا جميعاً ، وكان اسمه على ما يظهر بيلو جري ، لا يعرف أحدٌ مصدرَه ولا مصدر رزقه . شخصية غامضة ، ولكنها تحمل سراً خارقاً .

كنا في أمسية من أمسيات نادي رامبيلا في (مرسم)(١) مضطرب قائم على أرض فضاء في الطرف الأخير من شارع فوجيرار . وكانت ليلة من ليالي الشتاء ذات ضباب وبرد قارس ، وكان البرد قد تساقط عصراً ، فما كان أشد ما لاقينا من العناء في الوصول إلى مكان الاجتماع ! ولم نكن ندري كيف نعود أدراجنا بعد نصف الليل ، إلى قلب باريس ، سيراً على الأقدام . لأن الحصول على سيارة مأجورة ، في هذه البقعة ، وفي الهزيع الأخير من الليل يكاد يكون محالا .

كان موسيو بيلو جري ربعةً بين الرجال ، تدل لهجته وهيأة رأسه على أنه من أهل الماضي السحيق ، ولعله كان من الغرباء ، وكانت له عوينة من الزجاج يشد بها أزرَ إحدى عينيه ، وكان أقم الوجه والقفا ، فشعره منتراكم مكتظ على جبهته اللاذي بالتجاعيد ، ثم ينتهي وجهه بلحية شمطاء ، ذات شقين طويلين . أما معطفه المبطن بالفراء ، فكان مقطوعاً ومخيطاً على نسق القصر عهده ، وعفّى الزمان على طرازه . ويخيل إليّ أنه لم يكن مقصوصاً على قصده .

(١) ترجمة لفظ studio, atelier

مَشْيَ الْعَذَارَى الْغِيدِ رُحْنَ عَشِيَّةً
مِنْ بَيْنِ حَالِيَةِ الْبَـدَنِ وَعَاطِلِ (١)
وَافَيْتَـهُ وَالْوَرْدَ فِي وَقْتٍ مَعًا
وَتَرَكْتَ رِيفَهُ مَعَ الرَّبِيعِ النَّازِلِ
مَلَّيْتَهُ وَعَمَرْتَ فِي بُحْبُوحَـةٍ
مِنْ دَارِ مُلْكِكَ أَلْفَ حَوْلٍ كَامِلِ (٢)

أحمد الزين

(١) العاطل : الخالية من الحلي والزينة ؛ وقد شبه الأشجار في تثنيها وانعطافها بالعذارى يتهادين في مشيهن .

(٢) مليته ، أي متعت به طويلا . وبحبوحة الدار : وسطها .

هل استعاره ، أم التقطه فى إحدى أسواق الثياب ؟ وقد وضعه مكوماً فى أحد أركان الديوان . رجع بلو جرى إلى ما انقطع من حديثه ، فقال معيداً ذكرياته :

« فى يوم احتفالى بالعام الأربعين من عمرى ، زارنى أحد أصدقائى واسمه فكتور مارتان ، وهو محام ... وكنا رفيقين منذ الطفولة ، وبيننا صلة قديمة ، تجعل كل تكليف بيننا مرفوعاً ، وكل اصطناع ممنوعاً ، وقد ألفتُ وصاحبى مارتان أن نجتمع خارج الدور ، فى المتنزهات والبساتين ، نقطع الأميال سيراً على الأقدام ، ونتريض فى وحدة الأحياء القديمة ، فى تلك المدينة الخالدة باريس ، وطالما جسنا خلال هذا الحى قبل أن تزاحم البانى فى نواحيه ، حتى إذا أدركتنا الظهيرة أو ظلام الليل ، تغدينا أو تعشينا فى المطاعم التى نمر بها غير عامدين . فى عيد ميلادى الذى جاوزت فيه حدود الأربعين ، عند ما زارنى مارتان ظننت للوهلة الأولى أنه جاء مهنئاً ومشاركا ، ولكنه لم يوشك أن يتخذ مقعدا فى مكتبى حتى قال : أتذكر مدام مورين ؟

فأجبته : لم أسمع باسمها إلا الساعة على لسانك !

فضحك صاحبى ، ونادى باسمى متوددا : جاستون ! إن بيننا من صفاء الحب ، وطول العشرة ما يسمح لى بالاطلاع على ما تخفيه عن غيرى ، فليس بين الأصدقاء من طراز نا سر يخفيه أحدهم عن أخيه ... فقلت له : « أعيد على سمعك مؤكدا أن هذا الاسم الذى نطقت به لا ينقل إلى ذهنى معنى ولا شخصاً ولا ذكرى .

فقال : وأنا أعيد القول عليك . إن هذا الحذر ، وذاك التكتم لا يجديان نفعا ، وإنهما فى غير موضعهما ، لأن بين يدى نحو أربعين مكتوباً غرامياً بخطك وتوقيعك ، موجهة جميعها إلى مدام مورين ، فلا أسألك بيانا ولا اعترافا ، ولا أحاول هتك ستر ، أو الوقوف على سر ، ولكنى أريد أن أقف منك على تاريخ المراسلة ، لأن المكاتيب خلو من ذكر الأيام والشهور والأعوام ، ولئن بدأ صاحبى مارتان يتطفل ، وكاد صبرى ينفد ؛ فقد بدأت أهتاج وأغضب ، وقلت له :

— إن كانت هذه ممازحة تفاجئنى بها ، فاعلم أنى وجدتها غليظة ، ولن أعيرك السمع بعدُ أمدا طويلا ، وإنى أقسم لك أنى ما عرفت أنثى بهذا الاسم قط ، ولا كتبت خطاباً بهذا العنوان .

فقال : إن هذه المكاتيب فى حوزتى ، ولك أن تراها عند ما تشاء .

فقلت له : ولكن لمَ تريد أن تنسب صدورها إلىّ دون سواى ؟

فقال : لأنها ممهورة بإمضاء جاستون ، والخط الذى كُتبتْ به خطك ، ولا يمكن أن يكون مرسلها سواك .

فوقفت عند حد الاحتجاج ، مندهشاً من هذا البيان ، وأخذت أبحث فى خزائن فكرى عمن تكون تلك التى كُتبتْ إليها هذه الرسائل ، ولعلها امرأة غيرت اسمها وبدلته مرات عدة ، فلقيتها وعرفتها وكاتبتها باسم آخر غير الذى ذكره فيكتور مارتان ، فإن لبعض هؤلاء النسوة قدرة فائقة على اتخاذ الأسماء والتخفى وراءها ...

وأخيرا صحبت مارتان إلى داره ، فأطلعنى على أضابير ضمت هذه الرسائل التى لم أرها من قبل ، ولم أخط منها حرفا واحدا ؛ ولكنها يا سادتى كانت كلها بلا ريب صادرة منى ، لأنها بخطى وأسلوبى وتفكيرى ، حتى العواطف وألوان الشعور ، ودقائق الاحساس كانت لى ، لا شك فى ذلك ؛ ولا يمكن أن أخطئ ، أو يخطئ أىّ عرفنى كما عرفنى فكتور . ولكن حدثاً من الحوادث المادية التى تشير إليها الرسائل لم يقع لى ، ولم ألابسه أثناء حياتى ، فقيها ذكر « فيلا » أقطنها زعماً فى سان كلو . وذكرُ مسكن السيدة ، مدام مورين ، حبيبتى المزعومة فى جزيرة « سان لوى » . وفى الحق أنى لم ألتق بامرأة تقطن تلك البقعة ، كما لم أسكن فيلا فى سان كلو ؛

لم أدهش وحسب ، بل شعرت بدبيب الرعب يسرى فى كيانى ، فلما لمح صديق الخابى أثر الذعر فى نفسى قال لى بلهجة التحدى والانتصار ، كمن يخاطب مذنبا :

— هيه ! ألا تزال مصراً على الانكار ؟

فقلت : إنكار ؟ إنى أتوق بكل قوتى نسبة هذه الرسائل إلى ، وإن كنت أعترف باضطرابى وارتباكى وأشهدك على حيرتى التى لا حد لها . ولو أنى جننت أو أصابنى مس وقضيت فترة من حياتى فى ملجأ أو مصلحة ، أو مستشفى للأمراض العقلية ، إذن لظننت أنى كتبتها فى ساعة من ساعات الذهول أو الاستغراق فى الغيبوبة ، ولكننى لم أصب بهذا الداء الوبيل وفوق ذلك فأنا ملتق فى كل يوم ولم يحجبنى عنك حاجب ، فلما تراك لا أدرك شيئاً من سر هذه الرسائل

فصاح فكتور ماركان : «يا للحيرة ! إذن لقد فسدت الخطة وتعطلت الوسيلة ! » ثم روى لى أن طبيباً من عملائه زاره منذ بضعة أيام وعرض عليه رغبته فى الطلاق من زوجته وكانت ولدت له ثلاثة أولاد ، وما شك قط فى أمانتها وعفتها ولا ارتاب فى صحة نسب أولاده منها ، فرضت الأم يوماً ، واضطر الزوج لفتح أحد أدراج صندوقها الذى تحرص على صيانة مفاتيحه ، معقبة حرصها بسوء ظنها بالخدم . فلما فتح الدرج ولمست أنامله ، على الرغم منه ، زراً من العاج ، انفتح درج سرى وبرزت منه أوراق كانت مخبأة ، فسحبها واحدة إثر أخرى ، فإذا بها مجموعة من الرسائل الغرامية ، فانتزعها من مخبئها وحملها بين يديه وأخذ يقرؤها على انفراد متمهلاً متأملاً . فظهر له أن امرأته كانت عشيقة رجال ثلاثة ، لأنه وجد ثلاث مجموعات من خطابات الهوى ، وإن هذه الرسائل ترجع إلى فترة من الزمان تضارع مولد ولديه الأخيرين ، ولطالما أدهشه التنافر بينهما وبينه ، فى الشبه والتكوين ، كما أدهشه التباين فيما بينهما ، فلا أحدهما يشبه أباه ولا أخاه . وقد أدرك ذلك قبل اكتشاف خيانة زوجته بزمن طويل . أما الآن فقد صار الشك يقيناً ، والظن أمراً واقعاً .

ولما كانت الرسائل المنسوبة إليك لا تحمل تاريخ كتابتها ، فقد أصبح من المحتم أن يقف الزوج المنكوب على الحقيقة ، ليتجلى له وجه الصدق فى صحة نسب الولد الأول ، فإذا لم تكن أنت كاتب هذه الرسائل فعليك أن تتفق معى على أن لك شريكاً فى الاسم والخلق والخط والتفكير والتعبير ، وأن هذا الشريك الشبيه بك يضرب فى أنحاء الأرض ، دون أن يشعر بوجودك .

فقلت له : هذا محال !

فقال : إذن هناك مزور حاذق ، يقلد خطك ويترسم خطاك وينتحل شخصيتك ويعيش بمأمن من الكشف ، وقد قضى لبانته من معشوقة نقله إليك .

فقلت له : وهذه الصورة من التفكير خاطئة ، لأننى لست رجلا ذا شهرة عامة فى السياسة أو فى عالم المال ، حتى يتعرف على المزورون والدجالون ، فينتفعوا بصيتى واسمى . بل أنا رجل خامل الذكر ، لا يعرفنى إلا خاصة أصدقائى ، وقد فطرت على أشد الحذر من خدمى ، فلا أسمح لواحد منهم أن ينال من خصوصياتى كثيراً ولا قليلا

فقال فكتور : لعلك كتبت تلك الرسائل إلى امرأة فسرقها رجل أو تسلمها حبيب سواك ، فاتخذ طريقتك وأسلوبك .

فقلت له : وهذا مستحيل أيضاً ، ولنفترض أنه مستطاع ، وأنه نفذ فعلا ، فما الذى يدعو رجلا يخطب ود امرأة إلى الاستخفاء ؟

فقال ماركان : من الجائز أن رجلا متزوجاً لا يحب افتضاح أمره ، فهو يقلد خط رجل آخر ، ويعمد إلى أسلوب غير أسلوبه . ليضلل القارئ ما عدا معشوقته . والسبب لمثل هذه الحيلة ظاهر ، فهو يخشى أن يفتر ما بينه وبين حليلته ، فتنتقم منه يوماً من الأيام بأن تبعث بمكاتيبه إلى حليلته ، فتخرب داره ، وتنهك حرمة ونسله ، وتقطع

ما بينه وبين هدوء الحياة إلى الأبد .

فقلت لصديقي المحامي : ولم لم تسألوا مدام موربين نفسها وهي أدرى بمن كان يبث إليها غرامه في مكاتيب مطولة . وتعترف لي بأن المرأة أبت أن تبوح باسم هذا العاشق المستتر ، إما نكاية في زوجها ، وإما إشفاقاً على محبوبها ، أما الآخران فقد عرفا ، وتكفلت الأم بحضانة الولدين الربيبين ، فلابد إذن أن يعرف الثالث ، ليطمئن الوالد المنكوب إلى صحة أبوته .

أما أنا فلم أحفل كثيراً بهذا الحادث لأني كنت بعيداً عن ملابساته كل البعد ، ولم يحضرني من مغامرات هذه الأسرة المنكودة كثير ولا قليل . غير أني لم أتمالك نفسي من الاشتغال بأمر هذه المصادفة الغريبة . فقد تولاني اضطراب أليم وشعرت بأن شخصية تشبه شخصيتي تتعقبني وتتحداني وتعرف عني كل شيء ، ولا أعرف عنها شيئاً . إن ظلا من الرعب يكتنفني ، وجواً من الغموض يحيط بي ، دون أن أقدر على الحذر من عواقب هذا الاقتفاء الملح ، وقد زادني لوعة أن لقيني بعد ذلك بخمس سنين صديق قديم قضى فسحة الأعياد على شاطئ الذهب ثم عاد إلى باريس فلما لقيني عاتبني قائلا :

— يالك من معجب بنفسه ، تتيه على أصدقائه عند ما تكون في مدينة نيس ، فقد رأيتك في متنزه الانجليز[1] فتجاهلتني ، وتظاهرت بعدم رؤيتي ، وأعرضت عني ، ولا عجب فقد كنت غارقاً في وسائد تلك المركبة الفخمة ، التي تجرها جياد مطهمة !

فقلت له : لم أذهب إلى نيس منذ ثلاثة أعوام

فقال : إذا شئت أن تتخفى عن الأنظار فلك ما شئت من حرية ، أما أنا فأؤكد لك أني كنت على خطوتين من شخصك المحترم ، ولوحت بيدي محيياً ، فلويت عنقك ، وأعرضت عني موليا وجهك شطر ناحية أخرى ، كما رأيتك تفعل ذلك مرات سابقة .

ولم يفد إنكاري في تحويله عن عقيدته قيد شعرة ، فازداد دهشي ، وبدأتُ أسائل نفسي : ألا يصح أن أكون موهوباً نعمة « التجسد » ، بحيث أكون في مكانين مختلفين في وقت واحد ؟ ففي أحد الجسدين روحي وعقلي وقلبي وفؤادي ، وفي الآخر تيار يخلع عليه مثالا من وجودي النفساني ، ففي الجسد الأول « أنا » ، وفي الثاني شبه لي .

بعد قليل علمت أن شبيهي يقطن نيس ، لأن أشخاصاً عدة ذكروا لي ما ذكره صاحبي ، الذي ظنني أنبسط معه في باريس ، وأحسن لقاءه ، حتى إذا اجتمعنا بنيس باعدته ، وتهت عليه وأنكرته كبراً وازدراء .

وقد حدث بعد ذلك أني قضيتُ شطراً من الحياة على شاطئ البحر الأبيض ، ذلك الشاطئُ الذهبي ، ففي إحدى الولائم التي أجبتها قدمت إليّ بعض السيدات من الدعوات ، كما تقضي مراسم الحفلات في الأوساط الاجتماعية ، فنظرت إحداهن إلى وجهي ذاهلة ، وكادت حدقتاها تجحظان من شدة الهلع وفرط الذعر ، وقالت :

— ما رأيت في حياتي شيئا كهذا الذي أرى ! إنك يا سيدي تشبه أحد أصدقائي شبها مزعجا

وقبضت السيدة على يدي كأنها تستبقيني في حوزتها لحاجة في نفسها ، فجرى تيار بارد في أسفل عنقي ، وتنبهت ذاكرتي إلى ذلك اللغز المضني المحفوف بالغموض ، فقلت لها : وهل زال ما بينكما من الصداقة ؟ أي بينك وبين ذلك الصديق الذي يشبهني .

فأجابت : كلا ! ولكن العلاقة في حكم الزوال .

قلت : هل قضى نحبه ؟

قالت : هو أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء ، فإنه يعاني داءً خفياً منذ بضع سنين حتى لزم فراشه ولا يغادره .

وأخذت تطيل النظر في وجهي حتى كدت أخجل من تلاقي أبصارنا ، ثم قالت : إنك أشبه الناس به ولا سيما

(١) نزهة مشهورة .

منذ خمس سنين ، قبيل أن يقعده المرض ، ولا أرى بينكما فرقاً مطلقاً

وبعد العشاء خلوت بها وقلت لها : ألديك رسائل من قلم هذا الذي يشبهني شبهاً مدهشاً ؟ وهل تعرفين خطه إذا رأيته ؟ فقالت إن لدىّ مكاتيب عدة بخط يده . . .

فطلبت إلى المضيف « أدوات الكتابة » وكتبت سطرين أمام تلك السيدة ، فما إن وقع بصرها عليهما حتى صرخت صرخة الفزع والدهش وقالت : إن خطيكما صادران عن يد واحدة ، ولا شك أنه قرينك ... فسألتها عن اسمه فقالت : جاستون ... جاستون جان . فسألتها وهي التي رفعت لي القناع عن شبيهي أن تستأذنه في زيارتي فاعتذرت باشتداد وطأة الداء عليه ، فلما شرحت لها دواعي الرغبة ، وألححت راجياً ، وعدتني بالكتابة إليه ليحدد موعداً ، فبعث إلىّ بخادمه يعتذر لبضعة أيام ، ويؤكد أنه يريد أن يراني ، لأنه علم من أناس أن له شبيهاً في باريس لا يختلف عنه في شيء مطلقاً . وعند ما تحسنت حاله واستطاع استقبال سارعت إلى داره . ولا يمكنني أن أصف الانفعال الذي نال مني عند ما وقع بصري عليه في غرفته . . . بل غرفتي ، فقد كان المكان مهيئاً على نسق غرفتي ، من حيث الوضع والترتيب ولون الجدران وأنواع التصاوير المعلقة على الحوائط ، وعدد السجاد واتجاه النوافذ ومساقط الضوء وألوان المقاعد ، حتى كأنّ المحلين صنوان لا يفترقان ، غير أن صاحب الغرفة كان يختلف عني قليلاً لأن المرض الذي أقعده ، أهزله وأنحله وأحال لونه ، وهو يكبرني ببضعة أعوام وألقوه في سلم الحياة على الأثر ، فلا بد أن يحل بي ما حل به عند ما توافيني الأيام التي وافته . قال : لقد أشابني الداء وغيّر لوني وذهب ببهجة حياتي . ثم انفجر ينبوع دموعه وقال :

— ها أنا أرى فيك نفسي عند ما كنت مستمتعاً بالصحة وتمام العافية ، فاحرص يا صاحبي على أيامك ، وتذوق أثناءها طعم السعادة واشرب كأسها مترعة ، قبل أن يدركك الذي أدركني . ثم قربني ودعاني إلى الجلوس بجانبه ، وتناول كفي ورفعها إلى بصره متأملاً ثم أخذ ينقل عينيه من كفي إلى كفه وقال :

— أتؤمن بعلم الكف ؟ إن خطوط كفينا واحدة ، لا خطأ ولا شك ولا خلاف ولا مغايرة ، ماذا تقول ؟ أليس هذا عجيباً ؟ ها هي الجبال والهضاب والجزر والمثلثات . يا للعجب ! يا للعجب !

والحق أقول يا سادة أن هذا التفصيل لم يكن ليهدئ روعي ، بل زادني قلقاً وضاعف مخاوفي ، فلم أر أمامي صورة طبق الأصل من صورتي وحسب ، بل رأيت صفحة حظي مبسوطة بين يدي أقرأ في أسطرها مستقبلي ، وقد كان بيني وبينه عشر سنوات ، فلمَ لم نولد في يوم واحد وساعة واحدة ؟ لقد حيرني هذا التشابه مع أن الفرق بيني وبينه في العمر عقد من السنين . وأخذنا نتبادل الذكريات ويتحرق أحدنا للوقوف على حياة الآخر ما خفي منها وما ظهر . وفي لحظة اكفهر وجه صاحبي واغبرّ لونه ، وامتلأت عيناه بالرعب والفزع ، وضاق صدره وأسرع تنفسه وقال لي : سارع يا سيدي بالانصراف ، فإن الذي ألاقيه من المرض لا يرحم ، ولا يطيقه أحبابي ، ولا يحتمله غيري أنا عند ما أكون منفرداً ... ثم استنجد خادمه الذي كان يواسيه ويمرضه .

كان يختنق لأن احتباس البول عنده مصحوب بضيق النفس ، فلا بد من الحجامة أو كؤوس الهواء ، لتخفيف وطأة المرض . وكاد الطبيب يفقد الأمل منه ، لولا تجئ معجزة الشفاء النادرة .

واجتمعنا بعد أيام ، وتحادثنا طول اليوم ، فلم أكن تخاطباً شخصاً آخر ، بل خيّل إلىّ أنني أناجي نفسي بصوتين مختلفين . أما العواطف فتتحدة ، والأفكار

لا تخرج عن دائرة بعينها ؛ وكان يزيدني دهشة واعتقاداً بوحدة الشخصية أن التصاوير المعلقة على الجدران وترتيب الأثاث وتنسيقه ، ولون الورق المسجفة به الحوائط ، كانت كالتي في غرفتي في باريس . شخص واحد له صورتان ، وقد حكى لي أو حكيت لنفسي تاريخ حياته أو تاريخ حياتي ، فقد تشابهنا في اليتم من ناحية الأب منذ نعومة أظفارنا ، واشتركنا في التنشئة على يد أم قوية العاطفة ، شديدة الانفعال ، مؤمنة بالطيرة ، متعلقة بالأساطير ؛ فترعرعنا عبّابين الحياة متعلقين بها . أما حياة الدراسة فكانت قاسية ومليئة بالأحزان ، ولما بلغ الخامسة والعشرين تعرف إلى مدام مورتين ، تلك التي كتب إليها الرسائل التي كانت علة الحيرة لدى صديق المحامي وعميله الطبيب المرتاب في بنوة أولاده ، وحيرتي أنا ، وقد قاسى في حب زوجة الطبيب مثل ما قاسيت في حب امرأة أخرى اسمها هورتنس ، ولا فارق بيننا إلا في مدى العمر ، فقد سبقني بعشرة أعوام ، وعشقت بعده بعشرة أعوام . أما المرأتان فكانتا على صورة واحدة وهزّت كلينا منهما دواعٍ لهوى غير متعددة ، وسطت على قلبينا لواعج متحدة ، وكان عشقنا في مكان واحد هو ذلك الشاطئ الذهبي الذي يجمع شمل الدراري المنضدة « كان

— نيس » وما إليهما من عرائس المدائن .

ولما أقبل المساء بحرارته وجماله وسحره قال لي : ها هي حياتي طرحتها بين يديك .

فقلت : وحياتي أنا أيضاً .

قال : لعلنا لو التقينا قبل اليوم لما تحمل أحدنا الآخر .

قلت : بلى إن الانسان ليتحمل نفسه راضياً . فقال : إن الرضى قد يعقبه اليأس ، والحمد لله على أنني ذاهب إلى غير عودة وقد أصبحت أيامي معدودة ، سأترك لك الميدان فسيحاً متسعاً فلا تشعر بتزاحم .

فقلت له : إننا يكمل بعضنا بعضاً ، يتمم أحدنا الآخر ، فلا غنى لواحد منا عن أخيه .

قال : كلا ! بل يكاد يقلد أحدنا الآخر ، ولا يعثر كل منا على نهاية محدودة لشخصيته ، ولا يعلم بما يفاجئه صاحبه ؛ لقد كان في اجتماعنا نوع من المعجزة ، ولكن حديثنا كان مفرغاً في قوالب منطقية ، ولو لم يكن الداء الذي أصابني قد أنهك قواي لبحثت عن علة القوانين الخفية في الطبيعة التي جعلتنا على هذه الصورة المدهشة والتي وقفت بيننا فوق كل ما ينتظر . ولكني واثق من العجز عن كشفها . وها أنا أرى أغلاطك وأخطاءك واضحة . ولكني سبقتك إليها بعشر سنين ، فكيف لم

أقف على سرها عند ما وقعت فيها ولم تنجل لعقلى حقيقتها حتى رأيتك تقارفهـا ؟ — لقد كنت حيناً سعيداً وحيناً شقياً ، والآن أرى فيما رويت لى من تاريخ حياتك ما لا يحدث السعادة ولا الشقاء . وكل ما اعترفت لى به يقضى علىّ قضاءً مبرماً . بعد سماع حديثك أشعر كأنى أستعرض كتاب حياتى صفحة فصفحة ، كنت أظن نفسى كائناً ممتازاً ، غنياً بعواطفى ، مركب التفكير غزير الخيال ، قادراً على خلق جو الهناء ، عميق البحث فيما لا يخطر على بال غيرى من الناس . أما الآن فما أنا فى نظر نفسى إلا شخص عادى ، بل مخلوق مبتذل ، مصنوع فى معمل الحياة ، كتلك اللعب التى تصنع بالألوف من الصفيح الملون والأسلاك المتحركة !

وإن كلينا عاش وتألم ، وسعد وشقى ، وحس بكل الأحاسيس والمشاعر ، وتذوق ألوان الحياة ، كما يحس ويسعد ويتألم بقية الناس ، وإن التى اكتشفنا وأوهمنا بانفرادنا لم يكن إلا الغرور الخادع ، فماذا تحوى فى الحياة بعد أن أريتك شطراً من أسرارها .

فقلت لجاستون جان : بينى وبينك عشر سنين سأقضيها فى نيس هنا حيث تقيم . وسأحذر أسباب الغرور ، وأتقى مواطن التردى فى مهاوى الغفلة والألم ، وتكون حياتى مزيجاً من السخط والغيظ وخيبة الأمل ، وتحطم الكبرياء على صخور الحياة القاسية ، وسوف أبقى هكذا إلى أن تظهر علىّ بوادر الداء الذى أرهقك .

فقال لى : هذا خير ما ترتقب ، يسوؤنى أن أصارحك بأنى لا أحبك ، بل أشعر بأنى أحب نفسى أكثر منك ، ولكنى سأعترف لك بما يدلنى إليك ، إنى أخاف أن أموت وحيداً ، وليس لى قريب ولا صديق ، فهل تؤنس وحشتى لدى صعود روحى إلى بارئها ؟ فوعدته بذلك ولم يطل انتظارى للوفاء بوعدى ، فإنه لم يمض أسبوع حتى زارنى خادمه ودعانى مسرعاً وأنبأنى بأن سيده يعالج سكرات الموت ، فلما أدركته كان الطبيب يسعفه بدون جدوى ، ولم يكن موقفى سوى موقف المتفرج على تلك المأساة التى ما زال الإنسان يراها حتى يصير هو ممثلها بنفسه . فرفع بصره إلى التصاوير الجميلة وابتسم ابتسامة غامضة ، ولم يلبث أن لفظ آخر أنفاسه . فشيعت جنازته أنا وخادمه ووراءنا خلق كثير ، فكانوا ينظرون إلىّ فى فزع . وكنت أشعر بأنى أشيع جنازة نفسى ، وفى هذا منتهى العجب ! فلم أحزن عليه ، ولم أبتئس ، لأنى شعرت أنه لم يمت ما دمت أنا على قيد الحياة ، وأقف فى نيس ولم أمر يوماً بالبيت الذى أقام فيه . هل فى الدنيا رجل طبعت العناية منه نسختين أو ثلاثاً كما كانت حالنا ؟

هل كان تشابهنا مصادفة نادرة لا تتكرر ، أم أننا ثمرة لشجرة ثابتة ، وتطبيق لقانون لا يتغير ؟

قال بلوجرى هذه الكلمات الأخيرة ، ثم نهض وندّر عطفه الضخم وحيانا تحية هادئة ، وخرج فى صحبة صديقه الذى دعاه إلى اجتماعنا ، فتتبعناه بأنظارنا يغيب ويختفى فى ظلام الليل خائضاً غمار الجليد فى تلك الأرض الفضاء المحيطة بمرسمنا .

محمد لطفى جمعة

صاحب امتياز المجلة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

رئيس التحرير المسؤول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢

العدد السادس — « الثلاثاء ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — ٧ فبراير سنة ١٩٣٩ » — السنة الأولى

الفهرس

العـــبرة بالخواتيم

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتبتم فى عددكم الأول مقالاً عن صراع الدكتاتورية والديمقراطية قلتم فيه إن الدكتاتورية « أحرزت فى مؤتمر ميونيخ ظفراً عظيماً لم تكن تحلم به ، وأصيبت الديمقراطية بهزيمة شنيعة بل بكارثة حقة سيكون لها أبعد الآثار . وفى سير الحوادث ما يدل حقيقة على أن يوم ميونيخ كان يوما عصيباً على الديموقراطية ، وكان يوما حاسماً فى سير ذلك الصراع الهائل الذى يضطرم بينها وبين الدكتاتورية ... »

وفى زميلتكم الرسالة كتب الدكتور يوسف هيكل يقول إنه « فى ميونيخ هزمت الديمقراطية آلم انهزام ، وانتصرت الدكتاتورية أعظم انتصار . فخسرت فرنسا وبريطانيا نفوذهما السياسى ، وتضعضع مركزهما الدولى ، وانتقلت السيادة الأوربية فى هذه الأيام على الأقل من يدهما إلى يدى الهر هتلر والسنيور موسولينى ... »

* * *

فى الأخطاء ما يهتمنا به وهذا الخطأ منها .

لأنه خطأ شائع على أفواه كثير من المتحدثين وعلى أقلام كثير من الكتاب ، يتساوى فيـــه الشرقيون والغربيون وأبناء الأمم الديمقراطية وأبناء الأمم الدكتاتورية ، فإذا شاء الإنسان أن يخطئ خطأ كثير المؤيدين والموافقين فليكن مثل هذا الخطأ المأمون ، ولو إلى بضع سنين !

ولكن هل من الحق أن مسألة « السوديت » كانت مسألة صراع بين الدكتاتورية والديمقراطية ؟

هل كان مذهب الحكم محور النزاع بين هتلر وتشمبرلين أو بين هتلر ودلادييه ؟

كلا ولا ريب .

إنما كان محور الخلاف الاستيلاء على أرض السوديت المجاورة لبلاد الألمان . فلو كانت فرنسا موضع ألمانيا لنجحت مثل هذا النجاح ، ولو كانت ألمانيا موضع فرنسا لفشلت مثل هذا الفشل . فالمسألة هنا مسألة الموقع لا مسألة المذهب الذي يجري عليه الحكم في بلاد هؤلاء أو هؤلاء . وتوكيداً لهذا الرأي نقول : لم لم تهجم ألمانيا على البلجيك أو هولندة ، ولا نقول على الألزاس واللورين ، في سبيل المطالبة بالمستعمرات ؟؟

إذا كانت المسألة مسألة الموازنة بين قوة الحكومات المطلقة وقوة الحكومات الديمقراطية ، فهذا هو سبيل الترجيح بين القوتين .

لماذا لم تهجم ألمانيا غربا للمطالبة بمستعمراتها الضائعة التي استولت عليها الأمم الغربية ولا تزال تستولي عليها ؟؟

إذا كان الدكتاتوريون أقوى من الديمقراطيين فلماذا لا يأخذون مستعمراتهم عنوة بتهديد من هذا القبيل ؟؟

إنهم لايحجمون زهداً ولا توقيراً للمعاهدات ، وإنهم ليحتاجون أشد الحاجة إلى المستعمرات التي في أيدي الدول الديمقراطية الكبرى أو الصغرى .

فاذا أحجموا فانما يحجمون لسبب واحد لايتأتى أن يخترع العقل الانساني سبباً غيره في النهاية ، وذلك أنهم أضعف من الديمقراطيين ، وأنهم يخشون النزاع الذي يستحق عند بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة أن تخوض من أجله الحرب وتنقض من أجله السلام .

فليس مقياس القوة لقمة من الخبز يحتاج إليها الرجل الفقير فيتركها الرجل الغني لأنه آمن على مائدته في بيته ، بل مقياس القوة أن يهجم ذلك الفقير على خزانة ذلك الغني ثم ينظر ماذا هو فاعل وماذا هم فاعلون به ؟!

أما إذا اختطف اللقمة التي لا حاجة بالغنيّ إليها فليس من الحق أن نسمي ذلك انتصاراً للفقر على الغنى وللجوع على الشبع وللحاجة على الاستغناء .

هذه « قبرص » مثلا ، فلتتفضل دولة من الدول المطلقة أن تسوق إليها بارجة واحدة مساق التهديد والانذار إن كانت القوة في جانبها كما يعتقد بعض الكاتبين .

وهذه تونس ، وهذه كورسيكا ، وهذه بقاع الأرض في كل مكان ، فلماذا يعف عنها الدكتاتورون ويجتنبونها في المطالب الرسمية والوسائل الارهابية إن كانوا قادرين ؟!

كلا . بل هم لا يقدرون ، ولن يجازفوا بالحرب من أجل سبب من هذه الأسباب إلا أن يكون ذلك بأس المستميت ساعة أن تحين الساعة الحاسمة ، ويوم أن يحيق اليوم الأخير .

* * *

وهل حق ما قاله الدكتور يوسف هيكل حين قال إن فرنسا وبريطانيا خسرتا نفوذهما بعد مؤتمر ميونيخ ؟ وإن مركزهما الدولي تضعضع ، وإن السيادة الأوربية انتقلت من أيديهما إلى أيدي هتلر وموسوليني في هذه الأيام ؟ ؟

الحق فيما نقرره وتقرره الحوادث معنا على نقيض ذلك :

الحق أن الولايات المتحدة دخلت في الميدان بعد مؤتمر ميونيخ إلى جانب الانجليز والفرنسيين ، وتلك قوة يحسب لها الحساب الأول في ميزان السياسة العالمية .

والحق أن بولونيا انحرفت عن الألمان إلى جانب الروس والفرنسيين .

والحق أن رومانيا تخلصت بعد ميونيخ من «كودريانو» وأصحابه ، وهم حزب هتلر فى الأمة الرومانية .

والحق أن حكومة دلاديه انتصرت على خصومها من الأحزاب الفرنسية بعد ذلك المؤتمر ، وأنها ظفرت من أملاكها فى البحر الأبيض المتوسط بولاء لم تكن تطمع فيه قبل ذلك .

والحق أن أمم الشمال تتوجس اليوم من كل نجاح يناله الدكتاتوريون ، ولا تتمنى لهم إلا الخيبة والاخفاق .

هذا هو الحق من نتائج المؤتمر المزعوم ، وسترى بعد اليوم من نتائجه أنه كان الناقوس الذى سينعى الدكتاتورية إلى العالمين ، إن كان ينعى شيئاً من الأشياء .

* * *

وأكاد أقول إن حرباً من الحروب فى الدنيا قديمها وحديثها ، لم تنشب بين أمة مقيدة وأمة حرة ، إلا كان النصر فيها للأحرار على المقيدين .

ولا يجزئنا فى هذا أن نعود إلى الحرب العظمى ونرى كيف كانت الهزيمة للحكومات الدكتاتورية من الجانبين ، حتى جانب الحلفاء المنتصرين .

ولا يجزئنا فى هذا أن نعود إلى حرب نابليون والانجليز وهو أكبر القواد ومعه حلفاء كثيرون من ملوك الأوربيين .

بل نعود إلى اليونان وهم يهزمون الفرس ، وإلى العرب وهم يهزمون الرومان ، وإلى الرومان وهم يهزمون القارة الحديثة ، وإلى الانجليز وهم يهزمون الاسبان .

بل نعود إلى تيمورلنك وهو يحارب بأناس متطوعين راغبين فى القتال ، أناساً فقدوا الحرية وسيقوا راغمين إلى الدفاع أو الهجوم .

فالعالم كله لا يعرض لنا فى تاريخه انتصاراً واحداً إلا كان فى حقيقتـه انتصاراً لنوع من الديمقراطية على نوع من الدكتاتورية ، ولعل عبرة العبر فى هذا الباب أن هتلر وموسولينى لم يجسرا حتى اليوم على إلغاء مجلس النواب ولا قوانين الانتخاب ، لأنهما يعلمان أن الدكتاتورية بغير شفاعة من الديمقراطية لن تعيش فى هذا الزمان ولو إلى حين .

* * *

إن المقياس الصحيح لمذهب من مذاهب الحكم هو سلامة العالم على يديه أو سلامة الأمة التى تختص به فى وجه العالم .

فأى هذين الأمرين يحكم للدكتاتورية بالفلاح فيما نراه من الحاضر أو نتوقعه من المستقبل القريب ؟

أما سلامة العالم فحسبنا من مصائب الدكتاتورية أنها استنزفت ثروة الشعوب كلها وجهود العاملين كلهم فى التسليح والتجنيد . فهذه الملايين — بل ملايين الملايين — التى ينفقها الآدميون كل عام على النار والحديد أثر من آثار الدكتاتورية لا يغتبط به إنسان .

وأما سلامة الأمم فلا نخال أحداً يزعم أن الأمن على مصير ألمانيا وإيطاليا أعظم وأضمن من الأمن على مصير بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة ، ولو نشب القتال غداً ولا نقول بعد سنوات قصار أو طوال .

وزد على هذا نعمة الأمن على الحياة والأمن على الحرية ، وهما نعمتان لا يرخصان فى نظر أحد إلا أن تكون حياته وحريته من سقط المتاع .

* * *

وعندنا أن شيوع التقريظ للدكتاتورية فى الآونة الحاضرة إنما يجىء من غلبة المدد على الصفة ، أو من غلبة السواد على ذوى الرأى ، أو من وجود أناس كثيرين فى الأمم لا يعنيهم أن يفقدوا حرية التفكير لأنهم لا يملكون

التفكير نفسه حتى يأسوا على ضياع الحرية فيه، ولا يعنيهم أن يفقدوا الكرامة لأنهم لم يجدوها قبل أن يفقدوها، ولا يعنيهم أن يدرسوا ولا أن يبحثوا ولا أن يقابلوا بين السيئات والحسنات، ولا بين البدايات والعواقب، كما يعنيهم الزعيق والتهليل والسير فى المواكب والضرب والعدوان وإطلاق الغرائز الهمجية بغير عنان.

وأجهل الجهل أن تسمع هنا فى مصر شباناً يدينون لهتلر ويطلبون سيادة الشباب من أجل ذلك، وهم لم يقرأوا شيئاً لهتلر ولا عرفوا رأيه فى السيادة السياسيـة، وإلا لعرفوا أنه يحظر فى كتابه أن يشتغل بالرأى السياسى رجل لم يبلغ الثلاثين.

فالحكاية «هيصة» لا موجب فيها عند هؤلاء الأغرار للبحث ولا للنظر فى العواقب، أو هى حكم على ميدان السياسة كالحكم على ميدان الحسينية وشجار الزفات والأعراس، وتخرب بعد ذلك الدنيا وتهدر الدماء وتبطل الحرمات، فإن عطف هؤلاء وأشباههم فى جانب المشتغلين بالزفة «بالعافية» لا فى جانب العريس والعروس والمحتفلين، ونظام المجتمع وعمارة البيوت.

***

لقد ظهرت النازية فى ألمانيا لأسباب خاصة بها فى تاريخها البعيد وتاريخها القريب.

فنظام الفروسية والاقطاع والولايات المتفرقة كانت له الغلبة على الحكم الألمانى إلى ما قبل سنين معدودة، ثم بلغت قداسة الحكومة عندهم أوجها بعد أن تعلقت آمال المفكرين والفلاسفة والدعاة بينهم بحكومة عليا تجمع سائر الحكومات فى دولة واحدة، ثم تمكنت هـذه النزعة بما كان ولا يزال من التمكين عندهم للجيش ورئاسة القواد والضباط، ثم جاءت الهزيمة فى الحرب العظمى فأججت ما تقدم وما تأخر فيهم من عادات الطاعة والخضوع والتحفز والانتقام.

فالدكتاتورية حالة خاصة فى أمم خاصة لها تاريخ خاص ومطالب خاص، لامشابهة بينها وبين الأمم الأخرى فى شيء من ذلك، ولاموضع للمقابلة بين فضائل الدكتاتورية وفضائل الديمقراطية على النحو الذى يتردد فى بعض الآراء.

وللديمقراطية عيوبها ولا خلاف. ولكن أين هو العمل الإنسانى المعصوم من العيوب؟ أليس من مزايا الديمقراطية أنك تتحدث فى ظلها عن عيوبهـا؟ فمن ذا الذى يتحدث عن عيوب النازية فى ألمانيا أو عيوب الفاشية فى إيطاليـا أو عيوب الشيوعية فى الجمهوريات الروسية؟ وكيف تتقى عيوب لا تجسر على الإشارة إليها وأنت تراها؟ وكيف تتقد أمم من عواقبهـا الجائحة إلا بعد أن تهوى بها فى الهاوية؟

إنمـا العبرة بالخواتيم، وإنما الدكتاتورية حالة عارضة لأسباب عارضة، كحالة الجواد الذى تحقنه بالسموم قبل ساعة السباق ليسبق فى شوطه ثم يموت.... أما الديمقراطية فهى قرينة الانسانية فى الارتقاء من الجهل إلى المعرفة، ومن الخضوع الأعمى إلى الحرية الرشيدة، ومن الفرد الذى لا قيمة له فى القبيلة إلى الفرد الذى له القيمة الكبرى فى الحياة، وحسبها فخراً وشهادة أن العالم قد ارتقى فى ظلالها خلال قرن واحد مالم يكتب له ارتقاؤه فى مئات القرون، فمن قال إنها ذات عيوب وسيئات، فمن ذا الذى قال إن الانسانية تنتهى اليوم ولا تطرد فى سبيل التقدم والارتقاء؟! خير لنا أن ننتظر صلاحها من أن نهدمها وهى أنفس ما يحفظه من الحضارة، لأن الحضارة قائمة على حماية الروح وحماية الفكر، ولا أمان على هذين فى حكم الاستبداد.

عباس محمود العقاد



ذهب الشاب ، ولم أجرؤ على إخباره بنبأ خطيبته . ومضت الأيام . وجاء الميعاد ، وحضرت الفتاة فاستقبلتها متجهما . فأدركت العلة وابتسمت :

— نعم . لقد كذبت عليك كثيرا .

فقلت لها فى شىء من الجفاء :

— ليس يهمنى الآن كذبك علىّ ، إنما المهم هذا الموقف الذى وضعتنى فيه .

فقطبت جبينها :

— أى موقف ؟

فقلت :

— لماذا كذبت على خطيبك أيضا ؟ لماذا أخفيت عنه أمر زياراتك لى ؟

فضحكت ضحك الطفلة المدللة ، الزهوة بحسنها ، غير الحافلة بذنوبها :

— لست أدرى . لقد نسيت أن أذكر لك أنى إلى جانب شغفى « بالتنس » و « السينما » و « السباق » ، أحب كذلك أحيانا : « الكذب » !

فحملقت فيها دهشا :

— سبحان الله ! أهو أيضا قد أصبح فرعا من فروع ال « سبور » ؟!

فابتسمت وقالت :

— نعم ، إن مهمتك فى هدايتى شاقة كما ترى !

فلم أبتسم . ولم تنفرج أساريرى . ولم يغادر وجهى ظلُّ القلق القاتم . ولم أستطع أن أبرر أمام ضميرى هذا الموقف الغامض . فقلت مطرقة كالخاطب لنفسى :

— وبعد ؟ ما العمل ؟

فقالت الفتاة ساخرة :

— ياللهول الخطب ! ويا لفداحة المصيبة ! إن هذه الأكذوبة من غير شك جريمة لن تغتفر !

فقلت لها مؤنبا :

— أتسخرين أيضا ؟

فقالت :

— أرجو المعذرة . إنى أراك مهموما لغير أمر يستوجب الهم ! كنت أحسبك مثلى لا ترى فى الحياة شيئا يحمل على الاكتئاب !

فقلت لها :

— هنيئا لك هذه النفس التى ترى الحياة من خلال مضرب « التنيس » !

فقالت باسمة :

— إنى أراها أكذوبة ظريفة وألعوبة لطيفة !

فقلت لها وكأنى أناجى نفسى :

— ليس لى مع الأسف الحق أن أراها كذلك . إنما هى حقيقة واقعة ، وواجب محتوم ، وعبء ثقيل ، كتب علىّ أن أحمله فوق منكبى حتى تخرج أنفاسى !

فقالت وهى تنظر إلى كتبى وورقى ومكتبى الغارق فى ظلام المكان :

— نعم ، إن حياتك حجر ملقى على ظهرك أمرت

أن تسير به إلى آخر الرحلة ! لكن ... لماذا أنت تراها كذلك ؟ !

فقلت مفكرا :

— لست أدرى ، ولقد أليها أنت : إنى أمرت أن أسير هكذا . وهل أملك أنا حرية النظر ! إنك قد خلقت لتعيشي حياتك . وأنا قد خلقت لأعيش حياة فكرة . فأنا لست أرى الشمس والهواء ، ولكنى أرى الفكرة التى تحرك وجودى كما تحرك اليد القفاز . هكذا أراد لنا القدر . ما أنت لديه إلا كرة من كرات « التنيس » يقذف بها فى الفضاء . فأنت حرة حرية هذه الكرة . أما أنا « فضرب » فى يده ، مسخر لغايته ، حبيس فى كفه ، لا يطلقنى منها حتى ينتهى اللعب !

فقالت على مهل ، كأنها تتأمل عباراتى :

— هذا صحيح ... لكن ...

وعدت إلى نفسي . وذكرت ما كان يشغل بالى قبل ذلك . فأسرعت أقول لها :

— لكن ، أخبرينى أنت : لماذا أخفيت عن خطيبك ؟ وإلى متى تنوين المضى فى ...

فعاد إلى شفتيها الابتسام وقالت :

— ينبغى أن أريح ضميرك المعذب وأقول لك إن أمر زياراتى يجب أن يظل بيننا سراً خفياً ، أنا وأنت وحدنا !

فقلت لها :

— أتظنين أنك تريحين ضميرى بهذا الكلام ؟ !

فنظرت إلىّ ملياً :

— أترانى حقيقة أرتكب خطيئة من الخطايا ؟

فقلت لها على الفور :

— نعم ، وتريدين أن تشركينى معك فيها .

فقالت :

— أفى احتفاظنا بهذا السر خطيئة ؟

فقلت :

— ليس لنا أن نخفى عن خطيبك سراً .

فأطرقت لحظة . ثم رفعت رأسها وقالت كالمخاطبة لنفسها :

— أليس لى أن أحتفظ فى مجاهل نفسى بمنطقة لا يرتفع إليها إنسان ؟ إنى أشعر بشيء لست أدرى مبلغ فهمك إياه ، إن المرأة وحدها تفهمه . لا بد للمرأة من أن تخفى شيئاً عن زوجها . قد يكون سواراً من الذهب اشترته خلسة . وقد تكون ذكرى من ذكريات ماض عزيز . وقد تكون فكرة نبيلة أو سخيفة تؤمن بها ولا تحب أن تشرك أحداً فيها . إن إحساسى اليوم هو من هذا القبيل . إن زياراتى لك وأحاديثى معك وآرائى التى أفضى بها إليك ، وسويعاتى التى نتبادل فيها معاً شؤون الفكر ، كل هذا ينبغى أن يوضع فى صندوق من صناديق الحلى ، ليس له غير مفتاحين ، أحدهما معى والآخر معك ...

* * *

أطرقت ملياً ولم أحر جواباً . مهما يكن من أمر فإن الفتاة تضعنى موضع الحرج . وقد كنت أتحمل هذا الموقف لو لم أر خطيبها . أما وقد رأيته وعرفته وأتوقع أن يتكرر اللقاء ، وأن تنمو بيننا الصلة ، فكيف أستطيع المضى فى كتمان الأمر عنه ؟ على أنى من ناحية أخرى أحب أن أفهم تفكير المرأة ، وأن أحترم إرادتها وأن أبقى لها على هذا الخيال الجميل الذى تحب دائماً أن تحيط به الأشياء . إذن فلا مفر من السكوت . ولأتجاهل الصلة التى بينهما . وما دام الخطيبان سيزورانى فى أوقات مختلفة ، فلأفترض أنهما بالنسبة إلىّ صديقان منفصلان . ولكن الفتاة التفتت إلىّ قائلة :

— هنالك مع ذلك أمر يحسن أن أنبهك إليه .

فنظرت إليها قلقاً :

— ما هو ؟

فقالت فى هدوء :

— سوف يدعوك بالضرورة خطيبى إلى زيارتنا أو إلى مشاهدة « التنيس » حيث يقدمك إلىّ ، فحذار أن يبدو عليك ...

فلم أسمع الباقي . ولم أطق صبراً . وصحت صيحة دوت في المكان :

— أيتها الفتاة ... أيتها الآنسة : لن أسمح لهذا العبث أن يمتد إلى أبعد من هـذا . إنك من غير شك تعبثين وتلعبين ، وأنا الذي أحسنت الظن بتصرفك ، وأسبغت عليه كل ما استطعت من افتراضات عالية .

فاحمر وجه الفتاة وقالت في براءة الطفل الذي لم يفطن إلى ذنبه :

— ما الذي حدث مني ؟ ما الذي أغضبك ؟

فحدجت إليها البصر دهشاً :

— عجباً ! ألا تعرفين ؟

فقالت :

— أتتهمني بالعبث واللعب ؟

فقلت وقد ترفقت في الكلام :

— وماذا أسمي طلبك إليّ أن أمثل دوراً روائياً يوم يقدمني إليك خطيبك ؟ أتظنين رجلاً جاداً مثلي خليقاً أن يفعل ذلك ؟ إن ما تشاهدينه في « السينما » لا ينبغي أن يؤثر في فهمك لحقائق الأشياء ، ولا أن يفسد من تقديرك للأمور . إنك أيتها الآنسة ما زلت واقعة تحت تأثير عالمك التافه ، وما زال أساتذتك السخفاء : « السينما » و « التنيس » و « السباق » هم الذين يقودون خطواتك في الحياة .

فنظرت إليّ نظرة كلها عتاب ، لست أنكر أنها أثرت في نفسي . وقالت :

— أهذا رأيك فيّ ؟

فتماسكت وقلت :

— نعم ، مع أسفي الشديد !

فقالت :

— كنت أحسبك تعتقد أن زياراتي السابقة قد استطاعت أن ترفعني إليك درجات .

فقلت لها في غير مداراة :

— لا يا سيدتي . بل إنها قد استطاعت أن تنزلني إليك درجات .

ففتحت فمها دهشة لصراحتي وخشونتي وقد فوجئت بهما لأول مرة . ومضيت أنا أقول :

— ألا تصدقين ؟

فقالت في صوت أحسست في باطنه غبطة مستورة وارتياحاً خفياً :

— أنا إذن لي عليك تأثير ...

فأسرعت قائلاً :

— سيئ . لقد حاولت أن تعلميني « الكذب » وأن تهبطي بي إلى ملاعب « التنيس » . وأن تلجئيني إلى تمثيل دور من أدوار « السينما » . كل هذا في مدى زمن قصير . أرأيت مقدار نجاحك ؟

فضحكت ضحكاً طويلاً رقيقاً ، امتزج رنينه الفضي بوميض اللآلئ المنبعث من ثغرها . ثم قالت :

— وأنت ؟ ألم تنجح في شيء ؟

فقلت على الفور :

— لست ألمح بوادر نجاح ...

غير أني ذكرت فجأة قول خطيبها لي إنها قرأت « تاييس » في ثلاث ليال . وإنهـا عكفت على مطالعة كتبي كلها . وأن هذه القراءة ، مهما كان الباعث لها ، تعتبر تقدماً على كل حال ، وخطوة في طريق الوصول بالنفس إلى مرتبة أسمى . وأردت أن أستوثق من هذا الأمر ، فسألتها في ذلك ، فتغير وجهها قليلاً ، ثم ملكت نفسها وقالت :

— من أخبرك أني قرأت كلّ هذا ؟

فقلت لها :

— خطيبك .

فقالت لي وهي تحد إليّ البصر :

— أو صدقته ؟

لم أدر بماذا أجيب . غير أني فكرت ملياً في الأمر ثم قلت للفتاة في جد وعزم :

— اسمعي أيتها الآنسة ! لقد انجلى لي الأمر : أنت فيما يظهر لي قد بلغت غايتك . إن خطيبك يعتقد على أي حال أنك تغيرت وأنك تقرئين . فإما أنك قد خدعت خطيبك وتحايلت عليه وأدخلت في روعه كذباً هذا الاعتقاد ، فهو نجاح لطريقتك ، وإما أنك حقيقة قد تغيرت وتذوقت الأدب ، فتلك بغيتنا ولم تبق لك من حاجة إلى زيارتي . فاسمحي لي إذن أن أحييك وأن أشكر لك تشريفك هذا المكان وأن ... أودعك !

فنظرت الفتاة إلى وجهي لحظة ، ورأت الجد في ملامحي والعزم في عيني ، ولحظت مني حركة انصراف عنها إلى كتبي وورق ومشاغلي الفكرية ، وشعرت كأن سمائي البارودة قد نادتني وأن عالمي الصارم قد استردني إليه . فلفظت من بين شفتيها بصوت كالهمس :

— وداعاً !

ولم ترد على تلك الكلمة شيئاً . وتناولت قفازها وجعلت تضع أصابعها فيه على مهل . ثم قالت :

— وأشكرك !

ومضت إلى الباب . واختفت كما يختفي الشبح ، وذهبت كما يذهب الحلم ...

توفيق الحكيم

ملحوظة — سنشرع ابتداء من العدد القادم فيما كنا أعددنا هذا الباب من أجله وهو التحدث عن الكتب التي أطالعها في الليل « تحت مصباحي الأخضر » .

ت . ح

فى عالم الزوايا

للأستاذ شفيق جبرى

أقايس من سنين غير بعيدة بين أدبنا وبين أدب الفرنجة . والغرض الذى أرمى إليه فى أشباه هذه المقايسات ، إنما هو الوقوف على الأساليب التى أعتقد أنها قد تزيد فى قوة أدبنا وفى نموّه ، فلا تزال الأمم يقتبس بعضها عن بعض ، ومن نظر فى آدابنا فى القديم والحديث عرف كيف تمازج الثقافات ، وليس آثار هذا التمازج .

فمن أساليب فريق من أدباء الفرنجة ، استفاضة روح العلم فى أدبهم ، ولأضرب لذلك مثلا :

دارت ذات يوم بين « أناتول فرانس » وبين رفيق له فى المدرسة أحاديث شتى ، وقد أدركهما الوقت الذى ينبغى لكل واحد منهما أن يختار فيه إما الاختصاص فى الأدب وإما الاختصاص فى العلم ، فاختار « أناتول » الأدب ، ولكنه ندم ، بعد أن نضج فكره ، على هذا الاختيار ، فقد رأى أن الأدب إذا انفصل عن العلم كان أجوف ، لأن العلم إنما هو مادة الأدب ، وأن العلم إذا انفصل عن الأدب كان ثقيلا على الطبع ، غير مصقول . بيد أن أمثال هذه الخواطر لم تدخل ذهنه اللطيف فى أول مرة ، فبدلا من أن تستثير رؤية شكل هندسى حبّ التطلع فيه ، كان يخيله الحزنُ من رؤية هذا الشكل ، وتنتفض حواسُّه ، فقد كان مثلا يحتمل رؤية دائرة ، ولكنه كيف كان يستطيع أن يحتمل رؤية زاوية أو مخروط ؟ كيف كان يستطيع أن يخالط هذا العالم الكئيب الجافّ ، عالم الزوايا الملآن بالشوك ؟ على حين كان يجد فى الأدب أشكالا مختلفة وألوانا متباينة ، كان يجد فيه بين فترة وفترة حيوانات وأنهارا وغابات وجبالا ورُعاة ، كان يجد فيه شجرا عزيزا على الشعراء ، وظلا ينحدر فى المساء من الجبال .

ولكنه لما نشأ وترعرع ، وذاق الحياة وخبرها ، سجد لرجال العلم فى ماضيه وحاضره ، الذين اخترعوا الأعداد ، وقاسوا العوالم ، وأصابهم العذاب فى سبيل حبهم الحقيقة ، سجد لهؤلاء أنصاف الآلهة واستغفرهم من ذنوبه .

على أنه رأى أن الغريزة التى دفعته فى صباه إلى الولع بالأدب لم تغشه ولم تخدعه ، فقد صاحب اليونانيين فى ظلال المدرسة ، فعرف كيف علّموا البشر العلم والجمال ، وملأ فكره من « رومة » ، فشاهد كيف أدخلت الهدوء على العالم .

وعلى الرغم من هذا كله بقيت فى نفسه حسرة على تركه العلم ، لأنه شعر بعد أن كبر أن العلوم الرياضية وحدها هى التى تستطيع أن تعمر الأذهان ، وأن تجعل لها سلاحا ، وأيقن بأن أساتيذ الأدب كانوا يجعلون من عقول الطلاب عقولا مثل الطبول ، يسمع لها دوىّ وهى خاوية .

وكأنى به بعد أن أحس هذا الاحساس فى كبره ، قد أراد أن يتلافى ما فاته فى صباه ، فأنس فى أدبه الصافى بالعلم الذى أوحشه فى غضارة عوده ، فزج خطوط الهندسة بخطوط الطبيعة ، وألّف بين قواعد الأرض وقواعد المثلثات ، فخلق لهذا العالم الجاف طلاوةً ، ولهذه الدنيا الخرساء لسانا ، فناسق بين الأدب والعلم .

فبدلا من أن يقطب فى وجه الهندسة ، كان يسمع رفيقه فى نادى « بولونيه » فى باريز بأن يمزج أحاديث الأدب والمسارح بأحاديث المثلثات !

فتح هذا الرفيق مرة دفتره ، وبعد قليل من الصمت خطّ على صفحة بيضاء ، فى غير حذق ومهارة شكلا هندسيا ، أراد أن يكون مثلثا متساوى الساقين ، ثم ابتسم وعرض هذا الشكل على بصر « أناتول » وقال له :

— أرأيت هذا ؟

— نعم ! هذا مثلث !

— إنه لمثلث ، وإنه رمز حياتي !

ثم خطّ بين ساقى هذا المثلث فى شيء من الهدوء وفى شيء من الحسرة ، ذاهباً من قاعدته خطوطاً موازية لهذه القاعدة ، وكانت هذه الخطوط تقصر كلَّما دنت من رأس المثلث ، ولما خطّها جمجم وقال :

— خمس سنين . . . عشر سنين . . . اثنتا عشرة . . . ثلاث عشرة . . . أربع عشرة . . . خمس عشرة . . . ست عشرة سنة . . . أرأيت كيف تنقص وكيف تنتهي ، وبعد قليل من التردّد ، مسّ رأس المثلث بطرف قلمه وقال : سبع عشرة سنة ، يقضى الإنسان ، وهنا الخاتمة !

أسف « أناتول » على تركه الهندسة ، فإن هذه الهندسة قد تكون مادّة فى أدبه ، فما أكثر الكلام فى هذا الأدب على الحياة ، وعلى طولها وقصرها ، فما وجد « أناتول » تشبيهاً محسوساً يصوّر به قصر الحياة مثل هذه الخطوط التى تتعب من قاعدة المثلث المتساوى الساقين وتنتهى فى رأسه ، فإن الإنسان إذا وقعت عينه على هذا المثلث ورأى هذه الخطوط كيف تنقص كما دنت من الرأس ، أدرك أن أيامه تقصر كلما دنت من خاتمة حياته ، حتى إذا مسّت الخطوط رأس المثلث غابت فيه كما تغيب الحياة فى ظلمات الأرض !

وكما لجأ إلى الأشكال الهندسية فى تمثيل قصر الحياة ، فقد لجأ إليها فى تمثيل نسبة الأشياء ، فاسمع ما يقوله أحد أشخاص روايته « تاييس » للراهب « بافنوس » ، وقد سأله عن السبب الذى من أجله يحرم نفسه طيبات الدنيا :

« أيها الغريب ! إنى لا أحرم نفسى شيئاً من الطيبات ، وإنى لآخذ بالاهتداء إلى نمط من الحياة أرضى به بعض الرضى . وإذا توخينا صحة الكلام فليس فى الدنيا حياة حسنة ولا حياة سيئة ، لا شيء شريف أو معيب فى ذاته ، ولا شيء عادل أو غير عادل ، لذيذ أو أليم ، صالح أو فاسد ، وإنما الرجل هو الذى يجعل صفات للأشياء كما يجعل الملح طعماً للأكل .

« الأشياء الواحدة لها مظاهر متفاوتة ، فإن أهرام « منفيس » تلوح فى مطلع الشمس كأنها شكل مخروط ينبسط عليه ضياء وردى ، وفى مغربها تلوح كأنها فى السماء الملتهبة مثلث أسود اللون ، ولكن من الذى ينفذ فكره إلى مادتها العميقة ، أنت تعيبنى بأنى أنكر الظواهر ، على حين أن الظواهر إنما هى الحقائق الوحيدة التى أعترف بها ، فالشمس تظهر لى مضيئةً ولكنى أجهل طبيعتها ، أنا أشعر بأن النار تحرق ، ولكنى لا أعرف كيف تحرق ، ولماذا تحرق . . . »

ولم يستعن « أناتول » بالهندسة وحدها فى تقرير الأمور النسبية التى ينشأ عنها الشك فى كل شيء ، فقد استعان بالمرايا ، فلئن لم توحشه الأشكال الهندسية ، فما أوحشته المرايا وأنواعها ، فانظر فى كلامه على مجانين الأدب كيف عرّف الجنون :

« إن أفكار المجانين من حيث الفلسفة ، صحيحة مثل أفكارنا ، إنهم يتصورون العالم الخارجى بحسب الصور التى ترتكز فيهم ، وهذا ما نفعله نحن معاشر العقلاء على وجه الضبط ، فإن العالم ينعكس إليهم على غير الصورة التى ينعكس فيها إلينا ، فنقول : إن الصورة التى تأتينا عن هذا العالم صحيحة ، وإن الصورة التى تأتيهم عنه غير صحيحة ، وفى الحقيقة أنّا لا نجد صورةً صحيحة على وجه الإطلاق أو غير صحيحة على وجه الإطلاق ، فصورهم صحيحة فى نظرهم ، وصورنا صحيحة فى نظرنا ، اسمع هذه القصة :

صادفتْ ذات يوم مرآةٌ مستوية فى بستان من البساتين مرآةً محدّبةً فقالت لها :

« إنى أجدك حقى فى تمثيلك الطبيعةَ على النحو الذى تمثلينه ، فينبغى لك أن تكونى مجنونةً لأنك تجعلين لشكل الصور بطناً ضخماً وأقداماً ورؤوساً مستطيلة ، دقيقة ، وتبدلين كل الخطوط المستقيمة فتجعلينها منحنيةً » .

فقالت لها المرآة المحدّبة على سبيل التهكم : « أنت التي تشوهين الطبيعة ، فإن صورتك المستوية تظن أن الشجرات إنما هي مستقيمة لأنها تجعلها هكذا مستقيمة . وأن كل شيء إنما هو مستو سواء أكان خارجاً عنك أم داخلاً فيك ، إن سيقان الشجر منحنية ، هذه هي الحقيقة ، فلست إلا مرآة خادعة ! » .

فقالت لها المرآة المستوية :

« إني لا أمس أحداً ، أما أنت أيتها المرآة المحدّبة ، فإنك تصورين الرجال والأشياء في صور مضحكة » .

وقد اشتد الجدل بينهما فمرّ في أثناء ذلك مهندس فقال لهما :

« يا صديقتيّ : أنتما على صواب وعلى خطأ في وقت واحد ، انكما تعكسان الصور بحسب قوانين الضياء ، فالأشكال التي تأتيكما إنما هي أشكال مضبوطة ضبطاً هندسياً فكلتها صحيحة ، والمرآة المقعّرة تولد صورة ثالثة تختلف عن صورتيكما ، ومع هذا فإنها صحيحة ، أما الطبيعة نفسها فلا يعرف أحد وجهها الحقيق ، ومن الممكن أنها لا وجه لها إلا في المرايا التي تعكس هذه الطبيعة ، فعلى أيتها المرايا أن لا تقول الواحدة للثانية : إنك مجنونة ، لأن الأشياء لا تنعكس على كل واحدة منكن انعكاساً واحداً » .

* * *

لم يكن « أناتول فرانس » وحده يلهو في أدبه بسير من الروح العلمي ، فقد ألمّ « فولتير » بالعلوم كلها من دون أن يتعمق في أي علم كان . وقد فهم كل هذه العلوم بفضل عبقريته المرنة ، لا شك في أنه كان يقع في الخطأ ، وكان يهزأ ببعض العلماء اليسوعيين ، ويُزرى ببعض الاختراعات ، ويسخر من أصداف البحر الملقاة في رؤوس الجبال ، ولم يؤمن بطائفة من آراء « ديكارت » ولكنه أدخل على عالم الثقافة والحضارة في تلك العصور فكرة العلم التي أصبحت صاحبة المقام الأول ، وهي اليوم ليست بصاحبة هذا المقام ، كان « فولتير » يقول : إن مستقبل البشرية متوقف على العلماء ، وإن لتجارب رجال الطبيعيات ولعمليات علماء الفلك ولحساب الرياضيين ، وزناً لا يقل عن وزن لطائف الأدب ، وعلى الرغم من ولعه بالشعر كان يضع « نيوتون » فوق كل شيء ، ولقد كان إدراك « فولتير » لمقام العلم في العالم عنواناً من أحسن عناوين مجده .

وإذا رجعنا إلى عصر من عصور أدبنا العربي وجدنا أن الأدب لم ينفصل عن العلم ، لقد كان الخوض في كل فن من الفنون من لوازم الثقافة في عصر الجاحظ ، فقد كان الأدباء أمثال أبي عبيدة والأصمعي ونظرائهما يكتبون في موضوعات شتى ، كالحيوان والنبات وغيرهما ، فاطلاع الكاتب على جملة من العلوم دون الاقتصار على الأدب وحده كان أمراً لا مندوحة عنه ، وقد أشار إلى هذا ابن قتيبة في « أدب الكاتب » فذكر العلوم التي يفتقر إليها الكاتب كالنظر في مساحة الأرض وعلم الفلك والحساب ، والفقه والاجتماع والتاريخ .

إن عظمة الأمم ، على نحو ما قال « هربرت » تتوقف في الآتي على مقدار شيوع الروح العلمي في هذه الأمم ، وكان « رينان » يشعر شعوراً قوياً بضرورة تعديل تربية الشعوب ، وبدعوة الجماهير إلى الثقافة العلمية . وقد احتج « سبنسر » في عصره على انخفاض شأن العلم ، وجاهد في سبيل إصلاح التربية ، وبلغ منه أن قال : إن الفن نفسه ، الفن الحقيقي ، مبني على العلم ، وإن العلم مخبوء تحت الفن ، وإن الفن يستلزم بعض ملكاتٍ لا يستطيع أن يعطيها القوةَ والعمل إلا العلمُ وحده ، وبالغ في هذا الباب فقال : إن العلم نفسه شعر ، فإنه يفجّر للرجل المثقف ينابيع الأدب الفياض ، التي لا يحرزها الجاهل ، ويكشف له في مراقبة الطبيعة أسباباً جديدة تحمله على التأمل وعلى الاهتزاز ، فالرياضي الحقيق إنما هو شاعر ، أفلا يكون الشعر في قطرة الماء أو في ركام الثلج أو في الصخر المتفتت إلا إذا عرّفنا هذه المشاهد كلها تعريفاً فيه أنواع الاستعارات !

دمشق — **شفيق جبري**

نظرات فى الأدب الغربى

مارى وب

أحب شخصية بين قصصيات انجلترا المعاصرات

يحب الانجليز بلادهم حبا لا يقل عن حب الفرنسيين أو الألمان أو الايطاليين أو أى قوم آخرين أوطانهم ، ولكن طريقة الانجليز فى التعبير عن ذلك الحب تخالف طريقة سواهم ؛ فأدبهم لا يفيض كما يفيض الأدب الايطالى أو الفرنسى مثلا بتمجيد الوطن تمجيداً حربياً ، والتفاخر بانتصاراته فى الحروب ، رغم ما أحرز الانجليز من نصر فى الشرق والغرب ، وفى البر والبحر . ولا يمتلئ الأدب الانجليزى بالتباهى بالماضى والتطاول بالتاريخ الحافل ، كما يتباهى الايطاليون مثلا بتاريخ الدولة الرومانية . ولا يخلو الأدب الانجليزى من ذلك الفخر الحربى أو السياسى أو القومى ولكنه قليل متفرق .

إنما يظهر حب الانجليز لبلادهم ويتجلى فى أدبهم على صورة وديعة متواضعة ، هى مع ذلك أعمق شعوراً وأغزر عاطفة وأسمى دلالة . تلك هى عشقهم لمظاهر الطبيعة الانجليزية وتصويرهم لمفاتن الريف الانجليزى ، فالريف الانجليزى يحظى فى الشعر والنثر بجانب عظيم من الاحتفال ، ويحتل منزلة رفيعة ، والطبيعة أوسع أبواب القول فى الشعر الانجليزى ، وإليها مرجع كل شاعر أثقلته هموم الحياة ، أو خابت آماله ، أو انهارت مثله العليا ، فلم ير غير الطبيعة مفزعاً ، ولا غير وصف محاسنها عزاء ، ومن أكبر قصصى انجلترا المحدثين ، الذين اتخذوا الريف مسرحاً لقصصهم دون المدن ، ووشوا قصصهم ببدائع أوصاف الطبيعة « مارى وب » التى رسمت أجمل الصور للريف فى مقاطعة شروبشر .



مارى وب فى صغرها

ولدت « مارى وب » فى بعض قرى مقاطعة شروبشر على مقربة من حدود ويلز سنة ١٨٨١ ، وقد انحدرت أسرتها من أصل ويلزى ، وكان أبوها طبيبا حسن الحال ، كان هو وزوجه موضع محبة أهل القرية ، لما كانا يتصفان به من

حسن العشرة ، وحب الخير ، وعمل البر ، وهي خصال ورثتها عنهما ابنتهما « ماري وب » التي كانت تحبهما حباً جماً ، كما ورثت عن أبيها حبه الأدب ، فقد كان ينظم الشعر الفكاهي في الأعياد والمهنئات ، وقلدته ابنته في ذلك ، ولم تزل طفلة لاعبة ، وتلقت علومها في الدار على يد مربية ، ثم في المدرسة ، وكانت مقبلة على الدرس أشد إقبال ، محبة للغات والآداب خاصة .

وكانت تحب قصص شكسبير فوق كل ما عداها ، كما قرأت في طفولتها أشعار شاعر مقاطعتها « هاوسمن » المجموعة في ديوان صغير يدعى « غلام شروبشر » ، فكان هذان هما العاملان الأكبران في توجيه شاعريتها . أما في عالم القصة فقد كانت تعجب أشد الإعجاب بقصص معاصرها هاردى ، وبه تأثر كثير من قصصها ، وللإعراب عن إعجابها به أهدت إليه إحدى قصصها بعد استئذانه ، هذا إلى أنها ظلت حياتها تعاود قراءة الانجيل ، شأن كل أديب انجليزى مجيد حريص على حسن البصر بلغته .

وفيما عدا هذه الدراسة الخصبة الممتعة ، وذلك الوسط البيتي الملائم لنمو خير الملكات ونضج أجمل الخصال والميول ، تأثرت ماري بالحياة الريفية المحيطة بها أعمق تأثر ، حتى غدت تلك البيئة الريفية في شروبشر مادة حياتها روحاً وجسما

كانت ماري فتاة ضئيلة البنية مرهفة الشعور متوقدة الذكاء مستوفزة النشاط ، وكانت منذ طفولتها تحب الأشجار والأزهار حباً جماً ، تنهض مبكرة وتخرج إلى الحقول لتجلس في الأعشاب تراقب تفتح البراعم . وقد ظل هذا الحب للزهور إحدى ميزات قصصها الواضحة ، كما كانت تفيض عطفاً على الحيوان من غنم وبقر ونحل وطيور . وهذه ميزة أخرى من مزاياها في قصصها ، كما كانت على شديد حياتها محبة للريفيين تتخذ منهم أصدقاء كثيرين ، وقد صورت أصدقاءها منهم في قصصها أدق تصوير . وكانت فيما بعد إذا طافت في دروب القرية مع زائر من زوارها تشير إلى كل شخص من أولئك الريفيين وتخبره بموضعه من قصصها .

ومما زاد ماري رهافة شعور وحباً للطبيعة وعطفاً على الأحياء ، مرض أصابها في صباها فأقعدها عن الحركة وهي التي تستوفز نشاطاً ودأباً ، وظلت طريح الفراش زمناً طويلاً محرومة من لقاء الناس والخروج والنزهة ، اللهم إلا الجلوس في النافذة في الأصباح الصاحية ، والتطلع إلى تلاع شروبشر الجميلة ووديانها وأشجارها وحقولها الممتدة إلى الأفق البعيد .

في هذه الوحدة اشتد شعور الفتاة تيقظاً وفكرها تفتحاً وصلتها بالطبيعة توشجاً ، فبدأت في علتها هذه وفي عهد نقاهتها تنظم الشعر وتكتب المقالات تكون فيها فلسفتها عن الحياة ، ولم تكن قد التفتت إلى القصة بعد ، فأما مقالاتها فكانت من أوائل ما نشرت ، وكانت مجموعة باسم « ينبوع السرور » ولم تعاود المقالة بعدها ، وخلاصة فلسفتها تلك أن الامتزاج بالطبيعة هو سبيل السعادة الصحيحة ، وهذا أيضاً جماع الفلسفة التي يمكن استخلاصها من قصائدها . وقد بلغت بعض تلك القصائد درجة عالية من الكمال ، حتى إن الشاعر دلامار استأذنها في نشر اثنين منها أو ثلاث في ديوان مختار من الشعر الحديث أصدره .

ولم تكن ماري في طفولتها وصباها — رغم ميلها إلى الأدب — بالمنعزلة عن أترابها أو المتجافية عن أسباب حبورهم ، بل كانت تشارك بنشاطها المتدفق في ألعابهم ومناسبات غبطتهم . وكثيراً ما قامت بتنظيم حفلات التمثيل والاستعراض بين إخوتها الخمسة الذين كانوا يصغرونها ، كما كانت تدور في عيد الميلاد توزع الهدايا على أطفال الجيرة ، وكما أنها بعد انقطاعها عن المدرسة تولت

تعليم إخوتها حتى أقعدتها العلة عن ذلك .

ولما بلغت مارى الحادية والثلاثين قابلت شاباً من أبناء شروبشر قد نال درجته الجامعية واحترف التدريس وتوثق بينهما الحب وتزوجا ، وظلا مقيمين فى نفس المقاطعة التى لم تكن مارى تطيق فراقها وإن تنقل أبواها فى صغرها بين عدد من قراها . وقرّت مارى فى حياتها الزوجية التى دامت خمس عشرة سنة ، بأوفر سعادة ، وإلى زوجها أهدت أولى رواياتها وأخراها . وعقب زواجها مباشرة التفتت إلى القصة ، ولم تكن قد عالجتها بعد ، وإنما كانت منصرفة إلى الشعر تقرضه من حين إلى آخر ، وكأنّ نفسها القلقة قد هدأت واستقرت بالزواج والتفتت إلى الماضى فى هدوء ، ووثوق تستوعب حقائقه وتستثير كنوزه .

وكانت حياتها الزوجية هادئة ساكنة خلواً من التقلبات ، إلا فترة ضيق مادى وروحى عبرت بها زمن الحرب الكبرى : فقد شعرت مارى إزاء تلك الحرب بمثل ما شعر به كل امرئ رقيق الشعور من كراهية واستبشاع ، وقد زاد مارى حرجاً بها أن ثلاثة من إخوتها انخرطوا فى سلكها وغادروا انجلترا ، كما أصاب زوجها عسر مالى ، حتى اضطرا إلى التحول من مسكنهما الجميل إلى آخر متواضع ، وأخيراً اضطرت مارى إلى اطّراح القلم جانباً ، ولم يكن قد عاد عليها بعد بأدنى ربح مالى ، ومعاونة زوجها فى كسب قوتهما ، فكانا ينهضان مبكرين كل صباح فيجمعان زهور حديقتهما وفاكهتها وتحملها مارى مدى أميال إلى سوق الجهة ، فتتولى بيعها مرات يومياً وتعود فى المساء ، لم تكسب أكثر من شلنات تعد على الأصابع ، ولكنها تعود مغتبطة راضية : مغتبطة بشعورها بلذة العمل من أجل الحياة ، مغتبطة بتجاربها العملية فى تلك التجارة ، تلك التجارب التى خلدتها فى قصيدتها « يوم السوق » واتخذت منها مادة لبعض قصصها .

وسرعان ما تحسنت حالها ، حتى استطاعا أن يبتنيا بيتاً جميلاً سمياه « كوخ الينبوع » . وفيما عدا تلك الشدة العارضة كانت حياة مارى كما تقدم القول رخية وادعة ، فتأتى لها أن تتوافر على الكتابة كما تحب ، وقد كانت إذا التفتت إليها أكبت عليها بجلد عجيب ! تكتب فى الدار وفى القطار وحيثما واتتها الفرصة ، وكانت أفكارها تسابق قلمها ، وكانت كلما أسرعت فى الكتابة كانت كتابتها أجود ، فاستطاعت فى سنوات معدودة أن تخرج عدداً طيباً من القصص المحكمة ، كل منها تتقدم على سابقتها جودة وإحكاماً باطراد .

تدور قصص « مارى وب » جميعاً فى الريف فى إقليم شروبشر ، ذى المناظر الممتازة واللهجة الممتازة ، وتصور الحياة التى دبت فيها مارى منذ نعومتها والأشخاص الذين عرفتهم مارى منذ صغرها ، وتتماثل قصصها جميعاً فى الهيكل العام : فالقصة عادة ذات تصميم مزدوج ، فيها زوجان من العشاق ، بين الزوج الأول حب طاهر عفيف مستقيم حسن المغبة ، وبين الزوج الثانى حب على دخل غير مخلص من أحد الجانبين أو كليهما ، يسير فى النهاية إلى الدمار ، وتخلع المؤلفة على فتاة الحب التقى السليم العقبى ، من الخصال ما كانت تعهد فى نفسها فى صدر شبابها من الإخلاص والنقاء وقصد الخير وهلم جرا .

بل إن الأشخاص فى رواياتها هم هم لم يتجددوا وإنما نراهم وقد تطوروا : زادوا فى مخيلة الكاتبة على مر الزمن وضوحاً ، وزادت شخصياتهم قوة ، وزادت الكاتبة مضاء فى تصورهم وتحليلهم

وصفحات كل قصة فياضة بالوصف الطبيعى الممتع ، ومن القصصيين من يبدأ الفصل من فصول قصته بوصف المنظر الذى سيكون مسرحاً للوقائع ، ثم يغفل الطبيعة بعد ذلك إغفالاً تاماً ، ويتوافر على سرد الحوادث . أما « مارى وب »

فتمزج وصف الطبيعة بوصف الأشخاص بذكر الحوادث بسرد الحـادثات مزجاً طبيعياً شائقاً ، ولا تبرح صورها الطبيعية تتوالى فلا تنفد . ولا غرو فإنما كانت «ماري وب» تصف ما نشأت وسطه من المناظر وما صحبته طول حياتها من الظواهر وما استوعبته في أيام علتها ووحدتها من المشاعر . ومن دقيق تلك المشاعر وعميق تلك التأملات قولها في رائحة القمح : «أي رائحة تماثلها ؟ إن فيها لما يفوق جميع الروائح : ففيها الصيف وفيها الصقيع ، وفيها المـاء ، كما فيها قلب الحجر الذي امتصه القمح في سيقانه الجوفاء ، وفيها الخبز والحياة للإنسان والحيوان» .

وكما تفيض قصص «ماري وب» حباً للنبات والزهر تسيل حدباً على الحيوان والطير ، لا ينقطع ذكر الحيوان في قصصها والرحمة له والتفجع لمظاهر قسوة القاسين عليه . والعطفُ على الحيوان من أظهر مزايا الأدب الإنجليزي لاسيما الحديث منه . والشعب الإنجليزي عامة مشهور بحبه للكلاب والقطط ، وكثير من أدبائه عرفوا بحدبهم الشديد على تلك العجماوات : يُروى عن القصصي ستيفنسون أنه مرَّ برجل غليظ القلب يعذب كلبه ، فاعترض عليه محنقاً ، فاستنكر الرجل تدخله بينه وبين كلبه ، فقال ستيفنسون : « ليس هذا كلبك إنما هو كلب الله ، وأنا أتصدى لحمايته ! »

لا تكاد «ماري وب» تبدأ أولى قصصها «السهم الذهبي» وتأخذ في وصف أناسيها حتى تعرض لشؤون الحيوان ، فتذكر كيف أن أحـد أشخاص الرواية ، وهو رجل فظ غليظ يدفع الغنم بعيداً بعصاه ، فيطلب إليه الآخر ألا يَعْنُفَ عليها قائلا : إن حب تلك الغنم له أحب إليه من العثور على كنز ثمين . ولا تكاد تمضي صفحة بعد ذلك حتى ترى امرأة تعرب عن حبها لتلك البهائم قائلة إنها لا تفرّق بين إنجابها ولداً وبين إحضارها إلى الوجود حَمَلاً وديعاً ، قائلة إن لدى تلك العجماوات من المودة والحنان ما يعوز كثيراً من الآدميين !

وفي شتى قصصها تذكر «ماري وب» كيف أن بعض القصصيين تتوشح العلاقة بينه وبين تخيله ، فلا يبرم أمراً ولا يحبذ في الدار جديد ، إلا قصد من فوره إلى النحل فأخبره ، وكيف يحب الحمامُ امرأ بعينه ، ويكره امرأ آخر . والحق أن علاقة الرجل أو المرأة بالحيوان أو الطير هي عند «ماري وب» مشخِّص مهم من مشخِّصات خُلقه ، وهي تصف أراذل قصصها عادة بالقسوة على تلك المخلوقات البكم ، وتصف شخصياتها المحبوبة بالعطف على الحيوان ، ومحبـة الحيوان لها ، بل يرتفع ثعلب صغير في قصة «عادت إلى الثرى» إلى منزلة شخص مهم من أشخاص القصة ، ويلعب في توجيه حوادث القصة دوراً خطيراً ، إذ تستأنسه بطلة القصة منذ نعومته ، وتدفعها محاولتها حمايته من كلاب الصيد إلى حتفها !

والحق أن عادة صيد الطـير والحيوان ، ما زالت قذى أعين الرحماء من أدباء انجلترا ومثقفيها ، ولا يفتأ أولئـك الأدباء يصورون تلك الأعمال الوحشية في كتبهم صوراً دامية منفّرة ، وقد كانت ماري وب تحب أباها أجزل الحب ، ولا تنكر من أعماله شيئاً إلا اقتناءه كلاب الصيد . وفي قصة «عادت إلى الثرى» هذه صورت ذلك الصـيد تصويراً بشعاً شفت به غليلها الذي كانت تشعر به حيـال العادة الهمجية !

وكانت «ماري وب» تُولي الانسان مثل ما تولي النبات والحيوان من عطف وحنان ، وتأسى لشقائه أشد الأسى . كانت على حبها للطبيعة والتماسها ما فيها من مظاهر الجمال ، لا تَغْفل عما في الحيـاة من مظاهر القسوة ، ومناحي النقص وأسباب الشقاء . فهي تقول في بعض كتاباتها : « أيتها الدنيا القذرة الصـراء ، اليد الشوهاء العمياء ، متى تقتسلين وتتطهرين ؟ » ، وهي تصور مآسي الحياة التي تنصب

على الخلق بلا جزيرة : فى إحدى قصصها تصور فتاة بكماء متيمة بحب رجل تشقى من أجله أشد الشقاء ، وهى صابرة بأسمه ، وهى لا تستطيع النطق باسمه ، بله الإعراب عن حبها له ، وفى كبرى قصصها « بريشاس بين » تصور بطلتها « بروداتس سارن » ظلحاء مشوهة لا أمل لها فى السيطرة على قلوب الشبان ، وحيالها منافسة لعوب وضيئة الوجه ساحرة القسمات

فى هذه القصة قصة « بريشاس بين » بلغت « ماري وب » أوج نضجها الفنى ، وبلغ من وثوقها بقدرتها أن هجرت الجيل الحاضر ، وجعلت عصر تلك القصة العهد التالى لحروب النابوليونية . بيد أن عهد الصفاء الذى نعمت به منذ زواجها كان قد آذن بالذهاب ، إذ عاودتها العلة التى شكت منها كثيراً فى صباها ، حتى أشار الطبيب بضرورة تغيير المناظر ، ونصح بانتقالها إلى لندن حيناً . على أن مفارقتها موطنهـا شروبشر لم تزدها إلا سوءا ، إذ كانت دائمة الحنين إليـه ، وزاد علتها تمكنا ما ظلت تشكو من إعراض الجمهور القارئ عنها ، ومن جهل النقـاد الذين تناولوا كتبها .

كانت « ماري وب » منذ ظهرت قصصها العالية قد نالت إعجاب زملائها من الأدباء العارفين ، وأتاها كتاب ثناء خالص كريم من مستر ستانلى بلدوين رئيس وزراء انجلترا فى ذلك الحين ، قال فيه مطرياً قصتها الكبرى « بريشاس بين » :

« عزيزتى مسز وب : أرجو ألا ترى فى عملى تطفلا إذا أعربت لك عن عظيم الاعجاب الذى به قرأت « بريشاس بين » ، فقد عاش أهلى قروناً فى شروبشر قبل انتقالهم إلى وستر شر ، وقضيت أيامى الأولى فى بودلى على الحدود ؛ وفى كتابك يخيل إلىّ أنى أسمع مرة أخرى تلك اللهجة وتلك العبارات التى كانت تحيط بى فى مهدى ، ولم أستمتع بكتاب كل هذا

الاستمتاع منذ سنين ؛ وقد دفعه إلىّ أحدُ كتّابى ، فقرأته فى عيد الميلاد عشية من تلال ركلين بموطنى ، فشكرا لك على ذلك ألف شكر ... وسأظل دائما المخلص »

« ستانلى بلدوين »

وليست تقتصر قيمة هذا الكتاب على مكانة كاتبه السياسية ، بل له قيمته الأدبية الكبرى ، لأن ذلك الوزير قد عرف بمحبته للأدب ، وبصره بالنقد ، مثلما عرف بالحنكة السياسية .

فازت « ماري وب » بالتقدير من العارفين ، ولكن ظل يهمها إعراض الجمهور عن كتبها التى لم يكن يباع منها ما يتجاوز ألف نسخة ، وظل يُحنقها ما يقابل جهلة النقاد كتابتها به من النقد السطحى التامّ عن الغفلة ، البعيد عن الانصاف ، فتفاقمت لذلك علتها حتى عجزت عن إتمام قصتها التالية التى كانت اختارت لها عهدا أبعد فى القدم ، هو العهد التالى للفتح النورمندى لانجلترا ، وكانت وعدتْ مستر بلدوين فى ردها على رسالته بنسخة منها .. !

برّحت العلة بماري وكان لسوء الاستقبال الذى نالته روايتها « بريشاس بين » أثر فى ذلك ، ومن قبلها أسرعت بالشاعر كيتس إلى قبره حملات النقاد المغرضين عليـه ، فقضت « ماري وب » نحبها فى سنة ١٩٢٧ فى العـام التالى لظهور قصتها تلك ، ولم تتجاوز ستّاً وأربعين سنة ، ومازال فى أوج نضجها الفنى . وكان ناشرها قد أشار عليهـا باستغلال كتاب رئيس الوزراء فى الإعلان عن كتبهـا فأبت إباء باتاً . فلما ماتت قام مستر بلدوين فى بعض الاجتماعات الأدبية منوّهاً بذكرها ، منددا بالاهمال الذى عوملت به فى حياتها . فكان ذلك كافياً لعكس الآية ، وما لبثت « ماري وب » أن حازت فى مماتها أضعاف الشهرة التى كانت تحلم بها فى حياتها !

فخرى أبو السعود

من أعلام المصورين فى الإسلام :

يحيى بن محمود الواسطى

مصور مقامات الحريرى

بقلم ابراهيم جمعة

فى ميدان الفن كما فى ميدان العلم ، كان مسيحيو الكنيسة الشرقية من النساطرة والسريان واليعاقبة أساتذة للعرب . والحق أنه لم يكن ليقدر للعرب أن ينهلوا مما خلف اليونان من علم ، والبيزنطيون من فن ، بغير وساطة هؤلاء .

وهذه الوساطة على غاية من الأهمية والقيمة ، فقد رصد هؤلاء المسيحيون جهودهم لتحصيل الثروة الفنية اليونانية ، والمساومة عليها بأى ثمن . وكان هؤلاء دعاة علم وفن ، بقدر ما كان العرب الفاتحون دعاة دين ، فراحوا فى أثر كنوز الفكر يجمعونها جمع الهواة ، ويؤلفون من أشتاتها المكاتب الخاصة ، وينقلون منها إلى لغة السريان ولغة العرب ، ذلك النقل الذى أدى بدوره إلى تعريف العنصر العربى القائم بهذه الثروة الفنية .

وأفاد العرب من هؤلاء فناً كما أفادوا علماً ، ونبغ منهم فى ميدان الفنون فريق حذق التصوير وأجاد فيه بقدر ما سمحت ظروف العرب .

وإلى هذا الفريق ندين بعض كتب الأدب والكيمياء ، والحيل والطب بالتوضيح الذى أكسبها جمالا فوق جمالها وزادها وضوحا على وضوح . غير أنه مما يؤسف له أن تعصف أحداث الزمن بهذه المخطوطات القيمة فى الطب والكيمياء والحيل والأدب وغيرها ، وبما رقم هؤلاء المصورون فيها من الصور ، فتباعد بين أجزاء المخطوط الواحد ، وتجعل من كل ورقة من أوراقه ، أو صورة من صوره أو مجموعة من هذه أو تلك ، تحفة نائية يشق مزارها على كثيرين من هواة الفن ، فلا يخفف من حنينهم إليها إلا شعورهم بتكريمها وإعزازها حيث وجدت .

ومصورنا الذى سنتناوله بالكلام فى هذا المقال ، هو يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطى مصور مقامات الحريرى . وقد تناول هذه المقامات غيره بالتصوير ، ولكن أروع ما وصلنا من تصويرها النسخة المؤرخة ٦٣٤ هـ — ١٢٣٧ م . وهى النسخة التى كان يملكها العلامة (شفير) ثم أهداها إلى المكتبة الأهلية بباريس .

نشأ يحيى بن محمود هذا فى (واسط) بين البصرة والكوفة ، فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وفيها تعلم التصوير وحذقه على قدر ما يحذق العرب هذا الفن . واشتهرت واسط من بين مراكز التصوير فى العراق بطريقة معينة ، جعلت من مصوريها مدرسة خاصة اشتهرت بالرسم (بالقلم) ، بالمداد الأسود وبثت فيه نبوغا خاصاً تشهد به صور الواسطى . وطريقتهم فى الحصول على هذا المداد الأسود أن تحرق ألياف الكافور ثم تخلط بنوع من الزيت النباتى (زيت الخردل) ، وبهذا النوع من اللون كانت ترقم صور مدرسة واسط ، وكانت

التحسينات الأخيرة في الصورة ذات الألوان في حاجة إلى هـذا النوع من المداد لتوضيح التفاصيل التي يكون اللون قد طغى عليها ، أو التي يحتاج الوجه إليها لبيان تجاعيده ، أو تتطلبها الملابس لتمثيل طياتها وزخارفها . وهكذا استعملت مدرسة واسط (القلم) فيما كان (الفرجون) يستعمل فيه . وعرفت بهذا من بين المدارس التصويرية العراقية .

وكان فراغ الواسطي من رقم صور مقامات الحريري في رمضان سنة ٦٣٤ هـ . وعلى الرغم مما اعترى صور الواسطي من عوامل التلف ، وما لحق بها بسبب محاولة إصلاح ما عطب منها ، من التشويه والمسخ ، فهي لا تزال وثيقة ذات بال من وثائق الفن العربي التصويري المبكر ، لولاها لما استطعنا أن نعرف شيئاً عن عصر بعيد كالعصر الذي عاش فيه الواسطي .



أبو زيد السروجي في موقف من مواقف الوعظ

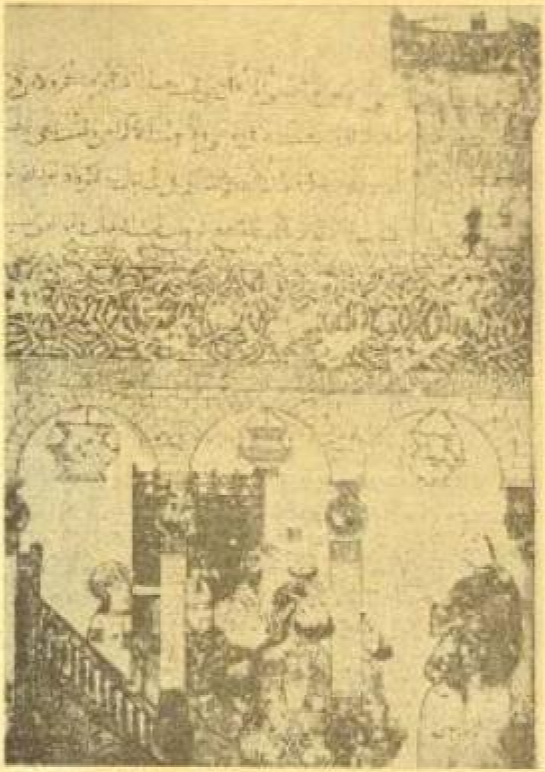
وتشبه صور مقامات الحريري التي خطها قلم الواسطي من حيث القيمة التاريخية ، قطعة لنسيج « بايو[١] » التي أماطت اللثام ، بما عليها من صور ، عن نواح طريفة من الحياة الاجتماعية الانجليزية في العصور الوسطى .

وصور الواسطي المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس — وتربو على مائة صورة — تسجيل لنواح من الحياة الاجتماعية العربية في العصور الوسطى في الشرق الأدنى ، فهي تصوير للحياة العربية — في مدنها وريفها ، سلمها وحربها ، وهي في مجموعها تمثل نوادر بطل المقامات « أبي زيد السروجي » وتوضح نوادره ، وفيها يظهر أبو زيد متميزاً عن أشخاص الصورة بموقفه الذي يسترعي الانتباه ، فهو إما متخف في زي امرأة عجوز ، أو خطيب يعظ الناس في أمر من أمورهم ، أو غير ذلك من المواقف الفريدة التي تتضح فيها شخصيته كبطل المقامة ؛ وتشترك مدرسة



جمع من الناس يمتطون الخيول وينفخون في الأبواق ويدقون الطبول ويرفعون البنود . وتبين هذه الصورة مقدرة الواسطي على تصوير الجموع وحشد الصورة بالأشخاص

(١) Bayeaux قطعة من نسيج الكتان المطرز بالصوف الملون ، توضح حوادث الفتح النورماندي لانجلترا من صناعة أواخر القرن الحادي عشر محفوظة بمتحف بايو .



منظر في مسجد — تعبر هذه الصورة بما عليها من اسم « المستنصر العباسي » وثيقة هامة تعين تاريخ رقم صور الواسطي لهذه النسخة من المقامات

واسط مع غيرها من مدارس التصوير العربية في العراق، في إظهار الملامح السامية في سحن الأشخاص، من سماحة الوجه واستطالته وسواد الشعر واستقامة الأعين وطول الأنف واعتداله، إلى غير ذلك من المميزات التي يختص بها الذوق العربي، من إطلاق اللحى، إلى كبر العمامة واتساع الملابس وزخرفتها بالفروع النباتية، والأشرطة الزخرفية على الأكمام الواسعة.

ووقعت هذه المدرسة مثل مثيلاتها تحت تأثير البيزنطيين، فأخذت عن التصوير البيزنطي « الهالة » التي تحيط برؤوس الأشخاص ذوي الأهمية الخاصة في الصورة، كالأمير أو الخطيب أو الواعظ، وهي في الفن المسيحي علامة على التقديس، كما هو معروف في صور السيد المسيح والسيدة مريم وصور القديسين.

ويرجح أن يكون العرب قد نقلوا صوراً بذاتها عن البيزنطيين أول الأمر بطريق « التحريم » فجاءت صورهم في بعض الأحيان في تكوينها، وترتيب أشخاصها محاكاة تامة لبعض الصور الدينية المسيحية، إلا أنهم قد أكسبوها مسحة عربية، فأضافوا إليها العمائم واللحى والثياب الفضفاضة، فلم يخف ذلك من جوهرها المسيحي، ولا غبار على المبتدئ إن هو حاكى أول الأمر ثم استفاد فنه بالدربة والمران؛ هكذا كانت الحال مع العرب أول اشتغالهم بالتصوير، لاسيما وأساتذتهم فيه كانوا من المسيحيين الذين يصعب أن يتخلوا عن تقاليدهم؛ وبسبب هذا التأثر بالفن التصويري المسيحي، نسب بعض مؤرخي الفنون صور « الواسطي » إلى مصور بيزنطي، لما فيها من الدقة

(البقية على صفحة ٢٣)



قطيع من الجمال يرعى الكلأ بالقرب من مضارب بني حرب. ويرجح أن يكون (الجمال) هو أبو زيد السروجي في تخفيه المعروف

قاذف القرص

Le Discobole

للمثال الإغريقي « ميرون »

بقلم الدكتور زكي محمد حسن

كان قذف القرص من ضروب الرياضة المتعة التي عني بها الاغريق القدماء . فكان اللاعب أو المتسابق يقف في مساحة محدودة بخطوط من الأمام ومن الجانبين ، ويعمل على أن يقذف القرص المعدني إلى أبعد حد ممكن . وكان قطر هذا القرص يختلف من ست إلى إحدى عشرة بوصة ، ووزنه من ثلاثة أرطال إلى تسعة . وكان الرامي يمسك القرص ويستعد لقذفه بحركة إلى الخلف ، ثم إلى الأمام . ولا يزال هذا النوع من الرياضة معروفاً حتى اليوم . وقد بلغ أقصى بعد وصل إليه المتسابقون في الألعاب الأولمبية الأخيرة نحو ثلاثة وخمسين متراً .

وهناك قطعة فنية خالدة من آيات النحت الاغريقي ، تمثل قاذف القرص ، يهزه ويزنه بيده اليمنى ، وجسمه مائل إلى الأمام ، ومتزن بثقل ذراعه اليسرى ، (انظر الصورة في الصفحة المواجهة) . وهي من عمل المثال « ميرون » Myron عميد الفنانين الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد ، ذلك القرن الذي بزغ فيه نجم زميليه بوليكليت Polyclète ، وفدياس Phidias .

وقد عرف عن ميرون إبداعه في تماثيل الرياضيين وفي تصوير عضلات الجسم الإنساني ، وإيثاره مواقف الحركة العنيفة ، وتوفيقه في تماثيل الحيوانات . وقد كتب المؤرخون عن تمثال « البقرة » الذي كان من أشهر آثاره الفنية ؛ ولكن هذا التمثال فقد ؛ وأصبح أبدع ما نعرفه لميرون هو تمثال « قاذف القرص » . وهو من أجمل التحف الفنية الاغريقية وأدقها ، مع أننا لا نعرفه إلا بوساطة نماذج نقلت عنه . فقد كانت تماثيل ميرون من البرونز ، وجل ما وصل إلينا منها نماذج صادقة من الرمر والبرونز ، محفوظة في المتاحف والمجموعات الأثرية المختلفة ، ولا سيما روما ولندن وباريس .

وإنك لتنظر إلى هذا التمثال فلا يسعك إلا الاعجاب بما فيه من ابتكار فني ، بالرغم من صعوبة تركيب الشكل . فالحركة والحياة تشعان منه ، مع الاتزان والهدوء وإبداع النسب . وقد تخير الفنان اللحظة التي يتأهب فيها الجسم لمساعدة الحركة التي تقوم بها الذراع اليمنى . وفضلا عن ذلك فإن هذه التحفة مثال جيد لتوفيق الفنان في تكييف أثره الفني ، واستطاعته إيجاد بعض خطوط تسود وتبرز ، وتؤدي إلى الوضوح ، وتطرد الملل من رؤية التمثال . وذلك بقيادتها العين بين أجزائه . فإنك تستطيع أن تلم في نظرة واحدة بأجزاء التمثال كلها ، فتسير العين كالسهم من اليد ذات القرص ، متبعة الذراع اليمنى ، إلى الكتفين ، فالذراع اليسرى ، فالساق اليسرى والقدم . وثمة ميزات أخرى ؛ فالكتفان العريضان ، والصدر المائل ، والعضلات المتقنة ، كل هذا يكسب التمثال حياة وقوة ، ويدل على دقة الملاحظة ، وصدق تصوير الطبيعة .

وإن كان هناك ما يؤخذ على هذه التحفة الفنية ، ويؤيد قرب عهدها بالأساليب الفنية القديمة في فن النحت الاغريقي ، فهو أننا لا نرى على وجه اللاعب كل الأثر المنتظر للحركة العنيفة التي يتأهب جسمه للقيام بها ، وقد تخلص الفنان في جسم التمثال من كل القيود الفنية القديمة ؛ ولكن التعبير في وجه اللاعب لا يزال ضعيفاً ومتأثراً بما كان في الفن الاغريقي القديم من تصوير الرأس بدون أي تعبير ظاهر يمكننا منه أن نستنبط الحالة النفسية أو الحركة التي يقوم بها الجسم .

زكي محمد حسن

الأفنـــــدى !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لا أحسب أن كلمة صارت من أعز العز إلى أهون الهوان ، كما صارت هذه الكلمة في مصطلح الزمان !

وقبل كل شيء ، لعلك تعرف أن كلمة (أفندى) معناها السيد ، وهي من ألفاظ التشريف التي انحدرت إلينا عن سادتنا القدماء ، أعني الأتراك . وعلى الرغم من أننا خلعنا عنا ، أو خُلعت عنا السيادة التركية ، وعلى الرغم من أننا قد ظفرنا باستقلالنا ، فإن أكثر ألقاب التشريف في بلادنا ما برحت تركية ؛ (فأفندى) تركية ، و (بك) تركية ، و (باشا) تركية أيضا !

وكل ما صنعنا في هذا الباب ، عند ما اختلفنا من سيادة تركيا ، أننا أصرنا ، في توجيه الخطاب ، هذه الألقاب إلى النهج العربي ، أما جوهرها فباق كما هو ، تركيّ وابن تركيّ . فبدلاً من أنه كان يقال مثلاً : « عزتلو أفندم » ، أصبح يقال : « صاحب العزة » ، وبدلاً من أنه كان يقال : « سعادتلو أفندم حضرتلرى » ، اصبح يقال : « حضرة صاحب السعادة » ، على أن تلحق الأولى بلقب (بك) ، والثانية بلقب (باشا) .

أما (أفندى) فلقد علمت أن معناها السيد ، وأما الميم التي توصل بها أحياناً فهي أداة الإضافة للمتكلم ، (فأفندم) معناها (سيدى) . ولهذا كان وليّ الأمر إذا وجّه الخطابَ إلى رئيس (النظار) ، أو إلى من يقوم مقامه ، في المناسبات المختلفة ، لا يكتب مطلقاً : « دولتلو أفندم » ، أو « عطوفتلو أفندم » ، بل يكتب : « دولتلو باشا » ، أو « عطوفتلو باشا » ، لما تعلم من أنه أجلّ محلا من أن يتدخل في سيادة أحد على أيّ وجه من الوجوه .

ونعود إلى كلمة (أفندى) ، فنقول إن أصحابها الترك كانوا يضنون بها أعظم الضنّ ، ويغلون قدرها أيما إغلاء ، وذلك على العكس من كلمة (بك) ، فإن كل رجل هناك يكاد يكون (بيك) ، وأرجو أن تنطق بالكاف ياءً ، فذلك هو النطق الصحيح . أما (أفندى) فكانت لقب وليّ عهد المملكة العثمانية ، ووارث منصب الخلافة الاسلامية ، كما كانت لقب أعضاء البيت المالك هناك ، كذلك كانت لقب شيخ الاسلام .

ولما كان منصب قاضي القضاة في مصر لا يتولاه إلا تركيّ ، بحكم السيادة العثمانية إلى سنة ١٩١٤ ، كان يقال له أو عنه : (قاضى أفندى) ، وقد نضح العرف هذا اللقب على القضاة المصريين أيضا ، وأعني بالضرورة القضاة الشرعيين . على أن هذا اللقب ظل محصورا في دائرة هذا القضاء . ولا أدرى أبقيت منه بقية إلى الآن ، أم عفى عليه فيما عفى هذا الزمان ؟

نعم ، لقد كان يدعى المخاطب في دَرْج الحديث (بك أفندى) ، ولكن (أفندى) مطلقة لا تكون ، كما أسلفنا ، إلا لأمثال من ذكرنا من سادة السادات وأعظم العظماء .

أما في مصر ، وأعنى في العصر الذى شهدنا أطرافه ، فإن لقب (أفندى) ، وإن لم يكن له هذا الخطر ولا بعضه ، فلقد كان له حظ من الإجلال غير يسير ، فهو في الغالب الكثير لقب الموظف في الحكومة ، وناهيك بالموظف الحكوميّ في تلك الأيام ! لقد كان هذا (الأفندى)

موضع إجلال أهل الحيّ وإعجابهم . وكان أكثرهم يعود من (الديوان) وقد رشق قلم (البسط) رشقاً أفقيا في أعلى أذنه اليمنى أذاناً للناس بما صرّف من الأمر ، وما قضى في حقوق الرعايا وأرزاقهم ، إذا فاته أن يقضي في دمائهم وأعناقهم . ولهذا كنت تراه يمشي متمهلاً متتايها ، يلاقي نظرات الاحترام والإعجاب .

ولم يكن حيّ من أحياء القاهرة تخلو رقعته الكبيرة من بيت (ست أم الأفندي) . وبيت (ست أم الأفندي) هذا كان شرعة الرائدات ، ومثابة القاصدات . إليه يحج نساء الحيّ ، وله يطلبن .

لا يرحل الناسُ إلا نحو حجرته
كالبيت يفضي إليه ملتقى السُبل

وكان لسائر البيوت المثوى والمنار ، فإذا استخبرت سيدة عن أحد المنازل ، دلّتها صاحبتها عليه ببيت (ست أم الأفندي) ، فتقول لها مثلا : اجعلي بيت (ست أم الأفندي) على يمينك ، ثم انعطفي في أول (زقاق) على يسارك ، وعدّي من اليسار بيتين ، والثالث هو البيت الذي تطلبين .

ولقد كان هناك أيضاً بيت (ست أم البك) ، على أن هذه البيوت كانت نادرة جدا ، بحيث لا يقع في الحيّ كله إلا اثنان منها أو ثلاثة على الأكثر .

وكيفما كان الأمر ، فإني أرجو ألا يميل بك الظن إلى أن (ست أم البك) كُنيت بذلك لأن ابنها (البك) موظف في الحكومة كشأن (ست أم الأفندي) . العفو ! العفو ! وهل كان يبلغ الموظف مرتبة (البكوية) في الحكومة وأمه لا تزال على ظهر هذه الأرض ؟ بحسبه أن يسمى (سعادته) سمي الأحياء ، وإن ضربته السنون بمائتي داء ! (فست أم البك) إذن لم تكن أم موظف ، ولكن كانت في الغالب مرضعاً لولد من أولاد (الذوات) !

ولكي تزداد علماً بموضع كلمة (أفندي) من جمهرة الشعب ، أذكر لك ما رُوي لي ، من أنه من نحو خمسين سنة ، أراد بعضهم أن ينشئ في حيّ الحسين ، رضي الله عنه ، (قهوة) فخمة عصرية (مودرن) ، تليق بمجالس الخاصة والمترفين من الناس ، فلم يجد أكرم ، ولا أعظم ، ولا أفخم من أن يدعوها ويكتب على جبينها بالخط الطويل العريض الجميل **(قهوة أفندية)** !

* * *

وبعد ، فذلك بعض العزّ الذي ناله لقب (أفندي) في الزمان الطويل . أما الآن ، فكفاك الله شرّ الحرمان ، وعصمك من الاستكانة بعد السلطان ، وحفظ مجدك من غدر الزمان !

أفندي ! وهل أصبح يطيقها موظف أو طالب أو فتى يعيش بفضل إرث ، أو شاب تجري عليه وظيفة من وقف ؟ فإذا دعوت أحدهم (بالأفندي) تجهم لك ، وانعقد ما بين عينيه ألماً وغضباً . وربما ابتدرك من القول أو الإشارة بما يسوءك . فإذا هو قبلها منك لشأنك ولوضعك ، فهو إنما يتجرع ولا يكاد يسيغ !

لقد أضحى الجميع يتداعون بلقب (البك) ، صغارهم وكبارهم في هذا بدرجة سواء ! ولا بأس بهذا ولكن شأننا فيه شأن إخواننا الأتراك .

بقيت (الأفندي) التي ذلت في هذا العصر وهانت ، ولم يبق لها من أمل تعيش عليه إلا في جماعات الحجاب والسعاة في الدواوين ، فهم الذين يرضونها ، ويطمئنون بها ، ويستريحون إليها دون سائر المطربشين .

أستغفر الله ! فلقد نسيت (عسكري الداورية) ، وهل

يستطيع حوذىّ من أى صنف ، أو بائع من هؤلاء المترفقين بأيديهم ، أو نحو هذين ممن يرهبون سطوة جندىّ النوبة ، أن يدعوه يا عسكرى ، أو يا جاويش ؟ إنهم جميعاً ليدعونه (يا أفندى) . وكثيراً ما تكون هذه الدعوة المحببة سبباً فى الإغضاء ، أو التلطف فى القضاء !

أرأيت كيف محت العبارة العامية فى هذه الكلمة : « يقطع من هنا ويوصل هنا » !

* * *

ولا أرى ، قبل أن أختم هذه الكلمة ، بُدّاً من الإشارة إلى كلمة أخرى ، بعثها السعد من الأرض وعلا بها على السحاب ؛ فأضحت لأجلّ أصحاب المناصب أجلّ الألقاب .

لا أدرى إن كنت تدرى أو لا تدرى أن ألقاب التشريف كانت تجرى صعداً على النحو الآتى : حميّتلو (بتشديد الياء) . وهذه لأصغر طبقات الموظفين . فرفعتلو ، فعزتلو ، فسعادتلو ، فعطوفتلو ، فدولتلو . وترجمتها على الولاء : صاحب الحميّة ، صاحب الرفعة ، صاحب العزة الخ .

فترى أن هذه (الرفعة) قد طارت من هذا المكان ، وحلقت حتى أمست أعظم تشريف لرئيس الحكومة ولرئيس الديوان !

آمنت أن من الألقاب ما يهبط ومنها ما يصعد ، ومنها ما يشقى ومنها ما يسعد ، (وكذلك الدهر حالاً بعد حال) . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

عبد العزيز البشرى

يحيى بن محمود الواسطى

(بقية المنشور على صفحة ١٩)

من ناحية ، بصدق تمثيلها للطبيعة والحياة الواقعة ، ولأن تكوينها كثير الشبه بتكوين الصور المسيحية ، ولكن الدقة البادية فيها ، وأسلوبها العربى يجعلان من اليسير نسبتها إلى فنان يرتعلى . وقد قطع مؤرخو الفن عامة بأن صور المكتبة الأهلية بباريس التى تحلى مخطوط مقامات الحريرى إنما هى من صنع ابن الحسن الواسطى المصور ، وأن ما فيها من دقة فى التخطيط ، وجمال فى اللون يرتفع باسم الواسطى عالياً بين رجال التصوير فى بواكير العصور الوسطى ، ويجعل منه زعيما لمدرسة واسط .

وهذه الصور بالغة الدلالة على مقدرة الجنس العربى على تصوير الحيوان كالجمل والحصان ، وتمثيل الجميع تمثيلا ينطبق على الحياة . ويتجلى فى صور الواسطى ميل ظاهر إلى حشد الصورة بالرؤوس ، ولكنه حشد متزن معقول ، لايسع الناظر إليه إلا أن يعجب بما يكاد ينبعث من الصورة من العجيج والضجيج نتيجة لهذا الحشد والازدحام ، وهو عين المعنى الذى قصد إليه المصور بلا شك .

وتمتاز هذه المدرسة التى يمثلها الواسطى بمقدرة خاصة على تصوير الحوانيت ومحتوياتها ، وبتحقيق الشخصية الفردية ، فكل وجه من الوجوه الآدمية ، التى تظهر فى صورها يمثل شخصا معينا ، يضاف إلى ذلك أنها بدأت تدخل رسوم المبانى على ما كان مألوفا من مجرد تصوير الأشخاص ، وتلك محاولة فنية قدر لها أن تبلغ غاية اتقانها فى فارس على يد بهزاد وقاسم على .

وكما استعارت هذه المدرسة من البيزنطيين « موضوعاتها » ، كذلك أخذت عنهم طريقتها فى التلوين ولكنها احتفظت لنفسها بأسلوب خاص فى الرسم عرفت به وتميزت من سواها .

إبراهيم جمعه

دبلوم معهد الدراسات العليا للآثار الاسلامية
بجامعة فؤاد الأول

من أحسن ما يُرْوَى
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

البحترىّ يصف الحرب التى وقعتْ بين بنى تغلب ، ويشكر المتوكل على الله الخليفة العباسىّ على الصلح الذى عقده بينهم على يد وزيره الفتح بن خاقان ، فحقن به دمَ القربى ، وأطفأ نار فتنةٍ كادت تودى بتلك القبيلة العظيمة :

وهى من عيون الشعر التصويرىّ الذى جمع إلى جمال اللفظ وروعة المعنى جمالَ التصوير ودقّته ووضوحه ، وأثره البالغ فى النفس .

فقد جمع الشاعر فى هذه القطوعة بين عدّة صوَر ملأى بالحياة والفنّ .

(١) صوّر الشاعر فى أبيات ثلاثة منها ، وهى الخامس والسادس والسابع أثرَ الحرب الأهليّة فى الشعب الواحد ، من تدمير عُمرانه ، وتشتيت جمعه وتبديله من الأمن خوفاً ومن الأُنس وَحشة ، ومن مجالسه التى كانت تُعقد للّهو يتساقَون فيها كئوس الراح ، بكتائبَ للحرب يتساقَون فيها كئوس الموت .

(٢) صوّر الشاعر كذلك فى أربعة أبيات تليها فِعلَ الحِميّة العربيّة والعصبيّة الجاهليّة فى نفوس المتحاربين ، وكيف تدفعهم الأحقادُ والأضغان وحبُّ الأخذ بالثأر إلى التفانى فى سبيل الموت ، والتمادى فى الحرب ، واللجاجة فى الخصام ، والضراوة بالدماء .

(٣) وانتقل الشاعر بعد ذلك إلى تصوير التنازع بين عاطفتين متناقضتين : عاطفة القربى التى تأمر بالصلة والمودّة ، وعاطفة الغضب للعزّة القومية التى تُغرى بالعداوة والحرب ؛ وقد وقف الشاعر بين هاتين العاطفتين موقفَ الواصف المصوّر ، لا موقفَ الحاكم المتحيز .

(٤) وصفَ الشاعر موقف الخليفة ووزيره الفتح بن خاقان ، وأثر وساطتهما فى إقرار السلام والأمن ، وإدخال الطمأنينة على النفوس المضطربة الجامحة ، ورجوع المتحاربين إلى الخليفة متنصّلين من ذنوب اقترفوها ، مستحيين من جرائم جنَوها ، خجِلين من إثارة شرٍّ جناه سفهاؤهم ، ووقع فيه حلماؤهم ، كلُّ هذا فى أشرف لفظٍ وأوجزه ، وجمالِ فنٍّ وأروعه ؛ قال :

تَزُورُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ
سُهُوبُ الْبِلَادِ رَحْبُهَا وَوَسِيعُهَا(١)
إِذَا مَا هَبَطْنَا بَلْدَةً كَرَّ أَهْلُهَا
أَحَادِيثَ إِحْسَانٍ نَدَاهُ يُذِيعُهَا
وَأَمَّا رَعَى سِرْبَ الرَّعِيَّةِ ذَادَهَا
عَنِ الْجَدْبِ مُخْضَرُّ التِّلَاعِ مَرِيعُهَا(٢)
عَلِمْتُ يَقِينًا مُذْ تَوَكَّلَ جَعْفَرٌ
عَلَى اللهِ فِيهَا أَنَّهُ لَا يُضِيعُهَا(٣)

***

(١) السهوب : الفلوات ، الواحد سهب بالفتح .

(٢) ذادها : منعها وحماها . والتلاع : مرتفعات الأرض ويجود فيها النبات ، الواحدة تلعة . والمريع بفتح الميم : الخصيب يشير إلى كرم الممدوح وخصوبة مملكته .

(٣) يشير بقوله : « توكل جعفر على الله فيها » إلى لقب الخليفة المتوكل على الله ، وهو استخدام حسن لهذا اللقب .

أسِيتُ لأخوالي ربيعةَ إذ عفتْ
مصايفُها منها وأقوتْ ربوعُها (١)

بكُرْهِيَ أن باتتْ خلاءً ديارُها
ووحشًا مغانيها ، وشتَّى جميعُها (٢)

وأمستْ تساقَى الموتَ من بعدِ ما غدتْ
شُروبًا تساقَى الراحَ رِفْهًا شروعُها (٣)

إذا افترقوا عن وقعةٍ جمعتهمُ
لأخرى دماءٌ ما يُطَلُّ نجيعُها (٤)

تذُمُّ الفتاةُ الرُّوْدُ شيمةَ بعلِها
إذا باتَ دونَ الثأرِ وهو ضجيعُها (٥)

حميَّةُ شغبٍ جاهليٍّ وعِزَّةٌ
كُلَيْبيَّةٌ أعيا الرجالَ خضوعُها (٦)

وفرسانُ هيجاءٍ تجيشُ صدورُها
بأحقادِها حتى تضيقَ دروعُها (٧)

تُقَتَّلُ من وِتْرٍ أعزَّ نفوسِها
عليها بأيدٍ ما تكادُ تُطيعُها (١)

إذا احتربتْ يومًا ففاضتْ دماؤُها
تذكَّرتِ القُربى ففاضتْ دموعُها

شواجرُ أرماحٍ تُقطِّعُ بينهم
شواجرَ أرحامٍ ملومٍ قطوعُها (٢)

فلولا أميرُ المؤمنين وطَوْلُه
لعادتْ جيوبٌ والدماءُ ردوعُها (٣)

ولاصطلمتْ جرثومةٌ تغلبيَّةٌ
به استُبقيتْ أغصانُها وفروعُها (٤)

وكنتَ أمينَ اللهِ مولى حياتِها
ومولاكَ فتحٌ يومَ ذاكَ شفيعُها

لعمري لقد شرَّفتَه بصنيعةٍ
إليهم ونعمى طالَ فيهم يُشيعُها

تألَّفهم من بعدِ ما شرَدتْ بهم
حفائظُ أخلاقٍ بطيءٍ رجوعُها

وأمضى قضاءً بينها فتحاجزتْ
ومخفوضُها راضٍ به ورفيعُها

(١) أسيت : حزنت . ويريد ربيعة بن نزار بن معد وإليه ينتهي نسب تغلب . وعفت : طمست معالمها . وأقوت : أقفرت .
(٢) المغاني : المنازل .
(٣) تساقى : تتساقى . والشروب : الجماعات يشربون ، الواحد شرب بفتح الشين . و «رفهاً شروعها» : سهل موردها ترده متى شاءت لا تمنع منه . كنى بهذه العبارة عن نعمة العيش ورغده .
(٤) «ما يطلّ نجيعها» : أي لا يهدر دمها . يشير إلى حرصهم على الأخذ بالثأر .
(٥) الرود من النساء : الشابة الحسنة . ويريد «بشيمة بعلها» قعوده عن الأخذ بالثأر . وخصّ الفتاة لأن الفتيات أشد دفعاً لبعولهن على الحرب بما يثرن فيهم من حمية وغيرة .
(٦) الشغب : تهييج الشر .
(٧) يقول : إن أحقاد المتحاربين وأضغانهم أكبر من أن تتسع لها صدورهم الضيقة ، بل تزيد عليها حتى تضيق الدروع التي على الصدور . وهي مبالغة حسنة .

(١) الوتر : الثأر والمطالبة به .
(٢) يريد بشواجر الأرماح : الرماح المتشابكة في الحرب . وبشواجر الأرحام : القرابات المتشابكة المتصلة أيضاً . يريد أن الحروب تقطع ما بينهم من قرابة كان ينبغي أن توصل .
(٣) الردوع : آثار الطيب في البدن والثياب ، الواحد ردع بالفتح . يشير إلى أنهم كانوا في هذه الحرب يتطيبون بالدماء في أبدانهم وأثوابهم ، ويفضلونها على الطيب .
(٤) اصطلمت : استؤصلت .

(البقية على صفحة ٢٧)

من الأدب الهندى الاسلامى

من ديوان « بانك درا »

لمحمد اقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

عرضت على قراء العدد الأول من الثقافة شذرات من الأدب الهندى الإسلامى مترجمة من شعر غالب ومحمد إقبال.

واليوم أعرض قصيدتين لمحمد إقبال أيضاً. ترجمت إحداهما نظماً، والأخرى نثراً.

أمنيـــة

لقيت دنيـــاى بالنفور — مَلَّ بفوضائها سرورى
قد طَوَّقَ القلبَ، هل أرجّى — من قبس فى الدجى منير ؟
أفرّ من هرْجها، ومن لى — بالصمت من قولها الكثير
أرجو هدوءاً بظلّ كوخ — فى جبل — منزو حقير
أطرح فى عُزلتى همومى — وأخلع الشوك من ضميرى (١)
زقزقة الطير لى غناء — ومرهرى النبع فى الخرير
والزهر ينشقّ عن بيانٍ — يصوغه الشعر فى سطور
وسادتى ساعدى، وجنبى — فى مضجع مُعشِب وثير
يأنسُ بى البلبلُ المغنّى — لا خوف فى قلبه الصغير
والماء ينساب فى صفوف — من شجر مُزهر نضير
يصوّر الكون فى صفاء — يلمع فى مائه النمير
يشوق مرأى الجبال حتى — يستشرف الموج فى سرور
والعشب نَوْمانُ فى ثراه — والماء يقظان للمسير
أفرُع الورد فى انحناء — تقبّل الماء فى حبور
نظرةً حسناء فى المرايا — تسأل فى الحسن عن نظير

* * *

وتخضب الشمسُ أفق ليلى — صابغةً حلّة الزهور
يبدو لِنِضو السُّرَى رجاءٌ — من نور قنديلى الكبير
والبرق فى الغيم والدياجى — يكشف عن كوخى الحقير
ويُسحِرُ الطائر المغنّى — مؤذّنُ الصبح — فى هدير
يمزج ألحانه بلحنى — لله من مُسعِد خبير !
وكُوّة الكوخ نجم صُبحى — تُصبّحى ضوؤها بشيرى
للزهر من طلّه وضوء — وأدمعى هاتنةً طهورى
وآهتى ساعدة دعائى — يعلو إلى ربّى الغفور

دعاء

ربّ ! امنح قلب المسلم رجاء يخفق له فؤاده، وتضطرم به روحه.

ربّ ! أشعِل فى وادى فاران(١) كل ذرة، ثم امنحها شوقاً إلى النظر، وكلَفاً بالطلب.

وامنح كل غافل عيناً بصيرة، وأره ما أريتنى من سر الخليقة.

ربّ ! سُق هذا الظبى الشريد شطر الحرم، ليأنس ويَسلم(٢).

---

(١) فى الأصل : وتقطع شوكة غم الدنيا من قلبى (دنيا كى غم، دل سى، كانتا نكل كياهو).

(١) وادى فاران الذى أبصر فيه موسى الكليم النار.

(٢) يقول إقبال فى بعض شعره : أيها الظبى نفرت من سواد الكعبة، فأصاك الصائدون. يعنى أنه فارق الحرم حيث لا يحل الصيد فهلك. وهو يقصد بذلك نفور المسلم من شعائره

وامنح كل آسن من أهل الذائق ، سعةَ الصحراء ، وحريّة البيداء .

واخلق فى القلب الجامد ثورة الحشر ، والعزمَ الذى لا يُقهر . وردّ إلى الهودج الخالى ليلاه ، وامنح كل جاهد ما يتمنّاه .

وامنح فى ظلمات هذا العصر ، كلّ قلب نوراً كالصبح إذا أسفر ، وسمة محبّة يخجل لها القمر[1] . املأ الصدور بالنور ، واجعل القلب فى صفاء البلور .

وامنحنا عن السفاسف سُمواً ، واجعل مقاصدنا كالثريا علواً . وامنحنا ثبات الساحل ، وحرية الخضمّ الهائل .

اللهم أسألك محبة منزّهة عن الرغبة ، وصداقة بريئة من الرهبة .

امنحنا يا ربّ العبرة بالمصائب ، والثبات فى النوائب ، وهبنا فى العيش الرغد ، التفكيرَ فى الغد .

ربّ ! إنى بلبل فى عذاب ، ينوح فى بستان خراب ، أسألك ألاّ يذهب نواحى سدى ، وأن يكون له فى قلب السلم صدى .

رب ! إنى سائل راج ، لا تحرم بالغنى ذلك المحتاج

عبد الوهاب عزام

<u>استدراك</u>: وقع فى شعر إقبال الذى نشر فى العدد الأول تحريف اختلت به بعض الأبيات . فنعيد البيتين المحرّفين هنا :

هى فى الأحرار بحر زاخر	وغدير فى حمى الرق ، الحياة
تختنق فى الطين سراً و تُرى	بقوى التسخير والخلق ، الحياة

(١) يكثر فى الشعر الفارسى والأردى ذكر « داغ المحبة » . والداغ هو الوسم الذى يكون بالكى ، ويخيلون فى شقائق النعمان هذا الوسم لأن فى داخلها نكتة سوداء ، ويخيلون فى وجه القمر هذا الوسم أيضاً .

من أحسن ما يروى

(بقية المنشور على صفحة ٢٥)

فَتَرَتْ قُلوبٌ كانَ جَمّاً وَجيبُها
وَنامَتْ عُيونٌ كانَ نَزْراً هُجوعُها[١]
أَتَتْكَ وَقَدْ ثابَتْ إِلَيْكَ حُلومُها
وَباعَدَها عَمّا كَرِهْتَ نُزوعُها[٢]
تُعيدُ وَتُبْدي مِن ثَناهُ كَأَنَّهُ
سَبائِبُ رَوْضِ الحَزْنِ جادَ رَبيعُها[٣]
تَشُدُّ حَياءً أَنْ تَراكَ بِأَعْيُنٍ
أَتى الذَّنْبَ عاصيها فَلِيمَ مُطيعُها
وَلا عُذْرَ إِلّا أَنَّ حِلْمَ حَليمِها
يُسَفِّهُهُ فى شَرِّ جَناهُ خَليعُها[٤]
بَقيتَ فَكَمْ أَبْقَيْتَ بِالعَفْوِ مُحْسِناً
عَلى تَغْلِبٍ حَتّى اسْتَمَرَّ ظَليعُها[٥]
وَمُشْفِقَةٍ تَخْشى حِماماً عَلى أَبٍ
لِأَوَّلِ هَيْجاءٍ تَلاقى جُموعُها
رَبَطْتَ بِصُلْحِ القَوْمِ نافِرَ جَأْشِها
فَقَرَّ حَشاها وَاطْمَأَنَّتْ ضُلوعُها

أحمد الزين

(١) وجيب القلب : اضطرابه . والنزر : اليسير .
(٢) ثابت : رجعت . والحلوم : العقول .
(٣) سبائب الروض : أى قطعه ، تشبيهاً لها بالسبائب ، وهى قطع من الثياب ، الواحدة سبيبة . شبه الثناء بقطع الرياض فى عرف ريحه وانتشار شذاه .
(٤) الخليع : الذى خلعه أهله وتبرءوا منه لكثرة جرائمه وشره .
(٥) استمر ظليعها : أى استقام أمرها بعد فساد .

الطفل واللغة القومية

للأستاذ محمد خلف الله

من المشاهد أن الأطفال يتعلمون لغة أبويهم وعشيرتهم، فى السنوات الأولى من حياتهم، فى يسر وسهولة تتطلع إليهما أعناق الكبار الذين يحاولون أن يتعلموا لغة أجنبية.

والموازنة بين هذين النوعين من التعلم طريفة ومفيدة معاً، ففى إحدى كفتى الميزان رضيع صغير، ليس لديه تجارب ولا معارف سابقة، يتلقى اللغة بالسماع، وعلى طريق التدريب الشفوى، لا على يد معلمين فنيين، ولا فى أسلوب تعليمى منظم، ولكن على يد أبوين وإخوة وخدم ورفقاء. وفى الطرف الآخر من الموازنة شخص كبير، مزود بصنوف المعارف والقوى الناضجة، يتلقى اللغة الأجنبية على نظام ذى قواعد وأصول، وطرق مدرجة من السهل إلى الصعب، وعلى يد طائفة أعدت إعداداً خاصاً لتدريس اللغة، مستعيناً بالتدريب الكتابى والشفوى، وبكتب المطالعة والمعاجم اللغوية وغيرها.

هذا التفاوت البيّن فى الاستعداد والطريقة، يقابله تفاوت عكسىٌّ فى النتيجة؛ فإنك تجد الطفل الصغير قد انتهى بإجادة لغته وتصريف أعنتها، على حين تجد الكبير — فى محاولته تعلم اللغة الأجنبية — ينتهى بعد سنوات إلى مستوى ناقص فى استعمال اللغة وأساليبها مهما يكن ذلك المتعلم ذكياً أو واسع التفكير.

***

ومن المفيد من الوجهتين النظرية والعملية أن نبحث فى سرّ هذا التفاوت، وأن ننتفع بنتائج البحث فى تيسير مشكلاتنا اللغوية الحاضرة.

هل السر فى أرجحية الطفل على الكبير مرونة الأجهزة الصوتية فى الصغر، وفقد تلك المرونة — أو على الأقل نقصانها — فى الكبر؟ أم السر قوة إحساس آذان الأطفال بالأصوات؟ أم أن خلوهم من العادات السابقة المتأصلة — التى يرزح الكبار تحت أعبائها فى تعلمهم لغة جديدة — يساعد الأطفال على تحصيل لغتهم القومية فى سهولة وإتقان؟ أم أنهم يتفرغون أثناء تحصيلهم اللغة لهذه المهمة وحدها، فلا يشغلهم مايشغل الكبار من كدّ وراء العيش، أو جد فى طلب العلم؟ أم أن الوراثة تسهل على الطفل تحصيل لغة آبائه بما تترك فى طيّات دماغه من منعرجات وتلافيف يقوم عليها ميله وتعلمه لتلك اللغة الخاصة؟

***

تلك النظريات كما ترى لا تسلم من سهام النقد، ولا تنهض واحدة منها — منفردة — سبباً كافياً للتفرقة بين تعلم الطفل وتعلم الكبير. فلو أن الأجهزة الصوتية عند الأطفال من المرونة كما تدعى الفكرة الأولى لالتقطوا الأصوات قريبة من الإتقان عند سماعها، ولقلّت تلك الأخطاء الكثيرة التى تصدر منهم فى بدء نطقهم الأصوات المختلفة، والواقع أن وقتاً طويلاً يمضى عليهم قبل أن يصلوا حد الإتقان فى تقليد أصوات الكلام.

ومثل ذلك يقال فى قوة إحساس آذانهم بالأصوات، فإن الأذن تتطلب وقتاً لنموها وقيامها بوظيفتها، وهى لا تميز فى مبدأ أمرها كثيراً من ألوان الأصوات التى نميزها نحن الكبار فى دقة وسهولة.

أما فكرة الخلو من العادات السابقة فيلاحظ عليها أن الأطفال فى تعلمهم لغة أبيهم وأمهم يغالبون بعض العادات التى استقرت فى نفوسهم . وليس صحيحاً ما يقال من أن شواغلهم فى الصغر قليلة ، فإن الطفل أثناء تعلمه الكلام ليواجه مشكلات أخرى يصرف فيها جزءاً كبيراً من نشاطه ، وشأنه فى سنواته الأولى أن يحصل عادات وينمى قوى لا يسهل تحصيلها أو تنميتها بعد فوات الطفولة .

وقد يكون فى فكرة الوراثة شىء من الصحة ، ولكنها لا تزال تفتقر إلى إثبات علمى ، ومما يشكك فى قيمتها أن أطفال المهاجرين مثلا يتعلمون لغة الوطن الذى يهاجرون إليه كتعلم أطفاله النابتين على ثراه .

***

ومهما يكن من أمر هذه النظريات فالاختلاف فى كسب اللغة بين الطفل والكبير حقيقة واقعة ، وربما كان من المثمر تلمس أسباب هذا الاختلاف فى ناحيتين :

إحداهما خصائص نمو الطفل فى سنيه الأولى ، فالوقت المناسب لتعلم اللغة الوطنية هو نفس الوقت المناسب لكثير من أنواع التعلم الأخرى ، وهو السنوات الخمس الأولى من الحياة : ففيها يتعلم الطفل الحركة والمشى واللغة ومبادئ التفكير ، وفيها — كما يذهب كثير من العلماء — يقرر الطفل أسلوب حياته المستقبلة . وقد اهتم العلماء أخيراً بهذه المرحلة ، ودرسوها دراسة تجريبية ، وحددوا المُثُل التى يجب أن يصل إليها النمو الطبيعى فى جميع مظاهره (ومن أهم هذه المظاهر القدرة على التعبير اللغوى واستعمال أجزاء الكلام) ، وبيّنوا ما يعتورها من شذوذ وما يؤثر عليها من عوامل ، واعتبروا النمو فى المراحل التالية لها تكشفاً وترقياً فى خصائص تلك المرحلة الأولى ومميزاتها .

والناحية الثانية مركز الطفل فى بيئته الأسرية المحدودة وموقف أفراد تلك البيئة منه ، فالطفل يسمع لغته القومية من الصباح إلى المساء ، وهو يسمعها واضحة المخارج والمقاطع ، موحّدة الاستعمال فى ألفاظها وأساليبها ، وفى نحوها واشتقاقها ، وهو ينهل من وردها العذب الدائم التجدد طول يومه ، وهو — قبل أن يحسن استعمالها — يسمعها من المحيطين به مكررة عباراتها ، مقرونة فى كثير من الأحيان بالعمل الموضح لها ، فالأم فى مناغاتها لوليدها ، وفى قيامها على شئونه المختلفة ، تعيد على سمعه كثيراً من الكلمات التى تدور حول معنى واحد ، وتقرن الكلام بالعمل فى معظم الحالات .

ولأمر ما كان النساء أكثر كلاماً من الرجال ، فلو أن الإشراف على الأولاد فى مستهل حياتهم عُهد إلى الآباء ، لأبطأت سرعة الأطفال فى تعلمهم الكلام وإجادتهم طرق التعبير .

وللشاعرة الإنجليزية (اليزابث براوننج) فى هذا المعنى أبيات عذبة الروح تصف فيها « كيف أوحى الله إلى الأمهات أن ينشئن أبناءهن فى طريقة مرحة محببة ، وكيف أودع فيهن القدرة على نظم عقود من الكلمات الجميلة لا معنى لها ، وعلى أن ينفثن مع قبلاتهن معانى كاملة فى أصوات عابثة ، فهن يحطن الوليد بالحب ، ويعلمنه أثناء اللعب ، ويحفظن عليه مرحه وخفته طويلا ، والآباء يحبون أبناءهم كذلك ، ولكن حبهم مثقل بأدمغة رزينة ، وإرادات شاعرة بتبعاتها ، فحبهم ليس حكيما كحب الأمهات لأنه أقل منه خفة وحمقاً ! ! »

أضف إلى ما سبق أن الطفل يتمتع بدروس خاصة فى لغته طول وقته ، وهو يسمع اللغة فى كل أحوالها ومواطنها الممكنة ، فى شكل طبيعى غير متكلف ، تطرد فيه اللغة وظروفها ، وتتطابق الكلمات والإشارات وتعبيرات الوجه بما يساعد الطفل على صحة الفهم وضبطه .

ولأغلب ما يسمعه الطفل فى صغره موقع خاص عنده ، ذلك لأنه يُمتعه ويبهجه ويرتبط بعاطفه وراحة جسمه ، وما يبدأ هو ينطق ببعض الكلمات حتى يحسّ قدرتها السحرية على تحقيق مطالبه ، فيشعر إذ ذاك بقيمتها العملية ، ويزيد هذا فى حسن إقباله عليها وفى تذليل صعوبة استعمالها ، حتى النوع الذى يسمعه ولا يكون له علاقة بحاجاته الحاضرة لايذهب سدى ، ولكن يُدّخر فى ذاكرته ليوم يحتاج فيه إليه . وكل ما يسمعه الطفل ولو من لغة غير لغته الأصلية يُخلف أثراً عنده ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى الدراسات الحديثة نكتفى منها هنا باثنين :

الأول ما رواه Stern عن طفل عاش فى سيليسيا السنة الأولى والنصف من حياته ، ثم جىء به إلى برلين فى وسط لم تتح له فيه فرصة سماع اللهجة السيليسية ، فكان مما دهش له المحيطون به أن سمعوه — وهو فى سن الخامسة — ينطق بأساليب وتعبيرات سيليسية ، وأسفرت بحوثهم فى هذا عن أن ذلك راجع إلى مدة السنة والنصف التى قضاها فى تلك المقاطعة .

والمثال الثانى ما رواه Grammont عن طفلة فرنسية كانت لها حاضنة تتكلم الفرنسية بلهجة إيطالية ، ثم تركتها هذه الحاضنة قبل أن يتفتق لسانها بالكلام عدة وجيزة ، فما هو إلا أن بدأت الطفلة تتكلم حتى لوحظ أن فى لسانها شيئاً من اللهجة الإيطالية ، ولم يزل هذا يلازمها حتى سن الثالثة .

على أن هناك جانباً آخر لا يصح إغفاله ، ذلك أن بين الطفل وبين الذين يلقنونه اللغة فى صغره صلة روحية قوية ذات طابع شخصى ، فهم يهتمون بكل صغيرة وكبيرة مما يفعله ، ويسرون بكل خطوة صغيرة يخطوها ، ويقابلون محاولاته المتعثرة بالعطف والتشجيع ، ولا يعرضون غلطاته للنقد والتشهير . وأذكر أن هناك مثلا فى إحدى اللغات الأوربية يقول : « إذا أردت أن تتكلم جيدا فرق نسج اللغة أولا » ، أى اهتمّ بالكلام ، ودع عنك التفكير فى الخطأ . ولكن كثيرا من مدرسى اللغات ينسون هذا ، فهم يطالبون المتعلم بالدقة من مبدأ الأمر ، ولا ينقلونه من موضوع حتى يتقنه ، وربما أضعفوا بذلك رغبته فى تعلم اللغة ، أو ذهبوا بها على الاطلاق . والصبى لحسن الحظ ليس عرضة لشىء من ذلك ، فان كل حرف يفوه به يقابل من أمه ، والمحيطين به فى دائرة الأسرة بالسرور والاعجاب .

* * *

هذه هى مزايا تحصيل اللغة القومية فى المراحل الأولى من النمو ، أفلا نستطيع نحن أن نجعل فى هذه الناحية أحد حلولنا لمعضلة تعميم اللغة الفصيحة ؟ نحن الآن سائرون على الدرب فى سبيل الإصلاح من تيسير نحو وتبسيط كتابة ، وحض المدرسين على إلقاء دروسهم المختلفة باللغة الصحيحة ، واستعمال هذه اللغة فى التخاطب بين الجمهور المثقف ، ونحن الآن معنيون بنشر التعليم بين الأفراد ، حتى يجىء اليوم الذى يقرأ فيه الجميع ويتكلمون لغة واحدة فى المنزل والحقل والمصنع والمتجر .

ولكننا لا نكاد نتنبه إلى أن اللغة العامية فى مرحلتنا الحاضرة تحتل من ذهن الطفل المكان الأول ، وأنها عنده لغة الفطرة والطبيعة يتكلمها دون تلجلج أو توقف . ونحن نترك حبله على الغارب فى سنى الإنشاء والتكوين ، ثم نجىء بعد ذلك فنكلفه تعلم اللغة الفصيحة ، ونزحم ذهنه بالقواعد والضوابط ، فإذا ما مل أو عجز ذهبنا نحن نعى على اللغة العربية كثرة تصاريفها وحركات إعرابها ، ونيأس أو نكاد من الإصلاح .

* * *

(البقية على صفحة ٣٥)

الشمس مصدر الحياة

في طريق الاضمحلال والانقراض

للأستاذ قدري حافظ طوقان

مزايا الشمس :

الشمس هي أم السيارات ، والجدة الكبرى للتوابع والأقمار . ولولاها لما وجدت الحياة على الأرض ، ولما وجدت الحركة والقوة ، وبوساطتها — نورها وحرارتها — تنمو المزروعات ، والأشجار ، والغابات ، ويتكون الفحم الحجري ، وتتبخر المياه ، وتنشأ الرياح والعواصف حاملة البخار المائي الذي يتكاثف ويتحول إلى أمطار وثلوج . ولا يخفى أن الانسان استطاع — بفضل ما وهبه الله من قوى عقلية في الابتكار والاختراع — أن يستخدم قوة انحدار الماء المتكون من ذوبان الثلوج إلى منافعه الخاصة ؛ وقد تمكن بالآلات المختلفة أن يحولها إلى كهربائية وغيرها من أنواع الطاقة المتعددة .

قد يستغرب القارئ إذا علم أن الشمس — وهذه بعض مزاياها — نجم مثل سائر النجوم التي نراها ليلا ، وقد يزيد استغرابه إذا علم أيضاً أنها من النجوم المتوسطة الحجم ، وأن بين الأجرام السماوية ما هو أكبر منها بمئات وألوف المرات ؛ ومع ذلك فحجمها كبير يقدر بمليون وثلثمائة ألف مرة مثل حجم الأرض ، وهي تبدو كبيرة بالنسبة لغيرها من الأجرام السماوية ، لأنها قريبة منا ، ولو كانت على بُعد بعض النجوم لضؤل نورها ، ولما استطعنا أن نراها بالعين المجردة .

قرب الشمس :

الشمس أقرب نجم إلينا ، وتقدر المسافة بثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، فلو سار قطار سكة حديدية إليها بسرعة خمسين ميلا في الساعة ، لوصلها في ٢١٠ من السنين . فأين لنا بالسائق يعيش هذه المدة ، والسكة والقطار ؟ ! ولو أطلقنا قنبلة مدفع بسرعة نصف ميل في الثانية ، وكان بالامكان جعل الانطلاق متواصلا وبهذه السرعة ، لوصلت إلى الشمس في سبع سنين . فأين لنا بالطاقة التي نستطيع تزويد القنبلة بها ليكون سيرها متواصلا وبسرعة نصف ميل في الثانية ؟ والأمواج اللاسلكية التي تدور حول الأرض سبع مرات في ثانية واحدة ! ! والتي سرعتها تساوي سرعة النور المربعة (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية ؛ هذه الأمواج إذا أرسلت إلى الشمس تصلها في ثماني دقائق وربع دقيقة !

ولكي يدرك القارئ قرب الشمس إلى الأرض ، بالنسبة لغيرها من النجوم ، نقول لو أرسلت هذه الأمواج من الأرض إلى أقرب نجم إلينا بعد الشمس لوصله بعد أربع سنين ونصف سنة ؛ فاعجب ! !

الشمس تضمحل :

يصدر من الشمس مقدار عظيم جدا من الحرارة

والنور ، يشع فى كل الجهات ، وما يُصيب كرتنا من هذا لا يزيد على جزء واحد من ألفى مليون جزء .

ودرجة الحرارة على سطحها تقدر بـ ٦٠٠٠ درجة سنتيغراد ، وترتفع هذه كلما تدرجنا من الخارج إلى الداخل ، إلى أن تبلغ ملايين الدرجات !

ولكى يتصور القارئ عظم هذه الحرارة نقول : إنه إذا وجد بين الأرض والشمس اسطوانة من الثلج قطر قاعدتها ميلان وطولها ٩٣ مليوناً من الأميال ، واستطعنا أن نسلط على الأسطوانة الجليدية كل ما فى الشمس من حرارة ، فنى ثانية واحدة تذوب كلها ، وفى ثمانى ثوانٍ تتحول إلى بخار ! فتأمل ...

ويقول (جينز) إننا إذا استطعنا أن نأخذ من جيبنا قطعة من ذات خمسة القروش ونسخنها إلى درجة حرارة مركز الشمس ، فإن حرارتها تكون كافية لأن تجعل كل كائن حى على بعد آلاف من الأميال منها يضمر ويذبل ...

أما الضغط على الشمس فحدث عن غرابته ولا تهب ... وقد وجد العلماء أن الضغط فى مركز الشمس يعادل ملايين الأرطال على السنتيمتر المربع . ولسنا بحاجة إلى القول أن العناصر الموجودة فى الشمس تتفتت وتنحل إلى جواهرها الفردة إزاء حرارتها العظيمة المخيفة . بل إن الجواهر الفردة (لبعض العناصر) تنحل إلى الكهارب والبروتونات التى تتألف منها تلك العناصر .

وهذا يعطينا فكرة عن الشمس ، وأنها ليست إلا كتلة نارية هائلة ، فيها من القوة ما يصهر العناصر ويحولها إلى غازات تتناثر فى الشمس محدثة الأنواء والعواصف والزوابع ، يخرج منها نافورات عظيمة من اللهب وألسنة أرجوانية إلى الفضاء ، ترتفع إلى آلاف الأميال فى أشكال تثير الروعة والدهشة والاستغراب ..

لقد حسب الفلكيون مقدار ما يخرج من الشمس من الطاقة عن طريق الإشعاع ، فوجدوا أن الكمية عظيمة جداً وفوق التصوُّر ، وأن كل متر مربع من الأرض يتلقى من أشعة الشمس قوة تعادل قوة حصانين أو (١٦٠٠٠٠٠) حصان لكل كائن من البشر . وإذا كانت هذه هى القوة التى تخرج من الشمس إلى الأرض تعادل جزءاً من ألفى مليون جزء مما تشعه إلى الفضاء ، فما قولك بقوتها كلها ؟ ! ...

إن الحسابات الدقيقة تبين على أن الشمس تفقد من مادتها عن طريق الإشعاع (٣٦٠٠٠٠٠) مليون طن فى كل يوم ! ! ! .. فهل لنا بعقل يتصور هذى القوة المخيفة . وإذا كانت الشمس تفقد يومياً هذا المقدار ألا يوجب هذا قلق الانسان فيما لو بقيت على هذه الحال ؟ فنى مدة معينة ينفد ما عندها من طاقة وسيكون مصيرها الاضمحلال والانطفاء ، وتصبح الأرض حينئذٍ غير صالحة للحياة على أنواعها ، ويختل النظام الشمسى وتسوده فوضى لا يعلم نتائجها إلا الله .

ولقد أخذ هذا البحث كثيراً من عناية من العلماء وتوصلوا إلى نتائج مرضية مطمئنة ، وقالوا : لا موجب للقلق وإن هنالك قوة وذخيرة تأتى الشمس بعوامل مختلفة ، وإنه على الرغم من أن هذه القوى والذخيرة أقل بكثير مما يصدر منها (من الشمس) إلى الفضاء ، ففيها قوة تمدّ فى عمرها إلى آلاف الملايين من السنين . ويتساءل كثيرون كيف تتولد فى الشمس هذه المقادير العظيمة من الحرارة ؟ وكيف تنشأ هذه القوى فى جوفها وعلى سطحها ؟

هذا التساؤل فى محله ، حاول بعض العلماء الإجابة عليه . فقالوا بأن تفكك الجواهر الفردة (لبعض العناصر) وانطلاق القوى الهائلة المخزونة فى تلك الجواهر هو السبب فى حرارة الشمس وفى القوى الموجودة فيها .

الأرض والشمس :

يُرى على الشمس بقع سوداء (كلف) تظهر وتختفي ، بعضها بسرعة وبعضها ببطء . ويختلف العدد الذي يظهر ، ويكون على أكثره كل إحدى عشرة سنة . ومن هذه البقع ما هو كبير جداً يسع الأرض ومن عليها ، وهي تتألف عادة من منطقة قاتمة اللون في وسطها بقعة سوداء كأنها تجاويف عظيمة . واختلف الفلكيون في سبب ظهورها ، ويرجح الكثيرون أنها تكون بسبب التغيرات الكثيرة الناتجة من تأثيرات الحرارة في جوف الشمس ، وأن هناك مواد تخرج من هذا الجوف إلى السطح ، وعند خروجها تبرد وتظهر مظلمة بالنسبة لوجه الشمس ذي النور الباهر ، وزيادة على ذلك فقد يكون فيها كهربائية شديدة تقوى معها مغناطيسية الشمس والأرض . وثبت لدى العلماء أن ظهور البقع واختفاءها من الحوادث النظامية في تاريخ الشمس ونتيجة لعوامل ثابتة .

لم يستطع أحد أن يجد علاقة بين الكلف وحالة الطقس ، ولم يتوصلوا إلى نتائج مرضية ، ولكن الثابت أن حرارة الشمس تكون أشد من المعتاد عند ظهور الكلف وعند ما تكون على أكثرها . أما فيما يتعلق بالنبات والمطر وأحوال أخرى جوية فليس للكلف بها علاقة أو تأثير ، وإذا كان هناك شيء من هذا القبيل فهو بسيط جداً لم يستطع العلم إدراك مداه بعد . أما ما نسبه بعض الفلكيين إلى الكلف من حدوث زلازل وفيضانات وخصب وأمحال وأمراض وأزمات تجارية ، فهذا ما لم يثبت علمياً وما لا يزال في دور البحث .

الأرض الفاخر :

ولقد تمكن العلم الحديث من معرفة أشياء كثيرة عن تركيب الشمس الكيمياوي واستطاع الفلكي بفضل آلة الطيف «السبكترسكوب» أو كما يسميها الأستاذ الكرداني «مبين الأطياف» وغيرها من الآلات ، أن يدرس طبائع النجوم والشمس وأن يتحقق من وجود العناصر التي يتركب منها جو الشمس ، الأمر الذي كان قبل ستين سنة خيالاً وتحقيقه من المستحيلات .

ولسنا الآن في مجال ذكر تركيب هذه الآلة الفاتحة التي أذاعت الشيء الكثير من محتويات الشمس والنجوم وحركاتها وغرائبها وما يتعلق بنورها وحرارتها ، فقد نخرج بذلك عن موضوعنا ، ونترك الكلام عن عملها إلى الكتب العالية في الفيزياء ، ولكن لا بد لنا من سرد المبدأ الذي تقوم عليه دراسة طبائع الشمس والنجوم وهو يتلخص فيما يلي :

إذا مر شعاع نور أبيض (كنور الشمس) على منشور ثلاثي من الزجاج ، فالأشعة تنفذ منه وتتحلل بحيث إنها إذا وقعت على حاجز أبيض ظهرت الأشعة النافذة عليه كشريط ملوّن طرفه الأسفل أحمر وطرفه الأعلى بنفسجي ، وما بين هذين اللونين يقع البرتقالي فالأصفر فالأخضر فالأزرق فالنيلي . ويسمى هذا الشريط الملوّن بالطيف . وثبت حديثاً أن للعناصر المختلفة — إذا كانت غازية أو سائلة أو مواد صلبة محماة إلى درجة الإنارة — أضواءً إذا حللت بمبين الأطياف تكون لها أطياف تتميز بها العناصر بعضها عن بعض . ويمكن للعالم أن يعرف فيما إذا كانت الأشعة التي يمررها من (الآلة المذكورة) خارجة من عنصر الحديد أو الهيدروجين أو الصوديوم .

ولدى اختبار الطيف الشمسي وُجد أن أضواء الطيف تتخللها خطوط مظلمة رأسية كثيرة العدد موزعة في الطيف في مواضع معينة منه ، وتعرف هذه الخطوط بخطوط « فرنهوفر » .

وقد يعجب القارئ إذا علم أنه استدل من هذه الخطوط على وجود مواد في الشمس لم تكن معروفة على سطح الأرض كغاز الهيليوم.

ولقد وضع العلم للحصول على أطياف العناصر المختلفة طرقاً وقواعد، يمكن لمن يرغب الاستزادة في هذه البحوث الطريفة أن يرجع إلى الكتاب النفيس القيم الذي وضعه الأستاذ نظيف عن البصريات. ومن هذه الأطياف وتلك الخطوط عرفنا المواد التي يتركب منها جو الشمس، وعرفنا أن الهيدروجين والهيليوم والكربون والصوديوم والكلسيوم والحديد والنحاس والكبريت والنيكل موجودة بكثرة في جو الشمس، وأن أكثر العناصر المعروفة على أرضنا موجودة فيها أيضاً. وعرفنا أيضاً أن ثلاثة وعشرين عنصراً من عناصر المادة التي كان يُظن أنها خاصة بالأرض وُجدت حديثاً في الشمس، وأن جميع العناصر موجودة فيها بالنسبة التي توجد بها على الأرض.

أليس في هذا الدليل القاطع على النظرية القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها في الأزمان السحيقة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عرفنا بواسطة هذه الآلة الشيء الكثير عن حرارتها وقوانين دورانها وحركاتها وضغط جوها. واستطاع الفلكي فوق ذلك أن يعرف المواد التي تتركب منها النجوم التي يصل نورها إلينا، وأن يقف على كثير من خواصها وسرعتها وحركاتها، وهل هي نحو الأرض أو بعيداً عنها.

بعد هذا ... ألا يوافقني القارئ على تسمية آلة « مبين الأطياف » بالآلة الفاتحة العجيبة ؟! ...

جاذبية الشمس:

كل ما في الكون يسير على نظام الجاذبية، من الشمس العظيمة إلى ما هو أعظم منها إلى أدق ذرة من التراب — كل هذه تتحرك ضمن هذا النظام. ولولاه لما سار القمر حول الأرض على الصورة التي نعرفها، ولما كانت حركات السيارات في أفلاكها، ولما كان المد والجزر على الأرض أو على غيرها. وما نراه في الشمس وسياراتها وتوابعها من السير على هذا الناموس نراه في النجوم؛ فهذه أيضاً بسياراتها وملحقاتها لا تشذ عنه ولا تخرج عليه؛ بل هي دائماً وأبداً مطيعة له سائرة في دائرة حدوده وأنظمته. وفوق ذلك استطاع العلماء بواسطته واستغلال المعادلات الرياضية، أن يحسبوا كتلة القمر والأرض وبقية الكواكب وتوابعها وغيرها من النجوم والأجرام السماوية. وتختلف قوة الجاذبية بين جسمين بحسب كتلتيهما والمسافة بينهما، فهي تزداد تبعاً لازدياد الكتلتين أو نقص في المسافة، كما تنقص هذه القوة تبعاً لنقص الكتلتين أو زيادة في المسافة.

وما ثقل الأجسام على الأرض إلا تعبير آخر عن قوة التجاذب بينها وبين الأرض، فإذا قيل إن ثقل جسم ما هو ٥٠ كيلوجراما، فهم من ذلك أن قوة جذب الأرض إلى ذلك الجسم تساوي ٥٠ كيلوجراما. ولما كانت كتلة الشمس كبيرة جداً، إذ تعدل (٣٣١٩٥) مرة قدر كتلة الأرض، فالجاذبية عليها عظيمة كذلك، وهي أكثر من جاذبية الأرض بسبع وعشرين مرة، فما يزن على أرضنا رطلا يزن على الشمس ٢٧ رطلا. والجسم الذي يزن (٦٥) كيلوجراما هنا يكون هناك أكثر من ١٧٠٠ كيلوجرام!!

ولا بد لنا من القول إن هذا الناموس أتى بالعجب العجاب، وبالسحر الحلال، إذ استطاع الفلكيون والرياضيون بواسطته التنبؤ عن حركات السيارات، كما كان في الإمكان أن يكشفوا بعض السيارات.

ولا ندري، فقد يأتي هذا الناموس بما هو أعجب!!

والشمس تجرى :

اختلف الناس منذ القدم فى حركة الشمس ، هل تجرى ؟ هل لها حركة كما للأرض والكواكب ؟

قال أناس إنها ثابتة . وقال آخرون إنها متحركة !

والحقيقة أنه للشمس حركة حول محورها ، ولكن ليس لها حركة فى الفضاء تشابه حركة الأرض ، فهى لا تدور حول نجم من النجوم مثلا ، بل إنها تتحرك كما تتحرك بقية النجوم ، وتسير فى الفضاء بسرعة (٧٥٠) ميلا فى الدقيقة ، أو ما يزيد على مليون ميل فى اليوم . ولا نعنى أن الشمس وحدها تسير بهذه السرعة ؛ فهناك سياراتها وتوابعها والنجيمات ، وكل ما فى النظام الشمسى يسير معها بهذه السرعة نحو كوكبة الشلياق التى فيها النسر الواقع .

وعلى هذا فالأسرة الشمسية ، بما فيها الأرض لا تزال (كما كانت) سائرة فى الفضاء ، وهى فى كل يوم فى موضع من الكون يختلف عن الوضع الذى كانت فيه فى اليوم السابق .

وهكذا ، فكل ما فى الوجود فى حركة دائمة لا يعلم منتهاها ومصيرها إلا مبدع الكائنات العليم القدير .

نابلس **قدرى حافظ طوقان**

معذرة :

فى العدد الماضى حدث خطأ فى أحاديث العلوم فى ترجمة لفظة Jupiter بالمريخ ، وكان حديث الأقمار الذى فيه عن Jupiter وهو المشترى لا المريخ .

الطفل واللغة القومية

(بقية المنشور على صفحة ٣٠)

إن لهذه المرحلة التى ندعو إلى العناية بها ناحيتين : ناحية المنزل ، وهذه تستلزم التفكير فى إصلاح لغة الأبوين ، ولا سيما الأم ؛ وناحية التعليم ، وهذه تستلزم الاهتمام بالبيئة اللغوية للطفل فى مدارس الحضانة ورياض الأطفال . وأعتقد أن فى كلا الميدانين متسعاً للعمل الآن : فلقد نستطيع حكومة وشعباً أن نتعاون على تثقيف الأمهات من طريق إعداد جماعة من المرشدات والآسيات ، يجسن خلال الديار ويتحدثن إلى السيدات فى الشئون الصحية والأسرية والدينية فى لغة أقرب إلى الصحة ، وأبعد من التحريف ، ويقرأن لهن شيئاً من الكتب السهلة المبسطة ، ويعقدن لهن مجتمعات صغيرة ، يأخذن فيها بأطراف الحديث فى شتى الموضوعات .

ونستطيع أن نشجع سيداتنا على أن يسعين المساجد إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، وأن يستمعن للمواعظ والدروس يلقيها نساء ، أو رجال مثقفون ثقافة دينية حديثة ، وأن يحيين عهد سابقاتهن أيام الرسول فى حرصهن على حقوقهن ، وعلى ألا يغلبهن الرجال عليه . فى كل ذلك نشر للثقافة بينهن ، وتزويد لهن غير مباشر باللغة الصحيحة .

ولقد نستطيع أن نتخذ من مدارس الطفولة ميداناً خصباً للتجارب النفسانية والتعليمية التى تقوم على تزويد الطفل منذ نعومة أظفاره باللغة العربية . ولعل فريقاً من المهتمين بالتربية يحذون حذو الأستاذة الانجليزية S. Isaacs فى تأسيس مدرسة تجريبية للصغار من أبناء الأساتذة والمدرسين (مثلا) ، يشرف على نشاطهم فيها معلمات ومعلمون مدربون يتعهدونهم باللغة الصحيحة ، ويدونون ملاحظاتهم اليومية فى سجل يرجع إليه الباحثون بعد فى نمو اللغة وترقيها عند الأطفال .

محمد خلف الله

أنا الغريق ...

بقلم
أحمد ضيف

– ٤ –

وكان أحد أصدقائي قد دلني على أسرة في بوردو بها سيدة وفتاتان ، إحداهما جميلة متزوجة ، والثانية تكاد تكون دميمة ، لم تتزوج ، وهي أكبر من أختها سناً . والأولى فرحة مرحة ، والثانية حزينة كئيبة ، والأولى طويلة ممتلئة ، والثانية قصيرة بدينة ، والأولى غضة ناعمة ، والثانية كالغصن الجاف ، والأولى ثرثارة ضحكة طائشة ، والثانية قليلة الكلام ، رزينة متقعة ثقيلة الظل .

فكنت أتردد على هذه الأسرة وأتحدث كثيراً مع ربة البيت .

قالت لي مرة :

— إن جوليان (ابنتها الكبرى) غارقة في لجة من التفكير . كأنها في حلم دائم ، ذلك لأنها قاربت الثلاثين ولم تتزوج ، وقد رأت أختها محوطة بحب زوجها ، سيدة في بيتها ، يسعدها رؤية ولدها الصغير ، فزاد ذلك من يأسها وحزنها .

وتنهدت ثم قالت :

— يا ويلنا من أبنائنا ، إننا نشقى بهم صغاراً وكباراً .

فقلت :

— يا سيدتي إن لدينا خبراً مأثوراً يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

قالت :

— نعم إن الحياة بدون أسرة تكون ناقصة ، ولكن الأسرة قد تكون أيضاً مصدر شقاء ، إننا نحن الأمهات نعرف ما يجول بنفوس بناتنا ، عندما يكن قد جاوزن سن الاقتران ، فإنهن يكن في حالة من اليأس والرجاء معاً . وتنهدت ثانية ثم قالت :

— تريد الفتاة أن تكون سعيدة في حياتها ولا ترى للسعادة شبحاً إلا في الزواج . فقد يخيل إليها أنها وهي بجوار زوجها ملكة جالسة على عرشها ، فلا تأمل شيئاً في حياتها أكثر من أن يسعدها الحظ فتقترن بشاب يحبها ويغمرها بحنانه ويكون ملجأ لها ، فقد كنت يا سيدي وأنا شابة قبل أن أتزوج أعتقد أنه لا يهدأ لي بال ، ولا أتذوق السعادة إلا وأنا في بيت زوجي . وكان الزواج كل شيء لي حتى كنت أظن أن له أثراً في اعتدال مزاجي ، وتلطيف أخلاقي ، وتقوية عقلي وجسمي . وكأن في نفسي شيء لا يستحقه غير زوجي . وكانت عواطفي وإحساساتي وحبي وكأنها رهينة ذلك الزوج .

— يا سيدتي وقد تكون هذه حالة الرجل أيضاً قبل زواجه ، فإنه كثيراً ما يرى أن الزوجة الطيبة هي كل سعادته ، وإنه ينتظر حظه وآماله ليعثر عليها في شخص زوجته فيدفعه ذلك إلى أن يتعلق عن رآها وتعلقت منه نفسه .

قالت :

— نعم ، ولكن هذه وذاك لن يلبثا أن يقعا في خيبة

من الأمل . لأن عثور الحظ أكثر ما يكون فى البحث عن زوجة صالحة أو زوج طيب . ولقد وقعت أنا فى هذا الحظ العاثر ، فما لبثت إلا قليلا مع زوجى حتى شجر بيننا خلاف فى الرأى والذوق والإدراك والفهم والمأكل والملبس والمشرب ، وكنا دائما على طرفى نقيض . وبعد أن تزوجته بقليل واختلفت معه ، كنت أرى أن كل رجل خير منه ، وأن كل خلق غير خلقه أفضل منه ، وما كنت أرى منه غير عيوب مجسمة ، حتى لقد تمنيت كثيراً أن أتخلص منه ولو بموته أو بموتى ، ولكننى علمت أنى كنت مخطئة ، إذ شعرت بالوحدة والعزلة من أولادى وأقاربى عند ما فقدت زوجى ، وفقدت بفقده كل حنان وعطف .

وطرق الباب طارق ، فدخلت سيدة زائرة ، فاستأذنتُ وخرجتُ من عندها .

***

ركبت القطار إلى مرسيليا مساء ، فوصلت إليها صباحا ونزلت فى نزل بها ، فقابلت شيخاً من شيوخنا الأجلاء ، وعلما من علمائنا المعروفين ، ولم تكن بينى وبينه صلة كبيرة لأنى عرفته فى باريس ، ولم أجتمع به إلا مرة أو مرتين ؛ ولكنه عند ما رآنى هرول إلىّ ، وسلم علىّ ورحب بى ، ودعانى إلى منزله ، فأعجبنى حديثه وآراؤه ، فكنت أجتمع به كل يوم من أيام مكثى فى مرسيليا وأنا أنتظر السفينة التى تعود بى إلى مصر .

ورأيت بمرسيليا جماعة من الشرقيين مصريين وسوريين وأتراك ، بين تاجر وطالب علم وسائح ، قذفت به المقادير هناك إبان الحرب ، فلم يقدر على الرجوع إلى بلاده ؛ فكنا نجتمع معاً ونتحدث فى الشرق وأحواله ، والشرقيين ومآلهم بعد هذه الحرب .

وصارت معرفتى بشيخنا الجليل إلى صداقة صادقة ، فكنت أجلس معه كثيراً ، وأستمع حديثه فى الجد والهزل ، والحق والباطل ؛ فقد كان جعبة أفكار وآراء فى الناس والحياة والاجتماع والعلم والأدب ، يقول كل ما يجول بخاطره فى صدق وصراحة ، غير مبال بما يؤخذ عليه ، ولا مغتبط بما يبدو من سامعيه من الارتياح إلى حديثه أو تصديق آرائه .

حدثنى مرة فقال :

— لقد مضى علىّ منذ تركت مصر إلى اليوم ، وتخليت عن منصبى فى الحكومة هناك خمسة وعشرون عاما ، قضيتها فى باريس وغيرها من مدن أوربا وعواصمها .

وقال :

— ولا أرغب فى العودة إلى تلك البلاد التعسة .

قلت :

— ولماذا ؟ أليست بلادنا فى حاجة إليك وإلى أمثالك ؟

فمسح بيده على كتفى ونظر إلىّ وقال :

— كأنك تتملقنى !

قلت :

— بل أقول حقا ، فإن الرجال عندنا قليل !

فأجابنى فى شىء من عدم المبالاة ، وابتسم ابتسامة سخرية واستهزاء :

— إن هذا لعجيب . فإنا نحن المصريين لا نعتمد إلا على غيرنا ، ولا نحترم إلا الدخيل فى بلادنا ، ولا نثق بشىء من مواهبنا ، ومن أسف أن حقد الزملاء بعضهم على بعض أظهر ما يكون بيننا !

قلت :

— عجباً وعفوا ! لقد شاهدت أثناء مقامى فى فرنسا ، ومعاشرتى لكثير من رجال ونساء وشبان وشيوخ ، من أمم مختلفة يردون موارد العلم فى باريس ، أن هؤلاء جميعاً يحبون باريس ، ويعجبون بالثقافة اللاتينية وفنونها ، ويتمدحون بما فى عاصمة الفرنسيين من أدب رائع وإدراك دقيق ، وعلم واسع ، وحرية عامة للقريب والبعيد ، والصديق والعدو ، ولا يفارقون هذه المدينة إلا لحاجة

تدعوهم بلادهم إليها ، وذلك لإعجابهم أو إغراقهم في الإعجاب بكل ما رأوا وسمعوا ؟ ولكني لم أر واحداً منهم ذكر بلده بسوء أو نقم عليه ، كما نذكر نحن مصر بما يشوه ذكرها ، وكما نذكر قومنا بما لا يرضى به أحقر الناس لنفسه وقومه ، ولسنا أسوأ حالا من غيرنا في كثير من عاداتنا وأخلاقنا .

فهز شيخنا رأسه ، ونظر إلى وقال :

— وا أسفاه . وهذا أيضاً من الأخلاق المكروهة فينا . ولكنا جميعاً إذا ذكرنا بلادنا وقومنا بسوء ، فذلك مظهر من مظاهر الألم في نفوسنا ، لأننا نحب أن تكون بلادنا خيراً مما هي عليه ، ولعل فيما نبديه ونراه من نقص فينا يلهينا أو ينبه الجيل الآتي إلى إصلاح هذا النقص .

قلت :

— إننا نتعلم فيما نتعلم هنا حب الوطن والتفاني في خدمته ، فما كان أجدرنا بمحاكاة هؤلاء الناس الذين نعجب بهم وبأخلاقهم . فلو أننا اجتمعنا وبحثنا العلل الشائعة فينا لكان لنا شأن آخر .

فقال محدثي ، وتحرك من مجلسه ، واتجه إلىّ كأنه يريد أن ينقض علىّ ، وكأن في نفسه شيئاً كامناً يريد أن يكشف عنه :

— نعم ولكن الاجماع بيننا على شيء لا يكاد يكون .

وفتح فمه إلى آخره ، وأدركته غصة ، وقال :

— إذ من مميزات بلدنا بروز الشخصية في كل شيء ، والاهتمام بالفرد قبل المجموع ، فكل عمل اجماعي لا ينفع ، بل أنجح الأعمال وانفعها ما كان عملاً فردياً ، ولم أر في أمة من الأمم فشل التعاون مثل ما أرى في مصر ، ففي مصر الجماعة فاشلة ، والفردية ناجحة ، وقوة الاجماع ضعف ، ووحدة الفردية قوة ، لأننا نخدم الفردية فتقوى بنا وتضعف بها .

قلت :

— لعل هذا صحيح في جملته . وهو علة من العلل التي يجب أن نعمل على إزالتها ، ولكن ....

فاستمر في حديثه في لهجة من المزاح وقال :

— هذه أمة ..... وقطب وجهه وقال :

— إن كل واحد منا يعمل لنفسه ، والشعب ضائع بيننا لا يرشده مرشد ولا يهديه هادٍ .

وسكت قليلاً ، ونظر أمامه ، ثم حول نظره إلى وقال :

— إنى لست من الشيوعيين ، ولكني أرى أن هذا الاهمال لا يجوز بأي حال من الأحوال ، إذ بينما نجد طبقة من الناس تنتقل من حالٍ إلى حال ، وتصعد من أسفل إلى أعلى ويساعدها الحظ فتخرج من الأكواخ إلى القصور ، ومن الفقر إلى الغنى ، وتدفع بأهلها وأبنائها من الجهل إلى العلم ، ومن الظلمة إلى النور ، ولا تفكر في غيرها ، نجد الشعب كما هو منذ قرون : فقيراً ، قذراً ، جاهلاً ، لا يعرف لنفسه كرامة ، ولا يفكر في أنه كغيره من بني الانسان ، ولا يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام .

قلت :

— إنك يا سيدى من الناقمين المتشائمين .

قال :

— حقاً ، إنى يائس ، أو أكاد أكون يائساً من حال هذا الشعب ، وإنى لأخشى أن يكون الجمود سجية وطبيعة فينا ، فإننا رغم معاشرتنا للأجانب النازلين فينا ، وما نراه لديهم من نظام في الحياة ومن مظاهر في الحضارة ، لا نزال على ما كنا عليه من قرون ، وإننا نحن المتعلمين أول من يسأل عن هذه العيوب الظاهرة فينا ، لأن الشعوب التي مثلنا يجب أن ترشد وأن تقاد قسراً ، وهذا يحتاج إلى قادة يضحون بأغراضهم وأهوائهم في سبيل رقي شعوبهم ، ومن أسف أننا لسنا من هؤلاء ، لأننا نشأنا على الأثرة

وحب النفس . ولا أخفى عليك أنى مثل السواد الأعظم من المصريين أبحث عن سعادتى قبل كل شيء .

ثم هز رأسه الضخم الأصلع ، ونظر إلىّ بعينين ذابلتين وقال :

— أملنا فيكم الآن عظيم ، فربما كنتم خيراً منا ومن أسلافكم .

وكان هذا الشيخ من الظرفاء اللاهين ، الذين لا يبالون بما يقولون ولا بما يفعلون ، تجلس معه فيحدثك فتصغى إلى حديثه ويلذك سماعه ، وتميل إليه كل الميل ، ويخاطبك بلا كلفة ، وينزل من شيخوخته إلى شبابك ، فيخيل إليك أنك تجالس شاباً أصغر منك سناً ، فتجاريه فى أحاديثه بدون مراعاة لكرامة شيخوخته . ومن الناس من تحبه وتميل إليه ، ولكن لا يدفعك ذلك إلى احترامه الواجب عليك . ولقد كان يتبسط فى الحديث فيقول ما لا يقوله مثله لمثلى ، ولكنه كان مع هذا كله حلو الحديث فكه المجلس فى تبسط وخفة روح وصراحة محبوبة .

قال لى مرة :

— أتدرى كيف تعلمت ؟ كنت فى كتاب من كتاتيب الريف ، أذهب إليه حافى القدمين ، عارى الرأس ، لا يستر جسمى غير جلباب واحد أزرق ، أخرج من بيتى ومعى قطعة من خبز وقطعة من جبن قديم ، وآكل فى الطريق ، وفى يوم الخميس والجمعة يلزمنى أبى أن أسير وراء عجل يدير ساقية ، وفى يدى سوط أضرب به العجل إذا توانى ، وقد رآنى أبى مرة ألعب فى الغيط والعجل واقف ليس وراءه أحد ، فتناول السوط من يدى وضربنى به ، فلما تركنى حقدت عليه ، وكرهت الحياة بين أهلى ، فخرجت هائماً إلى أن وصلت إلى بلدة (المركز) ، وبينما أنا سائر فى الطريق أدركنى جندى وأمسك بيدى وقادنى إلى (المركز) ومنه إلى القطار . فإلى القاهرة ، وأسلمنى إلى إحدى المدارس فى ناحية من نواحى المدينة ، فما لبثت أن أصبحت تلميذاً مجداً ، وقد أعجبنى ما أنا فيه من نعيم ما كنت أحلم به ، ثم توسم الناظر منى ميلاً إلى الرياضة ، إذ كنت فى مقدمة زملائى الرياضيين ، وظهر أنى أميل إلى الهندسة ، وكان معلمى يقول لى : إنك من التلاميذ النجباء ، فأرسلتنى الحكومة إلى فرنسا فنجحت نجاحاً باهراً والتحقت بكلية العلوم والطب .

وفجأة نظر أمامه وقال :

— انظر . . انظر . قاتل الله هذه الفتاة الجميلة !

وأقبلت سيدة فسلمت وجلست ، فأخذ شيخنا يمازحها ويداعبها .

* * *

وكان لا بد من الرحيل والرجوع إلى مصر ، فعلمت أن سفناً ستسافر معاً إلى الشرق محروسة ببارجتين حربيتين ، لتأمن غوائل الغواصات . وكنت كلما حاولت ركوب سفينة وعلمت بيوم مغادرتها الميناء ، وهممت بركوبها ، قالوا إن يوم الرحيل قد أجل ، لعدم أمن الطريق . وكانوا يقولون إن الطريق فى البحر غير مأمون ، لأنه لا يكاد يخلو من غواصة ألمانية تمخر فى جوفه ، وتتجسس نواحيه ، وكانوا يتحدثون عن براعة قواد هذه الغواصات وشجاعة ملاحيها ، واستبسالهم فى مواقفهم ، وإخلاصهم فى عملهم ، ورغبتهم الحقة فى الطاعة وحب النظام . وقالوا إن هذه الصفات هى التى ستكسبهم الظفر . وكثيراً ما تحدثوا فى المجالس بلهجة تنم عن الخوف من هؤلاء ، والإعجاب بهم والحقد عليهم معاً ، ثم من صفاتهم الخلقية وحب الألمان لبلادهم ، وأن الألمانى لا يفرق بين الوطنية والجندية ، إذ خدمة الوطن وخدمة الجيش لديه سواء ، وأن هؤلاء الألمان يعيشون للذود عن بلادهم التى هى رمز عظمتهم ، وأن الروح الجرمانى روح حربى ، وإذا أراد أعداؤهم أن يحطوا من قدرهم قالوا : .

— إن الجنس الجرمانى جنس وحشى بربرى ، لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، وأنه يعيش فى عالم من الكبر والخيلاء ، ويعتمد على القوة ، ولا يعرف الحق . ويروون عن امبراطورهم العبارة المأثورة عنه : « القوة تمحو الحق وتزيله » . ورووا عنه أيضاً أنه قال : « لو همت السماء بالسقوط على الأرض لرفعتها بأسنة الرماح والسيوف » .

وكنا نسمع كل يوم أن سفينة غرقت ، وأن غواصة قذفت سفينة بضربة فأغرقتها بمن فيها ، فكان يتملكنى الخوف أحياناً ، وأحياناً أجدنى غير مبال بما سيكون ، وأفكر فى أن الحياة خير وشر ، فيهدأ خاطرى وتطمئن نفسى .

ولما علمت بموعد قيام تلك السفن ذهبت إلى الميناء ، فرأيت رجالاً ونساء وأطفالاً يصعدون ، وآخرين يودعون ، ويرجعون وهم يبكون ؛ وكان أكثر المسافرين من الجنود . على أن السفينة لم تكن بارجة حربية ، ورأيت أسرّة الجرحى ونقالاتهم صاعدة نازلة ، فهذا جندى مضمد وجهه بالأربطة ، وهذا جندى مقطوع الذراع أو الساق ، وهذا أعرج ، وهذا أعمى ، وهذا صحيح ولكنه جريح ، وهذه امرأة تحمل طفلها ، وهذا شاب وهذا شيخ ، وهذا ... وهذا ...

وكأنما كل راكب ذاهب إلى ساحة الموت ، وكلهم عابس الوجه ، مقطب الجبين ، ذاهل ، حزين ، يائس .

حملت إحدى حقائبى الصغيرة ، وسرت وراء الحمال ، متدافعين بالمناكب ، والعرق يتصبب منى ، ولم يكن الجو حاراً ، ولا الشمس طالعة . وما زلت أخوض فى سواد الناس ، وأسير من مضيق إلى مضيق ، وأصعد وأنزل ، حتى وصلت إلى حجرتى ، ووضعت متاعى بها ، ووقفت ببابها أنظر الرائح والجائى ، والصحيح والسقيم ، وأتأمل فى تلك الوجوه الكئيبة العابسة .

وما كادت البارجة تهم بالقيام حتى سمعت طلقة (مدفع) فذعرت وقفزت إلى أعلى ، وما كنت أستقر فى مكانى حتى سمعت طلقة أخرى ، فاشتد ذعرى ونظرت إلىّ سيدة كانت بجانبى مع أطفالها وقالت :

— لا تخف ياسيدى . هذه تجربة المدافع التى بالسفينة .

فقلت :

— وهل بالسفينة مدافع ؟

فقالت :

— نعم . لتصد هجوم الغواصات .

ثم نظرت إلىّ وقالت :

— لقد امتقع لونك ، فهل أنت خائف ؟

قلت بدون روية :

— نعم . لا . أنا لا أخاف !

فقالت :

— فماذا تكون حال أبنائنا فى ساحة القتال ؟

قلت مضطرباً فى شىء من العىّ والحصر ، وهززت رأسى فى لهجة من الكذب الصراح :

— لا . لا . أبداً . أنا لا أخاف .

وتركتها صاعداً مضطرباً ، متظاهراً بالشجاعة ، حتى وصلت إلى مكان (المدفع) فرأيت حوله جماعة من المسافرين والدخان متصاعد من فوهته ، والجند يمسحون جوفه .

وسارت السفينة على مهل رويداً ، رويداً ، والمودعون على شاطئ البحر يشيرون بأيديهم وقبعاتهم ، منهم الباكى ومنهم الصامت ، فكنت أغبطهم ، وأحدث نفسى بأنهم فى مأمن مما عسى أن نلاقيه من ذعر وهول !

والتفت ورائى فرأيت مئات من الجنود الجرحى على سطح السفينة ، بجوار كل واحد عدته ، وهم سمر الوجوه ضئيلة أجسامهم ، خائرو القوى ناضبة مياه وجوههم .

فقلت لجاري : إلى أين يذهب هؤلاء ؟

فقال : هؤلاء من جنود مدغشقر ، جاءوا لمساعدتنا ، وهم الآن راجعون إلى بلادهم ، لأن هذه السفينة ذاهبة إلى مدغشقر عن طريق بور سعيد .

فلما سمعت بور سعيد ، قلت فى نفسى :

— ترى أرى سماء مصر وأرضها ؟ وقلت ناظراً إلى صاحبى :

— عن طريق بور سعيد ؟! عن طريق بور سعيد ؟!

فقال محدثى :

— نعم ياسيدى ، عن طريق بور سعيد .

وكلما ابتعدت السفينة من الشاطئ ، أظلم الجو فى وجهى ، وكنا فى منتصف النهار وما زالت السفينة تمخر عباب الماء ، وعلى قرب منها تلك السفن التى ترافقنا وترافقها ، حتى اقترب المساء ، ونسج الأصيل فى السحب خيوطه الذهبية ، وأخذت الشمس تستتر وراء تلك السحب مرة ، وتمزقها أشعتها تارة ، وكأنها نافورة من عينين ، أو عين تتفجر مياهاً لازوردية ، وطوراً تظهر مقنعة بنقاب شفاف ، وهى تتدلى وتقرب شيئاً فشيئاً من سطح الماء ، فترمى فيه بكتلة من نار . وما كادت تقرب من الماء ، حتى غاصت فيه ، واختفت وسط أشعتها الملتهبة . ثم سقطت فى اليم سقوط الجندى الباسل فى ساحة القتال .

ثم دارت السفن دورة وكأنها ترجع إلى الوراء ، وأظلم الجو وهى تخب خبباً ، ثم شاهدنا على بعد نوراً واقتربنا من شاطئ ، مضى ، فقيل لنا هذه مرسيليا قد عدنا إليها .

(لها بقية) **أحمد ضيف**

بين المجـــــلة والقراء

همس :

إلى إمام الأدباء الدكتور طه حسين بك :

قد يربط الله بين النفوس من غير طريق الرابط بين الأجساد ، وقد تتعارف الأرواح وتأتلف ، دون حاجة إلى ما ألفه الناس من المقابلات والمحادثات . وإنى يا سيدى رجل أعجبت من زمان بأدبك الرفيع ، وعلى كثرة ما فيه مما يستحق الإعجاب ، كان خير ما أعجبت به وأكبرته فى أدبك صراحتك فيه ، وتوكيدك لما تريد من معانيه توكيدا يمحق الشك ، ويجوز المراد أبلج سافرا ، ولو اضطررت فى سبيله لاغضاب من لا يعرف للأدب حقه من التسامى فى غضب الغاضب ، وحنق الحنق وعتب العاتب .

لكنى أراك قد خرجت على مألوفك حين عرضت لكتاب الأستاذ الكبير العقاد « رجعة أبى العلاء » — الذى أعرف له منزلته من الأدب ، ومقامه الفريد فيه — عرضت له مترفقاً محاذراً مجانباً صراحتك المعهودة ، متجاوزا الموافقة واللين إلى طبقة أدنى إلى الدعابة والرطاوة ، التى لم يمح أثرها من نفسى ما لأسلوبك البديع من حلاوة وطلاوة .

وعدت فى أول عدد من « الثقافة » أن تهاجم ولو أصبت ، وأن تقسو ولو أدميت ، وأن تنقد ولو أغضبت أقرب المقربين منك وأعزهم عليك . وإنى فاتى أن أرى المعركة ناشبة بينك وبين العقاد فى العدد الثالث ، فإنى لأرجو أن أراها ثائرة عالية فى الأعداد القادمة . وأؤكد لكم أنى على شدة كرهى للوقيعة بين الأحباب ، أتمنى لو استطعت الايقاع بينكما ، فان ذلك حرى أن يجلب للأدب وأهله خيرا كثيرا ، وغذاء روحيا قريبا ، فيه نفع وفيه متعة لا سبيل إليهما من غير طريق النقد الصريح ، والمناظرة الحرة الطليقة بين الإمامين الأعظمين .

والسلام على أستاذى ورحمة الله .

على زكى

وكيل مديرية القليوبية

رد الدكتور طه حسين بك :

أشكر للكاتب الأديب تحيته الطيبة ، وثناءه الجميل ، وحسن ظنه ، الذى أرجو أن أكون له أهلا . وأطلب إليه ألا يتعجل الحوادث ، وألا يثير نار الخصومة الأدبية الخامدة قبل إبانها ، فلكل شىء وقته ؛ والأمر بين الأستاذ العقاد وبينى لم ينته ، ولن ينتهى بمقال أو مقالين . فللأستاذ العقاد علىّ دين ثقيل ، لأنه أمتع القراء بكتب كثيرة لم أعلن فيها رأيى بعد . وفى هذه الكتب شعر ونثر ، وفيها قصص ونقد ، وفيها تاريخ وفلسفة . فمادة الخصومة غزيرة ، أغزر جدا مما يظن الكاتب الأديب ؛ وأعزز من أن تحوجه ، أو تحوج غيره إلى أن يسعى بين الأستاذ العقاد وبينى بالوقيعة التى يكرهها كما نكرهها نحن ، والتى لن تبلغ من مودتنا شيئاً ، مهما تكن ماهرة بارعة . وليس على الخصومة العنيفة بينى وبين الأستاذ العقاد فى الأدب من بأس ، أن تبدأ بالدعابة واللين والنقد الرفيق ، فرب لمحة أغنت عن صراحة ، ورب إشارة أجزأت عن عبارة . والأستاذ العقاد بعد رقيق الحس دقيقه ، وهو أرق منى حسا ، وأدق منى مزاجا ، يضيق بالنقد ويتأثر بلذعه أكثر مما أضيق وأتأثر . لا يكاد يقرأ فصلا فى نقد كتاب من كتبه حتى يسرع إلى الرد وإلى الرد الذى يتكلف فيه التأويل والتحليل ، وتقدير أصحاب النحو والصرف ، وتخريج أصحاب اللغة والفقه . فالخير كل الخير فى أن نطرق عليه الباب فى رفق ، وأن ندخل عليه بعد أن يأذن لنا فى رقة وظرف . والله يعلم بعد ذلك كيف يكون مقامنا عنده ، وكيف يكون انصرافنا عنه .

وماذا عسى أن يسمع القراء مما سيدور بيننا من حديث ، ومما سيكون بيننا من وداع ؟

فصبرا ياسيدى فان الله مع الصابرين ، وانتظر ، رب انتظار لم يضيع صاحبه ما أنفق فيه من وقت .

وتقبل تحيتى مضاعفة وشكرى مجددا .

طه حسين



عشرة أيام فى العراق

للأستاذ الدمرداش محمد

٥ — إلى النجف الأشرف :

فى خرائب بابل

غادرنا بغداد بالسيارة قبل ظهر يوم الخميس ١٠ فبراير لزيارة خرائب بابل ، وكان معنا السيد تحسين ابراهيم ومفتش الآثار السيد حسين عونى فوصلناها بعد ساعتين ، واستقبلنا هناك مدير الحفائر العراقية ، وهو أستاذ ألمانى عاش بمصر والشام زمناً . قال لنا : لم يبق من بابل ، عروس الدنيا ومفخرة الكلدانيين ، إلا هذه الأطلال . فقد تآزرت فيضانات الفرات ، ومعاول المنقبين عن الكنوز على اكتساح ما سلم منها من يد الهدم والتخريب . وهذا هو حال باقى آثار العراق لم يبق منها إلا القليل . فالقصور والمعابد والهياكل كانت تبنى بالآجر ، لا بالحجر الصلد ، كما بنى قدماء المصريين . وكانت تقام وسط الوادى على شواطئ الأنهار فنخرتها الرطوبة ، واكتسحها الطوفان . وانتقلنا إلى وسط التل فشاهدنا بقايا المعبد وجزءاً من طريق مبلطة ، وبعض جدران عليها نقوش ، وتمثالا من الحجر يمثل أسداً ورجلاً يتصارعان ، قال عنه إنه أهم ما تحتويه هذه الآثار .

وذهبنا من الحفائر إلى الحلة لتناول الغداء بمنزل عبد الجبار بك الراوى حاكم اللواء ، على بعد خمسة كيلومترات من بابل . والحلة عاصمة الولاية ، موقعها على الفرات كموقع امبابه على النيل . وهنا ودعنا صديقنا ورفيقنا فى رحلتنا الدكتور محمد عبد المنعم بك رياض وبحله فؤاد عائدين إلى بغداد .



تمثال أسد بابل : أسد ورجل يتصارعان

فى الكوفة

وتابعنا نحن السير إلى الكوفة ، فوصلنا أمامها بعد الغروب بقليل ، وعبرنا الفرات على جسر من القوارب ، وقابلنا على مدخل الجسر من جهة الكوفة رئيس البلدية ، فدعانا لمنزله حيث قدم لنا الشاى العجمى المعطر والمعطف التركى الفاخر . والتقينا فى الدار بأحد أدباء الكوفة ، السيد محمد رضا الحسانى ، وهو صاحب مجلة أدبية تسمى « القادسية » تصدر أسبوعية بالكوفة .

وعمارة الكوفة كعمارة الحلة ، إلا أنها أكبر اتساعاً وعمراناً ، ويجرى الفرات تحتها ، وموقعها لموقعه جميل كموقع سوهاج على النيل .

فى النجف

ثم قصدنا النجف فوصلناها بعد العشاء ، ونزلنا ضيوفاً بدار سعادة الحاج عبد المحسن جلبى شلاش وزير مالية العراق الأسبق . واستقبلنا صاحب الدار وأنجاله استقبالا حافلا .



فى دار السيد شلاش : على يمينه قائمقام النجف وعلى يساره الآنسة آمال العشماوى .

والدار من طابق واحد ، ولها فناء مكشوف تحيط به الحجر والمرافق . جلسنا بجانب صاحب الدار فى صدر منظرة كبيرة على مقاعد وثيرة ، وجلس فى الجناح المقابل بعض أعيان النجف ، ثم وفد للترحيب بنا قائمقام النجف ، سعادة السيد صالح بك حمام . وبعد أن استرحنا دعينا لحجرة الطعام ، ووضعت أمامنا على الخوان أصناف المأكول والمشروب . وأعجبنى من بينها صنف من الأرز ممزوج بالحمص وعليه « خلطة » من اللحم واللوز والتوابل الدسمة والبهارات الحريفة .

وبعد العشاء دار الحديث حول المفاضلة بين التعليم قديمه وجديده ، فذكرنا الأزهر ، ومدارس النجف ، والجامعة المصرية .

ويعتبر السيد شلاش من أكبر أغنياء العراق ، ومن أوسع أهل الشيعة جاهاً ونفوذاً . يلبس القفطان والجبة والعباءة ، وطربوشاً حوله عمامة عبانى على طريقة أشراف النجف ، ويلبس أولاده البذلة والسدارة ، يتكلم بتؤدة وحذر ، عاصر الحكم العثمانى ، وزار الآستانة ، ومرس بالحكم وبالتجارة ، وأدار مشروعات ناجحة ، وأنشأ خطاً لترام الخيل بين الكوفة والنجف ، مسافة خمسة كيلومترات . حدثنا أحد الرفقاء قال : لما كان السيد شلاش وزيراً للمالية ، احتاجت الحكومة إلى مبلغ تدفعه لمرتبات الموظفين فى الشهر الأخير من السنة . ولما كان يبغض الاستدانة من الأجنبى ، دفع هو المبلغ المطلوب من جيبه الخاص ، وحرر به صكا على الحكومة .

وفى صباح اليوم التالى نزلنا إلى سرداب المنزل للفرجة — وتعتبر هذه السراديب من عجائب بيوت النجف — وهم ينزلون إليها على درج حلزونى ، وتتكون من طابق واحد أو من طابقين ، وأحياناً من ثلاثة تحت الأرض ، ويقضى أهل الدار سحابة النهار فى الصيف فى السراديب فراراً من شدة القيظ ويهجرونها فى الشتاء . ونظام السرداب كنظام الطابق الذى فوقه ، به حجر وصالات ومرافق ، وله فتحات للنور وللتهوية . وقيل لنا إن لمدرسة السيد كاظم اليزدى سرداباً ينزل إليه بأربع وثمانين درجة . والمنازل الجديدة لايحفرون بها سراديب فى الغالب اكتفاء « بالمروحات » ووسائل التهوية الحديثة .

فى المقام الشريف

ثم توجهنا راجلين لزيارة مقام سيدنا على كرم الله وجهه ، فدخلنا إلى حرم المقام من باب عظيم فى البناء الخارجى ، ووجدناه غاصاً بالزائرين والزائرات شأن جميع مزارات الشيعة فى شهر المحرم من كل عام . والمقام بناء عظيم ضخم مربع الشكل تعلوه قبة من الذهب تتوهج فى ضوء الشمس ، وعلى الركنين مئذنتان كالعروسين زينة وجمالا .

والجدران يكسوها ترابيع القيشانى الملون بأجمل الألوان ، يتألف منها صور الأزهار واشتباك الأغصان ، وأبواب المقام من صفائح الفضة وشبابيكه يغطيها الزجاج المعشق . ثم دخلنا الضريح : الله أكبر ! أهذا قبر الإمام على ! أم معرض للفن ؟ أم متحف للنفائس ؟ السقف من الخشب الثمين ، بالغ الصانع فى زخرفته بالنقوش المذهبة والتكوينات الهندسية الرائعة ، وتدلت من السقف سلاسل الذهب تحمل ثريات البلور وقناديل الزجاج الملون من أنفس هدايا الملوك والسلاطين . وغطيت العقود والأعمدة بقطع من المرايا بأشكال وأوضاع تلمع ببريق يبهر الأنظار . وعلى الجدران إطارات من ذهب وفضة داخلها آيات قرآنية وأحاديث نبوية من أجمل ما كتبه خطاطو تركيا وفارس . وعلى الأرائك نمارق من الدمسق الغالى طرزت حواشيها بخيوط الحرير والذهب . وعلى الأبواب والنوافذ ستائر مزركشة من أغلى أنواع المخمل . وأرض المقام من الرخام اللؤلؤى العديم النظير ، أبيض ناصع البياض وأسود وأخضر ، مطعمة فى بعضها بأشكال تسر الناظرين ، وفوقها مبسوط أفخر أنواع السجاد تغوص فيها الأقدام . وفى الأركان تحف لا مثيل لها من صناديق وشمعدانات وثريات ومصاحف من الهدايا والنذور . وعلى القبر الشريف



جامع النجف

مقصورة من الفضة المموهة بالذهب أفرغ الصانع فى نقشها وزخرفتها أسمى ما وصل إليه الفن العربى والفارسى من إبداع وابتكار .



منظر يبين رشاقة الفن فى جامع النجف

ثم زرنا فى الحرم مكتبة الجامع ، وهى فى حراسة أحد العلماء ، أرانا مصحفاً مخطوطاً قال إنه من نفائس المخطوطات ، كان قد كتب فى صدر الاسلام برسم أحد الخلفاء .

ورأيت فى الحرم بعض القرويين يحملون نعشاً يطوفون به حول المقام . فسألت : وهل سيدفن هذا الميت فى مقبرة النجف ؟ فهمس بعض الرفقاء فى أذنى قائلاً : أنى له بهذا الشرف ! إنه فقير لا يملك الأتاوة التى تطلبها سدانة المقام الشريف لكى يؤذن له بالدفن .

قلت : وأين يدفن إذن ؟

قال : إن أهله يكتفون بنعمة الفيض التى نالها بهذا الطواف المبارك ، ثم ينقلونه إلى بلده إن قريباً أو بعيداً ليدفن فيه .

وفي الطريق أخبرني سائق السيارة بأن مقبرة النجف مقدسة لا يدفن فيها إلا كبار مجتهدي الشيعة وأصحاب الثروات الكبيرة الذين يقدرون على دفع الضريبة . ثم ذكر أن سمو أغا خان قد تبرع أخيراً بعشرين ألفاً من الجنيهات نظير السماح له بدفن جثمان المرحومة والدته في المقبرة المطهرة .

ثم خرجنا إلى شوارع المدينة وزرنا بعض الأسواق ومعظمها مسقوف بألواح من الصاج ، والحوانيت صغيرة تباع فيها الحلوى والعطارة والأقمشة . ولاحظت بسقف أحد الأسواق خروقاً كثيرة ، سألت عنها فقيل لنا إنها من بقايا المعركة التي دارت هنا إبان الثورة بين أهل النجف والانجليز .

التقيت في الشارع بشاب يرتدي بذلة قال إنه من المتخرجين في المدرسة الخديوية بالقاهرة . وبعد أن عرفني بنفسه قال : أرجو أن تكون مسروراً مما رأيت بالنجف . قلت : عظيم السرور . قال : إن بمصر قوماً ينسبون إلينا نحن الشيعة أقوالا وأعمالا لا تنطبق على الدين . فطمأنته . فقال أرجو أن تبلغ سلامي وتحياتي لأستاذي ناظر المدرسة كساب بك . قلت : يصل إن شاء الله .

ثم تفرجنا على مدرسة السيد كاظم اليزدي أحد مجتهدي الشيعة ، وهي عبارة عن زاوية وسكن ومدرسة يقيم فيها المريدون والمجاورون والطلاب على حسب نظام الأروقة بالأزهر قديماً ، واستقبلنا بها في خلوته السيد علي السيد كاظم اليزدي ابن منشيء المدرسة ، وسألته عن عدد الطلاب بها فقال : نحو مائة وخمسين .

ثم دعينا لزيارة جمعية الرابطة العلمية الأدبية بالنجف ، فدخلنا إلى دار كبيرة تشبه الخان ، اجتمع في حجرة فيها عدد كبير من الأعيان والأدباء ، فبادلنا وإياهم التهاني بالعيد ، وشربنا الشاي ، وتناولنا الحلوى ، وتبارى خطباؤهم في الترحيب بنا نثراً ونظما ، وأشادوا بعظمة مصر الشقيقة وفضلها على الشرق العربي ، ونادوا في الختام بحياة مصر والعراق والملكين المعظمين فاروق وغازي ، وجاء دور سعادة العشماوي بك فألقى خطبة جامعة شاملة تناسب المقام طرب لها القوم وتحمسوا وهللوا . ورأيت على نضد بالحجرة بعض أعداد من جريدة تصدر بالنجف تسمى « الهاتف » لصاحبها السيد جعفر الخليلي ، قرأت في صدر العدد ١١٠ منها مقالا تحت عنوان « الأدب الصادق والأدب الكاذب » للأديب الأستاذ حسين مروة .

والنجف الأشرف بلد لطيف تحس بقدسيته من هوائه وجوه وسيماء أهله . والمدينة تقع على ربوة في مدخل الصحراء يحيط بها سور وعمارتها حسنة ، وتعتبر أهم مراكز الشيعة يحجون إليها من أطراف العالم ويتسابقون في تقديم النذور والهدايا حدثنا بعضهم قال : إنه قد تجمع على مر السنين لدى سدانة المقام من هذه النذور والهدايا ، كنوز من ذهب وجواهر لا تقدر بثمن ، حاول

الأتراك في أخريات أيامهم بالعراق الاستيلاء عليها كلها أو بعضها لسد نفقات الحرب فلم يفلحوا .

في جامع الكوفة

رجعنا إلى الكوفة لمشاهدة جامعها المشهور ، فبدا من بعيد كالحصن ، ودخلنا من الباب إلى صحن كبير مكشوف تحيط به غرف صغيرة داخل الجدار قيل لنا إنها لإقامة الزوار أثناء المواسم ، وفي وسط الصحن مسجد غائر في الأرض ينزل إليه بدرج على طريقة السراديب قيل لنا إن الصلاة تقام فيه وقت اشتداد الحر زمن الصيف . ورأينا في وسط الجدار الغربي للجامع المكان الذي قتل فيه سيدنا عليّ ، قد أقيم عليه سياج من قضبان النحاس والفضة ، وولع في زخرفته بترابيع القيشاني الأزرق ، قد ازدحم أمامه المتبركون مطرقي الرؤوس خاشعي الأبصار ، يبكون ويتوجعون ، وتقدم الصفوف شيخ هرم كان يبكي وينتحب ويردد بصوت حزين نداء : « يا علي ! » .

إلى كربلاء

وعلى باب جامع الكوفة ودعنا مضيفنا السيد شلاش وخدام النجف شاكرين ، واتخذنا طريق الصحراء إلى كربلاء ، فوصلنا أطرافها بعد ساعة ونصف ساعة ، ورأينا من بعيد قبابها الذهبية تتألق في الأفق تحت أشعة الشمس ، ودخلنا المدينة عند الظهر ، فبدت حزينة كأنها في مأتم ، وتقدمنا إلى مقام الحسين رضوان الله عليه فخيل إليّ ونحن في حرمه ، وعلم أحمر يرفرف على قبته الذهبية ، وجموع الحجاج من حوله ينتحبون ويولولون ، ويلطمون الخدود والصدور ، كأن القوم ما زالوا في مناحته ، يوم أن أهدر دمه الطاهر على أديم الصحراء ، في نفس المكان من ثلاثة عشر قرناً خلت .

لم نمكث طويلاً بكربلاء ، واكتفينا بنظرة عاجلة ، فالمدينة لا تختلف كثيراً عن النجف في عمارتها وأسواقها ، والمشهد الحسيني لا يختلف كذلك كثيراً عن جامع الكاظمية ببغداد في هندسته وزخرفته .

حدثنا أحد الرفقاء أثناء الطريق في العودة إلى بغداد قال : إن النجف وكربلاء من البلاد التي ليس لها مثيل في كل العراق ، من حيث تميز سكانها إلى طبقات ، واختصاص كل طبقة منها بامتيازات وتقاليد فطبقة السادة ، وهم سدنة الحرم بالتوارث ، يلبسون الطربوش ملفوفاً حوله قطعة من قماش أخضر ، وطبقة الأشراف يلبسون الطربوش أيضاً ملفوفاً حوله قطعة من قماش قباني (قماش أبيض مخطط بخطوط صفراء فاقعة) . وطبقة العامة يلبسون العقال والكوفية . ويتمتع السادة والأشراف بالنفوذ والغنى ، ويقومون بخدمة المقام ، وتنظيم حركة الزيارات والحج ، ويعرفون الفارسية ، وتقوم العامة بالتجارة والأعمال الأخرى .

(يتبع) الدمرداش محمد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر البلاد

ثمن العدد ٦ مليمات

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢

العدد السابع | « الثلاثاء ٢٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — ١٤ فبراير سنة ١٩٣٩ » | السنة الأولى

الفهرس

الموقف الدولي

بعد الخطب الثلاث

لمحرر « الثقافة » السياسي

كانت خطب الأقطاب الثلاثة : تشمبرلن ، وهتلر ، وموسوليني ، أهم أحداث السياسة الدولية في الأسبوعين الماضيين ؛ وقد أصبحت هذه الخطب الموجهة عاملا ذا شأن في تطورات السياسة الأوربية ، بعد أن عودنا الزعيمان الألماني والإيطالي ، أن يفصح كل منهما عن طرف من خططه وغاياته في خطب ومواقف معينة . وكانت هذه الخطب في أحيان كثيرة نذير مفاجآت عظيمة في السياسة الأوربية ، كما حدث غير مرة في العام الماضي ؛ ففي شهر فبراير كانت خطب هتلر نذير الخطر على النمسا وتمهيدا لضمها ؛ وكانت خطبه في سبتمبر نذير الخطر على تشيكوسلوفاكيا ، مما أدى إلى عقد مؤتمر ميونيخ وتحقيق مطالب ألمانيا بأكملها . وقد حدثت منذ مؤتمر ميونيخ تطورات خطيرة في السياسة الأوربية ، رتبت بالأخص على حركة إيطاليا في سبيل مطالبها الاستعمارية ، وعلى تفاقم

المسألة الاسبانية بانتصار الجنرال فرانكو وسقوط برشلونة ، وسادت الأفق الدولي في الآونة الأخيرة سحب وندر جديدة مزعجة . ومن ثم كان اهتمام العالم بالخطابين الموعودين ، خطاب الهر هتلر والسنيور موسوليني ، وما قد يقضيان به من أقوال وتصريحات عن المشاكل الأوربية الكبرى التي تتوقف عليها مصاير القارة ومصاير الحرب والسلام .

وقد ألقى « الزعيم » (هتلر) خطابه في ٣٠ يناير في مجلس الريخستاج لمناسبة الذكرى السادسة لقيام حكم الاشتراكية الوطنية (النازية) في ألمانيا ، وألقى « الدوتشي » (موسوليني) خطابه في ٤ فبراير في المجلس الفاشستي الأعلى . بيد أنه لوحظ أن المستر تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية وهو ثالث الأقطاب الثلاثة ، قد سبق الدكتاتورين ، فألقى في برمنهام في ٢٧ يناير خطاباً هاماً جامعاً عن الحالة الدولية وموقف السياسة البريطانية منها ؛ والمعروف أن مستر تشمبرلن من أعظم أنصار السلم ، وأشدهم إيثاراً للوسائل السلمية في تسوية المنازعات الدولية ، ومن ثم كانت مواقفه المشهورة في سبتمبر الماضي ، وكانت زيارته الأخيرة لرومة . ولكن الذي لا ريب فيه هو أن مستر تشمبرلن يلقى في هذه السياسة معارضة شديدة من الجبهة البريطانية ، التي لا تثق بحسن نية الدول الدكتاتورية ووعودها ، وفي رأي هذا الفريق أن سياسة تشمبرلن قائمة على الخوف والتسليم ، وأن محور برلين رومة بعد أن حقق ظفره في ميونيخ بواسطة هذه السياسة ، ما زال يرجو المزيد من نتائجها وثمراتها معتمداً في ذلك على سياسة الوعيد والتحدي . والظاهر أن مستر تشمبرلن نفسه قد بدأ يشعر بشيء من التوجس لعواقب هذه السياسة ، فقد سمعناه لأول مرة منذ ميونيخ يتحدث بلهجة قوية حاسمة عن موقف بريطانيا العظمى إزاء الأزمة الدولية الحاضرة ، وكون بريطانيا قد حددت موقفها بصورة واضحة يجب ألا يساء فهمها ، وقد حان الوقت لأن يعمل الغير في سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة ، وعن موقف الأمم الديموقراطية ، وكونها كما قال الرئيس روزفلت في رسالته عن العام الجديد ، لا يمكن أن تسلم بسيطرة القوة على العالم ، ولا مناص من أن تقاوم هذه المحاولة بكل قواها ، وأن لا شيء يعرض سلام العالم للخطر مثل هذا التحدي . ثم يقول لنا مستر تشمبرلن إن التسلح أصبح ضرورة لا مناص منها ، وإنه يرجو أن يكون تسلح بريطانيا العظمى مقدمة للعودة إلى التعقل والروية في أوربا ، وإن الحرب في هذه الأيام فظيعة العواقب على الذين يدخلونها مهما كانت نتائجها ، بحيث يجب ألا تقع إلا بعد أن تتخذ كل وسيلة عملية شريفة لاتقائها ، وإنه « يجب أن نضع أنفسنا في مركز نستطيع فيه الدفاع عن أنفسنا ضد أي اعتداء ، سواء أكان موجهاً إلى أرضنا أم إلى شعبنا ، أم إلى مبادئ الحرية التي يرتبط بها وجودنا كأمة ديموقراطية ، والتي نعتقد أنها تتضمن أقدس الخواص العالية للحياة الإنسانية وروحها . وأن نكون في هذا المركز إلى أن نصل إلى تفاهم حق يزول به كل توتر سياسي »

* * *

هذه الفقرات الوجيزة من خطاب مستر تشمبرلن تنم عن تطور واضح في اتجاه السياسة البريطانية التي يقودها مستر تشمبرلن نفسه ؛ ومع أن رئيس الوزارة البريطانية قد لجأ في التعبير عن آرائه إلى أرق الأساليب السياسية وأرقعها ، فإنه لم يترك مجالا للريب في تصميم بريطانيا العظمى على أن تقابل الاعتداء بمثله ، ولم يحجم عن التنويه بمعركة المبادئ التي تضطرم بين الدكتاتورية والديموقراطية ، والتصريح بأن الديموقراطية التي تتزعمها بريطانيا العظمى لن تدخر وسعاً في الدفاع عن كيانها ومبادئها ؛ فإذا ذكرنا أن رئيس الوزارة الفرنسية ووزير خارجيتها قد أفضيا قبل ذلك بأيام قلائل بتصريحات قاطعة في عزم فرنسا على المحافظة على سلامة أرضها وسلامة امبراطوريتها ، والدفاع عنها ضد

أى معتد عليها ، أدركنا أن السياسة التى ارتضتها الدولتان الديموقراطيتان فى ميونيخ قد أصابها رد فعل عميق .

وقد ألقى هير هتلر خطابه المرتقب فى مجلس الريخستاج بعد خطاب مستر تشمبرلن بثلاثة أيام ، ولوحظ بهذه المناسبة أن رئيس الوزارة البريطانية رأى أن يسبق بإلقاء خطابه لحكمة مقصودة ، هى ألا يتورط الجانب الآخر فى تصريحات ومفاجآت لا محل لها ؛ وعلى أى حال فقد جاء خطاب « الزعيم » الذى استغرق إلقاؤه أكثر من ساعتين خلواً من هذه المفاجآت المزعجة ، وإن لم يخل من تصريحات خطيرة عدة ؛ وقد أفاض كعادته فى الكلام على نعم الحكم النازى على ألمانيا ، وما حققه لها من الأمانى القومية العظيمة ، وما أسبغه عليها من آيات القوة والعزة ، وليس فى حديثه جديد من هذه الناحية ؛ ثم أفاض فى الكلام عن مركز ألمانيا الاقتصادى ، ومتاعبها من هذه الوجهة ، وهى متاعب يحمل الفريق الآخر تبعتها ، وتطرق من ذلك إلى التحدث عن ثروات العالم وكونها موزعة بطريق العنف ، وأنه ما دام العنف وسيلة التقسيم ، فسيبقى أيضاً وسيلة التغيير من آن لآخر ؛ أما إذا كان التوزيع بطريق العدالة والتعقل فيجب أخيراً أن تسود فيه العدالة والانصاف .

ونحن لا نعنى كثيراً بهذا العرض الاقتصادى الذى استغرق معظم الخطاب ، والذى تبدو أهميته فقط من حيث اتصاله بحديث المستعمرات ، وإنما نعنى بنوع خاص بما فيه من اشارات وتصريحات عن المسائل الأوربية الكبرى التى تشغل بال العالم ، ونستطيع أن نلخص هذه التصريحات فيما يلى :

أولا — أن ألمانيا ترغب فى السلم كل الرغبة ، وأنها لا تمتشق الحسام إلا لكى تدفع خطراً يداهمها من الخارج ، وأنها لا تهدد أحداً ، ولا تفكر فى مهاجمة أحد ، ولكنها تقف فى وجه كل سعى من دولة أخرى للتدخل فى شؤونها

ثانيا — أنه لابد لألمانيا أن تستعيد مستعمراتها لأسباب اقتصادية وأدبية ، وأنه فيما خلا مسألة المستعمرات لا يوجد أى خلاف اقليمى بين ألمانيا وبين فرنسا وبريطانيا ؛ بيد أن مسألة المستعمرات لا يمكن أن تعتبر سبباً كافياً لإثارة الحرب .

ثالثا — أن ألمانيا متضامنة كل التضامن مع إيطاليا ، « وأنه إذا حدثت حرب من أى نوع ومن أى ناحية ضد إيطاليا بطريق الاثارة [(١)] ، فإن ألمانيا تقف إلى جانبها كرجل واحد »

رابعا — أن ألمانيا تحتفظ بمبادئها النازية داخل حدودها ، ولا ترى أية فائدة من إذاعتها خارج أرضها ، ولا ترى أن تخاصم أحداً من الشعوب بسبب المبادىء .

خامساً — أن الهير هتلر يعتقد فى سلام طويل الأمد ، ولا يرى مبرراً للخلاف بين ألمانيا وانجلترا أو ألمانيا وفرنسا ، وأن يكون من دواعى الغبطة أن ينعقد التفاهم بين الفريقين .

* * *

تلك هى النقط الجوهرية التى وردت فى خطاب المستشار هتلر ، وهى فى مجموعها تدل على تحوط واعتدال لم نعهدهما فى خطبه من قبل ؛ فهو يؤيد رغبته فى السلم هذه المرة بصورة متكررة واضحة ، وينفى كل احتمال للحرب الاعتدائية ، ويعرب عن أمله فى استقرار السلم لمدى طويل ؛ ونلاحظ مثل هذا التحوط واضحاً فى تصريحه الخاص بتضامن ألمانيا وإيطاليا من الوجهة العسكرية ، فهو مع تأكيده بأن ألمانيا تقف إلى جانب إيطاليا إذا وقعت الحرب ضدها ، يقيد هذا التضامن بشرط أن تقع الحرب ضد إيطاليا بطريق الاثارة ، أو بعبارة أخرى أن تكون حرباً اعتدائية من جانب خصوم إيطاليا ، ودفاعية من جهة إيطاليا .

فهل فى ذلك ما يرضى الأمانى الإيطالية ، وما يشجع إيطاليا على المضى فى مطالبها الاستعمارية ؟ أكبر الظن أن

---

(١) وهى بالنص (Ein Krieg vom Zaune gebrochen) .

هذا التأييد الغامض المقيد بشرط الاعتداء ، والذى لم يشر إلى مطالب بذاتها لم يحقق كل ما كانت تعلقه إيطاليا على تأييد حليفتها المنوى فى هذه الظروف ، وهو بلا ريب لا يعدل موقف إيطاليا من أمانى ألمانيا ومطالبها حينما غزت النمسا وطالبت بمنطقة السوديت ، إذ نذكر عندئذ مواقف السنيور موسولينى ، وما كان يعلنه من تضامن وثيق مع ألمانيا ومطالبها ، وما اتخذه أثناء أزمة سبتمبر من إجراءات التعبئة الجزئية ليشد أزر حليفته .

ونستطيع أن نرجع تحفظ المستشار هتلر فى ذلك إلى عوامل ثلاثة : أولها أن ألمانيا ترى أن إيطاليا قد اندفعت فى مطالبها الاقليمية والاستعمارية إلى حدود غير معقولة ، وترتب على ذلك رد فعل شديد فى فرنسا وفى الجبهة الفرنسية البريطانية التى ازدادت حزماً وتضامناً فى موقفها ، وانتهت بخطاب مستر تشمبرلن الذى يعلن فيه أن الديموقراطية لا يمكن أن تسمح للقوة أن تسود أوربا . والثانى أن ألمانيا نفسها لا ترى أن تثير أزمة أوربية ، أو أن تخوض حرباً من أجل المطالبة بمستعمراتها ، فهى من باب أولى لا ترى أن تتضامن بصفة مطلقة مع إيطاليا فى إثارة مثل هذه الأزمة ، أو مثل هذه الحرب ، من أجل مطالبها الاستعمارية المغرقة . والثالث أن ألمانيا تنظر بتوجس شديد إلى أمريكا وتضامنها الواضح مع الدول الديموقراطية ، وترى أن الظرف يتطلب كثيراً من الروية والاعتدال .

وإذاً ففى وسعنا أن نقول إن تحفظ المستشار هتلر قد أحدث نوعاً من خيبة الأمل فى إيطاليا ؛ ويبدو ذلك واضحاً فيما أبدته الصحافة الإيطالية من فتور فى التعليق على خطابه ، وإن لم يفتها أن تنوه بتصريحه الخاص بمساعدة ألمانيا لإيطاليا إذا نشبت الحرب ضدها ، بل يبدو بنوع خاص فيما أحيط به خطاب « الدوتشى » أمام المجلس الفاشستى فى مساء الرابع من فبراير ، من التحفظ والتكتم ؛ ذلك أنه لم يذع خلافاً لما كان منتظراً ، بل صدر عنه بلاغ رسمى موجز قيل فيه إن المجلس الفاشستى بعد أن سمع بيانات « الدوتشى » يعرب عن عظيم ارتياحه لخطاب المستشار هتلر ، ويؤكد التضامن السياسى والفكرى والعسكرى بين الفاشستية والنازية ، ويعلن أن المتطوعين الإيطاليين لن يغادروا اسبانيا قبل انتصار فرانكو النهائى . ولم يشر البلاغ الرسمى بشىء إلى « أمانى إيطاليا الطبيعية » أو مطالبها الاستعمارية ؛ ولكن ظهرت عقب ذلك فى الصحف الإيطالية تعليقات شبه رسمية قيل فيها إن الدول الديمقراطية يجب أن تبدى شيئاً من التعقل فتمنح بعض الأراضى ، وتعترف ببعض الحقوق ، وإن إيطاليا ستكافح حتى تظفر ألمانيا بمستعمراتها ، وأنه يجب تغيير المواثيق المعقودة بين الدول إما بالوسائل السلمية أو بالحرب .

على أنه فى نفس الوقت الذى تغرق فيه الصحف الإيطالية فى وعيدها ، يعلن مستر تشمبرلن فى مجلس العموم (٦ فبراير) بكل صراحة وجلاء أن بريطانيا تقف إلى جانب فرنسا بكل قواتها إذا وقع عليها اعتداء أو تعرضت مصالحها الجوهرية للخطر ، وهو تصريح خطير ذو مغزى واضح .

تلك هى أدوار هذه المظاهرة الخطابية الدولية ، التى بدأت بخطاب مستر تشمبرلن ، فخطاب المستشار هتلر ، فخطاب السنيور موسولينى ؛ ولا ريب أنها فى مجموعها قد أسبغت على الأفق الدولى شيئاً من الوضوح والطمأنينة ، خلافاً لما كان ينتظر من اضطرابه وتفاقمه ، ولا ريب أيضاً أنها تشف عن تحسن ظاهر فى مركز الجبهة الديموقراطية ، وتحمل على الأمل بأن موقف الحزم الذى اتخذته فرنسا وبريطانيا ، ومن ورائهما أمريكا ، قد يحمل المعسكر الدكتاتورى على أن يتبع سياسة أكثر روية واعتدالا .

(***)

قصتان !....

للدكتور طه حسين بك

إحداهما لموليير ، والأخرى لجيرودو ، وموضوعهما واحد ، أو يوشك أن يكون واحدا . وعنوانهما واحد على كل حال ، ومذهب الكاتبين فيهما واحد . وقد أراد الكاتب المعاصر جيرودو أن يقلد الكاتب القديم والشاعر العظيم موليير ، وأن يجدد قصته ، كما صنع بقصص يونانية قديمة ، فجددها وأحيا أبطالها القدماء ، وأحيا ما كان يلم بهم من أحداث ، وأجرى الحوار بينهم في هذه الأحداث نفسها ، ولكنه أجراه على نحو لا يصور به الأحداث القديمة ، والعقل القديم ، والشعور القديم فحسب ؛ وإنما يصور به الحياة الحديثة ، والعقل الحديث ، والشعور الحديث أيضا . ولعله إلى تصوير الحياة المعاصرة وأحداثها أحرص منه على أن يصور الحياة القديمة وما كان فيها من الخطوب ، أو لعله أحرص على أن يحقق غايته الفنية الخالصة غير حافل بالحياة القديمة ولا بالحياة الحديثة إلا بمقدار ما تقدمان له من المادة لتحقيق هذه الغاية الفنية ، وهي مجرد إمتاع العقل والشعور بلون من الأحداث والحوار يلائم ميله إلى الدعابة والفكاهة والعبث بكل شيء ، والسخر من كل شيء ، واستخلاص العظة والعبرة من هذا السخر وذلك العبث دائما .

وقد وفق جيرودو في هذا النحو من تجديد القديم إلى آيات فنية رائعة بارعة حقا ، يقف منها القراء والنظارة موقف الدهش والحيرة والإعجاب . ولست أنسى تجديده لقصة ألكترا ، وعرضه أحداث هذه القصة على طريقته هذه الغريبة ، التي تملؤها المفاجآت ، ويكثر فيها التنقل بين النقائض ، والوثوب من طور إلى طور آخر لا يلائمه ولا يشاكله ، وإنطاق القدماء بما لا يمكن أن ينطق به إلا المحدثون . والانتهاء بعد ذلك إلى تصوير ما يمتاز به هذا العصر الحديث من اضطراب الخواطر والآراء ، واختلاط الأمر على أهله ، حتى يخيل إليهم ، أو إلى أصحاب السذاجة منهم ، أن أمور الناس كلها سائرة إلى الفساد ، ولكن حكيمهم — وهو شخص تظهر عليه أمارات البله والغفلة ، وآيات الفقر والإعدام ، حتى يراه بعضهم بائساً سؤلة ، ويراه بعضهم الآخر إلهاً عابثا — هذا الحكيم ينبئهم بأن فساد أمورهم هذا ليس شرا ولا نكرا ، ولكنه فجر لعصر جديد .

قرأت قصة ألكترا هذه مرة وشهدت تمثيلها مرتين ، وما زال أحب شيء إلي أن أجدد العهد بها فأقرؤها مرة ومرة وأشهد تمثيلها مرة ومرة كذلك . ولكني لم أكتب لأتحدث إليك عن ألكترا . فقد يتاح لي أن أتحدث إليك عنها في فرصة أخرى ، وإنما كتبت لأتحدث عن هذه القصة التي حملت إلينا أخيراً والتي تجدد قصة قديمة لموليير . وقد قلت إن عنوان القصتين واحد ، فقد سمى موليير قصته ارتجال فرساي L'impromtu de Versaillis وسمى جيرودو قصته ارتجال باريس L'impromtu de Paris . وقلت إن موضوع القصتين واحد أو يوشك أن يكون واحداً وأن مذهبهما واحد على كل حال . فقد خطر لموليير سنة ١٦٦٤ أن يرد على بعض خصومه ومنافسيه من الممثلين الذين كانوا يعيبونه ويشتطون عليه في النقد ، فلم يرد

عليهم بكتاب يؤلف أو رسالة تنشر أو فصل يذاع . وإنما يرد عليهم بقصة تمثل ، وزعم أنه يرتجل تمثيل هذه القصة ارتجالا . أخذ فرقته بأن تمثل بين يدي الملك على غير استعداد للتمثيل ، وعلى غير استظهار لحوار أعد من قبل ، وإنما ينبغي أن يتخيل كل ممثل وكل ممثلة الشخص الذي يجب أن يصوره ، وأن ينطق على لسان هذا الشخص بما ينبغي أن ينطق به الشخص نفسه ، وأن يأتي من الحركات ويظهر من الأشكال ويتخذ من جرس الصوت وتنقيحه ما ينبغي لذلك الشخص أن يأتي به .

وقد خطر لموليير أن يهيىء فرقته للاعادة في وقت قصير جداً قبل مقدم الملك لشهود التمثيل ، وجعل أعضاء الفرقة يتعللون عليه لأنهم لا يستطيعون التمثيل على غير تأهب ولا استظهار ، وجعل هو ييسر الأمر عليهم تيسيراً ، ويشتد عليهم ويعنف بهم أحياناً ، ويرشدهم إلى ما ينبغي أن يقولوا وإلى ما ينبغي أن يفعلوا ويتعجلهم في ذلك وهم يستجيبون له حيناً ويتمنعون عليه أحياناً ، ويكون من الحوار بينهم وبينه في ذلك كله إلمام بما أراد أن يلم به من الرد ، وهجوم على منافسيه وخصومه واستهزاء بهم وسخرية منهم ، وتصريح بهذا كله ، ونقد للحياة الاجتماعية في القصر وفي باريس ، وعرض لمذهبه في التمثيل المضحك وتقرير لأنه عندما يضع قصة مضحكة لا يريد هذا الشخص أو ذاك ولا هذه الطبقة أو تلك ، وإنما يريد إلى الناحية التي تستحق النقد وتثير السخرية من نواحي الحياة الانسانية . فليس عليه بأس أن يرى الناس أنفسهم في هذه القصص لأنه لم يرد إلى ذلك ولم يعن به ، وإنما رأى الناس أنفسهم في هذه القصص مصادفة وعلى غير تعمد من الكاتب لأن قصصه كانت مرآة صادقة صافية لحياة الناس وما يكون لهم من الأخلاق وما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال . وإن موليير ليحاور أعضاء فرقته ويداورهم وإذا قادم عليه ، ينبئه بأن مقدم الملك قريب ، فيضطرب ، ويستمهل ، ولكن الملك لا يمهل ، فهذا رسوله يلح ، وهذا موليير يستمهل ، ثم ينتهي الأمر إلى أن يقبل الملك عذر الفرقة ، فيمهلها ويعفيها من هذا التمثيل الذي لا يمكن أن يرتجل ارتجالا .

كذلك صنع موليير في القرن السابع عشر . فأما جيرودو فقد سلك هذه الطريقة نفسها في القرن العشرين ، ولكنه لم يقصد إلى الرد على خصومه ومنافسيه ، ولا إلى النيل من نقاده وعائبيه ، أو هو قد قصد إلى ذلك في شيء من التلميح والإشارة . فأما قصده الصريح فكان إلى الدفاع عن التمثيل والذياد عن هذا الفن الذي يخضع في هذه الأيام لأزمة عنيفة توشك أن تعرضه لخطر شديد .

وقد كان طريفاً أن يرى النظارة في ديسمبر من سنة ١٩٣٧ أعضاء فرقة التمثيل في ملعب الاتينيه بباريس يتحدثون بأسمائهم وبأشخاصهم ، لا يمثلون أشخاصاً غيرهم ، ولا يتسمون بهذه الأسماء التي يضعها الكتاب لأبطال القصة وأشخاصها ، ولا يتحدثون في غير شؤونهم الخاصة التي تمس فنهم الذي يعيشون به ويعيشون له . وكان مصدر هذا الظرف قبل كل شيء أن الكاتب خدع النظارة عن أنفسهم وعن الممثلين ، فخيل إليهم أنهم يرون هؤلاء الممثلين وهم يضطربون في حياتهم الفنية اليومية ، وخيل إليهم بذلك أنه يظهرهم على دخائل التمثيل والممثلين ، مع أنه في حقيقة الأمر لم يظهرهم إلا على ما أراد أن يظهرهم عليه من تكلف الفن وتعمله ، فهؤلاء الممثلون الذين كانوا يضطربون ويتحاورون أمام النظارة لم يكونوا أنفسهم إن صح هذا التعبير ، وإنما كانوا أشخاصاً يمثلون أنفسهم تمثيلا ، ويمثلون أنفسهم كما أراد الكاتب أن يمثلوها لا كما أرادوا هم أن يمثلوها . فهذه هي الخدعة الأولى . والخدعة الثانية أن هذا الحوار الذي كان يدور بين الممثلين لم يكن هو الحوار الطبيعي الذي يدور بينهم في حياتهم الفنية اليومية إذا خلوا إلى أنفسهم ، وتحدث بعضهم إلى بعض . وإنما كان حواراً صنعه لهم الكاتب ، وأخذهم بإدارته بينهم

وإجرائه على ألسنتهم ، وقد أخذ الممثلون حين رفع الستار يتهيئون لتمثيل القصة القديمة التي كتبها موليير ، وتحدثت عنها آنفاً ، وأخذوا يتمثلون بما كان يتمثل به أصحاب موليير من أنهم لم يستعدوا ، ويتعللون بأشياء أخرى حديثة أقحمها الكاتب إقحاما في القصة ليخرج البيئة عن طورها القديم ويلائم بينها وبين العصر الحديث . فهذه ادوات تطلب هنا وهناك ، وهذه ممثلة مريضة يريد رئيس الفرقة أن يجلب لحلقها فيمسه ببعض الدواء قبل أن تبدأ بالتمثيل ، وهؤلاء الممثلون يداعب بعضهم بعضاً ويتندر بعضهم على بعض بأحاديث وفكاهات مشتقة من حياتهم اليومية ، وصلاتهم الخاصة . وهم في ذلك وإذا قادم يقبل عليهم فيتنكرون له ويتبرمون به كما فعل موليير في قصته ، ويريدون أن يردوه عن ملعبهم لأنهم يعيدون ولا ينبغي أن يشهد الإعادة أجنبي . ولكنه يلح ويفرض نفسه عليهم فرضاً كما فعل القادم على موليير في قصته مع شيء خطير من الفرق ، وهو أن موليير قد نجح في التخلص من الطارىء عليه . فأما جوفيه رئيس الفرقة المعاصرة فقد انتهى إلى أن يرغب إلى الطارىء عليه في أن يقيم ، وفي أن يلقي عليه ما أراد من سؤال .

ذلك أن هذا الذي طرأ على الفرقة المعاصرة ، لم يكن ثقيلا ولا طلعة ، وإنما هو عضو من أعضاء مجلس النواب الفرنسي ، ومن أعضاء اللجنة المالية في هذا المجلس ، قد أقبل يحمل إليهم مالا ، أو يحمل إليهم الأمل في المال . ظهر للجنة المالية أن دخل الدولة قد أربى على خرجها ، بمقدار لا بأس به من الملايين ، فرأت أن تهدي هذا المال إلى الفرق التمثيلية ، وكلفت هذا العضو من أعضائها أن يضع تقريرا عن هذه المنحة التي ستنزل عنها الدولة تشجيعا للتمثيل ، ورأى هذا العضو ألا يكتب تقريره حتى يتحدث إلى الممثلين أنفسهم عن هذا الفن وحاجاته ، واختار رئيس هذه الفرقة لمكانته الممتازة بين الممثلين والمخرجين ، وأصحاب الرأي في شؤون التمثيل بوجه عام .

ولا يكاد رئيس الفرقة يسمع منه هذا ، حتى يطمئن إليه ، ويظهر حسن الاستعداد للاجابة على ما سيلقى عليه من سؤال . والحوار الذي يدور بين هذا النائب وبين رئيس الفرقة وأصحابه هو الغرض الذي قصد إليه الكاتب حين وضع قصته . وهو حوار لذيذ قوي حقا ، وألذ منه وأقوى أن الكاتب قد استطاع أن يجريه على ألسنة الممثلين ، وأن يجريه على ألسنتهم في الملعب ، وأمام النظارة ، وبين أيدي الجمهور . وموضوع هذا الحوار خليق أن يكون موضوعا لمقالة تنشرها الصحف أو لكتاب عن فن التمثيل ، وهو على كل حال من الموضوعات التي يحسن أن يخلو إليها القارىء فيقرؤها بينه وبين نفسه ، ثم يتحدث فيها إلى أصحابه وأصدقائه ، فأما أن يعرض هذا الموضوع على جمهور النظارة الذين يكتظ بهم ملعب التمثيل ، فهذا هو الشيء الطريف ، لأن الكاتب قد حول الممثلين إلى محاضرين ، يحاور بعضهم بعضاً في النقد الأدبي الخالص الرفيع .

وهذا يعجبني ويلذني ، ويصور ما انتهت إليه بعض البيئات الأوربية أو الباريسية من الرقي الأدبي الممتاز الذي يمكن جمهورا غير متخير ولا منتخب ، من أن يذهب إلى الملعب ، وينفق في ذلك الوقت والمال ، ليسمع الممثلين يحاور بعضهم بعضا في هذا النقد الممتاز الرفيع .

وقد كنت خليقا أن أترجم لك هذا الحوار ترجمة ، فذلك أمثل طريق لإظهارك على ما فيه من قوة وجمال ، ولكن صفحات «الثقافة» لا تتسع لهذه الاطالة ، فحسبي أن ألخص لك الأصول التي دار عليها هذا الحوار .

فالكاتب يدرس في هذا الحوار ما يكون من صلة بين النقاد والممثلين ، وبين النقاد والنظارة ، ويدرس ما يكون من صلة بين النظارة والممثلين وبين الملعب نفسه والممثلين ، ويدرس آخر الأمر ما يكون من صلة بين التمثيل والدولة ، وبين الدولة والنظارة التي تختلف إلى ملاعب التمثيل . وكل

موضوع من هذه الموضوعات خليق أن يطول فيه البحث ويكثر فيه الكلام . ولكن الكاتب يلم به إلماماً رفيقاً سريعاً فيه مع ذلك الغناء كل الغناء . فأما الصلة بين النقاد والممثلين ، وبين النقاد والنظارة ، فيراها الكاتب رديئة إلى أقصى حدود الرداءة . ذلك لأن النقاد لا يحبون الفن ولا يحبون النظارة ، وإنما يحبون أنفسهم وما يكون لتقدمهم من صوت بعيد . وقد صنعوا لأنفسهم من الفن صورة مشوهة ليست صحيحة ولا صادقة ، وقد أذاعوا هذه الصورة وأسرفوا في إذاعتها حتى فرضوها على الناس فرضاً ، وحتى أفسدوا رأى الناس في التمثيل وذوقهم له ، فهم قد أهملوا في هذه الصورة التي صنعوها لأنفسهم وأفسدوا بها ذوق الناس ، ما ينبغي أن يكون للغة والأسلوب وحسن النطق من مكانة في التمثيل ، حتى انحط الفن وسفلت لغته وأسلوبه ، وأهمل الممثلون تجويد النطق ، وأصبح التمثيل فناً مبتذلاً من فنون الشوارع ، بعد أن كان فناً من فنون الأدب الرفيع . ومن إساءة النقاد إلى التمثيل والممثلين والنظارة جميعاً ، أنهم أقروا في نفوس الناس أن القصة التمثيلية إنما تقاس جودتها بحظها من الوضوح ، وقربها من الفهم ، بحيث لا يتعثر فيها الغموض ، ولا يقبل من كاتبها الالتواء . وبهذا ابتذل التمثيل وأصبح شيئاً كغيره من الأشياء ، يسيراً سهلاً لا مشقة فيه ولا جهد ، وأمكن الاستغناء عن شهود اللعب بقراءة القصة ، مع أن التمثيل ليس القصد به إلى الفهم والإفهام ، وإنما هو متعة فنية خالصة ، يشترك فيها العقل والقلب ، والعين والأذن ، والذوق والمزاج كله ، هو أشبه الأشياء بالموسيقى ، ليس من الضرورى ، وقد لا يكون من الممكن ، وقد لا يكون من الخير أن تفهم ، وإنما غايتها أن تثير اللذة وتحدث هذا المتاع الفنى الممتاز .

والقياس الذى يجب أن تقاس به جودة القصة في رأى جيرودو ، هو الأثر الذى تتركه ، أو قل الذى تحدثه في نفوس النظارة ، لا أثناء شهودهم للتمثيل ، بل بعد أن تنقضى الليلة الكاملة بينهم وبين شهود التمثيل . فإذا أصبح أحدهم نشيطاً سعيداً ، مغتبطاً مبتسماً للحياة ، مستقبلاً عمله في جد وحسن استعداد ، فقد شهد قصة تمثيلية جيدة ، وإلا فقد شهد قصة تمثيلية رديئة .

وكذلك يسىء النقاد إلى الممثلين وإلى التمثيل وإلى النظارة ، حين يبتذلون التمثيل ويغضون من شأنه ويكلفونه ما لا ينبغى أن يتكلف . والصلة بين النظارة وبين التمثيل والممثلين نتيجة لموقف النقاد ، فهم ينقادون لما يقرأون ويأتمرون بأمر هؤلاء السادة الذين يوجهونهم في الصحف إذا أصبحوا وإذا أمسوا . وكان الحق أن يكون النقاد مرآة للنظارة لا قادة لهم ولا مؤثرين فيهم .

فأما الصلة بين الدولة وبين التمثيل والممثلين وبين النظارة فليست أقل رداءة من الصلات التى صورتها آنفاً ، ومصدر ذلك أن الدولة لا تفهم نفسها ولا تفهم واجبها لنفسها ولفرنسا . فالدولة الفرنسية قد أعرضت في هذه الأيام عما ألفت من السنن والتقاليد ، وسلكت في حياتها مسلكاً يغض من مكانها في الخارج . فهى تؤثر العافية وتميل إلى اللاأبية وتحرص على أن تحسن صلاتها مع أمم الأرض جميعاً ، وهى بذلك تقصر في مهمتها التاريخية الخطيرة . ومهمتها التاريخية الخطيرة هذه هى أن تنغص على العالم حياته . فقد خلقت فرنسا لتراقب وتنقد وتنكر الظلم والطغيان ، وترد الظالمين والطغاة إلى العدل والقصد ، بحيث يشعر كل ظالم وكل طاغية أن أموره تستقيم له لو لم توجد هذه الدولة المتعبة التى تسمى فرنسا . وينشأ عن تقصير فرنسا في فهم مهمتها وعن إيثارها للعافية في حياتها الخارجية أن يسلك الأفراد والجماعات مسلك الدولة ، فيكون اللين ويكون التهاون ويكون التقصير في الواجبات والإخلاد إلى حب الأمن والدعة وإيثار النفس باللذة والخير .

(البقية على صفحة ٤٠)

«مستقبل الثقافة فى مصر»

للدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك

عميد معهد التربية

تفضل الأستاذ الدكتور طه حسين بك فأهدى إلى هدية ثمينة مشكورة ، هى كتابه الجديد « مستقبل الثقافة فى مصر » ، وأول ما خطر لى حين تسلمته أن أتصفح قائمة محتوياته ، فوجدته لم يدع شاردة ولا واردة تتصل بالتعليم والحياة الفكرية إلا وتعرض لها ، فأيقنت أن مطالعته واجبة على كل معلم وكل مشتغل بتنظيم الحياة الفكرية وتوجيهها فى مصر . فالدكتور طه حسين بك قد اجتذب بهذا الكتاب فريقاً كبيراً جديداً من القراء ، فقد كان الأدباء والذين يتصلون باللغة والأدب فيما مضى يؤلفون أغلبية من يحرصون على قراءة كتاباته ، أما الآن وقد تصدى لعرض نظام التعليم عندنا فى جميع مراحله ، فقد ضم إلى قرائه العديدين السابقين فريق رجال التعليم الذين لم يكونوا يتتبعون الحركة الأدبية بالعناية والدقة التى تدفعهم لقراءة كتابات الدكتور السابقة .

أقبلت على الكتاب أقرؤه بإمعان ، ولم أكتف بمطالعة واحدة بل قرأته مرتين ، فقد كانت القراءة الأولى متقطعة بحكم ظروف العمل ، ثم سنحت لى فرصة عطلة عيد الأضحى فقرأته مرة أخرى قراءة متلاحقة ، وقد خرجت من قراءته تتنازعنى عوامل مختلفة ، وإحساسات متباينة . وأهم ما استرعى نظرى وبهرنى احتواء الكتاب على كثير من الآراء الجديدة ، تبدى فى قوة ، وتبسط فى جرأة ، بل تلقى فى أوجه الناس كالقنابل بغير أدنى حذر أو مراعاة أو تردد ، وهذه الصراحة وتلك الشجاعة ، لو توفرت فى كثير من كتابنا لأثمرت أينع الثمرات ، ولأتت بأحسن النتائج ، فالحقائق لا تنجلى ، والآراء لا تمحص إلا إذا عرضت فى غاية الصراحة ومنتهى الشجاعة .

ولعل من أجل مظاهر هذه الصراحة وتلك القوة ، حملة المؤلف الصادقة الصائبة على ولاة الأمور فى مصر ، لأنهم على الدوام لا ينظرون إلى أمور التعليم نظرة جدية ، وإذا حدثتهم فيها سخروا منها ، وأخذوا يبتسمون أو يتغامزون ، على أنك إذا حدثتهم عن شئون التجارة والزراعة والصناعة ، بدا عليهم الجد والاهتمام ، فيقول المؤلف : « إن أمور مصر كلها تضطرب حين تعرض للقطن آفة من الآفات ، وحين تكسد السوق وينخفض السعر ، هنالك تضطرب الحكومة والبرلمان وتقلق الصحف ... والقصور . أفإن عرضت للتعليم آفة تفسده وتفسد النشء ، الذين هم أبناؤنا وخلفاؤنا على أرض الوطن ، لا نحفل بها ولا نهتم بإصلاحها كما نحفل بجودة القطن ، وكما نهتم لاضطراب الأسواق ؟ » . وهذه حقيقة مؤلمة ، وعيب لا مناص لنا من إصلاحه قبل أن نؤمل فى أى إصلاح تعليمى .

على أنى أرى أن حماسة الكاتب لآرائه التى يعتقدها ويناضل عنها ويدعو لها بتلك الصراحة والشجاعة والقوة يجب أن تكون مقتصرة على بسط مزايا تلك الآراء وإيراد الحجج التى تؤدى إلى الإكبار من شأنها ، وإقناع الناس بمشاركة الكاتب فى الاعتقاد بها ، دون أن يصل التحمس لتلك الآراء إلى حد يدفع الكاتب إلى ازدراء غيرها وتسخيفه بشدة وعنف . فما أكثر ما نجد فى الكتاب

من عبارات « الخطأ الشنيع » و « السخف الذى ليس بعده سخف » ، « وأجهل الجهل ... » الخ . هذا إلى مهاجمة الطوائف بشدة وبشيء من القسوة والتعميم ، مع أننا نعرف أن كل طائفة فيها الخير والشر والصالح والطالح ، والمفكر المعتدل ، والمرائى الذى « يخدعك أو يخدع نفسه » . وكنت أوثر أن يبرأ الكتاب من هذا كله .

***

يخيل إلى قارئ هذا الكتاب أن هناك فكرة أساسية اقتنع بها المؤلف ، وربما تمكن من نفسه وتملكها فكون روح الكتاب ، وأملى على الأستاذ العميد الخطة التى رسمها فيه ، والطريق الذى رأى أن تسلكه مصر فى تعليمها ، والاتجاه الذى يجب فى نظره أن تسير فيه الثقافة بالبلاد . وهذا الرأى الذى بسطه المؤلف فى تفصيل ، وبنى عليه رسمه لمستقبل الثقافة فى مصر ، هو أن العقل المصرى من حيث التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ليس شرقيا بل غربيا ، وأن حياتنا فى هذا العصر الحديث سواء أكانت مادية أم معنوية أم سياسية حياة أوربية ، اصطفيناها لأنفسنا غير متخيرين ولا محتاطين ولا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن ، وما يلائم وما لا يلائم ، مدفوعين إليها بعقولنا وطبائعنا وأمزجتنا التى لا تختلف فى جوهرها قليلا ولا كثيراً — منذ العهود القديمة — عن عقول الأوربيين وطبائعهم وأمزجتهم . وقد استشهد الدكتور على رأيه هذا باستشهادات تاريخية عديدة استنبطها من علاقات مصر بالحضارة الإيجية القديمة ، ثم بالحضارة اليونانية فى عصور ازدهارها ، ومن علاقاتها بالفرس وبالإسلام ، وقد تخلل بسطه لهذا الرأى بحوث شائقة فيما إذا كانت وحدة الدين ووحدة اللغة تصلحان أساساً للوحدة السياسية ، وقواماً لتكوين الدول ، وفيما إذا كانت الحضارة الأوربية مادية والحضارة الشرقية روحية . وإنى لا أشاطر المؤلف هذا الرأى ، لكنى أدع مناقشته فيه وفيما تخلل عرضه له من مباحث فرعية لرجال التاريخ الذين هم أقدر منى على تأييد مثل هذا الرأى أو معارضته .

وبعد أن أكد المؤلف هذا الرأى انتقل إلى ما بعده فذكر أنه كما أننا الآن نسعى فى حياتنا الداخلية لأن نقر مبدأ المساواة بين أفراد الشعب جميعاً فى الحقوق والواجبات ، فهذا المبدأ نفسه يجب أن نقره فى حياتنا الخارجية ، فنمحو من أنفسنا أن فى الأرض شعوباً قد خلقت لتسود وأن شعوباً قد خلقت لتسودها ، والسبيل إلى ذلك فى رأيه واضحة بينة مستقيمة وواحدة ليس لها تعدد ، وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب . ومن ذلك يرى القارئ أن الفكرة التى تملكت نفس المؤلف ، والخطة التى اقتنع بها ودعا إليها فى صراحة وقوة هى أن مصر يجب أن تترسم خطى أوربا حرفاً بحرف .

وهذا رأى جرئ لا أظن أن الكثيرين من قادة الرأى فى مصر يقرون الأستاذ المؤلف عليه ، بل إنى أذهب إلى أبعد من هذا فأقول إن الدكتور طه بك ربما يكون قد تورط فيه إلى حد ما ، فقد دفعه حرصه الشديد على دعوة الأمة المصرية لتتبع النهضة الحديثة فى أوربا وتقليدها حرفياً ، إلى الدعوة لمشاركة أوربا حتى فى شر الحضارة ومرها وما يكره منها وما يعاب ، فالحضارة الأوربية لها سيئات لا نزاع فى أن قادة الرأى فى أوربا يعملون جاهدين على التخلص منها واستبدال ما هو خير منها بها ، والأستاذ المؤلف يدعونا إلى أن نحرص على التهامها دون أن نحسب لشرها أو مرارتها أو مكارهها أو معايبها حسابا .

ولعل هذه النزعة القوية وهذه الدعوة الشاملة تفسر ما يحس به الإنسان عند قراءة الكتاب من أنه لا يرسم صورة واضحة دقيقة لمستقبل الثقافة فى مصر ، فالمؤلف قد اعتمد على أن هذا المستقبل هو بعينه مستقبل الثقافة فى أوربا ،

مع أننا لا نشك فى أنه لو تصدى كتاب عديدون من أجناس أوربية مختلفة لرسم مستقبل الثقافة فى بلادهم ، لكانت الصورة التى رسمها الكاتب الانكليزى مخالفة للصورة التى رسمها الكاتب الفرنسى ، وهذه وتلك مغايرة للصورة التى رسمها الكاتب الإيطالى أو الكاتب اليونانى وكلها مخالفة للصورة التى رسمها الكاتب التركى .

ثم رسمه المؤلف فى كتابه بتفصيل دقيق هو النظام الذى يرى أن يسير عليه التعليم الأولى والتعليم العام . وهنا أيضاً نجد فكرة قوية متغلغلة فى نفس الأستاذ العميد ومتسلطة على كل ما كتبه فى هذا الصدد ، وهذه الفكرة هى اقتناعه بأن وزارة المعارف والقائمين عليها لا يستطيعون النهوض بمهمتهم وتسيير دفة التعليم فى الاتجاه المنتج ، بل قد يقيمون العقبات فى سبيل إصلاح التعليم فى كل ناحية من نواحيه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إيمانه القوى بقدرة الجامعة ورأيه لا سبيل للإصلاح التعليمى بغير إشرافها على التعليم إشرافاً تاماً والاشتراك الفعلى فى إدارته .

وقد كان المنتظر أن نقرأ للدكتور طه بك بعض آراء فيما ينتظر أن يتجه إليه التعليم فى مصر من اتجاهات عملية متصلة بالزراعة أو الصناعة أو التجارة ، دون الدخول فى تفاصيل تتصل بهذا التعليم الفنى العملى الذى تحاشى المؤلف الدخول فيه . فالمؤلف قد دعا إلى التوسع فى الدراسة الجامعية إلى أقصى حد . فهل أراد أن يكون هذا التوسع على حساب هذه الناحية الفنية العملية ؟ أو هو يرى أن يكون هناك توسع فى هذه بناظر التوسع فى تلك ؟ أو بعبارة أخرى : هل العقل المصرى مدفوع بطبيعته فى الاتجاه العملى أو فى الاتجاه النظرى ؟ وإذا كانت الأولى فهل سيكون هذا النشاط العملى موجهاً فى الاتجاه الزراعى أو الصناعى أو التجارى ، أو فى ناحية جديدة من نواحى الحياة الحديثة تتطلب إعداداً خاصاً من نوع جديد ؟ . ذلك ما لا يتبينه القارئ من الكتاب .

وليس فى استطاعة أى إنسان أن يتناول كل هذا الكتاب بالبحث فى مقال أو مقالات كهذه ، وذلك لكثرة الموضوعات التى تناولها وتشعبها وتعقد بعضها ، ولذا سأكتفى فيما يلى بالإشارة إلى بعض تلك الموضوعات ، كما أنى سأفرد للموضوعات المهمة كرأى الأستاذ العميد فى التعليم العام (الابتدائى والثانوى) ورأيه فى إعداد المعلم ، بحوثاً خاصة أنشرها فى فرصة أخرى .

تناول الدكتور طه بك التعليم الأولى ودافع عنه دفاعاً مجيداً ، وصاح صيحة قوية فى وجه من يقولون بأن هذا التعليم يجب أن يقصد إلى مجرد محو الأمية ، وتعليم الشعب قواعد الحساب البسيطة مع القراءة والكتابة ، وأهاب بالدولة أن تعنى بهذا التعليم أكبر عناية ، وأن تجعل أموره إلى صفوة الأمة والنابهين من علمائها الذين يفهمون التطور العام الذى تخضع له الحضارة الانسانية ، وأن تبذل جهدها فى رفع مستوى معلميه إلى حد يمكنهم من أن يهيئوا للشعب بواسطة هذا التعليم ثقافة معقولة نافعة ترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة . وإنى أؤيد الدكتور فى هذا الرأى وأعتقد معه أن واجب الدولة فى هذه الناحية من التعليم يجب أن يكون فى المقام الأول من واجباتها التعليمية .

غير أنى أخالف المؤلف فيما انتهى إليه من حيث ما يجب أن يتعلمه كل مصرى فى تلك المدارس الاولية ، فهو يضع فى المقام الأول المواد الاجتماعية ، كتاريخ مصر وتقويمها ونظامها السياسى والمدنى والاجتماعى ، ويضيف إليها تعليم الطفل المقدار اليسير الذى يمكن الفرد من أن يعمل بعقله ويده إلى حد ما . وأنا أرى أن ينعكس هذا الترتيب ، بحيث يوضع فى المقام الأول تعليم المواد التى تمكن الفرد من أن يعمل بعقله ويده إلى حد كبير ، مع العناية بتعليمه لغة بلاده ، وتاريخها ، وتقويمها ، ونظمها ، بصورة تمكنه من الاستزادة من هذه المعلومات الأخيرة ، وتحببه فى موالاة المطالعة فيها . فالاتجاه الحديث فى تربية الصغار يرمى إلى استغلال فاعليتهم ، حتى يكونوا فى أثناء الدراسة فى حركة

***

مستمرة يشتغلون أشغالا يدوية ، ويرسمون رسوما إيضاحية ، ويجمعون الزهور والحبوب ، والصور الحديثة والقديمة ، وما إلى ذلك كله من نشاط يستغل الفاعلية ، ويحمى التلميذ من مجرد التلقين والاستماع .

هذا وفى اعتقادى أن التعليم الأولى ، يجب أن يأخذ اتجاهاً جديداً ، فيبنى على حاجات الفلاح ، بحيث يلائم طبيعة الحياة فى الريف ، فتكون الأشغال اليدوية فيه كلها متصلة بالأرض وفلاحتهـا ، والزراعة وخدمتها . وإذا كانت بعض بلاد أوربا نفسها التى بها بعض زراعات بسيطة عنيت بفكرة المدرسة الريفية وإنشائها ، وأجريت فيهـا تجارب متعددة ، وكتب علماؤها كثيرا فى بحث الفكرة من أساسها والتجارب التى أجريت بشأنها ، ونظم المدارس التى تطلبها ، والاقتراحات الجديدة لتحسينها ، وجعلها أكثر مطابقة للحياة ، إذا كان هذا شأن بعض البلاد الأوربية ، فما أولانا نحن بسلوك هذه السبيل ، والحرص على إنشاء المدرسة الأولية الريفية .

كذلك كانت للدكتور طه بك جولات موفقة فى حديثه عن المجانية ، ونظم الامتحانات فى مصر ، انتهى فيها إلى ضرورة تنظيم فوضى المجانية ، حتى يتمكن النابهون من الفقراء من دخول مدارس التعليم العام . وذلك يستلزم إعادة تنظيم التعليم العام ، والتعليم الأولى ، بحيث يكون الانتقال من الثانى إلى الأول ميسوراً لمن تثبت كفايته وحسن استعداده للانتظام فى هذا التعليم العام ، وكذلك نقل التلميذ منه إلى التعليم الأولى ، إذا ثبت عدم صلاحيته للتعليم العام . وهـذا يستلزم بالطبع تأجيل تعليم اللغة الأجنبية بمدارس التعليم العـام ، وهو ما أوافق الدكتور عليه كل الموافقة . أما الامتحانات فبعد أن أفاض الدكتور فى بيان عيوبها ومضارها العلمية والخلقية ، انتهى إلى أنها شر لابد منه ، علينا أن نخفف منها ونردها إلى أصلها ، فنجعلها وسيلة لا غاية ، ونرد إلى المعلمين ما هم أهل له من الثقة ، فنقدر آراءهم فى تلاميذهم ، ومعنى ذلك إلغاء امتحان النقل فى مدارس التعليم العام ، إلا أن تقضى به ضرورة تقررها المدرسة وحدها . وإنى أشاطر المؤلف هذا الرأى أيضاً .

* * *

هذا ويرى المؤلف أنه إلى الدولة وحدها ، يجب أن توكل شؤون التعليم كلها فى مصر إلى أمد بعيد ، حتى توحد العقلية المصرية ، لتكون الوحدة الوطنية على النظام الحديث ، فقد خضعت البلاد فى رأيه لألوان مختلفة من التعليم ، ونظم متباينة ، ومناهج وبرامج ، ينكر بعضها بعضا ، ويصدم بعضها بعضا ، فهناك التعليم الرسمى المدنى بمدارس الحكومة ، وهناك التعليم الدينى أو المدنى بالمدارس الأجنبية ، وهناك التعليم المصرى الحر ، وهناك التعليم الدينى بالأزهر الشريف . وقد نشأ عن ذلك فى نظره اضطراب له آثاره الخطيرة فى حياتنا المصرية على اختلاف فروعها وألوانها .

والمؤلف يرى أن هناك مقدارا من مناهج التعليم العام وبرامجه ، يجب أن يكون مشتركا بين المصريين ، ويجب أن تشرف الدولة بالملاحظة والتفتيش والامتحان ، على أن المصريين جميعا مشتركون فيه شركة عادلة ، سواء أتعلموا فى المدارس الرسمية ، أم فى المدارس الحرة ، أم فى المدارس الأجنبية ، أم فى الأزهر ومعاهده .

وإنى لا أشاطر المؤلف رأيه فى الدعوة إلى هـذا التوحيد ، وتلك المركزية ، وأعجب من صدورها من عميد حرية الرأى . وما أظن أن اختلاف أنواع التعليم وتباين نظمه ، بل وتصادم بعض برامجه أو مناهجه ببعض ، كما يقول المؤلف ، من الشر إلى الحد الذى يصوره . بل لعل الباحث المدقق يجد فيه بعض الخير ، ويرجع إليه بعض عوامل نهضتنا الحديثة فى مصر . ولا نزاع فى أن التعليم طبقا لأى نظام من تلك النظم المختلفة كان يوصل الطالب المصرى إلى المستوى الذى يرمى إليه المؤلف ، ويرى فيه النهاية الصغرى لما يجب أن يتعلمه المواطن المصرى ، ولا نزاع فى أن التعليم فى أغلب المدارس الأجنبية كان يفضل

التعليم في مدارس الوزارة التي يرى المؤلف وجوب تسلطها على التعليم كله بغير استثناء ، بل إن إحساس خريجي تلك المدارس الأجنبية بالقومية المصرية كان في أغلب الأحيان إحساسا بينا عنيفا يفوق إحساس نظرائهم المتعلمين بمدارس الحكومة . وكان الكثير من هؤلاء الخريجين ممن تزعموا الحركة الوطنية ، وحملوا لواء الدعوة إلى التمسك بالقومية المصرية .

ولعل استقلال هذه المدارس الأجنبية عن الحكومة ، وعدم وقوعها تحت إشراف وزارة المعارف أفاد مصر فائدتين . الأولى وضع نماذج من المدارس الأوربية تحت أنظار المصريين ، تحفزهم إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وتدلهم على تطور التربية والتعليم عند غيرنا من الأمم الراقية . والثانية أن هذا الاستقلال كانت فيه حماية لتلك المدارس الأجنبية من أن تتسرب إليها عيوب المدارس المصرية .

وملاحظة أخرى أبديها على ما أظهره المؤلف في صدد الكلام عن ضرورة انفراد الدولة بالإشراف على شؤون التعليم كلها في مصر ، هي إكباره المعظم لشأن الملاحظة والتفتيش والامتحان ، مع أنه في مواطن أخرى يدعو إلى الثقة بالمعلم وإلى التخفيف من أضرار الامتحانات والإقلال من شأنها ، والذي حدا به إلى الوقوع في هذا التناقض الظاهري هو تلك الدعوة إلى التوحيد والمركزية ، فهي التي تتطلب تلك الإجراءات الشديدة وتلك المراقبة الدقيقة التي تكاد تشبه بعض ما تنزع إليه الهيئات الرجعية ، ولهذا فإني لا أتفق معه في هذا الاتجاه .

* * *

ولعل خير ما أختتم به القول في هذا المقال هو الإشارة إلى وجوه إصلاح التعليم كما بينها المؤلف في الباب السادس والعشرين ، وهي تتلخص في ثلاثة وجوه :

أولها : إنشاء مجلس أعلى تمثل فيه فروع التعليم كلها ، (ومنها الجامعة) وتمثل فيه عناصر من غير وزارة المعارف تتصل بالتعليم من قرب أو من بعد ، وتستطيع أن تشير في أمره بالقيم من الآراء ، يكون من أهم اختصاصاته أن يشير على الوزير في كل أمر خطير يمس التعليم ، وأن تؤلف من بين أعضائه لجنة دائمة تهيء له أعماله من جهة ، وتشير على الوزير في الحياة التعليمية اليومية من جهة أخرى ، وعلى أن يكون هذا المجلس وحده المختص بتأديب المعلمين .

والثاني : أن يعاد تنظيم مراقبات التعليم بحيث لا يستقل المراقب بأمر مراقبته ، وإنما ينشأ له مجلس صغير تكون له رياسته يخفف عنه بعض التبعات ، ويشير عليه وعلى الوزارة عن بصيرة وعلم بما ينبغي الإقدام عليه أو الإحجام عنه . على أن يؤلف هذا المجلس من أربعة غير المراقب اثنين يمثلان الجامعة ، ومفتش من مفتشي الوزارة ، وناظر أو معلم .

والثالث : هو إصلاح التفتيش بحيث يقيم المفتشون بالقرب من المدارس التي يكلفون تفتيشها .

فالقارئ يرى أن المؤلف متأثر في اقتراحاته هذه بما أشرنا إليه سابقاً من فكرته عن الوزارة ورأيه في الجامعة ، وقد وجد أن الظروف لا تسمح بالاستغناء الآن عن المكاتب الرئيسية بالوزارة وعن المشرفين على التعليم في الوقت الحاضر ، فلجأ إلى طريق وسط يحقق غرضه بعض التحقيق ، وذلك بإيجاد مجلس أعلى بجانب الوزير تمثل فيه الجامعة ، ولا تقتصر مهمته على توجيه السياسة العامة للوزارة ، شأن المجالس العليا في مثل هذه الحالات ، بل تؤلف من هذا المجلس لجنة لتشير على الوزير في تصرفاته فيما يعرض له من الأمور اليومية ، ثم ألف لكل مراقبة مجلسها الخاص الذي تمثل فيه الجامعة لتضمن تنفيذ آرائها في جميع فروع التعليم وجميع المراقبات في الوزارة ، والدليل على ذلك قول المؤلف في صفحة ١٩٤ : إن الجامعة تشعر شعوراً واضحاً في جميع كلياتها بضعف الطلبة الذين ترسلهم إليها المدارس الثانوية ، وهي تستطيع أن تدل على هذا الضعف ، ولعلها تستطيع أن تدل على أسبابه ، ولعلها تستطيع أن تعين على إزالة هذه الأسباب لو أن لها في إدارة التعليم الثانوي رأيا مطاعا . وقوله في صفحة ٢٣٥ : وإذاً فلا ينبغي أن تكون أمور التعليم العام إلى جماعة من الموظفين قد حددت

مقدرتهم العقلية ، وضاقت ملكاتهم عن فهم حاجات العلم ووسائله . وإنما يجب أن تكون أمور التعليم إلى رجال التعليم العالى أنفسهم . فهم الذين يحسنونه ، وهم الذين يعرفون حاجاته ويعرفون الوسائل إليه .

وإنى ألاحظ بوجه عام أن تنفيذ نظام كهذا غير عملى ، ففكرة المجلس الأعلى جيدة على شرط أن يكون الغرض منها بحث المشروعات العامة الجديدة أو الاصلاحات الرئيسية . أما أن تختص مثل هذه الهيئة (أو لجنة صغيرة منها) بالبحث فى المسائل اليومية وتشير على الوزير بتصريفها فأمر غير عملى ولا يتفق مع منطق الأشياء . وأما أن يسكن المفتش بالقرب من المدارس التى يفتشها فغير عملى أيضاً لأن سكناه فى الزقازيق لا تختلف عن سكناه فى مصر من وجهة نظر المؤلف ، وإن كان فيها بعض اقتصاد من ناحية أخرى . أما الصعوبات التعليمية والنفسية التى يذكرها المؤلف فلا تذللها سكنى المفتش بمدينة غير القاهرة .

وبعد فإنى أفهم أن تسيطر الجامعة على التعليم فى البلاد كلها ، ولكنى لا أفهم أن يتم هذا بوضع ممثلين لها فى كل إدارة من إدارات التعليم فى البلاد ، فذلك ما ليس من شأنها من جهة ، وما يصرفها عن عملها الأساسى من جهة أخرى . وإنما أفهم أن تسيطر الجامعة على التعليم فى البلاد كلها بما تبثه فيها من ثقافة عامة تنشرها بين المتعلمين كافة ، وبما تنشره من آراء تجعل لها مدارس خاصة فى أنواع التفكير المختلفة ، وبما يظهره رجالها من نظريات ومناح جديدة من مناحى التفكير ، وبالجملة بما تبثه من تعاليم تحول الناس إلى أفكارها وتوجههم الوجهات التى تراها وترتضيها ، وذلك من طريق الاقناع ، حتى يحس الناس أنهم يسلكون السبيل الذى يعتقدون أن فيه المصلحة . أما الدعوة إلى قيام هيئة بالاشراف على أخرى والوصاية عليها ، وفرض الأفكار على الناس والدولة وإكراههم على اتباع مشورة أفراد هيئة ما ، فهذا لا ينتج الخير الذى يبتغيه الدكتور ولا يحقق الإصلاح الذى يرجوه .

أحمد عبد السلام الكردانى

قصتان

(بقية المنشور على صفحة ٥)

ويذهب التمثيل هذا المذهب فيخرج للناس قصصاً يصور هذه الحياة الفاترة الخاملة . ولو قد مضت فرنسا فى سنتها وتقاليدها لذهب أبناؤها فى ذلك مذهبها ولكان بعضهم على بعض رقيباً ، ولكان التمثيل متنفساً لحياة الأفراد والجماعات ، بما يكون من مراقبته لها ونقده إياها وإنكاره عليها كل إسراف وكل تقصير . إذاً لقال كل مسرف وكل مقصر لنفسه إذا خلا إليها إن أمورى تستطيع أن تستقيم لى وأن تجرى على ما أحب لولا هذا النقص الذى يسمى ملعب التمثيل .

وإذاً فمن الحق على الدولة أن تفهم نفسها وتصحح سيرتها وتؤدى مهمتها أولاً ، ليذهب الأفراد مذهبها فى ذلك ، وليؤدى التمثيل مهمته ، فيصبح الرقيب الناقد الذى يوجه الناس إلى الخير وإلى الجمال ويردهم عن الشر والقبح . وإذا كانت فرنسا تريد من أبنائها أن يعملوا وأن ينتجوا وأن يجدّوا وأن ينشطوا ، فينبغى أن تهيئ لهم وسائل هذا كله ، والتمثيل من أهم هذه الوسائل وأقواها لأنه يغسل نفوس النظارة من أوضار الحياة اليومية ويهيئها لعمل جديد نقية عظيمة الحظ من النشاط والإقدام .

وكذلك يتم العهد والاتفاق بين رئيس الفرقة ومندوب الدولة على أن تتجدد عناية البرلمان بهذا الفن ليجدد الفن عنايته بنفسه وبالناس .

ولم ألخص لك من موضوعات هذا الحوار إلا أظهرها وأيسرها وأقربها منالا ، وأظنك توافقنى على أن الكاتب كان جريئاً بارعاً حين استطاع أن يعرضها على النظارة فى هذه الصورة التمثيلية الجميلة . وأنا على كل حال أرجو أن يثير تلخيص هذه القصة فى نفوس القراء المصريين ما أثارت القصة نفسها فى نفوس القراء والنظارة الفرنسيين من ألوان الملاحظة والنقد والتفكير .

ط حسين

في الأدب :

سحر العيـــــون ...

للأستاذ أحمد أمين

من قديم والأشجار والأزهار والأطيار والنجوم ، قد مدت خيوطا منها إلى قلب الإنسان فأسرته ، فشعر شعورا ساذجا بجمال السماء والأرض وما فيهما .

ولكنه في عهده الأول قد شُغل بتحصيل القوت ، والتغلب على البيئة القاسية ، فلم يلتفت إلى الجمال إلا لماما ؛ فلما غلبَ البيئة ، وتيسرت له وسائل العيش ، ووجَدَ من الزمن ما يكفى للتغزل في الطبيعة ومُناغاتها .

هام بالجمال وفتن به ، وتفتح قلبه له ؛ وهاجت عواطفه نحوه ؛ فلم يكفه أن يرشف الجمال في صمت وسكون ، بل دعته العاطفة الطافحة نحو الجمال أن يعبّر عنها ، فكانت الموسيقى والرقص والأغاني والحفر والتصوير ، وكان الأدب — وبعبارة أدق كان نوع من الأدب — وعُدَّتْ هذه كلها فنونا جميلة ، لأنها تعبر عن الجمال ، ولأنها في ذاتها جميلة .

* * *

شُغِفَ الإنسان بالحسن يتبعه ، فوجده في الزهور ، ووجده في البحار والأنهار ، ووجده في الطبيعة على فطرتها ، ووجده في الإنسان نفسه . وما أشك في أن الحب الذى كان بين آدم وحواء ، كان منشؤه ما قرأ آدم في حواء من جمال الأنوثة ، وما قرأته حواء في آدم من جمال الرجولة !

كان الإنسان الأوّل ينظر إلى الجمال جملة ، كما ينظر إلى العالم جملة ، وإلى كل شيء جملة ؛ فلما تقدم به الزمان ، أخذ ينظر إلى الأشياء تفصيلا ، وإلى الجمال كذلك تفصيلا . وبعد أن كان يعجب بالطبيعة ، أخذ يعجب بالشمس — مثلا — ثم أخذ يعجب بالشمس في شروقها وغروبها ، ثم أخذ يعجب بالشمس تغرب في البحر ، وهكذا .

وكذلك كان شأن الإنسان مع الإنسان ، أُعجب به جملة ، ثم أخذ يتبين مواضع الجمال فيه تفاريق ، فدلته المقارنة على شروط الجمال في الأعضاء ، وهداه الذوق الفطرى إلى إدراك صفات الجمال في كل عضو ؛ فالرشاقة في القد ، والأسالة في الخد ، والتلع في الجيد ، والذَّلَف في الأنف[1] ، والفلج في الأسنان ؛ إلى آخر ما هنالك .

* * *

لعل أجمل الأحياء الإنسان ، ولعل أجمل ما في الإنسان عيناه ، فإذا كان لكل شيء خلاصة فخلاصة الإنسان عينه ، هي مستودع سره ، وهي النافذة التي يطل منها غيره على ما في أعماق نفسه ، وهي الترجمان الذى يعبر أصدق تعبير عما يجول في نفسه من عواطف . تَعِد وتُوعِد ، وتَرغب وتَرهب ، وتُرسل مرة شُواظا من نار ، ومرة شآبيب من عطف وحنان ، تقسو وترحم ، وتَنعم وتؤلم ، وتصل وتصد ، وتُقبل وتَنفر ، وتَحجَب وتَحتقر ، وهي في كل موقف من هذه المواقف تتخذ لها وضعا يناسبه ، وشكلا يوائمه ؛ تتلون ولا تلون الحرباء ، وتتشكل ولا تتشكل الحسناء في الأزياء — هي للمرأة أقوى سلاح ،

(١) الذلف صغر الأنف واستواء الأرنبة .

وفى روايات الحب أمهر لاعب ، وفى مرسح الغزل أشهر ممثل ، وفى ميدان الأدب أبرز جائل وصائل .

***

وفى الحق أن لغتنا العربية من أكثر اللغات وفاء للعين ، واعترافاً بقيمتها ، وتسجيلا لدقيقها وجليلها . فقد وضعوا لكل جزء من أجزائها — مهما دق — اسما بل أسماء ، لا أطيل بذكرها ، ووضعوا بياناً لما يستحسن فى العين من الصفات ، وسمّوا كل نوع من الجمال باسم ، فقالوا : « عين ظمياء » ، إذا كانت رقيقة الجفن ، و« عين نجلاء » إذا كان جمالها فى سعتها ، « وعين حوراء » إذا كان جمالها فى شدة سوادها وشدة بياضها ، « وعين دعجاء » إذا كان جمالها فى لونها وسعتها معا ، إلى آخره .

ثم التفتوا إلى شىء دقيق جدا يمطون عليه . وهو اختلاف النظرات ؛ فعبروا عن كل نظرة بعبارة ؛ فقالوا « رنوت إليه » إذا أدمت النظر فى سكون طرف ، و« سارقته النظر » إذا نظرت إليه نظرا خفيا ، و « نظر شزرًا » إذا نظر إليه بمؤخر عينه نظر الغضبان ، و « شفنه » إذا نظر إليه نظر المبغض أو المتعجب ، و « أزلقه ببصره » إذا نظر إليه نظرة متسخط ، و « رأيتهم يتقارضون النظر » أى ينظر بعضهم إلى بعض نظرة عداء ، إلى غير ذلك .

وكما عنيت اللغة بالعين وما يتصل بها ، عنى بها الأدب كذلك ؛ فمنذ طالعنا الأدب العربى ، رأينا الشعراء يعجبون بالعين ويتغزلون فيها ، من عهد امرئ القيس إذ يقول : « وعَيْنٍ كمرآة الصَّناع تُديرُها » — إلى حافظ إبراهيم إذ يقول :

غُضّى جفون السحر أو فارحمى متيما يخشى نزال الجفون

وإلى ما شاء الله أن يكون من الشعراء .

***

وكما كان الناس ينظرون إلى الجمال جملة ، ثم أخذوا ينظرون إليه تفصيلا ، كذلك مؤلفو الأدب — كانت تآليفهم الأدبية شاملة لكل شىء ، وكان عرضهم للجمال لا يقتصر على شىء دون شىء ، ثم رأينا نزعة فى التأليف جديدة ، ترمى إلى التخصص فى الجمال ، والتخصص فى جمال شىء بعينه . فرأينا صلاح الدين بن أيبك الصفدى يعجب بالخال ويفرد له تأليفا يسميه « كشف الحال على وصف الخال » ؛ ولم يكن موفقا فى هذه التسمية ، بل كان قليل الذوق ، فما يصح فى باب الجمال أن يسمى شىء بكشف الحال .

وجاء شمس الدين النواجى ففتن بجمال العذار ، وألّف فى ذلك كتابا سماه « خلع العذار فى وصف العذار » ؛ ولم يكن فى هذه التسمية أكثر توفيقا من صاحبه .

ولكن مؤلفا ثالثاً جاء فغضب من هذين الاسمين التابيين ؛ كما غضب من أن يلتفتا إلى الخال والعذار ويهملا العيون ؛ وأين جمال الخال والعذار من جمال العيون ؟ فألف كتاباً فى العيون سماه « سحر العيون » ، فكان أكثر توفيقاً فى الاسم والمسمى .

***

من الأسف أنى لم أعثر على اسم مؤلفه ، ولكنه فى ثنايا الكتاب يقول : « أنشدنى صاحبنا الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر القادرى المولود سنة ٨٢٤ » . فمؤلف الكتاب — إذاً — من أدباء القرن التاسع الهجرى ؛ والظاهر أنه مصرى ، لأنه روى لنا فى ثنايا الكتاب أحداثاً مصرية ، وأمثالا عامية مصرية .

أراد فى هذا الكتاب أن يذكر كل ما يتصل بالعيون ، وأراد مؤلفه أن يكون فى العيون طبيبا ، وفقيها ، وأديبا ؛ وكان خيرا له وللناس أن يكون أديبا فقط ؛ فما أحراه وقد خصص كتابه للعين ، أن يخصص نفسه لأدب العين ؛

فمن العسير أن يجمع إنسان بين المهارة فى الطب ، والمهارة فى الأدب .

على كل حال كان فى قسمه الأول طبيا ، عرض العين وشرحها ، ورسم لها صورة طريفة ، ووضع فى الصورة اسم كل طبقة من طبقاتها ؛ وتكلم فيما يعرض من أمراضها ، وما يلائم من الأدوية لعلاجها ، حسبما عرف من ذلك فى زمانه .

ثم انقلب فقيها ، فذكر دية العين فى المذاهب المختلفة . وكان لغويا فذكر مادة العين وإطلاقها واشتقاقها .

وأهم ما فى الكتاب قسمه الأدبى ، عرض فى فصل منه ما وقع فى الأدب من تشبيهات العين ، فمنهم من شبهها بالسهم ، وشبه فعلها به ، ومنهم من وصفها بالنبل ، أو بالخنجر ، أو بسنان الرمح ، أو بالسيف ، ومنهم من يشبهها بزهر الفول ، ومنهم من يشبهها بالنرجس ، وقد حكى لنا أن بعض الأدباء فى زمنه اعترض على تشبيه العين بالنرجس لصفرة لونها ، وقال إن هذا لا يصح إلا أن تكون العين معلولة بعلة اليرقان ، وأجاب بعضهم بأن بالشرق نوعاً من النرجس مكان الصفرة منه سواد ، وهو الذى يصح التشبيه به ، لا نرجس بلادنا ، أما ابن رشيق فقال : إن وجه الشبه فى تشبيه العيون بالنرجس هو الفتور لا اللون ، كما قال ابن المعتز :

وَسْنانُ قد خدع النعاس جفونه
يحكى بمقلته ذبول النرجس

وهذا الفتور هو الذى يسمونه المرض ، وهو مرض خير من ألف صحة ، كما قال ابن عباد :

وتطرف من خلل الستور بأعين
مرضى يخالطها السقام صحاح

ثم ذكر فصلا عرض فيه لما وقع فى العين من التنكيت والأمثال ، فحكى لنا بعض النكت التى قالها المصريون على قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى ، من ذلك أنه لما تولى مشيخة مدرسة المؤيد مالت منارتها ، فقال فيه ابن حجر ، وكان له خصما :

لجامع مولانا المؤيد رونق
منارته تزهو على الهجر والزين
تقول وقد مالت على تمهلوا
فليس على حسنى أضر من العين

فأجابه العينى :

منارة كعروس الحسن إذ جليت
وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا خطأ
ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

وحكى لنا أن « العينى » لما جلس للقضاء دخل عليه رجل فى دعوى ليحكم عليه العينى ، فوقف الرجل يتكلم بجذبه الحاجب ، فادعى أنه أصيب من ذلك فى عينه فجعل يصيح : « آه يا عينى » ، وظل يسب بأقبح السباب ، ويختم ذلك بقوله : «آه يا عينى» ، فقابل العينى ذلك بضبط نفس وحلم ، ولم يفعل معه شيئا .

ودخل فى ذكر جمال العين على صديق المؤلف أديب فقال الفتى أريد أن تعلمنى العروض (وكسر العين) فقال له الشيخ : افتح عينك .

ثم حكى لنا أمثالا مصرية عامية طريفة جاءت فى العين كقولهم : « أعور قلعت عينه الصحيحة ، فقال : أصبحنا وأمسى الملك لله » ، وقولهم : « حزينة ومالها عين ، اشترت مرآة بدرهمين » الخ .

وعرض لنا فصلا بديعا موضوعه اختلاف مواقف الناس أمام العيون ، فمنهم من كان يعشق عين محبوبته ، فسمع تشبيها للعيون بعيون الغزلان فأكثر من شراء الغزلان ، وتربيتها وتوليدها ، ومنهم من سمع قول ابن الرومى :

وأحسن ما في الوجوه العيون

وأشبه شيء بها النرجس

فكان لذلك يكثر من زرع النرجس في حديقته .

ومن الناس من أردته النظرة الأولى ، وقال :

ما يفعل السحر بالألباب في سنة

في الحال تفعله الأحداق والطرر

ومنهم من كانت تحييه نظرة وتميته نظرة ، كالذى يقول :

الوجه منك عن الصواب يضلني

وإذا ضللت فإنه يهديني

وتميتني الألحاظ منك بنظرة

وإذا أردت ، بنظرة تحييني

ومنهم من عرته حالة غريبة ، وهو أنه غار من عينيه أن تتمتع وحدها بالنظر إلى المحبوب فنعها النظر كالذى يقول :

إنى لأحسد ناظرىّ عليكا حتى أغض إذا نظرت إليكا

ومنهم من كان يربأ أن ينظر بعينيه إلى عين من يحب لأنه لا يستحق هذا الشرف . « قيل لبعضهم : أتحب أن ترى عيني محبوبك ؟ قال : لا . قيل : ولم ؟ قال : أنزه عينيه عن عيون مثلى » .

وبلغت الغيرة من ديك الجن الحمصى فقتل جاريته وبكاها ، فقال :

أوحق نعليها ، وما وطى الثرى

عندى أعز علىّ من نعليها

ما كان قتليها لأنى لم أكن

أبكى إذا سقط الغبار عليها

لكن بخلت على سواى بحسنها

وأنفت من نظر العيون إليها

وهكذا عرض لحالات الناس المتفاوتة ، وتصرفاتهم المختلفة إزاء الإعجاب بالعيون .

وانتقل من ذلك إلى « طيف الخيال » ، لأنه رؤيا العين في النام . فذكر ما أبدع فيه الشعراء من ذلك ، وكيف تفننوا في معانيه ، كالذى يقول :

نصبت جفونى للخيال حبائلا

لعل خيالا في الكرى منه يسمح

وكيف إذا أغمضتهن ، بصيده !

ومن عادة الأشراك للصيد تفتح

وكان البحترى من المكثرين في وصف الخيال المجيدين فيه ، ولكثرة ولوعه واشتهاره به ضرب به المثل فقيل « خيال البحترى » ، كقوله :

إذا ما الكرى أهدى إلىّ خيالها

شفى قربه التبريح أو نقع الصدا

إذا انتزعته من يدىّ انتباهة

عددت حبيباً راح منى أو غدا

فلم ير مثلينا ولم ير شأننا

نعذب أيقاظاً وننعم هجّدا

ومن أظرف ما قيل في طيف الخيال قول كشاجم :

لقد بخلت حتى بطيف مسلّم

علىّ وقالت رحمة لتجيبى

أخاف على طيفى إذا جاء طارقاً

وداك أن يلقاه طيف رقيبى

وانتقل من ذلك إلى ما تلاعب به الشعراء من الحوار بين القلب والعين ، فالقلب يعتب على العين أنها جرت عليه الويل ، والعين تعتب عليه أنه هو الذى دفعها إلى النظر بما أمّل وطمع :

يقول قلبي لطرفي إذ بكى جزعاً

تبكي وأنت الذى حمّلتنى الوجعا

فقال طرفي له فيما يعاتبه

بل أنت حملتنى الآمال والطمعا

حتى إذا ما خلا كلٌّ بصاحبه

كلاهما بطويل السقم قد قنعا

ناديتهما كبدى لا تحيا فلقد

قطعتمانى بما لاقيتما قطعا

وختم الكتاب بباب طويل فيأورده فى العين من الشعر الرقيق مرتباً على حروف المعجم . وذكر فى أكثر ما اختار سنة مولد الشاعر ووفاته .

* * *

ونلاحظ أن أكثر اختياره من الشعر الحديث الذى قيل فى العصر العباسى الثانى وما بعده ، كما نلاحظ أن كثيراً مما اختاره فى العيون لمعاصريه كان غزلا فى عيون الأتراك فيقولون أحياناً : « من الترك لم يترك بقلبى بقية » وأحياناً : « من آل خاقان له لفتة » وأحياناً : « من نسل يافث يافثٍ » مما يدل على أن المصريين أعجبوا بعيون الأتراك ، وكانوا إذ ذاك هم الحكام ، وقصورهم ملأى بالمماليك منهم .

وبعد فهذا الكتاب معرض فنى من أغنى المعارض ، وهو معرض مختص ، ليس فيه — على سعته وكثرة مايعرض فيه — إلا العيون وأشكالها ونظراتها ، لو وقع فى يد فنى صناع ، لأبدع فى تصويره أيما إبداع ، وكم فى كنوز السلف من روائع !

أحمد امين

جامع ابن طـــــولون

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

أدخل الولاة والسلاطين على جامع عمرو بن العاص من الاصلاحات والأبنية المستحدثة ما غير معالمه الأولى. فأصبح جامع ابن طولون أقدم العمائر الدينية الاسلامية التى لا تزال باقية على حالها فى مصر. وهو فضلا عن ذلك أخطرها شأناً عند كثيرين من ذوى الرأى فى الفنون والآثار. وحسبك أن ترى اليوم منارته من ميدان « السيدة زينب » لتنتبه إلى ما فى عمارته وزخارفه من إبداع وابتكار.

وقد قام أحمد بن طولون أمير مصر بتشييد هذا الجامع بين عامى ٢٦٣ و ٢٦٥ هـ (٨٧٦ — ٨٧٨ م) على يد مهندس مسيحى يرجح أنه كان عراقى الأصل.

ويتكون الجامع من صحن مربع مكشوف يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه نحو ٩٢ متراً، ويحيط به أروقة من جوانبه الأربعة، وأكبرها هو رواق القبلة. وبين جدران الجامع وسوره الخارجى ثلاثة أروقة فى جانبيه وفى مؤخرته، أى من بحريه وقبليه وغربيه. وتسمى هذه الأروقة « الزيادات »، لأن بعض المؤرخين القدماء يذهبون إلى أن ابن طولون أمر ببنائها عندما ضاق الجامع عن المصلين.

ومهما يكن من شىء، فان مثل هذه الزيادات كان



(شكل ١) رواق القبلة فى جامع ابن طولون

موجودا فى المسجد الجامع بسامرا ، وفى مسجد أبى دلف بالعراق أيضاً . والمعروف أن الطراز الطولونى فى العمارة ، وفى فنون الخزف والنسج والحفر على الخشب كان منقولا عن الطراز الفنى العباسى ، الذى ازدهر فى العراق — ولا سيما فى سامرا — إبان القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) .

وجامع ابن طولون مشيد بآجر أحمر غامق . ومما يلفت النظر فيه استخدام الدعائم الضخمة المستطيلة الشكل بدلا من الأعمدة ، ويقال إن ابن طولون أراد أن لا يستخدم فى مسجده أعمدة الرخام بعد أن قيل له إنها لا تحتمل النار ، كما يذهب آخرون إلى أنه فضل دعائم الآجر لأنه تورع عن أخذ العمد من الكنائس . ومهما يكن من شىء ، فإن للدعائم المستخدمة فى جامع ابن طولون أعمدة من الآجر مندمجة فى زواياها الأربع ، ولكنها للزينة فحسب ، لأن الثقل واقع على الدعائم نفسها (انظر شكل ١)

على أن أغرب ما فى جامع ابن طولون إنما هو منارته أو مئذنته ، وهى تقع فى الرواق الخارجى الغربى ، وتتكون من قاعدة مربعة ، تقوم عليها طبقة اسطوانية ، عليها أخرى مثمنة ، أما مراقيها فى الخارج على شكل مدرج حلزونى . ولا ريب فى أن هذه المنارة بنيت على نمط المنارة « الملوية » فى جامع سامرا ، ومنارة مسجد أبى دلف ، وعلى كل فهى عجيبة الشكل جليلة المنظر .

وقصارى القول أن جامع ابن طولون يمتاز ببقائه على حاله إلى حد كبير ، وبمنارته ودعائمه ، وزخارفه الجصية ، وإيواناته الكبيرة . ويعد من أروع العمائر الإسلامية القديمة بما يبعثه فى النفس من خشوع ورهبة وإعجاب بمهارة المهندس وإبداع الفنانين .

زكى محمد حسن

مطالعات :

اعترافات . . .

جان جاك روسو

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

(أنا اليوم قادم على أمر لم يسبق إليه سابق ، ولن يلحق به لاحق . أنا مزمع على أن أجلو لإخواني بني الإنسان إنساناً على حقيقته ، وفي صميم طبيعته ، وهذا الإنسان هو أنا .

(أجل ، أنا دون سواي . وإني بنفسي لشاعر ، وبالناس لخبير . فأنا لم أخلق على مثال أحد ممن رأيت ، بل أحسبني لم أخلق على مثال أحد ممن خرجوا للوجود ؛ وإذا لم أك خيراً منهم ، فأنا على الأقل غيرهم . أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت صنعاً بتحطيم القالب الذي فيه أفرغتني ، فذلك أمر لا يتأتى فيه البت قبل قراءة صحيفتي .

(ولتأتين الساعة حين تأتي ، وينفخ في الصور يوم الحساب الأخير ؛ فإني يومئذ آت وفي يميني هذا الكتاب فأمثل بين يدي الديان هاتفاً : هذا يا رب ما قدمت يدي ، وداري في خلدي ، وما كنت عليه . لقد ذكرت الحسن وذكرت القبيح بالصراحة نفسها ، وما من سيئة سكت عنها ولا حسنة زدتها . وإذا اتفق أن اصطنعت حلية من عرض القول ، فحاشا أن يكون ذلك إلا سداداً لفجوة مما أعقبه خذلان الذاكرة . وجائز أن أكون قد سقت في سياق الصحيح شيئاً أعرف احتمال وقوعه ، ولكنه لا موضع قط لشيء أعرف مينه وبطلانه . لقد طلعت على الناس كما أنا ، حقيراً دنيئاً حين كنت كذلك ، كريم الخليقة ، أريحي الطباع ، عالي المروءة حين كنت كذلك . لقد كشفت من ذات نفسي باطن سريرتي ، كما اطلعت عليها سبحانك جل شأنك ، فاحشر اللهم الخلق من بني آدم حولي ، وليسمعوا إلى اعترافاتي ، وليتحسروا لمشائني ، وليستحيوا من مساوئي ، ثم ليفتح كل منهم قلبه ، واحداً بعد الآخر ، عند أعتاب عرشك بمثل أمانتي ، وليقل فرد واحد بعدها إذا استطاع : «لقد كنت خيراً من هذا الرجل»)



روسو

بهذه العبارات القوية الحارة ، استهل جان جاك روسو كتاب «الاعترافات» . ولقد انقضى نيف ومائتان وستون سنة على وفاة الرجل ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة «العقد الاجتماعي» ، و «إميل» ، و «هلواز الجديدة» ؛ ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن متابعة اعترافاته . ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، ويجري عليها ما يجري على الأزياء ، فتبطل هذه وتشيع تلك ، ثم لا يلبث القديم أن يعود باسم جديد ، مع هنة محذوفة هنا ، وحرف هناك مزيد . ومع هذا فإنها أبداً مذاهب

متطاحنة متناحرة . أما مجاوى النفس البشرية فهي أبداً هي ، نتعرف في غرائز رجل الكهوف ما نحسه في أعماقنا . فكيف إذا كان صاحبها مثل صاحب الاعترافات أقرب إلى عصرنا بثقافته ، وإن كان أشبه بأهل الفطرة في صراحته ؟

ولد روسو في مدينة جنيف عام ١٧١٢ ، وماتت أمه عقب ميلاده بأيام معدودات . وهو يقول في كتاب الاعترافات : « ولدت سقيماً عليلاً ، وقد كلفت أمي حياتها فكانت ولادتي فاتحة مصائبي وشقاوتي » . وهكذا حرم روسو مما يستمتع به الطفل من محبة المرأة الأولى في شخص الأم الرؤوم الحانية . ولا جرم يجد طلاب التعليلات النفسية في هذا الحرمان سر اتصاله بمن اتصل بهن من النساء ، ويتعرفون نوع العاطفة التي كان في قرارة نفسه يلتمسها منهن .

ولقد تلقى هذا اليتيم منذ نعومة أظفاره تربيته على صورة عجيبة ، فقد كان — فيما يرويه — في سن السادسة يسهر الليالي يقرأ مع أبيه القصص الأدبية التي كانت مطالعتها محببة إلى أمه ، حتى إذا بزغ الصبح ولاح عموده واستهلت تغاريد العصافير ، أحس الوالد بالنعاس يداعب جفنيه وقال لولده الصغير :

— هلم ننم . إني طفل أكثر منك .

ويعترف روسو نفسه في « اعترافاته » أن ما كانت تحدثه هذه المطالعات في نفسه من انفعالات ، وما كانت تستدره نكبات أبطال قصصه من عبرات ، خلقت له خواطر عن الحياة غريبة خيالية .

فلما بلغ السابعة سنحت له مطالعات أدنى إلى الجد ، فيما تركه شقيق جده من أسفار قيمة ، ومن بينها « سير العظماء » للمؤرخ الإغريقي بلوتارخ ، وليس من شاهد على مبلغ أثرها في تكوينه أبلغ من قوله : « ومن هذه الصفحات الممتعة ، وما كان يقوم بشأنها من مذاكرات بيني وبين أبي ، تكونت لي هذه النفس الحرة ، وهذا الخلق الشموس الأبي ، الذي لا يعرف الاستكانة ولا يعنو لقهر ، ولا يصبر على نير ، ولا يقيم على مذلة ، والذي كان مصدر توفزي وعذابي طوال حياتي ... فكنت دائم الشغل بروما وأثينا ، أعايش عظماءها الأماجد . وإخالني إغريقياً أو رومانياً ، وأندمج في شخص من أقرأ حياته ، وأستحيل إياه ، ويروعني وصف خصال الثبات والإقدام ويلابسني ، حتى ليلتمع ناظري وتشتد نبرة صوتي » .

ولا يغيب عنا ما في هذه الفقرة من خطر في تاريخ الثورة الفرنسية ، لأنها تدل على مدى تأثر دعاتها ، وعلى رأسهم روسو ، بسير عظماء الرومان واليونان ، وعن القوالب التي أخرجت بعد ذلك لفحول الثورة من أمثال دانتون وروبسبير ، ممن حفزتهم كتابات روسو ، وتشبعوا مثله بسير بلوتارخ .

وأخيراً نشير إلى مؤثر آخر ساهم بنصيبه في تكوين فناننا روسو . ونعني بذلك عمته التي قامت منه مقام أمه . فقد كانت لا تكف عن الغناء « بصوت رقيق جد رخيم مرددة عدداً عديداً من الأغاني والأهازيج . وما برح روسو وهو شيخ يحن بذكر هذه الأغنيات في أيام شبابه الخوالي ، فيدندن بها « مستعبراً باكياً كالطفل » . فإلى هذه العمة المؤنسة يدين روسو بحبه للموسيقى ، بل شغفه الشديد بها .

ولما بلغ روسو العاشرة اضطر والده فجأة إلى مغادرة جنيف على أثر شجار مما يقع بين السكارى . وقضى الفتى بضعة أشهر نازلاً في الريف بسفح « ساليف » عند القس لامبرسييه . وهنا أشرب قلبه محبة الطبيعة ، وافتتن بها فتنة لم تخمد جذوتها آخر العمر ، كما تنبهت نزعته الحسية الباكرة تنبهاً مضطرباً . وكانت مدموازيل لامبرسييه أخت القس أولى من كان لهن شأن في حياته الغرامية الحافلة بالعواطف والمواقف .

ثم رؤى إعداده لمهنة فى المحاكم فوكلوا به إلى كاتب محكمة . إلا أن روسو كان أشد كبرياء واستقلالا من أن يعنو لاستعباد الوظيفة ويقرّ فى قيد المكتب ، فلم يلبث أن فصل .

وأدخلوه بعدها عند حفار ليشتغل صبياً له ويتعلم على يديه صنعته ، فكان على المعلم على مقتضى السنّة المتبعة فى ذلك العصر « أن يربى صبيّه وينشّئه على مخافة الله وعلى الأدب كما هو الواجب المفروض على كل أب » . ولكن الحفار تجاوز الحد فى قسوته ، فكان يوسعه ضرباً لأتفه الأسباب ، ويحرمه باستمرار من الحلوى ، حتى ساءت طبيعة الفتى وأصبح فاسداً ولصاً فاجراً ، وكره عمله وبرم به . وكانت سلواه مطالعة كتب يستعيرها بالأجر ، ناسياً بها حال بؤسه وشقاوته ، مستغرقاً فيما يصوره له وهمه وينسجه خياله . وأخيراً فى السادسة عشرة من عمره أبق من عند الحفار ولاذ بالفرار .

وتقدم إلى قس من الكهول ، فرأى هذا أن يكل أمر هدايته إلى سيدة فى أنسى هى مدام وران . وكان روسو يتمثلها « عجوزاً من القانتات المترمتات » فاذا هو أمام « محيا أفرغت عليه المحاسن إفراغاً ، وعينين دعجاوين كلهما حلاوة ، وبشرة ناصعة البياض رقاقة ، وجيد لطيف الصوغ يسبي اللب » . فانبهر ناظره وعاش بعدها ما عاش فلم ينس تاريخ هـذا اليوم بين الأيام وهو « أحد الشعانين » عام ١٧٢٨ .

وعطفت مدام وران على الفتى الشريد المتقد النظرة ، فصار يدعوها هذا المحب « يا أماه » .

وأريد به فى بادئ الأمر أن يتخرج قساً للقرية ، ثم سرعان ما تبين أنه لا ميل عنده لغير الموسيقى ، فدفعوه إلى معلم الموسيقى فى الكنيسة الكبرى . وهكذا توطنت الموسيقى فى قلب روسو متوطّناً لم تبرحه قط ، فلما أن تمادى الكتابة فى مستقبل أيامه سرت إلى نثره هـذه الروح وأشربته بموسيقية عجيبة لا عهد لأحد بها من قبله .

وكان معلم الموسيقى مدمناً للخمر مصاباً بالصرع ، وقد شجرت بينه وبين قساوسة الكنيسة مشادة جعلته يصمم العزيمة على تركها . ولما كان روسو يحب الشرود والمغامرة فقد انطلق معه . وبينما هما فى ليون أخذت المعلم نوبة صرع فى قارعة الطريق ، وتكأكأت الدهماء حولهما ، وفزع روسو ودب فى قلبه الخوف ، فاغتنم تزاحم الناس وتدافعهم ، وترك الصريع المسكين ومضى لا يلوى عليه . وذلك بلا مراء تصرف صبيانى ، وروسو وقتئذ لم يك إلا صبياً ، بيد أنه ظل طوال حياته هذا الصبي .

ثم تداولت عليه صبوات ليست بذات شأن ، كان فيها كمادته الهيابة الخوار . وهام بعدها فى سويسرا يعيش عيشة الكفاف والتقشف من دروس يعطيها فى الموسيقى ، ويصحب الشذاذ الأفاقين . وقد وقع عليه سفير فرنسا فسن له فى محل باريس ، ولكنه لم يطل مقامه فى العاصمة الكبرى ، وعاد إلى سافوا عند مدام وران . فهو ما زال يحبها ، بل زاد عبادة لها على قدر بعده عنها ، ذلك أنه خيالى يحلم بالأميرات البعيدات .

بيد أنهما اتصلا فى هذه المرة صلة العشاق فى شامبرى عام ١٧٣٤ . وكان روسو يعطى دروساً فى الغناء لصويحباتها الغوانى ، ويقرأ لهن فى مؤلفات الأدب ، ولكنه لم يلبث أن نزع إلى السفر والوحدة ما دامت مدام وران لا تخصه وحده بحبها .

ولما كان روسو متهافت الصحة دائم الشكاة ، فقد وقر فى وهمه — بعد مطالعته كتاباً من كتب الطب — أن به سرطاناً فى القلب . فرحل إلى موبلييه لمشاورة أحد الأطباء الأساتذة ممن نسميهم اليوم بالإخصائيين . وكان قد ورث بعض المال وتيسرت له الحال هنيهة . ولا حاجة إلى القول إن أطباء مونبلييه بعد كشفهم عليه اتسموا لتشخيصه لدائه وطمأنوه على نفسه . وقد خطر له

رغبة أن يتلقى في الكلية دروساً في التشريح ، ولكنه لم يطق الصبر على رائحة الجثث في الحجرات المعدة لذلك .

ولم تمض أشهر قلائل حتى عاد إلى مدام وران ، وقد استقر بها المقام وقتئذ في الريف في شارمت بالقرب من شامبري . وكان قد خلفه على حبها عاشق آخر ، فارتضى منها بأن يكون الصديق ، وهنا عاش روسو أياما سعيدة في وسط المروج والفياض وبين مجالي الكروم والبساتين ،



روسو في « شارمت »

واستغرق في دراسة الطبيعيات ، وما وراء الطبيعيات ، والفلسفة ، والفلك . وأخذ يحلم بطلب المجد الأدبي ، ويؤلف الأوبرات المؤثرة . وأخيراً أجمع العزم على النزوح إلى باريس ، تاركا وراءه من كان يدعوها « أماه » ، وتاركا معها شبابه .

واستقبلته باريس فأحسنت استقباله ، بفضل ما كان يحمله من التواصي . إلا أن رسالته في موسيقى العصر لاقت معارضة من بعض المشاهير ، ولم تظفر بما كان مقدراً لها من نجاح ، وخاب أمل روسو ، فانطوى ثانية على نفسه ، وأوى إلى عزلته ، ووجد اللذة المريرة في الاعتكاف والقبوع كالدب في جلده ، والتسكع في حدائق لكسمبرج يطالع فيها الأشعار .

بيد أن بعض العقائل اهتممن بشأن هذا الموسيقى الشاب ، على الرغم مما كان يبدو عليه من الركة وقلة اللباقة في مجالسهن . فارتحل بفضل وساطتهن في عام ١٧٤٣ إلى البندقية سكرتيرا للسفير فرنسا . فأبلى في وظيفته زهاء السنة بلاء حسنا ، حتى استوحش السفير من ناحيته ، وداخله الحذر منه على مركزه ، وعمل على استقالته ، فعاد إلى باريس موغر الصدر ناقماً على الناس وعلى المجتمع .

وفي ذلك الحين التقى في النزل الذي نزل فيه بخادمة ساذجة طيبة ، وهي تيريز ليفاسير ، فأصبحت القرينة الملازمة له طوال حياته . فماذا رآه قد حببه في هذه الجاهلة التي لا تكاد تعرف ساعات النهار ، والتي لم تعرف قط مواقع الشهور من السنة ؟ إن الذي قد حببه فيها ولا شك هو هذا الجهل نفسه . فإنه وهو الفقير ذو الحياء والكبرياء ، كان يرتاح إلى ابنة الشعب هذه ، وإلى وثوقها به واطمئنانها الأعمى إليه . ثم إنها كانت تتعهد بغير اشمئزاز مرضه بالمثانة ، وهو داؤه القديم الملازم الذي ما برح يزداد سوءاً على سوء ، كما أنها كانت تحسن طهي الطعام ، وإنضاج أفخاذ العجول الدسمة ولحم الطير الشهي . وقد بلغ من استمساكه بتيريز أنه ارتضى من أجلها إطعام أهلها ، وكلهم أكول نهم ، طويل الأنياب حديدها ، ولا سيما أمها اللصة ، وأختها الأفاق .

فكان لا بد له من كسب المال ، فسعى أن تمثل رواياته على غير جدوى ، فالتحق بإحدى كرائم السيدات كاتب سر لها ، وهي مدام دبيان ، وكانت تضع كتابا تضمنه خواطر كلها عميقة من طراز قولها : « ليست الأزهار كلها وروداً » إلى غير ذلك مما هو بسبيله . كما كان يعمل في مؤلف كبير في الكيمياء لابن أخ السيدة كان يتوق إلى تقديمه للمجمع العلمي .

ولكنه حين قفل إلى باريس ساءه أن علم بأن تيريز حامل على وشك الوضع . فإنه كان لا يتصور في نفسه القدرة على أن يكون رب أسرة ، فهو شديد التكلف بالاستقلال وعدم التقيد . فما كاد الطفل يولد حتى ألقى به إلى ملجأ اللقطاء، أعني إلى الموت ، فقد كانت العناية بالأطفال اللقطاء سيئة بحيث لا يرجى لهم معها حياة ، وتكرر حمل تيريز ، وهو في كل مرة يفعل هذه الفعلة .

وقد انقسم النقاد حيال هذا الاعتراف فرقاً ، فمنهم من يعترف لروسو بأنه كان شديد الشعور بأن أولاده حظاً هي مؤلفاته وليدة فكره ونتاج قريحته ، وأنه لذلك كره الاشتغال بالولد عن التفكير . ومنهم من يذهب إلى أن روسو كما هو المتعارف عن اضطراب قواه الجنسية كان عاجزاً عن النسل ، فشاءت له كبرياؤه نفي هذا العجز بدعوى أنه تنسل ، وأنه تخلص من أبنائه على الوجه الذي رويه في اعترافاته ، مع ما فيه من مجافاة للإنسانية ومناقضة لعاطفة الأبوة .

والعجيب أن يكون روسو بعد هذا مؤلف كتاب « اميل » فيما ينبغي للأولاد من عناية في التنشئة والتربية : اللهم إلا إذا زعمنا مع الزاعمين أن هذا الشعور نفسه بالتبعة في تربية الولد هو الذي حدا به إلى أن يفعل بهم ما فعل .

ومهما يكن من الأمر ، فإن السيدات ما زلن طوال حياة روسو يعطفن عليه ، ويحنين على قلبه الحساس ، ومن أولئك مدام دى إبيناى وصديقتها مدام دى هودتوت .

ولقد تعرف روسو في الوقت نفسه إلى فلاسفة العصر ، ديدرو ، وجريم ، ودالمبرت ، ولكنه لبث بعيداً عن هؤلاء المتشككة اللاحدة بإيمانه الثابت في الله .

وفي هذا العهد كتب رسالته تجمع ديجون في الموضوع الذي طرحه المجمع للمباراة عما لنشر العلوم والفنون من أثر في تهذيب الأخلاق ، وفيها نعى روسو على الحضارة وحبذ الرجعة إلى الطبيعة ، وأطرى رجل الفطرة المتوحش استخفافاً بالرجل المتمدن وظاهره المموه . وكان روسو متحمساً لموضوعه ، جائش النفس به ، حتى إنه كتب رسالته بجرة قلم واحدة في ليلة واحدة . وقد فازت رسالته بالجائزة ، فإذا هو ما بين ليلة وضحاها على يفاع المجد . ومن ثمة بدأت حياته الكتابية وحياته العامة .

ومع هذا فإنه لم يزهد في الموسيقى . فألف عام ١٧٥٢ أوبرا باسم « عراف القرية » مثلت في قصر فونتابليه في حضرة الملك . وقد أرادوا تقديم المؤلف إلى جلالته أملا في إجراء معاش عليه . ولكن المؤلف المستوحش بلحيته المرسلة وشعره المستعار الأشعث ، أبى المثول بين يدى لويس الخامس عشر . وفضلا عن ذلك فقد كان مرضه شديد الوطأة عليه ، فلم يكن يطيب له غير التفرد والوحدة .

وقد كتب في معتكفه « هلواز الجديدة » وأتم كتابيه « اميل » و « العقد الاجتماعي » . وكانت أعصابه ملتاثة مجهدة ، فهو في خصام مع فولتير وديدرو وكثيرين غيرهما ، ولما أن ارتحل إلى انجلترا عام ١٧٦٦ حيث قوبل بالحفاوة والاكرام ، لم يلبث أن تخاصم مع هيوم ووليول وجميع من احتفوا به . واشتد به الهوس حتى انقلب إلى توهم الاضطهاد والظنين بالمطاردة . وفي السنة التالية قفل راجعاً إلى فرنسا .

وهنا عاش روسو معزولاً مستخفياً ، إذ كان يرى المكايد تنصب له في كل مكان ، ويخشى على نفسه أن يذاق له السم ، ولم يعد له سرور في غير اجتزاز الأعشاب وكتابة سفره الأخير « أحلام سائر وحيد » .

وفي عام ١٧٦٨ عقد زواجه على تيريز الوفية التي كانت تتبعه حيثما ذهب . وأخيراً ختم مؤلفاته بكتابة اعترافاته . وقضى نحبه عام ١٧٧٨ وهو يغمغم : « ياعلى ياعظيم ، بالله ... السماء صافية . ليس فيها غيمة واحدة ... الله ينتظرني » .

وهكذا انتهت من صاحب « الاعترافات » حياته التي أبرز لنا بين دفتي كتابه صفحتها ، بما فيها من عار وفضيلة وما فيها من جنون وعبقرية !

عبد الرحمن صدقي

لمحات في الأدب الإنجليزي :

العالم الجديد

تأليف ألدوس هكسلي(١)

للأستاذ أحمد خاكي

« ألدوس هكسلي » من بين القصصيين المحدثين الذين تأثروا بكثير من التقاليد التي انحدرت في أصول الأدب الإنجليزي ، وبكثير من العناصر التي اجتمعت في البيئة الأدبية والعلمية الحديثة . فهو من وجه يمثل الفكرة العلمية الحديثة التي استبدت بأصحاب علم الحياة ، وهو من وجه آخر يمضي على سنن الأدباء والمفكرين في عصره حينما يعرضون للعلاقة بين الإنسان وبين الطبيعة . وهو كاتب اجتماعي يتأثر العلاقات بين الناس على أساس من العلم . وهو يميل في كتبه وقصصه إلى نوع من التفكير الإنساني شاع بين الكتاب الإنجليز فيما بعد الحرب العظمى : نوع من التفكير يؤمن بالسلام ويراه متصلا بحاجات الإنسان من ناحية وبفكرة التقدم من ناحية أخرى .

والقصة التي نعرضها من كتابات « ألدوس هكسلي » تمثل كل ذلك ، فهي حديث عن العالم بعد ردح طويل من الزمن . هي تصوير لمدينة فاضلة أو « يوتوبيا » يراها المؤلف مندفعاً إلى ذلك بإيمان عميق بالفن . وهو بذلك لا يخرج عن التقاليد التي أقامها كتاب المدائن الفاضلة منذ أن كتب توماس مور كتابه في العالم كما ينبغي أن يكون . ولعل الكاتبين القديم والحديث يشتركان في إيمانهما بالسلام . إلا أن هكسلي خارج عن تلك التقاليد من وجه آخر لأنه متأثر بالحياة العلمية والأدبية ، التي تهيأت لكتاب العصر الحاضر خلال القرون الأربعة التي تفصل الرجلين .

ويذهب « هكسلي » إلى أن السيئة الأولى التي تحبث هذا العالم والتي تكاد ترديه إنما هي عدم الاستقرار . وعنده أن القلق والاضطراب يلازمان المدنية الحاضرة ، وهما قد لازما المدنيات الأولى ، وأن عدم الاستقرار الذي صاحب هذه وتلك كان السبب في تدليها وفنائها . وقد عفت آثار المدنيات الأولى لأن عدم الاستقرار بين أمة وأمة أودى بالأمم جميعاً . وفنيت الأمم كذلك لأن القلق الذي أحست به كل طبقة من طبقات المجتمع خلق الألم الممض وبعث الحزازات في كل نفس وأنتج مدنيات تقوم على النضال في كل مذهب من مذاهب الحياة .

ثم يمضي « ألدوس هكسلي » في وصف عالمه الجديد ، فيصور صورة تتألق فيها أشخاصه وتتباج حقائقه . ويخلق في ثنايا قصته دستوراً خياليا يخالف ذلك الذي نؤمن به ، وهو يخلص من كل الآثار النفسية التي نلقاها ، ويستشرف على عالم آخر ، ويحدثنا عما يرى ويخال .

تردى عالمنا الحالي إلى الهوة السحيقة التي هو ماض إليها . وكانت سنة ١٤١ بعد ميلاد « فورد » ، فإذا العالم بين اثنتين : إما خراب محقق يقوض المدنية ويذروها هباء وإما استقرار يقيمها ثابتة راسخة . ذلك بأن حرباً نشبت في تلك السنة فلم تبق ولم تذر . ومضت تسع سنين تستعر استعاراً ، وهي تأتي على الأخضر واليابس . وقد أجمع

---

(١) Brave New World by Aldous Huxley

المفكرون بعدها على أن علاجاً واحداً يشفى العالم مما حاق به ، وأن عاملا واحداً ينتشله من الحمأة التى تردى فيها ؛ أدرك هؤلاء أن الاستقرار هو الكفيل بأن يؤلف بين الأمم ، وأن الاستقرار كذلك هو الذى يؤلف بين الطبقات ، فبدأوا عالماً جديداً لا يؤمن بأصول العالم الذى نحن فيه ، واتخذوا قواعد ومبادئ وعقائد تكفل لهم الثبات والاستقرار .

والأصل فى المدنية المستحدثة التى قامت بعد « حرب السنين التسع » أنها لا تؤمن بالفرد ولا تعترف بالأساطير التى تدور حول الحرية الشخصية والفنية والعقلية . بل لقد تطور العالم حتى أصبح قاصيه ودانيه وحدة يشد بعضها بعضاً . وأصبح الفرد من هؤلاء لا يستطيع أن ينفرد بعمل ولا بعلم ولا بفن . بل هو مأخوذ بذلك إن حاول أن يظهر أنه فرد مستقل عن الجماعة . هو مأخوذ بذلك فقد يُنفَى عقاباً له إلى أفق من الآفاق الشمالية البعيدة ، حيث يقضى أيامه التعسة فى زمهرير الشتاء ، وقر الصيف ، لأنه خرج على الجماعة التى تحكم وجوده . وقام على رأس هذا العالم حكومة مصطنعة ، ضمت عرقى أوربا جميعاً ، واتخذت لندن مركزاً لها . واختفت الحرب بين الأمم ، وتلاشى النضال بين الطبقات ، فلم يبق لحرب الأمم ، ولا لنضال الطبقات وزن فى حياة هذا المجتمع القوى المتوازن الرصين .

* * *

ولكن كيف قام هذا المجتمع المتمدن الذى أنكر الفرد وتلاشت فيه فكرة الحرب ، وتزايلت فيه الاختلافات التى فرقت بين الطبقات ؟ لقد أعان العلم الحديث هؤلاء المفكرين الذين أسسوا العالم على أساس ثابت بعد حرب السنين التسع . وقد طوّع لهم العلم أن يبنوا مجتمعا ثابتا مستقرا ، لا قلق فيه ولا اضطراب . ذلك أن العالم قد كشف كشوفاً حديثة فى علم الحياة ، واستطاع العلماء على هديها أن يتمكنوا من توليد الأجنة وتنشئتها وتوجيهها . استطاع هؤلاء أن يوفروا على المرأة عناء الحمل والولادة ، واحتُبست الأجنة فى قوارير وأنابيب خاصة . وأمكن العلماء أن يفرخوا تلك الأجنة فى القوارير والأنابيب . بل أمكن لهؤلاء فوق ذلك أن يتحكموا فى توجيه الأطفال ، واستطاعوا بفضل تجاربهم أن يقسموا الأجنة إلى ضروب من الناس . فهذا الضرب الأول من قوارير هذا المعمل يخرج الصنف الأول من الناس . وهذا الضرب الثانى يخرج الصنف الثانى . وهكذا تخرج الأجنة فى معامل التفريخ وهى إما ا أو ب أو حـ أو د .

وتخرج الأجنة من هذه المعامل فيستبد بكل فريق نظام خاص من التوجيه ، وهذا التوجيه نفسه إنما هى التربية التى استطاع أن يبلغها هؤلاء العلماء بعد أن تحللوا من قيود الحرية الحديثة . إنها تربية للجماعة الموحدة التى أنتجت الوحدة الشائعة فى هذا المجتمع المستحدث . ويخرج كل امرئ بعد ذلك التوجيه وله وظيفة خاصة لا يكاد يدرك أنه خلق لغيرها . ولأنه وُجه إلى هذه الوظيفة فهو راض عن نفسه ، راض عن المجتمع الذى يعيش فيه ، ولأنه طبع على هذا الرضى منذ أن كان جنينا . فقد تخفف العالم من الكفاح الدامى الذى فرق الطبقات بعضها عن بعض ، والذى بث فى الأمم روح الفتنة والحرب .

والطبقات التى أطلقوا عليها ا ، ب ، حـ ، د ، هى نفسها الطبقات الحاكمة والمحكومة والعاملة . إلا أن طبقات العالم الجديد خلقت لتقوم بعملها دون أن تلتفت إلى الوراء ، فهى راضية بما قسم لها المجتمع ، تجد فى عملها كل السعادة ، ولا تشعر بذلك الألم الممض الذى يحز فى قلوب طبقاتنا العاملة . والتربية فى عالمنا الوحشى هى التى تفسد الطبقات ، لكن التوجيه فى العالم الجديد قد جرى على أصول لا ينكبها ، وقد أفلح فى توليد فئة من الناس خاصة بكل وجه من أوجه النشاط الانسانى .

وحينما تخلصت المرأة من أعباء الحمل والولادة ، وانتقل الأمر فى كل ذلك إلى العلماء فى معامل التفريخ ، تطور العالم تطورا اجتماعيا خطيرا . ذلك بأن الفكرة عن العلاقة بين الرجل والمرأة تتصل دائما بالنسل . وعلاقات الأسرة هى التى تتحكم فى الحياة الجنسية ، وهى التى تبعث فى نفس المرأة أو الرجل عوامل البغضاء ، والحب ، والغيرة ، والرحمة . وحينما قامت معامل التفريخ والتوجيه بما كانت تقوم به الأسرة ، تزايلت كل تلك العواطف ، وتزايل معها ذلك الحدب الذى يضفيه الناس على الأنظمة الاجتماعية التى تمت فى ظل الأسرة . والأس الأول من أسس المجتمع فى العالم الجديد « أن كل إنسان لكل إنسان » ، فلا أسرة هناك ولا زواج ، ولا عاطفة ولا أم . بل المعايير الخلقية التى نتخذها نحن فيما يتصل بالشرف والعفة قد انقلبت إلى معايير أخرى ، وأصبحت العلاقة بين كل رجل وامرأة علاقة الساعة التى هما فيها . وقد نسى الناس أن فى عالمنا نحن أسماء هى الأخ والأخت ، والأب والأم ، وغير هؤلاء .

فى ذلك المجتمع المنشود استطاع العلم أن يفيد من بعض العقاقير التى تحفظ الشباب . والشراب الذى وصل إليه العلم شراب سائغ اسمه « سوما » يتعاطاه كل واحد من أفراد هذا المجتمع ليعيدوا إلى نفوسهم توازنها . فهو يستطيع أن يعادل بين أنواع الإفرازات التى تنضح بها غدد الجسم ، والجسم الذى يتأثر به ما زال محتفظاً برونق الشباب وقوة الصبى حتى الموت . لذلك لم يعرف هؤلاء مرضاً ولا عاهة . وظلت جسوم نسائهم يانعة ناضرة لم تفسدها نتائج الحمل ولم يضعضع كيانها الشيخوخة ولا الضنى . والرجال فى ذلك مثل النساء . وهؤلاء وأولئك سعداء بما أوتوا من قوة راضون بما يتمرسون به من حياة شهية ناعمة .

ولا تحسبن أن العلم الذى آتى هؤلاء بكل تلك النتائج : لا تحسبن أن هذا العلم فى تقدم مستمر . فإن الفرد لا وجود له فى ذلك العالم الجديد ، وما دامت قد تلاشت الفردية فقد فقد العلم أول دافع إلى الإمعان فيه . وقد اقتصر طلب العلم على بعض الفئات دون بعض . وهؤلاء هم الذين يشرفون على توجيه الطبقات الأخرى . وأصبحت الصحافة ضرباً من اللاسلكى والتلفزيون بل لقد انقلبت السينما شيئاً « يشعر » به الإنسان ويراه ويستمع إليه ، فلم يصبح العالم فى حاجة إلى كثير من تلك الكتب التى تكتب وتطبع ونشتريها نحن المتوحشين ! والحق لقد أيس العالم الجديد من كتبنا التى كتبنا وضاق ببحوث التاريخ التى اختلقنا ، فقرر فى سنة ١٥٠ أن يصادر الكتب جميعاً وأن يقوض متاحف التاريخ ومعالمه فأصبح شكسبير مهملاً وأصبحت الأهرام أثراً بعد عين .

والفن يشبه كل العلم فيما آل إليه لولا أنه لم يجد مكاناً حتى بين الطبقات الخاصة . ذلك بأن الفن فى المدنيات الأولى قد قام على العواطف التى تنعشها علاقة المرأة بالرجل . فالغيرة والحب والبغض وتنازع الهوى : كل أولئك كان المعين الذى أمد المتفننين بما جاء آيات الفن الخالد ، وشىء من ذلك الفن الخالد لن يكون حتى يكون للفرد وزن وحتى يكون لتلك العواطف قيمة . وما دامت قيم الأشياء قد تغيرت وما دامت العواطف قد استقرت فى مكانها الأدنى فإن شيئاً من الفن لم يعترف به هؤلاء المتمدنون . بل أصبحت كلمات شكسبير مضحكة يضيق بها سامعوها ويزدريها كل الذين يصيبون طرفاً منها .

* * *

وبعد فهذا ضرب من الخيال تستطيع أن تسميه ضرباً من العبث ، أو سمه إن شئت ضرباً من الخيال الحالم . على أنه كمثل المدائن الفاضلة التى صورها الكتاب والفلاسفة تمثل حاجات العصر الذى نعيش فيه . وقد أدرك ألدوس هكسلى تلك الحاجات وبسطها فى صراحة المتفنن الموهوب .

أحمد زكى

دراسات إسلامية

للأستاذ عبد الرحمن بدوى

عنى الباحثون من المستشرقين بالدراسات الإسلامية عناية شديدة ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أو قبل ذلك بقليل . واستمرت هذه العناية تنمو وتزداد ، وفى هذا النمو وتلك الزيادة يتخذ نشاطهم مظاهر شتى ، ويعبر عن نفسه بمختلف الطرق متنوع الأنحاء .

ولعل أصدق مرآة للتعبير عن هـذه الحركة القوية ، تلك المجلات الكثيرة المتنوعة التى يقوم بإصدارها هؤلاء الباحثون . فهذه المجلات دورية تصدر بانتظام ، وتذيع على الناس آخر ما قام به هؤلاء من بحث ، وأحدث ما انتهوا إليه من نتائج ، وهى تلتقط ما ينتجونه أولا فأولاً ، وتغذى به القراء فى غير ما تباطؤ ولا انقطاع . ومن أجل هذا كله فليس بد من أن يلم الإنسان بما فيها ، ويتابع ما ينشر على صفحاتها ، وإلا كان متخلفا عن زمنه ، قديماً فى أفكاره وآرائه ، بعيدا عن أن يساير الحركة والتطور . ومن أجل هذا أيضاً عقدنا العزم على كتابة هذه الفصول القصيرة التى نلخص فيها أهم البحوث التى تنشرها المجلات الغربية ، أو المجلات الهندية المستغربة التى تعنى بالدراسات الإسلامية وحدها ، أو إلى جانب عنايتها بالدراسات الشرقية الأخرى على وجه العموم ، سواء من هذه المجلات ما يكتب بالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية ، أو الايطالية ، وهى اللغات التى يكتب بها أشهر مجلات المستشرقين وأحفلها بالعناية والدرس .

ولكن قبل القيام بهذا التلخيص يشوبه النقد ، ويتخلله التعليق ، نود أن نتحدث فى إيجاز عن هذه المجلات وعن الطابع الذى يطبع أشهرها وأكبرها قيمة .

وهذا الطابع يختلف اختلافا كبيرا ، يرجع إما إلى من يكتبون فيها ، والدوافع التى تدعوهم إلى هذه الكتابة ، وإما إلى الغرض الحقيقى من المجلة نفسها . فهناك مجلات لم يقصد بها وجه العلم فى شىء ، وإنما قصد بها الدعاية لدين من الأديان أو مذهب معين من مذاهب الفكر أو مذاهب الدين . وهناك مجلات أخرى تدأب على النيل من دين آخر والحط من قدره وقدر الأمة التى تدين به ، أو التحقير من شأن حضارة من الحضارات وجنس من الأجناس . وعلى العكس من ذلك توجد مجلات أخرى ، هى فى الواقع أكثر مجلات المستشرقين ، وهى وحدها التى سنعنى بتلخيصها والتحدث عنها هنا ، لا يقصد بها إلى شىء آخر غير نشر البحوث العلمية الصرفة ، والنتائج المنطقية الصحيحة التى يهتدى إليها العلماء من المستشرقين ، فطابعها إذاً طابع علمى صرف ، والنزاهة من الغرض أول صفة من صفاتها . ومن أجل هذا نرى أن الرابطة بين كتابها ليست رابطة إيمان مشترك ، وعقيدة يعملون بها ولأجلها ، وإنما هى تلك الرابطة التى تربط بين طائفة من الناس همهم الكشف عن الحقيقة ، والوصول إلى إدراك الأمور إدراكا صحيحا ، وفهمها فهما يطابق الواقع قدر الإمكان ؛ وبين هذين النوعين المتعارضين من المجلات يوجد نوع ثالث لا يخلو من الدقة العلمية ، ولكنه يقصد به ، فى خفة وفى لطف ، وبالاشارة والايماء دون التصريح والافصاح ، أن يخدم السياسة ، وأن يسهل مهمة القائمين بأمرها .

ومن النوع الأول مجلة كمجلة « العالم الاسلامى » التى يصدرها زويمر ، فهى مجلة دعاية مسيحية ، قبل أن تكون

مجلة علمية ، ومن أجل هذا لا بد أن تؤخذ كتاباتها بحذر شديد ، وأن تفهم بحوثها على هذا النحو . وسنهمل هذا النوع إهمالا تاما .

ومن النوع الثالث والأخير مجلة كمجلة « الدراسات الاسلامية » التى يديرها الأستاذ لويس ماسينيون وتصدر كل ثلاثة أشهر لدى ناشر الكتب الشرقية المشهور بول جيتنر . ولا يهمنا هذا النوع إلا قليلا ، وسنحفل منه بما يكتب خاصاً بنقد الكتب التى تظهر حديثا .

أما النوع الذى سنوجه إليه كل عنايتنا ، والذى من أجله أردنا أن نكتب ما سنكتب فهو النوع الثانى ، وهو النوع العلمى الخالص . لأن هذا النوع وحده هو الذى يستطيع الإنسان أن يطمئن إليه ، وأن يثق بما يكتب على غراره . ولأنه وحده الذى نستطيع أن ننتفع به علمياً ، فنعرف على أى منهج يسير المستشرقون فى بحوثهم ، ونكون على علم بما اهتدوا إليه من نتائج ، وما كشفوا عنه من نواحى غامضة ، استطاعوا أن يلقوا عليها ضوءاً قويا ساطعاً بدد ما يحيط بها من ظلام وإبهام . فهناك البحوث الفيلولوجية الدقيقة والتى تبين إلى أى مدى نستطيع أن ننتفع بالمنهج الفيلولوجى فى الدرس والبحث ، وهناك الدراسات المركزة لناحية من نواحى تاريخ الحضارة الإسلامية ، أو تاريخ الإسلام نفسه ، أو تاريخ العرب فى مختلف عصورهم . وهناك الدراسات العامة لمسائل الدينية كحياة النبى (ص) وشخصيته والمذاهب الكلامية الاسلامية ، والتصوف ، والزندقة ، والشريعة ، وامتزاج الحضارات المختلفة ، والثقافات المتباينة بالحضارة الاسلامية والثقافة العربية . وأخيراً هناك فصول قيمة تكتب عن حياة شخصية من الشخصيات الإسلامية الكبرى فى الفلسفة أو فى الدين أو فى التشريع . ثم كتب مخطوطة تنشر ويتناولها الناشرون بالبحث والتعليق .

هذه كلها نماذج مختلفة للدراسات التى تنشر بهذا النوع من المجلات العلمية القيمة والتى نود الآن أن نتكلم عنها فى اختصار .

كان أشهر المجلات الاستشراقية فى القرن التاسع عشر مجلتان : الأولى « المجلة الأسيوية »(1) ثم « مجلة الجمعية الشرقية الألمانية »(2) . أما المجلة الأولى فتصدرها الجمعية الأسيوية فى فرنسا ، ورئيسها اليوم مسيو بليو ، وقد بلغت حتى هذا العام المجلد الحادى والثلاثين بعد المائة . وكانت عنايتها طوال ذلك القرن بالدراسات الإسلامية كبيرة ، أما اليوم فقد أصبحت هذه الدراسات لا تشغل إلا جزءاً صغيراً من نشاطها وبحوثها . وكانت بحوث كبار المستشرقين الفرنسيين ، أمثال دى ساسى ، وكاترمير ، وهيوار ، وكارا دى فو ، تنشر فيها . ويقابل هذه المجلة فى انجلترا وإرلندة مجلة اسمها يشابه هذا الاسم وهى « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية »(3) وتصدرها أيضاً الجمعية الأسيوية الملكية بانجلترا وإرلندة ، وأول مجلد منها ظهر فى سنة ١٨٢٧ ، أما الجمعية نفسها فقد تأسست سنة ١٨٢٣ وكلتاهما (الفرنسية والإنجليزية) تصدران كل ثلاثة أشهر . ومقالات الأولى تكتب كلها بالفرنسية ، ومقالات الثانية تكتب كلها بالانجليزية ، ويرمز للأولى بالحروف JA وللثانية بالحروف JRAS .

أما المجلة الأخرى وأعنى بها « مجلة الجمعية الشرقية الألمانية » فتصدرها « الجمعية الشرقية الألمانية » ويشرف على إصدارها اليوم باحثها بول كالى ، الأستاذ بجامعة بون . وقد بلغت حتى هذا العام المجلد الثالث والتسعين . ولو أن الجمعية التى تصدرها ألمانية ، إلا أن المقالات التى تنشر فيها تكتب بلغات أخرى غير الألمانية على حسب المؤلفين لهذه المقالات ، فكل منهم يكتب بلغته الأوربية طبعاً ،

(1) Journal Asiatique.

(2) Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.

(3) The Journal of the Royal Asiatic Society.

ولكن على وجه العموم لا يكتب فيها إلا باللغات الأوربية الشائعة ، وهي الألمانية والانجليزية والفرنسية والايطالية ويرمز إليها بالحروف ZDMG .

وكان لهذه المجلات أكبر الأثر في حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر ، وكانت البحوث التي تنشر فيها بحوثاً قيمة جداً ، أما منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فقد بدأت مجلات أخرى تحتل المكانة التي احتلتها هذه المجلات الثلاث من قبل ، حتى لم يعد لها أثر كبير من الناحية العلمية ، ولم يعد يوجه إلى البحوث التي تنشر فيها عناية خاصة من كبار المستشرقين ، فلا يكتب فيها اليوم إلا المتوسطون ، ونادراً ما يكتب فيها مستشرق كبير . ولا يستثنى من الثلاث جميعاً إلا « مجلة الجمعية الشرقية الألمانية » فإنها ، وإن لم تعد مكانتها القديمة باقية لها ، إلا أنها لا زالت تنشر القيم من البحوث ، ولا زال العلماء يقدرونها حق قدرها .

وأول هذه المجلات الجديدة التي دخلت ميدان الدراسات الشرقية والاسلامية « مجلة فينا لمعرفة الشرق »(١) وهذه المجلة يصدرها « المجمع الشرقي » بمدينة فينا ويشرف على إخراجها أربعة من العلماء، هم فكتور كرستيان وفليلم بشرماك وهرمان يونكر وبول كريتشمر وقد بلغت المجلد الخامس والأربعين في هذا العام . وتصدر في الأصل بالألمانية ولكن تنشر فيها أيضاً مقالات باللغة الانجليزية والفرنسية والايطالية . واتجاهها إلى البحوث اللغوية الصرفة والدراسات الفيلولوجية أظهر من اتجاهاتها الأخرى وهو الطابع الغالب عليها . وحجمها أكبر من حجوم المجلات السابقة . وفي كل سنتين يصدر مجلد واحد يحوي أربع كراسات . ورمزها wzkm

ثم « مجلة الدراسات الشرقية »(٢) ويصدرها أساتذة « المدرسة الشرقية في جامعة روما » فهي إذن في الأصل مجلة إيطالية تعبر عن نشاط المستشرقين الايطاليين أولا وبالذات . ومع ذلك فهي تنشر بحوثاً باللغات الأخرى التي ذكرناها آنفاً لمستشرقين عديدين مختلفي الأمم والأجناس . ومجلدها الأخير هو المجلد الثامن عشر ويصدر في سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ . وعناية هذه المجلة بالدراسات الاسلامية أكبر من عناية المجلات السابقة بكثير بفضل من يكتبون فيها ، ومعظمهم من كبار المستشرقين وخصوصاً الايطاليين منهم أمثال الأسوف عليه ، زعيم المستشرقين في السنين الأخيرة ، كارلو ألفونسو نلينو ومثل ميكلنجلو جويدي وفرنشسكو جبريلي . ويرمز إليها بالحروف RSO

ولكن هذه المجلات كلها التي تحدثنا عنها حتى الآن ليست خاصة بالدراسات الاسلامية وحدها ، إنما هي تعنى بالدراسات الشرقية كلها على وجه العموم . كما أن بعضاً منها مثل « مجلة الدراسات الشرقية » تكتب فيه بحوث أفريقية مثل ما يكتب عن الحبشة وهو كثير ، خصوصاً بعد سنة ١٩٣٥ أي منذ استيلاء إيطاليا على الحبشة وحروبها معها . أما المجلة الخاصة بالدراسات الاسلامية وحدها دون غيرها من الدراسات الشرقية فهي مجلة « الاسلام »(١)

أنشأ هذه المجلة كارل هينرش بكر سنة ١٩١٤ . وبكر هذا مستشرق مشهور وسياسي معروف ، تقلب في المناصب السياسية حتى كان وزيراً مرتين ، وقد أسس هذه المجلة حينما وكل إليه أمر « معهد همبرج الاستعماري » الذي أنشئ في سنة ١٩١٣ . وظل يديرها حتى توفي في ١٠ فبراير سنة ١٩٣٣ وحينئذ أسندت إدارتها إلى الأستاذ ر . شتروتمان الذي لا يزال يديرها حتى اليوم . وقد بلغت هذه المجلة هذا العام المجلد السادس والعشرين وتطبع كل عام في أربع كراسات غالباً بنسبة كراسة كل ثلاثة أشهر ويرمز إليها بالحروف Isl .

(١) Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.

(٢) Rivista degli Studi Orientali.

(١) Der Islam.

وكما قلنا من قبل ، تعنى هـذه المجلة بالدراسات الاسلامية خاصة ، فأبحاثها ومقالاتها تتعلق بتاريخ الشرق الإسلامى وحضارته ، تتناول هذا كله بدراسة بعض نواحيه والمسائل الغامضة فيه سواء فى الأدب أو فى التاريخ أو فى الكلام والفلسفة أو فى العلم أو فى التشريع . ومعظم أبحاثها تكتب بالألمانية ، ولكن للغات الأخرى أيضاً مكانها فيها .

ومثل هذه المجلة فى اقتصارها على الدراسات الاسلامية تحسب مجلة ذات طابع آخر مغاير لطابع المجلات السابقة كلها ، وأعنى بها مجلة «الثقافة الاسلامية»(١) فبينما المجلات السابقة تصدر فى أوربا ، تصدر هذه فى حيدر أباد الدكن فى الهند ، وبينما يتوفر على إخراج المجلات الأولى مستشرقون أوربيون ، يقوم بإخراج هذه المجلة جماعة من الشباب الهندى المثقف فى أوربا ، ويشرف على نشرها وطبعها أسعد فيس ، يصدرونها باللغة الانجليزية ، وتكتب مقالاتها كلها باللغة الانجليزية ، ويقوم بالكتابة فيها إلى جانبهم طائفة من كبار المستشرقين الأوربيين . وهذه المجلة تصدر كل ثلاثة أشهر ، وقد بلغت فى هذه السنة المجلد الثالث عشر ، وحجمها أكبر حجوم مجلات المستشرقين .

وتعنينا هذه المجلة هنا من ناحيتين ، ولو أنها تختلف عن كل المجلات الأخرى التى عنينا بالتحدث عنها فى هذا المقال . أما الناحية الأولى فهى أنها تقدم لنا معشر المصريين نموذجاً حياً للنشاط الذى يبذله شباب شرقى مثلنا فى ميدان الدراسات الاسلامية والبحوث العلمية الخاصة بتاريخ الاسلام وحضارته ومذاهبه وفلسفته . وعلى الرغم من أن أبحاث هؤلاء الشباب الهنود ليست بذات قيمة علمية كبيرة ، إلا أن فيها مع ذلك بعض البحوث الجيدة مثل بحوث المرحوم محمد إقبال وحسين الهمدانى وحميد الله . أما الناحية الثانية التى من أجلها سنعنى بهذه المجلة فهى أنه

(١) Islamic Culture.

إلى جوار مقالات هؤلاء الشبان الهنود يكتب فى هذه المجلة بعض المستشرقين فصولا قيمة ، والبعض منها جيد جداً مثل ما يكتبه الدكتور جوليوس روسكا الأستاذ بجامعة برلين ، والدكتور ماكس مايرهوف ، صاحب الأبحاث المشهورة فى تاريخ الطب العربى ، والأستاذ الدكتور سالومون بينس .

ولا نستطيع أن نختم هذا الفصل دون أن نتحدث عن مجلة أخرى لها مكانتها بين مجلات المستشرقين ، وأعنى بها مجلة « الشرقيات »(١) التى يصدرها أساتذة « المعهد البابوى للكتاب المقدس » فى روما . ومجلدها هذا العام هو المجلد الثامن . والغرض الذى من أجله أنشئت هذه المجلة هو البحث العلمى لكل ما يتعلق بالشرق القديم جميعه من الناحية الفيلولوجية والتاريخية والدينية والفنية والأثرية والجنسية الخ . ويطبع منها فى كل سنة مجلد يحتوى على قرابة ٣٥٠ صفحة ، يصدر فى أربع كراسات . ولو أن الذى يشرف على إصدارها معهد دينى مسيحى إلا أن أبحاثها علمية خالصة يراد بها وجه العلم الصحيح والحقيقة وحدها . وهذه الأبحاث قيمة للغاية وتمتاز بعمقها ودقتها . ويكفى أن نذكر من بين كتابها الأساتذة سيمون وروزنتال وشتفوخ .

هذه هى أشهر مجلات المستشرقين تحدثنا عنها فى إيجاز شديد كى نعطى للقارئ صورة عامة عنها قبل أن نتخذ منها مادة للتلخيص وموضوعا للنقد فى الفصول التالية .

عبد الرحمن بدوى

(١) Orientalia.

تحت مصباحى الأخضر :

يعتذر الأستاذ « توفيق الحكيم » إلى القراء عن موافاتهم بمقاله الموعود لتغيبه عن القاهرة فى عطلة العيد ، وموعده « تحت مصباحه الأخضر » فى الأسبوع القادم .

من أحسن ما يُروى

دراسة واختيار

للأستاذ أحمد الزين

« المعرى » فى بغداد يحن الى وطنه معرة النعمان بالشام

وهى من روائع الشعر الذى امتزجت فيه العاطفة بالخيال امتزاجاً جعل منهما فناً بديعاً من التصوير البارع الذى يجسم للعيان تباريح الحنين ولواعج الذكرى .

وإنك لتحس فى كل بيت من هذه القطوعة عيناً تفيض بالعبرة وقلباً يخفق باللوعة على الوطن الفارق والمنزل المهجور .

وحسبك أن قلب « المعرى » لم يتسع لتلك العاطفة ولم يقو على احتمال أشواقه ، فحمّل منها جزءاً غير يسير قلوب المطايا ، حاسباً أن قدرة أفئدتها على حمل شوقه وبلباله ، كقدرة ظهورها على حمل رحاله !

ولم يكن « المعرى » بدعاً من الشعراء فى إضافة الحنين إلى المطايا ، والاستراحة من بعض الشوق بإلقائه عليها ، والإفضاء بمكنون الصدر إليها ، فذلك مذهب جرى عليه من قبله من الشعراء ، والذى انفرد به « المعرى » هو أنه أطال فى ذلك ما اتسعت له شاعريته وتخيل من المعانى الرائعة ما اتسع له خياله .

فكان فى توليده المعانى وبسطه إياها أشبه بابن الرومى فى هذا المذهب ، على ما بينهما من الفروق التى يعتبر أكثرها لغوياً .

بدأ « المعرى » مقطوعته تلك بتصوير طرب المطايا للبرق واستشرافها لرؤيته ونزوعها إلى أوطانها حتى تكاد تطير مع ريح الصّبا إليها ، ثم تساءل عن بواعث حنينها وما عسى أن يكون قد ذكّرها بمراعيها فى أوطانها ومسارحها هناك بين ألفاف الشجر . ثم انتقل إلى صفة أصواتها وما يخالطها من رقة الحنين ، فشبهها بترتيل القراء ، وإنشاد الشعراء ، وإيقاع الغناء . ثم عاد إلى مخاطبة البرق وبثه أشواقه واستجدائه قطرة من ماء بلده يبل بها صداه . ثم خاطب إخوانه وأحبابه واصفاً لهم حاله بالعراق وأنه على عهدهم به من القناعة والعفة عما فى أيدى الناس والاستغناء بما لديه من الفضل والعلم ، على قلة ما فى يده من المال وما حوله من الأصدقاء ... الخ .

تلك نبذة يسيرة من قيمة هذه القطوعة وعرض مجمل لأغراضها . قال :

طَرِبْنَ لِضَوْءِ البَارِقِ المُتَعَالِى
بِبَغْدَادَ وَهْنَاً مَا لَهُنَّ وَمَالِى (١)

إذَا طَالَ عنها سَرّها لو رُءُوسُها
تُمَدُّ إلَيْهِ فى رُءُوسِ عَوَالِى (٢)

(١) يذكر طرب المطايا للسحاب ذى البرق لمحه ليلا ببغداد ، ويتساءل عما أصابها وأصابه من الشوق حين رآه . والوهن : قرب نصف الليل .

(٢) يشير إلى حرص المطايا على رؤية البرق وولوعها بالتطلع إليه . فتخيل أنها إذا لم تبرك لسمو مكانه عنها تمنت أن تقطع رءوسها وترفع إليه فوق أسنة الرماح .

وكم همَّ نِضْوٌ أن يطيرَ مع الصَّبا
إلى الشَّأْمِ لولا حَبْسُــه بِعِقَالِ (١)

ولولا حِفاظِي قُلْتُ للمَرْءِ صاحِبِي
بِسَيْفِكَ قَيِّــدْها فلَسْتُ أُبالِي (٢)

لقد زارَني طَيْفُ الخَيَــالِ فَهاجَنِي
فَهَلْ زارَ هذِي الإبْلَ طَيْفُ خَيَالِ

لَعَلَّ كَرَاهَا قد أَرَاهَا جِــذابَها
ذَوائِبَ طَلْــحٍ بالعَقِيقِ وضَالِ (٣)

وَمَسْرَحَها في ظِلِّ أَحْوَى كأنَّها
إذا أَظْهَرَتْ فِيــه ذَوَاتُ حِجالِ

تَكُونُ زَبُورًا في الحَنِينِ مُنَزَّلًا
عليهِنَّ فِيــه الصَّبْرُ غَيْرُ حَلالِ (٤)

وأَنْشَدْنَ مِنْ شِعْرِ المَطايَا قَصِيدةً
وأَوْدَعْنَها في الشَّــوْقِ كُلَّ مَقالِ

كأنَّ المَثانِي والمَثالِثَ بالضُّحَى
تَجاوُبُ في عِيــدٍ رُقِقْنَ طِوالِ (١)

فيا بَرْقُ ليس الكَرْخُ دارِي وإنَّما
رَمانِي إليه الدَّهْرُ مُنْــذُ لَيالِ (٢)

فَهَلْ فيكَ مِنْ ماءِ المَعَرَّةِ قَطْرَةٌ
تُغِيثُ بها ظَمْآنَ ليس بِسالِ

أَأُخْوانُنا بين العِــرَاقِ وجِلَّقٍ
يَدَ اللهِ ، لا خَبَّرْتُكُمْ بِمُحَالِ (٣)

أُنَبِّئُكُمْ أَنِّي على العَهْــدِ سَالِمٌ
ووَجْهِيَ لَمَّا يُبْتَــذَلْ بِسُؤالِ

وأَنِّي تَيَمَّمْتُ العِــرَاقَ لِغَيْرِ ما
تَيَمَّمَهُ غَيْلانُ عِنْــدَ بِلالِ (٤)

فأَصْبَحْتُ مَحْسُــودًا بِفَضْلِيَ وَحْدَهُ
على بُعْــدِ أَنْصارِي وقِلَّةِ مَالِي

أحمد الزين

---

(١) النضو : الجمل المهزول من كثرة الأسفار . يبالغ في صفة شوق المطايا وأنها تكاد تطير مع ريح الصبا إلى بلادها .

(٢) يقول : لولا محافظتي على الوفاء لتلك المطايا ورعاية حقها عليّ أمرت صاحبي أن يعقرها بسيفه فلا تبرح مكانها .

(٣) تخيل في هذا البيت والذي يليه أن الذي هيّج شوق الإبل وأثار حنينها أنها حلمت وهي نائمة بمراعيها ومسارحها في أوطانها ، تجذب بأفواهها غصون الشجر من الطلح والضال هناك ، وتدخل بين ألفاف الشجر وظلال النبات الأحوى ، أي الذي يميل إلى السواد لشدة خضرته فتستتر به عن العيون كأنها في قباب . والطلح : شجر طويل له شوك معوّج قليل الورق ، وهو من الأشجار ذات الصموغ . والضال : نوع من شجر السدر . وأظهرت فيه : أي دخلت في النبات وقت الظهيرة . والحجال : القباب .

(٤) تخيل أنها في حنانها تتلو كتاباً مقدساً فيه شرائع الحلال والحرام وأخص أحكامه تحريم الصبر عليها ، فهي دائمة الشوق والحنين . وتخير الزبور دون غيره من الكتب السماوية ، لأنه كتاب داود المعروف بحسن الصوت .

---

(١) يشبه أصواتها في رقة الحنين بأوتار الغناء المثاني والمثالث ، فيقول : كأن تلك الأوتار قد ركبت داخل أعناقها فهي تتجاوب فيها بشجي النغمات . العيد بكسر العين : جمع أعيد ، وهو الطائل العنق .

(٢) يبث إلى البرق شكوى الغربة ، ويسأله قطرة من ماء بلاده يشفي بها شوقه . والكرخ : من خطط بغداد ، وكان من أسواقها .

(٣) جلّق : دمشق . ويد الله : عهد الله ، يقسم به .

(٤) يريد غيلان بن عقبة ، وهو ذو الرمة الشاعر المعروف . وبلال ، هو ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري . يشير إلى عفة نفسه فيقول : إنه قصد العراق لا مستجدياً رفد الولاة والمثرين وإحسانهم كما فعل ذو الرمة من قبل حين قصد بلال بن أبي بردة وامتدحه بشعره رغبة في صلته .

من شعر الشباب :

الشمس الغاربة

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

غابت الشمسُ من وراء الحجابِ
وبدا الجـو معتم الأثوابِ
والنهار الضحوكُ ولَّى سريعا
وتلاشى شعاعه كالحبابِ
وبدت دُكنة المساء ولاحت
كالروح الشباح خلف الضباب
حيا هـذه الأشعة تُمسى
كعروس قد عُفِّرت فى التراب !
هـذه الشمسُ آذنت برحيل
بعد ما كللتْ رءوسَ الهضاب
وبدا الكونُ بعد ذلك سفرا
كلُّ سطرٍ فيه كلون الغراب !
والسكونُ العميق يبعث فى الأر
ض هدوء الحياة بعد اضطراب

***

للمساء الحزين وافى وضاعت ضحكات النهار خلف الروابى
واستفاض الهدوء إلا فؤادى فهو بين الضلوع صنو عذاب
وخبت شعلة الحياة ونامت مقلة الكون فى الفضاء الخابى !!
والعصافيرُ لم تعد تتغنى بأناشيدها المراح الطراب
والغراب الحريص جلله الدجـ ـنُ وأنّتهُ حلكةُ الجلباب
واختفى فى الظلام كل جميل ساحر فاتن من الأسراب
ومضت ضحكةُ النهار.. وجاءتْ همسات الأحباب للأحباب

محمد عبد الغنى حسن

السويد بلد السلام

تدفع العالم نحو الحرب

ليس فى الدنيا بلد يحب السلام مثل السويد ، فقد انقضى إلى الآن مائة وعشرون سنة تقريباً لم تدخل السويد فيها حرباً ، حتى الحرب الماضية التى لم ينج من نيرانها شعب على سطح الأرض ، لزمت السويد خلالها حيادها ولم تحمل شيئاً من أوزارها ، وقد عقد أهلها العزم على أن يظلوا كذلك فى الحرب المقبلة وما يتلوها من الحروب .

ولكن هذه البلاد الآمنة الوادعة ، ما تكاد تسمع بإعلان حرب فى ناحية من نواحى الأرض حتى تتأهب وترسل على المتحاربين جميعاً نيراناً حامية ، يصلى المتحاربون جميعاً نارها ويكتوون بأوصابها ، وهى (أى السويد) فى هدوئها ووداعتها وحبها للسلام ، كما تفعل الآن بفريق المتحاربين فى إسبانيا ، وكما توزع نيرانها بالقسطاس بين الصين واليابان المتحاربتين .

هـذه النيران هى الأسلحة ومعدات الحرب التى نبغ فيها أهل السويد حتى أصبحت بلادهم أكبر مصدر لها : سواء الآلات المصنوعة فعلا والخامات الصلبية النقية التى تصنع منها : ذلك أن معادن السويد وخاماتها تكاد تكون أنقى الخامات .. وهى بهذا أصلح الأشياء لصناعة الأسلحة ومعدات الحرب ، ولقد أخرجت السويد فى العام الماضى (١٩٣٧) أربعة عشر مليوناً من أطنان الحديد ، استهلكت تسعة أعشارها فى صناعة الأسلحة فى ألمانيا وانجلترا .

ولو سئل إنسان عن أعظم مصانع السلاح فى الدنيا لقال : كروب أو شنيدر أو فكرز أو سكودا ، وهو فى الحقيقة واهم ، إذ أن أعظم مصانع السلاح فى الدنيا هى مصانع بوفرز Bofors فى السويد ، لا يدانيها فى إتقان الصناعة وجودة الآلات مصنع آخر على الأرض .. وتلك من مفارقات الطبيعة التى تبعث على العجب ! فهذه المصانع الجهنمية تقوم وسط أحراج وغابات جديرة بخيال الشعراء ،

يرفرف الطير الشادي في مغانيهـا وينساب الجدول الجاري في نواحيها ، ويكاد يحسب الانسان أنها خالية إلا من بعض أسراب الثعالب وجماعات الطيور .. ولهذا لا يملك المرء عجبه حين يعثر فجأة وسط ذلك الهدوء على أعظم حصون مارس إله الحرب ، إليها يأوى ومنهـا يخرج لينزل بالناس المصائب والويلات ، وعلى مدى عشرين ميلا من المأوى المروع تمتد حقول التجارب فيقصف رعد المدافع ويتخلف برق القنابل وتشهد الغابة الساكنة تجارب الآلات التي يعدها إله الحرب ويصقلها ليعبث من سبيلها بالآدميين .

في هذه المصانع يعمل خمسة آلاف وخمسمائة عامل ليل نهار ، يرأسهم ستمائة وخمسون من أمهر عمال الدنيا وأكثرهم معرفة بشئون السلاح ، ويشرف على العمل ثلثمائة وسبعون مهندساً ومخترعاً ، يتابعون الجهد ويواصلون التجربة ، حتى يخرجوا للناس أشد الآلات فتكاً وأسرعها إصابة وأبعدها مرمى ، وأكثرها انطلاقاً وأحقها بجلب الخراب في نواحي الأرض كلها ، وبلاد الدنيا كلها عملاء لهذا المصنع . وفي ردهة استقباله يبصر الإنسان بوجوه المندوبين من كل بلاد العالم ، من الامبراطوريات الضخمة إلى الدويلات الهزيلة ، يتهافتون جميعاً على منتجات بوفرز وثمرات قرائح رجاله ، بحيث لا يخطئ الإنسان إذا راح يرقب تطور حركة التسليح في العالم في تقارير هذا المصنع السنوية . فمنذ سنة ١٩٣٣ إلى اليوم وأعمال المصنع في زيادة مطردة ، أي منذ بدأت ألمانيا تسلح نفسها ، فابتدأ سباق التسلح الذي لا زال في عنفوانه إلى اليوم ، فزاد رأس ماله من ٤٢ مليوناً إلى ٩٦ مليوناً من الكرونات وقفز عدد عماله من ألفين وخمسمائة إلى سبعة آلاف . وكذلك تضخمت قيمة منتجاته عاماً بعد آخر ، فمن ٢٤٫٥ مليون كرونر سنة ١٩٣٣ إلى ٢٦٫٥ مليون سنة ١٩٣٤ إلى ٧٦٫٤ سنة ١٩٣٥ إلى ١٠٩٫٥ سنة ١٩٣٦ إلى ١٦٦ مليوناً في ختام العام الماضي . وبلغ من اتساع أعمال مصانع بوفرز أن ابتلعت مصانع نوبل الشهيرة ، واندمج فيها عدد عظيم من أكبر مصانع السلاح في السويد والنرويج وفنلندا ، ووضعت يدها على معظم موارد الخامات في السويد والبلاد .

وليست صناعة الأسلحة بالأمر الهين ، الذي يستطاع الحصول على عمال مهرة فيه في كل مكان ، بل هي صناعة عسيرة يقضي العامل في تعلمها نحو عشرين عاماً ، حتى يصبح ذا خبرة يطمأن عليها ، وقدرة في الانتاج يعول عليهـا ، ولهذا يفخر أصحاب مصانع بوفرز بأن لديهم أعظم هيأة مدربة من المنتجين الذين ورثوا هـذه الصناعة عن آبائهم وأجدادهم ، وازدادوا على المران خبرة وقدرة ، إذ أن أهل بوفرز يتوارثون صناعة المعادن منذ ثلثمائة عام .

وقد كانت تلك المصانع العظيمة بيد أسرات غنية في بادئ الأمر ، ثم تحولت إلى شركة احتكار سنة ١٨٧٣ ، وأخذت اسهمها تتركز حتى صار معظمها إلى ألفريد نوبل العبقري السويدي المعروف ، الذي فشل في أن يصبح شاعراً ، فمال إلى صناعة الأسلحة حتى إذا تكدست لديه الأموال أخذ ينفقها على الشعر والشعراء .

وقد استطاعت ألمانيا أن تستحوذ على هذه المصانع بعد الحرب ، لأن أصحاب مصانع كروب اضطروا إلى ترك صناعة الأسلحة فسموا إلى السيطرة على هذه المصانع لتسليح ألمانيا خفية عن الحلفاء ، فتم امتزاج مصانع بوفرز وكروب ، وتبادلا المهندسين والتصميمات ، وتخوف السويديون من هـذا التدخل في أعظم صناعات بلادهم ، وأصر النواب على إخراج كروب وأمواله من السويد ، فتم لهم ذلك خلال سنة ١٩٣٥ .
ومن ذلك الحين أخذ الانجليز يتطلعون إلى الاستيلاء على هذه المصانع ، والسيطرة عليهـا ، وزادهم اهتماماً بأمرها سماعهم بأن أحـد مهندسي بوفرز قد توصل إلى صناعة مدفع مضاد للطيارات ، يعد من أعظم ما صنع الانسان في عالم

(البقية على صفحة ٤٠)

جنون نيتشه

شهد اليوم الأول من يناير سنة ١٨٨٩ حادثاً فريداً في بابه في حي كارلو أمبرتو بمدينة تورين في إيطاليا ، فقد كان أحد سائقي العربات ينهال على حصانه بسوط في يده ، واشتد الوجع بالحيوان ، فأخذ يتوثب ويتململ دون أن تأخذ الرجل به شفقة ، وبينما هو في ذلك إذا برجل يعدو نحوه ويعانق الحصان المضروب وينهال على السائق شتماً وتأنيباً ، وقد علقت أسارير وجهه بالغضب الشديد ، ومضى يصرخ بأعلى صوته وقد خرج به الغضب عن طوره ، وتفرس السائق فيه فوجد له شارباً ضخماً يتدلى على فمه ويغطيه ، وعينين حادتين قد أحالهما الغضب جمرتين من نار ، فكف عن الضرب وملكه الهلع أن يقربه ، واستوقف المشهد نفراً من السابلة فتكأكأوا حوله ومضوا يتفرسون في هيأة هذا الغريب العانق الحصان بكلتا يديه ، الصارخ بأعلى صوته كأن به مسّاً ، ولم يلبث أن عرفه أحدهم فصاح فيمن حوله :

— إنه ألماني ... إنه فردريك نيتشه أستاذ الفلسفة الذي انتجع تورين منذ شهور

وكان نيتشه قد خانته قواه إذ ذاك وسكت عن الصياح وبدا كأنه يتعازم على الوقوف ، وأنه سيخر على الأرض إذا لم يتداركه الناس ، فأسرع الرجل وأعانه ، وحمله على كتفه ومضى به إلى داره حتى أرقده في فراشه .

ظل نيتشه مضطجعاً على ظهره وقد استولى عليه ذهول دام يومين وليلتين ، وربما أفاق خلال هـذه المدة لحظات يهذي ببعض الكلام المتقطع ثم عاد إلى ذهوله ، وكان هذيانه غريباً مخيفاً ، فقد كان يقول إنه الملك فكتور عمانويل أو الكاردينال أنطونيلي ، أو يوجين أمير سافوا كرنيان ، وغير هذا مما كان الرجل يسمعه ونفسه مشطورة بين الخوف والتحسر ، ثم تحسنت حال المريض بعد ذلك فزايله سباته ، وقام يتمشى ، وصار يبارح الدار ويعود ، غير أن الخفة لم تفارقه ، فكان يمضي إلى المحطة أو إلى مكتب البريد ويعلن لمن يجده هناك أنه الله متنكراً .

وكان العالم النفسي المعروف سيزار لمبروزو يسكن تورين إذ ذاك ، وكان قد فرغ في ذلك الحين من كتابه عن « العبقرية والجنون » فأذهله ما رأى من أمر صاحبه الفيلسوف ، ولم يكن قد شهد له مثلا ، ولم يكن بينه وبين الفيلسوف ود أو تواصل ، فأخذ يرقب الأمر من بعيد ،

وحار الخباز المسكين الذي يأوي الفيلسوف المريض في داره ، ولم يدر ما يصنع ، ثم بدا له فكتب بالأمر إلى الأستاذ أوفربك صديق نيتشه يستنجد به ويستقدمه ، لأنه لم يجد عند الفيلسوف ما يفي أو يعين على تكاليف إيوائه وتمريضه ، إذ أن نيتشه لم يوفق إلى ناشر يشتري منه الجزء الأخير من كتابه الخالد « زرادشت » ، فاشتد به الإملاق وباع أثاثه القليل ليتبلغ بثمنه ، فلما قدم أوفربك ، استصوب أن يصطحبه معه إلى بلده بازل ، وهناك وافته أمه التي أسرعت لتسهر على ابنها ، فلم يكد يراها حتى صاح بها : « ألا ترين أني طاغية تورين ؟ » . وأقامت تعنى به وتسهر على راحته ، ثم رأت أن تأخذه إلى بلدها « يينا » ، ويبدو أنها أحست من نفسها العجز عن رعايته وحراسته ، فاستودعته المارستان.

واجتمع الأطباء يفحصون حاله ، واجتمع رأيهم على أن جنّة الرجل إن هي إلا مقدمة لشلل عام سيصيبه ، فذعرت الأم ، وأبت أن تصدق هـذا عن فتاها ، ووصلت في ذلك الحين أخته السيدة اليزابث فورستر (التي ستصبح فيما بعد مؤرخته والمشرفة على دار مخلفاته وآثاره في فيمار) ، وانضمت إلى الأم في تسفيه رأي الأطباء ،

وأصروا على أن الفيلسوف قد أجهد نفسه في الأيام الأخيرة اجهاداً أعيى ذهنه وأوهى عقله ، وأنه عائد ولا ريب إلى صحته وعقله بعد قليل .

واشتدت اللجاجة بين الأم والأخت والأصدقاء في طرف ، والأطباء في طرف آخر ، وثار الجدل حول سرير المريض ، وأبت الأم إلا أن تأخذ ابنها لتقوم على تمريضه بنفسها ، وتردد الأطباء في إجابتها إلى مطلبها ، ولم يكن أحد من الأطباء يعرف شيئاً عن العظيم المريض أو مقامه في الفلسفة ، حتى كبير أطباء المارستان اعترف بأنه لا يعرف شيئاً عن كتابات نيتشه أو فلسفته ، واعتذر عن هذا بكثرة شواغله ، والأطباء لا يجدون من الوقت ما يمكنهم من الظهور على هذه الآثار الفكرية الجليلة .

وأقام المرض على حاله فتصدى الكثيرون للنصح والتطبيب ، فزعم قوم أن بالرجل رَئِيّاً ، وأنه قد أصابته خفيّة ، فأخذت الأشياء تتصور في رأسه المحموم وتتراءى له ، واقترحوا أن يعالج بنقر النحاس بانتظام ، وجلب الراقصين ليرقصوا حول سريره حتى تزايله عُقلة السحر التي ألمت به ! وضاقت الأم ذرعا بهذا الهذيان ، فاشتدت في طلب ابنها حتى أذعن لها الأطباء ، فأخذته من المارستان ومضت به إلى دارها لتسهر على شأنه مع ابنتها .

وطالت مدة المرض وطال سهر الأم الرءوم ، وأخذت قوى الفيلسوف العظيم تهبط ، وبريق عينيه يخبو ، حتى ثبت في فراشه كأنه ميت وما هو بميت ، ولبث على هذه الحال ست سنوات ، انطفأ في ختامها سراج حياته الوهاج ؛ ولا يدري إلا الله كيف كانت حاله خلال هذا المرض الشاق الطويل . بيد أن المراسلات التي دارت بين أمه والأستاذ أوفرباك ، والتي لا تزال بين أيدينا إلى الآن ، تلقي شيئاً من الضوء على حال الفيلسوف العظيم خلال هذه السنوات ، ففيها ما يشهد للأم الجليلة بالصبر الطويل على الألم البالغ والسهر المضني على العلة اللازمة ، وفيها ما يرفع الأم والأخت الجليلتين إلى مقام البطولة ، فقد كان الفقر يهد جانبهما ، والعوز يحاربهما ، فأقامتا صابرتين مواصلتين للجهاد ، حتى استطاعتا أن تشيدا جثمان رجلهما العظيم بعد هذه الحقبة الطويلة ، ولقد كانت تنتابه صحوات مفاجئات تختلط فيها وساوس ذهنه وبنات فكره وعَزَوَاءُ جنونه ، وربما قذفهما بما وقع تحت يده من وسادة أو منديل ، وربما أصابته نوبات من الاغماء الطويل ، ولكن السيدتين الجليلتين أقامتا على الصبر والوصب ، لم يشاركهما مصيبتهما أحد ، ولم يخطر ببال أحد من العالمين إذ ذاك أن يعرج على دار الفيلسوف العظيم ليلقي إليه تحية !

السويد بلد السلام ...

(بقية المنشور على صفحة ٣٨)

....

السلاح ، لسهولة حركته وبعد مرماه وسرعة طلقته ، فسارعوا إلى التوصية على مدافع من هذا الطراز يقدر ثمنها بنحو خمسة ملايين من الجنيهات للدفاع عن لندن وحماية الجزر البريطانية من الغارات الجوية ، فعاد الألمان يتطلعون إلى السيطرة على مصانع بوفرز لمرفقة الساعي البريطانية ، وبهذا نشأ نوع من الصراع الخفي بين الانجليز والألمان للسيطرة على مصانع بوفرز والفوز بما تنتجه من عجائب في عالم الحرب والسلاح ، وقد قدر للانجليز الانتصار أخيراً ، إذ وقعوا مع أصحاب بوفرز اتفاقاً أخيراً على احتكار أنواع معينة من الأسلحة في عيد التتويج الماضي ، والانجليز الآن أصحاب اليد العليا في هذه المصانع لأنهم أكبر عملائها .

العلم يقهر الألم

هل يعلم أبناء هذا الزمان الذين يشهدون العمليات الجراحية الكبرى تتم دون أن يحس المريض ألما ، أنه قد أتى على الناس حين من الدهر كانت أيسر العمليات مصدر آلام مبرحة تشق على أشد الناس جلدا ؟

لقد كانت عملية بسيطة كخلع ضرس ، أو جبر كسر ، أو تقويم ساق منحرفة ، تقتضي أن يشد وثاق المريض ويمسك به أعوان الطبيب الأشداء ، ويعلو صراخه الباكي حتى يدركه الاعياء .

وكم عمد الأطباء إلى تهويل الأمر على مرضاهم ! واخبارهم بغلظة ووحشية بتفاصيل ما سيجرونه عليهم حتى يدركهم الفزع ويغمى عليهم فرقا وخوفا . فيجرون عليهم عملياتهم وهم في غيبوبتهم .

وكم كان الافزاع وحده وسيلتهم في علاج مرضاهم ، يروى عن طبيب ايقوسي في النصف الأخير من القرن الماضي أنه جاءته مريضة تكاد تموت بسبب شيء يعترض حلقها فيمنعها أن تأكل أو تشرب ، ولا تكاد معه أن تتنفس ، فقام الطبيب إلى عصا من الحديد ، وألقى طرفها في نار شديدة حتى حميت وابيضت من الحرارة ، فأخذها وتحرك نحو سرير المريضة ، وناداها أن افتحي فمك أيتها المرأة ، ففزعت المرأة لهول ما رأت ، وصرخت صراخا مدويا مزق الحائل السم الذي اعترض حلقها وشفيت مما بها .

هذه وسائل الطب الجراحي إلى عهد قريب ، أن يجرى العملية بمرأى ومسمع من المريض ، بعد أن يشل حركته بالقوة — وتصور مبلغ ما كان يقاسيه مثل هذا المريض وهو يرى مثلا بعض أعضائه يوضع في زيت يغلي ثم ينشر هذا العضو بمنشار غير مهذب — أو أن يصل بالمريض إلى حالة من الهلع والفزع تدركه عندها الغيبوبة ، فيجرى عليه العملية وهو في إغمائه ، أو أن يصل بحمله على الافراط في السكر إلى جعله في حالة من تبلد الحس تسمح بإجراء العملية عليه .

كان هذا كله قبل أن يصل العلم الحديث إلى كشف التخدير والترقي به إلى المنزلة التي هو عليها الآن .

وإنك ليدهشك أن يغيب على الناس سر التخدير ، فلا تعلم خصائصه إلا حديثا . ومع هذا فقد كانت بعض أنواع المخدرات معروفة منذ القدم . فهوميروس يذكر في شعره استعمال النبنتا ، وهو محلول الأفيون ، ويذكر هيرودوتس المؤرخ اليوناني أن السيثانيين كانوا يستعملون نوعا من القنب في القرن الخامس قبل الميلاد . ويؤخذ من مخطوط صيني قديم أن الطبيب هوتو في القرن الثالث قبل الميلاد كان يخدر مرضاه بالقنب قبل أن يجرى عليهم عملياته .

وفي القرون الوسطى كانت المدرسة الطبية الشهيرة في سولرنو جنوبي إيطاليا ، تعلم استخدام الأسفنجة المنومة وهي إسفنجة مشبعة ببعض العقاقير التي تجلب النوم . ويكثر شكسبير من ذكر الأشربة المنومة في رواياته .

واللودن الذي كان له الفضل في أن أوحى لديكونسي بعالم أحلامه ، كان يستعمل في القرن الثامن عشر لتخفيف الألم .

ولكن غيبة الألم لا تكفي الطبيب ، وليست وحدها موضع اهتمامه ، بل يجب أن يكون المريض مسترخيا تمام الاسترخاء ، وقل من العقاقير قبل الأثير ما كان يكفل ذلك ، كل أثر العقاقير القديمة أن تنقل المريض إلى عالم أحلام يكافح فيها مع هواجس وخيالات .

وقد كان الدكتور بيرسون فى برمنجهام سنة ١٧٨٥ يستعمل الأثير فى علاج ضيق التنفس ، ولكنه فيما يبدو لم ينتبه لقيمته التخديرية .

وكان السير همفرى دافى مدير الجمعية الملكية بلندن فضل اكتشاف الغاز المضحك أكسيد الأزوتوز وخصائصه ، وكتب فى سنة ١٧٩٩ : « بما أن أكسيد الأزوتوز يبدو كفيلاً بإزاحة الألم الجسمانى ، فمن المحتمل أن يكون استخدامه فى العمليات الجراحية مفيداً » .

وقد سجل إحساسه الشخصى تحت تأثير الغاز المضحك . وفى مارس سنة ١٨٠٠ أوضح وليام ألن المحاضر فى الكيمياء فى مستشفى جى عمليا كيف أن الغاز المضحك يذهب الألم . وكان السير استلى كوبر ، أحد مشاهير الجراحين العالميين حاضراً ، ولكنه لم يهتم بالانتفاع بذلك . وقد كانت شهرته — كما كان الحال مع كل جراح ناجح فى ذلك الحين — قائمة على السرعة التى كان يجرى بها عملياته ، كأن يبتر ساقاً مثلا فى أقل من ثلاث دقائق ، لأن المريض فى وعيه لا يحتمل الألم طويلا .

وفى ١٨١٨ نشر فاراداى العالم العبقرى — فى تجاربه التى بفضلها عرفنا الكهربائية كما هى الآن ، والفلزات التى اكتشفت بالتحليل الكهربائى كالألومنيوم ، وعشرات غير ذلك من المكتشفات الهمة — وأعلن أن استنشاق الأثير يفقد الوعى والإحساس بالألم .

ولكن ذلك كله مرّ والناس لا يلقون إليه بالا كشأنهم فى أكثر الحقائق العامة ، تقع تحت أذقانهم ليل نهار ، ولكنهم لا يدركون كنهها وقيمتها ، حتى يقيض الله لها من يظهرها ، فيعجب الناس كيف فاتهم إدراك ذلك مع هوان أمره .

كان بعض الشموذين الجوابين تحت تأثير غاز « دافى » المضحك ، يسمحون بأن يوخزوا بالأبر دون أن يبدو عليهم ألم لذلك . ووصل أحد هؤلاء إلى دانيلز فيل بجورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية فى شتاء سنة ١٨٤١ ، فسمع بأمره الجراح كروفورد لونج الطبيب ، بأن به فتاة من صديقاته وكان لونج أثيراً لديهن بفضل تظرفه ، وألحت عليه أن يفسر لها ذلك ما دام هو على علم بالكيمياء . ولم يكن الغاز المضحك ميسراً له ، فاتجه إلى إشارة فاراداى وجرب الأثير . وكان التاريخ بدون صفحة من أجل صفحاته وهو يستجيب لعبث فتاة .

وأخذ الطبيب الشاب بعد ذلك يعرض على الفتيات كيف يستطيع تحت تأثير الأثير أن يتلقى وخزات إبرهن راضياً .

وكان أحد مرضاه يشكو تورماً فى عنقه ، فى مارس سنة ١٨٤٢ جعله يستنشق الأثير ، وأزال التورم دون أن يحس المريض ألماً ، وكرر مثل هذه العمليات بنجاح إلى سنة ١٨٤٦ .

وكان لونج على وشك أن يكتب بياناً بهذه الحالة ، ولكن أوقفه نبأ هزّ الكون دهشة ، وهو إجراء عملية خطيرة بطريقة تلفت الأنظار ، قام بها الدكتور جون وارن الجراح ببوستون ، الذى كان يبلغ السبعين من عمره استخدم فيها الأثير ، وقد أرشده إلى ذلك وليام مورتون طبيب الأسنان ، الذى أبلغه أنه استطاع بالأثير أن يخلع الأسنان بدون ألم .

وبهذه العملية شعر الناس أن الألم قد انتهت نهايته .

وقد استخدم سمسون الأثير فى أدنبرا فى تخفيف آلام الولادة ، ولكنه لم يرتح له ، وظل هو وعدد قليل من الأطباء ، يجربون كل أنواع العقاقير ، أملا فى العثور على عقار يفقد الوعى . فى إحدى الليالى كان يفتح قنينة من الكلوروفورم ، وهى مادة اكتشفها الكيميائى العظيم ليبيج قبل ذلك بستة عشر عاماً ، ولم يكن يقدر أن لها

تأثيراً مخدراً ، فما كاد يشم منها شمة حتى خر واقعاً ، وريع أصدقاؤه حيث وجدوه جامداً لا حراك به ، كأنما هو جثة ميت .

ولما أفاق من غشيته علم أن سعيه قد بلغ الغاية ، ولكن متاعبه الخاصة كانت في الواقع قد بدأت منذ ذلك الحين ، فقد تضافر منافسوه الحاسدون مع رجال الدين الرجعيين على مهاجمته . ولم يتغلب على خصومه إلا بفضل الملكة فكتوريا ، التي جربت من قبل آلام الوضع ، وعلمت أي يد يسديها للإنسانية من يخفف تلك الآلام ، فتولته بحمايتها ومنحته رتبة الفارس ، وجعلته طبيبها الخاص .

والآن أصبح التخدير بمنزلة رفيعة من الحذق والمهارة كالتي وصل إليهما صنوه الطب الجراحي ، ولا ينقطع للكيميائيين سعي للوصول إلى العقار الكامل الذي يؤدي مهمة التخدير أكمل أداء . وبفضل هذه القوى الجديدة التي تسمح للجراح بوقت أطول لأداء عملياته ، استطاع أن يقوم اليوم بعمليات كانت تعد فيما مضى من المعجزات .

لم يعد اليوم محل للخوف من العمليات الجراحية ، فالمريض لا يحس ما كان يحسه من قبل من النزول إلى أعماق سحيقة من مجاهل مسكونة بالخيالات كما كان الحال حين يضغط القناع على وجهه . بل أصبح يعطى بدلا من ذلك حقنة من الأفيبان (Eivpan) ، وهي كفيلة بأن تجعل المريض في غشية لا يرى ولا يحس شيئا مما يدور حوله من الصدمات في قاعة العمليات ، أو يعطى المخدر العميق الذي يمكن الجراح من السيطرة التامة على المريض ويفسح له في الوقت ما شاء .

وبعض المخدرات الحديثة كالسيكلوبروبين Cyclopro' pane الذي أدخل سنة ١٩٢٩ يمنع حدوث الالتهاب الرئوي الذي كان كثير الوقوع عقب العمليات . وهناك عقاقير من شأنها أن تفقد الحس ولكنها لا تفقد الوعي ، وهذه قد تفيد في حالات كحالات الولادة فتكفي الوالدات الألم ، ولكنها لا تتدخل في العمليات العضلية المتصلة بولادة الطفل . وأشهر هذه المواد صورة معدلة من غاز « دافي » المضحك .

ويستعمل التخدير الموضعي في العمليات الصغيرة كما هو الحال في خلع الضرس .

وبتخدير النخاع الشوكي يمكن « قطع » الاتصال ببعض أجزاء الجسم ، فيمكن وقف أثر الارتجاج الذي يحدث عقب إصابة بالفة أو حرق الخ .

وهكذا حق القول أن العلم قد تغلب نهائياً على الألم .

م

نباتاتنا الطبية

زهرة دلماسيا قاتلة الحشرات

للأستاذ محمد سعيد الأزهري

زهرة دلماسيا هي زهرة نبات Chrysanthemum Cineraraefolium وهو أحد نباتات العائلة المركبة . والنوار من هذا النوع يتجمع على شكل قرص مثل زهرة عباد الشمس المشهورة . وتتكون هذه النورة من نوعين من الأزهار ، أحدهما شريطي والآخر قرصي .

ويتبع هذا النبات فصيلة Tubuliforae التي تمتاز بكثرة وجود (قنوات راتنجية) منتشرة بين القشرة والنخاع بل وفي جميع أجزاء النبات الشريحية . وهي مواد قد أكسبت معظم نباتات هذه الفصيلة شهرتها في عالم الطب .

وزهرة دلماسيا هي الزهرة القاتلة للحشرات . وهي من نبات عشبي معمر ، يوجد في بلاد دلماسيا على بحر الأدرياتيك وشمالي أفريقيا وكاليفورنيا واسبانيا وإيطاليا ، وأجودها ما ينبت في دلماسيا .

وقد أثبتت التجارب أن هذه الزهرة تجود زراعتها في جميع بلاد القطر المصري ما عدا المناطق الجنوبية ، كما أنها قد أنتجت كميات هائلة من الأزهار في عامها الأول ، وذلك ما لم يحدث في أي قطر آخر .

والفضل في ذلك يرجع إلى الأبحاث القيمة التي قام بها أساتذة قسم البساتين بوزارة الزراعة .

والمواد الفعالة في هذه الأزهار هي : —

١ ٪ زيت طيار ، ٧ ٪ خليط من الراتنجات (Resins) وغيرها مما لا أثر له في خاصية قتل الحشرات .

وأنسب الأوقات لجمعها هو الوقت الذي تبتدأ فيه بالتفتح ، ففيه تكون في أوج قدرتها على إبادة الحشرات .

ولقد زرع هذا النبات في حدائق مدينة (بادوا) بإيطاليا في سنة ١٦٦٠ قبل الميلاد . واستعمل أول مرة في البلاد البرية . ومما عرف عنه أنه إذا حفظ جيداً في أوانٍ مُحكمة الأقفال يظل دائماً قوى المفعول . أما إذا أحرقنا من أزهاره المسحوقة جزءاً يسيراً في غرفة مقفلة فإن الذباب الموجود بها سرعان ما يفارق الحياة . وإذا ذرى في أي موضع صرع الحشرات المؤذية مثل الصراصير والبراغيث .

وأما البعوض والبق وغيرها فيمكن إبادتها باستعمال المحلول الآتي :

٥٠٠ جرام مسحوق زهرة دلماسيا .
٥ لترات (كيروزين) — بترول عادي .
١ لتر بنزين .
٥٠ جراماً يوكاليبتوس عطر .
٥٠ » ستروتيل عطر .

وهذه الأشياء تنقع لمدة أسبوع وترج يومياً ، وبعد ذلك تصفى وتوضع في زجاجات تحت الطلب .

(المطاعنة — قنا) محمد سعيد الأزهري
ميدل كباوي

الحلقة المفقودة :

مؤتمر فلســـــطين
وصاحب الفكرة فيه
للأستاذ يوسف فرنسيس

قرأت في العدد الخامس من « الثقافة » كلمة قصيرة عن المستر جون فلبي جاء فيها أن هذا الرجل ، على ما يقال ، هو صاحب فكرة المؤتمر الذي سيعقد — والآن ينعقد إن شاء الله — في لندن لبحث المسألة الفلسطينية .

وقد نقلت صحف فلسطين عن « الثقافة » هذا القول .

فاسمحوا لي يا سيدي ، بصفتي أحد الخبيرين بهذا الموضوع ، المطلعين على أصوله ، أن أصحح ذلك الاعتقاد وأرجع الأمور إلى نصابها فيه ، لأنه وقد أهلت « الثقافة » مكانتها الأدبية والسياسية العالية أن تصبح مرجعاً للكتاب والصحف ، فأنا أخاف أن يثبت ذلك الخطأ غير المقصود عليها وأن تُهضم به — إلى أن يحين الوقت للتاريخ أن يتكلم — حقوق أناس هم مجبرون على أن لا يتكلموا في الوقت الحاضر .

فليس المستر جون فلبي هو صاحب فكرة مؤتمر لندن ، وليس هو الذي نصح للمستر مالكولم ماكدونالد ، وزير المستعمرات الانكليزي ، بتنفيذها . وإنما صاحب الفكرة والساعي لتحقيقها والناصح للمستر ماكدونالد بتنفيذها موظف انكليزي كبير في حكومة فلسطين .

أما حكاية وساطته فإليكم إياها مع قبول اعتذاري من عدم الإفاضة في التفاصيل ونشر الأسماء ، لأن لذلك وقتاً لم يحن بعد .

***

كان الموظف البريطاني المذكور ، من قبل تسعة أشهر تقريباً ، على وشك القيام بإجازته السنوية — وهذه الاجازات غالباً ما تكون سياسية — إلى لندن ، وكان عليه — بطبيعة وظيفته التي يشغلها في الحكومة هنا — أن يجتمع إلى وزير المستعمرات وأن يعرض عليه تقريره عن الحالة في فلسطين وأن يبدي ما يراه علاجاً ناجعاً لها ، على أن يكون هذا العلاج مضمون القبول .

ولتحقيق رجائه في عرض علاج ناجع ، خطر له أن يحتك ببعض الجهات العربيـة وأن يجس نبضها فيما هو الأصلح بالعرض على الوزير ، مبدياً في الوقت ذاته نظريات وآراء يعتقد بطبيعة اطلاعه على الأحوال السياسية أن حكومته ترضى بها ، جاعلاً هدفه أن تخطو الجهات العربية في سبيل التفاهم خطوة جديدة تمكن السلطات البريطانية من السير خطوة مثلها ، فيكون بذلك مجال للنظر وبتحقق التفاهم المنشود .

وتنفيذاً لهذه الفكرة ، دعا الموظف المذكور إلى مقابلته شخصاً عربياً يعرفه على اتصال برجالات الحركة الوطنية ، وتحدث إليه في الموضوع طويلاً ثم عرض عليه المشاريع التي يراها صالحة للتفاهم . ولما قال هذا إنه لا يملك البت في مثل هذا الشأن الخطير تمنى عليه الموظف لو ينقل آراءه وعروضه إلى من يملك البت فيها ، وأن يسأله ما الذي يراه صالحاً لأن يتخذ كأساس لمباحثات تدخل الحكومة

البريطانية مع الزعامة العربية فيها .

ومما قاله هـذا الموظف ، لتشجيع جليسه على العمل الموضوع ، ما يلي بالحرف تقريباً :

— لقد تعب الجميع من الثورة القائمة في فلسطين ، ومن مصلحة الجميع تنهوها نهاية شريفة . فما أجدرنا — كلنا — بأن نعمل على وضع حد لتلك المتاعب ، وعلى حل المشكلة على أساس مقبول .

وما وسع العربي ، الذي تلقى هـذه الآراء ، إلا أن يحملها إلى ذوى الشأن في المسألة الفلسطينية . وكانت مباحثات ومراجعات تداولها الطرفان عن طريق الرسول انتهت من ناحية أصحاب الشأن العرب على ما يلي :

— إن أموراً كهذه ، من شأنها التطور بالقضية هذا التطور ، يجب أن تنظرها وتبت فيها اللجنة العربية العليا كلها مجتمعة ، فهي التي وضعت — بإرادة الشعب — الميثاق الوطني الفلسطيني ، وهي التي تملك النظر فيما يطرح على أساسه من مشروعات . وإن قضية فلسطين ليست بالقضية المحلية التي تعني أهلها وحدهم ، وإنما هي قضية عربية إسلامية تعني جميع الأمم العربية والاسلامية . فمن الضروري إذاً ، لتمكين بحث الآراء المعروضة ، توفير العناصر ذات الشأن في بحثها .

وسافر الموظف البريطاني المذكور إلى لندن يحمل هذه الآراء المنقولة وشبه الموافقة المبدئية على وساطته . وقد وعد بأن يجتمع وهو في طريقه إلى بلاد الانكليز ، ثم وهو هناك ، إلى المشتغلين بالقضية من رسل العرب لاستكمال البحث واستيفاء الآراء .

واجتمع الموظف المذكور إلى هؤلاء الرسل ، ثم قابل وزير المستعمرات ، ولم تمض بعدها إلا القليل حتى صدر بيان الحكومة البريطانية — مع تقرير لجنة التقسيم — وفيه مشروعها بدعوة العرب إلى مباحثات واتصالات شخصية تجرى في لندن ، ومن بعدها أفرجت عن أعضاء اللجنة العربية العليا المنفيين إلى سيشل ورحبت بهم وبباقي زملائهم — ممن كان محرماً عليهم دخول لندن — كمفاوضين شرعيين عن عرب فلسطين .

* * *

على هذا الشكل نشأت فكرة مؤتمر لندن ثم تحققت . ولسنا الآن في حل من ذكر المشروعات التي عرضت في المباحثات التمهيدية ، وكانت بمثابة قاعدة لتحقيق الفكرة والعمل على حل المشكلة الفلسطينية ، ولكن متى حان الوقت بعد رفع الستار عنها وعما اكتفينا بالتلميح إليه هنا ، راجين أن نصبح قادرين ذلك الوقت على ذكر اسم « الجندي المجهول » أو « الجنود المجهولين » الذين سيرسوا دفة السفينة الفلسطينية إلى شاطئ نرجو أن يكون سليما إن شاء الله .

(القدس) يوسف فرنسيس

تاريخ البيمارستانات في الاسلام

تفضلت جمعية التمدن الإسلامي بدمشق فأهدت مشكورة إلى تحرير الثقافة مؤلفاً قيما لسعادة الدكتور أحمد عيسى بك في تاريخ البيمارستانات في الاسلام .

وقد تصفحناه فوجدنا سعادة المؤلف قد أثبت فيه بيان رائع ووقائع محققة ما كانت عليه عظمة التمدن الاسلامي وحضارة العرب في هذا السبيل ، وأن أول المستشفيات انشاء في الاسلام هي المستشفيات الحربية ، ومنها تفرعت بتفرع العلل .

وإنا نشكر لجمعية التمدن الاسلامي هديتها القيمة ، ونرجو لمؤلف سعادة الدكتور البحاثة ما يستحقه سفره من ذيوع وانتشار .

حول كتاب «فى الحسبة»

هل انتحل ابن الأخوة اسم الماوردى ؟

للاستاذ أحمد سامح الخالدى

حضرة الأستاذ العلامة

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد أهنئكم على مجهودكم الكبير ، وأرجو « للثقافة » ازدهارا وعمرا طويلا لتقوم بقسطها فى خدمة الثقافة الشرقية خدمة خالصة .

وبعد ، فقد اطلعت فى العدد الأول من مجلتكم الزاهرة على ما كتبه الأستاذ الكبير محمد كرد على حول « كتاب فى الحسبة » لابن الأخوة . وقد طبعت هذا الكتاب لجنة تذكار جيب الانكليزية سنة ١٩٣٧ ، بعناية الأستاذ روبن ليوى أحد أساتذة جامعة كمبردج . وبعد أن وصف الأستاذ كرد على الكتاب ، ونقل بعض مقتطفات منه ، أخذ على الأستاذ روبن ليوى عدم تحقيقه مما سبب وقوع أغلاط غير يسيرة ، كان فى الامكان تلافيها .

وقد ذكر الأستاذ فيما ذكر بعض ما طبع من الكتب فى الحسبة ، وقال إنه اطلع على أربع مخطوطات ، منها « معالم القربة » ، وهو الكتاب الذى نحن بصدده الآن .

ولما كان بين يدى نسخة خطية لكتاب « الأحكام فى الحسبة الشريفة » للامام أبى الحسن على بن محمد الشهير بالماوردى ، وهى من مخطوطات مكتبتنا الخالدية ببيت المقدس ، وكنت قد أخذت أدرسها ، لفت نظرى ما جاء فى مقال الأستاذ كرد على من وصف كتاب ابن الأخوة ، فوجدت الوصف ينطبق كل الانطباق على النسخة التى أملكها[1] ، فأسرعت واستحصلت على نسخة من كتاب « معالم القربة » المنسوب لابن الأخوة والمطبوع حديثا ، فازدادت دهشتى وحيرتى ؛ ولما أخذت فى مقابلة الكتابين ، وجدت أنهما كتاب واحد ، باستثناء الصفحة الأولى من الكتاب ، والصفحتين الأخيرتين من الفصل السبعين ، أى الأخير . وفيما عدا ذلك فهما ينطبقان كل الانطباق فى كل كلمة بل فى كل حرف ، حاشا أغلاط النسخ !

ومن المعلوم أن الامام الماوردى توفى سنة ٤٥٠ هـ ، فى حين توفى ابن الأخوة سنة ٧٢٩ هـ ؛ فجال فى خاطرى عند ذلك أن ابن الأخوة هو منتحل ، ولم يفعل شيئاً فى الكتاب ، سوى أنه بدّل الصفحة الأولى والصفحتين الأخيرتين ، وغيّر العنوان طبعاً ، ثم نسب الكتاب لنفسه ! وازداد يقينى حينما رأيت أن النسخة التى طبعها الأستاذ ليوى خالية من أسماء النقلة ، ولا تاريخ فى أولها أو آخرها[1] .

ومع أن النسخة الخالدية ليس فيها ثبت بأسماء النقلة أيضا ، وليس لها تاريخ ، إلا أنه دوّن فى الصفحة الأولى منها أنها من كتب عبد القادر على نجل عبد القاهر الكيلانى فى سنة ٨٧٦ . وإذن فإن نسختنا كانت فى عالم الوجود فى منتصف القرن التاسع على أقل تقدير !

لكن معالم التهمة فى الانتحال كادت تتحقق ، بل ازدادت شبهاتى بعد مقابلتى الكتابين بفصل « الحسبة »

---

(١) لم يذكر الأستاذ كرد على ، ولا روبن ليوى عن المخطوطة الخالدية شيئا ، والظاهر أنهما لا يعلمان بها .

(١) هذا مع أنه عند ذكره النسخ التى اعتمد عليها فى الضمة يقول إن إحداها ترجع للقرن التاسع ، وأخرى لسنة ١٣٠٦ وهى منسوخة عن نسخة شامية ترجع إلى ٧٤١ ، وأخرى للقرن الثامن ، وأخرى مؤرخة سنة ٧٧٩ هـ .

فى كتاب «الأحكام السلطانية» للماوردى . ذلك أن ابن الأخوة فى الفصل الأول من الباب الأول يقول ، بعد أن يعرّف الحسبة وشروط المحتسب : «قال الامام الماوردى اعلم أن الحسبة واسطة بين أحكام القضاء والمظالم ....» الخ وهذا ينطبق على ما جاء فى فصل الحسبة فى كتاب «الأحكام السلطانية» (انظر صفحة ٢٠٩ مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧) . ومع أن المفروض فى المؤلف أن يقف بعد جملة أو جملتين ، أو عند نهاية الفصل على الأكثر ، إلا أنه لم يفعل ذلك ، بل نقل الفصل برمته ، وانتقل إلى فصول أخرى ، بل أبواب ؛ وكلها تنطبق أو تكاد على ما جاء فى «الأحكام السلطانية» . وأنا أستدل من هذا طبعا أن ابن الأخوة ليس أمينا فى النقل ، وإلا لوجب أن يذكر الإمام الماوردى مرة ثانية وثالثة الخ عند نقله عنه فى مبتدأ الفصول والأبواب .

أضف إلى هذا جميعه ما جاء فى كتاب ابن الأخوة فى الباب الأول قبل ذكره الماوردى ، فانه ينطبق أيضا على فصل الحسبة فى الأحكام السلطانية ، ومن ثم حرفا بحرف على النسخة الخاصة التى بين أيدينا . ومع هذا فقد اعتبر ابن الأخوة أن الكلام له ، وهو ليس له !

وأنا أقول إن المؤلف هو الامام الماوردى ، وإنه هو صاحب الكتاب ، وإن ابن الأخوة قد انتحل هذا السفر النفيس لنفسه ، بدليل ما سبق ذكره ، وأضيف إلى هذا أن الأستاذ روبن ليوى نفسه يقول فى مقدمة كتابه المطبوع إنه وجد تشابها كبيرا فى فصول كثيرة بين كتاب ابن الأخوة (٧٢٩ هـ) ، ونهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن البسام (لم يذكر تاريخه) ، ونهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى (سنة ٥٨٩) ، ثم يتساءل : هل اعتمدت هذه الكتب الثلاثة على مصدر واحد ؟ أم أن «معالم القربة» قد بنى على أحدها وهو أمر على حسب رأيه لا يمكن البت فيه . وأنا أقول إن هذه الكتب ، أو ابن الأخوة على الأقل ، قد اعتمد كل الاعتماد على الماوردى .

هذا والامام الماوردى مؤلف مشهور ، وهو من أوائل من طرق هذا البحث ، فلا مجال للتساؤل بعد أن ظهرت مخطوطتنا التى لم يقف عليها الأستاذان كرد على وليوى ، على حين أن ابن الأخوة يكاد يكون مجهولا .

بقى نقطة واحدة ، وهى أن النسخة التى بين أيدينا جاءت فيها بعض أقوال مختصرة ، وأسماء لأئمة عاشوا بعد الماوردى ، مثال ذلك الغزالى والأصفهانى والرافعى ، فإذا جاز لنا أن نفترض أن هذه أضيفت على نسخة الماوردى الأصلية ، وهذا ممكن معقول ، تحقق لدينا أن مؤلف الكتاب هو الماوردى وليس ابن الأخوة ، ويكون الثانى إذاً قد انتحل الاسم وادعى ما ليس عنده ، ويكون الكتاب صورة حية للقرن الخامس وما قبله ، لا الثامن . وفوق كل ذى علم عليم

فهل للأستاذ الكبير كرد على أن يجلو لنا هذا الغموض ، ويحل لنا هذه المعضلة ، ويرجع الحق إلى نصابه ؟ وإنا لرده لمنتظرون ، ولفضله لشاكرون .

(بيت المقدس) **أحمد سامح الخالدى**

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الاشتراك السنوى
٦٠ قرشا فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك
ثمن العدد ٢ صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٢٩٩٢٢

العدد التاسع — « الثلاثاء ٩ محرم سنة ١٣٥٨ — ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٩ » — السنة الأولى

الفهرس

حوادث الشرق الأقصى

والحرب بين الصين واليابان

لمحرر « الثقافة » السياسى

منذ عشرين شهراً تضطرم الحرب فى الشرق الأقصى ، بين الصين واليابان ؛ وقد استحالت هذه الحرب التى لم تعلن حتى اليوم بصفة رسمية ، والتى بدأت فى صورة حملة تأديبية تقوم بها اليابان ضد الصين ، إلى معركة شاملة تستغرق قوى اليابان ومواردها ؛ ومع أن الجيوش اليابانية استطاعت أن تستولى على معظم الثغور والعواصم الصينية الكبرى ، مثل بكين وشنغهاى ونانكين وهنكاو وكانتون ، وأن تحتل معظم المناطق الساحلية ، فإن الجيوش الصينية الوطنية ، مازالت تقاتل الغيرين بثبات ، وتعرقل تقدمهم جهد طاقتها .

وقد كانت اليابان تظن حينما جردت حملتها على الصين فى يوليه سنة ١٩٣٧ بحجة اعتداء حامية بكين على بعض الجنود اليابانية ، أن الأعمال العسكرية لن يطول أمدها ، وأنها

متى استولت على شنغهاى أعظم الثغور الصينية ، ونانكين مركز الحكومة الوطنية ، فإنها تستطيع أن ترغم الماريشال تشانغ كايشك ، زعيم الصين الوطنية ، وروح المقاومة الحقيقية للغزو اليابانى ، على قبول الصلح الذى ترى أن تفرضه على الصين تمهيداً لتحقيق أغراضها الاستعمارية ، وبسط نفوذها على الصين كلها

والواقع أن الحرب التى تشهرها اليابان على الصين ، لم تكن سوى خطوة جديدة فى تنفيذ خطتها المرسومة لاستعمار الصين ؛ وقد بدأت هذه الخطة بصفة عملية فى سنة ١٩٣١ حينما غزت اليابان إقليم منشوريا واقتطعته من الصين ، وأقامت فيه دولة صورية تحت حمايتها هى دولة « منشوكيو » ؛ ثم أخذت من ذلك الحين تتوسع فى احتلال الأقاليم الصينية المجاورة ؛ ولم تخف اليابان خطتها الاستعمارية الشاملة ، بل صرحت غير مرة أنها لن تسمح للدول الغربية بأن تعمل على توسيع نفوذها فى الصين ، ووجهت إليها شبه إنذار بكف يدها عن التدخل فى شؤون الصين ، ومحاولة استغلالها ، وهو ما فسر يومئذ بأنه نوع من السيادة الاقليمية تريد اليابان أن تطبقه على الصين تشبهاً بمبدأ مونرو الأمريكى ؛ ومضت اليابان فى تطبيق خطتها بصورة عملية فاحتلت أقاليم الصين الشمالية فى سنة ١٩٣٦ ، وأقامت بها حكومة صينية مستقلة مركزها فى بكين ؛ وأنذرت حكومة الصين الوطنية فى نانكين بوجوب الاعتراف بهذه الحكومة الجديدة ؛ وهى ترمى بذلك إلى تمزيق الصين إلى وحدات إقليمية متعددة ، كما كانت قبل اجتماع كلمتها واتحادها تحت لواء الحكومة الوطنية التى حققها حزب الكومنتانغ (الحزب الوطنى) وعلى رأسه الماريشال تشانغ كايشك فى سنة ١٩٢٨ .

ولكن الحكومة الوطنية رفضت أن تذعن لتهديد اليابان ووعيدها ، فانتهزت اليابان أول فرصة لتشهر الحرب على الصين الوطنية (الصين الجنوبية) إرهاباً لها وإرغاماً ؛ ولكن الصين الوطنية هبت للدفاع والمقاومة ، ولما حققت اليابان مرحلة ظفرها الأولى بالاستيلاء على بعض الأقاليم الوسطى وثغر شنغهاى ، اعتقدت أنها تستطيع أن تملى شروطها على الصين ، فوجهت إلى الماريشال تشانغ كايشك بواسطة السفير الألمانى فى الصين الشروط الآتية : (١) عقد اتفاق اقتصادى تشترك اليابان بمقتضاه فى استغلال موارد الصين . (٢) انضمام الصين إلى ميثاق مكافحة الشيوعية . (٣) إنشاء حاميات يابانية دائمة . (٤) إنشاء مناطق حرة مجردة عن التسليح (٥) إنشاء حكومة مستقلة فى منغوليا الداخلية (٦) أن تدفع الصين لليابان تعويضاً عن الحرب .

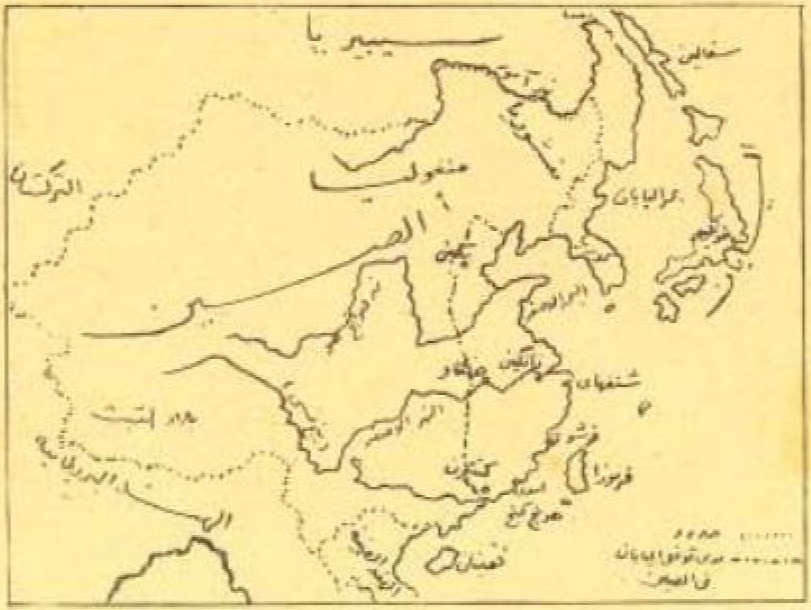
كان ذلك فى يناير سنة ١٩٣٨ ، أعنى منذ أكثر من عام والحرب لا تزال فى بدايتها ؛ ولكن الصين رفضت هذه الشروط المرهقة واستمرت فى المقاومة ؛ وضاعفت اليابان من جهة أخرى جهودها العسكرية ، واتسع نطاق الحرب حتى شمل مناطق الصين الساحلية كلها ، وهى أغنى مناطق الصين وأهمها من الوجهتين العسكرية والاقتصادية ، وتوغلت الجيوش اليابانية فى داخلها ، واضطرت أن تحتل مساحات كبيرة منها حسبما يبدو من الخريطة المنشورة ؛ ومع أن الجيوش الصينية لم تقو على رد هذا الغزو المنظم الذى تؤازره القوى والاستعدادات الفنية الكبيرة ، فإنها استطاعت أن تكبد الجيوش اليابانية خسائر فادحة ، وأن تجعل تقدمها محفوفاً بأشد الصعاب ، وهى ما زالت تقاوم حتى اليوم بصورة مستمرة ، وإن تكن غير منتظمة

ولم يكن من السهل على اليابان أن تستمر فى الاضطلاع بأعباء هذه الحرب الكبيرة إلى ما لا نهاية ، خصوصاً وهى لم تستطع أن تصل إلى هدفها الأصلى وهو تحطيم المقاومة العسكرية الصينية ، ولذلك نراها تعود فتعرض منذ أسابيع قلائل على الصين شروطاً جديدة للصلح ، ونراها تعدل

بالأخص عن إصرارها القديم في عدم الاعتراف بصفة المارشال تشانج كايشك ومفاوضته بصفته ممثلا للصين الوطنية ، وإليك نص هذه الشروط :

أولا — أن تعترف الحكومة الوطنية الصينية بحكومة منشوكيو ونظامها الحالي

ثانياً — أن يكون لليابان الحق في أن تضع حاميات عسكرية في أنحاء الصين



ثالثاً — أن تحتل منغوليا الداخلية لكي تتخذها قاعدة لمكافحة البلشفية

رابعاً — أن تنضم الصين إلى ميثاق مكافحة الشيوعية .

خامساً — أن تمنح الصين اليابان امتيازاً باستغلال موارد الصين الطبيعية ، وأن يعقد بينهما تعاون اقتصادي وثيق

وهذه الشروط ليست في جوهرها أخف وطأة من سابقتها ، وإن كانت اليابان تغفل فيها طلب التعويض الحربي ، وهي ما زالت تحتفظ في مجموعها بنفس الغاية التي ترمي إليها اليابان ، وهي القضاء على استقلال الصين والتمهيد لاستعمارها ؛ ومن ثم فان المارشال تشانج كايشك قد رفض المفاوضة على أساس هذه الشروط بكل قوة ، وأيده حزب الكومنتانج كله ، وأعلن أنه سيستمر في المقاومة حتى تعترف اليابان باستقلال الصين ووحدتها

ويعتمد المارشال تشانج كايشك في موقفه ، فضلاً عن المقاومة العسكرية ، على عدة عوامل وظروف أخرى ، قد تنتهي في المستقبل القريب بإرغام اليابان على تعديل موقفها إزاء الصين

اليابان وروسيا

وأولى هذه العوامل وأهمها هو تخوف اليابان من روسيا السوفيتية وخططها ، خصوصاً بعد أن طالت الحرب الصينية ، واتسع مداها واشتدت وطأتها على موارد اليابان العسكرية والاقتصادية . وروسيا ترقب سير الحرب الصينية باهتمام ، وتشجع الصين على المقاومة ، وقد تعاونها بالمال والذخائر ، وترجو أن تنهك هذه الحرب الطويلة قوى اليابان ، وتستنفد مواردها ؛ واليابان من جهة أخرى تخشى إذا وقعت حرب عالمية قريبة أن تلقى روسيا عدوها الطبيعي ، منهوكة القوى والموارد ؛ وقد ظهر ضعف اليابان إزاء روسيا في الواقع في حادثين ، وقعا أثناء الحرب الصينية ، واضطرت أن تنزل فيهما عند إرادة روسيا ، أولهما حادث « تشانج كوفنج » جزيرة نهر الآمور التي انتزعتها اليابان عنوة من الروس ، وحاولت الاستيلاء عليها ، فعاد الروس واستردوها بالعنف ، وفرضت موسكو إرادتها على اليابان في وجوب فصل الحدود بين الدولتين على أساس

المعاهدات القديمة التي رفضت اليابان أن تعترف بها أولاً ؛ والثاني مشكلة المصايد في مياه جزيرة سغالين التي تملك روسيا نصفها الشمالي وتملك اليابان نصفها الجنوبي ، فقد كانت اليابان تتمتع بحق الصيد في المياه الشمالية للجزيرة منذ معاهدة بورت ارثر . فلما انتهت مدة التعاقد أبت روسيا أن تجدده لليابان ، ولما كانت اليابان تعلق على هذا الحق بعض الاعتبارات العسكرية ، فقد ألحت على موسكو في التجديد فرفضت

ولو لم تكن اليابان مشغولة بحرب الصين لكان من المشكوك فيه أن تسلم بوجهة نظر موسكو بهذه السهولة .

ومن جهة أخرى فإن ألمانيا حليفة اليابان في ميثاقها ضد الشيوعية ، أو بعبارة أخرى ضد روسيا ، تخشى أن تضعف اليابان في حرب منهكة كالحرب الصينية إلى الحد الذي لا تستطيع معه أن تعتمد ألمانيا على معاونتها ضد روسيا إذا قامت حرب عالمية ، ومن ثم فإن السياسة الألمانية تبذل جهدها لحمل اليابان على اختتام الحرب الصينية وعقد الصلح مع الصين

معاهدة الدول التسع

وهناك العامل الدولي وهو لا يقل أهمية وخطورة ؛ ذلك أن الدول ذات المصالح الكبرى في الصين ، وفي مقدمتها أمريكا وانجلترا وفرنسا ، أخذت تتحرك لمقاومة اليابان بعد أن طال سكوتها

فمنذ نشوب الحرب الصينية توجه الدول نظر اليابان إلى مصالحها التي أضرت بها الحرب أيما ضرر ، وتقدم إليها مذكرات الاحتجاج المتوالية ، بيد أنها لم تقم في ذلك بعمل مشترك ؛ ولكن أمريكا وانكلترا وفرنسا رأت أخيراً أن تقوم لدى اليابان بسعي مشترك ، فلفتت نظرها إلى خطورة الحال ، وتحذرها من التمادي في عملها ؛ وكانت أمريكا هي البادئة بتقديم مذكرة احتجاجها ثم تلتها بريطانيا العظمى ففرنسا ؛ ومضمون هذه المذكرات واحد ، وخلاصتها أن أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، لا يسعها إلا أن تذكر اليابان بأن عملها في الصين يناقض معاهدة الدول التسع ، وأن ما يبدو من تصريحاتها الرسمية وتصرفاتها الفعلية يدل على أنها ترمي إلى تمزيق الصين ومحاولة استعمارها ، خلافاً لما نصت عليه المعاهدة من وجوب احترام وحدة الصين واستقلالها ، وأن الدول الثلاث لا يسعها أن تتسامح في نقض المعاهدة من جانب واحد ، وأن كل تغيير في نصوصها وأحكامها يجب أن يتم بالاتفاق مع جميع الدول الموقعة عليها ؛ وقد أفرغت المذكرات الثلاث في لهجة قوية حازمة

ومعاهدة الدول التسع التي أشير إليها ، هي المعاهدة التي عقدت في سنة ١٩٢٢ في واشنطون بين أمريكا وبريطانيا العظمى وفرنسا واليابان والصين وإيطاليا وهولندة والبرتغال ، ونص فيها على وجوب احترام سيادة الصين واستقلالها ووحدتها الإقليمية والإدارية ، وتقديم كل فرصة ممكنة لمعاونتها على النهوض والتقدم ، والمحافظة على مبدأ الفرص المتساوية في التجارة والصناعة لجميع الأمم في الصين ، وعدم انتهاز الدول فرص الأحوال في الصين للحصول منها على حقوق وامتيازات خاصة

وقد ردت اليابان على كل من الدول الثلاث بمذكرة خلاصتها أن اليابان ترفض بحث مسألة الشرق الأقصى في مؤتمر دولي ، ولكنها على استعداد للمفاهمة مع الدول ذات الشأن في وضع نظام جديد للصين ، لأن النظام الحالي لا يتفق مع سير الظروف فضلاً عن أنه نظام شبه استعماري !

ولم تقف الدول الثلاث في سعيها عند الاحتجاج النظري ، ولكن أمريكا وبريطانيا بدأتا بمعاونة الصين على مقاومة اليابان بصورة عملية ، فمنحت كل منهما اعتمادات

مالية كبيرة بعقد قروض للصين الوطنية تمكنها من شراء الذخائر والعدد اللازمة ، وينتظر أن يبدو أثر هذه المعاونة فى اشتداد المقاومة الصينية وثباتها .

وقد حدث أخيراً حادث جديد يؤذن باتساع الأعمال العسكرية اليابانية من جهة ، ويؤذن بتفاقم الخلاف بين اليابان وبين الدول الغربية من جهة أخرى . ذلك أن اليابان احتلت فجأة جزيرة هينان الصينية الواقعة تجاه الهند الصينية الفرنسية ، وعلى مقربة من هونج كنج البريطانية وجزائر الفلبين الأمريكية . وقد احتجت انكلترا وفرنسا على هذا الاحتلال ، وردت اليابان بأنها تحتل الجزيرة بصفة مؤقتة ولضرورات عسكرية ، وأنها تجلو عنها متى سمحت الظروف بذلك ؛ على أن مثل هذه الوعود لا يمكن أن يركن إليها ، ومن ثم فان انكلترا وفرنسا تنظران إلى احتلال الجزيرة بعين الريب وتتوجسان منه شراً على مصالحهما وسيادتهما فى الأراضى والمستعمرات القريبة منها ؛ خصوصاً إذا صح ما يقال من أن احتلال اليابان للجزيرة إنما هو تنفيذ لسياسة الضغط التى تتبعها الدول الدكتاتورية إزاء الدول الديمقراطية ؛ واليابان كما نعلم حليفة محور برلين روما .

وهكذا يتسع مدى النضال العسكرى والسياسى ، وترى اليابان نفسها أمام مغامرة عسكرية خطيرة لا نهاية لها ؛ وتجد الدول الغربية نفسها أمام مشاكل جديدة فى الشرق الأقصى . وقد أدركت اليابان أن احتلال الأراضى وحده لا يكفى لإحراز النصر ، ولا بد لها من أن تقضى على المقاومة الصينية ، ولكن هذه غاية دونها صعاب جمة . والصين قطر عظيم ، بل قارة شاسعة الأنحاء ؛ فهل ستمضى اليابان فى جهودها العسكرية لكى تحتل من الصين مناطق أخرى أو لكى تحتلها جميعاً ؟ وهل تمضى فى تحدى الدول الغربية إلى النهاية ؟ وهل تقوى مواردها على المضى طويلاً فى مثل هذه المغامرة ؟ أم تراها ، احتفاظاً بمركزها العسكرى ، وضناً بتبديد قواها على هذا النحو ، تجنح فى خطتها إزاء الصين والدول إلى سياسة أكثر اعتدالا ؟

هذا ما قد يوضحه لنا المستقبل القريب .

(＊＊＊)

مجـــلة الأزهر

صدر العـدد الأول من السنة العاشرة لمجلة الأزهر حاويا المقالات التالية : (١و٢) خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى فى عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك ، والدرس الثانى الذى ألقاه فضيلته فى رمضان . (٣) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسـفة . (٤) منصب الخلافة والديموقراطية ، ودحض شبهات على سلطة الأمة فى الاسلام . (٥) هل توصف الطبيعة باللؤم والتضليل ؟ (٦) السجية فى الاسلام ، ودحض شبهات . (٧) الآراء العالميـة فى الاسلام والمسلمين والتعقيب عليها كلها بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى مدير المجلة . (٨) تفسير سورة الاخلاص . (٩) بحث فى الربا لفضيلتى الأسـتاذين الشيخ الدجوى والشيخ الجزيرى . (١٠) فتاوى مختلفـة للجنة الفتوى . (١١) الكناية والمجاز فى كتاب الله . (١٢) قادة الفكر فى الاسلام . (١٣) التجديد فى الاسلام . (١٤) المدرسة الأشعرية . (١٥) نظام الوقف لبعض كبار الكتاب .

قد خفض الاشتراك فى المجلة إلى عشرين قرشا مقابل أدائه مقدما كله أو مقسطا . وثمن العدد قرشان وهو يوجد عند باعة الصحف وفى المكاتب .

٤٩٩١

هل تنقص المرأة بعض المواهب الفنية ؟



أردت أن أطالع كتاباً للروائية « بيرل بك » ، التي نالت هذا العام جائزة نوبل للآداب ، فما كدت أذكر أني أقرأ لامرأة ، حتى استوقفت ذهني حقيقة وضعتني موضع التأمل : تلك الحقيقة هي أني لم أقرأ بعد حتى اليوم شيئاً لامرأة . كيف وقع لي ذلك ؟ وكيف لم ألتفت إلى هذه الثغرة في مطالعاتي قبل الآن ؟ وما تلك اليد التي وضعت على عيني فلم أر أدب المرأة كما رأيت أدب الرجل ؟

من الإسراف في القول أن أزعم أني لم أقرأ في الصغر شعر الخنساء ، أو لم أعجب بعنان جارية الناطفي ، كما أني معترف بأن مكتبتي لا تخلو من مؤلفات شهيرات النساء في أزهى العصور . غير أن الذي أستطيع أن أفضي به دون أن أكذب ، هو أني لم أفتح هذه المؤلفات ، ولم أكن يوماً من قراء كاتبة من الكاتبات . لا ينبغي أن يفهم من هذا أني أهمل شأن المرأة عن عمد ، أو أني أنكر عليها الموهبة والنبوغ . الأمر على النقيض . فأنا أقف من نفسي موقف المعاتب المعنف ، لا موقف القانع الراضي . ولقد اعتدت في كل شؤوني الفكرية أن أترك القياد لنفسي ولغريزتي الفنية : فهي التي تختار لي ما ينبغي أن أقرأ ، وهي التي ترشدني إلى ما يصلح غذاء لي . وإني لأمر بواجهات المكتبات في اليوم مرات منذ سنوات طويلة ، فأرى كل ما يعرض يعجبني ، ويحلو لي النظر إلى الكتب لمجرد النظر ، وأتأملها كما تتأمل المرأة الثياب الزاهية في الحوانيت .

ولو أني تركت الأمر لرغبتي ولذتي لاقتنيت حتى اليوم من الكتب ما يملأ قاعات ، ولكني مع ذلك أقل الكتاب شراء للكتب . فأنا لا أشتري إلا لأقرأ . ولا أقرأ إلا ما أحس بغريزتي الفنية أنه يحدث في مجرى تفكيري أثراً . ولقد هدتني نفسي حتى اليوم فأحسنت هدايتي . ولقد راجعت اختيارها لي فألفيته في الحق أحكم اختيار . فما بالها إذاً قد صدفت عن مؤلفات النساء ؟

كان هذا موضوع تساؤلي الليلة ؟ وهبطت إلى أعماق نفسي ، فاستكشفت الجواب : إن ميولي الفنية قامت منذ الصغر على عمادين : النزعة الفلسفية ، والتركيز في الأداء ، لهذا اتجهت مطالعاتي إلى نوعين من الكتب : المؤلفات الجافة التي تتصل مباشرة بالفلسفة أو العلم ، أو المحتوية على مادة فكرية خاصة . ثم القصص التمثيلي ، وهو المظهر الوحيد من مظاهر الأدب الإنشائي الذي وجدته مبنياً على « التركيز » في الأداء . هذان النوعان بالذات لم أجد للمرأة

فيهما أثراً بارزاً أو غير بارز . فليس للمرأة منذ أن ظهر لها إنتاج في تراث الفكر البشري مؤلف واحد في مسائل الفلسفة أو شؤون الفكر العويصة . وليس للمرأة حتى اليوم قصة تمثيلية واحدة اتخذت لها مكاناً في تاريخ الأدب التمثيلي . تلك ظاهرة عجيبة في طبيعة المرأة ! إن المرأة منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاء عظيم ، ودقة إحساس تستثير الاعجاب . ولقد ظهرت في ميادين النشاط الفكري شاعرة فياضة بالوحي الالهي ، وناثرة قديرة على إيقاظ أنبل عواطفنا الانسانية . ولقد استطاعت أن تكون ملكة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسية محنكة وصانعة تماثيل ومصورة ومغنية وراقصة وعازفة . كل شيء قد برزت فيه ، وساوت فيه الرجل ، وفاقته أحياناً ، وتركت للناس فيه أحدوثة باقية وذكراً خالداً . نعم ، كل شيء استطاعته المرأة خلا شيئين : أن تكون « فيلسوفة » وأن تكون « مؤلفة قصص تمثيلي » .

لماذا ؟ لماذا وقفت عبقريتها عاجزة أمام هذين « النوعين » ؟

أترى « التفكير » و « التركيز » صفتين ناقصتين عند المرأة ؟

لا أحب أن أقطع بذلك . ولكني أريد أن أقول إن « الشعور » و « التحليل » هما الدعامة التي شيدت عليها المرأة كل آثارها الخالدة في تاريخ الآداب والفنون . فمن شاعرات العرب والإسلام وسافو ، إلى مدام دي ستال وجورج ساند وجورج إليوت ، إلى كوليت وماري وب وكاترين مانسفيلد وسجريد أندست . كلهن قد ارتفعن متألقات في سماء الفن على أجنحة « العاطفة » الرقيقة . وكلهن قد أظهرن من البراعة في « التحليل » ما قصر عن إدراكه كثير من نوابغ أهل الفن من الرجال . و « التحليل » هو الملكة التي لا بد منها لكل كاتب يعالج « الرواية الخالصة » . فهذا النوع من الأدب إنما يقوم على النفوذ الدقيق إلى نفوس الناس وضمائر الأشخاص ، مع التفات خاص إلى كل ما يحيط بحياتهم من أشياء ، ومع عناية كبرى بذكر التفاصيل التي تخفى على العين العابرة ، والاسهاب في تحليل المشاعر المستقرة في نفس الكاتب كلما سمحت بذلك ظروف الموضوع . وهنا مجال التفوق يتسع للمرأة . وهنا استطاعت بالفعل أن تظهر من طول الباع وقوة الجلد على تحليل التفاصيل ما أثبت لنقاد الأدب من الرجال أن « الرواية الخالصة » نوع توشك المرأة أن ترفع عليه علم السيادة . ولقد قرأت ذات مرة كلمة دهشة لناقد قرأ رواية لكاتبة انجليزية ذكر عنها بعض تلك الصفات التي تميز المرأة في كتابة القصة ، فتأملت يومئذ أنا أيضاً الأمر وقلت لنفسي : « لا عجب ! إن المرأة تمسك « بالقلم » لتصنع قصة كما تمسك « بالابرة » لتصنع ثوباً من « التريكو » . وإن هذا الجلد من ذاك . وإن « القصة » النسوية بما فيها من تفاصيل دقيقة لشئون الحياة اليومية ، ومن إسهاب وإحصاء لتفاهات الحوادث المنزلية ، ومن وصف وتحليل لأبسط الاحساسات الداخلية ، ومن بسط وتجميل لكافة المشاعر الانسانية . كل هذا ليس في حقيقة الأمر سوى نوع « من شغل الابرة » !

***

هذا في الأدب . أما في ألوان الفن الأخرى ، فالمرأة كذلك قد تخلفت كلما تطلب الفن ملكة « التركيز » والتركيز هو الصفة اللازمة « للبناء » . والبناء عمل يحتاج إلى شيء من التفكير . بل إلى شيء من الذهن الرياضي . فهو ليس مثل « التحليل » مجرد بسط للتفاصيل وطرح للعناصر . إنما هو اختيار ذهني لخير التفاصيل وأصلح العناصر لتشييد جسم فخم له في ذاته حياة ، وله جمال ، وتنبعث من مجموعه فكرة .

لهذا لم تستطع المرأة أن تكون « مهندسة » في فن العمارة . ولم نجد لها ذكراً بين أولئك العباقرة من الرجال الذين شيدوا الهياكل في الزمن القديم ، ولا بين هؤلاء الذين يقيمون الآثار الجميلة في الزمن الحديث .

***

فن الموسيقى أيضاً تقف أمامه المرأة هذا الموقف الغريب . فهي عازفة بارعة ومغنية حاذقة . لأن « شعورها » العميق يعينها على أداء الألحان خير أداء . ولكنها لم تستطع حتى اليوم أن تكون هي « واضعة الألحان » . لم يشهد تاريخ الموسيقى « امرأة ملحنة » وضعت « قطعة سانفونية » أو تركت « أوبرا موسيقية » لها ذكر بين الآثار الموسيقية المعروفة في التراث القديم أو الحديث . لماذا ؟ لأن وضع « قطعة موسيقية أو سانفونية » هو أيضاً « بناء وتشييد » مثل بناء معبد أو بناء قصة تمثيلية .

* * *

أحسبني قد وضحت لنفسي وللناس سر صدوفي عن أدب المرأة . هنالك مع ذلك شيء آخر ، قد يكون سبباً لما تقدم أو نتيجة له . لست أدري على وجه التحقيق . هذا الشيء ، هو : أني أكره في غالب الأحيان قراءة القصة . نعم ، لا مناص لي من الاعتراف بهذا الأمر المخجل . ليس لي صبر ولا جلد على مطالعة قصة خالصة ، وقد حرمت بذلك الاطلاع على كثير من أروع آثار الأدب الحديث ، ومن بينها بالضرورة أدب المرأة ، وهو كله قصص خالص .

* * *

كل شيء إذاً قد باعد بيني وبين المرأة في مجال الخلق والفن . فأنا أحب الفلسفة ، والقصص التمثيلي ، وفن العمارة ، والموسيقى السانفونية .

أعمدة أربعة من عمد « البناء » الذهني يقوم عليها عالم فني عظيم ، لم تأذن الطبيعة للمرأة في أن تساهم في رفعه بنصيب .

توفيق الحكيم

قانون الرّحالة

للأستاذ أحمد أمين

منذ نحو ألف عام نبغ في بيت المقدس عالم جليل اسمه أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي . نظر فرأى أن العلماء قد سبقوه في اختراع العلوم وترتيبها ، ثم خلف من بعدهم خَلْف شرحوا ما دونوا ، واختصروا ما طوّلوا ، فعز عليه ألا يبتكر كما ابتكروا ، وألا ينفرد بشيء كما انفردوا ، وعاف أن يكون صدى لغيره ، يجمع ما فرقوا ، أو يفرق ما جمعوا ، فأخذ يستعرض جوانب نقصهم حتى يكملها ، ونواحي أغفلوها حتى يبتكرها . قال : « فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وأنفرد بفن لم يذكروه » ، ذلك أنه رأى المملكة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لم توصف وصفاً كافياً شافياً ، لا من ناحية جغرافيتها ، من مفاوز وبحار ، وبحيرات وأنهار ، ومدن وأمصار ، ونبات وحيوان ، ولا من ناحيتها الاجتماعية « من اختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم ، وألسنتهم وألوانهم ، ومذاهبهم ، ومكاييلهم وموازينهم ، ونقودهم وصروفهم ، وصفة طعامهم وشرابهم ، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ، ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والجدب » .

ورأى — كما قال — أن ذلك علم لابد منه للتاجر والمسافر ، والملوك والكبراء ، والقضاة والفقهاء .

نم قد اتجه بعض العلماء قبله إلى هذا الباب ، ولكنه رأى أنهم قصروا وما أنصفوا ، فمنهم من نقل في كتبه ما سمع من أفواه الناس واكتفى بذلك ، ومنهم من اقتصر على الصوَر الجغرافي وشرحه ، ومنهم من اقتصر على ذكر المدن المشهورة .

وعلى كل حال فقد استعرض كل ما أُلِّف قبله في هذا العلم فلم يرتضه .

فانتدب مؤلفنا نفسه لهذه المهمة ، ولإكمال هذا النقص ، وإحراز قصب السبق ، ورسم لنفسه خطة محكمة أتم إحكام ، دقيقة أكمل دقة ، حتى ليصح — بحق — أن تعد « قانون الرَّحالة » فهو يقول : « إني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية » ؛ ولكن ماهي هذه القواعد المحكمة التي وضعها ؟

فأول كل شيء قرر أن يرحل إلى الأقطار الإسلامية ويشاهدها بنفسه ففعل ، فإذا دخل بلدة درسها أتم درس ، وعلى حد تعبيره « ذاق هواءها ، ووزن ماءها » ، ولقي علماءها ، وخدم ملوكها ، وجالس القضاة والفقهاء ، واختلف إلى الأدباء والقراء ، وخالط الزهاد والمتصوفين ، وحضر مجالس القصاصين ، وتاجر فيها ، وعاشر أهلها ، ومسح إقليمها ، ودار على تخومها ، وفتش عن مذاهب سكانها ، ودقق النظر في ألسنتهم وألوانهم .

وفي الحق أن الرجل كان في عمله المثل الأعلى للرحالة ، فقد عمل كل ما يمكن عمله لدراسة البلاد والوقوف على عاداتها وأحوالها . ولا أدل على ذلك من أن أتركه يتكلم إلى القراء عما عمله في هذا الباب قال :

« لم أترك شيئاً مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً ، فقد تفقهت وتأدبت ، وتزهدت وتعبدت ، وفقّهت وأدّبت ، وخطبت على المنابر ، وأذنت على المنائر ، وأممت في المساجد ، واختلفت إلى المدارس ،

وتكلمت في المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتي العصائد ، وطُردت في الليالي من المساجد ، وسِحت في الصحاري ، وتهت في البراري ، وصدقت في الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصحبت عُبّاد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسي بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق ، وقُطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت في الطرق الفساق ، وبعت البضائع في الأسواق ، وسجنت في الحبوس ، وأُخذت على أني جاسوس ، وعاينت حرب الروم في الشواني ، وضرب النواقيس في الليالي ، وزرت في عرصة الملوك بين الأجلة ، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة ، وكم نلت العز والرفعة ، ودُبّر في قتلي غير مرة ، ولبست خلع الملوك وأمروا لي بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات ، ووُبّخت بالبدع ، واتهمت بالطمع ، واتبعني الأرذلون ، وعاندني الحاسدون ، وسُعي بي إلى السلاطين ، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ، ورأيت يوم الفوارة وعيد بربارة . ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم ، سوى مادخل عليّ من التقصير في أمور الشريعة ، ولم تبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها ، وما سرت في جادة وبيني وبين مدينة عشرة فراسخ إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها ، وربما اكتريت رجالا يصحبونني ، وجعلت مسيري في الليل لأرجع إلى رفقائي ، ومثل هذا كثير ، وإنما ذكرت هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أننا لم نضعه جزافاً ، ولا رتبناه مجازاً . فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع » .

هذا برنامجه فيما شاهده . أما مالم يشاهده فبرنامجه فيه « أن يسأل ذوي العقول من الناس ، ومن لم يعرف بالغفلة والالتباس ، وأن يسأل عن الشيء الواحد جماعة مختلفة فما اتفقوا عليه أثبته ، وما اختلفوا فيه نبذه ، وما حكوه ولم يقبله عقله أسنده إلى من رواه أو قال فيه « زعموا » .

وهذا منتهى الصدق والانصاف ، والدقة والتحري .

وجاءته فكرة « الخرائط » فعملها في كتابه ، بل جاءته فكرة الخرائط الملونة واختيار الألوان المناسبة فقال :

« ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة ، وبحارها المالحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغبرة ، ليقرب الوصف إلى الأفهام ، ويقف عليه الخاص والعام » .

غير أن هذه الخرائط — مع الأسف — لم تصل إلينا مع كتابه .

وقد ساح في جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ثم في بلاد فارس والسند والهند ، ودوّن ما شاهد ، حسبما وضع من قواعد ، وألف في ذلك كتاباً سنة ٣٧٥ هـ سماه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » (١) .

وقد لخص رأيه في الأقاليم التي زارها في جملة في ثنايا الكتاب فقال : « أظرف الأقاليم العراق ، وهو أخف على القلب ، وأحد للذهن ، وبه تكون النفس أطيب ، والخاطر أدق . وأوسعها فواكه ، وأكثرها علماء وأجلة « المشرق » (٢) . وأكثرها صوفاً وقزاً وخلا على قدره الديلم (٣) . وأجودها ألباناً وأعسالا ، وألذها أخبازاً وأمكنها زعفراناً الجبال (٤) . وأسفلها قوماً ، وأشرهم أصلا وفصلا خوزستان . وأحلاها تموراً وأوطؤها قوماً كرمان . وأكثرها فانيذاً وأرزازاً ومسكاً وكُفّاراً السند . وأكيسها قوماً وتجاراً ... فارس ، وأشدها حراً وقحطاً جزيرة العرب . وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهد الشام .

(١) طبع في مدينة « ليدن » سنة ١٩٠٦ م

(٢) يريد بالمشرق الدولة السامانية

(٣) يطلق الديلم على الاقليم الذي فيه جرجان وطبرستان .

(٤) يريد بالجبال الاقليم الذي يشمل الري وهمذان واصفهان وقاشان الخ . .

وأكثرها عباداً وقراء، وأموالا ومتجراً وحبوبا مصر. وأخوفها سبلا وأجودها خيلا وأوسطها قوماً أقور[1]. وأجفاها ... وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً، المغرب».

وقال في موضع آخر: «لم أر أطبع من أهل مكة، ولا أفقه من أهل يثرب، ولا أعف من أهل بيت المقدس، ولا آدب من أهل هَراة، ولا أذهن من أهل الري... ولا أصح موازين من أهل الكوفة، ولا أحسن من أهل حمص وبخارى، ولا أحسن لحى من الديلم، ولا أشرب للخمور من أهل بعلبك ومصر، ولا أعصى من أهل سجستان ودمشق، ولا أشغب من أهل سمرقند، ولا أوطأ من أهل مصر، ولا أحسن لساناً من أهل بغداد. فإن سأل سائل: أي البلدان أطيب؟ نظر، فإن كان يطلب الدارين، قيل له بيت المقدس، وإن كان يطلب النعمة والجبارة والرخص والفواكه، قيل له كل بلد أجزأك، وإلا فعليك بخمسة أمصار: دمشق، والبصرة، والري، وبخارى وبلخ. ومن أراد التجارة فعليه بعدن أو عمان أو مصر».

وقال في موضع ثالث: «واعلم أن بغداد كانت جليلة في القديم، وقد تداعت الآن للخراب، واختلت وذهب بهاؤها، ولم استطبها ولا أعجبت بها، وإن مدحناها فللتعارف، وفسطاط مصر اليوم كبغداد في القديم، ولا أعلم في الاسلام بلداً أجل منه» الخ.

ولما جاء مصر في رحلته أعجب بالفسطاط، وقال إنه لم ير في الأمصار آهل منه، وأعجب بما فيه من كثرة العلماء، وقال ليس في الاسلام أكبر مجالس من جامعه (جامع عمرو)، وقد سرته أطعمته وحلواه، وكثرة بقوله وفواكهه، وأعجبته نعمة أهله بالقرآن، ودهش من كثرة المراكب في النيل، ومن كثرة المصلين في المساجد، ولكنه لم تعجبه كثرة البراغيث بها، وانتقد عدم عناية المصريين بالنظافة، وازدحام مساكنهم بالسكان، وكثرة الكلاب فيها، كما انتقد شرب الخمور، وانتشار الفجور، وكثرة السباب.

وحدثنا أن أهل الشام يعيبون على أهل مصر ثلاثة: «أن مطرهم الندى، وطيرهم الحدى، وكلامهم رخو مثل النسا».

* * *

وأيًا ما كان فقد نخالفه، ويخالفه المحدثون فيما وصف من مزايا الأقاليم وعيوبها، ولكن عذره أنه وصف ما شاهد، كما وصف أو هذه المشاهد في نفسه، وقد يكون اختلاف رأينا عن رأيه اختلاف زمان، فزماننا قد تغيرت فيه الأوضاع والأوصاف عما كانت في زمنه، وألف سنة ليست بالقليلة في تغيير الشعوب.

وعلى كل فأهم ما للرجل برنامجه الدقيق الذي وضعه والتزمه، ولا يزال إلى الآن في نظري هو المثل الأعلى للرحالة، وقل أن يفوقه فيه الرحالة المحدثون. فمن منهم يعمل ما فعل فيبيع في الأسواق ليعرف الحالة التجارية للبلاد التي رحل إليها، ويخدم ليعرف حال القصور، ودخائل البيوت، ويخالط التجار ويأكل مآكلهم ليتعرف عاداتهم، ويتشكل — كما قال — بكل الأشكال إلا الكُدية؟ اللهم إن هذا — في بابه — لعظيم!

أحمد أمين

(١) أقور: هي الجزيرة بين الموصل والفرات.

يوم عاشوراء
بين الشيعة والسنية
للاستاذ أبو الفتوح رضوان

يرتبط يوم عاشوراء بتاريخ الشيعة ارتباطاً وثيقاً. ففي العاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، قتل جند ابن زياد عامل يزيد بن معاوية على العراق الحسين بن عليّ رضي الله عنه في كربلاء، ومن ذلك التاريخ بدأ الشيعة يظهرون بشكل حزب له آراؤه الخاصة في السياسة والدين. حقاً لقد كان لعلي بن أبي طالب أنصار وأشياع منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد التف حوله أقرباء النبي عند ما بايع المسلمون أبا بكر. والتف حوله بعض الناس من غير آل النبي بعد وفاة عمر، وغضبوا عند ما استقرت الخلافة لعثمان. وانضم إليه عامة العراقيين لما شجر النزاع بينه وبين معاوية وقاتلوا معه. إلا أن أتباع عليّ في كل هذه الأدوار لم يكن في تشيعهم له حماسة ولا تعصب يبلغ بهم أن يكونوا حزباً، حتى لقد خذلوه وخذلوا ابنيه الحسن والحسين من بعده. فلما قتل الحسين، وكان قد خرج بدعوة منهم اعتقدوا أنهم مسئولون أمام الله عن دمه وعن دم أبيه. ومن الشعور بتلك المسئولية نبت تعصبهم لعليّ ولأولاده وتحمسهم في الدعوة لهم، ومن هنا يبدأ حزب الشيعة.

لا غرابة إذن في أن يحيي الشيعة ذكرى يوم عاشوراء. ولما كانت ذكراه عندهم ذكرى ألم وأسف وندم، فقد كان إحياؤهم لها يتضمن كثيراً من ضروب الحزن والأسى وإظهار الندم لتفريطهم في الدفاع عن الحسين. ولقد غالى الشيعة فأضافوا إلى إظهار هذه العواطف ضروباً كثيرة من تعذيب النفس على سبيل التكفير عما ارتكبوه من ذنب ذلك التفريط.

وتكوّن حزب الشيعة والسلطان في يد بني أميّة، ألدّ أعداء الشيعة، فما تكوّن حزبهم إلا ليناوئ دولة الأمويين. فكان من الطبيعي ألا يترك الأمويون الشيعة يظهرون الحزن في يوم عاشوراء، ويتبادلون فيه العزاء دون أن يجرحوا شعورهم ويؤلموهم. فاستنّ الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان سنّة إظهار السرور في يوم عاشوراء، فكان أنصار الأمويين يظهرون فيه الفرح والسرور ويولون الولائم. ولما كان الشيعة قد استقروا في العراق، وكانت الشام معقل أنصار الأمويين، فقد كان التفاوت عظيماً جداً في يوم عاشوراء، بين النواح والعويل وتبادل العزاء في العراق، وبين إعلان الفرح والسرور والتجمع على الولائم في الشام.

وكانت مصر سنيّة منذ فتحها العرب لتوالي تبعيتها لدول سنية، من الأمويين إلى العباسيين إلى من استقل بها من الأتراك في أواخر الدولة العباسية، ولكنها لم تخلُ يوماً من الأيام من بعض الشيعة. وكان هؤلاء الشيعة يحاولون إحياء عاشوراء بالعويل والصياح والترحم على الحسين والإشادة بفضائل آل البيت، ولكنهم كثيراً ما تعرضوا لانتقام الحكومات السنية. فمن ذلك ما يروى المقريزي من أن الشيعة تجمعوا في يوم عاشوراء سنة خمسين وثلثمائة عند قبري أم كلثوم والسيدة نفيسة وصاحوا وأعولوا.

وكانت الولاية حينئذ لكافور وكان يتعصب على الشيعة ، فاشتبك معهم الجند السودانية وقتل جماعة من الفريقين .

ثم قامت الدولة الفاطميـة فى مصر والفاطميون من غلاة الشيعة ، والدولة دولتهم ، فأحيوا يوم عاشوراء على ما طاب لهم من الهيئة والرسوم . ففى عهد المعز يروى ابن زولاق أنه فى عاشوراء من سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم — متشجعين بوجود المعز — إلى مشهدى أم كلثوم ونفيسة ومعهم جماعة من فرسان المغاربة بالنياحة والبكاء على الحسين ، وكسروا فى طريقهم أوانى السقائين . وغضب لذلك جمهرة السنيين وكادت تقع الفتنة لولا أن قمعها الجند المغاربة .

ولما استقرت الدولة الفاطمية بعد المعز ، وتقررت رسومها وتقاليدها وعاداتها فى عهد العزيز ومن أتى بعده من خلفائهم ، أصبح ليوم عاشوراء تقاليد مرعية وتقرر عندهم عيداً للحزن . ففى اليوم العاشر من المحرم يحتجب الخليفة من الناس فى الصباح على غير عادته . ويركب قاضى القضاة ومعه الدعاة إلى المشهد الحسينى (وقبل أن يبنى كانوا يركبون إلى الجامع الأزهر) . ويجلسون فيه ومعهم القراء والمنشدون والشعراء . ثم يحضر الوزير فيجلس فى الصدر وإلى جانبيه القاضى والداعى ، يليهما من هم دونهما فى الرتبة . ثم يقرأ القرئون وينشد الشعراء مراثيهم فى آل البيت وفضائل أولاد على . ويستغرق ذلك نحواً من ثلاث ساعات . ثم يركبون جميعاً إلى قصر الخليفة .

وفى قصر الخليفة يكون سماط الحزن قد مد . وهو سماط الفرق بينه وبين سائر الأسمطة الفاطمية عظيم وعجيب ؛ ففى الأعيـاد والمواسم الأخرى كانت تمد الأسمطة فى قاعة الذهب وتزين بالأزهار والرياحين ، وتعد بما لذ وطاب من ألوان الأطعمة من الحملان المشوية والدجاج والحمام وقصور السكر وتماثيل الحلوى . أما سماط الحزن فى يوم عاشوراء فقد كان يمد فى قاعة متواضعة من قاعات القصر . والسماط من الخشب لا يعلوه مدورات فضية ولا نحاسية كالمعتاد . وقد خلا من الزهور والرياحين ، وأعد بالألوان الحقيرة من المأكولات ، فما تخرج عن العدس الأسود والجبن والسلائط والمخللات والملوحات والخبز من الشعير ، وقد تعمد تغيير لونه بالقصد ، والحلوى فيه عسل النحل لا غير ، والأطباق من الخزف ، ويجلس الخليفة على كرسى من الجريد بغير مخدة . ويكون ملثما هو وجميع حاشيته ، والحزن باد على وجوههم . ويأذن للوزير وغيره من الوجوه فيدخلون جميعاً ملثمى الوجوه حفاة الأقدام ، ويجلسون كل فى موضعه فى صمت وإطراق . ويتناولون كل على قدر طاقته من هذه الأطعمة . ثم ينصرف الخليفة ومن معه ، ويباح السماط لكل راغب من عامة الناس فلا يبقى منه شىء ، وتفرش دهاليز القصر ومصاطبه فى ذلك اليوم بالحصر بدل الأبسطة ، ويجلس عليها المنشدون والشعراء يتلون فضائل آل البيت ومراثى الحسين .

أما القاهرة فتكون موحشة فى ذلك اليوم ، فالحوانيت جميعها مغلقة ، وتتعطل الأسواق من تجارة وصناعة . ويعم النواح أرجاءها ويتعالى الصياح والعويل ، ويكف السقاءون عن توزيع الماء ، لأن الحسين منع الماء مدة قبل قتله . ويستمر ذلك إلى ما بعد العصر ، فيفتح الناس حوانيتهم وتعود المدينة إلى مألوف حالها .

وظلت رسوم يوم عاشوراء على هذا النحو على طول ما امتد تاريخ الفاطميين فى مصر . حتى إذا سقطت دولتهم ، وقامت مكانها دولة الأيوبيين تغيرت الحال وتبدلت الرسوم .

كان صلاح الدين بن أيوب سنيا متعصباً على المذهب الشيعى ، ولذا اهتم أول ما اهتم بتصفية آثار ذلك المذهب فى مصر . فبدل الموظفين ، وحول القضاء ، وغير العادات والتقاليد .

وكان من طبيعة الأمور أن تكون رسوم يوم عاشوراء أول ما يتناول بالتغيير ما دامت كما وصفنا من أسس مذهب الشيعة .

وفجأة ينقلب يوم عاشوراء في مصر من عيد حزن وبكاء ، وموسم ندم وعزاء ، إلى عيد فرح ، وموسم سرور وابتهاج ، يوسعون فيه على عيالهم في إكثار الطعام ألواناً وكمّاً ، ويصنعون الحلواء ، ويتخذون الأواني الجديدة ، ويكتحل الناس ويخضبون أيديهم ويدخلون الحمام ، ويعم الفرح والسرور . ولقد عبّر عن ذلك أبو الحسين الجزار الشاعر اللطيف خير تعبير عند ما أخّر عنه شهاب الدين ناظر الأهراء ما كان مرتباً له منها . وكان شهاب الدين شريفاً أي من نسل عليّ ، فكتب أبو الحسين إليه ليلة عاشوراء بالأبيات الآتية يعرّض له بأنه إن جاءه بهيئة السرور قاطه :

قل لشهاب الدين ذي الفضل الندى
والسيد ابن السيد ابن السيد
أقسم بالفرد العليّ الصمد
إن لم يبادر لنجاز موعدي
لأحضرنّ للهناء في غد
مكحّل العينين مخضوب اليد

هكذا كان يوم عاشوراء طوال عهد الدولة الأيوبية ، وما تلاها من الدول السنية من المماليك إلى العثمانيين . وإن كانت القرائن التاريخية تدل على أن الاحتفال بذلك اليوم وإظهار السرور والابتهاج فيه لم يستمر على نحو ما كان متبعاً في عهد الأيوبيين . فالجبرتي لا يشير في تاريخه المفصل إلى احتفال يوم عاشوراء في أية سنة من السنين مع اهتمامه بناحية الأعياد القومية والاحتفالات الشعبية . ولما قدم نابليون إلى مصر على رأس حملته المشهورة سأل عن الأعياد والمواسم القومية والدينية ، وأمر بمواصلة الاحتفال بها كما كانت العادة قبل قدومه ، واشترك هو وعساكره في تلك الاحتفالات . ولكنا لا نجد ليوم عاشوراء ذكراً بين ما احتفل به من المواسم ، وهذا الأمر معقول تماماً ، إذ أن يوم عاشوراء ليس فيه ما يستوجب السرور وإعلان الفرح ، ولم يكن ذلك في أيام الأيوبيين إلا رداً على تغلغل المذهب الشيعي في مصر أيام الفاطميين ، وإلا أثراً لروح البغض والتشفي من دولة ظافرة لدولة مقهورة . ثم لما تقادم العهد وذهبت نشوة الانتصار ، ومات غلّ البغض في الصدور ، ترك ذلك الاحتفال المفتعل بيوم عاشوراء .

ولكن بالرغم من ذلك فقد بقيت آثار كثير من الرسوم الشيعية والرسوم السنية ليوم عاشوراء في تقاليدنا الشعبية الموروثة ، التي يتبعها عامة الشعب بدون تفكير في أصلها ولا نظر إلى مغزاها . فما زال يوم عاشوراء في مصر إلى الآن موسماً شعبياً له أهميته في نظر الناس ، يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في الأطعمة . وهم يبالغون في الاهتمام بذلك حتى إن بعضهم يروي أحاديث عن النبي — لا شك في أنها مكذوبة — تحض على التوسعة في هذا اليوم ، وهذا هو أثر الرسوم السنية في الشعب ، وإلى جانب ذلك نجد اتجاهاً آخر يشير إلى أثر الرسوم الشيعية ، وهذا هو أن بعض الناس ما زال للآن يمتنع عن شرب الماء في أكواب من الزجاج في ذلك اليوم ، وحتى في العشرة الأيام الأولى من المحرم كلها ، وفي هذا إشارة إلى الحداد على أن الحسين مات وهو في حالة ظمأ شديد . وهكذا نجد أننا الآن قد ورثنا تقاليد السنيين والشيعيين جميعاً ، بعد أن طهّرها طول الزمن من شوائب التعصب . وما أجمل ما قال المقريزي من أن كلاً من إظهار السرور وإعلان الحداد في ذلك اليوم « غير جيد والصواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف الصالح » .

أبو الفتوح رضوان

الشيطان

للأستاذ حسين شوقي

لا تبرح «ألدونياصول» التقية الورعة مكان الصلاة مذ قتل زوجها الدون ديجو حاكم مدينة م . الاسبانية ، وهو يحارب العرب الغزاة ... تصلى ألدونياصول ليل نهار على روح زوجها التي قد ارتقت — ولابد — إلى الطابق السابع من السماء ، بفضل هذه الصلوات الحارة المتواصلة ... وتصلى ألدونياصول أيضاً كي يحفظها الله هي وابنتها مرندس ، وهي فتاة حسناء في ريعان الصِّبا ، من شر هؤلاء العرب الغزاة الكفرة الشياطين .

وبعد أن استولى العرب على المدينة بأيام قليلة ، وفد إلى دار ألدونياصول فارس عربي جميل ، ثم تقدم من صاحبة الدار التي كانت واقفة إلى جانب فتاتها قائلا بالاسبانية :

— هل تأذنين لي سيدتي في تفتيش الدار ، إذ هي كما تعلمين سكن الحاكم السابق زوجك ، فربما حوت سلاحا أو ذخيرة . . . . ولكن ألدونياصول وقد امتلأت رعباً لرؤية العربي لم تجب ، فنابت عنها عندئذ فتاتها قائلة في ابتسامة حلوة — إذ أخذت بجمال الفتى العربي : ابحث كما تشاء ياسيدي ، ولكن ثق أننا لا نخفي سلاحا أو ذخيرة .

فقال العربي خجلا : لقد أسأت فهما ياسيدتي ، ماقصدت ذلك . . . على كل حال إني أعدل عن طلبي هـذا مكتفياً بتوكيدك ، إذ أن مثل هذا الفم الجميل لا يمكن أن يكذب . ثم استأذن في الانصراف وخرج ...

لم يكد الفارس يغادر الدار حتى التفتت مرندس إلى أمها قائلة في نشوة : ما أجمل هذا الفتى العربي ! أليس كذلك يا أماه ؟ ولكن ألدونياصول التي لم يرقها سماع مثل هذا الكفر على لسان ابنتها ، أدت إشارة الصليب قائلة : هو الشيطان يا ابنتي ! هو الشيطان ! إنه يتقمص في صور بشرية جميلة كي يخدعنا . ولكن الفتاة لم تصدق بأن هـذا الشاب الجميل المهذب شيطان ، بل تنهدت طويلا قائلة :

— أماه ! أظن أن قلبي سيحب هذا الفارس العربي .

فصرخت ألدونياصول قائلة :

— معاذ الله يا ابنتي ! معاذ الله !

ثم أدت إشارة الصليب مرة أخرى ، كما أنها لم تذق النوم في تلك الليلة ، بل ضاعفت صلواتها من أجل سلامة قلب ابنتها .

أما الفتى العربي فقد أخذ يفكر طويلاً في هذه الفتاة الإسبانية الحسناء ذات البشرة الناصعة البياض ، تشبه بياض تلك الثلوج التي لم يشاهدها من قبل إلا على قمم الجبال في تلك البلاد الغربية الجميلة . . . تلاقى الشابان رغم صلوات ألدونياصول الحارة ، إذ أن الحب من سوء حظها لا يعبأ بوطن أو دين ... ولكن هذا الحب لم يدم طويلاً مع الأسف ، إذ أن الفارس وردته الأوامر بالعودة إلى جزيرة العرب . . . رباه ! ماذا يعمل الفتى ؟ هل يترك حبيبته أم يصحبها معه ؟ إنه واثق من أنها سوف ترافقه عن طيب خاطر إلى الأقطار العربية إذا طلب منها هذا ، ولكن هل يحق له أن يفعل ذلك ؟ هل يحق له أن يسلب ألدونياصول المسكينة ابنتها الوحيدة بعد ما سلبها أبناء جنسه زوجها ؟ كلا ! إنه لن يفعل ذلك ! سيضحى بحبه ! ...

ثم كان الفراق ، وكان مراً ، إذ بقيت مرندس مدة مغمى عليها بعد رحيل حبيبها ... ولم تفق إلا بعد جهد طويل من ألدونياصول ... ولما أفاقت الفتاة من إغمائها قصت الخبر على أمها . . . وكيف ضحَّى ذلك الفتى العربي الكريم بحبها من أجلها هي ألدونياصول .... ثم أضافت الفتاة قائلة : أما زلت يا أماه مصرة على أنه الشيطان ؟ فقالت الأم : كلا يا ابنتي ! كلا . فقالت مرندس : بل قولي إنه ملك كريم جاء في زي هذا الفارس العربي . . فأطرقت الأم ولم تجب ، ولكنها لأول مرة لم تؤد إشارة الصليب لدى سماعها مثل هذا القول ! .

حسين شوقي

الخَلْق فى الأدب والتــاريخ

للأستاذ على أدهم

مسألة الخلق الفنى او ابتكار الشخصيات فى الأدب ليست من المسائل الواضحة التى يسهل الاحاطة بأقطارها ومواجهتها وإخضاعها لأساليب البحث العلمى وطرائق المنطق. وليست بالموضوع الذى يصلح لكتابة المذكرات السهبة والتقارير الوافية ، وإنما هى مسألة يكتنفها الخفاء ويحفها الغموض . وليس من الميسور تحديدها والالمام بأطرافها . والخلق فى الأدب كالخلق فى الحياة غامض السر خفى الشأن . وقصارى ما يستطيع الانسان حياله أن يرسل فى نواحيه القائمة الخواطر والأفكار ، كلمات الضوء فى الضباب الحالك والدجن المطبق .

وفى الحياة ضرب من الوحدة وراء مظاهرها المتعددة وأزيائها المختلفة ، لأنها قائمة على شىء واحد هو بمثابة الأساس المكين المشترك ، وهو النشاط الحيوى أو الحيوية الموزعة ، وأساس الوجود هو هذا النشاط الكامن فى الأحياء ، ويتكون منه جوهر المخلوقات وعصب الأحياء ، وقد سماه شوبنهاور « إرادة الحياة » وسماه هارتمان « اللاوعى » وأطلق عليه برجسون اسم « الدافع الحيوى » ، وهذه القوة الحيوية التى يشترك فيها الأحياء ، هى التى تمكننا من أن نقاسم الأحياء شعورها ونبادلها العطف ، ونشاطرها السرور والألم ، وندرك ما يجيش فى شعورها ويتكشف فى حواسها . ومن هذه المشاركة الأساسية والعطف المحكم الوثيق تتكون التجارب وتتم المشاهدات ، ومن شأن هذه المشاعر المتنوعة والأحاسيس (المثيرة) أن تزود العقل الباطن وتحبوه طرائف الاحساسات وغرائب المدركات ، ويكاد العقل الباطن أن يكون مستودعاً مكتظاً بتلك التجارب الواردة إليه من مختلف الحواس وشتى المشاعر ، فمراديه حافلة ومساربه ممتلئة ، وفى كل لحظة من لحظات الحياة تزداد هذه التجارب وتتكاثر تلك الثروة .

وعقلنا الواعى لا يستطيع أن يستثمر تلك الثروة الطائلة جميعها ، وإنما هو يتخير منها وينتقى من أرباحها ، وما نسميه القوة المبدعة الخالقة فى الأدب والفن هو قدرة خارقة غير مألوفة على الغوص فى أعماق العقل الباطن ، واستخراج النفائس منه والافادة من ثروته والانتفاع بثمرات تجاربه وعجائب مشاهداته ، مع توفر الاستعداد وتهيؤ القدرة على تنسيقها وتنظيمها والملاءمة بينها ، والعبقرية الفنية الخالقة هى استعداد أكثر من المعتاد على تكوين صور فنية أو قطع موسيقية أو روايات أو قصائد شعر من تلك المادة المختزنة والثروة الدفينة ، ويخيل إلىّ أن أبا تمام قد لمح طرفاً من قدرة العقل الباطن فى قوله عن الشعر :

ولو كان يفنى الشعر أفنته ما قرت
حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه فيض العقول إذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب

ولتوضيح عملية الخلق بعض التوضيح أبدأ بالحديث عن كتابة التراجم ، وفى كتابة التراجم على المؤلف أن يكسو الهيكل العظمى ثوب اللحم والدم ، ويزيل عنه غبار الأجيال ويرد إليه الحياة ويسترجع صورة العصر السالف ، فعمله من ناحية الخلق والإيجاد يعد بمثابة استكمال للوجود واستيفاء لشرائطه فهو أقرب إلى طبيعة عمل المصور الذى ينحصر جهده فى إبراز خصائص الأنموذج الماثل أمامه والكشف

عن شخصيته ، ويختلف عن خلق الأشخاص في المسرحيات والروايات ، وهو يعرض الشخصية المعروفة في ضوء جديد وثوب قشيب ، ويضعها في الموضع الذي يلائم مزاجه الفني وإدراكه للجمال ، وهو يستهدي في عمله بالوثائق التاريخية والمراجع والنصوص ، وعمله متصل بالعقل الواعي النافذ أكثر من اتصاله بالعقل الباطن ، وهذا هو الفرق بين خلق الروائي وخلق كاتب التراجم ، فالمترجم يعمل تحت ضغط الوعي ، والمؤلف الروائي يعمل على مسارح العقل الباطن ، وقد حاول بعض كتاب التراجم في العصر الحديث مزج الطريقتين رجاء الإغراب والتشويق ، ولكن الإمعان في هذا الأسلوب لا يخلو من خطر على التاريخ ، وهو يغري بعض الناس بالإعراض عن المراجع الصحيحة وتقبل الروايات المتوهمة والأخبار المشكوك في صحتها . والفضيلة التي يحسن إكبارها في كاتب التراجم هي الأمانة الجاهدة في استكشاف الخبايا واستثارة الدقائق ، وحسن الاختيار في انتقاء الحوادث الدالة والأخبار الموحية ، وتكوين صورة أقرب ما تكون إلى الأصل في نظر العارفين والدارسين ، وبطبيعة الحال ستلون الصورة بمزاج المؤلف وتبدو عليها أثر شخصيته ، ولكن كلما قل تأثر الصورة بلون المزاج وظل الشخصية كان ذلك أجدى على التاريخ وأقرب إلى دقة التصوير وصدق الأداء ، وكتابة التراجم تعتمد على النقد والخلق معاً ، ولكن النقد قائم على التجرد التام والتعلق بالحق لا الاسترسال مع نزعات النفس والاندفاع في سبيل الأهواء . وهذا هو سبب ندرة الإجادة في النقد وكتابة التراجم ، وكاتب التراجم مطالب بأن يكبح أهواءه ويقمع ميوله ، ولكن عليه مع ذلك أن يظل مالكاً لقدرته على التلوين والتصوير وأن يتخلص من سلطان الأحكام المألوفة ورق عبادة الأجداد وتمجيد القدماء ، ويرتفع فوق نوازع التحيز والتعصب ، فطريقه حافل بالأخطار ، ويستلزم مقداراً غير يسير من الشجاعة الأدبية والثقة بالنفس والقدرة على تخطي الفجوات الفاغرة ورياضة الصعاب المعترضة ، والمزج بين العطف والنقد ، والموازنة بينهما هي سر التراجم البديعة الخالدة .

وخلق الأشخاص في المسرحيات يتجه أول ما يتجه إلى جعل الشخص ملائماً « لعقدة » الرواية وحبكتها المسرحية ، صالحاً للظهور على المسرح ، والمؤلف مقيد إلى حد كبير في رسمه وتصوير أشخاصه بطرائق الإخراج وطاقة المسرح ، فهو لا يملك حرية الروائي ، ومن ثم كان أشخاص الروايات في الأعم الأغلب أوفر حياة وأوفى شخصية من أشخاص المسرحيات ، لأن قوة الفنان المبدعة تجد من المسرح ما يحدها وينال من حريتها ، وهذا مما يجعل معرفة دقائق المسرح عنصراً هاماً في تأليف الروايات المسرحية ، وخلق الأشخاص في الروايات أكثر تحرراً من القيود وأنأى عن الضرورات ، والمجال فيه أوسع والمدى متراخي الحدود متسع الرقعة ، على أن هذه الحرية تجعل تأليف الروايات أكثر جاذبية وأعظم صعوبة في نفس الوقت ، وموقف الروائي يختلف عن موقف كاتب التراجم وليس أمامه مسرح ليتحكم في خياله ويسيطر على حوادثه ووقائعه ، وإنما هو يتلقى وحيه من حادثة خاصة أو شخص معين يؤثر في نفسه ويثير خياله ويحرك عقله الباطن من أعماقه . وتبدأ من ثم جرثومة الخلق وتنمو وتتزايد وتتكون حولها التأثرات المناسبة الناعسة في طوايا العقل الباطن ، حتى تستتم الجرثومة حياتها ويتكامل تكوينها وتفرض عليه التعبير عنها وإطلاقها من سجنها بالقلم الموفق والحروف المسطورة .

ولقد تحدث الكاتب الروسي الروائي ترجنيف عن طريقة خلقه لشخصية بازاروف بطل رواية « آباء وأبناء » فذكر أنه التقى في أحد أسفاره بالقطار بطبيب ناشئ لمح فيه طرازاً جديداً من الناس وتمت الرحلة ولم يره بعدها ، ولكنه ترك في نفسه أثراً قوياً فظل يتصور أسلوب حياة هذا الشاب ومنهج تفكيره ويدون ذلك في يومياته لمدة

(البقية على الصفحة التالية)

نظرات في الأدب الغربي :

وليـــــام موريس
شخصية فذة في الأدب الانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

كان القرن التاسع عشر، عصراً حافلا من عصور الأدب الإنجليزي، غنيا بالكتاب والشعراء المجيدين، وكان وليام موريس من مجيدي شعرائه، ولكنه يمتاز عن غيره من شعراء ذلك العصر، بل عن شعراء الإنجليزية كافة، بشخصية فذة، وأصالة مكينة، وعقلية وخلق مستقلين استقلالا عظيما، فربما بزّه تنيسون، أو براوننج، أو غيرهما من شعراء ذلك العصر، في براعة القصيد ووفرة الإنتاج الشعري، ولكن موريس يفوق من عداه بشخصيته وحياته أكثر مما يفوقهم بشعره وإنتاجه.

ولد وليام موريس في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، لتاجر غني أورث ابنه ثروة طيبة أغنته عن الكدح في سبيل العيش، فاستطاع التفرغ للفن والتأمل؛ وتلقى علومه في جامعتي ملبرا واكسفورد، حتى حصل على شهادة في الهندسة، وورث من أبيه مع تلك الثروة مواهب التاجر الحصيف، فعرف كيف يستخدم ثروته ويؤثلها. وعاش وليام موريس إلى ما قبل انصرام القرن التاسع عشر بأربعة أعوام، فهو قد عاصر العصر الفكتوري الثاني وكان من أعلام أدبائه.

نشأ موريس في بحبوحة الثروة ونال من العلم حظاً عظيما، ولم يكد يلقى في حياته الموفقة السعيدة عناء ولا بلاء. وكان في مقدوره أن يحيا أهنأ حياة وأروحها، ولكنه كان شعلة ذكاء تتوقد وحركة دائبة لا تهدأ، قد نال السعادة كلها في نفسه، ولكنه ما زال معنيّاً بإرشاد غيره إليها، قد عَدِمَ أسباب الشقاء في ذات نفسه، ولكن كان يشقيه أن يرى الآخرين يشقون، ومن ثَمَّ أَلَّفَ هو وزمرة من زملائه وهو ما زال طالباً، جماعةً غرضها إصلاح العالم وتهيئة السعادة لبني الإنسان، وأصدروا لها مجلة دعوها «مجلة أكسفورد وكمبردج» وكان موريس أكبر مساهم في الكتابة فيها.

وتأثر موريس في عهد طلبه العلم بكتابات رسكن الذي كان دائباً يدعو إلى الجمال ويروّج للفنون وينقد ما كان يتجلّى في حياة ذلك العصر من قبح وبشاعة في الأذواق،

أشهر، حتى صار يعتقد أنه قد أدرك مشاعر ذلك الشاب وسلوكه في مختلف المواقف، وأصبحت شخصيته عنده معروفة المعالم واضحة السمات، وشرع بعد ذلك يكتب روايته المشهورة، وقد أدرك ترجنيف من فحاوى حديث الشاب أنه فوضوي المذهب، فعمد إلى خلق الجو المناسب لإظهار شخصيته وآرائه ومذهبه. على أن أكثر نقاد ترجنيف يأخذون عليه أن عقله الواعي كان له أثر مذكور واضح في خلقه، وأنه كان يعتمد إلى حد كبير على حسن الاختيار وبراعة التنسيق، ولذا ينقص بعض رواياته الحيوية القوية والدلالة والحرية، وهي سمات الخلق المستمد من العقل الباطن الذي يجود بسخاء ويضع كل مدخراته تحت تصرف العقل الواعي.

علي أدهم

لا سيما بعد انتشار الصناعات الآلية وسريان تيار المادية من جراء الانقلاب الصناعي ، ثم تأثر موريس فيما بعد بشخصية الشاعر المصور دانتي جبريل روزيتي الذي أعجب بشعر موريس إعجاباً شديداً ، ولكنه حضه على مزاولة التصوير أيضاً . وما لبث موريس وروزيتي وصديق لهما ثالث هو المصور بيرن جونز المصور وكريستينا روزيتي شقيقة دانتي ، أن ألفوا جماعة فنية تدعى « جماعة ماقبل الرافائيلية » ذات مبادئ خاصة في الشعر والتصوير وغيرهما من الفنون .

اشتغل موريس أول أمره بالأدب الخالص ، فنظم قصصاً شعرية رائقة ، وكتب غيرها نثراً ، فلما حضه صديقه روزيتي على التصوير أقبل على التصوير بعزمته الخارقة ومواهبه الغزيرة ، فما لبث أن حذقه وأغرم به غراماً شديداً ، وأصبح يعتقد اعتقاد روزيتي أن التصوير ضروري لكل إنسان ، واشترك الاثنان في تزيين بعض قاعات جامعة أكسفورد ، وهناك تعرفا بفتاة بارعة الحسن تسابقا إلى تصويرها فأجابت طلبهما ، ثم فاز موريس بيدها فكانت أسعد شريكة لحياته فيما بعد .

ولما أراد أن يختار منزلا لحياته الزوجية ، لم يجد في لندن كلها بيتاً يروقه ذوقُ بانيه ، فاشترى في كِنْت قطعة أرض بنى عليها بيتاً يلائم ذوقه بساطة وجمالا ، ولما أراد تأثيثه لم يرقه في حوانيت لندن كلها أثاث واحد ، فعول على إنشاء مصنع نموذجي للأثاث ، ولم يكن موريس الخيالي الهازل في مشروعاته ، فسرعان ما حقق عزمه ، ونجح المصنع وتوسع في صنع الأثاث والزخارف وورق الجدران ، بأذواق رقيقة ، كان لها الفضل في القضاء على الطرز الفنية البشعة ، التي كانت سائدة في العصر الفكتوري الأول ، وظل مصنع موريس سنين طويلة مهرع كل راغب في تأثيث بيته تأثيثاً جميلا . وكان موريس يرسم بنفسه التصميمات والزخارف ، كما كانت زوجه وأختها توليان التطريز .

ومن هذه الصناعات تطرق موريس إلى غيرها ، فدرس الصباغة ، وقرأ من أجل ذلك الكتب القديمة ، حتى أحيا من قواعد تلك الصناعة ما كان درس بتأثير الانقلاب الصناعي ، وبرع في صنع الستائر المطرزة . وتجمع لديه عدد كبير من قصائده ، وأراد نشرها فلم ترقه أية حروف من السائدة في الطباعة إذ ذاك ، فعول على إنشاء مطبعة له خاصة . وكان هو نفسه خطاطا ، وكان مولعاً بالمخطوطات اليدوية القديمة ، فكتب لنفسه أحرفاً جديدة صبت لمطبعته ، وبها طبعت كتبه في نسق جميل ، ولم يكفه ذلك حتى صنع بنفسه الحبر الذي به تطبع أشعاره .

هكذا كان موريس شاعرا كاتباً مهندساً مصورا خطاطا صانعا تاجراً ، وكان في كل ذلك أصيلا مبتكرا مستقلا ، يفعل ما يفعل عن نفس طموح وذوق سليم وفهم للحياة والجمال ، ورغبة في التمتع بهما صادقة . كان يختلف عن تنيسون وبروننج وغيرهما من الشعراء ، في أنه لم يكن « ينظم الشعر » فحسب ، بل كان « يحياه » كان يحيا حياة الشاعر الصادق المحب للجمال . لم يكن يكفيه أن « يفكر » في الجمال والمعاني الشعرية ، بل كان ضروريا في نظره أن « يعمل » عمل الشاعر . كان لا يحب أن يكون رأسه وحده هو المعبر عن شاعريته وحبه للجمال ، حتى تعبر يده أيضا عن ذلك الحب . ولا يكفيه أن يحيا في حياة من الجمال متخيلة لا تعدو خياله وقصائده وأمانيه وأوهامه ، بل يرى ضروريا أن تكون حياته الواقعية جميعها وكل ما يحيط به فيها جميلا حسن الذوق ممتعا للنفس محببا إلى النفس الشاعرة .

فموريس لم ينشئ مصنعه ومطبعته بغية الربح ولا لنزعة مادية ، وإنما فعل ذلك ليُرضي فنه وذوقه ، بعد أن عجز صُنّاع عصره عن إرضائهما . وموريس لم يزاول بنفسه الصناعة والحِرَف المختلفة لحاجة به إلى مزاولتها ، بل لعقيدة في نفسه بأن واجب كل إنسان أن يصنع وأن يعمل بيده ، وأن يتمتع العمل ويلتذ ثمار عمله . وكان يرى نقصا كبيرا

في الإنسان المفكر — مهما بلغت عبقريته الفكرية — أن يكون عاجز اليد عاطل الجسم لا يفهم لذة صنع الأشياء .

وكان موريس يعتقد أن هذه الأشياء — هذه الآلات والأدوات والأثاثات التي تحيط بنا في حياتنا اليومية — أدلّ على مدنية المجتمع مما نسميه الفنون الجميلة من شعر وموسيقى وتصوير ، بل كان يعد صناعة تلك الأشياء من صميم الفن .

كان الذوق الفكتوري الذي نشأ موريس في صميمه ذوقاً قبيحاً منفّراً : كانت المنازل تبنى على طراز ثقيل سمج ، وتكدس تكديساً بالأثاث دون تدبر في نفعها أو عدمه ، وكانت تلك الأثاثات ذاتها مثقلة بالتحلية والتوشية السمجة ، وكان الناس يقتنون كل ذلك — كما قال موريس — لا لرغبة في تلك الأشياء ، ولا لحاجة إليها ، ولا لاعتقاد بجمالها ، ولكنها العادة الجارية والبضاعة الموجودة التي تعرضها المحال الكبيرة والرغبة السائدة بين الأغنياء في التفاخر بالمقدرة على اقتناء تلك الأشياء الكبيرة الغالية الثمن ، لا لقيمة في ذاتها تجعلها غالية ، ولكن لأنها تنطق بأن مجهوداً كبيراً قد أنفق في صنعها ، وإن يكن قد أنفق في تقبيحها لا في تجميلها .

وكان موريس — ومن شابهه من جماعة ما قبل الرافائيلية — يعزون هذا الذوق القبيح السائد في عصرهم إلى أمرين : الانقلاب الصناعي الحديث الذي أخذ الناس على غرة ، فلم يدروا كيف ينتفعون بالآلات ، وكيف يستخدمونها في توفير راحتهم ، وتوفير وقت فراغهم الذي يستطيعون انفاقه في الفن والصناعة الفنية ، وتعلّم الجمال عملاً وفكراً . والأمر الثاني أقدم عهداً ، وهو النهضة الأوربية الكبيرة في القرن الخامس عشر المعروفة بإحياء العلوم ، فقد أنجبت تلك النهضة رافائيل وميكال انجلو وليوناردو دافنشي وأضرابهم من عظماء المصورين والبنائين والحفارين . كانوا عظماء حقاً ، ولكنهم اتجهوا بالفن وجهة مسرفة في الزخرفة معرقة في التجميل ، تزايدت حتى أفرطت على ممر العصور ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى اتجه أولئك الفنانون العظماء من رجال النهضة بالفن اتجاهاً فردياً ظاهر الأثر ، إذ صار الفنان يتولى العمل الفني كله مهما عظمت ضخامته ، ويصرّف من يعملون تحته من صناع وفنانين كما يشاء تماماً ، لا يحيدون عن إرادته قيد أنملة ، حتى عادت الأعمال الفنية متشابهة رتيبة مسئمة .

أما قبل عصر النهضة أو الإحياء ، فكانت الأعمال الفنية أكثر بساطة وأظهر رجولة ، وأبعد عن التكلف والاسراف ، وكانت في الوقت نفسه أعمالا اجتماعية مشتركة تسمح لكل فنان بإظهار شخصيته ، واستخدام مواهبه . ومن ثم عاد موريس وأصحابه إلى ذلك العهد السابق لعهد النهضة ، واتخذوا نماذجهم من الفنانين الذين عاشوا قبل رافائيل ، من أمثال جيوتو الايطالي وغيره ، ومن ثم عرفت حركتهم بما قبل الرافائيلية ، إذ كان مثلهم الأعلى في الفنون فنون العصور الوسطى

إلى العصور الوسطى التفت موريس في كل شيء ، إذ كان يرى العصور الوسطى أسعد مجتمعاً وأصح بنية وأجمل ذوقاً وأرقى فناً من عصره . ومن ثم كان يختار معظم موضوعات قصائده وصوره من العصور الوسطى وتاريخها وأساطيرها وحروبها ، وإلى كتب العصور الوسطى رجع حين أراد إحياء ما أحيا من صناعات فنية كانت اندثرت ، ودرس من ذلك اللغة الأيسلندية ، وترجم عنها الأساطير نثراً وشعراً ، واختار لحروف مطبعته طرازاً قوطياً ، وكان يفضل المباني القوطية على كل طراز آخر من المباني في قديم العصور أو حديثها ، يفضله بلا تردد على مباني الأغريق والرومان . وبالجملة كان موريس مولعاً بكل شيء قوطي ، وكانت العصور الوسطى عما يرى فيها من جمال مَفْزَعَه الذي إليه يفزع مما يرى من مقابح ومساوئ في عصره الفكتوري ، يفزع إليها فكراً فينظم القصائد في أحداثها ، وعملاً فيحيي الغابر من صناعاتها وفنونها وطُرُزها .

كانت ميزة موريس الكبرى أنه يفعل ما يقول ،

لا كغيره من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، أو الذين يكتفون بالشكوى والتأفف دون عمل شيء صالح لأنفسهم أولمجتمعهم. فلم يكتف بالنظم والتأليف، حتى جمع إليهما العمل اليدوى. ولم يكتف باطراء العصور الوسطى حتى أحيا فنونها ودرس اللغة الشمالية من أجلها. ولم يكتف بالتغنى بالجمال فى شعره حتى أحاط نفسه به فى داره: اختار لنفسه زوجا جميلة وبنى داراً جميلة، وصنع بنفسه كل جميل من الأثاث، وخطط بنفسه حديقته، وكان بارعا فى فلاحة البساتين براعته فى تصوير محاسنها شعراً، وضرب فى النظم والنثر كما تقدم القول بسهم وافر، وفاز باعجاب معاصريه الكبار من أمثال روزيتى وميرديث وسوينبرن وستيفنسون، ولم يكتف بالنظم حتى ترجم الأساطير من لغة أهل الشمال، وترجم ملحمة فرجيل عن اللاتينية، والأوديسة عن الاغريقية.

توافرت لموريس كل أسباب السعادة ودواعى الفخار. أما الفخار فكان أبعد الناس عنه، لم يفخر يوما بموهبة ولا عمل، وإنما كان همه الشاغل أن يعمل، وكان خوفه شديداً من أن تخمد قواه ويهبط نشاطه بتقدمه فى السن. أما السعادة فلم يكن يستطيع التمتع بها وحوله ما يرى من مظاهر القبح فى حياة الناس، ولا يهدأ حتى يرشدهم — فى غير زهو ولا تبجح — إلى مثل سعادته التى حققها لنفسه كان يرى الشقاء من حوله يتفاقم رغم تزايد الثروة وتقدم الصناعة وترقى الآلات، كان يرى الفقراء أشقياء، والأغنياء أشقياء فى وقت معاً: الفقراء يكدحون طوال أعمارهم ولا يلتذون ما يمارسون من أعمال بل يبغضونها، والأغنياء — الذين يعيشون على كدح الآخرين — لا يلتذون هم أيضاً حلاوة العمل لأنهم لا يعملون، فلا غرو أن ضاعت بين هؤلاء وهؤلاء مقاييس الجمال وفسد الذوق وغدت الحياة عديمة المعنى.

وقد صنع موريس فى عالم الفن والصناعة كل ما يستطيع لإصلاح الأذواق وتصحيح مقاييس الجمال، وكان لكتاباته ومصانعه أثر كبير فى تحسين الأذواق، لا فى انجلترا وحدها، بل فى أوربا جميعاً، إذ كان هو أحد القادة الذين قضوا نهائيا على قواعد العصر الفكتورى وتقاليده. ولكن موريس أيقن أن عمله الفنى والصناعى سيظل محدود الفائدة ما ظلت النظم الاجتماعية على ما هى عليه — ما دام الفقراء يعوزهم الوقت والمال للتفكير فى الجمال والفن، والتمتع بالحياة الجميلة، وما دام الأغنياء الرأسماليون واقفين عقبة كؤوداً بين المنتج والمستهلك، يفرضون على المنتج طرزاً خاصة من المصنوعات بدون أنها تحوز قبول الجمهور، وبذلك يقيدون شخصية الصانع ومواهبه ومقدرته الفردية على التفنن، ثم يفرضون تلك المصنوعات على الجمهور الذى لم يختر لنفسه، وهم بين هذا وذاك يحتجنون المال، فلا يجديهم المال لفساد أذواقهم، ولا يجدى الصناع الذين حرموه وقبض عنهم. ومن ثم اتجه موريس إلى مهاجمة هذا النظام الرأسمالى مهاجمة عنيفة، وغدا اشتراكيا متحمساً، وكانت الاشتراكية فى بدء ظهورها، فكان من أظهر رجالها فى انجلترا.

لقد كان موريس فى الواقع رأسمالياً، قد ورث عن أبيه مالا كثيراً، ولكن المال لم يكن همه، ولم يكن من غرضه استخدام الصناع والعمال عاله استخداماً لئيما. إنما كان همه أن يحيا هو حياة سعيدة، وأن يرشد الآخرين إلى مثل هذه الحياة، ولذا لم يكن يعد نفسه رأسمالياً. وإنما انحاز إلى صفوف الصناع الذين رآهم مغبونين فى ذلك الصراع الاجتماعى الذى تنبه إليه، ولم يستخدم رأسماله إلا فى الاستغناء عن الرأسماليين والتحرر من ربقتهم. فأقام مصانعه وصنع بضائعه، وعامل جمهوره الشارى بنجوة عنهم، وكان منهجه حين يستخدم الصناع فى مصنعه أن يعلمهم من سر العمل كل ما يجهلون، ليقدرهم على الاستقلال بأنفسهم.

فموريس كان يرى طبقة الرأسماليين طبقة فضولية طفيلية نشأت فى العصور الحديثة فى جملة ما نشأ من مساوئ، وتطفلت بين الصانع والشارى فأفسدت بينهما الذوق

واستأثرت دونهما بالمال ولم تدر كيف تنفقه ، وإنما كان المثل الأعلى للصناعة فى نظر موريس أن تكون العلاقة بين الصانع والشارى مباشرة ليستطيع الصانع أن يتفنن ما شاءت له عبقريته ، وليستطيع الشارى أن يتذوق مجهود الصانع ويحسن التفاهم بين الفريقين ، كان موريس يرى أن يكون الصانع هو هو الرأسمالى ، هو هو الذى يمول نفسه ويستقل بأمره ويعامل جمهوره ، كما كانت حال موريس نفسه فى مصانعه النموذجية .

هذه العقيدة الفنية أدت بموريس إلى الاشتراكية ، وهو فى هذا أيضاً نسيج وحده ، تهدّى إلى الاشتراكية من طريق غير الطرق التى أدت بغيره إليها . كان ينقم على الرأسماليين ويعطف على الفقراء من العاملين ويدعو إلى توزيع الثروة توزيعاً عادلا ، لا لغالاته بقيمة المال فإنه كان يرى القليل منه يكفى ليعيش المرء سعيدا ، ولكن لتتوافر لكل امرئ الفرصة للعمل والتمتع بلذة العمل التى لا تعدلها لذة ، والتمتع بالجمال فى الحياة وفى العمل ، والحياة بغير جمال بغيضة منتهى البغض إلى موريس .

ارتد موريس اشتراكيا متحمسا واشترك فى تأليف جماعات اشتراكية ، كان من زملائه فى إحداها الشاب برنردشو ، ونظم المقطوعات فى الدعوة الاشتراكية ، واشترك فى تحرير مجلة الاشتراكيين ، وراح يخطب على رؤوس الطرق فى أيام الآحاد . وكان غرضه الأول فى كل ذلك النشاط نشر العقيدة الاشتراكية بين الناس . وكان يرى أنه متى تم انتشارها جاء الانقلاب المنشود طبيعيا سلميا بلا ثورة ولا عنف . أما مبادئ الانقلاب المنشود وحال المجتمع المطلوب فبسطها فى كتاب (هوبوتوبيا أو «طوبى خيالية») دعاه «أنباء من غير مصدر» ، وما زال الكتاب من أكثر مؤلفاته تداولا ، وقد كانت لمجهودات موريس فى هذا السبيل آثار واضحة كالتى كانت لمجهوداته فى الوجهات الأخرى .

لقد كان العصر الفكتورى مملوءاً بالمساوئ التى زادها الانقلاب الصناعى بروزاً ، وقد احتفل كثير من كتاب ذلك العصر بإصلاح تلك المساوئ : عمل رسكن على نشر حب الفنون وتقدير الجمال ، وفى ذلك خلفه موريس فزاد عليه وأربى ، لأن تعاليم رسكن كانت نظرية ، على حين كان موريس فناناً صانعاً يمارس ما يدعو إليه خبيراً به ، واهتم دكنز بإصلاح أحوال العمال السيئة التى صوّرها فى قصصه ، ودعا صموئيل بتلر إلى إصلاح طرق التربية وتطهير العقائد من الأوهام ، واحتفل ماتيو ارنولد بتقويم الذوق الأدبى وتوجيه النقد ، وعمل كارليل على رفع المثل العليا لعصره عن حمأة المادية والقصور بعرض صور شتى من بطولة التاريخ وعظمة رجاله . أما مهمة موريس التى اضطلع بها فى كفاية واستقلال وأصالة وعزيمة ، فكانت أجل المهمات وأطرفها .

كان غرض موريس جعل الحياة كلها جميلة مادة ومعنى وفكراً وعملاً ، وكان يرى أن لكل امرئ بلا استثناء حقاً فى التمتع بالحياة جميلة ، وأن لكل امرئ مقدرة على إنتاج أعمال جميلة أيا كان نوعها وعلى تذوق الجمال فى شتى صوره ، كان موريس يؤمن بأن لكل امرئ مواهبه ، وإن اختلفت عن مواهب الآخرين . وكانت مواهبه هو نفسه متعددة لا يشبهه فى تعددها إلا الفنان الإيطالى ليوناردو دافنشى ، كما أنه كان يشبه معاصره تولستوى فى أن كليهما خرج من طبقة راقية وكان سعيداً مجدوداً ، فلم تكفه سعادته حتى يسعد الآخرين . وفى سبيل إسعاد الآخرين أجهد موريس نفسه إلى آخر حياته . ولما مات قال عنه طبيبه : إنما كان داؤه أنه كان وليام موريس ، وأنه أنتج فى حياته من الأعمال فى مختلف الفنون ما تكل عنه العصبة أولو القوة .

فخرى أبو السعود

بين الرجل والمرأة

للأستاذ زكي نجيب محمود

الحديث في خصائص الجنسين ، الكثيف واللطيف ، ممتع ، ولكنه شاق وشائك ؛ فما انفكت أقلام النوابغ تجرى في طبيعة المرأة وصفاتها ، وتقربها إلى الرجل في طبيعته وصفاته ، فهذا يسفل بها وذاك يعلو ، ولكن قل أن تجد بين الكتاب الباحث المنصف الذي يصدر فيما يكتب عن حياد على متزن . فكاتب يهاجم المرأة بلسان من نار لأنه محنق مغيظ ، خاض معمعان الحب فكان من صرعاه ... وكاتب يمجد المرأة ويسمو بها ، حتى يحشرها في زمرة الملائكة الأطهار ، لأنه رشف كأس الحب نميراً سلسبيلا ... وإن تناول الموضوع امرأة كاتبة ، ألفيتها صارخة صرخة الموتور المنتقم !

وقد طالعت فصولاً في المرأة والموازنة بينها وبين الرجل ، كتبها الفيلسوف الأديب « ول ديورانت » Will Durant فأعجبني منه حياده وإنصافه ، وإن يكن أميل قليلاً إلى جانب المرأة ، فرأيت أن ألخص للقراء بعض رأيه :

فطرت في الإنسان طائفة من الغرائز والميول ، هي محور شطر عظيم من سلوكه في الحياة وقدرته على التصرف والتفكير . وقد قسم بعض علماء النفس هذه الغرائز الفطرية أقساماً ثلاثة : غرائز تصون حياة الفرد ، وأخرى تعين على حياة المجتمع ، وثالثة تعمل على حفظ النوع بأسره ، ولا بأس بالأخذ بهذا التقسيم . وسيكون سبيلنا في البحث أن نرى هل تختلف المرأة عن الرجل في هذه القوى الطبيعية التي يتألف منها الجانب الأعظم من شخصية الإنسان ؟ وإن اختلفا ، فهل يقع الخلاف في الكم أو في الكيف أو في كليهما معاً ؟ ولنبدأ بالبحث في الغريزة التي من شأنها صيانة النوع البشري بصفة عامة ، وأعني بها الغريزة الجنسية لأنها في موضوع الموازنة أساس يتفرع عنه كل اختلاف في الجسم والعقل والخلق بين الذكور والإناث .

للأنثى سيطرة في عالم الحيوان ، فهي في كثير من الأنواع أضخم حجما من الذكر ، وهي فوق ذلك مكلفة بأداء الرسالة الحيوية الكبرى ، التي إن قيست إليها رسالة الذكر في حفظ الحياة ، لم تكن إلى جانبها شيئاً مذكوراً ، فنصيب الرجل من هذه الناحية عرضي وسطحي تستطيع الحياة أن تهمله وتستغنى عنه ، فلا جدال في أن الأنثى من الحياة بمثابة الأساس ، وأما الذكر ففرع ثانوي في حياة النوع . وحسبك أن تعلم أن الذكورة تخصص جديد في سلم التطور ، تحددت فيها بعض الوظائف التي كانت تتم بغيرها في أولى مراحل الحياة حينما كانت تتناسل بالانقسام والتبرعم . وإن اللحظة التي تتمخض فيها المرأة لتضع جنينها ، في حين يقف الرجل بعيداً لا حول له ولا جدوى ، لتنهض دليلاً قوياً على أن الرجل أداة ثانوية تافهة في تطور الجنس البشري ، وأن المرأة هي عامل دوام الحياة واتصالها ، وأنها معين يتدفق منه مجرى الحياة الزاخر ؛ وليس عجيباً بعد هذا أن نرى الأمومة مقدسة في كل دين .

إن خجل المرأة واحتشامها أداتان اصطنعتهما غريزتها الجنسية لتخدم بهما الغاية الكبرى ، وهي التناسل واتصال الحياة ، لأن الخجل ينزع بها إلى التوارى ، وهذا يمكنها من الروية الهادئة والتمييز الدقيق في اختيار شريك حياتها الذي تنتقيه من بين الرجال ليكون أباً لأبنائها ، حتى إذا ما أدت رسالتها وحققت غايتها في الأمومة ، ضؤل خجلها

وانكمش ، ولعلك قد لحظت المرأة الساذجة حين تخرج ثديها لترضع صغيرها في ملأ من الناس وكلها زهو وافتخار ، وهي هي التي كانت منذ قليل تذوب حياء وخجلاً لو وقعت على جسدها الأبصار ؛ لا تسخر من تلك البساطة القوية الجميلة ، فلعلها على حق ولعل رياء المرأة المهذبة هو الين والباطل ، فإنَّ أحبَّ ما ترمقه العيون في عالم الحقيقة أو الفن هو منظر الأم تُرضع صغيرها .

ولما كانت الحياة الجنسية هي كل شيء في المرأة ، وكان الحب أقوى أدوات الحياة الجنسية ، كانت المرأة أعقل من الرجل في الحب وأذكى . فالرغبة عندها أقل حدة منها عند الرجل ، ولذلك قلَّ أن تضلّ في حكمها . ويروى لنا دارون أن معظم الحيوان لا تعبأ أنثاه بالحب ، ويزعم بعض الباحثين في طبيعة المرأة أن المرأة لا تسعى إلى المتعة الجسدية بقدر ما تنشد الاعجاب بها والثناء عليها . من أجل هذا ترى المرأة أسرع من الرجل ترحيبا بالجانب الروحي من الحب . . .

ولكن إن كان الحب في المرأة أكثر صحولة منه في الرجل ، فهو أوسع دائرة وأكثر شمولا ، بحيث يطغى على جوانب حياتها ، فهي لا تحيا إلا مع الحب ، حتى قال قائل : إنها لا تملك لنفسها ذاتاً مستقلة ، بل ترتكز في وجودها على وجود الرجل . وتستمد شخصيتها من شخصيته .

غير أن المرأة إن فاقت الرجل في فن الحب ، فهو أعظم منها في فن الصداقة ؛ فليس بعيداً أن تتوثق روابط « الصداقة » بين الرجل والرجل . أما المرأة فمهما ازدادت بصواحبها اتصالا ، فالعلاقة بينهن لا تزيد عن « التعارف » وما أندر أن تتحدث امرأة عن امرأة بالخير والذكر الحسن ؛ وليس ذلك فيهن بعجيب ، فهن لا يمحضن « أزواجهن » الود والصداقة ، لأن ذلك بعد الحب ممجوج لا طعم له ، وما حاجتها إلى الصداقة بعد أن روت قلبها بالحب ؟

والغيرة عند الرجل والمرأة شأنها شأن الحب ، فهي أحدّ في الرجل منها في المرأة ، ولكنها أضيق مدى في حياته منها في حياتها . والغيرة أقوى عند الرجل ، لأنه أشد من المرأة نزوعاً إلى التملك ، وما حبه إلا حب في امتلاك امرأة بعينها دون سائر الرجال ، فهو إذاً يغار على هذا الملك أن يسطو عليه المنافسون . ومن الشاهد أنه شديد الرغبة في أن يكون أول من ظفر بأنثاه . أما المرأة فلا تعبأ كثيرا أن يكون زوجها قد ظفرت به امرأة قبلها ؛ ولكنها تعوّض فتور الغيرة عندها بالتوسع في نطاقها ، فهي لا تقصر غيرتها على حبيبات زوجها الأخريات ، بل إنها لتغار من أصدقائه ، ومن غليونه ، ومن كتبه ، بل من الصحيفة اليومية التي يقرؤها . وهي لا تدخر وسعا في تفرقة الأصدقاء عن زوجها واحداً بعد واحد ، فإن أعجزها ذلك عاشرتهم ، غير عابئة أن تحقق سياستها بخطيئتها ، حتى إذا ما أحس الرجل غيرة على امرأته من هؤلاء الأصدقاء ، سرها ذلك وشعرت بالنصر والغلب ، وشجعت فيه تلك الغيرة لأنها تدرك بفطرتها أن حبه لها لا يشتد إلا إن رأى ملكيته لها تهين وتضعف . فالمرأة تعلم بطبعها أن الغيرة في الرجل أنجع دواء يعالج حبه إن أخذ في الخمود والذبول .

ننتقل إلى عرض الغرائز التي من شأنها أن تصون الفرد باعتباره فردا مستقلا ، لنرى كم تختلف فيها المرأة عن الرجل .

إن وظيفة المرأة أن تخدم النوع وتعمل على دوامه ، أما الرجل فواجبه أن يخدم المرأة وصغارها ، ذلك هو الأساس الذي تتفرع عنه الفوارق ، التي تباعد بين الشخصيتين ؛ فلما كان الرجل منوطا به بحكم فطرته أن يخدم المرأة والأبناء ، كانت صناعته التي تمليها الطبيعة هي الحماية وتحصيل القوت وركوب المخاطر ، واجبه أن يغادر العش أو الدار التي يأوي اليها الزوج والصغار ليبحث لهم عن القوت ، فإن كانت غاية المرأة أن تنسل ليدوم النوع ،

فغاية الرجل أن يجمع القوت ليحيا بشخصه ، ذلك منه محور الرحى ، فإن رأيته يسعى وراء شيء آخر غير القوت فاعلم أن ضالته المنشودة تمتّ بسبب ظاهر أو خفي لغرضه الأول ، شعر بذلك أو لم يشعر . فهو قد ينشد المنصب الرفيع ، وقد يطلب الثراء والجاه ، ولكن هذا وذاك يسترَان يخفيان رغبة شديدة في حالة تضمن استمرار الطعام . ويتفرع عن ذلك أن الرجل أشد حبا من المرأة للطعام والشراب ، وهو أسرع منها خضوعا إذا أغريته بالطعام والشراب . ولقد أدركت المرأة ذلك في الرجل فسيطرت عليه عن طريق معدته ، كما يقول بعض الكاتبين ، ولعلها أدركت ذلك منذ اسنّت لها ذلك حواء ، حين أعطت التفاحة لآدم !

وسعْي الرجل وراء الطعام اضطره في كثير من الحالات إلى ركوب المخاطر في سبيل تحصيله ، فانقلب على ممر الزمان محارباً . فالحيوان الذكر يحارب بمخالبه وأنيابه ، والرجل من البشر يقاتل بالمنافسة الاقتصادية ، والأمم تحارب بالجيوش والأساطيل والصحف ! أما المرأة فطبيعتها أن تلتمس لها كنفاً يؤويها ، فحياة الأمن والدعة آثر لديها من حياة الحرب والقتال ، وإن حاربت المرأة ففي سبيل أبنائها ، أو في سبيل النوع . فهي أقل ميلا من الرجل إلى اصطناع القوة والعنف ، حتى إنه ليروى أن بعض إناث الحيوان لم تركّب في جبلتها غريزة القتال . والمرأة أجمل صبراً من الرجل ، ولكنها أضعف منه على احتمال الكوارث الكبرى ، وإن تكن أقدر على المنغصات الخفيفة الكثيرة التي تقع في الحياة كل يوم . وهي أقدر من الرجل على تحمل المرض لأنها تعودت أن تقبع في عقر الدار ، أما الرجل الذي لم يألف القعود فيؤلمه أشد الألم أن يصيبه من الأذى ما يعطله ويعوقه ، وكثيراً ما تخفي المرأة داءها ولا تعلنه ، أما الرجل فلا يلبث أن يصاب بسوء حتى يملأ الدنيا صياحاً بشكواه .

ولكن إن لم تكن المرأة مقاتلة بطبعها ، فهي تحب المقاتلة في الرجل ، أعني أنها أميل إلى المحارب المقدام من الرجال دون الرخو القعيد ، فما أحب إلى قلبها أن يكون زوجها جندياً أو ذا سيطرة ! وليس اختيار المرأة المحارب عبثاً عارضاً ، بل هو فرع من طبيعتها ، لأنها تتوقع من الرجل أن يحميها ويحمي صغارها ، والحماية تبلغ حدها الأقصى في الباسل المحارب . وإن هذا الطبع فيها ليبلغ من الرسوخ حداً بحيث تتغير ظروف الحياة ولا يتغير ، فقد تبدل معنى القوة في هذا العصر وأصبحت في ميدان الاقتصاد ، ولكن ما زالت المرأة تفتح ذراعيها للمقاتل وإن كان أبله ، وتنفر من صاحب العمل وإن كان ذا ثراء .

إذاً لا حاجة للمرأة إلى القوة ما دامت تتوافر القوة في زوجها ؛ ولكن كيف تنتصر على هذا الزوج نفسه إن تعارضا ودب بينهما الخلاف ؟ إنها لا تلجأ إلى قتال لأنها ضعيفة وهو قوي ، بل وسيلتها الإلحاح الدءوب والتكرار الذي لا يعرف الملل . فلئن كان الرجل محارباً بطبعه فهو أسرع إلى المسالمة لأنه لا يحتمل العداء إلا فترة قصيرة يحتد فيها ويشتد ثم يفتر ويخور ، أما المرأة فحدتها وشدتها فاترتان ولكنهما دائبتان دائمتان حتى يكتب لها النصر فيما تريد ؛ فقد يبهر الزوج زوجته ، بل قد يعتدي عليها بالضرب ، ولكنها ستنتصر آخر الأمر في الأعم الأغلب ، ستنتصر بالتكرار الملح كأنها إعلان عن سلعة في السوق ! وإلحاحها هذا نتيجة ضعفها وعجزها عن القتال الحاسم . وتلك قاعدة شاملة : فالضعفاء من أنواع الحيوان ومن الشعوب ومن الأفراد تراهم أغنياء بالصبر والدعة ، وإن ظفروا بمطالبهم كان ذلك بأسلوب الرقة والاسترحام . وليس بعجيب أن ترى نابليون الذي نشر سلطانه على قارة بأسرها يستخذي أمام زوجته ، فليس في عدته كلها ما يواجه به سلاح المرأة الماضي : العبرات والبكاء .

لقد تبينت أن المرأة أعلى شأناً من الرجل فيما يتصل

بصيانة النوع ، وأقل منه خطراً فيما يتعلق بالشخصية الفردية . وسترى في هذه المرحلة الثالثة أن المرأة تفوق الرجل مرة أخرى في الغرائز التي من شأنها حفظ المجتمع . فالمرأة أشد من الرجل حباً في التجمع ، وأكثر منه ميلا إلى مرافقة الأصحاب والضرب في الزحام . إنها لا تسأل : ما أحسن المسارح وما أجمل المصايف وما أروع الحدائق ؟ ولكنها تقول : أيها أكثر ازدحاما ؟ فخير المسارح ما كثرت نظارته مهما يكن من أمر روايته ، وأجمل المصايف أكثرها ارتياداً من المصطافين ولا عبرة بجودة هوائه ! فالمرأة أقل قدرة من الرجل على العزلة ، ولذا قل أن تجد امرأة اتخذت لنفسها صومعة تنفق فيها حياتها كما يفعل بعض الرجال . ومن حبها للاجتماع أنها تشعر بنقصها إذا لم يكن الرجل إلى جانبها ، أكثر مما يشعر الرجل بنقص إن لم تكن في رفقته امرأة .

وتفرع عن ميلها إلى الاجتماع كثرة كلامها ، فما أندر أن تجد امرأة تستطيع أن تصون السر في صدرها ، فهي غربال الأسرار كما يقولون . ومن عجز المرأة الطبيعي عن كتمان ما بنفسها نتج أنها لا تقوى على التظاهر بغير ما تشعر به . فوجهها لا يلبث أن يفضح دخيلة نفسها ، وذلك بخلاف الرجل الذي علمته التجارب أن يلبس وجها لا يتغير مع الكسب والخسارة والألم واللذة . وقد نشأ من تلك الصفة في المرأة — صفة افتضاح سرها في وجهها — أنها كانت أقدر من الرجل على تفسير ملامح الآخرين ، ومن هنا كانت خديعة الرجل بالتصنع أيسر من خديعة المرأة .

وطبيعة المرأة الاجتماعية جعلتها أكثر من الرجل استمساكاً بالعرف والتقليد ، وأقل منه إبداعا وأصالة ، وأجبن منه في الثورة والخروج على النظام الموضوع . وهي أبطأ من الرجل في مخالفة الشيء المعهود المألوف . ولعل ذلك يفسر أن قليلا جداً من النساء يصعد إلى النبوغ أو يهبط إلى الجنون . والمرأة أقرب شبهاً بسائر النساء من الرجل بسائر الرجال ، فإن ارتحال الرجل وتغيير بيئته وعمله يوماً بعد يوم قد صب الرجال في ألوف الصور المتباينة ، أما المرأة فلها صنعة لا تتغير بتغير الزمان والمكان : تدبير الدار وتربية الصغار ، فجاء النساء كلهن على غرار واحد ، متشابهين سواء وإن اختلفت فيهن الوجوه ، وقد يكون ذلك علة انتقال الرجل في حبه من امرأة إلى أخرى ، إذ طريق الوصول إليهن جميعاً واحد لا يتغير ، أما المرأة فأصعب الصعاب عندها أن تستبدل حبا بحب .

ومن نتائج ميل المرأة إلى التجمع وتفوقها في ذلك على الرجل ، أنها أكثر منه تقديراً لرأي الناس ، فرأي الجيران أهم عندها منه عند الرجل ، واحترامها لما يقوله الناس يقتضيها الأناقة في الثياب والحديث ، خشية أن تزل فتنتقد . وهذه الرغبة الحادة فيها هي أقوى العوامل التي تدفع الرجل إلى التماس العظمة والمجد ... وتفرع من طبيعتها الاجتماعية ومن أمومتها أنها أحنى من الرجل على الضعفاء ، وأعطف منه على الفقراء والمرضى ، وتلك الصفات تنزع بها إلى التدين ، فضلا عن أنها مشتعلة العواطف . فالأديان التي تخاطب الشاعر سرعان ما تجد في نفوس النساء مجالاً تبذر فيه بذورها . أضف إلى ذلك أن المرأة كثيراً ما تكبت ميولها الجنسية ، حتى إذا ما ثقل عليها حمل المكبوت ، انصرفت به إلى موضوع تخصص حياتها في سبيله ، وكثيراً ما يكون ذلك في التدين . والمرأة أرسخ من الرجل اعتقاداً في خلود الروح بعد الموت ، لأنها أشد منه رغبة في لقاء من مات من أبنائها وأحبابها . تنظر المرأة إلى الطبيعة وكذلك ينظر إليها الرجل ، فأما المرأة فتخشاها وتعبدها ، وأما الرجل فتثور فيه غريزة الملك فيحاول أن يسيطر عليها بعقله . المرأة ضعيفة القوى ولذا سرعان ما تنشد رحمة الله وعونه ، فهي إذاً أخلص من الرجل في عبادتها وصلاتها . والمرأة تخشى الوحدة فتملأ الدنيا بأرواح من خلق خيالها لتضمن الرفيق والسلوى إن عز ذلك في بني الإنسان ، ولذا فهي أقرب إلى الخرافات من الرجل . يستولي اليأس على الرجل فينتحر ، أما المرأة

فإن فقدت رجاءها ألقت بنفسها بين يدى الله أملاً فى رحمته ورضوانه .

تلك لمحة سريعة تبين الفروق الغريزية بين الرجل والمرأة ، ولكن الغريزة ليست كل شىء فى الإنسان ، بل تنشأ إلى جانبها شىء اسمه العقل أو الذكاء ، فإلى أى حد يختلف فى ذلك الجنسان ؟

العقل فى الرجل أشد عمقاً وأوسع مدى ، لأن الرجل منذ بدء الحياة قد اضطر إلى مغادرة البيت إلى حيث العالم الواسع ، فكان عليه أن يلقى ظروفاً جديدة فيجاوبها بردود مبتكرة جديدة ، إذ لم تعد الغريزة وحدها تكفيه ، فليس من شك أنه استطاع على مر العصور أن يروض قواه العاقلة حتى بلغت من المرونة حداً بعيداً ... أما المرأة فقد ظلت إلى عهد قريب — بل لا تزال حتى اليوم إذا استثنينا قليلا من نساء المدن — لا تعى فى حياتها إلا بالسعى وراء العشير حتى تصادفه ، ثم تنصرف بعد ذلك إلى تدبير منزلها وتربية أبنائها ، فلم تضطرها طبيعة حياتها إلى تدريب ذكائها ليجيب المواقف الشاذة بردود ملائمة ، ولكنها فى الوقت نفسه مكنت للغريزة من نفسها ، حتى أصبحت فى كل ما يتصل بها قديرة ماهرة ، فإن كان الرجل أقرب منها إلى النقد والشك ، فهى أفضل منه فى وحدة غرائزها ودقتها ، لأن غرائزه تحطمت من كثرة التعديل والتبديل ، فلم تعد مأمونة الجانب سديدة الحكم ؛ لذلك ترى الرجل فى حضرة المرأة لا يكاد يدرى ماذا يفعل ، أما هى فأشد منه ضبطاً لنفسها وأميل إلى الناحية العملية ، وأمهر فى تدبير الخطة وأسرع إلى التنفيذ ، ما دام الأمر متصلا بزواج أو بأبناء . ولئن تصادف رجلا فى سن الثلاثين يصارع فتاة فى العشرين فى معركة الحب ، وحسبك أن ترى كيف تستطيع الفتاة الصغيرة أن تتحكم فى زوجها الكهل وأن تسيره كيف تشاء ، دون أن تسفه فى ذلك حكمته !

ولما كانت المرأة أكثر من الرجل استعداداً بفطرتها لمباشرة شؤون الحياة اليومية ، كانت أسرع منه نضجاً وأقرب إلى بلوغ الرشد ، وأعرف بما يرضى المجتمع ، ولكنَّ سبقها للرجل فى هذا يقصّر بها دون الرجل من حيث الغاية القصوى ، فهى أدنى منه شوطاً ، وأقل ارتفاعاً فى النبوغ ، ذلك لأنها لا تنمو إلا فى حدود فطرتها المطبوعة ، أما الرجل فيمتد نموه ما امتدت تجاربه ، فالمرأة مقيدة بما ورثته ، والرجل مغامر مخاطر مجدد ، هى عامل الاستقرار المطرد ، وهو أداة التغيير ، هى من شجرة الانسانية جذعها الثابت ، والرجل فروعها التى تعلو حرة طامحة إلى السماء . . . وهذا الاستقرار فى طبيعتها قد ولد فيها جموداً فى الشعور وقصوراً فى الفكر ، فأفقها لا يتسع إلى أكثر من دارها وأسرتها ، ولكنها فى هذا الأفق المحدود بجدران أربعة عميقة كالطبيعة ؛ نعم قد يحدث أن تتسع نظرة المرأة حتى تشمل بعطفها الانسانية جميعاً ، ولكن ذلك لا يكون إلا فى صدر شبابها ، حتى إذا ما صادفت عشيرها سارعت إلى ذلك العطف تحصره فى دارها ، بل تحاول أن تعلّم زوجها كيف يكون على غرارها فى ذلك ، فينصرف بحبه إلى بيته وأبنائه وكفى . . . إن الشاب ليغازل فتاته قائلا : أحببتك بالعالم كله ؛ فإن تزوج منها علمته كيف يكون ذلك القول دستوراً عملياً ! فهو ما يلبث أن تضيق دائرته وتضيق حتى تصبح دنياه الزوج والأبناء !

ولعل أوضح الفروق العقلية بين الرجل والمرأة ، هو أن هذه لا تكاد تصبر على الفكر المجرد ، فهى لا تعنى ببحث فكرة لذاتها ، بل تحصر بحثها فى الرجل ، لأن الرجل هو مشكلة المشكلات عندها ، فقد كتب على المرأة أن تملأ حياتها شغلا بأشخاص — الزوج تارة ، والابن طوراً — وأما الرجل فنصيبه من الحياة أن يلقى بنفسه فى خضم التجارة والصناعة ، والتفكير فى أسباب الظواهر ونتائجها . فأيسر على الرجل أن يستمتع بقراءة كتاب يدور حول فكرة بعينها ، أما الكتاب الذى يعجب المرأة فهو القصة — قصة رجل !

زكى نجيب محمود

الـكاتب الجالس

Le Scribe Accroupi

للدكتور زكى محمد حسن

كان المصريون القدماء يكثرون من صناعة التماثيل المنحوتة من شتى أنواع الصخور أو من الحجر الجيرى أو من الخشب. وكانوا يضعونها فى المقابر لتلجأ إليها الروح إذا بليت الجثة، فيمنع ذلك فناء الميت.

ولم يكن المثال الفرعونى يوازى زميله الإغريقى فى الاعجاب بجمال الجسم الانسانى، والقدرة على تصويره مجسماً وفى أوضاع متنوعة، مع العناية بأجزائه ودقة محاكاة الطبيعة فى كل منها. ولكن الفنان المصرى كان يعمل على أن يكون التمثال أقرب ما يمكن من صاحبه، وأن يكون بقدر الإمكان صورة له فى تقاطيعه ومميزاته، على أنه كان يعنى بالوجه أكثر من عنايته بسائر أجزاء الجسم.

وامتازت صناعة التماثيل فى عصر الدولة الفرعونية القديمة (حول منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) بصدق تمثيل الطبيعة؛ وإن كنا نرى فى أكثر منتجاتها شيئاً من الجمود، وتكرار هيئة الأشخاص، والأوضاع المصورة فيها، مما قد يبعث شيئاً من الملل فى نفوس غير الخبيرين بمبادئ الفنون المصرية القديمة.

وقد حفظت لنا الاهرامات والمصاطب عدداً كبيراً من أبدع التماثيل المصنوعة فى ذلك العصر؛ ولكن الذى يعنينا اليوم بوجه خاص هو تمثال الكاتب الجالس (أو المتربع). وهو محفوظ الآن فى متحف اللوفر فى باريس، ويعدّ من أجمل التحف المصرية القديمة، فصار اسمه علماً على القاعة المحفوظ فيها، وأصاب فى غربى أوربا، وفى أمريكا شهرة لا توازيها إلا شهرة رأس نفرتيتى فى ألمانيا.

وهذه التحفة الفنية مصنوعة من الحجر الجيرى الملون وارتفاعها ثلاثة وخمسون سنتمتراً، وقد عثر عليها ماريت باشا فى سقارة بمقبرة من مقابر الأسرة الخامسة. وأكبر الظن أنها تمثل أميراً من أمراء الأقاليم اسمه «كاى»، له تمثال آخر فى متحف اللوفر، وقد عثر عليه فى المقبرة نفسها. والظاهر أن بعض الأمراء وكبار الموظفين فى الدولة المصرية القديمة كانوا يتخذون لقب «الكاتب» ويأمرون بأن تصنع لهم تماثيل تصورهم فى هيأة كاتب يصغى لما يملى عليه. وقد كشف المنقبون عن الآثار عدة تماثيل من هذا النوع تختلف عن بعضها فى وضع الساقين وفى شكل الوجه.

والتمثال المحفوظ فى متحف اللوفر (انظر الصورة فى الصفحة المقابلة) يصوّر الأمير «متربعاً» وفى يده اليمنى قلم وفى اليسرى طرف ملف من ورق البردى منشور فى حجره. وقد وفق المثال إلى أبعد حدود التوفيق فى صدق تصوير الطبيعة. وإننا لنكاد نشعر أننا أمام الكاتب بلحمه ودمه؛ فاعتدال الجسم واتزانه، والبريق الذى ينبعث من العينين يعبّران عن انتظار الكاتب لما يمليه عليه سيده، ولعله الملك نفسه. ويزيد التمثال حياة ألوان أجزائه وأنه صورة شخصية لصاحبه، غاية فى الدقة والاتقان، ويدل على أنه أقل ملاحة وأكبر فى العمر من صاحب التمثال التربيع الذى كشفه «دى مورجان» فى سقارة والمحفوظ الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة.

وقد استخدم المثال مادة مختلفة لكل جزء من أجزاء العين حتى يصل إلى النظرات الحية التى تنبعث منها، فجعل بياضها من حجر الصوّان الأبيض، والقرنية من حجر البلور الصخرى، والانسان من خشب الأبنوس، ووضع الكل فى إطار من البرونز. ويلاحظ فى هذا التمثال أن أصابع الكاتب طويلة جداً؛ ولكنه يوازى فى قوة التعبير أبدع ما خلفته لنا سائر الفنون.

زكى محمد حسن

في تقسيم التاريخ

للدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ مساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

للمؤرخين والمشتغلين بالتاريخ والتأليف فيه شكوى تقليدية واحدة ، يفتتحون بها دروسهم إذا درّسوا ، ويصدّرون بها كتبهم إذا كتبوا ، ويخوضها كل منهم في أسلوبه الخاص كأنما هو يعتذر للقارئ نيابة عن التاريخ . وفحوى تلك الشكوى — أو الفاتحة التاريخية — أنه يصعب دائماً على المؤرخ أن يعين مبدأ عصر من العصور بذكر حادثة معينة ، إذ ليس ثمة بداية أو نهاية لأية مرحلة من مراحل التاريخ ، وإنما تنسلخ العصور بعضها من بعض ، ولا شبه بينها إلا بمقدار ما يبقى من أثر أو نتيجة في العصر اللاحق من العصر السابق . والواقع هو ذلك ، والتاريخ لا يعيد نفسه أبدا ، وإنما على الذين يتصدّون لتدريس التاريخ أن يجعلوا لدروسهم بدءاً ، وعلى الذين يكتبون الكتب في مختلف عصوره أن يمهدوا لموضوع ما يكتبون ، ولا بد من اختيار نقطة بدء تكون مدخلا صالحا .

يقف المشتغل بتاريخ العصور الوسطى مثلا أمام تلك الصعوبة يبحث عن نقطة يبدأ منها دراسته ، فإذا بجذور تلك العصور متشعبة متفاوتة العمق ، بعضها في صميم التاريخ القديم ، وبعضها متصل بجهات بعيدة عن مسارحه ، فيسائل نفسه أولا : " ما هي العصور الوسطى ؟ " ، ويجد جوابه واضحاً من حرفية التسمية ، ولكنه جواب لا يشفي ولا يغني ، فإن التاريخ لم يقسّم نفسه إلى أقسام ثلاثة ، قديم ومتوسط وحديث ، ولم يقل أهل العصور القديمة بأنهم الأقدمون السابقون ، ولم يعتقد أهل القرون الوسطى بأنهم المتوسطون ، ولم يفتخر أهل الأزمنة الحديثة بأنهم أبناء آخر الزمان ، بل لم يقل أحد من عامة أهل الفترات الانتقالية بين عصور التاريخ الكبرى إنه في عصر مؤذن بمطلع جديد ؛ وهذا فضلا عن أن المؤرخين أنفسهم لم يتواضعوا على تقسيم التاريخ إلى أقسامه الثلاثة استناداً إلى مجرد الترتيب الزمني والسلام ، فلو كان الأمر كذلك لانعدمت الحاجة إلى التقسيم .

إنما يميّز التاريخَ القديمَ مما يليه في التقسيم المتواضع عليه مميزاتٌ معينة ، كما يمتاز التاريخ المتوسط من سابقه ومن التاريخ الحديث أيضاً بمميزات خاصة ، وهكذا ؛ مع العلم بأن التاريخ كله قصة — أو درامة — واحدة ، ذات فصول متصلة منفصلة معاً . فالتاريخ القديم — ولا شأن لنا هنا بما يسمّى من العصور باسم ما قبل التاريخ — هو الفصل الأول من قصة الإنسان التاريخي ، وميزته الخاصة به من دون العصور التاريخية الأخرى (فضلا عن مطلق أقدميته الزمنية) أنه تاريخ تكوين المدنيات الإنسانية الأولى ، وهي المعروفة باسم "المدنيات النهرية" ، وقد نشأت في الأقاليم المتصلة ، التي يشملها اسم "الهلال الخصيب" ، لتشابهها في مجموعها الجغرافي شكل الهلال المظلم ، ولتوفر الخصب والعيش في كل منها توفراً كافياً لتنمية دولة وتنشئتها ، بحيث تستطيع البقاء ما بقيت بعيدة عن عوامل الهرم . وأهم تلك المدنيات النهرية مدنية الفراعنة في وادي النيل ، والمدنيات البابلية والأشورية والكلدية بوادي دجلة والفرات ، والمدنية الحيثية بشمال الشام وأطراف آسيا الصغرى .

بقي كل من تلك المدنيات الأولى وحدة منفصلة عما عاصرها تمام الانفصال تقريباً أحقاباً طويلة ، لا تعلم

الواحدة من شؤون غيرها إلا القليل النادر ، غير أنه لما كان كل منها يعمل على توسيع رقعته بالإغارة والفتح ، فقد اصطدمت اتجاهات بعضها ببعض ، ومن هنا نشأ الاتصال بين الدولة المصرية ودول الفرات ودجلة مثلا . ولما كان مزاج تلك الدول — وإن شئت فقل فلسفتها — أنه لا محل في العالم لأكثر من دولة واحدة تكون لها السيادة الجامعة ، فقد اشتد الصراع لذلك بين تلك الدول القديمة ، ولذا كان مسرح التاريخ القديم مكتظاً في معظم عصوره بدولة واحدة قد طغت على جميع الدول الأخرى ؛ وآية ذلك الدولة المصرية أيام تحتمس الثالث ، والدولة الأشورية زمن أشور بانيبال ، والدولة الفارسية أيام قمبيز .

ثم نبتت "المدنيات الجزرية" في شرق البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه واليونان ، على أن مزاج تلك المدنيات الجديدة لم يختلف عما سبق ذكره في وصف المدنيات النهرية الكبرى ، من حيث حب الغلبة والانفراد بسيادة عالمية ، فبقي القديم على قدمه ، ونشأت الحروب الطويلة بين المدنيات الجزرية الفتية والمدنيات النهرية التي فات زمنها ؛ وأوضح الأمثلة لذلك حروب اليونان ضد الفرس ، ومحاولة الإسكندر المقدوني ليبسط سلطانه على جميع بلاد العالم المعروف ، ونجاح الدولة الرومانية في تحقيق ما فشل فيه الإسكندر ، حتى امتدت إمبراطوريتها من بلاد الفرات إلى اسكتلندة ، ومن الشلال الأول إلى ضفاف الرين والدانوب .

ومهما يكن من شيء ، فقد توافق المؤرخون على اعتبار الدولة الرومانية خاتمة التاريخ القديم ، وحسب المتأمل نظرة واحدة في خريطتها النائية الحدود ، والقارىء مطالعة قصيرة في أحداث تاريخها الطويل ، ليعلم الأسباب التي صيّرتها عند المؤرخين نهاية العصور القديمة . ذلك أن الدولة الرومانية قد اكتنفت مساحات جزرية ونهرية معاً ، وامتدت فتوحها إلى تخوم وسهوب تعج بحركات قبلية عنيفة ، وهذا فضلا عن أنها أخضعت لسلطانها مدنيات عتيدة لم تشأ أن تعفّي على آثارها ، بل تركتها تنمو نمواً محليا مادام أهل تلك المدنيات يؤدون كل ما عليهم من فروض الطاعة والانسجام ؛ فظهرت المسيحية التي دعت إلى التمييز بين ما لله وما لقيصر من الواجبات ، ونشأت الأفلاطونية الحديثة التي قال رجالها بأن الله أزلي فوق المادة وفوق الروح وفوق الإمبراطور ، وتحركت على كثير من حدود الدولة في فيئات مختلفة القبائل الجرمانية ، تبتغي العيش والسيادة في أقاليمها . فلو كان باستطاعة الدولة الرومانية أن تتغلب على تلك العوامل التي نخرت في ديانتها الوثنية وسيادتها السامية ، واستمرت سيدة العالم المعروف ، لما كان ثمة حاجة إلى تسمية ما بعد القرن الرابع الميلادي من القرون باسم العصور الوسطى . إنما الذي حدث أن الدولة الرومانية الوثنية تصدعت تحت ضغط العوامل المتقدمة وغيرها ، وسرعان ما أضحى مسرح التاريخ دولا كثيرة ، وليس منها من يستطيع الانفراد بالسلطان السياسي أو الديني على جميع العالم ، بل يريد كل منها أن يسود في إقليمه ، وبذا انمحت آية العصور القديمة ومميزاتها ، فلا أقل من تسمية المؤرخ لما تلاها من القرون باسم جديد ، هو العصور الوسطى .

ولكن من أية نقطة تبدأ تلك العصور الوسطى ؟ أمن ظهور المسيحية ، أم من نشأة الأفلاطونية الحديثة ، أم من بدء حركات القبائل الجرمانية ؟ أم ينتظر المؤرخ حتى تبدو مطالع الثيوقراطية التي وضحت بعدُ في دولة جستنيان ، والخلافة الإسلامية ، ودولة شارلمان ، والإمبراطورية الغربية ، والبابوية نفسها ؟ الواقع أن لكل من تلك البدايات المتقدمة نصيبا من الصلاحية ، غير أنه لما كانت مدنية العصور الوسطى مزيجاً منها جميعا ، فمن المستحيل اختيار واحدة منها بدون إهمال بقيتها ، ومع هذا فلابد من نقطة ابتداء ، وأكبر ظني أن عهد الإمبراطور قسطنطين الأكبر (٣٢٣ — ٣٣٧ م)

بمثل كل تلك النقط تمثيلا كافيا ، وهذا فضلا عن وقوع بعض الحوادث التي تفرعت عليها أهم تطورات القرون الوسطى في ذلك العهد ، فهو لذلك أكثر صلاحية من أي بدء آخر ، كما قرر جواتكن (Gwatkin) في الفصل الأول من الجزء الأول من موسوعة كامبردج للعصور الوسطى (Cambridge Medieval History) .

أول تلك الحوادث التي تمت في عهد قسطنطين الأكبر أنه أصدر ، وهو يشق طريقه إلى العرش الإمبراطوري ، مرسوم التسامح المعروف باسم مرسوم ميلان ، الذي جعل الديانة المسيحية لأول مرة في تاريخها حرة طليقة تماما ، كبقية الديانات المحلية في الدولة . وكان غرضه من ذلك سياسياً في الغالب ، إذ كان القسم الشرقي من الإمبراطورية ، حيث كان كثير من الناس على المسيحية ، لم يدخل تحت سلطانه بعد ، فأراد بمرسومه هذا أن يجتذبهم إلى جانبه . على أن ذلك لا يقلل من أهمية مرسوم ميلان ، الذي جاء فيه أن لكل فرد الحرية في اتباع الديانة التي يرغب فيها ، سواء أكان مسيحيا أم من أبناء أي ديانة أخرى . فمن ذلك الوقت صارت المسيحية ديانة مسموحاً بها (religio licita) ، ضمن الديانات المنتشرة في الإمبراطورية ، وقد أفردها قسطنطين برعاية خاصة من لدنه ، مع أنه لم يعتنقها حتى قبيل وفاته .

ولقد كانت هذه السياسة التي اتبعها قسطنطين نحو المسيحية أحد الأسباب التي حدت به إلى التفكير في نقل عاصمة الدولة من روما إلى بيزنطة ، فإن رعاية المسيحية لا تتسنى في روما ، حيث كانت التقاليد والمصالح الوثنية على أشدها . وقد أطلق الإمبراطور على العاصمة الجديدة اسمه ، فسماها القسطنطينية ، وأحدث بذلك في رءوس المعاصرين هزة عنيفة ، فإن روما كانت رمز الإمبراطورية ، بل إن الرومان كانوا يعتقدون أنه لا بقاء للدولة إذا ذهبت العاصمة عن روما الخالدة .

وإذا كان غرض الإمبراطور من رعاية المسيحية سياسياً في الغالب كما تقدم ، فليس بغريب أن يعمل ابتغاء الهيمنة على شؤونها ، وكان من مظاهر ذلك تدخله في المسألة الجدلية حول طبيعة المسيح وأقنومه ، ودعوته أول مجمع مسيحي مسكوني في نيقية (إسنك الحالية) لحسم النزاع المذهبي ، وإصداره لقرارات ذلك المجمع باسمه ، وتلك هي السياسة الثيوقراطية التي مشى عليها كثير من ملوك القرون الوسطى .

هذا ولقد كان لانتقال العاصمة إلى القسطنطينية أن روما لم تعد المدينة الأولى في الدولة ، وانقطع الأباطرة عن سكناها طبعاً ، فأصبح أسقفها أكبر شخص فيها من ذلك الوقت ؛ ولما كانت المسيحية قد اتخذت كثيراً من أنظمة الإدارة الرومانية ، فقد كون أسقف روما من مقامه في العاصمة القديمة سيادة دينية على جميع العالم المسيحي ، وهذه هي نواة البابوية في القرون الوسطى .

يتضح من ذلك كله أن حوادث قسطنطين الأكبر كانت تؤذن ببدء عصر جديد من عصور التاريخ ، ويزيد الأمر وضوحا أنه جدَّ في العالم الروماني منذ ذلك العهد ظاهرة لم تكن موجودة وجوداً رسمياً من قبل ، ونعني بذلك البابوية وهيئة الكنيسة المسيحية ، فقديماً كانت ديانات ومعابد كثيرة ، غير أنه لم يكن هناك رآسة كنسية جامعة يدين لها أصناف الناس ، بل كانت الهيئة التي انفردت بهذا السلطان الشامل هي الحكومة والإمبراطور (Roma et Augustus) . فلما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية وحدها في أواخر القرن الرابع الميلادي ، صارت الكنيسة وحدها متجه قلوب الناس وإخلاصهم وأنواع نشاطهم . وكما أن قوة الكنيسة المسيحية ووحدتها هي الظاهرة الكبرى في العصور الوسطى ، فإن انفصام تلك الوحدة ، وظهور الخلافات الدينية ، ومطالبة المصلحين بتعديل بعض أركان الحكومة الكنسية ، ونشأة الكنائس القومية ، هي في مجموعها أحد المنذرات التي آذنت بانتهاء القرون الوسطى ، وبدء العصور الحديثة في التاريخ العام .

محمد مصطفى زيادة

المعارض الفنية بالقاهرة

حفلت القاهرة في هذه الأسابيع الأخيرة بمعارض فنية رائعة عرضت فيها آثار شتى من تحف الفنانين البارزين في العالم من مصورين ومثالين .

وكان أولها معرض في صالة تيستري الذي أبرزت فيه لوحات لعدد من الفنانين الأوربيين في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر أمثال جوبان ، وفان جيث ، ودوكيه ، وثانيها معرض للفنانين الفرنسيين بالجزيرة .

وقد زار المعرض الأول حضرة الكاتب الأديب الأستاذ محمد فهمي ، وبعث إلى الثقافة ببحث رائع من تلك الآثار النادرة ضمنه إشارة عميقة إلى الفرق الواضح بين الفن الحديث والفن الكلاسيكي .

قال في الفن الحديث :

« الفنان الآن هو صورة صادقة للحياة في هذا العصر ، عصر السرعة والطيارة والسيارة . فهو يمر بودائع الطبيعة والحياة فلا يجد لديه الوقت الكافي للتأمل والنفوذ إلى أسرار الموضوع الذي يعرض له ، واجتلاء غوامضه ، ليعبر عنه تعبيرا منبعثا من أعماق نفسه ممتزجا بظلال روحه » .

وقال في الفن الكلاسيكي :

« هنا ترى الحياة متمثلة أمامك بأسرارها وروعتها ، وما فيها من جمال وجلال . كل هذا جلاه الفنان بريشته ، وكأنما كشف لك عن عوالم جديدة ، ولكنها ليست غريبة عنك ، فأوقفك وجها لوجه أمام أسرارها الدفينة ، وترجم بريشته عن جمالها الساحر ، فإذا بك أمامها مأخوذ ، وإذا بك كالحالم



(لوحة الليل في الريف)

«فى لوحة الليل فى الريف للفنان «بوث» تحس الظلام الذى يخيم على اللوحة كأنما قد امتد إليك فشملك رواقه، ولمسك بأسراره الرهيبة، وتتبين ثلاثة أشخاص فى جانب اللوحة الأيمن قرب دوحتين، وهم يبدون كالأشباح، وقد انعكست على وجوههم أشعة ضئيلة جداً من بقايا ضوء الشفق الذى يبدو فى أقصى الجانب الأيسر مشتبكا مع الظلام فى معركة قاربت النهاية».



(لوحة الشيخوخة)

«وأما لوحة الشيخوخة للفنان «هاوستون» فإنها تملك الناظر بروعتها وجلالها. فما خطه الفنان على هذا الوجه المجعد، وتلك اللحية الطويلة والوضع الذى يدل على انحناء الشيخ من وقر السنين، لتعرض أمامك تاريخاً بأكمله».

معرض الفنانين الفرنسيين بالجزيرة :

عرضت فى هذا المعرض طائفة من آثار كبار الفنانين المصريين أمثال رودان الكبير، وبورديل، وومبون،

ووجا. وقد تمثلت فيها روعة الفن الفرنسى الذى تخرج فيه مثالنا الكبير مختار، وتأثر به مع احتفاظه بروحه المصرية القوية.



(صورة المفكر)

وقد عرضت فى ذلك المعرض بعض الآيات الخالدة لمختار يظهر فيها الروح المصرى الذى لم يزل يرفرف على تماثيل وادى النيل من عصر الفراعنة. ذلك الروح الوقور المتزن النافذ إلى الحقائق الأبدية فى هدوء واطمئنان.

ومما يسترعى النظر فى تماثيل مختار روحه المصرية الوطنية الصميمة، فهو يمثل الجمال المصرى ويخلع عليه من عاطفته ما يسمو بمصريته إلى آفاق الخلود.



(سورة أمينة الأسرار)



(إلى النهر)



(حارس المزرعة)

وقد عاب بعض النقاد على مختار أن تماثيله تنقصها الحركة العنيفة والتعبير القوي في ملامح الوجه ، ولعل هذا مما يخلع عليه شخصيته الممتازة ، فإن فنه وإن كان مسايراً للفن الفرنسي والفن الأوربي في طريقته ، فإنه في روحه يتأثر خطى الفن المصري الخالص الذي يضمن آثاره ما أراد من المعاني السامية بغير أن يخرج به عن هدوئه ورزانته .

فإن تمثال حارس المزرعة يبرز من المعاني العميقة ما لا يستطيع أي تعبير في الوجه ولا أية حركة عنيفة أن يعبرا عنها . ففيه الهواء الطلق والقوة والخشونة والاعتداد بالنفس والبساطة ، وبالجملة فيه روح الريف المصري في أحسن حالاته وآخذها بالنفس .

مطالعات أشتات — على هامش العلوم:

النحل في مجتمعه

للدكتور أحمد زكي بك

[أبنا في العدد الماضي عن أسرة النحل فوصفنا النحل الشغّال وعمله ، والنحل الذكر وكسله ، والنحلة الملكة وهي أم الخلية ؛ واليوم نعود إلى وصل ما انقطع من الحديث]

إدارة شئون الخلية:

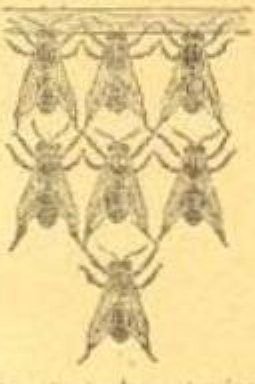
وتتألف شئون الخلية من وظائف موزّعة على سكانها ، وقد ذكرنا أكثرها . وهي إجمالا تنقسم قسمين : وظائف في داخل الخلية ووظائف في خارجها .

وظائف النحل داخل الخلية:

أما الوظائف الداخلية فتتضمن أولا تدفئة الخلية ، وثانياً بناءها من الشمع وهندسة حجراتها ، وثالثا ولادة الخلف ، ورابعاً تهيئة الطعام بين الأطعمة المختلفة للمواليد المختلفة وتوزيعها عليها ، وخامساً وأخيراً تنظيف الخلية .

أما الوظيفة الأولى فيقوم بها النحل الشغال الصغير ، إذ يجلس على الخلايا التي بها البيض والأفراخ فيدفئها . وجلوسه هذا أشبه شيء بجلوس الدجاج على بيضه ، فهو نوع من الحضانة . وهذا النحل الحاضن لا يبرح الخلية إلا إذا اشتد الحر في وسط النهار ، فهو عندئذ ينتهز الفرصة فيخرج عنها ليتعرّف ما حولها . ومن العجيب أنه وهو يطير حولها يتجه برأسه دائما نحوها ، فكأنما يخشى أن يضلّ إذا هو أبعد عنها .

أما الوظيفة الثانية فيؤديها النحل الشغال بما يفرز من شمع ، وهو يفرزه مما يأكل من العسل والطلع ، ويفرزه في ساعة استراحته بعد الطعام ، وهو يفرزه مجتمعا ، فتتشابك النحلة مع نحل من أخواتها تشابكا هندسياً كصفوف الجند ، ثم تعكف على الافراز في سكون عميق لاتكاد تطرف فيه عين أو تنبس شفة ، لو أن للنحل شفاها .



(شكل ١) نحل في بعض أوضاعه التي يتخذها وهو يفرز الشمع لبناء الخلية

أما الوظيفة الثالثة فمن عمل للملكة ، فكل وظيفتها البيض . ولكنها ملكة كيّسة لا تبيض اعتباطا ولا تخط للجوع والهلاك ، فهي تبيض على قدَر وبصيرة ، فهي تزيد في بيضها زيادة كبيرة في سنوات الخيرات ، والأزهار كثيرة والحصاد وفير ، وتزيد في الربيع أكثر من زيادتها في الصيف ، لأن الربيع أكثر أزهاراً . وتزيد في بيضها سعةُ الخلية ، فكلما اتسعت الخلية وكثرت مُهودها ملأت

الملكة هذه الهود . ويزيد فيه كثرة عدد الشغالة ، فهن حاضنات أولادها . وإذا طاب الزمن وكثر الخير ، ولدت الملكة ما بين ألفين وثلاثة آلاف بيضة في اليوم .

أما الوظيفة الرابعة فمن عمل الشغالة الصغار ، فهي التي تحضر الطعام للدود الناشئ ، من العسل والطلع إذ تمزجهما بلعابها مزجا ، ليطيبا طعما ويسهلا هضما . ويذكرني هذا بعض الأمهات من بعض الطبقات ، إذ تمضغ الطعام الصلب كالبندق والموز ، أو «تدغدغه» ، قبل أن تطعمه أولادها .

أما الوظيفة الخامسة فهي تنظيف الخلية من فتات الشمع وهو المتخلف من البناء ، وكذلك مما يتخلف من الدود ومن جثث الموتى من النحل . ويقوم بهذا الشغالة ، وصلته بصحة النحل وسلامة المجتمع النحلي لا تخفى .

وظائف النحل خارج الخلية :

ويقوم بها « شغالة » النحل . ومنها حراسة الخلية عند بابها ، ويقوم عليها النحل الصغير إذ يرقب كل غاد إلى الخلية ورائح عنها ، ولا يأذن للدخول فيها إلا لأعضاء



(شكل ٢) معركة بين النحل وزنبور يريد الدخول إلى الخلية

الأسرة . وأكبر الظن أنه يعرفها بالشم . فإذا اكتشف نحلة غريبة طاردها شر طراد . إلا أن تكون حاملة عسل ، فهذه يجبرها على تسليم حملها من العسل ثم يطردها جزاء وفاقا على عدوانها ، والبادي أظلم . وقد تأتي الزنابير ترود الخلية طمعا في خيرها ، فلا يكاد النحل الحارس يتبين الزنبور حتى يصرخ صرخة الحرب ويتألب عليه بقضه وقضيضه ، وتدور معركة من أحمى المعارك يسقط فيها من النحل ما يسقط ، وهي حرب كالحروب ، فيها الغالب والمغلوب .

ومن وظائف النحل عند باب الخلية القيام بتهويتها . فيقوم على بابها صفا ثم يحرك أجنحته جماعة بسرعة هائلة حتى لا تظهر فيها للجناح صورة واضحة من سرعة تتابع أوضاعه فكأنه مروحة الكهرباء . وهو يفعل ذلك في اليوم الصائف الشديد الحر . ويفعله في مساء يوم الحصاد الطيب والعسل الكثير ، لأن هذا العسل يكون عند جمعه رهيفا خفيفا لكثرة مائه ، فلا بد من تبخير بعض هذا الماء ، والتهوية تفعل ذلك فتثخنه وتركزه .

ومن وظائف النحل خارج الخلية جمع الرحيق والطلع من الزهور ، ويقوم بجمع الرحيق نحل يقوم بجمع الطلع غيره . هذا إذا كثر الزهر وعم الخير ورطب الجو . وعندئذ ترى النحلة تحط على الزهرة فتتريث عندها وتطيل مكثها عليها . ثم إذا هي شالت شالت ثقيلة ، وإذا هي حطت على عتبة الخلية حطت ثقيلة ، ثم تدخل الخلية وئيدة . أما إذا قل الزهر ونضب الخير وجف الهواء فترى النحلة الواحدة تجمع من الزهرة رحيقها وطلعها في آن ، وتطير خفيفة سريعة من زهرة إلى زهرة ، فإذا حطت على باب الخلية حطت خفيفة ثم لا تلبث أن تدخلها .

والنحل يجمع للخلية الماء من مجاريه ومساكنه .

وكذلك يجمع من الشجر نوعاً من الصمغ يزيد به قوام الشمع فى الخلية صلابة .

النحل والزهر شريكان متعاونان على الحياة :

ولا يحسبن حاسب أن النحل عندما يزور الزهر إنما يعيث فيه بالفساد ، فيسلبه رحيقه وطلعه ثم يتركه ينتحب حظ الضعيف السليب من تلف وبوار . فالحق أن الزهرة تصنع من حبوب الطلع أكثر كثيراً مما تحتاجه للتلقيح . ولابد لتلقيحها من حمل هذا الطلع — وهى الجرثومة الذكر — إلى مبايضها لتتولد الثمرة منهما . والذى يحمل الطلع الريح ، فإن لم تكن فسائر الحشر كالنحل والفراش من زوار الأزهار هو الذى يضطلع بهذا ، فان لم تكن ريح ولا حشر لم تتلقح الزهرة فينضمر مبيضها وتموت دون إثمار .

فالنحل إذ يزور الزهر لمص الرحيق يدفع ثمن ذلك بالخدمة التى يؤديها ، فهو إذ يغوص بخرطومه ورأسه فى أجزاء الزهرة يمس أعضاء التذكير والتأنيث معاً فيخلط ما حمل من هذا بذاك وهو لا يدرى ، ولكن الطبيعة من ورائه تدرى ، ومشيئة الله تريد . كذلك أرادت مشيئة الله أن النحلة الواحدة تختص بزيارة النوع الواحد من الزهر حتى تحمل إلى الزهرات من طلعها لا من طلع غيرها . والزهرة بدورها تنبت الورق الأصفر والأزرق والأحمر ، وهى لا تدرى ما اللون ولا كيف يقع فى العين . والزهرة بدورها تصنع الطيب ، وتنشر العطور ، يتأرج بها جوها ، وهى لا تدرى للعطر معنى ، ولا تعرف كيف يقع فى الأنوف . ولكن الطبيعة من ورائها ، ومشيئة الله من وراء ذلك ، أرادت أن يكون فى الأزهار لون وطيب يجذبان الحشر والنحل لتتم بهما الحياة وليبلغ كلاهما بالكون مداه .

النحل وألوان الأزهار :

إن الصلة ما بين النحل وألوان الزهر صلة قال بها العلماء منذ قرن ونصف قرن ، بل قال بها بعضهم وخالفهم البعض ، ومن هذا البعض الآخر من ذهب إلى أن الحشر جميعه — ومنه النحل — يعمى عن الألوان فهو لا يدركها أبداً ، وإن الصلة بين ألوان الزهر وزورة زواره من نحل وفراش صلة من نسج الخيال ولونة من الشعر أصابت العلماء فافتتنوا أفانين الشعراء . فلم يكن من رد على هذا إلا التجريب .

وقد قام عالم انجليزى اسمه جون لببك John Lubbock منذ ربع قرن بتجرب لترجيح أحد الرأيين . فوضع على مقربة من عش نحل شيئاً من العسل على ورقة زرقاء على منضدة . فجذبت رائحة العسل النحلات واحدة بعد أخرى ، فاستمر على إطعامها على الورقة الزرقاء بكل غذاء شهى ، وهى تذهب إلى عشها لتسلم إلى سكان العش ما جمعت وتعود فى طلب غيره . فلما استقرت على هذا واطمأنت ، رفع صاحبنا الورقة الزرقاء واستبدل بها ورقة أخرى زرقاء نظيفة وورقة حمراء ، وضعهما على المنضدة فى غير مكان الورقة الأولى . وعادت النحلات فاذا بها تحط على الورقة الزرقاء مباشرة وتغفل الورقة الحمراء إغفالا . فاستنتج من ذلك أن النحل يستطيع التفرقة بين الألوان ، أو إن شئت الدقة فبين الأحمر والأزرق .

ولكن بأى أسلوب فرق بينهما ؟ أبأسلوب الرجل العادى منا ، أم بأسلوب طائفة قليلة من الناس ترى الأشياء ولكنها تعمى عن ألوانها ، فإن فرقت بينها فبفروق فى ظلالها ؟ إن الرجل الذى يعمى عن اللون يرى الأشياء كما نراها فى الصور الفوتوغرافية : بيضاء وسوداء ثم ظلالا رمداء بين البياض والسواد . فاذا أنت جئته باللونين الأحمر

والأزرق معاً تبين الأحمر لاسوداده ، وتبين الأزرق لابيضاضه ، وعدا هذا فهو لا يحس من حقيقة اللونين شيئاً . فهل هكذا فعل النحل في التجربة الماضية فعرف الورقة الزرقاء لخفة ظلها ؟

بهذا تساءل العالم الألماني فُن فريش von Frisch ، وقام منذ قريب بتجربة لا تدع للشك مجالا :

جاء بمنضدة ونضد عليها أقراصاً عديدة من الورق متساوية الحجم مختلفة الألوان ، ولكن ألوانها جميعاً رمادية ، تتدرج من السواد الفاحم إلى البياض الفاتح ، ووضع بينها قرص ورق أزرق . ووضع عليها جميعاً أوعية زجاج صغيرة مفرطحة . وملأ الزجاجة التي على الورقة الزرقاء وحدها بماء السكر . ثم أطلق سبيل النحل إليها جميعاً . فلما اعتادت أن تجد السكر على الزرقة غيّر مواضع الورقات وما عليها ، فوقعت دائما على السكر على الورقة الزرقاء . ثم رفع كل هذا وأتى بورق جديد من نفس الألوان لم يلوثه النحل ، وزجاجات جديدة من نفس الأنواع والأحجام ، وجاء بالورقة الزرقاء فوضعها حيثما اتفق بين الأوراق وعليها زجاجتها ولكنها خالية من السكر . ثم أطلق النحل فإذا به يقع على اللون الأزرق . إذاً فالنحل يتبين الأزرق بلونه لا بشدة ظله

وبمثل ذلك أثبت صاحبنا أن النحل يتبين غيره من الألوان ، إلا الأحمر فإنه يعمى عنه فلا يفرق بينه وبين السواد ، وهكذا تعمى عين الكمرة عند التصوير فتريكهما سواداً ، وهذه نتيجة جميلة بديعة ، فالنحل في الطبيعة لا يزور النباتات حمر الزهرات . كذلك أثبتت التجارب أن النحل يخلط بين الأزرق والأرجواني والبنفسجي . كذلك هو يخلط بين الأصفر والبرتقالي والأخضر . فهو لم يبلغ في التفرقة بين الألوان مبلغ الإنسان

النحل وعطر الأزهار :

وقد أوحى هذا القصور في تبين الفروق الدقيقة بين الألوان إلى الأستاذ الألماني أن يجري تجارب أخرى على غرار تلك ، يرجو أن يثبت بها أن النحل لا يقتصر على اللون في تعرف الزهر بل يستعين بالشم على ذلك . فوضع على المنضدة صناديق سواسية متقوبة الأعلى ، ووضع في أحدها السكر وقطرات من طيب ، ثم أطلق النحل عليها فعرف السكر بطيبه . ثم غيّر مواضع الصناديق حتى لا يألف النحل المكان ، فعرف السكر بطيبه مرة أخرى . ثم رفع كل الصناديق وأبدلها بأخرى جديدة لم يلوثها النحل ، وأخلى الصندوق ذا الطيب من سكره ، فلما جاء النحل أخذ يتشمم عند ثقوب الصناديق ثم دخل في الصندوق الذي به الطيب وأشاح عما عداه .

فالنحل يستتم بشمه ما قصر عنه بصره ، وهذا معنى ذو مغزى كبير إذا نحن ذكرنا أن النحلة لا تحط على كل أنواع الزهر ولو كان به الرحيق ، ولكنها تحط على نوع من الزهر بعينه تتخصص فيه ، وقد ذكرنا حكمة الطبيعة في ذلك . فإن كان اللون مما تخطىء المخلوقات في ارتياده لا سيما عند تشابه الألوان ، وإن كانت الرائحة مما تخطىء المخلوقات في ارتيادها والشم قاصر ، فإن احتمال الخطأ في تعرف الزهر أبعد ما يكون إذا كان الدليل عليه حسّين : الشم والإبصار .

ولن يُفهم مما قلت أن شم النحل قاصر . فقد أجريت تجارب كالسابقة ودُرّب النحل فيها على معرفة طعامه برائحة خاصة ، فكان يقع على هذه الرائحة في صندوقها بين روائح عديدة أخرى تبلغ الثلاثين والأربعين . وأجريت تجارب أخرى خُفّف فيها الطيب تخفيفاً كبيراً حتى لم يستطع النحل أن يستهدي بها ، فعرف منها أن قوة الشم عند النحل تقارب قوته عند الإنسان . والإنسان

لا يستطيع الشم من بعيد . فالنحل لا يستطيع أن يتشمم زهره من بعيد ، فهو إذاً يتعرفه بلونه أولا تعرفاً تقريبياً ، حتى إذا اقترب زاده شمه تحققاً .

مذاق النحل :

كذلك للنحل مذاق . فهو يشرب الشراب إذا بلغ سكره ٢٠ ٪ من محلوله . ويشرب منه إذا بلغ عشرة في المائة . حتى إذا بلغ ٥ ٪ شرب منه البعض وعافه البعض تبعاً للاختلاف في ذوق الفرد . فإن نقص عن هذا عافه الجميع . ويبلغ مقدار السكر في رحيق الزهر في المتوسط نحواً من ٤٠ ٪ .

وليس كل ما يحلو على لسان الانسان يحلو في مذاق النحل ، فالسكارين saccharin أحلى من السكر بنحو ٥٠٠ مرة ، ومع هذا لا يجد النحل فيه حلاوة أصلا ! والنحل في هذا أكثر إصابة وأكبر توفيقاً . فالسكارين سكر مكذوب لا ينتمي من حيث تركيبه الكيميائي إلى السكر ولا إلى أي نوع من أنواعه ، وهو من قطران الفحم لا سكر القصب ، وهو ليس بغذاء للجسم ، وإنما يتعاطاه المرضى بداء السكر في الشاي والقهوة وكل ما جرت العادة بتحليته تعلة عن السكر ، واسترضاء لشهوة لسان شق عليه الحرمان[1]

لغة النحل :

إن مجتمعاً كثير الأفراد كثرة النحل في خليته ، متعدد الوظائف مختلفها تعدد وظائف النحل داخل الخلية وخارجها ، يعمل لخير الكل ويدفع السوء النازل على بيت الجميع ببذل الحياة ، ويدين لأمر ملكة واحدة ، مجتمع لا يمكن أن ينتظم العمل فيه هذا الانتظام بدون تفاهم بين أفراده . فما وسيلة هذا التفاهم بين النحل ؟ لا بد أن تكون لغة من اللغات . وقد تكون لغة أصوات . وقد تكون لغة حركات . ولكن حديث هذا يطول فإلى فرصة أخرى .

أحمد زكي

---

(١) السكارين مادة كيميائية تصنع من التلوين toluene وهو سائل أخو البنزين ، وكلاهما يستخرج من قطران الفحم الحجري بالتقطير . وطريقة صناعته أن يعالج التلوين بحامض الكبريتيك ليدخل الكبريت بصورة ما في تركيبه . ثم يؤكسد بطريقة لفائة ليدخل الأكسجين في تركيبه ، ثم يعالج بالنشادر ليدخل الأزوت في تركيبه . فعناصره على ذلك هي الكربون والايدروجين والأكسجين والكبريت والأزوت . وهو من خلق الصناعة لا الطبيعة . اكتشفه مكتشفه في المعمل في الولايات المتحدة عام ١٨٧٩ . ولم ينتبه إلى حلاوته الزائدة في بادئ الأمر . خرج من عادة ذات مساء من معمله بعد غسل يديه ، فلما جلس على المائدة في منزله وجد في الخبز حلاوة لا يفهمها . وفحص وجد أن الخبز خلو منه إذاً . = يرجع إلى المعمل يفحص آنيته وكاساته وأوعيته حتى اهتدى إلى المادة ذات الحلاوة البالغة . فأسماها السكارين تشبيهاً لها بالسكر في الحلاوة وهو تشبيه كتشبيه الرجل بالأسد والجادة بالقمر . ومن تلك الساعة شاع اسمها وذاع واحتلت في تجارة العقاقير محلا مختاراً .

على ذكر وفاة مكدوجل

للدكتور عبد العزيز القوصى

فجع العالم فى أواخر شهر نوفمبر الماضى ، بوفاة عالم كبير فى علم النفس ، وهو الأستاذ وليم مكدوجل (١٨٧١ — ١٩٣٨) بعد أن ترك أثراً واضحاً فى الدراسات النفسية ، وأحدث فيها انقلاباً كبيراً ، وأخرج للناس فيها كتباً كثيرة ، وصل عددها إلى العشرين . وظهر آخرها عقب وفاته بأيام ، واسمه لغز الحياة (Riddle of Life) ، وأصدر من تسعة أشهر مجلة خاصة بالبحث فى المسائل الروحانية ، تبحث فى انتقال الفكر (Telepathy) ، والرؤيا (clairvoyance) ، وما شابه . وقد كان الباعث الأول له على الاهتمام بالمسائل الروحانية ، أنها ميدان واسع مجهول ولم يشأ أن يتخلى عنه كما فعل بقية علماء النفس ، بل شرع فى تحقيق المزاعم الشائعة حوله ، والبحث عن تفسير علمى لما تثبت صحته منها .

وأهم النظريات التى وضعها ، وأبعدها أثراً فى علم النفس الحديث ، هى النظرية الغائية أو الغرضية (Hormic or Purposive Theory) . ففى آخر القرن المنصرم وأوائل القرن الحالى ، ظهرت نزعة مادية أو ميكانيكية ، فسر بها البعض سلوك الإنسان والحيوان ، على أنه نتيجة لتفاعلات كيمياوية تجرى داخل الكائن الحى ، وتختلف فى درجة بساطتها وتعقدها من كائن حى إلى آخر . وفسر البعض الآخر سلوك الكائن الحى ، بأنه مجموعة ردود أفعال لمجموعة مؤثرات داخلية أو خارجية . فإذا كان المؤثر مثلا ضوءاً شديداً يقع على العين ، فإن رد الفعل يكون ضيق الحدقة . وإذا كان المؤثر شكة إبرة ، فإن رد الفعل يكون انسحاب العضو الذى تقع عليه الشكة . وإذا كان المؤثر رؤية الطعام والمعدة خاوية كان رد الفعل جميع الحركات التى تحدث عند



وليم مكدوجل

تناول الطعام . وهذه الردود تسمى أفعالا منعكسة ، وبعضها فطرى وبعضها مكتسب .

والأفعال المنعكسة يمكن أن تحدث دون تدخل للشعور فيها كانسحاب يد النائم إذا شككناها بإبرة . ولهذا رأى الفريق الأخير من الماديين أنه يجب الاستغناء فى تفسيراتنا للسلوك عما يسمى « الشعور » أو « العقل » أو « النفس » تلك الأمور الفرضية الغامضة التى لا سبيل إلى ملاحظتها أو إجراء التجارب عليها . فالسلوك فى نظر الماديين سلوك بلا عقل ، ويمكن تفسيره على أسس كيمياوية أو ميكانيكية .

كان مكدوجل فى ذلك الوقت ، الذى ظهرت فيه النزعة المادية لتفسير السلوك ، قد بدأ يصوغ نظريته التى

أشرنا إليها ، وهى النظرية الثانية . ورأى أنه لا يمكن أن يكون سلوك الإنسان شبيهاً بسلوك جهاز كهربائى مثلا ، فالإنسان كائن حى ، والجهاز الكهربائى غير حى . والفرق الأساسى بينهما ، هو فى أن الكائن الحى له نشاط تلقائى يرمى به إلى تحقيق غرض معين . فالجهاز الكهربائى لا يمكن أن يتحرك من تلقاء نفسه ، وإذا تحرك فلا يكون ذلك لغرض خاص فيه . وأما الإنسان أو الكلب أو القط فانه يتحرك من تلقاء نفسه ، ولغرض يرمى لتحقيقه ، كالنزهة أو اللعب أو تناول الطعام أو غير ذلك . فالكائن الحى بما فى ذلك الإنسان ، ليس إذاً مجموعة ردود أفعال آلية لمجموعة مؤثرات . وإنما هو مجموعة من القوى والدوافع الداخلية التى ترمى إلى تحقيق غرض أو أغراض معينة .

والدافع الأساسى للكائنات الحية البسيطة ، هو المحافظة على الحياة . وهذا الدافع يتميز ويتشعب إلى دوافع أخرى أكثر تخصصاً كلما ارتقى الكائن الحى . ففى الحشرات نلاحظ دافعاً للبحث عن الطعام ، وآخر للتزاوج والتناسل ، وثالثاً للمقاتلة ، ورابعاً للمحافظة على البيض . وأما فى الحيوانات الثديية ، وهى أرقى من الحشرات ، فانا نلاحظ دوافع أكثر . ففى الكلاب مثلا نلاحظ دافعاً للسيطرة ، ودافعاً للخنوع ، ودافعاً للمقاتلة ، ودافعاً للبحث عن الطعام ودافعاً للتناسل ، وغير ذلك .

هذه كلها دوافع فطرية ، ويسميها مكدوجل غرائز ، وهو يعرف الغريزة بأنها استعداد طبيعى ، للقيام بأفعال معينة ، فى ظروف خاصة . فنجد أن عند الحيوان والانسان على حد سواء ، استعداداً طبيعياً للبحث عن الطعام فى حالة الاحساس بالجوع . وكذلك استعداداً طبيعياً للخلاص فى حالة الاحساس بالخطر . والغرائز هى فى الواقع ، الدوافع الأساسية ، والقوى الفعالة ، فى سلوك الانسان والحيوان . وهى التى تحركه ، وتمده بالطاقة للعمل . وقد يؤدى الدافع الواحد ، إلى أنواع مختلفة من مظاهر السلوك . فالغضب مثلا يؤدى بالانسان إلى أن يهجو ، أو ينقد ، أو يشيع إشاعات السوء ، أو يضرب أو يدبر القتل ، أو غير ذلك . وكذلك حب الاستطلاع ، يؤدى بالشخص إلى أن يبحث فى جيب آخر ، أو فى كتاب علمى ، أو إلى القيام بتجربة أو رحلة أو جاسوسية أو غير ذلك .

ومن السهل أن نرى أن التشابه عظيم بين الانسان والحيوان . فغرائز الانسان كلها موجودة فى الحيوان . فالمرء إذا جلس فى حضرة شخص عظيم ، استشعر الخنوع ، وبدا على عضلاته بعض الترهل ، ولم يجرؤ على رفع صوته ، أو الاحتداد ، أو تقطيب الوجه . كذلك الكلب الصغير فى حضرة الكلب الكبير ، تبدو عليه الذلة والخشوع ، وتهدل العضلات ، وانخفاض الذيل ، واختفاؤه بين الأرجل الخلفية . وأما الكلب الكبير فيبدو عليه فى مثل هذا الموقف التيه والتعاظم ، كما يختال الانسان ويتيه فى حضرة من هم دونه . وكما أن الأم تهيء لطفلها المكان والملابس وكل اللوازم قبل الوضع ، وتعنى به بعد الولادة ، وتحميه من كل خطر تتوقعه ، فكذلك الحمامة تنكب على بيضها ، وتبدى عنايتها الشديدة به ، وتعد عشها وتهيئه بالقش ، وتبطنه بالطين ، فى مكان آمن بعيد ، ثم تحنو على صغارها ، وتدفع عنهم الأذى .

وإذا حللنا سلوك الانسان ، فانا نصل فى النهاية إلى غريزة أو إلى مجموعة غرائز . فالمدرس الذى يضرب تلميذاً ضرباً عنيفاً ، لأنه لم يؤد واجبه المنزلى يحس إحساساً غامضاً بأن عدم أداء التلميذ للواجب مظهر من مظاهر العصيان ، وهذا يصطدم مع غريزة السيطرة عند المدرس . وربما يكون عنده إحساس غامض آخر ، بأن عدم أداء الواجب المنزلى ، يؤدى إلى تأخره الدراسى ، وهذا بدوره يؤدى إلى سوء نتيجة الامتحان فى الفصل ، أو سوء تقارير المفتشين عن المدرس ، مما يؤثر فى كسب المدرس لعيشه ، فيصطدم بغريزة البحث عن الطعام . ولنأخذ مثالا آخر من حياة نيوتن — العالم الرياضى — فقد سمعنا أنه كان متأخراً جداً فى سنى دراسته الأولى . وفى ذات يوم تشاجر مع تلميذ آخر

وهُزم هزيمة شديدة، فصمم نيوتن على التغلب على خصمه في الدراسة. وبالفعل شد عزيمته وركز اهتمامه في الدراسة وكان له ما أراد، ومن ثم تدرج نيوتن من نجاح إلى آخر، حتى وصل إلى ما نعرفه عنه من وضع أسس العلوم الرياضية والفلكية الحديثة. فكأن الدافع الأول لنيوتن على العمل والبحث كان مزيجاً من دافعي السيطرة والمقاتلة.

ولا تبقى الدوافع للسلوك عادة بصورها الفطرية، وإنما تنتظم وتتعدل ويتكون منها ما يسمى بالعادات والعواطف. فالذي يدفع المرء لسلوك خاص مع والده هو عاطفة تكونت مركزها الوالد. والذي يدفع المرء لمحاربة الرذيلة هي عاطفة كراهية الرذيلة. وهناك عاطفة حب المرء لبلده ووطنه ومدرسته وكتبه وأصدقائه، وكراهية المرء للظلم والمحسوبية والدس وغير ذلك. والعاطفة هي الاستعداد الذي يكتسبه الانسان أثناء حياته، ويدفعه للقيام بأعمال مختلفة في مناسبات مختلفة. فعاطفة حب الوالدين هي التي تدفع المرء للمقاتلة في حالة اعتداء أحد عليهما، وهي التي تدفعه للزهو في حالة تفوقهما وللاستنجاد في حالة مرضهما، وللاستكانة في حالة انهزامهما وهكذا. وقد بين مكدوجل أن هذه العواطف هي التي تتجمع ويتكون منها الخلق.

أثبت مكدوجل كذلك أن الغريزة عند الحيوان جامدة وأن الذكاء قليل، وأما عند الانسان فالغريزة مرنة والذكاء كثير. وهذا الذكاء هو الذي يساعد على الاستفادة من الخبرة السابقة، وعلى توجيه الفعل الغريزي في اتجاهاته المختلفة، فالفراخ تخرج من بيضها قادرة على الاستقلال في البحث عن طعامها، فغريزتها جامدة، وذكاؤها قليل، لأنها لا تحتاج لهذا الذكاء. وأما الحيوان الراقي كالقرد أو الانسان فإنه يولد محتاجاً للتعلم والارشاد، فغريزته مرنة، وذكاؤه كثير يساعد الغريزة على التوجيه في الجهة النافعة. وقد بين مكدوجل أن الغريزة هي الدافع الأصلي، وما عدا ذلك من قوى عقلية فإنها مرشدة وموجهة لها.

وقد نجح مكدوجل في أن يفسر بغرائزه كافة أنواع السلوك من بسيط إلى معقد، ومن سافل منحط إلى خلق سام، ومن عادي إلى شاذ، ومن سلوك الصغير إلى سلوك الكبير، ومن سلوك الانسان البدائي إلى سلوك الانسان المتمدن، ومن سلوك الحيوان إلى سلوك الانسان، ومن سلوك الأفراد إلى سلوك الجماعات. وقد كان لهذه النظرية آثار علمية وعملية بعيدة المدى، فقد أثرت في نظريات التربية واتجاهاتها، وفي نظريات الأخلاق والاجتماع. ونظراً لضيق المقام لا نستطيع أن نتعرض تفصيلا ولا إيجازاً لهذه الآثار، ولا لتجاربه وبحوثه ونظرياته في ميادين العلم المختلفة.

ومما يؤسف له أن الدنيا لم تبسم لهذا الرجل العظيم إلا في الربع الأخير من حياته، فقد ظل بائساً في أغلب حياته العلمية، فكانت كتبه تقابل بفتور مؤلم، وكانت حياته في اكسفورد لما كان محاضراً لعلم النفس في جامعتها، حياة منغصة، إذ اعتبره الفلاسفة خارجاً عليهم لأنه يحاول أن يدرس العقل دراسة تجريبية، وكان هذا في نظرهم أمراً مستحيلا كما اعتبره أساتذة العلوم العلمية (Sciences) دخيلا عليهم، على الرغم من أنه اتبع الطرق العلمية من ملاحظة وتجربة، وبذلك نبذه الفريقان. وظل مكدوجل متألماً من مركزه الشاذ ومن احتقار الجامعة لعلم النفس الذي يقوم بتدريسه، فلم تجعله مادة من مواد المنهج، ولا من مواد الامتحان، ولم تدخله في عداد العلوم العلمية ولا العلوم الفلسفية.

ولكن الناس أخذوا بالتدريج يقرأون كتبه ويقدرون بحوثه ونظرياته، حتى عرف ثم ذاع صيته، وانتخب زميلا في كمبردج، وزميلا في الجمعية الملكية (F. R. S.)، وبعد ذلك دعي إلى أمريكا فشغل كراسي أستاذية علم النفس في أعظم جامعاتها. وبسمت له الدنيا في الشطر الأخير من حياته، حتى رأى كتبه تحدث في الناس هزة، وفي نفسه نشوة، ولا يلبث الكتاب منها أن يظهر حتى ينفد ويعاد طبعه، حتى إن كتابه «في علم النفس الاجتماعي» أعيد طبعه خمساً وعشرين مرة. وكان في هذا بعض العزاء له عن أليم الشقة الأولى.

عبد العزيز القوصي

مع أدبائنا المعاصرين

سندباد عصرى

بقلم الدكتور حسين فوزى

للدكتور طه حسين بك

تفضل الدكتور حسين فوزى على بإهداء هذا الكتاب إلى فى آخر العام الجامعى حين يتأهب الأساتذة للامتحان كما يتأهب له الطلاب أو أكثر مما يتأهب له الطلاب، وحين تكثر المجالس واللجان وتزدحم فى الجامعة ووزارة المعارف لتقضى فى كثير من الأمور قضاء لا يغنى ولا يجدى، ولكنه محتوم على الذين يقضونه مهما تكن الظروف. وحين أتهيأ للسفر إلى أوربا إذا قضى الله لى السفر إلى أوربا.

فتلقيت الكتاب شاكراً وطلبت إلى صاحبى أن يقرأ لى منه فصلا أو فصلين أو فصولا لا أدرى. ولكن الكتاب استقر فى نفسى على كل حال، واستقر فى نفسى أنه من الكتب التى يجب أن تقرأ من أولها إلى آخرها، وأن تقرأ فى عناية وأناة وفى روية وتفكير. وأن تقرأ لأنها تحقق اللذة والمتعة جميعاً. فهى تعلم قارئها ما لم يكن يعلم فتنميه بذلك وتقويه وتضيف إلى شخصيته ما لم يكن فيها، وهى فى الوقت نفسه تسره وترضيه أو تسوؤه وتسخطه، فتحدث فى نفسه هذه اللذة الفنية التى ليست كلها سروراً ورضى، ولكنها مزاج من السرور والرضى ومن السخط والضيق.

فطلبت من صاحبى أن يحفظ هذا الكتاب بين الكتب التى أريد أن أقرأها إذا أتيح لى الوقت وأذنت لى بذلك الظروف. ولست أدرى لم لم أصطحبه فى سفرى ولكنى لم أفعل على كل حال، فصرفت عن الكتاب أشهر الصيف، ولم أعد إليه إلا فى أول هذا الشتاء.

ولم أكن أعرف من أمر صاحبه شيئاً إلا أنه مثقف عميق الثقافة فى العلم والأدب جميعاً، ينفق حياته فى البحث الخالص وفى الإدارة العلمية إن صح هذا التعبير. ولكنه لا يبيح للعلم الخالص أن يستغرق حياته كلها ويأخذها من جميع أقطارها. وإنما يبيح لنفسه الاستمتاع باللذة الأدبية والفنية العليا، قارئاً للشعر والنثر، مصطنعاً للموسيقى متأملا فى الصور والتماثيل وألوان العمارة. ذائقاً هذا كله، مقدراً له متحدثاً فيه. وكنت أحب منه بهذه الخصلة وأود لو استطعنا أن نحصى بين علمائنا جماعة تذهب مذهبه وتسير سيرته.

ثم عرفت آخر الأمر أنه تخرج فى مدرسة الطب واختص فى الرمد، وذهب إلى فرنسا بعد ذلك فأطال فيها الإقامة متخصصاً فى الأحياء المائية، ثم عاد إلى مصر فعمل فيما يعمل فيه الآن.

فهو إذاً طبيب وهو من علماء الحياة، وهو بعد هذا كله رحالة يضرب فى أقطار البحر والمحيط شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً. ويكتب لرحلاته هذه قصصاً رسمية قوامها الدقة والتحفظ والاحتياط وإيثار الجد وحده، وإحصاء الألفاظ والمعانى على نفسه. ولكنه دفع ذات يوم إلى رحلة طويلة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى على سفينة صغيرة جداً ضئيلة جداً خطيرة جداً. قد جمعت أربعين

من الانجليز والمصريين ، منهم العلماء الباحثون ومنهم المدبرون لأمر السفينة بعقولهم والعاملون فيها بأيديهم . وهم على ما كان بينهم من اختلاف الجنس والطبقة والمرتبة العقلية واللغة والدين والتقاليد ، قد عاشوا عيشة مشتركة وخضعوا لطائفة من الظروف القاسية أو اللينة ، فرضت عليهم لوناً بعينه من الحياة ولاءمت بين حاجاتهم واحساسهم وشعورهم في غير موقف وفي غير وقت . وقد ألموا بكثير من المدن والجزر في أفريقيا والهند ، فاتصلوا بالناس وانفصلوا عنهم . وقد رأوا في البر والبحر أعاجيب مختلفة أثارت في نفوسهم ألواناً من الخواطر ، وفنوناً من العواطف ، وضروباً من الأهواء ، ودفعتهم إلى قليل من العمل وإلى كثير من القول . وقد وفقوا إلى ما كانوا يريدون إليه من رحلتهم ، وظفروا بما كانوا يبتغون من سفرهم الشاق الطويل ، وعادوا موفورين إلى وطنهم المصرى أو الإنجليزى . وقدم الدكتور حسين فوزى قصته الرسمية لهذه الرحلة التى نسميها تقريراً . ولكنه لم يكتف بهذه القصة ، ولم يكن يستطيع أن يكتفى بها ، فقد ثارت فى قلبه عواطف ، واضطربت فى نفسه آراء ، وعرضت لعقله خواطر ، ولم يستطع أن يكظم من هذا كله شيئاً ، فاضطر إلى تسجيله . ولم يستطع أن يسجل هذا لنفسه ، فاضطر إلى إذاعته ، وأنبأنا بأنه سعيد مغتبط ، إن قبل أصدقاؤه كتابه هذا على علاته ، ورضوا عنه ، وشاركوا صاحبه فيما وجد من حس ، وما آنس من شعور ، وذهبوا معه إلى حيث ذهب ، وأقاموا معه حيث أقام . وصدقوه فى أنه لا يتكلف أدباً ولا فناً ، ولا يتصنع إجادة ولا جمالا ، وإنما يرسل نفسه على سجيتها حين يفكر ، ويجرى قلمه على على سجيته حين يكتب .

وأنا أريد أن أصدقه فيما يقول من هذا كله على شيء من التردد فى هذا التصديق ، سأظهر مصدره بعد حين . ولابد من أن أبدأ بتسجيل إعجابى بهذا الكتاب إلى أبعد حد ممكن من الاعجاب ، ورضاى عنه إلى أقصى غاية ممكنة من الرضى ، لولا أن هناك أموراً تكاد تردنى عن هذا الاعجاب رداً عنيفاً ، وتصدنى عن هذا الرضى صداً قاسياً . فموضوع الكتاب خليق أن يلذ ويمتع ، وهو يلذ ويمتع بالفعل . وما رأيك فى كتاب يصف صاحبه فيه رحلة بحرية طويلة قصد بها أصحابها إلى العلم الخالص ، ولكن صاحب الكتاب لم يصور لنا من هذا العلم الخالص شيئاً ، وإنما أشرف بنا عليه ، وجعلنا نحس بحث العلماء ، وتقديرهم وتفكيرهم واستنباطهم ، ونشعر بأن هذا كله يجرى وراء ستار ، فنعجب بهؤلاء العلماء دون أن نشاركهم فى قليل أو كثير من التعب الذى يجدونه ، والجهد الذى يبذلونه ، والثمر الذى يجتنونه . ولكنا نرى على هذا الستار مناظر رائعة رائقة ، أو مروعة مفزعة ، ونسمع فى المكان الذى نحن فيه أحاديث فيها العبث الذى يضحك ، ولكنه يضحك فى إفادة وإمتاع . وفيها الصور التى تخلب بروعتها أو بترويعها ، وفيها الجد الذى يدعو إلى الروية والتفكير ، وفيها الشعور الذى يؤثر فى النفس ويشيع فيها عن رضى أو عن كره ما يثور فى نفس الكاتب من عاطفة ، وما يضطرب فيها من هوى أو ميل

الكتاب من غير شك مثير للذة والامتاع ، مملوء بالمنافع المختلفة التى تغذى العقل ، وتكاد تثقل الذاكرة ، وهو من هذه الجهة كنز قيم جداً . ثم هو قيم من جهة أخرى لأنه يثير التفكير فى بعض الأمور الخطيرة ، وأول هذه الأمور حرية الكاتب ، فهو قد أخذ لنفسه من الحرية قدراً غير مألوف عند الذين يكتبون باللغة العربية فى هذا العصر الحديث .

أطلق لنفسه حرية التفكير إلى أبعد حد مستطاع ، فلم يرع لشيء حرمة ، ولم يرج لشيء وقاراً . وأطلق لنفسه حرية التعبير إلى أبعد حد مستطاع أيضاً ، فلم يتحرج ، ولم يتحفظ ، ولم يصطنع هذا النفاق الذى يفرضه

الكتّاب على أنفسهم ، لأن العرف يفرضه عليهم ، ولأنهم يؤثرون العافية ، ويريدون أن يعيشوا فى هدوء وأمن ودعة ، وأن يتجنبوا سخط الساخطين ، ولوم اللائمين . بل أطلق لنفسه حرية أخرى ، مهما أكن من أنصار الحرية ومؤيديها ، ومن الدعاة إليها ، والذائدين عنها ، والمستعدين للتضحية فى سبيلها ، فأنا لها مبغض ، وعليها ساخط ، وبها شديد الضيق . وهى حرية مسخ اللغة العربية وإفسادها ، والعبث بأصولها وأشكالها فى غير تحفظ ولا احتياط .

هذه الحرية المطلقة التى أخذها الكاتب لنفسه أخذاً ، تدعو إلى كثير جدا من التفكير ، والناس جميعاً يعلمون أنى أدعو إلى حرية الأدب ، وأريد أن يكون الأديب فوق ما يفرضه العرف على الناس من القيود ، ولكنى مع ذلك أسأل نفسى : إلى أى حد يجب أن يستمتع الأديب بهذه الحرية ؟ أو بعبارة أخرى : ما نوع هذه الحرية التى يجب أن يستمتع بها الأديب ؟ أمن حق الأديب أن يتعمد إفساد اللغة ، ويعبث بأصولها وأشكالها ، ويضع الألفاظ المبتذلة التى تنبو عن الذوق ، وتتجافى عن الطبع المثقف المصقول ، فى موضع الألفاظ الصحيحة النقية اليسيرة ، التى تؤدى ما أراد تأديته من المعانى ، دون أن تؤذى الذوق ، أو تسوء الطبع ، أو تثقل على المزاج ؟

من الناس من لا يحسنون اللغة العربية ، ولا يقدرون على التصرف فيها ، ولا يستطيعون إخضاعها لما تضطرب به نفوسهم من العواطف والآراء ، فهم مضطرون إلى أن يؤدوا معانيهم كما يستطيعون ، وباللغة العامية ، وباللهجات المبتذلة التى يحسنونها ويقدرون عليها . ولكن الدكتور حسين فوزى ليس من هؤلاء ، فهو يحسن لغته العربية ، ويملكها ، ويجيد اتخاذها أداة للتصوير والتعبير . ولست أزعم أنه يستطيع أن يطاول الجاحظ أو ابن المقفع ، أو أن يرتفع بلغته إلى حيث يعد من أصحاب الأساليب الرائعة والألفاظ المختارة ، والتبرز فى البيان . ولكنى أزعم ، وكتابه نفسه يؤيدنى فيما أزعم ، أنه يستطيع أن يؤدى معانيه باللغة العربية تأدية حسنة لا بأس بها ، وقد لا تخلو أحياناً من روعة أو جمال . وإذاً فما تعمد هذا الافساد ؟ وما حبه لهذه الألفاظ المبتذلة البغيضة التى لا أستطيع أن أصححها ، فضلا عن أن أطلق بها لسانى ، أو أجرى بها قلم صاحبى ، والتى لا تصور امتيازا فى الفن ، ولا صفاء فى الطبع ، ولا اعتدالا فى المزاج ؛ وإنما تصور نقائص هذه الخصال تصورا بشعاً مرذولا ؟ وهذا هو الذى يحملنى على ألا أصدق ما أنبأنا به الكاتب من أنه قد أرسل نفسه على سجيتها فى التفكير والتعبير . فهو عندى وعند أصدقائه أرق ذوقا ، وأصفى طبعاً من أن يصطنع هذه الألفاظ مضطرا إليها . وأكبر الظن أنه قد تعمد اصطناعها تعمدا ، لأن له فى الخصومة بين اللغة الفصحى واللغة العامية المبتذلة رأياً يدفعه إلى هذا الشطط ويورطه فى هذا الاسراف .

وأنا أعلم أن بين الكتاب الأوربيين ، والكتاب الفرنسيين خاصة ، من يذهبون فى لغاتهم هذا المذهب البغيض . وقد قرأت كتب سيلين ووجدت فى قراءتها لذة جاءتنى من المعانى والآراء ، وإن كنت قد ضقت بألفاظها السخيفة المبتذلة ضيقاً تشاركنى فيه كثرة المثقفين من الفرنسيين . أفيكون من الحق أن نسير فى لغتنا العربية سيرة سيلين وأمثاله فى لغتهم الفرنسية ؟ أليس من الحق علينا أن نفكر فى أن إسفاف سيلين وأصحابه لن يضر اللغة الفرنسية شيئاً ؟ لأن هناك أدباء بارعين لا يكادون يحصون ، وهم يؤثرون اللغة الفرنسية الممتازة بعنايتهم ويحمونها بانتاجهم الرائع ، من سخف سيلين وأشباهه . على حين أن الأدباء البارعين فى لغتنا العربية يكادون يحصون فى سهولة ويسر ، وأن بلاءهم فى حماية اللغة من الفساد لا يكاد يذكر ، وأن كاتباً كالدكتور حسين فوزى قادر على مثل هذا الكتاب الذى أذاعه فى الناس على أن يسيء إلى اللغة العربية

وإلى ذوق الشباب من القراء أكثر ألف مرة ومرة مما يحسن إلى العقل والخيال بما يعرض عليهما من الخواطر والصور.

وأي لذة يجدها كاتب مثقف له ذوقه الفني الصافي في أن يصطنع هذه الألفاظ التي لا تسمع إلا في أهون البيئات شأناً وأقلها حظاً من رقي، دون أن تدعو إلى ذلك ضرورة فنية أو تدفع إليه الحاجة إلى تصوير ما لا سبيل إلى تصويره إلا باصطناع هذا الشر. وأنا أدعو إلى حرية الأديب، ولكن حرية الأديب كغيرها من الحريات، في حاجة إلى أن تنظم، وإلى أن تحد بعض الشيء، لا بالقانون فما ينبغي أن يكون للقانون على حرية الفن سلطان، ولكن بالذوق العام، وبهذا الحس المشترك الذي يصرف المثقفين الممتازين عن أشياء قد يتورط فيها غيرهم من الناس. وهذا الذوق العام يختلف باختلاف البيئات، فهناك أشياء يقبلها الذوق العام الأوربي، وينبو عنها الذوق العام المصري، وليس على مصر من ذلك بأس، فليس من الضروري أن نشبه الأوربيين في كل شيء، ولا أن نقلدهم في كل شيء، وربما كان من الخير أن نرد أنفسنا عن تقليدهم في بعض الأشياء، لأنهم هم يضيقون بها وينفرون منها، ولأنها ليست في نفسها خيراً ولا سبيلاً إلى الخير.

أخص شيء يمتاز به هذا الكتاب أنه يعجب ويغيظ في وقت واحد! يعجب بما فيه من المعاني والآراء، ومن الصور الفنية الجميلة التي تثير النشاط وتدفع إلى التفكير، ويعجب بهذه الجراءة التي تثب بالكاتب إلى أشياء لم يكن يخطر لي أن الأديب يستطيع أن يعبر عنها في صراحة قبل وقت طويل وتطور بعيد المدى، ولكنه يغيظ لهذه الجراءة نفسها لأن الكاتب قد تجاوز بها الحد واعتدى بها لا أقول على العرف، فأمر العرف عندي ليس بذي خطر عظيم، ولكن على الذوق، وعلى ما ينبغي للفن من الرقي والامتياز والارتفاع عن السخف والإسفاف. وقد تسألني عن أمثلة لهذا السخف والإسفاف، فما رأيك في أني أكره أن أمثل لها في هذا الفصل؟ وأحيلك على الكتاب نفسه إن شئت أن تظهر على شيء منها، فهي شائعة فيه بغير حساب.

والصورة التي بقيت في نفسي بعد قراءة هذا الكتاب مؤلمة حقاً داعية إلى السخط وإلى الإشفاق، فهي صورة شيء جميل قيم في جوهره، ولكن صاحبه تعمد تشويهه وإفساده وإشاعة القبيح فيه، فوفق إلى بعض ذلك، ولكنه مع السرور لم يوفق إلى ذلك كله. وأنا واثق كل الثقة بأن الدكتور حسين فوزي يستطيع في غير مشقة ولا جهد أن يبرئ كتابه من هذا القبح ويخلصه من هذا الفساد، ويرده كتاباً أدبياً رائعاً ممتازاً من أمتع ما كتب الناس في هذه الأعوام القليلة الماضية. وليته لا يتكلف في ذلك إلا أن يأذن لصديق من أصدقائه بأن يعيد النظر فيه ويزيل منه هذا الحسك الذي يجعل ملمسه خشناً مؤذياً. وما أكثر الآراء التي لا أشارك فيها الكاتب! ولكن اختلاف الرأي ليس عيباً يعيب الكاتب ولا الناقد. فلست أرى معه مثلاً أن كل ما في الغرب جميل. وما أظن أن تطوافي في الشرق إن أتيح لي أن أطوف فيه يردني إلى الإعجاب بالغرب في غير احتياط، فقد يكون الغرب خيراً من الشرق وخيراً من الهند خاصة في أشياء كثيرة.

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي:
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ٦ مليم

ولكن الغرب ليس خيراً كله ، ولم يخلق الله بعد حضارة هي خير كلها . وقد لا أوافق الكاتب على التصريح بأشياء لا خير في التصريح بها ، ولكن هذه قصة أخرى . على أن لهذا الكتاب ولكتابين أو ثلاثة قد أتحدث عنها فيما يستقبل من الزمان ، دلالة مؤلمة حقاً ، فهي تدل إما على أن الناس لا يقرأون ، وإما على أن الذوق العام والشعور بما يقرأ قد أدركهما كثير من التبلد والفتور . وقد عشنا دهراً من الزمان كان الذوق العام فيه متنبها لا يكاد يتلقى كتاباً فيه بعض ما في هذا الكتاب مما يصدمه أو يؤذيه ، حتى ينشط للذود عن نفسه ويكون ما يسميه الناس رد الفعل . فأما الآن فاكتب ما شئت واعبث بالذوق ما شئت ونم ملء جفونك ، فالناس لا يقرأون أو هم يقرأون ولا يشعرون ، وكلا الأمرين شر . ومن يدري ؟ لعل هذا الفتور مقدمة لنشاط أرجو أن يكون قريباً وأن يكون شديداً .

روديارد كيبلنج جو نجادن

يعرض يوم الخميس القادم في سينما ديانا فيلم الموسم العظيم « جو نجادن » يقوم بتمثيله كاري جرانت ، فيكتور ماكلجلن ، ودوجلاس فيربنكس الصغير وغيرهم ، وهو من انتاج باندرو بيرمان ، وقد اقتبسته شركة ر . ك . و . راديو عن شعر روديارد كيبلنج الخالد جو نجادن .

وسيعرض في مصر ونيويورك في سينما راديو سيتي ميوزيك هول المشهورة قبل عرضه في انجلترا وفرنسا ، وقد قرظته الصحف الأمريكية واعتبرته أعظم ما انتجته السينما للآن .



دوجلاس فيربنكس الصغير وجوان فونتين في فلم ر . ك . و . راديو العظيم « جو نجادن »

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢

العدد العاشر « الثلاثاء ١٦ محرم سنة ١٣٥٨ — ٧ مارس سنة ١٩٣٩ » السنة الأولى

الفهـــرس

المأساة الاسبانيـــة ...

أسبابها ، أدوارها ، نتائجها

لقد انقضى عامان وسبعة أشهر ، وإسبانيا تتقلب فى مأساة عجيبة ، لا يعرف الانسان لها مثيلا أو شبيها . شبت فيها ثورة داخلية ، أراد بها فريق من أبناء الأمة أن يستأثر بالسلطان ، ويسيطر على الدولة . وليس فى هذا كله غرابة ، فقد حدث نظيره فى عدة أقطار . ولكن المظهر الجديد الغريب لهذه الثورة الداخلية هو تدخل عدة دول أجنبية بجنودها ، وعددها ، وأساطيلها ، وطائراتها ، تناصر فريقاً على فريق ، وتنفخ فى النار المتأججة لكى تزيدها اشتعالا واضطراما . وقد كان لهذا التدخل العنيف أثر هائل فى إكساب هذا العراك الداخلى صفات من الوحشية ، والهول ، والحدة ، لم يكن لينالها لولا هذا التدخل .

والآن ، وقد أوشكت الحرب أن تنتهى ، وآن للمأساة الأليمة أن يسدل الستار على الجانب الوحشى منها ، فمن الواجب على من يريد فهم هذه الحلقة العجيبة فى تاريخ أوربا ، أن ينظر إلى هذا الحادث نظرة شاملة لجميع الأدوار

التى مرت به منذ البداية . فلقد كانت المأساة طويلة ، وكنا فى كل يوم لا ننظر إلا إلى جزء يسير منها ، فاستحال علينا أن نتصورها كاملة الأجزاء . وربما كان من المستحيل علينا ، حتى فى الوقت الحاضر ، أن نلم بجميع نواحيها ، وكثير منها لا يزال خفياً مستورا . ولكنا نستفيد بلا شك من وقوفنا اليوم برهة لنلقى نظرة على هذه الصفحة من التاريخ المعاصر . ونحن فى أشد الحاجة لأن نلم بحقيقة ما يجرى فى العالم الغربى ، الذى أصبحنا قريبين جدا من أن تمسنا غوائله وشروره .

أسباب الثورة :

كانت الثورة الاسبانية نتيجة للنزاع الداخلى بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار . والنزاع بينهما قديم ، ولكنا لم نكن نسمع به ، أو نأبه له ، لأن العالم كان لا يعير حوادث إسبانيا إلا القليل من الانتباه ، وكان من المأثور فى أقوال الكتاب فى فرنسا وانكلترا أن حدود أوربا تنتهى عند جبال البرانس ، فاعتادت فرنسا وانكلترا ألا تكترثا كثيرا لما يجرى فى إسبانيا .

أما أحزاب اليمين فتتألف من ثلاثة عناصر قليلة العدد عظيمة الخطر ، وهى التى كانت فى معظم الأوقات قابضة على ناصية الحكم .

والطائفة الأولى بين أحزاب اليمين هى رجال الجيش ، ولقد كان الجيش الاسبانى ، برغم قلة عدده وعُدده ، يشتمل على عدد هائل من القواد وكبار الضباط بحالة تزيد كثيرا حتى على جيوش الدول ذات المركز الحربى الخطير مثل فرنسا وألمانيا ، كما كانت البحرية تشتمل على ضباط برتبة أميرال أكثر عددا مما فى الأسطول البريطانى نفسه . فكانت الأموال المخصصة لما يسمى « الدفاع » يصرف معظمها مرتبات للقواد والضباط . ونظراً لأن الثورة اتخذت فى مبدئها صورة ثورة رجال الحرب على السلطة المدنية ، فإننا لا بد أن نقدم هذا العنصر من عناصر الثورة على سواه .

الطائفة الثانية ذات الخطر فى أحزاب اليمين ، هى طائفة رجال الدين ، ومن الأمور المعروفة التى يكفينا هنا مجرد الاشارة إليها أن الكنيسة فى إسبانيا كانت دائماً على جانب عظيم من الثروة والغنى ، وكانت أكبر مالك للأراضى الزراعية ، وكانت ذات مشاريع اقتصادية معفاة من الضرائب ، بل وكثيراً ما تلقى الاعانة من الحكومة إلى درجة جعلت بعض جماعات اليمين من رجال الصناعة والمال يغار من ازدياد نفوذ رجال الدين .

ووجود رجال الدين فى جانب أحزاب اليمين كان من أهم الأسباب فى رضى البابا عن الثورة الإسبانية ، وعطف جماعات الكاثوليك فى انكلترا ، وفى بعض جهات فرنسا على الثائرين . وقد كان لهذا كله أثره فى نجاح الثوار .

والطائفة الثالثة بين أحزاب اليمين هى جماعة كبار الزارعين ، ورجال المال . وفى إسبانيا عدد عظيم من كبار الملاك يقدرون بنحو نصف مليون يمتلكون فيما بينهم ثلاثة أرباع الأراضى الزراعية . ومعظم الملاك لم يكن يقوم بزراعة أرضه بنفسه بل يؤجرها للفلاحين ، وقلما يزور ضيعته ، أو يتصل بمستأجريه . ومن الغريب أن كثيراً من كبار الملاك أجانب ، وبعضهم من الانكليز !

وليس من شك فى أن هذه الطائفة كانت مهددة بأن يُقسم جزء كبير من ممتلكاتها بين صغار الفلاحين ، الذين لا يكادون يملكون أرضاً . وقد سن قانون فى عام ١٩٣٢ يخول الحكومة الحق فى توزيع شطر كبير من الأراضى على هذه الصورة . ولكن القانون لم ينفذ لأن أحزاب اليمين تولت الحكم فى عام ١٩٣٣ ، وظلت تحكم البلاد إلى أوائل سنة ١٩٣٦ .

هذه الأحزاب جميعاً كانت تميل إلى إعادة النظام الملكى لاسبانيا ، ولكنها كانت تخشى الجهر بهذا الرأى لكيلا تفقد أنصارها فى البلاد . ولقد كان لها بلا شك عدد كبير

من الأنصار . ولهـذا استطاعت أن تحرز فى الانتخابات التى عقدت قبل الثورة ، فى أوائل سـنة ١٩٣٦ نحو ٣,٨٠٠,٠٠٠ صوت ، بينما أحزاب اليسار نالت ٤,٢٠٠,٠٠٠ صوت وأحزاب الوسط ٦٨١,٠٠٠ صوت . وكانت أحزاب اليسار تتألف من جماعات الجمهوريين فى إسبانيا وقطلونيه وبلاد الباسك ، ومن عناصر اشتراكية ، ومن عدد قليل جداً من الشيوعيين .

وكانت أحزاب اليمين عازمة كل العزم على ألا تدع أحزاب اليسار تتولى الحكم مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للثورة عليهـا وإسقاطها قبل موعد الانتخابات بزمن كما سنرى . ومن البديهى أنها كانت من حيث القوة المادية ذات مركز راجح ، لأنها تضم كبار رجال الجيش والدين والمـال . أما أحزاب اليسار فكانت ظاهرة الفقر من الوجهتين العسكرية والمالية .

وبالرغم من أن الحكومة التى أنشئت فى أوائل سنة ١٩٣٦ كان قوامها أحزاب الوسط الأحرار والمعتدلين من أحزاب اليســار ، فإن رجال اليمين كانوا موطدين النفس على ألا يتركوا الحكم ينتقل من أيديهم إلى أيدى سواهم . وقد استطاعوا أن يحصلوا على تعضيد هائل من دولتى إيطاليا وألمانيا . ومع أن كلا من هاتين الدولتين كان راغباً أشد الرغبة فى التدخل فى إسبانيا ، فإن لأحزاب اليمين الفضل فى إيجاد الفرصة ، بل وفى اجتلاب هـذا التدخل وإقحامه فى الشئون الداخلية لاسبانيا .

تدخل إيطاليا :

بقدر انشغال الدول الغربية عن شئون إسبانيا ، كانت إيطاليا منذ زمن بعيد حريصة على تقوية نفوذها فى هـذه الدولة . وفى عام ١٩٢٣ استطاعت الحكومة الإيطاليـة أن تعقد معاهدة صداقة مع الجنرال بريمودى ريفيرا ، فيها الشىء اليسير من الإضعاف للصداقة « التقليدية » بين فرنسا وإسبانيا . ولكن اهتمام إيطاليا بإسبانيا اتخذ شكلا جدياً فى أوائل سنة ١٩٣٤ . ففى شهر مارس من تلك السـنة اجتمع رئيس الحكومة الإيطالية بجماعة من قادة أحزاب اليمين بمدينة روما ، وتعهد بأن يعطيهم فوراً عدداً كبيراً من البنادق والمدافع والذخيرة ومبلغاً من المال لكى يستعينوا بهذا كله على إسقاط النظام الحاضر فى إسبانيا والعمل على إعادة النظام الملكى ، وبأن يمنحهم إعانات أخرى فى المستقبل وقت الحاجة[1] وهكذا نرى إيطاليا على انشغالها بالمسألة الحبشية ، لم تنس الاستعداد لتوسيع نفوذها فى إسبانيا . وقد شبت نار الثورة فى إسبانيا بعد فتح إيطاليا للحبشة مباشرة ، ولم تمض على الثورة أسابيع حتى كانت الجنود الايطالية قد دخلت إسبانيا محاربة إلى جانب الثوار واستولت على جزيرة ما يورقه — وهى أكبر جزر البليار — واتخذت منها قاعدة لأسطولها ، ولغواصاتها ، ولطائراتها ، وكانت إيطاليا ترجو للثوار فوزاً صريحاً سريعاً ، فلما طالت الحرب لم تتراجع بل أخذت تبعث بضباطها وجنودها ، حتى زاد عددهم فى إسبانيا على مائة ألف جندى .

تدخل ألمانيا :

أخذت ألمـانيا تهتم بشئون إسبانيا فى نفس الوقت الذى كانت إيطـاليا فيه على اتصال بقادة أحزاب اليمين ؛ ومن الجائز أن التفاهم بين إيطاليا وألمـانيا لم يتم إلا قبيل الثورة . غير أن ألمانيا كانت على علم بالنزعات المختلفة التى تحرك السياسة الاسبانية . وفى شرق إسبانيا يعيش كثير من الألمـان . وقد استطاع هؤلاء بإرشاد قناصلهم وزعمائهم أن يكونوا على اتصال بجماعات اليمين ، وأن يستعدوا لمعاونتهم حين يثورون على حكومتهم . وقد تم

(١) الوثيقة التى تتضمن هذه الشروط قد ضبطت فى منازل الثوار فى برشلونة ومدريد فى أوائل الثورة . وقد نشرتها الحكومة الجمهورية بعد ذلك . راجع نصها فى كتاب دولة موسولينى الرومانية تأليف ج . ت . جارت . G. T. Garratt الـكاتب الانكليزى

تدريب كثير منهم للأعمال العسكرية وتطوعوا فعلاً في الفيلق الأجنبي بإسبانيا . فكانوا على تمام الأهبة لمساعدة الثوار . على أن المساعدة الكبرى التي قدمتها ألمانيا للجنرال فرانكو زعيم الثورة لم تكن بواسطة الجنود الألمان الذين حاربوا معه ، فهؤلاء كانوا دائماً قليلين . وإنما المساعدة الهائلة التي قدمها الألمان هي العددُ العظيم من الطائرات الحديثة ، والعُدد الحربية المختلفة والرجال المدربين الفنيين في كل ناحية من نواحي القتال . وقد كانت القنابل التي ألقتها الطائرات الألمانية في الجبهة الشمالية هي أشد القنابل فتكاً وأكثرها تدميراً ، وبفضلها قد خرِّب كثير من بلدان الشمال في وقت وجيز جداً ، وقتل سكانها عن آخرهم .

لسنا بحاجة إلى الإفاضة في ذكر الأسباب التي دفعت إيطاليا وألمانيا إلى مساعدة الثائرين . وحسبنا الإشارة إلى الفائدة العظيمة التي تجنيها كل منهما من صداقة إسبانيا ، وتقوية نفوذها في هذه الدولة التي تتاخم حدودها حدود فرنسا ، والتي تسيطر على جبل طارق والطريق إلى الشرق .

تدخل روسيا :

طلبت حكومة إسبانيا من عدة دول مساعدتها بالمدافع والذخيرة والطائرات ، فلم يجبها إلى طلبها سوى دولتين : روسيا والمكسيك ، وبديهي من مركز هاتين الدولتين سواء من حيث الحالة الداخلية ، أو من حيث الموقع الجغرافي ، أن كلا منهما لن تستطيع أن تبذل من المساعدة للحكومة الإسبانية سوى جزء يسير مما تستطيع بذله إيطاليا أو ألمانيا ، فإن السفن الروسية لا بد أن تقطع مسافة تزيد على ألفي ميل لكي تصل إلى سواحل إسبانيا ، وهي في أثناء هذا معرضة لقنابل الطائرات ، ومقذوفات الغواصات . ومع هذا فإن مساعدتها كانت ذات قيمة عظيمة لحكومة إسبانيا ، وعلى الأخص في أول الحرب . وعلى الرغم من كل ما يقال من حب روسيا لأن تنصر الحكومة الإسبانية لنزعتها الاشتراكية ، فإن من الواضح أنها لن تجني من هذا ثمرة تعادل جزءاً مما تجنيه إيطاليا وألمانيا من مساعدة الثوار . وهذه الظروف مجتمعة جعلت مساعدة روسيا يسيرة جداً إذا قورنت إلى المعاونة الصادقة التي بذلتها إيطاليا وألمانيا .

خوف البلشفية :

كانت حكومة إسبانيا وقت الثورة حكومة حرة ، قائمة على أحزاب الوسط والمعتدلين من أحزاب اليسار ، ولم تدخلها الأحزاب الاشتراكية إلا بعد قيام الثورة ببضعة أشهر ، ورغم هذا استطاعت إيطاليا وألمانيا بدعاية قوية عنيفة أن تصف الحكومة الإسبانية بأنها شيوعية ، وبأن أنصارها حمر . وقد لقيت هذه السياسة نجاحاً هائلاً حتى إن كثيراً من الصحف لم تكن تشير إلى الحكومة الإسبانية وجيوشها إلا بأنها الحكومة الحمراء والجيوش الحمر . وفي العالم كثير من الناس يرتعدون فرقاً لذكر البلشفية . فسهل عليهم تصديق هذه الدعاية ، ورأوا في معاونة روسيا دليلاً قاطعاً على صحة هذه الدعوى ، التي يضطرنا الإنصاف البسيط لأن نقرر أنها لا تقوم على أدنى دليل .

سياسة عدم التدخل :

وقد رأت حكومة انكلترا أن في بلادها جماعة ذات نفوذ شديد تميل نحو الثوار . وقوام هذه الجماعة طوائف الكاثوليك ، الذين يعطفون أشد العطف على فرانكو ، بل وعلى إيطاليا أيضاً . ولهذه الجماعة تأثير قوي في السياسة البريطانية ، يفوق عددهم بالنسبة إلى سكان الجزر البريطانية . وأمام هذه الصعوبة ابتكرت الحكومة البريطانية سياسة عدم التدخل ، واستمالت فرنسا إليها ، ودعيت كل من إيطاليا وروسيا وألمانيا إلى الاشتراك في لجنة دولية ، لتنظيم هذه السياسة التي ترمي إلى ترك إسبانيا للأسبان ،

وعدم معاونة أى فريق من المتحاربين على الفريق الآخر .

وقد تألفت اللجنة فعلاً ، وانضمت إليها إيطاليا وألمانيا . وكانت سياسة إيطاليا فى هذه اللجنة بديعة إلى أقصى حد ؛ فقد كانت تبذل كل جهد فى عرقلة أعمال اللجنة ، وإقامة العقبات أمام كل اقتراح . وإذا تسنى لها — بعد اجتماعات عديدة متفرقة على مدى عدة شهور — أن تتخذ قراراً بالإجماع ، فإن المندوب الإيطالى يوافق على القرار . وتمضى إيطاليا فى سياستها كأن لم يحدث شىء . ولئن صح لنا أن نصف الحالة فى اسبانيا بأنها مأساة فلا بد لنا أن نصف سياسة عدم التدخل هذه بأنها مهزلة من الطراز الأول .

ولكنها مهزلة تنطوى على شىء من الإذلال لكل من انكلترة وفرنسا . فلقد كانت السفن البريطانية التى تدنو من سواحل اسبانيا تضرب بقنابل الطائرات ، ومقذوفات الغواصات ، وتغرق البواخر ، وتزهق الأرواح ، فلا تحرك الحكومة البريطانية ساكناً ، وربما تحتج احتجاجاً ضعيفاً لدى حكومة الجنرال فرانكو ، ويرضيها على احتجاجها هذا رد فاتر أو اعتذار يأتيها بعد فترة من الزمان . وارضاء لشعور إيطاليا طلبت انكلترة من فرنسا أن تغلق الحدود بينها وبين اسبانيا ، وفعلت فرنسا ما أشارت به حليفتها . فعدت إيطاليا هذا حقاً مكتسباً ، وأعلنت أنها تغضب أشد الغضب إذا فتحت الحدود مرة أخرى .

انتصار الجنرال فرانكو :

لم يكن بد — بعد كل ما تقدم — أن يتم الانتصار لجيوش الثوار ، وليس المدهش أن تنهزم الحكومة ، ولكن المدهش حقاً أنها استطاعت المقاومة كل هذه المدة الطويلة . ولسنا بحاجة إلى أن نصف مراحل الحرب ، التى بدأ انتصار الثوار فيها فى الجنوب ثم الشرق ، ثم الشمال ، ثم تعمقوا نحو الغرب حتى وصلوا منذ أقل من عام إلى شاطىء البحر الأبيض ، وفصلوا بين قطلونة وحكومة بلنسية ؛ ومنذ أيام تم لهم الاستيلاء على قطلونة إلى جبال البرانس ، فلم يبق فى أيدى الحكوميين سوى مساحة من الأرض تمتد ما بين بلنسية ومدريد . وقد سافر رئيس الجمهورية الاسبانية ومعه بعض الوزراء إلى فرنسا ، ولن يمضى وقت طويل حتى يتم تسليم الحكوميين لجيوش الثوار . وقد اعترفت الدول الغربية بهذا التغيير ، وبعثت بسفرائها ووزرائها إلى الحكومة التى أنشأها الجنرال فرانكو ، وقد أصبحت اليوم الحكومة الوحيدة فى إسبانيا .

***

وبعد ، فإن كل إنسان لا شك مغتبط لانتهاء هذه المأساة الفجعة ، على أية صورة .

ويجوز لنا الآن أن نتساءل عن أثر هذه الحالة الجديدة فى مركز إسبانيا ، وموقفها إزاء المشاكل الأوربية ، وهل يقدر لها بعد اليوم أن تلعب دوراً خطيراً فى سياسة القارة ، أم تعود فتنطوى على نفسها ، وتشتغل بإصلاح ما أفسدته تلك الحرب الضروس .

ليس من شك فى أن إسبانيا ستظل زمناً طويلاً فى حالة من الضعف لن تسمح لها بأن تقحم نفسها فى مشاكل أوربا . ولو أنها تركت لنفسها وكانت قيادتها فى أيد حازمة مخلصة ، لانهمكت فى إقامة ما تهدم من أركانها ، وما تحطم من بنيانها قبل أن تقذف بنفسها فى بحر السياسة الأوربية الهوجاء . وقد تقدم كل من انكلترا وفرنسا إليها يعرضان عليها مساعدتهما فى تعمير ما خرب ، وبناء ما تهدم ، وهما وحدهما — من بين دول أوربا — القادرتان على بذل تلك المعونة التى تريد إسبانيا قوية وعزة واستقلالاً .

فهل تنصت اسبانيا الوطنية لهذا الصوت ، أم تميل إلى الصوت الآخر ، الذى كان وراءها دائماً منذ نشبت الثورة ؟ ثم ما الذى ينادى به هذا الصوت الآخر ، وإلى أى طريق

يريد أن يسوق اسبانيا ؟ أو بعبارة أخرى : أى ثمن تقتضيه إيطاليا فى مقابل ما بذلته من المعونة فى هذه الحرب منذ بدايتها إلى نهايتها ؟

ان إيطاليا لا تزال تسيطر على جزيرتى مايورقة واليابسة ولها جنود وأعوان فى بلاد الريف الأسبانية . وقد أعلنت أنها لا تبغى من مساعدتها للوطنيين مأرباً سياسياً ، ولا توسعاً فى الأراضى . ومن الجائز أن تبر إيطاليا بهذا الوعد ، وتخلى الأراضى الأسبانية من الجنود . وهى لا تفعل هذا من أجل وعد وعدته أو عهد قطعته ، بل لأنها تريد بهذا أن تجعل من اسبانيا حليفة مخلصة ، تتحرك فى سياستها الخارجية طبقاً لبرنامج روما ، ورغبات الحكومة الإيطالية . فإن نشبت حرب بين إيطاليا وفرنسا ، اضطرت هذه لأن ترسل جيشاً عظيماً إلى الحدود الأسبانية . فإذا عادت الأحوال كما كانت فى عام ١٩١٤ فإن مركز فرنسا الحربى يغدو ضعيفاً إلى أقصى حدود الضعف . وكذلك يصبح طريق الأسطول البريطانى محفوفاً بأخطار وعقبات ليس من السهل اقتحامها . ومن الممكن إطماع اسبانيا بالحصول على مراكش إذا هى سلكت هذا السبيل .

ومن الصعب أن نحكم بصورة قاطعة أى الرجحين ستدفع بالسفينة الأسبانية ، اللهم إلا إذا عرفنا نزعات ربانيها ، ومديرى دفتها ، ومبلغ تعلقهم بصداقة إيطاليا ، واستعدادهم لدفع أى ثمن فى سبيل المحافظة على تلك الصداقة . إن شهرة الأسبان بالوطنية وبغض النفوذ الأجنبى أمر معروف مشهور . ومن الجائز جداً أن يتغلب هذا العامل على كل اعتبار آخر ، فتكتفى اسبانيا بأن تدفع دينها الكبير لإيطاليا فى صورة منافع تجارية واقتصادية ، مبتعدة عن مشاكل أوربا الشائكة التى لا تعنيها من قريب أو بعيد .

محمد عوض محمد

صفحة الأدب الإنجليزي :

الفزع المقدس : كتاب « ولز » الأخير

للأستاذ عباس محمود العقاد

هربرت جورج ولز أو « هـ . ج . ولز » كما يجرى اسمه على الألسنة ، دعامة قوية من دعائم الأدب الانجليزى فى العصر الحاضر ، وقد نيّف على السبعين ، ولا يزال يعمل ويكتب ويساهم فى الحركات الفكرية والاجتماعية ، ويشن الغارة من كتبه ومقالاته وأحاديثه على المستبدين وأعداء السلام .

يؤرخ الماضى ويصف الحاضر ، ويتنبأ عن المستقبل ، ويبشر فى جميع ذلك بالسلام وإصلاح بنى الإنسان بإصلاح المجتمع ونظامه . وليس هو على رأى مذهب من مذاهب الإصلاح الشائعة فى العهد الحاضر ، لأنه يحارب الشيوعية والفاشستية ، وينتقد الدمقراطية ، ولا يرجع بفساد المجتمع إلى سبب واحد من أسباب الاقتصاد أو الأخلاق أو السياسة ، لأنه واسع النظر عارف بالجوانب الكثيرة التى تشترك فى إحداث الحوادث وتكوين التاريخ .

يقول بعض الحكماء : « إن المؤرخ نبى الماضى » لأنه يستفسر الماضى أو يفسره ، كما يعنى الأنبياء بتفسير المستقبل . فإذا صدق هذا الوصف على مؤرخ من أبناء عصرنا ، فهو أصدق ما يكون على ولز فيما كتب عن القرون الأولى . إذ هو يكتب التاريخ ليمهد به طريق الأجيال المقبلة ، ويستعين به على تحقيق آماله المنظورة ، وقد علم أن داء الحرب ينفشى من الدوافع النفسية ، كما يتفشى من الدوافع الاقتصادية والسياسية ، وعلم أن « المجد العسكرى » هو السحر الذى يستهوى بعض العقول إلى المخاطر ويشحذ فيها الضراوة بالقتال . فكتب التاريخ ليمسخ الطلاء المكذوب عن أصحاب هذا المجد الموهوم ، ويقشع الرغو عن الزبد كما يقولون ، فإذا معظم القواد الذين فتنوا بالحرب وولغوا فى الدماء ، واستخفوا بالأرواح والحرمات ، أناس من المرضى الممسوخين ، أو ممن تنم أخبارهم وتصرفاتهم فى معيشتهم الخاصة والعامة على اختلال الشعور وانحراف المزاج .

فالاسكندر مثلا كان معروفا فى طفولته وصباه بالشراسة والجموح والافراط فى الأثرة و « الأنانية » وتدليل النفس والتأنث والاقبال على الشهوات ، وكان يحسد أباه ويبغضه ويتطاول عليه . وقد ورث هذه الخلال الذميمة من أمه الفتاكة الغيور التى كانت تلهى بتربية الثعابين ، وتستطيب مناظر التعذيب . ورويت عنه فى شبابه أمور لا تصدر من عقل سليم ، فكان يقتل أصحابه لأهون مظنة وأضعف شبهة ، وكان يموت له بعض العشراء فيحزن عليه حزن المجانين المخبولين ، ويأمر بقتل طبيبه ، وهدم المعاقل ، وحلق شعور الخيل حداداً عليه ، وكل ما صنع فى حياته فإنما هو من المصادفات ، وليس من الخطط المرسومة والسياسات المدبرة ، فقد أراد أن ينشىء دولة واسعة ، فأنشأها بالفتح والغارة ، ولم يخطر له أن يربط تلك الدولة ، ويجمع بين أجزائها بالطرق البرية والبحرية ، أو بالنظم السياسية والادارية ، بل صنع ما يقطع الوصلة بين أجزاء هذه الدولة وبين الأواصر التجارية والملاحية فيها ، وذلك حين هدم مدينة « صور » المشهورة ، وقد كانت بمثابة قناة السويس فى العصور الحديثة .

وعلى هذا النمط كتب سيرة يوليوس قيصر ونابليون

وغيرهما من مشاهير الحروب ، فلم يكن واحد منهم مثلا طيباً من أمثلة الطبيعة الانسانية ، ولم يكن لواحد منهم رسالة أساسية أو قيمة رفيعة من قيم الأخلاق الجوهرية ، ولم يكن سر نجاحهم عظمة فيهم ، بل أنانية مفرطة تشغلهم من طلب السيادة عما لا يشغل غيرهم ، ثم اضطراب في أزمانهم يفتح أبواب المغامرة لأمثالهم . ولا يسودون الناس لأنهم أعظمهم وأقدرهم ، بل لأن السيادة صناعة لها أدوات خاصة كالأدوات الضرورية لكل صناعة ، وكثيراً ما تتوافر هذه الأدوات لأناس من الأوساط المشوهين .

***

وقد ظهرت لولز رواية جديدة باسم « الفزع المقدس » (The Holy Terror) خلاصتها أنها شرح لهذه الفكرة في عالم القصة المخترعة ، أو نقل لأبطال التاريخ إلى قالب الخيال .

فهي تشرح لنا كيف ينشأ « الزعيم المستبد » من الطفولة إلى الشباب فالكهولة ، وتحلل لنا أخلاقه والتفاتات ذهنه ، وطبعه ، ومصادفات نجاحه ، وبواعث تفكيره في طلب السيادة على غيره .

فرودلف وتلو (Rudolf Whitlow) هو نموذج « الدكتاتور » العصري في تكوين جسمه وعقله وأحوال بيئته وزمانه : طفل عسير على والديه وإخوته ولداته ، ميئوس من تقويمه وكبح جماحه ، ناضب العاطفة ، محروم من بواعث المحبة ، يشتد به سخطه حتى يثور على اخوته حتى يقذفهم بالسكين ، أو يهجم عليهم هجوم المجانين ، وهو مع ذلك ضعيف ! وليس بالقوى المتين التركيب ، وينفر منه الناس ، وينفر هو من الناس ، فينطوى على نفسه ومذاكرة دروسه ، فيتقدم بعض التقدم ، وينتهي إلى سن الدراسة العالية ، وليس أبوه وأمه بقادرين على تعليمه وتعليم اخوته معه في الجامعات والمدارس العليا ، ولكن اخوته وُدعاء لا يهددون ولا يثورون ، وهو وحده الذي يثور ويقيم القيامة ، ويوشك أن يبخع نفسه أو يبخع أبويه ، فيرسله أبواه راغمين إلى مدرسة عالية ، ويجد نفسه يوما في حلقة الخطابة ، فيغريه حب الظهور بالصعود إلى المنبر فيتكلم فإذا هو يحسن الكلام ، ويؤثر في سامعيه ، وإذا هو يفعل بالكلام ما لعله كان يود أن يفعله بالعضل والسلاح ، وإذا هو يفرغ في آرائه كل ما في نفسه من السخط والحرد وقلة العطف على إخوانه في الآدمية ، فكل شيء في الدنيا سخيف أو معيب ، وكل عمل من أعمال الحاكمين ناقص أو معكوس ، وكل وزير محلي أو جامد على القديم ، وكل نظام في البيت أو في المدرسة أو في الحكومة محتاج إلى القلب والتبديل ، وتروق هذه النغمة من يسمعونه ، لأنهم يعيشون في عصر القلق والحيرة ، ويشتهون التطاول والتهجم ، ويعجبون أنفسهم أو يرضون غرورهم حين يسمعون قدحا في عمل الحاضر ، وتنويها بالعمل المنظور في المستقبل ، فيبلغ بينهم «رودلف» — أو « رود » كما يدعونه للتحبب — مبلغ الحظوة والنباهة ، ويقبلون على الحلقات التي يخطب فيها ، ويسألونه الأسئلة ، ويستطلعون رأيه في كل معضلة ، ويقترحون عليه أن يقترح عليهم ما يبشر به من دعوة ، ويمهد له من تجديد وتغيير .

***

وذكر الكاتب طائفة من حاشية الزعماء « النابتين » الذين يحيطون بالفتى « رود » وأضرابه ويوالونهم في نشأتهم بالتشجيع والاغراء والتحبيذ ، ويتعقبونهم كما يتعقب السماسرة بعض « الأسهم » الجديدة حتى تثبت في السوق .

فهذه الحاشية تتألف — أكثر الأحيان — من رجل مفطور على الاعجاب والكلاءة الأموية ، يعلم صفات الزعامة ويعلم أنه هو نفسه ليس بالزعيم ، فيسره أن يخرج الزعماء على يديه ، من باب العزاء والتعويض .

ورجل صافٍ من مذهب آخر غضب على زعمائه

فتحول إلى جانب غير جانبهم ليتقدم منهم ويريهم مقدار ما يستطيعه فى محاربتهم ، ويخدم صاحبه الجديد بما يعرفه من المصطلحات وما يحذقه من أساليب الدعوة والتنظيم .

ورجل موسر لا يدرى ماذا يصنع بماله ، فيراهن على كوكب صاعد فى سماء الشهرة كما يراهن على جواد جديد فى حلبة السباق ، ثم لا يعنيه أن يربح أو يخسر لأنه كثير المال يطلب لذة المراهنة قبل أن يطلب لذة النجاح .

ورجل قادر على التدبير والدسيسة ، ولكنه غير قادر على القيادة والاقتحام .

ورجل أيد عظيم البأس كالفيل والجمل يحب أن يحمل الأعباء ويلقى زمامه إلى من يقوده وهو وادع مستريح .

وأناس يتبعون كل ناجح ويحدقون بكل من يتحدث عنه الناس ، ويحبون التحزب والتعصب ليقال إنهم من هذا الفريق وإنهم صارعوا أو يصارعون ذلك الفريق .

وقد أحاطت هذه الحاشية بالزعيم الناشئ على حسب المألوف فى جميع هذه الحركات ، فتمت عناصر الدعوة ووجب أن تبرز للدعوة صورة وعنوان تستقبل به الأنظار والأسماع .

وهنا تسعف « رود » مناقشاته ومساجلاته مع أفراد الحاشية ، فإذا هو ملم بأطراف المباحث الاجتماعية التى تناولها أشباه هذه الدعوات ؛ وإذا هو يصوغ من هنا وهناك بعض العناوين التى لا يدرى هو نفسه هل ابتدعها أو لقفها من فلتات الأفواه وصيحات الصائحين ، فيسمى حركته حركة « الطبع السليم » أو البداهة السديدة Common Sense هرباً من المصطلحات العويصة أو تعريضاً بها لأنه لا يستطيعها ، ويجعل عنوانه هو « الرجل الشائع أو رجل الجمهور والسواد » Common Man هرباً من وصف الزعامة الذى يثير الحسد ويبعث المخاوف ، كأنه يقول إنه لا يتصدى لهذه الحركة لأنه سيد مطاع بل يتصدى لها لأنه واحد من سواد الناس يمثل سائر السواد ، أو لأنه هو « الأقنوم » الذى تتجلى فيه روح الجماهير معروضة فى صورة فرد من الأفراد .

هذا هو عنوان الدعوة وهذا هو عنوان داعيها . فما هى الدعوة وما هى غايتها ؟ مطلب إنسانى فى الظاهر ، ولكنه يستهوى إليه كل من يريدون الهدم ويحبون التحول ويذهبون مع القلق ويفرقون من الحيرة فى تعيين الأغراض ، وهذا المطلب هو الجمع بين الانجليز والأمريكيين فى وجهة واحدة ، ولو أدى ذلك إلى تقويض كل نظام أو هيئة أو حق أو حائل يحول دون التوحيد المطلوب ، وحجة « رود » فيما يدعو إليه أو فيما اضطره « حكم الصناعة » أن يدعو إليه ، هى أن الحركات الاجتماعية والفكرية بين انجلترا والولايات المتحدة تتقارب وتتماثل ويمكن أن تتعاون وتتكافل ، وليس الأمر كذلك فيما بين الانجليز والأوربيين من حركات ومشكلات ، فلا العمال فى فرنسا يشبهون العمال فى الجزر البريطانية ، ولا أصحاب المصانع والمصارف والأموال أو رجال الدين ورجال العلم يشبهون نظراءهم فى الجانبين ، ومتى اختلفت حقيقة العاملين فلا معنى للتعاون على الأعمال .

* * *

ولم تنقض خطوات على ابتداء دعاة « الطبع السليم » فى طريقهم حتى ظهر أن النقص الذى فى زعيم الدعوة يفيده فى بعض الأحيان وقلما يضيره .

مثال ذلك أنه لنضوب عاطفته وخداع طبعه وانقطاع الصلة النفسية بينه وبين نوعه ، كان يتحاشى النساء ، ولا يشغل قلبه بالعشق والمغازلة ، فكان هذا النقص يصرفه إلى غايته الكبرى بغير مشاركة فى مساعيه وجهوده ، وكان يكسبه ولاء الفتيان والفتيات ، لأن الزعيم الذى يشغل قلبه بالعشق يجلب على نفسه وعلى حركته آفات الغيرة بين النساء ، وآفات الغيرة بين الرجال .

ومثال انتفاعه بالنقص أيضاً أنه كان فى مظهره هزيلاً ،

لا يروع الأنظار بقوام فارع ولا بطلعة مهيبة ، فكان ذلك يكسبه عطف الأصحاب ورغبتهم في تأييده ، ولا يحفزهم إلى التحدي والمقاومة ، وهؤلاء يموضونه بعطفهم عليه وتأييدهم له وتكبيرهم لخطره عما يفقده في النظرة العاجلة بين الجماهير .

ولما أن اجتمع للدعوة عدد مقبول من المدبّرين والنظمين ، أو اجتمع لها ما يصح أن يسمى « مجلس الإدارة» عند الأحزاب ، فكروا في إحدى طريقتين : هل ينشئون حزباً جديداً ، فصعوبة ذلك أن يزحوا بتكاليف التأسيس والتنبيه ؟ أو ينضوون إلى حزب قائم ثم يقبلون زعامته ويقبضون على زمامه ، فذلك أدنى إلى النجاح وأيسر في الكلفة ، وأشبه بتحقيق الظفر وتدعيم التفاؤل والرجاء في الوقعة الأولى ؟

وعلى هذا دخلوا حزباً ناشئاً أوشك أن يتضاءل ويختفي بعد نباهة شأنه ، فغلبوا رئيسه لأنه كان يتخايل بسياه ويعتز بغناه ، ويردد الصيحات التي سئمتها الأسماع ولم تسفر عن وجهة محدودة يتجه إليها تابعوه .

***

وينتقل بنا « ولز » نقلة مفاجئة إلى المستقبل ، فإذا بالزعيم قد أفلح واستولى على أعنة الدنيا ، ووقع في حرب زبون مع البقية الباقية من مخالفيه ومعانديه . ثم ينمى إليه أن قائد خصومه يوشك أن يسلم في الميدان ، وأن القائد الذي ائتمنه هو على جيوشه ومعسكراته يهم بقبول هذا التسليم وتوحيد القيادة على المعسكرين والمناداة بنفسه حاكماً بأمره في العالم بأسره ، فيعاجله بغارة هوائية تنسفه هو وقواد الأعداء المتآمرين معه نسفاً سريعاً ، وتهيء له سبيل التفرد بالميدان في الحرب والسياسة ، فإذا هو سيد السادات وقائد القواد وقبلة المغرب والمشرق ومصرف الأمور في مصير بني الانسان .

ثم ماذا ؟ ؟ .

ثم انتقض عليه الأقربون والأبعدون ، لأنه وصل إلى دور البناء وليس هو من أهل البناء ، ولأنه انتهى من الهدم ولا تزال أخلاق الهادمين من حب العدوان على الناس وخوف عدوانهم وغدرهم غالبة عليه منغصة لحياته ، ولأن الذين ساعدوه قد فعلوا ذلك لأنهم يكرهون أموراً في النظم القائمة قد تخلصوا منها وبطلت الكراهة التي جذبتهم إليه وحرضتهم على تأييده ، فماذا بقي إلا أن يناوئوه ويتمردوا عليه ؟ . .

ويموت « رود » مسموماً ويبقى له الذين طلبوا موته صريعاً بزار ، ويحج إليه الوافدون من جميع الأقطار ، ويدور دولاب الدولة ويجري كل شيء في مجراه كأن لم يكن زعيم ولم يكن « فرد فريد » كان يظن أن سيموت بموته خلق كثير .

***

تلك خلاصة موجزة لرواية « الفزع المقدس » التي تتبع فيها الكاتب الجليل حياة زعيم من الزعماء العالميين منذ كان جنيناً إلى أن واراه تابعوه « غير المخلصين » في جوف الضريح .

وزبدة الرواية كزبدة التاريخ الدنيوي الذي وضعه « ولز » هي أن صناعة السيادة والاستبداد ليست بأشرف الصناعات ، وليس أصحابها بأشرف الناس ولا بأقدرهم أو أجدرهم بين أبناء آدم بالإكبار والاعجاب ، وإن نجاحهم لا يختلف كثيراً عن نجاح جرثومة الداء أو « الميكروب » في الغلبة على الجسم المنحل ، لأن الميكروب يعمل والجسم المنحل لا يقاوم عمله ولا يطيق المقاومة ولا يوفق بين أجزائه القادرة عليها .

وفي الرواية كلمات قيمة وآراء شتى لا يغني تلخيص الحوادث عن العودة إلى موضوعها بالتعقيب والمناقشة ، ونحن في المقال التالي عائدون إلى هذا الموضوع .

عباس محمود العقاد

الخاتم السحرى



البارحة تحت مصباحى الأخضر فتحت كتاباً وردت فيه هذه الأسطورة من أساطير الشرق القديمة :

« ... فى سالف الأزمان عاش رجل ألقت إليه السماء بخاتم نادر الوجود ، خاتم من حجر كريم تنبثق منه أشعة عجيبة مختلفة الألوان ، خاتم سحرى من حمله وآمن به فقد رضى عنه الله ورضيت عنه الناس . فحرص عليه الرجل ووضعه فى أصبعه لا ينزعه منها قط . ورأى أن يحفظه فى بيته يتوارثه خير الخلف عن خير السلف . فأوصى أن يؤول هذا الخاتم من بعده لأحب أولاده إليه ، وأمر أن يورثه هذا الولد لأعز أبنائه عليه . دون أن يكون للسن فضل ولا للأكبر من الأبناء حق . وأن يعطى الخاتم الأحب من الأولاد دائماً ، ويكفل لمن حازه حق زعامة البيت .

وسارت الأحوال على هذا المنوال أجيالا بعد أجيال ، وانتقل الخاتم من ابن إلى ابن ، حتى وقع آخر الأمر فى يد رجل له ثلاثة أبناء كلهم حبيب إلى قلبه عين الحب ، وكلهم قد أنزله من نفسه عين المنزلة . وكان كلما خلا إلى أحدهم فى غيبة صاحبيه خيل إليه أنه أفضلهم عنده . فحمله الضعف على أن همس فى أذن كل من الثلاثة على انفراد بأن الخاتم له دون سواه . وحضرته المنية آخر الأمر ، فوقع فى حيرة ، وفكر طويلا وتأمل كثيراً ، ماذا يصنع ؟ وهدته السماء إلى فكرة سطعت كالنور الإلهى . فدعا له سراً صائغاً من مهرة الصياغ ، وأمره أن يصنع له خاتمين على مثال خاتمه ، وأوصاه أن لا يدخر مالا ولا جهداً فى سبيل إتقان التقليد . وصدع الصائغ بالأمر ، ومضى بالخاتم وغبر مليا ثم عاد بالخواتم الثلاثة فوضعها أمام الأب . فنظر إليها الأب فأخذه العجب ، ولم يستطع أن يخرج الأصيل من الدخيل ، ولم يعد يميز الصادق من الزائف . ففرح وطلب أولاده .

واجتمع بكل واحد منهم منفردا وأعطاه الخاتم ، ودعا له بالبركة . ثم أسلم الروح ، وورى الأبناء أباهم فى التراب . وما كادوا يفرغون من أمره حتى أبرز كل خاتمه ، وادعى أنه صاحب الحق فى زعامة البيت . ووقع بينهم الخلاف ، ودب الشجار وتفاقم النزاع . والكل شديد الاقتناع أن خاتمه هو الصحيح ، ولكن من ذا يستطيع تمييز الصحيح من الباطل ؟ وذهب الجميع إلى القاضى ، وهنالك صاح كل من الأبناء طالبا الحكم له . وأقسم أنه قد تسلم الخاتم من يد ذلك الوالد الكريم . وأنه هو دون أخويه حامل الخاتم الصحيح .

فحار القاضى ، ولم يدر ماذا يصنع ، ولا كيف يقضى فى هذا الأمر العسير ، فصاح :

— أحضروا أمامى أباكم أسأله .

فقالوا :

— إنه ميت فى التراب كيف نستطيع إحضاره ؟

فقال القاضى :

— وأنا كيف أستطيع أن أحكم بينكم ؟ أتحسبوننى قديراً على حل الألغاز ؟ أم تظنون أن فى مقدورى استنطاق الخاتم الحقيقى من بين الثلاثة ؟ ! .

وأطرق القاضي قليلا ثم رفع رأسه فجأة وقال :

— لكن اسمعوا . ألم يقل قائل إن الخاتم الحقيقي له فعل سحري يكفل لمن حمله رضا الله والناس . ها هنا مفتاح القضية ، فالخواتم الكاذبة لن يكون لها مثل هذا الأثر . فمن منكم قد امتاز من الآخرين رضا الله والناس ؟ ! هلموا . تكلموا ... انطقوا ... ما بالكم قد خرستم ! يظهر أنكم أنتم الثلاثة خادعون مخدوعون ، وأن خواتمكم الثلاثة كلها زائفة . وأن الخاتم الحقيقي قد فقد . فإذا أردتم مني نصيحة أسديها إليكم بدل الحكم بينكم ، فإني أقول لكم : « خذوا الأمور على وضعها القائم ، وليعتقد كل منكم أن خاتمه هو الصحيح ، وليجهد في إظهار فعله السحري . وذلك لن يكون إلا بالعمل على إرضاء الله والناس . فإذا مضى كل منكم في هذا السبيل وتنافس كل منكم في اكتساب رضا الله والناس ، بالخلق الطيب والعدالة السامية والنزاهة الطاهرة والمحبة الفياضة والتسامح الكريم والسلوك القويم والأعمال الصالحة التي تغمر الناس أجمعين بالخير العميم ، إذا فعل كل منكم هذا وغرس بدوره في نفوس تابعيه وذويه ، وشعر أن خاتمه قد أحدث الأثر المسحور ، فليتقدم إلى هذه المحكمة فإن كنت بعد على قيد الحياة حكمت وإلا وجدتم غيري في مكاني أكثر مني حكمة وأغزر علماً يتولى النطق بالحكم .... »

فرغت من قراءة هذه الأسطورة وأنا أقول في نفسي : ما أحمقها حكمة توضع تحت أنظار أحزاب متطاحنة . وما أحوج الأمم إلى قاض يسدي مثل هذه النصيحة لحملة مثل هذه الخواتم ، ويعلمهم في صراحة أن اتهامات التزييف التي يلقي بها أحدهم على الآخرين هي لغو من الكلام . فكل خاتم يحمل جوهره الحقيقي السحري في العمل الذي يرضي الله والناس . هاهنا ميدان التنافس الحقيقي الذي ينبغي أن تعرض نتائجه على محكمة الرأي العام .

توفيق الحكيم

آراء حرة :

وجوب مطالبة المرأة المصرية بالحقوق السياسية

للكاتبة الفاضلة ماري نسيم

يخطئ من يرمي المرأة المصرية بالخيال ، والتطرف ، والتسرع ، وعدم تقدير الواقع ؛ إذ تطالب بحقوقها السياسية في الانتخاب وفي التشريع .

هم يقولون ساخرين : كيف تطالبين بما لم توفق إليه المرأة الفرنسية أو الانجليزية ؟ هذا مضحك . والحق أن الذين يدفعون دعوتها بمثل هذه الحجة ، وهي كل سلاحهم في الاقناع ، هم أكثر الناس حباً للمكابرة ، وأبعدهم عن الانصاف .

ليست مصلحة الوطن وقفاً على فرد دون فرد ، ولا هي من حق طائفة دون أخرى ، ولا هي من حق جنس دون جنس ، بل هي إرث مشترك بين الجميع ، لا فضل فيه لرجل على امرأة ، إذ الكل أبناء الوطن .

وليس يتحقق ذلك إلا إذا أدى الجميع تلك الواجبات الوطنية المقدسة التي تكفل لهم حرياتهم وتصون حقوقهم ، والتصويت العام أساس الديموقراطية الصحيحة ، ولكنه بمعناه الصحيح لم يكتمل بعد ، فقد حرمت النساء من حق الاشتراك مع الرجال في هذا الواجب ، ولو أن بعض الممالك أخذت في تدارك هذا النقص منذ نهاية القرن التاسع عشر ، كما يشاهد في السويد واستراليا وزيلندا وانجلترا .

أما في انجلترا بلاد الديموقراطية العريقة ، فقد عولج النقص تدريجاً ، فتم أعظم إصلاح شاهدته انجلترا في نظامها النيابي ، وهو إعطاء النساء حق الانتخاب في سنة ١٩١٨ فصار لهن ما للرجال من الحقوق السياسية ، ومن ثم أصبح البرلمان في انجلترا يمثل الأغلبية العظمى من الشعب .

وفي فرنسا وطن الحرية والمساواة وافق مجلس نوابها سنة ١٩٣٤ بأكثرية ٤٥٣ صوتاً ضد ١٢٤ صوتاً على منح المرأة حق التصويت والانتخاب في جميع المجالس التشريعية والادارية والبلدية بعد جهاد طويل ، أبلى فيه المطالبون المنصفون ، والمطالبات بمبدأ المساواة في الحقوق المدنية بين الجنسين ، أحسن بلاء . نعم إنهم لم يصطدموا في هذا الجهاد بمعارضة فعلية ظاهرة ، لأنهم تسلحوا فيه بحجج قاطعة لا يمكن دفعها ، فلم تقو المعارضة على الوقوف أمامها وجهاً لوجه . ولكن مجلس الشيوخ تعمد منذ سنة ١٩١٩ التهرب والمداراة ، والتواري من طريقها ، واجتناب البحث في كل ما له علاقة بها . وماذا ينتظر من الشيوخ في كل أمة غير ذلك ؟ !

كانت الحملة وافرة النشاط ، فسرعان ما استمالت الرأي العام في فرنسا إليها ، أما معارضة مجلس الشيوخ الفرنسي لمنح المرأة حق الانتخاب فلا تستند إلى أسباب قوية ، وخصوصاً أنه لا ينكر عليها نشاطها وتضحيتها ، وعظم المهام التي تقوم بها لانهاض الأمة ، ويعترف بأنها محقة في مطالبها . وقد اختلفت الآراء في معرفة الدوافع التي دعته إلى أن يقف هذا الموقف بإزائها منذ سنة ١٩١٩ ، فمن قائل إنها ترجع إلى اعتبارات توحي بها السياسة العليا ،

وثمة قائل إن الشيوخ ، ومعظمهم من رجال القانون المتقدمين في السن ، لا يزالون متشبعين بروح القانون الروماني المحافظ ، ومن قائل غير ذلك . ولكن هذه الأسباب وغيرها لم تبق لها قيمة في نظر الرأي العام ، ولا يستطيع مجلس الشيوخ أن يجد فيها أو في غيرها ما يبرر استمراره في موقفه القاسي ، والأمل وثيق في حصول المرأة الفرنسية على هذا الحق ، ما دام النظام الديموقراطي قائماً في فرنسا ، وما دام الانتخاب عاما فيها .

* * *

المرأة المصرية ظروفها الخاصة والعامة التي تدعوها لأن تطالب بحقوقها السياسية قبل أختها الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما من سائر الأمم الأوربية . وليس في هذا القول مبالغة . فمصر بلاد حديثة عهد بالديموقراطية ، وحديثة عهد بالاستقلال . ولقد ظلت حياتنا تضطرم بالثورات منذ منتصف القرن الأخير للظفر بهذين الحقين : أن نحكم أنفسنا بأنفسنا في الداخل وفي الخارج بالدستور والاستقلال . أما الأمم الأوربية كانجلترا وفرنسا وغيرهما فأمم عريقة في استقلالها وأصيلة في ديموقراطيتها ، استطاعت هذه الشعوب في ظل استقلالها وهدوئها أن تبث في نفوس أبنائها رجالا ونساء ، حب الحرية والمساواة وتقديس الحقوق والقيام بالواجبات حباً سما إلى منزلة الأديان ، فجرت هذه المبادىء السامية في دمائهم ، وزكت وامتدت إلى أقصى غاية ، فإذا ما دعا الداعي إلى نداء الوطن ، نفروا إليه سراعا ملبين الواجب المقدس ، ليبذلوا في سبيل حريته وعجبته واستقلاله هذه الدماء التي أشربت حبه ، وفهمت حقوقها وحقه ، فهي ليست في حاجة إذاً إلى أن تشغل وقتها بأمور وضعت في نصابها ، وجرت في طريقها العادي ، وكأنها طبع وغريزة . أما مصر التي ظفرت حديثا بحقوقها الديموقراطية والاستقلالية ، فما أحراها أن تعمل على تأصيل هذه الحقوق في نفوس أجيالها الناشئة من ذكور وإناث ليكونوا ملاذها وقت الخطر ، وحصنها المنيع إذا تعرضت هذه الحقوق للعبث . أجل ، ما أحراها بذلك قبل فرنسا وانجلترا وغيرهما من أمم أوربا ، التي خلصت وفرغت من استقلالها في الحكم والسيادة منذ أجيال بعيدة .

ولكنه من العبث واللغو أن تزوّد مصر بهذا الجيل الحر الأصيل المنشود إذا كانت أمهاته ترسف في أثقال قيود الجهل والقدم والعبودية ، أي بنين تؤملهم مصر ، وتلجأ إليهم وقت الخطر ، وهم الذين رضعوا لبان الجهل والذل ؟ ولا تخالن المرأة المصرية أنها ظفرت بغنم عظيم حين حقق لها السفور والتعليم والاشتراك في المجتمعات ، فتقف جهودها عند هذا الحد ، وتخال أنه غاية ليس وراءه غاية ! أجل ، لا نحب أن يخالج ذلك في ذهنها ، فكلها أشياء عادية ، كان يجب أن ينزل عنها الرجال برضاء وإنصاف وفهم ، ولو كنا قد حصلنا عليها من زمن لشغلنا وقتنا الآن في الدعوة لما هو خير وأجدى .

إن أولى الخطوات في حركة نهضة المرأة المصرية ، كان يجب أن تكون السعي للمطالبة بحقوقها السياسة فهي خطوة كان يجب أن تكون في البدء لا النهاية ، عاجلة لا آجلة . وهي الأساس الطبيعي الذي يقوم عليه جميع مطالبنا الأخرى الاجتماعية والتشريعية ، ومن منبرها كنا نطالب بحقنا في التعليم والمساواة ، وبطريقها كنا نسعى لإصلاح نظم الزواج والطلاق ، وحماية العاملات ، وتهذيب الريفيات ، إلى آخر ما هنالك من النظم التي هي نتائج تترتب على الظفر أولا بحقوقنا السياسية .

إن المرأة إذ تكتسب حقوقها السياسية ، لا يعود ذلك عليها وحدها بالفائدة ، بل إنه سيعم الوطن والجمعية البشرية . فالوطن خلف الأسرة ، والبشرية خلف الوطن .

يقول فنلون : « إن الرجال وإن كانوا أصحاب السلطة

السياسية ، لا يستطيعون بقراراتهم توطيد أى إصلاح ما لم تفهم النساء على تنفيذه » .

أجل . وما ذلك إلا لأن الرجال يصنعون القوانين ، والنساء يصنعن العادات والأخلاق .

ما هى حجج المعارضين فى منح المرأة حقوقها السياسية ؟

تقول المرأة : إنه ظلم وغبن أن يكون نظام البلاد قائماً على الاقتراع العـام — ويعتبر مبدأ من أهم المبادئ الديموقراطية ، لأنه يقرر المساواة السياسية بين الرعايا ويحقق سيادة الأمة بطريقة عملية — بينا يبقى أكثر من نصف الأمة ، أى النساء ، محروماً من الاشتراك فيـه . وأى اقتراع عام يكون هذا الذى لا يعبر إلا عن رأى أقلية الشعب ، وهم الرجال ، مهما يكن الاقبال عليه عظيماً ؟

ثم إن فى أوربا كثيرين أصبحوا يستنكرون هـذا النظام ، ولكنه ما دام موجوداً ، فليس من العدل أن يظل مقتصراً على أقلية الأمة دون أكثريتها — ولنلاحظ أن عدد النساء فى إحصائيات الأمم الأوربية يفوق عدد الرجال — هـذا مع أن جميع أفراد الأمة متساوون فى الواجبات تساويهم أمام القـانون . قد يقول البعض إن الواجبات المطلوبة من الرجال والنساء ليست واحدة بدليل أن الخدمة العسكرية لا تفرض إلا على الرجال . وهذا القول صحيح ، ولكن إذا أريد تعليق حق الانتخاب بالخدمة العسكرية ، فمن الواجب انتزاع هذا الحق من الذين يستثنون منهـا لسبب من الأسباب . وإذا قيل إن الذنب فى ذلك ليس ذنب الذين يشملهم الاستثناء ، قلنا إنه ليس ذنب المرأة أيضاً ، فـكما أن المساواة ليست موجودة بين الرجل الذى يصلح للخدمة العسكرية والرجل الذى لا يصلح لها ، كذلك هى غير موجودة بين الرجل والمرأة ، فماذا يكون للرجل أن يستثنى من الخدمة العسكرية حق الاقتراع ، ولا يكون للمرأة مثل هـذا الحق ؟ ثم إن بعض الأمم الأوربية كالروسيا وألمانيا وإيطاليا ، أصبحت خطتها ترمى إلى إعداد النساء للخدمة العسكرية وتربيتهم تربية قوية .

إن المعارضين لحق المرأة فى الانتخاب يسلمون بأنهـا لن تسيء استعمال هـذا الحق أكثر من الرجال ، ومنهم من يذهب إلى أكثر من ذلك فيعترف بأن المرأة التى هى أقرب إلى الحنان وحب الأسرة وإلى روح العدل والسلام ، قد تفهم الواجبات التى يفرضها عليها اشتراكها فى الانتخاب أحسن مما يفهمها كثيرون من الرجال .

بيد أن الحق الذى تطلبه المرأة لا علاقة له بالمساواة بين الجنسين ، لأن الغرض الجوهرى منه هو أن تتمكن من الدفاع عن حقوقها الطبيعية التى قررتها الدساتير بإعلانها « حقوق الانسان » وأهمها المساواة السياسية والاجتماعية واحترام الملكية وحرية الرأى والاعتقاد . وهذه الحقوق مشتركة بين الناس على السواء ، والطريقة الوحيدة للدفاع عنها فى البلاد الديموقراطية هى الانتخابات العامة الحرة التى تتجلى فى إرادة الأمة .

وقد يقول قائل إن المرأة لم تكن تشترك فى المجالس التشريعية فى بلاد ما حتى السنوات الأخيرة ، وإن مهمتها العظمى إدارة المنزل ونشر ألوية الهناء والطمأنينة عليـه وإعداد رجال المستقبل .

وهذا القول لا يعدو الحقيقة . فبديهى أن وظيفة المرأة فى الحياة هى إيجاد النسل وتربية الأبناء وتدبير المنزل . وعملها هذا حيوى كعمل الرجل كطبيب أو محام أو تاجر . وهؤلاء لا يمنعهم عملهم دون النيابة ودون التصويت . فلمَ لا تكون المرأة مثلهم ، ومنا الطبيبات والمحاميات والصحافيات والمربيات ، وهن يزاملن الرجال فى أعمالهم بجدارة وكفاية ؟ وما يمنع أن يزاملنهم فى النيابة عن الأمة أيضاً ؟ .

ثم إن حجتهم هذه لا تدل على أن القدماء رأوا المرأة غير أهل للاشتراك في الحياة العامة فأبعدوها عنها ، إذ من المحتمل أن يكونوا قد رأوا الحياة العامة غير أهل للمرأة ، فأشفقوا عليها وأبعدوها عما فيها من غدر وخيانة ومساوئ وفضائح ، مكتفين منها بأن تظل مليكة البيت وبلسم القلوب والنفوس .

وجاء عصر كان الناس فيه يعتقدون أن المرأة أقل إدراكاً وعلماً وكفاءة من الرجل ، ولكن هذا الاعتقاد لم يبق له أثر اليوم ، فقد جرفته ثورة المرأة أمامها مع أمثاله من المعتقدات والتقاليد البالية . فالمرأة لا تزال ربة البيت حينما يكون لها منزل ، ولكنها في أحوال كثيرة أضافت إلى مهمتها هذه مهام أخرى ، وبدأت تعمل أعمالاً كانت تعد من اختصاص الرجال . ثم إن خروجها إلى الحياة العامة لا يخلو من تأثير في حياة الأسرة وهنائها ، ولكن عودتها إلى البيت لن تعيد شيئاً من هذا الهناء في الأحوال العصيبة التي يجتازها البشر الآن .

ولا يظن أن منح النساء هذا الحق ، قد يصرفهن جميعاً إلى السياسة ، لأن هذا الحق ناله الرجال من قبل فلم يجعلهم جميعاً من السياسيين .

إن المرأة تطالب بحقها السياسي المبخوس ، لأنها تريد تحمل نصيبها من أعباء الوطن كواحدة من أبنائه ، وذلك لن يكون إلا بالمساواة التي تقررها الدساتير والمبادئ الحرة السمحة والشرائع والرأي العام . فينبغي تهيئتها لهذا النوع من الحياة لكي تعرف واجباتها وتقدر المسئولية . وليس ضعف المرأة — إذا كان فيها ضعف ، حجة لحرمانها من حقها ، كما أن سكوتها عن هذا الحق لا ينبغي أن يتخذه المشرعون حجة لرضائها بما هي فيه ، بل إن ذلك حق مكتسب لا بد لهم من منحه لأهله وإعطاء كل ذات حق حقها — وإذا كنا ضعيفات تحتم عليكم تقويتنا . وليس ما يقوى حياة المرأة المعنوية سوى غرس المبادئ الحرة الصالحة فيها وتدريبها على تحمل الواجب وفروضه وإفساح المجال لها في خدمة الوطن ، وإقامة مثل أعلى لها تطمح إليه بما فيها من شعور وفكر وإرادة .

إن روح الحرية التي يمتاز بها هذا العصر قد تسربت إلى المرأة كما يتسرب إلى صدرها الهواء ، فأصبحت تشترك في المجتمعات وتسمع كل ما يقال حولها عن الوطن ومطالبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وكل ما يجرى أمامها من أعمال الحكام وولاة الأمور . وهي في كل ذلك لها آراؤها الخاصة . بل إن هنالك من المسائل الاجتماعية ما يشرعها الرجال في المجالس النيابية وفيها ما يتعلق بالمرأة ويمس حياتها . هذه المسائل التي يقوم عليها العمران الاجتماعي كثيراً ما تفسد وتتعثر عند التنفيذ ، لأن الذين سنوها لم يفهموا طبيعة المرأة ، كما تفهم هي نفسها ومطالبها وحقوقها . ومن ثم وجب عليهم أن يفسحوا للمرأة مكاناً في المجالس التشريعية ليسمعوا كلمتها ، إن لم يكن في كل الشئون ، ففيما يخص بنات جنسها ، وهن أغلبية الوطن الساحقة . وما أخطأ فتلون في قوله السابق . لذلك يجدر بالرجال ألا يستأثروا بشرف التمثيل عن الشعب وحدهم ، كأن الوطنية وقف عليهم ، كما يجدر بنا نحن النساء ألا نقنع بهذه التربية التي نعنى بها لإرضاء الرجال ، فإننا نريد أن نتذوق طعم المسئولية ونتحمل أثقالها كالرجال سواء بسواء .

وإذا ظفرنا بحقوقنا السياسية ، عد ذلك الظفر النصر الحقيقي الذي نسر له في نهضتنا ، وحينئذ يمكننا أن نطالب ونشرع ، ونحمل الرجال من طريق حقنا السياسي على تحقيق كل أوجه الإصلاح التي يتطلبها بنات جنسنا .

ولا يضيع حق دونه مطالب .

(الإسكندرية) ماري نسيم

٢ – كيف كان الشباب يزوجون ؟

العقد – موكب الجهاز – الضم : خيال الظلّ – أبو راية

للأستاذ عبد العزيز البشرى

قد مضى قولنا فى الخِطبة وأسبابها ، ولم يبق بين أيدينا إلا العقد «الأعراس ، ويحسن بنا قبل أن نتناول شيئاً من هذا بالحديث أن نعود فنؤكد لك أن البنت ، على وجه خاص ، لم يكن لها أى رأى فى أمر زواجها ، ولا فيمن يتزوجها ، ولا يسوغ لها أن تتطلع ولو إلى مجرد العلم بشىء من ذلك ، إنما الأمر كله إلى أمها وأبيها يزوجانها متى شاءا وممن أرادا .

أما الزوج فيختلف شأنه فى هذا بعض الاختلاف ، فهو فى الكثير الغالب لا رأى له فى الأمر ولا خيار . على أنه قد يعلم عن عرسه الكثير أو القليل عن طريق أمه أو أخته أو خالته ، وإنما يعىء له الاستماع والاستخبار ما هو مفروض له من جرأة مهما ضعفت فإنها لا تصل إلى خَفَر فتاة عذراء !

وقلتُ لك « فى الكثير الغالب » ، لأنه فى القليل النادر قد يكون الولد مُدَلَّلاً مرفَّهاً ، وحينئذ يكون له فى الأمر رأى ولو بمقدار .

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان محظوراً على الخطيبين أن يتراءيا ، حتى بعد العقد ، إلى أن تحين ساعةُ الزفاف ، بل لقد كانت الفتاة إذا خطبت إلى ابن عمها أو ابن خالها ، أو ابن عمتها أو ابن خالتها ، ممن نشأت معهم وشبت ولاعبتهم فى صغرها ، أسرع أولياؤها لحجبوها عنه ، وبالغوا فى حجابها إلى يوم الزفاف ، شأن الأجنبية سواء بسواء ، وكان لذلك حكمة لا تخفى على فطانة الفطناء !

وتحلُّ ساعة العقد ، فلا يكون وكيل العروس إلا أباها أو عمها ، عند فقده ، أو أخاها وكّلته أو لم توكّل ، تكلّمت أو عقد الحياءُ لسانها عن الكلام .

* * *

وبعد أشهر تُقضَى فى إعداد الجهاز الذى قد يكون موضوعَ مساومةٍ عنيفةٍ بين أولياء العروسين ، يعيَّن يومُ العرس ، أو (ليلة الدُّخلة) فى تعبير النساء :

وتسير (زفّة) الجهاز من بيت العروس إلى بيت (العريس) تتقدمها الموسيقى ، ومن ورائها حملة التحف والآنية الثمينة باسطين تحتها أيديهم ، فهذا يحمل ديباجة من الحرير موشاة بأسلاك الذهب والفضة ، وهذا يحمل طستاً وإبريقاً من خالص الفضة ، أو من النحاس المموه بالذهب والفضة ، وهذا علبة تتكشف عن بضعة أكواب من الفضة ، وهذا طاس حمام كذلك . ولقد ترى آخر يحمل بين يديه قبقاباً مكفتاً بالصدف والفضة !

ثم يلى هؤلاء رتل من (عربات الكارو) لا يدرك الطرف آخره ، قد بُسط الجهاز عليها بسطا ، ومُطَّ فوقها مطا . فهذه حَشِيَّة (مرتبة) ، قد خص بها مركبة ، وهذه خمس وسائد ، قد أفرد لها عربة وقائد ، وهذا (كنسول) عليه مرآة ، قد قصرت العربية عليه دون سواه ، وهذا نَضَد (تربيزة) قد شُجِّر بالزهور ، وهذا

(دولاب) قدّت أبوابه من البلّور ، وهذه تُحف مبسوطة ، وهذه تمارق مبثوثة ، وهذه أريكة بين يديها شِجاب[1] ، وهذان كرسيان قد نشر عليهما ستر باب ، وهكذا ! وهكذا !

ولا تزال هذه العربات تجوز بك وهى فى كلاءة الأحراس ، حتى يختم الموكب ، بفضل الله ، بعربة النحاس . وكان فى عربتين كفاية ، وفى ثلاث فضل . ولكن لا تنس أن للتباهى حكمه ، وللتكاثر غرمه وغنمه !

ولقد ترى أن شيئاً من هذا لا يزال قائماً إلى الآن ، ولكنه أضحى مقصورا على الطبقة الدنيا من الأهلين ، وكيفما كان الأمر ، فلعلك لم تنس أنى قلت فى الحديث السابق إنى أحب أن أجلو الصورة كلها قبل أن تحول ، أو يلحقها الشحول

***

وترسل الدعوة لوليمة العرس إلى الأصدقاء والجيران والمحبين ، وهى رقعة فى حجم الكف تكتب صيغة الدعوة فيها بماء الذهب ، وتبدأ عادة ببيتين أو ثلاثة من الشعر ؛ وكانوا يدعونها (الملحق) . ولكيلا أشق عليك فى إشاعة تخمينك فيما عسى أن يكتب فى هذا (الملحق) ، أعرض عليك نموذجا منه :

من دعى فليجب

ليالى الأنس قد طابت وروقت
وطير الصفو غرّد بالسرور
وجاد الدهر بالبشرى علينا
وداعى السعد وافى بالحبور
فهيا يا أحبة شرفونا
بأنسكمو ومنّوا بالحضور

بمشيئة الله تعالى سيحتفل (فلان) فى يوم (كذا) من شهر (كذا) سنة (كذا) بتأهيل نجله (فلان) على كريمة (فلان) ، وذلك بمنزله الكائن بجهة (كذا) .

فالمرجو التشريف لتتم بكم الأفراح ، وتزول عنا الأتراح .

والحضور الساعة ١٠ عربى نهارا ، والعاقبة عندكم فى المسرات ؟

***

وقبل أن أخوض بك فى ليالى العرس ، فكثيرا ما كان الاحتفال بالعرس يستغرق ليالى لا يقتصر على ليلة واحدة — قبل أن أخوض بك فى هذا ، أقرر أن المصريين كانوا دائما أهل كرم وإيثار ، فما كانوا قط يستأثرون فى أعراسهم ونحوها بأسباب تلذيذهم وتطريبهم ، بل لقد كانوا يسعلونها ويبذلونها فى الطريق العامّ ، قصداً إلى أن يشركهم فيها كل من شاء من الناس .

ولقد قلت لك إن الاحتفال بالعرس كثيراً ما كان يستغرق ليالى لا يقتصر على ليلة واحدة . وهذه الليالى ، ولا يذهب عنك أنى أدير الحديث على أهل الطبقة الوسطى ، كانت فى الغالب ثلاثا : اثنتين منها تدعيان (بالضُّمم) بضم ففتح . أما الثالثة وأعنى بها الأخيرة ، فليلة (الزفة) أو ليلة (الدخلة) ، ليلة تمام الولائم ، ويُقرّب لجمهرة المدعوين شهىّ الطعام .

وأولى هذه الليالى تخص (بخيال الظل) ، وهو عبارة عن دكّة كبيرة تعلو واجهتها شاشة بيضاء تقرب مساحتها من شاشة السينما الآن ، أما جوانبها الأخرى فتحجب بألواح من الخشب يداخل بعضها فى بعض ،

(١) شماعة

وفيها باب لدخول اللاعبين وخروجهم ، وفيهـا يضيئون مشاعل قوية لتجلو على النظّارة ما يعرضون من الصور فى وضوح وجلاء .

أما هـذه الصور فللأناسىّ ، ودوابّ ، وطيور ، وأشياء . وتسوّى هذه الصور من الجلد ونحوه ، تصبغ بمختلف الأصباغ لتحاكى ألوان ما يبدو من الأجسام والثياب .

ويمثل (خيال الظل) رواية قوامها عشق وصبابة بين فتى مصرىّ صميم ، وفتاة بنت راهب مسكنها مع أبيهـا الدير ! وبتخلل هذه الرواية صورٌ استعراضية متنوعة . وكل من يحرّك صورة من صور هذه الأناسىّ يُجرى الكلام على لسان صاحبها فى دقة وبراعة تقليد ، حتى كأنها هى التى تتحدث بأسماع النـاس . فهناك المغربىّ ، والسورىّ ، والبربرىّ ، وابن البلد المصرى . ومن هؤلاء تسمع ما شاء الله من رائع النكت ، وقد يكون بعضها من عفو الارتجال .

ولقد كان أنظم (خيال الظل) هو الذى يديره المعلم حسن قشاش ، وكان سيد أصحاب النكتة فيه غير مدافَع ، هو المرحوم ناجى ، وقد رآه كثير من أهل هـذا الجيل ممثلا بشخصـه فى الأعراس ، أو فى دور التمثيل فى (الفصل المضحك) الأخير . أما دور ناجى فى (خيال الظل) ، فكان تمثيل الغلام (بولس) شقيق (عَلَم) ، والمترسّل بينها وبين صاحبها (تماتير) حتى يصل بينهما الزواج . وكان ، رحمه الله ، يرسل بالنكتة بعد النكتة فى خفة روح ولطف إيقاع ، حتى يكاد يشق أضلاع النظّارة من شدة الضحك المتواصل بغير انقطاع .

وقد ذهب عنى أن أقول لك إن (الطبل البلدى) كان له مجلس بين يدى (الخيال) ليعزف فى أوقات الاستراحة ، أو ليرقص على توقيعه ما يرقص من أشخاص (الخيال) .

***

أما الليلة الثانية فيبعث السمرَ فيهـا (أبو راية) ، و(أبو راية) علَم على تلك الفرق التى كانت تمثل بأشخاصها فى مقدمات ليالى الأعراس ، إذ كانت تُصَفُّ الدكك والكراسى على عِذارى الطريق لجلوس النظّارة ، إذ يترك وسطها مسرحا لاضطراب هذه الطائفة من القلّـين .

وكانت هذه الفرق تمثل كذلك روايات إذا أسفّت مطالبها وسخفت مغازيها ، فلقد كانت سرية بما يشيع فيها من بارع النكتة . ولقد كانت الحال تدعو إلى ظهور امرأة فى بعض الرواية ، على أن امرأةً لم تكن تظهر أبدا ، فكان يُتخذ لهذا الدور إما مخنّاث محترف ، وإما رجل يحسن تقليد النساء .

ولا شك أن سيد هؤلاء القلّـين كان المرحوم الحاج أحمد الفار الكبير . والعجيب أن هذا الرجل على خصوبة بديهته ، وتدفقه بالنكتة يشق الناس لها ثيابهم من الضحك ومن الانبهار ، لم يكن يبتسم أبدا ، بل لقد كان يتكلف الجد إلى حد أنك تراه دائم العبوس .

ومما يحسن فى هذا المقام ذكره ، أن هؤلاء القلّـين كانوا يعتمدون رجلا من صلب أصحاب العُرس أو من حواشيهم ، ولعل ذلك كان بالاتفاق معهم ، فيتخذون منه طول الليل هدفاً للنكتة حتى ما يدعوا فيه أديماً صحيحا ، والناس يضحكون ، والرجل معهم من الضاحكين .

***

وحسبنا هذا اليوم . وسنفرض ليوم العُرس حديثاً خاصا إن شاء الله .

عبد العزيز البشرى

الجمال ...

للأستاذ محمد يوسف همام

يتردد ذكر « الجمال » فى كل بحث فنى ، ويكون له نصيب كبير من الأهمية عند الاستدلال به للوصول إلى حكم نهائى فى كثير من الموضوعات . وقد يكون من السهل أن نتعرف على مواطن الجمال الطبيعى وتقدير قيمته ومعاييره فى بعض مظاهر الطبيعة ، فنُجمع مثلا على جمال ألوان الشمس عند الغروب ، ونتمكن من أن نفاضل بين درجات ألوان الأزهار وقد نستسيغها كلها . كما يمكننا أن نصل إلى ما يشبه الاجماع فى تفضيل أشكال بعض الطيور والحيوان على البعض الآخر ، فالطاووس أجمل من الغراب ، والغزال أرشق من وحيد القرن وهكذا . ولكننا إذا تصدينا لجمال الجنس البشرى ، فلا يمكننا أن نأمن الزلل ،



الجمال المصرى القديم — أميرة من الأسرة الرابعة
(من مجموعة اللورد كرنارفون)

على أن جميع الشعوب والأجناس تتفق جملة على كنه الجمال ، ولكنها تختلف عند الحكم على تفاصيله . وأنت ترى من الصور المعروضة هنا نظرة بعض الشعوب المختلفة لتفاصيل الجمال .



الجمال الايطالى — دونا فيلاتا
(تصوير رافاييلو — متحف بتى بفلورنس)

والجمال إما بصرى تدركه العينان ، أو صوتى تدركه الأذنان ، أو ذوقى يدركه اللسان ، أو غير ذلك تدركه بقية الحواس . والموسيقى تطربنا عن طريق آذاننا ، إذ لا يكون للمبتدئين من عمل فيها إلا رؤية خطوط ورموز فى نوتة الموسيقى ، يترجمها العازف إلى نغمات مختلفة ، وعند قراءتنا لكتاب ما ، يتمتع العقل بجمال الأفكار دون أن يشعر القارئ بالملل من تتالى الصفحات والفقرات أثناء الاستغراق فى القراءة ، وبمثل هذا التفسير نستطيع أن نوالى التفكير عند البحث فى بقية نواحى الجمال الذى ندركه عن سبيل بقية الحواس والأعضاء .

والمفهوم أن الجمال سابق الوجود على الفنون ، فقد شرع

الانسان فى التعبير عن إدراكه لجمال أشكال الحيوان والطير والأزهار ، وما أمدته به الطبيعة من الزخرف ، بالتخطيط على عظام الحيوان وعلى جوانب الكهوف ونحوها ، وبينما



الجمال الانجليزى — ليدى بلسنجتون
(تصوير لورنس — من مجموعة والاس بلندن)

لا تتغير الطبيعة فى نوع الجمال الفطرى الذى تقدمه لنا ، فإن الفنون تتمشى مع الانسان ، وتتغير بالزمن حسب آرائه ورغباته . ومن خصائص الفن الحديث أنه يعمل على خلق الجمال ، والبحث عنه فى أماكن ومواضع لم يسبق



الجمال الفرنسى — الآنسة صوفى أرنولد
(تصوير جروز — من مجموعة والاس بلندن)

للانسان أن وجده فيها . وقد كانت دراسة الرسم حتى القرن الثامن عشر مقصورة على تصوير الأماكن المغطاة بالأزهار ، والأماكن الأثرية والقلاع والجوامع والكنائس



الجمال الاسبانى — دونا إزابل
(تصوير جويا — المتحف الأهلى بلندن)

القديمة ، والصخور الشاهقة ، والغابات والبحار ، إذ كانت هذه الأماكن وقتذاك هي وحدها التي تستحق أن تكون مواضيع للتصوير . وكان التصوير الشمسى فى مستهل عهده يرى هذا الرأى أيضا ، فكان على من يرغب الحصول على صورة لشخصه ، أن يحرص على أن يتخذ جلسة



جمال الزنوج — زنجية تنظر فى المرآة لأول مرة فى حياتها
(تصوير شمسى)

خاصة ، متكئاً على أريكة ذات شكل معين ، وأن يكون وراءه منظر مُزْهر مورق . وكان ترنر الفنان الانجليزي الشهور يخضع في تصويره لهذا العرف الذي كان سائداً



جمال الطفولة — طبيعة
(تصوير لورنس)

إذ ذاك في جمال التصوير . أما اليوم فقد تفتحت عيوننا لضروب أخرى ، وأصبحنا نستطيع رؤية الجمال في الشارع المزدحم بالمارة ، كما نراه في الأماكن الريفية الهادئة سواء بسواء ، لأننا نجد في كليهما جمالا في الأشكال والألوان والتكوين والمنظر العام .



جمال الطبيعة — عبور الجدول
(تصوير ترنر — المتحف الأهلي بلندن)

وقد أخطأ أكثر الناس في تضييق دائرة الجمال ، بأن حصروها فيما يستدعي « المحبة » أو « الاستلطاف » ، وبالأخص في الجاذبية نحو الجنس اللطيف ، فكانت هذه الرغبة في الناحية الجثمانية للجمال ، مانعة لبعض الناس من العمل على كشفه في النواحي الأخرى ، التي يجاهد الفنانون المختلفون على إظهارها في منتجاتهم . فكان شاردا الفرنسي وغيره من الفنانين الأقدمين ، وسيزان من الفنانين العصريين ، يكتفون بالطبيعة الصامتة ، وكان كورو يرى الجمال في ضوء الفجر أو الغروب ، فلم تبهره درجات ضوء الشمس الوهاجة ، واكتفى منها بفتنتها اللؤلؤي في مطلع النهار ، وببقاياها الرمادية في نهايته ، وما كان يراه على بصيصها من الألوان الداكنة في الخضرة والعشب والحشائش ، كما أن المصورين التأثريين كانوا يرسمون عدة صور للمنظر الواحد في ساعات مختلفة من النهار وفي فصول السنة المختلفة ،



جمال الطبيعة الصامتة — (تصوير سيزان)

لأنهم كانوا مغرمين بالضوء وأثره ، ويعشقون تصويره .

والجمال البصري موجود في كل مكان ، فاذا وعته أعيننا وكانت صفحة عقلنا يقظة لالتقاط المرئيات ، فاننا نجد في كل لحظة ما يستوجب إعجابنا بآيات الجمال ، ذلك الاعجاب الذي هو نوع من العبادة . فان فشلنا في إدراك الجمال ، فاننا بذلك نفقد بهجة الفنون ومتعة الحياة .

وقد اعتاد الناس أن يفهموا عمل الفنان على أنه محصور فى النقل عن الطبيعة ، وأن الشكل المطابق للطبيعة الجيد المحاكاة لها ، سواء أكان صورة لانسان أو لحيوان أو لمنظر طبيعى ، هو الجدير بالمدح والاعجاب ، كما اعتادوا الاعجاب بعازف الموسيقى عند ما كان يجيد محاكاة صوت دق الأجراس ، وصهيل الخيل ، ووقع الأقدام ، وزقزقة العصافير ونحوها . ولكن لا يمكن أخذ هذه المحاكاة على أنها الفن كله . حقاً أنها ضرورية فى بعض نواحى الفن كتصوير الأشخاص ، ولكنه يجب أن يكون هدف الفنان هو التعبير لا المحاكاة ، وأضرب مثلا لما أقصده بالتعبير ، فن الحفارين على الحجر فى القرون الوسطى ، فقد كانوا يعبرون فى حفرهم ، عن الخصائص العامة لكل النباتات دون أن يعنوا ببيان نبات معين . كما أن الأخوين مارتن المشهورين بصنع الأوانى الفخارية ، كانا مغرمين بالرجوع دائماً بأعمالهما لأصول التكوين الطبيعى . وقد رُوى عن أحدهما أنه كان يحتفظ بأرجل الجمبرى الكبير فى جيبه لمدة أيام ، ليرجع إليها من آن لآخر دارساً طلاءها ، وفاحصاً عقدها وتعاريجها وألوانها وتخطيطاتها ، وكانت تنتهى دراسته هذه بإخراج إناء فنى جميل ، لا محاكاة فيه لشكل الجمبرى أو لأرجله ، بل عليه مسحة من شكله ولمعان سطحه ولونه وطلائه وزخرفته ، من قبيل الاقتباس .

وقد يرى المصور أن جمال الطبيعة ساذج غير ناضج ، فيحور فيه ويعدل بالاضافة والتبديل ، ويدخل فيه من عنده رغباته فى ماهية الجمال ، وغرضه من ذلك أن ينضج الجمال فتذهب سذاجته ، ومن ثم يصبح الجمال فى نظره مثلا أعلى للكمال . والمرأة هى الفنان الأول فى تزويق وجهها على النحو المذكور من قديم الزمان . ونحن نرى فى منتجات الفنانين ولوحاتهم فى جميع الأزمان ، تعبيرات اختص بها كل منهم فى تصويره ، فيراها بعضنا ولا أصل لها فى الطبيعة مثلا من أمثلة تزويق الطبيعة وتحليتها .

محمد يوسف همام

لاعبو النرد

للمصور الإسبانى موريلو Murillo

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

نهض فن التصوير بإسبانيا فى القرن السابع عشر ؛ وازدهرت فيها مدرسة كانت لها ميزاتها الخاصة وأساليبها الوطنية ، وكان من أعلامها ڤلازكز Velazquez وموريلو . وقد تأثر المصورون الاسبانيون ببعض أعلام الفنانين فى إيطاليا وهولندة ؛ ولكن عبقريتهم كانت مستمدة من الأندلس نفسها ، ومن طبيعة أهلها . وعرفت مدرسة التصوير الاسبانية بشيء من الجلال والوقار ، يتجلى فى أكثر منتجاتها من الصور الدينية .

على أن أحد أعلام هذه المدرسة ، ونقصد موريلو ، شذ فى بعض منتجاته عن ذلك الجلال ، وترك لنا بضع لوحات فنية لا شأن لها بوقار الموضوعات الدينية ، أو فخامة البلاط .

وقد ولد بارتولوميه موريلو سنة ١٦١٧ فى اشبيلية من أسرة فقيرة . وظهر حسن استعداده للتصوير منذ حداثته ، وأتيح له بعد ذلك أن يذهب إلى مدريد ، وأن يكون مدة عامين تلميذا للمصور الاسبانى العظيم ڤلازكز ، الذى كان يعيش فى بلاط إسبانيا ، ويعنى برسم الملك والأميرات والأمراء ورجال الطبقة العليا ، ثم رجع موريلو إلى أشبيلية مسقط رأسه . وظل يعمل فى الأندلس حتى مات سنة ١٦٨٢ . واشتغل موريلو فى حياته برسم اللوحات الفنية الدينية للكنائس والأديرة . ولكنه لم ينسج فى رسمها على منوال أقرانه من كبار المصورين ، بل صور تلك الموضوعات الدينية فى بيئة إسبانية ، ورسم العذراء والقديسات فى هيأة فلاحات أندلسيات باسمات . وامتازت ألوانه بالدعة والهدوء ، كما لوحظ أن على أشخاص صوره مسحة من الضعف والرقة .

ولسنا نريد هنا الحديث عن آثاره الفنية الدينية ، وهى كثيرة . ولكن الذى يعنينا بوجه خاص أربع لوحات من منتجاته ، تمثل أبناء الشوارع فى الأندلس . وهى محفوظة الآن فى أحد متاحف التصوير بمدينة ميونخ . وفى الصفحة المواجهة صورة إحدى هذه اللوحات نرى فيها صبيين يلعبان النرد فى حماسة ظاهرة وقد وقف بجانبهما صبي ثالث يأكل قطعة من الخبز فى يده . وقد تنبى الصبْية سلة الفاكهة التى يجب عليهم السعي فى بيعها . وإن الذى يذكر منظر فريق من جامعي أعقاب السجاير فى مصر ، وقد انتحوا جانباً من الطريق يتحدثون فى جد أو يقتسمون بضاعتهم ، يستطيع أن يدرك إلى أى حد وفق موريلو فى حسن التعبير عن البيئة الشعبية البائسة التى كانت تشكو منها إسبانيا فى ذلك الحين ؛ فقد كانت الحكومة غنية وكان الأشراف أغنياء ، ولكن الشعب الذى عاش موريلو بين ظهرانيه يتمثل فى هذه اللوحات التى رسمها : أطمار بالية وأقدام تكاد أن تكون حافية وبطون يرجح أنها خاوية . ومع ذلك كله فقد صور موريلو أولئك الصبية وكلهم المخلص فى لحظة من لحظات سرورهم ، وجعل على وجوههم مسحة من الحسن والطيبة ، وفى أجسامهم طابع من النعومة لا ينم تماما عما يعيشون فيه من بؤس وشقاء ، ولكن عيونهم السوداء وأجسامهم السمراء تنطق بأنهم اسبانيون . وهذا المنظر الذى وضعهم فيه موريلو يؤيد ما عرف عنه من التوفيق فى التعبير عن حلاوة الأندلس .

وقصارى القول أن موريلو كان فخر بلدته اشبيلية ، وأنه نجح فى تخليد بعض مناظر الحياة فيها . ولا عجب فقد كانت بيئته المحبوبة . ولا ريب فى أن صورة الشحاذ التى رسمها والمحفوظة الآن فى اللوفر تمثل واحداً من كثيرين ، كان رآهم موريلو ويعرفهم حق المعرفة . وكذلك صبية الشوارع الذين أشرنا إليهم ، عرفهم موريلو وخالطهم وأنس إليهم فى حداثته .

زكى محمد حسن

أدب الطبيعة :

بركة البحترى وبحيرة «لامارتين»

للأستاذ شفيق جبرى

أنس أبو عبادة البحترى بكل منظر من مناظر الطبيعة ، فتغنى بالربيع وهو ينمنم وشى حلّتها الخضراء ، وبالخريف وهو ينسج لها حليها الصفراء ، واستوفت عينه حظّها من رُباها وقد صبغها الليل بلونه الأسود ، ومن آفاقها وقد اختضبت بالصباح الورد ، وعلّت أذنه قِسمتَها من هديل حمامها ، وحفيف ورقها ، وصخب بحرها ، وزجل رعدها ، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وآسها وطلحها وشيحها وقيصومها وزعفرانها وأقحوانها ، فقد ملأ نفسه من كل جزء من أجزائها ، من ذهب شمسها وفضة مائها ، ومن ركام ثلجها على الجبال ، واندفاق غيثها فى غداةٍ مخضلّةٍ ، أو عشىٍّ مبتل .

فقد صقلت خياله نواحٍ كثيرةٌ فى هذه الطبيعة . فما فتح عينيه فى صباه حتى رأى بلدة منبج ، فتمتع من طيب هوائها ، وعذوبة مائها ، ورقة نسيمها ، وصحة تربتها . وما نشأ وترعرع حتى سرح فى أهاضيب لبنان ، وغوطة دمشق ، وبساتين حلب ، وجنات الساجور ، ونخيل العراق ، وعكف على قصور بنى العباس كالجعفرى والصبيح والمليح ، فتكامل خياله فى أفياء حيطانٍ من زجاج ، وسقوف من ذهب وبرك من رخام ، فنشأت عن هذا كله بينه وبين الطبيعة صلة محكمة ، فقد فهم لغتها وألحانها ، وعرف وجوهها وألوانها ، فكانت روحه قطعةً من هذه الطبيعة .

كان يلجأ إلى الطبيعة فى كل حال يفتش فيها عن صورةٍ من صور أحبته ، فلا يستلهمها لوناً من الألوان إلاّ ألهمته إياه ، ولا يستوحيها إلاّ أوحت إليه ، فكان لا يرى ضحك الأقاحى إلا رأى وراء هـذا الضحك رضاباً ووداً ، وكان لا يرى جنوح الشمس للأصيل إلا رأى فى أضعافها جنوح حبيبته لوَشْك بُعدٍ أو لفراق ، وكان لا يرى تعطف أملود البان إلا رأى فى ظلاله ميل هـذه الحبيبة إلى العناق ، وما كان يبـدو له صحن العراق ، وتكشف له سجوف الدجى عن ماء العراق وعن نخيله ، وبهدل الحمام فى جنباته ، إلا ذكّرته هذه المشاهدُ كلها أحبابه .

لقد عمره حب الطبيعة ، لأنها تشتمل على صور ، ترضى عينه وأنفه وأذنه . فلولا هذا التناسق بينه وبين الطبيعة لما وجد لها معنى من المعانى ، فأى معنى لتنفس الروض فى جنح باردٍ من الليل لو لم يذكّره هذا الروض أنفاس أحبته ! وأى معنى لترقرق الندى فوق الشقائق لو لم تحمل هذه الشقائق دموع التصابى فى خدود الأحبّة ؟ وأىّ معنى للمعان البرق لو لم يكن هذا اللمعان ابتسامةً من الابتسامات ؟

على أنه كان ينفصل فى بعض الأحايين عن نفسه ، فلا يريد أن يرى فى الطبيعة صوراً تهزّ هذه النفس ، وإنما كان يريد أن يرى لها حياةً مستقلةً ومزاجاً منفرداً . فاذا رأى الربيع رأى له وجهاً يضحك ولساناً ينطق ، وإذا رأى النور فى غَلَس الدجى ، رأى ورداً نائماً ينبهه هذا النوروز ، وإذا رأى برد الندى رأى وراءه صدراً ضيقاً يحمل الحديث ، فلا يلبث أن يبثّ هذا الحديث المكتّم .

غير أنه سرعان ما يعود إلى عادته من الاتصال بالطبيعة

فينكر عليها الاستقلال بالحياة ، ولا يرى فيها إلاَّ صور أحبته ، فلا تنعطف أشجار قصر من قصور الخليفة إلاَّ كان هذا التعطف صورة مشى العذارى في عشية من العشايا .

ولم يقتصر على التعلق بالطبيعة لأن في كل جزء من أجزائها صورة أحبته ، وإنما اتصل بها لأنها تمثل له أشكالاً يفتقر إليها فنه ، فكما أشبعت هذه الطبيعةُ مجامعَ حواسه فقد أرْوَتْ طائفةً من فنه . فكان لا يرى حيطاناً من الزجاج في قصر من قصور بني العباس إلاَّ مثّلت له هذه الحيطان لجج البحر وهي تموج على الساحل ، وكان لا يرى تفويف الرخام في هـذا القصر إلاَّ رأى في هذا التفويف حيكَ الغمام وقد رصفن بين ألوان متفاوتة وأشكال متباينة ، وكان لا يرى الذهب الصقيل الذي لبسته السقوف إلا رأى نوراً يضيء على الظلام ، فكانت الطبيعة مادةً حسه ومادةً فنه ، فألهمت هذا الحس ضروب الاهتزازات والابتسامات والتعطفات ، وألقت على هذا الفن حَلْيها وحُللها ووشيها وديباجها .

ولكنَّ الطبيعةَ أفسحُ من أن تكون مستودعاً لا يرى فيه الشاعر إلاَّ صورة اعتدال القد ، واهتزاز الخصر ، وابتسام الثغر ، أو صورة سقوف من ذهب أو حيطان من زجاج ، فلم يصل البحترى شعوره بالطبيعة ، وإنما وصل بها حواسّه ، فاتصل بها من ناحية المادّة ، وانفصل عنها من ناحية الروح ، وإذا تداعى الحمام للنوح في بعض الأحايين وبث هـذا الحمامُ في قلبه كمين الأسى ، وصل البحترى دمعه بنوح الحمام ، ولكن قلبه بقى محجوباً عن الطبيعة . وقـد يزيد الغمام حيناً في شوقه ، ويهيجه زجلُ الرواعد تحت الليل ، ولكنه كان لا يناجي هذا الغمام ، ولا يناغي هذه الرواعد ، فلم يقاسم الطبيعة همومها ، ولم تقاسمه همومه ، ولم يشركها في أفراحها ، ولم تشركه في أفراحه . وإذا أردنا أن نعرف كيف نألف الطبيعة وكيف يألفها الافرنجة ، وجب علينا أن نقارن بين يسير من نظرتنا ونظراتهم إليها .

وقف البحترى على بِرْكة الجعفرى قربَ « سُرَّ من رأى » فمدَّ هذه البركة واحدةً ، وعدَّ البحر ثانيها في العظمة . فماذا رأى على أحفّة هذه البركة ؟ رأى دجلة في جوانبها ، وهي تجرى ، تنافسها في الحسن طوراً وتباهيها أحياناً ، ورأى جن سليمان قد أبدعوها وأدقّوا في معانيها ، ورأى ماءها وكأنه الفضة البيضاء تسيل من سبائكها ، ورأى الصَّبا تملوها فتبدي لها حبكا مثل الجواشن قد صقلت حواشيها ، ورأى الشمس تضاحكها والغيث يباكيها ، ورأى سماءً ركبت فيها من النجوم ، ورياضاً تحيط بها كأنها ريش الطواويس !

كل هذا حسن ، وكل هـذا يلهى العين والأذن ! ولكن ألا نجد على صفحات الماء إلاَّ صوراً مادية ؟ ألا يكون للقلب نصيب وافر من فيض شعوره على هذا الماء ؟

وقف البحترى وقفته هـذه ، ووقف بعض شعراء الافرنجة على البحيرات ، فهل تشبه وقفة « لامارتين » على بحيرته ، وقفة البحترى على بركته ؟ إنى لا أحفظ إلاَّ قليلاً من شعر « لامارتين » في بحيرته ، ولكن هذا القليل كافٍ على ما أعتقد في بيان مبلغ فهمنا للطبيعـة وفهم الافرنجة لها .

ما الذى يُهِمّ « لامارتين » في نزهتـه على بحيرة « بورجيه » مع حبيبته « إلفير » ؟ إن الذى يهمه أن تذكر هذه البحيرة أن « لامارتين » كان يحدق أمواهها مع هذه الحبيبة في شيء من الصمت والهدوء ، وأن الآذان كانت لا تسمع على وجه الماء وتحت السماء إلى جَلَبَة المجاديف التى كانت تصدم متناسق الأمواج . ماذا كان يسمع « لامارتين » على هذه البحيرة ؟ كان يسمع أصواتاً تجهلها الأرض ، تأتي من ساحل البحيرة ، فتشق الأصداء ، كان يسمع أصواتاً يصغى إليها الموج كل الاصغاء .

ماذا في هذه الأصوات ؟ فيها خطاب للأزمان والساعات ، فكأنها تطلب إليها أن تخفف سيرها ، وأن تفسح للامارتين في التمكن من ذوق اللذات السريعة التي تحملها أيامه الحسنة . ماذا كان يرى « لامارتين » على هذه البحيرة ؟ كان يرى صخرات خرساً ، وغابة مظلمة ، فكان يطلب إلى هذه البحيرة ، وإلى هذه الصخرات ، وإلى هذه الشجرات التي يبقى عليها الزمان ، أو يجدد لها شبابها ، كان يطلب إليها وإلى الطبيعة الحسنة أن تحتفظ بذكرى هذا اليوم الحسن الذي قضاه مع حبيبته على وجه الماء !

نفخ « لامارتين » روحاً في الطبيعة من عنده ، وأشركها في آلامه وأحلامه ، فوصل بها كل ناحية من نواحي قلبه . كان يجد في هذه الطبيعة معبداً ، يسمع فيه على عزلته وعلى هدوئه أصواتاً تعلمه ما عند الله ، فالذي يجده في الطبيعة إنما هو الرفق والهدوء والتناسق ، أي كل ما يبسط القلب ، ويرققه ، وكل ما يحمل النفس على طول التأمل والأحلام . أما البحتري فلم يجد في الطبيعة إلا ما يسر الأذن والعين والأنف !

على أي شيء يشتمل شعر « التأملات » ؟ لقد شغلت المرأة التي أحبها « لامارتين » قلبه في كل هذا الشعر . فإذا طلع القمر فكان لا يجد في ضوء هذا القمر إلا أرواح الموتى التي انحدرت إليه بأحاديثها . وإذا نزل الوادي الذي قضى في ظلاله ميعة صباه ، فكان لا ينزله إلا ليريح نفسه الأثيمة التي لم يبق فيها إلا الحب وحده . وإذا نزه على بحيرة « بورجيه » مع حبيبته التي فقدها ، طلب إلى هذه البحيرة أن تحتفظ بذكرى سعادته السريعة . وإذا طلع عليه الخريف ، وأضاءت هذا الخريف شمس ممتقعة عاد « لامارتين » إلى التلهف على الحياة وقد استعد للموت . وهكذا شأنه في بقية أشعاره التي مزج فيها روحه بالطبيعة . ففي شعر النجوم ، أعار هذه النجوم روحاً من عنده ، وعد نفسه نجماً يلهم الناس الخير ، ويعزيهم : أيتها الشموس ! أيتها العوالم الثائبة حيث تقيم ! قولي لنا إذا قال لك شيئاً : إلى أين نحن ذاهبون ؟ . وفي شعر نبع الغابات ، فإن خرير الماء ، قد ولّد في ذهنه أفكاراً تشيع فيها التقوى والماليخوليا !

فالفرق بيننا وبين الإفرنجة ، أنهم اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم وحواسهم ، فخلقوا لها قلباً يشعر شعورهم ، وعيناً تبكي بكاءهم ، وصدراً يفرح فرحهم ، فشاطروها آلامها ، وشاطرتهم آلامهم . وإذا كان في بعض شعرنا شيء من أشباه هذه النزعات ، إذا دعا بعض شعرائنا الحمام إليهم ليقاسموها الهموم ، أو عاتبوا شجر الخابور لأنه مورق لم يجزع على ابن طريف ، إذا كان في بعض شعرنا شيء من هذا كله فهذا شيء قليل ، وأقل من القليل . لقد كانت الطبيعة في شعرنا لذة العين ولذة الأذن ، ولكنها لم تكن لذة الروح ، فلم يتضافر ضياء الشمس ، وورق الشجر ، وهديل الطير ، وهبات النسيم على تعويدنا لذة الروح ، وإذا ألهمتنا الطبيعة بعض صور مادية ، فإن شعورنا وعواطفنا لا تزال جامدة أمام هذه الطبيعة !

(دمشق) شفيق جبري

الظراف والمتماجنون

للأستاذ ناجي الطنطاوي

ذكّرني ما كتبه الأستاذ أحمد أمين في العدد الرابع عن كتاب «الظرف والظرفاء» للوشاء، بكتاب آخر في الموضوع نفسه اسمه كتاب «الظراف والمتماجنين»(١) لابن الجوزي، ينحو فيه نحواً آخر. إذ بينما نرى الوشاء يقصر كتابه على الكلام في سنن الظرف وقواعده وقوانينه وأحكامه وزي الظرفاء، وعاداتهم في المأكل والمشرب والملبس، وما شاكل ذلك، نرى ابن الجوزي يخصص كتابه لسرد أخبار الظراف وحكاياتهم وأخبارهم على اختلاف أنواعهم، بعد أن يورد مقدمة موجزة، يتكلم فيها عن تعريف الظرف والظراف باختصار.

وابن الجوزي أشهر من أن يعرّف. فقد عاش في القرن السادس الهجري، وأقبل على ارتشاف مناهل العلم منذ صغره، وفاق أقرانه ذكاء، واستعداداً وقوة حفظ، ولم يكد يبلغ سنّ الشباب حتى ذاع صيته وعُرف فضله، وبدأ بالتأليف والتدريس، حتى قيل إن مجلسه حُزر بمائة ألف، وحضر مجلسه الخليفة المستضيء، مرات، من وراء الستر، ويقال إنه جمعت بُراية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته، ففعل ذلك فكفت وفضل عنها، وقد ألّف في كل علم وفن: في التفسير، والحديث، والفقه، والزهد، والوعظ، والأخبار، والتاريخ، والطب وغير ذلك. وقد بلغت مؤلفاته — على ما قيل — ثلثمائة مصنف. قال الموفق عبد اللطيف: «كان ابن الجوزي لطيف الصوت، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات، لذيذ الفاكهة، لباسه الأبيض الناعم المطيّب، وله مجون لطيف، ومداعبات حلوة، ولا ينفك من جارية حسناء».

فلا عجب أن رأيناه يؤلف في الظراف والمتماجنين وهو كما رأينا مجبول على الظرف.

يستهل الكتاب بمقدمة يذكر فيها الدافع إلى تأليفه إذ يقول: «أما بعد فلما كانت النفس تملّ من الجد، لم يكن بأس بإطلاقها في مرح ترتاح به، وقد بلغني عن جماعة من الفطناء والظرفاء حكايات تدل على قوة فهومهم، فسماعها يشحذ الذهن، وينبّه الفهم، فأحببت أن أذكر منها طرفاً» ثم ينتقل من هذه المقدمة إلى تعريف معنى كلّ من لفظتي المجون والظَّرف، فيعرّف المجون بقوله: «إنه صرف اللفظ عن حقيقته إلى معنى آخر، وذلك يدل على قوة الفطنة» ويعرّف الظَّرف بقوله: «إنه يكون في صباحة الوجه ورشاقة القد، ونظافة الجسم والثوب، وبلاغة اللسان، وعذوبة النطق، وطيب الرائحة، والتقزز من الأقذار والأفعال المستهجنة. ويكون في خفة الحركة، وقوة الذهن، وملاحة الفكاهة والمزاح. ويكون في الكرم والجود والعفو، وغير ذلك من الخصال اللطيفة» ولعله في هذا التعريف أوجز ما فصّله الوشاء في كتابه في باب «سنن الظرف» إذ تكلم عن صفات الظرفاء، وأخلاقهم بما ينطبق على كلام ابن الجوزي ولا يخرج عنه.

وبعد هذا التمهيد يبدأ ابن الجوزي بسرد أخبار الظراف، فيبدأ بذكر ما روي من ذلك عن الأنبياء، ثم الصحابة، ثم العلماء والحكماء، ثم العرب، ثم العوام. ويعقد بعد ذلك باباً لما يذكر في ذلك من النساء والصبيان.

فمن أجمل ما يرويه عن الأنبياء، أن الهدهد جاء إلى سليمان فقال: أريد أن تكون في ضيافتي. فقال سليمان: أنا وحدي؟ فقال: لا، بل أنت والعسكر في يوم كذا على جزيرة كذا. فلما كان ذلك اليوم جاء سليمان وعسكره

(١) طبعه في دمشق صديقنا السيد حسام الدين القدسي سنة ١٣٤٧ هـ في أكثر من مائة صفحة.

فطار الهدهد فصاد جرادة فخنقها ورمى بها فى البحر وقال : كلوا ، فمن لم ينل من اللحم نال من المرق ! فضحك سليمان من ذلك وجنوده حولاً كاملاً . ومما يروونه عن الصحابة أن معاوية قال لعبد الله بن عامر : إن لى إليك حاجة أتقضيها ؟ قال : نعم ، ولى إليك حاجة أتقضيها ؟ قال : نعم . قال : سل حاجتك . قال : أريد أن تهب لى دورك وضياعك بالطائف . قال : قد فعلت . قال : وصلتك رحم ، فسل حاجتك . قال : أن تردها علىّ . قال : قد فعلت ! وأن أبا بكر خرج فى تجارة إلى بصرى قبل موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعام ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة ، وكانا قد شهدا بدراً ، وكان نعيمان على الزاد وكان سويبط رجلاً مزّاحاً فقال لنعيمان : أطعمنى ، قال : حتى يجىء أبو بكر . قال : أما لأغيظنك . فمرّوا بقوم فقال لهم سويبط : تشترون منى عبداً لى ؟ قالوا : نعم . قال : إنه عبد له كلام فهو قائل لكم إنى حرّ فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه فلا تفسدوا علىّ عبدى . قالوا : لا بل نشتريه منك . قال فاشتروه بعشر قلائص ، ثم أتوه فوضعوا فى عنقه عمامة أوحبلاً . فقال نعيمان : إن هذا يستهزئ بكم وإنى حرّ ولست بعبد . فقالوا : قد أخبرنا خبرك ، فانطلقوا به . فجاء أبو بكر فأخبروه بذلك فاتبع القوم فردّ عليهم القلائص وأخذ نعيمان ، فلما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم أخبروه فضحك وأصحابه منه حولاً .

ومما يروونه عن العلماء أن رجلاً سأل الشعبى عن المسح على اللحية فى الوضوء فقال : خللها بأصابعك . فقال : أخاف أن لا تبلها . قال : فانقعها من أول الليل . وروى الشعبى يوماً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «تسحروا ولو أن يضع أحدكم أصبعه على التراب ثم يضعه فى فيه» . فقال رجل : أى الأصابع ؟ فتناول الشعبى إبهام رجله وقال : هذه ! وأن سفيان بن عيينة قال : دعانا سفيان الثورى يوماً فقدم إلينا تمراً ولبناً خاثراً ، فلما توسطنا الأكل قال : قوموا بنا نصلى ركعتين شكراً لله . قال سفيان بن وكيع : لو كان قدّم إليهم شيئاً من هذا اللوزينج المحدث لقال لهم : قوموا بنا نصلى تراويح . وأن رجلاً قال لهشام بن عمرو الفوطى : كم تعدّ ؟ قال : من واحد إلى ألف ألف . قال : لم أرد هذا ، قال : فما أردت ؟ قال : كم تعدّ من السنّ ؟ قال : اثنين وثلاثين : ست عشرة من أعلى وست عشرة من أسفل . قال : لم أرد هذا . قال : فما أردت ؟ قال : كم لك من السنين ؟ قال : مالى منها شىء ، كلها لله عزّ وجلّ . قال : فما سنّك ؟ قال : عظم . قال : ابن كم أنت ؟ قال : ابن اثنين أب وأم . قال : فكم أتى عليك ؟ قال : لو أتى علىّ شىء لقتلنى . قال : فكيف أقول ؟ قال : قل : كم مضى من عمرك ؟

ومما يروونه عن الأعراب أن أعرابياً وَلِىَ البحرين فجمع يهودها فقال : ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟ قالوا : نحن قتلناه وصلبناه . قال : فوالله لا تخرجون حتى تؤدوا ديته ، فأخذها منهم . وأن أعرابياً أقبل يريد رجلاً ، وبين يدى الرجل طبق فيه تين ، فلما أبصر الأعرابىّ غطى التين بكساء كان عليه والأعرابى يلاحظه ، فجلس بين يديه فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم . قال : فاقرأ . فقرأ الأعرابى : «والزيتون وطورسينين» قال الرجل : فأين التين ؟ قال : تحت كسائك .

ومما يروونه عن العوام أنه قيل لبعضهم : أتحب أن تموت امرأتك ؟ قال : لا . قيل : لم ؟ قال : أخاف أن أموت من الفرح . وأن رجلاً بات فى دار قوم فأتاه صاحب الدار بالليل فسمع ضحك الرجل فى الغرفة ، فصاح به : يافلان ! قال : لبيك . قال : كنت فى الدار فما الذى رماك إلى الغرفة ؟ قال : قد تدحرجت . فقال : الناس يتدحرجون من فوق إلى أسفل ، فكيف تدحرجت أنت إلى فوق ؟ قال : فمن هذا أضحك !

ومما يروونه عن النساء أن دلالة جاءت إلى رجل فقالت عندى امرأة كأنها طاقة نرجس . فتزوجها ، فإذا هى عجوز

(البقية على الصفحة التالية)

لماذا فشلت في مصر تربية سلالات جيدة من الحيوانات؟

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

أستاذ علم الطفيليات بكلية الطب ومدير معهد ومستشفى فؤاد الأول لطب البلاد الحارة

اختصت بعض الممالك أو الأقاليم بسلالات جيدة من حيوانات معينة، حتى أصبح انتماء حيوان خص إليها شهادة بتفوقه ونفاسته، وارتفاع قيمته، ومغريا على اقتنائه. مثال ذلك الجواد العربي، وغنم مورينو الاسبانية، وبقر جرسي (انجلترا)، وماعز أنقرة، ودجاج لجهورن الإنجليزى وغير ذلك.

وقد حاولت مصر فيما حاولت طوال نهضتها الحديثة إدخال سلالات جيدة إلى مصر باستجلاب عدد كبير منها من بلاده الأصلية، وتربيته والعناية به عناية خاصة، رغبة في زيادة ثروتها الحيوانية. وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن أكثر هذه المحاولات قد فشلت، أو لم تصادف ما كان متوقعاً لها من نجاح. وتلمس الكثيرون أسباباً لهذا الإخفاق، فعزوه تارة إلى عدم كفاية من يقومون بتربيتها والعناية بأمرها، ثم عزوه إلى الجهل بطرق تغذيتها، وعادوا فنسبوه إلى اختلاف الجو في مصر عنه في موطنها الأصلي، إلى غير ذلك ...

ولا شك أن هذا الموضوع على جانب عظيم من الناحية الاقتصادية. فصناعة السجاد وقيمة الأصواف من الوجهة التجارية تكاد تتوقف على نوع الغنم ونعومة الشعر وطوله، كما أن سباق الخيل لا يبرّز فيه سوى الأصيل من الخيول العربية، وكما أن الأبقار في كثير من البلاد تدر كمية هائلة من اللبن ومنتجاته، تكاد تبلغ أضعاف ما تنتجه الأبقار المحلية. وناهيك بعدد البيض الذي تنتجه الدجاجة الإنجليزية في السنة، وحجم البيضة الكبير بالنسبة للبيضة المصرية، حتى صار اسم البيض المصري في أوربا مرادفاً للضآلة والقلة.

وقد يدهش الرجل العادي عند ما يعلم أن تربية الخيول العربية لم تنجح في غير موطنها إلا في البلاد الإنجليزية على بعد ما بين الدارين واختلافهما، بينما مصر المجاورة للبلاد العربية، وذات الاتصال الوثيق بها، والتي تقرب منها مناخاً لم تكسب من الشهرة ما كسبته انجلترا في هذا الباب!

وهناك مثل يبين بالذات كنه العامل المهم في الحصول على أجود السلالات من الحيوان. وهو «تربية الثعلب الفضي في كندا» فهذه الثعالب التي يتهافت على اقتناء فرائها الغانيات الموسرات وسيدات المجتمع في الخافقين، ويدفعن مسرورات الأثمان الباهظة، التي تتراوح بين ١٠ جنيهات و١٠٠ جنيه، قد احترف تربيتها مربون محترفون ووفروا على أنفسهم عناء اصطيادها من الأقاليم القطبية، واجتنبوا الأخطار والمشاق، وتفادوا الخسارة فيما لو خدشت جلود الثعالب أثناء اصطيادها فصارت معيبة،

قبيحة، فقال للدلالة: غششتني. فقالت: لا والله، إنما شبهتها بطاقة نرجس لأن شعرها أبيض، ووجهها أصفر، وساقها خضراء.

وبعد، فإذا كانت كتب العلم لازمة لتثقيف الذهن وتنمية العقل، فإن هذا الكتاب وأمثاله لا تقل ضرورة الطالع عن تلك، لما فيها من الترويح عن النفس والترفيه عنها بعد إجهادها بالدرس، وهذه هي فيما أعتقد الغاية التي من أجلها ألف ابن الجوزي كتابه هذا، وبعض الكتب الأخرى المشابهة له أمثال كتاب «الأذكياء» وكتاب «الحمقى والمغفلين».

(دمشق) ناجي الطنطاوي

فقد وجد هؤلاء الاخصائيون أن هذه الثعالب في الأسر تتفاوت قيمة فرائها تفاوتاً عظيماً ، فبينما يجود بعضها ويمتاز بسمك الجلد وطول الشعر ولمعانه إذا بالبعض الآخر لا يقبل على شرائه أحد لنحافة جلده وقصر شعره وانطفاء رونقه .

والفرق بين ثمن النوع الجيد من الجلد والردىء هائل دعا إلى استقصاء السبب . وسرعان ما تجلى أن تربية الثعالب في الأقاليم التي تزيد حرارتها عن الأقاليم القطبية (الموطن الأصلي لأجود أنواع هذه الثعالب) تهيىء الفرصة لانتشار العدوى بديدان طفيلية تعيش في أمعاء الثعالب من نوع قريب في فتكه بالجسم من الانكلستوما التي تصيب الانسان .

وعلى ذلك عمد هؤلاء الاخصائيون في مزارع تربية الثعالب إلى علاجها لدى إصابتها بهذه العدوى التي تشخص بفحص برازها بالأدوية المضادة لهذه الديدان ، وهي نفس الأدوية المضادة للانكلستوما في الانسان فتتحسن في الحال جلودها وترتفع قيمتها .

وطريقة إعطاء هذه الأدوية لتلك الثعالب طريقة ممتعة ، فهي ضارية لا يمكن الاقتراب منها أو وضع شيء في فمها . لذلك اخترعت بندقية خاصة تحشى بمحافظ الأدوية التي تقتل تلك الديدان ، وتقدم للثعلب فوهتها من خلال القضبان فيهجم عليها ويطبق عليها أسنانه ، وإذ ذاك يطلقونها فتنقذف المحافظ في حلقه فيبتلعها .

والعدوى بالطفيليات هي أهم العوامل التي تؤثر على جودة السلالات . والطفيليات حيوانات دنيئة ليس في جسمها حرارة ذاتية كبيرة ، ولذلك تخضع لدرجة الحرارة المحيطة بها . ومن ثم تنتشر في الجو الحار الرطب ، وتكاد تنعدم في الأقاليم الباردة والأراضي الجافة . وهذان العاملان — الحرارة والرطوبة — يفسران اختصاص الأقاليم المختلفة بالسلالات الجيدة من الحيوان . فالجواد العربي يعيش في الصحراء ولا يتعرض كثيراً للطفيليات ، فإذا جيء به إلى مصر وأكل برسيمها وشرب ماءها حيث الظروف موائية لانتشار الطفيليات التي تعشش بالذات في أحشاء الحصان المصري ، انحطت صفاته ، وقريب حصان العربة « الكارو » الذي هو مضرب الأمثال في عدد الطفيليات الموجودة به ، حتى لقد كتب عنها كتاب خاص يعتبر من مفاخر كلية الطب المصرية ، كتبه العلامة لوس أحد أساتذتها الألمان ونشره سنة ١٨٩٩ وأعيد طبعه سنة ١٩٢٦ نظراً لشدة الإقبال على اقتنائه في جميع أنحاء الأرض . وتنجح تربية الجواد العربي في بلاد الإنجليز لبرودة الجو هناك حيث لا يتسنى للطفيليات الانتشار .

وكذلك غنم مورينو فإنها تعيش في جبال البرنيز حيث الجو بارد غير صالح لانتشار الطفيليات .

وقد صارت مصر في العصر الحديث موطناً صالحاً لنمو وانتشار الطفيليات التي تصيب الإنسان والحيوان والنبات ، تبعاً لانتشار طرق الري الحديث الذي أدى إلى تشبع التربة بالماء ، لارتفاع منسوب الماء الجوفي في باطن الأرض ، وكثرة مجاري المياه الراكدة أو البطيئة الجريان ، وما ينتجه هذان العاملان من تشبع الجو بالرطوبة ، حتى غدت بيئة صالحة لتكاثر الحيوانات الدنيئة التي منها طفيليات الإنسان والحيوان والنبات . فإذا قام إنسان أو حيوان على التربة المصرية دون اتخاذ احتياطات خاصة تقيه شر العدوى بهذه الأمراض ، انحط نوعه وضعفت حيويته وقل مجهوده ، خصوصاً إذا نشأ فيها صغيراً ، لأن صغار الإنسان والحيوان أقل مقاومة وأكثر تأثراً بهذه الطفيليات .

وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن المصريين هم أقل كفاءة في العصر الحالي عما كانوا عليه قبل الري الحديث ، وأن قاماتهم آخذة في القصر ، وأجسامهم يبطيء نموها ، وعقولهم تخبو جذوتها ، كما أثبتت اختبارات ذكاء الفلاحين والفحص الطبي عند التجنيد . ولا ينجو من هذا التأثير الوبيل إلا من أبعدته الظروف أو المركز المالي عن تربة الأرض ومجاري المياه التي تكمن فيها العدوى ، فأقام بالمدن حيث الماء خال من جراثيم الأمراض ، وحيث الأرض لا تتلوث بفضلات الانسان والحيوان ، وحيث تقيه الملابس

والحذاء وطريقة المعيشة من التعرض بطريق مباشر أو غير مباشر للعدوى .

ولو نحن سألنا صناع الأردية الصوفية أو السجاد أو الاكلمة فى مصر عن خير أنواع الصوف الذى يفضلونه فى صناعتهم هذه ، لأخبرونا من غير ما تردد أنها أصواف الأغنام التى تعيش فى الصحراء غربى الاسكندرية فيما بين مريوط والعامرية ومرسى مطروح ، أو فى وادى النيل جنوبى أسيوط . وهذه الأماكن بالذات هى المناطق الجافة التى لا تتشبع تربتها بالماء ، ولا تكثر فى أنحائها مجارى المياه الراكدة ، أو البطيئة الجريان ، أو التى تتعرض تربتها أثناء الصيف أشهراً لحرارة الشمس اللاذعة التى تبيد ما بها من حيوانات دنيئة (وفى جملتها الطفيليات) .

بل إننا لو سألنا أصحاب الجياد الصافنات المشهورة بالتفوق والكسب فى حلبة السباق ، لأجابوا أن خيرها ما تنجبه منطقة خاصة فى مديرية الشرقية حيث يقيم عرب الطحاوية . ولو زرناهم لوجدناهم يقيمون فى جزيرة سعود وما هى بالجزيرة بالمعنى المفهوم ، ولكنها جزيرة من الرمال وسط مناطق زراعية ، يحرصون على إيواء جيادهم وتربيتها فيها بعيدة إلى حد كبير عن مصادر العدوى المنتشرة فى المناطق الزراعية فى مصر .

لقد حاول كثيرون إدخال بقر جرسى الممتاز بكميات اللبن الهائلة إلى مصر ، ولكنه شوهد بعد جيل أو جيلين أن قيمته انحطت وصار أقرب إلى الأبقار المحلية . ولكنى شاهدت إحدى الشواذ فى ذلك بدار الكلية الأمريكية بأسيوط ، فقد أرونى بقرهم معجبين بنجاحهم فى تربية هذا النوع من البقر ، فسألتهم عن طريقة العناية به ونوع الماء والأعشاب التى يأكلها ، فوجدت أن الكلية بأرضها الفسيحة صارت الآن داخل حدود مدينة أسيوط ، يسيل فيها الماء المرشح الخالى من جراثيم الأمراض الذى يعطى لهذا البقر . وقد أسكنوه الاصطبلات المرصوفة بالأسفلت والتى تنظف يومياً مما لا يدع مجالاً لتوطن الطفيليات وانتشارها . فلو تركت هذه الأبقار تعيش عيشة زميلاتها المصرية المسكينة ، تشرب من المياه الملوثة كما يشرب صاحبها ، وتسير وتنام على الأرض الرطبة لانحطت فى صفاتها وانحدرت إلى مستوى أبقارنا .

وينطبق ما أسلفنا على الدجاج وغيره من الحيوانات فى مصر ، والعامل واحد فى انحطاط الجميع . فاذا لم تتخذ احتياطات خاصة (وهى ليست بالصعبة) لوقاية الأحياء بمصر سواء الانسان والحيوان والنبات ، لانحطت قيمتها وقل إنتاجها وتدهور نسلها . وإن التحسينات التى يتطلبها الحال لإصلاح حال الإنسان فى مصر هى بعينها التى يستصلح بها حال الحيوان أيضاً .

وبدون ذلك سوف تذهب سدى المجهودات والنفقات التى تبذل فى تربية أو إدخال سلالات جيدة من الحيوان فى مصر .

محمد خليل عبد الخالق

من أحسن ما يُرْوَى

دراسة واختيار

للأستاذ أحمد الزين

ابن الرومىّ يشكو حظه وإملاقه ، ويوازن بين حاله وحال أمثاله من المعدمين المملقين مع ما لديهم من مواهب وكفايات ، وحال غيره ممن أصابوا الثراء الضخم والنعيم الواسع ومُتَعَ الحياة مع ما يتصفون به من الجهالة والغباء وقلة الكفايات .

وقد صور فى هذه القطعة صورتين من أدقّ الصور وألطفها وأكثرها شيوعاً بيننا فى هذا العصر .

أولاهما صورة صديق مقتّر عليه أشدّ التقتير ، قابض يده عن معاونته أشدّ القبض ، يستكثر عليه من نفقات العيش ما هو ضرورىّ لحفظ حياته وإمساك رمقه ؛ مع إعجاب هذا الصديق به وشهادته له بالعلم والفضل ، وإقراره له بالبيان والحكمة ؛ وقد ولّد ابن الرومى فى هذه الصورة من المعانى البديعة ، وابتكر من الأخيلة والفنون الرائعة ما جعل هذه الصورة ممثلة أمامك ، كأنك ترى كلا الصديقين يختصمان إلى قضائك ويترافعان إلى حكمك ، فلا تملك نفسك من الفصل بينهما .

الثانية — وهى أقواها وأكثرها حظاً من افتنان ابن الرومى وتوليده للمعانى — صورة هؤلاء الذين لا كفاية عندهم فى أمر من الأمور ، ولا قدرة لهم على حمل سيف أو قلم ؛ وأصابوا بمحض الحظ الطائش من الثراء الوافر والنعيم الواسع ومتع الحياة ولذائذها المتنوعة ما لم يعملوا فى اكتسابه لساناً ولا يداً ولا فكراً .

وقد صوّر الشاعر ما يغفّ فيه هؤلاء القوم من لهو الحياة ولذائذ العيش ، وما يمرحون فيه من نعمة وغبطة ، تصويراً يغيض مضاجع المملقين من ذوى العقل والكفاية ، ويقوى إيمانهم بأن كل شىء فى هذه الحياة يجرى على حكم الحظوظ والأقدار ، لا بالعمل والاختيار .

وبعد فإنى ألاحظ على ابن الرومى فى هذه القطوعة أنه أطال فى صفة هذا النعيم واللهو إطالة تنسى القارئ ما أراده من الشكاية الصارخة ، وأفاض فى صفة الخمر والقيان ومجالس الشراب إفاضة تذهل السامع عن دموعه الدامية ؛ وقلما يحفل بصوت الباكى ، من أطربه صوت المغنى . قال :

لى صَـدِيقٌ إذا رأى لى طعامًا
لمْ يَكَدْ أنْ يَجُودَ لى بالشَّرابِ
فإذا ما رآهمـــــا لى جميعاً
كفَّبانى لِدَيْهِ لِبْسَ الثِّيـــابِ
فمَتَى ما رأى الثَّـــلاثةَ عِنْدِى
فهىَ حَسْبِى لَدَيْهِ مِـنْ آرابِى[(١)]
لا يَرانِى أهْـــلاً لِمِلْكِ الظَّهارِىّ
وَلا مَوْضِـــعَ العطايا الرِّغابِ[(٢)]

(١) الآراب : الحاجات ، جمع أرب بالتحريك .

(٢) يقول : إن صديق هذا لا يرى أنى مستحق من الرزق أكثر من الكفاف . فهو بخس حقى بما زاد عن ذلك . ويريد بالظهارىّ : الرواحل المعدّة احتياطاً عند الحاجة إليها ، الواحد ظهرىّ بكسر الظاء وتشديد الياء . والعطايا الرغاب : الكثيرة المرغوب فيها .

وَكَأَنِّي فِي طَبْعِهِ لَيْسَ شَأْنِي
لَهْوَ ذِي نُهْيَةٍ وَلَا مُتَصَابِي (١)
فِيَّ طَبْعٌ مَلَائِكِيٌّ لَدَيْهِ
عَازِفٌ صَادِفٌ عَنِ الْأَطْرَابِ (٢)
أَوْ حِمَارِيَّةٌ وَمِقْدَارُ حَظِّي
شِبْعَةٌ عِنْدَهُ بِلَا إِتْعَابِ
إِنَّمَا حَظِّيَ الْقَفَاءُ لَدَيْهِ
مَعَ مَا فِيهِ لِي مِنَ الْإِعْجَابِ (٣)
لَيْسَ يَنْفَكُّ شَاهِداً لِي بِفَهْمٍ
وَبَيَانٍ وَحِكْمَةٍ وَصَوَابِ
أَمِنَ الْعَدْلِ أَنْ تُعَدَّ كَثِيراً
لِيَ مَا تَسْتَقِلُّ لِلْأَوْقَابِ (٤)
أَتُرَانِي دُونَ الْأُلَى بَلَغُوا الْآ
مَالَ مِنْ شُرْطَةٍ وَمِنْ كُتَّابِ
وَتِجَارٍ مِثْلِ الْبَهَائِمِ فَازُوا
بِالْمُنَى فِي النُّفُوسِ وَالْأَحْبَابِ
فِيهِمُ لُكْنَةُ النَّبِيطِ وَلَكِنْ
تَحْتَهَا جَاهِلِيَّةُ الْأَعْرَابِ (٥)

(١) يقول : كأن هذا الصديق يحسبني زاهداً في لهو الحياة ومتعها سواء ما يلهو به العقلاء أو أهل الصبوة . والنهية بالضم : العقل . والمتصابي : من يتبع دواعي الصبا .

(٢) يريد بهذا البيت والذي بعده أن صديقه يرى أن فيه طبيعة ملائكية منزهة عن الميل إلى الطرب واللهو . أو طبيعة حمارية حسبها من الحياة شبع البطن .

(٣) القفاء : الشيء القليل .

(٤) أوقاب الناس : أدنياؤهم وأخساؤهم ، الواحد وقب بفتح الواو وسكون القاف

(٥) يصفهم بأنهم أخذوا من الأعاجم والأعراب أسوأ ما يتصف به كل منهما ، فأخذوا من النبيط العي وثقل ألسنتهم عن النطق . ومن الأعراب جاهليتهم . والنبيط : طائفة من العجم ينزلون بين العراقين .

أَصْبَحُوا يَلْعَبُونَ فِي ظِلِّ دَهْرٍ
ظَاهِرِ السُّخْفِ مِثْلِهِمْ لَعَّابِ
غَيْرَ مُعْنَيْنَ بِالسُّيُوفِ وَلَا الْأَقْـ
لَامِ فِي مَوْطِنٍ غَنَاءَ ذُبَابِ
خَيْرُ مَا فِيهِمُ — وَلَا خَيْرَ فِيهِمْ —
أَنَّهُمْ غَيْرُ آبِهِي الْمُغْتَابِ (١)
وَيَظَلُّونَ فِي الْمَنَاعِمِ وَاللَّـ
ذَاتِ بَيْنَ الْكَوَاعِبِ الْأَتْرَابِ (٢)
لَهُمُ الْمُسْمِعَاتُ مَا يُطْرِبُ النَّا
سَ وَالطَّائِفَاتُ بِالْأَكْوَابِ (٣)
نَعَمٌ أَلْبَسَتْهُمُ نِعَمُ اللَّـ
هِ ظِلَالَ الْغُصُونِ مِنْهَا الرِّطَابِ (٤)
كَمْ لَدَيْهِمْ لِلَهْوِهِمْ مِنْ كَعَابٍ
وَعَجُوزٍ شَبِيهَةٍ بِالْكَعَابِ (٥)
خَنْدَرِيسٍ إِذَا تَرَاخَى مَدَاهَا
لَبِسَتْ جِدَّةً عَلَى الْأَحْقَابِ (٦)

(١) يقول : إن أحسن شيء في هؤلاء القوم أن من يعيبهم في غيبتهم غير آثم ، لأنهم فساق و «لا غيبة في فاسق» ، فهو يعيبهم بما هو فيهم . وقوله : «ولا خير فيهم» جملة معترضة ، وما أحسن موقعها في هذا البيت !

(٢) الكواعب : اللواتي برزت ثُدِيُّهُن ، الواحدة كاعب . والأتراب : المتماثلات في السن ، الواحد تِرب بكسر التاء .

(٣) المسمعات : المغنيات . والطائفات بالأكواب : ساقيات الشراب .

(٤) النعم : الإبل . يشير إلى أنهم بهائم ألبستهم نعمة الله غير لبوسهم .

(٥) يريد بالعجوز الشبيهة بالكعاب : الخمر العتيقة ، فهي عجوز لطول مدتها في الدن . ومشابهتها للكعاب : أنها بكر لم تمس .

(٦) الخندريس : الخمر القديمة . يقول : إن تلك الخمر إذا طال مكثها في الدن زادها قدم الزمان جدة وحسنا . والأحقاب : الدهور .

بنتُ كَرْمٍ تُديرُها ذاتُ كَرْمٍ
مُوقِدِ النَّحْرِ مُثْمِرِ الأعنابِ(١)
دُرُّ صهباءَ قد حكى دُرَّ بيضا
ءَ عَروبٍ كدُمْيةِ المحرابِ(٢)
تحمِلُ الكأسَ والحَلْيَ فتبدو
فتنةَ النّاظرينَ والشُّرّابِ
يا لها ساقيًا تُديرُ يداهُ
مُستطابًا يُنالُ مِنْ مُستطابِ
لذّةُ الطَّعمِ في يَدَيْ لذّةِ اللَّـ
ـثْمِ تدعو الهوى دعاءَ مُجابِ
ومِزاجُ الشَّرابِ إنْ حاولوا المَزْ
جَ رُضابٌ يا طِيبَ ذاكَ الرُّضابِ(٣)
مِنْ جَوارٍ كأنّهنّ جَوارٍ
يتسلسلْنَ مِنْ مياهٍ عِذابِ(٤)
لابساتٍ مِنَ الشُّفوفِ لَبوسًا
كالهواءِ الرّقيقِ أو كالسَّرابِ(٥)
ومِنَ الجوهرِ المُضيءِ سَناهُ
شُعَلًا يلتهِبْنَ أيَّ التهابِ

(١) بنت الكرم : الخمر ، لأنها تتخذ من العنب . والكرم الثاني : العقد . يقول : إن تلك الخمر تديرها عليهم ساقية ذات عقد كأن سنا جوهره يلتهب على نحرها لشدة صفائه وضيائه . وشبه ما يتدلى على صدرها من حباته بحبات العنب .

(٢) يصف الفقاقيع التي على سطح الكأس بأنها تشبه الدر ، ويشبه ذلك بالدر الذي تتحلى به الساقية . والعروب المحببة إلى من يباشرها .

(٣) الرضاب : الريق .

(٤) يصف ألوان هؤلاء الجواري بالصفاء والنقاء ، فتشبههن بقطرات الماء الجارية في الجداول .

(٥) يصف ثيابهن بأنها رقيقة تشف عما وراءها ، فشبهها بالهواء أو السراب ، وهو الذي يلمع في وسط النهار كأنه الماء .

يتخايَلْنَ باهتزازِ غُصونٍ
ناهِداتٍ وارتِجاجِ رَوابي(١)
ناهِداتٍ مُطَرَّفاتٍ يُجانِـ
ـينَ رُمّانَهُنّ بالعُنّابِ(٢)
لو ترى القومَ بينهنّ لأخبَرْ
تَ مُراءاها ولم تَقُلْ باكتسابِ(٣)
عن أناسٍ لا يرتضونَ عبيدًا
وهُمُ في مراتبِ الأربابِ
حالُهم حالُ مَنْ له دارَتِ الأفْـ
ـلاكُ واستوسقَتْ على الأقطابِ(٤)
وكذاكَ الدُّنيا الدّنيّةُ قِدْمًا
تتصدّى للِئامِ الخُطّابِ(٥)
لمْ أكُنْ دونَ مالكي هذه الأمْـ
ـلاكِ لو أنصفَ الزمانُ المُحابي

أحمد الزين

(١) يشير بالغصون إلى قدودهن ، وبالروابي إلى أردافهن .

(٢) مطرفات ، أي مخضبات البنان . ويشير بالرمان إلى أثدائهن ، والعناب إلى أطراف أناملهن . وفي هذا البيت من حسن الصناعة ودقتها ما هو واضح ، فقوله : « رمانهن » تكميل في الوصف لقوله « ناهدات » و « بالعناب » تكميل في الوصف أيضاً لقوله « مطرفات » .

(٣) يقول : إنك لو رأيت هؤلاء القوم وهم يلهون ويمرحون بين هؤلاء الجواري الحسان لاعتقدت أن كل شيء في هذه الحياة الدنيا يجري بالإكراه والإجبار ، لا بالعمل والاختيار . وذلك أنهم لم يعملوا ما يستحقون به ما هم فيه من نعيم وترف ، وإنما أوتوا ذلك بحكم القدر الذي لا اختيار للمرء فيه . وصراحاً ، أي مجاهرة .

(٤) يقول : إن حال هؤلاء القوم في تمادبهم حال من دارت الأفلاك له بالخير والإسعاد وأمنوا دورة الفلك بتغيير ما هم فيه . ويريد بالفلك هنا الزمان . واستوسقت : اجتمعت . والأقطاب جمع قطب ، وهو ما يدور عليه الشيء .

(٥) تتصدى : تتعرض .

رجـــــل رهيب !

قصة مصرية — بقلم محمود تيمور

قص على صديق فريد بعض ما من ذكرياته البعيدة قال :

ناداني عمي صباح يوم من الأيام ، وكان قد انتهى من تناول فطوره ، فتربع على متكئه المريح وسط وسائده ، وجعل يدخن ويحتسي القهوة ، فلما مثلت أمامه أجلسني بجواره وقال :

— اسمع يا فريد ، لقد كبرت سني كما تعلم ، ووهنت قواي ، فلم أعد أستطيع الإشراف على شؤون الضيعة ، فهل لك في أن تأخذ مكاني ، فتعينني على أن أستريح ... ؟ إني عميد الأسرة ، وأنت فتاها الوحيد فيها .

فأردت أن أتكلم فاستأنف قوله مقاطعاً :

— لن تخسر وظيفتك في الوزارة ، حسبي منك الخميس والجمعة من كل أسبوع تقضيهما في الريف .

* * *

بعد أيام من هذا الحديث أخذت مكان عمي في « الدائرة » ، وبدأت في تدبير أعمال الضيعة بنشاط وحماس متبعاً في ذلك الأنظمة الأساسية التي سنها عمي لتكون دستوراً للعمل .

وقدموا إلي يوماً كشف المرتبات الخاص بموظفي الضيعة ، فقرأه الكاتب أمامي اسماً اسماً . فكنت أستوضحه عن كل شخص ، فيزودني عنه بمعلومات مفيدة ، حتى وصل إلى اسم « الشيخ حيدة الباز » ، فعلت فمه ابتسامة مريبة ، فقلت : ماذا ؟

— لا شيء .

— ما صناعة الشيخ حيدة الباز ؟

— أحد خفراء الضيعة .

فعاد يبتسم ابتسامته المريبة ، فأمررت يدي على جبهتي وانطلقت أستجمع بعض حوادث نأى بها الزمن وأنا أتمتم :

— الشيخ حيدة الباز ، الشيخ حيدة الباز ... !!

ثم رفعت رأسي وحدقت في وجه الكاتب وقلت :

— أليس هو ذلك الشرير الكبير ، صاحب الجرائم المعروفة ؟

— هو بعينه .

— وتعينونه خفيراً ، وتسكنونه « العزبة » ، وتمنحونه مرتباً شهرياً ... ؟!

— هذا هو الواقع يا سيدي .

— ومتى ألحقتموه بهذه الوظيفة ؟

— منذ عشرة أعوام ... !

نهضت من فوري إلى عمي ، فإذا هو على متكئه الوثير ملتف بعباءته القفطانية الحمراء ، على رأسه « طاقية » بيضاء من الصوف مزركشة الحافة ، وكان مشغولا بسعوطه يتشقه ، فلما رآني مقبلا عليه قال وقد بسط منديله المحلاوي الكبير : — خيراً إن شاء الله !

— كله خير يا عمي ، لقد جئت أسألك عن الشيخ حيدة الباز ... !

فأخذ بطرف منديله ، وراح يمسح عينيه وأنفه وقال :

— شيخ منسر الناحية ؟

— هو بنفسه !

— أترغب أن تزيد في راتبه ؟

— بل العكس ؛ إني أفكر في طرده !!

فابتسم ابتسامة لا تخلو من تزمت ، ثم عطس عطسة خفيفة وقال :

— أتريد أن تنهب المزرعة ؟

— وأين إذاً حراس الأمن ؟ إن هذا يشجع الأشرار على فرض ما يشاءون من إتاوات على أصحاب المزارع .

فأخرج مسبحته ، وراح يداعب حباتها وقتاً وهو صامت ثم قال : افعل ما تراه صواباً .

ثم حدق فيّ بعين ذات بريق خاطف وقال : اعلم قبل كل شيء ، أنك مسئول عن كل خسارة تلحق بضيعتنا .

وتركت عمي تتنازعني شتى الدوافع . وفي المساء عندما التقيت به على مائدة العشاء ، قال لي وهو يشرب حساءه :

— هيه يا فريد ، ماذا فعلت بصاحبك الشيخ حميدة الباز ؟

— تركته كما هو يسرح في الضيعة كما يشاء ، ويأخذ الإتاوة من خزائننا .

— حسناً فعلت .

ومسح عمي شاربه الأشيب ، وقد بللته قطرات الحساء وقال : — أتذكر حادثة السطو المشهورة التي وقعت في البلدة المجاورة لضيعتنا : كفر عتيق ، وقتل فيها أحد خفراء الحكومة ؟

— أذكر شيئاً منها .

— كنت في التاسعة من عمرك ، وقد صحبتني وقتئذ إلى الضيعة لتقضي إجازة العيد ... كانت ليلة ليلاء يزأر هواؤها البارد ولا يني ، وكنت نائماً في فراشك ، فأفزعك إطلاق الرصاص ، فهرولت إليّ بقميص النوم تسألني ما الخبر ، وتحتمي في عباءتي .

— لقد كانت جلبة الرجال وصراخ النساء العالي يدويان مع الريح دوياً مرعباً ....

— وخرجنا إلى الدوّار ، ومرجان العبد ينير الطريق أمامنا بمصباحه الكبير ، فوجدنا الناظر والخفراء وبقية الموظفين مجتمعين يتشاورون ، والفزع مرتسم على وجوههم . لقد فوجئوا بأن القاتل من رجال الضيعة .

وتناول عمي بين طرفي إصبعيه قليلا من علبة النشوق ، وراح ينشقه في استمرار ، ومال برأسه على ظهر المتكأ ، وأسبل جفنيه ، ثم استأنف حديثه قائلا :

— وقد طوق المأمور القرية وفتش مبانيها وقبض على نفر من سكانها .

— وهل كان القاتل منهم ؟

— لم تثبت التهمة على أحد ، وإن كان الناس جميعاً يؤكدون أن بطل الحادثة هو الشيخ حميدة الباز ! !

وسكت عمي وقد بدأت تغشاه موجة من الخمول . وقمت إلى حجرتي ، وانطلقت أفكر في أمر هذه الحادثة ، وما تلاها من حوادث على شاكلتها ، كنت أسمعها من أفواه رجال الضيعة ، عند ما أقصد إليها ، أيام طفولتي مع عمي — كانوا يروون هذه المغامرات عن الشيخ حميدة الباز على أنها قصص للمسامرة ، فأستمع إليها في شغف ممزوج بخوف ، وأقضي ليلي قلق المضجع ، تتراءى لي الخيالات المروّعة ، ومن بينها شبح هذا اللص العريق في الاجرام ، وهو يقتحم الحجرة شاهراً في وجهي بلطته الحادة الملوثة بالدماء .

وقد كان في وسعي أن أشهده ، ولكني لم أفعل ؛ بل كنت أتوخى دائماً أن أتجنب رؤيته . وظللت أسمع عنه سنة بعد سنة ، ثم شغلتني الدراسة عن زيارة الضيعة ، وتغيبت بعد ذلك أعواماً في أوربا فتطايرت من رأسي أخبار هذا المجرم ، حتى كدت أنساه كل النسيان .

* * *

وانقضى شهر على حديث عمي ، وسافرت إلى الضيعة أتفقد أحوالها ، وكانت أول زيارة لي منذ أن توليت إدارتها .

وصلت إلى الضيعة فلم أجد ثمة تغيراً يذكر ؛ فالدار القديمة ذات الطبقة الواحدة كما هي ، والمتنزه الصغير ذو الشجيرات الهزيلة ما زال أمامها ، ومرجان العبد واقف بالباب يستقبلنا بوجهه اللامع البائس .

وبعد أن نلت قسطي من الراحة ، خرجت إلى «الدوار» فما إن شاهدني الناظر حتى بادرني بقوله :

— والشيخ حميدة الباز . . . كيف حاله ؟

— بخير !

— ألك أن تستدعيه إليّ ؟

وبعث الناظر رسولا ليأتي بالشيخ ، وجلست على المصطبة ، ذات « الكليم » الصوف الأحمر الفاقع ، وبدأت أشرب القهوة ، وأنا أصور في مخيلتي شكل الشيخ حميدة الباز كما أتوهمه : رجل سبط القامة قوي العضل ، ذو وجه متجهم ومشية ثقيلة ، يثير الفزع حوله حيث تلفت .

وظهر الرسول وخلفه شخص قمئ ، أعجف غائر الأشداق يجر نفسه جرا . دنا مني ، وانحنى على يدي يريد أن يقبلها وتمتم يقول : خدامك الشيخ حميدة الباز ! !

وجلس الرجل على الأرض ، وأخذ يسعل سعالا كريها يزلزل منه جسمانه ، فتحسبه يتناثر قطعا ، وبعد أن استعاد قوته قلت له :

— كيف حالك يا شيخ حميدة ؟

— معدن يا سيدنا البيه ، ما دمنا في خير سعادتك :

ورحت أنظر إلى هذا الهيكل المزعزع ، ذلك البناء المحطم ، أتفحصه في عجب ، وأمرت له بقهوة ، وناولته سيجارة ، فأخذها شاكرا ولكنه لم يشعلها ، بل أخرج علبة تبغ ووضعها فيها بعناية ، وأخذ يلف سيجارة من دخانه ، فقلت له : ألعلك لا تستلذ غير تبغك ! ؟ •

فابتسم ابتسامة وديعة وقال : إني أحتفظ بالعلبة لأمي .

فناولته أخرى وقلت له : هذه لك على شرط أن تدخنها .

فأشعلها وجعل يدخنها ويحتسي معها القهوة في سرور وقلت له : كيف حال الأمن في منطقتنا ؟

فرفع رأسه وحدق فيّ بعينين كأنهما جذوتا نار تتوهجان تحت الرماد ، وقال في لهجة حازمة : وهل تظن أن أحدا من الأشرار تحدثه نفسه بشيء ، ما دمت حيا ؟ .

فأردت أن ابتسم هازئا ، فخانتني شفتاي ، وشعرت بكلمات الرجل تمرق كالنصال الحادة إلى شغاف قلبي .

وانطلق بعد ذلك الشيخ حميدة الباز يتكلم ، فأخذ يروي لي عن أسرته ونسبه العريق الذي ينتهي إلى قبيلة من « قيس » فقلت :

— أعربي أنت ؟

— لقد جاء جدي الأكبر محاربا مع الغزاة الفاتحين .

— ما شاء الله !

— وقد استقرت قبيلتنا بعد ذلك في مديرية الشرقية وكنا دائما ممن يعتمد علينا في الفتح وإخماد الثورات . . . إن التاريخ ليتغنى بمآثرنا ، ويروي وقائعنا ، ويذكر مجد الفتيان والكهول منا .

وكانت الدواب قد أسرجت ، وأعدت للركوب ، فقلت للشيخ حميدة :

— ستتناول معي طعام الغداء . . . السلام عليكم .

فرفع يديه إلى رأسه يرد السلام .

وتناول معي الشيخ حميدة الباز الغداء ، فقضيت معه وقتا من أطيب الأوقات ؛ إذ كان يقص علي في جلسة الطعام طريف النوادر والقصص ، فوجدت فيه محدثا أنيسا ذلق اللسان . وقد حدثني فيما حدث عن حبه لأمه وعطفه على ربيبته التي تبناها بعد موت زوجته ، ولم يعش له من أولادها أحد . فكان لهذه الربيبة من نفسه منزلة الابنة الحقة يتعهدها ببره ، ويحنو عليها حنو الأب الشفيق .

* * *

وعدت بقطار المساء إلى القاهرة ، ودخلت على عمي ، فوجدته كعادته على المتكأ الوثير ، وبجانبه علبة نشوقه الفضية ، فقلت له من فوري :

— لقد رأيت الرجل وجلست معه ! .

— أي رجل ؟ .

— صاحبنا شيخ النسر ! .

فابتسم عمي وقال : .

— ما أعظم شجاعتك ! ؟ .

— إني عند ما أتصور أنك تعطي هذا الرجل الفاني مرتبا شهريا نظير إشرافه على حفظ الأمن ، وهو غير قادر على دفع ذبابة عن وجهه ؛ لا أتمالك من الإغراق في الضحك . . . .

فقال عمى وقد بدا عليه بعض العبوس :

إذاً لِمَ لا تقطع المرتب ؟ .

— كلا ، إنى لأتبرع به رحمة بهذا البائس الضعيف .

* * *

وفى المرة التالية عندما سافرت إلى الضيعة ، سألت عن الشيخ حميدة ، فأخبرونى بأنه ذهب إلى كفر الطبّال ؛ للاحتفال بزواج رَبيبَتِه ، وعلمت من مرجان العبد أنه أنفق فى جهازها وفى عرسها ما لا يستطيعه إلا الأثرياء ، وأضاف مرجان إلى ذلك قوله :

— لقد كنا نسأله : لِمَ كل هـذا يا شيخ حميدة ؟ فكان يجيبنا فى بداهة :

— أليست هى وحيدتى ، قرة عينى وبهجة قلبى ، فإذا لم أفرح بها فبمن أفرح يا ترى ؟ .

— وهل رأيتَ ربيبته ؟ .

— نعم . إنها لا تساوى فى نظرى قرشاً واحداً .

— كيف ؟ .

— إنهـا كالجرذ الأجرب ، قصيرة نحيلة ذات وجه ينفر من بشاعته الشيطان ، وهى مطبوعة على الشر ، تتجسم اللصوصية فى عينيها .

— وبمَن تزوجت ؟ .

— اختار لها والدها رجلا من أعوانه الأصفياء . . . ومَن يرضى أن يتزوجها غير هـذا الصنف من عباد الله الضالين ؟ ! .

* * *

وتلاحقت زيارتى للضيعة ، وتوثقت بينى وبين الشيخ حميدة روابط الألفة ، فكثيراً ما دعوته لتناول الغداء معى ، وكنت أعنى بتقديم الشاى له لما أعلمه من غرامه الشديد به ، وكثيراً ما قضينا السهرة معاً إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأمامى المدفأة وإبريق الشاى ، أستمع للشيخ حميدة ، وهو يروى لى مختلف النوادر والحكايات ، أو ينشد المواويل الريفية الجميلة ، أو ينطق سارداً لى المعجب المطرب من الأمثال العامية . وقد تثور به نعرته العربية فإذا بلسانه يتعثر ببعض أبيات يحفظها ملحونة من الشعر العربى فى لهجة مبتذلة مضحكة . . . . ولم يكن يتعرض فى أحاديثه لذكر وقائعه التى اشتهر بها ، بل كان يتوقى أن يشير إليها ، ولكنه طالما تغنى لى بأصله العربى العريق — كما يدعى — وتمجد قبيلته القيسية . وكان دائماً يقول وهو يقرع صدره بقبضة يده :

— نحن من أشراف العرب ومن سراتها الأصائل !

وإذا تحدث عن أمه أو ربيبته رق صوته ، وعلا البشر وجهه ، وأفاض عليهما من تحنانه ما شاء أن يفيض .

* * *

وتوالت الأيام . وحان ميعاد التحصيل فقصدت إلى الضيعة أراقب العمل بنفسى ، وكنا فى أواخر الربيع ، وقد بدأ الفلاحون يحصدون القمح ، وأخذت الأجران تمتلئ ، بعيدانه الذهبية ذات السنابل الممتلئة . وجاءنى الناظر بمائتى جنيه فى كيسين من النسيج . وكان الوقت ظهراً ، فوضعت النقود فى خزانة بحجرة نومى واستوثقت من إغلاقها بالمفتاح ، وكنت مزمعاً الرحيل فى اليوم التالى .

وبعد العشاء ، قضيت فترة من الليل أسامر الصحف والمجلات ، ولو كان الشيخ حميدة الباز موجوداً فى هـذا اليوم بالضيعة ، لاستغنيت به عن مسامرة هـذه الصحف المتخمة بالأباطيل ، وقد سألت مرجان العبد عنه ، فقال وقد افترت شفتاه الهدلتان وانشجت زاويتا فمه : لقد ذهب إلى كفر الطويل ، فى إحدى مغامراته ... وربما ما رجعه ! .

فقلت وأنا أتضاحك :

— ما هذا التخريف يا مرجان ؟ إن الرجل قد ودع هذه الشقاوات من زمن طويل !

— أقسم لك ياسيدى أنه لن يكف عنها حتى بعد مماته .

— وهل له من عزم وقوة يمكنانه من القيام بمثل هذه المغامرات الآن ؟ .

— إن مثل هؤلاء الأشرار يستمدون قوتهم من الشيطان . . .

وكان الوقت قد قارب منتصف الليل ، فقلت لمرجان وأنا على أهبة الذهاب إلى حجرة النوم :

— وكيف حال ربيبته : أهي ناعمة البال مع زوجها ؟

— يقولون إنها مرتاحة جداً . إنها بالعزبة الآن تقضى أياما مع أمه .

— أتقدم فى ضيافته فيتركها وينصرف إلى مغامراته كما تدعى ؟ .

— لا تنس يا سيدى أننا فى موسم التحصيل . . . !

وصرفت مرجان ، وقصدت إلى حجرة نومى ، واتجهت إلى الخزانة لآخذ منها شيئاً ، ولشد ما دهشت حين وجدت بابها مفتوحاً ، فامتدت يدى على الفور إلى حيث وضعت صرتى النقود ، فلم أجدها ، فقلبت ما تحويه الخزانة رأساً على عقب باحثاً منقبا ، فكان مجهوداً ضائعا . فصرخت أنادى مرجان ، وأعلمته بالخبر ، فقال وقد غارت تجاعيده وازدادت شفتاه تهدلا :

— أأنت متأكد يا سيدى أنك وضعت الصرتين فى الخزانة ؟

— وأين أضعهما يا غبى ، أيوجد فى الحجرة مكان آمن منه ؟

— أقسم لك يا سيدى أنى لم أفارق المنزل .

— إنك تحسن النوم تاركا أمانك يتساقط على الأرض بدون أن تشعر . . . لا بد أنهم غافلوك وأنت نائم فسرقوا النقود . . . !

وأخذ مرجان العبد يلطم خده ويقرصه ، وخرج مهرولا يستدعى الناظر ، وجعلت أفكر مغالطاً نفسى ، مخادعاً يقينى : أأكون قد أخفيت الصرتين فى مكان آخر ؟ وقلبت فراش السرير ، وبحثت تحت المقاعد وفى الأركان ، ولم أضن أى شيء ، حتى خزانة المأكولات ، من تفتيشى ، ولكن ذهب كل ذلك بلا جدوى .

وسمعت لغطاً شديداً بالباب ، فخرجت فوجدت الناظر بملابس النوم وهو محاط بموظفى الضيعة والخفراء ، فقلت : لقد وقعت السرقة ، هذا أمر واضح ، فيجب أن نعمل على ضبط الجناة فى أقرب وقت . أخشى أن يتمكنوا من الهرب .

وأصدر الناظر أمره بتطويق العزبة ، فلا يؤذن لأحد فى أن يبرح مكانه ، وذهبت وإياه إلى حجرة الجلوس المشاورة فقال لى :

— سألجأ قبل إعلام المركز وفتح التحقيق الرسمى ، إلى طريقة ريفية قديمة ، كثيراً ما نجحت فى مثل هذه الحالة .

— ما هى ؟

— سأنصح لأهل الضيعة بأن يراجعوا أنفسهم ، ويعيدوا الصرتين بالحسنى مهدداً إياهم بأقصى العقوبات إذا أصروا على إخفاء النقود . أما طريقة رد المبلغ دون أن يعرف السارق ، فهى أن يخرج من كل بيت شخص يحمل قفة مملوءة بالتراب ، يذهب بها منفرداً إلى مكان معلوم فى الجرن ، فيفرغها فيه ، فالسارق يستطيع أن يدس الصرتين فى القفة المملوءة بالتراب ، ويذهب بها إلى الجرن فيفرغ محتوياتها فى ذلك المكان بعيداً عن الأنظار ، فإذا تم العمل وأفرغ كل مندوب قفته ذهبنا إلى كومة التراب فبحثنا فيها .

— حسناً ، فلنبدأ !

خرجنا إلى العزبة فى ضوء المشاعل ، وكانت السماء صافية تلتمع نجومها كأنها عيون حادة يقظة ، ويهب النسيم الرطب على الوجوه فيكسب النفس القلقة الحيرى شيئاً من الطمأنينة والرضا ، وكانت العزبة قد استيقظت بأسرها ، وعلت همهمة غامضة فى جوها . كل أسرة أمام دارها تتساءل فى وجل عن حادث الليلة ؛ النساء جالسات القرفصاء مع أطفالهن ، ملفوفات فى ثيابهن السود ، يتراقص عليهن ضوء المشاعل فيحيلهن من آدميات إلى أشباح ، والرجال متنحون جانباً ، جماعات جماعات ، يتهامسون فى وجوم .

وخرجت أسراب الدجاج من الدور تلفت فى مشيتها المتزنة ، تتساءل متعجبة عن سر هذه اليقظة المبكرة ، فلما تبين لها أن الأمر لا يعنيها انطلقت تنقنق وتنبش الأرض بمناقيرها ومخالبها . ورددت السطوح صياح بعض الديكة ، وقد ظنت أن النوم غلبها فتأخرت عن تحية السحر . وظهرت شراذم الكلاب الهزيلة بأذنابها المتدلاة تنقل نظرها الخائف البليد بيننا .

ومر الناظر على أهل الضيعة يبسط لهم ما اعتزم فعله ، وهو يهدد مرة ويتحايل أخرى حتى أتم جولته ، فعاد إلينا يتخطر ، واختفت النسوة ورجالهن فى الدور ، وتولى شيخ الخفراء الإشراف على العمل ، فقصد إلى الباب الأول وقرعه . وبعد حين خرجت منه امرأة مسنة تحمل قفتها على رأسها ، وذهبت إلى الجرن منفردة ثم عادت والقفة فارغة فى يدها . وانتقل شيخ الخفراء إلى البيت الثانى ثم الثالث والرابع . . . وهلم جرا ، حتى أتى إلى البيت الأخير ، فخرجت منه صبية ضئيلة الجسم ، وعلى رأسها قفتها ، واتجهت صوب الجرن كالأخريات ، ومال علىّ مرجان العبد قائلاً :

— أتعرف هذه ؟

— كلا !

— إنها « زهر الورد » ربيبة الشيخ حميدة .

وعادت بعد قليل « زهر الورد » بالقفة فارغة .

وأعلمنا شيخ الخفر بانتهاء « العملية » فقمنا إلى الجرن .

وأكب الناظر على الكومة يقلب عاليها سافلها ، وسافلها عاليها ، وهو ينثر التراب فاحصاً مدققاً ، فلم يجد شيئاً ، فاحتقنت عيناه واهتز شاربه الغليظ المغبر ورعد فى لهجة قاسية : سيرون ، سيرون !

وصرخ يقول لمرجان العبد : علىّ بالفلقة يا ولد !!

ورأيت مرجان يهرول نحو الدوار ؛ ليعد الفلقة للمتهمين ، وكان كلما خطا بضع خطوات عثرت قدمه فاستكفأ على وجهه . . .

وعدنا إلى الدوار وبدأ الناظر فى « التحقيق » فاتضح لنا أن السارق غلام أو نحو غلام ، رأوا شبحه يروح ويجىء على سطح البيت الملاصق للعزبة (حيث وقعت السرقة) . فالراجح أن هذا الغلام تسلق الجدار ، ودخل البيت من إحدى نوافذه ، أو من باب الشرفة العلى ، ثم خرج دون أن يلفت إليه الأنظار . ولم يعره الخفراء اهتمامهم ، فقد ظنوه يطلب شيئاً من الحطب الملقى على السطح ، وكثيراً ما يقع مثل ذلك ، فتمتم الناظر : إلىّ أحضر شيخى فى المنوفى عطا الله ... إن له قامة الغلمان وخفة حركتهم ، وفوق ذلك فماضيه غير مشرف ...

ثم صرخ : علىّ بالمنوفى عطا الله ... !

وصرخ شيخ الخفر من بعده

ثم تمت مرجان يصيح قدر ما تسمح له قوته وشجاعته فى هذا الوقت : المنوفى عطا الله حالا ... !

وانتقلت الجملة على ألسنة المنادين واحداً بعد واحد — وهم واقفون لم يتركوا أماكنهم — حتى وصلت إلى منزل المتهم فاستقرت فيه .

... وبعد قليل ظهر المنوفى عطا الله ، فإذا هو قزم معروق نحيف فى هيئة الغلمان . نمّ وجهه الكاسف المضطرب عن شىء من الدعة . تقدم منا وشفتاه ترددان فى خلط وتسرع :

— مظلوم والله يا جناب الناظر . مظلوم !!

فثار علىّ الناظر وقال هامساً :

— إن مظهره لا يدل على شر !!

— لا تغرنك الظواهر يا سيدى ... إن هؤلاء الفلاحين يسترون خلف مظاهر الدعة والسكينة قلوباً ملؤها الخبث والمكر .

ثم التفت إلى « المنوفى عطا الله » وقال : اعترف بالحقيقة وأحضر المبلغ وإلا شويت قدميك شياً !!

فأخذ الرجل يستعطف فى ذلة ويؤكد لنا براءته مؤيدة ببراهين واضحة ، فقال الناظر :

— قلت لك اعترف بالحقيقة ، واحضر المبلغ ! !

وسمعت مرجان العبد يقول وهو بعد الفلقة باهتمام :

— قر يا ابن الناس بالحقيقة ، أحسن لك ! !

ولكن « المتوق عطا الله » ظل يستعطف ويؤكد لنا براءته ، فنفد صبر الناظر وصاح : اطرحوه أرضاً .

وهمّ الخفراء أن يمسكوا به ، فإذا بصوت من الباب يقول : صبراً يا أولادي صبراً .

فالتفتنا نحو مصدر الصوت فإذا بالشيخ حميدة الباز مقبل علينا ، يتحامل على عكازه وسلم علينا وهو يقول :

— لقد أتيت في الوقت المناسب .

ونظر إلى قائلا : قلب المؤمن دليله يا سيدنا البيه ، أقسم لك أن هاجساً كان يهجس لي وأنا بكفر الطويل ، يقول : قم إلى عزبة « شندويل » ، إن أمراً قد وقع هناك . فلم أتوان ، وجئت على عجل ، وما كادت قدمى تطأ العزبة حتى علمت بالخبر ...

فقال له الناظر : وماذا تنوي أن تفعله ؟ .

فابتسم الشيخ حميدة ابتسامة سانحة ، ثم رأيته وقد صلب عوده ، وتوهجت عيناه توهج الشعل ، وقال في صوت عاصف :

— سيعود إليكم المبلغ .

— ولكن . . . . .

— قلت لك سيعود إليكم المبلغ يا حضرة الناظر . . . .

أهذا هو صوت الشيخ حميدة الباز ، الفاني المتآكل النبرات ؟ كاد يختلط على الأمر فأحسب أن المتكلم شخص آخر ، وعمر الدوار صمت شامل فسكن اللغط ، وهدأت الجلبة ، كأن قوة سحرية غير منظورة قد سيطرت على المكان ، وشخصت الأبصار كلها إلى الشيخ حميدة كأنها انجذبت إليه بمغناطيس ، وقال الشيخ لمتوق عطا الله :

— إذهب إلى دارك ! !

فخرج الرجل مذعناً للأمر .

والتفت الشيخ حميدة للناظر وقال :

— سآمر النسوة أن تخرج كل واحدة بقفتها إلى الجرن ، ستعيد العملية مرة أخرى ، هلم ! !

وقصدنا ثانياً إلى العزبة ، ومر الشيخ حميدة على الدور يعلن للسكان ما قر العزم عليه ، ولم يستثن داره . وكان يسير في خفة غريبة ونشاط عجيب ، وصوته يزمجر زمجرة الأسد الغضوب .

وبدأت النسوة تخرج عوداً على بدء ، والشيخ حميدة واقف بباب العزبة يرمقهن بنظراته الفاحصة ، فكأنها السهام الحادة تنفذ إلى شغاف قلوبهن . وجاء دور « زهر الورد » ربيبته ، فخرجت بقفتها ، ومرت أمامه ، وهو يرمقها بنظراته كما فعل بالأخريات ، فإذا بالفتاة تترنح في مشيتها حتى كادت تهوى على الأرض ، ولكنها استجمعت شجاعتها واستوت ثانياً وتابعت سيرها ؛ أعثرت قدماها في شيء بالطريق ؟ أم . . . ! ! ورأيت وجه الشيخ حميدة على ضوء الشعل ، وقد تقلصت عضلاته وتغير لونه ، ثم وجدته يضرب الأرض بعكازه ، وانطلق في تفكير عميق مضطرب .

وعادت « زهر الورد » بالقفة فارغة ، وأشار لنا « الشيخ حميدة » بالذهاب إلى الجرن فذهبنا ، وما كاد الناظر يدس يده في كومة التراب حتى صاح بملء فيه :

— لقد ردوا المبلغ .... ردوا المبلغ ...

وأخرج الكيسين وهرع بهما إلى ، وسمعت الشيخ حميدة يقول بصوت أجش ، وقد علا وجهه التجهم :

— ليسمح سيدى البيه بأن يعد نقوده

وعددت النقود فوجدتها كاملة ، فهززت يد الشيخ حميدة شاكراً .

وامتلأ جو الضيعة بزغاريد النسوة ، وتعالت أصوات الحمد والشكر لله . وعدت إلى البيت وكأني وسط مظاهرة صاخبة .

ولما خلوت بمرجان العبد قلت له : ما رأيك فيما حصل ؟

فمسح لعابه وأجاب وهو مقطب الجبين رزانة وجداً:

— ألم أقل لك ياسيدى إنه على اتصال دائم بالشياطين؟

وفى الصباح الباكر، ولم أكن قد استوفيت قسطى من النوم، سمعت قرعا شديدا على الباب، فقمت فزعا لأعلم ما الخبر، فقابلنى الناظر بوجه مكفهر وعينين زائغتين وهو يقول:

— لقد وقعت جريمة فظيعة فى العزبة!

— أية جريمة؟؟

— وُجدت «زهر الورد» مذبوحة ذبح الشاة!

— ربيبة الشيخ حيدة؟!

— هى بعينها!

— والقاتل؟؟!

— غير معروف؛ فقد حاولنا أن نستجوب أم الشيخ حيدة، فوجدنا لسانها معقودا وقد أصيبت بخبل.

— والشيخ حيدة. أين هو؟

— فى كفر الطويل. عاد إليه قبل الفجر، وقد علمت الساعة أن سرقة جسيمة وقعت فى الكفر المذكور، وأن الشيخ حيدة متهم بها.

ونظرت إلى مرجان، فإذا بشفتيه المهدلتين ترتجفان فيسمع لها قرقرة كصوت الجمل وهو يرغى ويزبد.

وقصدت إلى المتكأ وجلست عليه، وبدأت المشاهد المختلفة تتراءى أمام ناظرى، وكان أشدها وضوحاً وتكراراً صورة «زهر الورد» بقامتها القصيرة المزبلة التى تشبه قامة الغلمان وهى خارجة بقفتها إلى الجرن، وكيف ترنحت وكادت تهوى على الأرض أمام نظرات أبيها المستكشفة. ثم ما بدا على الرجل من تجهم وحيرة بعدئذ، ثم صورتها وقد تخيلتها ذبيحة يشخب دمها، وهى مسجاة أمام العجوز المخبولة!

محمود تيمور

فى التأليف المسرحى

للأستاذ بشر فارس

١ — توطئة:

قامت نهضتنا الفكرية — أول ما قامت — على انبعاث الشعر ثم تلاه النثر وما أبطأ أن فاقه. وجاء من بعدهما العلم يتدرج من جانب النقل إلى جانب الوضع. ثم انبثقت ألوان أخرى من النشاط الفكرى كالنقد والقصص والاسترسال Essai, Essay والبحث. وقد ساير هذه الألوان ألوان متفاوتة من النشاط الفنى، فكان النحت والتصوير، وكانت الموسيقى. ثم تساند النشاط الفكرى والنشاط الفنى، فخرج علينا المسرح من وراء ستار كنا ننظر إليه بمؤخر العين، لما كان عليه من الابتذال والركود.

كيف قامت هذه النهضة وكيف انبثقت تلك الألوان ثم تسايرت وتساندت؟ ذلك حديث يستهوينى أى استهواء، ويشغلنى من زمن، غير أنه يطول ويتشعب.

وكلامى ههنا على المسرح بل على ناحية منه: التأليف المسرحى. ولك أن تعترض على أنى أهمل مبادئ نهضتنا الفكرية وتواليها إذ أميل عند خاتمة مظاهرها. والحق أن المبادئ أمست تلحق بتاريخ الأدب فلا تعنينا إلا بقدر ما نلتفت إلى ما مضى؛ وأما التوالى فها هى ذى استتب أمرها أو كاد، حتى إن النظر فيها لا يتعدى باب النقد. وأما المسرح وما يتصل به (وكذلك «السينما» وحديثها يطردنا من ميدان الأدب الخالص) فلا يزال فى فاتحة أمره منذ نشأة مسرح «الفرقة القومية»، وفى بدنا أن نهز هذا المسرح فنثنيه إلى هنا أو نطلقه إلى هناك، لأنه عود رخص

قريبٌ عهد غرسه . فإن تركناه، وشأنه نما على غير وجهة، حتى إذا اشتد على ميل وغلظ على فساد أعجز المقوِّم وأعيا المصلح .

وإذا قلت إن المسرح العربي يصعد إلى القرن الماضي، فالذي أذهب إليه أنه لم يتنزل منزلة الفن الصرف ولم يُبذل في سبيله شيء يذكر : فالمؤلفون والنقاد صرفوا عنه من هممهم، والنظّارة عدّوه لوناً من ألوان الفكاهة ساعة يهزل، وضرباً من ضروب التسلية يوم يجد، وأما الحكومة فلم ترعه إلا لماماً ؛ وإنما الجهد أتى من ناحية الممثلين أنفسهم، وقلّما صنعوا شيئاً ؛ لأنهم جعلوا أهواء الجمهور نصب أعينهم، ولأنهم كانوا إلا أقلّهم غير حُذّاق .

* * *

يقول ناس بأن مسرح الفرقة القومية في تقدم، ويرى غيرهم خلاف ذلك . وعندي أن قضيته تنحصر في هذا السؤال : « هل المسرح متجه في نشأته اتجاهاً مرضياً » ؟ والجواب قريب ؛ ذلك أنه لا بد للمسرح، على وجه عام، حتى ينهض من عناصر معلومة : المسرحيات المؤلفة والممثلين والممثلات والمخرجين والنظّارة . فإذا أنت فحصت عن هذه العناصر عندنا استقام لك الجواب . ولأستهلّ البحث بالفحص عن المسرحيات :

إن التأليف المسرحي أجنبي عن آدابنا، فليست له تقاليد عربية . وهذا أمرٌ حسنٌ من وجهٍ، فقصّته أن التقاليد الأدبية إن أمدّت بالأشكال والأوضاع، فإنما تمهد بأن تشلّ الأقلام وتضغط القرائح . وحسبك الشعر عندنا مثلاً على ذلك : أفلا تراه، إلا في النادر، محيط أبيات لا تهبّ فيه عاصفة ولا يصفق موج، محيطاً زوارق لا سفن . هذا وليس شأن المسرح شأن الموسيقى السائدة عندنا، فقد سقط الغناء، وجد العزف، وماتت الألحان الصالحة، فهبّ قومٌ من أهل الصناعة يغيرون على أغاني الفرنجة فيمسخونها ويُسلكونها في تلاحينهم عن غير دراية وبغير ذوق . ونحمد الله أن هنالك نفراً من الملحنين يعفّون عن مثل هذا فينزعون إلى فن سليم .

المسرح العربي مثله كمثل التصوير والنحت، والفنانون عندنا أخذوا أصول الصناعة عن الفرنجة، لأن التصوير في الإسلام رقيق الشأن .

وكأني بك تقول : فعلى المسرح العربي إذاً أن يتخرج على المسرح الأوربي أولاً وآخراً، وحجتك القائمة أن أصحاب الفرق التمثيلية في الشرق العربي راحوا هذا يطلق يده في مسرحيات (موليير) وذاك يقتبس من مسرحيات (اسكندر دوماس) الابن أو (ساردو) وثالث يؤدي بالعربية مسرحيات شكسبير، فضلاً عن أن المؤلفين يترسمون خطط أصحابهم الفرنجة ويحاكونهم .

والذي يبدو لي أن المسرح عندنا ينبغي له أن يستقل بلون يعرف به أو يحاول هذا ؛ حتى يقال « المسرح المصري » كما يقال « النحت المصري » أو كما يقال مسرح بلدان الشمال والتصوير الهولندي . وبعيد أن يكون هذا بمعالجة القضايا الاجتماعية على خُشُب المسرح، وبإبراز أشخاص، على رؤوسهم طرابيش وفي أرجلهن خلاخيل، حسبما يظن بعضهم ؛ فإنما هذا لون خارجي، على حين اللون المقصود تسوّيه وجهة معيّنة، تستمد خطتها من حركات النفس الثائرة ومن تقاليد التصوّرات الفنية . وينضاف إلى هذا أنه من العسف أن نعدّ كل شيء يحصل في أوربة على جانب من جلالة الخطر وعظم الشأن .

وفي المقالات المقبلة، سأبين الحال التي انتهى إليها المسرح الأوربي لهذا العهد، وأعرض الأسلوب الذي به ننحو نحوه، على قدر ما يستطيع خلق الله أن يتجنب بعضهم أثر بعض .

بشر فارس

من مصر إلى انجلترا بالسيارة

عن طريق شمالى افريقية

بقلم المستر فرانك لى

إذا كان لك فى نفسك وسيارتك من الثقة ما يحملك تقدم على السفر من القاهرة إلى الإسكندرية ، فلا تخش كثيراً من السفر بهذه السيارة إلى انجلترا عن طريق شاطئ إفريقية الشمالى . لقد قمت أنا وزميل لى بهذه الرحلة منذ أربع سنين ونصف سنة ، أى قبل أن تتأجج نار الثورة فى إسبانيا . فإذا شئت أن تخترق هذه البلاد سالماً فانتظر بعض الوقت حتى يخبو سعير هذه الفتنة الحمراء ، فإذا لم تر الانتظار ، وجب عليك أن تنقل أنت وسيارتك فى سفينة من مدينة الجزائر إلى مرسيليا ، ثم تتم منها رحلتك إلى انجلترا ، أو أن تبحر من طنجة أو الدار البيضاء إلى انجلترا أو فرنسا . وإذا صحت عزيمتك على السفر ، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنك هذان السؤالان :

« هل فى استطاعتى أن أقوم بنفقات الرحلة ؟ » . و« كم من الزمن تستغرق ؟ » . وجوابى عن السؤال الأول أنك إذا كنت ممن يرغبون فى السفر متنعمين ، فينزلون فى فنادق من الطبقة الأولى كلما استطاعوا ، فإن أمر النفقات لا يعلق ببالك بطبيعة الحال ، أما أنا وزميلى فقد عسكرنا فى طريقنا إلى لندن إحدى وعشرين مرة ، ولم ننزل فى الفنادق إلا عندما ألجأتنا الظروف إلى ذلك .

وتتوقف النفقات بعدئذ على معدل ما تستهلكه سيارتك من الزيت والبنزين . وقد يكون فى مقدورك أن تحسب الحساب بنفسك ، إذا قلت لك إن ثمانية عشر يوماً تكفى لقطع الطريق البالغ طوله خمسة آلاف من الأميال تقريباً . وإذا ظفرت بعربة متوسطة الحجم حديثة الطراز ، فإن أربعة عشر يوماً تكفى للسفر من أهرام الجيزة إلى كنيسة القديس بولس فى انجلترا . ذلك أننا نحن لم نستغرق فى سفرنا إلا عشرين يوماً ونصف يوم ، مع وجود مرحلتين لم يكن فيهما طريق معبد فوق رمال الصحراء . أما الآن فان فى شمالى إفريقية بعد السلوم طريقاً من أجود الطرق الصحراوية ، فى حين أن بين القاهرة والعامرية طريقاً جيداً أيضاً . ويجدر بنا كذلك أن نذكر أننا امتطينا سيارة خفيفة بلغت من العمر ثمانى سنين ، وأننا اخترقنا الصحراء فى حر الصيف اللافح الذى زادته شدة على شدته موجة من موجات الحر التى تطغى على شمالى إفريقية فى بعض الأحايين .

إن ركوب السيارات فى مصر يعلم الراكب الجرأة ويكسب أعصابه الشدة والصلابة ، ولذلك لا أعتقد أن فى القراء كثيرين يظنون أننا لاقينا فى سفرنا بالسيارة إلى انجلترا عن طريق شمالى إفريقية نصباً كبيراً . أما الفنادق فليس منها فى المرحلة الأولى الواقعة بين القاهرة ودرنة ، والتى يبلغ طولها ستمائة ميل إلا اثنان ، ويوجد فى شاطئ طرابلس من درنة إلى أجدابية ما يحتاجه المسافر منها ، ثم تأتى بعد ذلك أربعمائة ميل أخرى من أجدابية إلى مصراطة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف
الاشتراك السنوى : ٦٠ فى مصر والسودان — ٨٠ فى الأقطار العربية — ١٠٠ فى سائر الممالك
ثمن العدد ١ صاغ

ليس بها إلا رمل صغير حقير ، ولما كان رفيقى تشارلس دكى الموظف السابق بمصلحة المساحة من المغرمين مثلى بالسفر فى الصحراء والمبيت فى الخيام ، فقد استقر رأينا على أن نعسكر فى الطريق كلما استطعنا ، ولهذا أخذنا حاجتنا من أدوات المعسكرات والطهى والزاد وحوضا من الماء يسع أربعة عشر جالوناً وما نحتاجه من البترول ، وجهزنا السيارة أيضاً بمصنع صغير لإصلاح ما قد يطرأ عليها من العطل فى الطريق ، ثم غادرنا القاهرة فى مساء يوم من أيام شهر يوليو سجل الترمومتر فيه درجة ١٠٤ فهرنهيت .



بدء السير فى طريق وعر غير مريح ، طوله ١٤٦ كيلومتراً وهو يمتد من « أمسيت » قرب الحدود الإيطالية — المصرية وينتهى عند « طبروق »

ولقد حرصنا على أن نأخذ حاجتنا من إطارات المطاط الضخمة الجديدة الصحراوية ، ولذلك لم تغص سيارتنا فى الرمال الناعمة التى صادفتنا فى أسوأ مراحل السفر . وقد يدهش القارئ إذا قلت له إن أشق أجزاء الرحلة وأكثرها خطورة هو المنخفضات الرملية الواقعة بين القاهرة وآخر بحيرات وادى النطرون ، أى التسعة والتسعون ميلا الأولى بعد أهرام الجيزة ، وذلك بالطبع قبل أن ينشأ طريق الإسكندرية الصحراوى . ولم نصادف بعد ذلك رمالا حتى وصلنا إلى حدود طرابلس . لكن هذا الجزء أيضاً قد أنشئ فيه الآن طريق صحراوى جيد . ويوجد بعد العامرية جزء صحراوى آخر تتوقف صلاحيته على كثرة ما يسير فيه من السيارات الحربية بين السلوم والإسكندرية ، وعلى ما يبذل من العناية فى تعهده وإصلاحه . ويرى عند السلوم طريق متسع يصعد فوق الهضبة بعدة درج ملتوية سهلة الانحدار يصل المسافر بعدها إلى أحد المخافر الأمامية بين مصر وطرابلس ، وبعد أن اخترقنا خطوط الأسلاك الشائكة ومررنا بالجمارك الإيطالية وجدنا أنفسنا فى طريق واسع لا يقل طوله عن مائة وعشرين ميلا تتخلله أجزاء غير معبدة . وقد أصلح هذا الطريق الآن فأضحى ولا خطر فيه من السير السريع ، وهو مستقيم لا يرى فيه عوج ، ويتجه غرباً إلى طبروق ، إلا أنه لا يحسن السير فيه آخر النهار لأن الشمس تسطع فى وجه المسافر حتى تغيب . ويمتد الطريق كله فوق هضبة مستوية تغطيها الأعشاب القصيرة وتكتنفها صحراء



عند « مصراتة » بعد مرحلتنا الطويلة الثانية عبر الصحراء هنا يبدأ الطريق السهل الجيد

هى أجدب البقاع التى صادفتها فى تجوالى ، خلال صحارى العالم الممتدة من بحر خيبر فى الشرق إلى المحيط الأطلنطى فى الغرب ، وهو إلى ذلك ساكن موحش إلا من قليل من الغزلان أو الطير البرى الذى يصادفه المسافر من حين إلى حين . وثمة طريق ثان إلى طبروق يبدأ من أمسيت ويمر بسلامة ردية ، ولكنه أطول من الطريق الأول . ويصبح السفر بالسيارة بعد طبروق متعة حقة ، فالطريق فخم ممهد تكتنفه

من الجانبين الأحجار البيضاء والسوداء، ولوحات الأبعاد مرقوم عليها عدد الكيلومترات ، شأن الطرق الإيطالية



شيخ الصحراء في المنطقة الواقعة بين « ليبيا » و « توفيليا » وفيها تعتمد على بئر واحدة

جميعها . ويستمر كذلك إلى آخر حدود طرابلس . ويخترق المسافر بين درنة وبين غازى إقليماً من أجمل الأقاليم وأبهجها منظراً . ولقد خيل إلينا ونحن نمر به أنه جزء من بور كشير بإنجلترا نثرت فيه أجزاء من إقليم الغابة السوداء بألمانيا . ذلك أن السيارة تنقلك من مرج أخضر جميل إلى آخر أجمل منه ، تعلو بك حيناً وتنخفض حيناً وكلها قليلة السكان . وقد رأينا في تلك البقاع سكانها العرب البائسين وقد تجمعوا



راقصات توليبات

في الغالب في محلات واسعة . ولم يفتنا في سفرنا أن نجمع الخلنج والأزهار البرية ، حتى أنسانا ذلك في كثير من الأحيان أننا لا نزال في خط عرض الاسكندرية وعلى مسيرة يومين لا أكثر من مدينة القاهرة . ويكثر في فيروينة الآثار الرومانية الفخمة التي تستهوى الكثيرين من المسافرين وتبهرهم بجلالها . أما أنا وزميلي المطلقان اللذان لم نتقف ثقافة مالية فلم نقف إلا ريثما نجتلى مشاهد الطبيعة ونمتع أنفسنا بجمالها الخلاب .

ولا عجب إذا ترك الرومان ذوو العقول الراجحة أوربا الجنوبية واستبدلوا بها جنات أفريقية الشمالية . ذلك أن جمالها جمال لا يدركه إلا من رآه بعينه واستمتع به بنفسه . ولا تزال الفأس والمحراث يعملان في شق الأرض الخصبة الشجراء . وإذا ابتعدت عن المدن العامرة فقلما تقع عيناك على إنسان ، لكن الغابات والأغياض التي تكسو التلال المتموجة تجعل المسافر لا يصدق أنه لا يزال سائراً في قارة أفريقية . (يتبع)

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢

العدد الرابع عشر | « الثلاثاء ١٤ صفر سنة ١٣٥٨ — ٤ أبريل سنة ١٩٣٩ » | السنة الأولى

الفهـــــرس

مسألة البحر الأبيض المتوسط

وهل تكون مبعث الخطر على سلام العالم

لمحرر « الثقافة » السياسى

تجتمع فى أفق السياسة الدولية منذ حين عناصر مشكلة جديدة ، يمكن أن نقول فى خطورتها إنها تغدو اليوم أشد ارتباطا بمصير الحرب أو السلام من أية مشكلة دولية أخرى .

تلك هى مسألة البحر الأبيض المتوسط .

وقد ظهرت هذه المشكلة الدولية الخطيرة فى الأفق منذ الحرب الحبشية ؛ ففى هذه الفترة العصيبة التى اضطربت فيها العلائق بين انكلترا وإيطاليا ، كانت حكومة رومة

ترتجف فرقاً ، الفكرة أن انكلترا تستطيع ، إذا وقعت الحرب بينهما ، أن تقطع مواصلاتها البحرية ، سواء بإغلاق قناة السويس ، أو بأية وسيلة أخرى ؛ ولكن انكلترا لم تر أن تعرض نفسها للدخول فى حرب غير مأمونة العواقب ، نظراً لما آنسته يومئذ من نقص فى تسليحها الجوى ؛ ومذ ظفرت إيطاليا بفتح الحبشة ، وغدت لها فى افريقية « امبراطورية استعمارية » ، ازدادت فى نظرها أهمية توثيق مواصلاتها البحرية بإمبراطوريتها الجديدة والتحوط لسلامتها .

ولم تكن الحرب الأهلية الاسبانية التى اشتركت إيطاليا بأكبر قسط فى تدبيرها واضرام نارها ، إلا محاولة فاشستية تتصل أكبر الاتصال بهذه المشكلة ؛ فإيطاليا تعلم حق العلم أنه مهما كانت قواها البرية والجوية من الضخامة وحسن الأهبة ، فإنها لا تستطيع تفوقاً على انكلترا من الوجهة البحرية ، ما دامت انكلترا مسيطرة على مفتاحى البحر الأبيض فى جبل طارق ، وفى قناة السويس . وما دام أسطولها فى مالطة جاثماً على مقربة من الشواطئ الايطالية ؛ ومن ثم فقد رأت إيطاليا أن تعمل على قلب التوازن فى البحر الأبيض المتوسط من طريقين : الأول من طريق إضرام نار الحرب الاسبانية ، وتوطيد دعائم الحركة الفاشستية التى يقودها الجنرال فرانكو ، والحصول على مراكز بحرية جديدة فى المياه الاسبانية ؛ وقد حظيت إيطاليا بمؤازرة ألمانيا فى ذلك ؛ والثانى العمل على تهديد القواعد البحرية الانكليزية فى مالطة وفى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد تطورت الحرب الاسبانية بعد ثلاثة وثلاثين شهراً من نشوبها على النحو المعروف ؛ فقد ظفر الجنرال فرانكو بمؤازرة المعاونة العسكرية الايطالية بالتغلب على الجمهورية الاسبانية ، ورأت انكلترا وفرنسا أخيراً أن لا مناص من التسليم بالأمر الواقع ، والاعتراف بحكومة برجوس باعتبارها حكومة اسبانيا الشرعية . ومع أن حكومة مدريد الجمهورية ما زالت تبدى بعض المقاومة ، فإنه لا ريب أن المأساة الاسبانية قد بلغت مرحلة الفصل ، ولم يبق شك فى أن الجنرال فرانكو هو اليوم سيد إسبانيا الفعلى ، وأن الحركة الفاشستية التى يقودها ، هى التى تسيطر اليوم على مصاير إسبانيا ، وهى التى ستوجه فى الغد سياستها .

وإذا كانت السياسة البريطانية الفرنسية قد نزلت فى النهاية عند سير الحوادث ، واعترفت بحكومة برجوس ، ومهدت لسقوط الجمهورية الاسبانية عند ما أيقنت بضياع كل أمل فى إنقاذها ، وما زالت تمهد لتسليم البقية الباقية من أنصارها فى مدريد واسبانيا الوسطى ، فإنه لم يتضح بعد ما إذا كانت هذه الخطة الجديدة ستؤدى إلى تحقيق ما قصدته السياسة البريطانية الفرنسية باتباعها ، وهو العمل على فصل الجنرال فرانكو عن محور برلين رومة ، أو على الأقل ضمان حيدة اسبانيا ، وتحررها من نفوذ المحور ، وسحب جميع القوات الأجنبية منها .

ذلك أن القوات الإيطالية ما تزال فى اسبانيا ؛ وهى تحتل جزيرة ميورقة ، كبرى الجزائر الشرقية (البليار) ، ومن جهة أخرى فالمعروف أن الألمانيين والإيطاليين قد أنشأوا على الشواطئ الاسبانية ، عدة مراكز عسكرية وبحرية ، حول جبل طارق ، وفى سبتة (فى مراكش الاسبانية) وفى المياه الشمالية فى خليج بسكونية ؛ والقصد من ذلك ظاهر ، وهو تهديد مواصلات الأسطولين البريطانى والفرنسى إذا ما نشبت حرب انضمت فيها اسبانيا إلى إيطاليا وألمانيا .

هذا فيما يتعلق بإسبانيا ، وغربى البحر الأبيض المتوسط . وأما فى أواسط البحر الأبيض ، فإن إيطاليا أنشأت قاعدة بحرية جديدة فى جنوبى سردانية ، وحصنت



جزيرة بانتلاريا الصغيرة الواقعة بين صقلية وشاطئ تونس، فى شمال غربى مالطة وعلى مقربة منها، وذلك لكى تستطيع منها أن تهدد بطائراتها مالطة قاعدة الأسطول البريطانى، وبنزرت قاعدة الأسطول الفرنسى.

وأما فى شرق البحر الأبيض فقد حصنت إيطاليا جزيرة رودس، وأنشأت فيها قاعدة بحرية وجوية عظيمة تستطيع بواسطتها أن تهدد قبرص، وحيفا والاسكندرية؛ وهى لا تبعد عن قبرص سوى مائتى ميل، وعن حيفا والاسكندرية سوى خمسمائة ميل، وهى مسافة لا تحفل بها الأساطيل الجوية الحديثة.

***

تلك هى المحاولات التى قامت بها إيطاليا لقلب التوازن فى البحر الأبيض المتوسط؛ فإلى الآن إلى أى حد استطاعت أن تظفر بغايتها، وما هى الاحتمالات التى يمكن أن تترتب على انفجار يكون مسرحه البحر الأبيض المتوسط.

إنه لاشك أن التوازن القديم فى البحر الأبيض المتوسط قد اختل اختلالا ظاهراً، ولم تبق بريطانيا العظمى سيدة مطلقة لهذا البحر الذى استأثرت بسيادته منذ موقعة طرف الغار التى حطم فيها أمير البحر الشهير نلسون الأسطولين الفرنسى والاسبانى فى سنة ١٨٠٥، أى منذ نحو قرن وثلث؛ وظهر هذا الاختلال بالأخص فى أزمة الحرب الحبشية سنة ١٩٣٥ حيثما اضطرت بريطانيا إلى النكوص عن اتخاذ أية إجراءات عنيفة لمقاومة إيطاليا؛ وفى أزمة سبتمبر الماضى حيث اضطرت انكلترا وفرنسا أن تنزلا عند مطالب محور برلين رومه، واضطرتا أن تشهدا جامدتين انهيار سياستهما ومشاريعهما فى أوربا الوسطى والشرقية.

ولم يكن ذلك لأن انكلترا فقدت تفوقها البحرى فى البحر الأبيض المتوسط، فما زالت انكلترا سيدة البحار بلا مراء، ولكن لأن تطور التسليح الحديث جعل من الأساطيل الجوية خطراً عظيما على الأساطيل البحرية، وجعل قوة الأساطيل البحرية من هذه الناحية متوقفة على قوة الأساطيل الجوية ومبلغ استعدادها للهجوم والدفاع. ولم تكن انكلترا حتى الخريف الماضى قد وصلت فى تسليحاتها الجوية إلى مدى تطمئن إليه، بالرغم من تقدمها منذ الأزمة الحبشية أشواطا فى هذا السبيل.

وقد مضى على عبرة ميونيخ المؤلمة عدة أشهر صنعت انكلترا فيها المعجزات فى سبيل تقدم تسليحها الجوى، بعد أن أدركت أنها لابد أن تسير فى ذلك السبيل بخطى الجبابرة إذا أرادت أن تحتفظ بهيبتها القديمة التى لاح مدى حين أنها تضعضعت أمام ضربات محور برلين رومه.

كذلك لاشك فى أن جبل طارق ومالطة قد فقدا، إزاء التطورات العسكرية التى أشرنا إليها، كثيراً من منعتهما القديمة، ولاشك أيضاً أن القواعد الإيطالية فى رودس وغيرها من جزر الدودكانيز تستطيع أن تهدد الأساطيل

البريطانية فى قبرص وحيفا والمياه المصرية .

غير أنه يلاحظ أولا أن الأسطول الإيطالى لا يكاد يبلغ نصف الأسطول البريطانى ، وأن ألمانيا ليست لها قوى بحرية يعتد بها ، وأن الأسطولين الفرنسى والبريطانى مجتمعين ، فى وسعهما أن يصمدا لجميع الاحتمالات والطوارئ سواء فى البحر الشمالى والمحيط الأطلنطى أو فى البحر الأبيض المتوسط ؛ والأسطول البريطانى فى البحر الأبيض يستطيع أن يهدد سواحل إيطاليا الجنوبية والوسطى ؛ والأسطول الفرنسى يستطيع أن يهدد سواحلها الشمالية من كورسيكا ومن طولون ؛ ومن غير المحتمل أن يستطيع الأسطول الإيطالى الناشئ أن يصمد لمثل هذه القوى البحرية العتيدة ، أو يستطيع أن يقفل البحر فى وجهها سواء من ناحية جبل طارق أو بانتالاريا .

ومن جهة أخرى فإن مراكش الاسبانية تقع تحت رحمة فرنسا ، وفى وسعها وقت الخطر أن تأخذها بأيسر أمر ، وتسيطر بذلك على شاطئ المغرب كله لتحمى جبل طارق ، وتهدد شواطئ اسبانيا الجنوبية ؛ وهنالك قاعدة بنزرت المنيعة فى خليج تونس يمكن أن يلجأ إليها الأسطول البريطانى إذا رأى خطراً فى بقائه فى مالطه .

وأما فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فإن التحوطات التى تتخذها بريطانيا العظمى فى قبرص وفى المياه الفلسطينية والمصرية ، يجب أن يحسب لها من جانب العدو المعتدى أعظم حساب ، خصوصاً وأنها تقترن فى الوقت نفسه بالاستعدادات الجوية الكافية .

وأخيراً يجب أن يحسب حساب المحالفات العسكرية المختلفة إذا وقع انفجار فى البحر الأبيض ترتبت عليه حرب أوربية أو حرب عالمية .

ذلك أن محور برلين رومه لا يمكن فى هذه الحالة أن يعتمد فى أوربا على أية محالفة يعتد بها ؛ والمعروف أن أمم البحر الأبيض كلها ، ماخلا اسبانيا ترتبط مع بريطانيا وفرنسا بمحالفات سياسية أو طبيعية ؛ فتركيا التى تهدد إيطاليا شواطئها وتطمح إلى أراضيها ، لا يمكن إلا أن تكون إلى جانب بريطانيا ؛ واليونان حليفة قديمة للجبهة الديموقراطية ؛ وكذا مصر فهى حليفة بريطانيا ؛ وأمم المغرب ترتبط مع فرنسا بروابط المحالفة الطبيعية . وأما فى قلب أوربا فإنه لا توجد دولة أوربية تشعر نحو إيطاليا أو ألمانيا بعطف حقيق ؛ وإذا كانت ألمانيا قد استطاعت أن تفرض حمايتها على تشيكوسلوفاكيا ، وأن تمحوها بذلك من الميدان كعامل عسكرى ، وأن تفرض نفوذها على المجر ، فإن بولونيا ورومانيا ويوجوسلافيا ، ما زالت بعيدة عن التفاهم مع دولتى المحور ؛ بل يلوح لنا أن الأثر الذى ترتب على البطش بتشيكوسلوفاكيا ، إنما هو عامل جديد فى يقظتها وتحوطها لما قد تتعرض له غداً من اعتداء مماثل ، فهى بذلك تؤثر الجبهة الديموقراطية ، وتعتمد على عونها ؛ ويلاحظ هذا الميل واضحا فى رومانيا ، حيث يخشى أن تكون هى الفريسة المقبلة للتوسع الألمانى . وأما أمم الشمال كلها ، السويد ، والنرويج ، والدانمارك ، وهولندة ، وأمم البلطيق ، فهى جميعا دول خصيمة للمعسكر الدكتاتورى ؛ وأما روسيا السوفيتية فموقفها معروف ، وهى ولا شك حليفة الديموقراطية الطبيعية فى شرق أوربا .

* * *

وقد تطور الموقف الدولى منذ مؤتمر ميونيخ تطورا ظاهراً ، ولم يبق اليوم شك فى أن بريطانيا وفرنسا قد تقدمتا شوطاً بعيداً فى استعادة هيبتهما القديمة ، وأن السياسة البريطانية بنوع خاص تزمع أن تسترد نفوذها القديم فى الشؤون الأوربية . ولا ريب أيضاً أن الاعتداء على تشيكوسلوفاكيا كان عاملا جديدا فى إذكاء الشعور بالخطر فى انكلترا وفرنسا ، وإقفال باب الأمل فى سياسة التفاهم ، وحملهما على مضاعفة الجهود فى التسلح ، والتأهب لمقاومة القوة بمثلها .

ومع أن ألمانيا ما زالت ماضية فى خطتها الاعتدائية المتيقظة ، فإن إيطاليا وهى طرف المحور الآخر تبدى منذ حين شيئا من التحفظ .

وقد أفصحت إيطاليا أخيراً بعد كثير من الانتظار والتردد ، عما تسميه أمانيها الطبيعية ؛ فبعد أن أشير إليها فى خطاب العرش الذى ألقاه الملك فكتور إمانويل لمناسبة افتتاح «البرلمان» الإيطالى ، زادها «الدوتشى» (موسولينى) فى خطابه الأخير إيضاحاً وتفسيرا ، فذكر فى خطابه الرنان ، بعد أن أفاض كعادته فى الوعيد والقوة وحديث الحرب ، أن مطالب إيطاليا الاستعمارية تنصب على هذه الأسماء ، وهى (تونس — جيبوتى — قنال السويس) ، ولكنه لم يحدد نوع هذه المطالب ولا مداها .

ولم ينس « الدوتشى » أن ينوه بأهمية البحر الأبيض ، وأن يصفه بأنه منطقة حيوية بالنسبة لإيطاليا .

بيد أنه يلوح على أى حال أن موسولينى يقدم مطالبه فى كثير من الاعتدال ، فهو لم يذكر شيئاً عن كورسيكا ولا نيس وسافوا ؛ ومن المحقق أنه رأى الموقف الدولى ، بعد الأثر العميق الذى أحدثه الاعتداء الألمانى على تشيكوسلوفاكيا ، فى الدول الغربية ، وفى مضاعفة استعدادها ، يقضى بكثير من الحكمة والتريث ، وأنه أضحى من العسير عليه أن ينال شيئاً بالوعيد والتحدى ، وأنه بالعكس قد يصل بالتفاهم والمفاوضة إلى تحقيق بعض مطالبه فى المسائل المشار إليها ؛ والمفهوم على أى حال أن هذه المطامع لا تتضمن مطالب إقليمية ، ولا تعدو الحصول على امتيازات اقتصادية واستعمارية ؛ ومن ثم فإن دوائر باريس ولندن تعتقد أنه يمكن حل هذه المسائل بالمفاوضات السياسية .

ولا شك أن هذا الاعتدال يرجع قبل كل شىء إلى ما حققته بريطانيا العظمى وفرنسا فى الأشهر الأخيرة من تقدم عظيم فى التسليح والأهبة العسكرية ، وإلى ما أبدته الدولتان من تضامن وثيق ، وما أكدتاه مراراً من أنه مع رغبتهما فى السلام ، لن تحجما عن مقابلة الاعتداء بمثله ؛ ويرجع أيضاً إلى ما أبدته فرنسا أخيراً من حزم قاطع فى رفض المطالب الإيطالية ، وما قامت به من استعدادات عسكرية عظيمة فى شمال أفريقية .

ويرجع أيضاً إلى موقف أمريكا واتجاه سياستها اتجاهاً لا شك فيه إلى معاونة الجبهة الديمقراطية .

ومن جهة أخرى فإن الاعتداء على تشيكوسلوفاكيا قد أثار فى الجو الدولى سحابة جديدة وأذكى بالأخص فى انكلترا وفرنسا سياسة الحزم والتحفز لرد القوة بمثلها ؛ ومن ثم فقد آثرت إيطاليا أن تلجأ إلى سياسة الروية والاعتدال ، اتقاء لإحداث أزمة جديدة فى البحر الأبيض قد تعرضها لخطر لا ريب فيه .

***

والواقع أن أساس الشر كله فى البحر الأبيض ، وهو اليوم مكمن الانفجار الخطر يرجع إلى نظرية سياسية وإقليمية خاطئة تنادى بها السياسة الفاشستية ، وهى اعتبار البحر الأبيض بحيرة رومانية (إيطالية) (Mare Nostrum).

وإذا كان لإيطاليا كل الحق فى أن تعمل لتأمين مواصلاتها مع أملاكها فيما وراء البحار ، فإنه لم يبد من جهة أخرى أى خطر حقيق يهدد هذه المواصلات ؛ فقناة السويس ، وفقاً للمعاهدات المعقودة ، مفتوحة فى كل وقت لمرور السفن التجارية والحربية لجميع الدول على السواء ، ولم تبد مصر وحليفتها بريطانيا أى اعتراض أو عقبة فى هذا السبيل ؛ وقد سويت العلائق بين بريطانيا وإيطاليا منذ نحو عام باتفاق اعترفت فيه كل منهما بمركز الأخرى فى البحر الأبيض ، وبأنه لا تناقض بين مصالحهما ؛ وفتح إيطاليا للحبشة لا يعتبر مبرراً كافياً لكى تحاول إيطاليا قلب التوازن فى البحر الأبيض على هذا النحو المنيف الذى تحاوله اليوم .

(البقية على الصفحة التالية)

صفوة الأدب الإنجليزي :

عطلة عيد الميلاد Christmas Holiday

للأستاذ عباس محمود العقاد

في الأدب الانجليزي اليوم ثلاثة أعلام من أشهر الكتاب العالميين الذين ترجمت مؤلفاتهم إلى لغات الغرب والشرق : هم برنارد شو ، وهربرت جورج ولز ، وسومرست موام Somerset Maugham .

تقرأ الأول فأنت على ثقة من الشطحات الغريبة والنكات اللاذعة ، وتقرأ الثاني فأنت على ثقة من الحقائق العلمية والدعوة إلى الاصلاح ، وتقرأ الثالث فأنت على ثقة من الطلاوة والمتعة واللباقة الفنية .

يكتب « موام » حكايات موجزة ، وقصصاً صغيرة ، وروايات مطولة ، ومسرحيات تعد بالعشرات ، وفصولا مختلفة في السياحة والنقد والآراء الفلسفية ، ويمتعك في جميع ذلك بقراءة متنوعة لا تخطئ فيها الذكاء ، ولا الملاحظة ولا النفاذ إلى السرائر ، ولا الأسلوب الرائق الأنيق .

ولا ترى وأنت تقرؤه أنه يجهل شيئاً من ثقافة الجيل وخلائق الانسان في كل جيل ، وربما كان أذكى الثلاثة وأشبههم بسليقة الفنان .

تحدر من أسلاف إرلنديين ، وامتزج بالسلالة الانجليزية ، ونشأ في باريس ، فتعلم الفرنسية قبل لغة قومه ، وأصيب باليتم وهو صغير ، ودرس الطب ، وكابد أخطر الأمراض في نفسه وراثة عن أمه ، واشتغل بالجاسوسية أثناء الحرب العظمى ، وعرف الأقطار الأوربية والأسيوية والأمريكية ، وبعض الأفريقية . واختبر كثيراً وقرأ كثيراً ، فاجتمعت له من ذلك كله عناصر الطلاوة والمعرفة والامتاع .

إلا أنه ....

نعم إلا أنه يمتعك ولا يبعث في نفسك الطمأنينة والتوقير ، فشعورك نحوه كشعورك نحو الجليس الظريف الذي يروقك بفكاهته وطرائف حديثه ، وصفاء ذهنه ، ولا يترك بعده أثراً من التوقير والاكبار ، أو من حسن الظن والطمأنينة .

سألت نفسي : من أين تأتي هذه الخلة في هذا الكاتب القدير الذي لا شك في اقتداره وتعدد ملكاته ؟

وقبل أن أجمل الجواب من هذا السؤال أقول إن الأوربيين يعرفون ضربا من الكتابة أسموه بالسينيسزم Cynicism واستعاروا الكلمة من عنوان « الكلبيين »

على أنه يلوح بعد الذي بسطنا من الوجوه والاحتمالات الدولية ، والعسكرية المختلفة ، أن إيطاليا لا يمكن أن تجني من هذه المحاولة ما تحلم به من انتزاع السيادة البحرية في البحر الأبيض من بريطانيا العظمى وتهديد المواصلات الامبراطورية البريطانية .

ومصر إحدى دول البحر الأبيض ، فمن حقها أن تهتم بمشاكل هذا البحر ، وهي مشاكل ترجحها بوادرها وتهددها بالويل ؛ وإذا لم يك ثمة شك في نيات مصر السلمية ، وإذا كانت مصر تغتبط أشد الاغتباط أن يسود السلام والوئام هذا البحر المضطرم اليوم بأنواء السياسة ، فإن من واجبها دائماً أن تتحوط للخطر قبل وقوعه ، وأن تتزود لدرئه بكل ما وسعت . (***)

الأقدمين الذين كانوا يعيشون عيشة الكلاب زهداً في المناعم واللذات ، ويشبهون الكلاب من جهة أخرى في « المعنى » بالكلام والهش بالسباب ، فنسبوا إلى الكلب من أجل ذلك ، ثم أطلقت هذه التسمية في الزمن الحديث على من يكثرون من عيب الطبيعة الإنسانية وتحقيرها ، ووصف الجوانب الوضيعة فيها .

« سومرست موام » واحد من هؤلاء الكتاب في العصر الحاضر ، بل هو من أقدر من كتبوا على هذا الأسلوب في جميع العصور .

ولكن هل هذا هو علة الشعور الذي يشعر به القارئ نحوه بعد أن يستمتع بطلاوته وبراعة نقده وغمزه ؟

لا أعتقد هذا ، ولا أعتقد أن الالتفات إلى عيوب الطبيعة الإنسانية والإكثار من تحقيرها يعقبان هذا الأثر في نفس القارئ لا محالة .

وإنما المعول ، فيما أعتقد ، على الطريقة التي ينهجها الكاتب في كشف العيوب والبواعث النفسية التي تبعثه إلى كشفها وتمثيلها .

فمن الكتاب من يكشف العيوب الإنسانية وهو ممتعض آسف كما يمتعض الصديق إذا بدا له من صديقه ما يسوؤه ويخلف رجاءه .

ومنهم من يكشف العيوب الإنسانية وهو ثائر غاضب كثورة النبي على قومه ، حين يخشى عليهم بوائق الفساد والفتنة .

ومنهم من يكشفها كما يكشف الأستاذ عيوب تلميذه لتأديبه وتقويمه .

ومنهم من يكشفها كما يكشف الحاسد اللئيم مواضع الذم والتشهير من محسوده .

ومنهم من يكشفها كما يكشف الجاسوس خفايا الأسرار ، ليستحق أجره ويرضى ما هو مجبول عليه من حب الاستطلاع وهتك الأسرار .

ومنهم من يكشفها لأنه يعلم أنه خسيس معيب ، فيسره أن يضاهي الناس وهم يسترون الخسائس والعيوب .

فليس كل قدح في طبيعة الانسان بعرضة لذلك الشعور الذي يشعره القارئ ، وهو يستمتع بطلاوة موام وأشباه موام ، ولكنها الطريقة أو النيـة التي وراء الطريقة ، ولا سيما النية التي تريك أن صاحبها مستريح إلى ما يهتك من الأسرار ، فلا امتعاض في قلبه ، ولا رغبة عنده في تبديل تلك العيوب وتقويم تلك الطبيعة ، بل الخير كل الخير عنده أن تظل على ما هي عليه .

سومرست موام يوحي إليك أنه من صميم هؤلاء ، وأنه يخلق أبطال رواياته « ليتجسس عليهم » ويفضح أسرارهم ، ويريك تفوراً منه أنه بارع في التجسس ، مفتن في الغمز والايحاء غاية ما يبلغ إليه الافتنان في هذا الباب .

لا إخال أني تقززت من كتاب قرأته كما تقززت من قراءة كتابه « الفطير والجعة » Cakes and Ale الذي حاول أن يسمم فيـه شعور الإكبار والمودة الذي ينطوي عليه قراء توماس هاردي لذلك الشاعر الروائي العظيم . ومهما يقل هو أو يقل أصحابه في التبرؤ من هذه الوصمة الخبيثة فهي لاصقة لا تقبل النصول .

وكثيراً ما تبدر من « موام » كلمة في عرض حكاية ، فإذا هي قد نمت على شح نفسـه ، وضنانته بالعطف على أبناء جنسه من حيث لا يريد .

مثال ذلك أنه في حكاية من حكاياته الصغيرة ، يتكلم عن أديب انجليزي لقيه في إيطاليا ، فرآه مثقل البـال بوجيعة من الوجائع المكظومة ، ثم جلس إليه مرة فاذا بالرجل ينسى نفسه وتفلت منه كلمة يقول فيها : « إني رجل تعس ! » .

قال « موام » : فغضبت من هذا الرجل الذي استخف

بي هذا الاستخفاف ، لأنه لم يرني أهلا لاخفاء آلامه و « خصوصياته » عني ...

كلام سائغ في لغة النادى وقانون القهوة ، ولكنه لا يشفع لصاحبه عند لغة الفطرة وقانون الانسان !

وكتب مترجمه ريشارد كورديل يذكر « محاسنه » ، فاذا هو يعدد منها أنه لا يطيق التفاخين ، وأن مؤلفاً مسرحياً من أصحاب الشهرة العالمية قاربه مرة وقال له : « يا له من تعب .... إنني لأخشى يا موام أن أكون مضطراً إلى الذهاب لهوليوود على أية حال ... فليس في وسعي أن أماطلهم وأؤجلهم بعد الآن . وليس يطيب لي أيضاً أن أفارق العاصمة ... » .

فرد عليه موام بلهجة قارصة قائلا : « وما بالك تذهب ؟ إن كنت لا تريد الذهاب فما من أحد يجبرك على الذهاب ! »

وانصرف المؤلف المتعب فشيعه موام بقوله لجليسه : « رجل سخيف جدا ! »

هذه رواية صديق في معرض سرد المحاسن ، فما نحسبه قد دل على تفتح المؤلف الذي أومأ إليه كما دل على كزازة في خلائق موام ، يستكثر صاحبها أن يستريح إليه أحد بكلمة أو أن يريح أحداً بكلمة . إذ ليس بالنادر بين الناس أن يلقاك زميل فيفضي إليك بمثل ذلك الكلام الذي قاله المؤلف المشهور ، ولو على سبيل التفتح والمباهاة ، فماذا يضير السامع أن يفتح أذنيه وقلبه لأمثال تلك الهنات إلا أن يكون بقلبه ضيق شديد عن كل ما يسر المتحدثين إليه بالغاً ما بلغ من التفاهة وقلة التكليف ؟

***

يقول فرويد وأصحابه إن الأحلام ترجمان الوعي الباطن الذي يفصح عما يكتمه الانسان من الأخلاق وما يداريه من العادات والأذواق والأسرار .

وعلى هذا النحو ينبغي أن ننظر إلى ثمرات القرائح الفنية ، لأنها هي أيضاً أحلام دفينة تبتغي فسحة الفن وطلاقة التعبير ، وتعترف لنا بما قد ينكره الفنان ، وهو يتكلم باسمه ولا يتكلم بأسماء أبطاله وشخوص رواياته .

ومن هنا يخيل إلينا أن الكاتب يعرّفنا أصدق التعريف بأسرار ضميره في روايته هذه الأخيرة « عطلة عيد الميلاد » التي كتبها بعد أن لخص حياته كلها وآراءه كلها وعلاقاته كلها في كتاب الخلاصة Summing Up ثم أحس أنه قد أعطى كل ما عنده واسترد نفسه لنفسه واستكان منها إلى قرار .

وروايته « عطلة عيد الميلاد » متعة من متع القراءة الحديثة كسائر ما كتب وصنف ، تزخر بالملاحظات الفنية والاجتماعية ، والخواطر العارضة ، والمحاورات البارعة ، والتعليقات النافذة على النظم الفرنسية والانجليزية والمشاكل العالمية ، وتشتمل مع هذا على « شخوص » كاملين موصوفين أحسن الوصف . بقلم الطبيب الدارس ، والرحالة الخبير ، والجاسوس المطلع على ما وراء الحجاب ، والأديب القدير في التعبير والايحاء .

خلاصتها أن الفتى الانجليزي « شارل » قد أرسلته أسرته الغنية إلى باريس في عيد الميلاد ، وتعمدت أن ترسله إليها منفرداً ، ليختبر الدنيا في تلك العاصمة الجميلة اختبار الرجل الرشيد ، فيلقى في باريس صاحبه القديم سيمون ، وهو سليل أب سكير وأم خائنة ، مطبوع على خلائق الجحود والشكاسة والمدد وحب الايذاء ، وكراهة العطف منه على غيره ومن غيره عليه ، ثم يصطحبه سيمون هذا إلى بيت من بيوت اللهو ، فيجمع بينه هناك وبين فتاة روسية غريبة الأطوار ، حكم على قرينها بالسجن الطويل في جريمة قتل ثبتت عليه ، فهي تذل نفسها وتعذب سريرتها في مباءة العار ، تكفيراً لتلك الجريمة التي

وقع فيها من تحبه ولا تطيق السرور بمعزل عنه . وموضع الالتفات الأول من شخوص الرواية هما شخص هذا القاتل المسمى روبرت برجر وشخص الفتى سيمون الذي يعلم أن الأواصر بينه وبين أبناء جنسه منقطعة أو مشلولة ، فيتطلع إلى السيادة عليهم والعبث بأرواحهم وأمانيهم ، ثم يعلم أنه ليس بالرجل المخلوق للزعامة ، ولاغنى له عن السيطرة والاعتساف بين أبناء جنسه ، فماذا يصنع ؟ ليكن إذن زرجنسكي Dzerjinsky رئيس الجواسيس في الروسيا الشيوعية إن لم يستطع أن يكون لنين أو ستالين ، وليجرع من قلبه كل أثر للرحمة أو الاكتراث للخلائق الآدمية ، بإدمان الصيام ، وزجر الأهواء ، والرياضة على المصاعب والآلام ، لأن زرجنسكي كان يتولى الجاسوسية العظمى بنزاهة الآلة وقسوة الدرويش المتعصب الغيور ، وكان يعيش للشيكا Cheka أي مكتب الجاسوسية ، ولا يعيش لنفسه ولا لأهله ولا لأحد من أبناء جنسه ، ولم يكن ينصر الثورة ليسعد بها من يسعد من الروسيين وغير الروسيين ، بل ليشقى بها من يشقى من المتهمين والمحكومين .

ويقول موام بلسان الفتاة الروسية : « إن زرجنسكي كان نموذج المثال المصور الذي تسول له نفسه في سبيل مثله الأعلى أن يجلب الخراب على وطنه ، دون أن يختلج ضميره اختلاجة واحدة من الألم . وليس صاحبك سيمون بالغ هذا المبلغ ، ولكنه إنسان صفر القلب ، صفر الضمير ، لا يتحرج ولا يبالي إذا حان الحين أن يقضي عليك وأنت صديقه الحميم في غير تردد ولا ندم » .

وكل من قرأ سيرة موام وقرأ مصنفاته يعلم أن مدرسته لبست بالموضع البعيد بين سيمون وقدوته العليا زرجنسكي في دولة الشيوعيين !

أما روبرت برجر — وهو « الشخص » الثاني الذي قلنا إنه حقيق بالالتفات في الرواية — فقد أتمه الكاتب أيما إتمام في التحليل والدرس والتصور ، فأخرجه قاتلاً « فناناً » يقتل فريسته كما يصيد اللاعب قبيصة القناب ، أو ينزع إلى القتل ليستوفي تكوينه بالتدمير كما يستوفي العبقري تكوينه بالانشاء والبناء ، وكل تلخيص لهذه « الصورة الشخصية » الكاملة فهو بمثابة الجهد الضائع في تلخيص صورة منقوشة رسمتها ريشة فنان عظيم .

وإذا كان تمثيل صورة صادقة من صور الآدميين حسب الكاتب النابغ من إتقان فنه وإبلاغ محله ، فانه لخليق أن يتجاوز بالاتقان مداه إذا أضاف إلى علمنا بالصورة علمنا بالمصور وعلمنا بالتصور .

عباس محمود العقاد

سيد ربيعة
كليب التغلبي

كان اليوم من تلك الأيام المطيرة التي يقل وقوعها في شتاء الصحراء ، وقد أسفر وجه السماء بعد هطول المطر الغزير ، وصفا الجو ، ورق النسيم البارد ، وسطعت الشمس رفيقة دفيئة ، تكسو أديم الرمال النظيف الزاهي فيبدو في ضوئها لامعاً كأنه التبر .

ونظر وائل التغلبي من جانب الوادي الذي ضربت فيه خيامه ، وجال ببصره في التلال المحيطة ، فاهتز قلبه لجمال المنظر ، وامتلأت نفسه بنشوة الحياة . ورأى على بعد جدولاً يترقرق ماؤه من تلعة عالية ، وينساب متلألئاً في الضياء إلى بطن الوادي المجاور ، ثم يغيب في روضة ملتفة الأغصان ، يتماوج عشبها الأخضر مع ريح الشمال ، وتتراقص أعوادها في هوادة ورفق ، وتتلامس أوراقها في وداعة وهدوء .

فتبسم البدوي للمنظر الفاتن ، وتنفس أنفاساً عميقة من الهواء الصافي ، وسار نحو الروضة بخطى قصيرة ثابتة . وكان على مقربة منه عبد أسود ، قد وقف يترقب حركاته في خشوع ، فأشار إليه إشارة خفيفة ، فأسرع العبد إليه ، ووقف على خطوتين منه وهو صامت مطرق ينتظر أمره .

فقال وائل : « جهز طعاماً وشراباً ، واتبعني إلى هناك »

وأشار بيده نحو الروضة من غير أن ينظر إلى العبد ، فحنى هذا رأسه في ذلة ، ولم يرفع بصره نحو سيده ، ثم سار مسرعاً نحو البيوت وقد فهم ما يقصده سيده ، فلقد كانت عادة وائل أن يذهب إلى الروضة ليقضي بها يوماً في عزلة وسكون كلما صفا الجو واعتدل الهواء ، ولا سيما في مثل هذا اليوم العطر .

وسار السيد بخطاه البطيئة نحو البقعة الخضراء ، وسار وراءه كلب صغير يشم آثار أقدامه في خضوع وذلة وقد وضع ذيله بين رجليه ، وتعتريه رجفة بين حين وحين كلما خفق ثوب سيده في الهواء ، أو انحدر نحوه حجر خبطه البدوي بخفة في أثناء صعوده جوانب الربى .

ولما بلغ وائل أول الروضة وقف هنيهة ، ثم أشار إلى الكلب الصغير بطرف سيفه المدلى من حمائله حول عنقه ، ففهم الكلب الاشارة ، ووقف حيث كان وهو يعوي عواء خفيفاً كأنه يجيب مولاه صادعاً بالأمر .

ودخل الرجل الروضة فجاس خلالها ، ينظر ما بها من آثار ، ويقف عند ما بها من زهور فيتأملها ملياً ، ثم يمضي عنها متباطئاً ، ويمد يده إلى الأغصان المتدلية عابثاً بأوراقها حيناً ومازعاً بعض أعوادها حيناً .

واقترب من غصن كثيف الأوراق متعرج الفروع ، فمد يده إليه ، وهزه بغير اكتراث ، فاذا بقبرة تطير من فوقه فزعة ، وتنتقل إلى شجرة مجاورة ، وتنظر إلى الزائر المفاجئ في ذعر واضطراب ، وهي مترددة بين البقاء والهرب ؛ فوقف يرقبها لحظة ، ثم تبسم وعاد إلى الغصن فرفع أطرافه المتدلية الملتفة ، فاذا به عش القبرة وفيه فرخان صغيران لا يغطي جسميهما إلا الزغب الأخضر ، فرجع مسرعاً خوف أن يؤذيهما ، ثم نظر إلى القبرة وقال ، كأنه يخاطبها :

« أيتها القبرة : عودى إلى عشك فأنت فى حمى وائل بن ربيعة » .

ثم أوغل فى الروضة حتى بلغ مكاناً عالياً قد ظلت عليه أشجار ملتفة لحمته من بلل المطر ، وسقطت عليه الأوراق فكسته فراشاً وثيراً ، فجلس هناك واضطجع يتأمل السماء من خلال الغصون ويتلقى شعاع الشمس السائل داخلاً إليه من بين الجذوع .

ووقف الكليب الصغير عند مدخل الروضة ولم يدخل وراء سيده ، فقد اعتاد كلما ذهب سيده إليها أن يقف هناك كالحارس الأمين ، فإذا رأى قادماً من بعيد نبحه ، فيعرف القادم أن وائل بن ربيعة هناك ، وتعود الناس كلما رأوا الكليب واقفاً عند مدخل الروضة ، أن يعرفوا أن الأمير العظيم جالس بها . فيتيامنون عنها أو يتياسرون ، مراعاة لحرمته ، وإكباراً لشأنه ، وويل لمن يتجرأ فيتعدى حدود الروضة ، ولا يرعوى بنباح الكليب .

وسرت تلك العادة فى قبائل ربيعة كلها ، واعتاد الناس أن يخاطب أحدهم الآخر فيقول :

« عرج بنا عن مكان الكليب » .

فيرد الآخر قائلاً :

« ابعد بنا إلى الوادى المجاور فالكليب هناك » .

وأصبح اسم الكليب فى لغتهم واصطلاحهم علماً على الأمير الكبير ، حتى صارت عادتهم فى القول أن يذكروا زعيمهم المبجل باسم الكليب ، وصار الأمير إذا تكلم عن نفسه لم يتسم إلا باسم الكليب . ذلك هو كليب التغلبى البطل المشهور .

كان كليب التغلبى سيد قبائل ربيعة الذى قاد عرب الشمال إلى النصر ، وجمع كلمتهم ، وأعلى شأنهم ، وهزم بهم قبائل اليمن التى كانت تبسط سلطانها من قبل على كل بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها ، فأوقع بأهل اليمن وقعة عظيمة عند جبل خزاز ، فأزاح نيرهم عن كاهل قومه ، وأزال عنهم معرة الذل والهوان ، بعد أن ذاقوا مرارتهما زمناً طويلاً . ومنذ ذلك الحين أصبحت قبائل ربيعة سيدة بلاد تهامة ونجد ، تحل فى أطيب مراعيها ، وتشرب من أعذب عيونها ، وتضرب خيامها فى أنضر رياضها .

وكانت أعظم قبائل ربيعة ، وأعظمها شأناً قبيلتان هما : بكر وتغلب المتحدرتان من جد واحد ، وهو وائل بن قاسط ، وهاتان القبيلتان هما إخوة كليب ، وبنو عمومته ، يلتفون حوله ، ويأتمرون بأمره ، ويسلمون له قيادهم عن طاعة واختيار ، لأن عزهم مستمد من عزه ، وسيادتهم مشتقة من سيادته . فكانوا يجلونه أعظم الاجلال ، ويخصونه بأكبر الاكرام ، إذا جلسوا فى حضرته جلسوا مع الاحتشام والهيبة ، وإذا نطقوا فى مخاطبته تكلموا مع الاذعان والرهبة . وداخل ذلك الزعيم الزهو والكبر ، وأخذ من قومه ما أعطوه على أنه حق ، وعد نفسه فيهم السيد الذى لا ينبغى لأحد أن يعصيه ، حتى بلغ من أمره أنه كان إذا دخل الروضة ، كما فعل فى ذلك اليوم المطير ، اكتفى بأن يجعل كلبه عند مدخلها ، فلا يجسر أحد على الاقتراب منها ، ما دام ذلك الكلب واقفاً يدل الناس على أنه فيها .

اضطجع كليب فى مجلسه ذاك ساعة ، وجعل يتذكر ما مر به من حوادث نضاله القديم ، ويداعب كبرياءه ، لما بلغه من مجد وسلطان فى قومه . وفيما هو فى ذلك سمع ضجة تقترب من مكانه ، فقام من مضجعه ليرى مبعث ذلك الصوت ، وأشرف على الوادى من جانب التلمة ، فرأى إبلاً تهوى إليه ، وغلاً مجراه ، وهى تهدر وتضطرب .

جاءت الإبل تجرى فى ذلك اليوم نحو الوادى المعشب تريد الشرب ، فقد مضى عليها أيام لم تذق فيها الماء . فلما نزل المطر فى ذلك اليوم ، وشمت رائحة الماء على مقربة منها بادرت تجرى إليه لتروى ظمأها الشديد . وكانت إبل ربيعة مختلطة ، بعضها لكليب التغلبى ، وبعضها لكبار

بني عمه شيوخ قبائل بكر . وتزاحمت الإبل تطأ العشب وتلوى الغصون ، حتى أقبلت على بطن الوادي حيث كان الماء مجتمعا ، وجعلت تشرب شرب المحروم الظمآن .

والرعاة من خلفها يحاولون صدها ولا يستطيعون ، ونظر كليب ، فرأى ناقة ضخمة كانت أشد الإبل خبطا ، وأكثرها عجيجا واضطرابا ، جاءت تندفع وتدفع ، وتطأ ما في سبيلها إلى الماء ، في هياج وصخب ، حتى قربت إلى المكان الذي فيه عش القنبرة السكينة التي أجارها كليب وجعلها في حماه ، تخبطت العش بخفيها فحطمته ، وطارت القنبرة الوالهة المرتاعة ترفرف وتصفر فوق الغصون البعيدة كأنها تبكي صغارها ، التي وطئتها الناقة الثائرة ... فأسرع كليب نحوها ونظر إليها فأنكرها . لأنها لم تكن ناقته ، ولم يرها ترعى من قبل مع إبله . فقبض على سيفه وهم أن يجرده ليعقرها عقاباً لها على جرمها في الاعتداء على حماه ، ولكنه سمع عند ذلك صوتاً من ورائه ينادي :

« تمهل يا كليب ! لا تفعل » .

فرفع الأمير يده عن السيف ونظر وراءه فرأى شابا ينظر إليه في شيء من الغضب والتحدي فعرفه . وكان ذلك الشاب أخا زوجته ، جساس بن مرة من بني أعمامه من بكر .

فقال كليب : « لمن هذه الناقة الحمقاء ؟ » .

فقال جساس : « هي ناقتي » .

قال كليب : « ليست ناقتك . فإني لم أرها من قبل »

قال جساس : « هي ناقة ضيف نزل عندي وهي في جواري » .

فقال كليب وقد عاد إلى القبض على سيفه : « لقد حميت هذه القنبرة التي وطئت الناقة عشها » .

فقال جساس متحديا : « والناقة ضيف في حماي » .

فصاح به كليب : « أتحمي علي يا جساس ؟ »

فقال جساس : « إنها ناقة ضيف » .

فترك كليب سيفه مرة أخرى ، وقال متساهلا : « لقد هممت أن أقتلها . ولكن احذر أن تعود تلك الناقة إلى الرعي في مرعاي » .

فقال جساس وقد ضحك ساخراً : « مرعاك ! كأننا لا يحق لنا أن نرعى إبلنا في هذه الأرض ! »

فتألم كليب لذلك القول الذي لم يتعود سماع مثله وعلا الدم في وجهه ، ولكنه تذكر أن جساساً صهره أخو امرأته العزيزة جليلة ابنة مرة ، وهو فوق ذلك فتى أخرق وفارس شجاع ، وأبوه مرة بن شيبان شيخ بني بكر جميعاً .

فتمهل في الجواب وكظم غيظه ثم قال : « أنصحك أن تبعد هذه الناقة عن إبلك » .

فأجاب جساس متحديا : « لن أبعدها ، وسترعى مع إبلي وحق مناة » .

فتقدم كليب نحو الشاب وقال مهدداً : « أيها الفتى ! إنك تكلم كليباً . وحق آلهة وائل لئن عادت هذه الناقة إلى الرعي هنا لأضعن سهمي في ضرعها » .

فضحك جساس مرة أخرى ساخراً وقال : « إن وضعت سهمك في ضرعها وضعت رمحي في نحرك » .

ثم مضى مسرعا عنه وهو يحرق الأرض بسنان رمحه وعيناه تقدحان شرراً .

فأسرع كليب وراءه حتى أدركه عند طرف الروضة وقبض على ذراعه وقال : « ألا تعرف أن هذا حمى لي ؟ »

فقال الفتى : « هذه أرض ربيعة » .

فقال كليب مشيراً إلى الكلب الصغير : « ألا تنظر هذا الكليب ؟ »

فقال جساس : « أيهما ؟ » .

فانتفض كليب كأنما لدغته نار وقال : « أيها الفتى الوقح ! ويل لك ! » .

فوقف جساس أمامه رافعاً رأسه وقال : « الوقح من يشتمني » .

فقال كليب وهو يهزه هزاً عنيفاً : « أبهذا تخاطب سيد ربيعة ! »

فتخلص جساس من قبضته ، ووثب كالثعبان حتى وقف أمامه وجها لوجه وقال : « نحن الذين سودناك . لم تسدنا بعبيدك بل سدت لأننا عززناك . حاربنا معك حتى انتصرت بنا . أتريد أن تجعلنا عبيداً لك ؟ » .

تخشى كليب أن يخرج الفتى فى قوله إلى أكثر من ذلك فاكتفى بأن قال : « سأعرف كيف أؤدبك » .

ثم مضى عنه راجعاً إلى مجلسه فى الروضة . وقد اشتد غضبه ، وقضى بها ساعة وهو ثائر النفس مضطرب الفكر ، وتعكر الصفاء الذى خرج ينشده فى ذلك اليوم الجميل .

فى هذه اللحظة أقبل العبد متردد الخطى يحمل فوق رأسه صحفة واسعة بها طعام أعده لسيده . فلما وقعت عينه على وجه مولاه وقف وجلاً خوف أن تصيبه بادرة من بوادر غضبه .

فقام كليب كالأسد الغاضب نحوه ، ونفس عن غيظه الذى ملأ قلبه بأن ضرب الصفحة بطرف سيفه فألقاها عن رأس العبد ، وبعثر ما عليها من أطايب الطعام التى بعثت بها إليه زوجه الوفية جليلة بنت مرة. ولم يطق البقاء هناك يومه كما كان يريد عند خروجه فقام عائداً إلى بيته ، ولا يكاد يبصر مواقع أقدامه من الغضب .

وكانت جليلة واقفة عند باب البيت عندما أقبل كليب ، فلما وقعت عينها عليه عرفت فى وجهه الغضب ، فارتاعت واضطرب فؤادها ، وعلمت أنه لم يعد إلا لأمر عكر عليه صفوه ، فسارت مسرعة نحوه ووجهها ينم عما يثور فى نفسها من المخاوف .

ولم يأخذها بين ذراعيه كعادته إذا أقبل . ولم تهم هى بالاندفاع إليه كعادتها عندما تراه راجعاً ، بل وقفت على خطوة منه ، وجعلت تفرك يديها لتزيل عنهما أثر الدهن الذى أصابهما وهى تعد له الطعام ، ثم قالت : « أراك قد عدت مبكراً يا ابن العم ؟ »

فقال وهو يعلق سيفه فى عمود الخيمة فى وجوم : « شر مستطير وحق مناة ! »

فقالت وهى تمانع نفسها من إظهار الجزع : « هل غضبت لأمر ؟ » .

فقال متجهما وقد نظر إليها : « أترين يا جليلة أحداً من العرب يمنع منى جاره ؟ » .

فقالت : « ومن يجرؤ على ذلك إلا أن يكون عمك مرة . هل حدث بينكما أمر ؟ » .

فقال كليب : « لم أر أباك اليوم » .

فقالت جليلة فى شىء من الارتياح : « إذن هو جساس أخى » .

فقال كليب بحقد : « وشتمنى » .

فقالت جليلة وقد أقبلت عليه فطوقته بذراعيها : « دع جساسا يا ابن عمى . إنه فتى أخرق » .

فقال كليب ، وهو يتخلص من ذراعيها : « أخرق ؟ أعلىّ أنا ؟ » .

فعادت جليلة إلى التعلق به وقالت : « أتوسل إليك يا ابن عمى ، أيها الزوج العزيز . أتوسل إليك ألا تقطع رحمك ».

فقال كليب : « هو الذى يقطع الرحم . أترضين أن يهان كليب يا جليلة ؟ » .

فقالت جليلة وقد أخذت وجهه بين يديها : « اعف عنه من أجلى ، اعف عنه يا كليب ! هو أخى فأكرمنى بالتجاوز عن خطئه . عدنى بحق مناة . أتفعل ؟ » .

فسكت كليب ولم يجب بل حاول أن يتخلص من يديها ، ولكنها تعلقت به ، واستمرت تتوسل وترجو .

ونظر إليها كليب فرأى دمعة تنحدر على خديها وهى متجهة إليه بعينيها المغرورقتين . فتردد لحظة ثم ضمها بين ذراعيه بقوة وقال لها : « لقد عفوت عنه يا جليلة من أجلك » ثم قبلها بين عينيها .

(يتبع) **محمد فريد أبو حديد**



مصير الانسان

قرأت البارحة ، تحت مصباحي الأخضر ، في كتاب حديث ظهر هذا الشهر «لموريس مترلنك» هذه العبارة :

« سوف تأتي على الانسان لحظة يأبى فيها الحياة ، ما لم يكر عائداً إلى « الحيوانية » ! فذكرت من الفور الملك شهريار في قصتي « شهر زاد » . إن هذا الانسان قد حاول عبثاً أن يتذوق الحياة في آخر أيامه ، فلقد بلغ من التجرد الفكري وقتئذ مبلغاً باعد بينه وبين البشرية ، هذا الرجل كان قد مر بكل الأطوار التي تعرفها الحياة الانسانية ، فقد عاش حياة الحيوان يوم كانت تقدم له في كل ليلة عذراء يفتك بها في الصباح . وعاش حياة القلب يوم عرف « شهر زاد » فأحب جوارها ، ونسي القتل والفتك ، وجلس إليها ينظر في عينيها ويصغي إلى قصصها . ثم عاش حياة العقل يوم أيقظ فكره حديث شهر زاد ، واتسعت أمام بصيرته آفاق عوالم ليس لها حدود ، فنهض على قدميه ، وانطلق يهيم في أجواء الفكر العليا . وفتنه حب المجهول واستكشاف الستور ، ولم يسعفه العلم فلجأ إلى السحر ، ولم يطق ثقله السحر فعاد إلى الفكر ، وضاقت به الأرض ، فتطلع إلى السماء . ولكن السماء لا يرقى إليها البشر ؛ وهو لا يريد العودة إلى الأرض . تلك الأرض التي سئمها وعاف ثمارها المادية والروحية ، واستنفد لذائذها السفلية والعلوية . لقد فرغ من كل شيء ، وشبع من كل شيء ، ولم يعد على هذه الأرض شيء يغريه بالبقاء ، إلا ... إلا أن يعرف . إنه يريد أن يعرف . يعرف ماذا ؟ يعرف ما لم يسمح لآدمي أن ينفذ إليه ، تلك لذته الوحيدة التي بقيت له ، وذلك هو خيط الأمل الذي يربطه بالحياة ، ولقد أصابه في ذلك ما يشبه الخبل . فهو يمضي الليل يتطلع إلى نجوم السماء ، كأنه يسألها أن تجيب عن أسئلة فكره الحائر . وتعب الفكر واضطرب في بناء جسمه الكليل . وأيقن أن الجسم هو الوتد الذي يعقل روحه ويلصق فكره بالأرض . فثار على الجسم ، وأراد أن يتحرر من سجنه . وسجن الجسم هو « المكان » كما أن سجن الماء هو « الوعاء » . فرأى أن يفر من جدرانه بالسفر والرحيل . فطوف في البلاد والقفار حتى وجد نفسه آخر الأمر يعود إلى حيث بدأ المطاف ، وأدرك أن ليس في السفر سوى تغيير إناء بعد إناء ، ومتى كان في تغيير الاناء تحرير الماء ؟ فألقى بنفسه بعدئذ في خان

أبى ميسور ، طالباً الهرب من الجسم والسكان فى غيبوبة القنب والدخان . . .

فى أثناء هذا كله كانت شهرزاد ترقبه فى عطف ويأس وعلمت أنه إنسان هالك . فهو قد ترك الأرض ولم يبلغ السماء . فهو معلق بين الأرض والسماء ينخر فيه القلق . وجعلت تحتال فى علاج الداء . أما السماء فمن الجنون أن يفكر إنسان فى بلوغها وهو إنسان . فلا مناص إذاً من إعادة شهريار إلى الأرض إذا أريد له الحياة . فلجأت إلى « العبد » كى يعينها على إيقاظ « الحيوان » المحتضر فى أعماق شهريار ؛ ولكن التجربة لم تنجح فكان على شهريار أن يختفى من مسرح الوجود . . .

من الغريب أنى منذ كتبت هذه القصة ، وقد مضى الآن على كتابتها عشر سنوات ، وأنا أفكر فى إرجاع هذا الملك التعس فى قصة أردت أن أسميها « عودة شهريار » . غير أنى وجدت أمر عودته عسيراً ، إن لم يكن مستحيلا . فهو لن يعود بالطبع كما ذهب . إذ لا فائدة عندئذ من القصة الجديدة . فلا بد إذاً من أن يعود شخصاً آخر . وهنا الصعوبة . ما الذى سيعيد هذا الرجل ؟ إنه كان قد ذهب فى تلك اللحظة التى ينبغى أن تقف عندها كل حياة بشرية . إن شهرزاد نفسها لم تستطع شيئاً . فهل أستطيع أنا ؟ إنها قد رأت مآبه ، وأدركت أنه شجرة بيضاء قد نزعت ، وأنه ككل شىء فى هذا الوجود قد دار وصار إلى نهاية دورة . فإذا عاد فإنما يعود من أول الحلقة : مولوداً جديداً يمر بطور الحيوانية من جديد . . .

توفيق الحكيم

بحث في النفس :

عواقب النصيحة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قد يتناول النصيحة إنسان من إنسان ، كما يتناول وعاء الملح على الطعام ، أو كما يتناول لفافة التبغ ، أو كما يتناول بذهنه النكتة من المَلِح والنكات في غير ما إحنة ولا ألم ، ولكن النصيحة قد تكون مجلبة الشر بما ركِّب في النفوس من إِرَة وشر .

فإنك قد تتلطف في النصيحة ، ولكنها ، وإن كانت نافعة للمنصوح إذا اتبعها ، قد تكون كريهة ، إمّا لأنها تُشعِرُهُ أن الناصح قد امتاز بسداد الرأى وعلاه بالحجة ، وكل نفس تشعر بغضاضة إذا علتها نفس أخرى ، مهما كانت صديقة أو عزيزة ، وإمّا أن النصيحة تنهى عن أمر فيه ضرر محقق ، ولكنه لذيذ محبوب ، فإذا اقتنع المنصوح بما في الأمر من الضرر ، ووجد أن الضرر أعظم من اللذة ، وطاوعته نفسه ، عمل بالنصيحة وابتعد عما حذره الناصح منه ، ولكنه لا يغفر للناصح أنه نصحه بالابتعاد عن أمر لذيذ ، كأنه هو الذى حرمه من لذته ، أو كأنما قد سرق الناصح منه شيئاً ، أو كأنما قد غبنه وظلمه وأهانه . ومن الغريب أنه قلما يشكر الناصح على نجاته من الضرر ! وإذا شكره شكره بلسانه ، أو بلسانه وبجزء من قلبه صغر أو عظم ، وبالجزء الباقى من قلبه يشعر بشىء من الامتعاض أو الكره أو الرغبة فى الأذى . وهذا الشعور فى المنصوح يختلف مقداره ، فهو فى بعض الناس تضايق خفيف يكاد يكون غير مفطون له ، وفى بعضهم يزداد حتى يصير مقتاً ورغبة فى الأذى ، بالرغم من أن صاحب هذا الشعور قد انتفع بنصيحة الناصح . وهذا الشعور الموصوف فى المنصوح أكثر ظهوراً فى الأطفال ، لأنهم لم يعتادوا إخفاء شعورهم أو المغالطة فيه كالكبار ، فالطفل قد تمنعه عما فيه ضرر كبير له فينتفع بمنعك إياه ، ولكنه قد يبكى من الغيظ ، وقد يشتمك إذا كان فى هذا الأمر المضر الذى منعته عنه لذة يعقبها الضرر . وهذا الامتعاض الذى يشاهد فى الأطفال يشاهد فى الناس كلهم أو هو خفىٌّ فى سريرتهم .

على أن الشعور بالسوء غير مقصور على المنصوح ، فإن الناصح قد يشعر بالأحاسيس المختلفة وكلها سوء ، وإن غالطتْ فيها النفسُ وموّهتها . فإذا نصح إنسان إنساناً وتنبأ له بضرر فى مخالفة نصحه ، ثم لم يتبع المنصوح نصحه ولم يَحِقْ به أذى ولم تصدق نبوة الناصح ولا إنذاره بالشر ، فقد يشعر الناصح بخيبة من أجل بطلان تشاؤمه حتى ولو كان المنصوح صديقه العزيز ، كأنما يود الناصح بالرغم من ذلك أن يصدق تشاؤمه ، وأن يحل بصديقه بعض الشر الذى تنبأ له به إذا خالف نصحه . وهذا الشعور بخيبة التشاؤم يختلف مقداره باختلاف نفوس الناصحين المتشائمين وتختلف عواقبه ، فإذا كان الناصح الخائب فى نبوته شريراً سعى بين الناس يشتم صديقه تشفياً منه ، وتكاد نفس الناصح الخائب فى نبوته تعد تلك الخيبة انهزاماً وانكساراً وخسارة فى مال أو ثكلا فى أهل ، وكأنما له تِرة عند صديقه .

أما إذا صدقت نبوته وصدق تشاؤمه ، وحل بصديقه

المنصوح ضرر من أجل عصيان نصحه ، فإن الناصح يزهو عليه ويفرح بالشر الذى حل به . ويختلف مقدار هذا الشعور أيضاً باختلاف نفوس الناصحين ، فقد يكون زهواً خفيفاً وفرحاً خفياً غير مفطون له ، وقد يكون زهواً وفرحاً يخالطهما الحقد والتشفى من صديقه المنصوح لأنه خالف نصحه . وفى الحالة الأولى يفرح ولو أن الذى حاق به المكروه صديقه العزيز ، وكما قابل صديقه الذى حل به الضر لامه وعَنَّفَهُ لأنه خالف نصحه ، وذَكَّرَهُ أنه تنبأ له بالشر ، حتى إنه قد ينغص عليه حياته بالتعنيف والتذكير ، وقد يصير لومه وتذكيره ضرراً أشد من الضرر الذى حل بصديقه بسبب مخالفة نصحه ، والناصح المتشفى قد يفطن إلى أنه يضايق صديقه بلومه وتذكيره وقد لا يفطن ، وهو على أى حال يتشفى لأن صديقه لم يتبع نصحه .

فإذا كان صديقه المنصوح المخالف النصح ، والذى حل به الضر والأذى بسبب مخالفته النصيحة من أهل الخير ، تضايق من إلحاح الناصح فى التعنيف والتذكير ، واكتفى بأنه تضايق منه . أما إذا كان هذا الصديق المنصوح المخالف الذى حل به ضرر مخالفة النصح ، وضايقه التعنيف والتذكير ، شريراً مثل الناصح المتشفى بالتعنيف ، أو إذا أغلظ عليه الناصح المتشفى بالتعنيف والتذكير إغلاظا قد يمزجه وقد لا يمزجه بالمزاح ، فقد يحقد ذلك الصديق المنصوح التضايق على الناصح الملف ، حتى يعده كأنه هو المسئول عما حل به من الشر والأذى بسبب تشاؤمه ، وحتى يبغى أذاه . وقد يخالط الناصح المتشفى بالتعنيف نفسه ويوهمها أن إلباس التشفى والحقد لباس المزاح فى التعنيف يسلب المنصوح الخائف اللوم حقه فى التضايق من هذا التعنيف والتذكير المشوب بالمزاح أو بالملاطفة ، فإن المزاح قد يجعل التعنيف أشد إيلاما وأبلغ فى التشفى ، حتى ولو ادعى المازح أنه لا يريد التشفى وإنما يريد الملاطفة بالمزاح . فمن مكارم الأخلاق إذا تنبأت لأحد بشر فى مخالفة نصحك وصدقت نبوتك أن لا تذكِّره بما تنبأت به ، كى لا يتضايق منك ، وكى لا يحقد عليك ، وكى لا تمدك نفسه — والنفس ذات أهواء وأوهام عجيبة — كأنك أنت الذى سببت له سوء العاقبة بتشاؤمك ، وإن كان سوء العاقبة الذى حل به كان بسبب مخالفة نصحك .

فمن الراحة لك والسعادة وكسب مودة الصديق ومنع أذاه عنك ، أن لا تذكره بما كان من سوء عاقبة مخالفته نصحك ، حتى وإن وجدت فى حرمانك نفسك لذة تقريعه وتعنيفه وتذكيره ألماً شديداً ، وقد يكون فى حرمان النفوس التشفى من أصدقائها حتى الأعزاء ، ألم وامتعاض وتضايق ، فتحمَّلْ هذا الألم والامتعاض والتضايق من حرمانك نفسك لذة تعنيفه وتذكيره ، فإن تحمله أليق بمكارم الأخلاق وأدفع للشر ، وهو على أى حال قد يحرمك لذة التشفى بأن ينكر انكاراً تاماً أنك نصحته ، ويبث له سوء العاقبة . وإن كان صاحبك ماكراً ماهراً ، فقد يحملك إنكاره أنك نصحته تلك النصيحة بالذات ، ويحملك تعجبه من تذكيرك إياه بنصح لم يأت منك إذا أتقن صنعة ذات التعجب والانكار — أقول إن مكره قد يحملك على أن تتهم ذاكرتك فتشك فى صحة ما نصحته به أو تشك فى حصول النصح منك ، وهذا يُفْسِدُ عليك لذة التشفى . وقد يبالغ فى مكره ، فيحاول أن يقنعك أنه اتبع نصحك وأن نصيحتك هى التى أوقعته فى الشر . وهذا أيضاً يتلف عليك لذة التشفى ، وحتى إذا لم يحدث شىء من ذلك فإن ادعاءه نسيان نصيحتك يُفْسِدُ أيضاً عليك لذة التشفى ، لأنك لا تستطيع التلذذ بالتشفى إلا إذا كنت واثقاً أن صاحبك يتذكر نصيحتك ، ويتذكر مخالفته لها كى يندم على مخالفتها التى جرت سوء العاقبة له ، أما إذا حملك على الشك

فى تذكره نصيحتك ، فإن شكك يكون كشوكة تشوكك فى جانب تشفيك وتولك . فخير لك أن تترك التشفى ممن خالف نصحك وأن تحتمى بمكارم الخلق ، وأن لا تذكّر صديقك بعواقب نصحك من خير فى اتباعه أو شر فى مخالفته .

ومن قبيل عنف الناصح المخذول إذا تشفّى من المنصوح الذى خالف نصيحته فوقع فى الشر ، مايفعله بعض عُوّاد المرضى . فكم رأينا من عائد لمريض يشتد فى لومه ، وهو يُظهِر الاشفاق عليه والحنان له بلسانه ويقول : لو كنتَ فعلتَ كيت وكيت ماأصابك المرض ، أو لو كنتَ امتنعتَ عن كذا وكذا ما مرضت ، أو لو كنتَ تجنبتَ أكل كيت وكيت ما أصابك السقم ، أو لو كنتَ اتقيت تيار الهواء لما وصلتَ إلى هذه الحالة ، ويردد ويعيد اللوم والتحذير . ولو كان هذا القول على سبيل الإشفاق والنصح والحنان ، لا كتفى العائد بذكره مرة واحدة أو مرتين ، ولكنه لا ينقطع عن ذكره كلما عاد المريض . وربما ذكّره بالموت ويقول له : يا فلان ينبغى أن تكون أكثر حذراً ، وإن لم يكن حذرك حباً لنفسك فينبغى أن تحرص على توقى أسباب المرض حباً لأولادك ، إذ من الذى يعولهم ويكرمهم ويعزهم بعدك إذا مت ؟ ويستمر العائد الثقيل البغيض فى هذا التعنيف ، حتى يتضاءل المريض المسكين فى جلده وإن كان منتفخاً من الغيظ ، حتى يُخيَّلَ لذلك المريض أن الموت أقل ما يستحقه من العقاب لأنه لم يُوَفِّ الوقاية حقها كرأى العائد ، وإن كان يجهل رأى العائد قبل مرضه . ولا يستطيع أحد أن يقول إن مثل هذا الالحاح فى مضايقة المريض بالنصح من قبيل الاشفاق ، بل هو من قبيل الرغبة فى التعاظم بالعلم والحكمة والفطنة ، وانتهاز فرصة ضعف المريض للتعالى عليه بالفطنة والعرفان ، ومن الغريب أن بعض العواد لا يفطنون إلى أنهم يضايقون المريض بهذه النصائح ! وهؤلاء فى حاجة إلى شىء من الثقافة النفسية .

عبد الرحمن شكرى

المرأة فى عهدها الجديد

بقلم السيدة الأديبة ف . ف . ب

زحمت المرأة الغربيـة الحركة النسوية ، فسبقتنا فى طلب حق المساواة بالرجل ، وسبقتنا فى الحصول على هذا الحق ، وسبقتنا فى خوض الأعمـال الحرة . وكانت فى حركتها النسوية قدوة لنا ، وكانت النموذج الذى قلدناه ، ومازلنا نقلده . واجتازت حركتها فى الغرب شوطا كبيراً ، بل كبيراً جداً ، حتى لقد نالت أكثر مطالبها ، وأصبح لها أكثر ما للرجال من حقوق وميزات .

إلا أن من يبحث حالة المرأة فى الغرب فى عهدها الجديد ، يجد أن الأكثرية العظمى من الرجال والنساء على السواء غير راضيين عن المرأة الجديدة .

لأنه وإن كان معترفا به أن المجتمع فى حاجة إلى معاونة المرأة من الناحيتين الفكرية والعملية ، إلا أن فريقا كبيراً من الجنسين مازال مترددا بين القديم والحديث ، لايستطيع أن يحدد نسبة المعاونة التى يتطلبها المجتمع من المرأة .

فنجد أن عدداً كبيرا من الفتيات ما زلن حائرات ، لايستطعن أن يحكمن أيهما الأصلح لهن : الطموح الفردى ، أم خدمة العائلة . ونجد عدداً كبيرا من الأمهات عاجزات عن إرشاد بناتهن ، وعددا من الرجال مرتبكين لايدركون مطالب المرأة العصرية ، ومغالاتها فى طلب المساواة . كما نجد عددا كبيرا لا تعجبه المرأة العصرية ، لأنه لا يجد فيها المرأة التى كان يعرفها أسلافه .

هذا ما حدا كثيرين من الكتاب رجالا ونساء على بحث هذه المشكلة الجديدة ، وتخصيص مجلات كبيرة لها . وإنى إذ أطرق هذا الموضوع ، لا أطرقه لحاجتنا إليه هذه الأيام ، فما زلنا فى بدء حركتنا النسائية ، ومازالت مشكلة المرأة الغربية بعيدة عنا ، وإن كنا سنصل إليهـا . وإنما أطرقه حتى ندرس هذا الموضوع ، ونوليه ما يستحق من عناية ، فنكتسب من تجارب أختنا الكبرى ، بأن نتحاشى الأخطاء التى ارتكبتها ، ونقتبس ما وجدته مفيدا نافعا . وهذا يوفر علينا مجهودا كبيرا فى حركتنا ، ويريحنا من مشاكل لا شك أنها ستواجهنا لو أننا اتبعنا نفس الطريق التى سارت عليه المرأة الغربية إلى الآن .

يجد المهتمون بدرس هذه المشاكل أن المرأة لم تطالب بحقها فى المساواة عن ميل طبيعى لمنافسة الرجل ، بل إن مطالبتها المساواة ومغالاتها فى الطلب ، كانت نتيجة ثورة نفسية دفعتها إليها أنانية الرجل فى تسلطه ونشر سيادته عليها ، حتى وصلت إلى حد لم تطق معه صبراً ، فثارت ثورتها وطالبت وأسرفت فى الطلب غير واعية فيما تطلب ، شأن كل ثورة .

كل ما هنالك أنها أرادت أن تظفر بحريتها ، وأن تظهر للرجل أنه ليس خيراً منهـا فى شىء ، وأن لا شىء يعوزه عنها ، وأنها شخصية قائمة بنفسها . وكان لها ما أرادت فأرضت كبرياءها ، واعترف لها الرجل بالمقدرة .

وإذ نالت المرأة مطالبها واستردت كبرياءها بقدرتها على منافسة خصمها فى كل ميدان طرقته ، ولم تجد أمامها مايعترضها ، هدأت ثائرتها . عندئذ ، وعندئذ فقط ، أفاقت من ثورتها فوجدت أنها وإن كانت قد ظفرت بكل أمانيها إلا أنها لم تظفر بالسعادة .

يجد المهتمون بدرس هذه المشكلة الاجتماعية أن فشل المرأة فى الحصول على السعادة يرجع إلى خروجها عن طبيعة

المرأة فى مغالاتها فى طلب المساواة بالرجل ، وأنها لو أرادت أن تظفر بالسعادة التى تتوق إليها ، فعليها أن تفطن إلى أن مغالاتها فى طلب المساواة بالرجل خارج عن طبيعة المرأة ، وهذا لايعنى أن الرجل فيه ما يميزه عن المرأة ، فإن الرجل فى رجولته ليس خيراً من المرأة فى أنوثتها . إنهما نصفان لمجموعة يكمل أحدهما الآخر ، ليس لأحد منهما فضل على الآخر ، وليس لأحدهما أن يسود الآخر ، فلكل شخصيته ولكل طبيعته التى تميزه ، وإن الرجل يحافظ على رجولته ويفخر بها ، فعلى المرأة أن تحافظ على أنوثتها وتعتز بها .

والنظرية الحديثة فى تعليم الفتاة هى توجيهها إلى معرفة نفسها ، وإلى احترام نفسها كامرأة ، وإلى ارشادها إلى ما تستطيع أن تنتجه فيما تختلف فيه عن الرجل أفضل مما تستطيع أن تنتجه فيما تتشابه فيه وإياه ، وأن حريتها تتوقف على معرفة هذه الحقائق .

والعالم ما يزال يسعى إلى تفاهم تام بين الرجل والمرأة ، وبين الآباء والأمهات ، فيما يتعلق بالحياة العائلية ، وفيما بين الحياة العائلية والمجتمع فى مجموعه .

إلا أن العقبة فى ذلك ترجع إلى عمل الرجل وإفراطه فى إنماء الناحية التى يتخصص فيها . وواجبات المرأة العاجلة التى لا تنتهى والتى تكرس نفسها لأجلها لا تعينها على التفرغ والتخصص فى أى ناحية قد تميل إليهـا . فكأن المرأة لو استسلمت لأنوثتها لن تعمل إلا لتعاون الرجل فى تغذية مواهبه الخاصة . وهذا ما يبحثه المهتمون بهذه المشكلة وما يسعون فى تسويته .

وسنأتى فى المقالات القادمة بعض الحلول التى وصل إليها الباحثون فى معالجة ما يواجه المرأة العصرية من مشاكل حديثة .

السيدة ف . ف . ب

مسلمو الهنــــد

اطلعت فى العدد الثانى عشر من الثقافة على مقال للأستاذ الفاضل محمد عبد الله عنان ، يذكر فيه أن أحد فضلاء المسلمين فى الهند كتب إليه رسالة منها : « وإنه لمن بواعث الأسف الشديد بالنسبة للمسلمين فى جميع الأقطار ، أن يكون المسلمون الهنود بالرغم من ضخامة كتلتهم ، قد انحدروا فى جميع نواحى النشاط إلى أسفل درك ، سواء من الوجهة المذهبية ، أو الاقتصادية ، أو الدينية ، أو الاجتماعية والثقافية . . . . وهم قد أخذوا بنوع خاص ينحرفون عن تقاليدهم الدينية والثقافيــة ، نظراً لندرة الآداب والتصانيف الإسلامية . وأنه يخشى أن لو تركت هذه الحالة وشأنها ، فإن المسلمين الهنود يفقدون عقيدتهم الاسلامية ، ولن يمضى طويل حتى تبتلعهم الهندوسية والنصرانية .

« ولا بد لاتقاء هذه المحنة أن توجد آداب وتصانيف وافرة عن الدين الاسلامى ، وعن تاريخ الاسلام وفلسفته وثقافته . ونقص مثل هذه الآداب والتصانيف هو السبب الأساسى لانحلال المسلمين فى الهند » .

نشر الأستاذ عنان هذا الكتاب وأسف على ما أصاب مسلمى الهند ، ونعى على المصريين جهلهم أمور الهند ، ودعاهم إلى الاهتمام بإخوانهم وتزويدهم من العلم بما يحفظ عليهم دينهم . ودعا إلى تأليف كتب بالانكليزية « تعنى بعرض الإسلام من جميع نواحيه الدينيــة والفلسفية والتاريخية عرضاً مستنيراً محدثاً » الخ .

وأنا أشارك الأستاذ فى الدعوة إلى تعرف أحوال مسلمى الهنـد والعناية بهم وتوثيق الأواصر بيننا وبينهم ونشر الكتب التى تجلو حقائق الإسلام وتنير تاريخه ، ولكنى أبعد أن يكون مسلمو الهند فى الحال التى صورتها هذه الرسالة التى تلقاها الأستاذ من صديق هندى . فأنا أعرف جهاد علماء الهنـد فى الذود عن الإسلام والدعوة إليـه ونشرهم الصحف والمجلات والكتب باللغة الأردية والانجليزية ، وأعرف تحمس شعرائهم وكتابهم للاسلام ودأبهم على الإشادة بمحاسنه والإبانة عن فضائله والدعوة إلى الاستمساك به والاعتصام به فيما يحيط بالمسلمين من الفتن والمفاسد .

وأدب المسلمين فى الهند أدب إسلامى ، يرجع إلى إعلاء شأن الاسلام ، وتمكينه فى نفوس الناشئة ، والاسلام هو القومية والوطنية عندهم .

ولم يكتب فى السيرة النبوية وسيرة الصحابة أوسع وأجدى مما كتبه الشيخ شبلى النعمانى وصاحبه سليمان الندوى : كتبا فى سيرة الرسول ستة مجلدات ضخام ، ولم يتركا مرجعاً من كتب التاريخ والحديث إلا نخلاه ، وقد خصا الجزء السادس برد مطاعن خصوم الاسلام .

ولا ننسى شاعر الاسلام محمد إقبال ، الذى وقف علمه الواسع ، وعقله الدراك ، وقلبه الفياض ، لنصرة الاسلام ، وعرضه فى صورته الوضاءة الرائعة ؛ حتى خلق فى الهند الاسلامية جيلا مغرما بالاسلام ، فخوراً به ، معجباً بفضائله . ونشيده القومى الذى يعتز به شباب المسلمين فى الهند هو نشيد إسلامى أوله :

چين وعرب همارا هندوستان همارا

مسلم هين هم ، وطن هى سارا جهان همارا

« الصين وأرض العرب لنـا ، والهند لنا — نحن المسلمون ، العالم كله وطننا » .

وإذا نظرنا إلى ما كتبه المسلمون عن الإسلام باللغات الأوربية فمسلمو الهند أوفر المسلمين نصيباً منه . ومن هذا كتاب روح الإسلام لسيد أمير على (Esprit of Islam) وكتـابه مختصر تاريخ العرب ، وكتب مولانا محمد على وكمال الدين فى تاريخ الرسول ، وعقائد الإسلام ، وكتب أخرى هدت قراء الانكليزية إلى حقيقة الاسلام ومقاصده .

(البقية على الصفحة التالية)

نظرات فى الأدب الغربى :

الشرق فى أدب الغـــرب

للأستاذ فخرى أبو السعود

الشرق مهد المدنيات القديمة ، ومهبط الديانات العظيمة ، سبق الغرب من قديم الزمن إلى تشييد المدنيات والتبحر فى العلوم والفنون ، ولما أراد الغرب الاقتداء به أخذ عنه الشىء الكثير : أخذ الاغريق فى العصور القديمة عن المصريين والفينيقيين والبابليين وغيرهم ، وأخذت أوربا الحديثة عن العرب فى الشرق وفى صقلية وفى الأندلس .

وظل الشرق فى مختلف العهود يمثل فى نظر الغربيين الملك الأثيل ، والسلطان الباذخ ، والغنى الواسع . وظل فى نظرهم موطن الملوك الأقوياء ، والأنبياء الحكماء ، والنساك والزهاد .

واستعرت بين الشرق والغرب الحروب الكبيرة من قديم العصور . بدأت بالغارات التى شنها دارا وخلفاؤه من ملوك فارس على اليونان ، وأدت إلى غارة الاسكندر على فارس والشرق كله ، وما لبثت أن تبعت هذه غارات الرومان الذين بسطوا سلطانهم على جانب كبير من الشرق ، وفى حكمهم ظهر الدين المسيحى الذى انتقل غرباً وعم أوربا ، واتصلت الغارات القديمة بين فارس وبين الدولة الرومانية الشرقية ، لا سيما منذ نهضت فى فارس الدولة الساسانية ، وتابع أردشير وسابور خطة دارا واجزرسيس ، فلما ورثت الدولة الاسلامية ملك فارس ، وبسطت جناحيها على الشرق ، واصلت ثارات فارس ضد الدولة البيزنطية ، وحارب العباسيون الروم فى نفس الميادين التى حاربهم فيها من قبل الساسانيون ، من قلال أرمينية ، وهضاب آسيا الصغرى ، وتخوم الشام .

فلما استبدت على الروم وطأة المسلمين ، استنجدوا بأمم الغرب أصحابهم فى الدين ، فكانت الحروب الصليبية ، تلك الغارات المتتابعة التى شنها الأوربيون على الشرق مدى عشرات السنين ، بل مئاتها . فلما آبوا منها فى النهاية بالفشل ، وسد العثمانيون والماليك فى وجوههم طريق الشرق ، انصرفوا إلى الغرب ، فكشفوا طريقاً جديداً إلى الهند ، وكشفوا أمريكا ، وانتفعوا بما أخذوا من علم عن المسلمين ، وتبحروا فى ذلك ، فكانت نهضتهم العظيمة الحديثة ، وابتلى الشرق منهم بغارات جديدة أكثر توفيقاً من غارات الصليبيين ، لأنها مزودة بالعلم ، مؤيدة بالقوة .

وفى خلال تلك الحروب التى اشتعلت فى مدى القرون

والخلاصة أن مسلمى الهند لم يقصروا فى الكتابة عن دينهم ، والدفاع عنه ، وتقريبه لناشئة هذا العصر ، ومفاخرة الأمم به وبتاريخه .

ولست ، على هذا ، أخالف من يدعو إلى أن يتعرف المصريون مسلمى الهند وغيرهم ، ويحكموا الأواصر معهم ، ويبذلوا ما يستطيعون لمعاونتهم وتمكينهم من الثبات بدينهم فى زلازل الفتن المحيطة بهم فى بلادهم ، وبالمسلمين عامة فى أقطار الأرض .

ولعل هذه الكلمة تكون فاتحة الكلام عن أحوال مسلمى الهند ، وتعرف أحوالهم ، والتوسل إلى إفادتهم ، والاستفادة منهم ، لإعلاء شأن الإسلام وتمكين أخوته بينهم .

عبد الوهاب عزام

كان يخرج إلى الشرق رحالة الغرب ، منهم من يطلب العلم ومنهم ذو الغاية السياسية ، فطاف فى الشرق من قديم الزمن هيرودوت واسطرابون وماركوبولو ، وفى العصر الحديث طاف بالشرق العربى فى القرن الثامن عشر عدد من المبعوثين الفرنسيين ، إذ كان الفرنسيون يفكرون فى غزو أرض الدولة العثمانية التى بلغت إذ ذاك منتهى الخمول والتأخر ، فكان ممن أوفدهم الفرنسيون لهذا الغرض فُولنى الذى نشر كتاب رحلته سنة ١٧٨٧ ، وكانت كتاباته وكتابات ساقارى من أول ما عرف الغربيون فى العصر الحديث عن الشرق القريب ، بعد أن ساد التقاطع بين الشرق والغرب قروناً منذ عهد الحروب الصليبية . ومن الرحالين الانجليز الذين جاءوا الشرق فى العصر الحديث كنجليك ثم لين بول الذى زار مصر فى عهد محمد على ، وكتب مؤلفه القيم « أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم » .

وتزايد الاتصال بين الشرق والغرب بعد ذلك على أيدى الرحالة والتجار والقناصل والمبشرين والمستعمرين ، وكثر خروج الغربيين إلى الشرق وزاد الاتصال استحكاما برقى وسائل المواصلات . وأصبح كثير من الغربيين يستوطنون الشرق ويقيمون به أبداً . وكان من كبار الكتاب الأوربيين فى العصر الحديث من يغرم بالشرق غراما لا يحد" كبيرلوتى ، وكان منهم من كان الشرق مسقط رأسه كرديارد كبلنج الذى ولد فى الهند وعاش بها زمناً طويلا .

وترقت علوم الشرقيات منذ القرن الثامن عشر ، وترجمت كتب كثيرة من أمهات كتب اللغات العربية والفارسية والهندية ، واحتفى الأوربيون خاصة من كتب أدب الفرس « برباعيات الخيام » التى ترجمها فتزجرالد فى القرن الماضى ، وبكتاب « ألف ليلة وليلة » الذى ترجم إلى شتى اللغات وعرف بالليالى العربية ، وبفضله ذاع اسم الخليفة هارون الرشيد وحاز بين الأوربيين منزلة قصر عنها غيره من الخلفاء ، وكثير من ملوك الشرق ، كما ساعد على ذيوع صيته بين الغربيين تلك السفارة التى كانت بينه وبين شارلمان امبراطور الفرنجة . وأغرم الأوربيون كذلك بتاريخ صلاح الدين الأيوبى بطل الحروب الصليبية ، وبأباطرة المغول العظام ذوى الممالك المترامية والفتوح الواسعة ، كجنكيز خان وحفيده قبلاى خان وتيمورلنك وحفيد هذا أكبر الأكبر امبراطور الهند المعاصر لأليصابات .

كان الشرق يمثل فى أخلاد الغربيين إلى عصر حديث جدا مهد الديانات كما تقدم القول ومهبط الوحى ومقر الملوك العظام والدول ذات الغنى الباذخ ، وكان يروعهم من أمره مايسمعون عن طائل كنوزه وفاخر حاصلاته وصناعاته وغرابة أزيائه واختلاف أناسه . وعلى هذا النحو « الرومانتى » الرائع صوروه فى آدابهم : صوّر شكسبير شخصية عطيل القائد المغربى المقدام الحاد الطبع المتوقد العاطفة ، وذكر عنه أنه كسب حُبّ ديدمونة بقصّه عليها قصص مغامراته فى بلاده الغربية ، وصوّر مارلو تيمورلنك ووصف سعة أطراف دولته وتوالى فتوحه ، وصوّر والترسكوت السلطان صلاح الدين فى رواية « الطلسم » التى يجمع فيها بينه وبين رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، ونظم كولردج قصيدة بديعة حول قصر قبلاى خان بالصين ، وتناول تيسون عصر هارون الرشيد فى بعض ما نظم .

وجرت على أقلام كتّاب الغرب عبارات مأثورة فى صدد كلامهم عن الشرق تدل على فكرتهم عنه : فكانوا يسمونه « الشرق الفاخر » ، وبذلك سماه وردزورث فى مقطوعة له ، نظمها حين سقطت جمهورية البندقية على يد نابليون ، وفيها يزعم أن البندقية أدى لها الشرق الفاخر الجزية . وكانوا يتحدثون كذلك عن « جاذبية الشرق » وكان نابليون من أكثر الناس تأثراً بهذه الجاذبية ، ومن ثم كان يحلم بتشييد امبراطورية تحاكى امبراطوريات تيمورلنك والاسكندر وغيرهما . ويتحدثون أيضاً عن « الشرق الذى

لا يتغير » وهكذا كانوا يظنون أن الشرق مهد المحافظة والبقاء على وتيرة واحدة لا تتبدل .

وساد بين أدباء أوربا في القرن الثامن عشر خاصة فنٌّ من الأدب هو القصة ذات المغزى والرموز : يُرمز فيها إلى الحياة مثلاً بنهر وإلى الأطماع البشرية بفقاقيعه وهلم جرا ، وترمى القصة في نهايتها إلى مغزى خلق أو موعظة حكيمة . وكان الأدباء حين يريدون معالجة هذا الضرب من الأدب يلفت ذهنهم التفاتاً طبيعياً إلى الشرق ، فيُجرون القول على لسان شرقيّ ، وقد يجعلون مشهد القصة بلداً شرقياً ، فيجرون القصة على لسان زرادشت مثلاً أو بوذا ، ويُجرون الحوادث في سهول العراق أو أوعار فارس ، كما فعل الكاتب الإنجليزي أديسون في مقالة «رؤيا ميرزا» وجولد سميث في مقالة « قصة من زرادشت » ومنتسكيو في « رسائل فارسية » .

ومن مشهور المقطوعات الشعرية من هذا الباب في الإنجليزية مقطوعة للشاعر ليه هنت : أراد ضرب المثل وصوغ الحكمة فقص قصةً عن عربي دعاه «أبو بن أدهم» وزعم أن هذا العربي استيقظ ليلة من حلم سعيد فإذا إزاءه ملاك يشع نوراً يكتب أشياء في كتاب ذهبي في يده ، فسأله : ماذا يكتب ؟ فأجابه أنه يكتب أسماء من يحبون الله ، ولما سأله إن كان اسمُه أحدَها أجابه سلباً ، فطلب إليه أبو بن أدهم أن يجعل اسمه في الكتاب على أنه رجلٌ يحب إخوانه في الإنسانية . وفي الليلة التالية عاد الملاك وأطلع العربي على الكتاب فإذا اسمه في طليعة الأسماء .

وأراد شلي أن يصور فخامة ملك الإنسان وعظم قدرته ، وبراعته في الفن وحذقه ، ثم بطش الأقدار به ، وجريان البلى على معالم سلطانه ، فالتفت التفاتاً طبيعياً إلى الشرق . ففي الشرق قامت الممالك الضخمة ، وظهر الجبابرة المتكبرون وخدمهم الفن كما يشتهون . وفي الشرق المدنيات القديمة العريقة التي مرت عليها أزمان وأزمان ، وصارت تُقتبس منها الحِكم ، وتُستخلص العظات . فصوَّر شلي في مقطوعة فذة سماها « أوزيماندياس المصرى » تمثال ملك جبار ما تزال كبرياؤه مرتسمة على رأس تمثاله ، وإن هوى التمثال وتعفر الرأس ، ولم تبق من ذلك البناء الهائل إلا ساقان قائمتان ، وقد نقش على القاعدة : « أنا أوزيماندياس ملك الملوك ، انظروا إلى آثارى أيها الجبابرة وأقروا صاغرين » .

هكذا كان أدباء الغرب ، يلتفتون إلى الشرق حين ينزعون إلى تصوير ضخامة الملك ، أو اصطراع المطامع الانسانية ، أو تتابع الدول ، وتدارك الأحداث . وإليه كانوا يلتفتون حين يبغون استخلاص الحكمة ، أو التدبر في شؤون الخلق والكون . وكان بعض الأدباء كذلك لشعورهم ببعد الشرق ، وتباين أحواله ، واختلافها عن أحوال الأوربيين ، يلجؤون إذا أرادوا نقد أحوال بلادهم إلى حيلة طريفة ، وهي إجراء ذلك النقد على لسان صيني ، أو فارسي أو هندي ، يزور أوربا ويكاتب أصدقاءه في بلاده عما يشاهد ، أو يدون ذلك في مذكراته . فالشؤون الأوربية هي بيت القصيد في هذه الآثار الأدبية ، وليس بها من الشرق إلا الاسم .

والحق أن معلومات الغربيين عن الشرق ظلت زمناً طويلا ضئيلة جداً ، ولا تزال معلومات كثير منهم إلى اليوم عن الشرق زائفة ملؤها الأوهام . وذلك لأن قطيعة حادة ضربت بين الشرق والغرب ، عقب انكسار الغربيين في الحروب الصليبية ، وعقب استيلاء الترك العثمانيين على منافذ البحرين الأبيض والأحمر ، ولم تتقشع تلك القطيعة إلا في الزمن الحديث بعض التقشع . وأثر الشرق على العموم في الأدب الغربي قليل ، وإن كان ممتعا . ومعلومات الأدباء الذين كتبوا الآثار ذات المسحة الشرقية سابقة الذكر كانت فيما يتعلق بالشرق ضئيلة جداً .

إنما كان حسب الشاعر من أمثال كولردج ، وورد

زورث ، وليه هنت ، وشلي ، أن يقع في كتاب على فقرة شاردة تتحدث في اقتضاب عن قبلاي خان ، أو هارون الرشيد ، أو عن تاريخ مصر القديم ، أو جغرافية جزيرة العرب ، فيصوغ من تلك الفقرة الشاردة المقتضبة العديمة القيمة في ذاتها ، درة من الشعر ثمينة خالدة ، ذلك أنه حسْب الشاعر في مثل هذه الأحوال أن يعثر على هيكل أجوف من الحقائق ، ثم يتكفل خياله بالبقية ، ويلبس على ذلك الهيكل ما شاء من حكمة أو وصف أو افتنان ، بل كان اقتضاب تلك الفقرات الشاردة والشعور ببعد الشرق ، واختلاف أحواله عن أحوال أوربا ، مما أكبر حافز إلى النظم ، وأعظم مستحث للوحي والخيال .

فأدباء الغرب كانوا دائماً يلجؤون إلى الشرق حين يريدون أن يتناولوا « البعيد » في نظمهم ، وحب البعيد نزعة فاشية في الأدب الغربي أكثر من فشوّها في الأدب العربي بكثير . فجلّ شعراء العربية لم يكن يعنيهم من أمر إلا ما هو حاضر بين أيديهم من شؤون . أما أدباء الغرب فكانوا دائمي الطموح إلى البعيد في الزمان والمكان ، يريدون بتناوله ترويض الخيال والفرار من أسر الحاضر الراهن ، والتبصر في أحوال الحاضر على ضوء الماضي . وفي شؤون القريب على ضوء البعيد . كانوا إذا طلبوا « البعد » تشدوه في الزمان ، فالتفتوا إلى عهد الاغريق والرومان والقرون الوسطى ، أو في المكان فالتفتوا إلى أمم الشرق ، أو أمم الشمال من اسكندناويين وإيسلنديين .

هذه هي أكبر وظائف الشرق في الأدب الغربي وظيفة المكان « البعيد » الذي يرهف الخيال ببعده وروائع الأقاصيص والأساطير التي تروى عنه ، ويزيد الخيال إرهافاً قلة المعروف من أمره ، وكثرة الأساطير والاختلاقات المختلطة بتاريخه بين الأوربيين . أما الشرق على حقيقته فقلما عرفه أولئك الأدباء ، وأما ثقافة الشرق وأدبه فقلما حفلوا بدراستهما وانتفعوا بهما في تلقيح آدابهم ، والأوصاف التي يوردها شكسبير أو مارلو أو شلي أو كولردج في أشعارهم عن الشرق هي إما اختراع من خيالهم الشعري المحض ، أو خرافات لا صلة لها بالحقائق .

ففي مسرحيته عن الفاتح التتري تيمورلنك يزعم مارلو أن جيوش تيمورلنك اجتاحت مصر وتتبعت مجرى النيل حتى استولت على النوبة وزنجبار ومجاهل أفريقيا ، وأتت بالملوك مصفدين . وشلي يزعم في مقطوعته سالفة الذكر أن على قاعدة التمثال كانت عبارة « أنا أوزعاندياس ملك الملوك . . . » ، ولو كان ذلك حقاً فلا بد أن تلك العبارة كانت مكتوبة بالهيروغليفية ، ولم يكن لأحد بفك رموزها في زمن شلي بمصر ، ولكنه الخيال إذا انطلق تحرر من عقال الحقائق التافهة ، كما لا يحفل العُقاب في هُويّه بالبعوضة على حد تعبير ميرابو . وليست هذه النافلة لصغريات الحقائق تغض من قيمة تلك الأشعار النفيسة التي لم تنظم لتكون سجلا لحقائق التاريخ ، بل لتكون مسارح للفكر والخيال ، ومطامح للنفس الانسانية تطمح فيها إلى البعيد في الزمان والمكان .

إنما اتّسمت آثار أدباء الغرب عن الشرق بالدقة وتحري الواقع إلى حد عظيم في العصر الحديث ، بنشاط العلاقات واتصال المواصلات ، وكانت القصة خير معوان على مراعاة مطالب هذا المذهب الواقعي الحديث ، فهي أرحب من الشعر صدراً بالتفاصيل والدقائق . ومن هذا الضرب قصص الكاتب الانجليزي رديارد كبلنج عن الهند والحياة والمناظر الطبيعية فيها . ومن خير القصص التي كتبت حديثاً عن الهند قصة « رحلة إلى الهند » لفورستر ، وفيها يصف حياة الانجليز في تلك البلاد ، ونزعة التعالي التي يأخذون بها أنفسهم ، وكيف حرجَ أحدهم على تلك الخطة ، وخالط الأهلين مخالطة الندّ للندّ فصيّر أبناءُ جلدته حياته هناك جحيماً لا يطاق . كما أن من محاسن القصص الهندية في الأدب الإنجليزي المعاصر قصة « الفّيل » لماسون وقد عُرضت بدور السينما بمصر منذ أيام .

فخري أبو السعود

السلطان الغورى

يستقبل سفير البندقية

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

يرى القارئ فى الصفحة المواجهة صورة لوحة فنية محفوظة فى متحف اللوفر بباريس . وكانت حيناً من الزمن فى مجموعة لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، عرضها ٢٠٣ سنتيمتراً وارتفاعها ١١٨ . وقد كانت تنسب فى البداية إلى جنتلى بلّينى Gentile Bellini الذى ولد فى مدينة البندقية سنة ١٤٢٩ ، وكان أبوه وأخوه مصورين ، وساعدته بيئته وحسن استعداده على أن ينبغ فى النقش والتصوير ، فعمل مع أخيه فى رسم اللوحات الفنية لتزيين قاعة المجلس الأعلى بقصر الدوج فى البندقية ؛ ثم استدعى إلى القسطنطينية سنة ١٤٩٧ ، فرسم فيها بعض صور السلطان ، وعاد إلى البندقية . وامتاز بعد ذلك بإقباله على تصوير المناظر الشرقية وعلى رسم الأشخاص ذوى الملابس الاسلامية فى لوحاته الفنية ؛ وتوفى فى سنة ١٥٠٧ أو قبلها .

والمعروف أن هذه الصورة تمثل السلطان الغورى يستقبل فى قلعة القاهرة دومينيكو تريفزيانو Domenico Trevisiano سفير البندقية إليه سنة ١٥١٢ ، أى بعد وفاة بلّينى بخمسة أعوام ؛ ولذا فإن هذه الصورة تنسب الآن إلى مدرسة هذا الفنان البندقى ، أو تعزى آخر إلى أحد تلاميذه والمتأثرين بأساليبه الفنية .

ومهما يكن من الأمر فإنها خيالية ، وأكبر الظن أن المصوّر جمع عناصرها من مناظر رآها قبل رسم الصورة ، أو من وصف سمعه أو قرأه . وهى تمثل « الحوش » الكبير فى الجزء الجنوبى من القلعة ، ونرى السلطان الغورى على « دكة » وقد جلس بجواره اثنان من كبار رجال الدولة ، ووقف كثيرون من قواد الجيش ورجال الدين ؛ كبير [illegible] وأتباعه أمام السلطان ، تميز [illegible] لباس الرأس عن غيرهم من الأشخاص المرسومين فى الصورة . وقد رسم المصور بعض عناصر شرقية أخرى كالجمل والغزال والمملوك على ظهر فرسه والقرود ، ثم منظر القصر الداخلى والمئذنتين والقبتين والنخلة ، وما إلى ذلك . ولم يفته أن يزين الجدار بدوائر تشتمل على « الرنوك » وهى الشارات أو الأشعرة التى كانت لبعض المناصب الكبيرة فى البلاد يتخذها المماليك الذين يصلون إلى تلك المناصب . وأظهر الرنوك فى عصر المماليك الكأس والدواة (المقلمة) وصولجة البولو والأسد والسيف ، وكانت ترسم فى ترس أو مناطق مستديرة أو مدببة عند قاعدتها .

ويعرف المشتغلون بتاريخ عصر المماليك أن ذلك الصحن أو الحوش الكبير فى القلعة بنى فى البداية ليكون مأوى لخيول السلطان ودجاجه ، ثم استخدمه السلاطين فى نهاية دولة المماليك قاعة للاستقبال .

وقد كانت هذه البعثات والسفارات إلى بلاط الغورى أمراً استدعته الأحوال السياسية فى ذلك الوقت ، كسقوط غرناطة فى يد المسيحيين سنة ١٤٩٢ ، ثم كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وتهديد الغورى بإغلاق الأماكن المقدسة فى وجه المسيحيين ، واعتداء فرسان رودس ، وبعض سفن البنادقة على البحرية المصرية ؛ مما كانت نتيجته أن أمر الغورى سنة ١٥١٠ بسجن جميع رجال الدين المسيحيين فى بيت المقدس والأوربيين المقيمين فى المدن الساحلية ولا سيما الاسكندرية ودمياط . فأرسل لويس الثانى عشر ملك فرنسا سفيره « أندريه لوروا » فى مارس سنة ١٥١٢ . وقد ترك لنا تينو Thenaud أحد أتباعه وصفاً لهذه البعثة . وخشيت البندقية على مصالحها فأوفدت إلى الغورى فى السنة نفسها بعثة سياسية على رأسها تريفزيانى ، وعادت المياه إلى مجاريها بين المماليك والبندقية ولكنهما عجزا عن منع البرتغاليين من الاستيلاء على تجارة البهار ، وتحويلها إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

زكى محمد حسن

دولة الأكاسرة

٢٢٦ — ٦٥١ م

للأستاذ عبد الحميد العبادى

لقد شهدت إيران فى تاريخها الطويل دولا إيرانيـة كثيرة : شهدت فى الزمن القديم دول عيلام ، ومادى ، والكيانيين ، والأشغانيين ، والساسانيين . وشهدت فى عصورها الحديثة دول الصفويين والزنديين والقاجاريين . إلا أن الدولة الإيرانية التى يعظمها الإيرانيون أشد التعظيم ويفخرون بها الفخر كله ، ويرونها عنوان المجد الإيرانى والقومية الإيرانية بكل معانيها ، هى الدولة الساسانية ، أو دولة الأكاسرة التى قامت سنة ٢٢٦ م ، وعمرت من الزمان أربعمائة عام تزيد قليلا .

***

والساسانيون ينسبون إلى رجل يسمى ساسان ، كان قيما على بيت نار مدينـة اصطخر بإقليم فارس . وقد ولد له ابن يسمى بابك ، نشأ جلداً هماماً ، حريصاً على بعث القومية الإيرانيـة التى أماتتها أو كادت غارة الإسكندر المقدونى على فارس فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، راغباً فى استعادة المجد الذى كان لإيران على عهد الدولة الكيانية العظيمة ، والذى قضى عليه الفاتح المقدونى فى عشية وضحاها . وما زال بابك يسعى وتواتيه المقادير ، حتى أنشأ لنفسه ملكا كانت قاعدته مدينة (خير) الواقعة شرق شيراز . فلما توفى خلفه ابنه أردشير (٢٢٦ — ٢٤١م) فاقتفى أثر أبيه ، ونزع منزعه فى السياسة ، فصار يوسع رقعة ملكه على حساب مجاوريه من ملوك الطوائف ، حتى فطن لمآربه كبيرهم أردوان آخر الأشغانيين ، فنهض لحسم الأمر قبل استفحاله ؛ ولكن أردشير ساجله الحرب حتى قضى عليه فى واقعة عظيمة جرت سنة ٢٢٤ ؛ ثم دخل بعد عامين المدائن مظفراً منصوراً . فكان ذلك الفتح ختام عهد الفوضى السياسية التى نشأت عن الفتح المقدونى ، ومبدأ لعهد مجيد حافل بالأحداث العظام ، هو عهد الدولة الساسانية .

***

والمتصفح لتاريخ الدولة الساسانية من أول قيامها إلى أن تضعضعت أمورها واختلت أحوالها فى أوائل القرن السابع الميلادى يلحظ فيه ظاهرة ماثلة كل المثول ، هى ظاهرة الحروب المتلاحقة ، بل المتصلة ، التى وقعت بينها وبين الدولة الرومانية . وليس من شك فى أن تلك الوقائع الجسام ، والخطوب العظام ، إنما هى فصل من فصول تلك المأساة التاريخية الكبرى ، مأساة الصراع بين ما يسمى على سبيل الاصطلاح شرقاً ، وما يسمى غرباً .

ولقد كانت كفة الدولة الساسانية ، هى الراجحة على وجه الإجمال فى ذلك الصراع العنيف . فلم يوغل الروم قط فى الهضبة الإيرانية ولا هددوا خصومهم فى عقر دارهم وصميم ملكهم ، بل كان قصاراهم أن يردوا الغارة على أرمينية ، وأن تتساح كتائبهم فى سهول العراق ، لا يكادون يزيدون على ذلك . فى حين أن الفرس على عهد كسرى برويز (٥٩٠ — ٦٢٨م) أمكنهم أن ينتزعوا من الروم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ، وأن يرابطوا فى البر

الأسيوى تجاه القسطنطينية نفسها ، وأن يحملوا بعد الصليب الأعظم من بيت المقدس إلى عاصمتهم المدائن . وإلى هذا النصر أشار القرآن الكريم فى أول سورة الروم بقوله : « الٓم ، غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغلِبون » الآية . ولقد يكون أروع حوادث ذلك الصراع الحاد العنيف وقوع الإمبراطور الرومانى واليريان أسيراً فى يد سابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢) وذلك عام ٢٦٠م ، وقضاء ذلك الامبراطور التعس بقية حياته أسيراً ذليلا . لقد رج هذا الحادث الجلل العالم الرومانى رجاً عنيفاً ، كما كان سبب فخر لا حدّ له للفرس الساسانيين .

ولقد استظهر الساسانيون فى حروبهم مع الروم بالعرب فأذنوا لهم أن ينزلوا بادية العراق ، ويستقروا بالحيرة فى القرن الرابع الميلادى ، وينشئوا به مملكة الحيرة المشهورة التى نفعت الدولة الساسانية نفعاً مزدوجا ، فكانت عوناً لها على الروم ، كما أنها بسطت نفوذها على شرق الجزيرة العربية وجنوبيها . ولقد نهج الروم منهج الفرس فأقاموا من عرب بادية الشام مملكة الغساسنة ، وكان موقفها من الروم موقف الحيرة من فارس سواء بسواء .

على أن المظهر الحربى للدولة الساسانية لم يكن مقصوراً على مجالدتهم الروم وحدهم ، فلقد كانوا عرضة لهجوم القبائل البدوية الهمجية التى تنزل حدودهم الشمالية الشرقية ، ولكنهم استطاعوا أن يدرءوا ذلك بانتصاراتهم العديدة على التتار المعروفين بالهياطلة أولاً وعلى قبائل الترك أخيراً ، وأن يبسطوا سلطانهم على رقعة واسعة من الإقليم الذى عرف بعد بما وراء النهر .

وإذا صح أنه لا يوجد فى هذا العالم خير محض ولا شر محض ، فيمكن القول بأن هذه الحروب على كثرة ما أزهقت من نفوس ، وخربت من بلدان ، وأكلت من مال ، لم تكن شراً محضاً ، بل لقد نتجت خيراً كثيراً للفرس أنفسهم وللروم والعرب والترك . فأما الفرس فقد كان من سياستهم بإزاء عدوهم الرومانى أن يفتحوا أبواب بلادهم المخالفين على الدولة الرومانية من رعاياها . فانتجعت أرض فارس نساطرة النصارى الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية ، ونزلوها آمنين مطمئنين ونشروا فيها العلوم والآداب السريانية المستمدة من علوم الأغريق وآدابهم ، فكان لذلك أثر كبير فى رفع المستوى العلمى والثقافى للدولة الفارسية الساسانية . ولما أمر الامبراطور جستنيان (٥٣١ — ٥٧٨م) بإغلاق مدارس الفلسفة بأثينا وإخراج الفلاسفة من ملكه ، لم يكن لهؤلاء العلماء من ملجأ سوى فارس ، وقد تقبلهم العاهل الساسانى العظيم كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩م) بقبول حسن وأذن لهم فى نشر علومهم فى بلاده ، فنشروا فيها مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى امتزج بالعقلية الإيرانية والخيال الإيرانى ، فكان لذلك الامتزاج أثر قوى فى ظهور التصوف الفارسى المشهور فى آداب الفرس قديماً وحديثاً .

ولقد أخذ الروم عن الفرس الساسانيين أن ديناً رسمياً واحداً خير للدولة من أديان متعددة ، فاتخذوا النصرانية ديانتهم الرسمية وهجروا الوثنية ، فكان ذلك بدء اعتزاز المسيحية وانتشارها فى الأرض .

ثم إن اتصال العرب بالفرس الساسانيين وقف العرب على أساليب الفرس والروم فى الحرب ، كما أطلعهم على معارف ومعلومات دينية لم يكن لهم بها عهد من قبل ، فعلا مستواهم الثقافى ، وتهذبت نواحى حياتهم الخشنة الساذجة إلى حد بعيد . وما يقال عن العرب يقال مثله عن الترك فإنهم تأثروا بالمدنية الإيرانية تأثراً كبيراً إلى حد أن غير واحد من فلاسفة الاسلام الذين نبغوا بما وراء النهر لا يدرى أصله على التحقيق : أفارسى هو أم تركى ؟

* * *

قد يخيل إلى القارىء أن الساسانيين لكثرة خوضهم

غمار الحرب مع الروم تارة والترك أخرى ، قوم لا همّ لهم إلا الحرب والجلاد ، وأن شأنهم فى ذلك شأن الأشوريين والأسبرطيين والترك العثمانيين . ولكن الواقع ليس كذلك ، فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر مما تتجلى زمن الحرب .

لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة محكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا موفورى الحظ من الخبرة العملية بشئون الناس وعلم تام بطبائعهم . فمن أسس هذه السياسة عملهم على التمكين لنظام الملكى فى إيران وجعله لا مجرد نظام معرض لعواصف السياسة العاتية وأعاصيرها الهوج ، ولكن عقيدة تملك على الشعب الإيرانى لبه وقلبه على السواء ، فألقوا فى نفسه أنهم سلالة الملوك الكيانيين العظام الذين كانوا يحكمون فى الأرض بتفويض من إله النور آهورا مزدا ، وأنهم ورثة ملك الكيانيين وأنهم إنما يحكمون بهذا التفويض الإلهى ، وأن عليهم وحدهم سمة الملك وطابع الحكم لا ينتقل ذلك عنهم إلى غيرهم أبدا . وقد عززوا هذه الدعوة بأن أحاطوا الملك بسياج من المهابة والأبهة والعظمة ، يتمثل فى تاجه المتألق وسريره العالى وإيوانه المنيف ، وفى احتجابه عن الشعب ، وفى تلك المراسم الدقيقة التى كان يؤخذ بها كل من يسعده الحظ بالمثول بين يدى كسرى ملك الملوك .

ومن الأسس التى عنى بها الساسانيون لصلاحة الملك والرعية على السواء الدين . والدين الفارسى القديم هو الزرادشتية التى ظهرت قبل الدولة الساسانية بأزمان طويلة . والزرادشتية ديانة رمزية تؤله الخير والشر وتأمر بالخير وتنهى عن الشر . والخير والشر عندها أمران ماديان محسوسان إيجابيان ، فهى تأمر بالعمل والانتاج والزراعة والتجارة ، وتحث على الزواج والنسل وتعد ذلك خيراً ، وتنهى عن أضداد ذلك وتراها شراً .

ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية للديانة المذكورة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الإيرانية ، فأنشأوا فى كل مدينة ، بل فى كل قرية ، بيوت النار حيث يعبد الناس النار مبعث النور الذى هو رمز الخير وطاردة الظلمة التى هى رمز الشر . وقد أدتهم تلك العناية بالدين الزرادشتى إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالموابذة على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر مانى ودعا إلى مذهبه ، وكان مذهبا عدميا سلبياً يرى الخير فى الزهد ، وعدم الإنتاج ، والامتناع من الزواج والنسل ، فإن بهرام الأول (٢٧٣ — ٢٧٦) تجرد لمحاربته فقتل مانى ونكل بأصحابه شر تنكيل . وقد قابل رجال الدين الزرادشتى هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسى بما لهم على الشعب من نفوذ روحى عظيم .

ومن المبادىء المقررة فى سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعى الإيرانى القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلما ظهر مزدك فى أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نحلته الشيوعية الهادمة لنظامى الأسرة والملكية ، وافتتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة نحلته ، فقضى على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على مانى وأصحابه .

وأجل الفضائل السياسية التى كان يتوخاها كاسرة الدولة الساسانية التحلى بها فضيلة العدل . وهى ملحوظة فيهم من أولهم إلى آخرهم ، فقد ورد فى العهد الذى عهده أردشير الأول إلى ابنه قوله : « لا ملك بغير جند ، ولا جند بغير مال ، ولا مال بغير زراعة ، ولا زراعة بغير عدل » فالعدل عنده أساس الملك . وكان أنوشروان يلقب بالملك العادل ، وعلى هذه الفضيلة العظيمة جروا فى نظمهم التى تتصل بالحقوق والواجبات بوجه عام .

* * *

ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر . فإذا كانت سياسة الأكاسرة تنطوى على خير كثير فإنها

للأسف كانت تحمل فى ثناياها العناصر التى أدت فى النهاية إلى انتقاض أمرهم وضياع ملكهم ، فإن حكمهم الشعب على اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به إبان قوة الأسرة الساسانية ، فلما اضمحلت ، وعراها الوهن والهرم من بعد كسرى أنوشروان لم يكن ممكنا أن يقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان ، وينقله إلى أسرة أخرى فتية ناهضة . فإذا حدث أن رجلا قويا حدثته نفسه بذلك لقى الخذلان من الشعب ، على نحو ما حدث لبهرام جوبين فى أواخر القرن السادس . ثم إن انتصار الدولة للزرادشتية والمبالغة فى رفع أقدار رجالها قد أدى فى نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس فى مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان منهم بإيران خلق كثير .

ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذى كان عليه دون تعديل يطابق الظروف ، أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة كثيرة الامتيازات ، كما قسم الشعب طبقات متحاجزة تحاجزا تاما أوغر قلوب الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجا عمليا على ذلك النظام بصورته التى أصبح عليها فى القرن السادس الميلادى .

وكان اجتماع هذه العوامل فى نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة فى الفوضى والارتباك ، وهى فوضى يكفى للتدليل عليها أن اثنى عشر ملكا جلسوا على سرير الملك فيما بين عامى ٦٢٨ و٦٣٢م ، أى فى نحو أربع سنوات . ومن الاتفاقات العجيبة أنه فى تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين ! فلم يقو صرح الأكاسرة المتداعى على صدماتهم العنيفة فى ميادين القادسية وجلولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكاسرة وهو يزدجرد بن شهريار بقية أيامه شريداً مطرداً إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٣١ هـ (٦٥١م) فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلاً واضحاً لجحود العامة وغرور الحياة .

***

على أن الدولة الساسانية لم تذهب إلا بعد أن أدت واجبها من حيث هى عظيمة . لقد أقامت بإيران معالم حضارة رائعة ، لا تزال آثارها شاهدة بروعتها ، كما أنها ثقفت الشعوب المجاورة لها ، وبخاصة العرب والترك ، وهيأتهم للقيام بدورهم التاريخى العظيم . وهى التى علمت الروم أن وحدة الدين خير فى السياسة من تعدده ، وقد علم الروم ذلك وعملوا به ، فكان من وراء ذلك الخير كل الخير للنصرانية . وأخيراً فإن دولة الأكاسرة الساسانية بنظمها وسياستها وإدارتها وحياتها العامة ، كانت المثل والقدوة للمسلمين فى عصرهم العباسى العظيم ؟

عبد الحميد العبادى

دراسة الصـــــــور

للأستاذ محمد يوسف همام

يميل الانسان بطبيعته لرؤية الصور ، وهو يعمد عند ما يعرض له كتاب ما ، إلى مشاهدة صوره قبل الاهتمام بقراءته . وزيارة المعارض والمتاحف ظاهرة تتمشى مع تقدم الأمم في المدنية ، وقد نص عليها في برامج الدراسة المصرية . وأنت إذا راقبت الناس وهم يمرون أمام الصور في معرض ما ليدرسوها ، تجد أن بعضهم يمر سريعاً ، والبعض يتمهل ، بينما يطيل البعض الآخر وقفته أمام الصور يتأملها في صمت وروعة ، وهم إذا تحدثوا ففي همس وخشوع . فالناس جميعاً يحبون الصور ويهتمون بمشاهدتها ، ولكن أغلبهم يجهل كيف يدرسها ، ولا يدري على أي أساس يصدر حكمه عليها . لذلك كان من الضروري لكل شخص أن يلم بأصول التصوير وقواعده ، ليتسع أمامه المجال للاطلاع وفحص الصور ، وإصدار حكمه على قيمتها على أساس فني ثابت .

والمصور كالشاعر وكالموسيقي وكل فنان آخر ، يُنشئ ويكوّن . فهو يفكر ويعد موضوعه ، قبل أن يرسم الخطوط ، وهو يضع الألوان على نظام معين يكون له الأثر الذي يرجوه . فكل صورة نراها هي نتيجة لبحث ودرس وتفكير وعمل ، قبل أن تعرض علينا في إطارها الأخير .

وهكذا كان « إنشاء الصورة » هو أهم قسط من عمل المصور ، له أصول وقوانين معروفة ، ولكني قبل أن أتعرض لشرحها ، أحب أن أزيل لبساً وقع فيه الكثيرون . فهذه القوانين لم تصدر عن فنانين معينين وفي وقت معين ، ولم يكن على بقية المصورين الذين جاءوا بعد ذلك أن يخضعوا لها ويطبقوها . بل كان الأمر على غير ذلك ، فقد صُورت لوحات عظيمة قبل أن تعرف تلك القوانين ، وكان راسموها يجاهدون في رسمها ، والجهاد يقتضي إعادة العمل مرات لتصحيح الأخطاء ، قبل أن يطمئنوا إلى نتيجة معينة . وبعد أن تجمع للعالم ذلك العدد الوافر من تلك الصور القيمة ، ومن غيرها مما هو أقل جودة منها ، بدأ الفنانون والنقاد وهواة الفنون في درس تلك الصور دراسة عميقة ، ليستخلصوا من الجيد منها ما يميزها عن سواها . وبذلك ظهرت تلك القوانين ، فهي استنتاج وليست تقنيناً على الوجه المعروف ، وقد سار على نحوها المصورون الآخرون .

الوحدة :

وجاء في كتاب The Elements Of Drawing تأليف جون رسكن الكاتب الفني الإنجليزي الشهير : « إن المعنى الذي يقصد من (إنشاء الصورة) ، هو الجمع بين عدة أشياء للحصول منها على (وحدة) معينة » . فهذه « الوحدة » أو الحبكة في تعبير آخر ، هي العماد الأول لجودة الإنشاء في التصوير . ومهما كانت براعة المصور في رسم مفردات صورته كل على حدة ، فلا يمكن أن تعد لوحته جيدة قيمة ، إلا إذا كانت في مجموعها مربوطة متحدة ، فإن نظرت إليها عن بعد فوجدت أصولها مفككة منثورة ، كان ذلك سبباً كافياً لأن تصدر حكمك عليها بالضعف ونقص القيمة الفنية . ولنا في الطبيعة أسوة كبرى ، فهي تلك المجموعة الكبيرة المتحدة المتآلفة المنظمة ، المكونة من وحدات فردية متقنة لا يكتمل العالم بدونها .

الاتزان :

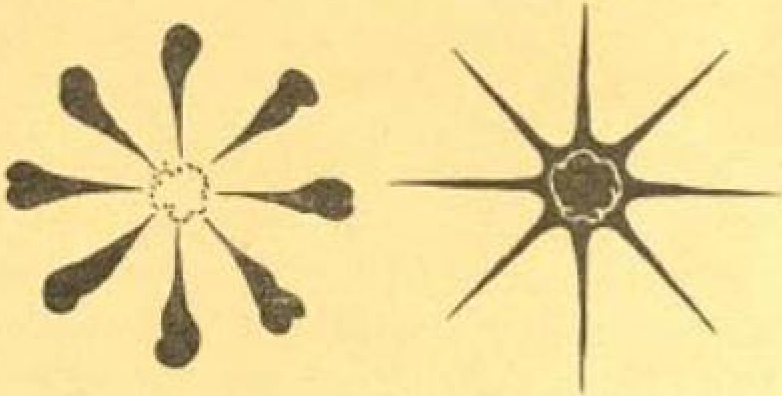
وهناك ظاهرة أخرى عظيمة تتجلى فى نواحى الطبيعة هى « الاتزان » ، فبينما نجد أن التماثل قليل الوجود فى الطبيعة ، نجد أن الاتزان دائم الوجود فيها ، لاحظ اتزان نصل ورقة شجرة على عيرها ، ثم اتزان فروع شجرة وأغصانها على جذعها . ويحتفظ جسم الانسان بالاتزان إذا رُفعت إحدى الساقين ، فيميل الجذع جانباً خشية السقوط . إن هذا الاتزان هو كاتزان نغم الموسيقى ، واتزان قوافى الشعر ، والاتزان فى بقية الفنون ، وإن شئت تشبيهاً ملموساً لهذا الاتزان فهو ميزان القبانى المعروف ، الذى يزن به أكبر ثقل بتحريك صنجة معينة على ذراع الراقصة إلى أن يحدث الاتزان . انظر إلى صورة « حقل الحنطة » (شكل ١) ، تصوير كونستابل الانجليزى معروضة بالمتحف الأهلى بلندن ، تجد مثلا رائعاً للاتزان المطلوب فى التصوير ، فتجد فيها كتلة من الأشجار على كل جانب ، وقد ظهرت بينهما مساحة أفقية من منظر الحقل المرسوم .

التشعع :

ونحن نعلم أن أشعة الشمس جميلة فى تشععها من قرص الشمس ، كما أننا نجد نظام ذلك التشعع الجميل فى مظاهر طبيعية أخرى ، كأصابع اليد فى الكف ، وخصوصاً عند بسطها ، وكأعصاب ورقة الشجرة ، فهى إما تتشعع من نقطة واحدة أو من العير ، وكغيرها . وأنت إذا نظرت إلى صورة جيدة الإنشاء ، فإنك تلاحظ أمراً من اثنين : الأول هو أن ينجذب نظرك مباشرة إلى شئ معين فيها ، ثم يتشعع منها لما يحيط به فى جوانب الصورة . والثانى أنك تجد نظرك موزعاً على نواحى الصورة ، ثم إذا به يتجمع حتى ينصب على نقطة معينة فيها فيتركز عليها . والرسمان المبينان فى (شكل ٢) يبينان شرحا عملياً للحالتين المذكورتين . ففى وسط الرسم الأول بقعة سوداء تحيط بها أشعة تستدق كلما بعدت عنها ، فأول ما تنظر للشكل المذكور تلفتُ البقعة السوداء النظر فى البداية ، ثم تتشعع منها مع الأشعة المتفرعة للخارج فى جميع الجهات . وفى الرسم الثانى تجد الوسط أبيض بينما تزداد الأشعة سمكا للخارج ، وفى هذه الحالة تتجه أشعة نظرنا تدريجياً إلى ذلك الوسط الأبيض فتتركز فيه . فإذا عدنا لحقل الحنطة السابق رسمه ، وجدنا خطوط التشعع تخرج من البوابة الصغيرة الكائنة فى وسط الصورة ، فتمر بجانبى الطريق المرسوم والسياج ، كما أن جذوع كتلتى الشجر على



(شكل ١) حقل الحنطة — تصوير كونستابل
المتحف الأهلى بلندن



(شكل ٢)

الجانبين تتشعع من تحت إلى فوق ، وكذلك فروع الأشجار . وبذلك فإن قانون « التشعع » مطبق فى هذه الصورة تطبيقاً وافياً .

التباين :

ويوجد فى الطبيعة كثير من « التباين » الذى يكسبها قوة ويزيدها بهجة ؛ فالشجرة مستديرة عند كتلة أغصانها ، مستطيلة عند جذعها ، والوردة ناعمة الملمس ، ولكنها ذات أشواك تدمى الأصابع . وتتباين تقوسات حدود الجبال مع خط الأفق وسطح الأرض الذى تتخلله الأشجار بسيقانها الرأسية العالية . كما أن اللون القاتم تجاوره درجات من اللون الفاتح . ونحن نرى حمرة الورد ترافقها خضرة أغصانه ، وهكذا كانت سنة الطبيعة ، فالتباين من أهم قواعدها وأصولها . وصورة كلها أعمدة أو أشجار ضعيفة التكوين تتشابه محتوياتها ، وهى تتحسن ببيان جزء من الأفق وجانب من الطريق . ونحن إذا رجعنا لصورة حقل الحنطة ، رأينا أن الشكل الأفقى للحقل يعطينا تبايناً جميلاً مع الأشجار العالية . كما أن القطع الخشبية الصغيرة المجاورة للطريق تتباين مع الأشكال المكورة لأجسام الغنم . على أن الضوء والظل قد أجيد تصويرهما إلى حد كبير .

وقد سقط ظل الأشجار على الطريق وسقط الضوء على ظهور بعض الغنم . كما أن وجود الشجرة الذابلة اليسرى فى الصورة مع الأشجار الحية الأخرى ، يزيد فى جمال الصورة ومعناها . وقد أجيد استعمال الألوان الأصلية ، وحسن ترتيبها فى تباين مناسب .

التكرار :

وإذا عدنا للطبيعة مرة أخرى لنستخلص منها مظهرا جديدا لقانون جديد ، وجدنا أن ارتفاعات الجبال والتلال وانخفاضاتها ، وأشكال كتل السحاب والأشجار والصخور وغيرها ، تتكرر فى أشكال وأبعاد مختلفة ؛ فالشجرة مثلا تتجمع أغصانها فى كتل متعددة مختلفة الأشكال والأحجام ، وهذه الكتل تتكرر فتكون الشجرة فى شكلها الجميل . ويؤدى « التكرار » فى الطبيعة إلى إلى مظهر التوافق والهدوء ، ونحن نرى فى صورة الحقل كتلة من الأشجار لليسار تكررت لليمين ، كما أن الأزهار صورت فى مجاميع متكررة على جانب الطريق ، وجاءت الشجرة الصغيرة المرسومة فى وسط الحقل تكراراً للأشجار الأخرى ، يتلوها غيرها من التكرار على بعد . وصوّر قطيع الغنم على شكل تكرار محدود وخلفه كلب الراعى . وهناك تكرارات بديعة فى أشكال السحاب المتحرك فى السماء .

التقوس :

ونحن نعلم أن أجمل الانحناآت أصعبها رسماً ، وأن جمال التواآت أوراق الأزهار وانحناآتها مدين لطبيعة

«التقوس» ، ولذلك راعى المصور قانون التقوس فى صورة حقل الحنطة ، فقوس الخط الذى يفصل بين الحقل الأول والثانى ، وأبدع فى إظهار تقوس كتل الأشجار والسحب وأجسام الغنم .

التتبع :

وهناك قانون آخر أورده وسكن فى كتابه سالف الذكر ، سماه قانون « التتبع » ، ويقصد به الطريق التى يسلكها عقل الانسان فى « تتبعه » لمحتويات الصورة . وهو يمهد لهذا القانون بالتفرقة بين رؤية الإنسان للأشياء بالعين ، وبين إدراكها بالعقل ، فقال : إنه قد جرى العرف على أن العين فى رؤيتها لخط مّا ، أو لمجموعة من الخطوط ، كانت تسير بانتظام من جانب إلى آخر ، كما يسير القلم عند رسم خط من نقطة إلى أخرى . ولكن دلت الأبحاث على أن العين لا تتقيد فى رؤيتها للأشياء بهذا العرف ، وأن العقل هو الأداة التى تدرك صفات الخطوط واتجاهاتها ، وعلاقة بعضها بالبعض الآخر ، وهو الذى يتتبع الطريق الذى يريدنا المصور أن نسير فيه ، عند دراستنا لصوره .

وقد اطلعت على شرح بسيط لهذا القانون ، فى كتاب من تأليف Little-johns أورده فى (شكل ٣) ، وفيه ثلاثة رسوم أولها (ا) ، ويبين قوسين غير متصلتين وليست بينهما علاقة ما . ويبين ثانيهما (ب) ، ترتيباً جديداً للقوسين


(ب) (ا)

(شكل ٣)


تابع شكل ٣ (حـ)

السابقتين ترتاح العين للنظر إليه ، والفضل فى ذلك يرجع للنقط التى توصل بينهما ، إذ يسير النظر فى اتجاه إحدى القوسين ، ثم ينتقل بسهولة للقوس الثانية ، ويستمر فى سيره عليها دون انقطاع ، وبهذا الترتيب السهل أصبحت القوسان شكلاً واحداً . فإذا زُحزحت إحدى القوسين قليلاً كما نرى فى (حـ) ، اختل الاتصال وكان على العين أن تقفز عند انتقال سيرها من القوس الأولى للثانية . وهذا شرح سهل جداً للتتبع الذى يريد المصور أن يستدرجنا إلى إدراكه بمثل السهولة والراحة اللتين وجدناهما فى (ب) .

فإذا عدنا لصورة حقل الحنطة لنراها على ضوء هذا القانون ، لاحظنا أن النظر ينصب فى البداية على البوابة المفتوحة فى وسط الصورة ، ثم ينفذ منها إلى الحقل ، ويعلو مع الأشجار اليسرى ، ثم يهبط إلى مقدم الصورة فإلى كلب الراعى والغنم ، ويرتفع بعدها لكتلة الشجر اليمنى . وتكون الخلاصة شعور وثيق ببديع جمال الطبيعة وسحرها الخالد . ومن حسنات هذه الصورة تلك البوابة المفتوحة ، فإذا تخيلناها وقد أقفلت ، لضاع بيان الحقل وبعده الشاسع الذى نجح المصور فى إخراجه ، ولاحتجب جانب كبير من الجمال الخالد فيه .

* * *

وها هى ذى درة أخرى من فن تصوير المناظر الطبيعية هى صورة « الطريق » (شكل ٤) ، تصوير هوبيما الفنان الهولندى (١٦٣٨ — ١٧٠٩) ، المعروضة بالمتحف الأهلى

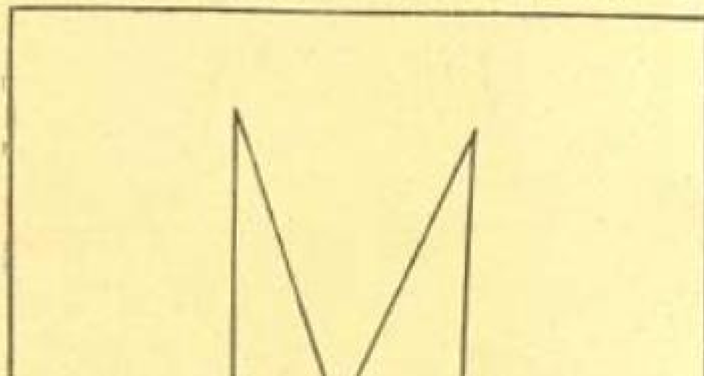
بلندن ، وهي مرجع معروف لكثير من مصوري المناظر الطبيعية ، لأنها حوت دروساً قيمة نموذجية ، استخلص منها الباحثون قوانين « إنشاء الصورة » المذكورة .



(شكل ٤) الطريق — تصوير هوبما — المتحف الأهلي بلندن

وأقوى ظاهرة فيها هي ما يسميه الفنانون « البعد الثالث » ، وهو البعد من الحافة السفلى للصورة إلى مدى البصر فيها عند الأفق ، ونحن نرى فيه طريقاً يحفه صفان من الأشجار على الجانبين ، وقناتان طويلتان ، ويبلغ عرض الطريق والقناتين نحواً من عشرة أمتار ، أما طوله حتى الكنيسة الظاهرة لليسار ، فيبلغ نحواً من ميلين وهي مسافة عظيمة ، بينما هي لا تشغل من ارتفاع مساحة الصورة إلا نحو الخمس . وقد تمكن هوبما من ملء هذا القدر اليسير من مساحة الصورة بالطريق والشجر وبالقناتين وبالحقول وبالأشخاص ، ثم بالمدينة الظاهرة بما فيها من مبان كثيرة . وتمكن أيضاً من رفع سوق الشجر إلى ذلك العلو الشاهق ، ومن الابداع في تصوير السحاب الذي نكاد ندرك حركة سيره في الجو . ورغماً عن هذه الزحمة الوافرة ، فقد تمكن المصور من إكساب المنظر هدوءا وشعورا بالاستقرار المعهود في الطبيعة ، وهي شيمة اتصف بها فن هوبما .

انظر إلى (شكل ٥) تجد خطاً أفقياً وخطين رأسيين وأربعة خطوط أخرى متقابلة في نقطة واحدة ، وهذه هي كل الأسس التي نشأ عليها تصميم الصورة . ويلاحظ أن خط الأفق يقسم الصورة إلى قسمين « متباينين » في المساحة تبايناً كبيراً ، وليس الطريق في المنتصف تماما ، بل إن نقطة تلاشيه ، وهي نقطة تقابل الأربعة الخطوط المتقاربة ، واقعة لليسار قليلا تفاديا من التماثل ، على أن هناك عوامل أخرى تبعد بالصورة عن روح التماثل وتعمل على الاتزان ، منها شكل الأشجار وحجمها وترتيبها ، فإن أعالي أشجار الصف الأيمن تماس ، بينما تتجمع أعالي الأشجار اليسرى في ثلاثة مجاميع ، كما أن الشجرة الأولى في كل صف قد انفصلت عن زميلاتها .



(شكل ٥)

ويلاحظ أن التكرار في سيقان الأشجار ، والتنويع في أشكال السحب واتجاهاتها الأفقية ، قد أكسبت

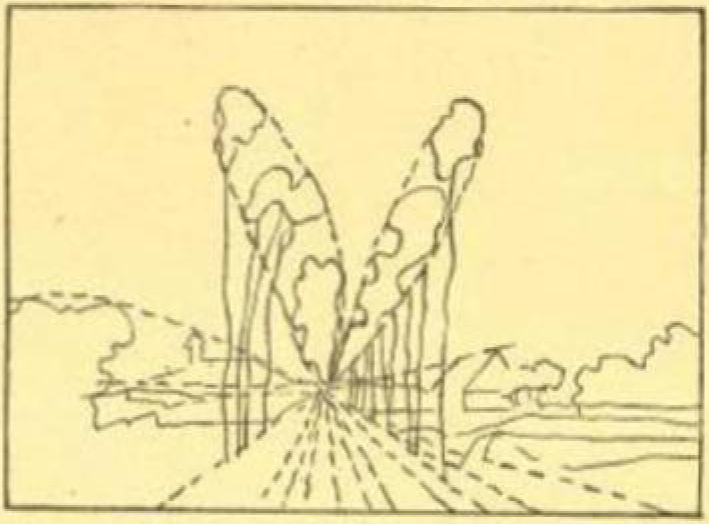
الصورة مظهر الروعة والجمال . كما أن وضع السحب بجوار كتل فروع الأشجار ، قد أيد مظهرها البديع ، فان الأجزاء القاتمة اللون من السحاب قلت من شدة ظهور الفروع ، والأجزاء القاتمة اللون منها أبحت ظهور الفروع الباقية .

وتريك الخطوط المنقطة في (شكل ٦) كيفية تتبعنا محتويات الصورة ، بحيث تتسلسل رؤية الأشكال كبيرها وصغيرها ، فلا نغفل شيئاً منها ، ولا يستغرق آخر فيها .

ويلاحظ أنه رغماً من تقابل الخطوط الأساسية في نقطة واحدة ، فان نظرنا لا يستقر نهائياً فيها ، لأن الكتيبة والمباني القاتمة اللون المجاورة لها ، لا تلبث أن تجذب النظر إليها ، ولكن ذلك لا يؤدى إلى فقدان الاتزان بأن يظل النظر مستقراً عليها ، فقد صور الفنان بيت المزرعة إلى اليمين ، وبذلك استتب الأمر على هذا الاتزان الكامل البديع .

وعلى هذا النهج يمكننا كشف الميزات والمحاسن في كل صورة ، والتمكن من إصدار حكم قويم على قيمتها الفنية . ويكون المجال أوسع لو أتيحت الفرصة لرؤية الأصول المكنوزة في متاحف العالم الشهيرة .

محمد يوسف همام



(شكل ٦)

كلمة سعادة طلعت حرب باشا

فى الجمعية العمومية لبنك مصر

سيداتي وسادتي وإخواني :

أرجو أن تسمحوا لي بكلمة صغيرة قبل تلاوة تقرير مجلس الإدارة .

في مثل هذا اليوم من العام الماضي وقفت بينكم أستميحكم العذر بسبب مرضي وضعفي ، في عدم تلاوة تقرير مجلس الادارة بنفسي كعادتي السنوية . وسألت الله بينكم أن يتم جميله ويتم شفائي ويقويني على أداء واجبي كاملاً . وقلت يومئذ إنكم سترونني إن شاء الله سليما معافى أتلو عليكم التقرير كتقاليدنا من يوم تأسيس البنك وإن ذلك ليس على الله بعزيز .

وها قد استجاب الله لي وردني بفضله إليكم مبتهجاً معافى . فشكراً له سبحانه على ما أعطى وأنعم . والحمد لله جلت قدرته في الأولى والآخرة . وأسأله عز وجل أن يجزي عني هذه الأمة الكريمة لقاء ما غمرتني به من الفضل والعطف ، وأرجوه تعالى لكم جميعا أن يمتعكم وإياي بدوام نعمة الصحة والعافية ، إنه السميع المجيب .

العلم يُنزل الأرض من عليائها

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

ملكة الأجرام :

قال العلماء إن الأرض ملكة هذا الكون ومركزه ، تحيط بها الشمس والقمر والكواكب والنجوم وملحقاتها دائرة حائمة من فوقها نهاراً ومن تحتها ليلاً .

هذا ما أخذ به الناس ، واعتمد عليه المفكرون والفلاسفة قروناً عديدة ، وقد عانوا كثيراً فى تعليل بعض الحركات وفى تفسير بعض الظواهر الطبيعية على أساسه .

وعجبنا كما عجب غيرنا كيف أن بطليموس وأضرابه من حكماء اليونان والرومان وفلكيي العرب والإسلام ، وفيهم البوزجانى والبيرونى والبتانى والصوفى وغيرهم — وهم من ذوى الأدمغة الكبيرة وأصحاب المدارك الواسعة — نقول كيف أن هؤلاء تمسكوا بهذا الرأى ، وكيف أن أفق تفكيرهم لم يصل إلى استجلاء حقيقته وكشف الخطأ فيه ، وأن عقولهم الجبارة — وهى التى تفتحت أمامها المغلقات ، وخضعت لها كثير من ميادين المعرفة — لم تستطع أن تقودهم إلى مكان الأرض من الكون .

وبقيت الأرض مركز هذا العالم ومحوره فى أدمغة هؤلاء العلماء والحكماء والمفكرين ، إلى أن جاء (كوبرنيكس) ورمى بهذا الرأى الذى أحاطته القرون بهالة من التقديس وقال : « إن ما يظهر للناس من حركة الشمس والقمر والنجوم من الشرق إلى الغرب حول الأرض قد نتج عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، وأن الأرض والسيارات ليست إلا أجراماً تدور حول الشمس » .

نشر كوبرنيكس هذا الرأى وأذاعه فى القرن السادس عشر للميلاد بعد أن دفعه الخوف إلى إخفائه ما يقرب من أربعين سنة .

ماذا كانت النتيجة ؟

دوىّ هائل أقام الدوائر الدينية والعلمية وأقعدها ، وهزة عنيفة دكّت بعض الأركان التى يقوم عليها علم الفلك . وقام رجال الكهنوت والعلماء يسفهون هذا الرأى ، وقد رأى فيه أولئك الرجال خروجاً على الدين كما وجد فيه العلماء جهلاً وسخفاً ونقضاً لمبادئ العلم الكونى .

لقد كان هذا الرأى فتحاً جديداً ، ليس فى علم الفلك فحسب ، بل فى العلوم كلها ، أدّى إلى قلب بعض الأوضاع المقررة والنواميس التى كان يُظنّ أنها صحيحة ، وغيّرت من رأى الإنسان فى مقام الأرض ودفعته إلى متابعة البحث والرصد والدرس فتوالت الاكتشافات ، فإذا نحن أمام حقائق عن الكون أصبحت معروفة عند الخاص والعام ، ومن الأمور المقررة التى لا تحتاج إلى شرحها وتفصيلها للتدليل عليها . وخرجنا من هذا كله بأن الأرض جرم من الأجرام السماوية يتناولها علم الفلك وتدخل دراستها فى نطاقه . وقد ثبت أنها تدور حول الشمس وتخضع لنفس النواميس التى تخضع لها موجودات هذا العالم ، وأنه يحيط بها دائرة من الأنظمة هى نفس الدائرة المحيطة بغيرها لا تتعداها ولا تشذ عنها . والذى لا أشكّ فيه أن البحث فى الأرض مما يساعد على فهم كثير من الحقائق التى تتعلق

بالنظام الكوني ، ويجلو نقاطاً غامضـــة تتعلق بمنشأ الكواكب والنجوم ومادتها . بل إن من يريد دراسة الفلك والتعمق فيه والاحاطة بدقائقه عليه ، قبل كل شيء ، أن يدرس الأرض التي يعيش عليها وأن يسعى للوقوف على طرق الرصد من على سطحها ، ويبحث في حركاتها وأصل منشئها وتكوينها وماجرى (ويجرى عليها) من تطورات وتغيرات .

مستودعات الأسرار – المعادلات !

يرجح كثيرون أن الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها منذ ألفي مليون سنة ، فلقد اقترب نجم كبير من الشمس وحدث من ذلك أن زادت قوة الجذب بينهما نتج عنها اندلاع لسان من مادتها خرج إلى الفضاء وانفصل عن الشمس وبدأ يبتعد عنها ويدور حولهـا . ومن هذا اللسان تكونت الكواكب والكويكبات التي لا تزال تدور حول الشمس ، ومنها الأرض – كوكبنا – الذي نعيش عليه . وبعد ألوف من السنين بدأت هذه الكتلة الحارة الغازية تتحول إلى سائل ، وبعد مرور آلاف أخرى من الأجيال تجمد بعضه وتكونت القشرة الأرضية بجبالها ووديانها وهضابها وسهولها وبحارها . وفي هــذه الأثناء – أثناء تجمد الأرض وتكون القشرة – انفصل القمر عن الأرض وبدأ دورانه حولها إلى يومنا هــذا ، وسيبقى كذلك إلى ما شاء الله . وهناك كواكب أخرى انفصل عنهـا أكثر من قمر واحد تسير في مدارات خاصة حول الكوكب الذي انبثقت منه .

ولقـد تناول العلماء جوف الأرض وحاولوا اختراقها بعيون العلم والأرقام والمعادلات ليتعرفوا على خصائصهـا وعلى ما يجرى فيها من تفاعلات فقطعوا في بحوثهم هــذه شوطاً لا بأس به ، ولـكن ينقصهـا شيء من التفصيل والايضاح في نواح متعددة .

ومما لا شك فيه أن لجوف الأرض ضغطاً عظيماً ، فعلى عمق (١٠٠) ميل نجد أن ما على البوصة المربعة من الصخور والمواد المختلفة يزن أكثر من (٣٠٠) طن . أما الحرارة فترتفع في الأعماق وهي في كل (١٠٠) قدم نحو باطن الأرض تزيد درجة سنتيغراد واحدة ، وعلى هذا فالحرارة تصل إلى ألوف الدرجات في مركز الأرض . وليس غريباً أن يظن كثيرون أن هــذه الحرارة العالية تجعل المواد الموجودة في جوف الأرض في حالة ذوبان ، فهذا ما كان يقول به علماء أوربا ، ولـكن البحث العلمي الحديث أثبت غير ذلك وأن تلك المواد من السطح إلى المركز مرنة وجامدة وأكثر صلابة من الفولاذ .

والأرض تدور على محورها مرة كل يوم من الغرب إلى الشرق وقد تحقق ذلك لدى العلماء بطرق عديدة بعضها طريف وفيه متاع ، ولعل طريقة (فوكلت) من أطرفها وأمتعها . وكذلك تدور الأرض حول الشمس في فلك يقرب شكله من الاهليلجي بسرعة ١٨٫٥ ميلاً في الثانية ! . . .

وقد حسب العلماء نصف قطر هــذا الفــلك فوجدوه يقرب من ٩٣ مليوناً من الأميال وأطلقوا على المدة التي تستغرقها الأرض في قطع محيطه سـنة . وهناك من الكواكب ما تختلف مدد دورانها حول الشمس فمنهـا ما يتم دورته في ٨٨ يوما ، أي أن السنة (على ذلك الكوكب) تساوى ٨٨ يوما من أيامنا ؛ ومنها ما يتم دورته في ٤٨ سنة ، كما نجد كواكب أخرى تتم دورتها في أكثر من هذه المدة .

ما كان في استطاعة الفلكيين أن يصلوا إلى هذه النتائج ، أو إلى غيرها ، بغير العلوم الرياضية ومعادلاتها وقوانينها من طبيعية وغير طبيعية . واستطاع الانسان ، بفضل هذه العلوم ، وبفضل ما وهبه الله من قوة التفكير

واللاحظة ، أن يحسب كتلة الأرض بدقة متناهية ، وقد جاءت فى حسابه عدداً مخيفاً يقرب من العدد ٦ يتبعه واحد وعشرون صفراً من الأطنان ، أو (٦٠٠٠) مليون مليون مليون طن ! ! وهذا العدد من الأطنان ليس شيئاً يذكر أمام كتل النجوم والكواكب الأخرى ، فهناك من النجوم ما تعدل كتلتها ألوف المرات وملايينها من كتلة الأرض .

ولقد صدق الشاعر المرحوم حافظ إبراهيم حين وصف البحر أثناء زيارته لإيطاليا وصفاً أتى فيه على عظمة الكون وأن الأرض ليست إلا ذرة تدور فى هذا الفضاء . قال :

أيها البحر لا يغرنك حول والتساع فأنت خلق صغير
إنما أنت ذرة قد حوتها ذرة فى فضاء ربى تدور
إنما أنت قطرة فى إناء ليس يدرى مداه إلا القدير

ولعل أدق وصف للأرض ما جاء على لسان العلامة (جينز) بأن الأرض ليست إلا هباءة دقيقة (لا ترى إلا بالمجهر) فى هذا الفضاء الفلكي الواسع بالنسبة إلى الأجرام السماوية المتناثرة فى أنحاء الكون .

الحياة على الأرض :

مضى على الأرض ألف مليون سنة قبل ظهور الحياة على سطحها ، وبقيت طول هذه المدة عرضة لعوامل جوية وطبيعية أوجدت هذا التنوع العجيب الذى نراه عليها . ثم بعد ذلك بدأ يظهر على سطحها آثار للحياة فى أولى مراحلها وأبسط صورها فى النباتات البسيطة التركيب والحيوانات الصغيرة الأولية .

وهنا يقف العلم معترفاً بعجزه عن الإجابة على أسئلة تتعلق بهذا الشأن :

كيف بدأت الحياة ؟ وكيف نشأت ؟ وهل هناك ما مهد لها بالظهور ؟

هل ظهرت أولاً على سطح الأرض أو فى أعماقها ؟

أما الأجوبة فتتلخص فى كلمتين : لا نعرف !

نقول لا نعرف على الرغم من وجود آراء مختلفة لبعض العلماء فى أصل الحياة ومنشئها . ومن يطلع على هذه الآراء ويمعن الفكر فيها يجد أنها لا تشفى الغليل ، ليس فيها حل للغز الحياة على الأرض ، بل فى بعضها ما يزيد هذه المشكلة إبهاماً والتواء .

قال فريق : إن أصل الحياة من فعل طبيعى ، وأن الأحوال التى تم فيها هذا الفعل تختلف عن أحوالنا ، ولا تزال سراً من الأسرار لم يستطع العلم إدراكها بعد .

وقال فريق آخر : إن الحياة أتت الأرض فى شكل بزور محشوكة فى النيازك الساقطة على (الأرض) .

والآن ... ما أصل هذه البزور أو البزيرات ؟ وكيف نشأت ؟ وهنا نرى أن أصحاب هذا الرأى لا يزالون فى صميم المشكلة لم يتقدموا فى حلها خطوة واحدة .

وهناك فريق ثالث يرى أن الحياة تولدت من تلقاء نفسها ، كنتيجة لأفعال كيماوية معقدة وفى أحوال غريبة كانت سائدة على سطح الأرض ، ويذهبون إلى أن الحياة تولدت فى عهد كان فيه جو الأرض مؤلفاً من ثانى أوكسيد الكربون والأمونيا ، فكان ظهور أول الحياة فى مادة كربونية غروية .

وهناك آراء أخرى غير هذه لا تزال فى حاجة إلى درس وبحث وتمحيص . وعلى كل حال فلا يزال لغز الحياة خافياً على الناس ومن المغلقات التى لم يستطع العلماء اقتحامها والتغلب عليها . ولا ندرى فقد يأتى يوم يتمكن فيه الإنسان من إلقاء ضوء على هذا اللغز الدهرى فتتجلى حينئذ أمامه (حقيقة الحياة) واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض .

ثم نأتى إلى تطور الحياة على الأرض بعد أن أخفقنا

فى الاجابة على أسئلة أصل الحياة ومنشئها .

ظهرت الحياة فى أبسط صورها فى النباتات ومرت عليها عصور وعصور ، حتى أصبحت فى الحالة التى عليها الآن . أما الحيوانات فقد بدأ ظهور الحياة فيها فى الدبية وبعض الحشرات والطيور ، ثم أخذت (الحياة) على كر السنين المؤلفة تتطور وتتقدم ، سلاح بعضها القوة وسلاح الآخر الذكاء ، وقد تغلب السلاح الأخير على الأرض وظهر قويا فى الانسان فاستطاع استغلاله وتوجيهه إلى ما فيه الارتقاء والتقدم . وستبقى كذلك فى تطور مستمر وتغير دائم . ما مدى هذا التطور ؟ وما نهاية هذا التغير ؟ هذا ما لم يستطع العلم بعد أن يجيب عليه .

جو الأرض :

يحيط بالأرض طبقة من الجو تتركب من النتروجين والأوكسيجين بنسبة كبيرة وبنسب ضئيلة من الأركون وثانى اوكسيد الكربون والهيدروجين وبعض الغازات النادرة كالهليوم والنيون والكريبتون و ...

ولكل من هذه العناصر والمركبات فوائد ، منها ما هو حيوى للانسان والحيوان والنبات ، ومنها ما يحول دون حدوث تأثيرات حرارية شديدة على الانسان وعلى غير الانسان ، إذ تمتص جزءاً من حرارة الشمس وتعمل عمل دثار للأرض تحتفظ بالحرارة التى أتت إليها أثناء النهار من الشمس ، فلا يحصل برد شديد على سطح الأرض كما يحصل على القمر ، ومنها ما هو ضرورى لبعض الصناعات . ويبقى تركيب الجو كما هو لأربعة أو خمسة أميال عن سطح الأرض ، ولكنه يتغير تغيراً كبيراً عند ما يزيد الارتفاع عن ستة أميال حيث تقل الكثافة ويلطف الهواء إلى درجة تصعب معها الحياة ويصبح من الضرورى لمن يحلق إلى هذا الارتفاع أن يستعمل الاوكسيجين للتنفس . وقد استطاع العلماء أن يعرفوا كثيراً عن درجات الحرارة والضغط فى أعالى الجو على ارتفاعات تزيد على عشرة أميال عن سطح الأرض ، واستعملوا لذلك طرقاً مبتكرة فيها ابداع ومتاع . وكذلك استطاعوا أن يحسبوا عمق الغلاف الهوائى المحيط بالأرض ، واعتمدوا فى حسابهم على الشهب عند ما تخترق جوها وتظهر فيه متألقة ، فوجدوا أن طبقاته تمتد إلى أكثر من ١٥٠ ميلاً . ولقد وجدوا فى هذه الطبقات على ارتفاع عشرين ميلا الأوزون Ozone ، ولهذا الغاز فائدة كبرى ، فهو لم يوجد عبثاً ومن غير سبب ، إذ يمتص الأشعة فوق البنفسجية التى تشع من الشمس والنجوم ، ولولا هذا الامتصاص لأثرت الأشعة على جسم الانسان ولأحدثت فيه من الاضرار ما لا قبل له بها . والجو هو الذى يملأ الفضاء بالضياء ، فاشعة الشمس حين تقع على الغبار العالق بالهواء وعلى ذرات الهواء والأجسام المستقرة على الأرض ، تنعكس إلى كل الجهات فتملأ الأرض نوراً وسناء . والجو هو الذى يشتت نور الشمس ويحلله ، وإليه يرجع الجمال الذى تكون عليه الأرض فى ألوانها المختلفة البديعة . وهو يشتمل على عدة ألوان : منها الأحمر والأصفر والبنفسجى وغيرها بنسب مختلفة . ومن خصائص هذا الجو (بما يحويه من دقيق بخار الماء) انه يمتص كل الألوان إلا الأزرق ، وبذلك نرى السماء زرقاء فى النهار وطرفى الليل . وهنالك أسباب أخرى لزرقة السماء وسط الليل لا يتسع المجال لشرحها وإيضاحها . كما أن هنالك تعليلات لحمرة الشمس وقت الشروق ووقت الغروب وحمرة الشفق وألوان السحاب تقوم كلها على انكسار الضوء وتفريقه لا نرى المجال واسعاً لشرح هذه الظواهر ، ففيها تعقيد عدا كونها لا تدخل فى دائرة موضوع هذا المقال .

عمر الأرض :

شغلت مسألة (عمر الأرض) علماء القرن التاسع عشر

الميلاد والقرون الثلاثة التي تلته وأخذت قسطاً كبيراً من جهودهم وتفكيرهم استخدموا فيها العلوم الرياضية والطبيعية ، واستطاعوا أن يصلوا إلى نتائج تعطي فكرة عن عمر الأرض ، ولم يتمكنوا من تقدير الزمن الذي مضى عليها منذ نشأتها إلى الآن تقديراً دقيقاً وصحيحاً يصلون به إلى نتيجة نهائية يطمئنون لها ويقنع بها علماء الجيولوجيا والبيولوجيا والطبيعة والفلك .

استخدم العلماء طرقاً عديدة ومختلفة في حساب عمر الأرض ، فمنهم من حسب الزمن الذي احتاجته لكي تبرد وتتجمد وتصبح لها حرارتها الحالية ، وقد جاء الحساب في حدود عشرين مليوناً من السنين ، ولكن هذا التقدير لم يقنع كبار العلماء ، وقد أبدوا بشأنه اعتراضات وجيهة قائمة على أسس صحيحة من الحقائق التي توصل إليها البحث في الجيولوجيا والبيولوجيا .

وهناك من استخدم (الجيولوجيا) لحساب عمر الأرض فلقد اعتمد (ادموند هالى) في القرن السابع عشر للميلاد على كمية الأملاح الذائبة في المحيطات ، واستطاع بعض العلماء ، فيما بعد أن يحسبوا الزمن اللازم للأنهار والسيول ، لنقل هذه الأملاح إلى المحيطات ، فكان حسابهم حول تسعين مليوناً من السنين . . .

ومن العلماء من سار في تقديره على دراسة الطبقات الأرضية ، وعلى حساب الزمن اللازم لبنائها ، ولكن في هذه الطريقة نقاط ضعف كثيرة لا تؤدي (في نظر الكثيرين) إلى نتائج حاسمة يمكن الأخذ بها أو الاعتماد عليها .

وفي مستهل هذا القرن التفت العلماء إلى طريقة هامة لحساب عمر الأرض ، هي أدق الطرق وأقربها إلى الصواب . وهذه الطريقة تتناول مصادر حرارة الأرض ومصدر النشاط الاشعاعي لبعض العناصر كاليورانيوم والثوريوم والراديوم وتحولها إلى رصاص ، كما تتناول الزمن الذي يمضي على هذا التحول ، وقد وُجد أن عمر الأرض على هذا الأساس ثلاثة آلاف مليون سنة ! . . .

هذا التقدير ليس نهائياً ، ولا يجوز أخذه كشيء ثابت ، فقد يكون هناك عوامل نجهلها تغيّر هذا التقدير إذا اعتبرناها ودخلت في حسابنا ، ولكن ميزته على غيره أنه مبني على أحدث ما وصل إليه العلم من وسائل وعلى أن العلماء لا يجدون فيه ما يتنافى وعلوم الجيولوجيا والبيولوجيا وغيرها من العلوم الطبيعية .

(نابلس) قدري حافظ طوقان

تصحيح خطأ مطبعي

ورد في مقال (هل هو حي أو ميت) للكاتب الأمريكي (مارك توين) المنشور في العدد الماضي لفظ مدينة أخيلوس ، وصحته (لوحة أخيلوس) فلزم التنويه .

من أحسن ما رُوي
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

مالك بن الريب :

مالك بن الرَّيب المازنيّ يرثي نفسه وقد حضره الموت بخراسان ، وهو شاعر من شعراء الاسلام في أول زمن بني أمية ، نشأ ببادية بني تميم بالبصرة ، وكان لصاً فاتكاً ؛ وكان من خبره أن معاوية بن أبي سفيان وجّه سعيد بن عثمان بن عفّان عاملاً له على خراسان ، فخرج بجنده إليها ، فلما كان بطريق فارس لقيه مالك بن الريب — وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم ثياباً ؛ فلما رآه سعيد أعجبه ، وقال له : ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق ؟ وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل ؟ قال : يدعوني إليه العجز عن المعالي ومساواة ذوي المروءات ومكافأة الاخوان . وفي رواية : « كَلَب الزمان وجفوة السلطان والعجز عن مكافأة الاخوان » . قال سعيد : فان أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما كنت تفعل ؟ قال : أي والله أيها الأمير . فاستصحبه وأجرى له خمسمائة درهم في كل شهر ، فلما قفل سعيد من خراسان مرض مالك في الطريق ، فتخلّف عن الجند ، فلما أشرف على الموت قال تلك المقطوعة الباكية التي ينتظم أبياتها روحُ التفجّع على الحياة المودّعة ، وحنين من لا رجاء له في العودة ، وشكوى غريب أيقن ألاّ آخر لغربته . وإنك لتلمس رقة العاطفة ودقة الحسّ في هذا الشاعر حين تراه في قصيدته تلك ، لم تذهله غشية الموت عن التفجع والرثاء لفرسه الذي حال الموت بينه وبينه ، ولم يترك له ساقياً يورده الماء . وهذا منتهى ما تصل إليه الانسانية من السموّ النفسيّ في رعاية الصلة والوفاء بين الانسان وبين من يعاشره أيًّا كان نوعه . وفي اعتقادي أن هذه الإحساسات النبيلة إنما تخلقها وتنميها في قلب الانسان الصراحة ، وصفاء الطبيعة في عيش البادية ، كما تميتها أو تضعفها قيود التكلّف والرياء في عيش الحاضرة .

ولذلك قال بعض المتقدمين من العلماء بالشعر — وأحسبه الأصمعيّ — :

« إذا جاءك بيت لصّ فاحتفظ به »

وقد علّل ذلك بما يفيد أن لصوص العرب أبعدُ عن الحواضر وأكثر توغلاً في البوادي ، فهم أصفى لغة وأسلمُ عبارة ، وأبعدُ من الدخيل في ألفاظهم .

وأقول في تعليل ذلك أيضاً : « إن بُعدهم عن الحواضر جعلهم أصفى طبيعة وأسلم فطرة وأدقّ حسّا ، إذ ليس في عيش البداوة من قيود التكلّف ما يحدّ الاحساس أو يصرف الطبيعة عن وجهها ، والطبيعة والاحساس ينبوع الشعر ومصدره .

وقد عرض الشاعر في هذه المقطوعة عدةَ معانٍ في الحنين والتفجع ، متوخياً في ذلك اللفظَ القريبَ والبيان السهل . وهكذا الشأن في شعر العواطف فانها بقدر ما تكون واضحة الأثر في القلب تكون واضحة في تصويرها والتعبير عنها .

وقد زاد الرواة في هذه القصيدة من عندهم أضعاف أبياتها ، فانتقيتُ منها ما هو بشعر العرب أشبهُ ، وإلى كلام ابن الريب وأمثاله من شعراء معاصريه أقرب ، ونفيت ما هو مدسوس عليه فيها ؛ قال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا (١)
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
أجبت الهوى لما دعاني بعبرة
تقنعت منها — أن ألام — ردائيا (٢)
ألم ترني بعت الضلالة بالهدى
وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
فلله دري حين أترك طائعاً
بني بأعلى الرقمتين وماليا (٣)
ودر الظباء السانحات عشية
يخبرن أني هالك من أماميا (٤)
تقول ابنتي لما رأت وشك رحلتي
سفارك هذا تاركي لا أبا ليا

***

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا
برابية إني مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي
وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني — بارك الله فيكما —
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

(١) الغضى : واد بنجد . وأزجي : أسوق . والقلاص : جمع قلوص ، وهي الشابة من النياق ، والنواجي : السراع .
(٢) يريد أنه ستر دمعه خشية أن يلام على الجزع .
(٣) الرقمتان : قريتان بالعراق بين البصرة والنباج وهما على شفير الوادي ، كانا موطناً لمالك بن الريب .
(٤) السانحات : المعترضات .

خذاني فجراني ببردي إليكما
فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

***

تفقدت من يبكي علي فلم أجد
سوى السيف والرمح الرديني باكيا (١)
وأدهم غربيب يجر لجامه
إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
وبالرمل — لو يعلمن علمي — نسوة
عزيز عليهن العشية ما بيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
تحمل أصحابي عشاء وغادروا
أخا ثقة في عرصة الدار ثاويا
يقولون : لا تبعد وهم يدفنونني
وأين مكان البعد إلا مكانيا

أحمد الزين

(١) الرمح الرديني : نسبة إلى ردينة ، وهي امرأة من العرب كانت تجيد تقويم الرماح .

مع أدبائنا المعاصرين :

براكسا ، أو مشكلة الحكم

للأستاذ توفيق الحكيم

للدكتور طه حسين بك

قصة صغيرة جدا ، قصيرة جدا لا تكاد تتجاوز فصلا من فصول الصحف والمجلات إلا قليلا ، ولكنها مع ذلك تحتاج إلى كلام كثير . وأخشى إن جاريت حاجتها إلى الكلام أن يكون النقد مساويا للقصة فى الطول . ولكنى مع ذلك سأجتهد فى الايجاز رفقاً بالقارئ ، ورفقاً بالكاتب ، واحتراماً للتقليد الذى يريد أن يكون الأستاذ توفيق الحكيم قد نشر كتاباً ، وأن أكون أنا قد نقدته فى مقال لا فى كتاب .

وقصة الأستاذ توفيق الحكيم لها قصة كما يقال منذ أعوام ، فهى لم تهبط على الكاتب من سماء الوحى الأدبى الخالص ، ولم يفض بها فى نفسه ينبوع الابتكار الفنى الصرف ، ولم يسع بها إليه أبولون أو هرميس أو غيرهما من هؤلاء الآلهة الذين يحبون الفن والأدب ويسعون به إلى الكتاب والشعراء ، فيلقونه فى روعهم إلقاء ، ويكرهون ألسنتهم على أن تنطلق به كلاما ، وأقلامهم على أن تجرى به كتابة . وإنما نشأت هذه القصة فى حجرة من حجرات الاستقبال ، وأثير موضوعها فى حديث من هذه الأحاديث الأدبية التى يتنازعها المثقفون إذا ضمهم مجلس من المجالس أو ندى من الأندية . وربما كانت محنة الأستاذ توفيق الحكيم ، التى لم ينسها القراء بعد ، هى التى أثارت هذا الحديث ، فان كل شىء يمس حرية الرأى من قريب أو بعيد قد تسكت عنه الصحف فى هذه الأيام ، ويعرض عنه الذين يجب عليهم أن يقبلوا عليه فى هذه الظروف القاسية ، ولكن للأدباء والمثقفين قلوباً تشعر ، وعقولا تفكر ، وضمائر تألم ، ونفوساً تريد على أقل تقدير أن تأبى الضيم ، وإن لم تستطع أن تجهر بهذا الاباء . والعقل ممتحن فى هذه الأيام ، وممتحن فى كثير من أقطار الأرض ؛ وسترى كيف يخرج من هذه المحنة ، فان لم نر نحن ذلك فسيراه أبناؤنا أو أحفادنا فى يوم قريب أو بعيد .

كانت محنة الأستاذ توفيق الحكيم إذاً هى التى أثارت هذا الحديث حول حرية الرأى ، وحول ما كان القدماء يستمتعون به منها ، وحول المقارنة بين حرية الديمقراطية الأثينية القديمة فى القرن الخامس والرابع قبل المسيح ، والديمقراطية المصرية الحديثة فى القرن العشرين . وتحدث المثقفون الذين تنازعوا هذا الموضوع عن عبث أرستوفان بالديمقراطية منذ أربعة وعشرين قرناً ، وعن ظفره بتلهية الديمقراطية على حساب الديمقراطية ، وبتسلية الأثينيين على حساب الأثينيين ، وبالضحك المتصل لسلطان الشعب على حساب سلطان الشعب ، وبهذه الحرية السمحة التى عرفها القدماء ، قبل أن يبلغ العقل من الرقى هذا الطور العظيم الذى بلغه فى هذا العصر . وقد ذكر المثقفون فيما ذكروا قصصاً مضحكة خالدة لأرستوفان من

بينها قصة مجلس النساء ، أو جماعة النساء ، التي مثلت في أوائل القرن الرابع قبل المسيح ، حين كانت الديمقراطية الأثينية شديدة التحرج ، شديدة الضيق بخصومها ومعارضيها من الفلاسفة والساسة .

فلم يستقبلها الأثينيون إلا بالضحك والاعجاب ، وهذه السماحة التي تلائم طبيعة الديمقراطية ، والتي قد تفارقها أحياناً ، فتسوق الديمقراطية الموت إلى سقراط ، وتضطر افلاطون إلى الهجرة . ثم ذكر هؤلاء المثقفون ما يكون في العصر الحديث من إقبال طائفة من الكتاب على تجويد التمثيل القديم ، وما يلقون في ذلك من توفيق رائع ، كالذي بلغه موريس دونيه ، وجيرودو ، و« جان كوكتو » حين جددوا بعض القصص اليونانية الحزنة أو المضحكة ، وقال قائل منهم : ما يمنعنا أن نحاول في أدبنا العربي بعض ما يحاول الأوربيون في آدابهم الأوربية ؟ ورضي السامعون عن هذا الاقتراح ، ورسموا ، أو كادوا يرسمون له برنامجاً واضحاً ، وتفرق المجلس ، والتأم بعد أسبوع ، وأعيد الحديث ، وتقدم رسم البرنامج ، وتفرق المجلس مرة أخرى ، والتأم بعد ذلك ، ولكن الأستاذ توفيق الحكيم انقطع عنه وقتاً ، ثم عاد إليه ذات يوم ، ومعه هذه القصة مطبوعة ، وعنوانها كما رأيت « براكسا أو مشكلة الحكم » .

فلنحمد لمحنة الأستاذ توفيق الحكيم هذه اليسيرة ، فضلها على الأستاذ وعلى قرائه ، وعلى الأدب العربي الحديث الذي أخذ يتصل بالتمثيل اليوناني المضحك هذا النحو الخصب القيم من الاتصال ، ولنتمن على الله أن يزيد هذا الاتصال ويقويه ، وأن يكثر أمثال هذه القصة دون أن تدعو إلى ذلك محنة يسيرة أو عسيرة للأستاذ أو لغيره في حرية الرأي ، وإن كان كل شيء يدل على أن حرية الرأي لم تأمن بعد شر الامتحان ، وعلى أن هذا الامتحان مهما يكن مؤلما ثقيلا ، فهو ينتج خيرا ، لأنه يدفع الأديب إلى التفكير ، ثم إلى التعبير ، ثم إلى النشر . والظاهر أن الأديب مخلوق تستقيم أموره على الشقاء والألم ، أكثر مما تستقيم على السعادة واللذة .

فلنقف إذاً عند هذه القصة الصغيرة ، بل لنقف قبل ذلك عند أصلها اليوناني . فقد طلب إلينا الأستاذ توفيق الحكيم أن نقرأ قصة أرستوفان قبل أن نقرأ قصته . وقد عدت إلى قصة أرستوفان بعد طول عهدي بها ، ثم قرأت قصة الأستاذ توفيق الحكيم ، فحمدت للاستاذ تواضعه واعتداله ، وإيثاره القصد ، واعترافه بأنه لا يستطيع أن يقيس قامته إلى قامة أرستوفان . وهو صادق في هذا كل الصدق ، موفق فيه إلى الحق كل التوفيق ، فان قامة أرستوفان لا تقاس إليها قامة أخرى إلا أن نستثنى بعض الممتازين الذين لا تستطيع الانسانية أن تبلغ بهم أصابع اليد الواحدة .

أراد أرستوفان أن يسخر من الديمقراطية والفلسفة معاً في قصته هذه ، وأن يضحك الأثينيين من أحب الأشياء إليهم ، وآثرها عندهم من الفلسفة والسياسة ، فهجم بقصته هذه الصغيرة على موضوع خطير حقاً ، سخر من افلاطون وجمهوريته في هذه القصة ، كما سخر من سقراط في قصة السحاب ، وسخر من النظم الديمقراطية القائمة ، وأظهر الشعب الأثيني أن نظامه الديمقراطي لا خير فيه ، ولكنه أظهر الشعب الأثيني أن ما يقترحه الفلاسفة من النظم السياسية ليس خيراً من النظام الديمقراطي ، ولعله أن يكون شراً منها ، بل هو شر منها ، ما في ذلك شك . وتلخيص القصة يسير جداً فقد ائتمر النساء الأثينيات بأن يتخذن أزياء الرجال ويشهدن مجلس الشعب ويبلغن كثرته المطلقة ، ويقررن نقل السلطان من الرجال إلى النساء ، وتم لهن ذلك ، فقلبن نظام الحكم

وأقرن الشيوعية ، كما كان يتصورها أفلاطون ، مقام الديمقراطية ، وأشرفن على تنفيذ هذا النظام الشيوعي ، فما هي إلا أن عضى وقت قصير حتى يفسد الأمر في أثينا فساداً لا سبيل إلى وصفه ، فساداً يتناول السياسة والأخلاق والنظام الاجتماعي والحياة المادية نفسها ، ويقلب الأوضاع قلباً أقل ما يوصف به أنه يدفع إلى الإغراق في تحك متصل . ويجب أن تعلم أن أرستوفان ليس من أصدقاء الديمقراطية المخلصين وهو إلى الأرستقراطية المعتدلة أقرب منه إلى أي شيء آخر ، ولكن المهم أن الشاعر اليوناني العظيم قد دفع الشعب الأثيني إلى هذا الضحك الغليظ المريض ، فلم يمنعه ذلك من أن يعالج موضوعاً على هذا الخطر الذي نراه ، وأن يعالجه على نحو جميل رائع حقاً . ولابد من أن أضيف إلى هذا كله أن الشاعر اليوناني العظيم قد كان يصطنع في أدبه المضحك حرية في اللفظ والمعنى والخيال ، لا تحتملها أذواقنا ولا أخلاقنا ولا نظمنا الاجتماعية . وكثير جداً من قصصه لا يمكن أن تقرأ جهراً ، وإنما تقرؤها العين ويقرؤها الفرد وليس من اليسير أن يشترك في قراءتها الأفراد . هذا كله يصور صعوبة العمل الذي أقدم عليه الأستاذ توفيق الحكيم ، فهو قبل كل شيء ممنوع بحكم حياتنا الجديدة ، وبحكم أذواقنا وأخلاقنا من أن يصطنع الحرية العقلية والفنية التي اصطنعها الشاعر اليوناني . وهو بعد هذا ممنوع بحكم نظامنا الاجتماعي والقانوني من أن يتعرض للشيوعية أو مايشبهها ، فهو مقيد في حريته العقلية ، وهو مقيد في حريته الفنية ، فإذا أضفت هذا إلى بعد الآماد بين أرستوفان وبين الأستاذ توفيق الحكيم ، عرفت أنه قد كان من المستحيل لا أن يقيس الأستاذ توفيق الحكيم قامته إلى قامة أرستوفان فذلك شيء مفروغ منه ، بل أن يقيس قصته إلى قصة أرستوفان . فإن الأدب المقيد لا يقاس إلى الأدب الحر . وأنت توافقني على أن الكاتب النابغة ، أو الشاعر النابغ لا يستطيع أن يذعن للقيد ، أريد القيد الذي يمس العقل والفن ، وإنما أكره على أن يذعن للقيود والأغلال التي تمس الأيدي والأرجل والأعناق ... ؟

أما قصة الأستاذ توفيق الحكيم فقد ذهبت مذهب القصة اليونانية ، واحتفظت حتى ببعض ألفاظها التي يمكن الاحتفاظ بها . وهي على كل حال قد جرت في أثينا ، وأجراها الأشخاص الأثينيون الذين أجروا قصة أرستوفان ، فقد ائتمر النساء بقلب نظام الحكم فقلبنه ، وقامت براكسا جورا مقام رئيس الدولة ، وهنا يظهر الفرق الحائل بين القصتين . فأما صاحبة الأستاذ توفيق الحكيم ، فقد أدركها الاضطراب الذي يدرك رؤساء الحكومات الحزبية في مصر ؛ كثر عليها الطلب ، وعجزت عن تحقيق المطالب ودفعت إلى أن تعد بما لا تستطيع ، وإلى أن تتورط في المتناقضات . ولكنها امرأة جميلة ، وفي نفسها ضعف لقائد الجيش ، وقائد الجيش فتى جميل ، فيقوم الحب والجمال بإتمام القصة ؛ يقبل قائد الجيش ليتحدث إلى رئيسة الدولة في تدبير حرب داهمة ، ولكنه يخلو إليها ، ويخلو إليها بهذه الحجة ، ويحتجبان حتى عن الفيلسوف الناصح الساخر ، وحتى عن الزوج ، ولا يعلم سر هذا الاحتجاب إلا كاتمة السر . ومن يدري ؟ لعل القوم جميعاً يعلمونه ، فقد علمناه نحن أيضاً .

وتنتهي قصة الأستاذ توفيق الحكيم انتهاء رفيقاً مؤلماً ، فقد انتصر حب السلطان على حب الجمال ، وانتصر قائد الجيش على رئيسة الدولة ؛ سجن الفيلسوف أولا ، وسجنت معه رئيسة الدولة آخر الأمر ، وقام النظام الديكتاتوري الصريح مقام النظام الديمقراطي ، وسجنت الحرية بين أربعة جدران .

وقصة الأستاذ توفيق الحكيم لا تدعو إلى الضحك

القوى المريض ، وإنما تثير الابتسام أحياناً ، وقد تدعو إلى ضحك خفيف فاتر أحياناً أخرى ، بل هى لا تدعو إلى الحزن القوى المؤلم ، وإنما تسبغ لوناً شاحباً على حياة الناس أقل شحوباً من هذا اللون الذى تسبغه عليها طبيعة الأشياء فى هذه الأيام . فالحرية معرضة للخطر فى كثير من أقطار الأرض . والنظام الدكتاتورى منتصر فى بعض هذه الأقطار . والناس يرون من ذلك ومن آثاره أكثر مما يريهم الأستاذ توفيق الحكيم . وهم يتأثرون بحقائق ذلك فى تفكيرهم وسيرتهم ، وفى إحساسهم وشعورهم ، أكثر مما يتأثرون بقصة الأستاذ توفيق الحكيم . وهم أمام هذه الأحداث الخطيرة التى تحدق بهم وتأخذهم من كل وجه ، محتاجون إلى إحدى قصتين : فإما قصة عنيفة محزنة دافعة إلى العمل والنشاط ، مثيرة للنخوة والشجاعة ، تزد عنهم الخوف ، وتذود عنهم الفرق ، وتدفعهم إلى المقاومة ، ليحتفظوا بالحرية أو ليستردوها ، وهذه القصة لم يكتبها الأستاذ توفيق الحكيم . وإما قصة قوية ، ولكنها قوية فى التلهية والتسلية ، وتفريج الهم ، وإخراج الناس عن أنفسهم ، ليلنسوا بعض ما يحيط بهم من خطر ، وبعض ما يسى إليهم من مكروه . وهذه القصة لم يكتبها الأستاذ توفيق الحكيم ، وإنما كتبها أرستوفان ، ولكن قصة أرستوفان كتبت للأثينيين ، لا للشعوب الحديثة ، وهى قد تعجب المثقفين من المحدثين ولكنها تنبو عن أذواق الكثرة من الناس ، أو تنبو عنها أذواق الكثرة من الناس . وإذاً فمازال الناس فى حاجة إلى هذه القصة أو تلك . فأما قصة الأستاذ توفيق الحكيم فهى لا تضحك ولا تبكى ، وهى لا تسر ولا تحزن ، وكل ما تستطيع أن تفعله هو أنها تمكن من أن تنفق ساعة هينة لينة ، تقرأ فيها كلاما هينا لينا ، لا يخلو من لذة ، ولكنه لا يحدث فى النفس شيئا ، ولا يدعو النفس إلى تفكير ، فضلا عن أن يدعوها إلى عمل ، وهى إلى أن تكون تصويراً لسخرية الأستاذ توفيق الحكيم من مشكلات الحكم ، أقرب منها إلى أى شىء آخر . فالأستاذ قد يحب الديمقراطية على أنها مثل أعلى لا يستطيع الناس تحقيقه ، فأما الديمقراطية الواقعة فإيمانه بها مشكوك فيه . والأستاذ قد يحتمل النظام الدكتاتورى ، بشرط أن تتحقق فى ظله الحرية والعدالة ، وليس إلى ذلك من سبيل ، لأن الحرية والعدالة تناقضان النظام الذى يقوم على سلطان الفرد وتحكمه . وإذاً فالأستاذ يسخر من هذا النظام ، كما يسخر من ذاك . وأكبر الظن أنه يؤثر الفراغ لفنه ، والخير أن يفرغ لهذا الفن . وحسبه على كل حال أنه قد أضاف إلى آثاره القيمة أثراً جديداً ، وصل فيه أسباب أدبنا المصرى الحديث بأسباب الكوميديا اليونانية . وليس هذا بالشىء القليل .

طه حسين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى	٦٠ قرشاً فى مصر والسودان
	٨٠ فى الأقطار العربية
	١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٢٢٩٩٢

العدد الثامن عشر | الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٨ — ٢ مايو سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهرس

محمد الرسول المصلح

كم من عظماء الرجال زالت عظمتهم أو قلت قيمتهم بمرور الزمان عليهم، وتنبُّهِ الناس تنبهاً صحيحاً لأعمالهم، ووزنهم بموازين عصرهم. ولكن محمداً (ص) ظلت قيمته قيمته، وعظمته عظمته، مهما اختلفت العصور، وتغيرت الموازين؛ بل إن الزمن ليزيد عظمته وضوحا، والموازين الأخلاقية الجديدة تزيد مكانته رفعة.

وكم حاول خصومه في مختلف العصور أن ينتقصوا من قدره بشتى الأساليب، ومختلف الأكاذيب، فنالوا من أنفسهم ولم ينالوا منه، وحرموا لذة الحق وبرّ الحق.

وكم لمحمد من نواحي عظمة ومظاهر سمو، ولكن لعل أروعها جميعاً ما جاء به من دعوة، وما قام به من إصلاح.

لقد نشأ في جو خانق، وبيئة مضطربة فاسدة، وحالة اجتماعية تبعث اليأس؛ فجعل من الشر خيرا، ومن الاضطراب أمنا، ومن الفساد صلاحا؛ فالعرب قد وهبت

نفسها للأصنام ، وجعلت البيت الحرام — الذى بنى ليعبد فيه الله — مباءة لثلثمائة حجر أو تزيد ، تعبدها من دون الله . ومن تنصر منهم أو تهوّد كان قد تنصر أو تهوّد بنصرانية أو يهودية فقدت روحها ، وتقسمتها المذاهب والشيع ، ودخل على تعاليمها الأولى كثير من البدع ، فلم تنجح فيهم يهودية ولا نصرانيـة ، والحنفاء الذين ظهروا قبيل الاسلام كان صوتهم ضعيفاً خافتاً ، عجزوا — كما عجزت اليهودية والنصرانية — أن يغيروا شيئاً من حياة العرب وعقلية العرب . ثم كانت حيـاتهم سلسلة سلب ونهب ، كل قبيلة وحدة ، بل كل فرع قبيلة وحدة ، وكل قبيلة فى عداء مع من جاورها ، لا أمن على الحياة ، ولا أمن على المال ، لا يفقهون معنى « أمة » ، ولا يفهمون معنى لحياة سياسية أو مدنية ، ولا يعرفون معنى لعلم أو فن ؛ فلو أنت قلت إن أحداً من الأنبياء والمصلحين لم يجد من اختلال أمته وفسادها ما وجد محمد من العرب ، وأن أحدا منهم لم ينجح فى إصلاح أمته ما نجح محمد فى إصلاح العرب وغير العرب ، ما عدوت الصواب .

ففى عشرين عاما استطاع بتأييد الله أن يغير كل هذه الفوضى ، وأن يغير كل هذه المظاهر ، وفوق ذلك أن يغير هـذا الروح ، فجعل من القبائل وأشباه القبائل أمة عربية واحدة ، ورد الأصنام إلى أما كنها فى الأرض ، وساوى بينها وبين أخواتها من الحجارة ، وحوّل عبادتهم إلى إله واحد فوق الأرض وفوق السماء ، وفوق المـادة كلها ، هو وحده الصمد « لم يَلد ولم يُولد ولم يكن له كفواً أحد » ، فرفع من نفوسهم المرتبطة بالحجارة ، والمتصلة بالأرض ، لتحلق فوق السماء ، ولتنظر إلى العـالم كله نظرة سامية عميقة ، ولتحتقر عرض الدنيا فى سبيل نصرة الحق .

وجد نصف العرب (وهو المرأة) ضعيفاً فقواه ، مسلوب الحق فرد إليه حقه ، فهى كالرجل فى العبادات ، وهى كالرجل فى المعاملات ، ولها كالرجل كل الحقوق المدنية ، فأكمل بذلك ترقية النصف الآخر وجعلها أقدر على اصلاح الجيل الجديد بما نالت من حرية جديدة .

آمن الرجال والنساء بتعاليم الإسلام الجديدة يعتنقونها ويذودون عنها ، ويرون واجباً عليهم نشرها وتضحية النفس والمـال فى سبيلها ، تحمسوا للدين ولـكن لا كما يتحمس الرهبان فى الصوامع ، إذ هجروا دنياهم لدينهم ، بل لم يمنعهم اخلاصهم لدينهم من تحسين دنياهم ، فهم يدينون ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ، يتاجرون ويصنّعون ويملكون المال ويزكّون ، ويعملون للدنيا كأنهم يعيشون أبداً ويعملون للآخرة كأنهم يموتون غداً ، يبلغون الذروة فى عالم الروح ، ويبلغون الذرة فى عالم المادة ؛ ففى عالم المادة إن حاربوا الفرس والروم غلبوهم وأزالوا ملـكهم ، وفى عالم الروح إن سابقوا الأمم الأخرى فى روحانيتهم سبقوهم ، فلا وثنيـة ولا عبادة لصور ولا عبادة لـكائن ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا إله إلا الله .

***

لئن فاخر المصلحون بتعاليمهم وبدعوتهم فمحمد (ص) يحق له أن يفاخر بذلك كله وبالنتائج العملية التى وصل إليها ، فليس رسم الخطط وحده كافياً فى التباهى ، إنما المباهاة الحقة فى التنفيذ والنجاح فى التنفيذ ، وإلا فـكل رجل فوق المستوى المألوف يستطيع أن يحلم بعالم خير من هذا العالم ويرسم لهذا العـالم السعيد صورة الخلابة البديعة ، ولـكن المصلح الحق من يضع الخطط اللائقة للحاضر والمستقبل ، ثم يضع الخطط الصالحة لتنفيذ ذلك كله ، ثم يصل من ذلك كله إلى الغاية . ولقد أظهر النبى (محمد) فى ذلك كله البراعة الفائقة ، فلم يكن حالماً ولـكنه فـكر ثم وصل ثم عمل .

كم أجهد نفسه فى التفكير وأجهد روحه فى البحث ، وكانت عزلته فى غار حراء وسيلة من وسائل تفكيره ، وفيم كان يفكر ويطيل تفكيره ؟ فى سوء ما عليه العالم ، وفى سوء ما يعتقد العرب وغير العرب ، وفى سوء الحالة الاجتماعية فى العالم الذى رآه فى جزيرة العرب وفى العالم الذى رآه فى الشام . قد يكون هذا الفساد واضحاً ، ولكن ما هو الحق وأين الحق ؟ كان هذا هو زمن التفكير ونوع التفكير ، ثم اهتدى وكان الوحى إيذاناً بالهداية .

ثم كان له بعد ذلك من الله قوة فى التنفيذ لا تبارى ، يدعو إلى الحق ولا يمل ، ويعذب من أجل الدعوة فينال العذاب من جسمه ولا ينال من نفسه ، فهو يضرب وهو يرمى بالحجارة وهو يسيل دمه ، ولكن العذاب مع ذلك كله يزيد فى دعوته قوة وفى نفسه عزيمة .

ثم هو لا ييأس أبداً فإذا فشلت خطة وضع خطة ، فإذا لم تنجح خطة الطائف فليدع غير الطائف من الأوس والخزرج حتى يكتب له النجاح .

ثم هو شجاع فى كل ما تتطلبه الدعوة ، تتوالى عليه الأحداث وهو مطمئن ، ويتفرق عنه أهله فلا يجزع ، وتبدو طلائع الهزيمة فى وقعة أحد ، وتكسر رباعيته ويشج فى وجهه وتكلم شفته ويسيل الدم على خده ، وينكشف المسلمون ، ويصيب فيهم العدو ، ويقتل عمه حمزة ، وهو هو فى ثباته ، وهو هو فى إيمانه ، وهو هو فى أمله ، جميع الفؤاد رابط الجأش .

فلما أن أمكنه الله من عدوه لم يذكر دمه ، ولم يذكر أقاصيل خصومه ، ولم يذكر قتالهم لأهله وأصحابه ، إنما ذكر دعوته وذكر خير السبل فى الوصول إلى تحقيقها ، وذكر ما يجب أن يفعل لإنجاحها ؛ فلما فتح مكة كان همه أن يدخل الكعبة ومعه بلال فيؤذن فيها ، ويكسر الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل » وهذا هو ما يذكره . أما الناس فليسوا موضع نقمته وخير أن يستجلبهم لدعوته بعفوه فيقول : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فأسرهم بعفوه ، وزجهم إلى قوة فعالة فى سبيل دعوته ؛ وهكذا لم نجد مثلا يجمع بين القوة والرحمة ، والصلابة والمغفرة ، والإصرار واعتدال المزاج كما رأينا فى هذه الفعال .

* * *

تعاليمه الاصلاحية إلهية خالدة ، أما شخصه فإنسان يخضع لكل قوانين الإنسان من شباب وشيخوخة وموت وغير ذلك .

وسبب خلود تعاليمه أنها إنسانية عامة ، لم تخضع فى جوهرها وأسسها الأولى لظروف الزمان ولا ظروف المكان ، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم ، ولا إلى الروم وحدهم ، ولا إلى الناس فى زمنه ، إنما نظر فيها إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، فبقيت ما بقى الإنسان ، ولم يفرق فيها بين عربى وغير عربى ، ولم يتميز فيها غنى عن فقير ، ولا أبيض البشرة عن أسودها ، ولا طبقة فى الشعوب عن طبقة ، ولا شرقى عن غربى ، ولم يكن فيها نعرة جنسية ، ولا نغمة أرستقراطية ، ولكن فيها أن الإنسان أخو الإنسان ، والأبيض أخو الأسود ، والرجل أخو المرأة ، والغنى أخو الفقير ، والملك أخو الرعية . وكانت كل رسالته وكل أقواله ترمى إلى غاية واحدة : ألا يفر الإنسان من هذا العالم بالعزلة ، ولكن يكون قوة فعالة لاستئصال الشر وفعل الخير ، وتمام الانسجام بينه وبين من يعيش معهم ، وتحقيق العدل والإحسان له ولهم ، وأن يعيش لخير نفسه وخير من معه وخير العالم ؛ يجب أن تكسر الحدود الجغرافية والحدود الصناعية والفوارق الجنسية ، وأن يعيش العالم وحدة تحكمه قوانين عادلة ، وتسوده تعاليم حقة ، ويعتنق أهله عقائد صحيحة أساسها كلها الخير العام للإنسانية ، وهى إن اختلفت فى الفروع

بحسب الأقاليم وبحسب البيئة الطبيعية والاجتماعية ، فلن تختلف فى الأصول التى تربط الإنسان بالله خير رباط ، وتربط الإنسان بالإنسان خير رباط ، وتخضع لحكم العقل مجرداً عن التحريف والتضليل ، ولحكم العواطف سليمة صحيحة قوية .

فأى شىء من هذه التعاليم لا يبقى ما بقى الإنسان ؟ بل أى شىء من هذه التعاليم لا تعلو قيمته كلما علا الإنسان فى قيمته ورقى فى إدراكه ؟

لقد كان كل نبى قبله يحمل مصباحاً لقومه ، فجاء محمد يحمل مصباحاً للعالم .

آمن محمد بالأنبياء جميعاً وبرسالتهم جميعاً ، وبإصلاحهم جميعاً ، ودعا من يؤمن به أن يؤمن بهم ، وعلّم أن الحق فى كل زمان واحد ، قد دعا إليه كل نبى قبله ، وأنه داع دعوتهم ، مرسل بمثل رسالتهم ، مطهر لنا الحق تعاليمهم من الشوائب ، مصلح لنا أدخله الأتباع من الفساد ، متقدم فى رسالته تقدم الزمان فى عقليته ، مبعوث إلى الكافة ، مرسل إلى العالمين .

* * *

فلئن احتفل اليوم بمولده أربعمائة مليون مسلم على وجه البسيطة ، لا يفرق بينهم جنس ولا لغة ولا لون ، فيحق لهم أن يباهوا به وبعظمته وبدعوته . وأرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى يحق لهم أيضاً أن يباهوا بأنفسهم ، وأن يتمدحوا بأنهم خير أتباع لخير مصلح ، ويذكروا قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

أحمد أمين

على هامش السيرة :

القلب الرحيم

للدكتور طه حسين بك

لم يبسم الأمير لحنظلة بن عمير الخزاعي حين أدخل عليه ، ولم يبسط له ذلك الوجه الذي تعود زواره أن يروه مشرقاً سمحاً ، بل لم ينظر إليه ، ولم يرفع رأسه عن ذلك الكتاب الذي كان ينظر فيه ، وإنما تلقى من الشيخ تحيته وردها عليه ثقلها ؛ وكأنه نسي مكانه منه ، فلم يأذن له بالجلوس ، وظل الشيخ قائماً حائراً ، مطرقاً حيناً ، ثم ناظراً عن يمين وشمال حيناً آخر ، والناس من حول الأمير ومن حوله ساهمون واجمون ، ينكرون في أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً تهيباً للأمير .

وكانت للشيخ في نفوس الناس بالفسطاط مكانة حسنة ومنزلة رفيعة ، عرفوا ورعه وكرم نفسه ، وتنزهه عن الصغائر ، وحسن بلائه في المشاهد ، وحسن رعايته لحرمات الدين ؛ وأكبروا منزلته من قومه ، ونباهة شأنه فيهم ، وحسن صنيعه إليهم . وكثير منهم كانوا يكبرون عظم ثروته ، وسعة ذات يده ، وكلهم كان يرى على كل حال أن الأمير يلقاه بما لم يتعود أن يلقاه به من البشر والإيناس ، وكلهم كان يود لو استطاع أن ينبه الأمير إلى مكان الشيخ ، ولكنه كان يشفق أن يتجاوز حقه ويعدو حده ويدخل على الأمير بما لا يحب . وقد طال إطراق الأمير وصمته ، وطال وقوف الشيخ وحيرته . ثم تحول الشيخ عن موقفه فجأة وسلم على الأمير سلام المنصرف ، فرفع الأمير إليه وجهاً عابساً وهو يقول : إلى أين يا حنظلة ؟ قال الشيخ : إلى حيث يلقاني الناس بغير ما تلقيتني به أيها الأمير . قال الأمير : لا بأس عليك ، اجلس فإن لي معك شأناً . قال الشيخ : لقد علمت أن لك معي شأناً ، ولكني علمت أيضاً أن مثلي لا يلقى بمثل ما تلقيتني به ؛ فإن كنت قد دعوتني لخصومة أو ملامة ، فقد كنت حرياً أن تقدم بين يدي خصومتك أو ملامتك بخير مما قدمت ، أو تكلف قاضيك أن يدعوني كما يدعى المتهم اللئيم . قال الأمير : اجلس فليس عليك من بأس ، إني لم أدعك لخصومة ولا لملامة ، وإنما دعوتك لبعض الأمر ، ولعل ما تم بينك وبيني ألا يعدو العتب عليك والنصح لك . قال الشيخ : وما ذاك ؟ قال الأمير : تقعد مكانك ، فإنا سنتحدث عما قليل .

وسعى الشيخ هادئاً مطمئناً حتى جلس وهو لا يكاد يخفي ما يظهر على وجهه وفي عينيه من آيات الغيظ . وأحس جلساء الأمير أن الأمير يريد الخلوة إلى حنظلة ، فجعلوا ينصرفون متتابعين ، حتى لم يبق في مجلس الأمير أحد إلا هذا الشيخ . هنالك نظر الأمير إلى حنظلة نظرة طويلة فيها حب ورفق ، وفيها حزم وعزم أيضاً . ثم قال وهو يبتسم متكلفاً : إن بيت مال المسلمين عندك ثأراً ما أظنه يستطيع أن يدركه منك مهما تضخم ثروتك ، ومهما تغل عليك هذه الأرض التي تملكها ، ومهما يكسب لك هذا العدد العظيم من الرقيق الذين تصرفهم في هذه الصناعات المختلفة المربحة .

قال حنظلة : أبن عما تريد أيها الأمير ، فإني لا أفهم عنك منذ اليوم . قال الأمير : فإنك قد رزأت بيت المال رزءاً ما أظن ثروتك تستطيع أن تنهض به . قال حنظلة : فإنك لم تولني عملاً من أعمالك ، ولم تأتمني على ما تحتوي خزائنك من مال ، وما أعرف أن بيني وبين السلطان سبباً

من أسباب التجارة أو الالتزام ، فكيف رزأت بيت المال وبم رزأته ؟ قال الأمير : ما هذا الحديث الذى بلغني عنك ؟ ألم ترتفع إلىّ الأنباء بأنك قد زرت قرية عامرة من قرى الريف تريد أن تتعهد فيها بعض أرضك ، فلم تنصرف عنها حتى أسلم أهلها جميعاً ، ولم يبق منهم معاهَد يؤدى إلى بيت المال درهما أو ديناراً ؟ أفتظن أنك لم ترزأ بذلك بيت مال المسلمين ؟ فإذا مضيت على سيرتك هذه ، وإذا تأثرك جماعة أمثالك ، فحملوا كل ما زاروا قرية من قرى الريف حملوا أهلها على الإسلام وصرفوا عن بيت المال مورداً من موارده ، فإلام نحن صائرون ؟ ومن أين ننفق على هذه المرافق ؟ ومن أين نرزق أهل الديوان ؟ ونوفر على الجند أعطياتهم ؟ وكيف نحمل إلى دمشق ما تريد دمشق أن نحمل إليها من المال ؟ فلم يستطع الشيخ أن يملك نفسه ولا أن يحتفظ بما ينبغى من الوقار لنفسه أولا ولمجلس الأمير بعد ذلك ، ولكنه اندفع فى ضحك حر مطلق لا تحفظ فيه ولا اتزان . وجعل الأمير ينظر إليه دهشاً لا يدرى أيغضب أم يرضى . فلما سكت الضحك عن الشيخ قال فى صوت مضطرب بعض الشيء : أصلحك الله أيها الأمير وغفر لك ! ما كنت أظن أن الله قد بعثنا جباة للمال نملأ به خزائنك ونحمله إلى دمشق ، وإنما علمت أن الله قد بعثنا دعاة إليه ، وهداة إلى الحق ، ومبشرين برحمة الله ، ومخوّفين من نقمته ، ما يعنينا بعد ذلك أن تمتلئ خزائنكم بالمال أو تصفر منه . قال الأمير وهو يبتسم ويكظم غيظاً يريد أن ينفجر : حسبك يا حنظلة ، هذا كلام كان يقال منذ أذاعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى الناس وكتبه إلى الولاة والعمال . وقد قبلته أنت ونفر من أمثالك ومضيتم فى إنفاذه جادين جاهدين ، ولكن عمر رحمه الله قضى ولم يطل به العهد .

وعادت أمور الناس إلى من تعلم من الخلفاء والأمراء ، وعادت سياسة الناس سيرتها الأولى ، فلا بد من أن ننفق على المرافق ، ولا بد من أن نرزق الجند ، ولا بد من أن نحمل إلى بنى مروان فى كل عام ما ينهض بأعبائهم ، وإنها لأعباء ثقال . قال حنظلة : فإن أمر هذا كله لا يعنينى ، وإنما يعنى أمير المؤمنين وولاته وعماله والمدبرين لأمواله ، فأما أنا فرجل من المسلمين أتيح له أن يدعو الناس إلى الحق ، فاستجابوا له وهداهم الله به إلى دينه ، فلا علىّ أن ينصرف عن بيت المال بعض موارده . وإن كان لك أيها الأمير أو لأمير المؤمنين أرب فيما أملك من ثروة فما أستطيع أن أدفعكما عنه ، وما أريد أن أفعل ، فخذا منه ما تشاآن ، وخذاه كله إن أحببتما ، فإن المال يغدو ويروح ، وما أكره أن أشترى هدى هؤلاء الناس بمال مهما يكثر ، وما أكره أن أعين بيت المال على بعض أعبائه بثروة مهما تضخم ، فإنى أرى ذلك صدقة ، وأعلم أن الله لا يضيع أجر المتصدقين . قال الأمير وقد عاد إليه هدوءه ، واطمأن فى مجلسه وأشرقت فى وجهه ابتسامة حلوة عرفها حنظلة ، فنظر إلى الأمير نظرة الصديق ، وقد لقى صديقه بعد طول الغيبة . قال الأمير : ليس عليك ولا على مالك بأس ، ولكنى أريد أن تقصد فى هذا الجهد وترفق فى هذه الدعوة . قال حنظلة : فإنى لم أبذل جهداً ولم أشتد فى دعوة ، ولوددت لو أستطيع أن أبذل فى ذلك الجهد ، وأن أبلغ من هداية الناس إلى الحق ما أريد ، فما أعرف أن شيئاً يؤذى نفسى كما يؤذيها منظر هؤلاء المعاهَدين وهم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون . وإنى لأرى فى دعوتهم إلى الإسلام وهدايتهم إليه إنقاذاً لنفوسهم وإنقاذاً لمروءتهم ، وإمتاعاً لهم بهذه الحرية التى نستمتع بها وهم مبعدون عنها مصروفون عما تكفل لأصحابها من الشرف والكرامة وكمال الرجولة . ألم تضع نفسك قط أيها الأمير موضع واحد من هؤلاء الناس الذين يشترون أمنهم على أنفسهم ودينهم بالمال يؤدونه إلينا صاغرين ؟ قال الأمير : وفيم تريد أن أضع نفسى موضع هؤلاء الناس ، وقد منّ الله علينا بالعروبة والإسلام فجنبنا هذا الصغار ؟ قال حنظلة : فإن الله قد أمرنا أن نسوى بين الناس وبين أنفسنا ، وأن

ندعوهم إلى الإسلام لترفع عنهم هذا الأمر ، ولتردهم إلى مشاركتنا فى هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا . قال الأمير : ألم تنبئنى أنك لم تبذل فيما صنعت جهداً ، ولم تحتمل فيه مشقة ولا عنتاً ؟ قال حنظلة : بلى ، ولو قد علمت كيف كان اهتداء هؤلاء الناس إلى الحق واستجابتهم لدعوة الله ، لراعك من ذلك ما راعنى ، ولأعجبك من ذلك ما أعجبنى ، فإنى لا أقضى العجب من هذه القصة التى أجرى الله بها الخير على يدى ، وما رأيت أعجب من أمر محمد (ص) فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء . رجل كان يطاليه خصومه وأعداؤه بالمعجزات ، فيبرأ منها ويعلن إليهم أنه بشر مثلهم ، وأنه لم يرسل ليبهر العقول بالأحداث العظام ، وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآناً يتحدث إلى عقولهم فيملؤها هدى ، ويتحدث إلى قلوبهم فيشعرها رحمة وبراً ، ثم لا يخلو أمره من هذه المعجزات التى تبهر العقول وتسحر الألباب ، دون أن تحدث فى طبيعة الأشياء حدثاً أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها المألوف ، إنما هى معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة ، ويراها المفكرون نادرة باهرة ، ومقنعة مفحمة للمكابرين .

لقد كان محمد رجلا لا كالرجال ، ولقد كان بشراً ، ولكنه امتاز من الناس بخصال أحسها وأحققها فى قلبى وفى عقلى ، ولكنى لا أجد إلى تصويرها سبيلا . قال الأمير : فأفصح عما تريد ، واقصص علىّ قصتك فإنك قد أثرت فى نفسى عجباً من العجب . قال الشيخ : فإن قصتى يسيرة كبيرة ككل ما يتصل بهذا الرجل الكريم الرحيم . إنك لتعلم أنى ذهبت إلى تلك القرية أتعهد بعض أعمالى ، فما أبلغها وما أستقر فيها حتى أعرف أن عظيما من عظمائها النصارى قد رزئ فى صبى له . فأرى من الخير والبر أن أسعى إليه مواسيا ومعزيا ، فأفعل ويلقانى الرجل حفياً بى ، وقد ملك الجزع كل أمره وأخرجه عن طوره ، ولقد كنت أعرفه جلداً صبوراً وقوراً ، ولكن هذا الصبى قد كان وحيده ، وقد كان قرة عين له حين تولى عنه الشباب وأدركته الشيخوخة ، فلما نزل به الخطب لم يثبت له ولم يستطع عليه صبرا ، وقد عجز من كان يحيط به من القسيسين والرهبان عن تعزيته وتسليته ، ويأخذنا الرفق به والاشفاق عليه ، فأتحدث إليه فى لغته القبطية مواسياً مسلياً ، وأقول له فيما أقول : لو عرفت أن أحاديث نبينا تعزيك أو تسليك لقصصت عليك منها طرفا . فقد رزئ نبينا فى صبى وحيد له ، كما رزئت فى صبيك هذا الوحيد ، فتلقى الرزء لقاء كريماً علأ قلوبنا نحن المسلمين إكباراً له وإعجاباً به ، ورحمة لعصبية من أبنائنا ، فى احتفاظ بالرجولة ، وثبات على المروءة ، واصطناع للوقار ، واعتراف بحق الله فيما يمن به علينا من المال والولد ، يأخذه كما أعطاه دون أن يكون لنا أن نضيق بذلك أو نثور عليه ، وإنما هى نعمة أهديت إلينا ثم أخذت منا . وقد ابتلينا بإهدائها إلينا كما ابتلينا بأخذها منا ، ونحن بعد ذلك مثابون إن ثبتنا للمحنة وصبرنا على الابتلاء .

قال الرجل : فحدثنى بحديثك ، فإن ما تقوله يبعث فى نفسى شيئاً من راحة وأمن ودعة . قلت : فإن نبينا قد رزق فى آخر أيامه صبيا ابتهج لمولده ابتهاجا عظيما ، وسر به سروراً لا يقدر ؛ ولكن نبينا كان يحسن لقاء النعمة كما كان يحسن لقاء المحنة ، كان لا يخرجه الابتهاج عن طوره ، وكان البطر والأشر أبعد الأشياء عن نفسه ، وكان إذا رضى لم يستأثر بلذة الرضى ، وإنما يشرك فيها الناس ، فلم يكد يرزق هذا الصبى حتى أعلن ذلك إلى الناس مغتبطا ثم تصدق على الفقراء ، ووسع على من ضيقت عليهم الحياة . وكان رفيقا بابنه هذا يسعى إليه عند مرضعه إذا قال الناس فيأخذه فيقبله ، ويقول له ما شاء الله أن يقول من هذه الألفاظ الحلوة التى تصور أجمل تصوير حنان الآباء ورحمتهم لأبنائهم .

وقد كانت نعمة الله على نبينا لا تحصى ، وكان منها امتحان الله له فى أحب الأشياء إليه ، وآثر الناس عنده ، فما بلغ ابنه ستة عشر أو ثمانية عشر شهراً حتى تسعى إليه

العلة . ويمضى النبي مع صفى من أصفيائه يقال له عبد الرحمن ابن عوف ليعوده ، فيلقاه وهو يجود بنفسه ، وينظر الأب إلى صبيه الوحيد الذى جاءه حين تولى عنه الشباب ، وحين أقبلت عليه الشيخوخة ، وحين استيأس من الولد ؛ ينظر الأب إلى ابنه هذا أسيفاً محزوناً ، ولكنه ينظر إليه مع ذلك راضياً مطمئناً مذعناً لقضاء الله ؛ وهذه عينه تدمع ، وهذا صفيه ينكر منه ذلك ، ويقول له : أتبكى وقد نهيتَ الناس عن البكاء ؟ فيجيبه : « إنما هذا رحم ، وإن من لا يَرْحم لا يُرحم ، إنما نهى الناس عن النياحة ، وأن يُندب الرجل بما ليس فيه . ثم قال : لولا أنه وعد جامع ، وسبيل مئتاء ، وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا ، وإنا عليه لمحزونون ، تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وفضل رضاعه فى الجنة »[1] .

وهنا تنحدر من عينى الرجل دموع غزار ، وتأخذه عبرة شديدة يهتز لها جسمه كله اهتزازاً عنيفاً . فإذا انجلت عنه قال : أعد علىّ حديثك هذا ، فإنى أجد له عذوبة ما وجدتها لحديث قط ، فأعيد عليه الحديث ، فيسمعه مصغياً إليه أشد الاصغاء ، ولا تنهمر عبرته ، ولا تأخذه الرعدة هذه المرة ، وإنما يقول فى صوت هادئ : امض فى حديثك . فأقول : لقد بلغت آخره أو كدت أبلغه ، فهذا الأب يحمل ابنه إلى القبر ، ويجلس لينظر والناس يوارونه فى التراب . ويرى فرجة قد تركت فى اللحد ، فيأخذ حجراً ويناوله من قام على تسوية القبر ويقول : إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى[2] .

وهنا يعود الرجل إلى استعباره ، ولكنه فى هذه المرة لا يبكى وحده ، وإنما يبكى معه من حوله من الناس ويقول راهب من رهبانهم : « ما هذا بكلام رجل كالرجال » . ثم يسأل الشيخ أن أمضى فى حديثى . فأقول : لقد انتهيت منه أو كدت أنتهى ، فقد عاد نبينا إلى بيته محزوناً جلداً ، وانكسفت الشمس فى ذلك اليوم ، فيتحدث الناس بالمعجزة ، ويقول بعضهم لبعض : إنما انكسفت الشمس حزناً لموت ابراهيم ابن النبى .

وينتهى حديث الناس إلى نبينا ، فيخرج ساعياً حتى يأتى المنبر ، فيرقاه ويحمد الله ويثنى عليه فيقول : « أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد »[1] .

وأقف بحديثى عند هذه الغاية ، وأنظر فإذا من حولى فى صمت عميق تنحدر على وجوههم دموع هادئة لا تمثل حزناً ولا جزعاً ، وإنما تصور قلوباً لينة رحيمة ، ونفوساً قد كشف عنها الغطاء . وإذا الشيخ ينهض من مجلسه رزيناً ويسعى إلىّ هادئاً وهو يقول : ابسط يدك فما أرى إلا أن نبيك قد جاء بالهدى . وما أكاد أتلقى منه إسلامه حتى يكون الرهبان والقسيسون الذين حضروا المجلس أسرع الناس إلىّ ، كلهم يعلن إسلامه ويتبعهم من حضر من عامة الناس .

وما أبرح القرية من الغد حتى يكون أهلها جميعاً قد ساروا سيرة عظيمهم وقسيسيهم ومن وفد عليهم من القرى المجاورة . وحتى يكون بيت مالك أيها الأمير قد رزئ فيما رزئ فيه من الجزية . قال الأمير بعد صمت طويل : فهل تعلم أن لهذا الحديث وجهاً آخر من الاعجاز . قال حنظلة : وما ذاك ؟ قال الأمير : قد سمعت من كان يتحدث فى الشام عن موت ابراهيم ابن رسول الله ، ويقول : إن النبي (ص) قال : « لو عاش ابراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى »[2] .

فإنك يا حنظلة قد أحييت ذكر ابراهيم فى هذه القرية فوضعت الجزية عن أهلها .

طه حسين

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٨٦
(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١
(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩٣

الوحدة العربيـــــــة

بين الأمس واليوم

لمحرر « الثقافة » السياسى

كانت الوحدة العربية حقيقة تاريخية ، احتفظت بقوتها ووجودها عصوراً طويلة ؛ فقد جمع الاسلام بين أبناء الجزيرة تحت لواء واحد ، فقامت الدولة العربية الموحدة ، ولم يمض سوى قليل حتى اندمجت فيها وحدات عنصرية وسياسية جديدة ارتضت الاسلام ديناً ، وغلبت عليها العروبة بمضى الزمن ؛ فكانت الدولة الأموية تشتمل فضلا عن الجزيرة العربية على امبراطورية واسعة تمتد شرقاً من السند إلى المحيط الأطلانطى والأندلس غرباً ، وتمتد شمالا حتى أعماق آسيا الصغرى ؛ وقامت الدولة العباسية بعد الدولة الأموية ، فتلقت تراثها الضخم خلا إفريقية والأندلس ، واستمرت بالرغم من تأثرها بنفوذ بعض الأمم الخاضعة لها ، زهاء قرنين تحتفظ بروح الدولة العربية ووحدتها السياسية ؛ فلما تفككت هذه الوحدة فى أوائل القرن الرابع ، وقامت فى مصر بعد ذلك بقليل خلافة جديدة هى الخلافة الفاطمية ، تضاءلت أهمية الدولة العباسية كدولة عربية ، وانضوت أهم الوحدات العربية القديمة ، وهى مصر والشام والحرمان واليمن تحت لواء الدولة الفاطمية . ونستطيع أن نقول إن مصر لبثت من ذلك الحين بحدودها السياسية التى كانت تمتد شمالا حتى كليكية فى آسيا الصغرى ، وجنوباً إلى ما وراء الحجاز ، وغرباً إلى إفريقية (تونس) ، تمثل الدولة العربية الكبرى ، واحتلت القاهرة مكانة بغداد القديمة فى زعامة الاسلام والعروبة ، خصوصاً بعد أن قضى التتار على الخلافة العباسية ومحوا رسومها .

لبثت الوحدة العربية فى جميع صورها السياسية والفكرية والاجتماعية ماثلة بين بغداد والقاهرة طوال العصور الوسطى ؛ ولم تخف أهمية هذه الوحدة على دول السلاطين المصرية ، فرأت أن تستكمل مظاهرها التقليدية بإعادة الخلافة العباسية فى مصر بعد سقوطها فى بغداد ، واستطاعت مصر أن ترد عن تراث الاسلام والعروبة سيل التتار المتدفق من المشرق ، ولكنها لم تستطع أن تصمد أمام سيل الترك العثمانيين المتدفق من الشمال ؛ وفقدت مصر زعامة الاسلام والعروبة ، وفقدت حريتها واستقلالها ، فى مرج دابق فى شمال الشام ؛ وكانت الكارثة المروعة التى سحقت حريات الأمم العربية كلها ، زهاء أربعة قرون .

* * *

على أن فكرة الوحدة العربية ، أو الجامعة العربية كما تسمى فى لغة السياسة المعاصرة ، لبثت كامنة فى الصدور ترقب فرص الظهور والعمل ؛ ومنذ أواخر القرن الماضى نراها تبدو فى الأفق وتثير جزع خصومها من الترك والمستعمرين ؛ وفى أثناء الحرب الكبرى لاحت للعرب بارقة أمل فى تحقيق حلمهم القديم وأمنيتهم الكبرى ، فانضموا إلى جانب الحلفاء لقاء عهود ومواثيق مقطوعة ، ولكن نشوة النصر أطاحت بكل عهد وميثاق ، فمزقت الأمم العربية من جديد باسم الانتداب وألفت نفسها مضطرة إلى متابعة النضال والكفاح .

ونستطيع أن نقول اليوم إن الأمم العربية قد أحرزت

فى هذا النضال قسطاً من النجاح ، وقطعت مرحلة هامة فى سبيل تحقيق أمانيها واسترداد حرياتها ، وهى ترى فى ذلك مايشجعها على استئناف البحث فى أمر الوحدة العربية ؛ ولهذه الوحدة اليوم مظاهر كثيرة ، فالأمم العربية تكاد تفكر اليوم بعقل واحد وتشعر بشعور واحد ، وهى فضلا عن كونها تجتمع حول تراث موحد فى الدين واللغة والتاريخ المشترك ، ترتبط معاً بروابط فكرية واجتماعية واقتصادية وثيقة ؛ ولسنا بحاجة لأن نطيل فى أمر هذه الروابط ، فهى ظاهرة ملموسة تنمو باطراد يبعث إلى الغبطة ؛ على أن هذه الروابط المعنوية الوثيقة ليست كل مايبغيه أنصار المثل الأعلى فى شأن الوحدة العربية ، فهم يرون أن هذه الروابط الوثيقة بين الأمم الشقيقة ليست إلا خطوة فقط فى سبيل الوحدة الحقيقية ، وهى الوحدة السياسية .

***

لقد كانت الوحدة العربية السياسية ، كما رأينا ، حقيقة تاريخية ، ولكنها كانت كذلك يوم كانت دولة الإسلام والعروبة تحتفظ بكل منعتها وصولتها ؛ وكان الشرق العربى حراً فى ظلها وتحت لوائها . ولكنا اليوم نشهد مظهراً آخر ، فالأمم العربية تعيش تحت أوضاع ونظم سياسية جديدة ، بعضها مستقل أو متمتع بنوع من الاستقلال الداخلى ، وبعضها الآخر لايزال تحت الانتداب أو الحماية ؛ وهناك دولتان من الدول الأوربية هما بريطانيا العظمى وفرنسا تقتسمان السيطرة والنفوذ فى الشرق العربى ، ولكل منهما سياسة خاصة ، واتجاه خاص لايتفقان دائماً ؛ ولكل من الأمم الشقيقة ذاتها مشاكل خاصة ، يتوقف حلها على سياسة هذه الدولة أو تلك ؛ ومن الصعب أن نتصور فى مثل هذه الحالة قيام دولة عربية كبرى تضم أمم الشرق العربى فى صعيد واحد ؛ ويجب قبل أن نتصور إمكان تحقيق هذه الأمنية أن تتحرر هذه الأمم العربية من كل وصاية أجنبية ، وعندئذ فقط تستطيع أن تعمل على تحقيق وحدتها السياسية حرة طليقة من كل قيد .

والتاريخ الحديث يدلنا على أنه من الممكن أن تؤلف دولة واحدة من شعوب وأجناس مختلفة تتكلم بلغات مختلفة ، كما هو الشأن اليوم فى دول مثل روسيا السوفيتية ، وسويسرا ، وكندا ؛ فهذه الوحدات السياسية الحديثة تتكون من عناصر وأجناس مختلفة ، وتعيش معاً تحت نظام سياسى وإدارى موحد ، وتؤلف دولا اتحادية من أحدث طراز ؛ ومثل هذا النظام الاتحادى أقرب وأيسر إلى التحقيق بالنسبة لأمم وشعوب تجمعها روابط عنصرية قوية ، وتدين بدين واحد ، وتتكلم لغة واحدة كالأمم العربية ؛ وإذاً فالوحدة العربية يمكن أن تكون حقيقة سياسية قائمة ، كما هى اليوم حقيقة معنوية ، لولا أنه تحول اليوم دون قيامها تلك العوامل الخاصة التى هى نتيجة لتطورات تاريخية وسياسية لم تردها الأمم العربية ولم يكن لها شأن فيها .

على أننا نستطيع مع ذلك أن نتصور اليوم تحقيق هذه الوحدة فى معنى من المعانى ، بل لقد شهدناها بالفعل تتحقق فى صورة من الصور حول المسألة الفلسطينية ، حينما اجتمعت الأمم الشقيقة كلها فى جبهة واحدة لبحث هذه المسألة مع بريطانيا العظمى ، باعتبارها مسألة عربية إسلامية تهم الأمم العربية كلها ؛ وقد كان فى ذلك دليل على أن بريطانيا العظمى تقدر أهمية الوحدة العربية فى العمل على توطيد السكينة والسلام فى الشرق العربى ؛ وفى اعتقادنا أن إنشاء هذه الجبهة السياسية الموحدة لمناسبة المسألة الفلسطينية إنما هو خطوة جديدة فى سبيل الوحدة العربية ، قد تقوى وتشتد إذا أفسح لها الطريق ، ولم تلق معارضة من سياسة أجنبية خصيمة تخشى بأسها .

وعلى أى حال ، فإنه إذا كان من المتعذر أن تحقق فكرة الدولة العربية الموحدة فى العصر الحاضر ، للأسباب التى أشرنا إليها ، فإنه يمكن إنشاء نوع من الجبهة السياسية الموحدة ، تنضوى تحت لوائها جميع الأمم العربية ، وتكون أداة التوحيد كلها وغايتها فى جميع الشئون المشتركة ، وللأمم العربية أسوة فى ذلك بالجامعة الأمريكية ، فالولايات المتحدة وأمم أمريكا الوسطى والجنوبية تنضوى جميعاً تحت لواء الجامعة الأمريكية التى تتزعمها وتقودها الولايات المتحدة ، وتعقد مؤتمراتها الدولية لتوحيد الآراء والخطط العامة فى شئون السياسة الخارجية ، وغيرها من الشئون المشتركة ، وهى قوة سياسية لا يستهان بها فى مقاومة أية محاولة من الدول الأوربية لبسط نفوذها على أية دولة من الدول الأمريكية الصغرى.

فلماذا لا تكون ثمة جامعة عربية من هذا الطراز ؟ ولماذا لا يكون اجتماع كلمة الأمم العربية حول المسألة الفلسطينية نواة لهذه الجامعة السياسية التى يجب أن يوضع لها دستور خاص ، والتى تسبغ بقيامها قوة جديدة على الوحدة المعنوية التى ترتبط الأمم العربية بروابطها الوثيقة ؟

إن التاريخ يسير ، وما يتعذر تحقيقه اليوم من أمانى الأمم العربية قد يتحقق غداً ؛ وقد يعيد التاريخ نفسه فتصبح الوحدة العربية ، كما كانت فى الماضى ، حقيقة قائمة ، وتعود الأمة العربية فتتبوأ مكانتها الحقة فى العالم القديم .

* * *

صـــــينية جديدة . . .

للأستاذ عباس محمود العقاد

بيرل بك Pearl Buck هي الكاتبة الأمريكية الكبيرة التي وجهت إليها جائزة نوبل جائزتها الأدبية في العام الماضي ، فأصابت الوجهة في مقياس النقد وفي مقياس الخدمة الانسانية والذود عن قضية السلام .

وكل رواية تكتبها بيرل بك يصح أن تسمى « صينية » بجميع معاني الكلمة كما يقولون .

لأنها كتبت كل ما كتبت عن الصين وأهل الصين ، ولا نعرف أديباً غربياً خبر تلك البلاد خبرتها ، وعطف عليها عطفها ، أو وصفها كما وصفتها في رواياتها . وقد تقرأ عشرين كتاباً من تاريخ الصين وطبائع أهلها ومعالم أرجائها ، فاذا بالفرق بين هذه الكتب العشرين وبين رواية واحدة من روايات بيرل بك كالفرق بين السماع عن الصين سنوات وبين الاقامة فيها بضعة أسابيع : ذلك علم بالصين ، وهــذا إحساس بحياة الصين ، أو ذلك منقول مسرود ، وهذا محضور مشهود ، أو ذلك كلمات وأرقام ، وهذا وجوه وأصوات وقرابات وأرحام .

ويجوز أن تسمى الرواية من روايات بيرل بك صينية بمعنى آخر من معاني الكلمة ...

يجوز أن تسمى صينية بمعنى المائدة ، لأنها في الواقع مائدة حافلة بالغذاء الشهي والشراب المرىء ، لا كظة فيها ولا حرمان ، ولا بذخ فيها ولا شظف ، ولكنها مائدة تشبع وتروي ، وتتركها وأنت مستريح غير نادم .

والصينية الجديدة هي رواية الوطني The Patriot التي صدرت في البلاد الانجليزية منذ أيام : بطلها من الصين ، وهو الوطني المقصود ، ومعظم وقائعها حدثت في الصين ، وهي وقائع الثورة الأخيرة بزعامة شيان كاي شيك ، ولكنها تحتوي طرفاً صالحاً من تصوير الحياة اليابانية في جوانبها المختلفة : حياة الأسرة وحياة الجماعة وحياة التجارة وحياة الحرب والسياسة ، لأن الكاتبة قد عاشت في بلاد اليابان بعد افلاتها من الأرض الصينية على أثر احتدام الثورة فيها ، وكانت ثورة جامحة تتمرد على سلطان الحكم القديم ، وعلى سلطان الغربيين من أصدقاء عاطفين وأعداء طامعين ، وعلى سلطان اليابان وصنائع اليابان ، فلم تسلم منها بيرل بك لأنها بيضاء ، وكفى ! وكل أبيض وبيضاء فهما في نظر الثورة « العمياء » عدو مبين قبل البحث والمراجعة ، وقد يتضح بعد البحث والمراجعة أن ذلك الأبيض أو تلك البيضاء صديق كريم ، ولكن بعد أن تموت !

* * *

في رواية « الوطني » يرى القارئ حقيقة المعسكرين المتصارعين بإنصاف لا موضع فيه للتشنيع ولا للاجحاف ولا للتشويه .

فاليابان من جهة بنظامها وانقيادها وصناعتها واستعدادها .

والصين من جهة بتراثها الأدبي وجموعها الزاخرة ، ووطنيتها الجديدة التي لم يكن لها قبل العصر الحديث اسم معروف في جميع لهجاتها .

اليابان همج عند الصينيين والصينيون همج عند اليابان ، ولكل منهما حجة مسموعة ، ولكل حجة من هذه الحجج معنى مقبول .

وإذا نحت إبرة الميزان تنحرف في يد الكاتبة بعض الانحراف بين كفة اليابان وكفة الصين فربما كان الانحراف الواضح إلى هذا الجانب الأخير .

وصفت رحلة رسول القائد الأكبر «شيان كاى شيك» إلى قائد الشيوعيين من أبناء الصين فى داخل البلاد ، وكان الرسول زميلا فى المدرسة للقائد الشيوعى ، وشريكا له فى مظاهرات التلمذة ومؤامرات الشباب ، وإن فرقت الحوادث بينهما على غير اختيار من كليهما .

فى الطريق ينزل الرسول ورفيقه الطيار الأمريكى فى خان قذر لا غنى لهما عن النزول فيه .

فيأبى صاحب الخان بعد هنيهة ويشكو له صياح ذلك « الأبيض المجنون » لغير سبب ... نعم لغير سبب إلا أن فى الفراش بعض مخلوقات الله التى يحق لها أن تعيش فى الدنيا كما يعيش كل مخلوق !

نعم ويصيح ذلك الأبيض المجنون لسبب آخر يشبه ذلك السبب فى التفاهة والحماقة ... إنه يشكو صلابة اللحم ، فماذا يصنع صاحب الخان ؟ لابد للحكماء المدربين من مداراة الحمق الجانين ، وما دام ذلك الأبيض المجنون كالأطفال فى صياحه وخفة عقله ، فليس على صاحب الخان إلا أن يعامله معاملة الأطفال ، وأن يقطع له اللحم قطعا كما يقطعونه للرضعاء والمفطومين ! !

والفظيعة الكبرى أن يذهب الرسول إلى الإقليم الشيوعى ، فإذا هم يقبضون على الأسرى اليابانيين فينتقمون منهم أبشع انتقام لما تقترفه الجنود اليابانية من العدوان والتنكيل فى أثناء القتال ، ويؤتى بالأسير من هؤلاء فيربط إلى شجرة ، ويحيط به الكبار والصغار للتسلى بتعذيبه وإزهاق حياته ، ويكون فى القرية يوم كيوم الزينة فى المدينة ، وهذا يطعنه وهذا يدفع بأصبعه فى عينه ، ويموت المسكين آخر الأمر بين المصفقين والشامتين .

ويسأل الرسول زميله قائد الشيوعيين : ماهذا ؟ وكيف يأذن بهذه الضراوة الوحشية فى إقليمه ؟ فيقول له القائد الشيوعى وهو يعجب لعجبه : وكيف لا آذن بها وهى كل ما أعطيه هؤلاء المحرومين المساكين من مكافأة ؟ إن القواد يمنون أتباعهم فى الحروب بالغنائم والسبايا والحكم على الأتباع والرعايا . . . أما نحن فى هذا الإقليم فلا نمنيهم بشىء من ذلك ، ولا نستطيع أن نحرمهم هذا اللعب الوحيد من ألعاب الغلب والسطوة ، فليجزوا الضراوة بالضراوة وليقنعوا بما يصيبون من هذا الجزاء .

وتسوق الكاتبة هذه المحاورة بين الزميلين مساقاً لا يشعرك بسخطها ونورتها ، ولا يشعرك فى الوقت نفسه بعذرها وغفرانها ، ثم تمسح هذه الفظاعة بما انتهى إليه الزميلان بعد الجهد والنزاع من تبديل انتقام بانتقام ، ومن إطلاق الشيوعيين للأسرى بعد تزويدهم بمبادىء الشيوعية ليذيعوها فى الجنود اليابانية ، وينقلوها إلى العمال والفلاحين فى وطنهم الأصيل ، وذلك انتقام أفتك من قتل أفراد معدودين يموتون فتسرى أنباء تعذيبهم إلى إخوانهم فيزدادون حقداً على أهل الصين وإمعاناً فى تخريب معالم الصين ! .

تمسح الكاتبة هذه الفظاعة بهذه النهاية ، وربما مسحتها قبل ذلك بما أسلفت من وصف الفظائع اليابانية فى ميدان القتال ، ومنها ما رواه ضابط يابانى أفرط فى السكر فجرى لسانه بما كان يكتمه عن أقرب الناس إليه ، وذلك أنهم كانوا يقنصون البنات الصغار فيما بين العاشرة والخامسة عشرة ، فإذا صحن واستغثن هددوهن بالقتل والتهشيم ، ونسوا أنهن لا يفهمن التهديد لأنهن لا يعرفن اللغة التى يتكلم بها أولئك الضباط والجنود ، فإذا أصررن على الصياح كان جزاؤهن على « المائدة » بقر البطون وتمزيق الأحشاء .

وعلى سنة الكاتبة فى انتزاع القسوة من نفوس قرائها تروى لك القصة وفى طيها شفاعتها اللطيفة لأهوالها ، لأنها تخيل إليك أن الضابط اليابانى يفرط فى السكر من تبكيت الضمير ، ويبكى وهو يستحضر فى ساعة السكر صورة ما جناه ! .

***

ولا تخلو الرواية من العجائب والنقائض فى تصوير

عادات اليابان وعادات الصين .

فمن أعجب هذه التناقض حياة المرأة اليابانية بين المدرسة والمنزل والمجتمعات العامة .

لا ترى هذه المرأة ضيراً من الاستحمام على مشهد من الرجال وهي عارية كما خلقها الله .

ولكنها إذا وصلت إلى سن الخطبة عكفت على دارها وامتنعت عن لقاء الشبان إلا بإذن من أبويها ، وحُرّم على الشاب الذي كان يلقاها في بيت أبويها أن يجلس إلى جانبها أو يسأل عنها في محضر منهما ، ولم يجز لها أن تعارض أباها إذا اختار لها زوجاً لا ترضيها ، فإذا لم يعجبها الزوج فعليها أن تطيع ثم تجمع نفسها للإبانة عن سخطها واعتراضها ، فإذا كان في هذا الزواج البغيض مصلحة وطنية أو تحقيق لمشيئة أمبراطورية فلا اعتراض ولا احتجاج ، بل طاعة من الفتاة ونسيان للنفس وللحبيب المهجور في هذا السبيل .

وهذه الفتاة التي يفرض عليها العرف أن تستحي من مجاورة الشاب في مجلس أبيها تُزف بعد ذلك إلى زوجها ، فإذا هي تعرف من الليلة الأولى كل ما تعرفه المرأة الخليعة التي تبذلت في إرضاء الرجال سنوات وسنوات . فإن كان الزوج يابانياً فلا عجب عنده من هذا السلوك العجيب ، وإن كان أجنبياً وراعه ما يرى ويلمس من تلك الفتاة الخفرة التي كانت تأوى إلى « الحريم » قبل ذلك بأيام ، فسيعلم بعد السؤال من أين عرفت الفتاة كل هذه الأسرار الأنثوية وهي لم تعرف قط أحداً من الرجال : إنهم يأتون لها براقصة مدربة من شبيهات النساء المسميات « بالعوالم » عندنا نحن المصريين ، ويتركونها في مخدعها تعلمها كل ما علمته في حياة الخلاعة والمجون ، لأن المرأة الساذجة لا ينبغي في عُرف اليابانيين أن تكون أمتع للرجل وأشهى إليه من زوجته التي يدين لها وتدين له بالوفاء .

* * *

عجبت لهذا التناقض بين المرأة التي لا تستحي من العرى على مشهد من الرجال وبين هذه المرأة بعينها وهي تحتجب وتتوارى في الدار ، وبين هذه المرأة بعينها وهي تزف إلى زوجها فتدخل إليه بخبرة النساء المتهتكات .

أليس لهذا التناقض كله من تعليل ؟

أحسب أن تعليله غير عسير لمن عرف أن اليابانيين منقسمون في تاريخهم بين حياة الفطرة وسلطان الأسرة ، فهم على سنة الفطرة فيما بين الذكر والأنثى من علاقة ، وهم على سنة الأسرة فيما بين الزوج والزوجة من قيود الآباء والأمهات ، ولو طال عهدهم بالمدن والحضارة في جزائرهم البركانية لأقاموا القناطر الاجتماعية والقناطر العرفية بين الفطرة الحيوانية والآداب الاجتماعية ، ولحرموا من عرى المرأة ما حرمته الأمم التي اشتركت في حضارات التاريخ المتجاورة ، وخرجت من الوثنية في سنن الأخلاق كما خرجت منها في سنن العبادة .

* * *

يطلع القارئ على رواية « بيرل بك » هذه فيفهم منها حقيقة اليابان وحقيقة الصين ، ويفهم منها أسرار ما هو حاصل الآن في ميادين القتال ، وما يتوقع حصوله في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد إذا طال عمر القتال العظيم الذي يقود الصين في حرب اليابان .

فلا قيمة للمدن ولا للمسافات ولا لعدد الناس في خطة هذا الجبار العنيد ، لأنه يؤمن أصدق الإيمان أن الصين باقية بعد كل ما خسرت وكل ما تخسره غداً من المدن والمسافات والقتلى والمستضعفين ، وأن الصين يقترب بعضها من بعض في آصرة الوطنية الحميمة بعد اشتراكها في الشدة واشتراكها في الدفاع واشتراكها في الهجوم كلما تراخى هجوم الأعداء ، ولكن اليابان لن تبق على قوتها وامتناعها بعد هذا الصراع الطويل ، ولن يقترب بعضها من بعض كلما طال الصراع ، بل هي خليقة أن تتفكك وتتخاذل ، وتبلغ النصر إن بلغته وهي منهوكة لا تدرى ما تصنع من الإعياء ، والعاقبة للصابرين !

عباس محمود العقاد

من قصص العرب :

ســـــيد ربيعة

كليب التغلبى

ملخص لما سبق :

كان كليب التغلبى سيد قبائل ربيعة بعد انتصاره على قبائل اليمن ، وقد طغى بعد ذلك حتى صار يحمى المراعى ويمنع من شاء من النزول بها ، فأثار ذلك غضب شاب من أبناء عمه من قبيلة بنى بكر ، وهو جساس بن مرة أخو زوجته جليلة ، فجعل ذلك الشاب يتحداه ويتعرض له ، ولكن كليبا كان يتغاضى عن إساءته إكراما لزوجته التى توسلت إليه ألا يوقع به . ثم نزلت ناقة اسمها سراب فى مراعى كليب ، وكانت لرجل نزل ضيفاً على البسوس خالة جساس ، فطردها كليب من المرعى . ولكن جساسا أصر على نزولها فى مراعيه فرماها كليب بسهم فى ضرعها فقتلها . فرأى جساس فى ذلك إهداراً لجواره ، وتفاقم الشر بينه وبين البطل العظيم .

ماتت (سراب) ناقة ضيف البسوس من أثر السهم الذى أصابها من كليب . ومضت بعد ذلك أيام كان الناس فيها يترقبون ما يفعله جساس ، وكانوا فى مجالسهم يتهامسون عن يمينه التى أقسمها ليقتلن فحل كليب انتقاماً لناقة جار خالته ، ويتفكهون بالتهكم عليه والسخرية منه . لقد تعرض لكليب وآذاه واعتدى عليه فى جراءة لم يقدم على مثلها من هم أعز منه وأقوى جنانا ، حتى إذا ما سطا به كليب ووضع سهمه فى ضرع الناقة فقتلها ، خشع وخاف ولزم الخدود ، ولم يتعد الحى .

وكان جساس فى أثناء تلك الأيام قد اعتزل وباعد الناس ، وصار لا يأنس إلى أهل ، ولا يحضر مجالس القوم ؛ فلا يراه أحد إلا وحده فى الأطراف البعيدة الموحشة ، اللهم إلا أحد أبناء عمومته عمرو بن الحارث ، فقد كان أحياناً يسير معه خلسة فى الليل ، أو يجالسه ساعة من النهار ، فإذا ما وقع بصر النـاس عليهما تركه عمرو وحده وذهب فى طريق غير طريقه . وكان عمرو فتى يافعاً ضعيف الجسم فاتر الهمة ، لا خطر له فى قومه ، لم يشترك فى قتال ، ولم يشهد غارة على عدو .

وقد حدث يوماً أن كان يسير على مقربة من الروضة التى اختارها كليب لنزهته ، فنبحه الكلب الواقف عند مدخلها على عادته ، وأقبل عليه فعضه ومزق ثيابه ، فبعد عنه حذراً ، وأسرع يجرى خوف أن يراه الأمير فيوقع به العقوبة التى اعتاد أن يوقعها بمن يقربون من المكان الذى أقام فيه ، وأحس عند ذلك بذلة وانكسار طعنا قلبه ، ولم يستطع أن ينفس عما خالط نفسه من الشعور ، فانقلب وجده حقـدا ، وصار من ذلك الحين شديد الكراهة لكليب ، وصارت كراهته تزداد عمقاً وقوة كلما تبين له عجزه عن الانتصاف من الأمير الكبير ، وكلما رأى نفسه غير قادر على الافضاء بكراهته إلى أحد .

فلما وقع ما وقع بين جساس وكليب ، ذهب ذلك الفتى إليه وأطلعه على خبيئة نفسه ، وجعل يتمسح فيه ويعيش فى كنفه ؛ ولكنه كان يحترس فى لقائه ، فلا يجتمع

به إلا تحت ستار الظلام ، أو في عزلة عن الأنظار .

ولما مضت هذه الأيام بغير حدث جديد بين جساس وكليب ، حسب الناس أن الأمر قد انتهى إلى نهاية ، وأن جساساً قد عدل عن محاولة ما لا يستطاع ، واطمأنت تغلب على رئيسها وبطلها ، واطمأنت بكر على أمنها وسلامتها ، ونسي الجميع الحادث الذي مر ، فلا يكاد أحد يذكره ، إلا أن تكون فكاهة يتفكهون بها ، ويجعلونها موضع سمرهم والتندر في مجالسهم .

غير أن جليلة كانت دائمة الترقب والحذر ، فقد كانت تعرف أخاها وما طبع عليه من عناد ، وما كان يملأ قلبه من الحقد ، فكانت لا تزال تنتظر الغد وما يأتي به ، وتحس في قرارة نفسها أن جساساً لم ينس الاهانة التي لحقته ، وأنه إنما كان ينتظر الفرصة السانحة والغرة اللائحة . وقد عجزت في كل تلك الأيام أن تجعل كليباً يطأ الدقيق الذي ذرته على باب الخيمة ، حتى اختلط بالرمل وعجنه الريح والقطر المتوالي من مطر الشتاء .

فاكتفت بأن كانت تجلس كل ليلة في خشوع قبل نومها ، تناجي مناة وأولا ليحفظا لها زوجها العزيز ، وبأن تضع التمائم التي أعدتها عرافة تغلب عند رأسه إذا نام .

وخرج كليب في صباح يوم كمادته ، وكان يقصد ذلك اليوم أن يتنزه عن الحي ، ويذهب إلى الروضة التي كان يتخذها مكانا لخلوته ، وأمر بعض عبيده أن يتبعوه إليها ليعدوا له فيها طعاماً وخمراً . ولهذا لم يذهب في سلاح غير سيف علقه في عنقه ، فلقد عول أن يقضي ذلك اليوم وادعاً ، لا يصيد فيه صيداً ، ولا يتعهد خيولا ولا إبلا .

وذهب إلى مرعى الخيل فركب فرسه الرباب ، ودعا كلبه عساقا ليرافقه ، وسار وحده سيراً هيناً وقلبه ممتلئ بنشوة الصباح ، والنسيم البارد يبعث في جسمه نشاطاً وفي نفسه خفة وسروراً . وهزه الشباب وتملكه الطرب إلى الحياة ، فأخذ يغني بملء صدره ، وبدت له الدنيا تفيض بالسعادة والجمال . ولمح في أثناء سيره شخصاً جاثماً عند ثنية من ثنايا الوادي ، فلما وقع بصر الشخص عليه أسرع ذاهباً عن طريقه ، فتبينه فإذا هو عمرو بن الحرث الفتى الضئيل الذي كان يراه أحيانا يجالس عبيده في مراعي الخيول ؛ فلم يكترث به ولم يحفل بوقوفه عند الثنية ، ولا بإسراعه هرباً عند مقدمه ، وهل كان عجيباً أن يسرع مثله ليبعد عن الطريق التي يسلكها كليب ؟

وذهب إلى الروضة فوقف عند مدخلها حيناً يتأمل جمال منظرها ، ويملأ عينيه من اخضرار أشجارها ونخيلها ، ونضرة أعشابها وزهورها ، وقد عقد الندى قلائد منثورة على أديم الأرض الزبرجدي ، وانتظمت حباته في أسلاك نسج العنكبوت ، فبدت كأنها درر تتلألأ في شعاع الشمس المشرقة . وفيما هو واقف بفرسه يتأمل هذا المنظر البديع سمع كلبه ينبح نباحا يخالطه ازعاج ، ثم سمع من خلفه وقع حوافر فرسين يقتربان منه ، فتكبر أن ينظر وراءه ، لعلمه أن الراكبين إذا فطنا إلى وجوده أسرعا مبتعدين عن حماه ، وبقي واقفاً ينظر أمامه ويتملى بحسن روضته . ولكن وقع الحوافر لم يبعد ولم يقف ، بل أسرع وتقدم في تجاهه ، حتى صار على قيد خطوات منه ، وعند ذلك سمع صوتاً يناديه من ورائه : « يا كليب الرمح وراءك ! » .

فعرف أنه صوت جساس . ولكنه لم يلتفت إليه ، بل قال في لهجة ساخرة : « إذا صدقت فأقبل من أمامي » .

وبقي ثابتاً كأن ليس وراءه عدو مخيف .

وما كاد كليب ينتهي من جوابه حتى أحس طعنة شديدة في ظهره ، فارتمى عن فرسه ، ووقع على الأرض يتشحط في دمائه .

فنزل جساس مسرعاً عن فرسه ، ونزع رمحه من

ظهر كليب بعد طعنته الخسيسة ، ثم اقترب منه مكشراً كأن آوى إذا وجد جيفة .

فنظر إليه كليب نظرة تمثل فيها معنى الاحتقار والحنق ، واختلط فيها شعور الغيظ بالعجز والضعف ، وهمّ أن يقوم إليه فلم يقو على النهوض ، ففحص الأرض بقدميه وتقلب في دمائه ، وما هي إلا لحظة حتى لحقه دوار النزيف ، واعترته غشية الموت .

وفهق فهقات كان يفيق فيما بينها إفاقة قصيرة ، فيحاول أن يتكلم فلا يستطيع ، إلا تمتمة خافتة لا تسمع ألفاظها ، ثم اعتراه عطش شديد فقال وهو لا يدرى من يخاطب : « أغثنى بشربة ماء » .

ولكن جساساً نظر إليه شامتاً ، ثم ضحك ضحكة مخيفة وقال : « لا ابتل لك ريق أيها الطاغية » ، ووقف يتأمل زعه في سرور .

وكان عمرو بن الحارث في تلك الأثناء واقفاً وراء جساس يضطرب ويرتعد ، وقد علته صفرة تشبه صفرة الموت ، فلما سكن كليب أشار إليه جساس أن يتقدم ، فأتى إليه متردداً ، فطلب منه أن يساعده على تغطية القتيل بالحجارة خوف أن تأكله السباع .

ولما أتما وضع الأحجار عليه ركبا عائدين نحو مضارب الخيام ، ولكن عمرو بن الحارث لم يجرؤ على أن يواجه قومه بخبر الجريمة ، فركض فرسه لا يلوى على شيء حتى دخل بيته ، فقبع فيه وهو يتفصّد عرقاً ، ويهذى هذيان المحموم ، وركب جساس فرسه وركض نحو خيمة أبيه مُرة ، ليحمل إليه النبأ المشئوم ، ولكنه لم يملك نفسه في ركوبه فبدت ساقاه عاريتين وهو لا ينتبه إليهما ، وقد اعتراه شيء من الذهول بعد أن تبين خطورة فعلته .

كان الشيخ مُرة جالساً في فناء بيته مع بعض بنيه وحفدته ، وبعض إخوته وأبناء عمومته ، فرأى جساساً يقبل على فرسه راكضاً ، وهو عارى الركبتين ، فعلم أن وراءه خبراً منحوساً . والتفت إلى من حوله وقال : « ما رأيت جساساً يركب كما أراه اليوم » .

ثم قال لابنه بعد أن صار على مسمع منه : « مالك يا جساس ؟ » .

قال جساس في صرخة مفزعة : « لقد طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً » .

قال مُرة : « ومن طعنت ويلك ؟ » .

قال جساس في صرخة مضطربة : « كليب ! » .

ثم لوح برمحه وأداره على رأسه في الفضاء ، وقال في ضحكة جنونية : « وأدركت ثأر البسوس » .

فصاح أبوه صارخا : « ثكلتك أمك ! أكليب في ثأر سراب ؟ » .

قال جساس : « لست من يخفر جواره » .

فقام إليه الشيخ وأخذ حفنة من الرمل ورمى بها وجهه وقال : « ويل لك من مشئوم منكود ! ماذا جلبت على قومك من الهلاك ؟ » .

فرفع جساس رمحه فوق رأسه مرة أخرى وأداره حوله في رقصة وحشية وقال كأنه يتغنى : « فزع الشيخ من خوف الثأر ! » .

ثم نزل عن فرسه واقترب من أبيه قائلاً : « دعنى أيها الشيخ وحدى . إنى لا أريد حمايتك . لقد عرفت أنك لا تجرؤ على الدفاع عنى » .

فلما سمع الشيخ مرة قول ولده لم يحد جواباً ، واستغلق عليه التفكير والقول ، وحار في أمره أيتبرأ من ولده ويتنصل من جريمته ويتركه للقصاص ، لا يحميه ولا يدفع عنه ، فيحفظ بذلك قومه من حرب طاحنة مع أبناء عمهم بنى تغلب ؟ أم يجرى على سنة العرب فيغضب لولده وإن كان ظالماً ، وينهض للدفاع عن جريمته وهو ينكرها ؟ ولم

يجد مخرجاً من حيرته إلا أن نظر إلى شيخ كان جالساً فى جواره ، لم يكترث لما حدث ولم يتحرك من مكانه والقوم كلهم من حوله فى اضطراب وفزع . وفهم الشيخ نظرة الرجل الحائر فقام متباطئاً ، ثم قبض على ذراع مرة وانتحى معه جانباً . فلما صار الرجلان بحيث لا يسمع حديثهما قال مرة وهو لا يكاد يبين : « ماذا ترى يا أبا عامر ؟ »

فقال أبو عامر فى هدوء : « أترى تقدر على إعادة كليب ؟ » .

فنظر مرة إليه مبهوتاً ولم ينطق بلفظ ، فاستمر الشيخ فى كلامه هادئاً : « لقد كان ما كان ، ولم يبق إلا النظر فى أمر القوم . وأنت إذا تماديت فى لوم جساس خذلك بنى بكر وبنى شيبان عن نصرتك إذا احتجت إلى نصرتهم » .

فهدأ مرة قليلاً وقال : « وما ذا ترى يا أبا عامر فداك نفسى ؟ » .

قال أبو عامر : « دع اللوم والجزع واظهر للقوم شدة ، فإن ذلك أدعى أن يقتصدوا فى طلب الثأر ، وذكّر بنى بكر وحرضهم على القيام لنصرة جساس » .

فأدرك مرة عند ذلك خطأه فى الاندفاع إلى تأنيب ولده ، وملك نفسه وعاد إلى هدوئه وذهب نحو الجمع المنتظر ، فقال يخاطب ولده : « نحن للحرب يا ولدى ! أنت منا ولن تُسلمك بكر أبداً . لست أسلمك حتى أقتل دونك مع قومى أو نشعلها ناراً حامية على قوم الطاغية الظالم » .

فلما سمع بنو بكر قول شيخهم مرة اعتزوا وعادت إليهم نفوسهم ، وتصايحوا : « يالبكر ! قتل الطاغية ! » .

واندفع جساس عند ذلك إلى أبيه فعانقه وقبل يديه وقال فى خضوع وصوته يكاد يختنق من التأثر : « لا عدمتك ناصراً يا أبى ! » .

ثم أخذ رمحه وهزه فوق رأسه وجعل يرقص رقصة التحدى والاعتداد بالنفس ويتغنى بأناشيد يدعو فيها قومه إلى الاستعداد لحرب الطغاة .

وصاح مرة فى قومه وقد تبدلت لهجته وتغيرت نغمته وقال : « يا بنى بكر سأضرب بأطراف العوالى . وأنفى الذل عن قومى وشرفى ، فما كانت بكر لتخفر جوارها أو تستكين للطاغية ! »

فقال أبو عامر : « يا بنى شيبان من يكون للحرب إذا لم تكن له بنو شيبان ؟ »

فتصاعدت صيحة من القوم : « سنسل السيوف وندفع ظلم بنى تغلب ، لقد هلك الطاغية . سندفع البغى ونحمى قومنا من عار الخضوع والذل » .

وأسرع الجميع إلى بيوتهم ليستعدوا للقتال ويجهزوا السلاح للمعركة التى لا بد منها .

واختلى مرة وأبو عامر ساعة ثم بعثوا الرسل إلى قومهم بالارتحال عن منازلهم ، حتى يبعدوا عن جوار بنى تغلب ، وينتظروا ما هم صانعون فى الغد .

كان همام بن مرة فى تلك الساعة مختلياً بمهلهل أخى كليب كعادتهما كل يوم يشربان الخمر فى عزلة عن قومهما ، فأقبلت نحوهما جارية تقود فرساً ، حتى اقتربت منهما ، وأشارت إلى همام تدعوه فى حذر ليذهب إليها على انفراد . فذهب همام إليها فوقف معها لحظة ، ثم ذهبت عنه الجارية وتركت الفرس على مقربة من مجلسه . وعاد همام إلى مهلهل وهو مضطرب ممتقع اللون يكاد يتعثر فى خطاه . فسأله مهلهل عما قالت له الجارية ، وكانا متعاهدين على الصدق لا ينكر أحدهما من الآخر حديثاً ، فقال له همام وهو متردد : « تقول الجارية قولاً لا أكاد أصدقه » .

قال مهلهل ضاحكا : « لعلها قالت لك إن سلمى آتية إليك الساعة » .

وكان مهلهل لا ينصرف عن الخلاعة ولا يتحدث إلا عن الخمر والنساء . ألم يكن معروفاً فى قومه بالماجن السكير ؟ أليس هو الذى كان كليب يدعوه « زير النساء ! » .

فأجابه همام جاداً ولم يقدر على الكذب لما بينه وبين صاحبه من عهد الصدق : « لا أبالي بسلمى . لقد زعمت أن جساساً قتل كليباً » .

فضحك مهلهل ضحكة عالية ، وقال وهو يملأ كأساً : « تقول جساس قتل كليباً ؟ إنه أعجز من ذلك وأضعف . خذ هذه الكأس . » .

فتناول همام الكأس ، وشرب منها قليلاً ، ونظر إلى صديقه وهو يرفع كأسه ويتجرعها ، وشعر كأن حملاً ثقيلاً يزاح عن عاتقه عند ما رأى أن مهلهلاً لا يصدق النبأ .

شرب مهلهل كثيراً تلك الليلة ، واحترس همام فلم يشرب إلا رشفات قليلة . حتى صار مهلهل لا يقوى على الوقوف من السكر . ثم قام الصديقان فذهب كل منهما إلى جهة بيته . ولما غاب مهلهل وراء الكثيب القريب ركب همام فرسه ، وأسرع في أثر قومه بعيداً عن منازل تغلب . بلغ مهلهل منزله فإذا ضجة عالية وصراخ وعويل ، وإذا بنساء تغلب حاسرات يندبن كليباً ، ويشققن عليه ملابسهن ، وإذا بالرجال يضطربون ويتنادون ويكسرون السلاح ويقتلون الخيول إظهاراً للجزع على عظيمهم الكبير ، فقد علموا أن في قتل كليب ذهاباً لسلطانهم ، وإضاعة لعزتهم .

ولما أقبل مهلهل على قومه ، نظروا إليه في يأس وقال بعضهم لبعض : « لم يبق لنا إلا ذلك السكير الماجن الذي لا يكاد يفيق » .

فقال مهلهل ، وقد عاد إليه بعض وعيه من هول المنظر : « ما بالكم تكسرون السلاح ؟ » .

فقربت منه امرأته ، وصاحت به وهي حانقة : « قتلوا كليباً ! وأنت لا تقوى على الوقوف » .

فنظر إليها مهلهل بغضب ! وقد وخزته كلماتها . فقال : « كان كليب يكفيني القتال . فالآن ستعلمين من أكون ! » .

ورفع رأسه واعتدل في وقفته ، وتغير وجهه الجميل ، فاكتسى بعزم غير معهود فيه وقال : « أتكسرون السلاح ، وتقتلون الخيول ، وأنتم أحوج الناس إليها ؟ » .

فوقف الرجال لحظة ينظرون إليه ، وهم لا يكادون يصدقون أن مهلهلاً هو الذي يكلمهم .

فاستمر مهلهل يقول : « دعوا الحزن للنساء ، واشحذوا السيوف ، هيا إلى البيوت فاستعدوا لحرب ضروس » .

ثم ذهب وهو مطرق يعلوه شيء من الخزي ، حتى إذا ما صار في بيته ارتمى في ركن ، وجعل يبكي وحده ويمثل ما هو فاعل للانتقام من قاتل أخيه .

اجتمع نساء تغلب في تلك الليلة للنوح والبكاء ، وعلا صراخهن حتى ترددت أصداؤه في جوانب الوديان . وفيما هن في ذلك دخلت عليهن امرأة طويلة القامة سمراء اللون هيفاء دعجاء ، وقد شقت ثيابها ، ونشرت شعرها الأسود الطويل ، وعفرت وجهها ، ودخلت تشترك مع النساء في الحزن على فقيدها ، وهي تختلج وتهتز من شدة البكاء .

وانتحت ناحية وحدها ، وقد نظر النساء جميعاً إليها في حقد واهتياج . ولم تكن هذه المرأة إلا جليلة التي فجعت في زوجها الحبيب كليب .

وما كادت تستقر في مكانها حتى اندفعت نحوها امرأة فقالت : « لم تحضرين هنا أيتها العدوة ؟ »

فنظرت إليها جليلة بعينيها المحمرتين وقالت : « ألست امرأة كليب ؟ » .

فصاحت بها امرأة أخرى قائلة : « اخرجي عنا أيتها الكريهة » .

فقالت جليلة وهي تنشج بالبكاء : « أنا التي أصبت بقتله ! » .

فقالت المرأة الأولى : « أنت عدوة شامتة . ابعدي عنا »

فقامت جليلة غاضبة ، وقالت ولا تزال تختلج وتضطرب : « كيف أبعد عن مناحة زوجي ؟ إن كان مصابكم واحداً فمصابي مضاعف ، زوجي قتيل ، وأخي مطلوب ، فنواحكن مصانعة ، ونواحي تفجع ، بعض

نفسى يبكي على بعض ، وبعض دمى يثور ببعض ، وأحمل فى أحشائى جنيناً سوف يقيم بين قومى عدواً » . فضج النساء ، وزاد اضطرابهن ، وجعلن يشتمن جليلة ويطردنها ، وأقبل بعضهن نحوها يردن إخراجها دفعاً والايقاع بها . فلم تستطع إلا أن تخرج ، ولا تكاد تنظر طريقها وقد حبس الحزن لسانها ، وزادها ألماً ما لاقته من ظلم التغلبيات لها . وسارت فى طريقها نحو قومها وهى تقول : « وا حر قلباه ! قتل الحبيب ، وقاتله أخى ! تعساً لناة ، وويلاً لأوال » .

ثم جعلت تنشد ، والدمع يكاد يشرقها :

فِعْلُ جساس على وجدى به   قاطع ظهرى ومدن أجلى
يا قتيلاً قوض الدهر به   سقف بيتىّ جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته   وانثنى فى هدم بيتى الأول
خصّنى قتل كليب بلظى   من ورائى ولظى مستقبل
يشتفى المدرك بالثأر وفى   دَرَكى ثأرىَ ثُكلُ المُثكِل

وكاد الحزن يذهب عنها لبها ، وهى سائرة وحدها تطلب آثار قوم أبيها ، ولا يصاحبها فى ظلام الليل إلا عبدها يقود ناقتها .

وأصبح الصباح عليها وهى فى قومها يجدون السير يطلبون أرض اليمن ليمتنعوا بها ويستعدوا لقتال أبناء عمهم قوم كليب .

وبكّر بنو تغلب على الخيول ولبسوا لباس الحرب واستعدوا للإسراع فى آثار بنى عمهم من بكر ، ليطلبوا ثأر بطلهم الكبير ، ووقف فى صدر الجمع مهلهل بن ربيعة ، وقد خلع عن نفسه ما اعتاد من عيشة النعيم ، وأقسم أن يكون ثأره هائلاً من قتلة أخيه الحبيب وحاميه العظيم ، وابتدأت بعد ذلك الحرب الطاحنة التى بقيت نيرانها موقدة طوال الستين بين بكر وتغلب ، وكان شعارها صيحة عالية تتردد أصداؤها فى أنحاء نجد : « يالثارات كليب ! » .

(تمت الحلقة)   محمد فريد أبو حديد

دروس من الأزمة العالميـــة

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

تغشى النـاس فى هذه الأيام غاشية من الهم الثقيل ، تجثم على صدورهم ، وتضيق أنفاسهم ، وتصبغ أمامهم أفق الحياة بلون مظلم قاتم . فقد اضطربت أمور السياسة العالمية ، واختل ميزانها ، وانطلقت نذر الحرب تؤذن بهوجاء عاصفة لا يرعى فيها للانسـانية حق ، ولا يؤخذ فيها بلين أو هوادة ، ولا يأمن شرها بعيد أو قريب ، ولا يفلت من أذاها مقاتل أو مسالم . فاصطكت أسنان ، وارتعدت فرائص ، وساد الذعر الأمم والأفراد . وأخذ الساسة والمفكرون يستعينون بالصبر والملاينة لمنع الكارثة ، ويعدون العدة فى نفس الوقت لكبح جماحها ودفع عاديتها ، وكأنما غاية جهودهم تأخير موعدها إلى حين ، لا رفع غمتها عن الناس إلى أمد بعيد .

فهل انتهى حلم الانسانية السعيد فى أن يعيش الناس على هذا الكوكب عيشة إخاء وود وصفاء وسلام ؟ وهل أصيبت المدنية بنكسة ردتها وحشية عارية ، لا يسمع فيها إلا زئير المفترس مختلطا بأنات الضحايا وتوجعهم ؟ وهل فقدت الأديان تأثيرها الروحى فى النفوس ، وبطل سحر المذاهب الأخلاقية الإنسانية ، ورجع العالم إلى شرائع الأدغال وعهود الغزو والاجتياح والإذلال والاسترقاق ؟

إن ظواهر الأمور تبرر تشاؤم المتشائمين ، ولكن لا تزال ثمة بقية من الأمل فى أن يسود صوت العقل وتغلب دواعى الإنسانية وتزول أسباب الشقاق ، وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعى هادئة آمنة ، تواصل خطى التطور دون أن تقوم عقبات تقطع عليها طريقها وتردها إلى الوراء .

على أن المحن لا تخلو مع شرورها ومخاطرها من فوائد ، وليس أقلها أنها تفتح العيون على الأسباب التى أدت لها والعوامل التى أنتجتها ، وتدل الأمم على مواطن عجزها عن مواجهة المفاجئات ومواضع النقص فى استعدادها لملاقاة الباغتات ، وتطلعها على أخطاء الماضى ، وتنير لها السبيل للمستقبل .

والظروف التى حلت بالعالم فى هذه السنة والأحداث التى تتابعت على الحياة الدولية ملأى بالعبر ، فلننظر ماذا نفيد منها من دروس .

* * *

لعل أبلغ درس تلقيه الأزمة الحالية على الناس جميعاً المقابلة بين موقف الأمم الديمقراطية من ألمانيا يوم فرساى وموقف ألمانيا منها الآن ، والثمرة المرة العاجلة التى آتتها سياسة خاطئة قصيرة النظر انساقت وراء عاطفتى الانتقام والتشفى من المغلوب .

فمن ذا الذى كان يظن أن هذه الأمم التى خرجت من الحرب العظمى منتصرة ظافرة ، وأملت على خصمها شروطها المرهقة القاسية ، وافتنت فى إذلاله وقص أجنحته والتضييق عليه ، ستكون بعد عشرين عاماً فى موقف تتحامى فيه الاحتكاك بهذا الخصم وتتغاضى عن عنفه وعدوانه ، وتناشده الرحمة ورعاية حقوق الانسانية ؟ .

لم يفطن يوم فرساى إلا القليل من بعيدى النظر إلى أن هذه الشروط المذلة المجحفة ستغرس فى قلوب المقهورين بذور الحقد وتحملهم على إضمار الحفيظة والاستمانة بالكتمان

حتى تتاح الفرصة للأخذ بالثأر والانتقام للشرف المهان .

لقد كان لأخطاء معاهدة فرساي رد فعل سريع عاقبتها قسوة وغلظة .

فهل يتعلم الناس من هذا الدرس أن العدوان والطغيان والادلال بالقوة وفرض الشروط القاسية المجحفة على الضعيف ستكون لها عواقب خطيرة إن عاجلاً وإن آجلاً ، وأن الظافر المعتز أولا سيكون هو الخاسر أخيراً ؟

هل تعظ هذه العبرة أقوياء اليوم وهم يتزلقون في المهاوى التي انحدر إليها أقوياء الأمس ، فيعلموا أن كل طغيان يحمل في ثناياه الجراثيم التي تقضى عليه ؟

لم لا يجرب الأقوياء وهم في أوج قوتهم أن يكونوا منصفين لسواهم ، وأن يتألفوا خصومهم بالعفو عند المقدرة ؟ لم لا يجربون كسب الأمم الضعيفة بتسكين روعهم وتأمينهم من الخوف ؟ أكبر ظنى أن هذه التجربة — لو جربت — تكون أكفل بسيادتهم الأدبية ، وتقيم علاقاتهم الاقتصادية والثقافية على أسس كريمة من المودة والثقة ، وتكسبهم من غير حرب ولا إذلال أكبر كسب تطمع فيه دولة من غيرها من الأمم ، وهو حسن الصلات وتبادل المنفعة والمحبة والاحترام .

* * *

درس آخر تلقيه علينا هذه الأزمة العالمية هو ما تستطيع العزيمة الموحدة والجهود المنظمة والهمة الدائبة في أمة أن تأتى به من العجائب في أقصر وقت ، فهاهنا ألمانيا التي خرجت من الحرب العظمى مضعضعة القوى مفككة الأوصال مستنزفة الموارد خامدة الأمل ، استطاعت في خمس سنوات أن تسترد قوتها ، وتنتزع ما اغتصب منها وتتحلل مما فرض عليها ، وتحطم الأغلال التي قيدتها ، وتوسع رقعة أراضيها فوق ما كانت عليه ، وتتبوأ مكانة الزعامة الدولية ، وتسيطر على أقدار الأمم ومصايرها ، فأنى لها هذا ، وكيف بلغت كل ذلك في هذه الفترة الوجيزة ؟

لقد صهرت المحن هذه الأمة ، وعلمتها النكبات التي أحيطت بها أن لا أمل لها إلا في نفسها ، ولا فرج لكربتها إلا بجهودها الخاصة ، فطهرت قلوبها من عوامل الفرقة والانقسام ، وجمعت كلتها ووحدت وجهتها وامتلأت ثقة بحيويتها والقوى الكامنة فيها . وصدق إيمانها بعظمة جنسها ، وحقه في أن يتبوأ مكانة سامية وينال نصيبه من حياة العزة والكرامة . فراحت تحشد كل قواها وتنظم كل جهودها ، وخرج كل فرد من أفرادها عن كل ما زاد عن ضرورات عيشه ، ورسمت لنهضتها خطة محكمة ، وقامت على تنفيذها بكل نشاط وهمة ، وتحامت كل تردد أو ضعف في سيرها فكتب لها النجاح !

وفي هذه النهضة القوية السريعة أكبر حافز لكل الأمم الناشئة على الجد والهمة والثقة بأن كل ما يبدو حلما من الأحلام ممكن التحقيق . ولعلنا نحن نستفيد من هذا الدرس تنظيم الجهود المبعثرة المشتتة ، وجمع القلوب المختلفة المتنافرة ، وشد العزائم الواهنة الفاترة ، وإيثار الصالح العام على الصالح الضرورية الرخيصة ، لعلنا نستفيد من هذا الدرس أن أكبر أسباب النجاح في نهضة الأمم إحكام الخطط وسرعة البت في المسائل التي تعترض سير الأمة والقيام على تنفيذها بنشاط وهمة وإيمان قوى بالنجاح .

* * *

تعلمنا كذلك من هذه الأزمة أن الضعيف لا يشفع له يوم الخطر حقه ، ولا تدفع الأذى عنه حجته ، ولا يحفظه من الضياع وفاؤه ومسالمته لغيره ، ولا يحوطه من النائبات ما قدم له من مواثيق وعهود ، وأن نصيره خاذله إذا خشى على نفسه بعض الضرر ، وأن جاره آكله إذا ألح عليه

الشر ، وأن الضعف وحده جريرة الضعيف وعذر القوى فى الاعتداء عليه .

فإذا لم تكن مثل هذه الأحوال عبرة للضعفاء، ونذيراً لهم بألا يعتمدوا عند الخطر على غير أنفسهم ، وحافزاً لهم أن يعدوا للشدائد ما استطاعوا من عدة ، وأن يتكاتفوا مع أمثالهم ، ويستمدوا من اتحادهم قوة — إذا لم يكن فى الأزمة الحاضرة مايهيب بهم أن يخلعوا عنهم ثياب الضعف ، ويتدرعوا بالقوة ، ويستكملوا أسباب المناعة ، فهم الجانون على أنفسهم .

لقد تبين لنا بجلاء مقدار ما فوتناه على أنفسنا فيما مضى من فرصة الاستعداد وأخذ الأهبة ، وخطأ السياسة التى كانت تحول بيننا وبين استكمال أسباب القوة ، ولقد تنبهنا فى اللحظات الأخيرة إلى ضرورة الاسراع ، وبذل كل مايستطاع بذله فى توفير وسائل الدفاع . فلنواصل ذلك ولنسر فيه بكل همة ونشاط مهما تغيرت الظروف ، ولتكن هذه المحنة وكلة علينا بما هيأت لنا من فرصة لاستكمال كل مقومات حياة العزة والكرامة والاستقلال .

***

وفى هذا الوقت الذى نرى فيه طرفى الخصومة يتصارعان فى حرب كلامية ، هذا يدل بقوته ، ويستهين بخصومه ، ويغلو فى تصوير ما أعد لهم من مهلكات ، ويفتن فى أساليب الفت فى العضد ، وإدخال الرعب فى القلوب ، وذاك يصور الحالة اعتداء على الإنسانية وتغليباً لأساليب البربرية ويؤلب الناس لمقاومة البغى والعدوان .

ومن قبل كان أسلوبهم فى الدعاوة جميعاً غير هذا الأسلوب وجدلهم بغير هذا المنطق

ألا يعلمنا هذا الوقف الذى يقفه الضعيف بعد أن قوى واستغنى ، والقوى بعد أن أخذ على غرة وفوجئ على غير أهبة ، أن القوم جميعاً لا يجرون فى سياستهم وراء مثل عليا ، ولا يحكمون مذاهب خاصة ، وإنما يصطنعون أساليب الضعف والقوة تبعاً لاستعدادهم وقوتهم ؟

ألا يساعدنا هذا معشر الأمم الضعيفة على أن نزداد فهماً لأساليب السياسة ، وأن نرى أن الوسيلة الوحيدة لأن نعيش مع هؤلاء الناس فى أمن وكرامة ، أن نزيل أسباب الضعف فينا ، فنضطرهم جميعاً إلى تبديل أساليبهم معنا ، والانتهاء إلى خطة واحدة لا تضيرنا ولا تضيرهم ، هى سياسة التعاون والتشارك وتبادل الاحترام ؟

وأخيراً أليس من مزايا هذه المحنة أن صيحتها العالية وضجتها الصاخبة قد هزت الأعصاب وأيقظت النائم وألهبت الفاتر وقوت الخائر ، وأهابت بالمستضعفين أن يكونوا عند حد قول القائل :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تكون جبانا

محمد عبد الواحد خلاف

إلى الرسول الكريم

في عيد مولده

للدكتور عبد الوهاب عزام

مضت عشر وأربعمائة وألف سنة منذ ظهر في الجزيرة العربية نجم الصباح بشيراً بطلوع الشمس ، منذ طلع الكوكب المبشر بالغيث في الأرض الجدبة ، منذ ولدت الأرض منبع النهر الذي فاض على الناس بالخير والبركة ولا يزال فياضا ، منذ سُطرت في سجل الأيام بسملة سيرة عظيمة ، منذ كتبت على صفحات الزمان فاتحة كتاب دفتاه الشرق والغرب ، وصفحاته تاريخ البشر في أروع وقائعه ، منذ خط الله القدير على رمال الجزيرة عنوان أعظم فصل في تاريخ البشر ، منذ ولدت الخليقة قانوناً من قوانينها في صورة طفل ، منذ استهل هذا الطفل الفقير في دار من دور قريش بمكة ، منذ ولدت آمنة بنت وهب محمد بن عبد الله .

لم تُضرب البشائر لولده ، ولا سارت الأنباء ، ولا تطايرت التهاني ، ولا اجتمعت المحافل ؛ ولكن الله سبحانه كان يعلم ماذا أخرج من غيبه ، وماذا وضع على أرضه . كان الله وحده يعلم أن قد وُلد الرجل الذي أعدّه ليُعلي التوحيد ويضع الوثنية ، ويعز الحق ويذل الباطل ، وينصر الخير ويخذل الشر ، ويمحو العبودية ويُشيع الحرية ، ويزلزل الجبارين ، ويثبت الضعفاء والساكين ، ويبطل التمييز بين الناس ، ويشيع المساواة بينهم ، ويحقر الأحساب والأنساب ، ويعظم العمل الصالح ، ويحطم العصبيات ، ويدعو إلى الأخوة العامة .

كان الله وحده يعلم أن قد وُلد الرجل الذي يُخرج الحق من الصوامع والمعابد إلى معارك الحياة ، ويقيم البرّ بألسنة الملوك وأيديهم بعد أن كان نعمة الفقراء والساكين ، ويقيم الملوك في صفوف الصلاة بعد أن كانوا في صفوف الآلهة ، ويجعل الحياة جهاداً دائباً للحق والخير ، لا يضعف ولا يفتر ، ويُري الناس كيف يجتمع الحق والقوة ، ويلتئم الملك والنبوة .

***

يا رسول الله ! أين نحن اليوم من شريعتك ؟ وأين مقامنا من دعوتك ؟ وأين سيرتنا من سنتك ؟

علّمت المسلم أن يكون خليفة الله في أرضه ، يقوم بالعدل بين خلقه ، ويقسم الرزق بين عباده ، ويهيمن على قانون الله بين الناس أجمعين ؛ يقودهم إلى الحق طوعاً أو كرهاً ، ويسيّرهم للخير اختياراً أو اضطراراً .

فأين هو اليوم من هذه الخلافة ؟ أين عقله من هذه السياسة ؟ وأين نفسه من هذا السموّ ؟ وأين قلبه من هذا الطموح ؟ وأين عزمه من هذه الهمة ؟ وأين يده من هذا السلطان ؟ .

علّمت المسلم أن يقوم بالقسط لله ، ويجعل العدل بينه وبين الناس ، لا يبغي ، ولا يحتمل البغي ، ولا يظلم ، ولا يستكين للظلم ، ولا يبخس الناس أشياءهم ، ولا يبخس حق نفسه ، ولا يأخذ ما ليس له ، ولا يعطي ما ليس لغيره . وتلوت عليهم قول الله :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء

بالقسط ، ولا يجرمنَّكم شنآن قوم على ألاَّ تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون — يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

تلك الدعوة الشاملة ، والكلمة الجامعة . تلك سعادة الفرد والجماعة ، وثبات القانون والنظام ، وقوام المعاملة العادلة ، والألفة العامة . تلك الدعوة إلى أن يسيطر الحق والعدل ، وأن يكون الإنسان لله وللناس أجمعين ، لا لنفسه ومنفعته وهواه ، وأن يعدل الإنسان في الرضا والغضب ، والمنشط والمكره ، ومع القريب والبعيد ، والعدوّ والصديق ، لأنه ينفذ قانون الله ، وليس عند الله قريب ولا أجنبي ، ولا صديق ولا عدوّ .

يا رسول الله ! لو أن الأمم المتناحرة التي عَمَرَت عقولها وخربت قلوبها ، وقويت أيديها وضعفت سرائرها ، وأضاءت ظواهرها وطفئت بواطنها ، والتي حدّت العدل عنافيها ، وسيّرت الحق طوع رضاها وغضبها ، وحبها وكرهها ، ونفعها وضرّها — لو أن هذه الأمم فقهت آيتك وعملت بها ، فقام كل زعيم بقسط الله في أرض الله بين عباد الله ، يستوى في نصفته القريب والأجنبي ، والقاصي والداني ، ويسكن إلى صدقه ونصحه الناس كافة ، لا يغش ولا يخدع ، ولا يختل ولا يزوّر ، ولا يعتدى ولا يظلم — لو أن كل زعيم أخذ بالعدل كل فرد من أمته ، وأخذ بالعدل نفسه ، وجمع الأمة كلها على العدل ، لعاشت الأمم مجاهدة في الحياة على شريعة من التناصف جامعة ، وخطة من العدل مؤلّفة ، وانعاونوا على البرّ بالإنسان وإسعاد الإنسان ، لا على التدمير والتخريب والقتل والأسر ، والغصب والنهب ، والاحتكام إلى المهالك ، والالتجاء إلى القوة . وويل للمغلوب ! ألا إن في العدل سعادة الفرد في نفسه ، وسعادة الأمة في جماعتها ؛ وسعادة الإنسانية في أممها .

يا رسول الله ! علّمت المسلم أن يكون حراً لا يخيفه جبروت ، ولا يأسره مطمع ، ولا تملكه الأهواء ، ولا تعبّده الشهوات ، يسير في الأرض قانوناً لا يُقهر ، وسنّة لا تتغير ، يستمتع بما متّعه به الحق . ثم الفتن والشهوات من بعدُ أهون من أن تُغريه ، وأحقر من أن تفتنه .

فما بال المسلمين تتنازعهم الأهواء فيتذبذبون ، وتتجاذبهم الشهوات فيتهافتون ؟

علّمت المسلم أن يكون مالكاً قنوعاً ، مسيطراً مقتصداً ، قادراً عفيفاً ، يملك الدنيا ولا تملكه ، ويستعبدها ولا تستعبده ، ويقدر عليها ولا يهلك فيها .

فما بال هؤلاء المستكلبين تملكهم الأموال فهم عبيدها ، وتفتنهم المناصب فهم صرعاها ؟ قد ملئت نفوسهم من الحرص والطمع ، والنهم والجشع ، ما لا تملؤه السموات والأرض ؛ فذلوا من حيث أرادوا العزّ ، وافتقروا من حيث حاولوا الغنى ، وشقوا من حيث توهّموا السعادة !

يا رسول الله ! علّمت المسلم أن يكون عزيزاً لا يذل ، وأبيّاً لا يخنع ، وموحّداً لا يُشرك ، يعبد الله وحده لا شريك له ، والناس من بعدُ سواسية ليس بعضهم أرباب بعض . فما بال هؤلاء الأذلاء الخانعين الذين يؤلّهون كل قويّ ، ويخضعون لكل جبّار ؟

علّمت المسلم أن يكون مجاهداً لا يكلّ ، دائباً لا يمل ، يمضي في الحياة قُدُماً كالنجم لا يقف دون الغاية ، ولا تصدّه مشقة ، ولا يردّه هول ، ولا يقعد بهمّته عيء ، ولا يوهن عزيمته يأس ، طمّاحاً همّاماً ، غلاّباً مقداماً .

فما بال المسلم يقعد ويحسب أنه يعبد ، ويكلّ ويظن أنه متوكّل ، وييأس ويتوهم أنه يقنع ؛ حرّفوا كلماتك ، وجهلوا آياتك ؟

يا رسول الله !

علمت المسلم أن يكون على الخطوب جسوراً ، وفى النوائب صبوراً ، كأنه فى معترك الحياة قدر لا يرد ، وقانون طبيعى لا يتخلف ، على شفتيه بسمة الرجاء فى ظلام المحن ، وفى وجهه طمأنينة الثقة فى عواصف الفتن ، وفى قلبه الثقة بالله واليقين بالظفر ، تنكشف عنه الأحداث كما ينقشع السحاب عن النجم ، وتنجلى الغمرة عن الدرة ، وينحسر الغمد عن السيف .

فما بال المسلم اليوم جزوعا يائسا ، وخائراً مبلساً ؟

يا رسول الله !

وقفت فى حضرتك ساعة فلا معنى من العلاء والعظمة والحرية والحق والخير والبر والفضيلة إلا نزل على قلبى ، ولا شبة من الاسفاف والباطل والشر والرذيلة إلا طارت من نفسى !

وستبقى سيرتك نبراساً يعشو إليه الخابط فى الظلمات ، وهديك مناراً يهتدى به الضالّ فى الفلوات ، وشرعك علماً ينحاز إليه الأخيار ، ودعوتك أذاناً يصغى إليه الأبرار ، ورسالتك رحمة للناس أجمعين .

إن انحرف الناس فما اعوجّت سنّتك ، وإن ضلّوا فما طمست شريعتك ، وإن حاروا فما خفيت سيرتك . وسيردّهم إلى الطريق هديك ، ويهديهم إلى الغاية سيرتك ، ويرشدهم على الأجيال دعوتك .

ولن يزال مولدك هدًى للناس وذكرى ، وموعظة وعبرة ، ودعوة لا تحول ، ونوراً لا يزول .

يا رسول الله : صلى الله عليك

عبد الوهاب عزام

بسم الله الرحمن الرحيم

المستشرقون ورسالة الرسول

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

بينا محمد رسول الله صلى الله عليه أكرم الخلق على الاطلاق، وأسماهم مقاما، وأعزهم مكانا، وأعظمهم شأنا. كتب فى عظمته صلى الله عليه وسلم المتقدمون والمتأخرون، فما بلغوا على اجتهاد المجتهدين منهم كفاء قدره، ولا جزاء فضله. لكن المتقدمين كانوا أكثر من المتأخرين توفيقا، وأقوم فيما كتبوا طريقا، وأصدق نظرا، وأكثر تحقيقا. وما بالمتأخرين قلة استعداد أو فهم، ولكن بهم غرور وتقليد لعله أصل ذلك الغرور: بهم تقليد المستشرقين فيما كتبوا، وفى النهج الذى سلكوا حين عرضوا للسيرة ينقدونها، وللرسول الأعظم يزنونه — زعموا — ويقدرونه. وللنقد آفة يؤتى الناقد من قبلها إن لم يفطن لها، هى شعور الاشراف والاستعلاء على المنقود. هذه الآفة يصبح قليلها كثيراً وصغيرها كبيراً حين تعرض للناقد فى الموضوع العظيم الخطير؛ فاذا كان الموضوع هو أعظم المواضيع الانسانية قاطبة، وأكبرها وأخطرها عاقبة، كموضوع تناول حياة الرسول بالوزن، وشخصيته الكريمة بالتحليل — زعموا — وبالنقد، فان الغرور القليل المعفو عنه فى غير هذا يصبح هنا جرما وإثما، ويفضى إلى الباطل حتما. فاذا اقترن غرور الاستشراق هذا باعتقاد المستشرق من البداية بطلان دعوى النبى المخالفة لدين المستشرق، فقد ركب الباطل باعتقاده هذا ركوبا يحول بينه وبين لقاء الحق.

فمهما اجتهد المستشرق فى بحثه بعد ذلك، فان تلك المقدمة الباطلة التى بدأ بها كافية وحدها أن تضله وتخرج به من زور وباطل إلى زور وباطل. ومهما اجتهد فى الانصاف بعد ذلك فتلك المقدمة التى اعتقد كافية وحدها لاقحامه فى أقبح الظلم، وحمله على أكبر الاثم. وأى إثم أكبر من تكذيب نبى الله وخاتم الرسل عليه صلوات الله؟ من البدء بغير نظر ولا تمحيص، وتلوين حقائق التاريخ كلها بما يلائم ذلك التكذيب؟ وأى ظلم فى التقدير والحكم أقبح من نسبة الكذب إلى صاحب الدعوى الكبرى، دعوى الرسالة من الله، قبل النظر فى دعواه، حتى إذا نظروا وواجهتهم أدلة صدقه صلى الله عليه وسلم عن يمين وشمال، برأه منصفوهم من تعمد الكذب ليتهموه بالوهم والانخداع فى النفس؟ برأوه من تعمده صلى الله عليه وسلم الكذب على الله فى دعوى الرسالة، ليتهموه بأنه صلى الله عليه كان مخدوعا فى نفسه، يعتقد أنه رسول وهو فى الواقع غير نبى ولا رسول! أى برأوه هو واتهموا الخالق سبحانه الذى حقق كل ما ادعاه محمد بن عبد الله ولم يكذبه فى جزئية واحدة فى حياته النبوية الممتدة ثلاثة وعشرين عاما. فإن كان محمد فيما زعموا مخدوعاً فى نفسه، فكيف لم يكن مخدوعاً أيضاً فى الناس، وفى القوى الطبيعية التى لا تخضع لتكهنات مخدوع ولا سلطان مخلوق؟ فالتطابق التام الذى كان بالفعل بين ما جاء به محمد وبين الحق الخارجى، والنتائج المحتومة الرائعة التى صارت إليها دعواه، وتصديقها له فى كل ما ادعاه — هذا كله هو البرهان العلمى على أن دعواه صلى الله عليه كانت من صميم الحق، تتفق مع كل حق آخر فى ميادين الفطرة التى لا حول للانسان فيها ولا قوة. وليس هناك بين الباطل والحق فرق أكبر أو أكثر من أن الباطل لا يصدقه الواقع، ولا توافقه السنن الفطرية فى قليل ولا كثير.

لكن المستشرقين مثل دُزِول الذين قالوا بصدق محمد

وكذب رسالته لم يكونوا يريدون إحقاق حق ولا إزهاق باطل ، وإنما كانوا يريدون التوفيق بين دلائل صدقه صلى الله عليه وبين تلك المقدمة التي بدأوا بها ، والتي لو سلموا ببطلانها لزمهم أن يخرجوا من دينهم ويدخلوا في دينه . وهذا بالطبع ما لم يكونوا ليفعلوه . فهم من أجل ذلك يمضون في سبيلهم يشكّون فيما شاءوا أن يشكوا فيه من حقائق التاريخ — كما شكوا في أمّيته صلى الله عليه — من غير برهان ولا مبرر ، ما دامت حقائق التاريخ لا تتلاءم مع مقدمتهم التي جعلوها أساساً لبحوثهم . فلما عجزوا من أن يشكوا في كل حقائق التاريخ ، وبقيت منها بقية صالحة استعلت على شكهم ، وتناقضت مع مقدمتهم التي افتكوا ، آثروا أن يفرضوا أسخف الفروض ليوفقوا بين مقدمتهم وبين الحقائق التي تكذبها . ومن هنا فرضهم الذي افترضوا من أن محمداً كان يعتقد حقاً أنه رسول الله من غير أن تكون رسالته نفسها من عند الله ! أي أنه في زعمهم كان واهماً مخدوعاً في اعتقاده ذلك ! يزعمون ذلك من غير أن يسألوا أنفسهم : كيف أمكن أن يتوهم محمد نزول الملك عليه آلاف المرات في نحو ثلاث وعشرين سنة من غير أن يتبين خطأ نفسه أو يتبين أتباعه خطأه ؟ أم كيف أمكن أن يتفق توهمه مع الحقائق الخارجية في تلك السنين الكثيرة وهو صلى الله عليه في حياته النبوية في قرابة ربع قرن لم يكن معتزلاً العالم في صومعة ، ولكن كان في معمعة الحياة يدعو الناس ويحاجهم ، أو يهديهم ويشرع باسم الله لهم ؟ ثم هم لا يسألون أنفسهم : كيف أمكن أن يتوهم محمد أن الملك يأتيه بكلام من عند الله منجّماً في تلك السنوات التي تزيد على العشرين في ظروف ليست من صنعه صلى الله عليه ، ثم يكون ذلك الكلام معجزاً لفصحاء أمته ، يتحداهم بإعجازه وهم خصومه فلا يملكون لإبطال ذلك التحدي شيئاً ، مع أنه لم يتحدهم إلا بسورة من مثله ، وفي سوره الكريمة ما لا يزيد على ثلاث آيات قصار ؟

والعجيب الغريب في أمر أولئك المستشرقين الذين يكذبون برسالة محمد مع إقرارهم بصدقه هو أنهم يرون القرآن بين أيديهم ينسبه محمد إلى الله سبحانه ، وضمير المتكلم فيه فيما ليس بحكاية راجع لا إلى محمد ولكن إلى الله سبحانه ، والخطاب فيه موجه تارة إلى محمد وتارة إلى الناس ، وكثير مما خوطب به محمد صلى الله عليه مسبوق فيه بأمر التبليغ ، بكلمة « قل » ، والآيات الكثيرة التي يرجع ضمير المتكلم فيها إلى رب العزة سبحانه لا يمكن أن يتوهمها كاذب يجهل أنه كاذب ، كما يزعم أقرب المستشرقين إلى الإنصاف ! في القرآن آيات مثل : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، ومثل : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً » ، ومثل : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس » ، ومثل « فكُلاًّ أخذنا بذنبه : فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ؛ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ، ومثل : « والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ، ومثل : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » — فهذا وأمثاله في القرآن ، بل القرآن كله لا يمكن ، لو كان الإتيان بمثله في طاقة البشر ، أن يتوهمه متوهم وينسبه إلى الله كذباً من غير أن يعلم في قرارة نفسه أنه كاذب . ومع ذلك فأولئك المستشرقون الذين يزعمون أنهم علميون في نظرهم وفي بحثهم ، والذين تضطرهم حقائق التاريخ أن يقروا بصدق محمد في اعتقاده رسالة نفسه ، يفضلون أن يجمعوا بين المتناقضين بالقول بصدقه وكذب رسالته في آن واحد ، على أن يستنتجوا النتيجة الحتمية اللازمة فيقولوا بصدق رسالته ما داموا لا يجدون مفراً من القول بصدقه وباعتقاده حقاً في رسالة نفسه وبإيمانه حقاً أن القرآن من عند الله .

ولم يكن يخفى عن المستشرقين المكذبين أن محمداً

صلوات الله عليه كان يأتيه القرآن حين يأتيه في غيبوبة عن الدنيا ، فإذا أفاق منها صلى الله عليه تلا على الناس القرآن ، يقول إن الله أوحاه إليه في غيبوبته تلك ، وتحدى مكذبيه أن يأتوا بسورة مثله . لم يكن يخفى من المستشرقين تلك الحال الخاصة التي كانت تلازم نزول القرآن أو توهم نزوله كما يأفكون ، ولم يكن يخفى عنهم عجز العرب قاطبة عن تحديه وعن الإتيان ولو بمثل أقصر سورة فيه ، ومع ذلك لا يجد أقربهم إلى الإنصاف ما يقوله في تفسير هذا كله إلا أن محمداً كان مريضاً بنوع من الصرع ! كما يقول دُدْول وكما يقول إرْفِنْج . وليس في الحق أعرق من الإتيان بمثل هذا القول تفسيراً لمثل تلك الحقائق ، إذ ليس في الأرض عاقل لا يعرف أن المرض حالة ضعف لا حالة قوة ، وأن من المستحيل أن يأتي إنسان في غيبوبته عالا يستطيعه هو به نظراؤه من الناس في حالة صحوه وصحوهم ، وقوته وقوتهم . ومع ذلك فقد آثر أمثال وَشِنْجتون إرفنج أن يأتوا بذلك التفسير ظاهر السخف والبطلان ، عن أن يقولوا بالنتيجة المنطقية الحتمية ، ألا وهي أن القرآن من عند الله حقاً وأن محمداً حقاً رسول الله .

فالنبي صلوات الله عليه لم يَلْقَ ممن لم يؤمن من المستشرقين إلا ظلما ، وإن تفاوتوا بينهم في مقدار ذلك الظلم . ولو كانوا ينكرون الأديان قاطبة ، ولا يسلمون بوجود الأنبياء والرسل ، لكان ذلك مفهوما منهم إلى حدما . لكنهم يسلمون باليهودية والنصرانية ، ويؤمنون بنبوة إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان . فليت شعر العلم والعقل ، ماذا في الاسلام أو في القرآن يجعلهم ينكرون نبوة محمد خاصة في الوقت الذي يؤمنون فيه بأنبياء كتب العهدين ؟ بل وفي الوقت الذي يقرأ أكثرهم فيه بألوهية عيسى صلوات الله على نبينا وعليه ؟

لكنهم مستشرقون ، ومستشرقون على الطراز العلمي الحديث !

محمد أحمد الغمراوي

دُنَّا ڤيــــلاتا

للمصور الإيطالي رفائيل سانتي

بقلم الدكتور زكي محمد حسن

....

عاش رفائيـل (Raphael Santi) بين عامي ١٤٨٣ و١٥٢٠، وكان في حياته القصيرة مصوراً ورساما ومثّالا ومهندساً؛ ولكنه نبغ في النقش والتصوير حتى صار علماً من أعلام إيطاليا الثلاثة، بل لقد امتاز في كثير من النواحي على زميليه ليوناردو دافنشي وميشيل انجلو.

ولد في أربينو من أعمال إيطاليا الوسطى، وكان أبوه مصوراً لقّنه مبادىء الفن. وظهرت مواهب رفائيل وهو صغير السن، ثم درس على المصور البارع بيروجينو، ولكنه لم يلبث أن تفوق على هذا الأستاذ، ورحل بعدها إلى فلورنسة فانتفع برؤية ما أنتجه ليوناردو وميشيل انجلو؛ وترك النقل والتقليد وبدأ يستوحي الطبيعة نفسها، واتصل بأعلام المصورين في فلورنسة، مدينة الفن.

على أننا لا نريد في هذا المقام أن نعرض لتاريخ حياته أو لآثاره الفنية المختلفة، وحسبنا أن نكتب عن مسألتين:

الأولى: هدوءه وسعادته واعتقاده في الجمال وشعوره الفطري به، مما جعل صوره للعذراء معرضاً لأعظم النساء جمالا وأوفرهن ملاحة وأنوثة.

والثانية: تفوقه وامتيازه في التصوير من وجهة الفن والصنعة، فقد بلغ الكمال في هـذا الميدان؛ وكان يعني به أكثر من عنايته باختيار الموضوع أو نبل الفكرة. أجل، إن بعض آثاره الفنية في فجر حياته كان ينقصها شيء من الحياة والحركة، كما نرى في صورة «رؤيا الفارس» وهي محفوظة الآن في دار الصور الأهلية بمدينة لندن؛ ولكن رفائيل لم يلبث أن تخلص من تأثير أستاذه بيروجينو في هذا الميدان ومضى يصور اللوحات الفنية التي سجلت له السيادة في درس الجسم الإنساني وملامح الوجوه، وقادته إلى الشهرة، حتى تهافت عليه رجال الكنيسة وطلاب الصور الثمينة في مسقط رأسه وفي فلورنسة، ثم في روما حيث عيّن كبيراً لمهندسي المدينة وأميناً لعمائرها الأثرية، ورسم في قاعات الفاتيكان صوراً غاية في الابداع وجمال الألوان والاتزان وسمو الخيال.

وقد رسم رفائيل — على قصر حياته — عدداً كبيراً من اللوحات الفنية، سوف نعود إلى دراسة بعضها في أعداد الثقافة. أما التحفة التي نحن بصددها اليوم والتي يرى القارىء صورتها في الصفحة المواجهة فمحفوظة في قصر پتّي Pitti بفلورنسة، واسمها «دُنّا ڤيلاتا» أو السيدة ذات الستر، Donna velata وتمثل سيدة من نساء روما حباها الله جمالا عظيما، عرف رفائيل كيف يظهره في وجهها السحري وفي عنقها ونحرها وأناملها. ولا ريب في أن جلال مظهر هـذه السيدة وشعورها الفطري بجاذبيتها — ذلك الشعور الذي لا تخفيه نظرتها الهادئة — ثم ثوبها الثمين وسترها الذي يغطي رأسها ويسقط في اتزان ومرونة، كل هذا يكسب اللوحة قيمة فنية لا تفضلها قيمة الآثار الفنية الكلاسيكية بما فيها من دراسات عميقة لجسم الإنسان وثنايا الملابس وطياتها.

والواقع أن صورة هذه الحسناء لا نجدها في هذه اللوحة فحسب، بل لعلها العذراء التي رسمها رفائيل في لوحته المشهورة «عذراء سان سيستو» المحفوظة في متحف درسدن، ولعلها أيضاً إحدى السيدات المرسومات في صورته «القديسة سيسيليا» وهي اللوحة المحفوظة في متحف «بولونة» بإيطاليا.

ومهما يكن من الأمر فهي من خير الأمثلة التي تدل على براعة رفائيل في رسم الصور الشخصية الكاملة ببساطتها وبما فيها من حياة وقوة تعبير.

زكي محمد حسن

فى محاكاة الشعر الفارسى

للدكتور محمد عوض محمد

كان صديقنا « يسار » مغرماً بالشعر الفارسى قبل أن يطالع منه بيتاً ، معجباً بشعراء إران ، ولم يزد علمه بهم عن الإلمام بأسماء بعضهم . . وكان ، مع هذا ، واثقاً أشد الوثوق أن الشعر الفارسى من أرق الشعر شكلا وموضوعاً .

قرأ وهو تلميذ بالمدرسة بيت البارودى فى وصف حافظ ابراهيم :

تالله ليس لحافظٍ من مشبهٍ
فى الشعر غير سميِّه الشيرازى !

فجعل يحدث نفسه بأن حافظاً الشيرازىّ هذا لا بد أن يكون شاعراً عظيماً ...

ثم علم بطريق الصدفة أن أوزان الشعر الفارسى لا تختلف كثيراً عن أوزان الشعر العربى ؛ فبات ليلته لا يكاد ينام من شدة الفرح : إذن سيستمتع القارىء ، حين يطالع الشعر الفارسى بتلك الأنغام العربيـة الجميلة ، لا بتلك الأوزان الأفرنجية النافرة ، التى لا تعرف معها متى ينكسر البيت ، ومتى يستقيم ! وهل يعرف أجلاف الافرنج معنًى لانسجام الوزن وموسيقاه ؟ إن حركات العربة (الكارّو) المثقلة بالطوب والحجارة فى شارع مملوء بالحفر والحصا لأكثر انسجاماً من أوزان شكسبير ! .

وهكذا ظل الفتى « يسار » يحدث نفسه ، وهو تلميذ يكتب الشعر العربى على غلاف كراسات الحساب والهندسة والجبر ، وعلى هامش الكتاب الرابع لقواعد اللغة العربية ، بأن الشعر العربى عامة ، وشعره هو خاصة ، سيناله شىء غير قليل من الطرافة والجدة ، متى أدخلت فيه الأساليب الفارسية .

ولم يكن بد من أن يسمع باسم عمر الخيام والفردوسى ، وأن يطالع بعض أشعارهم فى لغة الانكليز ، فعقد النية على أن يتعلم اللسان الفارسى حين تسنح له أول فرصة .

* * *

قال الراوى : وكان ذلك فى وقت حرب عظيمة لم ير العالم لها مثيلا ، وكأنما أرادت السلطات ذات الأمر النافذ فى أمثاله من الضعفاء ، أن تيسِّر لهذا الفتى أمنيته ، وتحقق له حُلمه . فأودعته مُعتقَلاً حصيناً ، تحيط به القلاع الشاهقة ، والأسلاك الشائكة ، ومن حوله الأسوار والمتاريس ، والحراس ذوو العيون الوقحة ، والبنادق المحشوة ، والرصاص الذى ينطلق بمناسبة ، وبغير مناسبة .

والتفكير فى الهرب ، مع وجود هذه الموانع القوية أمر لا يتفق مع صحة الجسم ولا صحة العقل ؛ فلم يكن مستغرب والحال هذه أن ينكب « يسار » على دراسة اللسان الفارسى ، على أساتذة من الهند كانوا نازلين نفس الدار . وكانوا على حظ عظيم من العلم والكرم والتقوى .

ولن تستطيع أن تتصور كيف أقبل « يسار » على تعلم الفارسية ، وبأى حماس ونَهَمٍ وشَرَه ! ولا بد لك ، لكى تفهم هذا ، أن تتصور رجلا قطع الصحراء الغربية من ليبيا إلى مصر سعياً على قدميه ، دون أن يأكل أو يشرب ؛ ثم ألقى نفسه فى فندق « مينا » أمام مائدة مكتظة محمّلة بأطايب الزاد والشراب ، والورد والريحان ، وقد بُذلت له كلها بذلاً — مجاناً — من غير أدنى مقابل ! فماذا عساه يصنع ؟ ليس من شك فى أنه لن يتردد طويلا ! بل ليس بعجيب أن نراه ينقض على المائدة انقضاضاً ، قد يضره فيه إسرافه ، لو ان المائدة مائدة طعام وشراب . ولكن مائدة الأدب ليس فيها إسراف ،

ولا يخشى من الانكباب عليها وَصَبٌ ولا ألم .

وهكذا أتيح لصديقنا أن يحقق أمنيته وأن يلتق وجهاً لوجه بالسعدى وحافظ والفردوسي والخيام ، وغيرهم من بلابل إيران الصادحة وطيورها الفَـرِدة .

* * *

ثم دارت الأيام دورتها ، وأخذ اسم يسار يظهر بين أدباء هذا الجيل ، ظهوراً ضئيلا ، وكأنما يمشى بين الناس على استحياء . وأخذ يذيع الشيء القليل من شعره اليسير . ولم أفكر في أن أبحث عن أثر الشعر الفارسي في كتابته . حتى إذا جاءت هذه الأيام ، التي أخذنا فيها نُعنى بإيران وشعر إيران ، حدثتنى نفسى أن أستطلعه عن أثر هـذا الشعر في نفسه وفيما نظم أو نثر . ودار بيننا الحوار الآتى :

ع : هل استطعت يا يسار أن تحاكى الشعر الفارسى في بعض أشعارك العربية ، كما كنت تشتهى أن تفعل وأنت فتًى غِرٌّ جاهل ؟

ى : لا زلت مصراً على رأيى الذى كنت أراه وأنا فتى غِرٌّ جاهل ، بأن تطعيم الشعر العربى بالشعر الفارسى يزيده حسناً ، ويدخل فيه أساليب جديدة .

ع : لا تراوغ في الإجابة ! إنى أريد منك أمثلة ملموسة محسوسة لِمَقَاطع من الشعر حاولت فيهـا محاكاة شعراء إيران .

ى : الذى لدى من هذا قليل ، ولست أحرص على إذاعته ، ولـكن تقصيرى في هذا لا ينبغى أن يمنع غيرى ممن هم أطول باعاً ولساناً وعلماً .

ع : لا بأس عليك من هذا ، والحديث الذى بيننا لن يطلع عليه أحد ، فهل كان تقليدك للشعر الفارسى في الأسلوب والصيغة ، أو في المعانى والموضوعات ؟

ى : لم أحاول سوى محاكاة الأسلوب ، وعلى الأخص في بعض نواحيه . فقد أعجبنى مثلا عند الفرس إطالة البيت بحيث يكون — في بحر الرمل أو الهزج مثلا — مكوناً من ثمانية أجزاء ، بدلا من ستة أو أربعـة كما هى الحال في الشعر العربى . هذه الإطالة تُتيح للمرء أن يضمّن البيت الواحد معنى كاملا . وبهذا يصبح البيت وحدة مستقلة ، مشتملا على فـكرة كاملة .

وقد سبق لى أن أنشدتك قطعة لى من هذا الطراز أولها :

لم تَزَل في القلب من حُبِّكِ يا لَيْـلى بَقِيَّـهْ
فاحذرى لا تقتليها ، فهْـىَ بالعيش حَرِيَّه !
آهِ ممَّا قد لقينا — أنا والحبُّ كِلانا —
منكِ حتى كِدت أن تقضى عَلَيْهِ وعَلَيَّهْ !

أما الناحية الثانية التى حاولت فيها محاكاة الأسلوب الفارسى ، فهى مايسمى عندهم « الشعر المُرَدَّف » ، وهو الذى ينتهى فيه كل بيت من القصيدة بكلمة أو عبارة تتكرر في آخر كل بيت ، وهـذه هى الرِّدف . أما القافية التى تصاغ عليها القصيدة فتسبق هذه الـكلمة أوالعبارة مباشرة .

وقد أعجبنى من هذا الأسلوب أنه يكسب القصيدة رنة موسيقية منسجمة ، كالنغمة الثابتة التى يعود إليها المنشد بعد أن يطوف في الآفاق ، ويحلق في جو السماء .

ع : فماذا لديك من الشعر العربى المردف ؟

ى : طالعت كثيراً من الشعر المردف في الفارسية قبل أن تخطر لى محاكاته في العربية ، إلى أن أملى على أستاذى قصيدة لحافظ الشيرازى آخرها كلمة عربيـة وهى الغياث .

وهذا مطلع القصيدة :

الغياث ! أى مايهٔ جان الغياث
كفر زلفت برد إيمان الغياث !
ما همه لب بسته ايم از تشنكى
درلبات ماء حيوان الغياث !
دربهاى بوسهٔ جانى طلبـه
مى كنند اين دلستانان الغياث !

وترجمتها إن كان لابد من ترجمتها :

الغيـاث يا مُتعة النفس الغياث !

إن كفر(1) عذارك ذهب بإيماني ؛ الغياث !
ما بال شفتى قد جفتا من شدة الظمأ
وفى شفتيك ماء الحياة ؛ الغياث !
إن سالبي القلوب هؤلا
يطلبون روحي ثمناً لقبلة — الغياث !

فعندما طالعت هذه القصيدة ووعيتها ، خيل لى أن من الممكن محاكاتها بشعر عربي يحتفظ فيه بالكلمة الأخيرة . ولكن لم يكن بد من اختيار قافية أخرى .

ع : والنتيجة ؟

ى : النتيجة قطعة ليست بذات شأن ، لولا أنها المحاولة الأولى ، ومطلعها :

أرسلتْ عيناه سهما — الغياث !
قد رمى القلبَ فأصمى — الغياث !
إن يك السهم من اللحظ فما
غير قلب الصب مرمى — الغياث !
مستهامٌ شفّه طول الظما
يشتهي من كفك الما — ء الغياث !

ع : فهل لديك سواها ؟

ى : بعد ذلك أخذت أختار الرديف من بين الألفاظ العربية ، التى تلائم هذا الطراز ، وقد تكون القطعة الآتية أقل فشلاً من الأولى ، وعنوانها : تعال !

حانَ حيني ! يا مُنَى نفسى تعالَ !
يا حياة الروح والحسّ تعال !
أنا ميتٌ من غرامي فإذا
شئت أن أنهض من رمسى تعال !
وتعال انظر لمن غادرته
غرضاً للغم واليأس تعال !
مُغرمٌ يصبح فى نار الجوى
لا تدعه فى الجوى يمسى تعال !
لم يدعْ لى الحب صوتاً مُسمعاً
ولذا أدعوك بالهمس تعال !
يا جميلا صاغه رب الورى
فتنة للجن والإنس تعال !
قلت لى : إن جئتُ فاخضع وامتثل !
يا على العينين والرأس تعال !

ع : أظن أن هذه القطعة لو هُذبت وصُقلت وأكملت ... فهل لديك سواها ؟

ى : هذه قطعة أخرى فى حاجة إلى الصقل والتهذيب وأولها الأبيات الآتية :

يا إله الحسن هذا الظلم فى الدنيا لماذا ؟
نحن ظمآى ، وعنا تمنع السُّقيا لماذا ؟
حُبكَ لا ترضى بأنا نلتقى فى يقظة
لِمَ تأبى أن ترى وجهك فى الرؤيا لماذا ؟
طائرُ القلب الذى حلّق فى جوّ الأماني
خرّ مقتولاً ، ولما يبلغ العليا لماذا ؟
إن فى عينيك للصب حياةً وردى
لِمَ آثرت بأن يردى ولا يحيا لماذا ؟

ع : عظيم جداً ! وأعجب من هذا كله أن الشعر المردف قد صيرك — وأنت ذلك البارد البليد — عاشقاً متيما ، ومحباً مغرماً : حقاً أن حافظاً الشيرازي قد أتى بالمعجزات .

ى : لولا أنك تظلمنى دائماً ، لتذكرت أن ليس هذا من شعر النسيب ، ولكنه من شعر التصوف على طريقة شيخنا الكبير لسان الغيب حافظ الشيرازي .

والآن دعنى من حديث الشعر والأدب ، فإنى منهمك فى إعداد مشروع لتجنيد رجال الجامعة للدفاع الوطنى ، وعلى رأسهم لطفى السيد وطه حسين وأحمد أمين .

قال الراوي : فانصرفت عنه ، وأنا أتمنى للدفاع الوطنى نجاحاً أتم من محاكاة الشعر الفارسي .

(طبق الأصل) محمد عوض محمد

(1) كثيراً ما يشبه السواد بالكفر كما يقال الليل كافر . وهذا كثير فى الشعر الفارسي .

من ذكريات الحج

للأستاذ عبد الحميد العبادى

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطوفت فى الآفاق شرقاً وغربا ، وشمالا وجنوبا ؛ فكنت فى كل أسفارى السابقة أشعر ، من شدة تعلقى بأهل بيتى وأولادى وخواص شئونى ، كأنى غادرت قلبى ورائى ، فكنت دائم التلفت كثير التذكر لمن خلّفت وما خلّفت . ولكنى عند ما يسّر الله لى فى العام الماضى حج بيته العتيق ، وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأنى عجباً من العجب ! فقد شعرت كأن قلبى أمامى ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلفتٌ إلى الوراء ، ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجهٌ إلى الأمام ، واندفاع بل انجذاب نحو الغاية التى تركت من أجلها من أحب وما أحب . بل لقد أنسيت نفسى ، وكنت مريضاً موعوكا ، وكان الطبيب قد رسم لى ما أتداوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحمد لله فى ذلك النسيان .

***

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو الشرق ، وما هى إلا أن تراءت سواحل الحجاز ، ورفعت لنا قمم جباله ، حتى عرا الركبَ نوع من الوجد والهيام يعرفه العشاق العاميد ، ويعرفه القربون الواصلون من الصوفية .

وحاذت بنا السفينة رابغا ، فأذّن مؤذنها أن أحرموا أيها الحجاج ، فما هى إلا سويعات قلائل حتى خيل إلى أن أهل السفينة قد استحالوا ملائكة أطهارا : أشباح قد اشتملت عليها ثياب بيض ساذجة ، ونفوس مطمئنة راضية ، ووجوه وضيئة مستبشرة ، وألسنة بالتلبية والدعاء منطلقة لاهجة . وكان لذلك النظر فى الركب جمال أى جمال ، فأما الشيب فقد خالط فيهم وقار السن جمال التقى فزادهم روعة ومهابة ، وأما الشباب فقد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة الصبا ، فعلتهم مسحة من التوقر والاطمئنان اللطيف !

***

ومابرح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة واستقبلتنا السيارات تؤم مكة أم القرى . فبلغناها فى الهزيع الثانى من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو نحس نصباً ، على بعد الشقة ، واتصال الحركة ، وامتناع النوم إلا غراراً فوق متن السفينة أو تهويماً على ظهر السيارة . وراح صحبى وقد شارفنا البلد الأمين ، يتذاكرون الحديبية ، وذاطوى ، وغار حراء ، وغار ثور ، وغير ذلك من المعاهد التى أثارت فى أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه وتأثله ، ذكريات ذلك النضال العظيم الذى كان بين محمد وقريش ، بين الإسلام الهادى والوثنية الضالة ، بين الحق الأبلج والباطل اللجلج ، ثم وذكرى ما احتمله الرسول وعصابته القليلة فى سبيل الدعوة ، من تكذيب ، واضطهاد ، وعدوان ، وارتجاع آخر الأمر عن الأهل والوطن والمال .

وبلغنا النزل الذى أعد لمقامنا بأعلى مكة ، فقذفنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا نؤم الحرم لنطوف بالكعبة ونسعى بين الصفا والمروة . وإنى أنس لا أنسى مشهدنا وقد انتظمنا موكباً واحداً وأخذنا ننحدر من المعلاة فى جوف الليل البهيم ونسير رويداً رويداً ، ومطوفنا بين أيدينا يهتف ملبياً بصوته الأجش ، فنردد نحن التلبية بأصوات منبعثة من أعماق قلوبنا ، فتتجاوب بأصدائها جنبات الطرق وتعض صعداً فى السماء . لقد كان المشهد رهيباً رائعاً ،

ومنه عرفت كيف تسمو الروحانية فى الإنسان على المادية متى استغرقته الفكرة السامية وتولاه الإيمان العميق .

ثم يقف المطوف ويقف الموكب لوقوفه ، فإذا بنا قبالة باب عظيم من أبواب الحرم الكثيرة . وتحتبس الأنفاس ، وتجب القلوب ، وتمتد الأبصار ، كأنما تريد أن تلقف بنظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذى كان يضم فى تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والقائمين والركع السجود . وكنت قد قرأت فى بعض الكتب وصف الحرم المكى فلم يشق علىّ أن أتبين معالمه لأول مثولى فيه . فهذه الكعبة مؤزرة بالسواد ومحتلة قرارة المسجد ووسطه . وهذا الحجر الأسود يتزاحم الناس على استلامه ، وهذا حجر اسمعيل ، وهذا المطاف من حول الكعبة يتدافع الطائفون فيه تدافعاً ، وهذا مقام ابراهيم ، وتلك بئر زمزم يردها الطائفون ويشربون منها عللا بعد نهل . وهذا سائر المسجد من حول ذلك كله . والمسجد فى جملته مسقوفة حواشيه ، وأما سائره فسقفه السماء وفرشه الحصباء ، وتطل عليه جبال أبى قبيس وقعيقعان والصفا والمروة .

وإنها لك بقعة عجيبة قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشاداً ، واحتفلت فيها مظاهرها الرائعة احتفالاً ! قد تمثلت فيها السماء بنجومها وكواكبها ، والأرض بسهلها وجبلها ، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة . فآناً شمس طالعة ، وآناً قمر بازغ ، وآناً نجوم متألقة . وآناً حر لافح ، وآناً برد قارس ، وآونة جفاف تتقاص منه الشفاه ، وأخرى سيول دافعة تنحط من أعالى الجبال وتستقر حول الكعبة نفسها ، وآناً سماء مصحية وجو طلق ، وآناً سحاب مركوم ، ورعد مجلجل ، وبرق خاطف .

كم للتعبد فى هذه البقعة بعينها من معانى التوجه المباشر إلى الواحد القهار المسخر لقوى الطبيعة ، والمصرف لها على هذا النحو الذى لا يحتمل جدلاً ولامراء ! وكفى بهذا التعبد باعثاً للعبد على الانابة والاخبات والخشوع ، وكفى به مشعراً لقلبه بحقارة الإنسان وضعفه وعجزه ، وبأنه إنما هو ذرة فى محيط هذا الوجود الذى لا يسبر الوهم غوره ، ولا يدرك الخيال مداه . هنا يجد الانسان نفسه وجهاً لوجه أمام ما يعرف فى الفن الرفيع والأدب العالى بالعظيم والجليل حساً ومعنى .

* * *

إذا كان الحرم المكى يوحى إلى النفس بمعنى ما هو قوى ورائع وجليل ، فان للوقوف بعرفة — وهو أهم مناسك الحج — وحياً آخر ومغزى عظيم الشأن .

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلو متراً ، ويشرف على هضبة مترامية الأطراف ، ينزلها الحجيج فى مضاربهم وخيامهم ، معهم أزوادهم ورواحلهم وسياراتهم التى تقلهم . فإذا كان عصر يوم الوقوف بعرفة أخذ الحجاج يخرجون من خيامهم فيصعدون فى الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه ، ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم ، ثم يعودون وقد طفلت الشمس للغروب مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حطت عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من حياتهم بيضاء يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم . ولقد وقفت بعرفة مع الواقفين ، ودعوت الله مع الداعين ، وأشهد أن المنظر رائع بل هائل ! وأى منظر أشد هولاً من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء ، ولكن من خلائق يموج بعضها فى بعض ، فتحس لها همهمة البحر المحيط أو الجيش اللهام ؟ ومع ذلك فكل ملقى السلاح ، وكل مقر بالضعف ، معترف بالعبودية ، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها ، فلا فاضل ولا مفضول ، ولا سيد ولا مسود ، ولا رفيع ولا وضيع . لقد جاءوا الله كما خلقهم ، وكما يقبضهم ، وكما ينشئهم النشأة الأخرى .

لقد ردوا أنفسهم فى ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التى يتساوى فيها الناس جميعاً، وعلموا أن ما سواها متاع الغرور.

* * *

وإذا كان الحج بركنيه العظيمين من طواف بالكعبة ووقوف بعرفة يوحى معانى الجلال والبساطة، فإن فى الحجاز مشهداً ثالثاً ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس، ولكن شهوده واجب على المسلم فى شرعة الذوق السليم على أقل تقدير. ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة. ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يهزنى شوق يختلف عن ذلك الذى كانت تضطرم به جوانحى عند توجهنا إلى مكة. لقد كان الشوق الأول شوقاً إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير. أما الثانى فكان شوقاً إلى المعلوم غير المجهول، إلى إنسان أثير حبيب.

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على الثاوى بالمدينة عليه السلام، فهو حبيب إلى الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته، وهو حبيب إلى الإنسانية بما أسدى إليها من صنيع باق على وجه الزمان.

شارفنا المدينة فتواردت على الذاكرة أحداث ذلك البلد الذى يعد فى مقدمة البلدان التى أثرت فى تاريخ العالم أبلغ التأثير. ألا إنه إذا عدت أثينا عظيمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة، وعدت روما عظيمة بما انبعثت فى عالم السياسة من دولة فخمة، فإن المدينة عظيمة بالأمرين جميعاً، وكفاها فخراً أنها مهد المدنية الإسلامية والدولة العربية، ومثوى محمد بن عبد الله.

وطفقنا نتجول فى خطط المدينة وطرقها الضيقة الملتوية ونتنشق بها ريح القدم وعظمة الماضى ونتعرف معالمها ومعاهدها: هنا بركت ناقة الرسول لأول قدومه المدينة، هناك السنح الذى نزله أبو بكر، تلك آطام اليهود، هذا أثر الخندق، ذلك جبل أحد، تلك سقيفة بنى ساعدة، هذا البقيع، وهنا مهوى الأفئدة ومحط الرحال، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف. ألا لقد رأيت فى أسفارى قبور كثير من عظماء الشرق والغرب، وأشهد أنى لم يأخذنى شىء من الرهبة والهيبة التى أخذتنى عند ما وقفت حيال قبر الرسول العربى. إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمكان. أما عظمة محمد فمطلقة ليس للمكان ولا للزمان عليها سبيل. أولئك وردوا وشلا تحت أقدامهم وفى متناول أيديهم، وأما محمد فورد بحر الحقيقة الطامى وسر الوجود الخالق فنهل وعلّ، أولئك بادوا وأصبحوا أحاديث، وأما محمد فاستحال قوة فى هذا العالم كقوى الطبيعة باقية ما بقيت الأرض والسماء.

والمسجد النبوى تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفة الروح والوقار والهيبة. وقد لزمه الطابع الذى كان له على عهد الرسول، طابع منزل الرسول ومجلس الرسول ومسجد الرسول، فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسست أنك فى منزل صديق حميم أو أخ كريم. كل شىء فيه يبعث فيك الأنس وينفى عنك الوحشة، فأنت فى منزلك، على حد تعبيرنا المألوف، تلك السقوف العالية تتدلى منها الثريات الوهاجة، وتلك البسط الوثيرة، وتلك النقوش المذهبة تغشى الجدران، وتلك المحاريب الأثرية النفيسة، وتلك القبة الذاهبة فى السماء؛ كل ذلك فيه معنى اللطف ومعنى الأنس، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان الصادق والإنسانية الصحيحة. الحرم المكى يريك معنى الإله والألوهية، والحرم المدنى يريك معنى الإنسان والإنسانية.

كل ما فى المدينة جميل: جمال فى الطبيعة تعرفه فى الماء والزرع والسهل والجبل، وجمال فى الخلق تعرفه فى دعة أهل المدينة، الذين رضى أسلافهم الأنصار برسول الله قسما وحظا فى حياته وبعد مماته، ثم جمال ثالث فى المسجد وفى الذكرى التى يثيرها. جمال فى جمال فى جمال.

* * *

أما بعد فإن الجلال بمكة، والبساطة بعرفة، والجمال بالمدينة. ولست أعرف قطراً آخر أجمع لهذه المعانى الثلاثة من الحجاز.

عبد الحميد العبادى

واجب الأخصائى الاجتماعى إزاء المجتمع *

وواجب المجتمع إزاءه

للدكتور محمد عبد المنعم بك رياض

واجبات الأخصائى الاجتماعى نحو المجتمع متعددة، وتختلف باختلاف الميدان الذى يعمل فيه — أذكر أن حضرة صاحب العزة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف العمومية ومن قادة الأخصائيين الاجتماعيين فى مصر، قد قسم ميادين الخدمة الاجتماعية إلى ميدان إنشائى (Constructive) وهو الذى يعمل فيه الأخصائى الاجتماعى لإقامة نوع جديد من الخدمات الاجتماعية أو تنظيمها، وإلى ميدان علاجى (Curative) وهو الذى يعمل فيه الأخصائى لفحص الحالات التى تحتاج المعونة فيقوم بعلاجها، وميدان وقائى (Preventive) وهو العمل على وقاية المجتمع من الشرور التى تصيب أهله وتدفعهم إلى البؤس أو المرض — هناك تقسيم آخر لواجبات الأخصائى الاجتماعى، فإن هـذه الواجبات إما أن تتعلق بأحوال فردية وإما أن تتعلق بجماعات، فى الميـدان الفردى يقوم الأخصائى الاجتماعى ببحث الأفراد الذين يعنى بهم واحداً واحداً، ويعمل على أن يعالج كلا منهم مع النظر إلى الوسط الذى يعيش فيه، فيلائم بين حاجة الفرد وحالة بيئته — يدخل فى هذا النوع الأعمال المتعلقة بتحسين حال الأسرة وبإنقاذ الطفولة المهملة وبالتعليم، وأقصد بالتعليم هنا التعليم الفردى، أى إعطاء قسط من التعليم يتناسب مع حالة الطفل أو التلميذ، فإن كانت به عاهة مثلاً أو كان غير ناضج أو كان شاذاً استقصى سبب نقصه أو شذوذه، واتبع فى تعليمه الأسلوب الذى يناسبه. ويدخل أيضاً فى النوع الفردى أعمال الزيارة الصحية التى يقصد بها درس حالة كل مريض ومعرفة سبب مرضه ومنع عدوته، وأعمال الفحص العقلى أو النفسى، وأعمال رعاية الأحداث وحمايتهم من عوامل الفساد أو التشرد، وهداية المجرمين حتى يتنكبوا طريق الإجرام. أما ميدان الجماعات فهو الميدان الذى يواجه فيه الأخصائى الاجتماعى حالة رهط من الناس أو جماعة من الجماعات، كأن يتولى تنظيم نادٍ أو رحلة أو يشرف على التغذية أو الرياضة أو الصحة فى منطقة أو حى أو مدرسة، أو يشتغل فى إدارة هيئة اجتماعيـة. ويدخل فى هذا النوع عمل الجمعية التى تتشرف جميعاً بالانتساب إليها، وهى جمعية الدراسات الاجتماعيـة، فإن من الأغراض الأساسية التى أنشئت من أجلها وضع برامج جديدة لأعمال الإصلاح الاجتماعى وتنسيق الأعمال الاجتماعية المختلفة والإشراف عليها.

لذا كان لاشتراك الأخصائيين الاجتماعيين فى مثل هذه الهيئة فائدة كبرى لهم وللمجتمع، فهم يستفيدون من اتصالهم بعضهم بالبعض، ومن اتصالهم بالهيئات والأفراد الذين يعملون على علاج المجتمع أو على توجيهه التوجيه الحسن.

فالاشتراك فى هذه الجمعية هو وحده خدمة اجتماعية، إذ يتولى المشتركون نصيباً فى أبحاث الجمعية المختلفة وفى لجانها، ويستطيعون أن يساهموا فى تحرير المجلة التى تعبر عن آراء المشتغلين بالخدمات والمسائل الاجتماعية، وأن يساهموا فى استنباط وسائل جديدة لخدمة المجتمع أو إصلاحه، وفى غير ذلك من الأعمال التى تحتاج لجهود

* خلاصـة المحاضرة التى ألقاها عزته على طلبة مدرسة الخدمة الاجتماعية.

مشتركة مختلفة ، كتحضير الأبحاث والدراسات اللازمة لوضع النظم الاجتماعية على أسس علمية صحيحة ، ووضع الكتب والمصنفات ، أو إلقاء المحاضرات التي ترشد الجهود إلى خير الوسائل لوقاية المجتمع أو إصلاحه . هذه هي أهم الواجبات التي يقوم بها الاخصائي الاجتماعي نحو المجتمع الذي يعمل فيه ، ويمكن تلخيصها في عبارة واحدة ، وهي مساعدة أفراد المجتمع على حسن الأداء لمهمة الحياة . فالحياة فن من الفنون قلما ندرك كنهه ، لأننا نقطع طريقها كما قطعه أسلافنا ، دون أن ندقق في المواقف العديدة التي تتضمنها كل خطوة في سبيله ؛ مثلنا في ذلك كمثل القارىء الذي يقرأ كتاباً دون أن يستشعر المتاعب التي احتملت في وضعه وإخراجه وفي طبعه وتجليده ، ولا يعني بإدراك أن كل سطر بل كل حرف في الكتاب هو نتيجة لتجارب عديدة قام بها المؤلف أو غيره من علماء وكتاب ومخترعين وغير ذلك . فالحياة أمامنا هي أمر عادي ، فأناس تروح وتغدو أمامنا ولا نفكر فيما قد يكون في سبيل كل منهم من مصاعب ، مع أن كلاً منا لم يولد في عالم ميسر بطبيعته ليتلاءم معه ، كدار ألفناها لتتفق مع رغباتنا ، بل يدخل كل منا هذا العالم الدائم التقلب ، طبقاً لنواميس طبيعية لا دخل فيها لوجودنا . وبعبارة أخرى يدخل الانسان عالماً له أحواله وظروفه المتغيرة ؛ وواجب الانسان أن يلائم بين نفسه وبين هذا العالم ملاءمة السعادة للجانبين ، هذا الواجب يزيد ويتضاعف كل لحظة ، لأن ظروف العالم ليست مستقرة ، ويجب على الانسان أن يوفق بين نفسه والأشياء التي تكتنفه والبيئات التي ينتقل فيها ، فالطفل ساعة الميلاد تتوقف حياته على مقدرته على التنفس والحصول على الهواء من الخارج بدلاً مما كان يحصل عليه بواسطة أمه وهو جنين بين أحشائها ، وبعد ساعات قليلة من ميلاده يجب أن يقوم بعملية الهضم ليعيش ، وكلما كبر وجب أن يتعود ما يطرأ من تغييرات في الحرارة وفي تقلب الفصول ومقاومة الميكروبات وغير ذلك ؛ فإذا فشل في تهيئة نفسه لأي دور من هذه الأدوار كان هذا الفشل قاضياً على حياته . ومن فضل الله أن جزءاً لا يستهان به من وسائل التهيئة يتم بشكل آلي وبدون إرادة الانسان ، ولكن هناك نوعاً من التهيئة تدخل فيه الارادة بل يحتاج الانسان فيه إلى صراع وقد يكون صراعاً شديداً ، هذا هو تهيئة الانسان نفسه ليتلاءم مع الأشخاص والظروف ، فهو يستيقظ لا تبعاً لشروق الشمس بل تبعاً لحاجة عمله ، ويتناول طعامه في المواعيد التي تناسب واجباته وتتفق مع ظروف الأشخاص الذين يعيشون معه ، ثم هو يجب أن يخضع نفسه لمواعيد القطارات في السفر ، ونظم المرور في الطرقات ، وأن يوفق بين دخله وبين رغباته ، وبين رغباته ورغبات جيرانه وزملائه ، بل بين نفسه وبين بيئته وبلدته ووطنه ، وأن يتهيأ لما يمر فيه من أدوار كالمراهقة والاستقلال عن أسرته ونقص دخله أو زيادته وإصابته بالمرض ، أو تعرضه لظروف لا يستطيع معها العمل أو اكتساب الرزق . ويجب أن يواجه التغيرات التي يلقاها في حياته كأن يتزوج أو يولد له ولد أو يصاب بخيبة في عاطفة من عواطفه — كل هذه الظروف والأدوار والتغيرات تختلف باختلاف الناس ، ولكن كلها تتضمن مشكلة واحدة هي مشكلة التوفيق والملاءمة ، وهي المشكلة الأولى التي يجب أن يستعد الاخصائي الاجتماعي لمواجهتها وحلها . وعليه أن يبحث دائماً عن أفضل الوسائل التي تساعد على التوفيق بين الشخص ووسطه أو بيئته ؛ هذا هو أساس الخدمة الاجتماعية التي يلتزم بها الاخصائي الاجتماعي نحو المجتمع .

كذلك على المجتمع واجب إزاء الاخصائي الاجتماعي ، إذ يجب أن يوجد فيه من الأسباب ما يساعد الاخصائي الاجتماعي على أداء واجبه — يجب أن يكون بحيث يسهل له القيام بعمله كأن تنشأ المؤسسات وتعد الهيئات التي تنظم عمل الاخصائيين الاجتماعيين وتهيىء لهم سبيل الخدمة والارشاد والعلاج والوقاية — وهنا يجب أن لا نغفل الإشارة إلى الأساس الأول الذي لا يمكن أن يقام

بدونه نظام محكم للخدمات الاجتماعية ، ألا وهو المال ؛ فبالمال تنشأ المؤسسات والهيئات الاجتماعية التي يمكن أن يلتحق بها الاخصائيون الاجتماعيون ، ولا يقتصر واجب دفع المال على الحكومة ، بل إن على الأفراد أيضاً واجب المساهمة في جمع مايلزم من المال لأعمال الخدمات الاجتماعية . وأفضل طريقة لذلك هي تنظيم الاحسان ، فالإحسان الفردي الذي نراه هنا في مصر لا يؤدي إلى نتيجة مجدية بل هو إساءة للإحسان . وقد كان هذا هو الحال في أوربا وأمريكا إلى أن تنبه القوم للنتائج السيئة التي تنتج من كثرة الجهات التي تتطلب الاحسان وما يستتبعه ذلك من توزيع الجهود التي تبذل في جمع المال للأغراض الخيرية والإنسانية ، ولاحظوا أن مايجمع بهذه الوسائل المتشعبة لا يفي بالمقصود ، فوحدت الجهود في أكثر البلاد ، وأنشئت في كل بلد أو منطقة هيئة أو جمعية يركز فيها جمع المال للأعمال الخيرية والاجتماعية . هنا أيضاً أستطيع أن أشير إلى جمعيتنا «جمعية الدراسات الاجتماعية» فهي واسطة صالحة يتجمع فيها كرم المتبرعين وتتضام فيها جهود الاجتماعيين ، فتكون مركزاً للمشتغلين بتلك المهمة السامية مهمة خدمة المجتمع ، ومستودعاً أميناً يجد فيه المتبرعون خزانة يودعون فيها ما يساهمون به في إصلاح المجتمع الذي يعيشون فيه .

فمن ناحية إذن يجب على الاخصائي الاجتماعي أن يقوم بنصيبه في وقاية المجتمع وتخفيف ويلاته ، ومن ناحية أخرى يجب على المجتمع أن يساعد الاخصائي الاجتماعي ويشجعه ويمده بالمال وبالوسائل التي تمكنه من أداء واجبه على الوجه الأكمل .

وفي كلتا الناحيتين نحتاج إلى هيئة منظمة صالحة أمينة توحد فيها جهود الاجتماعيين نحو المجتمع ، وتركز فيها جهود المجتمع نحو المجتمعين ، ونحمد الله على أن هذه الهيئة قد وجدت بالنسبة للشئون الاجتماعية في الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية .

رحلتى إلى الحجاز

بقلم الآنسة فاطمة فهمى

وصلت إلى جدة جد متعبة ، وبعد أن استرحت ليلتى بفندق بنك مصر الذى يجمع كل وسائل الراحة ، خرجت فى الصباح — وكان يوم جمعة — لجولة صغيرة فى المدينة ، فإذا بى لا أرى غير بضعة منازل انتشرت هنا وهناك . أما السوق الوحيدة فى المدينة فعبارة عن زقاق طويل ضيق ، والدكاكين فيه صغيرة بسيطة تحوى أنواع العطارة والخضر والسمك والمنسوجات مجتمعة . وفى أثناء مرورى قرب الظهر شاهدت الجند يسيرون فى السوق وينادون : « الصلاة الصلاة ! » والناس يسارعون إلى المسجد تاركين متاجرهم مفتوحة دون حارس يحرسها فدهشت ، ولكنى علمت أنه لا يجرؤ أحد على سرقتها ، فالسارق هناك تقطع يده عملا بقوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » وقد شاهدت بنفسى يداً قطعت على مرأى من الناس وعلقت على باب المحافظة لتكون عبرة لمن يعتبر .



السيارة بين جدة ومكة

بين جدة ومكة :

وأما الطريق بين جدة ومكة فعبارة عن واد غير ذى زرع يرتفع وينخفض انخفاضاً يرفع الراكب من مكانه فى السيارة حتى يصطدم رأسه بسقفها ، ولا يحضرنى الآن عدد المرات التى اصطدم فيها رأسى المسكين . وعطشت وأنا فى الطريق وكانت (زمزميتى) قد كسرت ووقعت على حاملها فانتظرت حتى مررنا بقهوة بسيطة ، ولكن منظرها لم يشجعنى على الشرب منها ، فالتفت حولى علنى أجد ما هو خير منها ، فرأيت دكاناً لبيع الفاكهة ، فاشتريت منها برتقالا وهو ليس بالرخص الذى تعودناه فى بلادنا فارتويت منه .



الكعبة الشريفة والحجاج يؤدون الصلاة

مكة المكرمة :

وصلنا مكة المكرمة وذهبنا إلى فندق بنك مصر وفيه تمتعنا بالراحة التامة ، فجزى الله عنا بنك مصر وأهله خير الجزاء . وبعد أن استرحنا ذهبنا إلى الحرم الشريف فدخلناه من باب السلام ، وهو أحد أبوابه التى تزيد على الأربعين ، وأخذ المطوف يطوف بنا ويقرأ عبارات الدعاء لاحناً فيها ما شاء له اللحن ، مما اضطرنى فيما بعد إلى الاعتماد على كتيب صغير ، فكان بعد ذلك إهانة له وتخجيل أن يراه الناس يطوف صامتاً ، وكنت أستصحبه ليفسح الطريق لى فقط ، وكثيراً ما كنت أقوم بعمل الطوف وأطوف بمفردى مساء حين يقل الزحام حول الكعبة .

الحجر الأسود :

كانت والدتي التي سافرت أكثر من مرة قبلي إلى الحجاز تقول لي : « أرجو يا ابنتي أن يتاح لك تقبيل الحجر الأسود » ، فكنت أعجب من قولها عجباً شديداً . ولكني عندما حللت بالأرض المقدسة وشاهدت الحجر كنت من أشد الناس مزاحمة للاقتراب منه ، وقبلته في لهف شديد ، وكانت رائحته ذكية حتى اشتهيت ألا أغادره لولا أن الزحام لم يترك لي غير فرصة اللمس والانسحاب .

زمزم :

حقاً أن ماء زمزم لما شرب له فقد شربته أول مرة ولم أستسغه ، ولكني لما رأيت فائدته كنت أشرب منه عقب صلواتي في كل يوم .

والحجازيون مولعون بشرب الشاي ولعاً عظيماً ، ويقدمونه في كل وقت . وقد زرت عائلة سمو الأمير فيصل فقدم إليّ الشاي الصافي دون مزجه باللبن في أكواب من الزجاج .



كاتبة المقال بلباس الإحرام في عرفة

إلى عرفة :

كان جبل عرفة قبلة الحجاج جميعاً يوم الوقفة ، فكان الطريق غاصاً بالسيارات والجمال والحمير والراجلين . وقد تعجب إذا علمت أن بعض هؤلاء الراجلين قد أتوا من بلاد نائية حفاة الأقدام ، وظهورهم مثقلة بما يحملون من مؤونة ومتاع . ولقد كان منظرهم حقاً يدعو إلى الاشفاق . إذ كانت الشمس عند ذلك على أشد ما تكون من الحرارة ، وهم يعتقدون أن الثواب على قدر المشقة .

وصلنا إلى عرفة وبعد أن استرحنا في الخيام التي كانت متراصة جنباً إلى جنب كأنها خلايا النحل ، توجهنا إلى جبل الرحمة وهو الجبل الذي تقابلت فوقه أمنا حواء وأبونا آدم وصلى عنده رسول الله ، وهناك تجد الزحام قد بلغ أشده .



الحجاج أثناء الدعاء في عرفات

نظرت حولي فوجدت نفسي وكأني في معرض لوجوه أمم الاسلام ، كل سحنة مختلفة عن غيرها ، وقد اجتمع كل هؤلاء في بقعة واحدة لغرض واحد هو الايمان بالله وأداء ما فرضه عليهم ، وأثناء قراءة الدعاء في هذه البقعة تغير

(البقية على الصفحة التالية)

المشية والخلق

للدكتور طاهر خميرى

— أتعرفه ، هذا الجالس وحده عند المائدة الثالثة على اليمين ؟

— لا ، لا أعرفه ولا أذكر أنى رأيته من قبل .

— من أى بلاد تظنه ؟

— من إيطاليا أو أسبانيا .

— لو قلتَ من مصر أو الشام لكنتَ أقرب إلى الحقيقة .

— أنتَ تعرفه إذن ؟

— لا ، ولكنى رأيته ماشياً ... فعرفت من مشيته أنه شرق .

— وهل للشرقيين مشية خاصة أيضاً ؟

— إى نعم . المشية الشرقية فى نظرى هى أخصّ مميزات الشرق .

— وكيف تصف هذه المشية الشرقية ؟

— ليس ذلك بالأمر الهين ... ثم إنى أخشى غضبك إن أنا فعلت .

— تفضل ولا بأس عليك فلسنا بأطفال .

— كيف أصف لك المشية الشرقية .. اضطراب .. تفكّك ... انحلال ... هى مثل الموسيقى الشرقية ، فيها رقة لا تخلو من جمال ، وفيها وقار يسمو بها أحياناً إلى النهاية ؛ ولكن ليس فيها قوة وليس لها غاية ... ثم هذه السكآبة وقلة التنوع فى الموسيقى الشرقية يقابلهما اليأس والحيرة فى المشية الشرقية ... قد يسرع الشرق فى مشيته ويوسع خطاه ، وقد يندفع ويسابق ، ويقتحم ويزاحم ، ولكنك لا ترى فى كل ذلك ما يدل على أنه « يريد » الوصول إلى مكان معين .

— وكل هذه الصفات خاصة بنا دون غيرنا ؟ .

— لا أقول إنها خاصة بكم دون غيركم ، فهى موجودة ومعروفة عندنا أيضاً ، ولكنها نادرة ... ليست نموذجية ... لا يصح أن يقال عنها إنها تمثل المشية الأوربية .

— قد سئمت والله حديث النماذج والنموذجيات ، والأمثال والمثلات : لقد أفسدتم الأسلوب العلمى ، والتفكير السليم بهذه القوالب الصناعية . « فليس بالقياس تجرى أمور الناس » .

— هذا صحيح غير أنه لا ينطبق على علم المشية والخلق .

الجو لجأة من شمس وهاجة إلى غيام وسحاب ، ومن حرارة قوية إلى برد لطيف . وبعد ذلك ابتدأ مطر خفيف فلم يعبأ به أحد ، إذ كان كل منا منهمكا فى الدعاء لله ؛ ولكن المطر اشتد فتفرق الحجاج كل إلى خيمته ، وضللت أنا الطريق ولم أعثر على الزملاء ، فنالنى من المطر ما نالنى . وبعد أداء الفريضة وإتمام شعائر الحج عدنا إلى الوطن شاكرين الله على هذا التوفيق . ولم آسف على شىء إلا على عدم زيارتى لقبر رسول الله الذى حال دونه مرضى ، ولكنى قوية الأمل فى الحج والزيارة مرة ثانية ، وفقنا الله جميعاً إلى مرضاته تعالى .

فاطمة فهمى

— « علم » المشية والخلق : أو قد صار علماً هذا !!... ؟

— هذا العلم ! نعم ! قلها ولا تبال . أما أنا فقد لاحظتُ وقارنتُ وأحصيتُ وراجعتُ ، فاجتمع لدىّ من المواد ما يكفي لوضع علم جديد .

— ألا تحدثني عن تاريخ هذا العلم الجديد ؟ كيف ابتدأت الخ .

— كانت أبحاثي الأولى في المشية والعقل ، فدرست مشية السكران والمعتوه والمتخلف والضعيف العقل والصبي . ثم درست المشية والحرفة ؛ فكنت أول الأمر لا أعرف مشية التاجر من مشية الموظف ، ولا مشية العالم من مشية الفنان ؛ فواصلت البحث حتى صرت أستطيع تعيين رتبة الضابط وهو بلباس السهرة ... ثم تعرفت بالأستاذ (ب) . وأظهر اهتماماً شديداً بهذا الموضوع ، فكان يأتي إلى عيادتي مرتين في الأسبوع مدة سنتين ، فنراقب المرضى من النافذة بعد خروجهم ، ونقابل نتيجة فحصهم بخصائص مشيتهم . واكتشفنا أشياء كثيرة أهمها مشية التخنث . وفي السنوات الأخيرة قمت بسياحة طويلة في بلاد الشرق الأدنى وشمالي أفريقيا كما تعلم ، فكنت أجلس في مقاهي الطبقات المختلفة ، فألاحظ المارة وأتحدث مع الجالسين . كانت دراسات هذا العهد أخصب وأمتع وأكثر تنوعاً من كل دراساتي السابقة ... مشية البدوي المتحضر ، والفلاح المتمدن ، والشيخ المتفرنج ، وحديث النعمة ، وربيب النعمة ... ثم أنواع المتفرنجين الذين تفرنجوا في أوربا والذين تفرنجوا « محلياً » ... هذه هي خلاصة تاريخ علم المشية والخلق .

— وأي المشيات الشرقية تعجبك ؟

— تعجبني مشية المرأة البدوية والفلاحة المصرية ، وأكثر أساتذة المعاهد الدينية ، وبعض متفرنجي الجيل الماضي .

— لماذا لا يعجبكم من الشرق إلا القديم ؟

— هذا طبيعي ومعقول لأن الجديد عندكم مقتبس من الغرب وأنتم لا تحسنون الاقتباس ... انظر إلى الطلبة الشرقيين في أوربا مثلاً ! كيف تصفهم ؟ الفقير منهم يشبه الوقّاد الهندي أو الصومالي إذا خرج من الباخرة ليتجول في شوارع ليفربول ، والغني يذكرك بالبقّال الاسباني بلباس العيد ... أين هذا من وقار الشيخ المعمّم ؟

— المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في زيه وعوائده وسائر أحواله ، كما قال ابن خلدون : يظهر أن هذا ناموس اجتماعي لامفرّ منه .

— أتعتقد حقيقة أننا من الغالبين ؟ إني لأشك في ذلك . نعم نحن أكثر منكم مالاً وعدداً ، ولكن ماذا صنعنا بذلك ؟ انظر إلى تاريخ جيلنا هذا . . . حرب وهدم ، ثم بناء فبطالة ، ثم استعداد للحرب ، ثم حرب وهدم فبناء فبطالة فاستعداد للحرب ، وهكذا ... نحن كما قال شاعركم : « لدوا للموت وابنوا للخراب » فهلا فكرتم في عاقبة الاقتداء بنا . . . أم تطمعون أن تسلكوا نفس الطريق ولا تصلوا إلى نفس الغاية ؟ هل يجنى من الشوك العنب ؟ هلا غيرتم من مشيتكم دون أن تقلدوا مشيتنا . . . الله ! الساعة السابعة ! يجب أن أسرع . تعال رافقني إلى المحطة .

— لا أظنني قادراً على القيام بعد كل هذا — فضلا عن المشي .

— إذن مع السلامة ، ولا تنس موعدنا يوم الخميس الساعة الرابعة .

طاهر خميري

همبرج (ألمانيا)

وقفة على قبر الشاعر الكبير :

المرحوم الأستاذ محمد الهراوى

للأستاذ أحمد الزين

ذِكْرَى إذا حال مَوْتٌ بيننا تَصِلُ
ما تنقضي لكَ حتى ينقضي الأجَلُ

تُعيد لى من زمان الوُدِّ ناضِرَه
فيها الحديثُ وفيها المجلسُ الحَفِلُ

أرى فؤادَكَ فى مِرآتِها مَرِحًا
وألمحُ الوجهَ فيه البِشرُ والجَذَلُ

فيها حياتُكَ لا موتٌ ولا هِرَمٌ
فيها زمانُ الصِّبا والعمرُ مقتبِلُ

يا ليتَ خالقَ هذا الموتِ فرّقنا
فى البدْء ما وصلُ ما بالموت ينفصلُ

وما اشتهاؤكَ وُدًّا حُزنُ آخِرِه
يُنسيك ما أفرحتْ أيامُه الأُوَلُ

دعِ الهيامَ بما تُبلَى محاسنُه
يمضى وتخلُفُه الأحزانُ والعِلَلُ

عَيْبُ الجمالِ بِلاهُ بعد جِدَّتِه
يا ليت عُشّاقه قبل الهوى عقَلوا

فاملأْ فؤادكَ من يأسٍ تُرِحْهُ به
أشقى نفوسَ الورى شيء هو الأملُ

***

فى الذِّكْرَياتِ وفاءٌ أستعيضُ به
عمّن فقدتُ ووُدٌّ ليس ينتقلُ

كأنك اليوم (بالحلمية) على
ما قد تعوّدتَ لا خُلفٌ ولا مَلَلُ

تظَلُّ بين وفودِ الزائرين بها
وفدٌ يحُلُّ ووفدٌ بعدُ يرتحِلُ

مُستعذَبَ المزحِ تلهو غيرَ منتقِصٍ
أخًا وإن بان منه الغشُّ والدَّخَلُ

تُصفِى إخاءكَ مَنْ عقُّوا ومن حفِظوا
وتَمنحُ الودَّ مَنْ ضنُّوا ومن بذَلوا

وكم جزَوا وُدَّكَ الغالى عقوقَهمُ
فلم تُبالِ بما قالوا وما فعلوا

وما ندمتَ على غرسٍ بذأتَ به
بل زدتَه الرِّىَّ تُحيِيه فما خجلوا

ما زلتَ تكرُمُ فيهم كلّما لؤُموا
نفسًا وتسمو فعالًا كلّما سفُلوا

تجزِى إساءتَهم أضعافَها صِلةً
كأنّما نفثتْ فى قلبكَ الرُّسُلُ

سَرَتْ أفاعيهمُ بالسُّمِّ فانقلبتْ
فى زَهْرِ وُدِّكَ نحلًا جَنْيُها عسلُ

إذا الخلود أرادت قلبه وطناً
ضلت سراها وسدت نحوه السبل
كم سائل ربه عن فقده عوضاً
لو أنصفوا ودك المفقود ما سألوا
وكل ماض له من فقده بدل
إلا الوفاء فما من فقده بدل
وكل رزء – وإن جل المصاب به
إلا مصابك بالاخوان – محتمل
يا دولة بجلال الخلق حافلة
أهكذا تنطوى فى أوجها الدول ؟
وراحلاً وده فى القلب متصل
حل البكاء عليك الدهر متصل
قد كان حظك وثاباً فأقعده
صراحة بك فيها يضرب المثل
كأن قلبك أفق الشمس منبعث
فى روعة النور منه القول والعمل
صراحة كم سقتك المر تجربها
ولم يثن منك فيها عذل من عذلوا
آثرتها وظللت العمر مغتبطاً
بنقص حظك حين الخلق مكتمل

أحمد الزين

وحى الربيع :

معنى الربيع

أيهذا الربيع إنك معنى
فى ضمير الزمان منذ قديم
يتجلى فى صدحة الطير والغصـ
ن ، وفى كل صادح ووسيم
كل عام ... لم ينسه قط عام
حين يدنو من حسنه المرسوم
نتلقاه فى الطبيعة شعراً
صاغه الجرس ، عالى التنغيم
زاده عائد السنين بياناً
فنصيبى منه نصيب النظيم !

انسجام الحياة فى الربيع

ما للحياة كأنها حلم !
ما للنسيم كأنه نغم
ما للرياض كأن طلعتها
وجه الحبيب أهل يبتسم
والنفس بالدنيا قد ازدحمت
والقلب بالتغريد مزدحم
تثب النفوس لفرط خفتها
مثل الحروف رمى بها القلم
اغنم حياة ما استطعت وخذ
طرباً يهم بمثله النغم
نفس الربيع يطوف طائفه
فالكون كالأنغام منسجم !

العوضى الوكيل

هاتان المقطوعتان من ديوان « آفاق الربيع » .

باب الموازنات :

حمامتا البارودى

للأستاذ محمد محمد راشد

قرأت فى العدد الثامن من الثقافة فى باب « من أحسن ما روى » مقطوعة للبارودى من قصيدة فى سيرة رسول الله ، عارض بها قصيدة البوصيرى ، ثم قال الأستاذ أحمد الزين إن قصيدة البوصيرى فى الرتبة الأولى والبارودى فى الرتبة الثانية ، وشوقى فى الثالثة . وعقَّب على هذا الكلام بقوله : « ولأدع الآن الحديث إلى أن أجد بعدُ سعة فى الوقت فأتحدث عن هذه القصائد الثلاث حديثاً طويلا ، وأعقد موازنة دقيقة عادلة بينها » . ثم قرأت المقطوعة عدة مرات ورجعت إلى أبيات البوصيرى وشوقى فى ذلك المعنى نفسه ، فحننت إلى كتابة ما عنّ لى بعد قراءة القصائد الثلاث . وربما خالفت الأستاذ أحمد الزين فى رأيه الموجز الذى ذكره آنفاً . وإن أحب شىء إلىّ هو أن يصدُقَ الأستاذ وعده ويعقد موازنة طويلة دقيقة عادلة . وأسأل الله أن يفسح له فى الوقت .

قال البوصيرى :

وما حوى الغار من خير ومن كرم
وكل طرف من الكفار عنه عمى
فالصدق فى الغار والصديق لم يَرِما
وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مُضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم

ذلك شعر سهل خفيف الوقع على الأذن عذب التلاوة معتاد فطرى يقرر حقيقة ثابتة ، خلو من الصورة الشعرية التى تأخذ بالألباب وتستهوى الأفئدة ، وقد وصف البوصيرى الغار بأنه ضم خيراً وكرما وصدقا . وأحلى ما فيه قوله :

« وقاية الله أغنت عن مُضاعفة »

وما ذاك إلا لأنه فى البيت يقرر حكمة خالدة تميل إليها النفوس ، وترتاح لها القلوب ، وتؤيدها العقول . ثم جاء شوقى وقال :

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا
همس التسابيح والقرآن من أمم
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم
كالغاب والحائمات الزغب كالرخم
فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارَين ما سلما
وعينه حول ذاك الركن لم يقم
تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم

هذا شعر بديع والاستفهام فى أوله كساه جمالا ، وفى الحق أنه استفهام بمعنى النفى ؛ فهم لم يبصروا ولم يسمعوا مع ما فى الغار من سنا مشرق وخير عميم .

ثم ذكر شوقى نسج العنكبوت على فم الغار والحمام الذى عشش فوقه ، فى صورة من التشبيه الرائع الذى لم يهتد إليه البوصيرى ، فهو يقول : إن العنكبوت الذى ضرب الله به المثل فى الوهن تمثل للكفار غابا ، وإن الحمام الوادع الهادئ شبه لهم بجوارح الطير وضواريه ؛ فهو أقوى وأحلى من قول البوصيرى : « ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت » ، ثم يقول بعد : « فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم » الخ .

وهنا يذكر شوقى فى صورة أخاذة ، أنهم ارتدوا على أعقابهم خاسرين خائبين ، الأرض ومن عليها تلعنهم ، وشبههم مهزومين بالباطل الذى قذف عليه بالحق فدمغه ، وبين ما للحق من قوة وجلال . وهذا مالم يرد على ذهن البوصيرى ،

ثم يقول شوقي: «لولا يد الله بالجارين ما سلما» الخ، فذكر يد الله ونعمته على الجارين، وأن عنايته لازمتهما وحرستهما متيقظة، وأنهما استترا ولاذا بكنف الله، وآويا إلى ركنه الشديد. والبيتان عندنا أروع وأفحل من بيت البوصيري

ثم جاء البارودي فقال:

وجاءه الوحي إيذانا بهجرته
فيمم الغار بالصديق في الغسم[1]

فافتتح قصته وهجرته بالوحي الذي نزل عليه مصداقا لقوله تعالى: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك»، وبين أنه ولى وجهه شطر الغار يصحبه الصديق أبو بكر، وبلاء المصاحبة أظهرت أبا بكر رفيقاً صديقاً مطيعاً كريما:

فما استقر به حتى تبوأه
من الحمائم زوج بارع الرنم[2]

وما وطئت أقدامهما الغار حتى آوى إليه زوج من الحمام رقيق الصوت. وهنا يأخذ البارودي في وصف هذا الزوج من الحمام وصفاً رائعاً جميلا في صورة من الشعر في أغلب الظن ما جادت بمثلها قريحة شاعر، فهو يقول:

بنى به عشه واحتله سكنا
يأوي إليه غداة الريح والرهم[3]

بين أن الحمام استقر بالعش واحتله، وأنه كان يأوي إليه إذا هبت الريح أو أمطرت السماء، لا خوفاً على نفسه، ولكن حمى لمن فيه ورعاية ووفاء لهما:

إلفان ما جمع المقدار بينهما إلا لسر بصدر الغار مكتتم

وجميل عندنا أن يعزو السبب في ألفة الزوج ومحبته لسر عظيم وأمر خطير، ففي الغار ينبوع الهداية ومبعث النور العميم:

كلاهما ديدبان فوق مربأة
يرعى المسالك من بعد ولم ينم

إن حس هـذا غراما أو دعا طربا
باسم الهديل أجابت تلك بالنغم

وتشبيه الحمامتين بالديدبان خيال بديع موفق. والديدبان فوق مرتفع حتى لا يعزب عنه شيء، فهو ديدبان يقظ يرعى الطرق كلها والمسالك لا يأخذه نوم. وكل لفظ في هذا البيت يحوي من الجمال والبهاء ما تقصر عن وصفه الأفهام:

يخالها من يراها وهي جاثمة
في وكرها كرة ملساء من أدم

تشبيه الحمامة وهي جاثمة في عشها بكرة ناعمة من جلد تشبيه طريف حديث، وهو من التشبيهات العقم على حد تعبير علماء البيان:

إن رفرفت سكنت ظلا وإن هبطت
روت غليل الصدى من حائر شبم

مرقومة الجيد من مسك وغالية
مخضوبة الساق والكفين بالعنم

شبه طوق الحمامة حول جيدها من ريشها بلون المسك والغالية في السواد، وشبه لون ساقيها وكفيها بلون العنم في الحمرة. وقد استرسل البارودي في وصف الحمام، بانياً عشه أليفا وديدبانا يقظا حنونا طروبا جاثماً طائراً مرفرفا هابطا محلقا مرقوم الجيد مخضوب الساق والكفين، وهو استقصاء خفيف ما ترك فيه وصفاً حاليا للحمام إلا ذكره، لما قدمه من خدمة وما أسداه من نعمة، وما له من منزلة، وما ناله من شرف. ثم انتقل البارودي إلى العنكبوت:

وسجف العنكبوت الغار محتفيا
بخيمة حاكها من أبدع الخيم

البيت كله حسن وجمال. فالعنكبوت قد ستر الغار ستراً ما ترك فيه ثقباً، وألح في ستره وبالغ في ذلك محتفياً، وصنع خيمة نسجها أبدع نسج:

قد شد أطنابهـا فاستحكمت ورست
بالأرض لكنها قامت بلا دعم

(1) الغسم: ظلام شديد (2) الرنم: صوت.
(3) الرهم: الأمطار الخفيفة.

لم يفت العنكبوت أن تبث دعائم خيمته حتى لا تعبث بها الريح رخاء أو هوجاء ، فشد حبالها وأرساها ، لكن بلا عمد ، وهذا نوع من حسن الصنعة التي وفق إليها العنكبوت ، حتى صارت خيمة عجيبة ممتازة، قال فيها :

كأنها سابرى حاكها لبق
بأرض سابور فى بحبوحة العجم

شبه الخيمة فى نسجها وحسن صنعها بثوب رقيق صانعه صناع بأرض العجم :

وارت فم الغار عن عين تلم به
فصار يحكى خفاء وجه ملتثم

هذه الخيمة نسجت على فم الغار فأكنته حتى خفى على العيون ، ودق على الأبصار حتى أشبه وجه ملتثم وهو تشبيه جميل :

قباله من ستار دونه قمر
يجلو البصائر من ظُلْم ومن ظُلَم

وهنا يصرح البارودى بما أخفاه البوصيرى فى قوله : « وما حوى الغار من خير ومن كرم » ، وما ذكره شوقى بقوله : « هل أبصروا الأثر الوضاء ؟ » .

ولكن البارودى يفوق سابقه ولاحقه ، فهو يقول : ما أعظم هذا الستار ولله دره ، فتحته قمر منير ، يزيل الظلام والظلم ، فهو جلاء ونور للقلوب والعيون . وجمعه بين الظُلْم والظُلَم إيجاز طريف ، وتركيب البيت فى أوله مدح مزدوج ، فالستر له جلال ووقار ، لأنه ستر خير الناس قاطبة ، وتحته قمر يضيء للناس الطريق ، فيهدى الضالين ، ويرفع الظلم عن المظلومين . ثم قال :

يظل فيها رسول الله معتكفاً
كالدر فى البحر أو كالشمس فى الغسم

شبه رسول الله معتكفاً فى الخيمة أو فى الغار بلؤلؤ مكنون ودر مدفون ، وبالشمس غطتها قطع متفرقة من السحاب ، وهو تشبيه معتاد مألوف عند الشعراء :

حتى إذا سكن الإرجاف واحترقت
أكباد قوم بنار اليأس والوغم
أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلى
من عنده السر من خل ومن حشم
وسار بعد ثلاث من مباءته
يؤم طيبة مأوى كل معتصم
ولم يزل سائراً حتى أناف على
أعلام طيبة ذات المنظر العمم
يوم به أرخ الإسلام غرته
وأدرك الدين فيه ذروة النجم

فى هذا الشعر يذكر البارودى أن الكفار بحثوا ثم يئسوا وتفتتت أكبادهم حقداً وضغناً على رسول الله ورفيقه ، حتى إذا ما سكنت الفتنة ، وانقطعت الأخبار ، وانقشعت الغيوم ، أوحى الرسول إلى أبى بكر بإعداد العدة للسفر ، أوحى إلى خليله ، وموضع سره ونجواه ، ثم اتجها نحو طيبة ملجأ الخائف ، وملاذ العائذ . سارا حتى بلغاها فى يوم ابتدأ عز الإسلام ونصره ، وظهر أمره وذاع خبره ، وأرخ بذلك عمر التاريخ الهجرى الذى محا كل تاريخ ، وأدرك الدين بدخول صاحبه المدينة مناط النجوم .

والبارودى فيما يختص بهجرة الرسول ، استرسل فى وصف حمامتيه وعنكبوته وصفاً شعرياً محبوباً بالغاً فى خياله مبلغاً لا يسامى . وإغفال البوصيرى وشوقى وإيجازهما ، وتطويل البارودى وبداعته وبراعته ، وإتيانه بما ذكرت من تشبيهات عقم ومعان رائعة ، جعل لشعره المذكور قيمة فنية حية ، وروعة قوية ، وجعل لحمامتيه منزلة بين الحمام . وبيت العنكبوت الذى قال الله فيه : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » جعله البارودى أقوى من كل قصر مشيد . وعندى أن استقصاء البارودى واسترساله فى وصف الحمام يرجع إلى أنه قضى شطراً من حياته شريداً طريداً منفياً

آيتـــــان من آيات الله*

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتموها فادعوا الله وصلوا حتى ينجلى » .

(حديث نبوى)

الخوف والقلق :

كل ما فى الكون من ظواهر طبيعية وفلكية عجيب غريب ، يسير حسب نظام خاص يسمى الانسان لكشفه ، وتسيّره قوة خارقة مبدعة منظمة يعمل العلماء على الاقتراب منها والوقوف على حقيقتها . ولا يخفى أن من هذه الظواهر ما يقع دائما وبانتظام فى أوقات معلومة ، فلا نرى فى ذلك ما يثير الدهشة . ومنها ما يقع نادراً وهذا هو الذى يحدث الخوف ويدخل القلق إلى النفوس .

أليس ظهور القمر فى أوجه مختلفة من أعجب ما يراه الانسان ؟

أليس فى ظهور الشمس يومياً من الشرق ثم فى اختفائها مساء فى الأفق الغربى من أغرب ما يجرى فى الكون ؟

ولكن تكرار حدوثهما بانتظام ودون انقطاع أزال الغرابة ، وجعل ذلك من الأمور العادية لا يقف عندها الانسان وجلا أو مكترثا . وفى هذا العالم الملىء بالعجائب ظواهر طبيعية نادرة الوقوع يحدث بعضها مرة فى كل عام أو مرتين ، وبعضها قد لا يحدث إلا مرة فى كل خمسين أو مائة سنة . ومن الطبيعى أن تظهر هذه للناس غير عادية فيحسبوا لها ألف حساب ويهتموا بها ويستولى عليهم الفزع إلى درجة تجعلهم يعدون ذلك غضباً من الله أنزله عليهم .

وكان الناس يتمحّلون لهذه الظواهر أسبابا ، منها ما هو معقول ، ومنها ما هو غير معقول . فقد زعموا أن تنيناً يبتلع الشمس والقمر ثم يذعر بالصياح فيتقيأهما . وكان الصينيون يتشاءمون من الكسوف . ويقال إنه وقع من قديم الأزمان كسوف خاف الناس منه كثيراً ، مما جعل بعض الشعراء يذكر ذلك شعراً ، فقد جاء فى إحدى القصائد لشاعر صينى بمناسبة كسوف حصل للشمس ما معناه :

* يحدث فى يوم الأربعاء ٣ مايو سنة ١٩٣٩ خسوف للقمر الساعة ٦ و ٤٢ مساء ، وكسوف للشمس لا يرى فى مصر ؛ وبهذه المناسبة ننشر هذا المقال .

غريباً ، والقريب يحن إلى إلف يجاذبه فضل حديث ، أو خل يرعى له عهداً ، ويحفظ وداً ، فإذا عزّ ذلك عليه وافتقده طلب من الحمام أليفاً ، ومن الطير أنيساً ، فصار حبه للحمام عادة مألوفة ، تجرى ذكره على لسانه عذباً سائغاً .

وأما حسن صناعته ، وجميل وصفه لبيت العنكبوت ، فلأنه يسّر الرسول ولله قدره العظيم .

والبارودى خياله موفق كل التوفيق ، وشعره جيد كل الجودة . وقد ذكرت من ذلك ما أوحاه إلىّ الخاطر ، فإن أكن قد وفقت ، فالخير للقراء أردت ، والثواب من الله سألت ، والشفاعة من المصطفى رجوت ، وإن تكن الثانية فحسبى أنى باحث مجتهد .

محمد محمد راشد

« كسفت الشمس ، وذلك شؤم كبير
« ثم صغر القمر وصغرت الشمس
« ولذلك ستسوء حالة الناس على الأرض .
« وهذا إنذار سوء من الشمس والقمر
« ساءت الأحكام في البلاد كلها
« لأن السيادة ليست في يد الصالحين
« خسوف القمر أمر عادى
« وأما كسوف الشمس فما أشأمه . . »

وفاة ابن الرسول الأعظم :

جاء في البخارى « عن . . . عن مغيرة بن شعبة قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله عليه السلام يوم مات ابراهيم (ابن رسول الله) فقال الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم . فقال رسول الله (ص) : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتموها فادعوا الله وصلوا حتى يتجلى . . . » .

وبذلك يكون الرسول الأعظم صلوات الله عليه قد وضع حداً لسخافات المنجمين وأقوالهم ، ولاعتقادات العامة في أسباب الكسوف وغيره . وبيّن بأن الظواهر الطبيعية لاتحدث لموت أحد أو لحياته ، بل إنها تسير حسب نظام وضعه البارى جل وعلا . وما علينا عند حدوثها إلاّ أن نذكره تعالى ونذكر عظمته وقدرته على كل شيء . وفي تلك الذكرى ماينفع المؤمنين ويزيدهم إيماناً .

الكسوف والخسوف :

والآن . . . ما الكسوف ؟ وما الخسوف ؟ وما أسبابهما ؟

إن الأجرام السماوية ليست متساوية الابعاد عن الأرض ، ومن هنا يصدف أن يمر جرم أمام جرم آخر بيننا وبينه فينتج عن ذلك حجب الجرم الثانى عن نظرنا ، ففى الكسوف يتفق أن يمر القمر بين الأرض والشمس تماماً فيحجب نورها عنا . وهنا قد يخطر للقارئ أن يسأل : كيف يمكن للقمر أن يحجب نور الشمس وهى أكبر منه بكثير ؟ والجواب هو أن الشمس والقمر يظهران كأنهما متساويا السعة ، لأن القمر أقرب إلى الأرض من الشمس . وتكاد تكون النسبة بين بعدى الجرمين المذكورين عن الأرض تساوى النسبة بين سعتيهما . وحينما يتفق مرور القمر بيننا وبين الشمس تماماً فالذين في المكان المقابل لمركزيهما يرون القمر عند تكامل الكسوف قد غطى وجه الشمس كله . وهذا ما نطلق عليه الكسوف الكلى . وإذا كانت الشمس في أقرب بعدها عنا ، فإن وجهها يكون أوسع من وجه القمر ، ويُرى أنه غطى وجهها كله وترك حلقة ضيقة حوله ، وهذا ما يسميه الفلكيون بالكسوف الحلقى . وإذا مرّ قرص القمر أمام جانب من قرص الشمس فإن الكسوف يكون جزئياً ، وقبل تكامل الكسوف الكلى أو الحلقى يمر القمر على وجه الشمس ، وعند تكامله (تكامل الكسوف) يأخذ القمر في الانجلاء عن وجه الشمس تدريجياً ويبطئ إلى أن يتم الانجلاء وترجع إلى حالتها الأولى من البهاء والسناء . وأكثر ما يحدث في السنة خمسة كسوفات ، وأقل ما يحدث كسوفان . أما الخسوف فيختلف عن الكسوف ، فليس بيننا وبين القمر أجرام يمكن أن ينتج عن مرورها حجب ضيائه ، وإذاً فكيف يحصل الخسوف ؟ وهو أمر شاهده الناس وتحدثوا عما يحدثه من رهبة وجلال .

للأرض ظل يمتد وراءها إلى مسافة تقرب من (٩٠٠) ألف ميل ، فاذا اتفق ووقع القمر — وهو الجرم الوحيد الواقع ضمن هذه المسافة — في هذا الظل أثناء سيره في فلكه حول الأرض حصل خسوف ، فاذا صدف ووقع كله

فى الظل ثمة خسوف كلى ، وفى حالة وقوع جزء منه فى الظل ثمة خسوف لذلك الجزء يُطلق عليه خسوف جزئى .

وقد استطاع الفلكيون أن يحسبوا أوقات الكسوف والخسوف ، وأن يتنبأوا عن حدوثهما ، وقد جاءت حساباتهم دقيقة جداً إلى درجة تثير الدهشة والاعجاب !

وقد لا يحدث فى العام خسوف ما . وقد يحدث كسوفان وثلاثة خسوفات ، وأكثر ما يحدث خمسة كسوفات وخسوفان ، وفى غالب الأحيان لا يزيد عدد الكسوفات والخسوفات على أربعة .

المناظر الجوية :

قد يكون منظر الكسوف ولا سيما الكلى من أبهج المناظر وأكثرها وقعاً فى النفس . فعند الكسوف الكلى تُرى المشاعل ، وهى نتوآت تندلع فوق سطح الشمس إلى مئات الألوف من الأميال تتكون من بخار الهيدروجين والكلس ، قد أسبغت الحرارة الشديدة على الأشعة الصادرة منه لوناً أحمر . ويُرى أيضاً ألسنة تنبعث منها نار حمراء كما يُرى الاكليل — وهو أشعة محيطة بالشمس ذات لون أخضر ونور لؤلؤى ، فنى كسوف أواخر مايو سنة ١٩٠٠ قال أحد العلماء الذين رصدوه من بلاد الجزائر إن الاكليل المحيط بقرص الشمس كان كبيراً جداً ومشرقاً يبلغ عرض هالته قدر قطر الشمس ، وقد نتأ عنه لسانان كبيران ، أحدهما إلى أعلى والآخر إلى أسفل . ولما تم الكسوف برد الهواء وأظلم وجه الأرض وشعر الناس كأن زوبعة دنت منهم ، وقد بقى الاكليل منظوراً دقيقة ونصف دقيقة بعد تمام الكسوف ، وظهر عطارد والزهرة ، كما ظهر معهما نجمان آخران وتغير لون السماء من أزرق إلى رمادى ، ولون الأشجار من أخضر إلى قرمزى . ويقال إنه عند حدوث الكسوف فى ٢١ أغسطس سنة ١٩١٤ ظهر الاكليل بشكل جذاب مبهج زاد فى بهائه الألوان البديعة التى رؤيت فيه من أبيض وبرتقالى وأصفر وأحمر وبنفسجى . وفى كسوف مايو سنة ١٩١٥ ظهرت نجوم كثيرة وكان الاكليل واضحاً جداً . ويقول جينز إنه عند كسوف سنة ١٩١٩ « ظهر نتوء بدا للعالم على صورة آكل ضخم من أكلة النمل يبلغ البعد بين خرطومه وذيله (٣٥٠٠٠٠) ميل وهو حجم لو تيسر لحيوان لاستطاع أن يبتلع الأرض كلها كما تُبتلع الحبة ... ثم رفع ذلك المخلوق خرطومه وذيله على سطح الشمس ... وزاد فى عدد أرجله وأخذ يقفز إلى أعلى ، فوصل إلى علو (٤٧٥٠٠٠) ميل ، وعندئذ حال غروب الشمس دون الاستمرار فى مراقبة ما كان بعد ذلك من غريب أحواله ... » .

وعند الكسوف يستعد العلماء من كل الأقطار لرصد الشمس ودرس أحوالها وسطحها ، ويذهبون إلى الأماكن التى يرى فيها الكسوف كلياً ، ويستعملون كل ما لديهم من الوسائل وآلات الرصد لزيادة معلوماتهم عن الشمس والوقوف على التغيرات التى تحصل على سطحها ، وعن العلاقة بينها وبين ما يحصل من الظواهر الجوية على الأرض .

وأخيراً وقبل الختام ألفت نظر الصيادين إلى كثرة السمك الذى يخرج إلى الشاطئ عند ما يظلم وجه الأرض عند الكسوف الكلى — وهذه فرصة سانحة لهم ، فما عليهم إلا أن يلقوا شباكهم فى البحر ، وأما الكفيل بأن يسحبوها إلى (الشاطئ) مثقلة بأنواع الأسماك .

(نابلس) **قدرى حافظ طوقان**

صور من الناس :

قلت إلى أين؟ قال الى الجحيم !!!

قصة مصرية بقلم الأستاذ عبد الله حبيب

صديق الأستاذ . . أديب واسع الاطلاع ، ملم بتطور الفكر فى تاريخ الأمم والشعوب شرقية وغربية ، لكنه لفرط ولعه بالمطالعات المضنية الشاقة ، ولكثرة ما يملأ رأسه من علوم شتى ومعارف وآداب ، قد أصبح فى مجموعه « كركبة » علمية وأدبية . تحار فى اختيار النفيس منها والأنفس .

وهو فى ذاته وهندامه تخطيطات أولية لرسم إنسان ! لا يحفل رتبة أو إناقة ، ولا يعنيه من شأن الدنيا إلا أن يعيش ليقرأ ! !

عينان مضعضعتان فى وجه شاحب ، يخيل إليك أن تقاسيمه قد رسمت بغير تؤدة وبلا تنميق . ورأس صغير يحمل طربوشاً متمرداً لا يستقر منه فى موضع ، كأنه ركب فوق رأس من زئبق ، فهو مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ، وحيناً إلى الأمام ، حتى ليكاد يغطى حاجبيه ويحجب عنك عينيه ، فإذا شاء أن يتجع إلى مؤخرة الرأس ترك على جبينه المفرطح ذؤابة تتكون من عشرين أو ثلاثين شعرة ، تطل عليك من فوق ذلك الجبين المفرطح البارز الذى لا تقره مصلحة التنظيم ! ! وتبارك الخلاق العظيم .

وهو — بعد ذلك — مكتبة متنقلة تستطيع أن تجد فيها أكثر ما تطلب من كتب علمية وأدبية وتاريخية ومجلات وصحف يومية . فإن أردت أن تقف على أحدث ما كتب النقاد الغربيون عن الأدب والشعر والمسرح ، فمد يدك إلى جيبه ! ! وستجد — وأنا واثق مما أقول — كتابين أو ثلاثة ، بعضها فتحت أوراقه وفض غلافه ، وبعضها لم تفتح كأنه ولم تداعب صحائفه أنامل الصديق . وإن كنت من طلاب العلوم ، وكنت ترغب فى قراءة آخر ما وصل إليه علماء الأقرباذين والجراحة والطب والكيمياء والكهرباء ، وما إلى هذه العلوم ، فتناول من جيبه الثانى ما تريد ودع ما لا تريد . وإن كنت من عشاق الآثار المصرية القديمة وشاقك أن تلم بشىء من تاريخها ، أو أحببت أن تعرض بالبحث لتاريخ الثقافة المصرية فى عهد المماليك أو قبل ذلك التاريخ أو بعده ، فاختطف مما يتأبطه الصديق من تاريخ الجبرتى أو خطط على باشا مبارك أو كتاب الأيوبى عن عصر اسماعيل . فان كنت لا ترغب فى شىء من ذلك وخطر لك أن تراجع بعض الأخبار أو تقرأ بعض البحوث الأدبية أو الاجتماعية فى صحف الأسبوع فستجد ما تشاء وما لا تشاء ، من مجلات أسبوعية وصحف يومية فى إحدى يدى صديقنا ...

والأستاذ محمود أو محمود افندى — وليكن هذا الاسم هو اسم صديق — يكره أن يناديه أصحابه بمحمود افندى ، بل يهون عليه أن يفقد إحدى عينيه ولا يفقد لقب « الأستاذية » . وهو يزعم أنه قرأ فى صحائف الحياة ، واستشف من حجب السنين أضعاف ما قرأ فى صحائف الكتب . وأنه انتهى فى ذلك كله إلى نتيجة واحدة هى : « إن الحياة مع المرأة جحيم لا يطاق » .

وعبثاً تحاول إقناعه بنقيض ما يعتقد . . . لذلك فهو

يكره المرأة ويفر من مجلسها . وهو كلما تحدث الناس عن نعيم الأزواج وجنة البيت التي تتعهدها المرأة ويتفيأ ظلالها الرجل ، ضحك ساخراً بالناس هازئاً بمزاعمهم . وراح يتحدث عن مساوئ المرأة وعيوبها بعبارات لاذعة حادة .

قضى أينع أيام الشباب وحيداً في داره الصغيرة الموحشة التي اختارها لسكناه في ضاحية مصر الجديدة على حافة الصحراء ، وقنع من دنياه بذلك الراتب الضئيل الذي يتقاضاه عن عمله في إحدى دور الحكومة ومن بعض الصحف ، نظير ما يقدم لها من بحوث أدبية واجتماعية .

وقد أشرف على الأربعين من عمره . ولع الشيب الباكر في عارضيه ، فبدا كأنه ابن الخمسين ... لفرط ما لقي في أيامه من إخفاق وخيبة وحرمان .

ضاقت الدنيا بآماله الكبار ، وأقعده اليأس والقنوط فجثم كالعقاب الهرم ، لا يقوى على النهوض ، وظل في عهده الأخير ساكناً لا يتحرك إلا بمقدار ما تقضي به ضرورات الحياة

اشتهر الأستاذ محمود — في أوساط الخدم — بأنه رجل طيب ، والرجل الطيب في عرف هؤلاء الشياطين هو الرجل « العبيط » الذي يسهل على كل خادم أن يغشه أو يسرقه ! وهم يطلقون عليه فيما بينهم اسم « الأفندي العازب » ، ولهم في أكثر الأيام معارك دامية في التنافس على خدمته ، والحظوة عنده ، وكل عامل عاطل منهم يريده لنفسه غنيمة ، لأنه إن كان قد أحاط علماً بما في بطون الكتب فهو لا يعرف ألفاً ولا باء في أسعار الطماطم والخضر واللحوم . ولا يدري إن كانت « الكسبرة » تشوى على النار أو تسلق في الماء ، أو هي شيء غير هذا وذاك ، فإذا أخبره الخادم أن الأوقية منها — مع الإكرام — لا يقل ثمنها عن عشرين قرشاً صدقه ودفع له ما أراد ، وهو لذلك — ولأنه لا يكلف الخادم أكثر من إعداد الفطور صباحاً ووجبة الغداء ظهراً — يعتبر في نظرهم « مخدوم لقطة » ،

وتشتد بينهم المنافسة عليه ، حتى إنهم « يبيعونه » بعضهم بعضاً ، فقد يكون الخادم العاطل قد ادخر من أيام عمله قدراً من المال ، وعندئذ فهو يجود بهذا القدر كله راضياً لزميله المحظوظ بخدمة الأستاذ محمود نظير أن يتخلى له عن مكانه شهوراً معدودة ، وتدور المساومة على « بيع » الأستاذ محمود علناً في القهاوي البلدية التي يغشاها الخدم ليلاً ، وقد تنتهي بهم « المزايدة » إلى معركة حامية تجرهم إلى مركز البوليس . ويدون الضابط على لسان الضارب والمضروب وقائع الدعوى التي تدور كلها على بيع الأستاذ محمود أو شرائه !! كل ذلك يجري في القهاوي البلدية ويدون في محاضر البوليس . ويصبح موضوع سمر الناس وتفكههم ، وصديقنا محمود غارق بين أمواج كتبه ونظرياته وبحوثه التي يزعم أنه قرأ أضعاف أضعافها في صحائف الحياة !! وأنه انتهى من ذلك كله إلى نتيجة واحدة هي : « إن الحياة مع المرأة جحيم لا يطاق » .

وكنت كأحد أصدقائه أشفق عليه من هذه الحياة التعسة التي يحياها جافة جرداء ، كالصحراء القاحلة لا ظل فيها ولا ماء . لكنه لم يكن هو يحس هذا الشقاء ، أو هو كان قد أحسه رويداً رويداً في أول أيام شبابه ، وما زال يحتمله بالرضى مرة وبالسخط مرة أخرى ، حتى ألف الهم واستساغه ، واستعذب الوحدة وشرب كأسها المرة ، وأصبح كشارب الخمر يتداوى بها منها .

* * *

ولست أنسى ما حييت مساء يوم الخميس من شهر يناير عام ١٩٣٨ ، فقد كان مساء حالك الظلام عاصفاً ممطراً ، ثارت الطبيعة فيه ثورة جامحة هوجاء ، وانقلبت فيه أوضاع الأشياء في نظري ، حتى لحسبت أن السماء غاضبة حانقة تقذف صواعقها على الأرض وساكنيها ، وأن كل شيء في الوجود قد تناولته الرجة من كل نواحيه ، فاضطرب السير ، وتعطلت الطرقات ، وخيمت عليها غياهب الوحشة والانقباض .

في هذا المساء الأسود العاصف كنت على باب صديقنا محمود ، بعد أن أدركني غضب السماء في طريقي إليه ، وبعد أن نالت منه ما نلت من مشقة وإعياء .

وسألت الخادم عن سيده فأجاب بأنه لمّا يحضر بعد . وكان من الضروري أن أطلب من الخادم فتح الباب لأعتصم بدار صديق من شآبيب المطر المدرار ، ولأجلس في انتظاره وأجفف ثيابي وأستدفئ بقدح من الشاي ؛ ولكن الخادم أطرق برأسه مليّاً ، ثم قال في خجل واستحياء : إن سيده يغلق الباب ويدعه خارج الدار طول اليوم حتى يحضر ، وكانت هذه المفارقة العجيبة موضوع دهشي وغيظي معاً ، واستوضحت الخادم جليّة الأمر فعلمت منه أن الخادم الذي كان قبله في خدمة سيده كان قد اعتزم الزواج من فتاة أحبها ، ثم لم يجد مالاً يشتري به أثاثاً لمنزل الزوجية الجديد ، فأحضر عربتين من عربات النقل ، وأوهم الجيران أن سيده كلفه بنقل الأثاث إلى منزل آخر ، وفر بهذا الأثاث إلى حيث تسكن محبوبته ! ! ولم يدع لسيده الأستاذ ... إلا الكتب متناثرة في أرجاء الغرفة هنا وهناك ، وقد رأى الأستاذ محمود بعد ذلك أن لا حيلة مع هؤلاء الخدم اللصوص الجهلاء ! ! ! إلا أن يغلق باب الدار كل يوم ، ويدع الخادم مع بواب العمارة المجاورة حتى يعود ظهراً . . . ويدخل الخادم في ركاب سيده ليبدأ في تهيئة الطعام وتنظيف البيت ، وقد يترتب على هذا أن يظل الأستاذ محمود بدون غداء إلى ما بعد الساعة الرابعة ، فإذا خرج في المساء أخرج الخادم من البيت قبله ليظل في انتظاره حتى يعود ، وهكذا دواليك . بقي صديقنا محمود على هذا الحال أكثر من شهر كنت قد انقطعت في خلاله عن زيارته ، وكنت إلى هذا المساء الحالك الممطر لم أعرف عن حادثه الأخير شيئاً ... وهممت بالانصراف راجعاً إلى داري بعد أن يئست من عودة الصديق محمود في مثل هذه الساعة من أول الليل ؛ لكني لم أكد أخطو نحو الطريق خطوات حتى لمحت شبحاً يقترب مني في الظلام ، وتبينت هذا الشبح القادم ، فماذا رأيت ؟ ...

يا لهول مما رأيت ! ! !

هذا هو الصديق محمود ، هو بنفسه ...

لكن ما هذه المشية العرجاء ؟ ...

وما هذه الضمامة البيضاء التي ضمد بها رأسه ؟ ...

وما هذا الدم الذي يسيل من رأسه المشجوج على وجهه المعفر الملطخ بالأوحال ؟

ثم ما بال ثيابه ممزقة ملوثة ؟ ..

ثم ما هذا الذي يحمله في يده اليمنى ؟

وهذا الطربوش في يده اليسرى مقطوع الزر مضعضعاً كأنه ضغط تحت عجلات ... وما هذه المادة الزلالية التي تسيل مما يحمله في يده اليسرى وتتساقط على ثيابه ؟ ...

وتلك هي الكتب ! ! الكتب أيضاً تطل من جيوبه محشورة مع الجرائد والمجلات ... هذا كله هو محمود ، محمود بدمه وضمامته وعرجه وثيابه الممزقة ، وكتبه ومجلاته ، وأوحاله ومصابه ...

قلت : من القادم ؟ من ؟ محمود ؟

وسمعت همهمة خافتة ، وألفاظاً تترنح في فمه متعثرة كأنها ضلت الطريق إلى الفضاء . وكان يلهث ويتهالك على نفسه لفرط الألم والإعياء ، فأسندته إلى يدي ، وما زلت به حتى أجلسته على مقعد البواب ، ثم أسرعت إليه بكوب من الماء ، فشرب منه قليلاً ، وبلت بالباقي وجهه ، وجلست إلى جانبه أرقب حديثه عن مصابه الذي أرى ! فما زال حتى استطاع الكلام ونادى خادمه ، ثم مد يده إلى جيبه يتفقد مفتاح الدار ليأمره بفتح الباب ، فلم يجده في جيبه . وكانت الكتب ... تزحم جيوبه ! ويده اليسرى مصابة بجرح بالغ فأشار إلى جيبه الآخر ، ورجاني أن أبحث فيه عن المفتاح فلم أجده أيضاً ، وإذ ذاك قال لخادمه : اذهب مسرعاً إلى أقرب نجار وأحضره لفتح الباب .

قلت : وأين ذهب المفتاح ؟

قال : لا بد أن يكون قد وقع تحت عجلات الترام أثناء الحادث .

قلت : وما هو هذا الحادث ؟

فنظر إلى نظرة عاتبة غاضبة ، ثم قال : أفى الطريق ، وأنا على مثل هذا الحال تسألنى عن مصابى ؟

قلت : معذرة فإن اللهفة دفعتنى إلى هذا الفضول ! !

* * *

كان النجار قد كسر الباب . وكنا قد دخلنا إلى غرفة الاستقبال ، فألفيتها على حال غير حالها الأول ، هى الآن عبارة عن قليل من كراسى القش والخيزران ، وهى الآن عارية من فرشها الذى كنت أراه قبلا ، وهى أيضاً قد أصبحت عاطلة من صورها الجميلة التى كانت تحلى جدرانها وجوانبها ، ولم يبق من معالمها الأولى غير الكتب ! الكتب فقط هى التى نجت من يد الخادم اللص المجهول الذى لم يدرك قيمة ما تحوى من كنوز الأولين والآخرين ، أوهى وحدها التى « زهد » فيها الخادم وعافها ، ورآها غير جديرة برضى « محبوبته » التى حمل إليها كل أثاث سيده . ولعله لم يشأ أن يحمل إلى جحيم المرأة ! ! جنة الأستاذ الكبير التى يراها كل شىء فى هذا الوجود ! ! فتركها له ينعم بها فى ظلال العلوم والفنون والآداب .

... أما صديقى محمود فقد كنت خلال هذه الخواطر التى تطيف برأسى أنظر إليه مشفقاً عليه راثياً لحاله . وكان هو أثناء ذلك يعالج خلع ثيابه فلا يقوى على خلعها ، ويحاول إخراج رجله الجريحة من سرواله فلا يستطيع لشدة الآلام كلما حاول تحريكها . وأعنته على خلع ثيابه حتى آوى إلى سريره . ورحت أرقب حديثه عما أصابه ، لكنى كنت أخشى إيلامه إذا أنا طالبته بالكلام رغم تحرقى إلى معرفة سر حادثه ...

... وأخيراً تكلم الصديق بعد صمته الطويل فقال :

— لعلك ترى أن الحالة المؤلمة التى أنا عليها الآن تستدعى أن أقول فأوجز ، ثم هى تستدعى من جهة أخرى أن تسمع فى غير مزاح أو سخرية ...

ونظرت إليه مشفقاً فرأيت عينيه تشعان ببريق الحنق والغيظ والألم . واستولت على جسمه رعشة خفيفة تشبه المحموم ، فأخذتنى عليه الرحمة ، ورثيت لحاله قبل أن أعرف من مصابه شيئاً ، واقتربت من سريره فتناولت يده بين يدى وهززتها فى رفق وقلت له :

— أنت ياصديقى محمود أعرف الناس بما أكن لك من ولاء ووفاء . ولست أجد فى حالك هذا ما يدعو إلى السخرية ، فكيف تسىء الظن بأخيك الذى يحبك من قلبه ويقدرك أجل تقدير ؟ .

فنظر إلىّ نظرة دامعة ، ثم أطرق إطراقة حزينة وقال :

— لست أسىء بك الظن ، لكنى أعرف مقدار ما ينطوى عليه حادثى فى هذا المساء من وقائع تثير الضحك أكثر مما تثير الرحمة والإشفاق . فعدنى قبل أن أحدثك أن تحترم آلامى ، وأن تكون أخى الذى أعهده رحيما مواسياً ، قلت أعدك جداً أن أكون كما تحب ، فتحرك فى سريره حركة متخاذلة يحاول أن يمد رجله الوجعة فى أنين وتألم ثم قال :

— كنت الآن منذ نصف ساعة فقط سليما معافى من كل ما ترانى عليه من رضوض وتهشيم ودماء وأوحال . كنت عائداً إلى هنا أقف أمام مستشفى الجيش المصرى فى طريق مصر الجديدة أنتظر الترام الذى يقلنى إلى دارى ، ورأيت فى الطريق تاجراً ريفياً من تجار البيض الذى يبيعونه بالجملة ركب حماراً ، وعلى جانبيه قفصان مملوآن بالبيض ، ومن خلفه زميل يسير على قدميه ويستحث الحمار على المشى ، ووقف الجميع أمامى ثم عرض علىّ أحدهما أن يبيعنى « شروة » متهاودة الثمن ، وقد خطر لى فى هذه اللحظة أن أساومه وأن أشترى منه حاجتى من البيض لأكشف بذلك عن غش خادمى وخداعه فيما يشترى من الأشياء ،

ذلك لأني بعد حادث السرقة في الشهر الماضي أي بعد أن حمل خادمي السابق كل أثاث منزلي ليكون « جهازا » لعروسه ، أقول إني بعد هذا الحادث قد فتحت عيني وتنبهت بعد طول الغفوة لأساليب الخدم ، وخداعهم ، وطول أيديهم .

وانتهت المساومة بيني وبين بائع البيض على أن يبيعني منه اثنتي عشرة بيضة بالقرش الواحد . ولا أكتمك أني فرحت بهذه الصفقة ، وأسرعت فاشتريت منه ستين بيضة بخمسة قروش . وإذا علمت يا صديق أن خادمي يحاسبني على كل خمس بيضات بقرش عرفت مقدار الخسارة الفادحة التي أتكبدها بسبب هؤلاء الخدم اللصوص الجهلاء ! !

لم أجد في جيبي قروشاً فأعطيت أحد الرجلين جنيها صحيحاً وأشرت له على محل البزين المقابل لمحطة الترام وكلفته أن يذهب لإحضار « الفكة » مسرعا قبل أن يصل الترام . ولم أكن أخشى أن يفر الرجل لأن زميله والحمار كانا لا يزالان بجانبي ، وهما — فيما أظن — يساويان الجنيه فلا داعي للقلق ! ! وعاد الرجل مسرعا فناولني البيض في « صرة » تكرم علي بها فوق البيعة بعد أن لاحظت عدده بدقة ؛ وبعد أن أمرته أن يكسر بيضة أمامي لأتأكد من جودة الصنف ، ثم أخذ بعد في يدي باقي الجنيه ، وفي هذه اللحظة كان الترام قد وصل إلى المحطة وكانت الكتب ...!! في إحدى يدي ، والبيض في الأخرى ، وصحف المساء تحت إبطي ، والمطر منهمر والبرد شديد قارس ، والرعد والبرق يتجاوبان في ظلمة الليل ، فلم أشأ أن أدع الترام يمر قبل أن أركب وأعتصم به من هذه البلايا فانتهرت الرجل وأمرته أن يضع المبلغ جملة في جيبي الأيمن ، وقفزت إلى الترام قبل أن يتحرك ثم جلست أتفقد النقود في جيبي بعد أن وضعت البيض والكتب والصحف... إلى جانبي وعددت النقود فإذا هي سبعون قرشاً فقط . عندئذ علمت أن هذا الرجل الجاهل ! ! تغفلني في زحمة الترام واستبق في يده خمسة وعشرين قرشاً من مالي فوق ثمن البيض .

وكان الترام قد قطع شوطاً طويلا فنهضت كالمجنون أحاول الوثوب لألحق به ... ثم أقبض على عنقه وأضع رأسه الأجوف ! ! الفارغ في وحل الطريق ، لكن « الصرة » كيف أثب بها ؟ أو كيف أدعها في الترام .

وعندئذ التمعت في ذهني فكرة سريعة لماحة — ولست ممن تذهب الحوادث بعقولهم — فناديت الكمساري وكلفته أن يتسلم « الصرّة » ليودعها في آخر محطة بمصر الجديدة عند الناظر ، وقبل أن يفيق الكمساري من هذه المباغتة السريعة — والترام على أقصى سرعته — كنت قد قفزت إلى الأرض ... ولكنني لم أوفق في هذه القفزة فسقطت على قرب من عجلات الترام ، وكان الطربوش فدائي ... فإنه هو الذي وقع تحتها تماما فمات كما ترى ولم أمت ... ونهضت من سقطتي أكثر غيظاً ، وأشد حنقاً على هذا الريفي اللئيم ، فلم أحس أول الأمر ما أصابني من رضوض وجراح ، ولم يكن همي إلا أن أدركه فأمثل به أشنع تمثيل ... وأخذت أعدو ، وأعدو هنا وهناك ، في الطريق المظلم الوحش الموصل إلى المطرية ، وفي الطريق الآخر الموصل إلى كوبري القبة . وكنت خلال ذلك أسأل كل من ألقاه في الطريق — وأنا ألهث في إعياء واضطراب — عن رجلين يركب أحدهما حماراً والثاني يسير بجانبه ، وكأن سؤالي هذا كان شيئاً يضحك الناس ، فلا أجاب عليه بغير الضحك والاستهزاء ...

وأحسست بالآلام وبالإعياء ومددت يدي إلى جيبي أمسح بها العرق المتصبب منه ، فإذا الدم يتفجر من رأسي ويسيل على وجهي وعنقي وأذني ، وانشدت عروق قدمي فلم أعد أقوى على المشي ، وتحسستها فإذا هي الأخرى قد أصابها السقوط بأوجع مما أصاب رأسي ، ونظرت إلى ملابسي فألفيتها ممزقة والأوحال والدماء تلطخها ، وتمثلت لناظري جسامة الحادث وبشاعة نتائجه ؛ فعدت إلى محطة الترام أجرّ نفسي جراً ... ومازلت حتى وصلت إلى المحطة المشؤومة . وجاء الترام الثاني فانزويت في ركن من العربة

حتى لا يراني أحد معارفي على هذه الحال الزرية المضحكة . ووصلت إلى ناظر المحطة فتسلمت منه « صرة البيض » ، وكان أكثره قد تكسر ، فعدت به إلى المنزل حيث لقيتك على بابه .

* * *

ولم يكد صديقي محمود يفرغ من قصته حتى كنت قد أوشكت أن أنفجر ضاحكاً وباكياً !!

ونظر إليّ هو في ابتسامة هي مزيج من الحزن والألم .

ثم انفرجت أسارير وجهه قليلاً . ونادى خادمه اللص الجاهل !!! فلم يشأ أن يدعه دون أن يكشف له عن سرقاته المتعددة من ثمن الحاجات . وأراد أن يضرب له مثلاً بالبيض — رغم الذي حدث !! — فقال له في حدة وغضب :

هل ظننتني مغفلاً أيها العبد الوضيع حين حاسبتني أمس على ثمن البيض بسعر خمس بيضات بالقرش ! الآن عندك في « الصرة » بيض طازج قد اشتريته اثنتي عشرة بالقرش الواحد . اذهب إلى المطبخ وتجاوز عن المكسور منه ، وستجد الباقي بعد ذلك أرخص وأحسن مما تشتري ثم أسرع بإعداد جانب منه للعشاء .

ذهب الخادم مطرقاً لا يدري ما يقول ، ثم عاد بعد قليل يحمل في يده طبقاً كبيراً مملوءاً بالبيض وبالكتاكيت تعوم في زلاله ، وقال لسيده في عبارة مزهوة متكبرة :

— ليس هذا البيض للأكل ياسيدي !! إنه من نقاية بيض معامل الفراخ .

أما سيده العالم الجليل الأستاذ محمود فقد تجهم وجهه ، واضطربت أنفاسه ، واكفهرت أساريره لهذه المفاجأة الجديدة !! وراح يزفر ويتململ ثم اتسعت حدقتاه ، وبدت عليه علائم التفكير العميق ، كأنه اعتزم أمراً خطيراً !

نهض من سريره عابساً صامتاً لا يتكلم . ثم أخذ يلبس ثياباً أخرى غير الثياب الممزقة ، وجعل يسوي هندامه ويبالغ في أناقته . ونسي آلامه وجراحه ، وتناول زجاجة العطر فأفرغ منها على شعره ، ولبس طربوشاً آخر فأحكم وضعه فوق رأسه . ثم نادى خادمه النوبي الجاهل !! فأمره في عزم وصرامة أن يحمل جميع كتبه ، وأن يقذف بها إلى أوحال الطريق . . .

. . . والتفت إليّ لما وجدني ذاهلاً لهذه المفاجأة الأخيرة . . فقلت دهشاً :

— إلى أين تمضي في مثل هذه الساعة ؟

فنظر نظرة هائلة ، ثم قال :

— أفر من هذا الجحيم . . .

قلت :

— ولكن إلى أين ؟

فقال :

— إلى الجحيم !!

قلت :

— وأي جحيم تعني ؟ أمن جحيم إلى جحيم ؟

فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه وآثار الدماء لا تزال عالقة بها والدمع يترقرق في عينيه وهو يغالبه ، ثم قال :

— إلى جحيم المرأة . إنه جحيم . . . لكنه جحيم يطاق . . .

قلت :

— وأين هي المرأة الآن ؟

فقال :

— هي هاهنا قريبة من داري وهي ابنة جاري في هذا المنزل القريب منا ، هي فتاة مهذبة بارعة الجمال أرسل إلى أهلها منذ عامين يلحّون بالزواج ، إنها ومثيلاتها كثيرات صرفهنّ عني جنون الكتب . . . ها أنذا أذهب إليها الآن ، وفي مثل هذه الساعة أطرق بابها وأطلب يدها . . .

* * *

. . . . ثم انقشعت غياهب الليل ، وقرت العاصفة ، وانجابت الغيوم ، وأشرق الصباح عن وجه باسم جميل .

عبد الله حبيب

هو وهي

للآنسة قدرية كامل

إلى قمة الجبل يريد أن يصعد ،
ووقف عند السفح ينظر إلى أعلى ،
فادت به الأرض
وأغمض عينيه
ومد يده يتحسس ،
فتشبث بحجر وأراد الصعود ،
ولكن الحجر تزحزح وكاد يهوى ،
فتراجع مذعوراً ،
وجال بعينيه فرأى مخرجا ؛
ومشى إلى الطريق الأخضر يريده مصعدا ،
وخطا خطوة ،
ولكنه تراجع مذعورا
وصاح :
— أشواك أشواك .
وجال بعينيه
فرأى طريقاً مستويا ،
فجرى إليه فرحا
وصعد
ووصل إلى منتصف الجبل
ووقف يتنفس الصعداء ،
فانزلق
ووجد نفسه عند سفح الجبل !
ووقف ينظر إلى الجبل في يأس ؛
ولكن ما زال في عينيه بريق من أمل
ورأته الفتاة ،
فمشت إليه ، وقد اعتزمت أمراً .

قالت : أتصعد الجبل ؟
نظر إليها في إشفاق ،
وقال : ما أبسطك يا فتاتي !
أتستطيعين صعود هذا الجبل الوعر ؟
أخشى أن أصرح لك بأني قد فشلت .
فضحكت ، وقالت : أهذا الجبل وعر ؟
إنه سهل سهل ،
قال : وهذه الحجارة المتقلقلة ؟
قالت : إنها تثبت تحت يديك القويتين .
قال : وهذه الأشواك ؟
قالت : إنها تحترق بحرارة شبابك المتوثب
قال : وهذا الطريق الأملس المنزلق ؟
قالت : إن آثار قدميك تحفر لك طريقا .
قال : ما أسهل الصعود !
قالت : هيا اتبعني سأغني لك ،
وتقدمته ، وتبعها ،
وأخذت تغني :
هيا إلى الجبل ،
هيا إلى القمة ،
هيا ابلغ غايتك ،
إن الله أعطانا عيوناً ترى ،
وقلوباً تشعر ،
وعقولا تفكر ،
هيـــا . . .
ووصلا إلى قمة الجبل ،
ونظر إلى الكون من عل ؛
فشعر بهذه القوة الجديدة التي تسري في بدنه ،
فقال للفتاة : « أي قوة أنت وأي سحر ؟ »
« هيا يا فاتنتي تقدميني في الهبوط »
قالت : « لا أستطيع »
« في الصعود كنت أصعد وأنت ورائي »

أنباءٌ وآراءٌ

حفلة تأبين الأستاذ الهراوى

تُقام فى القاهرة حفلة تأبين لفقيد الشعر العربى المرحوم الأستاذ محمد الهراوى فى يوم الأحد الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٩ . ومجلة الثقافة تشارك بقلبها فى تكريم ذكرى صديق وفىّ ، كما تساهم فى تقدير شاعر أديب ، خدم اللغة والأدب خدمات جليلة ، وفتح فيهما طريقاً جديدة لتقريب مواردهما لصغار الأبناء .

وقد نشرنا فى صفحة الشعر قصيدة فى رثائه لصديقه وصديقنا الأستاذ أحمد الزين ، ونعتذر من الاقتصار على ذلك فى هذا العدد ، ولنا بعدُ عودة إلى وصف الحفل فى عدد تال إن شاء الله .

المجلس الشرقى Oriental Assemply

هو الاسم الذى اختارته دار وليامز ونورجيت بلندن للمجموعة التى تصدرها قريباً من كتابات (ت . ا . لورنس) الذى يعرفه الانجليز باسم « ملك العرب غير المتوج » .

وهذه المجموعة تحتوى على مذكرات لورنس عن رحلته الثانية إلى شمالى سوريا فى سنة ١٩١٨ للتوسع فى دراسته عن الصليبيين وجمع بعض الآثار ، وهى التى يحتفظ بها متحف « اشموليان » باكسفورد الآن .

أما الجزء الثانى من هذه المجموعة فهو أبحاث خاصة ، كتبها لورنس عن بعض الشخصيات العربية ، ومقالات أخرى لم ينشرها ، أو نشرها مقتضبة فى كتابه

« قوة تسير ، تجذبك إلى أعلى »

« فإن زلت تحميني »

« والآن أصبحت أنت قوة »

« فإن أنا تقدمتك »

« وقد أزلنى فأتهشم »

« فمن يحميني ؟ »

« سآخذ الجانب الآخر من الجبل طريق »

وهمت بتركه ،

فتشبث بها ،

وقال : « هاك ساعدىّ بحملاتك »

فتراجعت مذعورة ،

وقالت : « دعنى ! »

قال : « ماذا يا فتاتى ؟ »

قالت : « شخصان صعدا الجبل »

« أتريد أن يهبطه شخص واحد ؟ »

قال : « بل شخصان ، أنت وأنا »

« نحن »

قالت : « يا ساذج »

إن أنت خلقنى فشخص واحد يهبط الجبل

« هو أنت »

« فدعنى أهبط الجانب الآخر لأحتفظ بشخصيتى »

وتركته ؛

وأخذت تهبط الجبل فى سكون

قدرية كامل

« سيمة أحمدة بمحكمة » ، عدا عدة صور تزيد على المائة رسمها لبعض المناظر والحوادث الهامة أثناء الثورة العربية .

الإنكليز في نظر الفرنسيين

كتب أندريه موروا مقالا عن الأدب الانكليزي في نظر الفرنسيين ، فذكر العقبات التي تعترض نقل الآثار الأدبية الانجليزية إلى اللغة الفرنسية ، وأولها الأسلوب ، قائلا : إن الجملة الجميلة ، والشعر المتناسق ، وكلاهما يعتمد على جرس الكلمات واتساق مقاطع الجمل ، واختيار التعبيرات المناسبة ، كل ذلك يختفي في الترجمة . وكلما كان الشاعر عظيما كان من الصعب نقل ما في شعره من عبقرية . وهو يعلل بذلك ما يلاحظ من غموض كيتس وشلي وسوينبرن عند غالبية الفرنسيين وعدم معرفة الرأي العام الفرنسي لهم .

أما العقبة الثانية فهي تتعلق بأخلاق الشعب الانجليزي والشعب الفرنسي ، فبينما يحتاج القارىء الانجليزي إلى الفكاهة المرحة ويسر لها ، لأنه غالباً ما يفضل أن لا يواجه الحقائق بما فيها من مرارة ، يحتاج القارىء الفرنسي ، بل يولع بأن يسمع الحقيقة القاسية ويستمتع بالانصات إليها ، وبذلك لا يسيغ القارىء الفرنسي كثيراً من الآثار الأدبية الانجليزية كآثار جان أستن ، بالقدر الذي يسيغ به آثار دستوفسكي مثلاً .

ويرى أندريه موروا أنه حتى الأدباء الانجليز الذين استلهموا الوحي الفرنسي لايحظون بعناية في فرنسا ، ويضرب المثل بشوسر chaucer الذي لا يعرفه كثير من القراء الفرنسيين . أما الأدباء الانجليز الذين تقرأ آثارهم في فرنسا فهم كيلنج وستيفنسون (روبرت لويس) وكونراد ، وذلك يرجع لأنهم يرضون ذوق الشبيبة الفرنسية التي تميل للروايات التي تتحدث عن المغامرات ، ولا تجد عنه دوماس وجول فرن كفايتها .

على أن الصداقة بين الشعبين الفرنسي والانجليزي ، التي تزداد روابطها في الأيام الأخيرة ، تقرب الأدب الانكليزي إلى حد بعيد من الفرنسيين ، وتدفع القارىء الفرنسي إلى الاتجاه نحو الأدب الانكليزي ومحاولة استساغة آثاره ، رغم كل هذه العقبات ، ولو من سبيل المجاملة المحضة ...

القصة في الأدب الحديث

يتهم السير هيووالبول ، وهو من الكتاب الانجليز المعاصرين ، القصة الحديثة بأنها هزيلة لن يقدر لها الخلود ، فهي لا تخلق الشخصيات التي تعيش مع القراء ويعرفونها ويتداولونها جيلا بعد جيل ، ولا تحوي الحكاية الشوقة التي يتناقلها الناس وتتداولها الشعوب ، كالتداولت دون كيشوت أوداقيد كوبرفيلد .

وهو يعلل ذلك بأن كتاب القصة في الأدب الحديث يفرضون أنفسهم فرضاً على كل ما يكتبون ، ولا يبتكرون شخصيات مستقلة وعالماً خاصاً لأبطالهم ، بل إن ذكاءهم ومعارفهم هما محور كل أعمالهم . فالأفكار هي أهم شيء عندهم . أما الشخصيات فليست إلا أنابيب زجاجية تطاحن فيها نظريات علم النفس خاصة والعلوم الحديثة بوجه عام ، وبذلك استحالت القصة إلى عمل على محض لا فن فيه ولا خلق ، كل محتوياته آراء تستند على العلم الزمني المتغير ، ذلك العلم الذي ينسخ بعضه بعضاً يوما بعد يوم ، ويأخذ في سبيله هذه القصص التي يقوم كيانها عليه .

أما القصة الضخمة فهي في نظر سير والبول التي تخلق عالماً قائماً بذاته من الشخصيات ، مستقلا عن المؤلف استقلالا يشبه ذلك الاستقلال الذي بيننا نحن البشر وبين الخالق .

ومن الأمثلة التي يضربها لذلك قصص ألدوس هوكسلي و د . هـ . لورنس وفرجينيا وولف وجويس . فهي كما يقول لا تدل إلا على شيء واحد ، ذكاء خارق جبار مصدره رأس يزخر بالمعرفة . أما شخصياتها فهي تتلاشى حالما تنتهي تلاوة القصة ، ولا تخلف إلا بصمة أفكار لامعة تنتظر مصيرها المحتوم على يد « فرويد » آخر يهدمها !

حتى عوالم ويلز العجيبة المليئة بالغرائب لن يعيش منها بطل واحد ، لأنها وضعت على أساس من العمليات الرياضية الدقيقة ، إن آمن بها العلم فلن يؤمن بها قانون المفاجآت ، ولن يؤمن بها القراء أو يعرفوها بسهولة ، ولن يعيشوا معها كما يعيشون مع سانكوبانزا ، وبيكوشارب وتس ، ودافيد كوبرفيلد ، تلك الشخصيات التي خلقها سرفانتس وديكنز وهاردي وأضرابهم ، واستطاعوا أن يحركوها حركات إنسانية بسيطة متصلة بالنفس الإنسانية عامة أكثر من اتصالها بالعالم الزمني المتغير .

وهو يرى — أخيراً — أن الوقت قد فات على كبار كتاب القصة ، فهو يوجه كلامه إلى الناشئين ناصحين إياهم بأن يخرجوا من دائرة نفوسهم ، وينحوا نحو القصة الضخمة فلا يجعلوا شخصياتهم مدار أعمالهم ، بل يجعلوا همهم ابتكار عوالم جديدة ومخلوقات يستلهمونها من الحياة العادية السهلة ، يدفعون بها إلى هذه العوالم لتعيش فيها بعيداً عن جو العلم الذي لا يكف عن الاكفهرار بمختلف السحب والعواصف .

آثار أدبية

عرضت أخيراً في مزاد أقيم في لندن ، لبيع مكتبة السير لستر هارمسورث ، نسخة من الطبعة الأولى من أحد مؤلفات ديفو يرجع تاريخ طبعها إلى سنة ١٧٢١ ، فبيعت بمبلغ ١٤٠ جنيها .

وفي نفس المزاد عرضت نسخة من الطبعة الأولى لأحد دواوين الشاعر وليام كولنز من الأشعار الرمزية ، يرجع تاريخ طبعها إلى سنة ١٧٤٦ . فبيعت أيضا بمبلغ ١٤٠ جنيها .

ومما يذكر أن هذه الطبعة من ديوان كولنز كان قد أصدرها في سن الخامسة والعشرين ، وكان قد هجر الكنيسة وجاء إلى لندن ليتعيش من قلمه ؛ ولما أصدر هذا الديوان كان أحد أصدقائه (جوزيف وارتون) قد أصدر ديوانه أيضا ، فراج أكثر من رواج ديوان كولنز ، مما أثار غضب هذا الأخير وجعله يجمع الباقي من نسخ ديوانه ويحرقها حتى أدى ذلك إلى ندورة النسخ الموجودة من هذه الطبعة .

رأى ولز في توحيد العالم

دعا هـ . ج . ويلز في أحد كتبه الجديدة إلى إقامة « حكومة عالمية » تلغى فيها الشعوب والأمم ، ولا يدين فيها الأفراد بالحب لوطن معين ، كانجلترا بالنسبة للانجليزى مثلا ، وإنما يصبح فيها الأفراد مواطنين في أمة كبرى هي العالم بأسره ، لا يعرفون غيره وطنا .

وقد علل دعوته بأن سبب الاضطراب الذى يسود العالم اليوم هو هذا التعصب الأعمى للقوميات ، والايمان بالوطنية دون تبصر ولا رعاية للانسانية كلها ، حتى إن كل شعب يرى الوطنية فضيلة عند أفراده إذا تمسكوا بها وأسرفوا فيها ، ورذيلة عند الغير إذا حرصوا عليها ودافعوا عن أوطانهم ، فالحل الوحيد لسلام العالم هو إلغاء الأوطان والشعوب ، وإحلال « اللاقومية » محلها في ظل حكومة عالمية .

وقد رد الأستاذ روبرت لندن في مقال نشره بمجلة « جون أولندن » تحت عنوان « رذيلة الوطنية » ، فأشار إلى ما كان يدعو إليه دانتزيو شاعر إيطاليا الراحل من التعصب للوطن ، أو « الأنانية المقدسة » حيث لا يؤمن الفرد إلا بوطنه ويحتقر ما عداه من أوطان الآخرين ، قائلا إن الوطنية تتحول بمثل هذه الدعوة إلى رذيلة ، كما تتحول فضيلة احترام النفس إلى رذيلة عندما تصبح كبرياء وتعاليا على الغير ، ولا تصبح وطنية مهما زينها أمثال دانتزيو بالألفاظ الضخمة كالتقديس ، وإنما هي رذيلة بحتة قوامها الطمع والشره مما لا تعرفه الوطنية التي تقوم على حب

الوطن واحترام أوطان الغير . وعلى ذلك فهو يرى أن الوطنية ليست هي السبب في مشاكل العالم الحاضرة ، كما يرى ويلز ، إنما هو مجرد الطمع والرغبة في التسلط والاغتصاب .

أما إلغاء الشعوب والقوميات ، فإن الكاتب يراه مستحيلا ، لأن الشعوب لا تمحى ولا تزول ، وهو يستند إلى التاريخ الذي يؤيده فيما ضرب من الأمثلة بإرلندة وبولندة ومصر ، فإن كلا منها قد صمد لكل التجارب من الاضطهاد والقفز إلى التقسيم ومحو اللغة ، ويشير في دعابة إلى إيطاليا نفسها التي زعم أحد ساسة النمسا غداة ثورة استقلالها أنها : « ليست شعباً وإنما مجرد اصطلاح جغرافي » ، ومع ذلك فقد عاشت إيطاليا شعباً له طابعه إلى اليوم . ثم يتساءل : « لم لا تقوم هذه الوحدة العالمية كما يريدها ويلز إلى جانب الوحدات القومية جنباً إلى جنب ، وليس تضاد بين التعاون في وحدة عالمية ، والاستقلال القوي لكل شعب على حدة ؟ »

إن السبيل إلى السلام ليس هو إلغاء القوميات والاعتقاد بأن الوطنية رذيلة ، وإنما هو تنقية الوطنية وإبعادها عن فكرة الأنانية ، والايمان بأن الاعتداء على الغير شيء ، والوطنية شيء آخر .

كتاب عن الأمير
فخر الدين بن معن

حركة الأمير فخر الدين بن معن في لبنان تكون حلقة هامة من حلقات تاريخ الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، ومثلها في ذلك مثل حركات علي بك الكبير ومحمد علي باشا في مصر ، وحركة سليمان باشا في العراق ؛ فهذه الحركات كلها تدل على يقظة الشعوب الاسلامية وسعيها للاستقلال عن الدولة العثمانية ، وإنشاء دول جديدة على الأنظمة الغربية .

بيد أن الأمير فخر الدين يكاد يكون أشد من علي بك الكبير أو سليمان باشا تعلقا بالغرب وأممه ، إذ كان له فهم طيب للحضارة الأوربية الحديثة ، ورغبة ملحة في الأخذ بأساليبها ، وقد ثار على السلطان مراد واعتصم منه بجبال لبنان ، ولقيت حركته عطف الكثير من الدويلات الايطالية مثل فلورنسة لأنه ارتد عن الدرزية إلى النصرانية ، فأخذت حركته لونا دينيا ، وقد شد الأمير الثائر رحاله إلى فلورنسة ليتحقق من عون أهلها ، فلقي ما أرضى نفسه من إكرام الوفادة ، وسجل خواطره في مذكرات من أمتع وأطرف ما يقرؤه الانسان من آراء الشرقيين في الحضارة الأوربية في هذه السنوات الأولى .

وفي فخر الدين لمحات من عبقرية محمد علي وحسن تقديره للحضارة الأوربية ، وبعد نظره في السياسة وتصريف الأمور ، ولو قد وجد شيئا من المعاونة الجدية لأفلح في حركته ، ولكن فلورنسة لم تصدق وعدها ، فبادره مراد الرابع بالقمع الشديد وقضى عليه ، والكتاب الذي نحن بصدده L'Amir à la Croix لمؤلفته السيدة جان أرقش اللبنانية يصور هذا كله في قالب روائي لطيف قد لا يخلو من الانحراف عن الدقة التاريخية بين الحين والحين .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك

مـ
ثمن العدد ٦ مليم

فى عالم التأليف

مصر بين الاحتلال والثورة :

تأليف الأستاذ صلاح الدين ذهنى — وهو كتاب أدبى اجتماعى تعرض فيه لفن القصة فى الأدب المصرى الحديث ، فى عهد الاحتلال ، والأدب منذ ثورة سنة ١٩١٩ ، وبين العهدين . وقد اختار كتابين يمثلان العهدين ، وهما « حديث عيسى بن هشام » و« عودة الروح » ، واستخلص منهما روح العصرين وحللها ونقدها . وقد قدمه الأستاذ « جب » بمقدمة لطيفة أظهر فيها إعجابه بالكتاب وموضوعه ، وأخذ عليه مزجه التحليل بالاستطراد والملاحظة ، حتى لايستطيع القارئ التمييز بين كلام المنقود والناقد ، كما أخذ عليه أنه تأثر بأساليب الجرائد ، ولم يتحر اختيار الصحيح والفصيح فى بلاغة التعبير .

وهو يقع فى ١٧٦ ص من القطع الصغير ، ونشرته مكتبة الشرق الإسلامية بالقاهرة .

مجلة الحديث :

أصدرت مجلة الحديث الغراء التى تصدر فى حلب عدداً ممتازاً فى شهر ابريل من هذا العام خاصاً ببحث للدكتور اسماعيل أدهم عن الأستاذ توفيق الحكيم ، درسه فيه دراسة تحليلية على النمط الذى سار عليه الغربيون ، تكلم فيه أولاً عن الفن القصصى والمسرحى فى الأدب العربى الحديث ، ثم تكلم عن حياة « توفيق الحكيم » وشخصيته وأعماله الأدبية وآرائه ، ثم فنه فى مسرحياته وقصصه .

وقد نشرت المجلة عدداً خاصاً كهذا فى ابريل الماضى عن الدكتور طه حسين بك .

وفى هذه الأبحاث يلم الكاتب بأطراف الموضوع ، ويحلل من يكتب عنه تحليلاً تفصيلياً دقيقاً .

حياة الرافعى :

للأستاذ محمد سعيد العريان — ذكر فيه مؤلفه حياة الأديب المعروف (مصطفى صادق الرافعى) ، وبدء حياته بالشعر وتحوله من الشعر إلى الكتابة ، وكتبه التى ألفها ، وعمله فى النقد ، ومقالاته فى مجلة « الرسالة » الخ ، وهو فى كل ذلك يكتب عن علم ودرس . وقد أتاح له قربه من الرافعى وشدة اتصاله به أن يعرف دقائق حياته ، ويعرف الظروف الخاصة التى كتب فيها كتبه ومقالاته ، فشرح ذلك كله شرحاً وافياً صريحاً فى أسلوب فنى قوى واضح ، فكان من ذلك كله ما يعد مثلا لتحليل الكتّاب المعاصرين .

وهو يبلغ ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، وقد طبع بمطبعة الرسالة بمصر .

على فراش الموت :

للأستاذ طاهر الطناحى — وهو كما يدل عليه اسمه يتعلق بالموت وما يتصل به ، فيتكلم فى الموت عند الشعوب ، ولماذا نخاف الموت ، ومآسى طائفة من أعلام الشرق فى العصر الحديث ، وما يحيط بكل مأساة من حوادث تاريخية ، وطرائف أدبية ، كالخديو اسماعيل ، والملك فؤاد الأول ، والشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وفيه فصل عن « منازل الموت » . وهو يقع فى نحو ١٨٠ ص . وقد صدره الدكتور مصطفى فهمى سرور بك ببحث عن « العلم والموت » .

وقد عنيت بنشره « دار الهلال بمصر » سنة ١٩٣٩ .

تاريخ التعليم فى عصر محمد على :

للأستاذ أحمد عزت عبد الكريم — كتاب ضخم عن التعليم فى مصر فى عهد محمد على ، تكلم فيه عن التعليم قبل محمد على وما أدخله محمد على بعد ذلك من نظم ، والأثر الغربى فى النظام التعليمى فى مصر ، وتطور هذا النظام وما فعله فى درجات التعليم المختلفة ، من تعليم ابتدائى وتجهيزى ، والتعليم الخصوصى والبعوث العلمية ، كما تكلم عن الحياة المدرسية ونظم الدراسة ومدارس الطوائف والجاليات الأجنبية بمصر فى عهد محمد على .

وقد قدم الكتاب الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل كلية الآداب بمقدمة فى الحركة التعليمية فى عهد محمد على وبحوث الباحثين فيها . وذكر أن قيمة هذا الكتاب فى أن مؤلفه كان رائده توخى الحقيقة الخالصة ، كما كان نتيجة دراسة سنين عديدة فى المخطوطات والكتب ، وهو يقع فى ٨٠٠ ص ، وقد نشرته مكتبة النهضة المصرية .

وفى هذا الموضوع ألف الأستاذ دَن (Heyworth-Dunne) مدرس اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية كتابا اسمه المدخل فى تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ، باللغة الانجليزية(١) فقدمه بمقدمة فى نظم التعليم فى مصر الحديثة ، ثم نفوذ الثقافة الغربية فى مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٤٨ ، ثم التعليم فى عهد عباس الأول ، ثم فى عهد سعيد ، ثم فى عهد اسماعيل ، ثم فى عهد توفيق .

وقد ذكر المؤلف أنه سيوالى متابعة الأجزاء إلى الوقت الحاضر . وقد ذيله بفهارس عدة مستوفاة وقد نشرته مكتبة (Luzac) بلندن .

(١) اسم الكتاب ، An Introduction to the History of Education in modern Egypt.

أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام :

تأليف الأستاذ سعيد الأفغانى ، بحث فيه عن تجارة العرب قديماً وطرق المواصلات فى جزيرة العرب ، ومراكز قريش فى التجارة وحلف الفضول ، ثم تكلم عن أسواق العرب فى الجاهلية سوقا سوقا وأهمها سوق عكاظ . وحقق ما ورد فى هذه الأسواق عن مؤلفى العرب قديما وحديثاً ، ثم أسواق العرب فى الاسلام وأهمها المربد ، وقد استوفى الكلام فيها كلها استيفاء حسنا ، وأتبعه بفهارس وافية .

وهو يقع فى نحو ٤٧٠ ص . وقد طبع طبعاً متقنا على ورق جميل ، وقد نشرته المكتبة الهاشمية بدمشق .

مختصر تاريخ العرب :

هو كتاب للسيد أمير على الكاتب الهندى المعروف ، رأى أن الحضارة العربيــة من أرقى الحضارات ، وأن أوربا الحديثة لا تزال تسير على هدى تراثهم الزاخر بشتى العلوم والفنون ، وأسف أن تاريخهم لا يدرسه فى أوربا إلا المستشرقون والمتخصصون ، فأراد أن يضع كتاباً يشرح فيه حالة الشعب العربى الاجتماعية وتطوره الاقتصادى والسياسى والحربى ، ورجا من ذلك أن يزيل أو التعصب على العرب من الغربيين ، فكتب فى ذلك هذا الكتاب فى تاريخ العرب من مبدأ ظهور الاسلام إلى آخر العصر العباسى ، كما كتب فى تاريخ العرب فى اسبانيا وتاريخ العرب فى افريقيا ، وكان يتبع كل فصل بالمعيشة الاجتماعية وحركة العلم والحالة الاقتصادية والصناعية ونحو ذلك .

وقد ألفه بالانجليزية وسماه A Short History of the Saracens وقد نقله حديثاً إلى اللغة العربية الأستاذ رياض رأفت من بغداد ، وعلق عليه تعليقات مفيدة ، وطبعه بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ويقع فى نحو ٥٢٠ ص .

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٩٧٦٩

العدد ٢٩ — الثلاثاء أول جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ — ١٨ يوليه سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

جبهة دفاعية فى الشرق الأدنى

ومركز مصر فى هذه الجبهة

لمحرر « الثقافة » السياسى

اتجهت الأنظار إلى مصر غير مرة خلال الأزمة الدولية الأخيرة ؛ ويرجع هذا الاهتمام قبل كل شىء إلى الحقيقة الدولية المعروفة ، وهى أن مصر بموقعها الجغرافى وكونها صاحبة قناة السويس ، طريق الشرق الأقصى وشرق إفريقية ، معرضة دائماً لأخطار المطامع والمنافسات الدولية ، معرضة لأن تدفع إلى خوض أية حرب عامة تنشب بين الدول العظمى . بيد أنه يرجع أيضاً إلى أسباب إيجابية أخرى تتصل بالأزمة الدولية اتصالا مباشراً ، فقد تطورت مسألة البحر الأبيض المتوسط منذ الحرب الأهلية الاسبانية تطوراً خطيراً ، وتطورت الأوضاع البحرية

والعسكرية القديمة فى هذا البحر بصورة تضاعف أهمية مصر كعامل فى حفظ التوازن فيه ؛ وقد ذُكرت قناة السويس ضمن مطالب إيطاليا الاستعمارية على لسان السنيور موسوليني بصفة رسمية ؛ وما زال مقاصد إيطاليا نحو قناة السويس ونحو مصر غامضة ؛ بيد أنها لا يمكن أن تبعث على الاطمئنان ، خصوصا إذا ذكرنا ما تقوم به إيطاليا فى لوبية على حدود مصر الغربية من استعدادات حربية ضخمة ؛ وأخيراً ، نرى مصر تبدو كعامل هام فى تنظيم جبهة مقاومة الاعتداء فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وفى تنسيق الجهود الدفاعية المختلفة التى تبذل فى هذه الجبهة من رومانيا شمالا إلى قناة السويس جنوبا .

وقد تضاعف هذا الاهتمام بمركز مصر السياسي والعسكرى أخيراً لمناسبة الرحلة التى قام بها وزير الخارجية المصرية فى تركيا ودول البلقان ؛ ومع أن نتائج هذه الرحلة لم تعرف بعد بصفة رسمية ، فإن وقوعها فى الوقت الذى وثقت العلائق فيه بين تركيا وفرنسا بعقد الميثاق الفرنسى التركى ، بعد أن وثقت العلائق بينها وبين بريطانيا العظمى بعقد الميثاق الانكليزى التركى ، وفى تلك الظروف التى بلغ فيها معترك السياسة البلقانية ذروة النشاط ، قد يحمل على الاعتقاد بأنها لم تكن فى جوهرها بعيدة عن موقف مصر من الجبهة الدفاعية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وبحث علائقها مع باقى الدول المشتركة فيها على ضوء الحوادث والتطورات الأخيرة . ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن هذه هى أول رحلة سياسية من نوعها يقوم بها وزير خارجية مصرى فى أوربا ، ويقوم فيها بمحادثات سياسية خطيرة مع عدة من الدول الأوربية باسم مصر المستقلة ؛ ومن ثم كانت الأهمية الخاصة التى علقت عليها فى معظم دوائر أوربا السياسية ، وخصوصا فى برلين ورومة ، حيث اتهمت الصحافة الألمانية والايطالية مصر بأنها تعمل تحت نفوذ السياسة الانكليزية لتدعيم سياسة التطويق التى ترمى بريطانيا العظمى بتنظيمها ضد ألمانيا وإيطاليا .

***

والواقع أن مركز مصر السياسى والعسكرى قد تطور فى الأعوام الأخيرة تطوراً خطيراً . فأما من الناحية العسكرية فإن فتح إيطاليا للحبشة ، ومجاورتها بذلك لحدود السودان الشرقية ، قد أثار احتمالا لم يكن موجوداً من قبل ؛ وهو تعرض مصر لخطر الغزو من الجنوب ؛ ووجود إيطاليا فى لوبية التى تتصل من الجنوب الشرقى بشمال غربى السودان ، وما يذيعه الخبراء العسكريون عن نيات القيادة الفاشستية فى حالة الحرب من محاولة اختراق السودان من هذه الناحية لوصل لوبية بالحبشة والإحداق بمصر من الجنوب والغرب ، مما يزيد هذا الخطر قوة ووضوحا . وأما من الناحية السياسية فقد حصلت مصر على استقلالها بعقد المعاهدة المصرية الانكليزية وألقت المعاهدة عليها ، فضلا عن تبعات مركزها الجديد ، نحو حليفتها انكلترا ، تبعات عسكرية خطيرة فى حالة وقوع حرب تشتبك فيها انكلترا مع دولة أخرى ، وهى تبعات قضت بها مصالح البلدين الحيوية المشتركة فى الدفاع عن مصر وقناة السويس .

ولما كان الصراع الذى يضطرم الآن بين الدولتين الديمقراطيتين الكبيرتين أعنى بريطانيا العظمى وفرنسا وبين محور برلين رومه ، يدور قبل كل شىء حول السيادة العالمية والمسألة الاستعمارية ، وينذر بالانفجار بين آونة وأخرى بصورة لا يمكن تحديد مداها ، فإن مصر بموقعها وحراستها لقناة السويس ، التى تعتبر فى نظر انكلترا طريقاً

حيويا للامبراطورية البريطانية ، وفى نظر إيطاليا طريقاً حيويا لامبراطوريتها فى شرق إفريقية ، تجد نفسها فى مركز دقيق جدا ، يجرها حتما إلى خوض أية حرب أوربية تقع بين الدول العظمى ، إذ لا يمكن أن نتصور وقوع مثل هذه الحرب ، دون أن يكون البحر الأبيض المتوسط ساحة من أخطر ساحاتها ، ودون أن تكون قناة السويس هدفا من أهم أهدافها .

ولذا لم يكن غريباً أن تتبع مصر تطورات الحالة الدولية عنتهى الاهتمام ، وأن ترقب بنوع خاص كل تغيير يطرأ على الحالة فى البحر الأبيض المتوسط ، ولاسيا فى شرقيه ، أن ترى فى تحالف تركيا مع بريطانيا العظمى وفرنسا ، عاملا قويا فى توطيد جبهة مقاومة الاعتداء فى شرق البحر الأبيض ، وفى تدعيم وسائل الدفاع عن هذه الجبهة التى تسهر مصر على طرفها الجنوبى .

— ٢ —

على أنه يجب أن نلاحظ أن هذه الجبهة الشرقية التى تمثل مصر فيها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور الحالة فى بلاد البلقان ، وهى بذلك تمتد شمالا حتى رومانيا .

وإنها من جهة أخرى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة فى البحر الأحمر ، وهى بذلك تمتد جنوبا إلى عدن وباب المندب .

فأما من الحالة فى البلقان ، فإن تركيا ترتبط ، كما نعلم ، بدول البلقان الأخرى ، أعنى رومانيا ويوجوسلافيا واليونان ، بميثاق ينص على احترام الحالة الراهنة فى البلقان ، وعلى تبادل المشاورة والمعاونة فى كل تغيير يطرأ عليها ، وعلى الدفاع المشترك ضد أى اعتداء يقع على إحداها ؛ ومع أن هذا الميثاق لا يزال قائماً فانه يخشى أن يكون قد فقد كثيراً من قيمته إزاء التطورات الدولية الأخيرة ؛ أولا : لأن بلغاريا التى لم تدخل فيه ، تبدى ميلاً واضحاً نحو دولتى المحور ، وتطمح إلى اقتضاء ثمن حيادها بتحقيق أمانيها فى استرداد ولاية دبروجه من رومانيا ، وفى الحصول على منفذ على بحر إيجه ، وهذا ما تأباه عليها رومانيا واليونان ؛ وثانياً : لأن يوجوسلافيا التى تجد نفسها بعد احتلال إيطاليا لألبانيا محصورة بين دولتى المحور ، أعنى ألمانيا من الشمال ، وإيطاليا من الجنوب تقف حذرة مترددة فى الطريق الذى تسلكه ، بالرغم من كونها لا تزال تميل إلى الجبهة الديمقراطية . وعلى ذلك فلى وسعنا أن نعتبر الحلف البلقانى قائماً فقط بين تركيا ورومانيا واليونان ، وأنه قد توثق بالتصريحين البريطانى والفرنسى اللذين صدرا على أثر احتلال إيطاليا لألبانيا ، باستعداد بريطانيا وفرنسا للدفاع عن كل من رومانيا واليونان إذا اعتدى على استقلالها وقاومت الاعتداء ؛ ثم توثق بعد ذلك بعقد الميثاقين التركى الانكليزى والتركى الفرنسى .

وعلى ذلك فإن هذا الحلف البلقانى بين تركيا واليونان ورومانيا ، وهو حلف تتوجه معاونة انكلترا وفرنسا عند الاقتضاء ، يعتبر دعامة قوية فى القسم الشمالى لجبهة مقاومة الاعتداء فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو بذلك يمكن أن يعتبر سداً فى وجه المطامع الألمانية فى الزحف إلى البلقان والبحر الأسود ، وفى وجه المطامع الإيطالية فى الأناضول وسوريا .

* * *

وأما عن الحالة فى البحر الأحمر ، فمن الواضح أنها ترتبط أشد الارتباط بتنظيم الجبهة الشرقية ؛ وهنا تعتبر مصر أيضاً طرفاً شمالياً لجبهة مقاومة تمتد جنوبا حتى باب المندب .

فمنذ افتتحت إيطاليا الحبشة ، وأصبحت تسيطر بذلك

على رقعة كبيرة فى شرق أفريقية تقع بين البحر الأحمر وبين المحيط الهادى ، اشتد التنافس بين بريطانيا العظمى وإيطاليا على سيادة البحر الأحمر ، الذى تعتبره إيطاليا طريقاً لامبراطوريتها والذى تسيطر بريطانيا على بابيه ، الشمالى ، وهو قناة السويس ، بواسطة تحالفها مع مصر ، والثانى وهو بوغاز باب المندب ، بواسطة احتلالهـا لمنطقة عدن .

يضاف إلى ذلك أن فرنسا تسيطر على مخرج الحبشـة باحتلالها لثغر جيبوتى وخليجه ، وبذلك تدعم مركز حليفتها بريطانيا العظمى ؛ وهو ما يفسر كون إيطاليـا تضع « جيبوتى » فى طليعة مطالبها الاستعمارية .

وقد حاولت إيطاليا أن تعمل لتقوية مركزها الضعيف فى البحر الأحمر ، بالضغط على اليمن وجرها إلى محالفتها ؛ وقد عقدت بالفعل معاهدة صداقة بين اليمن وإيطاليـا ، ولـكن عاهل اليمن الإمام يحيى ، ما زال حريصاً على الاحتفاظ بحيدته بعيداً عن المؤثرات الخطرة ، خصوصاً وهو يعلم حق العلم أن بريطانيا جارته من الجنوب فى عدن لا يمكن أن تسمح بأن تخضع اليمن لنفوذ أية دولة أخرى .

ومن جهة أخرى ؛ فإنه يبدو مما نقرأه منذ حين أن ألمانيا ، تحاول بكل ما وسعت أن تتقرب من البلاد العربية ، وبخاصة من عاهل المملـكة السعودية ، الذى يسيطر على معظم الضفة الحيى للبحر الأحمر ؛ وقد جرت أخيراً محادثات بين مندوب الملك ابن سـعود وبين الهير هتلر ، وأذيعت عنها أقاويل كثيرة ؛ وقيل أيضاً إن مندوباً ألـمانيا فى طريقه الآن لمفاوضة ابن سعود . بيد أنه مهما كانت هذه المسـاعى والأحاديث ، فإنه يلوح لنا مما نعرفه من تاريخ علائق الملك عبد العزيز مع بريطانيا العظمى منذ الحرب الـكبرى ، أنه من الصعب أن نعتقد أنه يمكن أن يتحول عن صداقته التقليدية لبريطانيا العظمى .

* * *

والخلاصة أننا نشهد اليوم جبهة دفاعية متصلة ترتسم فيما بين البحر الأســود شمالا ، وبين باب المندب جنوبا ، وتتخذ مصر فيها مركز الواسطة من العقد ، فتعقد الصلة بين طرفيها الشمالى والجنوبى .

ومما هو جدير بالذكر أن هـذه الجبهة الدفاعية تنتظم اليوم قبل أن يصبح خطر الحرب حقيقة واقعة ، وتضطر الدول الديمقراطية إلى الارتجال فى خططها واستعداداتها كما حدث فى الحرب الـكبرى ، فهى تنظم اليوم دفاعها المسـتقبل على أسس متينة واضحة ، لـكى تتقى خطر المفاجأة ، وهى مزية سيكون لهـا بلا ريب أكبر الأثر فى مصاير المعركة القادمة .

(* * *)

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى	٦٠ فى مصر والسودان
	٨٠ فى الأقطار العربية
	١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العـدد ١ صاغ

رشيد الدين العمرى الكاتب

المعروف بالوطواط

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

نشأ الأدب الفارسى الاسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، فشرع الفرس ينظمون ويكتبون بالفارسية ، ويترجمون من العربية إليها . وكانت العربية وحدها لغة العلم والأدب فى القرنين الأول والثانى من الهجرة .

وقد نشأ الأدب الفارسى فى رعاية الأدب العربى وسلطانه ، فحاكاه فى أكثر الموضوعات والأساليب ؛ فموضوعات الشعر والنثر وأساليبهما من الوزن والقافية والسجع وأنواع البديع متفقة فى الأدبين ، وامتاز الأدب الفارسى بخصائصه فى القصص والتصوف وضروب أخرى .

ولم تهجر اللغة العربية بترعرع الأدب الفارسى ، بل سادت اللغتان معا ، يكتب فيهما ، ويترجم من إحداهما إلى الأخرى ؛ مثلا ترجم تاريخ الطبرى وتفسيره ، وكليلة ودمنة إلى الفارسية ، وترجم كثير من الحكم والأمثال إلى العربية ؛ نجد فى « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى أمثالا معربة و (جملا من بلاغات العجم) كما يقول ، ونجد فى « يتيمة الدهر » أمثالا معربة كذلك ، بل عدت الترجمة بين اللغتين من ضروب البلاغة وذكرت فى كتبها .

وكان كثير من المؤلفين والكتاب يكتبون باللغتين ، وفى هذا ما فيه من تقريب الموضوعات والعبارات .

ومن أجل هذا كثر فى الأدب الفارسى الشعر الملمع وهو الذى تجتمع فيه أشطار أو أبيات عربية وفارسية .

وامتلأت الفارسية بالألفاظ والجمل العربية على اختلاف الموضوعات فى هذا ؛ فالشعر أقل من النثر نصيبا ، وكتب الأدب عامة أقل من كتب العلم استعمالا للألفاظ العربية على كثرة ما فيها .

وأخذت أوزان الشعر ، ثم تصرف فيها الشعراء بترك بعض الأوزان الشائعة فى الأدب العربى ، كالطويل والبسيط والمديد ، وبالإكثار من النظم فى أوزان نادرة فى الأدب العربى كالمضارع والمجتث ، وبالزيادة فى مقادير التفعيلات العربية ، وباشتقاق زحافات وعلل وأضرب وأوزان لا يعرفها العروض العربى .

— ٢ —

استمرت العربية لغة أدب فى إيران حتى عصرنا هذا على اختلاف شأنها باختلاف العصور .

لا ريب أن المؤلفات العربية التى ألفت فى بلاد الفرس ، منذ نشأ الأدب الفارسى إلى غارات التتار ، أكثر وأعظم من المؤلفات الفارسية ، بل يكاد التفاوت بينهما يأبى القياس . وينبغى التفريق بين الأدب وخاصة الشعر وبين الموضوعات الأخرى .

كان العلماء المؤلفون يعرفون اللغتين ، ولكنهم آثروا العربية بالتأليف إذ كانت لسان العلم فى العالم الإسلامى كله . وحسبنا أن نذكر ابن مسكويه وابن سينا والبيرونى والعتبى والغزالى والرازى والزوزنى والتبريزى والنسفى والبيضاوى والطوسى ؛ فهؤلاء العلماء الذين عاشوا فى إيران وإن لم يكونوا جميعاً إيرانيين أصلاً ، كتبوا بالعربية إلا قليلاً .

وأحسن مقياس فى هذا أن ننظر إلى جماعة ممن ألفوا باللغتين ونقيس مؤلفاتهم العربية بمؤلفاتهم الفارسية . والأمر لا يحتاج إلى بحث طويل ، فحسبنا أن نذكر الغزالى ، فنحن نعرف مؤلفاته العربية ، ولم يتجاوز ما كتبه بالفارسية رسالتين : كيمياء السعادة ونصيحة الملوك . وقد قال فى مقدمة الأولى إنه ألفها بالفارسية ليُفهم العامة . ونحن

الدين الرازى له زهاء ثلاثين مؤلفاً ليس فيها فارسىّ إلا كتاب «اختيارات علائى» ورسائل صغيرة قليلة . وكذلك نصير الدين الطوسى والقاضى البيضاوى صاحب التفسير .

وأما الشعر فما خلا عصر ممن نظموه بالعربية فى إيران ، وبعضهم يعدّ من كبراء الشعراء فى العربية ، وبعض هؤلاء عرب مثل الأبيوردى الأموى والأرّجانى الأنصارى ورشيد الدين الوطواط العمرىّ ، ولكنه غلب الشعر الفارسىّ على مرّ الزمن فبزّ شعراءُ الفارسية فى إيران شعراء العربية ، على كثرة من نظموا بالعربية فيها . وكثير من شعراء الفارسية نظموا بالعربية قليلاً أو كثيراً . وحسبنا أن نعرف أن الثعالبى وهو من رجال القرن الرابع ذكر فى الجزأين الثالث والرابع من «اليتيمة» واحداً وخمسين ومائة من معاصريه الذين نظموا الشعر العربى فى أرجاء بلاد الفرس . وهؤلاء أكثر عدداً من شعراء الفرس الذين ذكرهم عوفى فى كتابه «لباب الألباب» . وهو من رجال القرن السابع .

ومن الشعراء الذين نظموا باللغتين بديع الزمان الهمذانى وأبو الفتح البُستى والبديع البلخى الذى مدح أحد الأمراء بشعر ملمّع ، وعطاء بن يعقوب الكاتب وكان له ديوانان عربى وفارسىّ ، والباخرزى والشيخ سعدى . ومن الشعراء الكتاب رشيد الدين الوطواط ، وهو موضوع بحثنا .

اخترت هذا الكاتب الشاعر لأنه خير مثال لاختلاط العرب والفرس وامتزاج آداب الأمتين .

فهو عربى قرشى من ذرّية عمر بن الخطاب ، وهو فارسىّ وطناً ؛ ولد ببلخ وعاش فى خوارزم . وهو كاتب مجيد بالعربية والفارسية . وهو شاعر مجيد فى اللغتين أيضاً .

— ٣ —

رشيد الدين سعد الملك محمد بن محمد بن عبد الجليل العمرى ، ينتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . بينهما أحد عشر أباً .

ولد فى بلخ حوالى سنة ٤٨٠ﻫ ، وكانت إذ ذاك من أعظم مدن خراسان ، كثيرة الجوامع والمدارس ودور الكتب . وكان من مدارسها النظامية ، وبها طلب رشيد الدين العلم . وكان من أساتذته فيها أبو سعد الهروى ، ويذكره رشيد الدين فى رسائله ويبالغ فى تعظيمه . يقول :

« سق (الله) مواقفنا ببلخ فى المدرسة النظامية واجتماعنا فى المجالس الأجلّية الأمامية

مجالس مولانا أبى سعد الذى
به سَعِد الأيام والدين والدنيا
همام حوى يوم الفخار بشأنه
على رغم آناف العدى قصب العليا

إلى أن يقول :

« وكيف لا أولع فى ثنائه ولا أواظب على دعائه ، وهو الذى رفع قدرى ، وشرح للآداب صدرى ، وسقانى كؤوس العلم وأحشائى صادية ، وكسانى حلل الفضل وعوراتى بادية . اغترفت ما اغترفت من بحاره ، واقتطفت ما اقتطفت من ثماره » .

ثم ذهب إلى خوارزم فلحق بخدمة أبى المظفر علاء الدولة آتسز ملك خوارزم (٥٢٢ — ٥٥١) وأمضى عمره فى خدمة ملوك خوارزم المعروفين باسم خوارزمشاه ، إلى أن توفى سنة ٥٧٣ .

تولى دار الإنشاء لآتسز ٣٠ سنة ؛ وكان الملك يحبه لأدبه وظرفه ويصحبه فى سفره وحضره ومغازيه . ويقال إنه بنى له قصراً بجانب قصره ، فكان يطل من النافذة فيحادثه أحياناً . ويروى أن خوارزمشاه أطل يوماً فرأى رشيد الدين فقال : أرى رأس ذئب بارزاً من النافذة . فقال رشيد الدين : ليس رأس ذئب ولكنها مرآة أبرزتها . فضحك الملك وتعجب من جوابه .

وكان رشيد الدين صغير الجثة ، ولهذا لقبه معاصروه بالوطواط ، وكان حاد اللسان قوى الحجة

كان يوماً فى مجلس آتسز وقد اجتمع العلماء للمناظرة ، فأعجب السلطان بقوة حجته وحدة لسانه ، وكان بينه وبين رشيد دواة ، فقال : ارفعوا هذه الدواة لنعلم من يتكلم وراءها . فنهض الوطواط قائلا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه . فسرّ خوارزمشاه وأكرمه وبالغ فى تعظيمه .

وقد لزم رشيد الدين مولاه ينصره بلسانه وقلمه فى حربه وسلمه ، وشدته ورخائه . فلما وقعت العداوة والحرب بين آتسز والسلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقى ، وخرج آتسز على سلطان السلاجقة هنأه الوطواط بقصيدة فارسية مطلعها :

چون ملك آتسز بتخت ملك بر آمد
دولت سلجوق وآل وى بسر آمد

(لما جلس الملك آتسز على تخت الملك ولّت دولة سلجوق وآله)

وأتبعها بقصائد أخرى .

ثم كان الصلح بين آتسز وسنجر ، وأرسل هذا شاعره أديب صابر إلى خوارزم ، ثم كانت فتنة بين الملكين ، فألقى آتسز الأديب الصابر فى نهر جيحون فغرق .

وسار سنجر لحرب خوارزمشاه فحاصر مدينة هزاراسف فكتب الأنورى الشاعر ، وكان فى صحبة الملك سنجر ، بيتين على سهم ورماه فى المدينة . وكان البيتان فى مدح سنجر وتبشيره بالظفر . فأجاب رشيد الدين ، وكان فى المدينة المحاصرة ، ببيتين ينقض بهما قول الأنورى ، ورماهما إلى معسكر العدو ، فزاد غيظ سنجر . فلما فتح المدينة أقسم لئن ظفر بالوطواط ليقطعنّه سبع قطع ، وهرب الوطواط وألحّ وراءه الطلب ، فكتب إلى منتجب الدين بديع الكاتب ، أحد كتاب السلطان سنجر ، يستشفع به لدى السلطان . فارتقب منتجب الدين الفرصة حتى آنس من سنجر انبساطاً فى بعض مجالسه ، فقال : لى عند السلطان حاجة . فوعد السلطان بقضائها فقال : إن الوطواط طوير ضعيف لا يحتمل أن يقسم سبعة أقسام ، فلو أمر السلطان أن يقطع قطعتين فقط .

فضحك السلطان وعفا عن الوطواط .

ووقعت بين آتسز وكاتبه الوفىّ رشيد الدين جفوة فأقصاه عن ديوان الإنشاء زمناً ثم رضى عنه ؛ وكان لهذه الجفوة وهذا الرضا آثار محمودة فى شعر رشيد الدين يظهر فى كثير من قصائده .

واستمر هذا الكاتب الشاعر فى خدمة ملوك خوارزم بعد موت آتسز ، فتولى الإنشاء لإيل أرسلان بن آتسز (٥٥١ — ٥٦٨) إلى أن أقعدته الشيخوخة فأعفى من العمل . ولما تولى تُكش بن إيل أرسلان كان رشيد الدين قد جاوز الثمانين فجىء به فى محفة فأنشد هذه الرباعية :

جدت ورق زمانه از ظلم بشست
عدل پدرت شكستها كرد درست
أى بر تو قباى سلطنت آمده چست
هان تا چه كنى كه نوبت دولت تست

وترجمتها : إن جدك محا الظلم من صحائف الزمان ، وجبر عدلُ أبيك الكسر . فيا من زين بقباء السلطان ، ماذا تفعل اليوم وقد جاءت نوبتك ؟ .

ونجد فى رسائله العربية بيان إعفائه من العمل لكبر سنه ؛ والظاهر أن هذا كان فى عهد إيل أرسلان . يقول جواباً لمن مدحه باختياره العزلة وعكوفه على العبادة :

« تلك خصلة كنت من أول الأمر إلى هذه الغاية التى أدركتها من العمر راغباً فيها هاربا عما ينافيها ، إلا أن الملوك الذين كنت مترشحاً لخدمتهم ، متوشحاً بنعمتهم ، سقى الله ثراهم وجعل الجنة مثواهم ، كانوا يحرضوننى عليها ويجروننى بأزمة القسر وأعنة القهر إليها . والآن هذا الملك أعلى الله شانه ، وأظهر برهانه ، رق لكبر سنى وذبول غصنى ، وبياض هامتى ، وانحناء قامتى ، وضعف بنيتى ، وسقوط مُنّتى ، فأعفانى عن كل عملة كانت عند الله مسخوطة ، ولم تكن برضاه منوطة » .

[له بقية]

عبد الوهاب عزام

خبث المتهكمين !..

للأستاذ شفيق جبري

يقول الكاتب النروجي « ابسن » على لسان شخص من أشخاص كتبه الفلسفية : لقد اقتبست غبطتي من أمريكا ، ومكتبتي عن شباب النسّاخ في ألمانيا ، وثيابي عن فرنسا ، وعلمتني فرنسا المزح والضحك والثناء ، وانكلترا الفكر والعمل والأثرة ، والهنود الصبر ، وأهل السويد الشجاعة .

فاذا صحّ هذا الكلام ، فالمزح والضحك من جملة خصائص الفرنسيين ، فمن كلام « أناتول فرانس » على السخرية :

« لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازددت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها : التهكم والشفقة ، فالتهكم بابتسامة يحبّب إلينا الحياة ، والشفقة بدموعها تقدّس هذه الحياة ، والتهكم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة ، إنه لا يستهزئ بالحب والجمال ، فهو رقيق وفيه عطف ، فضحكه يكظم من الغيظ ، وهذا التهكم هو الذي يعلمنا أن نسخر من الأشرار والحمق ، ولولاه لأفضى بنا الضعف إلى كراهيتهم » .

لقد كان التهكم من جملة أساليب سقراط في تقرير فلسفته ، فكان سقراط في تهكمه يرمي إلى مناقضة خصمه ، فيسأله مسائل من باب تجاهل العارف ، فكان في بدء الأمر يقر مذهب خصمه ، ثم يتلطف في سؤاله ، فلا يزل به من سؤال إلى سؤال حتى يفضي به إلى المناقضة في القول .

يغلب التهكم على الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس ، وقد يكون هذا التهكم لباس فكرة فيها فرح وسرور ، أو صيغة مزح روحاني ، أو قالباً يفرغ فيه غضب أو حقد أو يأس ، أو غير ذلك من هوائج النفس .

فاذا تتبعنا المتهكمين وجدنا لتهكم كل واحد منهم طبيعة خاصة ؛ فأناتول فرانس يبرع البراعة كلها في سخريته التي تحقّر الأشياء ، وهو يحاول أن يردّها إلى حقائق وجهاتها . وقد عدّ بعض النقّاد هذا الميل فيه عيباً من العيوب ، ولكنه عيب يحمل لأسلوبه صفات غاية في الرقة ؛ وأكثر ما يشيع هذا العيب في نقده ، فانه يغرز بعض العبقريات بإبره غرزات يظنها الانسان في الظاهر خفيفة ، ولكنها في الباطن لا تخلو من خطر .

تكاد تكون روايته « تاييس » أحسن نموذج في سخريته ، ففي أشخاصها راهب من رهبان مصر اسمه « بافنوس » يعيش هذا الراهب عيشة طاهرة ، ممعناً في طول التأمل والتقشف ، وإنه لفي يوم من الأيام يذكر الساعات التي عاش في خلالها بعيداً عن الله تعالى ، ويدقق في خطيئاته ، واحدة بعد واحدة ، حتى يعرف شناعتها حق المعرفة ، إذ خطر بباله أنه رأى في الماضي ممثلة ظاهرة الجمال على مسرح الاسكندرية اسمها « تاييس » ! .

فالنقّاد الأتقياء ، ومنهم « بوردو » يعدون هذه العبارة وأمثالها أسلوباً فاسداً من أساليب « أناتول فرانس » في السخرية برجال الدين ، فان تصويره لهذا الراهب المسكين وهو يطيل الروية في خطيئاته حتى ينكشف له قبحها إنما هو ضرب من التهكم ! .

ولكن « أناتول » لا يقف عند هذه الغاية من الهزء ، فانه يستمر في طريقه ، فقد كان جمال « تاييس » لا يخلو

من تأثير فى قلوب أنبياء الله ، وربما هدّم هذه القلوب ، وهذا ما حمل «بافنوس» على أن يفكر فى إدخال «تاييس» فى ظلال الله وأفيائه ؛ ولكنه قبل أن يذهب إليها ذهب إلى أحد إخوانه الرهبان وهو يزرع فى بستان صغير ، فقال له هذا الراهب : يا أخى « بافنوس » لستُ إلاَّ مذنبا بائساً ولكنّ أبانا « أنطونيوس » كان من عادته أن يقول : إذا كنت فى مكان فلا تعجل فى الخروج منه إلى مكان غيره ، فكما أن السمك إذا جُرّ إلى مكان يابس مات فيه ، فكذلك الرهبان الذين يخرجون من معابدهم ويخالطون رجال العصر فإنهم يضلون عن عزائمهم الصالحة ! .

غير أن « بافنوس » لم يسمع كلام أحد ، فقد انطلق نحو الاسكندرية ، ولقى فى طريقه رهباناً آخرين فقصوا عليه طرزهم فى الحياة على ضفاف النيل ، فقابل أناتول بين أزنهم فى هذه الحياة وبين إفراط « بافنوس » فى التقوى والصلاح ، فخرج « بافنوس » بعد هذه المقابلة فى صورة مجنون يقتله فرط صلاحه وتقواه ، ويذهب به عقله المختل ، فكأنما « أناتول » يقول لنا : أفلا نرى أن الانسان إذا عاش عيشة هادئة دون أن يهتم بغيره خير له من أن يدخل فى دين كله تضحية وكله إخلاص ، لا يجلب لصاحبه إلاَّ الاضطراب والكآبة ، فكل حركة من حركات «بافنوس» وكل قول من أقواله يجعله هُزأة فى أعين الناس .

إن سخرية من هذا النوع فاتنة ولا شك ، ولكن ابتسامها لا يخلو من خبث . ولقد قالوا فى « أناتول » إنه يسخر فى عبارات صغيرة بريئة خبث القرد المسن ! .

أمّا المتهكم « لابروير » فقد برّز فى تصوير أخلاق الرجال والجماعات ، ولكنّ تصويره يعوزه التعمق الفلسفى ، إلا أن «لابروير» كان صاحب فن ، تهزه الأشكال والمظاهر الجيّدة ، وإذا كنا لا نجد فى تصويره شيئاً جديداً فى أهواء البشر ، فأنا نجد فيه دقة فى معاينة العلامات الظاهرة التى تتعلق بها هذه الأهواء ، فكل عبقريته فى هذه الدقة وحدها ، فلا يجاريه فيها مُجار .

فمن سخريته فى فصل من فصول كتابه فى الأخلاق وقد اخترت هذه القطعة عرضاً وفيها تصوير لآداب الناس فى الحديث :

« قرأ « أرياس » كل شىء ، ورأى كل شىء ، فهو يريد أن يحمل الناس على أن يعتقدوا فيه هذا كله ، إنه رجل عالم بكل شىء ، ولقد أنزل نفسه هذه المنزلة ، إنه يؤثر الكذب على أن يسكت ، أو على أن يظهر بمظهر من يجهل بعض الجهل ، فإذا كان على مائدة ، وتكلم الناس على كبير من كبار قصر الملك فى الشمال ، استولى على الكلام ، وحرّمه على غيره من الذين يريدون أن يقولوا ما يعلمونه فى هذا الباب ؛ فتراه يجول فى هذه البقعة البعيدة كأنه منحدر منها ، فيمضى فى قوله فى أخلاق هذا القصر ، وفى نساء هذا البلد ، وفى قوانينه وفى عاداته ، ثم يقص القصص الصغيرة التى وقعت فيه ، ويرى أن هذه القصص مضحكة ، فيضحك قبل كل واحد حتى يكاد ينفزر من الضحك ، فإذا تجاسر أحد على مخالفته فى الرأى . وجاءه ببرهان واضح على أنه قال أشياء ليست صحيحة ، فلا يضطرب « أرياس » من هذه المخالفة ، بل يهتاج فى وجه من قاطعه ويقول له : إنى لا أقص شيئاً لا أظنه حقيقة ، فقد بلغنى هذا كله عن « سيتون » سفير فرنسا فى هذا القصر ، إنه عاد إلى باريز من أيام ، وأنا أعرفه معرفة من خالطه ، وقد سألته مسائل كثيرة ، فلم يكتم شيئاً من الأحوال . وما كاد يستأنف حديثه الأول فى شىء من الثقة بنفسه أشد من الثقة التى بدأ بها هذا الحديث ، حتى انبرى له أحد المدعوين وقال له : إن الذى يخاطبه الآن إنما هو السفير «سيتون» نفسه ، وقد عاد من سفارته ! »

فسخرية « لابروير » فى هذه العبارة الأخيرة ، وفى أمثالها من عبارات غيرها ، قاسية ، حادة !

ولقد شاع التهكم فى بعض شعراء العرب وكتابهم ،

وهذا نموذج يسير منه :

لما بلغ النعمان بن المنذر لحوق المتلمس بالشام ، شق عليه لحوقه بغسان ، وحلف أن لا يدخل العراق ولا يطعم بها حتى يموت ، وقد اضطربت روايات هذا الخبر ، ولكن المهم أن المتلمس قال بعد هذا قصيدة من جملتها .

آليتَ حبَّ العراقِ الدهرَ آكله
والحبُّ يأكله في القرية السُّوس !
لم تدرِ بُصرى بما آليتَ من قسمٍ
ولا دمشقُ إذا ديس الفراديس !

فقوله : حلفتَ على حَبِّ العراق أنى لا أطعمه الدهرَ مع أن الحب متيسر يأكله السوس ، ثم قوله لم تدر بلاد الشام بحوانك عليها بيمينك ، فتبرها وتعني حبها كما متعتني حب العراق ، إنما هو قول لا يخلو من سخرية بالنعمان ؛ وقد تكون هذه السخرية أشد إيلاما من الإفحاش في الهجاء .

ولكنّ إمام السخرية في العرب إنما هو الجاحظ غير مدافع ، فقد كانت أمه مطبوعة على التهكم ، وخرّجه في الأدب والعلم رجال لا يضيعون فرص التهكم ، أمثال أبي عبيدة والنَّظّام وغيرهما ، وعاش في عصر استفاضت فيه الزندقة وشاعت فيه طائفة من الخرافات في طبقات العامة وبعض العلماء والمؤلفين ، فلم يجد الجاحظ بداً له من التنبيه على هذا كله ، وخاصة فقد كثرت خصومه وحسّاده ومتعقبوه ، فلم يجد له سلاحاً أمضى من التهكم .

للجاحظ في السخرية ببعض أهل التفسير والتأويل أسلوب بسيط جداً ، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء ، فهو يدس سخريته دساً دون أن يظهر على بيانه ؛ فبدلا من أن يتعرض لخصومه تعرضاً ، ويجادلهم جدالا ، فإنه يكتفي في أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم وعلى مذاهبهم ، ولكن هذه الدلالة مهما تكن خفية لا تخلو من روح التهكم ؛ فبينا الجاحظ مثلا يمضي قوله في باب من أبواب العلم ، كباب ما يعترى الإنسان بعد الخصاء ، إذ يعرض له رأى من الآراء الشائعة التي لا يؤيدها العلم ، فيكتفي في طائفة من الأحوال بالتنبيه على هذا الرأى ، من هذا القبيل قوله :

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر ، فعطس الأسد عطسة ، فرمى من منخريه بزوج سنانير ، فلذلك : السنور أشبه شيء بالأسد ، وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك : الخنزير أشبه شيء بالفيل » . . .

ثم يردف هذا القول كلامه الآتي :

« قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها ، وضحك القوم » . . .

إن مجرد ذكره لأشباه هذه الآراء في أثناء بحثه عن أمور مبنية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها ، فكأنه يغمز بعينيه غمزا ، فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء ، وإنما يترك للقارئ حق الحكم عليها ، وهذا الأسلوب على نزاهته لا يخلو من خبث . وما أجدرنا أن نقول في الجاحظ ما قالوه في « أناتول فرانس » إنه يستتر في سخريته البريئة خبث المسنين من القرود !

(دمشق) شفيق جبرى

برنارد شـــو . . .

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

أول عهد برنارد شو بالكتابة أن اثنين من المرسلين الانجيليين الأمريكان وفدا على دبلن لاحياء تعاليم الدين ، فذهب مع من ذهب من مواطنيه البروتستانتيين الارلنديين لسماعهما . وعلى أثر سماعهما كتب إلى صحيفة « الرأى العام » خطاباً مفتوحا ، قرر فيه — وما كان أشد جزع ذوى قرابته المتقين من هذا الذى قرره — أنه إذا كان ما أدلى به المرسلان الانجيليان هو الدين ، فانه بالجملة إذاً لمن الكافرين .

وسافر برنارد شو ، وقد دفعه تبرمه بحياة التوظف إلى الاستقالة من وظيفة الصرافة التى كان يشغلها فى مكتب من مكاتب السماسرة ، ولحق بأمه فى لندن ، وكانت مقيمة بها منذ سنوات تحترف تعليم الموسيقى .

وقضى شو السنوات التسع الأولى من حياته فى لندن بين ضيق اليد ، ومضاضة الشعور بالفشل ، فلا تعدو جملة كسبه من الأدب طوال هذه المدة جميعها جنيهات ستة ، وبيانها فيما يروى : ربع جنيه عن قصيدة ، وثلاثة أرباعه عن مقال ، وخمسة جنيهات عن تحرير إعلان عن بعض الأدوية . وفى إبان هذه المدة كتب شو خمس روايات — رواية فى كل عام — فعادت إليه جميعاً مرفوضة من الناشرين . وكان اسم أولاها « الفجاجة » فأعادها كاتب انجلترا الروائى المعروف « مرديث » ، وقد وقع على هامشها « لا » . فألقيت جانباً حيث عاثت فيها الجرذان ، « ولكن أعيى الجرذان نفسها أن تأتى على آخرها » .

ومن ثمة كان شو — وهو فى العقد الثالث من سنه — محتاجا فى المعاش إلى عون أمه ، مما تجنيه من دروس الموسيقى ، وإلى عون أبيه وهو مجهود يجاهد فى



برنارد شو

تجارة الغلال المطردة الهبوط فى سوق المعاملات فى دبلن ، وفى وصف هذه الفترة يقول شو نفسه :

« لم ألق بنفسى فى معترك الحياة ، بل قذفت بأمى فيه ، ولم أكن لأبى الشيخ عصا يتوكأ عليها فى شيخوخته ، بل تعلقت بذيل سترته » .

وإذا كان شو قد اتصل بحياة المجتمعات فى لندن فأفاد ما أفاده من خبرة بها عميقة ، وملحات عنها جد صادقة ، فالفضل راجع إلى أنه كان يملك حلة من حلل السهرة ، وإلى أنه كان عازفاً من الهواة لا بأس به خفيف الظل .

على أن شو يزعم لنا أن فاقته لم تشق عليه ولم يعرف لها مضاً « لا يسعنى أن أقول إنى عركت الفاقة الحقة ، بل الأمر على الضد من ذلك . فإنى قبل أن يقع فى إمكانى كسب شىء بقلمى ، كان لى مكتبة حافلة فى المتحف

البريطاني ، ومعرض للصور هو المعرض القائم فوق ميدان ترافلجار . وماذا كنت فاعلاً بالمال أكثر من ذلك ؟ ماذا كنت شاربه ؟ لفائف تبغ ؟ لست من مدخنيها . شامبانيا ؟ لست من شاربيها . ثلاثين حلة على آخر طراز ؟ ولكن الذين أكبر همي مجانبتهم كانوا يدعونني للعشاء معهم لو كانت لي أمثال هـذه الحلل . الخيل ؟ إنها مركب وعر . السيارات ؟ مضجرة مسئمة . وهأنذا اليوم قادر على اقتناء هذه جميعها ، ولكنني ما فكرت في شراء شيء لم أشتره في أيام فقري . وعدا ذلك كله فإني ذو خيال ! وما كان عليّ — في جميع ما أذكره من ماضيّ في أبعد عهوده — إلا أن أضطجع وأغمض جفنيّ لأكون من شئت ولأصنع كل ما اشتهيت . فماذا كان يجديني شارع بوند بكل أبهته السكينة ، أنا جورج برنارد ... ! ! » .

وبقيت روايات شو مطوية عنده إلى أن كسب أصدقاء له في الأندية ذات الشأن من بين رجال السياسة وأصحاب الدعوات الإنسانية ، فنشرت على أجزاء في مجلتهم ، ولا يفيد هذا أنها روايات قليلة القيمة ، فإنها مع إخفاقها عند الجمهور وإعراضه عنها ، قد نالت — أو على الأقل نال بعضها — إعجاب أفراد من النابغين . بيد أنه وضح منها أن القصة ليست بالقالب الذي يجيد « شو » اصطناعه للتعبير أحسن العبارة عن ذات نفسه ، لأنه أميل بطبعه إلى مساق الحوار منه إلى التوصيف وسرد القصص . وأشخاصه — عند كل حافز ومن غير حافز — يفيضون في القول ، ويمتد بهم نفس الكلام ، حتى ليخالها القارئ خطباً على المنابر لا أحاديث مجالس . كما أن موضوع الحكاية عنده سقيم إذا صح أن لها موضوعاً . فإنما هو يطلب مناطاً يعلّق عليه أفكاره وخواطره ، ولا يحفل أي مناط يقع له .

ولقد اعتنق شو مبادئ الاشتراكية منذ حداثة سنه ، وكانت إنجلترا وقتئذ حديثة عهد بها ، تنظر إليها نظرتها إلى بدعة كبيرة من البدع . وساهم شو فيما أسموه « بالجمعية الفابية » أولى الجماعات الاشتراكية في البلاد الإنجليزية . وقد ثابر مدة تنيف على اثني عشر عاماً على إلقاء خطب شعبية مصحوبة بالمساجلات والأسئلة في أيام الآحاد من كل أسبوع ، وأحياناً يزيد عليها أياماً أخر ، يدعو الجماهير إلى المذهب الجديد ، سواء من فوق منابر الجمعيات أو على قارعة الطريق ، يخطب سامعين وسامعات من جميع الصنوف من صفوة الجامعات إلى الغسالات .

وإلى جانب هذا كان « شو » يزاول النقد الفني ، فيكتب عن الكتب في هذه المجلة ، وعن الصور في تلك ، وعن الموسيقى في مجلة ثالثة ، وعن المسرح في مجلة رابعة . وهو في كتاباته هذه كافة يناضل عما يسميه الفن المبرز ، وأصحابه بتلر ونيتشه في عالم الفكر ، وفاجنر في الموسيقى ووسلر في التصوير ، وإبسن في المسرح .

ولم يلبث « شو » أن اتجه إلى معالجة الرواية المسرحية . ويجدر القول هنا أن رواياته كانت تمهيداً لمسرحياته . فالكثير مما ضمنه الأولى عاد إليه في الأخرى . فهذه هي تشهيراته بالتكلف والرياء ونظم الطبقات والفوارق الاجتماعية غير المعقولة ، وألوان الدجل المنظم في الدين والسياسة والطب ، وما إلى ذلك مما بثه في رواياته ، قد عاد إليها فصفاها واستقطرها في مسرحياته .

وبدأ « شو » وهو على أبواب الأربعين يستقبل الشهرة ويرقى معارجها في سرعة واطراد . وكانت مسرحياته أول الأمر تنشر لتقرأ ، والعهد بالمسرحيات التمثيل ، ولكنها بدعة انتشرت في لندن في ذلك الحين . ويقدم « شو » لمسرحياته بمقدمات مدبجة مطولة في مسائل السياسة والاجتماع ؛ وقد عرض أخيراً للمعضلات الدينية والمباحث المتعلقة بأسباب الحياة وأحوالها . وهي مقدمات مستقلة عن المسرحيات المقرونة بها . وقد بدئ تمثيل مسرحياته بعد أن كان نصيبها القراءة وحدها ، وذلك في نيويورك

وفى ألمانيا ، ثم بعد ذلك بست سنوات كاملة فى إنجلترا على مسرح لندن . ويلاحظ أن أشهر مسرحياته ، ومنها « القديسة جان دارك » ، ألفها بعد أن تجاوز الستين من عمره . ومسرحياته تعرض لأمور شتى من مظالم اجتماعية إلى أبحاث فلسفية ودينية ، إلى تبوآت عما وراء الحياة ، إلى حكاية مؤثرة للأحداث التاريخية . ومناظر مسرحياته متنوعة ، تنتظم أمريكا وبلغاريا ومصر وانجلترا وفرنسا وألمانيا وإرلندا . وهو حريص على أن يكون وضعها وتنسيقها كأحسن ما يمكن مشهداً وخيالا .

ولقد اصطنع « شو » من أول عهده بكتابة الرسائل لهجة الدعابة اللاذعة ، وهو يقول : « لقد احتجت لإبلاغ كلامى إلى الأسماع أن أوقع فى الأوهام أنى مجنون ، ليكون لى ما لمضحك الملوك من تجاوز وإباحة » . فتراه فى دأب وتعمد متعرضاً للجمهور الانجليزى والجمهور الأمريكى بالمعابثة الفكهة والنقد القارص ، شاحذاً عليهم لسانه ، يغمز لمواطن العيوب فى طبائعهم وعاداتهم ، ويكشف لهم عما فيهم من قصور وسخف . والعجيب أن هذا هو بعينه ما يعجب الانجليزى والأمريكى فى برناردشو ، وهم لا يملكون إلا أن يعرفوا أنفسهم فيما يعرضه ، ولا يملكون أنفسهم وقد تنبهوا لها من أن يضحكوا منها سواء أكان ضحكهم خالصاً أو يخالطه الغيظ والنقمة .

وقد يلاحظ على «شو» اصطناعه الضجة حول نفسه ، والرجل مقر بذلك ، ويذهب إلى أنه — على حد قوله — ليطيب نفساً أن يجوب لندن فى زى المهرجين عازفاً على مثل أرغنهم ، إذا كفل له ذلك استرعاء الأسماع وإصغاءها إلى أفكاره . « والرجل الذى ليس عنده ما ينادى به ويدعو الناس إليه هو وحده الذى يسعى الترفع عن دق الطبل أمام باب حانوته » .

وفيما يلى حديث « لبرناردشو » من كتاب عنوانه (يأجوج) أصدره منذ سنوات الكاتب الناقد الإيطالى « جيوفانى بابينى » وضمنه أحاديث ممتعة أجراها على لسان مشاهير العصر . وقد آثرنا بهذه المناسبة تعريب الحديث الذى نحله الناقد الإيطالى لصاحبنا لما فيه من تعريف بالنقد الايطالى المعاصر ومن تلخيص صادق — مع ما فيه من تجريح وعنف — لحياة شو الأدبية :

استقبلنى الشيخ برنارد شو استقبالا غير حميد .

— لعلك مثل سائر السخفاء ، تحسبنى « مهرجا » فتأمل أن أسليك بطرائفى ودعاباتى ، فأنا أحب أن أزيل عنك هذا الوهم . فالانجليز ، وبوجه عام ذوو الفراغ الذين يقرأون ويرتادون المسارح ، يتوهموننى مسخاً ماجناً ، مع أنى على النقيض بحكم طبيعتى ونزعتى أشد رجال المملكة المتحدة رزانة وجداً . وقد بدأت — كما تعلم — مشايعاً لجمعية الفابيان وللمؤلف المسرحى المصلح « ابسن » ، وفى الميل إلى هذين دليل على روح منافية للهزل كل المنافاة . فليس فى مذهب الفابيان ولا فى مذهب إبسن أقل أثر للفكاهة ؛ فالأول يرمى إلى تحويل المال فى قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان إلى أصحاب عمل ، والثانى يدعو إلى أن يسود الصدق علائق الناس ، أى بعبارة أخرى جعل هذه العلائق مستحيلة . وليس فى هذا أو ذاك شىء فكه ، فهما سخافتان صادرتان عن إيمان وحسن نية ، وليس عن مزاح .

— ومن أين جاءتك إذاً شهرة المؤلف الفكه ؟

— سأبين لك ، فأنا إرلندى . . . وعند زعانف لندن أى الذين يشترون الكتب والصحف ، لا بد لمن كان إرلنديا من أحد أمرين : أن يبيت على الطوى أو يكون مهرجا ، ولما كنت لا أريد أن أموت جوعا ، فقد اخترت أن أكون مهرجا . وأنت لا شك تعرف أن إرلندا هى التى زودت انجلترا برجالاتها المشهورين . فإن « جوناثان سويفت » و « شريدان » و « أوسكار وايلد » و « جويس » كلهم إرلنديون . فلولا الارلنديون ما عرفت انجلترا



صورة كاريكاتورية لبرنارد شو

بلاد «ليليت» التي رحل إليها جلفر ، ولا انتصرت انتصارها على نابليون .

يقول الكونت كيزرلنج إن الانجليز أشبه بالحيوانات ، فأنا — خدمة لكم — خيال الفزع لتلكم الحيوانات . وهم مجاوات لا يجرؤون على القول ، فأنا أقول الحق بالنيابة عنهم . وهم رهن السوداء والكآبة لا يعرفون الضحك ، فمن واجبي على الأقل جعلهم يبتسمون . كما أنهم لا يعرفون المتعة والتلذذ ، فعلي إلهابهم بالسوط لأبعث فيهم هزة اللذة . وعلى هذه الخصائص المركبة فيهم ، يرتكز نجاحي الذي لا أستحقه . فلو سبقت انجلترا في الاستهتار سبقها في الصناعة ، لما كنت اليوم إلا صحفياً صغيراً خامل الذكر ضئيل الأجر ، وفي فرنسا ما لا يقل عن مائة برنارد شو يغدون ويروحون غير ملحوظين .

ولقد أكون لهذا السبب بعينه واحداً من ضحايا الحرب الكثيرين . فإن انجلترا المحتشمة التي نعهدها في عصر الملكة فكتوريا قد قضت نحبها منذ عام ١٩١٨ . فالبرى الانجليز ينبذون اعتباراتهم القديمة ، وتدرجوا في الاستهتار والاباحية وفي التشكك وقلة الحياء ، وأخذوا ينزعون إلى التفسير التناسلي للحياة على رأي «فرويد» وإلى التطرف في الاشتراكية . فهم اليوم لا يحفلون أمام فضيحة تُعرض في معرض حسن ، وهذا فيما يظهر للعيان قد يغض من شهرتي . فطالما كنت أنا وحدي مصارع الثيران الصائل الجائل حول «جون بول» ، والوحيد الذي يلاعبه بالرداء الأحمر ويعابثه ، كانت الأمور كلها سائرة على ما يرام ، ولكن الثيران البريطانية أخذت تتعود اللون الأحمر بجميع شياته فلم تعد تخافني . فإذا لم تقع لها ردة إلى زهد البيوريتان القديم فإن مصيري لا شك إلى خزائن الأدب إلى جنب «أوليفر جولد سميث» و «ما كولي» وفي هذا لا محـالة بواري ، وإذا الانجليز أمعنوا في التشبه بي فلن يبق لي إلا أن أنقلب قساً وصاحب طريقة ، ولكني أصبحت كما ترى شيخاً هرماً لا أصلح للتلمذة من جديد والتخرج في صناعة التمويه والدجل .

— شيخاً ! إنك لا تبدو شيخاً قط . فإن فكرك على الدوام فتى دون العشرين .

— هكذا هكذا ! ! هي نكتة طيبة من ناشيء مثلك ، هي تهمة ملفوفة لفاً محكماً في تحية . فإنما تريد القول متلطفاً إني أفكر تفكير غلام غر . هذا لا يسوؤني ، فلدي مائة سبب لعدم ارتياحي إلى الشيخوخة . إن الحياة ينغصها الموت ويقتضب عليها . فالانسان محتاج في تعليمه حق العلم إلى قرن من الزمان ، ولأجل أن يجني ثمار هذا التعليم تلزمه أيضاً فسحة قرنين من الزمان على الأقل ؛ وها نحن أولاء بدلا من هذا ، نتهافت على (فورونوف) الذي يعمل لعفة القردة بأنجح مما يعمل لشهوانية بني الانسان ، وإن جميع ما يهذرون به من تقدم العلم ليس إلا مبالغة وخفة لترجية البضاعة . فطالما أن العلم لم يبطل الموت فهو لم

الأســـــــتاذ الامام

يواصل الجهاد في منفاه

[بمناسبة الذكرى الرابعة والثلاثين لوفاته]

للأستاذ عبد المنعم حمادة

انتهت الثورة العرابية بما يعلمه العالم من احتلال انجلترا وادى النيل ، وكان من الطبعى أن يحاكم زعماء الثورة لينالوا جزاء خروجهم على القائمين بأمر البلاد .

وفى ١٣ صفر من عام ١٣٠٠ هـ — ٢٤ ديسمبر من عام ١٨٨٢ م أعلن حكم القوة بعد مرافعات طويلة ودفاع مجيد ، وكان نصيب الأستاذ الامام المرحوم « الشيخ محمد عبده » من الأحكام الصادرة النفى خارج البلاد ثلاث سنوات يقضيها بعيداً عن وطنه وقومه ، ومنع من العودة حتى يؤذن له فى ذلك . . .

وقد وجد هذا الحكم ، رغم شدة وقعه ، نفساً قوية لم تضعف ولم تتزعزع ، بل ثارت وعزمت ؛ وإليك لتلمس آثار هذه الثورة فى كتابه الذى بعث به إلى صديق له يقول فيه :

« هل بطل يا عزيزى ما جاء على لسان النبوات : الانسان أسير الاحسان ؟ هل نقض ما جاء من ذلك : المعروف بذر المحبة يغرسها فى أعماق القلوب ؟ هل هدمت قاعدة : أن الحيوان يقاد بالزمام ، والانسان يقاد بالصنيعة ؟ هل كان خرافاً ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيماً للمحبة ، وبياناً لفضائلها ومنافعها فى الاجتماع الانسانى الخبيث ؟ هل كان خرافاً ما حوته الكتب متعلقاً بموجبات روابط النوع البشرى ؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون ؟ » .

« كلا والله ، لن يكون ذلك ، ولم أزدد فى سبيل الفضيلة إلا بصيرة ، ولم أزدد فى المحافظة عليها إلا ثباتاً ، ولئن عشت لأصنعن المعروف ، ولأغيثن الملهوف ، ولأنقذن الهاوى فى حفرة الغدر ، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم ، ولأتجاوزن عن السيئات ، ولأتناسين جميع المضرات ، ولأبين لقومى أنهم كانوا فى ظلمات يعمهون » .

وسافر الامام إلى سوريا فى أواخر ديسمبر من عام ١٨٨٢ م غير آسف على ما خلفه وراءه من انحطاط الأخلاق ، وضعف العزائم ، وتفكك الوحدة القومية ، وتغليب الشهوات على المصلحة العامة ، وتحكم القوى فى الضعيف ، والبعد عن الدين . وانتهى المطاف به فى بيروت ، وهناك قابله أهلها بالحفاوة التى جددت نشاطه ، وبعثت فيه الحمية لمواصلة الجهاد . . .

وبينما الامام فى بيروت يحس عطف السوريين عليه ،

يفعل شيئاً . فما يمنعنى — أنا — الطيران فى نصف ساعة من لندن إلى نيويورك ، إذا كنت لا بد مطروحاً فى يوم من الأيام إلى البلى تحت الصفائح والرجام ؟ .

وعندئذ تجهم وجه برنارد شو وتقطب جبينه ، وظل مشغول البال طويلاً ثم التفت إلىّ وقال بصوت الغاضب :

— أتعرف لاتقاء الموت سراً ؟ كلا ! إليك عنى إذاً ، لا حاجة بى إلى آخر مثلى مقضىّ عليه بالاعدام .

قال هذا ومضى عنى مسرعاً .

عبد الرحمن صدقى

وتوددهم إليه ، وإقبالهم على دروسه ، ورغبتهم فى التزود من معارفه . وبينما هو يقيم حلقات الدرس لينشر بها آراءه ، إذ يستدعيه أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الأفغانى ، ليلحق به فى باريس ، فيلبى الإمام نداء الواجب الذى دعاه إليه أستاذ يعرف فيه الصلابة فى الحق ، والجهاد فى الدين ، والسعى لخلاص الشرق من ذل الاستعمار وآلامه .

وفى باريس تكاتف جمال الدين ومحمد عبده ليجاهدا جنباً إلى جنب ؛ فإما أن تحقق الآمال ويعاد للإسلام مجده وللدين قوته واحترامه ، وإما أن يستشهدا فى سبيل الوحدة الإسلامية وعزة الدين وكرامته . يقول السيد جمال الدين فى مقال نشره بجريدة العروة الوثقى : « إننا مع ذلك لم نقصر فى أداء الواجب من العمل الذى قمنا به فى المدافعة عن حقوق المسلمين ؛ فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ، ونرجو من ديان السموات والأرض أن نموت فى هذا السبيل ، وأن نبعث فى زمرة السالكين فيها » .

وفى باريس كوّن جمال الدين « جمعية العروة الوثقى » التى لا انفصام لها ، والتى أخذت تسعى فى قوة الواثق من حقه المطمئن إلى عدالة قضيته ، وانضم إليه محمد عبده ناصراً ومعيناً ، يصافحه فى حرارة وإيمان ويقسم معه ذلك القسم العظيم الذى جاء فيه : « أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدّم إلا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين ؛ جزئياً كان أو كلياً ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذه اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه وعلىّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه من العارفين ، ولا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر مايسعه إمكانى الوجودى ، وأسأل الله نجاح العمل وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره والناشر لواء دينه » .

وفى باريس وفى فروع الجمعية المبعثرة فى الشرق ، قام رجال الجمعية يعملون لأغراض بعيدة وقريبة ، فأما الأغراض البعيدة ؛ فقد حلقوا من أجلها فى سماء الشرق الإسلامى ليروا بعين الحقيقة أسباب ضعفه وخموله ، وأسباب انحطاطه وتأخره ، وليروا العلة التى أصابته فقعدت به عن التقدم وضعضعت من كيانه أمام الغرب . وحاول أولئك المجاهدون أن يسلكوا لتطبيب الشرق من آفاته سبيل الصراحة والقوة والحزم . وما إن فكروا قليلا حتى أدركوا أن خير ما يعيد للشرق الإسلامى مكانته إعادة سيرة السلف الصالح فى إدارة دفة شئون البلاد ، والدعوة إلى أن يكون الحكم على أساس الدين الذى يوحى بالعزة والكرامة ، ثم تطهير الدين نفسه من البدع والخرافات ، وإعادته نقياً صحاحاً طاهراً كسالف عهده . ولم يكن هذا وحده ما وصل إليه رجال الجمعية وسعوا لتحقيقه ، وإنما أدركوا كذلك أن الخير فى إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من ذل الاستعمار ومصائبه . وأما الأغراض القريبة فإنقاذ مصر والسودان من سيطرة الانجليز والعمل على جلائهم تحقيقاً لوعودهم التى قطعوها على أنفسهم فى أحاديثهم الرسمية وغير الرسمية .

وفى باريس أنشأ الحكيمان مجلة « العروة الوثقى » ، لتكون لسان الجمعية ، المعبر عن خوالج نفوس الأعضاء المجاهدين ، وقد تكفل جمال الدين بإدارة سياسة الجريدة ، كما تكفل محمد عبده برئاسة التحرير . وكان أستاذه يغذيه بأفكاره فيصبغها هو فى أسلوبه العربى الفصيح ويفيض عليها من إيمانه قوة تحببها إلى القراء ، وتثير فى قلوبهم مكامن الغيرة الدينية والكرامة الوطنية .

وفى خلال المدة التى قضاها محمد عبده فى باريس يصنف المقالات للجريدة ويدافع عن الاسلام بقلمه ولسانه ؛ سافر إلى لندن مرة أو مرتين لمفاوضة الانجليز فى حل القضية

المصرية وجلائهم من السودان ، ولما تعطلت الجريدة في أواخر عام ١٨٨٤ م على أثر ما حاق بها من اضطهاد ، وعلى أثر الاجراآت التي اتخذتها انجلترا لمنعها من دخول البلاد التي تشرف عليها أو تربطها بها صلة ، سافر الامام إلى تونس ثم غادرها متنكراً إلى بلاد كثيرة . ومر في طريقه بمصر استعداداً للسفر إلى السودان لتنظيم قوات المهدي ، واتخاذ الثورة التي قام بها ، وما قد تؤدي إليه من نتائج ، وسيلة لتحرير وطنه من ذل الاحتلال . وهناك ما يثبت مرور الامام بمصر أثناء النفي ؛ فقد جاء في رسالة بعث بها إلى صديق له : « قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي من مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك ، وحاشا أن يكون تساهلا في الحق ، أو تثاقلا عن فريضة الود ، وإنما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فرقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها من يوم فارقتك إلى الآن . .

« ذهبت إلى باريس فما عدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن أنحو جهة الشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الداريات ، فررت على بلاد كثيرة منها مدينة « تونس » محلت في جميعها على إحكام المروة ، وتمكين مفوودها ، ثم أصعدت بعد ذلك إلى :

بلاد حلمت بها عذار شبيبتي
وطرحت في كف الخطوب عناني

« وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الأمل » .

ولما فشلت الخطة التي رسمها محمد عبده وجمال الدين ، ولم يستطع الأول السفر إلى السودان عاد إلى بيروت ، وفي ذلك يقول الدكتور تشارلس آدمز في كتابه « الإسلام والتجديد في مصر » تعريب الأستاذ عباس محمود : « وفي أوائل عام ١٨٨٥ م ، أي بعد القضاء على التهييج السري ، رجع الشيخ عبده إلى بيروت ، وترك جمال الدين ليتم وحده العمل الذي واصله إلى آخر أيامه ، فرحب به أصدقاؤه القدماء ، وسرعان ما أصبح بيته كعبة للعلماء والطلاب ، وعشاق المعارف من جميع الملل والطوائف » .

* * *

وصل الامام إلى بيروت في وقت كانت فيه النهضة العلمية الإسلامية في أول شروقها ، وقد استطاع بمساعدة رجال الأمة النابهين وعلمائها الأفاضل أن يرعى هذه النهضة ويتقدم بها إلى الأمام حتى يكتمل نموها وتمتد فروعها . وما هي إلا أيام حتى كان خبر وصوله قد انتشر ، وحتى كان البعيد والقريب قد سمعا بدروسه التي كان يلقيها بداره في « برج أبي حيدر » كلما نشر الليل أرديته وعم السكون الكون . . وما هي إلا أيام حتى توافد الناس على هذه الدار ليلتقطوا ما يصل إلى أسماعهم من أدب رفيع ، وحكمة بالغة ، وتفسير يوافق روح العصر ومقتضياته . ويكفي لإظهار تقدير الناس للامام قول الشيخ «سعيد الشرتوني» صاحب أقرب الموارد للأمير « شكيب أرسلان » ، وقد سأله عنه ذات يوم : « هذا الرجل إذا تكلم يخرج النور من فيه » . ويقول الأمير شكيب أرسلان نفسه لبيان مقدار ما وصل إليه الامام من إجلال البيروتيين واحترامهم له : « وأجمع السوريون على إجلاله والولوع به إجماعاً لم يقع مثله لأحد ، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء ، تزدحم حول ذلك المنهل العذب ، وكان هو لسعة عقله ، وعلو إدراكه ، وإحاطة نظره ، يتفاهم مع كل قبيل منهم كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم » .

وظهرت عبقرية الامام واضحة جلية أثناء المجالس التي كان يعقدها للدرس والتفسير ، لأنه استطاع أن يجذب الناس إليه ، ويقربهم منه ، من غير أن يسيء إلى أحد منهم ، وتجنب الامام في هذه المجالس انتقاص أي مذهب من المذاهب أو عقيدة من العقائد التي كان يرى أن أصحابها من عمار مجلسه ، كما كان يجيب عما يسأل عنه ويسترسل في شرح القضايا التي يهمه أمرها ويرى فيها صلاحاً للناس

من غير أن يظهر تعمده لبيان مزايا الإسلام وفضائله ، أو إظهار احتقاره لمن يخالفونه في العقيدة والرأي . وكان لذلك أثر كبير في نفوس كثير من المسيحيين الذين أعجبوا به ومالوا إليه ؛ وكان من دواعي هذا الإعجاب أنهم وجدوا فيه مثالاً من طراز آخر كثير الاختلاط بهم ، ملماً بكثير من أحوالهم ، مجدداً لا يتقيد بما يتقيد به العلماء في ذلك الوقت ، ولأنهم وجدوا فيه رجلا تجمع فيه كثير من الصفات الحميدة والمزايا التي ترغم المرء على احترام صاحبها ؛ ويكفي أن نشير إلى أخلاقه التي حببته إلى الناس . يقول الأمير شكيب أرسلان : « وكانت أخلاقه تسير جنباً إلى جنب مع معارفه ، فكان مثالا للعلم مع العمل ، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مطعناً أو مغمزاً ، أو يلحظ منه ما يخل بالوقار أو الكرامة أو الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة ما لم يكن إلا لكبار الشيوخ من المعمرين مع أنه كان شاباً ، ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة من سمة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء المزدان بالعفة ، ومن الفصاحة المتحلية بالاحتشام والورع ؛ فكان التناسب في خصاله تاماً وكان عظيما من كل جهة » . .

ولما كان الإمام يرى أن التعليم والتربية الصحيحة وغرس الفضائل في النفوس خير طريق موصل إلى الإصلاح ، وأكبر عامل في تهيئة الأفراد وإعدادهم للحياة النافعة ، فقد وجه جهوده إلى طبقة أخرى غير طبقة رواد مجالسه ، تلك طبقة الأطفال والشباب ، لأنهم كالعود الرطب يستقيم على ما تنشئه عليه . . . ولهذه الغاية السامية أسرع بتلبية الدعوة التي وجهت إليه من « جمعية المقاصد الخيرية » للتدريس بالمدرسة السلطانية . . . ودخل الإمام المدرسة في عام ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م . وكان أول عمل قام به وضع جدول جديد للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والإنشاء والتاريخ الإسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي ، وذلك للصف الأول والثاني « فلما تفتقت أذهان التلامذة وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسما من إشارات ابن سينا وفي المنطق كتاب التهذيب ، واستمر على الإملاء في التاريخ والمعاني . وجرى في الإنشاء على شرح ما يستظهره التلامذة من كتاب الألفاظ الكتابية ونهج البلاغة وديوان الحماسة » . وكان على كثرة ما تكفل به من الدروس يزاول عمله بنشاط لا حد له ، وكثيراً ما كان يزور المدرسة كلما مر بها في أوقات فراغه مما يدل على شدة شغفه بالتدريس واهتمامه بتنشئة الشباب وحسن رعايته لهم .

ولم يكن الإمام يجري على سنة سابقيه من رجال التعليم من القيام بوظائفهم قياما آليا لا يشعرهم بلذة العمل والجهاد ، أو تحفيظ الناشئة ما يلقى إليهم من مواد الدراسة تحفيظاً آليا كذلك لا يوسع مداركهم أو يوقفهم على خفايا العلوم والمعارف ، وإنما يثقل كاهلهم ويبعث إلى نفوسهم الضجر والملل ... لم يكن الإمام يجري في تدريسه على هذه السنة البالية ، وإنما كان يرمي إلى غرض أنبل من هذا ، وكان يرمي إلى غاية أبعد من هذه الغاية . كان الإمام يرمي إلى تنشئة الطلبة على أسس من الأخلاق قوية الدعائم ، ثابتة الأساس ، لذلك سما بهم إلى أفق أعلى من التربية الأخلاقية ، ولذلك وجه أنظارهم إلى غرض أنبل من مآثر العلم في ترويض النفس البشرية . . . وقد جددت هذه الطريقة نشاط المدرسين الذين كانوا يعملون معه ، ويتشبهون به ، ويأخذون عنه ، ويعتبرونه مثلا يحتذونه ، كما حببت الدروس إلى الطلبة الذين أسعدتهم الفرص بالأخذ منه ، كما أغرت هؤلاء الطلبة على الإقبال على دروسهم بشغف ونشاط ...

ولما عظم أمر المدرسة وعظم فضل بدئها بحسن تدبير الإمام ، سعى بعض رجال « المكرية » الذين آلمهم انتشار

هذا الفضل وتحدث الناس به ، حتى أبدلوا المدير بآخر لم يتبع طريق سلفه أو ينهج نهجه ، وإنما اتخذ له طريقاً آخر سار فيه إلى غير غاية ، أو بمعنى آخر إلى غاية لا تتفق والإصلاح المنشود ، وساء حال المدرسة واضطرب نظامها مما اضطر معه الامام إلى الاستقالة والتخلي عن مكانه إلى رجل آخر يتفق والمدير في مشربه ، وحتى لا يكون مسئولا أمام ضميره ولو ضمنا عن سوء هذا المصير . . . ولم يقدم الامام استقالته إلا بعد أن عجز عن تقويم هذا المدير والسلوك به في طريق الخير ... ولم يعجز الامام عن الوصول إلى هذه الغاية إلا لأن هذا المدير كان صنيعة لرجال يكرهون الاصلاح ويكرهون تقدم الأمة واتساع مدارك الأفراد ، لأن التقدم يؤدي حتما إلى تقلص سلطانهم ، ولأن اتساع المدارك يؤدي حتما إلى معرفة الأفراد ما لكل منهم من حقوق وما على كل منهم من واجبات ، وفي هذه المعرفة ضياع لهيبتهم وضياع لامتيازاتهم

ولم يكن الإمام يضيّع أوقات فراغه من غير عمل يعود على المجتمع بالخير والفائدة ، وإنما كان يستغل هذا الوقت لالقاء الدروس العامة التي كثيراً ما كان يعقد حلقاتها في الجامع الكبير أو جامع الباشورة ليتمكن أكبر عدد من الناس من حضورها ، ولم يكن حضور هذه الدروس مقصوراً على فئة دون فئة أو هيئة دون هيئة ، وإنما كان حضورها مباحا لجميع الهيئات والطوائف .

وكان الامام يقطع أوقات فراغه في أحاديث تُعقد حلقاتها في داره ، وقلما كانت أحاديثه تخلو من النظر في أحوال المسلمين في مختلف البلاد والأمصار ، ومن النظر في شئون حياتهم والبحث عن خير الطرق الموصلة إلى إسعادهم ، وقلما كانت هذه الأحاديث تخلو من البحث في أصول الدين وأحكامه وتقريبها من أفهام العامة .

وكان الامام يقضي ما يتبقى له من أوقات فراغه في تحرير المقالات التي يرشد بها الناس إلى طريق الحق والصواب ، أو التي يدافع بها عن الدين كلما دعا الحال إلى ذلك . ولا تزال مقالاته في مجلة « ثمرات الفنون » دليلا واضحاً على علو أسلوبه ، وقوة حجته ، وبعد نظره ، وحبه للاسلام والدفاع عنه حبا ملك عليه حسه ومشاعره .

وقد استطاع الامام في بعض أوقات فراغه أن يترجم « رسالة الرد على الدهريين » للسيد جمال الدين الأفغاني ، كما استطاع أن يشرح كتاب « نهج البلاغة » و « مقامات بديع الزمان الهمذاني » واستطاع الامام في هذه الفترة من حياته أن يضع الأساس الذي بني عليه « رسالة التوحيد » كما وضع رسالتين إحداهما في إصلاح التعليم الديني وجهها إلى سماحة شيخ الاسلام بالأستانة والأخرى لاصلاح البلاد السورية بعث بها إلى والي بيروت .

ولم تمض فترة طويلة على استقالة الامام من التدريس بالمدرسة السلطانية ثم اشتغاله بالأمور السابقة كلها حتى جاءه نبأ استقالة الوزارة النوبارية وتولي رياض باشا رئاسة الوزارة . ثم أعقب هذا النبأ نبأ العفو عنه والسماح له بالعودة إلى أرض الوطن بعد ثلاث سنوات ونصف سنة قضاها بعيداً عن أهله وقومه .

وعاد الامام إلى مصر في أواخر عام ١٨٨٨ م بعد جهاد طويل أثبت أنه كان مثلا عاليا في قوة الايمان الذي لا تزعزعه الكوارث والنكبات . عاد الامام ليواصل الجهاد في أرض الوطن ، لأن نفسه العالية أقسمت لتجاهدن حتى النهاية ، فاما أن تبلغ الأمل ، وإما أن تموت في الجهاد راضية عن نفسها مرضية . وقد أبقى الله على حياة الامام بعد عودته إلى عرينه سنوات تزعم فيها الحركة الدينية وأتم كثيراً من الاصلاحات العظيمة التي كان لها أثر قوي في توجيه النهضة إلى أقوم الطرق التي يسير الآن على ضوئها الراغبون في الاصلاح والرقي .

دار الإمام بعين شمس

عبد المنعم حماده

رئيس أسرة الشباب الاسلامي بعين شمس

في النقد الأدبي :

السرقات الشـــعرية

بقلم الآنسة ابنة الشاطئ

من أخص ما يتميز به النقد الأدبي الحديث ، تلك المرونة التي تسيغ الخلاف في الحكم والتفاوت في الرأى ، وتتسامح في هـذا الخلاف حين لا يجوز التسامح في الخلاف على رأى علمي أو حكم تجريبي . وإذاً فليس بعيب زميلي الأستاذ شوقي ضيف أن أنكر الرأى الذى ذهب إليه في السرقات الشعرية ، وألا أسيغ تلك الحملة القاسية التي حملها على نقاد العرب الذين تتبعوا مآخذ الشعراء بعضهم من بعض ، واتهموا بعض الآخذين بالسرقة والانتحال .

* * *

الفكرة التي يدافع عنها الأستاذ الزميل ، هي محاولة « الاعتراف بالصياغة الجديدة لمعنى طرق من قبل » . وأشهد لقد أدى الأستاذ حق رسالته ، فكان دفاعه عنها حاراً مخلصاً ، وتأييده لها قوياً مقنعاً ؛ وما أتردد في التسليم له بهذه الفكرة العامة ، ولكني بعد ذلك أخالفه في رأيه عن أثر السرقات الشعرية في الأدب العربي ، وأخالفه في الأفق الضيق المحصور الذى عرّف به السرقات الشعرية ليجيز لنفسه بعد ذلك أن يحمل على النقاد القدماء . . .

* * *

ولنتفق أولا على موضـوع البحث ، ليسهل علينا بعد ذلك ضبط تناوله .

ما هي السرقات الشعرية ؟ يعني بها الزميل « أن يأخذ الشـاعر معنى مسبوقاً أو مطروقاً فيديره في ذهنه ، وما نزال يحور فيـه حتى يظهر في هيئة جديدة كأنها تخالف الهيئة القديمة » .

ونحن نذكر أن الأستاذ يتناول بالنقد موضوعاً قديماً طرقه القدماء ، وله فيه رأى لا يعجبه ، ومن حقه ألا يعجبه هذا الرأى ، ولكن الذى ليس من حقه ، أن يضع بنفسه الحدود التي تعجبه ، ثم يحمل بها على القدماء ؛ أقل ما كان يجب عليه أن يعرض رأى القـدماء في الموضوع ، وله بعد ذلك أن يردها بما يشاء . أما أن يعرّف الموضوع تعريفاً خاصاً ، ثم يحكم على القدماء في حدود هذا التعريف ، ففيه ظلم الموضوع والقدماء جميعاً .

هو يعني بالسرقات الشعرية الهيئة الجديدة للمعنى المطروق ، وهذا هو سلاحه الأهم في حربه على القدماء . ولو صح أن محاكم النقد قامت لتفصل في هذه القضية وحدها لاتهمناها بالظلم والتعسف ، ولكان الأستاذ معذوراً في نقمته عليها ؛ ولكن المحاكم النقدية عقدت لتفصل في قضية أوسع آفاقاً من هـذه الحدود ؛ فلم يكن القدماء يعنون بالسرقات الشعرية أن تصوغ المعنى المطروق صياغة جديدة ، وإنما عنوا بها على الأخص شيئاً آخر ، هو السرقة المكشوفة والانتحال الصريح .

وليس صحيحاً أنهم أعلنوا الحرب الشعواء على الهيئات الجديدة في الصياغة ، وإنمـا أعلنوها على الأخذ الصريح المكشوف .

وهؤلاء القـدماء لم يأخذوا المسألة هذا الأخذ العام المبتسر ، وإنمـا ردوا السرقات الشعرية إلى أقسام جعلوا

لها أسماء، توحى دلالاتها بتقدير النقاد لكل نوع من مآخذ الشعراء.

فمن السرقات الشعرية ماهو أخذ مكشوف، وقد أسموه نسخاً وسرقة وانتحالاً، وإليه وُجّهت أقسى حملات النقاد

ومنها ما هو أخذ المعنى وبعض اللفظ، ويسمى «إغارة» والنقاد يحسنون تقبل هذا النوع إذا كانت الهيئة الجديدة أجمل أداءً للمعنى المأخوذ، وإلا رفضوه، وسموه «مسخاً».

ومنها ما هو أخذ للمعنى دون اللفظ، ويسمى «إلماماً وسلخاً»، ومنها ما هو نقل المعنى الأول إلى غير محله ويسمى «نقلا»، ومنه ما هو نقل المعنى إلى نقيضه ويسمى «قلباً».

ويأتى بعد ذلك الاقتباس والتضمين والحل والعقد والتلميح وهى معفاة من قسوة النقاد.

هذا التوسع فى البحث، وهذه الدقة فى الحكم، وذلك الاحتياط فى التصنيف، نرى فيها جميعاً نوعاً من الوفاء لحق البحث، وقصد العدل فى الحكم، وإذاً فقد كان يجوز للزميل أن يحمل على القدماء لو أنهم قصدوا ببحثهم عن السرقات الشعرية، الصياغة الجديدة لمعنى مطروق، أو أنه نص على أن بحثه هو خاص بهذا النوع دون سواه. وإذاً فليعذرنى الأستاذ إذ أردّ قوله: «والقدماء يعلنون حرباً شعواء على هذه الهيئات الجديدة التى كأنها تخالف القديمة». يقول الخطيب القزوينى عقب سرد أنواع السرقات الشعرية: «وهذه الأنواع ونحوها، أكثرها مقبول، ومنه ما أخرجه حسن التصرف من قبيل الأخذ والاتباع، إلى حيز الاختراع والابتداع، وكلما كان أشد خفاء كان أقرب إلى القبول» الايضاح ٤ — ١٠٨ طبعة المحمودية.

وزاد القدماء فى الاحتياط، فاشترطوا فى صحة الاتهام:

«أن يعلم أن الثانى أخذ من الأول، بأن يعلم حفظه له أو بأن يخبر هو عن نفسه أنه أخذه منه لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر، أى مجيئه على سبيل الاتفاق من غير قصد إلى الأخذ والسرقة، ولهذا لا ينبغى لأحد بتّ الحكم على شاعر بالسرقة ما لم يعلم الحال، وإلا فالذى ينبغى أن يقال: «قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا» فيغتنم به فضيلة الصدق ويسلم من دعوى العلم بالغيب ونسبة النقص إلى الغير».

حملوا على بيت أبى نواس:

دارت على فتية ذل الزمان لهم
فما يصيبهم إلا بما شاءوا

بعد صوت معبد:

لهفى على فتية ذل الزمان لهم
فما يصيبهم إلا بما شاءوا

واتهموا الفرزدق بالسرقة فى قوله:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم
ولا الدار بالدار التى كنت تعرف

أخذه من قول العباس بن عبد المطلب:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم
ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

وردّوا قول الشريف:

يا عذولىّ قد غضضت جماحى
فاذهبا حيث شئتما زمامى

إلى قول مالك بن الريب:

خذانى فجرانى ببردى إليكما
فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

وكذلك قول الشريف:

إذا قلت قد علقت كفى بصاحب
تعود عواد بيننا وخطوب

ورووه إلى قول امرىء القيس :

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته

وقرّت به العينان بُدّلت آخرا

وردّوا قول الشريف :

إما فتى نال العلا فاشتفى

أو بطل ذاق الردى فاستراح

إلى قول امرىء القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنما

نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

على أن القدماء — مع ذلك — قبلوا قول سلم الخاسر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

وقالوا إنه أخصر وأجود سبكا من قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

***

هنا أقول للمرة الثانية : إن القدماء لم يعلنوا الحرب على المبتات الجديدة للمعنى المطروق ، وإنما أعلنوها شعواء حقاً على السرقة المكشوفة والانتحال الصريح ، وهذا هو ما أسقطه الأستاذ شوقي من حسابه ، ولم يشر إليه بكلمة واحدة ، ليمضي بعد ذلك في حملته على القدماء .

بقي عليّ أن أعرض رأيي الأستاذ في أثر هذه الأبحاث النقدية في الأدب العربي ، وقد أطلت فلأتركه لعدد قريب إذا شاء الله .

ابنة الشاطئ

المطالعة

كيف نشجع النشء عليها ونرشدهم إليها ؟

للأستاذ حسن الساعاتى

« طالع ، لاحظ ، تعلم » . تلك كانت نصيحة لجينس أحد النقاد الرومان إلى تلميذه فى كتابه « من الفن السامى » . إننا نتعلم عادة ما نلاحظه ونعبره ، وما المطالعة إلا الخطوة الأولى فى مرحلة المعرفة . ولا مراء فى أن تجارب التلاميذ محدودة جداً ، بل هى تعتمد على الكتب إلى حد بعيد . فهم يبدءون بسماع الكلمات أطفالاً ، ثم يتقدمون بالتدريج خطوة كبيرة ، فيتعودون الكلام ، ولا يكاد الواحد منهم يبلغ سن المراهقة حتى يقبل على الكتب التى يقع عليها بصره يلتهمها التهاماً . وما مرحلة المراهقة إلا مرحلة المطالعة . ويعرفنا علم النفس أن للنشء ولعاً شديداً بالمطالعة ، فهم يحبون القراءة فى الكتاب ، ذلك الصديق الصامت الذى ينصحهم إذا شاوروه فى أمورهم ، وهو بدوره أمين على أسرارهم ، وكم للمراهقين من أسرار ! ذلك هو الكتاب ذو الكيان الذى لا يتحول ؛ وهو مع ذلك يطوى قوة خفية لها أثرها وخطرها ، وقد بلغ به التواضع ألا يبالى أوضع فى الجيوب ، أم على الرفوف ؛ كما أنه طويل البقاء ، عظيم النفع ، قوى الأثر ؛ ذلك هو الكتاب صديق الولد الصغير ؛ فجان جاك روسو على كرهه الشديد للكتب ، لم يحرم اميل تلميذه الصغير من كتابه « روبنسون كروزو » .

عرفنا إذاً أن للكتب أهمية كبيرة ونفعاً عظيماً ، والآن أود أن أسأل الأسئلة الآتية : هل الأولاد المصريون يحبون المطالعة ؟ وهل هناك كتب تناسبهم ؟ وما هى المطالعة المحببة إلى نفوسهم ؟

التلاميذ المصريون كغيرهم من التلاميذ ؛ فهم يحبون المطالعة حباً جماً ؛ وهم لا يستعيرون الكتب فحسب ، بل يبتاعونها من مصروفهم دون أن يدفعهم إلى ذلك أحد . وربما يبلغ إقبالهم على المطالعة درجة يفضلونها فيها على اللعب ؛ وليس ذلك بعجيب ، فقد ورثوا قوة التفكير والتأمل عن أسلافهم الفراعنة والعرب الذين قتلوا الكتب بحثاً واطلاعاً . والتلميذ المصرى بطبيعته كثير الأسئلة ؛ مطلق الحرية ، ربى بين أحضان الطبيعة ، لهذا تجده مسالماً يفضل أن يُترك وحيداً ليقرأ كتابه .

هل هناك كتب تناسب التلاميذ ؟ كلا . على الولد المصرى أن يقرأ الكتب العربية والانجليزية . أما كتب المطالعة العربية فهى جافة إلى حد بعيد ، تحمل معلومات فقيرة هزيلة لا ترغيب فيها ولا تشويق . الوزارة تبذل جهدها فتمد التلاميذ بمعلومات تناسبهم ، ولكن عبثاً تفعل ما دام درس المطالعة لا يخرج عن كونه درس نحو وصرف وإعلال وإبدال . فالطريقة المتبعة فى المدارس طريقة بالية طال عليها الأمد وخطأتها البحوث النفسية الحديثة ؛ طريقة تفسد جمال الموضوع فتجعله مشوهاً غير جذاب ، والنفس تميل بطبيعتها إلى الطريف المشوق . هكذا تخيب آمال التلاميذ فى دروس المطالعة العربية فتعزف نفوسهم عنها وتتحول إلى قراءة الصحف ؛ وهذا هو البلاء الأكبر ، فأسلوبها عادى وكثيراً ما ينحط عما يحويه من أراجيف تخل بالموضوع والمعلومات . وليس فى مقدور الناشئ أن يميز بين الغث والسمين والصالح والطالح . مساكين هؤلاء الصغار ! لا غرو فى أن جلهم يستمدون معلوماتهم مما يقرأونه فى بيوتهم من صحف . وهكذا يستقون ثقافتهم وما أفقرها من ثقافة سطحية جافة ! . وما الصحف اليوم إلا طريقة لكسب المال أو استثماره بشتى الوسائل . صحافة مادية صرفة قتلت روح الثقافة وامتلأت صحائفها بمعلومات مغرضة ؛ دفعت أولادنا إلى الاشتغال بالسياسة .

وهناك القصة المترجمة التى شغف بها التلاميذ وأقبلوا على مطالعتها ، وهذا النوع من القصص ضعيف الترجمة ،

وكثيراً ما يكون غير مناسب لمدارك التلميذ المسكين الذي يشتريها بثمن قليل ويجد لذة في قراءتها . وقد قيل : ما لا يمكن علاجه فلا بد من تحمله . فهم يشبعون ميولهم المطالعة بقراءة روايات الجيب المختلفة التي تحوي المغامرات وأقاصيص الغرام . هكذا نعلم أولادنا : نتركهم في ظلمات بلا مرشد أو هاد . فقد فرغت هذه القصص من كل ما هو قومي ، إذ أن حوادثها وقعت في بلاد غريبة عن بلادنا . نجم عن ذلك أن أصبح التلاميذ المصريون يعرفون القليل عن البلاد الأجنبية ويجهلون كل شيء عن وطنهم ، إذ ليس ثمة شيء مكتوب عنه بطريقة جذابة صادقة . ماذا تفعل الوزارة ؟ إنها تضع عدداً من الكتب الانجليزية والعربية ليقرأها التلميذ في العطلة الصيفية . أما هذه الكتب فهي إما علمية جافة أو أدبية ذات أسلوب يعلو على أفهام التلاميذ فلا يستسيغونه . زد على ذلك أنهم مجبرون على قراءتها أثناء العطلة الصيفية وكل مفروض مبغوض . وكثيراً ما صادفت تلاميذ لم يجدوا أي لذة في قراءتها . وهكذا صدفوا عنها إلى غيرها حتى يشبعوا رغبتهم في المطالعة . أليس من العجيب أن تفتقر إلى القصة وتاريخنا غني بالحوادث التي تعتبر مادة طيبة للتأليف ؟ الحقيقة أن كل ما لدينا محاولات في المحيط الأدبي . إني تعجب معجبٌ أن ترى أولاداً متحمسين المطالعة فلا تقدم لهم مادة لائقة تناسبهم .

التلاميذ المصريون يحبون من المطالعة ألواناً شتى ، فهم يميلون إلى قراءة الكتب العربية قبل غيرها شعراً كانت أم نثراً ، ومدارك التلاميذ مختلفة ؛ فمنهم من يقرأ قصص الأطفال ومقطوعات من الشعر الركيك ، وهم راضون بذلك كل الرضا . ومنهم من تطمح نفسه إلى ما هو أسمى فيقرأ الأدب الرفيع ، ولا غرو في أن جل التلاميذ يقبلون على قراءة الكتب التي ترجمها أو وضعها المنفلوطي ، أحد كتاب مصر المجيدين . ذلك لأنه كتب في مواضيع شتى بأسلوب أخاذ ، فصور الغنى والفقر أبدع تصوير ، وعبر عن السعادة والشقاء أصدق تعبير ، وتناول كل ما يثير العواطف النبيلة ويلهب الحس المرهف . هذا النوع من الكتابة يناسب المراهقة ، غير أنه يخشى على النشء من ترهف إحساساتهم إلى درجة زائدة عن الحد ، فتصبح عواطفهم عرضة لأن تثار لأوهى الأسباب وأرخصها ؛ في حين أننا في حاجة إلى نشء قوي تعتمد عليهم مصر .

وتميل التلاميذ إلى قراءة الصحف الانجليزية التي توصي الوزارة بشرائها ، لأن لغتها سهلة ، ولأنها متنوعة تحوي مواضيع شتى . وهناك أقلية تقرأ الصحف الانجليزية والفرنسية المحلية . كما أن هناك عدداً لا بأس به يقرأ القصص البوليسية التي كتبها إدجار ولاس ، وأجاثا كريستي ، ودوروثي سيرز وغيرهم ؛ وفي بعض الأحيان يحاول بعض التلاميذ ترجمة القصص الصغيرة ، وكثيراً ما تنجح محاولاتهم . ومن المؤلم والمخزي أن جل التلاميذ وخاصة الأغنياء يميلون إلى قراءة الصحف الأمريكية التافهة . وأما من نالوا حظاً من الثقافة الفرنسية فقد تعودوا قراءة مجلات فرنسية خليعة مليئة بصور النساء العاريات . وانتشرت هذه العادة كالوباء حتى أصبح يقرؤها كل التلاميذ سراً وعلانية ، مع ضعفهم في اللغة الفرنسية نفسها .

مثل التلميذ المصري كمثل سفينة معدة بأجمل الشراع وأصلبها ، ولكن لا هواء يحركها ويدفعها . فالتلميذ يرغب في المطالعة ، ولكنها لسوء حظه لا تجد مشجعاً ولا مرشداً .

لا بد إذاً من إيجاد مواضيع مناسبة للنشء عندنا . وعلى خريجي الجامعة أن يبحثوا عن مصادر يتخذون منها مادة للكتابة التي تفيد التلاميذ وتسليهم ويجب ألا تفوتنا العناية بالجانب الأخلاقي .

بعد أن نمد التلاميذ بالمادة الكافية المناسبة لعقولهم ، يجب أن نعلمهم كيف يقرؤون ، لأن القراءة فن مبني على أسس ثابتة . في استطاعة الناس أن يأكلوا ، وقليل منهم من يعرف تماماً كيف يأكل وماذا يأكل ، وبالمثل نجد أناساً كثيرين يطالعون وقليل منهم من يعرف كيف يفعل ذلك على أتم وجه .

ويجب أن يدرب التلاميذ على استعمال المكتبات المدرسية ودور الكتب العامة ، وعليهم أن يعرفوا كيف يستفيدون منها . ويجب أن تكون المكتبات المدرسية في أماكن هادئة تشجع على المطالعة ، ويجب أن تكون حجرات المطالعة فسيحة معدة بوسائل التهوية ، وخاصة في جو مصر الحار في فصل الصيف . كما أنه يجب أن يكون بدور الكتب مرشدون يدلون التلاميذ على الكتب الصالحة لهم المناسبة لمداركهم . وللتلميذ مطلق الحرية في اختيار الكتاب الذي يعجبه ، ولكن هذه الحرية يجب أن يحدها النظام والمنفعة ، وإلا فسدت أخلاق النشء . وإن كان كل شيء يحق لهم فليس كل شيء يصح لهم .

أما في المدرسة فيجب أن يشجع التلاميذ على القراءة بوسائل شتى ؛ فتوزع عليهم كتب الجوائز في مناسبات عدة . ولا شك في أن التلميذ يجد لذة في قراءة الكتاب الذي ناله جائزة وأصبح ملكه لا يشاركه فيه أحد . ويجب أن يشجع التلاميذ على عمل مكتبات خاصة بهم ، ويساعدهم على ذلك مشروع إنشاء مكتبة يكون من ضمن مواد البرنامج . وعلى المدرسة أن تشجعهم بزيارة هيئتها لمن يقتني مكتبة يستفيد من كتبها . وإنه لمما يشعر التلميذ بالفخار والعزة أن يستقبل في بيته الناظر وبعض أعضاء هيئة التدريس . أليس في ذلك مشجع كاف لهم على اقتناء الكتب وقراءتها ؟ ويجب أن تشجع جمعيات التلاميذ العلمية والأدبية على السواء ، لأن في ذلك تشجيعاً لهم على الاطلاع والبحث . أما دروس المطالعة فيجب أن تكون مشوقة في طريقتها ومادتها ، لأن درس المطالعة خطوة تمهيدية لمطالعات النشء الخاصة .

ويجب أن يكون لكل مدرسة صحفها التي يديرها ويحررها التلاميذ أنفسهم ؛ فهم يقرؤون ليكتبوا فيها المواضيع العلمية والأدبية بعد البحث والاطلاع ؛ وما من شك في أن هذه الطريقة تشجع التلاميذ على المطالعة فضلاً عن أنها تكسبهم خبرة ودراية في عالم الصحافة .

وكذلك من الأمور اللازمة أن تبقى المكتبات المدرسية مفتوحة أثناء العطلة الصيفية ليستعير منها التلميذ الكتب التي يود أن يقرأها ؛ لأن منهم من يرغب في قراءة بعض الكتب ، ولكنه لا يجد متسعاً من الوقت أثناء الدراسة . فلماذا لا نشجعهم على الاطلاع أثناء العطلة الصيفية بدل أن يندمجوا مع أقران السوء ، فتفسد أخلاقهم .

كما أنه يجب أن تصادر الصحف الأجنبية الخليعة التي تحوي ما يفسد أخلاق النشء ، ويحرّم دخولها مصر وتداولها بين أيدي أولادنا لأنها تُلهب فيهم الغريزة الجنسية قبل أوانها بطريقة غير صحية لأنها غير طبيعية .

وإني أقترح أن تلحق بالحدائق العامة الكبيرة مكتبة صغيرة ؛ إذ أن كل من يذهب هناك لا يفعل ذلك بقصد اللعب وضياع الوقت . وكثيراً ما نرى أن كثيراً من الناس يجلس في ظلال الأشجار يطالع كتابه . وجو الحدائق ولا ريب يشجع على القراءة حيث الطبيعة هادئة خلابة تسر النفس وتنعشها وتحفز العقل على التأمل والتفكير . فلماذا لا ننشئ بكل حديقة من الحدائق العامة مكتبة صغيرة ؟ ومن الناس من يكره حمل الكتاب ، ولكنه حينما تحتويه الحديقة ينشط عقله ويميل إلى الاطلاع .

وهناك فكرة أخيرة وهي وإن لم تكن جديدة في بابها إلا أنها تكون على كل حال فريدة في نوعها في مصر . فقد أمدت انجلترا مكتباتنا بكتب رخيصة الثمن حسنة الطبع لا يتجاوز ثمنها الثلاثين مليما ، فلم لا نحذو حذوها فتكون لنا كتب مثل كتب « البنجوين » و « البيليكان » التي حوت العلم والأدب قديمه وحديثه ؟ لقد أدى هذا النوع من الكتب خدمات جليلة إلى الثقافة الانجليزية . وإني لآسف كل الأسف لخلو بلادنا من الكتب العربية الرخيصة الثمن المتقنة الطبع .

تلك هي الوسائل التي أراها لإرشاد تلاميذنا إلى المطالعة المحببة إلى نفوسهم .

حسن الساعاتي

الفن الحديث

تاريخه ونزعاته

للأستاذ محمد يوسف همام

النزعة الاستقبالية Futurism :

أدت نزعة التكعيب إلى إنتاج صور غريبة وأشكال ملتوية ، انتهت إلى ما يشبه الألغاز والأحاجى ، فكان من الطبيعى أن تتولد عنها نزعة أخرى تقوم على أساس جديد . فظهر السنيور مارينتى سنة ١٩٠٩ فى الميدان ، ناقداً مهاجماً ، ثائراً على الماضى يريد أن ينكر ما له من فضل التمهيد للحاضر ، وأن يغمط مجده التالد الذى قامت المدنية الحديثة على أساسه . وقد أدى به هذا المنطق إلى اتخاذ اسم النزعة الاستقبالية لمذهبه الجديد فى الأدب والفن ، فهو لا يعنى إلا بالمستقبل ، غير مكترث بالماضى وتجاربه ، وهو منصرف عن أساليب الطبيعة وطرقها العادية ، وغاية ما يشتهاه هو أن تتوفر للتصوير فى الفن الحديث الحرية التامة ، كما هو الحال فى الموسيقى ، حتى يتوفر للناس شعورهم بالسرور الحسى المجرد .

بدأ مارينتى ينادى بهذا الرأى فى باريس سنة ١٩٠٩ ، ثم انضم إليه فى سنة ١٩١٠ خمسة من نوابغ الفنانين فى إيطاليا هم : بوكشيونى ، كارا ، روسولو ، بالا ، سيفيرنى ، ثم كاندنسكى البولندى سنة ١٩١٣ .

وقد تنجح الموسيقى فى هذه النظرية ، فتخرج لنا ألحاناً تطربنا من غير حاجة لمحاكاة الأصوات الطبيعية . أما أن يرسم المصور موضوعاته دون تمثيل لوحدات الطبيعة فأمر يحوم حوله الشك ، ولو أننا قد نرى فى بعض الأحيان تصميماً لمجموعة ألوان خاصة ، فنعجب بها لأنها تبعث السرور أو الرهبة أو أى عاطفة أخرى فى نفوسنا ، وأضرب لذلك مثلا بالضوء المنبعث خلال الزجاج الملون فى نافذة ما ، ولكنى أستطيع أن أحكم دون تردد أنه لم ينشأ حتى الآن ذلك المصور الذى يستطيع أن يقدم لنا تصميماً صرفاً لألوان مجردة عن المادة ، يكون أثرها أكثر بهجة للنفس من تصميم لألوان مجموعة مادية .

وتمادى الاستقباليون فى رأيهم فقالوا إن التصوير المجرد ليس خيالا أو وهماً ، بل هو مبنى على تأثيرات نفسية فى الذهن لشكل ما يقع عليه البصر من الخطوط والألوان . وهم لم يطلقوا على صورهم أسماء معينة ، بل كانوا يكتفون بتسميتها Composition أى إنشاء ، وكانوا يقولون إن الحسيات والمرئيات هى وحدها التى تدلنا على المعانى النفسية والروحية ، ويستدلون على ذلك بصورة الفنان كاندنسكى (شكل ١) التى يوحى فيها بذلك الأثر الواهى

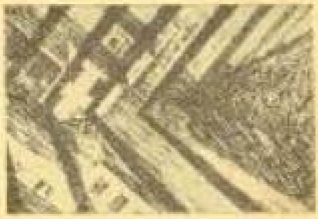


شكل (١)
صورة — من عمل كاندنسكى — سنة ١٩١٣

لشكل المدفع المرسوم فى الركن الأسفل لليمين ، والدخان المتصاعد من فوهته ، ولمنظر التآزل المساوية الظاهرة فى بقية أنحاء الصورة ، إلى ما يستشعر به الانســان من « روح الصراع والحرب والمقاومة والخلاف فى الرأى » . وهذا هو النحو الذى رغب فى أن يعبر عنه الفنان الاستقبالى فى صوره .

وقد استسلم لهذا الرأى بعض فنانى إيطاليا ، وزادوا عليه رغبة ملحّة فى إجادة تمثيل « الحركة وقوة الاندفاع والسرعة » ، ولكنهم كانوا فى طريقة التلوين عند رأى الفنانين التأثريين وما بعدهم ، يدينون بالضوء واللون ، ويقولون إننا نحن نعبد الحركة والضوء ، ونعتبرهما قوتين نافذتين ، نراهما يتغلبان على المادة ويستنفدانها .

وهذه صورة « الثورة » من عمل روسّولو سنة ١٩١٠ (شكل ٢) بالغ فيها الفنان فى اتباع الطريقة التجريدية ،



شكل (٢)

الثورة — تصوير روسّولو — سنة ١٩١٠

ومثّل الحركة فيها بتصوير تلك الزاوية المندفعة فى الوسط نحو اليسار ، المتكررة فى عدة أوضاع متوازية ، والتى نفذت فى المبانى فغيّرت من مواضعها الطبيعية ، شأن الثورة تقلب الأشياء رأساً على عقب . وقد صور الفنان الأشخاص فيها على شكل رموز ظاهرة فى داخل الزاوية الأولى فى طابور مضغوط يوحى بالكثرة الزائدة . وهذه الصورة مثل رائع للتعبير عن الحركة تعبيراً قويا وبطريقة مبتكرة ليس لها بالماضى أى اتصال . وهذان هما الأساسان اللذان قامت عليهما النزعة الاستقبالية .

ومن الأمثلة الطريفة لتصوير الاستقبــالى ، صورة « سيدة وكلبها » (شكل ٣) وقد حاول الفنان أن يصور



شكل (٣)

سيدة وكلبها — تصوير بالا — سنة ١٩١٢

فيها الحركة ، بأن رسم مخالب الكلب وذيله والسلسلة التى تقوده وخطوات سيدته فى أوضاع مختلفة ، كأنها فى سباق ، ليصورهما لنا فى حركة المشى .

تمثل هذه الصور أراد الفنانون الاستقباليون أن يحولوا التصوير من فن مداره الأبعاد والمسافات ، إلى فن يعبر عن الوقت والزمن ، وما ذلك إلا نتيجة الاضطراب والتهيج والزعزعة ، التى عمت العالم قبيل الحرب العالمية الكبرى .

محمد يوسف همام

عبيـــد الزاكانى

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتاب أخلاق الأشراف

الباب الثالث فى العفة

رأينا فى سير أكابر السلف أن العفة كانت تعد فى العصور الماضية إحدى الفضائل الأربع . وقيل فى حدها : إنها طهارة الذيل[1] ، ووصفوا بالعفة من يكف عينه عن رؤية المحرم ، وأذنه عن سماع الغيبة ، ولسانه عن القول الفاحش ، ويده عن الامتداد إلى مال غيره ، ونفسه عما لا يليق . وكان الناس يكرمون من فعل هذا ويمدحونه ، ولذلك قال الشاعر :

يرفع الرأس فى الأنام فخوراً
مُشبِه السَّرْو عِفّة واستقامه

وقد روى أن حكيما سمع ابنه يذم إنساناً ، فقال : يا بنى ، مالك وغيرك ؟ . وشكا رجل إلى الحسين بن على رضى الله عنهما رجلا آخر وعابه ، فسمع أمير المؤمنين على فقال لابنه : يا بنى ، نزه سمعك عنه ، فإنه نظر إلى أخبث ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك .

وقد قيل إن منصور الحلاج ، قدس الله سره العزيز ، قال وهو مصلوب : كنت فى صباى أسير فى طريق ، فسمعت صوت امرأة من السطح ، فرفعت بصرى لأراها ، فأنا أحسب تنكيس طرفى الآن من الصليب إلى الأرض كفارة عن رفع بصرى ذلك اليوم .

المذهب المختار :

يقول أصحابنا : إن القدماء غلطوا فى هذا الأمر أشنع غلط ، وأضاعوا أعمارهم العزيزة فى الضلالة والجهالة . وكل من سار هذه السيرة لم يكن له من العيش نصيب . وقد جاء فى التنزيل : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » . وهم يفسرون هذا بأن مقصود الحياة الدنيا اللعب واللهو والزينة والتفاخر وجمع المال وكثرة النسل ، ويقولون إن اللعب واللهو بغير الفسق وارتكاب المنهيات أمر ممتنع ، وجمع المال بغير إيذاء الناس ، والظلم والبهتان وتسليط اللسان على أعراض الخلق محال . فلا جرم كل من عف حرم هذه المقاصد ، ولم يكن حسبانه فى الأحياء وحياته عبث . ويفسرون الآية : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ، بأن المرء إذا أمكنته فرصة الاستمتاع فحرم نفسه وقال إلى طاهر الذيل ، بقى طول عمره نادما على الفرصة التى أضاعها ، يقول إضاعة الفرصة غصة .

فمن كان يدعى قبلُ عفيفا طاهر الذيل ضابط النفس ، يسمى اليوم أبله محروماً ثقيلا ، ويقولون : إن العين والأذن واللسان وسائر الأعضاء ليست عبثاً . فعلى الإنسان أن يرى ما تستحسنه عينه ، ويسمع ما تلذه أذنه ، وأن يقول ما ترتبط به منفعته من الإيذاء والبهتان والسب والفحش وشهادة الزور ؛ وإن أصاب الآخرين من هذا ضرر ، أو خربت ديارهم لم يبال ، ولم يشغل نفسه به . فما يعجبك من قول أو فعل ، فقل وافعل ، وكل ما يلذك فاستمتع به ولا يذهب عمرك هباء . . . .[1]

وكل من ضيع الفرصة بشؤم بخته ، فقد أضاع مفتاح السعادة ، وبقى أبد الدهر ذليلا شقيا .

وأما سعيد الجدّ المستعد لقبول النصيحة فى هذا الباب فحسبه هذا القدر والله يوفق الأصحاب لخير الكرامات .

عبد الوهاب عزام

(١) ترجمة يالك دامن .

(١) هنا سطور وأبيات فيها مجون وإفحاش .

هؤلاء العـــــلماء

ترجمة الأستاذ عزيز ميلاد فريصه

[والدنيا فى جزع من الحرب ، والدول تتسابق فى التسليح للدفاع عن كيانها إذا شبت النار التى يكفى لإشعالها شرارة ضئيلة ، تطلع علينا جريدة الصنداى اكسبريس بلندن بمقال عن كشف علمى لو تحقق لكان خطراً على الإنسانية وتدميراً بالفناء ، والمقال بقلم ك . ا . ليون بانجلترا ، وهذا مضمونه :]

مقدمة :

كشف جبار أظهر للعالم قوة كامنة فى استطاعتها أن تجرف به إلى ما فوق أحلام البشر . هذا الذى يبحثه الفيزيائيون فى معامل الفيزياء بانجلترا وغيرها من الدول العظيمة . . ولعل هذا أول ما ينشر من أخبار عن هذه القوة المدمرة . . وتجرى التجارب فى الوقت الحاضر للوصول إلى طريقة تحضير مقادير من الطاقة لا يمكن للعقل البشرى أن يتصورها . . وذلك بتحطيم ذرة أحد المعادن النادرة ألا وهو اليورانيوم Uranium .

فإذا نجحت هذه التجارب أصبح فى الامكان الحصول من رطل واحد من اليورانيوم على كمية من الطاقة تعادل ما نحصل عليه فى الوقت الحاضر من الفحم باحراق ٢٠ مليوناً من الأطنـان . . وقد ذكر لى أحد المشتركين فى هذا البحث أن هذه القوة الكامنة قد تبلغ من العظم مايخشى منه على الانسانية . . وقد تظهر الأبحاث الأخرى التى كشفت حتى الآن شيئاً مهملا وتصبح فى خبر كان . . وفى بريطانيا وحدها يجرى هذا البحث فى ثلاث جامعات : ليفربول ، وبرمنجهام ، وكمبردج .

وفى أمريكا يعتبرونه كشفاً عظيما فى صالح الانسانية ، ولكن علماءهم الذين يدرسون خبايا هذا المعدن النادر يرجون غيرهم ألا يفشوا تفاصيل العمل خوفاً من أن يساء استعماله فى التشجيع على حرب لا يعلم غير الله ماذا تكون نهايتها .

وقد تفضل أحد الباحثين الانجليز فشرح لى شيئاً عما يجرى فى الوقت الحاضر . . وقد يظهر هذا الشرح للقارئ أنه من قلم روائى خيالى . . ولكنى أعود فأنبهه إلى أن هذا هو الصدق والواقع .

« تنتج هذه القوة الجديدة من إطلاق الطاقة الكامنة فى باطن الذرة . . وقد ظلت هذه الطاقة معروفة من زمن طويل . . كما أنه كان من المعروف أيضاً وجودها بكميات هائلة ، إلا أنه لم يكن من المستطاع حتى هذا العام إطلاقها إلا بكميات تافهة كبدت المعامل نفقات طائلة . . حتى جاء هذا العام مبشراً بطريقة جديدة .

الطاقة المطلقة :

« والوسيلة التى كانت تستخدم قبلاً لاطلاق هـذا الجزء التافه من عمل العلامة رذرفورد فى سنة ١٩١٩ ، وقد كان نجاحها الجزئى مؤسساً على ما نعلمه الآن عن تركيب نواة الذرة التى تتألف من بروتونات موجبة التكهرب ونيترونات[١] عديمة الشحنة . . وقد تمكن اللورد رذرفورد من إطلاق هذه الطاقة بتحطيم الذرة تحطيما جزئياً ، وذلك

(١) فى العدد الثانى من « رسالة العلم » مقال لى عن « معلوماتنا عن المادة » يصف بتفصيل تركيب الذرة .

بالاستعانة بجسيمات الفا Alpha التي كانت تصوب على النواة بعدد وافر .. والتي تترك كما نعلم من بروتونين ونيترونين ، فاذا أصاب أحد هذه الجسيمات نواة إحدى الذرات قسمها إلى شطرين كل منهما يكون ذرة جديدة . . ذرة لمادة تختلف عن المادة الأولى تمام الاختلاف . . وليس هذا كل ما يحدث . . ولكن ما هو أدهى من ذلك أن نشاهد إطلاق كمية من الطاقة لم تكن في الحسبان ولا في مقدور العقل أن يتصورها . . إلا أنه كان لا بد للحصول عليها من بذل كميات أخرى من الطاقة تزيد عليها بآلاف المرات .

أحلام الكيمائي :

« وقد كان السبب في ذلك أن هذه الجسيمات لم يكن في استطاعتها أن تصيب سوى جزء يسير جداً من الذرات التي تصوب عليها ، مما أدى إلى استحالة هذه النتيجة بمجال واسع . . ومع ذلك فقد ظلت الفكرة محتفظة بشغف العلماء بها من بعد الحرب العظمى حتى وقتنا هذا . . حتى تحققت بها أحلام الكيميائيين في الحصول على الذهب من بعض المعادن الأخرى . . ولو أن الطريقة تكلف أضعاف ثمن الذهب الناتج . . وها قد أصبح من المستطاع في الوقت الحاضر تحضير راديوم صناعي يفضل الراديوم الطبيعي . إلا أن في ذلك أيضاً لم يكن من الممكن استغلال الطاقة الذرية في مجال واسع . حتى جاء آخر العام الماضي فطلع علينا الباحث الألماني « هان » Hahn بكشفه العظيم الذي أعلن فيه أن معدناً من المعادن إذا صوب عليه تيار من النيترونات فإنه يتحطم بطريقة تختلف عما اعتدنا أن نعرفه عن غيره من المعادن . هذا هو اليورانيوم . معدن نادر . أثقل المعادن . في مظهره كالحديد ، وفي وزنه أثقل من الرصاص .

« فالمعروف عن جميع المواد الأخرى أنها إذا أصابتها النيترونات تتجزأ إلى مادتين مختلفتين إحداهما ثقيلة الوزن والأخرى خفيفته ، ولكن « هان » وجد أن هذا اليورانيوم يتجزأ إلى مادتين كل منهما ثقيلة الوزن ؛ وما أعلن هذا الكشف حتى اهتم به الباحثون في مختلف الدول ، وما لبث أن وجد علماء كوبنهاجن ونيويورك وانجلترا في وقت واحد أن تحطيم ذرة اليورانيوم ينتج مقداراً من الطاقة يفوق ما ينتجه تحطيم ذرات غيره من المعادن أربعين مرة . إلا أن هذا لم يساعد كثيراً على التقدم في استغلال الطاقة الذرية بطريقة ناجحة . إذ أنه كان لا بد حتى هذا الوقت من بذل كميات كبرى من الطاقة لإطلاق هذا المقدار

ما وراء هذا ؟

« ولكن جاء بعد هذا ما هز الوسط العلمي في جميع أنحاء العالم . فقد وجد أن كلاً من النصفين اللذين تتجزأ إليها ذرة اليورانيوم هما بدورهما يطلقان نيترونات جديدة كل منها أيضاً يهاجم بدوره ذرات أخرى من اليورانيوم تتجزأ إذا أصابتها هذه النيترونات إلى نصفين ، ثم تتكرر هذه المأساة وتنقسم قطعة اليورانيوم على نفسها بهذه الطريقة الشنيعة ، وفي كل خطوة من الخطوات ينتج تحطيم الذرة الواحدة مقداراً من الطاقة هو ما سبقت الإشارة إليه

« ولكن حتى الآن لم نستطع أن نرى كل هذا يحصل بنفس السهولة التي سبق وصفها ، بسبب وجود مواد غريبة في اليورانيوم لا تلبث أن توقف العملية بعد أن تبدأ بوقت قصير . أما إذا استمرت العملية في طريقها المستقيم — وليس هناك ما يمنعها من ذلك — فإن الطاقة المتدفقة تفوق بمراحل كل ما يمكن العقل البشري أن يتصوره »

كم يساوي ذلك ؟

وهذا هو الموقف الحاضر الذي يقف فيه العلماء على أبواب مخزن هائل لطاقة لو أطلقت لانتقل العالم

إلى حالة جديدة لا نعلم نحن كنهها ... وقد زرت اليوم أحد المعامل التي يقوم فيها بعض الباحثين بهذه التجارب، فشاهدتهم يستعدون لتحطيم رطل من اليورانيوم ثمنه ٣٢ شلناً يرجى أن يطلق مقداراً من الطاقة يعادل ما يطلقه إحراق ٢٠ مليون طن من الفحم ... وسيعملون قبل البدء في العملية على تطهير هذا المقدار في أفرانهم الكهربائية ... ثم يقومون بسحقه ومزجه بالهيدروجين السائل الذي لا يمكن أن يوجد إلا في درجة حرارة ٢٥٣° م تحت الصفر ... ثم يصوبون عليه بعد ذلك الطلقات النيترونية من مادة معينة ... وفي النهاية لا يعلم كائن ماذا ستكون النتيجة ... فقد تكون القوة الكامنة التي تساعد هذه التجربة على إطلاقها كافية لأن تدمر انجلترا بأكملها.

ولكن ليطمئن القارئ، فمع أن في رطل اليورانيوم هذا المقدار الهائل من الطاقة، فإنه من المؤكد أنه لن يطلق بأكمله في وقت واحد مما يدعو إلى الاعتقاد بأن التجربة لا تستلزم الجزع.

إدارة الآلات:

إلا أن الطرق التي نأمل أن نستغل بها تلك الطاقة تدعو إلى الخوف ... فالعلم بمفرقعاته وكهربيته ولاسلكيه وتلفزته لا زال في ريعان شبابه ينمو مع الزمن ... فهل اقتربنا من الشيخوخة؟ أو أصبحنا قاب قوسين من النهاية؟ ... يحتمل! فإذا نشبت الحرب أصبح في استطاعة دولة أن تفني دولة أخرى وتمحوها من عالم الوجود في ثانية واحدة ... أو قد تكون هي نفسها هدفاً لجزء من طلقتها الجهنمية فتمحى هي الأخرى.

والمقصود من التجربة على رطل واحد هو البحث في إمكان استغلال هذه الطاقة ... والمظنون أن أقصى ما سوف نحصل عليه في الوقت الحاضر هو أن نعرف هل من المستطاع أن يطلق اليورانيوم من الطاقة ما يسمح بإدارة الآلات بواسطة كرة من اليورانيوم قطرها ثلاث أقدام ... كرة في هذا الحجم تزن طناً ... وهم يبحثون الآن هل من المستطاع من الوجهة المادية القيام بهذه التجربة ... فقد يكلف شراء الخام ٣٥٠٠ جنيه وتطهيره للحصول على اليورانيوم التي ألفاً آخر من الجنيهات ... وتأمل الجامعة التي أكتب فيها هذا المقال أن تتمكن من تحقيق هذا الغرض ... وقد ذكر لي أحد الأساتذة في هذه الجامعة ... بكل تؤدة ورزانة ... أنه إذا أخطأت التجربة المزمع القيام بها على طن من اليورانيوم فقد يؤدي انفجاره إلى تدمير العالم بأكمله.

سرية البحث:

وقد ظل الباحثون في ليفربول وبرمنجهام وكمبردج وأمريكا وفرنسا كاتمين أسرار هذا الكشف حتى الآن، وقد كان أول ما نشر عنه إشارة إليه في خطاب نشر أخيراً في مجلة علمية بريطانية باسم «كوري جوليوت» الذي يعمل مع ابنة مدام كوري (كاشفة الراديوم) في هذا البحث.

ومن الغريب أن يتصور القارئ أن هذه التجارب التي يقوم بها رجال على غير اتصال بالعالم ومنزوون في معاملهم المنعزلة ... هذه التجارب قد تسبب تغييرات في هذا العالم أعظم بكثير مما تنتجه مفاوضات المؤتمرات والملوك والحروب.

وهنا أترك القارئ ليتنفس الصعداء بعد أن انتهى من قراءة أخبار العلم الذي يعمل — كما يزعمون — على تقدم العالم والسير به إلى الأمام ... وله بعد ذلك أن يحكم.

عزيز ميمود فريمه
المدرس بقسم الطبيعة بكلية العلوم
بالجامعة المصرية

قصة :

هذا الوحش ! سيمونس

مترجمة عن القصصي المرح أرثر موريسون

للأستاذ صلاح الدين ذهني

لا تكاد السيدة سيمونس تمر أمام إنسان حتى يرمقها في رثاء ، وينظر إليها في عطف ، وقد تفرت إلى ذاكرته قصة الحظ العاثر الذي ختمت به زيجتها من زوجها الثاني مستر سيمونس .

وبقدر ما كان يبعث منظرها العطف والرثاء ، كانت تثير ذكرى زوجها السخط والاستنكار ، حتى هؤلاء الذين لم يعرفوا الزوجين قط كانوا لا يكادون يسمعون بما أتاه هذا الزوج ، حتى يحكموا بأنه كان متجنياً على زوجته ظالماً لها أشد الظلم .

كان الزوجان قبل هذا الحادث مثلا أعلى للزيجات الموفقة السعيدة في نظر أهل حى « إيست اند » جميعاً ، فالسيدة سيمونس كانت مثال الزوجة التي تفنى قواها في غير رفق لكي تقوم بشئون منزلها ، مؤدية لزوجها من الخدمات ما لا ينتظر زوج من زوجة ، باذلة أقصى الجهد في توفير الراحة له ، مما جعلها موضع الحسد من كل نساء الحي .

أما السيد سيمونس ، ذلك الرجل الهادئ الأخلاق ، بوجهه الباسم وعينيه الصافيتين ، كأنهما عينا طفل ، واستقامته التي دفعت به إلى أن يترك التدخين بعد زواجه بأيام ، فقد كان مثال الزوج الطيب في نظر هؤلاء النسوة اللواتي كن يلاقين من أزواجهن كل جفاء .

كان تومى سيمونس نجاراً بارعا ، رزق في مهنته وأغفل ما عداها من شئون الحياة .

أما مسز سيمونس فقد كانت قبل زواجها به أرملة قضت في ترملها بضع سنين ، كانت فيها مثال الوفاء لذكرى زوجها الراحل — مستر فورد — الذي قضى نحبه في ظروف صعبة ، إذ كان حمالا في إحدى سفن البضائع ، وغرقت السفينة فانقطعت أخباره عن زوجته ، ومع ذلك فقد ظلت أمينة لعهده ، غير مطمئنة لنبأ وفاته ، حتى تقدم لها مستر سيمونس طالباً يدها ، فقبلت لما تعلمه عنه من طيب الذكر ، ودماثة الخلق ، ووداعة الطبع .

سلك الزوجان سبيلهما في الحياة كأحسن ما يكون الأزواج هدوءاً واستقراراً ، ففي مسز سيمونس تمثلت فضائل السيدة الانكليزية التي تدير منزلها بمهارة واقتصاد مقدرة ما تبذل من مجهود في نظافة المنزل ، حتى إنها ما كانت لتسمح لزوجها بأن يدخل الردهة منتعلا حذاءه ، بل كانت تجبره على أن يستبدل به خفين قديمين خصصتهما لاستعمالها في المنزل ، فاذا حدث مرة أن تساقطت بعض الأوحال من حذاء مستر سيمونس على البساط الثمين الممتد في الردهة ، فان ذلك يظل إلى وقت غير قصير موضوعاً لشكايتها ، ودليلا تستدل به على مبلغ استهتار زوجها بما تبذله من جهد ، وكان لا يخف سخطها ويزول تبرمها حتى تعلو الكآبة والندم وجه زوجها الساذج القلب الطيب السريرة ؛ وهكذا كانت مسز سيمونس مع قلة موارد

زوجها مثلا من أمثلة الدقة في نظافة المنزل .

أما حياة السيد سيمونس فقد كانت موزعة توزيعاً عادلا بين حانوته وبين المنزل ؛ فهو إلى جانب حرفته يحمل نصيباً غير ضئيل من شئون الدار ، فى مساء السبت يقوم بتنظيف الأبواب والنوافذ ويغسل آنية الشاى ويطوى الملابس ويرتبها فى الدولاب الكبير الذى يملأ حجرة النوم ، وفى يوم الثلاثاء كان يسير خلف زوجته فى خضوع ، حاملا سلة هائلة الحجم ، لشراء ما يلزم المنزل من حاجات مختلفة لأسبوع كامل .

وكانت نزهته الأسبوعية أن يتوجه صباح كل أحد إلى الكنيسة مرتدياً قبعة عالية رثّت حواشيها ، وفى يده عصا من خشب أبيض صنعها بيده ليحملها فى هذا اليوم فقط . فإذا ما انتهت الصلاة سار فى وقار إلى صندوق النذور فألقى « بنساً » واحداً هو كل ما تسمح به مسز سيمونس من مرتب الأسبوع الذى يتراوح بين ستة وثلاثين شلناً وثمانية وثلاثين ، لا يعرف من أمر تصريفها شيئاً ، ولم يجرؤ يوماً أن يفكر فى أن يعرف .

كان من معتقدات مسز سيمونس التى لا تتغير ، أن الرجال كلهم بسطاء لا يعرفون شيئاً عن فن المساومة فى البيع والشراء . ولما كانت تحرص دائماً على ألا يضيع « بنس » واحد من مال زوجها هباءً ، فقد كانت تشترى له بنفسها ما يحتاج إليه من ملابس ؛ ومراعاة للاقتصاد أيضاً كانت تضطر أحياناً كثيرة إلى شراء البدلة الواحدة من حانوتين ، ولعل ذلك هو السبب فى أنه قلما اجتمعت بدلة كاملة ذات لون واحد على جسد مستر سيمونس ...

وظل الحال فيما يختص بملابس المستر سيمونس على ذلك ، حتى شاء الحظ أن تكتشف الزوجة المدبرة محلا لبيع الملابس القديمة فى الحى ، فاستغنت به عن تلك الحوانيت التى سابقتها رقاعة أصحابها وسرقاتهم . كان اعتقادها أن تجار الأقمشة والخياطين هم جماعة من اللصوص فتحوا حوانيتهم لابتزاز أموال الأغنياء ، لذلك فرحت بهذا المحل الذى اكتشفته ووجدت فيه ضالتها ، فاشترت منه أردية قديمة استحالت بعد أن أعملت فيها الحكة والدوق طوراً ، والمقص والإبرة طوراً آخر ، إلى بدلة جديدة لزوج العزيز .

تم ذلك فى يوم واحد ، حتى إن مستر سيمونس حين عاد من عمله فى المساء ، وارتدى هذه البدلة شعر أنه إنسان آخر .

وفى الحق أن هذه البدلة كانت عجيبة الشأن ، فالجاكتة تتسع عند خصر مستر سيمونس وتضيق عند رقبته حتى لتُلزمه الصمت والاقلال من التنفس خشية الاختناق ، وتنحدر من الخصر فى ضيق نحو العجز حتى يبلغ الضيق أشدَّه ، ويبدو النصف الأعلى لمستر سيمونس كأنه قدر كبيرة من قدور الخمر ، أو برميل واسع الجوف .

أما السروال فهو يتكون من كيس واسع الحلق ، يبدأ من خاصرته وينتهى عند أفخاذه لينساب فى فرعين ضيقين كأنهما فرعا نهر ، حتى يصلا إلى الركبتين ، فيمتدا فى استقامة واتساع حتى يصلا إلى القدمين فيكون كل منهما حلقة واسعة النطاق لا يبين الحذاء منها ، لأنها تحيط بالقدم والحذاء معاً .

واستطاع مستر سيمونس آخر الأمر أن يلتزم ما تحتاجه حلته الجديدة من أوضاع مخصوصة ، كان أولها ألا ينحنى أبداً حتى لا تصعد الجاكتة وتتجمع كلها عند خاصرته ، وألا يجلس إلا مادّاً ساقيه ، وإذا تلفّت فنى تؤدة وهدوء .

اعتاد هذه المضايقات التى يسببها له ارتداء هذه الحلة ، ولكنه لم يتعود بعدُ تلك النكات القارصة التى كان جيرانه من أصحاب الحوانيت يقذفونه بها كلما ذهب إلى حانوته أو آب منه .

كانت هذه النكات تتجدد وتتطور ، وتنتقل من لسان إلى لسان ، حتى لقد سمع بعض الصبية يوماً يرددونها .

وكأنما اقتنعت مسز سيمونس بالنجاح الذى أصابته ، فاستمرت فى خياطة ملابس زوجها ، وكان عودجها فى كل حُلة جديدة الحلة التى سبقتها . . . حتى أصبحت العيوب السابقة قواعد جديدة يبنى عليها تصميم الرداء الجديد ، وحتى أصبح الحكم على ما يرتديه مستر سيمونس وتحديد نوعه ، أهو بدلة ، أم جلباب ، أم لباس تنكرى ، ضربا من ضروب التخمين والحدس . . .

وما كان لمستر سيمونس أن يتضجر أو ينتقد ، وهو يذكر أنه جرؤ مرة على أن يطلب إليها الرفق بصحتها والإشفاق على حياتها ، وترك مهمة تفصيل ملابسه وخياطتها إلى أحد أصحاب الحوانيت ، فما كان منها إلا أن ثارت ثورة جامحة ختمتها بكلمة أماتت انتقاده واقتراحه إلى أحلام بعيدة التحقيق .

— أتريد أن تلق بالنقود إلى هؤلاء الخياطين الجبناء اللصوص ، بينما أشقى أنا لكى أوفر بنساً واحداً ؟ يا لك من أنانى . ألا ترى أنى بدأت أشعر بالإسراف الذى ترتكبه من جراء ذهابك إلى الحلاق حتى إنى أفكر فى أن أحلق لك رأسك بنفسى ؟ . . .

. . . وكان من فضائل مسز سيمونس صدق العزمة والحزم ، فلم تمض أيام حتى شاهد أهل الحى مستر سيمونس برأس غريب الرسم يخالف نظام الشعر فيه كل ما يعرفه الناس من أنواع الحلاقة ، واستطاعت قبعته الضيقة آخر الأمر أن تصل إلى أذنيه وتحتويهما فى غير مشقة ولا عناء .

* * *

ظل حال الزوجين السعيدين على هذا المنوال إلى أن كان يوم سبت ، فخرجت مسز سيمونس لشراء بعض حاجاتها ، وجلس الزوج السعيد فى المنزل لكى ينظف أدوات الشاى ، حتى إذا ما أتم عمله جلس يفكر ويجيل بصره فى أنحاء الغرفة حتى وقعت عيناه على البدلة الجديدة التى أعدتها له الزوجة أخيراً ، والتى سيلبسها صباح الغد .

كان السروال قصير الساقين ، طويل الوسط . أما الجاكتة فقد بعث منظرها فى نفسه ثورة غضب هائلة ، وقفزت إلى رأسه خواطر شريرة تهمس فى عنف : « ألق بهذه البدلة فى الطريق ، فى الوحل ! إن مكانها سلة الأقذار لا جسمك أيها المسكين . أى ضحك سيثيره منظرك بها غداً ؟ » . .

ولكن سيمونس الطيب القلب طرد هذه الخواطر من رأسه بقسوة وسد أذنيه من سماع هذا الهمس ، وأسرع نحو أدوات الشاى يعيد تنظيفها ، حتى إذا غسلها المرة الثانية عاد مرة أخرى ليلقى نظرة على البدلة ، ولكن باب المنزل لم يمهله فقد دق دقاً عنيفاً فأسرع ليرى ما الخبر .

— هل هذا منزل مسز فورد ؟ وهل هى هنا ؟

وأجاب سيمونس :

— هذا منزل مسز سيمونس وهى فى الخارج .

— مسز سيمونس أقصد . مسز فورد سابقاً ، دعنى أدخل أولاً ثم أشرح لك .

فتح سيمونس الباب لهذا القادم الغريب ، وهو رجل رث الهيئة يلبس قبعة بالية ويضع إحدى يديه فى جيب سروال باهت اللون قد تناثرت عليه شتى البقع .

وصعد الرجلان السلم الخشبى حتى إذا ما بلغا منتصف الردهة ألقى هذا القادم رماد لفافته فى إهمال إلى الأرض وهنا صاح سيمونس فى فزع :

— سيدى . بربك لا تلق بالرماد هكذا على البساط . ماذا تقول زوجتى لو رأت ذلك ؟

وحانت من سيمونس نظرة إلى قدمى هذا الزائر فاتسعت حدقتاه وصاح به :

— بالله ! كيف صعدت ياسيدي متنقلاً حذاءك .
ثم أخيراً ... من أنت . ولم أتيت ؟ .

وأجاب الرجل في هدوء :

— أتيت لرؤية زوجتي . أنا أبوبل فورد زوجها .. متى تعود ؟

— تقول زوجتك ؟ إنها زوجتي أنا .. تومي سيمونس ، وزوجها السابق قد غرق .

.... كان الرجل ينظر إلى الغرفة المقابلة إذ ذاك في دهشة واستغراب ، فلم يعن بما قاله سيمونس بل سار في خطى ثقيلة نحو هذه الغرفة ، وتبعه سيمونس وقد عادت في هذه اللحظة إلى رأسه ذكريات حياته من عهد زواجه إلى اليوم . وإلى جانب هذه الذكريات مرت على ذاكرته صور شتى له وهو مرتد الحلل الأنيقة التي كانت تخيطها له مسز سيمونس ، وصور أخرى يظهر فيها رأسه وقد حلقته يدها بالمناظر الغريبة التي تتخللها الخروج كأنها واحات سوداء في وسط صحراء جرداء ..

وكان آخر ما عاد إلى مخيلته تلك الخواطر الشريرة الثائرة التي كانت تهمس في أذنيه بأن يلقي بالبذلة الجديدة إلى عرض الطريق ... وتصور أخيراً أن هذا الرجل — مستر فورد — يريد أن يغتصب زوجته ، ومعنى ذلك أن يلبس هذه البذلة الجديدة بدلا منه ، وتلعب يد مسز سيمونس برأسه ..

وفجأة صاح فورد :

— اسمع ياسيدي . لا داعي للحزن والتفكير . لن أفرق بينك وبين زوجتك ، يخيل إلي أنكما سعيدان ، فلا معنى لأن أنغص عليكما هذه السعادة . إنني على استعداد لأن أختفي ثانيا وأترككما ، على أن تدفع لي خمسة جنيهات .

... ولما لم يكن مع سيمونس خمسة جنيهات ولا خمسة بنسات ، وكانت الخواطر والذكريات تتدافع في رأسه فقد أجاب :

— إن واجبي أنا أن أذهب لأنها زوجتك قبل أن تكون زوجتي ، ثم إنه ليس معي خمسة جنيهات .

— لتكن ثلاثة جنيهات .. أتقبل ؟

— ليس معي ياسيدي . يجب أن أرحل . إن رجولتي تقضي علي بذلك .

— جنيه واحد ؟ أليس معك ؟ (ونظر إلى سيمونس باحتقار ثم دار بعينيه في الغرفة فوقع بصره على ساعة الحائط المعدنية) أليس معك جنيه واحد ؟ حسنا . هذه الساعة يمكن أن أرهنها على جنيه (وتقدم ليخلع الساعة)

كان سيمونس غارقا في تأملاته وذكرياته يرسم في ذهنه صورة مستر فورد خلف زوجته حاملا السلة ، أو منهمكا في غسل الأطباق والنوافذ ، أو سائراً في الطريق لابسا أحد الأكياس الفاخرة التي تصنعها يد الزوجة الوفية . والتفت فجأة فوجد الرجل قد تأبط الساعة فصاح به :

— لا .. لا ياسيدي . لا أستطيع أن أعيش مع زوجتي وأنا أعلم أن زوجها موجود ...

.. ولم يتم جملته حتى دق الباب فصاح في فزع :

— أعد الساعة مكانها . إنها هي !! وعدا نحو السلم يهبط درجاته في سرعة زائدة ، في حين قفز فورد من النافذة ، إلى السطح المجاور حاملاً الساعة .

والتقى سيمونس بزوجته عند آخر السلم ، فصاحت به في غضب :

— لم تنزل بهذه السرعة . وبغير قبعتك ؟ يا للعار !!

ولكنه اندفع نحو الباب صائحاً :

— لاشيء .. لاشيء .. يوجد شخص بانتظارك في الغرفة . اصعدي إليه . أسرعي ...

وعدا سيمونس في الشارع ... وترك الحي كله ، ولم يعد ثانيا .

ولا يزال أهل الحي ، كلما ذكروا حادث هروب سيمونس من زوجته بعد أن سرق الساعة ، يرثون لمثل هذه الزوجة الوفية ، ويسخطون على مثل هذا الزوج الغادر !!

صلاح الدين ذهني

فتح مغلقـــات

للأب أنستاس ماري الكرملي

والآن لننتقل إلى لفظ عامي ، والناس يظنون أنه لا فائدة في تحقيق معناه . وهو الكلمة المشهورة على جميع الألسنة :

٤ — الجَلاَبِيَّــة

الجلابية ، ما أدراك ما الجلابية ؟ هي كلمة منسوبة إلى الجلاّب ، كشداد . وليست أبداً تصحيف الجلباب . ولقد رأيت كثيرين من كتاب هذا القطر المبارك يستنكفون من كتابة (الجلابية) فيكتبون (الجلباب) في مكانها ، ورأيت آخرين لا يتنازلون إلى الإشارة إلى الجلابية ، ولو بحصرها بين هلالين ، اعتقاداً منهم أن تلك الكلمة عامية ولا يحسن بكاتب فصيح أن يشير إليها ولو من طرف خفي .

على أنهم لو علموا أنهم مخطئون لما أقدموا على مثل إنكار صحة هذه الكلمة ، التي تدل على تاريخ جليل ، لا نرى مثل أثرها في سائر المفردات المستعملة في لساننا .

والجلباب غير الجلابية . فالجلباب على ما جاء في القاموس : « كسِرداب وسِنِمّار : القميص ، وثوب واسع للمرأة دون الملحفة ، أو ما تغطي به ثيابها من فوق كالملحفة ، أو هو الخمار ، وجلببه فتجلبب » اهـ . وفي لسان العرب ، كلام أطول وقع في أكثر من صفحة . على أن مجمل معناه لا يخرج كثيراً عما ذكره الفيروزابادي .

أما الجلابيّة ، فأصل معناها ثوب واسع كأنه خريطة كبيرة يشق من جهة الصدر ، ليدخل اللابس رأسه منه وما بقي منه يستر بدنه كله ، رجلا كان أو امرأة ، لأن الغاية ستر الجسم من العنق إلى الكعب . وهو منسوب إلى الجَلاّب . والجَلاّب هو الذي يجلب العبيد أو الأسرى أو المماليك من بلاد إلى بلاد أخرى للتجارة .

ويسميه بعضهم (النخاس) ، لأن هذا الجلاب ينخسهم قسراً ، وكثيراً ما ينخسهم بمنخاس يكون في يده ، وهو عود دقيق الرأس ، أو ما يشبه ذلك العود ، إذ قد يكون من المعدن كالحديد أو النحاس . وذكر اللغويون الأقدمون (النخّاس) بمعنى بيّاع الدواب ، أو الرقيق ، ولكنهم لم يذكروا مرادفه الجلاّب ، فإن هذه اللفظة أعلى معنى من تلك ، ولا تدل على التحقير كالنخاس ، بل على الجلب ، وهو أهون شراً من النخس .

وكثيراً ما كان النخاسون والجلابون يكتفون بأن يلقوا على العبيد أو الاماء مئزراً لا غير ، إذ لا يكلفهم إلا الثمن الزهيد ، بخلاف الثوب الذي يستر البدن كله ، فإنه يكلفهم نفقة أعظم .

قال ابن أبي مخرمة صاحب كتاب (تاريخ ثغر عدن) المتوفى سنة ٩٤٧ في باب صفة بيع الجواري ما هذا نصه :

« تبخر الجارية ، وتطيّب ، وتعدل ، ويشد وسطها بمئزر ، ويأخذ المنادي بيدها ، ويدور بها في السوق ، وينادي عليها ، ويحضر التجار الفجّار يقلبون يدها ، ورجلها ، وساقها ، وصدرها ، ونهدها ، ويقلب ظهرها ، ويقلب لسانها ، وشعرها ، وإن كان عليها ثياب خلعها ، وقلب ، وأبصر . . . » الخ .

فهذا كلام يدل على أن هؤلاء العبيد والاماء كانوا في أغلب الأحيان بلا مئزر ، وعند البيع يؤزّرون ، وقد يبقون بلا مئزر ، ولهذا قال الكاتب وهو من أهل عدن نشأة وولادة ووفاة ، وكان يرى بعينيه كيف كان يجري بيع الاماء : « وإن » كان عليها ثياب خلعها .

فالجلابية إذاً هي أبسط ثوب يكون ، يلبسه العبد أو الأمة ، لكي يستر ما يجب ستره في الشرع المحمدي .

وقد قرأت لأحد الأدباء القبط في (المنار المصرية) مقالة يدّعي فيها صاحبها ادعاآت فارغة . ومن جملة ما ورد فيها أن (الجلابية) من القبطية Kolabion . في الوقت الذي تنادي فيه منادلة المؤذن ، بل أعلى من صوته : « إنها عربية

محضة ولا حق لأحد أن ينتحلها لملته » .

ولما رأى أبناء المدن أن لبس الجلاية خفيف في الصيف ، اتخذوها في منازلهم ، ثم لم يروا بأساً في اتخاذها خارجاً عن مساكنهم . على أن بعضهم تأنقوا في تفصيلها وخياطتها ، فصار في البلد نوعان من الجلابية : جلابية عربية وجلابية أفرنجية . فلهذه طوق يطوق بالرقبة ، وليس لتلك زيق أو تلبيب ، حرصاً على إبقاء الشيء على حالته الأولى .

أما العراقيون فلم يتخذوا هذا الاسم لما يلبسه المدنيون . بل سموه (الدَّشْداشَة) وزان زصراصة بدال فشين معجمة فدال فألف فشين ثانية معجمة أيضاً ، وبهاء في الآخر ؛ لما في أصل معنى الجلابية من الذل والمهانة والرق .

على أني سمعت أحد الأدباء يقول لي : إن أصل لفظ الجلابية بالضم ، منسوب إلى الجُلّاب ، وهو ماء الورد يشربه الناس في أيام الصيف لبرودته . فالجلابية تلبس لبرودتها في الصيف . فالجامع بين اللفظين البرودة والرطوبة لا غير ، ألم يأت في سورة النحل : « فأذاقهم الله لباس الجوع » ، أي لما بلغ بهم الجوع الغاية ، ضرب لهم اللباس مثلاً ، لاشتماله عليهم ، كما يشتمل اللباس ، وهي استعارة بالكناية . والجامع بين المعنيين مجرد الاشتمال لا غير .

فقلت له : يا سيدي . الكلمة (جلابية) بفتح الجيم وتأويل اللفظ بأقرب معنى للذهن ، أولى من أن يتكلف له معنى لا يأتيك إلا بجرّ و إليك بالحبال المتان ، وقلوس السفن العظام . ومع كل ذلك فاختر أنت ما أنت مخير فيه .

قلنا : ولنا شيء كثير في هذا الباب ، وهو موضوع طريف طلي ، وموعدنا المستقبل من الأيام .

الأب أنستاس ماري الكرملي

من مجمع فؤاد الأول للغة العربية

من أحسن ما يروى
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

أبو العلاء المعرى

عاش في القرنين الرابع والخامس عصراً ، وفي جميع القرون فلسفة وشعراً ؛ ويظلم أبا العلاء من حدد تاريخه بالمولد والوفاة ، وهو بروحه ومذهبه يعيش بيننا في هذه الحياة ؛ وكيف يظن بمن يفيض الحياة على غيره ، أنه ذهب بذهاب عصره ؟!

شغل العلماء والأدباء مدى ألف سنة بالبحث في نواحيه المختلفة : بين متدين يقصر بحثه على إيمانه أو كفره ، ولغوى يبذل جهده في تفسير الغريب من رسائله وشعره ، وفيلسوف يعنى بتحقيق فلسفته والنظر في مذهبه ، وكاتب أديب يتخيل في شأنه ما اتسع له الخيال ، ومُراعٍ لمزاج الجمهور رأى أن يختصر من رسائله ما أطال ، وآخر لا رأى له يقصر عمله على جمع ما قاله العلماء فيه ، له أو عليه .

ولم يفرغ كل هؤلاء بعدُ ولن يفرغوا من البحث في تلك النواحي المتسعة الخصيبة التي تستنفد جهود الكتاب والباحثين ، مع قلة ما ظهر بيننا من كتبه الكثيرة ، وما يدرينا ؟ لعله لو ظهر من كتبه أكثر مما بين أيدينا ، لانكشفت لنا نواحٍ أخرى من نواحيه يتسع فيها الكلام وتجول فيها الأقلام .

ولم أجد بين هؤلاء جميعاً ذا فن قد اتجه ببحثه إلى منزلة أبي العلاء الفنية ، وتصدى للكلام على شاعريته والخواص التي تميز شعره عن شعر معاصريه ، والمآخذ التي يؤاخذ بها في فنه ؛ فرأيت أن أتحدث عنه من تلك الناحية التي تعنينا في هذه الأحاديث دون غيرها من نواحيه .

وأهم ما يتضح لك من مزايا شعره كثرة التوليد في معانيه ، فلا ترى له معنى عقيما البتة ، ولا تراه يكتفي بأن يخرج من المعنى الواحد معنى واحداً يتصل به ، بل يقول المعنى ويتسع فيه إلى أبعد غاية ، ولا يقنع حتى يخرج منه عدة معان أخرى تتصل بالمعنى الأول اتصالا قويا أو ضعيفاً ، ثم تتوالد تلك المعاني كذلك في القصيدة حتى يتمها .

وقوة ذهنه على التوليد في المعاني وخلقها وابتكار الجديد منها لا يشبهه فيها شاعر في عصر من عصور الشعر غير ابن الرومي ؛ فكلا الشاعرين يغترف من ذهن فياض بعيد الغور ، لا فرق بينهما إلا أن ابن الرومي يولد من المعاني ما هو توضيح للمعنى الأصلي ، أو برهان عليه ، أو تطويل فيه ، ولا يزال في هذا البسط والتطويل حتى يستوفي المعنى من جميع نواحيه ، ويدرك كنه مراده أقل الناس فهماً وأضيقهم ثقافة ؛ فالصلة بين معانيه تكاد تكون صلة منطقية ، ومعانيه الفرعية تؤدى إلى المعنى الأصلي من أقرب الطرق وأوضحها .

وليس كذلك أبو العلاء في توليده ؛ فالصلة بين معانيه الفرعية والمعنى الأصلي صلة ضعيفة في أكثر المواطن ، فقد تكون تلك الصلة لفظية ، وقد تكون معنوية بطرف يسير وسبب واه يصل بين المعنيين ؛ فمعانيه الفرعية تؤدى إلى معانيه الأصلية من أبعد الطرق ؛ ويكاد كل معنى يكون جديداً بالنسبة إلى ما يجاوره .

كما يمتاز شعره أيضاً بغزارة العلم وسعة الفكر وقوة الجهد ووفور العناية بتهذيبه وإشاعة الروعة في جميع أجزائه .

ولا أعلم من الشعراء قبله ولا بعده من يدانيه في

الأمرين الأولين ووضوحهما كل الوضوح في شعره ؛ أريد غزارة العلم وسعة التفكير ، حتى إنك لتستطيع تمييز شعره من شعر غيره — ولو لم يكن لديك علم سابق بأنه من شعره — بوضوح هذين الأمرين فيه ؛ فتراه يكثر من الألفاظ الغريبة ويضعها في شعره أحسن وضع ، ويستعملها في معانيها أدق استعمال ؛ ويكثر من الإشارة إلى أيام العرب ووقائعهم ومزاعمهم في جاهليتهم ، وما عرف من أخلاقهم وعاداتهم ، وما اشتهر من أمثالهم وأشعارهم ، وما إلى ذلك مما يتصل بهم .

ومن مميزاته أيضاً ظهور شخصيته واضحة جلية في جميع أبواب شعره ، فإنك تستطيع أن تستجلي في كل جزء من أجزائه ناحية من نفسه ممثلة تمثيلا دقيقاً واضحاً .

ومن اليسير عليك أن تكتب عن نفسيته مجلداً ضخما بالرجوع إلى شعره وحده ، دون أقوال المؤرخين فيه ، حتى مدائحه ومراثيه إذا قرأتهما استطعت أن تستبين صفاته مما ينسبه إلى الممدوح من صفات المدح والثناء .

ولا تحس في مدائحه أثر الاستجداء بممدوحه والحاجة إلى أياديه ، ولا ظلاً من سيادة الممدوح على المادح وتبعيّة المادح للممدوح كما تراه في مدائح غيره .

وتحسه في بعض شعره يرتفع عن مستوى البشر ، وينصب نفسه للحكومة بين الناس كافة ، أمماً وأفراداً ، فاصلاً في جميع الخصومات ، دقيقها وجليلها .

وما رأيت قاضياً رضي بقضائه كلا الخصمين مثله ، كما أني لم أر غيره مفكراً لم يرض في تفكيره من أحد ، على حين قد رضي عنه وعن تفكيره كل أحد ، ويتمثل بشعره من أرضاهم وأغضبهم على السواء .

تلك نبذة يسيرة عن بعض المميزات الكثيرة التي يمتاز بها هذا الشاعر الفذ ، وسنستوفي الحديث عن بقيتها في مقالات أخر إن شاء الله .

وهو أحمد بن عبدالله بن سليمان ، ينتهي نسبه إلى قضاعة ، كان متضلعاً من علوم اللغة وفنون الأدب ، وعنه أخذ كثير من مشهوري العلماء والأدباء ؛ وكانت ولادته سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، ووفاته سنة تسع وأربعين وأربعمائة .

وقد سبق أن رويت له في بعض أجزاء الثقافة مقطوعة قالها وهو في بغداد يتشوق إلى وطنه معرة النعمان وأفضت في الحديث عما اشتملت عليه تلك المقطوعة من جمال وروعة وتصوير دقيق للعاطفة .

وتلك مقطوعة أخرى في هذا الغرض نفسه لا تقل عن سابقتها جمالا وسحراً ، وهي من عيون الشعر العاطفي تقرؤها فتطلع منها على ما يملأ قلب الشاعر من حب للوطن وحنين إليه وألم مبرح من الغربة ، فلا يسعك إلا أن تشارك الشاعر في عاطفته وعقله ، فلبك بالحنين والألم وإن لم تفارق وطنك ولم تذق غربة عنه .

وهذا من أقوى الدلائل على قوة الفن والعاطفة في شعر الشاعر ، إذ يجعل قارئه مثله في العاطفة وإن لم يماثله في أسبابها .

وقد كنت أود أن أتحدث عن هذه المقطوعة طويلا ، غير أني وجدت أن مثل هذا الشعر يحدثك عن نفسه حين تقرؤه أبلغ مما يتحدث عنه كاتب مهما أوتي من قوة البلاغة والبيان . قال :

مَعَانِي الْهَوَى مِنْ شَخْصِكِ اليَوْمَ أَطْلَالُ
وَفِي النَّوْمِ مَغْنًى مِنْ خَيَالِكِ مِحْلَالُ(١)
وَأَبْغَضْتُ فِيكِ النَّخْلَ وَالنَّخْلُ يَانِعٌ
وَأَعْجَبَنِي مِنْ حُبِّكِ الطَّلْحُ وَالضَّالُ(٢)
حَمَلْتِ مِنَ الشَّامَيْنِ أَطْيَبَ جُرْعَةٍ
وَأَنْزَرَهَا وَالقَوْمُ بِالقَفْرِ ضُلَّالُ(٣)

(١) محلال : مغنى محلال ، أي منزل كثير الحلول به .

(٢) كنى بالنخل عن الحضر ، لأن النخل من أشجاره ؛ والطلح والضال عن البادية لأنهما من شجرها . وقد سبق تفسير الطلح والضال في القصيدة السابقة التي اخترتها لأبي العلاء . يقول : إنه أبغض الحضر لأن محبوبته لا تحل به وأحب البادية لأنها منزلها .

(٣) يقول : إن خيال محبوبته قد أهدى له في النوم جرعة يسيرة باطرة من ريقها قد حملها من الشامين ، أي الشام والجزيرة .

كأنَّ الخزامى جمَّعتْ لكِ حلَّةً
عليكِ بها في اللونِ والطيبِ سِرْبالُ (١)

فيا دارَها بالحَزْنِ إنَّ مزارَها
قريبٌ ولكنْ دونَ ذلكَ أهوالُ (٢)

تُسيءُ بنا يَقْظى وأمَّا إذا سَرَتْ
رُقادًا فإحســانٌ إلينا وإجمالُ

وغنَّتْ لنا في دارِ سابورَ قَيْنةٌ
من الوُرْقِ مِطْرابُ الأصائلِ مِثْهالُ (٣)

رأتْ زَهَرًا غضًّا فهاجتْ بمِزْهَرٍ
مثانيهِ أحشــاءٌ لَطُفْنَ وأوْصالُ (٤)

فقلتُ تغنَّيْ كيفَ شئتِ فإنَّما
غِناؤكِ عنـــدي يا حمامةُ إعْوالُ

وتحسُدُكِ البيضُ الحَوالِي قِلادةً
بجيدِكِ فيها من شَذا المِسْكِ تِمْثالُ (٥)

فليتَ ما تدرِي الحمائمُ بالضحَى
أأطواقُ حُسْنٍ تلكَ أمْ هنَّ أغلالُ

تمنَّيتُ أنَّ الخمرَ حلَّتْ لنَشْوةٍ
تُجهِّلُني كيفَ اطمأنَّتْ بيَ الحالُ

فأذْهَلَ أنِّي بالعـــراقِ على شَفًا
رَدِيُّ الأماني لا أنيسٌ ولا مالُ (١)

مُقِلٌّ من الأهلَيْنِ : يُسْرٍ وأُسْرةٍ
كفى حَزَنًا بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلالُ

طويتُ الصِّبا طيَّ السِّجِلِّ وزارَني
زمانٌ لهُ بالشيبِ حُكْمٌ وإسجالُ

متى سألتْ بغـدادُ عنِّي وأهلُها
فإنِّي عنْ أهلِ العواصمِ سآلُ (٢)

إذا حنَّ ليلي حنَّ لُبِّي وزادَهُ
خُفوقُ فؤادي كلَّما خَفَقَ الآلُ

وماءُ بلادي كانَ أنجعَ مَشْرَبًا
ولوْ أنَّ ماءَ الكَرْخِ صَهْباءُ جِرْيالُ (٣)

فيا وطنِي إنْ فاتَنِي بكَ سابقٌ
منَ الدهرِ فلْيَنْعَمْ لساكِنِكَ البالُ

فإنْ أستطِعْ في الحشرِ آتِكَ زائرًا
وهيهاتَ ، لي يومَ القيامةِ أشغالُ

وكمْ ماجدٍ في سِيفِ دِجلةَ لمْ أَشِمْ
لهُ بارقًا والمرءُ كالمُزْنِ هطَّالُ (٤)

سيطلُبُنِي رزْقِي الذي لوْ طلبتُهُ
لَما زادَ ، والدنيا حُظوظٌ وإقبالُ

أحمد الزين

(١) الخزامى : زهر طيب الرائحة ، وهو خيرى البر .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع . ويشير بالأهوال إلى ما يحيط ببيت محبوبته من الحراس والرقباء .

(٣) يريد بدار سابور بلاد الفرس ، وسابور من ملوكهم ، ويريد بالقينة من الورق : الحمامة . شبّهها بالقينة . والورقاء من الحمام التي يميل لونها إلى الخضرة . ومثهال ، أي أن هذه الحمامة في أهل من حمائم تماثلها .

(٤) المزهر : العود ، شبّه به صوت الحمامة . ويريد بالمثاني : الأوتار ، شبّه بها مخارج صوتها .

(٥) يريد بالقلادة طوق الحمامة ، شبهه بالمسك في سواده ، ويشير إلى أن هـذا الطوق أنفس مما تتحلى به الغواني حتى إنهن يحسدن تلك الحمامة عليه ويتمنين لو كانت تلك القلادة لهن .

(١) على شفا ، أي مشرف على الهلاك . وردىّ الأماني ، أي ضعيفها .

(٢) يريد بالعواصم وطنه .

(٣) الجريال : الخمر .

(٤) سيف دجلة : شاطئها . لم أشم له بارقا ، أي لم أترقب جوده ولم أنتظر نداه . يشير إلى عفته عما في يد الناس وإن كانوا كرماء على ما به من الخاصة .

أنباء وآراء

حول جناية الأدب الجاهلي

أتتنا مقالات عدة من مختلف الأقطار العربية، بعضها في مناقشة الفكرة تأييداً أو رداً، فاخترنا منها ما يصلح للنشر ونشرنا بعضها، وسننشر باقيها.

وبعضها في سب ناشر مقالات «الرسالة» والتعريض بصاحب المجلة وتحليل الأسباب الداعية إلى ذلك، ولهؤلاء نعتذر من مقالاتهم، لأن «الثقافة» لم تنشأ لسب أو مهاترة، وإنما أنشئت لعرض الأفكار وتمحيصها وتحقيقها، وتناول الآراء لا الأشخاص — بالنقد النزيه المؤدب — قد عاهدت قراءها على ذلك يوم خرجت إلى الوجود، وهي مستمسكة بعهدها سائرة في طريقها؛ ورحم الله معبد بن علقمة إذ يقول:

قل لزهير إن شتمت سراتنا
فلسنا بشتامين للمتشتم
ولكننا نأبى الظلام ونعتصي
بكل رقيق الشفرتين مصمم
وتجهل أيدينا ويحلم رأينا
ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

(الثقافة)

نادي القلم العراقي

أصدر نادي القلم العراقي المجموعة الأولى للمحاضرات التي ألقاها أعضاؤه خلال عام ١٩٣٨ في شتى المواضيع، من علم وأدب وفلسفة واقتصاد، ويبلغ عدد هذه المحاضرات الاثني عشرة محاضرة، قد صدرت بمقدمة عن تأسيس نادي القلم العراقي، وكلمة في رثاء المغفور له الأستاذ جميل صدقي الزهاوي.

وقد تأسس نادي القلم العراقي منذ أكثر من ثلاثة أعوام، وكان أول رئيس له المغفور له الزهاوي، ثم خلفه رئيسه الحالي معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي الشاعر الذي يعرفه قراء الثقافة، وهو يضم كثيراً من أعلام الثقافة في العراق من أمثال الدكتور محمد فاضل الجمالي، والأستاذ عبد الكريم الأزري، والدكتور متى عقراوي.

وقد مثل هذا النادي في المؤتمر الأخير لنوادي القلم الأستاذ عبد الحميد خدوري، فحضر جلساته في بوينس إيرس وقدم تقريراً مستوفياً عن أعمال نوادي القلم نشر بهذه المجموعة.

الشعر الحديث

شكا أحد الكتاب الانجليز من أن العصر الحديث خلو من الشعر الذي يستحق تمام الخلو، وعلل ذلك بانصراف الشعراء إلى أنفسهم وبتفاهة العصر الذي نعيش فيه من الوجهة الروحية.



وقد ضرب الكاتب مثلا للأحداث التي هزت نفوس الشعراء فسجلوها أصدق تسجيل، العصر الذي عاش فيه ميلتون والعصر الذي فيه وردزوورث فقال: إن أحداث سويسرا وحركتها للدفاع عن حريتها قد أثرت في نفس هذا الأخير تأثيراً ظهر في كثير من

مقطوعاته، حتى إن القارئ ليستطيع أن يقرأ هذه المقطوعات ويتناسى أنها قيلت في سويسرا، فيتصور أنه يقرأ شعراً بالغاً حد التأثير في النفس، عن حالة أوربا اليوم، إذا وضع بدلاً من سويسرا النمسا أو تشيكوسلوفاكيا أو الحبشة .

ويرى الكاتب أن الشعر الحديث لن يقدر له البقاء، إلا إذا تناول هذه الأحداث التي اهتز لها العالم كله والتي تشغل وحدها أذهان الجماهير، لأن النفس تتوقع دائماً من الشعر أن يمس أدق عواطفها ويعبر عن أصدق إحساساتها، فإذا تأخر الشعر عن أداء هذه الرسالة فإنه يظل بعيداً عن ذوق الجماهير من القراء .

سير هيو والبول يرحب بالحرب

أبدى السير هيو والبول رأيه في موقف العالم اليوم، فقال: إنه لا يفزع من الحرب، بل يعتقد أنها سوف تؤدي بالبشرية إلى العودة إلى حظيرة الإيمان التي فرت منها يوماً ما



سير هيو والبول

فبدأت مع هذا اليوم متاعبها وآلامها، فإذا كانت الحرب ستفعل ذلك فلا ضير في أن يموت الملايين، ويجرح الملايين في سبيل سعادة الأجيال المقبلة، ولأن ما يعانيه العالم اليوم لا يقل عن الحرب هولاً وفظاعة .

وهو يرى أن أشد ما آذى الانسانية وأساء إليها هو أنها حين اندفعت في أحضان المادة، لم يجد — لسوء الحظ — من يوقفها عند الحد المعقول في هذا الاندفاع؛ حتى رجال الدين أنفسهم وهم أجدر الناس بهذا الواجب انساقوا أيضاً في هذا السبيل وأصبح من المتعذر، بل من الخطأ أن يظن أنهم يملكون من شئون الانسانية شيئاً .

والحل الوحيد، إذا قدر للعالم أن يتجنب الحرب القريبة الوقوع، هو أن تقوم حرب أخرى في سبيل إصلاح العالم، يكون أول عمل لها القضاء على فكرة التعصب للقوميات وعلاقة الكراهية التي تسود الشعوب، والتي منشأها الأفكار الخاطئة التي نادى بها أمثال دانزيو، وجلوها بتعبيرات خلابة «كالأنانية المقدسة» و «القومية» وغير ذلك من تعبيرات لو وضعت في ألفاظها الحقيقية لما خرجت عن لفظين هما «الهمجية المهذبة». ويختم سير والبول رأيه بأن دانزيو الذي اندفع في مثل هذه الأفكار نتيجة لظروف سيئة، لو عاش إلى اليوم ورأى كيف أصبحت الدول كوحوش الأدغال يأكل قويها ضعيفها لتراجع عن آرائه في ندم وحسرة .



جبريل دانزيو

لسان الفاشية

كتبت إحدى المجلات الأوربية تصف السنيور جايدا محرر جريدة «الجورنال ديتاليا» الفاشية وفم موسوليني الذي تخرج منه كل أفكاره وكل ما يجب أن يعلن للناس .

ومع أن السنيور فرجينيو جايدا لا يشغل أي منصب في الحكومة الفاشية، فهو يعد الدعامة الثالثة للحكم الفاشي بعد موسوليني وشيانو؛ فهو يقوم في الحكم

الفاشى عما يقوم به جوبلز وروزنبرج معاً من الدعاية فى الداخل والخارج ، فهو يكتب ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠٠ كلمة فى العام موزعة بين جريدة « الجورنال ديتاليا » وباقى الصحف والمجلات التى تناصر الفاشية . وتترجم مقالاته إلى كل لغات العالم ، وتعتبر كتصريحات رسمية عن نيات موسولينى ، ولا يقل اهتمام السياسيين فى العالم عما يكتب عن اهتمامهم بخطب هتلر وموسولينى .



ولا يقتصر عمل السنيور جايدا على التحرير فى الصحف ، فهو يصدر سنويا ما لا يقل عن كتابين ، ويذيع بالراديو مرتين فى الأسبوع . ومع أنه لا يلقى موسولينى أكثر من خمس مرات فى العام ، فإنه فعلاً لسانه الناطق . إذ أنه يتلقى كل رغبات موسولينى عن طريق الكونت شيانو الذى يقابله تقريباً كل يوم .

قصص سوفوكليس

كان المسيو جريبارس أحد الكتاب الإغريق المعاصرين قد ترجم بعض الروايات الإغريقية القديمة إلى اللغة اليونانية الحديثة . ومن بين هذه الروايات قصة « إليكترا » التى وضعها الشاعر العظيم سوفوكليس .

وقد عرضت هذه القصة أخيراً بانجلترا حيث قام بتمثيلها أفراد فرقة المسرح اليونانى الملكى ، فبلغ عدد من شهدوها من اليونانيين المقيمين فى انجلترا ١٠٠٠٠ شخص .



إليكترا كما مثلتها كاتينو باكسينو

وقصة إليكترا هى إحدى قصص الإلياذة التى تعرض لها أغلب الشعراء الإغريق ؛ فصاغها اسخيلوس ويوربيدز وسوفوكليس . وقد قام بترجمتها الدكتور طه حسين بك ، وسوف تظهر ضمن المجموعة التى يصدرها قريباً حاوية لبعض المسرحيات الإغريقية التى عربها . . .

حريق لندن الكبير

فى السابع والعشرين من شهر يونيه الماضى شب فى مدينة لندن حريق كبير قيل عنه إنه أخطر حريق شب فيها منذ أربعين عاما ، وقد ظل رجال المطافئ يغالبون لهيب النار وهو يغالبهم زمناً طويلا حتى دمر البناء الذى شب فيه عن آخره .

هذا الحريق الهائل يذكرنا بحريق أشد منه شب فى تلك المدينة نفسها فى عام ١٦٦٦ ، ففى تلك السنة امتدت النار من تنور خباز فى المدينة وساعدتها الرياح الشرقية القوية فالتهمت المنازل الخشبية التى كان يتكون منها جزء كبير من مدينة لندن فى ذلك الوقت ، وظلت النار مشتعلة فيها عدة أيام ، وظل شررها يتطاير من حى إلى حى تدفعه الريح ويساعده ضيق شوارع المدينة فى ذلك الوقت ، حتى وصلت إلى شاطئ نهر التاميز ولم تنج منها كنيسة القديس بولس نفسها .

ولكن هذا البلاء العظيم قد أنتج أيضاً خيراً عظيما ، فقد فشا فى لندن فى العام الذى قبله طاعون خبيث أودى بحياة عدد عظيم من أهلها ، ولم تفلح كل الجهود التى بذلت فى ذلك الوقت فى القضاء عليه ، لسوء الحالة الصحية فى تلك المدينة العظيمة وقذارة كثير من أحيائها القديمة

لقد كانت تشتمل على أحياء ذات بيوت قذرة وطرق ضيقة ساعدت كلها على انتشار الوباء، حتى قضى على حياة آلاف السكان، وكان الموتى ينقلون جماعات في المركبات العامة وتدفن جثثهم في حفر عميقة أعدت لهذا الغرض خارج المدينة؛ وهجر الأغنياء العاصمة إلى الريف؛ أما الفقراء، فبقوا فيها يحصدهم الموت زمراً زمراً.

ثم شبت النار في العام التالي فدمرت البيوت الخشبية القذرة والأحياء القديمة وقتلت جراثيم الطاعون التي لم تقو على قتلها وسائل الكفاح المعروفة في ذلك الوقت، وقامت في مكان تلك الأكواخ قصور عالية صحية، ونجت لندن من شر بشر مثله. «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون».

في المكتبة العربيـــة

بعث الشعر الجاهلي

حوى هذا الكتاب مجموعة المحاضرات التي ألقاها الأستاذ محمد مهدي البصير من أدباء العراق، من المذياع في بغداد عن بعض الشعراء الجاهليين وعن قيمة الشعر الجاهلي؛ وعدد هذه المحاضرات ثماني محاضرات تتناول على الترتيب: امرأ القيس وزهير بن أبي سلمى ومعلقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة اليشكري وعنترة العبسي، وباقي المحاضرات هي التي تحدث فيها عن الشعر الجاهلي وإثبات صحته. ويقع الكتاب في ١٥١ صفحة من القطع المتوسط. وقد طبع بمطبعة التفيض الأهلية ببغداد.

مباحث عربية

للدكتور بشر فارس وهي مجموعة أبحاث تبدأ بفصل عن المسلمين في فنلندا، يصف فيه رحلته إلى هذا القطر وحياة طائفة من المسلمين يقيمون فيه. أما باقي الفصول فهي دراسات قام بها الأستاذ في تاريخ وتطور بعض التعبيرات العربية، وأهمها بحث عن «مكارم الأخلاق» و «المروءة» وفي «التفرد والتأسك عند العرب».

ويقع الكتاب في ١٥٠ صفحة من القطع الكبير، وقد قامت بنشره مطبعة المعارف.

قدر يلهو

مؤلف هذه القصة هو الدكتور شكيب الجابري أحد الأدباء المعروفين في سوريا ولبنان، الذين جمعوا بين الثقافة العلمية الواسعة والاطلاع الأدبي الوافر، وهي القصة الثانية التي يصدرها هذا العام بعد قصته الأولى «نهم».

ويبدو من القصتين أن الدكتور شكيب الجابري موفق إلى حد كبير في فن القصة. وتدور حوادث قصته الأخيرة في ألمانيا ولبنان، وتقع في ٢٠٠ صفحة تقريباً من القطع الكبير، وقد طبعت بالمطبعة العلمية.

الأزلبان

قصة متخيلة من وضع الأستاذ سليم خياطه من طرابلس الشام، يميزها طابع فلسفي يدل على سعة الاطلاع، وإن كان أسلوبها يميل كثيراً إلى الألفاظ المحلية، ويتخللها كثير من الأغاني أو المقطعات المكتوبة بلغة شعبية محلية. وتقع القصة في حوالي مائتي صفحة. وقد طبعت بمطبعة خياطه بطرابلس.

سبيل المجد أو المهماز الذهبي

هي قصة طويلة للسر آرثر كويلر كوتش أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة كمبردج، وقد قام بترجمتها الأستاذ عبد الرحمن بشناق الأستاذ بجامعة بيت المقدس، وقدم لها الأستاذ الجليل أحمد بك سامح الخالدي بمقدمة طريفة.

وتقع القصة في ٢٠٨ صفحة من القطع المتوسط وقد طبعت بمطبعة بيت المقدس.

فى عالم التأليف

قصص الأستاذ تيمور

« فرعون الصغير ، وقصص أخرى »

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أخرج الأستاذ الجليل محمود تيمور مجموعة قصصه الأخيرة بعنوان « فرعون الصغير ، وقصص أخرى » وإنه ليُشعرنا بالفخر أن نجد بين ظهرانينا أديباً يخرج لنا مجموعة من القصص ، تجمع بين القدرة الفنية والجمال الأدبي ما تجمعه هذه القصص الرائعة !

هذه كلمة إعجاب لم نستطع أن نملكها عند ما انتهينا من قراءة الكتاب ، وهى كلمة لا بد لنا من أن نضعها بين يدى نقدنا ، حتى لا يُلهينا أداء واجب الصدق فى النقد عن أداء واجب الصدق فى الاعجاب والتقدير والترحيب .

ولسنا نريد أن نجعل إعجابنا جزافاً من نوع ما اعتاد الأصدقاء أن يتقارضوه فيما بينهم من التقريظ والمدح ، فان إجلالنا للأستاذ تيمور أعظم من ذلك القدر وأعلى من ذلك المستوى . ولهذا نتناول المواضع التى رأيناها جديرة بالاعجاب فى شىء من الافاضة ، كما نتناول المواضع التى رأيناها جديرة بالنقد فى شىء من التفصيل كذلك .

يمتاز أسلوب الأستاذ تيمور بصفة نظن أنها تميزه عن كل أسلوب قصصى آخر . فالقارئ لا يستطيع أن يميز بين حديثه وقصته . فهو يرسل قلمه إرسالا بغير تكلف ، ويضفى على قصصه من الألوان الطبيعية ما يجعل القارئ فى شك من أمره : أهو يقرأ قصة خيالية أم يقرأ وصفاً لحادثة فعلية وقعت للمؤلف ، أو حدثت تحت سمعه وبصره .

كتب الأستاذ تيمور لكتابه مقدمة جليلة تحدث فيها عن نفسه ، وعن المصادر التى ألهمته الكتابة ، ثم انتقل بعد هذه المقدمة إلى أول قصة من مجموعته . فلولا أن هناك صفحة بيضاء تدل على أن المقدمة قد انتهت ، وأن القصص قد ابتدأ ، لحسب القارئ أن تلك القصة ما هى إلا تكملة لحديث المؤلف فى مقدمته عن بعض الأحداث التى وقعت له وأثرت فى نفسه . هكذا كان أسلوبه القصصى طبيعياً ، وهكذا كانت الصورة التى فى القصة متلائمة مع الصورة التى صورها المؤلف لنفسه فى سياق المقدمة . ولسنا نقدر إلا أن نهنئ الأستاذ تيمور على توفقه الكبير فى عذوبة الأسلوب ووضوحه ، ومرونته الطبيعية وصدق ألوانه ، وجمال ذوقها وتناسقها .

ولكن للقصص التى أخرجها الأستاذ تيمور صفة أخرى تميزها ، وأظن أن جميع قصص الأستاذ تيمور تشترك فى هذه الصفة . وهى أنها قصص ارستقراطية . نقصد بذلك أن نظرة أهم أشخاص تلك القصص هى نظرة طبقة الخاصة من الناس ، تلك الطبقة الميسورة الرزق ، التى تعيش أحياناً عيشة الترف الهادئ ، وأحياناً عيشة المجون ، وأحياناً عيشة السمعة المهذبة المثقفة ، وأحياناً عيشة

السيادة ، وأحياناً هيئة الضعف والخمول ؛ فإذا كانت ألوان القصص حية ناضرة طبيعية ، فإنها من جهة أخرى لا تمثل كل ألوان الحياة المصرية ، بل تمثل ناحية واحدة منها ، وقد لا تكون تلك أهم نواحي الحياة وأجدرها بالفن .

وهذا الموضع أليق المواضع لإثارة مسألة كانت دائماً موضع جدل طويل بين النقاد والأدباء ؛ فالنقاد يصرون على تقسيم الأدباء إلى مدارس ومذاهب . والأدباء يرفضون أن تقيدهم حدود ، أو تستبد بهم أقسام . فهل من الواجب على الناقد أن يحدد المدرسة التي ينتمي إليها الأديب المنقود؟ أو هل من الضروري أن يكون لكل أديب مدرسة ينتمي إليها ؟ أو بقول آخر : هل من الضروري دائماً أن يقول الناقد إن هذا أديب واقعي ، وهذا رمزي ، وهذا مثلي ؟

لقد كانت هذه حيلة قديمة لجأ إليها النقاد لكي يسهل عليهم مؤاخذة الأدباء على مقتضى قواعد ثابتة ومصطلحات متعارف عليها . ولكن الأدباء كانوا دائماً ينفرون من تلك القيود ، ويأبون إلا أن يضعوا أنفسهم فوق مرتبة من يدعون الحق في مؤاخذتهم . وقديماً قال الأديب للناقدين : « علينا أن نقول وعليكم أن تحتجوا بما نقول » وحديثاً قال الأستاذ تيمور في مقدمة كتابه ليقطع الطريق على الناقدين : « أعتقد أن الأديب يجب ألا يقيد نفسه في التأليف بمذهب يتمذهب به ، فالأدب ميدان فسيح على الكاتب أن يمرح فيه طليقاً ، فليرسل روحه على سجيتها ، فما المذاهب الأدبية إلا من صنع النقاد لا من صنع الأدباء ، وضعوها لينظموا بها فهم ، ويخضعوه لقوانين منطقية » .

هكذا قال الأستاذ تيمور في مقدمته لكي يضع ناقده في الميدان الفسيح ، ويقف دونه طليقاً من تلك الحدود التي يحب الناقدون أن يحصروا فيها الأدباء تسهيلا لمهامهم وتوخياً لأقصر الطرق إلى قصدهم . ولكنا مع ذلك لا نقدر إلا أن نضع الأستاذ في دائرة محدودة ، رغم احتجاجه ورفضه . وذلك لأننا لا نملك إلا أن نصفه ونصف أسلوبه وطريقته ، ولا يمكن أن نصل إلى ذلك القصد إلا بأن نحدده ونحصره في دائرة معينة .

يصف الأستاذ تيمور في قصته (فرعون الصغير) سيدة أمريكية — مسز كلارك — وهي امرأة عجيبة ، تعيش حياتها النعمة الشعرية ، فإذا بالصورة التي يخلقها صورة حية خفاقة القلب ، حارة الدم ، يكاد القارئ يظن أنه قد رآها مرة في أيام الماضي البعيد . لأن صورتها تحتل مكانها في ذهنه مع ذكريات الأشخاص الذين عاشرهم ، وأنس إليهم . ويصف الأستاذ صورة الشيخ المتصابي الذي تزوج الفتاة الشابة الجميلة « رشدية » وهو في سن الخمسين ، فيصف لوناً من ألوان الحياة الصادقة لا يكاد القارئ يحسب إلا أنه يسمع قصة رجل يحكي ما وقع له في مجلس مع صديق .

وهكذا ينتقل المؤلف من منظر إلى منظر ، وهو في كل حالة يصور صورة صادقة تمتزج فيها الألوان امتزاجاً سحرياً ، فلا يبدو فيها ما يشعر بأنها صورة مصنوعة ، بل هي خليقة طبيعية تتحرك وتتنفس وتحيا .

فالأستاذ تيمور مبدع في تصويره — ذلك الإبداع الذي لا يواتي إلا عباقرة أهل الأدب والفن الذين وهبهم الله طريقة الخلق والإنشاء . فإذا كنا قد أصبنا الحقيقة في تقدير فن الأستاذ تيمور كان لا بد لنا أن نحكم بأنه في جملته وتفصيله كاتب واقعي ، بارع في تصوير ما يقع تحت حسه أو يصل إلى دائرة علمه .

ولكنا نتساءل مرة أخرى : هل للأديب رسالة ؟ هل وظيفة الأديب أن يصف الواقع ليبهر الأنظار بمهارته ويمتع النفوس بالنظر إلى لوحاته التي يخرجها ؟

هناك صورة بديعة حقاً — صورة تكاد تتكلم —

فاذا رآها الانسان لم يملك إلا أن يظهر إعجابه وافتتانه . فهل أدى الفنان واجبه باخراج هذه الصورة والحصول على الاعجاب بها ؟

والصورة الفنية الرائعة فوق ذلك لها وقع حسن فى النفوس . والقصة البديعة تدخل البهجة والسرور إذا قرأها الانسان فى وقت من أوقات الفراغ . والأسلوب الرائع يغذى النفس بحاجتها إلى الجمال ، ويشبع فيها الرغبة المتطلعة إلى التغنى بالسعادة . هذا كله لا شك فيه . ولكن هل انتهت مهمة الأديب إلى توفير السرور وإثارة الاحساس بالجمال الفنى ؟ أعتقد أن هذا الأمر لا يمكن أن يخلو من اختلاف الرأى ، وأعتقد أن لكل وجهة من وجهات النظر حظاً من الصدق . وقد اختلف النقاد والأدباء وذهبوا فى هذه المسألة مذاهب شتى ، ولكن مع ذلك كله أعتقد أن للأديب مهمة فوق مهمة الامتاع وإدخال السعادة وإشباع النفوس بالجمال الفنى . وأعتقد بنوع خاص أننا فى عصرنا الحاضر فى حاجة إلى الأديب الذى يخطو خطوة أخرى وراء هذا الحد من الامتاع .

لا شك فى أن (المسز كلارك) شخصية جذابة ولا شك فى أن صورتها صورة بديعة ، ولكن تأملها لا يحرك إلى مثل أعلى — نقرأ القصة ونعجب بها ، ولكنها لا تهزنا إلى عبرة ، ولا تبعث فينا سمواً إلى مستوى أعلى . لا تبعث فينا رغبة فى التخلص من شىء ، ولا الحصول على شىء . لا تبعث فى أنفسنا حركة من الآراء ولا من الآمال . فهى صورة جميلة ، ولكنها صورة غير فاعلة .

ويمكننا أن نقول مثل هذا عن سائر أشخاص القصص الأخرى . فالمؤلف لم يقصد شيئاً على ما يلوح من وراء الصور التى يبدعها ، فهو يصور ويبدع ويخلق خلقاً مجيداً . ولكنه يختار أشخاصاً ليصورها كما هى ، صوراً بديعة ، ساحرة تثير الاعجاب فحسب . وقد نشأ من هذا أحياناً أن بعض القصص تنطوى على بعض مناظر مما قد ينتقده المصلح الخلقى . فالأستاذ فى تصويره لا يرمى إلى شىء غير الأمانة فى التصوير والإجادة فيه . ولا يعبأ بعد ذلك أن تكون الصورة عارية أو مستورة ، ولا يبالى أن يصور الشوهاء، أو الجميلة ما دامت الصورة التى يخرجها صورة متقنة طبيعية بديعة .

فالمسز كلارك (تصيد) الشاب لتقضى معه ليلة لذيذة بارعة الجمال . والشيخ المتصابى يتزوج الفتاة الشابة الجميلة ، وتهبه الشابة قلبها مع أنها قد وقفته على ابن عمها المسكين الذى قضى فى شبابه ، ثم لا تلبث أن تثور على نفسها وتهرب إلى حيث لا يدرى أحد . وغانية الحانة التى نشأت كالزهرة النامية فى كوم المزبلة تصبح بطلة قصة بديعة ملأى بالألوان الساحرة . والزوجة التى لا تحب زوجها تدفعها الشكوك أخيراً إلى العودة إلى زوجها وإحلاله فى قلبها محله ، وتذهب مع زوجها فى نزهة ليلية بديعة ، يحتسيان فيها كؤوس الشمبانيا .

هذه كلها وسواها من صور القصص يتمثل فيها الوصف البارع الواقعى الذى لا يقصد من ورائه قصد آخر غير الابداع والاتقان ، فهل ينتهى واجب الأديب عند هذا المدى ؟

إنى أستميح القراء عذراً وأستميح المؤلف الجليل البارع عذراً إذا قلت إننا لا نقنع باللذة .

إنما نريد الأديب الذى يحرك نفوسنا ويهز قلوبنا ويشير لنا إشارة سحرية ليبعثنا إلى حياة عليا . وأعتقد أن الأستاذ تيمور يستطيع إذا شاء أن يكون ذلك الفنان الساحر الذى يقدر أن يقود قلوبنا إلى أعلى الآفاق . فانه فى قدرته وسلاسة أسلوبه ودقة تصويره وروعة ذوقه أجدر قصصى مصرى بأن يكون منشد المثل العليا .

محمد فريد أبو حديد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٣٠ — الثلاثاء ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ — ٢٥ يوليه سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

مسألة العلائق

بين مصر وروسيا السوفيتية

لمحرر « الثقافة » السياسى

استقر رأى الحكومة المصرية — حسبما أذيع أخيراً — على أن تعترف مصر بحكومة اتحاد الجمهوريات الروسية السوفيتية ؛ وقد يقع هذا الاعتراف فى القريب العاجل ، ثم تتلوه مفاوضات أخرى بين مصر وروسيا لعقد اتفاق اقتصادى وتجارى بين البلدين ؛ وعقد هذا الاتفاق هو القصد الأول من استئناف مصر لعلائقها الدبلوماسية القديمة مع روسيا ؛ وكانت الحكومة المصرية قد فكرت فى هذا الأمر منذ أشهر ، وأعربت عن رغبتها فى استئناف العلائق التجارية مع حكومة السوفييت ، وجرت بين سفير مصر فى لندن ، وسفير السوفييت فيها ، مفاوضات فى هذا الشأن ، ولكنها لم تنته إلى أية نتيجة ، لأن حكومة السوفييت رفضت أن تدخل مع مصر فى أى اتفاق تجارى ، قبل أن تعترف مصر بها وتستأنف العلائق الدبلوماسية بين البلدين ؛ وكانت مصر من جانبها تميل

إلى التمسك بموقفها القديم من عدم الاعتراف بروسيا والاكتفاء بتنظيم العلائق التجارية معها ؛ ولكن تطور الحوادث الدولية على النحو المعروف ، ووقوع المفاوضات بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا لعقد الميثاق الثلاثي ، وتوقع نجاح هذه المفاوضات ، كانت من العوامل التي عززت موقف الحكومة السوفييتية في اشتراط الاعتراف بها ، وحملت الحكومة المصرية على التفكير في بحث مطلبها على ضوء هذه الاعتبارات .

والحقيقة أن لمصر مصلحة جوهرية في الاتصال بروسيا السوفييتية وتنظيم العلائق الاقتصادية معها ؛ فقد كانت روسيا قبل الحرب من أهم عملاء مصر في استيراد القطن . وكان الميزان التجاري بين البلدين حتى سنة ١٩٣١ في مصلحة مصر ، حيث بلغت صادرات مصر إلى روسيا ما قيمته ١٫٦٩٧٫٠٠٠ جنيه ، وبلغت واردات روسيا إلى مصر ما قيمته ٧١٥٫٠٠٠ جنيه ؛ وكانت مصر وما زالت تستورد من روسيا البترول والخشب ؛ ولكن روسيا انقطعت عن استيراد القطن المصري منذ وقع سوء التفاهم بينها وبين الحكومة المصرية في سنة ١٩٣٣ ، وقطعت العلائق التجارية التي استؤنفت بين البلدين منذ سنة ١٩٢٨ وأسفرت يومئذ عن نتائج طيبة لمصر ؛ ثم أخذت هذه النتائج تتضاءل شيئاً فشيئاً ، حتى انتهت إلى ما يشبه العدم ، وأصبحت مصر في سنة ١٩٣٨ تستورد من روسيا ما قيمته نحو نصف مليون جنيه ، بينما بلغت صادرات مصر إلى روسيا نحو ثلاثة آلاف جنيه فقط .

ولمسألة العلائق التجارية بين مصر وروسيا تاريخ يحسن إيراده ، وهو أن جميع العلائق السياسية والتجارية انقطعت بين مصر وروسيا منذ الحرب الكبرى ؛ ثم قامت في روسيا حكومة الاتحاد السوفييتي (الحكومة البلشفية) منذ سنة ١٩١٧ ، واعترفت بها معظم الدول الأوربية بعد الحرب ، وفي مقدمتها الدول العظمى ؛ ولكن مصر ظلت على موقفها من عدم الاعتراف بروسيا السوفييتية ، وقطع جميع العلائق معها حتى سنة ١٩٢٧ ، وذلك لتخوفها من أن يؤدي الاتصال بها إلى تسرب الدعوة الشيوعية إلى البلاد . وفي سنة ١٩٢٧ ، بذلت الحكومة السوفييتية بعض المساعي لاستئناف العلائق التجارية مع مصر ، واتصلت إدارة الوفد التجاري الروسي بلندن (الاركوس) يومئذ بوزير مصر المفوض في لندن ، وأبلغته رغبة روسيا في شراء مقادير كبيرة من القطن المصري من مصر مباشرة ، وشحنها من الاسكندرية على سفن روسية إلى موانئ البحر الأسود ، وشكت من أن روسيا تضطر إلى شراء ما تحتاجه من القطن المصري من الأسواق الانكليزية ، ثم تضطر بعد ذلك إلى شحنه على سفن أجنبية ، وتتكبد في هذا السبيل خسائر فادحة ؛ هذا في حين أن اتصالها بمصر مباشرة يشجعها على استيراد كميات كبيرة من القطن قد تبلغ في السنة ملايين الجنيهات . وأما عن تخوف مصر من تسرب الدعوة الشيوعية إليها ، فقد أبدى الوفد الروسي استعداد روسيا لتقديم كل ضمان في هذا الشأن ، ووضع الوكلاء الروس تحت رقابة الحكومة المصرية ، وإعطائها مطلق الحرية في اتخاذ كل الاجراءات التحفظية التي ترى اتخاذها ؛ وارتفعت الأصوات يومئذ في البرلمان المصري بوجوب انتهاز هذه الفرصة ، وفتح سوق جديدة للقطن المصري تعاون على تصريف المحصول ، وتخفيف الأزمة ، خصوصاً وقد كان لدى الحكومة المصرية مقادير عظيمة من القطن الذي اشترته لحسابها ، وشغلت فيه مبلغاً عظيماً من المال الاحتياطي ؛ وإزاء ذلك كله لم تر حكومتنا بأساً من إجابة الحكومة السوفييتية إلى رغبتها واستئناف العلائق التجارية معها .

وأسفرت هذه الخطوة في البداية عن نتائج حسنة جداً ، توضحها الأرقام الآتية عن الميزان التجاري بين مصر وروسيا :

سنة	صادرات مصر إلى روسيا	واردات روسيا إلى مصر
١٩٢٨	٣ر١٠٠ر٠٠٠ ج	٩٥٢ر٠٠٠ ج
١٩٢٩	٣ر٢١٥ر٠٠٠ «	٩٢٥ر٠٠٠ «
١٩٣٠	١ر٧٠٤ر٠٠٠ «	٨٩٩ر٠٠٠ «
١٩٣١	١ر٦٩٧ر٠٠٠ «	٧١٥ر٠٠٠ «

بيد أنه حدث بعد ذلك خلاف حول معاملة الوكلاء الروس والسفن الروسية في الاسكندرية ، أدى إلى انسحاب روسيا من السوق المصرية ، وترتب على ذلك أن انعدمت صادرات مصر إلى روسيا ، ولكن بقيت واردات روسيا إلى مصر ، تتراوح قيمتها منذ سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٨ بين ثلاثة أرباع مليون وبين نصف مليون جنيه ، وفي هذا غبن عظيم على مصر . ولما كانت مصر تستورد مقادير عظيمة من البترول والخشب من روسيا ، وليس في وسعها أن تستغني عن استيراد هاتين المادتين منها ، تفاديا لما يترتب على استئثار دولة أو دول أخرى بتوريدهما من ضرر اقتصادي ، ولما كانت من جهة أخرى في حاجة إلى أسواق جديدة لتصريف قطنها ، وروسيا ما زالت بالرغم مما تبذل من مجهود لزراعة القطن في تركستان ، في حاجة إلى القطن المصري ، فانه لا ريب أن استئناف العلائق التجارية بين البلدين مما يعود على مصر بأعظم الفوائد ؛ ومن ثم فقد رأت الحكومة المصرية أن تعود إلى معالجة هذه المسألة ، وأن تسعى إلى استئناف العلائق التجارية مع روسيا .

— ٢ —

ولكن الحكومة السوفيتية تطلب أولا أن تعترف الحكومة المصرية بجمهورية اتحاد السوفييت الروسية ، قبل الدخول في أية مفاوضات اقتصادية ؛ ومن الواضح أن هذا الطلب تمليه عوامل كثيرة في مقدمتها مسألة الكرامة والهيبة ، إذ يلوح لنا أن السياسة السوفيتية تتجه في الآونة الحاضرة إلى تعزيز هيبة روسيا السوفيتية بجميع الوسائل ؛ ولعلها ترى أن استئناف العلائق التجارية مع بلد لا يزال يصر على عدم الاعتراف بها ، مما لا يتفق مع هذه الهيبة .

وقد اعترفت الدول الأوربية كلها ، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى ، بحكومة روسيا السوفيتية منذ زمن طويل ؛ ولم يشذ عن هذا الإجماع سوى هولندا وسويسره وإمارة لوكسمبرج ، وذلك لأسباب خاصة بهذه الدول ؛ حتى ألمانيا وإيطاليا اللتان تجاهران بعدائهما للبلشفية ولروسيا ، تعترفان مع ذلك بحكومة السوفييت ؛ وليس في العالم كله اليوم دولة متمدنة لم تعترف بروسيا غير الدول المتقدم ذكرها .

ثم إن عقد معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمى ، وتوثق صلات بريطانيا العظمى بروسيا وقيام المفاوضات بينهما لعقد الميثاق الثلاثي ، وتحالف بريطانيا العظمى مع تركيا التي ترتبط من جانبها بروسيا بأوثق الروابط ، ومركز مصر في جبهة السلامة في شرق البحر الأبيض المتوسط : كل ذلك يجعل انفراد مصر بعدم الاعتراف بروسيا غير مفهوم ، ويحمل بتعديل هذا الموقف ليكون أكثر اتفاقاً مع الظروف والتطورات الدولية الأخيرة .

هذا ما نعتقد أنه يمثل وجهة النظر الروسية والبواعث التي أملت على روسيا موقفها في مطالبة مصر بالاعتراف بها قبل عقد الاتفاق التجاري المنشود بين البلدين .

وإذا صح أن الحكومة المصرية قد استقر رأيها على الاعتراف بالحكومة السوفيتية ، وأن مذكرة قد تقدمت بذلك فعلا إلى مجلس الوزراء ، فإن هذا الاعتراف يجيء في الوقت المناسب ؛ ومن المحقق أن تنظيم العلائق التجارية بين مصر وروسيا قد أصبح ضرورة تملي بها مصالح مصر الاقتصادية ، ومن المتعين لمصر أن يبقى الميزان التجاري بين البلدين على ما هو عليه ، وأن تغلق سوق من الأسواق الأوربية الهامة في وجه القطن المصري لأسباب لم تعد

(البقية على الصفحة التالية)

لو انتصر المسلمون!

للأستاذ أحمد أمين

تحت هذا العنوان قرأت مقالا في مجلة انجليزية [١] ، كتبه كاتبه بمناسبة انتصار « فرنكو » في اسبانيا بمعاونة المراكشيين المسلمين ، فأوحت إليه هذه الحادثة أن يرجع بذهنه إلى ما وقع بين المسلمين والمسيحيين في موقعة « تور » في فرنسا سنة ٧٣٢ م فقال : « إن أوربا كلها كانت تسقط في يد المسلمين لو انتصروا في هذه الموقعة ، وما كانت انجلترا تستطيع صدهم أيضاً لأنها لم تكن في حالة حربية تسمح لها بصد قوى العرب ، والتاريخ لم يحفظ لنا كثيراً من الأمثلة التي تم فيها من الانقلاب ما تم على يد المسلمين ، فان عدداً قليلا من العرب الملوثين حماسة دينية ، متأثرين بنبيهم « محمد » استطاعوا بقوة إيمانهم وبالسيف والنار أن يسيطروا في مدى قرنين على جزء ضخم من العالم يمتد من شاطئ المحيط الأطلنطي إلى نهر السند ، وكان غرضهم الأعظم أن يحولوا العالم إلى دينهم بالدعوة أو بالقوة — عبروا مضيق جبل طارق ، وتدفقوا كالسيل الجارف إلى اسبانيا وجنوبي فرنسا .

وفي سنة ٧٣١ م كان عبد الرحمن يسيطر على كل الجانب الغربي الجنوبي لأوربا ، ويهدد سائر فرنسا وما وراءها ، ويقود جيشه في ظفر يتلوه ظفر ، هازما ما يقابله من جيوش في سهولة ويسر ، ماحيا ما يلاقيه من المدن ، محوّلا ما يجده من كنائس ، لا يقف أمامه شيء ، ناشراً تعاليم « محمد » ، حتى وصل إلى أبواب « تور » على بعد مائة وثلاثين ميلا فقط من باريس .

لولا أن لقيه « شارل مارتل » بجيش قليل من محاربين جرمانيين جبابرة ، فتقاتل الجيشان لا ساعة من نهار ولا نهاراً كاملا ، ولكن ستة أيام قتالا شديداً مستمراً ، كان يبدو فيها عبد الرحمن منتصرا ، وفي اليوم السابع تحولت دفة الحرب في صالح « شارل » ، وقتل عبد الرحمن وهزم جيشه ، وكر راجعاً إلى الأندلس .

(١) Parade عدد يوليو سنة ١٩٣٩ .

تبررها الظروف . وإذا كانت هذه الأسباب تنحصر في خوف مصر من تسرب الدعوة الشيوعية إلى البلاد على يد الوكلاء الروس ، فان هذا العذر يبدو اليوم مبالغاً فيه ؛ وفي وسع مصر أن تتخذ من الضمانات والتحوطات ما يجب لدرء هذا الخطر الاجتماعي على نحو ما تفعل جميع الدول الأخرى التي تشتد في مطاردة الدعوة الشيوعية ، مثل انكلترا وألمانيا وإيطاليا واليونان وتركيا ، وهي مع ذلك لا ترى بأساً من الاعتراف بروسيا والتعامل معها .

على أنه يلوح لنا أن قرار الحكومة المصرية في ذلك قد يتوقف على نتيجة المفاوضات القائمة الآن في موسكو بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا لعقد الميثاق الثلاثي ؛ فاذا انتهت هذه المفاوضات بالنجاح المنشود ، فان ذلك يعتبر ظرفاً ملائماً لاقدام الحكومة المصرية على اتخاذ خطوتها . أما إذا فشلت هذه المفاوضات ، وساءت بذلك العلائق بين انكلترا وروسيا ، فقد يغدو من غير المرغوب فيه أن تقدم مصر في مثل هذه الظروف على الاعتراف بحكومة السوفييت ، وبذلك يقضى مؤقتاً على الأمل في عقد الاتفاق التجاري المنشود بين مصر وروسيا .

وسنرى في القريب العاجل ماذا يسفر عنه الموقف من التطورات والنتائج . (***)

فلو أن « عبد الرحمن » انتصر — كما كانت تدل عليه كل الظواهر ، ولم يوفق « شارل مارتل » إلى صده ، لتم فتح العرب فرنسا ، وأوغلوا بعدها في ألمانيا وإيطاليا ، وما كان يقف في سبيلهم شيء ، ولا انجلترا وايرلندا .

وماذا — إذن — لو تم ذلك ؟

لو تم ذلك لكانت أوربا اليوم كلها مسلمة ، تدوّى أصوات المؤذنين فوق مآذنها ، وتحرّم الخمر والميسر والخنزير ، وتسودها كل شعائر الإسلام .

ثم يتساءل الكاتب في مكر ودهاء : « هل كانت أوربا الآن تصبح متأخرة في مدنيتها ، وتقف فيها موقف العالم العربي الآن ؟»

يجيب عن ذلك بأنه من المرجح ألا يكون ذلك ، فقد بلغت الأندلس في عهد المسلمين منزلة رفيعة من الثقافة ، ولئن كان المسيحيون يصبحون مسلمين إذا انتصر « عبد الرحمن » فإن العلم — إذ ذاك — لم يكن يذبل ، لأنه أزهر في الأندلس المسلمة ، وكان العقل الغربي والنبوغ الآري يشق طريقه في مناحي العلم المختلفة ، ولكن كان التفكير الغربي يضعفه التأمل الشرقي ، وما كان يوجد المفكر الحر ، لفقدان التسامح عند المسلمين ، وما كان يرقى التصوير ولا الحفر لأن القرآن يعدهما من ضروب الوثنية . وكانت المرأة الغربية تصبح كالمرأة الشرقية . وما كانت لتستكشف أمريكا لمدة قرون ، وإن استكشفت بالمصادفة أو بالبحث لكان مصيرها مصير أوربا » .

حرك هذا المقال عقلي ، وأثار شجوني ، وأطار خيالي .

ماذا كان يكون شأن العالم الآن لو انتصر المسلمون في وقعة « تور » وتحقق ما توقعه الكاتب من فتح المسلمين أوربا كلها وتدينها بالدين الإسلامي ، وماذا كان يكون موقف المدنية الحديثة الآن ؟

الحكم على ذلك في منتهى الصعوبة ، لأن أحداث التاريخ وتقلبات الأوضاع الاجتماعية تخضع لآلاف الآلاف من المؤثرات ، وبعض هذه المؤثرات في غاية الخفاء وغاية التعقيد . هذا إذا كانت الأحداث بين أيدينا وتحت سمعنا وبصرنا ، فكيف إذا فرضناها فرضاً وتخيلناها خيالا ؟ اعتبر في ذلك بما هو حادث اليوم في العالم ، فكل المقدمات ماثلة أمامنا ، ومع هذا يختلف رجال التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع العالمون ببواطن الأمور ، هل تؤذن هذه المقدمات بحرب شعواء عاجلة تأكل الأخضر واليابس ، أو لا تؤذن بحرب وستنفرج الأزمات ويسود السلام على الأقل عهداً طويلا ؟ إن كان ذلك كذلك والشواهد ماثلة والأدلة حاضرة ، فكيف بشؤون عالم سحيق في القدم ، غير معروفة جميع ظروفه وأحواله ، نفرض فيها النتائج كما نفرض المقدمات ، ونتخيل ما يحدث قبل أن يحدث . ومع هذا فلنحاول الإجابة ، ولنقس ما لم يكن على ما كان .

* * *

لقد جرى المسلمون والمسيحيون شوطاً في السباق ، والتقيا في أثناء الطريق ، وإن لم يلتقيا في البدء . فقد بدأ المسيحيون شوطهم قبل المسلمين بأكثر من ستة قرون حتى جاء الإسلام ، فبدأ سيره وجرى طلقاً يفتح ويدعو ويؤسس مدنية ويعدّل مدنية حتى حاذى النصرانية وجرى بجانبها ، فماذا كان بعد ثلاثة قرون من الاسلام وتسعة من النصرانية ؟ رأينا حضارة بغداد في عهد العباسيين ، وحضارة القاهرة في عهد الفاطميين ، وحضارة قرطبة في عهد الأمويين ، لايدانيها في ذلك حضارة في العالم ، سواء في ذلك العلم والفن ، وآلات القتال ، ومظاهر اللهو والترف ، ومظاهر الجد والعمل .

لقد ذابت مدنية اليونان ومدنية الرومان فى أوربا ، ولم يكن لهما نظير فى الشرق ، ومع ذلك لم يسبق الغربُ الوارث الشرقَ المبتكر .

وظل الغرب يتلمذ للشرق قروناً طويلة ، يجلس رجاله إلى ابن رشد يأخذون فلسفته ، وينقلون إلى لغاتهم كتبه ، ويدرسون كتب ابن سينا فى الطب فى جامعاتهم ، ويأخذون من رياضيى الشرق وفلكييهم إلى عهد قريب ، ويطيرون فى مدنيتهم الحديثة من على أكتاف الشرقيين ؛ فماذا كان يمنع المسلمين أن يصلوا إلى مدنية مثل المدنية الحديثة أو خير منها إذا استمروا فى طريقهم ولم تعقهم عوائق خارجة عن دينهم ، وخارجة عن عقليتهم ؟ .

لم يمنعهم الاسلام أن يطلبوا العلم فى شتى ألوانه ، ولا أن يعكفوا على فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما ، ولا على رياضة أقليدس وفيثاغورس وأضرابهما . ولم تستعبدهم هذه الأسماء الرنانة كما استعبدت عقول أوربا فى القرون الوسطى ، فنقدوا أرسطو وأفلاطون وأقليدس وبطليموس ، وعدلوا بعض نظرياتهم ، وأبطلوا بعضها ، وغزا عقلهم نواحى العلم ، كما غزا جيشهم نواحى العالم ، وكان كثير من المسلمين إذا قالوا : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فعقولهم بعدُ حرة فى كل تفكير ، طليقة من كل قيد .

لقد نسى الغرب تاريخه إزاء الشرق ، ونسى الشرق تاريخه إزاء الغرب ، ولم ينظر كلاهما إلا إلى حاضره ؛ فزَهِى الأول وتعاظم ، وذلّ الآخر واستكان ، وجهل كل أن الشرق كان يتقدم الغرب فى السباق ، إلى القرن الخامس عشر ؛ ولولا نكبة العنصر المغولى والعنصر الآرى الذى يفخر به الكتاب لظل الشرق فى طريقه وفى تقدمه ، لولا مصيبة التتار التى أتت على كل خير المسلمين وأضعفت قوتهم وأذلت نفوسهم ، ولولا حكم الأتراك للشرق وما جر من فساد وفوضى واضطراب ، ولولا جناية الغرب على الشرق بما جرعته من غصص وما سلكت معه من منهج يتلخص فى إضعافه عقلياً وروحياً ، واستغلاله مادياً ، لولا ذلك كله لتقدم الشرق بخطواته الواسعة ، ولكان ذلك من خيره وخير العالم . إذن ، لكان للعالم مدنيتان تتسابقان فى البناء : مدنية أساسها الاسلام والروحية الشرقية والعقلية الشرقية ، ومدنية أساسها المسيحية والعقلية الغربية ، ولا نعدم الاحتكاك وما يجر من أضرار ، وما يفقد من تنافس .

* * *

بل يخيل إلىّ أنه لو انتصر المسلمون لكانوا أسرع خُطًى إلى المدنية ، فقد عاقت نهضة أوربا عوائق ليست عند المسلمين ، لقد عاقها قروناً طويلة سلطة الكنيسة وحجرها على العقول والآراء ، وتدخلها فى كل شأن من شئون الحياة بقوة وعنف ، والإسلام لا يعرف سلطة لرجال الدين ، ولا يقر بوساطة بين العبد وربه . وعاق أوربا نظام الطبقات وسلطة الأشراف والنبلاء ، والاسلام لا يعرف هذا النظام ، ويقرر أن المسلمين سواء « تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » ، ولم تتخلص أوربا من هذه العوائق وأمثالها إلا بعد جهد جهيد ، وأنهار من دماء ، وجسور من رءوس .

فلما خلصت أوربا من هذه العوائق أو كادت ، اخترعت « الوطنية » فكانت مصيبتها الكبرى وعلتها العظمى ، أشعلت نار القومية ، وجعلتها أساس التربية وأساس الاقتصاد ، وتسابقت الأمم فى الوطنية فتسابقت فى التسلح ، فما تنقضى حرب حتى يبدأ الاستعداد لحرب شر من الأولى . وهكذا ظلت المدنية الأوربية التى يغار عليها الكتاب بين حرب واستعداد لحرب ، وأفراد من كل أمة تتحكم فى مصير الشعوب ، وتطيح رءوسها ، وتفرض الضرائب الفادحة تنشئ بها أساطيل وقنابل

وغارات وغواصات تتعاون كلها على حصد الأرواح حصداً ، وتحرم الأب من أبنائه ، والأبناء من آبائهم ، ومن نجا من القتل وقع فى أسر البؤس والحزن والهم. والعلم الذى اخترع لخدمة الانسانية ، استخدم لافناء الانسانية . وهذه خلاصة المدنية ؛ وهذا ما جلبته الدعوة إلى الوطنية .

***

لقد فتح المسلمون الأولون فارس والشام ومصر والأندلس وغيرها ، فلم يفقدوها شخصيتها ، ولا حرموها علماً ولا ثقافة ، ولا سلبوها حريتها ؛ ومن أسلم فالعالم الاسلامى كله له ، ومن لم يسلم ودفع الجزية فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وظلت هذه البلاد المفتوحة كلها متفقة تشترك فى بناء المدنية الاسلامية على قدم المساواة ؛ فعلماء فرس وعلماء شاميون وعلماء مصريون وفنانون من كل صنف وممسكون بزمام الحكم من كل قطر ؛ ولكن لما فتح الغرب الشرق ، حرمه العلم إلا بحساب وفى حدود معينة ، ومنعوهم حرية القول والتفكير وحمل السلاح إلا بمعيار ضيق ، وأخصبوا أرضهم وأجدبوا عقولهم ، لأن أرض الشرق للغرب وعقل الشرق على الغرب ؛ فلو فتح المسلمون أوربا — كما توقع الكاتب — لحفظوا لأوربا شخصيتها ، وأوسعوا لها فى علمها وثقافتها ، وتركوا لها حريتها فى أكثر شؤونها ، ولم يمنعوا نبوغ من استعد للنبوغ ، ولا حجروا على عقل ولا تفكير ، ولا كانوا يستغلون أرض أوربا للشرق ، إنما كانوا يستغلون الشرق والغرب للشرق والغرب . ودليلنا على ذلك أن جميع البلاد التى فتحها المسلمون الأولون ظلت زاهية مزدهرة بعد فتحهم بأحسن مما كانت قبل فتحهم ، وأن الشرق كاد يموت بعد أن فتحه الغرب لولا لطف الله وبقية من مناعة الفتح الأول .

وأهم فرق بين الفتحين أن مدنية الاسلام كانت تنظر إلى العالم الاسلامى كله كوحدة ، خير الجزء خير الكل ، وشر الجزء شر الكل ، والمدنية الحديثة تنظر إلى العالم من خلال القومية ؛ فخير تونس والجزائر ومراكش وسوريا لفرنسا لا لهذه البلاد ، وخير طرابلس لايطاليا لا لطرابلس ، وخير الهند لانجلترا لا للهند ، وهكذا جريا على الأسلوب الحديث فى النزعة الوطنية ، ولهذا نعِمَ الشرق فى حكم العرب ، ولم ينعم الشرق فى حكم أوربا ، ولا يمكن أن ينعم هؤلاء ولا هؤلاء إلا بإحلال الانسانية محل الوطنية ، ودون ذلك أهوال .

ثم ما الذى كان يمنع العرب من استكشاف أمريكا ، ورحالوهم كابن جبير وابن بطوطة لم يكن يدانيهم أحد من رحالى الغرب فى عصرهم ؟ على أن فكرة استكشاف أمريكا إنما دعا إليها ، وحث على تحقيقها نظرية كروية الأرض التى أثبتها جغرافيو العرب ، وبرهن عليها فلكيو العرب .

***

أخشى أن يكون « الكاتب الفاضل » قد استحضر فى ذهنه عند كتابة المقال صورة العالم الاسلامى الحاضر ، ولم يستحضر العالم الاسلامى الغابر ، فرأى ما عليه المسلمون اليوم من فقر عقلى ، وفقر مالى . فأشفق على أوربا أن يحكمها هؤلاء فيقلبوا غناها فقرا وعلمها جهلا وقوتها ضعفا ، ونسى أنه يتكلم عن « عبد الرحمن » وعن جنود « عبد الرحمن » وهؤلاء كانوا أقوياء فى غير ضعف أغنياء فى غير فقر علماء فى غير جهل ، قد مرنت عقولهم فى غير جمود ، وطلبوا الخير للعالم من غير قيود ، فهل يعيد التاريخ نفسه ؟

أحمد أمين

الموسيقى المصرية

قديم وجديد!

للأستاذ عبد العزيز البشرى

من بضعة أسابيع سمعت من (الراديو) حديثاً لصديق العالم المحقق الأستاذ أحمد أمين ، أذاعته علينا محطة لندن .

وقد تناول الأستاذ فى هذا الحديث وفى حديث قبله قديمَ الأدب وجديدَه ، وعرض فى الأخير عرضاً يسيراً الموسيقى ، خلص فيه إلى أنها تحتاج إلى نبىّ جديد ، كما أصبح الشعر يحتاج إلى نبىّ جديد .

وإذا كان الأستاذ الفاضل لم يُطل الكلامَ فى الموسيقى ، ولم يُجره على جهة التفصيل ، فلغير الموسيقى كان مساق الحديث .

وأرجو أن يأذن لى أن أتبسّط بعض التبسّط فى حديث الموسيقى ، وأن أتولّى ما أجمل بشىء من التفصيل .

الموسيقى فى حاجة إلى نبىّ جديد! نعم ، هى فى حاجة إلى نبىّ جديد ، لو أن الأنبياءَ يبعثون لتقويم الأذواق وهدايتها الصراطَ المستقيم !

الموسيقى فى أشد الحاجة إلى زعيم مصلح يهدى إلى الرشد ، أو إلى قائد يفتح بالسيف ما استغلق على جهد الكلام !

فى الحق ، لقد أضحت حالنا من هذه الناحية فى أشد الحاجة إلى الفتح المبين .

ولست أذهب بك ، يا سيدى القارئ ، فى التدليل إلى بعيد ؛ فلقد فتحت أخيراً إحدى كبريات الصحف فى مصر باباً تنشر فيه آراء الناس فى محطة الاذاعة المصرية ، ولو قد اطلعت على هذه الآراء فيما تذيعه المحطة من ألوان الموسيقى وفنون الغناء ، لتعاظمك الأمر وراعك ، وحيّر لبك ، وذهب بك منه العَجب كل مذهب . وذلك بأن الكاتبين جميعاً ساخطون متبرمون متأففون . وليس عجباً أن يتوافق جمهور الناس على السخط والتبرم ، فان من الأشياء ما لا يعجب جميع الناس ، بل إن منها لما يعجب أحداً من الناس . بل إن مناط العجب هو أنّ نصف هؤلاء الساخطين المتبرمين ، إنما يسلقون المحطة والقائمين عليها بأحدّ الأقلام ، لأنها تردّد على أسماعهم الغناء البالى القديم ، ولا تصفى الوقتَ كلَّه للمستحدَث الجديد ! أما النصف الآخر فيسلق المحطة أيضاً بأحدّ الأقلام ، ويرميها بكل عاب وذام ، لأنها تصدّع آذانهم ، وتفرّق أذواقهم بإسماعهم هذا المستحدَث الجديد ، ولا تحرّر وقت الغناء كله للعتيق القديم !

ولقد تفترق أذواقُ الناس ، ولقد تتغاير أحكامهم على الأشياء ، وخاصة فى هذه الفنون الجميلة التى يُقصد بها إلى التطريب والتلذيذ . لقد يقع ذلك ، وهو واقعٌ فى كل زمان ومكان . ولكن اختلاف الآراء واختلاف الأحكام على ما يُتغنى به من فنون الموسيقى الآن ، ليس له شبيه فى أىّ زمان ولا فى أىّ مكان !

ذلك بأن المجموع فى كل أمة مهما اختلفت فيه أذواق الأفراد وافترقت مذاهبهم فى ألوان الموسيقى ، فإن هناك ذوقاً عاماً يجمع شملهم ويضم جمعهم ، فهم إذا افترقوا أو اختلفت مذاهبهم ، فاختلافهم إنما يكون فى حدود هذا

الذَّوق العامّ . ومن هنا نجد الاختلافَ في هذا الباب يسيراً والافتراقَ رفيقاً ، كأن يفضّل هذا كذا على كذا ، ويستريح هذا إلى كذا أكثر مما يستريح إلى كذا . أما أن ماينشرح على سمع هذا مما يُشيع الطربَ في ذاك ويُدخل عليه الأريحيّة وبالعكس ، كما هو الشأن فينا الآن ، فهذا كما زعمتُ لك مما لم يقع له شبيهٌ في أيّ زمان ولا في أيّ مكان !

وإن شئت بعد هذا أن تثبت كل شيء في موضعه ، وتُجرى عليه حكمه الصّحيح الصريح ، فقل في غير تردد ولا خشية : إنّ الذّوق الموسيقيّ العامّ قد فُقِد فقداً في هذه الأيام . فإذا أبيتَ إلاّ رفقاً في الحكم فقل إن الذّوق العامّ الآنَ في حال من الثورة والاضطراب ليس من اليسير أن ينتهي معها إلى قرار .

كان يغنّى البلدَ إلى أعقاب الجيل الماضي من أعلام المغنّين المرحومون : عبده الحمولي ، ويوسف المنيلاوي ، ومحمد عثمان ، ومحمد الشنتوري ، وعبد الحيّ حلمي ، وسلامة حجازي وغيرهم . وكان لكل من هؤلاء طريقته في الغناء وأسلوبه ، ولكل منهم شيعته ومؤثِروه على غيره . يلتمسون مجلس غنائه أنّى كان ، ويطلبونه مهما جشمهم الأمر من الجهد والشقة ، ويردّدون تنغيمه إذا خلوا إلى أنفسهم أو إذا خلا الصحاب من أهل المراح إلى الصحاب . ومع هذا لم يزعم أحدٌ أن غناء غير من يؤثر ينشز على سمعه ، أو يخمش مزاجه ، أو يفرّق ذوقه كما هو حادث الآن ؛ بل لقد كان يسمع جميعُ الناس من جميع هؤلاء ، فيستريحون إلى غنائهم ، وقد يذهب بهم الطرب كلّ مذهب . وذلك بأن اختلافهم إنما كان في حدود هذا الذّوق العامّ ، فهو لا يعدو إيثار فنّ على فنّ ، واستجادة مذهب أكثر من استجادة غيره . على أنه في كل حال مستمليحٌ مستجيد .

كانت تلاحين الملحنين قارّةً مطمئنة ، تجرى على قوانين مرسومة ، وتجول في حدودٍ معلمَةٍ مقسومة . وكانت الأذواق كذلك قارّةً مطمئنةً لا حُؤُول فيها ولا اضطراب ؛ فلا يكاد غناء المغنى المجيد يقرع السمع ، حتى تراه قد سال من فوره في النفس ، ونفذ إلى مجامع العاطفة ، فأشاع طرباً ، وبعث أريحيةً ، أو حرّك شجَىً وأثار شجناً .

وأرجو ألا تفهم من كلامى هذا أن الغناء في ذلك العهد كان جامداً لا يتحرك ، واقفاً لا يتقدم ، ثابتاً لا يلين لتلوين ولا تجديد . بل لقد كان مفتناً متلوناً متجدداً . ولكن في تلك الحدود التي رسمها الذوق العام . ولهذا كان التجديد يجرى في لباقة ورفق ، فلا ينشز على الأسماع ولا تأذّى به الأذواق . وناهيك بما صنع عبده الحمولي في هذا الباب . وما صنع جدُّ كثير !

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان بين ذلك الغناء وبين الذّوق المصريّ إلف ، وبينه وبين النفس ودّ ، حتى لكأنه لاحقٌ بالفطرة ، موصولٌ بالطبع !

الموسيقى الحديثة

والآن حق علينا أن نميل بالحديث إلى صفة الجديد ، وكيف جاءنا هذا الجديد ؟ :

لهذا الانقلاب العنيف في الموسيقى المصرية سببان : أحدهما طبيعي ، والآخر صناعي . أما الطبيعي فهو تلك الثورة التي زلزلت عندنا كل شيء ، فلم تدع شيئاً من العادات ، والتقاليد ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والأزياء ، والفن والأدب ، وغير ذلك من مظاهر حياتنا إلا رجّته بقدر كبير . وجمهور الناس مُهرولٌ مفيدٌ إلى تقليد الغربيين في كل جليل ودقيق ، فكان من الطبيعي أن يقلدوهم في موسيقاهم ، كما يقلدونهم في غيرها من شئون الحياة .

أما السبب الصناعي ، فقد انبعث في هذا البلد شابٌّ موسيقيٌّ جمع إلى العلم بالفن رهافةَ الحس ، ودقةَ الشعور والقـدرةَ القادرة على الابتكار والتجديد . وأعني به المرحوم الشيخ سيد درويش .

كان المرحوم سيد درويش يفجع النبرة تقع في بعض التنغيم الأجنبي ، شرقياً كان أو غربياً ، فيدرك أنها مما لو سوى بعض التسوية لأمكن إدماجها في موسيقانا ، ولكان لها حلاوةٌ في الآذان ، وطربٌ للنفوس . وعلى ذلك أدخل على موسيقانا كثيراً من النغاتيم الأجنبية وطبعها فيها . وسرعان ما تقبلها الأذواق في غير قلق ولا نفور .

كذلك أراد ، رحمة الله عليه ، أن يترجم بالموسيقى عن بعض المحسوسات فتقدم ، وكان علاجه لما عالج من هذا في غاية الرفق والتواضع . وكذلك قدر له فيها أروع النجاح .

ويطوى الردى سيد درويش ، ويطوف بالبلاد طائف ذلك الانقلاب العنيف ، ويأبى الملحنون والمغنون إلا موسيقى أفرنجية لا يشوبها شيء مما ألفت الآذان من قديم الزمان . وعلى ذلك راحوا يحاكون الموسيقى الغربية التي يسمعونها هنا وهناك ؛ ولكن كيف يحاكونها ولا علم لأكثرهم الكثير بما تشكّ عليه هذه الموسيقى الافرنجية من القواعد والأصول ؟

يحاكونها بأن يبدأوا بصياح مثل صياحها ، ثم عدم الإذن للترانيم بأن تأخذ سمتها ، بل المبادرة إلى ليّها عن وجهها حتى تصكّ الأسماع صكاً ، وتطيّر الأمزجة تطييراً ، فإذا بلغت غاية الجهد من الاضطراب ذات اليمين وذات الشمال ، وبين فوق وتحت ، ووراء وقدام ، وُصلت بها صرخة تحكي ما يختم الموسيقى الغربية من الأذناب والأذيال . وكذلك تظن جمهرة ملحنينا ومغنينا أنهم يجيئونا بموسيقى غربية لا يلحقها شك ولا ارتياب ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأمّا تكسير النغم ، وأمّا ليّه عن وجهه ، وأما الصراخ في أوله وفي آخره ، فذلك مما لا يُعيي على أحد ، لأنه لا يحتاج إلى علم ، ولا صلة له بفنّ ، ولا علاقة له بذوق ، فإذا هو احتاج إلى شيء من فساد الذوق ، فذلك موفور والحمد لله !

ومن هنا كثر الملحنون في بلادنا كثرةً أصبحت تجهد العدد ، فلا تكاد تسمع مغنياً حدثاً أو مغنيةً ناشئة إلا قيل إن هذه الأغنيّة من تلحينها أو من تلحينه . وكذلك رخُص التلحين وأصبح ميسوراً لكل من شاء !

وعلى هذا تقشّعت آذان ، وكذلك استُمرجَت باسم (الموسيقى الغربية) أهواء . ولا أرى الغربيين ، إذ يكتب عليهم أن يسمعوها ، إلا أشدّ تأذياً بها منا نحن المصريين !

تلحين رخيص ، وموسيقى رخيصة ، وفن رخيص .

أما التخرّن والتفجع في هذه التلاحين ، وأما التخنيع وشيوع التخنيث ، فذلك مانسأل الله السلامة منه للرجولة في هذه البلاد !

ولقد تقول للرجل من كبار الملحنين في ذلك ، فيجيبك في خجل عظيم : وماذا نصنع ، وهذه البضاعة هي الرائجة في سوق الغناء في هذه الأيام ! وكذلك جعل هؤلاء الملحنون أنفسهم يتبارون في هذا التشويه ، يجدون به عامدين على الفنّ وعلى الأذواق معاً ما دام القوتُ يأتي من هذه السبيل !

ولكي تدرك مبلغ رخص هذه التلاحين وهوانها ، لاحظ أنك لا ترى شيئاً منها يعيش حتى إلى اليوم التالي ، وكيف لما وُلد ميتاً أن يعيش ؟ !

* * *

أما الذين لا يزال هواهم إلى القديم ، فهم في بَرَم دائم وملل لا يَريم . فإن ما يسمعونه اليوم هو الذي سمعوه أمس ، وسمعوه من سنة خلت ، ومن عشر سنين

مضت ! ومن شيوخهم من سمعه من ثلاثين وأربعين من السنين ، يتردّد هذا الدهرَ الأطولَ على أسماعهم بنصّه وفصّه ، ولفظه وتلحينه ، وكلّ نبرة وتنغيمة فيه ، وكل زرّة لمحلق على موقف من مواقفه ، وكل تكريشة تختم بها كلُّ فاصلةٍ من فواصله ، اللهم إلا ما يُدخله عليه المغنون من الخطأ والتشويه ! .

ليس هكذا ، أيها السادة ، يكون إحياء القديم . وليس بهذا التكرير الملّ إلى حد الإزعاج تُرضون هوى أصحاب القديم إلى القديم .

المراد بالقديم ، يا أيها الطابع أو الأسطوانات ، هو الفن المصرى القديم . الفنّ السلس السهل الذى يتفجر رجولة ويسيل طرباً . والذى يتحدث إلى كبد المصرى فى غير عسر ولا حاجة إلى ترجمان ، فيحرك فيه من ألوان العواطف ما شاء الله أن يتحرك ، ويثير فيه من الأريحية ما شاء الله أن يثور .

هذا الفن الذى لا يفتأ يتطلع إلى التجديد الرفيق ، لا ينشز على الآذان ، ولا تأذى به الأذواق . وناهيكم بصنعة عبده وعثمان والمسلوب وأضرابهم ، عليهم رحمة الله أجمعين .

* * *

وبعد ، فالحق أننا الآن فى حال من البلبلة واضطراب الأذواق هى فى أشد الحاجة إلى مبعوث للموسيقى جديد . فليت شعرى هل يطول على بعثته الزمان ؟

عبد العزيز البشرى

٢ – الأدب الجاهلي

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

قدّمت في المقال الماضي مقدمات أربعاً ، خلاصتها أن المعيشة التي صوّرها الشعر الجاهلي باقية إلى يومنا ، وأن البداوة متصلة بنا وبالجماعات البشرية ، جديرة بالعناية ، وأن البدو والحضر من العرب أمة واحدة متواصلة ، وأن الأدب العربي لا محالة يصوّر معيشة العرب حاضرهم وباديهم .

وأزيد مقدمة خامسة موصولة بالمقدمات الأربع :

تلكم أن اللغات على تطوّرها مع الأمة تحفظ في ألفاظها ومجازاتها وأمثالها كثيراً من تاريخ الأمة ، وكما تتطور الأمة فتتقدم ولا يمنعها التقدم أن تحتفظ بما يربطها من سنن وعادات ، وأن تعرف تاريخها معرفة واسعة ، كذلك تتطور لغتها ، ولا يضيرها الاحتفاظ بكلمات وجمل وكنايات هي من تاريخها ، بل تمتاز هذه العبارات التاريخية بدلالتها على التاريخ زيادة على تأديتها المعنى المقصود ، فيكون لها جلال التاريخ ، وغرابة الماضي .

هذه مقدمات رأيت أن أصدّر بها الكلام في مقالات الأستاذ أحمد أمين ، فإن اتفقنا عليها وإلا رجعنا إليها نجادل فيها .

— ٢ —

وبعد ، فأول ما آخذ على مقالات الأستاذ الغلوّ في الدعوى ، والإغراق في تصورها ، وأحسبه يوافقني على هذا ، وإن خالفني في أصل الدعوى .

أحسبه يوافقني على أن من الغلوّ قوله :

« رفعوا من قيمة كل شيء جاهلي وغلوا في تقديره ؛ فالماء الحقير في مستنقع جاهلي خير من دجلة والفرات والنيل وكل أنهار الدنيا ، والجرادتان اللتان غنتا للنعمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وكل غناء ؛ ودوسر كتيبة النعمان بن المنذر أقوى جيش عرفه التاريخ ، وأيام العرب في الجاهلية ووقائعها الحربية لا يعادلها أي يوم من أيام المسلمين ، وجبلا طيّئ خير جبال الدنيا » .

لا أعرف أحداً من المتقدمين أو المتأخرين الغلاة أو القاصدين ادعى هذه الدعاوى .

ومما يتصل بهذا الغلو أنه جعل رأي طائفة من الأدباء في عصر ما رأي أهل العصر كلهم ، وعمم الدعوى حيث يقتضي الدليل التخصيص ، فقال مثلاً : إن الناس ثاروا على أبي تمام وفضّلوا البحتري عليه لأنه ابتكر بعض المعاني . والحق أن أبا تمام نال إعجاب كثير من الناس بهذا الابتكار ولم يكن أعداؤه على مرّ العصور أكثر من أنصاره .

وإذا وقع مثل هذا الغلو وهذا التعميم في مقال لمثل أستاذنا الجليل ، حق لنا أن نظن هذا المقال لم ينل حظه من التثبت والتؤدة والأناة التي عوّدنا الأستاذ إياها . قدّمت هذا قبل تفصيل الكلام في نقد المقال ، إذ شعرت بهذا المعنى غالباً في المقال كله ، لا يخص مسألة بعينها .

ومسألة أخرى أنبه إليها قبل المجادلة في آراء الأستاذ ، هي أنه حينما تكلم على الأدب العربي نظر إلى الشعر وحده وأغفل النثر ؛ فلنا الحق أن نظن أنه حينما ذكر « الأدب » في بحثه أراد به الشعر وحده ، فموضوع الجدال هو الشعر لا النثر .

— ٣ —

وبعد ، فلا ريب أن شعراء العربية قلدوا شعراء الجاهلية وتقيّلوهم في كثير من معاني الشعر وصوره ؛ وليس هذا مما تخالف فيه الأستاذ ، ولكن خلافنا إياه في تفصيل هذه الدعوى ، وفي كثير من الأمثلة التي ساقها .

وأنا آخذ في نقد آرائه على ترتيبها في مقاليه اللذين نشرا في العددين التاسع عشر والحادي والعشرين من مجلة الثقافة :

١ — أوزان الشعر :

قال : « إنما جوهر التغيير أن يعدلوا أوزان الشعر بما يتفق ورقى آذانهم الموسيقية » . ثم قال : « فالبحور الجاهلية هي البحور التي سار عليها الشعر العربي كله إلى الآن إلا أشياء قليلة ... فكما أن الغناء الجاهلي لا يناسبنا ، فكذلك يجب أن تكون الأوزان والقوافي مساوقة للزمن وأن تحكّم كل أمة عربية أذنها الموسيقية في الأوزان الشعرية التي تناسبها ، والتي لا تناسبها » الخ .

ومردُّ هذا الكلام إلى قضيتين : الأولى أن العرب في العصور الاسلامية كان عليهم أن يتركوا الأوزان الجاهلية لأنها لا تناسبهم ، كما لا يناسبهم الغناء الجاهلي . والثانية أنهم لم يفعلوا هذا إلا قليلا .

فأما القضية الأولى فأجادل فيها بأنه ليس حتما أن تكون الأوزان الجاهلية غير ملائمة للعرب الاسلاميين . فربما كان من صلة هذه الأوزان بالفطرة ، ومن وضوح نغماتها ، وتناسب أجزائها ، ومن تقارب الطباع في الجاهليين والاسلاميين ، ما يجعل هذه الأوزان ملائمة .

وإذا قلنا إن الغناء كان يجب أن يختلف بين الجاهلية والاسلام فلا يستلزم هذا اختلاف الأوزان ، فالغناء ألحان تختلف في الوزن الواحد ، فتجد في البيت الفرد صنعة مختلفة لها في السامع آثار مختلفة . فجائز أن يختلف غناء الجاهليين والاسلاميين على البيت الواحد ، ويكون هذا الاختلاف وافياً بالحاجة التي أحسها الاسلاميون دون احتياج إلى تغيير الوزن نفسه .

لا ينبغي إذن أن يقال كان يجب أن تترك الأوزان الجاهلية لأنها جاهلية ، بل يجب أن يبين ما فيها من نقص أو عيب أو مجافاة للطبائع ، ثم يؤخذ على الإسلاميين أنهم لم يغيّروها ؛ فإذا لم تقم الحجة على هذا كانت الحجة ما فعله الشعراء والمغنون في العصور الإسلامية ، وكان لنا أن نستدل بأفعالهم ، على أن أوزان الجاهلية لاءمت أذواقهم بمقدار ما أبقوا عليها ، وخالفت أذواقهم بمقدار ما غيّروا فيها — وجدوا فيها ملاءمة لاحساسهم ، ولكنها لم تف بكل أذواقهم ، فاخترعوا من الألحان والأوزان على قدر حاجتهم .

وبهذا نعرض للدعوى الثانية فنقول :

ليس حقا أن شعراء العربية لم يزيدوا على أوزان الجاهلية وقوافيها . بل زادوا واخترعوا وغيّروا .

إن الاسلاميين عنوا بالغناء وافتنوا فيه ، فغيّروا من موسيقى الأوزان الجاهلية بألحانهم ، ولكنا مع هذا ندع الغناء ، ونقصر كلامنا على الأوزان والقوافي وحدها .

فأما القوافي فقد بدأ التصرف فيها منذ المائة الثانية ، نجد القافية المزدوجة ، وهي أوسع القوافي حرية ويسراً ، في شعر أبي العتاهية ، وفي نظم كليلة ودمنة لأبان بن عبد الحميد ، ثم يستمر النظم عليها فينظم كتاب « الصادح والباغم » لابن الهبارية ، وتنظم الحوادث التاريخية والقواعد العلمية حتى الحساب والهندسة . فهذا ضرب من التحلل من قيود القافية ، نزع إليه الشعراء في القرن الثاني واستمروا عليه .

وكذلك اخترعوا في القوافي المربع والمخمس ثم الموشحات ، وفي أفانين الموشحات متسع لكل ناظم ، فقد اخترعوا من أضربها ما يصعب إحصاؤه . وإن كان شعراؤنا قد آثروا القافية القديمة في أكثر شعرهم ، فما كان هذا تحرّجاً من الخروج عليها ولا تقديساً للقوافي الجاهلية . ولم نسمع أن أحداً عاب على الشعراء الافتنان في القافية

أو دعاهم إلى التزام القوافي الجاهلية ، بل قوبل الاختراع الجيد بالاستحسان كل حين . ومهما يكن فلا يسوغ أن يقال إن الشعر العربي في العصور الإسلامية لم يزد على القوافي الجاهلية إلا قليلا .

وكذلك الوزن فقد خرج كثير من الوشحات عن الأوزان القديمة . والأستاذ أعرف بفنونها ، وبتحرر الناظمين فيها من القيود إلا جمال النغم ومواتاة الألحان .

وقد أحدثت أوزان أخرى في غير الوشحات واخترعت في الأوزان القديمة ضروب ؛ وهذا كله في غير الفنون الأخرى التي غلب فيها النظم بالعامية . ولولا ضيق المجال لأتيت بأمثلة من الوشحات وغيرها تدل على أوزان مستحدثة لم تؤثر عن الجاهلية .

وحسبي هنا أن أعرض أمثلة من شعر بهاء الدين زهير وعز الدين أيدمر ، وهما من شعراء مصر في القرن السابع ، لترى الافتنان في الوزن والتقفية . والاقتصار على هذين ليس من قلة الأمثلة ، بل من كثرتها واستغنائها من التعداد . يقول بهاء الدين :

يا من لعبت به شمول ما أحسن هذه الشمائلْ
نشوان يهـــزه دلال كالغصن مع النسيم مائلْ
لا يمكنه الكلام لكن قد حمّل طرفه رسائلْ

ومن قول عز الدين أيدمُر :

بِتّ وسمّاره النجومُ ساهرٌ فمن تُرى
ملّك النومَ يا جفونْ
صبٌّ إلى مذهب التصابي صابٍ لا يعدلُ
يحســـنه شائق الجناب آبٍ مبتــلُ
والطرف من دائم انسكاب كابٍ مخبّلُ
لسانه للهوى كتومُ سـارٌ لما جرى
والشأن أن تُستَر الشئون

ولا أريد أن أثبت هنا سمْطاً آخر من هذا الوشح لنعرف كيف تتغير القافية فيه ، فذلك في نظام الوشحات معروف .

وانظر في الأبيات الآتية كيف زاد الشاعر على سعة التقفية التصرف في الوزن بين الإطالة والتقصير في المنظومة الواحدة :

نحَتْ الشمس عليها سافره
فقابلتهـــا بنجوم زاهره
رمقها حين دنا طلوعها
فقبّل رقرقت دموعهـــا
تبكي وفي الأوجه بشر الضحك
فاعجب لها تضحك وهي تبكي

تمايلت تمايل السقيم لما أحست بسرى النسيم
فأشفقتْ على حـــذرْ وفرّقتْ من الخفرْ
من قبل أن يُقضى وطرْ تودُّ لو كان استمر
ذاك المطر لمّا خطر
على الزهَر ساء وسرّ
بات الندى يُشربها نعيما كما يغـــذي والد فطيما
فأصبحت ودرعها بليل تكاد من قطاره تسيل
وأهدت الصَّبا لها كافورا فلاث أردانها عبـــيرا
كأنما نوّاره المستحسن ألسنة تنطق فهي أعين
في روضة قيد النظرْ لتشكر آلاء المطرْ
ترنو بأحداق الزهَر تحسبها بعـــد السحَر
قد انتثر فيها دُرَر
أو انتشر منها حِبَر

لم يلتزم صاحب هـــذا الوشح فيما عدا الأشطر الرائية ارتباطاً ما بين الأبيات إلا القافية المزدوجة ، وفي هذا ما فيه من التوسيع على الناظمين ؛ وأمثال هذا في الشعر العربي كثير . ولست أحسب أن نظام التقفية في شعر كبار الشعراء في أوربا أوسع من هذا وأيسر ؛ على أن ما ذكرت أمثلة لا قواعد ، فقد كادت الوشحات تخرج على كل قاعدة .

(للكلام صلة) **عبد الوهاب عزام**

ذكرى نلينو

زعيم المستشرقين المعاصرين

للأستاذ عبد الرحمن بدوي

لم تكد الشمس الساطعة — في مثل هذا اليوم من العام الماضي — تغزو أحياء مدينة روما الخالدة ، حتى أقبل الشيخ الذي جاوز السادسة والستين ، على عمله العلمي الذي اعتاد القيام به كل صباح . وكان الشيخ نشيطاً كأنشط ما يكون الشباب ، وكان الهدوء الساجي الذي غمر هذه النفس الفسيحة السامية طوال حياتها يسود شارع رُفّينو ، حيث أقام الشيخ بالطابق الأول من ثاني منزل فيه . ولم يكن أهل الحي ، ولا أهل المنزل ، يتوقعون جديداً في هذا اليوم ، ولم يكن العالم العلمي ، وعالم المستشرقين على وجه التخصيص ، يشعر ولو من بُعد ، أنه سيفقد فذاً من أفذاذه ، وزعيماً من كبار زعمائه .

وإنما كان الجميع ينتظرون من الحياة الراتبة التي يحيونها أن تمر على عادتها ، دون أن يصيب آلتها عطل في جزء من أجزائها الدقيقة المعقدة . ولم يكونوا في هذا الظن مخطئين ، ولا متفائلين شديدي التفاؤل ؛ فالشيخ هادئ البال ، مرتاح النفس ، ساكن الضمير ؛ والشيخ في صحة جيدة يحسده عليها أمثاله من الشيوخ . نعم لقد أصيب منذ حين بتوعك ، ولكنه كان توعكاً خفيفاً لم يحتج حتى إلى عناية الطبيب . وكان وافر النشاط ، جم الحيوية حتى هذا الصباح ؛ فهو بالأمس قد راجع آخر تجارب الطبع لعدد شهر يوليو من مجلة « الشرق الحديث » التي كان يشرف على الناحية العلمية منها . وهو في هذا اليوم قد أكبَّ على عمله في الصباح الباكر ، لا يصرفه عنه صارف من ألم ، أو تصور لألم . ولكن من ذا يعرف نيات القدر ؟



نلينو

استمر الشيخ في عمله ساعة أو تزيد ، أحس من بعدها بتغير مفاجئ ، هزّ كيانه كله هزاً عنيفاً ، على غير توقع منه ، ولا انتظار من ابنته العزيزة « ماريّا » ، وأخته الوفية « أنّا » اللتين أقبلتا عليه مرتاعتين ، تنظران إلى وجهه الصبوح المشرق والصفرة تعلو نواحيه وتشتد شيئاً فشيئاً ، وإلى عينيه الزرقاوين اللامعتين وهما تستحيلان إلى سواد قاتم ، وإلى جبهته العريضة الطويلة معاً والهم يبادرها من غير رحمة ولا توان . وتحملان في يديهما الرحيمتين هذا الرأس المستطيل الذي وعى من العلم ما يذهل له كل مطلع وباحث ، وهذه القامة الفرعاء في غير هزال ولا إفراط في الطول . ولكن ماذا تستطيعان ، والموت قد أراد ، وإرادته نافذة لا يقوى على الوقوف في سبيلها

كان ما من الناس ، على الرغم من واسع حيلة هذا المخلوق الضعيف في كفاحه ضد قوى القدر .

مات إذاً نلينو ، وفقد العالم بفقده زعيم المستشرقين في القرن العشرين .

ولد كارلو ألفونسو نلّينو في مدينة تورينو في السادس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٢ من أم لومباردية من حنّة مونتيني ، وأب بيمونتي اسمه جيوفاني . وكان هذا الأب أستاذاً لعلم الكيمياء ، مشهوراً ، نقل بعد ميلاد ابنه بقليل إلى مدينة أوديني . وفي هذه المدينة أتم الطفل دراسته الابتدائية والثانوية ، وكان موفقاً فيها كل التوفيق ، ممتازاً على جميع أقرانه ، إن في كثرة التحصيل أو حسن الخلق . وتدل كراسات دراسته الأولى على جده المفرط ، والدرجات التي كان يحصل عليها على ميله الشديد إلى الدراسات الأدبية ، والدراسات الطبيعية والرياضية معاً ، مما سيكون له أثر كبير في حياته العلمية فيما بعد .

أما تربيته المنزلية فكانت حازمة ، لا تخلو في بعض الأحيان من الصرامة والقسوة . وإليها يرجع الفضل في سلوك الطفل المثلى والخلق وما ساده من جد وانصراف عن اللهو .

وكان له منذ طفولته ولع شديد بالجغرافيا . فأقبل على ما كان يكتب فيها يقرؤه بشغف شديد ، وخصوصاً كتب الأسفار ، التي استهوت خيال الطفل ، فجعلته يحلم بأن يكون في يوم ما من الأيام رحالة مغامراً ، يستكشف المجهول من البقاع والأصقاع . ولما كان هذا الحلم بعيد المنال وهو في هذه السن الصغيرة ، فقد كان يسرّى عنه هذا الشجن بأن يرسم مصورات جغرافية لبقاع شبه مجهولة في وسط أفريقيا ، معتمداً في ذلك على ما قرأه في كتب الأسفار والرحالين .

وإلى جانب شغفه الباكر بتقويم البلدان ووصف الأرض ، كان مغرماً بدراسة اللغات الأجنبية ، معنياً بالوقوف على أسرارها . فدرس أشهرها بإقباله على الدروس الليلية التي كانت تنظمها بلدية أوديني .

وكان يعنيه من كتب الجغرافيا ما كان يكتب عن آسيا وأفريقية خاصة ، لأنهما القارتان اللتان لم تكتشفا في جميع أجزائهما بعد . ولما كانت اللغة العربية أوسع اللغات انتشاراً ، في الأجزاء شبه المجهولة من الأوربيين في هاتين القارتين ، فقد اندفع الفتى الطلّعة إلى دراسة هذه اللغة . فبدأ تعلمها دون أستاذ ، ودون كتب في نحو اللغة وصرفها ، بأن كان يديم النظر في كتاب جمع منتخبات من الأدب العربي ، وقع نظره عليه في مكتبة بلدية أوديني . ولما رأى والده هذا الحرص على تعلم هذه اللغة أمده بكتب في النحو والصرف . واستمر الفتى في دراسة هذه اللغة حتى كان في استطاعته ، وهو لم يدخل الجامعة بعد ، أن يعرف أصولها ، وأن يفهم حتى الصعب من نصوصها . ولم يقتصر على دراسة العربية وحدها من بين اللغات السامية في هذه الفترة ، وإنما درس أيضاً العبرية والسريانية .

ثم دخل جامعة تورينو ، وقد كان بها في ذلك الحين مستشرق كبير هو إيتالو بيتسي ، الذي اشتهر خصوصاً بدراساته الإيرانية إلى جانب تدريسه للغة العربية واللغات السامية الأخرى . فتتلمذ له نلّينو ، وظل مخلصاً له طوال حياته ، وكتب عنه حين وفاته مقالاً قيّماً في « مجلة الدراسات الشرقية » (ج ٩ ص ٢٣٢ — ٢٣٤) ومقالاً آخر في « دائرة المعارف الإيطالية » كما تتلمذ أيضاً لأستاذ الجغرافيا المشهور في ذلك الحين ، وتمنى به جويدو كورا .

وكانت باكورة هذا الولع المزدوج بالعربية والجغرافيا أن أخرج كارلو الصغير الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة بعدُ بحثاً عن « قياس الجغرافيين العرب لخطوط الزوال » . وفي هذا الفصل القيم كشف عن علم واسع باللغة العربية ، ومعرفة دقيقة بالكثير من المسائل الفيلولوجية والتاريخية والعلمية ، ثم عن سيطرة مطلقة على منهج في البحث

مستقيم ، يمتاز بالدقة والاستقصاء ، والعناية بتحقيق المسائل وتحليلها . وهو منهج خصب تميزت به كل مباحث نلينو ، وجعلت منه فيلولوجياً عربياً من الطراز الأول . ولعل واحداً من المستشرقين لم يُوَفَّق في هذا المنهج ولا تلك الطريقة كما ستبين بعد حين . فكأن عقل نلينو العلمي قد نضج نضجاً مبكراً جداً ، لم يسبقه فيه في ناحية الاستشراق إلا المستشرق المجاري العظيم « اجناتس جولدتسيهر » الذي كتب بحثاً علمياً قيماً وهو في سن السادسة عشرة من عمره .

وهكذا بدأ نلينو تخصصه العلمي في هذه الناحية الجغرافية الرياضية عند العرب . وقد برع فيها في هذه السن المبكرة حتى إن جيوفاني اسكيابارلي الفلكي الايطالي المشهور ، وأخاه تشلستينو ، أحد المستشرقين البارعين ، عهدا إليه في سنة ١٨٩٤ بنشر زيج البتاني ، الفلكي العربي المشهور ، وترجمته والتعليق عليه . وهو عمل ضخم يتردد في القيام به أعظم الباحثين ، فما بالك بشاب لم يتجاوز الثانية والعشرين ؟ وقد كان لهذا الزيج أثر كبير في علم الفلك عند العرب ، ثم في علم الفلك عند المسيحيين في العصور الوسطى ، إذ كان مصدراً من أهم مصادرهم في هذا الباب . وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية ترجمة مبكرة أقبل عليها علماء أوربا يدرسونها حتى عصر النهضة ، حين تحقق على ما فيه ما جاء به علم الفلك الجديد على يد كوبرنيكس وكبلر وجاليليو من نظريات تخالف نظريات بطليموس .

ولكن نلينو لم يحجم عن الإقبال على هذا العمل ، ومن أجل هذا سافر إلى اسبانيا ليطلع على المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب ، وهي الموجودة بمكتبة الاسكوريال . وبدأ في دراستها لكي يعدها للنشر والترجمة والتعليق . وناهيك بالعمل الضخم الذي يتطلبه نشر هذا الكتاب : لقد اضطر الشاب العالم إلى الرجوع إلى ما وصل إلى يديه من تراجم لاتينية ، وإلى مخطوطات كثيرة يستخلص منها من المواد ما يعينه على تفهم الكتاب والتعليق عليه . ولم يكتف بهذا كله ، بل كان يرجع إلى المصادر اليونانية واللاتينية والفهلوية والهندية ، وهي التي منها أخذ الفلكيون من العرب الكثير من نظرياتهم . وكانت نتيجة هذا البحث كله ثلاثة مجلدات ضخمة في ١١٣١ صفحة من قطع الربع !

وكان هذا العمل وحده كافياً لأن يجعل من نلينو أكبر حجة في تاريخ الفلك عند العرب ، وأن يهيئ له مركزاً علمياً ممتازاً في هذا الباب . وفعلا اعترف له العلماء والمستشرقون بهذه المكانة التي لم يكن ينازعه فيها منازع ، حتى إن إدارة المعارف الاسلامية عهدت إليه بكتابة المواد الخاصة بتاريخ الفلك عند العرب (تنجيم ، فلك ، اسطرلاب). وكذلك فعلت « دائرة معارف الدين والأخلاق » الانجليزية . ولما استدعته الجامعة المصرية القديمة في سنة ١٩٠٩ ، طلبت إليه أن يلقي محاضرات في تاريخ الفلك عند العرب باللغة العربية ، وقد تمخضت هذه المحاضرات عن كتاب هو أقوم ما كتب في بابه . وقد ظهر باللغة العربية (في أربع كراسات تشتمل على ٣٧١ صفحة من قطع الثمن) تحت عنوان « علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » وطبع في روما سنة ١٩١١ .

وعلى الرغم من هذا كله لم تكن عناية نلينو بالفلك على هذا النحو الممتاز إلا جانباً واحداً من جوانب نشاطه العلمي المدهش المتنوعة . فدراسة الجغرافيا والفلك وتعمقهما إلى هذا الحد الذي يدعو إلى أشد الإعجاب ، لم يكونا ليحولا بين هذه العقلية العلمية الفسيحة المتشعبة وبين ولوجها جميع ميادين النشاط العلمي في الاستشراق الخاص بالعرب والإسلام ، والإلمام بمسائلهما علماً دقيقاً ، يقوم أولاً وبالذات على تحقيق النصوص ، والكشف عن النادر من الوثائق والمجهول من المخطوطات .

فكتب وهو في الثالثة والعشرين مقالا قيماً عن « نظام القبائل العربية في الجاهلية » ، وفيه بحث هذا النظام من الوجهة التاريخية والسياسية والاجتماعية ، بحثاً عميقاً

يدل على ذكاء نادر واستقامة فى الحكم والتقدير ، شهد بهما الأب لامانس فى كتابه المشهور عن «مهد الإسلام» . وقبل ظهور هذا المقال بحوالى عام أخرج نلينو كتاباً جمع فيه أشهر السور القرآنية ورتبها ترتيباً تاريخياً على حسب النتائج التى انتهى إليها نلدكه فى كتابه عن تاريخ القرآن ، وأضاف إليها تعليقات ومعجماً بأهم ما فيها من ألفاظ قارنها بمقابلاتها فى اللغات السامية الأخرى .

واشتهر الشاب العالم فى إيطاليا شهرة واسعة ، حتى إن وزارة المعارف الإيطالية أعطته مكافأة دراسية لكى يدرس فى القاهرة ، فجاء إليها فى ديسمبر سنة ١٨٩٣ ، واستمر فى مصر حتى مايو من العام التالى . وهنا استطاع أن يستفيد كثيراً ، وأن يستخدم قدرته الفائقة على الملاحظة فى فهم أحوال مصر خصوصاً ، والشرق والإسلام على وجه العموم . وكان لهذه الرحلة أثر قيم فى حياة نلينو العلمية فيما بعد . وبعدها أخرج كتاباً عنوانه « اللغة العربية فى لهجتها المصرية » لكى يدرس الإيطالى اللغة العربية بواسطته .

وبعد أن عرج على أسبانيا عاد إلى بلاده ، فأسند إليه شغل كرسى اللغة العربية فى معهد نابولى الشرقى فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ وقد ظل به حتى سنة ١٩٠٢ حين عزمت الحكومة على شغل كرسى اللغة العربية فى بالرمو ، وقد كان خالياً منذ زمن طويل ، فلم تجد خيراً من نلينو تضعه فى هذا المركز الذى ظل به حتى سنة ١٩١٣ . وفى هذه السنوات التى قضاها فى بالرمو ، أظهر نلينو نشاطاً عظيماً سواء فى التحصيل والدرس ، أو فى أداء مهمة التدريس التى عهد إليه بها خير أداء وأحسنه ؛ فعكف على قراءة الكثير جداً من الكتب العربية فى فروع العلم المختلفة ، لم يترك فيه باباً ، ولم يهمل مسألة من مسائله دون أن يقف عندها فيطيل الوقوف ، مهتماً بالدراسات العربية وحدها ، دون غيرها من الدراسات الشرقية ، بخلاف غيره من المستشرقين الذين كانوا فى الغالب يوجهون نشاطهم فى الاستشراق إلى نواح أخرى غير الناحية العربية وحدها أو الإرانية وحدها وهكذا .

وكانت عناية نلينو بالنواحى الأخرى بالقدر الذى يفيده لدراسته العربيـة فحسب ، لا من أجل التأليف والبحث فيها . وفى هذا يقول لأحد زملائه فى جامعة بالرمو : « لا أريد أن يغرينى شىء على الخروج من دراسة العرب وحدهم إلى دراسة أخرى ، لأنى أريد أن أعرف عن العرب كل شىء » . ولعل ذلك راجع إلى طبيعة نلينو فى البحث والتفكير ؛ فهو يحب التخصص ودراسة المسائل الدقيقة الصغيرة ، ولا يميل مطلقاً إلى الدراسات التركيبية الواسعة ، ولهذا لم يكن له فى هـذا الباب الأخير شىء ، اللهم إلا فى الحالات القليلة التى كان يضطر إليها اضطراراً كما فى كتابته المواد الخاصة بالكلمات العامة (مثل الإسلام ، محمد ، فلك) فى دوائر المعارف التى اشتغل بالتحرير فيها .

واستمر نلينو فى دراساته العلمية فى بالرمو ، لم يقطعه عنها إلا رحلته إلى الجزائر فى سنة ١٩٠٥ بمناسبة انعقاد مؤتمر المستشرقين الدولى فى هذه المدينة حينذاك . وهناك فى الجزائر دفعته رغبته إلى الأسفار إلى زيارة بلاد الجزائر حتى الأجزاء غير المعروفة تماماً منها .

وبعد غزو إيطاليا لطرابلس لجأت إليـه وزارة المستعمرات لتستعين بخبرته ومعرفته الدقيقة بأحوال العالم الإسلامى . فكان مديراً للجنة تنظيم المخطوطات العثمانية ولكتب الترجمة . وفى هـذا أفاد الحكومة الإيطالية فائدة قيمة ، خصوصاً فيما يتصل بنقل أسماء البلدان العربية فى طرابلس إلى اللغة الإيطالية ، ثم فى مسألة الخلافة التى أثارها الأتراك فى ذلك الحين ، وكانت موضعاً لكثير من المناورات السياسية إبان الحرب العظمى . فقد كتب عن الخلافة رسالة طويلة بحث فيهـا طبيعة الخلافة على وجه العموم ، والخلافة العثمانية « المزعومة » (على حد تعبيره) بوجه خاص . وقد عالج مسألة الخلافة من بعد مرة أخرى فى سنة ١٩٢٤ فى مجلة « الشرق الحديث » بمناسبة زوال

الخلافة العثمانية . ولن نتعرض هنا لبيان آرائه في الخلافة ، فليس مجالها هذا المقال الصغير ، كما أن هذه الآراء قد تغضب طائفة من الناس في مصر الآن ! فلندعها وربما نعود إليها بعد حين .

وكان لهذا الغزو أيضاً أثره في زيادة عناية الحكومة الإيطالية بالدراسات الاسلامية ؛ فأنشأت في جامعة روما إلى جانب كرسي الأدب واللغة العربية كرسيا لتاريخ الاسلام ونظمه أسندت الحكومة الايطالية شغله إلى نلينو في سنة ١٩١٥ . وفي هذا الوقت عينه تخلى له الأستاذ جويدي الكبير عن الإشراف على مجلة « الدراسات الشرقية » ، فأشرف على إخراجها وكتب فيها مقالات قيمة فيما بين سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٣٠ ، أشهرها المقالة الخاصة بأصل تسمية المعتزلة ثم اسم القدرية ، ثم المقالة الخاصة بفلسفة ابن سينا ، وهل هي شرقية أو إشراقية . وقد حل هذه المشاكل المعقدة في تاريخ الكلام والفلسفة الاسلامية حلاً يكاد يكون نهائيا ، على الرغم مما أثارته بين جميع الباحثين من قبل من اختلافات . ويتصل بهذا أيضاً مقالتان كتبهما عن ابن الفارض بمناسبة ترجمة ابنته الكبرى إلى اللغة الايطالية ، وفيهما كشف عن سعة اطلاعه المدهشة على المذاهب الأفلاطونية الجديدة والمسيحية ، ومعرفته بأدق أحوال الصوفية النفسية .

ثم عني بالشريعة الإسلامية وكان له فيها باع طويل ، خصوصاً حين أثيرت مسألة وجود قانون سرياني سابق على الشريعة الاسلامية وبه تأثرت . وقد أثبت نلينو ، بحجج لاتحتمل شكاً ولا تستلزم النقض ، أن القوانين المسيحية الشرقية تعتمد كلها على الشريعة الإسلامية ، ومنها استمدت . وكانت مناظراته في هذا الصدد مثاراً لإعجاب الجميع حتى خصومه أنفسهم .

وفي سنة ١٩٢١ أنشئ في إيطاليا « معهد الشرق » من أجل دراسة أحوال الشرق وشئونه السياسية والاقتصادية والثقافية ، وخصوصاً الشرق الإسلامي .

وعين نلينو مديره العلمي . وهذا المعهد هو الذي يخرج مجلة « الشرق الحديث » التي ذكرناها آنفاً .

وملأت شهرة نلينو الأسماع سواء في إيطاليا وفي الخارج . فنيطت به مهام ضخمة وحاز ألقابا رفيعة إذ كان عضواً في مجلس التعليم الأعلى ولجنة المعارف ، وأصبح عضواً في الأكاديمية الإيطالية في مارس سنة ١٩٣٢ . وأسندت إليه رئاسة القسم الشرقي في تحرير دائرة المعارف الإيطالية ، وفيها كتب أهم المواد الخاصة بالإسلام والعرب . كما كان عضو شرف لكثير من الهيئات العلمية في الخارج .

ولعل واحداً من المستشرقين لم يكن أوثق من نلينو صلة بمصر . فالجامعة المصرية القديمة قد دعته إلى تدريس تاريخ الفلك عند العرب في سنة ١٩٠٩ و سنة ١٩١٠ ، ثم تاريخ الأدب العربي في السنتين الدراسيتين التاليتين . وكان لتدريسه في الجامعة المصرية القديمة أخطر الأثر في تكوين كبار الأدباء في مصر الآن . فقد استحدث منهجاً جديداً لدراسة تاريخ الأدب العربي ، لم يكن معروفا في مصر من قبل . وقد شهد بفضله على الجامعة أكبر تلاميذه فيها وأعظمهم ولاءً له ، وهو الدكتور طه حسين بك في أول كتابه « في الأدب الجاهلي » . وكم كان الرجل يعطف على مصر ويحب المصريين ! ولم تنس له مصر هذا كله . فدعته الجامعة الجديدة مرة ثانية فيما بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٣١ لتدريس تاريخ اليمن بكلية الآداب لمدة أربعة أشهر كل سنة . وعين عضواً في المجمع اللغوي سنة ١٩٣٣ .

ومكانة نلينو من بين المستشرقين جميعاً مكانة ممتازة لايدانيه فيها إلا جولد تسيهر وبلدكه ، وهو يمتاز عن جولد تسيهر بدقته العلمية ، وسعة اطلاعه على مختلف المسائل الاسلامية والعربية ، وتجنبه الفروض الخيالية التي إن دلت على نفوذ البصيرة وعمق الوجدان ، فان فيها الكثير من الخطر . ويمتاز أيضاً بمنهجه التحليلي المنطقي ؛ فهو لا يلجأ إلى البحوث التركيبية إلا إذا حمل عليها قسراً . ولهذا

(البقية على الصفحة التالية)

الأدب والرياضيات

للأستاذ قدري حافظ طوقان

الأديب لا يستسيغ الرياضيات ، والرياضي لا يتذوق الأدب . ومن أنعم الله عليه بالأدب والذوق الأدبي سلبه الرغبة في العلوم الرياضية بأرقامها ومعادلاتها . ومن وجد في البديع والبيان لذة ومتاعا مال عن مشاكل الأعداد ، وتهيب الاشتغال بالأشكال وتوابعها . والذي نشأ على الأدب وتشبع بروحه كره فروع العلوم الدقيقة وأشاح بفكره عنها .

هذا ما يقوله كثير من المتعلمين ، ويكاد يكون هذا القول اعتقاداً عند أصحاب الثقافة العالية . ولقد أثبت الواقع خلاف هذا ، وأنه يمكن للرياضي أن يكون أديباً كما يمكن للأديب أن يهيم بالعلوم الرياضية ، وإذا اطلعنا على كتب الأقدمين من علماء العرب ونوابغهم ، نجد أن بعضاً منهم جمع بين الأدب والرياضيات ، وأن منهم من برز في كل منهما ، وقد حلق في الناحيتين وكان له فيهما جولات موفقات ، وزاد في ثروة الميدانين — الميدان الرياضي والميدان الأدبي — وسما بهما إلى درجات الخلود .

ولقد امتاز العرب في الجمع بين الفروع المختلفة من الأدب والعلوم الرياضية ، وفاقوا في ذلك غيرهم من الأمم ؛ فتجد بين علمائهم من أجاد فيها وغاص على دقائقها ووقف على روائعها .

ومن يطلع على كتاب « الجبر والمقابلة » للخوارزمي ، يجد أن المؤلف جمع بين الجبر والأدب ، وجعلهما متممين بعضهما لبعض ، فالمادة الرياضية موضوعة في أسلوب أخاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد ، ينم عن أدب رفيع وإحاطة كلية بدقائق اللغة . ونظرة إلى كتب البيروني يتبين منها أن تعانق الأدب والرياضيات بما فيها الفلك والطبيعيات ممكن . وليس أدل على ما قلت من « كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » للبيروني ، فأسلوبه سلس خال من الالتواء يخرج منه القارئ بثروتين أدبية وعلمية ، ويشعر بلذتين : لذة الأسلوب الأدبي ، ولذة المادة العلمية .

وما يقال عن مؤلفات الخوارزمي والبيروني يقال عن مؤلفات البتاني ، والبوزجاني ، وابن حمزة ، وأبناء موسى ابن شاكر ، وابن قرة ، والطوسي ، وابن بدر وغيرهم من عباقرة العرب .

وبلغ هيام العرب في الناحيتين درجة جعلت بعضهم ينظم القوانين الرياضية ، والمعادلات العويصة ، والظواهر الفلكية شعراً ، فلقد وضع ابن الياسمين أرجوزة ضمنها علم الجبر الذي يدرسه الآن طلاب المدارس الثانوية ،

فإن نتائج أبحاثه نتائج حاسمة في معظم الأحيان إن لم يكن فيها كلها ؛ وهو في منهجه لا يجاريه في دقته أي مستشرق آخر على وجه الإطلاق .

وبعد فهذه لمحة سريعة أردت بها أن أعبر عن واجب الوفاء لأستاذ له أكبر الأثر في توجيهي ، وإن لم يكن لي حظ التتلمذ عليه في قاعات الدرس ، ومن عاطفة الإخلاص لصديق طالما شملني بعطفه ، وفاض علي بغزير علمه ، أثناء زيارتي لإيطاليا منذ عامين ، وبهذه الكلمة أتوجه إلى الآنسة ماريا نلينو ، وقد كان لها الفضل في تعريفي بأبيها ، راجياً من الله أن يجعل لنا من هذه المستشرقة الممتازة ، على الرغم من حداثة سنها ، عوضاً عن هذا الوالد العظيم .

عبد الرحمن بدوي

وكذلك ابن الهائم الذى صاغ القواعد الجبرية شعراً . وقد درسنا أرجوزة ابن الياسمين ، وسبق لنا أن كتبنا شيئاً عنها فى (الرسالة) فإذا هى تدل على سيطرة الناظم على فنون الشعر بأوزانه وقوافيه ومعانيه ، وعلى هضم مبادىء العلوم الرياضية هضما نتج عنـه أرجوزته التى هى الحجة الدامغة على الذين يقولون باستحالة الجمع بين الأدب والرياضيات وما يتفرع عنها .

مَنْ منا لم يسمع عن الخيام ، ومَنْ منا لم يقرأ رباعياته ؟ فلقد كان شاعراً وفيلسوفاً وأديباً — وقد لا يعرف كثيرون أنه كان فوق هذا كله رياضيا وفلكيا من الطبقة الأولى أيضاً . ألف فى الجبر والفلك ، وإليه يرجع الفضل فى وضع بعض القوانين فى نظريات الاعداد وابتكار طرق جديدة فى حل معادلات الدرجة الثانية ، وبعض أوضاع الدرجة الثالثة .

من منا يجهل ابن سينا الفيلسوف الطبيب الشاعر ، والكندى الذى سرى ذكره فى كل ناد ، والفارابى وابن رشد و و . . . . ؟

وهؤلاء بالإضافة إلى مآثرهم فى الفلسفة والأدب والطب ، خدمات جليلة فى العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية ، وإليهم يرجع التقدم الذى أصاب بعض بحوثها وموضوعاتها .

ما قول القارىء فى ناظم الأبيات الآتية :

أحمِّلُ نشر الريح عنـد هبوبه
رسالة مشـتاق لوجه حبيبـه
بنفسى من تحيا النفوس بقربه
ومن طابت الدنيـا به وبطيبه
لعمرى لقد عطلت كأسى بعـده
وغيَّبتها عنى لطول مغيبـه
وجدد وجدى طائف منه فى الكرى
سرى موهناً فى خِـفْيَة من رقيبه

هل تصـدر هذه الأبيات إلا من شاعر غزلى رقيق يفيض عاطفة وشعوراً ؟

هذا الشاعر الغزلى رياضى فلكى من الدرجة العالية ؛ فإليه تنسب قوانين مهمة فى المثلثات ، وإليه يرجع اختراع الرقاص (بندول الساعة) ، وقد سبق غاليلو فى ذلك بستة قرون .

ما رأى القارىء بالمهندس رى ؟

لقد اشتهر بالأدب والهندسـة والحساب والفلك والنبات ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له فى الرياضيات والأدب ساق وقدم ورواء وحكم .

وابن الهيثم — ماذا أقول عنه ؟

إنه من مفاخر الأمة العربية ، ومن علماء العرب العالميين ؛ برع فى الرياضيات ، وسما فى البصريات ، ولولاه لَمَا تقدمت تقدمها المشهود ، طبق الهندسة على المنطق ، ولولا تضلعه فى اللغة ووقوفه على خصائصها وقواعدها ، ولولا أسلوبه الأخاذ لَمَا كان فى استطاعته أن يؤلف المؤلفات القيمة ويضع الرسائل النفيسة .

تقرأ مؤلفه فى البصريات فيحببك إليهـا ويرغبك فى الاستزادة منها .

ولو جئنا نعدد علماء العرب الذين برزوا فى الأدب والرياضيات والفلك وجعلوا من الأدب واسطة لترغيب الناس بها لطال بنا المطال وخرجنا عن الموضوع .

وهنا قد يقول قائل إن العلوم الآن توسعت وتضخمت وأصبح من الصعب الغوص فى العلوم الرياضية والتعمق فى نواحى الأدب ، وأن هذا الذى كان ممكناً فى الماضى قد يستحيل الآن . .

وهذا صحيح . . . إلى حد .

وما أقوله هو أن الرياضى يمكنه أن يتذوق الأدب إذا أراد ، ويمكنه بالمطالعة والدرس أن يصيغ أفكاره وآراءه فى الرياضيات والعلوم الطبيعية بلغة سهلة سلسة لا تعقيد

فيها ، بل إن الرياضي إذا التفت قليلاً إلى الأدب فإنه يستطيع أن يحبب الناس إلى العلوم وأن يرغبهم بها ويوقفهم على روائعها وعلى أثرها في تقدم الاكتشاف والاختراع .

والأديب الذي يُعنى بالرياضيات الابتدائية (ولا أقول العالية) يكسب من ذلك قوة في المنطق وتنمية في ملكات الترتيب والدقة والنظام ، ولا يقبل شيئاً دون تمحيص وبحث ودرس ، وفي هذا دعامة لأسلوبه يزيده قوة وبلاغة ، وفي هذا ما يساعده على السير في بحوثه ومقالاته على أساس التفكير المنظم والطريقة العلمية الصحيحة .

ونجد مع الأسف الشديد أن هناك تنافراً بين الأدباء والرياضيين أدّى إلى عدم اهتمام كل من الفريقين بالناحية التي يتناولها الآخر ، فنتج عن ذلك جهل كل فريق مبادئ الموضوعات التي يُعنى بها الفريق الثاني ، فإذا اضطر أحد الذين يهتمون بالرياضيات إلى الكتابة في موضوع ما أو تبسيط قانون أو شرح قاعدة فهناك السحر الحرام لا الحلال !!..

وهناك الركاكة على أتمهـا والتعقيد والغموض على أوسع درجاتهما بالإضافة إلى خرق قواعد اللغة خرقاً ينتهك حرماتها ويقضّ مضاجع سيبويه وغيره من أعـلام اللغة وأئمة البيان ...

ولقد اطلعنا على ترجمة لكتاب في علم الطبيعة (الفيزياء) فإذا الترجمة سقيمة وإذا الأسلوب عقيم يخرج منه القارئ بخسارة في ثروته الأدبية !! ...

وأظن أنه من الجناية السماح للطلاب باستعمال الترجمة أو الاستعانة بها لأنها بالاضافة إلى الخسارة التي تصيبهم منها تنفرهم من الطبيعة وتجعل فهم موضوعاتهـا صعباً بعيد المنال .

إن الكتاب ذا الأسلوب السلس غير المعقّد يحبب القارئ إليه ويزيد رغبته في مطالعته وهضم مواد بحوثه وموضوعاتها .

وقد يصدف أن يضطر أديب إلى الكتابة في موضوع يحتاج إلى استعمال بعض المعلومات الرياضية أو الفلكية أو الطبيعية ، فيقع في أغلاط لا يجوز لمثله أن يقع فيها ، ويخلط في بعض القوانين والقواعد فيأتي بالعجب المضحك .

وإني أذكر أن أحد كبار الأدباء (المشار إليهم بالبنان !!..) نشر مقالاً في (الشذوذ في النظام الشمسي) في إحدى المجلات المحترمة ، كله أغلاط ، وكله خلط وهذيان ، فالكواكب عنده لا تزال سبعة ، والعالم على رأيه بدايته في العدم ، ونهايته في الشهب !! ... والنظام الكوني في نظره فوضى واضطراب ...

وقد رددت عليه ، ومن جملة ما قلته في ردّي : « ... ... ولا يجوز للأستاذ ... ... ولا لغيره التضحية بالحقائق في سبيل تنميق مقال وجعله في قالب جذاب وأسلوب يعرب عن أدب جم ... » .

وخلاصة القول أن الرياضي في حاجة إلى الأدب إذا أراد أن يكون منتجاً مثمراً ، والأديب في حاجة إلى المعلومات الأولية في العلوم سيما الرياضية والطبيعية إذا أراد أن يكمل ثقافته وأن يكون ذا بصيرة نافذة يتعرف إلى ما حوله ويدرك الأنظمة والقوانين التي تسيّره وتسيّر كونه .

إذا تمّ هذا للأديب ومع الرياضي تعزز حياتهما ، وتتفتح أمامهما بعض المغلقات ، ويسهل لديهما عرض ما يجول بخاطرهما ، ويصبح لديهما العلم والأدب أكثر متاعاً ، ولذة وانتفاعاً .

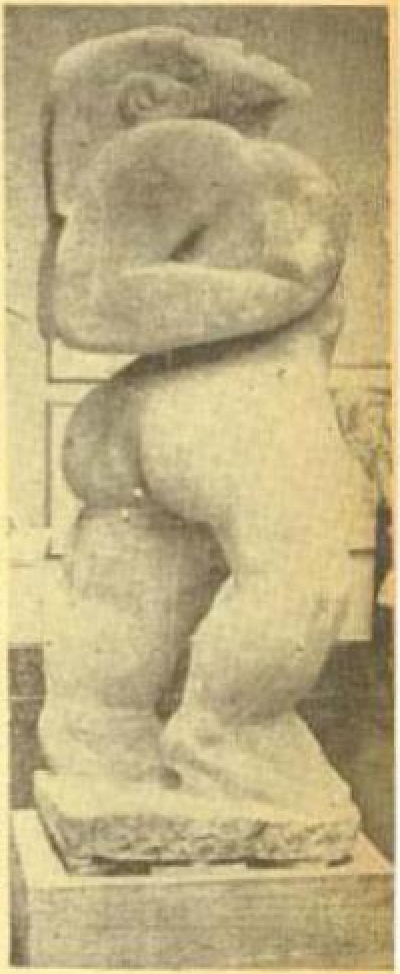
(نابلس) **قدري حافظ طوقان**

فنان غير مفهوم

أثار التمثال الذى وضعه النحات ابستين الانجليزى عن آدم ضجة بين النقاد الفنيين ؛ فنهم من هاجمه بشدة ، ومنهم من حاول أن يقرب وجهة نظره فى هذا التمثال إلى الأذهان بالتعرض لبسط نظريته التى يأخذ بها فى تماثيله .

ويبلغ ابستين من العمر ٥٩ عاما قضى منها الأربعين الأخيرة فى الاشتغال بفن النحت ، وهو يقوم بعمل تماثيله بنفسه ، ويرفض أن يستعين بالمساعدين كغيره من المثالين .

ولا تلاقى تماثيله من الرواج ما تلاقيه تماثيل غيره من الفنانين الذين قد يقلون عنه فى المكانة بين فنانى الانجليز ؛ ويرجع ذلك إلى الغموض الذى يحيط بفنه ، وإن كان ذلك لم يمنع أن تحظى تماثيله التى وضعها للمعاصرين ببعض النجاح ، كتماثيله لشو وهكسلى وتشامبرلين . . .





ابستين بين تماثيله النصفية من البرونز ، ويلاحظ أنها لا تبدو بالضخامة التى يتسم بها إنتاجه فى التماثيل المصنوعة من الأحجار



ويشتغل إبستين الآن بصنع تمثال للسيد المسيح تتجلى فيه نفس نظرياته عن الفن ، فهو يبدو بنفس الضخامة التي صنع بها تمثاله لآدم ، ويرجح أن ينتهي من نحت هذا التمثال خلال بضعة شهور ، وإن كان النقاد لا يمهلونه لكي يتمه ، فقد بدأ بعضهم ينقد التمثال ويهاجم فكرته من الآن .

* * *

إبستين يعمل في تمثاله عن السيد المسيح



رفض إبستين أن يستعين بالمساعدين ←

الصور فى المنزل

للأستاذ محمد يوسف همام

يميل الإنسان بطبيعته إلى التغيير والتبديل ، وهو يتبرم إذا مل شيئاً أو سئمه ، ولذلك فكثيراً ما يعمد محب الصور إلى تغيير أماكن تعليقها فى منزله ، ويجتهد فى أن يستبدل البعض منها بغيرها عندما تكون قد قضت فى حوزته زمناً طويلاً ، وهو يرمى من وراء ذلك إلى إشباع حب التجديد فى محيطه الفنى ، مع الاحتفاظ بالتوفيق بين مظهر تلك الصور والمظهر الفنى للبيئة المنزلية .

والمعروف عن الصورة أنها تزيد من زخرف الحجرة ولكنها قد تقلل من رونقها إذا أسىء اختيار مكانها . ونحن نعلم أن للصورة من الأثر الزخرفى ما لأى قطعة فنية من الأثاث . وقليل من الناس من يعلم أهمية اختيار الصورة على أساس اللياقة مع الحجرة ، وأقل من هؤلاء من يدرك وجوب اختيار الحجرة الملائمة التى تناسب الصورة المعينة . وربما كان السبب فى ذلك أننا لم نوجّه فى تعليمنا الوجهة التى تقدّر بها الصورة على أنها إحدى وحدات الأثاث ، لها ما لغيرها من حقوق التجديد بالنقل وبتغيير المكان ، فهى فى ذلك كالستائر ، وكالمناضد والمقاعد ونحوها ، ولكنها تمتاز عنها بأنها لا تبلى بالاستعمال ، ولذلك فهى تحتفظ بقيمتها المالية ، شأنها فى ذلك كشأن كل شىء ثمين لا يبلى ، مثل الجواهر الكريمة وطوابع البريد الغالية الثمن عند هواتها .

ونحن إذا تعودنا رؤية صور معينة باستمرار فى مكان واحد سنوات طويلة ، نألف منظرها لأنها لا تغيب عن أبصارنا ، ويكون من وراء ذلك أنها تفقد مالها من تأثير فلا نعود إليها ، كما كنا من آن لآخر ، لنتطلع إليها برغبة جديدة ، وبشوق الغائب عنها ، فهى إذاً تغوص فى بحر الإهمال ، وتختفى فى جو النسيان ، وتفقد بذلك مكانتها الفنية عندنا .

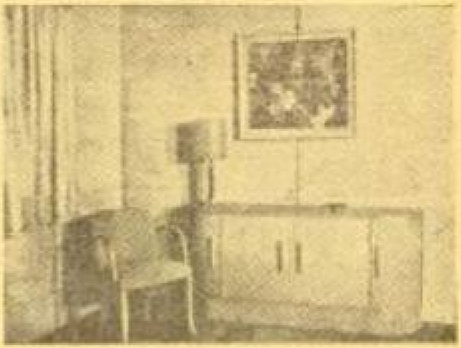


شكل ١ — من مجلة STUDIO الانجليزية

إن فى تصميم ألوان الصورة الملحقة توافقاً فنياً يبلغ منتهى الجودة ، فالسماء زرقاء باهتة ، والسقوف حمراء قاتمة ، تتخللها درجات من الأصفر البيض الفاتح . وقد علقت الصورة وخلفها قماش ورق اللون مثبت على حائط ذى لون برتقالى مصفر ، وجاء لون قماش المقعد الأيسر أخضر ، وكذلك ألوان الإناءين الصغيرين والكتب والجزء الأسفل من المدفأة الكهربائية . أما لون المقعد الأيمن فورقى أيضاً ، ولون البساط رمادى غير قاتم . وهناك لون أحمر فى حروف السجادة الصغيرة وفى نقوش لونها العام المشابه للون الحائط ، وفى كل ذلك انسجام تام . وكان من نتيجة تعليق الصورة فى ذلك المكان أنها أخذت مكاناً يجذب إليها النظر فظهرت على أحسن حال .

وخير ما يؤدى بنا إلى احتفاظ الصور بنضارتها وبهجتها على الدوام ، هو أن نعمل على تغيير أماكنها بين آن

وآخر، لا في الحجرة الواحدة فحسب، بل في المنزل كله. ولكن هذه الطريقة قد لا تكون دائماً مضمونة النجاح



شكل ٢ — ا من مجلة STUDIO الإنجليزية
هنا علقت صورة بها أزهار وهو اختيار موفق لنوع الأثاث وألوانه وترتيبه.

إذ لا يصلح كل مكان لكل صورة. واليابانيون طريقة خاصة للتغلب على هذه الصعوبة، فهم قد اعتادوا اقتناء عدد وافر من الصور، يرونه مرات عديدة على ما يسمه حيطان منازلهم، ولكنهم لا يعلقون منها إلا القليل في كل مرة، ثم يحتفظون بالباقي في مخزن بمنزلهم، ويغيرون المجموعة المعلقة من آن لآخر، كلما تغيرت فصول السنة، ووفق تطور أمزجتهم الخاصة، وكلما استدعتهم الظروف والمناسبات المختلفة. وقد نشأت في إنجلترا جمعيات تجارية تعير الصور والتماثيل وتؤجرها، نظير اشتراك معين، على نظام المكتبات التي تؤجر الكتب، والمحال التي تؤجر الراديو والبيانو وما إليهما، ويا حبذا لو وجد عندنا في مصر هذا النظام، ففيه ميزات عديدة، فهو يمهد السبيل للناس لكي يفهموا قيمة الكثير من الصور الجيدة ويقدروها، فتنتقل إليهم في دورات يختلف طولها حسب الطلب، وهذا كفيل ببهجة التبديل والتنويع والتنسيق. وطبيعي أن يؤدي ذلك بالناس إلى التعرف بالمصورين الكثيرين الذين تشتهر أسماؤهم ويختبر فنهم، وتتاح الفرصة للفنان النابه القدير، الذي كان الناس يترددون في اقتناء صوره لسبب من الأسباب، أن يعرف ويقدر فنه. ثم إنه بهذا النظام يتسنى لكثيرين ممن لم يكن في ميسورهم شراء الصور الغالية، أن يتمتعوا بالكثير منها، فيعيشوا بذلك في جو فني كانوا يحلمون به. ويكون لذوي مثل هذه الجمعيات مهمة إرشاد الناس إلى نوع الصور التي تلائم بيئة منازلهم، وإلى الأمكنة المناسبة لوضعها فيها داخل حجراتهم ومنازلهم، فتصبح بيوتنا أشبه بالمعارض الفنية على شكل مبسط، ويكتسب أصحابها ذوقاً فنياً سليماً تتجلى آثاره في نواحي معيشتهم المختلفة، كل ذلك باشتراك بسيط يسهل على الكثيرين دفعه من غير أن يؤثر كثيراً في مواردهم.



شكل ٢ — ب من مجلة STUDIO الإنجليزية
وهنا صورة من الفن الحديث من النوع الايبرشي (المموق)، وقد علقت في ذات الحجرة الظاهرة في شكل ٢ — ا فغيرت من مظهرها. ويعتبر هذا النوع من الصور حلية زخرفية لا أقل ولا أكثر، فكأن الصورة وحدة من وحدات زخرفة الحائط، ولكنها وحدة غير متكررة، كأنثر وحدات زخارف ورق الحيطان. وقد اقتضى الحال تغيير شكل المصباح والأثاث والقصد ليندمج الكل في توافق جديد.

ويرى القارئ في الصور المنشورة مع هذا المقال أمثلة توضح بقدر الإمكان وضع بعض الصور في الأمكنة المناسبة لها، وذلك نقلاً عن مجلة Studio الانجليزية الشهيرة.

محمد يوسف همام

تشسترتون

زعيم الرجعية في عصر التطور

الأستاذ فخري أبو السعود

شهدت أواخر القرن الماضي وأوائل الحاضر تحولاً عاماً في المبادئ السياسية والاجتماعية والأدبية في إنجلترا : إذ نفر الناس تدريجاً من المبادئ التي كانت تسود تلك المناحي في العصر الفكتوري : كانت النزعة الاستعمارية في العصر الفكتوري تسود السياسة حتى ساقت انجلترا إلى حرب جنوبي أفريقا التي كبدتها خسائر فادحة ، وكان للفكتوريين اعتداد شديد بحالهم الراهنة ومبادئهم السائدة ، تجعلهم يشيحون عن كل جديد ويتمسكون بما لديهم ، وكان الفرق الاجتماعي في ذلك العهد بين الطبقات كبيراً ، وكان مركز المرأة تثقله القيود ، وكانت الأخلاق تتسم بالتزمت والتحرج المغرق ، وكانت معايير الأدب تتمثل في أشعار تنيسون وقصص دكنز ، حتى مل الناس تلك المبادئ والمعايير كما هو دأب المجتمعات الحية من دوام التطور والتبديل .

وكان زعيما التطور الفكري الذي تجلى في مستهل القرن الحاضر هما برنردشو و هـ . ج . ولز ، هذان الكاتبان العظيمان أوسعا الأحوال الراهنة والآراء المعتقدة نقداً وتفنيداً وتجريحاً ، وفتحا للناس أبواباً من الفكر لم تكن معروفة ، وحثا الجمهور القارئ على إصلاح مساوئ المجتمع الراهن والتطلع إلى مجتمع في المستقبل أقرب إلى المثل الأعلى يحيا فيه إنسان هو أقرب إلى السوبرمان ، فبينا كان الفكتوريون يعتقدون أن مجتمعهم هو المثل الأعلى للحضارة ، إذا ولز يقول إن الحضارة الإنسانية لم تبدأ بعد



تشسترتون

لأن تاريخ البشرية في الماضي لم يكن إلا سلسلة أخطاء ومجازر وجرائم ، وإذا شو ينادي بإنسان أعلى ، نسبة الإنسان الحاضر إليه كنسبة القردة إلينا .

فوجئ الناس بهذه الآراء الجريئة وهذه العوالم الجديدة يعرضها على أبصارهم ذانك الكاتبان القديران ومن ماثلهما فكراً وقل عنهما عبقرية وشهرة ، وكان حرياً أن يفاجأ الناس ويعجبوا في مجتمع كالمجتمع الانجليزي معروف بمحافظته وإجلاله للتقاليد ، وكان حرياً بجانب الإعجاب الذي قوبل به المذهب الجديد أن يقابل من كثيرين بالبغض والنفور والنقد والهجوم ، وهذا ما كان ، بل إن شو نفسه لم ينل مكانته الحاضرة لقمة سائغة بل اضطر أن يسلك إليها

شتى الطرق ويتفرع بشتى الوسائل . أما الحلقة المضادة المذهب الجديد التي كان حتماً ظهورها فقد كان فارسها العلم جلبرت كيث تشسترتون زعيم الرجعية في عصر التقدم السريع والتطور المطرد .

وُلد ج. ك. تشسترتون في لندن عام ١٨٧٤ ، ومات منذ نحو ثلاث سنين ، ونشأ عظيم الجسم ، مديد القامة ، حتى قال عنه شو : إنك حين تخاطبه يظل نصفٌ منه خارجاً عن متناول بصرك ! ويقول هو عن نفسه في ترجمة حياته بقلمه : إنه كان أكولاً محباً للطعام مشغوفاً بشرب البيرة ؛ وهو في ذلك يناقض شو البيوريتاني النزعة الذي لا يشرب الخمر ولا يقرب اللحم ويتجنب أشتات اللذات ؛ والتحق تشسترتون بمدرسة للفنون لِميْله إلى التصوير ، ولكنه لم يتم دراسته بها ، واحترف الصحافة والنقد الفني والأدبي ، وظل ذلك عمله إلى آخر حياته الحافلة من مهم الأحداث ، وزار ألمانيا وأسبانيا وبولندة والولايات المتحدة وغيرها للمحاضرة في الأدب الانجليزي .

لم يكن تشسترتون تلميذاً نجيباً ، بل هو يعترف في ترجمته لنفسه بأنه كان غبياً ، وقد هجر الدراسة قبل أن ينال شهادة ما ، بيد أنه كان منذ صغره محباً للأدب بارعاً فيه ، فأنشأ هو ورفقة من زملائه في المدرسة الابتدائية مجلة جذبت إليهم الأنظار ونالت تشجيع ناظر مدرسته ؛ وفي مدرسة الفنون سالفة الذكر بلغ تشسترتون مبالغ الرجال ونضجت أفكاره ، وهاجته شتى مسائل الحياة ، حتى استولى عليه القنوط ، وتملكه التشاؤم وزعزعت عقيدته الدينية ؛ بيد أنه ما زال في بحثه وتفكيره حتى اهتدى إلى العقيدة التي استراح إليها ضميره واستقرت بها بلابله ، ولم تكن تلك إلا العقيدة المسيحية ذاتها ، تلك العقيدة التي هجرها منذ مدة باحثاً عن الحقيقة فما لبث أن عاد إليها مهتدياً .

قال في هذا الصدد في مقدمة كتاب « السنة » : « لقد كانت نفسي تحدثني دائماً بكتابة قصة خيالية عن بحار انجليزي أخطأ في قياس طريقه حتى اكتشف انجلترا وهو يحسبها جزيرة من جزر البحار الجنوبية » ويستطرد فيبين أن ذلك مَثَلُه هو نفسه : إذ خرج طائفاً باحثاً عن الحقيقة فاهتدى إلى القانون الكنسي الذي كان يعرفه حق المعرفة قبل ذلك التطاف ، ذلك بأن التشاؤم الذي ران على نفسه حقبةً كان قد أرهقها وهي الميالة بطبيعتها إلى المرح ، فوجدت نفسُه ضالَّتها في المسيحية التي تدعو إلى قبول الحياة على علاتها في بِشْر ، ومنذ ذلك الحين صار تشسترتون زعيم التفاؤل وعَدُوٌّ نزعة التشاؤم السائدة في كتابات بعض معاصريه ، كتوماس هاردي وهاوسمن ، فهو يقول عن هاردي في كتابه عن الأدب الفكتوري إنه « ملحد ريفي قابع في اكتئاب يلعن ويجدف في احتفائه بأجلاف القرويين » .

في عصر الشك والمروق تمسَّك تشسترتون بعقيدته الدينية ، وتعلق بأهداب مسيحيته وعاب على معاصريه في مقدمة ما عاب زيغ عقيدتهم ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل ما زال وهو البروتستانتي النشأة يميل رويداً رويداً إلى الكاثوليكية في آرائه ، حتى اعتنقها رسمياً وهو في الثامنة والخمسين من عمره . ولعل صديقه الحميم هيلير بيلوك هو الذي ساقه إلى اتخاذ هذه الخطوة ؛ وبيلوك هذا كاتبٌ مؤرخ فرنسي الأب كاثوليكي المذهب تعرَّف به تشسترتون في مطلع — وهذا شبيهٌ بتشسترتون الكثير الارتياد المطاعم — فسرعان ما توافقا في الرأي والمزاج ، وأعجب المترجَم بصاحبه أشد إعجاب ، وكانا بعد ذلك يداً واحدة في الحملة على شو ، حتى عدَّهما شو شخصاً واحداً أو غولاً واحداً يقوم هو بمجالدتهما ، كما كان الفرسان في القديم يجالدون الغيلان والوحوش ، وسمّى شو ذلك الغول « تشستربيلوك » .

أحب تشسترتون الكاثوليكية لما فيها من روح البشر والتفاؤل الذي يلائم طبعه ، وتولى الدفاع عنها إزاء حملات البروتستانت الذين يصمونها بالرمزية والوثنية ، ودافع عن تقاليد الاعتراف والكفارة وغفران الذنوب ، وقال إن المذهب الكاثوليكي الروماني يحلّ كل مسائل الفكر التي كانت تعترضه ويرضي نزعته إلى الحرية ، وله في كل ذلك كتابات طويلة ولما كتبَ في هذا الصدد أول كتبه دهش القراء ولم يكادوا يصدقون أنه جادٌ ، وإنما ظنوه يبغي الطرافة ويتوخى الإغراب ؛ ولكنه لزم موقفه ذاك في اخلاص وشجاعة وحماسة إلى آخر حياته ، واصطبغت كتاباته بهذه النزعة الدينية الغالبة : فهو كثير الطرق لمواضيع الدين ، ومعظم أبطال قصصه قسس أو فلاسفة متدينون ، حتى إنه لما كتب جملة قصص بوليسية على نمط قصص شرلوك هولمز جعل بطلها المحقق قسيساً حلالاً للمعضلات كشافاً للغوامض . ومن آثار نزعته الدينية هذه قصيدةٌ له طويلة عن موقعة « ليبنتو » البحرية بين العثمانيين وبين أساطيل أوربا المتحدة ؛ فهو يرى في تلك الموقعة نصراً للمسيحية حمى بيضتها .

ورغم هذه المسيحية المتأصلة لم يكن تشسترتون في نظرته السياسية داعية سلام ولا مؤمناً بالسلام ؛ نعم أنه كان من كبار معارضي حرب البوير في منصرم القرن الماضي ؛ ولكن تلك المعارضة لم تكن لحب في السلام بل لاعتقاده بخطأ البواعث التي دفعت بالانجليز إلى غمارها . كان يرى البوير على صواب والانجليز على خطأ ، لأن البوير إنما كانوا يدافعون عن استقلالهم وحماهم ، وقد كان تشسترتون من أكبر المؤمنين بالوطنية — وفي هذا أيضاً مناقضة لمبادئ المسيحية التي تسوى بين البشر — وكما كان يحب انجلترا ويغار على وطنيته ، كان لا يحب الاعتداء على وطنية الآخرين ؛ وهو لذلك كان يمقت الامبراطورية لأن الامبراطورية لا تقوم إلا بإهدار بعض الوطنيات والحريات .

إنما كان تشسترتون يحب انجلترا وحدها دون امبراطورية ولا مستعمرات : انجلترا كما كانت في عهد اليزابث وشكسبير ، وكما كانت في العصور الوسطى ؛ وهنا تلتقي آراء تشسترتون الدينية وآراؤه السياسية معاً : فهو يعشق العصور الوسطى التي كانت المسيحية فيها الدولة والسلطان ، كما يعشقها لأن انجلترا في عهدها كانت جزيرة مستقلة بشأنها غير ذات مشاكل خارجية ولا امبراطورية مبنية على إهدار قوميات شعوب أخرى . وقد كانت الحماسة التي دافع بها تشسترتون عن وجهة نظره في مسألة الحرب البويرية بدء ترامي شهرته وارتفاع مكانته ؛ وقد تولى هو ونخبة من أصحابه اصدار جريدة لهذا الغرض وانتهى الأمر بهم إلى شراء جريدة الديلي نيوز لنشر آرائهم ؛ فكان تشسترتون وكبلنج في هذه الحرب على طرفي نقيض يقود كل منهما معسكراً ، وظلت هذه الخصومة الفكرية بينهما قائمة فيما بعد .

أما حين نشبت الحرب الكبرى فكان لتشسترتون موقف آخر ؛ إذ عدَّها حرباً ضرورية للدفاع عن القومية الانجليزية والثقافة الانجليزية ضد « بروسية برلين » وقام بمجهود عظيم في نشر الدعوة هذه المرة تحبيذاً لمواصلة الحرب ؛ فكان يكتب في الصحف وينشر الكتب ويعمل على توزيعها في الداخل والخارج ، وكان يكتب في صحف حزب الأحرار حتى اختلف معها فصار يكتب بصحيفة العمال ، حتى انقلبت ورحى الحرب دائرةٌ إلى تحبيذ السلام ، فهجرها وهجر الأحزاب جميعاً ؛ وبعد الحرب خرج من ميدان السياسة جميعاً بعد أن جال فيها جولات مشهودة ، وكانت له مقابلات مع ملك الانجليز وكبار الوزراء أمثال كيرزون وهيو سيسل وبلفور وماكدونالد وغيرهم .

وإنما انحاز تشسترتون إلى الأحرار دون المحافظين حقبةً بحكم طبقته ، إذ نشأ في أسرة متوسطة الحال ، وكان معظم أبناء الطبقة الوسطى يشايعون حزب الأحرار ؛ أما تشسترتون ذاته فكان أميَل إلى المحافظة بل إلى الرجعية : كان في

طباعه رجلا عاديا يحب الحياة العادية فى المدينة ، ولا يرى من وجوه النقص فى الحيـاة الراهنة مثل ما يجد شو لهذا أسباب النقد والطعن ؟ فهو يعيب على شو أنه صعب إرضاؤه ، وإذا وجد تشسترتون للحياة الحاضرة عيوبا فهى مخالفة للعيوب التى تتقذى بها عين شو ، بل هى مضادة لها : شو يرى المجتمع الإنسانى الحاضر متأخرا عما يجب ويقول : إما أن ينهض الانسان بالعبء الذى اختارته له الطبيعة ، عبء تعمير هذه الأرض ونشر المدنية الصحيحة فيها ، وإما أن الطبيعة تنحيه وتختار لهذا العمل حيوانا سواه أصلح . أما تشسترتون فلا ينظر إلى المستقبل على هذا النحو بل ينظر إلى الماضى ، ولا يرى المجتمع متأخراً عن المدى الذى يجب أن يقطعه ، بل يراه قد جاوز الحد فى سيره وعليه أن يقفل راجعاً ، إلى أين ؟ .

إلى العصور الوسطى : حين كانت الحياة بسيطة غير معقدة ، حين لم تكن الآلات تتخم المدن وتخنق الحياة الروحية ، حين كانت القرية الصغيرة لا المدينة الرحبة وحدة المجتمع ، وحين كانت المسيحية هى الوطن وهى الدولة ، وهى نبراس الناس فى تفكيرهم وفى فنونهم وآدابهم ، وهو يشمّر عن ساعد العزم للدفاع عن العصور الوسطى ضد من يتهمونها بالتوحش أو بالجهل أو بعقم الفن أو الأدب ؛ ومما كتبه فى هـذا الصدد كتاب عن القس المشهور القديس فرانسيس آسيسى ، والفيلسوف المسيحى المشهور أيضا توماس آ كويناس ، فإذا وجد كل من شو وويلز «طوباه» أو مدينته الفاضلة فى المستقبل ، فإن تشسترتون يجدها فى الماضى .

يدافع تشسترتون بهذه الحماسة عن العصور الوسطى التى تسمى أحيانا بالعصور المظلمة ، لفرط ما نفر الناس منها ومن ذكراها . وبمثل هـذه الحماسة يدافع عن العصر الفكتورى الذى أمعن شو وويلز وأمثالهما فى التهكم عليه والتحقير له والكشف عن مساوئه ؛ فهو يدافع عن فضائل الفكتوريين من حب الاحتشام والوقار والاعتزاز بالمهنة والاعتداد بالطبقة التى يمت إليها المرء ، والتى كان التعليم يطبعها بطابع خاص باق . ويدافع عن المعلم فى العصر الفكتورى الذى كثرت حملات الحاملين عليه ؛ فيقول إن معلميه اكتشفوا مواهبه الأدبية ، وشجعوها وتعهدوها ، حين لم يكن هو نفسه يفطن إليها أو يهتم بها ؛ ولغرامه بذلك العصر كتب ترجمة لاثنين من فحول أدبائه ، هما الشاعر براوننج والقصصى دكنز ، وكلاهما يشبهانه فى نزعة التفاؤل ، ويشبهه دكنز خاصة فى ديمقراطية نظرته والتفاته إلى حياة الرجل العادى ، واعتقاده أن تلك الحياة العادية تقدم أكبر الفرصة لصوغ المأساة .

وكان حريا أن يقع الصدام بين تشسترتون وبين ممثلى نزعة التطور والتجديد ، وكان تشسترتون البادئ ، إذ نشر كتاباً سماه «الهراطقة» نقد فيه مذهب العصريين وعاب تهورهم فى كسر الحواجز وهـدم الحدود ، ونبذ العقائد ؛ فالمرء فى نظره لا يحيا بغير عقيدة ، والمـادية عقيدة من يعتقدون ألا عقيدة لهم ، وأنهم تحرروا من جميع القيود والأديان . وكان شو وويلز خاصة هدف سهامه فى هذا الكتاب ، رغم ما كان بينهما وبينه من صداقة وإعجاب كل واحد من الثلاثة بالآخرين كل إعجاب ؛ فلما دعاهما وأتباعهما بالهراطقة سألوه إذ لم ترقه عقيدتهم أن يبدى لهم ما عنده هو من عقيدة وفلسفة ؛ فما كان أسرعه فى إخراج كتاب «السُّنَّة» يشرح فيه مذهبه المستند إلى الدين المصطبغ بالكاثوليكية المعتمد على التفاؤل القائل بحرية الاختيار المنادى بالرجوع عن الطريق المادى المتهور الذى اندفع فيه العالم منذ القرن الثامن عشر .

ومن أقوال تشسترتون الجامعة لمذهبه فى هذا الصراع الذى دار بين القديم والجديد ، بين دعاة التطور وزعيم المحافظة على التقاليد ، بين المهيبين إلى المستقبل والداعى إلى الماضى ، قوله فى وصف خصومه أتباع التطور السريع

والهدم الذي لا يُبق ولا يذر : « فالإلحاد نفسه في نظرنا اليوم ذو صبغة دينية لاتطاق ، والثورة ذاتها نظام لايحتمل ، والحرية نفسها تشمل قيوداً لا صبر لنا عليها ، ولسنا نقبل أحكاماً عامة . وقد عبر مستر برنارد شو عن هذا المذهب في سينة محكمة قال : « إن القاعدة الذهبية أنه ليست هناك قاعدة ذهبية » . ونحن نزداد كل يوم ميلا إلى مناقشة التفاصيل في الفن والسياسة والأدب ، ونهتم مثلا برأى المرء في الترام أو في الصور والتمثيل ، أما رأيه في كل شيء فلا يهم ، وندعه يبحث وينقب في مليون من الأشياء ، ولكن لا نرضى أن يهتدى إلى ذلك الشيء الغريب — الكون ؛ لأنه إن فعل صار له دين وبذلك يضل ، فكل شيء يهم — ما عدا كل شيء » .

وكان إنتاج تشسترتون الأدبي متنوعاً تنوعاً بعيد المدى؛ كتب الأشعار والقصص القصيرة والطويلة والمقالات والتراجم الأدبية والتاريخية وقد ظل منذ سنة ١٩٠٥ إلى مماته — أي زهاء ثلاثين سنة — يكتب مقالا كل أسبوع بلا انقطاع لمجلة خاصة هي « أخبار لندن المصورة » ، وأسلوبه الأدبي جزل ممتع فكه يشوق القارئين حتى من غير المعتنقين لآرائه سالفة الذكر . وكان له ولع خاص بصوغ ضرب من الجمل المتناقضة المبنى في الظاهر ، يريد بذلك الاغراب وإدخال الروعة في قلوب قارئيه ، كقوله في النبذة سالفة الذكر : « فكل شيء يهم ما عدا كل شيء » وقوله وهو يريد إثبات أن العقل وحده لا يجدى المرء دون الاعتماد على المحسوسات وانتزاع النظريات والأمثلة من الواقع المتحجر : « إن الرجل المجنون هو رجل قد فَقَدَ كل شيء إلا عقله » ، ومن توشيته البادعة والاغراب قوله وقد تعجب بعض الناس من عدم تخليف الرومان آثاراً في انجلترا : « كيف لا ؟ إننا معشر الانجليز كلنا آثار رومانية » وقد طغت هذه النزعة إلى الاغراب والتناقض على كتاباته في آخر أيامه حتى ردَّت كثيراً منها مستثقلا مُتَحَذلقاً .

والحق أن كتابات تشسترتون في شتى النواحي سالفة الذكر كثيرة جداً مترامية الأطراف ، ولكن كثيراً منها تحاق الصبغة زائل الأهمية ، بحوث — بل مقدمات — تمضي ظروفه الأدبية أو السياسية ، وكثير من الباقي هراء ممجوج ، ولكن كثيراً جداً مما كُتبَ يحوى فكراً صائباً وأدباً جماً وأسلوباً رفيعاً ، وبعضه يستحق الخلود . وتشسترتون فوق هذا له فضلٌ عظيم على الجيل الذي عاش فيه : بتحمله لواء المحافظة بل الرجعية في وجه دعاة التجديد المغرق والهدم الذريع ؛ إذ كان لمواقفه وجدلاته أثر عظيم في تخفيف غلواء المجددين والاشارة إلى أخطائهم والاغراب عن موقف جانب من الشعب تجاههم . ولعل تشسترتون وإن لم يبلغ عبقرية شو ولا ولز قد كان أحبَّ إلى قلوب أكثرية الانجليز من أى منهما ، لما يمتاز به دونهما من الطبع الانجليزي الأصيل وما ينفرد به عنهما من تمثيل جبلات الشعب الانجليزي الوثيـد الحركة المحافظ النزعة .

فخرى أبو السعود

صور وخواطر ...

للأستاذ يوسف جوهر المحامى

رجال كالجبال :

كان كهلا نحيلا مريضا . لكنه كان سعيدا ، فقد قنع من حياته بحلية فريدة ، هى ولد وحيد ، يتدفق شبابا ونضارة ، وينظر إلى المستقبل بوجه صبح وسيم ، وقلب باسم مفعم بالأمل . . . وكان جلياً أن الطبيعة الحكيمة التى رتبت أن يستمد الولد وجوده من أبيه ، قد دارت دورتها مترفقة بالشيخوخة ، وأذنت أن يستمد الوالد شغفه بالحياة ، ورغبته فيها ، من ذلك الشباب السعيد الحالم الذى يحياه فتاه . . .

وإذا بالفتى يدخل المستشفى لعلة مفاجئة ، وإذا به يخرج منه بعد أيام محمولا على الأعناق . . .

وكان الفقيد صديق فبكيت وبكيت ، بكيت شبابه الذى جف فجأة كما يجف الجدول العذب المترقرق ؛ وبكيت من أجل الشجرة العجوز التى كانت تعيش على شط الجدول فى وداعة ورضا ، مستمدة من مائه عصارة الحياة ، وستجف ، وتهب عليها ريح الحزن الطاغى الذى لا يرحم الوهن ، فتنقصم ، وتنكفئ إلى التراب . . .

وصرت أخشى أن ألتى الكهل فأخفق فى أن أعزيه فى المصيبة التى تجل على العزاء ، وتختنق كلمات المواساة فى فمى ، كما كنت أشفق أن يذكره شبابى الذى رافق شباب ولده بوجه وحيده الذى ذاب فى التراب .

حتى إذا كان الأمس رأيته مقبلاً فى الطريق يتوكأ كعادته على عصاه . وأخذ يدى فى يده يهزها ، فلم أملك دمعى . وإذا به يربت على كتفى . وإذا به يبتسم ! ! . . وعجبت من ذلك ، ورفعت عينىّ إلى وجهه فاحصا مستوثقاً ، فرأيت محياه طلقا يتفجر منه الاطمئنان وهو يوصينى بالصبر والتسليم ، ويقول لى بصوت هادئ واثق : يا بنى . أليس من حقك أن تقطف الزهرة التى تحب من حديقتك ؟ الأرواح أزهار فى حديقة الله . لا اعتراض على أحكامه .

عرفت سر اطمئنانه وتجلده . عرفت سر صبره . إنه عامر القلب بالإيمان . أخذت أحدق فيه وهو ماض فى الطريق متوكئاً على عصاه . حقا أنه ماض فى الطريق ، فى طريق الأرض كلها ، إن شيخوخته تقترب من القبر . لكنه ماض بثبات ، بقامة منصوبة . إنه ليس كما وهمت : شجرة عجوز تجف مع الجدول المترقرق . إنه سنديانة راسخة . إن رجولته العظيمة المهيبة تستمد ثباتها وقوتها من مصدر الحياة . من الله . .

آراء عمياء :

عجبى من قوم يخدمون الخير بالشر ويقيمون ما يخالون أنه صرح الرحمة على دعائم من المظالم . كوّنوا فيما بينهم جمعية خيرية جعلوا من أغراضها نشر التعليم ، وتعضيد اليتيم ، ومناصرة الضعيف . وإذا بهم يذهلون عن هدفهم الأسمى ، وينصرف همهم إلى رفع اسم جماعتهم ليبزّ كل الأسماء ، لا بالعمل الصالح أو الأسوة الحسنة ، بل بتضخيم البناء ، والإسراف فى الدعاية ، والتهويل فى المظاهر . وإذا بهم ينقلبون من رعاية الغاية إلى عبادة الوسيلة ! ! . . . فالقادر على دفع المصروفات يأخذ مكان اليتيم العاجز فى مدرستهم الخيرية ! والصانع ، والأرملة ، والأجير الذين تعلق لهم فى عنق الجمعية حق من الحقوق ، يردون عن حقهم بغلظة ، ويخدعون فيه بخسة ، ويضطهدون من أجله بغير رحمة ! . . ثم ينام « أعضاء الجمعية الخيرية » ملء الأجفان ، سعداء بلقب العضوية ، وقد زين لهم ضلال الرأى أنهم خدموا الخير بصيانة المال وتنمية الدخل ! . . إنهم راكمون النقود فى الخزائن لمعاداة الخير لا لخدمته ، لأنها رصيد للشيطان يتضخم من شقاء البؤساء ودماء الضعفاء .

إن مثل هؤلاء الناس مع الخير الذى يخدمونه كمثل الدب مع صاحبه .

حياة عجيبة !

ما أتعس حظ المنطق في هذه الأيام . لقد أضحى النظام اسماً على غير مسمى ، وانهارت هيبة الكثير من الأوضاع الطبيعية ، وتولى الشحوب وجوه القواعد المقررة ، وغرق العرف في لجة من الفوضى : في الشارع ، والبيت ، والمدرسة والنادي ، نرى ما يحزن ويزعج على مصير هذا البلد . لقد عرفت فتياناً لا يدخنون في حضرة آبائهم ، ثم رأيت في الترام أيفاعاً بينهم وبين القدرة على كسب القوت عدة سنين ، يخرجون من جيوبهم بكل بساطة (العلبة ، والولاعة) ! وعرفت صبايا لم يألفن من الزينة في بيوت آبائهن وأزواجهن غير المـاء والصابون ، ثم امتد بي زمني حتى أرى في المقاهي شباباً يفوقون في زينتهم العرائس ليلة جلوتهن ، ويتخلصون بالطلاء من لونهم المصري المنطفي ! وشاهدت روح التمرد تنفث سمها المميت في بيوت حوت شيوخاً لم يعرفوا إلا سجادة الصلاة وقراءة الأوراد ، كما حوت فتيات يحذقن الرقصات الافرنجية التي لم تدع بعد ، ويصفرن بشفاههن المصبوغة التي ذاقت « الكوكتيل » ونفثت دخان اللفائف ، آخر الألحان الماجنة ! . . وها هم كهول المعلمين والأساتذة في المدارس ، الذين كانوا في صباهم يوقرون أساتذتهم كما يوقرون آباءهم ، يقاسون الكثير من تنكب الصبية للجادة ، واستهتارهم بالنصح ، وتوثبهم على القانون . . أما الأندية فكم تشهد من ألسنة حداد تنهش الأعراض ، وتنهب قيم الرجال وأقدارهم ، وتسخر من كرائم الحرائر ، وتنبسط في غير استحياء مصائب البيوت وأسرار الأسر ! .

أما مصارع الحقوق على مذابح الغايات ، ووضع الرجل الخطأ في المكان الخطأ فحدث عنها ولا حرج . إنها حياة عجيبة ، تعدو في ناحية ، وتتوكأ على عكازين في ناحية ، وتقعد كسيحة صماء عمياء في ناحية أخرى ! .

إنها حياة عجيبة وكفى ! .

لم أكد آخذ مقعدي في المقهى حتى استرعى انتباهي رجل كان يجلس قريباً مني ، فقد كان يتململ في كرسيه في ضجر باد ، وقد تجهم محياه وخلقت أساريره بالغيظ والحنق ! . سرعان ما تبينت هدف النظرات الكزّة الفارّة الدائرة في عينيه . . لم يكن القلق يعذبه لأنه ينتظر صديقاً ، أو قطاراً ، أو رقبة . ولم تكن مشكلة من مشاكل الفكر أو القلب هي التي تزعجه في مجلسه . لأن كل الذي أفنى صبره انتظاره لدوره في قراءة صحيفة المقهى التي كانت في يد زبون آخر ! . .

خيل إليّ أنه لو لم تكن تلك الصحيفة موثقة في عصا طويلة يقبض عليها ذلك الزبون الآخر لقام واختطفها منه ! . . أما صاحبنا القارئ ، فقد كان منصرفاً عن العالم وكان يبدو عليه أنه قد ألف أن يبدأ بمطالعة الافتتاحية ، زحف بطيئاً بنظره الكليل على كل صفحة من الصفحات حتى ينتهي إلى الرواية المسلسلة في ذيل الصحيفة فيتذوقها في تمهل طويل .

هذا هو « المنظر » . أما هامشه فيضمه « أفندية » من رواد المقهى يلعبون النرد ، أو يتلهون بالحديث دون أن ينسوا أن يرمقوا « الظافر » بنظرات تتباين في الشدة واللين ، لكنها تحمل جميعاً معنى الإنذار والتهديد والمطالبة ! . . .

لو أن زائراً أوربياً رأى هذا لما صدق عينيه ، ولظن أن الجرائد في مصر لا تطبع منها إلا نسخ تعد على الأصابع ، أو أن الصحيفة الموموقة ليست إلا نشرة حربية لا تذاع إلا بمقدار . . . لكن السلام مستتب ولا حرب ، وبائع الصحف لا يكاد يغادر المقهى من باب حتى يغشاه من باب آخر ، ينادي باسم الصحيفة المشوقة في يد « الظافر » وقد بح صوته . . .

لقد أحب صاحبنا — الذي ينتظر — أن يسري همه ويهدئ أعصابه ، فاشترى من بائع اللب ، ومن بائع « السميط » . واشترى حلوى ولعباً لطفله . لكن لم يخطر

دراسات عن قادة الفكر فى الإسلام :

بحوث فيزيقية من «رسائل إخوان الصفاء»

للأستاذ عبد الحميد حمدى مرسى

فى مقال سابق لى نشرته مجلة « الثقافة » الغراء ، استعرضت بحوثاً فى علم الصوت ضمنها « إخوان الصفاء » رسائلهم المعروفة باسمهم ، وقد عالجوا فى هـذه البحوث بعض أصول هذا العلم . واليوم أعود فأذكر لهم بعض بحوث أخرى فى الموضوع نفسـه ، معتمداً على المصدر نفسه الذى ذكرته فى المقال السابق .

١ — مصادر الصوت ودلالة أصواتها :

يمكن تقسيم مصادر الصوت — أى الأجسام المصوتة — إلى قسمين رئيسيين : حيوانية ومنها الإنسان والحيوان ، وغير حيوانية ومنها الآلات الموسيقية بأنواعها . ويتوقف صدور الأصوات عن الأجسام المصوتة بنوعيها إما على اهتزاز أوتار (حبال صوتية) ، أو اهتزاز هواء محدود أو غير محدود . والأصوات الصادرة قصيرة الأمد ، أو إن طالت فدائمة التغير ، تعرف بالدوىّ مثل دق المطارق والتصفيق ، وقصف المدافع ولغط الأمواج ، وهذا الدوى يتركب من عدة أصوات لا توافق بينها . والأصوات الحادثة من اهتزازات دورية منتظمة تحدث فى الإنسان إحساساً مستمراً يطرب لسماعها ، تعرف بالأصوات الموسيقية . وأصوات الناس إذا كانت منطقية بحروف منطوقة ودالة على معان مفهومة يتكون منها الكلام .

ويحدثنا « إخوان الصفاء » فى هذه المعانى فيقولون : « . . . واعلم يا أخى أن الأصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية . . وغير الحيوانية أيضاً نوعان : طبيعية وآلية ، فالطبيعية هى كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وسائر الأجسام التى لا روح فيها من الجمادات ، والآلية كصوت الطبل والبوق والزمر والأوتار وما شاكلها . والحيوانية نوعان : منطقية وغير منطقية ؛ فغير المنطقية هى أصوات سائر الحيوانات الغير الناطقة ؛ وأما المنطقية فهى أصوات الناس وهى نوعان : دالة وغير دالة ، فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح ، وبالجملة كل صوت لا هجاء له ، وأما الدالة فهى الكلام والأقاويل التى لها هجاء . . . » (ج ١ ص ١٣٧ س ٥) .

وفى موضع آخر يقولون : « . . . فهذه كلها أصوات فما كان منها من أجسام الحيوان قيل أصوات ونغمات ، وما كان منها من حركة الهواء قيل صفير وزمير ، وما كان من حركة الماء قيل دوى وخرير وأمواج ، وما كان من المعدنيات والأحجار والخشب قيل وقع وطنين وقر . . . » (ج ٣ ص ١٢٧ س ١٧) .

له أن يشترى الصحيفة التى يجلس متنمراً فى انتظارها !

لن تطبع الصحف والمجلات فى مصر إذاً ، إن لم تكن تطبع لأمثال هذا الأفندى الأنيق الذى يميل طربوشه على جبينه ، ويحمل عصا فضية القبض ، ويلبس قميصاً من الحرير الخالص ، ويبدو عليـه أنه مشغوف مشغوف بالقراءة والمطالعة ؟ !

اللهم رحماك ، إن العمال الأميين الذين يشترون الصحف تظاهراً ، وهم لا يعرفون كيف يخطون الألف ، خير من الأفندية المتنورين الذين يكابدون مشقة الانتظار سـاعات ليقرأوا الصحف مجاناً فى المقاهى المزدحمة .

يوسف جوهر

ثم يحدثوننا عن الكلام فيقولون : « . . اعلم يا أخي أن الكلام هو صوت بحروف مقطعة دالة على معان مفهومة من مخارج مختلفة ، وأبعد مخارج الحروف أقصى الحلق ، وهو مما يلي أعلى الصدر ، والصوت من الجسم في الرئة بيت الهواء . . . وأصل الأصوات في الرئة هواء يصعد إلى أن يصير إلى الحلق فيديره على حسب مخارجه ؛ فإن خرج على حروف مقطعة مؤلفة عرف معناه وعلم خبره ، وإن خرج على غير حروف لم يفهم كان كالنهاق والرغاء[1] والسعال وما أشبه ذلك ؛ فإن رده اللسان إلى مخرجه المعلوم في حروف مفهومة يسمى كلاما ونطقاً بأية لفظة كانت ، على حسب الموافقة ، ومساعدة الطبيعة لكل قوم في اتساع حلوقهم وسهولة تصرفهم في مخارج كلامهم ، وخفة لغاتهم بحسب مزاج طبائعهم وأهوية بلدانهم وأغذيتهم . . . » . (ج ٣ ص ١٢٥ س ٩) .

٢ — الرنين وأثره في شدة الصوت :

الرنين في الصوت هو تقوية أو ازدياد شدة الصوت الصادر من جسم بواسطة اهتزاز جسم آخر متأثر بالجسم الأول ، ولتوضيح ظاهرة الرنين تؤخذ شوكة رنانة (أو سكين عادية رقيقة) ، وتطرق بسرعة وبقوة في جسم صلب فيسمع لها صوت ؛ فإذا وضعت هذه الشوكة — وهي ما تزال تهتز وتحدث صوتا — فوق صندوق رنان من الخشب ، يلاحظ ازدياد شدة صوتها نظراً لاهتزاز الهواء داخل الصندوق ، واتساع سطح الصندوق الذي يهتز أيضاً ، فيعمل كل هذا على ازدياد شدة صوت الشوكة ، ولذلك تصنع الصناديق الرنانة عادة من خشب الصنوبر ، لأنه قليل الكثافة عظيم المرونة ، والأوتار إذا شدت في الهواء المطلق لا يسمع لها إلا صوت ضعيف إذا كانت بعيدة عن أجسام رنانة . وأما إذا شدت على صناديق رنانة كما في العود والقانون والكمان والربابة ازدادت شدة الصوت ، وذلك لأن اهتزاز هذه الصناديق ، وكذا ما بداخلها من الهواء يزيد في سعة الطبقة الهوائية المهتزة ، ولذلك تستعمل الصناديق الرنانة في تقوية أصوات الخطباء في حجرات الخطابة ، فتوضع هذه الصناديق على أبعاد خاصة ويكون بعضها خلف منصة الخطابة ، فيمكن بذلك تكبير صوت الخطيب ؛ ولكن أخذت هذه الصناديق الرنانة تختفي منذ اخترعت مكبرات الصوت الكهربائية حتى صارت في حيز العدم الآن .

وقد عالج « إخوان الصفاء » هذه الظاهرة في رسائلهم فيقولون : « . . . وكل جسمين من جوهر واحد ، مقدارهما واحد ، وشكلهما واحد ، نقرا نقرة واحدة معاً ، فإن صوتيهما يكونان متساويين ؛ فإن كان أحدهما أجوف كان صوته أعظم ، لأنه يصدم هواء كثيراً داخلا وخارجاً . والأجسام الملس أصواتها ملساء ، لأن السطوح المشتركة التي بينها وبين الهواء ملساء ، والأجسام الخشنة تكون أصواتها خشنة ، لأن السطوح المشتركة بينها وبين الهواء خشنة ، والأجسام الصلبة المجوفة كالأواني والطرجهارات[2] والجرار ، إذا نقرت طنت زماناً طويلا ، لأن الهواء في جوفها يتردد ويصدمها مرة بعد مرة ، وتارة بعد أخرى ، إلى أن يسكن . فما كان منها أوسع كان صوتها أعظم ، لأنه يصدم هواء كثيراً داخلا وخارجاً ، والبوقات الطوال كان صوتها أعظم لأن الهواء المتموج فيها يصدمها في مروره مسافة بعيدة ، والحيوانات الكبيرة الرئات ، الطويلة الحلاقيم ، الواسعة المناخر والأشداق ، تكون جهيرة الأصوات ، لأنها تستنشق هواء كثيراً وترسله بشدة . فقد تبين مما ذكرنا أن علة عظم الصوت إنما هي بحسب عظم الأجسام المصوتة ، وشدة صدمها ، وكثرة تموج الهواء في الجهات عنها ... » . (ج ١ ص ١٣٨ س ٩) .

(١) رغاء الإبل صوتها .

(١) الطرجهارة كلمة فارسية معربة وهي آنية شبه كأس يشرب فيها .

(٢) يشير إلى الأجسام الرنانة .

ويقولون فى هذا المعنى فى موضع آخر فى رسائلهم :

« . . . ومثالها [٢] فى ذلك مثال أصوات الحيوانات ، فكلما كان فى نفسه أمثل ، ورئته أقوى ، كان صوته أعظم وأبعد مسافة فى الهواء لشدة حركته ، وكذلك ما كان من الجواهر المعدنية أشد صلابة وأكثر يبوسة ، كان أرفع طنيناً ، وأشد تصويتاً ، فإذا اتفق أن يكون مصنوعاً لذلك ، والقصد منه التصويت والطنين ، مثل الجلاجل والطرجهارات للحصون التى تستعمل على الأسوار والثغور ، فإن أصواتها وطنينها يمكث فى الهواء على قدر اتساع تلك الأوانى وضيقها . . . » . (ج ٣ ص ١١٥ س ٢٣) .

٣ — نوع الصوت :

تختلف التأثيرات التى تحدثها النغمات الصوتية المتساوية التردد (يقاس التردد بعدد الاهتزازات فى الثانية) إذا صدرت من مصادر صوتية مختلفة ، ولو كانت هذه النغمات متحدة الشدة أيضاً ، فيسهل على الأذن مثلا أن تميز بين نغمات متحدة فى الدرجة والشدة ، وصدرت من وتر عود أو من صفارة أو من مغن ؛ فنوع النغمة هو ما يميزها عن نغمة أخرى متحدة معها فى الدرجة والشدة . وقد بحث العلماء فيما يسبب الاحساس الذى يمكن الأذن من التمييز بين النغمات المختلفة بعضها عن بعض فى النوع ، الصادرة من الآلات الموسيقية المختلفة ، فتوصلوا إلى أنه عند ما يحدث صوت موسيقى ذو درجة معينة تكون نغمته مصحوبة بسلسلة من النغمات ، تزيد عليها فى الدرجة ، وتقل عنها فى الشدة ، وأن السلسلة التى تصحب نغمة العود تختلف عن السلسلة التى تصحب نغمة الصفارة أو أية آلة موسيقية أخرى متفقة مع الأولى فى الدرجة والشدة ؛ وهذا الاختلاف فى السلاسل النغمية التى تصحب النغمات الأصلية التى تصدرها الأجسام المصوتة يسبب اختلاف الاحساس بالنغمات المتحدة فى الدرجة والشدة ، فتستطيع الأذن أن تفرق بين الصادرة من الكمان أو البيانو أو العود وغيرها من الآلات الموسيقية المختلفة :

وقد بحث إخوان الصفاء فى هذه الظاهرة فيقولون :

« . . . . واعلم أن كل صوت له نغمة وصفية وهيئة روحية خلاف صوت آخر ، وأن الهواء من شرف جوهره ولطافة عنصره يحمل كل صوت بهيأته وصفته ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض فيفسد هيأتها إلى أن يبلغها إلى أقصى مدى غايتها عند القوة السامعة لتؤديها إلى القوة المتخيلة التى مسكنها الدماغ » (ج ١ ص ١٣٧ س ٢١) .

وفى موضوع آخر من رسائلهم يقولون :

« . . . فإن كان صوتاً مفهوما يدل على معنى توجهت المعرفة بذلك ، وإن كان غير مفهوم فإنه لا بد أن يستدل بصفاء جوهره على ذلك الصوت ، ومن أى جوهر حدث وعن أية حركة عرض ، وهو يستدل على ذلك من ماهية الصوت وكيفية التموج والقرع والحركة الواصلة إلى حاسة السمع . ومثال ذلك طنين الطاس ، فإنه إذا سمعه الانسان قال هذا طنين الطاس حدث من قرع شىء آخر أصابه . . . وكذلك صوت الحديد والذهب والفضة وغير ذلك ، فإن أصواتها إذا حدثت تكون مختلفة بحسب اختلاف جواهرها وتباين طباعها من الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة . . » (ج ٣ ص ١١٥ س ١٣) .

وفى موضع آخر يقولون فى هذا المعنى : « . . . فالإنسان إذا سمع صوت الخشب والحديد والماء والريح أمكنه أن يخبر عن صوت كل واحد منها وينسبه إلى ما حدث عنه وخرج منه . . . » (ج ٣ ص ١١٧ س ٣) .

نقف عند هذا الحد من بحوث « إخوان الصفاء » فى أصول الصوت . وسنعود إلى استكمال البحث فى هذا الموضوع فى فرصة أخرى أرجو أن تكون قريبة إن شاء الله .

عبد الحميد حمدى مرسى

بين الواقع والخيـــال

للدكتور حسن صادق

. . . . واستقبلتني الطير مختلفات الأنواع والألوان والصور ، مبتهجات مغردات . ورأت مني الدهشة والعجب المشوب ببعض الوحشة والقلق . فدنا مني بلبل كان عنها ورحب بي في بشر وإيناس لا عهد لي بمثلهما من النـاس . فاطمأنت نفسي ، وأدرك هو أني سكنت لحديثه ، فشرع يخاطبني في كلمات عذبة ومنطق سليم أخاذ وعلى منقاره بسمة صافية خالصة ، قال :

— سيدي الإنســان . أنت هنا في بلد لا تجد فيه غير الحنان والمحبة من أصدقائك الأوفياء : الورود والأطيار ، وصاحب الأمر فيه امرأة تحظى بشباب زاهر خالد ، وهي أقرب إلى الملائكة منها إلى الآدميين . وقد ولدت قبل الطوفان بزمن قليل من دمعة وابتسامة ، وتعرف باسم قوس قزح . وهي من أبوين مجهولين تركاها عقب ولادتها في هذا البلد الأمين ، فتعهدتها بالغذاء جماعات النحل في الوادي الخصيب . ولما ترعرعت واستوى مثالها أصبحت من الرقة بحيث يشبعها شذى الورود . فإذا مسّها النهم تغذت بعسل نحلتين ، وتمشت بحبة من العنب . . اتبعني يا سيدي لأذهب بك إليها .

دخلت قصراً يبهر عيني رواؤه ورأيت فيه قوس قزح لا ينبغي لبشر أن يصف ما هي عليه من شباب وجمال وسحر . فرحت بي وضيفتني ، ثم استبقتني عندها أياما قضيتها في نعيم يشبه ما وُعد به المتقون . ومما يبعث على العجب أنها وضعت بين يديّ كتباً لا تحصى تشتمل على المعارف العامة المختلفة لما يقرب من ألف أمة متباينة ، وكنت كلما فتحت كتابا منها فهمته في الحال فهما جيداً على غير المألوف بين الناس .

ولكني على الرغم من هذا النعيم كنت أشعر ببعض الضيق من حين إلى آخر ، إذ تمر بخاطري ذكريات الاجتماع ورنين في أذني صدى المدينة التي ولدت فيها .

وذات يوم كنت وقوس قزح نسير متمكئين بين صفوف من الأزهار ، فأدركتْ أني لاوٍ حزين ، وأرادت أن تستوضح السبب فسألتني :

— ما الذي أصارك إلى ما أرى من حالك ؟

فأخذت يدها بين يدي ، وضغطت عليها في لين ورفق وقلت :

— لا أدري . إني أحبك حباً لا يقف عند حد ، وأجد هنا مسرات العين والعقل جميعاً ، ولكن الملل يستبد بي . وما ذاك فيما أعتقد أني لا أرى أينما سرت إلا وروداً وأطياراً ، فإذا سرحت بصري لم يقع إلا على مرتفعات وأودية شديدة الخضرة في كل حين ، وإذا رفعته لم يصادف إلا سماءً متلفعة بالصفاء والزرقة في كل وقت . الحياة هنا راتبة راكدة لا تستطيبها النفس ، وأنت نفسك . . . إنك أنموذج للكمال يغمز عليّ الضيق والاضطراب في أغلب الأحيان . ولشد ما أتمنى أن أراك أقل كمالا مما أنت . . أن أراك امرأة . . إنساناً !

فحبست قوس قزح دموعها خلف أهدابها الندية وقالت :

— إني أدرك شعورك تمام الإدراك . انظر إلى الورود كيف ذبلت ، وإلى الطير كيف صمتت ؟ ! سترحل عن هذا البلد إلى حيث ترغب . إلى اللقاء . . . ستعود إليّ ذات يوم وأسمع منك إن كنت تود العيش هنا أو في عالم آخر ، في السماء أو على سطح الأرض !

وما إن ودعتني حتى وجدت نفسي بقوتها الخفية في

القاهرة وجيوبي عامرة بالمال لا ينفد أبداً . وشرعت أنفق عن سعة استرعت انتباه الناس وحسدهم . ولم ألبث أن أصبح لي صيت وذكر بين المجدودين المترفين . وبعد وقت وجيز تعرفت إلى فتاة غضة الإهاب رشيقة القوام ، لها رقة نامية فاتنة وبسمة أخاذة ونظرة ساحرة ملكت عليّ كل حواسي . فخطبتها إلى أبيها فرفض ، فألحفت وساعدتني أم الفتاة فقبل بعد لأي أن أتردد عليهم لتختبر الفتاة خلقي وأختبر خلقها . وكنت حين أجالسها أتحدث إليها في الأدب والعلوم ، ولكنها مع الأسف الشديد كانت تقابل حديثي بابتسامة ساخرة تطفئ جذوة حماستي . ثم تكلمني عن الملابس وأدوات التطرية والسينما وكل ما يقع تحت حسها ، وتتجنب في نفور جلي كل موضوع عن النفس والوجدان . فهي وقوس قزح على طرفي نقيض .

وفي صباح أحد الأيام جالت بخاطري قوس قزح ، وشعرت بشوق ملح إلى العودة إليها . فأسرعت إلى خطيبتي وقضيت معها بعض الوقت ، ثم خرجت إلى الطريق . وعلى حين بغتة وجدت نفسي أمام قوس قزح ، فأخذتني بين ذراعيها في ابتهاج وبشر . ثم سألتني أن أقص عليها كل ما وقع لي في رحلتي . فسردت كل التفاصيل دون أن أذكر لها خطيبتي . فقالت :

— ليس هذا كل شيء .

— أقسم لك . . . . . .

— أيها الطفل . إنك تجهل أني رأيت كل شيء . لقد سرت في أثرك خطوة خطوة ، وسمعت ما قالته لخطيبتك كلمة كلمة .

وسقطت من عينيها دمعتان ، فحرت في أمري واصطلحت عليّ الحيرة والارتباك ، فعجزت عن الكلام . وعادت هي تقول :

— ألعلك تدرك الآن السبب في اصفراري وذبول أزهاري ؟ !

فصحت في حماسة عذبة قائلاً :

— ستعود إليك نضرتك وتنتعش الورود وزهورها ! سأنسى الفتاة لأعيش معك ما حييت .

وما إن نطقت بهذه الكلمات حتى هب نسيم رخي انتشر في أنحاء الحديقة ، فاستقامت الأغصان وتفتحت الورود وغردت الطيور . وغمرني في تلك اللحظة فيض من الغبطة والطمأنينة .

عدت إلى حياة الهدوء والاستراحة في الوحدة العطرة ، ورجعت إلى الكتب والتأمل ونظم القريض وتصنيف الأسفار . . . ولكني إنسان خلقت للحركة والانفعال والنضال ، ولم أخلق لهناءة الدعة . وقد علمتني قوس قزح كيف أكون شاعراً حالماً ، ولم تعلمني كيف أصير إنساناً . وكانت نفسي تدفعني إلى التعلق بها ، ولكن قلبي كان يخفق بحب الخطيبة . وطالما كنت أقول في نفسي : أريد أن أنساها ، ولكني كنت أكرر هذه الجملة آناء الليل وأطراف النهار .

وذات صباح أمسكت قوس قزح بيدي وقادتني إلى النافذة وقالت في نغمة حزينة آلمت قلبي : — انظر !

فصرخت قائلاً والدمع يترقرق في عيني :

— إني خاطئ مجرم ! لقد ذبلت ورودك مرة أخرى !

فقبلتني وهي تقول :

— هذا فراق بيني وبينك ، ولن تراني أبداً . إن لك اليوم قدمين لا جناحين . وقد اجتزت السن التي يستطيع الإنسان فيها أن يعيش بعيداً عن ضوضاء الحياة ونضالها . الوداع . لا تلق سمعك إلى دقات قلبي .

وكاد البكاء يغلبها على أمرها . . .

وفي الحال وجدت في القاهرة ، فهرعت إلى بيت خطيبتي ، وقابلني أبوها في فتور وقال لي : « لقد حضرت في الوقت المناسب أو على الأرجح جئت بعد فوات الوقت » ودخلت الشوى حيث الخطيبة وأمها ، فبدت عليهما أمارات الدهشة ، وبعد تبادل التحية قالت لي الفتاة ، وقد علت وجهها الحمرة :

— جئت يا عزيزى بعد فوات الوقت . انتظرتك أكثر مما ينبغى .

وقالت أمها :

— نعم إنك أطلت غيبتك . وستتزوج ابنتى بعد أسبوعين . ولكن إذا كانت ثروتك قيمة استطعنا أن نجد للأمر حلا يرضيك .

فلما عرضت عليهم أمر ثروتى الضخمة تطلقت وجوههم ، ولاحظت فى اكتئاب وانقباض مبلغ الفرح الذى استولى على الفتاة حين كنت أقوم بهذا العرض .

أديت المهر الهائل الذى طلبوه وأنفقت على حفلة العرس مالاً طائلاً نزولاً على إرادتهم . ثم سافرت مع زوجى إلى الريف لقضاء أيام فى هدوئه . ولكنها بعد بضعة أيام سئمت حياة العزلة ورغبت فى العودة إلى حياة المدينة وما فيها من الملاهى والحفلات والولائم . وهنا صدمتنى الحقيقة والواقع وشعرت بالندم على قوس قزح التى كانت تحيا لى ولورودها وأطيارها ، بينما امرأتى تعيش للحياة والغرور . وبدلاً من أن تقتطف الأزهار وتستمع إلى الطير ، فإنها تعد أثوابها وحليها وتداعب كلبها وتنظم حفلاتها

لم يبق لى سلوة غير الانغماس فى الأدب ، فنظمت القصائد الغزلية الصادرة عن قلبى المعمود ، أصف فيها لحظ امرأتى وشعرها وبسمتها وصوتها وما أوتيت من سحر وفتنة ، وعرضت عليها هذه القصائد فأعجبت بها ونصحت لى بطبعها وبيعها ، فأبيت لأنها تشتمل على أسرار قلبى التى أضن بها على المطبعة . فضحكت متنادرة وجهرت لى بأنها لا تحب الشعر إلا إذا كان مطبوعاً ، وبأن لا خير فى الأدب إذا لم يدرّ على صاحبه المال ؛ لحزنت أشد الحزن وعزفت عن الشعر والنثر والأدب والكتب جميعاً ، ورغبت جد الرغبة فى العودة إلى قوس قزح ، ولكنها لم تعد تحقق رغبتى . . . .

وفجأة أصابنى مرض شديد الخطر . وذات ليلة بينما كنت أتوجع فى سريرى ، ظهرت لى قوس قزح ، فصحت فى فرح بالغ وأنا أمد نحوها ذراعى فى استعطاف :

— قوس قزح ! سأموت سعيداً !

فأجابتنى فى نغمة جافة :

— لست قوس قزح . إنى « المثل الأعلى » . فى سن الشباب يتجه إلىّ الانسان ، ثم لا يلبث أن يصدّ عنّى فى سبيل مسرات الحياة التى يلمحها خلال شعرى ، ولكن بعد قليل يندم على فراقى لأن الذى يتغذى بعسل نحلى وعبير أزهارى يصعب عليه العيش هنا . الوداع ! فى انتظارى كثير غيرك . وهم على غرارك يبحثون عن السماء فى الأرض ، وعن الأرض فى السماء !

أردت أن أتكلم ، ولكنها اختفت كالخيال ، وفى اللحظة نفسها ظهرت امرأة أخرى ممتقعة اللون وعلى شفتيها ابتسامة . فسألتها : من عسى أن تكون ؟ فقالت :

— إنى أمك ، بعد ساعة سيجتمع روحانا ، وستعرف أن روحى لم يفارقك قط ، إن كل أم هى دائماً إلى جانب ابنها ، ظاهرة كانت أو خفية ، لتجفف بحنوها عبراته . إلى اللقاء بعد ساعة . إنك ترانى مصفرّة الوجه ، لأنك تألم . وترانى مبتهجة لأنى سأجتمع بك إلى الأبد .

ثم تلاشى الخيال كسابقه .

نهضت من فراشى فى عسر شديد ، وذهبت إلى غرفة امرأتى وأنا أتحامل على نفسى لأودعها الوداع الأخير . ولما صرت بالباب رأيتها جالسة أمام النافذة تقرأ فى ورقة كبيرة ، سددت إليها كل أشعة بصرى ، فتبينت أنها وصيتى التى كتبتها لهذه المرأة التى تحبها حواسى قبل مرضى بأيام قلائل ! .

هذه الضربة الأخيرة التى لقينى بها الواقع كانت أقوى مما أستطيع احتماله ، فخررت صعقاً على عتبة الباب كتلة واحدة . . . . . .

* * *

واستيقظت من شدة الفزع مضطرب الأعصاب مبلل الوجه بدمع غزير . . . . . .

حسن صادق

من أحسن ما يُرْوَى
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

أبو العلاء أيضاً

أعود إلى الحديث عن هذا الشاعر العالم الفيلسوف ، فأضيف إلى ما ذكرته مما يتميز به أنك تحس قوة العاطفة وحرارتها ووضوحها في نواح قليلة من نواحي شعره دون بقيتها .

فإذا حنّ في غربته إلى الوطن المهجور ، أو تذكّر في كربته عصور اللذة الماضية ، أو بكى في مشيبه على الشباب الزائل ، أو تشوّق في وحدته ووحشته إلى الصديق النائي ؛ سمعت وراء ألفاظه أنين الفاجعة ، وأحسست بين أبياته مضّ الألم .

أما ما عدا ذلك من أغراض شعره فإنك لا تحسّ فيه أثراً لتلك العاطفة ، ولكنه يعوضك عنها من فكره الدقيق النافذ ، وخياله الواسع الخصب ، وعلمه المتدفّق الغزير أضعاف ما فقدته في هذا الشعر من العاطفة ، حتى لا تحس بفقد شيء فيه ، بل تحس أنه زاد على حاجتك وأرْبَى على ما تريد .

فإذا مدح أو فخر أو رثى أو وصف وأردت أن تتعرف إحساسه ووجدانه ، أو تتلمّس نفسه فيما يقول ، لم تجد لذلك أثراً ؛ فلا يبعث مدحه ولا رثاؤه في نفسك إعجاباً بالممدوح ولا حزناً على المفقود ، كما ترى ذلك في شعر مهيار والشريف وأمثالهما ؛ ولا يعطيك وصفه صورة واضحة مما يصف كما ترى ذلك في شعر ابن الرومي ، بل تجد عوض ذلك فناً لفظياً عالياً أوحت إليه به كثرة ما يحفظ من متن اللغة والشعر القديم ؛ وقد يغلو في هذا الفن اللفظي أحياناً إلى أن يصيره نوعاً من العبث الذي كان يجدر بعقله أن ينزّه شعره عنه .

كما تجد في هذا الشعر أيضاً سعة خيال ودقة تفكير وقوة على ابتكار المعاني لا تجدها في أكثر شعراء العربية . تقرأ شعره في تلك الأغراض فتخرج منه بثروة من العلم والتفكير قد حباك إياها ، لا بإحساسات قلبيـة أو عواطف نفسية قد بعثها وأحياها .

حتى الغَـزَل — وهو ينبوع العاطفة — تقرؤه في شعره ، فتجد غزلاً صناعيا ، لا تحس فيه أثراً من عاطفة ، ولا تشعر أن صاحبه قد خفق فؤاده بالحب مرة واحدة ، ولا وقف الهوى بباب قلبه وقتاً يسيراً من الدهر .

وهذا أمر طبعي من رجل كأبي العلاء ؛ فمن أين يجد الحب منفذاً إلى قلب امرئ يحيا حياته ، ويقطع العمر بمثل ما قطعه ؟

ولكنه يتصنّع الحب ويدّعيه استكمالا لفنّ الشعر بالغزل الذي هو من أهم أغراضه ؛ فيصف اعتدال القدود وتورد الخدود ، وحَوَر العيون وسحر الجفون ؛ ويذكر زَورة الخيال وليالي الوصال ، وطول السهاد وقرح الأكباد ، وما إلى ذلك من معاني الغزل التي يرددها الشعراء ، فلا تحس أنه أغرم بشيء مما يصف من جمال ، ولا ذاق مما يذكر حلاوة ولا مرارة ؛ ولكنه يُغرب في المعاني والألفاظ ، ويحلّق في جو من الخيال يبعده كل البعد عن الجادّة ؛ فغزله أشبه بغزل أبي الطيب ، كلا الشاعرين يقول الغزل تصنُّعاً ، والحب لديه مدّعَى ، ويُسمعك غزلاً فكرياً ، لا تشبيباً قلبياً .

ومن العجيب أنك تحس في غزلها إغراء شديداً بقراءته وحفظه وكثرة ترديده والتغنّي به أحياناً ، رغم جفاف ينبوعه من فيض العاطفة ، وأن كلا الشاعرين يخاطب القلوب والشاعر في غزله بغير لغتها التي تعودت

أن تتفاهم بها ، ما ذاك إلا لأن فى علو تفكيرها وقوة ابتكارها تغذيةً لعقل القارئ تعوضه عمّا فاته من تغذية عاطفته .

ذلك بعض ما أراه فى شعر هذا الشاعر الفذّ ، قد أجملته فى هذه الكلمة اليسيرة والتى قبلها ، وذلك من ناحية شاعريته وحدها دون بقية نواحيه الكثيرة ، كما قلتُ فى المقال السابق . وسأعود إلى الحديث عنه كلما اخترتُ شيئاً من شعره ، فأفصّل اتجاهه فى كل غرض من أغراضه ، وأبيّنُ المآخذ التى أراه مؤاخذاً بها .

وقد سبق أن اخترتُ مقطوعتين من شعره يتشوق فيهما إلى وطنه وهو ببغداد ، وتحدثت عما فى كل مقطوعة من الجمال والسحر .

وهاتان مقطوعتان يودّع فى أولاهما بغداد حين أزمع السفر عنها إلى وطنه ، ويتحسّر فى الثانية على الشباب الذاهب ، ويذكر ضجره من الدنيا وسآمته من الحياة ؛ وكلتا المقطوعتين من شعره الذى تجلت فيه عاطفته قوية واضحة ؛ واستطاع بما أوتى من عبقرية أن يصور تلك العاطفة تصويراً دقيقاً رائعاً ، فليست هاتان المقطوعتان من عيون الشعر العاطفى وحده ، بل من عيون الشعر التصويرى أيضاً ، مع خلوهما من العيوب التى يعاب بها بعض شعر أبى العلاء ، كتكلف الصناعة اللفظية والغلوّ فيها إلى حد الخروج عن المعنى المراد . قال يودع بغداد :

— ١ —

نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبانِ ليس على شَرْعِ
يُخَبِّرُنا أنَّ الشُّعوبَ إلى الصَّدْعِ
أُصدِّقُه فى مِرْيَةٍ(١) وقد امْتَرَتْ
صَحابةُ موسى بعدَ آياتِه التِّسْعِ

أوَدِّعُكُمْ يا أهلَ بَغْدادَ وَالحَشا
عَلَى زَفَراتٍ مَا يَنِينَ مِنَ اللَّذْعِ
فَبِئسَ البَديلُ الشَّأمُ مِنكُمْ وَأهْلُه
عَلَى أنَّهُمْ قَوْمِي وَبَيْنَهُمُ رَبْعِي
ألا زَوِّدوني شَرْبَةً وَلَوَ انَّنِي
قَدَرْتُ إذا أفْنَيْتُ دِجْلَةَ بالجَرْعِ
وما الفُصَحاءُ الصِّيدُ والبَدْوُ دارُها
بأفْصَحَ قَوْلاً مِنْ إمائِكُمُ الوُكْعِ(١)
أطَلَّ الليالى وَهْيَ خَوْنٌ غَوادِرٌ
بِرَدِّي إلى بَغْدادَ ضَيِّقَةَ الذَّرْعِ
وكانَ اخْتِيارِي أنْ أموتَ لَدَيْكُمُ
حَمِيدًا فما ألفَيْتُ ذلكَ فى الوُسْعِ
فَلَيْتَ حِمامِي حُمَّ لى فى بِلادِكُمْ
وَجالَتْ رِمامِي فى رِياحِكُمُ السُّبْعِ(٢)

— ٢ —

يتحسر على الشباب الذاهب ويذكر سآمته وضجره من الحياة :

مَلَّكْتُ المَمْدودَ ومِنّى بالمَمْدودِ رِضا
مَن ذا عَلَيَّ بِهذا فى هَواكِ قَضَى ؟
بِي مِنكِ ما لو غَدا بالشَّمْسِ ما طَلَعَتْ
مِنَ الكآبَةِ أو بالبَرْقِ ما وَمَضا
إذا الفَتَى ذَمَّ عَيْشًا فى شَبيبَتِه
فَما يَقولُ إذا عَصْرُ الشَّبابِ مَضَى ؟

(١) « فى مرية » أى فى شك . « وقد امترت صحابة موسى » أى شكوا فى صدق رسالته بعد أن جاءهم بمعجزاته التسع .

(١) الوكع : جمع وكعاء ، وهى الحمقاء . يصف أهل بغداد بقوة الفصاحة حتى إن إماءهم يفضلن بفصاحتهن فصحاء البادية .
(٢) رياحكم السبع أى العالية . والسبع بالكسر : اسم لربع الشمال

يوم الربيع

للأستاذ ابراهيم عبد الهادي

رق الربيع فزادني رقا ... وذكرت من دنياي ما ألقى
جرح بعيد الغور أسعفه ... فيزيده طول الأسى عمقا
وكئوس آلام شرقت بها ... يا بؤس ما أروى وما أسقى
يا ليته إذ عاد يبعثني ... بعث الذي أولاني الرقا
فتلاقت الآمال في كنف ... بين الظلال تساجل الورقا
يا ما أحيلى الدهر يسعدنا ... وأمرّه ما جانب الرفقا
يوماً يهدهدنا لدى أمل ... ويردنا يوماً لما نشقى

* * *

يوم الربيع الصحو بلبلني ... لما تسلسل هيناً طلقا
وتراكض الألاف في مرح ... وكأنهم من نشوة حمقى
فذكرت أحبابي . وماالحت ... عيني لهم ومضاً ولا برقا
كم ذا تلاقينا على ظمأ ... ثم انثنينا في الهوى غرقى
سأظل ما هبت نسائمه ... يكوي الحنين جوانحي شوقا

(القاهرة) ... ابراهيم عبد الهادي

وقد تعوضت من كل بمشبهه
فما وجدت لأيام الصبا عوضا
وقد عرضت من الدنيا فهل زمني
معط حياتي لغر بعد ما عرضا(١)
جربت دهري وأهليه فما تركت
لي التجارب في ود أمرئ غرضا

أحمد الزين

(١) عرض من الشيء ، ضجر منه ومله ، يؤثر النزول عن حياته إلى غر لم يجرب الأمور ولم يضجر من الحياة .

لغة الحب . . .

لصاحب المعالي العلامة

الشيخ محمد رضا الشبيبي

وزير المعارف العراقية سابقاً

تفاهمنا عيني وعينك لحظة
وأدركنا أن القلوب شواهد
مشت نظرة بيني وبينك ، وانبرى
إلى القلب مدلولاً من القلب رائد
كأن الذي حاولت ثم وحاولت
من الحب معنى بيننا متوارد
شواهد حالي مفصحات بما انطوى
عليه ضميري لا الفصاح الشوارد !
جباه الذين استهجنوا الحب كزة
وأوجههم شر الوجوه الجوامد
لقد طال عهدي بالقصيد ومن رأى
لكم نظراتي قال : هن القصائد
إذا لم يكن للمعين لحن ومنطق
فمن أين قالوا : الدموع قلائد ؟
وما خير رأي لا تبين لناظر
على طرفه من ناظريه الشاهد
ثنيت إليك النفس عن شهواتها
وجاهدتها ، ما حب من لا يجاهد ؟

كَثِيرٌ مُحِبُّوكِ الَّذِينَ تَجَلَّدُوا
وَأَمَّا الَّذِى جَارَى هَوَاكِ فَوَاحِدُ!

دَوَاوِينُ أَهْلِ الحُبِّ تَفْنَى ، وَالهَوَى
هَوَى الرُّوحِ دِيوَانٌ مِنَ الشِّعْرِ خَالِدُ

محمد رضا الشبيبي

بلبـــــل

وبلبـــــل غنى   وطـــاف بالورد
وانتزع المعـــنى   من خالص الود

* * *

غنى بمن يهوى   فى غرة الصبح
لم يشد بالشكوى   من ألم الجرح

* * *

ردد أنغـــاما   مثـــل المزامير
جاءته إلهـــاما   من غير تفكير

* * *

زاد الهوى فيـــه   بالحس إلماما
فبات يرويه   للنـــاس أنغاما

حبيبان

تعالى الحب ، لم تر له   مثيـــلا بالذى فعله
وقد يُبلى ، ولا يبلى   فؤادا من جوى ووله
قد انفعل الفؤاد به   وناء بعبء ما احتمله
سأبلغ فى الهوى أجلى   وليس ببالغٍ أجله
به أوحى إلى قلبى   جميل جلّ من جبله
يجيب نداء من يهوى   إذا ما بالهوى سأله
قوى فى محبتـــه   إذا ما عاذل عذله
أفضّل فى الهوى جملى   ويُجمل فى الهوى جُمَله
ولكنا به شرع   فلى فى الحب ما هوله

وادى

يا حبذا واد بظهر دجلة   أحيى نهاره به وليله
وكل آن لى فيه نقلة   من ظل نخلة لظل نخله

* * *

وهبته من الشباب شرخه   وذقت فيه من صباى بذخه
كأنه من الكتاب نسخه   بكل معنى من وراء جمله

* * *

أحييت فى ظلاله البكورا   أشرب من خمرته كثيرا
كان مزاجها به كافورا   وقد زكت أصلا وطابت نحله

* * *

وادٍ وما أطيبه من وادى   فيه شبابى وبه ميلادى
ورائح فيـــه وفيه غادى   بلم شمـــــلى وألم شمله

الهوى فى أطواره

نشأت مضغة الهوى   بالقلوب البواكر
بلغتها من العيون   طريقاً لسائر

* * *

ثم فيها ترعرت   بالضحى والأصائل
وبلون من الدجى   لونه غير حائل

* * *

ثم شب الهوى بها   حالماً غير نائم
لم يعوذ شبابه   بالرقى والتمائم

* * *

كلنا يمنح الهوى   ميعة من شبابه
وبنا يبلغ الذى   وبلغنا للذى به

(العراق)   ع . ط . المفضل

أنباء وآراء

في الضمير العام

من رسالة لصاحب الامضاء تعليقاً على مقال الأستاذ البشرى في العدد ٢٦ :

« ما بال الأستاذ يصور لنا الفلاح تصويراً يعرض بسمعتنا وسمعته هو وسمعة بلاده أيضاً ؟ وهل من حقه أن يطلق علينا — وبكل جرأة — « الطبقة الدنيا » ؟ أفلا يعلم فضيلته أن هذه الطبقة أدنى من أن تتألف من البائعين والعمال (أبطال الأعمال الحرة وواضعي آثار الأمم) ؟ بل تتألف من السارقين ومدمني المواد السامة وغيرهم ممن لا يلجأون في عيشهم لاحتراف المهن الشريفة ؛ فلسنا نحن مؤلفي هذه الطبقة ، ولا أنتم تؤلفون ما فوقها من الطبقات . ليطمئن الأستاذ بأن الضمير العام أكثر ما يكون عند العمال الذين يشيدون القصور العالية الفخمة « والفيلات » الجميلة ، ويحشرون أنفسهم وأطفالهم — جنود المستقبل — في أكواخ يحرقهم القيظ فيها صيفاً ، وتغرقهم الأمطار شتاء » .

محمد سيد الحنفي النجار
عضو جمعية الاخاء المصرى بجيفا

حول قصص العرب

من رسالة لصاحب الامضاء إلى الأستاذ فريد أبي حديد :

« أسندتم أسر المهلهل الزعيم التغلبي إلى الحرث بن عباد ، ولكن في كتاب الأغاني — طبعة دار الكتب المصرية ج ٦ ص ١٣٧ — أن الذى أسر المهلهل عمرو بن مالك (التقيا في خيلين من غير مواعدة في بعض الغارات بين بكر وتغلب ، في موضع يقال له (نقا الرمل) فانهزمت خيل مهلهل ، وأدركه عمرو بن مالك فأسره ، فانطلق به إلى قومه ، فأحسن إساره وخصص له بيتاً ، ومات مهلهل عطشاً ، ونحر عمرو بن مالك يومئذ ناباً ، فأسرج جلدها على مهلهل ، وأخرج رأسه) » .

حسن عمر أبو شنب
(أم درمان)

جامع باريس

في باريس جامع . . . وإذا ذكر الناس الجامع ذكر بيت الله . وفي بيت الله يقف الواعظ فيذكر الناس دينهم ، ويهديهم سبيل دنياهم الرشيدة ؛ وفيه يقف الخطباء في ممالك الإسلام ، كما وقف من قبلُ أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب قائلين : أن لا مجد إلا للعرب ، ولا دين إلا للإسلام .

ولكن أين كل هذا من جامع باريس ؟ إنك إذا دخلت هذا المسجد — مسجد باريس — تحييت القوم هناك ، أجبت على تحيتك بلغة تكاد تكون أعجمية ، لأن القوم وهم من العرب السلفين ، قد نسوا لغتهم أو تناسوها ، وهؤلاء هم الذين يقومون على أمر الجامع .

وليس هذا بالشيء الذى يذكر إذا تركت الجامع ودخلت ملحقاته في نفس البناء ؛ فليست هذه الملحقات مكتبة ولا ملجأ أو مدرسة ، ولكنها مقصف ومطعم ومقهى وملهى ! يرتادها أصحاب وصاحبات القبعات ، يرتشفون فيها كؤوس الغرام ، ويتطارحون أحاديث الهيام . وفي هذه الخلوات العذاب ، تُشرح الخرافات عن الشرق والعرب ، ويصوَّر الدين الإسلامي بغرابة تتناسب مع ما يدفعه الزائر من المال !

هناك أكثر الأيام ، أما فى أعياد المسلمين فالمسجد وملحقاته تتحول إلى أبهاء استقبال ، تسف فيها الأحاديث ، بينما ترى المتفرجين يدخلونه بأحذيتهم أفواجاً .

هذا هو الجامع القائم فى باريس ؛ ليس مجمعاً للعرب هناك ، ولا رمزاً للدين الاسلامى فى هذه المدينة ، ولكنه مقر جماعة مات فيهم كل نبل إسلامى ، وكل عزة عربية . فأخذوا يشوهون حقائق العالم الإسلامى بما يقومون به من أعمال تنافى والشريعة الإسلامية . فلئن رضى بعض القوم عن هذا فإن العالم الإسلامى لن يرضى ، وإنه لبالمرصاد ، وهو يرقب اليوم الذى تباد فيه هذه المؤسسة النفعية التى تتخذ الاسلام درعاً لها ، فتطعن بذلك قلوب الملايين من المسلمين والعرب !.

فمن هو الذى سيكون له شرف هذا العمل المجيد ، فيحسن إلى الدين ، ويحسن إلى العرب ؟ .

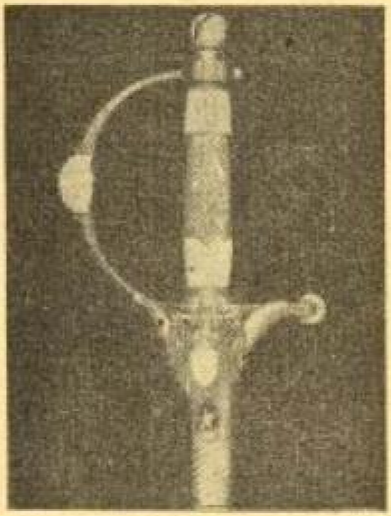
(باريس) **جودة الركابى**

سيف الأديب

انتخب المسيو أندريه موروا ، الكاتب الفرنسى الشهير عضوا بالأكاديمى فرانسيز ، فأصبح فى عداد الأربعين « الخالدين » .

ولما كان من تقاليد هذا المجمع أن يكون لكل عضو من أعضائه سيف فقد اشترك جماعة من أصدقاء موروا الفرنسيين والانجليز فى إعداد سيف له قدموه هدية لمناسبة هذا الانتخاب .

وقد روعى فى صنع هذا السيف أن يرمز إلى أشياء تتصل بحياة موروا . ففى أعلى القبض كرة من العاج ترمز إلى أحب أقاليم فرنسا إلى موروا وهو « بيرجورد » . أما القبض نفسه فقد حلى بيدين تتصافحان ، إحداهما ملونة بألوان العلم الفرنسى الثلاثة ، والثانية تمثل الشارة الانجليزية المعروفة « يونيون جاك » ، إشارة إلى اشتراك الأمتين فى تكريم الأديب الذى ترجم لأبرز شخصيات انجلترا ، أمثال « دزرائيلى » و « شلى » و « بيرون » .



مقبض السيف المهدى لأندريه موروا

وقد سبقت انجلترا فرنسا فى تكريم موروا إذ أنعم عليه بلقب فارس قبل الانتخاب بوقت طويل ، أيام كان موروا عرضة فى فرنسا نفسها لكثير من حملات النقد .

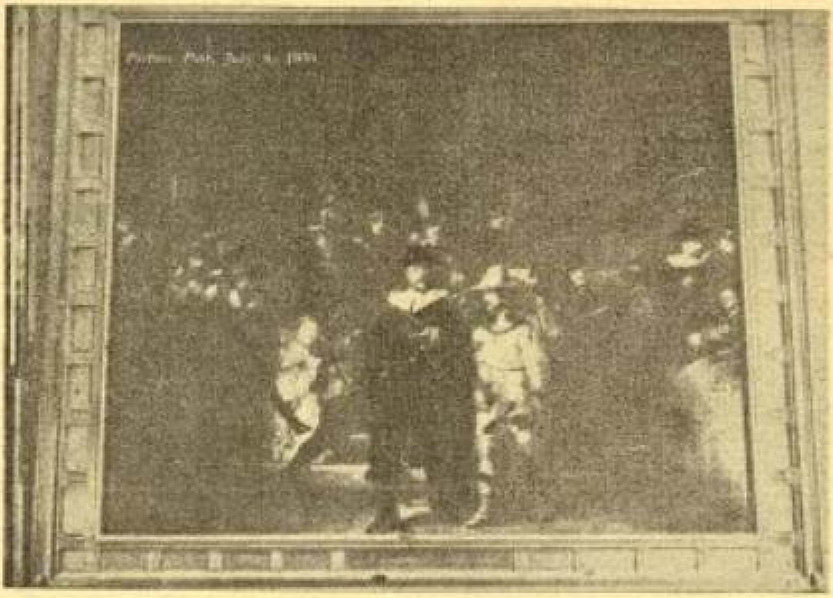
صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ مـ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ مـ صاغ

في حراسة لوحة فنية

تحتفظ مدينة امستردام في متحفها بإحدى صور «رمبراندت» الخالدة «جولة في منتصف الليل» ، وهى



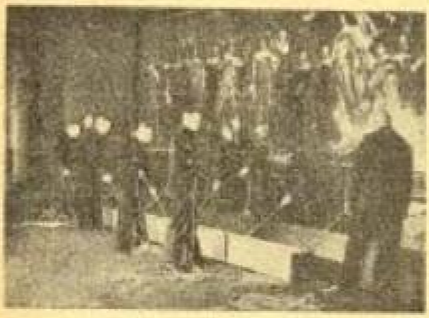
لوحة برانت «جولة في منتصف الليل»

تعد إحدى تحف العالم الفنية .

وقد وضعت إدارة المتحف لحراسة هذه اللوحة نظاماً خاصاً ، فقد عين لها حرس يراقبها ليلاً ونهاراً ويسهر على سلامتها من أيدى العابثين . فإذا ما تعرض المتحف لخطر الحريق أو الغارة الجوية ، فإن هذه اللوحة بفضل النظام السرى الذى وضع لاخفائها ، يمكن نقلها بأسرع من لمح البصر إلى مكان أمين بعيد عن خطر الغارة أو الحريق .

أما هذا النظام فهو عبارة عن سرداب تحت أرضية الغرفة التى تحفظ فيها اللوحة ، يمكن فتحه بضغط زر صغير فينزع البساط الذى يغطى هذه الأرضية ، وتخرج اللوحة من إطارها وتوضع في صندوق خاص وتنقل في مصعد خاص مركب في هذا السرداب إلى أسفل البناء ، حيث وضعت سيارة مجهزة لنقلها إلى المكان المعد لإخفائها فيه .

ولا تستغرق عملية نزع اللوحة من إطارها ووضعها في الصندوق ونقلها بالمصعد إلى السيارة أكثر من لحظات قليلة .



في ساعة الخطر ...
(الحراس يتأهبون لنقل اللوحة إلى مخبئها)

بين هيني وهتلر



هنري هيني

نشرت مجلة النوفيل ليترير مقالاً للكاتب إتيين جيلسون عن تنبؤات وردت في كتاب هنري هيني عن ألمانيا "De L'Alemagne" الذي نقد به كتاب مدام دي ستال المسمى بهذا الاسم ، فقال : إن هيني تنبأ في هذا الكتاب بظهور شخصية كشخصية هتلر تنزع إلى الحكم المطلق ، وإنه نصح الفرنسيين بالاحتياط من نيات هذا الحاكم الألماني قائلاً : « اهتموا بحماية أنفسكم ، وكونوا دائماً على أتم الاستعداد الحربي ، وقفوا في أرضكم هادئين ، ولا تتبعوا من يقول من وزرائكم بنزع السلاح ، وظلوا دائماً ، القبعة على الرأس والسلاح في اليد » .

وقد تساءل الكاتب بعد أن ساق العبارات التي وردت في كتاب هيني في وصف هذا الحاكم المطلق الذي سوف يحكم ألمانيا في يوم من الأيام ، وكأنها تنطبق على هتلر : هل كان هيني يتنبأ عما سوف يحدث بعد مائة عام تقريباً من خروجه من ألمانيا ؟ .

ومع أن هيني كان ألمانياً فإنه تعرض للاضطهاد في ألمانيا ، وقضى شطراً كبيراً من حياته في فرنسا حتى مات بها ، فهو كما يقول المسيو جيلسون في مقاله : « فرنسي في الماضي بإقامته وعواطفه ، وهو اليوم كذلك لأنه لو قدر له البقاء لكان موقف ألمانيا منه اليوم نفس موقفها السابق ، النفي والتشريد والاضطهاد . . . »

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم | ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٣١ — الثلاثاء ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ — أول أغسطس سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

موقف أمريكا من الأزمة الأوربية

قانون الحياد ونظرية العزلة

لمحرر « الثقافة » السياسى

كان لدخول الولايات المتحدة الأمريكية (أمريكا) فى أواخر الحرب الكبرى إلى جانب الحلفاء بلا ريب أثره الحاسم فى معاونة الحلفاء على نيل النصر ؛ ولكن حماسة الشعب الأمريكى نحو الشئون الأوربية ما لبثت أن فترت بعد انتهاء الحرب مباشرة ، وكانت أمريكا هى الدولة الوحيدة التى رفضت إبرام معاهدة الصلح التى اشتركت فى وضعها ، ورفضت الانضمام إلى عصبة الأمم التى كان ممثلها الرئيس ولسون أكبر العاملين على إنشائها .

وأمريكا تواجه اليوم إزاء الشئون الأوربية موقفاً كالذى كانت تواجهه فى أواخر الحرب الكبرى ؛ ومع

أن أوربا تواجه اليوم خطر الحرب فقط ، فإنها من جهة أخرى تضطرم بعناصر معركة حقيقية من نوع جديد ؛ فالدول الدكتاتورية قد استنت لنفسها سياسة جديدة ، هي سياسة العبث بالمعاهدات المعقودة ، وبأحكام القانون الدولي ، والاعتداء المنظم على الدول الصغرى ؛ والدول الديمقراطية من جانبها تحاول أن تقاوم هذه السياسة التي تكاد تضرم نار الحرب بين آونة وأخرى ؛ والتسليحات المروعة ، والاستعدادات الحربية على أشدها في المعسكرين . وأمريكا تشهد هذا الصراع باهتمام ، وتريد أن تتحوط من جانبها لما عسى أن تتعرض إليه من جرائه ، وأن تقرر موقفها نحوه ، خصوصاً متى وقع الانفجار المرتقب .

وقد أظهرت أمريكا حتى اليوم ميلها وعطفها نحو المعسكر الديمقراطي (انكلترا وفرنسا) ؛ وبلغت هذه الظاهرة أشدها في النداء الذي أرسله الرئيس روزفلت في أبريل الماضي إلى كل من زعيمي الدولتين الدكتاتوريتين ، يدعوهما فيه إلى التعهد بعدم الاعتداء على الدول المستقلة القائمة ؛ ولكن هذا العطف لا يمكن أن يعتبر في ذاته سياسة مقررة ؛ والحكومة الأمريكية تريد أن تحدد منذ الآن بصورة دستورية المبادئ الأساسية التي يحسن أن تسير أمريكا عليها متى قامت حرب أوربية أو أسيوية ؛ وهذه المبادئ يجب أن تدمج في قانون «الحياد» الأمريكي .

وقانون «الحياد» الذي يحتدم الصراع اليوم من أجله بين الرئيس روزفلت ومعارضيه ، قد وضع أصلا في سنة ١٩٣٥ ، ثم عدل في سنة ١٩٣٧ . وهو في حقيقته ونصوصه لا يتفق مع قواعد «الحياد» التي يقررها القانون الدولي ؛ وإنما هو في الواقع نظام خاص تحرص أمريكا على تقريره حتى لا يفوتها أن تجني ما يمكن أن تجنيه دولة مثلها ، ذات موارد صناعية وزراعية عظيمة ، باسم الحياد من وراء حرب دولية لا تريد أن تشترك فيها بطريق مباشر .

نظرية الرئيس روزفلت
أو النظرية الديمقراطية

ويجب أن نلاحظ أولا أن سياسة الرئيس روزفلت نحو الشئون الأوربية ، إنما هي إحياء لسياسة الحزب الديمقراطي التي بلغت ذروتها أثناء الحرب الكبرى على يد الرئيس ولسون ؛ وروزفلت ، هو اليوم ، كما كان سلفه ولسون ، قائد الحزب الديمقراطي . وتتلخص نظرية روزفلت وأنصاره في أنه يجب أن يحدد مركز أمريكا منذ الآن نحو الأزمة الدولية تحديداً دقيقاً ، وأنهم في الواقع يعبرون عن رأي الأغلبية العظمى من الشعب ، في القول بوجوب اتخاذ عمل إيجابي ضد محاولات السيادة التي تقوم بها اليوم ألمانيا وإيطاليا واليابان بالقوة الغاشمة ، وأنه لا توجد إزاء الاضطراب الدولي الحاضر ، سوى وسيلة واحدة لصون السلم ، هي العمل لحمايته وتأييده بالقوة ؛ وأمريكا تنتمي إلى نفس الحضارة والنظم التي تنتمي إليها انكلترا وفرنسا ، واللتين تعملان للدفاع عنها ، فكيف يسوغ لأمريكا أن تتخلف عن تأييدهما في حماية التراث المشترك ؟ ثم إن الدول الصغرى قد أصبحت جميعاً هدفاً لاعتداء الدول الدكتاتورية ، وقد فشلت سياسة التهدئة ، فلا مناص إذاً — إذا أريد حفظ التوازن الدولي وسلام العالم — أن تعود الدول الديمقراطية إلى التمسك بوسائلها القديمة ، وأن تعمل معاً على تدعيم جبهة مقاومة الاعتداء .

هذا ، ولا ريب في أن تأييد أمريكا الأدبي للمعسكر الديمقراطي ، إنما هو ضمان قيم لوقف الدول الدكتاتورية عند حدها ، وربما كان من أكبر العوامل الحالية في وقف الحرب ، وتخويف ألمانيا وإيطاليا من عواقبها .

تلك هي نظرية الرئيس روزفلت وأنصاره ، وهي نظرية تلقى اليوم تأييداً عظيماً في أمريكا . ومن ثم فقد رأى الرئيس روزفلت ، بما له من السلطة التنفيذية ، أن يتقدم إلى البرلمان الأمريكي بمشروع قانون جديد للحياد ، روعيت في وضعه هذه الاعتبارات .

قانون الحياد الجديد

والقانون الجديد من وضع المشترع سُل بلوم ، ويقوم على المبادئ الأساسية الآتية :

أولا — يحتفظ الرئيس بحق تقرير وجود حالة الحرب بين دولتين أو أكثر .

ثانياً — إذا تقرر أنه توجد حالة حرب ، فان الولايات المتحدة تستمر في بيع الأسلحة والمواد الحربية إلى الدول المتحاربة ، على شرط أن يؤدي المشتري الثمن فوراً ، ويحمل بنفسه ما اشترى (Cash and carry) .

ثالثاً — للرئيس الحق في أن يحدد مناطق القتال التي يحظر على السفن الأمريكية ارتيادها ، وفي خارج هذه المناطق تكون التجارة الأمريكية حرة وفقاً لمبادئ حرية البحار .

والفقرة الثانية هي بلا ريب نواة القانون ، وهي تتفق تمام الاتفاق مع نظرية الرئيس روزفلت وغايته في تأييد الجبهة الديمقراطية تأييداً قوياً مباشراً . ذلك أنه لا يوجد بين الدول العظمى من تستطيع الشراء بالنقد ، سوى إنكلترا وفرنسا ؛ ومن جهة أخرى فان إنكلترا وفرنسا هما وحدهما اللتان تستطيعان حمل ما تشتريانه على سفنهما ، فهما تملكان سيادة البحار ؛ والطريق بينهما وبين أمريكا مفتوح ؛ أما ألمانيا وإيطاليا ، فواضح أنهما نظراً لنضوب مواردهما المالية لا تستطيعان الشراء بالنقد ، ولا يتسنى لسفنهما في حالة الحرب أن تعبر إلى الأطلانطيق ، وذلك من جراء الحصار الذي يفرض عندئذ على شواطئهما .

وقد أودع المستر كوردل هل وزير الخارجية مشروع هذا القانون بمجلس النواب ، وبحثته بالفعل لجنة الشؤون الخارجية لهذا المجلس ، ووافقت عليه بأغلبية ١٢ إلى ٨ أعضاء ؛ ولكن المجلس الذي يتمتع فيه الرئيس روزفلت بأغلبية قوية ، أدخل مع ذلك على القانون تعديلا يقضي بحظر بيع المواد الحربية إلى المتحاربين ، ولا يستثنى من ذلك سوى الأدوات والمهمات الصناعية . ولكن مجلس الشيوخ ، وهو الشق الثاني من البرلمان الأمريكي (الكونجرس) ، كان أشد معارضة لمساعي الرئيس روزفلت ؛ ذلك أنه أبى أن ينظر القانون بتاتاً أثناء الدورة القائمة ، وأصر على تأجيل النظر فيه إلى الدورة القادمة ، أعني إلى يناير القادم ؛ ويلاحظ أنه منذ شهر مايو الماضي ، قد انتهى سريان مبدأ بيع السلاح على قاعدة « ادفع واحمل » ولم يبق من قانون الحياد القائم سوى الحظر على بيع السلاح ، وهو نص يطبق من تلقاء نفسه في حالة الحرب ، وذلك على جميع المتحاربين على السواء .

وعلى ذلك فلم يبق أمام الرئيس روزفلت ، سوى أمل واحد لحمل مجلس الشيوخ على النظر في مشروع القانون الجديد ، وهو استعمال حقه الدستوري في دعوة « الكونجرس » إلى الانعقاد ، وذلك إذا وقعت ظروف وطوارئ تبرر مثل هذه الدعوة .

نظرية الجمهوريين
أو نظرية العزلة

ويلاحظ أن مجلس الشيوخ ، هو معقل المعارضة ، ومعقل الحزب الجمهوري ، وهو ثاني الحزبين الأمريكيين

الذين يتداولان الحكم ؛ ونظرية الجمهوريين وأنصارهم تتلخص في وجوب تمسك أمريكا بمبدأ العزلة ، والاعتصام بمذهب مونرو ، وعدم التدخل في شئون أو أزمات لا صلة لها بالعالم الجديد ؛ ومن ثم فإنه يجب على الحكومة والبرلمان أن يعملا على حماية البلاد من ويلات الحرب ؛ وأمريكا قارة منيعة ، وعالم قائم بذاته ، فلا شأن لها بمنازعات أوربا ؛ وإذا كان التزام العزلة من أصعب الأمور ، فإنه مع ذلك ضروري للمحافظة على سلام القارة الأمريكية . نعم قد تكون سياسة الرئيس روزفلت في معارضة الدول الدكتاتورية ، معبرة عن عواطف الشعب الأمريكي ، ولكن الحكومات لا تعمل بوحي العواطف ، ومن الواجب ألا تجر هذه السياسة الأمة الأمريكية إلى القيام بأي عمل إيجابي ضد المعسكر الدكتاتوري ، أو بعبارة أخرى لا يسوغ مطلقاً أن تدفع بها إلى خوض الحرب . والخلاصة أن أصحاب هذه النظرية لا يعنون بأمر السلام إلا في أمريكا وحدها ، ومن رأيهم أنه إذا وقعت الحرب في أية بقعة أخرى غير القارة الأمريكية فلا شأن لأمريكا بها ولا بنتائجها .

على أنه يلاحظ أن نظرية العزلة قد فقدت إزاء الظروف الدولية الحاضرة كثيراً من وجاهتها القديمة ؛ فالعالم اليوم يكاد يكون وحدة متصلة متشابكة المصالح في جميع النواحي ؛ والأزمة الدولية الحاضرة لا ترجع إلى أسباب أو عوامل محلية ، بل ترجع إلى أسباب وعوامل عالمية ، وهي تتعلق بمصاير جميع النظم القائمة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، بل تتعلق بمصاير الحضارة القائمة كلها ، فكيف يطلب إلى دولة عظمى أن تقف جامدة تشهد انهيار النظم والحضارة الإنسانية كلها تحت ضربات النظم والقوى البربرية المخربة ؟ فالعزلة السياسية في مثل هذه الظروف تكاد تغدو أمراً مستحيلا . والواقع أن الحزب الجمهوري يروج لهذه النظرية قبل كل شيء لاعتبارات محلية ؛ فالمعروف أن انتخابات الرياسة ستقع في أقل من عام ، أعني في ربيع العام القادم ؛ والجمهوريون يرون في قانون الحياد طريقة لمحاربة الديمقراطيين ، والاضعاف من هيبة روزفلت ؛ وهم يخشون أن يتقدم روزفلت إلى الشعب مباشرة فيغنم عطفه وتأييده ، وهم لذلك يحاولون اجتذاب الشعب بنظرية العزلة والسلام المحلي ؛ وعلى ذلك فإنه ينتظر أن تدور انتخابات الرياسة القادمة — سواء تقدم إليها روزفلت للمرة الثالثة أو لم يتقدم — حول سياسة أمريكا الخارجية .

ومن الصعب أن نتنبأ الآن بمصير قانون الحياد ، أو بمصير سياسة الرئيس روزفلت ؛ بيد أن الرأي الراجح هو أن الظروف والقرائن كلها تحمل على الاعتقاد بأن الرئيس روزفلت سيفوز في النهاية بتنفيذ قانونه وسياسته .

(***)

وحى البحر...

للأستاذ أحمد أمين

على صخرة مشرفة على البحر في « السكس » جلست وحدى .

وقد تؤنس الوحدة ما لا يؤنس الجمع . ولكن ذلك لا يكون حتى تتخذ من نفسك صديقاً ، وليس ذلك بالأمر اليسير ؛ فكثير من الناس اتخذوا من نفسهم عدوا ، يتناولونها دائماً بالنقد والتجريح ، ويصغرون ما تأتى به من أعمال ، ويحقرون ما يصدر عنها من آراء ، وينظرون إليها نظرة ذلة وحقارة ؛ فإذا هم وأنفسهم أعداء ، يهربون منها كما يهربون من خصومهم ، ولا يستطيعون أن ينفردوا بها طويلا ، كما لا يستطيعون أن يجالسوا أعداءهم طويلا ، فيلجئون إلى الأصحاب ، فإن أعوزهم الأصحاب لجئوا إلى كتاب ، فإن لم يجدوا كتاباً فإلى أى شيء إلا أنفسهم .

مصيبة كبرى ألا يصادق الإنسان نفسه ، لأن نفسك هي الشيء الوحيد في العالم الذي لا تستطيع أن تهرب منه ، فقد تستطيع أن تهرب من زوجك ، ومن ابنك وبنتك ، ولكن لا تستطيع بحال أن تهرب من نفسك ولا بالموت ؛ فإذا كانت النفس عدوا كانت شر الأعداء ، وأثقل الأعداء ، لأنها عدو ملازم أثقل من الغريم الملازم .

والشعور بحقارة النفس وضعتها سم قاتل ، لا ينجح معه عمل ، ولا يرجى من صاحبه خير .

والغرور والأنانية شر ، ولكن شر منه احتقار النفس وعداؤها والاشفاق عليها ، وتعذيبها الدائم بتأنيبها . وخير من هذا وذاك أن تقف منها موقف الصديق ، تشجعه إن أحسن ، وتعتب عليه في رفق إن أساء .

* * *

إن صادقت نفسك لذذت الوحدة ، ووجدت فيها متعة أية متعة .

والأنس بالوحدة فن كسائر الفنون ، يحتاج إلى مران طويل ومنهج شاق .

في أول ممارستها يشعر الإنسان بضيق أى ضيق ، ويحاول الهرب منها إلى كتاب أو صديق ، ثم لا يرى في العالم شيئاً يُقرأ ولا في نفسه معنى يُبحث ؛ وقد تعرض له أثناء ذلك خيالات مفزعة ، وتصورات محزنة ، ولكنه إذا صبر على الألم وكرر التجربة تجلى له العالم ، وأوحى إليه بمعان جديدة قيمة . إذ ذاك يجد لذة في كل تفكير ، وعمقاً في كل معنى ؛ وإذ ذاك يعرف نفسه ، ويجد ربه ؛ وإذ ذاك تتجرد النفس من غرورها وكبريائها ، ويتبين لها جهلها ، فتخلص النية في أن تعرف فتعرف ؛ وإذ ذاك لا يشغلها ضوضاء العالم ، ولا تُزيغ بصرها المناظر الزائفة ، فيظهر لها الحق في جلاء ووضوح ؛ وإذ ذاك تشعر بنوع من اللذة يفوق لذة تحصيل العلم من معلم أو من كتاب ، وتشعر بأن الفرق بين النوعين كالفرق بين أن تنعم بمالك وأن تنعم بمال غيرك ، أو كالفرق بين من يجمع المال ومن يستخدمه في إسعاده .

* * *

ثم ماذا ؟

هذا هو البحر بجماله وجلاله ، وديع حتى يلعب به طفل ، جبار حتى ليرتعد منه أسطول ، صورة صادقة من صور الزمان في إقباله وتجهمه ، وابتسامه وعبوسه ، ومده وجزره ، ولينه وشدته . ما جلست أمامه يوما إلا شعرت بلذة ألمة أو ألم لذيذ ؛ أما اللذة فلجماله ، وكل جميل

يبعث السرور ، ويحيي الأمل ، وينعش النفس ؛ وأما الألم فلجلاله ، وأمام الجليل تتخاذل النفس ، وتشعر بضعفها في جانب عظمته ، وتفاهتها بجانب جبروته ، وحقارتها بجانب جلاله ، وفنائها بجانب أبديته .

فأمام الانبساط لجماله ، والانقباض لجلاله ، تكون اللذة الألمة أو الألم اللذيذ .

صبور لا ييأس ، مجدّ لا يمل ، يحارب الصخور الصماء فيغلبها بصبره ، وينال من قسوتها وصلابتها مع رقته وسلاسته ، ويذيبها في نفسه ، فإذا هي لا شيء ، وإذا هو كل شيء .

من قديم والإنسان يُعمل عقله في دفع أذاه واتقاء جبروته ، وكلما اخترع شيئاً استخدمه في صدّ غاراته ، وتنكّب نكباته ، وهو هو رابض في مجثمه ، ممتز بقوته ، يتحرك من حين إلى حين ، فيختار أقوى ما أعده الإنسان ، وجهزه بأحدث الآلات ، وأمده بأحسن المخترعات ، فيضربه الضربة السريعة الحاسمة ، تأتي عليه في لمح البصر وسرعة البرق ، فإذا هو لا شيء ، سواء في ذلك أساطيله ومدرعاته ، وطياراته وغواصاته .

هذا هو البر ، قد خضع للإنسان ، كما يخضع الحيوان المستوحش فيستأنس ، مهّد الإنسان طرقه ، وأقام عليه مساكنه ، وبثّت فيه خطوطه الحديدية ، وغيّر جدبه خصباً ، وجعل ترابه حقولاً ناضرة ، وبساتين مثمرة ، ونباتات مزهرة ، وملكه وحارب على ملكيته ، وحدده وتنازع على حدوده ، والبر — في ذلك كله — وديع كالحمل ، مستسلم كالذليل .

أما البحر فكلا ، باق على وحشيته منذ خلقه الله ، لم يسمح للإنسان بطريق يعهده ، ولا خط يحده ، ولا ملك يتملكه ، إن ادّعت دولة ملك جزء منه فكلام في الهواء ، أو حبر على ورق ، أو معاهدة تسجل في البر ، لم يستطع الإنسان — على اختلاف عصوره وتقدم علمه — أن يخضع قوته ، أو يحد من نشاطه ، أو يؤنسه كما آنس البر ، ولم يتحمل هو من إنسان مهما عظمت قوته ، ولا من مركب مهما ضخم حجمه أو توفرت عدته ، أية إهانة ، أو خروج عن أدب اللياقة ؛ فإن حدثته نفسه بذلك مرة لعب به كما يلعب القط بالفار ، ثم ابتلعه في هدوء من غير أن يشعر بذلك أحد ، أو سلط عليه جبلاً من ثلجه ، فهشمه تهشيماً ، وقطّعه إرَباً ثم ابتلعه كذلك .

موقفه الآن من الإنسان وهو قوى ببخاره ، وحديده وناره ، وكهربائه ولاسلكيه ، موقفه منه وهو ضعيف لا يعرف إلا الشراع والهواء .

ديمقراطي بطبعه ، لا يخشى ملكاً لملكه ، ولا غنياً لغناه ، ولا يحتقر فقيراً لفقره ، ولا بائساً لبؤسه ؛ من أراد أن يستمتع بمائه — كائناً من كان — وجب أن يتقدم إليه بكل علامات الطاعة ، فيتجرد من مظاهر العظمة وأكاذيب الأبهة ، فيخلع حذاءه ، ويكشف رأسه ، ويعرى جسمه ، وإن كان غنياً تساوى بالفقير في مظهره ، وإلا عرف البحر كيف يؤدبه .

اعتز بقوته ، فلم يسمح لمخلوق من مخلوقاته أن يعيش في البر ساعة ، ولم يكن للبر مثل قوته فعاش أهله في البحر أياما .

كان — ولا زال — عمقه الهائل ، وموجه القوى المضطرب ، وحركته الدائمة ، وقوته الضخمة ، مع ليونته وملاسته وجمال منظره الدائم ، مبعث الحب والاجلال ، ومثار الشعر والخيال .

* * *

ثم ماذا ؟

ثم إنّا والبحر والبر والعالم وحدة واحدة ، كل منا جزء منها ، وكل منا جزء صغير من آلتها العظيمة ، ولنا كلنا خطة واحدة وغاية واحدة ، علمنا بعضها ، وظننا بعضها ، وجهلنا أكثرها .

وهي كلها تخضع لارادة واحدة ، يسميها الدينيون

إرادة الله ، والمدنيون إرادة الطبيعة ، والحقيقة واحدة ، والاسم مختلف .

تدور هذه الآلة العجيبة في نظام وإحكام يستخرجان العجب ! وما ظنك بآلة تلد نحو خمسين ألف إنسان في الساعة وتميت مثلها ؟ وذلك — فقط — في ذرة حقيرة من جسم العالم اسمها « الأرض » .

إن عقلنا ليعجز عن إدراك كنه هذه الآلة العظيمة عجز النملة عن إدراك كرة تسير هي عليها ، أو عجز أعشى عن إدراك ما في الأفق البعيد ! .

إن العلماء يدركون من هذه الآلة ما أدرك أنا من منظر هذا البحر ؛ أدرك سطحه ، ولا أدرك عمقه ، وأدرك جماله وجلاله ، ولا أدرك كنهه ، وأدرك جزءه ، ولا أدرك كله .

إن لهذه الآلة قوانين حازمة صارمة ، تعطف كل العطف على من وافقها ، وتقسو كل القسوة على من خالفها ؛ وهذه القوانين معقدة مركبة تبعاً لتعقد الآلة وتركيبها ، ولكل جزء من هذه الآلة قوانين ترتبط كل الارتباط بقوانين المجموع ؛ من وافقها حملته سالماً في تيارها ، ومكنت له من أن يرتع في نعيمها ، ومن خالفها كان كناطح الصخرة ، ينال من نفسه ، ولا ينال منها .

وأكبر شقاء العالم الانساني — أفراداً وأمماً — أتى من أنه جهل قوانينها ، أو عرفها ولم يسر عليها . ولا أمل في سعادته حتى يعلم ، وحتى يعمل وفق ما يعلم .

* * *

ثم ماذا ؟

وجاءت موجة عالية ، فلطمت الصخرة لطمة قوية ، أصابني رشاشها ، فتنبهت من أحلامي ، وعدت من حيث أتيت !

(صخرة المكس في ٢٠ يوليه) أحمد أمين

٢ - رشيد الدين العمرى الكاتب

المعروف بالوطواط

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

بينتُ فى المقال السابق بعض الصلات بين الأدبين العربى والفارسى ، وذكرت طائفة ممن مهروا فى الأدبين ، واخترت من بين هؤلاء رشيد الدين العمرى الكاتب المعروف بالوطواط ، لأنه يمثل امتزاج الأمتين العربية والفارسية ، واتصال أدبيهما تمثيلا بيّنا .

وقد قدمت طرفاً من أخبار رشيد الدين وتوليه ديوان الإنشاء لملوك خوارزم .

— ٢ —

وأبيّن اليوم آثار هذا الكاتب الشاعر ، وما تدل عليه من أحوال عصره :

كان رشيد الدين متوليًا ديوان الإنشاء لملوك خوارزم مصاحباً لهم فى سفرهم وحضرهم ، فلا جرم كثرت رسائله وقلّت مؤلفاته .

كان متبحراً فى الأدب وعلوم العربية ، وافر الحظ من علوم عصره ، مولعاً بالدرس والاستماع إلى العلماء ، ومراسلتهم ، كلفاً بالكتب ، يقتنيها ويستعيرها ، ويُهديها ويقفها .

نجد فى رسائله رسالة إلى محمود بن عمر الزمخشرى ، يستأذنه فى حضور مجلسه (٢٨٠ — ٢) ، كما نجد فى رسالة أخرى مآخذ أخذها على الزمخشرى فى اللغة تدل على تبحره فى علوم العربية ، ونجد رسالة أخرى إلى أحد أئمة الحديث يسأله أن يوفد إليه أحد الشاع ليأخذ عنه ، يقول فى هذه الرسالة : « وبعد ، فلا يخفى على فلان — أدام الله فضله — فرطُ اشتغالى باقتناء ذخائر الفضل ، وشدة حرصى على اقتناص شوارد الأدب ، وصدق رغبتى فى التقاط درر الفوائد من أفواه مشيخة العلم ، ولم يبق فى زماننا هذا أحد من شيوخ الأمة وكبار الأئمة نسمع منه أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ويُرجع إليه فى معرفة أيام الصحابة وأحوال التابعين رضوان الله عليهم أجمعين إلا فلان . . . إلى أن يقول : وقد تشطنى التوفيق الإلٰهى لسماع كتاب شُعَب الإيمان منه ، وروايته عنه ، فالمتوقع من كرم فلان أدام الله فضله أن يعرض هذا المكتوب ويلتمس منه أن يشرف البلدة بحضوره أياما قلائل ، ويُنيخ راحلته بعرصة دارى ، فقد أعددت لها حجرة واسعة ، لطيفة المخرج والمدخل ، طيبه الأعلى والأسفل ، وهيأت فى تلك الحجرة جميع ما يفتقر إليه الانسان من المصالح فى مُقامه ومحله ، ومبيته ومظله ، إلى أن نسمع منه هذا الكتاب المذكور ، فان تفضل بالاجابة إلى هذا الملتمس ، والاسعاف بهذا المقترح ، طوقنى منّة لا أجهلها طول دهرى ، ولا أذهل عن ذكرها مدة عمرى » .

وكذلك يذكر فى رسائله استعارة نسخة من شعر الخازن ، أحد شعراء « اليتيمة » ليصحح عليها نسخة عنده محرفة ، واستعارة نسخة من « أساس البلاغة » مقروءة على المؤلف ليصحح نسخة عنده أيضاً ، وإرسال نسخة من كتاب « مجمع البحرين » إلى بعض القضاة ليصححه .

وقد اتهمه بعض كبراء مرو بأنه أخذ كتبه حينا

أغارت جيوش آتسز على مدينة مرو وكان رشيد الدين فى العسكر ، فكتب إليه رسائل يبرئ نفسه من هذه التهمة ، ويقسم بكل مُحرِّجة من الأيمان أنه ما فعل ، ويقول : « هأنا قد آتانى الله تعالى من الوجه الحلال قريباً من ألف مجلدة من الكتب النفيسة ، والدفاتر الفائقة ، والنسخ الشريفة ، وأنا وقفت الكل على خزائن الكتب المبنية فى بلاد الاسلام ، عمرها الله ، لينتفع المسلمون بها ؛ ومن كانت عقيدته هكذا كيف يستجيز من نفسه أن يُغير على كتب إمام من شيوخ العلم أنفق جميع عمره حتى حصَّل أوراقاً يسيرة لو بيعت فى الأسواق لما أحضرت ثمنها مائدة لئيم ؟! » .

— ٣ —

وكان رشيد الدين كما قدمت فى شغل من ديوان الانشاء ، وصحبة ملوك خوارزم فى السفر والحضر ، فلم يفرغ لتأليف الكتب .

ويمكن إجمال آثاره فيما يأتى :

١ — كتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر وهو كتاب فى البديع فيه كثير من الأمثلة الفارسية والعربية ونماذج كثيرة من نظمه ونثره ، وهو عظيم الجدوى على المشتغلين بالأدبين العربى والفارسى . وقد طبع الكتاب فى طهران .

٢ — ورسائله العربية وهى زهاء مائة وخمسين رسالة منها الطوال والقصار ، وقد طبعت فى القاهرة .

٣ — وديوانان عربى وفارسى لم يطبعا .

٤ — ورسائله الفارسية وهى متفرقة فى دور الكتب لم تطبع .

٥ — وكلمات مجموعة من أقوال الخلفاء الراشدين ، وهى أربع رسائل صغيرة :

الأولى — تحفة الصديق إلى الصديق من كلام أبى بكر الصديق .

والثانية — فصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب .

والثالثة — أنس اللهفان من كلام عثمان بن عفان .

والرابعة — نثر اللآلى من كلام أمير المؤمنين على . وتسمى أيضاً مطلوب كل طالب من كلام على بن أبى طالب ، أو مائة كلمة . وقد ترجمت إلى الفارسية ، وشرحت وطبعت . وقد أهدى الثلاث الأولى لأتسز أرسلان ، والرابعة لابنه محمود .

٦ — وسبع رسائل فيها جمل من كلامه جمعها لبعض الملوك والكبراء .

— ٤ —

وأعظم آثار رشيد الدين رسائله العربية ، ويعرف منها مجموعتان : الأولى الرسائل التى طبعها فى القاهرة محمد أفندى فهمى سنة ١٣١٥ ﻫ . وهى زهاء مائة وخمسين رسالة .

والثانية (مجموعة) تسمى « أبكار الأفكار » وتشتمل على عشر رسائل عربية وعشر فارسية وعشر قصائد عربية وأخرى فارسية وقطع صغيرة عربية وفارسية .

وفى دار الكتب من هذه المجموعة عشر الرسائل العربية فقط . وبعض هذه الرسائل مندرج فى المجموعة المطبوعة .

ويؤخذ من الرسائل أن الكاتب جمعها فى حياته ، فهو يذكر فى رسالة إلى أحد القضاة أنه يهدى إليه فى عيد الأضحى مجلدة من رسائله العربية .

ورسائل رشيد الدين كرسائل كبار أدبائنا : البديع والخوارزمى والصابى وابن زيدون وأضرابهم ، صورٌ واضحة من الجماعة التى عاشوا فيها : أدبها وسياستها وأخلاقها وعاداتها . فهى أجدى على مؤرخ الأدب من الشعر وأكثر إمتاعاً للقارئ ؛ تحدثه عن وقائع عامة وخاصة

وترينا بعض ما كان بين الناس من شقاق ومودة ، وتعاون وتخاذل ، ومساءلة ومناظرة ، وهلم جراً ! ومهما زخرفت القول وزينت الصور فهي لا تحق ما وراءها من حقائق . يطلع قارئ الرسائل على طرف مما كان بين ملوك خوارزم والخلفاء العباسيين وملوك السلاجقة :

نجد رسالة إلى الخليفة المقتفى لأمر الله (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) على لسان ملك خوارزم ، يغلو فى تعظيم الخليفة ويشكو إليه فعل السلاجقة بأرضه وبلاده ويسأله منشوراً بالولاية على أقاليم خوارزم ، يقول :

« ويرجو العبد من حسنات تلك الحضرة الزاهرة ، أن يصدر عنها باسمه ، منشور برسمه ، على ولاية خوارزم ، جانبيها ، شرقيها وغربيها ، وما يضاف إليها ، وينعطف عليها ، من بلادها وديارها وجبالها وقفارها ، وسهولها وحزونها ، وبحارها وعيونها ، وأغوارها ونجودها ، وأطرافها وحدودها ، وأن يوشح ذلك ويحلى بالتوقيع الأشرف الأعلى ليكون ذلك مرغمة لأنوف الحاسدين ، ومكسرة لقلوب القاصدين ، وتنقطع بيمن ذلك العهد أطماع العدو من ديار العبد وبلاده ، وتندفع عنها أسباب شره وفساده . ويبقى بذلك للعبد وأخلافه فخر مؤبد وذخر مخلد » .

وفى رسالة أخرى للخليفة نفسه نجد ملك خوارزم يعتذر عن القعود عن زيارته بمجاورته الأعداء يقول : « وأعظم تلك العوائق وأكبرها ، وأوضحها وأظهرها ، أن خطة العبد لصيقة ببلاد الشرك من ديار الترك ، والعبد فى أكثر أوقاته وأغلب حالاته ، مشغول بمحاربة أعداء الدين ومقارعة أحزاب الشياطين ، بذل صعابهم وبفل أنيابهم ، ويرد عن بحبوحة الاسلام خيلهم وركابهم . ولو غاب العبد عنها مدة يسيرة لم يأمن أهلها مضرة الكفرة ، ومعرة أولئك الفسقة الفجرة » . ثم يشكر الخليفة على الخلع التى أرسلت إليه : « وأما الخلع الخاصة للعبد والتشريفات الواصلة إليه من المواقف المقدسة — قدسها الله — فقد هزت عطفه وشددت أزره ، وأطلعت نجوم فخره بعد أفولها ، وكانت رياض عيشه بعد ذبولها ، وعرضها العبد على كل حاضر وباد ، ونادى عليها فى كل محفل وناد » الخ .

هاتان الرسالتان ورسائل أخرى تبين عن صلة هؤلاء الملوك بالخلفاء العباسيين ومكانة الخلفاء — وإن لم يكن لهم حول ولا طول — فى نفوس السلاطين المعاصرين ، وفيها للمؤرخ مجال .

وإذا تركنا السياسة جانباً وجدنا فى الرسائل أموراً أخرى اجتماعية وأخلاقيـة وعلمية تكشف بعض جوانب العصر .

فى رسالة إلى أبى البركات البغدادى يطلب منه انتخاب طبيب لخوارزم يدرس الطب بها . يقول بعد أن يصف تبدل الحال فى خوارزم وقلة العلم بها :

« والآن مست حاجتها إلى طبيب حاذق ، ونطاسى محقق ، يخلع بخوارزم نعله ، ويطرح بأرجائها رحله ، لينتفع المسلمون بقوله وفعله ، ويقتبس المتعلمون من علمه وفضله ، ولأجل هذا المهم أصدرنا هذا المثال . وأرسلنا فلاناً أدام الله سعادته ، وهو الموصوف بالتدين والمعروف بالتصون ، وله فى حضرتنا حقوق الطاعة ، وسوابق الخدمة ؛ فالتوقع من ألطاف أفضل العالم أدام الله فضله أن يختار من جملة تلامذته المنتمين إليه القارئين عليه ، إنساناً فاضلا واقفاً على قوانين الطب ، مطلعاً على أسرار الحكمة ، متقدما فى حلبات الفضل ، مستولياً على قصبات السبق ، متحليا بحسن السيرة ، متصفاً بنقاء السريرة ، ويبعثه إلينا فى صحبة موصل الخدمة لتسلم إليه دار أدوية خوارزم بأوقافها ومرافقها . ونضم إلى ذلك من ديواننا وظيفة سنية زيادة فى الاحسان والانعام ، وإظهاراً لأثر الاعزاز والاكرام . وأنفذنا على يدى حامل المثال شيئاً يسيراً ينفقه المسمى لهذه الخدمة فى مصالح الطريق » .

وفي رسالة أخرى للإذن بصلاة الجمعة في قرية يقول : « وأذنا له أن يقيم بتلك البقعة صلاة الجمعة ... إلى أن يقول : فعليه — أدام الله تقواه — أن يعيّن المصلَّى ويضع المنبر ، ويختار خطيباً مصقعاً يحسن الخطابة ويتقن القراءة ، ويبرز في الجمعات للناس ، في الملابس السود على سنة بني العباس ، فإنهم الخلائف المقتدى بآثارهم ، والأئمة المهتدى بأنوارهم » .

كما نجد رسالة طريفة جداً يوبخ فيها كاتباً على كثرة استعارته الدواة والقلم ، ويضرب له مثلا قصة السكارى والحمار وهي رسالة طويلة . سأنشرها على حدة .

ونجد الكاتب يرسل إلى بعض الأئمة يلومه على المكث في دار رجل زيادة على مدة الضيافة يقول : « قال أصحاب العرف : الزيارة ساعة والضيافة ليلة . وقال أصحاب البطش والجلاد : الغارة ثلاثة أيام لاثلاثة أعوام ، وماجاوز هذه فهو عقوبة من العقوبات التي صب الله تعالى أسواطها على المفسدين من الأمم الخالية ، والمشركين من القرون الماضية كقوم نوح وقوم لوط وغيرهم من الظلمة الكفرة ، والفسقة الفجرة . وأنا لا أدرى نزول سيدنا — أدام الله جاله — بدار فلان أعزه الله من أي واد هو ! فإن كان زيارة فقد فنيت مدتها ، وإن كان ضيافة فقد بليت جدتها ، وإن كان غارة فقد كثرت لياليها وأيامها ، وكبرت أوزارها وآثامها ، وإن كانت — والعياذ بالله — عقوبة ، فالصفح الصفح والعفو العفو ، فقد أوت أنواعها على العد ، وخرجت أصنافها عن الحد . ليرفق بفلان أعزه الله ، وليترحم على رقة حاله ، وقلة ماله ، وعويل عياله ، وبكاء أطفاله . وليتحول من داره إلى منزل آخر ، ودار أوسع منها وأعمر » .

فلما أجاب المكتوب إليه ، بذكر اختلال أحواله ، وتنكر الأيام له ، واضطراره أن ينزل على حكم الأيام من الفقر بعد الغنى ، والذل بعد العز ، كتب رشيد الدين يعتذر ويقول :

« والذى بيده مفاتيح الغيب ، وله الذات المنزهة عن العيب ، والآيات المطهرة عن الريب ، لقد بكيت عند قراءته بكاءً ولا بكاء الغريب على بلده ، والثكلان على ولده ؛ وليس له — أدام الله علوه — عند ذكر منازله ومبانيه ، وشرح معاهده ومغانيه ، حاجة إلى إقامة شاهد ، وإحضار مشاهد ، فأنا جهينة تلك الأخبار ، وحذيفة تلك الأسرار ، عاينت صفته وغدره ، وشاهدت خورنقه وسديره . . .

« وأنا ما كتبت — وحق صحبته الكريمة ، وخدمته القديمة — تلك الخدمة للتعيير والذم ، ولا للتوبيخ واللوم ، وإنما كتبتها للنصيحة الصادرة عن قلب صاف ، وحب واف ، تمسكا مني بذرى رتبته أن تنخفض ، وإشفاقاً على قوى حرمته أن تنتقض . فإن المرء ، وإن كان جميل الذكر ، جليل القدر ، إذا أطال المقام في بيت غيره هان في عينه ، وثقل على قلبه ، وصغر إلى نفسه » .

وإذا نظرنا إلى الجانب الأدبي وجدنا وصف أديب ، أو نقد شعر ، أو تزييف شاعر ، انظر كيف يكتب إلى بعض الشعراء يقول :

« مثل هذا الشعر بالفقد ، أولى منه بالنقد ، لما في أثنائه من وصمة الاختلال ، وهجنة الانتحال ، وظنى ، بل يقيني ، أن بعض صبيان الكتاب نجم نبعه ، وامتحن طبعه بنظم هذه الأبيات ، وتلفيق هذه الكلمات عصمنا الله من هواجس الهذيان ، وصاننا من وساوس الشياطين ، والسلام » .

ويقول في رسالة أخرى : « عادة الأحداث الأغمار ، أنهم يسرقون أبياتاً من دواوين شتى ثم يتصرفون فيها تصرف الأجنبي في مال غيره ، ويعملون منها شعراً متكلفاً بارداً ، معتل اللفظ والمعنى ، مختل الأساس والمبنى . ثم بعد هذا كله يكتبون على صدر الشعر اسم فحل من فحول الشعراء ، ويبعثون به إليّ ، طالبين مني التنبيه على صالحه

(البقية على الصفحة التالية)

مباحث اسلامية :

الدعوة القومية والاسلام

للأستاذ أبو الهيثم

مضى قولنا في القومية بإيجاز بالغ حدّ الاشارة . ومقالتنا اليوم في معنى القومية ، وإظهار مكانها من الدين علواً وسفلاً ، وخلافاً ووفاقاً ؛ وغرضنا من ذلك الاتفاق على (مطمح) لنا واحد ، ونفي التفرق الذي يؤدي بأهله إلى الفشل ، وأن نجمع قوانا التي ننفقها في التنازع والتخاصم ، ثم نوجهها وجهتها المرجوّة إلى الاصلاح والقوة والتقدم ؛ ثم إن البحث في ذاته من البحوث النافعة التي يجب وجوباً نشر أمثالها اليوم والمناظرة فيها ، والاهتمام بها . . . وأنا حاضر لكل مناقشة ، متهيئ لقبول الحق واتباعه ، شاكر لمن يهديني إليه . . .

* * *

وبعد ، فاذا كان معنى (القومية) بيان فضائل العرب ، ونشر تاريخهم ، والعناية كل العناية بلغتهم وآدابهم ، واتباع سننهم في كلامهم ، فنحن لا جرم قوميون ؛ بل إن كل مسلم فيما أحسب قومي ، لأن المسلم مهما كانت لغته وكان قومه . . . لا يستطيع أن ينكر فضائل العرب وينشر مثالبهم ويحقرهم ويبغضهم ؛ وكيف لعمر الله يتبع محمداً ثم يذم صحابة محمد الذين أخذ عنهم الدين ، وأثرت عنهم الأحكام . وكانوا هم نقلة الأحاديث وحملة القرآن ؟ والمسلم حيث كان معنيٌّ بتاريخ العرب لأنه تاريخ الإسلام ، مشغوف بلغة العرب لأنها لغة قرآنه ، ولسان نبيّه ، واللغة التي بها يخاطب ربه في صلاته ، ويدعوه في مناجاته . محبٌّ لأرض العرب لأنها منها انبثق النور ، وفيها نزل الوحي ، وعليها عاش النبي صلوات الله عليه ، وفيها دفن ، وإليها الحج من أقطار الأرض . . . فأي مسلم لا يؤثر عرفات على بلده ، ويفضل حجرة النبي التي يقوم فيها قبره الشريف على داره وغرفته ؟

فأنت ترى بأن الاسلام دعوة عربية ، وتعلم أنه صبغ الدنيا المفتوحة بالصبغة العربية في أقل من نصف قرن . فليس بين القومية (بهذا المعنى) وبين الاسلام فرق ولا خلاف ، بل إن الدعوة إليها لا تنجح كما نجحت من قبل إلا إن جاءت باسم الاسلام .

وإذا كانت القومية هي السعي للوحدة العربية ، وإنشاء الدولة العربية القوية ، فنحن قوميون عاملون على القومية

وفاسده ، ومستقيمه ومائده ، ظناً منهم أني إذا رأيت اسم ذلك الفحل على صدر الشعر ، لم أجترئ على تزييف باطله ، ولم أتجاسر على تهجين عاطله . أو ليسوا يدرون أن الناقد البصير ، والعالم الخبير ، لا ينظر إلى من يقول ، بل ينظر إلى ما يقال ؛ فقد يسمع القول وفيه طائل من صبي جاهل فيستحسنه ، وقد يسمع القول وفيه باطل من شيخ فاضل فيستهجنه ، اعتماداً على وفور بضاعته ، وتعويلا على مهارته في صناعته ، والسلام » .

وهكذا يتنقل قارئ الرسائل الرشيدية بين صور شتى من معارف القرن السادس وآدابه ، وسياسته وأخلاقه .

ولعل لنا عودة إلى هذا الموضوع إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

مجاهدون في سبيلها . ومن يأبى الوحدة ويؤثر الانقسام ، ويرضى بهذه الحال المضحكة المبكية ؟ إن الداعين إلى الوحدة الاسلامية يعلمون أن الجهود يجب أن تصرف أولا إلى توحيد العرب . وهم أعقل بحمد الله من أن يطلبوا وصل بغداد بحيدر آباد قبل أن تتصل بغداد بدمشق ! والاسلام (يوم بدا نوره) بدأ بالعرب فوحد بينهم ، وجمع شملهم ، وألّف بين قلوبهم ؛ فلما أصبحوا بنعمة الله إخوانا ، خرج بهم من جزيرتهم ففتح بهم الدنيا ، وثلّ بهم عروش الطغاة ، وأعطاهم مقاليد الأمر والنهي ؛ فحكموا بالاسلام المشرق والمغرب ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها

فالقومية (بهذا التفسير) لا تخالف الاسلام ، بل تؤيده ويؤيدها .

أما إذا كان المراد بالقومية أن تجعل الرابطة بيننا اللغة والدم . وأن ننكر أخوة الدين ، ونبرأ من أهلها ولو كانوا في الاسلام على قدم صهيب وبلال وسلمان ، وأن ننفي الدين من السياسة ، وننأى به عن التشريع ، ولا نباليه ولا نحفله . وأن نهمل صفة النبوة في محمد ، فلا نرى فيه إلا زعيما عربيا ورئيسا قوميا ؛ وألّا نهتم من القرآن إلا بلغته وبلاغته دون مغزاه وغايته ... ... فالقومية (بهذا المعنى) ليست مخالفة للاسلام فحسب ، ولكنها هدم للاسلام من أساسه ، وعودة إلى الجاهلية الأولى يوم لم يكن كتاب أنزل ، ولا نبي بعث ، ولا نور أضاء ، وهذه التي قال عنها العارفون : إنها دسيسة خبيثة من عمل الانكليز ، بدليل أن شيئا اسمه (قومية عربية) لم يعرفه العرب قط ، وإنما عرفوا (عصبية قبلية) نعاها عليهم الاسلام وعابها وسفّه أهلها ، فاختفت حينا ، ثم ظهرت عند من لا يزعه وازع قوى من دين ؛ كالشعراء ورجال السياسة (أعنى بعضهم) وناس من الأعراب قالوا قيسية وقالوا يمانية . ولم تعرف هذه الدعوة القومية على الوجه الذى بيّنا إلا في آخر الزمان حين عجزت دول أوربا عن قتل (الرجل المريض) بزعمهم ... فدست له سكين القوميات تحز في مفاصله ، وتقطع أوصاله ؛ وكان ما كان مما يعرف الناس ، وما يأبى الله والاسلام ، وانتهينا إلى الفرقة في السياسة وفي الأجناس والمذاهب ، وصرنا إلى حال لو تأمل حقيقتها المتأمل لرأى ما تمّ منها (في بعض البلدان المسلمة غير العربية) يدل دلالة البرهان القاطع على أن المراد من (هذه) الدعوة القومية هدم الاسلام ومحاربته والرجوع إلى الجاهلية . وهذا ما تجب محاربته على كل من يشهد أن لا إله إلا الله !

* * *

يتضح لك من هذا أن الدعوة الاسلامية لا تهدم من القومية إلا جانبها الخبيث ؛ أما الجانب الطيب من نحو إنشاء دولة عربية قوية ، فانها تؤيده وتدعمه . وإذا ظن أحد أن الأخوة الاسلامية من شأنها أن تجعلنا نمد أيدينا مصافحين لكل من جاء يقتلنا ويملك أرضنا باسم الاسلام ، فقد ظنّ آثما ، لأن الاسلام لم يكن في يوم من الأيام دين ضعف وتخاذل ، وإنما هو دين قوة وأيد ، وجزاء سيئة (فيه) سيئة مثلها . والعمل على كل ما يقوى الدولة ويشد أزرها مما يطلبه الدين ، وتدعو إليه الشريعة . فياليت إخواننا دعاة القومية يحرصون على فهم حقيقة الاسلام ، إذاً لرأوه الطريق الوحيد إلى ما يريدون ، والعون على ما يأملون ، ولم يفزعوا منه ، ولم يجزعوا من ذكره ، ولعلموا أنه يكسبهم ثلثمائة وعشرين مليون أخ ؛ إذا هم عجزوا اليوم عن معونتهم إلا بالروح والعاطفة ، فسيكونون لهم في غد عونا باليد واللسان ، وإخوانا على السراء والضراء ، ويكونون وإياهم (كما أراد الله أن يكونوا) إخوة ، وأعضاء جسد ، إذا شكا عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر !

(بغداد) (أبو الهيثم)

مسـألة!

للأستاذ عبد العزيز البشرى

نحن ضعاف، ما فى هذا شك. والغربيون أقوياء، وما فى هذا شك أيضاً. وإذا ابتغى أن يكون لنا مثلُ حظهم، أو جليلٌ من حظهم من القوة والعظمة، ولكن كيف السبيل؟ اللهم إن السبيل واضحة لا عِوَج فيها ولا أَوَد. هى أن نأخذ إخذهم، ونسعى سعيهم، ونحذو فى وسائل الحياة حذوهم. وبذلك نبلغ كثيراً مما بلغوا إذا لم يقدر لنا أن نصبح مثلهم. وأرانا، بحمد الله، فاعلين، بل أرانا فى هذا جادّين جاهدين. ها نحن أولاء نتعلم علومهم، وننقل فنونهم، ونتروّى ما تتفتح به قرائحهم فى آدابهم، ونمرن أيدينا فى تقليد صناعاتهم. ونهج فى تجاراتنا نهجهم، ونسنّ فى أسبابنا المالية والاقتصادية سبلهم. ونطبع جيشنا على غرار جيوشهم، ونُعدُّ من آلات الحرب ما يُعدون لأنفسهم. ونجرى فى أنظمة الحكم وسياسة الجماعة على طرائقهم. ونشيّد دورنا على طُرُز دورهم. ونتخذ لها من الأثاث كلّ جديد من أثاثهم. ونتزيا بأزيائهم. ونتخلق بأخلاقهم ونتأدب بآدابهم. ونصطنع عاداتهم. ونفكّر على أساليب تفكيرهم. ونسلك فى فنون النقد مسالكهم. والخلاصة أننا بتنا نقلدهم فى كل كبير وصغير، ونترسّم أثرهم فى كل دقيق وجليل. لا نستثنى من هذا إلا بعض ما تحتمه علينا قواعد ديننا فى زواجنا وطلاقنا، وما إلى ذلك من أسبابنا، وإلا ما لا تزال تمسك علينا العاداتُ المتأصلةُ من آلاف السنين، حتى كادت بذلك تتصل بالخلق، وتلصق بالطبع. على أنها فى طريق التحوُّل والنُّصول، ولا بدّ لها يوماً أن تحول.

نحن صائرون إلى حياة غربية لا شك فيها. وما لم نأخذه منها لنفعه، ونحاكيه ابتغاء ثمرته، أخذناه جرياً على سنة الطبيعة فى تقليد الضعفاء للأقوياء، ونحاكيهم — بظهر الغيب — لهم دون تمييز بين ما ينفع وما يضر، ولا نقدر لما يسوء مما يسرّ.

نحن صائرون فى عامة أمورنا إلى هذا العيش، ما لنا إلى غير ذلك حيلة. وإن شئتَ قلت ما لنا من ذلك بدّ!

على أن هنا أمراً جليل الخطر، أو على الأدقّ من أجلّ الأمور خطراً، قد سقط فى هذه الوثبة من حسابنا، وأخشى إذا هو تخلف أن تكون مشيتنا فى حضارتنا الجديدة عرجاء، وكيف للأعرج مسايرة المُغذّين الأقوياء؟

فقد رأيت أن كل عناصر الحياة عندنا غربى خالص، اللهم إلا عنصراً واحداً لا غَناء عنه ولا سداد بدونه. ومن ينكر أن اللغة من مقومات حياة الأمم، فهو كمن ينكر الشمس فى وضح النهار كما يقولون!

كل سبب من أسبابنا أضحى غربياً. وما لم يستغرب بعدُ فهو ولا مراء فى طريق الاستغراب، اللهم خلا اللغة، فلغتنا ما برحت العربية التى تحدّث بها الجاهليون من آلاف السنين!

إذن أبات علينا، لكى يتّسق أمرنا، ويستقيم منطقُنا، أن ننضو عنا لغتنا كما يُنضى الثوبُ الخلَق، ونتخذ لألسنتنا لغة غربيّة تستطيع أن تحيا مع هذا العيش الجديد؟

***

لست، علم الله، أمازح ولا أعابث. فإن المقام من

الجِدّ الذي لا يحتمل العبث ولا المزاح !

هناك علوم تشتعب جميعَ سبل الحياة . وهناك فنون منها ما يتصل بصلب العيش ، ومنها ما يسمى للتسلية والترفيه والتنعيم . وهناك آلات وعدد ، وهناك مصنوعات لا علكها عَدد . وهناك ما لا يحصى من المستحدثات التي أصبح لا غنى عنها للناس ، أستغفر الله ، فإنما أعني المتحضرين من الناس ، لا غنى لهم عنها في قضاء لباناتهم وتناول جميع أسبابهم .

وهذه العلوم والفنون ، وهذه الآلات والعُدد ، وهذه المستحدثات التي لا غنى عنها لأحد . هذه كلها أصبح طلبُها والتفقهُ فيها وتجويدُها كما يجوّدها أهلُها هو همنا وشغل نفوسنا ومرامنا الأقصى ومثلنا الأعلى . فكيف لنا بها ولغتنا لا تحيط بها ، بل لا تكاد تلم منها بكثير ولا بقليل ؟

لقد كانت لغتنا لغة العلوم والفنون التي جاءت بها حضارتُنا ، فلما عفّى الزمان على هذه الحضارة عفّى على اللغة كما أتى على تلك العلوم والفنون . ونحن الآن إنما نطلب علوماً جديدة ، وفنوناً حديثة ، ومبتكراتٍ طريفة . ولكل منها في الإفرنجية اسم ، ولكل منها تعبير يؤديه في غير عسر ولا التواء . فكيف لنا بهذا كله ولغتنا ، كما عرفت ، في هذا التقلّص والانقباض ؟ !

لا بدّ لنا من تناول العلم والفنّ ، ومن تناول وسائل الرقيّ والقوة والعظمة جميعاً . وتناولُ هذا في غير لغة ضربٌ من المحال ، وتناوله في لغة قاصرةٍ من معضل الإشكال !

وهنا تتصدع الآراء وتفترق الطرق : فقوم منا يذهبون إلى أخذ العلوم والفنون وسائر حاجات الحضارة في لغاتها ، وتناولها في أسمائها المعروفة ومصطلحاتها المقسومة في تلك اللغى حرصاً على سلامة العلوم والفنون ، واختصاراً للزمن ، وتوثيقاً للصلات بيننا وبين ينابيع الحضارة في بلاد الغربيين . وأرفقُ هؤلاء من يقولون بالتعريب في كل شيء ، حتى فيما له تعبير عربي قديم !

ويخالف هؤلاء آخرون إلى وجوب تناول كل شيء بالعربية الصميمة لا أثر فيها لأي استعجام ، مهما يكن المعنى مما لا عهد للعربية به في يوم من الأيام .

ينبغي أن يكون كلُّ شيء عربياً مخلَصاً . فإذا كان بين أصحاب هذا الرأي مسرف في المرونة والترخّص رضي بأن يُصار إلى التعريب إذا عيّت وسائل العربية جميعاً بإصابة المعنى المطلوب . وهيهات أن تعيا في ظن الأكثرين .

وهؤلاء إنما يذهبون هذا المذهب ، ويتشدّدون هذا التشدّد إيماناً منهم بأن اللغة من أقوى مقوّمات الأمم ومن أخصّ مشخّصاتها . فإذا هي حالت ذهبت الأمة ولم يبق لها بين سائر الأمم كيان . وإذا كانت الافرنجية هي لغة العلوم والفنون وسائر أسباب الحضارة ، ولم يبق للعربية إلاّ تناول التافه في الأسباب الدائرة بين الناس ، فقل العفاء والسلام ، على لغة القرآن لغة الاسلام ! وعلى الجملة ، فإننا لو ذهبنا مذهب أولئك العربين لأضحت لغتنا والتاطلية بمنزلةٍ سواء ، والعياذ بالله !

في العلوم والفنون والمستحدثات من مختلف الأشياء والنبات والأزهار مئات الآلاف من الأسماء والصيغ والمصطلحات . فإذا نحن عرّبنا هذا كلّه طغى أشدّ الطغيان على سائر اللغة . وأنت خبير بأن ما يدور من صيغ العربية على ألسنة فصحاء الخطباء وأقلام بلغاء الكتاب ، وما يتحدث به الخاصة في مجالسهم ، ويجري في مقاولاتهم ومحاوراتهم ، وما تنضح به رسائلهم — كل ذلك لا يزيد على بضعة آلاف . وكيف لهذا بأن يقوم بإزاء ذلك ؟ بل كيف له بأن يعيش بجانبه ، ويحقق ما تحقق اللغى لها من كيان ؟

***

هذه هي المسألة كما يقول شكسبير ! فليت شعري ماذا يكون المصير ، فاللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

عبد العزيز البشرى

الديوان الشرقي للمؤلف الغربي :

هجرة جيتـــــه

للأستاذ عبد الرحمن بدوى

دعونى وحدى مقيما على سرج حصانى ،
وأقيموا ما شئتم فى دياركم ومضارب خيامكم ،
أما أنا فسأجوب الأنحاء القاصية ممتطيا صهوة جوادى
فى سرور ومرح ،
وليس يعلو على قلنسوتى غير نجوم السماء .

هذا هو « الخاطر الحر السامى » الذى جال فى ضمير الشاعر ، بعد أن عانى ما عانى من ضيق ، وقد لبث فى مكانه المضطرب المزعزع ، لا ينتقل عنه ولا يريم . وها هو جيته يتأهب للرحيل إلى مكان ينشد فيه الفرج بعد هذا الضيق ؛ ها هو يغادر الغرب إلى الشرق ، وهو يعلم ، بل هو يقول :

لله الشرق ،
ولله المغرب ،
والشمال والجنوب
يستظلان بالسلام بين يديه .

ولكن هذا الرحيل ليس كغيره من أنواع الرحيل التى اعتادها الناس وألفوها ، ليس هو انتقالا بالجسم من مكان إلى مكان آخر . إنما هو ثورة روحية قوية فاصلة فى حياة الشاعر . هو بعث لحياة جديدة يريد الشاعر أن يحياها ، ولآمال حلوة خصبة يود أن يتملى بها ، ويسبح فى تيارها الهادىء البديع . وإن فى هذا الرحيل لعَوْداً للشباب عند جيته الشيخ العجوز ؛ وإن فيه لإيماناً عميقاً يظل فى تحليقه حتى يبلغ الملكوت الأعلى حيث يحترق العبد بنار الحب الذى يكنه للرب ؛ وإن فيه لحكمة تنفذ إلى أعماق الوجود ، وحباً يستحيل معه التعدد إلى وحدة والتنافر والتقطيب إلى امتزاج واقتران .

ليس أمر هذا الرحيل إذاً بالأمر الهين الضئيل ، وإنما هو جليل خطير ؛ فيه استجابة لوحى سماوى ، ورسالة قدسية عليا ، نَاط الله بجيته تحقيقها وإذاعتها ، فهو أشبه ما يكون برحيل الأنبياء الذى يكون الرحلة الفاصلة لا فى تاريخ حياتهم الروحية فحسب ، بل فى تاريخ الانسانية الروحى بأسره . ولهذا فليس غريباً أن نرى جيته يسمى رحلته إلى الشرق باسم الهجرة ، ويفتتح ديوانه الشرقى الغربى بوصف هذه الهجرة ، والدوافع التى دفعت إليها ، والغاية التى يرجوها منها ، فى هذه القصيدة الرائعة فى أول كتاب المغنّى تحت عنوان « الهجرة » .

إن الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر ،
والعروش تُثَلّ ، والممالك تتزعزع وتضطرب ؛
فلتهاجر إذاً إلى الشرق فى طهره وصفائه
كى تستروح جو الهُـــداة والمرسَلين !
هنالك ، حيث الحب والشرب والغناء ،
سيعيدك ينبوع الخِضْر شاباً من جديد .

إلى هنالك حيث الطهر والصفاء والحق ،
أود أن أقود الأجناس البشرية
فأنفذ بها إلى أعماق الماضى السحيق ،
حين كانت تتلقى مِنْ لدن الرّب
وحىَ السماء فى لغة أهل الأرض ،
دون أن تتكلف إعمال الذهن وتحطيم الرأس بالتفكير

وحين كانت تقدس الآباء الأولين
وترفض كل خدمة يتقدم بها إليها الغريبُ .
ثم هنالك أود أن أعلى بأحوال الشباب وطباعه
فيكون إيماني واسعاً عريضاً ، وفكرى ضيقاً صغيراً
وأود أن أتسلم كيف تقدس الكلمات
لا لشيء إلا لأنها كانت تطق بها .
وأود أن أختلط بالرعاة ؛
وأجدد النشاط فى الواحات ،
حين أرتحل مع القوافل
متجراً في الشيلان والبن والمسك ؛
وفى عزمى أن أسلك كل الطرق
من الصحراء إلى الحضر ومن الحضر إلى الصحراء .

ولكن هذا الغربي الغريب الآتي من الشمال حيث الجبال تعلو قممها الثلوج ، لا يعرف الصحراء بعد ، وليست له بالفيافى والبيداء خبرة . فهو فى حاجة إذاً إلى دليل يهديه سواء السبيل ، فى قفار الشرق الواسعة الفسيحة ؛ ولكن أى دليل يختار ؟ لا شك أن هذا الدليل سيكون حافظاً الشيرازى . أو ليس هو الذى أثر فى جيته كل هذا التأثير الضخم الذى أوردنا حديثه فى مقالنا السالف ؟ ومَن غير حافظ يستطيع أن يؤدى هذه المهمة خير أداء ، وهو الذى اتخذ منه جيته مثلا أعلى للشعر والشعراء ، وخصه بكتاب من هذا الديوان ؟ ليدعُه إذاً ليكون دليله وهاديه :

أىْ حافظ ! إن أغانيك لتبعث السلوى
أثناء السير فى الطرق الصخرية الصاعدة الهابطة ،
حين يغنى حادى القوم غناء ساحراً ،
وهو على ظهر دابته ،
فيوقظ به النجومَ فى سمائها العالية ،
ويوقع عن طريقه الرعب والفزع فى نفوس اللصوص .
وإنه ليحلو لى ، أىْ حافظ القدس ، أن أحيى ذكراك

عند الينابيع الصافية الثرة ، وفى حانات الخمر ،
وحين تكشف المحبوبة عن نقابها قليلا
فينبعث منه ، وهو يهتز ، عبيرُ العنبر .
أجل ! إن ما يهمس به الشاعر من حديث الحب ،
ليحمل الحور أنفسهن على أن يعشقن .
فإن شئتم إلا أن تحسدوا على الشاعر هذا الحظ ،
أو أن تحرموه إياه وتمنعوه منه ،
فاعلموا أن كلمات الشاعر وألفاظه
تحلّق دائماً ،
قارعةً أبواب الفردوس فى هدوء وخفة
لتنشدَ لنفسها حياة خالدة .

كل شيء مهيأ للسفر إذاً . فليهاجر شاعرنا على بركة الله ، وليدعُه لكى يمنحه شيئاً من عنايته ، لأن مهمته مهمة إلهية قدسية :

إن الشيطان يريد أن يسلك بى سبيل الضلال
ولكنك تعرف ، أيها الرب ، كيف تهديني سواء السبيل
فإن أقدمت على عمل أو أنشدت الشعر ،
فاللهم أرِنْ لى الطريق .
وسواء فكرت فى شأن من شئون الدنيا
فسأرتفع به إلى أعلى علّيين .
إن روحى التى لم تعلق بها ذرة من تراب ،
تسمو فى باطنها إلى الملكوت الأعلى .

وهكذا تتم الهجرة ، ويبلغ جيته بلاد الشرق ، سليما معافى . ومن هنا يبدأ فيصوِّر نفسه فى صورة الرحالة يجوب الشرق كى يعرف طباع أهله وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وما يجول فى خاطر رجاله وحكمائه من أفكار وآراء ، وما يمتلئ سكانه من نحل وأديان . ولا يجد حرجاً ، وهو الغربى المسيحى ، من أن يعتبر نفسه مسلماً يؤمن برسالة محمد (ص) ويدين بالإسلام . وبهذا كله يتغنى جيته فى الكتاب الأول من « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » ،

ونعني به كتاب المُغَنّي كما سماه جيته تقليداً لحافظ الشيرازي الذي سمى الكتاب الأول من « غزلياته » باسم « مغني نامه » أي كتاب المغني . والمغني عند حافظ شخص خيالي يخاطبه في قصائده كما يخاطب الساقي في قصائد أخرى ، وكما اعتاد الشعراء العرب أن يخاطبوا شخصين يتخيلونهما . أما المغنّي عند جيته فهو الشاعر نفسه يخاطب ذاته . وقد جعل من مصيره وأغراضه وفنه موضوعاً للقصائد نفسها ، في مفتتح الديوان كله ، كمقدمة له .

والآن فلنتحدث عن هذا الكتاب الأول :

في كتاب المغنّي هذا يبسط جيته خلاصة أفكاره ومشاعره التي بثها في الديوان ، والتي تكشف عن نظرته في العالم كله ، سواء وهي في صورتها الغربية الصافية ، أو في صورتها الجديدة بعد أن تأثرت بالروح الشرقية واتحدت بعناصرها ؛ كما يتحدث فيه عن تجربته الروحية في الشرق ويصف ما أنتجته في نفسه من تطورات وآثار .

فهو في قصيدة « الهجرة » التي ترجمناها هنا ، يتحدث أول ما يتحدث عن عملية إعادة الشباب التي قامت بها هجرته إلى الشرق .. ويصف كيف استطاع الشرق في بساطته وفطرته وأفكاره البدائية التي لا تنتجها الشعوب إلا في طفولتها وشبابها ، أن يحيله إلى شاب ، كما استطاع ينبوع الخِضْر ، صاحب موسى الكليم ، أن يعيد الشباب إلى حافظ الشيرازي بأن شرب كأساً من هذا الينبوع .

وقصة هذا الينبوع أو عين الحياة من الأساطير التي نسجها الناس حول شخصية الاسكندر الأكبر . فالرواة يزعمون من بين ما يزعمون أن الإسكندر الأكبر قام بحملة كبرى من أجل الوصول إلى هذا الينبوع الذي كان يقوم على سدانته الخِضْر ، ولكنه لم يفلح . وقد استطاعت هذه القصة ، كما استطاعت غيرها من القصص الدينية أو شبه الدينية ، أن تلهم شعراء الفرس المسلمين ، خصوصاً حافظاً الشيرازي ثم من قبله نظامي الشاعر المشهور ، في « كتاب الإسكندر » ، اسكندرنامه . وهذا جيته يتأثر بها بدوره . وهنا يظهر الفرق واضحاً بين شعراء الشرق وبين شاعرنا الغربي . فنظامي جعل من هذه القصة رمزاً للعزوف عن الحياة وإنكار الدنيا من أجل حياة أخرى أعلى من هذه الحياة وأسمى . وعلى العكس من ذلك جعل جيته هذا الينبوع رمزاً للإقبال على الحياة والاستزادة منها وتوكيد العالم وإيجابه ، لأن الشارب منه يصبح شاباً من جديد ، أي شخصاً يقبل على الحياة وينظر إليها في شغف ويريد التزود منها قدر استطاعته .

فكأن جيته إذاً على الرغم من هجرته وتوشحه بمسوح الشرق ، ظل جيته نفسه ، أي ظل رجلاً غربياً ألمانياً ، يفكر تفكير الغربيين وينظر في الوجود نظرة الألمانيين .

ثم إنا نرى جيته في هذه القصيدة عينها يكشف عن نظريته في الدين . ولسنا هنا بصدد الحديث عن فلسفة جيته الدينية في « الديوان الشرقي » فلهذه الفلسفة حديث طويل نؤجله إلى حين نتحدث عن كتاب البارسي من هذا الديوان . وإنما نريد أن نشير هنا إلى ما يسميه جيته « الظاهرة الدينية الأولى » . فقد كان جيته يعتقد أن الأديان كلها تصدر عن ينبوع واحد ؛ هو هذه الظاهرة الدينية الأولى ؛ وليست الأديان المختلفة إلا مظاهر متعددة لهذه الظاهرة الأولى ؛ لأن الله فوق مستوى كل عقل بشري ، وكل تصور له تقريبي نسبي تبعاً لهذا . ولذلك ففي كل دين عنصر انساني يختلف زيادة ونقصاناً تبعاً لبعد هذا الدين أو قربه من تلك الظاهرة الدينية الأولى .

ومن أجل هذا كله نرى جيته يذكر الاسلام (في عنوان القصيدة) واليهودية (الآباء في كتاب العهد القديم) ، كما يذكر الفردوسي ، مشيراً به إلى المجوسية أو البارسية (في إشارته إلى الفردوس إشارة إلى الفردوسي الشاعر الفارسي المشهور صاحب الشاهنامة ، كما لاحظ النقاد) .

وننتقل من هذه القصيدة إلى القصائد الأخرى ، فنجد جيته يتحدث عن الرُّقى والتمائم وأمثالها من الخرافات

الشائعة في الشرق ، محاولاً أن يستخلص منها العبرة ، أو أن يكشف عما فيها من رموز ومعان خفية دقيقة . وبعد أن قدم صورة من عادات الشرق وأساطيره على شكل هذه الرُّقى والتمائم بدأ يتغنى بالشعر وفن الشاعر وما انتوى أن يقدمه في هذا الديوان حيث يقول :

وإنى لأعرف حقاً كيف أتقدم إليكم
بندىّ الأزهار وشهىّ الثمار .
وإن شئتم معها شيئاً من الحِكَم
فسأهدى إليكم أنضجها وأشهاها .

أما من طريقة الشاعر في التعبير ، فإنه سينحو منحى شرقياً يخالف أسلوب اليونانيين . فالأسلوب اليوناني في التعبير ينحو نحو وضع الأشياء في صورة مجسمة محدودة ذات جوانب وأضلاع . أما الأسلوب الشرقي فأسلوب سيّال ، إن صح هذا التعبير ، ليس لما يعبر عنه قوام ولا حدود . وجيته يود لو تحلل من الأسلوب اليوناني بقيوده ، ليسبح في نهر الفرات ويعبّر في حرية وانطلاق .

ويحاول جيته في إحدى القصائد أن يمزج بين الماضي والحاضر ، وأن يركب منهما تجربة روحية واحدة يقضي بها على هذا التنازع الأبدي بين هذين الآنين من آنات الزمان . ولعله يريد أن يخرج من هذا بنظرية في الزمان تشبه نظرية « الحاضر الأبدي » التي يقول بها الفيلسوف الفرنسي المعاصر لافيلْ ، وهي النظرية التي ترمي إلى القضاء على الماضي وإفنائه في الحاضر ليتكون من الاثنين حاضر مستمر أبدي .

وهنا نصل إلى القصيدة التي اختتم بها جيته كتاب المغني ، ونعني بها قصيدة « الشوق السعيد » وهي أحسن ما في الديوان ، ولعلها أروع وأعمق قصيدة قالها جيته . وفيها يتغنى ، في لغة أهل التصوف ، بالفراشة ، التي تعشق النور وتصبو إلى حياة أعلى وأسمى ، فتقذف بنفسها في لهيب الشمعة وتحترق . ترمي بنفسها في هذا اللهيب طائعة مختارة ، لأنها تعشق النور عشقاً جمّا وارتفع ، حتى حملها على الفناء فيه . وعلى هذا النحو ينظر جيته إلى الحب ، فالحب في نظره تضحية وفناء : تضحية من الحبيب بذاته للفناء بها في شخص المحبوب عن طريق الاتحاد به ، والامتزاج وإياه . وكل حبيب مخلص في حبه ينشد هذه الوحدة ، ويحترق شوقاً إلى تحقيقها . ولن يبلغ الحب كماله ، ولن يصل أوْجَه وقمته ، إلا إذا تم الاتحاد وحدثت التضحية والفناء .

استمع إلى جيته يقول في هذه القصيدة الغامضة :

لا تتحدث بهذا الحديث لغير الحكماء
فالعامة سرعان ما تتلقاه منك بالاستهزاء
إنى أريد أن أمجد الحىّ
الذى يتحرق شوقاً إلى لهيب الموت
في قُشَعْرِيرة ليالي الحب ،
تلك القشعريرة التي وَلَدَتْك ، وفيها أنت تلد ،
يعروك شعور غامض غريب ،
حين تضيء الشمعة الوديعة الهادئة

حينئذ لا تظل غارقاً مغمورا
في ظلال الظلام القاتمة
وإنما يحرق فؤادك رغبة جديدة عنيفة ،
ونزعة قوية إلى اتحاد أعلى وامتزاج سام
ولن يعوقك البعد مهما طال
وإنما ستأتى سريعاً طائراً قد أخذك السِّحر ،
فتعشق النور
وأخيراً تحترق كما تحترق الفراشة .
وما لم تفهم
هذا الموت والصيرورة ،
فستظل ضيفاً مجهولا مُتَّهَما
على هذه الأرض المظلمة .

(البقية في الصفحة التالية)

١ – ابن الهيثم (١)

للأستاذ مصطفى نظيف بك

أستاذ الطبيعة فى كلية الهندسة

فى مثل هذا العام منذ تسعة قرون خلت ، توفى بالقاهرة عالم من علماء الطبيعة ، لا أتردد فى أن أقول إنه كان أعظم علماء الطبيعة الذين نبغوا فى عصر الحضارة الإسلامية ، ولا أتردد فى أن أقول إنه فى مقدمة الأعلام من علمـاء الطبيعة فى جميع عصور التاريخ ، هو الحسن ابن الهيثم .

وقد آثرت أن أتناول فى هذه المحاضرة ثلاثة أمور : الأول شيء عن حياته الخاصة . والثانى شيء عن ابن الهيثم كعالم (Scientist) بالمعنى الحديث ، وإبانة هـذه الناحية منه . والثالث شيء عن أثره الذى طبع به علم الطبيعة فى الجانب المتعلق منه بعلم الضوء .

(١) ملخص محاضرة للأستاذ ألقاها بكلية الهندسة ولخصتها مجلة « الثقافة » .

١ – ابن الهيثم :

ظهر فى أوربا فى إبان القرن الثالث عشر بعـد الميلاد – عقب تنبه أهلها إلى ازدهار الحضارة الإسلامية ونضج العلم والفلسفة فيها – كثيرون عنوا بدراسة هذه العلوم ، ونقل كتب الإسلاميين إلى اللاتينية ، والتأليف فى هذه العلوم بهذه اللغة . وكان من بين هؤلاء عالم بولونى لعله كان من الرهبان اسمه « فتلو » (Vitello) اشتهر بكتاب فى علم الضوء ألفه سـنة ١٢٧٠ م ، قال إنه نهج فيه على منهج كتابين فى هذا العلم ، أحدهما لبطليموس القلوذى والآخر لمؤلف عربى ، عرف باسمه اللاتينى المحرف « الهازن » (Alhazen) ، ولا يزال يعرف بهذا الاسم عند علماء أوربا إلى وقتنا الحاضر . ثم نشر «رزنر» (Risner) سنة ١٥٧٢م ترجمة لاتينية كاملة للأصل العربى للكتاب الذى ألفه «الهازن» هذا ، ووسمها بالاسم اللاتينى (Opticae Thesaurus, Alhazeni) أى « الذخيرة فى علم الأوبطيق لهازن » . ووقع الكتاب فى سـبعة أجزاء . وتبين منه أن جل ما ورد فى كتاب « فتلو » قد نقل نقلا ، أو بشيء من التصرف قليل أو كثير ، من كتاب «الهازن» المذكور . ولم يكن أثر كتاب « الهازن » مقصوراً على « فتلو » وحده ، بل امتد إلى كثيرين ممن ألفوا أو صنفوا فى علم الضوء أو فى الموضوعات التى لها علاقة بعلم الضوء فى تلك العصور . وقد كان كتاب «الذخيرة» اللاتينى عمدة أهل أوربا فى هذا العلم فى إبان عصر النهضة ، ولا أخطئ إذا قلت إنه لبث مرجعهم الذى يعتمدون عليـه إلى القرن

فهذا التصوف الدائى العميق ، الذى تأثر به كبار المفكرين وأصحاب الفن الألمـانيين من أمثال شوبنهور وفاجنر ونيتشه ، كل التأثر ، يدعونا أولا إلى الموت ، لأن فى هذا الموت الحياة . وفى هذه القصيدة نجد تعبيراً رائعاً عن روح ديونيزوس ، إلـه الخمر عنـد اليونان ، فالتجربة الروحية الديونيزوسية ، تشمل أولا القدرة على إفناء الشخصية الفردية ، بطلب الاحتراق فى لهيب الموت طوعاً ، ثم تقوية غريزة التزاوج والإنتاج . وليس من شك فى أن جيته تأثر فى هذا بقول أبى بكر : « احرصوا على الموت ، توهب لكم الحياة »

عبد الرحمن بدوى

السابع عشر ، وإلا لما وجد « رزنر » داعياً إلى نشره في إبان الربع الأخير من القرن السادس عشر .

ولكن ظلت هُويّة مؤلف كتاب « الذخيرة » مجهولة يكتنفها شيء من الغموض ردحاً طويلا من الزمن . « فرزنر » نفسه لم يكن يعلم على التحقيق العصر الذي شهده المؤلف . ولما انشأ أهل أوربا ينتبهون إلى التراث الذي خلفه الاسلاميون وأورثوه العالم من بعد مصرهم الزاهي ، ظن أن اسم « الهازن » إنما هو تحريف اسم « الخازن » وأن كتاب « الذخيرة » مؤلفه « أبو جعفر الخازن » الرياضي الفلكي من علماء القرن العاشر بعد الميلاد . وذهب بعض العلماء ممن ألفوا في تاريخ العلم مثل « مونتكلا » (Montucla) و « بريستلي » (Priestley) إلى نفي نسبة كتاب « الذخيرة » إلى ابن الهيثم . واختلط الأمر على كثير من المؤرخين والكتّاب ؛ فمنهم من ذهب إلى أن « الهازن » مؤلف كتاب « الذخيرة » من الأندلس ، ومنهم من قال إنه من مصر ، ومنهم من جمع بين القولين فقال إنه أندلسي زار مصر وأقام بها مدة .

بل ووقع في هذا الغموض والخطأ كثير من كتّاب العربية ومنهم المحدَثون . فجورجي زيدان مثلا ذكر ابن الهيثم في كتابيه « تاريخ أدب اللغة العربية » و « تاريخ التمدن الاسلامي » ببحوثه الرياضية الهندسية ، ولم يذكره قط ببحوثه في علم الضوء . وسركيس في معجمه روى أن الكتاب الذي نشره « رزنر » هو كتاب في البصريات للخازن . ونجد في أحد كتب التاريخ لبعض أفاضل معاصرينا : « وألف الخازن كتاباً في انكسار الضوء ، وفي شكل الصور في المرايا المنحنية » .

حقيقة أن مشهوري المؤرخين لتراجم الحكماء والعلماء كالقفطي وابن أبي أصيبعة ، علموا بأن لابن الهيثم كتاباً في المناظر . ونوه به ابن خلدون في مقدمته حيث قال : « وأشهر من ألف فيه (أي علم المناظر) من الاسلاميين ابن الهيثم » . وذكره الأنصاري في كتابه « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد » فقال : « ومن المبسوطة (أي الكتب المبسوطة في علم المناظر) كتاب ابن الهيثم » . ولكن لم يرد ذكر كتاب « المناظر » لابن الهيثم في كشف الظنون . ولم يكن الأصل العربي لكتاب الذخيرة قد عُثر عليه .

وما ذكره « بروكلمن » عن مخطوط كتاب « المناظر » لابن الهيثم الموجود في « المكتبة الأهلية بباريس » لا يمتّ لكتاب الذخيرة بصلة أو شبه . وقد تحقق لديّ أنه تحرير حسن بن شاكر لكتاب أوقليدس في المناظر ، وليس هو كتاب « المناظر » لابن الهيثم البتة .

فبقي الغموض الذي يكتنف هوية « الهازن » قائماً حتى عثر « فيدمان » المستشرق الألماني ، على مخطوط عربي في مكتبة « ليدن » اسمه « تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر » ومؤلفه « كمال الدين أبو الحسن الفارسي » . والكتاب هو تنقيح لكتاب « المناظر » لابن الهيثم . فوازن « فيدمان » بينه وبين كتاب الذخيرة اللاتيني ، فوجدهما متشابهين متقابلين ، إلا في مواضع جاءت مسهبة في الذخيرة موجزة في التنقيح ، وفي مواضع أخرى علق فيها الفارسي على أقوال ابن الهيثم ، أو زادها شرحاً وتفسيراً ، أو أضافها من عنده إلى أقوال ابن الهيثم ؛ وكانت نتيجة هذه الموازنة أن تحقق « فيدمان » أن كتاب الذخيرة اللاتيني هو من تأليف ابن الهيثم ، وليس هو من تأليف الخازن أو سواه من العلماء الاسلاميين .

وعلى هذه الصفة تبين أن « الهازن » هو تحريف اسم « الحسن » وليس هو تحريف اسم « الخازن » كما ظن أولا ، وكما يظن أول وهلة .

ولم يصل إلى علمي أن أحداً ممن عنوا بدراسة بعض نواحي ابن الهيثم وأكثرهم من الألمان ، قد علم بوجود الأصل العربي لكتاب ابن الهيثم في المناظر ، أو اعتمد عليه

فيما كتب. فالمتقدمون منهم عولوا على كتاب الذخيرة اللاتيني، والمتأخرون مثل «فيدمان» عولوا على كتاب التنقيح أيضاً.

وذهب بعض الكتّاب إلى أن الأصل العربي لمناظر ابن الهيثم قد فقد، وقد ذكر هذا القول في كثير من الكتب في الوقت الحاضر.

ويكفيني أن أذكر بهذه المناسبة أنه قد تيسر لي بتوفيق من الله الحصول على صورة فوتوغرافية لمخطوط كامل لكتاب «المناظر» لابن الهيثم، ويسبق تاريخ نسخه العصر الذي نشر فيه «رزنر» كتاب الذخيرة اللاتيني، إذ تم نسخه في سنة ٨٩٩ من الهجرة. والحصول أيضاً على صور فوتوغرافية لمخطوطات ستة أجزاء من الأجزاء السبعة من الكتاب هي مخطوطات المقالات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسابعة. وهذه المخطوطات أقدم عهداً من المخطوط الأول الكامل. والمقالات الأولى والثانية والثالثة والسابعة منها يرجع تاريخ نسخها إلى عام ٤٧٦ وهي بخط أحمد بن محمد بن جعفر العسكري البصري. وهو بحسب ما يتبين من الصفحة الأخيرة من مخطوط المقالة الأولى منها «صهر المصنف».

ولكن مَنْ هو الحسن بن الهيثم هذا، مؤلف كتاب المناظر، الذي تحقق الآن من غير شك أن كتاب الذخيرة اللاتيني ترجمته؟

* * *

هو الحسن أبو علي بن الحسن بن الهيثم. كان من الأعلام الأفذاذ من علماء النصف الأول من القرن الحادي عشر بعد الميلاد. ولد بحسب ما تؤدي إليه بعض أقوال ابن أبي أصَيْبِعة سنة ٣٥٤ من الهجرة أي حوالي سنة ٩٦٥ بعد الميلاد. وكان أول أمره بالبصرة.

وعني في سني حياته الأولى بتحصيل العلم، والالمام بما وصلت إليه الفلسفة والعلوم التعليمية بل والعلوم الطبية أيضاً في عصره. وكان عصره أزهى عصور الحضارة الإسلامية من الناحية العلمية، ومن أزهى العصور في تاريخ العالم. حيث كان قد تم نقل ما نقل من اليونانية إلى العربية من كتب الفلسفة والطب والعلم التعليمي، من هندسة ومخروطات وجبر وأرثماطيقي وفلك، وما كان يعدّ في ذلك العصر من فروع العلم التعليمي أو بالأحرى العلم الرياضي، من بحوث في مراكز الأثقال والحيل والمناظر والمرايا المحرقة وما إلى ذلك. وكان قد تم أيضاً نقل ما نقل من الهندية والفارسية من كتب الفلك والعدد. وكان أن نضجت هذه العلوم عند الإسلاميين، وتم لهم دراستها. وكانوا قد بدأوا في شرحها والتعليق عليها وتصحيح أخطائها. وكانت قد تمت مرحلة النقل والترجمة وبدأت مرحلة الابتكار والإبداع. وكان قد ظهر أساطين أعلام في الفلسفة والطب والكيمياء والعلوم التعليمية. منهم في الفلسفة الكندي والفارابي، وفي الطب أبو بكر الرازي، وفي الكيمياء جابر، وفي الرياضيات أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي وثابت بن قرة وبنو شاكر، وفي الفلك أبو معشر البلخي وحنين بن اسحاق وأحمد بن كثير الفرغاني وسهل بن بشر ومحمد بن جابر الحراني الشهير بالبتاني وعبد الرحمن الصوفي وأبو الوفا البوزجاني، وغيرهم كثيرون، يضيق المقام عن تفصيل أعمالهم بل وعن ذكر أسمائهم. لهم مؤلفات قيمة نقل أكثرها إلى اللاتينية، وكانت المراجع المعتمدة عند أهل أوربا لدراسة هذه العلوم في تلك العصور.

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته عصراً ضاجاً بجلبة الحركة العلمية المتدفقة. فبدأ في صبر وأناة مرحلة من حياته، كانت بغيته فيها الإلمام بنواحي النشاط العلمي في ذلك العصر. وأخذ يدرس كل ما وقعت عليه يداه من كتب المتقدمين والمتأخرين، لا في العلوم الرياضية وفروعها فحسب، بل في الطب وفي الفلسفة من منطق وطبيعي وما بعد الطبيعة أيضاً. ولم يكن يقنع بمجرد الاطلاع على تلك الكتب، وإنما عني بتلخيصها وبوضع المذكرات في موضوعات تلك العلوم، وبالتصنيف فيها. وكان يبقى من

ذلك ثلاثة أمور ذكرها في مقالة اطلع عليها ابن أبي أصيبعة وأوردها في كتابه ، وكانت بخط ابن الهيثم نفسه . قال :

« وأنا — مامدت لي الحياة — باذلٌ جهدي ومستفرغ قوتي في مثل ذلك متوخياً منه أموراً ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره في حياتي وبعد مماتي . والآخر أني جعلت ذلك ارتياضاً لي بهذه الأمور في إثبات ما تصوره وأتقنه فكري من تلك العلوم . والثالث أني صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم » .

وبلغت تصانيفه في تلك العلوم العشرات من الكتب ؛ بلغ ما يتعلق منها بالفلسفة والعلم الطبيعي في حدوده المعروفة في ذلك العصر ثلاثة وأربعين كتاباً ، وما يتعلق منها بالرياضيات والعلوم التعليمية خمسة وعشرين ، فضلاً عن كتاب في الطب اعتمد في تصنيفه على كتب « جالينوس » بلغت أجزاؤه عدة الثلاثين . وذكر ابن أبي أصيبعة أسماء هذه الكتب نقلاً عن مقالة ابن الهيثم التي ذكرناها آنفاً .

هذه المرحلة من حياة ابن الهيثم أوثر أن أسميها مرحلة التحصيل . ولكن لا يجوز تقسيم حياة الإنسان قسمين، أسمي أحدهما مرحلة التحصيل ، وأسمي الآخر مرحلة الإبداع أو الخلق إلا إجمالا ؛ فحياة الفرد وحدة متدفقة متصلة لا تقبل التجزئة . وكما أن التحصيل لا ينقطع إلا بانقضاء الأجل ، فكذلك الإبداع في العلم قد ينتج من آثاره ، في مقتبل العمر وريعان الشباب . فإن كان ابن الهيثم نفسه يوقّت المرحلة التي ألف فيها هذه الكتب التي أشرنا إليها بعام ٤١٧ من الهجرة ، وكان وفقاً لرواية ابن أبي أصيبعة قد بلغ الثالثة والستين بحسب التوقيت العرفي ، ولم يكن قد أدى بعدُ أعظم أعماله العلمية قيمة وأجلها شأناً ، فلا شك عندي أن موضوعات عمله العلمي في الفترة التي تلت ذلك ، قد شغلت عقله الجبار قبل عام ٤١٧ من الهجرة ؛ ولا شك عندي أن عناصر بحوثه المتأخرة قد توافرت لديه دراستها والنظر فيها من قبل ؛ وهو نفسه يذكر في مقدمة كتابه في المناظر أنه كان قبل هذا الكتاب ألف مقالة في علم المناظر ثم يقول بلفظه :

« فمن وقع إليه المقالة التي ذكرناها فليعلم أنها مستغنى عنها بحصول المعاني التي فيها في مضمون هذا الكتاب » .

وأيضاً لا شك في أن كثيراً من مؤلفاته في تلك المرحلة الأولى تحمل طابعه الشخصي الخاص ، وفيها ابتكار وفيها تصرف ، وفيها تكييف طبعه عليها من عنده ، لا فيما يتعلق منها بالعلوم التعليمية فحسب ، بل وفيما يتعلق منها بالأمور الفلسفية ، بل وبأمور الاعتقادات أيضاً . فمن تصانيفه في تلك المرحلة من حياته ردود على الفلاسفة وعلماء المنطق وعلى بعض رؤساء المعتزلة . ومن تصانيفه الرياضية ما نحا فيه منحى خاصاً مثل كتابه « في الأصول الهندسية والعددية » ويقول عنه بلفظ :

« كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أوقليدس وابولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاض توالي أوقليدس وبطليموس » .

وأيضاً كتابه « الجامع في أصول الحساب » ويقول عنه بلفظه :

« واستخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع أوقليدس في أصول الهندسة والعدد . وجعلت السلوك في استخراج المسائل الحسابية بجهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي . وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين وألفاظهم » .

ومنها كتابه أو مقالته « في حل شك على أوقليدس في المقالة الخامسة من كتابه » ورسالته في « برهان الشكل الذي قدمه أرشميدس في قسمة الزاوية ثلاثة أقسام » ويقول بلفظه :

« ولم يبرهن أرشميدس عليه » .

ومنها أجوبته عن «سبع مسائل تعليمية سئل عنها في بغداد» . وغير ذلك كثير .

وتحمل بعض مؤلفاته في تلك الفترة من حياته مسحة عملية تتفق وظروف الحياة ولوازم المجتمع في الأمصار الإسلامية، كمقالته «في استخراج سمت القبلة» ، ومقالته «فيما تدعو إليه الأمور الشرعية من الأمور الهندسية» ، ومقالته «في تفضيل الأهواز على بغداد» .

ويحمل بعضها مسحة علمية تطبيقية تجعلها من «الهندسة» بمعناها الفني المعروف في الوقت الحاضر . مثل مقالته في «استخراج ما بين بلدين في البعد من جهة الأمور الهندسية» ، ومقالته في «اجراآت الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية» .

هذا قليل من كثير يكفي لبيان بعض نواحي نشاط ابن الهيثم العلمي ، ولبيان ماهية بعض الموضوعات التي تناولها في مصنفاته وكتبه التي أشرنا إليها . ومن هذه المصنفات ما فقد ، ولعل منها ما هو نسي منسي في حكم المفقود . وهي جميعاً جديرة بالبحث عنها ودراستها ، عسى أن تنكشف بذلك حقائق تتغير بها الأوضاع التاريخية لبعض الأمور المتعلقة بهذه العلوم .

(يتبع) **مصطفى نظيف**

ثقافة موسيقية :

الموسيقى جورج بيزيه (Bizet)

للأستاذ محمد حسني عبد الله

يعرف الكثير منا بيتهوفن وباخ وشوبان وفجنر وفيردى ؛ ولكن قل منا من يعرف جورج بيزيه الموسيقى الساحر ، وهو مع ذلك ليس دون هؤلاء الأفذاذ فناً وعبقرية وإبداعاً . وحسبه أنه ملحن كارمن ، وهي الأوبرا الموسيقية الخالدة التي مثلت على كل مسرح ، ورددتها دور الأوبرات في العالم أجمع ، فكانت من ألذها للأسماع وآخذها بالنفس .

ولعل لها من الشهرة وبعد الصيت ما ليس لواضعها . وحقيق بمن كانت هذه الأوبرا أثره في الفن الموسيقى ألا يكون مغموراً مجهولا ، فيكون اسمه كاسم بيتهوفن وغيره من مشاهير الموسيقيين ملء الأفواه والأسماع ، وأثره في المجالس العامة ذائعاً فيها كذيوعه في الأوساط الموسيقية الخاصة .

نشأ جورج بيزيه في أسرة كلها كلف بالفن الموسيقى . فأبوه كان معلماً للمدونة الموسيقية (Solfège) ، وكان يؤثر الجوع وشظف العيش على أن يكون سبيله في الارتزاق غير سبيل فنه . وأمه كانت تحذق العزف على « البيانو » حتى لتضحك وتبكي بيراعتها في آن واحد . فشاع في نفسه حب الموسيقى ودربت أذنه من الصغر على نغماتها ، وقد طالما سمعها من أمه وأبيه وهو في مهده . والذلك كان من اليسير أن يبرع فيها حدثاً ، براعة لا يتصورها العقل من صغير . فإن أمه ما كادت تبدأ بتلقينه نغمات السلم الموسيقى والحروف الهجائية معاً ، وتتعهده بذلك زمناً قصيراً ، حتى ظهر نبوغه واستعداده للفن ، وهو بعد لا يستطيع أن يقرأ سطراً من كتاب .

ولما بلغ التاسعة من عمره كان بحق أعجوبة دهره ، ومفخرة والديه ، فتيسر إلحاقه بمعهد الموسيقى بباريس وهو في هذه السن المبكرة . ومن ثم تعهده الأستاذ « مارمنتيل » بما جعل منه فيما بعد ملحن كارمن الفذ ، وواضع نغماتها الفريدة التي تعتبر حتى عصره فتحاً جديداً في فن الموسيقى وثورة على القديم ، وخروجاً على التقاليد الموسيقية الموروثة .

وكان فنه أولى بالتقدمة عنده من راحته ، فكد نفسه وأنصبها حتى برز على أقرانه في المعهد ممن يكبرونه سناً ، وحصل في عامه الحادي عشر على جائزة التفوق في نغمات السلم الموسيقى ، فلقبوه بالطفل الخارق ، وغلب هذا اللقب على اسمه ، ولم يعد ينادى بغيره . وفي العشرين من عمره حصل على جائزة روما الكبرى لعام ١٨٥٧ . وعندما انتشر صيته وملأت الخافقين شهرته ، استدعته الهيئات الفنية بروما لتثقيفه وصقله ، رغبة في أن تساهم هذه المدينة في تكوين نابغ مثله ، فقد كانت روما دائماً مهد الفن وموطن الموسيقى . فاستجاب الدعوة وقضى بربوع روما زمناً غير يسير .

وبينما هو يعلق على المستقبل الآمال الطوال ، جاداً دائباً على العمل ، إذ بلغته وفاة أمه عقب وفاة أبيه ، فقفل راجعاً إلى باريس وبجوانحه من الأسى والحزن عليهما ما ظهرت آثاره فيما وضع من القطع الموسيقية التي سبقت كارمن في الظهور .

ولقد خلفه أبواه بغير ثروة يعوّل عليها في حياته فيتفرغ للتلحين في دعة وراحة ، فساقه سائق الفقر ودفعته الحاجة إلى إهمال ذلك إلى حين ليعمل في فرق الملاهي كعازف بسيط يكسب عيشه بعرق جبينه وكده ، ويصرف وقته كله في هذا العمل الذي لم يكن ليرضي نفسه الكبيرة وطموحه البالغ ! فلقد خلق ليكون ملحناً جباراً ، لا عازفاً حاذقاً فحسب ! ولكنه صبر على ذلك صبر الأبطال وأخذ يحاور مآله الظلم ويداوره حتى فازت عبقريته على كل شدة . فاختلس من وقت راحته للتلحين وأخرج للملأ ثلاث قطع موسيقية هي من أمهات الأوبرات في العالم ، وهي « صيادو اللآلئ » و « ابنة برث الجميلة » و « الأرلزيين » ، وتوفر له من هذا بعض الربح أعانه على أن يهب وقته ومجهوده كله لما هو أهم من ذلك : لكارمن .

كارمن

لم يكن مسرح الأوبرا كوميك بباريس ، قبل ظهور كارمن في عالم الفن سنة ١٨٧٥ قد عود رواده غير إخراج قطع موسيقية محافظة يعبق في إطارها عبير الفضيلة . تقوم موضوعاتها على القصة البريئة الساذجة التي تتناول ناحية من نواحي الخلق الجيد ، والمادة الطيبة ، فتبرزها في جو صاف هادئ ، ليس به شيء من اضطراب الرذيلة ولا صوت من أصواتها الصاخبة . وكانت موسيقى هذه الموضوعات تشاكل هذا الجو ، وتلائم صفاءه هدوءاً وعذوبة ! فإذا كان الحب مثلا هو موضوع الأوبرا كان من هذا الضرب العذري الذي يختتم في الغالب بالزواج ، وفي القليل بالفراق ، بغير أن تشوبه شائبة من اتصال غير عفيف ، فلا يخلو من أعمال إرادة الفضيلة ، وكبت النفس ، وخضوع جميل لصروف الدهر وعناده ورعيه ! ومن ثم كان لا يخلو من ألم نبيل تتحمله النفس في صبر وجلد ، وزهادة في القبيح من شرور البهيمية ودوافعها . فلما ظهرت كارمن تعرض في حوادثها حياة امرأة ساقطة ، وضابط يؤثر حبها الآثم على الذود عن وطنه في أعصب الأوقات ، أنت بجديد وبأيت في هذا الجديد تقاليد هذه الدار العريقة التي كان أغلب روادها من العذارى ذوات الخفر ، تجيء بهن إليها أمهاتهن وهن آمنات من أنه لن يعرض بها شيء تحمر له وجوههن خجلا ، أو يجرح منه شعورهن البريء الطاهر ، أو يغريهن بغير ما ألفن من شمائل وخلال .

ولكن عبقرية بيزيه لم تكن لتتجسم في غير كارمن . فقد أحس في نفسه ثورة وصخباً وحمية وحماسة ، وحرارة وقوة ، فهو يأنف أن يترسم خطى غيره ، شأن كل العباقرة الجبابرة ، ولا يعير اهتمامه إلا لشيء واحد ، وهو الفن . وكان يرى أن الفن لا يتقيد برذيلة أو فضيلة ، وأن شعاره الأبدي هو التعبير البارع عما في النفس كيفما كان ، لا يبالي في أي شعار أو دثار ظهر ما دام رائعاً ، وحسبه الافصاح والظهور للملأ والعالمين .

لهذا لم يكد « ملهاك » و « هالي » يستقيان موضوع كارمن من قصة مشهورة للكاتب الخالد « بروسبير ميريميه » ويهيئانها للوضع الموسيقي ، ويدفعان بها إلى « بيزيه » ليلحنها حتى لمس فيها تمشيها مع ميوله وملاءمتها لروحه ، ووجد فيها فرصة لإظهار لون من التلحين صاخب حي لا عهد لدور الأوبرات به من قبل . فانصرف إليها بهمة حتى أخرجها آية من آيات الفن . وقد هاجمها النقاد هجوماً عنيفاً لموضوعها ، إلا أن روعة موسيقاها ، وجلال ألوانها الفنية ، وسمو نغماتها ما لبثت مع تطورات الزمن أن حجبت عيوب الموضوع ، ولم تعد كارمن إلا هذه القطعة الموسيقية الرائعة الخالدة ، التي ستظل ترفل أبداً في أزهى حلل الجمال .

وكان إخراجها لأول مرة في ٣ مارس سنة ١٨٧٥ مثار العجب . فقد أصاخت الأسماع إلى موسيقاها ، وهي

ذاهلة عن الوجود بلطيف ما دبر فيها « بزيه » من أبرع الأخيلة وأدق التصورات ، إذ نجح فى تجسيم جو الأندلس فى أنغامها تجسيما يقصر عنه الواقع ، وهو الذى لم تطأ قدماه أرضها ؛ واستطاع على الرغم من ذلك أن يغمر تلحينه بروحها العنيف ، فيبدو موفوراً بيّناً فى القطعة كلها . وما زال النظّارة مشدوهين حائرين وهم مغمورون فى موسيقاها حتى انتهت السهرة ؛ فإذا بهم ، على الرغم مما أخذت من نفوسهم ، لا يحركون أيديهم بالتصفيق ، ولا يُبدون إعجابا . بل لقد كانت علائم الغضب والحنق تبدو على وجوههم مع كثير من الوجوم والسخط . ذلك أن الموسيقى وإن راقتهم وملكت ألبابهم وخالطت أرواحهم ومازجت نفوسهم ، فموضوعها قد فاجأهم بما لم يعهدوه من دار « الأوبرا كوميك » ، إذ كان موضوعاً فادحاً جريئاً ، فسقطت عندهم كارمن ونجحت فى آن واحد . وآبوا إلى دورهم وهم لا يدرون أساخطون هم أم راضون !

ثم عبث بعد ذلك الصحافة بأمرّ نقد وألذعه ، وهاجمت بزيه وصحبه بما أفقده كل أمل علقه على قطعته الرائعة . فاعتزل الموسيقى ، ويمم شطر « بوجيفال » حيث عقد العزم على تمضية حياته بين ربوعها بالريف فى عزلة عن العالم ، انصرافاً عن عقوقه ، وسلوة من جحوده .

موت بزيه المبكر

ولكن دار الأوبرا ضربت بثورة النقاد ونقمة الجمهور عرض الحائط ، فلم تستخذ ولم تصدف عن إظهارها ، إذ كانت تعلم أنها من أندر الأوبرات الموسيقية الفنية التى يجدر بها أن توالى تمثيلها فيعتادها الناس وتسكن صوائتهم ، فلا يحرم الفن من هذه الثروة الجديدة . وكانت المغنية الذائعة الصيت « جالى ماريه » من الجرأة والشجاعة بحيث ارتضت عن طيب خاطر أن تلعب دور كارمن كما ارتأت الدار إظهارها متحدية فى ذلك الرأى العام .

وفى مساء اليوم الثانى من يونيو سنة ١٨٧٥ ، كانت هذه الأوبرا تمثل المرة الثالثة والثلاثين ، فتسرب إلى جوانح « جالى » شعور غامض مبهم بعث فيها حزنا عميقاً وحرك على وجهها اكتئابا ، فقامت بدورها وهى لا تدرى كنه هذا الشعور . وخيل إليها أن بالموسيقى ما هو كالبكاء أو كالعويل . وكأن فى كل نغمة زفرة متوجع وفى كل نبرة أنة محزون . وكأنها كانت تحس الموت فى أرجاء المسرح يرتاد جو الإخراج ، ويهيمن على الدار .

وفى صباح الغد فُسِّر هذا الشعور ، إذ وردت برقية من « بوجيفـال » تنبئ بوفاة « بزيه » غمًّا وكمداً فى الساعة التى كان الستار يسدل فيها على كارمن وهى تلفظ نفسها الأخير .

فطوى الموت بزيه وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، بعد ثلاثة شهور من ظهور كارمن ، ولم يمهله دهره حتى يرى كيف أقبل الجمهور عليها فيما بعد ، يستسيغها ويغتفر لها خروجها وشذوذها ، ويكلف بها الكلف كله ؛ وهكذا قدر الدهر للأوبرا ولاسم مبدعها الخلود ، بينا هو فى فراشه الأبدى الذى أعدته له مقبرة « بيرلاشيز » بباريس .

محمد حسنى عبد الله

المهن والفن . . .

كان المهن المختلفة نصيب من الأثر في خيال كثير من الفنانين ، دفعهم إلى إبداع كثير من اللوحات والتماثيل التي تسجل صوراً مختلفة لبعض المهن التي احترفها الانسان منذ عهد الفراعنة إلى العصر الحديث.

وسيرى القارئ على هذه الصفحة من هذا العدد وما يليه ، مجموعة مختارة من صور هذه اللوحات والتماثيل .



الحمّال

تمثال العامل ذى القوة الجثمانية والمعجب بالنفس اللذين يتجليان في وضع ذراعيه ، والتفتة رأسه ، ووقفته — المثّال مينيه Meunier (١٨٣١ — ١٩٠٥).



البذر

تمثال زارع عار وذى جسم رياضى سليم — المثّال كليمش Klimsch



المياطة

لوحة محفوظة بمتحف القصر ميتاج في لينينغراد ، وهي بريشة المصور الإيطالي جويدو ريني Guido Reni (١٥٧٥ — ١٦٤٢) . وتمثل السيدة العذراء في شبابها وهي تشتغل بالمياطة مع زميلات لها . وتمتاز هذه اللوحة بما فيها من تماثل دقيق .



البيطار

لوحة من عمل المصور الهولندي فليب وورمان Wowerman (١٦١٤ — ١٦٦٨)

الحـــــــظ . .

مترجمة عن مارك توين

للأستاذ صلاح الدين ذهنى

« ليست هذه القصة من بنات خيالي . لقد قصها على رجل من رجال الدين كان معلما فى كلية وولوتش منذ أربعين عاما ، أقسم لى أغلظ الأيمان على صدقها » مارك توين

كانت الوليمة قد أقيمت لتكريم رجل من الأشخاص القلائل الذين كانت أسماؤهم تلمع فى سماء المجد إذ ذاك ، هو أحد قواد الجيش الإنجليزى الذين أبلوا بلاء حسناً فى حرب القرم ، وهو أحد هؤلاء الذين لا تفتأ الصحف والأندية تردد أسماءهم ، وتقتص أخبارهم وحركاتهم فى إعجاب وتقدير بالغين .

كنا نجلس إلى المائدة متقابلين تقريباً ، فهو أمامى لا يفتأ يشير إلى هذا ، ويحيى ذاك ، ويجيب ثالثاً ، وقد تعلقت أبصار الحاضرين جميعاً بوجهه تتابع حركاته ، وقد أخذنا جميعاً ما يشبه الزهو والفرح ، أن نكون المحظوظين الذين يرونه محساً ، بلحمه ودمه ، بينما تتلهف الجماهير فى كل مكان على رؤية صورته ، أو سماع أخباره .

أى لذة وأى متعة للعين والقلب معاً ، أن أجلس ، وأستمع ، وأرى ، هذا العظيم ، فى هيئته النبيلة ، وهدوئه العذب ، ووداعته الرائعة ، وهو يوزع وقته بين الحاضرين فى تواضع وكرم ، غير واع لهذه المئات من الأعين التى ترمقه بإعجاب ، وإلى هذه القلوب المحبة التى تهفو إليه كأنما تهفو إلى طيف ملك كريم ، تواضع فنزل إلى أهل الأرض يحدثهم ويحدثونه ؟ !.

كان جارى إلى المائدة صديق من أصدقائى القدماء ، قضى الشطر الأوفى من حياته فى خدمة الجيش ، فعمل أول ما عمل معلماً بكلية وولوتش الحربية ، ثم التحق بعد ذلك بوحدات الجيش ضابطاً متطوعاً ، حتى إذا ما وضعت حرب القرم أوزارها لجأ إلى الكنيسة ، واستقر فى خدمة الدين قانعاً من حياته بهذا النصيب .

وأوشكت الوليمة على الانتهاء ، حينما مال على صاحبى هذا ، وهمس فى أذنى مشيراً إلى البطل الذى احتشدنا لتكريمه :

— أتسمع منى ياصاحبى ؟ إن ما وصل إليه هذا البطل الذى تراه أمامك من مجد ومكانة ! إنما كان بمحض المصادفة ، وإحدى ألاعيب القدر .

كنت أعرف عن صاحبى خلقه الرصين ، وأنه ليس ممن يتحدثون لمجرد الحديث وقتل الوقت ، وما عرفت عنه يوماً أنه ممن ينتقصون أقدار الناس . لذلك نظرت إليه وقد عرتنى الدهشة والاستغراب لهذا الذى يقوله ، دهشة قد لا تزيد عنها دهشتى لو كان هذا الانتقاص موجهاً إلى نابليون أو سقراط مثلا ، ولكنى لم أفه بكلمة ، فقد أشار إلى فى هدوء أن أسكت ، فسكت على مضض .

ومرت أيام على الوليمة لقيت بعدها صديق القسيس فجلس يقص على قصة هذا القائد الموفق ، ويشرح لى سر ما أثار دهشتى وعجبى . وهنا ليعذرنى القارئ إذا أخفيت اسم هـذا العظيم ، وأطلقت عليه اسماً ضخماً ،

يتقارب مع اسمه فى الضخامة والطول . . وليكن هـذا الاسم . . « الليفتنانت چنرال لورد أرثر سكورسبي » . . وتلى ذلك سلسلة من رموز تشير إلى ما يحمل من نياشين وألقاب . .

***

قال لى صديق :

منذ أربعين عاماً كنت معلماً بالأكاديمية الحربيـة بوولوتش ، وكان سكورسبي طالباً بأحد الفصول التى انتدبت للاشراف على امتحاناتها التجريبية ، التى تقـام أواخر العام لاختبار الطلبة وتهيئتهم للامتحانات النهائية .

وبدأت عملى فراعنى من الطلبة هذا الذكاء الخـارق والسرعة فى الاجابة على الأسئلة ، بقدر ما رثيت لحـال سكورسبي الذى كان لا يعرف شيئاً بالمرة ، جاهلا بكل ما تحتمل كلمة الجهل من معان ، لا يكاد يتلقى سؤالى حتى يضطرب لسانه ، ويتصبب بالعرق جبينه .

رثيت له أشد الرثاء ، فقد كان وديعاً ، فى عينيه ووجهه شىء يثير فى النفس عطفاً يبعث على ما هو أكثر من الرثاء ، كنت أتألم لحـال هذا الشاب بدافع خفى لا أدرى ما هو ، فبينما كان إخوانه يجيبون فى سرعة ونشاط ، كان هو قد وقف فى مؤخرة الفصل كأنه تمثال خشبى ، كلـما حاول أن يتخلص من موقفه ، فاه لسانه باجابات لم يكن أبلغ منها فى الدلالة على الجهل والغباء .

وثارت بى نفسى ، وتحركت فى أعماقها نوازع تدافعت فى شدة ، كلها عطف وحنو على هذا المسكين التعس الذى لا يعرف ماذا يقول ، وقفز إلى خاطرى فجأة خاطر جرىء . .

إن هذا الشاب راسب لا محالة فى الامتحان النهائى ، فهو لن يحتمل دقيقة واحدة أمام ممتحنيه حتى يقتنعوا بعدها بعدم صلاحيته ، فماذا على لو خففت من سقطته ، وهونت عليه ، إلى حد ما ، هذا العناء الذى سيلقاه ؟ ماذا على لو أعنته على الفشل بشىء من المعلومات التى قد تعرض له فى امتحانه ، فلا يلقى ما يلقاه الآن من الهوان ؟

إن ذلك لن يضير أحداً . وإذا كان لا بد من رسوبه فلتكن سقطاته هينة ، لا تحطم نفسه ولاتذل هاتين العينين الصافيتين ، ولاتطفىء هذا البريق الجذاب الذى يلمع فيهما .

وانصرفت عن إخوانه إليه ، وأخذت أذلّله وأروضه كأنه جواد جامح ، حتى اطمأن إلىّ ، فعرفت منه أنه يحفظ قليلا من تاريخ يوليوس قيصر ، حفظاً مهوشاً ، لا أثر للفهم فيه . .

وجدت إذ ذاك منفذاً إلى غرضى ، فرحت أطـوّف به فى تلك الدائرة التى استقرت فيها معلوماته ، وجعلت أدربه على الأسئلة التى قد يلقيها الممتحن إذا عنّ له أن يسأله فى تاريخ قيصر ، وكلى أمل أن لا يخلو الامتحان من واحد منها فيحظى ببعض درجات تلطف من سقطته وفشله .

وكان الأمر الثانى بعد التاريخ هو أمر الرياضيات ، كان جهله بهـا مطبقاً لا أمل فى تخفيفه أو مداراته ، ومع ذلك فقد كافحت معه ولقيت فى ذلك العناء ، لأن ترويض وحش ضار كان أهون شأناً من إفهامه مسألة رياضية واحدة ، حصرت جهدى فى بضع مسـائل يرجح أن يعرض لها الممتحن ، ورحت أدربه عليها ، حتى إذا استوثقت من فهمه لهـا تركته وقد تملكنى نحوه شعور يشابه فى كثير شعور الأم ترقب فى قلق مصير ابنها الصغير وقد شلت قدماه ، شعور حنان غريب لم أكن أعنى له فيه أكثر من فشل خفيف لا يلحظه أحد ولا يثير عليه سخرية إخوانه وأساتذته .

ومضت الأيام وجاء الامتحان ؛ فهل تعلم ماذا حدث ؟

لم يفشل صاحبنا لا فشلا ذريعا ولا فشلا هيناً ، بل نجح وأى نجاح ؟ !

أما فى التاريخ فقد أجاب بسرعة ومهارة حتى لقد هنأ

أساتذته ومنحوه أعلى الدرجات ، بينما مرّ إخوانه في الامتحان لم يشعر بمن نجح منهم أحد .

وأما في الرياضيات فقد نال الجائزة الأولى التي تمنح لأول الفائزين .

وهكذا لعبت المصادفة والحظ أول لعبة لن يحدث مثلها مرتين في قرن واحد من الزمان ، حدثت مرتين لهذا الشاب في يوم واحد فلم تخرج أسئلة امتحانه في التاريخ ولا في الرياضيات عما دونته عليه .

أو تظن أني فرحت لهذه النتيجة ؟

كلا . لقد طار عقلي شعاعا . قضيت أسبوعاً كاملاً لا يغمض لي جفن ولا يهدأ لي ضمير . إن ما فعلته بسبيل العطف والحنان قد انقلب وبالا وشراً . لقد كنت أرجو أن أهون عليه الفشل ، فاذا بي أمهد له السبيل لفوز لا يستحقه !

كان شعوري كصانع « فرنكنشتين » ، ندما وتحسرا وهلعاً . أي ندم أكثر من أني قدمت لأمتي شخصاً لا قيمة له ليحمل عبئاً من أعباء الدفاع عنها . رأس من الخشب قدمته لوطني على أنه رأس إنسان ليدبر بعض شأنها ويرعى مصالحها .

كان كل مايشغل فكري حقيقة هائلة تملأ رأسي رعباً ، إن هذا الشاب سيخطو في الحياة ويحمل بعض المسئوليات ، وسيذهب هو وما حمل من مسئولية إلى الشيطان في أقرب فرصة ، سيضيع ويضيع معه شأن من شؤون هذا البلد ، وأنا المسئول الأول عن هذا المصير .

وتتابعت الحوادث بسرعة ، وأعلنت حرب القرم ، فكدت أتنفس نسيم الراحة حين علمت أن هذا الأحمق سيذهب إلى الميدان ، فلا تلبث حماقته أن تكشف أمره ، فإن حسن حظه إلى النهاية فسيلاقي حتفه قبل أن يسيء بجهله إلى أحد .

ومضيت أنتظر في قلق الخلاص من هذا المخلوق الذي صنعته ، فلم تلبث النتيجة أن جاءت لتزيد قلقي ورعبي ، فلم تمض أيام على إعلان الحرب حتى صدرت الأوامر بتعيينه قائداً لفرقة من المشاة ، وهي رتبة يبيض شعر الكثيرين قبل أن يظفروا بها ، جاءت تسعى إلى هذا الشاب بالمصادفة المجردة والحظ الأعمى تحت ستار تعليلات ثلاثة ، قدَر يسير في ركابه ، وحرب تتطلب الجنود والقواد ، وتفوق في الامتحان لا يعرف سره ، ولا يحمل وزره إلا أنا .

لقد أصبحت أمام أمر واقع وحقيقة راهنة ، لقد حدث خطأ أنا المسئول عنه ، لقد أخرجت للوطن عدواً سوف يؤذيه ، فعليَّ وحدي يقع عبء حماية الوطن من شره . لابد أن أتبع هذا الشاب حيثما ذهب ، وإني سأراقب حركاته وأحول ما أمكن دون جنايته على الوطن ، حتى لو أدى الأمر إلى قتله ، فأنا وحدي الذي يجب أن أقتله لأنني وحدي قد خدعت الوطن فيه .

وهكذا شرعت آخر الأمر أصفي ما أملك وما ادخرت خلال أعوام ، وسعيت حتى التحقت بفرقته ضابطاً صغير الرتبة بعد أن بذلت في سبيل ذلك ما أطيق من مجهود وما أملك من مال ؛ وهنا تبدأ اللعبة الثالثة بإصاحبي من ألاعيب الحظ ؛ لا أستطيع أن أسمي حياة سكورسبي من هذا الحين إلا سلسلة من الحماقات ، وأي حماقات ؛ لقد كان كل ما يعمل خطأ لا يقع فيه طفل ، خطأ لو ارتكبه أعظم قائد لسقط على الفور من سماء مجده ومرغ اسمه في التراب والوحل ؛ ولكن الحظ لم يكن عابثاً حين وقف إلى جانب هذا الشاب ، بل كان جاداً يتحدى الذكاء والعلم والصواب .

أما الأخطاء ، فقد سماها الناس إلهامات من العبقرية ونفحات من النبوغ ، وأما نتائج هذه الأخطاء فلم تكن أحكم خطة تصل إلى ما تصيبه من نجاح .

كانت كل حماقة تصعد به خطوة في طريق المجد ، وكنت أنا وحدي — من يعرف سر هذا الشاب —

أقف مبهوتاً للأمرين ، فداحة الخطأ . . . وروعة النتائج . وكثيراً ما خالجني خاطر كنت أفرق له ، سوف يعلو هذا الانسان حتى إذا حان حينه نزل من عليائه كالشهاب الهاوي.

ولكن خاطري لم يتحقق يوماً من الأيام ، فقد ظل سكورسبي يصعد درجة فدرجة متخطياً سادته في العلم والذكاء ، وكأنما كانت أجداث القتلى في الحرب فراشاً ليناً تخطو عليه قدماه إلى القمة ! ولم يطل الوقت ، فقد حمت الحرب إلى أشد مراحلها ، وفي ساعة قاسية سقط قائدنا الأعلى صريعاً في الميدان ، وتلفت فاذا بسكورسبي ، التمثال الذي صنعته من الخشب ، يرتفع إلى قيادة الجيش تقديراً لعبقريته ونبوغه .

شارفت النهاية أخيراً ، ما في ذلك شك ، فلسوف يقودنا سكورسبي إليها ، فلا يذهب وحده ، بل يذهب معه جيش مكدود ، ووطن لن تكف دعواته باللعنة تنهال على جدثي في القبر .

كان جيشنا يحتل مكاناً حيوياً بالنسبة للميدان ، فنحن في مواجهة العدو ، ومن هذا الموقع نستطيع أن نصليه ناراً حامية ، وأي خطأ يحدث في حركاتنا سيؤدي بنا إلى الهلاك حتما ، أي حركة إلى اليمين أو إلى الشمال تفقدنا أحسن مركز حصلنا عليه أثناء الحرب .

وترقبت الصبر المحتوم ، أن يأمر سكورسبي بالتحرك إلى مكان آخر لا لشيء إلا ليمارس حماقته وجهله على حساب أجدادنا ، ولم يخب ظني ولم يطل انتظاري ، فقد صدر الأمر وتحركت قواتنا نحو مرتفع مجاور لا يخطر لعاقل أن يتصور وجود عدو يشرف عليه منه ، ولا يخطر لمجنون أن يأمر بالسير إليه لجيش مثل جيشنا هو مجرد فرقة واحدة قد أنهكها التعب ، بينما قد توزعت باقي الفرق في مختلف الميادين ؛ فلو قدر لنا أن نلقى عدواً فلن نقوى على مقاومته بمثل ما نستطيع أن نقاوم به في مركزنا الأول ، فنحن هالكون على الحالين .

ولكننا لم نهلك وإن كنا رأينا الهلاك بأعيننا ، حين رأينا جيشاً روسياً كامل العدة قد أشرف علينا من أقصى المرتفع ، جيشاً يستطيع أن يلتهم قوتنا الضئيلة في لمح البصر ، ولكنه لم يفعل لسبب واحد هو حظ سكورسبي وحده .

أيقن الروس حين رأوا طلائع فرقتنا أنها مقدمة للجيش الانجليزي كله ، فلم يكن يخطر لفرقة أن تجازف بالذهاب إلى هذا المرتفع ، ولم يكن يخطر للروس أن تكتشف حركاتهم بهذه السرعة ، خطر لهم كل خاطر إلا أن هناك أحمق زعمه القادر ، فتصوروا أن حيلتهم كشفت ، وأننا مقبلون بكامل قوتنا ، فلم تمض لحظات حتى تقهقروا في هلع واضطراب هابطين من المرتفع تتبعهم نيراننا مسجلة نفحة جديدة من نفحات العبقرية للبطل الفذ سكورسبي ! !

أتقف حماقات سكورسبي عند هـذا الحد ؟ لا . فهناك الحظ يزيد له المزيد !

صدر أمر القيادة العامة بعد هذا النصر الباهر الذي ناله سكورسبي أن يتوجه جيشنا إلى الخلف قليلا ليساعد الميمنة ويقوي مركزها ، فبدلا من أن يأمرنا سكورسبي بالسير إلى الوراء أمرنا بالسير إلى الأمام خلف الجيش المتقهقر ، وبدلا من الانحراف إلى اليمين انحرف بنا إلى اليسار ، فقطع خط الرجعة على جناح الجيش الروسي الذي كان يوشك أن يستعيد ثباته ، وهكذا تمزق جيش الأعداء في موقعة لم يشهد الروس يوماً أشد هولا منها ، وكتب التاريخ لسكورسبي صفحة ناصعة كلها ذكاء وعبقرية ونبوغ » .

* * *

. . . تنهد صاحبي القسيس بعد أن فرغ من حديثه

(البقية على الصفحة التالية)

أنواع التعليم فى مصر

للأستاذ محمد بدران

مدير متحف التعليم

ليس كمصر بلد تعددت فيه النظم والمظاهر التي كان يجب أن تكون موحدة ؛ تعددت فى مصر الأزياء ، وتعددت نظم القضاء ، وتعددت نظم التعليم بغير فائدة ترجى من هذا التعدد . والذى يعنينا هنا بوجه خاص هو تعدد نظم التعليم فى مرحلته الأولى ، مرحلة الثقافة العامة ؛ فبينا نجد هذه المرحلة موحدة فى بلاد الغرب ، نراها متعددة فى بلادنا ، وينتج من هذا التعدد اختلاف عقلية المتعلمين ، وإسراف فى المال ، وتنازع فى الاختصاص ، ومشاكل ، لولا هذا التعدد ما وجدت ، أو لسهل حلها فى زمن يسير . يضاف إلى هذا أن تعدد أنواع التعليم فى مرحلته الأولى ينافى الديمقراطية ، لأنه يساعد على تقسيم الأمة طبقات مختلفة فى أفكارها وميولها . ويظهر أن هذا التعدد سيبقى طويلا ، لأننا لم نخط خطوة واحدة فى سبيل التوحيد ؛ ويخيل إلينا أننا لم نشعر بعد بضرورته ، أو أننا نشعر بها ولكننا لا نجرؤ على العمل لبلوغ هذه الغاية المرجوة ، مع أننا قد خطونا بعض الخطى فى سبيل توحيد النظم القضائية ، بإلغاء المحاكم القنصلية ، وتمصير المحاكم المختلطة تمهيداً لإلغائها بعد بضع سنين . إن علاج هذه المشكلة يحتاج إلى شىء من الإقدام والجرأة شبيهين بالإقدام والجرأة اللذين عالجنا ولا نزال نعالج بهما مشكلة القضاء فى مصر .

هذه كلمة نقدمها بين يدى موضوع هذا المقال ، وهو أنواع المدارس المصرية وعلاقة بعضها ببعض .

ينقسم التعليم فى مصر من أساسه ثلاثة أقسام ، هى التعليم الدينى ، والتعليم الأولى ، والتعليم العام أو المدنى .

فالتعليم الدينى أو الأزهرى ، يبدأ فى الكتاتيب التى تغذى أقسام الحفاظ ، ثم أقسام الأزهر الابتدائية فالثانوية فالكليات فأقسام التخصص السبعة ، وهى اثنان

وارتفع ببصره إلى السماء كأنما يرقب شيئاً يخاله من بعيد ، ثم عاد إلى الحديث فى صوت خافت :

« إنه أعجب شخصية عرفتها فى الحياة ، كل شىء فيه يبعث على الحب والحنان ، برىء كالطفل ، ولكنه لا يعرف أين يختبئ إذا أمطرت السماء ، إنه مَلَك لا عقل له ، هبط إلى الأرض ، تدفعه قوة خفية فى طريقه إلى السماء ، فى خلال خمسين عاما فى حياته العسكرية لم يفعل شيئاً لا بعد حماقة ، ولم تذهب حماقة واحدة من حماقاته دون أن تسجل له نصراً فى الميدان وتقديراً لدى الناس » .

. . . وأشار فى اضطراب إلى صورة لسكورسبى قد علقت على الحائط قائلا فى انفعال :

« انظر . انظر إلى صدره . ألا ترى هذه الأوسمة المتراصة كأنها النحل تجيش به الخلية ؟ إن كل واحد من هذه الأوسمة يحمل إلى ذهنى ذكرى حماقة من حماقات سكورسبى ، كما يحمل إلى ذهنى برهاناً جديداً على أن أحسن شىء فى هذه الحياة ينالة الانسان هو أن يولد محظوظاً سعيد الطالع » .

صلاح الدين ذهنى

في كلية اللغة العربية ، وثلاثة في كلية أصول الدين ، وقسم في كلية الشريعة ، وقسم لإجازة التدريس يدخله خريجو كليات الأزهر الثلاث ، كما ترى ذلك في الرسم التوضيحي في الصفحة السابقة .

ويستطيع طلبة الأزهر أن يلتحقوا بدار العلوم وبكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول وبمدرسة المحصلين والصيارف ، كما يستطيع تلاميذ المكاتب العامة والمدارس الأولية أن يلتحقوا بالجامعة الأزهرية .

والنوع الثاني من التعليم هو التعليم الأولي وهو نوع وسط بين التعليم الديني والتعليم العام المدني . ويبدأ في المدارس الأولية والإلزامية والمكاتب العامة ، ويغذي المكاتب الصناعية والزراعية ومدارس المعلمين والمعلمات الأولية ومدرسة تحسين الخطوط الملكية ، كما يغذي أيضاً المدارس الابتدائية في التعليم العام وكذلك التعليم الديني .

والقسم الثالث هو التعليم العام ، وإن شئت فسمه التعليم المدني ، ويبدأ في المدارس الابتدائية ، وتغذيها المنازل ورياض الأطفال والمدارس الأولية والمكاتب العامة . ويستطيع التلاميذ والتلميذات بعد مرحلة التعليم الابتدائي أن يواصلوا التعليم العام في المدارس الثانوية ، أو أن يلتحقوا بالمدارس الصناعية الابتدائية فالثانوية ، أو المدارس المتوسطة الزراعية والتجارية ، أو مدرسة السويس البحرية . وتستطيع البنات أن يلتحقن بمدارس المعلمات الأولية أو الفنون الطرزية أو التربية أو الثقافة النسوية .

وإذا نجح التلاميذ في امتحان القسم العام لشهادة الدراسة الثانوية استطاعوا أن يلتحقوا بمدرسة الهندسة التطبيقية أو الفنون التطبيقية . أما إذا نجحوا في امتحان القسم الخاص فأمامهم المدارس العليا على اختلاف أنواعها ؛ وهي معهد التربية والكلية الحربية ومدرسة البوليس والفنون الجميلة ومدرسة التربية البدنية العليا ؛ كما يستطيع البنات أن يلتحقن بمعهد التربية للبنات ، ويستطيع البنون والبنات الذين يتممون مرحلة الدراسة الثانوية أن يلتحقوا بكليات الجامعة ، وهي كليات الآداب والحقوق والعلوم والتجارة والطب التي تشمل أيضاً طب الأسنان ؛ ومن هذه الكليات أيضاً الطب البيطري والزراعة والهندسة ؛ وليس في هذه الكليات الأخيرة بنات في الوقت الحاضر .

وتتصل بكليات الآداب والعلوم والطب أقسام الدراسة العليا والتخصص للبنين والبنات ؛ وفي وسع خريجي كلية الحقوق أن يلتحقوا بمدرسة البوليس والإدارة .

هذه نبذة مختصرة عن التعليم في مصر ، يوضحها الرسم المرافق لهذا أحسن توضيح .

محمد بدران

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ٦ مليم

النبات ومقاومته للطبيعة

للأستاذ عبد الرزاق نوفل
بكالوريوس في العلوم الزراعية

يدخل النبات ضمن الكائنات الحية التي لها صفات الحياة ، إلا أن هذه الصفات قد لا تظهر بشكلها المألوف فلا نحس بحيويتها ، ولكن من السهل الميسور أن نلمس حياة نبات في أصيص ، حيث نراه بعد قطعه قد جف ومات ، مما يدل على أن النبات وقت أن كان بالأصيص كانت له دورة حياة تتمثل في جميع خلاياه ، حتى البذور التي تتداولها الأيدي هي أيضاً أجسام حية ، إلا أن الحياة فيها كامنة ؛ ولقد ثبت أن لبعض البذور قدرة على الاحتفاظ بحيويتها لمدد تتراوح بين الستين والسبعين سنة . ولما كان من شروط الحياة التي وضعها علماء (علم الحياة) أن يعرف الكائن مصلحة نفسه ، فإنا نجد أن النباتات قد تسلحت بأسلحة تحميها من الطوارئ ، كما أن لبعضها تحورات تقيها فعل الطبيعة وتهيئ لها سبل العيش والتغذية . فالأشواك التي تنمو حول الورد ، ما هي إلا أسلحة للمحافظة على الوردة نفسها ، لأن بها الأعضاء التي تضمن تسلسل النبات ، وكذلك الثمار التي نأكلها مثل التفاح أو البرتقال ليست في الواقع إلا أوعية يكونها النبات ليحفظ فيها بذوره من عبث الطبيعة ، وليخزن فيها ما يكفيه وبذوره من غذاء .

ومن المعروف أن النبات يحتوي على ماء ، وعصارة ومواد معدنية ، فهو كوعاء مكشوف به ماء ومعرض لفعل الشمس ، لذلك نرى أن هناك تبخراً في الماء المستقر في النبات ، وهذا التبخر (النتح) مفيد ، بل من ضروريات الحياة للنبات ، ولكن يجب أن يكون هذا النتح إلى حد محدود ، فإذا زاد مقداره كانت النتيجة ذبول النبات ؛ ففي الصحاري ومناطق الاستواء ، حيث الجو جاف والشمس محرقة ، نرى أن النبات يحور أوراقه إلى أشواك لتقل المساحة المعرضة للشمس فيقل التبخر ، كما أن بشرة النبات ، أو المنطقة الخارجية مجهزة بأجهزة صغيرة تسمى بالثغور ، وهذه الثغور هي الطريق الوحيد الذي يخرج منه الماء ، فنرى أن للنبات قوة على التحكم في إغلاق وفتح هذه الثغور . وهناك نباتات أخرى تفرز زيوتاً طيارة تنتشر في الجو الموجود فيه النبات ، أو تحرك أوراقها فتنكسر أشعة الشمس ولا تقع عمودية على النبات مثل « الشيح وحصى اللبان واللبلاب والكافور » .

وبعض النباتات تحب وفرة الضوء ، فتراها تتسلق بواسطة أشواك كالورد المتسلق أو محاليق أو جذور تسلق كالعنب والبسلة وحبل المساكين ، أو طبيعيا كالياسمين واللبلاب ، وذلك حتى تحصل على ما تحتاجه من ضوء وافر .

ويتغذى النبات طبيعيا بامتصاص الماء وبعض الأملاح من التربة ، وبامتصاص غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو ؛ ثم باتحاده مع الماء والأملاح بواسطة أشعة الشمس المباشرة يتكون مركبات تزيد في وزن النبات ، إلا أن هناك بعض النباتات تشذ من هذه القاعدة ، حيث أن تركيبها لا يسمح لها بالتغذية على أساس هذه الطريقة ، فتراها قد تحورت إلى حيث تتمكن من مقاومة الطبيعة ، فبعض النباتات تتطفل على نباتات أخرى ، فتنمو على عوائلها ، وترسل ممصات في داخل أنسجتها تمتص عصارتها وتتغذى على ما جهزته من غذاء ، كنبات الهالوك الذي يتطفل على الفول والبسلة ، والهماء الذي يصيب القصب ، والحامول الذي يتطفل على البرسيم .

وهناك نوع من التغذية من الغرابة بمكان ، إذ نرى أن بعض النباتات قد خصها الله بتراكيب شاذة غريبة تمكنها من التغذية على الحشرات ، فمثلا نبات (الدروزيرا) نرى أن ورقه متحور إلى شكل قرص على سطحه العلوي شعيرات رفيعة قائمة تنتهي بمادة لزجة ، فيفرز هذا النبات عصارة رحيقية لها رائحة خاصة تجذب الحشرات ، فعند

اقترابها تنحنى عليها هذه الشعيرات وتفرز مادة لزجة لتتم صيدها ، ثم يتغذى النبات على عصارتها . وهناك نبات آخر يسمى (الديونيا) وورقته لها شكل مصراعين كمصراعى (أم الخلول) ، ولكل مصراع ثلاثة أشواك قوية ، فيفتح المصراعان ويفرز النبات سائلا لجذب الحشرات ، فتى وقعت الحشرة أغلق المصراعان ودخلت الأشواك الستة فى جسمها فتموت ويتغذى بهـا النبات . وهناك نباتات لأوراقها شكل الجرة (الزلعة) تقع فيها الحشرات مثل (النراسينا) .

وهناك بعض طرائف عن النبات لم أجد بأساً من ذكرها : فمثلا يحتوى النبات على ٩٠٪ من وزنه ماء والباقى عبارة عن مواد معدنية تربو على العشرين ومنها الحديد .

وعفن الخبز الذى نراه على الخبز القديم هو عبارة عن نبات اسمه (ويزوبس نجركانز) ، وهناك نبـات اسمه (القارض) له شعيرات حادة ، وهذه الشعيرات إذا دخلت فى جسم الإنسان سببت موته .

ويوجد فى الهند شجرة نخيل تنحنى إذا ما أشرقت الشمس ، وتأخذ فى الانحناء حتى تتمدد على الأرض بطولها عند الظهر ، ثم تأخذ فى النهوض حتى الغروب . وقد سافر بعض العلماء لدراسة تلك الشجرة .

ويوجد فى شمالى أوربا نبات يسمى «الدابوق» ، وهو نبات مقدس له احترام خاص ، لا سيا فى أعيادهم ، فإذا ضرب شخص بهذا النبات سيدة أو فتاة ، جاز له أن يقبلها .

وفى أمريكا قد أجروا تجربة فى فرن كهربائى مخصوص أمكنهم بها زرع بذور القمح ، وبعد خمس دقائق من وضع البـذور فى الأصيص نما النبات وظهر على وجه الأرض ، وهذا ما يشغل بال الزراعيين الآن وتفكيرهم .

عبد الرزاق نوفل

السفينة

للأستاذ فخرى أبو السعود

أتوها خفافاً فاستقلت بهم مهلا
مفرقة شملا وجامعة شملا

يودِّعها بالشطِّ حرَّى جوانحٍ
ويرقبها فى البعد أفئدةٌ جذلى

فمن راحلٍ بالشطِّ غادر أهله
إلى راكب قد يمَّ الصحب والأهلا

ولما قضوا حق العناق وكفكفوا
غوارب دمعٍ أو أذالوه فانهلّا

وأرسل بالقُبلات فى الجو مرسِلٌ
ولوّح بالمنديل آخرُ محفلاً

تهادت بأهليها تشق طريقها
من اليمّ لم تنكل ولا استثقلت ثقلا

مخلّفةً ذيلا على الماء مزبداً
كما انساب ثعبانٌ من الوكر فانسلّا

وقد شق أجوازَ الفضاء صفيرُها
كمولَّهةٍ ثكلى وهى لاتعرف الثكلا

وما زال حتى غيَّب الثغرُ خلفها
وغالَ النوى من خلفها الشطَّ والرَّملا

وحتى ترامى الأفْقُ من كل جانبٍ
يردُّ حسيراً ناظرَ المرء قد كلّا

يمدّ نطاقاً حولهـا متجدداً
وهيهات تطويه وإن أمعنتْ تجلى

وإذْ شمّرتْ فى لجة اليمّ ساقها
كفتنا فلم ننقل إلى غاية رِجلا

يروح الفتى فيها ويغدو وما درى
أأقبلَ فى طى الأواذىّ أمْ ولّى

وكم نائم فى مهده ملء جفنه
فلا حافلا غمراً ولا عابئاً محلا

وكم من مدير ثَمَّ كأسَ لذاذةٍ
ومستمعٍ لحناً يُرَدّدُ : ما أحلى !

كفتهم همومَ العيش أمٌّ رحيمة
تدافع عنهم آنيَ الخطب إن جلّا

إذا ما عراها النَّوءُ قطَّب وجهها
وأشرفَ هاديها على الماء واستعلى

يشـــد عليها كرّة بعد كرّة
فترجعه مستخذىَ العزم منفلّا

وآناً تحييها الرياح صواغراً
ويخشع لج البحر من دونها ذُلّا

يسير بها حامى اللهيب فلم تخف
من الريح بأساً أو تُرِحْ لها فضلا

يخوض بها فى بارد الماء جاحمٌ
من النار تَغلى منه أحشاؤها مُهلا

يدبّرها فى رأس جؤجؤها امرؤٌ
خبير بأوضاع الطريق فما ضلّا

خفىٌّ كسرٍّ كامنٍ فى فؤادها
يشارف أجواز العوالم من أعلى

إذا سايرتها الشمس تبسطُ ضوءها
على اليمّ لم تترك بناحية ظلا

وإن صاحبتْ بدرَ الدجى وهو ساكب
سناه تهادت فى سنى البدر كالحُلى
كذلك تطوى اليومَ والليلَ بعده
وما استبعدت شأواً ولا استعظمت حملا
إلى أن تَرَاءى الثغرُ فى البُعد باسطاً
ذراعيه فانقادت إلى حِضْنِه مَهَلا
وما هى إلا أن رَمَتْ بجموعها
إليه فغابوا فيه وانشعبوا سُبْلا
وقرّتْ لديه تستجمُّ لمقبلٍ
تجالد فيه الموج والريح والوبلا
قضت دهرها فى رحلة إثر رحلة
تحنّ إلى ظعنٍ إذا آنستْ حِلاّ

فخرى أبو السعود

معنـــــاك

للاستاذ أحمد محمد ابراهيم نار

....

إلى التى لم أرها غير مرة ، وهمت فيها أحلامى ،
ولم أحظ منها بسوى النظرة العابرة . . .

أشرقت فيك الأمانى   ثم غابت بعد فتره
كنت حلمى فتجلى   لى فى اليقظة جهره
لم أكد أرنو إليه   وأناجيه بنظره
وأروى من سناه   نفسىَ الظمأى بقطره
وأرى معناه حتى   راح خلف الظن خطره
وتوارى بعد أن خلّـ   ـف فى عينىّ عبره
وأهاج الحب فى قلـ   ـبى فهبّت منه زفره
كنت معنى فى ضميرى   مبهماً بل كنت فكره
كنت طيفاً فى خيالى   كنت فى قلبى زهره
فإذا أنت جنون   يملأ النفس وثوره
وإذا بالشوق بأس   وإذا بالحب حسره
ليت شعرى أترانى   أتلاقى بك مرة . . ؟!

....

هى الحياة

هى الحياة فخذها كيفما وجدت
واستوف حظك من أيامها الغر
ومتع النفس إمّا شئت منتهباً
لذّاتها وتعجّل ساعة النصر
وأطلق الروح فى دنيا الخيال على
أعوانها فجمال العيش فى الشعر
واستقبل العمر نشواناً ومبتسماً
فإنه منحة كبرى من الدهر
وعش طليقاً طروباً راضياً أبداً
فإنما العيش إذ تلقاه بالبشر
لك الحياة إذا ما جئتها فرحاً
ولست تملكها بالسخط والضجر
فاغنم سعادتها واصبر لشقوتها
وخذ نصيبك من خير ومن شر !

أحمد محمد ابراهيم نار

كفر محمد أحمد — ميت الفيح

يا بنات الهديل . . . !

للأستاذ محمود السيد شعبان

يا بنات الهديل ! رتِّلْنَ شعرى
نغماً ساحراً ولحناً شجيًّا ! !
ليس فى الأرض غيرَكُنَّ وفِىٌّ
يشبه الشاعرَ المحبَّ الوفيَّا !

* * *

أين آمالىَ التى كنتُ أرجو ؟
قد طواها الأسى عن القلب طيًّا !
أين ألحانىَ التى كنتُ أشدو ؟
قد دوّتْ كلُّها على شفتيَّا ! !
أطمعتنى المنى فأجهدتُ نفسى !
وبلغتُ المنى فلم ألقَ شيًّا ! !
أيهذا الشرابُ ! أهلكْتَ قلباً
لم يجد فى حاقك الجذبِ رِيًّا
فأنا فى هذه الحياة غنىٌّ
ليتنى كنتُ فى الحياة غبيًّا ! !
أيها الصادحُ الذى فى فؤادى
إن أردتَ الشقاء كُنْ عبقريًّا ! !
يا بنات الهديل أنشِدْنَ شعرى
مُنغَّمةً لذةً وصوتاً نديًّا

ما على الأرض مثلكُنَّ شقىٌّ
يعشقُ الشاعرَ الحزينَ الشقيَّا !

* * *

يا بنات الهديل ! تشجينَ منّى
إن تخذتُنَّ غير شعرى صفيًّا !
لستُ عنكُنَّ بالغريب فقلبى
صاغه اللهُ مثلكُنَّ وفيًّا
بيننا جنىٌّ صادحاتٌ تُغنّى
فى هواكُنَّ بُكرةً وعشيًّا !

* * *

! ثم قد تطلب الأمانىّ كنّى
ملأ الوهمُ والشرابُ يديَّا ! !
كلما قلتُ : قد دفنتُ رجائى !
صاح بى صائحٌ : لقد عاد حيًّا !
أيها الصادحُ الذى فى فؤادى
كُنْ برغم الأسى قويًّا فتيًّا
قد شفتْ هذه الهمومُ جراحى
بل حَبَتْنى الهمومُ قلباً عتيًّا !

* * *

يا بنات الهديل رَدِّدْنَ شعراً
كان فى مقلتىَّ دمعاً عصيًّا ! !
ليس فى الأرض غيرَكُنَّ سخىٌّ
يلهمُ الشاعرَ الكريمَ السخيَّا !

(الإسكندرية) محمود السيد شعبان

هل يتصدع محور روما - برلين ؟

ما كنت يوما من المؤمنين بإمكان حصول اتفاق سياسى بين إيطاليا وألمانيا بصفة جدية تضمن استمراره لأمد طويل ؛ ذلك لأن مصالح الدولتين فى أوربا وخارجها تتعارض فى كثير بل فى معظم نواحيها . فسياسة إيطاليا الأوربية ترمى إلى استغلال أوربا الوسطى استغلالا تجاريا محضا .

وقوام هذا الاستغلال هو أولا : استمالة دول أوروبا الوسطى ، وإقناعها بأن تتخذ تريستا الميناء الوحيد لتصدير منتجاتها الزراعية والصناعية ، وثانياً : العمل على استخدام المساقط المائية التى توجد بكثرة فى منطقة الأديج العالى لإنشاء محطة ضخمة لتوليد الكهرباء بكميات هائلة تستطيع إيطاليا أن تبيعها لبعض الدول التى تجاورها من الشرق ، لاستخدامها فى تسيير السكك الحديدية وإدارة المصانع .

وسياسة ألمانيا فى أوربا ترمى إلى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى على وسط أوربا ؛ ومن مقتضيات بسط هذا النفوذ أن يكون لألمانيا منفذ على البحر الأبيض المتوسط ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق بحر الأدرياتيك . فواضح إذاً أن سياسة البلدين فى أوربا تتعارض تعارضاً تاماً ، وليس ثمة مجال للتسوية أو الاقتسام .

أما خارج أوربا فكلتا الدولتين تسعى لإيجاد منافذ فى أفريقيا وبلاد الشرق ، إما لتصريف صناعتها أو لتيسير الهجرة للعمال وغيرهم من سكانها المتعطلين . وهذه المنافذ قد أغلقتها بريطانيا وفرنسا ببسط نفوذهما على هذه البلاد ، ولا يمكنهما أن تتخليا عن شىء منها لإشباع رغبات دولتين كبيرتى الأطماع . وإذا كان لا بد من التخلى عن شىء فلا يكون إلا القليل الذى لا يكاد يرضى إحدى الدولتين . وعلى ذلك فليس من السهل تحقيق رغباتهما مجتمعتين .

والإيطاليون يعرفون كل هذا ويخشون طمع ألمانيا فى ميناء تريستا . والألمان كذلك يعرفون هذه الحقائق ويتحينون الفرصة المناسبة لتحقيق أغراضهم . إلا أن إيطاليا تجارى ألمانيا مقابل أن تساوم على حساب انضمامها إليها ، كما أن ألمانيا تمهل إيطاليا مقابل أن تساوم على حساب جبهة المحور .

وكانت ألمانيا أبرع سياسة وأكثر توفيقاً فى الاستفادة من هذا التمثيل السياسى . وكلما كانت تحوز انتصاراً فى خططها المرسومة ، كانت حقيقة الموقف تتمثل أمام عينى موسولينى ، وكان يهم بإظهار عدم الارتياح ، وإفهام الخليفة بأن حبل الصبر قد أصبح على وشك الانقطاع ، لكنه كان يجد أن الظروف غير مواتية ، وأن الخير فى الصمت ، بل وفى التظاهر بالرضا .

وأول ضربة أصابت المحور فى الصميم ، وجاوب رنينها فى برلين أيضاً فى روما ، كان استيلاء ألمانيا على النمسا . لقد أحس الدوتشى يومئذ أن الفوهرر لن يمهله حتى يساوم على حساب التعاون الفاشى — النازى المزعوم . وتذكر زعيم الفاشست تصريحه بأنه سيدافع عن استقلال النمسا حتى آخر جندى إيطالى . واتجه بأذنيه نحو انجلترا وفرنسا علّه يسمع منهما ولو كلمة تحريض ليبر بوعده للنمسا ؛ ولكنه لم يسمع من ناحية الدولتين الديمقراطيتين شيئاً ؛ فصوب أنفه نحو الشمال ، نحو منطقة الخطر ، فشم رائحة الدمس تنبعث من منطقة الأديج العالى ، وتبين له أن سكان هذه المنطقة ، وهم من أصل نمساوى ، يكادون بدافع كراهيتهم لإيطاليا ، ورغبتهم فى مجاراة أبناء جنسهم ، ينادون بالانضمام إلى هتلر . فلم يسع زعيم إيطاليا أمام كل هذه الظروف والعوامل إلا الاستسلام لقضاء الله ، والتذرع بسياسة الصبر ، وهنأ صديقه بالنصر وأمّنها له . وحمد هتلر الله على أن صاحبه تحمل الصدمة ولم يضطره لاستعجال الحوادث .

ثم كان أن استولت ألمانيا على بلاد السوديت فظن

موسوليني أن حليفه قد رأى أن يتجه أولاً نحو الشمال ليضم البلاد التي سكانها من أصل ألماني، وأنه سيمر بعض الوقت قبل أن يفكر في ضم بلاد التيرول إلى ألمانيا فتنفس زعيم إيطاليا قليلاً، وعلا صوته في التظاهر بالرضا عن السياسة النازية، وعاد إلى الحديث عن المحور وفوائده؛ ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً، إذ فوجئ المحور بضربة أخرى وهي استيلاء ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا؛ وسمع أبن المحور بسبب ضربته هذه المرة في تريستا لا في روما. فهذا الميناء الذي كان يعج بالسفن ويضج بأصوات حركة النقل قد ساده السكون وكسدت فيه الأعمال. لأن صادرات وسط أوربا حولت وجهها شطر ألمانيا.

إلى هنا نفد صبر إيطاليا، وحارت في أمر هذا الحليف الذي لا يحسن أي نوع من أنواع المجاملة، وفكرت في التخلص منه، فلجأت إلى الديمقراطيين تفاوضهم وتطلب منهم ترضية — ولو من طريق ذر الرماد في العين — في تونس أو في جيبوتي أو في قنال السويس؛ لكنها لم تجد أذناً واعية، ولم تمدها فرنسا بشيء، قليل أو كثير، ولم تجاملها انجلترا حتى بالتوسط بينها وبين فرنسا. عندئذ أحس موسوليني بخيبة الأمل، وتيقن أن مشروع سياسة المحور كان نكبة لإيطاليا؛ ولم يكن وقع الصدمة على موسوليني بأقل من وقعها على الشعب الإيطالي الذي لم يتمالك كبت عواطفه، فباح بسخطه على هتلر وجهر بتخوفه من سياسة المحور. واعتقد موسوليني أنه يمكنه أن يخفف من حدة الموقف بتوريط زعيم النازي والتقرب إليه، فطلب منه أن يمده بالخبراء العسكريين لتنظيم الجيش الإيطالي وتدريبه، ظاناً أنه بهذه الحيلة يوجد جواً من التفاهم والمجاملة بين الألمان والإيطاليين، لكن الأمر جاء بعكس ما أراد موسوليني، وغضب رجال الجيش الإيطالي لكرامتهم، وغضب الشعب الإيطالي لغضب رجال الجيش، وتطور تخوف الإيطاليين من الألمان إلى عداء لهم. ووجدت انجلترا الفرصة سانحة للإيقاع — كما هي عادتها — بين الحليفتين، فأخذت الصحف الانكليزية والفرنسية تشهر برجال الجيش الإيطالي واستكانتهم لمثل هذا الاعتداء على كرامتهم. ووجدت هذه الدعاية مجالاً للتأثير، وتحرج الموقف بين موسوليني ورجال جيشه، حتى قيل إن الجنرال بادليو هدد بالاستقالة واتباع سياسة معينة إذا لم يكف السكونت شيانو عن الاهتمام بتثبيت قواعد المحور. ولم يقتصر تذمر رجال الجيش الإيطالي على الكلام بل تعداه إلى العمل. ففي أوائل الشهر الحالي نظم سلاح الطيران الإيطالي مناورة جوية على روما، وكانت قيادة الطيران الحربي الألماني على علم بهذه المناورة، فأرادت أن تعمل مفاجأة سارة للحليفة بإرسال ٢٧ طيارة ألمانية للاشتراك في هذه المناورة، وما إن رآها الطيارون الإيطاليون حتى حفوا إليها ومنعوها من دخول منطقة المناورة والاشتراك فيها، فعادت من حيث أتت، ولم يجرؤ زعيم الفاشست أن يبوح بكلمة إزاء هذا التصرف.

وفي وسط هذا الظلام الحالك الذي أحاط بالدوتشي من كل جهة داخل بلاده وخارجها، لاح له قبس من النور يخرج على هداه ولو إلى جهة ليست بأفضل مما هو فيه، ذلك القبس هو تعقد مسألة دانزج وحاجة ألمانيا الشديدة إلى التظاهر بقوة المحور، في الوقت الذي فاز فيه الديمقراطيون بانحياز تركيا وأمريكا وغيرهما إليهم.

رأى موسوليني أن الفرصة سانحة للعمل على التخلص من الخطر الجرماني الرابض في منطقة التيرول الإيطالية، ففرض على زعيم النازي ترحيل سكان هذه المنطقة الذين هم من أصل ألماني إلى ألمانيا مع تعويضهم عن ممتلكاتهم، حتى لا يكونوا في المستقبل أداة تهديد لزحف ألمانيا نحو الجنوب، فلم يجد الفوهرر بداً من التظاهر بقبول الطلب خوفاً من أن يتعجل تصدع المحور، ولكن أنى له أن يؤوي نيفاً ومائتي ألف نفس في بلد توزع حاجات المعيشة على سكانه بالقائمة؟ بل أنى له أن يقفل باباً من أبواب اتجاهاته السياسية؟

(البقية على الصفحة التالية)

أنباء وآراء

معنى الثقافة

إنى إحدى الطالبات العراقيات ، لا أزال أواصل مطالعة أعداد الثقافة منذ أول صدورها بعناية وإعجاب ، يشاركنى فى ذلك كثيرات من أخواتى الطالبات . وإنى لأرجو من حضرتكم أن تنشئوا لنا فصلاً فى موضوع الثقافة ، تحددون فيه معناها ومصادرها ، وأنماطها المختلفة ، وما يتصل بذلك . ولقد دفعنى إلى هـذا السؤال ما دار بينى وبين طائفة من الطالبات فى تحديد هذه الكلمة ، فاختلفت الآراء وحمى وطيس الجدل ، فرأينا (مجلة الثقافة) أولى من ينير لنا سبيل البحث فى هذا الموضوع .

واسمحوا لى أخيراً بانتهاز هذه الفرصة ، لتقديم الثناء المستطاب على ما تقدمون من خدمة جليلة لأبناء العربية . أدام الله جامعتكم ذخراً للعربية والثقافة العالية ، ودمتم .

المخلصة

(بغداد) سعاد صبري

(الثقافة) تقابل الروح الكريمة التى عبرت عنها الأديبة العراقية بالشكر وعظيم التقدير ، وما تطلب إلينا أن نخصص له فصلاً هو فى الواقع تلخيص المهمة التى أخذت مجلتنا على عاتقها أداءها ، وقد يتسع المجال يوماً لإرواء غلتها فيما تطلب .

ولكنا نكتفى الآن بالإشارة إلى أن هناك قدراً مشتركا من العرفان والتنوّر يجب توافره فيمن يطلق عليه لقب « مثقف » ، وهذا القدر لن يكون أقل مما ينبغى له لكى يحس بأنه عضو فعال منسجم مع الحياة العصرية التى يعيش فيها ، يدرك آخر ما تطورت إليه مدنيتها ، ويتذوق أساليبها الفنية ، ويتابع فلسفتها ونظرياتها العلمية متابعة من يدرك جملتها ويرى مناحيها واتجاهها ، وإن لم يتغلغل إلى تفاصيلها ؛ فهذا الحد الأدنى من النور الذى يستضىء به الفرد فى حياته العامة ، والذى يسبغ على وجوده معنى « إضافياً » غير ما يكسبه من تجاربه المهنية وحياته الخاصة ، هذا القدر من العلم والفلسفة والفن بمعانيها الواسعة ، هو ما نسميه الثقافة العامة ، وهو ما نحاول فى دراساتنا أن نصل إلى مفاتيحه وما نحاول فى حياتنا الأدبية والعلمية بعد الدراسة أن نبنى عليه ونكمله ونصله بالحياة الحاضرة ، حتى لا نتخلف عن قافلة المدنية ، التى تسير بخطى سريعة غير ملتفتة للقاعدين أو المتثاقلين .

الموقف دقيق ، ولكن فى ميدان التسويف وكسب الوقت متسع للجميع . ومن ثم اتفق على تأليف اللجان للمفاوضات وعمل الاحصاءات وتقدير قيم الممتلكات وتسيير الأماكن وغير ذلك .

وأحس الصديقان كل من صاحبه أن سياسة المحور لن تدوم طويلا ، وراح كل منهما يبحث عن عوض لأخيه . وهاهى ألمانيا تستغل فشل مفاوضات روسيا والديمقراطيين لتتقرب من روسيا . ومهما يقال فى هذا الصدد من أنه مستحيل ، ومن أنه ضرب من خيال مروجى الاشاعات ، فإنا نعتقد أنه لم يعد فى عالم السياسة شىء مستحيل ، وإن نجحت ألمانيا فى استمالة روسيا إليها فعلى المحور السلام ، كما على اتفاقات الديمقراطيين مع دول شرق أوربا ألف سلام .

أمويه

سن الإنتاج

هل هناك سن معينة يجب أن يخرج فيها الأديب أعماله الأدبية فلا يحاول أن ينتج قبل بلوغها ؟



فورد مادوكس

ذلك هو السؤال الذى أثير أكثر من مرة بين كثير من كتاب الغرب ؛ فكان من أشد المتحمسين لتحديد سن الإنتاج المستر فورد مادوكس ، أحد الكتاب الانكليز ، فقد نادى بأن الكاتب يجب أن لا يخرج عملا أدبياً قبل سن الأربعين ، وعلل رأيه بأنه فى هذه السن تكتسب أحكام الإنسان شيئاً من الدقة وتتصف نظرته بالأصالة والسداد ، مما يعينه على أن يكون صادق الحس صادق التعبير .

ومن الغريب أن مستر مادوكس كان أول من خرج على هذا الرأى ، فقد أخرج أول أعماله الأدبية فى سن العشرين ، وفى سن الخامسة والعشرين اشترك مع جوزيف كونراد الكاتب المعروف فى عملين أدبيين هما «الوارثون» و «قصة غرام» .

وقد توفى مستر مادوكس منذ ثلاثة أسابيع ، فكان مما لاحظه أحد النقاد أن أحسن أعماله هى التى ظهرت فى الأعوام الأولى من حياته الأدبية ، أى قبل سن الأربعين .

تفسير جديد للقرآن

أهدتنا مجلة «الشهاب» التى تصدر بقسطنطينة بالجزائر عددها الخاص الذى أصدرته احتفالاً بختم تفسير القرآن الذى نشره تباعا على صفحات المجلة ، حضرة منشئها الفاضل الأستاذ سيدى الشيخ عبد الحميد بن باديس .

وهذا العدد صورة صادقة للنشاط الأدبى ولسير حركة البحث والتثقيف الدينى بالجزائر ، إذ أنه قد حوى وصفاً طريفاً ممتعاً للاحتفال الذى أقيم ابتهاجا بختم هذا التفسير بالجامع الأخضر ، واشتركت فيه شتى الوفود من مختلف أنحاء الجزائر ، ثم نص الخطب والقصائد التى ألقيت فى الحفلة الخاصة التى أقيمت لتكريم الأستاذ صاحب التفسير ؛ وتدل كلها على روح دينية سامية ، ونزعة إلى التقدم تبشر بمستقبل زاهر لهذا القطر الشقيق .

و(الثقافة) تشكر لمجلة الشهاب هديتها ، وتهنئ منشئها الفاضل على مجهوده القيم لاعلاء كلمة الدين وتثقيف المسلمين ، ذلك المجهود الذى يظهر واضحاً جلياً فى النموذج الذى قرأناه من هذا التفسير فى هذا العدد ، وهو تفسير المعوذتين .

رابطة التربية الحديثة

رابطة التربية الحديثة هى هيئة دولية تقصد إلى تعميم التفكير الحديث فى التربية وتغليب نزعاته وروحه على الحياة المدرسية فى مختلف الشعوب ، وهى تضم كبار المشتغلين بالتربية وبحوثها التجريبية من جميع الأمم ؛ وتسلك فى تحقيق غاياتها سبيل عقد المؤتمرات المحلية والدولية ، ونشر البحوث والمؤلفات والرسائل فى مختلف المشاكل التى تعترض المربين ، والقيام بالبحوث والتجارب وجمع البيانات والاحصاءات التى تساعد على الوصول إلى الحقائق من هذا الباب .

والفرع المصرى لهذه الرابطة تكون منذ مدة لا تتجاوز عاما ونصف عام عقب زيارة المسيو بوفيه مدير معهد جان جاك روسو بجنيف ، فقد كان من أثر اتصاله بفريق من رجال التعليم فى مصر أن تكون هذا الفرع وأخذ يمارس ضروب النشاط التى تلقيها رابطة التربية على أعضائها .

وقد حرص الفرع المصرى على أن ينتحى فى دراساته وبحوثه ناحية مصرية يعالج فيها المشاكل الخاصة بمصر ، ويحاول أن يجعل محور بحوثه الطفل المصرى والمجتمع المصرى ، وما تتطلبه الحياة المصرية من حاجات خاصة ، وأفرغته الهيئة الرئيسية على هذه الوجهة .

وقد أبدى هذا الفرع خلال المدة القصيرة التى وجد

(البقية على الصفحة التالية)

فى عالم التأليف

حول النشرة الأخيرة من كتاب الحيوان

نظرة فى نقد

بقلم النـــــاشر

قرأت ما كتب الأستاذان الدكتور ب . كراوس ، والأستاذ محمد طه الحاجرى ، فى العدد السـابق من مجلة « الثقافة » عن كتاب « الحيوان » للجاحظ .

ولعل هذه هى المرة الأولى فى تاريخ النقد الأدبى بمصر : أن يجتمع ناقدان أديبان ، فيصدرا نقداً مشتركاً لعمل أدبى فى مقال واحد . وهو دليل ساطع على نمو الروح النقدية ، وعلى قوة ما وصل إليه التضامن الأدبى والعلمى . وهو كذلك برهان على وعورة العمل فى كتاب مثل كتاب « الحيوان » الذى تهيّبه رجال قبل رجال ، حتى ما رأى الناس مَن أقدم على شرحه أو تخليصه من إسار التحريف حتى سنة ١٣٥٦ .

ولو أن رجلا من السابقين كان عنى بتقييد بعض

فيها إلى الآن نشاطاً يبشر بأكبر الآمال فيه ؛ فنظم محاضرات عامة عالجت عدة مشاكل خاصة بالتعليم فى مصر ، كمشكلة الامتحانات والمدرسة الريفية ؛ ورأى أن يتابع نشاطه فى هذا الصيف بتنظيم دراسات صيفية لأساتذة المدارس بمدينة الاسكندرية ، أعد لها برنامجاً حافلا بأهم ما يجب على المدرس الإحاطة به من شئون التربية ؛ فخُصص قسم من هذه المحاضرات لعرض الاتجاهات الحديثة فى التربية والعناصر التى يجب أن تستكملها المدرســة الحديثة والروح الذى يجب أن يسودها ، وخُصص قسم آخر لدراســـة بسيكولوجية الطفل وبسيكولوجية المراهق ، وما يمكن أن يستفاد من هذه الدراسات لبناء العلاقة بين المعلم والمتعلم على أساس سليم كفيل بخير الانتاج . وعنى بصفة خاصة بالتربية الخلقية ووسائل تحقيقها فى المدارس . وعالجت بعض المحاضرات مشكلة تعليم اللغات ، كما درست علاقة المدرسة بالمجتمع وما يجب أن تكون عليه تلك العلاقة حتى يكمل إعداد الطفل لبيئته التى سيعيش فيها .

وقد ختمت هذه المحاضرات بحفلة حضرها حضرة صاحب المعالى وزير المعارف ، وتكلم فيها منوهاً بتقديره لجهود الرابطة ، كما حاضر المجتمعين فى نفس الليلة حضرة صاحب العزة وكيل المعارف فى رسالة المعلم ، وقد بسط فى تلك المحاضرة المهمة السامية الملقاة على عاتق المعلم ، والواجبات التى يجب أن ينهض بها تحقيقاً لهذه المهمة .

وقد كانت هذه الدراسات موفقة كل التوفيق فيما رمت إليه ، وخطوة إيجابية نافعة فى تحقيق أغراض الرابطة و « الثقافة » تهنئ الرابطة وأعضاءها وعلى رأسهم الدكتور الكردانى بك رئيس الفرع المصرى بهذا النشاط ، وترجو للجماعة دوام النجاح واطراد التقدم .

عباراته بالشرح ، أو حلّ شيئاً من رموزه الغامضة ، لهان الأمر فيه قليلاً ، ولحفظ لنا طائفة صالحة من عباراته على وجه الدهر سالمة .

ومن عجيب أمر هذا الكتاب أنك لا تجد منه نسخة سليمة أو كاملة ؛ ففي كل نسخة آلاف من التحريفات ، وفي كل نسخة مئات من الأسقاط . فكان من يحاول إحياء هذا الأثر الجليل ، كراتق السقاء الواهي ، كلما رتق فتقاً من ناحيـة ، تفجّر الماء عليه من أخرى ، حتى ليعانى الرجل في ذلك ما يفوق جهـد التأليف ومشقة التصنيف .

ومن الحق أن أقول : إن المراجع الفنية والأدبية ، التي اعتمدت عليها في التصحيح ، قد أجدت عليّ ما لم تجد نسخ الكتاب ، يعرف ذلك من قرأ النشرة الأخيرة ، وخاصة الجزأين الثاني والثالث .

قرأت نقد الأسـتاذين الفاضلين . ومن قبل قرأت نقد الأستاذ السندوبي في جريدة الدستور . وأعجبني من النقدين ما لمست من صادق الغيرة والإخلاص ، وأعجبني فوق ذلك سمو أدب النقد ، فيما أخذ به الناقدون أنفسهم من نقاء العبارة ، والبعد عن تلك الأساليب القديمة ، التي تضارع أساليب الحروب الهمجية في عصورها الأولى ، التي لا يسيغها الزمان الحاضر .

وإني لأشكر الأسـتاذين أولاً على ما تقدما به من ملاحظات قيمة ، وأشكرهما آخراً على تلك التهنئة الخالصة التي وجّهاها إليّ ، وذلك التقدير الكريم الذي قدّراه لعملي المتواضع .

بيد أن لي نظراً في بعض ما كتبا ، تمليه عليّ الروح التي أملت عليهما ما كتباه .

* * *

جاء في ص ٧١ س ١ : « وهل مثل ذلك فهم الصبي الزجر والإغراء ، ووعى المجنون الوعيد والتهدد » . وكلمة « وعى » هي في نسخة كوبريلي « ودع » وفي ط : « ردع » تجريت على أسلوب الجاحظ في المزاوجة ، فجعلت إزاء « فهم » في الجملة الأولى « وعى » في الجملة الثانية . إذ وجدت « ودع » غير صحيحة ، و « ردع » تجعل المعنى ناقصاً . وهل يردع المجنون وعيد أو تهدد ؟! إنه لا يزيده إلا ثورة وهياجاً . ولو كان الوعيد يردعه لكان علاجه أيسر علاج وأهونه . فهو يعي ما يوجه إليه من صوت أو إشارة ، ويفهم ما يراد به التودد ، وما يراد به التهدد .

وجاء في س ٣ : « وبمثل ذلك اشتد حضر الدابة مع رفع الصوت » . ولا شك أن هـذه قراءة صحيحة ، كما لا شك في أن قراءة « رفع السوط » قراءة صحيحة أيضاً .

وفي س ٤ : « ولولا الوسوم ونقوش الخواتم » الخ . وكلمة « الوسوم » هي في الطبعة الأولى « الرسوم » بالراء وفي أكثر النسخ « الوشوم » بالواو ثم الشين . أما « الرسوم » فلا شك في تحريفهـا . وأما « الوشوم » فذات معنى خاص ؛ إذ أنها جمع « وشم » وهو ما ينتج من غرز الإبرة في البـدن وذر النيلج عليه . ولا يزال الوشم معروفاً متداولاً إلى عصرنا هذا ، بين فتيات الريف وفتيانهم . وتوجيه العبارة بما يفسدها إذ هي بتمامها : « ولولا الوسوم ونقوش الخواتم لدخل على الأموال الخلل الكثير ، وعلى خزائن الناس الضرر الشديد » . والمراد بالأموال هنا « الإبل » قطعاً . ومن المعروف أن العرب كانوا — ولا زالون — يجعلون لإبلهم وسوماً ، تكون تلك الوسوم بالكي ، ويسمون أداة الكي « الميسم » وقد يَسِـمُونها ويعلمونها بوسائل أخرى ، وكله يسمى وسماً . وفي الحديث : « إنه كان يسم إبل الصدقة » أي يعلم عليها بالكي . وانظر ما تحدث به الجـاحظ نفسه عن وسم الأموال في الجزء الأول من النشرة الحديثة ص ١٦٠ — ١٦١ حيث الكلام مستفيض في هذا .

وجاء في ص ٧١ س ١٠ : « ولا يخرج الخط من

الجزم ، والسند النعم كذا كيف كان » . أخذ على الناقدان أن أثبت « كذا » ولم أنبه إليها . والحق أنى انتبهت إليها ، ونبهت على أنها مقحمة فى النص . انظر الاستدراك ص ٤١٩ .

وفى ص ١٣ : « فى استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها » قال الأستاذان : « وفى نسخة كوبريلى : فى استبقاء مآثرها وهو الوجه » . ولم يفتنى هذا ، بل نبهت عليه فى الاستدراك ص ٤١٩ ، حيث كتبت : « الوجه استبقاء ، كما فى ل » .

وفى ص ٧٣ س ٢ : « من القرون السابقة » وفى بعض النسخ : « السالفة » وأثبت « السابقة » وليس فى هذا مأخذ ، وليست إحدى الكلمتين بأولى من الأخرى .

وفى ص ١٥ ورد بيتان للنمر بن تولب :

جزى الله عنى جمرة ابنة نوفل
جزاء مغل بالأمانة كاذب
بما خبرت عنى الوشاة ليكذبوا
على وقد أوليتها فى النوائب

وعقب الجاحظ على البيتين بقوله : « أخرجت خبرها مخرج إلى من أحب أن يعاب عندها » . أى أظهرت سر الحب فذاع حتى وصل إلى الوشاة التى يتمنى أن يعابوا عندها . وليس فى العبارة على هذا الوجه الذى وجهتها به غموض .

لكن الأستاذين الفاضلين وجها العبارة بالوجه الآتى : « أخرجت خبرها مخرج من أحب » الخ . ولا يصح هذا التركيب إلا إذا حورنا « أحب » إلى « أحبت » فيصير المعنى : أخرجت خبرها مخرج التى أحبت أن يعاب هو عندها .

وجاء فى ص ١٥ س ١٣ قول كعب بن زهير :

فاخش سكوتى إذ أنا منصت
فيك لمسموع خنا القائل

و « إذ أنا منصت » هى إحدى روايتى البيت ، كما فى طبعة الساسى ، وكما فى خزانة الأدب (٤ : ١٢ بولاق) . قال الأستاذان : « والصحيح آذنا منصتاً » والتعبير بكلمة « صحيح » بعيد عن الحق ؛ إذ هما روايتان يستقيم المعنى بكل منهما . كما نبهت فى أسفل الصفحة .

بقى أن نكشف عن ظن ذهب إليه الأستاذان الفاضلان ، وهو أن الطبعة الأولى التى نشرها الحاج محمد ساسى المغربى مقتبسة من « نسخة حديثة مخرومة كثيرة التحريف » . وليس الأمر كما ظنا . بل قد طبعت عن عدة نسخ خطية كما حققت فى مقدمة الحيوان ص ٣٦ . وانظر طبعة الساسى (٢ : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩) وكذلك الجزء السادس ص ١٦٠ حيث تجد عبارة : « هكذا هو فى أصول الكتاب » .

وليس يفوتنى أن أثنى للأستاذين الفاضلين شكرى الصادق على كريم نقدهما ، وعلى ما أتاحا لى من هذه الصلة الطيبة بهما ؟

(سيتلى عابر) **عبد السلام محمد هارون**

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٢ | الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ — ٨ أغسطس سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــرس

في أفق السياسة الدولية :

هدوء العاصـــفة

لمحرر « الثقافة » السياسي

مضت بضعة أسابيع منذ وقعت أزمة دانزج ، وساد الاعتقاد بأن ألمانيا تعمل للاستيلاء على المدينة الحرة بالقوة ، وخيف أن تؤدي هذه المحاولة العنيفة ، وما يتوقع من مقاومة بولونيا لها ، إلى تكدير سلام أوربا ، وإضرام نار حرب عامة ؛ وقد عرضنا يومئذ إلى هذه الأزمة ، وإلى احتمالاتها المختلفة ، ورأينا فيها بالرغم من دقة الموقف وخطورته ، ما يحمل على التعلق بشيء من الأمل في ترجيح كفة السلم ، ولو إلى حين .

ويلوح لنا اليوم ، بعد أن هدأت العاصفة نوعا ، أنه قد جدت في الموقف عوامل وظروف تؤيد هذا الرأي ، وأن الأمل في صون السلم يشتد يوما بعد يوم ؛ وليس معنى ذلك أن شبح الحرب قد زال تماما ، وصفا الأفق من

كل شائبة ؛ ولكن معناه أن الأزمة قد فقدت كثيراً من حدتها ، ولم تبق كما كانت خطراً داهما على السلم ، وأنه أضحى من المستبعد أن تقع الحرب المنتظرة فى القريب العاجل ، كما كان متوقعاً منذ شهرين .

ولا ريب أن هذا التطور يرجع قبل كل شىء إلى موقف بولونيا وحلفائها ؛ فقد أبدت بولونيا عزمها واضحاً بأنها لن تبقى جامدة إذا حاولت ألمانيا الاستيلاء على دانزيج بالقوة ، وأنها ستقاوم بكل ما وسعت أية محاولة من جانب واحد لتغيير النظام الحاضر فى المدينة الحرة ؛ وأبدت بريطانيا العظمى وفرنسا مثل هذا العزم فى تأييد بولونيا ، ولم تدعا مجالا للشك فى أنهما ستقفان إلى جانبها فى أى نزاع مسلح يقع من جراء دانزيج ؛ ولم تتوان بولونيا فى التحوط ، واتخاذ جميع الاستعدادات العسكرية الممكنة لرد القوة بمثلها .

وقد بينا فيما سبق أن مسألة دانزيج ليست إلا سبباً ظاهراً للأزمة ، وأن النزاع الحقيقى يدور حول وقف سياسة الفتح والاعتداء المنظم التى اتخذها محور برلين رومة شعاره ، والتى أسفرت فى عام واحد عن القضاء على ثلاث دول أوربية هى النمسا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا ؛ وأن ألمانيا ترمى بالاستيلاء على دانزيج والممر إلى قطع بولونيا من البحر ، والتمهيد إلى خنقها من الوجهة الاقتصادية ، ثم إلى تفككها السياسى ، وزوالها كدولة مستقلة تحول دون توسعها فى شرق أوربا .

وهذا الخطر على كيان بولونيا ، وما يترتب على تحققه من انهيار التوازن الأوربى ، وسيادة القوة الفاشمة فى القارة ، هو الذى وقفت انكلترا وفرنسا من وراء بولونيا لرده .

ولم تتردد الدولتان الدمقراطيتان الكبيرتان هذه المرة فى إظهار عزمهما واضحاً فى مقاومة القوة بمثلها ، وقد رأينا ما جره ترددهما فى مثل هذا الوقت من العام الماضى فى تأييد تشيكوسلوفاكيا من وقوع كارثة ميونيخ ، وما ترتب عليها من ضياع تشيكوسلوفاكيا ذاتها ، وتوغل النفوذ الألمانى حتى البلقان وشواطئ البحر الأسود .

* * *

هذا هو أول العوامل وأهمها فى هدوء العاصفة التى أثارتها ألمانيا حول دانزيج .

فقد أدركت ألمانيا أنها تواجه هذه المرة مقاومة حقيقية ، وأنه لم يبق فى وسعها أن تلجأ إلى سياسة المفاجأة والعنف الخاطف ، وأن أية محاولة لضم دانزيج بالقوة قد تثير نزاعاً مسلحاً يخشى أن ينقلب إلى حرب أوربية عامة ، لا تؤمن عواقبها ؛ ومن ثم فقد آثرت على ما يظهر أن ترجىء تنفيذ خطتها أو أن تلجأ إلى أسلوب آخر غير الاحتلال المسلح .

وأما العامل الثانى الذى كان له أثر كبير فى تطور الموقف ، فهو تقدم المفاوضات الخاصة بعقد الميثاق الثلاثى بين روسيا السوفيتية وانكلترا وفرنسا . ونحن نذكر أنه حينما أثيرت مسألة دانزيج وتفاقمت منذ بضعة أسابيع ، كانت هذه المفاوضات التى تدور بين الدول الثلاث منذ منتصف ابريل الماضى ، قد طالت وتعقدت ، وكاد ينقطع الأمل فى نجاحها ؛ ولكنها عادت فتقدمت ببطء ، وذللت عقباتها تباعاً ، وأصبحت فيما يبدو على وشك الانتهاء بما يحقق عقد الميثاق المنشود . ومن دلائل نجاحها أن الدول الثلاث قد اتفقت فيما بينها على أن تقوم بإجراء مباحثات عسكرية لتنسيق خططها الدفاعية ؛ وأنه قد تقرر بالفعل أن تذهب إلى موسكو بعثة عسكرية انكليزية ، وأخرى فرنسية للقيام بهذه المباحثات . ولم تتقرر هذه المباحثات العسكرية إلا بعد أن بلغت المفاوضات السياسية مرحلة النضج ، ولم يبق على إتمامها سوى بعض تفاصيل شكلية حسبما صرح بذلك وزير الخارجية الفرنسية فى بيانه عنها .

والواقع أن طول هذه المفاوضات وتعقدها يرجع إلى موقف روسيا السوفيتية ، وإلى ما أثارته من اعتبارات خاصة

بها ، لم تحسب انكلترا وفرنسا حسابها لأول وهلة . فقد أصرت روسيا أولاً على أن يشمل الضمان التبادل جميع الدول الواقعة على حدودها الغربية ، ولا سيما دول البلطيق وهي فنلنده ولاتفيا واستونيا ولتوانيا ؛ وقد عارضت انكلترا في هذا الاقتراح طويلاً ، بحجة أن هذه الدول ذاتها لا ترغب في ضمان من أي نوع ، وصرح بعضها بأن أي عهد يقطع بشأنها دون موافقتها يعتبر عملاً غير ودي ؛ ولكن انكلترا اضطرت أخيراً إلى التسليم بوجهة النظر الروسية ، وصيغ ضمان هذه الدول ضد الاعتداء في صيغة خاصة لم يذكر فيها اسمها . بيد أن روسيا عادت فطلبت أن لا يقتصر ضمان هذه الدول على حمايتها من الاعتداء المباشر ، بل يجب أن يشمل الاعتداء غير المباشر أيضاً ؛ فأثار هـذا الطلب اعتراضاً جديداً من جانب انكلترا وفرنسا ، وطـالت المناقشات بشأنه . وملخص وجهة نظر روسيا في ذلك هو أن الوسائل التي لجأت إليها ألمانيا في ضم النمسا واحتلال تشيكوسلوفاكيا ، واعتمادها في ذلك على بعض دعاتها وصنائعها المحليين ، أمثال سايس انكارت وهنلاين ، وهاشا ، في طلب هذا الضم أو الاحتلال ، قد تتكرر في دولة أو أكثر من دول البلطيق ، فتحتلهـا ألمانيا بحجة أنها دعيت من زعمائها أو حكومتها لاحتلالها أو حماية النظام الداخلي فيها ، وبذا تعرض روسيا إلى خطر الغزو الألمـاني المباشر ؛ وهذه النقطة ما زالت اليوم موضع المناقشة بين الفريقين ، وهي آخر العقبات التي يجب تذليلها ، والمنظور على أي حال أن تذلل في القريب العاجل .

أما ما طلبته روسيا أخيراً من وجوب إجراء المباحثات العسكرية مع المفاوضات السيـاسـية جنباً إلى جنب ، فقد أجيبت إليه كما قدمنا ؛ وربما سافرت البعثتان العسكريتان الانكليزية والفرنسية إلى موسكو وقت كتابة هذه السطور .

وإذا تم عقد الميثاق الثلاثي المنشود بين الدول الثلاث الكبرى ، أعني بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا السـوفيتية فإن جبهة مقـاومة الاعتداء التي تعمل بريطانيا وفرنسا لانشائها منذ ابريل المـاضي لمقاومة خطط الاعتداء التي تدبرها ألمانيا وإيطاليا لتحقيق أطماعهما في الفتح والتوسع والاخلال بميزان القوى الأوربي ، تصبح حقيقة واقعة وتقوم سداً منيعاً في وجه محور برلين رومة ، وتضع حداً لمشاريع هتلر في الزحف نحو الجنوب والشرق ، ومشاريع موسوليني في السيادة في البحر الأبيض المتوسط وأفريقية ، وتعيد كثيراً من الطمأنينة والثقة إلى الدول الصغرى التي أقضت مضاجعها اعتداءات الدولتين الدكتاتوريتين ؛ وعلى الجملة ، فانها تغدو ضماناً قوياً للسلم ، وتحمل هتلر وموسوليني على كثير من الروية والتفكير قبل أن يقدما على تدبير أي اعتداء جديد .

* * *

وثمة عامل آخر يجب أن يذكر في هذا المقام ، وهو تحسن الموقف في الشرق الأقصى . ذلك أن أزمة دانزج أثيرت في نفس الوقت الذي قامت فيه اليـابان بمحاصرة مناطق الامتياز البريطانية والفرنسية في تيانتسين ، والضغط على المصالح البريطانية والفرنسية في الصين ؛ ولم يكن موقف اليابان المعادي للدولتين الديمقراطيتين بعيداً عن وحي برلين ؛ واليابان كما نعرف حليفة لمحور برلين رومة ، وقد لاح مدى حين أن تهـديد اليابان لمصالح بريطانيا في الصين قد يستغرق الكثير من اهتمامها ، ويحولها عن العناية بالموقف الأوربي ؛ ولكن أمل برلين في ذلك لم يتحقق لأن انكلترا أبدت كثيراً من الصبر والمرونة في معالجة الموقف ، واستطاعت أن تقنع اليابان بوجوب تسوية الخلاف بالمفاوضة ؛ وجرت المفاوضة بالفعل بين اليابان وانكلترا ؛ ومع أنها قد تتضمن شبه اعتراف من انكلترا بالحالة الواقعة في المناطق الصينية التي تحتلها اليابان ، ولم تسفر بعد عن تسوية جميع المشاكل القائمة ، فانها كانت كافية لاتقاء العاصفة التي كانت تنذر باجتياح جميع المصالح

البريطانية فى الشرق الأقصى وتحويل أنظار بريطانيا مؤقتاً عن الموقف الأوربى .

أضف إلى كل ما تقدم أن التسليحات البريطانية والفرنسية تقدمت فى الأشهر الأخيرة بدرجة أخذت تزعج دولتى المحور ؛ وفى رأى الخبراء أنه لن يمضى شهر آخر أو اثنان ، حتى ترجح كفة بريطانيا وفرنسا فى الاستعدادات العسكرية ، على كفة محور برلين رومة ، وتفقد ألمانيا وإيطاليا تفوقهما العسكرى الذى استطاعتا أن تعتمدا عليه حتى الآن فى تدبير خططهما ومشاريعهما .

***

فهذه العوامل التى جدت فى الموقف الأوربى من بعد أزمة دانزج ، هى التى عاونت على تهدئة العاصفة التى أثارتها ألمانيا حول المدينة الحرة ، وقصدت أن تمهد بها إلى القيام بضربة جديدة فى شرق أوربا ، وهى التى تحمل ألمانيا اليوم على شىء من الروية والتريث فى تنفيذ خططها . ولعل ألمانيا الهتلرية وقد منعت كرهاً من تنفيذ ضربتها فى دانزج مؤقتاً على الأقل ، تؤمن اليوم بانقضاء عهد المفاجأة التى استطاعت أن تجنى ثماره فى العام الماضى ، نظراً لتهاون الدول الديمقراطية ونقص أهبتها ، وأملها الخلب فى أنها قد تستطيع صون السلم بالتفاهم والمفاوضة . أما وقد آمنت بريطانيا وفرنسا منذ وقوع المأساة التشيكوسلوفاكية بأن ألمانيا الهتلرية لا تفهم سوى منطق القوة ، واعتزمتا جد العزم قمع القوة بالقوة ، وعملتا على إنشاء جبهة مقاومة الاعتداء التى يرجى عما قريب أن تتوج بعقد الميثاق الثلاثى المنشود مع روسيا ، فانه لم يبق من الميسور أن تقدم ألمانيا الهتلرية أو إيطاليا الفاشستية على أية مغامرة جديدة دون أن تخاطرا بإثارة حرب ، تحسبان اليوم لعواقبها ألف حساب .

(***)

الفــــرح بالبريد

للأستاذ أحمد أمين

ما رأيت «مصلحة» تتلاعب بعواطف الناس كما تتلاعب «مصلحة البريد». فهي في كل يوم تحمل القناطير المقنطرة من «الخطابات»، ليست قيمتها في وزنها ولا عددها، ولكن قيمتها في عواطفها. فكم خطاب حمل في طياته أسمى عواطف الحب، وأبلغ عبارات الغرام! لو نشر ما فيه لكان آية من آيات الأدب الخالد، ولو حلل لتقطرت منه دماء القلوب وعصارة الأفئدة — تزنه مصلحة البريد فتقدر عليه نفقته «قرشا»، ولو كان عندها ميزان للقيم لأعجزها أن تجد له الطابع الذي يتناسب وقيمته، فقد سهر فيه كاتبه الليالي، يحاول أن يجد ترجمة دقيقة لمعانيه، وعبارة حارة في حرارة عواطفه، وجملا رقيقة في رقة نفسه، وألفاظا موسيقية في موسيقى خلجاته. وهيهات أن يتم له ذلك مهما جوّد، فاللغة لم توضع — في الأصل — لترجمة العواطف، وإنما وضعت أول أمرها للتعبير عن شؤون الحياة المادية من أكل وشرب ولبس، ونحو ذلك. فلما حاولت التعبير عن العواطف شعرت بالعجز، فأكملت نقصها باستعارات ومجازات وتشبيهات ومحسّنات وكنايات، ثم تبين لها بعد ذلك كله أنها أكملت بعض النقص ولم تكمل النقص كله — ثم تأتي مصلحة البريد بعد ذلك، فتعامل هذا الخطاب كما تعامل خطابا لا يحمل معنى، أو يحمل معنى سخيفاً وغرضاً تافها، وليس هذا بأول ظلم في العالم، فقانونه قلب الأوضاع وإهدار القيم، فإن عجبت فاعجب لقيم قوّم، ولكن لا تعجب من قيم لم يقوّم، فذلك هو الأصل.

* * *

ومن عجب أن البريد يحمل في ثناياه نغمات موسيقية مختلفة التوقيع بأكثر مما تختلف نغمات العود والقانون، فهذه نغمة «وصل» سارّة إلى أقصى حدود السرور، وهذه نغمة «هجر» محزنة إلى أقصى غاية الحزن، وبين هذه وتلك نغمات لا عداد لها، بين السرور والحزن، والقبض والبسط، فغزل رقيق، وعتاب لاذع، وقطيعة مفجعة، وحنو أبوي، وقسوة وحشية، وما شئت من لعب العواطف وتقلبات القلوب.

* * *

ثم ما رأيت عاملا تتعلق به الآمال، وترتقبه العيون، كما رأيت في ساعي البريد. هذا محب ينتظر كلمة من حبيبه يمسك بها نفسه، وهذا مشفق على مريض يتبرم من انتظار ساعي البريد يحمل إليه كلمة عن مريضه، وهذا رب مال يرتقب ما يأتي به البريد ليفرح أو يحزن على ما خبأه له القدر من نجاح أو فشل؛ ومثل ذلك كثير.

قد عرفوا مواعيد البريد فارتقبوها، ومنهم من زاد قلقه فكان يخرج ساعته ينظر إليها كلما مرت دقائق، ويستطيل الوقت ويلعن عقارب الساعة إذ تسير ببطء، ومنهم من ارتقبه في شرفة المنزل ليمتع به نظره، ويغذي به أمله، آتيا من بعيد يترنح في مشيته، ويتلاعب بما يحمل في يديه من عواطف، ويتنقل من بيت إلى اليمين إلى بيت اليسار حتى يأتي دوره، فينقبض وجهه وينبسط، ويتذبذب بين اليأس والأمل، وقد يضحك عليه القدر فيأتيه خطاب فيفرح، ويفتحه فيحزن، ويكون مثله مثل القائل:

ما أقبح الخبر تعطاه فتحرمه
قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي

ومنهم من يتكلف الرزانة فلا يتطلع لمساعي ، ولكنه يكرر النظر في صندوق البريد ، فيطل من زجاجته ، ويفرح إذا صاد ، وينقبض إذا لم يصد ، وهكذا أشكال وألوان وكلها حول البريد .

* * *

ويكاد يكون الفرح بالبريد صفة عامة يشترك فيها الناس على اختلاف بينهم في مقدار فرحهم ، فما سر هذا الفرح ؟

هل هو فرح من جنس فرح الأطفال « بحلاوة البخت » وهو صندوق صغير من الورق ونحوه يشتريه الطفل ليرى فيه بخته ، وأساس هذا الفرح نفسياً أن الانسان خلق مُطّلعة ، ركز في طبعه حب الاستطلاع لما غمض والاستكشاف لما خفي ؛ فإذا رأى الناس يجتمعون في الشارع على شيء تطلع إلى معرفة خبره ، وإذا رأى شيئاً مغلقا تاق إلى معرفة ما في داخله . وقد أدرك التجار هذه الغريزة في الانسان فكان من طرقهم أنهم أحيانا يستلفتون نظر الناس إلى السلع باخفائها وحجبها عن الأنظار ثم الايعاز بطرق مختلفة إلى الدلالة عليها ، والاتيان بها من صندوق داخل صندوق . وتجار الكتب الافرنجية أحيانا يغلفون الكتاب بغلاف محكم ، أو يضعون له قفلا للدلالة على أن فيه مايحجب عن الأنظار ، فيكون الجمهور بذلك أشد شوقاً إلى شرائه لاستكشاف أسراره ، وقد لا يكون سر ولا شيء غير مألوف ، ولكنها المتاجرة بما في الانسان من حب الاستطلاع .

واستغل هذه الصفة أيضاً كتّاب القصص والروايات فحاكوا حوادثها حول مسألة خبئوها في الرواية حتى يشتاق القارئ والناظر إلى معرفة خبيئها واستكناه كنهها ، ويكون نجاح الكاتب بمقدار مهارته في الاخفاء ، والدلالة على ما خفي في بطء وحذر ، وإلهاب الشوق إلى استطلاع ما غمض .

قد يكون هـذا هو السبب في فرح الناس بما يأتيهم من بريد ، وقد يرجحه أنهم يغضبون جد الغضب إذا علموا أن غيرهم فتح بريدهم . وليس سبب ذلك الغضب أن غيرهم قد حاول أن يطلع على ما قد يكون لهم من أسرار فحسب ، بل إن من أسباب غضبهم أيضاً أنهم فوّتوا عليهم لذة استكشاف المجهول واستيضاح الغامض .

وقد يكون عند كثير من الناس الفرح بكثرة البريد سببه الشعور بالعظمة ، فهو يشعر أن كثرة بريده آية شهرته ، وشهرته آية عظمته ، فالبريد يغذي شعوره بالعظمة وإعجابه بالشهرة ، فالتاجر إذا تضخم بريده كان ذلك آية كثرة عملائه ومعاملاته ، والسياسي إذا عظم بريده كان ذلك دالا على نجاحه في سياسته ، وارتباطها بقلوب كثير ممن حوله ، والعالم إذا كثر بريده دل على كثرة اتصاله بالحركة العلمية وبالعلماء ، وعلى شهرته في الأوساط العلمية وهكذا .

وقد يكون لهذه القاعدة شواذ ، فمن الناس من يهربون من البريد هروبهم من مطالعة الوجه النكد ، والشر المفاجئ ، كأولئك الذين كانوا أغنياء فبددوا ثروتهم ، وأضاعوا أموالهم ، فلم يبق من آثار ثروتهم إلا بريد يطالب بديون أو ينذر بحجز ، أو يصدّع بصدور حكم .

* * *

وأيا ما كان فمن مظاهر رقي الأمة أن يكثر بريدها في المعاني والآداب والعلوم ، فيكثر تراسل العلماء والأدباء ، ويكثر التراسل بين الطلبة وأساتذتهم ، والقراء ومجلاتهم ، والسياسيين ورجالاتهم وزعمائهم وأتباعهم ، فان هذا مظهر الحيوية العقلية والفكرية والاجتماعية ، ودليل على أن للأمة مثلا أعلى تنشده وتسمو إليه ، وتتجادل فيه ، وتتخاطب في شأنه ، وتتراسل في تمحيصه ، ودليل على أنها تفهم أن العيش ليس مجرد طعام وشراب ومعاملات مالية ورسائل غرامية ، وسؤال عن الصحة والعافية ، وتحديد موعد مقابلة واعتذار عن تأخر .

ويخيل إلى — مع الأسف — أن بريدنا الأدبي والعلمي والسياسي ضعيف جداً إذا قيس ببريد المعاملات المالية ، والشئون الغرامية ، والحياة المادية .

والأمة إذا رقيت كثر بريدها الأدبي بمعناه الواسع ، وفي كثرته دليل على توثق الصلات بين رجال المعاني من طلبة وأساتذة ، ومن أدباء وأصدقائهم وقرائهم ، وعلماء وأعوانهم ، وسياسيين وأتباعهم .

في الأمة الراقية يفهم الأستاذ في المدرسة أو الجامعة أن العلاقة بينه وبين طلبته لا تنتهي بمجرد إلقاء الدرس وتأدية الامتحان ، وإنما هي علاقة استرشاد علمي وروحي دائم ، فاذا تيسر اللقاء كاشف الطالب أستاذه بحثا كله وشؤونه ، كما يكاشف الشيخ الصوفي مريدُه ، وكما يعترف النصراني المتدين لقسيسه ، وإذا لم يتيسر فالبريد الأدبي يقوم مقام اللقاء .

وفي الأمة الراقية لكل أديب قراء هم « زبائنه » كما للتاجر « زبائنه » وهؤلاء زبائن الأدب يعرفون كل شيء عن أديبهم ، ويقرءون كل ما يكتب ، ويسمعون كل ما يخطب ، ويتعصبون له كما يتعصب السامعون لمغنيهم . وهم يقترحون عليه ما يكتب كما يقترح السامعون لمغنيهم ما يغني ، وفوق ذلك ينقدونه في نتاجه ، فيشجعونه إن أحسن ، ويبينون مواضع ضعفه إن أساء ، وعلى الجملة راقبونه أشد المراقبة ، فيشعر بأنه حي بهم يستمد من قوتهم ويصلح أخطاءه من انتقاداتهم .

أما الأديب عندنا فمثله مثل المحاضر في « الراديو » يتكلم وحده ، ولا يشعر بما يجرى وراء حجرته ، ولا يسمع تصفيقاً ، ولا يحس ضيقاً ، وليس أمامه عيون يقرأ في نظراتها علامات استحسان أو استهجان ، فهو في طريقه من غير مرشد ، ومن غير مشجع ، وبذلك ضعف البريد الأدبي .

كل الصلات بيننا مفقودة ، فلا صلة بين الأستاذ وطلبته إلا صلة الدرس ، ولا بين الأديب وقرائه إلا صلة القراءة إن كانت ، ولا صلة بين الأدباء أنفسهم إلا صلة السباب ، فان لم يكن سباب فرياء ، وما تكون بعد صداقة .

لكم حمل إلينا بريد أوربا أخباراً عن أدبائهم وما كان بينهم وبين قرائهم من صلات أفادتهم في توجيههم ، وما كان يطالعهم به البريد كل صباح من آراء ناجحة بجانب آراء تافهة ، وما كان بين الأدباء بعضهم وبعض من صداقة أوحت بالخطط وعدلت من النهج ، فان كان بينهم أحياناً سباب مرّ فبينهم أحياناً صداقة حلوة ، وإن نفث بعضهم السم فبهم من ينتج الترياق .

* * *

لشد ما أخشى أن يطرق القراء بريد يكذبون به رأيي وينقضون به دليلي ، ثم يكلفونني الاجابة عنه ، وهذا ما لا طاقة لي به ، فأثقل شيء عليّ أن أرد على البريد ، وسلوكي نفسه في البريد دليل على ما أشكو منه ، فان فعلوا بريد لا رد له ، فلهم كل الشكر .

أحمد أمين

حمـاســـة وغـزل

للأستاذ عبد الحميد العبادى

استضافنى صديق حميم يسكن منزلاً طريفاً فى ضاحية جميلة من ضواحى القاهرة . فلبيت الدعوة الكريمة ، وقضيت فى ضيافة صديق ثلاثة أيام أهنأ ما أكون ببشره وترحابه ، وظرف منزله ، وجمال موقعه الذى يشبه أن يكون روضة من رياض الجنة .

ولو ذهبت أعدد ما أبقت تلك الأيام الثلاثة فى نفسى من جيد الأثر لطال بى القول ؛ ولكنى أكتفى بأن أقص على القارئ نبأ حادث طريف شهدته واستخرجت منه مغزى طريفا .

***

صحوت من نومى صبيحة يوم من تلك الأيام على أزيز طائرة من الطائرات ؛ فلم ألق أول الأمر بالا إلى ما سمعت . إلا أن الأزيز أخذ يشتد ويشتد حتى استحال دويا يصك السمع ويهيج الخاطر ، وأحسست كأن جناحى الطائرة يوشكان أن يمسا شرفة المنزل الذى أنزله . هنالك وجدتنى بدافع من حب الاستطلاع قد وثبت من الغرفة إلى الشرفة كما يفعل الأطفال فى مثل تلك الحال . فإذا طائرة أمرها عجيب ! تارة تعلو فى الجو حتى تصير فى جرم الحمامة ، وأخرى تهوى هويا ، فكأنها التنين المعروف فى الأساطير يهول منظره وفظاعة شكله ، وفيا بين الصعود والهبوط تأتى بأفانين من الحركة من تحرف ودوران وانقلاب فى الجو . ولكنى رأيتها — برغم سبحها فى الهواء — لا تكاد تعدو محيط بيت معين من بيوت الحى . ولمحت فوق سطح هذا البيت المعين معصما وكفاً تلوح بمنديل ، وكلما خفق المنديل جن جنون الطائرة ، فهى صاعدة ، هابطة ، محلقة ، محومة ، منقلبة فى الجو أحيانا ، وكل ذلك على نحو أثار عجبى وإشفاقى معا ! .

قلت لصديق : إن لهذه الطائرة وهذا المنديل لشأناً .

فقال وهو يبتسم : إن الأمر لكذلك . أما الطائرة ففتىً يعمل فى سلاح الطيران ، وأما الكف والمعصم والمنديل ففتاة فى الحى ، خطبها إلى أهلها الفتى الطيار . وكلما خرج الفتى بطائرته للتدرب والمران ، راغ إلى هذا الحى لحيا خطيبته وحيته على النحو الذى رأيت .

***

وأطرقت قليلا ثم قلت فى نفسى : لا بأس . ولعل الله جلت قدرته قد تأذن بانقضاء ذلك الزمن الذى كان هم الشبان فيه متى أرادوا الخطبة والتماس الحظوة لدى الجنس اللطيف ، مجرد التأنق فى الملبس والزينة ، واصطناع الوجاهة وادعاء الغنى . ولعلنا قد أخذنا فى زمن آخر يقدم فيه الشبان بين يدى خطبتهم النساء مظاهر البسالة وأدلة الرجولة الكاملة ، وذلك بفضل السفور وتيسير سبل الجندية ، وبث الروح الرياضى فى نفوسهم . ولعل الفتاة الحديثة أصبحت من ناحيتها تقدر فيمن يطلب يدها أن يكون شجاعاً مقداماً ، وتضع ذلك فوق مظاهر الجاه والغنى التى طالما خلبت قلوب كثير من أمهاتهن ، وسحرت ألبابهن ، ثم رأينها آخر الأمر سرابا لامعاً ، وبرقاً خلباً .

وعاودنى طبع المؤرخ الذى يعتبر الحاضر بالماضى ، ويقيس الأمور بأشباهها ونظائرها ، فذكرت كيف كان شجعان العرب يستمدون العون من ذكر صواحبهم ، وهم فى مواطن القتال ومواقف النزال ، فيخلطون حماسة بغزل وفخراً بنسيب ، فيقول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ويقول آخر والموت منه قاب قوسين أو أدنى :
قد علمت ذات القرون الميل
والكف والأنامل الطفول
أنى أروع أول الرعيل
بغارة مثل قطا الشليل

فينبرى له قرنه وهو يرتجز :
قد علمت جارية عطبول لها وشاح ولها جديل
أنى بنصل السيف خنشليل

وذكرت قول نسوة قريش وهن يحرضن رجالهن قبيل الواقعة على الإقدام ويحذرنهم عواقب الإحجام :
إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وقول أبى فراس الحمدانى حاكيا حواراً بين نسوة :
ما أنس قولهن يوم لقيننى
أزرى الحسام بوجه هذا البائس
قالت لهن وأنكرت ما قلن لى
أجميكن على هواه منافسى ؟
إنى ليعجبنى إذا عاينته
أثر السنان بصحن خد الفارس .

ولقد حاول الشعراء من شجعان العرب أن يعبروا عن أنهم يؤثرون الشرف ومعالى الأمور على منى النفس وهوى القلب ، فحاموا حول المعنى ولم يقعوا عليه وقوعاً . وقد وفق إلى التعبير عنه بأبسط صورة الشاعر الانجليزى « لفليس » وكان قد خرج للحرب فبعث إلى محبوبته « لوكستا » بمقطوعة من الشعر الرقيق ختمها بيت ضمنه المعنى المذكور ، ويمكن ترجمته على هذا النحو :

ولست أحبك حباً كثيراً إذا لم أحب العلى أكثرا

فليكن هذا الشعر شعاراً لشبابنا الناهض ، وفتياتنا الأمجاد .

وكتب الله لصاحبنا الطيار ولمن يحب السلامة والسعادة

عبد الحميد العبادى

يوم الهاشمية

للأستاذ علي أدهم

في العصور التي يشتد فيها الجور ويتفشى الفساد وتضطرب الأوضاع ، تنزع النفوس إلى الأمل ، وتصبو إلى الكمال ؛ والمثالية المحلقة في أغلب الأوقات من ثمرات الصبر على الألم المبرح ، ومعاناة الشدائد الحازبة ؛ وقد كان عهد بني أمية عصر اضطهاد من جانب الحكام العرب الخلص ، لرعاياهم من غير العرب ؛ وكان بنو أمية لا يعاملون الشعوب المختلفة التي لاذت بظل الاسلام بالمساواة المنظورة والعدالة المرتقبة ، ولم يكن سبب ذلك التعصب الديني أو الكراهة الجنسية ، وإنما هو شعور العرب باحتقار الشعوب التي فتحوا بلادها ، وبسطوا عليها حمايتهم ، ودانت لهم بعد أن هزموا جيوشها واقتحموا حصونها ؛ وكثير على الأمم الغالبة أن تزهد في لذة احتقار الأمم المغلوبة ، والاشراف عليها من حالق كبريائها وشامخ أنفها . وإنما نطلب الكثير من الطبيعة الانسانية إذا أردنا العرب على أن يتواضعوا ويخفضوا الجناح ، بعد أن اتسعت رقعة فتوحاتهم السريعة ، وتجاوبت الأقطار بأخبار انتصاراتهم الباهرة ؛ وكانت الشعوب المغلوبة تعرف كيف تتقي هذا الاحتقار ، فتستعيد ذكرى مجدها السالف وأيامها الزاهية وتأخذ على العرب عدم درايتهم بأصول الحضارة ، وجهلهم قواعد الحكم وفنون السياسة ؛ وكان هناك أسباب مجتمعة تزيد الكراهة اشتعالاً في نفوس الفرس ، فقد كان من عادة الفرس أن يخلعوا صفة القداسة على ملوكهم ، وكان للملوك في عرفهم حق مقدس لا يشاركون فيه ، لأنهم يمثلون الآلهة . وعند ابتداء حكم الاسلام كان ملوك ساسان قد انقرضوا وذهبت سلالتهم ؛ ولكن الكثيرين من الفرس ظلوا يتمسكون بأفكارهم القديمة تحت ثوب الاسلام ، لأن تلك الأفكار لطول ما دارت في أخلادهم وجالت في خواطرهم ، تسربت إلى عقلهم الباطن ، ولونت تفكيرهم الواعي ، وأصبحت سمة من سماتهم الشعبية ؛ وكان هذا من أقوى الأسباب التي حملت الفرس على مناصرة الشيعة ؛ وفضلا عن ذلك فقد كانت المناصب الكبيرة والوظائف الحربية والمراكز السامية وقفاً على العرب ، وكان أعيان الفرس وذوو الشرف والمكانة فيهم يعكفون على أنفسهم في ألم وحسرة ونقمة ، وقد قوّى ذلك في نفوسهم الشعور بالظلم والغبن وزادهم تعلقاً بالعدالة وطلب الانصاف .

ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين لم يستطيعوا بطبيعة الحال تحقيق كل الآمال المترامية التي كانت معقودة على مجيئهم ، ولم يجاروا النزوع القوي إلى العدالة المطلقة والاصلاح الشامل الذي كان يطلبه الحالمون بالاصلاح ودعاة العدالة ، فخابت آمال كثيرة ، وانعكست ظنون أقوام ، واستعرت ثورات في مختلف أقطار العالم الاسلامي ، تعبر عن هذا الشعور ، وتصف تلك الحالة ؛ واستلزم الموقف قسوة أبي العباس السفاح ، وبراعة أبي مسلم الحربية ، لاخماد الثورات وتثبيت مكانة الأسرة الجديدة .

ولكن اعتلاء العباسيين عرش الخلافة وإن لم يحقق ذلك المثل الأعلى للعدالة والمساواة الذي كان ينشده الناس ، فليس معنى هذا أن الحالة لم تتبدل وأنها ظلت كما كانت عليه أيام بني أمية . ولا نزاع في أنه كان لا يزال هناك الكثير من ضروب الظلم والجور ، ولكن لم يكن قوامه ذلك التنافر الشديد بين مختلف الطبقات ومتباين الشعوب واستئثار فريق بالنفوذ والقوة دون الفريق الآخر . وبمجيء العباسيين ارتفع صوت الشعوب المختلفة

وجهروا بالدفاع عن أنفسهم والاعتزاز بماضيهم تحت اسم الشعوبية ، وبدأوا بفكرة أن كل المسلمين متساوون وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ؛ ولكنهم سرعان ما انتهوا إلى فكرة أن العرب أقل مستوى من سائر الشعوب ، وأن كثيراً من الأمم يفضلونهم في الذكاء والمواهب ويرجحون عليهم بقديم أمجادهم وسالف حضاراتهم .

والواقع أن انتصار العباسيين على الأمويين لم يكن محض انتصار أسرة عربية على أسرة أخرى عربية ، وإنما كان انتصاراً لقوة الاسلام الآخذة في الاتجاه العالمي على قوة العرب الآخذة في التقهقر والانحلال ، أو انتصار فكرة الحكومة العالمية التي تنظر إلى مصالح الفرس والكرد والديلم والاراميين والبربر وغيرهم من مختلف الشعوب التي ضمتها تحلة الاسلام ، على فكرة الحكومة القومية التي تتعصب للعرب وتضع مصلحة القبائل فوق كل اعتبار .

وفي نفوس كثير من الأمم التي دخلت في الاسـلام كانت ترقد بذور فلسفات قديمة وأديان عفى عليها الزمن ومعتقدات مهجورة وبقايا خرافات منسية وأساطير عن الخليقة وأصل الانسان ؛ فلما شعرت هذه الأمم بشخصيتها وأخذت تسترد مكانتها ، بدأت تزدهر هذه المعتقدات ويبدو أثر تلك النحل الكامنة في سلالة المانويين وأبناء المجوس وذرية المعطلين والوثنيين والقائلين بالحلول وتناسخ الأرواح ؛ وفي غبار الفتوح الاسلامية ووهج الحماسة ، وفي إبان جدة الاسلام لم يبد أثر قوى لتلك المعتقدات ، ولكن بعد أن استقرت الأحوال أخذت العناصر المتعادية والاختلافات الخافية في كيان الأمم الروحي تبدو شيئاً فشيئاً ؛ وزاد في ظهورها ما اكتسبوه من النفوذ السياسي وانتشار حرية الفكر وابتداء عهد التفكير الفلسفي والبحث العلمي . وعودة الحياة والانتعاش إلى هذه العقائد البالية بعد الجمود والفتور من أسباب كثرة الفتن والثورات التي لقي العباسيون منها الأمرّين ، لأن كل قائد طموح أو سياسي بعيد المطامع أو داعية مهووس كان يستطيع أن يجمع حوله طائفة تصدق بدعوته وتؤيد كلمته وتسير تحت لوائه .

ومن تلك الثورات ثورة الراوندية الذين ثاروا بالمنصور ، وكادوا يفتكون به في مدينة الهاشمية التي بناها المنصور حين أفضى الأمر إليه قبالة مدينة ابن هبيرة على مقربة من الكوفة .

ففي سنة ١٤٠ هجرية خرج أبو جعفر المنصور من الهاشمية حاجًّا فأحرم من الحيرة ثم رجع بعدما قضى حجه إلى المدينة ، فتوجه منها إلى بيت المقدس ؛ ولما قدم بيت المقدس صلى في مسجدها ثم سلك الشام منصرفا حتى انتهى إلى مدينة الرقة فنزلها ، ثم شخص منها فسلك الفرات حتى أتى الهاشمية ، وبعد عودته من هذه الرحلة بزمن يسير ظهر أمر الراوندية وهم قوم من أهل خراسان — كما يقول الطبري وابن الأثير — وكانوا يجمعون بين الاعتقـاد بتناسخ الأرواح والايمان بمذهب الحلول ، فهم يزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك كبير حرس المنصور ، وأن المنصور هو ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم ، وأن الهيثم بن معاوية هو جبرائيل ، وجمعوا جموعهم وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون وقد أخذتهم الحماسة : « هذا قصر ربنا ، هذا قصر رب العزة الذي يطعمنا ويسقينـا » ، وظلوا على ذلك بضعة أيام .

وكان المنصور رجلا سياسيا مطبوعا ، فهو ينظر إلى الأمور أول ما ينظر من الناحية السياسية ، فلم ير في بدء الأمر كبير بأس ولا عظيم خطر فيما تقول به الراوندية ، وكان يؤثر الاغضاء عنهم والصبر عليهم حتى تفتر دعوتهم ، فلما دخل عليه أحد أعوانه ، وحدثه في أمرهم ، قال له المنصور : « يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم أحب إليّ من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا » . ولكن أمرهم استفحل ودعوتهم اشتدت ، وأخذ رجال الدين وعامة

الشعب يتذمرون من مسلكهم ، ويتحدثون عن سكوت الخليفة عنهم وتهاونه في أمرهم ، فخشي المنصور اتساع الخرق وتزايد الفتنة ، فاستدعى رؤساءهم وحبس منهم مائتين ، وأمر ألا يجتمعوا ، وكان لهذا العمل نتيجة غريبة ، فانهم بدلا من أن يعتدلوا في دعوتهم ويكفوا عن المغالاة في تمجيد المنصور ، اعتقدوا أن المنصور غير أهل لتلك المنزلة الشماء التي رفعوه إليها ، وعقدوا العزم على مجاهدته وقتله ليتجسم الله في أقصر وقت ممكن في شخصية أكمل وأتم من شخصية المنصور ؛ وهو منطق غريب ! ولكنه يتفق مع الطبيعة الانسانية ؛ وكأن الانسان يأنف من الطاعة والخضوع لانسان آخر مثله يعادله في الانسانية ويشاركه في قوتها وضعفها ، فيأبى إلا أن يسمو بذلك الانسان إلى مرتبة الأرباب لتطيب نفسه بأن يقدم له الطاعة والخضوع . ولم يجد هؤلاء المتعصبون بدا من محاربة المنصور ، لأن الحرب أحب الأشياء إلى المتعصبين ، لاعتقادهم أنها خير سبيل للدفاع عن معتقداتهم وتمكينهم من إظهار إخلاصهم لها وتفانيهم في العمل على نصرتها .

وعمدوا إلى الحيلة ، فأعدوا نعشاً وحملوا السرير وليس في النعش أحد ، ثم مروا في المدينة حتى صاروا على باب السجن فرموا بالنعش وشدوا على الناس ودخلوا السجن فأخرجوا أصحابهم وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل ، فاشتد الهرج وتعالت الأصوات وساد الاضطراب وتنادى الناس وأغلقت أبواب المدينة . وأسرع إليهم عثمان ابن نهيك كبير حرس المنصور ليهاجمهم ويرد من جماحهم ، فلم يجد معهم كلامه ؛ فلما انصرف عنهم رموه بنشابة وقعت بين كتفيه فمرض أياما ومات منها . واستدعى المنصور بعض بطانته ومن يثق بهم من رجاله واستشارهم في الوقف ، كدأبه في معضلات الأمور وطوارئ الأحداث ؛ وكان المنصور إذا عرضت له خطة قلبها على جميع وجوهها ونظر إليها من زوايا مختلفة وتحت أضواء متباينة ، وكان يزن كل الممكنات والمحتملات وينظر في التفاصيل والدقائق ، ويحسن الانتقال من منطقة التفكير إلى منطقة العمل . وقليل من يجيد التفكير ويجيد العمل ؛ وهو من هؤلاء الأشخاص القلائل الذين تعادلت فيهم القوتان ، والزعامة في حاجة إلى الشجاعة وقوة الإرادة ، ثم العقل الراجح والبداهة الحاضرة . وكان المنصور يعهد في نفسه هذه الصفات ، ويثبت للحوادث ، فيوحي ذلك الثقة به إلى نفوس رجاله . وأدرك المنصور أن الموقف يحتاج إلى سرعة البت وإلى خطوة جريئة ؛ فلما قال له أحد أعوانه إن خير علاج للموقف هو أن تنادي في الناس وتأمر لهم بالأموال ، خالفه في ذلك وقال له : « وأين الناس والأموال ؟ ومن يقدم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج ؟ » . وأجمع على الخروج بنفسه والاستهداف للخطر لاعتقاده أن الناس إذا رأوه قاتلوا وأبلوا ، وأنه إذا ظل محتجباً في قصره تخاذلوا وتهاونوا . وأقبل أبو الخصيب — أحد حجابه — وحاول منعه من الخروج إبقاءً على حياته ، فاجتذب ثوبه منه ثم دعا بدابته فركب ووثب عليها من غير ركاب ، ثم سوى ثيابه وخرج ؛ وكان لخروجه التأثير المطلوب ، فإن الناس لما رأوا المنصور بقامته الفارعة وطلعته المهيبة ، وما يبدو عليه من أمارات العزم والثبات ، ثاب إليهم رشدهم وأخذوا في مقاومة الراوندية ، وتكاثرت الراوندية على المنصور حتى كادوا يقتلونه ، وإذا برجل ملثم يشق إليهم الجموع ويثخن فيهم إثخاناً ، حتى رد عاديتهم عن المنصور ، وأخذ بعد ذلك بلجام دابة المنصور ، وكان يشد على كل من حدثته نفسه بالإقدام على المنصور وبقتله ؛ ثم فتحت أبواب المدينة ودخل الناس . وكانت أنباء الثورة والاضطراب قد ترامت إلى أسماع القائد القدير خازم بن خزيمة ، فأقبل في جنده على فرس محذوف ، واستأذن المنصور في قتالهم واستئصال شأفتهم ، فأذن له فحمل عليهم حتى هزمهم ، وقتلوا جميعاً بعد أن أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن أنفسهم . ولما

هدأت الحالة اخترق الرجل اللثم فى غمار الجموع ، فسأل عنه المنصور ، وعلم أنه معن بن زائدة ، وكان مختفياً من أبي جعفر لما كان منه من قتاله المسودة مع ابن هبيرة مرة بعد مرة . فلما تغيب أعلن المنصور أنه قد غفر له قديم ذنبه ، وأمر باستدعائه . ولما قتل الراوندية جميعهم وصلى المنصور الظاهر دعا بالعشاء وقال : « أطلعوا معن بن زائدة » وأمسك عن الطعام حتى جاء معن ، فقال المنصور لقثم بن العباس : « تحول إلى هذا الموضع » وأجلسَ معناً مكان قثم ، ولما فرغوا من العشاء التفت المنصور إلى عيسى بن علي وقال له : « يا أبا العباس أسمعت بأسد الرجال ؟ » قال : « نعم » . فقال له المنصور : « لو رأيت اليوم معناً علمت أنه من تلك الآساد » فأجابه معن : « والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وإنى لوجل القلب ، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الاقدام عليهم رأيت أمراً لم أره من خلق فى حرب ، فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني » وأمر المنصور له بعد ذلك بعشرة آلاف درهم وقرنه وولاه اليمن .

وثورة الراوندية أظهرت للمنصور أن نظام الجيش والحرس فى حاجة ماسة إلى الاصلاح السريع ، وكشفت له عن رغبة أهل العراق الدائمة فى الثورة وجنوحهم إلى الشغب واستهدافهم للانفعالات الدينية والتأثرات المذهبية ، وأقنعته بضرورة إيجاد عاصمة جديدة لحفظ كيان الأسرة والمحافظة على حياة الخلفاء ؛ وكان العراق هو قاعدة الحكم ومركز التدبير السياسى . ولذا رأى المنصور أنه يحسن أن يكون موقع العاصمة الجديدة على حدود العراق ووقع اختياره بعد ذلك على الموقع الذى بنيت فيه مدينة بغداد .

وتركت هذه الحادثة فى نفس المنصور أثراً قوياً وصورة باقية ، فقد تشعب به الحديث مرة مع أحد أعوانه فقال له المنصور : « إنى أخطأت ثلاث خطيات وقانى الله شرها ، قتلت أبامسلم وأنا فى خرق ومن حولى يقدم طاعته ويؤثرها ، ولو هتكت الخرق لذهبتُ ضياعا ، وخرجت يوم الراوندية ولو أصابنى سهم غرب لذهبت ضياعا . وخرجت إلى الشأم ولو اختلف سيفان بالعراق ذهبت الخلافة ضياعا » .

وكان معن بن زائدة معروفاً بالكرم ؛ فلما ولى اليمن قصده الشاعر مروان بن أبي حفصة ومدحه بالقصيدة النونيــة المشهورة فأعطاه ألف دينار . وقدم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور ، فتجهم له المنصور ولم يرحب بمقدمه ، ودارت بينهما هذه المحاورة :

المنصور — لقد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك !

معن — وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

المنصور — إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معن بن زائدة الذى زيدت به
شرفاً إلى شرف بنو شيبان
إن عُدّ أيام الفعال فانما
يوماه يوم ندى ويوم طعان

معن — والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهذا الشعر ، وإنما أعطيته لقوله :

ما زلتَ « يوم الهاشمية » معلناً
بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه
من وقع كل مهند وسنان

المنصور (وقد غلبه الحياء) — إذاً إنما أعطيته ما أعطيته لهذا القول !

معن — نعم يا أمير المؤمنين ، والله لولا مخافة الشنعة عندك لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال وأبحته إياها .

المنصور — لله درك من أعرابي ! ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم !

علي أدهم

سبيل المدنيـــة

للأستاذ محمود محمود

قل من الناس من يشك في أن الإنسان دائم الرقي من الهمجية إلى الحضارة . ولكن كثيراً من أعلام المفكرين — ومنهم روسّو — لا يرون هذا الرأي ، بل إنهم ليميلون في نقيضه ، ويعتقدون أن الانسانية تنحدر من سبيل الخير إلى سبيل الشر ، وأن « العصر الذهبي » قد انقضى من زمن بعيد ، حينما كان الانسان الأول يعيش عيشة ساذجة بسيطة ، يسود فيها السلم ولا يعرف القتال . ويرى آخرون أن الانسانية تارة ترتفع وتارة تهبط ، وأن خطّ الحضارة لا يستقيم ولا يتصل ، وأن المدنية تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر . وقد يتفق هذا الرأي الأخير وسير التاريخ ، لأن نور الحضارة لا يشرق في كل مكان ، ولا يدوم على مرّ الزمان . وهناك من يرى أن المدنيـة صفة شخصية تتميز بها الأفراد دون الجماعات . وسواء أصح رأي أولئك أو هؤلاء ، فليس تعريف المدنية بالأمر الهين اليسير .

ومهما يكن من شيء ، فلا شك أن هناك فارقاً بين الانسان كما نعرفه في غربي أوربا مثلاً والانسان في أواسط أفريقيا ؛ فما أهم ما يميز الجماعة الأولى ؟ يناقش Clive Bell هذا الموضوع في كتابه « المدنية » ، ونحب أن نعرض هنا موجزاً لرأيه ، وما وصل إليه من نتائج .

يتساءل Bell : هل الحضارة هي في احترام ملكية الآخرين ؟ أجل ، إن الحيوان لا يعرف لغيره حقاً ؛ ولكن الانسان المتوحش يعترف بحق الامتلاك ، وقد يكون هذا الحق وسيلة من وسائل الحضارة ؛ ولكنه لن يكون بعينها المميزة ، فإن هنود أمريكا الشمالية كانوا يجهلون السرقة ، حتى غزاهم الجنس الأبيض — وهو أعلى منهم حضارة — فأخذوها عنه وتفشت بينهم .

ومن الناس من يرى أن مقياس الحضارة في أمة من الأمم هو المكانة التي تتبوؤها المرأة فيها . ولكن المرأة بين قبائل (البوشمن) في أفريقيا و(الفدا) في جزيرة سيلان تتمتع بمركز لم تنله في أثينـا في عصر أرسطو . ولكثير من الشعوب المتأخرة أخلاق جنسية ممتازة ، فهي تنظر إلى الفاحشة بعين السخط ، وتحكم على الزاني بالرجم . ولا يتزوج الرجل في غابات البرازيل بأكثر من امرأة واحدة ، مع أن أفلاطون صاحب الذهن الجبار قد أباح الاشتراكية في المرأة . ولم يكن العفاف فضيلة عند فولتير وديدرو وغيرهما ممن يؤمنون بفلسفة اللذة . وكان سقراط وشكسبير ورفائيل وقيصر ونابليون يحيون حياة فيها كثير من الدنس .

وترى جماعة أخرى من الناس أن الحضارة لا تتم إلا إذا أصبح لكل فرد — رجلاً كان أو امرأة — حق التصويت . ولكن شكل الحكومة ليس من ضرورات المدنية . فقد نجد الديمقراطية بين المتبربرين ، بينما كانت أثينـا في أوجها أوليجاركية تقوم على خدمة العبيد الذين لا يملكون إبداء الرأي . وكانت فرنسا في القرن الثامن عشر — عصر النور — حكومة مستبدة .

أم هل المدنية هي الوطنية ؟ إن هنود أمريكا الشمالية معروفون بحبهم لبلادهم . وقد زار الولايات المتحدة مرة رجل من جزائر فيجي Fiji — وهي ما تزال في طور البداوة — ثم عاد إلى بلده ، فسأله أهله وذووه : ماذا

رأيت ؟ فقال : رأيت عجباً ! ثم أخذ يعـدد مزايا أمريكا على بلده ، فقتله السامعون غيرة منهم على وطنهم !

ويقول أصحاب المذهب الرواقي ، وتتبعهم في رأيهم كثرة من الناس : إن العالم لا يرقى إلا إذا اتحد في أمة واحدة « لأن أمة لن تفوز في حرب إلا إذا خسرت الأخرى ، ولن تنتصر دون أن توقع بغيرها شراً » كما يقول فولتير .

ويقول أصحاب العلوم إن المدنية هي الخضوع المطلق لقانون الطبيعة ، وشعارهم « على سبيل الطبيعة » . ولو أخذنا برأيهم هـذا لكانت مملكة الحيوان والنبات هي المثل الأعلى للحضارة ، لأنها تترك الطبيعة وشأنها . ويزعم أصحاب هذا الرأي أننا أفسدنا الطبيعة لأننا لم نسمح للأصلح أن يبقى ، وأننا لن نأخذ بأسباب المدنية حتى نهمل الضعيف ونعترف بأن القوة هي الحق ، وأن الأرض لعباد الله الصالحين . وليكن هذا صحيحاً ، ولكن من هو الأصلح ؟ هل هو القوى بناء، أم المتوقد ذكاء؟ إن الانسان الضعيف قد تغلب في كفاح الحياة على (الماموق) Mammock العظيم ، ولقد كان يعيش على الأرض في عصر الجليد الحيوان الضخم والحيوان الهزيل ، فانقرض الأول واستطاع الثاني بحيلته أن ينجو من قوة البرد ، وأن يتناسل ويتكاثر . إن رأي الطبيعيين لا يحتمل الجدل ، لأن الطبيعة تجري بالفعل مجراها ، ولا يعيش من الحيوان والإنسان إلا أصلحه . وإن كان الانسان يعترض سبيل الطبيعة فان من « طبيعته » أن يعترض سبيلها ، ومن الخير أن يعترض سبيلها ، لأن الغرض من الحياة ليس مجرد الحياة ، ومن واجب الانسانية أن تتجه وجهة أسمى من بقاء النوع وحسب ، وأن تحمي الضعفاء النابغين ، والأذكياء النابهين . إن كان معنى الحضارة أن تنسق الجماعة على خير نسق للعيش المجرد ، فلقد بلغت إذاً جماعة النمل والنحل أوج الحضارة !

اجتمع مرة لفيف من المثقفين وأخذوا يتجادلون في معنى الحضارة ، فرآها بعضهم في التوحيد ، ورآها آخرون في الاشتراكية وآخرون في الرقي الآلي ، وآخرون في تقدم الفنون والآداب ، وأخذ يفند بعضهم بعضا ، وكان من بينهم ضابط كبير ، تقدم إليهم برأيه قائلاً : « لقد ازدهر الفن والأدب في اليابان مئات السنين ، ولكنا لم نسمع قط أن اليابان أمة متحضرة حتى اشتبكت مع الروسيا في حرب ضروس ، فهزمتهـا وخرجت من الحرب ظافرة » وكان يشير بهذا إلى أن التفوق الحربي هو معيار المدنية . ولو صح ما زعم لكان البرابرة الذين اجتاحوا الامبراطورية الرومانية والتتر الذين قضوا على الحضارة العربية أرفع مدنية من أولئك وهؤلاء .

ويعرض Bell لكثير من صفات المدنيـة المزعومة ، ويفندها واحدة بعـد الأخرى لشيوعها بين البرابرة المتوحشين . ويحاول أن يلتمس سمة تتسم بها الأمم المتحضرة وحدها دون غيرها . والجماعات المتحضرة في التاريخ عنده ثلاث : أثينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وإيطاليا في عصر النهضة ، وفرنسا في القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية . فما هي الصفة المشتركة التي تنفرد بها هذه الجماعات ؟ هي عنده « تقدير الفن » و « تحكيم العقل » .

فتقدير الأثينيين للفن معروف مشهور . وتروي الميثولوجيا اليونانية أن مثّالا أخذ مرة يعذب فتاة تعذيباً مبرّحا ، ويشوه خلقتها تشويهاً شـديداً ، فرفع ذووها أمره إلى القضاء ، وسيق المثّال إلى ساحة العدل ، واتهمه القاضي بتهمة التعذيب ، فقدّم دفاعاً عن نفسه تمثالا دقيقاً صنعه للفتاة الشائهة ، فظفر من فنه ببراءته . وكان الأثينيون يضحون بالراحة في سبيل الجمال ، ويبذلون كل مرتخص وغال في سبيل إحياء فن التمثيل . وكثر

الشعراء والمصورون والفلاسفة فى إيطاليا فى عصر النهضة ، وكانت (فلورنس) تعتبر رفائيل وميخائيل انجلو المثل الأعلى لعبقريتها ، ويرفعون رجال الفن فوق الملوك والأمراء . وكانت فرنسا فى القرن الثامن عشر تقدر جمال الأدب القديم فشاع فيها المذهب الكلاسيكى ، وكان أغنياؤها ينفقون المال والوقت والجهد فى جمع الصور والتأنق فى كل ما يلبسون وما يأكلون .

وكانت هذه الفترات التاريخية الثلاث تقدر اللذة العقلية وتأخذ بتحكيم العقل ، وتؤمن بأن كل ظاهرة تخضع لقوانين المنطق والعقل . وكان من نتائج ذلك أن فكر الأثينيون فى معنى الخير وفى طبيعة المادة ، وأن تسرب مذهب الشك إلى قلوب الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . ولا يتسنى هذا للقبائل المتوحشة ، لأن تنازع البقاء فيها شديد ، والحياة عسيرة تقضى عليهم بالخضوع للغريزة دون العقل . إن الاسكيمو فى ذلك الزمهرير القارس ليؤثر سمكة مشوية على بيت من الشعر ، ورجل الغابة يفر من الحيوان المفترس ولا يجد وقتاً للتأمل والتفكير . إذا حكمت عقلك أمتّ الهوى ، وأمتّ الخرافة ، وأمتّ التعصب ، وأمتّ الزهد ، وأخذت من لذة الدنيا بمقدار ، وكبحت الشهوة إلى حد . جاء فى محاورات أفلاطون أن جماعة من الأدباء أقاموا لواحد منهم وليمة كبيرة تكريماً له لفوزه فى حلبة الشعر . فتناولوا من الطعام ما لذ وطاب ، ثم سأل سائل منهم : « هل ترون أن نواصل الشراب ، ونستمع إلى المغنيات ، أو أن نرفع الكؤوس ونصرف الفتيات ، ثم نختار موضوعاً نتجادل فيه ؟ » فأخذ الجميع بالرأى الثانى ، لأنهم تناولوا من الشراب ما يكفيهم . وفى هذا ترى وزناً دقيقاً للذة الحسية واللذة المعنوية . ثم شرع الحاضرون يتبادلون الرأى ، وكان « الحب » موضوع نقاشهم وبدرت منهم ألفاظ جريئة ونكات غير بريئة . وذلك لأنهم جماعة مثقفة تقدر الحب وتقدر الفكاهة . والفكاهة الرفيعة سخرية من مطامع الناس الدنيئة ، ومما يقيم له الناس وزناً من توافه الأمور .

وبعد هذا يتساءل Bell : هل يريد الإنسان المدنية ؟ وما سبيله إليها إن أراد ؟ من الفلاسفة أمثال روسّو من يقول بالرجوع إلى الطبيعة ، ولكن (هوبز) يصف حياة الإنسان الأول وصفاً ينفرنا منها . فلنعمل إذاً على النهوض بالإنسان إلى مستوى رفيع . ولكن كيف السبيل ؟ يرى الكاتب أن من واجبنا — إن صح منا العزم على النهوض — أن نخلق فى الأمة طبقة ممتازة نهيئ لها جواً خاصاً تتوفر فيه أسباب العيش ، كى تحيا حياة نموذجية تسعى جميعاً إلى احتذائها . هذه الطبقة ينبغى أن تفرغ طيلة العمر ، وأن لا نكلفها بعمل ما ، وأن تتوفر لها حرية الفكر . وهو لا يريدهم أن يرشدونا بالدرس والمحاضرة ولكن بالقدوة والمثال . وإذا قلت إن هذه الطبقة موجودة بيننا بالفعل ، فلتذكر أنها إنما تقوم على الثروة والميراث ، ولا تقوم على التفوق وحسن الاختيار ، إنما نريد أرستقراطية الذكاء لا أرستقراطية المال . فليتعهد أولو الأمر بتربية الأبناء النجباء تربية رفيعة ، حتى إذا كملت مواهبهم تركوا بين الناس مثالاً يحتذى . ولا يتنافى وجود هذه الطبقة الممتازة ، المثالية والاشتراكية ، فالاشتراكيون لا يضنون بالمال على المدارس والمعامل ، فلتكن هذه الجماعة من بين هذه المؤسسات . وقد أشار رينان إلى ضرورة هذه الطبقة من قبل ، ولكنه أراد أن يسند إليها الحكم . ويخالفه فى ذلك Bell لأن الحكم يفسد النفس البريئة ويملأ بتبعاته أوقات الفراغ . كان فى فرنسا فى القرن الثامن عشر أرستقراطيتان : أرستقراطية الحكم ، وأرستقراطية الحضارة . وكانت الثانية تظفر بتعضيد الأولى وتأييدها ، ولا يرى الكاتب مانعاً من عودة هذا النظام . وهو لا يقصر هذه الطبقة الممتازة على الرجال دون النساء ، بل يرى أن تقوم الدولة بالإنفاق على طبقة

من خيار السيدات ، تكون وظيفتهن أن يخالطن الرجال من طبقتهن كي يحفزوهن إلى زيادة التأنق في فنون الحياة . ولا يرى أن يرتبط هؤلاء النسوة برباط الزواج ، لأن الزوجية عمل يصرف المرأة عن متابعة الثقافة ، وتربية الأبناء جهد تبذل المرأة في سبيله جمالها . وقد فطنت أثينا إلى ضرورة هذه الطبقة من النساء فكان فيها جماعة الـ hetairae ، ولم يكنّ — كما قد يحسب القارئ — عاهرات ساقطات ، وإنما كنّ يتذوقن الجمال ويحسنّ فنون الحديث . وعرفت فرنسا كذلك هذه الطبقة في القرن الثامن عشر ، فكنّ يدرن (الصالونات) ويتألقن في المجامع .

ويرى Bell أن نكثر من استعمال الآلات كي يتوفر الفراغ للناس عامة ، وأن نعمل على قلة السكان كي يرتفع مستوى العيش . ولما كانت كل جماعة لا تخلو من السفلة الأدنياء ، فلا مندوحة عن وجود رجال لحفظ النظام ، يكون عملهم حماية للمدنية ، لا فرضها على الناس فرضاً ، لأن المدنية لا تقوم على استبداد الحاكم بمقدار ما تقوم على إرادة الشعب .

أما بعد ، فهذا عرض موجز لرأي Bell في المدنية نقدمه للقراء ، ولا نقول إنا نوافقه عليه أو نخالفه فيه ، ولكنه يثير في الذهن الشك والتفكير .

محمود محمود

النقد الأدبي عند العرب :

أعلام الكلام لابن شرف القيروانى

للأستاذ عبد المنعم حسن الأدفوى

أما النقد بمعناه العام فقد وجد مع الإنسان بطبيعة الحال ، وسايره فى تقدمه ، فكلما ارتقى الإنسان ارتقى نقده ، أى نظره إلى الأشياء ، وإن كانت الأغراض وما تزال تبعده عن الحق قليلا أو كثيرا ، تبعاً لضعفها وقوتها .

ونَقْدُ الشعر عند العرب وجد يوم وجد الشعر ، وما كانت الأسواق التى تقام فى الجزيرة العربية ، وتحكم فيها فطاحل الشعراء فيما يلقى من شعر ، إلا عناية بالغة بنقد الشعر . ولكن نقد الشعر فى تلك الأزمان الخوالى والأيام الوافى كان غير مرتب ، أو كان لا يتناول إلا الألفاظ أو المعانى من حيث صحتها وفسادها وجدتها . أما النظر إلى تأثير البيئة فيها ، وظروفها وأحوالها ودواعيها ، وخلق قوانين للنقد ، مثل عدم تحكيم العاطفة من حب أو بغض أو غضب ، فأمر غير موجود .

ولكن مع مرور الزمن ، وتنوع أسباب الحياة وألوانها ، وتعدد شكولها ، ألّف كثيرون من العرب كتباً خاصة للنقد ، أو خصصوا أبواباً للنقد فى مؤلفاتهم ، أو عرضوا للنقد مثبتاً فى تلك المؤلفات .

فمن الذين ألّفوا كتباً خاصة فى النقد ابن رشيق القيروانى ، إذ ألّف رسالة فى النقد تدعى « قراضة الذهب » ، وكتاباً يسمى « العمدة » . وابن شرف الذى نحن بصدده ألّف هذه الرسالة « أعلام الكلام » فى نقد الشعر خاصة ، وابن قدامة والآمدى وغيرهم .

وأما الذين تناولوا النقد فى بعض كتبهم فكثيرون يخطئهم الحصر والعد ، كالجاحظ وابن عبد ربه وابن قتيبة وغيرهم وغيرهم .

على أن الأمر أوضح من هذا بكثير ، فإن استنباط علوم البلاغة — المعانى والبيان والبديع — ما هو إلا نقد ووضع لقواعده الفنية ، ولهذا تسمى هذه العلوم علوم النقد .

وللعرب فى نقد الشعر أو فى نسبة كل قول إلى قائله واستخراج الدخيل — على رغم ما روى الرواة — نظرات صائبات لا تخطئ ، وأبحاث عميقة تصيب كبد الحقيقة .

ويجب الآن أن نتكلم عن رسالة ألّفها النقادة العربى العظيم أبو عبد الله بن شرف القيروانى ، قرين ابن رشيق ومنافسه فى بلاط ابن باديس صاحب القيروان ، وهى رسالة أُلّفت فى نقد الشعر العربى خاصة ، ووضعت فيه قواعد وأصولا تلتقى مع النقد الحديث ، أو النقد المنسوب إلى الغرب فى كثير من موضوعاتها .

هذه الرسالة تسمى « أعلام الكلام » وتمتاز بسهولة الأسلوب ووضوح المعنى وعدم التعقيد .

وتكفل مؤلفها ببيان الغرض من تأليفها ، فصرح بأنها عبارة عن أحاديث مختلفة اختلق فيها أخباراً فصيحة عزاها إلى أبى الريان الصلت بن السكن من سلامان[1] ؛

(١) علمت مكتبة الخانكى على عهدنا بأن سلامان ماء لبنى شيبان على طريق مكة إلى العراق .

وكان أبو الريان هذا أديباً مفطوراً ، أسبغ عليه المؤلف من النعوت والأوصاف الشيء الكثير .

واقتدى المؤلف في هذه الأحاديث بالأوائل كمؤلف « كليلة ودمنة » ، وسهل بن هارون الكاتب المعروف في كتابه « النمر والثعلب » ، والهمذاني في مقاماته ! وإذاً فأبو الريان هذا الذي يحادثه المؤلف ، ويطلب إليه رأيه في الشعر العربي والشعراء من عهد الجاهلية إلى أيامه ، أي إلى أوائل القرن الخامس الهجري ، ثم يطلب إليه في آخر الرسالة أن يروي له مختاراً من الشعر العربي فيرويه ، إنما هو نفس المؤلف . والآراء التي يدلي بها أبو الريان ، إنما هي آراء ابن شرف ، وضعها في هذا القالب ، لتكون أكثر قبولا ، وأرسخ في الذهن ، وأبرع في الأداء والتصوير .

سأل ابن شرف أبا الريان في الشعر والشعراء ، ومنازلهم في الجاهلية والإسلام ، فقال أبو الريان : الشعراء أكثر من الإحصاء ، وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء ، فأخذ ابن شرف يعدد لأبي الريان المشهورين منهم ، فقال أبو الريان : لقد سميت مشاهير وأبقيت الكثير ، قلت بلى[1] ولكن ما عندك فيمن سميت لك . قال : أما الضليل — وهو امرؤ القيس — فإنهم كانوا يقولون أسيلة الخد[2] ، فقال هو « أسيلة مجرى الدمع » ، وكانوا يقولون تامة القامة ، وطويلة القامة ، فقال هو « بعيدة مهوى القرط » ، وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ويسبق الظلام ، فقال هو « بمنجرد قيد الأوابد هيكل » .

قال أبو الريان وأما طرفة فخص بأوفر نصيب على أنزر نصيب من العمر ، وأما الشيخ أبو عقيل فشعره ينطق

(١) الصواب نعم .

(٢) أسيل الخد ، لينه طويله ، ومجرى الدمع هو الخد ، وهو أرق من الخد من غير شك وفيه تجديد .

بلسان الجزالة من جنان الاصالة ، وأما العبسي فمجيد في أشعاره ولا كملفته ، وأما ابن حلزة اليشكري فسهل الحزون ، قام خطيباً بالموزون ، والعادة أن يسهل شرح الشعر بالنثر ، وهذا أسهل السهل بالوعر ، وذلك مثل قوله :

أجمعوا أمرهم بليل فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ
من مناد ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذاك رُغاءُ

فلو اجتمع كل خطيب سائر من أول وآخر يصفون سفراً[1] نهضوا بالأسحار وعسكراً تنادى بالنهوض إلى طلب الثأر ، لما زادوا على هذا إن لم ينتقصوا منه ويقصروا عنه . وأما ابن كلثوم فصاحب واحدة بلا زائدة ، يعني معلقته ، وجعلها تغلب قبلتها التي تصلي إليها ، ولم تتركها إلا بعد قول القائل :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

ثم تكلم مثل هذا عن النابغة زياد وأبي ليلى الجعدي والأعشى والأسود بن يعفر وحسان بن ثابت ودريد بن الصمة والراعي عبيد وعامر بن الطفيل وزيد الخيل وابن مقبل والحطيئة وأبي ذؤيب والنصراني الأخطل والدارمي همام (أعني الفرزدق) ، وابن الخطفى ، أعني جرير بن عطية ، والقيسين ابن الملوح وابن ذريح الكناني ، وجميل وغيلان والطثري والعجير وحميد الهلالي وسحيم الرياحي والرماح والكميت والطرماح ونصيب وبشار وابن أبي حفصة وأبي نواس وصريع الغواني والعباس بن الأحنف ودعبل وعلي بن الجهم والطائي حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي وكشاجم والصنوبري والخبزارزي وأبي فراس ابن حمدان والمتنبي وديك الجن .

(١) قوما

ولما انتهى أبو الريان من شعراء المشرق عرج على شعراء المغرب كابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وابن هانئ وابن دراج الأندلسي القسطلي وأبي علي التونسي وهو بحتري المغرب .

وهذا هو القسم الأول من الرسالة ، وهو كفيل بأن يعطينا صورة قاطعة حاسمة لمعرفة ابن شرف للشعر العربي وشعرائه الأولين ومبلغ فهمه لشعرهم وحكمه عليه وعليهم ، وهي معرفة كفيلة بأن ترفع المؤلف إلى ذروة عالية من الاطلاع والفهم .

ثم ختم هذا القسم بأنه أنصف المتأخرين مع أن المعروف أن الناس يحتقرون المعاصر ، ويستصغرون المجاور ، « فحاش لله من الأوصاف لقلة الإنصاف للبعيد والقريب ، والعدو والحبيب » .

وهذه قاعدة من قواعد النقد ، وهي ألا يحكّم الناقد عواطفه في النقود كما كانوا يقولون :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تُبدي المساويا

وبعد ذلك يدخل المؤلف في القسم الثاني من الرسالة ، وهو عبارة عن نظريات وقواعد للنقد كما فهمها النقاد المحدَثون ، فيقول :

قلت : يا أبا الريان أكثر الله مثلك في الإخوان ، ووقاك محذور الزمان ، وصروف الحدثان ، فلقد سُبكتَ فهماً وحُشيتَ علماً . قال محمد :

قلت لأبي الريان في مجلس عقب هذا المجلس : يا أبا الريان لقد رأيت لك نقداً مصيباً ومرمى عجيباً ، ولقد أرغب في أن أنال منه نصيباً ، فأورد أبو الريان آراء ونظريات في النقد منها :

النقد هبة ، وإن العلم بالشعر والرواية له لا تخلق من الناس نقدة له ، ولا تجعل لهم نفاذاً في نقده ، ولا « جودة فهم » في رديه وجيده .

وأن كثيراً ممن لا علم له يفطُن إلى غوامضه وإلى مستقيمه ومتناقضه .

ثم أوصى أبو الريان ابن شرف ألا يستعجل باستحسان ولا باستقباح ، وألا يؤخذ المرء بالألفاظ الضخمة ، فقد تكون معانيها منحطة مبتذلة ، وألا يستضعف الألفاظ المستعملة والكلمات المبتذلة ، فقد تكون تحتها معان طيبة « فإن حَسُنَ اللفظ والمعنى ، فذلك حظ الممدوح ، وإن قَبُحَ أحدهما فلا يكن الروح » .

ومنها ألا تستحسن القديم لأن له إجلالاً في نفسك ، وألا تتهاون بالمعاصر إجابة لاستصغارك ، وهنا أورد نقداً لبعض أبيات لامرئ القيس .

قال أبو الريان : وفضلاء الشعر كثير جداً ، ولكل سقطات ، ولا يقدح هذا في نظره في مكانتهم .

ونَقَدَ أول بيت من معلقة زهير أو مذهَّبته :

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصِبْ
تُمِتْهُ ، ومن تُخْطِئْ يعمَّرْ فيَهْرَمِ

فقال لا نطالبه بحكم ديننا لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطالبه بحكم العقل ، ودلل على حكم العقل بأن المنايا لا تصيب خبط عشواء ، ولا تخطئ ، بل يموت الطفل لأن أجله انتهى ، ويبقى الهرم لأن أجله باق ، وهو نقد على كل حال فيه شيء من الإنصاف كثير ، بل لعله الإنصاف كله ، فإن مراعاة العقيدة الدينية واختلافها يجب أن ينظر إليها نظرة تقدير ، وأن تكون من الأمور المقررة ، ولم يأت الغرب أو النقاد الغربيون بأحسن منها في مثلها :

ونقد بيته ، أي بيت زهير :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه
يهدَّم ، ومن لا يظلم الناس يُظلَمِ

فقال بعد أن عاب الظلم ، بأن له مندوحة في أن يقول :

ومن لا يدفع الظلم بظلم ، ولكل وجهة .

ونقد بيته أيضاً :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

فقال هذا هجاء وذم لا مدح ، مع أن الناس جميعاً يكادون يُجمِعُونَ على أنه أمدح بيت ، وعلل قوله بأن الشاعر يمدح شريفاً أيّ شريف ، فجعل سروره بقاصده كسرور المقصود عن يدفع شيئاً من عرض الدنيا إليه ، والإنسان المعتد بنفسه لا يبدى سروره بهدية تهدى إليه مثلُهُ الشريف .

ونقد بيته :

على مُكثريهم حق من يعتريهمو

وعند المقلّين السماحة والبذل

فقال أول ماذمهم به أن فيهم مكثرين ومقلّين ، فلو كان مكثروهم كرماء لبذلوا لمقليهم الأموال حتى يستووا فى الحال ، ويشبهوا فى الكرم الذين قال فيهم حسان بن ثابت :

الملحقين فقيرهم بغنيهم والمشفقين على اليتيم المرمل

وكما قال غيره :

الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يعود فقيرهم كالكافى

وكما قالت الخرنق أخت طرفة لأمه :

الخالطين نُحَيْتَهُمْ بنضارهم

وذوى الغنى منهم بذوى الفقر

ثم ثنى بعيب فى البيت فقال : إن المكثرين لا يعطون إلا حق من يعتريهم ، وليس فى هذا فضل لأن إعطاء الزيادة هو الفضل ، أما إعطاء الحق فلا ، ولكن نعقب على ذلك بأن للبيت رواية أخرى وهى :

على مكثريهم رزق من يعتريهمو

وعند المقلين السماحة والبذل

وإذاً فلا وجه للمؤاخذة فى هذه النقطة ، لأن الفرق بين الحق والرزق فى البيت واضح ، ولكنه قدم لهذا النقد كما قلنا بأنه لا يحط من أقدارهم ، وأن القدم لا يشفع لصاحبه ، والحدوث لا يمنع التجويد .

ثم رجع إلى سرد بعض قواعد فى النقد فقال :

ومن عيوب الشعر اللحن الذى لا تَسَعُهُ فسحة العربية ، وخشونة حروف الكلمة وتعقيد الكلام .

أما الإقواء ، والإيطاء ، والسناد والإكفاء ، والزحاف ، وصرف ما لا ينصرف ، فكل ذلك يستعمل ، ولكن السالم منه أفضل .

ومن عيوب الشعر مجاورة كلمة ما لا يناسبها ، والافتتاحيات الثقيلة والمتطير بها ، والكلام المضاد للغرض ، كما حصل لأبى نواس مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى فى قصيدته :

أَرَبْعَ البلى إن الخشوع لباد عليك وإنى لم أخنك ودادى

ولا سيما فى ختامها ، وقد حمل فى مواضع كثيرة على أبى نواس .

ومن عيوب الشعر الجفاء فى النسيب على الحبيب ، والتضجر ببعده وغلظة العتاب والسَّرَقُ ؛ « وهذا كثير الأجناس فى شعر الناس ، فمنه سرقة ألفاظ ، ومنه سرقة معان ؛ وسرقة المعانى أكثر لأنها أخفى من الألفاظ ، ومنه سرقة المعنى كله ، ومنه سرقة البعض ، ومنه مسروق باختصار فى اللفظ وزيادة فى المعنى وهو أحسن السرقات — لا نعلم إذا كان يريد أخفاها ، أو أنه ليس بسرقة — ومنه مسروق بزيادة ألفاظ وقصور عن المعنى وهو أقبحها ، ومنه سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص .

والقسم الثالث من الرسالة هو أن المؤلف طلب إلى أبى الريان أن يروى له شعراً مختاراً فروى .

تلك هى رسالة «أعلام الكلام» لابن شرف ، تعطينا فكرة صحيحة عن العصر الذى قيلت فيه ، ومقدار تعمق مؤلفها فى فهم الشعر ونقده ، ومعرفته لعلوم الشعر من عروض وقافية .

عبد المنعم حسن الأدفوى

٢ – المهن والفن . . .



→ الحداد

تمثال من البرونز يظهر فيه التأثر بأسلوب ميكيلانجلو في تمثال « موسى » ، وقد أصاب مينييه Meunier ، صانع هذا التمثال ، كل التوفيق في إتقان الجسم الرياضي السليم ؛ وفي تصوير اليد اليمنى التي تهم بالقبض على المطرقة ...



صانع الزجاج ←

تمثال صغير من البرونز صنعه مينييه Meunier وتمثل عاملا ينفخ في أنبوبة حديدية ذات فوهة خشبية ، ليمد المادة الزجاجية التي رفعها من الفرن لتوضع بعدئذ في القالب وتتخذ شكلها النهائي ...



الحراث — لوحة المصور الإيطالي جيوفاني سيجانتيني Giovanni Segantini (١٨٥٨ — ١٨٩٩)



→ راهبان يشتغلان

لوحة المصور الألماني أوتو هيخارت Otto Heichert ، وهي محفوظة في مدينة كونجزبرج من أعمال بروسية الشرقية حيث اشتغل هذا الفنان في نهاية القرن الماضي .

أسن السكين ! وأسن المقص ! ←

لوحة المصور الأسباني فرانسسكو دي جويا Francisco de Goya (١٧٤٦ — ١٨٢٨) .







الخادم الكسول

لوحة المصور الهولندي نيكولاوس ميس Nicolaus Maes (١٦٣٢ — ١٦٩٣) تمثل سيدة تركت زائريها وانسلت إلى المطبخ لوجدت خادمتها قد استسلمت إلى النعاس ، ولوحت بيدها لائمة متعجبة ولم تنبه إلى النكتة التي دارت بين ؟! كله .

الخياط

لوحة مشهورة للمصور الإيطالي جيوفاني موروني Giovanni Moroni (١٥٢٠ — ١٥٧٨) .

٣ - رشيد الدين العمرى الكاتب

المعروف بالوطواط

للدكتور عبد الوهاب عزام

أشرت فى المقال السابق إلى رسالة كتبها رشيد الدين لكاتب لَجَّ فى استعارة الدواة والقلم ، ووعدت أن أنشرها على حدة .

ويقول رشيد الدين فى صدر الرسالة إنه اعتكف فى الزاوية وترك الأعمال ، وهجر الديوان ، هرباً من إلحاف هذا الكاتب فى طلب أدوات الكتابة واستهزائه بحاشيته وخدمه .

ولا يعقل أن كاتباً رئيساً كرشيد الدين يترك عمله لمثل هذه العلة .

وإنما تأويل هذا أن رشيداً كما قدمت ، هرم فى خدمة ملوك خوارزم فأعفى من العمل . وأحسب هذا الإعفاء لم يكن أمراً بترك الديوان ، ولكن كان بتكليف غيره أعباء العمل ، وتخييره هو فى أن يجلس فى الديوان أو يلزم داره كما يشاء ، رعاية لحق خدمته ، وسابق بلائه . فلما أثقل عليه هذا الكاتب ، وتصرف فى الديوان تصرف الرؤساء ، واستهزأ بأعوان رشيد الدين ، ولج فى استعارة أدوات الكتابة ، عز على الرئيس القديم أن يخالطه ، فآثر العزلة .

فلما سأله هذا الكاتب : لماذا ترك الديوان وآثر الراحة ؟ أجابه الوطواط بهذه الرسالة .

وهى رسالة فكاهية ، فيها من صور ذلك العصر صورة طريفة ، ومن مُلح كتّاب ذلك الزمان ملح رائقة .

ويتبين القارئ سلاسة الكتابة وسلامتها من التكلف مع التزام السجع فى أكثر فقرها . وهو أسلوب كبار الكتاب فى القرن الرابع وما يليه ، قبل أن يساير الكتاب الشعراء فى تزيين العبارات ، وإيثار الألفاظ على المعانى .

وفيما يلى نص الرسالة :

عذلنى أدام الله بهجتك ، وحرس من المكاره مهجتك ، على اعتكافى فى الزاوية ، والتحاقى بالعافية ؛ وقلت لم تركت الأعمال وفوائدها ، والأشغال وعوائدها . اعلم أدام الله سعادتك ، وزين بالكرم عادتك ، أنى إنما طلقت منافع الديوان ، وودعت مجامع الاخوان ، هرباً من إلحافك فى الاستماحة ، وفراراً من إجحافك فى الاستباحة . كم أصبر على نهبك دواتى وقلمى ، واستهزائك بحاشيتى وخدمى . أيها الكاتب أين دواتك وقلمك ؟ بل أيها الغاصب أين حياؤك وكرمك ؟ لاشىء أقبح من ذى صناعة لا يكون معه أداته ، ولا خزى أفضح من ذى كتابة لا يصحبه قلمه ودواته ، سمعت فيما بلغنى من النوادر المطربة والحكايات المضحكة ، أنه كان بنيسابور مكار يعرف بأبى سعيد المعتوه كثير الجنون قليل السكون ، يضجر من الذباب يطير ، ويغضب من الشرار يستطير ، وله حمار فى حد حمار قبّان بل أضعف قوة ، وأنحف بنية ؛ أضناه مس الآفات ، بل أفناه قطع المسافات ، لم يبق من لحمه إلا اليسير ، ومن عظمه إلا الكسير ، فاتفق أن اكترى حماره هذا بعض التجار القاسية قلوبهم ، الفاشية عيوبهم ، إلى بغداذ ، وحمله من أصناف بضائعه ، وأنواع بدائعه وودائعه ، حملاً ثقيلاً تعرق الجمال من ثقله ، وتشفق الجبال من حمله ، ثم إنه علق من أحد جانبيه مطهرة مملوءة بالماء ، ومن الجانب الآخر سفرة محشوة بالخبز والحلواء ،

وألقى عليه فروة ولبادة ، ومَخشبّة ووسادة ، ولا تسأل عن القِدر والمغرفة ، والفأس والمجرفة ، والنطع الذى يفرشه إذا نام ، والخف الذى يلبسه إذا قام ، وغير ذلك مما يحتاج إليه التاجر لرمة أحواله ، ويفتقر إليه المسافر فى حِله وتَرحاله . ثم بعد هذا كله استوى التاجر عليه ، وأدلى رجليه ، كأنه أصاب مُلك تفليس ، أو استولى على عرش بلقيس ، والحمار تحت هذه الأثقال لا يمكنه السير ، ولا يرجى منه الخير ، إذا ضُرب ضرط ، وإذا حُرِّك سقط ، والمكارى يبكى طول الطريق دماً ، ويتنفس الصعداء ندماً ، ويقاسى من وعثاء السفر ، ولأواء الخطر ، وجور المكترى وجفائه ، وتكدر العيش بعد صفائه ، ما يطيل العناء ، ويزيل العزاء ، إلى أن جرّ مهجته الحزينة ، وحشاشته المسكينة ، بعد اللتيا والتى إلى بغداذ ودخلها وقت السَّحَر وطلب محلة يسكنها طوائف التجار ، وينزلها الواردون من الأقطار ، فحط فيها الرحال ، وطرح الأحمال ، وشدّ الحمار ، ونفض عن عطفيه الغبار ، وتوضأ فى الساعة ، وصلى الفجر مع الجماعة ، وما أرغب الملهوف فى الصلوات ، وأحرص المظلوم على الدعوات ! فلما فرغ من صلاته ودعائه ، وهدأ من تضرعه وبكائه ، وهمّ بالخروج من المسجد ، سمع صيحة هائلة من ناحية درب المحلة ، كادت تنشقُّ لهولها الجيوب ، وتنفطر لفزعها القلوب ، فعدا إلى الدرب ليسأل عن الهم ، والأمر الملم ، فإذا المحتسب عند الدرب مع درته ، وصاحب الشرطة لابس ثوب شرطته ، والعامة أكثر من أن يحصى عددهم ، والنَّظارة أزيد من أن يستقصى مددهم . فقال المكارى : ماذا حدث ؟ قالوا : فى هذه المحلة تاجر فاجر ، قد أخذ البارحة ، يرتكب الفعال الفاضحة . وانتزعوا التاجر من داره ، واستخرجوه من وجاره ، وتتابعت عليه الصفعات المعمية ، والجلدات المدمية ، وسودوا محيّاه ، وطلبوا حماراً يركبونه إياه ، ليطاف به حول البلد للنَّكال والعبرة . وكان حمار المكارى بمرأى من عيون العامة فتعادوا إليه ، وأجلسوا التاجر عليه ؛ والمكارى يعدو ويصيح ، ولكن حين لا يغنى الصياح ، وقامت القيامة فى السوق ، باللعن على أهل الفسوق ، والعامة يرمون التاجر بالبعرة ، ويشيعونه بالتعرة ، إلى أن طيف به جميع محلات البلد . والبلد بلد بغداذ ؟ فلما حان وقت المساء ، وانسدل سجف الظلماء ، خُلى من التاجر وردُّ الحمار إلى المكارى ، ساغباً ، لاغباً ، جائعاً ، نائماً ، يكاد يسلمه الطوى[1] ، للتوى[2] ، ويسوقه الصدى ، إلى الرَّدى . فأخذ المكارى أخذ الترحم ، ومدّ أذنيه ، ومسح عينيه ، وقرأ فاتحة الكتاب ونفل عليه ، وزاد فى علفه ، خوفاً من تلفه ، وبات تلك الليلة كما قال النابغة :

فبتُّ كأنِّى قد ساورتنى[3] ضئيلة
من الرُّقش فى أنيابها السم ناقع

ولم يفرغ سحابة الليل ، من الحزن والويل ، فلما نعر ديك الصباح وصاح ، وزهر كوكب الاصباح ولاح ، قام المكارى من مهجعه ، ووثب من مضجعه ، وكاد يشتغل بالوضوء ، إذ قرعت سمعه صيحة أشد من الصيحة الأمسية ، فترك الوضوء وأسرع إلى الدرب ليفتش عن الحادث ، والخطب الكارث ؛ فإذا المحتسب بالباب ، وصاحب الشرطة كاشر الناب ، والعامة أشد هجمة ، وأكثر زحمة ، مما كانوا بالأمس . فقال المكارى : ماذا وقع ؟ قالوا : ذلك التاجر أخذ كرّة أخرى ، فى فعلة أشد خزياً ونكراً ! فقال المكارى : إنا لله : قصم الله ظهره ، ورزقنا حماراً غيره ، ثم عدا إلى حماره ، ليواريه فى بيت جاره ؛ فسبقه بعض العامة إليه ، وأجلسوا التاجر عليه . فشق المكارى جيبه ولطم وجهه ، وشج رأسه ، وتمرغ فى التراب ، من فرط الحزن والاكتئاب . وقال لا مرحباً بهذه السَّفرة النحوسة ، والحركة المكوسة ؛ ما أشد نحوسها للعود ، وأبعد نجمها عن السعود . وكان على هذه الصفة إلى أن مد الليل

البقية على الصفحة التالية

(١) الجوع . (٢) الهلاك . (٣) واثبتنى .

الشاعر الإنجليزى :

بلنـــت

Wilfrid Scawen Blunt

للاستاذ توفيق أحمد البكرى

شاعر هام بالجمـــال فتيا
ثم أمضى شبابه فى النضال
لم يُرِد نعمة الحيـاة ، ولكن
عاش للحق ، والنُّهى ، والكمال

تظفر البشرية فى مدى تاريخها السالف واللاحق ، بأفراد من الخاصة الممتازة ، يتألقون فى قصة الدنيا الطويلة ، تألق النجوم الزهر فى كَبِد السماء . وقد تهبهم الحياة أحياناً كل ما تصبو إليه النفوس ، من كرامة النسب والجاه ، والعبقرية والثراء . ولكن أرواحهم المتعطشة إلى فيض المُثُل العليا ، تزهد فى نعيم الدنيا وأعراضها الزائف ، ويقطعون مرحلة العمر كفاحا عن الحق والحرية ، وتعلقاً بالكمال المطلق ، ويضحون فى سبيل ذلك بكل شىء ؛ فاذا ما صهر الألمُ نفوسهم ، ومحض الأسى أفئدتهم ، تطهرت أرواحهم ، ووجدوا فى كل ذلك رضى القلب ، وراحة الضمير . ولكن الحياة ستظل دائماً بخيلةً بالنفوس الزكية ، والصفوة الممتازة . من هاته القِلة الشاعرُ الانجليزى العظيم ويلفرد اسكوين بلنت .

* * *

رواقه ، وضرب الظلام أرواقه ، تخلى عن التاجر ، وورد الحمار إلى المكارى ، وقد تمزق إهابه ، واسترخت أعصابه وصار لا يقدر على الحراك ؛ وأنَّى له وقد نشبت به أظافر الهلاك ؟ فأخذه المكارى المجنون ، وتحسَّى بردعته وإكافه ، وفرك أعضاءه وأطرافه ، وسقاه الماء ، وترك بين يديه الإباء ، وكان من صدر الليل إلى عجزه ، مستلب القرار ، فى مداواة الحمار . فلما انتشر أعلام الضوء ، فى أقطار الجو ، سكت أذنه صيحة أشد من الصيحتين الأوليين . فوثب من مرقده ليتفحص عن الحال ، والداء العضال . فاذا المحتسب عند الدرب ، وصاحب الشرطة مشمر للضرب ، والعامة مجتمعة ، والأصوات مرتفعة . فقال المكارى : ماذا طرق ؟ قالوا : التاجر أخذ كرة ثالثة ، فى مثل تلك الحادثة . فقال المكارى : استأصل الله شأفته ، ودفع عنا آفته . وقفز إليه ، يحرق(1) الأُرَّمَ(2) عليه ، وأخذ بإحدى يديه يلبِّبه ، ولكمه بالأخرى لكمة ضعضعت أركانه ، وقعقعت أسنانه ؛ وقال بقلب حنِق ، وصوت مختنق : يا خبيث الطبيعة ، إن كنت لا تتوب من هذه الحلة القطيعة ، ولا تصبر عن هذه الخصلة الشنيعة ، فاشتر حماراً تركبه أوقات النكال ، وساعة الوبال ، فقد أهلكت حمارى ، وأزلت قرارى . وها أنا أقول لسيدنا قول المكارى للتاجر الفاجر : إن كنت كاتب الملك فهيِّ النِّقسَ والطرس ، وإلا فالزم البيت والعرس ؛ فقد أفسدت دواتى وقلمى ، وأطلت عنائى وألمى .

عبد الوهاب عزام

(١) أى يحك نابه حتى يسمع له صريف .
(٢) كركع أضراس .

ولد بلنت في سنة ١٨٤٠ ، من عائلة عريقة النسب ، رفيعة الجاه من عائلات مقاطعة سكس ، وتربى تربية عالية ، درس فيها وحصل كثيراً من العلوم والفنون . فلما بلغ الثامنة عشرة اشتغل في السلك السياسي . وتنقل في ربوع الدنيا ، وعمل في السفارات بين شرق أوربا وغربها ، ورحل إلى جنوبي أمريكا ، وقد أفاده عمله السياسي في اتصاله برجال السياسة وأقطابها ، وأفادته تنقلاته المتعددة ، وما رأى من بلاد ، وعاشر من رجال ، فائدة عظمى ، كان لها أكبر الأثر في اتجاهات فكره ، وروح شعره ؛ ولكنه وهو الكاثوليكي المذهب ، كان حائر النفس مضطرب القلب . حاول عبثاً أن يوفق ما بين الكاثوليكية وتعاليمها ونظمها ، وبين ما انتهت إليه فتوحات العلم الحديث . ولم يجده نفعاً المجهود الذي بذله في القراءة والتفكير ، وفي العمل السياسي الذي كان يقوم به .

ثم لاقى Sir Richard Francis Burton الشاعر ، والرحالة ، واللغوي ، والمؤلف والمستشرق الانجليزي . وسير Burton جاب كثيراً من بلاد الهند ، واكتشف بقاعها المجهولة ، وتنقل في أفريقيا ، واكتشف بحيرة تنجانيقا ، وخدم في السلك السياسي ، وزار مكة والمدينة ، مختفياً في ثياب الدراويش ، وكتب عنها كتابه المشهور ، « قصة حج إلى المدينة ومكة » ، وهو الذي ترجم كتاب « ألف ليلة وليلة » إلى الانجليزية في ستة عشر مجلداً ؛ وله كتب وتواليف كثيرة . فقول تصادق سير بيرتون وبلنت ، وكان بلنت يرمي من وراء هذه الصداقة إلى الاستفادة من علم صديقه ، ومعرفته بالعالم ، وطبائع البشر ، وقراآته المتعددة ، لعل في هدى هذا الصديق وتوجيهه ما يدخل على نفس بلنت يقين الايمان ، والتمسك بدين من الأديان . ولكن بيرتون لم يطفئ ظمأ صديقه الروحي ، ولم يهدئ وجيب نفسه الصارخة ، وبقي حياته شاكا ، لم ترتفع به تأملاته إلى مهبط الايمان ، ولم يستقر على شيء من اليقين والاطمئنان .

في هاته الفترة ، فترة التنقلات والرحلات ، بقي الشاعر الشاب بلنت ، متأجج العواطف ، فياضها ، تتدافعه الصبابة ، « يشدو ، ويرتجل القريض ، ويعشق » ؛ ولكنه في أعقاب سنة ١٨٦٩ وهو في التاسعة والعشرين تزوج الليدي Anna-Noel حفيدة الشاعر الانجليزي العظيم ، لورد بيرون ، وتخلى عن السلك السياسي ، وأخذها ورحل بها يجوب آفاق الشرق العربي ، ويضرب في أرجائه ونواحيه . يحب بقاعه ، ويفتش ماضيه وتاريخه ، ويشيب بأهله وأدبه .

كانت زورة بلنت وزوجه لمصر في سنة ١٨٧٥ — ٧٦ ، ولكنه لم يشعر وهو في مصر أو في انجلترا أنه في وطنه الروحي الذي يحس فيه بالاطمئنان والسكون ، ولكن كان موطنه الروحي الذي تتعلق به نفسه ، وروحه ، وكيانه ، في صحارى نجد الممتدة الآفاق ، في هضابها الخضراء ، وتلاعها الرقراقة . وكانت صبوات نفسه في أن يعيش عيشة البدو ، ويرمي ببصره من وراء حدود الصحراء لعله يستكشف سر الوجود الدفين ، وأن يتغلغل في قلب جزيرة العرب ، فلا يجد أمام ناظريه غير الرمال والصحراء والسماء .

سكن بلنت وزوجه خارج القاهرة مع البدو . وأخذا رويداً رويداً ، يأنسان بعيشة البدو ، ويتعلقان بحريتها التي لا تفوقها في الوجود حرية ، والتي هي في روحها وأساليبها مزيج من الأرستقراطية والديمقراطية .

وفي سنة ١٨٧٨ تأهبا لرحلتهما المشهورة في قلب نجد ، وعلى الرغم مما صادفهما من الأخطار والمتاعب ، فقد تركت تلك الرحلة في عقل بلنت الشاعر أثراً بعيد المدى . فود لو أنه لاقى حتفه في تلك البقاع ، ودفن في سفح جبل شمر المتعالي الأركان ، المخضل الجوانب . بقيت تلك الرحلة

حديث بلنت وزوجه المعاد . وكأنما أراد القدر أن يجعل من بلنت صديقاً حميماً للشرق والاسلام ، فانقلب في أعماق نفسه بدويا خالصاً ، وظل حتى آخر حياته ، وفي الوسط الانجليزي ، يرفل في ثياب البدو الواسعة الفضفاضة .

لم تكن حياة بلنت الزوجية سعيدة الجوانب ، ولكنها كانت مشوبة بالنقائص والشقاء . فارقته زوجه بعد أمد ، وتركت له في وصيتها مفاجأة محزنة ، كأنما كتب على آل بيرون أن لا يحوط حياتهم ما يحوط حياة الناس من هناء ونعيم . وعلى الرغم مما انتهت إليه حياتهما من فراق وشقاق ، فقد قاما في مستهل زواجهما ، بكثير من جليل الأعمال ، معاً معاً . وكان لزوجه ما كان لها ، من الأخذ بناصره ومساندته فيما كان يتعلق به ويدافع عنه . ولكنها لم تستطع في يوم ما ، أن تحد من وثبات نفسه الجامحة وروحه المتعلقة بالكمال . وكيف لها أن يتفقا ، وهو مثل للحس المرهف ، والروح العالية ، وهي تجدها لورد بيرون ، متأججة المشاعر ، متقلبة العواطف ، تتعلق بالشيء فتُجن به ، ثم تنصرف عنه بغتة إلى شيء آخر ؟

استقر بلنت في مصر بعد رحلته إلى نجد ، وأصبح مهتما بالشؤون الاسلامية ، يؤمن بما يحتاج إليه الاسلام من نهضة ، ورجوع به إلى تعاليمه الأولى ، وأن يتخلص من أوشاب الخرافات ، والمعتقدات الدخيلة . وأخذ يعمل ويفكر لعدة سنوات مع الأعلام من رجالات المسلمين وقادة الرأي فيهم ، على تحقيق نهضة الاسلام ، تلك النهضة التي كان يرى في تحقيقها أن يصبح الاسلام نور الكون ودين الجماعة البشرية ؛ فألف في ذلك كتابه المشهور « مستقبل الاسلام The Future of Islam » .

لم يعتنق بلنت الاسلام دينا ، فقد بقيت شكوكه الأولى هي هي ، ولكنه ظل أكثر الناس حماساً إلى الدفاع عما في تعاليم الاسلام من سمو وجمال .

كان بلنت يعتقد يومذاك بوجوب التفاهم والتعاون بين بريطانيا العظمى ، وبين الأمم الاسلامية . وزاد في اعتقاده أن انجلترا يجب أن تقف بجانب الأمم الاسلامية كصديقة مخلصة لها ، بعد ما شاهد ورأى في رحلته إلى نجد ، وفي تنقلاته بين فارس والهند . فانجلترا على حد قوله إن لم تنهض بهذا الواجب لخير الإسلام والأمم الاسلامية ، فقد تنهض بذلك الصنيع أمة أوربية غيرُها .

كان يعتقد أن لانجلترا رسالةً إلهيةً عالية يجب أن تؤديها في الشرق ، ولكنه بعد أن مرت به الأحداث ، ورأى اتجاهات تلك الرسالة ، قلب رأيه ، وغيّر معتقده . فوقف منذ سنة ١٨٨٠ إلى ما بعد ذلك ، موقف البغض والعداء من الحكومة الانجليزية . لما كان لها من تصرفات أزعجت نفسه ، وألهبت فؤاده في مصر وايرلندا . فناصر عرابي باشا وشد أزره ، وكافح عنه كفاح المستميت ، بعلمه وشعره وماله ومكانته في قومه ؛ كان في أول الحركة العرابية المدافع عن آرائهم ، والآخذ بناصرهم ، والشارح للحكومة الانجليزية نبيل مقاصدهم ؛ فلما لم يُجْد ذلك نفعاً عادى وزارة غلادستون ، وراشقها وراشقته . ثم جاء بالمحامين إلى عرابي باشا ، ووقف في صفه إلى أن انتهت حركة العرابيين ، وظل حياته صديقا حميما لهم ولقومهم . وكتب عنهم كتابه المشهور « التاريخ السري لاحتلال انجلترا لمصر » الذي نقله إلى العربية الأستاذ الكبير عبد القادر حمزة باشا .

كان لبلنت بعد ذلك موقف آخر مع حكومة بلاده في سبيل المسألة الايرلندية ، وانتهى به ذلك الموقف إلى الاعتقال والسجن . ولكن السجن والاضطهاد والتشهير لم يلن من عناد ذلك الحر المتمرد ، ولم يصده عما اعتزمه من نصرة الحق والدفاع عن الحرية والتمسك بالكمال ، وذلك أنبل غايات الحياة .

سكن بلنت حين كان بمصر ، ضاحية عين شمس الجميلة قريباً من دار صديقه المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، وأفردها في حديقة جميلة ، كان يجتمع في ظلالها كثير من المفكرين المصريين من سياسيين ورجال دين وأعلام أدب ؛ وبين جدرانها كانت تدور المناقشات حول موقف العرابيين والدفاع عنهم وتوجيه نشاطهم . وفي جنباتها عرفت مصرُ ، وعرف الشرقُ والاسلام ، صديقاً وفياً مخلصاً ، لم يطلب من تعلقه بكل ذلك غرضاً من أغراض الحياة ؛ فقد كان بلنت رفيع النسب ، موفور الغنى ، تقلب في ريعان شبابه في أرقى المناصب . وكان بين هذا وذاك علماً من أعلام الفكر والمكانة الأدبية في عصره ، ولا تزال أطلالُ تلك الدار قائمةً إلى اليوم ، يراها العابر في بكور الربيع ، تتسلق شجيرات الجهنمية ، بزهرها الأحمر المتأجج ، حيطانها وجدرانها .

ذلك هو بلنت الرحالة ، ورجل السلك السياسي ، وعاشق الحريات ، والمدافع عن الحق ، والمتعلق بالكمال . أما بلنت الشاعر الموهوب ، فقد ترك وراءه ديواناً في مجلدين ضخمين ، يزخران بالشعر الرقيق ، والفكر العميق ، والطرافة والابتكار ؛ فهو في شعراء القرن التاسع عشر الانجليزي معدود في طليعة الشعراء ، رقة أسلوب ، وطرافة معنى ، وسمو روح ، وطول نفس . قال بلنت في مقطوعة عن « هجر صديقة حميمة » :

لقـــد مات حبي رغم أنفي ، فليتني
أقضّي حياتي ماحياً يتمشى
وقد مات والآمالُ فيه ، كأنها
دمٌ في عروقي ، طاهر يتدفق

* * *

وقد مات في فصل الشتاء ، ولم أكن
لأحسبه ، كالأيك يضوى ويذبل
تساقط ، كالأغصانِ جف نضيرُها
وأوراقها الصفراء ، تبلى وتُهمَل

* * *

غداً في الربيع الطلق ، يا قلبُ حسرةٌ
تحوم بك الأطيارُ ، والأيكُ أجردُ
وتجتــازه محزونةً في نشيدها
تقول البلى ، بالأيكِ أولى وأجدرُ

* * *

أجل ! ليت زهر الروض والأيك والهوى
نضـــيرٌ ، ألم يأت الربيع المحبب ؟ ؟
ويا ليت ذاك الحب ، طـــال جنونه
ونيرانه في قلبهـــا تتلهب

* * *

ولكن تهادى الصيفُ ، والأيكُ مجدبٌ
ومن حوله الدنيا نعيمٌ ومورد
ومات الهوى ، والحب في ريعانه
وطار بعيداً عنـــه ، إلفٌ يغرد

* * *

وكتب إلى السيدة Camilia Gady ، تلك التي أحبها حباً عميقاً ، بعد أن كشفت له حبها ، وطمأنته على إخلاصها وودها ، ثم هجرته وانصرفت عنه ، فسلاها ونسيها ، بمقطوعة أسماها « النسيان » :

أين الوفاء الحلو يسحر لبه
وحديثك المعسولُ في نجواه
وتفاؤلك الموعودُ في غسق الدجى
والقبلةُ الحرّى ، تَبُلُّ صداه
وسؤالك الجيران : هل هو مخلص
أو أن كثراً في النساء ظباه ؟ ؟
ومناك في الدنيا هواه وحبُّه
لك خالصٌ ، طولَ الزمان هواه

أنسيت يوم نوى الرحيل لأهله
فرجوته ، أن يستديم بقاءه
أتراك ، لما إن تعلق قلبه
بهواك ، هان على وفاك وفاءه

***

قد كان طيرك عاملاً فنعته
روض الهوى ، فمضى إلى مغناه
الآن يلهو بالحمام ساخراً
ويذيق صائدة القلوب جفاءه
إن كنت ذاكرة ، فقد نسى الهوى
أو كنت ناسية ، فما أنساه

***

لم يكن بلنت مؤلفاً وشاعراً ، ومجاهداً من مجاهدى الحرية ، بل كان فوق ذلك أيضاً مستشرقاً ، يتذوق الأدب العربى ، ويفهم روائعه ، ويعجب بما فيه من بهجة وجمال ؛ فقد أصبحت الميثالوجيا الأدبية المنتشرة بين تضاعيف شعره أغلبها عربية ، أعلامها وأمكنتها ، وأحداثها ؛ ثم تعدى ذلك إلى ترجمة المعلقات — وهى روائع الشعر الجاهلى — إلى الانجليزية ، وهى كما أظن الترجمة الثانية للمعلقات .

***

وهكذا يمضى بلنت فى تعريب المعلقات ، وتعريف الناطقين بالانجليزية بالأدب العربى . ومن قصائده قصيدته المشهورة « الريح والاعصار » وهى قصيدة سياسية ، قوية الأسلوب نارية المعنى طويلته ، نشرها فى سنة ١٨٨٣ ، يندد فيها باحتلال انجلترا لمصر ، ويسخر مما تواضع عليه الساسة من تقاليد ، وحب للتوسع والاستعمار ؛ وقد أشاد فيها بمجد مصر ، وبالقوة الحيوية الكامنة فى نفوس أبنائها ، وتنبأ فيها بكثير من النبوءات السياسية التى تحقق أكثرها. وشعر بلنت جميعه لا غنى لمفكر مثقف عن قراءته والنظر فيه ؛ ففيه من جمال المعانى السامية ، والروح الانسانية العالية ، غذاء عقلى وروحى ، لكل مفكر وأديب .

تقدمت الأيام ببلنت ، وهده طول النزال والكفاح ، ومشت إليه الشيخوخة ، فرجع إلى أملاكه بسسكس ، وقضى حياته الباقية وحيداً إلا من كتاب يقرأه ، أو صديق يتحدث إليه ، عرف إقبال الدنيا ، وحلاوة الحياة ، وجمال العواطف ، وشدة الكفاح والصراع فى سبيل الحق ، كما عرف غدر الأصدقاء ، ومرارة الأسى ، وهجر الأحباب ، وجرح فؤاده الظلم فناهضه وقاومه ؛ فلما كانت سنة ١٩٢٢ ، توفى بلنت شيخاً متهدماً على أعتاب الثمانين ، وأوصى أن لا تقام عليه طقوس الدفن المعهودة ، وكتب فى وصيته يقول : « يجب أن أكفن فى بساط رحلاتى الشرق القديم ، دون أن أوضع فى صندوق من أى نوع ، وأن ألحد فى قبرى كما يلحد أبناء الصحراء » ، وهكذا خرج من الدنيا ، ومن ورائه أحدوثة حافلة بالرجولة ، وسمو الروح ، ونبل القصد ، وقد كان شعاره الذى يردده دائماً :

« لا تصفو حياة إنسان إذا لم يقض عهد الشباب فى العواطف الملتهبة ، وعهد الرجولة فى النضال المتصل ، وعهد الشيخوخة فى الذكريات والتأمل . أما كمال الحياة فى الاخلاص والوفاء » رحم الله بلنت رحمة واسعة ، وألحقه بالشهداء والصالحين .

توفيق أحمد البكرى

٢ - ابن الهيثم

للأستاذ مصطفى نظيف بك

أستاذ الطبيعة في كلية الهندسة

اشتهر ابن الهيثم بكثرة المؤلفات والتصانيف ، وبلغت شهرته آفاق العالم الاسلامى فى ذلك الوقت . واشتهر لا كعالم رياضى فحسب ، بل كمهندس له فى الفنون الهندسية آراء ومؤلفات ، كانت جليلة القيمة فى ذلك العصر .

وبلغت شهرته مصر ، وكان صاحب السلطان فى ذلك العهد فى مصر الحاكم بأمر الله الفاطمى . وأيا ما قيل عن غموض شخصية الحاكم وعن شذوذه ، فالتاريخ لا ينكر أن للحاكم جانباً طيبا . فقد كان له ميل للعلم ، وميل لتشجيع العلماء ، آوى إليه كثيراً من أطباء عصره وقربهم إليه وأغدق عليهم نعمه ؛ وأنشأ بالقاهرة داراً عرفت « بدار الحكمة » أو « دار العلم » ، جمع فيها العلماء . وقد قيل إنه كان يشهد أحيانا مناقشاتهم . وأيضاً أنشأ فى المقطم مرصـــداً جعل فيه أحد مشهورى علماء الفلك فى ذلك العصر وهو « ابن يونس المصرى » ، وانقطع فيه ابن يونس للرصد ، حتى أتم أرصاده وجمعها فى جداول تعرف فى تاريخ علم الفلك « بالرصـد الحاكمى » ، وكان يعتمد عليها فى أوربا إلى عصر النهضة .

فبلغ الحاكم أمرُ ابن الهيثم ، ويروى القفطى أنه بلغه أيضاً قول ابن الهيثم :

« لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال ، وهو فى طرف الاقليم المصرى » .

ويروى القفطى أن الحاكم أرسل إليه أموالا وهدايا ، ورغّبه فى الحضور إلى مصر . ولعل الحاكم لم يرد فقط أن يستفيد منه فيما قال فى أمر النيل ، بل أراد أيضاً أن يستأثر بفخر إيوائه إليه وشموله بعطفه ورعايته . ويروى القفطى أن الحاكم خرج لاستقباله والتقى به خارج القاهرة ، وأكرمه وأمر بإكرام مثواه ، واستمهله أياما ثم طالبه بما قال فى أمر النيل . ويروى أيضاً أن ابن الهيثم سار ومعه جماعة من الصناع المحترفين لأعمال البناء بأيديهم ، وتتبع مجرى النيل ، وكأنه فى بعثة هندسية بالمعنى الحديث ، حتى وصل إلى أسوان ، وتجاوزها إلى موضع يقول القفطى إنه يعرف بالجنادل ، وعاين هذا المكان من جانبيه ، ولكنه لم يجد الأمر متفقاً وفكرته الهندسية التى خطرت له ، ففكر ، وقدر ، فلم يجد مندوحة من العودة إلى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل والانخذال ، واعتذر إلى الحاكم . ويروى القفطى أيضاً أن الحاكم تظاهر بقبول عذره ، وولاه منصباً من مناصب الحكومة ، فتولاه ابن الهيثم لا رغبة فيه ، بل رهبة من الحاكم . ولو أنصف الحاكم لصرفه عن الوظيفة ، ولجعله فى زمرة من جمعهم فى دار الحكمة ، أو لجعله مع ابن يونس أو خلفاً له فى المرصد . ولكن لعل منزلة ابن الهيثم العلمية عند الحاكم كانت قد انخفضت من جراء فشله فيما وعد فى أمر النيل . ولعل ابن الهيثم كان قد آنس ذلك فلم يجرؤ على الاعتذار عن قبول الوظيفة . وأغلب الظن أن هذا الحادث كان له أثر نفسى سيء فى ابن الهيثم ، وفى نظرى أن الأمر لا يضيره كثيراً ولا قليلا . ونحن وإن كنا لا نعلم على التحقيق ماهية المشروع الذى فكر فيه ،

فإن أخذه الصناع المحترفين لأعمال البناء ، كما روى القفطى ، إن دل على شيء ، فهو يدل على أن المشروع كان من قبيل السدّ أو الخزان . فهل يضيره أنه سبق الأجيال وفكر فى أمر لم يحن موعد تنفيذه إلا بعد ثمانية قرون وأكثر ؟ خصوصا وأنه بنى فكرته على ما بلغه من أن النيل ينحدر من مكان مرتفع على حدود البلاد المصرية ؟

وتولى ابن الهيثم العالم الرياضى منصباً من مناصب الدولة قد عرض مثله لنيوتن من بعده ، مع الفارق كما يقولون . فنيوتن بعد أن أتيحت له بحوثه عن تشتت الضوء ، وكشفه قانون الجاذبية ، ووضعه الأساس الذى يقوم عليه علم الميكانيكا ، نيوتن — الذى هو فى نظر بعض مواطنيه ، صاحب أكبر عقل ظهر فى الوجود — كان فى ضيق من العيش لقلة المرتب الذى كان يتقاضاه من منصب الأستاذية الذى كان يتولاه فى جامعة « كمبردج » . فتاقت نفسه إلى وظيفة من وظائف الدولة تدر عليه خيراً لا يجده فى منصبه فى الجامعة . فسعى لدى بعض أصدقائه من ذوى النفوذ ، ولم يثمر المسعى أول الأمر ، فلبث قلقا ، وشكا إلى صديق آخر ما لقيه من صديقه الأول من إرجاء وتسويف ؛ ولما أراد الله أن يتولى صديقه الأول وزارة المالية ، عينه فى وظيفة فى دار الصك . فقبل نيوتن الوظيفة ، وقُلد بعد قليل رياسة الدار ، وصار مرتبه مائتين وألفاً من الجنيهات فى العام . وقنع نيوتن بذلك ، واطمأنت نفسه . ولكنه شُغل بأعمال الوظيفة عن العلم والنظر فيه .

أما ابن الهيثم فتولى الوظيفة وهو كاره لها . وكيف يستسيغ الوظيفة وأعمال الدواوين ويؤثرها على لذة البحث والانقطاع للعلم ؟ وفى الوقت نفسه كيف الفرار «والحاكم» واقف له بالمرصاد ؟ فكر ابن الهيثم مرة أخرى وقدر ، فلم يجد حيلة يتخلص بها غير أن يتظاهر بالجنون . فأشاع ذلك عن نفسه حتى بلغ الحاكم ، فعزله وصادر أمواله وأمر بحبسه فى منزله وجعل عليه من يخدمه . ولبث ابن الهيثم على هذه الحال التعسة إلى أن توفى الحاكم وتأكد من وفاته . فعاد إلى الظهور والاشتغال بالعلم ، واستوطن داراً بالقرب من الجامع الأزهر ، وأقام بالقاهرة إلى أن توفى « فى حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل » بحسب رواية القفطى .

ولم يكن ابن الهيثم فى سعة من العيش ، وكما روى القفطى عن « يوسف الفاسى الاسرائيلى الحكيم » ورواه أيضاً ابن أبى أصيبعة عن « علم الدين قيصر المهندس » وكان من معاصرى ابن الهيثم ، كان مورد رزق ابن الهيثم كتابين أو ثلاثة كتب رياضية ، منها كتاب الأصول لأوقليدس وكتاب المجسطى لبطليموس ، كان ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصى البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم ، لا مساومة فيه ولا معاودة ، وكان ثمنها يكفيه مؤونة العام .

٢ — الناحية العلمية عند ابن الهيثم :

من المتواتر الشائع أن الطريقة العلمية الحديثة لم تنشأ فى تاريخ تطور الفكر الإنسانى إلا بعد عصر النهضة فى أوربا ، وينسب أكبر قسط من الفضل فى إنشائها إلى « فرنسيس باكون » ، أحد فلاسفة الانجليز وكتابهم المشهورين فى القرن التاسع عشر . فهو يعد أول من بين أن الطريقة المثلى فى البحث ، الاعتماد على الحقائق والأمور الواقعة ومشاهدتها والمضى فى جمع المشاهدات وتبويبها وترتيبها ، حتى تمكن بالاستقراء الوصول إلى المعلومات الصحيحة . والاستقراء من الدعائم الأساسية التى يقوم عليها العلم الحديث . ولكن طريقة « باكون » فى قصر البحث على المشاهدة أو التجربة ، والاكتفاء بجمع المشاهدات أو نتائج التجارب ، طريقة ضيقة محدودة ، لا نغلى كثيراً إذا قلنا إنها تجعل من العالم البحاثة آلة ترقب وتدون وتبوب ، وإنها تهوى بالعلم من سموه إلى الوصف المجرد من الخلق أو الإبداع .

وسرعان ما تبين أن طريقة باكون لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة فى البحوث العلمية . فطريقة البحث العلمى تبتدئ بمشاهدة الأمور الطبيعية على ما هى عليه فى الواقع ، وجمع الحقائق المشاهدة وترتيبها وتبويبها ، لا لمجرد الجمع أو الترتيب أو التبويب ، بل للبحث بتمحيص تلك الحقائق عن علاقة ترتبط بها ، قد نسميها قانوناً طبيعياً ، أو قد نسميها نظرية علمية . ولا ينتهى الأمر بالكشف عن هذه العلاقة ، وإنما تستنبط بالقياس النتائج التى تفضى إليها . ثم يبحث عن صحة نتائج القياس ، هل هى مطابقة للواقع المشاهد ، أو المستدل عليه بالتجربة ؟ فإن تحققت على هذه الصفة كان ذلك دليلا على صحة تلك العلاقة ، التى هى القانون المكشوف عنه ، أو النظرية المقول بها ، وإن وجدت نتائج القياس غير متفقة والواقع محصت تلك العلاقة ، علها تقبل التعديل أو التنقيح بما يجعل نتائجها القياسية متفقة والواقع . وإن تبين قصورها نبذت وطرحت جانباً ، وجرى البحث من علاقة أخرى تكون أصلح وأنسب . وفى الكشف عن هذه العلاقة وتصورها وصوغها فى الصيغة اللائقة ، تتجلى ناحية من النشاط الفكرى لا يعنينا إن سميت عبقرية أو ذكاء أو إلهاماً . ورائد الباحث فى كل ذلك إقرار الحقائق كما يجدها دون أن يكون لنزعة من النزعات ، أو هوى من الأهواء ، أثر يلونهـا بلون خاص ، أو يكيفها على صورة خاصة . وأحياناً يستعان فى الكشوف العلمية بالتمثيل أى «الأنالوجى» ويعنى به — كما كان يعنى به فى المنطق العربى القديم — نقل الحكم من ظاهرة إلى أخرى تشبهها فى أمر من الأمور . فيهتدى به على منوال المعلوم إلى معرفة المجهول .

هذه الطريقة فى البحث التى تعد من مبتكرات العصر الحديث هى الطريقة التى لا أتردد فى القول بأن ابن الهيثم أدرك أنها الطريقة المثلى . فهو قد أدرك ضرورة الأخذ بالاستقراء ، والأخذ بالقياس ، والأخذ فى بعض البحوث بالتمثيل ، وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على مثل المنوال المتبع فى البحوث العلمية الحديثة . وعندى أن ابن الهيثم لم يسبق « فرنسيس باكون » إلى إدراك خطر عنصر الاستقراء فحسب ، بل سما عليه ، لأنه أدرك العناصر الأخرى التى لم يدركها « باكون » من بعده . وأيضاً ابن الهيثم لم يطل فى الكتابة عن الطريقة المثلى فى البحث دون أن يقوم ببحث يصح أن يتخذ مثالا يهتدى به ، كما فعل « باكون » ، بل اكتفى بأن يلم بعناصرها فى قول موجز ، وانطلق يسلك سبيلها فى بحوثه ودراساته عملاً وفعلاً .

فابن الهيثم فى مقدمة كتابه « المناظر » ، يعرض حالة كثيراً ما تعرض أمثالهـا فى تاريخ العلم ، حيث توجد نظريتان متناقضتان ينقسم العلماء إزاءهما فريقين ، لكل فريق مقاييس واستدلالات وطرق ، تجعله يتمسك بنظريته . فقد كان الفلاسفة وأصحاب التعاليم فى عصره منقسمين فى كيفية الإبصار فريقين : أصحاب التعاليم يقولون بأن الإبصار هو بخروج شعاع من البصر إلى المبصَر . والفلاسفة يذهبون إلى أن الإبصار هو بورود صورة المبصر أو شبحه من المبصَر إلى البصر ، دون أن يبينوا ماهية ذلك الشبح الوارد ، أو كيفية وروده .

يحلل ابن الهيثم هذا الوضع فى مقدمة الكتاب ويقول بلفظه :

« وكل مذهبين مختلفين فإما أن يكون أحدهما صادقاً والآخر كاذباً ، وإما أن يكونا جميعاً كاذبين والحق غيرهما جميعاً ، وإما أن يكونا جميعاً يؤديان إلى معنى واحد هو الحقيقة ، ويكون كل واحد من الفريقين الباحثين القائلين بذينك المذهبين قد قصر فى البحث فلم يقدر على الوصول إلى الغاية ، فوقف دون الغاية ، أو وصل أحدهما إلى الغاية وقصر الآخر عنها ، فعرض الخلاف فى ظاهر المذهبين وتكون غايتهما عند استقصاء البحث واحدة . وقد

يعرض الخلاف أيضاً في المعنى المبحوث عنه من جهة اختلاف طرق الباحث . وإذا حقق البحث وأمعن النظر ظهر الاتفاق وانسفر الخلاف » .

ثم هو يبين بعد ذلك الطريق الذي يسلك للفصل بين النظريتين المتباينتين بحكم قاطع ، ويمهد بأن الأمر يستدعي في مثل هذه الحالة استئناف النظر في المبادئ والمقدمات ، ويقول بلفظه :

« ولما كان ذلك كذلك ، وكانت حقيقة هذا المعنى مع اطراد الخلاف بين أهل النظر المتحققين بالبحث عنه على طول الدهر ملتبسة ، وكيفية الابصار غير متيقنة ، رأينا أن نصرف الاهتمام إلى هذا المعنى بغاية الإمكان ، ونخلص العناية به ونتأمله ، ونوقع الجد في البحث عن حقيقته ، ونستأنف النظر في مباديه ومقدماته » .

ويتلو ذلك قوله :

« ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس . ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفظ من الغلط في النتائج . ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء » .

في هذا القول الموجز رسم ابن الهيثم خطة البحث ، وجمع فيها بين الاستقراء والقياس ، وقدم فيها الاستقراء ، ووضع الشرط الأساسي الذي يجب أن يتوافر في البحث العلمي ، « استعمال العدل لا اتباع الهوى ، وطلب الحق لا الميل مع الآراء » .

ولكن ما هي الغاية التي يوصل إليها السلوك في هذا السبيل ؟ هل هذه الطريقة التي رسمها ابن الهيثم تؤدي إلى معرفة الحقيقة ؟ وهل طبيعة العقل الانساني من شأنها أن تؤدي إلى معرفة الحقيقة ؟

مثل هذه الأسئلة قد شغلت العقول من أقدم عصور الفلسفة إلى وقتنا الحاضر ، وهي من الأسئلة التي تختلف الاجابة عنها بحسب اختلاف المناحي الفلسفية ، وهي من الأسئلة التي للعلم الحديث أو بالأحرى لفلسفة العلم الحديث ، رأي فيها .

فالحقائق العلمية ليست غايات ينتهي إليها العلم ويقف عندها التصور . وليست ثابتة دائمة لا يعتريها التبديل والتغيير ، إنما هي نقيض من هذا ؛ بينا نرى النظرية العلمية صحيحة مقبولة معتمداً عليها في وقت من الأوقات لأنها توافق معلومات ذلك الوقت ، إذا بنا نجدها قد عدلت وحورت ، أو قد نبذت وطرحت جانباً واستبدلت بها غيرها ، مما يكون أكثر ملاءمة للمعلومات في وقت آخر . وتاريخ العلم غني بالأمثلة على هذا .

إذاً ما قيمة الآراء ، والنظريات العلمية ، وما قيمة تلك الأمور التي نسميها حقائق علمية ؟ لا نخطئ إذا قلنا إن قيمتها أنها أحكام موجزة ، ترتبط بها الظواهر المعروفة ، نستطيع أن نستنبط منها تفصيلات تلك الظواهر وما يترتب عليها ، وتغنينا عن مجلدات لا تنفد ، قيمتها أنها وسائل لا غايات ، إذا استعنا فيها بالقياس أدت إلى نتائج يزداد بها العلم ويتسع أفقه . قيمتها أنها معلومات يستطيع الانسان بالاهتداء بها أن يكيّف ظروفه وأحواله بما يلائم مآرب حياته الخاصة والعامة والقومية . قيمتها أن في الانقطاع للبحث عنها ، والنظر فيها ، لذة معنوية ، أو متعة نفسية ، وجدها كثير من رواد العلم جديرة بأن يضحى في سبيلها بالثروة والصحة بل والحياة نفسها .

(يتبع)

مصطفى نظيف

التربيـــة الخلقية

وسبلها والأسس النفسية التى تقوم عليها

للدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك

إن الذى يستعرض حالتنا الاجتماعية والخلقية كما تبدو فى معاملاتنا ، لا يسعه إلا أن يعترف بأنها حال لا تسر وتحتاج إلى تغيير جوهرى . فقلَّ من ينطق بالصدق بسجيته ، ويلتزم الحق بطبيعته ، ويصارحك القول ، وإذا وعدك أنجز ، وإذا اؤتمن صان الأمانة ، وإذا ولى عملا أداه على الوجه الأكمل ، مراعياً المصلحة العامة لا مصلحته الخاصة . وللانسان أن يتساءل عن سبب هذا النقص الخلقى ، وعما إذا كان نتيجة لتطور طبيعى ، أو لعوامل سوء سُلطت علينا . ولعل من الخير أن نستعرض هنا التطورات التى طرأت على التعليم عندنا ، والعوامل التى أثرت فى الحالة الاجتماعية ، لكى نعثر على ما يهدينا إلى الخطة التى تؤدى بنا إلى تحسين حالنا من هذه الناحية .

* * *

كان التعليم الغالب فى مصر إلى الجزء الأخير من القرن الماضى تعليما دينيا للصغار فى الكتاتيب ، وللكبار فى الأزهر وغيره من المساجد ، يدور كله حول القرآن الكريم وما يتصل به ، مضافاً إليه قليل من الحساب فى المدارس الأولية وملحقاتها . وكان هذا التعليم ينتج طبقة محدودة الأفق من جهة الثقافة العامة ، ولكنها مهذبة ومتحلية بالأخلاق والآداب الإسلامية ؛ ترى الواحد منهم يعامل الناس بصدق وأمانة ، ويحفظ الكلمة التى يرتبط بها ، ويوفى الكيل والميزان ، ويؤدى للناس حقوقهم ، ويعيش عيشة نقية متواضعة فى حدود دخله ، مدَّخراً منه ما ينفعه وقت الشدة . وكان حرصه على الوضوء والصلاة يجعله دائما نظيفاً طاهراً كما أن صيانته لنفسه بالعفة كانت تحميه من الأمراض الخبيثة . كذلك كان هذا المواطن سعيداً فى بيته ، لأنه السيد المطاع فيه ، فالمرأة قد رتبت حياتها على أن البيت مستقرها ، ورضا الزوج غايتها ، وتربية الأولاد وظيفتها .

ثم حدث تطور جوهرى فى التعليم بمصر ، دفعها إلى الأخذ من العلوم الحديثة بنصيب كبير ، فسافر عدد من أبنائها إلى أوربا فى بعوث علمية ، وكان هؤلاء فى مبدإ الأمر يعودون لمصر وهم لا يزالون محتفظين بالروح الأزهرية ، فكانوا يجمعون بين الدنيتين ، لا سيما وأن القائمين على الأمر فى تلك الآونة كانوا يحاسبونهم على ذلك ؛ فلما انتقلت مقاليد الأمور إلى الانجليز ومن على شاكلتهم ، ضعفت بالتدريج تلك الروح الدينية ، واحتلت العلوم الدنيوية الحديثة المكانة الأولى من اهتمامنا .

ثم زاد عدد المتعلمين ، ودخل عنصر التنافس بينهم ، وعقدت لهم الحكومة امتحانات منظمة اهتمت بها اهتماما صرف المدارس إلى تحسين نتائجها ، وبذلك قضى على البقية الباقية من العناية بالتربية الخلقية فى المدارس ، فأصبحت معامل لحشو الأذهان بالمعلومات فحسب . ومما ساعد على إهمال الناحية الروحية انغماس الطلبة فى السياسة والإضرابات ، مما بث فيهم روح الزهو والخيلاء ،

وجر ذلك كله إلى شيء من الاستهتار والإباحية لم يصب الشبان وحدهم ، بل تعداهم إلى الفتيات ، لأنهن خرجن أيضاً للمساهمة فى الحركة الوطنية .

* * *

فالباحث يرى إذن أن الظروف هى التى دفعت البلاد دفعاً إلى ما وصلت إليه من حالة اجتماعية يأسف لها الجميع ويرجون لها علاجاً سريعاً حاسماً ، لا سيما وأن الاستقلال الذى نالته مصر قد بعث فيها روحاً جديدة ، وأيقظ فيها شعور العزة والطموح إلى ذروة المجد . وقد أحس كل مفكر بأن تدعيم هذا الاستقلال يتطلب أن يتحلى الجيل الجديد من الشبان والشابات بصفات رفيعة وأخلاق نبيلة ، ومُثُل عليا تدفعهم إلى خوض غمار الحياة بقوة وحماسة . ومن الطبيعى أن نعتمد فى تحقيق هذه الغاية على المعلم قبل كل شىء ، ولهذا يجب أن نرسم له خطة واضحة وأن نتأكد من إدراك معلم الغد لمهمته هذه حتى يجعلها نصب عينيه ويُعِدّ نفسه لها . وهذا يقتضى منه درساً لشخصه ليسلح نفسه بالصفات الضرورية للنجاح ، وهى على ما نرى ثلاث :

أولها الرغبة الصادقة فى القيام بهذه الوظيفة . فتربية النشء ليست بالعمل الهين ؛ بل تستنفد من المدرس مجهوداً شاقاً لا يحتمله ويصبر عليه إلا من كان مدفوعاً برغبة صادقة ، وإقبال طبيعى ، واهتمام قلبى . وثانيها العطف الكبير على التلاميذ والصبر على مسايرتهم ومعالجتهم بالهدوء والحسنى ، حتى يكسب ثقتهم ويأنسوا له ويفضوا إليه بما فى نفوسهم ومتاعبهم وصعوباتهم . وبغير ذلك لا أمل للمدرس فى أن يؤثر فى التلميذ من ناحية التربية الخلقية . والثالثة ممارسة الصفات التى يريد أن يزرعها فى نفس التلميذ ، فمن العبث أن يحاول إنسان تعويد الطفل على الصدق وهو كاذب ، أو على العدل وهو ظالم ، أو على الرأفة وهو قاس .

تلك الصفات الثلاث هى مفتاح نجاح المربى ، فإذا استوثق من وجودها فيه فعليه بعد ذلك أن يتسلح بفهم عقلية التلميذ والقوانين النفسية التى تتحكم فى هذه العقلية ، وهذا ما نحب أن نقول فيه كلمة .

* * *

نعلم أن الغرائز هى أساس السلوك ، فغريزة الهرب ويصحبها الخوف تدفعنا إلى الابتعاد عن كل موقف نحس بأن فيه تهديداً لحياتنا بأقل خطر . وغريزة البحث عن الطعام ويصحبها الجوع ، تدفعنا إلى الجرى وراء ما يسد الرمق وإن بشىء من المخاطرة . وغريزة حب الاجتماع ، ويسبقها شعور بالوحدة ثم رغبة فى الائتناس ، تدفعنا إلى البحث عن رفاق نجتمع بهم ، وإلى إقامة أماكن للاجتماع وتبادل الرأى . فإذا تكررت الانفعالات حول شىء معين أو شخص بالذات ، أو أحد المثل العليا ، تكون من هذه الانفعالات مجتمعة ما يسمى بعاطفة خاصة نحو هذا الشىء أو الشخص أو المثل الأعلى .

من أجل ذلك كانت الخطوة الأولى فى التربية عبارة عن تهيئة الوسط ، وإيجاد السبل لتوجيه الغرائز وانفعالاتها حول ما يتصل بالصفات المراد إيجادها فى الطفل ، حتى تتكون حولها عواطف تشتد وتزداد عمقاً كلما جرت انفعالات جديدة ؛ وهذه العواطف بعد تكوينها تحل محل الغرائز ، أو تعمل معها جنباً إلى جنب ، كدوافع لسلوكنا .

وعملية تكوين العواطف نحو الأشياء والأشخاص سهلة وتأتى بصورة طبيعية ؛ فكل منا يشعر بعاطفة نحو المدارس التى تعلم فيها فى صغره ، والأماكن التى كان يرتادها فى صباه ، والشخص الذى كان على الدوام يقص عليه القصص فى طفولته ، ويمنحه بالهدايا فى صغره الخ . ومن السهل أن تنتقل الانفعالات الشديدة والعواطف العميقة من الشىء الأصلى الذى سبب السرور والانفعال

التلميذ إلى شيء متصل به ، كما نحس بعاطفة نحو كرسي كان يجلس عليه الوالد الرحيم ، أو نافذة كان يطل منها حبيب . لكن تكوين العواطف نحو المعنويات ليس بالأمر الهين لصعوبة إدراك تلك المعنويات ، فمثلاً إذا أردنا تكوين عاطفة نحو فضيلة من الفضائل كالصدق أو العدل ، فيجب أولا أن نهيئ الجو أو الوسط الذي يحيط بالطفل لتوضيح معنى هذه الفضيلة والتشبع بفكرتها ولمس فوائدها بالتجربة الشخصية ، وذوق المرارة الناجمة من الصفة المضادة لها كالكذب أو الظلم ، فمتى لمس الشخص نتائج الصدق أو العدل ، واستثمر فوائدها صحب ذلك انفعالات سارة ترتبط بهذه الفضيلة ، كما أن الإحساس بمرارة الظلم ، والتأثر بالعواقب السيئة للكذب ، يؤدي إلى انفعالات قوامها الألم والضيق ، ترتبط بالرذيلة الخاصة التي نحن بصددها (الظلم والكذب) فتكون عاطفة ضدها ؛ وبتكرار الانفعالات السارة المتصلة بفضيلة ما ، تزداد العواطف المتكونة حولها قوة وشدة ، وتصبح هذه العاطفة قوة هائلة ، تدفع الشخص نحو تلك الفضيلة ، كما تصبح العاطفة ضد نقائضها موانع تحمي الانسان منها .

كذلك إذا أراد المعلم زرع فضيلة الشفقة أو النظافة أو الشجاعة اجتهد في أن يلصق انفعالات سارة بالأعمال التي هي نتيجة لتلك الفضائل ؛ وانفعالات مؤلمة بالأعمال التي هي نتيجة لنقائضها ، فمثلاً يمدح التلميذ الذي يظهر رأفة بحيوان ضعيف ، ويلام من يقسو على مثله ، وتعرض كراسات التلميذ النظيف لتكون محل إعجاب إخوانه والمدرسين والزوار ، ويعاد التلميذ القذر إلى منزله لتغيير ملابسه ، وتختار القصص أو تؤلف بحيث ينال كل من يقوم فيها بالأعمال التي تتطلب الشجاعة جزاءً طيباً ، وينزل بالجبان شر البلاء . وبذلك كله يعمل المعلم على أن يثير انفعالات سارة حول الولد الشفيق والطفل النظيف والبطل الشجاع ، وبذلك تتكون عواطف حولهم تنتقل منهم إلى الشفقة والنظافة والشجاعة بوجه عام .

وخير الطرق لإعطاء التلميذ فرصة لمزاولة الانفعالات التي تؤدي إلى خلق العواطف هو إطلاق نشاطه في مختلف النواحي الدراسية والاجتماعية والرياضية . فالدراسة إذا كانت عن طريق النشاط كما هو الشأن في المدارس الحديثة ، والحياة الاجتماعية التي تملأ جو تلك المدارس ، والمباريات الرياضية الكثيرة ؛ كلها ميدان فسيح تظهر فيه على الدوام فرص عديدة لظهور الانفعالات المختلفة التي تتصل بالفضائل والرذائل والتي تعطي المدرس فرصة ذهبية لقرن الانفعالات السارة بالفضائل ، والانفعالات المؤلمة بالرذائل ، لا سيما في خلال احتكاك التلميذ بإخوانه وأساتذته .

والمهم في كل تلك العمليات ضرورة تعرض الشخص للتجارب العملية التي تجعله يلمس بشخصه كل تلك الآثار الطيبة أو السيئة . على أن هذه التجارب الشخصية قد تكون خيالية إلى حد ما ، ويحدث ذلك بواسطة القصص التاريخية القوية ، وسير البطولة الخلقية ، وتاريخ عظماء الرجال . كل هذا إذا كتب بعناية ودقة وطريقة جذابة ووضع تحت نظر التلميذ ليقرأه ساعد على توضيح الفكرة عن مختلف الفضائل ؛ لأن لهذه القصص والسير والتواريخ قوة تثير الانفعال الشديد في نفس المتعلم وتجعله يحس بها كما يحس بالأشياء المادية فتكون عنده عواطف قوية حولها ، وتثبتها في نفسه كمثل عليا .

* * *

وهناك بعض الخصائص النفسية التي تلعب دوراً هاماً في تكوين تلك العواطف وفي تثبيت الفضائل في نفس التلميذ وهي : أولاً قابلية الاستهواء التي تجعل الأفكار والآراء تتسرب من شخص لآخر ، وعلى الأخص من شخص رفيع إلى من هو دونه ؛ أو بعبارة أخرى من الآباء

والأساتذة والتلاميذ الممتازين إلى التلاميذ العاديين . وقد يحدث الاستهواء دون أن يشعر به هذا التلميذ العـادى . وهناك ثانياً ما يسمى فى علم النفس بالمشاركة الوجدانية التى تنقل الميول والنزعات والعواطف والانفعالات من شخص لآخر ولو من غير أن يشعر أيضاً ؛ ويضاف لهاتين الخاصتين النفسيتين خاصة ثالثة لا تقل عنهمـا أهمية وهى خاصة حب التقليد .

وهناك عامل نفسانى آخر على أعظم جانب من الأهمية يؤثر فى الطفل من الداخل ، وهو عاطفة اعتبار الذات . فالطفل بعد أن يحس بنفسه ككائن حى مستقل ممتلئ نشاطاً وطاقة ، وبعد أن يكتسب من اتصالاته الاجتماعية بالناس قوة التفكير والانتقاد (فى نفسه ولهـا على الأقل) ويدرك أن غيره من الناس يصدر الأحكام على أعماله وتصرفاته مدحاً وذمّاً ؛ كل ذلك يُعوّده بالتدريج أن ينظر إلى نفسه من ناحيتين الأولى : ككائن مفكر ، والثانية : ككائن يفكر فيه الغير . ونتيجة هذه النظرة المزدوجة عند الطفل وسلوك الآخرين إزائه أن تنشأ عنده عاطفة اعتبار الذات هذه ، فيكوّن فكرة محدودة عن نفسه بأن لها خلقاً معيناً ، وأن لها صفات وقدرات معينة ، وتصبح هذه الفكرة بالنسبة له معياراً للسلوك على الأقل إن لم تكن مثلاً أعلى ، بحيث يربأ بنفسه عن أى سلوك يسىء إلى الصورة التى رسمها ، ومن ثم تأتى النجدة للقائمين على تربية الناشئ فتراهم يقولون له : « هذا لا يليق بك » أو « أنت تدنى نفسك بهذا الفعل » ؛ كذلك نجد التلميذ يقول لنفسه إذا سولت له عمل السوء : « هذا دون مستواى ولا يصح أن أنحدر إليه » وهذا القول يقوى إرادته ضـد ارتكاب العمل محافظة على كرامته .

وعاطفة اعتبار الذات هذه من أقوى العوامل التى تعين الصبى فى التغلب على العواطف ، فالمشاهد عادة أنه إذا تنازعت العواطف المعنوية والمادية ، فإن الأخيرة تقهر الأولى إلا إذا هبت الإرادة لنصرة العواطف المعنوية ، لذلك يحرص المربون على تقوية عاطفة اعتبار الذات إلى أكبر حد . وكل مدرس يأتى فى معاملاته للطفل بما يضعف هذه العاطفة يهدم أكبر عامل فى تكوين أخلاقه .

وهذه الصورة التى يرسمها التلميذ لنفسه يصل إليها من طريقين ، فهى ترجع من جهة إلى مواهبه الموروثة ، ومن جهة أخرى إلى الطريقة التى يعامله بها الغير ، ومن هنا تظهر أهميـة عمل المربى الذى يجب أن يُشعر الصبى دائماً بأنه أمين وصادق ومجدّ الخ ، وإذا صدر عنه خطأ أشعره بأنه بطبيعته طيب ، وإن كان عرضة لبعض الهفوات التى يستطيع بشىء من الجهد والإرادة أن يعالجها فى نفسه ، وبهذه الوسيلة يجعل المدرس فرصة لهذا الصبى أن يصبح طيباً بالفعل أكبر من فرصة الصبى الذى ينعته مربيه بأنه « مشاكس » . ومن ثم يجب أن نتحاشى فى المدرسة وصم تلميذ بأنه بليد وآخر بأنه قذر وثالث بأنه كذاب الخ حتى لا ينخفض المستوى الذى يضع التلميذ نفسه فيه .

وهذه العوامل النفسية الأربعة التى أتينا عليها فى غاية الأهمية ، فالثلاثة الأولى تعيننا على طبع التلميذ بطابع المثل الصالح فى شخص الوالد أو المدرس أو الزميل البارز ، ومن هنا تظهر أهمية صفات المدرس . فنعلم من خصائص المراهقة أن الصبى يتخذ لنفسه فى هذا الدور من الأشخاص المتصلين به بطلاً أو أبطالاً يحتذيهم على الدوام ؛ ويغلب أن يكون هذا البطل من بين المدرسين الممتازين القائمين على تربيته . وسندع النظر فى بعض الصفات التى يغلب أن ينقلها التلميذ عن مدرسه بالاستهواء أو المشاركة الوجدانية أو التقليد إلى مقال آخر نفصل فيه كذلك الصورة التى يجب أن تأخذها الحلة الخلقية عندنا لتكون مثمرة ودائمة الأثر .

أحمد عبد السلام الكردانى

قصة مصرية :

معـــــدة وآراء !

للاستاذ صلاح الدين ذهني

كان له صفتان تتناقضان عند كل إنسان إلا عنده : الكرم والبخل ، الكرم إلى حد الاسراف ، والبخل إلى حد التقتير !

يشترى كل يوم خمس ورقات من ورق اليانصيب ، لأنه — كما يزعم — مؤمن بأن الجميات الخيرية أجدر الهيئات بالمساعدة والبر ، فهي تؤوى الأيتام ، وتعالج المرضى ، وتطعم المساكين ، وإذا لم يوالها الناس بالعطف والتشجيع ، تعرضت للافلاس والفشل ، وتعرض معها آلاف من تؤويهم وتطعمهم للتشرد والموت ، جوعا أو مرضا .

وبقدر هذا الايمان كان زهده في الربح ، فهو لا يفتأ يقسم أغلظ الأيمان — كلما هم بتمزيق الأوراق التى اشتراها ولم تربح — بأنه لو قدر له الربح يوما ، ما امتدت يده إلى مليم واحد مما يربحه ، بل سيكون سبيل هذا الربح أن يعود إلى الفقراء ، لأنه — كما يصر — لا يقبل أن يأخذ من مال المحتاجين .

كان هذا من مظاهر كرمه ، أو كل مظاهر هذا الكرم ، التى يعرفها عنه زملاؤه ويعروهم منها شىء يشبه الشك كلما حدث فى صباح كل يوم .

وكان يتسلل فى خفة كلما اشتد به الظمأ إلى « الحنفية » المعدة للغسيل ، فينهل منها حتى يتصبب العرق من جبينه ، ولا يفكر مرة أن يطلب من الفراش كوبا من الماء المثلوج ، لأنه لا يعامل الفراش فيشرب من القهوة أو الشاى ما يبيح له عنه أن يطلب ماء مثلوجا . فاذا خطر لأحد زملائه أن يسأله لم لا يعد الفراش من هؤلاء الفقراء الذين يئن كل قلبه حنانا عليهم ، أجاب فى استنكار :

— أأحسن إلى غشاش ، وأسيء إلى معدتى فى وقت واحد ؟ أتظنون أنكم تشربون قهوة ؟ يا للعبط ! إنه فول سودانى محمص . . .

وإذا طال لسان خبيث آخر ، فسأل فى تظاهر بحسن النية :

— ولم لا تشرب ليمونا أو « كازوزة » أو حتى ماء مثلوجا فقط ؟

عندئذ يعتدل هو فى مقعده ، ويصلح من رباط رقبته التداعى ، ويقول فى لهجة الخبير :

— يا مساكين ! هل أتلف صحتكم غير السموم المهلكة : الكازوزة المصنوعة من حامض الكبريتيك ، والليمون المشبع بالحموضة ، والماء المثلوج ، وهو أكبر متعب للمعدة وجالب للصداع . . .

وتمر لحظة سكون يكتم الجميع فيها ضحكات ساخرة تتربص الفرصة لتنطلق ، حتى يفجهم صوته مستفسرا عن مدى إيمانهم بصحة ما يقول ، وعندئذ تمتد شفاههم وتهتز رؤوسهم وقد جمع منظرهم بين التأمين على ما يقول ، والأسف والحسرة على ما مضى من العمر ، وضاع من السنين ، قبل أن يوقعهم الحظ الحسن فى يد أستاذ ماهر مثله ، ولا يفتأون يرددون الاعجاب بآرائه السديدة

ومعلوماته فى الطب ، متجنبين أن نذكر كلمة الاقتصاد على لسان واحد منهم ، لأنهم لا ينسون أبداً ما تثيره هذه الكلمة فى نفسه من ميل شديد للمحاضرة عن نفسه ، وكشف نواحى الإسراف فى حياته ، والحديث عن كراهيته واحتقاره للمادة والماديين ؛ حتى لقد ألقى مرة نقاشا هائلا حول مضار الاقتصاد لأن أحد زملائه أراد أن يصفه بأنه رجل مقتصد و « موزون » ، نقاشاً لم ينته إلا بملخص موجز لصورته هو رسمته « هو » .

— أنا مقتصد ؟ أنا ؟ ماهيتى كلها عشرة جنيهات ، أسكن بثلاثة والباقى كله على الأكل والشرب ؟ أنا مقتصد ، ومقدار ماينفق على الفاكهة فى يومى جنيهان ، ولحم وخضار وعيش وورق يانصيب بالباقى ، واحد بهذا الشكل يقال عنه إنه مقتصد ؟ . . .

كان ذلك أبلغ درس ألقاه عن كراهيته لأن ينعت بالاقتصاد ، فقد انتهى ذلك اليوم المشهود وهو لا يزال يدفع عن نفسه تهمة الاقتصاد فى حرارة وشدة ، مصراً على أنه أكبر مبذر عرفه التاريخ .

ظل كذلك فى حصانة من محاضراته من كل اتهام بالبخل أو تهكم بالاقتصاد ، حتى أقبل يوم تعيس ، لم ير فى حياته أتعس منه . . .

أقبل عليه قريبان من بلدته يزورانه حتى لا يفوتهما حين يعودان إلى البلدة أن يتحدثا بفخر عن زيارتهما « للوزارة » ، وشربهما القهوة عند قريبهما صاحب المكانة فيها .

أقبل الضيفان على الحجرة فما رآهما حتى هب من كرسيه محيياً فى شوق وفرح ، ومضى يعدو فى الردهة باحثاً عن مقاعد ، حتى استطاع آخر الأمر أن يجلب مقعدين من إحدى الغرف ، قدمهما للزائرين الكريمين ، وانطلق يسألهما عن أحياء البلدة حياً حياً ، وعن أهلها واحداً واحداً ، متشاغلا بالحديث ، وبإظهار غبطته وسروره للقائهما وزيارتهما ، عن القيام بواجب الضيافة التافه وهو تقديم فنجانين من القهوة .

إلى هنا وكل شىء يسير فى مجراه الطبيعى ، فهو مشغول بالحديث عن البلدة وأهلها وأحيائها طوراً ، وعن عمله الحكومى ومتاعبه ومسئولياته الخطيرة طوراً آخر ، على حين قد انهمك الزائران فى الإنصات لحديثه الخطير الشائق تتنازعهما كل عوامل الزهو والفخر ، لتمتعهما بحديث رجل خطير الشأن هو فى الوقت ذاته قريب عزيز .

لا يدرى أحد أية ريح شريرة حملت الفراش فى تلك اللحظة إلى ولوج الغرفة حاملا بضعة أكواب من الماء ؟ ولا يدرى أحد أيضاً ماذا أصاب أقدامه فتثاقلت أمام مكتب صاحبنا ، وكلاهما لا يعامل الآخر ؟

أدار الزائران رأسيهما فى حركة طبيعية ، ونظرا إلى الفراش تلك النظرة المعتادة ، التى ينظرها الضيف دائماً فى انتظار الحوار التقليدى بينه وبين المضيف عما يطلب من شراب ، ذلك الحوار الذى يبدأ بالعرض وينتهى بالقبول ويتخلله التمنع .

ولكن هذا الحوار لم يدر بالمرة ، فهو لم يعرض ، وأصحابنا لم يتمنعوا ، كل ما حدث أن رأسه هو قد دار ، دار يميناً وشمالاً يبحث عن مخرج ، نظر إلى سقف الحجرة عله يجد نقوشاً يتلهى بتأملها فلم يجد ، فرجع بصره إلى أثاثها يتفقده قطعة قطعة ، وإلى مكاتب زملائه كأنه لم يرها قبل الآن ؛ وآخر الأمر لجأ إلى درج ففتحه وانهمك فى تقليب أوراقه كأنما يبحث فى خلالها عن مخرج من هذه المحنة . وحين رفع رأسه ثانياً متوقعاً زوال العاصفة كان الفراش قافلا فى طريقه إلى الباب يحمل أكوابا قد خلت من الماء المثلوج ، عدو المعدة اللدود .

كأنها مؤامرة مدبرة أن تتثاقل أقدام الرجل المرة

الثانية ، وأن يحتك رداؤه ببعض الأوراق الثائرة على مكتبه ، فتقع الأوراق ، فيضع هذا الرجل الخبيث أكوابه وينحنى لالتقاط الأوراق ويعيدها إلى موضعها على المكتب فى بطء شديد ، بينما أنظار الزائرين ترقب كل حركة من حركاته ، وتتعجل حوار الضيف والمضيف .

المرة الثانية أيضاً لم يبدء الحوار ، وإنما دار رأس صاحبنا وأسرع فى دورانه هذه المرة ، وكأنما هبطت رحمة الله عليه فجأة ، فقد أبرقت أسارير وجهه ، وانتفخت أوداجه ، ومال على كرسيه فى كبرياء ، وأرسل صوته فى قوة واتزان :

— هات ثلاثة تمر هندى يا حسن !

كان يعلم أن الإجابة على هـذا السؤال هى اعتذار الفراش ، فقد سمع منـذ ساعة اعتذاره لأحد زملائه وقد طلب نفس الشراب بأنه قد نفد ، لذلك لم يخالجه الشك فى أنه انتصر ، وأن المسألة بعد ذلك لا تعدو محاضرة للزائرين فى فضائل هذا الشراب وفى الاعتذار من نفاده ، ثم يعود الحديث ثانياً إلى البلدة وأخبارها والعمل وخطورته .

انفرجت شفتا الفراش فعلا عن كلمة الاعتذار المنتظرة ، ولـكن سوء الحظ اللازم أبى إلا أن يضيع صوته فى ثنايا صوت مزدوج فيه كل صراحة الريف ووضوحه ، انبعث من فم الزائر فقطع على صاحبنا حبل الآمال ، وأطـار من رأسه محاضرته واعتذاره :

— لا ، هات قهوة أحسن ، لا داعى للتمرهندى . ولـكن — أولاً — أسعفنا بالماء .

* * *

قبع صاحبنا فى كرسيه ، وقد انهد كيانه كأنما مالت على أكتافه صخرة ، وعقد لسانه فلم يحـاول أن يشرح لضيفيه وجع المعدة الذى يحدث من شراب القهوة المصنوعة من الفول السودانى المحمص ، أو شرب الماء المثلوج . أفماه

من معد الناس أن معدته هو كانت إذ ذاك كأنها مستودع هائل من الآلام والأوجاع ، كأنما قد صب فيه — دفعة واحدة — قنطار كامل من الفول المحمص ونهر من الماء المثلوج ، وكان رأسه يدور المرة الثالثة فى شدة وعنف ، يضرب نصف القرش فى اثنين ، ويحول القرش الـكامل إلى مليمات ، ويتصاعد بالمليمات إلى مضاعفات اللئيم ، وكلما تم رأسه واختل دورانه ارتطم بالحقيقة المرة ، فنجانان من القهوة لا فنجان واحد .

كانت هذه الحادثة ذات أثر كبير فى حياته ، ولا يدرى أحد هل معدته هى التى استحالت إلى أتون ، أم أن آراءه ومعتقداته فى الطب هى التى مرضت لأشد المحن تخرجت منها وقد تحطمت ، بل انقلبت رأساً على عقب ؟ .

لا يدرى أحد ما حدث بالضبط ، وإنما تعترى الدهشة زملاءه كلما رأوه من حين إلى حين ، يصيح فى الفراش طالباً كوبا من المـاء المثلوج ، ولا ينقضى اليوم قبل أن يشرب أكثر من خمسة أكواب ، كأنه يتزود لسفر ! .

صلاح الدين ذهنى

تنظيم الاحسان فى مصر

يذهب بعض المفكرين الاجتماعيين إلى أن أصح مقياس يقاس به رقى أمّة من الأمم ، ويُعرف به حظها من المدنية ، ومرتبتها فى سلم التطور الإنسانى ، هو مبلغ العناية التى تحيط بها ضعافها ، والرعاية التى تتولى بها ذوى العجز والعوز من أبنائها .

ويشبه هذا ما يراه البعض من أن أصدق حكم على ما بلغه الفرد من التهذب هو حظه من الغيرية ، أى مقدار تفكيره فى غيره ، وتقديره لظروف غيره ، وعمله لخدمة غيره .

ولا جدال فى أن إغاثة الملهوف ، وتفريج كرب المكروب ، ومواساة البائس ، ومعاونة الضعيف ، ومد يد المعونة للفقير ، وتهوين ويلات الحياة على الزَّمْنَى والشيوخ ، من الفضائل الإنسانية التى يتمدح بها الأفراد والجماعات ، ويعلو بها قدرهم الإنسانى .

على أن هذه الفضائل ليست أمراً كماليًّا يجمل الأخذ به ولا يُلام على تركه ، بل هى فرضٌ متعيِّنٌ على كل أمّة ، وعلى كل قادر من أبنائها ؛ وإن لم يُؤدَّ هذا الواجب استهدفت الأمّة وأبناؤها جميعاً لمتاعب اجتماعية شديدة ، تُعرِّض سلامتهم وطمأنينتهم للخطر ، وقد تُؤدِّى بهم جميعاً إلى الضعف والانحلال .

هى واجب وطنى ، فكل مواطن يتمتع بحق البنوة لوطنه ؛ والأبوّة الصادقة يستوى لديها القوى والضعيف من بنيها ، بل الضعيف أحق بالتعهد والرعاية ، حتى يبرأ من ضعفه ويُؤدِّى واجب البنوة كاملا كغيره .

وهى واجب وطنى لأنه ليس فى المادة الإنسانية التى يتألف منها كيان الوطن كمٌّ يهمل ولا نفاية تنبذ ، فالوطن بحاجة إلى استغلالها جميعاً لأقصى حدود الاستغلال .

وهى واجب وطنى ، لأن العضو المعتل يخشى منه على سلامة الجسم كله ، وليس فى شريعة الإنسانية أن يبتر حتى تستنفد كل الوسائل لعلاجه .

وهى واجب على كل فرد بحكم الأُخوة الوطنية التى تربط الجميع وتنظمهم فى بناء واحد يشد بعضه بعضا ، وتؤلف منهم جسما واحدا إذا مرض منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وهى من حق الفرد على نفسه ، لأن القوة والغنى من الأعراض الزائلة ، وكل إنسان لا يدرى — مهما حسب وقدَّر — ما عسى أن تتمخض عنه الأيام من الأحداث ، فما يؤديه لغيره من ضريبة هو دين مؤجل يسدَّد له عند الحاجة ، وما يقدمه من خير يجده فى غده خيراً .

وهى واجب على القادرين من الأفراد حماية لأنفسهم ، وكفاً لما قد يلحقهم من أذى من المحرومين الذين ينفسون عليهم ما هم فيه ، والذين قد يضطرهم سوء حالهم إلى انتهاب حقهم منهم بالحيلة أو القسر .

***

والأديان جميعا — وفى مقدمتها الإسلام الذى ندين به — دعت إلى البر بالفقراء ونصرة الضعفاء ؛ بل لقد جعل الإسلام الزكاة ركناً من أركانه ، وجعل فى أموال الأغنياء حقا معلوما للسائل والمحروم ، لا يتم إسلام المرء حتى يؤديه كاملا .

والمروءة والشهامة والكرم ، وهى من السجايا التى توارثها المصريون ، جعلت أفضل المعروف إغاثة الملهوف .

فما لنا — وهذا حالنا — نشهد بيننا مآسي تفتت الأكباد ، وتذيب الصخر ، وتمر بها كأنها منظر مألوف ومشهد طبيعي لا يحرك من عواطفنا ولا يهز من مشاعرنا ؟ !

ما لنا نرى المدائن تغص بالحفاة والعراة وذوى العاهات ، ممن شحبت ألوانهم ، وذبلت أجسامهم ، وأضناهم البؤس والعوز ، يلتقطون فضلات الطعام مما تعافه الحيوانات ، ويتراحمون على الهين اليسير مما يلقيه إليهم عابر السبيل من الصدقات ؟ !

ما لنا نرى حول القصور والعمائر أكواخا بائسة زرية ، قد حشد فيها الكثير من إخواننا في الوطنية ، من العجائز والأرامل والمطلقات ، والعاطلين من العمال ، والعاجزين من آبائهم ، وقد دفنوا أحياء في تلك القبور ، وقد ضاقت بهم سبل الرزق ، فجعلوا يدبرون فيها الوسائل لإتقان فنون التسول والسرقة والاحتيال وغيرها من ضروب الإجرام ؟ !

هل قست القلوب وخلت من الرحمة ؟ هل طغت المادية علينا فأنستنا فضائلنا وردتنا أفراداً أنانيين غلاظ الأكباد ، لا يفكرون إلا في أنفسهم ، ولا يجعلون لغيرهم موضعاً من اهتمامهم أو تفكيرهم ؟ !

هل ضعف الدافع الديني الذي حبب لأجدادنا أن يخرجوا عن كثير من مالهم للخيرات ، ويقفوا كثيراً من ممتلكاتهم على وجوه البر ؟

هل انقضى جيل المحسنين الذين وجدوا أكبر ما يتقربون به لله التبرع للفقراء ، والأخذ بيد الضعفاء ؟

إن نفسي تأبى على أن أصدق النتيجة التي تسوقني إليها تلك المقدمات . وأكبر ظني أن النفوس لا تزال عامرة بالخير ، وأن فضائلنا الموروثة لا تزال كامنة في قرارة نفوسنا ، وإن تكن بعض العوامل أخفتها وحجبتها .

قد يكون ما انكشف من كذب بعض محترفي التسول ، وتفننهم في الاحتيال لاستدرار الشفقة بالتمويه والتصنع ، من الأسباب التي حبست المحسنين عن الإحسان ، وشككتهم في أن ما يتصدقون به يصل لمن يستحقه ، فقبضوا أيديهم عن الجميع ، ثم صار القبض فيهم عادة .

وقد يكون من الأسباب ضعف الدعوة التي تنبه الغافل وتذكر المقصر وتوقظ في النفوس روح الخير .

قد يكون شيء من هذا أو ذاك ، سبب ما نراه من نقص البذل للفقراء . وأياً كانت الأسباب فالأمر أصبح بحاجة إلى خطوة حاسمة ، تسد ما ينقصنا في هذا الباب .

إن البلاد ملأى بالفقراء والعجزة والمرضى وذوى العاهات وضعاف البنية ؛ وهم من الكثرة بحيث لا ينهض بأعبائهم وتخفيف آلامهم سوى جهد قوى منظم ، تساهم فيه الحكومة والأفراد ، ويتعاونون جميعاً على إزالة وصمة العار التي تلحق بنا شعباً وأفراداً من بقائهم بهذا الإهمال .

إن المرء ليندى خجلا حين يشهد سائحاً أجنبياً يزور بلادنا ، ويحاط في كل مرحلة من زيارته بجيوش من العمى والعجزة والعراة يلاحقونه سائلين مستجدين .

لقد أصبحت بلادنا العزيزة الكريمة في نظر كثير من الأجانب مباءة المتسولين ، فهل ضاق كرمها بهؤلاء البائسين وهي تتسع لمئات الآلاف من أفاق الأجانب ، يحتلبون خيراتها ، وينعمون بالعيش الرغد فيها ؟ !

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فالفقر الذي دفع بفريق كبير من أبناء الوطن إلى احتراف التسول ، والذي أهدر عزتهم وكرامتهم الانسانية ، قد دفع بغيرهم إلى الشر والجريمة ، ودفع بفريق كبير إلى الرذيلة وما يتصل بها من المهن الخسيسة . ولا يدرى إلا الله إلى أين تنتهي بنا الحال إذا بقينا في هذا الجمود والاهمال !

ليس ما نحتاجه تشريعاً مانعاً ، ولا عقاباً رادعاً ، ولكننا بحاجة إلى تدبير علاجي رحيم ، ينتشل هذه الضحايا

ويتقدم مما انحدروا إليه ، فما السبيل إلى هذا ؟

ليست هذه المهمة بالتى ينهض بها الأفراد متفرقين ، فجهد الفرد مهما عظم محدود لا يكفى لعلاج حالة من حالات البؤس علاجاً حاسماً ؛ ولكن هذه الجهود القليلة المبعثرة إذا تجمعت وتضامت ووجهت لغرض واحد كانت واضحة الأثر فيه .

فلتواجه هذه المهمة جماعات لا أفراداً ، ولتختص كل جماعة بمهمة واحدة تتوافر على درسها وتقصى أسبابها وتوخى أنجع السبل فى علاجها .

لتكن لكل حالة متفشية من حالات البؤس الشائعة بيننا هيئة تقوم على شئونها ، فيجد كل من الأعمى والأكمه والمقعد والمسن والشريد واللقيط واليتيم والأرملة والطلقة والعاجز والعاطل والضال ، جمعية ترعاه وتتولى شئونه وتعالج مشكلته .

وليكن كل منا عضواً فى جماعة أو أكثر من هذه الجماعات ، يساهم فيها بما يستطيع من مال وعمل .

ليرتب كل منا فى ميزانية صرفه قدراً معيناً للاشتراك فى الجميات الخيرية ، ولا تقعد به قلة دخله عن المساهمة ولو بنصيب ضئيل فى هذا الباب ، فهذا القليل الضئيل يتجمع منه الكثير .

وليؤد كل منا زكاة ماله وزكاة الفطر لهذه الجماعات ، فما يردها من هذا الباب وحده كاف لحل مشاكل كثيرة ، والنهوض بأعمال جليلة فى تخفيف كروب البائسين .

وليتطوع كل منا بنصيب من العمل فى هذه الخدمة الاجتماعية التى تفرضها عليه عضويته لتلك الجماعة ، فيدرس بعض الحالات ، أو يقوم ببعض أعمال الانقاذ ، أو يشترك بجهد فى مراقبة بعض المؤسسات ، أو ما إلى ذلك .

هذا نصيب الأفراد وواجبهم ، أما الجماعات نفسها فيجب أن تواجه مهمتها بعدة قوية وخطة محكمة ، وتدبير محسوب مقدر . يجب أن يكون لها عيون تجوس خلال الديار ، وتتعرف بنفسها الحالات المحتاجة لرعايتها ، ولا تكتفى فى ذلك بجهد سلبى ، فكم يقعد كثيراً من الناس عن الاتصال بتلك الجماعات حياء أو جهل أو كسل ، ثم تتولى تلك الحالات هيئة فنية تفحصها وتدرس عواملها المختلفة ، وتضع لكل حالة خاصة علاجا شافياً ، لا تدبيراً مسكناً يزول أثره بعد حين .

وطبيعة هذه الجماعات الانسانية تقتضى تناول أمورها بالرفق والشفقة ، وألا يتبع احسانها بمن أو أذى ، وأن تنظر لما تقدمه للمنكوب على أنه حقه على الوطن ، لا على أنه فضل وتصدق .

وإذا نظرنا لجماعاتنا الخيرية القائمة وجدناها — فيما عدا جمعية الاسعاف — متعددة الأغراض ، تشتغل كل منها بتعليم الفقراء ، ورعاية اليتامى ، وعلاج المرضى ، ومساعدة المحتاجين ، وكل مايدخل فى باب الخير ، وتمكنها الظروف من القيام به .

وهذا الاتجاه الواسع المبهم فى أغراض الجمعيات الخيرية كان له ما يبرره منذ خمسين عاماً ، قبل أن تتعقد الحياة وتزداد مشاكلها الاجتماعية ، وتتنوع ضروب البؤس ، وتتسع اتساعاً يجعل كلاً منها خليقا بعناية خاصة توجه له

وهى — أى الجمعيات — تتركز كلها أو جلها فى القاهرة أو الاسكندرية ، ولا يمتد خيرها لباقى الأقاليم إلا فى حدود ضيقة .

والواجب أن يضم هذه الجماعات اتحاد يحدد لكل منها اختصاصاً تنفرد به ، ومنطقة نشاط تعمل فيها ، وأن تنشىء كل منها لها فروعاً فى الأقاليم تقوم فيها تحت اشرافها بمثل عملها ، على مثال جمعيات الاسعاف المختلفة .

والواجب أن تعيد النظر فى أساليبها القديمة ، وتنتفع بما هدت إليه الدراسات الاجتماعية الحديثة ، والمباحث التى قام بها غيرنا من الأمم فى هذا الميدان

وإذا كانت هذه الجماعات تصلح نواة لتنظيم الاحسان

في بلادنا بعد أن تعدل وتوسع وتنظم على الوجوه التي أشرنا إليها ، فإن من الواجب تكميلها بإنشاء جمعيات جديدة للأغراض التي لا ترعاها تلك الجماعات .

على أن كل جهد في التنظيم من جانب الفرد والجماعات يكون ضعيف الأثر إذا لم تقم الحكومة في الإشراف على هذه الشئون ، ومراقبة سيرها ، وتوجيهها للطريق المثمر النافع بأوفر نصيب .

في كل الأمم الراقية مصالح حكومية تشرف على الشئون الاجتماعية ، وتتولاها بالبحث والدراسة وجمع الإحصاآت والبيانات ، وحصر الحالات والمشاكل وتعرف أسبابها ، وتراقب الهيئات العامة المشتغلة بتلك المسائل وتصرفاتها ، وتؤيدها وترعاها ، وتمدها بما يسد النقص في ميزانيتها ؛ فلم لا يكون لنا مثل تلك الهيئات ؟ لم لا يوضع تحت تصرف تلك الهيئة أموال الأوقاف الخيرية ، وضريبة المراهنات ، وأرباح أوراق النصيب ، وما يدخل بيت المال من تركات من لا ورثة لهم ، وغيرها من أبواب الإيراد الشبيهة بها ، وتكون نواة لمعاونة الجماعات الخيرية كلا بحسب حاجتها ؟

ولم لا يعهد لهذه الهيئة في إدارة الملاجئ ومطاعم الشعب وغيرها من المؤسسات الخيرية تتولاها بعناية رحيمة وإشراف علمي دقيق ، حتى تجعل منها وسائل حقيقية للإصلاح الاجتماعي ؟ . ولم لا يكون لهذه الهيئة رقابة يقظة دقيقة ، تمنع تلاعب الأفراد والجماعات بالأموال العامة التي وضعت تحت أيديهم للأعمال الخيرية ، وتكفل إنفاقها في وجوهها الصحيحة ؟

أظن أن الأوان قد آن لهذه الخطوة الإصلاحية الضرورية . ويسرني أن أقرأ بعد كتابة هذا في إحدى الصحف أن وزارة الداخلية جادة في تكوين هيئة للشؤون الاجتماعية تعنى بتلك الأمور .

محمد عبد الواحد خلاف

رقيب

للأستاذ فخري أبو السعود

....

أنا لي رقيب يقظ لا يغفل
يحصي وينقد ما أقول وأفعل
هو بالنكير عليّ فخريَ مولعٌ
وبطول إيلام الفؤاد موكّل
هيهات يرضيه مقالٌ قلته
أو مطلب حاولته أو مأمل
يحصي الذنوب عليّ غير مُعَزِّيَ
ويُتابِعُ الأخطاء لا يتمهل
إن أكْبُ في غرضٍ صليتُ بعذله
دهراً ولا عُذْرٌ لديه يُقبل
وإذا أصبتُ النُّجحَ فيه فإنّه
يَثنِيْ عِطفاً بالثناء ويبخل
مستصغراً لفضائلي ومهوّلا
لمثالبي متجنّياً لا ينكل
ويظلّ يعذلني لأمرٍ رُمْتُه
وإذا هممتُ بضدّ ذلك يَعْذِلُ
وقد يُحيل عليّ أخطاء الورى
أشقى بها وجناتها لا تحفل
وإذا رآني هانئاً بهنيهةٍ
مِنْ قَبْلِ يطويها الزمانُ المُعْجِل
وافى يذكّرني بمؤلم حادث
قد كاد يعفوه الزمان ويدمل

فأغاض بالذكرى بشاشة ساعتى
وهَنَاءَهُ أنّى فاطَ لا أجْذَل
أقصى مناه أن يرانى عاثراً
بشقاوتى أخشى الصروف وأوجَل
قد ذقت من هذا الرقيب وبأسه
مضضاً يطيش له الفؤاد ويَذْهَل
وسئمت صحبته بظلٍّ مُلازمى
فى حيث أدْبِرُ فى الحياة وأُقْبِل
وهجرتُه لو كان يمكن هجرُهُ
وقتلتُه لو حان منه مقتل
لكنه بين الجوانح كامن
لا مرحلٌ عنه ولا متحوَّل
نفس على نفسى رقيب يَقِظ
تُحصى علىَّ تنفسى لا يغفل
أفضى إلى عيبى وأدرى بالّتى
يُعصى الشناشة ذكرُها المتمثِّل
من كل قالٍ سادر بملامتى
أو كاشح لم يدر ما يتقوَّل

فخرى أبو السعود

الأنفاس العاطرة

للاديب على منصور

أمِنَ «الزجاجة» عِطرُه ... أم من يديه ومبسمه
أنفاس هذا السحر أد ... ريها ولكن فى فمه
رقت نشمشمة كأن ... الورد ينكب من دمه
وسرت كأن أريجها ... وحى يفيض بمغرمه
أو أن أزهار الهوى ... فتكت أحاجى معجمه
أو أن ريح الخلد تم ... نت فى الدجى بترنمه
أو أن روح المسك نكـ ... ـنف سره لمتيمه
أو أن أزهار الربيـ ... ـع وقد وشمن بميسمه
غنت ترحب فى الربا ... ض مع الطيور بمقدمه
وتردد الألحان فى ... ذكرى هواه وموسمه

* * *

دارت بأفكارى فذا ... ت مع الفؤاد بمعظمه
وكأنها خمر الحيا ... ة تجردت من مأثمه

على منصور
بكلية الحقوق

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى:
٩٠ مليماً فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ٦ مليمات

أنباء وآراء

رد على استدراك

حضرة الأستاذ الفضال رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء .

نشرتم في العدد التاسع والعشرين نبذة عن كتاب لحضرة الأديب (حسن عمر أبو شمة) بأم درمان ، يستدرك فيه بعض الاستدراك على قصة المهلهل .

قال حضرة الأديب : « أسندتم أسر المهلهل الزعيم التغلبي إلى الحرث بن عباد ، ولكن في كتاب الأغاني أن الذي أسر المهلهل عمرو بن مالك » .

ويخيل إليّ أن حضرة الأديب لم يكن قد قرأ بعدُ القصة إلى نهايتها ، وكان أولى به لو فعل . ولو كان فعل لرأى أن المهلهل قد أسر في أثناء القصة مرتين : المرة الأولى أسره فيها الحرث بن عباد . وقد نشر وصف ذلك في العدد السادس والعشرين ، وقد تخلص المهلهل من الأسر في هذه المرة بحيلته المعروفة التي وصفت في ذلك العدد . وهذا الوصف مستمد من روايات متفقة كل الاتفاق في كتب الأدب والتاريخ ليس بينها اختلاف ما .

وأما المرة الثانية التي أسر فيها المهلهل فقد جاء وصفها في العدد السابع والعشرين من مجلة «الثقافة» ، وقد استمد وصف ذلك الأسر من رواية تجعل آسره عوف بن مالك ، من قبيلة قيس بن ثعلبة ، وهو بطل معروف مشهور .

وتوجد رواية أخرى أن الرجل الذي أسر المهلهل هو عمرو بن مالك أخو عوف بن مالك المذكور . وقد ذكرت هذه الرواية في الأغاني عرضاً في سياق ترجمة شاعر من الشعراء ، لا في موضع وصف حروب المهلهل . على أن الاختلاف بين الروايتين يسير كما هو ظاهر ، وقد اخترت إحدى الروايتين لرجحانها عندي ، فقد كان عوف بن مالك نداً للمهلهل ، وكفأً له في الحروب ، في حين كان أخوه عمرو أقل منه خطراً ، ولم يكن للمهلهل قريناً .

محمد فريد أبو حديد

لغز لم يحل

من الألغاز التي خلفتها العصور الوسطى ولم يحلها العلم بعدُ ، اختفاء مدنية بأسرها قامت منذ قرون عدة في الأرض الخضراء ، على أكتاف فريق من المستعمرين الأوربيين الذين رحلوا إلى هذه البلاد حوالى عام ٩٨٦ ميلادية .

ذلك أن هؤلاء المستعمرين كانوا قد قاموا بتشييد المباني والمعابد الدينية ، ونظموا حكومتهم تنظيماً لا يختلف عن نظام الحكومات الأوربية في ذلك الحين ، ثم اختفوا واختفت حضارتهم ، حتى أصبحت هذه البلاد لا تحوي غير سكانها الأصليين من الإسكيمو .

أما كيف اختفى هؤلاء المستعمرون ، وكيف زالت حضارتهم ، فذلك هو اللغز الذي حاول العلم والاستكشاف حله أكثر من مرة ، فكان كل ما توصل إليه أن اكتشف أنقاضاً لمباني هؤلاء المستعمرين ، وأكثر من ألف ومائتي قطعة من أدوات الزراعة والمنزل والصناعة المختلفة مطمورة بين هذه الخرائب والأنقاض .

وبين التفسيرات التي يفترضها العلماء تعليل اختفاء أي أثر لوجود هذا الشعب ، أن أفراده قد اندمجوا في السكان

الأصليين — الاسكيمو — بالتزاوج حتى أصبح نسلهم ، بفعل الوراثة والجو والطعام ، لا يتميزون من الاسكيمو نفسهم ، وضاع كل أثر يميزهم عنهم .

على أن أحدث التفسيرات هي تلك التي يوردها الأستاذ فيلهلمجالمور ستيفانسون في كتابه من ألغاز التاريخ التي لم تحل بعد ، فهو يفترض أن هؤلاء المستعمرين إما أن يكونوا قد تعرضوا لمجاعة أو وباء شديد الفتك قضى عليهم ولم يبق من نجا على البقاء ، بل غادروا هذه البلاد ، وإما أن يكونوا قد انحطوا من الوجهة الجسمانية بتأثير الجو ، حتى وصلوا إلى نسل لا يفترق من الاسكيمو في شيء .

وسواء أصحت هذه التفسيرات أم كانت مجرد تخمين ، فإنه لا شك فيه أن اختفاء شعب كامل لغز قد يجد الباحثون فيه موضوعاً لكثير من النشاط الذي لا بد أن يؤدي إلى حله .

مؤلف روبنصن كروزو

في الكتاب الذي وضعه أخيراً ريتشارد والر روان من تاريخ الشرطة السرية حديث طريف عن مؤلف قصة روبنصن كروزو المعروفة . فهو يقول إن مؤلف هذه القصة ، دانييل ديفو أحد رجال الشحنة السرية الذين عرفوا في عهد النضال العنيف بين الهويج والتورى في انجلترا ، والذين خدموا كلا من هذين الحزبين خدمات جليلة ؛ وقد كان معروفاً عنه القوى للكتابة كوسيلة لقطع الوقت والتسلية ، فكان يحرر ما لا يقل عن ثلاث صحف أو أربع ، بينها اليومية والأسبوعية والشهرية ، عدا الكتب العديدة التي كان يصدرها . وقد كان ينشر كثيراً من هذه الكتب بأسماء مجهولة أو بدون أسماء ، ويكتفي بأن يكتب لها مقدمة يوقعها باسمه ، ويقدم هذه الكتب للقراء ناصحاً لهم بقراءتها ومقرظاً لها .

ولم تكن الشخصية الوحيدة الخيالية في حياته هي شخصية روبنصن كروزو التي خلقها ، ذلك أنه هو شخصياً كان مزيجاً غريباً من جملة شخصيات ، فهو يقوم بعمله في الخدمة السرية وينشر كتبه ، ويقرظها ، وينقدها ، ويرد على الانتقادات التي يكتبها بنفسه ، ويكتب شتى المقالات بأسماء مستعارة مقتبساً فيها بعض عبارات من الكتب التي ينشرها تحت توقيع مجهول ، وكان إذا احتاج الأمر أمطر الصحف بوابل من رسائل التشجيع يكتبها جميعاً في الثناء على مؤلف الكتب التي ألفها هو ؛ وهكذا كان يقوم بكل ما يحتاج العمل الأدبي من جهد : تأليف ونشر وإعلان ، وتقريظ ونقد في الوقت نفسه .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٣٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٣ — الثلاثاء ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

على ذكر الحرب الكبرى :

بين الأمس واليـــوم

كيف يعيد التاريخ نفسه

لمحرر « الثقافة » السياسى

فى فاتحة أغسطس الحالى ، تقع الذكرى الخامسة والعشرون لنشوب الحرب الكبرى ؛ ومثل هذه الذكرى تثير فى أيامنا هذه مشاعر وتعليقات من نوع خاص ، وتصور فى كل من المعسكرين الأوربيين المتنازعين بصور متباينة ؛ فترى فيها ألمانيا ذكرى الحرب العدوانية التى أثارتها الدول الغربية على ألمانيا القوية الفتية لتحطيم قواها ، وتخريب صناعتها ، واستلاب ثرواتها ومستعمراتها ؛ وترى فيها الدول الغربية ذكرى المحاولة العمد التى دبرتها

ألمانيا لتفوز بسيادة أوربا، وسيادة البحار والمستعمرات، والتي تحمل ألمانيا أكبر تبعة فيما ترتب عليها من كوارث وفظائع وأهوال مروعة لم يشهدها التاريخ .

وقد أسندت تبعة الحرب الكبرى في معاهدة الصلح (معاهدة فرساى) إلى ألمانيا، وبذا قضى عليها بأن تحتمل أعظم الفروض والمغارم التي احتملتها أمة في التاريخ؛ ولكن ألمانيا أنكرت هذه التبعة، وما زالت تنكرها؛ وهي اليوم تواجه خصومها بالأمس، وقد تحررت من معظم فروض فرساى، ومحت معظم أغلالها وآثارها. على أن التاريخ لا يستطيع الوقوف عند حكم الغالب أو إنكار المغلوب، ويجب عليه أن يستند في إصدار قراراته وأحكامه على أسس وأسانيد أخرى غير دعاوى الفريقين المتخاصمين؛ ونحن لا نقصد أن نثير في هذا الفصل هذه المسألة التي حفيت في معالجتها أقلام المؤرخين والساسة منذ عشرين عاما؛ ولكنا نريد فقط أن نستعرض بهذه المناسبة بعض أوجه الشبه بين الأحوال والظروف التي انفجر فيها بركان الحرب الكبرى، وبين الأحوال والظروف التي تجوزها أوربا اليوم، والتي يخشى أيضاً أن تكون مبعث انفجار جديد، يغمر العالم بكوارثه وويلاته .

***

لقد انفجر بركان الحرب الكبرى على أثر عدة حوادث ووقائع توالت بسرعة البرق في صيف سنة ١٩١٤: مقتل الأرشيدوق فرانز فرديناند ولى عهد النمسا وعقيلته في سيراجيفو بقنابل الارهابيين السربيين، والانذار النمسوى لسربيا، ثم التعبئة النمسوية، وهجوم النمسا على السرب، وتأييد ألمانيا للنمسا، فالتعبئة الروسية، فالألمانية، ثم إنذار ألمانيا لبلجيكا ...الخ. تلك هي الحوادث والتطورات الظاهرة التي سبقت نشوب الحرب الكبرى؛ بيد أن الحرب الكبرى ترجع في الواقع إلى عوامل وأسباب أقدم وأبعد مدى؛ وليس من المبالغة أن نقول إن أوربا كانت في العامين أو الثلاثة التي سبقت الحرب الكبرى تجوز ظروفاً تشبه من وجوه كثيرة نفس الظروف التي تجوزها اليوم، سواء من الناحية السياسية، أو الاقتصادية، أو المعنوية .

ومن الخطأ أن نعتقد أن الحالة التي تعانى أوربا اليوم آثارها المضنية، إنما هي عملية تاريخية مستقلة، ترتبت بالأخص على آثار معاهدة فرساى، ثم على قيام الفاشستية والنازية (المتطرفة)؛ فهي في الواقع تكاد تكون تكراراً لنفس العملية التاريخية التي سبقت الحرب الكبرى، وذلك مع فارق الظروف والأحوال؛ وهي تقوم على كثير من العوامل التي مهدت إلى الأزمة الأوربية التي ترتب عليها نشوب الحرب الكبرى .

كانت أسباب الحرب الكبرى تجتمع تباعاً منذ أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي في سلسلة من الأزمات السياسية، والخصومات والأحقاد القومية، والمنافسات التجارية والاستعمارية؛ وكان التطرف في النظريات القومية، وتوالى الاضطرابات الصناعية، وقيام الحواجز الجمركية، من ظواهر هذه الفترة؛ وكانت ألمانيا كما هي اليوم محور هذه الثورة القومية والسياسية والاقتصادية التي أزعجت يومئذ أوربا باتجاهاتها ومقاصدها؛ وإنه لمن الدهش حقا أن نجد في ظروف ألمانيا الامبراطورية وفي الحركة التي كانت تضطرم بها يومئذ نحو السيادة والغلبة والفتح، نفس العناصر والخواص التي تمتاز بها ثورة ألمانيا الهتلرية؛ فالنزعة العسكرية، والتفاخر بالقوة المادية، والتحدث عن «الدماء والحديد»، ثم عن تفوق الجنس والتنويه بأهمية «الرجل الأمثل» (السوبرمان) الذى تصوره الفيلسوف نيتشه، وجعل غايته المثلى إحراز القوة، وتبرير أية وسيلة في سبيل إحرازها، كانت من العناصر البارزة في وثبة ألمانيا الامبراطورية في

أوائل هذا القرن ؛ وما نشهده اليوم في وثبة ألمانيا الهتلرية من التعصب القومي والإغراق في نظرية الآرية والتفوق الجنسي ، وتمجيد القوة الغاشمة ، والتهديد باستخدامها لتحقيق المطامع القومية بصرف النظر عن أي اعتبار أو حق ، والتغني بمثل الفتح القديمة ، ليس إلا صورة جديدة مما كانت تجيش به ألمانيا الامبراطورية ؛ وما ينادي به اليوم زعماء النازية من حق ألمانيا في « الفضاء الحيوي » إن هو إلا صيحة ألمانيا الامبراطورية للحصول على مركزها « تحت الشمس » ، وهكذا مما نجده بارزاً من أوجه الشبه بين الحركتين .

أضف إلى ما تقدم أن ألمانيا الهتلرية تعاني من جراء حركتها الجديدة نفس المتاعب التي كانت تعانيها ألمانيا الامبراطورية ؛ فالاضطراب الاقتصادي والإغراق في النفقات العسكرية ، وفداحة الضرائب ، وانهيار التوازن المالي ، والحاجة الملحة إلى المواد الأولية ، كلها من وجوه الضعف التي تعانيها اليوم مثلما كانت تعانيها قبيل الحرب الكبرى .

وألمانيا الهتلرية تتجه في نزعتها الاستعمارية نحو شرق أوربا والجنوب الشرقي ، كما كانت ألمانيا الامبراطورية ؛ وهي تتطلع بنوع خاص إلى موارد الغلال والبترول الواقعة في هذا الاتجاه ، لتعتمد عليها ، متى نشبت الحرب ، وعرضت لضغط الحصار الاقتصادي .

وهكذا نجد أنفسنا فيما يتعلق بحركة ألمانيا الهتلرية أمام نفس المطامع والنزعات التي كانت تجيش بها ألمانيا الامبراطورية ، والتي كانت في مقدمة العوامل التي أدت إلى إضرام نار الحرب الكبرى .

ونجد من الناحية الأوربية العامة نفس العوامل تحدث أثرها ؛ فميزان القوى الأوربية الذي تحرص الدول الكبرى على عدم الإخلال به ، قد اضطربت أوضاعه من جراء استيلاء ألمانيا وإيطاليا على النمسا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا ، ومن جراء بسط ألمانيا لنفوذها على أوربا الوسطى بصورة تهدد بعض الدول المستقلة الأخرى مثل المجر ورومانيا ويوجوسلافيا ؛ وفي البحر الأبيض المتوسط نرى إيطاليا تحاول الإخلال بتوازنه القديم ، وتحاول تهديد مركز بريطانيا العظمى وفرنسا فيه ، سواء بتسليحاتها الخاصة أو بتحريض أسبانيا الوطنية بعد أن عاونتها على إحراز النصر ، على مناوأة انكلترا وفرنسا .

ومن جهة أخرى فإن الدبلوماسية السرية التي انساقت إليها الدول الأوربية قبل الحرب تعود اليوم فتلق حجاباً على اتجاهات بعض الدول ونياتها الحقيقية ؛ وألمانيا الهتلرية تغرق بالأخص في هذا النوع من الدبلوماسية ؛ وقد ظهر من الضربات الفجائية التي قامت بها ألمانيا وإيطاليا في أوربا في العامين الأخيرين ، أنهما تضمران معاً طائفة من المشاريع السياسية والعسكرية السرية التي يقصد بها إلى القضاء على توازن أوربا القديم ؛ ثم إنه يبدو من جهة أخرى أن اليابان قد تشترك معهما في تنفيذ هذه المشاريع السرية ، بالقيام بدورها في الضغط على الدول الديمقراطية في الشرق الأقصى .

* * *

هذا من ناحية التماثل في العوامل والظروف بين الفترة التي سبقت الحرب الكبرى ، وبين الفترة التي تعانيها أوربا اليوم وتتوجس شراً من آثارها .

والواقع أن أوربا قد شعرت في العهد الأخير غير مرة أنها تنحدر إلى شفا الهاوية ، وأنها توشك أن تكتوي بنيران الحرب مرة أخرى ، وما زال هذا الشعور يخامرها ويسيطر عليها .

ولكن توجد ثمة فوارق في الظروف والأحوال ، يجب أن يحسب حسابها في تقدير الموقف .

لقد دخلت ألمانيا الحرب الكبرى ، بعد أن استعدت لدخولها زهاء ربع قرن ، وأنشأت أسطولها العظيم ليقيها شر الحصار البحرى ، وكانت منذ خروجها ظافرة من الحرب السبعينية ، أقوى دول القارة ، وكانت تتمتع بموارد أفضل ، ولها امبراطورية استعمارية ؛ أما اليوم فإنها بالرغم مما بلغته من التفوق العسكرى في البر والهواء ، لا يمكن أن تعتبر في مثل قوتها ومنعتها قبيل الحرب الكبرى ؛ فقواها العسكرية الضخمة يشوبها نوع من الارتجال ؛ وقوتها البحرية لا يعتد بها ؛ ومع أنها استولت على معظم أراضى الامبراطورية النمسوية القديمة ، فإنها تعانى من نقص شديد في الموارد ، وليست لها اليوم مستعمرات .

ويلاحظ أن إيطاليا كانت ترتبط مع ألمانيا والنمسا برابطة التحالف حينما نشبت الحرب الكبرى ؛ والتاريخ اليوم يعيد نفسه ، فإيطاليا تقف اليوم إلى جانب ألمانيا ، لكن ماذا تنوى أن تفعل غداً ؟ هل تنوى أن تعيد لعبتها في الحرب الكبرى ، فتترك حليفتها لتنضم إلى جانب أعدائها ؟ هذا ما لا يمكن التكهن به ؛ وإيطاليا على أى حال أقوى اليوم بكثير مما كانت عليه في الحرب الكبرى ، غير أنها تعانى مثل حليفتها من نقص الموارد ؛ والدور الذى ينتظر أن تقوم به في البحر الأبيض وهو مناوأة انكلترا وفرنسا يعرضها لأعظم الأخطار .

وألمانيا تواجه اليوم نفس أعدائها بالأمس ؛ غير أنها تواجههم اليوم ، وهم على قدم الأهبة والاستعداد ، ولا سبيل إلى أخذهم على غرة كما حدث في الحرب الكبرى ؛ والاتفاق الودى أشد ما يكون اليوم توثقاً بين فرنسا وبريطانيا العظمى ؛ والسياسة البريطانية لا تعرف اليوم شيئاً من ذلك التردد الذى أبدته قبيل نشوب الحرب الكبرى ، وكان من عوامل تشجيع ألمانيا على إضرام نارها .

والخلاصة أننا نشهد نفس المقدمات التى سبقت مأساة سنة ١٩١٤ ، وقد نشهد المأساة نفسها بين آونة وأخرى .

فهل نستطيع أن نتطلع في هذا الليل إلى بارقة أمل ؟ وهل يمكن أن تمثل عبرة الحرب الكبرى أمام أوربا المضطرمة بكل روعتها ، فتعمل بكل ما وسعت على اتقاء كارثة جديدة ؟ وهل يقدر أولئك الذين يلعبون بالنار ، ويعبثون بطمأنينة الأمم ويلوحون بالحرب لأحلام عظمة وسيادة وامبراطوريات يهجسون بها ، روعة المنحدر الذى يزلقون إليه ، ويزلق إليه العالم كله فيجنحوا إلى شيء من الروية والاتزان ، ويعملوا مع العاملين لصون السلام والمدنية ؟ .

هذا ما نرجو ، لطف الله وهدى وعصم .

* * *

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى	٦٠ في مصر والسودان ٨٠ في الأقطار العربية ١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

٤ - جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى أيضا

للأستاذ أحمد أمين

كان العرب فى جاهليتهم ، منحطين فى عبادتهم ، فعبدوا الأحجار من دون الله ، وقال واصفهم « كنا نعبد الحجر فى الجاهلية ، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به » . وقال آخر : « كنا نعمد إلى الرمل فنجمعه ، ونحلب عليه فنعبده ؛ وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نرميه » .

وإذا رأوا حجراً عملت فيه الطبيعة عملها حتى جعلت منه شبيهاً بالإنسان ، كانوا له أكثر تقديساً وأحر عبادة ، فكانوا يعبدون حجراً « بجثة الرجل العظيم وهو من صخرة بيضاء ، لها رأس أسود ، وإذا تأملها الناظر رأى فيها صورة وجه الإنسان » . وكانت طيء تعبد « الفلس » « وكان أنفاً أحمر فى وسط جبلهم — الذى يقال له أجا — أسود كأنه تمثال إنسان ، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعقرون عنده » .

ودعاهم إلى ذلك أن لم تكن لهم مهارة فنية يستطيعون بها أن يتقنوا النحت وصناعة التماثيل ، فكانوا يتلمسون ما تخرجه الطبيعة من فن فيعبدونه ، كحجر أبيض جميل ، أو شبه تمثال ، أو شبه صنم ، فما كان عندهم من تماثيل متقنة فمجلوبة من الخارج — غالبا — فيذهب بعضهم إلى أن « يغوث » كان على صورة الأسد ، وأنه مجلوب من مصر ، وأن بين آلهة المصريين صنما على صورة الأسد اسمه « يغوت » الخ .

وكما عبدوا الأحجار عبدوا الحيوان ، قال ابن عبد البر : « إن العرب كانوا يأتون بالشاة البيضاء فيعبدونها ، فيجيء الذئب فيأخذها ، فيأخذون أخرى مكانها » . ولما وفدت طيء على رسول الله (ص) قال لهم : « إنى خير لكم من العزى ولاتها ، ومن الجمل الأسود الذى تعبدونه من دون الله » . ولما أغار عمرو بن حبيب على بنى بكر وجدهم يعبدون سقبا من دون الله ، فأراد إغاظتهم فنحره وأكله » . وكانت لهم أصنام على شكل حيوان جلبوها من الخارج ، على شكل أسد ونسر وفرس ويربوع .

فإذا ارتقوا من الحجر والحيوان عبدوا تمثال إنسان ، فعبدوا « أسافا ونائلة » « وهما — فيما ذكروا — صنمان ، زعموا أنهما رجل وامرأة من جرهم ، فجرا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين » . ولست أدرى ما حملهم على عبادتهما مع شنيع فعلهما ، وهما إن استحقا شيئا فالرجم لا العبادة .

وعبدوا اللات والعزى ، واختلفت الأقوال فيهما ، فمنهم من قال إنهما صنمان لرجلين صالحين كان أحدهما يلت السويق للحجيج .

فإذا ارتقوا خطوة أخرى عبدوا النجوم كالشمس والمشترى والشعرى ، ولكنهم نظروا إليها فى عبادتهم نظرة مادية جامدة .

* * *

سقنا هذا لنبين أن العرب فى جاهليتهم كانت نظرتهم الدينية نظرة وثنية مادية وضيعة .

والدين أثر كبير فى الأدب ، لأنه من ناحية مصدر كبير من مصادر الإلهام الأدبى ، ومن ناحية أخرى إذا كان الأديب ذا دين مادى وثنى جامد ، تأثر أدبه بعقليته ، فخرج مثله ماديا جامداً ، وإذا كان دينه ضيق الخيال لاصقاً بالحجارة والأرض ، كان خياله فى أدبه غالباً كذلك ،

لأن نفسية الإنسان وعقليته وحدة لا تتجزأ ، وإن اختلفت مناحيها ومظاهرها .

من أجل هذا نرى الأدب الجاهلى فى الكثير الأغلب مادياً ، لا معنوياً ولا روحياً .

فن مظاهر ذلك ناحية التشبيهات والاستعارات فى الأدب الجاهلى ، فهى أدل ما تكون على ضعف الخيال أو قوته ، فإذا استعرضناها وجدناها مادية لاصقة بالأرض فى الأعم الأغلب ، فالجاهلى يشبه الحيوان بحيوان مثله ، فيشبّه الناقة بالظليم ، أو بالثور الوحشى ، أو بالنعامة ، أو بالأتان ؛ ويشبّه امرؤ القيس الفرس بجلمود صخر حطّه السيل من عل ، والنجومَ بالمصابيح ، وبعر الآرام بحب الفلفل ، وفرع الشعر بقنو النخلة المتعثكل ؛ ويشبّهون السّنام بقنطرة الرومى أو بالقصر ، والسيد العظيم بفحل الإبل ، والنساء ببيض النعام ، والحرب وما يحلب منها من دماء بالناقة يحلب منها اللبن ، أو بالناقة تحمل ثم ترضع ثم تفطم ، ومثل هذا كثير ؛ وكل الشواهد تشهد بما نقول من ولوعهم بالتشبيه المادى الأرضى ؛ وقلّ أن تجد لهم تشبيهاً سماوياً أو معنوياً ، كما فعل غيرهم من تشبيه سرعة الفرس بالبرق ، أو تلألؤ السيف بلمعان الشهب ، أو جَرْى الفصيل إلى أمه بدبيب الخيال الخ . وهكذا كانت تشبيهاتهم مادية أرضية من جنس دينهم المادى الأرضى .

لقد كان اليونانيون وثنيين كالجاهليين ، ولكنهم رفعوا آلهتهم من الأرض إلى السماء ، ومنحوها الحركة والحياة ، وجعلوا للحب والجمال والشعر آلهة ، وجعلوا « افروديت » تُخلَق من أمواج البحر ، وأولدوها إله الحب ، وجعلوا له جناحين ذهبيين ، وجعلوه يحمل سهاماً حادة ، ومشاعل ملتهبة ، ونسجوا حول آلهتهم أساطير فى منتهى الخصب فى الخيال ، والبعد فى السماء ، والحركة فى الحياة ؛ وظلت هذه الخيالات والأساطير تسير سيرها وتعمل عملها فى الحياة اليونانية ، حتى حوّلها الأدب إلى قصص وتمثيل ، وحوّلها العقل إلى فلسفة .

* * *

ومظهر آخر من مظاهر المادية الأرضية فى الأدب الجاهلى ، وهو شعرهم فى المرأة ؛ نعم قد أكثروا من الغزل والنسيب ، وافتتحوا به قصائدهم فى كل غرض من أغراض الحياة ؛ ولكن أمعِن النظر فى أشعارهم ، وأطل التفكير فى غزلهم ، تجد أنهم لم ينظروا فى المرأة إلا إلى جسمها ؛ لقد أدركوا تمام الإدراك جمالها الحسى ، ولكنهم لم يدركوا جمالها الروحى ، أولعوا بقدها الممشوق ، وعيونها الدُّعج ، ووجهها الوردى ، وخصرها النحيل ، وردفها الثقيل ، وما شئت من أعضائها وأجزائها ، فأما روحها السماوى ، وجمالها الروحى ، وتمشى روح الشاعر لروحها ، والشعور بأنها مصدر وحيه وإلهامه ، فشىء لم يستطع إدراكه الشاعر الجاهلى .

لقد نظر الشعراء الجاهليون إلى المرأة كما ينظرون إلى لحم الجَزُور ، وكأس الخمر ، هى متعة جسمية لا غير ، واستفتح هذه الآراء امرؤ القيس بقوله :

كأنىَ لم أركب جواداً للذة
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزّق الروىّ ولم أقل
لخيلى كُرِّى كَرَّةً بعد إجفال

وقوله :

وبيضة خدر لا يُرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل

فسار الشعراء على أثره يتخذون المرأة ملهاهم ، ويقرنونها بالفرس والكأس ، حتى وصل الأمر بأبى تمام فى العصر العباسى إلى أن يقول :

كانت لنا ملعباً نلهو بزخرفه
وقد ينفّس عن جد الفتى اللعب

استقْـر الشعر الجاهلى ماشئت ، واستقر ماجرى على

أثره من بعد، تلمس دائماً شيئين واضحين في أدب المرأة: العناية بتشبيه أعضائها وأجزائها، فترائبها مصقولة كالسجنجل، وجيدها كجيد الرئم، وفرعها كقنو النخلة، وكشحها كالجديل، وساقها كأنبوب السقي، وهي تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل، ووجهها كأن الشمس ألقت رداءها عليه، وأسنانها كالأقحوان. الخ الخ. هذه هي المرأة في ذاتها، أما موقفه منها فالمتعة واللهو إن استطاع، واللذة بذكرى المتعة، أو الألم من حرمانها، ثم لا شيء وراء ذلك.

إني لأفهم أن يكون ذلك بعض الأدب، وبعض وجوه النظر إلى المرأة، أما أن يكون ذلك كل الأدب النسوي فشيء يدعو إلى الخجل! إن وراء هـذا النظر المادي الأرضي نظراً آخر روحانياً سماوياً، فيه المرأة ملك كريم، وفيه المرأة مصدر وحي وإلهام، وفيه المرأة قلب؛ وحول هذا كله ينشأ أدب من طراز آخر، فيه العواطف السامية، والمعاني الراقية، وهذا ما لم نجده في الشعر الجاهلي.

* * *

ثم لكل أمة أساطير تدور حول عقائدها وتقاليدها وأحداثها وتاريخها، وتختلف فيما بينها بقوة خيالها أو ضعفه، وإحكام نسجها أو هلهلته. وكان للعرب الجاهليين أساطير من هذا القبيل؛ والذي يمعن النظر في أساطيرهم يراها أيضاً تكاد تكون مادية أرضية لا تبعد في الخيال ولا تسبح في السماء، تدور حول المعمرين الذين عمروا مئات السنين، أو حول الجن وقد جسدوها في حية أو نعامة أو قنفذ أو أرنب أو حيوان خرافي كالغول، أو حول المسخ كالذي زعموا أن الضب والكلاب والأرانب كانت أمما فمسخت، وأن الصفا والمروة كانا رجلاً وامرأة فمسخا، أو حول النجوم كالذي زعموا أن الغميصاء وسهيلا كانا مجتمعين فانحدر سهيل فصار يمانيا وتبعته العبور فعبرت المجرة وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت » وأن الزهرة كانت امرأة حسناء فصعدت إلى السماء ومسخت كوكبا » إلى غير ذلك من الأساطير، وكلها تدل على ضرب من الخيال محدود.

والأساطير في الأمم مصدر كبير من مصادر الأدب القصصي، فلما ضعف الخيال القصصي الجاهلي تبعه بعدُ ضعفُ القصص العربي.

* * *

رأينا من كل هذا أن الأدب الجاهلي كان يساير الدين الجاهلي إلى حد بعيد، وأنه كان يقف في المستوى الذي وقفه الدين، وأن الدين كان مادياً أرضياً فكان الأدب مادياً أرضياً كذلك.

ومن الواضح جداً أن الشعر العربي اتخذ قبلته الشعر الجاهلي قبل أي شيء آخر؛ وأوضح الأدلة على ذلك ما هو مدوّن في كتب الأدب وخاصة في باب السرقات والموازنات؛ فتجد فيها أن المعاني الأساسية للشعر الجاهلي اتخذت أساساً سار على نهجها الشعراء الإسلاميون، فحوروا بعض معانيها مع احتفاظهم بالأساس، أو حافظوا على الجوهر وغيّروا الشكل؛ مدح الجاهليون بالشجاعة والكرم فكان أكثر المدح الإسلامي بالشجاعة والكرم، حتى الملوك والأمراء الذين يجب أول كل شيء أن يمدحوا بالعدل قلّ أن يمدحوا بالعدل، لأن الجاهلي مدح بالشجاعة والكرم. وقال امرؤ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

وقال:

كأنّ عيون الوحش حول خبائنا
وأرحُلنا الجزع الذي لم يثقّب

وقال:

وقد أغتدي والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فأصبحت هذه وأمثالها مصدراً للكثير من الشعر العربي، ورددوها وكرروا حتى صدّعوا، وكما قال ابن سعيد: « وهذه المعاني ولد منها شعراء المشرق والمغرب وتطارحوا

فى الأخذ منها » وصار لكل شاعر من شعراء الجاهليين أبيات معدودات ، ومعان محدودات ، يعرفها العلماء بالأدب ، هى الإمام فى الفن وهى التى حددت القوالب التى يصب فيها الشعر العربى — أصبح امرؤ القيس إمام الشعراء فى التشبيهات ، والنابغة فى الاعتذارات ، والأعشى فى الخمريات الخ .

ولقد أنصف العلماء إذ سموا النهج الذى سار عليه الشعر العربى « عمود الشعر » وفى الحق أنه عمود متحجر لم يلن ولم يتغير .

ومن أشد دواعى الأسف أن الزمان قد سمح بمن خرج من هذا العمود أحيانا وأراد أن يبنى عموداً آخر ، أو أراد أن يغير العمود إلى شجرة تنتج فروعاً جديدة ، فسُمع قوله ولم يتبع ، وصفق له بعض الناس ولم يقلد ، والتف الناس حول عمود الشعر ، وعمود الشعر وحده .

لقد ابتدع عُمر بن أبى ربيعة فن القصص الشعرى وأتى فيه بالمُرقص المطْرب ثم مات ولم يعقب .

وجاء أبو تمام فأبعد فى الخيال وغاص على المعانى وعرضها بأسلوب فيه جدة ، فقام علماء اللغة والأدب فى وجهه وفضلوا عليه البحترى لالتزامه عمود الشعر ، فماتت طريقته من بعده .

وجاء ابن الرومى فابتدع توليد المعانى وتبسطها واستخراج ما فيها إلى النهاية ، كما اخترع الهجاء اللاذع بالتصوير الفكه والفن الذى يشبه الفن اليونانى ؛ وتعصب له قوم من القدماء، فقالوا : « إنه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده » ولكن مات فنه بموته وبقى عمود الشعر ، وعمود الشعر وحده .

وجاء « المعرى » فأراد أن يحول الشعر إلى غذاء عقلى ونقد اجتماعى ، وينفخ فيه من روح فلسفى ، فقالوا إنه فيلسوف لا شاعر ، وإنه فى « سقطه » أشعر منه فى « لزومياته » ، وأخيراً سار فى طريقه وحده .

* * *

ثم جاء القرآن فغير العقلية العربية ، ورفع النظر من الأرض إلى السماء ، وإلى ما فوق السماء ، وعلّم الناس أن يقرءوا كتاب الطبيعة فى فصوله المختلفة من إنسان ونبات وجبال وسحاب وأمطار ونجوم وسماء ، وأن يقرءوا ما بعد الطبيعة من إله فوق العالمين ، هو نور السموات والأرض ، وكشف عن العيون غطاءها ، فأصبح بصرها حديداً ؛ فنظرت إلى العالم من طيارة ، بل من أعلى من الطيارة ، ورأته وحدة متناسقة الأجزاء تخضع كلها لإرادة الله . وأعلن الثورة على النظرة المادية الأرضية التى كان ينظر بها أهل الجاهلية ؛ فكانت كل ضربة بالمعول فى صنم ثورةً على ذلك النظر ، ودوّت كلمة لا إله إلا الله فى جزيرة العرب تعلن ضياع الوثنية وعبادة المادية ؛ فلا لات ولا عُزّى ، ولا هُبل ولا هُبَل .

وكان للقرآن بجانب ناحيته الدينية ناحية أخرى أدبية ، فهو فى تعبيراته وتشبيهاته يتناسب كل التناسب مع دعوته ، يعالج شئون الأرض ويرتفع بالنظر إلى السماء ، وهو فى تعبيره وتشبيهه ومجازه كذلك لا يقتصر على التعبير المادى ولا التشبيه المادى كالذى كان فى الجاهلية ، بل وجه النظر إلى المعانى أيضاً فى كل ضروب بيانه .

وأتى بنوع من القصص بديع فى تصويره وتعبيره ، وجعله يخدم غرضه فى وعظه وإرشاده .

ورفع شأن المرأة فجعلها إنساناً عدلا للرجل لا ملهاة له ، لها كل حقوق الرجل ، وعليها واجباته ، تحاسَب على عملها كما يحاسب الرجل ، وتُدعى إلى جلائل الأعمال كما يُدعى الرجال .

كان فى القرآن كل هذا وأكثر من هذا ، وكان من المعقول أن يتغير نظر الشعر فى الإسلام كما تغيرت العقائد ، وأن يرتفع نظر الشاعر الإسلامى ارتفاعه فى عقيدته ، وأن يكون له جانب روحى بجانبه المادى ، وأن يستغل قصص القرآن فيقص هو ولو فى اتجاهات أخرى ، وأن

يرى القرآن يدعو إلى العزة فيكف من المبالغة في المديح ، وأن يرى القرآن يدعو إلى عفة اللسان فيتحرج من الإقذاع في الهجاء ، وأن يرى القرآن يرفع شأن المرأة فتعظم في شعره ، ويسمو أحيانا من الكلام في جسمها إلى الكلام في روحها .

فإن لم يجب أن يتغير الشعر الاسلامي كل التغير ، فلا أقل من أن يجعل الشاعر الإسلامي له مصدرين مصدر الشعر الجاهلي لاستغلال خير ما فيه ، ومصدر الإسلام لاستلهامه وتعديل مناهجه في شعره .

ولكن تعال معي ننظر ماذا كان ؟ كان أن الشعر الإسلامي لم يتخذ له إماما غير الشعر الجاهلي ؛ فقالبه قالبه ، وموضوعاته موضوعاته ، ومادته مادته ، وتشبيهاته من جنس تشبيهاته[١] ، وإن كان هناك جديد فجدة في العرض لا في الجوهر ، وفي الشكل لا في الأساس ، في رقة اللفظ بدل الخشونة ، وفي تحوير المعنى لا في خلقه ، وفي تقصير الأوزان الشعرية أو تحويرها تحويراً خفيفاً لا في تجديدها ، وفي اقتباس بعض التشبيهات من أدوات المدنيـة لا في التحليق في جو جديد ، وهكذا .

قد تقول إن القرآن ليس شعراً ، وإمام الشعر يجب أن يكون شعراً ، ومصدر الشعر يجب أن يكون شعراً ، ولم يكن أمام الشعر الاسلامي إلا الشعر الجاهلي ، فطبيعي أن يقلده لا غيره .

ولكن هذا صحيح في الطبيعة القاصرة والملكات المحدودة ، أما الطبيعة السابقة والملكات المبتكرة فتستمد فنها من كل شيء ؛ من خرير الماء ، وصفير الهواء ، وحركات النسيم ، وتموجات البحر ، وتوقيعات الموسيقى ، وأحاديث العامة ، وجدال الخاصة ، وأضاحيك المغفلين والماجنين ، وأقوال الفلاسفة وخاصة المفكرين ؛ فكيف لا تستطيع أن تستفيد من القرآن لأنه نثر ، إلا أن يكون مرض الكسل والهرب من مشقة الابتكار ؟ .

* * *

وقريب من هذا في باب الغرابة أنه لما اختلط المسلمون بالأمم الأخرى في العصر العباسي ، وعرضت عليهم آثار الأمم الأخرى وخاصة اليونان ، نقل الناقلون إلى اللغة العربية فلسفة اليونان وطبهم وجغرافيتهم ورياضتهم وهندستهم ، ولكنهم لم ينقلوا أدبهم ولا شعرهم ولا قصصهم ولا تمثيلهم ، فكان موقفهم غريباً إذ سمحوا للعقل أن يتغذى بأنواع أخرى من الغذاء ، ولم يسمحوا للعاطفة أن تتغذى بأنواع أخرى من الفن ! بل أمعن في باب الغرابة أن يسمحوا بنقل نظريات فلسفية تتعارض في صميمها مع الدين الاسلامي ، ولم يسمحوا أن ينقلوا ضروبا من الشعر والأدب اليوناني لا تتعارض مع الإسلام في شيء ! ولقد كان يكون في هذا التصرف بعض العذر ، لو أن منبعهم في الشعر الذي يستقون منه منبع إسلامي ، أما ومنبعهم الوحيد هو الشعر الجاهلي الوثني بما فيه من لات وعزى ، وخمر وميسر ، وشرك وأوثان . فالأمر جد غريب !

أعتقـد أن من أهم الأسباب في ذلك أنه لو كان حملة لواء الأدب في العصر العباسي عرباً خلصاً لسمحوا للآداب الأخرى أن تعرض عليهم ، ولأخذوا منها ما تستسيغه أذواقهم ، وتجيزه مداركهم ؛ ولكن كان أكثر حملة لواء الأدب أعاجم استعربوا ، والأعجمي إذا استعرب كان قصارى همه ، وغاية وكده ، أن يصل في فنه إلى العربي الأصيل ، ولا تحدثه نفسه أن يبتكر في القديم ، أو يجدد في الشيء الأصيل . أرى المصري — مهما بلغ في إتقان اللغة الانجليزية — تحدثه نفسه أن يبتكر في الشعر الانجليزي ؟ أو الشامي مهما بلغ في إجادته اللغة الفرنسية أن يبتكر في

(١) أستثني هنا الشعر الصوفي ولي رأي فيه أعرضه فيما بعد .

الشعر الفرنسي ؟ إنما يتنكر في الإنجليزية والفرنسية الإنجليزي الأصيل والفرنسي الأصيل ، لأنه من الناحية النفسية لا يشعر فيها بعجز طبيعي ، فكذلك الشأن في العربي الأصيل ، والأعجمي الحامل لواء العربية في العصر العباسي . وهناك من غير شك أسباب أخرى تخرج بنا عن موضوع مقالنا .

* * *

أما بعد ، فلكل قارئ كريم بلحظ ما أردت من معالجة هذا الموضوع .

أردت أن يتحرر الأدب من قيوده التي تثقله ، وأن يكون الحكم في أدبنا أذواقنا لا أذواق غيرنا ؛ فخير بيت عندي ما تذوقت أنا أنه خير بيت لا ما قال فلان — ولو كان عظيما — أنه أفضل بيت .

وأن يكون أدبنا معتمداً على شيئين : خير ما في الماضي مما يناسب حاضرنا ، ويبعث على تحقيق أملنا في مستقبلنا . ودراسة حاضرنا واشتقاق أدبنا منه ، لا أن نعيش في أدبنا على الماضي وحده ، وعلى الماضي الذي لا يناسب حاضرنا ؛ فإنا إن فعلنا ذلك كان أدبنا وقفاً على طائفة الخاصة فينا ، وعزا أبناءنا في المدارس وجمهرة المتعلمين منا الأدبُ الأوربي الحديث ، وأصبح الأدب العربي لا حياة له إلا في مناهج المدارس وأسئلة الامتحانات وفئة قليلة جداً من المتخصصين ؛ وفي هذا أكبر إجرام على الأدب العربي .

أريد أدباً عربياً يلذه الطفل في مدرسته ، والبنت في مطالعاتها ، والشاب في غذائه العقلي والروحي ، والكهل الناضج ، والفتى الغر .

أريد أدباً عربياً يشاهده النظارة في السينما ودور التمثيل ، يعرض لحياتهم اليومية وأحداثهم التاريخية ، ويصور حياتهم الاجتماعية .

أريد أدباً عربياً يعرض لأسرنا وحياتنا العامة والخاصة ونفوسنا وخلجاتها ، فيضع في ذلك قصصاً رائعاً وشعراً بديعاً يهز نفوسنا ويلمس مشاعرنا ويحركنا نحو مثل أعلى ننشده ونسعى إليه .

أريد أدباً عربياً يشعر كل فرد من أبناء العرب بجمال طبيعته ، ويهز قلبه لادراك الجمال الطبيعي والجمال الصناعي ، فيرق في حسه وترهف نفسه ، ويحركه ذلك إلى أن يكون جميلا في سلوكه جميلا فيما يصدر عنه ، ليؤلف مع ما يشعر به من جمال نغما متناسقاً وتوقيعاً متناغماً .

أريد شعراً عربياً يغنيه المغني فيمثل ما في نفسه الحاضرة من حب ووطنية وإنسانية ومعان مستحدثة ومواقف مستجدة ، ويتمثل به المرء في شتى مواطنه ومختلف شؤونه .

أريد شعراً عربياً ينشده الأطفال في رياض مدارسهم والشبان في ألعابهم والجنود في معسكراتهم ، والأسرة المتدينة في صباحها ومسائها ، والفتاة في تغنية آمالها .

ولا يتم شيء من ذلك إذا نظرنا إلى الخلف فقط وإلى الخلف دائماً ، ولا يكون شيء من ذلك إلا إذا كسرنا عمود الشعر الذي وضعه الأدب الجاهلي ، وجعلنا بدل العمود الحجري شجرة تنبض بالحياة ، يكون أحد فروعها فقط الشعر الجاهلي ، وأهم فروعها نتاج حياتنا الواقعية ، وآمالنا المستقبلة . لا يكون شيء من ذلك ما دمنا نعد البيت الجاهلي خير الأبيات ولو كان سخيفاً ، وخير القصص القصص القديم لأنه ورد في الكتب القديمة ، وأحسن الأبيات في الغزل ما استحسنه ابن الأعرابي . لا يكون شيء من ذلك ما دمنا نوقع الأنشودة القديمة « أن الأدب العربي كامل ليس فيه نقص ، وقوي لا يشوبه ضعف ، وبناء مكتمل لا يحتاج إلى علو ، ومتين الأساس لا يحتاج إلى دعامة » .

إنما يكون ذلك كله يوم نزن الأدب العربي ككل أدب بموازينه الصحيحة من غير عصبية ، ونصرح بالنقص في غير خجل ، ونبني الجديد في غير هوادة ، ونكسر قيود القديم في غير رفق ؛ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

أحمد أمين

في الســــــياحة!

للأستاذ عبد العزيز البشرى

أذاع حضرة صاحب العزة أحمد صديق بك مدير مصلحة السياحة في مؤخرات الشهر الماضي حديثاً قيما، رمى فيه إلى حض المصريين على اتخاذ المصايف المصرية، وإيثار بلادهم بالأموال الجليلة التي ينفقونها في البلاد الأجنبية في كل عام. وقد قدّر هذه الأموال في السنة بأربعة ملايين من الجنيهات!

وقد عرض في حديثه لمنشأ هذه البدعة، بدعة خروج المصريين إلى البلاد الأجنبية لسلخ ما يتهيأ لكل منهم سلخه من أيام الصيف، وعلى وجه الخصوص في أوربا. وردّ هذه البدعة التي استحالت عادةً إلى أن مصر لما كانت داخلةً في ملك الدولة العثمانية، كان من المتعيّن على كبار الحكام وأصحاب الأخطار في البلاد أن ينتجعوا، الفينة بعد الفينة، مثوى الخلافة للأغراض المختلفة. وإذ كان جو القسطنطينية لا يوائمهم في الشتاء، فكان من المعقول أن يحرروا فصل الصيف لهذه الهجرة، فجوّ الأستانة فيه جميل، وهواؤها عليل. وجرى مَن دون هؤلاء على سنّة هؤلاء بحكم المحاكاة والتقليد. ثم تحولت دفة المهاجرين شيئاً فشيئاً إلى بلاد الغرب، حتى بلغت عدتهم عشرات الألوف في كل عام، وأصبح ما ينفقونه يعدّ بالملايين، وما أحوج بلادنا إلى هذه الأموال، وخاصّة في هذه السنين!.

ولقد حمل الأستاذ صديق بك حملةً صادقةً على أولئك الذين يهجرون بلادهم في مطلع كل صيف شادّين الرحال إلى أوربا في غير حاجة تدعوهم إلى ذلك من طلب علم أو استقصاء بحث، أو تحريك تجارة، أو إنماء صناعة؛ أو غير ذلك مما يُخرج الناس من ديارهم، ويضرب بهم في غيرها من بلاد الله.

وإني أؤيد حضرته بكل ما أملك من يقين، وأؤكد أننا إذا استثنينا طلاب العلوم والفنون وبعض الأساتذة والأطباء، لا نُصيب أكثر من واحد في كل مائة من هؤلاء الذين يطلبون أوربا في كل عام، وهذا على أسخى تقدير. أقول لا نُصيب أكثر من واحد في المائة يضطره أيّ أمر من أمور الدنيا أو الآخرة إلى تلك البدعة التي تستهلك كلّ هذه الأموال في كل عام.

أربعون ألف مصري يطلب أكثرهم أوربا في صيف كل عام. إذن فتعالوا نتحاسب، ولكن في حسابنا حقّ صريح، وحق صادقين:

كم مصريا في العام يمضون إلى أوربا ليستقصوا بحثاً يفتح في العلم أو الفن فتحا، وينقض بعض القواعد المسلّمة فيهما نقضا، ويطير همّ العلما في شرق الأرض وغربها كل مطيّر؟ العفو!

ثم كم مصرياً من هؤلاء الأربعين ألفاً يطلبون أوربا ليفتحوا بين يدى التجارة المصرية أسواق الغرب، فلا تلبث حتى تغزوها غزواً، وتدفع ما سواها من التجارات دفعاً؟ العفو!

ثم كم مصرياً بين هؤلاء الأربعين ألفاً من يشخص إلى الغرب لينقل عنه إلى بلاده أدق الصناعات وأنجعها، بحيث لا تستغنى بصنع أيديها عما يرد إليها من الغرب والشرق فحسب، بل لتغمر بهذه الصناعة الأسواق في غيرها من البلدان؟ العفو أيضاً!

ثم كم مصرياً فى أولئك الأربعين ألفاً من تعاصت علته على جهرة الأطباء فى مصر ، وطبيبين وأجانب ، حتى حلفت الطبيعة بكل مؤثمة من الأيمان ، أن هذه العلة لا برء لها إلا فى فيشى أو إكس ليبان ؟

* * *

حقاً ، لقد نجد بين هذه الجموع الكثيفة التى تتدفق على أوربا فى كل عام من تبعثه تجارته ، ومن تستخرجه الرغبة إلى تحسين صناعته ، ومن قد أثقلته العلة حتى تحير فيها طب الأطباء فى هذه البلاد ، فلم يجدوا بداً من الإشارة على العليل بالشخوص إلى الغرب ، حيث الطبيب الاختصاصى العالى ، أو حيث الينبوع الذى عقد الشفاء عليه ، ونحو ذلك . ولكن قل لى بعيشك : كم عدة جميع هؤلاء ، وأولئك من النازحين إلى الغرب فى كل عام ؟ عشرة ! عشرون ! ثلاثون ! أربعون ! أى بحساب واحد فى الألف لا واحد فى المائة ، على ما قدرنا ، استحياء ، فى بعض هذا المقال !

* * *

أستغفر الله ! لقد فاتنى أن أقدم السبب الرئيسى لهجرة هذا القدر الضخم من المصريين إلى الغرب فى كل عام . وهذا السبب تطالعنا به الصحف السيارة فى كل يوم . وهل يقع لك عدد من جريدة فى مصر طوال أشهر الصيف إلا قرأت فيه : « يبحر (فلان) إلى أوربا تبديلاً للهواء ، أو ترويحاً للنفس من عناء الأعمال » . أو نحو ذلك مما يدخل فى باب الترفيه والاستجمام !

وليت شعرى هل تستحيل بلادنا فى الصيف فرناً تشوى فيه الوجوه شيًّا ، وتفرى الجنوب فرياً ؟ أليس فى بلادنا الطويلة جداً والتى يسلكها النيل من أولها إلى آخرها ، والتى تطل على بحرين لا بحر واحد — أليس فى هذه البلاد كلها متنفس فى الصيف ، ولا متفرج من وقدة حره ، ومتبرد من أفياء وخضرة ؟ وأخيراً ، أليس فى مصايفنا من وسائل التسلية واللهو ما يريح النفس ويهيئ الاستجمام ؟ بلى ! ! إن فيها هذا كله ، وفيها غيره من مطالب رواد الغرب فى كل عام !

إذن فما سر هذا التجنى والبطر الجرىء على البلاد وعلى مصايف البلاد ؟

ودعنى أزعم لك ، أيها القاعد ، أن الكثرة الكثيرة من هؤلاء المهاجرين لا يطيب لهم العيش فى هذه الرحلات الغربية كما تتصور أنت ، أو كما يصورون هم لك . بل إنى لأتقدم ، غير متزيد ولا غال ، فأزعم لك أن كثيراً منهم لا يجدون فيها إلا ضيقاً ورهقاً ؛ فإن فى الغربة أولا ضيقاً ، وإن فى تغير أسباب المعيشة فجاءة لعنتاً ورهقاً . وناهيك بازدراد أطعمة لم تألفها ، والاضطراب فى بيئات لم تعرفها ، والتزام عادات لا عهد لك بها ، وأخذك النفس بأمور لم يسبق لك علاجها ولا التمرين فيها ، وكيف بالمرء مع هذا إذا كان لا يحذق لغة القوم الذين يعيش فيهم ويضطرب بينهم ؟

وهذا إلى الهم بترك الوطن ، والبعد عن الأهل والولد ، وطول شغل النفس بأعمال العمل ، إذا كان المهاجر من أصحاب العمل ، وهذا وهذا إلى ما يجشم هذه الهجرة من ألوان النفقات ؛ وما تستخرج من جليل الأموال التى قد يستعان عليها بالاستدانة ، أو الانطواء فى سبيلها على الضيق والعسر فى سائر شهور العام !

ولقد يسقط الكثير من هؤلاء إلى باريس ، فباريس قبلة الكثرة من هؤلاء المهاجرين ، فيثوى فى أحد فنادقها ، لا يغادره إلا إلى مقهى ، أو ملعب من الملاعب ، أو مباءة من مباآت العبث ، ويظل مضطرباً بين هذه المواطن الثلاثة أو الأربعة طول مدة الإقامة هناك ، حتى يأذن الله فى عودته ؛ ولقد يوالى الهجرة إلى باريس عشرين عاماً وهذا شأنه ، ما يرى من باريس غير ما رأى ، ولا يعرف عنها

أكثر مما عرف : الفندق ، والمقهى ، والملعب ، وما عسى أن تنزلق إليه رجله من مباآت العبث . وليس وراء عَبّادان بلد !

* * *

وبعد ، فلقد طلبتُ حقيقة السبب في هجرة كثرة هؤلاء المهاجرين إلى الغرب ، على ما فيها من كثرة النفقة وعظم الشقة ، واحتمال ما وصفتُ لك من فنون الضيق والعنت ، فهو لا يعدو الرغبة في التكاثر والظهور بالأبهة والفخفخة ، وتقليد المترفين من أصحاب الثراء . فالشخوص إلى أوربا أصبح عند هؤلاء بمثابة الرتب وألقاب الشرف ، ولولا بقية من حياء لطبع هؤلاء على رقاع الزيارة :

فلان الفلانى

سافر إلى أوربا !

على أن في ترديد اسم (أوربا) كلما جلسوا إلى الناس ، ولما سافرت إلى (أوربا) ، وسنة ما كنا في (أوربا) ، وبينا كنا في باريس الخ مما تعيا به الطاقة ، ما يغنى في التعريف عن ألف بطاقة وبطاقة !

على أن مما نحمد الله عليه أنه على تضاعف عدد الذين يخرجون عن البلاد وازدياد عددهم سنة بعد سنة ، فقد قل ، ولو في النسبة ، عدد الحكّائين منهم . وللحكّائين من هؤلاء في الجيل الماضى مما رأوا في رحلاتهم إلى الأستانة ولبنان حديثٌ يروق ويشوق . ولعلنا نطالع القراء بنماذج منه ، فهو حقيقٌ بأن يسلى عنهم بعض التسلية ، ويرفه عليهم في وقدة الصيف بعضَ الترفيه .

وإلى الملتقى إن شاء الله ؟

عبد العزيز البشرى

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ظهر الجزء الأخير من كتاب المبادئ الأساسية للتحقيقات والاجراآت الجنائية ، تأليف حضرة صاحب السعادة على زكى العرابى باشا في ٧٥٠ صفحة . وتتضمن القواعد العامة للمحاكمة وإجراآت رفع الدعوى ونظرها وطرق الطعن في الأحكام وقوة الشيء المحكوم فيه والتنفيذ وسقوط العقوبة ورد الاعتبار ، مع فهرس مطول يلخص كل فقرة من فقرات الكتاب ؛ مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد وثمنه ٨٠ قرشاً

ويطلب من مكتبة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمقرها بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين بمصر ومن المكاتب الشهيرة

هافلوك أليس

Havelock Ellis

للأستاذ على أدهم

نعت الجرائد والمجلات الانجليزية إلى قرائها المفكر النابه والعالم المتمكن هافلوك اليس صاحب البحوث الجمة الممتعة ، والتصانيف العديدة القيمة ، فى الأدب والنقد والاجتماع ، والآراء الموفقة فى العلاقة بين علم النفس والمسائل الجنسية . وقد توفى فى ٨ يوليو الماضى ، بعد أن أشرف على الثمانين من عمره الحافل بجلائل الأعمال وشريف المواقف ؛ وقد قام هافلوك اليس برسالته خير قيام ، ولكن موته فى الظروف الراهنة يعد خسارة فادحة منيت بها الحياة الفكرية الغربية ؛ فقد كان الرجل من سدنة حرية الرأى وحملة مشعل الفكر ، وكان رسول سلام يرى أن الميل إلى الحرب ستذهب حدته وتزول آثاره ، كما ضعف فى الانسان الميل إلى أكل لحوم البشر برغم تغلغل جذوره فى أعماق الطبيعة الانسانية . وكان يدعو إلى الاستبشار بالحياة وغلى محاسنها ؛ فهو مفكر إنسانى النزعة مثالى القصد ، فى عصر طغت فيه الدعايات المذهبية المبهمة ، وانتكست المبادئ الانسانية التى قامت على أسسها الحضارة الأوربية ، وأصبحت فى حاجة ماسة إلى الترميم وإعادة النظر .

وقد وصفته زوجته فقالت عنه : « إنه ناسك ولكنه مع ذلك محطم أصنام ، ومحب للانسانية ، ولكنه مع ذلك عزوف عن المجتمعات ميال إلى الوحدة ، وهو شاعر بمزاجه وطبيعته وعالم بحكم تربيته ونشأته » . وقد كانت منطقة تفكيره رحبة الأفق واسعة المدى ، وكان فى مستهل جهاده الأدبى فى أواخر القرن الماضى كالرائد ، وكان فيه من الرواد الجرأة والتصميم ، وأسلوبه من الأساليب الكاشفة القريبة من النفس والتى تجمع بين دقة العلم وروعة الأدب ، وهو يتميز بصدق ملاحظاته ونضج تجربته سواء كتب عن الحب أو الشعر أو عن اليوجنية ومعضلات المسألة الجنسية .

وليس هافلوك اليس من المفكرين القلائل الذين يدوّون صفحات جديدة فى عالم الفكر ، وتتركز حول حياتهم حركات فكرية مستحدثة ، فهو لم يأت بجديد ولم يبتكر شيئاً ؛ ولكنه كان يحسن العرض ويجيد الشرح ويسير فى عالم الأفكار بخطوات ثابتة رشيقة ؛ وكان لطول ألفته لهذا العالم يستطيع أن يطبع الأفكار التى يتحدث عنها بطابع الجدة والابتكار ؛ وجرأته فى تناول المسائل الجنسية أعانت على تحرير الأفكار ، وكان مثلا يحتذى فى التزام الصراحة فى دراسة تلك المسائل التى يزيدها الكتمان والسكوت خطورة وتعقيداً ، وكان عقله حافلا بالمعلومات المدخرة ، فلا تفوته واردة ولا شاردة فيما يطرق من البحوث .

وكان صادق الفراسة فى تقدير العبقرية قبل أن تقبل عليها الشهرة وتعرف قيمتها ، فقد أدرك قيمة إبسن وقدر أدبه قبل أن يعترف بفضله ، وأشاد بقيمة طولسطوى ، وأطراه فى إبان الاعراض عنه والزراية به ؛ وبحثه المستفيض فى فلسفة نيتشه يعد أول تحية ذات قيمة وجهت إلى فلسفة نيتشه فى الجزائر البريطانية .

وقد أودع كتابه الموسوم « برقص الحياة » خلاصة فلسفته وزبدة أفكاره ، وهو يرى الحياة رقصاً منسجم التوقيع ، متزن النغمات ، ويؤيد رأيه بشواهد مستمدة من

العلم والأدب والتصوير والبناء والطبيعة ؛ وليست الحياة وحدها في نظره رقصاً ، بل الكون بأسره . وهو يعتبر كل فروع النشاط الانسانى ضرباً من الفن ؛ فهناك فن الرقص ، وفن التفكير ، وفن الدين ، وفن الآداب ؛ وكل هذا يؤدى إلى أن الحياة نفسها فن ؛ فخفق أقدام الطفل ، وأفكار الفيلسوف الكونية ، والنجوم في مسالكها ، والأمواج المتكسرة على الشواطئ ، كلها تندمج في فكرته ، فهي تسمو وتهبط ، وترتفع وتنخفض تبعاً لقانون واحد هو قانون الإيقاع ؛ ومن ثم العلاقة بين اليوم الأضحيان والوجه الصبوح ، والفكر الشرقى ، والقصيدة البارعة .

وهو يفيض في هذا الكتاب في اقتفاء أثر الرقص بين مختلف الأمم ودلالته على عاداتها وثقافتها ، وعلاقته بالدين والحب ؛ وآراؤه جديرة بالإمعان والتروية ، وليس من السهل إعطاء صورة موجزة عنها .

وكتاب « الروح الجديدة » هو أول كتاب أصدره ، وهو دراسات مسهبة لطائفة من كبار مفكرى الغرب ، مثل ديدرو وطولسطوى وهينى وغيرهم ، وهو يمزج فيه المنهج العلمى القويم بالتقدير الفنى الصحيح . ومن أمتع كتبه كتاب « التأكيدات » وهو مجموعة من المقالات عن شخصيات تاريخية معروفة مثل نيتشه وكازانوفا والقديس فرانسيس ، وكتاب « تأملات وتعليقات » وهو خواطر عن الحياة وآراء في الطبيعة الانسانية حافلة بالشعر المنثور والملاحظات الصائبة ، وهو يقول في مطلع هذا الكتاب : « لقد تعودت لمدة سنوات أن أسجل على أوراق عارضة الأشياء التى تسترعى نظرى في الحياة والفكر ، وقد أعاننى تسجيل آثار هذا التفاعل بين عالم النفس الداخلى والعالم الخارجى ، ولكن كلما تقدمت السن بالانسان قلت فرص الانتفاع بها والافادة منها ، ويتحقق الانسان في خريف الحياة أن الأوراق ليس لها وظيفة حيوية لتقوم بها ، وليس ثمة من داع أو حاجة لبقائها معلقة بالشجرة ، ولذا سأتركها تذروها الرياح ! » .

وهافلوك اليس من المفكرين الذين احتملوا الصدمات العنيفة في سبيل إذاعة أفكارهم . وقد كان ما يكتنف المسائل الجنسية من حرمة وما يحفها من قداسة يظهره في صورة الخارج على الآداب ؛ على أن ذلك لم يفت في عضده وكان يردده استمساكاً بقوله : « إننا لا نستطيع احترام الحياة إلا إذا تفهمنا أسرار المسائل الجنسية » . وثمرة الروح العلمية في رأيه هي الاخلاص والصبر والتواضع وحب الطبيعة وحب الانسان .

وقد كان الأمريكان أسرع إلى تقدير مكانته والاعتراف بفضله من الانجليز ، قال عنه محرر مجلة « مركرى الأمريكية » : « إذا قيست ثقافة الانسان بمقدار تحرر فكره من الصغائر وعواطف الطفولة التى تحرك الجماهير ، فإن هافلوك اليس بلا نزاع هو أوفر الانجليز جميعاً نصيباً من الثقافة » .

وبحوثه المستفيضة عن طبيعة المرأة والموازنة بينها وبين طبيعة الرجل من أمتع ما كتب وأوفاه . وكثير من المفكرين في العصر الحاضر يعزون الاضطراب الاجتماعى الذى ساد في السنوات الأخيرة إلى أن معرفتنا بالطبيعة الخارجية قد تقدمت كثيراً على معرفتنا بالطبيعة الانسانية ، ولا نزاع في أن جهلنا بالطبيعة الانسانية له دخل كبير في تصدع التقاليد الاجتماعية تحت ضغط الأحداث الاقتصادية ؛ واللاملاءمة بين طبيعة الانسان وبين الموقف الجديد الذى أوجده التقدم العلمى ، تقتضى التوسع في دراسة النفسيات وكثرة الاحاطة بعلم سلوك الانسان ؛ وهذا مما يبين لنا أهمية المنهج الذى نهجه هافلوك اليس ؛ وأعانه على السير في دروبه وتذليل عقباته تجشمه بين رهافة إحساس الشاعر ورؤية الصوفى وبصيرة العالم .

علي أدهم

في الأدب المقارن :

الإباحة في الأدب

للأستاذ أحمد خاكي

يرى فئة من النقاد أن الفنون الجميلة ومنها الأدب بفروعه ما هي إلا تعبير عن التجارب النفسية التي يمارسها المتفنن أو الأديب . فالأديب يرى ويسمع ، والأديب يتمرس بإحساسات خاصة ، وعليه أن يبرز كل ذلك في قطعة الشعر أو النثر التي يرسلها . فهو يأخذ بنفس السامع أو القارئ أو الناظر ليسير بها في نفس الطريق التي سلك ، وهو يمحض كل هؤلاء نفس التجارب التي عاني . ولكل أديب أو متفنن وجهة خاصة يتخذها إذ يؤلف الشعر والموسيقى ، وجهة تأخذ بمزاج الحياة التي يعيش فيها ؛ فنفس الأديب أو المتفنن في الغالب هي مركز الحياة التي يعيش فيها ، والفردية تظهر في رجال الفن والأدب أكثر مما تظهر في رجال العلم والعمل .

والعصور التي يزدهر فيها الأدب عصور تظهر فيها إرادات الأفراد أكثر مما تظهر فكرة الجماعة ؛ وحينما وجدت المذهب الفردي مزدهراً ، وجدت نتيجة لذلك آيات من الشعر والفن . ويظهر أن ذلك لأن التفكير الفردي هو المنبع الأول الذي ينضح بكل الأفكار الأدبية والفنية ، فإذا هو فاض شمل الناس جميعاً طابع خاص لا يكاد يطوع لأحدهم أن يقول الشعر ، ولا أن يأتي بجديد غير ذلك الذي اتفقت عليه الجماعة . فالتفكير الفردي عند كثير من النقاد هو الذي يمثل عصور الأدب الزاهرة ، وهو الذي يمثل بعد ذلك كثيراً من الوهن الذي يحيق بقواعد الخلق العام .

حينما يصور الأدباء أو الشعراء تجاربهم النفسية ، يحيلون ما في أغوار نفوسهم إلى رموز هي نفسها الشعر أو القصة . وقد ذكر تاريخ الأدب كثيراً من هؤلاء الذين لم يقيموا وزناً لأوضاع الجماعات التي عاشوا فيها ، بل هم عبروا عن الخبيث والطيب مما شعروا به غير محتفين بمعايير الخلق . وهؤلاء هم الذين أنتجوا كثيراً من آيات فنية لم تتقيد بهذه الأوضاع . وقد استطاع النفسيون الأحداث أن يكشفوا عن نفسيات الأدباء والشعراء ، وأن يروا الغرائز الدنيا كيف استحالت إلى تصوير مادي في الشعر والقصص .

* * *

على أن فئة أخرى من النقاد تخالف هؤلاء أشد المخالفة ، فهم يرون أن للجماعة أصولاً عامة يجب أن يكون الفن إحدى دعائمها . بل يذهب أولئك إلى أن الفن بجميع نواحيه ينبغي أن يكون دعوة عامة تبث الخلق الكريم ، وتوثق العلائق بين الأفراد . وقد كان تولستوي يقدر ذلك الوزن الخلقي للفنون . وقد ثار بآيات الفن التي تحدرت في ثقافة أوربا . وهو قد كان يرى أن الفن يستهلك جهداً ضخماً من نشاط الإنسان ، وأنه ينبغي ألا يضيع هذا الجهد سدى . وهو يرى أن غاية المتفنن هي أن يتصل بنفوس الجماعة التي حوله . فهو في خلق آيات الفن يتمرس بإحساسات نفسية دقيقة ، يجب أن ينقلها إلى غيره من القراء والسامعين . أما هذه الإحساسات

فهى عند تولستوى دينية قبل كل شىء ، لأن الشعور الدينى فى رأيه هو الذى يؤلف بين الناس أجمعين . فكل فكرة فنية لا تستقيم والشعور الدينى ، فهى ليست عنده فناً أصيلا . وكل الذى كتبه شكسبير ودانتى وجوته وغيرهم ، فهو ليس بالفن الصحيح ، لأنه فى نظره لا يوثق العلائق بين الناس ، ولا يخلق صلات من المودة والإخاء ، ولا يربط ما بين الناس وبين الله ؛ بل إن تولستوى ليرى فى قصص مثل « قصة مدينتين » و « البؤساء » و « كوخ العم توم » أمثلة عليا للفن الأدبى . لأن عامة الناس يستجيبون لتلك القصص ، ولأنها جميعاً تقوض فكرة العنف التى يغير بها قليل من الطغاة على كثير من البؤساء المضطهدين .

* * *

لذلك اضطرب الفن بين التزمت الخلقى وبين الإباحة ، ولذلك كان النقد الأدبى موزعاً بين التفكير فى الفرد وبين التفكير فى الجماعة . ولعلنا نستطيع فى موضع آخر أن نتأثر آيات الفن التى أنتجتها فكرة الخلق القوى فى تاريخ الأمم ؛ لكننا نبحث فى هذه العجالة مدى الآثار التى أنتجتها الاباحة ، وهل كانت كلها شراً ، أم هل أفاد الفن والأدب من الحرية التى أبيحت لهما ؟

كان عصر النهضة فى أوربا عصراً تحلل من كثير من قواعد المسيحية ، لأن القسيسين والأمراء كانوا قد أساءوا استخدام الدين ، فاتخذوا منه ذريعة لمقاومة حرية الفكر . وحينما تحلل الناس من كل ذلك خرج العقل الانسانى فاحتك بالحياة ، وكان من ذلك تلك المدنية السامية التى أقامتها النهضة . وفى نفس الوقت الذى تحرر فيه الفكر الانسانى تخفف المتفننون من كثير من قيود الخلق ؛ لذلك كان عصر النهضة عصر الحرية الفكرية والفوة الغشوم على السواء ؛ كان عصر الكشوف الحديثة ، وعصر الخديعة والوقيعة والرياء . والحق أن العلم والفن لا يتناقضان والتحلل الخلقى . فأنت قد ترى العلم سليا والفن مزدهراً حيث كانت الحرية ، فاذا ما أوتى المتفننون تلك الحرية أطلقوا لأنفسهم العنان ، فكانت من ذلك موجة من موجات الإباحة . وقد حدث ذلك فى بلاد الاغريق وهى فى أزهى عصورها . وحدث مثل ذلك فى إيطاليا وغيرها من بلاد أوربا الغربية أيام النهضة . فنى العصرين نلمح عنصراً من عناصر العبقرية ، وعنصراً آخر من عناصر الاباحة والاستهتار . والعبقرية الفنية والاباحة الخلقية يتآلفان فى كل وجه من وجوه الحياة الأثينية ، وهما يتآلفان كذلك فى كل ناحية من نواحى النهضة فى أوربا .

أثرت تلك الإباحة فى الآيات الفنية التى أخرجها الكتّاب والشعراء والفنانون فى عصر النهضة . وجنى الفن ثماراً لا زالت يانعة . فعلى الرغم من هذه الإباحة الخلقية كان العنصر الفردى شديداً ، وكان لكل فنان صورة خاصة للحياة يبرزها وينميها . ولعلك تستطيع أن ترى فى منتجات شكسبير صورة من صور النهضة . فإن مسرحياته تدور حول القوة والخديعة والختل . فى رواية مثل « عطيل » تحس الغيرة وهى تنهش قلب ذلك المغربى ، وترى « ياجو » بارزاً كالشيطان يغرر به ويدفع به إلى الحضيض . وفى مسرحية أخرى مثل « الملك لير » تحس بلفحة من العقوق البنوى تكاد تلهب الأفئدة . وقل مثل ذلك فى « هاملت » و « يوليوس قيصر » و « ماكبث » و « روميو وجوليت » بل قل مثل ذلك فى مهازل شكسبير ومباذله . فالخيانة والختل والخداع من بعض وجوه الإباحة التى شاعت فى الحياة العامة فى عصر النهضة . ولعل ذلك جميعه قد كان نتيجة لازمة لعصر حر تنبه فيه العقل البشرى . فقد تيقظ الفكر لكل ما يحدث على ظهر الأرض ، وكان قد تحلل من النظرة الدينية التى

استبدت به خلال العصور الوسطى . فهو قد أدرك الفلسفات التى قامت عليها الحضارة الحديثة ، وهو قد أدرك فى نفس الوقت كل ما يندفع فى هذه الحياة من شهوات النفس وغرائز الفطرة الأولى .

هذا الاعتراف بالغرائز والشهوات كان نتيجة الحرية التى ميزت عصر النهضة كما ميزت الحياة الأثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد . وكما ميزت الحياة العربية فى القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة . وقد كان للغريزة الجنسية مكان بين الغرائز التى أنتجت تلك الإباحة ، لأن العلاقة بين الرجل والمرأة موضوع عام من مواضيع الأدب . وما دمنا قد ضربنا المثل بشيكسبير فحرى بنا أن نستطلع حياته الخاصة لعلنا نرى فيها وجهاً من وجوه الإباحة .

أما مسرحياته فهى قليلة الجدوى فى هذا السبيل ، لأن الوجهة التمثيلية التى اتخذها شيكسبير فى كتابة مسرحياته لم تكن تسمح له بأن يعبر فيها عن نفسيته تعبيراً واضحاً صادقاً . أما مقطوعاته (sonnets) فهى الوسيلة المثلى التى عبر بها شيكسبير عن سرائر نفسه . وفى شطر من هذه المقطوعات يتحدث شيكسبير عن حسناء قد أخذت عليه مشاعره . وفى شطرها الآخر يتحدث عن شاب أغرم شيكسبير به غراماً . وهو يطلق لخياله العنان فى تصوير العشق الأول والعشق الثانى . فهو يصور خداع الفتاة ، وهو يصور هيامه بالفتى . وهو موزع بين الاثنين . ثم إنه يشكو الفتى لأنه طغى عليه ، فاستطاع أن يبلغ إلى قلب الفتاة وأن يستلبها منه .

ذلك وجه من وجوه الحياة الاجتماعية أيام النهضة . وإذا صح أن كل ذلك تصوير صادق لعلاقات شيكسبير الخاصة ، فإن جو النهضة لم يكن حراً فحسب ، ولا فردياً فحسب ، بل لقد بلغ مبلغاً من الإباحة لم نعرفه إلا فى عصور قليلة فى تاريخ الإنسانية . فشيكسبير الفنان قد عرف حب النساء ، كما عرف ذلك العشق الخبيث الملتوى . وأصدق الظن أن كل ذلك كان شائعاً فى عصر النهضة شيوعه فى العصر العباسى .

***

وإذا نحن انتهينا إلى الأدب العربى وجدنا فى أخريات العصر الأموى وفى العصر العباسى شيئاً يشبه كل الذى أسلفنا . وكان قد أنتج الدين حياة خلقية شديدة فى العصر الأول من الاسلام ، ولكن دب التحلل الخلقى فى حياة الأمة الإسلامية ، فذهب الشعراء مذاهب شتى فى الغزل وفى وصف شئون النساء . وأقام عمر بن أبى ربيعة والأحوص فى مكة والمدينة مدرسة بأسرها من مدارس الفن كان قوامها التشبب والتغزل ، ثم أينعت الحكمة الاسلامية فى العصر العباسى . ولكن سايرتها جنباً إلى جنب تلك الإباحة الخلقية التى بلغت الذروة فى شعر أبى نواس وأضرابه فى بغداد .

كانت بغداد فى أيام الرشيد والأمين موئلاً من موائل النعمة والترف ، وكانت فيها أسواق للجوارى والغلمان ، واجتمع بها سلائل سبى الأمم التى غلبها العرب ؛ وهذا الترف وتلك النعمة وذلك الخصب فى السرى هو الذى جعل من بغداد مسرحاً للتهتك والمجون ، وهو هو الذى أنطق والبة بن الحباب وأبا نواس بالغزل بالذكر ، كما أنطقهما وأنطق غيرهما بآيات من الفن أعجب بها الرشيد أحياناً ونفر منها أحياناً أخرى . ولقد كان أبو نواس يعيش فى صحبة من أهل الفسق والفجور رأوا الدنيا ونعمتها فى كأس من الخمر ، بل ألفوا فيما بينهم عصبة متهتكة تستلب المال بأية سبيل . فاذا أصابوا قليلا منه حبسوا أنفسهم فى دير فيه خمر ، أو هيأوا لأنفسهم مجلس شراب وفسق لا يرعون عنه حتى تصفر أكفهم . فإذا هى امتلأت مرة أخرى عادوا إلى مثل ما

كانوا فيه ! كان هؤلاء جماعة من الشعراء ينهبون اللذات انتهاباً ويرون الإباحة واجبة فى كل لذة ، وكان بينهم والبة ابن الحباب شيطان أبى نواس ، وكان بينهم الحسين بن الضحاك ، وكان على رأسهم أبو نواس نفسه . ويصف أبو نواس شعور هؤلاء إذ يقول :

سأبغى الغنى إما جليس خليفة
يقوم ســـواء أو مخيف سبيل
بكل فتى لا يستطـار جنـانه
إذا نوه الزحفان باسم قتيل
فنخمس مال الله من كل فاجر
أخى بطنة للطيبات أكول
ألم تر أن المال عون على التقى
وليس جواد معـدم كبخيل

تلك روح الاباحة التى يبثها أبو نواس الـكثرة العظمى من شعره . وهى جانب من الحياة الإسلامية فى العصر العباسى تكافئ الجوانب الأخرى التى يمثلها الحكماء والفلاسفة . بل هى تكافئ جانباً آخر من الحياة الشعرية يمثله شعراء آخرون كأبى العتاهية وصالح بن عبد القدوس . والفكرة التى تسرى فى تلك القصيدة التى عرضنا عليك أبياتها الأخيرة ، كانت هى القوة الدافعة عند هذه المدرسة من مدارس الشعر العربى . فأبو نواس يطلب المال بأية طريق ، سواء أكان ذلك بأن يغشى مجالس الخلفاء ، أو بأن يقطع الطريق على تجرة يملكون المال ولا ينفقونه . وذلك نفسه هو الشعور الذى يصفه شيكسبير حين يصور شخصية من أكبر الشخصيات الروائية عنده وهو « فولستاف » Falstaff . ففولستاف شخصية تشبه أبا نواس فى استمرائها الطيبات وفى تحليلها المحرمات وفى شرب الخمر وفى الامعان فى الفسق ، وفى مقتها لأولئك الذين يضنون بأموالهم ، وفى مجالسة الملوك والأمراء ؛ بل هو يشبهه فى قطع السبيل على الموسرين ؛ ولعل الاثنين يتشابهان أيضاً فى فهمهما لمعنى « الشرف » . وكذلك ترى أن أكبر صورة صورها شيكسبير للإباحة تنطبق بكثير من تفاصيلها على أكبر شخصية إباحية قامت فى تاريخ الأدب العربى .

***

ولعلك قد رأيت معى أن الحرية التى أعطيت لكتاب النهضة ، قد انقلبت إلى إباحة ، وكذلك قد انقلبت الحرية التى أعطيت لشعراء الأمويين المتأخرين ولفريق من شعراء العباسيين ؛ وعلى الرغم من أن هذه الاباحة قد زادت التحلل الخلقى ، فانها قد أنتجت كثيراً من آيات الفن الأدبى . وسنذكر شيكسبير وأضرابه من فنانى النهضة ، وكذلك سنضع شعر أبى نواس فى الطبقة الأولى بين آثارنا الفنية . والحق أن الحرية كانت دائماً الأساس الأول لنماء الفن . ولن ينمو الفن ولا الأدب ولا العلم حتى تعيش فى جو حرّ . وإنما دفع المتفننين والأدباء والعلماء إلى الاباحة طبيعة النفس البشرية التى لا تعرف حداً للتعبير عن عواطفها وغرائزها . والفن من وجوه كثيرة هو نفس هذا التعبير .

أحمد خاكى

العقـــل والغريزة

للأستاذ زكى نجيب محمود

كيف السبيل إلى معرفة الحق ؟ أى طريق يسلك الانسان ليعلم الحقيقة الخارجة عنه ؟ إن رجل الشارع ليجيب فى غير تردد : إنى أرى الشىء، أو أسمعه أو ألمسه فيدرك عقلى على الفور ماذا ألمس أو أسمع أو أرى ... ولكن أصحاب الفكر الدقيق لا يقنعون بهذا الجواب السريع ، بل يعمقون وراء السطح ، فتتشعب آراؤهم ويختلفون فى وجهة النظر ؛ فمنهم من يبحث ثم يبحث حتى ينتهى إلى الرأى السابق بعينه ، وهو أن إدراك الحقيقة يكون بالحواس فالعقل . ومنهم من يزعم أن العقل يسبق إلى إدراك الحقيقة بغير استعانة بحواس ، أى أن صنوف العلم مفطورة فى العقل بحكم طبيعته ، ولا يحتاج لادراكها إدراكا واضحا ، إلا أن يدرك بحواسه هذا الشىء، وذاك ، لتبرز فى الذهن معرفته الكامنة . وفريق ثالث يذهب إلى أن العقل لا شأن له بإدراك الحقيقة الخالصة الخالدة ، وإنما السبيل إلى ذلك هى البصيرة ، أو قل الغريزة ، أو إن شئت فقل البداهة الفطرية ، التى يستوى فيها الحيوان والانسان مع اختلاف فى الدرجة دون النوع . وقد يجمل بنا أن نضيف إلى هؤلاء فريقاً رابعاً لا يرى إلى الحقيقة سبيلا من السبل ، ويسخر من كل مجاهد فى سبيل إدراكها ، لأنه إما أن تكون هذه الحقائق الثابتة المزعومة وهماً وخرافة ، وإما أن تكون واقعة ولكن الانسان لا يملك السبيل إلى بلوغها .

وأهم هذه الجماعات اثنتان : تلك التى تؤمن بوسيلة العقل ، وتقنع به كأداة صالحة للوصول إلى العلوم جميعاً ؛ والأخرى التى تؤمن بأن البصيرة وحدها هى التى يمكن أن يُركن إليها ، لأن العقل يخطئ ويَزل ، وأما هى فمعصومة من الزلل . ولقد دارت الحرب سجالا بين الجماعتين ، فقرناً تعلو كفة العقل وقرناً تسيطر الغريزة ؛ ولعل أزهى عصور العقل هو القرن الثامن عشر الذى شهد فولتير فى فرنسا ، كما شهد بوب ومدرسته فى انجلترا . ولكن سرعان ما شالت كفة العقل وأخذت كفة الغريزة فى الرجحان ؛ فنهض روسو فى فرنسا ينادى بالرجوع إلى الطبيعة وتحكيم البداهة والفطرة فيما يعرض للانسان من مشكلات ، وظهرت فى انجلترا بوادر نهضة رومانتيكية قوية ، بدت أوائلها فى وليام كولنز وبلغت عنفوانها فى وردزورث وكولردج . وأخذت هذه الحركة التى تناصر الفطرة تثور على كل ضروب الحكم وصنوف الفكر التى تسودها الصناعة والتكلف ؛ وقد أيدها رجال الدين لأنهم كانوا يخشون أن تتقوض أركان العقيدة إذا تم للعقل السيادة وكتب له السلطان .

وجاء القرن العشرون ، فوجدت الغريزة نصيراً لها فى « برجسون » الذى أخذ ، ولا يزال ، ينادى بأن العقل يستحيل عليه أن يبلغ الحق ، وأن البصيرة وحدها هى الطريق الطبيعى المأمون . وإنما بعث « برجسون » هذه الصرخة المدوية فى وجه العقل وأنصاره ، حين رأى دارون وسبنسر فى انجلترا يدعوان فى قوة فى القرن التاسع عشر إلى ما دعا إليه فولتير وأنصاره فى القرن الثامن عشر ، وحين رأى النزعة المادية تعود فتطغى على أوربا بعنف لا يكاد يثبت فى وجهه دين ولا عاطفة ... يقول برجسون إنه ليس

العقل أداة صالحة لإدراك حقيقة الكون ، لأن نهاية مجهوده أن يقف عند ظواهر الأشياء ، وهو يجزئ الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءاً ، مع أن الوجود في حقيقته وحدة موصولة الأطراف . إن الوسيلة التي تدرك بها الشاة ما يتهددها من خطر الذئب ، أقرب جداً إلى اليقين ، من كل ما عسى أن يصل إليه العقل بعد الدراسة والتحليل . وإدراك المرء بفطرته لوجود نفسه ووجود الله خير ألف مرة من هذه البراهين التي يقيمها العقل تارة وينقضها طوراً . . . إذا أردت أن تبلغ الحق فاستلهم بصيرتك .

ولقد أجاب على ذلك — فيمن أجاب — برتراند رسل الفيلسوف الانجليزي المعاصر ، فقال إن هذا التعارض بين أحكام الغريزة وأحكام العقل وهم ليس له وجود . إن كليهما ضروري لوصول الانسان إلى الحقائق المنشودة ؛ فالغريزة ، أو البصيرة ، أو البداهة ، تدرك الرأي أو العقيدة إدراكا مباشراً ؛ ثم يأتي العقل فيتناول هذا الرأي أو هذه العقيدة بالنقد والتحليل ، حتى يتم له تأييدها أو رفضها ؛ فالبصيرة الفطرية تخلق الرأي ، والعقل يرعاه بالتنسيق والتهذيب والمراجعة . فلا العقل من شأنه أن يخلق الرأي ، ولا الغريزة من شأنها أن تنقد وتحلل .

وليس من الصواب ما يقال عن عصمة الغريزة من الخطأ ، فهي ملكة كسائر ملكات الإنسان ، قد تزل وتخطئ ؛ نعم إن الغريزة تقرب جداً من اليقين في أحكامها في شئون الحياة العملية ، التي يكون الحكم الصحيح فيها عاملا على النجاة من خطر أو فناء . فأنت قادر بفطرتك على تمييز عدوك من صديقك ، مهما تنكر العدو ، ومهما خفي الصديق ؛ ولكن هذه الفطرة التي تهديك في أكثر الحالات لا يبعد أن تزل مرة فتخدعك في عدو أو تضلك في صديق ... وأما إن نحينا الحياة العملية جانباً ، وأخذنا نبحث في شئون الفكر المجرد الخالص ، كالفلسفة مثلا ، فالغريزة مهما بلغت من القوة ، كثيراً ما تنتهي بنا إلى أحكام باطلة ، بل قلما تهدينا إلى الصواب ، إذا استلهمناها وحدها . إن التصوف يستوحي البصيرة — لا العقل — فيهتدي إلى الرأي الصحيح أحياناً ، ولكنه في أغلب الأحيان يضل سواء السبيل . فلا مندوحة عن تدخل العقل في حكم البصيرة ليرى أين نشأ الخطأ . وليس معنى ذلك أن العقل يتدخل لينقض حكم البصيرة ، بل ليتممه ، خشية أن يكون الانسان قد ركن في حكمه إلى جانب واحد من غريزته ، وأقصى الجوانب الأخرى لمصلحته العاجلة أو لضيق نظره .

يقول برجسون : لمعرفة الأشياء طريقتان مختلفتان أشد الاختلاف : الأولى بالحواس والعقل ، وفيها يدور الباحث حول الشيء ، والثانية بالبصيرة ، وفيها يبلغ الباحث لب الشيء وصميمه . ويسوق مثالا للمعرفة بالبصيرة معرفة الانسان لنفسه ، فأنت تدرك نفسك بالبصيرة المباشرة لا بالتحليل العقلي . ثم يضيف إلى ذلك أمثلة أخرى من غرائز الحيوان وكيف تهديه إلى حقائق عجيبة ، بل يشير إلى الانسان نفسه وكيف يصل أحياناً ببصيرته إلى أسرار العالم على نحو يقف أمامه العقل مشدوهاً حائراً . ويرى برجسون أن هذا العقل الذي يعتز به العلماء ، إن هو إلا ملكة نشأت مع الزمن بفعل التطور ، لكي تعين الانسان على نجاحه في الحياة العملية ، لا لتكون مصدراً للعلم النظري والحقائق المجردة .

ولكن أنصار العقل يسارعون إلى الرد على برجسون في هذا الرأي الأخير ؛ فإن كان ممن يؤمنون بنظرية التطور كما بسطها دارون ، ثم يسلم تبعاً لذلك بأن العقل نشأ بفعل التطور ليعين الانسان على الاحتفاظ بوجوده ، لا ليكون أداة للمعرفة المجردة التي لا تتصل بحفظ الحياة ، فإنه ملزم

أن يسلم كذلك بأن سائر ملكات الانسان وقواه ، قد أنشأها التطور ، لتكون أدوات نافعة في معترك الحياة العملية ؛ ومن ذلك البصيرة نفسها التي نشهدها في أروع حالاتها حين نشهدها في نفع تتوخاه من مجانبة مظان الخطر . والواقع أن العقل والبصيرة كليهما تطور مع الزمن ، ونشأ بفعل الضرورة لأنه نافع ، وهما نافعان إذا قدما لصاحبهما الحقيقة الخارجية خالصة ، وهما ضاران حين يقدمان له صورة الخارج مشوبة بالوهم والباطل . . .

ولكن نصيراً من أشد أنصاره العقل حماسة ، يضيف إلى ذلك قوله : إن ذكاء العقل قد نشأ بفعل التطور ليكون نافعاً في الحياة العملية ، ولكنه قد جاوز حدود النفع في الرجل المتمدين ، وأصبح أداة قويمة للوصول إلى العلم المجرد ؛ وأما البصيرة ، فعلى عكس ذلك ، تنقص كلما زادت المدنية ؛ فهي أقوى في الأطفال منها في الراشدين ، وهي أحدّ عند المرأة منها عند الرجل ، وهي أعظم في الجاهلين منها في المتعلمين ، بل هي في الكلاب وبعض صنوف الحيوان أصدق جداً منها في بني الانسان ؛ فعلى الذين يرون في سذاجة البصيرة فخراً لها أن يكروا راجعين إلى حياة الأوابد بين الأدغال .

إن برجسون يدعو الناس إلى الأخذ بما توحيه إليهم بصائرهم الفطرية ، لأنها معصومة من الخطأ ، فهل صدق برجسون فيما زعم ؟ إنه — كما أشرنا فيما سبق — يسوق إدراك المرء لنفسه مثالا أحسن مثال لصدق البداهة ؛ فهل إدراكُ المرء لنفسه صحيحٌ لا يشوبه الخطأ ؟ كلا ، بل ما أندر بين الناس مَنْ يدرك نفسه إدراكاً صحيحاً ! فأنت ترى الرجل فيه ضعة الأخلاق والحسدُ والغرورُ وهو لا يدري من ذلك شيئاً ، مع أنها قد تكون صفات بارزة لا يخطئها النظر ، فيدركها فيه حتى أخلص أصدقائه ؛ فإن كان الانسان قد ينخدع في نفسه وفي خلصائه المقربين ، فمن أين أتى لبرجسون أن الانسان قادر بفطرته على الوصول إلى مثل هذه الحقائق وصولا لا يتطرق إليه شك ؟ نحسبه قد أخطأ ، ونحسب أن العقل ، وإن كان بطيئاً في إدراكه ، فهو أسلم جانبا وآمن من الخطر . إن الغريزة ماهرة في معرفة الجوانب المألوفة من البيئة التي تحيط بالإنسان ؛ ولكنها عاجزة أن تُصْدِرَ حكما إذا ما واجهتْنا بموقف جديد يتطلب الحل ، فهاهنا لا مندوحة لنا عن العقل مرشداً وهادياً .

يقول برتراند رسل إن غاية الفلسفة أن نعرف العالم معرفة نظرية ، وليس هذا بالأمر الذي يهتم له الحيوان ، بل المتوحشون ، بل معظم المتمدينين ؛ إنما تهتم لذلك الصفوةُ القليلة من الناس ؛ وعلى ذلك فلا يجوز لمن يفكر في مجال نظري أن يلجأ إلى غريزته أو بصيرته ، التي إن نفعت في الجوانب العملية ، فلا تنفع وحدها في الجانب النظري .

فاركنْ ما شئت إلى فطرتك في شئون الحياة اليومية المألوفة ، على أن تسلم قيادك للعقل وحده إذا كنت بصدد موقف جديد أو مسألة نظرية .

زكي نجيب محمود

التربيـــة الخلقية

وسائلها وأسسها الصحيحة

للدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك

(تتمة لما نشر فى العدد الثالث)

عرفنا مدى حاجتنا إلى التربية الخلقية ، وعرفنا الصفات الضرورية فى المدرس ليكون مربيا ، وعرفنا القواعد السيكلوجية التى يخضع لها عقل الصبى ونزعاته النفسية التى تسهل علينا مهمتنا ، ووعدنا بأن نشير إلى بعض الصفات التى يغلب أن ينقلها التلميذ عن أبيه أو مدرسه بالاستهواء أو المشاركة الوجدانية أو التقليد :

فأول ما ينقله التلاميذ عن مدرسهم هو مبلغ احترامه لقوانين المدرسة ، فالمدرس الذى لا يحافظ على مواعيده ، أو الذى يهمل فى نظافة نفسه وملبسه ، أو فى حسن هندامه ، يجب ألا يدهش إذا وجد تلك الصفات تنتقل بسرعة إلى تلاميذه ؛ أما إذا تحدى تلك القوانين فاستخدم العقوبة البدنية مثلا ، أو أشعل سجارته فى الفصل ، وهو يعلم أن تلاميذه يعرفون أنها ممنوعة ، فهناك الطامة الكبرى ، إذ أنه يعرض نفسه لاحتقار التلاميذ ، ويحملهم على ازدراء القوانين والاستهتار بها ، ويبذر فى نفوسهم بذور الفوضى والتمرد على المجتمع وعلى من يمثلون سلطته بنوع خاص .

وينقل التلاميذ عن مدرسهم الآداب العامة التى تتجلى فى الاختلاط الاجتماعى ، مثل أسلوبه فى معاملة غيره من أعضاء المجتمع ، واحترامه لرأى الغير ولشعور مواطنيه ، ومعاونته للضعفاء ؛ وفى هذه المسائل يكون تأثير المثل الذى يضربه المدرس أقوى بكثير من كل الأوامر والتعليمات والجوائز والعقوبات مجتمعة . لذلك يجدر بالعلم أن يذكر دائما أن مراعاته لآداب الاجتماع يجب أن تكون واحدة ، سواء تجلت فى الفصل أو فى غرفة المدرسين أو فى أى مكان بعيد عن المدرسة ، وسواء أكانت فى عزلة أو على الملأ . وعلى الرغم مما للمدرس من السلطان على تلاميذه فيجب أن يتردد فى النطق بنكتة على أحدهم أكثر مما يتردد فى التفوه بها بالنسبة لزميل من زملائه ؛ كما يجب ألا يتخذ التلميذ الغبى موضع سخرية ، ولا أن يشير بطريق مباشر أو غير مباشر إلى عيب من عيوبه أو عاهاته ، أو أن يلمح إلى أن سوء سلوك التلميذ يرجع إلى تأثير منزله أو بيئته أو مكانة والديه فى المجتمع ، أو ما شاكل ذلك من الأمور الجارحة . وذلك كله يتطلب من المعلم كثيراً من المراعاة ومن ضبط النفس .

كذلك موقف المدرس بإزاء عمله ومقدار اهتمامه به لا بد أن ينعكس على تلاميذه ؛ فالمدرس المجد المتحمس يستهوى تلاميذه على الدوام دون أن يشعروا ، ويستهويهم إلى متابعة تحصيل العلم ، وإلى الاحساس بأن ذلك فى ذاته عمل مجيد جدير بقصارى جهودهم ؛ وعلى العكس من ذلك المدرس الذى يؤدى واجباته بتململ وتذمر وتكلف ، بحيث يكون كل همه أن ينتهى من عمل يومه على أية صورة كانت ، فانه ينقل إلى تلاميذه هذا الاتجاه السيئ ، وتلك الفكرة الخاطئة عن احترام العمل وتقديس الواجب . ويتجلى جد المعلم فى إقباله على تثقيف نفســه ، وتزويدها بالمعلومات الجـديدة ، وفى تنويع أساليبه فى التدريس

لتكون متمشية مع أحدث الطرق وأقربها إلى ما انتهى إليه علماء النفس ، مثل هذا المدرس يترك فى تلاميذه أثراً طيباً من الناحية الفكرية . أما المعلم الذى ينقطع عن الدراسة ، فلا بد أن يصير بعد قليل غير قادر على الاحتفاظ بروح المدرس الجيدة ، وسرعان ما يضيق صدره بالمتعلم ، وبالاتجاه الفكرى الذى يجب أن يلازم المعلم ، ويصير الجو العلمى بالنسبة له متعباً خانقا .

تلك بعض صفات المعلم أشرنا إليها على سبيل المثال ليس إلا ؛ ذلك لأن صفات المعلم كلها بوجه عام تنعكس فى التلاميذ ، وتلك حقيقة يجب أن يدركها المدرس من أول الأمر ليكون دائماً على حذر ، وليعلم أن تأثيره كمربٍّ يتوقف إلى حدٍّ كبير على سمو أخلاقه هو . نعم إن ذلك قد يكلفه عناءً ومشقة ، ولكنه يجب أن يواجه الحقائق بصبر وشجاعة ؛ ويكفيه جزاءً على ذلك وفخراً أنه الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يزيد فى سعادة جيل بأسره بتأثير استقامته وطهارة نفسه وسمو ذوقه ، كما أنه يجد فى نفسه لذة كبيرة وارتياحاً عظيما حين يشاهد آثار مجهوده متجلية فى المجتمع الذى يعمل جاهداً فى سبيل إسعاده ورفع مستواه .

* * *

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كيف تبدأ حملة خلقية فى مصر ؟ أما المجتمع فوسيلتنا فيه متوقفة على تطوراته التى لا علم لنا بها ، ولا نستطيع أن نتنبأ بها وبسلوكنا فيها ؛ وأما المدارس فلا شك فى أننا إذا أردنا أن نقوم فيها بحملة قوية منظمة ، فالواجب أن تبدأها وتدعو إليها وزارة المعارف ، وهى الهيئة المشرفة على التعليم فى البلاد ، ولكنى أخشى أمرين : أولهما البطء ، وثانيهما أن يكون تنفيذ الوزارة لذلك بواسطة الأوامر والمنشورات ، وهى تخلق فى العادة جواً مصطنعاً هو أبعد ما يكون من أن يحقق الاتصال الشخصى والحماسة القلبية والدراسة الفردية التى يقوم بها المربى من تلقاء نفسه . ولذلك أفضل أن نركن إلى المدرسين الذين اقتنعوا بضرورة العناية بالتربية الخلقية واستشعروا الرغبة الصادقة القوية فى المساهمة فى هذا العمل الجليل ، وزودوا أنفسهم بالصفات اللازمة لمن يتصدى له ، وقاموا بدراسة الصبى وعقليته ومميزات مراحل نموه فى الطفولة والمراهقة ، دراسة نظرية نيرة ، ودراسة عملية فاحصة . مثل هؤلاء الأشخاص يجب أن يبدءوا فى الحال بتنفيذ برامجهم فى الإصلاح الاجتماعى والتربية الخلقية ، وسيجدون هذا أمراً سهلا هيناً ؛ فالمدرس فى كل حصة من حصصه ، بل فى كل دقيقة من دقائق اتصاله بالتلاميذ ، ما دام حريصاً على كسب ثقتهم بمحبته لهم وعطفه عليهم ، واهتمامه بشئونهم ، وتحليه بالصفات التى يريد أن ينقلها إليهم ، مثل هذا المدرس يجد نفسه فى فترة قصيرة من الزمن مالكا لقلوب تلاميذه ، مسيطراً على عقولهم ، مؤثراً فى أخلاقهم أكبر الأثر ، لا سيما إذا كان على شىء من الملاحظة الدقيقة التى تعينه على أن يقرأ فى وجوههم آثار الألم أو الحيرة أو الاضطراب النفسى ، ويتبع ذلك بسؤال بسيط يلقيه بأسلوب جذاب ونغمة تنم عن عطفه واهتمامه ، يجعل التلميذ يسكن إليه ، ويفضى بمتاعبه ومصدر ألمه وارتباكه النفسى ، فيستطيع المعلم عندئذ أن يعطيه من الإرشادات ما يعينه على التغلب على صعوباته النفسية ويرد إليه الهدوء والاستقرار .

وليضع المدرس نصب عينيه أن الفكرة الحديثة عن تكوين الأخلاق لا تركن إلى المحاضرات والنصائح الكلامية ، بل تجعل ذلك نتيجة لنشاط تحدث معه انفعالات سارة تتكرر فتولد عواطف نحو مختلف الفضائل ؛ هذه العواطف كما قدمنا تحل عند التلميذ محل الغرائز فى توجيه سلوكه فى مختلف الظروف ، ويقتصر عمل المدرس على تهيئة الظروف لحدوث تلك الانفعالات . ولن يقف عمل هذا

المدرس على الميدان المدرسي وحده ، بل سيجد في القريب العاجل أن اتصاله الروحي هذا بتلاميذه سيؤسس علاقات طيبة ومفيدة بينه وبين بعض الآباء ، وهذه الاتصالات ستؤدي حتما إلى نتيجتين : الأولى زيادة فهمه لظروف التلميذ وبيئته ، مما يجعله أقدر على تشخيص مرضه ، ووصف العلاج المناسب . والثانية مساعدة الوالد على تفهم الأسس النفسية الصحيحة التي تسيطر على عقل ابنه ، مما قد يؤدي إلى تغيير أسلوب معاملته له ، وبذلك يتم التعاون المنتج الفعّال بين المدرسة والبيت .

وإني مدرك الادراك كله ، بل موقن بأن الأمور لن تجرى على هذه الصورة من السهولة ، وأن المدرس سيصادف صعوبات شديدة وعقبات كثيرة ؛ فهناك الزملاء الذين قد يضيقون به ذرعا ، وهناك ناظر المدرسة الذي قد يكون قليل الاهتمام بتلك الناحية التهذيبية ، وهناك الوالد الذي قد يخطىء فهم قصد المدرس ويشمئز من تداخله في خصوصياته . ولكن المدرس إذا كان مؤمناً إيماناً قوياً برسالته وراغباً رغبة صادقة في إرواء ظمئه وإشباع نهمه لتلك الخدمة القومية الثمينة ، لو توفر المدرس ذلك لتغلب على كل ما يعترضه من عقبات ، ولذلل صعوباته واحدة بعد الأخرى بحسن التفاهم وبقوة الحجة وبما يملأ قلبه وصدره من إخلاص للمهمة التي تصدى لها .

* * *

ولا شك في أن نجاح مثل هذا المدرس سيحمل غيره من زملائه على اقتفاء أثره والاقتداء بعمله ، ولن يمضي زمن طويل حتى تظهر في الجو الاجتماعي للمدرسة روح جديدة قد تؤدي إلى ثورة نفسية عميقة ترفع من مستوى تلاميذها ، فتشيع الفضيلة بينهم ، وينطبعون بطابع خلق ممتاز . ومما يساعد على الوصول لهذه النتيجة بسرعة أن يكون حامل لواء هذه الحملة الأخلاقية فيها هو ناظر المدرسة نفسه ، فعندئذ نجده يتخذ موقفاً حازما قويا نحو جميع المسائل الخلقية التي تعرض فيها ؛ وسرعان ما يجعل كل فرد من أفرادها يستشعر المسئولية ، ثم نجده يحرص على إجادة العمل في كل فصل من فصول المدرسة ، وفي كل ناحية من نواحي تنظيماتها الاجتماعية وملاعبها الرياضية ؛ ويطالب من الجميع بحزم بأنهم أن يستخدموا منتهى الصراحة وصفاء النفس على الدوام ؛ وعندئذ تكون المدرسة قائمة بعمل أخلاقي عظيم ينعكس أثره في المجتمع .

ولا ننسى في هذا الصدد أن اختلاط أفراد المدرسة بعضهم ببعض ، واحتكاك التلاميذ بالمدرسين وبالناظر ، كل هذا هو ما يهيء الفرصة للتعامل التي تظهر فيه العلامات التي تكشف عن الأخلاق ؛ ولذلك كان أغلب ما تقوم به المدرسة القديمة في هذا الصدد في ميادين اللعب وفي صالات السمر وفي مسارح التمثيل . أما المدرسة الحديثة فتهيأ فيها هذه الفرص أثناء الدراسة نفسها ، وذلك لما اتخذته هذه الدراسة من صورة نشاط فعال مستمر يجعل الأولاد يتصل بعضهم ببعض ، فالأولاد حين يقومون بمشروع لدراسة المبنى أو حياة النحل أو رحلة القرص أو صناعة القطن ، يجتمعون باستمرار للتشاور ورسم الخطط ودرس المعلومات التي جمعت ، والبحث عن كيفية الحصول على المعلومات التي لا تزال لازمة . . . وفي ذلك كله فرص لتربية الأخلاق في أثناء الدروس نفسها .

ويصح لنا أن نتساءل في هذا الصدد عن موقفنا من الطلبة أثناء إشرافنا على تكوينهم للعواطف المركّزة حول مختلف الفضائل ؛ هل نلقي لهم الحبل على الغارب ونعطيهم الحرية المطلقة ونتسامح فيما يصدر عنهم من هفوات ، أم نقف لهم بالمرصاد ونحاسبهم عليها ؟ يخيل إلىّ أن المصلحة تقضي بأن نهيء لهم الجو للنشاط الحر ليكون سلوكهم غير مقيد بأي قيد ، بشرط أن نتتبع هذا السلوك بدقة عن

بعد ، ويجعل الطالب يشعر دائماً بالنتائج التي تترتب على سلوكه خطأ كانت أو صواباً ، حتى يدخل السرور على نفسه كنتيجة لشعوره أنه أصاب ، وبذلك تثبت في نفسه العواطف التي أدت إلى ذلك السلوك المحمود ؛ وبالعكس إذا كان تصرفه خطأ صحب شعوره بهذا الخطأ شيء من الألم يدفعه إلى تعديل سلوكه في المستقبل ، وبذلك يحمي نفسه من تكوين الخلق السيء .

وزيادة على ذلك فإن الحرية في التصرف هي التي تعود الشخص تحمل المسئولية ، وتعطيه الفرصة لرسم الخطط وتعليم نفسه كيفية تنفيذها . ولا ضير مطلقاً من وقوعه في بعض الأخطاء في أثناء هذه العملية . فمن هذه الأخطاء يستفيد ومن محاولة تجنبها يتعلم ؛ هذا إلى أنه لا يوجد سبيل آخر لتعويد الشخص الاضطلاع بالمسئوليات وحل المشاكل ، وتدبير الخطط ، وغير ذلك مما تقصد إليه التربية الحديثة وتضعه في مقدمة الأغراض التي تسعى لتحقيقها . وفي خلال هذا النشاط الحر يكون أثر عاطفة اعتبار النفس التي فصلناها في غاية الأهمية ومفيداً إلى أقصى حد .

* * *

وينبغي عند التكلم من التربية الخلقية أن نقول كلمة عن « النظام » بمعنى Discipline لأن المدرس والمدرسة بوجه عام لا بد أن يكون لها سياسة مقررة بصدده ، واختلافات وجهات النظر فيه كثيرة لأهميته العظيمة ؛ فالنظام هو الوسائل التي بها نلائم بين الفرد وبين المجتمع الذي يعيش فيه ، وله قيمتان : قيمة إيجابية وقيمة سلبية ؛ فالقيمة الإيجابية هي التي تكلمنا عنها فيما سبق ، وعرفناها بأنها تكوين العواطف حول الفضائل ، والسمو بالغرائز إلى مستويات خلقية عالية . وأما القيمة السلبية فهي التي تحبس بعض مظاهر الغرائز التي تكون غير مستحبة اجتماعياً .

ومما يؤسف له أن الناحية الإيجابية كانت إلى عهد قريب مهملة ، ويرجع ذلك لحد ما إلى اعتقادات قديمة خاطئة ، هي أن الفضيلة تتوقف بنوع خاص على الإرادة ، إذ أن الإنسان كان يعتبر ممتلئاً بالنزعات الشريرة يسيطر عليها بقوة إرادية غير محسوسة ؛ ولكن العلماء الحديثين يقولون بأن الغرائز والنزعات التي يولد بها الإنسان ليست خيراً صرفاً ولا شراً صرفاً ، بل إن التربية الخلقية تستطيع أن تمنع نمو ما كان يعتبر فيما مضى نزعة إلى الإجرام عند بعض الناس .

أما الناحية السلبية ، وهي ناحية العقوبة فقد كانت فيما مضى تتخذ صورة العقوبة البدنية ، وكان الرأي السائد أنها ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها ، مع أنها في نظرنا ضارة بوجه عام ، إذ تولد القسوة وتشعر بالوحشية وتقتل العلاقة المبنية على الثقة التي يجب أن توجد بين الصبي وأبيه أو مربيه . فالوالد الحديث يعمل على أن يكون سلوك ابنه في حضرته وغيبته واحداً على السواء ، وأن يكون ائتناسه به وفرحه لقدومه ناشئاً عن حب حقيقي .

لذلك كانت وسيلة التربية الحديثة للحصول على « النظام » مختلفة عن الوسائل القديمة ، فهي تقوم على أساس جعل الطفل يشعر شعوراً داخلياً يدفعه إلى « النظام » بدلا من أن يقوم به تحت تأثير دافع خارجي . وكثير من الناس يعتقد أن التربية الحديثة لا يهمها « النظام » ، بل يظن البعض أن أساسها الفوضى لما يشاهدونه في التلاميذ من حركة مستمرة أثناء الدراسة ؛ فهم لا يدركون أن اشتغال التلاميذ بالنشاط الدراسي هو أرقى مراحل النظام ، وأن الخروج عليه لا يكون إلا بمحاولة أحد أفراد الفرقة مماكسة زميل له أثناء اشتغاله بتأدية واجباته أو قيامه بالنشاط المطلوب منه . ومن يطلع مثلا على كتابات مدام منتسوري يدرك أن حرصها على عدم الإخلال بالنظام عظيم ، وهي تقول إن قواعد النظام عندها تطاع عن طيب خاطر كما تطاع قواعد اللعب ؛ وذلك لعدم

وجود ضغط خارجى . وإنما تتم المحافظة على النظام بتأثير عادات عقلية تنزع بالطفل إلى نشاط تلقائى عجيب . فإذا فرط منه خروج على النظام فأول ما يجرى عليه اختبار طبى ، فإذا تبين أنه سليم الجسد أفردت له جلسة مريحة فى ركن من أركان الغرفة الدراسية وأعطيت له لعبه المحببة ، وأشعر بأنه فى شبه عزلة عن زملائه ، له أن يلعب كما يشاء ، ويدرس كما يشاء ، ويتمتع بعطف المعلمة وإرشادها ، ولكن ليس له أن يختلط بزملائه حتى يشعر بخطئه ويبدى أسفه لفعلته ، ويظهر استعداده للاندماج فى زمرة إخوانه دون أن يعاكس أحداً منهم . وقد نجحت هذه الطريقة إلى أقصى حد .

ولا ضير عند المربى الحديث من استخدام المدح والذم بحذر بحيث يتجنب المدرس مقارنة التلميذ بغيره ، ولا يستعمل اللوم إلا قليلا عند استحقاق التلميذ له ، ولا يمتدحه إلا لعمل نبيل غير عادى . ويجب أن تكون الحماسة الخلقية تالية مباشرة لعمل التلميذ ، كما يجب أن يتجنب المدرس التعميم . وإذا جرى على يد الصبى عمل فيه قسوة اهتم لها المربى وعالجها فيه على أنها مرض ، وجعل العقوبة عليها تبدو نتيجة طبيعية ، شأنها شأن نتيجة أى مرض جسمانى . فإذا حجز الصبى عن زملائه أو عن الحيوانات أفهمه أن ذلك بمثابة عزل صحى ، وبذلك يعتاد الولد أن يفهم أن الذى يرتكب القسوة يكون كالذى أصيب بمرض أو كالذى حلت به كارثة ، وأن الواجب علينا نحوه أن نعالجه حتى يبرأ من مرضه أو أن نبذل وسعنا فى حمايته من تلك الكارثة .

تلك إشارات طفيفة تبين اتجاهات التربية الحديثة إزاء مشكلة التقويم الخلقى ، أوردناها على سبيل المثال لبيان الروح السائدة فيها ؛ ومن هذه الروح يستلهم الوالد أو المعلم أقوم السبل يسلكها مع ابنه أو تلميذه .

أحمد عبد السلام الكردانى

٣ - المهن والفن . . .



كاسر الأخشاب

لوحة للمصور السويسري فرديناند هودلر Hodler ولد (سنة ١٨٦٣) .



الزارع — أو فلاح يبذر

لوحة المصور الفرنسي جان فرنسوا ميليه Millet (١٨١٤ — ١٨٧٥)



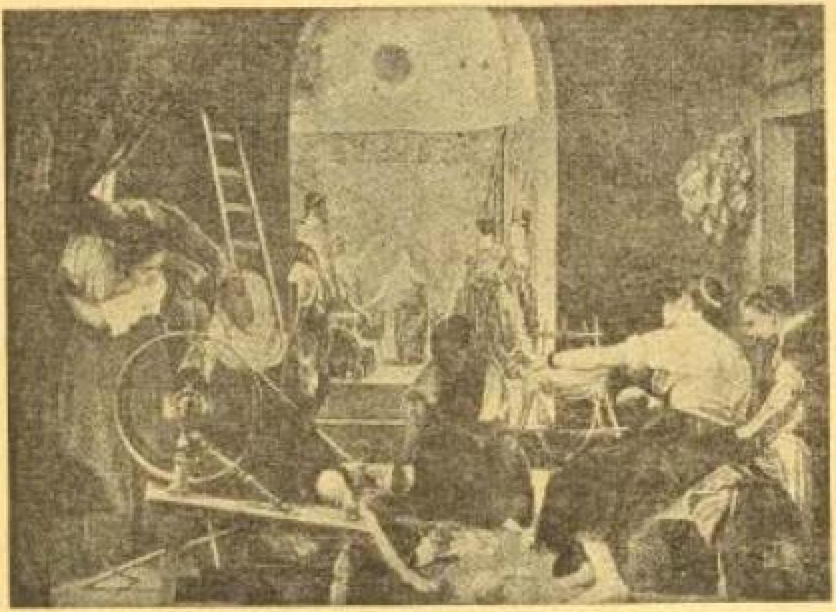
الحصـــاد

نقش على قبر مصري قديم من الأسرة الثامنة عشرة



عمال (الترسة)

رسم للمصور الانجليزى فرنك برانجوين Brangwyn الذى ولد سنة ١٨٦٧ ، وعنى بالموضوعات الشرقية فى لوحاته .



نساء يغزلن

لوحة مشهورة للمصور الأسبانى فلاسكوز Velasquez (١٥٩٩ — ١٦٦٠) .

على هامش الدعوات الجديدة :

الاشتراكية المنحرفة

للأستاذ عبده حسن الزيات

« عدو الاشتراكية هو الذي ينادي بطبقة واحدة ، أما الاشتراكي فنداؤه نداء اجتماعي »
(رمزي مكدونالد)

تكاثرت علينا في العهد الأخير دعوات يمكن وصفها — في شيء من التسهل في التعبير ومجاوزة الدقة — بأنها دعوات اشتراكية . واتخذت هذه الدعوات أكثر من لون ، وجاوز بعضها حدود القول إلى العمل أو بدء التنفيذ ؛ فمقالات في الصحف تبكي حال الفلاح ، وخطب في البرلمان تستندي التشريع للمالك الصغير وتستنزل الدولة عن حقها في ملكه ، ومشروعات قوانين للعمال ، واحتجاجات من موظفي الجهات غير الرسمية ، على أن مشروع مجلس الدولة جاء خاصا بموظفي الحكومة ، فلم يتح المحتجين ما أتاحه لهؤلاء من مزايا وفرص جديدة للاستنصاف . ثم إلى جانب ذلك إضراب نفر من العمال والدعاة عن الطعام — أو إعلانهم هذا الإضراب — فلما ترث الدولة عند إرادتهم وبادرت فشرعت لهم تشريعات ، لايهم أن تثبت من نضجها وإنما يهم أن تكون لها أسماء معينة معجبة ، وإما استقبلوا الموت ليرووا بدمائهم شجرة العمالية المتعطشة إلى الدماء ، ويستفزوا الرأي العام للدفاع عن الفلاح المسكين .

أصغيت إلى هذه الأصوات كلها ، ورأيت الدعوة تبهر ، فتستكثر من الأنصار والهاتفين والمرددين من الهتاف ما يفقهون وما لا يفقهون ، وفتشت عن نغمة أخرى تعدل من ميزان تلك النغمة الطاغية وتطامن من غلوائها ، وتضع الواجب إلى جوار الحق ، وتذكر الأمة قبل أن تذكر الطائفة ، فوجدتها لكن خبيئة في صدور أناس لايفرجون عنها ، لأنهم كرهوا أن يوصموا بالرجعية ، أو يقال فيهم أعداء للانسانية ، أو يسخطوا على أنفسهم العامل والفلاح ، وأنا ، أحيانا ، من الكسالى الذين يحبون أن يقوم غيرهم بالتعبير عما يعتقدون ، فإن استيأسوا من أن يؤدي هذا الفرض أحد ، نهضوا مرغمين إلى أدائه ، فأعلنوا الرأي ، وألحوا عن العقيدة .

والرأي عندي أن فكرة التضامن الاجتماعي ووحدة الأمة والصالح العام ، هي التي يجب أن تهيمن على تفكير الطوائف والطبقات المختلفة ، وهي التي يجب أن تلهم الدعاة ، وتوحي إلى المشرع .

فإذا دعونا — مثلا — إلى الترفيه عن الفلاح ، وجب أن تصدر في هذه الدعوة عن باعث مصري قومي لا عن باعث طائفي أو طبقي . إن الفلاح يجب أن يكون قويا وأن يكون متعلما ، لا لأنه فلاح ، ولا لأنه ظلم دهرا وآن أن ينصف ، ولا لأنه وديع يثير الشفقة في النفوس الرحيمة ، ولا لأنه يكون تسعة أعشار الأمة ؛ وإنما نريده صحيح الجسم والنفس والعقل ، لأنه لبنة من لبنات المجتمع ، لا نتأثر في ذلك بغير هذا الاعتبار ، ولا بغير

من سلوكنا أن تتغير نسبته العددية ، فيصبح عشر الأمة وقد كان تسعة أعشارها ، فإن الأمة بأقليتها كما هي بأكثريتها ؛ وقد تكون بأصغريها ، بمتقفيها ونخبتها قبل أن تكون بجماهيرها ؛ أو قل إن وجودها لا يتصور بغير تضامن العقل والجسم معاً ، وإن انقضاء هذا التضامن معناه — كما قال ذلك الفيلسوف الديني — انقضاء الحياة .

ليس للفلاح إذاً ولا للعمال ولا لكبار الملاك ولا لأصحاب المصانع ولا للموظفين لدى الدولة أو لدى غيرها — ليس لطبقة من هذه الطبقات حق في أن تتميز بأشياء بوصفها طبقة معينة ، وليس لها مصلحة في هذا التميز إذا هي أمعنت في النظر وعمقته ولم تكتف منه بالقريب الضحل ؛ وإنما حقها هو حق الأمة كلها لأن بقاء الجماعة يجب أن يكون غاية الغايات كما قال اهرنج ، ولأن مصلحة الأمة الحقيقية إن هي تحققت حققت مصلحة الطوائف والطبقات جميعاً : فأصحاب رأس المال قد يرون مصلحتهم القريبة في أن يرهقوا العمال ويبخسوهم أجورهم ، والعمال قد يرون مصلحتهم القريبة في أن يذلوا أرباب العمل ويستأدوهم أكثر مما يعطونهم ؛ ولكن مصلحة الأمة تروح ضحية موقف أولئك وهؤلاء ، لأن الصناعة القومية يذبلها هذا التشاد ، فإذا ذبلت خسر أصحاب رأس المال وخسر العمال يوم لا يجدون عملا ، وخسر المفكرون الذين يستثمرون تفكيرهم في الميدان الصناعي وعلى حواشيه ، وخسرت جميع هذه الحلقات التي تتسلسل في عمليات الصناعة ، ومنها حلقة الفلاح والمالك الزراعي ، وخسر المستهلك المحايد لأنه ذرة من ذرات الأمة ، ثم لأنه قد لا يعود قادراً على سد حاجاته بمثل ما كان يستطيع والصناعة الوطنية مزدهرة وقريبة منه .

على الطبقات إذاً ، وعلى الدعوات التي تثار دفاعاً عنها واستكثاراً لها من المزايا ، ألا تغلو في الطلب ، وأن ترعى الكل القوى لا ترعى الجزء الطائف ، وأن تطلق النظر إلى بعيد وتحيط بالأمر كله من نواحيه المختلفة ، وأن تذكر تلك الخرافة المفيدة : خرافة الفيل الذي اصطدم به جماعة من العميان فتساءلوا : ماذا عساه أن يكون ؟ وتحسسوه فقال أحدهم وقد وقعت يده على ذيله : إنه ثعبان ، وقال آخر وقد صادفت يده من الفيل « زلومته » : بل حمار ، وقال ثالث إذ أمسك بموضع آخر من جسمه : بل ثور ، وهكذا حتى احتكموا إلى مبصر استطاع أن يحيط بأجزاء الحيوان جميعاً ، فأنهى إليهم حقيقة أمره لم يضله عنها انحصار النظرة ولا جزئية الحكم .

***

إن الافراط في ترديد تلك النغمات كما هي ، قد اشترك مع عوامل أخرى في إشاعة ضرب من الفساد الاجتماعي قبيح المغبة ؛ لا لأن هذه النغمات ضارة في ذاتها ، بل لأنها تساق أحياناً بغير حكمة وتؤدى في أسلوب جزئي متطرف وتصب في آذان متحيزة غير حكيمة ، دون أن تقرن بالنغمات التي تمدلها وتذهب الخطر من مسمومها إذ تمزج بمواد أخرى تتفاعل معها .

فقد تحدثنا كثيراً عن حقوق العامل وآلام الفلاح ونكبة الموظف الصغير . ولكن هل حدثنا هذه الطوائف عن واجباتها ؟ وهل بصرناها بما في أعمالها من نقص ؟ هل طالبنا العمال بالتجويد أو آخذنا الدولة على أنها لا تكفل لهم التدريب الفني السامي حين آخذناها على أنها لم تسرع في إصدار تشريع يعترف بنقابات العمال ؟ هل دعونا الفلاح أن يخلص في عمله حين ملأنا الفضاء نشيجاً عليه ، وحين أفعمنا آذانه بأنه مظلوم مهتضم ، وأنه غزال مفترس وأنه شمعة تضيء لغيرها وتحترق ؟ .

أخشى أن أقول — بل لا أخشى أن أقول — إن النفوس المتهيئة للشر قد وجدت في هذه الدعوات مغريات

مشجعة على مقارفة الآثام ، أو اتخذت منها ذرائع تبررها أمام نفسها جرائم سلبية ، مثل إهمال العمل الموكول إليها ، وأخرى إيجابية مثل السطو الحرام على ما يقع فى يدها من أموال الناس . وإن الطبيعة البشرية لسريعة الابتكار لمبررات الآثم تعتذر بها لنفسها عن نفسها . فما بالنا وهذه المبررات تخلق لها خلقاً وتقدم إليها بين مواكب من الفلسفة والشعر؟

إنى لا أعتسف القول ولا أفترض الفروض ، إنما أقول عن معاناة وخبرة ؛ فإن فريقاً من الموظفين غير الحكوميين لينظرون إلى مال مستوظفيهم — لا نظرة الحسد والحسد قديم — وإنما نظرة صاحب الحق المغصوب ، فإذا استطاعوا الوصول إليه عن طريق لا يناله عقاب القانون ، هشوا إلى ذلك فى فرحة من يستنقذ الحق مطمئن الضمير ، وقد كانوا من قبل يخونون الأمانة فى ذلة واتضاع ، لأنهم لم يكونوا يرون لأنفسهم فيما يتخوّنون حقاً ، فلم يروا إلا أنهم فى فعلهم خونة سارقون .

وإن فريقاً من العمال لم يستقر فى نفسه من صيحات العمالية إلا أن من حقه أن يتغطرس على الطبقات الأخرى ، أو يسخر منها كلما واتته الظروف وأمن نتائج فعله ؛ وهو حين يتشفّى بتجريح أحد ركاب الدرجة الأولى فى عربة من عربات (الأمنيبوس) مثلا ، لا يعطف على أفراد الطبقة الفقيرة التى ينتمى إليها ، بل إنه لا يؤدى واجبه إزاءها ؛ فإذا رأى عاملا مجهداً من عمال البناء قد حمل عدده ووقف ساعة أو بعض ساعة يرتقب مجىء العربة ، وكان سائقها قد تلكأ فى بعض الطريق ليتحدث إلى صديق أو ليساوم على بطيخة يدغدغها ويقلبها من جميع نقط الدائرة ، فإن هذا السائق الذى استشفى بالسخرية من صاحب الدرجة الأولى لا يكترث بهذا العامل المسكين ، بل يسرع بعربته لأنه يريد أن يعتاض بالإسراع من الوقت الذى أضاع ، ذلك أنه يخشى رقابة الشركة لا يخشى رقابة ضميره ، فإذا

غلا فى السرعة ورأى أنه خليق أن يبلغ نهاية الدورة قبل موعدها المرسوم ، عاوده الخوف من الشركة فوقف فى الطريق بغير مقتض . إنه لم يسمع من الدعاة إلا أنه مغبون ، وأن العمال فى أوربا يشكلون الوزارات ، وأن الله جبله من الطينة التى جبل منها سائر الطبقات ، فليشمخ إذاً بأنفه كلما استطاع .

* * *

ومثل آخر : تحدثت الصحف عن مشروع مجلس الدولة ، وروت من أحكامه ما يكفل ضمانات جديدة للموظفين ، فإذا بعض موظفى المحال الأهلية والشركات يكتبون إلى الصحف غاضبين لأن المشروع لم يدخلهم فى زمرة المتنعمين به . لم ينظر هؤلاء الغاضبون إلى الفروق الأساسية القائمة بين مركزهم ومركز موظفى الدولة ، ومنها ما يعتبر مزايا لطائفة الغاضبين ، مثل عدم التقيد باللوائح فى الترقيات ، وجواز الجمع بين المرتب والعمولة ، وأن سلطان القضاء العادى فى إنصافهم إزاء أرباب الأعمال أوسع من سلطانه فى إنصاف موظفى الدولة ، وإن القدر الذى يقع منهم على أموال مخدوميهم يقف عند حد الجنحة ، فى حين يرقى إلى درجة الجناية إذا هو وقع من موظفى الحكومة ، وأن الارتشاء حين يسقطون فيه لا يكوّن أية جريمة ، فإذا سقط فيه موظف الدولة كانت سقطته جناية غليظة العقاب .

لم ينظر هؤلاء الموظفون « الأهليون » إلى شىء من هذا ، ولكنهم سارعوا يطالبون لأنفسهم بامتيازات مجلس الدولة ، ووجدوا صحفاً تصغى إلى أقوالهم وتنشرها لهم ، حين لم يجدوا من يبصرهم بالفروق وينبههم إلى أن من يذكر حقوقه يجمل به ألا ينسى واجباته ، ويقترح على المشرع المصرى أن يسوّى بينهم وبين موظفى الدولة فى مبدأ العقاب على الارتشاء ، كما فعل الشرع الانجليزى فى قانون سنة ١٩٠٦

والمشرع الفرنسي في قانون سنة ١٩٢٠ .

***

لن تصلح أمورنا حتى نذكر واجباتنا ذكرنا لحقوقنا .

ولن نأمن على ديمقراطيتنا وكياننا حتى تسحق الدعوات الطائفيـة والطبقية ، وتنسى الطائفة والطبقة لتذكر الأمة والوطن .

ولن يقوم إصلاح صحيح حتى يصلح المصلحون أنفسهم ويأخذوها بشيء من الرقابة ، فلا يلقوا القول جزافاً ، ولا يطلقوا الدعوة لجة ، ولا يحبسوا في ضمائرهم كلمة الحق رغباً أو رهباً .

عبده حسن الزيات المحامى

« الثقافة » إن الكاتب الفاضل محق في أن تشريع المشرع يجب أن ينظر فيه إلى مصلحة الطوائف من طريق مصلحة الأمة ، ومحق في أن ينبه الطالب بالحق إلى أن عليه بإزاء الحقوق واجبات ؛ ولكنا نخالفه في لومه الطوائف والطالبة بحقوقها ، وخاصة الفلاحين والعمال ، فقد يكون له الحق لو أنهم نالوا أكثر حقوقهم ولما يقوموا بواجباتهم ؛ أما وهم مهضومو الحقوق إلى درجة تدعو إلى الشفقة والرحمة ، فمن الظلم أن نقول لهم : لا تطالبوا بشيء من حقوقكم حتى تؤدوا جميع واجباتكم . بل يجب أن يتوازى الخطان ، وتسمع النغمتان . ثم إن من الحق لكل طائفة بل من الواجب عليها أن تدرس مشاكلها وتحدد مطالبها وتسعى كل السعي في تحقيقها ، وعلى المشرع بعد أن يوفق بين مطالبها والمصلحة العامة للأمة .

وطنـــه الحبيب . . .

مترجمة عن بيرل باك

للأستاذ صلاح الدين ذهني

> تحتل بيرل باك مكاناً رفيعاً بين كتاب القصة المعاصرين ، وقد نالت على إحدى قصصها « الأم » جائزة نوبل لعام ١٩٣٨ ، وهي في هذه القصة التي نقدمها للقراء تعالج نفس الموضوع الذي عالجته في كل قصصها ، وهو الحياة الاجتماعية للصينيين . . .

لم يكن يخالج جون دبوى شانج الشك يوما من الأيام أن شارع موت ، أو الحي الصيني بنيويورك كما يسميه الأهلون ، ليس هو موطنه الأصيل الحبيب .

كان يعرف كل شيء في هذا الشارع : طرقاته الضيقة ، وضوضاءه التي لا تنقطع ، وتلك الحوانيت التي تشغل جانبيه ، وقد امتلأت نوافذها بالبضائع المختلفة من منتجات أمريكا ومجلوبات ما وراء البحار ، وهؤلاء الرجال والنسوة والأطفال ذوو البشرة الصفراء كبشرته ، والعيون السوداء كعينيه ، ومنهم من ولد مثله في هذا الشارع المزدحم المحبوب . . . ولكنه رغم ذلك كان يشعر شعوراً قوياً أن هذا الشارع بما يحمل من معالم ، ليس هو الوطن الحبيب .

لم يكن مصدر ذلك أنه كان يعيش غريباً في هذا الحي إذاً ، ولم يكن مصدره شعور بالكراهية ، فقد نشأ منذ طفولته أيام كانت تحمله أمه على ذراعيها ، يطالع حياة هذا الحي الصاخبة كل يوم في يقظته ، أما في نومه فقد كانت روائح الشاي والعقاقير المختلفة التي يتجر فيها والده تتخلل الدرج النافذ من الحانوت إلى الحجرة العلوية المطلة حيث ينام ، فتملأ أنفه رائحة غريبة كانت ترتبط في واعيته بهذا الحي وساكنيه . وكان عالمه الوحيد في تلك الأيام هو هذه الحجرة الضيقة حيث ينام ، وتلك الفرجة بين ذراعي الأم التي يرى منها الناس يغدون ويروحون .

وحين خطت الأيام قليلا فكبر جون وبلغ السن التي يدفعون فيها بالصغار إلى رياض الأطفال ، لم يطل تفكير والديه في الأمر ، فقد انتهيا وهما على مائدة الافطار إلى تركه حراً يلعب ويمرح حيناً آخر ، ولم يعنه في شيء هذا القرار ، فقد كانت متعة حياته إذ ذاك أن يلهو مع رفاقه في الطرقات ، متسلقين مؤخرة السيارات طوراً ، ومداعبين رجل البوليس طوراً آخر .

وحتى هذا الوقت لم يكن هذا الشعور الخفي الذي يحسه نحو شارع موت إلا شعوراً سلبياً لا يدفع إلى التفكير في شيء ، أو الاقدام على شيء .

إنما أصبح هذا الشعور حقيقة ملموسة تبعث على التفكير ، وتثير في نفسه رغبات وآمالاً ، يوم أرسل إلى المدرسة ، بعد أن أصبح أمر مستقبله لا يحتمل التسويف والتأجيل .

في ذلك اليوم وقفت والدته تعينه على ارتداء ملابسه ، وقد غطى رداؤها الصيني البديع جسدها حتى العنق ، وانساب شعرها الأسود الفاحم في إهمال على جانبي وجهها الباهت اليائس ؛ وكانت وهي تحكم وضع حلته الزرقاء المفضلة

على طراز أردية البحارة، تتكلم في لغتها الصينية التي لا تعرف غيرها، ناصحة إياه بالتزام الأدب ومراعاة ما يجب أن يتصف به الأطفال من خلق حميد.

لقد أنصت لنصحها في حذر وأدب لا يعرفهما في نيويورك إلا أبناء هذا الحي؛ وأنصت من بعد ذلك بنفس الحذر والأدب إلى صوت والده وهو يمحضه النصح ويذكره بأنه من أبناء الصين وبأنه لا يمت لتلك الجموع البيضاء التي تزخر بها المدينة الكبيرة بصلة، إلا تلك الظروف التي قدرت على الوالد أن يعيش بينها حتى ييسر له الرزق فيعود إلى بلاده. أنصت جون إلى كل هذه الأحاديث، وكان آخر صوت رن في أذنيه وهو يسير بصحبة والده إلى المدرسة، صوت والده وهو يردد في حنان وحدب: «كن مؤدباً يا ولدي مع معلمك، وأطع أمر من هم أكبر منك واتجه بكل جوارحك إلى كتبك ودروسك».

هكذا أعد جون دوى شامخ المدرسة سلسلة من النصائح والتحذيرات وعاها جميعاً، وكانت تتجاوب في رأسه الصغير حين وقف والده يقدمه إلى معلمه.

وبدأ جون أول درس في حياته!.

دق الناقوس فأمر التلاميذ أن ينتظموا في صفين متوازيين ويسيروا كل اثنين سوياً إلى حجرة أخرى، فقفز جون إلى مكانه في الصف وقد طفح البشر على وجهه.

واستدار الصفان وسار إلى الأمام كل اثنين متجاورين أمامه وخلفه، إلا هو فقد ظل منفرداً لا يسير إلى جانبه أحد.

ووقف الصفان فإذا به لا زال وحده في منتصف الصفين..

كان كل اثنين يسيران سوياً إلا هو في أحد أجزاء الركب وفتاة صغيرة السن بيضاء الوجه بادنة الجسم تحلى شعرها رباط أحمر. كانت وحيدة مثله في المؤخرة.

وصاحت «مس بكلى» المعلمة بالفتاة:

— مارى: لم تسيرين وحيدة؟ تعالى إلى هنا وسيرى إلى جوار جون.

ولكن الفتاة لم تتحرك بل هزت رأسها في غضب وامتعاض وقالت في إصرار:

— لا. لن يكون هذا. إنني لا أسير إلى جوار فتى من الصينيين.

وأبرقت عينا مس بكلى في غضب، وألقت على الفتاة نظرة قاسية وأجابتها في خشونة:

— حسن جداً يا مارى! سيرى وحدك وسوف أسير أنا إلى جوار جون...

وخيم على هذا الركب الصغير سكون عميق أحس جون أنه ليس سكون الرضا والموافقة، فضغط على يد مس بكلى في حرارة وحماس، لم يكن مصدرهما السرور، بل الشكر. لقد أحس في أعماق نفسه أنه كان يفضل أن يسير إلى جانب مارى، أو على الأقل أن يسير وحيداً دون أن يحدث ما حدث.

* * *

هكذا بدأت دراسة جون، وهكذا استمرت خلال بضعة أعوام تعوّد خلالها أشياء كثيرة. تعود أن يقف منا كثنا كما حان وقت السير، حتى إذا وجد كل تلميذ رفيقه في السير وأصبح هو وحده، تقهقر في انكسار إلى آخر الصف. فإذا كان عدد التلاميذ زوجيا أو كانت هناك فتاة، فإنه يقف بعيداً منتظراً أمر مدرسته، مترقباً شعور زملائه، أهو ترحيب أم استنكار، ولم يحاول يوما أن يقص نبأ هذه المعاملة على والديه أو يظهر ألمه مما يرى. على العكس من ذلك، لقد انطوى على نفسه فأصبح صموتاً مثابراً على الدرس، يحرص دائماً على أن يبدو أنيق الملبس، مظلم النفس، هادئ الطبع؛ كانت كل آماله أن يكون الأول دائماً،

والبرنز دائماً فى كل عام ، مما جعل والديه يفكران فى فرح فى ذلك اليوم الذى ينهى فيه تعليمه ، ويتولى شئون حانوتهما الصغير .

ومع أنه كان يقضى أوقات فراغه مع والده فى الحانوت ليساعده فى مراجعة حساباته ، فلم يكن يدور بخلده أن مصيره هو هذا الحانوت ، يدير شئونه ويخلف والده فيه .

أمر واحد كان يرتسم فى مخيلته ويملأ رأسه ، أن هذه الأرض التى يعيش عليها ليست وطنه ؛ رغبة جامحة لا تقاوم ، كانت تذكره دائماً بهذه الحقيقة ، وبأن عليه أن يذهب فى آفاق الأرض باحثاً عن وطنه الحبيب حالما ينهى دراسته . ذلك الوطن كان كل شىء يذكره به : هذه التحف والعقود والتماثيل ، والنقوش القائمة على الأبواب ، ومئات الأشياء ذات الجمال الغريب الغامض ، التى كان والده يتجر فيها ، كلها كانت تشعل فى نفسه رغبة ملتهبة فى أن يذهب إلى المكان الذى جاءت منه . وكان كلما جلس مع والده ليفرغا صناديق البضائع الآتية من الصين ملكه الاعجاب ، وسبح خياله إلى عالم آخر . . حيث صنعت هذه الأشياء ، وحيث كتبت هذه الحروف العمودية ذات الخطوط المستقيمة . ذلك الوطن الذى تفصله عنه بحار عميقة ، محور آماله فى المستقبل .

لم يكن يشاركه فى هذا الشعور كثير من أقرانه . كان من بين هؤلاء الأقران جورج لى ، وموللى كن ، زميلاه فى درس اللغة الصينية ، اللذان طالما ثارا على هذا الدرس وخاصة موللى . لقد كانت لا تترك فرصة تمر دون أن تسخر فيها بكل ما هو صينى . إنه ليذكر مرة أنه سمعها تصرخ فى أحد الجيران وقد دعاها قائلا : ألم ترغبى يوماً فى الذهاب إلى الصين ؟

لقد أجابت إذ ذاك فى سخرية وبصوت عال : « أنا ؟ معاذ الله ! أأذهب إلى بلاد لم تعرف إلى اليوم ما هو نور الكهرباء ؟ أأذهب إلى بلاد لا زالت تحتجز الفتيات إلى اليوم داخل جدران المنزل ؟ » .

لشد ما آلمه ذلك . إنه ليذكر هذا اليوم جيداً . كان إذ ذاك عائداً إلى المنزل فى غروب الشمس فحدجها بنظرة قاسية ومضى فى طريقه يفكر فى موضوع آخر كان يشغل عقله ؛ كان على أبواب السنة النهائية فى دراسته الثانوية ، ولن تمضى إلا أيام حتى ينتقل إلى الجامعة فتصبح المرحلة بينه وبين تحقيق آماله فى العودة إلى الوطن أربعة أعوام فقط . لقد مر حادث موللى بعقله فى سرعة ، ولم يتعد تفكيره فيه تلك النظرة القاسية التى ألقاها عليها ، ثم احتواه ثانياً تفكيره فى الوطن ، حتى حين علت الضوضاء فى الطريق ، وحين أضاءت المصابيح خيوط الظلام التى أرسلها الغروب ، بدا له الوطن فى صورة جذابة ساحرة ؛ أين منها هذا الضجيج ، وتلك الأنوار التى تعشى الأبصار ؟ لقد تشكلت صورة الوطن عكسياً مع هذا الجو المحيط به ؛ بدت له صورة الوطن الحبيب أرضاً منحوة سوداء ، قد علت سطحها بشائر النبت ، وسماء صافية ترسل النجوم خلالها ضوءاً هادئاً ، لا يتلاعب تلاعب ضوء الكهرباء .

كانت أمه لا تفتأ تحدثه عن هذا الوطن ، وكانت أحاديثها هى المادة التى تتلون بها آماله ، وصورة المستقبل التى يتخيلها لنفسه ؛ فهناك فى القرية الهادئة حيث ولدت أمه ، سوف يجد الفتاة التى يتزوجها ، الفتاة الرائعة الجمال ، لا تشوه جمالها الأصباغ والمساحيق ، الفتاة المطيعة التى تسير أغوار زوجها ، وتسير وفق رغباته قانعة راضية ، لم تشوه قناعتها المدنية التى شوهت نفسية موللى كن وأضرابها .

عبر بهذه الأحلام إلى الجامعة واتخذت صورة الوطن تبعاً لعقله المتفتح صورة جديدة ، وحملت له معانى جديدة ، فقد شبت الثورة فى الصين وحملت الصحف والرسائل

الواردة من الصين أبناء حكومة الجمهورية الناشئة وما تحتاج إليه من عون ، فكون من زملائه جماعة أخذت نفسها بالاقتصاد والتوفير حتى تجمع لها مبلغ من المال هو تسعة عشر دولاراً ، كان جون صاحب النصيب الأكبر فيه ، فقد كان يحرم نفسه وجبة الظهر ليدفع ثمنها اكتتاباً للوطن ؛ فلما تجمع هذا المبلغ أرسل به خطابا إلى حكومة الجمهورية يعلن فيه أن هذا المبلغ منحة بسيطة من أبناء الوطن المقيمين في الخارج ، ويلتمس أن يصرف في سبيل تمهيد الطرق والمواصلات ، ولم تمض ستة شهور حتى وصله الرد من الحكومة يحمل توقيع السكرتير الأول لرئيس الجمهورية ويعلن وصول الاكتتاب ويشكر المساهمين فيه ويدعوهم إلى مواصلة جهودهم لنجدة الوطن .

أى يوم سعيد هذا اليوم الذى وصل فيه الخطاب ؟ لقد اختنق جون بالعبرات التى تحمل مع معنى الفرح شعور الحنين والشوق . لقد حمل الرسالة متهللا ومضى يقرأها لكل من يلقاه . لم تمنه ابتسامات السخرية التى علت بعض الشفاه وهو يتلو فى فخر وفرح قد امتزجا بالعطف رسالة الوطن إلى عاشق من عشاقه . كل ما عناه إذ ذاك هو أنه قد مد يده لأول مرة للوطن الحبيب .. وقد وصلت هذه اليد فعلا إلى أرض الوطن ..

* * *

ومرت أعوام الجامعة الأربعة فأقبل يوم الرحيل إلى الوطن بكل ما يحمل من بهجة وسرور . ولم يحل دونه خاطر عرض له وذهب سريعاً ، خاطر طرأ فجأة حين انتهى آخر أعوام الدراسة : أليس الأولى به أن يدرس حرفة تفيد الوطن كالطب أو الهندسة أو الطيران ؟ .

لم يلبث هذا الخاطر أن تلاشى حين اصطدم بالحقيقة الواقعة ، وهى أن الوطن فى حاجة إلى أبنائه اليوم قبل الغد . تلك الحقيقة ألحت على خاطره فلم يعد مفر من السفر .

ولكن هذا اليوم تأجل آخر الأمر ! .

تأجل بعد أن احتمل فى سبيله متاعب أسبوعين قضاهما فى حزم أمتعته وإعداد ملابسه وشراء تذكرته ، وبعد أن تحدث مع والديه فى كل شىء ، وعرف منهما أقصى ما يريد أن يعرف من بيانات ، وبعد أن حمله كل منهما تحياته إلى الوطن ، فحملته الأم تحيتها إلى جده وجدته لأبيه وإلى إخوتها وزوجاتهم ، وحمله الأب رسالته إلى الوطن التى تتلخص فى أنه يرده مخوراً إلى الأرض التى خرج منها بالرغم منه !

بعد أن تم كل شىء ، وبعد أن قيل كل شىء ، تأجل السفر !

لم يمنعه أحد ، ولم يحل دونه حائل ، وإنما هو نفسه الذى أحجم فجأة ، دافع خفى دفعه إلى هذا الاحجام لم يدركه أول الأمر ؛ لم يكن هذه المدينة الصاخبة ، ولم يكن هذا الحى الذى تربى فيه وأحبه بعض الحب ! ..

جلس فى الليل ينظر إلى الطريق الداوى بمختلف الأصوات ، وقد غشى نفسه حزن عميق .

أى شىء يدفعه إلى هذا الاحجام ؟

هل هذه الأنوار اللامعة التى طالما رآها فلم تثر فى نفسه غير الحنين إلى الوطن الذى تضيئه النجوم الصافية ؟

أم هى وجوه أفراد أسرته التى يحبها ، ولا يحب وجوها سواها ؟

لم يحب وجوها سواها ؟ ؟

حركه هذا الخاطر ، وتدافعت إلى رأسه صور الماضى المتتالية ، فبرز له من خلالها وجه آخر ليس من وجوه عائلته ، وجه جميل القطاطيع ناعم الشعر لعبت فيه يد المدنية لعباً خفيفاً هينا .

هذا الوجه هو سر المتاعب ، إنه وجه موللى كن ! أجل هى موللى التى يريد أن يراها مرة ومرة ومرة ! إنه يريد وجهها دائما .

(لها بقية) **صموع الدين ذهنى**

٣ – ابن الهيثم

للأستاذ مصطفى نظيف بك

أستاذ الطبيعة فى كلية الهندسة

[تلخيص « الثقافة » عن النص الذى نشرته كلية الهندسة (جامعة فؤاد الأول) للمحاضرة الأولى من محاضرات ابن الهيثم التذكارية ، وهى التى ألقاها الأستاذ مصطفى نظيف بك يوم ١٢ أبريل سنة ١٩٣٩ بالكلية ... ...]

قد يكون من التعنت أن نطالب ابن الهيثم برأى يتفق وأمثال هذه الآراء التى تعد من نتاج العصر الحديث . ولكنى أرى فى الوقت نفسه أنه ليس من العدل ولا من الانصاف لابن الهيثم أن نغفل له آراء قررها تتفق اتجاهاتها واتجاهات هذه الآراء الحديثة .

فهو يعقب على أقواله التى أوردناها آنفاً ، ببيان ما تؤدى إليه الطريقة التى رسمها لنفسه بحسب ما يرى . فلا يجزم قطعاً بأنها توصل إلى الحقيقة ، وإنما يؤمل ويرجو رجاء العالم المتواضع فيقول :

« ولعلنا ننتهى بهذا الطريق إلى الحق الذى به يثلج الصدر » .

ثم يقول :

« ونصل بالتدرج والتلطف إلى الغاية التى عندها يقع اليقين . ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات » .

ولنتل قوله بعد هذا :

« وما نحن مع جميع ذلك بُرَآء مما هو فى طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد العون فى جميع الأمور » .

ألا يتفق هذا القول والرأى القائل بأن المعرفة على الوجه العام إنما هى بالاضافة ، وليست على الاطلاق ؟

* * *

ولو كان الأمر مقصوراً على ما أورد ابن الهيثم فى مقدمة « المناظر » من الأقوال لجاز الاعتراض بأننا نميل إلى تحميل أقواله ما لا تحمل من المعانى . ولكن لابن الهيثم أقوالاً فى مواضع أخرى تزيد موقفه بياناً .

فقد اتضح لى أن اتجاه تفكيره العام ، يخول لنا أن نجعله من فريق الواقعيين (Realists) الذين يقولون بوجود العالم الخارجى وجوداً فى ذاته ، وجوداً يصح أن نسميه « موضوعياً » (Objective) وأن الحواس أدوات إدراكه . وهو يرى أن الاعتماد فى البحث عن الحقائق لا بد أن يكون أولاً على الأمور الحسية . وهو ينص على هذا المعنى فى مقالته التى أوردها ابن أبى أصيبعة وأشرنا إليها فيما سبق ، حيث يقول بلفظه :

« فرأيت أنى لا أصل إلى الحق إلا من أمور يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية » .

والحقيقة التى نعتمد فى معرفتها على الأمور الحسية حتما إضافية وليست مطلقة . ولا شك فى أن الحواس كثيراً ما تخطىء . هو نفسه يعلم بهذا بل ويقرر أن العقل يخطىء أيضاً ، يخطىء فى القياس ويخطىء فيما يسميه « المعرفة » (Cognition) وأقواله فى كيفية إدراك المبصرات ، وعلل أغلاط البصر ، تشف عن رأيه أن فى الاستطاعة معرفة علل الأخطاء أو الأغلاط ، وفى الاستطاعة اجتنابها . إذاً فى الاستطاعة إدراك الشىء إدراكا « محققاً على غاية التحقيق »

وليس هذا المحقق على غاية التحقيق مطلقاً بل هو «بالاضافة إلى الحس» تلك عبارته بلفظه .

ورأىُ ابن الهيثم فى قيمة النظرية العلمية ووظيفتها يتضح بجلاء من قول له رواه «البيهقى» وقال إنه من رسالة كانت آخر ما كتب . قال :

« تخيلنا أوضاعا ملائمة لحركات السماوية . فلو تخيلنا أوضاعا أخرى غيرها ملائمة أيضاً لتلك الحركات ، لما كان من ذلك التخيل مانع . لأنه لم يقم البرهان على أنه لا يمكن أن يكون سوى تلك الأوضاع أوضاع أخر ، ملائمة مناسبة لتلك الحركات » .

ابن الهيثم وفق فى اختيار المثال . والمعنى فى نظرى عميق وجليل . كلنا يعلم أنه كان السائد فى علم الفلك القديم إلى عصر « كوبرنيكوس » نظرية بطليموس فى حركات الأجرام السماوية . وفى هذه النظرية كانت الأرض تعد مركز العالم . وكانت النجوم الثوابت تعد متحركة حركات مستديرة حول قطب العالم . وكانت الكواكب السيارة يعد الواحد منها متحركا حول محيط دائرة يتحرك مركزها حركة مستديرة حول الأرض . تلك بإيجاز نظرية بطليموس . وهى التى كان يعول عليها فى علم الفلك القديم . حقيقة أن النظرية قبل ابن الهيثم كانت تقتصر فى هيئة الأفلاك على الدوائر المجردة ، وابن الهيثم نفسه فى مقالته « فى هيئة العالم » عدلها وذهب إلى القول بتجسم الأفلاك وفصل أحوالها . ولكن هذه تفصيلات لا شأن لنا بها الآن . والذى يعنينا من الأمر فى هذا المقام أن هذه هى الأوضاع التى كانت تخيلت لحركات السماوية . وهذا التخيل هو النظرية التى كانت متبعة لأنها تناسب المعلومات الخاصة بتلك الحركات فى ذلك العصر .

ابن الهيثم يقرر صراحة أن مثل هذه النظرية لا يوجد برهان يلزمنا بها دون غيرها ، ومن الجائز أن تتخيل نظرية أخرى تكون مناسبة ملائمة لتلك الحركات . فهو يذهب إلى أبعد مما كان مسموحاً به فى العلم ، خصوصاً علم الطبيعيات إلى عهد قريب . لأنه يجيز قيام نظرية بجانب نظرية أخرى مادامت هى أيضاً تلائم وتناسب الواقع المعلوم .

انظروا كيف أجاز هذا الرجل استبدال النظرية الفلكية الحديثة بالنظرية الفلكية القديمة ، قبل أن يدرك العالم ضرورة هذا الاستبدال بأجيال وقرون . وكيف أجاز هذا الموقف الذى اضطر إليه علم الطبيعة الحديث ، لا إزاء نظرية الكم والنظرية الموجية فحسب ، بل إزاء « هيزنبرج » و« شرودنجر » أيضاً ، بل انظروا كيف ينظر « اينشتين » إلى ظاهرة الجاذبية خلال « قاعدة التكافؤ » « Principle of Equivalence » بالمعنى التى كان ينظر بها هذا الرجل منذ تسعة قرون !

هذه الناحية من ابن الهيثم بينتها فيما سبق بالاعتماد على أقوال له وردت فى مواضع مختلفة ، وفى اعتقادى أن هذه الأقوال تبين اتجاه تفكيره العام . فانسجام المعانى التى تنطوى عليها وتلاؤمها بعضها بالآخر ، يجعلانها أدنى إلى أن تكون عناصر تفكير مُنتج موحد من أن تكون خواطر عارضة .

ليكن الأمر كذلك ، وليكن أن ابن الهيثم قد رسم فى مقدمة « المناظر » خطة للبحث تتوافر فيها عناصر الطريقة الحديثة وتتوافر فيها شرائطها ، ولكن يصح لنا أن نتساءل : ما هى الأدلة على أن ابن الهيثم قد طبق هذه الخطة فى بحوثه وسلك سبيلها عملا وفعلا ؟ فإن وضع الخطط شيء وتنفيذها شيء آخر .

ابن الهيثم فى جميع بحوثه عن الخواص العامة للضوء ، بدأ بالبحث عن الأمور الموجودة فى الواقع على ما هو عليه . والأمور الموجودة فى الواقع قد تكون فى بعض الأحوال سهلة المنال يسيرة الادراك ، تكفى فيها المشاهدة أو تكفى فيها الخبرة المتادة ، ولكنها فى أكثر الأحوال يحتاج لمعرفتها إلى شيء من اتخاذ العدة وتكييف الظروف ، أى يحتاج لمعرفتها إلى تعديل وتحوير وتغيير فى الأحوال ، عسى أن يتيسر استقراء أمر تشترك فيه الظواهر المبحوث عن

حقائقها ، لا يبدو أول وهلة بوضوح ، لأنه يعرض مع أمور أخرى تخفيه عن الادراك . إن معرفة الحقــائق الأولية فى الأمور الطبيعية تحتاج إلى إجراء ما نسميه الآن تجارب ، هى عدة العلم الطبيعى الوحيدة فى الوقت الحاضر لاستقراء الأحكام العامة ، ولتحقيق نتائجها القياســية . فهل كان اعتماد ابن الهيثم مقصوراً على ما يسهل ملاحظته ومشاهدته ؟ أم هو قد تعمق فى دراساته فسبر حقائق الأمور باجراء التجارب واستخلص عناصرها من نتــائج هذه التجارب بالاختصار أو الاختزال وبالتجريد ؟

درس ابن الهيثم انتشار الأضواء على السموت المستقيمة ودرس انعكاسها ودرس انعطافها ، وأول ما عنى به فى دراساته جميعها البحث العملى عن كيفيــة حدوث هذه الأمور باجراء التجارب ، التجارب التى اتخذ فيها أجهزة وآلات خاصة ، وجرى فى استعمالها على نظام .

ومما هو جدير بالذكر أن له اصطلاحاً خاصاً — عبر كلمة التجربة — عبر به عن معنى (Experiment) فى الاصطلاح الحديث . هو يعبر عنه بلفظ « الاعتبار » ، ويقول عن الشخص الذى يجرى « الاكسبرمنت » « المعتبر » ، ويقول عن الاستدلال على صحة أمر من الأمور ، أى مطابقته للواقع باجراء « الاكسبرمنت » ، « الاثبات بالاعتبار » ، تمييزاً له عن الإثبــات بالقياس . بل هو أدرك أن « للاعتبار » فى البحث العلمى وظيفتين : الأولى استقراء الأحكام أو القوانين العــامة ، والثانية التحقق من صحة نتائجها القياسية . ويكفينى أن أورد مثالا سهلا بسيطاً .

كشف ابن الهيثم على أساس الاستقراء المبنى على الاعتبار عن الصفة أو الكيفية العامة التى تمتد عليها الأضواء فى الأوساط المشفة ، ووضع لذلك حكما عاما ، ثم استأنف النظر ، واستنبط مثلا ما يترتب على هــذا الحكم من حدوث الأظلال وأشباه الأظلال وأشكالها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، بل مضى ليثبت « إثباتاً بالاعتبار » أن الأظلال وأشباه الأظلال تحدث فعلا على تلك الصفة التى استنبطها ، أى التى توصل إليهــا من ذلك الحكم العام بالقياس .

وعلى هذا المنوال أيضاً فى بحوثه الأســاسية عن الانعكاس والانعطاف .

لا شك عندى فى أن ابن الهيثم أدرك أن الحقائق العلمية يجب أن يكون الطريق إلى معرفتها الاستقراء المبنى على المشاهدة أو الاعتبار ، ثم يجب أن تكون نتائجهــا القياسية متفقة والواقع الموجود ، الذى وسيلة معرفته المشاهدة أو الاعتبار . ولا شك عندى أيضاً فى أنه كان يرى أنه ما لم يتوافر هذان الشرطان فليس القــول حقيقة علمية . وليس يجوز الاعتماد عليه بحال من الأحوال . أعزز قولى الأخير هذا بمثال واحد أكتفى به ، وهو بحث له يتبين منه هذا بأجلى بيان .

لم يكن فى عصر ابن الهيثم معروفاً على التحقيق كيفية اشراق الضوء من القمر . فأصحاب التعاليم أى علماء الرياضة والفلك ، كانوا يقولون إن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكساً عن سطحه كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة كالمرايا مثلا . فأراد أن يختبر صحة هــذا القول . فانظروا ماذا فعل .

أجرى بحثاً هندسياً ، متسلسل الخطوات مستوفى البراهين ، قدر به الجزء من مساحة سطح القمر ، الذى ينعكس عنه إلى نقطة من سطح الأرض الضوء الواقع من الشمس على سطح القمر كله . وذلك على فرض أن سطح القمر كرى محدب . فوجد أن ذلك الجزء هو مساحة صغيرة من سطح القمر لا يتجاوز طولها القوس التى توتر عند مركز القمر زاوية قدرها ٣٤ دقيقة ، ولا يتجاوز عرضها القوس التى توتر عند مركز القمر زاوية قدرها ١٧ دقيقة . وأثبت أن هذا الجزء الصغير يقع من سطح القمر على الجزء المقابل للنقطة المفروضة على سطح الأرض وحوالى الجزء الأوسط منه . وبما أن هذه النتيجة التى أثبتها بالبرهان الهندسى لا تتفق والواقع المشاهد من الأمر ، فليس يكون

الضوء المشرق من القمر هو كما يقول أصحاب التعاليم ضوء الشمس منعكساً كما ينعكس عن سطوح الأجسام الصقيلة؛ وقد راعى فى هذا البحث تأثير الانعطاف أيضاً.

على هذه الصفة أبطل تلك النظرية وأقام على أنقاضها نظرية فى ضوء القمر، هى أن ضوء القمر هو ضوء ثانوى أو عرضى يشرق من سطح القمر المستضىء بالضوء الذاتى المشرق من الشمس، كما يشرق الضوء من جسم كثيف معتاد إذا وضع بالقرب من جسم مضىء بذاته، وليس هو ضوء منعكس بالمعنى الخاص بالانعكاس.

والناحية «الاعتبارية» Experimental من بحوث ابن الهيثم لها جانب جدير فى نظرى بالذكر وجدير بالتقدير. فابن الهيثم لا يكتفى عند شرح «الاعتبار» بوصف الآلة أو الجهاز، وبوصف كيفية إجراء «الاعتبار»، بل يأتى بشرح مسهب مفصل، لكيفية صنع الجهاز بل الأجزاء المختلفة للجهاز الواحد، من المواد الخام التى تصنع منها. وهذا له فى نظرى دلالته. فهو يدل على أن الأجهزة التى استعملها ان لم يكن هو نفسه قد قام بصنعها بيديه، فهى على أقل تقدير قد صنعت بناء على تصميمه وإرشاده وتحت إشرافه؛ وإن كان بعض هذه الأجهزة قد سبقه إلى أمثالها المتقدمون، فإنه لا شك عدلها وغير تصميمها بما جعلها توفى له الأغراض التى طلبها. فجهازه الذى اعتبر به فى الانعكاس وجهازه الذى اعتبر به فى الانعطاف، يختلف كل منهما اختلافاً جوهريا عن نظيره الذى ذكره بطليموس فى كتابه فى المناظر. ولا شك أن كلا من جهازى ابن الهيثم أكثر تعقدا من نظيره من جهازى بطليموس. وصنع مثل هذه الأجهزة فى عصر لم يكن مزوداً بمثل الآلات والعدد الميكانيكية المعروفة الآن بالمقاييس والأبعاد والتدريجات المضبوطة، يدل فى نظرى على أن ابن الهيثم قد اجتمعت فيه الصفات التى تؤهله لأن يكون من بين علماء الطبيعة عالما اجتمعت فيه القدرة الرياضية الرفيعة التى تتجلى فى النواحى الرياضية من بحوثه، مع الكفاية العملية الممتازة، التى يدل عليها صنع مثل هذه الأجهزة واستعمالها فى الأغراض المختلفة.

ولتعقد أجهزته الأساسية فى نظرى سبب وجيه؛ فنحن كثيراً ما يكفينا فى الوقت الحاضر عند توضيح قانونى الانعكاس مثلا اعتبار بسيط نقنع فيه بانعكاس ضوء الشمس مثلا عن سطح مرآة أو صفيحة مصقولة مستوية. ولنا شىء من العذر. فقد أصبح قانونا الانعكاس من الأمور المألوفة التى يتلقاها التلاميذ كما يتلقى صغارهم أن الأرض كرية مثلا. ولأننا نتوقع أن المبتدئ بدراسة علم الضوء سيعرض عليه فى أثناء دراسته أمر الانعكاس عن المرايا الكرية مثلا، وسيقال له إن الجزء الصغير من السطح الكرى أو بوجه عام من السطح المنحنى، هو بمثابة جزء صغير من سطح مستو. وإذاً يكون حكم الانعكاس عن الأول كحكم الانعكاس عن الثانى. أو كما يقال. ولكن مثل هذا التصرف لا يليق فى عصر كانت هذه الأمور فيه إما موضع أخذ ورد، وإما لا تزال فى عالم الغيب. وليس يليق بمن كلف نفسه مشقة البحث عن حقائق هذه الأمور، إلا أن يستقصى أكثر ما يمكن من الأحوال. فضوء الشمس قد ينعكس على صفة معينة من السطح المستوى الصقيل، ولكن ما يدرينا أنه ينعكس على هذه الصفة نفسها عن السطح الكرى أو الاسطوانى أو المخروطى المحدب والمقعر؟ وإن ثبت أن ضوء الشمس ينعكس على هذه الصفة عن هذه السطوح، فما يدرينا أن ضوء النار أو ضوء القمر أو ضوء النهار أو الضوء المشرق من جسم كثيف مستضىء بالضوء المشرق من جسم مضىء بذاته، أو ما إلى ذلك، ينعكس عن هذه السطوح جميعاً على الصفة نفسها؟ هل من سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالاعتبار بهذه الأضواء جميعا، وبهذه السطوح الصقيلة جميعاً؟

مصطفى نظيف

استدراك

ورد فى الجزء المنشور من هذه المحاضرة بالعدد ٣٢ ص ٣٢ السطر ١٩ العمود الثانى «فرنسيس باكون أحد فلاسفة الانجليز وكتابهم فى القرن التاسع عشر» وصوابه «فى القرن السابع عشر»

من أحسن ما يُروَى
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

أبو نواس

من شعراء القرن الثاني ، وهو من طلائع المجددين في الشعر العربي الذين لهم أبلغ الأثر في اتساع ثروته وامتداد أفقه إلى مدى بعيد ، وتشعب أغراضه ومناحيه ، والنهوض به إلى المستوى الرفيع في ألفاظه ومعانيه ، والوثوب به إلى أبعد غاية من الفن الرفيع ، والخروج به عن أسر التبعية الذلة ، والتقليد الميت ، والتخلف المزرى ، وتمهيد سبيله إلى قلوب الخاصة والعامة ، فصار شديد الاتصال بها ، سريع النفوذ إليها ، لأنه يخاطبها بلغتها ويترجم عن عواطفها ويعبر عن مشاعرها وإحساساتها ؛ كما يصور غرائز النفوس أحسن تصوير وأدقه ، وينفذ إلى البعيد الخفي منها من غير تكلف ولا جهد .

وكان ماقبله من الشعر إنما يقرأ لمعرفة الغريب ، وتفهم الأساليب ، واستجلاء القواعد ؛ وما إلى ذلك من غايات لفظية محضة ، لا صلة بينها وبين القلوب .

فإذا قرأت شعر العصور التي قبل أبي نواس وبشار ثم انتقلت إلى شعر هذين العبقريين ، أحسست أنك وثَبْتَ وثبةً بعيدةً المدى لم تكن في حسابك ، وانتقلتَ من طَوْرٍ إلى طور آخر بينه وبين سابقه من التباعد مثلُ ما بين الجفاف والنضرة ، والجدوب والخصب ، والحياة والموت ؛ وتبين لك أن رسالة هذين الشاعرين في إنهاض الشعر كانت عسيرة شاقة ؛ لأنها — وإن كانت رسالة تجديد من القدم — فإنها من ناحية أخرى رسالة إحياء من العدم ، فقد دفعا بالشعر دفعةً قويّة تحوّل بها عن طريقه الضيق المسدود وسار في طريقه الواسع إلى الكمال ، حتى استطاع الشعرُ العربيُّ أن يسايرَ الشعر في أعظم الأمم حضارة وأوسعها ثقافة .

غير أني ألاحظ مما طالعته من شعرهما تردداً ظاهراً بين التجديد والتقليد ؛ فبينا نرى أبا نواس ينعَى على مذاهب القدماء في ذكر الأطلال والرسوم ، وما تعاورها من رياح وغيوث ، ووصف الإبل والفلوات ، ويطيل في تسفيه تلك المذاهب والنيل منها ما اتسعت له بلاغته القوية وقريحته الخصبة ، ويبغى من اتباعها أشد النعي ؛ إذا به يأخذ بتلك المذاهب أخذاً قويا ، ويسير على طريقة القدماء مقلداً لهم تقليداً دقيقاً حتى يكاد يفوقهم ، فيذكر الأطلال والرسوم كما ذكروها ، ويصف الإبل والفلوات كما وصفوها ، محاكياً لهم كل المحاكاة في فخامة العبارة ، وكثرة الغريب .

وأكثر ما نرى ذلك في مدائحه للخلفاء ومن يقرب من منزلتهم .

ولا أدرى سبب هذا التردد ؛ وأظن أنه كان يقصد بشعره التقليدي إلى دفع حجة من ينعون عليه تجديده والخروج على مذاهب العرب ، حين ينسبون ذلك إلى العجز والقصور عن مجاراة القدماء ، والجهل بمذاهبهم .

أو أنه يرى ميل الخلفاء إلى تلك المذاهب القديمة في الشعر ، وتعلقهم بها ، وتقريبهم لمن يسير عليها من الشعراء ، وإقصاء غيرهم من المحدثين ؛ فهو يجرى في مدائحهم على ما أحبوا ليرتفع شعره لديهم ، وينال من جوائزهم ما ينال غيره منهم .

أما ما يتميز به أبو نواس بين جميع شعراء العربية ، سواء في ذلك من عاصره منهم ، ومن جاء قبله أو بعده ، فهو أنه أوصفهم للخمر ، من حين اعتصارها إلى أن تحيل

بالرءوس، وأحدهم لآثارها، وأحذقهم بالدواء من خُمَارها، وأكثرهم حثاً عليها وثناءً على شاربيها، وأحسنهم تشبيهاً لحبابها الطافى، من حين يطفو على سطحها حتى يذوب فى كؤوسها، وأدقهم تمييزاً بين عتيقها وحديثها، وجيّدها ورديئها، وأخبرهم بما مضى عليها من الزمان، وأوصفهم للكؤوس والدِّنان، وأغزلهم فى السُّقاة من ذكور وإناث، وأدقهم تصويراً لما فى شمائلهم من ظَرف وفتنة، وأحسنهم تعبيراً عما يحدث بين هؤلاء السقاة وبين الجلساء، من مبادلة الاشارات، ومخالسة النظرات، وأوصفهم لحال الخمَّار حين يطرقه فى الغَلَس مع رُفقته، وينبّهونه من غَفْوته، فيقوم يمسح الكرى عن عينيه، ثم يملأون بالذهب يديه، ليختار لهم من الخمر أطيب مالديه؛ كل ذلك وأكثر منه يبرزه فى ثوب فاتن من الجمال والسحر، فينال من نفس سامعيه أكثرَ ما تنال الخمرُ من لبّ شاربها؛ وقد قال بعض العلماء بالشعر: خمريات أبى نواس كؤوس مصفاة لا أشعار مقفاة.

وما رأيت وصفاً يغنى جمالُه عن جمال الموصوف كخمريات أبى نواس وغزله.

ويرجع هذا الاتجاه فى شعر أبى نواس إلى أسباب، أهمها — فيما أرى — صحبته فى أول عهده لأبى أسامة والبة ابن الحباب؛ وكان من هؤلاء الخلعاء المُجّان الذين لا يبالون أىّ قول أو عمل يأتونه، ولا يكترثون بما يقول الناس فيهم؛ وقد كانت صلة أبى نواس به صلة التابع لمتبوعه والتلميذ لأستاذه.

والحديث عن أبى نواس يطول لمن أراد أن يتسع فى الحديث عنه، فأكتفى الآن بهذا القدر القليل عنه خشية أن يخرج بى الحديث عما أقصد إليه، وأن يصير دراسة لا اختياراً.

وسأستوفى الكلام عن جميع نواحيه فى عدة مقالات أخر كلما اخترت شيئاً من شعره، ليكون من مجموع ذلك فصل طويل واف بجميع ما لأبى نواس وما عليه.

وهو أبو على الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصبّاح؛ كان أبوه مولى للجراح بن عبد الله والى خراسان، وأمه أهوازية؛ وكان أبو نواس واسع العلم كثير الحفظ حتى نُسب إلى الشافعى — رحمه الله — أنه قال: «لولا خلاعته لأخذت عنه العلم».

ولد فى سنة خمس وأربعين ومائة، وتوفى فى سنة خمس وتسعين ومائة.

وتلك مقطوعات أربع من روائع خمرياته التى حدثتك عنها بما لا يدع فى نفسك حاجة إلى زيادة، قال:

— ١ —

أثنِ على الخمرِ بآلائها ... وسمِّها أحسنَ أسمائها
لا تجعلِ الماءَ لها قاهرًا ... ولا تسلِّطها على مائها
كرخيّةٍ قد عُتِّقت(1) حِقبةً ... حتى مضى أكثرُ أجزائها
فلم يكدْ يُدرِكُ خمّارُها ... منها سوى آخرِ حَوبائها(2)
دارتْ فأحيَتْ غيرَ مذمومةٍ ... نفوسَ حَسْراها وأنضائها(3)
والخمرُ قد يشربُها معشرٌ ... ليسوا إذا عُدُّوا بأكفائها

— ٢ —

اسقني والليلُ داجِ ... قبلَ أصواتِ الدجاجِ
اسقني صهباءَ صِرفًا ... لم تُدنَّسْ بمزاجِ
تخطفُ الأرواحَ صُرَّاكها ... فى أباريقِ الزجاجِ

(1) عتقت: أطيل زمان حبسها فى الدن. والحقبة المدة من الزمن.
(2) الحوباء النفس.
(3) أنضاؤها: أى الذين أهزلهم حبها والشوق إليها.

وغزالٍ من بني الأصـ ـفرِ مغضوبٍ متاحِ
شخصُه مني بعيدٌ وهواهُ كالمُناجي
يا أبا القاسمِ صبِّحْهُم كلُّ همٍّ لأفراحِ

— ٣ —

وإذا عددتُ سنيَّ كم هي لم أجدْ
للشيبِ عذرًا في النزولِ برأسي
قالوا كبِرتَ فقلتُ ما كبِرتْ يدي
عن أن تخفَّ إلى فمي بالكأسِ
وكأنّ شاربَها لفرطِ شعاعِها
بالليلِ يكرعُ في سنا مقباسِ(1)
والراحُ طيّبةٌ وليس تمامُها
إلا بطيبِ خلائقِ الجُلّاسِ

— ٤ —

كانَ الشبابُ مطيّةَ الجهلِ
ومحسِّنَ الضحكاتِ والهزلِ
كانَ الجميلَ إذا ارتديتُ به
ومشيتُ أخطرُ صيِّتَ النعلِ(2)
كانَ الفصيحَ إذا نطقتُ به
وأصاختِ الآذانُ للمُملي
كانَ المشفَّعَ في مآربِه
عندَ الفتاةِ ومُدرِكَ التَّبْلِ(1)
والآمِري حتى إذا عزمتْ
نفسي أعانَ يديَّ بالفعلِ
فالآنَ صرتُ إلى مقاربةٍ(2)
وحططتُ عن ظهرِ الصِّبى رحلي
والكأسُ أهواها وإن رزأتْ
بُلَغَ المعاشِ وقلّلتْ فضلي
ذُخِرَتْ لآدمَ قبلَ خِلقتِه
فتقدّمتْه بخطوةِ القَبْلِ
فأتاكَ شيءٌ لا تُلامِسُه
إلا بحسِّ غريزةِ العقلِ
فإذا علاها الماءُ ألبسَها
حَبَبًا كمِثلِ جلاجلِ الحِجْلِ
حتى إذا سكنتْ جوامحُها
كُتِبَتْ بمثلِ أكارعِ النملِ
خطَّينِ من شتّى ومجتمعٍ
غُفْلٍ من الإعجامِ والشكلِ
فاعذرْ أخاكَ فإنّه رجلٌ
مرنتْ مسامعُه على العذلِ

أحمد الزين

(١) سنا المقباس: ضوؤه.

(٢) يريد بقوله صيت النعل أنه يسمع لنعله صوت حين يمشي، وذلك من أمارات القوة والاختيال بالشباب كما هو معروف.

(١) التبل: الثأر.

(٢) يريد بالمقاربة، تقارب خطاه بعضها من بعض.

أنباء وآراء

فى تأبين أديب

أقام نادى بلدية الاسكندرية يوم الاثنين الماضى حفلة رائعة تأبيناً للفقيد الأديب المرحوم فليكس فارس ، اشترك فيها فريق من أدباء الاسكندرية بخطبهم وقصائدهم . وأشادوا بما كان للفقيد الكريم من فضل على الأدب العربى . وكان من أوضح مظاهر هذه الحفلة تلك الرابطة القوية بين الأدباء فى الاسكندرية ، وذلك الشعور الفياض بالخسارة التى لحقت أندية الأدب ، فى الاسكندرية خاصة ، بفقد عضو عامل كالمرحوم الأستاذ فيلكس فارس .

هافلوك إليس والمشكلة الجنسية

مات منذ عدة أسابيع هافلوك إليس أعظم علماء الانجليز الذين عنوا بالمشكلة الجنسية .

وتعد حياة إليس مثالا من أمثلة التطور الفكرى النادرة ، فقد انصرف أول أمره إلى الطب ونال شهادته كطبيب ، ولكنه مال بعد تخرجه إلى الأدب والشعر ، فكتب كثيراً من القصائد والقصص ، ثم اتجه إلى الفلسفة فأنتج فيها إنتاجاً وافراً ، ثم انقطع بعد ذلك إلى



هافلوك إليس

المشكلة الجنسية ، فبلغ خمسة عشر عاماً من عمره وضع فيها كتابه الضخم عن دراساته فى الغريزة الجنسية ، وهو يحوى اثنى عشر مجلداً ، عالج فيها كل ما يتصل بالغريزة الجنسية . وكان من أطرف ما كتبه المقدمة التى قدم بها لكتابه هذا ، والتى أوضح فيها غرضه من وضع هذا الكتاب ، وقد بدأها بقوله : « لقد ووجهت منذ شبابى – كأى شاب – بالمشكلة الجنسية ، فلما أتيح لى أن أقضى ردحاً من الزمن فى إحدى مدن أستراليا ، اتسع أمامى الوقت للتفكير والتأمل ، وقد علق بى نتيجة لهذا التأمل إيمان قوى بأن جزءاً رئيسياً من حياتى العملية يجب أن يكرس لجلاء الغامض من مشكلة الغريزة الجنسية » .

وقد لاقى هافلوك إليس أول الأمر من العنت والاضطهاد لما يبديه من آراء فى هذه المشكلة ما لاقى ، ولكنه لم ينثن عن مواصلة أبحاثه ودراساته ، فلم تمض سنوات من أوائل القرن العشرين حتى انقلب الاضطهاد اهتماماً وعناية ، وإن كانت أعماله وآراؤه لم تقابل بالارتياح التام إلا بعد نهاية الحرب العظمى ، حيث وضع بجدارة فى مكانه الذى غادر العالم وهو متمتع به كعالم من أعظم علماء القرن العشرين والتاسع عشر على حد سواء .

أقدم شعر فى التاريخ

قد يظن القارئ أول وهلة أن أقدم شعر عرفته الإنسانية هو الشعر الهندى فى أثريه المعروفين الراماياما والمهابهارتا ، وكذلك الشعر الهومبرى ، لأن كليهما يعود تاريخه إلى ما لا يقل عن عشرة قرون قبل الميلاد .

ولكن الأستاذ جورج كونتنو أمين القسم الشرقى بمتحف اللوفر ، بمجموعة الأشعار التى قدمها أخيراً مترجمة عن البابلية تحت اسم «ملحمة جلجاميش»(١) ، يؤكد أن هذه المجموعة هى أقدم شعر عرفته الإنسانية ، لأن تاريخها

---

(١) L'Epopée de Gilgamesh, Poeme Babylonien . Par George Contenau

يرجع إلى ما قبل التاريخ المعروف .

وهذه المجموعة عبارة عن ملحمة شعرية تقص نبأ حياة جلجاميش بطل القصة وكيف أنه مركب من جزء من الإنسان وجزأين من الآلهة ، على عكس خصمه أنكيدو المركب من طبيعة حيوانية صرفة . وتفيض الملحمة بعد ذلك في وصف بطولة جلجاميش وكيف أنه قاد انكيدو المركب من طبيعة حيوانية إلى أرض خصبة وأكسبه صفات إنسانية ، ولكنهما بعد ذلك اختلفا وتخاصما ونشبت بينهما معركة تشبه في كثير البارزات التي وصفتها الإلياذة والمهابهارتا . ولكنهما خرجا أخيراً من هذه المعركة صديقين لا ينفصلان .

وهكذا تمضي القصة في سرد أنباء جلجاميش سليل الآلهة وانكيدو ممثل الحيوانية ، حتى يموت انكيدو ويحزن عليه جلجاميش ويصرف وقتاً باحثاً عنه ومتحريا عن حقيقة الموت دون جدوى .

وقد صدرت هذه الملحمة بالفرنسية منذ أسابيع قلائل مقدمة ببحث طريف عن تاريخ العصر الذي تصفه بقلم المسيو كونتنو مترجمها .

طراز حديث للمكاتب

تم أخيراً بناء أحدث مكتبة في العالم في ليستر بانجلترا ، وقد راعى القائمون ببنائها أن تسهل لروادها الاتصال بالكتب مباشرة دون الحاجة إلى الفهارس ، بأن جعلوا الرفوف التي توضع فيها الكتب في ممرات واسعة يستطيع أن يسير فيها المطالعون كل في القسم الذي يود أن يبحث فيه ، وجعلت أماكن المطالعة في مواجهة هذه الرفوف ، وأنشئت فيها قاعة للمحاضرات تسع مائتي مستمع ، ووضع لها نظام خاص يجعل منها جامعة صغيرة لمختلف أنواع الدراسات .

وقد جهزت هذه المكتبة بعشرة آلاف مجلد للاستعارة ، وحوت حوالى أربعة آلاف مجلد من الكتب النادرة للمطالعة الداخلية .

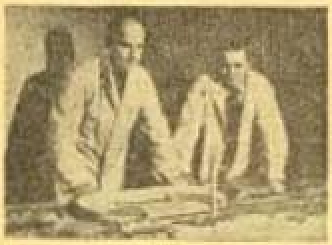


مكتبة ليستر

ويرى القارىء صورة المنظر الخارجي لهذه المكتبة يتبين منه مدى الاناقة التي روعيت في إنشائها .

في عالم الرياضة

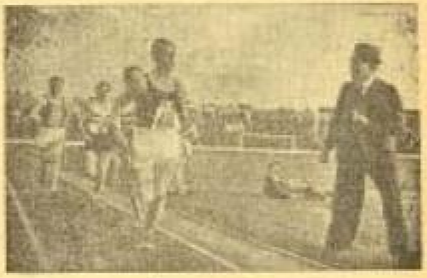
بالرغم من الأصوات التي تتجاوب في العالم عن توقع حدوث حرب عالمية ، فان العمل يجرى بنشاط في هلسنجفور عاصمة فنلندا ، استعدادا للدورة الأولمبية لعام ١٩٤٠ ، وذلك بعد أن رفضت الاتحادات الرياضية إرسال مندوبيها لليابان احتجاجاً على غزوها للصين .



المهندسون الفنلنديون يضعون تصميم الملعب لدورة سنة ١٩٤٠

ومن أطرف ما يروى أن رجلين من بولندا شرعا في عام سنة ١٩٣٧ في السير على أقدامهما من بولندا إلى طوكيو حيث تقرر أن تقام دورة عام ١٩٤٠ ، فلما عدل عن إقامتها

فى اليابان وصدر قرار اللجنة الأولمبية بإقامتها فى فنلندا كانا قد وصلا إلى أفغانستان ، فشرعا فى العودة ثانياً بعد أن قطعا كل هذه المسافة .



أعضاء الفريق الفنلندى بتمرينون

وتعتبر الألعاب الأولمبية من أقدم التقاليد الرياضيـة الباقية ، فقد كانت تقام فى بلاد اليونان فى أولمبيا ، وظلت كذلك خلال اثنى عشر قرناً ، حتى منعها أحد الحكام المسيحيين « تيودسيوس » حوالى عام ٣٨٩ م .

وظلت ممنوعة حتى أعيدت إقامتها عام ١٨٩٦ . وظلت منذ ذلك التاريخ إلى اليوم تقام كل أربع سنوات فى بلد من بلدان العالم ؛ فأقيمت على التوالى فى باريس ، وسانت لويس ، وستوكهلم ، وانتورب ، وامستردام ، ولوس انجيلوس ، وبرلين ؛ وقد كانت الدورة الأخيرة فى برلين أعظم مهرجان رياضى شهده العالم إلى اليوم .

محكمة كوم حادة الأهلية

إنه فى يوم السبت ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ صباحاً بكفر داود ويوم الثلاثاء ٢٩ منه بسوق الخطاطبة سيباع علنا المواشى الموضحة بمحضر الحجز بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٣٩ ملك عامر على على بناحيـة كفر داود مركز كوم حاده نفاذاً لحكم الصادر فى القضية نمرة ٨٦٤ سنة ١٩٣٩ وايلى وفاء لمبلغ ١٠ جنيهو ٨٢٠ مليم قيمة المحكوم به خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب حسن افندى سيـد أحمد البكى المقيم بشارع القرلى نمرة ٦ بالعباسية قسم الوايلى بمصر

فعلى راغب الشراء الحضور ١٤

محكمة دمياط الأهلية

إنه فى يوم السبت ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٩ بناحية السيالة شطوط دمياط من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً وفى يوم الخميس ٢٤ منه بسوق دمياط أمام بندر دمياط من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً إذا لم يتم البيع الأول سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك محمد حسن كيوان وآخرين نفاذاً لحكم الصادر من محكمة دمياط الأهلية نمرة ٢٥٩٠ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ثمانين قرشاً صاغاً المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب حسانين أحمد أبو محمود من السيالة شطوط دمياط

فعلى راغب الشراء الحضور ١٥

محكمة بنها الجزئية الأهلية

إنه فى يوم الأربعاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ بناحية كفر أبو ذكرى مركز قويسنا من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً وفى يوم الأربعاء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بسوق قويسنا سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك خالد حسن زغلول من ناحية كفر أبو ذكرى مركز قويسنا نفاذاً لحكم الصادر من محكمة بنها الأهلية بتاريخ ١٦ يناير سنة ١٩٣٩ فى القضية المدنية نمرة ٥٩٦ سنة ١٩٣٩ كطلب حافظ محمد محمد نرزى عزيز ومقيم بناحية اسطنها مركز قويسنا منوفية وفاء لمبلغ ٥٨٧ قرش صاغ قيمة الباقى من المحكوم به والمصاريف وما يستجد

فعلى راغب الشراء الحضور ١٦

إعلان بيع

إنه فى يوم الاثنين ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بشرباص مركز فارسكور سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك السيد الخميس من شرباص تنفيذا لحكم نمرة ٧٨٣ سنة ١٩٣٨ مدنى فارسكور وفاء لمبلغ ٤٦٢ قرش صاغ المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب محمد مصطفى محمود من شرباص

فعلى راغب الشراء الحضور ١٧

إعلان بيع

فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ صباحاً بناحية ترعه مركز منفلوط سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك عبد القادر سيد وآخرين من الناحية نفاذاً لحكم الصادر من محكمة عابدين الأهلية بتاريخ ٣ / ١ / ١٩٣٨ فى القضية المدنية رقم ٩٢٦ سنة ١٩٣٨ وفاء لمبلغ ١٥ ج و ١٩٧ م بخلاف رسم هذا النشر وما يستجد كطلب بنك مصر شركة مساهمة مصرية .

فعلى راغب الشراء الحضور . ١٨

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٣٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٤ | الثلاثاء ٧ رجب سنة ١٣٥٨ — ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــرس

حوادث الشرق الأقصى :

ريح الخطر الأصـــــفر

والصراع بين اليابان والدول الغربية

لمحرر « الثقافة » السـياسي

شغلت حوادث أوربا وأزماتها السياسية المتوالية في العامين الأخيرين الأذهان عما يدور في الشرق الأقصى من حوادث خطيرة ، فلم يتتبعها العالم بنفس الاهتمام الذي يتتبع به الحوادث الأوربية ، لأنها تجرى في ركن منعزل من العالم ، وتكاد تعتبر في ذاتها ذات صبغة محلية . بيد أنها ظهرت في خطورتها الحقيقية ، وفي صورتها الدولية الصحيحة منذ وقعت حوادث تيانتسين الأخيرة ، وأقدمت اليابان على محاصرة منطقة من مناطق الامتياز الأوربية التي تخص دولة من الدول العظمى ، ووقع من جراء ذلك اصطدام خطير بين اليابان وبريطانيا العظمى ، ظن مدى

حين أنه سيثير انفجاراً جديداً في الشرق الأقصى . ولكن بريطانيا العظمى التي شعرت في الوقت نفسه بخطورة الحالة في أوربا ، آثرت أن تميل أمام العاصفة ، وأن تحاول اتقاءها بالمفاوضة مع اليابان ، ريثما ينجلي الأفق ، ويتاح لها أن تعمل في الشرق الأقصى وفق ما تتطلبه مصالحها وهيبتها .

وقد جاءت حوادث تيانتسين دليلا جديداً على فداحة الخطر الذي يهدد نفوذ الدول الغربية ومصالحها في الصين ، من جراء الغزو الياباني ؛ وجاء تساهل بريطانيا العظمى مع اليابان دليلا على تفرق كلمة الدول الغربية ، وضعف الوسائل التي يمكن أن تلجأ إليها في دفع هذا الخطر ؛ وظهرت من جهة أخرى نية اليابان واضحة في العمل على سحق نفوذ الدول الغربية في الصين ، والاستئثار ببسط سيادتها على هذا الاقليم الشاسع واستغلال مرافقه وموارده .

والواقع أن اليابان تعمل لهذه الغاية منذ أعوام ، فقد بدأت بغزو إقليم منشوريا وضمه إليها في سنة ١٩٣١ ، وانسحبت من عصبة الأمم كي تجتنب مناقشاتها وتدخلاتها العقيمة ، ثم توالت غزواتها وفتوحاتها لأقاليم الصين الشمالية تحت ستار مختلف الأعذار والحجج ؛ ولما تبينت ضعف الدول الغربية واختلاف كلمتها ، لم تحجم عن التصريح جهاراً بخطتها وغايتها الحقيقية ، فأعلنت أنها تعتبر الصين ميداناً طبيعياً لنشاطها ، وطلبت إلى الدول الغربية أن تكف عن محاولة التوسع في الصين ، أو في استغلال مرافقها ، وأنها تعتبر كل محاولة من هذا النوع عملا غير ودي تقاومه بكل قوتها ، ثم أتبعت القول بالفعل ، وبدأت منذ عامين بغزو الصين وافتتاح أقاليمها الجنوبية والوسطى تباعاً ، حتى استولت على جميع أقطارها الساحلية وثغورها الهامة ، وتوغلت بعيداً في الداخل ، وهي اليوم تحتل أغنى وأهم أقطارها ؛ أما الدول الغربية فقد كانت خلال العامين الأخيرين منهمكة بشئونها وأزماتها ، وأما الصين فلم تستطع رغم مقاومتها المستمرة ، أن تقف في وجه الغزو الياباني ، خصوصاً وقد دفعت اليابان إليها بمعظم قواتها البرية والبحرية والجوية .

— ٢ —

وإذا كان هذا الصراع بين اليابان والصين يبدو من ناحيته صراعاً بين القوي والضعيف ، وبين دولة استعمارية معتدية وأمة مغلوبة تثير مواردها جشع المستعمر ، فانه من جهة أخرى يبدو أخطر وأبعد مدى ؛ فهو في الواقع صراع بين آسيا وأوربا ، صراع بين الجنس الأصفر وبين الأمم الغربية ، لا على تراث أمة أسيوية عظيمة ، وقطر أسيوي شاسع فقط ، ولكن على تراث الشرق الأقصى كله ، وعلى السيادة في أقطاره وبحاره كلها .

وقد استطاعت الدول الغربية أن تغزو الشرق الأقصى وأن تحتل كثيراً من أقطاره منذ أكثر من قرنين ، واستطاعت منذ نحو قرن أن تبدأ ببسط نفوذها الاقتصادي على الصين ، وأن تفوز فيها بامتيازات خاصة تثقل اليوم كاهلها ؛ ولم تكن اليابان وقتئذ دولة ذات شأن ، ولم تحسب لها الدول الغربية أي حساب ؛ ولكن اليابان تقدمت في أواخر القرن الماضي بخطوات جبارة ، حتى ارتفعت إلى مصاف الدول العظمى ؛ ولما وقعت الحرب الروسية اليابانية في ١٩٠٤ وهزمت فيها روسيا واضطرت إلى التخلي لليابان عن حقوقها وأملاكها في الصين ، لمحت أوربا في هذا الانتصار الذي تحرزه لأول مرة في التاريخ الحديث أمة أسيوية على دولة من الدول الأوربية العظمى ، ظاهرة خطيرة تتعلق بمستقبل الجنس الأصفر ، ومستقبل الصراع بينه وبين الجنس الأبيض في الشرق الأقصى .

وهنا ظهرت في بعض الدول الأوربية والأمريكية صيحة « الخطر الأصفر » . ولما ظهرت الحركة القومية الصينية على أثر ذلك ، ثم نمت واشتدت عقب الحرب

الكبرى ، وأخذت تهدد المصالح الأجنبية فى الصين ، ازدادت صيحة « الخطر الأصفر » ظهوراً فى الغرب ؛ ولكنها كانت تحمل يومئذ معنى عاماً ، ويقصد بها خطر « الجنس الأصفر » على نفوذ الغرب وسيادته ومصالحه فى الشرق الأقصى ؛ وظهرت فى الوقت نفسه فكرة « الجامعة الأسيوية » تروج لها اليابان وتعمل على تقويتها ؛ وقد انعقد بالفعل فى سنة ١٩٢٦ فى ثغر « ناجازاكى » اليابانى أول مؤتمر « للجامعة الأسيوية » وشهده مندوبون من اليابان والصين والهند وسيام والفلبين وكوريا ؛ وفكرة « الجامعة الأسيوية » تحمل أيضاً معنى قومياً خاصاً يرمى إلى معارضة السيادة الغربية . ولكن تطور الأحوال فى الشرق الأقصى منذ انهيار الحركة القومية الصينية ، وتوغل الغزو اليابانى فى الصين ، يسبغ اليوم على فكرة «الخطر الأصفر» لوناً ومعنى جديدين ، فهى تعنى اليوم ذلك الصراع الاستعمارى الذى يضطرم بين اليابان وبين الدول الغربية على تراث الشرق الأقصى ، وذلك الخطر الذى ينطوى عليه تفوق اليابان العسكرى ، على سيادة الدول الغربية ومصالحها فى الشرق الأقصى وميدان المحيط الهادى ؛ واليابان بالرغم من خططها وغاياتها الاستعمارية الظاهرة ، تستتر فى مواجهة الغرب بحقوق الجنس الأصفر والجامعة الأسيوية ، وتحتج فى مقاومة الدول الغربية بنظرية كنظرية « مونرو » الأمريكية فى وجوب تخلى الدول الغربية عن القيام بأية محاولة جديدة لبسط نفوذها السياسى أو الاقتصادى فى الصين ، واعتبار الصين منطقة للسيادة اليابانية والنفوذ اليابانى ، تستأثر اليابان باستغلال ثرواتها ومرافقها .

— ٣ —

ونحن نشهد اليوم هذا الصراع يضطرم بأجلى مظاهره بين اليابان والدول الغربية ؛ فالمعارك العسكرية المحلية بين اليابانيين والروس لا تكاد تنقطع على حدود منشوريا ومنغوليا ، واليابان تمضى فى توغلها واجتياحها لأراضى الصين ، غير عابئة بالمعاهدات المعقودة ، أو باحتجاج الدول أو بمقاومة الصين ؛ والقوات اليابانية تحدق اليوم بمناطق الامتياز الدولية فى جميع ثغور الصين الممتازة ، وتشدد الضغط عليها ، وتعمل على عرقلة مصالح الدول الغربية ما استطاعت ؛ والدول الغربية وفى مقدمتها بريطانيا العظمى وفرنسا ، ترى من جانبها أنها لا تستطيع مقاومة اليابان مقاومة فعالة فى الظروف الدولية الحاضرة ، وتكتفى بالاحتجاج وتقديم المذكرات السياسية ولفت نظر اليابان إلى احترام المعاهدات المعقودة ، ولا سيما معاهدة الدول التسع التى عقدت فى واشنطون سنة ١٩٢٢ ، والتى ترتبط فيها اليابان مع الصين وباقى الدول ذوات المصالح فيها ، وهى أمريكا وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا وهولنده والبرتغال ، بوجوب احترام سيادة الصين واستقلالها ووحدتها الإقليمية والإدارية ، والمحافظة على مبدأ الفرص المتساوية فى التجارة والصناعة لجميع الأمم فى الصين ، وعدم انتهاز الدول الموقعة فرص الأحوال فى الصين للحصول منها على حقوق وامتيازات خاصة .

وقد شجعت ظروف أوربا المضطربة اليابان على المضى فى غزوها الاستعمارى للصين ، متحدية بذلك جميع الدول الغربية ، وفى مقدمتها أمريكا وبريطانيا العظمى ، بل لقد وقع الصدام بالفعل بين اليابان وبريطانيا ، ولم تحجم اليابان عن محاصرة منطقة الامتياز البريطانية فى تيانتسين ، ولم تر بريطانيا من جانبها بداً من الإغضاء عن هذا التحدى لسيادتها ومصالحها ومحاولة التفاهم مع اليابان بالمفاوضة ، ولم تخف اليابان أنها ترمى بهذه الحركة إلى غاية بعيدة المدى هى إرغام الدول الغربية على الاعتراف بالحالة الواقعة فى الصين ومحاربة امتيازات الدول الغربية فيها تمهيداً لإلغائها .

وتشعر الدول الغربية الثلاث ذوات المصالح الكبرى

فى الصين ، ومن بريطانيا العظمى وفرنسا وأمريكا ، بخطورة هذه الحركة ، ولكنها لم تستطع حتى اليوم أن تتفق فيما بينها على خطة موحدة للعمل ، ويبدو من خطط اليابان العسكرية واحتلالها لجميع الشواطئ ، والجزر الصينية أنها قد تذهب بعيداً فى مطامعها الاستعمارية ، وقد تقدم متى آنست سنوح الفرصة على تهديد أملاك الدول الغربية فى الشرق الأقصى ومياه المحيط الهادى . فالهند البريطانية والهند الفرنسية ، ومالزيا ، وجزائر الهند الشرقية ، وجزائر الفلبين ، واستراليا ، قد تصبح كلها تحت رحمة الغزو اليابانى ، إذا لم تبادر بريطانيا وفرنسا وأمريكا إلى الاتفاق على خطة ناجعة لمقاومة اليابان وردها إلى صوابها .

وفى اعتقادنا أن فترة التردد والانتظار لن تطول بالدول الثلاث ، فهى سوف ترغم عاجلا أو آجلا إلى مواجهة الخطر اليابانى على سيادتها وأملاكها ، وسوف تكون إلى جانبها روسيا السوفيتية التى تنفرد اليوم بمقاومة اليابان مقاومة فعالة . على أن تنظيم هذه المقاومة يتوقف على سير الحوادث الأوربية ، فإذا هدأت العاصفة التى تهدد سلم أوربا ، واستطاعت بريطانيا العظمى وفرنسا أن تطمئنا إلى وقف اعتداآت محور برلين رومة ، فقد تستطيعان عندئذ بالاتفاق مع أمريكا بذل مجهود جدى لمواجهة الخطر اليابانى ، وحماية الحقوق والمصالح الغربية فى الصين من عواقبه ، وربما لجأتا عندئذ إلى مساعدة الصين مساعدة فعالة على مقاومة الغزو اليابانى ، وإنهاك قوى اليابان بالمعارك المستمرة ؛ أما إذا استمر الموقف الأوربى على دقته وخطورته ، فإن الفرصة تبقى سانحة أمام اليابان لإتمام مشاريعها الاستعمارية ، وتوطيد قدمها فى الصين ، وإضعاف مركز الدول الغربية فى الشرق الأقصى .

(***)

فن التفكير !

للأستاذ شفيق جبرى

من الكتب التى أطالعها فى مصيف كتاب « فن الحياة » لصاحبه « أندره موروا » ، وهو يتضمن خمسة فصول : فن التفكير ، وفن الحب ، وفن العمل ، وفن القيادة ، وفن الشيخوخة .

يذهب « موروا » إلى أن التفكير نوعان : تفكير بالأجسام وتفكير بالألفاظ ، ولقد أطلق على التفكير بالأجسام اسماً أدق ، فسماه « التفكير على مقربة من الأشياء » ، فن قبيل التفكير بالأجسام تفكير القط مثلا ، الذى يقفز من الأرض إلى منضدة عليها فناجين وكاسات ، فيجلس هذا القط بين الفناجين والكاسات من دون أن يكسر فنجاناً أو أن يمس كأساً ؛ فهذا القط يفكر بعضله وبعينيه ؛ ومن هذا القبيل أيضاً النحات الذى ينحت التماثيل ، أو اللاعبون على اختلافهم ، اللاعبون بالسيوف أو بالكرة أو بالتنس .

فالذين يفكرون بأجسامهم يفكرون على مقربة من الأشياء ، فهم يدركون صعوبة هذه الأشياء ، ويقيسون تبعتهم فيها ، ويقدرون هذه التبعة حق قدرها ، وهم من هذا الوجه حذرون ، فان اللاعب بالسيف أو بالكرة أو بالتنس إذا اختلت حركة من حركات جسمه ، اختل اعتدال هذا الجسم من فوره ، فأخفق اللاعب فى لعبه .

أما الذين يفكرون بالألفاظ وحدها فإنهم لا يشعرون بصعوبة الأشياء التى يفكرون فيها ، فاذا وقعوا فى خطأ فانهم لا يدركون تبعتهم ، ولا يقدرون هذه التبعة إلا بعد حين من الزمن ؛ فالبنّاء الذى يفكر بجسمه إذا حاول أن ينقل آجرّ البناء من موضع إلى موضع فانه لا يستطيع أن ينقل إلا آجرة بعد آجرة ، لأنه إذا تراكم الآجرّ عليه دفعة واحدة قتله ، فهو من هذا الباب متيقظ . أما الذى يفكر بالألفاظ فانه لا يعانى فى هذه السبيل ما يعانيه البنّاء أو النحّات أو غيرهما . إنه لا يستعمل فى عمله إلا مقاطع الحروف وحدها ، وهذا ما يجعل عمله سهلاً ، فانه يستطيع أن يحرك شعوباً وجيوشاً من دون تعب ، فليلفظ رئيس وزارة بكلمة « التعبئة العامة » فبهذه الكلمة التى لم تكلفه إلا تحريك شفتيه قد ينزع رجال أوربة عن دورهم وعن أهلهم ، وقد يملأ السماء بطيارات من شأنها هدم مدن بمجامعها ، أو عالم بحذافيره ، كل هذا التهديم سببه لفظة واحدة : التعبئة العامة ، ولكن رئيس الوزارة لا يدرك تبعة هذه اللفظة ، ولا يقدر هذه التبعة حق قدرها إلا بعد حين .

إن الذين يفكرون بالألفاظ وحدها يلعبون بألفاظهم لعباً من دون أن يشعروا بما يجره هذا اللعب من الويل ، وقد يعتقدون أنهم يصلحون الناس والأشياء بالألفاظ ، على حين لا يحركون إلا مقاطع الحروف ؛ فهذا الاقتصادى الجالس أمام منضدته عساه يقلمه فيكتب ما يلى : زيادة الأجور تؤدى إلى زيادة قوة الشراء ، وإذا ازدادت قوة الشراء انتهت الأزمة ، فهذه ألفاظ متناسقة ، وكأنها تفصح عن فكر صحيح ، وصاحبها مؤمن بها الإيمان كله ، إلا أنها لم تغير شيئاً من الاضطراب الاقتصادى فى العالم . ولماذا ؟ لأن بين الألفاظ وبين الأشياء ضرباً من التباعد ، فان بساطة الألفاظ لا تمثل على وجه مضبوط تراكب الأشياء ؛

استنبط « موروا » من هذا كله أن اللفظة المجردة كالفاشستية أو كالديمقراطية مثلا قد تكون فى طائفة من الأحوال سبباً فى تنازع رجلين ، أو فى تخاصم حزبين ! انظر إلى رجلين فى مجلس من المجالس يتساقطان الأحاديث والأخبار على أتم ما يكون من صفاء الود ، وإنهما لكذلك إذ يقذف أحدهما بكلمة الديمقراطية ، ويقذف الثانى بكلمة الفاشستية فيصير الصفاء بينهما إلى كدر .

كل هم « موروا » فى هذا الباب أن يبين أن الانسان يستطيع أن يقول كل شىء بالألفاظ ، ولكنه إذا لجأ إلى الأعمال صعب عليه كل شىء . فنابليون الثالث كان يقول بمبدأ القوميات وبحق الشعوب فى تقرير أمورها ؛ ولكن هذا كله إنما هو ضرب من الألفاظ المجردة ، غير أن هذه الألفاظ كانت سبباً فى خراب أوربة عصرنا هذا . يخطب خطيب فى جمهور من الناس ، فيتكلم على تهديم فكرة رأس المال ، فيصفق له الجمهور ، ولكن اسأله : بأية ذريعة يتذرع إلى تهديم هذه الفكرة ؟ فاذا تنقل إلى تفاصيل هذه الذريعة صدمته حقائق الأشياء ، فرأى بعينيه صعوبة كل عمل فى هذه السبيل .

* * *

أنفصل فى هذا المقام عن « موروا » وأترك الموضوع الذى تفرّغ له وهو إشباع الكلام على فن التفكير ، وأقتبس عنه هاتين العبارتين المتناقضتين : الذين يفكرون على مقربة من الأشياء ، والذين يفكرون بالألفاظ وحدها ، وأحاول أن أستخرج من هاتين العبارتين غير الذى استخرجه ، فإن للموضوع الواحد وجوهاً شتى ، فها أنا أتصدى على سبيل الإيجاز لوجه من هذه الوجوه قد تكون أشد صلة به فى الشرق .

إننا فى معظم أحوالنا لا نفكر على مقربة من الأشياء ، وليس معنى هذا أننا لا نفكر تفكير اللفظ الذى أشار إليه « موروا » أو تفكير البنّاء والنحّات وغيرهما ؛ وإنما الذى قصدت إليه أننا نبعد من الأشياء ، فنفكر بالألفاظ المجرّدة وحدها ، من دون أن نشعر بتبعتنا فى المجازفة بهذه الألفاظ ، فلا نألف عالم الأشياء ، ولا نمازج مصاعبه وتكاليفه ، ولنضرب مثلاً :

من الألفاظ التى ولّد لها هذا العصر معانى أضيق من المعانى التى كانت لها فى الماضى لفظ العالِم ، فلا نزال معاشر الشرقيين نجازف فى كثير من المواطن بهذه اللفظة من دون أن نشعر بصعوبة الشىء الذى تدل عليه ، ومن دون أن نقدر تبعتنا فى إطلاقها حق القدر ، إننا نستعملها فى كل حال ، ونحن لا ندرى التعب الذى يتعبه العالِم حتى يستحق هذا اللقب ، فلنقارن بين تعريفنا لهذه اللفظة وبين تعريف الفرنسيين لها ، حتى ندرك الفرق بين نظرنا إلى الأشياء وبين نظرهم ، ونشعر بتفاوت النظرين .

اللغة الفرنسية توضح الفرق بين العالِم وبين الرجل العالم ، إنى أستند إلى الأستاذ « شارل ريشة » صاحب كتاب : « العالِم » فى توضيح هذا الفرق ، يقول الأستاذ « ريشة » :

« قد يستطيع الرجل أن يكون عالماً بالفلك ، فإذا كانت له صناعة غير صناعة هذا العلم ، إذا كان مثلا من أمراء البحر أو مهندساً بحرياً فهو ليس عالماً » .

ليس فى الصناعات ما يناسب صناعة العالِم إلاّ صناعة الأستاذ ، لأن العالِم لا يستطيع أن يعيش من علمه وحده وإلاّ مات من البرد والجوع والشقوة ، فهو فى حاجة إلى مرتزَق ، والتدريس مرتزَقه .

إنك لتجد أنواعاً كثيرة من العلماء ، فقد يكون عالماً من يدرس المخطوطات أو الخطوط المصرية القديمة أو اللغات الخارجة على قواعد النحو والتصريف أو التواريخ القديمة ، ولكن الذى يكتب فى التاريخ الحديث أو فى

تاريخ العصر فهو لا يعمل عمل العالم .

والذى يميز العلماء كلهم ، سواء أكانوا رياضيين أم كيمياويين أم فلكيين أم غير ذلك ، أنهم لا يعملون ليصلوا فى أعمالهم إلى نتيجة عملية ، فهم لا يمزجون النظر بالعمل ؛ فالمهندس الذى يتولى إنشاء سفينة أو بناء جسر ليس عالماً ، مع أنه فى حاجة إلى التعمق فى الرياضيات ، والسبب فى ذلك أن غرضه لا يكون فى التنقيب عن حقيقة مجهولة فهو يبحث عن نتيجة عملية مادية سريعة ، وكذلك شأن الطبيب الذى يراقب مرض المريض ، أو الجرّاح ، فإنهما غير عالمين ، لأنهما يبحثان عن شىء غير المعرفة ، فإنشاء سفينة أو انقاذ مريض إنما هو ضرب من العمل لا ضرب من التفكير .

وليس فى قولنا للمهندسين والجرّاحين : لستم علماء ، شىء من التنقص ، فقد يمكن أن يكونوا جدّ علماء ، ولكنهم لا يعملون صناعة العلماء ، لأن لهم غرضاً غير غرض الاهتداء إلى حقيقة ، فهم يعملون صناعة المهندسين والجرّاحين .

هذا فرق دقيق ، ولكن المرء يعترف بصحة هذا الفرق بعد إعمال الروية ونضج التفكير .

قد يكون كلام الأستاذ « ريشة » تمطاً من فقه اللغة ، فقد يجوز أن يكون للفظ من الألفاظ فى لغة من المعانى الضيقة أو الواسعة ما ليس له فى لغة ثانية ؛ فليس فى لغة العرب مثلا لكلمة العالم من المعانى الضيقة ما لها فى اللغة الفرنسية ؛ ولكن إذا دلنا هذا الفرق على شىء ، فإنه يدلنا على نوع من تفكيرنا وتفكيرهم ؛ إنه يدلنا على أنا لا نلصق بالعلم كما يلصقون ، ولا نتغلغل إلى أسراره كما يتغلغلون ، ولا نعرف بواطنه كما يعرفون ؛ حسب الرجل منا أن يلم بيسير من الرياضيات أو من الطبيعيات أو من النبات حتى يقال فيه إنه عالم ، وإنه علاّمة ؛ إنا لا نزال بعيدين من الأشياء التى تدل عليها بعض الألفاظ ، ولهذا البعد ضعفت معرفتنا لخصائص هذه الأشياء بقدر ما اشتدت معرفة الإفرنج لها ؛ فنحن لا نفرق بين العلماء وبين أنصاف العلماء ، فإن «لاڤوازيه» فى نظرنا عالم ، والملم ببعض مبادئ الكيمياء عالم أو علاّمة .

فكيف تكون حالة لغتنا وحالة مستوانا الفكرى بعد هذا الطراز من التفكير ؟ أى بعد الانحراف فى تفكيرنا عن الأشياء ؟ أما اللغة فتسرع إليها الشيخوخة ، لأنا إذا داومنا على المجازفة بالألفاظ من دون أن نسمى الأشياء بحقائق أسمائها فلا يبقى لهذه الألفاظ قيمة ؛ فأى قيمة لكلمة العالم إذا كنا نسمى « لاڤوازيه » عالماً ونسمى المطلع على يسير من الكيمياء عالماً ؟ لا بل أى قيمة فى مثل هذه الحال للعلم نفسه ؟ ماذا نعمل بهذه الألفاظ إذا سمت مداركنا غداً ففكرنا على مقربة من الأشياء ؟ ماذا نعمل بها إذا فهمنا حقائق الأشياء ، ففهمنا حقائق العلم والعالم مثلا ؟ أفلا نجد أنا نصبح فى يوم تشيخ فيه كلمة العالم وتهرم ، فلا تصلح لتأدية المعنى الذى نريده ؟

وإلى جنب هذه العاقبة المؤلمة عاقبة ثانية فى مستوانا الفكرى ، لا شك فى أنا إذا رضينا بالتفكير بالألفاظ المجردة وحدها بعيدين عن الأشياء التى تدل عليها هذه الألفاظ ، ضاق مجالنا فى إدراك حقائق هذه الأشياء ، وقل نصيبنا منها ، وضعفت صلتنا بأسرارها ، فنكتفى بالقشر ونطرح اللباب ؛ فإذا قنعنا مثلا بأن نسمى كل نصف متعلم عالماً أو علاّمة ، فلا نقدر العالم الصحيح حق قدره .

وهكذا شأننا فى مجازفتنا بكل هذه الألفاظ المجردة التى انحدرت إلينا معانٍ لها فى الغرب لم يألفها ماضى لغتنا كالعبقرية وأشباهها ؛ فهل يأتى علينا حين من الدهر نفكر فيه على مقربة من الأشياء ، فندرك حقائق هذه الأشياء ، ونشعر بتبعتنا فيها ، فلا نعطيها أكثر مما تستحق أو أقل مما تستحق ؟ .

(دمشق) شفيق جبرى

٣ - الأدب الجاهلى وأثره

للدكتور عبد الوهاب عزام

عرضت فى المقال السابق لما رأى الأستاذ أحمد أمين من التزام شعراء العربية فى العصور الإسلامية طريقة الجاهليين فى الأوزان والقوافى، وبيّنت موجزاً أنهم اخترعوا نظاما للتقفية لم يؤثر عن الجاهلية، واخترعوا أوزاناً على قدر ما أحسّوا من حاجة.

وأعرض فى هذا المقال لرأى الأستاذ فى التزام شعراء العربية موضوعات الشعر الجاهلى. قال الأستاذ:

«وأما من حيث الموضوع فكانت مصيبتنا فيه أعظم، لأن تقديسنا للأدب الجاهلىّ حصر الشعر العربىّ فى نفس الموضوعات التى صيغ فيها الشعر الجاهلىّ، من مدح وهجاء، وفخر وحماسة، وغزل ورثاء، ولم يمسّ الشعراء عواطفهم الحقيقية ولا حالاتهم الاجتماعية إلا مسًّا رفيقا. وإلا فخبرنى: أين الشعر العراقى الذى تجد فيه الشعراء يتغنون بمناظر العراق الطبيعية، ويصفون فيه أحداثهم الاجتماعية؟ وأين الشعر الشامى أو المصرى أو الأندلسى الذى يشيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر والأندلس؟

«إنك تقرأ الشعر العربىّ فلا تعرف إن كان هذا الشعر لمصرى أو عراقى أو شامى إلا من ترجمة حياة الشاعر. أما القالب كله فشىء واحد، والموضوع كله واحد، مديح أو رثاء أو هجاء، أو نحو ذلك مما قاله الجاهليون» اهـ.

ذلكم رأى الأستاذ، وأنا له مخالف. وإن كثيراً من الناظرين فى الأدب العربىّ يخيل إليهم هذا الرأى فيخالونه حقا. ولعل لهم عذراً من طرائقنا فى درس الأدب والتأليف فيه.

ومنشأ هذا الوهم — فى رأيى — أمور:

الأول أن الحوادث السياسية أظهرُ الحوادث فى تاريخ الأمم، ولهذا امتلأت بها كتب التاريخ، وكاد تاريخ الأمم يكون تاريخ سياستها وتقلب الدول فيها، وسيرة ملوكها وولاتها؛ وتبع هذا أن اشتهر ما اتصل بالتاريخ السياسى وبالملوك والرؤساء من الشعر، واشتدت رغبة الناس فيه وعنايتهم به، ونبه أصحابه وشغلوا دارسى الأدب ومؤرخيه، وكانت لأخبارهم وأشعارهم الصدارة فى كتب الأدب والتاريخ، فتوجهت الأنظار إلى هذا الجانب، وظُن أنه ليس فى الأدب العربى سواه.

والثانى من الأمور التى عظّمت هذا الوهم فى النفوس أن القصيدة التى يراد بها المدح أو الهجاء تحسب كلها مدحا أو هجاء، ولا يقوّم ما فيها من معان أخرى وجدانية وأخلاقية واجتماعية. والثالث أن الأدباء حين أرادوا أن يصنفوا الشعر حصروه فى هذه الأقسام: المدح والهجاء والفخر والحماسة والغزل والرثاء والوصف. لأن هذه المعانى أبين من غيرها وأقرب إلى التحديد، ولأن الوصف باب يدخل فيه موضوعات كثيرة، بل يمكن أن يعدّ معظم أنواع البيان وصفا.

فلما تتابع الأدباء على هذا التقسيم ظُن أن الأدب تناول فى كل العصور موضوعات واحدة على طريقة واحدة.

وليس الشأن فى هذه العنوانات إنما الشأن فيما لدينا من شعر؛ فقد اختلفت الموضوعات وكثرت وقصرت هذه العنوانات عن شمولها. واختلفت طرق معالجة

الموضوع الواحد اختلافاً بيّناً ويبقى لها الاسم العام : الوصف أو الغزل الخ .

فعلى الباحث المدقق ألا يقف عند هذا التقسيم وأن ينظر هو إلى الشعر العربي جملة وتفصيلاً ، ليستبين ما تناوله من موضوعات ، وما اختلف على الموضوع الواحد من طرائق .

قد قسم أرسطو الشعر إلى مدح وهجاء فقط ، وليس معنى هذا أن الشعر اليوناني كان مقصوراً على هذين الموضوعين في معناهما الخاص المعروف ، ولكنه رأى أن كل شعر يستطاع ردُّه إلى مدح أو هجو .

وكذلك قُسم الشعر الأوربيّ منذ القدم إلى الحماسيّ والغِنائي والتمثيل ، وبقى هذا التقسيم شاملاً ضروب الشعر على مَرّ العصور . وليس معنى هذا أن شعراء أوربا في القرون الأخيرة لم يأتوا بما لم يُسبقوا إليه .

وكذلك الشعر العربيّ ؛ فإن لم تندرج مواعظ أبي العتاهية وحكمة المتنبي وفلسفة أبي العلاء وقصص ابن الهبارية ومجون ابن حجاج وابن لنكك وتصوّف ابن الفارض وابن عربي والشهرزوري — في باب من الأبواب المعدودة فلا يدل هذا على أنها لم توجد .

— ٢ —

أرى أن الشعر العربيّ لم يحجم عن موضوع مّا ، وأحسبه أدخلّ في أحوال المعيشة وحادثات الحياة من شعر أمم كثيرة ؛ فقد اعتاد الشعراء منذ الجاهلية أن يقولوا الشعر في كل خطب . ولا يزال شعراء البادية يسجلون ما يشهدون وما يسمعون من الحادثات الجسام في أشعارهم .

ولا يقع أمر من الغم أو الفرح في البلاد العربية اليوم إلا سجله الشعراء ؛ وكذلك كان سلفنا : فقد نظموا الشعر في الموضوعات المعروفة : المدح والهجاء الخ . وفيما يقع من حادثات السياسة وما يقع في المحافل العامة والمجالس الخاصة وما يقع في التزاور والتهادي والتعامل من جد وهزل ، وفي غير هذا . بل خالط الشعر العربي معارف الناس وحوادثهم ، حتى صارت كتب الفلك والحيوان والنبات وتقويم البلدان خليطاً من العلم والأدب ، فلا يذكر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، ولا يذكر حيوان أو نبات أو بلد إلا ذكر معها طرف مما قال الشعراء فيها ، حتى ألف ذلك الشعراء واعتادوه ، فوصفه من رآه ومن لم يره . وناهيك بولع ضرير كأبي العلاء بوصف النجوم والمنازل والبروج في شعره .

ولست في حاجة إلى أن أذكر كتب الأخلاق والمواعظ والتصوف .

وإذا عبرت كتاباً مثل « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري أو « نهاية الأرب » للنويري رأيت يقيناً دخول الشعر عندنا في كل موضوع . فلو عيب الشعر العربي بأنه أسفّ إلى موضوعات لا تلائم الشعر وأسرف في الإكثار من الموضوعات ، لكان ذلك عندي أقرب إلى الحق من أن يعاب باقتصاره على موضوعات قليلة قلّد فيها الخلفُ السلفَ .

مددت يدى الآن إلى « ديوان المعاني » فاطّلعت في الفهرس على هذه العناوين :

الباب السادس في وصف السماء والنجوم والليل والصبح والشمس والقمر وما يجرى مع ذلك .

الباب السابع في صفة السحاب والمطر والبرق والرعد وذكر المياه والرياض والنبات والأشجار والرياحين والثمار والنسيم .

الباب التاسع في صفة الخط والقلم والدواة والقرطاس وذكر البلاغة وما يجرى مع ذلك .

الباب العاشر في صفات الخيل والإبل والسير والفلوات وذكر الوحوش والطيور والحشرات وما يجرى مع ذلك .

وفي كل فصل من هذه الأبواب طائفة من الشعر اختارها أبو هلال وليست هي كل ما قيل في موضوعها .

فكيف تسنّى لهذا المؤلف وأمثاله أن يجدوا لكل ما يذكرون وصفاً في الشعر لو لم يُكثر الشعراء القول فيه ،

ولو لم يدخل الشعر العربيّ في كل باب ؟

هنا موضوعات لم يعالجها الجاهليون ، وموضوعات تناولوها ، ولكن الاسلاميين توسعوا فيها واخترعوا ما لم يُسبقوا إليه . وهذه وتلك يشملها اسم الوصف . فان قلنا إن شعراء العربية بعد الاسلام لم يزيدوا على الجاهليين شيئاً ، فهؤلاء وصفوا وأولئك وصفوا ، كان قولنا بعيداً من الحق .

والناظر في كتاب « الحيوان » للجاحظ و « حياة الحيوان الكبرى » للدميرى يعرف كيف وصف الشعر العربي كل حيوان كبيراً أو صغيراً وحشياً أو مستأنساً .

وهأنذا أمدّ يدى إلى كتاب « نهاية الأرب » فأجد في الجزء الحادى عشر : « الفنّ الرابع في النبات » ، فأنظر في تفصيل هذا العنوان : « الباب الثالث في الأقوات والخضراوات : الحنطة وما قيل فيها ، الشعير ، وما وصف به الشعراء الزرع وشبهوه به ، الحمص ، الباقِلَّى ، أعماله وخواصه ، ما وصفه به الشعراء وشبهوه به ، الأرز ، الخشخاش ، وما يتنج عنه من عصارته ، ما وصف به من الشعر ، الكتان وما قيل في بزره وتشبيهه ، ما وصف به من الشعر ... إلى البطيخ والباذنجان والخيار والقِثّاء واللّفت والفجل ، وما وصف به كلّ منها من الشعر .

ثم نجد الجوز والفستق واللوز . ولا شك أن حظها من الشعر أعظم .

ثم نجد أصناف الورد والرياحين والرياض والأزهار ، وهي قبلة الشعر ومطافه .

وفي الجزءين التاسع والعاشر من الكتاب نجد وصف الحيوان وحشيّه ومستأنسه ؛ نجد كل ضروب الحيوان من الأسد والنمر والذئب والثعلب والكلب ، إلى القرد والهرة والفأر ، ثم الحيوان المستأنس ؛ وناهيك بالخيل والابل ، ولا يذكر حيوان دون أن يذكر ما وصف به من الشعر .

فان قيل إن هذا إسفاف في الشعر أو إن هؤلاء الواصفين وقفوا عند الظاهر ولم يجيدوا الوصف ، فهذه دعوى أخرى ليست من موضوعنا في هذا المقال ، وإنما يعنينا هنا إقامة الدليل على أن الشعر العربيّ لم يقف على موضوعات محدودة ، ولم يلزم فيه الاسلاميون سنن الجاهليين ، ولكنه شارك في كل شيء ، وولج في كل باب ، حتى صار عرضة لأن يعاب بالشمول لا بالقصور ، وبالعموم لا بالخصوص ، وبالاسراف لا بالبخل .

وأرى التمثيل هنا ضرباً من الفضول ، فالأمثلة من الكثرة حيث لا يعنّى القارىء أن يجدها كما أراد . وأمامى منها الآن قصائد وقطع رائعات تشهد بدقة الوصف وحسن التصور .

وأما قول الأستاذ الجليل إن الشعراء لم يعنوا عواطفهم وحالاتهم الاجتماعية ، وإن شعراء الأقطار العربية العراق والشام ومصر والأندلس لم يعنوا بمناظر بلادهم الطبيعية وأحداثهم الاجتماعية فللمجادلة فيه مقال آخر إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

كيف أخرج منى عفريتى

قصة واقعية للكاتبة مع أحد تلاميذ العلامة فرود

لخصها عن الانجليزية الأستاذ محمد بدران

مدير متحف العلم

جلست فى غرفة استقبال صغيرة قليلة الأثاث ، وقلبى يدق دقات سريعة ، ويداى شديدتا البرودة فى انتظار الطبيب النفسانى . وذلك أنى كنت قد ذهبت قبل أسبوع من هذا الوقت إلى طبيبى الخاص ، وشكوت إليه من أنى لا أستطيع النوم ليلا ، وأنى أتعرض لنوبات شديدة من الخوف ، أحس فى أثنائها كأنى مشرفة على الموت ، وطلبت إليه أن ينقذنى من هذه الآلام المبرحة التى لا أقوى على احتمالها .

فحصنى الطبيب بعناية شديدة ، ثم قال لى بلطفه المعهود : أنى صحيحة الجسم سليمة من الأمراض ، وأما نوبات الخوف فليس شفاؤها فى قدرته ، لأن ذلك ليس من اختصاصه ، ولكنه يعرف الشخص الذى يمكنه إنقاذى منها ، وسألنى : « هل سمعت عن أولئك الأطباء الجدد ، الأطباء النفسانيين ؟ إنهم يستطيعون أن يطردوا من عقلك مرض الخوف كما يستطيع الجراح أن يقتطع من جسم المريض زائدته الدودية الملتهبة ، وسأتفق لك على موعد مع أحد هؤلاء الأطباء . إنك لا تزالين فى سن الشباب ، وأمامك خير أيام العمر فلا تيأسى ، إن هؤلاء الأطباء يأتون الآن بما يشبه المعجزات ، وهم يستعينون على ذلك بتجارب السنين وملايين الجنيهات » .

هذا ما دار بينى وبين طبيبى منذ أسبوع ، وما جئت من أجله إلى دار العلاج النفسانى التى يديرها أحد تلاميذ العلامة فرود .

وبينما أنا غارقة فى أفكارى ومخاوفى إذا بباب الحجرة يفتح فجأة ويدخل منه رجل قصير الجسم ناضر الوجه ، ويقول لى بصوت هادئ رزين : « تفضل » !

لن أنسى قط نبرات هذا الصوت التى شعرت عند سماعها بأن كثيراً من آلامى العصبية قد فارقتنى . ولقد أخبرنى كثير من المرضى بعد ذلك أن هذا الصوت نفسه قد ملأهم ثقة بصاحبه ، وبعث فيهم أملا فى الحياة جديداً .

قادنى الطبيب إلى حجرة قليلة الأثاث ، ليس فيها إلا مكتب وكرسيان وأريكة من الجلد الأسود ، ويفصلها عن العالم الخارجى أبواب ثقيلة مزدوجة .

وجلس الطبيب أمامى والنافذة من ورائه ، وأخذ يكتب فى هدوء أجوبتى عن أسئلته الخاصة بسنى ومعيشتى وتاريخ حياتى الذى لم أخف عنه منه شيئاً ، وأخبرته كذلك بما أشعر به من خوف وفزع ، وسألته فى لهفة : « هل حالتى قابلة للشفاء ؟ » فأجاب : « إن أمله فى ذلك كبير ، وإنه سيبحث عن منشأ هذا الخوف حتى يكشفه لى » ثم أتبع ذلك بقوله :

« لكنك يجب أن تعرفى أولا شيئاً مجملا من أصل هذه المخاوف المجهولة ، وكيف تستقر فى عقل الانسان .

« إن الجزء المفكر من عقلنا هو جزء صغير منه ، أما بقية العقل فيتكون من الجزء اللاشعورى ، الذى يعمل دائماً بالليل وبالنهار ، يوحى إلى الرئتين بالاتساع والانكماش ويدفع الدورة فى الشرايين والأوردة ، ويهضم الطعام ، ويصدر الأوامر إلى أجزاء الجسم المختلفة ؛ فاذا أردت مثلا

أن تلتقطى دوساً من الأرض فإنك لا تفكرين فى كيفية التقاطه ، أى فى كيفية إمساكه بأصابعك وتحريك ذراعك وثنيها ثم بسطها ، بل الذى يعمل ذلك كله هو الجزء اللاشعورى من عقلك ، أو بعبارة أخرى عقلك الباطن ؛ وهو يعرف عنك أكثر مما تظنين ، فهو الذى يخبرك بحاجتك إلى الطعام أو الشراب ، وهو الذى يرسل الرسائل إلى عقلك المفكر طوال الليل والنهار ؛ وهذه الرسائل لا تنفذ كلها ، بل إن بعضها مستحيل التنفيذ ، لأن عقلك الباطن لا يستطيع أن يكيف نفسه حسب الظروف والأحوال ، ولهذا ينشأ لديك جزء وسط فى عقلك أستطيع أن أسميه الحكَم أو الرقيب ، هو الواسطة بين ما تريدين بالفعل وبين ما يجب أن تريديه . ذلك هو نفسك العليا أو ضميرك ، الذى تشعرين بوجوده قبل أن تبلغى السادسة من عمرك ، والذى يهذب غرائزك ويمنع كثيراً من رغباتك اللاشعورية من أن تظهر فى الوجود ؛ ولولاه لكنا همجاً أو أنعاماً ، نقتل من يحول بيننا وبين أغراضنا ، ونلتهم الطعام حيناً وجدناه ؛ ولكن هذا الرقيب قد يكون فى بعض الأحيان رقيباً شديداً ، يكبت إحدى الدوافع أو الرغبات كبتاً مستمراً ، فتطرق هذه الرغبة جدران عقلنا المفكر ، تريد أن نشعر بوجودها ، ولكنها لا تستطيع أن تجد سبيلها إلى الظهور إلا فى شكل خوف من المخاوف كخوفك من الموت الذى تحدثيننى عنه » .

فسألته مندهشة : « هل كل مخاوفنا إذاً رغبات أو دوافع مكبوتة ؟ »

فأجابنى : « لا . ليست كلها كذلك ، فبعضها مثلا ذكريات من طفولتنا بقيت فى عقلنا الباطن ونريد أن نتخلص منه . وواجبنا الآن فى حالتك الخاصة أن نعود إلى عقلك الباطن ونستخرج منه خوفك بعد أن نتبين سببه بالرجوع إلى ما مر بك أيام طفولتك ، لنعرف بعض ما كان لديك من الدوافع غير الاجتماعية أو الذكريات المؤلمة التى تضايقك الآن » .

فسألته مندهشة متحيرة : « وكيف تفعل هذا ؟ أتفعله عن طريق التنويم المغنطيسى ؟ »

فأجاب مبتسما : « لا ، بل كل ما يجب عليك هو أن تغمضى عينيك وتنظرى إلى ما يمر بك من الصور »

فقلت وقد زادت حيرتى : « أى الصور تقصد ؟ »

فأجاب : « هى الصور التى أسميها الأحلام والتى يبعث بها اللاشعور طوال الليل والنهار إلى العقل المفكر ، وهى تتكون من ذكريات وآمال إذا نمت نوماً غير عميق رأيتها على شكل أحلام ، ولكنك إذا رقدت فى يقظتك على الفراش فى سكون تام وأرخيت عضلاتك استطعت أن ترى هذه الصور . على أن بعضها لا يسمح الرقيب بظهوره من أول الأمر ، فيبدو مكانه فى شريط الصور الذى ينبسط أمام عينيك أسود خالياً من كل شىء ، ولكن هذا الرقيب لا يلبث أن يمل من محو تلك الصور غير المرغوب فيها ، فلا تلبثين أن ترى دليلا عليها أى دليلا على التجربة التى مرت بك فى طفولتك وسببت لك هذا الخوف » .

فقلت له : « ولكن طفولتى كانت كلها طفولة طبيعية ريئة ، كما أنى اجتزت دور المراهقة فى أمان ، وأنا الآن زوجة سعيدة موفقة ، ولست أذكر أن قد مرت بى فى حياتى تجارب تبعث فىّ هذا الخوف الشديد » .

فأجاب الطبيب ضاحكا : « لست أقصد بالتجربة ما حدث لك بالفعل ، بل أقصد رأيك أنت فيما حدث وتفسيرك له . والآن أرجو منك أن ترقدى على هذا السرير وتنظرى إلى صورك » .

فأطعته من فورى ورقدت على السرير وأغمضت عينى ، وجلس الطبيب أمام مكتبه . لم أر أول الأمر إلا سواداً فى سواد ؛ ولكن الطبيب قال لى : « لا تيأسى ، بل انظرى وتأملى ، وسترين شيئاً بعد قليل » . ففعلت ولكنى لم أر إلا ظلاماً ، ثم بدأ الظلام يستحيل إلى صور ملموسة

مهوشة ، وعلى حين غفلة مرت أمام عيني المغمضتين عدة صور بعضها فى إثر بعض ، وسمعت صوت الطبيب يقول : « ماذا ترين ؟ خبريني ولا تخفي عني شيئاً » .

فأجبته : « أرى حجرة استقبال تؤدى إلى حجرة الطعام ، وأرى خادمة تدخل هذه الحجرة ، وتضع صفحة على المائدة ؛ والآن أرى سواداً من جديد ، ثم أرى مائدة ومصباحاً ، وزهرة فى وعاء ، وأرى قطاراً يخترق تلالاً تتوجها الثلوج » .

وظللت كذلك ساعة من الزمن قال لى بعدها الطبيب : « كفى ما رأيته اليوم ، وستعودين إلىّ غداً ، ويهمنى أن ترى شيئاً لم يظهر لك فى كل ما مر بك من الصور . إنك لم تحدثيني عن شخص تعرفينه ، أو فرد من أفراد أسرتك ، أو عن صورة لا تستحين بالتحدث عنها علناً ، وسبب ذلك أن رقيبك عتيد شديد ، قد محا كل الصور التى تساعدنا على كشف سبب خوفك ؛ ولكن لا بأس ، فسيمل الرقيب ، وستظهر بعض هذه الصور والذكريات » .

والحق أن الطبيب كان صادقاً ، وإن كانت آماله لم تتحقق إلا بعد أسابيع ؛ كانت بعض الصور فى أثنائها تظهر سوداء ، وإذا وضحت بعض الوضوح فى يوم ما ، فقد تعود فى اليوم التالى إلى الغموض حتى كدت أيأس . وأخيراً فى ظهر يوم من الأيام بينما أنا راقدة على السرير شعرت بخوف ينتابنى ، وضيق فى تنفسى ، واشتدت دقات قلبي ، وأسرعت فناديت الطبيب فى ذعر وألم : « كفى يا سيدى ! لابد أن أعود الآن إلى منزلى ، أو أخرج من هنا إلى أى مكان آخر ، أنا خائفة مرعوبة لا أستطيع التنفس ، دعنى بالله » .

فأجابنى الطبيب بلهجة الآمر وإن لم تفارقه دعته ورقته : « ارقدى ساكنة وأغمضى عينيك ، وحدثيني عما ترينه » . ثم جاء وجلس إلى جانب السرير وأمسك بيدى وقال : « إنك لن تموتى فواجهى ما تخافينه وانظرى ما يتجلى أمامك من الصور » .

فصدعت بالأمر وأغمضت عيني وجوارحي كلها ترتعد من الخوف ، والعرق يتصبب من جبينى ، وظللت مدة لا أرى شيئاً ، ثم قال الطبيب : « حدثيني ماذا ترين ؟ »

فأجبته بصوت منخفض متهدج : « إنى أصعد درج سلم عال فى منزلنا ، والآن قد وصلت إلى الطابق الأعلى ، ورأيت أمامى باباً ، آه . . إنى خائفة » .

ثم انطمست الصورة فلم أستبين شيئاً ، ولكنها عادت بعد قليل إلى الوضوح : « والآن أرانى فى حجرة النوم ، وأمامى أختى التوأمة ميتة ، وقد ارتعت لرؤيتها وغادرت الحجرة مسرعة ، وصعدت إلى سطح المنزل ووقفت أمام الحجرة العليا الصغيرة ؛ والآن أحس بأن نكبة توشك أن تحل بى ؛ ها هو الباب ينفتح ، وهأنذا أسمع أصواتاً تناديني : لقد كنت تحبين أن تموت » .

وكاد ينفد صبرى عندما أتممت حديثى ، ولكن الطبيب أمرنى أن أتم النظر وأحدثه عما أرى .

« والآن أرى حجرة نوم أخرى فيها سرير كبير ترقد عليه أمى وشعرها منتشر فوق وسادتها ولا يختلف منظرها عن صورتها الشمسية التى تحتفظ بها فى حجرة نومنا والتى أخذت لها قبل وفاتها حين كانت سنى أنا وأختى ثلاثة أسابيع ، والآن أراها تحرك رأسها نحوى وأرى بنتاً صغيرة سوداء راكعة إلى جانب السرير ، ثم تنظر أمى إلىّ وتقول : أعرف أنك قتلتيها » .

ثم ذهب عنى الروع فجأة وارتخت عضلاتى المتصلبة ، وشعرت بتعب شديد ، ولكنى أحسست بأنى شفيت من خوفى ، ففتحت عيني ورأيت الطبيب إلى جانبى والحجرة علؤها ضوء الشمس ، وعندئذ قال لى الطبيب : « والآن أحب أن تحدثيني عن بنتين صغيرتين توأمتين إحداهما شقراء سمينة

كثيرة الحركة والنشاط والأخرى سمراء صغيرة الجسم ضعيفة البنية فى حاجة دائمة إلى العناية » ولم أكن فى حاجة إلى تفكير طويل لأن البنتين معروفتان لى ، فأنا الشقراء والثانية أختى التى ماتت فى سن السادسة

واستمر الطبيب فى حديثه : « ليس للبنتين أم ويلوح أن الأب كان يختص البنت الضعيفة التى تشبهه فى سماره بكل حبه وحنانه ، وأن أختها كانت تحس بحاجتها إلى هذا العطف الأبوى ، فأورثها ذلك شيئاً من سوء الخلق أفقدها كثيراً من حنان أبيها ، فنما فى عقلها الباطن دافع أو رغبة فى أن تموت أختها ليخلو لها الجو ، ولكن هذه الرغبة فى الموت تصحبها « جريمة الموت » لأنها رغبة خبيثة ، وهذا هو منشأ الصوت الذى سمعته يقول : « لكنك كنت تحبين أن تموت » . ثم تموت البنت الضعيفة بعد بضع سنين فكيف يؤثر ذلك فى أختها ؟ هل تبكى عليها ؟ »

فأجبته : « لا ، لم أبك بل كل الذى حدث أنى خفت خوفاً شديداً »

وأتم الطبيب حديثه قائلا : « ولكن الرغبة فى موت الطفلة التى جاءت من عقل البنت الباطن قد تركزت وثبتت حتى استحالت خوفاً ورعباً لدى أختها لأنها كانت ترغب فى موتها » .

وعندئذ تنفست الصعداء وأحسست أن جرحاً عميقاً فى نفسى قد التأم وذهبت عنى آلامه المبرحة . وواصل الطبيب حديثه قائلا : « وترى هذه البنت بعد ذلك فى حياتها خلقاً يموتون ، فتعود إلى عقلها الباطن مخاوفها القديمة وما سوف يحدث لها عندما تموت وتواجه بجريمتها ؛ ولكنك لاتعرفين شيئاً من هذا كله ، بل تعرفين أنك لم تقتلى أختك فى الحقيقة ، وأنها ماتت موتاً طبيعياً لاعتلال صحتها . وإنى أؤكد لك أنك لم تكتسبى إثماً حينما شعرت بحاجتك إلى من يعطف عليك بعد موت والدتك » .

فسألته فى لهفة : « إذاً لم يكن فى هذا الشعور شيء غير طبيعى ؟ وهل يشعر كل الأطفال بما شعرت به أنا ؟ »

فأجاب الطبيب : « نعم إن كل طفل فى مثل ظروفك لا بد أن يشعر بما تشعرين به . لقد كنت أشبه بعصفور صغير أهملته أمه وأخرجته من عشها ، فكنت لرغبتك فى حماية نفسك تحبين أن تبعدى أختك عنك ، وإن لم تكونى فى الحقيقة راغبة فى أن تموت » .

ثم جلست منهوكة القوى ، وتنهدت تنهداً عميقاً ، وفكرت فى الموت بوجه عام وفى موتى أنا بنوع خاص ؛ ولكن هذا التفكير لم يروعنى بل شعرت بأنى قد عوفيت من مرضى ، وأصبحت امرأة عادية ، راغبة فى الحياة والتمتع بنعيمها وسرورها .

جواد ل . أمرروز

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ٦ صاغ

المؤرخون فى مصر فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) :

٣ - أبو المحاسن

للدكتور محمد مصطفى زيادة

احتل أبو المحاسن مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقريزى والعينى ، فى أواسط القرن التاسع الهجرى . واسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الجوبنى ، ومولده بالقاهرة فى شوال سنة ٨١٣ هـ ، بدار الأمير منجك اليوسفى ، بجوار مدرسة السلطان حسن ، بحى القلعة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان الملك الظاهر برقوق ؛ وأصل أبيه تغرى بردى مملوك يونانى (رومى) جميل الطلعة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن مماليكه ، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه إلى فرقة الخاصكية ، وهى إحدى فرق المماليك السلطانية . ثم أصبح تغرى بردى موضع رعاية مولاه ، فتقلد كثيراً من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ، وشارك فى حوادث ذلك العهد حتى وفاة السلطان برقوق سنة ٨٠١ هـ . وقام تغرى بردى فى أيام السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق بدور خطير ، وناء بمسؤوليات كبرى ، إذ تولى نيابة دمشق ، وهى أكبر النيابات فى دولة المماليك ، وساهم فى مدافعة تيمورلنك عن مدن الشام ، وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية . ثم تولى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام ، واتهم أثناء ولايته عليها بتهمة الخيانة العظمى ، فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركمان ، حيث أقام مدة متخفيا . ثم عفا عنه السلطان بعد ذلك ، وطلب إليه العودة إلى القاهرة ، وولاه أتابكية العساكر بالديار المصرية ؛ بل تزوج بعيد ذلك من كبرى بناته ، واسمها فاطمة ، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة ؛ وما زال تغرى بردى على نيابتها حتى وفاته فى أواسط المحرم سنة ٨١٥ هـ[١] . وفى تلك السنة نفسها مات السلطان فرج قتيلا بسيف الشرع ، على يد الأميرين نوروز وشيخ ، وقد اعتلى عرش السلطنة المملوكية من بعده ثانى هذين الأميرين ، وهو المعروف باسم السلطان الملك المؤيد شيخ .

أما تغرى بردى فقد ترك ستة أبناء ، وأربع بنات منهن خوند فاطمة زوج السلطان المتوفى ، وكان أبو المحاسن أصغر أولئك الأولاد والبنات جميعاً . وقد توفى والده وهو فى الثانية من عمره ، فتولى تربيته قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفى ، وهو زوج أخته الثانية واسمها بيرم ؛ ثم توفى ابن العديم ، وتزوجت بيرم من قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى ، فأكمل البلقينى تربية الصبى إلى أن كبر وانتشا وترعرع ؛ ثم توفى البلقينى سنة ٨٢٤ هـ ، فصار أبو المحاسن تحت كنف جماعة من أكابر مماليك أبيه ، فتعهدوه بما احتاج إليه من رعاية وعيش وتعليم مدنى وحربى .

وقد حكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوما وهو فى الخامسة من عمره إلى حضرة السلطان المؤيد شيخ ، وقد علمه بعض من كان معه أن يطلب إلى السلطان أن

(١) ترجم أبو المحاسن لأبيه تغرى بردى ترجمة وافية فى كتابه "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ١٣٢ — ١٣٥ .

يعطيه "خبزاً" ؛ ومعناه فى مصطلح دولة المماليك " إقطاع من الأرض " ؛ وهذه عبارة أبى المحاسن : " فلما جلست عنده وكلّمنى سألته فى ذلك ، فغمز من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدرى ، فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطانى ، فأخذه بيده وناولنيه ، وقال : خُذْ ، هذا خبز كبير مليح ، فأخذته من يده وألقيته إلى الأرض ، وقلت : أعطِ هذا للفقراء ، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلاحين ، يأتون بالغنم والأوز والدجاج ، فضحك حتى كاد أن يغشى عليه ، وأعجبه منى ذلك إلى الغاية ، وأمر لى بثلاثمائة دينار ، ووعدنى بما طلبته وزيادة[١] " .

والواقع أن أبا المحاسن نشأ فى بسطة من العيش ، وليس من الحق قوله فى موضع آخر من كتابه هذا إنه عاش فقيراً من غير مال ولا عقار بعد وفاة أبيه ، إذ كان الناصر فرج قد استولى فعلاً على جميع ما خلفه تغرى بردى من ثروة ومتاع وإقطاع طبعاً . ولكن قد كفل أوصياؤه نفقته وتنشئته وتعليمه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره بمصر والشام والحجاز ، ومنهم المقريزى والعينى وابن حجر وابن عربشاه بالقاهرة ، وابن ظهيرة وابن العليف بمكة ، والمرعشى وابن الشحاع بحلب ، وكثير غيرهم من أجلاء القرن التاسع الهجرى بالشرق الأدنى من علماء المسلمين . على أنه أحب التاريخ من دون العلوم التى درسها وأجيز له فيها ، فلازم المقريزى — والعينى أيضاً — من أجل ذلك ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما وخططهما فى التحصيل والكتابة الغزيرة ، واجتهد فى ذلك إلى الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، وهذا فضلاً عن معرفته باللغة التركية[٢] .

غير أن تفضيل أبى المحاسن لدراسة التاريخ خاصة ، كان راجعاً فى الغالب إلى وصول العينى بواسطته إلى المكانة السامية التى شغلها فى بلاط السلطان برسباى ، إذ طمع هو أيضاً فى مثل ذلك لنفسه بالوسيلة عينها لدى سلطان مقبل . فلما مات المقريزى سنة ٨٤٥ هـ ، والعينى بعده سنة ٨٥٥ هـ ، خلا الجو تماماً لأبى المحاسن ، ولم يوجد من ينافسه فى زعامة المؤرخين فى عصره ؛ وقد أشار أبو المحاسن نفسه إلى ذلك فى غبطة ورضى وجسارة مشوبة بغرور ، إذ كتب بصدد وفاة العينى : " ولما انتهينا من الصلاة على قاضى القضاة [العينى ، قال لى] بدر الدين محمد بن عبد المنعم الحنبلى : خلا لك البرّ يبّض واصفر[١] . فلم أرد عليه ، وأرسلت إليه بعد عودتى إلى منزلى ورقة بخط العينى هذا يسألنى فيها عن شئ سئل عنه فى التاريخ من بعض الأعيان ، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه وتشتت ذهنه ، ثم أسبط فى الشكر والمدح والثناء إلى أن قال : وقد صار المعوّل عليك الآن فى هذا الشأن ، وأنت فارس ميدانه ، وأستاذ زمانه ، فاشكر الله على ذلك ؛ وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة فى سنة تسع وأربعين[٢] وثمانمائة " ؛ أى قبل وفاة العينى بسنتين .

ومهما يكن من صيرورة الزعامة بين المؤرخين فى مصر لأبى المحاسن ، فإنه لم يتفق له أن صار نديماً دائماً لسلطان من سلاطين المماليك ، يقرأ له التاريخ فى أمسياته ، مثلما كان العينى مع السلطان برسباى . على أنه تقلد كثيراً من الوظائف فى عهود مختلفة ، وكان له من مولده وتنشئته وقراباته ومصاهراته وصداقاته ما جعله من رُوّاد البلاط السلطانى . فقد كان من المتصلين بحضرة السلطان برسباى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

(٢) انظر تفصيل هذا كله فى مقدمة كتاب "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" (طبعة القاهرة) ، ج ١ ، ص ٣ — ٢٨ .

(١) كذا بالأصل (انظر الحاشية التالية) ، وهى دعابة لفظية لعبارة " يبض واصفرى " للشبورة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ص ٣٦٦ ؛ وكذلك حاشية رقم ٥ بتلك الصفحة .

حتى صحبه فى حلقات الصيد والنزهة والسرحة ، وتوثقت صلته بالسلطان جقمق حتى انتظمت زياراته لمجلسه مرة كل أسبوع ضمن رجال العلم المقربين ، وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال ، حتى إن زياراته لبلاطه لم تعد المرة أو المرتين فى العام كله ؛ ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشقدم الرومى ، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبار ؛ وقد عاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباى ، وليكتب فى حوادثها بما يدل على أنه لم يلق فى بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولا .

ولقد استطاع أبو المحاسن خلال حياته الطويلة ، التى صرف معظمها وهو يحوم حول البلاط السلطانى ، أن يكتب كثيراً فى التاريخ والتراجم ، وأن يبرع فى فنون الفروسية كلعب الرمح ورمى النشاب وسوق البرجاس ولعب الكرة بالصوالجة (Polo) ، وأن يحذق علم النغم والضروب والإيقاع ، وأن ينظم الشعر بالعربية والتركية ، وأن يحج إلى مكة مرتين سنتى ٨٣٦ هـ ، و ٨٤٩ هـ . وقد قام أبو المحاسن فى حجته الثانية بوظيفة " باشا المحمل " المصرى ، وهى أقل رتبة من وظيفة " أمير المحمل " ؛ وكانت العادة أن يكون لهذا الباشا رجلان فى معيته يسمى أحدهما باشا الميمنة ، وثانيهما باشا الميسرة ، وكان قايتباى الذى تسلطن فيما بعد على الميسرة[1] فحسب .

أما مؤلفات أبى المحاسن فقد بلغ عددها اثنى عشر كتاباً ، على حد قول ابن الصيرفى وغيره ممن كتبوا ترجمته . وقد بقى بين أيدينا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، وأشهرها كتابه فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ٨٧٢ هـ ، واسمه " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " ، فى سبعة مجلدات ضخمة[1] ؛ وقد ألفه أبو المحاسن من أجل السلطان المرجو محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ٨٤٧ هـ قبل أن يتحقق ذلك الرجاء ؛ وكان فى عزم أبى المحاسن أن يختتمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجعل منه ما جعل العينى من " عقد الجمان " [2] . وكثيراً ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب إلى مؤلف سبق له أن ألفه ، واسمه " المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى " ، وهو كتاب كبير شامل لتراجم الأعيان والتابعين من سلاطين الدولة المملوكية ورجالها ، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى ، من سنة ٦٥٠ هـ إلى عصره ؛ وقد رتبه أبو المحاسن ترتيباً أبجدياً ، وأراد به أن يكون ذيلا وتكملة لكتاب " الوافى بالوفيات " ، لخليل ابن أيبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . ثم اختصر أبو المحاسن هذا المؤلف فى كتاب سماه " الدليل الشافى على المنهل الصافى " ، وجعل لهذا المختصر مختصراً آخر سماه " مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة " ، فجاء هذا الأخير كالهيكل العظمى العارى ، إذ لا يوجد به سوى تاريخ مقتضب للسيرة النبوية ، يتلوه بيانات جافة بأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين ومن وليهم على مصر إلى سنة ٨٤٢ هـ .

ولأبى المحاسن كتاب آخر يكثر من الإشارة إليه أيضاً فى كتاب " النجوم الزاهرة " ، واسمه " حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور " ، وهو ذيل لكتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لأستاذه المقريزى ، وقد رتبه على السنين والشهور والأيام ، فبدأ به من حيث

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٢٣ .

(١) ذكر أحد المعاصرين أن أبا المحاسن اختصر هذا المؤلف فى مجلد اسمه " الأنوار الظاهرة من الكواكب الظاهرة " غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب فى المكتبات التى زرتها حتى الآن .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ، ص ٢٩٣ .

انتهى ذلك إلى سنة ٨٥٦ هـ . لكنه خالف المقريزى وغايره قليلا فى طريقته من الإطناب فى الحوادث والاقتصار فى تراجم الوفيات ، فأطال فى كل منهما ما استطاع إلا ما سبق له استيفاؤه فى كتابيه الأولين ، " لتكثر الفائدة من الطرفين " ، على حد قوله فى مقدمته لذلك الكتاب الأخير .

ومن مؤلفات أبى المحاسن أيضاً " نزهة الرأى فى التاريخ " ، و " البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر " ؛ وهذا عدا كتب أخرى[1] لا صلة لها بصميم التاريخ ، وهى كتاب " نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب " ، وكتاب " حلية الصفات فى الأسماء والصناعات " ، وكتاب " البشارة فى تكملة الإشارة " ، وكتاب " الانتصار لسان التتار " ، وهو رسالة فى معانى اللغة التركية ، وكتاب فى الرياضيات والموسيقى ، وكتاب " السكر الفائح[2] والعطر الفائح " فى التصوف .

وقد نقد ابن الصيرفى والسخاوى مؤلفات أبى المحاسن فى عنف وشدة ، ورماه كل منهما بما خال أو شاء من تهم يستشف القارئ من عبارتها شيئاً من الغيرة والحسد . ومصداق ذلك قول السخاوى ، ونصه : " وبالجملة فقد كان [أبو المحاسن] حسن العشرة ، تام العقل — إلا فى دعواه فهو سحيق — . . . . لطيف المذاكرة ، حافظاً لأشياء من النظم ونحوه ، بارعاً حسبما كنت أتوهمه فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفرداً بذلك ، لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تكثر فيه أوهامه ، وتختلط ألفاظه وأقلامه ، مع سلوك أغراضه ، ومحاشيه مجاهرة من أدبر عنه بإعراضه ، وما عسى أن يصل إليه[1] ترکی ! " . وقد ردد ابن الصيرفى هذا المعنى ، وزاد عليه أن أبا المحاسن كان " كلما فرغ من تصنيف يتوجه به إلى من يعرف العربية ، فيصلحه له ويصير له به مزية " .

ومع هذا وغيره من أقوال المعاصرين ، فإنه يتجلى لنا من كتب أبى المحاسن أنه كان مؤلفاً واسع الاطلاع ، شديد التدقيق والتحرى فى كتابته ، وأنه كان مجتهداً كدوداً ، أميناً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة . يضاف إلى ذلك أنه إذا أخذنا نقد أبى المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم فى كتبه مقياساً لخلقه ، وذكرنا قول ابن إياس فيه ، وهو الذى خلفه فى زعامة المؤرخين فى مصر ، وضح لنا حقاً أنه كان " رئيسا حشما فاضلا . . . له اشتغال بالعلم . . . . ، مشغوفا بكتابة التاريخ[2] " ، بدليل أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته فى ذى الحجة سنة ٨٧٤ هـ .

محمد مصطفى زيادة

(١) جميع الكتب المتقدمة موجودة ، كاملة أو أجزاء ، مطبوعة أو مخطوطة ، فى مختلف مكاتب العالم ، وما عداها فغير مقطوع بوجوده حتى الآن .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة الإسكوريال تحت رقم ٣٦٧ .

(١) السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور (طبعة القاهرة) ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

بين ڤولتير والجاحظ

للأستاذ احسان النص

هل كان بين كبير كتاب الفرنسيين ڤولتير وبين شيخ كتاب العربية أبي عثمان الجاحظ ثمة محاكاة وشبه في حياتهما وأخلاقهما وكتابتهما ؟

هذا ما بدا لي أن أبحث فيه ، فلعلي واجد شيئاً من هذا القبيل .

هناك فارق كبير بين عصري الرجلين ؛ فعصر الجاحظ عصر حرية وانطلاق أفكار ، عصر حُطِّم فيه كثير من قيود الماضي ، قال عنه أبو عثمان : « وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقيّة ، وهبّت ريح العلماء ، وكسد العيّ والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » . فاستطاع الجاحظ أن ينشر آراءه ، ويدلي بأفكاره في كثير من الحرية والصراحة ، لا يخشى اضطهاد سلطان أو عسف ذي بطش .

وأما عصر ڤولتير فكان على النقيض من ذلك ؛ عصر الحكم الاستبدادي المطلق ، وكان على من يكتب فيه أو يتكلم أن يكون صاحب التاج راضياً عما يكتب ويتكلم ، وإلا فالباستيل بالمرصاد لمن يتمرّد أو ينتقد ؛ فكان رجال الفكر والقلم في ذلك العصر مقيدين بأغلال تحول دونهم ودون ما يرومون البوح به .

إذاً كانت سبيل الجاحظ ممهدة معبّدة ، بإمكانه أن يسير فيها ويتوغل دون مخاوفة ولا وجل ، بينما كان ڤولتير يسعى قلقاً حاذراً في طريق محفوفة بالأشراك والأخطار .

فإذا رجعنا إلى تاريخ حياة الجاحظ ، ونظرنا فيما وصل إلينا من آثاره وتآليفه ، نجد أن صاحبنا كان مطبوعاً بطابع عصره ، أي أنه كان حر التفكير ، أو ما كان من المعتزلة الذين سماهم فريق من الغربيين « المفكرين الأحرار » ، وكان مذهبهم قائماً على العقل وحده ، يعمدون إليه في التفسير والتأويل ، وتصحيح الأحكام ، وتمييز الأحاديث ، بل إن الجاحظ نفسه لم يقبل مذهب المعتزلة كما كان ، بل كانت له آراؤه وأنظاره الخاصة ، وكان له مذهبه الخاص وهو المدعو « بالجاحظية » .

ولما كان عصره يزخر بشتى المذاهب والفرق ، من سنيين وشيعة وخوارج وزنادقة وغيرهم ، فإنه لم ينج من أقلام وألسنة خصومه وحساده ، فتناولوه بالنقد وتعرضوا له بالطعن ، واتهمه بعضهم في دينه ، وآخرون بوضع الحديث . ولكن الجاحظ وقف لخصومه الكثر موقف المحاج الناضل ، فردّ عليهم افتراءاتهم ، ولذعهم بسخريته. وقد تواطأ عليه في أواخر حياته أعداء مذهبه وحساده من جهة ، والفالج والنقرس من جهة أخرى ؛ ومع ذلك فلم يكن ليتراجع أو يجبن ، كان مستمراً في الكتابة دون ملل أو تقاعس ؛ وإذا تأملنا في آثاره وجدنا خيرها ما كتبه أبو عثمان إبان علته وفي أواخر حياته ككتاب الحيوان والبيان والتبيين وغيرهما .

هل نجد مثل هذا لدى ڤولتير ؟ وهل كان حراً في تفكيره كالجاحظ ؟ أجل ، وأبرز شاهد على ذلك ثورته على رجال المذهب الكاثوليكي وعلى المذهب نفسه ، فكان دائم السخرية والطعن في هذا المذهب وشيوخه ، لا يفتأ يردد : « لنسحق الرذيلة » Ecrasons l'Infâme ، وفي كل ما كتب يتجلى حقده على هذا المذهب واضحاً جلياً ، وبلغ به الأمر إلى السخرية من القديسة جان دارك ، فكتب عنها

قطعة أسماها « العذراء » فيها كثير من الفحش والسفه .

بيد أنه إذا كان ڤولتير حر التفكير ، فما كان عصره ليهضم مثل هذه الحرية ، خصوصاً وأن نقمة ڤولتير كانت منصبة على المذهب السائد إذ ذاك في فرنسا ، وكان من أنصاره الملك نفسه . على عكس الجاحظ الذي كان يدافع عن مذهب أخذ به المأمون وناصره ؛ فكان عمل ڤولتير فيه كثير من التهور والجرأة ، بينما كان الجاحظ لا يخشى مغبة ما يكتب ، وإن كان في آخر حياته ، زمن المتوكل ، اضطر أن يلزم جانب الاعتدال لاشتداد الخليفة على المعتزلة .

وقد دفع ڤولتير ثمن تهوره واجترائه ، فزج في « الباستيل » مرتين وأبعد من البلاد وحرم عليه دخول باريس ، وأحرق كثير من كتبه ، وغضبت عليه الكنيسة الكاثوليكية ، حتى إنها عند ما مات رفضت الصلاة عليه ودفنه لولا ما قام به أصدقاؤه الفلاسفة من مجاهيد وحيل .

ورغم هذا الاضطهاد لم يكن ڤولتير يتقاعس عن الكتابة ونشر آرائه وأفكاره ؛ ولما اعتزل في ضاحية « فرنى » كان الكبراء والنبلاء والأدباء وأناس من كل طبقات الشعب تفد إليه وتستمع إلى أحاديثه ، وتدعوه « الملك ڤولتير » ، وقد دخل العاصمة باريس في آخر سنة من حياته دخول الظافر واستقبل كما تستقبل الملوك ، وتوج حين حضوره تمثيل روايته « إيرين » بإكليل من الغار ، وصفق له الشعب المتفرج طويلا .

فالجاحظ وڤولتير اشتركا في هذه الصفة ، أي في ميلهما إلى الحرية الفكرية ، وإلى إعمال العقل ، فكثر خصومهما وطعن في اعتقادهما واتهما بالإلحاد والكفر .

ونتيجة ميلهما إلى إعمال العقل التحري عن الحقيقة ؛ كان كلاهما يدعم أبحاثه بالحجج والأدلة ؛ فالجاحظ يقوم بتجارب ومعاينات ومشاهدات في الحيوان وغيره ، لكي يستوثق من صحة ما يثبته في كتبه ، وعلى الأخص في كتاب « الحيوان » الذي ملأه بذكر تجاربه ومعايناته في شتى أصناف الحيوان ، ورحلاته في سبيل التحقيق ، وهو القائل : « لا تشفيني إلا المعاينة » .

فإذا تركنا كتاب « الحيوان » جانباً ، ونظرنا في « عصر لويس الرابع عشر » و « تاريخ شارل الثاني عشر » نرى أن ڤولتير قد شحنهما بالبراهين والأدلة ، وتحرى في تاريخه مطابقة الواقع والحقيقة . ففي خلال العشرين عاماً التي قضاها في كتابة « عصر لويس الرابع عشر » كان يتلقف المعلومات التاريخية من أفواه ذوى المناصب الكبيرة ، ومن كانت صلتهم وثيقة ببلاط الملك ؛ وكان يطالع إلى جانب هذا عدداً كبيراً من المؤلفات التاريخية التي تبحث في تاريخ ذلك العصر . بل إنه زار بنفسه الميدان الذي حدثت فيه معركة « روكروا » المشهورة ، وأكثر الأماكن التي وقعت فيها أحداث ذات شأن .

يجوز أن يكون ڤولتير قد أهمل تحرى الحقيقة والطابع المحلي في قصصه ورواياته ، ذلك لأنه كان يكتبها لا لغاية تاريخية ، وإنما تحقيقاً لأهداف وغايات أخرى ، كمعالجة الأمور الاجتماعية والنيل من المذهب الكاثوليكي ؛ فكان يفعل كل شيء في سبيل إبراز فكرته في القصة ، وما عدا ذلك فلا يهمه في قليل ولا كثير ؛ ولكنه في التاريخ على عكس ذلك ، الحقيقة والواقع أولاً .

وإذا تغلغلنا في نفسي الرجلين ، وجدنا أن حب التفوق والتميز متمكن منهما ، وإن كان هو لدى ڤولتير أشد منه عند الجاحظ ؛ كان ڤولتير شديد الأثرة ، لا يحب إلا نفسه ولا يرى في العالم عبقرياً سواه ، ومن تجرأ على انتقاده فقد قذف بنفسه بين فكي الأسد ، إذ يرد عليه ڤولتير بتهكمه المشهور ولا يزال يلاحقه حتى يلفظ أنفاسه ، فڤولتير طاغية جبار لا يرحم خصومه .

لكن الجاحظ لم يكن مثل ڤولتير في القسوة والأثرة ؛ على أنه كان على شيء من الزهو والطمع وحب السيطرة

والتفوق ، ينال من منتقديه بشدة وصرامة ، وزعما فكر في أن تكون الخلافة له يوماً من الأيام ، إذا لم يكن هازلاً ؛ فقد سأله بعض الناس عن حاله فأجاب : « سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً وحداً ؛ حالى أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويؤثر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكىء على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج » . فقال الرجل : الفرج ما أنت فيه . فقال : « بل أحب أن تكون الخلافة لى ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ويختلف ، فهذا هو الفرج » .

وهذه الرغبة في التفوق دفعت الرجلين إلى الكتابة في كل موضوع ، وإلى تناول كل بحث ، أى إلى الاحاطة ، ففولتير مؤرخ وقاص وكاتب مسرحي وفيلسوف وشاعر وناقد اجتماعي وله مؤلفات في بعض العلوم . ولكن هل كان ناجحاً في كل ما كتب وعالج ؟ إن توزيعه جهوده في كل هذه النواحي جعله يخفق في أن يبرز فيها كلها كما كان يرجو ، بل كان كما قال « ديدرو » الثاني في كل شيء .

وكان الجاحظ أيضاً ملماً بكثير من النواحي ، بدافع من حب التفوق من جهة ، وبتأثير عصره من جهة أخرى ، فكتب في العلم والأدب والفلسفة والفقه وعلم الكلام والطبيعة والكيمياء والحيوان والأخلاق والصناعات والاجتماع والعاهات والألعاب وقرض الشعر الخ . . ولكنه لم يكن موفقاً في كل هذا ، فلم يكن شاعراً بالمعنى الصحيح ، وخطأه الاخصائيون في الجغرافيا والطب والكيمياء وفيما عدا ذلك كان ناجحاً أو مبرزاً .

والذى يسمو بالرجلين سمواً عظيما هو الأسلوب . فلكل منهما أسلوبه الفرد الذى لا يجاريه فيه أحد ، فيقال أسلوب فولتير وأسلوب الجاحظ . ولا يخلو الأسلوبان من تشابه في بعض الوجوه ، فكلاهما يمتاز بالسهولة والوضوح التامين دون غموض ولا تعقيد ، وكلاهما يرتفع في أجواء البلاغة والبيان ، وكلاهما تتمشى فيه روح النكتة الخفيفة والتهكم اللاذع المر . وكما أن فولتير كان شيخ المتهكمين من بنى جلدته ، فإن الجاحظ إمام المتهكمين من كتاب الناطقين بالضاد ؛ فيتهكم بالجهلاء من المفسرين ويدعوهم بالمشوية ، ويتهكم برواة الأخبار الخرافية الغريبة ، ويتهكم بمن ينقده أو يرد عليه ، ويتهكم بالمعلمين الحمق الخ . وحسبك أن تطالع رسالته في التربيع والتدوير ، فهى أبرز مثال عربي في التهكم ، يقول فيها مخاطباً الرجل الذى من أجله كتب الرسالة : « وأنا ، أبقاك الله ، أعشق إنصافك كما تعشق المرأة الحسناء ، وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم التفقه في الدين . . » الخ .

وكان في نفس الرجلين ظمأ شديد للمعرفة ، يبحثان عنها في كل المواطن ، فكان فولتير كثير المطالعة والقراءة ، فما فاتته مطالعة كتاب أو مؤلف ، وقد اطلع على كثير من الكتب الأجنبية ؛ وليس من المستبعد أن يكون قد أتى بترجمان عربي من الأندلس ليترجم له بعض الكتب العربية ، وإلا لما استطاع أن يكتب قصصه عن محمد وعن الإسلام ، وإن كان فيها كثير من الخلط .

ولم يُعرف من هو أكثر مطالعة وشغفاً بالمعرفة بين العرب من الجاحظ . قال فيه أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت ممن أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع في يده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

وكان الجاحظ أيضاً يلتمس المعارف من أفواه الناس ، فيحادث القصابين والحوائين والسماكين والملاحين وغيرهم .

هذا ما وجدته من وجوه الشبه بين الرجلين ، وأكبر ظنى أنهما لو تلاقيا على صعيد واحد ، في عصر واحد ، لكان من الجائز أن يكونا توأمين في كتابتهما وأخلاقهما .

(دمشق : حى القنوات) **احسان النص**

الزعيم الخالد سعد زغلول

(بمناسبة ذكرى وفاته يوم ٢٣ أغسطس)



وزير المعارف سنة ١٩٠٧



فى أول عهده بالمحاماة سنة ١٨٨٦



عضو الجمعية التشريعية



سعد زغلول القاضي فى يوليو سنة ١٨٩٦



زعيم الحركة الوطنية المصرية

٤ - ابن الهيثم

للأستاذ مصطفى نظيف بك
أستاذ الطبيعة فى كلية الهندسة

[تلخيص « الثقافة » من النص الذى نشرته كلية الهندسة (جامعة فؤاد الأول) للمحاضرة الأولى من محاضرات ابن الهيثم التذكارية ، وهى التى ألقاها الأستاذ مصطفى نظيف بك يوم ١٢ أبريل سنة ١٩٣٩ بالكلية ... ...]

ابن الهيثم يدرك أن الاستقراء ناقص بطبيعته، فيصرف الاهتمام إلى تصفح أكثر ما يستطيع من الأحوال ، عسى أن يتضاءل احتمال الخطأ فى نتيجة الاستقراء . فإن وجدنا جهازه فى الانعكاس مثلا معقداً فلأنه أراد أن يكون الجهاز صالحاً للاعتبار بوساطته ، لا بمرآة واحدة مستوية بل بالمرايا السبع التى ذكرها جميعاً . وللاعتبار لا بضوء الشمس وحده بل بالأضواء المختلفة كالتى ذكرنا آنفا .

فليس من العبث إذاً قولنا إنه قد اعتمد فى بحوثه على الاعتبار وقد أخذ فيها بالاستقراء وأخذ فيها بالقياس .

بقى التمثيل أو الأنالوجى .

ابن الهيثم أخذ به أيضاً . ولكن فى مواضع قليلة من بحوثه ، فى واحد أو اثنين منها . فهو فى دراسة الانعكاس لم يكتف بالكشف عن أحكام الانعكاس واستنباط نتائجها القياسية ، بل حاول أن يضع للانعكاس نظرية يبين بها « لِمِيَّة الانعكاس » أى لِمَ ينعكس الضوء على الصفة التى ينعكس عليها ؟ وكانت نظريته فى ذلك التمثيل للانعكاس بمثال ميكانيكى . وبدأ يشرح ما يحدث لو أن كرة صغيرة صلبة ملساء متحركة لقيت جسما صلباً منعها من الاستمرار فى حركتها على السمت الأول . وقاس على هذا المثال الميكانيكى انعكاس الضوء . وإن كانت أقوال ابن الهيثم من الناحية الميكانيكية فى نظرى على جانب عظيم من الخطر ، فلا يسمح المجال اليوم بتفصيل الأمر . ويكفينى أن أقول إنها تنطوى على معان تتعلق بعلم الميكانيكا لم يصل إلى علمى أن أحداً أشار إليها ، أذكر منها الفكرة التى بتبنى عليها تعريف نيوتن لعامل الارتداد . وأذكر منها فكرة « كَمّ » عبر عنه ابن الهيثم بقوله : « قوة حركة الجسم » ، يتركب معناه من معنى « ثقل » الجسم ، والثقل نحن كتلته ، ومن « حركته » ونقل سرعته . وأذكر منها فكرتى تحليل السرعة إلى مركبتين ، وتركيب السرعة من مركبتين .

وابن الهيثم بالتمثيل لانعكاس الضوء بهذا المثال الميكانيكى من الواضح أنه سبق نيوتن إلى نظريته التى وضعها فى انعكاس الضوء ، ولكنه لم يتقيد كما تقيد نيوتن برأى معين فى ماهية الضوء ، بل اكتفى بالتمثيل . وموقفه فى نظرى شبيه بموقف فريق من كبار علماء الطبيعة فى أواخر القرن التاسع عشر وأكثرهم من الانكليز ، وهم الذين يصح أن أسميهم « أصحاب المثل » أو « أصحاب النماذج » ، لأنهم كانوا يرون أن يقوم بجانب النظريات فى الأمور الطبيعية ، نماذج تمثل بالمحسوسات الفِكَر المتخيلة فى تلك النظريات . وكان امكان تصور أنموذج أو مثال ميكانيكى على هذه الصفة يتخذ لديهم دليلاً يساعد إلى حد ما صِدْق النظرية .

هذا مجمل ما أحببت أن أبينه من الناحية العلمية لابن الهيثم ، أى ما أحببت أن أبين من ابن الهيثم بصفة كونه عالماً بمعنى « سيانتست » ، اعتباريا بمعنى « اكسبرمنتال » ، وهى ناحية منه لا أعلم أنها روعيت من قبل بما هى جديرة به من التقدير والاهتمام .

أثر ابن الهيثم في علم الضوء :

بقي الأمر الثالث ، وهو أثر ابن الهيثم الذي طبعه على علم الضوء من بعده :

لا شك أن لابن الهيثم كشوفاً في علم الضوء لم يسبقه إليها أحد . ولا شك أن له بحوثاً قد تناولها قبله المتقدمون ، ولكن قدر له هو أن يكون قوله فيها القول الفصل . ولا شك لديّ أن كثيراً من موضوعات علم الضوء ، مما ينسب كشفه أو البحث عنه إلى علماء من أهل أوربا ، فيما بين عصر ابن الهيثم وعصر النهضة ، قد علم به ابن الهيثم ، وتناول دراسته وشرحه من قبل .

فإن قيل إن « ليناردو دوفنشي » (Leonardo da Vinci) قد وضع الأسس التي يبنى عليها علم التطور . أو قيل إن « موروليكوس » (Maurolycus) أول من شرح المسألة التي عرفت بمسألة أرسطو وحيرت الأفكار ، وهي تتلخص في أن أشعة الشمس التي تنفذ من ثقب ضيق ، وتقع على حاجز أبيض في غرفة مظلمة ، تكوّن على سطح الحاجز صورة مستديرة ، أيا كان شكل الثقب الضيق ، فسواء كان شكله مثلثاً أو مربعاً أو أي شكل آخر ذي زوايا ، فإن صورة الضوء على الحاجز تكون أبداً مستديرة . أو إذا قيل إن « كرتشر » (Kircher) أو أحداً غيره من المتأخرين عن ابن الهيثم أول من بين الأظلال وأشباه الأظلال على حسب ما هو معروف في الوقت الحاضر . أو قيل إن « دلابورتا » (Della Porta) أول من ذكر كيفية الحصول على صور المبصرات بوساطة ثقب ضيق . . . إن قيل اليوم هذا فقد حان في نظري أوان تغيير الأوضاع التاريخية لهذه الأمور .

ومسألة ابن الهيثم التي عرفت عند أهل أوربا بمسألة « الهازن » والتي يتلخص موضوعها في أنه إذا فرض سطح عاكس ، وفرض أمامه نقطتان ، فكيف تعين النقطة على السطح العاكس التي إذا وصلت بالنقطتين كان المستقيمان الواصلان أحدهما بمنزلة الشعاع الساقط ، والآخر بمنزلة الشعاع المنعكس . هذه المسألة سهلة بسيطة إذا كان السطح العاكس مستوياً ، بل هي سهلة بسيطة أيضاً في بعض الأحوال الخاصة في حالات السطوح الكرية والاسطوانية والمخروطية . ولكن تزول منها هذه السهولة ، وتصير مسألة هندسية عويصة ، إذا فرضت النقطتان حيثما اتفق من سطح الكرة أو الاسطوانية أو المخروطية المحدبة أو المقعرة . هذه المسألة كان ابن الهيثم أول من استطاع أن يضع لها حلولا هندسية مدعمة بالبراهين . يكفيني أن أقول إنه قد تبين لي أن مواضع منها لم تفهم على حقيقتها ، وأن مواضع منها قد اعترض عليها بشكوك هي في نظري لا مسوغ لها . ويكفيني أن أقول إنها شغلت عقول كثير من علماء الرياضيات بعد عصر النهضة مثل « هويجنز » (Huygens) بل كان « بارووز » (Burrows) أستاذ الرياضة الذي تتلمذ عليه نيوتن في كمبردج يذكرها في محاضراته ، وإن هو قد تجاوز حدود الاعتدال في نقد « الهازن » لتعقد براهينه الهندسية كما قال ، فليس هذا في نظري بضائره .

ولابن الهيثم غير هذا بحوث أخرى كثيرة في علم الضوء . وهذه البحوث جميعاً أكثر من أن تكفي لتجعل له مقاماً ممتازاً في مقدمة علماء الطبيعة في جميع عصور التاريخ . وله أيضاً آراء في الضوء ضمنها أقواله ، سبق إليها الأجيال والقرون . يكفيني اليوم أن أعلن منها أمراً واحداً أجمع العلماء الأوربيون حتى القرن السابع عشر على نفيه وإبطاله . ولم يسم إلى تصوره حتى « كبلر » وحتى « ديكارت » ، ذلك أن للضوء سرعة محدودة . أي أنه ينتقل في زمان . بل وإن سرعته في الوسط المشف الألطف أعظم من سرعته في الوسط المشف الأغلظ ، وهو الصحيح ، وهو النقيض مما تؤدي إليه النظرية التي وضعها نيوتن في الانعطاف . لا أقصد طبعاً أن ابن الهيثم بنى رأيه في سرعة الضوء على نتيجة الاعتبار ، وما كان له أن يثبت « بالاعتبار » هذا الأمر ، فقد فشل في ذلك

« غاليليو » وقد ولد بعد وفاة ابن الهيثم بخمسة قرون وربع قرن . ولكنه أمر قرره صراحة ، وأثبته فى كثير من أقواله . وهو رأى يؤدى إليه الأنموذج الميكانيكى الذى صور به حدوث الانعكاس ؛ وهو رأى يتفق واتجاهه فى بيان ليّة الانعطاف على أساس فكرة هى فى ذاتها فكرة جليلة جديرة بالتقدير ، وهى أن الضوء عند الانعطاف من مشف فى آخر ، يختلف عنه فى الشفيف ، يسلك السبيل الذى عليه الحركة « أسهل وأقوى » تلك عبارته .

لا يصح لى أن أتغاضى فى هذا الصدد عن أن أذكر أن ابن الهيثم أراد أن يثبت بالبرهان أن الضوء ينتقل فى زمان ، وأراد أن يكون برهانه برهان الخُلف . ففرض ثقباً يصل منه الضوء إلى جسم مقابل للثقب . وفرض وفقاً لعبارته الواردة بلفظه « أن يكون الضوء يحصل فى جميع الهواء المتوسط بين الثقب وبين الجسم المقابل للثقب دفعة واحدة . ويكون جميع الهواء يقبل الضوء دفعة لا جزءاً منه (أى من الهواء) بعد جزء » . وحاول تطبيق برهان الخُلف ، لكى يثبت أن هذا الفرض يؤدى إلى خُلف ، وإذاً فهو محال . ولكن التوى عليه القصد . ولا يصح لى أيضاً أن أتغاضى عن أن أذكر أن فكرة «سبيل أسهل الحركات» فى الانعطاف لم ترد بالوضوح الذى أوردها به من بعده « فرمات » فى قاعدته التى تعرف بقاعدة أقصر الأوقات . ولكن الذى يعنينى أن ابن الهيثم حتى فى مثل هذه الأمور التى لم تكن حالة العلم فى عصره تسمح بالبحث عن حقيقتها البحث المستوفى ، اتجه تفكيره نحو الاتجاه الصحيح ، وإن شئنا قلنا ألهم فيها بعض جوانب الحقيقة .

هذا الذى ذكرته هو فى نظرى كاف لأن يثبت لابن الهيثم شأناً ممتازاً كعالم له فى علم الضوء خلق جديد وإضافات لم يسبقه إليها أحد . ولكنى أريد أن أبين من ابن الهيثم جانباً آخر عظم أثره فى نظرى حتى يشمل علم الضوء كله . وهو فى ذلك شبيه بأثر نيوتن الذى امتد فشمل علم الميكانيكا كله .

كلنا يعلم أن المعلومات فى علم الميكانيكا كانت قبل نيوتن مفككة مبعثرة يشوبها غموض ؛ ومعانى كثير من الأمور الأساسية فى هذا العلم لم تكن قد نضجت بعد فى الأذهان ، فجاء نيوتن وأدرك حقائق الأمور ، وأضاف من عنده إلى ما كان معروفاً ما أضاف ، وربط ذلك كله بعضه ببعض ، حتى آلت على يديه صيرورتها جميعاً إلى وحدة شاملة كانت الأساس الذى قام عليه هذا العلم .

كذلك كانت المعلومات فى علم الضوء قبل ابن الهيثم لا رابط يربطها ولا نظام ينظمها ، بل من المبادئ الأولية فى علم الضوء ما لم تكن فكرتها قد تكونت بعد فى الأذهان ، حتى الفكرة الأولية البسيطة أن للضوء وجوداً فى ذاته ، وأنه هو المؤثر الذى يحدث الاحساس البصرى ؛ هذه الفكرة التى تعد الآن من أوليات هذا العلم أو بديهياته ، لم تكن معتمداً عليها ولم يكن مسلما بصحتها .

وإن قيل إن بعض بحوث ابن الهيثم قد سبقه إليها بعض المتقدمين ، سبقه أوقليدس مثلا إلى أحد شطرى قانون الانعكاس ، وسبقه إلى تقدير عظم المبصر بالزاوية التى يبصر منها ، وسبقه بطليموس إلى دراسة الانعطاف ، وسبقه آخرون إلى بيان كيفية الإحراق فى المرايا المحرقة وما إلى ذلك ، فإن نيوتن أيضاً قد سبقه «غاليليو» إلى قانون القصور الذاتى الذى تشيع الآن نسبته إلى نيوتن ، وسبقه « هويجنز » و« ستيفنوس » وغيرهما إلى كثير من الفكر الأساسية التى يقوم عليها علم الميكانيكا . وفوق هذا فإن الذين سبقوا ابن الهيثم إلى شىء من بحوثه لم يتخذوا فى بحوثهم الاتجاه الصحيح ، وصاغوها فى قالب هو فى نظرى منكوس غير مستقيم . فأوقليدس وبطليموس وأصحاب التعاليم جميعاً كانوا متفقين فى أن الإبصار هو بخروج شعاع من البصر إلى المبصر ، كأن العين يمتد منها شىء حتى يلمس المبصر . ومتى يلمس هذا الشىء الممتد من العين المبصر وقع الإحساس . فهذا الشعاع الخارج من

البصر هو فى زعمهم ، نظير ما يسميه علماء الأحياء فى الحشرات « قرون الاستشعار » ؛ والذى يدعو إلى الدهشة أن هذه الفكرة التى نمر بها اليوم مر الكرام ، بقى أثرها يتردد فى الأذهان أجيالا بعد ابن الهيثم . فإنه لصداها الذى يدوى فى فكر « ديكارت » إذ يشبه الانسان وهو يبصر المبصرات بعينيه الاثنتين بالكفيف الذى يتحسس المحسوسات من حوله ، بعصوين يمسكهما فى يديه . فالذى ينعكس أو ينعطف عند أوقليدس أو عند بطليموس أو عند غيرهما من أصحاب التعاليم ، ليس هو الضوء بالمعنى الذى نفهمه ، بل هو « قرون الاستشعار » الخارجة من العين فى زعمهم ، ويسمونه « الشعاع » فى اصطلاحهم . وإذا خرج هذا الشعاع من العين ووقع على سطح مرآة ثم انعكس ولمس بعد انعكاسه مبصراً أبصرته العين بالانعكاس . وإذا هو خرج من العين ونفذ فى الهواء والتقى مشفا غير الهواء وانعطف فيه ، ثم لمس بعد الانعطاف مبصراً أبصرته العين بالانعطاف . هذه هى فكرتهم جميعاً .

أليس إذاً من الأصول والمبادئ الأولية فى علم الضوء ، ما لم يدركه هؤلاء على حقيقته ؟

ولما جاء ابن الهيثم أعاد من جديد البحث عن كل ذلك ، واتخذ وجهة جديدة لم يتخذها المتقدمون . وكان موقفه موقف من يتساءل : هل الأضواء جميعاً سواء منها المشرق من الأجسام المضيئة بذاتها أو المشرق من الأجسام المستضيئة بغيرها ، تنفذ فى الجسم المشف الواحد على السموت المستقيمة ؟ وإن كان الأمر كذلك ، فهل من سبيل إلى القول بأن الابصار يكون بورود الضوء المشرق من المبصر إلى البصر ؟ وإن قيل هذا ، فان الضوء الوارد من المبصر إلى البصر يرد من كل نقطة من المبصر إلى جميع سطح البصر ، فكيف يتسنى للبصر أن يدرك المبصر بأجزائه المختلفة وألوانه ونقوشه وتخطيطاته ، كما هو عليه فى الواقع دون أن يختلط كل ذلك بعضه ببعض ؟ وكيف يتسنى إدراك المبصرات المختلفة معاً دون أن تختلط صورها أو تتشتت ؟ وإذا كان الاحساس يحدث فى داخل البصر بورود الضوء من المبصر ، فكيف يدرك البصر المبصر فى مكانه خارج البصر ؟ بل كيف يتسنى أن يدرك بُعده وعظمه وشكله وتجسمه وما إلى ذلك ؟ وكيف يعرض ما يعرض أحياناً من الغلط فى إدراك هذه الأمور ؟ وكيف يتسنى أن يدرك المبصر واحداً بالنظر إليه بالعينين الاثنتين ؟

وأيضاً هل الأضواء جميعاً تنعكس على صفة واحدة ؟ وإن كان الأمر كذلك فما هى هذه الصفة العامة التى تنعكس عليها الأضواء جميعاً ؟ وبعدُ هل من سبيل إلى القول بأن إدراك المبصر بالانعكاس هو بورود الضوء المشرق منه إلى العين بعد انعكاسه ؟ وإن كان الأمر كذلك فأين يكون موضع الخيال الذى يرى وما هى صفاته ؟ وأيضاً هل الأضواء جميعاً تنعطف على صفة واحدة وما هى هذه الصفة ؟ وبعدُ هل من سبيل إلى القول بأن إدراك المبصر بالانعطاف هو بورود الضوء المشرق منه إلى العين بعد انعطافه ؟ وإن كان الأمر كذلك ، فأين يكون موضع الخيال وما هى صفاته ؟

تلك هى رؤوس الموضوعات التى تدور حولها البحوث الأساسية التى تناولها ابن الهيثم ، وهذا هو اتجاه التفكير وسياق المنطق فى كتابه فى المناظر . ليكن ابن الهيثم قد استفاد من بحوث من تقدموه ، ولكنه أعاد بحوث من تقدموه من جديد ، ونظر فيها نظراً جديداً لم يسبقه إليه أحد ، ووضع لهذه الأسئلة التى أجملناها إجمالاً حلولاً واضحة ، مطابقة للواقع المعلوم فى زمانه ، وجاءت حلوله متناسقة منسجمة ينظمها نظام طبيعى سليم ، فتألف من كل ذلك وحدة ، وضمت فيها الأمور فى أوضاعها الصحيحة ، وصارت النواة التى تكتّف ونما حولها علم الضوء .

ويأتى على العلم حين من الدهر ، يكون أحوج ما يكون إلى « رائد » يلم بنواحيه وجزئياته تفصيلا ، ويدرك إدراكاً صحيحاً مواضع الضعف فيه وثغرات النقص فى حدوده ومبادئه ، فيشرف عليه من عل ، ويصلح العيب ،

(البقية على الصفحة التالية)

٢ - وطنـــه الحبيب . . .

مترجمة عن بيرل بك

للأستاذ صلاح الدين ذهني

تلخيص :

جون دبوى شانج شاب صينى متألق النزعة يحوط تفكيره شىء من الخيال ، تربى فى نيويورك ولكن خياله ظل متجها إلى وطنه الصين ، وفى اللحظة التى أتم فيها تعليمه وأوشك على الأوبة للوطن ، تكشف له حبه لمولى كى ربيبة صباه وطفولته ...

هذا الوجه هو الذى يحجم من أجله عن السفر لأنه يخشى الحرمان منه . هذه الوحشة فى نفسه ليس مصدرها إلا أنه سيفقد هذا الوجه .

قفز من مكانه كمن لدغته عقرب وخطا مسرعا نحو حانوت أبيه .

كان الظلام حالكا ، وكانت تماثيل بوذا وأصنامه متراصة تتوسطها تماثيل مختلف الآلهة .

جلس بين هذه التماثيل وألقى رأسه بين يديه ، ومضى يفكر . . . إنه لا يرضى أن يحب مولى كى ، ولا يرغب فى هذا الحب ؛ لو فكر فى زوجة يوما من الأيام فلن تكون هـذه الزوجة مولى ، وإنما واحدة من هؤلاء الفتيات فى الصين ، هؤلاء اللواتى طالما حدثته أمه عنهن ، عن سكونهن وقناعتهن ، عن طاعتهن ، وخضوعهن لأزواجهن .

لقد داعب خياله يوما حلم سعيد عن منزل قروى لطيف فى أرض الصين ، تحوطه حديقة لطيفة ومزرعة متواضعة ، وشجرة من أشجار الصفصاف تعطر الجو بأريجها ، فى رفقة امرأة مطيعة عذبة ، ولم تكن هذه المرأة فى لحظة من لحظات الحلم مولى الصاخبة العنيدة ، لقد كانت امرأة أخرى من بنات خياله ، لونتها وكونتها قصص الأم العذبة المضيئة .

ولكنها أخيراً مولى التى لا يطيق السفر من غير أن يراها ، ويراها دائما .

لقد نشآ سويا فى منزلين متجاورين ، يراها كل يوم أكثر من مرة ، ويسمع صوتها دائما فى دويه العذب الصاخب ، ضاحكة حيناً وغاضبة حيناً آخر .

رآها منذ الصغر ، ومرت الأيام فأصبحت طالبة تذهب كل يوم إلى مدرستها لتدرس التجارة حتى تستطيع أن تعاون والدها ، ثم مرت الأيام أيضاً فأنهت دراستها وعادت إلى حانوت أبيها تعاونه فى عمله ، وتعد نفسها لتتولى الأمر جميعه بنفسها حين تسنح لها الفرصة .

ويتم النقص ، ويثبت الصحيح ، ويحذف الباطل ، ويؤلف الوحدة التى تجمع بين الأشتات ، وتزول معها الشبهات . فيكون الخلق لعلم بعد أن لم يكن ، أو النشأة الجديدة غير النشأة الأولى لعلم موجود . وقد كان نيوتن « رائد » علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر ، وكان ابن الهيثم فى نظرى « رائد » علم الضوء فى أوائل القرن الحادى عشر .

وما أحوج علم الطبيعة الحديث إلى « رائد » من هذا الطراز .

(تم البحث) **مصطفى نظيف**

وهاهى اليوم تدير كل العمل فى إناقة الفتاة الأمريكية ورشاقتها وملبسها ، كل شىء فيها لا يمت إلى الصين ، شفتاها الملونتان ، وشعرها المموج ، وتلك الكلمات الصافية التى لا تخالطها لكنة ولا عجمة ، والتى تنساب من بين شفتيها فى سرعة وخفة .

كان الجميع ينظرون إليها فى شىء من الاعجاب والحذر . أما الشبان فكانوا دائماً ينظرون إليها فى حسرة لأنها كانت بعيدة عن أحلامهم منذ أن شاع أنها ستكون زوجة لجورج لى ، ومنذ أن شاع مرة أخرى أن هذا الزواج لن يتم لأن مولى رفضت أن تتزوج جورج لأنها لا تعجب به . لقد كان جورج أكثرهم إناقة وتحضرا فاذا كانت قد رفضته فلن ترضى بمن هو دونه .

جالت كل هذه الخواطر لجون وهو جالس بين تماثيل بوذا فى الظلام الحالك ، وتمثلت لخاطره سخرية مولى منه ، كلما أبدى رغبته فى السفر إلى الصين ، واتهامها إياه بالجنون لأنه يفكر مثل هذا التفكير ، ثم عادت إلى خياله صورتها بعينيها اللامعتين وفمها الأحمر القانى لكثرة ما تداول عليه من أصباغ ، فتنهد فى ألم ، وأيقن بما فى حبه لمثل هذه الفتاة من يأس وخيبة آمال .

كان قد وطد النفس على قضاء بضعة أيام على الشاطىء الغربى قبل السفر ، فلما مرت هذه الأيام عليه دون أن يغادر نيويورك واقترب يوم قيام الباخرة أدرك ما هو فيه من حرج ، فعزم على الرحيل مرة أخرى وحدد لسفره صباح الغد ، ولما لم يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ليسافر دون أن يراها ، تظاهر بالتعب وأجل سفره يوما آخر .

تملكه سخط على نفسه لهذا التردد ، فارتمى على فراشه تتناوبه عوامل القلق والخجل ، ولم يطل به الأمر فقد قام فزعاً ونزل الدرج فى سرعة وخفة ، واندفع إلى الحانوت المجاور حيث تعمل مولى مع والدها . ولم يضع دقيقة واحدة ، فقد وقف أمامها وقال فى اضطراب وقلق :

— أتأتين معى إلى الصين أم لا ؟

ونظرت مولى فى دهشة واستنكار إلى الوجه الماثل أمامها ، ثم وضعت القلم خلف أذنها ، وقالت فى هدوء :

— ولم أذهب إلى الصين ؟ إنى أمريكية ، وكل إنسان ولد فى نيويورك يعد أمريكيا !

وأجابها فى تلهف :

— لأن وطنك يحتاج إليك . . .

. . . كان كل شىء فيها رائعاً جذاباً . هذه الوردة القرمزية التى تزين رداءها الأنيق ، وهذا اللون الساحر الذى تبدو عليه بشرتها الناعمة ، كأنها طبقة من الذهب تتجلى تمثالا بديع الصنع ، كل ذلك جعله يزداد اضطرابا وانفعالا ، فاندفع ثانياً فى توسله :

— أتظلين هنا بينما تطلبك بلادك لنجدتها ؟

ولكن مولى لم تتحرك بل أجابت بنفس الهدوء :

— سوف أفكر فى ذلك عندما يدخلون نور الكهرباء ووسائل النظافة الحديثة فى البلد القديم .

— ولكن . يجب أن تأتى معى . . .

. . . يجب أن تأتى ! هذه لهجة لم تعود مولى سماعها . لقد وضعت يديها عند خاصرتيها فى عنف ، والتفتت إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وقالت فى استنكار :

— مستر جون دبوى شانج . ماذا تظن فى نفسك ؟ إنك لا تملك أن تكلم أمريكية بهذه اللهجة ! ثم أخيراً . لم هذا التعبير بالذات : يجب أن آتى معك ؟

— ذلك لأنى . . أحبك .

لم يكن يقصد هذه الاجابة ، ولم يكن يتوقع أن يجيب بها ، لقد خرجت من بين شفتيه عفواً ، فحدقت عيناها تستشف أثر هذه الاجابة ، فالتقت بعينيها فى لمحة قصيرة أرخت مولى بعدها أجفانها ، وامتدت يدها إلى القلم ، وجلست إلى مكتبها فى سكون ، كأن لم يحدث شىء ، ثم قالت دون أن ترفع رأسها :

— جون . اذهب من فضلك ولا تستمر فى هذا المزاح .

وقال فى يأس :

— أى مزاح ؟ إننى لا أمزح .

— إننى أعده مزاحاً سمجاً أن أذهب إلى الصين ، يا لها من نكتة ! .

وخطا نحوها وقد تحرك به الأمل ، ولكنها صاحت فى غضب :

— أرجوك . إننى أعنى ما أقول . اذهب وحدك .

— تعنين . إلى الصين ؟

— أجل . إلى الصين . إلى أى مكان آخر . . .

. . . لم يعد له مكان إذاً . تحركت قدماه فى بطء وتثاقل نحو الباب بعد أن ألقى على وجهها نظرة طويلة عميقة ؛ ولكنه لم يكد يخطو حتى نادته فى صوت ضعيف ، فوقف فى مكانه متردداً :

— جون . لو أنى قلت لك إننى سأهتم بك هل تعدل من السفر ؟

. . . ماذا ؟ بعد كل هذه الأعوام من الأحلام والآمال ، يتخلى بهذه السهولة عن الوطن الذى وهبه كل حياته ؟

كانت هناك كلمة واحدة يستطيع أن يقولها ، قالها فى غير تردد ، ومضى نحو الباب غير منصت لما ردت به . . . لا . . .

. . . قالها ومضى سريعاً ، وقبل أن يفكر كان القطار يشق طريقه بين المزارع الخضراء صوب شاطئ البحر مقلا إياه إلى السفينة الضخمة ليقر فيها راكباً بين ركاب الدرجة الثالثة .

واستقر به المقام فى السفين ، وهناك بين أصوات الأمواج الصاخبة الآتية مع النسيم ، وبين مئات الوجوه التى لا يعرفها ، اتسع المجال للتفكير والأحلام .

لم يسعفه التفكير بأحلام الماضى الذهبية ، ولم تقفز إلى رأسه الصور البديعة للوطن الحبيب ، للأرض السوداء المنبسطة والأناس ذوى الوجوه التى تشبه وجهه . تلك الصور التى طالما تخيلها للوطن وساكنيه ، وتلك الأحلام التى كانت تصور له حياته قائداً من قواد بنى وطنه ، أو زعيما يبشر برسالة الإصلاح فى الأرض التى يحبها .

كلا . لم تقفز إلى رأسه هذه الأحلام وتلك الصور ، لقد كانت تتسلل إلى فكره صورة واحدة . فتاة صغيرة السن ، عنيدة ، ذات عينين سوداوين وشعر لعبت فيه المدنية لعباً هيناً . فتاة ذات خلقة صينية وخلق أمريكى متمدين . صورة موالى كن التى رفضت أن تؤوب معه إلى الوطن الحبيب .

أرسل أنفاساً حارة أكثر من مرة ، وذرع ظهر السفينة فى قلق وتضجر أكثر من مرة . ولم يفته ذلك شيئاً ، كل ما أفاده من أنفاسه ومن خطواته القلقة المتضجرة أن عاد بيقين واحد . أنه لا يزال إلى هذه اللحظة يحب موالى ، ولا يزال يتخطفه الحزن والألم أن لم ترضخ لرغبته فتمضى معه إلى أرض الوطن .

حاول أكثر من مرة أن يصور نقائصها وسيئاتها ويقنع نفسه بأنها فتاة عنيدة طائشة كان من الخير أن لا ترافقه فى رحلته وجهاده ، ولكنه عاد من كل هذه المحاولات بنفس اليقين . إنه يحبها وكان يسعده أن لا يمضى وحيداً . . .

وآب من تفكيره بالأمل الوحيد الباقى له ، هذا الوطن الذى يرحل إليه . لقد أصبح هو كل ما بقى له من أمل وأحلام ، كل ما بقى له لكى يعينه على نسيان موالى ولكى يشيع فى نفسه شيئاً من الراحة والأمن .

كان هذا الوطن يتمثل له قريباً منه حيث ينتهى البحر وحيث يبدأ النهر ، فلما طالت الرحلة أصبح أمله أن يرى هذا الخط الأسود فى الأفق حيث تلتقى الأرض بالماء فى قوس دائرية على مرمى البصر ، فلما لاح هذا الخط تعلق به بصره ، حتى إذا اقتربت السفينة خانه التوفيق ،

إذ تبين أن هذا الخط ليس أرض الوطن ، وإنما هو جبال اليابان العالية ، تلك الجبال التي نظر إليها في برود كأنما ينظر إلى وجه مل مرآه .

وأخيراً لاحت أرض الوطن في ذراعين من الضباب الساكن أحاطتا بالسفينة في عناق صامت ساحر . لاحت أرض الوطن قد تحجبت بهذا الضباب فبدا الخليج في هذا اللون القاتم كأن حافتيه ذراعا مارد امتدتا لتحتضن جون إلى صدر الوطن . خطر إلى فكره إذ ذاك النهر العظيم ، فسبق الحوادث وسبح خياله إلى المحطة القريبة التي سيعبر فيها هذا النهر فيحس تحت أقدامه ماءه الأصفر ، القديم ، الثابت ، الساكن . . . يرحب به في صمته وهدوئه .

وطارت هذه الأحلام فجأة حين وقفت الباخرة فارتفعت الأصوات من هنا وهناك ، واشتملته تلك الحركة الداوية التي تضم في حناياها تحيات المستقبلين وصيحات القبالين ونداآت الحمالين وصفارات السفن الصغيرة المنتشرة على حافات الخليج ، كأنما هي أطفال تشارك في جلبة لا تعرف مصدرها ولا سببها .

خيل إليه أنه في نيويورك مرة أخرى ، هذه العمائر الضخمة التي تحيط به ، وذلك الصوت الذي ترسله السيارات الذاهبة والآتية في سرعة ونشاط كأنها تمثل أصحابها في لفتات أذهانهم وتباين أغراضهم ، ذكره كل ذلك بنيويورك وبعث في نفسه شيئاً من الشعور بالضيق لم يلبث أن زايله حين انهمر المطر بشدة ، فاندفع مع الواقفين يحتمي بسقوف أبنية الميناء ، وتراءت له خلال قطرات المطر التي كان يديم النظر إليها صورة من الماضي القريب ، داعب نفسه خاطر ضئيل بعث في نفسه شعور الغربة الذي أحس به بين هؤلاء الثلاث من الواقفين يتحدثون كأنهم أسرة واحدة : آه لو عاد ثانياً إلى السفين !

سرعان ما طرد هذا الخاطر . لقد وطد النفس على أن يؤوب إلى الوطن ، فليمض فيما هاجر إليه ، وليطارد كل هذه الهواجس . إنه يعرف اسم نزل يستطيع أن يأوى إليه إلى أن يدبر الأمر مع عمه المقيم في هذا الثغر ، وشريك والده في تجارته ، وليذكر أنه لم ير وطنه بعد .

ولمح من بعيد مركبة من مركبات « الريكشا »(١) فنادى صاحبها مشيراً إلى أمتعته ، وفي لحظة سارت به المركبة وقد غطى مقدمها بقطعة من نسيج بال ، فلم يعد يرى شيئاً إلا قدمي الحمال العاريتين ، تلمع عليهما قطرات الماء المتساقط من المطر .

***

ترى أين يكون الوطن ؟

بعد ثلاثة أيام لا تحتمل ، خطر له هذا السؤال في صورة ملحة ، يشوبها الشك والارتياب !

أهذا النزل الحقير القذر ، قطعة من هذا الوطن ؟ أم هذا الشارع الضيق بمنازله المتداعية ، وهؤلاء الأطفال الضعاف ، الذين تتراكم عليهم الأوساخ ، يغدون ويروحون بين جانبيه عراة كما ولدتهم أمهاتهم ؟

أم هؤلاء النسوة البائسات ، والفتيات اللواتي تعلو وجوههن أمارات الفاقة والجهل ؟

إنه ليحس بشعور الغريب نحو كل هذه المناظر برغم ما بينه وبين هذه المخلوقات من شبه عجيب في لون العينين والبشرة وملامح الوجه .

ضاق ذرعاً بكل ما يرى ، فصمم على مغادرة هذا النزل ، وحين نصحه عمه بالبقاء فيه لاعتدال أجوره ، أجابه قائلا : « إنه قذر لا أطيق البقاء فيه » .

وأجاب العم في هدوء :

— إنك تبدو كأحد الأجانب يا بني ، ولسوف تعتاد هذه الحياة .

ولكن جون لم يعر كلام العم التفاتاً ، فقد برم بكل شيء ، حتى هذا العم نفسه كان مصدراً من مصادر ضجره وتبرمه ، فقد رآه منذ حضر مرتين ، وخرج من

(١) الريكشا نوع من المركبات يستعمل في الصين والهند ويجره أحد الحمالين .

لديه فى كلتا المرتين غاضباً حانقاً .

كانت حياة هذا العم تثير الغضب حقاً . فقد كان يعيش مع زوجاته وأطفاله فى ربع يكاد يشبه حظائر المواشى ؛ وكان أولاده يغدون ويروحون فى هذا الربع كأنهم خنازير صغيرة تلمح فى وجوههم أثر الإهمال الشنيع بما تراكم عليها من أوساخ ؛ وكان الربع دائم الجلبة والضجة ، لأن نساءه لا يفرغن من الشجار والعراك .

ومع وفرة الزوجات والنسل والخدم ، فلم يكن هناك إنسان يفكر أن يذود جيوش الذباب المكدسة على غطاء منضدة الشاى ، كأنما كانت هذه الجيوش مظهراً من مظاهر النشاط فى الدار .

كان لهذا العم بنات كثيراً ما خطرن فى الردهة أمام جون ، وكثيراً ما أشار لهن والدهن إشارات مبهمة كن ينفذنها بسرعة ونشاط ، عرف جون أخيراً أنها رموز اصطلاحية تدل على ما يطلبه الوالد من مختلف المطالب ، كالشاى أو أدوات التدخين مثلا ؛ وكان العم فخوراً بهؤلاء الفتيات ؛ حتى لقد قال لجون مرة :

— لقد حجزت هؤلاء الفتيات هنا فى المنزل حيث يجب أن تحفظ الفتيات ، ولم آبه باحتجاجاتهن وإلحاحهن فى أن يذهبن إلى المدرسة ، لسبب واحد هو أنى رأيت هؤلاء الفتيات العصريات اللواتى يرحن ويجئن فى الطرقات مرتفعات القامة ، فأيقنت أنهن بتفكيرهن العصرى وثقافتهن وشجاعتهن لسن إلا مصدراً للتعب سواء لآبائهن أو لأزواجهن . لقد تزوجت من نساء جاهلات وأعتقد أنى أحسنت صنعاً بذلك .

وأعقب هذا الحديث بأن صرخ فى ابنته الواقفة أمامه لتتلقى أوامره فى غضب لا مسوغ له :

— إذهبى إلى أمك ولا تقفى هكذا عندما يتكلم الرجال .

وعندما انصرفت الفتاة مال على جون قائلا : « أرى كيف تطيع الأمر . إنها تظل كذلك عندما أبعث بها إلى منزل زوجها » .

راقب جون ما حدث أمامه ، ورأى بعينيه هذه الفتاة الوديعة تطيع الأمر ، وتتصرف فى استكانة واستسلام بوجهها الباهت العذب وشعرها الأسود الفاحم ، كهؤلاء الفتيات اللواتى كانت أمه تحدثه عنهن ، واللواتى كانت تهفو نفسه إلى واحدة منهن تشاركه حياته . هذه المرة حين رأى بعينيه ما خطر له فى الأمانى لم يتحرك قلبه ولم يحس بأى عاطفة . علل ذلك أول الأمر بصلة القرابة بينه وبين هذه الفتاة ، ولكنه حين عاد إلى النزل تبين له أن هذا التعليل لا نصيب له من الصحة ، إن قلبه لم يتحرك لهذه الفتاة ، لما يبدو على وجهها من جهل وغباوة . وذلك هو السبب الحقيقى لما اعتراه من جمود نحوها ، كالجمود الذى يعترى المرء أمام دمية .

لا يدرى لم قفز إلى خاطره مرة أخرى شبح موالى كن بعنادها وصلابتها وتحكمها التى تبدو فيها قوة الشخصية والإرادة معاً .

وعاد إلى هروبه من هذه الصورة بالتفكير مرة أخرى فى الوطن الذى تجشم ما تجشم لكى يراه : هل هذا الذى شهده إلى الآن هو الوطن الحبيب ؟

لاح له خاطر جديد ، فما أقبل الصباح حتى قصد إلى عمه وبادره قائلا :

— إنى غير راض عن المقام هنا ، وأحب أن أتغلغل فى أعماق هذه البلاد . أريد أن أرى جديداً ، وأكتشف ما لا أعرف .

وأجابه العم بعد تفكير :

— إذا كانت هذه رغبتك يابنى ، فلدى مهمة تستطيع أن تقوم بها تستدعى السفر إلى أقاصى إقليم سشوان . لقد سمعت أنهم كشفوا هناك بعض مقابر الأمراء الأقدمين فى ذلك الاقليم ، وإنك تستطيع أن تمضى إلى هناك فتبتاع لى أنفس ما تستطيع من تحف هذا الكشف ، حتى إذا وفقت عدت ثانياً وقد أشبعت رغبتك .

(لها بقية)

صموئيل الدين ذهنى

الفيتـــــــامينات

للأستاذ محمد أحمد بنونه

ورد فى كتب قدماء الأغريق أن مرض الاسقربوط كان معروفاً منذ زمن بعيد ، ولكن لم يعرف سبب إصابة الإنسان به . ولقد ظهر بين الصليبيين ، وعلل بوجود مواد سامة فى غذائهم . وكثر ظهوره بين البحّارة ومن فى حكمهم ، فلوحظ ظهوره بعد ثلاثة أسابيع أو أربعة من بدء الرحلة . فتقل قدرة الشخص على بذل أى مجهود ، وسرعان ما يصاب بالرهقان . وتزداد حالة المصاب سوءاً فتغور عيناه ، ويضيق تنفسه ، ويظهر ألم شديد فى العضلات ، ويعقب ذلك ضعف فى القوى العقلية ، واضطراب الأوعية الدموية ، فيرشح الدم من اللثة والعين والأنف ، بل إن أقل ضغط على الجلد يسبب نزفاً بين الخلايا . وكل هذه الأعراض تزداد شدة حتى تنتهى بوفاة المريض .

ولما كانت البحارة فى ذلك الوقت تقتصر غالباً على نوع واحد من الغذاء ، فقد أخذ هذا كعلة لظهور المرض . ولذا أضيف إلى غذاء البحارة لحوم مملحة وأنواع من البسكوت . ولكن ذلك لم يخفف من وطأة المرض ، إذ أن هذا التعليل لم يكن صحيحاً .

واختلفت المصادر فيمن يرجع إليه الفضل فى تعرف السبب الحقيقى لهذا المرض ، وما كان للخضراوات والفواكه الطازجة من أكبر الأثر فى الشفاء منه ؛ فمنهم من نسبه إلى (R. Hawkins) ، إذ أنه فى سنة ١٥٩٣ عالج البحارة من مرض الاسقربوط بإعطائهم شراباً من عصير الليمون ، ولم يلبث أن تبعه فى ذلك جميع قبطانات المراكب . وعم استعمال عصير الليمون ، وكان أن حتمت قيادة البحرية الإنجليزية سنة ١٧٩٥ استعماله فى جميع سفنها .

وهناك فريق آخر ينسبون الفضل للمكتشف كوك . فقد عرف فوائد الخضراوات والفواكه الطازجة كوقاية من الأمراض التى تنتشر بين البحارة . فى رحلته التى قام بها سنة ١٧٧٢ والتى استمرت ثلاث سنوات ، لم تظهر بين بحارته حالة واحدة لهذا المرض . وقد علل كوك ذلك بأكل الخضراوات والفواكه الطازجة .

ولم يكن مرض الاسقربوط هو المرض الوحيد من نوعه الذى ظهر بين البحارة . بل عرف مرض آخر يسمى البرى برى . وقد ظل سببه مجهولا حتى منتصف القرن التاسع عشر . وقد عرف المرض فى البلاد الحارة منذ زمن بعيد . وتظهر أعراضه باضطراب فى الجهاز العصبى ، ويبدو المريض خائر القوى . ثم ينتشر الشلل فى أطرافه مصحوباً بحرقان يعقبه تنميل (numming) . وقد يصل الاضطراب إلى القلب والحجاب الحاجز . ونتيجة ذلك عدم انتظام التنفس وضربات القلب ، وهذه كلها تودى بحياة المريض .

وقد لوحظ ظهور هذه الأعراض بين أناس استمروا على تعاطى نوع واحد من الغذاء ، إذ حدث بين رجال الأسطول اليابانى ، وكان غذاؤهم مقصوراً على الأرز المقشور ، ولقد قلت الاصابة عندما استبدل الأرز بالشعير ، ولم يكن الشعير مقشوراً كالأرز .

وظن فى بادئ الأمر أن المرض مسبب عن وجود فطر أو بكتريا . ولكن هذه الفكرة لم تلبث أن خطئت بالتغذية على المواد النباتية أو الحيوانية الطازجة ، والتى كانت سبباً فى اختفاء المرض .

وأول من بحث هذا المرض على أساس علمي هو العالم الهولندي Eigkman سنة ١٨٩٧ . إذ غذى الدجاج على أرز مقشور . فلاحظ ظهور أعراض المرض ، وخاصة شلل الأطراف الذي يميز مرض البري بري . وقد ظهرت الأعراض بعد بدء التغذية بمدة تتراوح بين أسبوعين وثلاثة أسابيع . وكم كانت دهشته عند ما تمكن من شفاء الدجاج من هذا المرض وزوال أعراضه بتغذيتها بأرز غير مقشور . ومع ما لهذه التجربة من عظيم الأهمية فقد ظلت مهملة ولم يوجه إليها ما تستحقه من العناية . ولكنها أخذت كأساس لتجارب أجراها Hopkins سنة ١٩٠٦ في كمبردج على الفيران ، وقد حصل على نتائج مماثلة ، وقد بين أن الغذاء الذي يقتصر على مواد نقية (حضرت تحضيراً كيميائياً) لا يساعد على النمو ، كما لا يضمن استمرار حياة الكائن ، مهما احتوى على البروتينات والدهون والسكرات والأملاح المختلفة التي يحتاج إليها الجسم .

وقد أثبت Hopkins أن مقداراً بسيطاً من اللبن الطبيعي (٣ سم٣) لو أضيفت يومياً إلى الغذاء المركب صناعيا وأعطيت للفيران ، نمت نمواً طبيعياً . وقد استنتج من ذلك أن سبب النمو لم يكن ما باللبن من دهون أو سكرات أو بروتينات الخ ، ولكنه مسبب عن وجود مادة غير معروفة ولكنها ضرورية للحياة والنمو .

وفي سنة ١٩١١ تمكن Funk من أن يستخلص من قشور الأرز بواسطة الكحول ، مادة متبلورة تشفي الطيور المصابة بالمرض (التي تكون قد غذيت بأرز مقشور) لو أضيفت إلى غذائها بمقادير بسيطة جداً . وفي نفس الوقت نشر Susuhi ومساعدوه في اليابان نفس النتيجة .

وقد وجد Funk أن المادة التي حضرها تحتوي على أزوت ، كما أنها تعطي التفاعلات الخاصة بالامينات . ولكنه لم يتمكن من استخلاصها في حالة النقاوة حتى يتمكن من معرفة تركيبها معرفة دقيقة ، وقد اعتبرها إحدى الامينات . وبما أنها ضرورية للحياة فقد سماها فيتامين . ولكن هذه التسمية قابلة للنقد ، لأنه قد ظهر فيما بعد أن بعض الفيتامينات لا تحتوي على الأزوت ، ولذا لا يمكن أن تكون من الامينات . ولكن التسمية بقيت رغم ذلك منعاً لتعدد الأسماء .

هذه كلمة عن الأطوار التي مرت بهذه المواد الحيوية . والآن فلنذكر شيئاً عن هذه المواد المختلفة وما لها من الأثر في جسم الانسان .

فيتامين ا (A) :

يوجد هذا الفيتامين في الأغذية الطبيعية مع دهون الحيوانات وخاصة في الكبد ، مثل زيت كبد الحوت (Cod liver oil) وفي الزبدة الطبيعية . ويوجد في الدهون النباتية بمقدار بسيط . أما في أوراق النباتات الخضراء فيوجد بكثرة ، وقد وجد أن مقدار هذا الفيتامين يتناسب مع مقدار صبغة الكاروتين في النبات . ففي البطاطة والجزر نجد فيتامين (ا) بكثرة ، وكذلك القمح الأصفر . أما القمح الأبيض والبطاطس فهما خاليان من الكاروتين وليس بها فيتامين (ا) .

ويندر أن يعاني الإنسان من قلة هذا الفيتامين إلا إذا كان هناك شذوذ في التغذية . فقد حدث بين سنة ١٩١٧ و١٩١٨ أي إبان الحرب العظمى أن ارتفع سعر الألبان والزبد إلى درجة أصبحت معها الطبقات الفقيرة عاجزة عن شرائها . ولذا عانت من قلة هذا الفيتامين إلى حد كبير . فكثرت إصابة الفقراء بمرض يصيب العيون وفي بعض الحالات أدت إلى فقد البصر . وقد حدث ذلك في اليابان وبعض مدن أوربا مثل فينا . وقد تغلبوا على المرض في بلاد الدنمرقة بتنظيم توزيع الألبان توزيعاً عادلاً .

وقلة هذا الفيتامين تسبب الأعراض الآتية :

١ — وقوف النمو ، ويظهر ذلك بوضوح فى الأطفال الصغار ، إذ يحتاجون لمقدار كبير كى يستمر نموهم .

٢ — يقل إفراز الغدد الموجودة بجفون العين ، وهذا يؤدى إلى جفافها ، فتتعرض للإصابة بواسطة البكتريا ، ولذا يكثر الصديد فى العين ، ويلجأ البعض إلى معالجة بعض أمراض العين باعطاء الأطفال هذا الفيتامين .



شكل يبين مرض العين فى كلب حرم من الفيتامين (ا) ويتبين ذلك من ١ و ٢ ، وفى ٣ يبين نفس الحيوان بعد تغذيته لمدة عشرة أيام على غذاء يحوى الفيتامين

٣ — يقل إفراز الغدد الدهنية التى توجد فى الجلد . ويظهر ذلك فى الحيوانات ذات الفراء إذ يصبح شكلها قبيحاً بتلف فرائها .

فيتامين ب (B) :

وهذا الفيتامين كان سبباً فى إيجاد كثير من الشك حوله . فتبين أنه لم يكن فيتاميناً واحداً بل عبارة عن اثنين ، وقد وجد أن أحدهما يمنع البرى برى والثانى يمنع البلاجرا ، وقد سميا B_1 ، B_2 ويوجد الفيتامين ب فى النباتات بكثرة ، وأغنى المواد بهذا الفيتامين هى الخميرة وأجنة الحبوب ولا سيما القمح ، كما أن الفواكه تحوى كمية كبيرة منه . وكذلك الأجزاء الخضراء فى النبات ، كما يوجد فى الجذور والبطاطس والبنجر والبصل والجزر ؛ ونظراً لكثرة انتشار هذا الفيتامين فى كثير من النباتات فإنه يندر الاصابة بأمراض البرى برى والبلاجرا المسببة عن انعدامه فى الغذاء .

وقد سبق شرح أعراض مرض البرى برى وكيف يؤثر على الأعصاب ويؤدى إلى الشلل . وزيادة على ذلك فإنه يسبب انقراض البيض عند الاناث والخصية فى الذكور ، ويؤدى فى النهاية إلى العقم ، وربما أدى إلى الوفاة إذا وصلت الإصابة إلى القلب .

وقد وجد بالتجربة على طائر أحدث له شلل شديد بتأثير التغذية على غذاء خاص ، أنه يمكن شفاؤه تماماً بعد مدة تتراوح بين ثلاث ساعات أو أربع ، من بدء التغذية بغذاء يحتوى على الفيتامين (ب) .

ولهذا الفيتامين أثر كبير فى قيام الغدد الهضمية بوظيفتها الافرازية . إذ أن انعدامه من الغذاء يؤثر على الأعصاب التى تسيطر على هذه الغدد . ولا يوجد هذا الفيتامين فى أنسجة الحيوان لأنها لا تخزنه .

فيتامين حـ (C) :

وأهم مصادره الفواكه وعصير الليمون والموالح وفى الطماطم والكرنب ، ويحتوى البطاطس على كمية بسيطة منه ، ولكن أكله بمقادير كبيرة يعوض هذا النقص . ويوجد هذا الفيتامين فى البذور النابتة ، ويمكن للحيوان

أن يخزنه في أنسجته . ويفسد بالحفظ والحرارة ، ولذا لا يوجد في الأغذية المحفوظة في العلب أو المواد المملحة . وقد وجد أن التسخين مع عدم وجود الأكسجين يمنع تلفه

ووجود هذا الفيتامين يمنع مرض الأسقربوط . وقد سبق شرحه كما عرفنا أعراضه وما يؤدي إليه من نزف تحت الجلد . وقد وجد أنه يؤثر على الأسنان فيسبب تسوسها . وتختلف مقاومة الحيوان للأمراض الناتجة من غياب هذا الفيتامين من الغذاء ؛ فالخنزير غينيا يصاب بسهولة ، بينما الفيران لا تصاب ؛ والسبب في ذلك أن الفيران تكون الفيتامين في أنسجتها وقد وجد في كبدها مع عدم وجوده في غذائها .

فيتامين « D » :

عرفت طبيعة هذا الفيتامين وتركيبه ، إذ أمكن استخلاصه مما يكون معه من دهون بواسطة عملية التصبين ، ويبقى الفيتامين بعد ذلك مع مواد أخرى يمكن فصلها عنه بواسطة عمليات دقيقة . وقد أمكن تحضير مادة إذا عرضت لضوء الشمس كان لها أثر الفيتامين (د) وهذه المادة تسمى Ergosterol وتركيبها C27 H41 OH

وهذا الفيتامين إذا انعدم من الغذاء سبب مرض الكساح . وقد ظن في بادىء الأمر أن الكساح مسبب عن قلة أملاح الكلسيوم في الغذاء . ومع صحة هذا الرأي فإن عدم وجود الفيتامين (د) في الغذاء مع وجود الأملاح لا يمنع مرض الكساح ولذا فالعاملان ضروريان .

ويمكن للجسم أن يكون هذا الفيتامين ، وتثبت تجارب الفيران هذه الحقيقة ؛ فإذا غذيت على مواد لا تحوي الفيتامين (د) مع احتوائها على جميع المواد الأخرى ، وروعى وجود الفيران في الظلام ، فإنها لا تلبث أن تصاب بمرض الكساح بعد أربعة أسابيع . أما إذا أعطيت نفس الغذاء مع تعريضها للضوء مدة عشرين دقيقة يومياً فلا تظهر أي أعراض للمرض . وهكذا يثبت أن الفيران كونت الفيتامين بتأثير الضوء .

وما قيل عن الفيران ينطبق على الانسان ، فأشعة الشمس تمنع مرض الكساح ، ولذا تقل الاصابات في البلاد الحارة وتزداد نسبتها في البلاد الباردة .

ويعمل هذا الفيتامين على تنظيم ترسب أملاح الكلسيوم لتكوين العظام . كما أن له أثراً في تكوين الأسنان وصلابتها ومقاومة التسوس .

فيتامين « H » :

وقد اكتشف هذا الفيتامين حديثاً . ويوجد في الزيوت النباتية وأوراق النباتات الخضراء . أما في أنسجة الحيوان فيوجد بمقدار بسيط . وحرمان الانسان من هذا الفيتامين يسبب له عقماً تدريجياً . ففي الذكور تموت الحيوانات المنوية في الخصى ، ثم تنقرض الخلايا التي تكونها ، ولا تلبث الخصية أن يبطل عملها ، ويصاب الشخص بالعقم .

أما في الإناث فإن الغدد اللبنية لا تقوم بوظيفتها . فلا ترضع الأم طفلها . وتزداد الأعراض فلا يتم تكوين الجنين في الرحم ، بل تمتص جدرانه في أول تكوينه . وتزداد الأعراض فلا يحدث الحمل مطلقاً .

من كل ذلك يتبين لنا ما للغذاء الطبيعي من أهمية تفوق ما عداه ، وأن في الفواكه والخضراوات عدداً كبيراً من هذه المواد الحيوية التي لا يمكن للانسان أن يعيش بدونها . أما إذا اعتمد الانسان في غذائه على الخبز الأبيض واللحم التام النضج والحلوى التي انعدم منها الفيتامين بتأثير الحرارة ، فهنا يتعرض الانسان لنقص الفيتامينات وما يتبعها من أخطر الأمراض . ولا عجب إذ يعلن تجار الفاكهة في انجلترا : (Eat more fruit) . ونحن نقول : كل خضراء فاكهة وتربص .

محمد أحمد بنونه

شاعر العروبة:

عبد المحسن الكاظمي

للأستاذ جلال الدين فوزى

هذا شاعر نسيه الناس، ولم يعد يذكر قومه، فرأيت وفاءً له وللأدب أن أكتب عنه، أعرفه لقومه، وأذكرهم به . . .

لقد انتقل هذا الشاعر إلى جوار ربه منذ أكثر من أعوام أربعة، وكان قبل ذلك مشكاة ينير الطريق ومصباحا يقيل العثرات ويهدى العروبة . . .

ولد الشاعر فى بغداد سنة ١٨٦٥ م، وتعلم هناك مبادئ القراءة والكتابة، واشتغل بعد ذلك بالتجارة؛ وقد ورث ذلك العمل من أبيه، وفى أثناء ذلك عكف على الأدب القديم ينهل من موارده العذبة، وانقطع للقراءة فى الكتب العربية . . . وحفظ كثيراً من الشعر العربى الجيد. ولما بلغ العشرين من عمره، أخذ يفكر فى حال المسلمين وما آلت إليه، ويعمل فكره لاصلاح حالهم، والنهوض بهم، حتى قدم بغداد المغفور له جمال الدين الأفغانى، منفياً من إيران، فتتلمذ عليه الشاعر، وأخذ يتلقى عليه العلوم والمعارف، حتى أخرج الأفغانى من بغداد، فأصبح موقف الشاعر فى غاية من الدقة والحرج، لأنه كان من المتصلين بالأفغانى الآخذين عيادته؛ فغادر بغداد هو الآخر خيفة إلى البصرة، وأخذ يتنقل بعدها بين بلاد عديدة وأقطار مختلفة، حتى رحل من العراق قاصداً إيران والهند . . . وأخيراً فى أوائل هذا القرن هبط مصر زائراً، فأقبل عليه كثير من أهل الأدب والعلم وقادة الفكر؛ وحببوا له الاقامة فى مصر والبقاء بينهم. فرضى بذلك، ولاسيما وقد أصيب بمرض شديد.

لما استقر فى مصر أخذ كثير من رجال الأدب ومحبى الشعر يترددون عليه، وكان من أكثرهم مقابلة له وتودداً عليه رب السيف والقلم البارودى باشا؛ وكان الكاظمى قد لاذ بكنف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وهو يومئذ رجل الأدب وموئل الأدباء البار بهم، وملاذ الشعراء والعلماء، ومقيلهم من عثراتهم، والآخذ بيدهم فى طريق الحياة الوعرة، ومسالكها الملتوية، ودروبها الضيقة

وقد عاش الشاعر فى كنف الإمام ولم يشعر بالحاجة حتى قبض الإمام. عندئذ لم يجد من يبره ويرعاه، أو لم يُرد هو أن يبحث عن آخر بعد الإمام.. وفى ذلك يقول:

تلك العهود وليتها بقيت لنا
مرت كومض البارق الخطاف
كان الصديق بها الإمام ومن نحا
نحو الإمام، وكل ندب واف
عصفت بتلك المكرمات عواصف
وسفت على تلك الوجوه سواف

***

كان الكاظمى عفيفا، أبى النفس، عالى الهمة، على جانب كبير من مكارم الأخلاق، يترفع عما عليه كثير من الشعراء الذين يمدحون لقاء ما ينالهم من أجر، مع أنه كان فى شديد حاجة إلى المال، وظل فى فقر مدقع حتى توفاه الله عام ١٩٣٥ دون أن يمد يده لأحد، وقد أصيب فى أواخر أيامه بضعف فى قلبه وقصر فى نظره . . .

***

كثيراً ما كان الشك يعصف برجال الأدب فى عصرنا هذا، وينال منهم الظن كل منال إذا قرأوا قصيدة لأحد الشعراء القدماء، ويقول الرواة إنهم ارتجلوها فى مواقف اقتضتها، وإنها كانت بنت ساعتها ووليدة وقتها، وكانوا ينكرون عليهم ذلك، ذاهبين إلى أن الشاعر مهما قويت شاعريته فلن يستطيع ارتجال قصيدة، ولو كانت فى حدود الثلاثين أو الأربعين بيتاً، ولكن شكهم وارتيابهم ما لبث أن راح أدراج الرياح حين رأوا الكاظمى وسمعوه فوق المنابر،

كان يدعى إلى الكلام فيقف ويرتجل قصيدة ، وكثيراً ما كانت تبلغ مائة بيت أو تربو عليها . وقد روى بعض الصحفيين أنه رأى الكاظمى فى حفلة أقيمت له فى القاهرة تكريماً له ، وكان من خطباء الحفلة الطبيب المعروف الدكتور ابراهيم شدودى وقد ألقى قصيدة ، فقام بعده الكاظمى ، وارتجل قصيدة فى نفس الوزن ونفس القافية التى أنشد منها الدكتور شدودى ، وقد أربت قصيدته على المائة من الأبيات الجيدة ، وكل هذا من غير أن يظهر عليه شىء من الكلفة أو الجهد .

***

كان الكاظمى من الرجال الذين أنجبتهم العروبة ، فكان داعياً لها ، عاملا من أجلها ، يتفانى فى خدمتها ، يرسل قصائده الرنانة ، يستحث بها الهمم ، ويستنهض العزائم ؛ من ذلك قصيدته الوطن العربى التى منها :

هى المنى فاحتشدوا على الحياض ورِدوا

رب جوى أحره أصبح وهو أبرد

مضت قرون جمة العيش فيها أنكد

ورب عيش أنكد تلاه عيش أرغد

إن لم يكن عيش حميـ ـد فالحِمام أحمد

وشعره يمتاز بالجودة وحسن السبك ، وألفاظه المختارة وعباراته السلسة الجزلة ، والمتانة فى الأسلوب ، وكان له سهم فى نهضة الشعر ، ويعد فى طليعة الشعراء ؛ ولكن يؤخذ على شعره البداوة ، ويغلب عليه الأخذ بأساليب القدماء ، فكثيراً ما يذكر الرسوم البالية ، والأطلال الدارسة ، كما كان يفعل امرؤ القيس وغيره منذ قرون طويلة ، ومن شعره هذا قوله :

وقوف على تلك الديار وقد عفت

معالم كانت زاهيات وأربع

معالم أعفاها البلى فتوزعت

وما هى إلا أكبُد تتوزع

وقوله :

ولم أنس يوم الجزع والساعة التى

وقفنا بها تبكى الديار ونجزع

وسبب هذه البداوة والأخذ بالقديم فى شعره يرجع إلى حفظه الكثير من شعر العرب القدماء ، ونسجه على منوالهم ، فركز هذا الأسلوب فى طبعه . . ولا شك أن هذا من جنايات الأدب الجاهلى كما يقول الأستاذ الكبير أحمد أمين .

ومن شعره السلسى قوله :

يا حبذا يوم الجمال وحبذا يوم الوصال وأجره المكسوب

يوم يعود به لنا استقلالنا ويرد فيه حقنا المغصوب

حتام نحتمل الذلة طوّعا ولنا بآفاق البلاد وثوب

نرجو الحياة وليس يجهل عالم أن الحياة مصائب وخطوب

ومن شعره الرائع قوله :

أوطاننا أرواحنا بل إنها بالروح تفدى

أو يستماض بندها من ذا رأى للروح ندًا؟

أبداً نطالب بالحقو ق ، حقوقنا أو نستردا

أبداً نجاهد دونها ونكافح الخصم الألدا

ونصد عنها من نوى أو همّ يوماً أو تصدى

وقد عاش هذا الشاعر حليف البؤس ، يصارع الشقاء والفاقة ، وله كثير من الشعر فى هذا المعنى ، من ذلك قوله :

غيرى يسير مرنح الأعطاف وسواى يكرع فى غدير صاف

لى إن أسر فى الأرض سيرة حائط

متهدم أو خابط دلاف

فإذا مشيت يخف بى داعى الهوى

طرباً فشى المثقل الرساف

وهو يشكو دهره ، ويرتفع صوته بالشكوى من أهله فيقول :

ألا إن دهرى موجعات فعاله

أفعال أهليه أمض وأوجع

هذه كلمة قصيرة عن هذا الشاعر المنسى ، الذى لم يلق بعد وفاته إلا الجحود والنكران .

جلال الدين فوزى

من أحسن ما يُروَى
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

أبو نواس أيضاً

سبق أن تحدثتُ عن هذا الشاعر الساحر وأفضتُ فى الكلام على منزلته بين شعراء العربية ؛ كما تحدثتُ عن بعض النواحى التى أجاد فيها كل الإجادة وبرّز فيها على غيره ، وهى خمرياته .

واليوم أريد الحديثَ منه فى ناحية أخرى من أهم النواحى التى امتاز بالاجادة فيها وظهرت فيها عبقريته بأجلى مظاهرها ، وهى غزلياته الفاتنة التى تستخفُّ ذوى الرجاحة والوقار ، وتثيرُ رواسخ الأحلام ، وتخرج أولى الرأى عن جادّة الصواب ، وتبعثُ فى شيخوخة القلوب حرارة الشباب ، وتغرى المحترمَ الذى حطمته السنون بالتصابى وخلع العذار ، والجماح فى سبيل اللهو بعد أن ألجمته السنُّ وقعد به الهرم .

وأهمّ ما يمتاز به أبو نواس فى غزله أنه يتجه فيه اتجاها قوياً إلى الغرائز البدنية فيبعث منها ما كمن ، ويثير ما خمدَ ، بل يُحيى منها ما أماته الضعف والعجز .

وقلما يتجه فى غزله إلى العواطف القلبية والاحساسات الرُّوحية إلا اتجاهاً ثانوياً ، فيصفها وصفاً مجملا لا اطناب فيه ولا تفصيل ، ولا يمرّ بها إلا ليجوزها إلى ذلك النوع من الغزل السابق ذكره .

فتراه يطيل كل الاطالة ويُعمِن فى الوصف والتصوير حتى يُوفى على الغاية ويجاوزَ منى النفوس إذا تحدث عن مجلس لهو مع من يحبه ، أو وَصَفَ حسنَه ودَلّه ورقة شمائله وحلاوة منطقه وما فى حديثه من لثغة لسانية ونحوها تجمِّل بجماله ، ويجاريه فى تلك اللثغة ؛ أو ذكر محاورةً ظريفة جرت فى الحديث بينهما ، أو معاتبةً على إعراض أو إخلافاً لموعد ، أو مكرَ حبيبه به ومكره بحبيبه ؛ أو سرَدَ قصةً كانت عاقبتها فوزه بما يريد منه أو خيبته فى طلبه .

كما تراه ينفُذ بقوة حذقه وخارق ذكائه وقوة تجربته إلى دخائل نفوس العشاق ، فيصف شعور المتحابين وخوالجَ قلبيهما ، وحديثَ نفسيهما حين تلاقيهما أو افتراقهما أدقَّ وصفٍ وأروعه .

وهو أوسع الشعراء خبرةً بما يُدنى الحبيب النافر ، ويُسلِس القياد الصعب ؛ وأعلمهم بمواضع التعريض بمراده والتصريح به .

وذلك كله مما اختصّ به أبو نواس وحده دون غيره من الشعراء قديمهم وحديثهم .

فإذا تحدث عن تباريح الجوى ، ولواعج الهوى ، وما يلقاه العاشق من ألم الفراق ؛ أو أراد وصف الزفرات والعَبَرات ، وطول الليل على المهجور ، وما إلى ذلك من الاحساسات القلبية البحتة ، التى توحى بالحبّ الرُّوحى ، وتتصل بالنفس اتصالا قويا ، لم يهزّ عاطفة فى قلبك ، ولم يلمَس موضعَ الإعجاب فى نفسك ، وذلك لأن أبا نواس مشتهٍ لا محِبٌ ، وراغبٌ فى لذّة ، لا مدلَّه القلب بالغرام .

أما فنُّه ، فهو لا يتسع فى خيال ، ولا يُغرب فى معنى من معانيه ، ولا يولِّد معنًى من معنى آخَر ، ولا يبتكر جديداً ، ولكنه يصف كل شىء كما هو ، ويصوّره بحقيقته التى يشعر بها ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص .

فإذا رأيتَ فى معانيه شيئاً من الجدّة والطرافة ، فذلك لجدّة الموصوف وجدَّته وطرافته ؛ لا أنه ابتكر جديداً ، أو أجهد فكره فى الإتيان بطريف .

كما أنه لا يلعب بالمعانى ولا بالألفاظ ، ولا يتجه إلى الصناعة اللفظية إلا فى القليل الذى لا يعوّل عليه ، وذلك لقرب عصره من العصور الأولى التى لا تعرف غير الطبيعة فى الشعر وغيره .

ولذلك أرى أن شعر أبي نواس خير ما يمثل الحياة الاجتماعية في بعض نواحيها ، وهي ناحية اللهو والمرح في عصره ، لخلوه من الزخارف اللفظية والمعنوية التي تطمس الصور في شعر أصحاب الصناعة من المتأخرين وتبعدهم عن الجادة ، وتجعل الصورة غير الصور ، والمثال غير المثل .

ولا يفوتني في هذا الحديث أن أنبه على ما أجده في بعض مقطوعات أبي نواس من التفاهة والإسفاف إلى غاية لا ينبغي أن ينزل إليها شاعر في منزلته ، حتى تكاد تلك المقطوعات تصرفك عن غيرها من روائعه ، تجد ذلك كثيراً في مقطوعاته في غزل المذكر .

ويلوح لي أن ذلك يرجع إلى أن هذه المقطوعات التي قيلت في هذا الغرض مدسوسة عليه ، قالها بعض هؤلاء المتصوّنين المتسترين الذين يخشون سوء القالة ، ويخجلون من نسبة هذا الشعر إليهم ، فرأوا أن ينفوها عن أنفسهم بنسبتها إلى شاعر اشتهر بالخلاعة والمجون والاتجاه في الغزل إلى تلك الناحية ، كأبي نواس ، ليجمعوا بذلك بين أمرين : نفي تلك المقطوعات عنهم ، وتسييرها على أفواه الرواة ، كما نرى بعض الذين برعوا في ابتكار الفكاهات وحذقوا وضعها ، ولهم من المنزلة بين الناس ما لا يتفق ونسبة هذه الفكاهات والنوادر إليهم ، فينسبونها إلى من اشتهروا بها أمثال البابلي في عصرنا ، وجحي في العصور السابقة .

وتلك عدة مقطوعات من غزله الرائع الذي حدثتك عنه هذا الحديث القصير ، الذي لم يبلغ بعض ما في نفسي من إعجابي به ، وإيثاري إياه ؛ قال :

— ١ —

ما هوى إلا له سبب … يبتدي منه وينشعب

فتنت قلبي محجّبة … وجهها بالحسن منتقب

خليت والحسن تأخذه … تنتقي منه وتنتخب

فاكتست منه طرائفه … واستزادت فضل ما يهب

صار جداً ما مزحت به … رب جد جره اللعب

— ٢ —

إذا غاديتني بصبوح عذل … فشوبيه بتسمية الحبيب(١)

فإني لا أعد العذل فيه … عليك — إذا فعلت — من الذنوب

وما أنا — إن نحرت أرى جبانا … وإن بخلت — بمخنوس النصيب

مقنعة بثوب الحسن ترعى … بغير تكلف ثمر القلوب

— ٣ —

وتلك محاورة بينه وبين حبيبته من هذه المحاورات الطريفة القاتنة التي سبق أن أشرت إليها في هذا الحديث :

كتبت على فص لخاتمها :
من مل محبوباً فلا رقدا
فكتبت في فص ليبلغها :
من نام لم يعقل كمن سهدا
فمحته واكتتبت ليبلغني :
لا نام من يهوى ولا هجدا
فمحوته ثم اكتتبت : أنا
— والله — أول ميت كمدا
فمحته واكتتبت تعارضني :
والله لا كلمته أبدا

— ٤ —

وقائلة لي كيف كنت تريده
فقلت لها ألا يكون حسود

(١) الصبوح : الشرب في وقت الصباح ، وشوبيه ، أي امزجيه .

لقد عاجلتْ قلبي جنانُ بهجرها
وقد كان يكفيني بذاك وعيدُ

لعلّ جنانًا ساءها أن أحبّها
فقُلْ لجنانٍ تاب ثمّ ودُرِّيدُ

فسُخطُكِ في هذا عليّ مهوّنٌ
ولكنّه فيما سواه شديدُ

رأيتُ تدانِي الدارِ ليس بنافعٍ
إذا كان ما بين القلوبِ بعيدُ

— ٥ —

إني لأرحمُ قلبي أن أكلّفه
عنكِ السُّلوّ ولو قطّعتِ أنفاسي

اللهَ فيّ فقد عذّبتني زمنًا
بالقربِ والبعدِ والإطماعِ واليأسِ

— ٦ —

تأبّدتْ من باصطبارٍ عنكِ يأمرُني
لأنّ مسلكَ روحي عنه قد ضاقا

ما يرجعُ الطّرْفُ عنها حين يُبصرُها
حتى يعودَ إليها الطّرْفُ مشتاقا

— ٧ —

طَنَّ بي مَنْ قد كَلِفْتُ به ... فهْوَ يجفوني على الظِّنَنِ
نامَ لا يعنيه ما لقيتْ ... عينُ ممنوعٍ من الوسَنِ
رشأٌ لولا ملاحتُهُ ... خلتِ الدنيا من الفتنِ
ما بدا إلّا أُشترقّ له ... حُسنُه عبدًا بلا ثمنِ

أحمد الزين

اذهبي ...

للأستاذ صالح جودت

« تصور حضرة الشاعر النابه صورة من ذلك الحب الرخيص الذي دب في المجتمعات دبيب الأمراض الوبيلة في الأجسام ، وصور نفضة القلب الكريم من متاعه الحدي المبتذل » .

....

أقبلتْ تدّعي ضنًى والتياعا
بعد ما قلتُ يا هواها الوداعا!

اذهبي للجحيم لا ردّكِ اللي
لُ ، فإن الهوى وهمٌ وتداعى

اذهبي .. إنني تداركتُ قلبي
حين مزّقتُ عن عيوني القناعا

اذهبي فالظنون باتت يقينًا
أنتِ لا تحسنين حتى الخداعا

لا تصبّي حديثكِ الكاذبَ العذْ
بَ بأذني .. فقد مللتُ السماعا

واشبحي بنور عينيكِ عني
أنا أعمى فما أريد شعاعا

لا تلقّي عليّ بالجسد الغضّ
فهذا الجمال بات مشاعا

وإذا النعمة الجميلة باتت
في يد الكل فهي ليست متاعا

إنني قد شبعتُ من كل هذا
فاتركيني أنا .. وغذّي الجياعا

صالح جودت

كتاب الوزراء والكتّاب

للجهشيارى

تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى

للأستاذ عبد الحميد العبادى

أهدى إلى زميلى وصديقى الأستاذ مصطفى السقا من أشهر مضت ، نسخة من كتاب « الوزراء والكتّاب » لابن عبدوس الجهشيارى المتوفى عام ٣٣١ هـ . وقد أخرجه للناس هو وزميلاه الأستاذان إبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى فى حلة عربية قشيبة ، ومطبوعا لأول مرة بمطبعة الحروف .

ولم تمكنى كثرة العمل فى العام الدراسى المنصرم من أن أفرغ لقراءة هذا السفر النفيس ، وإن كنت قد رجعت غير مرة إلى نسخته الأوربية المطبوعة بألمانيا ، وكنت عارفاً بنفاسة قدر الكتاب وعلو قيمته العلمية .

وقد استرحت فى هذه الأيام من عناء العمل الرسمى ، وأصبحت حراً أقرأ ما أشاء متى أشاء . وقد رأيت أن أقرأ الكتب التى وردت إلى ، والتى اقتنيتها ، على حسب ترتيب ورودها إلى واشتياقى لها ، فكان كتاب الوزراء والكتّاب أحقها بالتقديم على كل حال .

***

والكتاب يتناول الكلام على خطتى الكتابة والوزارة فى الدولة الإسلامية منذ قيامها إلى زمن الخليفة المأمون العباسى ، وهما من أهم خطط الدولة الإسلامية لذلك العهد . ومع أن المؤلف قد أدار كتابه على هذين النظامين فهو من حين لآخر يفصل كلامه بإشارات ونكت واستطرادات لها قيمة علمية عظيمة عند من يعانى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى فى صدر الإسلام ، هذا إلى أنها سهلت تناول الكتاب وخلعت عليه رواء القصة وجاذبيتها .

ولقد وفق الأساتذة الناشرون للكتاب فى نشره على الناس إلى حد بعيد ، فوضعوا له مقدمة تعرّف القارئ بالمؤلف وبأصل الكتاب ، وضبطوا النص جهد استطاعتهم ، وحققوا وشرحوا ما يحتاج منه إلى تحقيق أو شرح ، ثم ذيلوا الكتاب بفهارس ضافية استوعبت الأعلام الواردة فى الكتاب وموضوعاته ، وردته إلى عناصره رداً فيه دقة وفيه استقصاء .

***

ومن عادتى عند ما أقرأ كتاباً علمياً قيماً أن أتناول قلم الرصاص فأقيد بهامشه ما يعنّ لى من فائدة علمية ، وما عسى أن أستدركه على المؤلف أو الناشر إن كان ثم موضع للاستدراك . وقد جريت على عادتى هذه عند ما شرعت فى قراءة « كتاب الوزراء والكتاب » فلما فرغت منه قراءةً وجدتنى قيدت بهامشه جملة تقييدات وملحوظات واستدراكات ، منها ما أحتفظ به لنفسى وأعتدّه لدراساتى ، ومنها ما هو فى حقيقة الأمر نقد للنص فى بعض مواضعه أو استدراك على تحقيقات الأساتذة الواردة به . وقد لا يخلو هذا الصنف من التقييدات من الفائدة لغيرى من قراء الكتاب ، فأنا أنشره على هذا الاعتبار وحده .

***

جاء فى متن الكتاب فى ص ٩٩ ما مؤداه أن زادان

فروخ كان كاتب عبد الله بن زياد ، وقد علق الأساتذة على ذلك بقولهم : « لعله عبيد الله بن زياد » والصحيح الثبت أنه عبيد الله بن زياد لا عبد الله (الطبرى : المجموعة الثانية ص ٤٥٨ من الطبعة الأوربية) .

وجاء فى المتن فى ص١٤٨ : « وهو عبد الله بن عامر بن كرز » والصواب (كُرَيز) بصيغة التصغير كما هو وارد فى كافة المراجع .

وجاء فى ص ١٦٨ : « وهو إذ ذاك بالرد والدار » يريد المؤلف تسمية المكان الذى مات به الخليفة المهدى العباسى . وقد علق الأساتذة على هـذا الاسم بقولهم إنه محرف ، وإنهم لم يروا فى أسماء الأماكن ما يقرب منه إلا ما ذكره المسعودى فى أول ترجمة المهدى من أنه خرج إلى موضع يسمى « أرزن والران » فلعله محرف عنه . وأقول إن اللفظ محرف ، لا شك فى ذلك ، إلا أن الطبرى وياقوت يسميان الموضع الذى مات فيه المهدى « بالرذ عاسبذان » فان لم يكن الاسم محرفاً عن هذين اللفظين معاً ، فلا أقل من أن يكون قد خلص لنا من كلام الطبرى وياقوت اسم القرية التى هلك بها هذا الخليفة وهى « الرّذ » الواقعة بالقرب من ماسبذان . وجاء فى المتن فى ص١٩٣ : « ولوزير العروضى شعر يهجو به محمد بن الأشعث « مكلم الذئب » الخزاعى وهو :

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم
فقد لعمرى أبوكم كلم الذيبا
فكيف لو كلم الليث الهصور إذاً
تركتم الناس ما كولاً ومشروبا
هذا السويدى ما يسوى إتاوته
يكلم الفيل تصعيداً وتصويبا

وروى : « هذا السُّنَيدى » فضربه محمد بن الأشعث ثلثمائة سوط » .

وقد علق الأساتذة على هذا الخبر بقولهم سويد تصغير تحقير لسيد بالكسر بمعنى الذئب . وقد أوردوا فى آخر الكتاب رواية كتاب الورقة لهذا الشعر وهى تقول (هذا السنيدى) وعندى أن رواية كتاب الورقة هى الرواية الصحيحة وتؤيدها رواية الأغانى (ج ١٨ ص ٣٨) كما يؤيدها معنى الشعر نفسه فان السنيدى تصغير سندى والسندى هو الرجل المنسوب إلى السند وكانت الفيلة تجلب فى ذلك الزمان إلى العراق من السند .

على أن فى الخبر المذكور آنفا أغلاطاً أخرى منشؤها تحريف النساخ من غير شك ، فقوله « وزير العروضى » خطأ وصوابه « رزين العروضى » وهو شاعر كان معاصراً وصديقاً لدعبل وكان معروفا بغرابة أوزان شعره . وقد ذكره بهذا الضبط صاحب الأغانى فى موضعين من كتابه ، واعتمد ضبطه هذا المستشرقون الأعلام الذين عملوا فهرس كتاب الأغانى ، كما ذكره بهذا الضبط أيضاً كما يقول الأساتذة الناشرون صاحبا كتاب الورقة وإرشاد الأديب . والعجيب أن يعدل الأساتذة عما جاء فى هذه المراجع ويأخذوا عما جاء فى الأصل الذى نقلوا عنه الكتاب ، وعما جاء فى فهرست ابن النديم وهو كتاب محشو بالتحريف والتصحيف :

ومحمد بن الأشعث الوارد فى الخبر المذكور صحته « جعفر ابن محمد بن الأشعث » ، ولو رجع القارىء إلى سياق المتن لوجده يدور على جعفر هذا الذى ولى خراسان للرشيد .

ويؤخذ من موضع « مكلم الذئب » من الجملة أنها صفة لابن الأشعث ، مع أنها لقب جد لابن الأشعث ، وكان رجلا من خزاعة على عهد النبى (ص) . ولهم فى تكليم الذئب إياه قصة أوردها صاحب الأغانى (ج ١٨ ص ٣٧) ، وإذاً فعبارة النص ينبغى أن تكون هكذا : ولرزين العروضى شعر يهجو به جعفر بن محمد بن الأشعث من بنى مكلم الذئب الخزاعى الخ .

وجاء فى المتن فى ص ٢٥٦ : « وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود البلاذرى المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب » وقد علق الأساتذة على ذلك بقولهم : «البلاذرى هو أبو بكر ، وقيل أبو جعفر ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان » .

والحقيقة أن البلاذرى صاحب كتاب البلدان لم يكن وُلد بعدُ وقت أن كان الخصيب بمصر ، أى حوالى سنة ١٨٧هـ .

وأبو عبد الحميد بن داود المذكور فى الخبر ، إنما هو جده كما يؤخذ من نسب البلاذرى الوارد فى ترجمة للبلاذرى منسوبة للمقريزى وواردة فى مقدمة كتاب فتوح البلدان . قال : « هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى الكاتب ، ويعرف بالبلاذرى » ، وإذاً فعبارة هذا الخبر لابد أن تكون هكذا : « وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود (جد) البلاذرى المؤلف لكتاب البلدان » الخ .

وقال المؤلف فى ص ٢٢٩ : « وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم فى هدم إيوان كسرى » والظاهر أن هذا وهم من المؤلف ، فالمعروف بالتواتر أن قصة الشروع فى هدم إيوان كسرى إنما تضاف إلى المنصور وخالد بن برمك ، لا إلى الرشيد ويحيى . (الطبرى المجموعة الثالثة ص ٣٢٠ ، والفخرى ص ٢١٢) .

* * *

وعلق الأساتذة على قول المؤلف فى ص ٣٧ « يا أمير المؤمنين ، إنك لو بعثت الوليد بقسم الأموال بين الناس ما رضوا عنه ، فكيف تبعثه جابياً . . . . ولكن وله المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفاً وذكراً » ، فقالوا : « المعاون الجنايات والمظالم ، ولعله يريد بالمعاون والصوائف ولاية القضاء والغزو » ، وتفسير « المعاون » بهذا المعنى إنما يصدق فى العصور الإسلامية المتأخرة ، فأما فى صدر الإسلام فالمعاون كانت عبارة عن الأموال التى كان يعطاها أصحاب العطاء الرسمى فوق عطائهم ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : « ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا » . (الطبرى . المجموعة الأولى ص ٣٠٢٦) .

ومنه قول القائل :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحى من ربيعة الرقاق
وابن سهيل قائد النفاق بلا معونات ولا أرزاق

(الكامل للمبرد ص ٧٦ طبع أوربا) .

ولا شك أن إعطاء المال على هذا النحو مما يكسب مثل الوليد بن عبد الملك شرفاً وذكراً كما يقول النص . وانظر أيضاً فى هذا الصدد : كتاب فتوح البلدان صحيفة ١٨٧ من الطبعة الأوربية .

وجاء فى ص ٥٢ : « فلما توفى سليمان كتب عمر وهو على قبره بعزل أسامة بن زيد وبعزل يزيد بن أبى مسلم » . وقال الناشرون استدراكا على هذا : « وظاهر أنه يريد يزيد بن المهلب » . والواقع أن المؤلف يريد ما يقول والصواب فى جانبه ، ولكن الأساتذة أخذوا برواية تفرد بها ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، ومؤداها أن سليمان بن عبد الملك حبس يزيد بن أبى مسلم ، فبقى فى حبسه طوال خلافته وخلافة عمر ، مع أنه لم يقل واحد من أئمة مؤرخى الشرق بهذا الحبس الطويل : لا الطبرى ولا ابن الأثير ولا ابن خلكان الذى خص ابن أبى مسلم بترجمة وافية . بل يقول ابن خلكان ما معناه إن سليمان أتى بيزيد فى جامعة فحاوره فوجده قوى العارضة ، وكشف عن ذمته فلم يتعلق عليه بشيء ، فاستحال سخطه عليه إلى شبه إعجاب به ، حتى لقد هم باتخاذه كاتباً له لولا أن ثبطه عن ذلك بعض حاضرى مجلسه . ولا شك أن يزيد بن أبى مسلم عزى نفسه بعد العزل بالاشتراك فى الغزو ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز وعلم بذلك أمر برده ، وهو مايقوله الجهشيارى فى ص ٥٥ . فالأخذ برواية صاحب العقد يوهم أن المؤلف قد تناقض فى أخباره وهو ما ليس بصحيح .

وجاء فى ص ٨١ من مقطوعة لعبد الحميد الكاتب هذان البيتان :

فليست تفتر من عبرة لما فى الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبا وردّ التقى عن الباطل

فضبط الشراح تفتر بالقاف المثناة من فوق ، وعندى

أن الصواب والأبلغ أن تقرأ (تفتق) بالفاء الموحدة ، من فتق السحاب إذا مطر وفرغ ماؤه . وضبطوا عُنُن بضم أوله وثانيه على أنه جمع عنان ، وأرى الأفضل أن تقرأ (عَنَن) بفتح أوله وثانيه ، بمعنى اعتراض ، ولا سيما أن سيبويه ينكر أن يكسر عنان على غير أعنة ، (اللسان مادة : عنن) .

وأورد المؤلف في ص ١٣٥ مقطوعة من الشعر لعبد بني الحسحاس مضمومة الروي ، وأولها :

أمن سمية دمعُ العين مذروف
لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

ومنها هذا البيت :

لا تبك عينك إن الدهر ذو غِيَر
فيه تفرُّق ذي إلف ومألوف

وقد ضبط الأساتذة قوله (مألوف) بالكسر وقالوا إن في البيت إقواءً ، ثم قالوا : والظاهر أنه دخيل على هذه الأبيات لأنه غير وارد في القصيدة المنسوبة إلى عنترة (في ديوانه وفي كتاب الأغاني) . أما أن يحتج على كتاب الجهشياري بكتاب الأغاني وبالديوان المنسوب إلى عنترة فهذا ما لا يجوز ؛ فكتاب الجهشياري أقدم وأوثق من كتاب الأغاني فضلاً عن الديوان المنسوب إلى عنترة ، وهو يورد لنا المقطوعة المذكورة في صورة من أقدم صورها ويعزوها إلى قائلها الحقيقي ، وهو بذلك يصحح خطأً وقع فيه صاحب الأغاني وجامع الديوان المنسوب إلى عنترة . وأما أن في البيت إقواءً فهو ما لا أراه . بل إن ضم (مألوف) هو المتعين والواجب إذا راعينا قول الشاعر في صدر البيت (إن الدهر ذو غير) ، فيكون معنى الكلام إن الدهر ذو أحوال ، طوراً يفرق الألاف ، وطوراً يجمعهم . ويكون (مألوف) معطوفاً على قوله (تفرق) ويكون بمعنى الإلف مثل مجهود ومعقول بمعنى الجهد والعقل . وإذا استبعد الأساتذة ذلك أفلا يمكن أن يقال إنه محرف عن (تأليف) ؟ وأيا ما كانت الحال فإني أرى البيت منسجماً مع سائر أبيات المقطوعة معنى ووزناً وقافية .

وعلق الأساتذة على لفظ (النوبهار) الوارد في ص ١٩١ بإيراد كلام لياقوت بيّن فيه أنه كان بيتاً للبرامكة في بلخ يعظمونه ، وأنهم كانوا يضاهون به بيت الله الحرام ، وأن معنى النوبهار البهار الجديد ، إذ كانت سنتهم إذا بنوا بناءً جديداً أو شريفاً كللوه بالبهار وهو الريحان . ولكن البحث العلمي الحديث الذي قام به بارتولد (دائرة المعارف الإسلامية مادة برامكة) وبوفات (رسالته عن البرامكة ص ٢٨) يدل على أن النوبهار كان معبداً بوذياً ، وأن لفظ (نوبهار) سنسكريتي الأصل مؤلف من (نوفا) بمعنى جديد و (فيهارا) بمعنى بيت أو معبد ، وقد كانت للهنود فيهارات كثيرة . فإن كان لا بد من إيراد ما قاله كتاب العرب عن هذا البيت ، فيحسن أن يردف ذلك بما يراه البحث العلمي الحديث استتماماً للفائدة .

وجاء في متن الكتاب في ص ١٩٩ : « ومما يشبه خبر عبد الله بن سوار هذا » وعلق الأساتذة على ذلك بقولهم : في الأصل : « ومما يشبه خبر هذا عبد الله » الخ . والسياق يقتضي تأخير « هذا » . ولست أرى مع الأساتذة ذلك ، فتقديم اسم الاشارة على العلَم المشار إليه وارد في الكتب القديمة ، فصاحب الفخري يقول : « وهذا خالد هو جد البرامكة » (ص ٢١٠ من الطبعة الأوربية) ويقول : « وكان هذا سنباذ رجلاً مجوسيا » (ص ٢٣٢) وأظن أن لقوله وجها من العربية وإذاً فلا داعي إلى تغيير عبارة النص بالتقديم والتأخير .

* * *

ذلك ما قيدته على هذا الكتاب النفيس وإني أرجو أن أكون قد قضيت بذلك حق مؤلفه وحق ناشريه وحق قرائه . وأقول في ختام بحثي إن ما أخذته على الكتاب سواء أكان من ناحية النص أم من ناحية تحقيق الأساتذة ، لا يكاد يذكر بجانب ما في الكتاب من جليل الفائدة وما في تحقيقات الأساتذة من عظيم الإجادة والإحسان .

عبد المجيد العبادي

أنباء وآراء

آراء جديدة لويلز

أثار كتاب ويلز الجديد عن مصير الانسانية(١) ضجة عظيمة في الأوساط الأدبية في العالم الغربي ، لما حواه من آراء وأحكام خطيرة عن حالة الانسانية الراهنة ، وما ينتظر لها من مصير . فهو يتنبأ بوقوع كارثة تحطم هذا العالم ، وتقضي على حضارته في وقت قريب ، قد لا يزيد عن عامين أو ثلاثة أعوام ، إن لم يتهيأ « العقل العالمي » الذي ينقذ البشرية من هذا الدمار .



ومن رأي ويلز أن الإنسان قد خطا خلال الأعوام الأخيرة خطوات جبارة في سبيل استثمار العلم ، فتمكن من تسهيل المواصلات ، وتحسين حالته الصحية ، وزيادة حيويته إلى ما يقرب من عشرة آلاف مرة ، ضعف إنسان القرن الماضي ؛ ولكنه إلى جانب ذلك فقد شيئاً مهماً هو التربية التي تتناسب مع هذا التقدم ، والتهذيب الذي يتمشى مع تشعب ألوان الحياة الجديدة التي بعثها العلم ، حتى أضحى الجزء الأكبر من الناس يعيشون في خوف دائم من خطر الحرب المفاجئة ، وحتى زادت نسبة حوادث الانتحار زيادة بشعة ، وزادت إلى جانبها نسبة حوادث الاضطهاد وتلفيق التهم والدسائس والتعدي ، كل هذه المظاهر التي تدل على انحطاط المستوى الخلقي للبشرية ، في الوقت الذي ارتفع فيه مستواها العلمي .

والحل الوحيد الذي يراه لهذه الحالة هو إعادة تهذيب العقل البشري ، فتستبعد الحرب كوسيلة من وسائل الحياة من تقاليد البشرية ، ويكف عن استهلاك موارد الحياة الطبيعية بهذا الاسراف ، بإنشاء اقتصاد عالمي تكون وظيفته تنظيم إنتاج واستهلاك العالم بأسره ، ويقوم مقام الديكتاتوريات الجامحة المنتشرة في العالم ديمقراطية منظمة على أساس علمي ، أو كما يسميها هو « اشتراكية في وضح النهار » .

ويصر ويلز أن الديمقراطية العالمية هي الحل الوحيد الباقي لانقاذ النوع الانساني من الدمار ، تلك الديمقراطية التي لا يحققها إلا « العقل العالمي » الذي ينشده فلا يجده إلا في أمريكا وروسيا ، حيث يعمل الرئيسان روزفلت وستالين على إيجاد دولة عظيمة حديثة منظمة على أساس علمي صحيح .

ومن رأي ويلز أن ساسة العالم اليوم كلهم لا يصلحون للقيام برسالته في الاصلاح المنشود ؛ فهتلر في رأيه مريض يجب أن يوضع تحت المراقبة وموسوليني خطر على الانسانية ، أما تشمبرلين فهو كما يعتقد لا يعمل للسلم بقدر ما يعمل لانقاذ النظام الفردي من مصيره المحتوم ، ذلك النظام الذي يقوم على ثلاث دعائم : هي التاج والكنيسة والأعيان ، وهو يصف تشمبرلين بأنه يحاول ضربا من العبث باتباعه سياسته الراهنة .

ومع ما في آراء ويلز دائماً من الغرابة والتطرف فان

(١) The Fate of Homo Sapiens ; By H. G. Wells.

مكانته العلمية وصدق نظرته فى كثير من الأحايين يجعلان لآرائه أهمية وخطورة يلمح أثرهما فى الجو الأدبى كلما ظهر له رأى جديد .

الدكتاتوريات فى نظر أرسطاطاليس

كتب الأستاذ كارل شميدت الحاضر بجامعة كولومبيا يصف الفاشستية ، فقال إنها بكل نظمها وأسرارها وبنائها الفخم ليست سوى وسيلة لتوطيد سلطة فئة قليلة من الناس على مجموع الأمة ، وإن أول إنسان وصف النظام الدكتاتورى وصفاً ينطبق على أحدث صورة نراها الآن هو أرسطاطاليس أبو الفلسفة إذ قال : « فى الدول التى يتكون الشعب فيها من طبقتين طبقة غنية وأخرى فقيرة ، تصبح وظيفة الطاغية لكى يصل إلى الحكم أن يدخل فى روع كل من الطبقتين أنهما تأمن من المخاطر ومن اعتداء أحدهما على الآخر مادام له الحكم ، وما عليه إلا أن يضم إلى حكومته أفراداً من أقوى الفريقين .

ويرى الأستاذ شميدت أن هذا الوصف ينطبق تماماً — إذا تأملنا التاريخ — على ديكتاتوري هذا العصر ، ويضرب مثلاً لذلك الطريقة التى وصل بها موسولينى إلى الحكم ، فإن الطبقات الممتازة فى إيطاليا أزعجها الاضراب الشامل الذى قامت به جماعات العمال عام ١٩٢٠ ، فراحت تبحث عن خنجر تصوبه إلى هذه الحركة يشترط أن يكون ذا حدين حتى لا يشك العمال ، وقد وجدت بغيتها هذه فى موسولينى ذلك الثائر « ذى الآمال البعيدة والشوق الملح إلى الحكم والسلطان » ، فسرعان ما مهدت له السبيل وشجعت الحركة الناشئة ، فى الوقت الذى رأت الجموع فى هذا الشاب الثائر الذى تتدفق من فمه الوعود والأمانى ، بغيتها التى سوف تحميها من أرباب الأعمال . وهكذا خطا موسولينى إلى الحكم ، بإقناع كل من الطبقتين ، على حد تعبير أبى الفلسفة ، بأنه سيحميها من الطبقة الأخرى .

فى الدستور الانجليزى

إذا حدثت فى انجلترا أزمة دستورية بين مجلسى البرلمان منشؤها رفض مجلس الشيوخ قانوناً مالياً أقره مجلس النواب ، فكيف تحل هذه الأزمة ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال يجب علينا أن نشير إلى نقطتين جديرتين بالاعتبار فى الدستور الانجليزى . أولاهما أن هذا الدستور دستور مرن لا يحتاج تعديله إلى إجراآت خاصة بل يعدل بنفس الطريقة التى تسن بها القوانين العادية ، أى بموافقة أغلبية كلا المجلسين ، كما أنه دستور غير مسطور ، تكوّن بتوالى الزمن من العادات والتقاليد التى جرى بها العرف فى خلال تاريخ انجلترا الدستورى الطويل . والنقطة الثانية أن مجلس اللوردات يتكون من جميع الذين يحملون لقب لورد « فى انجلترا » أوفى « بريطانيا العظمى » أوفى « المملكة المتحدة » .

وقد كان المجلسان إلى ماقبل عام ١٩١١ متساويين فى السلطة من الوجهة الاسمية على الأقل ؛ ولكن حدث فى عام ١٩٠٩ أن رفض مجلس اللوردات مشروع قانون مالى قدمته الحكومة لمجلس النواب ووافق عليه ، وكان قبل ذلك قد رفض عدداً مشروعات القوانين الهامة التى عرضتها الحكومة على البرلمان ، وقد نشأ من هذا الموقف أزمة دستورية حادة لم تحل نهائياً إلا فى عام ١٩١١ ، ففى ذلك العام عرضت الحكومة على المجلسين قانوناً عاماً أقراه فى شهر أغسطس من العام نفسه بعد جدال طويل عنيف ، وهذا القانون يجعل لمجلس النواب السلطة التامة فى المسائل المالية ، وقد حاول اللوردات قبل إقراره أن يدخلوا على المشروع بعض التعديلات ولكن النواب رفضوها وأصروا على إقرار المشروع بصيغته التى وافقوا هم عليها ولم يتغلبوا على مقاومة اللوردات إلا بعد أن أذيع بصفة رسمية أن الوزارة قد أشارت على الملك بإيجاد عدد من اللوردات

يكفل للحكومة الحصول على أغلبية فى المجلس ، وحتى بعد هـذا الانذار لم يوافق اللوردات على المشروع إلا بأغلبية ١٣١ صوتاً ضد ١١٤ وأهم مواد هذا المشروع هى : —

١ — إذا لم يوافق اللوردات على مشروع قانون مالى بعد شهر من وصوله إلى المجلس جاز عرض هذا المشروع على الملك لإقراره ، فإذا أقره أصبح قانوناً نافذاً دون حاجة إلى موافقة اللوردات . ويُعَرَّف القانون «مشروع القانون المـالى» ويخول رئيس مجلس النواب حق تطبيق هذا التعريف على مشروعات القوانين التى ترسل إلى المجلس بعد أن يستشير عضوين من أعضائه يختاران لهذا الغرض .

٢ — وتنص المادة الثانية على أنه إذا أقر مجلس النواب مشروع قانون من القوانين الأخرى غير المالية فى ثلاث دورات مختلفة من دورات انعقاده سواء أكان هذا الاقرار صادراً من مجلس واحد أو من مجلسين ، ورفضه اللوردات رغم هـذا الإقرار جاز أيضا عرض مشروع القانون على الملك للتصديق عليه وتنفيذه ؛ ويشترط فى هذه الحال أن تمر سنتان بين القراءة الثانية لهذا المشروع فى مجلس النواب وإقراره فيه للمرة الثالثة .

٣ — وتنص المادة الثالثة من هذا التعديل على تقصير أجل مجلس النواب من سبع سنين إلى خمس :

وهكذا وافق اللوردات على تقييد حقوقهم فى المسائل المالية تقييداً يجعل النواب هم المسيطرين على الشئون المالية فى انجلترا .

إنه فى يومى الثلاثاء والسبت ٢٩ أغسطس و ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بجزيرة ووراق الحضر مركز امبابه جيزة سيباع علنا عجل بقر ملك محمد أحمد حزين المقيم بالناحية المذكورة . نفاذا لحكم نمرة ١٠٧٤ سنة ١٩٣٩ مدنى امبابه . وفاء لمبلغ ١ جنيه و ٤٢٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب أحمد محمد حبشى المقيم بجزيرة ووراق الحضر مركز امبابه جيزه

فلى راغب الشراء الحضور ١٩

محكمة بنى سويف الجزئية الأهلية

إنه فى يوم السبت ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ من الساعة ٦ أفرنكى صباحا بناحية الحلاية وبناحية بنى سليمان الشرقية مركز بنى سويف وفى يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسوق بنى سويف سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك سيد عثمان الزارع بناحية بنى سليمان الشرقية مركز بنى سويف وفاء لمبلغ ٥٥٢ قرش صاغ نفاذاً لحكم نمرة ٤٤٨٥ سنة ١٩٣٩ خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب محمد شحات محمد من ناحية الدوة مركز بنى سويف

فلى راغب الشراء الحضور ٢٠

محكمة بولاق الأهلية

إنه فى يوم السبت ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكى صباحا وما بعدها بشارع السبتية رقم ٧٨ سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك عبد الحميد على محمد نفاذا للحكم الصادر من محكمة بولاق الأهلية فى القضية المدنية رقم ١٤١٠ سنة ١٩٣٩ بولاق وفاء لمبلغ ٥٤٠ قرش صاغ المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب محمد السعدى شامخ بحارة شرف رقم ٦ بأرض الطويل بشبرا مصر

فلى راغب الشراء الحضور ٢١

محكمة الأزبكية الجزئية الأهلية

إنه فى يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا وما بعدها بشارع وجه البركة بمصر رقم ٢٩ قسم الأزبكية سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك شاكر حليم خوزام الصوراتى نفاذاً لحكم محكمة عابدين الجزئية الأهلية رقم ٣٤٣٧ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٨ جنيه و ٥٦٠ مليم قيمة المحكوم به والمصاريف خلاف رسم هذا النشر وما يستجد كطلب أولاد ليتو بإروخ تجار مجوهرات بشارع السكة الجديدة بمصر

فلى راغب الشراء الحضور ٢٢

محكمة السنبلاوين الجزئية الأهلية

إنه فى يوم الاثنين ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بقرملان وفى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بسوق دريب نجم سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك على حسن اسماعيل وآخرين من الناحية نفاذاً للحكم الصادر من محكمة السنبلاوين الأهلية فى القضية المدنية نمرة ٢٦٩٧ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ١٣٣ قرش صاغ قيمة المحكوم به والمصاريف كطلب الشيخ عبد القادر سعيد شرزه التاجر بقلط زريق

فلى راغب الشراء الحضور ٢٣

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٥ | الثلاثاء ١٤ رجب سنة ١٣٥٨ — ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــرس

قبلـــــة موسكو

لقسم تحرير «الثقافة» السياسى

فوجئ العالم بنبأ عقد الميثاق الذى أطلق عليه اسم «ميثاق عدم الاعتداء» بين روسيا وألمانيا . واختلف وقعه فى الدول ، فبعضها شعرت شعوراً قوياً بخيبة الأمل ، وبعضها قد اهتز هزة جديدة تحفزاً للمخاطرة . وزاد من وقع المفاجأة أن الدول كانت على ما يظهر خالية الذهن من احتمال إبرامه فى ذلك الوقت ؛ لأن المفاوضات كانت لا تزال جارية فى موسكو بين وفود فرنسا وإنجلترة وروسيا لعقد محالفة ثلاثية تكفل تكوين جبهة قوية لمقاومة ألمانيا ومنع خطر توسعها .

وقد اختلفت الأقوال فى مبدأ الأمر فى كنه هذا الاتفاق ومدى تأثيره ، حتى إن بعض الدوائر السياسية قللت من خطره ، بزعم أنه ليس إلا ميثاقاً من مواثيق عدم الاعتداء التى اعتادت الدول أن تبرمها بسهولة ، لكى تنقضها فى أول فرصة ؛ وهذه الدوائر كانت تزعم أن الميثاق الجديد ليس إلا تجديداً لميثاق (رابالو) الذى بدئ فى سنة ١٩٢٢ وتجدد فى سنة ١٩٢٨ ثم فى سنة ١٩٣٣ .

ولكن بعض الدوائر الأخرى قد رأت فى ذلك الميثاق تحولا أساسياً فى سياسة ألمانيا وروسيا معاً ، وهو تحول لا يمكن إلا أن يحدث أكبر الآثار فى حوادث العالم الحالية والمستقبلة ، ولا يمكن إلا أن يدعو إلى إعادة النظر فى جميع الخطط السياسية وتعديل المواقف الدولية فى كل بلدان العالم .

وقد نشر ملخص لهذا الميثاق ، ومنه يمكن أن يتضح أن النظرية القريبة إلى الحقيقة هى النظرية الثانية . ولهذا فإن سير الحوادث يدل على أن الدول كلها مجمعة على خطورة الحالة ، وأن الميثاق الجديد عبارة عن نقطة تحول عظمى فى اتجاه السياسة الدولية فى المستقبل . ففى لحظة واحدة ضمنت ألمانيا عدم اعتداء روسيا عليها ، كما ضمنت حيادها إذا قامت الحرب بين ألمانيا وبين دولة أخرى ، وعدم اشتراك روسيا فى أية حركة ترمى إلى تطويقها أو معاكستها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وفتحت لنفسها احتمالات لا حدّ لها من مساعدات روسيا العظيمة فى المستقبل ؛ وفى نفس الوقت ضربت الروسيا جبهة مقاومة الشيوعية التى كانت ألمانيا قطبها ضربة قوضت دعائمها من الأساس . ولا يمكن لأحد أن يتكهن بما يؤدى إليه هذا التغير الجوهرى فى الموقف الدولى ، وهل هو ضمان جديد للسلام ، أم هو دافع أهوج إلى الحرب ؟ فإن هناك عوامل لا حصر لها فى توجيه المستقبل .

ولكن من الممكن أن نناقش ظروف كل دولة من الدول الكبرى التى يهمها الأمر ، ونستدل من ذلك على ما ينتظر حدوثه .

الموقف فى ألمانيا :

كانت ألمانيا النازية منذ أول الحركة الهتلرية تقيم سياستها على أساسين واضحين : الأول عداوة الشيوعية ، والثانى عداوة اليهودية ؛ وقد أوضح الهر هتلر ذلك فى كتابه « كفاحى » إيضاحاً لا يحتمل الغموض ، ولا يمكن الزيادة عليه . وكانت خطة الدعاية الألمانية متجهة دائماً نحو إقامة حدّ منيع فى وجه الزحف البلشفى ، الذى كان الهر هتلر يرى فيه أعظم خطر يهدد المدنية الانسانية والحياة الألمانية بوجه خاص ؛ فإذا كانت حكومة ألمانيا تقدم الآن على تغيير اتجاه سياستها الأولى هذا التغيير الأساسى ، وتجازف بأن تظهر أمام شعبها فى هذا المظهر الجديد الذى يكذب كل ما مضى من دعايتها وتوكيداتها ، ويناقض كل ما كانت تزعمه من قبل من مقاصدها ومبادئها ، فإن ذلك لا بد أن يكون نتيجة لاعتبارات تبلغ أعظم الخطورة . بل لا بد أن تكون ألمانيا قد أحست بالخطر يهدد حياتها نفسها ، وتجرأت على اقتحام أقل الخطرين وأهونهما عليها . وأقدمت على ذلك الانقلاب العظيم فى سياستها تحت ضغط الظروف القاسية . ولا شك فى أن موقف ألمانيا كان يتحرج يوماً بعد يوم لما تقوم به انجلترة وفرنسا من المساعى لعزلها وتضييق حلقات الجبهة المعادية حولها . ولو تمكنت الدولتان المذكورتان من ضم الروسيا إلى جبهة مقاومة ألمانيا لما كان يبقى لها إلا الإذعان النهائى . فالظاهر أن الميثاق الجديد لم يكن إلا نتيجة لضرورة قاسية أحست بها ألمانيا ؛ ولكن لا يمكن أن يفرض أن هذه الحركة قد أتت فى بدئها من ناحية ألمانيا ، بل إن الظروف كلها تشير إلى أن الروسيا هى التى بدأت بسياسة التقرب من ألمانيا كما كانت تفعل ذلك من قبل ، فقد حاولت روسيا فى عدة ظروف فى الماضى أن تتقرب من ألمانيا بغير جدوى لما بينهما من المصالح التضاربة ، ولا بد أن ألمانيا فى تلبيتها نداء روسيا هذه المرة ، قد فعلت ذلك وهى واثقة من أنها مقبلة على سبيل يعترضه كثير من المصاعب والمشاكل .

فأولا لا بد أن تقابل ألمانيا مشكلة المقيدة التى كونها الشعب الألمانى من عداوة البلشفية بعد كل تلك الدعاية القوية التى كانت الحكومة الألمانية تقوم بها فى

أنحاء البلاد منذ أول الحكم الهتلرى .

وثانياً لا بد أن تواجه ألمانيا مشكلة أصدقائها وموقفهم من ذلك الموقف الجديد ، فهل ترضى إيطاليا أن تتجه فى ذلك الاتجاه ؟ وهل تجد ذلك من مصلحتها ؟ وهل يمكن أن تتحول اليابان من سياستها التقليدية تجاه الروسيا إلى سياسة جديدة من الصداقة والتفاهم ؟

هذه كلها مسائل لا يمكن أن يصدق العقل حدوثها . بل إن الأنباء تدلنا على وجود موجة قوية من التذمر تجتاح اليابان من صديقتها التى أخذت تظهر أمامها فى صورة الصديقة الخائنة للعهود .

وأما الشعور فى إيطاليا فلا يزال غير ظاهر ، ولكن لا شك فى أن الرأى العام الإيطالى لن يجد ميلا كبيراً إلى انقلاب مماثل ، ولا سيا أن الظروف هناك لا تشبه الظروف فى ألمانيا . وقد يقال إن اليابان قد تدفعها عداوتها لانجلترة فى الشرق الأقصى إلى أن تنسى مؤقتا عداوتها للروسيا ، فتتخلى كما فعلت ألمـانيا عن ميثاق مقاومة الشيوعية ، وتبدأ فى سياسة التقرب والتفاهم مع روسيا ، ولكن ذلك أمر غير مؤكد ، وتدل بوادر الأحوال على أن اليابان قد تتجه فى اتجاه آخر غير ذلك ، وتتساهل فى موقفها من انجلترة ومن الصين ، قانعة ببعض ما كانت تطمع فيه من المكاسب . وأما إيطاليا فاننا لا نستطيع أن نجد لها مصلحة فى مصادقة الروسيا ، كما لا نجد أمامها من الظروف ما يجعلها تندفع إلى ارتكاب أهون الضررين ، فان انجلترة وفرنسا بغير شك مستعدتان للتفاهم معها فى ظروفها الحالية أكثر مما كانتا فى أى وقت مضى . وهى فوق ذلك معرضة للغزو فى البحر الأبيض المتوسط ، ومعرضة للاغارات الجوية والبرية من فرنسا أكثر من شريكتها فى المحور . فاذا هى اندفعت فى سياسة التقرب إلى روسيا كانت مخاطرتها أشد مخاطرة تعرض حياتها نفسها للضياع . ولا شك فى أن انجلترة وفرنسا تقدران ذلك الموقف حق قدره ، وتعملان على الاستفادة منه . وقد يكون موقف إيطاليا من التحالف الجديد أكبر ما يهم مصر ، لأن عدم دخول إيطاليا فى حرب عامة تشترك مصر فيها أعظم عامل مطمئن من وجهة النظر المصرية البحتة .

الموقف فى روسيا :

كان موقف روسيا فى المفاوضات التى أنتجت ميثاق عدم الاعتداء بينها وبين ألمانيا موقفاً شاذاً . فانها كانت تفاوض ألمـانيا فى نفس الوقت الذى كانت تفاوض فيه انجلترة وفرنسا . وليس يفهم من هذا إلا معنى واحد ، وهو أنهـا كانت تحاول التفضيل بين عروض مختلفة لاختيار أحسنها .

وهذا ما يجعلنا نقيم أعظم وزن للفكرة التى تقول إن قصد الروسيا هو الاستفادة من حوادث العالم لكى تخرج هى أخيراً سيدة العالم ، وأكبر عامل فى توجيه سياسته . فسواء اتجه العالم إلى الحرب أو اتجه إلى السلم ، فانها ستكون الدولة الرابحة . فقد أظهرت أنها لا تمانع من الوقوف على الحياد إذا وقعت الحرب ، كما أظهرت فى الوقت عينه أنها لا تريد أن تقيد نفسها بمحالفة عسكرية صريحة من الآن مع دولة من الدول ، فان ساستها لا يزالون يعلنون استعدادهم للمضى فى المفاوضات مع فرنسا وانجلترة بعد أن أعلن الميثاق بينها وبين ألمـانيا ؛ فأكبر الظن أنها تريد أن تكون طليقة لانتهاز الفرص ، وأن تكون قبلة عيون الدول المختلفة فى كل الأوقات . ولذلك فليس يدرى العالم إلى أى وجهة توجهه تلك السياسة البائسة التى استولت على سياسة ألمانيا فى محاولتها تحقيق مطامعها بالحرب الطاحنة وفى أقرب وقت . وإن الحرب إذا بدأت الآن فلن يعود النظام الحالى إلى أوربا بوجه من الوجوه ، وسيشهد العالم فى نهايتها انقلابا اقتصاديا واجتماعيا ينقض كل الأسس الحالية رأسا على عقب .

وهذا القصد فى أغلب الظن هو الذى دفع روسيا إلى أن تبدأ بالتقرب إلى ألمانيا مستفيدة من حاجة الهر هتلر إلى مسالمتها فى شدته الحالية .

الموقف فى الدول الديمقراطية :

يظهر أن المسألة قد أصبحت مسألة نفسية فى الدول الديمقراطية أكثر منها مسألة مصلحة سياسية . ففى نفس الوقت الذى تضمن فيه فرنسا وانجلترة سلامة بولونيا وتعدان بمساعدتها إذا اعتدى عليها ، يعلن ساستهما أن تسوية الأمور بين بولونيا وألمانيا وسائر المسائل المعلقة بين الدول يمكن حلها بالطريق السلمى . فكأن الأمر فى نظر هاتين الدولتين ليس محدوداً مقرراً قد انعقدت عليه النية انعقاداً صارما ، بل هو أمر فيه مجال للأخذ والرد والمفاوضة والاتفاق ، وليس فيه ما يثير الحرب إلا أن تقدم ألمانيا على تحقيق مطامعها بالقوة .

والحق أن مسألة دانزج من أعقد المسائل التى ثارت عليها الخلافات فى تاريخ العالم ، فانها إذا ادعتها ألمانيا كان لها وجه من الحق ، وإذا ادعتها بولونيا كان لها وجه آخر من الحق ، ولا يقوم النظام الحالى إلا على أساس معاهدة فرساى التى تحطمت جزءاً بعد جزء ، فلم يبق منها إلا تلك البقية اليسيرة التى تنذر العالم اليوم بالشر المستطير إذا ارتطم بها . وذلك التردد بين العقل والعاطفة ، وبين الكرامة والمصلحة ، وبين الوطنية الألمانية والتوازن الدولى ، هو الذى جعل موقف الديمقراطيات متردداً فى الماضى ويجعله كذلك متردداً فى الأزمة الحالية .

السلام المترجح :

والآن يبدو السلام مترجحاً لا ندرى إن كان يستقر أو ينهدم مع كل هذه الظروف التى حاولنا بسطها . ولكن هناك بوارق أمل تسطع فى الأفق ؛ فهناك محاولات انجلترة المشكورة فى سبيل السلام ، مثل إيفاد الرسل إلى هتلر ، والاستمرار على المفاوضة معه ، ومثل نداء الملك ليوبولد ملك بلجيكا الذى ينادى فيه بالسلم ، وهناك دعوات الرئيس روزفلت إلى جلالة ملك إيطاليا وإلى الهر هتلر وإلى رئيس جمهورية بولونيا ، وهناك نداء البابا إلى العالم ؛ وهى كلها تدعو إلى الروية والسعى فى حفظ السلام ، ومنع العالم من التدهور إلى هوة الخراب والفوضى ، التى لا بد أن تؤدى إليها الحرب العامة إذا وقعت . فهل هذه المحاولات تدل على روح قوى يكفى لمنع الحرب ، أو تأجيل وقوع الكارثة ؟

كذلك هناك تصريحات المستر تشمبرلن وسائر أقطاب السياسة الانجليزية ؛ وتصريحات المسيو دلادييه وسائر أقطاب السياسة الفرنسية ، وهى كلها تشف عما يبغيه الساسة الديمقراطيون من المحافظة على السلام ؛ فهل تتغلب هذه النغمة على النغمة الأخرى التى تصدر عنهم فى الوقت عينه ، منذرة بالحرب إذا أصرت عليها ألمانيا ؟ أم تمضى ألمانيا فى سيرها من أجل الاستيلاء السريع على دانزج ، وتدفع العالم إلى الكارثة العظمى التى لا بد لها أن تلتهم كل من يشترك فيها ؟

إن كل الدلائل تشير إلى تغليب فكرة السلام فإن اليأس لم يبلغ بعد بالبشرية مبلغا يدفعها إلى الانتحار وإلقاء نفسها إلى التهلكة . ولا يزال فى الضمير الانسانى على وجه العموم بقية من وازع يردعها عن أن تقذف بالعالم الانسانى وبالمدنية وبالأرواح البريئة إلى جحيم لا قرار له ، طاعة لنزوة من نزوات الكبرياء أو الحقد . ولا نظن أن فى العالم سياسيا يجرؤ أن يأخذ على نفسه تبعة إشعال نيران الحرب .

ولعل الأمور تكون قد انجلت عندما يصل هذا العدد إلى أيدى القراء .

والمرجو أن يجد عامل جديد يزيد فى تحول الأمور نحو تعزيز السلام

(* * *)

تضخم الشخصـــية

للأستاذ أحمد أمين

لا بد أنك تعلم أن من أمراض الجسم تضخم بعض أعضائه ، كتضخم الكبد أو الطحال أو القلب ، وإذ ذاك يختل توازنه ويسبب التضخم من المتاعب والأمراض ما يعرفه الأطباء .

إن كان كذلك فهناك نوع من المرض النفسي شبيه بهذا المرض الجسمي هو « تضخم الشخصية » ، فتتمدد النفس وتتمدد حتى قد تشمل الكون بأسره .

وكما أن الجسم قد يصاب أحياناً بالتضخم العام ، فتنتفخ كل أجزائه ، وتتضخم كل أعضائه ، فيكون الطول المفرط في كل نواحيه ، أو السمن المفرط في كل أجزائه ، وقد يصاب أحياناً أخرى بالتضخم الخاص ، فتتضخم الكبد وكل أجزاء الجسم الأخرى محتفظة بحجمها الطبيعي ، كذلك التضخم النفسي .

قد يكون هناك تضخم نفسي نوعي ، وباقي الشخصية سليم لم يصب بأذى ولم يمرض بتضخم . فهناك من تضخمت شخصيته في شعوره بجماله ، فهو يرى في نفسه أنه قسيم وسيم ، قد أفرغ في قالب الجمال ، وطبع بطابع الحسن ، وأنه ممشوق القد رشيق القوام ، لا يقع الطرف على أجمل منه صورة ، ولا تفتح العين على أتم منه حسناً ! .

قد جُن بهذه العقيدة جنوناً ، فهو يديم النظر في المرآة ، وهو يتأنق إلى أقصى حد في ملبسه وفي مشيته وفي حركته ؛ إن كان رجلا فهو خليق أن يصرع أجمل امرأة ، وأن يوقعها في شباكه ، ويدلها بنظرته ؛ وإن كانت امرأة فهي جديرة أن تتزوج أحسن رجل ، وأن يكون قرينها أي عظيم ! .

تتضخم هذه الناحية من شخصيته أو شخصيتها فتكون محورَ الحياة ومركزَ التفكير ، ومصدر الأعمال ، وباعث السلوك — حياته كلها حول التفكير في جماله ، وحديثه كله حول من وقع في شباكه ومن أسرهم بحسنه ، وملابسه وكيف يشتريها وكيف يخيطها ، وآماله في الزواج ، ومن يصلح من العظماء لمصاهرته ، وهو يغشى المجامع الارستقراطية ليبهر الناس بحسنه ، ويروعهم رُوائه ويفتنهم بجماله ، وهو يلتفت ويتحرك وينظر ، بقوانين دونها قوانين الهندسة المعقدة والجاذبية المركبة ! .

هو مجنون جنوناً فرعياً بجماله فحسب ، وفيما عدا ذلك عاقل كل العقل حكيم كل الحكمة ، غاية الأمر أن جنونه بجماله لم يسمح له بالتفكير فيما عداه إلا بقدر ضئيل جداً .

* * *

وهذا آخر قد جن جنوناً فرعيا في عقيدته بكفايته العقلية أو الفنية أو الادارية ، فهو يرى أنه قطب أهل العلم وعميدهم وإمامهم ، رأيه مَقطع الحق ، ومَفصِل الصواب ، قد استبطن دخائل العلم ، واستجلى غوامضه ، وخصه العلم بأسراره ، فلم يمنحها إلا له ، ولم يفقها إلا عليه ؛ هو في جيله نسيجُ وحدِه ، وإمام عصره ، ولولاه لغاب نجم العلم وخبا ضوءه ، وهو وحده نصير الحق ، ورافع راية الصواب ، ولولاه لعاش الناس في ظلام دامس ، وضلال مُطبِق ،

وويل للناس إذا هدأ صوته أو خرج روحه !

أو هو فى فنه أطرب من سجع الحمام ، وأحسن من الدر فى النظام ، ألفاظه العذب الزلال أو أرق ، ومعانيه السحر الحلال أو أدق . يستطيع بقلمه أن يقيم حكومة ويسقط حكومة ، ويرفع الوضيع ، ويخفض الرفيع ، ويثير الشعب ويوجهه حيث أراد . القادة تتملقه لأنها ترتكز على سن قلمه ، والحكومات تهابه لأنها تخشى معرة لسانه ، تتناقل الألسنة فى الشرق والغرب كلماته ، ويحل العالم بآرائه معضلاته !

أو هو فى إدارته سياسى حازم ، صادق العزم ، ثابت المعقد ، إذا قصد أمراً عرف كيف يشق له أسبابه ، ويتوخى وجوه نجحه . الحكومات كلها فاشلة لأنها لم تستند عليه ، والشعب مغفل لأنه لم يوله قيادته ، ولا يصلح أمر أمته إلا إذا أسندت إليه رياسة وزارتها ؛ فهو وحده القدير على أن يضع برامج الاصلاح ، ويعرف كيف ينفذها ؛ وسوف تمر السنون تلو السنين وأحوال الشعب فى منتهى السوء حتى يلتفتوا إليه ويعولوا عليه !.

ثم تراه — فيما عدا جنونه الفرعى أو تضخمه الجانبى — عاقلاً فيما يعرض له ، حكيما فيما يتصرف فيه ؛ فهو فى المسائل المالية ناجح دقيق ، وهو فى دراسته وقراءته وكتابته ذكى نبيه ، وهو فى شؤون أسرته خبير بصير — وعلى الجملة إذا أنت لم تمس ناحية جنونه أمنت له واطمأننت إليه وأحسنت تقديره . أما إن أنت قاربت موضع الخطر منه سمعت سخفاً يثير عجبك ، ويستخرج ضحكك ، وتقع فى حيرة من أمره ، فى جنونه وعقله ، وحكمته وسفهه ، وكياسته وحمقه ! .

والحق أن لا عجب فقد يصح القلب وتتضخم الكبد ، ويصح الرأس ويمرض القلب .

***

وهناك نوع من التضخم الكلى فى الشخصية كالتضخم الكلى فى الجسم ، فيرى صاحبها أنه مركز العالم وما عداه ليس إلا نقطاً على المحيط ، هو فى كل شئ ، أوحد عصره ، وفريد زمانه ، تميّز عن النظراء ، وترفع عن الأشكال ، لايقع النظر على مثله ، ولايبلغ فى الوجود أحد مبلغه ، هو فى شكله أجمل مخلوق ، وهو فى عقله أكمل من فى الوجود ، وهو فى أخلاقه لايبارَى ، وفى تصريفه للأمور لا يُجارَى ، وفى إدارته وحزمه وعزمه ونبله وفضله أسبق الناس غير مُدافَع ، وأفضلهم غير معارَض ، مافى الدنيا من محامد فهو مصدره والموحى به والمشير على الزعماء بالأخذ به ، والمتفضل عليهم بسلوك سبيله ، وما فى الدنيا من نقص فلأن الناس لم يأخذوا فيه برأيه ولم يُصغوا فيه إلى نصحه ، وما فى العالم من مشكلات ومعضلات فلأن العلماء لم يستفتوه فى حلها ولم يستعينوا به فى حل ألغازها — العالم مخلوق له ، والشمس والقمر والنجوم تنير من أجله ، والأرض تنبت خير ما عندها لمتعته ، والبحر يضحك لطلعته ، والرياض تزهر لسواد عينه ، وعلى الجملة فكل شئ منه وبه وله ، ولولا أثارة من تواضع لحَشَتر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ، ولطالب الناس بعبادته وفرض عليهم شعائر الخضوع لعظمته .

***

ثم قد يظهر مرض « تضخم الشخصية » فى بعض الأزمان فى شكل وبائى ، كما تظهر الحمى وبعض الأمراض الأخرى فى شكل وبائى أيضاً ، كالذى نرى فى كثير من شبابنا ؛ فهم فى المدارس الثانوية والعالية قد تضخمت شخصيتهم حتى « ضمرت » بجانبها شخصية المعلم والناظر والوزارة ؛ فهم الذين يقررون أن يدخلوا الدرس أو لايدخلوا ، وأن توقع عليهم عقوبة على ذلك أو لا توقع ، وإذا دخلوا الدرس فهم الذين يقررون مايدرس فيه وما لايدرس ، وقد يقررون أن مزاجهم اللطيف ليس مستعداً لسماع درس

فى القواعد السخيفة ، ولا التطبيقات المسئمة ، ولا الطنانة السمجة ، ولا البلاغة المزيلة ؛ وإنما أمزجتهم مستمدة فقط لنوادر مضحكة و « نكت » لاذعة وقصص مسلية ، فإن شاء مدرسهم أن ينزل على حكمهم وإلا فالإضراب ، وله تمام الحرية فى الاختيار .

وكما نرى فى كثير من شباننا عند بدء توليهم عملا ، فتتضخم شخصيتهم حتى « تضمر » بجانبها شخصية رؤسائهم ؛ فهم لابد أن يختاروا العمل الرئيسى بقطع النظر عن المران والسن والأقدمية ، ولابد أن يكون لهم مكتب رئيسى يتناسب وعملهم الرئيسى ، ولابد أن يأمر المرءوسُ الشابُّ ويسمع الرئيسُ الشيخُ .

وكان تضخم الشخصية عند شباب الجيل الحاضر « رد فعل » لضمور شخصيتهم فى الجيل الماضى ؛ فقد كانوا آلات تتحرك و « عساكر شطرنج » فى يد اللاعب .

وقد يكون سبب ذلك أن السياسيين استغلوا قوتهم وأشعلوا عواطفهم ، وأسمعوهم دائماً نغمة الإعجاب ونغمة الحقوق ، ولم يُسمعوهم أبداً نغمة العتاب ولا نغمة الواجبات ، وما زالوا ينفخون فيهم حتى تضخموا ، وأيًّا ما كان فليس المقام مقام تحليل للأسباب ، ولكن تسجيل للأعراض .

***

تضخم الشخصية مرض يخل توازن النفس كما يخل تضخم عضو من أعضاء الجسم توازنه ، ويمنع صاحبه من رؤية الحقائق كما هى فى الخارج ، بل يراها كما يمليه تضخم شخصيته ، وكما يمليه جنونه بنفسه ، فما اتفق وهذا الجنون فخير وإلا فشر ؛ خير الناس فى نظره من سايره فى عقيدته وأشعل نار جنونه ، وخير الآراء عنده ما غذى شعوره بالعظمة ، وإحساسه بالنبوغ ، وأشهى الحديث إليه ما دار حول كماله هو ونقص غيره ، وعبقريته هو وسخف من عداه !.

وصحة الشخصية تقتضى كمال التوازن فلا يطغى جانب من شخصيته على جانب ، ولا تطغى شخصيته على شخصيات الناس ، وإذ ذاك يستطيع أن يقدر تقديراً صحيحاً من هو فى نفسه ، ومن هو فى بيته ، ومن هو فى عالمه ؛ فلا تضخم ولا ضمور ، ولا تطفيف فى المكيال ولا بخس فى الميزان ، ثقة بالنفس فى غير مغالاة ، ووضعها موضعها من غير تحقير .

وكان الطبيعى أن ينظر إلى هؤلاء الذين تضخمت شخصيتهم نظرة عطف ورحمة ، كنظرنا إلى من تضخم قلبه أو كبده أو تضخم كله ، ولكنا نرى فى عالم تضخم الشخصيات مناظر متناقضة وأشكالاً متباينة !.

نرى ممن أصيبوا بتضخم الشخصية من أصبحوا سخرية قومهم ، وملهاة صحبهم ، اتخذوا جنونهم دعابتهم ، وأحاديثهم عن أنفسهم هزأهم وموضع عبثهم ؛ ولكن بجانب ذلك نرى بعض من أصيبوا بهذا المرض قد تفاعل تضخم شخصيتهم مع أحداث زمانهم ، فرفعهم هذا التفاعل إلى أرفع مكان فى قومهم ، وأحلهم محل القادة فيهم ، وموضع الأمر والنهى منهم ، وصاحب السيطرة والسلطان عليهم ، وأصبح من يهزأ بتضخم شخصيتهم خاضعاً تابعاً سميعاً مطيعاً .!

وعلى الجملة نرى هذا سخرية قومه لتضخم شخصيته ، وذاك معبود قومه لتضخم شخصيته ، فهل هذا خبط عشواء كما قال زهير فى المنايا :

رأيت المنايا خبطَ عشواء من تُصِبْ
تُمته ، ومن تخطئْ يُعمَّر فيهرم

أو هو قانون محكم ولكنه معقد ، ومطرد ولكنه غامض ؟

ذلك ما لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم .

أحمد أمين

من قصص العرب :

الملك الضِّلِّيل

يوم دارة جُلجُل

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كان الفتى الراكب أجمل الفتيان ، وكانت فرسه العربية الكريمة أجود الجياد . كان الفتى في ميعة الشباب ، خلعت عليه سن العشرين رونقها ، وهو يهتز لنسيم البليل ، في صباح يوم صاف من أيام الشتاء ، في واد ضيق من وديان نجد ببلاد العرب . وسار وراءه كلب طويل الجسم ، ضامر الحشا ، تظهر عليه الشراسة والضراوة ، وهو يتطلع بين حين وآخر نحو سيده ، كأنه ينتظر إشارته .

كان الفتى سمهريّ القوام ، له ذلك اللون الأسمر الخمري الذي تخلعه الصحراء ، وتجري في وجناته دماء الشباب القوي ، تكاد تنبض من تحت بشرته الرقيقة ، وكانت عيناه سوداوين واسعتين ، يبرق سوادهما الفاحم في وسط بياضهما الناصع ، ثم تطرفان بأهداب طويلة تمس أطرافها حاجبين دقيقين مقرونين . وكان الفتى في ركوبه يرفع رأسه في شيء من النبل ، فيبدي جانب أنفه الأقنى رقيقاً كأنه حد السيف البدوي ، ويقلّب نظره باسماً في أثناء سيره بالوادي فيتأمل عَراره وخُزاماه ، ويهتز لاخضرار عشبه وابتلال أغصانه ، فيتمايل على ظهر فرسه كأنه يجيب ألحان الحياة الخفية التي ينبض بها شبابه .

بلغ به السير بعد قليل إلى دارة جُلجُل ، وهي قطعة من الوادي ذات صخور ملساء ، بها وهدة فسيحة اجتمع بها ماء المطر الصافي المتلألئ ، يجعد وجهه مرور النسيم ، ويرقص عليه شعاع الضياء ، فنزل خفيفاً عن فرسه ، وألقى زمامها على غاربها ، ومسح بيده على جبينها الواسع ، فجعلت الفرس تشم كتفيه وصدره متوددة ، وتضرب الأرض بحافرها كأنها تأبى على صاحبها أن يقف بها عند مثل هذا المكان القريب .

ووقف الكلب إلى ناحية كأنه غيران من تدليل سيده لفرسه ، وأقعى يلهث في انتظار استئناف السير .

وذهب الشاب إلى الحوض فملأ منه إداوته ، ثم مال إليه فاحتسى منه لنفسه حفنتين ارتوى بهما ، ثم رفع رأسه فملأ صدره من الهواء الصافي ، وتبسم بسمة هادئة تنم عما كان يجيش في نفسه من الارتياح إلى الحياة والتنعم بها .

وذهب إلى فرسه فعلق الإداوة في جانبها ، ثم مرّ بيده على كفلها الناعم وقال كأنه يخاطب نفسه :

« لها كفل كصفاة المسيل » .

ثم نظر إلى الصخر الأملس الذي اجتمع به الماء الصافي العذب وأعاد النظر إلى كفل الفرس ، ومرّ عليه بيده مرة أخرى ، كأنه يريد أن يستيقن من

صدق الشبه بين كفل فرسه وبين الصخرة التي صقلها مسيل المياه .

وانتحى بعد ذلك ناحية من الوادي وجلس يتأمل فرسه الرشيقة وهي تضرب الأرض بحافرها قلقة إلى السير والركض ، وأعجبه منظرها فجعل يجول ببصره في أعضائها ، وينتقل من عضو إلى آخر بعد أن يمتلئ منه ويمتلئ بالإعجاب به .

وقال وقد نظر إلى حوافرها وسيقانها :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وصهوة عَيْر قائم فوق مَرْقَب
ويخطو على صُمٍّ صِلاب كأنها
حجارة غَيْل وارساتٌ بطُحلُب

ثم رفع نظره إلى ذيلها السبل الطويل الشعر وقال :
« لها ذنب مثل ذيل العروس » .

وانتقل بعد ذلك إلى رأسها والهواء يلعب بعرفها وشعر ناصيتها ، فقال وهو يتأمله :

لها عُذَرٌ كقرون النسا ء ركّبن في يوم ريح وصر
لها جبهة كسراة المِجنّ حذّفه الصانع المقتدر
لها منخر كوجار السبا ع فمنه تريح إذا تنبهر

ثم وقف وذهب نحوها فاتحاً ذراعيه كأنه يستعد للقاء صديق ، حتى إذا قرب منها احتضنها وقبل جبينها ، وقال كأنه يخاطبها : « هلمي إلى الصيد يا خيفانة » ، وقد أطلق عليها ذلك الاسم تودداً يشبهها بالجرادة الصغيرة ، فقد كانت دقيقة الأعضاء ، ضامرة اللحم ، خفيفة في العدو ، كأنها ظبية من الظباء . ثم قال وقد قفز على ظهرها :

وتعدو كعدو نَجاة الظباء أخطأها الحاذف المقتدر

وما كاد يتم كلمه حتى انطلقت الخيفانة تعدو في الوادي كأنها تريد أن تظهر لسيدها صدق وصفه . وكانت تثب فوق الشعاب كأنها لا تعرف سيراً غير وثب الظباء ، وعدا الكلب وراءها يشم الآثار حيناً ، ثم يعدو فيسبق وينظر إلى سيده الراكب يريد أن يفوز برضائه عن صحبته ، فتبسم إليه الفتى وقد أدرك معنى نظرته وقال كمن يسترضيه :

ألصُّ الضروس حَنيُّ الضلوع
تبوعٌ طلوبٌ نشيط أشر

فمضى الكلب يثب بحذائه ويعدو كأنه ارتاح إلى تقدير سيده وحسن رأيه فيه .

واستمر الشاب بعد ذلك في وصف فرسه ، كلما وثبت وثبة خفيفة خطر له فيها معنى جديد ، وكلما أحدثت في ركضها حركة بارعة تهز إعجابه ، وقع نظره منها على صورة رائعة ، وانتهى به السير بعد ساعة إلى فم الوادي ، فانفرج جانباه إلى مسيل واسع من رمال ناعمة قد غطاها العشب بين طويل وقصير ، ووشته الزهور بين أصفر فاقع من الخُزامى ، وأحمر قانٍ من العَنَم ونُوّار العُنْصُل ، وأبيض ناصع من العَرار ؛ وانتثرت به الأعواد القصيرة من مَرْخ وثُمام وأرطى . فوقف لحظة وجعل يجول ببصره في الفضاء المنبسط ، ويتدسس به في أصول الشجر والغصون ، ويستقري به جنبات الرمال ، وهو فيما بين ذلك يتغنى بأهازيج قصيرة ، ويملأ صدره من الهواء الصافي . فلاح له بعد حين سرب من بقر الوحش تلمع ظهورها البيضاء في ضوء الشمس ، يتخلل بياضها سواد قوائمها ، وهي تعدو في عُرض السهل ، فصاح صيحة فرح وأسرع بفرسه فأطلقها نحو السرب ، وكان الكلب أسبق إلى تنسم ريح البقر ، فسبق يعدو في تجاهها ، يثب فوق الرمال ولا يكاد يمس الأرض من سرعته .

وأحس الوحش بالمطاردة فأسرع يلتمس النجاة ،

وكانت الأرض مبسوطة ليس فيها ثنايا ولا شعاب ، فطالت المطاردة ، وكاد الصيد يفلت إلى ما وراء الكثبان المحيطة بالفضاء . ولكن الكلب أدرك زوجاً من الوحش ، ورآه الفارس عن بعد وهو يحاورها ويواثبها ويعقرها في أفخاذها ثم يهوي في وجهها ، فوقف له ذكر البقر يحمي أنثاه ويدفع عنها ، وكرّ على الكلب وقد أيقن أنه لا بد له من النضال ، وبدأ بينهما صراع عنيف . وأدرك الفارس كلبه وهو لا يزال في معركته عنيداً باسلاً ، والدماء تسيل من جراح واسعة في جنبه وبطنه . فسدّد سهمه إلى الوحش ورماه في جنبه الأيسر ، فترنح وارتمى إلى جانب شجرة ملتفة الأغصان ، ثم نهض بعد قليل وقد أحس بالحديد يمزق قلبه ، فجمع قوته فضرب الكلب بقرنه ضربة خرقت صدره ، وارتمى هو والكلب جميعاً على الأرض والدماء تنزف منهما .

نزل الفتى مسرعاً وقد راعه ما رأى ، فاخترط سيفه وذفّف على الوعل الجريح . ثم أهوى بيده إلى الكلب يريد أن يسعفه ، فرآه فاتراً يعاني خلجات الموت ، فأقعى إلى جواره ووضع يده على رأسه بحزن ، وقد علم أنه لن يقدر له على شيء ، فرفع الكلب إليه طرفاً كليلاً ونظر إليه نظرة وانية كأنه يشكره على حنانه ، ثم خمد بعد قليل .

فقام الفتى وهو يتنفس نفساً عميقاً ، والحزن يجيش في صدره لموت كلبه الوفي . ولم يمض من ذلك المكان حتى حفر له حفرة دفنه فيها ووضع على الحفرة أحجاراً كباراً لتكون آية له في ذلك السهل الفسيح ، لعله يوماً يمر به فيعرج على حفرته تأدية لحقه عليه .

وذهب إلى الوعل الضخم فرفعه بعد مشقة ، ووضعه فوق ظهر الفرس ، وعاد به أدراجه إلى ذلك المكان الذي مر به في الصباح ، عند الحوض الممتلئ بالماء الصافي بين الجنادل الملساء .

كانت الشمس عند ذلك قد مالت عن الزوال واتجهت الظلال إلى الشرق ، وتوافدت قطع بيضاء من السحاب كأنها قطعان سائمة ، تجتمع حيناً وتنتشر حيناً ، وهي تغطي السماء جزءاً بعد جزء مقتربة من كبدها اقتراباً بطيئاً .

وسار الفتى بصيده غير متعجل ، مترفقاً بفرسه الضامرة بعد تلك المطاردة الطويلة في صيد اليوم . فلما عاد في سيره قريباً من دارة جلجل ، كانت الشمس تبدو من خلال السحب وهي مائلة نحو الأفق الغربي ، فينفذ شعاعها كقضبان من الذهب في رحاب من الفضة ، وتوشي أطرافها بألوان ساحرة عجيبة .

ولما اقترب من المكان استقبلته صيحة عالية من فوق ربوة رملية صفراء ، فرفع بصره نحوها مبتسماً ، ولوح بيده وهو يقصد نحو أصحابه الذين جاءوا إلى هناك على موعد ينتظرونه للسمر تلك الليلة ، فقد كانت ليلة قمراء من ليالي التمام .

ونزل عند أصل الربوة ثم أنزل الصيد الضخم فرماه على الرمل ووقف يتأمله قليلاً ، وهبط إليه أصحابه سراعاً وهم يتصايحون حتى صاروا حوله ، فأحاطوا به مرحبين في صخب وحماسة ، وكانت تحياتهم مختلفة : « مرحباً أبا وهب ! » « مرحباً جندح ! » « مرحباً بالأمير ! » « صيد كريم يا امرأ القيس ! » « هدية ملك لندمائه ! » « رعمت مساء يا ابن حجر ! » ، وكان الفتى يجيب تحيات أصحابه بابتسامة أو مصافحة ، وفي مظهره ما ينبئ بأنه سيد كريم يتلقى ما ينبغي له من تحيات أتباعه وتبجيل أصحابه . فقد كان امرأ القيس بن حجر الكندي سليل بيت آكل المرار الكندي اليمني ذلك البيت الذي كان يحكم بني أسد ببلاد نجد منذ أجيال ، أبوه حجر بن الحارث ملك بني أسد ، وحجر يستمد سلطانه من أبيه صاحب التاج في الحيرة ، الحارث بن عمرو الملك العظيم ذي السطوة والسلطان الذي

لم يكن فى بلاد العرب عند ذلك ملك يبلغ شأوه .

اصطفاه عاهل فارس قُباذ العظيم ليكون سيد العرب وجعله ساعد دولته الأيمن ، وجعل مقره فى الحيرة بعد أن طرد منها ملكها الأول وسليل حلة تيجانها المنذر بن ماء السماء اللخمى .

أسرع الفتيان بعد أن هدأت هزتهم ليوقدوا النار ويسلخوا الصيد ويجهزوا الطعام ، ويضعوا زقاق الخمر على جانب الربوة ويعدوا مجلساً لليلة رائعة يكون قطبها الفتى الجميل الكريم والشاعر المبدع والأمير البارع وابن الملوك الغطاريف والسمير العذب الحديث امرأ القيس بن حجر . وذهب الأمير فى أثناء ذلك إلى أعلى الربوة يستروح من عناء يومه ؛ فجلس ينظر حوله ويتملى بجمال منظر الشمس الغاربة والأرض الحالية بالزهر والعشب ، وبالفضاء الفسيح الذى يخيم عليه السلام . فحانت منه التفاتة إلى الوادى القريب فراعه منظر عند الحوض الواسع الممتلئ بالماء ، فقد كان هناك سرب من العذارى جئن من مضارب الخيام ليحملن الماء قبل المساء ، فاطمأنن إلى خلو المكان ، واستخفهن جمال الأصيل ، وخلب ألبابهن بريق الماء ، فنزعن أثوابهن ونزلن فى الحوض يمرحن فيه ويلعبن ، بعد أن ملأن القرب والجرار . فتبسم امرؤ القيس للمنظر المعجب ، واستهواه فتون الشباب ، فأسرع هابطاً من الربوة ، وسار وحده نحو الوادى يختلس الخطى حتى صار عند ملابس الفتيات ، وهن لا يفطن إلى وجوده ، فجمعها فى يديه وأسرع فى خفة الوعل ، فكمن فى جانب الوادى يتأمل حسن أجسامهن ، ويضاحك نفسه بما ينتظر من معاتبتهن .

فلما أدرك الفتيات بغيتهن من المرح واللعب ، خرجن يلتمسن ثيابهن حيث وضعنها ، وما كان أعظم فزعهن عند ما لم يجدنها . فعلا صياحهن من الذعر ، وأسرعن يتدافعن ويتواثبن ، يردن أن يجدن مكاناً يختفين فيه ، فقد علمن أن هناك لابد رقيباً وقعت عينه عليهن . وخرج عند ذلك امرؤ القيس من مكمنه ، وصاح وهو ضاحك :

« لا بأس عليكن ، هذه ثيابكن إذا أردتن أخذها » .

فعلت منهن عاصفة مضطربة من الصيحات ، بعضهن يلوم ، وبعضهن يشتم ، وبعضهن يهدد ، وقد تزاحمن يتماسكن ويتوارى بعضهن فى بعض ، ويحاولن التستر وراء الصخور وفى ثنايا الشعاب .

فقال امرؤ القيس فى لهجة هادئة مرحة :

« لا عليكن من سبّي ولومى ، فلقد آليت لا أعطى إحداكن ثوبها أو تأتى إلى لتأخذه ، أو فاتدهبن عاريات إلى بيوتكن ليعلم آباؤكن كيف تملأن جراركن »

وكان لقوله الهادئ أثر عظيم فى الفتيات .

فأقصرن عن الصياح والتهديد وأقبل بعضهن على بعض يتشاورن فيما هن فاعلات .

وبرز امرؤ القيس من ظل الصخور حتى بدا للفتيات ، فلما وقع عليه نظرهن علت منهن صيحة يشوبها فزع ، وتختلط بتهانف الضحك ، فقد عرفن أنهن لن يجدن فى ذلك الفتى حيلة إلا بالنزول على إرادته .

واجترأت إحداهن فقالت لصاحباتها :

« والله لا حيلة لنا فى أمر هذا الفتى ابن حجر وخير لنا أن نتّقيه بالطاعة » .

ثم سارت نحوه وهى تحاول إخفاء جسمها بشعرها المسدل ، ويديها المضمومتين ، وخطوها المتعثر . وتبعتها صاحباتها يسمّين فى أثرها ، حتى صرن عنده ، قد بديه بالثياب فجعلت كل منهن تخطف ثيابها وتسرع عنه فتلبسها ، وهى تشتمه وتستنزل عليه اللعنة ، وهو يضحك ملء شدقيه ويحييها بتحية ، مثنياً على ما بدا من جمالها الفاتن .

وجاءت أخرى الفتيات جاهمة صامتة وعيناها مطرقتان والدمع يقطر منهما ، فما اقتربت من امرئ القيس ووقع عليها بصره حتى صرخ قائلا : « فاطمة ! » .

وكانت فتاة بيضاء مشربة بحمرة تتدلى غدائر شعرها الأسود الفاحم على كتفيها إلى خصر نحيل من جسم كأنه تمثال راهب صنع من مرمر شفاف !

وأسرع الفتى فرمى إليها ثوبهـا وخلع شملته فطرحها على كتفيها ووقف ماداً إليها يديه قائلا بصوت متردد ممتلئ بالخشوع والاعتذار : « عفواً يا ابنة العم ! » .

فلبست الفتاة ثيابها على عجل وهى مدبرة عنه ، وسارت بعد ذلك مسرعة بغير أن تتكلم كلمة ، وهو يسير وراءها ماداً ذراعيه متوسلا معتذراً متذللا .

وبلغت الفتاة فى سيرها ثنية فى الوادى تؤدى إلى منزل أبيها ، فعطفت إليها ونفذت منها إلى كثيب رملى ، فتوقلت فيه والفتى لا يزال يتبعها ويعتذر ويستغفر ، وهو من اضطرابه يتعثر فيقع ثوبه عن كاهله ، فيجره مذهولا وهو لا يدرى كيف يثبته على جسمه . فلما بلغت الفتاة ظهر الكثيب وقفت ونظرت إليه غاضبة وقالت :

« حسبك يا هناة ! لا تتبعنى . لقد ألحقت شراً بشر »

فنظر إليها مستعطفاً وقال :

« فيما يبغوث ما عرفت أنك فيهن » .

فقالت ولا تزال غاضبة لا تكاد تنظر إلى وجهه :

« لا أحب أن يراك أحد تسير معى » .

فقال وقد طمنته كلماتها :

« ألست ابن عمك ؟ »

فقالت بقسوة وجفاء :

« لست على بأمين ، أنت فتى داعر » .

ثم مضت عنه وتركته مبهوتاً حائراً لا يدرى أيمضى وراءها أم يعود ، ولا يعرف أيجيبها أم يثنى عنها ، وضلّت عنه الكلمات فلم يستطع قولا ، حتى بعدت الفتاة عن عينيه وهبطت على جانب الكثيب نحو دارها ، ونظر فى آثارها حزيناً ، وقال كأنه يخاطب نفسه :

« أواه ! أحقاً تقطعيننى يا فاطمة ؟ » .

ثم أطرق وعاد أدراجه نحو رفاقه وقلبه مفعم بالهم ، والهواجس تنتابه وتتجاذبه ، فحيناً يغضب لجفائها وقسوتها وردّها له هذا الرد المهين ، وحيناً يثوب إليه الندم على تلك الدفعة التى دفعه فيها نزق الشباب وخفة قلبه إلى اقتناص اللهو ، فيلوم نفسه لوماً عنيفاً ، ويتأسف على ما كان منه ، حتى انتهى به السير إلى صحبه ، فوجدهم مشتتين فى أنحاء الوادى يبحثون عنه ، خوف أن يكون قد أصابه شر من عدو رصد له ، أو من وحش اعترض سبيله . فلما وقعت أنظارهم عليه تهللوا وصاحوا فرحين ، وأقبلوا عليه يسألونه عن سر غيبته ، وهو ساهم لا يرد إلا رداً ضعيفاً . فلما ألحوا عليه فى المسألة قال لهم فى لهجة تبرم :

« دعونى ، فقد كنت أسير فى الوادى أروح عن نفسى عارضاً من همّ يعتادنى » .

وكانوا يعرفون فيه أنه فتى عجيب ، يصيبه أحياناً مثل ذلك العارض فيضيق صدره بالهم ، ويسوء خلقه ، ولا يجرؤ أحد عند ذلك على إحراجه ؛ فسكتوا عنه ، ومضوا معه صامتين إلى مجلسهم ، مطمئنى الأنفس بأن الشراب لا بد يذهب بما علق فى قلبه من ذلك العارض .

وأخذوا فى الشراب والسمر ، وحُلّت عقدة صمته بعد حين ، فأخذ يحدثهم ويحدثونه ، وينشدهم من أشعاره وينشدونه ، ولكنه كان لا ينشدهم إلا أشعاراً باكية حزينة ، تروعهم بجمالها ، وتلقى على مجلسهم سحابة من الأشجان .

محمد فريد أبو حديد

الحكاؤون!

للأستاذ عبد العزيز البشرى

رجوت فى غاية مقال (فى السياحة) أن ألم بحديث الحكائين ممن كانوا يطلبون البلاد الأجنبية إذا كان الصيف. ولعلك تذكر أنى زعمت فى ذلك المقال أن غريزة المحاكاة والتقليد كان لها فى تلك البدعة الأثر البعيد.

كان الكبراء من رجال الحكم ومن على شاكلتهم يشدون الرحال إلى الآستانة فى مطالع الصيف وعلى رأسهم ولى الأمر نفسه. وجعلت العدوى تسرى حتى أصابت أهل الطبقة الوسطى فمن دونهم. فمن عز عليه السفر إلى الآستانة، اكتفى بالشخوص إلى الشام. وكانت كلمة (الشام) تطلق فى مصر على ماندعوه الآن سوريا، ولبنان، وفلسطين الخ.

وكيفما كانت الحال، فإن السائح إذا عاد إلى مصر جلس فى داره أياما للقاء، وربما سبق أهله فزينوا باطن الدار وظاهرها فرحاً بسلامة القدوم، وترى الناس يقبلون عليه أفواجاً، يبدون له فرحهم بعودته سالما، وغبطتهم له، بظهر الغيب، على ما رأى وما شهد. ولا يلبثهم هو حتى يسألوه عن شىء من ذلك، بل إنه ليباجلهم بالحديث الطويل. وكلما أقبل فوج من الناس أعاد الحديث وكرره، وهكذا حتى تنقضى أيام الهناء، إذ يخرج للقاء الناس فلا يضمه بهم مجلس، بل لا يكاد يلوح له اثنان يتحاوران فى شأن لهما حتى يفسح لنفسه بينهما مجلسا، ثم طفق يتحدث فيما رأى فى رحلته وما شهد، وما أكل وما شرب. ولقد تكون رحلته من يوم محطه إلى يوم مهبطه مصر قد استهلكت ثلاثين يوما فقط، ولكنه مستهلك فى الحديث عنها ثلاثين عاما!

ولقد ضاق بهذا جماعة من أهل الأدب والظرف، وبرموا به برما شديداً. وكان على رأسهم المرحومان السيد محمد المويلحى بك، والسيد محمد البابلى بك، وغيرهما ممن لا يزالون فى الحياة، وصل الله فى أعمارهم، وأسبغ عليهم العافية؛ فقعدوا لجماعة (الحكائين) كل مرصد. وكلما تحركت فى مجالسهم شفتا (حكاء)، راحوا (يبوخونه) ويتلقونه بالنكتة الكاوية من جميع أقطاره، حتى يعصروه عصراً. وما زالوا بجمهرة (الحكائين) كذلك حتى أزعجوهم من هذه الخلة، وعقدوا ألسنتهم عن الخوض فى هذا الحديث السميج المعاد! فالفضل فى كف هذا البلاء عن المجالس لهم، جزاهم الله خير الجزاء!

والعجيب أن (الحكاء) من هؤلاء سواء تحدث عن (اسطمبول) أو (الشام)، فإنه قل أن يلم فى حديثه الطويل العريض بالطبيعة، وما آترت تلك البلاد من فتنة وجمال!

وقبل كل شىء، ينبغى أن نفرق بين حكائى الشام وحكائى (اسطمبول)، فالحديث عن كل منهما مختلف عن الآخر أشد الاختلاف. وسترى هذا من عرض الكلام.

* * *

وبعد، فقد لا يكون من أخلاق (الحكاء) الكذب، وقد لا يكون من خلاله التزيد. فإذا آنست من حديثه شيئاً من التزيد أو الغلو الذى ينبو على كل تقدير، فاعذر، فما كان الرجل ليضرب فى الأرض، ولا ليعانى من ألوان المشقات ما يعانى، ولا ليبذل فى

وجوه النفقات ما يبذل ، ولا ليحتمل من آلام الغربة والغيبة عن الأهل والولد ما يحتمل — كل هذا ليقول لك : إنه مشى على أرض كالأرض التي تمشي عليها ، أو رأى سماءً كالسماء التي تنظر كلَّ يوم إليها . أو أكلَ عنباً كالعنب الذي تأكله ، أو شرب ماءً كالماء الذي تشربه الخ !

اللهم إن هذا الرَّحَّالة الجوّاد بالمال ، وبالنفس إذا دعت الحال في سبيل الترف وتلذذ النفس بأسباب الرفاهية ، لَيَرى نفسه ملزَماً بأن يأتيك بالجديد ، ويطالعك بالطريف ، بل بما يُدهشك ويُدخل عليك الدهَشَ والعجب .

ولنبدأ بحديث روّاد الشام ، وما أصابوا في بلاد الشام : أما العنبُ ، فالعنبةُ لا تقلّ في حجمها عن بلحة الزغلول . ولهذا ترى القِطف منه أكبر وأضخم من عِذق النَّخل ! فإذا أنت قشرتها وعرضتها للهواء استحالت قِمعاً من السكّر لا عيْبَ بينهما إلا البذر ، فإذا لم يكن ثَم بذر ، فالتمييز ضربٌ من المحال !

وهناك أنهارٌ وجداول ، ماؤها أحلى من العسل وأبرد من الثلج ، إلى آخر ما انتهى إلينا من صِفَة الكوثر في الجنة . وهناك التُّفاح وما أدراك ما التُّفاح ؟ لقد تلقِي بالتفاحة في النهر أو الجدول ، وسرعان ما تتناولها مقَشَّرةً وقد شطرها لك الماءُ أربعة شطور ، فإذا قذفتها في فيك استحالت شراباً ولكنه زُلال ، وخمراً ولكنه حلال !

وأما الخوخ فلا يقل في الحجم عن ثمر الجوز الهندىّ . وهل تراك تُحرِّك فكاً لتمضغه مضغاً ؟ بل إنك لترشفه رشفاً وتعُبّ من عسله عَبّاً ! وأما البطيخ فما تنوء واحدته بالعبقريِّين الشِّداد !

وأما المشمش ، وأما التين ، وأما الكمثرى ، وأما وأما مما تُخرج الأرض وما تُعالج الأيدى من ألوان الفطائر والحلوى . فعَدُّ ذلك مما يتجاوز الجهد ولا يتسع له نطاق الكلام !

ولقـد زعمتُ لك ، في بعض هذا المقال ، أن (الحكّاء) من هؤلاء ، قلّ أن يُلِمّ في حديثه الطويل العريض بالطبيعة الخ . والآن ذكرت ، وأستغفر الله مما عراني من النسيان ، فإنهم يعرضون للطبيعة وفضل الطبيعة . فإن أحدهم ليَصف لك ما كان يصيب في وَجبته من لحم الضأن والطير والسمك والخُضَر والحلوى والنقل والفاكهة الخ ، حتى يخيّل إليك أنه قام وحده بالتهام مطعم كامل ، أو أنه طُهِي له (سوق خضار) زاد عليه صوانى الكنافة والبسبوسة والهريسة ، وما شئت أو لم تشأ من الفطائر والحلوى ، وإياك أن تنسى صينية (الكبّة الشامى) التى تقرَّب إليه في صدر الطعام !

وبعد أن يَعرِض على سمعك (لا على عينك ولا على شفتك) هذه القوائم أو هذه (المونيهات Menus) تراه يَحلف لك بالمؤثّمات من الأيمان ، أنه لا يكاد يمضى نصف ساعة على كل هذا الذى خَضَم وقَضَم ، وافترس والتَهم ، حتى يُحسّ إلحاحَ الجوع ، بل حتى يُحسّ أن معدته تَنزّى في جوفه نَزياً بعد أن اعتصرها شدة التحلّب على الطعام !

ولعمرى ، هل كان هذا كله إلا بفضل جودة الهواء ؟ أعود فأستغفر الله ! فلقد كان هؤلاء (الحكّاؤون) يذكرون الطبيعة ، بل لقد كانوا يشيدون بفضل الطبيعة ، ولكن في العون على سرعة هضم الطعام ! يا سبحان الله ! وهل ثمة شيء وراء الطعام ؟ !

* * *

وبعد ، فلقد خرج لنا مما مضى من القول أولا أن بدعة قضاء جمهرة المصريين الصيف أو فترة من الصيف ، إنما كان منجمها شهوة المحاكاة والتقليد ، اللذين ما برحا شائعين في خلالنا ، مع الأسف الشديد ، مهما عادا بالضرر العظيم . وثانياً شدة الرغبة في الإطراف والإغراب بالتزيد والإفراط في المبالغات ، إظهاراً للاستئثار ، دون القاعدين ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب إنسان ! وثالثاً

إقراد الطعام وكل ما يتصل بشهوة البطن ، واختصاصها بالوصف بين كلّ ما يرى المرء وما يصيب من السياحة فى بلاد الشام . ولو قد جعلوا شطراً من حديثهم لوصف ما حبا الله تلك البلاد من سحر وفتنة ، أو لما وثقوا من حبال المودّة بيننا وبين جيرتنا الكرام ، أو لذكر ما يلقى القوم من عنت ورهق وأذى تحت الحكم التركى فى تلك الأيام ، لما كان لحديث (الحكائين) شىء من تلك الفسولة والابرام !

ولقد رأيت أن حديث (الحكائين) من رواد الشام قد استغرق المساحة المقسومة المقال ، فلنرجئ حديث رواد (اصطمبول) إلى وقت آخر ، أرجو أن يكون قريباً إن شاء الله ؟

عبد العزيز البشرى

لمحات فى الأدب الانجليزى :

التصوف
فى شعر وليم وردزورث (١)
للأستاذ أحمد خاكى

كان شعر وليم وردزورث ثورة على الأساليب التى اتبعها الشعر والنقد الانجليزيان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد استبدت بالعقول خلال هذين القرنين عقيدة جازمة فى الفكر كادت تقتل الخيال والوجدان . وقد كان يتحكم فى الفلسفة ذلك المذهب العقلى (٢) الذى نبت فى زمن النهضة ، وترعرع على أيدى فئة من الفلاسفة ، منهم « بيكون » و « هوبز » و « ديكارت » . وسار الشعراء والنقدة فى آثار هؤلاء حتى أصبح للشعر والفن قواعد لا سبيل إلى التنكب عنها ، وحتى قامت تلك المدرسة الكلاسيكية الفرنسية التى أصلت للشعر أصولا ، وللمسرحية قواعد . لكن « وردزورث » فى انجلترة و « لامارتين » فى فرنسا هما اللذان زعما الحركة الوجدانية الجديدة التى سميت بحركة الأدب الرومانتيك Romanticism .

وقد تأثر « وردزورث » أشد التأثر بحركة أخرى اشتدت فى أعقاب القرن الثامن عشر ، تلك هى حركة الدين الطبيعى التى أثارها « روسو » Rousseau ؛ وقد كانت فلسفة « روسو » تناقض الحركة الفكرية المتزمتة ، التى قامت فى خلال القرون الثلاثة التى تلت النهضة ، وقد كان « روسو » يؤمن بأن الحواس والشعور والخيال ، كل أولئك مكملات لوجود الانسان . ودعا « روسو » إلى الرجعة إلى الطبيعة ، لأنه رأى أن الحضارة تزايل ، لأنها تبتعد عن الطبيعة كما تقدم الفكر البشرى ! وقد وضع الخيال إلى جانب الفكر ، واعترف بغرائز الانسان ، وربط ما بين الانسان وبين البيئة الطبيعية التى نشأ فيها .

وقد نشأ « وردزورث » على تلك الفلسفة الطبيعية ، فهو قد ذهب إلى ما ذهب إليه « روسو » ، إلا أنه زاد كل تلك الأفكار ، ودمغها بطابع خاص هو طابع الشاعر لا المفكر ، وقضى حياته يدعو لذلك الدين الجديد ، لا يأبه لتهكم المتشككة ولا لنوبات الفشل التى أصابته .

ولقد قضى « وردزورث » الشطر الأكبر من حياته فى أحضان الطبيعة . فهو قد ولد فى سنة ١٧٧٠ فى

(١) William Wordswoth.
(٢) Rationalism.

« إقليم البحيرات » وتأثر بما فيه من جمال أخاذ . وهذا الإقليم من أشهر أقاليم انجلترة جمالا ، لأنه متعدد النواحي ؛ ترى فيه سطح الماء الصافي ، وتنعم فيه بوهاد حبتها الطبيعة بالسندس الأخضر ، والشجر الباسق الرشيق . ثم إنه أم جامعة كيردج فيمن أمها من طلاب العلم ، إلا أنه برم بالكتب وراح يقضي أيامه جائلا بين ربوعها ورياضها . فهو قد قضى العشرين عاماً الأولى من حياته كما يقضيها أطفال الهنود بين الأدغال ؛ لم يعرف غير الوثب من مكان إلى مكان ، وغير السكون إلى ماء الغدير الساري ، وغير التبرد بماء البحيرة الصافي ، وقد امتاح كل ما في ذلك من روعة وجمال . واستجاب لتلك الروعة وذلك الجمال ، كما يستجيب الطير للخميلة التي يطمئن إليها . وليس شعره إلا تعبيراً عن تلك التجارب التي مارسها وهو يافع يتأثر . فهو يذكر تلك الأيام الأولى لأنها خلفت في إحساسه وشعوره طابعاً خاصاً لا يتحول . وهو حينما يعبر عن ذلك لا يصف الأطيار والأزهار فحسب ، ولا الجبال والشعاب فحسب ، بل هو يبدي كل ذلك ملفقاً في خيال عبقري : يحيل كل ذكرياته أطيافاً متوهجة وضاءة .

هو في شعره يذكر تلك السنين الأولى من حياته لأنها هي التي أثارت فيه الشاعر البريئة التي ملكت عليه نفسه ؛ فهو في قصيدة يذكر يوماً خرج مع لداته وأصدقائه يتزلقون على سفح جبل غطاه الثلج . وتكاد — وأنت تقرأ تلك القصيدة — تسمع وقع أقدام هؤلاء ، وهي تتجاوب بين ثنيات الجبال وشعابها ، بل تحس وكأنما هاتف من الصبي يدعوك إلى أن تكون أنت نفسك صبياً تقفز هنا وترتع هناك ، وتكتسب من نفوس أصدقائك روحاً خفياً هو نفسه الذي يسميه النفسيون المحدثون روح الجماعة أو التعاطف النفسي .

* * *

« وردزورث » يصف آثار الطبيعة في حياته . لكن ذكرياته تسبح في محيط خاص من الخيال . وتلك التجارب التي يصفها ليست صورة فوتوغرافية يعرضها ، بل هي خيال يمثله في صورة . وكان « وردزورث » من أشد الشعراء إيماناً بالخيال . وقد أتى في أعقاب عصر أنكر الخيال إنكار المتهكم المستهين . وقد كان في قيام « وردزورث » — كما أسلفنا — ثورة على الأصول التي شاعت في النقد الأدبي في القرنين السابع عشر والثامن عشر . كان النقاد في هذين القرنين لا يؤمنون إلا بالعقل وكانوا يعتقدون أن الخيال هو القوة العقلية في أوهى مظاهرها . وكان هوبز Hobbes يرى أن الأشياء هي وحدها حقائق الحياة ، وأن كل خيال إنما هو تذكر لتلك الأشياء : تذكر يوهن من قيمتها ، ويضعف من حدودها . أما « وردزورث » فقد كان من أول الشعراء الذين ثاروا بكل ذلك . فهو قد عرف للخيال مكانه في الشعر ، وقد ربى خياله وهو ناشئ في أحضان الطبيعة . لذلك كانت أخيلته سخية مليئة . ولذلك لم يفرق في شعره بين الحقيقة وبين الخيال . بل لقد كان يرى أن الشعر حلم من الأحلام ، وأن الشاعر كراكب الزورق الذي ينظر إلى الماء ، فهو تارة يلمح ظلال الأشجار وظلال السماء والنبات على صفحته ، وهو تارة يرى الحصى والأعشاب وبعض النبات في قاعه . وهو لا يفرق بين تلك الأشباح التي يصورها الوهم ، وبين تلك الأعشاب والأحجار التي تؤيد وجودها الحقيقة . فالخيال والواقع عنده سيان .

لذلك تختلط أمامك أخيلة « وردزورث » بالحقائق التي يسردها . وليس الخيال عنده حقيقة وهنت ، أو ضعفت ، أو تلفت حدودها . وإنما الخيال عنده خالق مكون ، بل هو الحقيقة في أشد أدوارها وضوحا . هو يرى أن الشاعر قد وهب روحا تدرك الحقيقة حيث يحسب الناس أنها

خيال . وهو يرى أن اتصال الشاعر بما حوله ، وامتزاجه به ، وفناءه فيه ، ينتج ضرباً من التصوف . وأن الطبيعة بكل مظاهرها كفيلة بأن تقيم بينها وبين الشاعر صلات من المودة والرحمة هي التي أفلح هو في التعبير عنها .

وفي ذلك يختلف « وردزورث » عن سائر الشعراء والمتفننين الذين عالجوا الطبيعة . بل هو يختلف في ذلك التصوف عن « روسو » نفسه . وفي تاريخ الأدب الانجليزي كثير من أولئك الذين وصفوا الطبيعة وعالجوا مظاهرها . بل لقد يكون فيما كتبه شيكسبير في رواية « كما تحب » شيء من مثل ذلك الذي أرسله « وردزورث » . لكن هؤلاء الذين سلفوا قوم تغنوا بالجمال ولم يتدسسوا إلى أعماقه . لقد وصف هؤلاء الجدول المتأود ، والطير المغرد ، والزهر العاطر الجميل ، ووصفوا الشمس والقمر في اختلاف فصولها . إلا أن واحداً منهم لم يؤت ذلك التصوف ، وهو الأس الأول والأخير لشعر « وردزورث » . هذا التصوف الطبيعي هو الذي جعل لذلك الشاعر العظيم مكاناً خاصاً في تاريخ الأدب الانجليزي . فهو لم يقف حيال الطبيعة وقفة الناظر المستحسن ، وهو لم يتكلف ذلك التعشق الكاذب الذي كان يظهره شعراء القرن الثامن عشر . بل لقد كان حبه للطبيعة ينضح عن فلسفة متصوفة بينها وبين التصوف الديني كثير من وجوه الشبه .

نظر « وردزورث » إلى عالم الحركة وعالم السكون نظرة شملتهما معاً . فقد أدرك أن العالم بأسره ليس إلا كلاً واحداً . ورأى في تلك الوحدة التي تؤاخي بين الطبيعة وبين الإنسان نسقاً خاصاً ، كل متحرك وساكن يكون جزءاً من أجزائه . فالشجرة الساكنة التي تقوم على ضفة الجدول المترجرج ناحية من نواحي ذلك الشكل العام . وكذلك الصبي الذكي حينما يشرق وجهه للحياة ، بل كذلك الغلام المأفون حينما يعبث بأوهام عقله المضطرب . وهكذا استطاع « وردزورث » أن يجمع العالم كله في صعيد واحد من الجمال ، وأن يتأثر العلائق بين الإنسان والطبيعة ، والصلات بين كل شيء في العالم وكل شيء يشاكله ؛ فالطبيعة بأسرها تسير على نسق خاص منسجم يكاد ينتظم كل شيء وكل إنسان . وهو قد استروح فيها نفحة طاهرة من تلك الروح السامية التي تشيع في كل مكان ، وهي روح الله سبحانه . وراح كمتصوفة الشرق وأنبيائه يمتزج بتلك الروح حتى أفنى نفسه فيها .

والصوفيون في الشرق والغرب يفرقون بين البدن وبين الروح . وهم يرون أن حياة الإنسان سَفَر غايته معنى من معاني القداسة . هم لا يؤمنون كثيراً بقوة الفكر ، وهم يتهدون بأساليب خاصة يتحللون بها من شواغل العقل . وهم يجاهدون مجاهدة نفسية حتى يتلاشى سلطان البدن ، ويشرق في نفوسهم حب عميق ، وتتمثل في أطوائها حقائق الحياة العليا . تلك هي الصوفية الدينية في بضع كلمات . وقد اشتعب المتصوفون مذاهب شتى ، لكنهم جميعاً يؤمنون بتلك الحالة المبهمة التي تشرف عليهم فيها حقائق الحياة . وكذلك كان « وردزورث » ؛ فقد آمن بأن الطبيعة هيكل مقدس ، وأن العيش في كنفها كفيل بأن يرهف الحس ويجلو الخيال . بل لقد ذهب إلى مدى أبعد من ذلك حينما وحد بين التصوف وبين خيال الشعر . فالحياة الخيالية التي كان يتمرس بها ، لم تكن إلا تصوفاً طبيعياً من مثل التصوف الديني الذي أوجزنا الحديث عنه .

وعاش « وردزورث » في حنايا الطبيعة كما يعيش المتبتل في هيكله . وقد كان يهتاجه الجندل المنحدر ، حتى لقد كان يُلِحّ عليه كالعاطفة الحادة ، وكانت تساوره مظاهر الطبيعة ، حتى لقد كان يرسل الشعر في لهفة المأخوذ ، وكان يرى الحياة تدب في كل ما هو ساكن . وقد خاطب الطير ، وجعل العصفور روحاً أثيرياً يحج في أنحاء السماء . ورأى الأزهار فأشاعت في نفسه الهدوء لأنها كانت ترقص

هبّات النسيم . على أن كل هذه لم تكن إلا مظاهر لوجود واحد ، هو الذى يتنظر بها ، فليس السيل الأتىّ ، ولا الهوة السحيقة الداوية ، ولا الجداول المتعطفة إلا وجوه لمعنى واحد ؛ بل هى قسمات فى وجه فريد تظهر فى صفحة الخلود .

***

ولعلك قد رأيت معى أن « وردزورث » قد أقام خياله من الطبيعة نفسها إلا أنه أعطى الطبيعة أضعاف ما أخذ . فهو قد بثها تلك الروح السامية التى وهبها الله قليلا من الأنبياء والشعراء . وقد كان خياله كفيلا بأن يقيم علاقات جديدة بين أفراد البشر ، فهو قد رأى أن الإنسان جزء لا يتجزأ من ذلك الشكل العام ، فليس له على الطبيعة سلطان . ولعله قد رأى للطبيعة عليه السلطان الأكبر ، فهى التى تبثه الخلق الكريم ، وهى التى تمحضه الشعور بالجمال ، وللإنسان حواس لا قِبَل له بإغلاقها . وحواسه هى التى تصل ما بينه وبين الطبيعة ؛ فليس لعينه إلا أن ترى ، وليس لأذنه إلا أن تسمع ، وليس لقلبه إلا أن يخفق ، وليس له إلا أن يتقبل تلك الآثار النفسية ، وأن يستجيب لها من غير أن يتكلف أو يتمحل . لذلك كان التصوف الطبيعى أساساً لتفكير « وردزورث » الاجتماعى . ولذلك فقد أحيا فى الشعر ما بدأه روسو فى السياسة والتربية حينما تحدث إلى الفرنسيين عن فلسفة « الوحش النبيل » .

كان الحب عند « وردزورث » أساس الحياة بين بنى البشر ، وكان قلبه يكاد يسيل عطفاً حينما يلقى المتكوبين ؛ فهو يرى جنديا مهدما قد أوى إلى قارعة الطريق ليستريح بعد جهد ، فيعطف عليه ويثير ذلك خياله فيرسل سجيته إرسالا ، وهو يلقى بستانياً هرما يحاول أن يضرب الشجرة بمعوله ولكن تخونه قواه ، فيتفطر قلب « وردزورث » أسفاً على ذلك العجز . وكذلك يرى شاعر الطبيعة أن كل ألم فى الحياة خليق بأن يخلف حسرة فى النفس ، ولذلك امتلأ شعره بتلك البوادر الحساسة التى يستهين بها العامة ، ولكن يحتفل بها الشعراء وذوو الاحساس المرهف من الوهويين .

ولأن « وردزورث » و « روسو » قد اتخذا من الطبيعة المؤئل الأول والأخير ، ولأنهما رأيا أن الإنابة إليها خير دافع للحضارة فى طريق التقدم ، فإن وجهتهما لم تكن وجهة تمثيلية ؛ لم تكن وجهة المسرحيين الذين حاولوا أن يتقصّوا حياة الانسان الدنيا ، وأن يرصدوا شهواته وغرائزه ، وأن يحصوا عليه شروره وآثامه ؛ لم تكن تلك وجهة « وردزورث » ولا « روسو » فللمسرحيين أن يمثّلوا طبائع الوحوش وفظائعها ، وللمفكرين والفلاسفة الآخرين أن يصوروا الانسان الأول فى صورة الدافع الهاجم ، ما يستريح من صدام حتى يهرع إلى صدام ؛ ولكن « وردزورث » و « روسو » وأضرابهما لم يكونوا يرون فى الطبيعة الوحشية الأولى إلا النبل الشائع والعافية والراحة والاطمئنان .

والحق أن للإنسان فى نظره للطبيعة وجهتين تتباينان : أولاهما هى هذه الوجهة المسرحية المتشائمة التى تذكر الصراع الدائم بين الحيوان والنبات والإنسان . وثانيتهما هى تلك الوجهة المتفائلة التى تخال للطبيعة روحاً جذلاً خاصاً يسرى فى كل جزء من أجزائها . فشاعر لا يلحظ إلا الكفاح بين الوحوش فى البر والبحر والسماء ، وشاعر آخر يكاد يتجاهل كل ذلك ؛ فلا يرى فى الطبيعة إلا ذلك التعاطف الذى يكون بين الروح والروح ؛ واحد يرى الحياة نشازاً عاماً يكاد يكون ضجيجاً منفراً ، وآخر يراها نسقاً عاماً يكاد يكون لحناً عذباً . الوجهة الأولى هى الوجهة الأرسططاليسية فى الحياة وهى التى تحتفل بالحقائق ، والوجهة الأخرى هى الوجهة الأفلاطونية التى ترى الحقائق منتزعة من المعانى . وقد كان « وردزورث » أفلاطونياً

لأن الأفلاطونية كانت أدعى لاستثارة الخيال ولأن رياضة النفس التي جبل عليها كانت كفيلة بأن تبلغ به إلى المعاني الأولى .

فوردزورث أحد أولئك الذين تناسوا قسوة الطبيعة وأغضوا عما تضطرب به الحياة من إحَن وشرور . إلا أنه قد مُني بأشد ما زلزل ذلك الايمان في نفسه . ولو أن روسو نفسه قد عاش إلى « عهد الإرهاب » في الثورة الفرنسية لأصابه ما أصاب « وردزورث » من خيبة وإشفاق . ذلك بأن وردزورث قد عشق مبادئ الثورة الكبرى وهو فتى ، حتى لقد ذهب إلى فرنسا في سنة ١٧٩٢ ، واشترك بقلبه ويده ولسانه في كل الذي نادى به شباب الفرنسيين . وكان يرى أنه قد آن للانسان أن يعود إلى حياته الطبيعية الأولى فيسكن الناس بعضهم إلى بعض ويبدأ بعد ذلك عهد جديد من السعادة والعطف . ولكن شدّ ما انهارت كل تلك الآمال حينما نظر إلى الثورة بضع سنين فاذا بها قد أكلت بنيها ، وإذا رحاها قد دارت على كل الذين أسهموا فيها . ثم إذا عصر من الطغيان يعصف في ركاب نابليون . لذلك ازورّ «وردزورث» في فترة من تاريخ حياته عن مبادئه الانسانية ، ومضت عليه سنوات بين سنة ١٨٠٥ إلى ١٨١٥ وهو يميل إلى فلسفة « جودوين » Godwin التي كانت تعتمد على قوة الذهن . وكاد ينسى مبادئه الأولى لولا أنه أناب إلى الطبيعة في الخمس والثلاثين سنة التي عاشها بعد سنة ١٨١٥ .

أفكان كل ذلك ثمناً لتلك الأفلاطونية التي لم تحققها حوادث الحياة ؟ أيكون هذا دليلا على أن لكل شاعر وادياً يهيم فيه ؟ لقد أحب الطبيعة والناس ، وقد دعا إلى رياضة النفس في أحضان تلك الطبيعة . ولكن الإنجليز قد ظلوا الشطر الأكبر من حياته يحسبون أنه متصوف لا وزن لكلامه . ولم يتنبه لآرائه ولا لفلسفته النقاد والشعراء إلا في سنة ١٨٣٠ ، حينما كان قد أوفى على الستين . على أن آراءه تلك كانت تمهيداً للمدرسة البيولوجية التي تزعمها « دارون » في أعقاب القرن التاسع عشر .

لقد تحدث « جون ستيوارت ميل » عن « وردزورث » في تاريخ حياته فقال : « لقد كان شعر وردزورث دواء لنوبات شديدة كانت تنتابني . فهو لم يكن يعبر عن جمال ظاهري مجرد ، لكن كلامه كان يثير سورات من الشعور والتفكير يلهمها إياي وصفه للجمال » ، « فوردزورث » شاعر الجمال والخيال . هو الشاعر الذي ثار بتقاليد القرون التي سبقته . وهو المتفنن الذي ألف بين الخيال وبين التصوف وبين الأفلاطونية . وحريّ بنا أن نقرأه دائماً كما كان يقرؤه « جون ستيوارت ميل » .

أحمد خاكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

البحترى الشـــاعر

للأستاذ خليل هنداوى

يقول صاحب كتاب الموازنة (الآمدى) عن البحترى: «إنه أعرابى الشعر مطبوع ، وعلى مذهب الأوائل ، ما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ، ومستكره الألفاظ ووحشيّ الكلام ... »

وإنى لأجد فى هذه الكلمة على إيجازها تحديداً لعبقرية البحترى فى الشعر تدل على نظرة قديمة صائبة ؛ فليس للبحترى موهبة الابداع والخَلْق ، ولم يكن للبحترى مذهب مستقل فى التنقيب عن المعانى ، ولا منهج خاص فى الأسلوب ؛ وإنما مذهبه فى ذلك مذهب الأوائل ، لا يفارق عمود الشعر المعروف ، أو قل إنه يتبع أسلوباً تقليدياً معروفاً قبله .

على أن الحركة الفكرية فى عصره وما قبل عصره كانت على طغيان وامتداد . والعجب فى ذلك الطالب يتخرج على شاعر كأبى تمام يتصيد المعانى والأفكار تصيداً ، ثم يأبى أن يجارى أستاذه فى هذه الناحية ! فكان البحترى يسمع بهذه الحركة ، ويتطلع إليها عن كثب ، ويلمسها فى شعر أستاذه ، وفى شعر خصمه « ابن الرومى » ، ولكنه لا يمد يده ليغترف منها ، ولا يرد إليها ليصدر عنها . فما له ولهذه المعانى العقلية ، وهذه المماحكات المنطقية ؟ ولذلك تراه يشتغل بمجرد الصناعة الشعرية ، ينحت ويصقل ، ويوشى ويبهرج ، حتى غلبت — على حد قول ابن رشيق — امامة الصناعة الشعرية ... وهذه الصناعة يبعث التمرن والممارسة على تجويدها . أما خلق الجديد فلم يرسل نفسه وراءه ، ولم يجهد العقل فى استخراجه . وفى هذا كان كالطائر سمت منه جانحة إلى السماء ، وهوت به أخرى إلى التراب . فكان فى صناعته محلّقاً ، وكان فى معانيه مكرراً للقديم يحاول صقل القديم بفنه حتى يعيده برّاقاً كالجديد . وهيهات أن ترفع الصناعة وحدها الشاعر إلى قمّة الشعر !

ولكن ألم تكن هناك عوامل مختلفة وجّهت البحترى هذا التوجّه ؟

ولا بد أن يكون لهذه العوامل — التى سبقت اجتماعه مع أبى تمام — تأثير كبير فاق كل تأثير . وإليها يعود هذا الاتجاه . فان نشأة البحترى فى بادية منبج تلك النشأة الطبيعية السليمة من الحضارة المركبة ، طبعت فى روحه ميلاً عنيفاً إلى البساطة والالتصاق بالحياة على بساطتها ، وتناول مسائلها من الناحية السهلة . ولعل هذه النشأة أثرت فى كيانه ذاته ، حيث لم يستطع أن يتجرد من ألوان تلك الحياة البدوية فى مجالس الخلفاء أنفسهم ! ... وهكذا بقى عقله عقل البسيط أمام الأشياء . يفر بعقله من الأفكار المعقدة ، وتضيق روحه بالمعانى البعيدة ! فكان يتطلع إلى الحركة الفكرية ، ولا يرجع منها إلا بعقله البسيط ؛ كما كان ينظر إلى حضارة بغداد ومشارفها وقصورها ، ولا يرتد طرفه عنها إلا إلى تلك البادية التى نشأ فيها وحن إليها !

هذا ما يمكن به تعليل هذه العوامل ، وربما لم يصادف عقل البحترى إلا ما كان يلائم هذا العقل ، لأنه ليس كل عقل بأهل لاكتساب الحركات الفكرية والاندماج معها .. ومن كانت هذه النشأة البدوية نشأته كانت ثقافته الفكرية ضئيلة محدودة لا تتسع لمثل هذا التيار الجارف من صوب الأفكار التى كانت تتدفق من الأمم على الأمة العربية ؛

ولهذا كله وقفت ثقافة البحترى عند قدر معلوم ، ولم تكن عنيفة قوية الهضم كثقافة أبى تمام أو ابن الرومى . فاجتزأ صاحبها بتناول المعانى القديمة والأغراض المتداركة ، يجرى فيها صناعته وشاعريته ، ويحيك لها البرود المنمنمة من رائع الكلام ، يحسبها الرائى جديدة النسج وما هو إلا الصقل والتهذيب .

ولكن أنقول إن البحترى لم يصرفه عن مسايرة الحركة الفكرية إلا ضآلة ثقافته ؟

وهو الذى يقول رداً على لائم له :

كلفتمونا حـــدود منطقكم
فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ
ـمنطق ، ما نوعه ؟ وما سببه ؟
والشعر لمح تكفى إشارته
وليس بالهـذر طوّلت خطبه

ولعل هذه الأبيات تفسر لنا ناحية واسعة من نواحى عصره ، فهو يشكو من أن الشعر أصبح تفكيراً منطقياً ، ودليلا عقلياً ؛ وحق له أن يشكو من ذلك ، لأن الشعر لم يخلق ليكون وعاءً من أوعية المنطق أو البرهان . ولسنا هنا فى معرض الكلام عمن يعرض بهم الشاعر ! ومن هذه الناحية نستطيع الجهر بالقول : إن فضل البحترى على الشعر أنه أطلق الشعر من قيود المنطق التى أثقلته ، وفتح له الأبواب المغلقة إلى الجو الفسيح الذى لا يترعرع الشعر إلا فيه . فسهّل الرجل ما تعقّد ، ووضّح ما أبهم ، وجرى فى صناعته كالمـاء ، وخف كالهواء .

وجد أن الشعر لمح الشعور والخيال ، فكيف يثقله بهذه المعانى المنطقية المبهمة ؟ وماله يقص من الشعر هذا الجناح الذى لا يطير إلا به ؟ فعاد إلى الخيـال لا يحلق إلا بجناحيه ، وعاد إلى المواضيع التى يتسع فيها مجال الشعر كالوصف وغيره . فحلّق ما شاء أن يحلّق ، وعمق ونسق ما شاء أن يعمق وينسق . يحفظ الغريب من الألفـاظ لا ليستعمله ، وإنمـا ليعرفه ويهمله . ويدرك مواضع الغموض فيتجنبها . ويقبل على المعانى الواضحة السهلة ، لا يركب إليها إلا المراكب السهلة . وقد حمله تخوفه من المعانى المنطقية على أن يتجنب كل ما يمت إلى المنطق ، فجاء شعره تصويراً ، وتصويره خيالا ، وخياله رقيقاً يكاد يشف عما تحته من المعانى النحيفة .

ولكنى أدركت فى شعر البحترى شيئاً لم أجد أحداً أشار إليه ؛ هو أن شعر الرجل تتضاءل فيه شخصيته ، والشاعر العبقرى من لا يستطيع أن يتنازل عن شخصيته ؛ فهو فى المدح والرثاء والعتب شيء واحد لا مكان فيه للشخصية . ولعلنا نظلم المتنبى إذا طلبنا إلى البحترى أن يكون له نصيب من هذه الشخصية ، لأن المتنبى هو الشاعر الفرد الذى كان يحمل شعره شخصيته كيفما مال . ولعل للقدماء شأناً لمحو الشخصية عندهم ، لأنهم يريدون من الشاعر أن يفنى فى صفات ممدوحه مثلا عند موضع المدح ، وأكثر ما تدل هذه النظرة على صفات الشاعر المقلد ، لا صفات الشاعر المبدع ؛ لأن المبدع يحمل روحه كيفما اتجه ، كما يحمل جسده ظله أمامه أو خلفه .

ومن الناجع فى مثل هـذا الموضع أن نستشهد بكلمة للآمدى نجعلها خاتمة كما جعلنا أختها فاتحة . قالهـا للموازنة بين صاحبنا وأبى تمام . وقديماً قامت المحاجات من أجلهما : « وإذا كنتَ ممن يفضـل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة ، وحلو اللفظ وكثرة المـاء والرونق ، فالبحترى أشعر عندك ضرورة ؛ وإن كنتَ تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوى على غير ذلك ، فأبو تمـام أشعر عندك لا محالة » .

لقد أعطى الآمدى كل ما للاثنين من صفاتهما الخاصة ومميزاتهما التى تفرق الواحد عن الآخر . . . وإذا تأملت فى هذا الكلام وجدته لا يختلف عن جعل البحترى شاعراً يأخذ بسهل الكلام وقريبه ويحسن السبك والعبارة ، وأبى تمام شاعر الصنعة فى المعانى الغامضة والفكرة الملتوية . وفى الحق لقد خرج الاثنان فى شعرهما ؛ أما أبو تمام فقد اشتط فى المعانى حتى خرج بالشعر عن حدوده المعروفة ، وقص جناحيه وأمره بأن يطير ، وأثقله بحدود المنطق والعقل ؛ وما كان الشعر أن يخلق لمثل هذا . وجاء البحترى ونفض يديه من المعانى ، لأنه اعتقد بأن الشعر سر من أسرار الألفاظ والتركيب ، وفى هذا تفهم ناحية من نواحيه ، وهى الناحية الموسيقية التى لم يقدر غير البحترى على إتقانها ، ولكنه أغفل الابتكار ، فلم يقم له وزن فى هذه الناحية .

وفى الحقيقة أن الشاعر العبقرى يولد ويشق الوجود ، وقد اكتملت فيه هذه النواحى ، إذا أطلت عليه من أية ناحية وجدته حاضراً عندها . ولن يكمل شاعر رق أسلوبه ورقت معانيه — أو شاعر سمت معانيه وتلجلج أسلوبه . لأن الشعر شيء لا يكاد يلمسه الفكر ؛ إذا لحقته إلى الأسلوب فرّ منك إلى المعانى والصور ، وإذا تبعته إلى المعانى والصور فرّ منك إلى الأسلوب ، فهو كالزئبق الرجراج ، لكن صيغ من الفن والعبقرية .

ولهذا لا نستطيع القول : إن العربية وجدت شاعرها ومثلها الأعلى فى أبى تمام أو البحترى ، لأن النواحى لم تكن فيهما تامة كاملة كما يطلب الشعر العالى .

(دير الزور) خليل هنداوى

هرون الرشيـــــد
وقصص « ألف ليلة وليلة »

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يثير اسم هرون الرشيد ، وتثير ذكريات عصره فى النفس إجلالا وروعة ؛ وليس مرجع ذلك فقط أن الرشيد كان من أعظم خلفاء الاسلام ، وأعظم أمراء العصور الوسطى ، ولا لأن الدولة العباسية بلغت فى عصره ذروة القوة والبهاء ، ولكنه يرجع بالأخص إلى شخصية الرشيد ذاته ، وإلى ما كان يتمتع به من مواهب بديعة وخلال باهرة ، تجمع بين الفروسة المثلى ؛ والبراعة فى شئون الحرب والسياسة ، وصفات الحاكم الأمثل ؛ وبين التقى والورع ، والفخامة الرائعة ، وبين الحزم والصرامة ، والانسانية المؤثرة ؛ فهذا المزيج القوى المدهش من الصفات والخلال البارعة هو الذى جعل من الرشيد شخصية محبوبة بارزة تتبوأ مقامها فى صحف التاريخ بين أعظم شخصيات العصور الوسطى ، وتحملنا على كثير من العطف والتقدير والاعجاب .

على أن سيرة الرشيد لم تكن فقط مستقى للتاريخ ، يفيض فى مراحلها ، وفى حوادثها ومواقفها بعناية وتمحيص ؛ ولكنها أيضاً مستقى القصة ، تجد فى صحفها الممتعة وفى ألوانها الزاهية مادة خصبة ، يستطيع الخيال الرائق أن يجول فى نواحيها ، وأن يستخرج منها القصص الشائق ؛ وقد أدمج من هذا القصص الذى نسجه خيال الرواة المتأخرين حول سيرة الرشيد مجموعة كبيرة فى قصص « ألف ليلة وليلة » . ومع أن هذه المجموعة المتباينة تختلف من حيث السبك والأسلوب قوة وضعفاً ، فانها تشترك جميعاً فى المقصد والغاية ، وهى تصوير شخصية الرشيد فى ألوان طلية زاهية ، وإبراز ما فيها من النواحى الانسانية الجذابة ، والاشادة برائع خلالها من فروسية ونبل ، وشهامة ، وبذخ ، وجود ، وتواضع وما إليها من الخلال الباهرة التى أسبغت على شخصية الرشيد سحرها وبهاءها .

* * *

والواقع أنه لم تحظ شخصية من شخصيات التاريخ من عناية صحف « ألف ليلة وليلة » قدر ما حظيت شخصية الرشيد ، فقد اتخذ الرشيد نفسه بطلا لعدة قصص ، وجعل صديقاً لأبطال قصص أخرى ، هذا فضلاً عما نسب حدوثه من القصص إلى عصره ؛ وفى معظم هذه الصور يصور الرشيد فى صورة الأمير الضجر الذى يطلب السلوى ، فيأتيه وزيره الشهير جعفر البرمكى ببعض رواة العصر وسماره ممن ينتمون إلى صحب الأمير وخاصة ندمائه ، مثل الأصمعى ، وأبى دلف ، وأبى نواس ، وإسحاق الموصلى ، وغيرهم ، فيروون له أغرب ما شهدوا أو ما سمعوا من القصص والأخبار . أو يدفعه الأرق إلى التماس السلوى بالطواف ليلاً فى أنحاء العاصمة العباسية ، وتفقد أحوال الرعية ؛ وعندئذ يقدم إلينا الرشيد وقد تنكر فى زى التجار ، وتنكر مثله بعض رفاق سمره وسحره الذين يلازمونه دائماً ، مثل جعفر الوزير ، ومسرور الوصيف ، وإسحاق الموصلى وغيرهم ؛ وعندئذ يطوف الجميع معاً أحياء بغداد ، فتسوقهم المقادير

إلى بقعة أو منزل يقعون فيه على أغرب المشاهد ويسمعون أغرب القصص والروايات . فمن القصص التي نسبت إلى عصر الرشيد قصة السندباد البحري الشهيرة وسفراته السبع ، وفيها يقول بطلها السندباد في السفرة السادسة إنه حمل إلى الرشيد هدية من بعض ملوك الجزائر المجهولة التي زارها ، وقص على الخليفة قصة منها فتعجب فيها ، وأمر المؤرخين بتدوينها وإيداعها في خزائنه . بيد أنه يلاحظ أن مؤلف القصة لم يراع الدقة التاريخية ، حيث ذكر في السفرة السابعة أن السندباد البحري غاب عن بغداد سبعا وعشرين سنة ، في حين أن عهد الرشيد كله لم يطل أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً .

أما القصص التي اتخذ الرشيد لها بطلا فهي عديدة ؛ منها قصة الجارية الحسناء التي اشتراها من تاجر في بغداد ، واسمها قوت القلوب ، وشغف بها حباً ، واحتجب لديها شهراً كاملا ، وأفضى لوزيره جعفر بأنه وقع في هواها ؛ فغضبت لذلك زوجه السيدة زبيدة ، ودبرت مكيدة أبعدت بها الجارية عن القصر ، وأذاعت أنها ماتت لحزن الرشيد عليها أيما حزن .

ومنها قصة الرشيد مع خليفة الصياد ، وهي قصة سخيفة السبك ، ركيكة الأسلوب ، وليس فيها شيء من محاسن العرض أو التصوير .

ومنها قصته مع البنت العربية التي رآها ذات يوم مع وزيره جعفر مع بنات أخريات يسقين الماء ، فعرج عليهن يريد الشرب ؛ فأنشدت إحداهن أبياتاً غزلية أعجب بهـا الرشيد ، ثم طلب منها تغيير القافية واستبقاء المعنى ، فغيرتها مراراً ، في مقطوعات بديعة ، فأعجب الرشيد بها وتزوجها .

وثمة طائفة من القصص المدهش ، لا يبدو الرشيد فيها بطل القصة الأصلي ، ولكنه يكتشف هذا البطل أثناء طوافه متنكراً في أحياء بغداد ؛ وهو يعمد إلى هذا الطواف متى أصابه الأرق ، فيخرج كما قدمنا وفي صحبته وزيره جعفر ، ووصيفه مسرور ، وبعض الندماء والسمار ؛ ومن هذه القصص قصة الشاب العماني الذي أضاع ثروته على الغواني ، ثم استردها بزواجه من إحداهن ، وهي غانية ثرية هامت به ، وكادت تموت في هواه ؛ وفيها أن الرشيد تأثر لقصة الشاب ، ووهبه مالاً جزيلا هو خراج مدن ومقاطعات ، وجعله من أصدقائه وندمائه . ومنها قصة محمد ابن علي الجوهري وهو فتى وافر الثراء ، اتخذ صفة الخليفة ، ومظاهر الخلافة الملوكية في قصره ، واعتاد أن يشق الدجلة ليلا في زورق فاخر ، وأن يعقد بقصره مجالس رائعة بين الجواري والقيان الفاتنات تكاد تبز بفخامتها وبذخها مجالس الرشيد ذاته ، وما كان من أمره مع السيدة دنيا البرمكية حيث هام بهـا وتزوجها سراً ، ثم غضبت عليه لأمر ما وتركته ، فلجأ إلى تنظيم هذه الحفلات الباذخة ليلهو بها ويروح عن نفسه ، فتأثر الرشيد لقصته ، وجمع بينه وبين حبيبة قلبه .

وفي مناسبات أخرى نرى الرشيد يحاول معالجة الأرق بالاستماع إلى أكابر الرواة والسمار المعاصرين ؛ ومن ذلك ما رواه له الأصمعي ذات ليلة أرق فيهـا من أخبار النساء وقصة البنات الثلاث اللاتي تبارين في نظم بعض المعاني الغزلية ، واحتكمن إلى الأصمعي لحكم لصغراهن ؛ ومن ذلك ما رواه جميل بن معمر للرشيد في ليلة أخرى وهي قصة غرام في البادية من أرق وأبدع قصص الغرام الأمثل .

هذا إلى قصص وأخبار متنوعة أخرى ؛ ومنها قصة أحمد ولد الرشيد من زوجه زبيدة ، وقد نشأ زاهداً ورعاً ، فنزل عن نعماء والديه ، وكل ما يحيط بهما من مظاهر العزة والترف ، وراح يعمل ليحصل قوت يومه ، ومات ميتة الأولياء .

* * *

وهكذا نجد الرشيد فى «ألف ليلة وليلة» بطلاً من أبطال القصة ، أسبغت عليه فى هذه القصص كلها نفس الألوان الرائعة الزاهية التى أسبغت على أبطال «ألف ليلة وليلة» الخياليين . ومع ذلك فإن الاعتبارات التاريخية لم تهمل كلها ؛ ففى معظم هذه القصص نرى شخصية الرشيد تحتفظ بكثير من صفاتها التاريخية المعروفة من الجود والتواضع والنبل والفروسية ، وشغف البهاء والبذخ ، والتقى والورع ، وحب العلماء والعلم ، وغيرها مما تؤيده معظم المصادر التاريخية ، بل نجد بعض هذه المناظر والأخبار منقولا بنصه عن بعض كتب التاريخ والأدب ، ومجالس الرشيد الأدبية التى كان يسطع فيها من ندمائه وسماره أمثال الأصمعى وأبى عبيدة وأبى نواس وإسحاق الموصلى وغيرهم ، وعطفه على الأدباء وصلاته الملوكية لهم ، وشغفه بالجوارى الحسان ذوات الخلال البارعة فى الشعر والأدب والموسيقى ، كلها أمور معروفة مشهورة . بيد أننا نجد أنفسنا من جهة أخرى أمام طائفة من الوقائع والصفات الخيالية المحضة التى نسبت إلى الرشيد لكى يستكمل صورة بطل القصة الحقيقى ، وهى مع ذلك وقائع وصفات يسهل تمييزها والانفضاء عنها .

وقد أسبغ قصص «ألف ليلة وليلة» على الرشيد وعصره روعة وبهاءً وشهرة لم تزدد على كر القرون إلا قوة ورسوخا ؛ وفى وسعنا أن نقول إن كتب التاريخ والأدب ، على ما تخصصه للرشيد وسيرته وعصره من الفصول الضافية ، وما تحتويه من آيات المديح والثناء ، لم تسبغ على شخصية الرشيد من الروعة والبهاء والعطف قدر ما أسبغته عليها قصص «ألف ليلة وليلة» ؛ ويبدو هذا الأثر بنوع خاص فى الآداب الغربية ، حيث يعتبر الرشيد بلا مراء أعظم وأشهر أمراء الاسلام والمشرق ؛ ويرجع ذلك إلى ذيوع قصص «ألف ليلة وليلة» فى المجتمعات الغربية ذيوعاً لم يظفر به أثر عربى أو شرقى آخر ، وإلى أن الغرب قد عرف الرشيد وعصره بالأخص من صحف «ألف ليلة وليلة» ، وانطبعت فى ذهنه من الرشيد وعصره تلك الصور الرائعة التى تقدمت إلينا ؛ ولم تخل معظم التواريخ الأوربية الرصينة من التأثر بهذه الصور فى تقديرها للرشيد وخلاله وعصره .

وهكذا كانت قصص «ألف ليلة وليلة» على كر الأحقاب عاملاً قوياً فيما يتمتع به الرشيد وعصره من الشهرة ، وما يحيط بهما من الروعة ، وقد كان القصص ومايزال من أعظم وسائل التأثير والتوجيه الفكرى ؛ وللقصص التاريخى بالأخص فضل عظيم فى إحياء التاريخ القومى ، خصوصاً إذا التزم فيه صدق التصوير فيما يتعلق بالشخصيات التاريخية ؛ فإن الخيال عندئذ قلما يطغى على العناصر التاريخية ، وقد يعاون بالعكس فى إذاعتها وترسيخها فى الأذهان . ويكفى للتدليل على هذه الحقيقة أن نذكر ما للملاحم القومية التاريخية فى الآداب الأوربية من منزلة عالية ، وما كان لها بالرغم مما تحتويه من عناصر الخيال المغرق ، من فضل فى إذاعة بعض الحقائق والأصول التاريخية القومية ، وما للقصص التاريخية بوجه عام من أثر قوى فى تثقيف الشعوب الغربية وتنويرها بالنسبة لتواريخها ومفاخرها وتقاليدها القومية .

محمد عبد الله عنان

لكيلا ننسى !

تعتبر قصة إنشاء قناة السويس من أصدق الصور التي تمثل أساليب السياسة الأوربية في استعمار الشرق ، فقد منحت مصر الأرض التي أنشئت عليها القناة ، وساهمت علاوة على الأرض والأيدي العاملة ، بشراء عدد عظيم من أسهمها ؛ ولكن لم يمض سبعة عشر عاما على إنشائها حتى استغل الانجليز فرصة احتياج خديو مصر إلى المال ، فاشتروا منه حصة مصر ؛ ولم تمض أعوام بعد هذا التاريخ حتى أعلن الانجليز أن مصر أصبحت ذات قيمة حيوية لانجلترا تحتم عليها أن تتدخل في شئونها .



المغفور له خديو مصر اسماعيل باشا ، وإلى جانبه نجله الخديو توفيق ، وفي عهده بيعت أسهم مصر في القناة



الرجل الذي فكر في القناة
فرديناند دلسبس (الثاني من اليمين) مع بعض معاونيه عام ١٨٦٥



الرجل الذي أبرم الصفقة . . .
لورد بيكونسفيلد (دزرائيلي) رئيس الوزارة البريطانية الذي عقد قرضاً مع بيت روتشلد بأربعة ملايين من الجنيهات دفعت ثمناً لحصة مصر



في زيارة القناة قبل أن تفتح رسمياً . . . .
الجالسان : البرنس أوف ويلز وزوجته (إدوارد السابع والكسندرا فيما بعد)
الجالسان على السلم : السير صمويل بيكر ومسز جراي



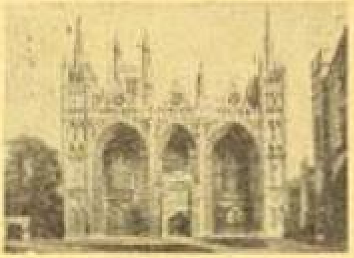
نهاية ملفق "القناة . . . فشل دلسبس في إنشاء قناة بناما ، فغطى هذا الفشل على نجاحه في قناة السويس ، وقضى أخريات أيامه مع أسرته (كما في الصورة) منسياً من الجميع

طراز العمارة القوطى

للاستاذ ابراهيم جمعه

شهد القرن الثانى عشر فى أوربا حركات سياسية قومية عنيفة كان من أثرها استقلال الأمم اللاتينية ، وظهور إيطاليا وفرنسا ، ثم دول أوربا الغربية فى الميدان السياسى كدول قطعت ما بينها وبين الدولة الرومانية المقدسة من روابط .

وكان لهذا التفكك الذى اعترى جسم أوربا أثره المحمود على العمارة والفنون ، كما كان له أثره على وجوه الثقافة الأخرى .

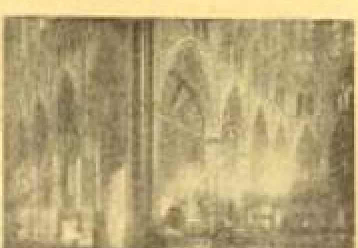


الواجهة الغربية لكاتدرائية « بيتربره » بانجلترا

والحق أن أوربا بدأت بالقرن الثالث عشر حياة جديدة تميزت فيما تميزت بطراز جديد فى العمارة صحب ظهور القوميات المختلفة هو الطراز القوطى . ساد هذا الطراز أوربا فى القرون : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، مستمداً أصوله من الفن الشبيه بالرومانى ، وهو فن رومانى محرف شاع فى أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

اقترن هذا الطراز القوطى فى الأذهان بالفكرة الدينية المسيحية وأصبح رمزاً عليها . وما يكاد زائر أوربا ينزل بلداً من بلدانها الهامة حتى يسترعى نظره بناء قوطى الطراز هو « الكاتدرائية » أو الكنيسة الجامعة . قام هذا الطراز على أساس ثقافى جديد غلبت فيه النزعات المحلية على الأصول الكلاسيكية اللاتينية ، وكأنما جمعت المسيحية رجال هذا الفن على أصول واحدة ، إن اختلفت بعض الشىء هنا عن هناك ، كان اختلافها فى العرض لا فى الجوهر ، وفى التفاصيل لا فى الأسس ، ويفسر هذا الاختلاف باختلاف البيئة الجغرافية والجيولوجية وعوامل المناخ والحالة الاقتصادية وظروف السياسة . ولكن جوهر هذا الطراز القوطى بقى ظاهراً ومشتركا بين بلاد أوربا طيلة المدة التى سيطر فيها ؛ غير أنه فقد فى الأبنية المدنية والحربية بعض مميزاته ، فأقيمت القصور ودور البلديات Hotel de Ville والمحاكم Palais de Justice والمستشفيات والدور والقبور والقلاع وأسوار المدن على الطراز القوطى الذى اكتسب مسحة مدنية مميزة فى هذه الأبنية عن الكنائس .

ويرجح أن تكون النسبة القوطية قد لحقت هذا الطراز بقصد التمييز بينه وبين فنون اللاتين الكلاسيكية ؛ واعتاد المهندس الإنجليزى العظيم سير كرستوفر رن Christopher Wren فى القرن السابع عشر أن يطلق هذه التسمية على هذا الطراز بقصد التهكم والسخرية منه .



وستمنستر آبى (لندن) من الداخل

ويمتاز هذا الطراز بأبراجه العالية ذات القمم المخروطية أو الهرمية ، والأطراف الحادة ، والعقود المدببة ، وكثرة التفاصيل المعارية والزخرفية ، واستعمال الدعائم السائدة من الخارج ، وبأحجاره الصغيرة الحجم القليلة السمك ، وبملاطه المتين على رقته بحيث لا تكاد تميزه العين .



(أ) ←



(ب) ←

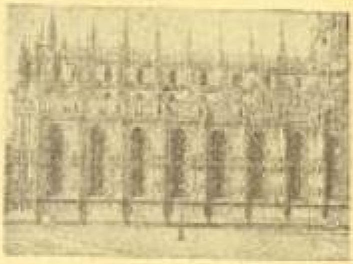
كنيسة نوتردام دپاري (باريس)

استخدم هذا الفن الحجر إلى أقصى درجة ممكنة ، وبلغ البناءون في نحته وتكييفه حداً يشهد لهم بالتفوق ، فتراه منحوتاً بأحجام صغيرة لبناء الحوائط والدعائم ، ونجده في السقوف يستخدم مكان الخشب في التغطية . وذهب المزخرف في استخدامه في أغراضه الخاصة إلى حد بعيد ، فصنع منه حليات دقيقة زين بها النوافذ والأركان والسطوح عامة ، وهي في مجموعها زخارف دائرية أو مثلثة أو على شكل أوراق الأشجار أو الأزهار أو الصلبان أو أسنان المنشار . ونحت النحات تماثيله وركبها فوق أركان الواجهات كما كان النحات الكلاسيكي يحلي أركان المعابد بالتماثيل . وتسترعي النظر تلك الدعامات السائدة التي تقوى الحوائط الخارجية ، وكذلك الدعامات الطائرة (Elying Buttresses) وهي دعامات تقوم على مسافات من حوائط البناء الخارجية ، تتصل بالبناء من أعلاه على شكل جسر ، ولا تكون هذه الدعامات إلا في حالة ارتفاع الحوائط ارتفاعاً شاهقاً يخشى منه على بقائها قائمة مع الزمن ؛ وأكثر ما تظهر تلك الدعائم الطائرة في الأبنية الدينية ؛ ومما يجتذب نظر المشاهد في هذه الأبنية الزخارف الحجرية التي تحلى فتحات الأبواب والنوافذ على أشكال هندسية



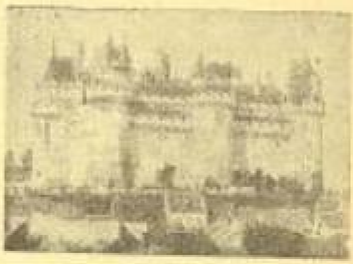
كاتدرائية كولونى (ألمانيا) من الداخل

مختلفة تنقسم بهما النافذة انقساماً شكلياً إلى عدة نوافذ ، وهي زخارف مخرّمة تشبه « الدانتلا » شاع استعمالها في أوربا في القرن الخامس عشر بوجه خاص . وأول معنى يجب إلى النفس عند رؤية الكتدرائية القوطية بأبراجها العالية ذات النهايات المدببة ذاهبة في الفضاء ، ذلك المذهب الفريد في تقابل أو انفراد ، هو معنى الطموح والتسامي الذي قصد إليه معماريو هذا الفن . ويظهر في هذا الطراز جد يبعثه في النفس ذلك التعقيد المعماري والزخرف الذي يمتاز به .



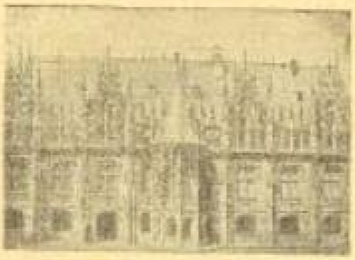
كاتدرائية ميلان (إيطاليا) من أبدع أمثلة العمارة القوطية الإيطالية

ويحس الداخل إلى هذه الكنائس سكوناً رهيباً هو نتيجة لسيادة الحجر في تلك المباني مما ساعد على حجز الأصوات الخارجية ؛ وفي هذا السكون تدوى الأصوات دوياً وتتردد الحركة الصوتية . أما الدعائم الداخلية التي تحمل العقود المدببة ، فهي أشبه ما تكون بمجموعة من السواري الخشبية ضم بعضها إلى بعض وتفرعت من أعلاها فروع كفروع الشجرة تحمل السقف المعقود ، وكلها من الحجر المنحوت في دقة عجيبة .



قلعة بيير فوند : مثال من أمثلة العمارة القوطية الحربية (فرنسا)

وسقف الكتدرائية القوطية من النوع المعروف بالعقود المتقاطعة أو التي تتقابل في زوايا قوائم ، تبرز نقطة التقاطع فيها وتتدلى منها حلية ما ، وذلك كله من الحجر الذي أكثر المعمار القوطي من استخدامه .



محكمة روان (فرنسا)

ومما تجدر ملاحظته أن العمارة القوطية اختلفت في أوربا من بلد إلى آخر بعض الاختلاف كما اختلفت في البلد الواحد من وقت إلى آخر ، ولكن جوهر الطراز بقي قائماً رغم هذه الاختلافات المحلية والزمنية .

ومن أشهر المباني القوطية الطراز كاتدرائية « إيلي » وكاتدرائية « بيتربره » وكاتدرائية « نورتش » و « كنتربرى » و « وستمنستر أبى » وكثير غيرها في انجلترا .

ومن أشهر أمثلتها في فرنسا كنيسة « نوتردام دبارى » وهي من أروع أمثلة البناء القوطي وكاتدرائية « ريمس » وقلعة « بيير فوند » Pierrefonds ومحكمة « روان » وبلديتها



بلدية غنت (بلجيكا)

ومن أشهرها في بلجيكا كتدرائية « أنتورب » وبلدية « غنت » .

دراسات عن قادة الفكر فى الإسلام :

بحوث فيزيقية من «رسائل إخوان الصفاء»

للأستاذ عبد الحميد حمدى مرسى

تحدثت فى مقالين سابقين نشرتهما مجلة « الثقافة » القراء عن بعض أصول فى علم الصوت ، وقرنتها بقول « إخوان الصفاء » فيها . واليوم أعود إلى هذا الموضوع إذ لا تزال له بقية تتضمن أهم أصول هذا العلم وأعمقها .

وموضوع مقال اليوم هو « شدة الصوت والعوامل التى تؤثر فيها » ، والمرجع الذى أعتمد عليه فيما أضيفه لهؤلاء الإخوان من أقوال وآراء عن هذه الظاهرة الصوتية هو « رسائل إخوان الصفاء » المطبوعة بالمطبعة العربيـة بمصر سنة ١٩٢٨ م .

وسيأتى ذكر « الصونومتر » فى موضع من مواضع هذا المقال ، وفى المقالات القادمة إذا شاء الله ، فيحسن أن نصفه وصفاً موجزاً ليكون ما يدور حوله من الكلام مفهوما واضح الدلالة . فالصونومتر آلة صوتية تستخدم كثيراً فى معامل الطبيعة ، فلا يمكن الاستغناء عنها ؛ فهو يستخدم فى توضيح الاهتزازات المستعرضة فى الأوتار ، وفى توضيح معنى سعة الذبذبة ، كما يستخدم فى إثبات قوانين اهتزازات الأوتار التى توضح تأثير العوامل المختلفة فى درجات النغمات التى تصدرها الأوتار ، كما يُستخدم فى مقارنة تردد شوكة رنانة بتردد شوكة أخرى ، وبذلك يمكن تعيين تردد شوكة مجهول ترددها إذا علم تردد شوكة أخرى ، وذلك عن طريق المقارنة ، كما يستخدم فى توضيح ظاهرة الاتحاد النغمى ، فهو جهاز نافع وضرورى لا يمكن الاستغناء عنه .

وللصونومتر أشكال مختلفة بقدر ما يدخل عليه من التحسينات المختلفة ، ولكنه فى جميع أشكاله يتوقف عمله على فكرة أساسية واحدة ، وهى تضخيم أصوات الأوتار المشدودة عليه ، كما سنبين ذلك فى الموضع المناسب .

ونثبت هنا وصف أحد الصونومترات : فهو يتركب من صندوق خشبى رقيق الجدار ، به فتحتان جانبيتان ، يحمله قائمان رأسيان ، وتوجد فوق غطاء الصندوق قنطرتان من الخشب ثابتتان يمر عليهما سلك معدنى مثبت أحد طرفيه فى الصندوق ، ومعلق فى طرفه الثانى الخالص الذى يمر فوق بكرة جملة أوزان مختلفة ، يمكن بواسطة تقليلها أو تكثيرها تغيير درجة توتر السلك ، وكذلك يوجد عادة أسفل الوتر قنطرة من الخشب متحركة على مقياس مدرج على طول سطح الصونومتر ، وفائدة القنطرة المتحركة تغيير جزء الوتر المهتز ، وفائدة المقياس تقدير طول هذا الجزء المهتز من الوتر ، ويمكن أن تشد أوتار أخرى بهذه الطريقة على سطح الصونومتر عند إجراء التجارب المختلفة عليها .

وفى ألمانيا كاتدرائية «راتسبون» وسان ستيفن فى فينا .

وفى إيطاليا كاتدرائية «ميلان» التى تكثر فيها النهايات الرفيعة المسددة فى الفضاء كالرماح ، وتبلغ المائة عداً ، وقصر « الدوج » Doge فى البندقية المشرف على مياه اللاجون ، وكاتدرائية « بالرمو » وقصر الدوق بها .

ومن أشهر الأبنية التى صممت على الطراز القوطى فى العصور الحديثة ، البرلمان الانجليزى ، صممه سير « تشارلس بارى » Barry على الطراز القوطى ، فجاء غاية فى الروعة والفخامة وشاهداً على ما لهذا الطراز من جمال خاص .

ابرهيم جمعة

دبلوم معهد الدراسات العليا فى الآثار الإسلامية

شدة الصوت :

تتوقف شدة الصوت على عدة عوامل مختلفة تناول بعضها « إخوان الصفاء » بالبحث فى رسائلهم . فالمسافة وسعة الذبذبة وحركة الهواء وشدة الرياح وملامسة الجسم المصوت لأجسام رنانة وكبر سطح الجسم المصوت ، هى من العوامل التى تؤثر فى شدة الصوت ، وهى العوامل التى عرض لبحثها « إخوان الصفاء » . أما أثر كثافة الوسط الذى ينتقل فيه الصوت فلم يفطنوا إليه . ونحن نعرض فيما يلى لهذه العوامل .

أولا — المسافة :

إذا وضعت أذنك بالقرب من مصدر صوت ثم ابتعدت تدريجياً فإن شدة الصوت تضعف ، وأما إذا قربت من هذا المصدر فإن شدة الصوت تزداد . وذلك لأنه إذا حدث صوت فى الهواء المطلق ، فإن التموجات الصوتية تنتشر فى الطبقات الهوائية المحيطة بمصدر الصوت من جميع الجهات على شكل كرات مركزها ذلك المصدر ؛ فكلما بعدت المسافة عن مصدر الصوت ضعف تأثيره فى الأذن ، ويقال حينئذ إن شدته أخذت فى النقصان ؛ ويمكن التحقق من ذلك عملياً بوضع الأذن بالقرب من مصدر صوت مستمر كساعة حائط ، وإبعاد الأذن عنها وتقريبها منها .

وفى هذا المعنى يقول « إخوان الصفاء » :

« ... وإذا كان الهواء ساكناً وصل ذلك الصوت إلى الحاسة إذا كان فى مكان يمكن أن يتصل به ذلك التموج والحركة الحادثة فى الهواء ، فأما إذا كانت المسافة بعيدة فإنها لا تدركه ، وتتلاشى تلك الحركة وتنفد قبل وصولها إليها ... » (ج ٣ ص ١١٩ س ١٢) .

ثانياً — سعة الذبذبة :

إذا شد وتر على صونومتر وجذب عند منتصفه ثم أطلق ، يلاحظ أنه يهتز كقطعة واحدة ما عدا نهايتيه ، ويلاحظ أن شدة الصوت الذى يصدره الوتر أثناء اهتزازه تتضاءل تدريجيا كلما تضاءلت سعة الذبذبة حتى ينعدم الصوت عندما يرجع الوتر إلى وضعه الأول قبل إزاحته ، أى عندما يسكن وبذلك تصير سعة الذبذبة صفراً .

وكذلك عندما يصطدم جسمان ، فإن كانت الصدمة قوية كانت سعة اهتزازهما أولا كبيرة ، وتكون شدة الصوت الصادر عن اصطدامهما كبيرة ، وهى لا تلبث أن تضمحل تدريجياً باضمحلال سعة اهتزازات الجسمين المهتزين ، حتى إذا ما سكن الجسمان انعدم الصوت كذلك .

وفى هذا المعنى يقول « إخوان الصفاء » :

« ... وإن كانت (أى الأوتار) متساوية فى الغلظ والطول والحزق (شدة التوتر) مختلفة فى النقر (أى شدة الإزاحة) كان أشدها نقراً أعلاها صوتاً » . (ج ١ ص ١٤٢ س ٩) .

وفى موضع آخر يقولون : « ... وأما الجهير والخفيف من الأصوات فبحسب قوة الحركة وضعفها ... » (ج ٣ ص ١٤٦ س ٣) .

وفى موضع آخر يقولون : « ... إن علة عظم الصوت إنما هى بحسب عظم الأجسام المصوتة وشدة صدمها وكثرة تموج الهواء فى الجهات عنها ... » (ج ١ ص ١٣٨ س ٢١) .

ثالثاً — حركة الهواء واتجاه الرياح :

تختلف شدة الصوت باضطراب الهواء واتجاه الرياح ، بدليل أن الصوت ينتشر بانتظام وقت أن يكون الهواء ساكناً ، بخلاف ما إذا كان الهواء مضطرباً ، فإن شدة الصوت فى اتجاه هبوب الرياح تكون أقوى منها فى الاتجاه المضاد إذا تساوت المسافة ، ويتعذر سماعها على الأذن إذا كانت الرياح هوجاء تأخذ سيرها فى جميع الاتجاهات .

وفى هذا المعنى يقول « إخوان الصفاء » : « ... وأما حاسة السمع فإنها لا تكذب وقلما تخطئ ، وذلك لأنه

ليس بينها وبين محسوساتها إلا واسطة واحدة وهي الهواء ، فإنما يكون خطؤها بحسب غلظ الهواء ورقته ، وذلك أنه ربما كانت الريح عاصفة والهواء متحركا حركة شديدة ، فيصوت المصوت في مكان قريب من السامع فلا يسمع من شدة حركة الهواء وهيجانه ، فتكون حركة ذلك الصوت يسيرة في شدة حركة الهواء وهيجانه ، فيضعف عن الوصول إلى الحاسة السامعة » ، (ج ٣ ص ١١٩ س ٦) .

رابعاً — معونة الأجسام الرنانة :

إذا طرقت شوكة رنانة بجسم صلب ، فإنها تهتز ويسمع لها صوت ضئيل ، فإذا وضعت على صندوق أجوف رنان من الخشب الرقيق يلاحظ ازدياد شدة الصوت الصادر عنها ؛ وكذلك يسمع للأوتار المهتزة في الهواء صوت ضعيف ؛ ولكن إذا شدت على صناديق رنانة كما في العود والقانون والرباب والكمان يزداد صوتها شدة .

وقد لاحظ « إخوان الصفاء » هذه الظاهرة فنجدهم عند وصفهم للعود يقولون : « . . . ينبغي أن تتخذ الآلة التي تسمى العود خشبا طوله وعرضه وعمقه يكون على النسبة الشريفة وهي أن طوله مثل عرضه ومثل نصفه ، ويكون عمقه مثل نصف العرض وعنق العود مثل ربع الطول ، وتكون ألواحه رقاقاً متخذة من خشب خفيف ، ويكون الوجه رقيقاً من خشب صلب خفيف يطن إذا نقر . . . » (ج ١ ص ١٤٩ س ٢) .

خامساً — سطح الجسم المصوت :

كلما يتسع سطح الجسم المصوت المهتز يكثر سطح الهواء اللامس له ، كما تكثر اهتزازات الجسم نفسه ، فتشتد اهتزازات الهواء وحركاته ، ويحدث عند ذلك تضخيم الصوت الصادر عن مثل هذه الأجسام وتكبيره ، فالأجراس الصغيرة أصواتها أقل شدة من أصوات الأجراس الكبيرة ، وكذلك أصوات الطبول والدفوف الصغيرة صوتها أقل شدة من أصوات الطبول والدفوف الكبيرة .

وكذلك الأجسام إذا تصادمت ، فما كان منها أكبر جسما كانت أصواتها أقوى شدة ، وما كان منها أصغر جسما كانت أصواتها أضعف شدة ؛ وعلة ذلك كما تقدم قلة الاهتزازات التي تحدث في سطوحها وكثرتها في الأجسام الصغيرة والأجسام الكبيرة على الترتيب وما يترتب على ذلك من ضعف اهتزازات الهواء اللامس لها وقوتها .

وقد فطن « إخوان الصفاء » لهذا العامل فيقولون : « . . . فأما الكبير والصغير من الأصوات فإن المثال فيها أصوات الطبول الكبار والصغار ، وذلك أن أصوات طبول المواكب إذا أضيفت (أي نسبت) إلى أصوات طبول الهو كانت كبيرة ، وإذا أضيفت إلى أصوات طبول الكوس كانت صغيرة ، وإذا أضيف صوت الكوس إلى صوت الرعد كان صغيراً ؛ وعلى هذا المثال تعتبر الأصوات في الصغر والكبر بإضافة بعضها إلى بعض . . . » (ج ٣ ص ١٤٥ س ١١) .

ملاحظة : ويخبرنا « إخوان الصفاء » عن الكوس فيقولون : « والكوس هو طبل عظيم يضرب في ثغور خراسان عند النفير ، يسمع صوته من فراسخ » (ج ١ ص ١٤١ س ٦) .

وفي موضع آخر يقولون في هذا المعنى :

« . . . والأجسام الكبار العظام إذا تصادمت يكون اصطدامها أعظم من أصوات ما دونها لأن تموج هوائها أكثر ؛ وكل جسمين من جوهر واحد ، مقدارهما واحد وشكلهما واحد ، إذا تصادما معاً فإن صوتيهما يكونان متساويين . . . » (ج ٣ ص ١٤١ س ٢٣) .

نكتفي بهذا القدر الآن ، وسنتحدث في مقال قادم عن درجة الصوت والعوامل التي تؤثر في درجات الأنغام التي تصدرها الأوتار والأعمدة الهوائية المهتزة .

عبد الحميد حمدي مرسي

٣ – وطنــــه الحبيب . . .

مترجمة عن بيرل بك

للأستاذ صلاح الدين ذهني

تلخيص :

رفضت مولى كي أن ترحل مع جون ديوى شانج إلى الصين بعد أن أتم تعليمه ، فسافر وحده محطم القلب ، وقد تركزت آماله صوب هدف واحد هو خدمة الوطن . ولكن آماله تهدمت حين رأى ما عليه هذا الوطن من شقاء ، فقر رأيه على أن يرحل إلى البلدان الداخلية ، علّه أن يجد فيه صورة الوطن الجميلة التي رسمتها له أحلامه وأقاصيص الأم منذ الطفولة

سارت الباخرة الهرِمة المزدحمة بمئات الحجاج اليممين صوب أحد المعابد القديمة ، تقل بين ركابها جون ، وبين جنبيه بقية من أمل فى الوطن الجميل ، الوطن الساحر ، ذى الأرض السوداء الخصبة ، والنسوة الوديعات تضطرب بين جنوبهن أرواح صافية ، كروح تلك الأم التى غرست فى نفسه آمالا مشرقة .

كانت الباخرة تسير كأنها مريض قد أثقلت قدميه وطأة الداء ، وكان جون لا يجرؤ على مغادرة غرفته الصغيرة إلى سطح الباخرة ، فقد حاول ذلك غير مرة ، فأرجعته جيوش الذباب التى تهوم فى كل مكان كأنها من بين ركب السفين .

أىُّ حسرة دبت فى نفسه وهو يرى هؤلاء الشبان من الرجال تلوثهم الأقذار ، وتكشف عيونهم عن شتى الأمراض تنوء بها أجسامهم ؟ هؤلاء هم مواطنوه الذين طالما حن لرؤيتهم . إنه ليشعر بأنه لا يمت لشكل هؤلاء بصلة ، رغم اتفاق السحنة واللغة ولون البشرة . حاول أن يقنع نفسه لغير مرة أن هؤلاء هم أهله وعشيرته فلم يفلح ، مد بصره مرات كثيرة من مرة خلال نافذة غرفته الصغيرة نحو ضفة النهر ليتنسم نسيم الوطن ويرى أرضه الساحرة ، فردته رائحة الأقذار القوية تنبعث من كل مكان كأنها غلاف يحيط بالسفينة . لقد لمح غير مرة على ضفة النهر أرض الوطن ، ولكنها لم تكن كما صورت أحلامه ، كانت شيئاً آخر تمنى حين رآه لو عاد ثانياً إلى نيويورك . كلما رست به السفينة ، وأتيح له أن يتحامل بجسمه الذى ضعضعه الفشل ليلقى نظرة على الميناء ، لم تطالعه إلا وجوه صفراء باهتة كوجهه ، ولكنها غارقة فى الأقذار والذل ، لقد لمح هذا الذل فى كل شئ ، لمحه فى مئات الشحاذين يسألونه الصدقة فى لهفة وجوع ، ولمحه فى النساء اللواتى يترقبن فضلات الطعام التى يلقى بها الحجاج كأنها عظام تلقى لبعض الكلاب ، ولمحه أخيراً فى نظرات الحسد التى يختلسها الكهول المستندون إلى جدران الميناء يرمقون بها الحجاج فى الباخرة . ترى أكانوا يحسدونهم على رحلة الحج ؟ أم على أنهم يملكون رداء يسترون به أجسامهم ؟ أم على أن لهم من القوة ما يعينهم على الحركة والكلام ؟ . . .

الذل ، والفقر .

ذلك هو الوطن الذى رآه كلما رست الباخرة على مرفأ من المرافئ المنتشرة على شاطئ النهر !

الجوع . الجوع فى كل مكان . حتى هذا الذباب الذى يهوم على مئات الوجوه كأنمـا يئس من أن يجد غذاءه فى هذه الأجساد النهالكة ، فهو يروح ويجىء فى جنون اليائس .

حن إلى نيويورك حنيناً دفعه إليه اليأس الذى تسرب إلى نفسه والذى كان يزداد كلما خطت الباخرة شبراً متغلغلة فى صميم الوطن .

كان هذا اليأس يتسرب إلى نفسه كأنه يقظة بطيئة مفزعة من حلم جميل ، فأحس أنه فى حاجة إلى العزاء وإلى أن يبث آلامه ، فأمسك بقلمه وشرع يكتب .

لم يكتب لوالده ولا لأصدقائه ، وإنما كتب إلى موالى ، شعر بالراحة وقلمه يخط إليها أحزان نفسه فمضى فى الكتابة . قال لها فى أول رسالته إنها كانت على حق حين رفضت أن ترحل معه ، ثم تحدث عما يعانيه من مرارة الوحدة وقسوة الفشل على نفسه . كأن شيئاً غير عقله الفكر على عليه ، حتى إنه حينما ألقى بالرسالة إلى صندوق البريد سأل نفسه أكثر من مرة : لم كتب لها ؟ فلم يظفر بجواب يرتاح إليه العقل ، وإن كان قد داعب قلبه شعور وحى بالراحة والعزاء .

لم يصله رد على رسالته ومع ذلك فقد كتب ثانياً ، كتب كأنما كانت جرعة العزاء قد ضعف مفعولهـا فكرر الدواء . تسلل إلى قلبه إلهام خفى أنه يكتب لإنسان يستمع إلى شكايته ويألم لأحزانه ، فكتب ثالثاً ورابعاً . وفى إحدى رسائله كتب يقول : « حـذرَّ الأقذار والشحاذين لا أجرؤ أن أغادر غرفتى ، فإذا خرجت مرة فقد كتب علىَّ ألا أنتبه إلى شىء إلا إلى حافظة نقودى وساعتى ، فإن غفلت عنهما لحظة واحدة نشلتا بسرعة البرق . إنهم هنا فى أرض الوطن يخطفون كل شىء ، ويسرقون كل شىء ، ولا حيلة للمرء إلا السكوت » .

عاد يوماً إلى الفندق منهوك القوى بعـد يوم قضاه فى عمل يتعلق بتجارة عمه ، فوجد رسالة قد حولت إليه من حانوت عمه آتية من نيويورك ، لم يكد يفض غلافها حتى اشتمله شعور فرح عميق جعله يتردد برهة قبل تلاوتها .

لقد كانت من موالى . لقد كتبت إليه آخر الأمر هذه الفتاة المرحة التى لا تعنى بشىء . أى شعور بالسعادة غمره وهو يقرأ كلماتها الشجية التى تفيض عطفاً وعزاء ؟ هذه الكلمات المرحة التى كان لا يطيق سماعها منها أيام كانا جارين فى السكن وصديقين فى الطفولة ، لشد ما تغيرت نظرته إلى هذه الكلمات المرحة ؛ فقد أصبح يرتاح إليها بل ويفرح بها . لقد قرأ الرسالة مرات كثيرة ، واستوقفه فى كل مرة قولها فى إحدى الفقرات : « وماذا كنت تظن يا صاح أن تكون عليه حال بلادك ؟ لشد ما أتمنى أن أكون بجانبك لأشد من عزيمتك وأبعد عنك هذا اليأس الذى يشيع فى نفسك . إنى لأرجو أن أحضر إليك ، لا للتزوج فأنت تفهم جيداً ميولى ، وإنمـا الغرض آخر هو أن أحاول جهدى أن أبذل ما أستطيع فى إصلاح هذا البلد إن كان حاله على ما ذكرت من السوء والشقاء » .

أغلق الرسالة بعد أن تلاها أكثر من مرة ، ثم ألقى نظرة من نافذته إلى الطريق ، إلى هـذه الأزقة المظلمة ، وقد انتشر الناس رجالا ونساء على جنباتها فزعين من الحر فاختلطت أصوات الكلاب النابحة فى ضعف من ألم الجوع بأصوات الأطفال يولولون فى ذل من ألم الجوع ، فارتد بصره فى سرعة وقد اعتراه الخجل وعادت إلى ذاكرته رسالتها مرة أخرى فردد فى همس قولهـا : « إنى لأرجو أن أحضر إليك » فخالجه شعور عميق بأنه لا يتمنى ذلك . لا يرغب قط أن تحضر موالى وترى ما يراه من شقاء الوطن ، أجل ؛ إنه لا يحب أن تحضر موالى أبداً . لقد جلس إلى المنضدة يكتب إليها الرد ، فجرى قلمه بعبارات الشكر وكانت كل كلمة من كلماته كأنها قهقهة سخرية مرة

يخالطها الألم والحسرة ، لقد تحولت شكاياته فى رسائله الماضية إلى التهكم ، حاول أن يخفى به ما تفيض به نفسه من حزن موجع ، ولم يَشْكُ شيئاً هذه المرة ، وإنما تظاهر بالشجاعة وعدم الاكتراث . ولم ينس فى ختام رسالته أن يكتب إليها ، وقد لفت نظره مفتاح الكيروسين يرسل ضوءه الخافت الكئيب : « حتى الصباح الذى يضىء لى غرفتى ويبعث إليها شيئاً من النور لا يوقد إلا بالكيروسين المجلوب من أمريكا ، تخبر لك ألف مرة أن تظلى فى أمريكا » .

كان صادق الرغبة فى أن تظل موالى فى أمريكا ، وكان يتمنى أن يعود هو أيضاً إلى هناك حيث قضى الطفولة وشرخاً من الشباب . ولكن أنّى له ذلك . أنّى له أن يعود بعد هذه السنوات التى قضاها فى التفاخر بهذا الوطن ، وبعد أن كان فى دراسته يمثل فكرة التطرف فى الوطنية ، ورأس جماعات الطلبة الصينيين الذين يحدبون فى الوطن . لقد تقرر مصيره هو على هذا الوجه الحزن ، وليس من العدل أن يدفع إلى هذا المصير فتاة أحبها وكانت أبعد منه نظراً حين أجفلت من الأوبة إلى أرض الوطن .

ولكن موالى حضرت رغم كل شىء ، حضرت أخيراً حين تمنى هو أن لا تحضر . إنها لم تكن كما تصورها فتاة لاهية مستهترة . على العكس من ذلك ، إنها كانت تفهم الحياة حق الفهم . لقد كانت تحب الوطن كما يحبه ، ولكنها كانت أكثر تقديراً للظروف بطبيعتها العملية من نزعته الخيالية المحضة . كانت تدرك أن فتى وفتاة فى ميعة الصبا لن يستطيعا أن يغيرا من حال الملايين الغارقة فى الذل والشقاء والأمراض ، ولذلك سخرت من فكرته حين أعلن عن رغبته فى العودة إلى الوطن ، وأدركت ما سيعانيه شاب تربى فى محيط غربى متمدين حين يلقى نفسه فى بلد إن ربطته بأهله رابطة السحنة والدين والأصل فلن تجمعه وإياهم رابطة الأخلاق والتربية والبيئة . لم تكن تتبرأ من الوطن حين زعمت له أنها أمريكية ، وإنما كانت تقر أمراً واقعاً : إن من تربى فى وسط المدنية لا يستطيع أن يصنع شيئاً فى بلد متأخر غارق فى ظلمات الشقاء ، إلا أن يحمل نفسه من المضايقات ما لا يطيق .

آية ذلك أن موالى قد حضرت إلى الصين حينما أصبحت أمام الأمر الواقع ، وحينما رأت أنه أصبح وحيداً فى هذا الوطن يعانى وحده الأليمين ، ألم الوحدة وألم الفشل الذريع ، وحين عرفت أنها تستطيع أن تعمل شيئاً لهذا الوطن هو على الأقل أن تخفف العناء عن أحد أبنائه .

لقد كتبت فى رسالتها : « وأخيراً سأحضر يا جون . لقد غيرت فكرى آخر الأمر وأيقنت أن الوطن القديم فى أشد الحاجة إلىّ الآن . على الأقل لأنى أستطيع أن أعمل شيئاً لأحد أفراده . لأنى أستطيع أن أقف بجانبك أنت ، لقد أعددت تذكرة السفر وسأحضر مع والدى لأن له أعمالاً بالصين ، أما أنا فعملى الوحيد هو أنت . . »

أغلق الرسالة واضطربت فى نفسه شتى الخواطر ، أحقاً أن موالى قادمة إلى الصين ؟ أحقاً أنها خلال هذه الأيام التى يقضيها قلقاً مضطرباً ، تأخذ طريقها إليه بين مئات من الذاهبين إلى الصين بين أجنبى يمضى لعمل وبين آيب إلى الوطن تملأ نفسه الآمال — مثله هو حين آب إلى أرض الأحلام ؟ لم يدر ماذا يفعل . خطر له أول الأمر أنه يجب أن يصلح كل شىء قبل أن تحضر ، وتجسد له هذا الخاطر أمراً لا بد منه حين قفزت إلى رأسه صورة ما رآه من الجهل والقذارة فى كل مكان . كبر عليه أن ترى موالى ما رآه حتى تمنى لو أتيح له أن يحجب عن عينيها كل شىء ، وسارع بما معه من النقود فاستأجر منزلاً صغيراً فى الحى الأوربى فى المدينة ، وابتاع بعض

الأثاث مما يحتاج إليه زوجان يعيشان حياة أمريكية متواضعة ، وحرص على أن يكون المنزل الذى يستأجره محاطاً بحديقة صغيرة لكى يحقق ولو جزءاً صغيراً من حلمه فى عش الزوجية القديم .

***

بعد أسبوع واحد كان يجلس إلى موالى فى المنزل المتواضع الذى استأجره .

جلس يتأمل وجهها وقد جلست قبالته على المائدة فلمح شيئاً من التغير نم عليه محياها . لقد كانت فى نيويورك فتاة مرحة تستهتر بكل شىء ولا تخضع لإنسان . أما الآن فقد غادرها المرح المستهتر وحل محله هدوء عجيب ! حتى لقد حدث نفسه أن ذلك بدء الملل والسأم وخيبة الآمال .

وسألته مرة وقد جلسا إلى الطعام :

— أين ما زعمت لى من القذارة والشقاء فى هذا البلد ؟ .

فأجابها وقد تجنب أن يلتقى نظراهما :

— لقد كانت موجة من التشاؤم والملل ليس إلا .

ولكنها لم تكن موجة من التشاؤم كما زعم لها . لقد كان الشقاء والقذارة حقيقة لا ريب فيها جهد أن يجنبها مرآها ، لقد حرص على أن يحيطها بجو لا ترى فيه شيئاً مما وراء ، فى ذلك الحى الغربى من المدينة لا تبدو تلك الوجوه التى تنطق بالفاقة والمرض ، ولا يلمح الانسان إلا وجوهاً أمريكية أو أوربية يملؤها المرح والسرور والنشاط . ولقد ظن أول الأمر أن موالى لن تخرج من هذا الجو الذى أحاطها به ولكنه كان واهما .

لقد بدأت تتعلم الصينية من الخادمة التى كانت تعاونها فى شئون المنزل ، ولم يمض شهران حتى سألته صباح أحد الأيام رأيه فيما إذا خلعت ملابسها الأمريكية وارتدت رداء وطنياً . فلما عارضها فى ذلك أجابته قائلة :

— مهلاً . لا تتسرع فى الحكم قبل أن ترانى فى ذلك الزى بعينيك .

وفى المساء عندما أقبل إلى المنزل كانت موالى تستقبله على المدرج وقد ارتدت رداء وطنيا فبدت فى الصورة التى كان يتمثلها خياله لبنات الصين ، فابتسم فى تردد وسألها حذراً :

— ألا تشعرين بشىء من الغرابة فى هذا الزى ؟

وأجابت مسرعة :

— غرابة ؟ إنى على العكس أشعر أنى لم أرتد زياً يليق بى قبل اليوم .

ولكنه ظل بالرغم من كل ذلك قلقاً يتوقع أن يعتريها الملل ، فقد كان يعتقد أنها فى هذا الحى بمأمن من رؤية الأحياء الوطنية حيث يبعث كل شىء على الضيق والسأم ، فلو أتيح لها أن تخرج من هذه الدائرة لحدث ما لا يتمناه وقد يحدث ذلك فى أى يوم .

كان يتجنب أن يتحدث معها عن أى شىء يحدث فى البلد ، حتى أنباء الحرب الداخلية والمجاعات عندما كانت تسأله عنها كان يتحاشى فى إجابته أن يذكر لها كل ما يعرف عن فظائعها وأهوالها ، وكانت تحس منه هذه الرغبة ، فتعمدت ألا تقلقه بأسئلتها ، حتى جاء يوم أصبح فيه علمها بكل شىء على صورة لم تخطر فى باله .

كان ذلك فى صباح يوم من أيام الربيع ، بعد أن حال عليهما الحول الثانى وأصبحت موالى حاملا فى جنين يخطو فى شهره السابع نحو الوجود .

دوت فى الفضاء طلقة مدفع ، وتتابعت وراءها الطلقات ، وامتلأ الجو بزوبعة من الدخان أخذت تتجمع مرتفعة صوب الشمال ، فنظر جون إليها فى ارتباك وحيرة وقد عرف كل شىء . لقد كانت تلك الطلقات نذير الحرب بين الصين واليابان ، فقد وصلت طلائع الجيش اليابانى إلى

الشاطئ" وبدأت مدوانها بأن أطلقت نيرانها على الميناء.

التفت إليها وقال :

— مولى . لا تخاف شيئاً . إنى بجانبك وسوف أعنى بك .

تمنى فى هذه اللحظة مرة ثانية لو أن مولى لم تحضر إلى الصين وظلت فى حى موت بنيويورك . بل تمنى لو أنه هو ظل هناك ولم يحضر أيضاً .

لم يعد هناك شيء يستطيع إخفاءه عنها فزاد فزعه ، ولم يصبح الأمر أمر القلق عليها من الملل والسأم ، وإنما أصبح أمر حياتها ، أمر هذا الخطر الداهم الذى يقترب فى سرعة قاتلة ، والذى بدت مظاهره من تدفق الوطنيين إلى الحى الأمريكى هروباً من خطر اليابانيين .

وخطر له أن يذهب إلى المدينة ليتنسم أخبار الحرب فغادر المنزل وسار فى طريقه مضعضع الحواس ، وقد شغله الحزن الذى استحوذ عليه عن أن يرى تلك الجموع الهائلة من أبناء وطنه وهى تغدو وتروح فى حيرة وقلق ، وقد عقد ألسنتها الخوف . كان منظراً يفتت الأكباد أن ترى كهلا تحرق جسده الأمراض يدفع فى وهن عربة صغيرة قد حمل عليها كل متاعه المؤلف من زوجة هى كومة من العظام وأبناء كلهم من ذوى العاهات لا يقوون على السير ! !

ولكن جون لم ير شيئاً من كل ذلك ، كان كل ما يشغل فكره هو مصير مولى وما سيعتريها من الفزع والحزن حين تعلم ما يحدق بهما من خطر ، وحين ترى مرغمة ذلك البلد الذى تعيش فيه وما هو عليه من بؤس وشقاء ، كان يحرص كل الحرص على ألا يثير أحزانها برؤيته ، وكان قد وضعها فى الحى الأوربى بمعزل عن كل ذلك ، فما حيلته الآن وقد انتقلت هذه الجموع من الرجال والنساء والأطفال تحمل أقذارها وأمراضها إلى هذا الحى . إنه لن يستطيع أن يحول دون تدفق هذه الجموع ، ولن يستطيع أن يمنع مولى من مجرد التطلع إلى هـذه الجموع وهى تضطرب فى جزع خلال الحى طالبة المأوى والطعام .

* * *

عاد جون إلى المنزل فى المساء بعد يوم عصيب رأى فيه الأهوال وأحس مدى الخطر المحدق ، وقد توقع أن يرى مولى ملقاة على فراشها مريضة من أثر ما رأت من مناظر مؤلمة ، أو مضعضعة الحواس لكثرة ما سمعت من أصوات القنابل الداوية التى لم ينقطع إطلاقها طوال اليوم .

ولكنه لم ير شيئاً من ذلك ، لم يجد مولى نائمة على فراشها ، وإنما وجد غرفة النوم وغرفة الطعام والردهة ، كلها كأنها خلية من خلايا النحل تموج بالرجال والنساء والأطفال ، من هؤلاء المواطنين الذين تجنب أن تراهم مولى ، كانوا جميعاً كأنهم مرضى فى أحد المستشفيات يقطعون وقتهم بالحديث وبإسكات أطفالهم الذين يقطعون الوقت بدورهم فى البكاء والنحيب .

أسرع يبحث عن مولى فى كل مكان ، حتى وجدها أخيراً فى حجرة الطهى منهمكة فى إشعال النار ، فسألها فى لهفة :

— ماذا حدث ؟ وفيم اشتغالك ؟

وأجابته فى هدوء دون أن تترك ما فى يدها :

— لا شيء يا جون . إنهم جائعون ، هؤلاء التعساء يكادون يموتون من الجوع . لقد خربت منازلهم وأصبحوا بلا مأوى .

— ولكن . مولى ! إننا لا نستطيع أن نطعم كل هؤلاء !

ورفعت مولى رأسها ، كأنها لم تكن تتوقع منه هذا الجواب :

— من قال لك ذلك يا جون . إننا لقادرون على أن نطعمهم .

وتلفت جون فى ضيق كأنما يتنسم شيئاً ثم قال :

— أية رائحة كريهة تلك التى تملأ أرجاء المنزل !

وأجابت مولى فى غضب :

— جون ، يجب أن تخجل من نفسك ، إن هؤلاء الذين تتبرم بهم هم أبناء وطنك !

— لقد جهدت طوال الأيام الماضية أن أباعد بينك وبين هؤلاء بما هم عليه من قذارة وجوع وشقاء !

— لقد كنت مخطئاً يا جون ، لقد كدت خلال هذين العامين أجن من الضيق والملل !

وأجاب فى بلاهة :

— الضيق والملل ؟

— أجل . الملل لأنى لا أجد ما أعمله ، بينما يوجد كل هؤلاء .

— كل هؤلاء ؟! أتظنين أن هؤلاء هم كل شىء ؟ إن هناك الملايين ، وملايين وملايين .

ولكنه لم يتم جملته ، فقد أجابت فى حزم :

— إذاً فقد حلت المشكلة .

— المشكلة ؟ وأى مشكلة ؟

— أن أبقى هنا أو أعود إلى نيويورك .

وحملق فى وجهها بدهشة دون أن يفهم ما تعنى ، بينما نظرت هى إليه فى ابتسام وعطف ، وكأنما أشفقت عليه من حيرته فقالت دون أن تغادر شفتيها ابتسامتها :

— يا أبله ! ألا ترى ما أمامك . لقد كنت أتوق دائماً إلى أن أجد عملا ، وها أنت ترى أن هنا عملا كثيراً .

وبدت لعينيه الحقيقة أخيراً ففهم ما تعنيه . إنها لا تفزع من رؤية هذه الوجوه ، ولا يضايقها أن تختلط بأصحابها ، إنها تدرك أنهم جياع ، وترى من واجبها أن تطعمهم ، أما قذارتهم . . .

وكأنها فهمت ما يجول بخاطره فقد استأنفت حديثها فى حزم قائلة :

— بعد أن يطعم كل هؤلاء سأشرع فى غسل أطفالهم وتنظيف أجسادهم ، وربما أتيح بعد ذلك للكبار أن يغتسلوا بعد أطفالهم .

وقاطعها قائلا :

— ولكن يا مولى من أجل هذا الجنين الذى تحملينه فى أحشائك يجب أن تغادرى هذا البلد إلى أمريكا ، إن الحرب هنا على حال من الفظاعة تدفعنى إلى المسارعة بإنقاذك . . .

ولم تدعه يتم حديثه ، بل اندفعت فى غضب ، وقد وضعت يديها فى خاصرتيها كما فعلت يوم أن رفضت الرحيل معه :

— اسمع يا جون : سيولد طفلى هنا فى البلد الذى يملك وحده حق التصرف فيه ، وبين أهله الحقيقيين .

وتغيرت نبرة صوتها من الغضب إلى لهجة الأمر : « والآن خذ هذا الوعاء واذهب لإطعام هؤلاء التعساء . أسرع قليلا ربك . . . »

. . . وطرق سمعه وهو يغادر غرفة الطهى صوتها يكرر عليه الرجاء قائلة :

— أسرع يا جون ، فلا زال لدينا عمل كثير . . .

(تمت) صلاح الدين ذهنى

زهد كئيب

من قصيدة للاستاذ صادق رستم

قلت حياتي فلا تُرْثَى ولا تُبكَى
وجلّ همي فلا يُحكَى ولا يُشكَى
ما لي أجرّعُه من بعد معرفتي
إني أجرعه حرصاً على تملكا
بُعداً لها من أمانيّ خُدعتُ بها
حتى شممت لها من نتنها مسكا
ليت الليالي اللواتي تلن من عمري
أشبعنني عوض التغرير بي هُلكا
أركبنني من زماني جامحاً صلفاً
صلب العنان وأوهين القوى دكّاً
وخصّ بي حانقاً بالغدر متصفاً
لما احتواني وفُتّكي، ضلّل الفلكا
يامن رأى الحرّ في أسر الحياة ثوى
ميت الرجاء، فلا فكّاً ولا فتكا
اليأس منه مريح والرجاء سدى
خذ يقيناً ولا تعدل به شكا
ما مات ميت خليُّ النفس من أمل
ما كل طالب ملك أوتيَ الملكا

* * *

يا ناثر الشوك في فرشي وبارِيَه
هل أسعفَ النومُ حتى تنثر الشوكا
من كان بين نيوب الدهر مهجته
فليس يؤله جنبٌ إذا شُكا

صادق رستم

من وحي الربيع:

روح الربيع

للأستاذ العوضي الوكيل

قد انتشرَ الجمالُ بكلِّ روضٍ
وأسرعتِ الطيورُ إلى الهتافِ
تحثّ في الدّوحِ أغصُنَه نضاراً
كما تَستنهِضُ الذِّكَرُ الخَوافي
تبرّجَت الطبيعةُ وَهْيَ نَشْوَى
تبرّجَ من تهادَتْ للزفافِ
حيـــاةٌ في المَطالعِ والرّوابي
وأُنسٌ يَطّبيكَ(١) بلا اعتسافِ
أكادُ أُريقُ نشوتَه بشِعْرِي
وأعصِرُ منه أكوابَ السُّلافِ
ألَكِ الزّهرةُ الحسناءُ لحنٌ
تردَّدَ بين يقظانٍ وغافِ ؟
أذاكَ الجدولُ النّعسانُ روضٌ
مَطالِعُهُ تَفَتَّحُ عن قَوافِ ؟
وتلكَ النّفسُ ؟ أمْ مَلأٌ عديدٌ
تَواكَبَ في الأضالعِ والشِّغافِ
تكاثرتِ النفوسُ بكلِّ نفسٍ
تنازعنَ صِرْنَ إلى اختلافِ

(١) يطبي: يستميل.

نهضن إلى الحياة وهن شتى
بنظرة وامق وبشوق واف

* * *

وليت مع الربيع فهل تراني
أتيه به على الدنيا مطاقي !!
وألبس منه أكفاني طراقا
مطرزة الحواشي والحواقي
ولا آلو تراب الأرض شما
ويعض الضم المعهود شاف !

(السنطة) العوضي الوكيل

الساحرة

للاستاذ حسن كامل الصيرفي

أي لحن أبدي — هام في أمواج صوتك !
أي سر عبقري — نام في أحضان صمتك !
فجري الحائر الأ — ولى وأوزان حياتي
حطمي ما ليس في — نفسي حر النغمات !

......

أي فجر ملكي — يغمر العالم منك !
أي شعر بات يروي — ه الندى للقلب عنك !
جدديني فحياتي — تم في ناي ربي
إن هنا لحني حيا — سئمت روحي قربي !

......

أنشديني هنا قربة أشعاري — أنغامها تتجلى
جددي لي المنى فجنة أحلامي — أغصانها تتحلى !

أشعر الآن في كياني حربا
بين روحي وبين حسي وعقلي
كم تقي الحياة من شهوات
وهـــدوء وثورة وتجلي

......

فاغمريني بفجر حبك تنقي
يقظ روحي على صباح مقدس
أطلقيني من الموات فقد طا
ل حنيني لعالم يتنفس

......

فتجربني وحوليني ذاتا
تستطيع الخلاص من كل قيد
يبدأ الشيء في السلام ويجلو
في النضال الشديد من دون جهد

......

أنشديني هنا قطعة آلامي — أشباحها تتبدد
جددي لي المنى فجنة أحلامي — أزهارها تتورد

حسن كامل الصيرفي

عند الغروب

للأديب على ابرهيم الأقطش

تسير وتجريها الغروب فتخجل
وتجهل إلا ضوءها ليس يجهل !
على وجنتيها حمرة غير أنها
يعصفرها برد الأسى والتحمل

أو أن سليطاً قبل الخدّ فجأة
فأطفأ وجنات الخدود المقبّل

* * *

كأن جبينَ الشمسِ وجهُ لعاشق
دعته النوى عما قليلٍ سيَرْحل
تجلّد لكنْ بَيْن عينيه دمعة
وأشفق لكنْ صبره يتعلّلُ
تذكّر أيامَ السعادةِ قلبُه
فحِنّ وهذا مطلعَ النحس مُقبل
وداعا على رغم الأضالع وقعُهُ
وعضباً وما شئنا النوى تتجمل

* * *

أيا شمسُ يُضنيك الذهابُ ولم يكن
عديمَ شروق لم ْ يملّ ويثقل ؟ !
ولم يك هذا اليوم أولَ رحلة
تغيب فى أفق الوجود وتأفل
وإلا فما هذى الغضاضة لا ترى !
وما ذلك النورُ الذى يتململ ؟ !
أحرصاً على عهد الحياة وإنه
لعهد ذميم كم يخون وينصل ! !
وما الليل إلا مرقدُ الشمس تنتهى
إليه فيرتاحُ المسير المؤجل
مسافة أنفاس تعد قليلة
ويُقلن من بعدُ الشروق المهلّل

* * *

لقد يُقبل النومُ الرقيق على الدنى
كما يقبل الموتُ الرهيبُ المضلّل
ويُلقى على كل البقاع سدوله
فترجُف فى الكون الحياة وتجفل
ويفزعُ هذا العقلُ بين وجاره
يضجّ ولكنْ من يجيب ويحفل ؟ !
لأحلى له أن يقطع الليل ساهداً
يحدّق من غمض يحط ويفصل !
وأحلى له أن يقعد الليل ساهراً
ولا يقتربه النومُ والنوم أجمل !
هواجسُ من غيب الفناء مع الدجى
تحوّم لا تنأى ولا تتبدل
كأن الكرى لحدٌ يضم جسومنا
من الضيق لا تخطو ولا تتحول

* * *

وسيان إطباقُ الجفونِ من الكرى
وإطباقها فى الموت فالفكر يُعقل
ونعلم أن الموتَ بعدٌ عن الأذى
وتوديعُ ما يشقى النفوس ويعضل
وأن الكرى ضربٌ من الموت والردى
يحوط بجذب كل نفس ويشمل
ولكننا كم نرفضُ الموتَ والكرى
ونهربُ من رَوْح الرقاد نهلّل !
وقد ترفض النفسُ الجميلَ إذا أتى
بأمثالِ ما يأتى الرقادُ ويحمل

* * *

ألا إنه حبُ الحياةِ وإن تكن
بأوضع عيش نفتديه ونأمل
ولو كان عن رأى يدوم بقاؤنا
لدام لنا العيش الشقى المثقل

على ابرهيم الأقطش
ليسانسيه فى الآداب

في عالم التأليف

في المكتبة العربية

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

مؤلف هذا الكتاب الأستاذ سامي الكيالي الأديب السوري المعروف وصاحب مجلة الحديث الغراء ، وهو يتناول في كتابه تاريخ سيف الدولة مؤسس الدولة الحمدانية وأحد أبطال التاريخ الاسلامي ، ويتتبع نشوء دولة الحمدانيين من بدء ضعف الدولة العباسية إلى قيام سيف الدولة بالحكم واتخاذه حلبا مقراً لحكمه ، ثم يعرض لتاريخ حكمه وحياته بين الغزو طوراً وبين الأدب والشعر طوراً آخر ، دافعاً ما يقوله الكثيرون من أن المتنبي هو الذي خلد سيف الدولة .

ويقع الكتاب في ٢٣٥ صفحة من القطع المتوسط وقد طبع بالمطبعة الحديثة بحلب .

بلبان في الأندلس

وضع هذه القصة الأستاذ أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلواني ، مصوراً فيها الحياة في بلاد الأندلس في الفترة التي سبقت الفتح الاسلامي مباشرة ، جاعلاً أساس قصته الرواية التاريخية عن بليان ولذريق . وقد عنى المؤلف بتصوير الحياة في الأندلس حتى دخول جيش طارق بن زياد .

ويقع الكتاب في ٢٠٤ صفحة من القطع المتوسط وقد طبع بمطبعة العدل بالاسكندرية .

تاريخ الطب في العراق

أهدت إلينا هذا الكتاب الكلية الطبية الملكية بالعراق ، وهو يتناول تاريخ الطب في العراق منذ نشأته على عهد العباسيين وكبار أساتذته أمثال الكندي والرازي وعلي ابن العباس وابن سينا ، ثم تاريخ المدارس الطبية والبيمارستانات إلى أن يصل إلى إنشاء المستشفيات الحديثة في العراق والتطور الذي مرت به ، من بدء مدرسة جنديسابور الطبية إلى الكلية الملكية العراقية .

وقد وضع هذا الكتاب ورتبه الدكتوران هاشم الوتري عميد الكلية السابق ، ومعمر خالد الشابندر خريج الكلية .

وقد طبع الكتاب طبعاً أنيقاً ، وبلغت عدة صفحاته ١٣٦ تخللتها لوحات مختلفة ، وعنيت بطبعه الحكومة العراقية .

الشاطئ المهجور

للأستاذ حسين منصور

يحتوي هذا الديوان من الشعر على أربعة أجزاء ، هي : « على المجرى الأعلى » و « كراسة قصصية » و « وحي القاهرة » و « مع التابع » . وهي في جملتها مجموعة قصائد الأستاذ التي نظمها في مناسبات مختلفة ، وقد قدم لها المؤلف بمقدمة عن طبيعة الشعر ووظيفته .

ويقع الديوان في ٣٥٤ صفحة من القطع المتوسط ، وقد طبع بمطبعة البيت الأخضر بمصر .

أغاني الربيع

ديوان شعر جديد للأستاذ العوضي الوكيل الشاعر ، الذي طالع قراء الثقافة ببعض قصائده ، وهو يحوي أكثر من سبعين مقطوعة ، قدم لها المؤلف بمقدمة عن الأنماط الجديدة في الشعر ، ومهد فيها لطريقته في نظم الشعر .

ويقع الديوان في ١١٠ صفحة من القطع الصغير ، وقد طبع بمطبعة وادي النيل تحت عمر .

ثورة وفتنة في لبنان

هذا الكتاب يصور حلقة من حياة جبل لبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٧٦ ، وقد وضعه أنطون ضاهر العقيقي ، أحد المعاصرين لهذه الحقبة من تاريخ الجبل ، وهو يتناول الحوادث التي مر بها القطر الشقيق في هذه الفترة من حياته . وقد نشر هذا الكتاب وعلق عليه الأستاذ يوسف ابراهيم يزبك . ويقع في ٢٢٥ صفحة وعنيت بطبعه مطبعة الاتحاد ببيروت .

ثائر

مسرحية في أربعة فصول وضعها الأستاذ صفاء مصطفى أحد أدباء لبنان ، وهي تصور مأساة غرامية بين شاب فنان وفتاة متثقفة ، وقد طبعت بمطبعة الكشاف ببيروت وتقع في ١٧٢ صفحة .

مؤلفات غربية

لا يحول الصيف دون وفرة الإنتاج في الغرب ، وهذه نبذ مختصرة من بعض الكتب التي ظهرت خلال الشهر الماضي :

الدفاع عن فرنسا

بقلم ادوارد دلادييه رئيس وزراء فرنسا ، وقد صدر بالانجليزية وهو يحوي مجموعة من خطبه ومقدمة حياة دلادييه بقلم المسيو لا با كليري أحد الكتاب الفرنسيين .

ترجمة حياة

بقلم الأستاذ ر . ج . كولنجود وهي قصة حياته الشخصية كفيلسوف ، وقد قدمها بقوله إن ترجمة حياة الشخص الذي يشتغل بالتفكير إنما هي قصة تطور فكره مع الزمن ، وقد لخص فيها المسائل العقلية التي عرض لها فكره منذ أن اشتغل بالفلسفة وضمنها رأيه في كثير من مسائل الفلسفة .

حياة القريد دموسيه الخاصة

بقلم أندريه فيلير ، وهو كما يبدو من الاسم يتناول حياة دموسيه والعوامل الشخصية التي عرضت له في حياته وأثرت في تفكيره وأعماله الأدبية .

مدخل الى الشعر الفرنسي

بقلم المسيو تييري مولنيير . وهو دراسة نقدية لخصائص الشعر الفرنسي ، متتبعاً مدارسه منذ نشأته إلى اليوم ، مع إيراد التعريف الصحيح للشعر وماهيته وأثره في الأدب .

يوميات أندريه جيد

وقد تناول فيها المؤلف ذكرياته الخاصة للسنوات الأخيرة من عمره .

المتفلتة

قصة جديدة للكاتب المعروف إدموند جالو عضو الأكاديمي الفرنسية ، وهي تتكون من ثلاثة أجزاء، يحمل أولها هذا الاسم والثاني « الرحلة » والثالث « الدهشة » .

أمريكا عام ٣٩

بقلم أندريه موروا عضو الأكاديمي الفرنسية ، وهو يوميات عن رحلته إلى أمريكا ، تناول فيه رأيه في الشعب الأمريكي وطرق تفكيره ونظرته إلى أوربا وفرنسا بوجه خاص .

أنباء وآراء

غاية التعليم



كتبت مرجريت لين إحدى كاتبات الإنجليز المعاصرات مقالاً في « اليكتشر بوست » تساءلت فيه عن الغاية التي يجب أن يتجه إليها التعليم في العصر الحديث : أهي إعداد الأطفال لمواجهة الحياة كما هي اليوم ، أم إعدادهم لمواجهة الحياة كما ستكون بعد اثني عشر عاماً ، أم هي إعدادهم للحياة المثالية التي يجب أن يكون عليها العالم حتى يستطيعوا النهوض بالحياة وتوجيهها بأنفسهم ؟ وهي ترى أن هذا السؤال هو أكبر مشكلة يجب أن تتضافر الجهود لحلها ، بعد أن ثبت أن زيادة المتعلمين وتقدم العلم لم يؤديا بالانسانية إلى ما تنشده من سعادة ، وبعد أن وضح أن العالم يسير في طريق مظلم يصعب معه التنبؤ بما سيؤول إليه مصير العالم ، فقد أصبح خطر الحرب شبحاً مزعجاً يهدد كل يوم بقرب وقوعها .

وترى مرجريت لين أن الجهود التي بذلت إلى اليوم للنهوض بالتعليم وتجديد أساليبه ونشره لم تؤد إلا إلى نتيجة واحدة ، هي زيادة رقم المتعلمين في الاحصاءآت الرسمية . أما أن هؤلاء المتعلمين أنفسهم قد أفادوا شيئاً ، أو على الأصح قد أصبحوا أسعد حالاً من آبائهم ، فذلك ما لم يقم عليه الدليل إلى اليوم ، بل ما قام الدليل على عكسه .

والغاية التي يجب أن يتجه إليها التعليم في نظر مرجريت لين هي توجيه أذهان المتعلمين ، لا إلى توفير الرخاء المادي ، بل إلى توفير السعادة النفسية أو الرخاء الروحي — كما تقول — لأن ما ينقص المجتمع اليوم ليس هو وفرة العلم بالمعارف والمعلومات العامة ، وإنما هو العلم بوسائل توفير الهناء الشخصي الذي يفتقده اليوم كل إنسان فلا يجده ، خلال تلك السحب التي تكتنف جو العالم كوحدة ، وجو الأسرة كوحدة .

تخليد ذكرى الأدباء

كان تخليد ذكرى الأدباء إلى عهده قريب لا يكون إلا بإحدى طريقتين : إقامة التماثيل والنصب ، أو تسمية الشوارع والميادين بأسمائهم ؛ ففي مصر كما في بلدان العالم توجد شوارع تحمل أسماء شوقي بك الشاعر واسماعيل باشا صبري . وفي لبنان أقامت الحكومة تمثالاً للشاعر فوزي المعلوف وسط حديقة غناء لا يقل عن تماثيل مونتاني وفولتير وروسو .

ولكن الغرب الذي يجدد في كل شيء ، قد جدد في وسائل تخليد ذكرى الأدباء ، فأصدرت الحكومة الفرنسية منذ شهر تقريباً طابعاً للبريد تخليداً لذكرى بلزاك ، وقررت الحكومة الأمريكية إصدار مجموعة من طوابع البريد تخليداً لذكرى فريق من الكتاب الأمريكيين يبلغ تعدادهم خمسة وثلاثين أديباً ، نذكر من بينهم إمرسون ومارك تواين وواشنجتون إرفنج ولونجفلو وويتمان الخ .

ترى هل يحذو الشرق حذو الغرب في هذا التقليد الطريف ، فنرى طوابع بريد تحمل رسم حافظ ابراهيم وشوقي والبارودي وجبران خليل جبران مثلاً ، فتتسع دائرة العلم بهؤلاء الأدباء والشعراء ؟ .

ناشر وفنان

خسرت الحياة الفنية والأدبية فى فرنسا أحد دعاماتها الأستاذ أمبرواز فولارد المؤلف والناشر المعروف، وذلك أثر حادث تصادم بسيارته.



أمبرواز فولارد

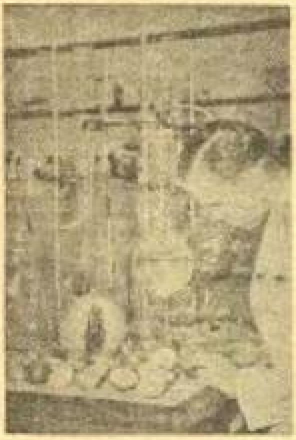
ويعد مسيو فولارد من أشهر الشخصيات فى محيط الفن الفرنسى، فهو فضلا عن أنه مؤلف وناشر، كان خبيراً فى الفنون، وأحد جامعى الصور المعدودين، وكان يعتد برأيه فى كل ما يتعلق بالتصوير والرسم والنحت، وله مؤلفات قيمة فى الفنون منها «ذكريات تاجر لوحات» الذى طبع بالانجليزية قبل أن يطبع فى فرنسا، و«مع سيزان ورينوار، ودبجاس» وهو من الكتب النقدية المعدودة فى الفن الحديث.

ومن أحسن مبتكرات مسيو فولارد أنه دعا الفنانين المعاصرين لعمل رسوم لموضوعات الكتب القيمة فى الأدب الفرنسى، وأشرف بنفسه على تنفيذ هذه الفكرة، فأخرج كتاباً لفرلين من تصوير بيير بونارد، وأخرج عدة كتب لوباسان، اشترك فى عمل رسومها من الفنانين المعاصرين دبجاس واميل برنار ودريان، وقد لاقت هذه الفكرة من النجاح ما نشاهده الآن من أن أغلب المؤلفات الغربية تصدر محلاة برسوم لموضوعاتها من عمل مشاهير الفنانين.

حبوب للتغذية

يشتغل العلماء منذ أعوام بجد ونشاط للوصول إلى تركيب المواد الغذائية تركيباً كيميائيا يستغنى فيه بالعمل عن الحقل، وقد وفقوا بعض التوفيق فى هذا السبيل، إذ أمكن تغذية بضع حيوانات لمدد طويلة بمجرد محاليل محضرة فى المعمل.

ويتفاءل الكثيرون من المشتغلين بهذه الابحاث بقرب الوصول إلى الغاية التى ينشدونها مستندين إلى أن العنصر الوحيد الذى لم يتيسر تركيبه كيميائياً من عناصر الغذاء الثلاثة، وهو البروتون، قد خطا البحث فى سبيل تحديد مادته خطوات موفقة؛ فالمواد الدهنية والمواد النشوية قد تم الوصول إلى تركيبها باستخدام الأشعة فوق البنفسجية، ولا يبقى إلا البروتون، فمتى تم استنباط هذا الأخير أصبح فى مقدور الكيميائى أن يحضر الغذاء الإنسانى فى أقراص صغيرة كأقراص الدواء، تحوى خلاصة ما يحتاج إليه الجسم؛ وتلك هى أحلام العلماء اليوم التى يعقدون عليها حل مشكلة المشاكل فى العالم، وهى تناقص المواد الغذائية تبعاً لازدياد السكان، فاذا ما تحقق هذا الحلم أمكن بسهولة تجنب حدوث المجاعات.



كيميائى يقوم بأعماله لمعرفة العناصر الموجودة فى الفواكه

مؤتمر للمكتبات

يعقد فى منتصف الشهر القادم فى مدينة نوتنجهام بانجلترا المؤتمر السنوى السادس عشر لاتحاد المكتبات الخاصة ومكاتب الاستعلامات برآسة السير هارى لندساى مدير المعهد الأمبراطورى.

ومن الموضوعات التى ستطرح للبحث فى هذا المؤتمر موضوع قدمه أحد المختصين بشئون المكاتب عن «الخدمات التى تستطيع المكتبة أن تؤديها فى حالات الطوارىء»

وقد تقرر أن يدور البحث في هذا الموضوع في أولى الجلسات التي يعقدها المؤتمر، وذلك لأن الظروف الحاضرة تستدعي النظر فيما إذا كانت المكتبات تستطيع أن تؤدي للدولة خدمات في حالة الحرب وما هو نوع هذه الخدمات.

ويتهكم أحد محرري الصحف الانجليزية على هذا الاقتراح قائلاً إن الخدمة الوحيدة التي تستطيع الكتب أن تؤديها في حالة الحرب هي أن تكون مادة لاقامة المتاريس.

الصين في الأدب الحديث

تثير الحرب الصينية اليابانية اهتمام العالم بالصين، وتزيد أنباء استبسال الصينيين في كفاحهم ضد اليابان من هذا الاهتمام، كما يظهر جلياً من الصحف التي لا تفتأ تنشر الدراسات المستفيضة المشفوعة بالصور والاحصاءات عن الشعب الصيني.

وقد تعدى هذا الاهتمام حد الصحف إلى الأدب، فصدرت عدة كتب عن الصين لعل أهمها قصص بيرل بك الأربعة التي صورت بها المجتمع الصيني وما يعانيه من شقاء.



بيرل بك

ولم يقف الأمر عند حد القصص بل حملت إلينا الأنباء الانجليزية أن المستر أرثور ولي قد قام بترجمة أحد الكتب الصينية الشهيرة المسمى «شن بنج مي»، وأن بيرل بك قدمت إلى المطبعة كتاباً عن القصة الصينية يشمل دراسة مستفيضة للأدب الصيني في مختلف عصوره، هذا عدا عدة محاولات أخرى لم تتم بعد لنقل كثير من الآثار الصينية إلى الأدب الانجليزي، يقوم بها فريق من الكتاب الصحفيين المقيمين في الصين والذين يراسلون مختلف الصحف.

وقد افتتح الموسم التمثيلي بمسرح مقرون بانجلترا منذ أسبوعين بمسرحية صينية جديدة هي «الأستاذ من بكين» من وضع الأستاذ س. ا. هيوغ، وهي قصة تدور حول أثر الثقافة الأوربية في رجل تشبعت روحه بالفلسفة الشرقية وما يحدثه تضارب الثقافتين في نفسه وفي تفكيره.

مشكلة المنازل في بريطانيا العظمى

وما بذل من الجهود لحلها في عشرين عاماً

******

اتسعت رقعة المدن الكبرى في العالم اتساعاً عظيماً وتغير مظهرها تغيراً كبيراً بعد الحرب الكبرى، ولا تزال حركة البناء في هذه المدن قائمة على قدم وساق، فأنشئت في باريس مثلاً مدينة جامعية في موضع الحصون القديمة، واختطت في مدينة لندن شوارع جديدة وميادين فسيحة مكان الشوارع والمنازل القديمة. وقد سارت حركة البناء في بريطانيا العظمى بعد عام ١٩١٩ بخطى سريعة موفقة وبذل الانجليز جهوداً جبارة في سبيل حل مشكلة المساكن فلاقت هذه المشكلة من عناية الانجليز أكثر مما لاقت أية مشكلة اجتماعية أخرى بعد الحرب العظمى، وقد يدهش القارئ إذا عرف أنه قد شيد في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩، ١٩٣٨ أكثر من ٣,٦٦٦,٠٠٠ منزل جديد أعانت الحكومة منها أكثر من ١,٤٠٠,٠٠٠ بما لا يقل من ١٨٠ مليون جنيه لا يدخل فيها ما قدمته أخيراً من الأموال الطائلة لازالة الأحياء القذرة من المدن الكبرى.

وقد تضافرت على العمل جهود السلطات العامة والهيئات الخاصة؛ فأما الثانية فقد كان همها إنشاء منازل يستطيع شراءها العمال ذوو الأجور المرتفعة والمتوسطة؛ وأما السلطات المحلية فقد كرست معظم جهودها لخدمة فقراء السكان، وكان البرنامج الذي تعمل لتنفيذه يشمل بناء المنازل وإزالة الأحياء القذرة وتخفيف الزحام.

ولقد تبين بعد انتهاء الحرب الكبرى أن مشكلة المساكن تتطلب علاجاً حاسماً سريعاً لأن حركة البناء قد وقفت أو كادت في أثناء الحرب، ولأن الأمة شعرت أن الجنود الرفتى يجب ألا يعودوا إلى المساكن المزدحمة غير الصحية، وأن من واجب الأمة بصفة عامة ألا تسمح بأن يشب الجيل الجديد في أوساط قذرة مضعفة للقوة، وأن

انتصار مبدأ الحق على مبدأ القوة فى العلاقات الدولية يجب أن يكون له أثره أيضاً فى الشئون الداخلية ، فيمتنع الأقوياء من استغلال الضعفاء ، وتبذل الجهود لرفع مستوى حياة الطبقات الفقيرة بوجه عام ، وقد نجحت هذه المساعى فارتفعت الأجور الحقيقية للعمال واتسع نطاق الخدمات العامة وتحسنت حال طبقات العمال عما كانت عليه فى الماضى .

وبدأت آثار هذه الجهود فى الظهور فى عام ١٩١٩ فقد فرض البرلمان فى تلك السنة على السلطات المحلية أن تعد كل منها فى دائرتها الخاصة مشروعات لبناء عدد من المساكن يفى بحاجات طبقات العمال . وتعهدت الحكومة بإعانة هذه السلطات بالمال الذى تحتاجه للقيام بهذا العمل كما تعهدت بمعاونة الأفراد والهيئات الخاصة على بناء منازل للعمال تؤجر لهم بأجور رخيصة .

وقد ساعد على تنشيط حركة البناء ما وضع من النظم لمساعدة الفقراء ومتوسطى الحال على الاقتراض لشراء المنازل ، وبفضل هذه النظم استطاع عدد كبير من العمال الذين لم يكونوا قبل الحرب يفكرون فى امتلاك بيوت أن يبتاعوا لهم منازل خاصة . ويقترض العمال مايلزمهم من المال لشراء البيوت من شركات البناء وهى شركات نجحت فى بريطانيا أكثر منها فى أى بلد أوربى آخر حتى بلغ مجموع ما أقرضته منذ عام ١٩١٩ نحو ١,٣٤٤,١١٧,٧٢٩ جنيه أى ثلثى نفقات المنازل التى بنيت فى بريطانيا ، ويساعد هذه الشركات المصارف المالية وشركات التأمين والسلطات المحلية والأفراد أصحاب الأموال .

على أن هذه الجهود السالفة الذكر لم تنتفع بها الطبقات البائسة التى لاتكفيها أجورها للسكنى فى منازل صحية والتى تسكن الأحياء القذرة القديمة التى خلفتها العصور الخالية لكل دولة فى أوربا ؛ وقد بذلت الحكومة المركزية والسلطات المحلية جهوداً موفقة لإزالة هذه الأحياء ؛ فقام وزير الصحة فى عام ١٩٣٣ بحملة قوية وطلب إلى السلطات المحلية فى انجلترا ويلز أن تعد كل منهما برنامجاً يؤدى إلى إزالة هذه الأحياء أو تحسينها كلها فى خلال خمس سنين .

وقد أثمرت هذه الجهود كلها ثمرة أخرى طيبة ؛ ذلك أن السلطات العامة شعرت بالحاجة إلى وضع نظام ثابت لتخطيط المدن ، وأصدر البرلمان قانوناً يجعل للسلطات المحلية الإشراف الكامل على جميع الأراضى الصالحة للبناء فى انجلترا وويلز ؛ وبذلك استطاعت هذه السلطات أن تسيطر على نظام المبانى التى يقيمها الأفراد والشركات وأن تحفظ للمدن جمالها وحسن تنسيقها وأن تجعل بيوت الأغنياء والفقراء على السواء صحية واقتصادية وحسنة المنظر فى آن واحد .

إنه فى يوم السبت ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بناحية تنها مركز المنصورة وفى يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسوق المنصورة سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك ورثة المرحوم ابراهيم الأزرق من ناحية تنها مركز المنصورة كطلب الشيخ عبد السلام عطية التاجر بمنية محلة دمنة مركز المنصورة نفاذاً للحكم نمرة ٢٤٩٣ سنة ١٩٣٥ مدنى المنصورة وفاء لمبلغ ٩٠٠ قرش صاغ خلاف أجرة النشر وما يستجد فعلى راغب الشراء الحضور ٣٤

إنه فى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٩ أفرنكى صباحا وما بعدها بمحل الحجز ويوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بسوق الفيوم سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك محمود أمين درويش الساكن بالفيوم وفاء لمبلغ ٨ جنيه قيمة الرسوم المستحقة لقلم كتاب محكمة الفيوم الأهلية فى القضية المدنية رقم ٢٥٨١ سنة ١٩٣٩ معافاه خلاف المصاريف كطلب قلم كتاب محكمة الفيوم الجزئية الأهلية فعلى راغب الشراء الحضور . ٣٥

إنه فى يوم ٦ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بجهة شارع اليرموك رقم ٣ قسم عابدين سيباع علنا منقولات منزلية ملك جواهر مصطفى كطلب صاحب المعالى وزير الأوقاف بصفته ناظراً على وقف بشير أغا دار السعادة أهلى تنفيذاً للحكم رقم ٥٢٩ سنة ١٩٣٩ الصادر بتاريخ ١٣/٢/١٩٣٩ من محكمة الخليفة الأهلية وفاء لمبلغ ٣ جنيه و ٤٠٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد

فعلى راغب الشراء الحضور ٣٦

إنه فى يوم السبت ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بشارع الحكم رقم ٥ بعشيشة البكرى قسم مصر الجديدة سيباع علنا أشياء منزلية موضحة بمحضر الحجز ملك الست سنية هانم شكرى وزوجها حضرة محمود بك فؤاد الجمال نفاذاً للحكم الصادر من محكمة الوايلى الجزئية الأهلية فى القضية المدنية رقم ٨٤٥١ سنة ١٩٣٩ مدنى وفاء لمبلغ ٨ جنيه و ٣٠ مليم قيمة المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب الأستاذ حسين حسن الهامى عبدان المشكلة قرحة رقم ١٩ بمصر

فعلى راغب الشراء الحضور ٣٧

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٦ | الثلاثاء ٢١ رجب سنة ١٣٥٨ — ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــرس

الحرب الأوربيـــة !

لقسم تحرير «الثقافة» السياسي

اندلعت نيران الحرب أخيراً ، وخابت آمال أنصار السلام الذين ظلوا طوال الأسابيع الأخيرة يعلقون الأنفس بتغلب العقل على ساسة ألمانيا ، وامتناعهم عن المضي في سبيلهم المدمر ؛ وأخذت الجيوش الألمانية أخيراً تزحف على جارتها الصغيرة مدلة بما تكدس فيها من آلات التدمير والاهلاك ، وقد ضرب قادتها بكل الاعتبارات الانسانية عرض الأفق . وكان لا بد للدول الديمقراطية أن تنهض للوفاء بتعهداتها للدولة الصغرى بمساعدتها على صد ذلك الطغيان المروع الذي ما زال ينبعث من أرض ألمانيا على رأس كل جيل من الزمان ؛ ذلك الطغيان الذي ينبعث عن رغبة جامحة في حكم العالم والسيطرة على شعوبه ، بعد أن امتلأت رؤوس أصحابه بعقيدة ثائرة متهورة ، أساسها أن ألمانيا فوق الجميع ، فوق الجميع في كل العالم .

وليس فى العالم المتمدين شعب يرغب فى السلام كشعب مصر ، كما أنه ليس فى العالم شعب يقدس مبادئ العدالة والحرية مثل شعب مصر . ولهذا فان البلاد من أقصاها إلى أدناها تشعر اليوم بهزة من الألم لهذه الدلالة الجديدة التى تدل على إدلال الأقوياء بقوتهم ، واستهانتهم بحقوق جيرانهم ، غير مؤمنين إلا بدين القوة ، ولا مقدرين لشىء فى العالم غير عوامل القوة . ولا يسع مصر فى هذه الظروف إلا أن تشعر فى قرارة نفسها كل المقت لذلك الطغيان الدولى ، وأن ترجو من صميم قلبها نصرة القانون الأسمى فى الحياة ، قانون احترام حقوق الشعوب وحرياتها .

وستقف ألمانيا مرة أخرى فى التاريخ موقف المسئول عن هدم المدنية ، وتسديد الطعنات القاسية إلى قلب الانسانية ، وإهدار كل الاعتبارات التى تعلم الانسان المتمدين أن يقدسها ويجلها ؟

سلاح الدعاية
وأهميته فى المعترك الدولى الحاضر
لمحرر «الثقافة» السياسى

كان مما قررته الحكومة البريطانية أخيرا أن توسع « مصلحة الدعاية » وأن تخصص لأعمالها اعتماداً قدره مائة ألف جنيه ، هذا عدا مائة وخمسين ألفاً أخرى تخصص لنشر الثقافة البريطانية وتدعيم نفوذها فى الخارج ؛ وأن تنشىء وزارة جديدة تسمى « وزارة الاستعلامات » ، على أن تكون وقت السلم هيئة « رمزية » فقط ، ولكنها تغدو وقت الحرب هيئة هامة عاملة ؛ ومشروع هذه الوزارة الآن قيد البحث والدرس ، وسيكون من أهم وظائفها وقت الحرب أن تمد الصحافة بكل ما تحتاج إليه من الأنباء والمعلومات ، وأن تقوم بالرقابة اللازمة على الصحف والشرائط المصورة (الأفلام) والراديو ، وسيكون بين موظفيها رجال من جميع الأحزاب .

وإقدام الحكومة البريطانية على اتخاذ هذه القرارات يثير مسألة تحتل اليوم بين الشئون الدولية مقاما ذا شأن ، هى مسألة الدعاية ، وما يترتب عليها من آثار سياسية واجتماعية خطيرة . ويلاحظ أن « مصلحة الدعاية » البريطانية لم تنشأ إلا منذ أشهر قلائل ، وأن مسألة الدعاية كلها لم تثر اهتمام الحكومة البريطانية إلا فى العهد الأخير الذى اشتدت فيه وطأة الدعايات الأجنبية ضد انكلترا ؛ ذلك أن الرأى العام الانكليزى ينفر بطبيعته من الدعايات المنظمة ، ويرتاب فى قيمتها وأغراضها ؛ ولكن انكلترا شعرت فى العهد الأخير أن الحملات القوية المثيرة التى تنظم ضدها فى ألمانيا وإيطاليا ، سواء عن طريق الصحافة أو الخطابة أو الاذاعة اللاسلكية ، تكاد تحدث آثارها السيئة فى قسم كبير من الرأى العالمى ، وتكاد تصيب هيبة الامبراطورية البريطانية برشاشها ؛ ومن ثم فقد رأت أن تتخذ بعض الخطوات التى يمكن أن تعاون فى مقاومة آثار الدعاية الأجنبية ، فبدأت بانشاء المجلس البريطانى British Council برياسة اللورد جورج لويد ، ليعنى بالمسائل الثقافية المتعلقة بالامبراطورية ، فيعمل على إنشاء المدارس والمعاهد البريطانية فى الخارج ، وعلى نشر الثقافة الانكليزية ولا سيما فى الشرق الأدنى ، ويقوم

بدعوة الطلاب والصحفيين والكتاب والفنانين ، لزيارة انكلترا والكتابة عنها . ثم أنشأت الاذاعة اللاسلكية الاخبارية لتذيع الأنباء الدولية ، وأنباء الامبراطورية باللغات الألمانية والعربية ، ثم بالايطالية والاسبانية ، وذلك رداً على ما تذيعه المحطات الألمانية والايطالية من أنباء مغرضة ؛ وقد لاقت هذه الاذاعة نجاحاً لا ريب فيه ، غير أنها ما زالت تلتزم الاعتدال والتحفظ ، وتجانب الهجوم أو الدعاية ضد دولة بعينها .

ولكن الدعاية الأجنبية ضد الامبراطورية البريطانية اشتدت في الأشهر الأخيرة ، وألفت في بعض متاعب السياسة البريطانية مادة غزيرة لحملاتها ، واقترنت هذه الحملات في أحيان كثيرة بأنواع خطرة من الأكاذيب والتعليقات المهينة ، وضج الرأي العام البريطاني من سكوت حكومته ، وارتفعت الضجة في البرلمان وفي الصحافة بوجوب إنشاء وزارة للدعاية ، ترد عن بريطانيا العظمى عادية الدعايات المغرضة ؛ وأخيراً اضطر المستر تشمبرلن أن ينزل عند الرغبة العامة ، وأن يوافق على إنشاء مصلحة جديدة بوزارة الخارجية تسمى « مصلحة الدعاية الخارجية Foreign Publicity Department » ، أسندت رآستها إلى اللورد برث سفير انكلترا السابق في رومة ؛ بيد أن الرأي العام لم يرض كل الرضى عن هذه الخطوة الجزئية ، ولا عن اختيار اللورد برث نظراً لماضيه المعروف في تحبيذ السياسة الفاشستية والحض على الثقة بإيطاليا ، وإرضاء الدول الدكتاتورية ، وهي سياسة ظهر خطؤها وقصر نظرها .

وهذه المصلحة الجديدة هي التي قررت الحكومة البريطانية أخيراً توسيع أعمالها ، وتزويدها بالمال الوفير ، ثم رأت أن تقرن ذلك بإنشاء وزارة « رسمية » للدعاية أو الاستعلامات حسبما قدمنا .

— ٢ —

والواقع أن الدعاية قد أصبحت اليوم سلاحاً له خطره في توجيه الشعوب وتكوين الآراء العامة . وقد أدركت إيطاليا الفاشستية ومن بعدها ألمانيا الهتلرية ، أهمية هذا السلاح النفسي ، فأنشأت كل منهما أداة قوية للدعاية تسيطر على الرأي العام ، وتخضع لصولتها كل وسائل التثقيف والإعراب عن الرأي والأخبار ، مثل الصحافة والنشر بسائر أنواعه ، والإذاعة اللاسلكية ، والسينما والتمثيل ، وغيرها ، فلا يسمح للفرد أن يقرأ غير ما يقدم إليه ، أو يقف على غير ما يزود به من المعلومات ، أو يفكر بغير الطريق المرسوم له ، ولا يسمح للرأي العام أن يستنير أو يناقش أو ينقد ، وعليه فقط أن يستمع لما يلقى إليه ، وأن يؤمن بما يطلب إليه أن يعتقد . وتتولى وزارة الدعاية رسم الخطط والأساليب ، وصوغ الآراء ، ثم تبثها إلى الشعب بجميع الوسائل المتقدمة ؛ ولا يسمح للشعب أن يطلع على شيء من المطبوعات أو الصحف الأجنبية التي قد تحتوي من المعلومات أو التعليقات ما لا يُرغب في إذاعته .

وقد استغلت ألمانيا الهتلرية سلاح الدعاية أعظم استغلال ، وجعلت من الشعب الألماني كتلة توجهها وزارة الدعاية حيثما شاءت ، وحظرت على تفكيره وعقله وروحه أن يتأثر بغير ما تلقيه إليه على يد صحافتها وإذاعتها اللاسلكية ، حتى إنه ليس من المبالغة أن نقول إن الشعب الألماني يعيش اليوم في عالم وحده ، ولا يكاد يقف على شيء مما يدور خارج ألمانيا على حقيقته ، إلا ما يتسرب إليه من الأنباء بواسطة الصحف أو الاذاعات اللاسلكية الأجنبية ، وهذه تطارد أشد المطاردة ، ويشكل على من يقرأها أو يستمع إليها أشد نكال .

ويجب لكي نقدر أهمية سلاح الدعاية في يد ألمانيا النازية أن نستمع إلى ما قاله هتلر نفسه عن الدعاية ووسائلها ومؤثراتها ، فقد عقد في كتابه « كفاحي » فصلاً خاصاً في هذا الموضوع ، ينوه فيه بما كان للدعاية من أثر حاسم في انتصار الحلفاء في الحرب الكبرى ، ويفصل مبادئ الدعاية فيما يأتي :

« يجب أن يكون التحدث إلى الدهماء لا إلى المتعلمين ،

فهؤلاء هم عنصر خطر ، يجب أن تستعمل فى إسكاتهم وسائل الارغام ؛ ويجب أن لا ندعى فى مخاطبة الجماهير أننا مثلها ، وإنما يجب فقط أن نحاول إقناعها بصحة واقعة معينة ، والايمان بضرورة لا مفر منها ، ويجب أن نتوجه إلى العاطفة ، وألا نتوجه إلى العقل والمنطق إلا بمنتهى التحفظ .

« والدعوة يجب أن تلق إلى أحط طبقات المجتمع مستوى فى التفكير ، فاذا كانت كتلة الجمهور المخاطب عظيمة جداً ، كأن يتعلق الأمر مثلا بتوجيه شعب بأسره إلى وجهة معينة ، فيجب التحوط فى مخاطبته ، وتجنب كل ما يمكن أن تتطلبه كفاية مفكرة من أى نوع .

« والدعوة أشد ما تكون أثراً إذا وجهت إلى القلب (الشعور) دون العقل . ذلك أن مقدرة التطبع لدى الجمهور ضئيلة جداً ، وهو ضعيف الادراك ، ولكن رغبته فى النسيان لا حدّ لها ، ولذا فانه يجب أن نلتزم فى مخاطبته نقطاً قليلة وأن نكررها دائماً .

« ثم إنه يجب ألا توزع المسئوليات ، فيُنصف البعض ويُنتقص البعض . ذلك أن الجمهور كالمرأة ، فهو يحب أو يبغض أو يوافق أو يعارض ؛ وهو يُصوِّب أو يُخطِّئ ، ولا يتوسط أبداً ، وهو يستسلم إلى ذلك الذى يؤكد له أمراً من الأمور بلا تحفظ » .

هذا هو إنجيل الدعاية كما وضعه هتلر نفسه ، وهو يطبق اليوم فى ألمانيا بمنتهى الصرامة والدقة ، ويقترن تطبيقه ببعض الحالات النفسية التى تعمل ألمانيا لخلقها بالدعاية ثم تتخذها مهاداً صالحة لتنفيذ خططها .

مثال ذلك أن حالة ألمانيا تقتضى أن تعيش فى جو من المطالبة الدائمة . وهذه المطالب تُستند إلى حقوق الشعب الألمانى ؛ والتمسك بها يعاون فى تدعيم وحدة الأمة ، بحملها على الاعتقاد بأنها يجب أن تقف دائماً صفاً واحداً للدفاع عن حقوقها التى يغتصبها الغير . ثم إنه يجب إلى جانب ذلك أن يحمل الخصوم على الاعتقاد دائماً بأن السلم مصون غير مهدد ، وأن تعلن عليه حرب الأعصاب مع ذلك حتى يفقد عزائمه بين الخوف من الحرب والتعلق بالسلام .

كذلك يجب أن يكون فى الخطابات أو التصريحات الرسمية الخطيرة جوانب من الغموض ، والوعد والوعيد ، تسمح بتأويلها ، تارة بما يقض المضاجع ، وتارة بما يهدئ الأعصاب .

ولا بأس من أن تتوج النظريات المختلفة التى تلق بها أبواق الدعاية إلى الشعب ، بفتاوى المشترعين ، وأسانيد المؤرخين ؛ وللحزب النازى فى الواقع جمهرة من الكتاب والمشترعين من هذا الطراز .

* * *

وقد نشطت الدعاية الفاشستية والنازية إلى العمل فى الخارج بعد أن وطدت سيادتها فى إيطاليا وألمانيا ؛ ويوجد اليوم فى مختلف أنحاء العالم جيش ضخم من هؤلاء الدعاة ، وهم يعملون بالأخص حيث يمكن النيل من المصالح البريطانية أو الفرنسية ، أو حيث يمكن حشد الرأى العام إلى جانب الكتلة الدكتاتورية . وتدعم نشاطهم من جهة أخرى إذاعات لاسلكية قوية منظمة ، ترسل من المحطات الألمانية والايطالية بلغات عديدة إلى مختلف أنحاء العالم .

وهذا النشاط الخطر هو الذى يحمل الحكومة البريطانية اليوم على الاهتمام بأمر الدعاية على النحو الذى أسلفنا . والمعروف أن الحكومة الفرنسية من جانبها قد عنيت أيضاً بهذه المسألة وأنشأت مصلحة جديدة فى وزارة الخارجية لمكافحة الدعاية الأجنبية بوسائل من نوعها .

وهكذا نرى أن حرب الدعاية يتسع مداها يوماً عن يوم ، وهى اليوم تغمر أنحاء العالم ؛ بيد أنه مما لا ريب فيه أن هذا السلاح النفسى على مضائه وخطره أشد ما يكون عرضة لعناصر الضعف ، فهو مسبوق دائماً بالريب وسوء الظن ، خصوصاً فى المجتمعات التى ما زالت تتمتع بنعمة الحرية فى التفكير والتقدير ، وهو لذلك معرض للفشل المحقق متى بدت فيه أقل الثغرات . (***)

سؤال وحيرة في جواب

للأستاذ أحمد أمين

بالأمس قابلني شاب أمريكي يحضّر لشهادة عليا في انجلترا ، هو مثال الجد والاخلاص لعمله ؛ ينتهز وجوده في مصر فيزور مكاتبها ، ويلقى علماءها وأدباءها ، ويجول في الشوارع يدرس ما تدل عليه ظواهر الناس ومعاملاتهم وسلوكهم من دلالات اجتماعية ، ويسمع لغة العوام ويوازنها بلغة الخواص ؛ وعلى الجملة يقضي أكثر وقته باحثاً منقباً مستفيداً ، لا يعبأ بحرّ جو ولا متاعب غربة .

وبعد كلمات التعارف المتعارفة ، وجّه إليّ هذا السؤال :

« ما هي النزعات الجديدة للإصلاح الاجتماعي في مصر ، وخاصة ما كان منها مؤسساً على الدين ؟ »

سكتُ هنيهة أفكر ، ومرّ في ذهني إذ ذاك جملة أشياء مرور « شريط السينما » ، مرّ في ذهني قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة ، ومرّ في ذهني الجمعية الخيرية الإسلامية ، وما قامت به من تعليم فقراء ، وإحسان إلى المحتاجين ، وبناء مستشفاها الجديد ، ومرّ بذهني الأزهر وما مرّ عليه من وجوه إصلاح ، ومرّ بذهني الدعوة إلى النهوض بالفلاح ، ومقدار ما لقيت من فشل أو نجاح ، ومرّ بذهني أخيراً إنشاء وزارة منذ أيام لإصلاح الشؤون الاجتماعية .

ولكني لا أكتم القارئ أني شعرتُ بمرارة وانقباض شديدين ، لعل سببهما أني أحسست نوعاً من خيبة أمل مخزونة في نفسي ينطوي عليها صدري ، وأني كنت أؤمل أن يكون في أعمال قومي ما ينطلق به لساني ، وينشرح له صدري .

إنا إلى الآن نمشي في الإصلاح الاجتماعي ببطء شديد جداً يكاد يكون عدماً ، ونسير فيه ارتجالا لا عن دراسة علمية عميقة ، وإحصاآت دقيقة ، ووضع برنامج واف شامل نعرف فيه الخطوة الأولى والأخيرة وما بينهما .

قد كنت أفهم أن يكون لكل حزب سياسي عندنا برنامج اجتماعي بجانب برنامجه السياسي ، وأن يكون هذا البرنامج الاجتماعي أعِد إعداداً علمياً دقيقاً في وقت فراغ الحزب ، فيكون له رأي في الفلاح وكيف ترقى عيشته اجتماعياً ، وكيف يصل إلى كل فلاح ما يحتاجه من ماء نقي ونور نظيف ومسكن مريح ، وما موقف الحزب في المرأة وإصلاح شؤونها وحريتها وإلى أي حد ، وفي العمال وترقية شؤونهم ، والشباب العاطلين ومشاكلهم ، وطلبة المدارس العليا واضطرابهم ، ووجوه الاحسان وتنظيمها ، ومشكلة الأوقاف وعلاجها ، ونحو ذلك من مسائل لا عدّ لها . وكنت أفهم أن كل حزب يكوّن له في كل ذلك رأياً قاطعاً مفصّلا حازماً يتقدم به عند الانتخاب ويعمل به عند تولّيه الحكم .

ولكن — مع الأسف — لم يكن شيء من ذلك ؛ وقد سئلت منذ مدة من مثل هذا الشاب الأمريكي عن أهم الأسس الاجتماعية والسياسية التي تميز كل حزب في مصر عن الأحزاب الأخرى فلم أحر جواباً ، وأحسست طعم المرارة والانقباض اللذين أحسهما الآن .

* * *

لقد لفت نظري في سؤاله ضغطه في حديثه على الاصلاحات الاجتماعية المؤسسة على الدين الاسلامي ،

وكان هذا الضغط أشد مرارة على نفسي ، لأني التفتُّ فرأيت الإصلاحات الاجتماعية التي عددتها من قبل على قلتها وضعفها ليس منها شيء أُسِّس على الدين وقام به رجال الدين ؛ إلا ما كان من الأستاذ الإمام في الجمعية الخيرية .

ليسمح لي رجال الدين أن أكلمهم في صراحة ، وليتعودوا أن يسمعوا النقد المرّ في جرأة ، فلا يكون إصلاح حتى تكون صراحة ، وحتى تكون جرأة ، وحتى نتبادل نحن وهم الشجاعة في القول ، والإخلاص للحق ؛ فليس شيء أحب إليّ من أن أرى رجال الدين جديرين بأن يتزعموا حركة الإصلاح الاجتماعي بعقل واسع ودراسة قوية ، لأن الإصلاح الاجتماعي إذا جاء على أيديهم كان له مزيتان كبيرتان : أولاهما أنهم إذا تزعموا الحركة أمنّا قوة المعارضة . وثانيتهما أن الشعب المصري والشرقي على العموم شعب — بحمد الله — متدين ، يلبي الدعوة الدينية بأسرع وأقوى مما يلبي الدعوة المدنية ، فإذا جاء الإصلاح الاجتماعي من رجال الدين كان الشعب أسرع قبولاً ، وأشد تحمساً ، وأقوى إخلاصاً ، وقطع في سيره في سنة ما لم يقطعه في سنين .

ولكن لا يتم ذلك لرجال الدين حتى يأخذوا أنفسهم بتنفيذ برنامج شاق عسير ذي مراحل : منها أن يعلموا علوم الدنيا — بجانب علوم الدين — علماً واسعاً ، فيكون لهم العلم الواسع بجغرافية البلاد وتاريخ الأمم ، والطبيعة والكيمياء ، حتى يستطيعوا — إذا جلسوا مع المدنيين إن صح هذا التعبير — أن يشعروهم بأنهم مساوون لهم في عقليتهم وتفكيرهم ، ويزيدون عليهم في علمهم الديني ، وزعامتهم الروحانية . ومنها أن يفهموا الناس حتى يفهمهم الناس ، ويؤقلموا أنفسهم حسب تطور الزمان ، ويعرفوا شؤون الدنيا كما يعرفون شؤون الآخرة ، ويعرفوا أحوال قومهم في دقيقها وجليلها كما يعرفون أحوال دينهم في دقيقها وجليلها ، ويعرفوا نفسية الناس ونزعاتهم وتصرفاتهم حتى يحققوا ما في كتب بلاغتهم من أن لكل مقام مقالاً .

عند ذلك تتكسر الحواجز القائمة الآن في مصر والشرق بين رجال الدين ورجال الدنيا ، وتحس كل طائفة أنها جزء في جسم واحد متفاهمة متعاونة .

إني أشعر — مع الأسف — أن علماء الدنيا في مصر والشرق ينظرون إلى علماء الدين نظرتهم إلى رجال القرون الوسطى أو نظرتهم إلى الآثار القديمة وتحف « العاديات » ، وعلماء الدين ينظرون إلى علماء الدنيا نظرتهم إلى المارق من دينه ، المجنون بأوربا وعظمتها ، الغافل عن مدنية المسلمين الأولين ، المضيع لقوميته المغرور بالقشر دون اللباب ؛ وفي هذه الأنظار ضرر كبير على الأمة وتمزيق لشملها وتفريق لوحدتها وتهديد لعقليتها .

ولا يتم هذا الإصلاح في تكسير الحواجز إلا بما أشرت إليه وإلا باتحاد التعليم الابتدائي والثانوي لكل أفراد المتعلمين على السواء ، وأن يكون التخصص في الدين كالتخصص في الرياضة والطب ، لا يأتي إلا بعد المرحلة الثانية من التعليم الثانوي ، فإن أراد رجال الدين أن يحتاطوا من قبلُ لمن يعدونهم في الدين فليكن زيادة المعلومات لا نقصها .

وإذ ذاك — بعد كسر هذه الحواجز والتقريب بين رجال الدين ورجال الدنيا وعلماء الدين وعلماء الدنيا وفهم بعضهم لبعض وإجلال بعضهم لبعض — يستطيع رجال الدين أن يتزعموا الحركة الإصلاحية الاجتماعية وأن يضعوا برنامجاً اجتماعياً مؤسساً على الدين .

وإذ ذاك أيضاً يكون مجال الإصلاح الاجتماعي الديني أمامهم فسيحاً ؛ فأمامهم تنظيم الإحسان ، وقد وضع أساسه الإسلام ، وأمامهم إصلاح الأوقاف ، وفي إصلاحه تخفيف لكثير من الويلات ، وأمامهم إصلاح الأُسَر بما وضع أساسه القرآن ، وأمامهم تقويم المرأة وقد سارت وراء المرأة الأوربية في زينتها

الحيــــاة والنجاح

للأستاذ على أدهم

كلمة النجاح على إطلاقها يكتنفها الغموض وينقصها التحديد ، وليس هناك مقياس ثابت للنجاح متفق عليه ، فما هو فى رأى بعض الناس من قبيل النجاح قد يكون فى نظر غيرهم فشلاً ذريعاً . وسأعمل فى بادئ الأمر على تبديد بعض السحب المتجمعة فى جو الموضوع قبل المضى فى الحديث عنه .

إن المواقف التى يقفها الانسان من الحياة على اختلافها وتباين طبيعتها لا تعدو أربعة مواقف رئيسية ، وهى : موقف الرجل الذى يعول على العاطفة والاحساس ويقفه من الحياة رجال الفنون والآداب على اختلاف أنماطهم ؛ وموقف الرجل الذى يعول على التفكير والتأمل ، وهو موقف العلماء والفلاسفة والمفكرين على اختلاف طبقاتهم ؛ وموقف الرجل العملى الذى يرجح جانب العمل على الفكر والعاطفة ، ولا يتقيد كثيراً بقوانين الأخلاق ، وهو موقف السياسيين ورجال الأعمال ؛ وموقف العملى الأخلاقى ، وهو موقف يتمثل بأسمى مظاهره فى حياة الأنبياء والقديسين والشهداء .

وهذه المواقف قائمة على تنوع الملكات الانسانية الأصيلة ، فإنها إما أن تكون ملكات فنية خالصة ، أو فلسفية أو علمية أو عملية أو عملية أخلاقية ؛ وكل ضرب من ضروب النشاط الانسانى يمكن رده فى شىء يسير من التحليل إلى إحدى هذه الملكات . ولا خفاء فى أن هذه الملكات لا تبدو فى الأشخاص منفصلة بارزة الحدود ، بل قد تتلاقى فى الأفراد بنسب متفاوتة ومقادير مختلفة . ولا مفر لمن أراد أن يفهم الحياة عن طريق التحليل والمنطق من الاعتماد على أمثال هذه التقاسيم . أما الذين يحاولون أن يعرفوا الحياة عن طريق الادراك المباشر مثل الصوفية فلا حاجة بهم إليها .

والنجاح فى كل ميدان من الميادين التى يعمل فيها النشاط الإنسانى المستمد من هذه الملكات المنوعة يختلف عن النجاح فى الميادين الأخرى ، فنجاح الفنان فى فنه معناه توفيقه فى تجويده ، واقترابه من مثله الأعلى ، وتقدير

ومباهجها ، وليس فى جدها وتقاليدها ، وأمامهم وضع خطط محكمة لتثقيف النشء ، والمتعلمين والأميين ثقافة دينية عصرية تستخدم وسائل التربية الحديثة وأساليب المدنية الحديثة ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وليس هذا عليهم ببعيد ، فقد قطع هذا الشوط كثير من رجال الدين المسيحى فى أوربا وأمريكا ، وكان لهم فى شؤون الاصلاح الاجتماعى ونشر الثقافة الدينية مجال فسيح ، وأثر عظيم .

* * *

أرجو أن يتقبل رجال الدين هـذا النقد بصدر رحب ، وأن يستزيدوا منه وأن تقوم أمة منهم تجهر بمثل هذه الآراء فى الاصلاح والدعوة إلى تحقيق هذه الآمال ، وأن يوقنوا أن لا باعث له إلا حب الخير لهم وللناس .

كما أرجو أن يكون ذلك قريباً جداً ، حتى إذا سألنى مثل هذا السائل أنطقتنى أعمالهم ، وانطلق لسانى فى عد مآثرهم ، ووجوه إصلاحهم . والله يوفقهم .

أحمد أمين

كبار الناقدين والعارفين له ؛ ولكن هذا النجاح الباهر فى عالم الفن قد يكون مدعاة لفشله فى الحياة العملية فشلاً مؤلماً متصلاً ؛ فكم من شاعر أو مصور أو موسيقار ألهاه إخلاصه لفنه وتفانيه فى إجادته عن اقتناص الفرص واصطناع الوسائل المجدية لنيل الشهرة واجتذاب الأنظار ، فظلت عبقريته منكورة ومواهبه غير مقدرة حتى وافاه الموت ، ولم تعرف قيمته إلا الأجيال التالية لجيله .

كذلك المفكر ، فإن مقياس نجاحه هو تفوقه فى تفكيره ، وتعمقه فى بحثه ، وقدرته على الانتهاء إلى أفكار غير مسبوقة ، والكشف عن عوالم الخواطر المجهولة ؛ ولكن هذا الاخلاص فى البحث ، والتعمق فى الدرس والتوفر على حياة الفكر ، قد لا يمكنه كل التمكين من النجاح الدنيوى ، ولا يمهد له أسباب اغتصاب المجد والشهرة والتألق فى المجتمعات ؛ ولو أنه حرص على ذلك لجار على تفكيره وصرف نفيس وقته وعظيم مجهوده فى مظاهر جوفاء ومجاملات تافهة وأحاديث مملة سخيفة ، التماساً للنجاح اللماع وتوسلاً إلى الشهرة البراقة . وإخلاص المفكر لتفكيره قد يجلب له الأعداء ، ويخلق الخصومات التى تعوق تقدمه وتعرقل سيره . وأضرب مثلا لذلك فيلسوف ألمانيا الكبير أرثر شوبنهاور ، فقد كان رجلاً مخلصاً فى تفكيره إلى أقصى حدود الاخلاص ، صادقاً فى التعبير عن وجهة نظره ، لا يتملق حاكماً ولا عظيماً ، ولا يترضى عاطفة وضيعة أو نزعة سائدة ، وإنما يمضى مع منطق تفكيره حتى النهاية ، فهو مثل أعلى للمفكر المخلص ؛ ولكن هذا الاخلاص الذى لا تشوبه شائبة ، والترفع عن الدسائس ، وتملق الجماهير ، واصطناع الأساليب الدنيوية ، وتقصيره فى أساليب الدعاية والاعلان عن النفس ، كان من أقوى أسباب فشله والإعراض عن فلسفته ؛ وقد عاش مجهولا من معاصريه غير معترف به من الجامعات ، وغير مقدر من أضرابه ولا من الجمهور ، وذلك فى عصر نهضة فكرية مأثورة . ولولا أنه كان فى سعة من العيش بفضل ما ورثه عن أبيه لساءت أحواله وانتهت حياته بكارثة فاجعة . ولم يتيسر لألمانيا المفكرة الفلسفية أن تعثر على هذا الكنز المخفى الدفين ، وتقدر هذه العبقرية النادرة المثال إلا فى السنوات القلائل الأخيرة من عمره الطويل ، وذلك فى حين أن غيره ممن هو أقل منه فى مرتبة التفكير وصحة الرأى كان موضع التقدير ومناط الإعجاب .

ونجاح السياسى معناه تحقيق غايته ، وتنفيذ خططه السياسية دون أن يبالى بالوسائل والأساليب ، فكل وسيلة عنده مشروعة ما دامت تقربه من غرضه ، وتعينه على تحقيق مطلبه . أما المصلى الأخلاق مثل المصلحين والزعماء الأخلاقيين فطريقه كثير العقبات ممتلىء بالصخور والأشواك ، لأنه لا يريد أن يشترى النجاح بأى ثمن ، وإنما يريد أن يحقق مثله الأعلى فى الفضيلة ، ويحاول أن يشق طريقه فى الحياة ، متغلباً على مغريات الدنيا مستعلياً على الشهوات ؛ ومقياس النجاح عنده هو شدة استمساكه بمبادئه ، وتعلقه بمثله الأعلى ورفضه كل ضروب المساومة ؛ وسعادته هى أن يضحى بكل شىء فى سبيل تحقيق غايته ؛ وقد يفوت عليه ذلك كل فرصة للنجاح الدنيوى والسعادة التى يفهمها الناس والراحة التى ينشدونها ؛ وسيرة الأنبياء والشهداء غاصة بما استهدفوا له من صنوف الإيذاء وألوان الآلام .

وهذه هى مظاهر النجاح فى معناه الواسع العام ، ولكن للنجاح معنى آخر محدوداً هو الذى يقصده أكثر الناس فى أحاديثهم الدارجة ؛ ومن أمثلة هذا النجاح المعهود نجاح التاجر فى تجارته وتزايد أرباحه ، وتوفيق الموظف فى وظيفته ووثوبه إلى أسمى المناصب ، ونجاح أصحاب المهن الحرة والصناعات المستقلة ؛ وظروف العالم الحالية أكثر مواتاة للنجاح والتبرز فى هذه الميادين ، لأن نزعة العصر الديمقراطية ، وعدم تعليقه كبير أهمية على مسائل الحسب والنسب ، قد فتحت الأبواب لجميع الطبقات ؛ والنجاح فى تلك الميادين يتوقف جزء منه على الظروف والملابسات ،

وجزء آخر على كفاية الشخص ومجهوده ومضاء عزيمته وإرهاف ملكاته . وأقوى الأسس التي يقوم عليها النجاح في أمثال هذه الميادين هو الواقعية ، وأقصد بها القدرة على فهم الأشياء على حقيقتها مجردة من الأوهام والمزعبلات ؛ ثم الصبر على العمل والنشاط المثمر الخصب ، لأن من الناس من ينفق جهده في أشياء تافهة غير جديرة بالعناية ؛ والمحافظة على الصحة وسلامة البنية ، لأن الرجل الذي تعتل صحته ويتعكر مزاجه ، يفقد في كثير من الحالات القدرة على العمل ، ويقل نشاطه وإنتاجه ؛ وقد لا يتوفر على الدوام وجود العقل الحكيم في الجسم السليم ، ولكن إذا وجد العقل الحكيم ، فقد يضعفه سقم الجسم ويعرضه للملل والأمراض ؛ وهذه الصفات لازمة جميعها ، لأن الواقعية أو إدراك الأشياء على حقيقتها لا تجدى إذا لم تقترن بالعزيمة الماضية ، وصدق الحكم لا يدوم إذا لم تمده الصحة الوافرة وسلامة البنية ؛ وتلك هي أركان النجاح ، ولكنها لا تجدى كثيراً إذا لم تؤيدها صفات أخرى ؛ فالنجاح في ظروف كثيرة يتطلب شيئاً من التوسط في المحاسن ، والاعتدال في الصفات المرغوبة ، فهو يتطلب الإقدام والشجاعة ، ولكن على شريطة أن لا يصل الإقدام إلى حد التهور والاندفاع ، ولا أن تنحدر الشجاعة إلى العناد والمجاجة ؛ واقتران الرأي بالشجاعة من أقوى أسباب النجاح كما قال أحد من جربوا الحياة وفطنوا إلى أسباب الفشل وهو أبو الطيب المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أولٌ وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس مرةً ... نالت من العلياء كل مكان

والعقل المهيأ للنجاح يمتاز بالمرونة ومجافاة التصلب ، ولذا قل أن يوفق أصحاب النظريات المثاليون وذوو المبادئ المتشددون ؛ والنجاح يتطلب الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالكرامة ، لأن من هان عند نفسه هان أمره على الناس ؛ ولكن فرط الاعتداد بالنفس قد ينقلب غروراً مملولا وثقة بالنفس عمياء تفوت على الإنسان فرص النجاح وتلحقه بجماعة الفاشلين .

وهذه هي الأوجه الزاهرة المحبوبة للنجاح ؛ ولكن للنجاح بعض الجوانب المتجهمة التي يعمل على سترها بعض الناجحين كأنها سر يحتفظ به ؛ وكما تعمد ماكيافلي أن يهتك أسرار سياسة الأمراء في كتاب « الأمير » فكذلك تناول هذه النواحي المظلمة الكاتب الألماني المعروف ماكس نورداو في مقال له عن النجاح ، فقد تخيل للنجاح مدرسة يلجأ إليها الناس ليتعلموا النجاح ويتلقوا مبادئه ؛ وهو يوصي طلبة تلك المدرسة بترك التواضع ، لأنه لا يجعل أحداً يعترف للإنسان بمزية ، وقد يظفر المتواضعون بعد مماتهم بلوحة تذكارية تنصب على قبرهم ، ولكنهم لا يظفرون في الحياة بالمال ولا المجد ؛ ويوصي الطلبة كذلك بكثرة التحدث عن النفس ، لأن جزءاً مما يتحدث به الإنسان عن نفسه سيظل عالقاً بأذهان السامعين باقياً في ذاكرتهم مهما تظاهروا بالضيق والتأفف ؛ فامتدح نفسك وغال بقيمتك وارفعها إلى أعنان السماء ، وأغدق على نفسك أعظم النعوت وأجل الصفات ، وأثن على مجهوداتك وفاخر بمناقبك وحسناتك ، وتحدث عن كثرة المعجبين بك وردد ما قالوه في مدحك ، واخترع إذا استلزم الأمر فإن نجاحك بعد ذلك مضمون وآت لا ريب فيه ؛ وسيسخر منك العقلاء المتزنون ويزدرونك ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، فالعقلاء في هذه الدنيا قلة لا يؤبه لها ولم يوكل إليهم أمر توزيع الجوائز في حفل الحياة ؛ وسيأخذ خصومك عليك ذلك ، ولكن هذا لحسن طالعك وإقبال حظك ، لأنك تستطيع في هذه الحالة أن تقذفهم بتهمة الحسد والكيد لك وتكتسب بذلك تأييداً جديداً ؛ وسيردد الناس بعد ذلك أحاديثك عن نفسك . وكن سليط اللسان متوقحاً غير متردد في تجريح الناس ونهش أعراضهم مرهوباً منهم ، وهم يتملقونك بعد ذلك ويتبارون في تقديم الطاعة والقرابين لك . ولا تنتظر العدالة وحسن النية وصدق التقدير من أضرابك ، فإنما همهم تكبير أخطائك وإظهار ما خفي من عيوبك وإلقاء السدول على ما يظهر من محاسنك . ولا تحفل إلا بالجمهور من ناحية وبالأفراد القلائل ذوي النفوذ من ناحية أخرى . وتكبر على من هو دونك وتضامل

لمن هو فوقك ، وليس هذا من هين الأمور ، ولكن يمكن إتقانه والتفوق فيه بطول الدارسة ومداومة التجربة .

فأساس النجاح فى رأى نوردلو هو هـذا الاعتداد الغليظ بالنفس ، والصفاقة السافرة فى الاعلان عنها ، ومداهنـة الأقوياء وذوى النفوذ ، والبعد عن الصراحة فى إعلان الرأى . ولكننا مضطرون بأن نلاحظ أن بعض الناس يغالون فى اتهام الناجحين ويسلقونهم بألسنة حداد ، لأنهم يجدون فى ذلك راحة وعزاء ، وتسويغاً لخمولهم وتقاعدهم ، وكل نجاح فى رأى هؤلاء « القعديين » الجدليين قرين الفساد الأخلاق والالتواء النفسى ! وإننا نخطئ إذا حكمنا على الناجحين الموفقين بما نتلقاه من أفواه حساد فضلهم وضحايا نجاحهم ، لأن نجاح شخص معناه فشل غيره . ومن الملحوظ أن هناك تجاوباً بين الصفات المؤهلة للنجاح والبيئة التى يعيش بها الانسان ؛ فقد تكون الرجولة الكاملة ، والاستقامة التامة ، والهمة العالية ، والذكاء الوقاد ، من دواعى الفشل فى بعض البيئات التى لا تحسن تقديرها ، وتسىء فهمها ؛ وقد يكون الضعف والاستكانة والملق ، وخمود الهمة ، وجمود القريحة ، من دواعى التوفيق والنجاح ! وهذا شر ما تبتلى به الأمم ، وأقسى ما يمتحن به أفاضل الناس ، ويترك ألبابهم حائرة ، وعقولهم ذاهلة !.

علي أدهم

من قصص العرب :

الملك الضليل

أو أيها الليل الطويل ألا انجلي

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان امرؤ القيس ابناً لملك بني أسد حجر بن الحارث الكندي اليمني ؛ وكان فتى شجاعاً مرهف الحس ، وديع الطبع ، فارساً ماهراً ، وصائداً مبرزاً ، ولكنه كان يميل إلى اللهو واللعب . وكان يحب ابنة عمه فاطمة حباً صادقاً ، ولكنه كان لا يمتنع عن مداعبة غيرها من الفتيات . واتفق أنه كان يعبث يوماً بمضاحكة بعض النساء عند دارة جلجل ، وكانت فاطمة فيهن . فغضبت منه ، وردته رداً قاسياً ، ولم تقبل عذره ، وأعلنت له مقاطعتها إياه . . . .]

صحا امرؤ القيس بن حجر في فجر اليوم التالي بعد إغفاءة يسيرة في آخر الليل ، فلقد كانت ليلته ساهدة مضطربة ، ساورته فيها الهموم المُرّة ، فلم تترك له راحة في رقاده ؛ وغلبه الحزن منذ غادرته فاطمة غاضبة ، ولم يقدر على أن يصرف من أذنيه صدى ألفاظها القاسية ؛ وكان أصحابه كلما بالغوا في الاحتيال للتسرية عنه وجدوا شجونه تزداد ضراما ، وكلما دخلوا به في سمر خرج بهم منه إلى نغمة مكروبة وأنـة محزونة ، فحاولوا تسليته بالشراب ، فجعلوا له الخمر صرفاً غير ممزوجة ؛ ولكن الشراب لم يزده إلا همًّا وتوجعا وإضراما لما به من الحزن . ولم يقدر أحد أن يستدرجه إلى الإبانة عن سر وجومه ، فقد كان يظهر الضجر لمن يسأله عن سبب ضيقه ، فكف أصحابه عن مساءلته ، ويئسوا من منادمته . وانصرفت نفوسهم من الأنس إلى مجلسهم ، وقاموا عائدين إلى منازلهم ، والقمر لا يزال يخطر بين قطع السحاب البيضاء اللامعة .

ولم يبق مع امرئ القيس بعد انصراف أصحابه إلا ربيعة بن عمرو ، وكان له صديقاً ، وهو رجل من بطانة أبيه الملك ، كان يأنس إليه ، ويحب حلاوة شعره ، ويحنو عليه لرقة نفسه ، ويعجب به لخفته في ركوب الخيل ومهارته في صيد الوحش .

وكان أبوه الملك حُجر قد عهد إليه تنشئته منذ صباه وتدريبه في فنون الحرب وضروب الصيد ، فكان له معلماً وصديقا ، وطالت بينهما المعاشرة ، فألقت في نفس كل منهما محبة لصاحبه ، حتى كانا لا يأنس أحدهما مثل أنسه بأخيه ، ولا يحجب أحدهما عن الآخر نأمة من سر في صدره . فلما انصرف الجمع بقي ربيعة مع الفتى يريد أن يشيعه إلى خيمته ، كما كان يفعل كلما اجتمعا .

وفيما كانا في سبيلهما قال ربيعة لامرئ القيس : « إن لك لشأناً منذ الليلة » .

فنظر إليه الفتى بطرف ثقيل من أثر الشراب ، ولكنه كان لا يزال حافظاً لوعيه ؛ ولم يحاول إنكار

شيء عن صديقه ، بل قال في زفرة قوية : « شأن وأي شأن يا ربيعة ! » .

فقبض الرجل على ذراعه وقال : « هل آذاك أحد إخوانك بكلمة ؟ هل تجرأ أحد على ذلك ؟ »

فأشار امرؤ القيس برأسه إشارة استخفاف ضعيفة ، وقال في دفعة : « وهل كنت لأصبر على الأذى ؟ »

فقال ربيعة بلهجة الاعتذار : « إذاً فما الذي يحزنك ؟ »

فمضى امرؤ القيس يقص على صديقه قصة الفتيات ، حتى بلغ ذكر فاطمة وما كان منه ومنها واعتذاره لها ، وردها إياه ، وجعل يردد ألفاظها الأخيرة إذ تقول : « لست عليّ بأمين ، أنت فتى داعر » . وكانا قد بلغا عند ذلك فناء النزل ، فلم يشأ امرؤ القيس أن يدخل ، بل عرّج مع صاحبه إلى كثيب صغير على مقربة منه ، وجلس يتم له حديثه ، ويروح عن نفسه بالافاضة في وصف ألمه وندمه .

وكان ربيعة يعلم من صديقه امرئ القيس سر محبته لفاطمة ، ولكنه كان يعلم كذلك أن حديث حبه لها قد شاع في الناس وتحدثوا به في مجالسهم ، ورووا أشعار امرئ القيس فيها ، وساروا بها في قبائل العرب يرددونها ويجعلونها مدار أسمارهم في نواديهم . فلما سمع ربيعة قصة صديقه وجم وصمت وأطرق لا يجد قولا .

فنظر إليه الفتى بعد قليل وقال محزناً : « أراك لا تقول شيئاً ، أما من وسيلة إلى استرضائها ؟ » .

فرفع ربيعة رأسه مسرعاً وقال في شيء من الدهشة : « إلى استرضائها ؟ » .

فقال الفتى متعجباً من سؤاله : « وماذا ترى في أن تسترضيها لي ؟ ألا تريد أن تحمل إليها ندمي واعتذاري ؟ »

قال هذا وأطال النظر إلى صديقه الواجم في شيء من الخضوع والتوسل . .

فقال ربيعة متردداً : « لقد كنت أحب أن أكلمك في هذا الأمر منذ حين . إني أعرف ما يقوله الناس عنكما . حقاً هي من بني عمومتك ، ولكن هذا يجعلك أولى الناس بالحرص عليها ، وأبوها كما تعرف رجل من بيتك وإن كان فقيراً ، فهو عامر بن معاوية بن آكل المرار . ولن يرضى عن تماديك في التشبيب بابنته . ولقد سمعت أنه كان منذ حين عازماً على الرحيل عن جوار أبيك ، وأنت تعرف ما في هذا من الضرر البالغ . فأبوك لا يستطيع أن يستغنى عن مثله ، ولا يمكن أن يرضى عنك إذا كنت سبباً في موجدته » .

فقال الفتى في عناد : « ولكني أحبها » .

فقال ربيعة في صراحة ألمة : « تحبها ؟ وهل يلهو المحب بمن يحبه ؟ » .

فقال امرؤ القيس في دفعة : « ألهو بها ؟ » .

فقال ربيعة : « أليس تشبيبك بها يحمل معنى العبث واللهو ؟ » .

فصمت الفتى لحظة ، وقد تبين له أنه لا يقدر على دفع تهمة صديقه . فقال له ربيعة : « وأنت فوق ذلك امرؤ القيس بن حجر ، ولن يرضى أبوك أن يزوجك بغير أكفائك من بنات أعمامك الملوك : معديكرب ، أو سلمة أو شرحبيل أو عبد الله بني الملك الحارث » .

فقال امرؤ القيس مسرعاً : « وهي ابنة عمي كذلك ، وأنا أحبها » .

فقال ربيعة في قسوة : « أنت واهم ، ما هي إلا نزوة من نزوات الشباب . أنت تحبها كما تحب سواها » .

فثار الفتى غاضباً وقام على رجليه كأنه يريد أن يضرب خصماً ، وقال في صيحة : « كذب من قال هذا » .

فقال ربيعة ملاطفاً : « أنت تعرف محبتي لك وشدة رغبتي في خيرك ، فلا تظن أني أقول ما أقول إلا حرصاً

عليك ، وتأدية لحق أبيك وآلك على » .

فجلس الفتى وقال ولا زال مهتاجاً : « أتسمى هذا العبث الذي أعبثه أحياناً حباً لسواها » .

فقال ربيعة مصراً على رأيه : « أنت في مكان ولدى وإن لم أكن كأبيك أنا أعرف ما ينطوي عليه قلب مثلك ، فإنني لا زلت رجلا فتياً لم أفقد بعدُ شبابي . إن الذي يحب لا يستطيع أن يعبث . إنك لا تحبها ، ولكنك تريد أن تفوز بها لأنها تقاومك ، وتمتنع عليك . بل إنك لتعبث بها إذا استطعت » .

وكأن هذه الكلمات كانت طعنات مسددة إلى قلب الفتى ، وأحس أن الرجل قد أهانه ، فثارت عزته وتذكر أن ذلك الذي يطعنه هذه الطعنات ماهو إلا تابع له ولأبيه ، فكيف يجرؤ عليه بمثل هذه القولة ، وبلغ منه الغضب مبلغاً ، فأفلت رأيه من زمامه ، وامتلأت نفسه بالكبر ، وكان أثر فعل الخمر ما زال باقياً قد هزه فأضعف فيه حكم العقل ، فنهض غاضباً ودفع الرجل في صدره بجُمع يده فألقاه على جانب الكثيب ، ومضى نحو خيمته مترنحاً من الغضب ، فدخل فيها واستلقى على فروة في جانبها ، وجعل يبكي ويتمرغ ، ويئن أنيناً موجعاً .

قام ربيعة يجر رجليه إلى بيته ، وقلبه مفعم بالأشجان المتضاربة ، حتى ذهب إلى خيمته ، فنضا عنه ثيابه واستلقى على فروة ، وجعل يفكر فيما كان بينه وبين الفتى وهو في حيرة من أمره ، أيقضي بالأمر إلى أبيه الملك حجر ، أم يحاول مرة أخرى أن يقومه بالنصيحة والرفق ؟ وكانت الإهانة التي أصابته من الفتى تثيره وتصرفه عن محبته له حيناً ، ثم لا يلبث أن يعود إلى نفسه فيلتمس له الأعذار من نزق شبابه وحرارة قلبه .

قضى امرؤ القيس مساء الليلة بعد ذلك لا يطمئن على جنب ، ولا يستقر في مجلس ، فخرج إلى الفضاء المجاور لبيته وجعل ينظر حوله إلى القمر السارى بين السحب ويتنفس أنفاساً حارة بين حين وآخر ، ثم اهتزت نفسه فجعل يتغنى بأبيات من الشعر أودعها ما تختلج به نفسه من الشجون فقال :

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلل
وإن كنتِ قد أزمعت صَرْمي فأجملي
وإن كنت قد ساءتك مني خليقة
فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسل
أغرّكِ مني أن حبك قاتلي
وأنك مهما تأمرى القلب يَفعل ؟
وما ذَرَفت عيناك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مقتّل
تسلت عمايات الرجال عن الصّبا
وليس فؤادى عن هواك بمنسل

ثم سكت قليلا وجعل يتذكر ربيعة وما أصابه منه ، وأحس بشيء من الندم على ما فرط منه في أذاه ، فلقد كان الرجل يخاصمه في فاطمة ولا يقصد إلا خيره ، وتذكر إهانته له جزاءً على صداقته وإخلاصه ، فزاد ألمه وأحس كأن رأسه يعصر عصراً ، فجعل يهزه هزاً عنيفاً كأنه يريد أن يبعد عن خياله تلك الصورة المؤلمة ، صورة دفعه لصديقه تلك الدفعة المنكرة التي ألقته طريحاً فوق الكثيب على غرّة منه ، ثم صورته وهو ماض عنه جريح القلب صامت اللسان .

حاول امرؤ القيس أن يصرف عن خياله تلك الصورة ، ولكنها لم تبعد وبقيت ماثلة ، تزيد الفتى ألماً على ألمه ، وجعلت دموعه تجرى على صفحتي وجهه وقال في صوت أجش من أثر البكاء :

ألا رُبَّ خصمٍ فيكِ ألوَى رددتُه
نصيحٍ على تعذالِه غيرِ مؤتلِ

ثم غلبه النشيج فقضى ساعة وهو في نشيج مرّ . وكأن ذلك البكاء قد خفف عن قلبه بعض الألم فتنفس نفساً عميقاً ثم رفع رأسه ونظر حوله إلى الفضاء وقال :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدولَه
عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطَّى بصُلبه
وأردفَ أعجازاً وناء بكلكلِ
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ
بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثلِ
كأن الثريا عُلِّقت في مصامها
بأمراس كتّان إلى صمّ جندلِ

ثم أكب على جانب الكثيب جاعلاً رأسه على يديه . ومضى عليه في هذه الحال حين طويل حتى كاد الليل ينصرم ، فأفاق إفاقة قصيرة عند وجه الفجر ، ولم يلبث أن صحا منها فرأى خيوط الفجر تنبثق من الأفق الشرقي فاترة ، وتلقي على الأرض سلاما لا يجد له صدى في نفسه .

وجال ببصره في خط الأفق جولة خالية لا يقصد بها شيئاً ، فما راعه إلا أن يرى إبلاً محملة تسير في تجاه الجنوب يسعى بها رجل طويل يضرب في أكبادها يستحثها في السير ومن ورائه فتية يسوقون الظعائن عليها هوادج النساء ، فقام مسرعاً يسائل نفسه عن هذا الركب المبكر . وخفق قلبه إذ خطر عليه خاطر سنح سنوح البرق . أيكون هذا الركب المرتحل سائراً بفاطمة ؟ أيكون أبوها قد علم بما كان منه ، ولما لم يرد عداوة قومه وخشي قطيعة الملك حجر آثر أن يرحل بأهله يلتمس النجاة من العار ؟ ما كاد هذا الظن يداخله حتى وثب ذاهباً نحو منازل عامر أبي فاطمة وكانت على مقربة من منازل آل حجر . فلما بلغها لم يجد بها إلا آثاراً من أثافي المواقد ، وأسواراً من الطين كانت حول الخيام لتحميها أن تتسرب إليها مياه سيول الشتاء ، فكاد لبه يطير ، وأخذ يعدو في تجاه الأفق البعيد غير مبال ما في سبيله من حجارة تعثره ، أو رمال تشق عليه ؛ وما زال يجري وهو مستطار اللب حتى كل وعجز عن مواصلة العدْو . فانبهر في طريقه واضطر أن يسير سيراً مضطربا ؛ وصدره يضيق بأنفاسه من أثر الجهد ، وزاده تعباً ما كان به من أثر السهاد والهم في الليلة السابقة .

ولكنه رأى أنه لن يستطيع أن يلحق بالركب إذا هو سار ذلك السير البطيء ، وثارت نفسه عندما تصور أن الحبيبة سوف تصبح في ديار أخرى وتبعد عنه بعد ذلك أبداً فلا يراها . وجعل يسائل نفسه : أيكون ذلك اليوم حقاً آخر عهده بها ؟ أيكون ذلك الموقف المزري الذي وقفه منها آخر موقف بينهما ؟ أتكون آخر كلمة يسمعها منها تلك الطعنة النافذة التي رمته بها ؟ وما كاد يفكر في ذلك حتى اندفع يجري مرة أخرى وهو لا يكاد يجد الأنفاس ، فما زال يحمل على نفسه في العدو ويغلبها على المضي ، حتى عجز وتخاذل وخر إعياء بين شجيرات من السرو مجتمعة على جانب كثيب ، ثم أغمي عليه .

لم ينم ربيعة بن عمرو تلك الليلة بعدما ترك امرئ القيس ، فظل ساهداً حتى طلع الفجر ، فقام إلى رأس ربوة مجاورة ينفض عن صدره ما كان فيه من الضيق والغضب ، فلما جال ببصره فيما حوله رأى امرأ القيس يعدو فأتبعه ببصره متعجباً أين يقصد ، ثم رأى الركب المرتحل يسعى بعيداً عند الأفق وامرؤ القيس يحاول الوصول إليه ، فأدرك حقيقة الأمر ، ولكنه أحس فرحاً يدب إلى قلبه وبدأ همه يسرّى عنه .

ثم رأى امرأ القيس يعجز في الجري ، ورآه بعد ذلك

يسقط خائراً ، فأحس كأن طعنة أصابت قلبه . فلقد كان للفتى فى قلبه مكانة لا يدانيه فيها أحد مع كل ما بدر منه . فقام مسرعاً إلى راحلته فركبها وأسرع فى السير حتى بلغ موضع الفتى ونزل إليه ، فجعل يعالجه ويدلك أعضاءه حتى عاد إليه وعيه .

فتح الفتى عينيه فوقعتا على صديقه الذى آذاه ، ورآه مكباً عليه وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجزع والحزن ، فحسب نفسه فى حلم وقال : « من أنت ؟ » .

فقال ربيعة فى أسى : « صديقك ربيعة » .

فمد الفتى إليه يده فأخذ بيد ربيعة فقبلها وأنزل عليها دموعه وقال بصوت ضعيف : « أقد رحلوا ؟ » .

فصمت ربيعة وقال كأنه يعزيه : « تجلد يا صديق . تجلد ولا تهلك نفسك أسى » .

فأعاد امرؤ القيس سؤاله وقال : « أقد رحلوا ؟ أرحلت فاطمة ؟ » .

ثم وضع رأسه فوق يديه وهو مكب على الرمال وأخذ يبكى بكاء مراً ، فتركه ربيعة يمضى فى بكائه مكتفياً بأن يمسح على رأسه بيده مسحاً رفيقاً ، فقد علم الرجل أن فى هذا الدمع شفاء لقلب الفتى الجريح .

بعد ساعة رضى الفتى أن يعود مع صاحبه ، فساعده ربيعة على الركوب وركب ردفه عائدين إلى الحى فبلغاه قبل أن تعلو شمس النهار .

وقضى امرؤ القيس بعد ذلك أياماً طريح الفراش فى حمى هدت قواه وكادت تقضى عليه . واهتزت منازل بنى أسد وغطفان لمرضه ، واشتد جزع أبيه حجر عليه ، فكان لا يفارقه ليلا ولا نهاراً ، فقد كان امرؤ القيس أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه مع ما كان يسمع من أنباء لهوه وما كان يبلغه أحياناً من شعره . فإن كان الفتى يضطرب فى شبابه ويطيع فنون هواه ويترنم أحياناً بالشعر كلما طرب أو اهتز قلبه ، فهو ابنه الرقيق القلب الوديع القول الفارس الكامل والصائد البارع السديد الرماية ؛ فكان الأب لا يزال يترقب ذهاب الصبا والفتون عن ولده الحبيب ، ولا يزال يرجو أن يعود إلى الجد مع موالاة النصح العاطف والإرشاد الشفيق .

وأفاق الفتى بعد أيام طويلة ، فكان أول ما وقع عليه بصره وجه أبيه الحزين ، والدمع يبل لحيته ، ووجه صديقه ربيعة وقد أمضه الحزن عليه وأنحله .

وعادت القوة إلى امرئ القيس رويداً حتى استطاع أن يسير وأن يركب وأن يجالس ويسامر وينادم وينشد ، ولكنه لما استتم الشفاء لم يعد إلى طبعه الأول ، ولم يسترجع نفسه الأولى الوديعة المرهفة الحس . بل قام بنفس جديدة وطبع غريب حتى لكأنه خلق بعد المرض خلقاً جديداً .

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

صور من التاريخ الإسلامي :

عطـــــاء . . .

للاستاذ ناجي الطنطاوي

غمرت مكة موجة من الحرّ رهيبة ، تغلغلت في كل دار ، وأصابت كل إنسان ، فأخمدت جذوة النشاط في كل نفس ، وحلت الفتور والخمول إلى كل جسم ، حتى تملك الناس تعب مُمضٍ ، وملل قاتل ، وخيّم شبح الصمت الرهيب على أنحاء مكة ، فغدت لا يعلو في أرجائها صوت ، ولا تُسمع في جوانبها نأمة ؛ وبدا القصر الذي نزله الخليفة موحشاً كئيباً ساكناً سكون الموت ؛ بعد أن كان يضيق على رحبه بالوافدين ، وتزدحم أمامه وفي ساحته الكبرى مئات من الناس الذين يممّوه من كل حَدَب وصوب طمعاً في مال الخليفة ، أو شوقاً إلى لقائه والتحدث إليه ، أو هرباً من العزلة الضجرة والوحدة القاتلة . أقفر القصر من مرتاديه وخلا إلاّ من حجّابه وخدامه ، وأوى الوليد بن عبد الملك إلى غرفته لقِس النفس ، فاتر الهمة ، خائر العزيمة ، وأحسّ في نفسه ، وهو يرتمى على إحدى الأرائك الوثيرة ، ضيقاً لم يدر منشأه ، وفتوراً لم يعرف له سبباً ، فأغمض عينيه وأسلم نفسه للكرى ، ولكن النوم استعصى على جفنيه ، وأبى أن يذلّ ويخضع لهذا الرجل الذي ذلّ وخضع له نصف العالم : إنسه وجنّه ، وحيوانه ونباته ، والذي لا يأمر إلا ليُطاع ، ولا يرغب إلا لتُنفَّذ رغبته مهما عظمت ، والذي يسيطر على أرواح البشر ، فيقضى بكلمة تصدر من بين شفتيه على من يشاء ، ويقرّب بإشارة من يده من يريد ، استعصى عليه النوم ، ولم يبالِ بإمرته وخلافته ، فنهض حانقاً مغيظاً ، وأراد أن يرفّه عن نفسه بسماع حديث ينفى عنه الهمّ والضجر ،

فاستوى في مجلسه ، وصفّق بيديه لحاجبه قائلا :

— قف على البـاب ، فإذا مرّ بك رجل فأدخله علىّ يحدثني :

قال الحاجب : سمعاً وطاعة يامولاى ، وخرج مهرولا حتى بلغ الباب ، وتطلّع إلى الطريق ، فلم يرَ فيه شبحاً لإنسان يُرى ، ولم يسمع فيه حساً ولا حركة ، فوقف حياله لا يريم ، وراح ينظر إلى الطريق مفكراً في هذا الأمر الذي صدر إليه ، ومحاولا أن يجد السبب الذي دفع الخليفة إليه ؛ ولم يطل به التفكير ، إذ كان يعلم أن الخليفة كثيراً ما يضيق صدره بالوحدة ، وهو الذي اعتاد ألا ينفرد بنفسه ساعة من نهار ، وأن لا يرى مجلسه خالياً من الناس ، فتتوق نفسه إلى جليس يحدثه ويرفّه عنه ويزيل عنه الضيق والضجر ، جليس ذكىّ فطن يعرف كيف يدخل السرور والغبطة إلى نفس أمير المؤمنين بأسلوب فصيح عذب ، وبلهجة محبّبة سائغة ؛ لخشى الحاجب أن يمر به رجل عيىّ جاهل يقف أمام الخليفة صامتاً وجلاً ، لا يدرى بم يحدثه ولا كيف يسرّه ، فيثير نقمته وغضبه ؛ وخشى أن يمرّ به رجل قليل العلم لا يستطيع أن ينفى عن الخليفة حزنه ، أو رجل ذو لحة لا يعرف أدب محادثة الخلفاء ، فتبدر من فيه كلمة تكون سبباً للنقمة عليه وعلى الحاجب معاً ، أو رجل عالم جرىء يُغضِب الخليفة إذ يقول الحق لا يدارى فيه ولا يجامل ؛ وجلس الحاجب خائفاً يدعو الله أن ينقذه من هذا المأزق الحرج وأن يخلّصه من نقمة الخليفة وبطشه .

وتراءى إلى سمعه صوت بعيد كأنه صادر من أعماق بئر ،

صوت منادٍ ينادى قائلاً : لا يفتى إلاّ عطاء ، لا يفتى إلاّ عطاء ، فعرفَ فيه منادىَ بنى أمية ، يأمرونه فى كل حج أن يجهر بهذا النداء ، وارتاحت نفسه إلى الصوت ، وطرب لسماع اسم عطاء ، ذلك الشيخ الجليل الذى يتقاطر الناس إلى مجلسه فى المسجد الحرام فى كل عشية ، فيضيق بهم المسجد على رحبه ، يُصغون إلى كلام عطاء ويحرسون على أن لا تفوتهم كلمة من كلامه ، وهو يتدفق فى حديثه كالسيل الأتى ، وكان يعرف فضل عطاء وعلمه ، ويلتقط من أفواه الناس أحاديثهم عن هذا الرجل ، وحفظ من كلامه الذى سمعه منهم قوله : « إن من كان قبلكم ، كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى أن يُقرأ ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو تنطق فى حاجتك التى لا بد منها . إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . أما يستحى أحدكم لو نشرت عليه صحيفته التى أملاها صدر نهاره أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ » .

ورنّ صوت المنادى فى أذنه كرّة أخرى : لا يفتى إلاّ عطاء ... ففاضت نفسه غبطة بهذا النداء ، وذكر قول عبد الله بن عمر للناس حين قدم مكة فتقاطر الناس حوله من كل فجّ ، وراحوا يمطرونه وابلاً من الأسئلة يطلبون الجواب عليها ، إذ قال لهم : أتجمعون لى المسائل وفيكم عطاء ابن أبى رباح ؟ بالله ! أيكون عطاء مثل ابن عمر ؟ ذلك وأبيك الشرف .

واتبه الحاجب حين طافت فى رأسه هذه الجملة الأخيرة ، وعرف أنها ليست له وأنها طرقت أذنه مرة ، ولكنه لا يدرى متى سمعها ولا ممن سمعها . فراح يستعرض ماضيه ، ويعمل ذهنه حتى ذكر خبرها ، ذكر القصة التى سمعها عن الخليفة السابق عبد الملك بن مروان ، حين دخل عليه عطاء وهو جالس على سريره فى مكة ، وحواليه الأشراف من كل بطن ، فلما بصُر به عبد الملك قام إليه وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه وقال له : يا أبا محمد ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فانهم حصن المسلمين ، وتفقّد أمور المسلمين فانك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك ، فلاتغفل عنهم ولاتغلق بابك دونهم . فقال له : أجل أفعل . ثم نهض وقام ... وابتسم الحاجب حين ذكر قبض عبد الملك على عطاء ، وقوله له : يا أبا محمد ، إنما سألتنا حاجة لغيرك ، وقد قضيناها فا حاجتك أنت ؟ وقول عطاء : ما لى إلى مخلوق حاجة ، وابتسم ثانية حين ذكر قول عبد الملك عقب خروج عطاء : هذا وأبيك الشرف .

وبدت أمام عينى الحاجب صورة رائعة لعطاء من صنع خياله ، وودّ لو يمتّع نظره بمرآه ، ودّ لو يرى ذلك الرجل العظيم الذى كان يسمع عنه أنه ظلّ يفترش المسجد عشرين سنة لا ينفتل من صلاة إلا ليبدأ صلاة أخرى ، وأنه يقوم اليوم إلى الصلاة — بعد ما كبر وضعف — فيقرأ مائتى آية من سورة البقرة وهو قائم لا يزول منه شئ ، ولا يتحرك ، وأنه حجّ أكثر من سبعين حجة . ودّ لو يرى هذا الرجل العظيم ولو مرة واحدة قبل أن يموت .

ونغّص عليه سروره وفرحه حسٌ سمعه من جانب الطريق ، فنهض ليرى القادم ، فرأى شبحاً يسير فى ظلّ الحائط ببطء واتزان ، وتطلّع إليه فبصُر برجل قصير القامة ، أسود الوجه ، أعور العين ، أفطس الأنف ، أشل اليد ، أعرج الرّجل ، مفلفل الشعر ، كأنه غراب أسود ! ورأى عليه ثوبا رثّا باليا لا يمكن أن يسوى أكثر من خمسة دراهم .. فخالط قلبه الرعب من منظر هذا الرجل الذى لم ير مثله طول حياته ، على كثرة من رأى من الناس ،

وأدرك أن الرجل أعرابي جلف جاهل لا يصلح أن يخاطبه أدنى الناس ، فضلاً عن أن يكون نديم أمير المؤمنين ومحدثه ، وحار الحاجب في أمره وأدركته الحيرة ، وخشى إن هو فوّت الرجل أن يعلم بذلك الخليفة فيصب عليه جام غضبه وينزل به أشد عقابه ، وخاف إن هو أدخله عليه أن يسيء محادثته فيقع اللوم على من جاء به .

وظل الرجل سائراً في طريقه لا يلتفت ولا يقف ، وكاد يبتعد عن قصر الخليفة ويتوارى عن الأنظار ، فتحفز الحاجب وجرى خلفه مسرعاً لئلا يفوته ، ولما أدركه قبض عليه وقال له بلهجة الآمر :

— أجب أمير المؤمنين . .

فأجاب الرجل دون أن يرفع إليه بصره :

— مالي إلى أمير المؤمنين حاجة ، دعني يا هذا .

ولكن الحاجب لم يسمع ما قال الرجل ، وكان همه الأوحد أن ينفذ أمر الخليفة ، فقاد الرجل بغلظة حتى أدخله قصر الخليفة ، ولما رآه الحجاب راحوا يلومونه على إدخال هذا الرجل القبيح البشع ، ولكنه لم يلتفت إليهم ، وظل سائراً به حتى أدخله على أمير المؤمنين قائلا :

— هذا أول رجل مر بي يا مولاي .

رفع الوليد رأسه ، وأنعم النظر فيه ، ثم قال له : تقدم أيها الرجل . فتقدم حتى إذا دنا منه حياه الرجل قائلا :

— السلام عليك يا وليد !

فلم يكد الوليد يسمع هذه التحية حتى انتفض غضباً وثار ثائره ، وصاح بحاجبه :

— ويلك ! أمرتك أن تدخل إلي رجلا يحدثني ويسامرني ، فأدخلت إلي رجلاً لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي ؟

فأجاب الحاجب مذعوراً مرتجفاً شاحب الوجه :

— ما مر بي أحد غيره يا مولاي .

فقال الوليد :

— اجلس أيها الرجل ، ما اسمك ؟

— اسمي عطاء بن أبي رباح . . .

فعرفه الوليد ، وقال له : حدثني . وأقبل عطاء على الوليد يحدثه في السياسة الشرعية وما يجب على الإمام نحو رعيته وما هي صفات الخليفة العادل ، وماذا ينتظر الخليفة الجائر من عذاب الله ومقته ، وكان فيما حدثه به قوله : بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة ، حرم الله عليه الجنة ، وأنه قال : ما من والٍ يلي شيئاً من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله ، فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوي به في النار سبعين خريفاً . . . وبلغنا أن في جهنم وادياً يقال له هبهب ، أعده الله لكل إمام جائر في حكمه . .

فلما سمع الوليد حديث عطاء ، صعق منه ، وكان جالساً بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشياً عليه . وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً يسمع ويرى ، فلما شاهد ذلك وثب صائحاً بعطاء :

— أوه ، لقد قتلت أمير المؤمنين ! .

ولكن عطاء لم يبال به ولا بأمير المؤمنين ، ونهض واقفاً ، وتقدم من عمر ، وغمزه في ذراعه غمزة شديدة قائلا له : يا عمر ، إن الأمر جد جد . إن الله أمرنا أن نجهر بالحق في كل موطن ، وأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر دون أن نخشى في الله لومة لائم . يا عمر ، إن من رأى فاعل المنكر وسكت عنه كان شريكا له في الإثم ، وإننا إن لم ننكر على أمير المؤمنين مخالفته لأوامر الدين الحنيف كنا مسئولين أمام الله يوم القيامة ، وشركاء للخليفة في عذابه ، ولقد أخذ الله على العلماء من المواثيق ليبيننه للناس ولا يكتمونه . يا عمر ، قل الحق ولو على نفسك ،

مشاهير السودان :

١ - الزبير باشا

للأستاذ توفيق أحمد البكرى

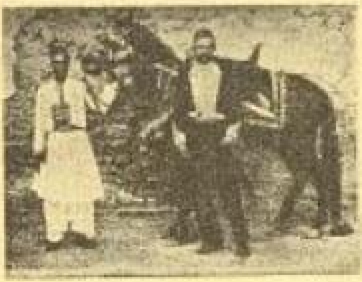
[إنه خلق ليحكم الناس ، ولو كان فى أوروبا إذاً لكان له شأن غير هذا الشأن ، ولترك فى تاريخها أثراً بعيداً]

«دكتور شفابفورث»

مقدمة :

كانت حياة الزبير جميعها وثيقة الصلة بتجارة الرقيق ؛ ولا بد لمن يتناول حياته بالدرس والتحليل من أن يحوم حول تجارة الرقيق عابراً مجملا ، حتى تستبين له معالم تلك الشخصيّة الفذة التى قامت بنصيب كبير فى تكوين الأمبراطورية المصرية . لهذا أحببت أن أمهد للزبير بذكر شىء عن تلك التجارة فى السودان ، التى أصبح يلقب من أجلها بـ « ملك تجّار الرقيق غير المتوّج » .

نزح العرب إلى السودان قبيل الإسلام وبعده عن طريق صعيد مصر والبحر الأحمر ، ووجدوا فى طبيعة البلاد ما ماثل البلاد التى نزحوا منها ، فطاب لهم المأوى والمقر . ولكنهم لاقوا مقاومة عنيفة من أهل البلاد الأثيوبيين ، ودامت الحروب بينهم حتى تغلب العرب ،



الزبير باشا

واضطر المغلوبون على الارتداد إلى داخلية البلاد غرباً وجنوباً ، واعتصموا بقنن الجبال المنيعة ، واحتموا بالغابات المتشابكة الأدواح ، فكانت كالحصون تمنع عنهم صولات الفاتحين العتاة .

كان لا بد فى حومة تلك الغارات من أن يضرّج قتيل ، أو يقيد أسير . وكان اسرى الأثيوبيين ، إذا زادوا عن حاجة الغزاة فى أمور معاشهم ، باعوهم لتجّار الرقيق ، وأخذهم هؤلاء إلى خارج البلاد ؛ وكان أولئك الأعراب لا يتقيّدون بعرف ، ولا يزدجرون بدين . ولكنهم فى سبيل الاستقرار ونضال الحياة ، لم يتورعوا من انتهاك تلك الحرمات الانسانية ، فلم يعيروا بالا إلى ما فى ذلك الصنيع من وحشية وظلم . والويل ثم الويل للضعيف من القوى الجائر . . .

لم تستمر تلك الحروب طويلا ؛ واستقر هؤلاء

لا تدار ولا تنافق ، واعلم أن الله سائلك عن كل صغيرة وكبيرة ، فأعدَّ لكل عمل جواباً ، وراقب الله فى جميع أحوالك ، ولا تخشَ الناس والله أحق أن تخشاه[1] . . .

ثم قام وانصرف .

(دمشق) ناجى الطنطاوى

(١) قال عمر بن عبد العزيز : مكثت سنة أجد ألم غمزته فى ذراعى !

وأولئك فى بقاع محصورة ، ظلوا فيها إلى اليوم ؛ ووضعت الحروب أوزارها ، وتلمس الأعراب طرقاً أخرى للخطف ، فالاتجار فى الرقيق ، بعد أن حُرموا أسرى القتال والأسلاب . لجأ العرب إذاً للحيلة والدهاء ، فيذهب رئيس قبيلة قوى إلى ملك من ملوك السود ، فيحالفه ويعاهده ، ويقيم بين ربوعه ، ويتزوج باحدى بناته ؛ وهو بين هذا وذاك مُتَرَبِّصٌ يتحين الفرص السوانح ، فاذا ما سنحت له غدر به ، واختطف النساء والأطفال ، وعاد إلى بلاده غانماً موفوراً .

بمثل هذه الحيل ، وبأسرى الحروب والغارات ، كثر الأرقاء عند عرب السودان ، حتى صار أحقرهم شأناً عنك الرقيق والغلمان ؛ وزاد على توالى الأيام الرقيق عن حاجتهم ، فصاروا يتَّجرون به فى مصر والحجاز وسوريا وتركيا وسائر بلاد الشرق ، وتجاوزها إلى الغرب . وأصبح الاتّجار بالرقيق مهنة وتجارة من أعظم المهن والاتّجار ، التى تدرّ الربح الوفير ، والغنى والثراء . وانقسمت تسمية تجار الرقيق إلى البحّارة والنّهاضة .

(١) أما البحارة فهم ساكنو شواطئ النيلين الأزرق والأبيض من تجار الرقيق . وكانوا فى أول أمرهم يستعملون السيوف والحراب والسهام فى حروبهم مع السودان ، وكانوا يجدون مشقة وجهداً عظيمين فى التغلب عليهم ، لِما عرف عنهم من الشجاعة والإقدام ؛ فلما انتشرت الأسلحة النارية فى السودان بعد الفتح المصرى ، هان على البحارة محاربة السود ، بل أصبح واحد من التجار قادراً على أن يرهب ببندقيته رهطاً من السودان . وقد توغل صيادو الرقيق فى النيل الأبيض حتى وصلوا إلى أعاليه ، وملأوا بحر الغزال وخط الاستواء . وكان الحبشىّ أحد تجار الخرطوم أول من تغلغل فى داخلية الجنوب ، ثم اقتفى أثره كثير من التجار .

كان التاجر من أولئك ومعه عصابته ، يأتى بلداً من بلاد السودان ، فيحفر خندقاً ، يضع داخله بضاعته ، وأسلحته ورجاله ويحيطه بزريبة كثيفة من أشواك القتاد . ثم يشرع فى جمع السن والريش وخيرات تلك البلاد ، مقايضة بالخرز والحراب والأساور وغيرها من الأشياء التافهة المرغوبة عند أولئك الناس ، ويخزن ما يجمعه منها فى زريبته ، ويبقى على ذلك إلى أن تبرق له بارقة غفلة من القوم ، فيهاجم البلد برجاله ، ويصليها ناراً حامية ببنادقه ، فيقتل من يقتل ، ويسبى من يسبى ، ويؤوب إلى حيث جاء ، وفى أعقابه رجال مقيدون ، وغلمان مأسورون ، ونساء وشيوخ كالأنعام مسوقون .

ومما جرأ البحّارة من تجار الرقيق على شن الغارات انشقاق ملوك السود بعضهم على بعض ، وعدم مسارعتهم إلى نجدة الجار المهاجَم ، بل كانوا يفرحون ويشمتون بمن يقع منهم تحت نيران العرب الجائرين .

(٢) أما النهاضة[١] ، فقد كان مجال الغزو لديهم فى أرجاء الغرب من جبال النوبة . وكانوا « لا ينهضون » للغزو وشن الغارات إلا فى أوقات الزرع ، إذ يترك السود جبالهم ، وينزلون إلى السهول لزرع الحبوب . فيستصحب كل من التجار نفراً من الشاة المسلحين بالبنادق ، وكتيبة من الفرسان العرب المجاورين لتلك الأماكن ، ويسير الفرسان فى مقدمة الصفوف ، حتى إذا ظفروا بجماعة من السودان ، أغاروا عليهم بخيلهم وأسروهم ، وشدوا وثاقهم وساقوهم أمامهم مكبلين مصفّدين ؛ فإذا نزل أهلوهم من الجبال لنصرة ذويهم العزل من السلاح وأخذهم من الأعراب ، تصدى لهم الشاة ، وفتحوا عليهم نيران البنادق وردوهم على أعقابهم مدحورين ، واقتسموا الأسرى بينهم ؛ ومصير جميع أولئك التعساء أسواق الرقيق .

أما أثمان الرقيق فكانت تختلف من الريال الواحد إلى خمسمائة ريال ، وذلك باختلاف أجناسهم وأعمارهم

(١) يستعمل عرب كردفان كلمة (نهض) فوق معناها العادى القيام الباكر طلباً للصيد والقنص ، ويطلقون على الصيد والقنص كلمة (النهيض) .

ويقتهم ويبعدهم عن منبتهم الأصلي ؛ لأن الرقيق إذا كان قريباً من بلاده التي سرق منها ، أمكنه الهرب ، فيغرى ذلك الآخرين على الفرار . وأغلى الرقيق رقيق الحبشة ، ثم الدنكا ثم النوبة ثم الفور ، وأدناها رقيق الشلك .

قال المستر بتريك Pe Therick في كتابه « الرق في السودان » : « إن الصبي الذي يتراوح عمره بين الخامسة عشرة والعشرين يتراوح ثمنه ما بين خمسة جنيهات وثمانية جنيهات . وأما الفتاة التي في تلك السن فتزيد على ذلك بمقدار الثلث ، أي ما بين ستة وأحد عشر جنيهاً » . وقد وصف مستر بتريك كما وصف السير صموئيل بيكر وغيرهما من الكتاب الأوربيين ، الفظائع المرة التي كان يتعرض لها أولئك الآدميون البؤساء ، وما كانوا يلاقونه في الطريق من ضرب وجوع وذلة ، وكانت عقوبة الإعدام أهون ما يلقاه المتقدم منهم ، إذا شكا ألماً ، أو أظهر تعباً ، أو خارت قواه من التعب والكلال ، أو تمرد على غلظة الظالمين . « وكثيراً ما رأى المسافرون عظامهم البالية ، مطروحة في الفلوات ، تنقرها الطيور الكواسر ، وتنهشها الجوارح الضارية ، وهي في العراء تتقد بقيظ الهجير ، تشير بأفياء الليل إلى قسوة الإنسان وتصف الظالمين » .

وأشهر أسواق الرقيق في ذلك العهد أسواق الأبيض وشندي والقلابات . وكان الرقيق يرد إلى هذه الأسواق من دارفور وجبال النوبة وبحر الغزال والحبشة وخط الاستواء . وكان النخاسون يشترونهم في تلك الأسواق ، ويبيعونهم في أسواق الخرطوم والسلمية وسنار ، ثم يرسلون ما زاد عن حاجتهم إلى خارج البلاد .

وممن اشتهروا في تجارة الرقيق السيد أحمد العقاد من مصر ، وعلى أبو عموري من صعيد مصر ، ومعه عمل الزبير حين ابتدأ يشتغل في هذه التجارة المقوتة ، ثم محجوب البصيلي من إسنا ، وغطاس القبطي من أسيوط ، وبكوك التركي ، وإدريس أبتر السوداني ، وغيرهم كثير من مصريين وسودانيين ؛ ولكن كان هؤلاء سراة تجار الرقيق وأعلامهم البارزين .

***

فلما تناهت أخبار هذه الآلام التي كان يتعرض لها فريق من بني البشر ، وانتشر كثير من الكتب والأسفار التي وصفت أحوالهم ، وشقاءهم ، تحركت جماعة من قادة الفكر في انجلترا ذوى القلوب الانسانية الكبيرة ، يتزعمهم الكاتب الشهير توماس كلاركسن Thomas Clarkson وأجمعوا أمرهم على أن يوضع حد لهذه التجارة المقوتة ، حتى ينعم فريق من بني البشر بالحرية والاطمئنان كما ينعم غيرهم من الناس بالحرية والاطمئنان ؛ فألفوا « جمعية أصدقاء إبطال تجارة الرقيق » ، ونشر عنها كلاركسن في سنة ١٨٣٤ كتابه المشهور « تاريخ إبطال تجارة الرقيق في أفريقيا » ، وانضم إلى تلك الجماعة الخطيب الانجليزي المعروف وليم ولبيرفورس William Willberforce ، فعاونهم معاونة تجلى أثرها في البرلمان الانجليزي ، حملت الوزير الشهير بت pitt على الموافقة على إبطال تجارة الرقيق تدريجياً ، ووصل المنع إلى كل المستعمرات الانجليزية ، وحرمت تلك التجارة الشنعاء في أرجائها ، حتى إذا كانت سنة ١٨٣٣ ، أقر البرلمان الانجليزي مشروع إبطال الرقيق نهائياً ، ودفعت الخزينة الانجليزية في تسريح الرقيق إلى أصحابه في انجلترا والمستعمرات عشرين مليوناً من الجنيهات كتعويض لهم .

كانت هذه النتيجة نصراً بالغاً للناحية الانسانية ، في الجماعات التي لها نفوس تحس وقلوب تشعر ، ومجداً عظيماً لجمعية إبطال تجارة الرقيق ، التي كان منها من خصصوا وقتهم وحياتهم في سبيل الدفاع عن الرقيق : توماس كلاركسن ونيوتن ، والسياسي المعروف كاننج Channing والخطيب البرلماني وليم ولبيرفورس ، ومسز بيشر شو Beecher showe السيدة الأرستقراطية المثقفة والنابهة الذكر .

فالعجب ، يا صاح ، حين تعجب لساسة أعلام وكتاب عظام ، وأمة قوية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها ، يحرّمون تجارة الرقيق ، ويحاولون استعباد الأمم والشعوب ! ! ! أولئك أفراد مهما بلغ عددهم قد دافعوا عنهم حتى تنسّموا الحرية والفكاك ، وأولئك أناس فى ذرى الأرض الفضاء يُخضعون ويُستعبدون بقوة الحديد والنار ، تسلب حرياتهم وتخنق إراداتهم ؛ والويل لمن تحدثه نفسه بالتطلع إلى الحرية والاستقلال : ولنوم الشعوب يقظةٌ ، ولقعود الأمم توثبٌ ونهوض .

أما مصر ، فقد كان موقفها من هذه التجارة فى أول الأمر موقفاً سلبياً كلامياً . نادى محمد على باشا عند زيارته للسودان فى سنة ١٨٣٩ بإبطالها ، أى فى الوقت الذى قررت فيه بريطانيا العظمى تحرير الرقيق . ونادى بعده سعيد باشا حين زورته للسودان أيضاً فى سنة ١٨٥٨ بمنعها أيضاً .

أما إسماعيل باشا فقد انضم إلى معاهدة إبطال تجارة الرقيق رسمياً ، وزار إسماعيل انجلترا فى سنة ١٨٦٩ ، وبقى فيها ثمانية أيام ، طاف بكثير من معالمها ، وقوبل فيها بحفاوة منقطعة النظير ، واستقبله فى المستقبلين ولى العهد . فلما رحل منها كتب أحد الكتاب الانجليز يقول : « إن المحاولات العظيمة التى قام بها جماعة أصدقاء إبطال تجارة الرقيق ، قد تركت أثرها الفعال فى نفس صاحب السمو عزيز مصر ، وإنه ما اختلط بأية طبقة من الطبقات الراقية إلا وشعر بأنهم يمقتون هذه التجارة الشينة أشد المقت . وإن ولى العهد ، وانجلترا بأسرها ، لتحله محلاً عظيما من الاجلال ، إذا استطاع سموه أن يقطع دابر هذه التجارة فى السودان » .

ولما زار ولى عهد انجلترا وزوجه مصر فى شتاء ذلك العام رداً لزيارة إسميل ، كتبت وصيفة الأميرة مسز جراى فى مذكراتها تقول :

« دعينا إلى عشاء فاخر ، فى أحد قصور إسميل التى تعيد على الذاكرة أقاصيص « ألف ليلة وليلة » . ورأيت فيها رأيت كثيراً من الخلق ، ولكن الذى استرعى نظرى ذلك الرجل الأوربى ، ذو اللحية الكثة والعينين الساحرتين والجسم القوى المشوق ، ويجانبه سيدة فاتنة الوجه رشيقة القد ملتصقة به فى مشيتهما ، كأنهما فتيان حبيبان فى وقدة الحب وبدايته ، يذرعان حديقة غناء ، فلما دنوت منهما وتبينتهما ، وجدتهما السير صموئيل بيكر ، والليدى بيكر . وقد علمت أن الخديوى قد عيّنه حاكما عاما ، مطلق التصرف فى مديرية خط الاستواء ، ليقاوم تجارة الرقيق ويسحقها . ولعل عزيز مصر قد تأثر بما رأى وسمع فى انجلترا ، من كره الشعب لهذه التجارة الزرية ، فأراد أن يقضى عليها قضاءً مبرما » .

***

فى تلك الفترة التى كان فيها توماس كلاركسن ، يقيم الدنيا ويقعدها بكتبه ورسائله ومحاضراته ، مخلصاً فى دعوته ، مؤمناً برسالته ، وفى تلك الفترة من سنة ١٨٣١ وصوت وليم وليبرفورس يتردد بليغاً ، عالياً ، مؤثراً ، مقنعاً ، فى أروقة البرلمان الانجليزى ، ليقنع الأعضاء ، فتخضع الوزارة الانجليزية إلى الموافقة على إلغاء تجارة الرقيق فى انجلترا ، ثم فى العالم كله مهما كلفها ذلك من مال وجهد ، فى تلك الفترة وأموال تعويضات الرقيق تدفع من الخزينة الانجليزية لأصحاب الرقيق ، ولد فى جزيرة « واوسى »[١] فى السودان ولد للسيد رحمة بن منصور العرقى العبّاسى ، لم تطلق ساعة مولده المدافع ، أو تقام الزينات ، ولم يسمع الناس سوى صوت قريبة مثلجة الصدر بالمولود الجديد ، أطلقته فى جنبات السكون بالزغردة والفرح ، ثم أقبل الأهل والرفاق يشدون على يدى السيد رحمة بن منصور ، يهنئونه من أعماق قلوبهم بمولد ابنه « الزبير » .

(يتبع) توفيق أحمد البكرى

(١) واوسى : قرية من مديرية بربر بالسودان .

لمحة خاطفة :

بمناسبة الرحلة الجامعية إلى رومانيا

للأستاذ ت . الطويل

قام اتحاد الجامعة بتنظيم رحلة إلى رومانيا إبان الشهر الماضي ، وأباح الاشتراك فيها لطلبة الجامعة وخريجيها — المحدثين منهم والقدماء الذين خرجتهم المدارس العليا إطلاقا ، وساهم فى الرحلة نحو أربعين ومائة عضو قل منهم من كان طالبا ! . . . وقد أتيح لأعضاء الرحلة أن يشهدوا بعض الآثار المنبثة فى أرض اليونان وتركيا أثناء سفرهم إلى رومانيا وعند عودتهم إلى مصر . وما كان ينبغى أن نكتب فى أمر هذه الرحلة بعد عودتنا إلى أرض الوطن ، لأن إقامتنا هذا الزمن الوجيز بين أقوام نجهلهم ، لا تبرر الحديث عن أخلاق الشعوب التى اتصلنا بها ؛ فان الحكم على أخلاق الشعوب ، وفهم حضارتها على وجهها الصحيح لا يتاح قط لانسان فى مثل هذه المدة الوجيزة ، ولو توافر له سداد النظر ، وتهيأت له قوة الملاحظة ؛ ولكننا لا نريد فى هذه اللمحة الخاطفة إلا أن نسجل بعض ما أثار انتباهنا من ظواهر ، دون أن نعالج تفسيرها أو نتورط فى تعليلها .

عند ما تسامع الكثيرون بنبأ هذه الرحلة تولتهم الدهشة ، لأن الاتحاد قد نظم ثلاث رحلات إلى رومانيا فى أقل من عام ، كأنما خلت الأرض بما رحبت من مكان — غير رومانيا — يصلح لرحلات الجامعيين ! وعذر الاتحاد فى هذا هو — فيما يلوح — رخص المعيشة فى هذه البلاد ، وإن قيل إن أصدق الأسباب مرده إلى الاشاعات التى أذاعها عن رومانيا ونسائها أعضاء الرحلة الأولى بعد عودتهم إلى مصر فى الشتاء الماضى . فإن صح هذا كان على الاتحاد أن يحمل وزر ما فعل ، وإن أخطأ هذا الظن كان له حسن الجزاء على ما أسلف من جهود فى تنظيم هذه الرحلات .

على أن من الخير أن نعترف إنصافاً للاتحاد بأن رومانيا حبيبة إلى نفوس زوارها ، وإن لم يكن فيها ما يحمل على تقديرها واحترام أهلها ، ولا عجب فى هذا ، فإن البلاد كالناس ، فيهم من تلقاه لأول مرة فى حياتك فتنصرف عنه أو تنفر منه ولا تميل إلى الاتصال به ، وإن كان ممتازاً فى نواح تغرى بحبه وتحمل على التودد إليه ، ومن الناس من تراه فتميل إليه وتصبو إلى الحديث معه ، وإن لم يكن فيه من الميزات ما يرغب فى حبه ويغرى بالاتصال به ، وقد تنعكس الآية فتحب من كرهته أولاً أو تكره من أحببته من قبل ، وربما كان هذا كله بغير سبب يسيغه المنطق . . . وكذلك الحال مع البلاد ، قد تكره أن تقيم فى بلد توافرت فيه أسباب الراحة وألوان التسلية ، وقد تحب الإقامة فى بلد تعوزه أسباب التقدير والاحترام . ورومانيا من هذا الصنف الأخير ، تحب مدنها وقراها ، وتود أن تطول إقامتك بأرضها ، وتأسف لفراقها ، لا لأنها ملأتك احتراماً لها أو تقديراً لأهلها ، ولا لذكريات خلفتها وراءك ، ولكن لسبب أعمق من هذا كله ، أنا أشد من القارئ الكريم جهلا بحقيقته ! . .

قلت إن رومانيا — فيما يلوح — لا تحمل زائريها على

احترام أهلها ، فإن المظاهر التي صادفتنا بها كانت فيما يرجح على الظن أدنى إلى انحلال في الخلق منها إلى سعة في التقاليد أو خلاف في وجهة النظر ؛ فإن العين كثيراً ما وقفت عند مظاهر الترف الملحوظ في أهل البلد رجالا ونساء . . ! والترف لا يصيب الأمم إلا إذا أدركتها الشيخوخة ، أو أصابها دور الانتقال . والحال الأخيرة لا تنطبق على رومانيا بحال ... ولعل أعدل شاهد على ترجيح هذا الظن وجود « المانيكير » في أظافر الكثيرين من الرجال . . ! ومنظر الضباط ورجال الجيش يسيرون مع الفتيات في الشوارع وهم أكثر منهن اهتماما بزينتهم وعناية بأنفسهم ! ثم الفتيات الجميلات اللاتي يمرحن في بحبوحة من سعة التقاليد ، ويثرن انتباه الأجنبي بكثرتهن الملحوظة ، تلك ظاهرة لها أثرها البين فيما شاهدنا من شذوذ . ورجال الشرطة في هذا البلد فوق خمولهم الواضح في حركاتهم لا يحترمون أنفسهم ، ولا يحسنون أداء واجبهم في حراسة القانون ، ففي وسعك أن تمتهن هذا القانون بإذن منهم متى رشوتهم ببضعة مليمات ! منعنا حارس القصر الملكي من تصوير القصر منعاً باتاً ، فلما قدم إليه أحد الأعضاء بضعة مليمات أخذها بيده شاكراً ، ووضعها في جيبه آمنا ، وأباح للأعضاء كل ما يشاءون . . !



قصر في سنايا

والطبقة الدنيا أشد من هؤلاء — فيما يلوح — جهلا باحترام النفس ورغبة في استغلال الأجنبي ؛ وربما كانت هذه الظاهرة قائمة لا يخلو منها بلد من البلاد ، ولكنها في رومانيا ملحوظة بشكل يسترعى النظر ويثير الانتباه ؛ فخدم المقاهي ونُدل المطاعم لصوص تقيهم المهنة شر العقاب ، فكثيراً ما يضاعف النادل ثمن الصنف ، فإن فطنت إلى ذلك وأريته الثبت الذي سبق أن قدمه إليك بأثمان الأصناف أخذ يلتمس لك المعاذير الواهية وينتحل لك الأسباب المضحكة .



منزل عمدة إحدى القرى في رومانيا

تلك بعض مظاهر الانحلال عند هذا الشعب الذي لا تربط أفراده وحدة من دم أو ثقافة أو دين . . . إنه اليوم خليط من الرومانيين والهنغاريين والألمان واليهود ... وقد لازمته ظاهرة التفكك منذ الماضي السحيق ، أيام انضوائه تحت راية الدولة الرومانية القديمة . إن المرء ليعجب لأهل هذا البلد ويشفق عليهم من عجزهم المنتظر عن مقاومة هتلر يوم ينزل بهم أطماعه ! إنهم على يقين بأن هذا اليوم آت لا ريب فيه . سيدخل رومانيا طمعاً في بترولها وبترينها وسائر مابها ؛ وقد يحتج بحماية الألمان الذين يعيشون في ظلها ، وتتاح له فرصة التنكيل بأعدائه من اليهود . . ! ولهذا فإن اليهود في هذا البلد يلازمهم الجزع ويدفعهم إلى البحث عن ملاذ يلجأون إليه قبل أن يدهمهم هذا الشر الزاحف ؛ فما دخل المصريون متجراً من متاجرهم إلا سألهم صاحبه في لهفة ملحوظة عن موقف مصر من هجرة الأجانب — واليهود

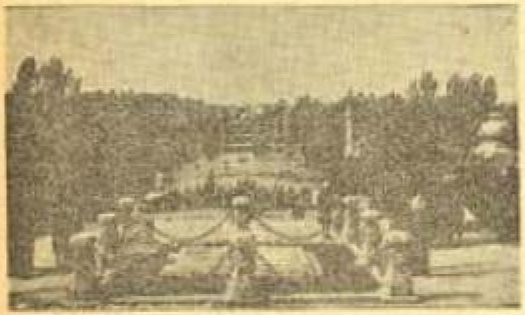
على وجه الخصوص — فإذا أجاب المصريون بأن القوانين عندنا تحرم هذه الهجرة ارتسمت على وجه السائل آيات اليأس الممض والألم الملح ، وفتيات اليهود الجميلات كثيراً ما طلبن من المصريين أن يقبلوا عودتهن إلى مصر زوجات لهم أو خادمات . . !



منظر في حديقة كارول الأول

قلت فيما أسلفت إن أكثر الظواهر التي مرت بنا توحي بانحلال ينساب في رومانيا طولا وعرضاً ؛ ولكن من طريف المفارقات أن تكون ميادين بوخارست حافلة — مع هذا — بالتماثيل التي يجسم الكثير منها ماضي الشعب في حروبه ، ويصور بطولة قادته وجنوده ، ويحدث الرائي عن كثير من القصص التي يرويها التراجمة ولا يعترف بها تاريخ . . !

وفي الشعب عدا هذا ظواهر أخرى تنبيء بأنه غير أصيل في مدنيته ، فإن المدنية الحديثة قد أقبلت تحمل معها الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل ، ولكنها أبت أن تطبق هذا المبدأ تطبيقاً دقيقاً فتمنح المرأة الحقوق التي يتمتع بها الرجل ، وتفرض عليها من الواجبات ما يعاني الرجل احتماله ، لأن هذا التطبيق الدقيق يحمل من القسوة بالمرأة ما يجعل مساواتها ظلما فادحا وعدواناً أثيماً ؛ ولهذا كفلت المدنية للمرأة احترام الرجل وخلعت عليها الكثير من حقوقه ، ثم أعفتها من أداء الكثير من واجباته ، ولكن رومانيا مقلدة فيما يلوح ، ولهذا بدت المفارقات فيها مثاراً للدهشة والعجب ؛ ومن طريف هذه المفارقات أن ترى الرجل حريصاً على تقبيل يد المرأة كلما تبادلا السلام ، ومع ذلك فإن هذه العادة الملحوظة في كل مكان ، لا تحمل من معاني التقدير والاحترام كثيراً ولا قليلا ، وأعدل شاهد على صدق هذا الظن قائم في عربات « الأوتوبيس » ، تحمل العربة من الركاب في أكثر الأحيان أضعاف ما تحتمل سعتها — على نحو ما نرى عندنا في عربات تورنيكروفت أحيانا — وفي زحمة هذه العربات ترى الكثيرين من الرجال جلوساً والكثيرات من السيدات واقفات ، فإن خلا مكان سارع إليه أحد الرجال واستقر به دون أن يجد في ذلك غضاضة أو ملامة ، وقد تقف العربة فجأة أو تميل بغتة فيصطدم الركاب بعضهم ببعض ولا يفكر رجل في إخلاء مكانه لسيدة ما ، فإن كانت تحمل طفلا تبرع أحد الركاب وأخذ منها الطفل وأقره على رجليه ، وقد يضن الركاب بهذه المكرمة طوال الطريق ، وقد تعتلي العربة فتاة فترى رجلا يعرفها فيتبادلان التحية أو السلام ، فإن لم تجد مكاناً لها لبثت واقفة وصاحبها يواصل حديثه معها وهو جالس في مكانه لا يريم . . !

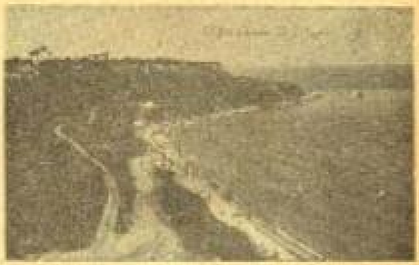


قبر الجندي المجهول

فقدت المرأة قيمتها عند الرجل ، ولكن هذا لم يمنعها من التمتع بحرية كانت في عين المصري أدنى إلى الإباحة منها إلى الحرية . ولقد كانت زيارة المصري لصديقاته من

الرومانيات فى بيوتهن واستقبال آبائهن وأمهاتهن له وترحيبهم به مثار الدهشة عند المصريين وحدهم .

ولعل من مظاهر هذه الحرية ذلك الشاطئ الذى رأيناه فى كارمن سيلفا — إحدى ضواحى كونستانزا — خاصاً بالعراة من المستحمين والمستحمات ، وهو شطران أحدهما للرجال والآخر للسيدات ، يفصل أحدهما عن الآخر حاجز ضئيل من الخشب ، والمكان المعد للرجال مباح للسيدات والعكس غير صحيح ، كما هو الحال فى كل ما هو مخصص لكلا الجنسين ، ومن الميسور للمارين بالشاطئ أن يروا كلا الفريقين عارياً من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وقد ترى العراة من الرجال وقوفاً أو منطرحين على ظهورهم وحولهم السيدات والفتيات عاريات أو بملابس البحر ، وقد ترى السيدات فى المكان المهيأ لهن مستلقيات على بطونهن أو منطرحات على ظهورهن أو واقفات عاريات لا يستر أجسامهن حجاب ، والمنظر فى جملته لا يروق الشرقى كثيراً ولكنه يروعه إلى غير حد .



شاطئ كارمن سيلفا

ولكن هـذا الشذوذ الذى يبدو فى بعض مظاهره أدنى إلى الانحلال منه إلى رحابة التقاليد ، لا يمنع من الاعتراف بأن هـذا البلد حبيب إلى نفوس زواره حتى ليحملهم على الأسف على فراقه يوم تحين ساعة الرحيل إلى الوطن . وقد أسلفت القول بأنى لم أهتد إلى معرفة السبب الصحيح الذى يبرر هـذه الظاهرة ، وإن كان فى بعض ما شاهدناه عند أهله ما يساعد على وجودها ، فالرومانيون — فيما يلوح — شعب وديع ودود لطيف العشرة ، يأخذ الحياة برفق ويمضى فى رحبها بلين ودعة ؛ وقد كان أحد أصدقائنا فى الرحلة يتمنى ألا يعود إلى مصر قبل أن يرى فى رومانيا معركة بين عشيرها أو يشترك فيها بعض أهليها ، ولكنه عاد إلى وطنه قبل أن يرى هذه الظاهرة المألوفة فى بلادنا . . ! وهو شعب بسيط غير معقد حتى فى لغته . . ! فقد دخلت اللغة



منظر لبعض الفلاحين والفلاحات

الرومانية بلاده يوم غزاها تراجان أمبراطور الروم فى القرن الثانى الميلادى ، ثم انفصلت رومانيا عن روما منذ سبعة عشر قرناً من الزمان ، ولا يزال الرومانيون يحتفظون بهذه اللغة ويعتزون بها اعتزازاً يبدو فى اقتصارهم عليها فى إعلاناتهم وشتى معاملاتهم الرسمية ، رغم أنها لا تمثل ديناً ولا تغذيهم بثقافة ، وربما كان هذا وجه العجب فى أمرها ؛ فإن مصر مثلا قد احتفظت بالعربية هذا الزمن الطويل لأنها تحمل لأهلها ديناً وتمدهم بثقافة أدبية لا تزال إلى اليوم موضع إعجاب منهم ؛ ولكن السبب فى احتفاظ الرومانيين بلغتهم مرده — فيما يرجح على الظن — إلى سهولتها وبساطة تعبيراتها ؛ وليس أدل على ذلك من أن نعرف أن المصريين قد استطاعوا التفاهم بها بعد بضعة أيام من اختلاطهم بأهل البلاد . . ! ولعل بساطة اللغة مظهر من مظاهر البساطة عند أصحابها . وهم بعد هذا شعب لطيف العشرة سبّاق إلى المودة والألفة ؛ وفيما مر بأعضاء الرحلة من الأحداث ما يشهد

بصحة ذلك . وقد يعجب القارئ، إذا عرف أن محطة بوخارست قد حفلت عند سفر المصريين بالمودعات من صديقاتهم، يحملن الهدايا آسفات على فراقهم، فإذا تحرك القطار بالمصريين ارتفعت بالمناديل أيديهن، وانهمرت الدموع من مآقيهن في منظر يثير في النفس تأثراً عميقاً، وإن كان يبدو الآن أمام القارئ، مثاراً للضحك ..! ورجال الشرطة في هذه البلاد لا يحمل مظهرهم على احترامهم وتقدير حرصهم على أداء واجبهم — كما ذكرت من قبل — ولكنهم مع هذا موفورو الحظ من الأدب الجم مع الغرباء — والمواطنين فيما يلوح — فماذا تكره مثل هؤلاء القوم .. ؟ قد لا تحترمهم حين تلحظ الكثير من مظاهر الانحلال عندهم، ولكنك لا تملك إلا العطف عليهم والثناء على ظرفهم والأسف لفراقهم ! وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، فإن الحية في الكثير من حالاتها لا تتناسب طردياً مع الاحترام، عكسياً مع الاحتقار .. !

بقيت ظاهرة أخرى لا ينبغي أن نفرغ من الحديث من هذا الشعب دون أن نسجلها في هذا المقال : تلك هي وجود المساجد في رومانيا، أقيمت يوم كانت رومانيا خاضعة لحكم الأتراك، فلما استقلت رومانيا أبقت على المساجد وتولت بعضها بالرعاية، وقامت بالإنفاق عليها إلى يومنا الحاضر .. ! وربما كان السبب في هذا نظرتها إلى هذه المساجد على اعتبار أنها متاحف تغري بزيارة الأجانب ! ولهذا فإنها تفتح وتغلق في مواعيد محددة كما هو الحال في عيادات الأطباء عندنا، وبعضها يغلق طوال الأسبوع ولا يفتح إلا أيام الجمع .

ومن أهم هذه المساجد « مسجد كارول » أنشئ في عهد سلاطين الأتراك وجدده كارول، وتنفق عليه الحكومة الرومانية فتعطي إمامه ومؤذنه وخادمه من الجنيهات المصرية نحو ثلاثة جنيهات ونصف جنيه كل شهر، وقد اغتبط بعض زملائنا لأن يشاد مسجد في بلاد أجنبية ويطلق عليه اسم ملك مسيحي، واعتبر هذا أروع مظهر للتسامح



مسجد كارول

الديني في عصرنا الحاضر، وقد يكون هذا صحيحاً، ولكن أكبر الظن أن الحكومة الرومانية لا تنفق على المسجد باعتباره مقراً لعبادة المسلمين، بل باعتباره متحفاً لزيارة الأجانب، ولهذا اهتمت بالإسراف في زخرفته، وعنيت بإعداد المقاعد في داخله لمن أراد أن يستريح من زواره، وجعلت إمامه مسلماً لا يحسن قراءة العربية ولا يجيد فهمها، ولا يعرف من تفسير الآيات والأحاديث إلا تكرار ألفاظها — كما اتضح لنا من محاولته تفسير آية منقوشة على أحد حوائط المسجد .

ث . الطويل

منذ ربع قرن :

ذكرى قد تنفع ....

في عام ١٩١٤ اندلعت نيران الحرب العالمية ، فتعرضت البشرية لمجزرة لم يشهد التاريخ لها مثيلا ، وجنى الغالب والمغلوب من ثمارها متاعب لم تنته إلى اليوم ، ولم تكن حادثة سيراجيفو ، حيث اغتيل الأرشيدوق فرديناند ولي عهد النمسا ، إلا سبباً مباشراً لهذه الحرب اختفت وراءه أسباب هي الدافع الحقيقي للحرب ، أهمها النزعة الحربية التي سادت ألمانيا ، وأحلام السلطة والنفوذ التي داعبت خيال عاهلها ، والتي ترمي إلى السيادة على أوربا ، أو على الأصح السيادة على العالم بأسره .

واليوم ، بعد ربع قرن من اندلاع أول شرارة في هذه الحرب ، يوشك العالم أن يندفع إلى نفس المصير مع فارق واحد ، هو ما أضافته المدنية على وسائل التدمير والقتل من تحسينات وزيادات تزيد في هول المأساة ، وتوسع من نطاق المجزرة ، والأسباب هي نفس الأسباب ، نزعة حرب ، وأحلام عاهل .

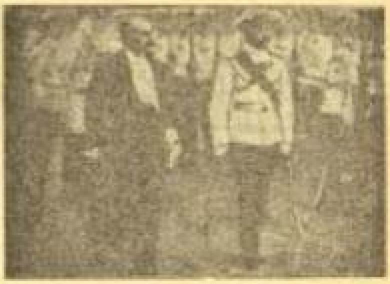
فهل يعيد التاريخ نفسه بهذه السرعة ؟ وهل تعرض البشرية مرة أخرى لمحنة أشد هولا وأعمق أثراً ؟



الصربي الذي أشعل نار الحرب
في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ اغتال جافريلو برنسيب أحد الطلبة الصربيين الأرشيدوق فرديناند وزوجته وهما خارجان من دار البلدية في سراجيفو .



في ٦ يوليه سنة ١٩١٤ أعلن المستشار الألماني فون بتمان هولويج إلى النمسا تأييد ألمانيا لها وعزمها على الوقوف بجانبها .



٢٤ يوليه سنة ١٩١٤
المسيو بوانكاريه يسير إلى جانب القيصر نيقولا الثاني أثناء زيارته لروسيا ، تعزيزاً للعلاقات بين الدولتين .



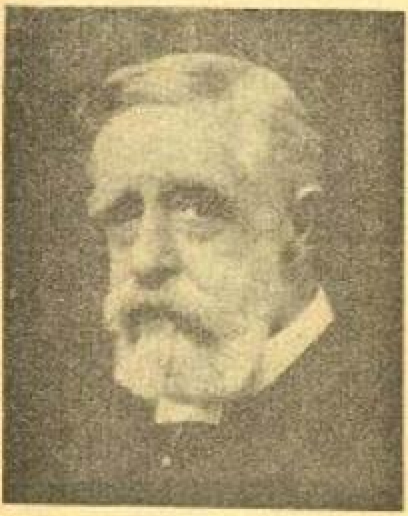
الألمانى الوحيد الذى عارض فى الحرب
كارليكنخت النائب الاشتراكى الألمانى وقد اقترع وحده ضد الحرب فى الرشستاغ الألمانى .



فى ٣ أغسطس سنة ١٩١٤ أعلن السير إدوارد جراى إلى البرلمان البريطانى حقيقة الموقف السياسى ، فأقر البرلمان وجهة نظره فى محافظة بريطانيا على تعهداتها لبلجيكا والتزاماتها نحوها .



٣١ يوليه سنة ١٩١٤ اغتيل جان جوريس الزعيم الاشتراكى الفرنسى وصاحب النفوذ العظيم على الطبقات العاملة ، وضاع بذلك أكبر نصير للسلم كان يحاول انقاذه .



فى أغسطس سنة ١٩١٤ أبلغ السير إدوارد جوشن سفير بريطانيا فى برلين المستشار الألمانى إصرار انجلترا على ضمان حياد بلجيكا ، فكان الرد الوحيد الذى تلقاه هو أن انجلترا ستدخل الحرب إذاً فى سبيل المحافظة على قصاصة ورق .

٤ – الأدب الجاهلي وأثره

للدكتور عبد الوهاب عزام

أبنتُ في المقال السابق أن الشعر العربي الإسلامي لم يقف على موضوعات الشعر الجاهلي ، ولم يقتصر على موضوعات معينة ، بل تناول كل ما تقع عليه العين ويدركه الفكر من أحوال المعيشة وحادثاتها ، وقلت إنه عمّ حتى كان عرضة أن يعاب بهذا العموم .

وفي هذا المقال أعرض لقول أستاذنا الجليل :

« ولم يمسّ الشعراء مواطنهم الحقيقية ، ولا حالهم الاجتماعية إلا مسًّا رفيقاً . وإلا فخبرني : أين الشعر العراقي الذي تجد فيه الشعراء يتغنّون بمناظر العراق الطبيعية ، ويصفون فيه أحداثهم الاجتماعية ؟ وأين الشعر الشامي أو المصري أو الأندلسي الذي يشيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر والأندلس ؟ إنك تقرأ الشعر العربي فلا تعرف إن كان هذا الشعر لمصري أو عراقي أو شاميّ إلا من ترجمة حياة الشاعر » الخ .

وجوابي أن من الشعر ضرباً إنسانياً عامًّا لا يصف إقليماً معيناً ولا حادثات بعينها ، ولكنه يبين عن وجدان الانسان : آماله وآلامه . وقد شارك العرب في هذا غيرهم بل أكثروا منه وغلوا فيه ، حتى كاد شعرهم يكون وجدانيًّا كله .

وأما الشعر الذي يصف بيئة إقليم ، أو حادثة بعينها من حوادث الاجتماع ، فهو كثير في دواوين شعراء العربية ، فليس في البلاد العربية والبلاد الإسلامية التي عاش فيها شعراء العربية مرأى رائع من مرائي السماء والأرض إلا وصفه الشعراء ؛ وليس فيها بناء عظيم ، أو أثر عاديّ عجيب إلا ذكروه وكرروا وصفه والحديث عنه على مرّ الدهور .

وأبدأ بالكلام على مصر ، ثم ألحق بالعراق والشام :

النيل مذكور في الشعر ، موصوف في كل العصور ، ولا يخلو ديوان شاعر مصري من قِطَع في النيل وفيضانه والخليج وفتحه . وقلما ورد مصر شاعر عربي إلا ذكر النيل في شعره .

وحسبي أمثلة قليلة تدل على ما وراءها

قال الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي :

يا حبذا حلوان فالنيل ربع بحسن اللهو مأهول
رحت ومركوبي به أدهم على جناح الريح محمول(١)
كأنها في الماء زنجيّة لها من الموج أكاليل
والنيل في رونق شمس الضحى
سيف صقيل المتن مسلول
حتى إذا ما درّجته الصَّبا وماج منه العرض والطول
فهو لمن أبصره جوشن على مهاد الأرض مسدول
أو حُبُك ترصيعها جوهر مبدّد فيهن محلول

وله في فيضان النيل :

انظر إلى النيل قد عبّى عساكره
من الماء جاءت وهي تستبق
كأن خلجانه والماء يأخذها
مدائن فتحت فاحتازها الغرق
كأن تياره ملك رأى ظفراً
فكرَّ إثر الأعادي ، يخفق برق الخ

(١) يعني سفينة . وسيطبع ديوان الأمير تميم قريباً .

ويقول ابن نباتة المصرى :

يا سارىَ البرق فى آفاق مصر لقد
أذكرتنى من زمان النيل ما عذبا
حدّث عن البحر أو دمعى ولا حرجٌ
وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمراً
لحبّذا هرمٌ فارقته وصبا

***

وإنى لمشتاق إلى ظل روضة
على النيل أروى العيش منها عن النضر
إلى مصر يحلو نيلها خصب الثرى
فيُغنى الورى فى الحالتين عن القطر الخ

ويقول علم الدين أيدمر وهو من شعراء مصر :

كيمياء النيل خالصة قد أتتنا منه بالعجب
كان من ذوب اللجين فقد عاد بالتدبير من ذهب
راقص بالحسن مبتهج فهو فى عُجْب وفى طرب
ومغانى مصر تسمعه نغمة الشادى بلا صخب
ونسيم الريح لاعبة فى خلال الروض بالقُضُب

ولإبراهيم بن عبدون الكاتب :

والنيل بين الجانبين كأنما
صُبّت بصفحته صفيحة صيقل
يأتيك من كدر الزواخر مدّه
فتمسّك من مائه ومُصندل
فكأن ضوء البدر فى تمويجه
برق تموّج فى سحاب مسبل
وكأن نور السرج فى جنباته
زهر الكواكب تحت ليل أليل
مثل الرياض مصفّفا نوّارها
يبدو لعين مشبّه وممثل

وللقاضى الفاضل رسائل عدة فى وصف النيل .
وكذلك أكثر الشعراء فى وصف جزيرة الروضة والخليج وبركة الحبش كقول ابن عماق :

جزيرة مصر لا عدتك مسرة
ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن بانة
يميت ويحيى هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجاً
ومختلفات الموج فيها جمالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة
ترف على أهل الضلال ظلالها

ويقول ابن الساعاتى فى يوم كسر الخليج :

إن يوم الخليج يوم من الحسـ
ـن بديع المرأى والمسموع
كم لديه من ليث غاب مشول
ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السد عزة قبل أن
تملكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك فحاكى
كسر قلب يتلوه فيض الدموع

ولأمية بن عبد العزيز الأندلسى فى البركة :

لله يوم ببركة الحبش والأفق بين الضياء والغبش
والنيل بين الرياح مضطرب كصارم فى يمين مرتعش
ونحن فى روضة مؤنقة دبج بالنور عطفها ووُشى
قد نسجتها يد الغمام لنا فنحن من نسجها على فُرُش

وأولع الشعراء بوصف نواعير مصر (السواقى) كقول الأمير تميم :

ناعورة أنّت أنين الهوى
لمّا شكت حزّ ساويها

أثيثها صرّة تدوبرها
ودمعها ماء قواديسها
كأنما الكيزان في بئرها
هامُ ملوك في نواويسها
تقذف بالماء إلى روضة
كأنها ريش طواويسها

وكذلك أكثر شعراء مصر من وصف المروج والرياض والحدائق ونظموا كثيراً من الطرديات التي توصف فيها البرّية ونباتها وأنواع الطير والوحش وتصوّر فنّاً من المعيشة ممتعاً.

وأما الأبنية فما قصّر الشعراء في وصفها. فالأهرام كانت حيرة الشعراء ومبعث كثير من أشعارهم.

يقول عمارة اليمني شاعر الفاطميين:

خليليّ ما تحت السماء بَنِيّة
تماثل في إتقانها هرمَيْ مصر
بناء يخاف الدهر منه وكلّ ما
على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزّه طرفي في بديع بنائها
ولم يتنزّه في المراد بها فكري

وقال ابن الساعاتي:

ومن العجائب، والعجائب جمّة
دقّت عن الإكثار والإسهاب،
هرمان قد هرم الزمان وأدبرت
أيامه وتزيد حسن شباب
لله أيّ بنيّة أزلية
تبنى السماء بأطول الأسباب
وكأنما وقفت وقوف تبلّد
أسفاً على الأيام والأحقاب
كتمت عن الأسماع فصل خطابها
وغدت تشير به إلى الألباب

ومثل هذا كثير يضيق المجال عن إثباته.

ووصف الشعراء كثيراً من أبنية مصر، وحسبك ما قالوا في أديار مصر، فقلما حُرِم دير ذكرهم إياه وحنينهم إليه.

يقول ابن عاصم في دير طمويه (طمّوه):

واشرب بطمويه من صهباء صافية
تُزرى بخمر قُرى هيت وعانات
على رياض من النوّار زاهرة
تجرى الجداول منها بين جنات
كأن نبت الشقيق العصفريّ بها
كاسات خمر بدت في إثر كاسات
كأن رَجسها من حسنه حَدَق
في خفية تتناجى بالإشارات
كأنما النيل في مَرّ النسيم به
مستلئم في دروع سابريّات

ولابن الزنبق المصرى في دير القصير، وكثيراً ما نظم فيه الشعراء:

يا حسرة في القلب ما أقتلها
كأنها في القلب أطراف الأسل
كم وكم من ليلة أحييتها
يا صاحبي بالدير في خير محل
دير القُصير الفرد في صفاته
يا من رأى الجنة في رأس جبل! الخ

وأستاذنا أحمد أمين يذكر أننا أمضينا مع بعض الأصحاب يوماً وليلة في أديار وادي النطرون فلم نذكرها في شعر ولا نثر!!

ولعمارة اليمنى قصيدة يصف فيها دار بدر بن رُزّيك ، منها :

وسقيتَ من ذَوب النضار سقوفَها
حتى لكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض إلا مُزهراً
والنخل والرمان إلا مثمرا
وبها من الحيوان كل مشهَّر
لبس الوشيج العبقريّ مشهرا
وكأن صولتك المخوفة أمَّنت
أسرابها ألا تُراع وتُذعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعاً
رقَّت فأذهل حسنها من أبصرا
فن الرخام مسيَّراً ومسهَّا
ومنمـــنا ومدرّجاً ومدنَّرا
والعاج بين الآبنوس كأنه
أرض من الكافور تنبت عنبرا الخ

وهى قصيدة طويلة جيدة .

وكذلك افتن شعراء مصر فى وصف رياضها ورياحينها وثمارها ، وتفكهوا بذكر أطعمتها ، ولا سيما الكنافة والقطائف .

أهدى ابن نباتة المصرى كنافة مخشّفة (محشوة ؟) وكتب :

يا سيدى جاءتك فى صدرها	كأنها روحى فى صدرى
كنافة بالحلو موعودة	كما تقول : العسل المصرى
قد خشفتنى عرقى كاسمها	وبادرت من خلفها تجرى
ما خرج الفستق من قشره	فيها وقد أخرجت من قشرى
ونشرها من طيها لم يفح	فاعجب لسوء الطى والنشر

فانظر لهذه الدعابة المصرية التى تمثل بيئتها .

وأما الأحداث السياسية والاجتماعية فقد كانت كما هى اليوم ، مستبق الشعراء ، حتى ضمنت كتب التاريخ فضلا عن كتب الأدب كثيراً منها .

فأحداث الدول الطولونية والإخشيدية والفاطمية ودولة المماليك والحروب الصليبية ، قد سجل الشعراء كثيراً منها ، حتى الشعراء الطارئون على مصر كأبى نواس وأبى الطيب . ذكر أبو نواس ثورة أهل الحوف وما فعله الخصيب لإخضاعهم . وذكر أبو الطيب ثورة شبيب الخارجى وأبدع فى وصفها ، ونظم قصيدة رائعة حينما اصطلح كافور وأنوجور بن الإخشيد بعد تنافر .

ومن يتصفح دواوين شعراء مصر ، وهى لم تنل حظها من العناية حتى اليوم ، ويطلع على كتب التاريخ المصرى يعرف كيف تغلغل الشعر فى معايش الناس ، مسرّاتها وأحزانها وجدّها وهزلها .

ويضيق هذا المقال عن إجمال القول فى شعراء العراق والشام ، ومشاركتهم فى الواقعات الاجتماعية ، وافتنانهم فى وصف البيئات الطبيعية والصناعية التى عاشوا فيها . فوعدنا بهذا ، العدد الآتى إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

قصة مصرية :

الحب يكسر قوسه !...

للأستاذ يوسف جوهر المحامى

لما اختفى خاتم الخطبة من إصبع « الدكتور مختار » فجأة أثار ذلك دهشة شديدة ، فقد كان الذائع بين أصدقائه أنه يحب « صفية » حباً قوياً ، وأنها تبادله عاطفته فى حماس وإخلاص ! ...

ورأينا بعد ذلك البهجة تجف من قلبه ، والكآبة تخيم فى عينيه ، وفى أسارير وجهه .

وحاولنا أن نستوضحه الأمر ، لكنه لم يتكلم ، وأدركنا أنه لا يريد أن نقتحم عليه صمته وسره .

ومضى فى انطوائه على نفسه ، وتهالك على العمل وعلى الشراب ، يعمل حتى يكاد يسقط من الاعياء ، ويشرب حتى لا يقوى على صعود الدرجات إلى مثواه فى الليل ...

وعبثاً حاولت أن أنبهه إلى أنه ينتحر ...

كنت أقول له : « إن كنت قد خسرت فتاتك لسبب من الأسباب ، فان هناك أكثر من حسناء بارعة الجمال رفيعة الخلال تتمنى أن تهب قلبها لفتى مثلك ينتظره مستقبل مضىء ، ويملك كل شباب ونضارة سن الثلاثين ! ... »

لكنه لم يكن يجيب ، كان يلوذ بالصمت ، ويرفع نحوى عينين محزونتين تقولان : « إنى أحاول عبثاً أن أتحرر من ألمى ... »

***

مر بى ذات مساء ، وحملنى فى سيارته ، ومضى يسوقها بتلك السرعة الجنونية الحمقاء ، التى تنبئ عن تحرره من الحياة .

قلت له : « إذا لم تذهب بنا هذه السرعة المباركة إلى الآخرة ، فالى أين أنت ماض بى ؟ ... »

قال فى تجهم : « إلى المستشفى » .

أما المستشفى فى عرفه واصطلاحه ، فلم يكن إلا « الحانة » ! ... وكنت أعرف أننى أحاول عبثاً إن أردت أن أثنيه عن عزمه ، فلزمت الصمت .

ووقفت السيارة عند مشرب فى إحدى ضواحى القاهرة ، كان الدكتور مختار يسميه المستشفى الاسرائيلى ، لأن صاحبه يهودى أحمق فى تجارة الجوارب .

ونادى الساقى كما اعتاد أن يناديه : « تعال أيها النطاسى البارع ، هات أكبر زجاجاتك ، محلى (بالبنج) » .

كان هذا هو رأيه فى الخمر . إنها مخدر يذهل الانسان عن همومه ، ويصرفه عن أفكاره السوداء ، ويمنحه روح السخرية التى يقوى بها على مواجهة الحقائق التى لا تطاق ... ومن هنا كان يصف الساقى بأنه طبيب عجيب ، وبأنهما زميلان ! ..

ومضى يحتسى كؤوسه ... ولم أكن أشاركه الشراب ، فضجرت وصحت به : « وبعد ! ... لقد احتملت صمتك عاماً كاملاً ... أريد الثمن ... أريد أن أعرف : ما الذى حفر بينكما تلك الهوة ، يوم افترقتما لم يكن بينكما وبين حفلة الزفاف إلا عشرة أيام ! ... »

ابتسم في حزن ، وقال كأنما يخاطب نفسه : « ما الذي حفر بيننا تلك الهوة . . . حقاً : ؟ . . » ثم التفت إليّ وأتم حديثه قائلا : « إن تلك الهوة قد حفرت نفسها في لحظات . لقد فتحت عيني فإذا بها عميقة وواسعة . إن إله الحب إله طائش ، يحلو له أحياناً أن يكسر قوسه بيده . . . » .

قلت له : « لماذا لم تراقباه جيداً . لقد كنتما تضيفانه في قلبيكما ، وكان من اليسير اكتساب مرضاته . إنه طفل وديع ! » .

ضحك وهو يقول : « بل إنه طفل مدلل . إنه انتهز فرصة وقوع حادثة تافهة فغضب ، وتوترت أعصابه ، وملأ الدمع عينيه ، ولم يلبث أن كسر قوسه ، ورمى سهامه ، وقفز من النافذة ، وهرب . . » .

قلت : « آه من الحوادث التافهة ! إن الهوة لم تحفر نفسها . إن التفاهات هي التي حفرتها . تلك التفاهات هي التي تنحرف بالحياة إلى اليسار حيث يجب أن تنحرف إلى اليمين ، وتتقهقر بها إلى الوراء حيث ينتظر أن تتقدم إلى الأمام » .

قاطعني قائلا : « لكن ما هي الحادثة التافهة ، والمسألة التافهة ؟ كيف نفرق بين المسائل الكبيرة والصغيرة ؟ إن نحن إلا كرات مختلفات الأحجام يلعب بها القدر . إن لقمة واحدة زائدة في معدة قاض سيء الهضم قد تودي بحياة رجل بريء ، فقد تضطرب أمعاؤه ، وتزلزل أعصابه ، ويتولاه الضجر والسخط ، فينحرف به عن طبعه السمح السليم ، وتقديره الصائب . . . وقد تقع في الأذن كلمة رثة فتلد خصاماً وشقاقاً يستشري ويستفحل ويسفر عن ضغينة متلفة وفتنة مدمرة . إن أمراً ما قد يبدو من جانب خطباً جللا ، ومن جانبه الآخر سخرية كبرى . الحياة نفسها تتبدل قيمتها في ميزان العين الواحدة ؛ فتخف أحياناً حتى لا تساوي جناح بعوضة ، وترجح أحياناً حتى تجتذب وتجبّ ، وتستولي على السمع والبصر والضمير وسائر الجوارح . أنا نفسي التي أراها الآن ممجوجة تافهة ، أما كنت أراها في الماضي حلوة شائقة ! . . » .

قاطعته : « كان للماضي مصباح بعينه هو « صفية » وقد انطفأ ، وذهب نوره . إن السوق يا صديقي ملأى بالمصابيح . لماذا تجلس في الظلام والأوهام ؟ ! . . . » .

قال : « هيهات . لكل قلب مصباح واحد يشرق عليه من مشكاة واحدة . . . إيه ! فلأقل لك كيف انطفأ . كنت أحسب أن الزوابع الضارية هي التي تقوى عليه وتسلبني نوره ، فإذا بنسمة خفيفة خبيثة ضعيفة هي التي تطفئه ! . . » .

وأفرغ في جوفه كأساً أخرى ثم مضى في الحديث :

« كنت أجد دائماً برهان الحب الصادق الوائق في صوتها وفي عينيها . كان الحنان يسيل كل نبرة من نبرات صوتها وهي تتحدث إليّ ، ويتلاطم في عينيها وهي ترمقني بهما . كنت أحس أنها تدخر كل وجودها لي ، وترهن آمالها وأطماعها في الحياة بآمالي وأطماعي . وكان لها في الطهارة رأي هو رأي البتول النقية التي لم يمر في خيالها قط ظل فكرة دنسة أو غير لائقة . ما حاولت مرة أن أعبر عن إعزازي لها بقبلة أو لمسة ، إلا وردتني في صرامة وحزم وجفاء . كانت تجفل ويطفو الذعر على عينيها البريئتين الصافيتين . لم يكن ذلك يروق شاباً صورت له أحلامه أن أيام الخطبة أهنأ من أيام الزواج ؛ فكنت أبدي لها الامتعاض من خشونتها ، وأتهمها بأن هذا الصد دليل أني بعيد من قلبها ومن ثقتها ، فكانت تنظر إليّ نظرات لاذعة ، وهي تجيبني بأنها مسئولة أمام ضميرها وأمامي أن تقدم لي العذراء التي اخترتها ، نقية تماماً ، في ليلة الزفاف ؛ وأنها لا تطيق أن يورثني تسامحها ظلا من الشك في

استقامتها ، ينفث سم الريبة فى حياتنا الزوجية . وهكذا علمتنى صفية النفاق ، وأعطتنى مثالاً رائعاً للمرأة التى تعبد مثلها الأعلى بكل جوارحها ، فتبارِكها الفضيلة ، وتمنحها ذلك الجمال الوديع النقى المحض .

وقد صرت فى الواقع تلميذاً متحمساً لها فى إخلاصها الكمال المطلق ، لكنها كانت تتهمنى فى نياتى دائماً ، وما رأت نظراتى مستقرة مرة على وجه امرأة ، أو على ثوب جميل ترتديه امرأة ، إلا وكانت تأخذها ثورة غاضبة عاتية ، وترمينى بالسوء ، وتخاصمنى أياماً حتى أقنعها بالأقسام والتوسلات أنها الصدفة المحضة ، وأن النظرة الخائنة لم تخطر لى ببال . وكان هذا يرضينى ويسخطنى ؛ يرضينى لأن الغيرة هى مقياس حرارة الحب وحماسه ، ويسخطنى لأن نفس الانسان مهما كانت رحبة سمحة ، فانها تكره أن تكون دائماً هدفاً للاتهام ، وما يتبعه من زراية ومثالب . . .

وهكذا ذقت من صفية حلاوة الصد والاقبال ، والسخط والرضا ، حتى كان ذلك المساء الأسود .

كان قد بقى على العرس أيام تعد على الأصابع ، وطلبت إلى فى التليفون ، فى الصباح ، أن أوافيها فى بيتها فى المساء لنذهب سوياً إلى شيكوريل . فوعدتها أن أمر بها . لكن بعد الظهر حمل إلىّ خطاباً من عمى يبلغنى أنه سيصل القاهرة فى الساعة السابعة ليركب القطار الذاهب إلى الصعيد فى زيارة لأهل زوجته . وأنه يحب أن يرانى . فاتصلت بها تليفونيا وأخبرتها أنى سأجىء إليها بمجرد قيام القطار .

لكننى بدلاً من أن أجد عمى وجدت زوجته ، التى أنهت إلى أن مرضاً خفيفاً ألمّ به ، ففضل أن تسافر هى فى تلك المهمة إلى أهلها .

وهرولت إلى باب الخروج ، بمجرد قيام القطار ، فاذا بصفية واقفة عنده ، وقالت لى إنها فضلت أن تنتظرنى توفيراً للوقت ! . .

دخلنا شيكوريل ، ووقفنا عند بعض الأقسام نبتاع ما نريد . ولاحظت أن بعض العاملات يبتسمن فى وجوهنا ابتسامات غريبة . ولما تكرر ذلك تضايقت ولاحظت صفية نفس الأمر . وهمست فى أذنى : « أفينا شىء غريب ؟ أتلاحظ عيباً فى ملابسى أو شعرى ؟ » .

وغشينا متجراً آخر ، فرأيت عاملا يغمز لزميله بطرف عينه ، ثم قفزت تلك الابتسامة الكريهة إلى شفاههما .

حاولت أن أجد معنى واضحا لتلك الابتسامات أو أنسبها إلى التحية أو الاعجاب ، أو الترحيب بخطيبين ، لكنى لم أجد فيها ظلا لمعنى من هذه المعانى .

واستدرنا إلى شارع عماد الدين لنركب « المترو » إلى مصر الجديدة ، وجلست مقابلى ، ورأيتها تحدق فىّ لحظة بغضب ، وقد امتقع وجهها ! . .

ولم تلبث أن سألتنى فى برود : « هل سافر عمك ؟ » هممت أن أقول لها إن عمى أناب عنه زوجته فى تلك الرحلة لكن تجهمها لم يشجعنى على التبسط ، فقلت فى اقتضاب وضجر : « نعم سافر . . » .

رأيت كية الغضب تزداد فى عينيها ، ولاحظت أن الدموع قد بدأت تتجمع فيهما فسألتها : « ماذا جرى ؟ ! ماذا بك ؟ ! . . » .

لكنها لم تجب ! . .

فحولت بصرى عنها . وحانت منى التفاتة إلى الجلوس والوقوف حولى ، فاذا بنفس الابتسامات الخبيثة المكظومة تعلو وجوه الرجال والسيدات ! . . .

طار صوابى ، وتوترت أعصابى ، وأحسست بجسدى يسبح فى العرق ! .

وتركنا الترام ، وفى الطريق إلى بيتها حاولت أن أفهم

منها علة كدرها ، فانفجرت وهي تدق أسفلت الطريق بكعب حذائها : « أسكت . أسكت أحسن لك ! . »

وسكتُّ ، وتملكني الاستياء ، واختمر التذمر في رأسي .

ووصلنا إلى باب منزلها ، فمددت لها يدي بالحزمة التي اشتريناها فتناولتها ، وقذفت بها إلى عرض الطريق ! .

صحت بها وقد غلت أعصابي : « هل جننت ؟ . . »

لم تجب ، بل انشأت تتفرس وجهي باحتقار قاس يثير أشد النفوس هدوءاً واعتصاما بالصبر ، ثم ختمت الموقف ختاما لم يخطر ببالي قط ، فقد بصقت في وجهي ومضت إلى الدرج لا تلوي على شيء ! . . .

***

وقفت لحظات ذاهلا ، ثم تنبهت إلى أن ما حدث قد حدث على مرأى من البواب ، فاحتدمت غيظاً ، ومضيت أترنح إلى بيتي ، وهناك كتبت إلى أبيها خطاباً حوى أوصافا لا تسره عن خلق ابنته وتربيتها . وإذا بالبريد يعيد لي في الصباح خاتم الخطبة مشفوعا بكتاب من والدها يبدي فيه أسفه لأنه قبل في بيته فتى وضيعاً مثلي ، ويشكر الله أن وقى ابنته شر الزواج من رجل غادر له سمات الأوغاد وأوصافهم ! . . .

واستحكمت بيننا القطيعة . . وجاءني بعد شهرين نبأ زواجها ، فمات في صدري الأمل الذي كان يصور لي أنها ستأتي ذات يوم لتنطرح عند قدمي نادمة مستغفرة . وبدأت أعتقد أنها قد اصطنعت في تلك الليلة ذلك الغضب اصطناعاً لتبتّ ما بيننا وتصبح حرة في اللحاق بهذا الرجل الذي زوجت منه . وأنها لم تكن تذودني عن شفتيها بوازع من العفة والطهارة بل بدافع من المقت . .

وكانت تتردد على عيادتي صاحبة لها للعلاج ، ولم يكن يخفى عليّ أن صفية ترغب إلى صاحبتها هذه أن تطلعني على أنها أصبحت تبغضني بغضاً لا حدّ له ، وأنها سعيدة بالخلاص مني ، وأن كأس الهناء لا يبرح شفتيها في حياتها الجديدة . فكنت أعجب من حرصها الغريب على إقناعي بأنها مقتتني ، كما كنت أعجب من رغبتها الملحة في أن تقف على أثر هـذا المقت في نفسي ، وأجيب صاحبتها ببساطة وفي غير اكتراث على أسئلتها التي لا تنفد : « لقد كنت أنسى أن في الدنيا فتاة اسمها صفية . . . دعينا من هذا . . . » .

غير أني لم أكن صادقاً ، لأن صورة صفية كانت تعبر خاطري كل يوم مثيرة في رأسي وقلبي هواجس شتى : هل اصطنعت ذلك الغضب اصطناعا لتذهب إلى ذلك الرجل الذي تزوجته ؟ . . . وإلا فما الذي جعلها تتبدل هذا التبدل العجيب وتمطيني من عينيها بدل النظرات الوديعة الصافية نظرات النمرة المفترسة ؟! . .

وجاءت صديقة صفية بعد شهور تزيد حيرتي ، وتضيف إلى الهواجس التي ترهق قلبي ورأسي شطراً آخر ، فقد أنبأتني أن صفية أنجبت غلاما دعته . . . « مختار » ! . . .

ومضت شهور أخرى . . .

***

وقصدت ذات مرة إلى جزيرة الشاي بحديقة الحيوان ، مدفوعا بالحنين إلى الماضي ، فقد كنا نذهب إلى هناك ، أنا وهي ، ونحن خطيبان ، لنتلهى بالقاء فتات الخبز للبط السابح في البركة الصناعية ، ونتبارى في إثارة فتنة الأثرة بينه . . .

وكم دهشت حين وجدت صفية جالسة هناك تلقي الفتات للبط ، وإلى جانبها طفلها ينام في عربته الصغيرة ! . . .

كانت هذه هي المرة الأولى التي نتلاقى فيها بعد القطيعة . . واضطربت في قلبي انفعالات شتى ، هذه هي الفتاة التي أحببتها أكثر من كل شيء ، التي طالما تقت أن أغمر وجهها بقبلاتي ، فردتني في عناد وإصرار وكبرياء ،

التي اصطدم شفق بهما بكرامتي فقمعت شفق ، وخنقت حبي في قلبي ، وعانيت ما عانيت ! . . . .

واندفعت نحوها ، وجلست على كرسي بجوارها ، دون أن أبادئها بالتحية ، كأننا كنا مفترقين منذ دقائق ! . . بهتت لجرأتي . . .

وأخذت أتأمل محياها وهي تغالب ارتباكها . مازال يشرق فيه ذلك الصفاء العجيب : ما زال الطهر والنقاء القديم يطل من عينيها ؛ لكن كان مشوبا بحزن طفيف ! إن جمالها قد اكتسب نوعاً من الجد والاتزان صار يزيد في توكيد فتنتها .

بادرتها قائلا : « يا عدوتي العزيزة . لماذا سميت أول أبنائك باسمي ؟ ! . . »

احمرّ وجهها ، وقفزت على جبينها قطرات دقيقة من العرق ، وقالت باسمة : « لماذا تريد أن تعرف ، أيروقك أن تعلم أني فعلت ذلك لكي لا أنسى ، مثلا ، أن أمقتك وأنا حين يذكرني اسمه ، بك ، باستمرار ؟ . . . »

قلت ضاحكا : « ما ذنب الطفل المسكين أن يكون هدفاً للمقت . إنك تغالطين . قولي ، مثلا ، من قبيل المجاملة ، إن هذه التسمية تذكار لأيامنا الأولى الهنيئة ، التي لم يشبها كدر » . .

قالت : « لماذا أحترم ذكرى رجل خائن ؟ لقد أخلصت لك بخدمتي بنذالة ، حتى في الأيام القريبة من زفافنا » ! . .

وتنهدت تنهداً خفيفاً ، وواصلت الحديث وهي تلقي الفتات للبط في غير اكتراث : « حقاً لماذا سميت ولدي باسمك . إنها . . غلطة . لقد سألوني وأنا في حمى النفاس فذكرت لهم هذا الاسم ، في غير وعي . كانت حماقة مني » .

ولاذت بالصمت . .

كنت أهم أن أقول لها إنها ابتدعت تلك التهمة الموهومة لتبرر غدرها ، وإنها لم تأت نجاة إلا لتتخلص مني وتذهب إلى ذلك الرجل الذي صارت زوجة له ، لكن الكآبة التي ملأت عينيها جعلت ذلك الظن يموت في نفسي وعدلت إلى القول : « أليديك دليل أني خنتك ؟ » .

قالت : « يا لله ! . . ما أغباك ! ألم تدرك إلى الآن ! . أأعطيتني الدليل وحدي ؟ ! أأطلعتني عليه وحدي ؟ ! لقد خرجت من المحطة وهو مسطر على وجهك ، فرآه عمال وعاملات المحال التجارية التي غشيناها في تلك الليلة ، ورأيته بدوري في الترو عند ما جلست مقابلي ، كما شاهده الركاب من حولنا . ألم تنبئك المرآة عند ما عدت إلى بيتك أن وجهك قد فضحك وكشف المستور من أمرك ؟ ! »

قلت : « افصحي . ما هذه المعميات ؟ عن أي وجه تحدثين ؟ لست بوجهين ! وجهي هو هو في تلك الليلة ، واليوم وغداً لم يتغير ! . » .

قالت : « فأنت إذاً مصمم على أن عمك رجل رقيع هارب من رجولته . وأنه هو الذي وضع على خدك تلك القبلة التي تركت أثرها واضحاً جلياً ، لأن شفتيه مصبوغتان بالأحمر ! . قل له عند ما تلقاه ، أن يختار لشفتيه نوعا جيداً ثابتاً لا يترك تلك البصمة الجلية عند التقبيل . لقد كاد يغمى عليّ في الترو عند ما رأيت تلك القبلة الحمراء . لم يكن في مصبوغا . وكان جلياً أني أسير في رفقة رجل أمين . أدركت سر الابتسامات . . » .

كانت كلماتها تلهبني كالسياط ، لكنني سكت ، فقد تجلت لي الحقيقة ، في طرفة عين ! .

لعنة الله عليك يا امرأة عمي . إنك سبب الكارثة ! .

لما لقيتها في المحطة قبلتني عند نزولها من القطار ؛ فقد كانت تعتبرني أحد أبنائها ، لأنها تولت إرضاعي عقب وفاة أمي ، كما تولت تربيتي لما تركني أبي في بيتها ، ومضى إلى السودان على رأس إحدى وحدات الجيش . . لم أعر تلك القبلة التفاتاً ولم يخطر ببالي قط أنها تركت على وجهي

تلك البصمة المشئومة ! . .

أخرجتني صفية من ذهولي وصمتي حين صاحت بي : « لم اعتصمت بالسكوت . امسح العرق الذي يبلل وجهك . أما زلت مصراً على أن عمك هو الذي قبلك تلك القبلة الوالهة . إنه لو وضع الأحمر على شفتيه لرجمه أولاده وامرأته بالحجارة . قل إنك تركتني في البيت لتودع إحدى خليلاتك في المحطة . . ما أسخفكم أيها الرجال ! تظنون أن النساء ساذجات ، وأنكم تستطيعون أن تضحكوا منهن وتخدعوهن دائماً . . . وهكذا كافأت كل حبي لك ، وقضيت على سعادتي وآمالي في طرفة عين ، واحتقرت قلبي الذي رعاك وعبدك . لقد أدركت الآن معنى ابتسامات عاملات شيكوريل اللاتي كن يعلمن أننا خطيبان . كن ينظرن إلى في فلا يجدن عليه أصباغاً ، وينظرن إلى خدك فيجدن عليه علامة الغرام الدنس القبيح فكانت ابتساماتهن تقول : إنني مغفلة . . »

حقاً أن شر البلية ما يضحك . لقد ذكرت ابتسامات الناس وحرجي وعرقي ، وتفاهة السبب الذي حفر بيننا تلك الهوة ، فضحكت ، ضحكت في كمد . . .

وقلت لها : « ياصفية . لقد أضعت سعادتنا بتسرعك ، إنني مظلوم » .

قاطعتني : « صه . . . أكذبة جديدة . ألنسيت أنك أنبأتني أنك إنما تذهب إلى المحطة لتودع عمك ؟ لم كل هذا الإصرار على التضليل ؟ لقد حدث ما حدث . حقاً أنكم سخفاء أيها الرجال ، وتافهون ، ولاقيمة لكم . . »

ونهضت في عصبية وقد ملأ الدمع عينيها ، ودفعت أمامها عربة وليدها ، ومضت . . .

مضت . . . دون أن تعطيني الفرصة لكي أفسر لها الأمر . لكن أكانت تصدقني لو قلت لها بعد كل هذا الزمن أن التي قبلتني هي امرأة عمي ؟ ألم أقل لها إن القادم هو عمي لا زوجته ؟ أهي ملومة لو نعتت دفاعي بأنه كذب خسيس ؟ ثم ما جدوى إنبائها بالحقيقة ؟ لقد وقع ما وقع . فلأدعها على عقيدتها فيّ . لعلها لو علمت لاستبد بها الندم وانهارت سعادتها البيتية . فلأحفظ لها هناءها الراهن .

لكن أأظل مذنباً في عينيها ؟ هل أحتمل طويلا نظرها إليّ كوغد غادر متبذل ؟ . . . إن قلبها هو العالم الوحيد الذي أصبو أن أكون معروفاً فيه على حقيقتي . لكن هذا بعيد المنال . فلأحتمل . فلأحتمل في صبر ؛ ما دام ذلك يحفظ لها راحة الفؤاد . إن هذا هو الحب .

لقد أضاعت سعادتي بحماقتها ، لكنني أغفر لها ، من أجل أنها سمت وليدها ، وهي في غير وعي ، في حمى النفاس ، باسمي — ومن أجل أن الدمع الغزير ملأ عينيها الأمينتين الجميلتين ، وعكر صفاءهما ، وهي تقول لي في غضب عذب : « إنكم سخفاء أيها الرجال ، وتافهون ، ولا قيمة لكم ! » .

قلت له : « لم لا تقول إنك أنت الذي أضعت سعادتها بغفلتك . لقد كنت تعلم حماسها الأعمى للكمال ، وغيرتها المثالية للفضيلة ، فلم يكن يجمل بك أن تنساق مع الغضب دون أن تتحرى أسباب حنقها . . »

قال : « لقد أرهقت أعصابي الابتسامات التي قذفني بها الناس في تلك الليلة المشئومة . . . ثم . . . هل نسيت كيف عاملتني أمام البواب ؟ ! . . »

قلت : « هيه . لعلكما ربئان . أنت وهي . ولعل الملوم هو إله الحب نفسه ؟ ذلك الطفل العابث الدلل . الذي دفعته إحدى نزواته إلى أن يكسر قوسه ، ويرمي سهامه ، ويهجر قلبيكما . . . »

قال في مرارة : « حقاً لقد مضى هارباً . لكنه ترك في فؤادي قوسه المفلولة وسهامه المحطمة . . »

وضحك . . . ورفع كأسه إلى شفتيه . .

يوسف جوهر

سر المقدرة العقلية

هل يستطيع الجراحون الذين يشتغلون بتشريح المخ أن يدلونا على السر في نبوغ بعض الناس وتفوقهم العقلي ، وغباء آخرين أو انحطاط قواهم العقلية إلى حد البلاهة ، بإرجاع ذلك إلى بعض الخصائص في نسيج المخ ؟

كانت أول دراسة لأمخاخ النوابغ وأمخاخ غيرهم من ذوى المواهب العادية سنة ١٨٦٠ ، وقام بها الدكتور رودلف واجنر . فقد تناول بالدراسة المقارنة الدقيقة بين مخ « جاوس » أحد كبار الرياضيين العالميين ، ومخ « كربس » وهو عامل يوى عادى . وبعد فحص دقيق مجهد لم يجد فرقاً يذكر بين المخين ، لا من حيث نسيج كليهما ، ولا من حيث عدد تلافيفهما وعمقها ، ولا من حيث وزنهما . بل لقد وُجد في حالات كثيرة أن أمخاخ بعض البُله تزن أكثر من أمخاخ بعض الموهوبين .

وبعد ذلك بقليل بدأ الجراحون والمشرحون يدرسون جوانب خاصة من المخ ، لعلهم يجدون في جزء منها سر المقدرة العقلية ؛ وغلب على الأذهان أن الجزء الأمامى من المخ هو مركز الملكات العقلية الراقية ؛ ولكن دراسة الأجزاء الأمامية لمخ ج . ستانلى هول عالم النفس النابه ، والسير وليام أوزلر العالم الطبيب العالمى ، ومقارنتها بالأجزاء الأمامية لأمخاخ أناس عاديين ذوى مواهب عقلية عادية ، كشفت عن عدم وجود فروق أساسية بين الفريقين فى تلك الناحية . وفوق هذا دلت تجارب جراحى المخ على أنه قد زال جزء كبير من القسم الأمامى للمخ من بعض الناس لضرورات طبية ، ولا يحس بأثر كبير لذلك فى القوى العقلية لمن أزيل عنهم .

وقد ظل مشرحو المخ زمناً طويلا بعد ذلك عاجزين من أن يجدوا أساساً ماديا للذكاء ، حتى تنبهوا إلى أن الانسان لا يستطيع أن يعلم كثيراً عن كفاية آلة من الآلات وهى واقفة عاطلة عن العمل ، وأن الآلة لا تقاس كفايتها بعظم حجمها وقوة بنائها ، والآلة الدائرة المتحركة أقدر على أن تنبئ عن نفسها . ثم أخذوا يتساءلون : ما مصدر القوة ، وكيف تحول الطاقة الوضعية إلى طاقة حية ؟

ما هى القوة الدافعة فى المخ ؟ ما الوقود الذى يشعل التفكير ؟ هو بلا شك مجرى الدم الذى يمد المخ ، فهذا الامداد الدموى الذى يجيء للمخ أكفل بأن يقص علينا قصة المقدرة العقلية من الدراسات المجهدة للمادة البيضاء السنجابية الميتة التى يتكون منها المخ . يقول الدكتور هنرى دوبالسون ، أحد ممتازى الجراحين المشتغلين بتشريح المخ :

« إن خير أنواع الأمخاخ يظهر بأضعف المظاهر فى حالة الإغماء » .

وفى الاغماء والموت ينضب الدم وتذهب معه القوة .

أكبر أخطاء مشرحى المخ الأولين فى دراستهم المخ أنهم كانوا ينزعونه من أغطيته ويقطعون صلته بها ، وفيها الأوردة والشرايين التى تغذيه ؛ ودراسة حجم تلك الشرايين وتركيبها المعقد أدل على حقيقة المقدرة الخفية من حجم المخ ووزنه وتعقد نسجه .

وكان أول استكشاف حقيق لسر القوة العقلية

الممتازة ما قام به الدكتور هندزى سنة ١٩٣٦ ، فقد وجد أن وارد الدم فى أغطية أمخاخ هؤلاء الممتازى المواهب كان أوفر وأكثر تعقداً . فبالدراسة الدقيقة للدم الوارد على مخ فرد من الأفراد يمكن تعيين ما إذا كان هذا الفرد من الموهوبين أو المسلوبين ، فأغطية المخ فى حالة النوابغ لها أوعية دموية أضخم وأغنى إمداداً ، وذوو المواهب الضعيفة أفقر دماً وأضعف أوعية .

ولتركيب الدم أيضاً شأن هام فى توليد الذكاء ، فى كثير من حالات الجنون التى ترجع لأسباب عضوية يكون نصيب الدم من الجير ضئيلا ، وكمية السكر فيه أكثر من المعتاد . وكلما زاد سكر الدم زاد توتر الأعصاب وكأنما حلاوة المخ الزائدة أمارة جنونه .

ويظن الدكتور وليام هيلى أن الهرمونات (وهى الأنتجة الكيميائية لبعض الغدد) قد تحيل المخ العادى مخاً ممتاز الذكاء ، فيقول : « إن القدرة الخارقة لكبريتات البزدرين على بعث الطاقة ، تبدو دليلا على أن الطاقة الوضعية لخلايا المخ لا ينتفع بها الانتفاع الممكن فى ظروف التغذية العادية ، ولا بما يقدمه مجرى الدم وحده . وأكبر الظن أننا نستطيع أن نتوقع الكثير من المخ إذا غذى نسيجه بمواد هرمونية وغيرها من المواد الباعثة على النشاط كالتى أشرنا إلى عظم تأثيرها » .

وعلى هذا الأساس أجرى الدكتوران وليام سارجانت و ج . م بلاكدن بضع تجارب فى مستشفى مودسلى بلندن ، فوجدا أنهما باستعمال البزدرين قد استطاعا أن يزيدا سرعة الاستجابة العقلية فى ٦٧ من مرضى المستشفى ؛ ومع أنه يبدو غير محتمل أن أى عقار من العقاقير قد يكون له تأثير فى إيجاد الذكاء الذاتى للفرد ، إلا أنه قد اتضح فى حالة البزدرين أن له نتائج باهرة فيمن كان لديهم من الأساس هذا الذكاء . فقد أعطيت مجموعتان مقياس ذكاء واحد ، ووجد أن المجموعة التى أعطيت البزدرين كانت أعلى من المجموعة الأخرى بقدر ٨٫٧ فى المائة .

وقد أمكن حديثاً أثناء محاولة دراسة شىء عن المخ وهو يعمل ، إيجاد وسيلة كهربائية لقياس النشاط المخى ، وحسن هذا الاستكار إلى درجة كبيرة من الإتقان . لقد وصل العلم من عهد بعيد إلى إدراك أن كل شىء محز قادر على إحداث تيار كهربائى صغير . وكان أول من اهتدى إلى أن المخ أيضاً يولد كهربائية العالم الألمانى الدكتور فليشل فون ماركسو الذى استطاع سنة ١٨٩٠ بآلة بدائية صنعها بنفسه أن يكشف نبضات كهربائية ضعيفة فى رؤوس حيوانات مختلفة . ولم يهذب مبتكره ويصل إلى حالة الإتقان إلا بعد أربعين سنة ؛ ولا شك أن ما وصلت إليه الأنابيب المفرغة من الإتقان ، كان له فى ذلك شأن كبير ، فليس كتلها شىء يستطيع أن يكشف أضعف طاقة كهربائية ، ويريكها رأى العين ويمكنك من دراستها .

وقد وصل ألمانى آخر ، وهو الدكتور هانز برجر من جامعة جينا ، حيث انقطع الدكتور فون ماركسو ، وبدأ يكشف الطاقة الكهربائية للمخ فى ظروف كثيرة ، فى حالات مرضى مرتفعى درجة الحرارة أو منخفضيها ، نائمين أو مستيقظين ، هائجين أو خائرين ، وذهب إلى غرف العمليات التى يشتغل فيها زملاؤه ، ووضع الالكترودات الكهربائية مباشرة على المخ خلال فتحات صغيرة فى الجمجمة ، وحصل على آثار التموجات العقلية للنوابغ وضعاف العقول ، بل لقد أفلح مرة فى أن يجىء بصورة كهربائية لمخ فقد وعيه .

وقياس الفاعلية الكهربائية للمخ أمر هين : يوضع الشخص الذى يراد قياس مخه بعد أن تحك إحدى ذراعيه حكا جيداً بالماء والصابون ، ثم تغسل بالكحول لإزال كل دهن من الجلد ، ثم تلف بقماش مشبع بمحلول الملح ،

لتبق الالكترودات مضغوطة على الجلد عند الزند وعلى الساعد ، ثم يعمم الرأس بعمامة بيضاء فيها الرأس الفضى للألكترود ، ويلف جيداً لتبق تلك الألكترودات ملتصقة بعظم الجمجمة ، وتصل الأسلاك هذه الألكترودات بآلة تقيس وتكبر التيار الكهربائي الذي يحدثه المخ وتسجل أمواجه على قطعة من الورق .

وتبين للدكتور برجر خلال مباحثه أن الأمواج المخيّة تقع في مجموعتين هامتين « مجموعة ألفا » ، ومتوسط ذبذباتها عشر في الثانية ، و « مجموعة بيتا » وذبذباتها في الثانية عشرون أو أزيد من ذلك .

وفي الأحوال العادية تبق هـذه الأمواج تقريباً على حالها يوماً بعد يوم ، ولكن إذا حدث للمخ حادث دلت الأمواج على ذلك . فمثلا في حالة التشنج تتجمع طاقة كهربائية كبيرة في المخ ، ويزيد سيل الكهربائية أكثر من ٣٠٠٠ في المائة عن الأحوال المعتادة ، وعلى عكس ذلك في حالة فقد الوعى تبطئ أمواج المخ إلى أن تصل إلى ٥ أو ٣ في الثانية ، ولكن الفلتاج يرتفع ضعف المعتاد .

وكلما زاد اشتغال المخ زاد مايخرجه من طاقة كهربائية ، فالاشتغال بالرياضة أو حفظ قطعة من الشعر يقتضي إظهار طاقة كهربائية أكثر من المعتاد .

وقد استطاع الدكتور دونالد ب . لندسلى في شيكاغو باستخدام « الألكترو — انسفالوجراف » وهو ما تسمى به هذه الآلة ، أن يستدل على أن الأطفال يبدءون التفكير وهم في نهاية الشهر الثالث من عمرهم ، فتبدأ موجات ألفا عند هذا العمر . وقبله تدل السجلات إما على انعدام الطاقة الكهربائية كلية ، أو على بعض موجات غير منتظمة من موجات بيتا ، تتراوح بين ٢٥ و ٤٠ في الثانية .

ووجد الدكتور لندسلى أن موجات ألفا بعد ذلك تتحسن من حيث السرعة والطول والتوافق حتى يصل الطفل إلى سن ٨ أو ١٠ ، ولأمر ما تزداد السرعة بين ١٠ و ١٢ ؛ ويرجع الدكتور لندسلى ذلك إلى بعض التغيرات الفسيولوجية التي تحدث للطفل في هذه السن .

ومما وصل إليه القياس بهذه الآلة أن المرأة أسرع تفكيراً من الرجل ، وأن هـذه الموجات خاصة بكل فرد كبصمات أصابعه ، حتى لقد فكر بعضهم في استخدامها للاستدلال على هُويّات الأشخاص .

وقد أمكن فهم كثير من الأمور عن المخ بما كشفه في حالة التشنج ، فمثلا قبل نوبة التشنج وخلالها تأتي الموجات المخية حوالى كل ثلاث ثوان ، في صورة أمواج مستديرة كبيرة تتخللها موجة مدببة ، وفي الحالات الشديدة توجد أمواج سريعة وبطيئة أكبر بكثير من الفولتاج العادى . وإذا وصل العلم إلى تفسير معنى هذه الأمواج بدلالة النشاط العصبي ، أمكن معرفة حقيقة التشنج ومتى يبدأ ، وكذلك عرفت حقيقة فقد الوعى ، فهو ليس إلا دلالة على نقص الكهربائية السالبة في المخ .

وهكذا تفتح سر العمل المخى بعض التفتح بفضل هذه الباحث .

(عن كوارترلى ريفيو)

من أحسن ما يروى

في الشباب والمشيب

دراسة واختيار

للأستاذ أحمد الزين

كنت في الأحاديث السابقة أتحدث عن شاعر واحد راوياً له مقطوعة أو أكثر في غرض واحد.

واليوم أريد أن أغيّر تلك الطريقة، فأجعل الحديث عن غرض واحد، راوياً فيه لعدة شعراء، لما في ذلك من بعث القرائح إلى المفاضلة بين ملكات هؤلاء الشعراء، وتوجيه الأذهان إلى الموازنة بين تلك المقطوعات المتحدة غرضاً، المختلفة تفكيراً وأسلوباً، إذ لا تتم المفاضلة على الوجه الأكمل إلا حين يتحد المتفاضلون في الغرض ويجتمعون على الغاية.

وفي الموازنة بين الشعراء ما يقوّى ملكة النقد في نفس الأديب، ويمرّن ذهنه على التمييز بين المعاني والأساليب؛ ويُرهف ذوقه، ويقوّى فيه ملاحظة الجمال، والقدرة على الترجيح بين المتساويين — في أول النظر — على صاحبه.

وقد رأيت أن أقصد اليوم بالدراسة والرواية إلى الشباب والمشيب، وهو غرض مما أكثرَ الشعراءُ في شعرهم من القصد إليه، وتجلت في مقطعاتهم التي قيلت فيه عواطفهم الحزينة وإحساساتهم الأليمة.

فمن تلك المقطوعات ما تحسّ في أبياتها الزفرات تتصعّد من بين الضلوع، وتكاد تلمس على ألفاظها وعباراتها قطرات الدموع؛ وتراهم فيها يُطلّون من خلال الذكريات على ماضٍ لا يعود، وتعدو بهم الأماني وراء فائت لا يُلحَق، ويعللون أنفسهم بأمل لا يتحقق، ويضرعون إلى زمن لا يرحم، ويحاولون جهدهم الخلاصَ من وَثاق لا يُحلّ.

ومنها ما هو زاخر بأمثالهم الرائعة، وحكمتهم البالغة، وتجربتهم الصادقة، وعِظتهم الرادعة.

ومنها ما تقرؤه فيَروعُك فيه دقة تصويرهم للحياة بحقيقتها وما يؤول إليه أمرها، وقُصاراى المرح والسرور فيها، وما يعتبر به المعتبر من تبدّل أحوالها واختلاف غِيَرها. كلُّ ذلك تجده في مقطّعاتهم التي قالوها في هذا الغرض.

وأيّ جيل في هذه الحياة أحق بالبكاء على فقده من الشباب؟ وهو أداة الإحساس بالجمال، فلا جميلَ إلا ما جمّلَه الشبابُ في عينك، ولا حسَنَ إلا ما دلّك عليه، ولا صَبوةَ إلا ما قادك إليها؛ روائح الجنة فيه، وزهرة الحياة تنفح ريّاها من حواشيه؛ وما تنشُك عاريةٌ تُعارُها فيُذهلك جمالها عن أنها مردودة، وينسيك الفرح بها أنها مسلوبة؟

والشبابُ مطيّة ذلولٌ إلى كلّ غرض، يَركبها الساجد لتحصيل ما يطلب من مجد، واللاهي إلى ما يتوق إليه من لهو.

وإنما كان هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي كان يقصد إليها قدماء الشعراء، لاتصاله اتصالاً طبيعياً بالنسيب الذي هو من أهم أغراض الشعر؛ فأكثر نسيبهم مفتتحٌ بحديث الشباب والشيب أو مختتم به.

يذكر كل شاعر منهم سخرية الغواني من شيبه، وإعراضهن عنه، وزهدهن في مودّته، وقطعَ حبالهن من حبله، وما إلى ذلك؛ ثم يجتهد في تفضيل الشيب على الشباب بحجج واهية، لاتنال من قلوب الغواني، إلا كما تنال الثمال من صم الحجارة؛ والذي يؤخذ على أكثر هؤلاء الشعراء، أنهم حين يذكرون الشباب لا يجدون له من الفضائل إلا أنه مطية ذلول يركضونها في ميادين اللهو والمرح، ووسيلة إلى لذات حسية ومُتَع جسمية، لامصلحة فيها لفرد ولا جماعة.

ولم أر شاعراً منهم إلا القليل جداً قد ذكر الشباب بأنه مطية إلى المجد، وأقوى معين على معالي الأمور.

وتلك عدة مقطوعات من روائع ما قيل فى هذا الغرض جامعة لكل ما ذكرته فى هذا الحديث من المعانى ؛ ولم أقتصر فى اختيارها على عصر واحد من عصور الشعر ، بل جمعت فيها بين مختلف العصور :

١ — ابن الرومى حين بلغ الخمسين

حُرِمْتُ فِي سِنِّي وَفِي مَيْعَتِي
قِرَايَ مِنْ دُنْيَا تَضَيَّفْتُهَا(١)
لَهْفِي عَلَى الدُّنْيَا ، وَهَلْ لَهْفَةٌ
تُنْصِفُ مِنْهَا إِنْ تَلَهَّفْتُهَا ؟
كَمْ آهَةٍ لِي قَدْ تَأَوَّهْتُهَا
فِيهَا وَكَمْ أُفٍّ تَأَفَّفْتُهَا
فَكَّرْتُ فِي خَمْسِينَ عَامًا خَلَتْ
كَانَتْ أَمَامِي ثُمَّ خَلَّفْتُهَا(٢)
أَجْهَلُهَا إِذْ هِيَ مَوْفُورَةٌ
ثُمَّ تَنَبَّهْتُ عَلَى فُرْقَتِهَا
لَوْ أَنَّ عُمْرِي مِائَةٌ هَدَّنِي
تَذَكُّرِي أَنِّي تَنَصَّفْتُهَا
كَنْزُ حَيَاةٍ كُنْتُ أَنْفَقْتُهُ
عَلَى تَصَارِيفَ تَعَرَّفْتُهَا
لَسْتَ تَرَانِي بَعْدَهُ آسِفًا
عَلَى الْعَطَايَا ، عِفْتُهَا عِفْتُهَا

٢ — يحيى بن زياد

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ لَاحَ بَيَاضُهُ
بِمَفْرِقِ رَأْسِي قُلْتُ لِلشَّيْبِ : مَرْحَبَا
وَلَوْ خِفْتُ أَنِّي إِنْ كَفَفْتُ تَحِيَّتِي
تَنَكَّبَ عَنِّي رُمْتُ أَنْ يَتَنَكَّبَا
وَلَكِنْ إِذَا مَا حَلَّ كُرْهٌ فَسَامَحَتْ
بِهِ النَّفْسُ يَوْمًا كَانَ لِلْكُرْهِ أَذْهَبَا

٣ — آخر

أَلَا طَرَقَتْنَا آخِرَ اللَّيْلِ زَيْنَبُ
عَلَيْكِ سَلَامٌ ، هَلْ لِمَا فَاتَ مَطْلَبُ ؟
يَقُولُونَ : هَلْ بَعْدَ الثَّلَاثِينَ مَلْعَبٌ ؟
فَقُلْتُ : وَهَلْ قَبْلَ الثَّلَاثِينَ مَلْعَبُ ؟
لَقَدْ جَلَّ خَطْبُ الشَّيْبِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا
بَدَتْ شَيْبَةٌ يَعْرَى مِنَ اللَّهْوِ مَرْكَبُ

٤ — لبيد بن ربيعة وكان من المعمرين

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ ؟
أُخَبِّرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ
أَنُوءُ(١) كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

٥ — وأنشد الفراء

حَنَتْنِي حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى
كَأَنِّي خَاتِلٌ يَدْنُو لِصَيْدِ
قَصِيرُ الْخَطْوِ يَحْسَبُ مَنْ رَآنِي
— وَلَسْتُ مُقَيَّدًا — أَنِّي بِقَيْدِ

(١) ميعة الشباب : أوله . (٢) خلت : مضت .

(١) أنوء : أنهض متثاقلا .

٦ – التيمي

إذا كانت السّبعون سِنّكَ لم يكن
لِدائكَ إلا أن تموتَ طبيبُ
وإنّ امرأً قد عاش سبعين حِجّةً
إلى منهلٍ من ورده لقريبُ
إذا ما مضى القرنُ الذي أنت فيهم
وخُلِّفتَ في قرنٍ فأنتَ غريبُ

٧ – محمد بن حازم

لا تُكذَبَنَّ فما الدنيا بأجمعها
من الشّباب بيومٍ واحدٍ بدلُ
كفاكَ بالشّيبِ ذنباً عند غانيةٍ
وبالشّبابِ شفيعاً أيها الرّجلُ

٨ – ومما ينسب لأبي الغصن الأسدي

وأجود هذين البيتين ثانيهما

أتأملُ رجعةَ الدُّنيا سفاهاً
وقد صارَ الشّبابُ إلى الذّهابِ ؟
فليتَ الباكياتِ بكلّ أرضٍ
جُمِعنَ لنا فنُحنَ على الشّبابِ

أحمد الزين

أنباء وآراء

المؤتمر الدولي السادس لعلم الآثار

افتتح وزير المعارف في الحكومة الألمانية المؤتمر الدولي السادس لعلم الآثار ، الذي عقد في برلين بين الحادي والعشرين والسابع والعشرين من شهر أغسطس وتلته رحلة علمية قام بها الأعضاء لزيارة المتاحف والآثار في إقليم نهر الرين .

وقد اشترك في هذا المؤتمر زهاء سبعمائة عضو من المشتغلين بالفنون والآثار في أنحاء العالم ، ومنهم ممثلو اربع وثلاثين دولة كمصر وفرنسا وإيران وتركيا وإيطاليا ويوغوسلافيا والمجر وسويسرا ورومانيا والسويد والنرويج وهولنده . كما اشترك فيه ممثلون من شتى الجامعات والمتاحف والهيئات العلمية ، ولا سيما المتحف البريطاني وجامعة لندن وجامعة كولمبيا بأمريكا وجمعية الآثار القبطية في القاهرة .

ولوحظ لأول مرة أن ممثلي الدول الشرقية المشتركة في أعمال المؤتمر كلهم من أبنائها ، فقد مثل إيران سكرتير المفوضية الايرانية في برلين ، وندبت تركيا الدكتور عارف مفسل أمين المتحف القديم في استانبول . أما مصر فقد قام بتمثيلها الأستاذ الدكتور سامى جبرة من الجامعة المصرية والدكتور زكى محمد حسن أمين دار الآثار العربية . ولم تكن في المؤتمر بلاد يمثلها مندوبون من غير أبنائها إلا فلسطين والجزائر ، فقد مثل الأولى مفتش انجليزى من دائرة الآثار ، وندبت جامعة الجزائر أستاذين فرنسيين .

وقد خص وزير المعارف مصر بكلمة طيبة في خطبته الافتتاحية فشاد بذكر مدنيتها العظيمة .

ومن الأمور التي بحثت فيها الهيأة الفنية في المؤتمر حماية الآثار من الغارات الجوية . وقد ألقى الدكتور سامى جبرة محاضرة عن حفائر تونة الجبل ، وأدلى الدكتور زكى حسن ببيانات وافرة عن حفائر الفسطاط في الاجتماع الخاص الذي عقده المشتغلون بالآثار الاسلامية .

وعلى الرغم من اضطراب الجو السياسي أثناء انعقاد المؤتمر فقد انصرفت الأقسام المختلفة إلى المباحث العلمية النافعة مما يبشر بأن نتائج المؤتمر ستكون عظيمة .

حول خبر

كانت الثقافة قد نشرت في العدد ٣٣ نبذة في هذا الباب عن الألعاب الأولمبية القادمة في فنلندا ، ذكرت فيها أن الاتحادات الرياضية رفضت أن تقيم الألعاب الأولمبية في طوكيو احتجاجا على غزو اليابان للصين .

وقد كتب إلينا حضرة الأستاذ محمد افندى خميس اللاعب الأولمبي المعروف يقول : إن أمر تقرير إقامة الألعاب موكول للجنة الأولمبية التي تعين من يمثلها لدى كل دولة ، وإن هذه اللجنة لا تملك حق رفض إقامة الألعاب ؛ وإنما الذى حدث أن اليابان هي التي اعتذرت في مايو سنة ١٩٣٨ عن إقامة الدورة الأولمبية في بلادها ، إشفاقا من التكاليف الطائلة التي يكلفها مثل هذا العمل ، وضنا بمجهودها عن أن تذهب في سبيل غير سبيل الحرب بينها وبين الصين . وكذلك أشار حضرته إلى مؤلف له عن تاريخ الرياضة البدنية ، فيه بيانات وافية عن تاريخ الألعاب الأولمبية تخالف ما ذكرناه عن بدء إقامتها .

وقسم التحرير يشكر لحضرة الكاتب استدراكه ، ويؤكد له أن هذا النبأ قد ترجم بدقة عن إحدى المجلات الانجليزية ، وهى مجلة (Picture Post) العدد الخامس من المجلد الرابع . ولحضرته أن يعود إلى هذا العدد ليتحقق من التواريخ التى ذكرناها .

مجلة المنار

كتب إلينا الأستاذ أحمد جمال الدين البنا يقول إن مجلة المنار التى كان يصدرها المرحوم السيد رشيد رضا وتعطلت حيناً بعد وفاته ، قد عادت إلى الظهور لساناً لحال جماعة الاخوان المسلمين ، وقد جاءنا عدد من المجلة لعهدها الجديد فوجدناه حافلا بالمواضيع الدينية الطريفة والبحوث الممتعة التى تدل على ما يبذل فى اعداد هذه المجلة من العناية .

و « الثقافة » تهنىء الجماعة لاصدارها هذه المجلة ، وترجو للمنار فى عهده الجديد التوفيق والنجاح .

سفير الثقافة الفرنسية

أسندت الحكومة الفرنسية إلى المسيو جان جيرودو رآسة مكتب الاستعلامات الذى أنشأته حديثا ليكون أداة اتصال بين الثقافة الفرنسية ومختلف الشعوب . ويعد هذا العمل ظاهرة طيبة تدل على أخذ الحكومة الفرنسية بالنظرية القائلة بوجوب تمشى النشاط الثقافى مع النشاط الاقتصادى فى أسواق العالم ؛ لأن جان جيرودو يعد فى طليعة الأدباء الفرنسيين الذين يتبوأون مكانا ممتازاً فى الأوساط الفنية فى أكثر بلاد العالم ، وقد مثلت كثير من مسرحياته فى أغلب بلدان العالم ، واستطاعت إحداها أن تنال إعجاب كل من رآها أو قرأها ، وهى أمفيتريون ٣٨ . ولا شك أن ترجمة أعماله الأدبية إلى مختلف اللغات مما يدل على أنه خير سفير للثقافة الفرنسية لدى العالم الخارجى ، وخصوصا لدى الانجليز الذين ينظرون — إلى اليوم — إلى الأدب الفرنسى نظرة حذر تحمل من الصبر الاستفادة من الثقافة الفرنسية والأدب الفرنسى المعاصر .

ماذا يقرأ الشعب البريطانى

لم يكن يصعب على الإنسان منذ مائة عام أن يعرف بالضبط ما تحتويه مكتبة الرجل المثقف فى انجلترا ، وذلك لأن الجمهور القارىء كان قليلاً ، ولأن عدد الجرائد الجدية والكتب ذات القيمة الأدبية كان محدوداً ، ولأن طرق الإعلان لم تكن قد تعددت واتسع نطاقها ؛ كما أن ميدان النقد الأدبى كان يسيطر عليه عدد قليل من الكتاب فى المجلات يصدر بعضها كل شهر وبعضها كل ثلاثة شهور .

لكن جمهور القراء قد زاد فى خلال القرن الماضى زيادة كبيرة سريعة بسبب نمو السكان وانتشار التعليم واتساع وقت الفراغ وارتقاء مستوى المعيشة وتقدم العلوم والفنون ؛ ولذلك كثرت الموضوعات التى يستطيع أن يتناولها الكتاب بحثهم كثرة لم يشهد مثلها من قبل ، كما تعددت طرق معالجة هذه الموضوعات ، فزاد عدد الكتب زيادة كبيرة استطاع الجمهور أن يختار ما يرغب فيه من الكتب المعروضة عليه فى مئات الموضوعات المختلفة .

أدب الحقيقة وأدب الخيـال

يمكن تقسيم الأدب بوجه عام قسمين : أدب حقيقة وأدب خيال . ويقصد بأدب الخيال كل ما يتصل بالشعر والقصص والروايات التمثيلية . أما أدب الحقائق فيشمل كل ما يتصل بالتاريخ والعلوم على اختلاف أنواعها . ويمكن أن نقول بالإجمال إن أدب الخيال فى هـذا الوقت أصغر شأناً وأقل انتشاراً من أدب الحقائق . وقد أقبل الناس بوجه خاص على قراءة كتب التاريخ لرغبتهم فى فهم أسباب

ما يسود العالم الآن من فوضى واضطراب . وكتب التراجم تشبع هذه الرغبة بسهولة لأن التراجم خير وسيلة يتمكن بها غير المتخصص من الاتصال بالماضي ويتمكن بها الكاتب المتخصص من الاتصال بالجمهور العادي .

وقد زاد إقبال الشعب الانجليزي في الوقت الحاضر على قراءة الكتب التي تبحث في العلاقات الدولية ، وأخذ يهتم اهتماماً شديداً بأحوال الشعوب الأخرى السياسية وبأمانيهم ونظمهم الاجتماعية ، وهو من هذه الناحية يختلف اختلافاً كبيراً عن الشعب الانجليزي قبل الحرب الكبرى .

وقد كان ازدياد التخصص في التاريخ والعلوم على اختلاف أنواعها سبباً في وجود طائفة « وسطى » من الكتاب الأدباء وجهت جهودها إلى تقريب مؤلفات العلماء من الجمهور القارئ ، بعرضها عرضاً مبسطاً خالياً من التعقيد العلمي ، وأخذ العلماء المتخصصون أنفسهم يعرضون نتائج أبحاثهم على الجمهور في لغة سهلة غير فنية . وقد ساعد هذا كله على انتشار أدب الحقائق انتشاراً واسعاً سريعاً .

كيف تشبع هذه الرغبة

هناك ثلاث وسائل لإشباع هذه الرغبة البادية من جانب جمهور القراء الذين لا يستطيعون شراء الكتب الغالية الثمن من المكاتب العامة المجانية التي زاد عددها زيادة كبرى في الأيام الأخيرة والتي أصبحت مراكز عامة للاطلاع والتعلم ، يستطيع القراء أن يجدوا فيها ما يحتاجونه من الكتب في الموضوعات التي تهمهم ومن يرشدهم إلى هذه الكتب . كذلك عرف كثير من الناشرين ما يعود عليهم من الربح الوافر إذا باعوا كتبهم رخيصة لعدد كبير من القراء ، فأخذوا ينشرون سلسلة إثر سلسلة من الكتب الرخيصة التي تبحث في الحوادث التي تشغل العالم في الوقت الحاضر ، أو الموضوعات التي يقبل الجمهور على قراءتها ، وتباع من كل واحد منها مئات الآلاف . وقد تكونت أخيراً عدة « جمعيات للكتب » يتعهد أعضاؤها بشراء كتاب واحد في الشهر على الأقل ، وتختار الكتب التي تشير هذه الجمعيات على أعضائها بقراءتها لجنة من أعضائها العلماء . ولما كانت هذه الجمعيات تضم عدداً كبيراً من الأعضاء ، فإن في وسع الناشرين أن يبيعوها كتبهم رخيصة ؛ غير أننا نلاحظ بوجه عام أن هذه الجمعيات قد بدأ يضعف شأنها ولما يمض على تأسيسها زمن طويل ؛ وربما كان أكبر أسباب هذا الضعف أن القارئ الانجليزي العادي يرغب في أن يشتغل باختيار ما يريد قراءته من الكتب ، ولا يميل إلى قبول ما يفرضه عليه غيره . فالمكاتب العامة والكتب الرخيصة وجمعيات الكتب هي الوسائل الثلاث التي تشبع بها رغبة الجمهور في القراءة والاطلاع .

إنه في يوم الأحد ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا وما بعدها بناحية هوارة عدلان مركز بني سويف سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك الشيخ محمود أبو أتلة نفاذاً للحكم الصادر من محكمة عابدين الأهلية في القضية رقم ٣٣٨٣ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٩ جنيه و ٨٩٤ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب حضرتي صاحبي العزة علي بك شريف وخليل بك شريف بصفتهما ناظري وقف المرحوم السيد محمد شريف باشا الكبير

فيلي راغب الشراء الحضور ٢٨

إنه في يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية كفر حجاج مركز القنايات ويوم الأحد أول أكتوبر سنة ١٩٣٩ بسوق القنايات سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك محمود يوسف الدمرودي من كفر حجاج نفاذاً للحكم الصادر من محكمة القنايات الأهلية في القضية المدنية نمرة ١٢٥١ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ١٤٠ قرش صاغ خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب صديق مسعد الحربي من القنايات

فعلى راغب الشراء الحضور ٢٩

في يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ صباحا بناحية سقط القرية مركز الواسطى وسقط الشرقية مركز الواسطى وفي يوم السبت ١٤ منه بسوق سقط الشرقية مركز الواسطى سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز في القضايا رقم ٤٨١٩ سنة ٩٣٨ و ٤٩٠٠ سنة ١٩٣٩ ملك الشيخ محمود مصطفى سنبر عمدة ناحية سقط القرية مركز الواسطى وفاء لمبلغ ٦٢ جنيه و ٥٧٥ مليم خلاف النشر وما يستجد كطلب حضرتي مصطفى بك نصرت والست كريمة هانم نافق بصفتهما ناظري وقف المرحوم حسين بك نافق ببني سويف

فعلى راغب الشراء الحضور ٣٠

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ ‏٥٦٧٦٩

العدد ٣٧ | الثلاثاء ٢٨ رجب سنة ١٣٥٨ — ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهــرس

القوات المرابطـــــة

لقسم تحرير «الثقافة» السياسى

اتجهت مصر فى الأيام الأخيرة إلى أمر عظيم له أكبر اتصال بالنهضة الوطنية ومستقبل الحياة المصرية ، وهو العمل على تجهيز الشعب المصرى وإعداده للقيام بالدفاع عن نفسه ، والاضطلاع بتلك المسئولية الخطيرة التى يجب على كل شعب أن يضطلع بها ، مسئولية رفع راية الكرامة والحرية . ولم يقتصر الأمر على الاتجاه نحو زيادة الجيش المصرى ، وإمداده بأحدث مُعِدّات النضال ، بل تحول الاهتمام إلى تهيئة الشعب نفسه ، وتربيته تربية تحقق له ذلك الغرض النبيل ، الذى هو أسمى ما يمكن أن تتجه إليه أمة حيّة . فصدر أخيراً مرسوم بتكوين « جيش إقليمى » ، أو كما يسميه المرسوم « القوات المرابطة » ؛ وأصدرت وزارة الدفاع مع ذلك المرسوم بياناً خطيراً ،

أوضحت فيه الفكرة من تكوين هذه القوات ، يتضمن بحثاً فياضاً بالشعور والحماسة ، ويحتوى على مبادئ نرى من واجبنا أن ننوه بما فيها من حقائق ، وأن نجهر بأعظم التقدير لما تنطوى عليه من آراء .

ذلك البيان الخطير يصح لنا أن نعده نداءً قوياً للأمة ، يوجه أنظارها إلى ما فى المشروع الجديد من مساس بحياتها المستقبلة ، وهو يحتوى على فقرات نراها من أوجب ما يتناوله البحث والتمحيص .

جاء فى ذلك البيان :

« لقد كان تكوين الجيوش وإعدادها يتوقف أولا وأخيراً على أن يكون الجيش أداة كاملة قائمة بذاتها ، أما اليوم فالجيش هو الأمة كلها ، والقائمة فى الجبهة هم طليعتها » .

هذه الكلمة تستعرض فى سطور تاريخ تطور فكرة الجيوش ، وتطور النظرة إلى ماهية الدفاع الوطنى فى الأمم المتمدينة ، ولكن لنا عليها تعليقاً يسيراً :

حقاً لقد جاء وقت كانت فيه الجيوش القائمة هى الأداة التى يوكل إليها الدفاع الوطنى ؛ فكانت الجندية مهنة أو وظيفة يتخصص لها الفرد كما يتخصص لأى عمل آخر فى الحياة ؛ وكانت الدول تعتمد على تلك الجيوش القائمة فى غرض الدفاع والهجوم ؛ وكثيراً ما كانت تلك الجيوش ذاتها هى القابضة بالحكم فعلا فى البلاد ؛ ولسنا فى حاجة إلى ضرب الأمثلة لذلك ، فهى كثيرة ، وكان حظ بلادنا منها حظاً عظيماً فى تاريخها الطويل ؛ بل إن كثيراً من الدول كانت تلجأ إلى استئجار الجنود من مختلف الشعوب ، وتجمع أخلاطاً من الأمم تجعلهم عدتها فى حفظ نفسها ، وفى تحقيق مصالحها . ولم تخل مصر أيضاً من مثل هذا النوع من الجيوش فى بعض عصورها .

نستطيع أن نتلفت إلى الوراء ، فى عصور التاريخ ، لنرى لذلك أمثلة فى دولة الرومان فى عصورها الأخيرة ، وقد لجأت إلى الشعوب البربرية تستمد منها جندها ، وأمثلة أخرى من الدولة الإسلامية فى عصورها الأخيرة وقد لجأت إلى الشعوب المجاورة كالترك والديلم تستورد منها جيوشها لتدفع بها عاديات منافسيها أو لتفتح بها بلاد جيرانها ، وأمثلة أخرى من مصر عندما كان ملوكها يستكثرون من المماليك يشترونهم صغاراً ، ثم يقومون على تربيتهم وتدريبهم ليكونوا منهم جيشاً قوياً باسلاً يقوم بحروبهم فى الشرق والغرب .

ولسنا نستطيع أن ننسى جيش الانكشارية الذى اعتمدت عليه الدولة العثمانية فى نضالها ، والذى كان عدة انتصارها وعظمتها وتوسعها ، ولا أن ننسى جيش البندقية الذى كانت تجمعه جمهوريتها من الشعوب المختلفة ، وكان عماد دولتها وعظمتها لمدة قرون طويلة .

ولكنا مع ذلك كله لا نستطيع أن ننسى أيضاً أن هذه الجيوش القائمة ، سواء منها ما كان من الوطنيين أو من الأجانب ، كانت كلها وليدة العصور المتأخرة فى الدول أو عماد دول صناعية متكلفة لم يقدر لها البقاء إلا أمداً قليلا ؛ بل كثيراً ما كانت تلك الجيوش التى تقوم بأجل الخدمات وتحرز النصر والمجد فى عصر من العصور ، تعود فتصبح أداة سقوط للدولة التى أقامتها وعاملا على هدم مجدها وسلب أمنها .

والواقع أن الطبيعة نفسها كانت دائماً تميل إلى خطة مخالفة كل المخالفة لهذه الخطة ، فالشعوب القديمة والحديثة كلها فى إبان نهضاتها لا تعرف شيئاً اسمه الجيوش القائمة ، بل تكون كلها جيشاً إذا اقتضى الأمر دفاعاً أو هجوماً . والذى يمكن أن نلاحظه من سيرة تواريخ الأمم أن الأمم فى أول حياتها لا تتكل على الجيوش القائمة ولا تلجأ إلى الاستئجار أو استيراد الجنود من خارج شعبها ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا حصر لها . فالنهضة المصرية القديمة الموغلة

فى القدم التى كانت فى مصر فى عصر الملك العظيم (أحمس) لم تعرف شيئاً اسمه الجيوش القائمة ، بل كان أفراد الأمة كلهم جيشاً متحركا ، ينبض قلب كل فرد منهم بالعاطفة السامية الواحدة التى تملك الدولة بأسرها . والدولة الرومانية فى أول نشأتها كانت تحارب بأفراد الأمة الرومانية ، تجمعهم جنوداً وقواداً من وراء محاريثهم أو من سهوب مراعيهم ، للقيام بالجهاد الوطنى فى أوقات الأزمات ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها عاد القائد الزارع إلى محراثه ، والجندى الراعى إلى قطيعه ، وهكذا كان شأن الأمة العربية فى أول نهضتها مع الإسلام كما هو معروف ، وشأن كل من نهض بعد ذلك من شعوب العالم ، كالتتار والترك وقبائل الجرمان .

ولقد أصبحت دول أوربا الحديثة جميعها فى العصر الحاضر سائرة على هذه الخطة ، فهى اليوم تحارب بمجموع أممها ، ولا تعد جيوشها إلا طلائع لها فى ميدان القتال ، فى حين تقوم الأمة كلها وراء الصفوف تمد لها ما تحتاج إليه ، وتمدها بالعون عند الحاجة .

والتاريخ شاهد بأنه ما تلاقت أمتان فى ميدان الحرب إلا كان النصر فيها حليف الدولة التى تحارب بأمتها جمعاء . قد تكون الجيوش القائمة أعظم عدة وأدق نظاماً ، وقد تكون أكثر دربة فى علم الحرب ، ولكن روح الأمم كانت دائماً أقوى من كل دربة ومن كل علم ومن كل عدة .

فإن كانت النظرية التى تنادى بها وزارة الدفاع اليوم نظرية حديثة ، قد أخذت بها كل الدول المتمدينة الحاضرة ، فإنها نظرية قديمة كذلك ، كانت تسير عليها الشعوب الناهضة فى كل العصور منذ أقدم السنين . والطبيعة ذاتها هى الأساس الذى يجعل الأمة فى مجموعها هى المسئولة عن حفظ نفسها . فالانسان بطبعه محارب ، وفيه من غرائز الدفاع والهجوم والقيادة والانقياد ما يجعل الفرد دائماً مستعداً لأن يكون جنديا ، بل إن الفرد الذى لا يقبل على أن يكون جنديا إذا دعت الضرورة ، إنما هو فرد قد فقد أولى ضروريات إنسانيته ، ونزل إلى مرتبة الطفيليات التى فقدت المقدرة على الحياة المستقلة . ومثل هذا الفرد جدير بأن يقضى عليه ، فهو لا يستحق أن يتضامن مع جماعته ، ولا أن تشمله جماعته بتضامنها .

وقد أتت على مصر بعض عصور أبعد فيها الشعب المصرى عن الدفاع عن نفسه ، وأخذ أعنة مصيره فى أيديه ؛ وكان هذا نتيجة ظروف كثيرة اجتمعت على إبعاده عن أداء ذلك الواجب المقدس . ولكن ذلك ليس معناه أن المصرى ينقصه شيء من مميزات المحارب ، فهو يضمر فى طبيعته كل الغرائز الانسانية التى تكفل له البقاء : هو يغار ، وهو يغضب ، وهو يناضل ، وهو يستهين بالحياة نفسها إذا دعته الضرورة إلى ذلك . وليس ينقصه شيء إلا أن توجد لديه الفكرة ، وأن تتجه به الوجهة .

وإنا نحمد الله على أن مصر قد تنبهت أخيراً إلى العودة إلى شعبها ، والاتجاه إلى إزالة ذلك الصدأ الذى علا طبيعته السليمة القوية . وأخذت الدولة أخيراً فى سبيل تهيئة المصرى للذود عن حياضه .

وهناك كلمة أخرى جاءت فى بيان وزارة الدفاع نراها جديرة بكل اعتبار ، فقد جاء فيه :

« هذه القوات الموازرة المرابطة لا يراد بها ولا منها أن تقنع بالانتظار والفراغ فى زمن السلم ، كما هى الحال فى الجيش المصرى ، بل هى قوات حية تعظم وظائفها وتتعدد فى أيام السلم أيضاً ، فهى قوات مقاتلة إذا دعاها الجيش للخدمة زمن الحرب ، وهى مدارس للرجولة والنظام منتشرة فى أنحاء القطر وأطرافه فى زمن السلم » .

فهذه القوات المرابطة لن تكون قوة جيش قائم يبقى لغرض الدفاع فى الأزمة الحاضرة وحدها ، بل هى جزء من تدبير مستمر أو نظام شامل تتجه الدولة إليه لغرض أدوم وأبقى أثراً .

ستكون هذه القوات مدارس لتعليم الشعب تدريجاً طبقة بعد طبقة ، ما يؤهله للحياة الوطنية الصحيحة في أيام السلم ، ولتعويده النظام والرجولة والكرامة في حياته العادية ، حتى يصبح عاملا على الارتفاع نحو المثل العليا في الحياة ، كما يكون عاملا على الفوز إذا دعت الضرورة إلى النضال الحربي .

ولن يقف ذلك النظام حائلا بين الفرد وبين تأدية وظيفته في الحياة العادية ؛ فالخدمة في هذه القوات موقتة بستة شهور ، يعود بعدها الجندي إلى عمله ، بعد أن يكون قد قضى مدة في حياة الجندية المنظمة ، وأفاد منها أسلوباً ساميا في العيشة الصحية النظيفة ، واستثار عا يلقى إليه من دروس عملية في الوطنية الصحيحة . مثل هذا النظام يكفل تعليم أعداد عظيمة من الشعب ، ولا يقتصر أثره على رفع مستوى هؤلاء الأفراد الذين يتخرجون من هذه المدرسة العملية ، بل يجعل من كل منهم عاملاً يعمل على رفع مستوى أسرته والمحيط الذي يحيا فيه .

ولكننا لا يغيب عن نظرنا ما في إنفاذ مثل هذا النظام من مصاعب ، وما يجد القائمون عليه من مسائل متشعبة تحتاج إلى أكبر مقدرة في مراقبة تحقيق تفاصيله ؛ وهذا يدعونا إلى أن نوجه النظر منذ البداية إلى ضرورة الفحص والتثبت والاحتياط ورسم خطط مفصلة تضمن بلوغ المقصود منه . كما أننا نرجو أن يوفق أولو الأمر في اختيار القائمين على تحقيقه من بين أولئك الرجال الذين امتلأت قلوبهم بالحماسة إلى الخدمة العامة والرغبة في التضحية بكل وقت ومجهود في سبيل انجاح هذه المهمة الوطنية ، والذين لهم من العلم والتجربة والقدرة الشخصية والشعور بالواجب ما يحمل السير في الانفاذ سيراً قوياً غير مضطرب ولا متردد .

إن الخطوة التي تخطوها الدولة اليوم بإنشاء هذه القوات المرابطة من أكبر ما عرفت مصر الحديثة من وجوه الخدمة العامة . وليس من المبالغة في شيء أن نقول إنها نقطة تحول جديد في حياة مصر عليها يتوقف مستقبلها الاجتماعي والسياسي . ونرجو أن يكون السير العملي فيها محققاً لكل الخير الذي ينتظر منها .

إن الأمة مستعدة للنهوض والقيام بواجبها ، وقد فكر ولاة الأمور في هذا الاتجاه الجديد الذي يمكن أن يحقق لها ما هي مستعدة له من النهوض ، فلم يبق إلا صدق العزم والجد والدقة في الانفاذ .

نسأل الله تعالى أن يسدد خطانا وأن يرعى مصر الفتية ويوفقها .

فإلى الأمام دائماً يا مصر ! فإن من بلغ الذروة في ماضيه جدير بأن يبلغها في حاضره .

أسباب الحروب

للأستاذ محمود محمود

الحرب ظاهرة اجتماعية اتصف بها الانسان منذ فجر التاريخ ، وهي معول هادم يعمل على تحطيم صرح الحضارة ، وصخرة عالية يرتطم عليها تيار المدنية الدافق . ومن العجيب أنها ظاهرة إنسانية بحتة ، يتصف بها الانسان دون سواه ؛ فالحيوانات الدنيا لا تقاتل إلا في سبيل القوت ، أو في سبيل الغريزة الجنسية ، وقد تقاتل للعبث واللهو أحياناً كما يفعل القط بالفأر . ولكن هذا الضرب من القتال لا يختلف عن فتك الانسان بالحيوان ، لاشباع الجوع ، أو خروجه للصيد لتزجية الفراغ واللعب . فليس قتال الحيوان إذاً حرباً بمعناها المعروف ، إذ الحرب قتال إجماعي منظم تسبقه عزيمة وإصرار . أجل إن بعض الحيوانات الاجتماعية تخرج في جيش منظم للقتال ، ولكنها حينئذ تهاجم جماعة من جنس غير جنسها . أما الانسان فهو وحده الذي يخرج في جماعة مؤلفة لقتل إخوانه من بني الانسان ، وهو في هذه الظاهرة فريد بين الحيوانات ليس له نظير .

ومن علماء البيولوجيا — مثل السر أرثر كيث — من يرى أن الحرب ضرورة حيوية لتطهير المجتمع من العناصر السيئة بين الحين والآخر ، وأنها تعمل على إبقاء الأصلح من الأمم والأفراد . ولا شك أن هذا الزعم باطل ، فالحرب تفني الشباب الأقوياء ، وتبقي الضعفاء والمرضى . وليس لدينا ما يثبت أن الأمة المتفوقة في الحروب هي خير الأمم وأعلاها حضارة . وليس أفضل بني الانسان أخبرهم بشئون الحرب وفنونها ؛ بل إن التاريخ ليثبت أن أمة قوية قد تبيد ، وتبقى إلى جانبها أمة ضعيفة ، لأنها لم تتعرض لما تعرضت له الأولى .

وقد نظرت المدنيات المختلفة إلى الحرب نظرات متباينة ؛ فكانت أوربا تعبد البطولة الحربية وتقدس الجهاد في سبيل الدين . أما الصين فكانت ترى مثلها الأعلى في العدل والانسانية والثقافة والعيش الهادئ في جماعة متناسقة . ويؤثر كنفيوشس حكمة العقل على شجاعة القلب ، ويقول إن تضحية الحياة لا تليق بالرجل الحكيم . وكان الرجل في العصور الوسطى يؤثر ميتة طيبة على حياة طيبة ، ويرى أن الاقدام والجرأة قد يكونان سبباً في القضاء على حياة مليئة بالآثام والرذيلة . وقد ترتب على ذلك أن أصبح رجال الدين في أوربا يبشرون بالاضطهاد الديني ، ورجال السياسة يبررون الاعتداء القوي . وبقيت الصين ترى مثلها الأعلى في الهادنة والسلام ، حتى طغت عليها المدنية الغربية ، واعتدت عليها اليابان ، فاعتنق أبناؤها هذه العقيدة الخبيثة في تمجيد القتال .

ولا تختلف تعاليم بوذا في الهند عن تعاليم كنفيوشس في الصين . فالبوذية تقول (بالاهمسا) — أي تحريم الإيذاء ؛ وهي — تطبيقاً لهذه العقيدة — تحرم صنع الأسلحة وبيعها ، كما تحرم عمل السم والجندية وقتل الحيوان ، وكل ما يؤدي إلى الفناء . ولذا فقد انتشرت البوذية دون اضطهاد ديني ، ودون الحاجة إلى « محاكم للتفتيش » ، كما فعلت المسيحية التي قامت على أشلاء الضحايا ، وارتوت بدماء الشهداء .

وإذا كان مذهب كنفيوشس ومذهب بوذا قد شقا طريقهما دون قتال ، فإن في هذا لدليلا على أن الحرب قد لا تكون ضرورة لا بد منها لنشر العقائد أو بناء الحضارة ، فلماذا إذاً اصطبغ تاريخ الإنسانية بالحروب ، وتلطخ بالدماء ؟

كانت الغريزة الجنسية عند الإنسان الأول هي أقوى الغرائز ، فكان زعيم القبيلة يقاتل في سبيل المرأة وحدها . ولما تشعبت الحياة وتعقدت سبلها طغت غريزة السيطرة على غريزة الجنس ، فاقتتل القادة والزعماء بحب السلطان ، وبالخلود بعد الموت ، وبات حب المجد والذكرى أهم باعث على حشد الجيوش للنضال . فلقد كان ملوك آشور يقاتلون في سبيل المجد وحده ؛ وكذلك كان الاسكندر الأكبر وفرسان العصور الوسطى ، ولويس الرابع عشر ، ونابليون بونابرت . والمجد لا يصيب الملك أو الزعيم وحده ، بل إن كل فرد من أفراد الأمة الظافرة ليأخذه الغرور والزهو . ويدعم هذا الوهم في عصرنا هذا ما تذيعه الصحف والراديو والصور المتحركة . ولو علم الناس أن هذا النصر لم يعد — كما كان قديماً — يقوم على تضحية نفر من الجند بعيداً عن أرض الوطن ، لثابوا إلى الرشد ، وسلكوا محجة الصواب .

وهناك خلا هذا الباعث العام عوامل أخرى للحروب ، يقسمها ألدوس هكسلى إلى نفسية وسياسية واقتصادية .

أما الأسباب النفسية فأهمها أن الفرد العادي يحب الحرب لأن عمله وقت السلم كثيراً ما يكون مملولا مذلا لا أمل فيه ، ولذا فهو يرجو أن تقلب الحرب نظام الجماعة ، وأن يكون نصيبه من الحياة الجديدة خيراً من نصيبه في الحياة الأولى . ومما يؤيد هذا الزعم أن نسبة الانتحار تهبط كثيراً أيام الحروب ، وذلك لأن الأمل يستولى على النفوس ؛ ولأن الفرد يعمل وقتئذ لغرض معين ، هو إنقاذ الوطن من محنته . والحياة في زمن الحرب — فوق هذا — ممتعة للنفس المتعطشة لكل جديد ، وذلك لتوارد الأنباء المثيرة للشعور في كل حين . والانسان يفر من المألوف الممل ولو كلفه ذلك خوض النار وركوب الأخطار .

ومن العوامل النفسية كذلك ما تقوم به الحكومات من دعاية تستغل فيها حب المرء وطنه حباً طبيعياً ، والوطنية تصادف هوى في النفوس لأنها تغذى في الفرد غريزة من أهم غرائزه ، فهي تشعره بأنه أعلى منزلة من أبناء الأمم الأخرى جميعاً ، فيعالج بذلك عقدة من « عقد النقص » المركبة في نفسه . ومن المعروف في علم النفس أن الشعور بالاستعلاء تتبعه دائماً رغبة في الحط من شأن الآخرين ، فتتولد الشحناء والبغضاء ، ولا غرو بعد هذا أن تسل السيوف للكفاح .

ويرى الناس أحياناً أن أخلاق الجماعة لم ترتفع بعد إلى مستوى أخلاق الفرد . إذ الفرد يستطيع — ولو إلى حين — أن يوارى صفاته الدنيئة ، كحدة الغضب وحب الانتقام . ولكن الجماعة منحطة وغرائزها ما تزال حوشية همجية . فالفرد حين يجتمع بغيره يجد في الجريمة والعدوان الجمعي إشباعا لطبيعته الخبيثة المكبوتة . وفي الحرب متنفس له من حب الشر والسوء الكامن في سريرته ، وفي اعتداء أمته وعودها بعد القتال بالغنيمة والأسلاب إرضاء لشهواته الوضيعة .

هذه هي الأسباب النفسية للحروب ، وهي أسباب لا تدفع مباشرة إلى القتال ، وإنما تدفع إليه فوراً عوامل السياسة والاقتصاد .

وأول باعث سياسي على الحرب هو الحرب ذاتها . فكثيرا ما ينشب القتال رغبة في الاستيلاء على بلد لموقعه قيمة حربية ، أو رغبة في الوصول إلى تخوم « طبيعية » ، أي تخوم يمكن الدفاع عنها ويتيسر الهجوم منها بسهولة وبغير عسر . هذا إلى أن امتلاك الجيوش القوية والأساطيل البحرية والجوية المتينة يؤدى إلى نشوب الحرب بين دولة وأخرى . إن كل أمة تزعم أنها إنما تعبئ جيوشها للدفاع لا للهجوم ، وإن قوة الدول الأخرى الحربية تتطلب إليها زيادة قوتها هي بدورها . بيد أن هذا التسابق إلى التسليح لن ينتهي دون تصادم ونضال ، وذلك لأن قوة السلاح في أمة من الأمم تثير الرعب والشك والبغضاء

فى الأمم المجاورة . وفى مثل هـذا الجو البغيض تكون النفس على أهبة للقتال ، ولا تستطيع الدولة المسلحة أن تلبث طويلا دون أن تقاس بجيشها فى ساحة الوغى ، لأننا فى عصر لا ينى فيه العالم عن اختراع الجديد ، فاذا تريثت هذه الدولة قليلا بات سلاحها من الطراز القديم الذى لا يصمد للدفاع . ومعنى هذا أن لكل أمة من الأمم القوية ساعة تبلغ فيها أقصى عنفوانها ، وذلك حينما تكون خيراً فى إعدادها من الأمم الأخرى . وفى هذه الساعة ينبغى لها أن تزج بنفسها فى ميدان الكفاح . ومما يعزز هذا الدافع ويزيده قوة أن صناعة السلاح موكولة فى الدول الكبرى إلى شركات خاصة يهمها من الوجهة المادية كثرة الانتاج الذى يعود على أصحابها بالغنم والربح .

وتنشب الحرب كذلك دفاعاً عن عقيدة دينية ، كما حدث فى الحروب الصليبية بين المسيحية والاسلام ، وكما حدث فى أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ أو دفاعاً عن مبدأ سياسى ، كما وقع فى معمعان الثورة الفرنسية ، وفى الحرب الأهليـة الأمريكية ، والحرب الأسبانية الحديثة ، فقد نشبت جميعاً لحماية رأى بعينه أو عقيدة بذاتها . ولعل مبدأ القومية فى هذا العصر هو أكبر باعث على التنافس بين الأمم .

وأقوى البواعث الاقتصادية رغبة الدول فى الحصول على الأراضى الخصبة المنتجة ، وطمعها فى الاستيلاء على بلاد تتوفر فيها المواد الخام اللازمة للصناعة ؛ فمناجم الحديد فى اللورين كانت سبباً لوقوع الحرب بين ألمانيا وفرنسا . ويرجع اعتداء اليابان على منشوريا والصين إلى رغبتها فى امتلاك المناجم الوفيرة هناك . ولم تقدم ألمانيا وإيطاليا المعونة لأسبانيا تعززاً لمبدأ الفاشية وحسب ، وإنما طمعاً كذلك فى نحاسها وحديدها .

ومن أكبر دعاة الحروب أصحاب رؤوس الأموال فى البلاد الصناعية الكبرى . فمصانعهم لا تفتر عن الانتاج ، وهم لا يفتأون يبحثون عن أسواق جديدة تروج فيها بضاعتهم . وقد كان البحث عن هذه الأسواق أكبر باعث على توسع الدول الأوربية خلال القرن التاسع عشر .

***

ونحن بعد هذا نسأل : هل من سبيل إلى علاج هذه الظاهرة بين البشر ؟ لقد حاول الانسان ذلك كثيراً ، ولكن دون جدوى . ولعل أحدث هذه المحاولات هو تأليف عصبة للأمم بعد الحرب الكبرى . ولكن العصبة باءت بالفشل ، لأنها قامت على أسس خاطئة ، فهى لم تشمل أمريكا ، ولم تضم إليها ألمانيا والروسيا . وفضلا عن هذا النقص فى تكوينها ، فقد اشترطت العصبة للقبول فى عضويتها أن يكون للدولة المشتركة جيش خاص بها ، فكأن الدولة فى تعريف العصبة هى « جماعة منظمة للحرب والقتال » . ووسيلة العصبة لمنع الحرب هى الحرب . وليس عجيباً أن تفشل العصبة ، وليس عجيباً أن تفشل أية وسيلة أخرى ، ما دام العلاج لا يمس الأسباب النفسية أولاً ، ويقتصر على البواعث السياسية والاقتصادية المباشرة .

وقد رأينا أن الحرب محببة إلى النفوس لأن أعمال الناس فى أوقات السلم مملة مهينة لا ترمى إلى غرض . فواجبنا إذاً — إن أردنا تهدئة الخواطر — أن نحبب العمل إلى النفوس ونقربه إلى القلوب ؛ ومن أسباب ذلك ألا يمارس العامل مهنة واحدة طوال حياته ، وأن ينتقل من عمل إلى آخر كلما دب فى نفسه الملل . وقد فطن (فورييه) إلى ضرورة التنوع فى العمل ونادى به ، وأخذت برأيه بعض المصانع فى أمريكا وألمانيا والروسيا ، فقلت كراهية العامل لواجبه وزاد الانتاج .

وقلنا إن نسبة الانتحار تهبط كثيراً فى أوقات الحروب ، لأن الحياة حينئذ يكون لهـا هدف واضح ؛

(البقية على الصفحة التالية)

وهو النصر بأى ثمن ، فيصبح للحياة معنى ومغزى . أما فى وقت السلم فالانسان كالعجلة التى تدور ولا تعلم إلى أين المسير ، وهو لا ينفك يبحث له عن غرض يعيش من أجله ، ويناضل يعمل على تحقيقه ؛ فهو يحيا تارة من أجل الديمقراطية ، وطوراً من أجل الاشتراكية أو الفاشية أو غيرها من المذاهب ؛ وهى مبادئ ناقصة لا تلبث أن تنم عن عجزها ، فيفر المرء منها إلى الحرب ، فاذا فيها شىء من الفرج ، ولكنه الفرج المؤقت الزائل . ولو استطاع الانسان أن يجعل تبادل الود واكتساب المعرفة هدفاً له فى هذه الحياة الدنيا لساد السلام وامتنعت الحروب .

محمود محمود

٥ - جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى أيضا

للأستاذ أحمد أمين

يقسم علماء المنطق العمليات العقلية إلى نوعين ، عملية تركيبية وعملية تحليلية ؛ ولهذا نظائر فى الحسيات ، فاذا أنت ألفت من ورد وفل وياسمين ونرجس ومنثور وبنفسج طاقة أزهار ، فهذه عملية تركيب ؛ وإذا أنت فرقت هذه الطاقة ، وجعلت الورد وحده والفل وحده والنرجس وحده ، فهذه عملية تحليل ؛ وإذا أنت ألفت من أكسجين وإيدروجين ماء ، فهذه عملية تركيب ، فاذا حللت الماء إلى عنصريه فهذه عملية تحليل .

وفى النحو — مثلا — بناء الجمل من ألفاظ ، أو الفقرة من جمل ، أو الفصل من فقر ، عملية تركيبية ؛ وتحليل الفصل إلى فقر ، والفقرة إلى جمل ، والجملة إلى ألفاظ ، عملية تحليلية .

وفى البلاغة — مثلا — عملية التشبيه والاستعارة عملية تركيبية ، لأنه يراد منها ضم شىء إلى شىء والحكم عليهما حكماً واحداً من إحدى الجهات ، ومثل ذلك الموازنة فى باب الأدب .

***

ويخيل إلى أن الأمم فى بدء أمرها أميل إلى التركيب منها إلى التحليل ، لأن التحليل يتطلب دقة وحصافة ، وخلقاً علمياً أكثر مما يتطلبه التركيب ؛ والعقل البدائى يسرع فى التركيب فيخطئ فى الحكم ، لأنه يكتفى أن يرى حادثة تحدث مع حادثة أخرى ، فسرعان ما يعقد علاقة بينهما ويعممها من غير تدقيق ؛ فيرى الجاهلى — مثلا — حادثة شفاء من كلب ارتبطت بدم ملك ، فيعمم الحكم بأن دم الملوك يشفى من الكلب ؛ أو يرى حادثة حدثت اتفاقاً فى أن نوعاً من الشجر اسمه العشر احترق وذيل البقر ، فأمطرت السماء ، فيعمم ارتباط هذا الحادث بالمطر ، ويستنزل المطر بتكريره ، وربط العشر فى أذناب البقر وإشعال النار فيها ، وهكذا .

ومن أجل هذا كثرت الأساطير والخرافات بين الأمم فى حالة بداوتها ، لأنها أسرعت فى التعميم من غير تحليل دقيق وامتحان لربط الحادث بالحادث .

وهذا ما حدث عند العرب فى جاهليتهم ، وحدث عند اليونان فى جاهليتهم ؛ فلما جاء فلاسفة اليونان كأرسطو ، رأوا أكداساً من الأحكام العامة الباطلة ، وأكداساً من الاعتقادات بارتباطات بين الأشياء

زائفة ، وأساطير تعمم فى غير دقة ؛ فوضع أرسطو قواعد وقيوداً للتعميمات ، كمطالبته بالاستقراء التام قبل التعميم ، ونحو ذلك ، ولا يزال علماء المنطق إلى الآن يجدّون فى وضع الشروط الدقيقة لصحة التعميم .

***

يظهر لى أن هناك نوعين من الأدب متميزين كل التميز : أدب تركيبى وأدب تحليلى ؛ فالقصة التى تصف وصفاً دقيقاً حال عاشقين ، وما ينتابهما من عواطف مختلفة ، وما يعرض لنفوسهما من مواقف متباينة ، وما يجرى بينهما من أحاديث تتفق مع كل موقف ، وما يبدو من تصرفات متناقضة تبعاً لتناقض العواطف ونحو ذلك ، أدب تحليلى ؛ والمقالات الاجتماعية تعرض لشرح حال أمة فى موقف خاص من مواقفها ، وتصف المرض وصفاً دقيقاً ، وتضع العلاج فى دقة وإحكام ، أدب تحليلى ؛ وقصيدة الشاعر يصف منظراً طبيعيًّا ، ويحلل موقف المنظر من نفسه وموقف نفسه منه ، أدب تحليلى ؛ ومقال الناقد يعرض للكتاب أو المقال المنقود ، فيميز ما هو أساسى منه ، وما ليس بأساسى ، ويتبين أغراضه ومراميه ، ثم يحلل هذه الأغراض ويبين ما فيها من ضعف وما فيها من قوة ، أدب تحليلى ، وهكذا .

والخطبة الوطنية العامة فى تمجيد القومية والوطنية من غير بحث مسألة خاصة ، أو دعوة إلى منهج وطنى معين ، أدب تركيبى ؛ والمقالة الأدبية التى ليس فيها فكرة ، أو فيها أفكار عامة ، وكل جمالها فى تشبيهها واستعاراتها وسجعها وبديعها ، أدب تركيبى ؛ ومقال الناقد يبنى مقاله على أن الكتاب أو المقال المنقود يعجبه أو لا يعجبه ، وأنه ينطبق أو لا ينطبق على أصول الفن المتعارفة ، أدب تركيبى ، وهكذا .

والأدباء أنفسهم ينقسمون هذين القسمين ، فأديب تغلب عليه نزعة التركيب ، وأديب تغلب عليه نزعة التحليل .

***

إن كان هذا صحيحاً فيُخيَّل إلىّ أن أكثر الأدب الجاهلى أدب تركيبى لا تحليلى ، ويتجلى هذا فى مظاهر مختلفة .

فإنا لو استعرضنا الشعر الجاهلى وجدنا أكثره يُعنى بتصور الأشياء صوراً عامة ، ولا يعنى فيها بالتفصيل والتدقيق ، وأروع شىء فيه جمال الاستعارة والتشبيه ؛ وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا كله من قبيل الأدب التركيبى ، وأشهر أبوابه فخر ومديح وهجاء ، وقد عرضت بشكل عام تركيبى ، فهى فى الأغلب فخر ومدح وهجاء لقبيلة جاءت فى معانٍ عامة مركبة ؛ فخير المدح المدح بالكرم والشجاعة من غير تحليل لجزئيات ؛ ومن خير أنواع المدح المدح بالمروءة وهو لفظ عام غير محدود ، ومن شر أنواع الهجاء الهجاء باللؤم ، وهو كذلك لفظ غير محدود ؛ ونستعرض باب الصفات — وكنا نظن أن هذا الباب يتأتى فيه التحليل الدقيق — فلا نجد تحليلا ولكن نجد وصفاً مركبا .

ثم نجد قطعاً متفرقة هنا وهناك فيها وصف تحليلى كقول المنخل اليشكرى :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدرَ فى اليوم المطيرِ
الكاعبِ الحسناء تر فلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحريرِ
فدفعتُها فتدافعَتْ مشىَ القطاة إلى الغديرِ
ولثمتُها فتنفَّسَتْ كتنفس الظبى الغَرِيرِ
فدنت وقالت يا مُنَخَّ ل ما بجسمك من حرورِ
ما شفَّ جسمى غير حب ك فاهدئى عنى وسيرى

ووصف بعض أحداث لامرئ القيس ، ولكنها ليست كثيرة فى الأدب الجاهلى ، إنما الكثير الغالب الأدب التركيبى ، وحتى هذه الأمثلة التى ذكرت من الأدب

التحليل ليست طويلة النفس ولا مستقصية التحليل .

***

جاء الأدب العربي فتأثر كل التأثر بالأدب الجاهلي ، فكان أكثره أدباً تركيبياً لا أدباً تحليلياً ، ونستعرضه فنرى أن فيه كل مزايا الأدب التركيبي وكل العيوب الناشئة من قلة الأدب التحليلي .

نرى الأدب العربي قد نبغ نبوغا عظيما في باب الأمثال والحكم ، حتى قل أن يساويه في ذلك أدب ، لأن ذلك نتيجة حتمية للأدب التركيبي ، فهي تجمع التجارب وتركزها في جملة موجزة قوية جميلة ؛ وكان من نبوغهم في هذا الباب وإعجابهم به أن نقلوا حكم اليونان إلى العربية ، مع أنهم أوصدوا الأبواب في وجه الأنواع الأخرى من الأدب اليوناني ، وكان سيرهم في هذا الباب احتذاء لما فعل زهير ابن أبي سلمى في حكمه المشهورة ؛ وكان من نبوغهم في الأدب التركيبي أيضاً ولوعهم الشديد بالجمل القصيرة القوية ، حتى لتكون الخطب والكتب في كثير من الأحيان عبارة عن جمل قصيرة مركزة محكمة ، كالذي تلاحظه في كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، وكخطبة زياد وخطبة الحجاج ؛ ولو تناول الأدب التحليلي كل جملة من هذه الجمل لصاغ منها صفحات ؛ ونرى لهذا صدى في علم البلاغة العربية ، فإنهم عنوا بالإيجاز أكثر من عنايتهم بالاطناب ، وأعجبوا بجوامع الكلم أكثر من إعجابهم بالكلام الطويل المنبسط ، بل إن بعضهم كأبي هلال العسكري فهم أن الاطناب تكرار المعاني وطول الألفاظ وقال : « إن كتب الفتوح وما يجري مجراها مما يقرأ على عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنبا فيها » فكأنه يريد أن يجعل الاطناب أدب العامة والإيجاز أدب الخاصة .

وألف العرب هذا النوع من الإيجاز في التعبير حتى عدُّوا عبد الحميد الكاتب الفارسي الأصل آتياً بجديد عندما فصَّل في كتابته وأطنب .

***

وكما أن في الأدب العربي مزايا الأدب التركيبي ففي معظمه عيوب نقص الأدب التحليلي .

نرى مظاهر ذلك في ضعف القصة ، وقد أشرت قبلُ إلى بعض أسباب هذا الضعف ، وأزيد هنا هذا السبب ، فإن القصة تحتاج بجانب الخيال الواسع إلى إطناب في الوصف ، وتحليل الموقف ، وإجادة العَرْض المفصَّل ، ولذلك كان أكثر القصص العربي البحت ، كالذي روى في العقد والأغاني عن الأدب الجاهلي وأيام العرب ونوادر المجان والممرورين ، موجزاً قصيراً يتفق وذوق العربي في حبه الإيجاز ، وميله إلى التركيز والتركيب . أما ما عدا ذلك من قصص مطولة كألف ليلة وليلة ، فليس من أصل عربي ، أو هو من الحكايات الشعبية ، لا من الأدب الرسمي .

كما نرى مظهر ذلك أيضاً في باب تراجم الرجال ، كالذي في الأغاني ، ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان ؛ فالناظر في كتب التراجم العربية يمتلئ إعجاباً وروعة بعظم هذه الثروة وعمومها ، وعناية جامعيها ، وسلوكهم المسالك المختلفة في التراجم ؛ ولكنه لا يعجب بها من حيث نظرها إلى المترجَم كوحدة متماسكة ذات أجزاء مفصلة منسجمة ، إنما هي حادثة هنا وحادثة هناك ، وشيء في خُلقه بجانب شيء في شكله ، ثم عودة إلى شيء في خلقه ، ثم عودة إلى شيء في شكله ، وحوادث جزئية جمعت حيثما اتفق ، يحتاج الذي يريد الاستفادة منها أن ينظر إليها نظراً جديداً ، ويرتبها ترتيباً جديداً ، ويُعمل فيها خياله ليكمل مواضع النقص فيها ؛ ولم يأت هذا إلا بعد أن تثقفنا ثقافة جديدة فيها الكثير من منهج التحليل .

وما قيل فى باب التراجم يقال مثله فى كتب الأدب العربى : كالكامل ، والبيان والتبيين ونحوهما ، وكتب التاريخ : كالطبرى ، وابن الأثير . فعدم التزامها كلها منهج التحليل جعلها تعرض الأشياء والأحداث عرضاً مبعثراً ، وجعلها تستطرد استطراداً مفرطاً ، وجعلهـا أكداساً فيها الذهب والفضة والنحاس ، وفيها الحَبّ والتبن ، وفيها غطاء الرأس بجانب نعل القدم ؛ ولو اتبعت المنهج التحليلى لكان لها شأن آخر .

وكما نرى مظهر ذلك فى وفرة الشِّعر الذى سار على نمط الشعر الجاهلى التركيبى من مدح وهجاء وفخر ، وضعفه فيما احتاج إلى التحليل ، كالوصف الدقيق المستقصى لمظاهر الطبيعة وتحليل النفس .

* * *

وقد يكون من الإنصاف أن نستثنى أديبين فى الأدب العربى ، كان أدبهما أدباً تحليلياً واضحاً ، وقد نبغا فيه نبوغا عظيما ، أحدهما شاعر ، والآخر ناثر ؛ فأما الشاعر فابن الرومى ، فهو فى شعره يعرض للفكرة أو الصورة فيحللها ويفصلها ويولدها ، حتى لا يدع لأحد بعده فيها قولا . وأما الكاتب فهو ابن خلدون فى مقدمته ، فهو يأتى بالنظرية العامة ، ولا يزال يحللها ويضع فروضها ويقيم البراهين على صحتها ، حتى يصل فى ذلك إلى الغاية ، شأنه فى ذلك شأن الرياضى فى التدليل على نظرية هندسية .

ولكن مع الأسف لم يكن أحد منهما زعيم مدرسة ، وإنما كان معلما من غير متعلمين ، ومغنّيا لغير سامعين .

* * *

إنى أعتقد أن الأدب العربى مسئول إلى حد كبير عن انحطاط المسلمين فى العصور الوسطى وما بعدها من الناحية الأخلاقية والاجتماعية .

فلما ساءت حالة المسلمين بعد العصر العباسى الأول ، كان ينبغى أن يكون هناك أدب تحليلى وشعر تحليلى ، يصف حال المجتمع السيئة وصفا دقيقا مستقصياً ، ويشرح أسباب الفساد وعلله شرحا مستفيضا وافياً ، ويرسم للناس المثل الأعلى الذى ينشدونه رسما دقيقا شافيا ، ويحث الناس على أن يثوروا على من هم سبب ما هم فيه من مذلة وضنك وبؤس ، وأن يبيعوا أرواحهم فى سبيل تحقيق مثلهم ؛ ولو كان ذلك لكف الظالمون عن الظلم ، وعملوا على إصلاح الفاسد ، وتحسين المجتمع ؛ ولكن تعال معى نستعرض الأدب العربى من العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، فهل نرى ثائراً ثار بأدبه على الظالم ، وحلل موقف الناس فى بؤسهم تحليلا دقيقا ؟ وهل نرى أديبا وصف مجتمعه وصفا عميقاً مستقصياً ، يحرك النفوس ؟ وهل نرى شاعراً رسم المثل الأعلى للحكام والمحكومين ودعا إليه ؟

إنى — مع الأسف — لا أجد شيئا من ذلك

أجد الشعراء ، وشعرهم مملوء بالملق لكل خليفة ، ولكل سلطان ، وكل أمير ؛ فهو الشمس ، وهو القمر ، وهو حاتم فى الجود ، وهو الأسد فى الشجاعة ؛ فأما ما أصاب الناس من ظلم على يديه ، فقد ضاع فى دراهم معدودة نالها منه الشاعر ؛ ومن خرج على الخليفة أو السلطان هجا هجاء جاهليا مركبا لا تحليليا مفصّلا .

انظر إلى قول دعبل الخزاعى فى هجاء المعتصم :

ملوك بنى العباس فى الكتب سبعة
ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة
خيار إذا عُدوا وثامنهم كلب
وإنى لأعلى كلبهم عنك رفعة
لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

فهل هذا نقد تحليلى يراد به الإصلاح ، أو هو سب جاهلى مركب كقولهم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا
فإن سلكت سبل المكارم ضلت

وهل ترى كاتبا عرض تفصيلا وتحليلا لحال الناس وبؤسهم وفسادهم ، أو ترى أن أشجعهم جمجم ولم يفصح ، وعمم ولم يبين ؟

ثم قد تعرض لنقد الحالة الاجتماعية فى عصره أبو العلاء المعرى ، ولكنه لم يحقق غرضنا من ناحيتين : من ناحية أنه فصّل فى تعديد نواحى الفساد ، ولكنه لم يحلل كل ناحية كما ينبغى ؛ قال بفساد القضاة وفساد رجال الدين وفساد الأمراء وفساد المرأة ، ولكنه لم يحلل تحليلا تفصيلياً نواحى هذا الفساد وأسبابه وجنايته على العالم ؛ وله بعض العذر فى ذلك لأن الشعر لا يفسح المجال لهذا التحليل ؛ ولو عالج هذه الموضوعات نثراً مرسلا لتأتى له ذلك . وثانى الأمرين فى شعر أبى العلاء أن نزعته لم تكن نزعة إيجابية فى الدعوة إلى الثورة وإصلاح الحال ، ولكنها دعوة سلبية إلى الزهد وترك الدنيا ، ونحن إنما ننشد العمل الإيجابى والإصلاح الايجابى والانغماس فى الحياة لمعالجتها لا الهروب منها .

* * *

إن المثل الأعلى لآداب الأمة يجب أن يكمل فيه النوعان من الأدب التركيبى والأدب التحليلى . والأدب العربى فى حاجة إلى المزيد من الأدب التحليلى حتى يرقى فيه القصص والوصف الدقيق المفصل والنقد العميق الواسع ونحو ذلك . ولولا نزعة الجمود على القديم والالتزام الشديد للسير على مناهج الأقدمين ، وتعمد المحدثين أن يصبّوا الأدب فى نفس القوالب التى صاغها الجاهليون لكان للأدب العربى شأن غير هذا الشأن .

إن الأمم الأخرى الحية وقفت زمنا مثل موقفنا ، ولكنها بعد برهة تحللت منه ، وجارت الزمان ، وسايرت الأذواق ، واستغلت الحياة الواقعية . لقد سيطر الأدب اليونانى والأدب اللاتينى على الحياة الأدبية الأوربية كل السيطرة حيناً من الزمان ، وكان كل هم الأديب أن يحذو حذو الأدب اليونانى أو اللاتينى حذواً دقيقاً ، وكلما كان التقليد أتم كانت القطعة الفنية فى نظرهم أجل وأروع . وكان الناقد الأدبى إذا نقد قطعة أدبية قسها بمقياس قربها من هذين الأدبين ؛ فكلما قربت منه كانت أجود وأرق ، وكلما بعدت كانت أضعف وأسمج ، شأنهم فى ذلك شأننا مع الأدب الجاهلى .

ثم وقفوا بعد ذلك موقفاً ينقصنا الآن ، ذلك أنهم هضموا الأدب اليونانى واللاتينى وأخذوا زبدتهما ورموا ثفلهما وتناولوا هذه الزبدة فهضموها ، وزادوا إلى طعامهم هذا القديم فى أصله الجديد فى استخلاصه ، طعاما جديداً مشتقاً من بيئتهم ومدنيتهم وحياتهم وأحداثهم وطبيعة أرضهم ونوع معيشتهم ؛ فصنعوا من كل ذلك موائد مختلفة الألوان متعددة الطعوم تشتهيها أذواقهم وتستسيغها معدهم ، وهذا ما ينبغى أن يحدث فى أدبنا العربى حتى يحقق غايته .

* * *

وإلى هنا أختم القول فى بحثى هذا ولعل الكلمة الأولى التى تعرضت لوضع الأدب العربى فى الميزان ، نقدته فى صراحة من غير تحيز ، وخالفت المأثور فى أن الأدب العربى خير الآداب وأنه مبرأ من كل عيب منزه عن كل نقص ، وأنا ما دمنا عربا يجب أن نشيد بمحاسن الأدب العربى ونغض الطرف عن عيوبه ، بل يجب أن نستعمل بلاغتنا وخطابتنا فى قلب العيوب محاسن والمآخذ مفاخر . وليس يمكن أن تثمر الكلمة الأولى غرضها فى موضوع إلا إذا أعقبتها كلمات تفصل مجملها وتكمل نقصها وتظهر خطأها وتؤيد صوابها ، فيكون ذلك كله تمهيداً للكلمة الأخيرة إن كان فى العلم كلمة أخيرة .

(تم البحث) أحمد أمين

من قصص العرب :

الملك الضليل

(٣)

« اخشى بعينيه ! »

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ملخص لما سبق :

[كان امرؤ القيس بن حجر ، فتى رقيق الحس وثاب النفس ؛ وكان يميل إلى اللهو والعبث ، ولكنه مع ذلك كان يهوى فتاة من بنى عمومته ، اسمها فاطمة ؛ وتعرض يوماً إلى بعض الفتيات لمداعبتهن عند دارة جلجل وكانت فاطمة بينهن ، فغضبت وأخبرت أباها بما كان من امرئ القيس ، فنزح أبوها فراراً من العار . وأثر بعد فاطمة فى امرئ القيس أثراً شديداً ؛ فمرض وكاد يهلك ، ولما شفى من مرضه تغيرت نفسه ، وامتلأت باليأس من حب فاطمة ، وأقبل على اللهو والخمر ، ومعاشرة المجان ....]

كان عامر بن معاوية الجون الكندى أبو فاطمة من أركان دولة حجر بن الحارث — فهو فارس باسل ، وأمير شهم شريف ، يؤلف قلوب بنى أسد بكرمه وحلمه ، ويشد دولة ابن عمه حجر بشجاعته . ولهذا كان الملك حجر يحرص كل الحرص على مودته وإخلاصه ، ويعتمد عليه فيما كان يخشى وقوعه من الكوارث بدولته ، فقد كانت الكوارث تخفق فى جو بلاده ، كما تخفق أجنحة الخفافيش فى الظلام .

كان بنو أسد عند ذلك يتحركون للوثوب بملكهم حجر لأنهم أحسوا ثقل وطأته عليهم ، وشجعهم على ذلك ما سمعوه من اضطراب أمر أبيه الملك الحُرث بالحيرة واشتغاله بمحاربة منافسه القديم المنذر بن ماء السماء .

فلما نزح عامر بأهله فى جنح الليل ، وباعد بلاد بنى أسد ، أحس حجر بأن دعامة قوية من دعائم ملكه زالت من موضعها ، ولم يدر ماذا حمله على ذلك النزوح ، وأراد أن يعرف السبب الذى دعاه إلى المباعدة ، فأرسل الرسل إليه يستدعيه ، وكتب إليه الكتب يستعيد مقامه فى جواره ؛ فكان عامر يعتذر ويمتنع فى إصرار عجيب .

ولكن السر فى نزوحه لم يبق طويلا فى أطباق الخفاء ، فذاعت منه ذائعة ، ثم تردد النبأ خفية فى المجالس ، ولم يلبث أن بلغ آذان حجر ، وكان وقعه عليه أليماً . علم حُجر أن ابن عمه قد هرب خوفا على شرفه من اعتداء ولده الحبيب الفتى الشاعر امرئ القيس . علم أن ابن عمه الفارس الشجاع قد آثر أن يبعد عن موطنه وهو يضمر موجدة لم يقدر على الابانة عنها ، يريد أن يفر بشرفه سالماً ، قبل أن يكون الفتى الشاعر سبباً فى فضيحته بين العرب ، أو عاملا على إثارة العداوة بينه وبين ابن عمه الملك حُجر من أجل المحافظة على عرضه .

وكانت غضبة حجر على ولده عظيمة عند ما عرف ذلك السر ، ولكن حزنه على مرضه ، وجزعه من خوف فقده لم يدعا له مجالا لإظهار غضبه عليه ، ولما شفى امرؤ القيس ، نسى أبوه الحانق ما ثار فى نفسه من الموجدة عليه ،

منذ امتلأ قلبه بالفرح لشفاء أعز أبنائه وأقربهم إلى قلبه .

وقام امرؤ القيس من مرضه الذى أصابه عقب رحيل ابنة عمه ، وقد تغيرت نفسه ، وتبدلت خلائقه حتى كأنما بعث بعثاً جديداً ، قام الفتى من الحمّى ورأسه مفعم بالثورة ؟ كان من قبل مرضه يحب اللهو ، ويستخفه المرح ، وينشط إلى الصيد ، ويرتاح إلى المداعبة والمزح ، ويستفزه الطرب أحياناً ، فيتغنى بالشعر ويشبب بمحاسن النساء ، وتدفعه نشوة الخمر أحياناً إلى كثير من الإغراق فى القول ، ولكنه كان بعد كل ذلك يضمر فى قرارة قلبه حباً واحداً ، ويحرص فى أعماق نفسه على صورة واحدة جعل صدره لها معبداً ؛ ذلك هو حب فاطمة ، وصورة فاطمة .

كان يعبث أحياناً بذكر غيرها ، ولكنه كان لا يذكرها فى شعره إلا تلميحاً . وكان يلهو أحياناً بالتماجن مع فتيات بنى أسد ، غير عابئ أن يغضب عليه أحد من أهلهن ، ولكنه كان لا يجرؤ على أن يتعرض بكلمة قد تغضب فاطمة .

فلما وقع منه ما وقع يوم دارة جلجل ، ورحلت فاطمة من منازلها كانت الصدمة أعنف من أن يقوى عليها شاعر مرهف الحس مثله . فدهدهته وأردته إلى هوة لم يستطع أن يمالك نفسه فيها ، وقام من مرضه التى أصابه وقد ملأ اليأس قلبه ، اليأس من هوى مثل هوى فاطمة . فلم يبق له إلا العبث الذى كان يعبثه بسواها .

وأصبح الشراب الذى كان يتخذه آلة لطربه ومنشطاً على سمره ولهوه ، مسكراً يقبل عليه لكى يغرق فيه يأسه وهمه ، وليهرب فى نسيانه وهذيانه وخدره من حقائق حياته ومن خذلانه .

وضاقت صدور بنى أسد بما كان يصنعه الفتى السادر فى عبثه . كان يتعرض لفتياتهم ويرصد لنسائهم ، لا يبالى الضعيف منهم فيعلن تعرضه لحرمه ، ويدارى القوى ولكنه يتخذ من حسنه وشبابه وجاهه أسباباً لتدسس سراً إلى الغواية والفتنة فى عرضه . فتحدث الناس فى مجالسهم بما يحدثه الفتى فيهم ، وتحركت الحفيظة تحت ستار الخفاء ، خشية من غضبة الملك حجر الذى عودهم شدة البطش ووبال التنكيل . فكان خطرها أعظم وسريانها أقوى وأسرع .

اجتمع بنو أسد فى شعب من شعاب أرضهم فى ليلة صافية من ليالى البدر . وكان ظاهر أمرهم أنهم ينظرون فى جمع ما طلبه الملك حجر منهم من أموال وجنود يمد بها أباه فى الحيرة وهو فى نضاله العنيف مع منافسه المنذر بن ماء السماء ؛ ولكنهم كانوا يلتمسون فى اجتماعهم وجوه الحيل للوثوب به ولافشاء سره إلى عدوه وعدو أبيه ولإشاعة قالة السوء عنه وعن أهله وقومه وبنيه .

ولما انعقد الجمع واطمأن ، ووقف منهم حراس ربيئة عند أطراف الشعب الذى اتخذوه فى تلك الليلة مجمعاً ، وقف سيدهم عمرو بن مسعود ، فنظر القوم إليه فى صمت وإكبار ، وكان رجلاً نحيلاً رقيق البشرة أبيض اللون فى صفرة ، وكانت لحيته البيضاء تكسب وجهه روعة كأنها الأطار الفضى حول صورة رقيقة الألوان . وتكلم بنبرات هادئة واضحة فى صوت مطمئن منخفض فقال : « لو علمت أن القدر يتجنبكم ما نصحتكم به ولا وافقتكم عليه ، فما بالكم وهو يوقع بكم النكبة ؟ » .

فقام رجل من أقصى المجلس ضئيل الجسم ، أسمر اللون كأنه يثب وثوباً وهو قائم ، فالتفت الجمع إليه ، وتبدلت نظرتهم من الإكبار إلى التحفز والغضب ، ولمس الرجل عثنونه الأسود بيده ، وأجال فى القوم نظرة ناطقة مضطربة ثم بدأ يتكلم مسرعاً بصوت حاد فيه نغمة الحنق فقال : « وعلام نصبر بعد اليوم ؟ أبعد هتك أعراضنا وإشاعة الفساد بين ظهرانينا نتكلم عن القدر وعن النكبة ؟ وأى نكبة أشد من أن يذهب الرجل منكم إلى التماس رزقه فلا يدرى من يكون فى فراش أهله ؟ هذا امرؤ القيس

ابن حجر في جماعته ، لا تمضي ليلة بغير أن يحدثوا حدثاً من الخنا يتحدثون به في أسمارهم ، وكأنكم قد قنعتم بأن يخلفكم هذا الفتى الجبل على حرمكم ، ويلقي على فراشكم بنسله ينسبه إليكم ! » .

فتحرك الجلوس حانقين في مجالسهم وصاحوا بالرجل : « حسبك يا عبيد ! . كفاك سباً لنا يابن الأبرص ! » .

فلم يعبأ الرجل بمقاطعتهم ، ومضى في قوله ممعناً في تهكمه اللاذع قائلا : « لئن كنتم تشعرون من أنفسكم العجز والضعف عن حماية أعراضكم من هذا العار فدونكم الأرض واسعة ، فاضربوا فيها ، واخرجوا من مقامكم الذليل كما خرج عامر بن معاوية الجون يلتمس النجاة بأهله من العرة ، أما أنا فوحق الأقيصر ومناة ، لا بقيت بعد اليوم على ما ترضون به من الهوان » .

ثم جلس في عنف وهو لا ينظر في وجه أحد ممن حوله . وساد سكون شامل حيناً ليس بالقصير ، ثم تردد القوم وجعلوا يتهامسون وينظرون إلى عمرو بن مسعود ينتظرون جوابه . وقام الشيخ بعد حين يتوكأ على عصاه في بطء ، فسكنت الأنفاس مرة أخرى ، واجتمعت الأنظار عند وجهه ، فمر الرجل بيمناه على جبينه كأنه يمسح عنه العرق ، ثم قال بصوت المطمئن : « لقد أخفى ابن الأبرص وعليه الحقد على صاحبه امرئ القيس ، فامرؤ القيس رجل شاعر ... »

فنهض عبيد غاضبا ولم يمهل الشيخ حتى يتم حديثه ، بل صاح يقاطعه فقال : « إذا كان الشيخ يعجبه الشعر ، فإني مسمعه شيئا من قول امرئ القيس » .

ثم اندفع ينشد أبياتا ويتغنى بها ، ويمط ألفاظها ويدس فيها نبرات التهكم والسخرية ، فقال :

سموت إليها بعدما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله ! إنك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
حلفت لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولا صال
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أي إذلال
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها ... عليه القتام سيء الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ... ليقتلني والمرء ليس بقتال
أيقتلني والمشرفي مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال
أيقتلني أني شغفت فؤادها ... كما شغف المهنوءة الرجل الطالي
وقد علمت سلمى وإن كان بعلها ... بأن الفتى يهذي وليس بفعال . .

ثم وقف قليلا عن الكلام ونظر في وجوه القوم واطمأن إلى ما بدا عليها من الحقد والغضب ، ثم نظر إلى ابن مسعود وقال يخاطبه : « أرى الشيخ قد أعجبه القول وطرب له ولان قلبه للحديث الحلو . وإلا فما بالي أراه صامتا ؟ »

ونظر القوم إلى ابن مسعود ، فرأوه مطرقاً يعبث بالأرض بعصاه وهو واجم ، فسرت فيهم حركة قلقة وأخذت أصواتهم تعلو في الجدال ، ثم قام رجل كان جالساً إلى جوار ابن الأبرص فقال : « صدق ابن عمي عبيد . أعلى مثل هذا الهوان نصبر ؟ »

فزادت حركة القوم وعلت أصواتهم ، ثم قام كهل حسن الوجه مديد القامة قوي البنيان ، وتكلم في صوت

بجاجل فقال : « صدق المهاجر بن خداش ، فما ينبغى الصبر على مثل هذا » .

فتعالت الأصوات من جوانب الجمع صائحة : « صدقت يا قبيصة بن نُعيم ! صدقت » !

ولم يجد عمرو بن مسعود بدًّا من القول بعد أن رأى قومه يكادون يفلتون من يده ، وتحرك للوقوف ، ولكن الضجة لم تسكن إلا بعد حين ، وكانت على وجوه القوم سحب من الحنق والضجر عندما بدأ حديثه فى لفظ متردد : « لقد علمتم يامعشر بنى أسد أننى لا أسعى إلا فى خيركم . فدعونى ألتمس من هذا الأمر مخرجا ، وسيكون منى ما ترضون » .

ثم التفت إلى المهاجر بن خداش وقبيصة بن نعيم فقال لهما : « هذا أمر لا بد فيه من المشاورة والتدبير فهلما معى لنتم الحديث » .

ثم قام ذاهباً إلى بيته وسار وراءه الرجلان ، وأخذ الجمع ينصرف مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ وهم فى جدال حانق ، ولم يبق غير ابن الأبرص فى جماعة يحدثهم فى ناحية من الشعب ، حتى مضى صدر من الليل ، وكان كل حديثه عن امرئ القيس وشعره وعن قصصه الماجنة مع فتيات بنى أسد .

كان حجر فى مجلسه فى تلك الليلة ، فأتى إليه رجل من عيونه الذين كان يبثهم فى رعيته ليستطلعوا له أنباءهم ، فوقف إلى جواره حيناً يحدثه فى همس وهو يصغى إليه بانتباه . وتغير مظهره فى أثناء ذلك ، فعراه اضطراب وبدا عليه الغضب ، ثم نظر إلى الرجل وقال : « ولا يزالون هناك ؟ »

فقال الرجل : « بل انصرفوا ولم يبق غير عبيد » .

فصرّ حجر بأسنانه غيظاً واسودّ وجهه وقال يخاطب نفسه : « ذلك الثعبان المتلوى ! » .

ثم نظر إلى الرجل مرة أخرى وقال : « وأين رأيت امرأ القيس مع أصحابه ؟ » .

فقال الرجل : « فى شعب القراة » .

فنهض حجر واقفاً وأشار إلى الرجل أن يسير معه ، وخرج إلى الفضاء يسير فى سلاحه فى خطوات واسعة متعجلة . فأفضى بهما السير بعد حين إلى جانب واد قريب كثير الشجر من السمُر والضال ، يجرى فى بطنه جدول دقيق ، يخر من عين فى جانبه الصخرى . فوقف الرجل فى احتراس وأشار إلى حجر هامساً : « هناك عند العين » .

فأشار حجر إليه أن يقف حيث هو ، ثم سار فى خفة فى ظل الصخور حتى اقترب من العين ، فوقف على مسافة لا يراه منها أحد ، ورأى هناك ما كان يود أن يراه . رأى جمعاً من الفتيان جالسين حول فتاة خليعة ، من فتيات كن لا ينتسبن فى قبيلة ، بل يهمن على وجوههن بين القبائل يتسقطن العيش من منادمة الفتيان وتحمل عبثهم ومشاركتهم فى مجونهم وفجورهم .

وأرهف أذنيه ليسمع مايدور بينهم من الحديث ، فحمل النسيم إليه أصوات الضحك والمزاح ، وسمع بينها صوت ولده امرئ القيس وهو يضحك فى فتور الخمر ، أو يرسل فكاهة من فكاهاته الماجنة يضحك بها الجمع ، فضاق صدره بأنفاسه ، وهمّ أن يذهب نحو الفتيان ليبطش بهم فى غضبه ، وليبطش بولده الماجن بينهم ، ولكنه لم يكد يسير خطوة حتى سمع ضجة عالية وأصواتاً تنادى ولده فى صخب مضطرب لينشدهم شيئاً من شعره . وسمع صوت تابعه الوفى ربيعة ابن عمرو ، فوقف متعجباً من وجوده بينهم وانتظر ليرى ما يكون منه .

وقف ربيعة حتى اقترب من امرئ القيس وهمس فى أذنه بكلمات ، وأخذ بيده يجذبه كأنه يريد أن يذهب به ، ولكن الفتيان كانوا قد ذهبوا فى شعاب الخمر ، وضلت أحلامهم ، فحملوا على ربيعة وهم يتمايلون ، وجعلوا يجذبونه ويصيحون به أن يجلس أو أن يذهب عنهم ، فقد برموا به وضجروا من سوء صحبته .

وضحك امرؤ القيس ضحكة عالية ، وجذب ذراعه من

صديقه وهو يمايل ، ودفعه بعيداً عنه قائلا فى لفظ متلعثم : « إليك عنى ، واكفف اليوم تصانحك . فلقد أصبحت ثقيلا » .

فخجل ربيعة وغضب مما لاقاه به الفتيان ، وانصرف حانقاً ، وضحكات السخرية تشيعه ، وقد عزم فى نفسه ألا يصاحب امرأ القيس بعد اليوم . وما كاد يسير خطوات حتى لاحت له يد تشير إليه من جانب الوادى ، ففزع خوفاً أن يكون ذلك عدواً يريد أن يهم به ، فارتد إلى الوراء قابضاً على سيفه ، ثم نظر إلى الشخص الذى بدا من الظل ، فما راعه إلا أن يرى الملك حجراً نفسه وهو أسود الوجه مختلج الأعضاء من شدة الغضب . فذهب إليه ووقف إلى جواره صامتاً ، وعند ذلك كان امرؤ القيس قد وقف بين أصحابه وهم يتصايحون به أن ينشدهم ، ثم أخذ يتغنى لهم بأبيات من شعره ، وما كاد يبدأ حتى خشعت أصواتهم إلا همهمة الإعجاب وصرخة الطرب بين حين وحين .

بدأ امرؤ القيس فقال وقد ظهر فى صوته رنين من الحنين والحزن :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا
لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفاً بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عبرة إن سفحتها
وهل عند رسم دارس من معول
ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى

فتذكر ربيعة عند ما سمع هذا النشيد ذلك الموقف الذى كاد الفتى يهلك فيه فى آثار فاطمة وهى مرتحلة . وتذكر حزنه وبكاءه ، ووقوعه خائراً عند شجيرات السمر ، وتذكر كيف كان هو يعزيه ويطلب إليه أن يتجلد ويتجمل ، وينصحه ألا يهلك نفسه أسى . ولم يملك الرجل أن يذرف دمعة من الإشفاق على صديقه المسكين الذى يهوى مع نفسه الثوارة إلى حيث لا يستطيع أحد نجدته .

ولما بلغ امرؤ القيس ذلك القول صاح به أحد أصحابه وقد غلبه السكر فقال : « دعنا من هذه الدموع يا جندح ! فما نحن هنا للبكاء » .

وكأن الكلمة قد وقعت موقع الرضا من إخوانه ، فرددوها وصاحوا بامرئ القيس فى ألفاظ فاترة من أثر الخمر ، يطلبون منه أن يعدل إلى نغمة أخرى أكثر إيناساً وبشراً .

فوقف امرؤ القيس لحظة عن الإنشاد ، ثم ضحك ضحكة عالية وقال لأصحابه : « إذاً فاسمعوا :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى
فيا عجبا من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت : لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه
ولا تبعدينى من جناك المعلل »

فعلت عند ذلك صيحة من الفتيان ، وجعلوا يرددون بيته فى تلعثم واسترخاء ، ونظر ربيعة إلى حجر فوجده يكاد ينفجر من الغضب . ولكنه أشار إليه بالصمت يريد أن يرى مدى قول ولده الماجن . ومضى امرؤ القيس يقول :

وبيضةِ خدرٍ لا يرام خباؤها تمتعت من لهوٍ بها غير مُعجَل

تجاوزت حراساً وأهوال معشر

عليَّ حراصاً لو يُسِرون مقتلي

إذا ما الثريا في السماء تعرضت

تعرُّضَ أثناء الوشاح المفصل

فجئت وقد نضَّت لنوم ثيابها

لدى الستر إلا لبسة المتفضِّل

فقالت يمينَ الله ما لك حيلة

وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

وهنا عادت الضجة إلى مثل ما كانت عليه ، وجعل الفتيان يكررون الأبيات في لهجة من ملكت عليهم الخمر ألسنتهم . وبعد لحظة استمر الفتى في إنشاده :

خرجت بها تمشي تجر وراءنا

على أثرينا ذيل مرط مرحَّل

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

بنا بطن خَبْتٍ ذي قفافٍ عَقَنْقَل

هصرت بفودَي رأسها فتمايلت

عليَّ هضيم الكشح ريَّا المخلخل

إذا التفتتْ نحوي تضوَّع ريحها

نسيم الصبا جاءت بريَّا القرنفل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة

ترائبها مصقولة كالسجنجل

فعادت ضجة الفتيان أشد مما كانت ، وجعلوا يرددون أبياته ويتصايحون ويستعيدونه الإنشاد .

ولم يطق حجر الصبر بعد ذلك ، فقبض على سيفه وسار مسرعاً نحو الجمع وربيعة في أثره يريد أن يرجعه ، والرجل كالفحل الهائج لا يلويه الرسَن .

فلما بلغ دائرة الفتيان ووقعت أنظارهم عليه وقفوا وجلين وهم يتمايلون . فصاح بهم صيحة مروعة قائلا :

« تعساً لكم أيها الفجَرة ، أزيار نساء ، ورُضَعاء زق ! »

ثم جرد سيفه هاجماً عليهم فتفرقوا جميعاً وهم يترنحون ، ويقع بعضهم على بعض ، ولكن امرأ القيس وقف كالرمح وكأن السكر قد ذهب عنه ، فلم يتمايل ولم يفزع ، بل نظر إلى أبيه في وقاحة وجرأة لم يسبق له مثلها ، وقال بلسان معوج : « ماذا تريد منا أيها الشيخ ؟ »

فرفع حجر يده بالسيف يريد أن يهوى به على رأس الفتى ، فأسرع ربيعة وقبض على يمينه وقال يريد أن يهدئه : « ما كان لك أن تفعل ذلك بيدك » .

فنظر إليه حجر ولا يزال يختلج من الغضب ، ولكنه أغمد سيفه ونظر إلى ولده وقال له بصوت يقطر السم : « أهذا أنت أيها الصعلوك الدنيء ، تمضي في مثل هؤلاء وتجعل من نفسك ضحكة لهم يتخذونك ملهاة تنشدهم أحاديث دعارتك ؟ أهذا أنت أيها الفاسق تتغنى بأخبار جناياتك وجرائمك ؟ »

وكان حجر على وشك أن يبدأ حملة أخرى من تقريعه ، ولكن الألفاظ وقفت على شفتيه ، إذ سمع ولده يضحك ضحكة عالية ويقول له في لهجة الساخر بألفاظ ملتوية : « إذاً لم يعجبك قولي ؟ إنك لا تستطيع أن تهتز إلا لتلك الدماء التي تسفكها » .

ثم مضى يترنم ناسياً في أثر أصحابه ، فأسرع حجر إليه وضربه بيده على قفاه ضربة ألقته على الأرض صريعاً ، وعاد يجرد سيفه للاجهاز عليه ، فأدركه ربيعة مرة أخرى وأعاد عليه قوله الأول : « لا ينبغي لك أن تفعل ذلك بيدك » .

فقال له حجر محنقاً : « إذاً تفعل ذلك أنت . اقتله وائتني بعينيه الوقحتين اللتين تحملقان فيَّ » .

ومضى مسرعاً لا يكاد يرى مواقع أقدامه من شدة الغضب .

محمد فريد أبو حديد

على هامش أعياد النيـــل

للدكتور محمد سليم سالم

جاء في الجزء العاشر من كتاب السائح الإغريق بوسنياس الذي عاش في القرن الثاني للميلاد ، أنه سمع من أحد أهالي فلسطين (الفينيقيين) أن المصريين يحتفلون بعيد الالاهة ازيس وهي تبكي زوجها وأخاها أوزوريس ، وفي ذلك الوقت يبدأ النيل في الارتفاع ، وسبب هذا الفيضان ، على قول المصريين أنفسهم ، هي الدموع التي تذرفها الالاهة حزناً على شقيقها . فهي التي تملأ مجرى النيل ، فيطغى الماء على جانبيه وروى الأرض ، ولقد حدث عند ما استولى الرومان على مصر أن رشا الحاكم الروماني شخصاً للذهاب إلى هيكل مدينة قفط ، والدخول إلى محاثه لرؤية ما يجرى هنالك ، ولسماع الأسرار المقدسة ، فذهب هذا الشق وتمكن من الدخول واسترق السمع ، ثم رجع فأخبر بكل ما حصل ومات لساعته ! ويستخلص بوسنيس من هذه القصة شاهداً على قول هوميروس :

فناظر الأرباب مرهبة ولأى إنس بدت وهنا

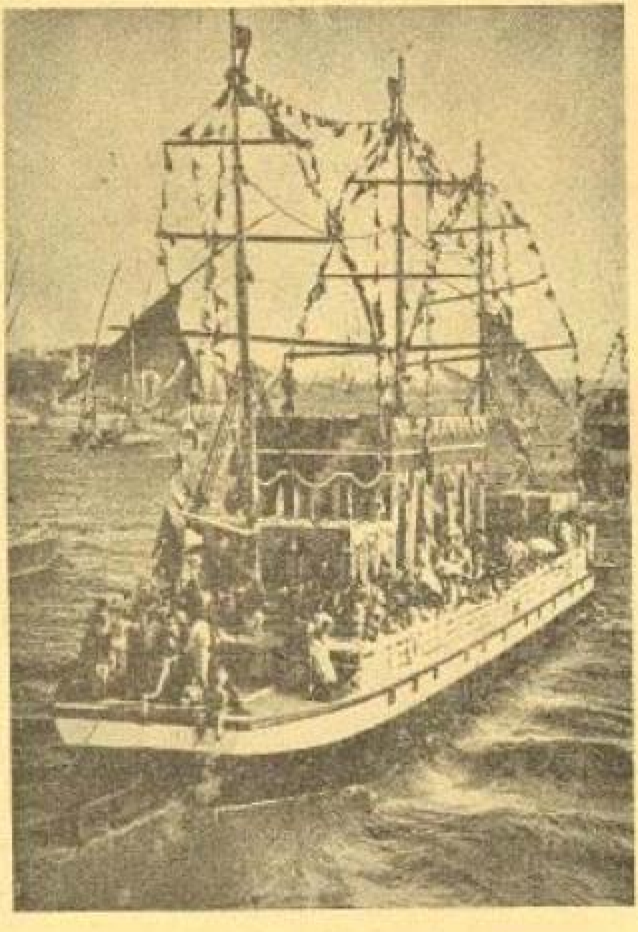
هذه النبذة التي ذكرها عرضاً الكاتب اليوناني تدل على أن المصريين في العصر الروماني كانوا يحتفلون ببدء فيضان النيل الذي يحدث عادة قبيل ابتداء الصيف ، وأنهم كانوا ينسبون هذه الزيادة إلى دموع ازيس التي تنهمر فتملأ البقاع وتروى الأراضي ، فهي لذلك أصل الخير والبركة في مصر ! وقد بقي هذا الاعتقاد رغم تدمير معابد ازيس ، وانقراض الديانة المصرية ، إلا أن دموع ازيس بدلت بنقطة مباركة تنزل من السماء في الليلة الحادية عشرة من شهر بؤونة ، حسب التقويم القبطي ، وذلك قبل بدء فصل الصيف بأربعة أيام ، وربط عيد النقطة هذا ارتباطاً وثيقاً بعيد سيدنا ميكائيل ، في الثاني عشر من شهر بؤونة ، ذلك لأن ميكائيل احتل في الأقاصيص التي حاكها المصريون حول النيل مركزاً أساسياً ، إذ وضعوا النيل تحت رعايته وجعلوه الوسيط بينهم وبين ربهم ، ففي الليلة السابقة لعيده كما تقول الكتابات القبطية ، يجتمع الملائكة فيتقدمون إلى الحجاب الذي يفصل المبجل وعلا من بقية الكائنات ، وهناك يقفون لا يستطيعون الدخول ، ويتقدم ميكائيل فيخترق الحجب ، ويلقى بنفسه أمام رب العزة ، فيدعو ويتضرع طالباً الرحمة بالمصريين ، والإذن بزيادة النيل ، ولا يرفع رأسه حتى يجاب إلى سؤله ، وحتى يأمر الله نهر النيل بالزيادة .

نسج المصريون كثيراً من الخرافات حول هذا اليوم ، وألفوا فيه عادات خاصة ، واستبشروا به خيراً ، وظنوا أنه يوم مبارك تنزل فيه الرحمة من السماء ، وقد استرعى نظر السائحين والزائرين لمصر ، فخصه ميلى مثلا في كتابه « وصف مصر » بصفحات .

ولكونه من أعظم الأعياد وأكبرها ، ولتشابه قليل بينه وبين عيد آخر يسمى كشخيريا ، ظن العلامة إدجار الذي عهدت إليه دار الآثار المصرية بنشر أوراق البردى ، التي وجدت في مكتبة زينون أن عيد الكشخيريا هو أصل عيد النقطة ، وعيد الكشخيريا هذا لا يعرف عنه إلا القليل ، فقد ورد ذكره لأول مرة في إحدى أوراق البردى الباريسية ، إذ أدمج بين الأعياد التي يحتفل بها طبقاً للتقويم الثابت ، وقد رجح العلماء أنه من أعياد النيل ، استناداً على اسمه المشتق من جذر بمعنى يصب . وبعد مضى سنين عديدة عثر على إشارة أخرى إليه في إحدى أوراق البردى التي وجدت

فى مكتبة زينون ، وقد كتبت فى سنة ٢٥٥ قبل الميلاد ، غير أن هـذه الإشارة على أهميتها لم تلق أى ضوء يكشف لنا عن أصل هذا العيد أو يدلنا على كيفية الاحتفال به .

وقد تمكن إدجار بعد مقارنة التواريخ الواردة فيها ، أن يستنتج أن المصريين فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كانوا يحتفلون بعيد الكتخيريا ، بين الثامن والعاشر من شهر بشنس طبقاً للتقويم العادى . ولم يستطع إدجار أن يرجع هذا العيد إلى أصله ، أو أن يربطه بأحد الأعياد المصرية المعروفة ، وقد اصطدم رأيه عندما حاول إيجاد صلة بينه وبين ليلة النقطة بصعاب لم يتمكن من التغلب عليها . وقد انتهى بى البحث إلى رأى أظن أنه سيؤدى إلى حل مشكلة الكتخيريا ، وذلك بإيجاد رابطة وثيقة بينه وبين عيد مصرى آخر سمى سـوخيا فى تقويم مصرى يرجع إلى عصر الامبراطور انطنيوس بيس Antonius Puis (١٣٨ — ١٦١م) ، وكان يحتفل بهذا العيد مدة أسبوع كامل ابتداء من اليوم الثانى من شهر أبيب . أما عيد الكتخيريا فقد وقع الاحتفال به بين الثامن والعاشر من شهر بشنس فى التقويم العادى سنة ٢٥٥ ق . م ، أى بين السادس والثامن من شهر أبيب فى التقويم الاسكندرى .



الباخرة المقبة تمخر عباب النيل

ولهذا العيد للمصرى القديم أثر باق حتى الآن ، ذلك لأن النيل يبدأ أثناء شهر أبيب فى الارتفاع بقوة لاحظها العامة فقالوا : « فى أبيب يدب المياه دبيب » ، وتكتب التقاويم القبطية عادة عقب اليوم الثالث من الشهر نفسه ، أن النيـل يزيد زيادة عظيمة ، وهذا ما فعل آباؤهم فى القرن الثالث قبل الميلاد ، إذ نجد فى تقويم عثر عليه فى إحدى أوراق البردى أن الخامس والعشرين من شهر برمودة طبقاً للتقويم العادى قد اتبع بنفس الملحوظة ، وهذا التاريخ يوافق الرابع من شهر أبيب فى تقويم الاسكندرية . هذا الاتفاق فى التواريخ لا يدع مجالا للشك فى أن عيد الكتخيريا مرتبط بعيد السوخيا ، وأن المصريين يحتفلون بهذه الأيام كأيام مباركة تتدفق فيها المياه ويزيد النيل زيادة تبشر بكل خير .

محمد سليم سالم

مشاهير السودان — الزبير باشا :

٢ – فى بلاد النيام نيام

للأستاذ توفيق أحمد البكرى

[إنه خلق ليحكم الناس ، ولو كان فى أوروبا إذاً لكان له شأن غير هذا الشأن ، ولترك فى تاريخها أثراً بعيداً]

«دكتور شفاينفورت»

قلنا فى المقال السابق ، إن الزبير استهل على الكون فى سنة ١٨٣١ ، وجمعية إبطال تجارة الرقيق دائبة السعى ، تحاول أن تفوز بإقرار قانون يبطل تجارة الرقيق فى أرجاء انجلترا ومستعمراتها ، ويعتق من لا يزال منهم فى حوزة المالكين ؛ ففازوا ببغيتهم فى سنة ١٨٣٣ ، والزبير طفل فى طى المهد ، كأنما أراد القدر فى مفارقاته أن يولد فى تلك الفترة الطفل الذى تردد اسمه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كأعظم ما عرف العالم من أساطين تلك التجارة اتهاما وظنا ، وكمصاى سودته نفسه ، ودفعته الأقدار إلى أن يلعب أكبر دور فى تاريخ وادى النيل .

ترعرع الزبير وكبر كالصبية من لداته ، لا يتميز منهم بغير عناده ، وقوة شكيمته ، وحبه للاندفاع والمخاطرة ، والتزعم والصدارة على أترابه الصغار . وأرسل به أبوه إلى المدرسة فى السابعة من عمره ، فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ؛ ثم زكها ليتفقه فى الدين على مذهب مالك ، وذلك كل ما كان يتلقاه أبناء التجار من علم ؛ لحسبهم من المعارف ما يزيل أميتهم ، وما يمكنهم من مزاولة أعمالهم ، وما يستطيعون به فهم دينهم .

ترك الزبير مقاعد الدرس والتحصيل ، واشتغل بالتجارة راضيا بها ، يخسر تارة ، ويربح أخرى ، وتسير



الزبير باشا

به الحياة من رغد لبؤس ، ومن بؤس لرغد . لم تطف به أحلام المظمة ، ولم يرم ببصره إلى عريض الغنى ومديد الصيت . ولما بلغ الخامسة والعشرين تزوج بابنة عمه ، وعاش قريراً مستكيناً ، لا يعلم ما سيدفعه إليه القدر العجيب من تصرفات جسام ، ومن اسم سيبقى بعده مجيداً رفيعاً ..

كان للزبير ابن عم يقال له محمد بن عبد القادر ، تخذ التجارة مهنة كأفراد العائلة وتقاليدها ؛ وعمل ما عمل ؛ ثم انضم إلى خدمة أبى عمورى المصرى من كبار تجار الرقيق فى بحر الغزال . فلما أراد الرحيل إلى الجنوب ، كتم خبر سفره حتى لا يذيع بين أهله فيمنعوه من الرحيل ، لما اشتهرت به بلاد بحر الغزال من المخاطرات والأهوال ، والموت المحقق فى ذلك الحين ؛ وبلغ الزبير

خبره ، فأخذته الشفقة عليه ، وآلى على نفسه ليقتفين أثره ، وليرجعنه إلى ذويه . ومضى الزبير حثيث الخطى حتى لحق بابن عمه فى قرية « وَدْ شَلَبى » على مسيرة يومين من جنوبىّ الخرطوم . وأخذ يستعطفه تارة ، ويرجوه تارة أخرى ، ويخيفه الأهوال ثالثة ، لعلّه ينثنى عن عزمه ، ويرتد عن سفره . ولكن ابن عمه كشكل أفراد آل رحمة ، كان عنيداً شموساً ، إذا صمم على شىء فلا بد من تنفيذه ؛ فأباها عليه ، وأقسم له ألاّ يعود إلى الخرطوم قبل أن يتم سفره ، ويرجع من بحر الغزال غنياً مثرياً ، أو يسمع ذووه خبره فى الهالكين . فشق الأمر على الزبير ، وأقسم له بالطلاق ، إن لم يكف عن عزمه ليسافرن معه إلى بحر الغزال ، فلم يعبأ ابن عمه بقسمه ، ومضى لطِيّته . واضطر الزبير مرغماً كارهاً على السفر معه ؛ وهكذا ينسج القدر خيوطه حول الانسان ، ويهيئ له من حيث يدرى ولا يدرى مَنازعَ للمجد لم يحلم بها أو يفكر فيها . وبقى الزبير طوال الرحلة مع ابن عمه ، بعد أن انضم إلى خدمة أبى عمورى ، يستعيذ بالله من ذلك السفر الذى لم يكن يتوقعه ، والرحلة لم تمر عليه ببال . وأخذ يدعو الله سِراًّ ، ويستغيث بكل ولىّ وصالح ، حتى أقلق الراقدين فى الأبدية .

مضت السفينة تتخطى السدود والأعشاب ، حتى وصلت إلى « مشرع الرك » . فنزل الجماعة بأمتعتهم وبضائعهم فى ٢ صفر سنة ١٢٧٣ هـ ، ورحل الزبير بعد ذلك إلى داخلية البلاد ، والتقى بأبى عمورى ، « وكان[١] فى بحر الغزال فى ذلك الحين كثيرٌ من التجار غير أبى عمورى متفرقين فى جميع الأنحاء ، ولكل تاجر زريبة من شوك يأوى إليها ، ويضع فيها تجارته . وأهم الأصناف الرائجة فى تلك البلاد ، الخَرَز على اختلاف أنواعه وألوانه ، والودع والقصدير ، وكله مما يتزين به الأهلون نساءً ورجالاً ، ويفضلونه على الذهب والفضة ، فيأخذونه من التجار مقايضة بسن الفيل والخرتيت وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس ، وغيرها من محصولات البلاد » .

مضى عامان سراعاً ، والزبير فى أثنائها قد ألف العيش وركن إلى الوسط الذى كان فيه ، ولم يفترق عن زملائه التجار فى شىء ، بسوى الجرأة والشجاعة والاقدام . وكانت ليلة ليلاء ، حالكة السواد ، ضريرة النجوم ، من ليالى خط الاستواء ، والتجار هامدون نائمون . فإذا حركة ودمدمة ، وإذا أهل البلاد السود يهجمون على التجار ، طمعاً فى مالهم . فقتلوا بعضهم ، وسلبوا أموالهم . وهم فى هذا الهجوم والقتل والسلب ، خفافاً ، سراعاً ، ليضربوا الضربة القاضية ، قبل أن يستيقظ التجار ، ويسارعوا لنجدة بعضهم البعض .

وراحوا فى فورة الدم ، وجنون القتل ، يذكرون ثاراتهم السوالف ، ويشفون غليل النفوس من تِرات قديمة ، ومضوا كالأسد المتوثبة يهاجمون زريبة أبى عمورى صاحب الزبير ، فتصدى لهم الزبير على رأس رجاله ، وأحاط بهم ، وقاتلهم قتالا شديداً ، وأعمل فيهم القتل ، وأثخنهم بالجراح وهزمهم شر هزيمة ، بعد أن قتل منهم خلقاً كثيراً .

تناقل التجار الخبر ، فجاءوا إليه ، والتفوا حوله ، ودانوا له بالطاعة ، وأسلموه زمام الأمور . وهابه أهل البلاد ، فلم يعودوا يجسرون على مهاجمة المكان الذى يكون فيه ، وكانت تلك المعركة ، أول معركة قاتل فيها الزبير ، وأظهر فيها من الشجاعة وحسن التدبير ما رفعه فى أعين مواطنيه ، وما أخاف منه أهل البلاد . وسُرّ منه أبو عمورى سروراً بالغاً ، فقاسمه الأرباح ، وأنابه عنه وكيلا وسافر أبو عمورى إلى الخرطوم ، فلما آب من سفره ، وجد أرباحه قد تكاثرت ، وتجارته قد نمت . فعرض على الزبير الشركة ، ولكنه رفض شاكراً ، وعزم على أن يشتغل بنفسه ولنفسه ؛ ويعمل لحسابه مستقلاً منفرداً .

(١) رواية الزبير نفسه .

هنا تبدأ المرحلة الثانية في حياة الزبير ، ومنذ ذلك اليوم تلألأ نجمه ، وتقدمت به الجدود البواسم إلى غاية ما كانت له في حساب . أخذ ينتقل بعد ذلك في كثير من الأماكن ، حتى وصل به المطاف إلى بلاد « النيام نيام » قال الزبير : « فقدمت لملكهم هدية فاخرة ، واستأذنته في الاتجار في بلاده فأذن . وكان « النيام نيام » لا يعرفون الحمير في بلادهم ، ولا الجمال ولا الخيل ، وكان معي حمار فاره ، فأهديته إلى السلطان ، فلما رآه استغرب من هيئته ، وأخذ ينظر إليه متعجباً دهشاً ، وقد ظنه في النهاية رجلاً ممسوخاً ، فلم يقبله ، ورده إليّ معتذراً شاكراً ؛ وكان لهذا السلطان نحو أربعمائة امرأة ، وأربعمائة ولد من بنين وبنات ، فزوجني بكبرى بناته « رانْبُوه » ، فعلا مقامي بهذه المصاهرة في عيون أهل البلاد ، وزادت تجارتي رواجاً ونجحاً ، حتى اجتمع عندي في وقت قصير ، شيء كثير من سن الفيل والحريت وغيرها » .

أراد الزبير أن يرجع بعد ذلك إلى الخرطوم ، ليرى أهله ، ويمد تجارته ، فمر بصديقه أبي عموري ، وركبا السفن قاصدين مشرع الرك . وفيما هما مبحران صُعُداً اتسع مجرى النهر أمامهم ، ودخلا بحيرة « نو » العظيمة المتسعة الأطراف ، وبقيا يتنقلان فيها مع رجالهما خمسة وسبعين يوماً ، لم يروا فيها غير الماء والسماء ، ونفد زادهم ، ومات منهم خلق كثير ، وأوشكوا على الهلاك والفناء . ولكن الأخطار والحروب ، لم تثن الزبير عن عزمه ، ولم تلن من صليب مراسه ، ومن ورائه القدر الساطع ، يدفعه إلى الأمام سراً ، ليقدم لوادي النيل خدمة جليلة في تكوين الامبراطورية المصرية .

رجع الزبير من الخرطوم مصمماً على أن يتخذ له جيشاً جراراً يغزو به البلاد ، في سبيل التجارة والكسب ، فلما وصل إلى بلاد « النيام نيام » حيث مقر زوجه ابنة السلطان أخذ يفتدي المخطئين والمجرمين ، لأنهم في تلك البلاد يبيعون السارق والمجرم والمخطئ عقاباً له ، ويتخذونه عبداً . فاشترى الزبير الأقوياء منهم ، واستعان بهم في تكوين جيشه ، وسلحهم بالأسلحة النارية ، وجعل نفسه عليهم سيداً مهولاً ، وقائداً مطاعاً .

نظر الزبير إلى ما حوله ، فألفى نفسه بعيد الذكر ، مرهوب الجانب ، ذا قوة وسلطان . ووجد تحت إمرته ورهن إشارته ، جيشاً لا يخالف له أمراً ؛ يأمره فيطيع ويدفع به إلى الغزوات فيندفع ، وذاق حلاوة الجاه وطعم الثراء ، فطلب المزيد ، وأراد أن يوسع منطقة نفوذه ، ومجال عمله ، وطافت به نفحات القوة ، فاتخذ مظاهر الملك ، وأخذت أحلام المجد والعلا سبيلها إلى قلبه ونفسه ، فأربت في ساحة الطموح مطامعه على كل مطمع ، فرمى ببصره إلى المنطقة الجنوبية الغربية ، الممتدة من بحر الغزال إلى دارفور ، ففيها مجال وأي مجال للتجارة والكسب ، ولكنه لا يستطيع أن يحارب عرب الرزيقات المنتشرين في تلك الأنحاء ، وهم ليسوا كسكان بحر الغزال ، وأهل البلاد الجنوبية التي مر بها ؛ وقد يجد في حربهم مشقة وعنتاً ؛ وهم أيضاً متفرعو البطون ، كثيرو العدد ، اشتهروا بالبسالة والفروسية ، وهم فوق ذلك حلفاء سلاطين دارفور ، فلا بد إذاً من الحيلة والرفق والحصافة وحسن السياسة في التفاهم معهم على تأمين التجار ، وفتح طريق التجارة بين البلاد الواقعة تحت نفوذه وبين سلطنة دارفور في الغرب عن طريق بلاد عرب الرزيقات .

فكر الزبير في كل ذلك ، ثم حالف في سنة ١٨٦٦ عرب الرزيقات ، وجاءه منهم ثمانون شيخاً في عدة الحرب ، ومن خلفهم عديد من ذويهم ، فتناقشوا وتفاهموا . ثم عاهدهم وعاهدوه « على فتح الطريق ، وتأمين القوافل ، وطمأنينة التجار من مسلمين ومسيحيين » وأقسم كل منهم

خمسين قسماً على الكتاب الكريم بالمحافظة على العهد. وجعل لهم مقابل ذلك جُعلاً معلوماً، يقتضونه من التجار كالضريبة الجركية التي تتقاضاها الحكومات. وكانت هذه أول معاهدة تجارية، قريبة من شكل المعاهدات الراهنة، بين الزبير وبين من حوله من الأعراب المنتشرين على حدود بلاد السود، والضاربين على تخوم سلطنة دارفور.

وكأنه بذلك أصبح رئيس حكومة مستقلة، يعاهد ويهادن، ويبرم الاتفاقات، ويبني صلات الوداد والتعامل، دون أن يرجع إلى حكومة السودان أو الحكومة المصرية؛ فهو في أعماله مستقل عنها، لم يحسب لها أي حساب.

وللزبير من وراء ذلك غرضان، غرض للتجارة والكسب، وغرض في طوايا نفسه يترقب به الآونة الملائمة، فيندفع وراءه إلى الفتح والسيطرة، ثم إلى الإمارة والسلطان. وهو اليوم غيره بالأمس، يوم أن جاء فقيراً يعمل مع أبي عموري، لا همّ له إلا قليل كسب، وضئيل ربح. أليس هو اليوم المطاع الأمر، المسموع الكلمة، المرهوب الجانب؟؟

حدث الدكتور «شفاينفورت»[1] قال: «كان الاسم الذي يوقع الرعب في قلوب رجال حكومة الخديوي هو اسم الزبير ملك تجار الرقيق. وإن السلطة والقوة الحقيقية في سنة ١٨٦٩ لم تكن بيد الخديوي أو رجاله في تلك الأصقاع، وإنما كانت فعلاً في يد ملك تجار الرقيق».

وقال أيضاً: «رأيته حين رأيته، في مجلس لا يقل عظمة وبهاءً عن مجالس الملوك. رأيته آلى ذهب بنى لنفسه قصراً فخماً، أفرد بعض حجراته لمطالبه وراحته. فهذه غرفة كست أرضها الطنافس العجمية الجميلة. وتلك أرائك فرشت بالحرير، وهاتيك وتلك غرف أخرى، لا تقل عن الأخريات جميل رياش، وبهيّ طنافس، ومريح مقاعد. وهو بين هذا وذاك يتصدر المجلس، وغلمانه اللابسون أبهى الحلل، يقودون زواره من التجار، وملوك السود، في رشاقة وهيف، وحسن نظام، وجميل (اتيكيت) أدب سلوك. وفي إحدى الصالات الكبيرة، تلمح أسداً ضارية، مكشرة عن أنيابها، تغمض عيونها المتقدة وتفتحها، قد صُفّدت بالسلاسل القوية، باسطة أيديها على الأرض، تنظر إلى الزائر الغريب نظرات التوثب والاستعداد، فكأنها كلاب الحراسة، تربض منتظرة إشارة من سيدها الرابض مثلها، لتفتك بمن تحدثه نفسه على مهاجمته أو الوصول إليه.

«أما ثروته فتلك مسألة لا يستطيع إنسان أن يقدر ما وصلت إليه؛ تجبيه الجزار، وعساكره البُسل كلهم عبيده ورقيقه. وبحسبك أن تعلم أنه أذاب مرة خمسة وعشرين ألف ريال مجيدي من الفضة الخالصة، ليستعملها في صناعة الرصاص، لأن الفضة كما يزعمون تخترق جسم الفرسان العرب، الذين يحملون أحجبة وطلاسم، تمنع عنهم اختراق الرصاص العادي، وطعن السلاح.

«فلما دخلت عليه ألفيت رجلا مديد القامة، ممشوق القد، قوي البنية، أسمر اللون، عربي الملامح، حسن الطلعة، حديد النظر. أما صوته فقد كان خافتاً فيه غُنّة حلوة، تأسر اللب، وتأخذ بمجامع القلوب. وأما عيناه المزوّتا الحواجب، فقد كانتا تشعان ببريق خاطف؛ فلما حادثته، وجدت ذكاءً نادراً، وعقلاً راجحاً، فهو رجل تجمعت فيه كل شمائل العبقري التجاري، والألمعي السياسي، والمحنك الحربي: إنه خلق ليحكم الناس، ولو كان في أوربا، إذاً لكان له شأن غير هذا الشأن، ولترك في تاريخها أثراً بعيداً».

(يتبع) توفيق أحمد البكري

(١) دكتور شفاينفورت عالم من علماء النبات، نمساوي الجنس، رحل إلى بحر الغزال في هذه الفترة التي كان فيها الزبير، باحثاً عن النباتات الاستوائية. وقد قابل الزبير مراراً، وكتب عن رحلته كتاباً في الألمانية أسماه «في قلب أفريقيا».

من حروب الماضي :

تحرير العبيـــــد

في أبريل سنة ١٨٦١ ، نشبت الحرب الأمريكية الأهلية بين الولايات الشمالية وعلى رأسها إبراهام لنكولن ، والولايات الجنوبية وعلى رأسها جيفرسون دافيز .

ولم يكن السبب الحقيقي لهذه الحرب رغبة الشمال في تحرير العبيد ، بدليل ما جاء في خطبة لنكولن بعد انتخابه لرآسة الجمهورية من أنه لا رغبة له في التعرض لنظام الرق السائد في الولايات الجنوبية ، لأنه « لا يملك حقاً شرعياً في هذا التعرض » .

إنما كان السبب الحقيقي لهذه الحرب هو أن حضارتين وقفتا وجهاً لوجه : حضارة الشمال الصناعية ، وحضارة الجنوب الزراعية ، الأولى تطلب أسواقاً لتجارتها ، والثانيـة تطلب أقاليم وزراعاً للأرض لإنتاج القطن . فكانت نتيجة هذا الموقف أن زعم الجنوب لنفسه حق الانفصال ، ورفض الشمال أن يقر هذا الحق لأي ولاية كانت ، ومن ثم نشبت الحرب بين الشمال والجنوب ، بعد انتخاب لنكولن لرآسة الجمهورية بشهر واحد .

ومع أن الحرب قد نشبت لهذه الأسباب ، فإن العالم لا يذكرها إلا على أنها حرب تحرير العبيد ، لا لشيء إلا لأن أسمى نتائجها ، وأبعدها أثراً ، هو إعلان هذا التحرير عقب انتصار الشمال على الجنوب ، ذلك الانتصار الذي شاب روعته اغتيال لنكولن غداة انتصار مبادئه .



→ لنكولن !

محرر العبيد ...

في مارس سنة ١٨٦١ انتخب إبراهام لنكولن رئيساً للولايات المتحدة بعد أن أعلن الجنوب انفصاله .



جيفرسون دافيز ! ←

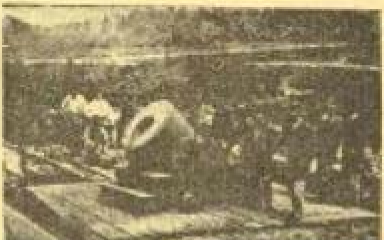
المؤمن بحق الانفصال ...

في فبراير سنة ١٨٦١ انتخبت الولايات الجنوبية التي أعلنت انفصالها جيفرسون دافيز رئيساً لها .



أعلام في تاريخ أمريكا ... ...

إبراهام لنكولن في زيارة الميدان [في الوسط] ، وإلى يساره الجنرال ماكليلان قائد جيوش الشمال ، وإلى يمينه بنكرتون أول من أدخل نظام الشحنة السرية في الحرب .



مدفع الأمس . .

كان هذا المدفع أكبر مدافع القتال في الحرب الأمريكية ، وكانوا يسمونه الطاغية ! ! ... أي قزم هو بالنسبة إلى مدافع اليوم ؟ .



دائماً العلم ... ...

قنطرة أنشأها المهندسون لعمليات جيش الشمال الحربية ؛ ومما يذكر أن النظام كان من أهم ميزات جيش الشمال .

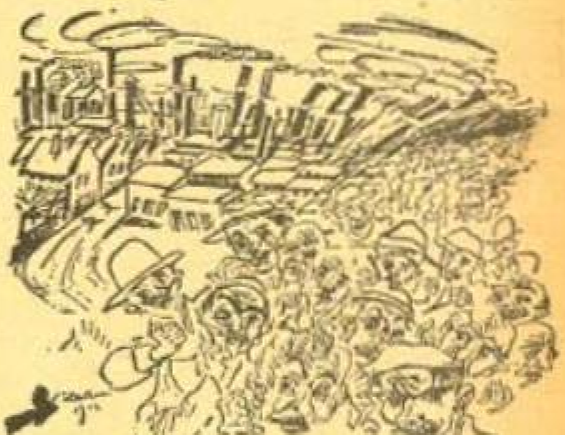
٤ – الفن الحديث

تاريخه ونزعاته

للأستاذ محمد يوسف همام

النزعة التعبيرية Expressionism :

كتب الستر وندهام لويس الفنان والباحث الأمريكى الشهير فى مؤلفه Time & Western Man : « إن كل فرد فى عصرنا الحاضر ثائر بلا استثناء ؛ والفارق الوحيد بين الناس هو أن منهم من يشعر فى نفسه بالثورة تدفعه ، ومنهم من لا يشعر بها » . فإن آمنا بهذه العبارة أو أنكرناها ، فما لا شك فيه أن الثورة هى أحد مظاهر الفكر السائدة فى عصرنا الحالى ؛ وإن من بين آثارها تلك الروح التجديدية التى خلقت الفن الحالى الحديث ، والتى أنبتت تلك النزعات المختلفة الثائرة على التقليد الحرفى للطبيعة ، الداعية إلى التعبير عن الشعور تعبيراً عنيفاً فى كثير من الأحيان ؛ والعنف كما نعلم هو العامل الأول الذى يدفع إلى الثورة ويغذيها .



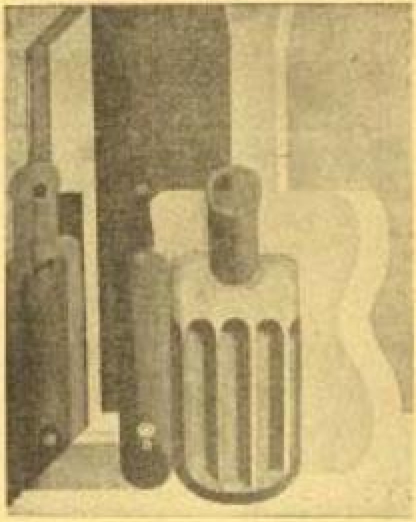
(شكل ١)
صورة الثورة — تصوير ميدنر الألمانى

نشأت « النزعة التعبيرية » فى ألمانيا ، كما سبق للنزعة الاستقبالية أن نشأت فى إيطاليا ؛ ولكنها قامت على أساس التحرر من الماضى بأسلوب أشد عنفاً فى التعبير . وها هى ذى صورة تعبيرية لميدنر Meiduer الفنان الألمانى (شكل ١) ، موضوعها الثورة ، نرى فيها وجوها متجهمة مقطبة عابسة ، وقبضات يد مهددة ، ومن خلفهما معامل ومصانع يتصاعد منها الدخان فى شكل ثورى حانق ؛ وتكاد تلك المصانع تدك دكاً من رجة الثورة ، ومن شدة العنف التعبيرى الذى صوره الفنان بذلك الجمع الحاشد المتدفق المهدد المتوعد . ومجمل القول أن فى هذه الصورة قوة دفعية هائلة ، هى طابع النزعة التعبيرية .

نزعة التطهير Purism :

كان لتلك الثورات الفنية الحديثة أثرها فى النفوس ، ودار حولها الجدال والنقاش ، ثم تبخر بعضها ومات ، بعد أن أجمع كثير من النقاد الفنيين على استهجانه . إلى أن ظهر فى الميدان أوزنفا Ozenfant الفنان الفرنسى ثائراً على النزعات الفنية جميعها ، وعاملاً على « تطهير » التصوير مما أصابه من المسخ والتشويه ، حتى يعيد إليه نضارة كاد الناس يفقدون الأمل من عودتها إليه ، كما كان ينادى بذلك دائماً .

أصدر أوزنفا فى سنة ١٩١٦ مجلة L'élan يحذر فيها قومه من خطر نزعة التكميب التى أدت بالتصوير إلى



(شكل ٢)

صورة طبيعية صامتة — تصوير أوزنفا
من متحف الفن الحديث فى نيويورك .
وهنا يتجلى التمادى فى محاكاة الآلات الهندسية

الزخارف المحضة . وقد انضم إليه زميله الفرنسى جينيريه Jeanneret سنة ١٩١٨ . إلى أن كان عام ١٩٣٥ ، إذ



(شكل ٣)

صورة تصميم بناء فى حديقة — تصوير جينيريه
من متحف الفن الحديث فى نيويورك
وهو أقرب ما يكون إلى جهاز ميكانيكى

دعوا إلى نزعتهما الجديدة التى أطلقا عليها اسم « التطهير » وكانا يعرضان أشغالهما فى صالة « توماس » بباريس .

وأراد الصديقان أن يكون ناموسهما الحرص على الدقة فى التعبير بالتصوير ، فتأملا فى المدنية الحديثة ووجداها



(شكل ٤)

صورة بركة البطريق (penguin) — فى حديقة الحيوان بلندن — من تصميم Lubetkin سنة ١٩٣٥ ، وهو من أتباع نزعة « التطهير » . وكأنها فى شكلها قطعة من آلة كبيرة .

تقوم على أساس ثابت الأصول والقواعد ، هو « الهندسة » : فالبيت والقطار والسيارة والترام والباخرة ، وكل الآلات الأخرى الحديثة ، كالطائرة والغواصة وما إليهما ، قامت على أساس هندسى متين . ومن ذلك اشتقا لنزعتهما الجديدة اسم « التطهير » علماً مميزاً لها .

محمد يوسف همام

أركان الأساوة

إن الأساوة أو (العلاج) قديم قدم البشرية نفسها ، فقد كشفت جماجم عثر عليها لأجيال من الناس كانوا يعيشون منذ نصف مليون عام ، عن آثار لاتدع مجالاً للشك في أنها كانت محاولات الجراحين البدائيين لتخليص ذويهـا من عبث الأرواح الشريرة (أو الأسياد كما يسميهم العامة) . وسجلات الديانات القديمة في بابل ومصر والهند والصين ملأى بوصف فنون العلاج وطرقه حسب ما كان يفهم منها أهل تلك الأزمان الغابرة .

وما تاريخ الطب إلا قصة رجاله العظام وأقطابه ؛ فمثلا كان sushruta رجل الهند العظيم وجراحها من أربعة آلاف عام ، يستعين على مزاولة مهنته بما لايقل عن خمس وعشرين ومائة أداة جراحية . كما أنه كان يعلم تلاميذه استعمال المشرط بتدريبهم على تشريح أشلاء الحيوانات وسيقان النيلوفر ومختلف أنواع الفاكهة . والحق أن طريقته في تكوين أنوف جديدة من عضلات الخدود هي اليوم الأساس الذى يقوم عليه فن الجراحة الترقيعية .

على أن الطب لم يتقدم كعلم إلا على أيدى اليونان ، فلقد كان طبيبهم العظيم Hippocrates يجمع كل ما يحتاج إليه الطبيب من صفات ؛ فكان حكيما رحيما رزينا يعمل فى تؤدة وحذر ، وكان على سعة علمه مستعداً لتعلم ما لم يعلم .

ولم يحن القرن الثالث قبل الميلاد حتى كانت الاسكندرية مركزاً مهما للعلوم الطبية ، وفيها أخذ اليونانيون ينقلون عن قدماء المصريين ما يعرفون من أسرار هـذه العلوم ، فنبغ منهم Herophilus و Erasistratus . أما Hirophilus فكان أول من شرح الجسم البشرى وأول من أقر بأن المخ مركز السيطرة على جميع الأعضاء . وأما Erasistratus فكان أول من عد النبض مستعيناً على ذلك بساعة مائية .

ولم يجيء لنا عهـد الامبراطورية الرومانية أحداً ذا أهمية فى هذا الميدان — ميدان الطب بالمعنى الصحيح ، غير أنه فى عام ١٣١ بعد الميلاد ولدت بمدينة Pergamos فى آسيا الصغرى شخصية قدر لذكرها البقاء عدة أجيال ، شخصية جادة كثيرة الجدل جبارة النشاط ، تلك هى شخصية Galen العظيم ، تعلم Galen فن الجراحة على أجسام مصارعى الرومان . والحق أنه استطاع أن يصور لنا عضلات جسم الانسان تصويراً دقيقا ، كما حبر قائمة كبيرة تحتوى على كثير من أسماء العقاقير الطبية ، وألف ما لا يقل عن خمسمائة رسالة .

فاذا اعتبر Hippocrates أبا الطب وجب اعتبار Galen دكتاتوره الأكبر . ولم يؤسس Galen مدرسة خاصة بطريقته ، ولا شجع الأنصار والأتباع على الالتفاف حوله واقتفاء خطواته ، فقد كان Galen وبحسبه ذلك معرفة . والواقع أنه اقتصر على تعاليم Galen فى ميدان الطب اكتفاء بهـا من كل جديد قرابة خمسة عشر قرناً . تعد الفترة المظلمة فى تاريخ الطب ، طوى خلالها فن التشريح وانعدم العلم بوظائف الأعضاء ، وأصبح الطب مجموعة قواعد نظرية لا أكثر ولا أقل ، وإن تجسدت وخرجت إلى حيز الوجود العملى أحيانا . على أن شعاعا من النور شعاعا واحداً أشرق خلال هذه الفترة ، فترة الانحطاط الطويلة ، أنقذ الطب من الاندثار والانعدام الكلى . فقد حدث أن نفى من الاسكندرية بعد موت Galen بأربعمائة سـنة البطريق Nestorius متهما بالالحاد ، فلجأ مع أتباعه وأنصاره إلى العراق حيث أقبلوا على ترجمة المؤلفات اليونانية

إلى اللغة السريانية . ولم يكد يشرق ضحى القرن السابع حتى اكتسح الاسلام دولتي الفرس والامبراطورية الرومانية الشرقية ، وشيد على أنقاضهما عاصمة الامبراطورية الاسلامية المتحدة العظيمة في بغداد . وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى ترجمت المؤلفات السريانية في الطب إلى اللغة العربية ، فبدأ بذلك فاتحة عهد جديد للطب كان حامل لوائه وفارس ميدانه محمد أبو بكر الرازي البصري وابن سينا الفارسي . وللرازي يرجع الفضل في تعريف العالم على داء الحصبة وتشخيص عوارضها وشرح أطوارها . كما كان أول من استعمل الخيوط المصنوعة من المصارين في خياطة الجراح ، فضلاً عن أنه كان خبيراً ثقة بمرض الحصى في المثانة والكلى . وأما ابن سينا — وكان صاحب لهو وطرب — فقد خلف لنا ما لا يقل عن تسعة وتسعين مؤلفاً في العلوم الطبية ، فضلاً عن أنه كان أول من استعمل الملقط في حالات الولادة . ولم يكن ابن سينا أول من كشف عن أسرار حركات العين فحسب ، بل برهن بالحجة والدليل القاطع على معرفته التامة بنظرية الابصار الحديثة والمرئيات .

وللتراجم اللاتينية المنقولة عن المؤلفات العربية الصميمة وعن المؤلفات العربية المنقولة عن النصوص اليونانية يرجع الفضل في إيقاظ أوربا من سباتها العقلي مدة خمسة عشر قرناً .

شهدت القرون الثلاثة : الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، تشييد دعائم العلوم الطبية من جديد . فتجرأ Leonardo De Vleci وكان يجمع بين العلم والأدب على الشك في صحة تعاليم الفيلسوف العظيم مدللا على أخطائه بطائفة من التجارب العملية قام بها في مسائل تتعلق بوظيفة الرئتين والقلب ، وما يؤديه كل منهما من عمل . وضجر Vesalius وتسرب إليه الملل من طول سماع أستاذه يتلو عليه الفقرات المطولة من مؤلفات Galen فعمد إلى الجثة البشرية فشرحها بنفسه استغناء بالعمليات عن النظريات .

ولكن بينما تمخض الاقبال على التشريح الدقيق عن تقدم فن الجراحة ، ظل علم الطب الباطني يتخبط في الظلام ، ولم تنقشع عنه الغيوم ويبعث من مرقده حتى طلع Harvey على العالم باكتشافه نظرية الحركة الدموية ، وحتى طبع Sydenham مؤلفه العظيم عن الحميات وطرق علاجها . ثم أخذ التقدم يضاعف خطواته في مستهل القرن السابع عشر . ولإذ بدئ باستعمال الميكروسكوب الذي كان ابتكره جاليليو قبل هذا العهد بمائة عام لتعرف التفاصيل الدقيقة في تكوين جسم الانسان ، انتشرت الروح العلمية بين الناس وعظم سلطانها في نفوس الباحثين ، وجاءت نتائج البحوث العلميــة تترى ، الواحدة تلو الأخرى بخطى حثيثة ، حتى كان من العسير هضمها جميعا بمثل هذه السرعة .

وقد كانت المائة عام الأخيرة عهد الطب العلمي حقاً . وهو عهد حافل بالنوابغ والعباقرة الأفذاذ من الرجال أمثال باستور (Pasteur) وكوخ (Koch) ولستر (Lister) وارلخ (Ehrlich) ومانسون (Patrcik Manson) وروس (Ronald Ross) ورونتجن (Rontgen) وكوري (Cieтe Curie) وزوجه مدام كوري (Marie Curie) .

وللمجد طرق شتى ، وكثيرا ما يكون الاكتشاف جديراً بالعظمة ومرتبة النبوغ ، واكتشاف هارفي (Harvey) للدورة الدموية في هذه المرتبة . وأحياناً لا يكون النبوغ في الاكتشاف نفسه ، ولكن في تفهم وتقدير اكتشاف مغفل لانسان آخر . فمثلا لاحظ العلامة الفرنسي بكريل (Becquerel) أن معدناً معيناً أطلق شيئاً من قبيل الشعاع غير المرئي أو شبيهاً به ، ولكن مدام كوري هي التي أقامت الحجة على أن شيئا دخيلا على هذا المعدن هو سبب هذا الشعاع ، وأن هذا الشعاع هو الراديوم . وأحياناً يكون النبوغ في إقامة البرهان على صحة نظرية شخص آخر . فمثلا كان (مانسون) أول من اتهم البعوض بنقل جراثيم حمى الملاريا من إنسان إلى إنسان ، ولكن . . . . . . هو الذي شرح بالضبط كيفية نقل البعوض لهذه الجراثيم من جسم إلى جسم . وأحيانا يكون النبوغ في تطبيق اكتشاف الآخرين عمليا . فقد برهن باستور

وكوخ على أن الجراثيم والكروبات تسبب الأمراض ، ولكن لستر هو الذى ابتكر كيفية إبادة الجراثيم فى صالة العمليات الجراحية .

والزمن من العوامل المهمة فى الاكتشافات ، ولا بد من نضجه واستعداده للاكتشاف ، وإلا أغفل أمره ومر عليه أهل عصره مر الكرام ؛ فالأكسوجين مثلا اكتشفه أحد العلماء قبل بريستلى (Priestley) بمائة عام ، ولكنه جاء سابقا لعصره . وقد كاد أن يفوت على مندل (Mendel) فضل بحوثه فى نظرية الوراثة . ولعل خير مثال يستشهد به على ضرورة نضج الزمن واستعداده لاستقبال الجديد المبتكر اكتشاف سمبسون (Simpson) للكلوروفورم . فقد كان الناس منذ أربعة آلاف سنة يعلمون خواص المواد المسكنة للآلام ، ولكن اكتشف قوة الكلوروفورم المخدرة فى نفس الوقت الذى طلع فيه لستر على العالم بطريقة التعقيم والتطهير . ففتح بذلك ميدانا جديداً فى فن الجراحة ، إذ كان الوقت ناضجا مهيأ لاكتشافه . وغنى عن القول أن تقدم الطب يتصل بالتقدم فى ميادين العلوم الأخرى . وهو حينا بطىء متأخر كما كانت الحال فى فن التشريح خلال القرون العديدة التى كان يعتبر فيها تشريح الجثة انتهاكاً لحرمة مقدسة ؛ وحيناً سريع كما كانت الحال فى ميدان علم الكيمياء وما كان من تطوره الصناعى ومكافحته للأمراض والجراثيم واستعمال الفحم ، مما أدى — كما سنبرهن على ذلك فى الأحاديث المقبلة — إلى استنباط أهم العقاقير المستعملة اليوم من مستحضراته القرعية .

لقد نهض الطب فى السنوات المائة الأخيرة على أكتاف عدد كبير من أقطابه هم دعائم هيكله ، وعمد بنيانه ، وأركان صرحه .

حول محاضرات ابن الهيثم التذكارية

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

لقد سبق لنا أن نشرنا عن ابن الهيثم مقالا فى « المقتطف » ، وآخر فى أحد أعداد « الرسالة » الممتاز . وأتينا على بعض مآثره فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » ؛ وأذعنا عنه حديثين فى محطة فلسطين اللاسلكية ، ودعونا الحكومات والهيئات العلمية فى الأقطار العربية إلى ضرورة الاهتمام بالثقافة العربية وبعثها ، والعمل على نفض غبار الاهمال عن تراث علماء العرب ومآثرهم ، وإزالة الغموض المحيط بآثارهم . وقد جاء فى مقالنا المنشور فى عدد « الرسالة الممتاز الصادر فى ٥ أبريل سنة ١٩٣٧ ما يلى : « . . . . ويؤلمنى أن أقول إنه لو كان ابن الهيثم من أبناء أمة أوروبية لرأيت كيف يكون التقدير ، وكيف يذاع اسمه وتنشر سيرته على الناس ، وتدخل فى برامج التعليم ليأخذ منها الأجيال إلهاما وحافزاً يدفعهم إلى الاقتداء به والسير على طريقته .

« أليس فى عدم معرفة ناشئتنا وشبابنا شيئاً عنه إجحاف وعيب فاضح ؟

« أليس إهمال منا أن نعرف عن بطليموس ، وكبلر ، وباكون ، أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم ؟

« ألاَ يدل هذا على نقص معيب فى برامجنا الثقافية القومية . . . ؟

« ولا يظن القارئ أن ابن الهيثم وحيد فى هذا الاجحاف والاهمال ، فليس حظ أكثر علماء العرب ونوابغهم وعباقرتهم بأحسن من حظه ؛ فها هى ذى حياتهم ومآثرهم لا تزال محاطة بغيوم الغموض وعدم الاعتناء ، وهى فى أشد الحاجة إلى أناس يتعهدون إزالة الغيوم وإظهار المآثر على حقيقتها للناس . ولا شك أن فى إظهارها إنصافاً لهم وخدمة للحقيقة ، كما أن عرضها على الناشئة من العوامل التى توجد فيهم الاعتزاز بالقومية والاعتقاد بالقابلية ، وشعوراً يدفعهم إلى السير على نهج الأجداد فى رفع مستوى المدنية . ولا يخفى ما فى هذا كله من قوى تدفع بالأمة إلى حيث المجد والسؤدد ، قوى تمهيد السبل لتقوم (الأمة) بواجبها نحو نفسها ونحو الانسانية ، فتساهم فى بناء الحضارة وإعلاء شأنها . . . »

ثم أتينا على بعض اعترافات الأقدمين وعلماء الأفرنج المحدثين فى ابن الهيثم ، مما يدل على فضله وعلمه وأثره الكبير فى تقدم العلوم الرياضية والطبيعية . فلقد عرف الأقدمون من علماء العرب فضله ، وقدروا نبوغه وعلمه ، فقال ابن أبى أصيبعة : « . . . وكان ابن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء متفنناً فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه ، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد . . . » وقال ابن القفطى : « . . . . إنه صاحب تصانيف وتآليف فى الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً متفننا فيه ، قيماً بغوامضه ومعانيه مشاركاً فى علوم الأوائل ، أخذ عنه الناس واستفادوا . . »

وكذلك عرف الأفرنج قيمة ابن الهيثم فأنصفوه بعض الانصاف ، واعترفوا بتفوقه وخصب قريحته ، فتجد دائرة

المعارف البريطانية تقول : « . . . إن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات . . » وجاء فى كتاب تراث الاسلام : « . . إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم . » واعترف العالم الأفرنسى (لونيرفياردو) بأن كبلر أخذ معلوماته فى الضوء ، ولا سيما ما يتعلق بانكسار الضوء فى الجو من كتب ابن الهيثم . ويقول سارطون : « . . إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله . . »

ولعل الأستاذ مصطفى نظيف بك أول عربى فى هذا العصر أنصف ابن الهيثم بعض الانصاف ووقف على التراث الضخم الذى خلفه فى الطبيعة ، ولاسيما فيما يتعلق ببحوث الضوء . قال الأستاذ نظيف فى مقدمة كتابه النفيس الفريد (البصريات) ما يلى : « . . . والذى جعلنى أبدأ بعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة الأخرى أن علماً ازدهر فى عصر التمدن الاسلامى وكان من أعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأثراً الحسن بن الهيثم الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوربا حتى القرن السادس عشر الميلادى . . . » فلقد بقيت كتبه منهلا عاما نهل منه أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وليوناردودفنشى ووتيلو وغيرهم . وكتبه هذه وما تحويه من بحوث مبتكرة فى الضوء هى التى جعلت ماكس مايرهوف يقول صراحة : « . . . إن عظمة الابتكار الاسلامى تتجلى فى علم البصريات . . . » . وبعد ذلك أوردنا مآثره فى الضوء وأثرها فى تقدمه ، وأوضحنا بعض النظريات والآراء التى استحدثها فيه .

ومن المبهج أن نجد بعض الهيآت والمعاهد العلمية أخذت تعترف بما لعلماء العرب ونوابغهم من فضل على الحضارة ، فراحت تعمل على تخليد أسمائهم وإحياء ذكراهم ، ولقد قرر مجلس كلية الهندسة فى جامعة فؤاد الأول بالقاهرة فى اجتماعه المنعقد فى ١٨ مارس سنة ١٩٣٩ « إنشاء محاضرات يكون من تقليد قسم الطبيعة بالكلية تنظيم إلقائها باستمرار ، تتناول دراسات تمت بصلة إلى الناحية العلمية من عصر الحضارة الاسلامية أو من عصر من عصور التاريخ المصرى القديم أو الحديث ، تسمى إحياء لذكرى ابن الهيثم وتخليداً لاسمه (محاضرات ابن الهيثم التذكارية) . . . » .

وكانت أولى المحاضرات للأستاذ مصطفى نظيف بك عن (الحسن بن الهيثم والناحية العلمية منه ، وأثره المطبوع فى علم الضوء) طبعت فى كراس صغير طبعة أنيقة وخصته مجلة « الثقافة » ، وقد تفضل الأستاذ فأهدانى هذا الكراس ، فوجدت أن فيه تحليلا رائعا للطريقة التى كان يسير عليها ابن الهيثم ، وعرضا موفقا لسيرته الحافلة بالمآثر الخالدة ، وقد طبعها الأستاذ بطابع الإخلاص للحق والحقيقة ، وأبان بعضا من بحوث الضوء التى أثارها ابن الهيثم والتى تكفى « ... لتجعل له مقاما ممتازا فى مقدمة علماء الطبيعة فى جميع عصور التاريخ ... » . وأشار الأستاذ أيضا إلى أن هناك آراء لابن الهيثم سبق فيها الأجيال ، وأنه أعاد بحوث من تقدموه من جديد ، ونظر فيها نظراً جديداً لم يسبقه إليه أحد ، وأنه وضع لبعض مسائل تتعلق بالضوء حلولا واضحة ، مطابقة للواقع المعلوم فى زمانه . وقد جاءت « حلوله متناسقة منسجمة ، ينظمها نظام طبيعى سليم ، فتألف من ذلك وحدة وضعت فيها الأمور فى أوضاعها الصحيحة وصارت النواة التى تكتنف ونما حولها علم الضوء . . » ثم يقول الأستاذ نظيف بك : إن ابن الهيثم هو رائد علم الضوء فى القرن الحادى عشر الميلاد ، كما أن نيوتن رائد علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر الميلاد .

وهذه المحاضرة النفيسة لن تكون الأخيرة فسيعقبها محاضرات أخرى من ذوى الاختصاص من مختلف نواحى الحضارة الاسلامية وأثرها فى المدنية .

ولا أظن أن أحداً يخالفنى القول بأن قرار مجلس كلية الهندسة من أجلّ الأعمال التى تقوم بها جامعة فؤاد الأول ، وهو خطوة نحو بعث الثقافة العربية ومحاولة لاحياء ذكرى علماء العرب الذين خدموا الإنسانية ، وأضافوا إلى ثروتها العلمية إضافات هامة لولاها لما تقدمت الحضارة تقدمها المشهود . ولا شك فى أن هذه المحاولة وتلك الخطوة ستقابلان من العرب فى سائر الأقطار بالشكر والرضى والتقدير ، وستدفعان بعض المعاهد العلمية فى البلدان العربية إلى السير فى طريق الكلية واقتفاء آثارها . ويدعونا الانصاف إلى القول أن هناك خطوات ومحاولات سابقة من جانب الهيئات العلمية والقائمين بأمر الحكومات العربية من شأنها إحياء تراث العرب وإظهار مآثرهم وما قدموه من جليل الخدمات إلى المدنية . فلقد أقيم مهرجانات عديدة فى مصر والعراق وسوريا ، إحياءً لذكرى شاعر العرب (المتنبى) وقد كانت هذه المهرجانات موفقة ورائعة نبيلة المقاصد سامية الغايات ، كشفت عن بعض النواحى فى حياة المتنبى وأثره فى الأدب والشعر . وكذلك أقامت كلية الآداب (أسبوع الجاحظ) تكلم فيه عدد من فحول الأدب وأئمة البيان .

ولا ننكر أننا نلمح فى هذه السنين حركة جديدة نحو إحياء الكتب القديمة وإظهارها إلى الناس ، وسعياً جدياً لطبعها ولتسهيل اقتنائها ؛ فقد نشر الأستاذ النابغة الدكتور مشرفة بك عميد كلية العلوم والأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد كتاب « الجبر والمقابلة » لمحمد بن موسى الخوارزمى ، كما أخرجت الحكومة المصرية بالاشتراك مع بعض الهيئات كثيراً من المخطوطات القيمة والكتب القديمة فى الأدب والعلم وتوفقت فى عرضها عرضاً حديثاً وجعلتها سهلة التناول

أما العراق وسوريا ففيها هيئات وجماعات علمية وأدبية تعمل عن طريق الصحافة وطبع الكتب على إبراز خصائص الحضارة الإسلامية وإظهار مزاياها وآثارها ؛ وقد قامت جمعية التمدن الإسلامى فى دمشق بإصدار عدد من الكتب فى التراث العربى والإسلامى فى شتى نواحيه ، كما أخذت الحكومة السورية تعمل على إقامة مهرجان كبير إحياءً لذكرى المعرى بمناسبة مرور ألف عام على وفاته ، وقد انتهت من وضع تصميم لبناء ضريح الشاعر الفيلسوف فى مسقط رأسه (المعرة) من ولاية حلب .

ولسنا بحاجة إلى القول إن هذه النهضة سواء أكانت فى مصر أو العراق أو سوريا ، لا تزال فى أولى مراحلها ، لم يقطع فيها العرب بعد شيئاً جديراً بالاعتبار ؛ ولكن ما نراه من البدء فى الاهتمام بالتراث العربى لما يؤكد لنا أن العرب أصبحوا يدركون أن بعث الثقافة وإحياء القديم وربطه بالحاضر ، من أقوى الدعائم التى عليها يشيدون استقلالهم ويبنون كيانهم ، ومن أهم العوامل التى تحفظ لهم خصائصهم ومميزاتهم ، وبذلك يستطيعون أن يلتحقوا وأن يبدعوا فى ميادين العلم والأدب والفن وأن يحققوا لأممهم مجداً وعزاً وسؤدداً .

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

محضر الأرواح

كان الناس منذ بضع سنين ، قبل أن يمتد الخط الحديدى الذى يعبر جبال البرانس يسافرون فى تلك العربات القطلونية التى تشبه مركبات العصور الوسطى فى أوربا ، وهى عربات ضخمة عريضة منخفضة ، تجرى على دواليب صغيرة ذات أغطية مخروطية فوق رءوس السائقين تقيهم حر الشمس اللافح ؛ وكانت تطلى من الخارج بالألوان الزاهية ، ولاسيما اللونين الأصفر الفاقع ، والأحمر القانى ؛ وتشد إليها بغال مطهمة تسير بها أحث سير لا تمهل ولا تعقب على استعداد ، وتغير فى آخر كل مرحلة ، ويختلط فى هذه المركبات شحيح البغال بجعجعة العجلات ، ورنين الأجراس ، وصراخ السائق يستحث به البغال على السير تارة ويسوطها تارة أخرى .

وكنا فى إحدى هذه المركبات جماعة مختلطة من الفرنسيين والأسبانيين نريد عبور جبال البرانس من فرنسا إلى أسبانيا ، وقد سارت بنا المركبة حتى وصلنا إلى بلدة بولون Boulon القريبة من الحدود الفرنسية الأسبانية ، وعند هذه البلدة يزداد ارتقاء الجبال صعوبة ، ولذلك أبطأت البغال فى سيرها ونزل بعض الركاب من العربة ، شفقة على البغال ، وترويحا للنفس من عناء الركوب ، ثم أخذ عدد الراجلين يزداد ، حتى لم يبق فى المركبة إلا أربعة من الطبقة الأرستقراطية ، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن انضموا إلى المشاة وسارت العربة بالسائق وحده حتى آذنت الشمس بالمغيب ، فأرسلت أشعتها الذهبية على الأودية وقلل الجبال المتوجة بالثلوج ، وكان النظر خلاباً يأخذ بالألباب ويبعث على التفكير العميق ، وما زلنا نجد فى السير راجلين تارة ، وراكبين تارة أخرى ، نتجاذب أطراف الحديث فى موضوعات شتى ، حتى انتقلنا إلى حديث السحرة والمنجمين والأشباح وتحضير الأرواح ، وقد يكون سبب هذا وحشة المكان وسكون السماء وصفاء الجو .

وكان بين الركاب شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين ، تلوح عليه سيماء تجار أهل الجنوب من فرنسا ، وصار الشاب ينكر علينا عقائدنا فى السحر والأشباح إنكاراً حمل بعض رفاقه على أن ينظروا إليه نظرة المستهزئين الساخرين . وكان من بين الرفاق أسبانى فى نهاية العقد الخامس من عمره ، تدل هيئته على أنه من تجار الماشية الذين يكثر عددهم على الحدود ، وكان لا يحسن التكلم بالفرنسية ، ولذلك لم يشترك فى الحديث إلا قليلا ؛ كان هذا الشيخ أزج الحاجبين ، ذا عينين سوداوين غائرتين ، ونظرات ثاقبة ، ووجه أسمر مستدير ، ولم يتحمل هذا الشيخ الأندلسى مبالغة الشاب واحتقاره لعقائد الجماعة ، فخرج عن صمته وقال : « أيها الشاب ، إن هذا التبجح الذى لا تنفك تتظاهر به ليدل على أنك تصبح أجبن الجبناء ، إذا ما لاح لك شبح من هذه الأشباح التى تنكر وجودها » ، فأجابه الشاب فى صلف واستهزاء : « من هو الذى ترميه بالجبن أيها الشيخ ؟ إذا كنت أنا الذى تعنيه بقولك فإنى أتحداك أن تنطق به مرة ثانية » ، فقبض الأسبانى على ذراع الشاب بكلتا يديه وهزه هزة عنيفة ظهرت آثارها على وجهه وصاح بأعلى صوته : « أيها الطفل المغتر ، أتدرى أى رجل تخاطب بهذه اللهجة ؟ أقسم لك أمام هذا الجمع أنك ستخور قواك وتفقد رشدك إذا وقع

نطرك على أصغر شبح من الأشباح » .

فأجابه الشاب وقد فقد على ما يظهر شيئاً من كبريائه وثقته بنفسه : « دع ذراعى إن أنت إلا حيوان فى صورة إنسان » .

ثم تدخل المسافرون فى الأمر وفرقوا بين الرجلين وسارت العربة قليلا حتى صلح الطريق بعض الشيء ، ولم يمض إلا ربع ساعة حتى كان الركب فى قرية بلجارد Bellegarde وهى نقطة على الحدود بين فرنسا وأسبانيا ، وعندها فحصت جوازات السفر وبدلت بغال الركبة ، وانحدرنا فوق جبال البرانس الأسبانية حتى وصلنا إلى فجراس Figueras فى الوقت المحدد ، ونزلنا فى فندق البلدة الصغير حيث أعد لنا طعام العشاء من البيض واللحم والبطاطس ، فالتهمناه التهاماً على الرغم من سوء طهيه وعدم نظافته ، ثم قدم لنا البرتقال والتفاح والقهوة ، وبعد أن طعمنا وشربنا عدنا إلى الكلام على الأشباح والسحر وتحضير الأرواح ، فأظهر الشاب التاجر من السخرية أكثر مما أظهر فى الطريق وضاق الشيخ الأندلسى به ذرعا فقال :

« إنى أتعهد بأن أريك رأى العين أى شخص من الأموات تريد أن تراه » . فقال الشاب :

« إنك تهذى أيها الشيخ . إنك بلا شك حديد العضلات ، ولكن عضلاتك هذه لا تقوى حجتك »

فأجابه الشيخ : « ما شأنك أنت وقوة عضلاتى ، هل فهمت ما قلته لك ؟ »

فقال صاحبه بعد تردد : « نعم فهمته » .

فقال الشيخ الأسبانى : « إذاً أراهنك على أنك لن تستطيع أن تقف أمام شبح من الأشباح ، ولك منى ألف فرنك إذا استطعت ، على أن تدفع لى مثلها إذا عجزت » . فأجابه الشاب : « ألف فرنك ! أنا لا أخاطر بمثل هذا المبلغ الضخم » .

فقال الأسبانى : « إذا كنت تنكر الأشباح هذا النكران ، وإذا كانت لك فى نفسك هذه الثقة فإنك لا شك كاسب الرهان » .

وكانت حجة الشيخ قوية لا يستطيع أحد دحضها ، ولكن الشاب أجابه : « إنى لا أستطيع أن أقامر بأكثر من مائتى فرنك » .

فابتسم الشيخ ابتسامة الساخر وأعاد إلى جيبه ما كان قد أخرجه من المال ، ثم قال : « هل تظن أنى أزعج الأرواح من أجداثها وأعود بها إلى عالمنا نظير هذا المبلغ الحقير ؟ لا ياسيدى ، أنا لا أراهن على أقل من ألف فرنك ، فهاته إن شئت ، وإلا فتنح عن الرهان ولا تعمد إلى المكابرة » وكانت حماسة المسافرين قد بلغت غايتها ، وتاقت نفس كل منهم أن تعرف ما سوف يؤدى إليه هذا النزاع الغريب .

فقال أحدهم ضاحكا : إنى أشترك فى هذا الرهان بمائتى فرنك على أن أكون شريكا مرفوعا .

وقال ثان : وأنا أتقدم بمثلها .

وقال ثالث : وأنا أشترك بمائتين فى هذا الرهان .

ولم تمض إلا عشر دقائق حتى جمع للشاب من الركب ثمانمائة جنيه ليضمها إلى مائتيه .

فلم ير الشاب عندئذ إلا الإذعان ، وجمع المال ووضعه فى جيبه بيد مضطربة وقلب واجف ، ثم غادرنا كلنا مائدة الطعام ، وطلب الأسبانى إلى صاحب النزل أن يسمح له بحجرة من حجراته ، فسار بنا إلى قاعة فى الطبقة السفلى تطل على الحديقة .

ثم أدخل الشيخ الشاب المستهزئ فيها وتركه فى الظلام ووقف هو على بابها ومن حوله الركب ، ثم تقطب جبينه وأبرقت عيناه وعلت وجهه غبرة مخيفة ، ونظر إلى باب الحجرة المغلق بضع دقائق مضت كلها فى سكون رهيب . ثم سمعنا صوت الشاب يقول باستهزائه المعهود :

« متى تأتى لنا بأرواحك يا سيدى الكبير ، أغداً أم بعد غد ؟ » .

فقال له الشيخ الأسبانى : « ماذا ترى يابنى العزيز ؟ »

فقال : « لا أرى شيئاً يا سيدى » .

ثم مرت لحظات قليلة ظل الشيخ فى أثنائها يتمتم ببضع كلمات غير مفهومة ، ويشير بإحدى يديه تارة وبالثانية تارة أخرى ، ثم قال : « والآن ماذا ترى ؟ » .

فقال الشاب ، وقد تهدج صوته : « إنى أرى غمامة بيضاء فى أحد أركان الحجرة » .

فقال الشيخ : « إن هـذه الغمامة تتحرك ، أليس كذلك ؟ » .

فأجابه الشاب : « إنها تتحرك نحوى . آه لقد تكشفت عن شكل إنسان .

...... نعم نعم ، إنى لا أستطيع أن أميز رأسها » .

فقال الشيخ : « من تحب أن ترى ؟ »

فلم يجب الشاب على الفور بل صمت قليلا ، ثم سمعنا صوته خائفاً متلجلجا يقول : « أمى » .

فقال الشيخ بصوت الآمر : « إذاً فلتستعد . أنظر »

ثم ساد السكون طويلا وخيل إلينا أن كلاً منا يسمع دقات قلب صاحبه . وعلى حين غفلة علت فى الجو صرخة شديدة كادت تصم آذاننا ، ثم سمعنا صوت الشاب يقول : « إنها هى . . . أمى المسكينة إنى أراها فى أكفانها مفتحة العينين ، ولا تزال على وجنتيها الدمعتان اللتان انحدرتا من عينيها فى أثناء صراعها مع الموت . . إنها مقبلة . . . لقـد أمسكت بى وضمتنى إلى صدرها . . . كفى ... الرحمة الرحمة ... اشفق علىّ أيها الساحر الغادر . لقد خارت قواى . . . النجدة النجدة » .

ثم سمعنا صوت جسم يسقط على الأرض ، فأسرع الركاب إلى الحجرة ورفعوا الشاب البائس ، وحاولوا أن ينقذوه من النوبة العصبية الشديدة التى تملكته ، وجاءوا إليه بالماء البارد وسكبوه على وجهه ، ثم أرسلوا فى طلب الخل وبعض المنبهات ، وأخذ الشاب يفيق رويداً رويداً ؛ ولما أفاق بدت على وجهه علائم الغضب الشديد ثم قال : « أين هو ؟ أين ذهب هذا الأسبانى الغادر ؟ . . إيتونى به . تالله لا قتلنه فى الحال . . . هل يليق بإنسان أن يعذب أخاه الانسان هذا العذاب الشديد ؟ » .

وأخذ الركاب يبحثون عن الشيخ الأسبانى ، ولكنهم لم يهتدوا إليه . ثم أفلت الشاب من أيدى زملائه الذين كانوا يعنون بأمره وانطلق يبحث عن الساحر ، لكنه لم يلبث أن اختفى هو الآخر فى ظلام الليل الحالك واختفت معه الثمانمائة الفرنك التى قدمت له لتكمل الرهان .

ولما ركبنا العربة مرة أخرى لنواصل السير إلى مدينة جيرون Jirone لم نتمالك من الضحك على هذه الحيلة المتقنة . وقال واحد منا : لقد شاهدنا نظير ما دفعنا من المال ملهاة محكمة الوضع ، مثّل اللصان فيها دوريهما أحسن تمثيل .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١٠ مليم

جولة فى الغـــــابرين

وهى طرفة من الشعر الوجدانى الصادق ، للشاعر البليغ معالى العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبى .

أنَّى تلفَّتَ أوْحَشَـــتْهُ الدّارُ
أدَرَسْتِ لا عَيْنٌ ، وَلا آثارُ ؟
يا دارُ بَهْجَتُها انْطَوَتْ فَكأنّها
صارَتْ إلى حَيْثُ الأحِبّـةُ صارُوا
يَسْتَخْبِرُ المُتَعَرِّفُونَ طُلُولَها
كلاّ فما بَقِيَتْ لها أخْبارُ
وَيُطالِعُ المُتَوَسِّمونَ رُسُومَها
فَكأنَّ دُثْرَ رُسُومِها أسْفارُ
أيْقَنْتُ أنّ الدّائِراتِ كَثِيرَةٌ
ما دُمْتَ يا فَلَكَ الزّمانِ تُدارُ
وَلَقَدْ ذَكَرْتُ دِيارَهُمْ ، وَرُبُوعَها
لِوُحُشٍ بَعْـدَ قَطِينِهِنَّ دِيارُ
وَرَأيْتُ (وَاسِطَ) فِي العِراقِ وَأشْرَفَتْ
لِعَيْـــنِي (سامَرّاء) و (الأنْبارُ)
عَدَّدْتُ هاتِيكَ الدّيارَ وَمِثْلَها
وَرَقَمْتُها فإذَا هِيَ الأصْفارُ
فَعَلِمْتُ أنّي فِي سَماءِ تَخَيُّـلٍ
وَعَرَفْتُ أنّ نُجُومَها الأشْعارُ
وَدَرَجْتُ أسْبَحُ فِي الخَيالِ فَمَرَّ بي
شَبَحٌ عَلَيْـــهِ سَكِينَةٌ وَوَقارُ
أوْحَى إليَّ فَكانَ هَمْسُ بَيانِهِ
« لا أنْتَ أنْتَ ، وَلا الدّيارُ دِيارُ »

محمد رضا الشبيبى

الشاطئ الخالى

[مهداة إلى الأستاذ خليل شيبوب]

للدكتور ابراهيم ناجى

يا ليـــــالى غرامها يا ليالى
جنبينى ذكراك إنّى سالِ
وهبينى التفتّ خلفى إلى عهـ
ـدك إلى لطـــــامع فى محال
لا أمامى غدٌ ولا عن يمينى
أمل ضاحك ولا عن شمالى
يا هواها بالله بعد انحدار الشـ
ـمس ماذا تعلق بالظلال
قطع السر شوطه بين محبو
ن ترضيك واشهاب المعالى
شهد الله ما أسفّ جناحا
ه ولا حلقـــــا على أوحال
وهى المجد داره القمم الشما
ء فالمجد موحش فى الأعالى
خطرت تحتها بأعرابها الدنـ
ـيا وسرت مواكباً لا تبالى
ما مقامى بها شقيًّا غريبا
بعدت شقتى وطال اعتزالى
يا هباء الهباء ! يا زبد البحـ
ـر وذرات مستطار الرمال
إن بعض الهدوء ضرب من الرعـ
ـب وبعض الثواء كالترحال
أين مرساى والسفينة كلّت
من صراع وشاطئى منك خال ؟

تمثال الأعمى

للأستاذ فخرى أبو السعود

بَسَطَ الكفَّ وَتَنَى بالقدم ... وابتغى السعى فأعيا فوجم
وانحنى معتمداً عكازةً ... علّها تهديه فى تلك الظُلَم
مرهفاً أُذْنيه لو أسعدتا ... فاغراً فاه وهل يهديه فم ؟
مُجهداً عينيه من حملقة ... فى ظلام متراكم مدلهم
عبثاً يمعن فى تلك الدجى ... وهو يدرى أنها لا تُخترم
جهدتْ سيماؤه فى هَذْيهِ ... وتَمَشَّتْها تباريحُ الألم
حُجب العالم عنه كلُّه ... بغشاء واهن لا يُنْتَقَمْ
عبثاً يجهد فى استشفافه ... وبريقَ النور أيْنَانَ نَجَم
مُقْعِدٍ من غير قيد خَطْوَهُ ... هائضٍ عزمتَه عما اعْتَزَم
لم يَسِرْ من خطوةٍ فى إثرها ... خطوةٌ إلا تأنَّى واستجمْ
عمرُهُ ليلٌ طويل ما لَهُ ... كوكبٌ يبدو ولا صبح يَنِمّ
ليس يدرى الصبحَ إلا خبرًا ... قد رووه أو حديثاً قد زُعِم
هو فى شك وريب مُرْمِضٍ ... حيث ولّى وعناه حيث همّ
أبدعتْ كفُّ صناعٍ رقّتْ ... هذه السيماء فى الصخر الأصم
صوّرَتْ شتى المعانى وجلَتْ ... لوعةَ الآلام فى وجه الصنم
يحسب الناظر إذ يُبصرهُ ... تحت ذاك الصدر قلبا يضطرم
وأرَتْ فى وجهه ما غضّنَتْ ... غدرات الدهر والخطب المُلِمّ
وجلَتْ عينيه قد حدّقتا ... دون جدوى فى الظلام المحتكم
تسألان الدهر سرًّا خالداً ... وهو لا يفضى بسرٍّ مكتتم
لم تكونا أمسِ أمضى بصراً ... وهما بالأمس من لحم ودم

فخرى أبو السعود

استسلام ...

للأستاذ صادق رستم

من قصيدة :

يا من سجعتِ أَرَنتِ كامن لوعتى
وهتكت خدراً ستره مسبول
ناجيت ربك والوجود موسّد
وهتفت بالشكوى فقيل هديل !
سجع بطيب بسمع من جهل الهوى
ويسمع من عرف الغرام عويل
هلاّ رأيتِ الأفق وهو مقطّب
تعلوه من دكن الغيوم حمول
والريح حسرى لا يقر قرارها
غضبى تهب وقيدها محلول
والبرق أخطف والرعود قواصف
وغزير منهمر الغيوث سيول
والناس بُكم والوجوه كوالح
والخوف أعظم والرجاء ضئيل
هل كان نصبا للصواعق سافل ؟
هل كان مرمى للرياح فسيل ؟

***

سبحان ربى إن أقدس عابد
فى الكون لا يعلو عليه جليل
قلب بحمدك مفعم وشغافه
بِعَدى النوائب والأسى متبول

صادق رستم

وداع !..

للأديب محمد السنوسي مقلد

[طاقة فلية ... مهداة إلى يمين الحبيب الطاهرة التي أهدت إليّ «طاقة» الذكرى حين الوداع]

لستُ أنسى يا حبيبي ... يومَ ودّعتَ وفيّا !
وبيمينِ الطُّهرِ أهدتْ ... «طاقةَ» الذكرى إليّا
هي نفحٌ منك قد ذا ... عَ شذاهُ عبقريّا
أسكبُ اللحنَ حواليـ ... ـهِ فينسابُ شذيّا
حفـــظَ اللهُ يمينًا ... غرقتْ في قبلتيّا !
طوّقتني حين ودّعـ ... ـتُ وحيّيتُ وحيّا !

***

لستُ أنسى دمعةَ الـ ... ـبينِ على هذا المحيّا !
سقطتْ مِن طرفكَ الأحـ
ـــل كالدرِّ عليّا !
دمعةٌ سالتْ فأدمتْ ... يا حبيبي مقلتيّا
أحرقتْ قلبي وشبّتْ ... يا حبيبي في يديّا
إنّني في ساعة التو ... ديع قد كنتُ الشقيّا
ذابَ لحني في فؤادي ... وذوى في شفتيّا !

***

شغلَ الحبُّ فؤادي ... ليتهُ كان خفيّا !
في سكون الليل هيّا ... نأتيه يا بدرُ هيّا
نحنُ في ظلّك كنّا ... نتناجى ، نتفيّا
عندكَ السرُّ ومَن ذا ... يفضحُ السرَّ الخفيّا !
وأنا مَن ليس يخشى ... بافتضاح السرّ شيّا
صُنتُ في «ليلاي» قلبًا ... طاهرَ الحبِّ نقيّا !

محمد السنوسي مقلد

الوحـــــدة !

للأديب بدر أحمد

خلوتُ إلى نفسي لأسألَ عن نفسي
فليسَ — من الدنيا — أشقّ على نفسي
من الحبسِ(1) تمضي فيه(2) أيامُ عمرِها
وليس لديها أن تفرَّ من الحبسِ
قتلتُ لها — الآمال — فأنّتْ بحرقةٍ
ألم تدفنِ الآمالُ في حفرةِ اليأسِ ؟ !
فأدركتُ أنّي لستُ حيًّا وإنما
أشقّ طريقي — في الحياة — إلى الرمسِ

***

يعزّ على نفسي أموتُ ولم تكن
(صحيفة آمالي) على القرب من رأسي
لقد كنتِ بالأمسِ البعيد بجانبي
فياليتني يا ربِّ قد متُّ بالأمس

(رشيد) بدر أحمد

---

(1) الدنيا . (2) أي النفس .

في عالم التأليف

معاجمنا اللغوية

للأب أنستاس ماري الكرملي

١ — تمهيد :

خذ بيمناك أول معجم لغوى من وضع العرب ، أى كتاب (العين) ، وخذ بيسراك آخر ديوان ضادى أخرج لأبناء هذه اللغة الشريفة وهو (البستان) ؛ تَرَ بينهما بوناً عظيماً ، وما الفرق بين الثرى والثريا إلا فرقاً ضئيلاً يترجم لك ما انحطت إليه تآليفنا فى هذا الموضوع . ثم ضع بين يديك معاجم الأمم الحديثة وأسفارهم المصنفة فى هذا البحث فى مختلف لغاتهم ، كالانكليز والألمان والفرنسيين والايطاليين والأسبانيين ، تجد بوناً آخر هو بَوْنُ السبق إلى كل ما جاروا فيه .

كان السلف الصالح أول من نظم فرائد المفردات على النحو الذى فكر فيه الخليل ، فأخرجه إلى بُصراء القوم وحذاقهم الليث . أقول « أول من فكر فى نظم فرائد المفردات على النحو الذى فكر فيه الخليل » ، لأن الصينيين والهنود وبعض الأمم الشرقية سبقوا أبناء مُضَر إلى جمع ألفاظ كلامهم ، لكن على غير النحو الذى جرى طَلَقُهُم فيه .

ولهذا كان لأبناء عدنان شرف السبق فى هذا المضمار الذى تتهالك فيه أقوى الجياد غير جيادهم ، وتنكل أرفعها حَضْراً فى الحلبة ، حاشا حُصُنِهم العراب . على أن هذا الكلام المجمل لا ينجلى مبهمه إلا بالموازنة بين المعجم الأول والمعجم الأخير ، والمقابلة بينهما ، حتى لا يقال علينا إننا نرمى الكلام على عواهنه .

٢ — مزايا كتاب (العين) :

كتاب (العين) كتاب متن للغة العربية . وأول من فكر فى تأليفه نابغة العرب ، بل نابغة النوابغ (الخليل بن أحمد الفراهيدى) ، ذلك النابغة الذى عقمت الديار المدنانية عن أن تلد نِدًّا له إلى عهدنا هذا . فالخليل هو الذى خَطَّ لخِرِّيجه الليث بن المظفَّر بن نصر بن سَيَّار الخراسانى خطة المعجم المعروف بكتاب (العين) وبَيَّن له الوجه الذى يسير عليه ، ورتبه ترتيباً فلسفياً على مخارج الحروف ، مبتدئاً بأول حرف الحلق وهو (العين) ، وذاكراً فى بابه جميع الكلم الواردة فيه العين ، إن فى الصدر ، وإن فى القلب ، وإن فى الطرف .

قال الخليل فى صدر المقدمة : « هذا ما ألفه الخليل بن أحمد البصرى ، رحمة الله عليه ، من حروف ا ، ب ، ت ، ث مع ما تكملت به ، فكان مدار كلام العرب وألفاظهم ولا يخرج منها عنه شىء . وقد أراد أن تعرف بها العرب أشعارها ، وأمثالها ، ومخاطباتها ، وألا يشذ عنه شىء من ذلك .

« فأعمل فكره فيه فلم يمكنه أن يبتدئ بالتأليف من أول أ ، ب ، ت ، ث ، وهو الألف ، لأن الألف حرف

معتل ، فلما فاته الحرف الأول ، كره أن يبتدئ بالثاني ، وهو الباء ، إلا بعد حجة واستقصاء للنظر ، فتدبر ونظر إلى الحروف كلها ، وذاقها ، فصير أولاها بالابتداء ، أدخل حرف منها في الحلق . وإنما كان ذواقه إياها ، أنه كان يفتح فاه بالألف ، ثم يظهر الحرف نحو اب ، ات ، اث اح ، اع ، اغ . فوجد العين أدخل الحروف في الحلق ، فجعلها « أول الكتاب » ، ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها ، وهو الميم .

« فإذا سئلت من كلمة وأردت أن تعرف موضعها ، فانظر إلى حروف الكلمة ، فمهما وجدت منها واحداً في الكتاب المقدم ، فهو في ذلك الكتاب .

« وقلب الخليل : ا ، ب ، ن ، ث ، فوضعها على قدر مخرجها من الحلق . وهذا تأليفه : ع ، ح ، هـ ، خ ، غ — ق ، ك — ج ، ش ، ض — ص ، س ، ز — ط ، ت ، د — ظ ، ذ ، ث — ر ، ل ، ن — ف ، ب ، م — و ، ا ، ى » . انتهى المقصود من إيراده .

والمقدمة طويلة كلها على هذا النفس الدال على ما وصلت إليه أفكاره الفلسفية فيما يتعلق بالحروف ومخارج أصواتها والآلة التي تبرزها ، حتى شهد حذاق هذا العصر بمعرفة علم الأصوات ، أن ذلك النابغة كان من أنبغ النوابغ في معرفة الأهجية ومخارجها ومساقطها من مواطن آلة الصوت . ولم يبلغ الغربيون هذا المبلغ من إتقان أحكام الأصوات إلا من بعد أن مضت القرون ، وتتابعت العصور والدهور . فهذا وحده يدلك على ما كان عليه ذلك النابغة الداهية .

ومزية كتاب (العين) الثانية أن أغلب ما ورد فيه من الألفاظ الغريبة مبني على شواهد مأخوذة من شعر العرب الجاهلي ، وأمثالهم ، ومخاطباتهم ، والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الصحيحة التي لا يخامرها شك ؛ وأما ما لم يحتج إلى تأييده بالشواهد فمأخوذ من الكلام المألوف الجاري على ألسنة جميع قبائل العرب ، وليس فيه أدنى شبهة لعموم انتشاره بينها . وهذا كاف للأخذ والتمسك به بلا أدنى إنكار .

والخليل توفي سنة ١٧٥ للهجرة (٧٩١ م) ، وبخر بعده الليث بقي حياً بعده ، إلا أننا لم نظفر بسنة وفاته في المهارق التي وقعت بأيدينا ، ولم نعلم قدر السنين التي طوى بساطها بعد أستاذه الجليل الخليل .

ومن مزايا كتاب (العين) أيضاً أنك لا تجد فيه كلاماً بذيئاً إلا فيما ندر ، ولا لغواً ، ولا ألفاظاً يستغنى عنها بحذفها ، بل تجد كل ما تقع عليه ، محكم الرصف والوضع والترتيب البديع ، حتى إن فقهاء اللغة الذين جاءوا بعده ، واقتبسوا منه ، لم يتمكنوا من أن يأتوا بمثله . وبقيت أندية الأدب تتناقله وتتناسخه وتتفاخر باقتنائه وتعتز به ، حتى جاءته ضربة كادت تكون القاضية عليه قضاء مبرماً .

فقلت منذ ذلك الحين نسخه ، وزهد الأدباء في اقتنائه ، بل أخذ كل شاد في الأدب ، وكل ناد من أندية العرب ، في نحت أثلته ، والتشنيع على صاحبه الليث ، والنيل من عرضه وشرفه وعلمه . فأصبحت نسخه بعد هذه النازلة الفادحة ، أندر من الغراب الأعصم ، لا بل كعنقاء مغرب .

أما هذه الطامة الكبرى التي نزلت بكتاب (العين) ، وبصاحبه (الليث) فهي أن أبا منصور محمد بن أحمد المشهور (بالأزهري) ، ألف معجماً سماه (التهذيب) ، كان داهية الدواهي ، لأنه اتبعه بديوان آخر ، وسماه (بالتكملة) . والتسمية الأولى تدل على أن أبا منصور وضع تصنيفه ، « تهذيباً » (للعين) . وتعين التسمية الأخرى أنه أكمل ما شرع به في (التهذيب) من تصحيح العين ، ولهذا سماه (التكملة) لكن الأزهري لم يكن حسن النية والقصد فيما وضعه ، بل كان عزمه الأول التشنيع على الليث ، وضربه ضرباً أليماً مبرحاً حيثما تقع عليه يده ، ولا يبالي أكان ضربه هذا صفعاً أم لطماً أم لطشاً أم لطخاً أم لكماً أم قفخاً أم كسعاً . .

ودليلنا على ذلك أن الأزهرى لم يقوم أود زميله وسابقه فى الحلبة ، بل أشبعه ألفاظاً قارصة وتعبيراً قاسياً ، ولهذا أثار كامن الحقد عليه ، حتى فى المعجبين به .

إن ابن مكرم مثلاً أو ابن منظور الإفريقى صاحب لسان العرب من المقدّرين لعلم الأزهرى وتفوّقه فى اللغة على سواه فى عصره ، وقد نقل عنه نحو نصف كتابه أو أكثر لاعتماده عليه ، ومع ذلك تراه يذمّه فى بعض الأحايين .

فقد قال فى مادة (ع م ر) ما هذا نصّه بحروفه فى الكلام على العُمَرَيْن : « قال الأزهرى : العُمَرانِ : أبو بكر وعُمر ، غُلِّبَ عمر لأنه أخفّ الاسمين . قال : فإن قيل : كيف بُدِىء بعمر قبل أبى بكر ، وهو قبلهُ ، وهو أفضل منه ؟ — فإن العرب تفعل هذا ، يبدأون بالأخسّ . يقولون : ربيعة ومُضر ، وسُلَيْم وعامر ، ولم يترك قليلاً ولا كثيراً . (قال محمد بن مكرم) : هذا الكلام من الأزهرى فيه افتيات على عُمر ، رضى الله عنه ، وهو قوله : إن العرب يبدأون بالأخسّ . ولقد كان له غُنْية عن إطلاق هذا اللفظ الذى لا يليق بجلالة هذا الموضع المتشرّف بهذين الاسمين الكريمين فى مثال مضروب لعُمر رضى الله عنهُ . وكان قوله : غُلّب عُمر لأنه أخف الاسمين يكفيه ، ولا يتعرّض إلى هجنة هذه العبارة . وحيث اضطر إلى مثل ذلك ، وأحوج نفسه إلى حجة أخرى ، فلقد كان قياد الألفاظ بيده ، وكان يمكنهُ أن يقول : إن العرب يقدمون المفضول أو يؤخرون الأفضل ، أو الأشرف ، أو يبدأون بالمشروف . وأما أفعل على هذه الصيغة ، فإن إتيانهُ بها ، دلّ على قلة مبالاته بما يُطلقه من الألفاظ فى حقّ الصحابة ، رضى الله عنهم . وإن كان أبو بكر ، رضى الله عنه ، أفضل ، فلا يقال عن عُمر ، رضى الله عنه : أخسّ . عفا الله عنا وعنه » انتهى .

ونحن لا نريد أن نكثر من ذكر الشواهد فى هذا الموضوع ، فإنها جمّة . ويستطيع كل منا الرجوع إلى مطالعة اللسان ليرى فيه العجب العُجَاب .

لكن هذا الاجتزاء لا يمنعنا من ذكر شىء من نقد الأزهرى لليث . قال فى مادة (خ ص ب) : « الخِيْضَب (ومضبوطة ضبط قلم بكسر الخاء المعجمة وإسكان الصاد المهملة وفى الآخر باء موحدة تحتية) : حية بيضاء تكون فى الجبل . قال الأزهرى : وهذا تصحيف ، وصوابه الحِيْضَبُ بالحاء والضاد . وقال : وهذه الحروف وما شاكلها ، أراها منقولة من صُحف سقيمة إلى كتاب الليث ، وزيدت فيه . ومن نقلها لم يعرف العربية ، فصحّف وغيّر فأكثر » ا ه .

على أن الخضب بمعنى حية بيضاء جبلية واردة أيضاً فى قاموس الفيروزابادى ، إلا أنه ضبطها بضم الأول فى هذا المعنى . ونظن الصواب مع اللسان لأن الكلمة من قبيل اشتباه التصحيف ، أى أن نقطة الكلمة تنتقل من حرف إلى حرف ، فقد قالوا مثلا : المعرب ، والمترب ، والمترب (أى السباق) ، وقالوا : الحال ، والخال ، والجال بمعنى الراية . وقالوا : تَيشق المسافر ، وصححه بعضهم فقالوا : والصواب : لثق أو لسق أو تثق أو مشق أو نشق ، ومثل هذه التصحيفات كثيرة ، وسببها تشابه الحروف بعضها لبعض .

وهناك سبب آخر ، هو أن الخضْب للحية تجانس اليونانية Aspis ، فإذا حذفنا من آخرها is وهى علامة الإعراب عندهم رأينا الكلمتين واحدة فى اللفظ والمعنى ، أى خُضْب أو حِضْب ، وبلسان العلم Coluber Haie . وقد قال العلامة بوازاك E. Boisacq إن أصل الكلمة اليونانية مجهول ، وقد ظن لاوى Lewy أن الكلمة عبرية النِّجار من « صفا » أى الأصَلَة . ونحن نقول إنها من العربية كما ترى .

على أن صواب ضبط الحِضْب بمعنى الحيضب ، لحية بيضاء ، كسر الحاء لا ضمها ، كما فى القاموس ، لأن

أنباء وآراء

حول كتاب « الوزراء والكتاب »

« . . . . لما تعرض الأستاذ العبادى لهذا البيت :

لا يبكِ عينك إنّ الدهر ذو غِيَر
فيه تفرّق أُلّاف ومألوفُ

أخذ على الناشرين أنهم ضبطوا القافية بالكسر ضبطاً خرج بها عن روى القصيدة الذى هو الضم ، لأنهم حسبوا أن فى البيت إقواءً ، وجرّهم هذا الظن إلى أن يسدوا البيت دخيلاً ملصقاً بالأبيات .

فأنكر الأستاذ دعواهم هذه ، وأوجب ضبط القافية بالضم . والأستاذ على حقّ فيما رأى ، إلا أنه أبعد التأويل . وعندنا أن كلمة (مألوف) معطوفة على (ألاف) عطفاً على المحل . ومحل (ألاف) الرفع لأنها فاعل المصدر (تفرّق) وهذه قاعدة مشهورة مذكورة . ومثل هذا البيت فى الاتباع على المحل قول لبيد :

حتى تهجّر فى الرواح وهاجها
طلب المعقِّب حقه المظلومُ

رفع المظلوم لفتاً للمعقب المجرور اللفظ المرفوع المحل » .

أحمد الناجى
المدرس

تعليق . . .

فى العدد السادس والثلاثين من « الثقافة » عرض الأستاذ أحمد الزين لمقطعاتٍ لغير واحد من الشعراء تكلموا فى الشيب .

فذكر مقطعاتٍ فى هذا الموضوع لابن الرومى ويحيى ابن زياد (وآخر) وما أنشده القراء فى الشيب والتيمى ومحمد ابن حازم وأبى الغصن الأسدى .

أما هذا (الآخر) الذى لم يذكر الأستاذ اسمه فقد تكفل ابن رشيق صاحب كتاب « العمدة » فى نقد الشعر ببيان اسمه فى رسالته « قُراضة الذهب » .

قال ابن رشيق فى معرض تناول الشعراء المعانى وتجويدهم فيها أو تقصيرهم .

والجيد قول عمر بن يزيد الشطرنجى مولى المهدى :

لقد جل قدر(1) الشيب إن كان كلما
بدت شيبة يَعْرَى من اللهو مركب

وجاء هذا البيت ضمن الأبيات التى ساقها الأستاذ الزين لهذا (الآخر) . فإن كان هذا هو الحق فذاك وإلا فالعلم لله والراسخين فيه .

. . . الأدفوى

(1) ويروى : لقد جلّ خطب الشيب .

ثمّ تصحيفاً آخر وهو الحِشف ، وقد ضبطها صاحب القاموس نفسه بكسر الحاء ، وهذا يدل على أن ضبطه الأول (أى الحُشُب) فى باب الباء غير صحيح فليصلح ، ولم ينبه عليه أحد .

ونجتزىء بهذا التلميح ، عن الإمعان فى التصحيح والتصريح ، لكى لا نثير الملل فى صدور القراء . وهذا بعض ما يقال فى كتاب (المعين) ، فلننتقل الآن إلى خصائص (البستان) معجم الشيخ عبد الله البستانى ، وهو آخر ما جاء لتدوين لغة الضاد .

(للمقال بقية) **الأب أنستاس مارى الكرملى**

سرقة أدبية

نشرت مجلة الكلية العربية التي تصدر من دار الكلية العربية بالقدس في عددها الثاني لسنة الثامنة عشرة مقالاً بقلم الرحالة الأستاذ خليل الخالدي هو موضوع محاضرة ألقاها الأستاذ في حفل أدبي في دمشق من حياة المتنبي .

وقد كتب إلينا حضرة محمود أفندي سيد الخنق عضو جمعية الاخاء المصرى في حيفا يقول إن القسم الثانى من هذا المقال وهو يبلغ حوالى عشر صفحات مأخوذ بالحرف الواحد من كتاب أمثال المتنبي (الطبعة الثانية بمطبعة حجازى بمصر) تأليف الأستاذ أحمد سعيد البغدادى ، وهو مؤلف مصرى له حوالى عشرين مؤلفا في القصص والتعليم والأدب .

ونحن ننشر هذا الخبر على علاته ، فالكتاب الذى يشير إليه الكاتب موجود ، تستطيع زميلتنا الفلسطينية أن تعود إليه لتتأكد من صدق الخبر أو كذبه .

الفنان والعالم

يعقد قريباً في كاليفورنيا مؤتمر للمطالبة بإعادة التسلح الأخلاقى والرجوع إلى قواعد الحق والفضيلة والشرف التى يهملها الناس في العصر الحديث والتى تؤدى إلى محو ما يعانيه العالم اليوم من قلق ورعب .

وقد وجه فريق من مشاهير الكتاب والمصورين والمثالين والموسيقيين رسالة إلى هذا المؤتمر ذكروا فيها أن حالة العالم اليوم تهدد الفن والابتكار أشد التهديد ، وأن على عاتق الفنان تقع مسئولية إرشاد العالم إلى طريق السلام ، لأن الفنان هو الوحيد الذى يستطيع أن يكون حلقة الاتصال بين السماء والأرض ، وهو وحده الذى يستطيع أن يعد النفوس الإعداد السامى الذى يمهد لها سبيل العودة إلى أحضان الفضيلة والشرف .

ومن بين الذين وجهوا هذه الرسالة جون ماسفيلد والسير والفور دافيز والقصصى للمروف واروبك ديبنج والمس دافنى دى موريه وكلهم من المشتغلين بالأدب والفن .

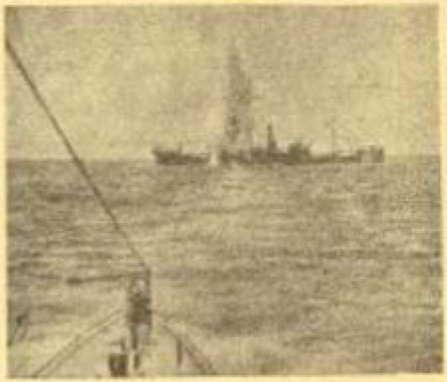
أغنى رجل

يعد البارون تاكاكيمى ميتسوى أحد نبلاء اليابان أغنى رجل في العالم ، وأقوى شخصية ذات أثر فعال في الحرب بين الصين واليابان ، فهو يدفع أكبر ضريبة دخل في اليابان إذ يبلغ ما تحصله الحكومة منه يومياً مائتى جنيه باعتبار شلن واحد عن كل جنيه من إيراده ، وهو يمتلك مع أفراد أسرته ثروة تزيد في مجموعها عما يمتلكه ركفلر وبيربونت مورجان ونظام حيدر آباد وشركة الصناعات الأمبراطورية الكيميائية مجتمعين .



ولا يعود السر في عظمة هذا الرجل لمجرد الثراء فقط ، وإنما لأن الحرب اليابانية مع الصين كلها تتوقف على مجهوده وما يقدمه لها وحده ؛ فالمدافع التى تستعمل في الحرب قد صنعت في مصانعه ، والحديد الذى استعمل في صنع هذه المدافع قد استخرج من مناجمه ، والسكك الحديدية التى تستخدم في نقل هذه المدافع والقوات المحاربة إلى شاطئ البحر هي ملك ميتسوى ، وكذلك السفن المستعملة ، حتى السكر الذى يستعمل في سهرات الجنود عقب المواقع قد استخرج من مصانع ميتسوى . ولا يقف شأن هذا الرجل عند هذا الحد ، فإنه صاحب المصلحة الأولى في الحرب الصينية ، إذ أنه فضلا عن استفادته من إطالة أجل الحرب ، فإنه يطمع في فتح الصين لكى يجد فيها ميداناً جديداً لنشاطه الاقتصادى ، لأنه كما يقول « يريد أرضاً جديدة ينقل في استثمارها نشاطه » .

الغواصات في الحرب



صورة رسمية أخذت بواسطة الألمان لضرب إحدى غواصاتهم سفينة من سفن الأعداء في يونيه عام ١٩١٥

كتب أحد رجال البحرية البريطانية ، الأميرال جوردون كامبل مقالا في مجلة « أنسرز » عن خطر الغواصات في الحرب الماضية وما اتخذ خلال الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة من وسائل لمقاومته وتقليل أثره ، نلخصه فيما يلي :

لم تعرف انجلترا خطر الغواصات كوسائل هجوم إلا بعد أن أغرق الألمان الطرادات « أبو قير » و « كريسي » و « هوج » على التوالي في دقائق معدودة ، فقد تنبه ذلك الأذهان إلى التفكير في مقاومة هذا السلاح المخرب ، حتى إذا كان عام ١٩١٧ ازداد عدد الخسائر في السفن ، وأصبح من الضروري وضع حد لذلك وإلا خسرت انجلترا الحرب . فكان استخدام الألغام أول خطوة عملية تلتها إقامة الشبكات الصائدة التي تتشابه في فكرتها مع فكرة شبكة الصيد العادية . وقد بلغ عدد الألغام التي بثت في بحر الشمال في آخر عام ١٩١٧ مائة ألف لغم ، ثبت بعد ذلك أنها لم تكن كافية تماماً .

وكان السلاح الثاني الذي استخدم في هذا السبيل هو الطوربيد الغاطس ، ولكنه لم يؤت ثمرته إلا بعد أن أمكن استعمال كاشفات الأصوات « الهيدروفون » ، فقد أصبحت الغواصات بفضل هذا الجهاز أقل خطراً وخفاء من ذي قبل .

وإلى جانب هذه الأسلحة قام الطيران بدوره كوسيلة من وسائل المعونة والنجدة والحراسة . ولكنه مع ذلك ظلت الغواصات خطراً حتى نهاية الحرب . فهل لا يزال شبح هذا الخطر يهدد الدول الديمقراطية من دولة عرف عنها أنها لا تعنى كثيراً بالمعاهدات التي تمنع مهاجمة المدنيين والسفن العادية غير الحربية بدون سابق إنذار ؟ .

الواقع أنه مع التسليم بسوء استعمال هذا السلاح من جانب الألمان ، فإن بريطانيا تستطيع أن تأمن خطره إلى حد بعيد ، فإن التحسينات التي أدخلت على كاشفات الأصوات ، حتى لقد صرح المسئولون بنجاح التجارب التي أجريت بنسبة ٩٠ حالة من مائة ، استطاعت الآلة فيها أن تحدد مكان الغواصات بالضبط ، والتطورات التي حدثت على استخدام الطوربيد ، وتنظيم استخدام الألغام ، واستخدام الطيارات المائية المجهزة بآلات دقيقة تستطيع أن تكشف مسافات شاسعة من أعماق البحار ، كل هذه الوسائل مضافاً إليها نظام حراسة السفن التجارية وبواخر الركاب وتزويدها بوسائل الدفاع المختلفة وسيرها في جماعات بدلاً من السير الفردي — يجعل من المسلم به أن الغواصات لن تكون ذات أثر كبير في الحرب ، أو على الأقل يجعلها سلاحاً عادياً تمكن مقاومته وشل حركته ، وتخفف كثيراً من خطرها على الملاحة التجارية .

جوائز أدبية

من مظاهر النشاط الأدبي في فرنسا كثرة الجمعيات الأدبية ووفرة عدد الجوائز التي ترصدها هذه الجمعيات للأعمال الأدبية .

وآخر أنباء هذه الجمعيات أن جماعة « الأدب الروحي » التي يرأسها المسيو هنري بوردو عضو الأكاديمي ،

قد منحت جائزتها السنوية « كلير ڤيربك » إلى القصصي جان سولاريول مكافأة على قصته « مقدمة للحب » ، ومقدار هذه الجائزة ٣٠٠٠ فرنك .

وكذلك رشحت لجنة التحكيم للجائزة الدولية للقصة الآنسة « مكايل باهل » من كمبوديا بالهند الصينية ، لنوال جائزة هذا العام على قصتها « عطية أعوام ستة » ، وهى قصة تصور أثر تقابل الحضارتين الشرقية والغربية فى نفوس الفتيات الشرقيات ، وتعرض لفكرة مزج الحضارتين .

ولهذه الأديبة الشرقية عدا هذه القصة أعمال أدبية أخرى منها « كمبوديا » و « أغنية السلام » ، وكلتاهما باللغة الفرنسية . وقد قدّم للقصة الثانية الأستاذ إدموند جالو الناقد الفرنسى المعروف بمقدمة رائعة .

ويرجح النقاد الفرنسيون فوز هذه الأديبة بالجائزة لأنها — كما يقول أحدهم — « لا تلاقى أى منافسة قوية » .

إنه فى يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٧ أفرنكى صباحاً بعزبة البحرية وأبا الوقف مركز مغاغة وفى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بسوق مغاغة سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك حسين افندى صلاح الدين عتال تنفيذاً للحكم الصادر من محكمة البندة الأهلية رقم ٨٦ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٥٣ جنيه و٩٩٠ مليم بخلاف النشر وما يستجد كطلب الست فاطمة هانم عبد الكريم صبرى المقيمة بمصر

فلى راغب الشراء الحضور ٣١

إنه فى يوم السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية بحول مركز بنها سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك على محمد فزاع تنفيذاً للحكم الصادر من محكمة البندة الأهلية رقم ١٦٢٥ سنة ١٩٣٨ وفاء لمبلغ ٣ جنيه و٤٠٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب الدكتور حسن حسنى الزينى بك فلى راغب الشراء الحضور ٣٢

إنه فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بناحية منشية سيف الدين وفى يوم الأحد التالى بسوق بندر فارسكور إذا لزم الحال سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك على اليهنسى السكير من الناحيـة نفاذاً للحكم نمرة ١٩٤٧ سنة ١٩٣٩ مدنى فارسكور وفاء لمبلغ ٥١٧ قرش صاغ و ٢ مليم قيمة المحكوم به والمصاريف وأجرة النشر كطلب سليمان أفندى خليل الدعدع التاجر بمنشية سيف الدين فلى راغب الشراء الحضور ٣٣

إنه فى يوم الثلاثاء ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية سنديس مركز قليوب ويوم ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩ بسوق القناطر الخيرية إذا لم يتم البيع سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك المعلم رزق جرجس ملطى كطلب زكى أفندى سيداروس عوض الصايغ ومقيم بشارع الفجالة حارة عتابى نمرة ٥ قسم الأزبكية بمصر نفاذاً للحكم الصادر من محكمة الموسكى الأهلية فى القضية المدنية نمرة ٦٧٢ سنة ١٩٣٦ موسكى وفاء لمبلغ ٢ جنيه و٤٠٠ مليم قيمة المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد

فلى راغب الشراء الحضور ٣٤

إنه فى يوم الأربعاء ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بساحل روض الفرج قسم شبرا سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك عفيف افندى فرمان التاجر بساحل روض الفرج ومقيم بشارع ادريس راغب نمرة ٥ بالظاهر قسم باب الشعرية بمصر نفاذاً للحكم الصادر فى القضية رقم ٤٣٥٧ سنة ١٩٣٧ الأزبكية وفاء لمبلغ ٣٤ جنيه و ٦٩٢ مليم قيمة المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب حسنى افندى محمد مرسى التاجر بساحل روض الفرج بمصر فلى راغب الشراء الحضور ٣٥

إنه فى يوم الثلاثاء ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بالمنصوره بشارع نصحى بالحسينية من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك ابراهيم البنا وأخيه من ناحية المنصورة كطلب الخواجه عبد المسيح فركوح بالمنصورة وفاء لمبلغ ٨ جنيه و٦٤٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد تنفيذاً للحكم نمرة ٨٢٠ سنة ١٩٣٩ بندر المنصورة

فلى راغب الشراء الحضور ٣٦

إنه فى يوم الثلاثاء ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً وما بعدها والأيام التالية إذا دعت الحال بناحية قرقشندة مركز طوخ قليوبية سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك نعمة ابراهيم كلوب من الناحية تنفيذاً لحكم محكمة طوخ الأهلية رقم ١٠٣٣ سنة ١٩٣٨ كطلب عواد السيد عمار من الناحية وفاء لمبلغ ١٨٠ قرش صاغ خلاف أجرة النشر وما يستجد فلى راغب الشراء الحضور ٣٧

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

المعدد ٣٨ — الثلاثاء ٥ شعبان سنة ١٣٥٨ — ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

على هامش الحرب الأوربية :

موقف روسيا وإيطاليا

وإلى أية وجهة تسيران ؟

لمحرر « الثقافة » السياسي

لما وقفنا ونحن في برلين ، قبيل نشوب الحرب بأيام قلائل ، على نبأ عقد ميثاق عدم الاعتداء بين ألمانيا وروسيا السوفيتية ، أدركنا من التعليقات الرنانة التي قدمت بها الصحف الألمانية هذا الحادث إلى قرائها أن الحكم قد صدر على بولونيا ، وأن ألمانيا الهتلرية تمهد بهذا التحول المدهش في سياستها إلى القيام بضربة جديدة تكون بولونيا أول ضحاياها .

ومع أن الصحف الألمانية ، ومحطات الاذاعة الألمانية لبثت أياما تفيض في التنويه بأهمية هذا الميثاق ، وتصفه بأنه أعظم ظفر أحرزته السياسة النازية ، وأشد ضربة

أصابت العسكر الديمقراطى ، وتشيد بقيمة الصداقة الجديدة بين روسيا وألمانيا ، فان الشعب الألمانى لم يخف دهشته وذهوله من هذا التحول العجيب فى سياسة زعمائه وقادته . ألم يصف أدولف هتلر فى كتابه « كفاحى » حكام روسيا السوفييتية بأنهم « مجرمون لطخت أيديهم بالدماء ، وأنهم لا يصلحون لعقد أى تحالف شريف ، أو يخلصون لأى تعاقد ؟ » . ثم ألم يقل أيضاً « بأن تحالف ألمانيا مع روسيا ، إنما يغدو نذير حرب جديدة ، وإن مثل هذه الحرب تنتهى بفناء ألمانيا » ؟ لقد استمر هتلر ستة أعوام منذ تبوأ الحكم وهو يكرر الحملة على روسيا وزعمائها البلاشفة ، ويصفهم بأقسى النعوت ، ويوجه إليهم أشنع التهم ؛ وقد عقد هتلر مع إيطاليا واليابان ميثاق مكافحة الشيوعية ضد روسيا وزعمائها البلاشفة ، وكانت حملاته الرنانة على الشيوعية ودعاتها إلى أشهر قلائل من أبرز مظاهر الحكم النازى . ولما شرعت انكلترا وفرنسا فى مفاوضاتهما مع السوفييت ، حمل هتلر على الانكليز والفرنسيين ، وقال إنهم يحالفون المجرمين من دعاة الشيوعية واليهودية الدولية ، إلى غير ذلك مما هو مذكور معروف للعالم كله ؛ فما الذى حدث إذاً ؟ وما هى العوامل الحقيقية التى حملت هتلر على أن يرى اليوم غير ما رآه بالأمس ، وأن يمد يده بالصداقة إلى أولئك الذين « لطخت أيديهم بالدماء » ، وأن يرى فى أولئك « القتلة المجرمين » أصدقاء يعتز بصداقتهم إزاء الدول الغربية ؟

لقد قدم هتلر جوابه بعد ذلك بأيام قلائل فقط ، فغزا بولونيا بحجة أنها رفضت أن تسلم إليه دانزيج والممر ، وانقضت قواته المدمرة عليها ، تحاول أن تنفذ الحكم القاسى الذى تطويه نصوص الميثاق الألمانى الروسى ؛ وقد ردت انكلترا وفرنسا على حركة هتلر الباغية ، فدخلتا الحرب إلى جانب بولونيا وفاءً لتعهداتهما ، وبدأت حرب أوربية جديدة ، يرجح أن يتسع نطاقها فى المستقبل القريب ، فتغدو حرباً أوربية عامة ، أو حرباً عالمية أخرى .

— ٢ —

ولعل أهم ما يشغل الأذهان الآن هو موقف روسيا وإيطاليا من هذه الحرب الجديدة ؛ فما هو موقف روسيا من صديقتها الجديدة ألمانيا ؟ وما هو موقف إيطاليا من حليفتها وشريكتها فى المحور ؟ إن مصاير الحرب القائمة تتوقف إلى أعظم حد على موقف هاتين الدولتين ؛ ومن المفيد أن نحاول أن نتعرف الاتجاه الذى تسير فيه كل منهما .

إن نصوص الميثاق الألمانى السوفييتى لا تدل فى ظاهرها بشىء أكثر من تعهد متبادل بعدم الاعتداء ، وعدم انضمام أحد الفريقين المتعاقدين إلى كتلة معادية للآخر ؛ ولكن من المرجح أن يكون مصير بولونيا قد تقرر بتفاهم الفريقين ؛ وقد كانت بولونيا منذ نحو قرن ونصف فريسة لمطامع روسيا وألمانيا والنمسا ؛ وقد ائتمرت هذه الدول يومئذ على تمزيقها وابتلاعها ، ومحيت بولونيا من ذلك الحين من عداد الدول المستقلة حتى نهاية الحرب الكبرى ؛ فهل يعيد التاريخ نفسه ؟ وهل تشاطر روسيا ألمانيا فى الوقت المناسب مشروعها البربرى فى تمزيق هذه الأمة العريقة الباسلة واقتسامها من جديد ؟ فى الأنباء الأخيرة أن روسيا تقوم بتعبئة جزئية لجيوشها ، من ناحية الحدود البولونية ؛ ولكنا لا نعتقد أن روسيا تنوى أن تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا ؛ وهى قد تنتهز الفرصة فتحتل بعض مناطق فى بولونيا الشرقية والجنوبية تدعى حقوقاً عليها ؛ ولكنها تؤثر بلا ريب أن تبقى بعيداً عن هذه المعركة التى تتحطم فيها قوى الدول « البورجوازية » وأن تعمل لبث دعايتها الثورية فى الوقت المناسب ، وتؤثر من جهة أخرى أن تتفرغ لكفاح اليابان فى الشرق الأقصى

إن الخصومة بين البلشفية والنازية قوية مؤثلة ، ولا يكفي في إزالتها أن يعقد بينهما ميثاق سياسي ؛ وروسيا تخشى بلا ريب أن تشتد وطأة العسكرية البروسية في أوربا الشرقية ، كما حدث في الحرب الكبرى ، فتغدو خطراً عليها ؛ ومن ثم فإنا نرجح أن روسيا سوف ترقب تقدم الألمان نحو الشرق باهتمام وتوجس ، وسوف تبقى على قدم الأهبة لا لتأييده بل لوقفه ، اللهم إلا إذا كانت قد عقدت بين الفريقين معاهدات سرية بتقسيم المناطق المفتوحة ، وهذا ما لا تؤيده القرائن والظواهر .

— ٣ —

وأما موقف إيطاليا فلا يزال لغزاً يصعب تفسيره . فهي مرتبطة مع ألمانيا بمحالفة عسكرية ، وقد ناصرتها حتى اليوم في كل حركاتها واعتداآتها في أوربا الوسطى ، وقد أبدت قضيتها في دانزيج والممر ؛ ولكن السنيور موسوليني لم يكن راغباً في أن تنشب من أجل ذلك حرب أوربية ؛ وقد بذل جهوداً عديدة للتوسط في حل النزاع بطريق التفاهم ، ولكن تعنت هتلر وتسرعه حالا دون ذلك . ولما شعر هتلر بأن إيطاليا لن تجاريه في خوض غمار الحرب ، أعلن في خطابه الأخير الذي ألقاه في ٣١ أغسطس ، أن ألمانيا تعتمد على جيشها وحده ، وليست في حاجة إلى أية معاونة خارجية ؛ وفي مساء نفس هذا اليوم أعلن موسوليني أن إيطاليا لن تدخل حرباً اعتدائية ؛ ثم تكررت بعد ذلك التصريحات والقرائن بأن إيطاليا ستلتزم الحياد التام على الأقل في المرحلة الحاضرة .

وموقف إيطاليا الحالي يدل على حكمة وحصافة ، فهي بموقعها الجغرافي معرضة لتلقي أشد الضربات من جانب انكلترا وفرنسا ، وليست لها مصلحة تجنيها من وراء مناصرة ألمانيا في حركتها الباغية ؛ على أنه ليس ثمة ما يدل على أن إيطاليا سوف تلزم هذه الحيدة إلى النهاية إذا تطورت الحرب واتسع نطاقها . وقد وقفت إيطاليا مثل هذا الموقف في الحرب الكبرى ، ومع أنها كانت مرتبطة مع ألمانيا والنمسا بمعاهدة التحالف الثلاثي ، فإنها آثرت أن تبقى حيناً بمعزل عن الحرب ؛ ثم دخلت بعد ذلك إلى جانب الحلفاء لأنها رأت مصلحتها في ذلك . وليس من ريب في أن عقد الميثاق الألماني السوفيتي كان له في إيطاليا أسوأ وقع ، لأن ألمانيا التي جرت إيطاليا من قبل إلى عقد ميثاق مكافحة الشيوعية ، أقدمت على مصادقة روسيا دون مشاورة حليفتها إيطاليا ، وإيطاليا لا تزال على خصومتها لروسيا ؛ ومن جهة أخرى فقد قضى عقد هذا الميثاق على صداقة اسبانيا لمحور برلين رومه ، وأضاع بذلك آمالاً كانت تعلقها إيطاليا على هذه الصداقة .

وعلى ذلك فمن المرجح أن تبقى إيطاليا على حيدتها حيناً ، وأن تسترشد إذا دخلت الحرب بمصالحها قبل كل شيء ؛ وليس بعيداً أن يقع التفاهم بين إيطاليا وحليفتيها القديمتين انكلترا وفرنسا على مزايا ومنافع ترضى بها الدولتان الديمقراطيتان أماني إيطاليا ، فتلتزم الحيدة إلى النهاية أو تقاتل إلى جانب المعسكر الديمقراطي كما حدث في الحرب الكبرى .

إن المعركة لا تزال في بدايتها ، ومن الصعب أن تقع الآن على مواطنها الحساسة ، فلا بد من أن نتتبع خطواتها حيناً ، قبل أن نحاول تعرف هذه المواطن .

(***)

٢ - الحكاؤون!

اصطمبول

للأستاذ عبد العزيز البشرى

وترى أنى خالفتُ الكاتبين إلى رسمها بالصاد لا بالسين ؛ وذلك لأجارى منطق الناس كافة ، لثقل النطق بالطاء بعد السين الساكنة . ولقد يكتبونها فى بعض الأحيان (إسلامبول) ، فإذا نسبوا إليها (فى الكتابة لا فى النطق) كتبوا (الاسلامبولى) ، على أنهم إذا تكلموا قالوا : « رأيت سى محمد الاصطمبللى » ، و « سافر سى حسين الاصطمبللى » الخ .

ومن أسماء هذا البلد القسطنطينية ، والآستانة ، وقَرُوق (وهذه لا أعرفها إلا من شعر شوقى بك عليه رحمة الله) ؛ ودار السعادة (على ألسن العرب) و (در سعادت) على ألسن الترك والمتترّكين .

وحقيقٌ بمثوى الخلافة الإسلامية أن يكون له كلُّ هذه الأسماء ، وأكثرُ من كلّ هذه الأسماء . ولا ننس مثوى الخلافة الإسلامية فى عهد العباسيين ، فلقد كان من أسمائها : بغداد ، بغداذ ، بغدان ، بغداذ ، بغدان ، مدينة المنصور ، مدينة السلام الخ . ولقد قال المتقدمون : إن كثرة الأسماء دليلٌ على شرف المسمّى .

وبعد ، فلقد علمتَ أن كثيراً من المصريين كانوا يحجّون فى مطالع الصيف من كلّ عام إلى دار الخلافة ، ثم يعودون ، إذا عادوا ، فيحكون ، شأنَ وصفائهم من روّاد بلاد الشام .

على أن الحديث ، كما قلتُ لك فى المقال السابق ، مختلفٌ بين الفريقين جدَّ الاختلاف ؛ فإنك قلّ أن تسمع من روّاد اصطمبول حديث (البقلاوة) ، أو (اليلنبج صُلمة) ، أو (الأمام بِيلدى) ، وأرجو أن تفخّم اللامَ فى هذه بكلّ ما تستطيع من التفخيم .

إذن لم تكن جمهرةُ أحاديث هؤلاء مما تتحلّب له الشفاه ، ويتنزّى على ذكره عصبُ المَعِد . بل لقد كان حديثُ (حكائيهم) فى السياسة العليا ، وفى شوكة السلطان ، أو الخليفة ، أو (البادِيشاه) ، وما له من قصور ، تزخر بالبيض الحُور ، وما تُخرج (بلدز) للمقرّبين من موائد تُعدُّ فى كل يوم بالآلاف ، تجمع كلُّ واحدةٍ منها عشرات الصِّحاف ، الخ .

أما جنود السلطان وفيالقه ، وجيوشه وكتائبه ، فمثا (لو رمى بواحدة منها مناكبَ الأرض لم تثبت على قدم) !

وناهيك بما أصاب هؤلاء الروّاد من مُتَع دونها ما وُصف به نعيمُ أهل الجنة . وناهيك بما وقفوا عليه من أسرار السياسة ، سياسة (الباب العالى) التى سيَدين لها العالم ، وتُحشَر بين يديها دولُ الأرض فى قريب من الزمان !

وقبل أن أعرض عليك نماذجَ من أحاديث أولئك

الحــاكمين ، أرى لزاماً أن أقرر أن عيش الحرّ في تلك البلاد ، في عهد السلطان عبد الحميد ، لم يكن إليه سبيلٌ بحال من الأحوال . ويحسْب المرء أن يرفع بصرَه إلى قصرٍ من القصور السلطانية ، أو يحرّك لسانه بكلمة واحدة في السياسة ، أو يذكر الجيش ، ولو بالخير ، أو ينطق باسم (عبد الحميد) يريد به أيّ إنسان كان . بحسْبه شيءٌ من هذا ونحوه لتخطفه (الخَفْيَة)[1] خطف العِقبان . وسُرعان ما تُلقى به في مُطبِق[2] يظلّ يتخبّط في ظلامه الأيامَ الطوالَ ، حتى يأذن الله بطلعة (المستنطق)[3] . فإذا قضى أياماً أُخرَ بين (السين) و(الجيم) وقف المسكين على مفترق الخطوط ، فإما إطلاق ، وهذا هو الفوز الأكبر ، وإما أمرٌ بترك البلاد ، إذا لم يكن من أهلها ، وهذا هو الفوز (نمرة ٢) . وإما تَركٌ له في السجن ونسيان ، حتى يأذن الله بالفرج بعد عام أو أعوام . وإما نفيٌ في بعض قواصي الولايات ، وإما إلقاءٌ في البسفور ، حيث يُضرَّح له في بطون الحيتان !

والعجب أن عثمانياً لم تطُل خلافته كما طالت خلافةُ عبد الحميد . والأعجب أن استبداداً وعسفاً وتخريباً لم يفشُ في تلك المملكة كما فشا الاستبدادُ والعسفُ والتخريبُ في عهد عبد الحميد . ولم يخرج عنها من ولاياتها ولم يُقتطَع من أملاكها كما خرج واقتُطع في عهد عبد الحميد . وأعجبُ الأعجب ، بعد هذا كله ، أن جمهرة المصريين لم يحبّوا أحداً كما أحبوا عبد الحميد ، ولم يَدينوا بالولاء الحادّ لإنسان كما دانوا لعبد الحميد ، ولولا بقيةٌ تمسكهم من دين لعبدوه مع الله ، أو لعبدوه من دون الله ، والعياذ بالله ، وأستغفر الله العظيم !

وذلك الحب المتمكن من النفوس ، والمتغلغل في القلوب يرجع إلى أسباب لا محلّ لبسطها في هذا المقال . وكيفما كان الأمر ، فإن السلطان عبد الحميد لقد بلغ من نفوس المصريين ، على الخصوص ، موضعَ التقديس والتنزيه ، حتى إذا لاح في خاطر المرء لائحٌ من الإنكار لبعض حكمه وتصريفه ، أسرع فردّه ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم !

ولم يكن أعوان السلطان على إدارة الشئون وتصريف الأمور هم الوكلاء (الوزراء) ولا مَن دونهم ممن يَشغَلون عُليا المناصب في الدولة . بل لقد كان الرأيُ قسمةً بين السيد أبي الهدى الصيّادي (من مشايخ الطرق الصوفيّة) ، والشيخ ظافر (شرحه) ، وعزت باشا العابد . ولا أدري ماذا كان منصبه ، ولا ننس نفوذَ الباش مُصاحب (الباش أغا) أو كبير الخصيان في قصر السلطان . أما آخر من يتحدث على أيّ أمرٍ من الأمور ، أو يُرجَع إلى رأيه في شأن من الشئون ، فهو صاحبُ الفخامة الصدر الأعظم . وكان يتقدّم بحكم (البروتوكول) على خديو مصر في تلك الأيام . ولهذا ظل المرحوم خليل رفعت باشا صدراً أعظمَ في أكثر عهد السلطان عبد الحميد ، لأنه لم ينطق في الشئون العامّة بكلمةٍ واحدة !

وعلى الجملة . فلقد أثمر هذا النظامُ كلَّ ثمراته من إشاعة الدسّ والكيد ، والسعاية والوقيعة ، والبطش والتنكيل ، وإهلاك أصحاب الكفايات أو إبعادهم ، وتقريب الجواسيس[1] وإطلاق أيديهم في أرزاق الناس وأعمارهم . وأضحت الرشوة هي السبيل إلى نيل الحقوق وإلى غصب الحقوق على السواء . وتبع ذلك ما ينبغي أن يتبعه من

---

(١) الخفية : البوليس السرّي ، وكانوا يدعون رئيسهم (سرْخفيت) ، ولما أعلنت الحرية في سنة ١٩٠٨ مزّق الأهلون فهيم باشا (السرْخفيت) تمزيقاً ، وألقوا بلحمه مُزَعاً إلى الكلاب .

(٢) المطبق : السجن تحت الأرض .

(٣) المستنطق عند الأتراك : المحقق .

(١) قدم السيد جمال الدين الأفغاني من الآستانة فقيل له : كيف رأيت ؟ قال : رأيت نصف القوم جاسوساً على النصف الآخر !

جدب العقول، وفقر الجيوب، وتقلّص الأفكار، وخمود الحريات؛ وأسرع الفساد إلى جميع المرافق، ولحق الخرابُ عامة البلاد، ولم يبقَ عامراً في الدولة كلّها إلا (الجيب الهمايوني) الذي تُعصر له الرعيةُ عصراً كلّ صباح ومساء، في ضرائب لا يتناولها الحصر ولا يدركها الإحصاء!.

ولقد جرى الولاة في ولاياتهم على هذه الأساليب، وكذلك المتصرفون في متصرفياتهم، والسناجقُ في سناجقهم، وسائر العمال في أعمالهم. وكيف لهم بالعيش إذا كانت وظائفهم وأرزاقُ مَن قِبلهم من الجند تحبس عنهم الأشهر بل السنين؟!.

وولّ هنا ما يجب أن يلتبه من ضعف الدولة ووهنها، وعجزها عن حماية أرضها، وتمكين سلطانها في ملكها. فجعلت ولاياتُها تنسلخُ منها واحدةً في إثر واحدةٍ، حتى بلغت عدةُ الولايات التي خرجت عن حكمها في عهد السلطان عبد الحميد وحده قُرابة الثلاثين!

ومع هذا وهذا وذلك يأبى الحكاؤون إلا أن يشيدوا في المجالس بما أصابوا في (دار السعادة!) من المتاع، وما تقلبت فيه أعطافهم من النعيم، وما شهدوا من مجد الدولة وسلطانها، وما اطلعوا عليه من أسباب قوتها وبأسها، وما انتهى إلى علمهم من أسرار سياستها التي تعيي الأفكار وتعز على الأفهام، وإن كانت ثمراتها الضخام، ستجنى بعد أعوام أو بعد أيام!.

***

ولقد استهلكت هذه المقدماتُ التي لا بد منها القدرَ المقسوم لهذا المقال، فلترجئ عرضَ نماذج (الحكائين الاصطمبليّين) إلى يوم آخر إن شاء الله.

عبد العزيز البشري

فن الشيخوخة !

للأستاذ شفيق جبري

هل من سبيل إلى التفلّت من الشيخوخة ؟ أو هل من سبيل إلى أن نشيخ شيخوخة حسنة ؟ وفي عبارة أدق : هل للشيخوخة فن من الفنون ؟

هذه مسائل توسع في الكلام عليها وعلى شُعبها « أندريه موروا » في فصل من فصول كتابه « فن الحياة » ؛ وإذا كنا كثيراً ما نشير إلى الشباب في أدبنا، ونتغنى بنضارته، فلست أدري لماذا لا نجعل لشيخوختنا نصيباً من هذا الأدب ؛ وسواء أكانت هذه الشيخوخة تبتدئ من الأربعين على رأى بعضهم، أم من الخمسين على رأى آخرين، فلماذا لا نُعنى بفنها، أي لماذا لا نقاوم آفاتها، حتى تكون خاتمة حياتنا على الرغم من هذه الآفات خاتمة حسنة ؛ فالناس الذين يعرفون أن يكونوا شيوخاً قلائل على نحو ما قال « لاروشفوكو » ؛ والفرح المتكامل على نحو ما قال « كورني » لا يدخل في المساء إلا على قلوب الذين عرفوا أن لا يذهب نهارهم سُدًى !

نستغرب جدًّا أمر الشيخوخة، وقد يبلغ من استغرابنا لهذا الأمر أنّا لا نكاد نصدق أن هذه الشيخوخة تدركنا كما أدركت غيرنا، ولا نكاد نرى آثار السنين على وجوهنا، وعلى رؤوسنا، وعلى قلوبنا، إلا بعد أن نراها على رجال من أعمارنا، فكأن وجوه هؤلاء الرجال مرايا تتراءى لنا فيها تجعّدات وجوهنا.

قد نريد أن نعرف متى تبتدئ شيخوختنا، فإنا نظل زمناً طويلاً من حياتنا نعتقد أنها لا تصيبنا، فقد تحتفظ أذهاننا بمرحها ونشاطها، وقوانا بسلامتها، فالانتقال من الصبا إلى الشيخوخة بطيء جداً، حتى إن الإنسان لا يكاد يشعر به من هذا البطء ؛ وما مثلنا في هذا الانتقال إلا كمثل فصول السنة الأربعة، فإن الخريف يتبع الصيف، والشتاء يتبع الخريف، ولكن هذا التتابع يجرى كل يوم على التدريج بحيث لا تكاد عين المراقب تراه ؛ فالخريف يتقدم كل يوم وقد لفّته أوراقه، وفي صبح من أصباح تشرين الثاني تهب ريح شديدة، فتجرد هذا الخريف من قناعه المذهّب، فيلوح من وراء هذا القناع هيكل الشتاء الذ بل، فالأوراق التي كنا نعتقد أنها لا تزال مخضرّة، قد ماتت، ولم تبق متشبثة بأغصانها إلا بفضل ألياف دقيقة جداً، فالريح التي هبت قد أظهرت المرض ولكنها لم تخلقه.

وهكذا فإن أمراض الشيخوخة إنما هي بمنزلة هذه الرياح ؛ فقد تقع العين على فلان، فنعجب من قوته ومن نشاطه، ومن خفة روحه، ومن لمح أحاديثه ؛ ولكنه يتعرض في يوم من الأيام لأمر من الأمور لو تعرض له شاب من الشباب لما أصابه منه إلا زكام أو وجع رأس ؛ أما هو فتصيبه ذات الرئة أو غيرها، فيصفر وجهه في قليل من الأيام، ويتقوّس ظهره، وينطفئ نور عينيه ؛ ففي دقيقة من الدقائق نصبح شيوخاً، ولماذا ؟ لأننا شخنا قبل هذه الدقيقة، ولكنا لم نشعر بهذه الشيخوخة ولم نرها !

غير أن الشيخوخة لا تكون بنت الشعرات البيض، أو التجعدات، وإنما علامة الشيخوخة هذا الشعور الذي نشعر به في أعماق قلوبنا، فنقول مثلاً : لقد مضى وقت كنا وكذا . . . ولم نعد صالحين لكذا وكذا . . . وأبطال الحياة بعد اليوم هم ناس غيرنا . . . فرض الشيخوخة الحقيق لا يكون في ضعف الجسم، ولكنه في عدم مبالاة النفس، فإن الرغبة في العمل بعد الأربعين أو بعد الخمسين

هي التي تقل أكثر من القدرة على العمل . إن الذي يقل بعد هذه السن إنما هو هذا النشاط في الشباب ، وهذه الرغبة في المعرفة والفهم ، وهذا الإغراق في الأمل ، وهذا السلطان في الحب ، وهذا الإيمان بنجوع العقل ! فهل من سبيل إلى الاحتفاظ بهذه الأمور كلها بعد الخمسين حيث تمتلئ العيون ، فترى الأشياء والأشخاص كما هم ، لأنها لا يبهرها ضياء الرغبة ؟ في مثل هذه السن يبدأ الشيخ بقوله : ما الفائدة في كذا وكذا . . . وهذه العبارة أخطر شيء في حياته ، لأنه بعد أن يقول : ما الفائدة في كذا وكذا . . . يقول : أي فائدة في الخروج من داري . . . ثم يقول : أي فائدة في الخروج من غرفتي . . . ثم يقول : أي فائدة في الانحدار من فراشي . . . ثم يقذف بهذه العبارة الراعبة : أي فائدة في الحياة كلها . . . وهنا تفتح أبواب الموت على مصاريعها !

فهل يستطيع الإنسان أن يفلت من آفات الشيخوخة ، التي تضعفنا ، وتحرم علينا لذات الحياة ، لذة بعد لذة ، وتيبّس قلوبنا كما تيبّس أجسامنا ، وتبعد عنا الأصحاب وحوادث الحياة ، وتلوّح لنا بفكرة الموت ؟

لقد هدتنا الحضارة والتجارب إلى أمور نستر بها شيخوختنا إن لم نقدر على دفعها ؛ فالزينة في هذا الباب لها عظيم الشأن ، فإن العجائز يمتزن بثيابهن وبحليهن أكثر من الفتيات ، وهذا أمر بديهي ؛ فإن الحلى اللامعة من شأنها أن تستميل النظر إلى صاحبتها ، وأن تدفع العيون عن التمعن في مقابحها ، فإن لمعان عقد اللؤلؤ في عنق من الأعناق يكاد ينسى الناظر إليه تجعدات هذا العنق ، وبريق الخواتم في الأصابع ، والأساور في المعاصم يكاد يخفي شيخوخة هذه الأصابع وهذه المعاصم ، وما يقال في زينة الحضارة يقال في وشم البداوة ؛ وكل مهارة الخياطات ودور الجمال في هذا العصر قائمة على اختراع زي من الأزياء تظهر به العجائز في صورة تجعل لهن بعض الأمل . . !

فهل يستطيع العلم في يوم من الأيام أن يمنع الشيخوخة من تهديم أجسامنا ، لقد قالوا إن الإنسان لا تتوقف معرفة عمره على تذكرة ميلاده ، ولكن على شرايينه ومفاصله ، فقد يجوز أن يكون ابن الخمسين أعجز من ابن السبعين ، وعمل العلم في مثل هذه الحال رد خلايا الجسم إلى حالة فيزيولوجية تنعم فيها هذه الخلايا بشيء من الشباب . ولقد جرب العلماء هذا الأمر على الحيوانات وعلى الرجال ، و « عمليات فورونوف » لم تنقطع بعد في العالم ، إلا أن هذا كله لا يهم ، فالرجل في هذا العصر يستطيع أن يبلغ الثمانين إذا اتبع قواعد الصحة .

في ثمانين سنة يرى الإنسان كل شيء في هذه الدنيا : يرى الحب وخاتمته ، ويرى المجد وبطلانه ، ويرى جنون الناس ببعض المعتقدات الحديثة والشفاء منه . ورهبة الموت بعد هذا كله لا تكون شديدة ، لأن القلب في الثمانين يتعلق بأشخاص درجوا ، وبحوادث مضت ؛ وكما يسأم المتفرج في السينما وحدة المناظر إذا تعاقبت عليه فيترك السينما ، فكذلك ابن الثمانين يسأم وحدة الحياة التي يشهدها ، والحياة إنما هي مسرح مستمر !

فليس المهم أن يفلت المرء من الشيخوخة ، ولكن المهم أن يشيخ شيخوخة حسنة ؛ فالذي نطمع فيه إنما هو بلوغ آخر مرحلة من مراحل الحياة وقد سلمت أجسامنا وعقولنا من الآفات ؛ فهل هذا الأمر ممكن ؟ إنه ممكن كل الممكن على رأي « موروا » ، فليس من الضروري أن تكون الشيخوخة ممزوجة بالآفات التي عرفناها ؛ فكثير من الحيوانات تنتقل من الحياة إلى الموت دون تغيرات ذات شأن ، والرجل الذي يروّض جسمه ترويضاً حسناً يستطيع أن يحتفظ بمرونة هذا الجسم وبلطفه زمناً طويلاً ، فالرياضة والمواظبة عليها لها شأن عظيم في هذا الوجه .

ولكن رياضة الجسم وحده غير كافية ، فالقلب في حاجة ماسة إلى الرياضة ، إلا أننا لا نستطيع أن نخلق في قلب الشيخ عواطف حديثة ؛ ولكن لماذا يمنع الشيخ عن عواطفه نفسها لمجرد السن ؟ قد يكون الشيخ العاشق

مُهزأة ، ولكنه لا يكون هزأة إلا إذا نسي أنه شيخ ، فليس في تحاب زوجين عجوزين شيء من السخرية ، فكل واحد منهما يرى في صاحبه ما كان يحب منه في زمن الشباب ، فليس للعطف ولا للحنو ولا للود ولا للإعجاب بشخص عمر من الأعمار ؛ وفضلا عن هذا كله فإن الحب إذا انقضى الشباب العاصف قد يصبح لذيذاً ، لأن الاختلافات الحسية تزول بزوال شهوة الحواس ، فتنشأ عن بقية شباب عاصف شيخوخة فاتنة ، فإن حياة الزوجين تشبه هذه الأنهار التي تكون عند منبعها بمنزلة التيارات الهادرة ، ولكنها عند المصب تصبح سواقيَ هادئةً صافية ، ينعكس على مرآتها حَوْزُ الشواطىء ، وكواكب الليل !

على أن الحياة العاطفية ليست مركبة من عواطف الحب وحده ، فإن التعلق الذي يتعلقه الشيخ بأولاده وبأحفاده قد يملأ حياته ويشغلها ، فإنه يجد لذة عظيمة في رؤية ابنه أو ابنته يندفعان في الحياة . إنا نفرح بسعادة أولادنا ، ونألم لآلامهم ، ونشترك في تظالمهم ، ونحب من يحبون ؛ فبعد السرور الذي نشعر به في التفرج في ملعب من الملاعب في المرة الأولى ، أفلا نشعر بسرور أشد في الذهاب بأولادنا إلى هذا الملعب ؟ وبعد السعادة التي نذوقها في الاهتداء بأنفسنا إلى الشعراء الذين نحبهم ، أفلا نذوق سعادة أكبر في أن نراقب على وجوه أولادنا آثار اللذة التي يجدونها في قراءة ما اخترناه لهم من الكتب ؟ وفي الوقت الذي تحرِّم علينا الشيخوخة أفراحنا العظيمة ، أفيمكننا أن نعرف فرحا أعظم من الفرح الذي ندخله على قلوب هؤلاء الأولاد ؟

وكما أنه ليس من الضروري أن تضعفنا الشيخوخة ، وأن تحرِّم علينا الملذات ، وأن تيبِّس قلوبنا ، فكذلك ليس من الضروري أن تبعد عنا الأصحاب ، فإن الشيخ لا يعتزله الناس إلا إذا كان صاحب أثرة ، بخيلا ، ميالا إلى الانفراد بالحكم ، زناراً ، ولكنه إذا فطن لعيوب الشيخوخة فقاوم هذه العيوب ، وشاخ كريماً ، متواضعاً ، محباً ، فإنه يجد الشباب يفتشون عن صداقته ، ويستعينون بتجاربه ، ولكن اللباقة كل اللباقة بنقل هذه التجارب إلى الأحداث دون أن يؤلمهم في نفوسهم .

لقد تعوَّد «موروا» أن يزور «هانوتو» كل سنة في منتصف دسمبر ، وفي زيارة من الزيارات قال له «هانوتو» :

« أريد أن أبين لك بعض حكم يلزمك أن تكررها إذا احتجت إلى شيء من العزاء والتسلية ، إنها حكم بسيطة وناجعة ، وهذه هي : قد يحدث في الدنيا كل شيء ... وقد ينسى الإنسان كل شيء ... وقد يدبر الله كل شيء ... إذا كان الناس كلهم يعلمون ما يقوله الناس بعضهم في بعض ، فلا يكلم حينئذ أحد أحداً ... لا تخف فإن العدو الذي تهرب منه يخافك في وقت هربك منه ... » .

فهذا شيخ علمه التاريخ وممارسة الحياة الطويلة الهدوء والثقة ، ولم يعطه اليأس وعدم المبالاة ؛ فقد كان « هانوتو » وهو ابن خمس وثمانين سنة يعزم ألف عزيمة ، ويفكر في أسفار طويلة ، ويبني ويغرس ؛ فهكذا ينبغي لنا أن تكون شيخوختنا ، يجب علينا أن نقاوم عدم مبالاة النفس الذي ينشأ عنه اليأس والقنوط ؛ وقد يظن الإنسان أن الحياة العاصفة ، حياة الانفعالات الشديدة ، والمقاومات ، والمطالعات ، والتنقيبات قد تتعب الإنسان وتهدمه ؛ ولكن الواقع غير هذا كله ، فقد كان « كلنصو » و « غلادستون » رئيسي وزارة من بعد الثمانين ، وكان الناس يدهشون من نشاطهما ومن شدتهما ؛ فالشيخوخة عبارة عن عادة سيئة ، فالرجل المشغول لا يجد متسعاً من الوقت لاعتياد هذه العادة .

وخلاصة القول قد تجرِّدنا الشيخوخة من القوة ، ولكن مسألة القوة والضعف إنما هي مسألة صحة لا مسألة سن ، فلبعض الشيخوخات شدة ، ولبعض الشبيبات

(البقية على الصفحة التالية)

من قصص العرب :

الملك الضِّليل

(٤)

«عبير العصا»

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ملخص لما سبق :

[كان امرؤ القيس بن الملك حجر الكندى ملك بنى أسد ، فتى شاعراً وثاب العواطف ؛ وكان يحب فاطمة الجميلة ، وهى فتاة من بنى عمومته ؛ وكان يخلص لها الحب ؛ ولكنه كان مع ذلك يميل إلى مداعبة سواها من النساء ... وحدث يوماً أنه كان يحادث بعض الفتيات عند دارة جلجل وهى تبصره وهو لا يعرف ، فغضبت منه وأخبرت أباها ، فنزح من جوار ابن عمه الملك حجر ... وشق بعدها على امرئ القيس ، فمرض وكاد يهلك ؛ ولما شفى من مرضه تغيرت طباعه ، وانحدر إلى هوة بعيدة من الفساد والمجون ، والاغراق فى شرب الخمر ، ومصاحبة الغواة ؛ فسمع أبوه بذلك وتجسس عليه بنفسه حتى عرف مبلغ ما نزل إليه من الغواية ، فأمر بقتله وحمل عينيه إليه ... ...]

ذهب ربيعة إلى حجر يحمل إليه عينين فى طبق صغير وهو ظاهر الاضطراب ، فنظر حجر إلى العينين نظرة تجلّد ، ثم أطرق ؛ وبدا عليه ما ينم عن صراع بين كبريائه وعاطفته . وأدرك ربيعة أن الرجل قد ندم على أمره بقتل ولده ونزع عينيه ؛ وحمد إلهه (الأقيصر) على أن ألهمه ألا يقتل الفتى ، وأوقع الرحمة فى قلبه فأخفاه فى بيت فى واد بعيد ، بعد أن جعل فى يديه ورجليه الأصفاد والقيود ، وأقام حوله من بنيه وبنى إخوته حراساً يحرسونه حتى لا يهرب ، أو يعرف بعض أصحابه مكانه فيحملوه ويهربوا به . ولما رأى ربيعة أثر الرقة فى وجه مليكه تجرأ وقال له : «أبيت اللعن ، هل بك وجد علىّ من قتل الأمير ؟»

فلم ينظر إليه حجر ، بل أخذ الطبق وجعل ينظر إلى العينين اللتين وضعتا فيه ، وتنفس نفَساً عميقاً ، وجالت فى عينيه دمعة حاول أن يخفيها عن جليسه .

فتأكد ربيعة أن الرجل قد ندم على أمره ، وأنه موشك أن يوقع به على التسرع فى قتل ولده ، فقال مبادراً : «أو يسرك أنى لم أكن قتلته ؟»

رخاوة ؛ وقد تجرّدنا الشيخوخة من اللذّات ، ولكن لها لذّاتها الخاصة ، وقد يكون حبها لهذه اللذات على قدر خوفها من فواتها ؛ وقد تجردنا الشيخوخة من العمل ، ولكن الشيوخ فى معظم الأحوال يعملون ، ويقودون ، ويحكمون ، فلا يجاريهم الشباب فى عملهم وفى قيادتهم وفى حكمهم ؛ وقد تجردنا الشيخوخة من الأصدقاء ، ولكن إذا عرفت كيف تستميل إليها الأصدقاء فإنهم يحيطون بها ؛ وأخيراً فقد تخشى الشيخوخة الموت ، ولكن هذا الخوف يشفيه الإيمان والفلسفة !

(دمشق) شفيق جبرى

فرفع حجر رأسه محنقاً ، وكاد يرميه بكلمة غاضبة ، لولا أن رآه يبسم وهو ناظر إليه ، فتردد وداخله الشك فى أمره ، وقال بعد لحظة وفى صوته تلهف : « أو لم تفعل بعد يا ربيعة ؟ »

فقال ربيعة متظاهراً بالاعتذار : « عفوك يا سيدى ، فان أمر الغاضب فيه قسوة ، وقد علمت أنك قد تعود إلى نفسك فتمقتها حيث لا ينفع الندم ، ولهذا آثرت أن أجرؤ على عصيانك ، والأمر بعد فى متناول يدك ، فالفتى فى قيوده عند وادى « القراة » ، وحوله حراس لا يفلت منهم حيا » .

فأطرق الرجل ، وقد بدا عليه الارتياح ، وتنفس كمن انزاح عن كاهله عبء ثقيل ، ثم رفع رأسه بعد حين وقال : « أحسنت يا ربيعة ، فديتك بالأكرمين ! »

ثم قام ووضع يده على كتفه ، مظهراً له شكره ، وقال له : « ولكن بقاءه بين ظهرانينا بعد اليوم مفسدة لأمورنا » .

فأسرع ربيعة مجيباً : « له فى بلاد أعمامه مندوحة » .

فكأن هذا القول فتح لحجر باباً مغلقاً ، فالتفت مسرعاً إلى تابعه الأمين وقال له : « جهزه اليوم ، فلا أرينه مقيما فى بنى أسد بعد هذا » .

وانصرف ربيعة مسرعاً لينفذ أمر مولاه ، فما جاء الليل حتى كانت الإبل التى تحمل امرأ القيس مع صحبه تضرب فى كبد الصحراء ، ميممة شطر الشرق إلى بلاد عمه الملك سَلَمة بن الحارث ، الذى كان يحكم قبائل قيس عيلان بن مضر .

كانت شواغل حجر لا تترك له فراغا للتفكير فى أمر ولده ، وكانت الحوادث تتوالى سرعاً ، لا يخلو يوم بغير حدث جليل منها ؛ فكان كل همه أن يحتال فى تصريف ما يعرض من أموره ، وتلافى ما يتوقع من مخاوفه ؛ فمضى عليه بعد سفر امرىء القيس أعوام وهو لا يكاد يجد فراغا من وقته لتذكر ابنه النازح ، أو لمعرفة أخباره . ولم تكن لابنه أخبار مما يجرؤ أحد أن يحملها إليه . فقد ترددت أنباء سيرته فى أركان بلاد العرب أنه أمير خليع ، لا يبقى طويلا فى منزل ، ولا يستقر فى جوار أهل . كلما حل فى قوم من قرابته أحدث فيهم حدثاً ، فبرموا به وبرم بهم ؛ فلم يبق معهم ، وانصرف عنهم يلتمس إشباع نفسه ورى قلبه المتأجج ، حتى صار خليل ذؤبان العرب وصنو صعاليكهم ، يتنقلون بين العيون والرياض لا يأكلون إلا من الصيد ، ولا يقضون دهرهم إلا فى القصف وشرب الخمر ، ولا يتسلون إلا بمصاحبة القيان فى مجالس صاخبة ، طربها من غناء المزاهر ، وسمرها من نشيد أشعار امرىء القيس . تلك الأخبار لم تكن تبلغ حجراً ، بل كانت تقف عند بابه يتناولها أعداؤه فيتخذونها وسيلة للحط من شأنه والتحريض عليه وهو جاهل بها مشغول عنها .

وكان الاضطراب يشمل أنحاء نجد وأكناف العراق لا يخلو فيها يوم من حدث جديد .

مات العاهل العظيم قباذ ، واهتزت فارس لموته هزة عنيفة انتقلت إلى كل ما يليها من صحارى بلاد العرب ؛ فقد كان قباذ ملكا ثائراً جريئاً قلب العادات ، وعصف بالعقائد الموروثة ، وأعلى سفلة من قومه وأذل علية . وكان من آثار جرائه أن نقل زعامة العرب من البيت القديم الذى عاشر بيت أجداده أباً بعد جد ، وكان ساعدهم الأيمن فى الدفاع عن حدود فارس من غارات قبائل العرب ، ذلك البيت الذى لا تخلو قصة عربية من ترديد أسماء ملوكه وأمرائه ، بيت بنى نصر اللخمى ، بيت النعمان والمنذر الذى انعقد له لواء القبائل من قحطان اليمنيين ، ودانت له الرؤوس من النجديين أبناء نزار — قبائل مضر وربيعة وإياد وأنمار ؛ نقل قباذ الزعامة من ذلك البيت العريق ، فطرد

الملك الكبير المنذر بن ماء السماء من مقر دولته بالحيرة ، وحمل فى مكانه سليل بيت آخر ، بيت آكل المرار الكندى اليمنى ؛ فاختار الأمير الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد ، وعقد عليه تاج الحيرة .

وامتد سلطان الحارث الكندى فشمل حدود العراق وبلاد نجد جميعاً ، ووزع أبناءه على قبائل نزار ؛ فكان نصيب ابنه حجر بن الحارث حكم قبائل بنى أسد ، وقبائل غطفان ، وكان نصيب أبنائه الآخرين حكم ما بقى من قبائل كنانة وربيعة وأنمار وإياد .

فلما مات قباذ ، هُدَّ بموته الركن القوى الذى كان دعامة ملك الحارث وبنيه ، وأخذت الثورة الكامنة فى قلوب منافسى بيت كندة تسرى وتضطرم فى الخفاء ، يندلع منها بين حين وآخر لسان من اللهيب ينذر دولة الحارث الكندى بالزوال .

وتولى ملك فارس بعد قباذ الملك العظيم خسرو الأول ، كسرى (أنوشروان) ، وكان أول همه بعد توليه ملك آبائه أن يعيد إلى دولته ما اختل من نظامها ، وأن يرد أمورها إلى ما كانت عليه قبل أيام أبيه ؛ وكان (أنوشروان) داهية لا يُجارَى فى دهائه ، وشديداً لا يُبارى فى نضاله . فدسّ الدسائس ، وجرد الكتائب ، وبعث الرسل ، ومنّى وأهدى ، وتلطف وتوعد ، وأوقع وفتك ، فإذا الدولة العظيمة تهتز كما يهتز البناء الشامخ فى الزلزال الهائل ؛ وإذا بالحارث بن عمرو الكندى يحس بعرشه يرتج من تحته رجة تنذر بأنه مندك بعد قليل .

وكانت الأخبار المزعجة ترد إلى حجر بن الحارث وهو مقيم فى غربى أرض نجد بين بنى أسد ، تنبئه بحرج موقف أبيه وما يحيط به من المتاعب ، وتحمل إليه أنباء الثورات التى اندلعت فى القبائل التى يحكمها إخوته فى الأركان الأخرى من وديان نجد وفيافى اليمامة .

وحشد أبناء الحارث كل ما استطاعوا حشده من قبائل العرب لنصرة أبيهم الملك العظيم الذى يستظلون فى الحكم بجاهه ، وبذل حجر فى نصرة أبيه كل ما فى يده من أموال وقوة ، لأنه شعر كما شعر إخوته أن زوال ملك أبيهم عن الحيرة يقوض أركان ملكهم المزعزع الذى لم يكن له دعامة غير القوة والرهبة والجبروت .

بعد هذه الأعوام كان حجر يجلس يوماً فى خيمة فسيحة فى أقصى أرض من بلاده ، وقد ذهب إليها ليشرف على جمع الأموال من قبائل بنى أسد ، فإن السنين الغابرة علمته أن تلك القبائل تقاوم جُباته وتعصى أوامره ، وتمانع فى دفع الأموال إلى أتباعه وعماله ؛ فكان كلما أراد جباية المال من قبيلة ذهب إليها بنفسه ، لكى يشعرها بقوة جنوده ورهبة سلطانه ، فتبذل كارهة ما لا يستطاع أخذه منها عن رضى .

ودخل عليه ربيعة بن عمرو صاحب سره وهو جاهم الوجه متردد الخُطى . فرفع حجر بصره إليه وأدرك من منظره أنه قادم إليه بخبر مشئوم . فقد كان ربيعة وحده يجرؤ أن يحمل إليه الأنباء الصادقة . فقال حجر بعد أن أجلسه إلى جواره : « لعل هؤلاء القوم قد صنعوا ما صنع سواهم من الوثوب والعصيان . لا يحزنك ذلك فإنا نقدر أن ننزع منهم بالقسر ما لا يرضون بيذله طائعين »

فرفع ربيعة رأسه ببطء وقال بصوت ضعيف : « ليس ذلك ما جئت له »

فصمت حجر لحظة وقد أدرك أن فى الأمر خطورة غير ما حسب ، ثم قال متكلفاً الهدوء : « فهل من جديد ؟ »

فهز الرجل رأسه متردداً ثم قال : « الحارث بن عمرو ، أبوك الملك الحارث »

فوثب حجر من مجلسه وقال فى ذعر : « هل قتل ؟ » .

فأسرع ربيعة مجيباً : « لا . لم يقتل ، ولكنه هزم وأخرج من الحيرة » .

فتنفس حجر وعاد إلى مجلسه متطرفاً وقال : « هل جاء بذلك رسول ؟ » .

فقال ربيعة : « لا . ولكني سمعت ذلك من صديق كان في الحيرة منذ حين . وقد حمل النبأ إلى هنا إذ عرف أننا بعيدون عن منازلنا » .

فقال حجر متلهفاً : « وهل سمع الناس النبأ ؟ » .

قال ربيعة : « لا . فإن عيوننا المبثسين بين القبائل لم يحملوا إلىّ أن أحداً يتحدث بهذا الخبر » .

فسكت حجر لحظة أخرى كأنه قد سُرّى عنه ثم قال : « لابد لنا من العودة إذاً » .

فهزّ ربيعة رأسه مصدقاً وقال : « إذا شئت فاليوم ، لأنني لا آمن بني أسد وفيهم ذلك الثعبان الأسود عبيد ابن الأبرص » .

فصرّ حجر بأسنانه غيظاً ، وقال : « فاليوم نرحل عائدين » .

وخرج ربيعة ليأمر بالاستعداد للسفر ، وليحاول التماس الأسباب التي يذيعها بين الناس تبريراً لذلك الرحيل السريع .

وبعد يومين من سير مجهد كادت الإبل تنقطع فيه بلغ حجر منازله في ديار بني أسد .

كانت عودة حجر في جنوده وأعوانه غير منتظرة ، فقد كان بنو أسد يظنون أنه يقضي زمناً طويلاً في جباية الأموال من غطفان ومن بطون بني أسد البعيدة عند حدود تهامة ، وكانوا فوق ذلك يتوقعون أن يجد هناك من المقاومة والعصيان مثل ما كان يجد في تلك الأعوام في كل أنحاء ملكه . فلما عاد حجر إليهم سريعاً أخذتهم عودته على غرة لأنهم كانوا يعدون العدة لثورة عامة يزيلون بها عن كاهلهم ظلم ذلك الرجل العنيف الذي ثقلت وطأته عليهم .

كان شيوخ بني أسد عند ذلك مجتمعين في ناديهم في ليلة مظلمة من ليالي الصيف الحارة ، وقد أوقفوا من حولهم حرّاساً خوف أن يندس بينهم أحد من أتباع حجر ، وجعلوا يتشاورون فيما هم فاعلون للوثوب والثورة قبل أن يعود إليهم في جيشه الفاتك . وكان معهم رجلان غريبان جاءا إليهم منذ يوم من الحيرة يحملان إليهم أنباء حوادثها الخطيرة ، ونزلا ضيفين على رئيسهم عمرو بن مسعود .

وفيما هم جلوس يتشاورون في أمرهم أقبل عليهم رجل مسرعاً فتبعه الحراس وجعلوا يشاحنونه حتى علت أصواتهم ، فقام عمرو بن مسعود ليعرف سر الضجة ، وبقي لحظة ثم عاد إلى أصحابه وهو صامت مهموم ، فجلس ملياً في صمت وعيون القوم ناظرة إليه ، ثم قال لهم في صوت ضعيف : « لقد عاد حجر » .

فأجابته أصوات فيها شيء من الذعر : « عاد حجر ؟ متى ؟ » .

فأجاب ابن مسعود : « عاد الساعة بعد أن قتل رواحله من السير الحثيث » .

فقال أحد الرجلين الغريبين : « لقد بلغه النبأ » .

فأجاب ابن مسعود مطرقاً : « لا ريب في ذلك ، وكأني بكم ترجعون عما كنتم عازمين عليه » .

فصاح رجل من الجلوس : « لا نرجع عن عزمنا وحق مناة ! » .

وكان ذلك الصائح شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص .

فسكت القوم حيناً ، ثم عاد ابن مسعود إلى الكلام ، فقال يخاطب الرجل : « ولكنا لا نستطيع يا عبيد » .

فصاح عبيد غاضباً : « إننا لن نجد بعد اليوم فرصة أخرى . . . » .

وأراد عبيد بن الأبرص أن يمضي في قوله ، فقاطعه شيخ من الجلوس قائلا : « خفض صوتك يا عبيد . . . قلت اليوم تنشد شعراً » .

ثم وجه الشيخ قوله إلى ابن مسعود فقال : « لقد علمت أننا لا نقدر على جنود حجر بغير نجدة من العرب ، فإنه فى جنود كندة وأعوان من كنانة ومن قيس ، وأنتم تعرفون ما بيننا وبين بكر وتغلب من العداوة ، فلن نجد منهم نصيراً عليه . ولسنا نتوقع أن تأتينا نجدة من المنذر قبل شهر من اليوم ، فهذا ما أنبأنا به ضيفانا الكرعان . فأولى لنا أن ننتظر فرصة أخرى ، فإن الإقدام على ما لا قبل لنا به يفسد علينا خطتنا ويبعد عنا قصدنا » .

فسكت القوم ينتظرون جواب ابن مسعود على ما قاله الشيخ الحارث الكاهلى وتحرك عبيد فى مكانه ضجراً ، ولكنه لم يقل كلمة .

وبعد حين قال ابن مسعود : « الحق ما قاله أبو غالب فأولى بنا اليوم أن نصبر حتى . . . »

ولم يتم الرجل قوله إذ علا صوت ضحكة سخرية من أحد الجلوس ، فالتفت الجمع كله إلى صاحبها ، وقال ابن مسعود وفى صوته رنة ألم وإنكار : « مم تسخر يا عبيد ؟ »

فقال عبيد وكان هو الضاحك الساخر : « أعجب لكم إذ تقولون نصبر وننتظر . أنسيتم أنكم قد بدأتم الوثوب بصاحبكم ؟ أنسيتم أنكم قد عصيتم أمره وضربتم جباته وأسلتم دماء رسله ؟ أتظنون حجراً يغفر لكم ذلك ولا يعاقبكم عليه . لكأنى به الآن قد عرف ما أحدثتم ، وكأنى برسله الساعة تسعى فى آثاركم وتشتد فى طلبكم » .

وما كاد عبيد يتم قوله حتى سمعت ضجة مقبلة من حوافر خيل وقعقعة سلاح وأصوات مختلطة حانقة . فقام الجميع فزعين ، وما كادوا يتبينون سبب الضجة حتى أحاطت بهم جماعة فى سيوف مشهورة ، وتقدم رئيسهم قائلا : « لا يتحركن أحدكم من مكانه » .

وما هى إلا لحظات حتى كان الشيوخ يسيرون فى قيودهم ، يساقون والجنود تدفعهم من ورائهم دفعاً عنيفاً ، حتى قذفوا فى خيام السجن والحراس من كندة يحيطون بها .

وقضى شيوخ بنى أسد تلك الليلة مع ضيفيهم الوافدين عليهم من الحيرة فى حراسة الجند يذوقون صنوف العذاب من ضرب بالعصا ووخز بالرماح ووطء بالأقدام . وكان الجنود لا يخاطبونهم إلا بالسب والوعيد لا يسمونهم إلا « عبيد العصا » ، وهم يهوون عليهم بالضربات الموجعة لا يبالون أين تصيب منهم .

وأتى الصباح فإذا بهم بين قتيل من أثر الضرب العنيف وجريح مما أصابه من وخز السلاح . وكان الشيخ الحارث الكاهلى المسكين من قتلى تلك الليلة .

كان حجر فى خيمته فى ذلك الصباح لا يستقر فى مجلس بل يذرع القبة الفسيحة ذهاباً وجيئة وهو مطرق مهموم . وكان وهو يخطو خطواته الواسعة السريعة يتكفأ كأنه ينحط من عل ، ويزيد به الغضب أحياناً فيفوه بلفظ حانق ، ثم يعود إلى نفسه فيمسك ويستمر فى سيره مطرقاً .

وا كتسى وجهه بلون قاتم من أثر الغضب ، يزيده سواداً لحية سوداء كثة تحيط به ، تتخللها خيوط من الشيب ، وتبدو شعثاء كأنها معرفة الأسد . وظهرت لمعة مخيفة فى عينيه المحمرتين ، فإذا اتجه بهما إلى شخص لا يطرف كأنه يهم بالوثوب عليه . وكانت رعشة خفيفة تعترى شعر شاربه وهو بين حين وآخر يجذبه بعنف ثم يرسله فى اضطراب . ودخل عليه الخيمة وهو على هذه الحال ربيعة ابن عمرو تابعه الخاص وهو فى عمامة خفيفة بيضاء وثوبين مخططين قد اتزر بأحدهما واشتمل بالآخر ، فوقف حجر ونظر إليه وقال بلفظ سريع خاطف : « هل تحملوا ؟ »

فقال ربيعة هادئاً : « نعم . . . وجئت مستأذناً فى تسييرهم » .

فقال حجر فى غيظ : « وتركت حراساً عند عمرو بن مسعود ؟ » .

قال ربيعة : « تركت حوله حراساً لا يوصل إليه من دونهم » .

فقال حجر : « وذلك الثعبان عبيد ؟ » .

قال ربيعة : « لست أعبأ به . لكأنى به نائم عندك بعد حين يتذلل ويتمرغ » .

فصر حجر بأسنانه ، وعاد إلى سيره السريع يخبط الأرض بقدميه ثائراً ، وقال من بين أسنانه : « لا رأيته إلا مضرجاً فى دمائه » .

ثم قال كأنه يخاطب نفسه : « لوددت أنهم جميعاً لحقوا بالحارث الكاهل ! فلم يبق منهم باق هذه الليلة . لم يشف قلبى من هؤلاء . . . إنهم يسيرون من هذه الأرض وهم أحياء » .

فوجد ربيعة فرصة للقول فأجاب : « لم يكن الحارث شرهم ، فقد علمت أنه كان يردهم عن الوثوب وينصحهم بلزوم الطاعة » .

فقال حجر وهو يضحك ضحكا مرة : « يردهم عن الوثوب ؟ إنما كان يتأنى بهم ريثما يتم لهم الاستعداد » .

فصمت ربيعة ، وقد أدرك أن حجراً أصاب الحق فى قوله ، واستمر حجر بعد حين فقال : « لقد بدا لى أن ألجمهم السيف فلا أدعهم يسيرون عنى وهم أحياء ، فوحق يغوث ويعوق وكل أنصاب العرب ما لهؤلاء أمان بعد اليوم » .

فقال ربيعة متلطفاً : « لو آخذ الملوك قومهم على مثل هذا لما بقيت لهم رعية . وليت شعرى ماذا أنت صانع غداً بغيرهم إذا فعل فعلهم ؟ فليست غطفان بأهدأ منهم نفوساً » .

فنظر حجر إلى ربيعة نظرة مخيفة ثم قال : « لكأنى بك تهددنى بقومك ؟ » .

فقال ربيعة هادئاً : « لقد عرفت — أبيت اللعن — مبلغ وفائى لك وحرصى على تدعيم ملكك ، فلست بالذى يهددك بقومه ، ولن يكون من قومى إلا ما تحب ما بقيت فيهم ، ولكنى أضرب لك الأمثال لعلى أبلغ من نصيحتى ما أود » .

فمضى حجر فى سيره ، ثم وقف بعد قليل ونظر إلى ربيعة وقد خبا بعض هياجه وقال : « إذاً فليسيروا اليوم عنى حتى لا أراهم فى صباح ولا مساء ، هؤلاء عبيد العصا » .

فلم يعاود ربيعة الكلام فى أمرهم ، واكتفى بأن استأذن فى الخروج لتشييع القوم والتثبت من كفاية حراستهم فى مسيرهم .

وما هى إلا ساعة حتى كان شيوخ بنى أسد وزهرة شبابهم يسيرون فى قافلة عظيمة تسرع بهم إلى منفاهم الذى أمر الملك حجر أن ينفوا إليه فى صحارى تهامة .

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ قرشاً فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ قرش صاغ

أونامونو والعبقرية الاسبانية

للأستاذ علي أدهم

لم يستطع الاسبانيون أن يغتفروا للكاتب الفرنسي تيوفيل جوتييه قوله : « إن إفريقية تبتدئ من جبال البرانس » ؛ وحقيقة أن أسبانيا في العصر الحديث ليست في طليعة القوى السياسية أو الاقتصادية في أوروبا ، ولكنها مع ذلك أمة ذات حضارة مجيدة ، وماض باهر ، وأثر بارز في حياة أوربا الروحية ؛ وعلى يد أسبانيا تم كشف أمريكا ، وهي حادثة من أروع الحوادث في تاريخ أوروبا ؛ ويرى بعض المفكرين أنها أعظم حادثة في تاريخ العالم بأسره منذ سقوط الدولة الرومانية ، ولم يكن ذلك الكشف هدية قدمها الحظ وسمحت بها الأقدار ؛ وإنما كان آية من آيات اليقين الصادق ، وثمرة من ثمرات الخيال المبدع ، وقد تلاه عهد رحلات استطلاع وأسفار استكشاف ، يكون في مجموعه أعظم سفر من أسفار المخاطرة والاقدام في تاريخ البشرية ، ولا يزري به ويقلل من بهائه ما علق به من غبار المطامع ، وأفاعيل القسوة ، وإراقة الدماء .

وعند ما ننتقل من التاريخ إلى الأدب نجد أن عبقرية أسبانيا في الأدب من العبقريات المنتجة الممتازة ، فأسبانيا تقاسم انجلترة شرف السبق إلى إيجاد المسرح القوي ، وعصرها الذهبي في الأدب يقارن بالعصر الاليزابيثي عند الانجليز ، وعهد لويز الرابع عشر عند الفرنسيين ؛ فهو غني في الشعر والرواية وسائر ضروب الانتاج الأدبي ؛ وأضخم الأسماء وأشيرها في الأدب الأوربي عامة هي : شكسبير ، وسرفانتيز ، ودانتي ، وجيتي .

ولا نزاع في أن رواية « دون كيشوت » من أعظم الكتب التي ظهرت في أي لغة من اللغات ، وأي عصر من العصور ؛ وقد كانت مصدراً ومرجعاً لكثير مما كتب بعدها في الرواية وغيرها ؛ وأوفر الشخصيات المبتكرة في الأدب نصيباً من الخلود هي شخصية هملت وفاوست ودون كيشوت ودون جيوان ؛ وسيبقى دون كيشوت ما بقي في الانسان عاطفة يثيرها حب العدالة والتعلق بالمثل الأعلى ، وسيخلد دون جيوان ما بقي حب المرأة متصرفاً بأهواء الرجال .

فأسبانيا إذاً قوة روحية يحسب لها حساب ويقام لها وزن ، على أنه يلاحظ أن ما قدمته اسبانيا للثقافة الأوربية في عالم النظريات والمبادئ أقل شأناً ؛ وقد نبغ في اسبانيا بعض العلماء والفلاسفة ، ولكنها لم تخرج عبقرية من الطراز الأول في العلوم أو الفلسفة ؛ فليس عند الإسبانيين من يضارع نيوتن في العلوم أو ديكارت في الفلسفة ، ولم تظهر في جنوب جبال البرانس حركة فلسفية ملحوظة أو نهضة علمية مأثورة ؛ ويعلل بعض مفكري الإسبانيين ذلك بتغلغل الفردية في نفوس الإسبانيين ، لأن تلك الفردية المتمادية تعوق تحول الأفكار الفردية إلى مذاهب اجتماعية أو حركات فلسفية ؛ وإسبانيا لم تقدم شيئاً يذكر للتفكير المجرد والبحث العلمي ؛ والعقل الإسباني بطبيعته قليل الإقبال على التجريدات ولا يستسيغ في سهولة ويسر التفكير النقي الخالص ، ودأبه سواء في الأدب أو الفن أن يجعلهما وسيلة للحياة ، لأن الحياة في رأيه أكبر وأجل من الفن والأدب ، وهو يعتمد على الاستجابة للقلب الإنساني مباشرة أكثر مما يعتمد على الأسلوب ومذهب الإنشاء ، وفرط حبه للحياة يغريه بتجاهل الفضيلة ويبعده عن التعصب لها ، لأن الفضيلة جزء

من الحياة ، والجزء مهما عظم شأنه أقل من الكل ، ولا يستحق من أجل ذلك رعاية خاصة ؛ ولذا لا تلمح فى الروايات التى جادت بها العبقرية الإسبانية تفضيلا لأحد الأشخاص على الآخرين ، والجميع عندهم كما يقول المثل الإسبانى « أبناء الله » ؛ وهذه النزاهة الأدبية بادية فى كل الآثار العظيمة عند الإسبانيين فى الأدب والفن ، تطالعها فى كل صفحة من صفحات دون كيشوت ، وتلمحها فى كل صورة من صور فيلاسكيه .

والأدب الإسبانى يحاول أن يصف الإنسان من حيث هو إنسان مكون من لحم ودم وأعصاب وعظام ، ولا يطيق أن يحيله « فكرة » باقية أو يصيره « قالباً » متجدداً . والفرق بين عبقرية سرفانتيز وعبقرية جيتى هو أن سرفانتيز كان يعتمد على الحياة وحدها ، أما جيتى فإنه كان يسترشد بفلسفات وموازين أدبية وقواعد فنية يستمد منها ويشتق من منهاها . وأوربا تنزع فى تفكيرها إلى « الموضوعية » وترغم الإنسان على أن ينيم أهواءه ويخرج من ذاتيته ليستطيع العقل أن يفهم الأشياء فهماً سليما ويكون لها صورة صحيحة ؛ أما فى اسبانيا فإن الإنسان فى ذاته بِقَضِّه وقضيضه هو محور فلسفتها وأساس فنها وأدبها .

والعبقرية الإسبانية ضيقة المدى ، ولكنها عميقة مترية ؛ وفكرة الموت لها فى الأدب الإسبانى كبير شأن ، لأن الأدب عندهم يدور حول الإنسان « الفرد » ؛ وهذا الإنسان الفرد هو تاج الخليقة وخلاصة الوجود ، ولكن الموت يثل عرشه ويهدم إيوانه ؛ وإسبانيا تخون فرديتها وتنسى رسالتها إذا كانت تقبل فكرة بقاء الإنسان فى نوعه أو فى أعماله ، لأن تصور « الشعب » و « الأجيال القادمة » فى رأى العقلية الإسبانية تجريدات لا حقيقة لها ؛ وإنما الإنسان « الفرد » هو الحقيقة وهو الذى ينتزعه الموت ويطويه الفناء ؛ فشدة شعور العبقرية الإسبانية بالحياة يصحبه شعور حاد مؤلم بسطوة الموت وغلبة الفناء ؛ ولكن العبقرية الإسبانية لا تستسلم لفكرة الموت ، ففى أعماقها كنوز من النشاط والهمة والعزيمة الماضية كافية للتغلب على الألم ومكافحة اليأس ، ومن هذا النبع العميق للحياة تنبجس فى نفسها الصوفية .

والقوة الخالقة فى الأدب الإسبانى أقوى وأوضح من القوة الناقدة ، والأدب الإسبانى فى تطوره يتبع العبقرية القومية ، ويخضع لها ، ويرفض كل إملاء عقلى أو قاعدة مفروضة ، ويستهدى بغريزة الشعب التى تحدوه على تأمل الواقع وتفسيره تفسيراً مباشراً ، وهذا هو سبب طرافة الأدب الإسبانى واستقلاله .

وقد كان الكاتب الإسبانى الكبير ميجويل أونامونو (المتوفى فى آخر سنة ١٩٣٦) فى رأى الكثيرين أكبر ممثل للعبقرية الإسبانية فى العهد الأخير ، وهو يمثل نفسية إسبانيا القلقة الحائرة وحالاتها المتناقضة ومثلها العليا المتعارضة وروحها المترددة بين الشك القوى والإيمان الشديد .

وقد ولد فى مدينة بلباو سنة ١٨٦٤ ، وفى سنة ١٨٩٢ عين أستاذاً للغة اليونانية فى جامعة سلمنقة ، وفى سنة ١٩٠٠ صار رئيساً لها ؛ ثم شرع يكتب فى الجرائد مقالات شديدة اللهجة ويحمل على الحكومة حملات شعواء ، فحكم عليه بالحبس مدة ست عشرة سنة ، ولكن لم ينفذ ذلك الحكم ؛ وبعد زيارة طويلة لفرنسا عاد إلى سلمنقة ، ولكنه ظل يتابع نقده اللاذع الجرئ لأعمال الحكومة حتى اضطرها إلى نفيه فى جزائر كنارى سنة ١٩٢٤ ، ثم ألغى الحكم ، ولكنه رفض العفو ولم يقبل أن يعود إلى إسبانيا فى عهد الديكتاتورية ، وأقام فى باريز زمناً ؛ ثم انتقل إلى الجنوب ليكون على مقربة من الحدود الإسبانية ، وظل متابعاً نقده لحكومة بلاده ساخراً من الملك ألفونسو ورجاله ، ولما انتهت الديكتاتورية سنة ١٩٣٠ عاد من منفاه

واستقبلته الجموع الغفيرة استقبالاً رائعاً ؛ ولما تألفت الجمهورية سرعان ما وجدت فيه ناقداً لا يرحم عجزها ولا تسكن عينه عن عيوبها ، ولما قامت الثورة ناصر الثائرين لاعتقاده أنهم يدافعون عن الحضارة ويقاومون الفوضى ؛ ولما مات في آخر سنة ١٩٣٦ قال عنه أصدقاؤه العارفون بأخلاقه إنه لو مد في أجله ورأى انتصار الثوار لانقلب ضدهم ، ويؤيدون ذلك مستشهدين بقوله : « كل من ينتصر سيراني في الصف الآخر » .

وقد شبهه أحد المصورين الهازلين بالبومة ، وهو تصوير قد أصاب الحز ، فقد كانت عيناه تنفذان في ظلام ليل الروح ، وتديمان النظر إلى لغز الوجود ، وتحومان حوله في يأس ولهفة .

وكان فرديا معتزاً بفرديته في تلك الأيام التي راجت فيها المبادىء الشيوعية والاشتراكية ، وذاعت الفاشية والنازية ، وهي مذاهب لا تعنى بالفرد ، وتحاول أن تطويه في غمار الجماعة .

ولكنه لم يكن يواجه المجتمع بفرديته على أسلوب الفوضويين ، فقد كان له من تدينه العميق وتقاليد أمته ما يحميه من الوقوع في أشراك الفوضوية ، وإنما كان يعبر بذلك عن النزعة الإنسانية الاسبانية التي هي سمة من سمات الإسبانيين الغالبة على فنونهم وآدابهم . وكل شعب من الشعوب تشغله مسألة الإنسانية وتستأثر بنصيب من تفكيره ، ولكن كل شعب يعالجها على طريقته الخاصة . والإنسان في رأي الاسبانيين هو الإنسان المعين المصور من لحم ودم . والأدب والفن عند الاسبانيين يتناولان هذا الإنسان المعين المحسوس ؛ ولما كان أقرب إنسان معين محسوس إلى الإنسان هو نفسه ، فلذلك كثر اشتغال أونامونو بنفسه ، وما يجيش بها من عواطف ويضطرب فيها من خواطر وأفكار ؛ وهو يرفض الاستسلام للتجريدات ، ولا يرى فيها سوى خرق بالية تستر الأفكار

الميتة ، وهو لا يعنى بغير حياته الخاصة ؛ فهل هذا موقف أنانية وتخايل بالشخصية كالموقف الذي نعهده في بعض الكتاب المفتونين بأنفسهم ، والذي ينتهي بهم الأمر إلى ضرب من ضروب « النرجسية » السقيمة ؟ أونامونو يستطيع أن يرد هذه التهمة عن نفسه ، فهو لم يتصور الوجوه مرآة كبيرة لا يطل منها على غير سحنته ، ولم يعنَّ في الإعلان عن نفسه بالأساليب المعروفة عند « كواكب » الأدب في عالمنا الحديث ! وإنما كان يدير الطرف في أعماق نفسه ، ويبالغ في استقراء خواطره وشجونه ، لأنه كان يحس أننا كلما تعمقنا في بحث النفس التقينا بإخواننا في الإنسانية ، فما إخواننا هؤلاء إلا فروع نابتة من أصل تلك الشجرة ؛ وإخلاصه الشديد للحياة وفرط تعلقه بها كان يبعثه على أن يقف طويلا أمام كل فكرة تطوف بذهنه وتتضمن الشك في البقاء وتميل إلى إنكار الخلود . وكان يحس وراء كل فكرة مقنعة عن ضرورة الفناء إرادة الحياة القوية الباقية ، فيأبى أن يهزم عقله إيمانه ، ويظل ظامئاً إلى الخلود حالما بالأبد ؛ وهذا الصراع العنيف بين حب الحق والاخلاص للحياة هو أساس فلسفته التي بسطها في كتابه « معنى الحياة المحزن » ، وهو خير ما كتب ومن أروع ما أخرجته العقلية الاسبانية في العصر الحديث .

وهو يتحدث في هذا الكتاب عن الرغبة في الحياة والظمأ إلى الخلود ، والأساليب التي جرى عليها المفكرون والفلاسفة في بحث هذا الموضوع ، ثم يستمسك بكلمة ترتليان المشهورة : « إن هذه الفكرة سخيفة ولذلك أومن بها » ، ويقاوم بها الموقف الانتقادي الذي ينكر إمكان الخلود الفردي ، ويجد عقله صعوبة في السمو فوق الشكوك ، ولكن يقينه يستلزم تأكيدات غير خاضعة للعقل ، وفي معترك هذه العواطف ، ومن أعماق تلك الهاويات يقيم نظريته ، وأساسها بقاء الرغبة في الحياة ، ويتسع حب النفس عنده حتى يشمل كل ما يريد الحياة ويتعلق بالوجود

والظمأ إلى الخلود هو الذي يوسع دائرة الحب .

ومن أقواله في هذا الكتاب « إن الأمل ضعيف في هؤلاء الذين لم يفكروا ولو تفكيراً غامضاً في المبدأ والمصير وفي ماذا ولماذا ، وأمثال هذه المسائل لا يتناولها الإنسان بالعقل وحده ، وإنما يتناولها بقلبه ، إذ لا يكفي أن نفكر في المصير ، وإنما يلزم أن نشعر بذلك ، والذي لا يأبه لذلك ولا يعنى به لا يستحق أن يقود الناس ويتصــدى لإرشادهم ، وليس معنى ذلك ضرورة إيجاد حلٍّ لهذه المسائل ، وهل يوجد حقيقة لهـا حل ؟ ويقول بعض الأذكياء الأغبياء — ولا غرابة في ذلك ، فقد يجتمع الغباء والكفاية ، غباء الإحساس ونقص الإدراك الأدبي . يقول أمثال هؤلاء الأذكياء إنه لا فائدة من الغوص على المجهول ، ولكننا لو قصرنا في ذلك شعرنا بأن شيئاً ينقصنا ، والبعض يدعون أنهم لا يشعرون بذلك نفاقاً ورياءً ، وقد قال أحد هؤلاء المتحذلقين لسولون الحكيم وقد فقد ابنه ورآه باكياً : « لمـاذا تبكي هكذا إذا كان البكاء لا يجدي شيئاً ؟ » . فقال الحكيم : « إنما أبكي لذلك » ومن الواضح أن البكاء يجدي ويبرد لوعة الحزن ، وقد يكون في البكاء حكمة فوق كل حكمة » .

ويقول في موضع آخر : « الإنسان يريد الأبدية » فما معنى قول شكسبير : « أكون أو لا أكون » ؟ معناه طلب الأبدية ، ويقول في كوريولينس : « هو لا يريد شيئاً من الله سوى الأبد » ، والأبد هو الأمنية الكبرى ، والظمأ إلى الأبد هو ما يسميه الناس الحب ، والذي يحب إنساناً إنما يود أن يصير أبدياً بمعاونته ، ولا شيء حقيق إلا إذا كان أبدياً ، ورؤية الحيـاة وهي تنساب من بين أيدينا انسياب الماء قد أثارت الحزن وأصمتت الآهات ؛ فمن قول كالدرن « إن الحيـاة حلم » إلى قول شكسبير « إننا من مادة كالتي صيغت منها الأحلام » ؛ وكلمة شكسبير أشد حزناً وأبلغ أسى من كلمة كالدرن ، لأن كالدرن يرى أن الحياة حلم ، أما شكسبير فيرى أننا أنفسنا حلم ، وأننا حلم يحلم . والشعور بالحب والإحساس بزوال الحياة وغرور متاعها هما أساس الشعر الصادق ، وهما وتران في النفس ، لا يتحرك أحدهما إلا تحرك الآخر ؛ فالشعور بزوال الحياة يشعل الحب في نفوسنا ، وهو الشيء الوحيد الذي ينتصر على الفناء ، ويملأ الحياة ويجعلها أبدية ولو في الظهر . ويرى الكثيرون أن عبادة الأجداد هي أهم مصادر الديانات القديمة الأولى ؛ ومن مميزات الإنسان اهتمامه بآثار موتاه والمحافظة عليها ، وهي دليل الجزع من الفناء ، ومحاولة إخفاء مظاهره . ولقد عني الإنسان ببناء المقابر قبل أن يبني البيوت ويقيم القصور ، وأيام كان يسكن الغيران ويأوي إلى الكهوف ، وقد استعملت الأحجار للمقابر قبل أن تستعمل في تشييد البيوت ، والمقابر هي التي بقيت على كرِّ الدهور ، وعقيدة خلود النفس هي التي حفظت الأديان » .

وهو يلخص موقفه في قوله : « ديانتي هي أن أصارع بلا انقطاع وفي غير ونية ولا سأم لغز الوجود ، ولا أستطيع أن أعقد هدنة مع المجهول ، وليس اليقين شيئاً يعثر عليه في قارعة الطريق ، وإنما يلزم أن تنتزعه من إغراءات الشكوك ، وغوائل الظنون ، وإلا كان قليل الثمرة ، زائل الإنتاج » .

وبعد فإن تفسير شخصية غامضة غريبة مثل شخصية أونامونو ليس من الأمور الهينة ، وكتابه الذي تحدثت عنه أجل شأناً من أن تظهر قيمته وتبين أعماقه ، أمثال هذه المختارات القليلة التي عرضتها . وأرجو أن أكون بما قدمت قد استرعيت النظر إلى طرافة تفكير هذا الكاتب الكبير الذي كان في حياته العامة والخاصة مثالا للمفكر الذي يعرف رسالته ويقدر خطورة موقفه ، فلا يسف طمعاً في شهرة عاجلة ، أو تطلعاً إلى مصلحة مرجوة ، أو منزلة مرموقة ؛ وأمثاله قلائل في هــذا العصر الذي استدعت أحواله أن يصدر الكاتب الفرنسي جوليـان بندا كتابا خاصا عن « خيانة الكتبة » .

علي أدهم

المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) :

٤ – معاصرو أبي المحاسن

للدكتور محمد مصطفى زيادة

عاصر أبا المحاسن ، وهو عميد المؤرخين في مصر في أواسط القرن التاسع الهجري ، اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصري وألفوا فيه مؤلفات معاصرة قيمة ، وهما بحسب الترتيب الزمني ابن الصيرفي والسخاوي ؛ وقد كتب كل منهما لأبي المحاسن ترجمة تنم عن كثير مما كان بين مؤرخي ذلك القرن كله من تنافس وغيرة ، بل وحسد أحياناً وسوء دخيلة ، كما سيتضح من مقال الخاتمة لهذه المقالات .

وكان ابن الصيرفي أكبر الرجلين سناً ، وإن كان أقلهما شهرة وتراثاً في التأليف ، واسمه نور الدين علي ابن داود الصيرفي الخطيب الجوهري الإسرائيلي الحنفي ؛ وقد عُرِفَ بين معاصريه باسم ابن الصيرفي — وبابن داود أيضاً ، ومولده بالقاهرة سنة ٨١٩ هـ ، قبل ميلاد السخاوي باثنتي عشرة سنة . وكان أبوه داود صيرفيا بدواوين الدولة المملوكية في عهد سلطان لم تعينه المراجع التي بأيدينا حتى الآن ، وقد توفي سنة ٨٥٣ هـ .

نشأ ابن الصيرفي في كنف والده ، وتعلم تعلماً يسيراً ، كما يفهم من ترجمة السخاوي[1] له ، مع أنه تلمذ لابن حجر العسقلاني ، ولازم مجلسه في الإملاء وغيره ، وتمرّس الركوب في خدمته ، حتى استثقله لذلك جماعة من تلاميذه . ويظهر أن السخاوي ، وهو أيضاً تلميذ لاحق لابن حجر كما سبق ، كان ممن ضاق بتلك الملاحقة بين ابن الصيرفي وشيخه ، كما عظم عليه توليته خطابة جامع الظاهر برقوق ، وذهاب ابن حجر للصلاة خلفه هناك ، ولذا جاءت ترجمته لابن الصيرفي مملوءة غمطاً وسخرية .

مارس ابن الصيرفي التجارة بعد وفاة أبيه سنة ٨٥٣ هـ كما تقدم ، مع بقائه على الاشتغال بالعلم ، وقيامه بوظيفة الخطابة السابقة وغيرها من الوظائف الصغرى ؛ فتكسب بسوق الجوهريين — ومن هنا كان تلقيبه بالجوهري — ، وابتنى بعض الدور بحكر الشامي بالقاهرة وأسكنها بالأجرة ؛ ثم آل أمره يوما إلى أن نفد غالب ما عنده واحتاج ، فولاه قاضي القضاة محي الدين بن الشحنة الحنفي نائباً للحكم (قاضياً) ، واشتغل بنسخ الكتب وارتفق بذلك ، فنسخ كثيراً من كتب شيخه ابن حجر وأبي المحاسن والسخاوي أيضاً في التاريخ وغيره ؛ ومن ثَمّ كان اشتغاله بالتأليف في التاريخ بعد أن تقدّمت به السن ، وقد فسدت علاقته بالسخاوي وأبي المحاسن من حين ذاك ، فامتنع أبو المحاسن من إعارته كتبا من مكتبته ، بل أخفى عنه تصانيفه مخافة أن ينقل منها . على أن ذلك لم يفلّ من عزم ابن الصيرفي ، أو يصرفه عن الكتابة ، فألف كتاب " نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان " ، وافتتحه بسلطنة الظاهر برقوق واختتمه بسنة ٨٥٠ هـ ؛ ثم كتاب " أنباء الهصر في

(١) انظر السخاوي (الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٢١٩) ترجمة وافية لابن الصيرفي ، وليس في غيره من المراجع التي أعلمها ، كابن إياس (بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨) وكمؤلفات ابن الصيرفي التي لم يصل إلينا منها سوى النزر القليل ، ما يضيف إلى ما كتبه السخاوي كثيرا .

أبناء العصر " ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء التاسع فقط ، وكتاب " سيرة الأشرف قايتباى " ، وهو غير مقطوع بوجوده ، ولعله المخطوط الكائن بالمتحف البريطانى بلندن لغير مؤلف معروف ، باسم كتاب " تاريخ الملك الأشرف قايتباى " . ولابن الصيرفى أيضاً كتاب فى السيرة النبوية سماه باسم " الجوهرية " ، وقد رآه أبو المحاسن وأنهاه مطالعة وقرّظه غصباً منه بخطه ، إلى جانب خطوط الكثير من المقرظين ، على حد قول ابن الصيرفى نفسه بصدد هذا الكتاب الأخير .

غير أن السخاوى لم يشأ إلا أن يحطّ من قدر ابن الصيرفى ومؤلفاته ، وربما قصد بذلك أن ينتقم لنفسه منه لمزاحمته إياه فى صحبة ابن حجر وملازمته ، فقال : " إنه نصب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخا ، لكونه لا تمييز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقبح ، بحيث . . . صار الفقهاء والقضاة به مثلة . . . ؛ وبالجملة فهو من سيئات الزمان ، غنىّ بشهرة سيرته عن مزيد البيان ، وجهله واضح الظهور ، وانطراحه لبطنه قاصم للظهور[١] " . ولابن إياس فى ترجمته القصيرة لابن الصيرفى نقد مشابه ، على الرغم مما فيه من اعتدال فى اللفظ . ونصه أنه " كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ولا عن راو ، وله فى تاريخه خبطات كثيرة ، وجمع من ذلك عدة كتب من تآليفه . . . ، وكان لا يخلو من فضيلة[٢] " .

على أن ابن الصيرفى لا يستحق هذه العبارات المريرة من معاصريه ، يشهد بذلك السخاوى نفسه فى ثنايا ترجمته له حين يعجب من كثرة مقرظيه ومريديه من أعلام عصره ، ويشهد به أيضاً كاتب هذه السطور بعد أن قرأ ما استطاع قراءته من المؤلفات المذكورة ، إذ وجد بها كثيراً من تفاصيل الحقائق التى توجد مقتضبة مختصرة فى كتب الآخرين كأبى المحاسن والسخاوى وابن إياس . وكانت وفاة ابن الصيرفى فى شوال سنة ٩٠٠ هـ .

أما السخاوى واسمه أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد . . . السخاوى ، نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، فقد ولد سنة ٨٣١ هـ ، بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح الأول بالقاهرة . وكان جده محمد شيخاً فقيراً صالحاً يتكسب بتجارة يسيرة بسوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة ، ويكثر من الاختلاف إلى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للإفادة والاعتبار ؛ وكان أبوه عبد الرحمن كذلك فى معيشته وتكسبه وغشيانه مجالس رجال الدين ، وقد طابت صلته ببعضهم لعلمهم بتقواه وتصوّفه[١] . ولذا كان معظم شيوخ السخاوى ومعلميه من رجال الدين أصحاب أبيه ، ومنهم ابن حجر الذى اختصّ به وأحبه كثيراً . وقد ساعد السخاوى على ذلك سبق الصلة بين والده وابن حجر ، وقرب منزله من منزله . فلازمه أشد الملازمة ، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره ، وأخذ عنه أكثر تصانيفه فى الحديث والتاريخ والتراجم ؛ وهذا فضلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ ، وقد حلا له أن يعدّها ويعدّهم عداً دقيقاً فى ترجمته لنفسه فى كتابه " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع " ، وهى ترجمة ضافية فى ثلاثين صفحة كاملة ، وليس فى كتابه كله ترجمة تشبهها أو تقرب منها فى السعة والإفاضة والتمدّح بأقوال المعجبين به من المعاصرين[٢] .

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(١) ترجم السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٢٤ — ١٢٥ ؛ ج ٧ ، ص ١٢٥ — ١٧٧) لكل من جده وأبيه ترجمة تفيض حناناً وبراً ، وهى المادة الوحيدة لكاتب هذه السطور فيما كتب هنا بصددهما .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٢ — ٣٢ .

وقد عُرِف السخاوى عند بعض "أناس مخصوصين" باسم ابن البارد ، وهى تسمية اشتهر بها جده وأبوه أيضاً لسبب غير واضح تماماً ، لعله فيما يخص السخاوى على الأقل أنه كان عظيما عند نفسه إلى حدّ لم يشاركه فيه الكثيرون من المعاصرين ، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد ، ورماهم فى غير واحد من مؤلفاته بالقصور وضعف الرواية والبيان . ومع هذا فقد نشأ السخاوى وعاش متمتعاً برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ، وقد بادل الشيخ تلميذه حبًّا بحب وإخلاصاً بإخلاص ، فصار يرسل إليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره فى بيته ليقرأ عليه ، وقال فيه ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : "إنه مع صغر سنه ، وقرب أخذه ، فاق من تقدّم عليه بجدّه واجتهاده ، وتحريه وانتقاده ؛ بل إن ابن حجر قام ليخدم بنفسه فى حفل عرس السخاوى سنة ٨٤٨ هـ ، وجهد فى توظيفه بوظائف تدريس الحديث التى أهّله لها أحسن تأهيل" .

ثم توفى ابن حجر سنة ٨٥٣ هـ ، فعزم السخاوى على الرحيل من مصر إلى الشام ، ليسلو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل هناك . غير أن أبويه ثنياه عن عزمه هذا ، وظل بمصر مواصلاً لدراسة الحديث ، وطفق يتنقل فى سبيل ذلك بين المدن الكبرى ، كدمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية ، وغيرها ؛ واجتهد فى أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث ، مستعيناً بأصدقاء أستاذه الراحل بالقاهرة . ثم انتهى به الأمر إلى الحج مع أمه وأبيه سنة ٨٥٦ هـ ، فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ، وزار المدينة . وتنقل السخاوى من بعد ذلك بين مصر والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ٨٩٨ هـ ، وحرص على الإقامة بمكة مدة إثر كل حجة ، كما استقر بمصر أحياناً لتدريس الحديث بمدارس القاهرة ، وكان يشتغل فى أثناء ذلك بالتأليف فى الحديث والتاريخ .

وقد اتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى فى عهد السلطان الظاهر خشقدم ، وهو صاحب الدوادارية الكبرى فى عهد السلطان الأشرف قايتباى . وكان يشبك أعظم شخصية فى الدولة المملوكية فى عهد قايتباى ، بيده فوق وظيفته الكبرى خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق بها من أوقاف وأملاك ومدارس ومحسوبية ، ومن ذلك تعيينه للسخاوى على إحدى وظائف تدريس الحديث التى تعب قبلا فى الحصول على مثلها أيما تعب ، وسعى له عند الظاهر خشقدم ليكون مقرئاً للحديث بعد إمام السلطان . ومع هذا فقد شاء السخاوى أن يذكر صلته بهذا الأمير الكبير فى عبارة كلها كبرياء وترفع ، وأن يقرر أن يشبك سأله فى المبيت عند السلطان الظاهر خشقدم ليلتين فى الأسبوع ، ليقرأ له شيئاً من التاريخ ، كما فعل العينى مع السلطان برسباى ، فتنصل وأبى ، وأنّ يشبك التمس منه أن يحضر إليه ليقرأ له تصانيفه فامتنع أيضاً[1] . وهذا نص عبارة السخاوى فى ترجمته لهذا الأمير المبذول المحسن : « وقد تكرر اجتماعى به ، وكان حريصاً على ذلك ، بحيث رغب فى تحصيل أشياء من تصانيفى ، وأسمع بعض أولاده منى بحضرته [كتاب] المسلسل [فى الحديث] ، ولو وافقته على مزيد الاجتماع به لتزايد إقباله ، ولكن الخيرة فيما قدر[2] .

وقد عنى السخاوى بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى فى أربع صفحات من ترجمته لنفسه[3] ، ومنها فى التاريخ كتاب "التبر المسبوك فى ذيل السلوك" ، فى أربعة أجزاء[4] ،

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣١
(٢) نفس المؤلف والمرجع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ .
(٣) انظر السخاوى الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١٥ — ١٩) حيث توجد قائمة طويلة بأسماء كتب السخاوى ورسائله ومقالاته ، وهى جديرة ببحث الباحثين واستقصاء الراغبين فى إحياء الكتب العربية المبعثرة فى مختلف مكتبات العالم .
(٤) طبع هذا الكتاب بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة ، =

وهو كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقريزى المشهور ، وكان تأليفه إياه إجابة لأمر الأمير يشبك بن مهدى وهو على وظيفة الدوادارية الكبرى ، أى أنه كتب فى عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى . ويظهر أن السخاوى كان مغرماً بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها ، فقد ألف "وجيز الكلام فى ذيل تاريخ دول الإسلام" تكملة لكتاب الذهبى المؤرخ ، وكتب "الذيل الشاهى" تكملة لمؤلف ابن حجر فى قضاة مصر ، و "الذيل على طبقات القراء" تكملة لكتاب الجزرى ؛ ومن ملخصاته "كتاب المنتقى" من تاريخ مكة للفاسى ، و "تلخيص تاريخ اليمن" لمؤلف لم يذكره ، ولعله للفاسى أيضاً .

وللسخاوى فى التاريخ أيضاً كتاب "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" ، وهو مقالة طويلة فى قواعد الجرح والتعديل (historiography) عند المؤرخين ، وبه صفحات ضافية فى تاريخ التاريخ وفضله كعلم لازم للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول . وله فى التراجم كتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" ، و "الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر" ، و "القول المنبى فى ترجمة ابن عربى" ، وغير ذلك كثير فى مختلف العلوم والفروع ولا سيما الحديث ، مما هو خارج عن مجال هذا المقال القصير .

على أنه لابد هنا من التعريف بكتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" ، إذ هو معجم زاخر فى اثنى عشر جزءاً مطبوعة ، الثناء السلمات منها جزء بتمامه ؛ وهو يحق غُرّ مؤلفات السخاوى ، برغم ما ابتلى به مؤلفه من تصغير الكبير وتحقير الصغير ممن ترجم لهم ، حتى أسلم نفسه للوم المعاصرين وتجريح اللاحقين ، ومن ذلك قول ابن إياس فيه بأنه "ألف تاريخاً فيه كثير من المساوئ فى حق الناس" (١) ، وقول قرينه السيوطى مستفهماً مستنكراً : "ما ترون فى رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوئ وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأعراض هى الأغراض ، جعل لحم المسلمين جلة طعامه وإدامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرّق بين جليل وحقير . . . " (٢) . وقد اشتدت الخصومة بين السيوطى والسخاوى مدة ، واضطرم الجدل بينهما حيناً ، فرشق كل منهما صاحبه بأنواع التهم ، حتى حال بينهما الموت ، إذ توفى السخاوى بالمدينة فى شوال سنة ٩٠٢ هـ ، وبقى السيوطى بعده تسع سنين .

محمد مصطفى زيادة

= تبتدئ من سنة ٨٤٥ هـ ، وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن التاسع الهجرى ، على حد قول السخاوى نفسه ، وهذا فضلا عن إشارات المعاصرين بصدده .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة — ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) السيوطى : الكاوى على السخاوى (مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥١٠ أدب) .

صفحة مصورة :

من تاريخ المسرح الحديث

يصر كثير من مؤرخى الفن على أن الصفحة الأولى من تاريخ المسرح الحديث بدأت عام ١٨٦٥ بحدث يعد من أهم الأحداث التى اتجهت بالمسرح اتجاهاً جديداً ، فقد ظهر فى هذا العام لأول مرة على خشبة المسرح ، هنرى إرفنج ، أعظم ممثلى القرن التاسع عشر ، فكان لظهوره الأثر الأكبر فى النهضة الحديثة . وكان لقيامه إذ ذاك بدور هملت ، على طريقة جديدة ، وفهم جديد لشخصية هملت ، ضجة أثارت كثيراً من النقاد وأعلام الفن ، ولكن سرعان ما هبطت حرارة النقاد ، وسرعان ما خطا إرفنج فى طريقه متسلقاً سلم المجد الفنى ، مقدماً شكسبير فى صورة جديدة للنظارة ، صورة لا زالت إلى اليوم تؤثر فى فن التمثيل وتوجه رواده .

ولعل من غريب الصدف أن هذا العام (١٨٦٥) شهد حدثاً كان له أكبر أثر فى تاريخ المسرح بعد ظهور إرفنج ، وهو ميلاد جورج برنارد شو الذى درج فى الفن من ناقد وكاتب مسرحى ، إلى مؤلف وجه المسرح توجيهاً خطيراً ، إذ جعل من خشبته ميداناً لمعالجة مشاكل المجتمع الخطيرة ودراستها .

ويرى القارئ على هذه الصفحة صور بعض أعلام المسرح الذين استطاعوا أن ينهضوا به خلال القرن التاسع عشر ، تلك النهضة التى يقول كثير من النقاد إنها تباطأت ، أو توقفت ، منذ ظهرت الشاشة البيضاء .



← جورج برنارد شو

"لقد أعاد المسرح إلى عقل يجيش بالأفكار"

لورد ولسانس



أوسكار وايلد فى شبابه ←

"لولا محاكمته عام ١٨٩٥ وسجنه ، لعاش المسرح على إنتاجه إلى اليوم"

روبرت لند



ارفنج مع شكسبير ...

هنري إرفنج في دور شيلوك
أحد أدواره الخالدة



اليانورا دوز ...

أعظم ممثلات إيطاليا في القرن التاسع عشر
وملهمة دانتزيو دراماته الرائعة



ساره برنارد ...

كبيرة ممثلات فرنسا في القرن الماضي
وإحدى بطلات مسرح شكسبير



ألين تيري في طفولتها مع شارل كين
في أحد مواقفهما التمثيلية

الحرب في مرحلتها الأولى

بعض العوامل التي أدت إلى نشوبها

مضى أسبوعان منذ قيام الحرب بين ألمانيا من جهة ، وبولنده وبريطانيا العظمى وفرنسا من جهة أخرى . ونحسب هذه الفترة كافية لأن تعيد شيئاً من الهدوء لعشاق السلام الذين صدمهم هذا التطور المؤلم للأحوال الدولية أكبر صدمة ، فيواجهوا الواقع ويقتنعوا أن هذه الحرب كانت أمراً محتوما ، لا سبيل لتفادي وقوعه ، وأن كل المحاولات الدبلوماسية إنما كانت تعمل على تأجيل يومه ، ولكنها كانت سائرة إليه يوما ما ، بالغة براعتها ما بلغت . بل لعل هذا الحل الكريه الذي انتهت إليه خير علاج لموقف دولي شاذ تشعب على الأيام مشاكله ، وتزداد أخطاره ، وتقاسي منه الشعوب آلاماً ومتاعب ليست دون شرور الحرب ومآسيها .

كان كل هم النازية منذ استولت على السلطة في ألمانيا منذ أكثر من ست سنوات أن تسخر كل قوى الدولة لإعداد المعدات الحربية ، وتهيئة الشعب الألماني لحياة مسلحة قوية متأهبة على الدوام . وكانت نظرية النازي أن هذا الاستعداد القوي هو الوسيلة الوحيدة لتحطيم القيود التي قيدت بها معاهدة فرساي ألمانيا ، وهو عدا ذلك السبيل لتشغيل الملايين من العمال العاطلين الذين سيكونون خطراً على النظام النازي إذا تركوا بلا عمل . وفوق هذا لم يكن هناك من وسيلة لتمكين النظام النازي من فرض سلطانه الشديد على الشعب سوى استثارة روحه الوطني ، وإفهامه أن الحياة الصارمة التي يحياها ، بما فيها من تضحيات جسيمة ، ومضايقات شديدة في العيش والحرية ، إنما هي ضرورة مؤقتة ، تهون بجانب الهدف الأسمى الذي تسعى إليه الدولة ، وهو استرداد قوة ألمانيا العالية ومكانتها الدولية ، واستعادة ما فقد منها بسبب الحرب الكبرى الماضية .

وقد مضت ألمانيا في تحقيق غايتها بهمة ونشاط ، وسارت في تنفيذ برامجها بتخفٍّ وتكتم شديدين ، واتجهت خاصة إلى إعداد المعدات التي تتطلبها الحرب الخاطفة ، فجهزت نفسها أتم تجهيز بالطيارات والدبابات وغيرها من القوات الميكانيكية والغواصات ، ولجأت إلى سلاح الدعاية الذي أتقنت استخدامه ، فبثت في شعبها آراء جديدة عن مزايا الجنسية ، وتفوقه الحربي ، وحقه في السيادة والسيطرة والتملك .

وتم كل هذا في وقت اطمأنت فيه انجلترا وفرنسا إلى هدوء الأحوال الدولية ، ففتر نشاطهما في التسلح ، وشغلتا بشؤونهما الخاصة ، ولم تتفق نظرياتهما في بعض المشاكل الدولية كمشكلتي الحبشة وأسبانيا .

فبرزت ألمانيا عند ذلك ، وأشعرتهما ما أصبحت عليه من قوة ، وتم لها ضم النمسا دون أن تتحرك قوة لدفعها ، ثم لوحت بضرورة اقتطاع بلاد السوديت التي يسكنها الألمان في تشيكوسلوفاكيا ، فكان هذا أكبر نذير بالخطر للدول الديمقراطية ، أشعرها ما هي مقبلة عليه من أخطار دولية جسيمة ، إذا ترك لهذه الدولة الحبل على الغارب ، فاجتمعت كلتاهما على المقاومة ؛ ولكنهما فت

فى عضدها أمران : الأول أنهما لم تكونا على استعداد لمواجهة دولة تفوقهما فى سلاح الطيران والقوى الميكانيكية . والثانى أن حجة الألمان كانت تبدو قوية فى تلك المشكلة ؛ فهى إنما تطلب ضم أرض ألمانية تسكنها أكثرية من الألمان . فكان يوم مونيخ الذى انتهى باقتطاع أرض السوديت من تشيكسلوفاكيا ، ووضع تلك الدولة التى ولدتها الحرب تحت رحمة ألمانيا .

على أنه مما خفف وقع هذه المأساة ما غلب على الأذهان من أن هذه التضحية كانت ثمناً لسلام العالم ، وأنها خاتمة المطامع الألمانية .

ولكن لم يطل الزمن حتى تكشفت حقيقة مطامع ألمانيا ، وأنها لن تقف عند حد استرجاع الأراضى الألمانية ، بل تسعى لمد نفوذها على كل ما جاورها من الأمم . فقد ضمت تشيكسلوفاكيا إليها ، وقضت فى يوم وليلة على استقلال تلك الأمة الفتية تحت سمع العالم وبصره .

كانت هذه الخطوة أكبر خطأ وقعت فيه ألمانيا بعد سلسلة الانتصارات السياسية التى أحرزتها ، فقد فقدت بها كل ثقة العالم فى نياتها ووعودها . ولم تجد انجلترا وفرنسا وسيلة لمناهضة تلك الدولة الجشعة التى تهدد سلامة العالم واستقلال الشعوب ، سوى التضافر والاتحاد وإكمال الاستعداد ، ومقابلتها باللغة الوحيدة التى تفهمها ، وهى لغة القوة .

ومن هنا لم تكن المشكلة التى قامت حديثاً ، وسببت هذه الحرب ، هى مشكلة دانتزج والممر البولونى ، وإنما هى مشكلة المطامع التى لا تقف عند حد والمطالب التى تتجدد وتتزايد كلما أجيب منها طلب .

تعاهدت الدولتان ألا تسمحا لتلك الدولة النازية بفرض إرادتها بالقوة كما شاءت ، وتعهدتا لبولندا ، وهى الضحية التى اتجهت إليها مطامع النازى ، ألا تدعاها فريسة لمطامعه ، وأن تقاوماه بالقوة إذا بدا له أن يعتدى عليها . وشجعهما أنهما استطاعتا فى الفترة الأخيرة أن تستكملا ما كان ينقصهما من العدة ؛ ورأى النازى أنه مقبل على لعبة خطرة قد تودى بكل آماله ، فتردد طويلا قبل أن يقدم على تلك الخطوة ؛ ولاح للمتفائلين أن زعيم النازى مقدر ما وراء موقفه الأخير من الأخطار ، وأنه لا بد متراجع عنه . ولكن حادثاً سياسياً جديداً تم فى ذلك الوقت ، وهو عقد ميثاق عدم اعتداء بين ألمانيا وروسيا السوفيتية ، غيّر الموقف بعض التغيير . لقد كان نشاط انجلترا وفرنسا السياسى متجهاً فى المدة الأخيرة لكسب روسيا إلى جانبهما فى الصراع القائم بينهما وبين ألمانيا ، وكان يظن أن روسيا ستكون المنفذ لامداد بولونيا بالمعدات والذخائر إذا اشتبكت فى الحرب مع ألمانيا ، فإن السبيل بغيرها منقطع بينها وبين حليفتيها ؛ ولكن روسيا اتفقت مع ألمانيا فى نفس الوقت الذى كانت تتفاوض فيه مع فرنسا وانجلترا .

ولسنا الآن بصدد تفسير هذا الموقف من جانب روسيا ، ولكن يكفى أن نقرر أن وقوعه أحدث خيبة ألمية لدى الدول الديمقراطية ، كما أنه أزاح عن صدر النازى كابوساً كان يحسب له حساباً كبيراً . ومع أن روسيا التى تتفاوض فى وقت واحد مع خصمين مختلفى النزعات والمصالح ، ليست بالصديق الذى يطمأن إلى صداقته ، ومع أن قواها واستعدادها وموقفها الأخير فى النزاع الدولى محل شك ، فيظهر أن هذا النجاح كان من العوامل التى طوعت للنازى الاقدام على خطوته الخطيرة الأخيرة .

ويذهب البعض إلى أن النازى أقدم على ما أقدم عليه ،

وقد قام بوهمه أن انجلترا وفرنسا غير جادتين فى إنذارهما، وأنهما لن تجازفا بإثارة حرب عالمية بسبب دولة لا تمس مصالحهما المباشرة.

كما يظن آخرون أنه قدّر أن يعاجل بولاندا بضربة خاطفة لا تقف أمامها أياماً، ثم يلوح بالسلام للدولتين الديمقراطيتين ويفاوضهما على أساس ضم جزء منها وترك الباقى مستقلا، ويظن أن الدولتين الديمقراطيتين لا تأبيان عليه ذلك بعد أن يتعهد بوقف حملاته.

وأيًّا كانت ظنونه وتقديراته، فقد خاب حسابه وخرج الأمر عن النطاق الضيق الذى كان يحاول إبقاءه فى داخله.

فمن ناحية على الرغم من تفوقه فى العدد والعُدَد على بولاندا، وخاصة من حيث الطيارات والقوات الميكانيكية، فقد لقى من جانبها مقاومة باسلة، وستشتد على الأيام مقاومتها، ولا سيما وجيشها لا يزال سليما والجزء الشرقى الذى سينحاز إليه مملوء بالغابات والمستنقعات، وسيكون غير ملائم لحملات القوى الميكانيكية. فاكتساح بولاندا لن يتم لألمانيا إلا بجهد وتضحيات وزمن مديد أطول بكثير مما تقدره.

ومن ناحية أخرى تواجه ألمانيا فى حدودها الغربية هجوما قويا فتيا من قوات فرنسا وانجلترا.

ومع مناعة خط سيجفريد الذى تتحصن من ورائه ألمانيا، فإن القوى الهائلة التى عبأتها الدولتان أمامه والخطط الفنية الدقيقة التى أعدها الجنرال جاملان للهجوم، سيكون من شأنها حبس قوى ألمانية كبيرة للدفاع فى حرب طويلة منهكة.

فإذا أضيف إلى هذا أن البحار قد انقطع مددها عن ألمانيا بفضل أسطولى بريطانيا وفرنسا اللذين يسيطران على مياه البحار العالمية، وأن حالة ألمانيا الاقتصادية السيئة لا تسمح باحتمال حرب طويلة الأمد، اتضح بجلاء مصير هذه الحرب وعلى من تدور دائرتها.

وإذا كانت غواصاتها قد أفلحت فى ضرب بعض السفن التجارية، فإن ذلك لايعدو أن يكون من الأمور الطبيعية فى أوائل الحروب قبل أن تنظم الأمور وتمد العدد لحماية الملاحة ومقاومة تلك القرصنة.

بقى أن ننظر فى الاحتمالات التى قد تتطور إليها الأحوال إذا اشتد على ألمانيا الحصار؟ هل تتماس بالإغارة على شعوب مجاورة كهنغاريا ورومانيا للانتفاع بمواردها فى سد حاجاتها؟ هل تمدها روسيا ببعض ما يعينها على مقاومة هذا الحصار؟ هل تنضم إليها بعض الدول وخاصة إيطاليا فتساعدها على مقاومة محاصريها.

أكبر الظن أن إيطاليا ستظل محتفظة بحيادها. حسبما فصل ذلك محرر الثقافة السياسى فى مقاله، فحيادها خير فرصة لها لتحسن شؤونها الاقتصادية. وهى عدا ذلك لا مصلحة لها فى دخول الحرب، وستكون معرضة لأشد أخطارها إذا هى أقحمت نفسها فيها، وقد بدا من زعيمها فى العهد الأخير ميول سلمية واضحة، كما أنه برهن على أنه يتوخى الحكمة والمصلحة الحقيقية لبلاده فى كل خطوة يخطوها.

وروسيا كما قدمنا لا يرجى منها كبير خير، فهى فى شغل بمشاكلها الخاصة، ولا سيما فى الشرق الأقصى، وأحوالها الاقتصادية لا تسمح كثيراً بالخروج عن بعض مواردها ولاسيما لدولة لاترجو منها مقابلا ذهبياً لما تقدمه.

بقى الاحتمال الأخير وهو أن يضطر النازى عند اليأس إلى مهاجمة البلقان، ومثل هذه المحاولة ستضعف قواه فى الميدان الغربى، وتوسع مجال استخدام موارده، وستثير عليه شعوباً أخرى لا يستهان بمقاومتها.

وخلاصة ما نراه أن الظروف بحسب ظواهرها ترجح جانب الدول الديمقراطية فى هذا الكفاح.

***

مشاهير السودان — الزبير باشا :

٣ - فتح مملكة دارفور

للأستاذ توفيق أحمد البكرى

[إنه خلق ليحكم الناس ، ولو كان فى أوروبا إذاً لكان له شأن غير هذا الشأن ، ولترك فى تاريخها أثراً جيداً]

«دكتور شفاينفورت»

فى تلك السنة التى عين فيها الخديوى إسمعيل باشا ، سير صموئيل بيكر حاكما عاما على المديريات الجنوبية ، ليقاوم تجارة الرقيق ، وليرود مجاهل بحر الغزال ، وليميط النقاب عن منابع النيل ، كان الزبير قد تغلغل فى الأصقاع الجنوبية ، يكتشف معالمها ، ويخضع أهلها ، ويؤسس القرى والديوم التى لا تزال إلى اليوم تحمل اسمه ؛ وأصبح السيد المطاع ، والآمر المتبع . له جيشه المنجب وجنده البسل المناة . ومضت كلمته ، هى الكلمة العليا التى لا يعارضها معارض ، وخافه ملوك الجنوب ، ودانوا له بالطاعة ، وحسده التجار من مواطنيه الذين أوفى عليهم فى مجال الغنى وبعد الصيت ، فوشى به الواشون إلى جعفر باشا مظهر ، وأوغروا صدره عليه ، واتهموه بأنه يريد أن يستقل بالمديريات الاستوائية ، التى دان الكثير منها إلى سلطان الزبير دون سلطان الحكومة .

فأوفد جعفر باشا مظهر فى سنة ١٨٦٩ الحاج محمد البلالى ، بقصد احتلال بحر الغزال وكسر شوكة الزبير ، وأتبعه سرية من الجند مؤلفة من مائتى عسكرى سودانى بقيادة الصاغ محمد أفندى منيب ، وأربعمائة من العساكر « الباشبوزوق » عليهم السنجق كوجوك على ، وسيانة من الخطرية . فطاف البلالى بحر الغزال ، ودخل زرائبها ، وقرأ لأصحابها فرمان الحكومة بتسميته مديراً على بحر الغزال ، فأطاعوا واستسلموا ، ولم تبد منهم أية مقاومة أو تمرد .



ولكن الزبير لن يرضى ولن يسلم بهذه التولية ، ولن يتنازل عن هذا الملك الذى استولى عليه بعظيم مجهوده وجزيل بذله . فجمع جيوشه ونظم رجاله فى انتظار جيش الحكومة . فلما جاءته أخبار قدوم ذلك الجيش ، كمن له فى خور على الطريق ؛ وما كاد الجيش يقترب حتى أطلق عليه النيران ، والتحم به فى معركة ضروس ، قتل فيها من قتل ، وأسر فيها من أسر . وأصيب فى ذلك اليوم الزبير بجرح بليغ فى رجله اليمنى . وقد قالوا إنه قاتل فى تلك الملحمة قتالا شديداً ، ورجع إلى مقره بعد أن أباد جيش البلالى . وتدبر الأمر فوجد أنه لن يستطيع عداوة الحكومة فى هذه المرحلة ، وأنه من الخير إليه أن يعالج الأمور بشىء من الحصافة والسداد ، حتى لا تقع عليه مسئولية التمرد والعصيان ، فبعث إلى جعفر باشا مظهر بجلية الأمر ، متعللا بأن البلالى وشى به لدى الحكومة ، وأنهم هاجموه ظلماً وعدواناً ، وما كان له إلا أن يرد غائلة

السودان ، وأنه مطيع لولى الأمر ، مخلص للجناب الخديوى . ووصل الأمر إلى الخديوى ، فكان كما قال دكتور شفاينفورت Schweinfurth « غاضباً حانقاً » . ولكن كان لا بد للخديوى من الاذعان إلى ما لا يمكنه التغلب عليه ، فقد أصبح الزبير فى الجنوب ، شيئاً أكثر من ملك تجار الرقيق الغير المتوج ، كما كانوا ينعتونه زوراً وبهتاناً .

قال الزبير : « وانتشر خبر انتصارى على البلالى فى أقاصى السودان ، واشتهر ملكى بالعدل والانصاف . وتوافد علىّ الناس من كل الجهات ، إما للانتظام فى جيشى أو الاتجار فى بلادى . ولم يمض إلا القليل حتى صرت ذا ملك عظيم . وكنت أميل فى أحكامى إلى استعمال الشفقة على من وليت ، إلا أنى كنت أضطر فى بعض الأحيان إلى استعمال الصرامة نظراً لقساوة قلوب أهل البلاد » .

بق الزبير بعد ذلك الحاكم الفعلىّ على الجهات الجنوبية ، كلمته هى العليا ، وسلطانه هو الأقوى ، مهيب الجانب ، مرهوب المكانة . وكأنّ نفسه ومطامعه الواسعة ، جعلته يتطلع إلى غير هذه الرقعة من الأرض ، ودفعته أحلام المجد إلى الأمام ، ولاحت له فى سماوات العلا نجومه الزهر . ألم يهادن عرب الرزيقات ويحالفهم ؟؟ ألم يجعل الطريق بينه وبين « دارفور » مفتوحاً ، لا تجد قوافله المحملة بالمتاجر والنفائس حائلا ومعترضاً ؟؟ وإن وجدت فإنه لواجد سبباً يتعلل به لمحاربتهم ومحاربة حليفهم سلطان دارفور .

وظل حتى ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٣ ، يتحين الفرص ، ويترقب الأحداث بعين ساهر لا ينام . وأقبلت الفرصة بعد طول ترقب وانتظار ، حين طمع عرب الرزيقات فى نوال أكثر مما اتفقوا عليه معه من جباية التجارة ، وجُعْلها المرقوم . فغدروا بالعهد والميثاق ، وخرقوا المعاهدة التجارية التى بينهم وبين الزبير ، بقتلهم بعض التجار من أنصاره ، وسَلْبهم لأموالهم وبضائعهم . فخاطبهم الزبير ، وبعث إلى حليفهم سلطان دارفور يقول :

« إلى حضرة أمير الأمراء الكرام ، مولانا السلطان إبراهيم بن السلطان حسين ، صاحب العزة والاقتدار ، والهيبة والفخار ، أدام الله علاه آمين .

« أما بعد فنحن عبيد أفندينا ، ولى النعم خديوى مصر المعظم . أتينا منذ عام ١٢٧٠ هـ لفتح بلاد العبيد . ففتحنا لنا بلاد « الفَرَا ابْنْت » (النيام نيام) برمتها ، وفتحنا منها الطريق إلى كردفان عن طريق شكا . فتعهد بحفظه مشايخ الرزيقات ، نظير جعل معلوم ، وضمناه لهم على التجار . ولكن لم يكن إلا اليسير ، حتى نكث الرزيقات العهد ، وربطوا الطريق ، وأباحوا دماء المسلمين وأموالهم ، بدون وجه شرعى » .

ثم طلب بعد ذلك من سلطان دارفور مساعدةً حربية حتى يستطيع أن يؤدب الرزيقات حتى « إذا ما تم لنا إذلالهم ، نعود فنسوى الأمر بيننا . فأما أن تتركوهم لنا نحكمهم بالقسط والعدل ، وإما أن نتركهم لكم ، فتفتحوا الطريق ، وتقدموا لنا النفقات التى سنبذلها على عساكرنا فى الحملة عليهم ، والأمل الافادة سريعاً ، فى حفظ الله آمين » .

فلم يجب سلطان دارفور على خطابه ، ولم ينته الرزيقات من السطو والعدوان . وقد كانت هذه المحاولة من الزبير تدل على كثير من الدهاء السياسى ، وبعد النظر ، وإحكام الحيلة . فليس يعقل أن حليفاً كسلطان دارفور يرسل جيشه إلى الزبير ليحارب به حلفاءه من عرب الرزيقات ، وبينه وبينهم مودّات موصولة ، ونسب وثيق! وكان عجيباً أن يطلب من يريد التحالف ، أن يدفع له الحليف نفقات عساكره فى الغزو . وكأن الزبير أراد بهذه الحيلة فى المراسلات السياسية ، أن يضع سلطان دارفور أمام الأمر الواقع ، وأن يثقل عليه بالمطالب ، فلا يستطيع له تلبية

وتنفيذاً ، وحينئذ يجد الزبير سبباً في قتال الرزيقات وغزو دارفور .

ثم أراد الزبير بعد نظره أن يستوثق من معاونة الحكومة له في هذه المحاولة الجريئة ، أو أن تقف منه موقف المحايد الحبذ ، وأن لا تسدد له طعنة نجلاء من الخلف ، وهو بقتال الرزيقات وفتح دارفور حالم مشغول ، فكتب في أثناء حربه مع الرزيقات ، أو قل في بدء المناوشات الأول ، إلى حكمدار السودان الجديد إسمعيل باشا أيوب ، يعلمه بأحواله وأخبار انتصاراته على الرزيقات ، ويسأله أن يرسل من يتولى حكومة البلاد التي فتحها في بحر الغزال ، وتخوم دارفور ، بالنيابة عن خديوي مصر . ثم اختتم كتابه قائلا : « فإذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد عدت إلى تجارتي ، تاركاً كل ما أنفقت من الأموال في الفتح هدية لحكومتي السنية . وانتظرت مكافأتها الأدبية حسبما تقتضيه عدالتها وكرمها » .

فرد عليه إسمعيل باشا أيوب يقول في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٣ : « عرضنا كتابكم على الجناب العالي الخديوي ، فشكر ولاءكم ، وامتدح رغبتكم في وضع البلاد التي فتحتموها بين يديه ، ليولي عليها من يشاء . وقد أنعم عليكم بالرتبة الثانية مع لقب « بك » ، وولاكم أمر البلاد ، على أن تدفعوا لخزينته جزية سنوية قدرها ١٥٫٠٠٠ خمسة عشر ألفاً من الجنيهات » .

قال الزبير : « فقبلت الجزية ، وتوليت أمر البلاد التي فتحتها رسمياً ، وشرعت في تنظيمها وعمرانها ، وجباية خراجها ، بما لا يثقل كاهل الأهلين » .

وراح الزبير بك بعد ذلك يعد العدة إلى هزيمة سلطان دارفور بعد أن هزم الرزيقات وفتك بهم ، وزالت من رسائله إلى سلطان دارفور كلمات اللياقة والعرف في مخاطبة الملوك والسلاطين .

فكتب إليه يقول : « من الزبير رحمت الجيمابي ، إلى السلطان إبراهيم بن السلطان حسين ، وعمه الأمير حسب الله ابن السلطان محمد الفضل ، أما بعد ، فقد دخلنا « شكا » للأسباب التي قدمناها في كتابنا الأول . وقد بلغنا أن بعضاً من فرسان الرزيقات قد التجأوا إليكم ، وهم يحثونكم على حربنا . فغاية ما نقوله لكم أن لا تستمعوا إلى أقوالهم الفاسدة ، فتقعوا في حرب الدولة المصرية ، ذات السطوة الغالبة ، والمدد غير المنقطع . ولا نقول ذلك على سبيل التهديد ، بل هو النصح نمحضه لكم لنمنع الفتن بين الدولتين . لا سيما وأنتم تعلمون ما كان بين والدكم السلطان حسين ، وبين عزيز مصر الخديوي المعظم من المودة والمعاملات ، التي لا تزال متصلة بينكم وبين خديوي مصر الحالي . لذلك نؤمل منكم أن تأمروا بالقبض عليهم ، وترسلوهم إلينا بالشُّعْبَة (١) والحديد » .

والخطاب كما يبدو من أسلوبه ، كله تهديد ووعيد ، ومبادرة بالمصاولة والمناجزة . فالزبير بك يعلم أن الرزيقات قد احتموا بحمى سلطان دارفور ، ويعلم أنه ليس من شمائل عرب السودان أن يسلم الإنسان من يلتجئ إليه ، أو من يستصرخ به . فسلطان دارفور سيمتنع عن تسليم اللاجئين . والزبير يشتد في الطلب لهم ، والحرب إذاً لا محالة واقعة بينهما ، وقد هيأ لها الزبير أحسن تهيؤ وتمهيد . ثم ، وكيف لسلطان دارفور وهو سلالة السلاطين ، وابن الأقيال العظام ، أن يتنازل بالرد على تُوَيْجِير جَلَّاب كالزبير ؟ قالوا إن السلطان غضب غضباً شديداً حينما تلي عليه خطاب الزبير ، وسبه سباً مقذعاً على ملأ من حاشيته وبطانته . فلما بلغ الأمر إلى الزبير بك ، ضحك ساخراً ، وأدرك أن الفرصة قد سنحت ، وأن سلطان دارفور قد ذهب .

أخذ الزبير بك يتصل بحكمدار السودان . ويبعث له الأخبار ، وخلاصة التصرفات ، فكان الحكمدار بدوره

(١) الشعبة : خشبة ذات رأسين ، كانت تستعمل في السودان في إذلال المقبوض عليهم وفي قيدهم قيداً لا يستطيعون منه فكاكا .

يرفعها إلى الخديوى ، وقد أقره فى جميع تصرفاته ، ولكن إسمعيل باشا أيوب ، كان فى أغوار سريرته ، يغار من مجد الزبير وجرأته النادرة ، وبسالته العجيبة . فأراد أن يشترك مع الزبير فى فتح دارفور ، حتى لا يفوته فخر ذلك الفتح العظيم . فلما طلب الزبير المدد منه ، بعث إليه بما لم يتعد ٢٨٠ جندياً من العساكر المنظمة ، وثلاثة مدافع . فسار الزبير نحو دارفور غرباً ، وتقدم إسمعيل باشا أيوب إليها شرقاً .

كان الزبير فى سيره أسرع من الحكمدار خطى ، وأحكم خطة ، وأقدر على المناوشات والمصاولة . والتحم بجيوش سلطان دارفور فى عدة وقائع ، تشهد للزبير بالمقدرة الحربية والشجاعة الفائقة ، والجرأة على اقتحام الصفوف وكسر أجنحة الجيوش ، وإدخال الرعب فى قلوب الأعداء واستطالات رحى الحرب ، ولكن الزبير بك كسر جيوش أعدائه ، ودخل « الفاشر » عاصمة دارفور فاتحاً منصوراً ؛ وبعد أن استقرت الأمور ، وهدأ الناس إلى هذا الغازى العربى ، الذى نشر بينهم العدل والمساواة ، والثقة والاطمئنان ، أقبلت طلائع جيوش الحكمدار ، فدخلت الفاشر زائرة لا غازية ، ومكرمة لا مقاومة .

ترك الزبير العاصمة إلى الحكمدار ، ومضى غرباً إلى بلاد « واداى » ليفتحها ، كما فتح دارفور وبحر الغزال ، ثم يضيفها جميعاً درراً غوالى فى جبين التاج المصرى . وتوغل فى البلاد حتى أوشك أن يلق عصاه بأفياء العاصمة . فلما أصبح منها على مسيرة يومين ، وافاه خطاب من إسمعيل باشا أيوب ، يأمره فيه بالانسحاب والرجوع من فتح واداى ، بناء على إرادة سنية ، فلما رجع أخبره الحاكم العام أن سلطان واداى أرسل وزيره الدعو أحمد إلى مصر ، شاكياً للخديوى ، من توغل الزبير فى بلاده ، فأمر جنابه العالى برجوع الزبير عن هذا الفتح ، ولكنه أنعم عليه برتبة اللواء الرفيعة ، مع لقب باشا .

ولو ترك الزبير باشا لمضى فى فتحه إلى النهاية ، ولامتدت رقعة الامبراطورية المصرية غرباً إلى واداى .

اختلف الزبير مع الحكمدار ، لأنه أراد أن تكون ضريبة الفرد Poll-Tax ، خمسين قرشاً لكل شخص ، ما عدا أهل المقدرة واليسار ، فقد جعلها أعظم من ذلك بنسبة يسارهم وثروتهم ؛ وكان الزبير يعلم أن هذه الضرائب تثقل كاهل الأهلين ، واقترح أن تكون أقل من ذلك بكثير مع تفاوت فى النسبة بين الأغنياء والفقراء . وأنها لو وضعت كما أرادها الحكمدار ، فقد تؤدى إلى تذمر وامتعاض فتمرد ، لأنهم غير متعودين عليها . فأبى إسمعيل باشا أيوب أن يستمع إلى رأى الزبير ، وأغلظ له فى القول ، واشتد بينهما الجدل والحوار . وقد تحقق رأى الزبير بعد ذلك ، حيث ثار الأهلون بسبب ثقل الضرائب .

قال الزبير : « ولكن الحكمدار تكدر من نصحى له ، وكلفنى بمدة زائدة ، وقال إنه أدرى بما يجب فعله ، فكتبت إليه إذ ذاك كتاباً رسمياً ، أثبت فيه رأيى ، ورفعت به المسئولية عنى ، وألقيتها عليه . فزاده هذا الكتاب غيظاً وحدة ، وأصدر أمره إلى بالرجوع إلى بحر الغزال ، فصدعت بالأمر ، وخرجت بعساكرى قاصداً إلى « داره » فلما وصلتها ورد على تلغراف من سمو خديوى مصر يأمرنى فيه بعدم التعرض للحكمدار فى إدارة البلاد . فعلمت من ذلك أن الحكمدار اشتكانى إلى سموه ، وطعن فى صداقتى وإخلاصى له ، وقيل كما عرفت فيما بعد ، أنه اتهمنى بإرادة الاستقلال بالبلاد . فعزمت على المجىء إلى مصر للتشرف بمقابلة الجناب العالى ، وعرض حقيقة الحال على سموه ، والنظر معه ، ومع رجال حكومته فى تنظيم البلاد التى تم فتحها على يدىّ ، والبلاد التى يمكن إلحاقها بحكومته فى المستقبل . عرضت ذلك تلغرافياً فجاء فى الرد الآتى :

سعادتلو زبير باشا :

« لقد كانت أفكارى متعلقة بك ، لكن بالنظر لما

٢ – أركان الأساوة
للكشف عن الجراثيم

مضت مئتان وخمسون عاما منذ طلع على الناس تاجر أقمشة هولندية مغمور باكتشافه العجيب عن ازدحام العالم المحيط بنا بجراثيم لا عدد لها ولا حصر . وما لبث تاجر الأقمشة أن أهمل شئون تجارته إهمالا كبيرا ، منصرفا عنها إلى هوايته — صنع العدسات وشطفها — فتوصل بعد جهد جهيد إلى تكوين ميكروسكوب من عدساته ، ثم أخذ يفحص تحتها بعض أجزاء دقائق الكائنات ، كسيقان الحشرات ، وقطع صغيرة من شعرات الانسان ، وذبان النحل واليعاسيب . وحدث بينما كان يفحص نقطة من المياه تحت ميكروسكوبه ، إذ تبين عالما جديداً عامرا بالميكروبات المختلفة الأشكال والأحجام ، وهى تروح وتغدو وتضطرب فى نطاق هذه النقطة المائية بسرعة عجيبة . لقد اكتشف التاجر الهولندى الجراثيم وإن لم يكن يعلم بالدور العظيم الذى تلعبه هذه الكائنات الدقيقة فى حياة الانسان وما يتصل به من داء ودواء .

وبعد مضى قرن على هذا العهد ، واصل قس إيطالى دراسة ما كشف عنه تاجر الأقمشة الهولندية . ولكن لويس باستير Pasteur هو الذى توصل فى النهاية إلى الكشف عما أحاط الجراثيم من غموض .

ولد باستير عام ١٨٢٢ وما لبث بعد دراسة الصيدلة أن ذاع صيته فى عالم الكيمياء ، وسرعان ما عين أستاذاً لهذا العلم فى إحدى مدن فرنسا المشهورة بصناعة البيرة . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى طلب إليه أصحاب معامل البيرة أن يفسر لهم سبب فساد بعض هذا السائل فى الدنان وعدم تحول المادة السكرية إلى كحول . فبحث باستير كمية من البيرة الموجودة فى الدنان السليمة ثم بحث كمية أخرى من البيرة الموجودة فى الدنان الفاسدة ، فوجد فى بيرة الدنان السليمة كميات كبيرة من كرويات صفراء ، وهى الظاهرة التى تحدث عند عملية التخمر وتحول المادة السكرية إلى كحول ؛ وكانت هذه الكرويات متجمعة أحياناً وأحياناً مشتبكة على هيئة سلسلة وأحياناً تبدو كأن بذوراً أخذت تتفتح وتنمو من جوانبها . أما فى محتويات الدنان الفاسدة فقد وجد شيئاً قليلا جداً من الكرويات أو هو لم يجد لها أثراً بينما وجد ملايين من الحيوانات الدقيقة على شكل عصى أو قضبان ميكروسكوبية . وعظمة باستير تنحصر فى تفسيره لهاتين الظاهرتين ، فقال إن الخميرة فى الدنان السليمة حية وهى ماضية فعلا فى عملية الاختمار ، فالكائنات الحية الدقيقة هى سبب التخمر ، فإذا أعدمت الخميرة وقفت حركة الاختمار .

بينى وبينك من بعد المسافة ، ولما هو بالغ مسامعى عما أنت فيه من المشغوليات الجسيمة ، ظننت أنه لا يتيسر حضورك ، فلما ورد تلغرافك بطلب مقابلتى بمصر ، صرت ممنوناً ، فبادر احضر إلى مصر ، لأجل المداولة معك فى تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك ، وتحت إدارتك . وها قد تنبه على جميع طلباتك بغاية الاعزاز والاكرام » .

كان الزبير يشعر بعد هذه البرقية ، أنه إذا قدم إلى مصر فلن يعود إلى السودان ، ولكن كان لا مفر له من تلبية الأمر ، ومن المجيء للقاهرة ، حتى يسوى الأمور المعلقة جميعها ، فشد رحاله وقطع المراحل الشاسعات حتى حضر إلى القاهرة فى ١٠ يونيو سنة ١٨٧٥ .

(يتبع) توفيق أحمد البكرى

أما الحيوانات الموجودة بالدكان الفاسدة على شكل قضبان وعصى فهى جراثيم فتكت بالجيرة فأصبحت عملية الاختمار ضرباً من المحال .

ثم أخذ باستير يصرف جل نشاطه العظيم فى بحوث أخرى ، فبرهن على أن الجراثيم تستطيع الحياة دون حاجة إلى الهواء ، كذلك برهن على أن هذه البكروبات تستهلك الأكسوجين فى اللحوم فتسبب فسادها وتعفنها وتلاشيها ، ثم جادل بأن هذه الميكروبات تجعل الحياة ممكنة بإبادتها أشلاء الكائنات الميتة ، ولولا هذا لغصت الطرق والأزقة بأشلاء الموتى .

وقام غير قليل من الناس يقولون بأن وجود الجراثيم فى المواد المتعفنة الآخذة فى التحليل هو نتيجة التعفن لا علة وجوده . أما باستير فكان مقتنعاً بأن الجراثيم تتولد عن الجراثيم وأنها محمولة فوق ذرات التراب فى الجو .

ودلل على هذه النظرية بأن أتى بحساء فوضعها فى قدر على النار حتى غلت ، ليقيم الحجة على أن غليان السائل يقتل ما فيه من الجراثيم ، ثم ترك القدر تبرد بدون غطاء فوجدها تعج بالجراثيم ، كذلك وجد أنه إذا أحكم سد القدر بعد غليها مباشرة ، فإن السائل يظل خالياً من الجراثيم طالما القدر محكمة السد ! ثم صعد بحسائه المغلى بعد ذلك إلى قمم الجبال ، وتركها تبرد فى الهواء النقى الخالى من ذرات التراب ، فوجد أنه كلما صعد فى الجبال كان الهواء أنقى وأصفى ، وزاد حظ الحساء من عدم التلوث بالجراثيم . فاستنتج من ذلك ما جعله يصرح بأن الجو ملىء بذرات التراب تضطرب فى فضائه ، وأن فوق هذه الذرات تحمل الجراثيم .

انتقل باستير من بحث البيرة إلى بحث النبيذ ، فبرهن على أن النبيذ الجديد الاختمار إذا أوقد تحته دون أن يسمح لحرارته بالاقتراب من درجة الغليان قتل ما فيه من الجراثيم وأمكن الاحتفاظ به دون أن يحمض مهما تقادم عهده . وقد انتشرت هذه الطريقة وأصبحت تعرف بطريقة باستير ، وهى تستعمل لتعقيم الألبان وحفظها . ثم انتقل باستير من البحث فى النبيذ إلى البحث فى دودة القز حتى أنقذها من مخالب الجراثيم التى كانت تفتك بها فى جنوب فرنسا . وقد كان باستير من أرباب الدعاية ، فما من شىء وصل إليه عمله حتى نشره على الناس ، إلى أن أصبحت أوروبا ولا هم لها اليوم إلا الجراثيم وما يتصل بها من بحوث .

ولنترك فرنسا الآن وننتقل إلى ألمانيا ، حيث كان أحد الأطباء المغمورين يقوم فى إحدى المدن الريفية بتجارب عجيبة . أما اسم هذا الطبيب فروبرت كوخ Koch . وكان كوخ ميالاً للعزلة والاعتكاف ، بقدر ما كان باستير تواقاً للظهور وذيوع الصيت .

أخبر باستير العالم بأن الجراثيم تلعب دوراً غير يسير فى تسبب العلل الانسانية ، ولكنه كان يفتقر إلى إقامة البرهان على ذلك . أما كوخ فبحث عن هذا البرهان .

كان أصحاب المزارع فى جميع أنحاء أوروبا يسود عليهم القلق الشديد فى هذا العصر الذى نحن بصدده ، من جراء فتك داء الجمرة الخبيثة بماشيتهم وقطعان أغنامهم ، حتى كانت هذه الدواب تبدو على أتم ما يكون من الصحة فى المساء ، وما يكاد يطلع عليها الصباح حتى تبدو عليها عوارض الداء الخبيث . فحص كوخ تحت ميكروسكوبه عينات مختلفة من دماء الماشية والأغنام التى قتلها داء الجمرة الخبيثة ، فوجد فى دمائها مجموعات كبيرة من جراثيم على شكل العصى ، كل واحدة مشتبكة بالأخرى ، وليس لها مفاصل تربط بعضها ببعض ، فأخذ يتساءل عما إذا كانت هذه العصى هى مسببات الداء الفتاك ، وهل هى حية أم لا . عمد كوخ إلى البحث العلمى فوجد أن هذه الظاهرة تبدو دائماً أبداً فى دم الماشية

المصابة بهذا الداء ، فحقن بعض الجرذان بهذا الدم الموبوء فماتت في الحال ، ثم عمد إلى دماء الجرذان الميتة فحقن بها طائفة أخرى من الجرذان السليمة ، وهكذا حتى حقن ثمانية أجيال سليمة من الجرذان ، كل جيل منها بدم الجيل السابق بعد موته من تأثير الدم الموبوء . وكانت النتيجة أنه أينما وجدت هذه العصى" المشتبكة بعضها دون مفاصل تربطها ببعض في الدم ، ظهرت عوارض داء الجمرة الخبيثة ، إلا أنه كان لا مناص له من أن يتحقق من أن هذه الجراثيم حية ، قائلا لنفسه لا بد وأن أشاهدها في حال نموها ، فعمد إلى طريقة مبتكرة فذة ، وهي أن حضر نقطة من الدم متدلية من سطح زجاجة الفحص الميكرسكوبي الأسفل ، بعد أن لونها بتلك الجراثيم العصوية الشكل ، وبعد أن أدخل فيها شيئاً مما تقتات به ، ثم أخذ يراقب حركات تلك الجراثيم تحت الميكرسكوب ، وإذا به يرى الحدث العظيم . رأى كوخ هذه الجراثيم العصوية الشكل تنقسم كل جرثومة منها إلى قسمين ، ثم يعود كل قسم منها إلى الانقسام بدوره فتتضاعف مرات عديدة في سرعة عجيبة مدهشة ! وهكذا لأول مرة في التاريخ أقيم البرهان على أن نوعاً معيناً من الجراثيم هو سبب إحداث علة معروفة .

كان باستير يعتقد بصحة ذلك ، ولكن كوخ هو الذي أقام الدليل على صحة هذا الاعتقاد .

وانتقل كوخ من البحث في جرثومة الجمرة الخبيثة إلى البحث في موضوع السل التدرني ، فقام بعدة تجارب على نوع الجرذان المعروفة بالخنازير الهندية ، حتى برهن على أن السل التدرني سببه الجرثومة المعروفة (باشلس السل) « Tubercle Bacillus » . ثم أخذ يبحث بعد ذلك عن علة الكوليرا مدللا من جديد على أنها تتسبب من جرثومة على هيئة واو صغيرة . وهكذا برهن كوخ على أن الجراثيم تقتل الانسان .

ولنترك كوخ الآن صاحب المنطق الهادئ الرصين ، ولنعد إلى باستير صاحب الذكاء المتوقد . لاحظ باستير أن الماشية والأغنام أحياناً ما تنقه من داء الجمرة الخبيثة ، فعمد إلى دابة من تلك الدواب التي قدر لها الشفاء من العلة فحقنها بكمية كبيرة من جراثيم الجمرة الخبيثة ، ولكنه وجد أن الدابة لم تتأثر مطلقاً بما حقن في دمها من جراثيم الداء ، فاستنتج من هذا أن الاصابة الأولى بالعلة تترك المصاب في مناعة من إصابة جديدة بنفس العلة ! ومن هنا خطر له استعمال الجراثيم لإبادة الجراثيم أو للتغلب عليها ، وبهذا جعل الجراثيم حرباً على نفسها . وقديماً قال الشاعر العربي : « وداوني بالتي كانت هي الداء) » أرى باستير مستطيعاً تحضير مصل من هذه الجراثيم يكون فيه وقاية من عدواها . عمد باستير إلى طائفة من التجارب في هذا الصدد مستعيناً بجراثيم كوليرا الدواجن ، فوجد أنه يستطيع إضعاف الجراثيم عن طريق قصر طعامها على الحساء ، وعند ما تم له ذلك حقن دجاجة بهذه الجراثيم الضعيفة ، فتبين له أنه لا يمكن لهذه الدجاجة أن تفتك بها جراثيم كوليرا الدواجن ، مهما كانت الإصابة شديدة . .

وقد تمكن بعد مضي ست سنوات أن يقوم بمثل هذه التجربة مستعيضاً عن الدجاج بالدواب ، وعن جراثيم كوليرا الدواجن بجراثيم داء الجمرة الخبيثة . ولعل أكبر انتصار أحرزه باستير كان في كسر شوكة الجراثيم المسببة للسعر في الكلاب ، ذلك الداء الذي يحدث الجنون في الكلاب المصابة به ، والموت لمن مني بعضة منها . ثم وقف باستير علمه المستمد من تجاربه على الحيوان الأعجم على الإنسانية وتخفيف آلامها .

***

من قصص (پو) Poe

للأستاذ محمود محمود

ربما كان (أدجر ألن پو) Edgar Allan Poe أشهر من اشتغل بكتابة القصص المفزعة المروعة، فهو يخلق المواقف الرهيبة ويعبر عنها بأسلوب قوي متين. ولقد كانت حياته ذاتها قصة قصيرة عجيبة، تعرض فيها لكثير من الشقة وألم النفس. ولد في أمريكا عام ١٨٠٩ من أب أمريكي وأم انجليزية تشتغل بالتمثيل؛ وتوفي أبواه وهو لما يزل في مهد الطفولة. ولكنه كان يتميز بالذكاء الخارق والجاذبية القوية، فتبناه رجل اسكتلندي من أهل الثراء، هو (جون ألن)، ورعاه رعاية الابن. ولما بلغ الطفل السابعة هبط أبواه الجديدان إلى انجلترا، وألحقاه بالمدرسة الأولية، وكان بادي الذكاء بين أقرانه، إلا أن أباه كان يبالغ في تدليله، فكان (أدجر) يزهو على صغار التلاميذ. وبعد هذا عاد إلى أمريكا، والتحق بمدرسة (رتشمند)، وسرعان ما ظهر تفوقه في العلم والرياضة البدنية والسباحة. ثم التحق بالجامعة وأغرم بأدب (اللورد بيرن) فاتخذه له مثالا يحتذيه. ووقع في هوى فتاة حسناء، أخذ يدبج لها الرسائل على طريقة أستاذه (بيرن)، ولكنه أخطأ العنوان، فلم تتسلم معشوقته كتاباً واحداً منه، ولم يحظ منها برد. وقبل أن يتم تعليمه الجامعي اختلف مع المستر (ألن) لحبس الرجل عنه المعونة المادية، واضطر إلى لعب الميسر، وكثر دينه، حتى لم يستطع أداءه، فغادر (رتشمند) إلى (بوستن)، حيث كان يؤمل أن يعيش بقلمه؛ وهناك أخرج ديواناً صغيراً، غير أنه صودر لما كان يحوي من خواطر جامحة. ولما ضاقت به سبل العيش التحق بالجيش جندياً في صفوفه. ولكن أباه أشفق عليه، ودفع له تعويضاً مالياً، وأخرجه من الجندية وأدخله المدرسة الحربية. إلا أن نكد الطالع كان لا يفارقه، فتوفيت زوج المستر (ألن)، واضطر الرجل إلى أن يتزوج بامرأة أخرى، شُغل بها عن ابنه، وكان يتوقع أن يُرزق منها بمولود؛ فطلب إلى (أدجر) أن يتولى شئون نفسه، فانفصل صاحبنا عن المدرسة الحربية وعاش عيشة ضنكا عسيرة. وفي خريف ١٨٣٣ بسم له الحظ، وتنبهت الصحف والمجلات إلى قصصه، وارتفعت قيمته في سوق الأدب، بيد أن الأدب خلق له كثيراً من الأعداء.

وفي غضون ذلك كانت معشوقته الأولى قد تزوجت من غيره لانقطاع المراسلة بينهما كما قدمنا، فتزوج من ابنة عمه (فرجينيا)، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها، ورحل معها إلى (نيويورك) طلباً للشهرة وبعد الصيت، ولكن الحظ لم يواته، فاستأنف الرحيل إلى (فيلادلفيا)، وهناك كتب أروع القصص. ثم مرضت زوجه، ووافاها القدر المحتوم، وهي لما تزل في ريعان الشباب، فجزع عليها كثيراً، وأدمن الشراب وأوشك أن يجن. وفي تلك الأثناء ترملت معشوقته الأولى وكتبت إليه، فاطمأن قلبه قليلا، وتواعدا على الزواج، وإذ هو في طريقه إلى (نيويورك) كي يتصل بها، قضى نحبه في (بالطيمور)، وتوفي عام ١٨٤٧ قبل أن يبلغ ما يريد.

***

ومن قصصه القصيرة المشهورة قصة (الموت الأحمر). وهاك موجزاً لها:

انتشر «الموت الأحمر» في أرجاء البلاد حتى أوشك أن يقضي عليها. ولم يعرف الناس من قبل وباء مثله قاتلا، يصيب الفرد فيألم أشد الألم، ويشعر بدوار شديد، وتنفجر منه العروق، ويظل يدمى حتى يموت، وإذا أصاب هذا الوباء امرأ، انعزل عن أهله وذويه ولم يحظ بعطف إنسان، وكان المرض من وطأته حتى نهايته

لا يستغرق أكثر من ساعة أو بعض ساعة .

ولكن الأمير (برسبرو) كان رجلا حكيما عاقلا ، فلما قضى الوباء على نصف رعيته استدعى ألفاً من الفرسان وحسان البلاط وأوى وإياهم إلى حصن منيع فراراً من وطأة الوباء . وكان الحصن محاطاً بالأسوار المتينة ، وأبوابه من الحديد الصلب . ولما ولج الجميع القلعة أغلقوا المنافذ بالقضبان ، حتى لا يتسنى لأحد أن يتسلل من خارج ، أو يهرب من داخل . وأمد الأمير القصر بالمؤن الوفيرة . وهكذا أراد أن يتحدى عدوى الوباء . وقد أتى معه بالمهرجين والندماء ، وبالراقصات والمغنيات ، والخمور والحسان ، وأخلد إلى السكينة والأمن . ولم يعد يأبه (للموت الأحمر) أو لرعيته . وبعد ستة أشهر من هذه العزلة ، بينما كان الوباء على أشده ، أدب الأمير مأدبة عظيمة لصحبه . وأعقب المأدبة بحفلة راقصة يتوارى فيها الراقصون بالحجاب . وكان بالقصر سبع حجرات ، منها واحدة مغطاة باللون الأسود ، لا ينفذ إليها إلا ضوء خافت ضعيف . وعلى أحد جدرانها ساعة كبيرة يخرج من بين رقتها بين الحين والآخر رنين قوى ترتاح لسمعه الآذان . وكلما دقت الساعة وقف الموسيقيون عن العزف ، وامتنع الراقصون عن السير . ثم تسكن دقات الساعة ويعود الهدوء ، فيسخر الراقصون بعضهم من بعض ، ويأخذون على أنفسهم أن لا يرتاعوا لصوت بعد هذا ، أياً كان مصدره . ولكن ما إن دقت الثانية عشرة حتى عاودهم الخوف ، ووقفوا عن الحركة ، وأخذ كل منهم يتلفت يمنة ويسرة . وإذ الحافلون في هذا الصمت ، تبين لهم شبح مقنع ، يتحجب من قمة رأسه إلى أخمص قدمه في رداء كأنه الكفن يتخضب بالدماء ، فتهامس الجميع وتولتهم الدهشة والرعب الشديد .

ولما وقعت عينا الأمير على هذا الشبح ثار غضبه ثم صاح : « من هذا الغريب الذى يتحدانا بمقدمه ؟ اقبضوا عليه ، ومزقوا قناعه ، ثم اقتلوه ! وسكتت الموسيقى ، ولكن أحداً لم يجرؤ على التقدم ، واستندوا جميعاً إلى الجدران فرقاً ورعباً ، فانطلق الأمير بنفسه صوب الشبح — وكان هذا قد بلغ الحجرة السوداء — ورفع خنجره ، وما إن دنا الأمير وأصبح قيد خطوة من عدوه ، حتى صاح بأعلى صوته وسقط الخنجر من يده وخر صريعاً . حينئذ تدافع الحافلون ، ودبت فى قلوبهم الحماسة ، وبيد واحدة انقضوا على الشبح ، فإذا به رداء من غير جسم ، ولباس غير مأهول .

هذا هو « الموت الأحمر » تسلل كاللص فى ظلمة الليل ثم أخذ الحافلون يتساقطون واحداً بعد الآخر ، ويقضى كل منهم مكانه . ثم سكتت الساعة عن النذير ، وانطفأت الأضواء ، وساد المكان ظلام وفناء و « موت أحمر » . (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) .

***

ومن قصص (پو) المروعة كذلك قصة عنوانها « ضحية الفن » . يروى الكاتب أنه كان ذات ليلة فى قصر مهجور ، وقد أعد له الفراش فى حجرة ضيقة مرتفعة ، أثاثها عتيق ممزق ، إلا أن بها كثيراً من الصور الفنية ، معلقة فوق الجدران . وقد استرعى بصره من بين هذه الصور صورة لفتاة حسناء ، قوية الشباب جميلة المحيا ، لا يبدو منها غير رأسها وكتفيها ، وصدرها الناهد وبعض ذراعيها ، وشعر ذهبى يتدلى فى مؤخرة الصورة . والرسم فى جملته آية من آيات الفن ، يكاد ينطق بالحياة . وكان إلى جوار (پو) كتاب صغير به شرح ونقد للصور المحيطة به ، فشاقه أن يعرف شيئاً عن هذه الفتاة ، ففتح كتابه وطالع فيه هذه القصة :

« كانت عذراء بارعة الجمال ، جميلة الطلعة ، تفيض مرحا وبشراً . ثم التقت بمصور نابغ ، قوى العاطفة ، دائب العمل ، نافذ البصر ، فافتتنت به وافتتن بها ، وتعاقدا على الزواج . إلا أن الرجل ما زال يخلص لفنه ، ويكاد يتخذ منه زوجاً له أخرى . فغارت الفتاة من فن زوجها ، وأصبحت تخشى أشد ما تخشى الريشة والفرجون لأنهما كانا يصرفان زوجها عنها . وفى ذات لحظة نظر

إليها المصور نظرة الفنان ، فإذا بالنور يشع من وجهها ، والبسمة تشيع في محياها ، فأحب أن يصورها في هذا الوضع ، وعرض عليها مطلبه ، فلبت له إرادته كارهة على مضض ، لأنها كانت تعلم أن زوجها إذا اشتغل برسم صورة انصرف بكل قلبه إليها ، ولا تهدأ نفسه حتى يتمها .

« وساقها إلى غرفة مظلمة لا يتخللها سوى شعاع يسير من ضياء ، وأجلسها أمامه في وضع مضن شاق ، وطلب إليها ألا تنى عنه ، وتتابعت الأيام وهو منصرف إلى هذا العمل ، يرى فيه سبيله إلى المجد . وغاب عنه أن ظلام الغرفة كان يذوى جمال زوجه ، ويميت روحها المرح اللعوب . فكانت الفتاة تذبل في عين كل راء سواه . ولكنها رغم هذا لم ترفع صوتها بالشكاة إرضاء لزوجها ، وأبقت على بسمتها كى لا تفسد عليه صورته . وكلما شاهد بين الأصل والصورة شبهاً اشتعلت حماسته واشتد سروره ، ولم يدرك ما أصاب زوجه من وهن وضعف . ولما أوشك العمل أن ينتهى أغلق الغرفة عليهـا وعليه ، ولم يسمح لأحد بالدخول ، وامتدت به الساعات لا يدير عينيه من لوحته ، ويكاد لا يدرك لزوجه وجوداً . ولم يدر أن الصورة كانت تستمد جمالهـا من جمال تلك الفتاة المسكينة . وانقضت على ذلك الأيام الطوال ، ولم يبق لإنجاز الصورة إلا القليل . لم يبق سوى خط واحد يتم به رسم ثغرها ، ولمحة واحدة يتجر بها نظرة عينيها . ولبث يرتقب هذه اللمحة تشع في عينيها ، وما إن تألقت في وجهها ، حتى سارع إلى إثباتها في لوحته . وتمت صورته ، ووقف أمامها مشدوهاً معجباً ، ثم صاح بأعلى صوته ، وقد امتلأ قلبه سروراً : « هذه هي الحياة بعينها » . والتفت إلى زوجه يهنئها بإنجاز الصورة ، فإذا بها جثة هامدة ، فلقد ماتت ضحية الفن الجميل ! » .

محمود محمود

الوصف فى شعر شوقى

للأستاذ أحمد محمد الحوفى

— ١ —

حدث شوقى عن نفسه أنه كان فى الثالثة من عمره ، يوم دخلت به جدته إلى الخديو إسماعيل ، وكانت بعينيه رعشة ورجة ، فلا تطرقان عن السماء ، فتحايل الخديو ليطب هذا الطفل النعم فى ظلاله ورعايته ، فنثر بدرة من الذهب على البساط بين يدى الطفل ، فتلهى بها ، وفتنه بريقها ، واشتغل بجمع الذهب واللعب به .

وكأنما أحس الخديو أن تكرار هذا العمل يبرئ الطفل من مرضه ، فقال لجدته : « اصنعى معه مثل هذا ، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض » ، قالت الجدة : « هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى » . فقال : « أحضريه إلىّ متى شئت ، فأنا آخر من ينثر الذهب فى مصر » .

— ٢ —

لعل هذه الرعشة البصرية هى التى فسحت لشوقى آفاق الوصف ، فبرع فيه وبرع ، ولعله أن كان يرى فى اللمحة الواحدة ما يراه غيره بالإدمان والتحديق ، فيجمع فى خياله مئين الصور ، ثم يلم أشتاتها ، ويوائم بينها ، ويسويها صورة رائعة بارعة ، فيها من الحقيقة لبابها ، وفيها من الخيال سحره وطرافته .

ينقل من الحياة ، ولكنه يضيف إليها ، يحاكى المادة ولكنه يهذبها ؛ يستمد من البيئة ، ومع ذلك يختار سماتها البارزة ، ويصطفى شياتها الواضحة ، فيوفق بينها ، ويخلق منها صورة جديدة موسومة بطابعه ، مترجمة عن إحساسه وتصوره وتصويره .

فالشاعر والفنان كلاهما ينظر إلى الحياة نظرة عميقة متأثرة مدركة ، تتأثر بالجمال ، وتعى المحاسن والباهج والانسجام ، وإن غفل الناس عن هذا ، وتساوى عندهم القبيح منه والمليح .

شوقى إذاً شاعر متفوق على من دونه من المرجوعين فى يقظة النفس وشعورها ، ثم هو مقتدر على التعبير عما يجيش بنفسه فى رقة وسلاسة وبراعة .

— ٣ —

على أن شوقى كان فناناً يحب الجمال ويؤثره ، يتحدث بذلك أمينه أحمد عبد الوهاب أفندى فيقول :

« كان يحب الجمال ، ويعنى به كثيراً ، سواء أكان فى الإنسان أو الحيوان أو النبات .

« وكذلك كان يعجب بالجمال فى المخطوط ، فإذا ورد إليه كتاب ينظر فيه ، فإذا كان خطه رديئاً ، قال لى اقرأه وأبقه عندك ، وذكرنى به ، ولو كان هذا الكتاب من صديق ؛ أما إذا كان الخط حسناً فإنه يقرؤه بنفسه ، ويثنى على كاتبه ، وربما حمل هذا الكتاب معه أكثر من يومين ، وربما عاد فنظر إليه وإن كان من سائل » .

وشوقى فوق ذلك كله شاعر ملهم ، يحس إحساساً مرهفاً ، يبصر حيث يعمى غيره ، ويسمع حيث يصم ، ويتفتح قلبه للوحى حيث يختم على قلوب الصم البكم ، ويتكشف الجمال لبصره وبصيرته ، حيث تعشى بصائر أغمار الناس .

وقد تفرد بالوصف ، فكانت عيناه كعدسة المصور

يلتقط بها ما يروقه ، غير أن المصور يخرج للناس ما راقه صوراً ميتة على الورق ، محدودة التعبير ؛ أما شوقي فكان يخرجها صوراً حيـة ناطقة ملحنة ، منوعة التصوير ، والتعبير ، والتفكير .

— ٤ —

والوصف أبعد مناحي الأدب مأخذاً ، وأصعبها التماساً وأداءً ، وحتى هو في النثر تضيق به قدر الناثرين ، ذلكم بأنه يحتاج دقة في التصوير ، وصدقاً في التعبير ، ولباقة في التفكير ، وخفة في تعاطي الكلام وتناوله ، مع العبارة المشرقة ، والألفاظ المختارة الموثقة .

لكن شوقي كان شاعراً وصافاً ، حفل شعره بوصف المرئيات في الطبيعة بأوصاف الشروق والغروب والجداول والحدائق والغيم والصحو الخ ، كما غني شعره بوصف الآثار ، حتى كاد ينطق الجلامد والأحجار ؛ وهو في هذا الضرب الشاعر الأول الذي أذاع في المصريين عظمة آثارهم وجلال ملوكهم ، والاعتزاز بحضارتهم وتاريخهم .

ومن شعره التصويري أيضاً وصفه الطيارة والغواصة والقطار ، والمواكب ، والمراقص ، والحفلات ، والحروب والأعيـاد . . .

— ٥ —

على أن شوقي لو قصرت أوصافه على ذلك كله لعدوناه شاعراً يرى الظواهر فيعجب بها ، فيتأثر بما فيها من تناسق وملاحة وجمال ، فيقصد القصيد في وصف ما راقه وآنقه ؛ لكن شوقي كان كذلك ، وكان فوق ذلك شاعراً ذا ثقافة ودراية بطبائع النفوس ، يستشف ما بها من حزن وألم ، وبغض وحب ، وصراحة ومواربة ، وخداع وإخلاص ؛ فصور النفوس وأجاد تصويرها ، كما رسم مظاهر الجمال وجوّد رسمها .

— ٦ —

يصف هيكل أنس الوجود القائم في جنوبي أسوان ، هنالك في لجة النيل ، فيخيّل إليك قصور الهيكل غرقى في اليم ، خائفة يتعلق بعضها برقاب بعض ، والماء يغمر أجزاء منها ، فتبدو البواقي كحسان على الشط يسبحن ، فمن يُبدين ، ويُخفين . . . وقد هرمت القصور وهرم الزمن نفسه ، فهي قديمة العهد ، بعيدة المهد ، على أن فنونها تتجلى حديثة الإشراق ؛ طريفة الأصباغ والألوان ، كأنما قد نداها الفرعون أمس بزيت لامع مشرق ، كأنه نور متألق .

وهذه الخطوط الملاح التي تنطق الصور ، بارعة الفن ، متقنة الطول والعرض ، ماذا تشبه ؟ إنها تشبه أهداب الظباء دقة وانسجاما . والضحايا مواثل على الجدران ، لو نفخت فيها الروح لثغت وماءت ومشت ترعى . . . وهذه المحاريب الضخام ، أي قدر شيدتها وشادتها ؟ إنها قدر إنس أقوى من الجن . . .

ثم يتحدث بعد ذلك عن حظ هذه المحاريب قديماً وحديثاً ، ويذرف دمعة حرّى على هوانها وفنائها ، ويذكر الفراعين وفتوحهم ، والعلم وتقديره لهذه العظمة . . .

وهي قصيدة طويلة نقتطف منها :

قف بتلك القصور في اليمّ غرقى
ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضا
سابحات به وأبدين بضـــا
شاب من حولهـا الزمان وشابت
وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنمـا نفض الصا
نع منه اليـدين بالأمس نفضا

ودخان كلامع الزيت مرت   أعصر بالسراج والزيت وضا

ومحاريب كالبروج بنيهـا
عزمات من عزمة الجن أمضى

وخطوط كأنها هدب ريم
حسنت صنعة وطولاً وعرضا

— ٧ —

وهذه صورة أخرى بارعة ، يصور بها شوقي الغواصة ، فلا يعرض لتركيبها وحقيقتها وسرعتها وتنفس من بها ، فذلك من وظيفة العلم ، ولكنه يصورها صورة شعرية فيها حقيقة وفيها خيال ، وهي على ذلك تهول فيما تصنع الغواصة في الحرب . إنها تدب في عمق البحر تحت الموج ، في نجوة عن الأنظار ، تَرى ولا تُرى .

هي الحوت الطويل الضخم ، بل هي أفظع منه ، ففيه شبه منها ، ولو أن الحوت من صلب لكان غواصة .

والغواصة أشد فتكا وترويعاً للبحارة وأعظم بلوى حين تفتح فاها لنسف السفينة ومن عليها وما عليها .

ولن تحمد في حال ، فهي خئون إذا غاصت إلى القاع ، لأن البحارة لا يعرفون قرارها ولا اتجاهها ، ثم إذا طفت فهي ذات غدر وكيد ، لأنها تقذفهم بنارها . . .

ودابة تحت العباب عكن
أمين ترى الساري وليس يراها

هي الحوت أو في الحوت منها مشابه
فلو كان فولاذاً لكان أخاها

أبث لأصحاب السفين غوائلا
وألأم نابا حين تفغر فاها

خئون إذا غاصت ، غدور إذا طفت
ملعنة في سبحها وسراها

— ٨ —

وهذه صورة فنية أخرى رسمها شوقي بفنه السري البارع ، حيث صور موقعة استرلتز التي انتصر فيها نابليون على امبراطوري النمسا والروسيا .

حول هذه البقعة التقى النسر الفرنسي بخصميه القويين ، فدارت الحرب ، وكأنما الأمبراطوران وجيشاهما شطرنج يتلهى به نابليون ، على أنه في لهوه وعبثه صاد الأمبراطورين في كمين واحد :

حول استرليز كان الملتقى
واصطدام النسر بالمستنسرين

وضع الشطرنج فاستقبلته
بيدين عابث باللاعبين

فإذا الملكان هذا خاسر
لك في الجمع وهذا مستكين

صدت شاه الروس والنمسا معا
من رأى شاهين صيدا في كمين

— ٩ —

وهناك هذا التصوير الرائع للنخيل حين يوشي سعفها لهب الشروق أو حمرة الشفق ، وحين يغمرها النور من السماء الصحية أو الفاقعة ، وكأنها في وقفتها في هذه الحلة من النور وصيفة من وصائف فرعون ، واقفة في ساحة قصره تنتظر طلعته ؛ وكأن هذه الهالة من نور الشفق في أطراف السعف عصابة مرقشة بفصوص العقيق ، تتخللها شذرات من ذهب تزين رأس الوصيفة ؛ وكأن البسر (البلح الأحمر) عقود من المرجان مرسلة على صدرها ، وكأن هذه المراجين الصفر في لون الذهب وشاح تحلى به الجارية كتفيها ؛ وهذه الكرانيف(١) التي تتتابع في جذع النخلة كأنها عقد كثيرة متتابعة في رداء تكتسي به هذه الجارية .

والنخلة بعد ذلك مئذنة الحقول ، وزينة القرية ، وطعام وحلوى . .

(١) الدربات .

صورة رائعة بارعة فى الأدب كله :

تخال إذا اتقدت فى الضحى
وجر الأصيل عليها الهب
وطاف عليها شعاع النهار
من الصحو أو من حواشى السحب
وصيفة فرعون فى ساحة
من القصر واقفة ترتقب
قد اعتصبت بفصوص العقيق
مفصلة بشذور الذهب
وناطت قلائد مرجانها
على الصدر واتشحت بالقصب
وشدت على ساقها مئزراً
تعقد من رأسها للذنب
أهذا هو النخل ؟ ملك الرياض
أمير الحقول عروس « العزب »
طعام الفقير ، وحلوى الغنى
وزاد المسافر والمغترب

— ١٠ —

ولشوقى بصر بالطبائع وأسرار النفوس كما أسلفنا ، فهو يصور نظرة المحب إلى ما حوله ، يراه كله جميلا ، تروقه مناظر الطبيعة ، ويجمل فى عينيه الكون كله من الجبل إلى الحصاة ، ومن الدوحة إلى العشبة ، ويرى ما حوله يبسم له ، تفتنه الأرض والسماء ، والخضرة والماء ، ونسيم الإصباح والإمساء ، وتستخفه أغاريد الأطيار ، وحفيف الأشجار ، فيحيط بذلك قلبه وعينيه ، ويخيل إليه أنه يتحرك فى دمه فيوقظه ويحييه .

يصور الصحراء على لسان ليلى ، الصحراء الجرداء الموحشة المخيفة ، تصويراً يحببها إلينا ، لأن ليلى تحب قيساً ، والحب يخلق من الفقر خصبا ، ومن الوحشة أنسا ومن الموت حياة .

على حين تسخر هند من هذا الوصف ، وتنكر على ليلى افتتانها بالصحراء ، وتصور البادية تصويراً بشعاً كريهاً ، لأنها لا تحب ، فلا تحس ما تحسه ليلى .

وشوقى فى مدح الصحراء وذمها بارع الوصف ، جزل البيان ، رسام أى رسام . . .

قالت ليلى تخاطب ابن ذريح :

أتيت لنا اليوم من يثرب   فكيف ترى عالم الباديه ؟
أكنت من الدور أو فى القصور
ترى هـذه القبة الصافيه
كأن النجوم على صدرها   قلائد ماس على غانيه
لها قبلة الشمس عند البزوغ
وللحضر القبلة الثانيه
ونحن الرياحين ملء الفضاء   ونحن الرياحين فى الآنيه
وآناً نخف لصيد الظباء   وآناً إلى الأسد الضاريه
ويقتلنا العشق والحاضرات   يقمن من العشق فى عافيه
ولم نصطدم بهموم الحياة   ولم ندر لولا الهوى ماهيه

هنا فتنة بالبادية . وبراعة فى التعريف بجمالها ، فلننظر ما تقوله هند :

كفى يا ابنة الخال هذا الغرور
كثير على الرمة الباليه
تأمل تر البيد يا ابن ذريح   كقبرة وحشة خاويه
سئمنا من البيد يا ابن ذريح
ومن هـذه العيشة الجافيه
ومن موقد النار فى موضع
ومن حالب الشاة فى ناحيه
وراغيــة من وراء الخيام
تجيب من الكلأ الثاغيه
وأنتم بيثرب أو بالعراق
أو الشام فى الغرف العاليه

مغنيكمو معبد والغريض وقينتنا الضبع العاويه
وقد تأكلون فنون الطهاة
وتأكل ما طهت الماشيه

— ١١ —

ويصور المرأة الجميلة المحبوبة المختالة حريصة على جمالها، وإشاقة لونها، وسحر جفونها، ونضرة شفتها، حتى في موتها، وهو فهم عميق لغريزة المرأة، وتصوير ساحر لها. ذلك في حوار بين كليوباترا وأنوبيس الكاهن الأكبر قبل انتحارها.

هي : ولكن أبي هل يصان الجمال ؟
هو : نعم، لا يحول ولا يندثر
هي : وهل يطفأ اللون ؟
هو : لا بل يضيء كما رف بعد القطاف الزهر
هي : وهل يبطل السحرُ سحرُ الجفون
ويبلى الفتور ويفنى الحور ؟
هو : كعهد العيون بطيف الكرى
إذا الجفن نام به فانكسر
هي : أبي والشفاه ؟
هو : لواقي الذبول
كما احتضر الأقحوان النضر
وما الموت أقسى عليها فماً
ولا قبلة من عوادي الكبر

وبعد فهذه عجالة عن الوصف في شعر شوقي، يضح منها أن أوصافه تخلق لنا عيناً جديدة نرى بها، وقلباً ثانياً نحس به.

أحمد محمد الحوفي

أنباء وآراء

أمريكا بين الحياد والحرب

السؤال الذى يتردد الآن دائماً هو : هل يكون من مفاجآت الحرب المنتظرة أن تدخل أمريكا الحرب لسبب من الأسباب ؟

أقوى ما يثير هذا السؤال فى النفس هو الميل إلى تأييد الديمقراطيات الذى يبدو من أقوال الصحف الأمريكية ، ذلك الميل الذى تكشف عنه مظاهر الاستياء والنفور من الاعتداء الألمانى والاستعداد الحربى الهائل الذى تقابل به أمريكا تطورات الحالة فى هذه الأيام .

على أن هذا الميل وهذا الشعور يقابله قوة معارضة لا يستهان بها تطلب دائماً تنفيذ الحياد الدقيق ، قوة لا تقل من قوة الداعين لنصرة الديمقراطيات وإدخال أمريكا فى مشاكل أوربا وسياستها .



الرئيس روزفلت

ويتزعم حركة مناصرة الديمقراطيات الرئيس روزفلت ويقف إلى جانبه من السياسيين مستر كوردل هل وسومر ويلز وكى بتمان . ويتزعم حركة الحياد الدقيق مستر هربرت هوفر الرئيس السابق للجمهورية الأمريكية ؛ ويقف إلى جانبه من رجال السياسة أكبر معارض للحرب السناتور بوراه وهرمان جونسون وروبرت رينولدز . ولا تقف المعارك بين الحزبين عند حدود البرلمان الأمريكى ، بل إنها تتخذ الصحف والاجتماعات مجالاً لنشاطها ؛ وقد كان آخر هذه



هربرت هوفر

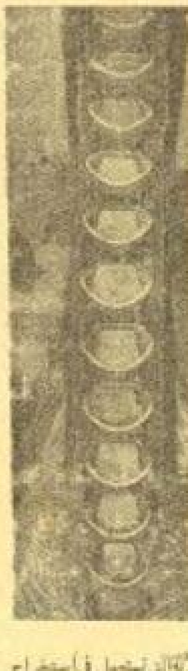
المعارك المعركة التى أثارها مستر هوفر بمقاله فى « الأميركان ماجازين » بعنوان « هل ندفع بأبنائنا إلى الحرب ؟ » ، فقد اتهم أنصار تأييد الديمقراطيات بأنهم يجازفون بزج أمريكا فى أوربا وسياستها قائلا : « إن الديمقراطيات بخير ولا تحتاج بالمرة لأن ندفع بملايين من أبنائنا لكى يموتوا فى

سبيلها لأنها قادرة وحدها على أن تثبت حقها فى البقاء » .

ويشترك مستر روزفلت فى هذه المعارك بالكتابة طوراً وبالخطابة طوراً آخر . وإن كان التأييد الذى يمنحه الدعقراطية لا يتعدى العطف ، فان ذلك لا يضعف من شأن السؤال الذى يتلمس الناس الاجابة عليه فى المستقبل القريب ، لأن أمريكا دخلت الحرب الماضية فى آخر لحظة وبعد أن ظلت على الحياد وقتاً طويلا . فلا يبعد ، رغم حياد أمريكا ، أن تجد مثل الأسباب الماضية وتتكرر المفاجأة وتضيع أصوات أنصار « الحياد الدقيق » فى غمرة دوى المدافع .

الذهب الروسى

تعد روسيا اليوم من أكثر دول العالم انتاجاً للذهب ، إذ أن إنتاجها يزداد زيادة مطردة من عام إلى عام ، مما لا يدع مجالا للشك ، إذا استمرت هذه الزيادة ، أنها توشك أن تكون أكبر منتج للذهب فى العالم ؛ فقد بلغ إنتاجها فى عام ١٩٣٠ مليوناً ونصف مليون أوقية ، وفى عام ١٩٣٣ زاد إلى مليونين ، ووصل فى عام ١٩٣٦ إلى خمسة ملايين أوقية ، وفى عام ١٩٣٧ قدر فى إحصاء الاتحاد البريطانى لانتاج الذهب بمقدار ٧,٣٥٠,٠٠٠ أوقية



الآلة التى تستعمل فى استخراج الذهب من قاع الأنهار ، وهى تشبه إلى حد بعيد الساقية المستعملة فى مصر

ولاستخراج الذهب فى روسيا قصة لا تخلو من طرافة ، فقد بدأت حكومة السوفيت توجه عنايتها نحو إنتاج الذهب منذ خمسة عشر عاما ، وكانت أول خطوة فى هذا السبيل مصادرة مناجم لينا فى شمال سيبريا ، وكانت تديرها شركة بريطانية ، ثم وكلت إلى أحد نوابغ المهندسين وهو الرفيق « سيريبروفسكى » أمر إدارة المناجم والكشف عن مناجم أخرى ، وفوضت له من السلطة ما جعله يستخدم مئات الآلاف من العمال ، كلهم خاضعون له فى جميع أحكامه ، حتى لقد أصبح حكومة داخل حكومة الروسيا لا تخضع حتى لأوامر ستالين نفسه .



مجموعة من سبائك الذهب المستخرج من شمال سيبريا يحملها أحد العمال فى مكتب المراقبة

وقد استعان هذا المهندس بمهندس أمريكى آخر ، وسرعان ما كشفوا فى قاع الأنهار وفى المناطق الجليدية فى شمال سيبريا الأقصى موارد لا تنضب من الذهب ، وقد سار العمل بعد ذلك حتى أصبح عدد من يشتغلون من العمال فى المناجم لا يقل عن مليون عامل ، مما أدى إلى إنتاج كميات هائلة من السبائك الذهبية ، وضاعف فى قوة حكومة ستالين .

ولكن الرفيق « سيريبروفسكى » نال مكافأته المنتظرة قبل الأوان ، ففى أواخر عام ١٩٣٨ سافر إلى موسكو فى رحلة للراحة ، ولكنه لم يعد بعد ذلك إلى العمل ، وتفقده كثيرون فى موسكو فلم يجدوه . ولعل السر فى تناقص نسبة المستخرج من الذهب هذا العام هو اختفاء هذا المهندس النابغة الذى كان يراقب جيداً سياسة العمل فى المناجم ، وخشية غيره من أن ينالوا نفس المكافأة ! !

* * *

فى عالم التأليف

معاجمنا اللغوية

للأب أنستاس مارى الكرملى

٣ — خصائص معجم (البستان) :

كنا أول من انتقد هذا المعجم بعد خروجه من المطبعة الأميركية بأيام قلائل . وبعثنا بنقدنا المدرج فى مجلتنا (لغة العرب) إلى المؤلف نفسه ، ليدافع عن نفسه ويبين غلطنا . لكن جوابه لم يكن إلا سباً وقذفاً وقذعاً وهجراً وهَذَراً ، فعلمنا أننا وضعنا الهناء موضع النُّقْب ، أو سلطنا البِنْضَع على السلة لخزعها . ثم ثار علينا خريجوه ومحبوه وأصحابه ثوران الزنابير ، هاجمين علينا هجوماً بلا عقل ولا فكر ولا أدب ، ثم انضم إليهم كل سورىّ ولبنانى ، وإذا القوم علينا إلب واحد . أما نحن فلم نتزعزع قيد شعرة من موطننا ، وكنا ننتهز كل فرصة للإشارة إلى هذا المعجم الذى تتعدى سيئاته حسناته بما لا يقاس بقياس . والآن نذكر بعض هذه الحسنات ، كما نذكر بعض السيئات .

٤ — حسنات معجم (البستان) :

أول ما يظهر من حسنات هذا الديوان اللغوى أن الكلمة التى تطلبها تجدها فى بابها ، وفصلها ، مكتوبة بحرف ريان أى مشبع حبراً أسود ، أو بحرف أسود ضخم يخالف شكله شكل النص الذى هو بحرف أدق ، وهذه هى أعظم مزية الكتاب لا نرى فى معاجم الغربيين العربية .

والمزية الثانية : أنك تجد الكلمة التى تفتش عنها فى أول السطر بحيث لا تتعب نفسك فى وجودها أو وقوع نظرك عليها .

والمزية الثالثة : أن الكلمة مرتبة ترتيب المجرد والمزيد ، فى المادة الواحدة على ترتيب صاحب « محيط المحيط » الذى اقتبس هذه الطريقة من فريتغ ، وهذا من غوليوس ، أى أن هذه الطريقة مأخوذة من الأعاجم ، لا من اختراع أبناء شرقنا .

هذه جميع حسناته ، ولا تمد طرفك إلى أبعد منها . !

٥ — مساوئ معجم (البستان) :

كنا نزداد نشاطا فى تقلية البستان وغربلته ، كلما أوسعنا عشاق المؤلف الشيخ إهانة ووقيعة ، وكانوا يظنون أنهم إذا كالوا لنا هذا الكيل الجُزاف القنقل نسكت كرها ؛ لكننا كنا نزداد همة بقدر ما كانوا يزيدون ساعهم صاعا جديداً . فاضطروا فى آخر الأمر إلى ملازمة السكوت ستراً لهم ولشيخهم ، إذ كنا نأتيهم بالحجج والأدلة القاهرة ، بينما كانوا يأتوننا بالقَلَع ، والجلاميد الصمّ الأصلاب الأصلاد .

وسيئات البستان لا تحصى عداً ، لأنك تكاد تجد الأوهام والأغلاط والمفوتات والمنوات فى كل مادة ، ولا سيما إذا كانت تلك المادة طويلة النفَس . ويمكنك أن تتحقق الأمر بنفسك ، بأن تأخذ أى معجم عربى واسع الشرح وتعارضه بما يشابهه فى البستان ؛ فتصيب

— إن شاء الله — من التصحيف والتحريف ، والتقبيح والتشويه ، وسوء فهم عبارة الأولين ، ما يخجل شيطان اللغة نفسه ، إذ لم تمتد مفاسده إلى هذا الأفق الذى يتسع بين يديك فى البستان ، كلما حاولت الدنو منه طلباً له .

ونحن نذكر هنا قلامة من ظفر ، أو قطرة من بحر :

٦ — فى مادة (ش و ك) :

جاء فى هذه المادة « شاكى السلاح . وفيه قولان : أحدهما أن أصله شَوَكٌ (وضبط الواو بالفتح زنة سبب) ، قلبت الواو ألفاً لوقوعها متحركة بعد فتحة . . » .

قلنا : والصواب شوِك (بكسر الواو) ، إذ لا وجود لشوك المفتوحة الواو بمعنى شائك .

وذكر شرحاً للشوكة ما هذا نصه : « والشوكة عند المولدين أداة كالمذراة ذات أصابع دقيقة محددة يؤكل بها » وهى عبارة نسيبه البستانى فى محيط المحيط ، إلا أنه غير « آلة » بأداة . وقوله ذات أصابع ، قول غريب ، وكان يحسن به أن يقول ذات أسنان .

وشرح شوكة الكتان بقوله : «طينة تدار رطبة ويغمز أعلاها « ثم » تبسط « ثم » . . . » والصواب : « ويغمز أعلاها حتى تنبسط » ليستقيم المعنى والمبنى .

وفى تلك المادة عينها : « أرضى شوكى نبات يقال له الحرشوف » .

قلنا : فى هذا التعبير عدة معايب :

١ — لم يحلّ اللفظة بأداة التعريف على مألوف عادته فى الأسماء ، كأنه عدّهُ علماً من أعلام النبات التى لا تدخل عليه تلك الأداة .

٢ — لم يضبط حرفاً من أحرفها .

٣ — أرضى شوكى من الألفاظ المنقولة عن الافرنجية مع توهم أنها من العربية ، وأنها مركبة من (أرض) ومن (شوك) وكلها تخيلات ممرور . وقد نقلها إلياس بقطر فى معجمه الفرنسى العربى فتناقلها من جاء بعدهُ ، وليس للكلمة وجود فى صميم العربية . ودليلنا أن تركيبها فاسد ولو كان عادى الوضع لقيل : الشوك الأرضى ، أو الأريض الشوكى مثلاً . ومعنى الأريض : العريض ، وذلك أن لهذا النبت ثمرة ملمومة الورق وورقها عريض ، وفى طرف كل ورقة شوكة صغيرة ، فيكون الأريض الشوكى : النبت العريض [الورق] الشوكى [فى طرفه] ، فيجىء التركيب عربياً . أما الأرضى الشوكى فتركيب غير سائغ فى ذوق المُضَرى ولا معنى له . وكان رُسّل Russel نقلها عن بقطر وعن رسّل فريتغ ، فتلقاها عنه البستانى الكبير فبستانيتنا الصغير أو الأخير . أما أجدادنا العرب فإنهم لم يعرفوها ، ولم ترد فى ديوان من دواوينهم ، بل هذا ابن البيطار الذى جمع كل لفظ عامى وفصيح فى النبات لم يذكر هذه اللفظة .

ومما ينظم فى هذا السلك قوله فى التركيب المذكور نفسه (ش و ك) : « الحبل الشوكى هو النخاع المستطيل الممتد من الدماغ فى قناة الفقرات » .

فهذا تعبير غريب وذلك : ١ — أن الحبل الشوكى لم يذكره أحد من السلف فى كتبهم ، إذ اللفظة حديثة الوضع ذكرها الأطباء المحدثون وأهل التشريح نقلاً عن الافرنج . ٢ — لم يضبط الحرفين كما هو المطلوب منهُ . ٣ — سوء التعبير وعجزهُ عن تأدية المعنى . فلو قال مثلاً هو النخاع الذى ينقاد من الدماغ إلى أسفل فقار الظهر ، لكان أوفى بالمراد وأصح عربية ، لأن الفقرات جمع سالم مؤنث للقلة والفقار للكثرة . ٤ — أن السلف قالوا فى هذا المعنى : خيط الرقبة أو حبل الفقار أو نحوهما .

وسماه فى محيط المحيط « حبل الظهر » أيضاً ، لكننا لم نصبهُ فى كتاب ثقة ، ولا جرم أن الشيخ عبد الله جعل فى مكان حبل الظهر حبل الفقار ، كأنهُ يباهى بإصلاحه لكلام نسيبه ، وكلاهما خاطئ . وعرف التاج حبل الفقار بقوله : عرق ينقاد فى الظهر من أوله إلى آخره . والعرق فى كلام الأقدمين لا يعنى ما يريد به الأطباء

المحدثون ، بل ما يريد به اللغويون من باب التشبيه ، فإنهم يسمون بعض ما يمتد طولاً : حبلاً أو خيطاً أو عِرقاً . فقد قالوا مثلاً : العرق المدنى ، وهو داء معروف فى المدينة النبوية ، و يسمَّى فى بعض ثغور خليج فارس : « شَعْرَة الحيَّة » وهى دودة دقيقة تكون تحت الجلد ، وليست بعرق البتة ، ولهذا يسميها العراقيون أيضا شعرة الحية ، والصواب « الشعرة الحية » ، كما سموا الجبل وحبل الرمل عرقاً أيضا ، كل هذه المعانى مأخوذة من الامتداد .

وقال فى تلك المادة أيضا : « الأشواك من الثياب الخشن لجدته ، يقال : ثوب أشوك وحلة شوكاء » . قلنا : فى هذا التعبير سقم تركيب ظاهر ، إذ كان يحسن به أن يقول : « الأشواك من الثياب الخشنة لجدتها » لتطابق الصفة الموصوف ، وهناك غلط آخر هو أنه لا يقال الأشواك جمعاً لأشوك صفة ، بل شُوك ، كسود وحُمر وخُضر . وهناك غلط ثالث وهو أنه كان يجب عليه أن يقول : الأشوك من الثياب الخشن ، لا الأشواك من الثياب ، وثَمَّ غلط رابع وهو أنه لم يرد الأشواك لموصوف مذكر ، بل سمع عنهم حلة شوكاء ، ولم يخطر ببالهم أن يقولوا ثوب أشوك ، لكنهُ نقل كلامهُ عن محيط المحيط ، وصاحب هذا السفر حاطب ليل ، كما لا يخفى على أحد .

وليت الأشوك هو آخر غلط من تلك المادة ، لكن ورد وهم آخر وهو قوله : « وشال ميزان فلان : غلت فى الفاخرة » ؟ فلم نفهم هذا الكلام ولا المراد من قوله : « غلت » ونظن الصواب غلب بصيغة المجهول فى الفاخرة ، لكن النضد قلب الباء الموحدة التحتية تاء مثناة فوقية ؛ فانقلب التحت فوقا وبالعكس ، وصار البطن ظهراً والظهر بطناً ، ولم يلتفت المؤلف إلى ما صار إليه كلامه ، وتحويل الأعلى أسفل والأسفل أعلى .

ونحن نجتزئ بهذا البرض من العد ، ولعلنا نعود إليه مرة أخرى ليظهر ما فى ذلك المعجم من الزيف والبهرج ، حتى يقبر هذا الكتاب أو يدرج .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٣٩ — الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ١٣٥٨ — ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

التقسيم الرابع لبولونيا

وتطورات الموقف بعد تدخل روسيا

لمحرر « الثقافة » السياسي

قلنا في مقالنا في العدد الماضي من « الثقافة » تعليقاً على موقف روسيا السوفيتية من الحوادث الأوربية ما يأتي :

« إن نصوص الميثاق الألماني السوفيتي لا تدل في ظاهرها بشيء أكثر من تعهد بتبادل عدم الاعتداء ، وعدم انضمام أحد الفريقين المتعاقدين إلى كتلة معادية للآخر ؛ ولكن من المرجح أن يكون مصير بولونيا قد تقرر بتفاهم الفريقين ؛ فهل يعيد التاريخ نفسه ؟ وهل تشاطر روسيا ألمانيا في الوقت المناسب مشروعها في تمزيق هذه الأمة العريقة البائسة واقتسامها من جديد ؟ في الأنباء الأخيرة أن روسيا تقوم بتعبئة جزئية لجيوشها من ناحية الحدود البولونية ؛ ولكنا لا نعتقد أن روسيا تنوي أن تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا ؛ وهي قد تنتهز هذه الفرصة فتحتل

بعض مناطق فى بولونيا الشرقية والجنوبية تدعى حقوقاً عليها ؛ ولكنها تؤثر بلا ريب أن تبقى بعيداً عن هذه المعركة التى تتحطم فيها قوى الدول « البورجوازية » .

هذا ما كتبناه قبل أن تقتحم الجنود الروسية حدود بولونيا الشرقية بأيام قلائل ؛ وقد اقتحم الجيش الاحمر بالفعل حدود بولونيا الشرقية من حدود لاتفيا شمالاً حتى حدود رومانيا جنوباً ، وذلك فى فجر يوم الأحد ١٧ سبتمبر ؛ ووجهت الحكومة السوفيتية قبيل ذلك إنذاراً إلى سفير بولونيا فى موسكو ، جاء فيه أن الحكومة البولونية قد انهارت ولم يبق لها وجود ، وأن الجيش السوفيتى سيعبر الحدود البولونية على طول الحدود الشرقية ، ليقوم على حماية الأقليات الروسية من الروس البيض والأوكرانيين فى بولونيا ، وإن ذلك لا يؤثر فى حياد روسيا فى الحرب القائمة . . . . ولم تمض ساعات قلائل على هذا الإنذار الذى رفض أن يتسلمه السفير البولونى ، حتى دخل الجيش الأحمر بولونيا من عدة مواقع واعترضته الجنود البولونية حيثما استطاعت ، ونشبت بينهما وقائع محلية ؛ وأذاع الرفيق مولوتوف رئيس مجلس وكلاء السوفيت ، ووزير الخارجية الروسية بياناً قال فيه : إن توغل الجيوش الألمانية فى بولونيا قد أثار موقفاً جديداً فى أوربا الشرقية ، وإن انهيار بولونيا يهدد سلامة الاتحاد السوفيتى ، وإن القوات السوفيتية اجتازت حدود بولونيا لتقوم على حماية سكان الأقاليم القريبة من روسيا البيضاء واوكرانيا ؛ وأكد الرفيق مولوتوف فى الوقت نفسه فى مذكرة وجهت إلى جميع ممثلى الدول بأن روسيا لا تنوى دخول الحرب ، وأنها باقية على حيادها .

على أنه مهما كان شأن هذه الأعذار التى تنتحلها حكومة موسكو لتبرير عملها ، فانه بلا ريب اعتداء على بولونيا ، وطعن لها من الوراء ، واستغلال لمحنتها المؤلمة ؛ وهو خرق صريح لعهود موسكو تجاه بولونيا ، ونقض لميثاق عدم الاعتداء المعقود بينها وبين بولونيا منذ سنة ١٩٣٢ ، والذى مد أجله بعد ذلك إلى سنة ١٩٤٥ ، ونص فيه على أنه يستحيل على أحد الفريقين المتعاقدين أن يتذرع بأى اعتبار سياسى أو اقتصادى أو عسكرى لتبرير الاعتداء على الفريق الآخر ودخول أراضيه .

— ٢ —

وتعتمد روسيا السوفيتية فى طعن بولونيا من الوراء على مسألة الأقليات ، وهو نفس العذر الذى تذرعت به ألمانيا الهتلرية لغزو بولونيا واجتياحها . ولا بد لنا من القول بأن مسألة الأقليات فى أوربا الوسطى هى إحدى المسائل الشائكة التى خلقتها معاهدة فرساى ، ولم توفق إلى حلها ؛ وقد سقطت تشيكوسلوفاكيا كما صرعى مشكلة الأقليات ، وكانت سلاح ألمانيا فى تمزيقها ثم ابتلاعها ؛ وفى المجر وفى رومانيا وفى يوجوسلافيا أقليات ، تخشى هذه الدول أن تكون يوماً سبيل تمزيقها ومحنتها .

وقد كانت بولونيا حسبما أنشأتها معاهدة فرساى تضم بين سكانها الثلاثين مليوناً نحو عشرة ملايين من الأقليات ، ومن هؤلاء نحو ستة ملايين من الأوكرانيين والروس البيض ؛ واوكرانيا كما هو معروف أحد الأقاليم الروسية وإحدى جمهوريات اتحاد السوفيت ، وهى تقع فى شرق جنوبى بولونيا ؛ وتقع روسيا البيضاء وهى أيضاً من الأقاليم الروسية شرقى بولونيا ؛ وقد استولت بولونيا منذ أواخر الحرب الكبرى على بقاع واسعة من هذين الاقليمين ، وحاولت روسيا السوفيتية استردادها فى حرب نشبت بينها وبين بولونيا سنة ١٩١٩ ، ثم عقد الصلح بين الدولتين فى سنة ١٩٢٠ ، واستطاعت بولونيا بمؤازرة الحلفاء أن تحتفظ بالأراضى التى تدعيها روسيا .

والآن تجد روسيا السوفيتية فى محنة بولونيا الحاضرة ما يسهل لها سبيل الاستيلاء على هذه الأقاليم التى كانت قبل الحرب ، مثل بولونيا ذاتها ، جزءاً من أراضيها .

— ٣ —

وأهم ما يجب التساؤل عنه الآن هو : هل تقوم روسيا بهذه الحركة بناء على اتفاق سابق بينها وبين ألمانيا ؟ وهل يكون هذا التفاهم من ذيول الميثاق الألماني السوفيتي ؟ أم أن روسيا قد هالها توغل ألمانيا السريع في بولونيا ، فبادرت من تلقاء نفسها لاحتلال المناطق التي تدعي حقوقاً عليها قبل أن تقع في يد الجيش الألماني ؟



وثانياً : هل تقف روسيا عند احتلال هذه المناطق ، وتبقى على حيدتها ؟ أم هل تكون هذه أول خطوة في برنامج واسع النطاق ترمي موسكو بتنفيذه إلى استرداد مناطق أخرى على حدود روسيا الغربية ، سواء في دول البلطيق أو رومانيا ؟ وماذا يمكن أن يترتب على ذلك من التطورات السياسية والعسكرية ؟

فأما عن الأمر الأول ، فإنه من الرجح والمعقول أن يكون سير بولونيا قد تقرر بتفاهم ألمانيا وروسيا ؛ غير أنه يستفاد من جهة أخرى من مختلف الأنباء والتعليقات أن حركة الجيش الأحمر ، إنما هي في الغالب حركة مستقلة ، وأن روسيا رأت أن تضع يدها على المناطق البولونية التي تسكنها أقليات روسية قبل أن تقع في يد الجيش الألماني ؛ وقد احتل الجيش الأحمر بالفعل معظم هذه المناطق ، والتقى الجيش الألماني في برست ليتوفسك شرق وارسو . والظاهر أن الأنباء الأخيرة عن سير القتال في بولونيا تنبىء بأنه لن يمضي طويل حتى يتغلب الغزاة من الجانبين على مقاومة بولونيا الباسلة ، ويحتلها الجيشان الفاتحان بأسرها ، ويستقر الروس في الجبهة الشرقية كلها من الشمال إلى الجنوب ، ويستقر الألمان في المناطق الوسطى والغربية كلها ؛ ثم يجري الاتفاق بين الفريقين على تقسيم بولونيا ؛ والمرجح أن يقع التقسيم على الوجه الآتي : تحتل روسيا شرق بولونيا المتمم لاقليم روسيا البيضاء ، وجنوب شرق بولونيا المتمم لاقليم اليوكرين بما في ذلك مدينة ليفوف (أولمبرج) ؛ وتضم ألمانيا إليها منطقة دانزج والممر وسيليزيا ، وتضع بولونيا الوسطى تحت حمايتها ، على نحو ما فعلت ببوهيميا ومورافيا .

وهذا هو التقسيم الرابع لبولونيا ، يقع على يد عدويها التاريخيين ألمانيا وروسيا .

وقد كانت بولونيا أمة حرة ومملكة عظيمة مستقلة ؛ فعملت ألمانيا ، أو بعبارة أخرى عملت بروسيا ، منذ أواخر القرن الثامن عشر على تمزيقها وتقسيمها بالاتفاق مع النمسا وروسيا ؛ ووقع هذا التقسيم على ثلاث مراحل في سنة ١٧٧٢ و١٧٩٣ و ١٧٩٥ ؛ ولستولت كل من الدول الثلاث على قسم من أراضيها ، ومحيت بذلك بولونيا من عداد الدول المستقلة ، بالرغم من دفاعها المجيد في كل مرة

من كيانها واستقلالها ؛ ثم قامت بمعاونة نابوليون الأول دولة بولونية مستقلة عرفت « بدوقية وارسو » ، ولكنها لم تعش طويلا ، وابتلعتها روسيا ؛ ولبثت بولونيا ترسف فى أغلال الاستعباد حتى أواخر الحرب الكبرى ، حيث انتهزت فرصة انهيار روسيا القيصرية ، وأعلنت استقلالها على يد جمعية وطنية تأسيسية (سنة ١٩١٨) واعترفت معاهدة فرساى فى سنة ١٩١٩ ، بالدولة البولونية الجديدة ورسمت حدودها .

والآن يمحى فصل جديد من فصول معاهدة فرساى ، ويقع التقسيم الرابع لبولونيا تحت سمع أوربا وبصرها .

— ٤ —

وأما عن الأمر الثانى ، وهو هل تقف روسيا عند هذه الخطوة أم أنها ترمى إلى استرداد أراض أخرى فى دول البلطيق أو رومانيا ، وماذا يمكن أن يترتب على ذلك من التطورات السياسية والعسكرية ؟ فالظاهر أن روسيا ترمى إلى الاستيلاء على بعض الأقاليم الأخرى التى فقدتها فى الحرب الكبرى ، وبالأخص إقليم بسارابيا الذى استولت عليه رومانيا ، ولتونيا (لاتفيا) واستونيا اللتين غدتا جمهوريتين مستقلتين ؛ وبسارابيا تمتد من مصب الدانوب شمالا حتى حدود بولونيا ، وقد طالبت بها روسيا مراراً ؛ والاستيلاء على لتونيا واستونيا يعيد إليها السيطرة على شمالى بحر البلطيق ، ويعيد إليها ثغرى ريغا ورفال ؛ أما لتوانيا فربما تركتها روسيا لألمانيا ؛ وسواء أقدمت روسيا على تنفيذ خطتها بتفاهم سابق مع ألمانيا ، أم كانت مستقلة فى تنفيذها ، فإن ألمانيا فى ظروف لا تسمح لها بمقاومة رغبات روسيا أو إثارة خصومتها . وروسيا ترمى على أى حال إلى رد الغزو الألمانى عن شرق أوربا ما استطاعت ، وخصوصاً عن سهول اليوكرين ، ومصب الدانوب وشواطىء البحر الأسود ، وهى فى ذلك لا يمكن أن تشعر بعاطفة الصداقة نحو ألمانيا .

وإذا استولت روسيا على بسارابيا ، وترتب على ذلك أن قومت رومانيا ودخلت الحرب ضد روسيا ، فالرجح أن تدخل المجر الحرب ضد رومانيا بضغط ألمانيا ، مطالبة بأقليم ترانسلفانيا المجرى الذى يقع فى غربى رومانيا ؛ وعندئذ يصبح من العسير على دول البلقان الأخرى ، ولا سيا يوجوسلافيا وتركيا ، أن تبق على الحياد .

وتدل القرائن كلها ، وخصوصاً بعد أن عقدت روسيا مع اليابان هدنة عسكرية فى الشرق الأقصى ، على أن روسيا تزمع أن تقوم بدور ذى شأن فى ميدان الحوادث الأوربية ؛ غير أنه ليس ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأن روسيا البلشفية قد تدخل حرباً أوربية إلى جانب ألمانيا الهتلرية ، أو تقدم على معاونتها على قتال الدول الغربية بصورة مباشرة .

(***)

قوانين الحرب في الإسلام

للأستاذ أحمد أمين

في الوقت الذي تحمل إلينا فيه الأنباء تدمير المدن الأوربية الآهلة بالسكان ، واحتمال عودة حرب الغازات السامة ، وتخريب الطيارات والغواصات لكل ما تصل إليه بكل ما تستطيع من قوة ، ونحو ذلك من ويلات الحروب التي يعجز القلم عن وصف هولها — يلذ القارئ أن يعود إلى التاريخ يستعرض فيه التشريع المختلف للحرب ، والأنظار المختلفة في تقدير الإنسانية .

ولعل من أروع هذه القوانين قانون الحرب في الإسلام ، فمنذ ثلاثة عشر قرناً ونصف شرع الإسلام قوانين بلغت الغاية في تقدير الإنسانية ، وبث الرحمة في النفوس ، والدعوة إلى الرفق .

من ذلك أن لا حرب قبل الدعوة ، لأن غرض الإسلام من الحرب ليس المال ولا الغنائم ولا الاستعمار ؛ وإنما غرضه نشر دعوة يرى فيها الخير للإنسانية ، فمن قبلها أو قبل الخضوع لأحكامها ، أو لم يمانع في سبيل نشرها كان آمناً على نفسه وعلى ماله ، وكان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، لا عبرة باللون من أبيض وأسود ، ولا عبرة بالدم ولا بالجنسية ، ولا بنحو ذلك مما تعيره الأمم الحديثة أكبر اهتمام ؛ فالمسألة ليست حرب أجناس ولا حرب أوطان ولا حرب أمم ؛ إنما هي في نظر الإسلام حرب مبادئ صالحة تنفع الإنسانية لمبادئ تضر الإنسانية ، فالأخوة في نظره أخوة مبادئ ، لا أخوة دم ، ولا أخوة جنس ، ولا أخوة وطن .

وكان مما أوصى به أبو بكر الجيش الذي بعثه في حروب الردة « أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلا ، فإن أذن القوم فكفوا عنهم . . وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة ، فإن أقروا فاقبلوا منهم ، وإن أبوا فقاتلوهم » .

ولذلك لما تسرع خالد بن الوليد في قتل مالك ابن نويرة بعد أن أظهر الإسلام ، كان في ذلك موضع المؤاخذة ، وطلب عمر من أبي بكر أن يقتص منه ؛ ولكن أبا بكر قبل عذره وودى مالكا من بيت مال المسلمين ؛ وأسرّها عمر في نفسه ، حتى إذا ولي الخلافة عزل خالداً عن الامارة .

* * *

فلا تكون حرب حتى تكون دعوة ، وحتى يكون رفض ممن وجهت إليهم الدعوة ، فإذا وقعت الحرب فهناك قيود للجيش المحارب ينبغي ألا يعدوها ؛ ولعل أوضحها وأجمعها ما روى أنه « لما بعث أبو بكر يزيد بن أبي سفيان إلى الشام خرج معه أبو بكر يوصيه ، ويزيد راكب ، وأبو بكر يمشي ، فقال يزيد : يا خليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنت بنازل وما أنا براكب ، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ، يا يزيد ، إنكم ستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم في هذه الصوامع (يعني الرهبان) فاتركوهم وما حبسوا أنفسهم له . . . ولا تقتلوا كبيراً هرماً ، ولا امرأة ، ولا وليداً ، ولا مريضاً ، ولا راهباً ؛ ولا تخربوا عمراناً ، ولا تقطعوا شجرة إلا لنفع ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ، ولا تغدر

ولا تمثّل ، ولا تجبن ، ولا تغلُل ، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله لقوى عزيز . أستودعك الله وأقرئك السلام ، ثم انصرف » .

وقال عمر : « اتقوا الله في الفلاحين ، فلا تقتلوهم إلا أن ينصبوا لكم الحرب » .

ومر رسول الله (ص) في غزوة من غزوات المشركين بامرأة مقتولة ذات خَلْق ، اجتمع الناس عليها ، فقال رسول الله : ما كانت هذه لتقاتل ! وسأل : من قتل هذه ؟ فقال رجل : أنا أردفتها خلفي ، فأرادت أن تقتلني فقتلتها ، فأمر النبي (ص) بدفنها .

وروى ابن عباس أن رسول الله (ص) « كان إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا باسم الله ، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » .

وقال رسول الله (ص) مرة : لا تقتلوا الذرية في الحرب . فقالوا : يا رسول الله أو ليس هم أولاد المشركين ؟ قال : أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟

من كل هذا نرى أن القانون الإسلامي حصر الحرب في دائرة من جندوا للحرب ، ومنع حرب من لم يجنّد ، إلا أن يكون له من الوسائل ما يساوى القدرة على الحرب ، كأن يكون شيخاً ولكنه يساهم في إبداء الرأى وتدبير المكايد ، فإنه إذ ذاك يعد محارباً ، كما فعل رسول الله (ص) بدُريد بن الصِّمَّة ، لأنه كان مع تقدم سنه يعد قومه بالرأى في الحرب ، فأمر رسول الله بقتله . أما من عدا هؤلاء ، فقد حفظت دماؤهم ، وحوفظ على حقهم في الحياة . ويعجبني في ذلك تعليل الفقهاء لهذا الرأى بقولهم : « إن الآدمى خلق معصوم الدم ليمكنه تحمل أعباء التكاليف ، وإباحة القتل عارض بمحاربته لدفع شره ، فمن لم يتحقق شره بقى على أصل عصمة دمه » . بل

تجاوز الإسلام حرمة المحاربين إلى حرمة ملكية الأمم المحاربة ، فأمر باحترامها والمحافظة عليها ، فمنع قطع الأشجار وهدم البنيان . وكان من وصايا أبي بكر : « لا تقطع شجراً مثمراً ، ولا تخرب عامراً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله » .

***

ثم أمر الإسلام أمراً باتاً جازماً حاسماً بالتزام ما ينعقد من معاهدات ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » و « أوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقال : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

ولما عقد النبي (ص) الصلح مع قريش — وكان فيه إجحاف بالمسلمين ، إذ قد اصطلحوا « على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أن من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه » ؛ فارتاع بعض المسلمين من ذلك الصلح ، ودخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، وصرخ المسلمون الذين ردوا إلى قريش — قال رسول الله : « إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

وانظر إلى عمر لما اضطر إلى إلغاء عهد من العهود ماذا صنع ؟ قدم عليه عمير بن سعد الأنصارى وقال له : « إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها « عربسوس » ، وإن أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ، ولا يظهروننا على عورات عدونا ، ولهم علينا عهد ، واستشاره في أمرهم ، فقال عمر : « فإذا قدمتَ فخيّرهم أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ، ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء

شيئين ، فإذا رضوا بذلك فأعطهم إياه وأجّلهم واخربها فإن أبوا فانبذ إليهم وأجّلهم سنة ثم اخربها » .

فالقوم هم الذين نقضوا العهد وأساءوا المعاملة ، وعمر هو هو الذي رحمهم واحتال عند إلغاء العهد ليكون أعدل ما يكون وأرحم ما يكون ، وتاريخ العهد الأول من المسلمين مملوء بمثل هذه الشواهد .

فلم يسمع المسلمون الأولون مطلقاً ، ولم يخطر لهم ببال ما عبر عنه بعض المدنين المحدثين بأن المعاهدات قصاصات أوراق ، ولم يخضعوا المعاهدات — كما يفعل كثير من المدنين — لقياس المنفعة ، فإن كان في نقضها منفعة لهم نقضوها ، وإلا احتفظوا بها ، بل لم يكن العرف يفرق في التقدير ، ووجوب المراعاة بين العقد يمضى ، والكلمة الشفوية ينطق بها ، كلاهما مُلزِم ، وكلاهما واجب التنفيذ .

* * *

ثم دعا قانون الاسلام إلى تلبية الدعوة إلى الصلح فقال : « وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها » لأن الغرض إذا تحقق كان القتال عبثاً ، ثم كان أساس الصلح لا يستفز عاطفة ، ولا يترك في النفوس حقداً ، ولا يبعث على تحفز للقتال ، فكتب عمر إلى أبي عبيدة في حصاره حلب : « ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه » وكتب لأهل إيلياء (بيت المقدس) : « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرَهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

وجاء في عهد حذيفة بن اليمان : « هذا ما أعطى حذيفة ابن اليمان لأهل « ماه دينار » أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم ، لا يغيّرون عن ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ، ولهم المَنَعة ما أدوا الجزية كل سنة إلى من وليهم من المسلمين ، على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقَرَوْا جنود المسلمين من مَرَّ بهم فآوى إليهم يوماً وليلة ، ونصحوا ، فإن غشوا وبدّلوا فذمتنا منهم بريئة » . وأمثال هذا كثير .

* * *

فليت المدنية الحديثة في القرن العشرين وقد برعت في العلم وتفننت في المخترعات وتقدمت في كل مرافق من مرافق الحياة ، تعود بنظرها إلى قرون عدة حيث الفتح الاسلامي ، فترى قانون الحرب وقانون السلم على أسمى ما يكون من الانسانية فتلتزمه ؛ ولو تم ذلك لأمنت المدن البريئة من الغزوات ، وأمن غير المحاربين من الغارات ، وأمنت السفن التجارية من الغواصات ، وأمن سكان القرى والمدن من الطائرات ؛ ولو تم ذلك أيضاً لوضع الصلح يوم يوضع على أساس العدل لا على أساس الانتقام ، وعلى أساس الانسانية لا على أساس القومية ، ولخَيْر العالم لا خير أمة ، ولاستلال الضغائن لا لوضع بذور الضغائن .

لقد مرت على الإنسان دروس حروب كثيرة ولكنه لم يتعلم منها ، نعم تعلم في تقدمه في فن الحرب وكيفية التغلب على الخصم واختراع المخترعات وإنشاء الاستحكامات ؛ ولكنه لم يتعلم من ويلات الحرب كيف يقضي على الحرب ؛ فلعل الحرب الأخيرة تكون الدرس الأخير ، فيتعلم جاهل ويصلح فاسد وتتعزى الانسانية عما يصيبها في حاضرها بالخير العام في مستقبلها .

أحمد أمين

من قصص العرب :

الملك الضـــليل

(٥)

أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ملخص لما سبق :

[كان امرؤ القيس بن حجر الكندي ملك بني أسد في غربي بلاد نجد ، وكان في شبابه شاعراً مرهف الحس . أحب إحدى بنات عمومته فاطمة ؛ ولكنه كان كثير العبث واللهو ، فأغضبها ورحلت عنه مع أبيها ؛ وكان لبعدها عنه أثر كبير في نفسه ، فدفعه يأسه من حبها إلى الاندفاع في المجون والعبث ، حتى غضب عليه أبوه الملك حجر بن الحارث ونفاه من دياره ، واشتد حجر في حكم بني أسد ، لا سيما بعد أن تزلزل ملك أبيه الملك الحارث بن عمرو ملك الحيرة ، وهزمه المنذر بن ماء السماء . فبدأ بنو أسد يأتمرون للثورة عليه ، فزاد في معاملتهم قسوة حتى قبض على شيوخهم ، وأمر بضربهم ، وقتل بعضهم ، ثم نفاهم إلى أرض تهامة مبالغة في الانتقام منهم ، وسجن زعيمهم عمرو بن مسعود وشاعرهم عبيد بن الأبرص .]

لم يشعر ربيعة بن عمرو في يوم من الأيام بضيق أشد ، ولا حيرة أعظم مما شعر به في ذلك الصباح . كانت الحرارة منذ طلوع الشمس تلفح الوجوه لا يخفف منها هبوب نسيم ، ولا يقل من حدتها ظل سحابة .

وكانت الحوادث تتوالى في سرعة عجيبة ، كأن الأقدار قد اعتزمت أمراً ، فهي تنفذه خطوة بعد أخرى جرياً على قدر ، وسيراً على خطة .

جلس في خيمته وحده يفكر في كل ما مضى به في تلك السنوات الغابرة . لقد وثق حجر به واعتمد عليه ، فحاول أن يمهد له الصعب ويقوم المعوّج ، لم يترك حيلة لم يلجأ إليها ، ولم يدع نصيحة لم يخلص في تأدية حقها . حاول أن يحفظ امرأ القيس وأن يسمو به إلى ذروة المجد التي كان ذكاؤه وشجاعته يؤهلانه لها ، فخاب أمله ، ورآه يطرد من منازل أبيه ليتشرد ، ويُفني نبوغه مع الصعاليك في الشراب والمجون . ثم حاول أن يسترضي بني أسد عن حكم ملكهم ، فأتهم وساءت به الظنون ؛ وحاول أن يحمل حجراً على الاعتدال والرفق في حكمه ، ولكنه كان لا يرضى من رعيته بغير الخضوع الكامل في كل ما أراد ؛ وقد حتمت عليه الظروف القاهرة أن يشتد في مطالبتهم بالأموال ، وأن يأخذ عليهم ضريبة من الأنفس منذ دعت إلى ذلك ضرورة الحروب التي كانت بين أبيه الملك الحارث وبين منافسه العنيف المنذر بن ماء السماء .

وانتهى الأمر بعد كل هذا إلى أن ثار بنو أسد به ، وثار هو بهم ، فضربوا أعوانه وضرجوهم بالدماء ، فانتقم منهم أشد انتقام ، يضرب سَراتهم بالعصا ، ويقتل شيوخهم أشنع قتلة في السجن ، وأصبح بينه وبين رعيته ما لا يمكن أن يستقر عليه مُلك ، ولا يمكن أن تعود معه مودة . وكانت رسل المنذر بن ماء السماء لا تنفك تفد إلى

بنى أسد تحرضهم على العصيان ، وتمنيهم وتعدهم بأحسن الجزاء ، إذا هم وثبوا بصاحبهم ، فكانت الأمور كل يوم تصير من حال إلى حال أسوأ ، ومن شدة إلى شدة أضيق . كل هذا وربيعة يكدح عقله وقلبه فى سبيل التماس الحيلة لاصلاح الأمور ، فلا يجدها تزداد إلا فساداً .

جلس فى خيمته والحزن علأ قلبه واليأس يساوره من كل جانب ، وفيما هو كذلك أتى إليه رسول الملك حجر يدعوه إليه ، فنظر إلى الرسول وكان رجلا من قبيلة كِندة ، من جنود الملك الذين كانوا لا يرون فى العرب أحداً يستحق الحماسة إلا أن يكون كِندياً ، فخاطبه الرجل فى جفاء قائلا : « قم إلى الملك سريعاً » .

ثم مضى عنه وهو يخرق الرمال بزج رمحه فى هيئة التحدى والاحتقار .

لم يجب ربيعة بلفظ ، بل قام وهو يتنفس مهموما ، وسار فى آثار الرجل ينظر إليه آسفاً أن يكون الأمر قد انتهى بمليكه أن يقوم سلطانه على بطش هؤلاء الجفاة ! حتى بلغ خيمة الملك فدخل ولا يزال الهم علأ جوانحه .

وكان حجر فى ذلك اليوم على غير ما كان عليه بالأمس . كان بالأمس ثائراً غاضباً عنيفاً ، وأما فى ذلك اليوم فقد كان مهموم النفس كئيباً خائراً . وما وقعت عليه عين ربيعة حتى أدرك أنه لا بد قد أرسل إليه فى أمر جليل ، وأنه لابد قد وقعت به كارثة من تلك الكوارث المتعاقبة التى اعتادت السنوات الأخيرة أن تطالعه بها بين حين وحين .

دخل ربيعة صامتاً ، وحيّا فى هدوء ، قائلا : « عم صباحا أيها الملك الهمام » .

فقال حجر حزيناً : « عمت صباحا يا أبا نعيم » .

وكان الملك لا ينادى ربيعة بهذه الكنية إلا فى أشد أوقاته وأعظمها كربا ، فقد كان يحس عند ذلك أن فى هذا الرجل وحده أمله الفرد فى النجاة .

وأفسح حجر له مجلساً إلى جانبه ، وأشار إليه أن يجلس ، فذهب وقعد تجاهه وأطرق فى انتظار ما يقوله له مولاه . وساد الصمت لحظة ثم قطعه حجر قائلا بصوت خافت : « ألم تسمع عما كان ؟ » .

فنظر ربيعة إليه فى اهتمام وقال : « لعله يكون خيراً » .

فقال حجر فى بطء : « لقد أتى إلىّ الساعة رسول من الملك الحارث » .

فأسرع ربيعة قائلا بلهفة : « لعله أتى بخير ! » .

فقال حجر بحزن شديد : « بل أتى بمصاب جلل ورزء عظيم » .

فصمت ربيعة وجلا من سماع النبأ ، ولم يسأل عن ذلك المصاب .

وبعد سكوت لحظة استمر حجر فقال فى حزن عميق مكتوم : « ثمانية وأربعون من بنى آكل المرار ، ثمانية وأربعون من أبناء الملوك يساقون إلى الثوية عند الحيرة فى ديار بنى مرين ، يسوقهم بنو تغلب الغادرون إلى المنذر ليقتلهم ! ذلك المنذر الذى كان شريداً يتنقل فى القبائل خائفاً من أبى ، يلتمس النجاة ويطلب الأمن فى جوار القبائل ! » .

وصمت لحظة ثم تنفس نفساً عميقاً وقال وقد علا صوته واحمرّ وجهه : « ويل لتغلب ! لقد غدرت ونقضت عهدها وساعدت المنذر على الملك الذى كانت تدين له ، والذى كان يغمرها بإحسانه ويفيض نعمه . غدروا بملكهم وانتهبوا أمواله وهجائنه ، وأسروا أبناءه وأبناء إخوته . ثمانية وأربعون أميراً من بنى آكل المرار يلاقون حتفهم على يد الخونة الغادرين ! ثم ترى جثثهم للطيور والوحوش تنهشها وتقطعها ! ويل للمنذر ! ويل لتغلب ! » .

وصمت حجر بعد ذلك وقد غلبه الغضب والحزن ، ولم يجد ربيعة سبيلا إلى معاودة الحديث معه ، ولم يجد من

القول ما يقوم بتعزيته في مصابه ، فسكت في وجوم ، وأطرق يفكر في ذلك المصاب الجديد ... وكان حائراً في فهم قول حجر ، فلم يدرك منه إن كان الحارث قتل فيمن قتل في وقعة الثوية ، أم هو لا يزال حياً بعد هزيمته وأسر أهله ؟ وأدرك حجر أنه لم يخبر صاحب سره بكل ما بلغه من أنباء المصاب ، فأخذ بعد صمته يحدثه بما بلغه ، فأخبره أن الحارث نجا من عدوه في عدد قليل ، فلجأ إلى بني كلب ، وهناك أصابه مرض شديد ، فأرسل إليه ذلك الرسول الذي وفد إليه ليخبره بتلك القصة الحزينة ، وليطلب إليه أن يذهب ليراه قبل موته .

فأدهش هذا القول ربيعة فقال في دهشة : « تذهب إليه ؟ » .

فنظر إليه حجر وقد أدرك سر دهشته ثم قال : « نعم هذا ما جاءني من أبي ... فماذا ترى ؟ » .

فقال ربيعة في ثبات وثقة : « لا يمكن أن تذهب ، فإنك تعرف أن من بقي هنا من غطفان وقيس ، ليسوا أقل تبرماً من بني أسد ، وإذا بعدت عنهم لم تأمن وثوبهم في غيابك » .

فقال حجر : « ولكني أتركك هنا في جنود كندة ومن معك من الصنائع الذين ينصروننا من قبائل العرب » .

فهز ربيعة رأسه شاكاً في حكمة هذا الرأي ، ولكنه صمت ولم يجب .

فقال حجر : « أراك تخالفني ! »

فقال ربيعة : « لقد أرسلنا مع بني أسد نصف جنودنا لكي تطمئن إلى حراستهم حتى يبلغوا تهامة ، ولم يبق معنا من يكفي للقسمة بين ذاهب معك لحراستك ، ومقيم هنا لحراسة ملكك » .

فتردد حجر حيناً وجعل يفكر ، ثم نظر إلى ربيعة وهم أن يقضي إليه برأيه لولا أن دخل عليه رجل من جنوده رافعاً صوته في شيء من الوقاحة يقول : « هذا الرجل لا يستقر على قرار ، ولا حيلة لنا فيه إلا بقتله » .

فنظر حجر إلى البدوي الذي دخل يخاطبه بهذه الجرأة وعبس عبسة خفيفة ثم ملك نفسه وقال : « من تعني يا أخا كندة ؟ » .

فقال البدوي : « ذلك الأسدي القعقاع عبيد بن الأبرص ، لا يزال يعوى يريد أن يراك ، وينشد الأشعار ولا يمتنع عن البكاء ليلا ونهاراً » .

فنظر إليه حجر وقد ظهر عليه الحقد والغضب ، وكاد يلقي إليه أمره ، لولا أن بادر ربيعة فقال بصوت فيه تلطف وخشوع : « مولاي ! » .

ومد يديه نحوه في ضراعة .

فأمسك حجر عن إلقاء أمره ، وصمت لحظة محاولا أن يهدئ من غيظه ، ثم قال كأنه يخاطب نفسه : « لوددت أني أراه يتمزق عضواً فعضواً » .

قال ربيعة نحوه وقال بصوت خافت : « دعه لي الآن يا مولاي » .

فسكن غضب حجر قليلا ، وكأنه أحس في ضراعة ربيعة إليه أن له قصداً خفياً ، ثم التفت إلى البدوي الواقف أمامه ينظر إلى ربيعة باحتقار ظاهر ، وقال له : « دعه الآن يا ابن أخي » .

فرفع البدوي رأسه ونظر إلى ربيعة مرة أخرى في كراهة ، وخرج وهو يخبط الأرض برمحه خبطاً عنيفاً .

ولما صار ربيعة وحده مع الملك أقبل عليه قائلا : « أرى فرصة تسنح لنا يا مولاي » .

فقال حجر باهتمام : « وما هي تلك الفرصة ؟ » .

فقال ربيعة وقوله يكاد يكون همساً ، وهو ينظر حوله خوف أن يسمع أحد قوله : « إذا كان لا بد لك من السير إلى الملك الحارث فلا مناص من وجود كل جندك هاهنا » .

فرفع حجر حاجبيه متعجباً وقال : « ولكنك تعلم أننا لا نقدر أن ندع بنى أسد يمرحون وحدهم فى تهامة » .

فقال ربيعة جاداً : « هذا ما أردت أن أقوله . أرى أن إبعادهم من هنا فيه خطر شديد علينا . وأولى بنا أن يكونوا هاهنا تحت سمعنا وبصرنا » .

فقال حجر فى قسوة : « أوَ أراهم صباحاً ومساء ؟ أأصبحهم وأمسيهم بغير القتل والضرب والعذاب ؟ » .

فقال ربيعة : « أبيت اللعن ! لست فى علو مكانتك بأهل لهذا الحقد . فالعفو أقرب إلى شيم الملوك » .

فهدأ حجر وصمت لحظة ثم قال : « ولكن كيف السبيل ؟ لقد قضى الأمر ، وسار القوم عنا » .

فأسرع ربيعة قائلاً : « تردهم . ترسل فى أثرهم فتسترجعهم » .

فقال حجر فى شىء من الغضب : « وأرتد ناكلا عن أمرى ؟ إن هذا لا ينبغى لمثلى » .

فقال ربيعة بإصرار : « ولكنك تكون متفضلا ؛ إن هذا الرجل الشاعر الذى كان يغاضبك بالأمس يريد أن يراك . ولا أظنه إذا جاء إليك إلا طالباً عفوك متذللا خاضعاً . فإذا أنت عفوت عنه وعن قومه بعد ذلك كنت متكرما ، وأمكنك أن تعيد القوم إلى هنا وتستعيد معهم جنودك ، ولم يزدك ذلك العفو إلا مهابة فى القلوب ، ولعله يكون سبباً فى استصفاء النفوس بعد كدرها ، واستقرار الأمور بعد تزلزلها » .

فأطرق حجر يفكر ملياً فى قول ربيعة ، ثم رفع رأسه بعد قليل وقال مستسلماً : « قم إلى ذلك الشاعر وأحضره ، وافعل ما بدا لك يا أبا تميم » .

فأسرع ربيعة خارجا ، وجلس حجر وحده مطرقاً يفكر فيما هو صانع ، وكانت أفكاره لا تستقر ، وهواجسه لا تنقطع ، حتى عاد إليه ربيعة يقود عبيد بن الأبرص وهو يرسف فى قيده ، وقد امتقع وجهه ، وظهرت عليه آثار عصى حراسه الكنديين ولكماتهم .

وتحامل الشاعر حتى وقف أمام حجر ، وهو يهتز من الضعف ، وأخذ ينشد :

يا عين فابكى ما بنى	أسد فهم أهل الندامه
أهل القباب الحمر والنـ	ـعم المؤبل والمدامه
وذوى الجياد الجرد والـ	أسل المثقفة المقامه
حِلاً أبيت اللعن حلا !	إن فيما قلت آمه
فى كل واد بين يثـ	ـرب فالقصور إلى اليمامه
تطريب عان أو صيا	ح محرق أو صوت هامه
ومنعتهم نجداً فقد	حلوا على وجل تهامه
برمت بنو أسد كما	برمت ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من	نشم وآخر من ثمامه
إما تركت تركت عفـ	ـواً أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهم	وهم العبيد إلى القيامه
ذلوا لسوطك مثلما	ذل الأشيقر ذو الخزامه

وكان حجر فى أثناء إنشاد عبيد مطرقا ، يفكر فيما هو صانع ، وتنازعته الآراء ، وتجاذبته الميول . ولم يدر ماذا يجيب ، فرفع بصره إلى ربيعة كالمستنجد ، فوقف ربيعة وبسط إليه يديه متذللاً ، وقال له : « هبنى هؤلاء ، فقد بلغت منهم ما لا رجعة بعده إلى شق طاعة » .

فذهب عن حجر التردد ونهض من مجلسه ذاهباً نحو عبيد ، فقبض على ذراعه وهزه هزاً عنيفاً ، وقال له فى غضب : « أليس أنت المتكلم بهجوى ، الساعى فى الوثوب بى ؟ » .

فقال عبيد منكسراً : « لقد كان ذلك جهلا وحمقا » .

فقال حجر وهو يهزه بعنف مرة أخرى : « ألست أنت الوقح الذى تقول :

فانظر إلى ظل ملك أنت تاركه
هل تُرسِيَنْ أواخيه بأوتاد ؟ »

فأجاب عبيد فى خضوع : « عفواً أبيت اللعن ، لولا الذنب ما كان العفو » .

فقال حجر وقد بدت على وجهه أمارات الارتياح : « أفٍّ لهؤلاء الشعراء ! لهممت أن أقطع لسان كل من قال شعراً » .

ثم نظر إلى عبيد وقال : « اذهب ثكلتك أمك ، فقد حقنت دمك ودماء قومك » .

فرفع عبيد يديه ، وقال فى لهفة وفرح : « دمت للمكرمات ! » .

ونظر حوله فزعا إلى ربيعة مرة وإلى الملك مرة ، وقد غصّ بريقه فلم يقو على الكلام ، فنادى حجر بعض الأعراب من الجند الذين كانوا وقوفا عند بابه ، فدخل اثنان منهم مسرعين فى سرور يحسبان أن الملك سيأمرهما بقتل ذلك الشاعر الكريه ؛ ولكن حجراً قال لهما مشيراً إلى عبيد فى نغمة احتقار ظاهرة : « اذهبوا به فأطلقوه » .

فظهر على وجهيهما تجهم خيبة الأمل ، ودفعا الشاعر أمامهما وخرجا به من الخيمة ، وهو يحجل فى قيده متلفتاً إلى يمينه ويساره كأنه غير مؤمن بالنجاة . وبقى حجر بعد خروجه حيناً وهو مطرق ، ثم قال لربيعة فى صوت خافت : « أحس كأنى أصَّعد فى وحل يا ربيعة » .

فأجاب ربيعة مُطَمْئنا : « لا بل قد عاد الأمر إلى أيدينا بعد أن كاد يفلت منها » .

فقال حجر وهو يتنفس : « هيه ! ماذا نملك لأنفسنا من القضاء ؟ ارسل إلى بنى أسد كاشفت فردهم إلى هنا . وليكن ما يكون » .

فخرج ربيعة لينفذ أمر مولاه ، وقلبه يكذب ما كان يقوله من ألفاظ الأمل والثقة . ثم سار فى سبيله إلى بيته ليعد بعض هجائنه السريعة لتحمل رسوله إلى بنى أسد . ولكنه ما كاد يخطو خطوات قليلة حتى وقف مشدوهاً كأنه رأى شبحاً مخيفاً ، وتردد ونظر إلى ورائه كأنه يهم بالعودة إلى الملك ليسأله أن يعود فى أمره ؛ فقد هبط عند ذلك غراب مسرعاً فى طيره كأنه الصقر ، واعترض سبيله آتياً من يمينه إلى شماله وهو ينعب نعيباً مفزعاً .

وقف حيناً فى حيرة لا يدرى أيمضى فى سيره بعد اعتراض هذا الطائر المشئوم سبيله أم يعود أدراجه طاعة لنذر الآلهة ، واضطربت فى رأسه الخواطر سراعاً ، وامتلأ قلبه فزعاً ، ولكنه رأى أنه لم يبق له إلا المضى فى سبيله ، فقال فى نفسه وهو بين الفزع والضيق : « هذا نذير الآلهة ! ولكن ما الحيلة فى مشيئتها ؟ » .

ثم مضى نحو بيته بقلب ثقيل .

وبقى حجر فى خيمته بعد ذهاب ربيعة ، وجعل يفكر فيما انتهى إليه رأيه ، ويقلب وجوهه ، فساعة يطمئن ، وساعة يقلق ، ثم هز رأسه مستسلماً وقال : « دع الأيام تجرى فى مجراها ، ولننتظر ما يأتى به الغد إذا أتى » .

ثم اضطجع على وسادة ووضع يده تحت رأسه وذهب مع فكره يضرب فى الآفاق .

فى مساء ذلك اليوم كان حجر يسير فى ركب حافل نحو حدود العراق تلبية لنداء أبيه المريض الحارث بن عمرو ، المقيم فى بنى كلب ، بعد أن هرب من عدوه المنتصر المنذر ابن ماء السماء .

ولما أقبل الليل وطلع البدر ، وهدأ حر الهواء وبدأ النسيم يهب من الشمال حلواً بارداً ، عاد الأمل إلى قلبه ، وجعل يملأ صدره من الهواء الصافى ، وينظر إلى صفحة السماء المضاءة مرتاحاً ، وخيل إليه أن متاعبه قد انتهت ، وأن أملا جديداً يطالعه ، وأنه سوف يعاود صفاء الزمان ، ويسترجع الأمن والاطمئنان ، وأنه سيجد أباه قويا معافى ، فيهبط معه على أعدائه بعد أن يجمع القبائل ويؤلبها ويحشدها ، وأن انتقامه من عدوه سيكون عظيماً يدق الأعناق .

محمد فريد أبو حديد

في الأدب الفرنسي :

شاعر الارادة والبطـــولة

بيير كورنى Pierre Corneille

للدكتور حسن صادق



كورنى

حياته وعبقريته ورواياته :

من عجيب الأمور فى الحياة أنه إذا وُلد ابن ملك ، أطلقت المدافع إيذاناً بمولده وفرض على الشعب أن يبتهج إن كان شقيا ، أو بث الفرح فى نفسه إن كان سعيدا ؛ وإذا ولد عبقرى جهل الناس أمره ، ولم يشعر بمولده أحد ، وبعد أن تكشف العبقرية عن نفسها ويسود مجدها ، يبحث الناس فى ظروف مولدها ، وفى حوادث شبابها عن الأمارات العظيمة التى تدل على مستقبلها .

وكذلك ولد بيير كورنى فى ٦ يونيه سنة ١٦٠٦ بمدينة روان من أعمال فرنسا . ولم يسطع فى ذلك اليوم نجم فى السماء جديد ، أو يحدث على سطح الأرض حادث خارق يعلن إلى الناس قدوم رجل عظيم .

أحبه والداه حبا شديداً ونشآه على التقوى والفضائل ، ولم يجدا فيه ما يدلهما على أن اسم كورنى سيكون يوما فى شعلة المجد الفرنسى . ولما بلغ أشده أدخله أبوه مدرسة يديرها الجزويت ، فتلقى فيها تربية قوية صلبة وتعليما متينا ، ولم ينس قط لهذه المدرسة الأثر الجليل الذى خلفته فى نفسه الغضة . ثم أراد له أهله أن يكون من رجال القانون ، فكان إرضاء لهم دون أن يشعر بميل إلى ما أشاروا إليه .

نال إجازة الحقوق فى ١٨ يونيه سنة ١٦٢٤ ، وترافع أمام القضاء ، ولكنه لم يصب غير الفشل الأليم ، لأنه كان خجولا يشعر فى حضرة الناس باكتئاب باطنى يغمر عليه الحيرة والاضطراب ، ويسلط على لسانه الحبسة والحصر . وعلى حين بغتة حدثت مصادفة سعيدة أظهرت عبقرية هذا المحامى الصغير . كان له صديق عزيز عليه يحب فتاة ، وقد طلب منه أن يصحبه فى زيارته لها فقبل ، ولما تكررت هذه الزيارة أدرك كورنى أن الفتاة أخذت ترنو إليه دون صديقه ، فكف عن زيارته لها ، لأنه بطبعه وفى كريم . هذا الحادث دفع كورنى إلى كتابة قصة تمثيلية فكاهية سماها « ميليت » ، مستمداً قواعد الفن من نفسه وذوقه ، ثم سافر إلى باريس وفى جيبه فصول القصة الخمسة ، ولم يجرؤ على تقديمها لممثلى « بيت بورجونى » المهرة ، وهو الملعب الوحيد الذى كان فى ذلك العهد ، فقدمها فى تواضع إلى ممثلين مغمورين فقراء ، كانوا يحاولون إنشاء فرقة وملعب صغير .

مثلت هـذه القصة فى عام ١٦٢٩ ودرّت على اللعب الصغير رزقاً حسناً ، ولكن الجمهور الذى ألف مشاهدة القصص التمثيلية المقتبسة أو المنقولة عن كتاب أسبانيا والزاخرة بالدسائس والعقد ، وجد قصة ميليت سهلة بسيطة طبيعية . ولكى يكتسب كورنى إعجاب الجمهور وضع فى سنة ١٦٣٢ قصة « كليتاندر » ، ولم يكن فيها ما يستحق التقدير إلا الأسلوب . وبعد هذه القصة يئس من الحصول على نجاح يرضيه فى الكوميديا ، وشعر بيقظة التراجيديا فى نفسه ، فاستعار من « سنيكا » الحكيم الرومانى موضوع قصة سماها « ميديه » وأخرجها فى سنة ١٦٣٥ ، فأصابت بعض النجاح ، واسترعت نظر « ريشليو » الوزير الفرنسى المعروف . وكان هذا الوزير مولعاً بالتأليف التمثيلى ، وإليه تنسب أربع قصص غُيّبت كلها فى تضاعيف النسيان . ويقال إنه لم يكتب هذه القصص ، وإنما كان يضع خططها ويشرف على كتابتها .

اتجه نظر ريشليو إلى كورنى ورآه جديراً بالعمل معه فى تصنيف قصصه التمثيلية ، فعرض عليه رغبته فى الانضمام إلى « جماعة المؤلفين » ، وكانت مكونة من أربعة أشخاص يكتبون باسم الوزير ، فقبل كورنى لأنه شعر بالحاجة إلى عضد قوى يمهّد له الطريق ، واندمج فى هذه العصبة الصغيرة ، ولكنه حرص على الاحتفاظ بكنوز عبقريته لنفسه .

وذات يوم طلب إليـه الوزير أن يضع الفصل الثالث لإحدى قصصه وفقاً للخطة التى رسمها له ، فلم يوافق كورنى على هذه الخطة ، فدهش الوزير من جرأته واسترد منه شرف العمل معه ، وقال عنه : « ليس فيه روح العمل برأى غيره ! » أى ليس فيه روح الرضوخ والذلة .

نالت هذه الصدمة من نفس كورنى منالا كبيراً ، فعاد إلى روان ليجد بين أحضان أسرته متنفّساً من ألم الفشل . ثم اعتزم العدول عن التصنيف التمثيلى وهجر الشعر . ولكنه قابل مصادفة مستشاراً قديماً للملكة ماري دى مدسيس يدعى شالون ، فنصح له بأن يدرس فى إمعان شديد المسرح الأسبانى ، ولفت نظره إلى موضوع « السّيد » ، وكان قد عولج فى أغان وطنية أسبانية وفى قصتين من نوع التراجيديا إحداهما لدون جوان دياماث والأخرى لجيلهم دى كاسترو . قرأ كورنى القصتين ، وخلال غرابة التركيب وضعف الأسلوب استخلص حدثاً دراميا ومواقف رائعة وأفكاراً خلابة ، فوضع أولى قصصه الخالدة وهى السّيد ، أول درة فى تاج المسرح الفرنسى سنة ١٦٣٦ . وقد أثارت فى نفس ريشليو الغيرة والحسد ، ولكن كورنى تعزى بتصفيق الإعجاب الذى ناله من فرنسا كلها ! وبلغ من نجاح هذه القصة أن أصبح الناس يقولون : هذا جميل كالسيد ، وانتشرت هذه الكلمة حتى عدت من الأمثال العامة .

وقال بعض خصوم كورنى إن الجمال الذى يعجب به فى القصة يرجع الفضل فيه إلى دى كاسترو الأسبانى . وقد استاء الشاعر من هـذا القول ، فبحث فى التاريخ القديم عن موضوع يخلق منه قصة مهمة ، فعثر فى « تيت ليف » المؤرخ الرومانى المشهور على تاريخ الموقعة التى حدثت بين آل هوراس وآل كورياس ، وأخرج من هذا الموضوع قصته العظيمة « هوراس » فى عام ١٦٤٠ . وفى العام نفسه أخرج قصة « سِنّا » أو رحمة أغسطوس التى نالت أكبر قسط من النجاح . وفى سنة ١٦٤٣ أخرج « بوليكت » و « بومبيوس » و « الكذوب » ، وكلها قصص خالدة أبلغته ذروة المجد والعظمة ، وعقب قصة السيد منح الملك لويس الرابع عشر والد كورنى لقب الشرف ووثائق النبل ، ثم دخل الشاعر المجمع اللغوى (الأكادمية الفرنسية) فى سنة ١٦٤٧ .

استمر كورنى بعد ذلك يصنف القصص التمثيلية ، ولكنها لم تبلغ الدرجة التى بلغتها القصص السابقة . وفى سنة ١٦٥٢ أخرج قصة « برتاريت » فلم تنجح ، فآله

هذا الفشل ولزم جانب الصمت سبع سنوات قضاها فى روان مع زوجه وأولاده الثلاثة ، وكان قد تزوج فى سنة ١٦٤١ . ثم شاءت المصادفة أن يزور « موليير » الشاعر وفرقته مدينة روان ومثلوا فيها بعض كوميدياته . ولما شاهد كورنى التمثيل انتعش فى دخيلته حب المسرح ، فعاد إليه فى سنة ١٦٥٩ أمام جيل جديد من النظارة بقصة « أوديب » فقوبلت مقابلة حسنة . ثم أخرج عدة قصص ولكنها فشلت جميعاً . ويقال إن سبب الضعف الذى ظهر فى قصصه الأخيرة يرجع إلى إفراطه فى العمل والعجلة فى التصنيف ، لأنه كان فى أشد الحاجة إلى المال بعد أن استنفدت تربية أولاده موارده المالية كلها . ولكن الحقيقة أنه كبر ومالت قوة ذهنه إلى الاضمحلال والركود . يدل على ذلك قوله : « شعرى ذهب مع أسنانى » . وفى ليلة أول أكتوبر سنة ١٦٨٤ توفى بعد أن ذاق مرارة الفاقة فى شيخوخته كغيره من العباقرة ، لأن الشقاء فيما يظهر هو الفدية الضرورية للعبقرية . وقد قام المجمع اللغوى بنفقات تجهيزه ودفنه .

مكانته ومواهبه ومذهبه :

كان حساد هذا الشاعر العظيم كثيرين ، فلما توفى لم يروا فيه غير الشاعر العبقرى الذى خلق أروع القصص وجاءهم بآيات بينات فى البلاغة ، ووضعوه فى مكانة أعلى من التى كان يشغلها أيام مجده . ومن الغريب أن مدينة روان لم تقم تمثالاً لأشهر أبنائها إلا فى سنة ١٨٣٤ !

وكان معاصروه من كبار الأدباء لا يستطيعون إنكار قوة ذهنه وسمو شعره ، وكان هو نفسه يؤمن بعبقريته ويتحدث بها فى عزة الرجولة وفى صراحة تفضل التواضع المصطنع الذى لا يخفى ما تحته من زهو خبيث .

ونستطيع أن نقول إن كورنى قلب كبير ونفس جميلة ، لأن العواطف السامية كلها التى يجدها القارىء فى قصصه مصدرها قلبه ونفسه ليس غير .

كانت الأخلاق فى عصره هابطة والبطولة نادرة ، فلما جاء عمل على إيصال القليل من حرارة الشعلة التى تحركه إلى خمود معاصريه ، فتنبهت قلوبهم وهبت تخفق على توقيع ألحانه .

يقال دائماً إن الشاعر لا يصور إلا معاصريه ، وإن كورنى استمد موضوعاته من العادات والأخلاق التى كانت تحت بصره . ولكن كورنى شذ عن هذه القاعدة لأنه كان يصور الناس كما يجب وكما ينبغى أن يكونوا ، أى كان يصورهم على طراز نفسه العالية .

ومن يقرأ كتب هذا الشاعر ، يجد أن الرغبة فى جعل الإرادة تتغلب على كل الصعاب والعقبات هى من عناصر البلاغة الخاصة به ، ويجد أن أبطاله سواء أكانوا يريدون قهر أنفسهم أم قهر غيرهم ، يبذلون جهدهم فى إقامة الدليل الذى يبرر إرادتهم وعملهم ، وهم يشرحون حساسيتهم فى شعر ساحر ويعبرون عن إرادتهم فى لهجة خطابية ؛ ومن أجل ذلك يلذ لهم الحوار الطويل ، والمنطق السليم الذى يؤيد إرادتهم ، والبراهين القاطعة التى تنتصر على ترددهم . وهم فضلاً عن ذلك ، وفى كثير من المواقف ، يريدون أن تقر ضحاياهم أعمالهم .

قلنا إن كورنى كان عيياً فى حضرة الناس ، ولكنه كان خطيباً بلسان أبطاله ، وفى كل قصة نجد أن الحوادث هى نتائج قرارات الأبطال ومشيئتهم . فالإرادة فى مسرح كورنى هى نابض الحركة الوحيدة ، وهذا ما يجعل لمسرحه قيمة خلقية فريدة . وإن جعل الفعل الدرامى معلقاً على مشيئة الأبطال لهو فى الحقيقة تخفيض لنصيب الظروف أى تبرئتها مما نتهمها به . وليس هذا حقيقة خالصة ؛ ولكن كورنى أراد بعمله أن يرغب الناس عن التواكل والاستسلام ويربى فيهم الاعتماد على الإرادة .

ولكى نحكم على كورنى حكماً صحيحاً ، ينبغى أن

تضع نصب أعيننا دائماً أنه المؤسس للتراجيديا الفرنسية . حقاً أن كثيرين جاءوا بعده متزودين بدروسه ومناهجه ، قلدوه أو بزوه ، ولكنه بقي أستاذ هذا النوع . إنه هو الذي ابتكر استعطافاً جديداً يقوم ، لا على الفزع والشفقة ، ولكن على الإعجاب : الإعجاب بالمواقف ، والإعجاب بالخلق ، والإعجاب ببطولة الواجب وروعة التضحية . وهو الذي حدد شكل التراجيديا الفرنسية وجعلها « قضية أخلاقية توضع بواسطة العرض ثم تحصل المناقشة فيها بواسطة انقلابات الحال ثم تحل في الختام » . وعبقريته هي التي جعلت التراجيديا تحليلاً نفسانياً لشهوة من الشهوات ، تتدرج في طريقها حتى تصل إلى العنف والحدة ثم إلى النتائج الأخيرة .

أثره في التراجيديا والأدب :

كانت التراجيديا قبل كورني محاورات طويلة ، وكان واضعوها يصورون الوالد والولد والزوج في ظروف شخصية خاصة محدودة . ولكن كورني صورهم بطريقة عامة ، أي صور المثل الأعلى للوالد والولد والزوج .

قال « سانت بيف » الناقد المشهور : « إن كورني هو الشاعر الجدير بأن يعاصر الفيلسوف ديكارت . كان هذا الفيلسوف يبرهن على وجوده بالفكر فيقول : إني أفكر . إذاً أنا كائن . وكان الشاعر يبرهن بالفكر على الحساسية والحركة والحياة . فكل شيء في قصصه يقول : إني أفكر . إذاً أنا شاعر حي » .

وكل ما يعاب على كورني أنه لم يصور المرأة في قصصه تصويراً طبيعياً . وذلك لأنه لم يسبر غور القلب النسوي ، وكل أبطاله النساء لا تمت إلى الطبيعة إلا بصلة ضعيفة ، لأنه خلقهن من إدراكه لا من تجربته وملاحظاته .

كان كل همه أن ينتج الإعجاب بالفضائل . وقد بلغ غايته بجعل الواجب يناضل الهوى ثم ينتصر عليه . وهذه الغاية أرغمته في بعض الأحيان على أن يبالغ في قوى أشخاصه ويسمو بهم فوق الضعف الإنساني ليحيلهم إلى أبطال ، وبهذه الطريقة استطاع أن يحقق طموحه النبيل إلى جعل مسرحه مدرسة لعظمة النفس .

وطبيعي أن ينهض كورني بالمسرح الفرنسي لأنه جاء في عصر زاهر مهيأ لهذا النهوض ، وليس من شك في أن المسرح من أنفع وأنبل ما ابتكر العقل الإنساني لتهذيب العادات وصقل الخلق . ولا يمكن أن يصل إلى كماله إلا حين تبلغ الجماعة نفسها ذروة مدنيتها . ولهذا يتكون الفن الدرامي دائماً في بطء ، بينما يظهر الشعر الحماسي والغنائي في طفولة الأمم بقوة أكثر مما يظهر بها في عصر نضجها ؛ لأن شعراء الملاحم والغناء يستطيعون أن يسلموا أنفسهم إلى جرأة عبقريتهم ، وبهذه الجرأة يسبقون القرون . أما شعراء الدراما — ومهمتهم كما نعلم تهذيب الجماهير — فإنهم مرغمون على أن يلائموا عبقريتهم مع عادات العصر الذي يعيشون فيه . ومن أجل هذا نرى أن الجماعة التي لم تبلغ شأواً بعيداً في المدنية لا يشغل المسرح من أدبها إلا مكاناً ثانوياً . فإذا دنت من نضجها أخذ المسرح مكانه في الصف الأول من مدرسة الإدراك . وهذا ما حدث في فرنسا في القرن السابع عشر ، وما حدث في اليونان قبل مجيء سفوكليس وأوريبيدس وأرستوفان واسخيلوس .

وعند ظهور كورني كان قد مضى على الناس أكثر من مائة عام وهم يعالجون التفكير ويتألفون الشعر والنثر دون أن ينجحوا النجاح المرجو ، وعبثاً نهبوا مؤلفات الأقدمين ومسخوها ، وعبثاً سرقوا من الرومان والايطاليين والأسبان ، وعبثاً انتحل كتاب النثر لأنفسهم من شيشرون وبلوتارخوس . ثم جاء كورني وديكارت فحررا اللغة والفكر الفرنسي من ربقة الإغريق والرومان . فهما أول من أعطى للأدب الفرنسي صبغته الخاصة وطابعه القوي ؛ فقصة « السيد » و« رسالة في المنهج » لديكارت

٥ – الأدب الجاهلى وأثره

للدكتور عبد الوهاب عزام

قلتُ فى المقال السابق إن شعراء العربية لم يقفوا بالشعر على موضوعات قليلة تقيّلوا فيها الجاهليين ، وذكرتُ طرفاً من تصوير شعراء مصر البيئة التى عاشوا فيها بمقدار ما حضرنى الشاهد واتسع المقال .

واليوم أبيّن أن شعراء العراق والشام كذلك صوّروا بيئاتهم وافتنّوا فى التصوير .

العراق كثير النخل ، ولا سيما فى الجنوب ؛ فانظر كيف يصف أبو نواس النخل وثمره فى أطواره ، وجنيه ، واتخاذ النبيذ منه ، فى قصيدة أولها :

لنا خمر وليس بخمر نحل ولكن من نتاج الباسقات
كرائم فى السماء ذهبن طولا ففات ثمارها أيدى الجناة
قلائص فى الرءوس لها ضروع تدرّ على أكفّ الحالبات
صحائح لا تمرّ ولا تراها مجافاً فى السنين الماحلات
مسارحها الذار فبطن جوخى إلى شاطى الأبلة فالفرات

إلى أن يقول :

بدا بين الذوائب فى ذُراها نبات كالأكف الطالعات
فشققت الأكف نخلت فيها لآلئ فى السلوك منظمات
وما زال الزمان يحافتها وتقليب الرياح اللاقحات
فعاد زمرّداً واخضرّ حتى تخال به الكباش الناطحات
فلما لاح للسارى سهيل قبيل الصبح من وقت الغداة
بدا الياقوت وانتسبت إليه بحُمْر أو بصُفْرٍ فاقعات الخ

أليس هذا الشاعر العراقى يصف شيئاً من طبيعة العراق لا تجده فى شعر أهل الشام والبلاد التى لا نخل فيها ؟

ولم يغفل الشعراء وصف دجلة والفرات . وتصفّح كتب البلدان فضلا عن كتب الأدب يدل على هذا .

وكذلك وصف شعراء العراق السفينة ، لكثرة ما رأوها وركبوا فيها ؛ وحسبنا من الشعراء الذين وصفوها مسلم بن الوليد وبشار وابن الرومى ومهيار والسرىّ الرفّاء .

وهذه أبيات للسرى :

إليك أطرنا من ديار ربيعة نعائم فى أرض العراق وقوعها

نعيشان عهداً جديداً فى تاريخ الأدب والفكر الفرنسى .
وكما يفخر الرومان بأن عصر أغسطوس أنتج هوراس وفرجيل ، كذلك يفخر الفرنسيون بأن عصر لويس الرابع عشر أنتج أكبر شاعر لهم وهو كورنى .

ونختم هذا المقال بكلمة نابليون الأول : « القصة التمثيلية تهذب النفس وتسمو بالقلب وتخلق دون ريب أبطالا . وإنى أجهر بأن فرنسا تدين لكورنى بجزء كبير من أعمالها المجيدة . إن القصص التمثيلية مدرسة عالية لعظماء الرجال ، ومن واجب الملوك تشجيعها ونشرها ، ولو كان كورنى حياً فى زمنى لجعلته أميراً » .

ولكن كفى كورنى فخراً أن الشعب أطلق عليه لقب « العظيم » لأنه أتحفه بقصة « السّيد » وهى الحب فى أجمل أنوابه ، وبقصة « سِنّا » وهى السياسة فى أسمى أشكالها ، وبقصة « بوليكت » وهى الدين فى أروع مظاهره ؛ والحب والسياسة والدين هى « ثالوث » القلب الإنسانى .

حسن صادق

وكائب تحدوها الشمال كأنها
قلاع إذا أوفت عليها قلوعها
تهادى بها السير الحثيث فلم تجُـل
لبُعد المدى أمراضها ونسوعها
تمدّ على الأمواج باعا كأنه
يعانقها في مـــده ويروعها
فوردها عذب المياه نميرها
ومربعها مهل الرياض مريعها

وأما وصف المروج والرياض والحدائق ، فلا يخلو منه ديوان شاعر . وقد افتن فيه الشعراء حتى صار فناً شائعاً وضرباً من الشعر مستقلا ، ولا أرى بي حاجة إلى التمثيل ، فحسب الباحث أن يتصفح ديوان أبي تمام أو البحترى أو ابن الرومى أو السرىّ ، ليرى كيف أولع الشعراء بوصف جمال الأرض ، حتى امتزج به شعرهم وشبهوا القصائد بالرياض والرياض بالقصائد . فهل هذا إلا وصف الأرض التي عاشوا عليها ، والمناظر التي رأوها في ديارهم ؟ وما عسى أن يكون وصف المناظر الطبيعية غير هذا ؟

ومن يعبر دواوين الشعر يعثر بمئات من القصائد والقطع في وصف الرياض والغُدران والأزهار موصولة بوصف السحب والأمطار والرياح ، ونرى مثالاً في قول البحترى :

سرى البرق يلمع في مزنة — تمدّ إلى الأرض أشطانها
فلا تسألنّ باستواء الزمان — وقد وافت الشمس ميزانها
فكم بالجزيرة من روضة — تُضاحك دجلة ثعبانها(١)
رُبَاك اليواقيت منثورة — وقد جلل النور ظهرانها
غرائب تخطف لحظ العيون — إذا جلت الشمس ألوانها
إذا غرّد الطير فيها ثنت — إليك الأغانىّ ألحانها
تسير المهارك أيسارها — ويعترض القصر أيمانها
وتحمل دجلةُ حول الجو — ح حتى تساطح أركانها
كأن المدارى تمشى بها — إذا هزت الريح أفنانها
فطوراً تقوّم منها الصَّبا — وطوراً تميل أغصانها
جنوح تنقّل أقدامها — كما جرّت الخيل أرسانها الخ

وكذلك وصفوا البرّية والوحش والطير والصيد وصفاً رائعاً ، وشاعت بينهم « الطرديات » ، وهى أراجيز تصف الصيد وآلاته وحيوانه ومواضعه .

وأما الأبنية القديمة والحديثة ، فناهيك بقصائد البحترى في قصور الخلفاء العباسيين ، والسرىّ الرفّاء في قصور الموصل . وقد بنى الصاحب بن عباد داراً فوصفها ثلاثون شاعراً .

ومن أمثلة هذا قول البحترى في القصر الكامل الذى بناه المعتز بالله :

ذُعر الحمام وقد ترنم فوقه — من منظر خطر المزلة هائل
رُفعت لمخترق الرياح سموكه
وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوّه
لُجج يُمجن على جُنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى — تأليفه بالنظر المتقابل
حُبك الغمام رُصفن بين منضّر
ومسيّر ومقابل ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذى رونق
متلهب العالى أنيق السافل الخ

وقول السرىّ الرفاء يصف قلاعا :

وقلاع مثل الهوادج حسنا — جاعلات مطيَّها الأجبالا
وإذا اختالت السحاب عليها — خلتها كِلّة لها وحجالا
مشرفات على البحور تراهن — يميناً من دونها وشمالا
لامعات كأنما الشمس أجرت — ذهباً ذائباً عليها فسالا الخ

ولم يغفلوا وصف الآثار ، وقد صارت قصيدة البحترى في إيوان كسرى مضرب المثل .

(١) الثعبان جمع ثعب

ووصفوا آثاراً أخرى مثل تمثال كسرى برويز وفرسه شبديز ، وقد أكثر فيه شعراء العربية . ومن الشاعر العربى الأرّجانى بهذا التمثال فنظم قصيدة رائعة لم تدعه إلى نظمها عصبية للفرس ، ولكن استجابة لطبع الشاعر :

ومن هذه القصيدة :

رأيت عجيباً ، والزمان عجيب
رجالا ولكن ما لهن قلوب
تماثيل فى صخر نحيت كأنها
بنو زمن لم يُلفَ فيه أريب
نزلنا وفوداً فى حماها ولم يكن
لنا من قراها فى الوفود نصيب
فنحن لدى كسرى أبرويز غُدْوةً
نزولٌ ولكنّ الفناء جديب
بظاهر قرميسين والركبُ محدِق
حواليه فيهم جيئة وذهوب
لدى ملك من آل ساسان ماجد
وقور عليه التاج وهو مهيب
وقد ظل بين الموبذان مكانُه
وشيرين للأبصار وهو قريب
مكانَ المناجى من خليليه واقفا
وإن عز منهم سامع ومجيب
ويبنك من تحت الحوادث أوجهاً
بها من تصاريف الزمان شحوب
وقاموا على الأقدام لا يعتريهمو
مدى الدهر من طول القيام لغوب
عليهم ثياب ليس يجتاب لابس
ولكن من الصخر الأصم يجوب
تَعجّبُ منها كيف جُرّ لمثلها
ذيول لهم أو كيف زُرّ جيوب الخ

ويصف بعد هذا الحصان وفارسه والصور التى حولها وصفاً دقيقاً جداً .

فهل هذا إلا من ولع شعراء العربية بوصف ما يرون من آثار الطبيعة أو الصنعة ؟ .

ومن عجائب الفن الشعرى أن السرىّ الرفاء كان له غرفة مشرفة على البرّية وقد عشش فيها الخطاف فكلف بوصف غرفته ودعوة أصحابه لرؤيتها ورؤية الخطاف وعشه وأفراخه . ووصفها وصفاً يخلط نفسه وعواطفه بحركات هذا الصديق الصغير .

منها قوله :

وغرفتنا الحسناء قد زاد حسنها
بزائرة فى كل عام تزورها
عبيضّة الأحناء سود شطورها
مُزَرّرة الأذناب حُمْر نحورها
مرفرفة حول البيوت وفودها
محلّقة حول السقوف وكورها
لهنّ لغات معجبات كأنها
صرير نعال السِّبت ، عال صريرها
تجاورنا حتى تشبّ صغارها
فيلحق فينا بالكبير صغيرها الخ

***

وغرفة فسيحة البناء طائرة القمّة فى الهواء
قريبة من كلل العماء كهودج ممسّك الرداء
يوطن فى قبتها العلياء زور خفيف الروح والأعضاء
محلّق فى كبد السماء وتارة يلصق بالغبراء
فى يلمق مشهّر الأثناء كأنما طوّق بالدماء
يطرب أو يخلب قلب الرائى بين غناء منه أو بناء الخ

ومما يشهد بمقدرتهم على وصف الدقائق واستيعابهم جميع ما يرون ، ولعهم بوصف الشمعة كما وصفها

الأرجاني بأكثر من ثلاثين بيتاً .

ولا أريد أن أطيل الكلام في وصفهم الحيوان كبيره وصغيره ، فقد أكثروا فيه وأبدعوا . ولولا الطبع الشاعر الدرّاك ما رأينا مثل وصف العنكبوت لأبي نواس ، ووصف الزنبار والجراد للسرىّ الرفاء ، ووصف الذئب للبحترى وابن نباتة والشريف الرضى ، ووصف الأسد للبحترى والمتنبي والشريف الرضىّ .

وأما شعراء الشام فهم كشعراء العراق ، فليس في إفرادهم بالكلام إلا إيراد أمثلة من شعرهم . ولا أحسب القارئ في حاجة إلى هذا . وأما شعراء الأندلس فأمرهم في وصف الطبيعة والصناعة أبين ، وشعرهم فيه أشْيَر ، وإن في شعر ابن خفاجة وابن عمار وابن حمديس وحدهم ما يكفي لرد الشبهة وإقامة الحجة .

وبعد ، فإني أكتب هذه المقالات في مصيف الإسكندرية بعيداً من كتبي ، معتمداً على كتابين أو ثلاثة في يدى ، وكثيراً ما يفوتني النص ويخذلني الشاهد . وقد انتهيت من نقد المقال الأول من مقالات « جناية الأدب الجاهلي » .

لذلك أرجئ الكتابة إلى فرصة أخرى أرجو أن تكون قريبة .

وإني أختم هذه المقالات الخمس بشكر أستاذنا الجليل العلامة أحمد أمين ، عما يكلف نفسه البحث والنظر في عويصات المسائل ، ويثير بين الحين والحين جدالاً حول أمور خطيرة ، في إثارتها جدوى على العلم والأدب . وأرجو أن أعود عما قليل إلى مجادلته في بقية آرائه ، تحرياً للحق ، واجتهاداً في تعرّف الصواب ، وإرضاءً للأستاذ ، وتقديراً لبحثه ، والسلام .

الاسكندرية ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ **عبد الوهاب عزام**

صور من السياسة والتاريخ :

ألمانيا الهتـــلرية كما عرفتها

تحقيق ومشاهدات واقعية

١ – شعب يعيش بمعزل عن العالم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حينما هبطنا الشاطئ الأوربي في منتصف أغسطس ، كان ثمة شعور من التفاؤل يبدو في كل مكان . وكان ثمة أمل يلوح في الأفق بأن الأزمة الأوربية التي أثارتها ألمانيا حول مسألة دانزيج والممر سوف تحل بالمفاوضة والتفاهم . ولم تك ثمة بوادر تدل على أن العاصفة توشك أن تنقض بمثل هذه السرعة الصاعقة ؛ وكان كل ما يزعج الرأي العام الأوربي هو الاستعدادات الحربية العظيمة التي تقوم بها ألمانيا حول الحدود البولونية . غير أنه كان يخفف من هذا الإزعاج الاعتقاد بأن ألمانيا – جرياً على سابق خطتها – إنما ترمي إلى الضغط على بولونيا والدول الديمقراطية لتفوز بتحقيق غايتها دون حرب ، على نحو ما وقع في أزمة سبتمبر الماضي .

ولم نلاحظ مدى الأيام القلائل التي قضيناها في سويسرا شيئاً من الإزعاج ، ففي جنيف كان الهدوء يسود كل شيء ؛ وكانت المدينة الباسمة التي أسبغت عليها عصبة الأمم طابعاً سياسياً خاصاً ، تموج بالزائرين من كل صوب من عشاق بحيرتها وسحرها ، وتسطع بالليل كاللآلئ المنيرة ؛ وكانت زوريخ عاصمة سويسرا الصناعية مشغولة بمعرضها القومي ، تموج بآلاف الوافدين عليها لزيارته . وكانت أمارات الرضى تبدو في كل مكان على هذا الشعب النشط الرغد . ولكن الشعب السويسري مع ذلك كثير اليقظة ، يتتبع الموقف الدولي بعناية ، وينظر إلى حركات ألمانيا بكثير من التوجس . وقد سمعت من أستاذ سويسري كان زميلي في السفر فيما بين لوزان وجنيف ، أن سويسرا ليست مطمئنة إلى سير الأحوال الدولية ، وأنها على قدم الأهبة ، ولا سيما من ناحية الحدود الشمالية ، وأنها ترتاب كل الريبة في نيات ألمانيا ومقاصدها ، وتزمع أن تقاوم الاعتداء عليها بكل ما وسعت . وأنذرني سائق السيارة التي أقلتني إلى المحطة ، حينما علم أني أقصد السفر إلى برلين ، بأن الأخبار الأخيرة لا تدعو إلى الاطمئنان ؛ وأن شبح الحرب يلوح قوياً في الأفق . وقد كانت الصحف السويسرية الصادرة في مساء اليوم وهو يوم ٢١ أغسطس تؤيد في الواقع هذا التشاؤم .

***

ولما وصلنا إلى محطة أنهالت (برلين) في صباح يوم الثلاثاء ٢٢ أغسطس كان كل شيء عادياً ، ولم يك ثمة ما يلفت النظر سوى شيء واحد ، هو صدور الصحف الألمانية هذا الصباح بعناوين ضخمة بارزة عن مشروع الميثاق الألماني السوفييتي ، وعن سفر وزير الخارجية فون ريبنتروب إلى موسكو لتوقيعه ، وكان هذا أول نبأ نشر عن هذا الميثاق . وكانت مفاجأة لها في الجماهير أعظم وقع ، وكانت الدهشة تعلو وجه كل قارئ . ولا غرو فقد لبث الشعب الألماني أكثر من ستة أعوام يسمع من زعمائه وقادته أشد المطاعن والتهم في حق حكومة

السوفييت وزعمائها البلاشفة ؛ وقد ذكرهم هتلر في كتابه « كفاحي » بأشنع النعوت ووصفهم بأنهم مجرمون لوثت أيديهم بالدماء ، لا شرف لهم ولا ذمام ؛ وما زال إلى أشهر قلائل يحمل عليهم في خطبه أقسى الحملات . فما هو السر في هذا التحول المعجيب في سياسة الزعيم ؟

كانت أمارات التساؤل تبدو على جميع الوجوه ، ولكنه تساؤل في صمت وذهول واستسلام ، فلا كلمة ولا ملاحظة إلا همساً وفيما بين الجدران ، حينما كانت تسنح لنا فرص الحديث مع الألمان القلائل الذين يخاطرون بالكلام معنا . ذلك أن الشعب الألماني ليس له أن يتكلم أو يلاحظ ، وعليه فقط أن يستمع وأن يطيع ؛ والواقع الذي يلفت نظر الزائر الأجنبي بنوع خاص هو أن الشعب الألماني يكاد يعيش في عالم وحده ، وأن « الرجل العادي » لا يعرف شيئاً عما يدور خارج ألمانيا ، وليست لديه أية فكرة صحيحة عن موقف الدول الأخرى وتصرفاتها ، ولا يعرف من ذلك إلا ما تقدمه إليه الصحف الألمانية من صور وأنباء تباعد الحقائق المعروفة . والصحف الألمانية — وهي تعد بالآلاف — تصدر في ظل النظام الهتلري في أوضاع واحدة ، ولا تكاد تختلف محتوياتها في الشئون العامة الداخلية والخارجية في شيء ، سواء من حيث التحرير واللهجة ؛ وإنك لتقرأ في اليوم الواحد الصحيفة بعد الصحيفة فلا تقع على جديد مطلقاً ، وكل محتوياتها وتعليقاتها في جميع المسائل الهامة من وضع وزارة الدعاية ، وهي جميعاً صورة واحدة في جميع أنحاء ألمانيا ، وهي جميعاً سخيفة مملة بما تغرق فيه من صنوف الارجاف المنظم والدعاية التافهة . ففي الفترة التي تقدمت نشوب الحرب كانت انكلترا مثلا تقدّم إلى الشعب الألماني في صورة عدوّ خطر يتحرش بألمانيا ويعمل على تطويقها ويحرّض خصومها عليها ، وأنها تقف حجر عثرة في سبيل أمانيها القومية ، وتشجع بولونيا على موقفها العدائي ، ثم تقدم إليه في نفس الوقت كدولة شاخت ولحقها الوهن ، وأنها لن تجرؤ بأي حال على محاربة ألمانيا أو الوقوف في وجهها . وفرنسا تقدم إليه في صور مماثلة ، وأنها عدو ألمانيا التاريخي الذي يجب سحقه . وبولونيا تقدّم إليه في صورة أمة همجية تنكل بالألمان وتمعن فيهم قتلا وتعذيباً ، ويجب الانتقام العاجل منها . والصحف الألمانية تمعن في نشر هذه الأراجيف باستمرار ، ولا تنقطع محطات الاذاعة بالنهار أو الليل عن تكرارها . والألماني المستنير لا يكاد يؤمن بشيء منها . وقد سمعت من كثيرين أنهم لا يعتقدون في صحة شيء من هذه الأراجيف . وذكر لي شخص مثقف أنهم يقدرون أن عشرة في المائة فقط من هذه الأخبار تمكن تصديقها . ولكن « الرجل العادي » يقبل على سماعها ويعلق عليها ، وعلى هذا « الرجل العادي » الساذج المستسلم يعتمد هتلر ونظامه قبل كل شيء .

أما الوقائع والتطورات الدولية الهامة فلا يكاد الشعب الألماني يعرف شيئاً عنها . فهو مثلاً لم يعرف شيئاً عن موقف انكلترا وفرنسا خلال الأزمة ، ولا عما دار في البرلمان البريطاني ولا عن تصريحات مستر تشمبرلين في إصرار انكلترا على تأييد بولونيا . ولم يعرف شيئاً عن تصريح السنيور موسوليني في مساء أول سبتمبر بأن إيطاليا لن تدخل حرباً اعتدائية ، وستحتفظ بحيدتها ؛ بل لم يعرف شيئاً عن البلاغ النهائي الذي وجهته انكلترا وفرنسا إلى ألمانيا في نفس اليوم ، ثم عن اعلان حالة الحرب ضد ألمانيا من جانب انكلترا وفرنسا على أثر انتهاء مدة البلاغ النهائي في يوم الأحد ٣ سبتمبر . أجل لم يعرف الشعب الألماني شيئاً عن هذه الأحداث الجسام إلا بعد ذلك بأيام . ولم يعرفها في حينها إلا القلائل ممن أتيح لهم الاستماع إلى الاذاعة الأجنبية أو سموعها من بعض الأصدقاء الأجانب . أما الصحف الأجنبية فلم يكن يرد منها إلا كميات قليلة جداً . وكان من أشق الأمور علينا خلال الأزمة أن نحصل على جريدة انكليزية أو فرنسية في وقتها . وفي اليوم الذي تصادر فيه الصحف الأجنبية — وهو كثيراً ما يحدث —

أدب الحـــــرب . . .

[مهداة إلى شاعر العروبة أحمد محرم]

للأستاذ عبد الحفيظ نصار

توطئة :

من أبرز ميزات الأدب الحىّ تعبيره الصحيح عن أفكار الأديب الشخصية وخوالجه النفسية ، فهو مرآة صادقة فى كل تعبيرها ، وزهرة تشمّ منها رائحته الخاصة ، إلا أن الأديب يحتاج إلى الخيال ليزيد القراء معرفة بطيب عبيرها . والمرآة تبرز الملامح والمظاهر ، والأدب يزيد عنها فى أنه يصوّر خواطر النفس كما يسجّل اختلاجات الحس ، وقد يتعدى هذا المحيط الضيّق ، فيكون الأديب مرجعاً لصدى حالة خاصة تعترى المجتمع ، وهو فى كلٍّ معبر عن أفكاره وآرائه ، وإن كان تعبيره جاء ضمنياً عن المجتمع الذى يتأثر ببيئته ؛ ويكون التعبير صحيحاً إذا كان الأديب يجارى تيارات المجتمع الفكرية ، وإذا كان المجتمع يجاريه . . . ومن هنا يأتى الفرق بينه وبين آخر نصب وقفاً لحزب أو فكرة ، وهو لا يؤمن برسالة تلك السياسة أو صواب تلك الفكرة ، فيخرج أدبه بثوب كالكفن ، قد يكون مبهرجاً فيغرّ ، ولكننا لا يمكننا أن ننسى أنه مبهرج يضلّ ، لا أديب يفتق ، وأن تلك الألفاظ قد خرجت من قبر قُبرت فيه معانيها قبل أن يسطرها ، كصفاف المطبعة يصفّ حروفاً من حديد ، فهى وإن أدركت مبانيها ولكنها هى فى معانيها ميتة .

***

يرد علينا دائماً بأنها نفدت ولم يبق منها شىء .

***

وقد شعرنا ونحن نتلو نبأ عقد الميثاق الألمانى الروسى بأنه يخفى وراءه بعض الأحداث الجسام ، وشعرنا فى الوقت نفسه بأن الحكم قد صدر على بولونيا ، وبأن العاصفة يوشك أن تبدو نذرها رغم هذه السكينة الظاهرة . ولم يمض يومان على ذلك حتى تم توقيع الميثاق وأذيعت نصوصه ، وأخذت الصحف الألمانية ومحطات الإذاعة الألمانية تفيض فى وصف هـذا الانتصار الدبلوماسى الباهر الذى أحرزته « الريخ » على الدول الديمقراطيـة ، وتنوه بقيمة الصداقة الجديدة . ونشرت الصحف الألمانية خريطة روسيا ، وبدأت لأول مرة منذ قيام الحكم النازى تتحدث عن مواردها العظيمة وتشير من طرف خفى إلى أن ألمانيا تستطيع عند الحاجة أن تعتمد على هذه الموارد . وظهرت الصحف الروسية لأول مرة عند باعة الصحف . ولكن ذلك كله لم يبدد ما أحاق من الغموض بهذا التحول الفجائى فى سياسة المتنازعين . وكانت أرجح النظريات فى تفسير هذا التحول هو أنه وقع بناء على ضغط « الريخسفر » (الجيش الألمانى) وأن « الريخسفر » لم يغفر قط لهتلر أنه أغضب روسيا وأثار عداوتها لألمانيا بحملاته المفرقة عليها ، وأنه دفعه إلى استعادة صداقتها ، حتى إذا نشبت حرب بين ألمانيا وخصومها أمكنها أن تقاتل فى جبهة واحدة وأن تكفل بمصادقة روسيا سلامتها فى الجبهة الشرقية ؛ وعلى أى حال فانه لم تمض سوى أيام قلائل حتى ظهرت طلائع العاصفة التى سرعان ما انقضت على بولونيا .

محمد عبد الله عنان

وقد لا نقف على ناحية كان لها تأثير واضح ، مثل ما كان للحرب على فنون الأدب ، ونعلل ذلك بسببين :

أن الحرب تبعث للشاعر الانسانية الكامنة فى الانسان من رغبة ورهبة ، وأمل ويأس ، وسرور وألم ، وشجاعة وجبن ، وأنين وحنين ، وأوهام وأحلام ؛ إلى غير ذلك من المشاعر والخواطر التى يبعثها تعاقب صور الحوادث فى الحروب على مسرح فكره ، ومؤثراتها على بواتقة حسه ، تعاقب شريط سينمائى فيه مشاهد من الآمال والآلام مضطربة بين الوضوح والابهام . . .

والسبب فيما نقع عليه من أدب حى كان صدى للحروب أن الأديب فى الغالب ينحو فى كتابته المنحى الواقعى ، لأنه يكون أبلغ فى النفس أثراً ؛ فبساطة التعبير والدقة فى سرد الحوادث التى لا تحتاج إلى إبهام الرمزية لها سيطرة على مناحى المشاعر التى لا يحتاج فى حفزها إلى كثير من السيطرة على مناحى البيان ؛ فقصة « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » وما أحدثت من ضجة فى الأوساط الأدبية والسياسية العالمية ، وما كان لها من ذيوع لم تسبق إليه قصة أو مؤلف عن الحرب أو غيرها ، حتى قيل إنه طبع منها أكثر مما طبع من الإنجيل من يوم طبعه ، قد ترك فيها مؤلفها الحوادث تتكلم فاستحالت سطورها خنادق تتحرك بالأجسام والبنادق . .

وقد نتساءل عن مدى تأثير ذلك اللون من الأدب المسمى بأدب الحرب فى الشعوب والشخصيات ، ولم نجعل الشخصيات مجارية للشعوب التى تعيش فيها لأنها قد تستقل بذلك التوجيه عنها ، ومن ثم تعمل هى على توجيهها بمقدرتها الخاصة التى يمكن لعامة الشعب أن يحذوها ؛ ونقع على هذا النوع من أبطال التاريخ البارزين « اسكندر الأكبر » وهو ما نعرف بطولة وقيادة . أما أى لون من الأدب كان له التأثير الأكبر على ذلك الكمى الفتى فهو أدب إلياذة هوميروس ، فقد كتب له أستاذه أرسطوطاليس نسخة منها ، وشعر الالياذة شعر حرب وقوة ، فتمثل بأبطالها وحفظ أشعارها وترنم بها خصوصاً ذلك البيت الذى يصف فيه أغاممنون :

مليك بأحوال السياسة عارف ... عزوم بهيجاء المعامع جبار

ومما يؤثر عنه أنه قال وهو واقف إلى قبر أخيل بطل الالياذة : « طوباك فقد أوتيت منتهى السعادة بقيام شاعر كهوميروس يخلد ذكراك »[١] . كما لا يمكننا أن ننسى أن من أهم الكتب التى كان لها التقدير النافذ لمصير الكثير من الشعوب كما كان لها التأثير المباشر على كثير من الشخصيات التاريخية المهمة .

القرآن الكريم — نرى فيه الكثير من أدب الحرب فهو يتحدث عن الغزوات فى مواضع كثيرة مثل سورة الأنفال والتوبة والفتح عدا ما انبث من الآيات فى كثير غيرها ، وسورة الأنفال حربية بحتة سجلت أهم غزوات الرسول (صلوات الله عليه) غزوة بدر وما يتعلق بها من غنائم وسبايا وأحكام ؛ فيها : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم . الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ، ومنها أيضاً : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » الخ .

ومن الذين خلقت الحرب فى أدبهم أثراً الكاتب

(١) من أدب الحرب كذلك إلياذة الشاعر أحمد محرم يظهر ذلك من القطع التى اطلعنا عليها حتى الآن ، ونعد القراء بكتابة بحث عنه مقارن بينها وبين الالياذة اليونانية عند ظهورها أو قبل طبعها إذا تيسر لنا ذلك .

الروسي الكبير الكونت ليون تولستوي ، فقد التحق بجيش القوقاز بفرقة المدفعية ، وألف خلال تلك الفترة عام ١٨٥٢ م رواية الطفولية وهي أولى رواياته ، ومع ذلك نالت شهرة فائقة وعدّها كتاب الروس من أنفس المؤلفات ، ثم كتب روايتي (القوقاز) و (الفاتحين) وفي عام ١٨٥٣ م سعرت نار حرب القرم فتطوع لها منضما إلى جيش الطونة تحت قيادة البرنس غورتشاكوف ، ثم نقل إلى حامية سيفاستبول قائداً لفرقة مدفعية ، وظل يحارب بكل شجاعة وثبات غير مبال بما يحيطه من أهوال ، حتى اضطر هو وفرقته إلى التقهقر تبعاً للجيش الروسي ، وكان أثناء تلك المعارك الدامية يشجع الجنود ويحثهم على القتال والثبات .

وفي أثناء حصاره مع جنده ألف رواية (سيفاستبول) وطبعت عام ١٨٥٤ فنال بها شهرة عظيمة ، حتى إن القيصر نيقولا حباه بعطفه فأصدر أوامره بإبعاده عن مواطن الخطر خوفا على حياة هذا الكاتب العظيم ! وقد علق أحد النقاد الذين اعتنوا بدراسة أدبه على أثر تلك الموقعة في نفسه بقوله : « إن الأيام التي قضاها تولستوي في سيفاستبول أفادته تجربة وعلماً ؛ إنه شاهد لأول مرة في حياته الحروب وفواجعها ، ورأى جيشاً يبلغ اثنين وعشرين ألفاً يبيد تحت نيران المدافع للهلكة ، وسمع تأوّهات الجرحى وأنّاتهم وقت إجراء العمليات الجراحية في المستشفيات من غير استعمال الكلوروفورم ، وعلم أنّ الذي جنى عليهم هذه الجنايات الفظيعة وأوقعهم في المخاطر والمهالك ، إنما هي الوطنية الكاذبة التي تلقنها لهم الحكومات بقصد التوغل في الفتح والاستعمار وترف الأقلية الحاكمة ؛ لذلك ما كادت تضع الحرب أوزارها حتى استقال من الجيش متشمئزاً ورجع إلى بطرسبرج ، وهناك قوبل بحفاوة تلائم مكانته الأدبية التي نالها بما كتبه أخيراً عن الحرب .

كذلك من أهم رواياته في هذا اللون من الأدب « الحرب والسلم » وكذلك نجده في كتابه « الآفات الاجتماعية وعلاجها » يسرد أمثلة من أقوال المحاربين يصفون فيها فظائع الحروب ، فيقول على لسان ألماني :

« شهدت غزوتين مع الحرس البروسي في عامي ١٨٦٦ ، ١٨٧٠ فمقتُّ الحرب من صميم فؤادي لأنها كانت سبباً في تعسي وسوء حالي . إننا معشر الجرحى لا نحصل إلا على مكافأة حقيرة ، حتى ليستحي الواحد منا أن يذكر أنه كان وطنياً يوماً ما ، فإني مثلا أتقاضى تسعة بنسات في اليوم نظير ما أصابني في ذراعي اليمنى في موقعة سانت بريفا في ٨ أغسطس ١٨٧٠ ، مع أن كلاب الصيد ينالهم أكثر من هذا الأجر ، وقد تألمت عدة سنوات من ذراعي التي جُرحتْ مرتين ، وفي عام ١٨٦٦ م اشتركت في الحرب ضد النمسا ، وقاتلت في تروتينو وكونيجراتز ، فرأيت من المخاوف والأهوال ما رأيت ، ثم استدعيت مرّة أخرى في عام ١٨٧٠ فجرحت وأصبت في ذراعي اليمنى مرتين بالطول ، فاضطررت إلى ترك عملي في أحد معامل الجعة ثم لم أستطع الاشتغال فيه ثانياً ، إذ كنت قد عجزت عن المشي على قدمي ، فزالت سكرة الوطنية ولم يبق لذلك المجروح شيء في الدنيا سوى المحافظة على حياتي والمعيشة عيشة التسوّل الذي يستحق الشفقة والإحسان سدّاً لرمقه .

لست أبالي في هذه الدنيا التي يتسابق الناس فيها كالحيوانات المروضة طلباً للغنى ، أن يقال عني أنني أحرف الكلم عن مواضعه . إنني أحبّ السلام الذي عبر عنه السيد المسيح أبلغ تعبير في موعظته على الجبل ، وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن الحرب تجارة واسعة النطاق ، تجارة تبذل فيها سعادة الناس من أجل الطمع والقوة . أيّ أهوال لم نتكبدها من الحرب ! إنني لن أنسى تلك التأوّهات الشديدة المؤلمة التي سمعتها — الناس في الحرب يفترس بعضهم بعضاً كالحيوانات المتوحشة بلا ضغن قديم وعداء سابق ، ويدعون الله كي يشدّ

(البقية على الصفحة التالية)

٢ - الفلسفة الانسانية عند تورجنيف

عن أندريه موروا

للأستاذ خليل هنداوى

كتبت سيدة إلى تورجنيف يوماً تخبره أن ابنها يريد أن يعد أطروحة عن فلسفته ، وتريد بعض نصائحه . فاضطرب تورجنيف لأنه لا يؤمن بأن له فلسفة ، ويرى أن الفنان هو قبل كل شيء رجل مشاهد . والفنان الذى يمزج بالمشهد تذهب منه صفة الفنان . على أنه قد يستطيع فى الهدوء أن يجد التأثيرات المحسوسة فى العمل حتى تغدو عنده مادة فنية . أما النزاع من أجل الأفكار المجردة ، فهى خطر على الكاتب . « عند ما لا يكون أمامى صور ظاهرة يضطرب فكرى ، ولا أدرى أين أجول » أجاب هذه السيدة بقوله : « سأقول عن نفسى بصورة موجزة وقبل كل شيء إنى واقعى ، تسره الحقيقة الحية للوجه الانسانى ، إنى حلى إزاء كل ما هو فوق الطبيعى ، لا أومن بالمجردات والمذاهب . أحب الحرية أكثر من كل شيء وأميل إلى المظلمة ، كل ما هو إنسانى عزيز لدى » . وفى جوابه هذا تتجلى ميوله الشريفة واضحة . وهنالك بعض أفكار له مبثوثة فى أطواء رواياته .

وقد يبدو تورجنيف أنه متشائم ، ولا سيما فيما يحيط بالوجود من قوات وأشياء . ومن الجنون عنده الاعتقاد بأن الطبيعة صالحة ، والطبيعة لا صلاح عندها ولا سوء . إنها خلية ، إنها تبدع كائنات لا يهمها مصيرها ، وتخلق منها ما يناضل الأول ، وتعطى الفريقين وسائل القتال والكفاح . وله قطعة تبدى فكرته هذه ، يقص علينا فيها حلماً رآه ، رأى الطبيعة فيه ممثلة بصورة امرأة .

قال :

« دخلت فى بهو واسع عالى القباب ... وهنالك امرأة يدل مظهرها على رفعتها ؛ ترتدى لباساً أخضر اللون ، وقد أسندت رأسها بين يديها ، كأنها غارقة فى حلم عميق ، وسرعان ما أدركت أن هذه المرأة هى الطبيعة ، ولكن وحشة دخلت فى نفسى .

« دنوت من هذه المرأة الجالسة ، وألقيت عليها التحية باحترام .

— آه يا أمنا الشاملة ! عاذا تفكرين ؟ أبمستقبل الناس ، أو بالخطوط الضرورية لادراك ما يمكن من الكمال والسعادة ؟

« لفتت المرأة إلىَّ عينيها الظلمتين الثاقبتين المرعبتين ، وقد فتحت ما بين شفتيها ، وسمعتُ لها صوتاً داوياً كصرير الحديد على الحديد .

أزرهم كأنه حليف لهم فى فعالهم » .

ولا يمكننا أن ننسى ما كان لتولستوى من التأثير الكبير على أفكار الشعب الروسى ، حتى يمكننا أن نقول إنه وضع الخميرة الأولى للثورة الروسية بذلك اللون من الأدب .

هذا أحد خصوم الحروب ، ولا يضارعه فى قوة ذلك اللون الأدبى غير فولتير وفكتور هوجو ؛ وسنتكلم عنهما وعن غيرهما من الفريق الثانى — أنصار الحرب — فى العدد القادم إن شاء الله .

(دمنهور) **عبد الحفيظ نصار**

— أفكر بوسيلة تمنح عضلات البرغوث قوة أشد حتى يكون أكثر دفاعا عن نفسه تجاه خصومه ، فالتوازن بين الهجوم والدفاع مقطوع يجب تعديله .

— أبهذا تفكرين ؟ ولكن نحن الناس ألسنا أفضل أبنائك ؟

« فطنت قليلا وقالت :

— إن كل الحيوانات أبنائي ، إني بي سأماً متساويا من جميعها . وإنني سأدمرها جميعاً على السواء .

— ولكن الخير ، العقل ، العدالة .

— هذه ألفاظ إنسانية ، فأنا لا أعرف الخير ولا الشر ، إن حكم عقلكم ليس بشريعتي . وما هي العدالة ؟ إنني وهبتك الحياة وسأسلبها منك وأعطيها غيرك . أعطيها ديدان الأرض أو الناس بدون تفريق عندي . وأما أنت فذُد عن نفسك ولا تحي ، لا تزعجني .

« أردت أن أجيب ، ولكن الأرض وكل ما حولي أخذ يهدر ويرتجف فتيقظت من حلمي . . . . »

ويبدو لتورجنيف أن الوجود تسوقه قوات كبرى ، خالية من العقل . سواء عليها كل ما نعتبره من مقدرات الخير والشر والعدالة والسعادة . ولا ريب أن روحاً تعتقد بهذه الفكرة ليست بروح دينية ، وفي عين تورجنيف يتساوى الرجال والتماثيل . وفي إحدى قصائده يقيم نجوى بين جبلين .

قال أحدهما للآخر :

— هل جديد هنالك ؟ ماذا يجري حولك ؟

فأجابه الآخر :

— نفس الشيء دائما ونفس الصورة . ما أبعث هذا على السأم : زرقة الماء ، وقتام الغابة ، ودكنة الصخور ، وحول هذه الأكداس تضطرب هذه الأنواع من الحشرات وتخفق بقدمين دون أن تقدر على تدنيسي أو تدنيسك ، هؤلاء الناس ، نعم الناس ! .

عبرت ألوف من العصور كأنها لحظة .

أعاد عليه ذلك السؤال :

— ماذا ترى ؟ إن حولنا يبدو شيء من الصفاء ، ولكن هنالك . . . . على أبعد منا في الوديان أجد بعض البقع ، أو شيئاً يتحرك .

وبعد عصور مرت سأله :

— والآن !

— كل شيء جلي ، يشرق بالبياض كل مكان ، فالثلج حيثما نظرت ، ثلجنا وجدنا . الآن كل شيء هادئ ساكن .

— لقد زرنا كثيراً يا رفيق ، حان وقت النوم .

الجبال الكبيرة نامت ، وتنام أيضاً السماء الصافية الخضراء ، فوق الأرض التي أصبحت خرساء إلى الأبد .

إن العاطفة الكبيرة التي سيطرت على تورجنيف هي فناء الناس إزاء عظمة الأشياء . وإذا كنا ضعفاء عن تأمل اللانهاية وقيامها ، فكل جهد يتراءى لنا عبثاً . إننا نتألم ، إلى أين نمضي ؟ نحو الموت الذي عني صغيراً بدوره .

« وهنالك الحب الذي ينفخ القوة على نساء الناس والعظمة . ولكن في الحب نفسه لا يرى اللاحظ إلا صورة الكفاح العالمي : « ليس في الحب مساواة ، ليس فيه إلا سيد وعبد . ولم يتكلم الشعراء عبثاً عن قيوده وسلاسله . ستعرف يوماً هذه الكائنات الرقيقة كيف ترد قلبك قطعاً ، وستعرف البغض الذي يتوارى تحت الحب المتوقد ، وستتنفس كالعليل بعد الصحة وبعد الراحة . . . . »

وفي روايته « دخان » يقول : « الرجل ضعيف والمرأة عنود والصدفة جبارة . . . هنا جمال ورقة ، ونار ونور . فكيف الاحاطة بها ؟ الرجل يزلق كالطفل نحو محبوبته . . . »

وقد كان تورجنيف يشك في الحب كما يشك في الموت في نهاية أيامه السيئة .

ولتورجنيف قطعة عنوانها « بكى » تعبر عن تشاؤمه

ويصور لنا فيها وجه هذه الطبيعة الوحشية :

« بدون شفقة يقود الحظ كلاًّ منا دون أن نحس كنهه الصارمة . وكلما استولى علينا الخداع استطعنا أن نحيا وأن نتأمل دون خجل . ثم حينما نكتشف الحقيقة فإن طريقاً واحداً يبقى للإنسان ليبقى واقفاً ، وليظل غير محطم . هذا الطريق هو الرجوع عن كل شيء بهدوء ، والقول يكفي ! وأن يبسط ذراعيه العاجزتين على صدره الخاوي . وأن يعرف عدمه ، هذه المعرفة التي قال عنها باسكال : « الإنسان — القصبة المفكرة . . . ليست الحياة إلا ظلا تائها ، وممثلا يتكلم ثم يسكت ، قصة مفعمة صخباً ورعباً ثم هي لا تحتوي على شيء » .

« إن جوهر الحياة رديء ، فارغ من كل معنى . وعند ما يحس الإنسان مرارته يجد ألاّ أحلى ولا ألذ من لذة الحب والتقارب . ولكن هذه اللذة نفسها تفقد سحرها ويذهب تأثيرها لدوامها الوجيز وحقارتها . نعم : إن إنساناً أحب وهمس كلمات سعادة خالدة وانجذاب خالد ، لكنه لن يغادر أثراً للمودة التي ستلتهم آخر عقدة من لسانه الداوي .

« وفي يوم ندي من أيام الخريف ، عند ما يفقد كل شيء حياته ، ويصمت بين الأعشاب اليابسة ، إذا خرجت الشمس لحظة من الضباب وبسطت شعاعة منها ، رأيت أسراب الذباب انتشرت من كل صوب دافئة خافقة ، مضطربة ، مرتفعة منخفضة ، ترقص في الشعاع الهادي ، وإذا ما توارت الشمس وعادت في الحجاب تموت هذه الأسراب ضعيفة الجناح ، وتلك نهاية حياتها .

الفن قد يبدو أنه أسمى وأعجب من الطبيعة ، لأن الطبيعة ليس فيها أناشيد بتهوفن ، ولا مقطعات غوتي ، ولكن في مختتم كل شيء ستظفر الطبيعة ، وستهدم كل شيء من آثار الفن وعاثيله التي ستبيد ركاماً : « وأني لنا — نحن الفانين — أن نكافح هذه القوة الصماء الخرساء العمياء التي تمشي ، وتمشي ملتهمة كل شيء ؟ وكيف تكون لنا ثقة في قيمة هذه الصور الطائفة التي نصورها — في الظلام وعلى شفير الهاوية — للحظة في التراب ؟

ولكن الجمال لا يحتاج إلى الحياة دائماً ليكون خالداً . إن لحظة واحدة تكفيه . قد يمكن هذا ، ولكن يجب أن يكون هنالك رجال ليخلدوه .

وهذا لن يكون . لأن يوماً بارداً من أيام الأرض لن يحمل أبداً رأساً بشرياً يستطيع أن يتأمل في هذا الجمال النادر . « وإذاً لماذا العمل ؟ ولماذا العودة إلى كل ما هو صخب ورداءة ؟ ولماذا — وقد لمسنا الضعف واللين في العظام البشرية — نجرب أن نكافح في هذا العالم الباطل ؟ لا لا . . . « يكفي . . . يكفي . . . التتمة في السكون » .

* * *

وهذا ما يجب أن نجيب به على تورجنيف ، وضمناً على شوبنهاور الذي أوحى إليه بتعاليمه . . . حقاً أن الأشياء الإنسانية موجزة ، ونحن لا نستطيع أن نعتمد على بقاء آثارنا ، لكن حاجة الدوام أليست سطحية ؟ قد تقول إن الآثار الفنية ستبلى ، ولكن ما همنا ؟ يجب أن نقيها للجيل الحاضر ، من أجلنا ومن أجل من حولنا . لقد أعطينا الحياة وذلك يكفي . إنها قصيرة إزاء الأبدية ، ولكن الأبدية شيء غير منظور .

الحياة طويلة وغنية وطافحة بحسب نظر الإنسانية الضعيفة . إن التشاؤم سطحي . المحبون والأطفال يعلمونه جيداً وهم على حق فيه . أسراب الذباب ترقص في شعاع الشمس ، فهل تعمل خيراً مما عملت لو أبت الرقص وأنت تتأمل نهاية الصيف ، ومستقبلا لا تستطيع

أن تتخيله ؟ وخير جواب لتورجنيف جوابه نفسه ، لأن تشاؤمه سطحى ، وقد يكون عقله متشائماً ، أما قلبه وإن لم يكن متفائلا فهو بسيط مستقيم ! وهو على حق حين أعلن عن نفسه بأنه لم يخلق للأفكار المجردة ليعالجها ، ولكنه حين يصف العالم الحقيقى يشعر بجماله وتنوعه . يدخل أحد أبطاله يتيه حزين النفس فيقول : « هاأنذا وسط النهر » فهو يحس السلام العميق وسكون الفضاء ، فيردد الكلمة مرة ثانية . الحياة فى كل زمن — هنا — هادئة عذبة . كل من يدخل هذه الدائرة يخضع لها . هنا لا شىء يتحرك ولا شىء يستطيع أن يضطرب .

الاستسلام ! نعم ، لكنه استسلام لا يخلو من عذوبة ، وهو يرينا فى خاتمة رواية من رواياته وكيف يقوم بعد زوال جيل جيل جديد ، يجد ذات السعادة فى التأمل والحب . وإن وهماً خالداً يتولد كالنفس الانسانية قد يكون حقيقة أو يوشك أن يدنو منها .

« فى يوم من أيام اليأس سمع تورجنيف شحروراً يشدو « كان يغنى ويكرر دون أن يقف بصوت حاد ... لقد كانت هذه الألحان موسومة بالخلود ، وبكل صفاء الخلود وتأثيره وقوته . وكأنى شاهدت هنالك صوت الطبيعة نفسه ، ذلك الصوت العجيب الذى غنى ويغنى دائماً . كان يغنى هذا الشحرور بذهول . وكان يعلم أن الشمس — فى ساعتها — الشمس الأمينة ستنثر شعاعها . وأن غناءه ليس فيه شىء منه ولا شىء له ، الشحرور نفسه منذ آلاف السنين سلم على هذه الشمس وحيا طلعتها . وهو نفسه بعد آلاف السنين سيسلم عليها ، بينما رماد رفاتى الذى تحمله الريح وتحطم غناءه ، يعود يوماً ما يتحرك بأجزاء غير منظورة ، ويدور حول جسد رنان دائماً ، حى أبداً .

« وأنا — الرجل الفقير الحى — أقول لك سلاماً أيها الشحرور من أجل أنشودتك الحرة القوية التى دوت تحت نافذتى فى ساعة يأسى » .

وكذلك يأتى أناس بعد ألف عام أو ألفين يكون لهم نفس أهوائنا وسعادتنا وشقائنا . وهم — كمثلنا — يتوعدهم الموت ، لا ينبون عن التأمل والأمل ، ومن أجلهم ستبرز الشمس فى الصباح ، لأن هذا الوجود المروع هو أيضاً وجود أمين ، وشرائعه ليست بصارمة ولا عذبة ، إنما هى ثابتة لا تتغير . وإذا كان عالم القوى بلا شفقة كما هو بلا بغض ، فليس هناك خلائق بشرية كهذه . لماذا وجدوا على هذه الكتلة من الوحول ؟ نجهل ذلك . هل هم أكثر خطراً من الذباب ؟ لا نعلم عن ذلك شيئاً . ولكن الذى يعزهم أنهم قادرون على الصداقة والحب والعظمة .

فى روايات تورجنيف نجد الحياة كما هى فى قلوبنا ، حزينة متبدلة ، خفية ذات أسرار . والعاطفة التى تركها لنا ليست بعاطفة الضغينة والجبن ، لكنها عاطفة الجمال . وعند ما يغلق كتبه تحقق فى مخيلاتنا فتيات مرتعشة من الشمس ، ونساء فاتنات حسناوات ، وآباء جافون وذوو حنان ، ونفوس قلقة هادئة . وكما يقول عنه (فيتان) : « إن تورجنيف النبيل الكئيب لا يمكن تحديده ، إنه تفهم الحياة القاسية ، ولم يشأ أن يكسوها رداء خداعاً من التفاؤل ، ولكنه لم يعره الشك فى الطبيعة الإنسانية » .

(دير الزور) خليل هنداوى

من حروب الماضى :

حرب البـــــــوير

يسمونها حرب البوير أو حرب الترنسفال ، وإن كانت فى واقع الأمر ليست حرباً واحدة وإنما سلسلة من الحروب ، إحداها بين المستعمرين من البوير (الهولنديين) وقبائل الزولو ، والأخرى بين البوير والإنكليز ؛ ولعل هـذه الأخيرة هى أطول الحروب وأحقها بأن تسمى حرب البوير .

وقصة حرب البوير هى أبرز قصة فى تاريخ توطيد الحكم البريطانى فى جنوبى أفريقا ، وقد بذلت فيها إنجلترا كثيراً من الضحايا وعانت فيها من الويلات ، سواء من الزولو أو من البوير ، أشدها وأقساها ؛ فكان من ضحاياها ، عدا الجنود والقواد ، الأمير لويس نابليون نجل نابليون الثالث ، الذى دخلها متطوعاً فى صف البريطانيين ، اعترافاً بيد انجلترا عليه وعلى والده .

* * *

وهذه صور بعض الذين ساهموا فى كشف أفريقيا أو فى حروبها المذكورة :



دافيد لفنجستون

أشهر من اكتشفوا أفريقيا ، وقد عبر القارة الأفريقية من الغرب إلى الشرق ؛ واكتشف شلالات فكتوريا والبحيرات الكبرى فى تنجانيقا .



هنرى ستانلى

ظل هنرى ستانلى يقتحم فى مجاهل أفريقيا حتى حط رحاله بأوجيجى فرحاً بما وصل إليه ، ولكنه لقى هناك لفنجستون فكانت مفاجأة غير سارة . . .



بول كروجر

رئيس حكومة الترنسفال المستقلة من عام ١٨٨٣ حتى حرب البوير الثانية ، وقد لعب دوراً مهماً في إطالة مدة هذه الحرب التي انتهت بانتصار بريطانيا آخر الأمر



زعيم الزولو في أولى الحروب

ظل كيتوايو زعيماً للزولو حتى نشبت الحرب بينهم وبين الانجليز ففقد زعامته بهزيمة الزولو عام ١٨٧٩ ، ولكنه أعيد بعد ذلك بثلاثة أعوام



بيتر جوبرت

كان فلاحاً فأصبح قائداً لقوات البوير في حربها الأولى مع انجلترا ، وقد هزم قوات الانجليز مرتين بين عام ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ومهد لقيام حكومة كروجر المستقلة في الترنسفال .



بعد أن استقر الأمر ... ...

انتهت حروب البوير بانتصار القوة الانجليزية ، وسرعان ما أصبح جنوب أفريقيا أرضاً صالحة لحياة العنصر الأوربي ، وهؤلاء فريق من المستعمرين يسمرون في أحد الأندية في بورت إليزابيث

من الأدب الفرنسي :

اعترافات امرأة . . .

للقصصي الفرنسي موباسان

للأستاذ ابراهيم جلال الدين

يا صديقي . . . لقد طلبت إلى أن أقص عليك أغرب حوادث حياتي ، وأعلقها بذهني ، وأكبرها أثراً في نفسي . وإني الآن وحيدة في هذه الحياة ، فلا قريب لي ولا ولد ، ولذلك أرى نفسي في حل من الاعتراف لك بما تريد ، وأن أقص عليك ما تحب ، ولكن بشرط واحد . . . هو أن تبقى اسمي في ظل الكتمان ، وتسدل عليه ستاراً من النسيان ، فلا تذيعه بين الناس ، ولا تنشره بين صفحات كتبك .

لقد كنت محبوبة من الكثيرين ، وكنت ذات جمال رائع ، وحسن بارع ؛ ولكن مما يؤسف له أنك لا تكاد تتبين آثار ذلك الجمال الذاهب ، والحسن الغابر ، لأن يد الشيخوخة القاسية امتدت على صفحة وجهي فمسحت منها ذلك الجمال الرائع ، ولم تبق منه أثراً يستدل به .

الحب يا صديقي هو حياة الروح ، كما أن الهواء حياة الجسد ، ولا يحيا جسم إلا به ، وكان بودي أن أموت ، وكنت أفضل أن أوارى في الثرى ، ويهال عليّ التراب وأغيب في رمسي ، دون أن أبقى في الحياة من غير أن أعلم أن هناك قلباً يميل إليّ ، وفؤاداً يهيم بي ، ونفساً تعشقني ، وإنساناً يمنحني الحب والغرام .

يا صديقي سأروي لك قصة من قصص هذا الحب الذي كان له تأثير كبير في مجرى حياتي ، ولم يكن قد مضى على زواجي بالكونت هرفيه دي كير غير سنة واحدة ، وكان زوجي رجلا طويل القامة ، عريض المنكبين ، بادي القوة ، وكان صاحب ثروة طائلة ؛ ولكن كان إلى جانب هذا كله أقل ذكاءً من أمثاله ، وكان جاف اللسان ، معوج المنطق ، ولم يكن زواجي بالكونت واقعاً عن حب وغرام ، ولكنه كان زواجا هيأته الظروف ، كما تهيئ للإنسان أن يربح على المائدة الخضراء مبلغاً وفيراً من المال .

وكان لنا قصر نسكنه ونأوي إليه ، وكان ذلك القصر شامخ البنيان ، عالي الأركان ، قديم البناء ، كأنه أحد القلاع أو الحصون ، وكان قائماً في منعزل عن الأرض ، تحيط به حديقة غناء مترامية الأطراف ، كثيرة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، وكان حارس الحديقة رجلا كثير الاخلاص لزوجي ، يجود في سبيله بكل غالٍ لديه ونفيس عنده ، وكانت لي أنا الأخرى خادمة حسناء ، وهي فتاة اسبانية ، وكانت تخلص لي الحب ، وتكن لي التقدير والاجلال . . .

وابتدأ فصل الخريف ، وبدأ معه فصل الصيد ، وكان الصيد ملهاتنا الوحيدة ، ورياضتنا المحبوبة في عزلتنا ، فكنا ندعو جيراننا للصيد معنا في أرضنا ، كما كانوا هم يدعوننا

للصيد في أرضهم ؟ وفي يوم من الأيام رأيت بين من دعاهم زوجي للصيد شاباً اسمه البارون دي جيز ، كان يطيل إلى النظر ، ويحدق بي كثيراً ، وبدأ بعد ذلك يتردد علينا . ولكنه انقطع فجأة ، فلم تساورني ريبة ، ولم يأخذني شك ؛ ولكني لحظت بعد ذلك أن زوجي قد تغير خلقه ، وبدا عليه أنه مهموم النفس منقبض الصدر مؤرق الليل قلق النهار كثير الصمت قليل الكلام طويل التفكير ؛ وكف عن تقبيلي كما كان يفعل ذلك كل مساء ، وحتى أصبحت من عاداته . وصرت أسمعه كل ليلة يمشي حاذراً في خطواته حتى يلصق أذنه على باب غرفتي ينصت إلي ، ويتسمع لي ، ثم يبتعد في احتراس وحذر ، فشكوت له ذلك ، فأجابني وهو متُّبدٍ عدم اكتراثه وقلة اهتمامه :

— هو الحارس يطوف .

ولحظت ذات ليلة أن صدره انشرح ، ووجهه أضاء ، ونفسه انبسطت ، وقرت عينه ، وأثلج فؤاده ، واطمأن خاطره ، على غير ما كان عليه أخيراً . وقال لي في تلك الليلة بعد أن فرغنا من طعام العشاء :

— هل لك يا عزيزتي أن تأتي معي فنترقب ثعلباً يجيء حديقتنا كل ليلة فيعيث فيها فساداً فنصطاده ؟

فدهشت لطلبه هذا ، وهممت بالرفض ، ولكني رأيته يحدجني بنظرة غريبة لم أعهدها منه ولم آلفها ، فلم أجرؤ معها على الرفض ، بل أجبته قائلة :

— يسرني يا عزيزي أن أجيء معك :

وما وافت الساعة العاشرة حتى هب زوجي واقفاً وقال :

— أمستعدة أنت للسير الآن ؟

فأومأت إليه بالإيجاب . فتقدم وجاءني ببندقيتي ، فسألته هل أحشوها بالرش أم بالرصاص ؟ فأجابني وهو ينظر إليّ نفس تلك النظرة الغريبة الموحشة :

— بل احشيها بالرصاص ، فإني أخشى ألا يقتل

الرش الثعلب . وسكت هنيهة ثم قال :

— لك يا عزيزتي أن تفخري وأن تتيهي على أترابك بما أنت عليه من سكون ، وما أنت عليه من رباطة جأش وتملك لأعصابك ، إزاء هذا الحادث . . .

فضحكت وقلت له :

— رباطة جأش ؟ وهل تريدني أن أضطرب ويأخذني الفزع ، وأن أفقد السيطرة على أعصابي لذهابي لاصطياد ثعلب ؟

وخرجنا من القصر والسكون يحف بنا ، والظلام مخيم علينا ، وسرنا خلال الحديقة حتى انتهينا إلى ناحية بعيدة منها ، وأخذنا مكاننا تحت شجرة كبيرة مائلة الأغصان متشابكة الفروع ، حيث حجبتنا عن الأنظار وأخفتنا عن العيون ، ومكثنا هنالك صامتين ، وكنت أمتع نفسي بجلال الليل ، وسكونه الرهيب ، فتمتلئ نفسي خشية ورهبة ، وكان زوجي قد أرهف أذنيه لكل حركة خفيفة كأنه يخشى عدواً ويترقب مجيئه ، وقال لي زوجي على حين غرة :

— أتخافين شيئاً ؟ وهل أنت مسيطرة على أعصابك ؟

فأجبته والدهشة آخذة مني :

— ومم أخاف ؟ إن أمرك لعمر الحق عجيب في هذا المساء !

فلم يجب ، وطال بنا الصمت حتى أثقلني . فقلت :

— أأنت على ثقة من أن الثعلب يمر من هذه الناحية ؟

فانتفض زوجي ، واهتز كأنما أصابته طعنة في صدره ، وأجابني بصوت بطيء ملؤه السخرية الأليمة :

— كل الثقة ، فلتطمئن نفسك ، وليثلج فؤادك ، وليهدأ قلبك .

وعدنا مرة أخرى إلى الصمت ، وأخيراً بدأ النعاس يغالبني ، ويداعب أجفاني بأنامله اللطيفة ، وإذا بي أجد

زوجي يهزني بشدة وهو يقول : انظرى وأشار إلى مكان غير بعيد تحت الأشجار .

فحددت البصر وأنعمت النظر قليلا ، ولكني لم أتبين شيئاً لشدة الظلام ، وحلوكة الليل ، وهنا بدا القمر وأرسل بصيصاً من ضوئه الفضي ، ولكنه كان حائل اللون ، لأنه كان في أواخر الشهر . ورأيت زوجي قد أمسك ببندقيته وسددها واستعد لإطلاقها ، وهو ينظر إليّ نفس تلك النظرات الغريبة ، فنظرت أمامي حيث سدد فوهة البندقية فوجدت رجلاً يمشي بخطى سريعة وهو يحاول الاختفاء في ظل الشجر ، فاستولى عليّ الذعر ، وأفلتت من في صرخة عالية ، وقبل أن أتمكن من تحويل ذراع زوجي ، دوّى في أذني صوت انطلاق الرصاصة ، ورأيت الرجل يسقط على الأرض متخبطاً في دمائه ؛ فلكني الخوف وغشيتني قشعريرة من هذه الجزرة البشرية ، واستولى على رعب شديد ، فأخذت أصرخ وأصرخ صرخات حادة بعضها إثر بعض كمن به مس ؟ .

وبعد ذلك وجدت زوجي قد أمسكني بشدة وحملني بين ذراعيه كما لو كان يحمل طفلة صغيرة ، وأخذ يعدو بي ناحية القتيل وألقاني فوق الجثة . . .

في هذه اللحظة أحسست بالموت ، وببرودته تسرى في أعضائي ، ورأيته يصوب نحوى بندقيته ، فلكني رعب عقل لساني ، وجف منه حلق ، ولكني رأيت يداً تدفعه من الخلف دفعة قوية ، فسقط منها على الأرض ، إذ لم يستطع أن يحتفظ بتوازنه ، فهممت واقفة ، وقد ملكتني دهشة وأنا لا أعي مما حولي شيئاً ولا أدرك أمراً ، فنظرتُ وإذا بخادمتي الأسبانية هائجة كاللبؤة تدافع عن أشبالها ، ثائرة كالفهد ، وهي تلطم زوجي على وجهه ، وتركله بقدميها وتكاد تمزق وجهه بأظافرها . .

وتركت زوجي فجأة وانحنت على القتيل وارتمت عليه ، وأخذت تضم ذلك الجسد الملقى الأرض إلى صدرها ، وتقبله قبلات حارة ، وهي تنشج نشيجاً محزناً ، وتبكي بدمع هتون ، والدموع تنزل بغزارة من عينيها النجلاوين وهي كحبات اللؤلؤ .

ورأيت زوجي بعد ذلك قد قام من سقطته ، وقد أدرك خطأه وقصر نظره ، وعلم ما جنت يداه ، فارتمى على قدمي وهو يقول :

— عفوك يا عزيزتي فلقد اتهمتك ظلماً ، وظننت بك الظنون ، وإذا أنت بريئة من كل تهمة ، ولكنه حارس الحديقة هو الذى خدعني هذه الخدعة . . .

فنظرت إليه نظرة باردة قاسية ، حوت كل معاني الازدراء والاحتقار البالغ ، وأدرت له ظهرى ، ويممت وجهي نحو القصر .

(سيدى بشر) **ابراهيم جبلال**

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى	٦٠ في مصر والسودان
	٨٠ في الأقطار العربية
	١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

«المسرح عبادة»

[كاتب هذا المقال أديب مصري عاش في فرنسا مدة طويلة ، يذكر فيه شعوره نحو الفرنسيين ويصف طرفا من طباعهم]

منذ يومين حمل إليّ أخي الصغير صفحة مصورة من جريدة ، بها صورة لجنودكم يرقصون على رصيف المحطة التي سافروا منها إلى ميادين القتال ، وقد سألني أخي عن معنى ذلك .

أما معناه فلست أعرفه على وجه الحق ، وإنما أحس به شعوراً لطول ما عاشرتكم .

أتذكرين يوم عدنا على الأقدام إلى دارنا عقب المسرح وفي السماء أضواء خفيفة تشبه نعومتها لؤلؤ العقود . أذكر أنه كان مساء مما ينطلق فيه لساني ؛ ولا يهولك الأمر فما زلت كما كنت — حتى في سكون الريف — رجل النزوات الذي يتناوب حياته ما علمت من قبض ودفع .

تذكرين أني ذكرتك يومئذ بالقول الجميل الذي ما كان يستطيع أن يقوله إلا رجل منكم : قول فرانسوا مورياك Francois Mauriac إن « المسرح عبادة » .

لقد أدهشك يومئذ أن يصدر هذا القول من مورياك والرجل على ماتعلم من تدين ، وامتد الحوار بيننا أخذاً ورداً ، ولو أنصفت لأبدلت لغة الحوار بالهمس .

وجدنا الرأي الفصل بعقد القياس بين تلك الكلمة التي سمعناها عن مورياك وروايته التي كنا عائدين من رؤيتها . وهنا اسمحي لي أن أشير إلى موضوعها ، فالأمانة تقضي عليّ بإشراك القارئ في حوارنا ، ما دمنا قد أسلمنا إليه سياق الحديث .

فرانسوا مورياك من بلاد الغابات Les Landes التي تمتد على طول ساحل فرنسا الغربي ، ولبلاد الغابات أساطيرها .

ومن تلك الأساطير أسطورة روح يسمونها هنالك Asmodée لها قدرة على رفع أسقف المنازل لترى ما تحوى من أفراح وأتراح . ففي ذات يوم قص « أسموديه » على « مورياك » حياة عائلة كبيرة من الريف فقدت عائلها . ورأى « مورياك » فيما قص عليه ما يستحق الخلود فعرضه على المسرح على ما به من إيلام .

عاهدتك أن أجعل التواضع أول شعائري ، واليوم أود ألا ترى فيما أقول غير ذلك ، فالأمر لا يعدو حيلة بلاغية . ذلك أني أود أن أنتحل لزمن يسير قدرة « أسموديه » فأفض غلافة ابتساماتكم الجلية لأنظر ما تحوى من جد يعجز عنه أصرم الناس تقطيباً لوجهه .

لست أخبرك جديداً إن ذكرتك بما أنا مؤمن به من دلالة النماذج الأدبية ؛ ولننشر مرة أخرى ما طواه الزمن ، أعني تلك الفكرة — وما إخالك إلا ذاكرة ذلك ، فليس في نفسي شيء لا علم لك به — ونحن منصرفون من رؤية رواية الكاتب الإيطالي الفحل بيراندللو Pirandello يوم زعم أنه في ستة نماذج بشرية تبحث لها عن روائي يعطيها الوجود ، وإذاً فالأدب يخلق نماذج ، ولهذه النماذج دلالتها ، ففيها تتركز أنواع من الخلق ، فأوارتللو هو نموذج الرجل الغيور غيرة جنسية ، وهملت رجل شهوة الانتقام ، وهرباجون رجل الحرص البشع ، والـ Alcesti رجل الفضيلة المفرطة ، وجوردان نموذج من أثرى بعد فقر ، فهو محدث نعمة ، وجفروش هو المثل الحي لغلمانكم بباريس ، وأما أنموذج الرجل الفرنسي : أنموذجكم

القوى فقد استقر الرأى بيننا — أليس كذلك — على رؤيته فى شخصية فيجارو .

طُلب إلىّ ذات يوم فى باريس أن أحاضر الناس عن خير ما راقنى فى الأدب الفرنسى ، فوقع اختيارى على رواية فيجارو لبومرشيه اخترتها لسببين : أولهما أن تلك الرواية تعكس الحالة النفسية للشعب الفرنسى بأصدق ما يكون قبيل الثورة الفرنسية ، والمؤرخون يعلمون ما كان لتلك الرواية من أثر وما أثارته من أحداث . وثانيهما أن بطل الرواية يمثل فى رأيى أتم تمثيل خلق الرجل الفرنسى أيًّا كان ، فهو أنموذجهم القوى ؛ وكل من له خبرة بالحياة يعلم فوق ذلك أنه ما من سبيل إلى استرعاء نفوس الناس — والنفوس صغيرة مهما كبرت — خير من التحدث إليها عن نفسها ، ولكم أخطأ ذو حاجة ما أراد لبدء الغير بالتحدث عن نفسه قبل التمهيد إلى ذلك بالتحدث إلى الغير عن نفس ذلك الغير . ويحضرنى الآن كلمة لموروا قال فيها : إن أحلى كلمة وقعاً فى آذاننا هى اسمنا الخاص .

فيجارو إذاً هو مثل الرجل الفرنسى ، فما هو هذا المثل ؟

تدور القصة حول حق قديم للأشراف ، قضت عليه الثورة الفرنسية أكبر أحداث التاريخ . بمقتضى هذا الحق القاسى كان للأشراف الحق فى أن يعرسوا بخطيبات رجالهم قبل أن تؤول تلك الخطيبات إلى أزواجهن . خطب فيجارو خادم الكونت السافيفا زميلته فى الخدمة الحسناء سوزان ، وقرب يوم الزفاف وقد انعقد عزم الكونت على الاستمتاع بسوزان ليلة قبل أن تصير إلى زوجها ، لم يكن فيجارو ليقبل اعتداء كهذا ، إلا أنه كفرنسى صميم لم يترك الغضب يأخذ عليه حيلته فلزم ابتسامته ، ابتسامة السخرية ، وبمهارته الفائقة أدخل زوجة الكونت فى مؤامرة نجا فيها بعرسه ، إذ تنكرت الكونتس فى زى سوزان وأتت الكونت إلى موعده .

هذا هو الرجل الفرنسى ، فكل فرنسى فيجارو ، ولقد قص علينا الرجل تاريخ حياته : « فمدد ما اجتابه من آفاق من الأندلس إلى الاسترامادون يمدحه قوم ويقذع فيه آخرون ساخراً ، من البُله ، مناهضاً للأشرار ، وهو فى كل ذلك باسم مواظب على قص اللحى للرجال » . والفرنسى بعد ذلك ينتقم بالسخرية من أحداث الحياة ، ويجمع القوم هنالك على أنه ليس أقتل للرجل من أن يكون موضع سخرية الغير ؛ ومن أمثلتهم السائرة : إن السخرية تقتل كما يقتل أن تكون موضعاً لها ؛ وهذه من حقائقهم الخلية أظنهم ينفردون بها دون غيرهم من الشعوب .

ذكرنى منظر رجالكم وهم يرقصون والموت فاغر فاه بكل تلك الحقائق التى أعلمها عنكم علم اليقين ، بل أشعر بها فيكم ، وشتان ما بين العلم والشعور .

اطلبى من رجالكم أن يظل كل منهم فيجاركم المحبوب ، وليكن شعاركم دائماً قول رجلكم : « إن المرح عبادة » ، فإنه لكذلك حتى لأخاله مرسل معكم جنوداً لن يروها ، جنوداً تقاتل الباطل ، جنوداً ستحمى لنا ما فى بلادكم العزيزة من قيم ما أحسبها ثابتة يوماً ما فى غابات جرمانيا ، حتى ولا فى وهالا[1] المزعومة .

محمد مندور

---

(١) Walhala : اسم الجنة فى ديانة الجرمان الوثنية القديمة .

مسألة وحلها

للأستاذ زكي نجيب محمود

لم يكد يتجه الإنسان بفكره نحو الطبيعة ، يتأمل فيها ويتدبر ، حتى استوقفت نظره ظاهرة عجيبة ، هي أن الأشياء التي يرى ، قُلَّبٌ حُوَّلٌ ، لا يلبث الشيء أن يكون شيئاً آخر ، فهذا الإنسان المختال قد ينقلب بعد حين ، يقصر أو يطول ، صخرةً ملقاة في عرض الطريق ؛ وهذه الصخرة الصامتة قد تنطلق يوما لساناً يتكلم ودماً يجري ؛ فكما يقول الأستاذ العقاد :

لا تغبطنا أيها الأحـ جار فالبقيا سريعة
فغدا تشرفك الحيا ة ونحن أحجار وضيعة

فما فتئ الإنسان يُعمل الفكر ويجهده ، في رد هذه الظواهر المختلفات إلى عنصر واحد ، يتشكل فيها ويتلون أو طائفة من عناصر تجتمع تارة وتفترق طوراً . ولكن الأمر في ذلك لم يدم طويلا ، حتى نهضت مدرسة فلسفية في القرن الخامس قبل الميلاد ، تسخر من إنسان ينفق مجهوده في حل مشكلة لا وجود لها ! إن الشيء لا يكون موجوداً حق الوجود إلا إن كان دائماً ، فأما أن يظهر آناً ، ويختفي آناً ، فما هو بشيء على الإطلاق ؛ فإن كانت الحواس تدلنا على أن في الكون أشجاراً وأطياراً وماءً وسماءً ، وتصر على أنها موجودات حقيقية ، فما ينبغي أن ننخدع لها ، لأن الظواهر العوابر تفقد صفة الدوام ، وهو خصيصة لازمة لكل شيء يدعي لنفسه صفة الوجود ؛ وإذاً فالظواهر وهم وخداع ، ومن الغفلة أن تعمل الفكر في تفسير معدوم ليس له وجود !

ومن بين أعلام هذه المدرسة الفلسفية « زينو » الذي نريد اليوم أن نعرض لمسألة ساقها ليؤيد وجهة نظره في إنكار الأشياء المحسوسة . . يقول :

سأسلم معك — إن كنت معارضاً لرأيي — بأن هذه الأشياء التي نراها ونلمسها موجودة حقاً ، وسأنتقل من هذه المقدمة إلى نتائجها المنطقية ، فإن وجدتها متناقضة متهافتة ، وجب عليك أن تنكر معي صحة المقدمة ، وإلا كنت مكابراً يركب رأسه ويغمض عينيه عن حقيقة لا ترضيه .

أنت تزعم أنك ترى بعينيك أشياء تتحرك ، فهذه قطة تتابع فأراً ، وهذا هواء يصفر ، وذلك ماء يدوي ، ليكن لك ما زعمت ، ثم فكر معي في المسألة الآتية :

اتفق أخيل — وهو بطل يوناني معروف بالفتوة وقوة الشباب — وسلحفاة أن يتسابقا ، ورأى أخيل أن من العدل أن يسمح للسلحفاة بعشرة أمتار تتقدمها عليه قبل البدء في السباق ؛ وبدئ الشوط فكان أخيل يسير عشرة أمثال ما تسير السلحفاة . فلما قطع عشرة الأمتار التي كانت تقدمتها السلحفاة ، كانت هذه قطعت عُشرَ ما قطع ، أي متراً واحداً ؛ فلما اجتاز أخيل هذا المتر الواحد ، كانت السلحفاة قد قطعت عشر متر ؛ فلما اجتاز الرجل هذا العشر كانت السلحفاة قد قطعت جزءاً من مائة جزء من المتر ، وهكذا إلى ما لا نهاية له ؛ وإذاً فلم يستطع أخيل على قوته وفتوته أن يلحق السلحفاة . . . هذا ما يقوله الحساب العقلي ، وأما ما تقوله الحواس فهو أن الرجل سرعان ما يبلغ السلحفاة ويسبقها ؛ فأي جانبيك تصدق ؟ أتصدق العقل أم تصدق الحواس ؟ أما أنا فلست أتردد في أن أنكر هذه الحواس إنكاراً ، وأن أثبت بحكم العقل وحده . فإن كان العقل قد وصل إلى هذه النتيجة المضحكة فذلك لأن المقدمة باطلة ، فلا أخيل جرى ولا السلحفاة تحركت ، بل لا أخيل في الوجود ولا سلحفاة ، وهما وَهْمٌ من الحواس وتلفيق .

* * *

ومهما يكن من الأمر ، فلسنا نقصد بهذا المقال إلى فلسفة زينو هجوماً أو دفاعاً ، ولكنا بإزاء هذه المسألة وكيف نحلها . ولا نحسبنها هنة هينة ، فقد حاولها فحول

الفكر عصراً بعد عصر، منذ زينو إلى عهد قريب جداً، حتى كتب التوفيق فى حلها إلى « فيرسترلس » أستاذ الرياضيات فى جامعة برلين فى أواخر القرن الماضى؛ ثم إلى عالمين من أعلام الرياضة الحديثة هما « ديدكند » و« كانتور » وذلك حين عالجوا فكرة اللامتناهى ليحددوا معناها، فانتهوا إلى تعريف اللامتناهى كان من شأنه أن يحل المسألة حلا مرضياً، دون أن يقصدوا هم إلى حلها؛ فيحسن قبل أن نتعرض للمسألة التى نحن بصددها أن نشرح فكرة اللانهاية شرحاً موجزاً.

يكون العدد « نهائياً » لو كانت له حدود معلومة، فالبرتقالة فيها عدد « نهائى » من البذور، لأنك تستطيع أن تعدها، وكومة القمح فيها عدد « نهائى » من الحبوب يمكن عدُّها كذلك. ولكن الخط المستقيم فيه عدد « لانهائى » من النقط، لأنك لا تستطيع أن تقف عند حد من التقسيم ... كان الناس يعلمون ذلك منذ القدم، ولكنهم كانوا يعلمون فوق ذلك أن كل جزء من العدد النهائى أصغر من العدد كله، وأن كل جزء من العدد اللانهائى أصغر من العدد كله، لا فرق فى ذلك بين العددين.

بقى الأمر مفهوماً على هذا النحو حتى جاء فى آخر القرن الماضى « ديدكند » و « كانتور » فألقيا على الموضوع شعاعاً جديداً اتضح به واستضاء. فقد عرَّفا العدد اللانهائى بأنه « المجموعة من الحدود التى تحتوى على مجموعات أخرى فى كل منها حدود تساوى عدد حدودها ». أو بعبارة أخرى واضحة: هو العدد الذى جزؤه يساوى كله. فإن أنقصت من مجموعة عدداً من حدودها، ثم ظلت على الرغم من هذا النقصان محتفظة بعددها الأصلى، كانت هذه المجموعة لانهائية. فالخط المستقيم مثلاً فيه عدد لانهائى من النقط، فإذا محوت منه جزءاً، وجدت فى الباقى عدداً لانهائياً من النقط كذلك؛ وإذاً فقد ظل على حاله من حيث عدد نقطه رغم حذفك جزءاً منه.

مثال آخر يسوقه « رَسِل » فى هذا الصدد: الأعداد فيها ما هو زوجىٌّ وما هو فردىٌّ، ومع ذلك فالأعداد الزوجية وحدها — وهى جزء فقط من الأعداد كلها — تساوى الزوجية والفردية معاً؛ وذلك لأن كل عدد له ضعف، وذلك يتضح مما يلى:

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ... إلى ما لا نهاية.
٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ... إلى ما لا نهاية.

فى السطر الأول، الأعدادُ كلُّها زوجيُّها وفرديُّها وفى السطر الثانى الأعدادُ الزوجيةُ وحدها؛ ومع ذلك ترى فى وضوح جلى أنك لن تعدم لكل عدد من السطر الأول عدداً من السطر الثانى؛ ومعنى ذلك أن الأعداد الزوجية وحدها تساوى الأعداد كلها، أى أن الجزء هنا يساوى الكل.

فالفرق إذاً بين العدد النهائى والعدد اللانهائى، هو أن جزء الأول أصغر من كله، وجزء الثانى يساوى كله ... هذا هو الضوء الجديد الذى ألقته رياضة العهد الحديث، والذى سنستطيع بفضله أن نحل مسألة المسابقة بين أخيل والسلحفاة.

ولست أحب أن أترك هذا الموضع دون أن أسوق مثالا طريفاً يوضح أن الكل يساوى الجزء فى الأعداد اللانهائية: أراد رجل أن يؤرخ تاريخ حياته تفصيلا، فاقتضاه تأريخُ اليوم الأول من حياته سنةً كاملة، واقتضاه اليومُ الثانى سنةً ثانية، فيئس قائلا: إنى لن أستطيع أن أُتمَّ هذا التاريخ، حتى لو كنت من الخالدين الآبدين، لا بل إنى كلما عشت، بَعُدَ البونُ بينى وبين الغاية التى أريد ... هذا ما قاله الرجل لنفسه، وما سيقره عليه معظم القراء، وذلك لأنه وإياهم يعتقدون أن عدد الأيام أكثر من عدد السنين، فلو خصص الرجل كلَّ سنة لكل يوم، ما فرغ من عمله. وهذا صحيح إن كان عدد أيامه وسنيه محدوداً، أما إن كان خالداً لا نهائياً — كما فرض — كان يأسه فى غير موضعه، وكان الممكن أن يكتب التاريخ

دراسات عن قادة الفكر فى الإسلام :

بحوث فيزيقية من «رسائل إخوان الصفاء»

للأستاذ عبد الحميد حمدى مرسى

نتحدث فى مقال اليوم عن درجة الصوت والعوامل التى تؤثر فى درجات الأنغام التى تصدرها الأوتار والأعمدة الهوائية المهتزة ، معتمدين على المصدر نفسه .

درجة الصوت :

درجة الصوت هى تلك الخاصية التى تميز بها الأذن بين النغمات الصوتية المختلفة الحادة منها والغليظة ، فيقال للنغمات الحادة مرتفعة الدرجة ، وللنغمات الغليظة منخفضة الدرجة ؛ فصرير الصراصير ، وزقزقة العصافير ، وزُقاء الديكة ، كلها أصوات حادة الدرجة رفيعة ؛ ونقيق الضفادع ، ونهيق الحُمُر ، ونعيق الغربان ، كلها أصوات غليظة الدرجة جشاء .

ولكل صوت موسيقى درجة تتوقف على عدد الذبذبات التى يصدرها الجسم المصوت فى الثانية ، وهذا العدد من الذبذبات يعرف « بالتردد » . ويمكن إثبات ذلك عمليا بتجربة بسيطة ، فإن أنت أخذت عجلة مسننة وثبتها فى آلة تدوّر هذه العجلة ، ثم وضعت أمام أسنان العجلة قطعة من الورق القوى المتين ، وأدرت العجلة ببطء ، ثم زدت فى سرعة إدارة العجلة تدريجيا ، فإنك تسمع أولا طرقات خفيفة متتالية ؛ ثم تسمع بعد ذلك ، (أى بعد زيادة سرعة الدوران) نغمة موسيقية منخفضة لا تلبث أن ترتفع درجتها كلما زادت سرعة إدارة العجلة .

والاهتزازات المنتظمة المتتالية التى تحدث فى قطعة

المنشود ، فاليوم العاشر فى السنة العاشرة ، واليوم المئوى فى السنة المئوية ، واليوم الألفى فى السنة الألفية ، وهكذا إلى ما لا نهاية ؛ أى أن كل يوم سيجد له عاماً لكتابة تاريخه ، عاجلا أو آجلا ، لأن عدد الأيام اللانهائى يساوى عدد السنين اللانهائى .. وإن كره أكثر القراء ! !

* * *

نعود بعد هذا الشرح إلى مسألتنا .

إننا لو ظننا مع زينو أن الجزء أصغر من الكل حتى فى الأعداد اللانهائية ، لكان من المستحيل عقلا أن يلحق أخيلُ بالسلحفاة فى السباق ، لأن كل نقطة مكانية تدب فيها السلحفاةُ ، يقابلها نقطة مكانية يحل فيها أخيل ، فإن زعمنا مع ذلك أن أخيل سيلحق بالسلحفاة ، كان معنى ذلك أن عدد النقط المكانية التى احتلها أخيل أكثر من تلك التى دبّتْ فيها السلحفاة ، ومع ذلك تساوى العددان ؛ هذا مستحيل عند زينو وعند من يأخذ بوجهة نظره فى الأعداد اللانهائية ؛ أما إن اعترفنا بوجهة النظر الحديثة ، وهى أن العدد اللانهائى ، كله يساوى جزءه ، هان علينا الأمر : فأخيل سيجتاز عدداً لانهائياً من المواضع ، وكذلك ستجتاز السلحفاة عدداً لانهائياً منها ، فحين يلحق أخيل بمنافسته ، يكون قد اجتاز عدداً من النقط ، هو بالنسبة إلى ما قطعته السلحفاة ، بمثابة الكل من الجزء اللانهائيين ، وهما — كما قدمنا — متساويان .

وفى هذا حل المسألة .

زكى نجيب محمود

الورق القوى متى كان عددها ، ناسباً تحدث نغمة موسيقية ترتفع درجتها بازدياد عدد ذبذباتها فى الثانية ، أو بعبارة أخرى كلما زاد ترددها .

ويوضح « إخوان الصفاء » فى رسائلهم نتائج التجربة السابقة ، فيقولون : « . . . . وأما السريع والبطىء من الأصوات بإضافة بعضها إلى بعض ، فهى التى تكون أزمان سكونات ما بين نقراتها قصيرة بالاضافة إلى غيرها ، والمثال فى ذلك كوذينات (أى مدَاق) القصارين [1] ومطارق الحدادين ، فإنها سريعة بالاضافة إلى أصوات دق الرزازين والجصاصين ، وهى بطيئة بالاضافة إليها ، وأما بالاضافة إلى أصوات مجاذيف الملاحين فهى سريعة ، وعلى هذا المثال تعتبر سرعة الأصوات وبطؤها بإضافة بعضها إلى بعض » . (ج ١ ص ١٤١ س ٨) .

اهتزاز الأوتار ودرجة النغم :

يستخدم الصونومتر [2] لبيان تأثير كل من طول الوتر وغلظه وشدة توتره وكثافة مادته على النغمة التى يصدرها ؛ ونحن نكتفى بذكر العوامل التى عرض لها « إخوان الصفاء » من هذه العوامل الأربعة فى رسائلهم :

العامل الأول — طول الوتر :

إذا شد وتر على صونومتر بواسطة أثقال ثابتة تعلق فى طرفه الخالص حتى يعطى نغمة درجتها مناسبة إذا حرك كله دفعة واحدة ، ثم حركت قنطرة الصونومتر ، بحيث يقصر طول الجزء المهتز من الوتر تارة ، ويطول تارة أخرى ، فيلاحظ أن درجة النغمة فى حالة تقصير الوتر حادة مرتفعة وفى حالة إطالته غليظة منخفضة .

ويقول « إخوان الصفاء » فى ذلك : « ... ومن وجه آخر أيضاً ، فإن صوت كل وتر مطلقاً غليظ بالإضافة إلى مزمومه — أى مزموم كان — فعلى هذا القياس تعتبر حدة الأصوات وغلظها بإضافة بعضها إلى بعض » (ج ١ ص ١٤١ س ١٦) .

العامل الثانى — قطر الوتر (غلظ) :

إذا علق فى الوتر المذكور ثقل مناسب وجذب ولوحظت درجة نغمته التى يصدرها ، ثم وضع بدل هذا الوتر وتر آخر من مادته ويساويه طولا ، ولكنه أغلظ منه ، وعلق فيه الثقل نفسه ثم جذب ، يلاحظ انخفاض درجة النغمة التى يصدرها هذا الوتر عن سابقتها التى يصدرها الوتر الأول ؛ وإذا استبدل بهذا الوتر وتر آخر أدق منه ويساويه فى الطول أيضاً وعلق فيه الثقل نفسه وجذب ، يلاحظ أن النغمة التى يصدرها هذا الوتر مرتفعة الدرجة عن درجة النغمة التى يصدرها الوتر الأول .

ويقول « إخوان الصفاء » فى هذا المعنى : « وأما الحاد والغليظ من الأصوات بإضافة بعضها إلى بعض فهى كأصوات نقرات الزير وحدته بالإضافة إلى نقرات المثنى والمثنى إلى المثلث والمثلث إلى البم ، فإنها تكون حادة ؛ فأما بالعكس فإن صوت البم بالإضافة إلى المثلث والمثلث إلى المثنى ، والمثنى إلى الزير غليظة » (ج ١ ص ١٤١ س ١٣) .

أما الزير والمثنى والمثلث والبم فهى أسماء للأربعة الأوتار فى العود ، ويخبرنا « إخوان الصفاء » عن النسب بين أقطارها فيقولون عند وصفهم للعود : « . . . . ثم يتخذ أربعة أوتار بعضها أغلظ من بعض على النسبة الفضلى ، وهو أن يكون غلظ البم مثل غلظ المثلث ومثل ثلثه ، وغلظ المثلث مثل غلظ المثنى ومثل ثلثه ، وغلظ المثنى مثل غلظ الزير ومثل ثلثه . . . » (ج ١ ص ١٤٩ س ٦) .

(١) الذين يصلحون القماش بعد نسجه ، ويعرفون الآن عند النساجين باسم « الدقاقين » .

(٢) هو مقياس الصوت سبق وصفه فى العدد ٣٥ .

وفى موضع آخر من رسائلهم يقولون فى هذا المعنى :

« . . . وأما الدقيق والغليظ من الأصوات فبإضافة بعضها إلى بعض كأصوات نغمة الزير بإضافتها إلى نغمة البم ونغمة المثنى إلى المثلث ؛ وأما بالعكس فإن صوت البم بالإضافة إلى المثلث غليظ ، وكذلك المثلث إلى المثنى ، والمثنى إلى الزير ؛ ومن وجه آخر فإن صوت كل وتر غليظ بالإضافة إلى ما دونه أى وتر كان » (ج ٣ ص ١٤٥ س ٢٢).

وفى موضع آخر يقولون أيضاً : « . . . وإن كانت (أى الأوتار) متساوية فى الطول والحزق (أى شدة التوتر) مختلفة فى الغلظ كانت أصوات الغليظ أغلظ ، وأصوات الدقيق أحد » (ج ١ ص ١٤٢ س ٦).

العامل الثالث — شدة التوتر :

إذا شد وتر الصونومتر شداً مناسباً وجذب ، ثم لوحظت الدرجة التى يصدرها فى هذه الحالة ، فإذا زيد مقدار توتره بإضافة أثقال أخرى فوق الأثقال السابقة ثم جذب ، يلاحظ أن درجة النغمة التى يصدرها فى الحالة الثانية أحدُّ من درجة النغمة التى يصدرها فى الحالة الأولى ، وإذا عكست التجربة بأن يقلل مقدار التوتر ، وذلك برفع بعض الأثقال التى علقت بطرفه الخالص ، فإنه يشاهد أن درجة النغمة فى هذه الحالة منخفضة عنها فى الحالة الأولى .

وفى هذا المعنى يقول « إخوان الصفاء » :

« . . . وإن كانت (أى الأوتار) متساوية فى الطول والغلظ مختلفة فى الحزق (أى شدة التوتر) كانت أصوات المحزوقة حادة وأصوات المسترخية غليظة » (ج ١ ص ١٤٢ س ٧).

أما العـامل الرابع وهو كثافة مادة الوتر فلم أعثر لإخوان الصفاء على قول لهم فيه ، فكانوا يفرضون اتحاد الأوتار فى المادة فيتخذونها من مادة واحدة ، ولذلك لم يرد ذكر للعامل الرابع المذكور عند عرضهم قوانين اهتزاز الأوتار .

وهم يعرضون لحالة خاصة فى اهتزاز الأوتار وهى تساوى الأوتار فى الطول والغلظ والحزق ؛ فقد أثبتت التجارب أن الأوتار (المتخذة من مادة واحدة) فى مثل هذه الحالة تصدر نغمات متحدة الدرجة ، وفى ذلك يقول « إخوان الصفاء » :

« . . . إن أصوات الأوتار المتساوية الغلظ والطول والحزق إذا نقرت نقرة واحدة كانت متساوية » (ج ١ ص ١٤٢ س ٥) .

ثم يطبق « إخوان الصفاء » هذه القوانين على أصوات الحيوانات ذوات الأجنحة ، لما بين الأجنحة والأوتار من أوجه الشبه ، فيقولون فى ذلك : « . . . وأما أصوات الحيوانات التى ليست لها رئة كالزنابير والجراد والصرصر وما شاكلها فإنها تحرك الهواء بجناحين لها سرعة وخفة ، فيحدث من ذلك أصوات مختلفة ، كما يحدث من تحريك أوتار العيدان ، وتكون فنونها واختلاف أنواعها بحسب لطافة أجنحتها وغلظها وطولها وقصرها وسرعة تحريكها لها . . . » (ج ١ ص ١٤٠ س ١) .

اهتزاز الأعمدة الهوائية ودرجة النغمة :

من الآلات الموسيقية ما يتوقف عملها على اهتزازات الأعمدة الهوائية فيهـا ، كالشبابات والنايات والمزامير والبوقات ، وتتوقف درجة النغمة التى تصدرها هذه الآلات ذوات الأعمدة الهوائية على طول الأنبوبة واتساعها وقوة تيار الهواء المندفع فيها .

وفى الشبابات والنايات وغيرها من الآلات ذوات الأعمدة الهوائية يمكن إحداث النغمات المختلفة بتغيير طول عمود الهواء الفعال المهتز بسد الثقوب الموجودة على طول

الأنبوبة (فى حالة الناى وما يشبهه من الآلات) وفتحها بوساطة الأصابع ، وكذلك زيادة قوة النفخ ، فيصدر الناى مثلا نغمته الأساسية وهى أغلظ نغماته عندما تبلغ قوة النفخ أدنى حد لإحداث الصوت ، وتكون كل ثقوبه فى هذه الحالة مقفلة .

وعند ما تكون ثقوب الناى مقفلة يصدر الناى نغمة تشبه أنبوبة مفتوحة الطرفين ، وعند ما تكون الثقوب مفتوحة كلها يكون طول عمود الهواء المهتز هو المسافة بين طرف النفخ والثقب الأعلى القريب من هذا الطرف ، ويصدر الناى فى هذه الحالة النغمة الأساسية المناظرة لهذا الطول ؛ وعلى ذلك يمكن الحصول على النغمات المختلفة الدرجة بأن يسد من الثقوب ما يجعل الحصول عليها ممكناً ، وهذا يتطلب مهارة خاصة ، وكذلك يمكن الاستعانة بتغيير قوة النفخ للحصول على النغمات المختلفة المطلوبة .

وقد عرض « إخوان الصفاء » فى رسائلهم لاحداث النغمات المختلفة فى الآلات ذوات الأعمدة الهوائية ، فهم يقولون : « . . . الأصوات من جهة الكمية نوعان : متصلة ومنفصلة ، فالمنفصلة هى التى بين أزمان حركاتها فى النقرات زمان سكون محسوس مثل نقرات الأوتار وإيقاع القضبان .

« وأما المتصلة من الأصوات مثل أصوات المزامير والنايات والدواليب ونحو ذلك . . .

« والأصوات المنفصلة تنقسم نوعين حادة وغليظة ؛ فما كان من النايات والمزامير أوسع تجويفاً وثقبا كان صوته أغلظ ، وما كان أضيق تجويفاً وثقبا كان صوته أحد .

« ومن جهة أخرى أيضاً ما كان من الثقوب إلى موضع النفخ أقرب كانت نغمته أحد ، وما كان أبعد كان أغلظ .

« وهكذا تنقسم الأصوات المتصلة أيضاً على هذا المثال غليظة وحادة » . (ج ٣ ص ١٤٦ س ١١) .

ويقولون فى هذا المعنى فى موضع آخر : « ! . . وأما فنون أصوات الآلات المتخذة للتصويت كالطبول والبوقات والدبادب ، والدفوف ، والسرناى (المزمار البلدى) والمزامير والعيدان وما شاكلها ، فهى بحسب أشكالها وجواهرها التى هى متخذة منها ، وكبرها وصغرها وطولها وقصرها وسعة أجوافها ، وضيق ثقبها ، ورقة أوتارها وغلظها ، وبحسب فنون تحريك المحركين لها والمصوتين بها . . . » . (ج ١ ص ١٤٠ س ١٠) .

ويقولون فى هذا المعنى أيضاً فى موضع آخر : « . . . وأما أصوات الحيوانات ذوات الرئة واختلاف أنواعها وفنون نغماتها ، فهى بحسب طول أعناقها وقصرها وسعة حلاقيمها وتركيب حناجرها ، وشدة استنشاقها الهواء ، وقوة إرسال أنفاسها من أفواهها ومناخرها » . (ج ١ ص ١٣٩ س ٢١) .

نكتفى بهذا القدر الآن ، وسنتحدث فى المقال التالى من التأليف النغمى فى الموسيقى ، وعن أثر الموسيقى فى النفس .

عبد الحميد حمدى مرسى

الدمعــــة

للأستاذ عدنان مردم بك

سلوةُ المحزون فى اليوم العسيرِ
وعزاء النفس والقلب الكسير
لغةٌ تنطق عما كتمت
أضلع المشتاق من حر الصدور
ذوبُ نفس شفّها طول الأسى
فجرت دمعاً على كرّ الدهور
لغةٌ صامتــــةٌ لكنّها
من ضروب الشعر جاءت بالكثير

***

لم أجــد أبلغ منها ناطقًا
يحسن الإيجاز فى وصف الشعور
ترسم الداء جليّـــا ظاهراً
وجراحاتِ المعنى فى سطور ....
كم حزينٍ كان فى آلامه
شاعراً ينقصه وزن البحور

***

أيها المحزون كفكف عبرةً
واختزنها لدجى اليوم الأخير
لا تهِنْ دمعك فى تسكابه
فوق رسم أو على قبر حقير

(دمشق) عدنان مردم بك

الغروب على الخليج

للأستاذ فخرى أبو السعود

رَاقَ فى روعة الغروب الخليجُ
وزهاهُ سنا ذُكاء البهيجُ
وجرى ضوؤها على مائه فه
وَ بساطٌ من الضّياء يموج
وتهادت على جوانبــه الرِّ
ح رُخاء قد طاب منها الأريج
وتعالتْ بضفّتيه جبــالٌ
شامخاتٌ كأنهنّ البروج
وَرَدَ الماء سفحُها وِرْدَ ظمآ
نَ وقد رقّطتْ ذراها الثلوج
وكسا العشبُ متنَها وعلا خدْ
رتَهُ من سنا الغروب نسيج
وتوافتْ ذُكاء من جانب اليـ
مّ إلى جانب الرُّبى لا تعوج
وتبدّى لها خلالَ ثنـايا ال
غيم قرصٌ مشقّقٌ مشجوج
فيه مِنْ أصفر الضياء وقاني
هِ ومِنْ أبيض الشعاع مزيج
تهاوى الأضواء منه إذا ما اهـ
تزّ عنها من الضباب عجيج
مثلما انصبّ مِنْ يمينك ماء
صادفته من البنان فروج

(البقية على الصفحة التالية)

أنباء وآراء

الأدب والحرب

بدأ تأثير حالة الحرب يظهر فى الحياة الأدبيـة واضحاً جلياً ، فقد أحجم الكثيرون من المؤلفين عن طبع كتبهم لعدة عوامل تتصل بالحرب : منها غلاء أسعار الورق ، وارتفاع أثمان مواد الطباعة ، فضـلا عن فتور الرغبة فى القراءة ، وانصراف الناس إلى تتبع أخبار الحرب . وعلى ذلك لن يرى الموسم الأدبى ذلك النشاط الذى دب فيه خلال العام الماضى والأعوام التى سبقته ، ولعل ذلك إحدى ويلات الحروب .

ولا يقتصر الأمر فى حالة الركود الأدبى على مصر ، فإن الصحف الأدبية فى الخارج قد بدأت توجه عنايتها إلى أخبار الحرب ، وما يتصل بالميادين والبلدان المتحاربة ؛ كذلك تتجه عناية الكتاب الأوربيين اليوم إلى الاتجاه السياسى بين من لم يتطوع فى الخدمة الحربية منهم . وقد استخدمت الحكومة الفرنسية فريقاً كبيراً من الكتاب الفرنسيين لأعمال الدعاية ضد الأعداء . ولعل القراء يذكرون أننا أشرنا يوما إلى اختيار الكاتب المسرحى البارع جان جيرودو رئيساً لمكتب الاستعلامات الفرنسى ، وهو المكتب الذى يشرف على إذاعة أنباء الميادين ، ووصف المعارك ؛ وقد بدأ المسيو جيرودو عمله ، وطالعتنا الأنباء التلغرافية فى الصحف بالبيانات الرائعة الأسلوب التى يصف بها القتال بين البولنديين والألمان .

وهكذا تقف الحركة الأدبية فى العالم بسبب الحرب . فهل يقدر للعالم بعد انتهاء هـذه المجزرة أن يشهد نشاطاً أدبيا كذلك الذى شهده بعد الحرب العظمى ، أم سيعترى اليأس والخمول كل شىء حتى الحياة الأدبية ؟

تلتقى الغربَ فى التَّكادِ إلى أنْ
غَيّبتْها تلك الربى والمروج
فاستقرَّ النسيمُ لمّا توارتْ
وعَلا الكونَ كدرةٌ ودُلوج
وأطلّتْ أشباحُ تلك الرَّوابى
فى الدَّياجى كأنهن زُنوج
وتَداجى الفضاء إلا منارًا
يترامى من ناظريْه أجيج
يُرسل النورَ منه فى كل صوب
نَيِّرٌ نافذٌ ولحظٌ لَجوج
قام يرعى السفينَ وهى غوادٍ
رائحاتٌ كأنهن الحُدُوج
مُبعِداتٌ عنــه فإمّا دعاها
فإليـــه مَآبُها والولوج
يسهر الليلَ يقظًا مَنْ أرقتهُ
غُصصُ الهمِّ فهو عانٍ مَهيج
يقظٌ مفردٌ وقد أغفتِ الشُّطْ
آنُ مِنْ حولِه وقرَّ الخليج

فخرى أبو السعود

ما لا يعرفه الناس عن تشرشل

تردد اسم المستر ونستون تشرشل الوزير الانجليزي الخطير في هذه الأيام ، بمناسبة استعانة الحكومة البريطانية به لمواجهة الحرب العالمية .



ونستن تشرشل السياسي

ولعل الكثيرين من القراء يلذهم أن يعرفوا شيئاً عن حياة المستر تشرشل العجيبة ، فهو أكثر سياسيي انجلترا تعرضاً للأخطار ، وقد نجا من الموت ما يزيد على عشر مرات بأعاجيب خارقة . فقد احترقت به الطائرة مرتين ، وسقطت به طائرة أخرى وتحطمت على الأرض ، ولكنه بعد ساعتين من الحادث كان يلقي خطاباً في مجلس العموم ، وقد ربطت ذراعه اليمنى بالضمادات ، وامتلأ وجهه بالخدوش المختلفة . وفي إحدى زياراته لنيويورك صدمته إحدى سيارات التاكسي ومرت في الطريق ، فتحامل على نفسه حتى وصل إلى أقرب مستشفى ؛ ولما كان وزيراً للداخلية اقتحم حي إيست إند في أثناء إحدى المظاهرات ، وأشرف بنفسه على قمعها بين وابل من الرصاص المتناثر حوله .

على أن أعجب حادث حدث للمستر تشرشل هو انقلاب سيارته أثناء ذهابه إلى قصر بلمورال لمرافقة ملك الانكليز إلى حفلة رسمية كان عليه أن يخطب فيها ، فقد كان في مكان يبعد عن القصر ما لا يقل عن مائة ميل ، كان على سائقه أن يقطعها في وقت قصير ، وفي طريق مليئة بالأوحال ، وجو ممطر غائم ؛ لذلك ألح على السائق في الاسراع ما أمكن ، وقد أطاعه السائق ، وكانت النتيجة أن انقلبت السيارة في الأوحال ، ولولا غزارة الطين التي أدت إلى أن تغوص عجلات السيارة الجانبية إلى آخرها مما منع انقلاب السيارة تماماً لضاعت حياة تشرشل . ولكنه نجا هذه المرة أيضاً ، واستطاع أن يصل إلى قصر بلمورال في حالة مضحكة ، فقد تمزقت ملابسه وتلوثت بالأوحال .



الملازم ونستن تشرشل أثناء حرب البوير

ومما يذكر عنه أيضاً أنه كان ضابطاً في حرب البوير وسقط أسيراً في يد الأعداء ، ولكنه استطاع الهرب بنفس الحظ الحسن الذي رافقه بعد ذلك طوال حياته ، ذلك الحظ الذي يلازمه في كل ما يعمل ، حتى إنه ربح في كتابين من كتبه خمسين ألفاً من الجنيهات ، مع أنه مجرد هاوٍ من هواة الكتابة .

وصية برنارد شو

من المعروف عن برنارد شو أنه لا يأكل اللحوم قطعياً ، بل يعيش على النباتات فقط . وقد أصيب أخيراً بضعف أشار عليه الأطباء أنه لا بد لشفائه منه أن يأكل قليلاً من اللحم ، وإلا تعرضت حياته للخطر ، ولكنه رفض بتاتاً أن يطيع أوامر الأطباء ، وكتب إلى إحدى الصحف يقول : « لقد أصبح أمر حياتي عجباً ، فهي تتوقف الآن على أن آكل قطعة من اللحم ، ولكني أفضل الموت على هذا التوحش . لقد ذكرت في وصيتي تعليمات لمن سيتولون أمر تشييعي إلى القبر ، تنص على أن جثماني يجب ألا يشيع بموكب معتاد من العربات التي تقل المشيعين ، وإنما بقطيع

من الأغنام والثيران ومجموعة من الدواجن ، وحوض كبير مملوء بالأسماك ، تسير كلها خلف نعشي مرتدية ملابس بيضاء تكريماً للرجل الوحيد الذي يؤثر الموت على أن يأكل زملاءه في الوجود والحياة . وستكون جنازتي هذه إذا استثنينا سفينة نوح ، أعجب وأعظم منظر من نوعه رأته الانسانية » .

بين مترلنك وشيرلي تمبل



موريس مترلنك

كتب الكونت موريس مترلنك رسالة إلى شيرلي تمبل بمناسبة ظهورها في شريط سينمائي مأخوذ من قصته « الطائر الأزرق » يقول : « إنك الشخص الوحيد في العالم الذي لو ترك لي الخيار لاخترته وحده لكي يقوم بتمثيل هذه القصة » .

وقد بلغ من إعجاب الكاتب الكبير بالممثلة الصغيرة المحبوبة أنه قبل أن يقدم للشريط بمحاورة يشترك فيها شخصياً يعرض فيها لتحليل قصته وتهيئة الأذهان لها .



شيرلي تمبل

وسوف يتم إخراج هذا الشريط خلال العام القادم . وقد رأت الشركة التي تتولى إخراجه أن يكون بالألوان الطبيعية ، وقد قدرت تكاليفه بمبلغ أربعمائة ألف من الجنيهات .

الغارات الجوية والأعصاب

لا يقف أثر الغارات الجوية عند حد التدمير والتخريب ؛ فهناك نتيجة لا تقل شأناً عن التدمير ، بل قد تفوقه في بعض الأحايين ، وهي ما تسببه الغارات من الفزع والرعب لدى السكان المدنيين ، ومدى تأثير ذلك في الروح المعنوي للشعب المحارب .

وقد كتب المستر « وزنام فونس » من المشتغلين بالشئون الحربية في انجلترا مقالا جريئاً لفت فيه الأنظار إلى أن الحرب لن يعقد لواء النصر فيها إلا للشعب الذي يجمع إلى جانب القوة المادية والتنظيم العسكري ، قوة الإرادة والعزمة ومتانة الأعصاب والقدرة على احتمال أعنف الهزات العصبية ، أو بالتالي أن الحرب الحاضرة لن يربحها إلا الشعب الذي استعد إلى جانب استعداده الحربي ، استعداداً أدبياً كافياً يقيه شر ما تحدثه مفاجآت الحرب من تضعضع في الروح المعنوية .

ويضرب المستر وزنام مثلا لما يقوله (الغارات الجوية) فإن خطرها لا يقتصر كما قلنا على الأضرار المادية ، بل يتعدى ذلك إلى الحالة العقلية للأهلين ؛ فيجب ألا يقل المجهود الذي يبذل لوقاية المدنيين من النتائج النفسية للغارة الجوية عن المجهود الذي يبذل لوقايتهم من نتائجها المادية ؛ والسبيل إلى ذلك ، كما يرى مستر وزنام ، هو وحدة الشعور أو الاحساس المشترك بين الشعب والحكومة ، والإعداد الشخصي للأفراد والجماعات .

أما الاحساس المشترك فهو أن يفهم الشعب تماماً أنه حكاماً ومحكومين معرض لخطر واحد في حالة الحرب ، وأنه إذا قدر له أن يصاب بمكروه فسيصاب جماعة واحدة ، قادة وشعباً . وهذا الفهم المشترك أو الاحساس الواحد يعطي للشعب صلابة نفسية تجعله يواجه الخطر بكل ثبات .

أما الاعداد الشخصي للأفراد والجماعات فهو أن تطلع الحكومة الشعب بكل صراحة على ما ينتظر من الحرب وما يتوقع من أهوالها ، أو على الأصح تجنب السياسة

العتيقة التي كانت تتبع فيما مضى ، وهي منع إثارة الخواطر والمخاوف بالافضاء بالبيانات الصحيحة والمعلومات الصريحة عما ينتظر حدوثه في الحرب .

ويسلم مستر بوزنام بأن كشف الموقف على صورته الحقيقية قد يؤدي إلى إثارة المخاوف ، ولكنه يؤكد أن خطراً حقيقاً مؤكداً ، هو أخف أثراً وأقل نتائج من أخطار غامضة مفاجئة . فالإنسان الذي يعلم جيداً إلى أي مدى تستطيع وسائل الدفاع السلبي عن المدن حمايته ، ونقط الضعف في هذه الوسيلة من وسائل مقاومة الغارات ، هو بلا شك أكثر استعداداً من الانسان الذي يؤمن كل الايمان بأن طائرات العدو لن تستطيع الوصول إلى سماء مدينته بفضل وسائل الدفاع ؛ فمثل ذلك الانسان سيتضعضع لمجرد رؤية طائرة العدو تحلق فوقه وتلقي قنابلها ، فتنهدم نفسه قبل أن ينهدم مبنى واحد ، أو قد لا ينهدم شيء إلا نفسه .

ولعل القراء يذكرون أن ما يشير إليه الكاتب من الإعداد النفسي للشعوب هو السياسة التي اتبعتها دول الحلفاء في هذه الحرب ؛ ففي خطاب جلالة ملك الانجليز إلى شعبه عند إعلان الحرب ، ذكر الشعب بأنه ستمر به «أيام سود» . وفي تصريح المسيو دلادييه بعد إعلان فرنسا الحرب أشار إلى «المتاعب الناجمة» وإلى أن الحرب قد تطول ، وإلى «ثمن العدالة الغالي» . ولعل هذه الصراحة من قادة الشعوب في إظهار حقيقة الموقف من أهم أسباب قوة الروح المعنوية عند الحلفاء .

بين هتلر وشارلي شابلن

يشتغل شارلي شابلن الممثل الهزلي المعروف في إخراج قصة سينمائية جديدة هي «الدكتاتور العظيم» فيها سخرية كبيرة بالنظام الدكتاتوري وتعريض بالطغاة . وسوف يقوم شارلي في هذه القصة بدور جديد لم يألفه مشاهدو شرائطه السينمائية ، إذ أنه سيمثل شخصية الدكتاتور الكبير «هنكل» ، وفي الوقت نفسه يمثل شخصيته المعروفة المرحة بعصاه وقبعته وسرواله . وتدور الرواية حول التشابه بين الشخصيتين المهرج والدكتاتور ، مما يؤدي إلى القبض على المهرج لسبب واحد هو هذا الشبه . ومن الغريب أن هذا الشبه الذي سيخرجه شارلي على الشاشة البيضاء هو نفس الشبه بين هتلر وشارلي شابلن في الحياة العامة . فكلاهما يشبه الآخر في ملامح الوجه ، وكلاهما ولد في ابريل سنة ١٨٨٩ ، إلا أن الفرق بينهما هو أن شارلي لا يشبه هتلر إلا بهيئته المعروفة في عالم السينما ، أما في الشكل الحقيقي فهما يختلفان أشد الاختلاف .

ويعد شارلي شابلن إلى جانب الشهرة التي يتمتع بها ، من أرقى ممثلي السينما عقلية وتفكيراً ، وله فلسفته الخاصة في الحياة ؛ وهو يكتب بين الحين والحين مقالات قيمة تظهر بتوقيعات مستعارة يضمنها آراءه وأفكاره . ومن أعز أصدقائه دوق وندسور ، و هـ . ج . ويلز والدوس هكسلي ، وله مع ويلز محاورات لطيفة في شئون المجتمع يقول شارلي إنه لا بد من أن تظهر يوماً إما على الشاشة أو بين دفتي كتاب .

إنه في يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا والأيام التالية بعزبة العادل تبع أبو كساه وفي يوم ٥ منه بسوق أبشواي إذا لم يتم البيع سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك مهروق مطاوع شيخ عزبة العادل تبع أبو كساه وفاء للحكم نمرة ١٧١٩ سنة ١٩٣٧ أبشواي وفاء لمبلغ ٣٦٤ قرش صاغ المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب السيد محمد عبد الغفار حبيه التاجر فعلى راغب الشراء الحضور ٤٣

إنه في يوم السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية كفر النعيم مركز ميت غمر سيباع علنا زراعة قطن موضحة بمحضر الحجز ملك الشيخ مصطفى شحاته النعيم بناحية كفر النعيم وفاء لمبلغ ٤ جنيه و ٦٠ مليم وفاءا لحكم محكمة ميت غمر الجزئية نمرة ٢٨١ سنة ١٩٣٩ مدني خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب الشيخ عبد الله يوسف كشك التاجر بميت غمر
فعلى راغب الشراء الحضور ٤٤

إنه في يومي الأحد أول أكتوبر سنة ١٩٣٩ بناحية عطف حيدر مركز القشن والسبت ٧ منه بسوق القشن العمومي من الساعة ٨ أفرنكي صباحا سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك أحمد عبد اللطيف أحمد من عطف حيدر مركز القشن نفاذا للحكم نمرة ٧٠٨ سنة ١٩٣٩ القشن وفاء لمبلغ ١١ جنيه و ٤٠٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب الخواجه واسيلي الفريلوس التاجر بالقشن فعلى راغب الشراء الحضور ٤٥

في عالم التأليف :

كتاب النقود العربية وعلم النميات

[طبع بالمطبعة العصرية]

....

لا يمل حضرة العلامة الجليل الأب انستاس ماري الكرملي عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية من نشر الكتب المفيدة وإتحاف قراء العربية بها ، ولا سيما ما كان منها للسلف الصالح . فقد أصدر لنا في هذه الأيام المصيفة سِفراً أسماه « النقود العربية وعلم النميات » ، وقد وقع في ٢٦٠ صفحة بقطع الثمن الكبير ، وأودع ما بين دفتيه كل ما قاله العرب على النقود من أقدمين ومحدثين ، وصحح روايات ما نقله بعض النساخ ومسخوه ، مقابلا إياها بروايات أصح وأقدم . وكذلك فعل بما أعاد طبعه من تلك الرسائل . ففي هذا الكتاب نصيب تصحيح فصل البلاذري الذي ذكر فيه النقود في كتابه (فتوح البلدان) (ورسالة النقود القديمة) للمقريزي ، وما جاء في تاريخ ابن خلدون ، وما حققه القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» ، وما صنفه الشيخ مصطفى الذهبي ، وهو آخر من كتب في هذا الموضوع .

وبعد ذلك أودع في معجم صغير جميع أسماء النقود التي ورد ذكرها في الجاهلية وصدر الإسلام ، وأغلب تلك الألفاظ لم ترد في معاجم اللغة ، وإن كان قد جاء فيها شيء يشوهه خطأ صححه وبين وجه التصحيح فيه .

وفي معجم آخر صغير هجائي أيضاً جمع أسماء النقود التي ضربت بعد عهد العباسيين ، وقد دون منها ١١٦ رسماً لم يرد أكثرها في ديوان لغة قديم أو حديث .

فالكتاب كما ترى من جهة تاريخ النقود هو أثمن ذخيرة ، ومن جهة اللغة فإنه أغزر كنز ، إذ فيه من المستدركات ما يجب أن تزين بها نحور تلك المعاجم .

ويحسن بالمعنيين بمفردات اللغة وفرائدها أن يطالعوا ما كتب في المعجم الأول من معجميه الذكورين ، ولا سيما ما جاء على البدرية (صفحة ١٤٤) والتفريص (١٤٥) والرصيع والرصيعة (١٤٦) والسنوق (١٤٧) والسميرية (٣٥) والعين (١٤٩) والغطريفية (١٥٠) والفوقية (١٥١) والمال (١٥٤) والنقد (١٥٨) والنميات (١٦١) والورق (١٦٣) . ففيها من الآراء الحديثة والتصحيحات ما يعد مبتكراً لم يسبق إلى شرحها سابق .

وأما ما جاء من أسماء النقود المستحدثة فكلها لم يذكرها أرباب المعاجم ، فهي ثروة لغوية طريفة تضم إلى ثروة هذه اللغة الشريفة ؛ وعليها شروح ضافية تظهر بجلاء تام ما لحضرة الأب المحترم من القدرة في اللغة والاطلاع على أسرارها ، والاضطلاع بأعبائها . فالكتاب كله مجموع فوائد وفرائد ومبتكرات ؛ ومن يقف على إحدى المقدمتين العربية والفرنسية يطلع على ما قاساه حضرة المؤلف في وضع هذا الكتاب فريدة الفرائد ؛ ولحضرة الأب المحترم عناية خاصة بوضع الفهارس الشاملة لمصنفاته ، كما نجد فهارس هذا الكتاب الذي نحن بصدده ، وهي عناية تستوجب الشكر . وقد سمعته يقول : إنه يجد في وضع الفهارس وتصحيحها مشقة وعناء لا يجدهما في وضع الكتاب .

* * *

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٤٠ | الثلاثاء ١٩ شعبان سنة ١٣٥٨ — ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــرس

على هامش الحرب الأوربية :

حياد إيطــــاليا
والاتجاهات الجديدة فى السياسة الايطالية

لمحرر « الثقافة » الســـياسى

لما صرح السنيور موسولينى ، فى مساء يوم أول سبتمبر ، أعنى فى نفس اليوم الذى أعلن فيه هتلر فى خطابه فى الريخستاج ، نبأ القرار الذى أصدره بالزحف على بولونيا ، أن إيطاليا ستلتزم الحياد ، ولن تبدأ أى عمل حربى ، حار الناس فى تحليل موقف إيطاليا وموقف زعيمها . ذلك أن إيطاليا هى الطرف الثانى فى محور برلين روما ، وهى حليفة ألمانيا بمقتضى معاهدة عسكرية عقدت فى مايو الماضى ، وقد كانت إلى جانبها فى جميع المواقف والمحاولات التى انتهت باستيلائها على النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، ولم تنقطع لحظة عن تأييدها حتى فى

مطالبها من بولونيا ؛ وإذاً فقد كانت مفاجأة مدهشة أن يعلن الزعيم الايطالي تمسك إيطاليا بحيدتها في نفس اليوم الذي يبدأ فيه حليفه الحرب ضد بولونيا .

وقد استقبل العالم تصريح « الدوتشي » بالارتياح والتحفظ معاً ، وما فتئ من ذلك الحين يتساءل عن خطة إيطاليا الحقيقية . هل يكون موقفها الحالي ستاراً لخطة أخرى دبرت بإحكام ، وقد تفاجئ بها العالم في المستقبل القريب ؟ أم أن الزعيم الايطالي رأى في اللحظة الأخيرة بثاقب رأيه ألا يطوح بإيطاليا في معركة ظاهرة العدوان ، محفوفة بالمخاطر ، مشكوك في عواقبها ؛ فآثر أن يعتصم بالحيدة ، وأن يحتفظ بقوى إيطاليا ومواردها سليمة ، بعد أن أنهكتها الحرب الحبشية ثم الحرب الاسبانية ، وأن يعمل على إنمائها بدلا من تبديدها في مغامرة لا صالح لايطاليا فيها ؟

إن كل الدلائل والقرائن تدل حتى اليوم على أن زعيم إيطاليا يعني ما يقول ، ويرغب حقاً في هذه الآونة على الأقل ، في الاحتفاظ بحيدة إيطاليا ومجانبتها لهذا الصراع الهائل الذي أثارته حليفته ألمانيا الهتلرية بنزقها وتسرعها وإغراقها في التجني . ومنذ أول سبتمبر وإيطاليا تدل بأعمالها وتصرفاتها ، على أنها تؤثر حتى الآن أن تستقبل عهداً من السكينة ، وأن تحافظ قدر استطاعتها على السلام في حوض البحر الأبيض المتوسط . فأسطولها التجاري قد عاد إلى العمل داخل البحر الأبيض وخارجه ؛ ومصانعها التجارية تعمل ليل نهار لتلبية المطالب العديدة التي تنهال عليها ؛ وقد صرح السنيور موسوليني في هذا الصدد ، بأن إيطاليا يجب عليها أن تنتج وأن تبيع ، وأن تثرى . وقد تقدمت إيطاليا أخيراً بدليل عملي جديد على هذا الاتجاه السلمي ، وهو أنها عقدت مع اليونان اتفاقاً ، تسحب كل من الدولتين بمقتضاه قواتها العسكرية من الحدود الألبانية اليونانية إلى الداخل ، ونفذ الاتفاق فعلا ؛ وجاء في بعض الأنباء أيضاً أن إيطاليا تخفض قواتها في جزائر « الدودكانيز » إلى مستواها العادي وقت السلم .

هذا ، وقد شفع السنيور موسوليني ذلك كله أخيراً بتصريحات سلمية جديدة في منتهى الأهمية قال فيها : « إن سياسة إيطاليا لم تتغير منذ تصريح أول سبتمبر الذي أعلن فيه بأن إيطاليا لن تبدأ بأي عمل حربي ، وليس ثمة ما يدعو إلى تغيير هذه السياسة التي صادفت هوى في نفوس جميع الشعوب ، ومن بينها الشعب الألماني ، لأنها تعاون على حصر نطاق الحرب في نطاق محدود » . ثم يقول : « إن الحرب قد انتهت في بولونيا ، ولم تدخل أوربا الحرب إلى الآن ؛ وإنه إذا ظهر أن تغيير هذه السياسة أصبح ضروريا فإنه سيدعو الشعب الايطالي إلى الاستماع لبيانه » .

ولم يخل بيان الدوتشي مع ذلك من بعض الإشارات الغامضة مثل قوله : « إنه يمكن تجنب الصدام بإدراك أن الرغبة في الاحتفاظ بالأوضاع التي استنكرها التاريخ واستنكرتها طبائع الشعوب ، ليست سوى وهم باطل » ، وهو قد يشير بذلك إلى الأوضاع التي قررتها معاهدة فرساي .

— ٢ —

وفي وسعنا أن نلمس في تطورات الحوادث الدولية منذ عقد الميثاق الألماني السوفيتي ، ما يلقي ضوءاً على موقف إيطاليا الحالي .

فقد عقدت ألمانيا الهتلرية ميثاقها مع روسيا البلشفية دون رأي إيطاليا وعلمها ؛ مع أنها هي التي حثت إيطاليا قبل ذلك على أن تعقد معها ميثاق مكافحة الشيوعية ضد روسيا ، ومع أن إيطاليا شريكتها في المحور وحليفتها العسكرية ؛ فكان هذا التغيير الفجائي في سياسة ألمانيا بالنسبة لايطاليا ، مثار السخط والشك معاً ؛ وقد لوحظ أثناء الفترة التي عقد فيها هذا الميثاق ، والتي سبقت نشوب الحرب ، أن الصحف الألمانية أغفلت ذكر إيطاليا بطريقة منظمة ، ولم تذكرها إلا نادراً ، مما دل على بدء الفتور في علائق الحليفتين .

ولما ألقى هتلر خطبته فى الريخستاج فى صباح يوم أول سبتمبر ، وقال فيها إن ألمانيا ليست بحاجة إلى معاونة حلفائها ، وأن الجيش الألمانى قادر وحده على ملاقاة أعدائه ، وألقى موسولينى تصريحه فى مساء نفس اليوم بحيدة إيطاليا ، ألفينا فى ذلك أول دليل على تصدع محور برلين رومه .

ثم كانت المأساة البولونية ، واجتياح الجيش الألمانى لبولونيا ، وزحف الجيش الأحمر فجأة على الحدود البولونية واقتحامه لشرق بولونيا من الشمال إلى الجنوب ، واتفاق ألمانيا وروسيا على تقسيم بولونيا على النحو الذى تم ، وفوز البلاشفة بالنصيب الأوفر ، ومجاورتهم بذلك لحدود رومانيا والمجر من الجهة الشمالية .

وقد رأينا أن تطور الأمور على هذا النحو كان له وقع عميق فى رومة ، وذلك لسببين جوهريين هما :

أولاً — أن إيطاليا تخشى عود روسيا البلشفية إلى التدخل فى شئون أوربا الوسطى ، بعد أن أقصيت عنها زمناً وتخشى من اقتراب البلشفية ذاتها من حدود المجر ويوجوسلافيا ورومانيا ، وترى فى زحف البلشفية على هذا النحو خطراً اجتماعياً يهدد إيطاليا ذاتها .

ثانياً — أن زحف البلاشفة نحو أوربا الوسطى ، يقوى الضغط الروسى على دول البلقان ، وقد يؤدى إلى إحياء نظرية روسيا القديمة ، فى حماية روسيا المتوية للأمم البلقانية السلافية (يوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا) ؛ ولما كانت إيطاليا تعتبر البلقان منطقة نفوذ لها ، ولا سيما بعد استيلائها على ألبانيا ، فإنها ترى فى ذلك خطراً على نفوذها التى عملت طويلاً لتقويته ، وعلى مصالحها الاقتصادية العديدة .

ولهذا كله ترى إيطاليا نفسها مضطرة أن تضع لنفسها سياسة عملية جديدة تتفق مع مصالحها الخاصة ، بعيداً عن ألمانيا المغامرة التى نبذتها وشقت لنفسها طريقها الخاص بأساليبها الخاصة ، وعاونت على تقدم النفوذ الروسى نحو أوربا الوسطى والبلقان ؛ وترى فى اتباع سياسة الحياد والمحافظة على السلام فى حوض البحر الأبيض المتوسط خير موقف تتخذه فى الآونة الحاضرة ، وهى تعمل على تقوية موقفها السلمى وتوطيده بمحاولة التفاهم مع دول البلقان على تأليف كتلة محايدة فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

— ٣ —

ولكن ذلك لا يعنى أن إيطاليا قد أفصحت عن سياستها المستقبلة تمام الافصاح ، أو حددت موقفها من النزاع الدولى نهائياً ، فهذا الموقف يتوقف بلا ريب على مجرى الحوادث المقبلة .

ومن جهة أخرى ، فقد أشار « الدوتشى » فى تصريحه الأخير إلى « إمكان تجنب الصدام » وإلى أن الرغبة فى الاحتفاظ التى استنكرها التاريخ واستنكرتها طبائع الشعوب ليست سوى وهم باطل . وقد فسر ذلك فى انكلترا وفرنسا بأنه محاولة جديدة من الدوتشى لوقف الحرب ، بعد أن حققت ألمانيا خطتها فى القضاء على بولونيا ؛ ولكن رد انكلترا وفرنسا على لسان ساستها كان سريعاً واضحاً ؛ وهو أنهما لم تدخلا الحرب من أجل بولونيا فقط ، ولكنهما دخلتا لإنقاذ أوربا من نير الهتلرية وطغيانها ، وإنه لا سبيل إلى وقف الحرب قبل القضاء على هذا النظام الهمجى .

وعلى ذلك ، فإن الحرب سائرة فى طريقها ، وسوف يمضى وقت آخر قبل أن نستطيع استجلاء موقف السياسة الايطالية بصورة نهائية .

* * *

وإذ كانت مصر من دول البحر الأبيض المتوسط ، وكانت من جهة أخرى جارة إيطاليا فى طرابلس ، فانها تتبع هذا التطور فى سياسة رومة بمنتهى الاهتمام ، وتستقبل تصريحات « الدوتشى » وتأكيداته عن حياد إيطاليا بمنتهى الارتياح ، وترجو ألا يكون فى مجرى الحوادث المقبلة ما يحمل إيطاليا على تغيير خطتها أو العدول عن حيدتها التى يتوقف عليها سلام البحر الأبيض المتوسط .

* * *

٣ - الحـــكاؤون!

اصطمبول

للأستاذ عبد العزيز البشرى

كان بائع غرابيل يجول فى الطريق هاتفاً بغرابيله ، فدعا به رجلٌ ، واستنزله حمله ، وسأله أن يحلّ وثاقه ، وينشر الغرابيل بين يديه نثراً ، ففعل الرجل ، وجعل (الزبون) يجسُّها واحداً بعد واحد ، ويُطيل النظر فى تفقّدها ، ويكثر من جسّها وغمزها ، حتى إذا أتى عليها جميعاً ، عاد إلى تفقّدها وجسها وامتحانها ؛ وما زال يفعل ذلك ويكرره حتى استهلك فيه الساعات الطوال ، والرجل ينظر إليه فى غيظ وحنق ، لما أضاع من وقته ، وامتهن من سلعته ؛ حتى إذا انتهى اختيارُه إلى أصلبها خشباً ، وأجودها جلداً ، وأحلها نسجاً ، وأحكمها شداً ، قال له : بكم هذا الغربالُ يا شيخ ؟ فرأى الرجل أن يكافئ كلّ هذا العناء بالاغلاء فى الثمن ، فقال : بخمسة وعشرين قرشاً ! فقال له فى دعةٍ وفتور : بثلاثة قروش نعربفه ! فثار ثائر الرجل ، وضرب الأرض بإطار الغربال ، فوثب حتى صكّ ناصيته ، فأعاد الضربة بأشدّ مما ضرب ، فصكّ الغربالُ ناصيته بأشدّ مما صكّ ؛ وما برح الغيظ يفعل به هذا ، والسابلة يجتمعون حوله من كل مذهب ليطالعوا هذا المشهد العجب ، حتى شدخ الغربال رأسه ، وأسال دمه ، فصاح فيهم : أيها الناس ! أتنتظرون أنتم حتى يقتلنى هذا الغربال ؟!

ولا أكتمكم ، يا معشر القراء ، أن هذا القلم كثيراً ما يشمز علىّ ويجمح ، ويستصعب علىّ سياسته وضبطُ عنانه . ولقد أسوقه فى طريق فيخالفنى إلى غيره ، ولقد أرسم للمقال نهجاً محدوداً ، فيأبىَ إلاّ تعدّى الحدّ والعدول إلى نهج آخر ، حتى ينتهى فى بعض الأحيان إلى الغاية التى يبغيها هو ، لا الغاية التى أطلبها أنا ؛ ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم !

ومِن هذا البلاء الذى امتُحنت به من هذا القلم الجامح المتمرّد ، أنى بدأتُ مقال (الحكائين) على أن يجرى كلّه ، طال أو قصُر ، فى فنون من التسلية والتندُّر ، فى هذا الحرّ وهذه الحرب ، خيّبهُ الله عليهما جميعاً ، وإن كنتُ لا أتزيّدُ ولا أعدو الصدق أبداً . فإذا هو يتنطّر لى بشبح عبد الحميد ، وحكم عبد الحميد ، و(حكايات) من كانوا يغتابون الآستانة فى عهد عبد الحميد ، ثم إذا هو يُمعن فى هذا الطريق إمعاناً لم يدخل لى يومَ بدأتُ الحديث فى تقدير ولا تصوير !

والآن كيف الرجوع إلى النهج الذى بدأنا بسلوكه ، وكان ، بحمد الله ، بيّنَ الحدود واضحَ الأعلام ؟

كيف لنا بهذا وقد التوت السُّبل ، وعَمِيت السياسةُ وجُنّةَ الطريق بما هو أحدُّ من الحَسَك ومن شوك القَتاد ؟

أفترانا نستعدى على جماح هذا القلم جمهرةَ القراء ، كما استعدى النظارةَ على غرباله صاحبُ الغرابيل ؟

أريد مفاكهةً وتندُّراً ، ويأبى علىّ القلمُ إلا خوضاً

فى خلفات عبد الحميد ، وما كان يعانى من ظلمه روّاد الآستانة من المصريين وغير المصريين ؟

اللهم إنه ليس من الرأى التصدى لكبحه وهو فى عتى ثورته ، بل الرأى كل الرأى فى مجاراته وإلانة قياده ، وإظهار المطاوعة له ، حتى تفتر حدّته ، ويطامن من جماحه ؛ وحينئذ يتهيأ صرف عنانه إلى وضح الطريق . وكذلك نمضى فى المقال على اسم الله العلىّ العظيم .

* * *

ولقد حدثتك فى المقال السابق عن بعض ما جرى من المحن على دولة الخلافة باستبداد عبد الحميد ، وظلم عبد الحميد ، حتى لقد انسلخ عنها فى ذلك العهد الأشأم قرابة ثلاثين ولاية ، وإن شئت قلت ثلاثين مملكة .

وقلت لك إن المصريين لم يحبّوا أحداً كما أحبّوا عبد الحميد ، ولم يدينوا بالولاء لأحد كما دانوا لعبد الحميد ، حتى لقد خالط حبّه اللحم وتصيق بالعظم ، وجرى فى أعراقهم مجرى الدم . فلم تجر بسوء حكمه على الإسلام محنة ، إلا جعلوها موضع مِنّة ، ولا دبّ إلى جسم الدولة بظلمه فسادٌ إلا أحالوه على صلاح ؛ فإذا غمّ عليهم الأمر ولم يهدهم إلى الرأى طولُ التعسف فى التأويل والتعليل ، أحالوا الأمر إلى الحِكَم التى تعلو على أفهام العباد ! .

وإن من الإنصاف أن نقرر أن أشد الناس كانوا استحباساً فى هذا الباب هم سلالة الترك المتمصرين . وكان زعيم هؤلاء جميعاً شيخاً واسع الغنى يسكن فى بعض أطراف القاهرة ، ولا أسمّيه ولا أعيّن مسكنه لكيلا أدل عليه . رحمه الله وغفر لنا وله .

كان هذا الرجل أو هذا الزعيم العظيم ، حين أدركناه ، فى حدود السبعين . وكانت دارهُ الواسعةُ مثابةَ القصاد ونجعةَ الروّاد . يؤمّها فى كل ليلة جماعاتُ الظِّماء إلى أخبار (الباب العالى) ، وما عسى أن يكون قد أجدّ لدولة الإسلام من مفاخر ضخام !

فإذا كان (عيد الجلوس السلطانى) رصّعت الدار بمصابيح تخطف الأبصار ، ووشّيت بأذكى الورود وأنضر الأزهار . وصدحت الموسيقات بأحلى الأنغام ، وقُرّب للفقراء أشهى الطعام من لحوم الأنعام . ووقف (البك) بالباب يستقبل جماعات المهنئين ، الداعين لجلالة (الخليفة) بالبقاء على السنين ، حتى يُربى عمره على المِئين . وغنّى فى الليل أعلامُ المغنّين ، ونُثرت بدَر الدراهم على جماهير المحتشدين ، من الموزونين وغير الموزونين !

وقلت إنه يقف بالباب فى تلقى الهناء من الوافدين . وإنه ليكافىء هناءهم بالشكر والدعاء ، كما يصنع أىُّ امرىءٍ فى أسباب مسرّاته الخاصة وأفراحه العائلية . وذلك لما يَشعر به ، أو ما يريد أن يُشعرَه الناسَ من أن له سهماً ، ولو ضئيلاً ، من شئون السلطان أو من شئون (الدولة) ، يُهيّئ له تقبل الهناء ، والاثابة عليه بالشكر والدعاء . وكيف لا وقد كسر كلٌّ حبه وولائه وإخلاصه على (البادشاه) ، وهو عند (الباب العالى) مطلَع الرأى ومنزِل السر ، على الرغم من بعد الديار ، وشطّ المزار ! .

ولا تظنّن أن هذا الرجل كان فى هذا الباب فذاً منقطع النظير فى فتح داره لجماعات (الاصطمبقليّين) ، فلقد كان نظراؤه كثيرين . وإنما أفردناه بالذكر لأنه كان أكبرهم سناً ، وأبعدهم شهرة ، وأوسعهم غنى ، وأقدرهم على الوصف وتفخيم التصور .

وبعد ، فما يكاد يخيّم الغسق حتى تحتشد دار صاحبنا ودور أمثاله بالوافدين للاستخبار ، والاطلاع على ما أجدّ (الباب العالى) من جلائل الآثار ! .

واعلم أولاً أن كل شىء يجرى على (الدولة) لا بد وأن يكون برأى السلطان وتدبيره ، ودهائه وجبروت حيلته .

ولو بدا لك فى هذا الأمر كارثة ، ورأيت منه مصيبة واقعة وبلية لاحقة . وهل بعد قوة (السلطان) قوة ، أو وراء دهائه دهاء ؟ .

ولعمرى ، ما جاءت (البشرى) بانسلاخ ولاية من تلك الولايات الثلاثين ، أو وقعت على (الدولة) بلية من إحدى الدول الغربية ، كما احتلت الجنود الفرنسية بعض (جواركها) أو تدعى لبعض المطالب — ما حدث شيء من ذلك ونحوه ، إلا قال قائلهم : « دى سياسة أفندم ! » فيغمز صاحبه على إحدى عينيه ويهزّ رأسه ويقول : « دى سياسة كبير ! » فيصيح الثالث : « أمال أفندم — لازم پادیشاه هو اللى عاوز كده . إذا كان هوّه مش عاوز ما كانش يحصل . ! إيش عرفنا إحنا ؟ دى سياسة فوق عقول ! »

وسرعان ما تُشرق وجوه الجماعة ، ويُتطارح الهناء ، وتتصافح الأيدى ، وتتضامّ الصدور إلى الصدور ، وتُبسط الخدود لتحيات الثغور ! .

والآن وقد هدأت ثورة هذا القلم ، بما ناله من الجهد والتعب ، نستطيع بحمد الله ، أن نصرف عنانه إلى حيث نشاء ، فهلمّ إذن إلى معاودة الحديث فى (الحكائين) والله المستعان :

وإذا كنتُ سأقتصر على إيراد (حكاية) واحدة ، فلعلك واجدٌ فيها أنجم وأضخم ، وأبلغ وأعظم ، من كل ما انبث وانبسط ، وشاع وذاع ، وملأ الطباق ، وسطع فى الآفاق ، على جميع ألسن (الحكائين) ، من يوم عبد الحميد إلى يوم الدين :

احتشد الجمع ، على العادة فى دار صاحبنا . وجعلوا يتقاولون فى أمر الدولة ، وعظمة الدولة ، وقوة جيوش الدولة ، وسياسة عبد الحميد ، وشدة دهائه وبعيد مراميه الخ الخ ! .

وبدا لبعض الحاضرين ، وكان مصرياً ، أن يسأل سؤالاً ، نخاف وجبُن . والسؤال لا غنى عنه ، ولا مفرّ من الظفر بالجواب عليه . فمطّ المسكين إلى الزعيم عنقه . وقال : « ولكن بسّ ، بسّ ! » أما باقى الكلام فكان يضطرب فى حنجرته اضطرابا « لا يرقى صَعَداً عنها ولا يرد » فقال له : « بسّ ماذا ؟ مالك لا تتكلم ؟ » فأغمض الرجل جفنيه ، وحدّ عزمه وقال ، وكأن صوته هَمْس هاتف يجيء من وراء الأفق : « بسّ مسألة الدونتمة[1] » ، يعنى أن الدولة ليست معتنية بالدونتمة ! » وسرعان ما استلقى الزعيم على ظهره مقهقهاً وهو يقول فى نبرات مليئة بالتهكم والاستهزاء : نعم ! معك الحق . إن الدولة لا تعنى بأمر (الدونتمة) . ثم اعتدل ، وألبس وجهه ثوب الجِدّ ، وجعل يدير طرفه فى الحاضرين ، وراح يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، ويرفع بصره إلى فوق وإلى تحت ، وإلى قدام وإلى وراء . ثم قال : « فيكم من يكتم السرّ ؟ » فأجابوا جميعاً فى نفس واحد : « فى بير ! »

« إذن فاسمعوا : لقد زرت (المابين) ذات يوم ، وأبديت لفخامة الصدر الأعظم مثلّ هذه الملاحظة ، فأظهر الموافقة لى ، والندامة على تقصير الدولة فى أمر (الدونتمة) ، وغمز لى بعينه غمزة خفيت على جميع حاضرى المجلس . فلما همّ الجميع بالانصراف ، ضغط على يدى واستبقانى . حتى إذا خلا له وجهى ، ولم يبق معنا أحد ، قال لى : « إذا انتصف الليل فامض إلى شارع كذا ، فإذا بلغت الموضع الفلانى فخذ على يمينك فى أول شارع ، ثم خذ على يسارك فى ثالث حارة ، ثم عدّ ثلاث حارات وادخل فى الرابعة ، وستلقى زقاقا على يسارك ، فاسلكه حتى تنتهى إلى خربة على يمينك . وستجد على مدخل هذه الخربة رجلاً شحاذاً رثّ الثياب ، مقنّع الوجه ، فافعل ما يأمرك ! » .

(١) الأسطول ، وكذلك يدعوه الترك والمتتركون .

« ومضيت فى الهاد ، وإذا الشحاذ فى الانتظار ، فما إن رآنى حتى أجال طرفه فى الأرض والسماء . ولما أمن عيون الإنس والجن ، ودابة الأرض ، وحدق الطير فى أوكارها ، أسرع إلى زاوية فى الخربة وظلّ يفحص عن الأرض إلى أن انكشف له غطاء من الحديد فرفعه ، ودفعنى إلى ما دونه وتدلّى ورائى . وأعاد الغطاء فوقه . وتدلينا فى سُلّم عددت له ١٢٧ درجة . ثم انتهينا إلى دهليز طويل ، سلكنا منه إلى دهليز آخر أعرض وأطول . ومازلنا ننعطف من دهليز إلى آخر ، حتى أفضت بنا خاتمة السعى إلى فضاء يزيد على التسعين ألف فدان ، وقد ازدحم (بالورَش والترسخانات) العظيمة الهائلة التى لا نظير لها فى جميع الدنيا ، وإذا خلق من الناس لا يحصيهم إلا خالقهم .

« ويكشف الشحاذ النقاب عن وجهه فإذا هو صا ... الفخامة خليل رفعت باشا الصدر الأعظم بنفسه ! وإذا فى هذا العالم ثلاثون مليوناً من الصناع معهم نساؤهم وأولادهم (ولدوا ويستولدوا) لا يرى أحدٌ منهم صفحةَ السماء أبداً . وكلما أتموا بناء مدرّعة ، أو نسافة ، أو (قرويت) ، أو خطاف (دَرْدبوه)(١) من شباك البحر (لا من شاف ، ولا من سمع) . حتى يأتى اليوم المعلوم ، وحينئذ تخرج (الدونتمة) للقضاء على أساطيل الدول جميعاً ! » .

الله أكبر ! الله أكبر ! ما شاء الله ! ما شاء الله ! نصر الله السلطان ! آمين آمين !

***

وسلامٌ على (فلان بك) فى الحكائين ، ورحمة الله عليهم أجمعين .

عبد العزيز البشرى

(١) دردب : كلمة عامية تقابل فى الفصحى : أزلق .

من قصص العرب :

الملك الضليل

(٦)

إلى دمون

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ملخص لما سبق :

[كان امرؤ القيس بن حجر ملك بني أسد رقيق الشعور ، ذكي القلب ؛ وكان يحب إحدى بنات عمه فاطمة ؛ ولكنه كان يميل إلى مداعبة سواها من الفتيات ، فأغضبها مسلكه ، ورحلت مع أبيها عن جوار امرئ القيس وقومه ؛ فأثر ذلك أثراً شديداً في نفس الفتى ، حتى مرض وكاد يهلك . ولما أبل من مرضه تغيرت خلائقه ، وأقبل بكل قلبه على اللهو والمجون وشرب الخمر ؛ وصار يقول الشعر في وصف لهوه ومجونه ؛ فغضب أبوه ، وطرده من أرضه ، فذهب يضرب في الآفاق مع شبان من العرب يحبون من الصيد ، ويقضون أوقاتهم في طلب اللذات . وحدثت حوادث سياسية زعزعت ملك الحارث بن عمرو ملك الحيرة ، وهو أبو الملك حجر الذي يظله بجاهه وسلطانه ؛ فطمع بنو أسد في حجر ، وأخذوا في سبيل الثورة عليه ؛ فاشتد في معاملتهم ؛ وثقلت وطأته عليهم حتى قتل بعض شيوخهم ، وطرد من أرضهم إلى تهامة . ثم بلغه أن أباه الملك الحارث هزم وأخرج من الحيرة ، وأنه مريض يطلب أن يراه ؛ فلم يكن له بد من مصالحة بني أسد ، فأرسل يسترجعهم من تهامة ؛ ثم ذهب ليعود أباه الحارث في مرضه الأخير ...]

كانت السحب السوداء تغطي وجه السماء وهي تسير ثقيلة في بطء ، وتنوء كأنها تريد أن تهبط إلى الأرض . ووقف فتيانٌ يتزلون أحمالا من ظهور جيادهم ويلقونها فوق الأرض الحجرية على جانب الوادي ، ولما فرغوا ذهبوا يمسحون أيديهم بأعراف خيولهم البيضاء حتى صبغوها بلون أحمر قانٍ من الدماء . وما كان هؤلاء الفتية غير امرئ القيس في جماعة من أصحابه ، وقد عادوا من الصيد ، فنزلوا حيث انتهى بهم السير ؛ وما كانت تلك الأحمال إلا وعولا وظباءً قضى هؤلاء الفتيان يومهم في صيدها ، وحملوها إلى ذلك الوادي الذي اختاروه منزلا لهم ، ليقضوا به أياما في قصف ومرح ، وشراب وطعام ، حتى ينفد ما اجتمع عندهم من الصيد ، ثم يسيروا ليلتمسوا لهم رزقاً جديداً من صيد آخر ؛ فهكذا كان امرؤ القيس وأصحابه يقضون أيامهم لا يستقرون في دار ، ولا يقيمون في أرض .

وأقبل امرؤ القيس بعد أن انتهى من مسح يديه في عرف فرسه ، فجعل يمسح وجه الجواد برفق ، ويمر بيده على ظهره وكفله ، كأنه يداعبه ، وكان الفرس يهز رأسه مرحاً ، ويشم وجه صاحبه كأنه يحييه على مداعبته .

ثم سار الهوينى ينظر حوله ، ويملأ صدره من الهواء البليل ، ويتغنى لنفسه بأبيات يصف فيها لذته التي كان يحسها في حياته الطليقة ، ويردد ارتياحه إلى كل ما كان يقع عليه بصره من آيات الجمال ، وما كان في نفسه من الاغتباط بالحياة القوية التي تجرى في دمائه . ثم جعل

يتغنى بمحاسن فرسه المحبوب ، وما أبلاه فى يومه من سرعة العدو والذكاء ، ويصف دقة أعضائه ، وجمال خلقته ، ولم ينس أن يصف شَعْر مُعرفه الذى مسح فيه يديه مما علق بهما من دماء الصيد ، فجعله كالشيب المخضوب تسيل عليه عصارة الحناء .

ثم أخذ المطر يتساقط ويتزايد ، فأسرع الفتيان إلى ظل الصخور يلجأ كل منهم إلى طرف منها ليحتمى به من المطر . وأسرع امرؤ القيس عائداً إليهم فجلس فى ظل صخرة بارزة فى جانب الوادى . واستمروا على ذلك ساعة ينظرون إلى المطر الهاطل ، وقد ارتسم على محياهم ظل من خيبة الأمل . فقد كانوا يطمعون فى ليلة مرحة يقضونها فى الشراب ، ويشبعون فيها من صيد اليوم بعد أيام قضوها فى شبه صوم عن الطعام ، لا يأكلون إلا مما كان عندهم من اللحم المقدد الباقى من صيد الأسبوع المنصرم .

ثم تحرك فتى منهم وقال ضاحكا : « لعلنا نطوى الليلة كما طوينا البارحة » .

فأجابه آخر : « دونك الصيد فكل منه كما تأكل السباع » .

فصاح ثالث : « أليست لك أنياب حادة ؟ » .

وعند ذلك قال امرؤ القيس ضاحكاً : « ولكن كيف لنا بالشراب والسمر ونحن مفرقون هكذا ؟ » .

فصاح فتى يجيبه ضاحكا : « يحمل كل منا زقاً يشرب منه فى مكانه ونتسامر صائحين » .

فنهض امرؤ القيس وخرج من مكانه ، وكان المطر قد خف قليلا ، وارتفع السحاب عن أطراف الأفق ، وأخذ يتفرج من ناحية الشمال ، فتبدو قطع زرقاء من السماء من خلاله ، ونهض الفتيان خارجين من مكامنهم وجعلوا يتلفتون حولهم فى شىء من القلق .

فقال امرؤ القيس : « وما لنا لا نقيم لأنفسنا بيتاً نجتمع فيه حول سفرة واحدة ونشترك فى سمرنا وشرابنا ؟ » .

فقال أحد أصحابه مازحاً : « هلم أيها الأمير فمر عبيدك أن يضربوا لك القبة الحمراء » .

فأجاب امرؤ القيس قائلا : « إذا لم تكن لنا قبة حمراء كانت لنا أخرى بيضاء » .

وخلع ثوباً أبيض كان يضعه على كتفيه ودفعه إلى صاحبه قائلا : « وإذا لم يكن لنا عبيد فنا نحن بالخدمة ، هلم أيها الرفاق » .

ولم ينتظر من أحد جواباً ، بل ذهب إلى فضاء واسع فى جانب الوادى وهو يحمل فى يده بعض الرماح ، وجعل يركزهـا فى الأرض ويضع الرمال حول مراكزها . فذهب الفتيان إليه وقد أدركوا ما يقصد ، فجعل كل منهم يتجه إلى ناحية فيساعد فى عمل حتى ركزوا كل رماحهم وطرحوا فوقها ثيابهم الصوفية ، وأخذوا يشدونها إلى أطراف الرماح بحبال من ليف النخل وأسواق الإبل .

فلما اطمأنت الثياب فوق الرماح وصارت مظلة فسيحة ، نظر امرؤ القيس إليها معجباً وقال فى زهو : « أرأيتم قبة خيراً من هذه ؟ » .

فقال صاحب من أصحابه صارخاً : « فلنتضرع الآن إلى مَناة أن تمنع عنا هبوب الريح حتى لا ينهدم البناء الشامخ » .

فقال امرؤ القيس متهكماً بالإله مَناة : « ضع نعلك فى وجه مناة ! هى أعجز من أن تهدم قبتنا المتينة » .

ثم ذهب إلى المكان الذى ألقى فيه الفتيان دروعهم وحل منها ثلاثة دروع وأخذ يشد أطراف الحبال فى حلقاتها ، ثم هز الحبال مرتاحاً إلى متانتها وقال مباهياً : « أرأيتم أوتاداً أثبت من هذه ؟ » .

فأحاط الفتيان به معجبين وجعلوا يثنون عليه ودخلوا تحت المظلة ينظرون فى جوانبها فرحين ، ثم ذهبوا يحملون

متاعهم ورتبوه فى أركانها ، حتى هيأوا لأنفسهم فيها مجالس وثيرة وجلسوا معاً فى حلقة ليستريحوا وقد احتبوا بحمائل سيوفهم .

ثم قاموا بعد حين وأخذوا يجمعون الحشائش والأعواد الجافة وأوقدوا ناراً ، وما هى إلا ساعات حتى كانت رائحة الشواء تفوح وتملأ الهواء .

وكانت ليلتهم مرحة قضوها كعادتهم فى طعام وشراب وسمر إلى أن أخذهم النوم قبيل الصباح .

قام امرؤ القيس فى ضحوة اليوم التالى ، وكانت الأمطار قد غسلت وجه الأرض ، فبدت الرمال الصفراء لامعة نظيفة ، واجتمعت من جوانب الرُّبى والتّلال مسايل صغيرة هبطت إلى بطن الوادى ، فجرى منها جدول متعرج من ماء رائق يتلألأ فى قاعه الحصى المختلف الألوان ، كأنه عقود من العقائق واليواقيت قد انفرطت من أسلاكها .

وكانت السماء صافية زرقاء لا تشوبها سحابة ولا يحجبها ضباب ، والهواء يهب رُخاءً بليلا منعشاً ، والشمس ترسل شعاعها إلى الأرض الرطبة كأنها تبتسم لمرآها وطلوعها عليها بعد احتجابها .

سار امرؤ القيس يجول فى أنحاء الوادى ويتوقل فى جوانبه ، ويعتلى ظهور الرُّبى والكُثبان ، وهو تارة يتغنى وتارة يملأ صدره من الهواء ، ومرة يقف ناظراً حوله إلى الأفق البعيد ، وأخرى ينحنى إلى الأرض ليلتقط حصاة ملونة يتأملها حيناً ثم يلقى بها إلى الأرض فى غير اكتراث .

وصعد فى تجواله إلى رَبوة عالية فى جانب الوادى ، فأشرف منها على فضاء فسيح به بعض شجيرات قصيرة ، تتخللها أبيات مجتمعة حول خيمة عالية ، قد وقف عند بابها فرس قاتم اللون مربوط إلى أحد أطناب الخيمة .

ورأى من بعد قطعاً من الإبل ترعى الحشائش والأشواك فى غفلة واطمئنان ، فعلم أن ذلك المكان منزل لبعض الشيوخ يحيط به أولاده وأهل بيته ، فهم أن يهبط إلى الجانب الآخر من الربوة حتى لا يقرب من ذلك الحى الآهل ، ولكنه لمح عند باب الخيمة الكبرى فتاة جالسة تمخض اللبن فى قربة معلقة فى أحد الحبال ، وأحس عندما رآها أن فى مظهرها وحركتها شيئاً يسترعى نظره ، فجلس حيث هو ، وجعل يتأملها ويحاول أن يرى شيئاً من ملامحها ، فلم يقدر على ذلك لبعد المسافة بينهما ، وأحس ميلاً شديداً إلى الذهاب إليها ، فلم يقف ليتدبر ماهو فاعل ولم يسائل نفسه عما يقصد من وراء ذهابه إليها ، بل أطاع ميله العجيب ونزل على جانب الوادى ذاهباً نحوها كأن قوة خفية تدفعه إليها .

ولما سار فى الفضاء السهل الذى يؤدى إلى الخيام بصرت به الفتاة وحسبت أنه قد يكون فى حاجة إلى معونة من طعام أو شراب ، أو أنه قد يكون خائفاً يطلب جواراً ، أو ضالاً يطلب هدى ، أو مسافراً هلكت راحلته ، فجاء يلتمس مطية ، فقامت مسرعة إلى داخل الخيمة فنادت فى شىء من الحدة : « يا أبا عنبسة ! » .

فصاح زوجها من الداخل : « لبَّيك ! » .

فقالت مسرعة : « جاءنا طارق فأسرع إليه » .

وفيما كان زوجها يلبس ثوبه مسرعاً ويخرج للقاء الضيف ، ذهبت إلى ركن الخيمة فأخذت منه بعض أوعية وجعلت تَصُفُّها وترفع عنها أغطيتها لتنظر ما فيها ، ثم تناولت قربة من الماء فصبت منها فى وعاء مملوء إلى نصفه بالحليب ، ووضعت تمراً فى صحفة واسعة من خوص النخل ، وأخذت تعد من ذلك طعاماً سريعاً للضيف ريثما تأمر بعض عبيدها أن ينحر شاة لغدائه .

وأقبل امرؤ القيس حتى قرب من الخيمة فوجد الرجل واقفاً ليلقاه ، وفى وجهه بشاشة مازجها وقار وسكون .

فقال امرؤ القيس محيياً : « عِمْتَ صباحاً » .

فقال الرجل : « عِمْتَ صباحاً ! ومرحباً بك ! » .

ثم سار به نحو خيمة مجاورة فأجلسه فيها وجلس إلى جواره يحييه .

وأدرك أبو عتيبة من مظهر ضيفه أنه رجل نبيل وأنه من فتيان العرب وشجعانهم ، فقد كان جميل الهيئة حسن الوجه مديد القامة ، تدل مشيته على أنه يحس بشرف مكانته ويعتز بنفسه . فجعل يحدثه فى حذر ، ولم يحاول أن يسأله عن نفسه ولا عن قصده من زيارته ، منتظراً أن يفضى الحديث بينهما إلى جلاء ذلك عفواً بغير تعمد .

وما هى إلا مدة يسيرة حتى أقبلت ربة البيت مع خادمة تتعاونان على حمل الطعام ، ولما قربت من مجلس الضيف قالت بغير أن تنظر إليه : « مرحباً بضيفنا ! »

وكان امرؤ القيس ينظر إلى المرأة منذ ظهرت له ، وما كاد بصره يقع عليها حتى اعتراه اضطراب ، وتحرك فى مكانه يريد القيام ، وأرتج عليه فلم يجد مدخلا إلى الكلام ، حتى ألقت تحيتها فلم يجبها إلا بصرخة مكتومة خرجت منه قسراً وهو قائم فى ارتباك واضطراب قائلاً : « فاطمة ! »

فنظر أبو عتيبة إلى ضيفه فى دهشة ولم يستطع أن يفهم سر اضطرابه وقيامه ، وتعجب أشد العجب عندما سمعه ينادى امرأته باسمها ! ثم نظر إلى امرأته بعد أن سمعت الضيف يناديها باسمها فرآها تتراجع إلى الوراء ، وقد رفعت يديها إلى صدرها فى ارتياع ظاهر ، وصرخت صرخة أخرى مكتومة قائلة : « امرؤ القيس ! »

وكان أبو عتيبة قد عرف كما عرف العرب قصة امرىء القيس وحبه لفاطمة وخروج أبيها من منازله فى بنى أسد خوفاً من العار ؛ ولكنه تزوج الفتاة مع ذلك منذ سنوات لما عرف عنها من عفة وكمال وما اشتهرت به من جمال وعقل ، ولما كان لأبيها من شرف وفضل بين شيوخ كندة .

ولقد كانت حياته فى تلك السنوات حياة هنيئة ، إذ كانت فاطمة زوجة كاملة لم يجد منها إلا كل ما يحب الزوج أن يجده فى زوجه .

ولكنه عندما عرف أن ضيفه هو امرؤ القيس الذى كان يهوى امرأته لم يلبث أن ثارت نفسه وملأت الغيرة قلبه وقام واثباً فى غضب ينظر تارة إلى الضيف وتارة إلى امرأته ، وقد عقل الاضطراب ألسنة الثلاثة فوقفوا مبهوتين ينظر بعضهم إلى بعض فى وجوم وارتباك .

ولم يطل الموقف بل كان موقف لحظة قصيرة ، ولكنها كانت على قصرها مثل دهر طويل ؛ جالت فيها الخواطر سريعة فى ذهن كل منهم ، فاستعرض فيها ذكريات السنوات فى مثل لمح البرق . ولم يقطع ذلك الموقف المرتبك إلا امرؤ القيس ، فإنه اندفع مسرعاً خارجاً من الخيمة وسار يعدو كأنه يريد النجاة من عدو يلاحقه ، تاركا الزوجين واقفين ينظر أحدهما إلى الآخر فى دهشة وحيرة !

ولم يتكلم أبو عتيبة بعد ذلك بلفظ بل وقف لحظة ينظر فى آثار الضيف الذاهب ، فرأى من اضطرابه فى مشيته وعنف حركته ما جعله ينسى غيرته وثورته ، ثم لانت نفسه فجأة وأحس لذلك الرجل الغريب رحمة وعطفا ، فركب فرسه وعدا فى أثره مسرعاً ؛ أما فاطمة فقد ذهبت إلى خيمتها فما كادت تدخلها حتى مادت بها الأرض وخرّت مُكبّة على وجهها وغابت عن وعيها .

أدرك أبو عتيبة امرأ القيس قبل أن يصعد إلى جانب الوادى ، فوقف ونظر نحوه جامداً فقال له الرجل : « إلى أين يا أبا وهب ؟ » .

فقال امرؤ القيس ولا يزال جامداً : « إلى حيث كنت »

فقال أبو عتيبة : « عزمت عليك إلا بقيت معنا حتى نقريك » .

فقال امرؤ القيس : « ليس إلى هذا من سبيل » .

فعاود الرجل قائلا : « لقد علمت ما كان بينكما . ولست أخشاك على أهلى ، فأنا مطمئن إلى . . . . »

فلم يصبر امرؤ القيس حتى يتم الرجل قوله بل قاطعه قائلا فى جفاء : « لقد كان ما كان . فلا تعد ذكره . لست اليوم ما كنت بالأمس . نعم كنت أهواها . ولكنى اليوم

لا أعرف الحب ، إنما أعرف الخمر واللهو . ولا أحب أن أذكر ماضي أبي . أنا منفي من أبي وأهلي . وأنا كذلك منفي من نفسي . لقد دفنت الماضي عامداً ، وويل لمن يحفر حفرته وينبشه ، اذهب عني فإني لا آمن عليك مني . . . ولا آمن من نفسي على نفسي » .

ثم سار في خطى ثقيلة مترنحة وقصد إلى جانب الوادي فتعقب الرجل وراءه وقال متوسلا : « ولكن إلى أين يا أبا وهب ؟ »

فوقف امرؤ القيس ونظر إليه وقد لان جموده قليلا وقال بصوت ضعيف : « لست أذمك يا زوج فاطمة . قل لي كيف أحييك ؟ »

فقال الرجل : « أنا أبو عتيبة جابر بن يحيي التغلبي » .

فقال امرؤ القيس في حزن : « عد غير مذموم يا أبا عتيبة . سأذهب إلى حيث كنت هائماً في الأرض . لست أحب أن ترثي لي فإني لا أحتمل أن يرحمني أحد » .

وصمت لحظة ثم تغير مظهره وبدا عليه كأنه يتحفز للنضال ، ثم قال بصوت غير متردد : « سأذهب إلى منازلي باليمن ، سأذهب إلى جبل دمّون . هناك الخمر وهناك الصيد ، وهناك صاحباتي : هند ، والرباب ، وسلمى ، وغيرهن كثيرات . لست أعبأ بالأشباح . ما فاطمة إلا شبح خيال . هي خيال لا أراه إلا في الذكرى عند منزل دارس أو طلل بال » .

ووقف عن الكلام لحظة ثم قال في حدة غاضبة : « اذهب عني لا أبا لك فإني لا آمن نفسي عليك . »

ومضى مسرعاً وقد ذهب عنه ذلك الضعف الذي كان اعتراه . ووقف أبو عتيبة ينظر في أعقابه حتى انحدر إلى الجانب الآخر من الوادي وغاب عن عينيه ، ثم مضى حزيناً نحو بيته .

محمد فريد أبو حديد

تراجم الرجال فى الأدب العربى

للأستاذ أحمد أمين

تشغل تراجم الرجال فى آداب اللغة العربية أهم مكان ، وتستغرق أكبر حيز ؛ بل لا نبالغ إذا قلنا إن ما نسميه اليوم « أدب اللغة » كان يدور حول تراجم الرجال من أدباء وشعراء وعلماء ، وذكر شيء من أجود ما قالوا ؛ فأقدم كتب الأدب كالأغاني إنما بني على الأصوات المختارة ، وتدرج منها إلى ذكر الأدباء وترجمة حياتهم ، وأهم ما عرض لهم .

وأكثر الذى نعرفه من ضروب التأليف القديم فى الأدب نوعان : نوع أسس على تراجم الرجال كالأغاني ومعجم الأدباء وطبقات الشعراء ويتيمة الدهر . ونوع أسس على المختار من المنظوم والمنثور ، كالذى ذهب إليه الجاحظ فى البيان والتبيين ، والكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه . فأما نظرة عامة فى الأدب عامة ، أو فرع من فروع الأدب — كالشعر والخطابة — وتحليله تحليلا عميقاً مفصلا ، فذلك ضرب لا نعلم أن الأقدمين وصلوا إليه . والحق أنهم تركوا لنا شيئاً (خاما) يصح أن يستفاد منه بمهارة الصنعة ، وإجادة الفن ، ولم يخلفوا لنا شيئاً ناضجاً يحسن الوقوف عنده .

والسبب فى أن الأقدمين سلكوا هذين الطريقين اللذين أشرنا إليهما أنهما أسهل الطرق على المؤلف ؛ فهو فى ترجمة الرجل يذكر تاريخ ولادته ، وبعض حكايات رويت وحوادث عرضت ، ثم تاريخ وفاته ، وبهذا ينتهى الفصل . وفى الطريقة الثانية يختار ما نثر فى الكتب من النوع الأول وأمثالها ، ثم يربط بينها برباط قوى أو ضعيف ، فتتكون من ذلك مجموعة يصوغ لها اسماً كالبيان والتبيين ، والكامل ، والأمالى ؛ وكلا الضربين نوع من التأليف الساذج ، وأول درجة فى سلم التأليف ؛ ولم يصل البحث فى أوربا إلى هذا النوع من التأليف الذى يحلل ويستقصى ويلق بالنظرة العامة تستغرق الموضوع من جميع جهاته إلا فى العصور الحديثة .

وفى هذا العيب نفسه وقعت كتب التاريخ العربية ، فهى إما دائرة حول السنين يذكر فى كل سنة ما حدث ، أو حول الملوك وولاتهم يذكرون ما حدث فى أيامهم ، فأما النظرة العامة إلى الموضوع ، والاحاطة به ، وتحليله وتعليله ، فدرجة لم يصل إليها مؤرخونا .

ولنعد الآن إلى ما نحن بصدده من تراجم الرجال ، فالذى يظهر لنا أن الباعث الأول على ترجمة الرجال — فى الاسلام — كان باعثاً دينياً ، وذلك من وجهين : الأول أن المسلمين فى أثناء جمعهم للحديث رأوا منه قسماً كبيراً يتعلق بحياة النبى (ص) وغزواته ، وحوادث تتعلق بكبار الصحابة كأبى بكر وعمر وحروبهما وفتوحاتهما ، فكان ذلك أساساً لوضع كتب السير ؛ وقد رووا أن أول من ألف فى سيرة رسول الله (ص) عروة بن الزبير بن العوام ، (٢٣ — ٩٤ م) وأبان بن عثمان بن عفان (٢٢ — ١٠٥ م) فكان عملهما فى وضع سيرة الرسول أساساً لوضع سيرة غيره من كبار الصحابة ، ثم تلاحق الأمر واتسع . (الثانى) أن علماء المسلمين لما هالهم كثرة ما وضع كذباً على رسول الله (ص) من الأحاديث لجئوا إلى وسائل يعرفون بها صحيح الحديث من ضعيفه ، وكان من هذه الوسائل تشريح رجال الحديث من الصحابة والتابعين ، وتقدم

وتعديلهم وتجريحهم، فتكوّن من ذلك مجموعات من تراجم الرجال وسيرهم وشيء مما حدث لهم، ليستفاد منه صدقهم أو كذبهم، ثم جاء رجال الأدب فقلدوا المحدّثين وحذوا حذوهم، وبنوا أدبهم على هذه التراجم التي أحكموا تقليدها.

ودليلنا على أن الأدباء قلدوا المحدّثين، أن المحدّثين كانوا أسبق إلى هذا العمل تاريخاً، فني العهد الأموي نرى عروة وأباناً يكتبان سيرة النبي، ونرى أحاديث قيلت في جرح الرجال وتعديلهم، ونرى في صدر الدولة العباسية شعبة بن الحجاج ويحيى بن سعيد القطان يؤلفان الكتب في نقد المحدّثين وبيان صادقهم من كاذبهم؛ مع أنا لا نعلم في هذا العصر كتاباً أدبياً يصح أن يقال إن موضوعه تراجم رجال الأدب.

بل نرى من أقوى الأدلة على ذلك أن الصّبغة التي اصطبغت بها كتب التراجم الأدبية صبغة محدّثين أكثر منها صبغة أدباء، خصوصاً ما ألف منها أيام سطوة المحدّثين ككتاب الأغاني، فإنك ترى فيه الاسناد على نمط إسناد المحدّثين، والتعبير في كثير من الأحيان تعبير حديث. وذلك كقوله (أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبي عبيدة قال بلغني أن هذا البيت (لا يذهب العرف بين الله والناس) في التوراة .... قال إسحق: وذكر عبد الله ابن مروان عن أيوب بن عثمان الدمشقي عن عثمان بن عائشة قال سمع «كعب الحبر» رجلاً ينشد بيت الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال: والذي نفسي بيده إن هذا البيت لمكتوب في التوراة. قال إسحق قال العمري: والذي صح عندنا في التوراة «لا يذهب العرف بين الله والعباد»[1]).

فلعلك ترى معي أنك وأنت تقرأ هذا كأنك تقرأ قطعة من أحاديث البخاري.

ومن أكبر المظاهر التي تأثرت بها كتب تراجم الأدباء بكتب المحدثين احتجاب شخصية المؤلف، تقرأ في الأغاني فيمرك روايات عن الرجل وأحاديثه ووقائعه وأدبه وشعره، ولكن قلّ أن تظفر منه بكلام له أو نقد لشعر، أو تعليق على حادثة، أو نحو ذلك، ويظهر لي أن هذا أيضاً أثر من آثار نمط المحدّثين، فقد حصروا أنفسهم في دائرة النقل، نقل ما حدثوا به، ونقل ما يلقهم عن الرجل، وذلك إن جاز في الحديث ومجال القول ضيق، لأن المحدث لا يهمه من المترجم له إلا ما يدل على صدقه أو كذبه وتجريحه أو عدالته — فما كان يجوز في الأدب، ومجال القول ذو سعة؛ وشخصية الأديب في النقد والتحليل، وبيان المحاسن والمساوي، وموضع الحسن أو القبح، لها القيمة الكبرى في الفن الأدبي. ولكن هو التقليد للمحدّثين نزع بهم هذا النزع. وليس هذا مقصوراً على كتب التراجم، بل هو — أيضاً — في أصول كتب الأدب المؤلفة في ذلك العصر؛ فإذا قرأت في البيان والتبيين أو عيون الأخبار لابن قتيبة لم تجد المؤلف شخصية بارزة، مع قدرتهما الفائقة وما لهما من بسطة في العلم والأدب، ولو أحصيت ما للجاحظ في البيان والتبيين لم تجد له ربع الكتاب ولا خمسه، وإنما له الاختيار والجمع — شأن المحدّثين في الحديث. وكذلك الشأن في عيون الأخبار والأغاني وغيرهما.

ولعل في هذا ما يكفي لاثبات أن الأدباء كانوا مقلدين المحدّثين في وضعهم للتراجم.

على كل حال كان لنا تراجم للرجال نحوا فيها مناحي مختلفة؛ فمنهم من ترجم لكل شخص ممتاز بأي نوع من أنواع المميزات، كما فعل ابن خلكان في «وفيات الأعيان» فقد ترجم لكل عين وكما يقول هو: «لأولي النباهة» ولم يستثن إلا الصحابة والتابعين والخلفاء؛ فترجم للمالي والفقيه والتصوف والشاعر والأديب والنحوي واللغوي والوالي والشعود. ومنهم من اقتصر على طائفة خاصة كما فعل ياقوت

(١) الأغاني ٥١ ج ٢.

فى معجم الأدباء ، فقد ترجم فيه للأدباء خاصة ، وكما فعل ابن قتيبة وابن سلام فى «طبقات الشعراء» وكما فعل السيوطى فى «بغية الوعاة فى تراجم النحاة» . ومنهم من اقتصر على تراجم الأدباء فى عصر خاص كما فعل الثعالبى فى كتابه «يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر» الخ .

والآن نعرض لمسألة هامة وهى : هل وفى هؤلاء المترجمون بالغرض الذى قصدوا إليه ؟

وقبل ذلك يجب أن نبحث متى تكون ترجمة الحياة جيدة وافية بالغرض ؟

المترجم «واصف» لمن يترجمه ، والواصف ينبغى أن يُخرج بقلمه ولغته ما يخرجه الرسام بريشته ، بل القلم مجال أوسع من الريشة ، فالقلم يستطيع أن يتغلغل إلى المعنويات من أخلاق وعقلية ومشاعر وصفات نفسية ، على حين أن الريشة لاتستطيع أن تصل إلى شىء كثير من ذلك ؛ نعم إن القلم يلاقى من الصعوبة ما لاتجده الريشة ، فإن الريشة مرنة مطواع أمامها ماديات ذات مقاييس خاصة ونِسَبٌ معينة يسهل على المصور أن يراعيها ، ولكن الكاتب يعانى بقلمه فى إخراج الصورة كاملة متسقة أكبر العناء . يجب أن يكون الواصف من دقة الحس ويقظة العقل وحسن التقدير لما يهم وما لا يهم ولطف الذوق والقدرة على الإبانة بحيث يستطيع أن يصف لك الشخص الموصوف كأنك تراه ، بل أكثر من أن تراه ؛ فهو يريك من المعنويات مالا ترى ، ويريك الصورةَ الشىء دفعة واحدة ، فتستطيع أن ترى النسب بين أجزائها ، وتدرك الجمال التركيبى كما تدرك الجمال الافرادى ، والكاتب الماهر يسلسل بين أقواله ويصِّلها بالتعلق الصحيح والأسلوب الأخاذ ، فيسرق منك نفسك ، فلا تنتبه إلا وقد وعيت صورة الموصوف كاملة — يرى الواصف الشخص فيدرسه ويخبره ثم يدرسه ويخبره ، ويجمع حوله كل مايهمه ، ويمحصه ، حتى إذا اجتمعت له فى ذهنه صورة كاملة متناسقة تؤلف وحدة ، استطاع أن يبرزها بقلمه فيشرك غيره فى رؤية مايرى . فإن كان الواصف لم يدرك عصر الموصوف جمع أخباره وحوادثه وقصصه وامتحنها بكل ما اخترع «البحث» من وسائل للامتحان ، ثم كان شأنه معها شأن سابقها .

وهناك نوعان من التراجم يصح أن نسميهما تراجم خارجية وتراجم ذاتية ، ونعنى بالأول تراجم يقتصر فيها المترجم على وصف المترجم له بذكر الحقائق الخارجية والوقائع التى حدثت للمترجَم من غير أن يشوبها المترجم بشىء من أفكاره ومشاعره . والترجمة من هذا النوع ليست إلا ثَبْتًا للحقائق ، وهى بالمؤرخ أشبه ، أما النوع الثانى فتراجم يذكر فيها المترجم ما وصل إليه من حقائق ويحللها ، ثم يتبعها رأيه فى المترجَم إما دفاعاً عنه أو هجوماً عليه ، إما نقداً وذماً وإما مدحاً وتقريظاً ، إما استحساناً المأثور من أقواله وآرائه أو استهجاناً ، وهذا النوع بالأدب أليق .

وليس يترجَم من الرجال إلا من كانت له ناحية من نواحى النبوغ كالسياسة أو الأدب أو اللغة أو النحو أو الخلق أو العلم ، فواجب المترجم أن يدلنا على موضع نبوغ من يترجمه ويعطيه أكبر عنايته ، ويجعل القارئ يكاد يلمسه بيده ، فإن هو قصر فى ذلك فقد قصر فى أهم ركن للترجمة .

إذا نحن نظرنا — فى ضوء هذه القواعد التى ذكرناها — إلى كتب التراجم العربية وجدناها على اختلاف أنواعها معيبة من جملة وجوه ، وهى فى هذه العيوب تختلف شدة وضعفاً .

فأظهر عيب فيها أنها لم تسلك طريق البحث العلمى ، فقد وضعت فيها الأساطير والخرافات بجانب الحقائق من غير تمحيص ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى تراجم رجال الدين والتصوف ، فعندهم يفقد المترجِم ملكة النقد ، ويسلم بكل ما حكى له .

أضف إلى ذلك أن الترجيم يكثر من ذكر الأقوال المختلفة ، ويتركها على عواهنها من غير أن يبذل جهداً في تحقيقها ، والخروج منها بنتيجة يرضاها ؛ فتقرأ مثلا في ابن خلكان قولاً يقول إن أبا تمام الشاعر المشهور من قبيلة طيئ ، وقولاً يقول إن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم (قرية من قرى دمشق) يقال لها تدوس العطار فجعلوه أوساً ، وقد لفقت له نسبة إلى طيئ ، ولكن أى القولين أصح ؟ وماذا بذل المؤلف من الجهد في تحقيق هذه المسألة ؟ لا شيء من ذلك ، ولكن أقوال يرصف بعضها بجانب بعض من غير تمحيص ؛ وترى في كتاب « الأغاني » من هذا الضرب الشيء الكثير . وقل مثل ذلك في الوقائع التاريخية ، فهي تقال وتذكر فيها الروايات المختلفة ، ثم يقف قلم المؤلف ؛ مع أن المعقول أن جمع هذه الروايات المختلفة ليس إلا مقدمة لتمحيصها والخروج منها بنتيجة تقرب إلى الصواب .

الحق أن النقد عند كتاب التراجم كان ضعيفاً ، ولم يمهروا في امتحان الحقائق وتخليص جيدها من رديئها . نعم إنا نعثر في « وفيات الأعيان » لابن خلكان و « معجم الأدباء » لياقوت و « الأغاني » على نتف صغيرة من النقد ، تدل على دقة ملاحظة وجودة نظر ، وربما كان أفضلهم في ذلك ابن خلكان ، ولكنها مواقف نادرة قليلة لا يصح أن يقال إنها النظام المتبع في التأليف .

كذلك من أوضح العيوب البارزة في هذه الكتب ، أن المؤلفين لم يستطيعوا أن يقوموا موضع نبوغ المترجم له فيخصوه بالشرح الوافي . قد كنت أفهم أن كتاباً كبغية الوعاة في أخبار النحاة يعني في تراجمه بهذه الناحية النحوية ، فيبين مكانة المترجم في النحو ، وموضع نبوغه ، وأي شيء جدد في النحو حتى استحق أن يترجم ، ولكن قل أن أعثر فيه على شيء من ذلك ؛ ومثل ذلك يقال في طبقات المحدثين والفقهاء والأدباء !

أغرب ما في هذا النوع عناية المترجين بالشعر لغير الأديب والشاعر ، فترى كثيراً منهم — كابن خلكان — يتحشون المترجم من بيتين أو أبيات من الشعر ينسبها إليه ، ويذكرها بجانبه ، ويجعل لها مكاناً ممتازاً في ترجمته . ولو كان هذا الذي يترجم له شاعراً أو أديباً لغفرنا للترجيم هذه العناية ؛ أما والمترجم مالي أو مشرع أو محدث أو اجتماعي ، فما قيمة بيتين أو أبيات قالها في حياته ؟ أليس سخيفاً أن تقرأ في ابن خلكان ترجمة الإمام الشافعي فلا ترى فيها شرحاً لموضع نبوغ الشافعي ومقدرته في التشريع ، وبماذا يمتاز من بقية الأئمة ، وأين مكان مذهبه من الرأي والحديث ؟ ثم تراه يعني عناية فائقة بأبيات ضعيفة رويها له ، وهذا هو بعينه ما فعله في ابن جرير الطبري المؤرخ ، وطلائع بن رزيك السياسي ، والفارابي الفيلسوف .

إنما يجب أن يذكر للشاعر شعره ، وللفقيه فقهه ، وللسياسي سياسته ، وللفيلسوف فلسفته ، ويجب أن تكون هذه الناحية هي أهم ناحية يعنى بها المترجم .

* * *

هذا وقد عني المحدثون بوضع تراجم مفردة مستقصية ، تحلل فيها الأشخاص والحوادث تحليلا دقيقاً ، ويعتمد فيها على النمط الحديث في البحث ، ويستفاد فيها مما وصل إليه علم النفس من استكشاف وبما وضع علماء الأدب المحدثون من أنماط . ونرجو أن يتتابع التأليف على هذا النمط ، ويتمشى في الرقي مع الزمن ، حتى تكون لنا مجموعة قيمة من تراجم المشهورين في العصر الاسلامي من أدباء وفلاسفة وشعراء وغيرهم ، تقرأ الترجمة فتشعر كأن المؤلف أحيا المترجم وبعثه من جديد ، وتشعر وقد قرأت الترجمة كأنك لقيت المترجم وعاشرته وحدثته وقرأت كتبه واستقصيت دخيلة نفسه[1] .

أحمد أمين

(١) اقترحت خلاصة — لهذا البحث — في مجلة الحديث الغراء التي تصدر في حلب .

أول ما عبست

للآنسة سهير القلماوى

كنتَ فى الثالثة من عمرك يا عُمَر ، أيام جئت هذا البيت الذى تسكنه الآن ، وكنت مرحا تتدفق حيوية كما أنت ، وكما أدعو الله أن تظل أبداً . وفى يوم جئت عندك فإذا أنت تلقانى وفى يدك طفلة صغيرة تكبرك . ولكنك كعادتك تأبى أن تعترف لطفل بأى امتياز ، فلا يجمعك والأطفال اجتماع إلا كنت الزعيم المسيطر عليهم سيطرة الضعيف على القوى . لذلك كنت تسحب هذه الطفلة من يدها كأنما اعتيادها كله عليك .

وقلت لك : من هذه ؟ فقلت : « خضراء خضراء ، ألا تعرفينها » . وفى سذاجة الأطفال توهمت أن كل ما تعرفه أنت معروف عند كل الناس ، وأن عالمك الذى باللعب هو العالم الذى يعيش فيه الناس أجمعون . لم تكن تتصور أن هناك عوالم أخرى غير هذا العالم الجميل البرىء الذى تسبح فيه . ولما قلت لك إنى لا أعرفها نظرت إلىّ نظرة المستخف بى لجهلى ، وقلت : « هى بنت عم شيم » تريد بذلك « سليماً » بستانى حديقتك .

ولقد أصبح « عم شيم » كما كنت تسميه علماً عند الأسرة بفضلك ، بل لقد أصبح بطلا للأحاديث ، لأنك جعلت منه بطلا لدنياك الصغيرة . وكان حبك له وإعجابك به معروفين لدى كل من عرفك . ولكم ضحكنا ، ولكم استعدناك حينما كنت تقص علينا الأخبار السياسية التى كنت تستقيها من عم سليم . وكم سمعنا منك العجب من أنباء حرب الحبشة : فموسلينى بطل عظيم لا تكاد تقول إنه عمل شيئاً إلا قلت وأنا مثله « أنا كمان موسلينى » وأصبحت حرب الحبشة بفضل بستانيك جزءاً هاماً فى حياتك . ما لعبت والأطفال إلا كانوا جيشاً طليانياً

وكنت أنت وحدك موسلينى . كل ما كان يقال لك باطل إلا ما قاله عم سليم . وكل إنسان سخط عليه عم سليم فهو أحقر الخلق ، وكل إنسان أحبه فهو سيد الدنيا . وكانت أخبار بستانيك تنال هذا الأثر منك ، لأنها كانت مدعمة بصور « آخر ساعة » و « روز اليوسف » فكانت تبهرك الألوان ، وتدهشك البالغات والمضحكات .

وكان بستانيُّك مثلك يحب السيطرة على من حوله ويظهر بمظهر المحرك لأمور الخدم ، لا خدم المنزل فقط وإنما خدم الحىّ كله . وكانت قوته الجثمانية أكبر مساعد له على ما ادعى لنفسه من سلطان . وانسجمت أنت وهذا البستانى انسجاما لم يفلح فيه ترغيب ولا تهديد واضطرت أمك أن تعترف بهذه الصلة واكتفت بأن تراقبها وتحد منها ما استطاعت .

وهذه خضراء بنت بطلك الذى تعجب به ، تنال من حبك وعطفك عليها ما كانت تصبو إليه .

كم دخلت على أمك لاهثاً تطلب حلوى أو قرشا ، فإذا سئلت : لمَ ؟ قلت : « لبنت عم شيم » فإذا قيل لك : مالك وما لها ؟ استعطفت عليها قلوب من حولك بوسائلك الكثيرة الناجحة أبداً حتى يذعنوا لك .

وإنى لأذكر يوماً فاجأتنى فيه بقولك : إن العيون الخضراء جميلة جداً : فسألتك : ولمَ ؟ قلت : عم سليم عينه خضراء وكذلك ابنته . هكذا كان أثرها عليك وعلى عالمك الصغير .

ومرت أشهر وكنت أقضى عندك يوما . وأخبرتنى أختى أنك تَبَرم لأنك لا تجد من تلعب معه ، فأخوتك فى مدرستهم وعم سليم فى بيته منذ أمس لأن ابنته مريضة . فجلست ألاعبك وكان يوماً من أجمل أيام الشتاء فى مصر . وقضيت معك ساعات غرقت فيها فى عالمك الساذج الظريف . كم بنينا من بيوت وضحكنا لهدمها ، وكم جرينا وراء الكرة وصرخنا فى سباقنا إليها . وكم أردتَ أن أكون

هيلاسلاسي وتكون أنت موسليني لتهزمني . وكنت أجرى أمامك فإذا أنت تناديني : أن قِف ، فوقفت فقلت : ابعدني من هنا . قلت : « ماذا ؟ » قلت : لأنك تدوسين فوق « ليلي » قلت لك : كيف ؟ فقلت لي إن كليتك « لَلى » صدمتها السيارة فماتت ودفنتها أنت وعم سليم هنا . وأشرت إلى المكان . قلت لك : ومن أين عرفته ؟ فتحيرت ثم قلت : إنه هنا وكأنما أردت أن تقول : « ولا تعارضيني » . ونظرت إلى وجهك جيداً فلم يكن فيه حزن ولا فرح . كنت تقول ما تقول كأنه شيء عادي . وإن كان أي شعور قد خالجك فهو شعورك بالزهو لأنك لازلت تذكر حادثة مرّ عليها ثلاثة أيام أو أكثر .

وانقضى اليوم على أحسن ما نحب ودنت ساعة الغروب ، وبدأ شيء من البرودة يسري في الجو . وقلت لك : هيا يا عمر ندخل المنزل ، فأبيت . قلت لك : ألا تخاف من البرد ؟ قلت : ولا يهمني . وكنا نهددك دائماً إذا لم تطع أمراً بأننا سوف نبيعك إلى اليهودي ونشتري بدلاً منك طفلاً آخر أجمل وأكثر أدباً . وكنت لازلت تصدق هذا الكلام ، وكثيراً ما كنت تتساءل ساهماً : وماذا يفعل بي اليهودي ؟ فكنا نقول لك : يعلمك الطاعة وتصبح عنده واحداً من مئات فلا يلتفت إليك ولا يهتم بك ، وإنما يطعمك أسوأ طعام ويكسوك أخشن كسوة ويجردك من كل ما تنعم به الآن ، لأن هذا لا يكون إلا للأطفال الذين يطيعون من هم أكبر منهم . فقلت لك : سأنتظرك فإن لم تصعد إليّ بعد قليل كلمت اليهودي في « التليفون » ليحضر لنا الطفل الآخر ، فنظرت إليّ ولم تعبأ .

وأطللت من الشرفة أغريك على الصعود إليّ ، وظللت تلعب في الحديقة وتناديني . ثم رضيت أخيراً أن تصعد بشرط أن نلعب الكرة في غرفتك ، فذهبت ألقاك على السلم .

وهناك وجدت أمك تحدث البستاني ، وفي صوتها رنة الألم والشفقة ، قلت لها : « ماذا ؟ » قالت : « خضراء ماتت » . فوجمت وإذا بك تندفع اندفاعك القوي صاعداً الدرج بأسرع ما تستطيع ، ولكنك تقف قبيل نهايته لأنك رأيت بستانيك نازلاً وحييته بصوتك الصافي الطرب الذي كان صرخة الحياة وسط هذا الجمود الواجم . وحياك في هدوء غير معهود ، فقلت له : « مالك يا عم شيم » . فقال لك وهو حابس بكاءه : « خضراء ماتت » .

إن أنس فلن أنسى يا عمر نظرتك تلك ، وقد كان الدرج مظلماً قليلاً ، إلا أن وجهك كان واضحاً فيه . لقد بهت ووقفت وعيناك الزرقاوان حائرتان في ألم وحزن ، ثم سألت في صوت ضعيف كأنه صدى آت من بعيد : ودفنتها في التراب زي « للى » ؟ كأنما كنت تستنكر أن يكون الإنسان كالحيوان في الموت ، فقال لك : « ودفناها » . وهنا عبستَ لأول مرة في حياتك عبسة الألم النفساني . ووقفت برهة صامتاً وقفة لم تلفها في حياتك من قبل ، برهة خاطفة لم أدر ما كان يدور برأسك الصغير فيها ، ولكنها كم حزت في نفسي . لقد رأيت سحابة قاتمة كأنها الظل الكثيف ، تمر بهذا الوجه الباسم المشرق فكسته لوناً باهتاً وغيرت من ملامحه . وكنت أدركك لأخفف عما تفكر فيه ، وقد نسيت أنك طفل ، وقد نسيت أنك عمر من بين الأطفال أجمعين ، وإذا أنت تقول في سذاجة الأطفال ، وقد بدأ صوتك يعلو ، وبدأ مرحك يطفو فوق هذا الجو الحزين الذي أثقل المكان : « ما يَزعلش يا عم شيم ، بكرة تشتري لك بنت ثانية من عند اليهودي » .

ومضت أيام قليلة ، فإذا أنت لا تذكر خضراء ، ولا تسأل عنها . وسرعان ما اعتدت أن تكون غير موجودة في لعبك . وجاءك عم سليم يقول لك إنه رزق ولداً ، وإنه أستأذن أمك في أن يسميه عمر ، ففرحت

صور من السياسة والتاريخ :

ألمانيا الهتلرية كما عرفتها

تحقيق ومشاهدات واقعية

٣ – أمة فى طريق الجوع

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تعيش ألمانيا الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) من الناحية الاقتصادية فى ظل أنظمة مصطنعة تناقض فى معظمها قوانين الاقتصاد الرعية . والاشتراكية الوطنية تسخّر موارد الشعب الألمانى وثرواته جميعاً لبناء القوة العسكرية التى تحلم بأن تغزو بها العالم . وقد أرغمت من جراء ذلك على أن تلتجئ إلى القواعد والقيود الاستثنائية فى كل ما يمس الاقتصاد الوطنى . والمعروف أن موارد ألمانيا وثرواتها قد استنزفت خلال الأعوام الأخيرة فى سبيل المعدات العسكرية ، وأن اقتصادها الوطنى يقوم الآن على أسس مصطنعة واهية .

وليس من غرضنا أن ندرس فى هذا الفصل نظم ألمانيا الاقتصادية ، وإنما نريد فقط أن نلقى نظرة عاجلة على مظهر من مظاهر هذه النظم ، وما أدت إليه من دفع الشعب الألمانى إلى بؤس الضيق والحاجة ؛ وأبرز هذه المظاهر بلا ريب ، وأكثرها مساساً بحياة الشعب ، هو حالة التغذية والتموين ، وهى حالة تبعث اليوم إلى الشعب الألمانى أعظم الوساوس والمخاوف .

وسنعتمد فى ذلك قبل كل شىء على المشاهدات الواقعية . ومشاهداتنا فى ذلك ترجع إلى العام الماضى ؛ وقد لاحظنا عندئذ فى النمسا وألمانيا أن الأطعمة فى نقص ، وأن الأصناف الممتازة أصبحت نادرة ، وأن الغلاء قد اشتد عن ذى قبل ؛ وقيل لنا يومئذ إن ذلك لا يرجع إلى نقص فى تموين ألمانيا ، وإنما يرجع إلى ما تقوم به السلطات من تخزين المؤن تحوطاً للمستقبل . أما فى زيارتنا الأخيرة لألمانيا (قبيل نشوب الحرب) ، فقد شعرنا فى الحال بأن أحوال التغذية قد ساءت إلى حد كبير ، وأن الشعب الألمانى يعانى حقيقة أزمة ظاهرة من الشظف والحرمان . وكانت بعض الأصناف تصرف منذ أشهر بطريق البطاقات مثل الزبد والبن والشاى ، وكان الجمهور يتهامس بأن البطاقات ستشمل بعد أيام قلائل كل شىء ؛ وقد كان ذلك فعلا ، فمنذ ٢٦ أغسطس صدر نظام البطاقات شاملا لمعظم الأطعمة والحاجات الضرورية ، ووزعت على جميع أفراد الشعب الألمانى ، وعلى الأجانب النازلين فى ألمانيا ، وأمامنا نص القرار الذى صدر فى هذا الشأن ، متضمناً للأصناف والمقادير ، وهذا بيان ما ورد فيه مخصصاً لكل فرد من أفراد الشعب .

وطربت ، ولما قابلتنى كان أول ما قلت لى : « عم شيم بق عنده عمر اسمه زى اسمى » . وانتظرتُ منك أن تذكر خضراء بهذه المناسبة ، فإذا أنت تجرى لتلعب ، ولا تذكر شيئاً .

لقد كنت تنعم بنعيم طالما ارتفعت بطلبه الدعوات حارة نحو السماء . لقد كنت تنعم بنعيم النسيان .

سهير القلماوى

الصنف	المقدار
اللحم سواء بأصنافه العادية أو المقددة	٧٠٠ جرام في الأسبوع
منتجات اللبن أو الزيت أو الشحم	٦٠ جراما في اليوم
السكر	٢٨٠ جراما في الأسبوع
الرز	١١٠ » » »
ويمكن أيضا استبدال الرز بالسكر بمقدار	٥٥ » » »
الشعير اللؤلؤي والحب المجروش بأنواعه	١٥٠ » » »
البن أو ما يقابله (⅛ الرطل)	٦٣ » » »
الشاي	٢٠ » » »
اللبن	٢٠و٠ من اللتر في اليوم

(١) وللأطفال الذين أقل من ست سنوات علاوة على ما تقدم نصف لتر من اللبن في اليوم ، وذلك بناء على شهادة من السلطات المختصة ، فيكون أقصى ما يخصهم ٧٠ر٠ من اللتر في اليوم .

(٢) وللحوامل والأمهات المرضعات ٣٠ر٠ من اللتر من اللبن ، علاوة على ما تقدم في اليوم . وذلك بناءً على شهادة السلطات المختصة ، فيكون أقصى ما يخص الواحدة ٥٠ر٠ من اللتر في اليوم .

(٣) والعمال الذين يزاولون أعمالاً شاقة من الزيت أو الدهن ٥٠ جراماً في اليوم علاوة على ما تقدم ، و٤٩٠ جراماً من اللحم علاوة في الأسبوع ، أو بعبارة أخرى لهم أن يحصلوا في الأسبوع على ١١٩٠ جراماً من اللحم .

وتثبت حالة العمال الذين يزاولون أعمالاً شاقة وفقاً لنظام خاص .

صابون الغسيل	١٢٥ جراما كل أربعة أسابيع
أو من صابون الزفر السائل	٢٠٠ » » » »
أو من صابون الزينة	١٢٥ » » » »
مسحوق الصابون	٢٥٠ » » » »
أو صابون الزفر السائل	٢٠٠ » » » »
أو صابون الزينة	١٢٥ » » » »
أو أية مواد أخرى للغسيل	١٠٠ » » » »

أما عن الأقمشة فإنه يجب التزود بالبطاقات لشراء ما يأتي :

الثياب الخارجية للرجال والنساء — الثياب الداخلية أغطية الفراش — اللوازم المنزلية — وكل ما يبيع بالمتر .

كذلك يجب التزود بالبطاقات أيضاً لشراء الأحذية والبضائع الجلدية .

والثياب والأحذية والبضائع الجلدية يمكن شراؤها إذا أقيم الدليل على ضرورتها ، وذلك بناء على شهادة تعطى من السلطات المحلية .

وفيما يتعلق بالفنادق والبنسيونات والمطاعم والمستشفيات والمعاهد ، فإنه يجب عليها أن تحصل على المقادير اللازمة لها من مختلف الحاجات بواسطة شهادات تعطى لها من السلطة المختصة .

وإلى أن تصدر أوامر أخرى يمكن للأفراد الأكل في المطاعم دون تذاكر .

(وفي الأنباء الأخيرة أن ما يصرف إلى المطاعم من الشحم واللحم قد خفض إلى ٦٠ في المائة ، وخفض ما يصرف من السكر إلى النصف ، وذلك لكي لا يتجاوز الأفراد حدود البطاقات بالأكل في المطاعم) .

وقد بقي الخبز والبطاطس والدقيق والفاكهة والبقول مؤقتاً حرة من قيود البطاقات .

هذه محتويات القرار الوزاري الصادر بتنظيم بطاقات الأطعمة والحاجات الضرورية . وقد علقت الصحف على هذا القرار تطميناً للشعب بقولها إنه لا يقصد به التضييق والحرمان ، ولكن يقصد به التنظيم والتوزيع العادل حتى يستطيع كل أن يشتري ما يخصه ، وحتى لا يطغى الأغنياء عالم على الفقراء ، وإن ألمانيا لديها من المؤن المخزون ما يكفيها لمدة عام ، هذا فضلا عن المحصول الجديد ، وإن في وضع هذا النظام دليل على اعتماد ألمانيا على نفسها واستغنائها عن معاونة الخارج .

على أن هذه التعليقات المعسولة لا تغير شيئاً من الحقيقة المرة ، وهو أن الشعب الألماني يعاني منذ أشهر

حالة من شظف العيش تنذر بأن تغدو فى القريب العاجل نوعاً من المجاعة الواضحة . ويكفى أن نلقى نظرة على المقادير الضئيلة التى تمنح للأفراد من اللحم والشحم والسكر والزبد فى الأسبوع لتقدر هذه الحقيقة ؛ وقد تقررت هذه المقادير قبيل نشوب الحرب ، ولم تمض أيام قلائل على نشوبها حتى أنقصت جراية اللحم إلى ٥٠٠ جرام لكل شخص فى الأسبوع ، وأنقصت جراية السكر والزبد ، ومنع اللبن عن البالغين بتاتاً ، ولا يسمح به الآن إلا للأطفال والأمهات . وقيد بيع الخبز والدقيق وأخضع لنظام الجراية . وسوف تنقص هذه المقادير بلا ريب متى طال أمد الحرب . والشعب الألمانى كما هو معروف شعب أكول ، ويمكننا أن نتصور ما يعانيه فى ظل هذا الحرمان من الآلام النفسية والجسمية . ولقد لمسنا نحن دلائل هذا الشظف والحرمان حينما تقلبنا فى المطاعم والمقاهى ، حتى قبل أن يصدر نظام البطاقات . ففى أكبر المطاعم البرلينية وأفخمها كانت تقدم ألوان محدودة جداً . هذا فضلاً عن رداءة معظم هذه الألوان وقدمها ، وكان من النادر أن يقدم إلينا لون جيد طازج ، والأطعمة المحفوظة هى الكثرة الغالبة ، والبقول والفاكهة نادرة جداً ؛ والزبد أو الشحم المستعمل فى الطهى أو الذى يقدم إليك فى مختلف المناسبات وهو واحد دائماً هو أشنع ما يمكن تصوره رداءة وطعماً ، بل هو كالسم اللاذع برائحته وطعمه الكريه . ولقد حدث أكثر من مرة أن قدمت إلينا فى مطاعم فخمة فى برلين وفينا ألوان وأطباق باردة متغيرة الرائحة كنا نرغم على أكلها خيفة الجوع . واشتريت ذات يوم من محل حلوى فخم فى برلين فطائر منظرها شهى جميل لآكلها بالنزل . ولكنى ما كدت أتناولها حتى ذعرت لرائحتها الكريهة ، وألقيتها فى الحال فى سلة المهملات ، ولو عرضت مثل هذه الأطعمة فى القاهرة لكان محققاً أن تعدمها وزارة الصحة وأن يحاكم مقدموها ؛ وتقدمت فى فينا إلى محل بقالة لأشترى بعض الأطعمة المقددة فراراً مما يقدم إلينا فى المطعم ، فقيل لى إنه لا سبيل إلى شرائها إلا بالبطاقة ، ولم أحصل عليها ؛ وقالت لى ربة منزل إنها تتوق منذ أيام إلى اقتناء شىء من البيض ، وأنها لم توفق بعد البحث إلا إلى اقتناء بيضة واحدة . وذكر لى صديق قنصل مصر فى فينا أنه حاول أن يحصل لطفله على ربع لتر من اللبن فوق المقرر بالبطاقة ، فطلب إليه أن يقدم شهادة من طبيب بحاجة الطفل إلى ذلك . والأمثلة الواقعية لا حصر لها على هذا الشظف الواضح الذى يعانيه الشعب الألمانى . ومن المحقق أن هذا الشظف سيزداد مع الأيام شدة ، وقد يغدو قبل بعيد مجاعة حقيقية تفتك بصحة الشعب أعا فتك وتقضى على ما بقى من قواه المعنوية .

وهل من حاجة إلى القول بأن تقرير نظام البطاقات الغذائية فى ألمانيا حتى قبل نشوب الحرب هو أسطع دليل على إفلاس النظام الهتلرى من الناحية الاقتصادية ؛ إن هذه الحقيقة التى حاول الهتلريون إخفاءها طويلا تبدو اليوم بكل روعتها للشعب الألمانى . وفى اعتقادنا أنها ستكون من أهم العوامل فى تقويض أسس النظام الهتلرى . ولقد منّى الهتلريون الشعب الألمانى طويلاً بأن قوتهم العسكرية التى اقتضت حرمانه من لذائذ العيش الرغد ، ستغدو كفيلة بأن تحقق له هذا الرغد بالاستيلاء على أراضى الأمم الأخرى وثرواتها بحجة الفضاء الحيوى وما إليه من النظريات الاستعمارية المغرقة ، ولكن ظهر أن هذه الأمنية دونها معركة الحياة والموت ، وأن الشعوب الأخرى تحرص على أراضيها وثرواتها حرص ألمانيا الهتلرية على استلابها .

محمد عبد الله عنان

إمضاءات الفنانين فى الاسلام

للدكتور زكى محمد حسن

يرى المشتغلون بدراسة الفنون الاسلامية فى العصور المختلفة أن الفنانين أنفسهم لم يكن لهم فى المجتمع ما كان للفنيين فى الأمم الغربية من شأن عظيم ، ومن أوثق الأمور صلة بهذه الظاهرة أن إمضاءات الفنانين فى الأقاليم الاسلامية كانت نادرة إلى حدّ ما . ولسنا نريد أن نذهب إلى أن المهندسين والمعماريين والفنانين والصناع المسلمين لم يخلفوا من العمائر والتحف عدداً وافراً ، يمكننا أن ننسبه على وجه التحقيق إلى فنانين نعرف أسماءهم ؛ ولكننا نؤكد أن تلك العمائر والتحف نادرة نسبياً ، وأن ما نستطيع أن نعرفه عن رجال الفن فى الغرب وعن آثارهم الفنية ، لايدانيه فى شىء مايمكننا كشفه من بيانات قاصرة ناقصة عن بعض رجال الفن فى العالم الاسلامى . أما معظم هؤلاء الرجال فقد كانوا نكرة لم تصل إلينا أسماؤهم ، وإن عرفنا أسماء بعضهم ، فاننا لا نكاد نجد فى المصادر التاريخية والأدبية شيئاً عنهم .

وفى رأينا أن هذا راجع إلى أمرين : الأول أن الفن الاسلامى فن غير شخصى . والثانى أنه فن أرستقراطى .

أما انه غير شخصى ، فلأن المثل الأعلى للفنان المسلم أن يقتفى أثر الأقدمين ويحذو حذوهم ، وأن يسير على الأساليب الفنية الموروثة . وكان معظم الفنانين المسلمين فى مصر وإيران والأندلس وتركيا وسائر الأقطار الاسلامية لا يعملون على أن يعبر كل منهم عن الطبيعة التى يشاهدها أو عن الحقيقة التى يراها ، أو عن شعوره الشخصى ، تعبيراً خاصاً يميزه عن غيره من الفنانين ، ولا يتخذ كل منهم فى العمارة وفى الرسم والتصوير أو صناعة التحف أسلوباً معيناً ينم عنه ، ويجعل من اليسير أن ينسب إليه البناء أو التحفة ، حتى إذا لم يكتب اسمه شاهداً على ذلك .

والواقع أن المعيار الأساسى لمكانة الفنان فى الاسلام هو درجة إتقانه الرسم والزخرفة ، والتفاوت فى دقة أدائهما ، ولكن قل أن يبتدع الفنان شيئاً جديداً ، فلا عجب إن كان الصانع نفسه لا يدفع إلى تسجيل اسمه ولا يشعر بلزوم ذلك إلا فيما ندر .



صورة إيرانية من القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م)
عليها إمضاء مصورها « محمد قاسم » بين طرف
العصا وجذع الشجرة التى فى أقصى اليمين

ونحن حين نعجب بالعمائر والتحف الاسلامية قل أن نفكر فى صانعيها ؛ لأنها جزء من كل : هو الطراز الذى تنسب إليه ؛ ولأن العنصر الشخصى فيها ضئيل جداً ؛ ولأننا نستطيع أن نعرف الإقليم الذى صنعت فيه ، والعصر

التى ترجع إليه ؛ ولكن مهندسها أو صانعها لم يترك لنا من شخصيته ما يساعد على تسجيل اسمه لنا ، أو ما يبعث فينا الشوق إلى معرفته .

أجل ، إن هناك حالات شاذة ، ولكنها تثبت القاعدة كما يقولون . والفنان فى الاسلام إذاً وسيلة وأداة . وهو فى معظم الأحيان ليس حراً مطلق التصرف ؛ ومنتجاته لا تدل عليه . ولذا لم يكتب القوم فى تاريخ حياة الفنانين ، حتى إننا إذا عثرنا على اسم فنان لم نجد عنه فى كتب التاريخ والأدب ما يمكننا أن نتبين منه بيئته والعوامل التى أثرت فيه ، وإذا وجدنا شيئاً من هذا ظهر لنا أن قيمته ضئيلة لأنه لا يعدو أن يكون طائفة من عبارات المدح التى لا تميط اللثام عن أسلوب الفنان .



صفحة من مخطوط مذهب ، عليها إمضاء الفنان محمد ابراهيم سنة ١٠٧٤ هـ

والحق أن البون شاسع بين حال الفنانين فى تاريخ الغرب ونصيبهم فى الشرق الاسلامى . فاللغات الاغريقية واللاتينية ثم اللغات الأوربية غنية بما فيها من بيانات ومؤلفات فى تاريخ الفنانين ودرس البيئة التى عاشوا فيها والعوامل المختلفة التى أثرت فى فنونهم . بل إن بعض مؤرخى الفنون يكرسون حياتهم العلمية لدرس فنان من الفنانين الغربيين ، وكشف كل دقيقة وصغيرة فى حياته وفى آثاره الفنية ، بينما كان نصيب الفنان فى الاسلام ضعيفاً هيناً .

ولكن قلة الابتكار فى الفنون الاسلامية ليست وحدها سبب ما نلاحظه من قلة الامضاءات على العمائر والتحف الاسلامية ، وندرة البيانات عن الفنانين المسلمين ، فهناك السبب الثانى الذى أشرنا إليه فى صدر هذا المقال ؛ وهو أن الفن الاسلامى فن ارستقراطى .



جزء من نصل سيف إيرانى ، عليه إمضاء الصانع « أسد الله »

والمقصود بذلك أن المهندس أو الفنان فى الإسلام كان يعتمد فى تشجيعه وشراء آثاره الفنية أو تكليفه بتشييد العمائر المختلفة ، على الأمير وأعوانه من ذوى البطش والثروة . أما أهل الطبقة الوسطى وعامة الشعب فقد كانوا يستخدمون من الأثاث والأوانى ويسكنون من البيوت ما لا صلة له بالفنانين ذوى المواهب الممتازة .

وكان الأمراء والأغنياء فى معظم الأحيان يعدون الفنان صانعاً فحسب ، وينكرون عليه أن تنسب العمائر أو التحف إليه ، ويحرصون على أن تكون أسماؤهم هى الغالبة عليها ، وعلى ألا يظهر اسم الفنان فيطغى على ما لهم من الفضل والذكر . فالمنصور حين شيّد بغداد أراد أن تبقى على مدى الدهر منسوبة إليه ، والمعتصم وخلفاؤه ممن شيدوا سامرّا وأقاموا ما فيها من قصور تزينها النقوش والتزاويق والزخارف الجصية ، أنكروا على مهندسي تلك

المدينة ومن اشتغلوا فيها من الصناع والفنانين ، أنكروا عليهم أن يقوم لهم ذكر أو أن يخلد لهم اسم . والقلاع التى شيدت فى أنحاء العالم الإسلامى نسبت إلى السلاطين والأمراء الذين أمروا بتشييدها . والمساجد الفخمة كجامع ابن طولون والسلطان حسن لا تزال شخصية مهندسيها مجهولة رغم جلال آثارهم الفنية .

والأقمشة التى كانت تنسج فى مصانع الطراز الإسلامية كانت تحمل اسم الخليفة ، ولم يرد فيها اسم المشرف على الصناعة إلا فيما ندر .

ولا حاجة بنا إلى أن نسترسل فى بيان الأمثلة التى تدل على أن صاحب التحفة أو الآمر بصناعتها استقل فى معظم الأحيان بما لها من فضل ، ولم يحسب الفنان إلا صانعاً ، يؤجر على عمله ، وليس طبيعياً أن يصر على الفخر به وتسجيل نسبته إليه .

* * *

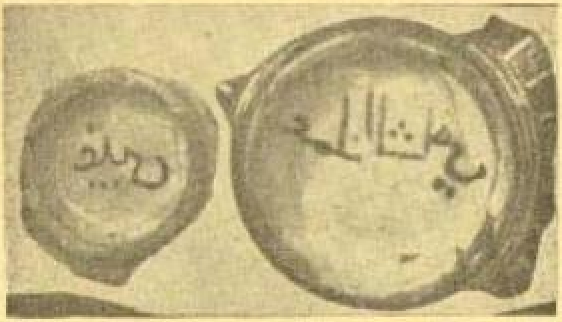
بيد أننا لا نستطيع أن نختم هذا المقال بدون أن ننبه إلى أن ما ذكرناه ليس عاماً وشاملا فى الفنون الإسلامية ، فقد أدرك بعض الفنانين فى الإسلام أن



مجموعة من أجزاء من آنية خزفية ، كتب على كل منها اسم صانعها . وترجع كلها إلى عصر المماليك فى مصر

لآثارهم الفنية شأناً خطيراً دفعهم إلى تسجيل أسمائهم عليها والفخر بنسبتها إليهم .

ولا ريب أن أحفل الطرز الإسلامية بالإمضاءات هو الطراز الإيرانى ، لأنه كان أكثر فهماً للحياة من سائر الطرز الفنية ؛ ولأن الفنانين الإيرانيين لم يكترثوا



قدحان من الخزف كتب على أحدهما «عمل الشامى» وعلى الثانى «غيبى» ، وذلك قبل أن يحرق الإناءان فى الفرن

— لأسباب لا محل لشرحها هنا — بتحريم تصوير الكائنات الحية أو تجسيمها ، فاتسع الأفق الفنى عندهم ، وأقبلوا على توضيح المخطوطات بالصور ، وعلى إنتاج التحف البديعة ، وأصاب بعضهم فى هذا السبيل توفيقاً ، حق له أن يفخر به وأن يسجله لنفسه ، أو ظن خطأ أنه أصاب ذلك التوفيق فسجله بدون أن يستحقه .

وكذلك تقدم فن تحسين الخط فى العالم الإسلامى ، وأقبل القوم على شراء المخطوطات والنماذج من كتابة الخطاطين المشهورين . وكانت أكثر هذه النماذج من الآيات القرآنية أو الأدعية أو أبيات الشعر ، وجمع منها الهواة المرقعات (الألبومات) الفاخرة . وكان الخطاط يذيل كتابته بإمضائه ، فخراً بخطه ، ولأنه لم يكن يخشى — كزميله المصور — غضب رجال الدين أو نقمة المتعصبين من عامة الشعب ، ولما كانت أسماء معظم الخطاطين معروفة

كما صنفت بعض الكتب في تراجم حياتهم .

ونبغ في مصر في العصر الفاطمي فنانان كبيران في صناعة الخزف ، هما سعد ، ومسلم ؛ وقد وصل إلينا عدد وافر من القطع التي نرى عليها اسم أحدهما ، أو اسم غيرهما من صناع الخزف الذين نبغوا بمصر في عصر المماليك مثل غيبي ، والأستاذ المصري ، والشيخ ، والهندسي ، وشرف الأبواني ، والهرمزي ، وعجمي ، وغزال ، والمعلم ، والشامي ، وأبو العز .

وكذلك ميدان العمارة سطع فيه نجم مهندس تركي كان جم النشاط واسع النفوذ . وهو المهندس سنان باشا ، أعظم المهندسين الترك على الاطلاق ، وقد أشرف على تشييد عدد وافر من الجوامع والمساجد والمدارس والأضرحة والقصور والقناطر والحمامات التي بنيت في تركيا إبان القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

وصفوة القول أن المدن الاسلامية ودور الآثار والمجموعات الفنية الخاصة تفخر بما فيها من عمائر أو تحف إسلامية عليها أسماء صانعيها . وقد جاءت أسماء الفنانين على شتى أنواع التحف ، ولا سيما المخطوطات والصور والخزف والمعادن . ولكن هذه الامضاءات نادرة بالنسبة إلى ما وصل إلينا من الآثار الفنية الاسلامية ؛ ويرجع ندرتها إلى طبيعة الفن الاسلامي ، وإلى البيئة التي عاش فيها الفنانون ، والنظام الاجتماعي الذي كانوا يعملون فيه ، والأساليب الفنية التي كانوا يتمسكون بها .

زكي محمد حسن

بدائع الفن المصرى القديم فى متحف اللوفر بباريس

لمحرر «الثقافة» الفنى

حصل الفرنسيون أثناء حملة نابليون فى مصر على غنيمة وافرة من الآثار الفرعونية ؛ ولكن فشل تلك الحملة وتسليم الجنرال مينو حرمهم تلك الكنوز ، وعلى رأسها حجر رشيد . على أن قناصل الدول الأوربية بمصر فى بداية القرن الماضى كانوا يعنون بجمع التحف والآثار المصرية ، واشتهر من بينهم دروفيتى Drovetti الذى كان قنصل فرنسا العام فى الاسكندرية ، والذى حصل على مجموعة ثمينة اشتراها ملك بيدمونت ، وأصبحت نواة التحف المصرى فى مدينة تورينو ؛ كما ذاع صيت سالت Salt قنصل انجلترا العام فى مصر ؛ فقد جمع عددا وافراً (٤٠١٤ قطعة) من التحف المصرية القديمة ، اشترتها الحكومة الفرنسية سنة ١٨٢٦ بمائتين وخمسين ألفاً من الفرنكات الذهبية ، واشترت مجموعة أخرى حصل عليها دروفيتى سالف الذكر . وأتيح للعالم الفرنسى شامبليون أن يقضى فى مصر ستة عشر شهراً (من أغسطس سنة ١٨٢٨ إلى نوفمبر سنة ١٨٢٩) جمع فيها زهاء مائتى تحفة نفيسة ، تزين اليوم قاعات القسم المصرى من متحف اللوفر .

وفى سنتى ١٨٥٢ و ١٨٥٣ أرسل العالم الفرنسى ماريت باشا إلى اللوفر ٥٩٨٤ تحفة عثر على معظمها فى حفائره بمصر ، ومنها تمثال الكاتب المتربع ، الذى طبقت شهرته عالم الفنون ، والذى تحدثنا عنه فى عدد سابق من أعداد الثقافة ؛ كما حصل اللوفر فى الوقت نفسه على ٢٥٠٠ تحفة جمعها كلوت بك الطبيب الفرنسى الذى استدعاه محمد على باشا لتنظيم الطب والصحة فى مصر . ثم جرى أمناء متحف اللوفر بعد ذلك على سنة القدوم إلى مصر من فترة إلى أخرى لشراء أعظم التحف شأناً . فضلا عن أنهم وغيرهم من رجال الهيآت العلمية الفرنسية ، بدأوا القيام بحفائر لحسابهم فى الأرض المصرية ، وحصلوا منها لدور الآثار الفرنسية على عدد وافر من التحف ، لأنهم كانوا يفلحون فى الحصول من الحكومة المصرية على نصف ما يجدونه . وهكذا نجد أن متحف اللوفر فى فرنسا حصل على كمية عظيمة من نفائس الآثار المصرية قبل أن تتنبه الحكومة إلى تقييد تصدير الآثار ، وإلى أن تحتفظ مبدئياً بكل ما تعثر عليه البعثات العلمية فى حفائرها ؛ فلا تسمح لها بأن تأخذ من التحف إلا ما تقرر مصلحة الآثار أنها فى غنى عنه لضآلة شأنه ، أو لأن المتاحف المصرية تحتفظ من نوعه بعدد وافر .

والصور التى نأتى بها اليوم ، وفى العدد القادم من « الثقافة » تبين بعض التحف المصرية البديعة فى هذا المتحف الذى أسدى رجاله إلى علم الآثار المصرية خدمات جلية بفك الكتابة الهيروغليفية ، وبما ألفوه عن الآثار المصرية فى متاحفهم وفى المتحف المصرى بالقاهرة .

* * *



نقوش على الجص من عصر الدولة الحديثة
وتمثل بعض الأعمال الزراعية



صينية صغيرة من الذهب ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة



تمثال من الجرانيت الأسود يمثل الإله أمون
وأمامه توتعنخ آمون



تمثال خشبي للأميرة تووى
من عصر الدولة الحديثة



تمثال الكاهن الأعظم
أمينحت عنخ



حلية جميلة للصدر ، من الذهب المزين بالمينا ، وترجع
إلى عصر الأسرة التاسعة عشرة

امفـــــــتريون

مسرحية بقلم جان جيرودو الكاتب الفرنسي المشهور

لخصها الدكتور ابراهيم ناجى

[جيرودو كاتب فرنسى معاصر يمتاز بنزعة شاكسبيرية وقد وثب إلى طليعة الكتاب المسرحيين بروايتيه سجفريد وامفتريون ، إذ لقيتا نجاحاً منقطع النظير . وكان المعتقد أن جيرودو لنزعته الشاعرية ، وإغراقه فى الخيال العالى ، لا يستطيع أن ينجح على المسرح . ولكن « امفتريون » أكدت أن العبقرى يستطيع أن ينجح فى أى مكان وبأى شىء . وها نحن نلخص « الثقافة » اليوم مسرحيته « امفتريون » وهى نوع من الأدب العالى الذى يذكرنا توّاً بشاكسبير فى « العاصفة » و « حلم ليلة صيف » حيث يملأ الجو آلهة ، ويرفعنا على جناح خيالهم إلى سمائهم ، ثم يعود بنا إلى أرضنا ، وينتقل بنا من الحقيقة إلى الخيال ، ومن الخيال إلى الحقيقة ، وبينا هو يتغلغل فى أسرار اللانهاية ، إذا به يتحدث عن أبسط حقائق دنيانا .

كذلك جيرودو فى هذه القطعة الرائعة التى أدعو القراء لقراءتها كاملة ، ففيها النفس الشاكسبيرى ، وفيها السطور الجبارة ، وفيها التعابير اللاذعة ، وفيها الإيجاز المعجز ، وفيها الشاعرية المحلقة إلى أعلى الدرجات]

" ناجى "

أشخاص الرواية

جوبيتر — سيد الآلهة
عطارد — إله آخر
ألكمينا — بطلة الرواية
امفتريون — زوجها
سوزى — خادم ألكمينا وزوجها
خادمتان —
ليدا صديقة
نافخ البوق
تجرى حوادثها فى بلدة ثيبة اليونانية

مقدمة

يكشف الستار عن جوبيتر وعطارد يتطارحان الحديث . وهما معلقان فى سحابة تشرف على الأرض

ونعلم من حوارهما أنهما يريان خيال ألكمينا وامفتريون إذ يحتضان

ونعلم أن ألكمينا زوجة عفيفة شديدة التعلق بزوجها ، ونعلم أن جوبيتر يطمع بها وأنه يدبر مع عطارد وسيلة للظفر بها . ويستقر الرأى على أن يثيرا حرباً فى ثيبة ، فيخرج امفتريون إلى القتال . لينزل جوبيتر إلى الأرض على صورته ويتخذ عطارد زى خادمه سوزى وبذلك يخلو الطريق للإله العاشق !

الفصل الأول

(المنظر الأول : واجهة قصر يونانى ، والوقت ليل ، يرفع الستار عن سوزى الخادم جالساً أمام القصر وهو يغنى)

يُقبل عليه « نافخ البوق » فيدور بينهما حوار طريف . وسوزى هنا ليس غير عطارد .

نراه يغرى نافخ البوق بأن يصيح فى بوقه صيحة الحرب ، فإذا بصاحب البوق فنان وملحن ! وإذا به يدّعى فى نزعة شائقة أنه يلحن النغمة الواحدة تلحيناً فنياً ! أجمع كل ضاربى البوق أنه لا يبارى ، وأنه « قبل أن يضرب ، يؤلف قطعة موسيقية كاملة يكون آخرها أعلاها وآخرها هو الصيحة المطلوبة » ! فيصيح عطارد : « بالله عليك ابدأ من أعلى ! . . . . . ابدأ من النهاية . . . . ! » . فيزمجر صاحبنا صاخباً نافياً قائلا إنه محسود لأنه يعرف كيف ينظم « السكون الذى يسبق النغمة » ! وأن كل « المدارس » التى نسجت على منواله لتعليم الضرب بالبوق قلدته فى ذلك « السكون الذى مهد للصيحة » !

وينتهى الجدل أخيراً بأن ينفخ الرجل فى بوقه داعيا أهل ثيبة للقيام من أجل القتال .

ويسمع دوى الطبول ، ويخرج امفتريون كامل الأهبة للحرب ، وتتبعه ألكمينا زوجته ، ويجرى بينهما وداع

مؤثر ، ويسمع من بعيد وقع حوافر الخيل فيفترقان ، وهى تناديه باسمه ، ويناديها باسمها ، وبعد أن يذهب امفتريون يتقدم عطارد (فى زى سوزى الخادم) فيخبرها أنه يحمل رسالة سرية من زوجها إليها ؛ ومؤدى هذه الرسالة أن الزوج سيغادر الجيش ويعود إليها فى الليل ، فعليها أن تسهر فى انتظاره . فتبهره برفق ثم تعود إلى داخل القصر .

ثم نسمع ضجة ، وإذا بنا نرى جوبيتر ينزل إلى الأرض من سمائه على نداء عطارد .

يسأله عطارد : ماذا جرى ؟ « هل أنت بخير ؟ » . فيجيب : « نعم ، غير أنى سقطت فجأة لأنى نسيت قانون الجاذبية » . ويهم بالدخول وراء ألكمينا فيستوقفه عطارد .

وهنا يجرى حوار شائق بينهما ، فجوبيتر يعتقد أنه بتقليده زى الآدمى قد صار آدميا ، وعطارد يفحصه فحص الخبير ، فيتضح له أولاً أن عينيه تلمعان لمعاناً إلهياً مخيفاً ، وثانياً أن جلده جديد جداً ، وليس هذا جلد رجل لفحته الشمس والهواء ! ومن الظريف قوله إذ يقول له : « عيناك حدقتان فقط ليس بهما قناتان للدمع ! تذكر أنك قد تبكى ! » .

ويتضح له ثالثاً أن كيانه « يسبح » فى جسده الآدمى ، فيأمره بالانكماش . فيتألم جوبيتر ألماً شديداً ، ويقول إن قلبه يدق بعنف ، وشرايينه تنتفخ ، وإن هذا الميلاد الآدمى مؤلم أشد الألم ؛ فيجيب عطارد : إن الآدميين يتألمون هذا الألم حين يولدون وحين يموتون .

فيجيب جوبيتر إنه يحس بألم الميلاد والموت معاً ! ويقول عطارد : إن من خصائص الآدمى التحول المستمر . فإنه يموت فى كل لحظة ، وإن النظر إلى نور عينيه ليشعر أن النور نفسه يهرم ! فهذا « الموت » هو خاصية الآدمى .

فيشعر جوبيتر بذلك ، غير أنه يشعر به بسرعة . فيقول عطارد : « كلا كلا ... إنك آدمى ، لا سمكة ولا كلب ولا هر ! يجب أن تتئد فى شعورك بالموت ! ليبطئ نبض قلبك قليلا ... ! » .

وأخيراً يقرعان باب القصر ... فتطل ألكمينا ، وتحاوره من النافذة حواراً نعرف منه شدة حرصها وعفتها .

فيلتفت جوبيتر إلى عطارد قائلاً : « إنها عنيدة . يا لسوء الحظ ! إنها امرأة صالحة ! إنها قلعة . كلا ، بل هى حاجز من الفطنة ! » .

فيقول عطارد : « ألم أقل لك لا تجىء كعاشق ؟ ادخل إليها كزوج ! هيا ! » .

والواقع أن جوبيتر عندما بدأ الحديث معها أخبر أنه عاشق ، فامتنعت عليه ، فعندما أقنعها أنه زوجها لانت بعد أن أخذت منه البراهين الناطقة أنه هو حقيقة إمفتريون ، ذلك لأن الليل كان حالكا لا يسمح لها أن تتبينه فيه .

وينتهى الفصل بأن تفتح باب القصر فيدخل ...

الفصل الثانى

يكشف الستار عن عطارد أمام غرفة (العاشقين) ألكمينا وزوجها المزيف ، يتحدث فيقول : ما لهذا العاشق قد استغرق فى النوم فلم يستيقظ بعد . وها أنذا أطلت الليل ومنعت إشراق الشمس ، حتى لقد كادت خطتى كلها تفسد ، إذ أنى أوحيت إلى امفتريون أن يترك الجيش ليعود خفية إلى زوجته . وقد اقترب ميعاد مجيئه .

(المنظر الثانى : غرفة النوم)

جوبيتر (امفتريون المزيف) مستغرقاً فى نوم عميق تطل عليه ألكمينا وقد وضعت عليها ماستر كتفيها . وهنا يجرى بينهما حوار بديع ، ولكى نبين روعته سنضطر إلى إيضاح يكاد يكون ترجمة .

هو — يا لها من ليلة إلهية !

هى — تعبير ضعيف !

هو — ألذ ليلة .

هى — ضعيف أيضاً .

هو — أدهش ليلة .

هى — ضعيف كذلك ، لو وصفتها أنا لقلت «أروع» ليـــلة !

صمت . . . .

ينظر من النافذة ثم يقول :

— ما أمهر الانسان ! إن كل هاته الأعمدة ، كل هذا التنسيق من صنع يده .

هى — لا تتواضع ، كل هذا من صنع يدك .

هو — ما أجمل الطبيعة !

هى — لك الحق ، هى صنع الآلهة .

هو — (مندهشاً) الآلهة ؟ ؟ أى الآلهة تعنين ؟

هى — جوبيتر . . .

هو — ما ألذ نطقك لهذا الاسم ! إنك لتنطقينه كما يأكل الحمل الوديع الزرع حين يقدم إليه ، أعيديه على سمعى .

هى — دعنى أعد على سمعك أسمـاء آلهة الأولب جميعاً — المريخ الزهرة . . . إلى لأراهم يسبحون فى الأثير ، ما أروع هذا !

هو — يعجبك إذاً ما أبدعه جوبيتر ؟

هى — بديع ! ولكن هل صنعه عامداً ؟

هو — يؤكدون ذلك .

هى — كلا . إنه خلق الأرض ، وهى جددت نفسها وازّينت كل حين .

هو — إن فكرتك سيئة عن الخَـلْق يا عزيزتى .

هى — ما فكرتك أنت ؟

هو — فى البدأ كانت فوضى ، فأوجد جوبيتر العناصر الأربعة .

هى — أربعة عناصر فقط ؟

هو — أربعة فقط أولها الماء ، وقد يبدو لك المـاء شيئاً بسيطاً ، وهو أعجب شىء فى الخليقة .

هى — قبل خلق الماء مم كانت دموع الالهات ؟ من نحاس ؟

هو — لا تقاطعينى ، أين كنا فى حديثنا ؟

هى — عند الفوضى .

هو — بعد خلق الماء ، تعبت عيون الآلهة من كثرة النظر إلى ماء صاف كالمرآة ، فوجد اليابس .

هى — والألوان ؟

هو — الألوان السبعة ؟

هى — لا ! « البهج » و « الفستقى » الخ . .

هو — خلقتها الصبغة ! . . ثم بعد اليابس ، خلقت قوى متضاربة من الذرات تتلاقى وتصطدم وتفترق ويحدث من هذا الصوت والنور الخ . . .

هى — أى أن جوبيتر لم يصنع شيئاً !

هو — كيف ؟

هى — لم يصنع غير مجموعة هائلة من الخيالات والفزعات يصعب الخلاص منها .

هو — هذا كفر بالآلهة يا ألـكينا .

هى — إن جوبيتر أوجد أربعة عناصر ، وكان قادراً على عشرين ! إنك يا زوجى تفضله بكثير ، فقد كنت تجد وقتاً بين الغزوة والأخرى ، فتستحدث جديداً فى النوافذ ، ثم تمضى إلى الحقل فتعلم الفـلاحين طرقاً جديدة ، ثم تمضى إلى الحديقة فتجىء إلىّ «بكريز» فيرت مذاقه ! أنت الخالق المجدد فى نظرى ! لا تنظر إلىّ هكذا ، ماذا ؟ هل أزعجتك مداعبتى ؟ ؟

هو — (بعد قليل) ألا تحبين أن تصيرى إلـهة ؟

هى — كلا ، لماذا ؟

هو — لتعرفى مالا يعرف بقية الناس .

هى — لا يهمنى بقية الناس .

هو — لتكونى خالدة .

هى — كيف ؟

هو — لا تموتين .

هى — كيف ؟

هو — تصبحين نجمة تضيئين طول الليل .

هى — لا أحب أن أصبح حارسة ليل ! ما أطول هذا علىّ ! ثم إنى لا أحب أن أختلف عن باقى الآدميين . لماذا أوثر نفسى عليهم ! ثم إن الموت جميل ، بديعة هذه الراحة بعد التعب والمشقات ، بديعة وواجبة : لماذا تنظر إلىّ بكل هذا الإجلال ؟ .

هو — أنت عظيمة حقاً . . . ولكن ألا تحبين أن يكون لك ولد خالد ؟ ولد بطل ، يفترس السبع ، ويقتل الغول ؟

هى — كلا ؟ سيفقد بذلك كل جمال الطفولة !

هو — (يقوم بعظمة) حان أن أحدثك عن الآلهة .

هى — أنت مجنون : تتحدث عن الآلهة فى وقت يثبت فيه الناس كل آدميتهم ، فهم الآن قد خرجوا للزرع أو العمل أو الصيد ! ثم إنك يجب أن ترجع إلى الجيش ، وتذكر أن علىّ واجبات للمنزل ، أعدّ الغداء ، وأراقب الخدم ، وأشرف على المنزل ! والآن لن نتحدث عن الآلهة بل عن الخدم ! الخادمة بيتزا أصبحت كسولا لا فائدة منها وسأطردها !

هو — الآلهة يظهرون حين لا ينتظرون .

هى — والنساء يختفون حين ينتظرون !

هو — الآلهة قساة حين يغضبون .

هى — هاك قبلة من بعيد ! الوداع حتى المساء !

(المنظر الثالث : يخرج جوبيتر متكسراً ذليلا ، فيلاقيه عطارد)

عطارد — ما هذا الشق الذى بين حاجبيك ؟

جوبيتر — تجعيدة !

عطارد — أنت متعب .

جوبيتر — إن حل تجعيدة واحدة لعبٌ ثقيل . إن ألكمينا لقوية الشخصية قوة الصخر .

عطارد — ليست هذه قوة شخصية بل نقص خيال .

جوبيتر — ليست مشرقة ، ولا ذكية ، ولكنها حصن ممتنع — وهذه هى المرأة الوحيدة التى استولت على مشاعرى .

عطارد — كل الناس ، كل الكون صار يعلم ذلك .

جوبيتر — كيف ؟

عطارد — أذعت الأمر فى كل مكان . كل حى وجماد يعلم الآن أنك قادم الليلة — لتزوج ألكمينا — قادم لا كزوجها امفتريون ، بل كجوبيتر نفسه . وغداً ستقف كل ثيبة تحت القصر تنتظر وترى ! وسيكون لك منها ولد وتسميه « هرقل » !

جوبيتر — ليست المسألة مسألة هرقل الآن ، هى مسألتى أنا ! سمحت لك أن تقربها وتثير دماءها وتحرك شوقها ؟ إنى سئمت هذا الزى الآدمى ، سأزورها إلهاً !

(المنظر الرابع : ألكمينا وعطارد)

يظهر عطارد فى رسمه الالهى بأجنحة : تراه وتعرفه وتقول له : أنت عطارد ، إنى أعرفك من أجنحتك . فيخبرها أنه قادم من قبل جوبيتر ، وأن جوبيتر يعشقها . فتقول له : إنها تحور بذلك ، وإنها أعدت له هيكلا فى القصر . فيجيب : إنه لا حاجة له بالقصر ، بل بالسرير ، إنه قادم كزوج . فتجيب : إنك لا بد مخطئٌ فيمن تقصد ! إنى ألكمينا زوجة امفتريون . فيقول : كلا ، بل أنت المقصودة . فترفض ، وهو يغرى ثم يهدد ، وهى تتهرب ، حيناً تدعى عدم الفهم ، وحيناً تصنع كما يصنع النساء ، إذ يتعللن بالتعب والمرض

ووجع الرأس : وأخيراً تقول : « إنى أحب زوجى » .

فيقول : « ماذا يهم ! إنى عائد إلى جوبيتر لأخبره أنك فى انتظاره » . (ويخرج)

هنا تدخل الخادمة وتقول : إن الملكة ليدا جاءت زائرة ، نظراً لفكرة رائعة لألكمينا .

إن ليدا هذه كانت من عشيقات جوبيتر ، وقد زارها فى زى طائر . وهى لا تزال تحن إليه ، وربما جاءت إلى القصر لعلمها أن جوبيتر سيزور ألكمينا تلك الليلة .

تخلو بها ألكمينا ، وتطلعها على الأمر ، ثم تغريها بلبس ثيابها وقناعها ، وتوسدها فى سريرها ثم تظلم الغرفة تريد بذلك أن يزورها جوبيتر وهو يظن أنه زار ألكمينا نفسها .

ولكن باقى الخطة التى رسمها عطارد ينفذ الآن . فإنه كان قد أوحى إلى امفتريون أن يترك الجيش خفية ليعود ساعة إلى أحضان زوجته .

وها هو يعود الآن (امفتريون الحقيق) مسرعاً يعدو على جواده .

ولكن ألكمينا تظنه جوبيتر متنكراً ، وتتأكد من أنه لبس تجسيم الأمس ، إذ ترى الخدش الذى أحدثته فى وجهه ليلة الأمس قد زال اليوم . . . .

وتسمح له بالدخول ، ولكن ليس لخدعها ، بل لخدع ليدا . . . . وقد لبست قناع ألكمينا وتوسدت سريرها وانتظرت الإله جوبيتر . . . ! !

الفصل الثالث

(المنظر الخامس : أمام القصر ، نافخ البوق ، سوزى ، خادمة ، راقصات . يسمع صوت سماوى يبشر بقدوم الإله ، وبابنه من بعده) .

يتحدث سوزى للخادمة ونافخ البوق قائلا: إن اليوم قد كلل بانتصارين : انتصار الجيش وقدوم إله إلى ثيبة .

ولا بد أن قدوم الإله كان سبباً للنصر ، فإنه لم يقتل أحد ، حتى الخيل جرحت فى سيقانها اليسرى !

(يسمع صوت سماوى يبشر بقدوم الإله ، وبابنه من بعده !)

يعود سوزى للكلام قائلا إنه سرت إشاعة مؤداها أن ألكمينا لا تحفل بذلك الحادث العظيم ، بل أغلقت نوافذ القصر وجعلته ظلاما دامسا ؛ وليس من اللائق أن تقدم ثيبة للإله صاحبة عابسة ، ويشاع أكثر من ذلك أنها تحاول صرفه عن خطته ، وفى تلك المحاولة غضب السماء بالصواعق والأوبئة . . .

وهنا يرون امفتريون مقبلا من بعد ، يتساءل عن زوجته ، ويستدعيها .

(فيعود الصوت السماوى إلى الكلام) .

تحضر ألكمينا . وتقف هى وزوجها فى حيرة قائلين : ماذا نصنع ؟ أما من خلاص ؟ لقد ضعنا ! وتقول : خذنى بين ذراعيك ، ضمنى إليك ليعرف أى متحابين نحن ، وليعلم أنى لست امرأة مفردة .

تسمع ضجة ، ويقول الصوت السماوى : « وداعا ألكمينا وامفتريون » .

وعلى ذكرى الوداع يتذاكر الزوجان عهود هواهما ، ويودان لو طال بهما الأجل حتى يبلغا المشيب معا . حين يصير الزوجان صورتين متشابهتين ، وحين يستقبلان الموت فى هدوء وشجاعة . وبينما يذكر أحب أوقاته معها ، يقول لها : « هل تذكرين إذ أتيتك الليلة فى الفجر . . . » فتتذعر إذ تدرك خطأها وأنه هو حقيقة كان ذلك العائد الذى دفعت به إلى أحضان ليدا ، ولكنها تشفق عليه ولا تخبره بما صنعت .

هنا تسمع ضجة ويظهر جوبيتر . فيسأل عطارد : « من الواقف هناك ؟ » .

— « هذا زوجها يا سيدى » .

— ماذا جاء يصنع ؟ .

— سيدى لقد جاء ليقدمها لك .

امفتريون — ليس هذا بصحيح ، إنى أدافع عنها وأحميها منك .

جوبيتر غاضباً — منى ! إنك تهددنى . إنه لا سبيل للمقارنة بين قوتينا ، ومع ذلك فانى أستطيع أن أغشى مضجعها وأنت موجود ، وأستطيع أن أسقيها خلاصة أعشاب تجعلها تكرهك وتحبنى أنا ، وأستطيع وأستطيع .

امفتريون — أنا مستعد للموت دون ذلك .

جوبيتر — إنى أحبكما كليكما ، ومستعد أن أكون صديقاً لكما .

امفتريون — إنى أرفض .

عطارد — إذاً أذيع الأسرار وقل للناس كل شىء .

ثملة — تكلم عن حوادث أمس واليوم — إن لنا لطرقاً جهنمية للتغلب على هذين .

فتخشى ألكمينا إذاعة الأسرار ، فتطلب من جوبيتر أن تخلو به .

هو — الآن أنت لى .

هى — إذاً فهذه ساعتى الأخيرة .

هو — إنى أعرف عفتك وتعرفين رفقى ، ولكنى لم تحتقرنى امرأة هذا الاحتقار ، غير أنى أعرف كذلك أنك تضحيننى لأنك تحبيننى وأنك تقاومينى لأنك فى يدى — هذا هو الحب !

هى — ولماذا تعذبنى أنت ، وتفصل بين زوجين فى وفاق كامل ، لتدع صرح حبهما أنقاضاً ؟

هو — هذا هو الحب ، ولكنك تختلفين كل الاختلاف من أى امرأة أخرى . إن فى كل امرأة ثلثاً من الهرة وثلثاً من العاصفة وثلثاً من الزبد ؛ تعالىْ بين ذراعى !

هى — لست أسير كالأخريات ! دعنى أقدم لك ما هو خير من الحب ، أقدم لك « الصداقة » .

هو — ما هاته الكلمة ؟

هى — ذلك الشىء الذى يقرب بين البعيدين ويساوى الكبير بالصغير . . .

هو — وماذا أصنع إذاً أكون صديقاً لك ؟

هى — عندما أضيق بالأحياء أدعوك فتحضر إلى ، فأشكو إليك ضجرى ، فتصغى إلى شكايتى ، وأجد عندك الحنو الرزين والكلمة الطيبة ، ثم تنصرف .

هو — انهضى ، ستجدين جزاءك الطيب ، إنى أعجب بشجاعتك ومتانة خلقك . تعالىْ بين ذراعى .

هى — بين ذراعى صديق أجل . (تسرع إلى ذراعيه)

* * *

ثم تدعو امفتريون ، فتقول له : اشكر جوبيتر ، إنه أعادنى إليك كما كنت . . كاملة . . وترتمى فى ذراعى زوجها ، ويختفى جوبيتر وعطارد — ستار . .

ابراهيم ناجى

قصة مصرية رائعة :

طلعت حرب . . .

كيف أنشأ أولى شركات بنك مصر ؟

للأستاذ صالح جودت

وأخيراً ، هدأ الرجل الذي لا يهدأ ، ونزل على نصح أساته الذين طالما أشفقوا عليه من نفسه ، فركن إلى مكانه الهادئ على شاطئ النيل ، يستريح كالقائد المنتصر عند نهاية المعركة الرائعة .

ومن نافلة القول أن يقول صاحب هذه السطور ما يقوله غيره من الناس عن عظمة طلعت حرب ، وما يجمل بصاحب هذه السطور ألا يقول جديداً عن رجل عرفه من كثب ، وعاش تحت ظله ، فجاء يروى للتاريخ .

* * *

منذ قلب طلعت حرب صحيفة الأدب والقلم من كتاب حياته ، وفتح الكتاب على صفحة المال والأعمال ، جعل نصب عينيه أن يؤسس لغاية السيادة الوطنية والاقتصاد القومي أولا ، وجعل غاية الربح في المرتبة الثانية . على أن الله قد كتب التوفيق لهذه المؤسسات في الغايتين .

وحديث اليوم عن الغاية الأولى ، وما أنا بمحدثكم عن قصة إنشاء بنك مصر ، فما هي بالمجهولة . ولكن هناك قصة يتناقلها الناس في مدينة من مدن الصعيد ، ويلقنها الأب لولده ، ويرويها ابن المدينة للنازل الجديد ، ويحكيها النازح لمن يهبط بينهم .

أما هذه القصة ، فهي قصة إنشاء « شركة مصر لحلج الأقطان » .

في ذات يوم من عام ١٩٢٤ ، ائتمر ثلاثة رجال ، هم : أحمد مدحت يكن ، ومحمد طلعت حرب ، وفؤاد سلطان ، في غرفة من دار مشرفة بشارع أبي السباع ، هي دار بنك مصر قديما .

وقال كبيرهم ، أعني محمد طلعت حرب : الحمد لله الذي سدد خطانا في إنشاء هذه الدار ، فأصبحت وهي لم تتجاوز سن الطفولة بعدُ (وكان بنك مصر دون الرابعة من عمره) تقف أمام أقدم المصارف الأجنبية في مصر وجهاً لوجه . وللناس أن تعد هذا نجاحاً . ولكني لا أرى هذا . ولا أرى أننا صنعنا إلا سفحاً ممهداً يجب أن نبني فوقه هرماً تلو هرم . فلو أن (خوفو) مهد السفح ، ولم ينشئ الهرم إذاً لأنكره التاريخ . ولكنه فعل ، وكذلك فعل خلفاؤه . بَيْد أن خلفاءه جعلوا يبنون الأهرام إلى جوار هرمه ، وكل جديد أصغر من سابقه . أما نحن ، فلى أمانينا أن نبني على سفح بنك مصر أهراماً ، كل جديد منها أكبر من سابقه ، فإذا جاء خلفاؤنا ، وورثوا عنا درساً فبدأوا من حيث انتهينا ، وصنعوا أكبر مما صنعنا .

وراحوا يتحاورون ويتحاجون . وبينما هم كذلك إذا برسول قادم من مدينة «مغاغة» يحمل إليهم القصة الآتية :

حدث حادث . . .

المحالج في القطر معدودة ، وهي جميعاً في أيدي الأجانب ،

وليس في بلدنا — بمعنى مقاطعة — غير محلج واحد يملكه أجنبي .

وقد حدث أن غنياً من سراة البلد ، وهو شيخ وقور له منزلة رفيعة بين الناس ، ويملك مائتي فدان ، ذهب بمحصول قطنه إلى صاحب المحلج لحلجه ، فسوفه إلى موعد ، فلما أن وافاه في الموعد أرجاه إلى آخر .

ماذا يفعل ؟ أيرحل بمحصوله إلى الوجه البحري ، إذ كان هذا هو المحلج الوحيد بالصعيد ؟

هكذا تساءل الشيخ ، فكان جواب تساءله أن المحلج مشغول . فطلب موعداً لا رجعة عنه ، فقال الأجنبي صاحب المحلج : إنني هنا صاحب العمل ، ولي الحرية كلها في تحديد موعد حلج محصولك أو عدم تحديده . وقد أرى ذلك بعد يوم ، أو أسبوع ، أو شهر ، أو سنة !

وتجادل الرجلان ، وانتهى الأمر بأن اعتدى الأجنبي على الشيخ المصري السري بيده ، ثم حرض عليه كلبه . فتحامل الشيخ وقام من سقطته لخرج بين الناس — وكان اليوم يوم سوق في المدينة — أقول خرج بين الناس ودموعه تنحدر في شئونه . فما إن رآه القوم حتى أقبلوا عليه يستوضحونه علة بكائه . فقال أيرضيكم أن يضربني هذا الأجنبي وأمامكم ومن رؤوسكم ، وقد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ؟

وثارت خواطر الناس ، وعولوا على أمر ، وراحوا يتحاورون ، ثم قرروا أن يوفدوا من بينهم رسولاً إلى الرجل الذي يسهر السنين ويبذل حياته لتكون كبرياء مصر في مأمن من جراح الأجانب ، محمد طلعت حرب .

دخل الرسول على المؤتمرين الثلاثة الذين ذكرنا ، وروى لهم هذه القصة . فهب طلعت حرب من مكانه لحظته ، وقصد إلى المدينة جريحة الكبرياء ، فاستقبله أهلها استقبال الفاتح الذي جاء يعطي لمصر ما لمصر ، ويضمد الجرح النازف .

واحتشد حوله زراع البلدة وتجارها ، فأعلن بينهم أنه منشئ لهم محلجاً فليتقدموا للاكتتاب . فراح هذا يكتتب بألف ، وذاك بنصف ألف ، والثالث بكذا ، والرابع بكيت ، مما هو أقل أو أكثر . حتى اجتمعت ثلاثون ألفاً من الجنيهات أنشئ بها في مقاطعة أول محلج لشركة مصر لحلج الأقطان .

ودارت آلات المحلج بين تهليل الكبرياء وفرحة مصر بالثأر للأخوة .

وكانت هذه أولى شركات بنك مصر ، وكان رأس مالها — كما أسلفنا — ثلاثين ألفاً من الجنيهات ، فأصبحت اليوم ذات تسعة محالج في عواصم القطر ، وأصبح رأس مالها مائتين وخمسين ألفاً — أي ربع مليون — من الجنيهات !

وكان هذا هو الهرم الأول على سفح بنك مصر ، جاءت بعده أهرام الغزل والنسج بالمحلة الكبرى ، والطائرات والبواخر ، وغيرها ، وغيرها .

أفليس كل جديد منها أكبر من سابقه ؟

صالح جودت

النهضة المصرية

تمشت النهضة المصرية في كل نواحي مصر ، فالنهضة المصرية السياسية عنوانها الاستقلال ، والنهضة المصرية المالية ، بنك مصر ، والنهضة المصرية التجارية عنوانها ، متاجر الوطنيين ، والنهضة المصرية العلمية عنوانها ، مدارس النهضة المصرية ، تاج المدارس الحرة .

من أحسن ما يروى فى بكاء المنازل

نشأة هذا الغرض وترقيه فى الشعر

للأستاذ أحمد الزين

نقرأ حديثى اليوم فتحس فيه جدة وتباعداً بينه وبين ما قبله من أحاديثى السابقة ، إذ لا صلة بينه وبين ما قبله إلا صلة عامة ، هى تعلقه بالشعر كغيره من تلك الأحاديث ؛ غير أن هذا التعلق إنما هو من ناحية أخرى من أهم نواحيه غير الناحية التى عودت قراء (الثقافة) عادتهم فيها .

وفى تنويع الأحاديث واستطراق البحوث والتنقل بين شتى الأغراض وشجون الحديث ما ينفى الملل عن نفس القارئ ويغريه بالقراءة .

وحديثى اليوم هو شارح التطور الأدبى ومراتب التفكير العربى أشبه منه بتلك البحوث الأدبية البحتة التى يتحدث فيها عن الشعراء والكتاب ومميزاتهم الفنية ، واتجاه كل منهم فى شعره أو نثره ، وتحديد منزلته بين نظرائه ، وما يؤاخذ به من مؤاخذات فنية ، وما إلى ذلك من الأغراض .

وبحثنا اليوم هو فى أولية بعض أغراض الشعر ونشأته ، ثم ترقيه فى مختلف العصور والبيئات ، وما أضافه الخلف إلى ما بدأه السلف منه ، والأسباب المؤثرة فى ترقى تلك الأغراض والزيادة عليها حتى بلغت الذروة فى بعض عصور الشعر ، ثم بدأت فى الانحلال والضعف شيئاً فشيئاً حتى ماتت من الشعر العربى ولم يعد لها أثر إلا فى شعر القدماء ، وقليل جداً لا يكاد يذكر فى شعر المعاصرين .

ومن هذه الأغراض ما تراه شائعاً فى شعر الجاهليين والإسلاميين ومن نهج نهجهم ، من بكاء الديار الدارسة ، والتحدث إلى رسومها البالية ، ومساءلة مغانيها المقفرة عن أهلها متى رحلوا وأين حلوا ، والدعاء لها ولهم بسقيا المطر ، وأن يعود لها بعودتهم ما فقدته من زمان مضى ، وما إلى ذلك من الأغراض .

وجمال هذه المعانى إنما هو فى تلك العاطفة القوية الحارة التى قد ملأت قلب الشاعر وضاقت بها نفسه وضعف عنها احتماله ، فأفاضها على ما حوله وأسبغها على ما يشاهده من آثار الديار والدمن ، متخيلاً أن لها ما له من قلب وكبد ، فهى تحس ما يحس وتجد ما يجد .

وقد جرى القدماء على افتتاح قصائدهم بهذه المعانى وتقديمها على الغرض المقصود ، تحريكاً للقرائح الراكدة ، وإيقاظاً للشاعرية الراقدة ، وتنبيهاً للعواطف واقتياداً لها .

ولما كانت هذه المعانى معروفة لديهم ، معبدة طرقها لهم ؛ كانت تجربة قرائحهم فيها أيسر ، وتنشيط شاعريتهم فى ميدانها أسهل ، كما يجرب الجواد بإجرائه شوطاً قبل الانتظام فى الحلبة ، وكما ترى أرباب الموسيقى إذا قصدوا إيقاع إحدى النغمات ، أوقعوا على الأوتار ما يقاربها من النبرات ، حتى يسهل الخروج منها إلى النغمة المقصودة .

وكذلك لما كان الجاهليون أهل حل وترحال ، وطبيعة حياتهم تقضى عليهم بالتنقل فى مختلف المنازل والأحياء ، طلباً للنجعة وارتياداً للخصب ، كان أهم أغراض النسيب فى شعرهم الحديث عن نأى الأحباب وتفرقهم وانقطاع الأسباب بهم والتغنى بمنازلهم المهجورة والوقوف بآثارهم الموحشة .

وإذا تتبعت الشعر الجاهلي رأيت شعراءه لم يزيدوا في هذا الغرض على معانيه الأوّليّة البسيطة ، وهي الحقائق الأصلية المجردة التي تقع في الفكر أوّلَ خاطر ، ولم تتصرف فيها الملكة الفنية ولم تتناولها بأناملها الرقيقة الصنّاع ، ولم تُضِف إليها قليلاً ولا كثيراً من سحر الفنّ وفتنته ؛ ولم تمزج تلك الحقائق — إلا في القليل النادر — بخيال مستعذَب ، أو تعليل مستحسَن ، أو تشبيهٍ رقيق ، أو مجاز غريب ، أو تصويرٍ فاتن ، أو ترتيبٍ فنّيّ رائع ؛ أو غير ذلك من الأمور التي تراها في شعر العباسيين حين يتحدثون في هذا الباب .

بل تراهم يصفون الدِّمَنَ كما رأوها ، ورسومَ الأطلال كما يشاهدونها ، وخلوّ الديار وإقفارَها كما هو واقع ، وفعلَ الرياح والأمطار بها كما هو حاضرٌ لديهم ، والنُّؤيَ والأحجارَ وبقايا الخيام كما هو ماثل أمامهم .

وكلّهم قد أطبقوا على تشبيه رسوم الديار بالخط في الصحيفة والوشم في ظاهر اليد ، لا يزيدون على ذلك ولا ينقصون .

وحسبك أن تقرأ أوائل قصائد امرىء القيس وزهير ولبيد والحارث بن حلّزة والنابغة الذبياني وعَبيد بن الأبرص وهي معلّقاتهم المعروفة ، ونحوَ هذا العدد من قصائد جاهلية أخرى ، حتى يتبين لك أنك قد قرأت أكثره وأحطتَ بجُلِّ أغراضه ؛ إذ كانت معاني هذا الباب واحدة في جميع قصائدهم ، لا تتغير في قصيدة منها إلا بالأساليب والعبارات ، وبذلك وحده يقع التفاضل بين هؤلاء الشعراء عند علماء الشعر .

وانتقل بنا بعد ذلك إلى من جاء بعدهم من الشعراء الإسلاميين والأمويين وأوائل الدولة العباسية إلى نهاية القرن الثاني ، فإنك تراهم قد نهجوا نهج الجاهليين ودرجوا على سبيلهم في هذا الباب ، فلم يزيدوا في صفة الأطلال والنأي على ما خلّف الجاهليون من الأغراض والمعاني ، بل قلّدوهم تقليداً دقيقاً حتى في أسماء الأمكنة التي كان يفتتح بها الجاهليون قصائدهم ، حين يذكرون منازل الأحباب التي رحلوا منها والتي رحلوا إليها ومرّوا في طريقهم بها ؛ وقد دعاهم إلى هذا التقليد تقديس الشعر الجاهلي ، إذ كان أصلَ اللغة ومصدرَها ، والينبوعَ الذي تُشتق منه ألفاظُ العرب وأساليبهم ، وكيفية استعمالهم لألفاظهم وعباراتهم ، ووضع كل لفظ موضعه ؛ وجرّهم تقديس ذلك الشعر في لغته إلى تقديسه في أفكاره ومعانيه ، فإن التقديس وضدّه لا يتجزآن عند بُسطاء العقول وذوي الثقافة الضيقة المحدودة الذين لم يعودوا أذهانهم الالتفات إلى الفروق الدقيقة بين الأشياء ، والمغايرةَ بين جهات الشيء الواحد كهؤلاء الشعراء ؛ وقد أوضح تلك النظرية العلاّمة الأستاذ أحمد أمين في بحث كتبه في مجلة « الثقافة » في الأدب التركيبي والتحليلي ، وأبان فيه كيف أن هؤلاء ينظرون إلى الأشياء نظراً عاماً ويحكمون عليها حكماً عاماً بدون تفرقة بينها .

ولم يتطور هذا الباب في ذلك العصر تطوّراً يذكر إلا بسهولة الألفاظ وعذوبتها وشيء يسير من لين العبارة وسلاستها ، والتباعد بعض الشيء من غريب الألفاظ وحوشي الكلام ؛ هذا إذا استثنينا جماعة الرُّجّاز الذين اشتهروا بغريب اللغة ، كرؤبة بن العجاج وأبيه ، فإن هذين الراجزين قد غلَوَا في استعمال غير المألوف وأسرفا فيه إسرافاً جعل بعض علماء الشعر يتهمهما بأنهما يأتيان بهذا الغريب من عندهما لا من لغة العرب .

وثَمَّ تطور آخر لهذا الباب في الشعر الاسلامي ، وهو التقليل — ما أمكن — من أسماء الأمكنة في مفتتحات القصائد ، فقد كان الشاعر الجاهلي يغلو في الإكثار منها ، ويسرف كل الاسراف في تحديد مواقعها حتى ينتظم ذلك عدة أبيات من القصيدة ، فتحس في شعره أنك تقرأ أحد المتون الجافة المنظومة في الجغرافيا ، ولا تكاد تشعر فيه

بجمال ولا روعة ، ولا عاطفة تصل بين قلب الشاعر وقلبك ، فتؤثرَ الانصراف عنه ، إلا إذا كنت تقصد بقراءة هذا الشعر إلى البحث اللغوي ، دون الامتاع الأدبي .

ومن أمثلة ذلك قول الحارث بن حِلِّزة في أول معلقته :

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسماء
رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواء
بَعْدَ عَهْدٍ لنا (بِبُرْقَةِ شَمَّا
ء) فأدْنَى دِيارِها (الخَلْصاء)
(فالمُحَيَّاةُ) (فالصِّفاحُ) (فأعْلَى
ذي فِتاقٍ) (فَعاذِبٌ) (فالوَفاء)
(فرياضُ القَطا) (فأوْدِيَةُ الشُّرْ
بُبِ) (فالشُّعْبَتانِ) (فالأَبْلاء)

وقول عَبيد بن الأبرص في أول معلقته أيضاً :

أقفرَ من أهلِهِ (مَلْحُوبُ)
(فالقُطَبِيّاتُ) (فالذَّنُوبُ)
(فَراكِسٌ) (فثُعَيْلِباتٌ)
(فذاتُ فِرْقَيْنِ) (فالقَلِيبُ)
(فعَرْدَةٌ) (فَقَفا حِبِرٍّ)
لَيْسَ بِها مِنْهُمُ عَرِيبُ

وكل هذه أسماء مواضع في بلاد العرب ، أحد عشر في أبيات الحارث ، وتسعة في أبيات عَبيد ؛ وهذا كثير جداً في الشعر الجاهلي ، ولا تجده في الشعر الاسلامي إلا في القليل النادر الذي لا يكاد يذكر ، وذلك لأنهم سكنوا الحواضر التي افتتحها المسلمون ، فقلت معرفتهم بتلك المواضع وحديثهم عنها .

هـذان طوران من ثلاثة أطوار تَنَقَّلَ فيها هذا البـاب ؛ ثم تَقَدَّمَتْ إليه بعدها عوامل الانحلال والضعف حتى تلاشى من الشعر العربي ومات موتاً طبيعياً إلا في القليل النادر الذي لا يكاد يعتدُّ به مؤرخ الأدب ، وقد أجملتُ القول في طوريه الأوَّلَيْن ، وأوضحتُ مميِّزات كل منهما ، ومظاهرَ التطوُّر فيه .

أما الطَّوْر الثالث ، وهو الذي ارتقى فيه هذا الباب إلى أعلى ذروة الفن وبلغ فيه مدى كماله ، فإني سأتحدث إليك عنه في المقال الآتي ، مبيِّناً وجوه الرقي الفني فيه ، والعواملَ المؤثِّرة في ذلك إلى أن بلغ هذه الغاية ، ثم أروي لك من عيون هذا الغرض وروائعه ما يخلب اللُّبَّ بسحره . ولم أرد أن أرويَ شيئاً منه مما قيل في تلك العصور الأولى التي سبق الحديث عنها ، لأني أقصد بما أرويه إلى تربية الذوق الأدبي وإرهاف الإحساس الفني ، دون تنمية الثروة اللغوية ، وتكثير المحصول اللفظي .

أحمد الزين

٣ - أركان الأساوة

تغلب المستحضرات الكيمياوية على الأمراض

لـــستر وارنخ

كان الأقدمون على معرفة تامة بثلث مجموع العقاقير الطبية المستعملة اليوم . فعرفت مصر القديمة منافع عود الند أى الصبر وزيت الخروع والمرمر والنعناع والمر . واستعملت الهند الأفيون والجوز القيء والحشيش . واستخدمت سوريا معظم عقاقير مصر وما اكتشفته بنفسها من العقاقير الأخرى وزيت اللوز وزر اليانسون والعرق سوس . أما اليونان فامتازت بالاستفادة مما تفتقت عنه العقول المصرية والهندية والأشورية فى ميدان العقاقير ، مضيفة إليها بعض ما كشفت عنه من العقاقير كالبلادونا أو نبات ست الحسن والقرفة والزنجبيل والراوند .

ثم جاء العرب فأضافوا طائفة كبيرة جداً من العقاقير على القائمة الاغريقية ، فنصف العقاقير المستعملة اليوم كان يعلم بها أطباء العرب من نيف وألف عام .

ثم زادت قائمة العقاقير باكتشاف أمريكا ، فأبلت فى القرن السابع عشر امرأة حاكم بيرو من الحمى بتعاطى مزيج مستحضر من لحاء شجر الكينا الذى جلبه إلى أوربا فيما بعد أحد الآباء اليسوعيين ، فأقره الأطباء من ثلاثة قرون خلت لمعالجة حمى الملاريا ! وما انقضت فترة يسيرة حتى ابتاعت الحكومة الفرنسية من أمريكا شيئاً من « Ipecac » (عرق الذهب القيء) على اعتبار أنه شفاء ناجع لا يعرف كنهه ؛ ودفعت ثمن ذلك ألف جنيه فرنسى ذهباً .

وقد استعمل الـ « Ipecac » بنجاح عظيم فى معالجة الدسنتاريا . أما المادة الثالثة المستجلبة من أمريكا فالتبغ المهدىء للأعصاب وهو غنى عن التعريف .

وكانت الجرع الشافية فى أول الأمر تستحضر من جميع هذه النباتات ، إما عن طريق سحقها أو نقعها فى الماء أو إذابتها فيه . ثم تطورت دولة العقاقير الطبية منذ نيف ومائة عام بفضل اكتشاف العلماء إمكان استخلاص ذلك الجزء من النبات الحاوى لمادته الفعالة التى هى قوام القوة الشافية فيه . فاستخرج الكينين من نبات الكينا بعد أن دلت التجارب العلمية على أنه مادة الشفاء فى هذا النبات ، واستخرجت مادة المورفين من الأفيون ، ومادة الاستركنين من الجوز القيء « Nux Vomia » وهلم جراً . وقد وجه العلماء جل نشاطهم خلال القرن التاسع عشر إلى استخراج القوى الفعالة من النباتات .

وفى أوائل القرن العشرين نشأت حركة نشاط جديدة بانصراف الجهود إلى تعيين نوع الدواء لنوع الداء ، إذ لم يكن العالم منذ ثلاثمائة سنة يعرف سوى خاصية أدوية ثلاثة معينة لأدواء ثلاثة معينة أيضاً ، وهى الزئبق فى معالجة الزهرى ، وعرق الذهب القيء Ipecac فى معالجة الدسنتاريا ، والكينا فى معالجة حمى الملاريا . وكان لبول أرلخ أحد يهود ألمانيا نصيب وافر من هذه الحركة ، فقد توصل لمعرفة أن أنواعاً معينة من الجراثيم تتأثر بأنواع معينة من الأصباغ ، فإذا هو اهتدى إلى معرفة نوع الصبغة المنشودة فقد يتمكن بواسطتها من قتل الجراثيم فى جسم الانسان .

حوّل أرلخ نشاطه بعد ذلك إلى ما تحمله ذبابة Tse. Tse إلى الانسان من جراثيم ينجم عنها داء مرض النوم الأفريقي ، فاهتدى بعد البحث والتحليل إلى صبغة من الأصباغ تكفل قتل ميكروب مرض النوم في جسم الانسان .

ثم عمد بعد ذلك إلى معالجة جراثيم الزهري محاولاً إيجاد طريقة لقتلها في الجسم دون أن يصاب الجسم نفسه بضرر أو تلف ، فهداه البحث إلى معرفة أن مستحضراً معيناً من مادة الزرنيخ يحقق أمنيته ؛ وبعد أن أجرى ستة وستمائة بحث اهتدى إلى إيجاد المادة المنشودة لقتل جراثيم الزهري في الجسد دون أن يمس الجسد بسوء .

ومهما عظم مبلغ ما نالت هذه التجارب من النجاح الباهر ، فهي لم توفق إلا في إبادة الأنواع الكبيرة من الميكروبات المعروفة باسم البروتوزوا ، ولم يكن لها تأثير يذكر في القضاء على البكتريا ، تلك الجراثيم الدقيقة التي هي أشد فتكاً بالانسان وأعمق أثراً في الجسم من الجراثيم التي تكبرها حجماً .

على أن لستر كان أول من توصل إلى قتل البكتيريا وإبادتها فوق موائد العمليات الجراحية بعد أن أرشد باستير إليها وإلى طبائعها ، وبعد أن أقام كوخ الحجة على أن هذه العلة أو تلك إنما تنشأ عن وجود هذا النوع أو ذاك من الجراثيم في الجسم .

أدرك لستر أن تعفن الجروح وتقيحها عَقب العمليات الجراحية ناشيء عن وجود البكتريا ، فأخذ يعمل على إبادتها ، وكان قد ترامى إلى علمه من قبلُ نجاح حامض الفنيك في تطهير المجارى والبالوعات وما إليها ، وإراحة الناس من رائحتها الكريهة ، فجرب استعمال هذا الحامض في تنظيف جلد المرضى قبل إجراء العمليات الجراحية ، وفي تطهير صالة العمليات نفسها قبل العمليات وفي أثنائها ، وتعقيم كل ما يتصل بها من آلات جراحية وغيرها . والواقع أنه لم يكن ينجو من براثن الموت قبل لستر سوى قرابة ٥٠٪ ممن دفعهم نكد الطالع إلى مدية الجراح ، على حين يذهب الباقون ضحية التسمم . أما اليوم فقد أصبح خطر التسمم عَقب العمليات الجراحية أقل خطراً من عبور الطريق في بلد كثرت حركته واشتد زحامه . بيد أن البحوث لايجاد دواء خاص لكل مرض معين لم تتقدم التقدم المنشود . فالمواد المطهرة التي كانت تستعمل لقتل الميكروبات خارج الجسم لم تكن صالحة لقتل الجراثيم داخله دون إتلاف الأنسجة فيه ، فيكون الدواء شراً من الداء .

ولكن حدث في يوم عيد الميلاد ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٢ تطور جديد في هذا الميدان لا يقل أهمية عن أي تطور آخر خلال المائتي سنة الأخيرة ، إذ حدث في ذلك اليوم أن سجل ثلاثة كيماويين في أحد معامل الأصباغ بألمانيا نوعاً جديداً من الصبغة ؛ بيد أن الاكتشاف الجديد وإن يكن ذا أهمية كبيرة في ميدان الصباغة إلا أن الناس خارج هذا الميدان لم يولوه شيئاً من العناية ، بل مروا عليه مر الكرام ، ثم ألم تكن هذه الصبغة الجديدة قد أعدت لاستخدامها في تلوين المنسوجات ؟ ولكن لم تكد تمضي فترة قصيرة من الزمن حتى اكتشف أن هذه الصبغة الجديدة المسماة « Prontosil » كان لها تأثير كبير على الميكروبات وأنها تبيد هذه الميكروبات في الجسم دون أن تؤثر على أنسجته ؛ وفي الحال أخذت انجلترا وفرنسا وأمريكا في مواصلة البحوث العلمية ، فتبين أن صبغة البرنتسيل إنما استطاعت قتل الجراثيم في الأجسام لأنها توجد بها أي بالأجسام مادة أخرى تسمى « Sulbhanihamide » وهي التي عليها مدار القول ، إذ أنها كانت تؤدي نفس ما تؤديه صبغة الـ« Prontosil » وأزيد من ذلك ، كانت هذه المادة شديدة الفتك بالجراثيم المسماة « Streptococcus » التي تسبب موت الأمهات في دور حمى النفاس بعد الوضع . وهي أيضاً مسببات التهاب الغشاء السحائي أو الحمى الشوكية

ومسببات داء الحمرة وكثيراً غيرها من العلل . وفى جميع هذه الحالات كانت مادة « Sulphanilamide » ذات أثر بعيد فى إبادة الجراثيم وتعجيل الشفاء بطريقة تكاد تكون من المعجزات .

ولم يكن هذا كل ما كانت به البحوث الطبية من النجاح فقد استطاع أحد المعامل الكيمياوية فى بريطانيا العظمى أن يحضر مادة قريبة الصلة بمادة « Sulphanilamide » وكأنها شقيقة صبغة « ال Prontosil » وتعرف هذه المادة الجديدة فى أنحاء العالم أجمع « M S B 693 » وهى تعمل عمل « ال Sulphanilamide » و « ال Prontosil » معاً وتزيد على فعلهما كثيراً . فهى لا تقتل جراثيم « ال Streptococcus » فحسب ، بل تقتل كذلك جرثومة أخرى اسمها « Pneumococcus » تصيب الرئة ، ومسببة الالتهاب المعروف بالالتهاب الرئوى . وتصيب كذلك غشاء العمود الفقرى مسببة الحمى الشوكية أيضاً ، كما أنها قد تصيب الآذان فتسبب الصمم بها ، وهى تصيب الكبير والصغير على حد سواء ، وتقضى على كثير من الرجال والنساء فى ربيع العمر وعنفوان الصبا . وقد كانت نسبة الوفاة من الالتهاب الرئوى قبل اكتشاف « M S B 693 » منذ سنتين بنسبة واحد فى كل أربع إصابات . وقد هبطت هذه النسبة فى العام الماضى إلى واحد فى كل اثنى عشرة إصابة . وتدل الشواهد على أن هذا الهبوط فى نسبة الوفاة بالالتهاب الرئوى مستمر فى النقصان ، والواقع أن مرض الالتهاب الرئوى قد أصبح من العلل الصغيرة أكثر من أى شىء آخر . ولعلك متسائل بعد ذلك : من هم أركان الأساوة بواسطة العقاقير ؟ يقيناً كان أرلخ أحدهم ، لأنه كان الرجل الذى مهد الطريق لمعالجة داء معين بدواء معين أيضاً ، ويقتل أنواع خاصة من الجراثيم بأنواع خاصة من العقاقير . وكان لستر من عمد الطب أيضاً لأنه أنشأ فن الجراحة الحديثة .

ولم يحن الوقت بعد لتعيين أجدر إنسان بوضع إكليل الغار على هامته لتفضل اكتشاف الطائفة الأخيرة من العقاقير ، فقد اكتشف « ال Prontosil » كيمياوى ألمانى الجنسية ، ووجد « ال Sulphanilamide » فى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، ولا يزال ، ويجهل اسم مكتشف « ال M S B 693 » إذا صح أن هنالك مكتشف له ، ومهما يكن من شىء ، فالذى يهم البشرية المستشفيات والعيادات الطبية التى تجنى ثمار هذه المكتشفات العظيمة .

• • •

فى عالم التأليف

الأدب المصرى

اتجه الباحثون فى الأيام الأخيرة إلى العناية بدراسة الأدب القومى بجانب عنايتهم بالأدب العام ، وذلك على أثر قوة الروح القوميـة ومظاهرها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فتأثر الأدب بهذه النزعة ، وبدأنا نسمع كلمة الأدب المصرى ، والأدب العراقى ، والأدب الشامى ، ولا شك أنها نزعة محمودة أن يتجه مؤرخو الأدب إلى أدبهم القومى بجانب دراستهم للأدب العام ؛ وكان من مظاهر ذلك أيضاً إنشاء كرسى فى الجامعة المصرية للأدب العربى المصرى نرجو أن يحقق الغرض منه ، فيضىء لنا طبيعة الأدب المصرى ومزاياه ، وينشر لنا من الكنوز المدفونة ، والآثار القيمة المهملة .

وبين أيدينا الآن باكورة لهذا الاتجاه الجديد ، كتابان فى الأدب المصرى ، أحدهما كتاب « من أدب الفراعنة » للأستاذ « محمد صابر » عرض فيه بعض القصص المصرية الفرعونية التى عثر عليهـا فى أوراق البردى المحفوظة فى مكاتب العالم ، أو منقوشة على جدران المعابد والهياكل ، كما عرض لبعض الأغانى والأناشيد المصرية ، وبعض الأشعار .

والكتاب مكتوب بأسلوب سهل يسير ، وهو مفيد فائدة كبرى فى تاريخ الآداب ونشأتها وتسلسلها ، كما يفيد فى تعرف عقلية المصريين ومقدرتهم الفنية أيام كان العالم كله فى عماه .

ويقع القارئ فيه على مواقع تستخرج منه العجب ، كالفلاح المظلوم الذى سلبه غنى ماله ينادى القاضى بقوله : « يا أقوى رجل بين الأقوياء ، ويا صديق الفقير ، ووالد من لا والد له ، وزوج الأرملة ، وأخا البنت المحتاجة ، إنى أثنى عليك لأنك ترد الحق إلى نصابه دون أن تنال عليه أجراً ، يا محباً للعدل ، وعدواً للمجرمين ، انظر فى أمرى ، فإنى أود أن أرى رحمتك » .

كما أن فى الكتاب مواقف رائعة من الناحية الفنية القصصية ، كقصة « ابن الجيزة » وقد ترجمت إلى أشهر اللغات ، وكانت تدرس فى المدارس المصرية .

وفى الكتاب أناشيد فى موضوعات طلية ، وأغانى فى الحب تدل على أن العواطف والتعبير عنها لم تتقدم كثيراً مع تقدم الزمن ، وحكم ونصائح دقيقة لفت نظرى منها قولهم : « احن ظهرك احتراماً لرئيسك ، لأنك ستكون محبوباً لدى القصر الملكى ، ويكون لك مركز ممتاز ، ما أقبح من يعارض الرئيس ! » .

والقارئ للكتاب يرى وجوه شبه كبيرة فى بعض الأحيان بين أساطير المصريين وأساطير اليونان فى أصل الطبيعة وفى الآلهة وفى الأرواح ، كما يلذه أن يرى عقائد مصرية قديمة قد ظلت حافظة لأشكالها رغم تعاقب العصور واختلاف الأديان .

وعلى الجملة فنحن نثنى على الكتاب ، ونرجو أن يستمر نشاطه ويستمر تقدمه فى بحثه وفى أسلوبه .

وثانى الكتابين كتاب « فى الأدب المصرى الإسلامى »

أنباء وآراء

الأدب المصرى فى فرنسا

منذ أسابيع قلائل عرضت مجلة « ماريان » الفرنسية فى صفحة النقد الأدبى إلى كتاب مصرى ترجم إلى الفرنسية هو « يوميات نائب فى الأرياف » للأستاذ توفيق الحكيم ، فأفردت لنقده كلة رقيقة تناولت فيها الكتاب بالثناء ، كعمل يعطى صورة صادقة من الأدب الشرق الحديث ، وعدته كتاباً جديراً بأن يضم فى عداد كتب الأدب الفرنسية .

وقد قام بترجمة هذا الكتاب من العربية إلى الفرنسية الأستاذان جاستون ڤييت والدكتور زكى محمد حسن ، ترجمة دقيقة ، وقدم له معالى الدكتور حافظ عفيفى باشا بمقدمة ذكر فيها عن هذا الكتاب أنه مجموعة رائعة من صور الحياة المصرية فى الريف .

و« الثقافة » ترى أن فى ترجمة أمثال هذا الكتاب عملا جديراً بالتقدير ، لأنه ينشئ صلة وثيقة بين الأدب العربى والآداب الافرنجية ، ويوجد دعاية طيبة لمصر فى الخارج .

ديكنز وابنته

هذا هو اسم الكتاب الجديد الذى أصدرته الكاتبة الانجليزية جلاديز ستورى عن حياة ديكنز ، والذى أثار من جديد ثائرة الباقين من أسرة الروائى العظيم لما حوى من مزاعم عن حياته الخاصة ومغامراته الغرامية .



وقد ذكرت المسز ستورى فى مقدمة كتابها أنها كانت مسز ديكنز ... الزوجة المظلومة صديقة حميمة لمسز كيت بيروجينال ابنة ديكنز المفضلة

من فتح العرب إلى دخول الفاطميين للأستاذ محمد كامل حسين ؛ وأصله بحث قدمه إلى كلية الآداب منح عليه درجة الماجستير ، ثم بدا له أن يحذف بعض فصوله ، ويضيف إليه فصولا أخرى ، ويغير منه بعد ما عثر على نصوص لم يكن رآها من قبل .

عرض فى الكتاب للأدب المصرى قبيل الفتح الإسلامى ، والصراع بعد دخول العرب بين اللغات اليونانية والقبطية والعربية ، كما عرض للحياة العقلية والأدبية فى مصر إلى دخول الفاطميين ، وترجم لمشهورى رجال الفكر والأدب فى ذلك العصر .

وهذا الكتاب أول كتاب من نوعه يعنى بتاريخ مصر وأدبها فى عصر من العصور على النمط الحديث ، وقد وعد فى آخره أن يتبعه بكتاب آخر فى العصر الفاطمى .

***

فلعل هذه الخطوة المباركة فى التأليف فى الأدب المصرى يتلوها خطوات فى نواح مختلفة وعصور مختلفة ، حتى يكون لنا من ذلك المجهود كله تاريخ لأدب مصر كامل واضح نفخر به ونبنى عليه . (***)

لميه والتي توفيت عام ١٩٣٩ ، ومنها استقت أغلب ما ترويه من حياة ديكنز ؛ واقتطفت من أقوال هذه الابنة كلمة تزعم أنها قالتها لها يوماً وهي : « إني أحبه من كل قلبي لأخطائه الكثيرة . أجل إن والدي كان رجلا شريراً ، شريراً بمعنى الكلمة » .

وقد قصت المسز جلاديز بناء على رواية صديقتها كيف عانت زوجة ديكنز من خطاياه وتصرفاته ، وكيف قاست من معاملته لها . وأزاحت الستار عن إحدى مغامراته مع ممثلة في الثامنة عشرة من عمرها ، هي إلين لوس ترنان ، كانت قد وقعت في حبائل ديكنز تحت تأثير اسمه كروائي شهير ، وكيف أدت هذه العلاقة به إلى أن يحطم حياته الزوجية ويقضي على سعادته ، ويترك زوجته تغادر المنزل مضطرة بعد أن أنجبت له عشرة أولاد ؛ ولم يكتف بذلك بل بذل جهده ليحول دون هؤلاء الأولاد ورؤية أمهم . وقد سبق هذه المأساة بأن حاول أن يخضع زوجته لرغبته الخاصة ، فطلب منها أن تزور هذه الممثلة الخاملة ، فلما عارضت في ذلك أجبرها على مغادرة المنزل لقاء نفقة سنوية قدرها ستمائة جنيه ، وقد غادرته فعلا ؛ وكان أشجع أبنائها هو شارل الذي فضل أن يعيش معها عن أن يظل في المنزل ويرى ذليلا حماقات والده ونزواته .

وقد ذكرت مسز جلاديز في ختام كتابها أنها تعرف أن أحفاد ديكنز سيثيرهم هذا الكتاب ، وسيزعمون أن كل ما به محض اختلاق . ولكنها واثقة أن هذه الثورة التي تتملكهم ليس منشؤها إيمانهم ببراءة جدهم ، وإنما هو الحرص على اسمه وتأثير تشويه هذا الاسم في رواج مؤلفاته التي يعود عليهم من بيع حقها ربح ليس بالقليل .

برنارد شو يبدي رأيه

خطب المارشال جورنج منذ أسابيع ثلاثة في الألمانيين ، فنوه بقوة ألمانيا وطلب من الشعب أن يعوّد نفسه على الجوع لأن الحرب قد تطول .

وقد كتب المستر برنارد شو يعلق على هذه الخطبة في إحدى المجلات متهكما كعادته ، فسأل المارشال جورنج : هل يتوقع أن يجوع هو أيضاً ، وهل يحتمل الجوع الذي يطلب إلى الشعب أن يتعوده ؟ ثم أشار إلى أن هذه الحرب كان لابد منها لانتحار الهتلرية بشيء يشبه الشرف ، لأن هزيمتها في الحرب وسقوطها قد يتخيله كثير من قصار النظر أنه سقوط في طريق المجد ، بينما كان المصير المحتوم لها هو السقوط ، لأنها كانت تقود الشعب في طريق الموت جوعاً دون الحاجة إلى حرب ، حين حولت ميزانيته كلها إلى



صورة كاريكاتورية لبرنارد شو

آلات قتال من معادن يعلوها الصدأ إن لم تستعمل فيصعب أن يأكلها الشعب الألماني بدل الخبز لئلا يتسمم.

وقد ختم برناردشو تصريحه سائلا الرشال جورنج في دعابة قائلا: «هل يسمح المارشال العظيم أن يخبرنا عن آخر رغيف قبل المجاعة من سيأكله؟ هل الشعب الجائع منذ أعوام قبل الحرب، أم المرشال العظيم ورئيسه الفوهرر؟».

أوفى الأصدقاء

نال جوزيف ماليلو الطالب الأعمى بجامعة نيويورك شهادة بكالوريوس في الآداب بعد أن قضى أربع سنوات في الجامعة لا يرافقه إلا كلبه «بوزو» متنقلا به بين قاعات الدرس والمكتبة. وفي يوم توزيع الشهادات وقف رئيس الجامعة ليحيي الناجحين ويهنئهم واحداً واحداً، حتى إذا ما وصل إلى اسم جوزيف نهض هذا الأخير، وقد ربض إلى جواره كلبه، فالتفت رئيس الجامعة إلى الطالب الضرير فهنأه بنجاحه، ثم أدار بصره إلى الكلب وقال له: «لقد كنت أيها الصديق أميناً لصاحبك مخلصاً في أداء عملك صبوراً في قيادتك له، رزيناً هادئاً لا تنبح فتعكر جو الجامعة ولا تثور محترما قداسة المكان، فلا يسعني والحالة هذه إلا أن أقدم لك شكر الجامعة، وأمنحك لقب الأمين يطلق عليك مدى حياتك.

وبمناسبة وفاء هذا الكلب نذكر أنه في إحدى محطات السكك الحديدية في طوكيو تمثال لكلب يدعى هاشيكو، أقامته الحكومة اليابانية تقديراً لوفاء هذا الكلب، فقد كان رفيقاً لأحد أساتذة الجامعة الامبراطورية، وكان يسير معه كل صباح من المنزل إلى محطة السكة الحديدية في طريقه إلى الجامعة، وينتظره في الساعة الخامسة على المحطة ليعود معه إلى المنزل، حتى جاء يوم انتظر هاشيكو فيه سيده فلم يعد في الموعد حيث كان قد توفي بالجامعة، فانتظره إلى أن أقبل المساء، ثم سار بعد ذلك محزونا في الطريق. ومنذ ذلك اليوم ظل هذا الكلب الوفي يذهب إلى المحطة في الساعة المعينة وينتظر حتى يقبل المساء، مدى ثمانية أعوام حتى مات، وكانت قصته قد شاعت وعلمت بها الحكومة فأقامت له هذا التمثال تقديراً لوفائه النادر.

السمك المحارب

حدث منذ عدة أسابيع على ساحل فلوريدا بأمريكا أن رأى أحد هواة اليخوت قارباً من قوارب الصيد يشرف على الغرق، فأسرع إلى نجدته، ولكنه دهش حين رأى صاحب القارب ممدداً على وجهه وقد كسرت عظام ظهره، ووجد في قاع القارب سمكة من نوع هائل الحجم تتلوى من الألم، فجر القارب جراً حتى أوصله إلى الشاطئ، ونقل صاحبه إلى البر، ولما حاول أن يسحب السمكة وجدها مغروزة في قاع القارب بقرن هائل لا يقل عن قرن الخرتيت صلابة. ووجد في مؤخرة القارب أحد العمال مغمى عليه. وقد استطاع هذا العامل أن يوضح السر في مقتل زميله الصياد؛ إذ بينما كان يحاول أن يصطاد هذه السمكة التي علقت بصنارته، إذا بها تقفز إلى ما لا يقل عن

عشرة أمتار فى الهواء ، وتهوى على ظهر الرجل المسكين فتحطمه ، وتستقر فى قاع القارب ، وقد غرز قرنها الذى يشبه حد السيف فى قاعه .



قفزة قاتلة لسمكة من النوع الخطر

وقد شكت السلطات فى صحة هـذا الحادث لولا أن استطاع أحد حراس السواحل أن يسجل بآلة التصوير صورة قفزة مروعة لسمكة من هذا النوع مما أيد ما رواه العامل .

ويرى القارئ الصـورة التى تسجل قفزة السمكة فى أعلى الكلام .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

....

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ قرشاً فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العـدد ١ قرش صاغ

محكمة ميت غمر الجزئية الأهلية

إعلان بيع لمرة سادسة فى القضية المدنية رقم ٣٥٠٩ سنة ١٩٢٨

إنه فى يوم الأربعاء ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى محكمة ميت غمر سيباع بطريق المزاد العلنى العقارات الآتى بيانها ملك حضرة محمد بك أمين سلام والشيخ أحمد مأمون سلام وورثة المرحوم أحمد رياض سلام وهم والدته الست نفيسة الشافعى غال والست فايقه أحمد وعدلان عن نفسها ووصية على أولادها القصر محمد وأحمد ومحمود ويسرية ووهيبة وزنوبة أولاد المرحوم أحمد رياض سلام ومحمد أفندى مختار سلام والست أم محمد محمد سلام والست أمينة محمد سلام والست أم أحمد محمد سلام وحافظ رسلان من هلا مركز ميت غمر والست سيدة محمد سلام من كفر الشيخ مركز ميت غمر والشيخ المزين على من نفسه وبصفته وليا طبيعيا على أولاده القصر نجية وصديق وحسنة ثم محمود المزين على ومحمد والى المزين على والست المزين على والست مفيدة المزين على ومصطفى المزين على من الصلين مركز ميت غمر والست خديجة أحمد محمد رجب من نفسها وبصفتها وصية على كريمتها إعداب أحمد نجيب سلام الغير معلوم لها محل إقامة بالقطر المصرى والست نجية محمد سلام والست مفيدة محمد سلام من هلا مركز ميت غمر وهذا البيع كطلب محمد بك أمين سلام عمدة هلا مركز ميت غمر وبناء على الحكم الصادر بالبيع من هذه المحكمة بتاريخ ١٩٣٦/١٢/١٨ وذلك لعدم إمكان القسمة عينا بثمن أساسى قدره ٥٠ جنيه و٤٩٠ مليم عن المنزل الأول نمرة ١ و١٧ جنيه و٧٥١ مليم عن المنزل نمرة ٢ و٢٩ جنيه و٦٢٢ مليم عن المنزل نمرة ٣ و٢٧ جنيه و٤٣٠ مليم عن المنزل نمرة ٤ و٦ جنيه و٥٤٠ مليم عن الفضاء وهذا جميعه بعد تنقيص الخمس خمسة مرات بخلاف المصاريف وقدرها جنيه و مليم

وهذه بيان العقارات وجميعها بناحية هلا مركز ميت غمر

سهم قيراط

(١) ٧٠ ٢٩٠ ذراعا معماريا عبارة عن منزل مبنى بالطوب الأحمر من بحرى فضاء والمنزل نمرة ٢ وشرقى الشيخ هنداوى البيوقى وقبلى حسانين البيوقى وغربى المنزل نمرة ٣ ويحتوى هذا المنزل على دورين وعلى دور يشتمل على ثلاث محلات وبير سلم وحوش كامل الأبواب والشبابيك

سهم قيراط

(٢) ٣٧ ١٢٤ ذراعا معماريا عبارة عن منزل واحد يحتوى على دور واحد مبنى بالطوب الأخضر يشتمل على قاعة ومخزن يحد من بحرى وغربى عائلة أبو كف وشرقى شارع دائر الناحية وقبلى فضاء

سهم قيراط

(٣) ٦٠٢ $\frac{1}{2}$ ذراعا معماريا عبارة عن فضاء ومقام على بعضه من الجهة القبلية مبانى ثلاث أود ومحاط هذا الفضاء بسور من الطوب الأخضر ومتهدم يحد من بحرى المنزل نمرة ٤ وعائلة أبو كف والشرق المنزل نمرة ١ والقبلى على الريه وشارع والغرب حسانين أبو المين

سهم قيراط

(٤) ٥٩٩ ذراعا معماريا عبارة عن منزل مبنى بالطوب الأخضر دورين يحتوى الدور الأول على أربعة محلات بالجهة البحرية ومحلين بالجهة القبلية وواحد بالجهة الشرقية ومجاز وبير سلم ويحتوى الدور الثانى على أربعة محلات بالجهة الشرقية وأربعة بالجهة البحرية يحد من بحرى شارع والشرقى أبو كف والقبلى المنزل نمرة ٣ والغربى ابراهيم شراره

سهم قيراط

(٥) ٥ ١٤١ ذراعا معماريا عبارة عن فضاء مستعمل ممرات للوصول ومنفعة الأربع منازل ومحصور هذا الفضاء بين المنزلين ١ و٢ مساحة كالآتى وهو على جزءين الأول بطول حده البحرى ٢٠,٥ متر وكذا القبلى والشرقى ٣ متر وكذا الغربى والثانى براح مساوى طول حده ٨ متر وكذا الشرقى ٨ متر وكذا الغربى فيكون جملة مساحة هذا الفضاء ٧٩,٩٠ متر أى ١٤١,٥٠ ذراع

ويكون هذا البيع على أربعة صفقات تنفيذا لقرار المحكمة الصادر فى جلسة ١٩٣٧/١/٢٧

فعلى راغب الشراء الحضور

وشروط البيع وكافة الأوراق مودعة بقلم الدعوى لمن يريد الاطلاع عليها كاتب البيوع ٤٧

إنه فى يوم الاثنين ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا وما بعدها والأيام التالية بشارع سليمان باشا رقم ٢٧ قسم عابدين بمصر سيباع علنا الاشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك حسن أفندى تنفيذا للحكم الصادر من محكمة عابدين الأهلية فى القضية رقم ٥٥ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٣٣ جنيه و ٩٤٠ خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب حضرة صاحب العزة محمد بك بدير

فعلى راغب الشراء الحضور ٤٨

إنه فى يوم السبت ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا وما بعدها والأيام التاليـة اذا لزم الحال بحارة كفر الطماعين الجوانى نمرة ١٧ بشارع العلوة قسم الجمالية سيباع علنا منقولات منزليـة موضحة بمحضر الحجز تنفيذا للحكم رقم ٢٦٦١ سنة ١٩٣٩ مدنى الوايلى وفاء لمبلغ ٥ جنيه و ٤٨٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد ملك مصطفى أفندى سليمان كطلب الشيخ سالم عمر محمد إجنيد التاجر بالجمالية بمصر

فعلى راغب الشراء الحضور ٤٩

إنه فى يوم الأحد ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بناحية كتامه مركز طنطا وفى يوم الخميس ١٢ منه بسوق بطره إذا لزم البيع سيباع علنا ٩ كيلات قمح هندى ملك على على الأسطى من الناحية وفاء لمبلغ ٥٦٧ قرش صاغ خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب محمد أفندى الألفى حندوسة وتنفيذاً للحكم رقم ١٥٤٩ سنة ١٩٣٦ فعلى راغب الشراء الحضور ٥٠

محكمة بندر المنصورة الجزئية الأهلية

إعلان بيع — نشرة ثالثة عشر

في القضية المدنية رقم ١٣٤٦ سنة ١٩٣٣

إنه في يوم الأربعاء ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسراي المحكمة بغرفة المزايدات — سيباع بالمزاد العلني العقار الآتي بيانه

منزل كائن ببندر المنصورة مركزها مديرية الدقهلية مساحته ٣٠٢ و٤٨ متراً نمرة ١٩ أملاك بشارع الجاويش نمرة ٩ قسم ثالث وبحده الآن بحده من بحري بعضه حميده السيد زغلول وبعضه أحمد سالمون بطول ٣٠ و٢١ متراً مكون من ثلاثة خطوط منكسرة وشرقي دسوقي أفندي عطيه وشريكه بطول ١٠ و٤ متر والقبلي فاطمه محمد أبو شرعه وآخرين بطول ٩٠ و١٥ متراً والغربي شارع الجاويش وفيه الباب بطول ١٠ و١ متراً

وهذا المنزل وارد في تكليف حسن الصوفاني بأرض ملك متولي السكرشانى مكلفة نمرة ٦١ ع جرد سنة ١٩٣٦

وهذا البيع بناء على طلب حضرة صاحب المعالي وزير الحقانية بصفته نائباً عن نيابة المنصورة الكلية الأهلية المتخذة له محلا مختاراً قسم القضايا الأهلية عمارة عدس بشارع عماد الدين بمصر وعند الاقتضاء بسراي النيابة أو قلم كتاب المحكمة الأهلية ضد حسن حسن الصوفاني بياع طرابيش أو بياع فول خلف منتزه السكاكي شارع جاويش بالمنصورة — وفاء لمبلغ ٢٩٣ جنيهاً مصرياً و٦٣٥ مليماً وما يستجد من المصاريف بثمن أساسي قدره ١٠ جنيها مصرياً و٧١٠ مليما بعد تنقيص الخمس تسع مرات

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة في القضية المدنية نمرة ١٣٤٦ سنة ١٩٣٣ بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٣٣ ومسجل بمحكمة المنصورة الابتدائية الأهلية بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩٣٣ بنمرة ٤٨٨ جزء ١٧

وجميع الأوراق مودعة بملف الدعوى بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها فعلى من يرغب الشراء الحضور في الزمان والمكان الموضحين أعلاه ؟ كاتب البيوع ٥١

إنه في يوم السبت ٧ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي بناحية ميت عساس مركز سمنود وفي يوم الأربع ١١ منه بسوق سمنود من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً إذا لزم الحال سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك الزيني صقر من ميت عساس وفاء لمبلغ ١٩٦ قرش صاغ المحكوم به والمصاريف بالحكم رقم ٩٧٨ سنة ١٩٣٩ أجا كطلب الشيخ أحمد عبد الرحمن غانم من نوسا البحر فعلى راغب الشراء الحضور ٥٢

إنه في يوم الأحد ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٦ أفرنكي صباحاً بناحية أشمنت وأرضها مركز الواسطى سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك إمام محمد محمود المزارع من ناحية بني عفيف مركز الواسطى نفاذاً للحكم رقم ١٢٤٦ سنة ١٩٣٩ جزئي الواسطى وفاء لمبلغ ٤ جنيه و٥٠٨ مليم خلاف رسم التنفيذ وأجرة النشر وما يستجد كطلب الست نعيمة حسن عابدين من بني سويف فعلى راغب الشراء الحضور ٥٣

إنه في السبت ٧ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية كفر الزعفراني مركز اطسا فيوم وفي يوم الخميس ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٩ بسوق اطسا من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً إن لم يتم البيع في اليوم الأول سيباع علناً غلة جاموس شملة ملك جمعه محمود رويش من كفر الزعفراني وفاء لمبلغ ٢ جنيه و٤٦٠ مليم قيمة المحكوم به في القضية نمرة ٢١٠٩ مدني اطسا سنة ١٩٣٩ والمصاريف خلاف أجرة النشر كطلب تاجه بنت شلقاني من كفر الزعفراني فعلى راغب الشراء الحضور ٥٤

إنه في يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٩ أفرنكي صباحاً لما بعدها ببندر الفيوم بالجوام بدرب البرعي سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك عبد الجواد أفندي رضوان عاشور ببندر الفيوم بالجوام بدرب البرج نفاذاً للحكم نمرة ٣٢٩٠ سنة ١٩٣٩ مدني الفيوم كطلب جورج بك لطف الله مقيم بسراي الجزيرة بمصر وفاء لمبلغ ٦٠٢ قرش صاغ خلاف أجرة النشر وما يستجد فعلى راغب الشراء الحضور ٥٥

إنه في يوم ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ بناحية البدرشين وفي يوم الأربع ١١ منه بسوق البدرشين إذا لزم الحال من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً سيباع علناً منقولات منزلية موضحة بمحضر الحجز نفاذاً لحكم محكمة الجيزة الصادر بتاريخ ١٩٣٣/١٠/١٧ في القضية المدنية رقم ٣٥٦٩ سنة ١٩٣٣ وفاء لمبلغ ٣ جنيه و١٤٠ مليم المحكوم به خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب الشيخ علي عزاوي جبه من البدرشين مركز الجيزة فعلى راغب الشراء الحضور ٥٦

إنه في يوم الأحد ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية كفر حميد مركز العياط ويوم الاثنين ٩ منه من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسوق منزلوة مركز العياط إذا لزم الحال سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز نفاذاً لحكم محكمة العياط الأهلية في القضية المدنية رقم ١٢٣٤ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٣٢٤ قرش صاغ خلاف النشر وما يستجد ملك أبو هيبار كيلاني من كفر حميد مركز العياط كطلب الشيخ عبد القادر حسن عبد العال بكفر حميد مركز العياط فعلى راغب الشراء الحضور ٥٧

إنه في يوم السبت ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية كفر شماره وزمامه مركز زفتى وفي يوم الثلاثاء ١٧ منه سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسوق ناحية زفتى سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك الشيخ ابراهيم ابراهيم سيد أحمد من الناحية نفاذاً للحكم الصادر من محكمة زفتى الأهلية بتاريخ ١٩٣٩/٣/١٢ في القضية المدنية رقم ١١٦ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ١٣ جنيه و١١٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب بنك مصر شركة مساهمة مصرية فعلى راغب الشراء الحضور ٥٨

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم { ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٤١ | الثلاثاء ٢٦ شعبان سنة ١٣٥٨ — ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــرس

تطـــورات الموقف الأوربى

بعد المأساة البولونية

لمحرر « الثقافة » السياسى

وقعت فى الأيام القلائل الأخيرة عدة حوادث وتطورات هامة فى الموقف الدولى ، يمكن أن نلخصها فيما يلى :

١ — انتهت الحرب فى بولونيا بانتهاء المقاومة البولونية ، وعقدت روسيا وألمانيا ميثاقاً جديداً بشأن تقسيم بولونيا والتعاون على إنهاء الحرب .

٢ — بدأت ألمانيا « هجومها السلمى » فى سبيل إنهاء الحرب ، معتمدة فى ذلك على معاونة إيطاليا وتأييد روسيا .

٣ — جرت فى موسكو مباحثات جديدة بين روسيا وتركيا لعقد ميثاق تركى روسى .

***

وقد كان الميثاق الروسى الألمانى الجديد بلا ريب أهم الحوادث الجديدة ؛ ومما يلاحظ فى ذلك أن موسكو قد غدت مركز النشاط السياسى فى أوربا الوسطى والشرقية والجنوبية ، وحلت فى ذلك محل برلين ؛ وأن الكرملين قد حل محل برختسجادن ، وحل ستالين محل هتلر فى دعوة

الممثلين السياسيين وإملاء المعاهدات والمواثيق السياسية .

فللمرة الثانية يذهب فون روبنتروب وزير الخارجية الألمانية إلى موسكو ، ويوقع فى الكرملين ميثاقاً جديداً بين ألمانيا وروسيا ؛ وقد أذيعت محتويات هذا الميثاق فى بيان رسمى مشترك من الحكومتين المتعاقدتين جاء فيه أنهما وقعتا اتفاقاً لتسوية جميع المسائل الناشئة عن انهيار بولونيا ، ووضع قاعدة ثابتة للسلم فى أوربا الشرقية ، وأن من واجبهما وحدهما إعادة السلم والنظام إلى بولونيا ، ولن تسمحا بأى تدخل من جانب الدول الأخرى فى التسوية التى ستوضع فى ذلك الشأن ؛ وأنهما رأتا أن المصلحة الحقيقية لجميع الأمم هى فى وضع حد للحرب القائمة بين ألمانيا وبريطانيا العظمى وفرنسا ، وستبذلان جهدهما لتحقيق هذه الغاية بمعاونة الدول الصديقة ، فاذا فشل هذا السعى ، وقعت التبعة فى ذلك على بريطانيا وفرنسا ، وفى هذه الحالة تدخل الحكومتان السوفيتية والألمانية فى محادثات جديدة لتقرير العمل الذى يجب أن تقوما به .

كذلك تضمن الميثاق الجديد الاتفاق على تعزيز العلائق الاقتصادية بين الدولتين ، وتصدير مواد أولية من روسيا إلى ألمانيا ، مقابل منتجات صناعية تصدرها ألمانيا إلى روسيا خلال آجال طويلة .

وبهذا الميثاق الجديد تتم الخطوة التى بدئت فى ٢٣ أغسطس الماضى ، بعقد الميثاق الألمانى السوفيتى الأول ، والتى ترتب عليها إقدام ألمانيا على غزو بولونيا ، ثم تقسيمها بين الدولتين .

وقد قدمت ألسنة الدعاية الألمانية الميثاق الجديد ، كما قدمت سابقه إلى الشعب الألمانى ، كأنه ظفر سياسى جديد ، أحرزته السياسة الهتلرية ، على أن ذلك لا يمكن أن يحجب الحقيقة الواضحة التى تؤيدها الظواهر والوقائع ، من أن الميثاق الجديد ، إنما هو فى الواقع انتصار جديد لموسكو .

ذلك أن روسيا البلشفية قد نالت بمقتضى اتفاقها مع ألمانيا نحو نصف بولونيا دون حرب ؛ ومع أن التقسيم الجديد يرد إلى قبضة ألمانيا المنطقة الواقعة شرقاً بين برست لتوفسك ووارسو حتى كيسلنو جنوباً ، فإن روسيا قد احتفظت بجميع أراضى روسيا البيضاء ، وأوكرانيا ولمبرج وما حولها من آبار الزيت الشهيرة ؛ ومعظم سكان هذه المناطق من الأقليات الروسية .

وقد دفعت ألمانيا فوق ذلك ثمناً فادحاً لاجتذاب روسيا إلى جانبها ؛ فقد غدت روسيا بمقتضى التقسيم البولونى ، جارة لرومانيا من الشمال ، ووقفت بذلك سداً فى وجه مطامع ألمانيا فى هذا الاتجاه ، وقد كان المعروف أن الزحف على رومانيا والبحر الأسود من أعز أمانى السياسة النازية ؛ وكذلك غدت روسيا جارة ملاصقة للمجر وأضحت تتحكم فى شئون أوربا الوسطى مثل ألمانيا ؛ ثم إن ألمانيا نزلت عن مطامعها فى دول البلطيق ، وبدأت روسيا تبسط نفوذها الفعلى فى هذه المناطق ، فعقدت أو فرضت على أستونيا فى نفس اليوم الذى عقد فيه الميثاق الألمانى الروسى الجديد ، اتفاقاً يحق لها بمقتضاه أن تنشئ مطارات وقواعد بحرية فى الجزر التابعة لاستونيا فى خليج ريغا وعلى شاطئها ؛ وسوف يعقبه اتفاق مماثل مع لاتفيا ، وهو الذى تقع بشأنه المفاوضة الآن ، وبذلك تغدو مياه البلطيق الشرقية كما كانت قبل الحرب منطقة روسية ، وتقاسم روسيا ألمانيا نفوذها وسيادتها فى هذا البحر ، الذى كانت ألمانيا تعده من وجهة السيادة البحرية بحراً ألمانياً .

فالمحقق الذى لا ريب فيه أن روسيا خرجت من تفاهمها مع ألمانيا بنصيب الأسد ؛ وأن ألمانيا حلت بحرج مركزها وتورطها فى سياستها الاعتدائية على التنازل عن كثير من أمانيها ومشاريعها الكبرى فى شرق أوربا وجنوبها ؛ هذا فضلا عما نال هيبتها السياسية من التضعضع بسبب انضوائها تحت لواء روسيا البلشفية ، والاستنجاد بها على تلك الصور المهينة لتعاونها على إنهاء الحرب التى تورطت فيها بنزقها وتسرعها .

***

وأما « الهجوم السلمي » الذي يحاول هتلر أن يتذرع به لإنهاء الحرب، بعد أن أتم جريمته في بولونيا، فالمفهوم أنه سيقوم على اقتراحات جديدة للصلح تقدمها ألمانيا بواسطة إيطاليا إلى بريطانيا وفرنسا، وتتلخص في أن تقام في بولونيا دولة صغيرة قاصرة، وأن يعقد مؤتمر عالمي لمعالجة جميع المسائل الأوربية؛ وقد مهد السنيور موسوليني إلى هذه الدعوة في خطابه الأخير؛ ولكن بريطانيا وفرنسا تشكان في صدق هذه الدعوة ولا تريان فيها سوى محاولة من ألمانيا المتذبذبة للاحتفاظ بفريستها. ومع أنهما على استعداد لبحث مقترحات الصلح حسبما صرح مستر تشمبرلن بذلك في بيانه الأخير، فإنهما تبحثانها فقط على ضوء الغاية التي دخلتا من أجلها الحرب، وهي العمل على سحق الهتلرية، وإنقاذ أوربا من خطرها وعدوانها المستمر، ولن تغمدا السيف قبل أن تحقق هذه الغاية. وقد قال مستر تشرشل وزير البحرية البريطانية في هذا الصدد في خطابه الأخير: « لقد كان لهتلر أن يقول متى تبدأ الحرب، ولكن ليس له أو لحلفائه أن يقولوا متى تنتهي. ولقد بدأت حين أرادها، ولكنها ستنتهي فقط حينا نوقن بأنه قد شبع منها ».

أما المعاونة التي يمكن أن تطمع ألمانيا في نيلها من روسيا، إذا فشلت محاولتها في إنهاء الحرب، فلم تتضح بعد، وكل ما هنالك أن الميثاق الجديد يشير إلى قيام الدولتين بمباحث جديدة لتقرير العمل الذي تقومان به. على أنه لا ريب أن روسيا السوفيتية سوف تسترشد في خطواتها المقبلة، كما استرشدت حتى اليوم، بمصالحها قبل كل شيء، ومصالحها التقليدية تقضي عليها بالوقوف في سبيل أية محاولة تخطر لألمانيا للدنو من شواطئ البحر الأسود أو اقتحام البلقان؛ ولهذا فإنا نستبعد أن يقوم بين الدولتين البلشفية والنازية تعاون حربي فعال؛ ولن يقع ذلك بصورة من الصور إلا يوم تنكر روسيا تاريخها وتقاليدها القيصرية والاستعمارية، وهذا ما لم تقم عليه الدلائل حتى الآن. وكل ما هنالك أن روسيا قد تمد ألمانيا ببعض محاصيلها وخاماتها وفق نصوص الميثاق الجديد، وتؤيدها ببعض المظاهر السياسية.

* * *

بقيت كلمة حول موقف تركيا من روسيا، وماذا يكون من أثر الميثاق الجديد الذي تعقده مع موسكو في موقفها من انكلترا وفرنسا. والواقع أن موقف تركيا دقيق غاية الدقة، فهي مرتبطة مع انكلترا وفرنسا بعهود وثيقة تقضي على الفريقين بالتعاون الحربي المتبادل إذا وقعت حرب في شرق البحر الأبيض المتوسط؛ وهي مرتبطة من الجهة الأخرى برومانيا واليونان بالحلف البلقاني، ثم هي مرتبطة أيضاً بروابط الصداقة والتحالف مع روسيا؛ ولكن تطور سياسة موسكو إزاء ألمانيا، واتفاق موسكو وبرلين، يضع تركيا في مركز دقيق شائك؛ على أنه يلوح مما نقلته إلينا الأنباء الأخيرة أن تركيا ترى إمكان التوفيق بين تعهداتها؛ فهي ملزمة بأن تفتح المضايق لأساطيل انجلترا وفرنسا إذا هوجمت رومانيا، وفاءً لتعهداتها لها؛ ومهاجمة ألمانيا لرومانيا تبدو اليوم أقل احتمالا من قبل؛ وليس يلوح أن روسيا ترمع مهاجمتها في الوقت الحاضر، خصوصاً إذا استطاع الفريقان أن يتفاهما على حل مسألة بسارابيا التي تطمع روسيا إلى استردادها؛ وعلى ذلك فإن تركيا ترى أنها تستطيع أن تحافظ على حيدتها، وعلى صداقتها مع الجميع.

ومما يقوي الأمل في إمكان بقاء تركيا على تعهداتها إزاء انكلترا وفرنسا أنه توجد الآن في لندن بعثة تركية عسكرية تجري المفاوضة معها لعقد الميثاق الانكليزي التركي الذي وضعت أسسه منذ مدة؛ وعلى ذلك فمن غير المحتمل أن توقع تركيا في نفس الوقت مع روسيا ميثاقاً مناقضاً لهذه التعهدات.

وعلى أي حال، فموقف تركيا المستقبل يتوقف كثيراً على موقف إيطاليا؛ وما زال موقف إيطاليا الحقيقي غامضاً كل الغموض.

(* * *)

من قصص العرب :

الملك الضـــليل

(٧)

اليوم خمر وغداً أمر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ملخص لما سبق :

[كان امرؤ القيس ابناً لحجر الكندي ملك بني أسد ، وكان فتى شاعراً ، دقيق الحس ؛ أحب إحدى بنات عمومته فاطمة ؛ ولكنه كان كثير العبث ، فأغضبها عبثه ، ونزحت مع أبيها عن ديار بني أسد ؛ فأثر ذلك أثراً شديداً في نفس امرئ القيس ومرض ، وكاد يهلك ؛ ولما شفي من مرضه تغيرت طباعه ، وأقبل على شرب الخمر والمجون . وسمع أبوه بذلك فغضب عليه ونفاه من جواره ؛ فسار في بلاد العرب يضرب في الآفاق مع جماعة من الصعاليك والذؤبان . وحدثت حوادث سياسية أدت إلى تزعزع مركز الملك الحارث بن عمرو ملك الحيرة وهو أبو حجر الكندي ؛ ثم غلبه منافسه المنذر بن ماء السماء اللخمي وطرده من الحيرة . وانتظر الملك حجر إلى مساعدة أبيه ، فاشتد في جباية الأموال من بني أسد حتى ثقل عليهم ، فأخذوا في سبيل الثورة عليه ؛ فغضب حجر على بني أسد وأوقع بهم وضرب سراتهم بالعصا وقتل بعضهم ثم نفاهم من الأرض ؛ ولكنه اضطر إلى استرجاعهم عند ما تحرجت الأمور وعندما بلغه مرض أبيه الملك الحارث بعد هزيمته المنكرة وهربه من الحيرة . وكان امرؤ القيس في هذه الأثناء لا يزال في تجواله مع أصحابه يقضي أيامه في الصيد واللهو ، فساقته المصادفة العجيبة إلى بيت فاطمة وكانت قد تزوجت . وصدمته هذه المقابلة صدمة عنيفة جعلته يعزم على الذهاب إلى اليمن والإقامة معتكفاً في منزله بجوار جبل دمون ...]

كانت الشمس الغاربة ترسل شعاعها على رأس دمّون ، ذلك الجبل اليمني الشامخ ، فتصبغه بألوان عجيبة من حمرة إلى صفرة إلى زرقة ، تتراقص عليه كأنما هو ملعب من ملاعب الجان تنشر فوقه حللها الشفافة الخفية .

وجلس امرؤ القيس وحده ذلك المساء أمام بيته على صخرة اتخذها مقعداً ، وجعل ينظر إلى ذلك الجبل الشاهق وهو ممتلئ القلب بالكآبة ، فوجد خياله يذهب برغمه إلى تلك الخيمة التي لاحت له منذ أيام وهو فوق الربوة ، وإلى المرأة التي رآها عند بابها تمخض اللبن ، فتحرك متضجراً يريد أن يصرف عن ذهنه تلك الصورة فلم يقدر ، فقام ذاهباً إلى بيته وحمل منه زق الخمر ليغرق فيه همه ، كما كان يفعل كل ليلة إذا ساورته الشجون وألحت به .

وفيما هو خارج من البيت وقعت عينه على صديقه عمرو بن قميّة يقصد نحوه بخطى مترددة ؛ وقد ارتسم على وجهه الحزن والإشفاق ؛ فنظر نحوه في حيرة ، وأحس بكراهة شديدة لمقدمه ، لأنه أصبح لا يستريح إلى مجلس صديق ، ولا يهتز إلى طرب ، ولا تنبسط نفسه إلى سمر ؛ بل كان يطلب الوحدة ، ويباعد أصحابه ليخلو إلى نفسه ويناجيها بما يضطرم فيها من وجده وشجنه .

غير أنه ملك نفسه ووقف ينتظر صديقه وهو يتكلف الابتسام ، وقال بعض ألفاظ الترحيب خشية من إيلام ضيفه الوافد عليه .

وجلس الصديقان بعد تحية قصيرة ، وعاودهما الصمت ، فقد كان امرؤ القيس قطب مجالس أصدقائه ، ومعين سمرهم وطربهم ، فكان إذا صمت وأطرق لم يجر في المجلس حديث .

وأراد امرؤ القيس أن يحيي مجلس صديقه بشيء غير الحديث ، فقام إلى الخيمة وأحضر زق الخمر وحمل معه كأسين من النحاس ، ثم أتى بآلة النرد ، وعلق مصباحاً في عمود الخيمة ، وجلس مع صديقه يلاعبه ليتسليا على الشراب ، ثم طلع البدر وهب النسيم رُخاءً ، فأخذت أشجان امرئ القيس تنقشع عنه شيئاً بعد شيء مع توالي اللعب والشراب ، حتى بدأ يضاحك صديقه ويمازحه ويتغنى له ببعض شعره كلما انتصر عليه في دَسْت من اللعب .

وفيما كان الصاحبان منصرفين إلى اللعب ، وقد ظهر عليهما أثر الخمر ، أقبل رجل يسير مسرعاً ، فالتفتا نحوه فرأياه يقصد نحوهما ، فقام امرؤ القيس وذهب إليه لينظر من يكون ، وما كاد يتبينه في ضوء القمر حتى رفع يديه وصاح صيحة عالية وهو يضمه إلى صدره : « عامر ! » .

فقال الرجل وهو يضمه بعطف وحزن : « ولدي ! أبا وهب ! » . وكان ذلك الرجل عامراً أبا فاطمة وابن عم أبيه .

ووقفا لحظة قصيرة ينظر أحدهما إلى الآخر في صمت ، وأدرك امرؤ القيس من نظرة صاحبه أنه يريد أن يحدثه ، فمال به إلى ناحية وقال له يريد أن يفتح باب الحديث : « وكيف عرفت مكاني ؟ » .

فقال عامر بصوت متردد : « أخبرني أبو عنبسة . أخبرني جابر بن يحيى الثعلبي » .

فسرت رعدة خفيفة في جسم امرئ القيس عند سماع اسم ذلك الرجل ، وتمثلت له صورة فاطمة وهي واقفة أمامه منذ أيام عند مدخل الخيمة ، تناديه باسمه وهي ذاهلة مدهوشة . وكاد يسأل صاحبه عنها ، وكيف تركها ؛ ولكنه ملك نفسه فصرف الحديث قائلاً : « لكأنَّ في بالك تحمل إليّ قولاً ؟ » .

فقال عامر بصوت ضعيف : « نعم ، جئت إليك بنبأ هائل . تقوَّ يا ولدي ، وتعزَّ عن أبيك » .

ثم أطرق حزيناً وصمت .

جالت الأفكار سريعة متدافعة في رأس امرئ القيس عند سماعه قول الرجل ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، بل نظر إليه قائلاً : « إذاً قد مات حجر ؟ » .

فهز عامر رأسه بحزن وقال بصوت ضعيف : « بل قتل حجر . قتل الملك حجر » .

فأخذ امرؤ القيس بيده وذهب به إلى صخرة فجلس عليها وأجلسه إلى جانبه وقال له : « أخبرني عمن قتله ، وكيف قتل ؟ » .

وكان يتكلم بصوت هادئ لا يظهر فيه أثر من الحزن أو الاضطراب .

فنظر إليه عامر في كثير من الدهشة والإعجاب ، ثم أخذ يقص عليه أخبار أبيه في بني أسد ، وثورتهم عليه ، وإيقاعه بهم ، ثم أخبره بحديث نفيهم إلى تهامة وما أعقب ذلك من اضطراره إلى استرجاعهم عند ما بلغه خبر هزيمة أبيه الملك الحارث ، وإخراجه من الحيرة ، وقتل بني آكل المرار . وكان امرؤ القيس يسمع كل ذلك صامتاً كأنه يسمع قصة رجل من العرب غير أبيه .

ومضى الرجل في حديثه فقال : « لقد عدت إلى أبيك عندما بلغني اشتداد الثورة عليه . وقد حاولت جهدي أن أقيم أمره بمساعدة ذلك الصديق الوفي ربيعة » .

فتحرك امرؤ القيس وقال : « ربيعة ؟ وهل كان معك ؟ » .

فقال عامر : « بق معنا حتى قتل دون أبيك . لقد كان رجلاً كريماً » .

ثم مضى فى حديثه فقال : « لما رجع أبوك من العراق بعد موت الملك الحارث وعاد بنو أسد إلى أرضهم جعلوا يزدادون كل يوم جرأة وتمرداً ، ولم تقدر على أن تملكهم كما كان يملكهم أبوك . وذلك الشاعر الجبان عبيد بن الأبرص ! ويل له ! لقد جعل يحرضهم ويذمرهم ويثيرهم بعد أن كان يتذلل لأبيك ويستعطفه . ويل لهذا الثعبان الدنىء ! لقد صدق أبوك ؛ فما أحراه أن يقطع عضواً فعضوا ! »

فتحرك امرؤ القيس عند ذلك قلقاً ، واستمر عامر فقال : « ثم أتت إليهم أنباء موت الحارث ، ولست أدرى كيف أتاهم ذلك النبأ سريعاً . فقد علموا به فى يومه كأن الريح قد حملته إليهم . فزادت جرأتهم ، وأخذ كهانهم يحرضونهم على التمرد ويعدونهم بالنصر ويطمعونهم فى أبيك ، حتى تمروا لحربه ووقفوا ينتظرون مجيئه » .

فتحرك امرؤ القيس مرة أخرى وقال : « ويل لهم ! ولكن كيف وصلوا إلى حجر دونكم . أين ذهبت كندة ؟ وأين كانت قيس ؟ أين ذهبت تغلب ؟ وأين الصنائع التى كانت تخدم الملك ؟ »

فقال عامر منكسراً : « لقد دافعنا حتى لم تبق لنا قوة . وقتل من كندة عدد كبير ، ووقفت قيس تحميه كما تحمى أبناءها . وكاد حجر ينجو لولا ذلك الذئب الجائع علباء » .

فصاح امرؤ القيس : « علباء ! ابن الحارث الكاهلى ؟ »

فقال عامر : « نعم هو . لقد ظل يترقب ثأره فى صمت وتكتم حتى ظفر به » .

فقال امرؤ القيس : « ثأره ؟ وهل قتل حجر أباه ؟ »

فقال عامر مطرقاً : « قتل أبوه فى سجن أبيك » .

فصمت امرؤ القيس واستمر الرجل فقال : « واحرّ قلباه ! لكأنى أرى حجراً وهو يمسك جرحه الذى أصابه فى جنبه ، يريد أن يوقف منه سيل الدماء ريثما يعهد إلىّ بعهده . وقد أمرنى وهو يشهق آخر أنفاسه أن أذهب إلى أخيك الأكبر نافع ، ثم إلى سائر إخوتك ، فمن جزع منهم تركته ومن تحمل النبأ قوياً حملت إليه أمواله وسلاحه ، وطلبت منه إدراك الثأر . وها أنذا آت إليك وأنت آخرهم بعد أن جزعوا جميعاً » .

فتنفس امرؤ القيس وصمت لحظة ثم قال : « ضيّعنى صغيراً ثم حمّلنى دمه كبيراً ! لقد علمت يا أبا الجون أنى كنت فتى لا أجد لذتى إلا فى الصيد والخمر والنساء . ألا لقد آليت على نفسى لا أصيد صيداً ولا أشرب خمراً ولا أقرب امرأة حتى أشتفى بإدراك الثأر الملك الهمام » .

فنهض عامر وهو ينظر إلى الفتى بإعجاب وعطف وقال بإجلال عميق : « أبيْتَ اللعن أيها الملك الهمام ! »

فقال امرؤ القيس وكأنه لم يسمع تلك التحية : « وأين السلاح ؟ أين سلاح أبى وأمواله ؟ »

فقال عامر : « قد تركت بأحمال كلها هناك وراء هذا الوادى » .

وأشار إلى واد فى الطرف الأقصى من جبل دمّون . فقام امرؤ القيس وذهب يسير فى بطء والرجل يمشى وراءه حتى بلغا الخيمة ، وكان عمرو بن قمية لا يزال هناك فى انتظار عودتهما إليه ، فلما بلغاه أراد أن يتنحى ويستأذن فى الذهاب ، ولكن امرأ القيس اقترب منه باسماً وقال له : « هلم إلى دستك فإننا لم نفرغ بعد منه . »

فعاد عمرو إلى مكانه ، وجلس امرؤ القيس يلاعبه حتى انتهى الدست ، فقام مستأذناً وقال لامرىء القيس : « نراك بخير فى الغداة » !

فنظر إليه امرؤ القيس صامتاً لحظة ، ثم قال بهدوء :

« سيكون لنا فى الغد شأن آخر يا عمرو » .

فاتجه عمرو إليه كالمستفهم ، واستمر امرؤ القيس فقال : « أعدَّ سيفك ورمحك ودروعك يا عمرو ، لقد كنا إلى اليوم نلعب ونشرب ، ولكنا بعد اليوم نجدُّ ونضرب ، فاليوم خمر ، وغداً أمر » .

فلم يفهم عمرو معنى قوله ، وسأله قائلا : « أى أنباء حملت إليك ؟ » .

فقال امرؤ القيس هادئاً : « قتل حجر . قتل الملك حجر » .

فارتاع عمرو ، وارتد إلى الوراء صائحاً : « وكيف لم تخبرنى بذلك ابتداءً ؟ » .

فتقدم امرؤ القيس نحوه ووضع يده على كتفه مهدئاً وقال : « ما كنت لأفسد عليك دستك . هدِّئ من رَوعك ، فليس يجدينا الدمع ، إنما هو الانتقام » .

فرفع عمرو رأسه بكبرياء وعزة ، وقال وهو يقبض على يد امرئ القيس : « سيكون ثأرنا هائلا » ، ثم مضى مسرعاً نحو منازله .

فأمسك امرؤ القيس بيد عامر ، ومضى به إلى خيمته ، ثم جلس وهو يقول كأنه يخاطب نفسه : « وهكذا انتهى الأمر ! قتل حجر ! قتل الملك الهمام ! » .

ولم يملك نفسه عند ذلك ، فوضع رأسه بين يديه ساعة فى صمت وحزن ، وعامر مطرق إلى جواره يرسم على الأرض خطوطاً بعصاه . ثم رفع امرؤ القيس رأسه ، وقال : « لقد ظننت يا أبا الجون أنى نسيته . ظننت أنى كرهته وانصرف قلبى عنه ، ولكنى أحس ناراً فى قلبى ! وا أبى ! واملكاه ! » .

ونظر إلى الجبل العالى الذى كان يقطع صفحة الفضاء فى ضوء القمر الساطع وقال كأنه يخاطبه : « لقد هلك حجر يا دمون ! متى يطلع الصباح لأشفى فؤادى ؟ إن قلبى يتحرّق من وجدى عليه يا دمون » !

ثم جعل يقول متغنياً فى حزن :

تطاول الليل علينا دمون ... دمون إنا معشر يمانون
وإننا لقومنا محبون !

ونظر إلى عامر بعد أن انتهى من ترنمه الحزين وقال : « هلم بنا إلى الخلاء يا عامر فهو أرفق بى » .

وقام خارجاً إلى الفضاء الذى غمره ضوء القمر وصاحبه يسير وراءه . ولما صار عند باب الخيمة عرج على النرد الذى كان يلعب به مع صديقه فضربه بقدمه فألقاه على الأرض مكفوءاً ، ثم جرد سيفه وضرب زق الخمر فأسال ما بقى فيه على الرمال ، وقال لعامر وهو يسير رافع الرأس : « هلم بنا إلى مناخك لنعد سلاحنا ، فلا يطلع علينا الصباح إلا ثائرين للانتقام » .

(تمت الحلقة) **محمد فريد أبو حديد**

تطور الظروف وجمود الانسان

للأستاذ محمود محمود

وضعت الحرب العظمى أوزارها بعد جهاد طويل ، وتألفت عصبة الأمم لتسوية المشاكل المتعددة التي خلفتها الحرب ، فسادت العالم موجة من التفاؤل الحسن ، والاستبشار بالمستقبل ، وتطلع الناس إلى عهد يمتنع فيه القتال ، وتقوى فيه بين الأمم روح التعاون والإخاء ؛ ولكن العصبة فشلت في حل مشكلات السياسة والاقتصاد ، فانقلب الأمل يأساً ، وعاد التشاؤم إلى النفوس ، وكاد الإنسان يشك في مصير الحضارة بأسرها ، بل وفي قيمة الحياة ذاتها ، وحلق شبح الحرب فوق الرؤوس ، فتحرج الموقف واشتدت أزمة النفوس . وتبين للبصير أن موجة التفاؤل التي ارتفعت عام ١٩١٩ قد طغت على الناس في غير حينها ، وأن الجماعة الإنسانية ما زالت — إلى حد بعيد — على خلقها العتيق في مواجهة الظروف ، لا تساير تقلبات الزمن ، ولا تجاري صروف الدهر . إن الإنسان ما برح يعالج الأزمات بالطريقة عينها التي كان يعالجها بها منذ آلاف السنين ، ترتقي النظم السياسية والاجتماعية في ظاهرها ، وتبقى النفوس على ضعتها ، والغرائز على سجيتها وهواها .

أجل ، إن أخلاق الفرد قد ارتفعت إلى مستوى رفيع ، وأصبحت صلته بأعضاء أسرته وبأصدقائه تقوم — إلى مدى بعيد — على المحبة والاخلاص والنزاهة ، ولم يعد الإنسان ، كما كان أسلافه الأقدمون ، لا يكاد يدرك لغير نفسه وجوداً . ولكن أخلاق الجماعة ما زالت بدائية منحطة ، وما زال النزاع الذي نشب منذ فجر التاريخ بين المُثُل الخلقية العليا وبين أطماع السياسة قائماً تضطرم نيرانه وتحتدم . وأصحاب النفوس الكبيرة إزاء هذا الصراع بين اثنين : فإما أن يواجهوه على مضض وكره ، وإما أن يفروا من ميدان الحياة ، ويلوذوا بحياة الأديرة والرهبنة ، كما فعل الكثيرون من المسيحيين في العصور الوسطى . ولكن هذه الوسيلة الثانية تؤدي إلى تحطيم المجتمع ، ولو سلكها الناس جميعاً لانحلت الرابطة بين البشر ؛ فلا مندوحة إذاً عن مواجهة المشكلة ، ولا مناص من أن نؤدي ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وقد سارت الأمم في هذه السبيل ، إلا أننا لم ننجح في صلتنا (بقيصر) نجاحنا في الحياة الخاصة ، ولم نرفع أخلاقنا حين نعامله إلى مستوى العلاقات الشخصية . ولذا فإن المثل الخلقية العليا — كالعطف والصبر والشفقة والعدالة — لا تجد سبيلها في علاقة الفرد بالدولة ، كما تجده في علاقته بغيره من معارفه وإخوانه . من منا ينفق من ماله على الدولة كما ينفق على بيته ؟ ومن منا يعطف على أبناء وطنه عطفه على أبناء أسرته ؟ ومن منا يؤدي ضريبة المال طائعاً كما يؤدي دينه لصديق ؟

لقد سبق نظام الدولة إذاً طبيعة الإنسان ؛ ومما يعمل على اتساع الخرق بينهما أن السياسة لا تقوم إلا على القوة ، وأن الحكومة ما برحت تعتمد في تنفيذ إرادتها على الشرطة والجيش . حقاً أن القوة محايدة في أصلها ، فلا هي خير في ذاتها ، ولا هي شر في ذاتها ، وإنما هي أداة لا لون لها ، قد تعود بالنفع إذا أحسن استغلالها ، وقد تعود بالضر إذا أسيء استخدامها ، وخيرها وشرها موكول إلى تصريف مَنْ هي بيده . بَيْدَ أن القوة — كالثروة — تغري صاحبها ، وكثيراً ما تدفع به إلى سبيل الشر . وقد علمنا التاريخ أن السلطان المطلق

إذا اجتمع لفرد استبد وظلم :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلةٍ لا يظلم

وكثيراً ما أعنت المفكرون قرائحهم علّهم يكشفون عن الطريق الوسطى التي تقف في وجه طغيان القوة من ناحية ، ولا تحرم الشعب من نفعها من ناحية أخرى . أو بتعبير آخر : هل نستطيع أن نكبّل (قيصر) بالأصفاد دون أن نعطله عن السير ؟ وقد زادت هذه المشكلة اشتباكاً في هذا العصر لاتساع دائرة السياسة وتعقد العلاقات الدولية .

ومما زاد الطين بلة أن وازع الدين ، الذي كان يردع الفرد ويرده عن سبيل الشر ، قد ضعفت شوكته ، وتدهورت المسيحية في أوربا بعد الحرب العظمى ، وكاد ينعدم لدى الأفراد الضمير الديني أو الخوف من يوم الحساب . ولا يخشى رجال الحكم اليوم غير الهزيمة في ميدان الحرب أو ضعف نفوذهم بين الأمم . ولا سبيل إلى علاج هذه الحال إلا أن يطبق أولو الأمر معايير الأخلاق الخاصة على الشئون الدولية العامة ، وأن يعود للدين نفوذه وقوته ، وأن يسيطر على الحياة العملية في شئون الناس ، وبذا يمكن أن نقارب بين الأخلاق والسياسة ، وبين الظروف الظاهرة والطبائع الباطنة .

ومن الأحداث المهمة التي نسوقها مثالاً قوياً لتطور الظروف مع جمود الطبائع البشرية والأوضاع الاجتماعية تلك (الثورة الصناعية) العظيمة التي بدأ دبيبها يدب في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر ، نتيجة للطريقة التجريبية العلمية التي حمل لواءها في انجلترا « باكون » الفيلسوف و « نيوتن » مكتشف قانون الجاذبية . كان من نتائج الثورة الصناعية أن تطورت ظروف الحياة الخارجية بمقدار ما تطورت في الأجيال السالفة جميعاً ، ولم يحاول الانسان أن يوفق بين خلقه وبين هذا الظرف الجديد .

أدت هذه الثورة إلى انتشار السكك الحديدية والبواخر وإلى ذيوع الآلة البخارية والسيارة والطائرة واللاسلكي والكهرباء وما إليها من نتائج العلم . وتغلغلت هذه القوى في كل جماعة . ولكننا ما برحنا نعيش كَلاًّ على هذه المخترعات ، لا نسيطر عليها ولا نحسن تدبيرها فنوجهها وجهة نافعة ؛ فالطائرة — مثلا — تستخدم للتخريب كما تستخدم لسرعة الاتصال ، والآلة تؤدي إلى البطالة كما تؤدي إلى توفير المجهود . إن الثورة الصناعية ينبغي أن تُتبع بثورة اجتماعية حتى يعود استغلالنا للطبيعة بالخير العام كما يقول (باكون) نفسه رائد الحركة التجريبية في العلوم .

أدت الثورة الصناعية إلى زيادة القوى ووفرة الطعام وتوثيق عرى الروابط بين الأمم ؛ فهل تأهبت النفوس لتذوّق هذا الخير صفواً من غير كدر ؟

كان الإنسان يكسب قوته « بعرق الجبين » وكانت الأرستقراطية تعتمد على الرقيق يقومون بالأعمال اليدوية المنيفة . ولكن العلم وفّر على العامة هذه النقمة ، فاستبدل بالقوى اليدوية القوى الآلية ، وحلت الآلة محل الرق . فهل تغيرت علاقة الخاصة بالعامة ؟ وهل ارتفع مستوى العامل ؟ وهل قربت الشقة بينه وبين سيده ؟ إن أغنياءنا ما فتئوا ينظرون إلى الفقراء نظرهم إلى الأداة تستغل لمصلحة غيرها لا لمصلحة نفسها .

وأدت الثورة الصناعية إلى كثرة الإنتاج ووفرة المحصول ، فلم نعد نسمع بالقحط الذي عانى منه الإنسان في تاريخه الماضي كثيراً ، فهل توفرت بعد هذا سبل العيش لكل إنسان ؟

إن العلم يعمل على إلغاء الرق ومحو المجاعات — وهما نقمة الإنسانية منذ العصر الحجري — فهل نعمت النفوس بالسعادة بعد الشقاء ؟ كلا . إن كثرة الناس ما زالت تعمل كثيراً وتكاد لا تجد قوت يومها . وإن الدول ما برحت تتسابق وتتشاحن في سبيل القوة والثراء

كأن نصيب العالم منهما قليل .

إن الثروة وفيرة وقوى الطبيعة فى كل مكان . ولـكن هو الانسان ما يزال يفكر على الأسلوب البالى العتيق . فالقوة ما تزال لديه — كما كانت عند الفراعين القدماء — هى سيطرة الانسان على الانسان ، لا سيطرة الانسان على الطبيعة . وهو ما يزال يطلب الثروة ويجمع الذهب لإرضاء شهوة الملكية فى نفسه ، ولمّا يدرك بعدُ — ما أدرك رجال الاقتصاد النابهون — أن الثروة تيار ينبغى أن يتدفق من يد إلى أخرى ، وأن يتوجه لخير الجميع وللصالح العام .

إن الانسان لم يساير التطور الذى نجم عن الثورة الصناعية ولم يكوّن لنفسه بعدُ عادات جديدة تتلاءم وهذا الاتجاه الجديد ؛ ومرجع هذا إلى طبيعة الجمود فى الانسان ؛ فالحوادث تجرى جريان السيل ، والعقل يتقدم تقدم الجليد ، فما زالت كل دولة تسعى إلى غزو غيرها طلباً للغنيمة فى عصر الوفرة ، وما زالت تقيم الحواجز التجارية فى عصر ينبغى أن تعتمد فيه كل أمة على غيرها فيما ينقصها من مواد .

إن الفكر الانسانى يسير سير السلحفاة ، فلقد لبث الفرنسيون يفكرون ويمعنون فى التفكير مائة عام على الأقل قبل أن يقر قرارهم على الثورة وقلب نظام الجماعة ؛ وها نحن أولاء نفكر فى ضم العالم فى أمة واحدة ، بعد ما أصبحت جميع الظروف تشير إلى ضرورة هذه الوحدة ، وقد تمضى مئات السنين قبل أن نبلغ ما نريد .

وإنما يدعو الانسان إلى الجمود تركيبه الطبيعى ، فهو لا يأخذ عن آبائه سوى الصفات الموروثة ، أما الصفات المكتسبة فتفنى بفناء صاحبها . والأثرة موروثة والايثار مكتسب ، والغضب غريزى والحلم مكتسب ، والنضال طبيعى والاتفاق جديد . ولما كانت كثرة الصفات الموروثة دنيئة كان التقدم الخلقى بطىء السير . فالطبيعة الانسانية والدوافع والغرائز التى تدفع ساستنا فى العصر الحاضر ، هى بعينها التى كانت تدفع زعيم القبيلة فى العصر الحجرى ؛ فالإنسان فى مسلكه لا يزال بدائياً رغم انقلاب الظروف والأحوال .

ولـكن الانسان — رغم طبيعته الجامدة — قد استطاع فى الأزمنة السحيقة أن يخرج من فرديته إلى تكوين الأسرة والقبيلة ، واجتاز بذلك المرحلة الأولى . ثم خرج من الـكهف إلى القرية ، وتخلص من صلة الدم إلى صلة الجوار ، وهـذه الخطوة الأولى هى أشق الخطى وأعسرها ، لأن القرية عالم معقد فى حيز صغير ، فليس بعيداً على الانسان إذاً — بعد هذا — أن يوطد دعائم الدولة المحلية ، ثم يؤسس الحكومة العالمية .

ولـكننا لا نرتقب اتحاد العالم فى أمة واحدة فى المستقبل القريب ، لاتصاف الانسان بالجمود كما ذكرنا . وكل ما نطلبه من الفرد اليوم أن يدرك أن وطنه وحدة من وحدات عديدة قد تتحد فى مستقبل الأيام فى أمة واحدة . ولـكننا إذا كنا لا نكلف الجمهور تغيير طبيعتهم المحلية أو العيش فى دائرة أوسع من « الجماعة المحدودة » كما يقول برجسن ، إلا أنا نطلب إلى خاصتهم من رجال الحكم ، وكبار التجار وأصحاب الأموال ، وأعلام الفن والأدب ، أن يضعوا تطور العالم من القومية المحدودة إلى العالمية المتسعة نصب أعينهم دائماً ، وأن يعلّموا أبناء الجيل الجديد أن من واجبهم أن يعملوا لخير الجميع .

محمود محمود

من تاريخ الأدب الفرنسي :

فرانسوا رينيه دو شاتوبريان Chateaubriand

(١٧٦٨ – ١٨٤٨)

للأستاذ محمد حسني عبد الله

يندر أن يعثر الباحث في تاريخ الأدب عامة ، والأدب الفرنسي خاصة ، على كاتب عُني بالشئون العاطفية وقصر عليها كل وجدانه ، وخصها بأكبر نصيب من قلبه وكلفه ، ثم جمع إلى ذلك خصائص السياسي المحنك ، وطبع رجل الدين المفطور على التدين والتزام قيوده ، والانصراف إلى البحث في علومه ؛ ذلك لأن الأديب الوامق المتابع للمرأة والحب ، إنما تجتذبه شئون القلب وحدها ، فلا تراه غالباً إلا متجرداً عن غيرها من الأسباب ؛ في حين نرى السياسي لا يكاد يحفل بشأن منها ، إذ هو في العادة رجل بارد الطبع ، هادئ العاطفة ؛ له من شواغله السياسية ومهامه الاجتماعية ما يصرفه عن التغلغل في حب يحل عقدة اللسان ويُطلقه في نثر أو نظم يبقى على الدهر ؛ ونرى المحتفل بالدين المتوفر على مراعاته التخصص في علومه ، منصرف الفكر عن أمور الدنيا ، متشاغلا عن لذاتها ، غافلاً عن التشبيب بالنساء أو الاشادة بحلاوة الحياة .

ومع ذلك فقد جمع « شاتوبريان » كل هؤلاء في شخصه ، وهنا موضع العبقرية فيه . ولو قد علمت أنه صرف حياته مشغول القلب بالغيد الحسان ، لا يكاد يقنع بواحدة دون واحدة ، ولا يعف عن جهين حتى مع بلوغه أرذل العمر ، فانك لا شك تعجب كيف يحوى مع هذا بين بردیه عالماً دينياً يضع مؤلفاً بارعاً مثل « عبقرية المسيحية » إن لم تعجب من أنه السياسي الخطير الذى ناوأ نابليون ، ووصل من الفاقة والعوز إلى مناصب الوزارة والسفارة ، عندما عادت فرنسا من جديد إلى الملكية بعد تخلصها من الأمبراطورية . وحرى بمن كانت نفسه من هذا الخليط العجيب أن تكون حياته حافلة بشتى الألوان الفنية ، عامرة بما يثير الفضول ويدفع إلى الاهتمام ، خاصة إذا كان إنتاج الرجل الأدبي مما يعجز كثيراً من فحول المنصرفين إلى الأدب وحده ؛ فانه قد استحدث طريقة جديدة في الأدب الفرنسي ، هي هذه الطريقة الابتداعية Romantiqie التي اكتسحت في مستهل القرن التاسع عشر الطريقة الاتباعية Classique وأخذت مكانها والتي امتازت بإحكام الأسلوب وسعة الخيال وعمق الأثر !

حياته الوجدانية وآثارها :

وأعجب ما في حياته هي الناحية الوجدانية . فالمعهد بالأدباء والشعراء ، ثبوت القلب وتركز الحب في امرأة واحدة يحبها المحب منهم ، فيظل العمر لا يعدل بها شيئاً في الوجود ؛ فيرى فيها من الجمال – وإن لم يكن بها جمال – ما لو وزع على نساء العالم قاطبة لأغناهن وأكسبهن صوراً رائعة في الملاحة والحسن . فهي عنده – وهذا قدرها ومكانها من اعتباره – تفضل كل من يصادف في طريقه من حسان غانيات .

وفي تاريخ الأدب العربي – كما في غيره من تواريخ

الأدب — شواهد كثيرة على ذلك ، كالذى نراه فى حياة المجنون وكثير وجميل وتوبة بن الحمير ونصيب الأزيجي وغيرهم ؛ ولكن « شاتوبريان » يختلف عن هؤلاء ويباينهم ، وهو الرجل الملول ، الوشيك التنكر ، المتقلب كتقلب الدهر .

وربما كانت علة ذلك أنه مثالى النزعة ، فقد كان إذا ارتبط مع غادة برابطة أيا ما كانت ، يلمس بغريزته الفنية وثاقب نظره الناقد الفاحص مناحى النقص فى روحها ووجهها وقدها ؛ وقل من الحسان من سلمت من عيب فى بعض ذلك ؛ فيستبعده بخياله ويسبغ عليها من تصوراته ما يستكمل به ملاحتها .

وقد يسوقه ذلك إلى الانصراف عن حبها إلى حب هذه الصورة التى خلقها رأسه وأبدعت تكوينها وثبات خياله ؛ وعندئذ يظل يبحث عنها فى الحياة الواقعة ، وهو خلال ذلك ينتقل من حب إلى حب ، كالطائر يطير من فرع إلى فرع ، فلا يعثر أبداً على من تتوافر فيها هذه الشرائط التى لا وجود لها إلا فى أحلامه . وبهذا كان أسرع الأدباء المحبين تغيراً وأوشكهم مللا . ولكنا فى الحق إن تغلغلنا فى فهم هذا التصرف وجدنا أن « شاتوبريان » لم ينحرف عن طبيعة الأدباء وجادة الشعراء ، من دوام ودادهم وبث حبهم . فهو — كما يوفون ويخلصون — قد أخلص لهذه الصورة التى أبدعها خياله ، إذ صادفها موزعة على كل من لاقى من حسان ، فعلق بهن جميعاً لنصيبهن منها .

ولعل سجاياه عائدة ليس فقط إلى الطبيعة البريتانية التى نشأ فى أحضانها ، إذ ولد « بسان مالو » ، ودرج على أرض بريتانيا الجبلية ، التى تشتد عليها البرودة فى فصل الشتاء ، ويكثر فيها الضباب والمطر ، فيقبع الناس معظم الوقت فى دورهم ، وتسنح الفرصة من ذلك لذوى الأخيلة منهم ، لإطلاقها فى الأوهام التى لا تمت إلى الحقيقة بكثير ولا قليل . وإنما تعود أيضاً إلى خصائص العنصر البريتانى الرهف الحس ، المضطرم الشعور ، الذى يتأثر أيما تأثر بالجمال فى الناس والطبيعة ، وإلى ميزة خاصة به ، هى نضجه العاطفى الفائق ، ووفور عقله مع حياء طبيعى لازمه فى الأعوام الأولى من حياته ، فعزف به عن الناس ، وهيأ له جواً من الأحلام لم تفارقه آثاره حتى بعد أن خرج إلى المجتمع واختلط بناسه ، فظلت العزلة آثر عنده وأحب لديه ، وهو يقول فى ذلك :

« كلما كان الفصل ساكناً حزيناً كانت صلتى به أوكد وأوثق ؛ فى الشتاء إذ يستعصى التقارب ويعز التواصل والتزاور بين أهل الريف ، فينقبض بعضهم من بعض ، أحس بأنى صرت بالانفراد وبانقاء الناس أصفى فكراً وأهنأ بالا » .

وليس من ريب فى أن كل امرئ يصعب عليه فى الحقيقة تحقيق رغائبه المثالية يكون غالباً عرضة لليأس وخيبة الأمل المرة تلو المرة ؛ فإذا أقام رابطة أو أنشأ حباً لم تتوافر فيه شروطه المثالية ينفض منه يديه ؛ ولكن ذلك لا يذهب بغير جزاء ، لأن من استعصت عليه آماله ، وتعسرت عليه مطالبه يكون بغير شك غرضاً للأحزان وهدفاً للأشجان ، وما مثله إلا كما قيل :

فإنك واطّراحك وصل سلمى
لأخرى فى مودتها نكوب
كثاقبة لحلى مستعار
لأذنيها فشانهما الثقوب
فأدت حلى جارتها إليها وقد بقيت بأذنيها ندوب

لذلك كان « شاتوبريان » على الرغم من عيش رغد ، ونجم صاعد ، ومجد متقطع المثال ، كثير الهم والألم والتبرم بحياته ، وفى ذلك يقول :

« الخطأ فى تكوينى ، فأنا لا أحسن الإفادة من المجد المؤاتى . ولا أعنى بما يعنى به غيرى من الناس . ولا

أعتقد إلا الدين . وراعياً كنت أم ملكاً فما كنت لأفرق بين العصا والصولجان . وعاطلا كنت من المجد أم مطوقاً به فأنا زاهد فيه راغب عنه . . . . . وأيان كنت وكان مكاني فأنا أدع حياتي تمر ، وأترك أيامي تمضي » .

ويظهر أثر وحشته وضيق صدره بالحياة جلياً واضحاً في معظم مؤلفاته ، وعلى الأخص في « رينيه » التي اعتبرها مؤرخو الآداب صورة من حياته وتحليلا لنزعاته .

رينيه :

ليست هذه القصة تصويراً روائياً يزخر بالحوادث التي تنجلي على التدريج حادثاً بعد حادث ، فتشوق وتتعقد حتى تُحَلّ عقدتها بخاتمة فنية ترضي وتثير الاعجاب ؛ بل هي دراسة تحليلية لداء « السوداء » الذي فطرت عليه وطبعت به بعض نفوس البشر من غير ما علة أو سبب . فبطلها رينيه قد واجه الحياة باليأس منها والزهد فيها قبل أن يبرر ذلك إخفاق في عمل أو خيبة في أمل ؛ فهو يقول : « أنتم يامن هدت قواكم فواجع الحياة وخطوبها ، ما علمكم بفتى لا حيلة له ولا فضيلة — من نفسه مواجعه ومن صنع يديه آلامه ؟ . . . أيتهمني الناس بمجاوزة الأهداف التي أرمي إليها . فوا أسفا . إنني جاد في البحث عن المجهول متعقب لأماني لا أعرفها . فهل عليّ إثم إذا اعترضني أيان كنت المحدود من الحقائق ، وأنا لا أقيم وزناً لما له حد من الأشياء ؟ ؟ »

وتقع حوادث القصة في إقليم لوزانا بأمريكا ، إذ هاجر إليها رينيه الفرنسي ولاذ بكنفها ، استيحاشاً من المدينة وضيقاً بها ، في أمل أن يفوز براحة النفس باعتزال بني جلدته وبالعيش على الفطرة بين الهنود الحمر ، ورجاء أن يتخلص من آلامه التي لا يعرف لها سبباً ، بالعودة إلى الطبيعة وبطرافة المنزل وخلاء الجديد . ولكن آلامه رغم ذلك تلاحقه ولا تزايله ، فلا ينفك رحب الدنيا ضيقاً به مضطرباً ؛ وقد وصف فيها « شاتوبريان » ما أثقله من نصب وما أهمه من شجن ؛ فهي تمد لذلك إلى حد ما ، تاريخه الشخصي ، بل هي كذلك تاريخ عصر بأسره ، استطاع في براعة العبقري أن يصور مواجع بنيه إذ صوَّر مواجعه . فلقد مُني مستهل القرن التاسع عشر بهذه العلة النفسية التي دُعيت « داء العصر » والتي كانت بكل النفوس في فرنسا وفي خارجها ، وحللها غير « شاتوبريان » ، « جوت » الألماني في « آلام فرتير » ولورد بيرون الانجليزي في الطفل هارولد .

مذكرات (Memoires q'ontre-tambe)

نشرت هذه المذكرات بعد وفاته ، وتكاد في صراحتها وصدقها تكون أشبه شيء باعترافات جان جاك روسو . ومنها استطاع العالم أن يقف على الكثير من علاقاته . وهي تبين بوضوح هذه الخواص الغريبة التي كان ينبض بها قلبه ، وتتلطف في سرد الوقائع العاطفية التي خاض غمارها يافعاً فشاباً فرجلاً فشيخاً ، وتبرز تقلبه وتشعب أهوائه في خيال وتصوير بارعين لا يتأتيان إلا للأقلام الموهوبة .

ومَن من الناس يجتمع له حسن التذوق للجمال ، إلى الحساسية المفرطة ، إلى الميزات الخلقية التي تساعد على التبادل والتفاهم ، إلى الذكاء الخبير بمواضع الفتنة ، ثم تقع عيناه على « شارلوت أيف » وهي في رواء الجمال الروحي والشكلي ، وفي نضارة الستة عشر ربيعاً ، وفي طهارة الملائكة الأبرار ، وفي ذكاء العباقرة الأفذاذ ، ويقوى بعد ذلك على رد سهام الطرف عن قلبه ، وصم أذنيه عن معسول اللفظ ، وخاصة إذا كان هناك تجاوب وتحاب ؟

كان « شاتوبريان » يرى أن النساء كالرياحين والأزهار والورود لكلٍّ شذى خاص ونفحات مميزة ، ونشرٌ مختلف ، وتضوع متباين ، وأشكال وألوان هي بذاتها ناقصة ومجموعها يكمل بعضها بعضاً ، ويتألف منها الشكل الفني الذي لا غنى عنه للأديب الفنان ليحلق بفنه إلى السمو والإبانة ورفاهة الأسرار .

ولكن للنقاد رأيهم . فهم يرون أن تلونه فى حب المرأة وتعدد مغامراته الوجدانية إن هو إلا دليل على ازدراء مسرف للنساء قاطبة ، قد وقر فى قلبه واستقر بين جنبيه . ويرون أن الآلام التى كانت تجتاح نفسه الشاعرة إن هى إلا جزاء عادل لهذا الازدراء .

آثاره الرفيعة :

عاصر شاتوبريان الثورة الفرنسية ، وشاهد الانقلابات الخطيرة التى ذهبت — إلى ذهابها بنظام الحكم القديم والفروق بين الطبقات — بالدين نفسه . ورأى — إذ قلبت الأوضاع — كيف قضت كذلك على المسيحية ونشرت مبادئ الكفر . فعزّ عليه أن تذوى الفضائل التى غرستها المسيحية فى نفوس بنيها أمام تيار الثورة الجارف فى العقيدة والأخلاق ؛ وهب يذود عن حياضها بقلمه ، ويدفع العدوان عنها بكل ما أوتى من موهبة وعبقرية فكرية ؛ فأخرج للناس فى ثوب قشيب خير ما أخرجت الرؤوس الحصيفة فى تعديد مزاياها وتبيين فضائلها وإظهار مآثرها بذلك المؤلف الفذ « عبقرية المسيحية » . وبهذا المؤلف وحده يعتبر « شاتوبريان » رأس الطبقة من الكتاب الذين عُنوا بما عُنى به ؛ لأنه فيما عداه من مؤلفاته قد وجد سلفه فى جان جاك روسو ، إذا تناسينا الفارق فى طريقة بسطهما ، وطريقة تصويرهما وتباين تجاربهما ومعارفهما ، « فرينيه » ما هى إلا محاكاة « لخواطر سائر وحيد » و « الذكريات » ما هى إلا تقليد « للاعترافات » .

ولقد دلل فى مؤلفه هذا على أن المسيحية دين عظيم له أثره ليس فى العقيدة والأخلاق والعادات ، بل كذلك فى الفن والأدب ، إذ غذت العقول وصقلت الأذواق ، وشادت صرح الفضائل ومكارم الأخلاق ، وملأت بها النفوس ، ومدت الفكر بالحيوية والقوة ، وهيأت للكاتب مواضيع نبيلة يطرقها ، وللفنان فنوناً لولاها لم تخطر على قلبه .

حياته السياسية :

ورد « شاتوبريان » باريس عام ١٧٨٨ ، وحظه من العلم جد زهيد . ولكن الصدف شاءت أن يتعرف على كثير من كتاب ذلك الوقت ، فاستحثه نقصه وعظم الفارق الثقافى بينه وبين أفراد الوسط الذى حل به على أخذ نفسه بالتأديب والتهذيب ، ومعالجة معارفه المحدودة بالتعلم الذاتى والاستفادة منهم . وما لبث مع الأيام أن داناهم ، وعالج مثلهم الأدب ؛ ولكن صيته لم يستطر إلا بعد أن تولت الأيام إنضاجه وتقلبت به السنون فى التجارب والمعارف .

وكان لا بد له أول الأمر من عمل يعيش منه قبل تثبت قدمه فى عالم التأليف ، فانتظم فى الجيش كضابط صف . وفى عام ١٧٩٠ ، وقت أن كان نابليون ضابطاً صغيراً لم تبرز صفاته الحربية ولم يعز نفسه بحصار تولون بعدُ ، كان هو كذلك ما زال ذلك الضابط النكرة الذى لم تظهر بعدُ معالمه الفكرية والسياسية . وثمة فارق بينهما ، فلنابليون مؤهلات القائد العبقرى ، ولشاتوبريان مواهب الأديب الفذ ؛ لذلك كان لزاماً عليهما أن تتشعب بهما الطرق . ولم يمض عام إلا وقد طوحت الأحلام بشاتوبريان إلى أرض القارة الأمريكية بعد اعتزاله الخدمة ، وهيأت الظروف لانتصارات نابليون المتوالية فى أعقاب الحكومات الثورية المتتابعة .

ولكن النوى لم تستقر بمؤلف رينيه فى مكان ، فقفل راجعاً إلى أوربا عقب فرار لويس السادس عشر ، وعبر شطر الجزيرة البريطانية ، ونشر بها رسالته فى الثورات حوالى سنة ١٧٩٧ . ولقد ناقض فى هذه الرسالة المذهب السياسى « الملكية » الذى اشتهر به فيما بعد ، وناوأ به نابليون ، ونادى به على رؤوس الأشهاد عند الاحتفال

بعضويته فى المجمع اللغوى الفرنسى عام ١٨١١ . ولذلك يُعد صدورها منه أمراً غريباً فى بابه .

وكانت عودته إلى فرنسا عام ١٨٠٠ أول عهده بالمجد . فقد طفق من ثم يذيع أدبه على الناس ، ويروى قلوبهم الصادية برائع خياله وحسن أسلوبه ، ويرق فى هذه الأثناء مدارج الشهرة ، حتى انقضت امبراطورية نابليون ، وعُرفت عن شاتوبريان ميوله الملكية ولأسرة « بوربون » التى عادت بعدئذ إلى الحكم ، فاختير لتقلد وزارة الخارجية ، وتقلب فى مناصب السفارة آناً فى إيطاليا ، وآناً فى انجلترا ، حتى إذا كانت ثورة الأيام الثلاثة (١٨٣٠) استبعد من الحكومة فاعتزل السياسة ؛ وشرع من ذلك العهد يدون مذكراته التى نشرت بعد مماته فى ٤ يوليو سنة ١٨٤٨ .

باريس — بيت المقدس » و « آخر أمراء بنى الأحمر » .

كان شاتوبريان يتحلى إلى العبقرية بدماثة الخلق وحسن المعشر وجمال المظهر حتى مع الكبر . ومما يعرف منه أنه مع تقلبه فى الهوى أفلتَ منه زمامه مرة وارتبط رباط الزوجية الدائم ؛ فكان على الرغم من تندمه لذلك يبالغ فى معاملة زوجته بالحسنى ، حتى أنساها لفرط كياسته وأدب نفسه أنه الزوج الذى لا يؤمن جانبه . وتصفه « هورتنس ألار » إحدى من ارتبط معهن بالحب بهذا الوصف فى أخريات أيامه :

« كان جميلاً أنيقاً رشيقاً ، مفرط العناية بهندامه ومظهره ، ولا يغفل أن يضع زهرة ناضرة فى عروة ردائه . وكانت ابتسامته الساحرة ، وثناياه الساطعة تحجب عنا بلوغه العمرين » .

محمد حسنى عبد الله

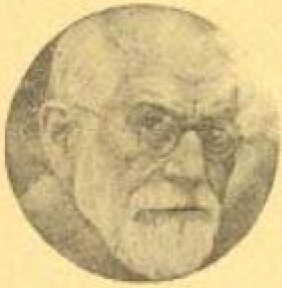
هامش :

ومن مؤلفاته غير ما ورد ذكره « أتالا » و « رحلة

فرويد

١٨٥٦ – ١٩٣٩

للدكتور عبد العزيز القوصى



فرويد

انتقل إلى الدار الآخرة فى مساء السبت ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ عالم كبير من علماء النفس وهو الأستاذ سيجموند فرويد ، بعد أن عاش ثلاثاً وثمانين سنة ، قضى فوق الخمسين منها فى البحوث الطبية والنفسية ، وكشف فى خلالها الكثير من مجاهل النفس ، ووضح للناس أسراراً طالما أغلقت عليهم عما يسمى باللاشعور ، أو بالعقل الباطن . ولهذا يعده بعض المؤرخين النفسانيين أكبر مكتشف فى ميدان علم النفس ، فالذين سبقوه عكفوا على دراسة العقل الواعى أو الشعور ، واستقصاء ما يسهل ملاحظته من تذكر وتفكير ، وتخيل وتصور ، وتردد وتصميم ، وتلذذ وتألم ، وانشراح وانقباض ، وغير ذلك . وهذه أمور يسهل ملاحظتها مباشرة . أما فرويد فكان أول من اتجه ذهنه إلى البحث فى منطقة من مناطق العقل ، لا تمكن ملاحظتها بالطرق المباشرة المألوفة . وموضوع العقل الباطن كغيره من الموضوعات العلمية ظهر عرضاً ، وبطريقة مفككة فى كتابات العلماء الذين سبقوا فرويد ، أمثال هارتمان Hartmann وليبنتز Leibnitz وشوبنهاور Sahopenhauer وغيرهم . ولكن ما ذكره هؤلاء كان تافهاً لا قيمة له ، حتى إن العلماء ليعتبرون أن كشف العقل الباطن وما يحيط به من موضوعات إنما هو نتيجة مجهود رجل واحد ، هو سيجموند فرويد .

وُلد فرويد فى بلدة فريبرج Freiberg من أعمال مورافيا (تشيكسلوفاكيا) فى مايو سنة ١٨٥٦ ، ثم انتقل والداه إلى فينا وهو فى سن الرابعة ، وهناك تلقى علومه ، وقد قابلته صعاب كثيرة فى حياته التعليمية ؛ منها صعوبات الفقر وصعوبات الاحتقار لأنه يهودى . وأخيراً أتى به حظه فى معمل الفسيولوجيا بالجامعة ، وهناك وجد معاملة طيبة ، وظهر نبوغه فى هذا العلم ، وشغف بدراسة المجموع العصبى ، حتى إنه أهمل بعض الشىء بقية دراساته الطبية ؛ ووكلت إليه إذ ذاك بعض المشاكل العلمية فوفاها بحثاً . وبعد أن انتهى من دراساته الطبية زاول مهنة الطب ، ثم حصل على امتياز مالى ساعده فى السفر إلى فرنسا للتخصص فى الأمراض العصبية . وكانت وجهة نظره — كما يقول باعترافه — مادية محضة لا تتعدى توقع الكسب الوفير ، وهناك درس على الدكتور شاركو Charcot أستاذ الأمراض العصبية بجامعة باريس ، واتصل به اتصالا عميقاً ، واستخدمه شاركو فى ترجمة مؤلفاته إلى اللغة الألمانية .

عاد من فرنسا بعد انتهاء دراساته إلى مزاولة مهنة الطب فى فينا ، واتصل فيها بصديق قديم اسمه الدكتور جوزيف بروير Breuer وكانا يشتركان معاً فى مناقشة الحالات التى ترد عليهما من حالات الأمراض العصبية ، ويصح أن نذكر هنا أولى الحالات التى وجهت فرويد إلى البحث بإمعان تام فيما يسمى بالعقل الباطن أو اللاشعور .

كان فرويد وزميله بروير يعالجان فتاة ذكية متعلمة مصابة بمرض الهستيريا ، ومما كان لديها من أعراض شلل في بعض أطراف الجسم ، وفقد إحساس في النصف الأيمن من جسمها ؛ وأصيبت كذلك بنوع غريب من الخوف من الماء وصل بها إلى عدم المقدرة على الشرب . وفي يوم من الأيام أرادت أداء الصلاة ، وكانت في حالة رعب شديد ، فلم تتذكر إلا قطعة كانت حفظتها بالانجليزية . ومنذ ذلك الوقت نسيت لغتها الأصلية ، وهي اللغة الألمانية ، ولم تتكلم سوى الانجليزية .

وبطبيعة الحال قام الطبيب بفحصها فحصاً دقيقاً ، ليتأكد مما إذا كان بها أي إصابة جثمانية ، كمرض في مركز من مراكز المجموع العصبي أو غير ذلك . ووصل الطبيب إلى أنها سليمة من هذه الناحية ، فعمد إلى طرق أخرى ، كالمحادثة واستعمال الايحاء تحت تأثير التنويم المغناطيسي . وفي يوم من الأيام ، بينما هي في حالة نوم مغناطيسي ، تجيب على أسئلة الطبيب ، إذا هي تتذكر أنها كانت ذات مرة تعبة منهكة تشعر بعطش شديد ، بعد تمريضها لوالدها الذي كان مريضاً مرضاً خطيراً ؛ وكانت جالسة في حديقة المنزل ، فأعطتها مربيتها كوب ماء لتشربه فأصاب البنت جزع وتقزز شديد ، لأنه سبق لها أن رأت كلباً يلعق من هذا الكوب . ولكن الذي قدم إليها الكوب هي مربيتها الانجليزية ، وكانت تخافها وتكرهها في قرارة نفسها ، ولكنها لا تجرؤ على مخالفة أمرها ، فشربت الماء متأففة متألمة ، وضغطت على شعور التقزز . ثم نسيت الحادثة نسياناً تاماً . ولكن بعد ذلك ، ورغم نسيانها للحادث الأصلي ، ظلت تتقزز من رؤية الماء ولا تقوى على ازدراده . وبعد أن ذكرت كل هذا وهي في حالة التنويم المغناطيسي طلبت كوب ماء وشربت منه بشره شديد ، واستيقظت وهي في هذه الحالة ، وتمكنت منذ ذلك الوقت من التمتع بشرب الماء ، ومن التكلم بلغتها الأصلية ، وهي الألمانية . وللحالة ظروف وملابسات وأعراض عدة ، نكتفي بما ذكرناه منها .

النتيجة الهامة التي نصل إليها هنا ، والتي يرجع الفضل في الكشف عنها إلى فرويد ، هي أن سبب المرض ليس سبباً جثمانياً ، وإنما هو سبب نفسي ، وأن العوامل النفسية الفعالة في هذه الحالة لم تكن شعورية ، وإنما كانت لاشعورية ، وأن أساس العلاج كان سحب هذه العوامل اللاشعورية وإبرازها في الشعور وإدماجها فيه .

ولكن فرويد أدرك أن استعمال التنويم المغناطيسي تعترضه بعض صعوبات ، وذلك لأن بعض المرضى لا يمكن تنويمهم ، ولأن بعض الأطباء لا يسهل عليهم القيام بعملية التنويم ، وظل حائراً يفكر في طريقة أخرى . ويوماً ما طلب فرويد من أحد مرضاه أن يحاول وهو في حالة اليقظة أن يتذكر كل ما قاله وهو في حالة التنويم المغناطيسي ، فتذكر المريض كل ما قاله وكل ما قيل له . وكان هذا كشفاً عظيماً في نظر فرويد ، إذ أنه أدرك أن ما يمكن سبر غوره بالتنويم يمكن كشفه بالحادثة العادية من غير تنويم . وبهذا وصل فرويد إلى ما يسمى بطريقة التحليل النفسي (Psycho-analysis) . وتتلخص الطريقة في أن يوضع المريض في حالة ارتياح ، وأن يترك هو أفكاره تنساب الواحدة بعد الأخرى ، ولا يتقيد في ذلك بأي قيد من قيود التعلق أو التقاليد أو الأدب أو غيره ، وإنما يتحدث عما يرد في ذهنه بدون قيد أو شرط . وفي الواقع ليس من السهل أن يتحدث المرء عن كل ما يجول بخاطره على هذه الصورة .

ولعل أحسن طريقة تقرب بها طريقة التحليل النفساني إلى ذهن القارئ ، هي أن يلاحظ نفسه مرة وهو مستغرق في بعض أحلام اليقظة ، ويتصور أنه يتحدث عن كل ما يمر بذهنه . ويختلف التحليل النفساني عما يحدث في أحلام اليقظة بأن الحديث في حالة التحليل يدور حول المرض ، ويوجهه الطبيب بلطف ولباقة إلى ماضي المريض للوصول إلى موقف ، أو إلى عدة مواقف ، أو إلى علاقة معينة يمكن نسبة المرض إليها ، وهذا الموقف أو هذه

العلاقة تكون فى الأحوال العادية منسية نسياناً تاماً .

ولكن كيف تتم عملية النسيان ، أو عملية الانفصال من الشعور ، أو كما يسميها علماء التحليل النفسانى عملية الكبت (Repression) ؟

إذا رجعنا إلى الحالة التى ذكرناها نجد أن التقزز ارتبط فى ذهن الفتاة بكوب الماء . ثم إن المربية هى التى قدمت الماء إليها ، والفتاة بين أمرين : فهى إما أن تقبل الكوب منها متأثرة بدافع الطاعة أو التأدب أو الخوف ، أو ترفضه مجيبة بذلك نداء طبيعياً ، وهو رفض ما تتقزز منه نفسها . وهنا حدث فى نفس الفتاة صراع مؤلم عنيف بين أمرين ، كلاهما يشق عليها التغلب عليه ، فأحدهما الطاعة وقبول الماء الذى تعافه نفسها ، والآخر رفض الماء والظهور بمظهر عدم التأدب والعصيان . وانتهت المعركة النفسية بقبول الماء وشربه ، وكبتت الفتاة رغبتها الطبيعية فى رفض ما تجزع منه نفسها . وانتهاء المعركة النفسية فى هذه الحالة لم يكن إلا انتهاء مؤقتاً ، فالتقزز الطبيعى مما تعافه النفس لم يمت ، وإنما انحدر إلى اللاشعور وظل هناك قويا فعالا ، وظهرت فاعليته فى أن أصيبت البنت بمرض عصبى من أعراضه عدم القدرة على شرب الماء .

وكل أمر مكبوت مصطبغ بصبغة انفعالية مؤلمة ، يسميه علماء التحليل النفسانى « عقدة » (Complex) . والعلاج على طريقة التحليل النفسانى يتلخص فى حل العقدة وإبرازها للشعور وإدماجها فيه . ولا يقتصر فضل فرويد على بيان العقد وأهميتها ونشاطها ، وإنما يتعداها إلى توضيح أن الصراع والكبت يتمان فى غالب الأحيان بطريقة لاشعورية .

والأفكار التى يبعدها الإنسان من مجال شعوره هى فى العادة الأفكار المؤلمة ، فإذا أحصى الإنسان مواعيده التى لا يحافظ عليها وحلل ظروفها لا بد يجد عنصراً مؤلماً فيها ، فالإنسان ينسى مواعيده مثلا مع دائنيه ، ولكنه لا ينساها مع مدينيه .

ويصح أن نلقى الآن نظرة عامة على اللاشعور لنعرف إن كان يحتوى على أمور أخرى غير تلك الأفكار المكبوتة لأنها مؤلمة . وهذا يضطرنا إلى الاعتراف ببعض الدفعات الفطرية الموجودة فينا والتى نشترك فيها مع الحيوان . فكل إنسان عنده نزوع لإشباع الغريزة الجنسية ونزوع للمقاتلة ونزوع للهرب وغير ذلك . وهذه النزعات تتعارض فى صورها الفطرية مع نظام الحياة وتقاليدها وآدابها ومثلها العليا . ومع ذلك فإنها تستثار فينا يومياً نتيجة لاحتكاكنا بغيرنا من الناس . إذاً لا بد من تهذيب هذه النزعات الفطرية وتوجيهها بحيث لا تصطدم مع نظم المجتمع . والتهذيب والتوجيه يحتاجان إلى وقت وجهد وصبر وذكاء . فإذا لم ينجح التهذيب والتوجيه ، فهناك الضغط والكبت ، وطريقهما قصير سريع ، إلا أن نتائجهما خطيرة .

فاللاشعور إذاً يحتوى على الذكريات المؤلمة وعلى النزعات التى لا تنسجم مع تقاليد الحياة وآدابها المعترف بها . فكأن تحليل اللاشعور إلى عناصره الأولية ينتهى بنا إلى الغرائز أو النزعات الفطرية .

وقد أثبت فرويد أن هذه الغرائز يكبت أغلبها فى السنوات الأولى نتيجة علاقة الطفل بوالديه ، وبين كذلك أن هذه النزعات تحدد أسلوب السلوك عندنا ، وهذا الأسلوب أو ما نسميه عادة خلق الفرد وشخصيته تتحدد أسسه فى نظر فرويد قبل سن الخامسة .

إلى هنا أثبتنا من آراء فرويد ما قبله العلماء ، وبقى من آرائه شطر آخر ما زال موضع البحث والمناقشة . فهو يرى أن الدافع الأساسى للسلوك هو الغريزة الجنسية ، ويرى أن كل سلوك مصحوبا بلذة إنما يمت لهذه الغريزة الجنسية بصلة ، ويرى أن مظاهر الغريزة واضحة منذ الولادة ؛ فتلذذ الطفل بمص أصابعه أو غيرها وتلذذه الطبيعى بالتبول والتبرز وغير ذلك ، هو فى نظر فرويد تلذذ جنسى . ولا يتسع المقام للإطالة فى هذا ، إلا أن جمهرة علماء

النفس لا يوافقون فرويد على هذا ، ويرون أن المص والتبول والتبرز وما شابه لها كلها قيمة بيولوجية هامة فى حياة الطفل ، فلا بد أن تكون مصحوبة بلذة حتى تتم على أكمل وجه ممكن . ونظراً لشدة تحمس فرويد فى إثبات أن الغريزة الجنسية هى أساس كل سلوك الانسان انفصل عنه كثيرون من أتباعه الذين تحمسوا أول الأمر لآرائه أمثال إدلر (Adler) ويونج (Jung) .

وقد وضع فرويد بعض الفروض ليفسر بها الظواهر العقلية . ومن أهم هذه الفروض أن شخصية الفرد مكونة من ثلاثة أقسام وهى :

(١) النفس الشعورية أو الذات (Ego) وهـذه تمثل الشخص الذى نراه أمامنا والذى يفكر ويدرك ويتأمل ، ويحب كذا ويكره كذا ، ويحترم التقاليد والآداب وغير ذلك .

(٢) اللاشعور (Id) وهذه تمثل النزعات والرغبات الفطرية المكبوتة .

(٣) النفس العليا (Super-Ego) . بعضه شعورى وأغلبه لاشعورى ، وهو يمثل النفس كما يجب أن تكون وهو يقوم بتوبيخ المرء إذا أخطأ إلى غير ذلك .

وفى مناسبة أخرى يشبه فرويد النفس بحجرتين بينهما ممر ، وإحدى الحجرتين تمثل العقل الواعى ، وأما الحجرة الأخرى فهى حجرة مظلمة مملوءة بشتى الأفكار والنزعات . ولكن ما فى هذه الحجرة الأخيرة دائم الحركة نزاع إلى الظهور ، والذى يمنعه من الظهور هو وجود حارس أو رقيب فى الممر الواقع بين الحجرتين . ولكن هذه النزعات تغزو العقل الواعى فى حالة غفلة الرقيب أو إذا تمكنت من مخادعته . ولهذا تظهر هذه الرغبات فى الأحلام متخفية ، كما أنها تظهر فى اليقظة إذا أمكن تبريرها ، فكثير من الناس يسرق أو يكذب مثلا إذا انتحل لنفسه العذر الكافى لذلك .

هذه هى أهم الآراء والاتجاهات التى أوجدها فرويد ، والتى كشف بها كما قلنا منطقة عظيمة هامة من مناطق العقل . والعلماء ولو أنهم لا يوافقونه على كل ما وصل إليه ، إلا أنهم قاموا بسبب ما نشر من آرائه ونظرياته باحثين منقبين ، مما ضاعف منتجات علم النفس فى القرن الحالى . وقيمة فرويد الحقيقية هى فى تغيير نظرة العالم إلى حالات الاضطراب النفسى ، وفى إيجاد علاج ناجع لأغلب هذه الحالات التى استعصى علاجها قبل ظهوره .

عاش فرويد إلى أن رأى طريقة التحليل النفسانى تنتشر فى العالم أجمع ، وإلى أن رأى مئات المقالات والكتب تنشر حول الموضوع الذى كشفه للعالم .

وقد نشر هو بنفسه من الكتب والمقالات ما يقرب من المائتين والخمسين ، واستمر فى إنتاجه إلى آخر لحظة من حياته . هذا رغم المرض القاسى الذى لازمه فى الست عشرة سنة الأخيرة من حياته .

وفى أوائل هذا العام صادرت الحكومة الألمانية كل مؤلفاته وكل ما يملك وأرغمته على ترك النمسا ، إلا أنه صمم على البقاء فى بلدته ، ولم ينزل عن رأيه هذا إلا لأن الدكتور أرنست جونس زعيم التحليل النفسانى فى انجلترا استقل طائرة إلى فينا ودعاه لتركها إلى انجلترا .



صورة فرويد وعلى يمينه ابنته آنا فرويد وعلى يساره أرنست جونز عند وصولهم إلى انجلترا

وهناك وهو فى انجلترا طريداً مشرداً بدأ يفكر فى مشكلة كراهية العالم لليهود ، وحاول أن يفسر هذه الظاهرة على أساس نظرياته . ونشر عن ذلك كتابا اسمه « موسى والوحدانية الإلهية » وقد ظهر قبل وفاته بأربعة أشهر .

عبد العزيز القوصى

قصة مصرية تحليلية :

حـــــوار ...

للأستاذ فؤاد البهى السيد

— ١ —

قالت :

— ليتنا كنا مثلها !

ثم تنهدت فى حسرة ، فأجبتها فى حيرة :

— مثل من ؟

— مثل هذه الخلايا الداوية فى طنين متواصل ... مثل هذه المخلوقات السعيدة ... مثل هذا النحل ...

ثم أشارت بيدها إلى خلايا النحل القائمة أمام دار مضيفنا القروى .

قلت :

— أوَ سعيدة هى حقاً ؟ ! ... إنما نحن الذين نقابل بينها وبين أخيلتنا وأحلامنا فنراها هائمة سعيدة ... ... من يدرى ؟ ! لعل طنينها بكاءٌ ، بل لعله ضحكٌ ، بل لعله غير هذا وذاك ؟ ! ... آفة الانسان أنه دائماً يحاول أن يصبغ كل مظاهر الوجود بصبـغة البشرية ، ويصور له غروره أنه فى مكنته أن يزن كل ما يتلىّ به الكون بمعاييره الانسانية ؟ ! ...

فقاطعتنى قائلة :

— لست أقصد هذا ، ولـكنى ... ...

ثم نظرت إلىّ وهى تخفى ابتسامة لاحت على شفتيها الدقيقتين ، واستطردت قائلة :

— لـكنى أعجب بمهارتها فى تخلصها من الذكور ... آه لو خلقنا كهذا النحل ؟ ! ...

قلت :

— لـكنك أوسعتمونا لسعاً وإيلاماً ... لا ، إنى لا أحب أن أخرج على إنسانيتى ولا أرضى عنها بديلاً .

وصمتُ برهة وعدت أحاورها :

— تخيَّلى الدنيا وقد خلت من الرجال ! . تخيلى هذه الأرض المنبسطة الفسيحة الرحبة ، وهى تغص بكن فقط ! . تخيلى ...

قالت :

— حلم ليته يتحقق .

— ٢ —

صاح مضيفنا القروى ، وهو مقبل مع جمع من أصحابه وصويحباته :

— أى حلم هذا ؟

نهضنا قائمين ، فلم نكن قد شعرنا بوجود هؤلاء المتطفلين على حوارنا ؟ ! نهضَت وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة جميلة ، ونهضت وأنا أقول :

— حلم الخلايا ، والنحل ، والشهد .. كنا نحلم أن نحلك قد استحال ..

ونظرت إلى صاحبتى فوجدتها تحدق النظر فىّ فى شدة ، وتمض على شفتها السفلى بطرف أسنانها الصغيرة البيضاء ، كأنها تطلب منى ألا أعيد حوارنا ثانية .

فابتسمت ثم استطردت أقول :

— كنا نحلم أن نحلك قد استحال .. استحال .. أجل استحال ..

فصاحوا بي جميعاً في صوت واحد :

— انطق ! !

قلت :

— قد استحال …

فصاح بي مضيق :

— قد استحال خمراً يا لعين ؟ ! . . لعلك أسرفت ، فلعبت الخمر برأسك .

فهززت رأسي معترضاً ، وضحكت وأنا أقول :

قد استحال بشراً سوياً ، يتساقط الشهد عذباً حلواً من أفواه إناثه ، ثم تنثني إلى الذكور ذبحاً وقتلاً ، ويخلو العالم إلا من . . .

عبس الرجال في تجهم وهم يصيحون :

— حلم مخمور ! !

— ٣ —

علا صوت مضيق من وسط هذه الضجة القائمة :

— هذه الخلايا كلفتني كثيراً .

فصحت به ، ونحن منطلقون شطر النحل :

— يا صاحبي ، رأسك كخلاياك !

قال :

— ماذا تعني ؟

قلت :

— إنه يطن بالمال ، ووسوسة الحلى والشيطان …

دنياك طنين طويل … صخب وضجة …

فابتسم ومضى ، ولم أدر مايرمى إليه بابتسامته الباهتة . .

وقفنا على مقربة من الخلايا ، وراح صاحبي القروى يلقى علينا محاضرة طويلة مملة في النحل ومزاياه وطباعه وطرق استثماره و … و …

فضقت به ذرعاً ، وصحت :

— لقد ملأت أذنى بطنينك .

فابتسم ومضى …

ووقف بنا تجاه خلية كبيرة ، وانطلق يتحدث :

— هذه السلالة … سلالة ممتازة … و …

فاقتربت منه ، ونظرت لأرى ذلك الصنف الذى يتحدث عنه فهمس بي :

— ألا ترى هذه النحلة الجميلة الهائمة هناك ؟

قلت مازحاً :

— أجل ، أم تراني أعشى مثلك لا أرى ؟

فقال :

— إنها من ذلك الصنف الذى أتحدث عنه ، وأغرب ما في هذا النوع من النحل أنه لا يلسع .

فصحت بصاحبتي :

— هاهى ذى أنثى لا تلسع .

واستطرد مضيق :

— وهى فوق ذلك لا تجمع رحيق الأزهار إلا في حمرة الشفق .

قلت :

— يا لهـا من فتاة !

ووقفت أتأملها وهى تطير لتهبط ، وتهبط لتطير ، وألهتني مشاهدتها عن رفاق فانطلقوا وتركوني .

ولم أدر إلا وأنا أمد يدى إليها هامساً بها .

— تعالى ياشاعرتي الرائعة … أى فتاتي الساحرة …

ففزعت النحلة وانطلقت عنى بعيداً ، فاحتلت عليهـا حتى أمسكت بها ، وما كدت أفعل حتى صرختُ ، لا ، لم تلسعني هذه الأنثى ، ولكني لم آلف قبل ذلك سير هذه الحشرات الخفيفة في راحة يدى ، وتلفتُّ حولى فبصرت رفيقتي واقفة على مقربة مني وهى تقهقه ضاحكة في مرح .

فؤاد البهي السيد

صور من السياحة والتاريخ :

ألمانيا الهتــــلرية كما عرفتها

تحقيق ومشاهدات واقعية

٣ — بذور الانحلال في النظام الهتلري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يتساءل الكثيرون عن موقف الشعب الألماني من النظم النازية ومن «الزعيم» هتلر وسياسته ، وعما إذا كان الشعب الألماني يعيش راضياً في ظلّ هذه النظم الحديدية المرهقة ، وعما إذا كان بنوع خاص يؤيّد هتلر في سياسته المغرقة ؟ والجواب على ذلك يقتضي بعض التفصيل . ففي العام الماضي حينما كنا في ألمانيا خلال الأزمة الدولية التي أثارتها مسألة السوديت كنا نسمع من جميع الطبقات والأفراد ثناءً على هتلر وعلى سياسته التي أدّت إلى ضمّ النمسا دون اهراق دماء ، وكان الشعب الألماني يتحمّس لفكرة الجامعة الألمانية وألمانيا الكبرى . وكانت الأغلبية الساحقة تقف وراء هتلر في مسألة السوديت وتطرى حزمه وشجاعته ، وتعرب عن ثقتها التي لا حدّ لها فيه وفي عبقريته ؛ وحتى في النمسا التي لم تكن قد اطمأنّت إلى مصيرها بعد ، كانت الطبقات الوسطى والعاملة تعقد آمالها حول هتلر وحول النظام الجديد ، وكانت ترجو أن تنال في ظله الخير والرغد الاقتصادي ، وكانت الأعمال الجديدة التي بدئ بها تطبيقاً لبرنامج السنوات الأربع ، والتي اقتضت تشغيل عدد كبير من العمال العاطلين ، تعتبر مقدمة حسنة للانتعاش الاقتصادي المنشود ؛ ولما تم لهتلر الفوز في مؤتمر ميونيخ ، وسلمت الدولتان الديمقراطيتان الكبيرتان بجميع طلباته ، واحتوى على بلاد السوديت دون أية مقاومة ، كان لفوزه أعمق الأثر في جميع الطبقات وارتفعت هيبته إلى الذروة ، وأحيط شخصه بنوع من الاعجاب الذي يدنو إلى العبادة والتقديس .

ولكن اجتياح هتلر لتشيكوسلوفاكيا في مارس الماضي كان صدمة شديدة أصابت العقيدة النازية وأصابت هيبة هتلر ، فقد كان الشعب الألماني يعتقد حسبما تملي عليه ألسنة وزارة الدعاية أن « الزعيم » يعمل فقط لمثل أعلى ، هو جمع أشتات الجنس الألماني حول الأم الكبرى ، فلما دخل « الزعيم » براج فاتحاً ولما يمض على تعهداته في مؤتمر ميونيخ باحترام استقلال تشيكوسلوفاكيا وتأكيداته العديدة بأنه لا يريد ضم « التشك » إلى ألمانيا ، سوى أشهر قلائل ، سقط قناع المبادئ والمثل العليا الذي كان يستتر به ، وتساءل الشعب : أين يسير « الزعيم » بألمانيا ؟ وأخذ يوجس خيفة من الاتجاه الجديد الخطر الذي تتّجه إليه السياسة النازية .

وكانت الأزمة الاقتصادية أثناء ذلك تشتدّ وطأتها على جميع الطبقات ، ولما وضعت البطاقات الأولى للزبد والقهوة والشاي أدرك الناس أنهم أبعد ما يكونون عن عهد الرغد والرخاء المنشود ، وأن استيلاء «الريخ» على الأراضي الجديدة لا يفيد في تخفيف الضيق الاقتصادي .

***

وتستطيع الآن أن نقول إننا شهدنا في زيارتنا الأخيرة تطوراً عميقاً في نفسية الشعب الألماني وفي موقفه من « الزعيم » ومن النظم النازية ، فقد فترت هذه الحماسة القديمة ، وفترت هذه الثقة العمياء التي كانت تغدقها الجماهير على « الزعيم » ، وحلّ محلها كثير من التوجس والشك ، وأخذ النظام النازي يبدو لكثير من الناس في صورته الحقيقية ، نظام طغيان حزبي شنيع ، وتحكّم فرد أو أفراد قلائل زجت سياستهم المنيفة القصيرة النظر بألمانيا إلى مغامرات وأزمات خطرة لا تؤمن عواقبها ؛ وجرّت عليها الخراب الاقتصادي ، ودفعت بشعبها إلى براثن الضيق والحرمان ؛ وأثارت عليها سخط العالم كله وأفقدتها كل عطف . وقد جاء عقد الميثاق الألماني الروسي صدمة جديدة قوية للعقيدة النازية ، وكان أسطع دليل على تناقض السياسة الهتلرية وتخبّطها وتجردها من المثل العليا التي تزعم الانضواء تحت لوائها ؛ ولم تفلح ألسنة وزارة الدعاية من صحف وإذاعة وغيرها هذه المرة في إزالة الأثر السيّئ العميق الذي أحدثه هذا التناقض الشنيع في مثل زعماء الوطنية الاشتراكية .

والواقع أنه تبدو في ألمانيا منذ أشهر بوادر تذمر لاشك فيها ، وهي تتبع مجاريها الخفية ، ولاسيما بين طبقات العمال التي حُدّدت أجورها بطرق تعسفية والتي أرهقها الغلاء وانحطاط قوة المارك الشرائية ؛ ومع أن مجال العمل قد اتسع بتطبيق برنامج السنوات الأربع ، وقضى على العطلة قضاء تاما واحتاجت ألمانيا إلى استيراد العمل من الخارج ، فإن الطبقات العاملة تئن من الظروف المرهقة التي تعمل فيها ، سواء من حيث الأجور أو ساعات العمل أو وسائل التغذية ، ومع أن النظام الحديدي الذي تعمل في ظله يقضي على كل تذمر في مهده ، فإن بوادر التذمر تبدو من آن لآخر ؛ وقد أذيعت أخيراً في داخل ألمانيا وخارجها بعض الأنباء عن حركات المعارضة الخفية وعن المنشورات السرية التي توزع بين العمال أو تلصق خلسة على الجدران . ورجال الجستابو (البوليس السري السياسي) يطاردون هذه الحركات بلا رأفة ، ويسبغون عليها تهم التجسس والخيانة العليا . وقد أشارت الصحف الألمانية في المدة الأخيرة إلى كثير من المحاكمات التي جرت في هذا الشأن وقضى فيها بالعقوبات الشديدة ومنها الإعدام . وشهدنا في محطات السكة الحديدية والميادين العامة إعلانات كبيرة فيها تحذير من التجسّس والخيانة العليا وبيان للعقوبات المروعة التي قررت لمرتكبي هذه الجرائم ؛ وفي نشرها بهذه الصورة البارزة دليل على القلق الذي ساور السلطات من انتشار روح المعارضة والخروج على النظام . وإنك لتشهد بوادر من هذا التذمر بين باقي الطبقات . وفي وسعك أن تلمس ذلك بالأخص في كثير من التلميحات والتعليقات التي تلقى عرضاً في الفندق وفي المقهى وفي المتجر وفي عربات الترام والأمنيبوس وغيرها . وهذه التلميحات تلقى بحذر وأمام أجنبي تؤمن عاقبته وفيما بين الجدران الصامتة . وقد سمعنا الكثير منها من رجال وسيدات من مختلف الطبقات ، وكنا نتلقاها دائماً كما تتلقى الأسرار الرهيبة وكأنها كابوس يسربه الإفضاء ؛ ذلك أن التصريح أو المجاهرة بها خطر يحسن اجتنابه دائماً .

والشعب الألماني يسوده اليوم نوع من الحيرة والشك في مصيره . فهو يشعر بأنه قوي من الناحية العسكرية ، وأنه استطاع بالجهد المتواصل أن يعيد إلى ألمانيا تفوقها العسكري القديم ، ولكنه يخشى من جهة أخرى قوى انكلترا وفرنسا المتحدتين . ولقد سمعنا موظفاً سياسياً كبيراً من النازي المتطرفين يقول إن ألمانيا تستطيع الظفر في أية حرب محلية تخوضها ، ولكنها إذا أرغمت أن تخوض حرباً أوربية عامة أو حرباً عالمية فإنّ ذلك يكون

نهاية الوطنية الاشتراكية (الهتلرية) ونهاية الأمة الألمانية مهما تكن القوى الحليفة التي توازرها. وهذا الرأي هو الغالب بين كثيرين من المثقفين والمتنورين. على أن هؤلاء لم يخفوا في الوقت نفسه تفهم بأن الزعيم (هتلر) مصمم على ألا يشتبك في أية حرب غير محلية وأنه يستطيع أن يحقق مطالبه دون حرب، وأنه لن يرتكب قط مثل الخطأ الذي ارتكبه الساسة الألمان وأركان الحرب الألماني في سنة ١٩١٤ فيزج بألمانيا في أتون حرب عالمية.

وقد كان هم الدعاية الألمانية منصرفاً في الأيام الأخيرة من أغسطس، أعني في الأيام القلائل التي سبقت نشوب الحرب، الى إقناع الشعب الألماني بأن انكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب إلى جانب بولونيا، مهما كانت الظروف والأحوال، وبأن بولونيا فريسة سهلة لن يقتضي غزوها والاجهاز عليها سوى أيام قلائل، وكان الجمهور يميل إلى تصديق هذا التأكيد، وكانت سابقة ميونيخ ماثلة أمام عينيه، يأتنس بها، وينسج على منوالها؛ ويرى في تردد السفير البريطاني على دار المستشارية بالردود والمقترحات دليل التسليم السلمي بمطالب ألمانيا. ولم تر في الواقع ألمانيا يعتقد أن انكلترا وفرنسا ستدخلان الحرب ضد ألمانيا، تأييداً لبولونيا، ولكي تحولا بذلك دون تحقيق ما يصفونه بأماني ألمانيا المشروعة؛ ومع ذلك فقد كانت هذه الفكرة، أعني دخول انكلترا وفرنسا الحرب تزعج الجمهور أيما إزعاج؛ وذلك بالرغم من كل ما تذيعه الدعاية الألمانية حول ضعف انكلترا ونقص أهبتها؛ ولم ينس الشعب الألماني عبرة الحرب الكبرى، ولم ينس بالأخص ماعاناه من آلام الجوع والحرمان في أواخر الحرب الكبرى من أثر الحصار البريطاني لألمانيا، ولم ينس أن ألمانيا كانت تملك يومئذ قوة بحرية كبيرة، فلم تغنها شيئاً، فما بالك وألمانيا ليس لها اليوم أسطول يعتد به؟

والخلاصة أن الدلائل والقرائن كلها تدل على أن النظام الهتلري يواجه في الداخل موجة من التذمر والاستياء لا سبيل إلى إخفائها، وأن الأحوال الاقتصادية المرهقة التي يعانيها الشعب الألماني بجميع طبقاته، تزيد هذا الاستياء وتذكيه. ومن المحقق أن دخول ألمانيا في الحرب يضاعف المتاعب والأخطار التي تواجهها الاشتراكية الوطنية (الهتلرية). وقد يكون من سبق القول أن نتحدث الآن عن المعارضة المنظمة في ألمانيا النازية؛ ولكن الذي لا ريب فيه هو أن عناصر هذه المعارضة تتكون بسرعة بين جميع الطبقات، وقد لا يمضي بعيد حتى تضطر العصابة الهتلرية للكفاح عن سلطانها وكيانها في الداخل؛ وفي اعتقادنا أن أول هزيمة خطيرة يلقاها الجيش في ميدان الحرب كفيلة بانهيار سلطانها ونظمها.

محمد عبد الله عنان

أثر الفنون الاسلامية فى بولندة

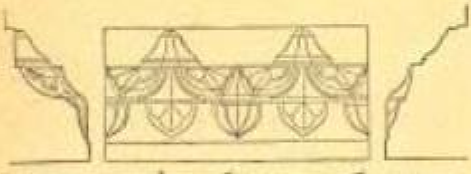
للدكتور زكى محمد حسن

فى هذه الساعة التاريخية التى يستشهد فيها الشعب البولندى الكريم ، وتحتل بولندة المستقلة إلى أن يتم النصر لحلفائها فى الغرب ، نذكر أن بعض المسلمين قد يعرفون أن بها جالية إسلامية ؛ ولكن قل من يفطن إلى ما كان للفنون الاسلامية من تأثير ظاهر فى بعض الأساليب الفنية فى تلك البلاد .

أجل ، فان بولندة لم تكن مركزاً من مراكز الثقافة الغربية فحسب ؛ بل كانت حلقة من حلقات الاتصال بين الغرب والشرق الأدنى ، ولا سيما فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعد الميلاد ، حين امتدت أملاكها إلى حدود البلقان الشمالية . فلا غرو إذا تأثرت بالفنون الاسلامية فى تركيا وإيران ، بعد أن تأثرت بأساليب فنية أخرى تمت إلى الشرق بصلة وثيقة ؛ وهى الأساليب الفنية البيزنطية والروسية .

على أن اتصال بولندة بالشرق الأدنى لم يكن فى البداية اتصالا شخصياً ومباشراً ، وإنما كانت المدن الواقعة جنوب شرق بولندة ، ولا سيما كاميينيس بودولسكى[1] Camieniec Podolski ولوفوف[2] Lwow تحصل على تحف شرقية كثيرة من مستعمرات جمهورية جنوه على البحر الأسود ؛ وأعظم هذه المستعمرات شأناً ثغر كافا Kaffa فى شبه جزيرة القرم . وقد استولت عليه جنوه سنة ١٢٧٠ م ، ثم أخذه الترك سنة ١٤٧٥ ، وضم إلى الروسيا سنة ١٧٧٠ ، حيث يعرف الآن باسم تيودوسيا .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان فى مدن بولندة — وعلى الخصوص فى لوفوف — مهاجرون من الأرمن واليونان ، نزحوا إلى تلك البلاد منذ القرن الثالث عشر الميلادى ؛ ولكنهم لم يقطعوا أسباب الاتصال بأوطانهم الأولى ؛ فكانوا يستوردون منها البضائع والتحف الشرقية ؛ كما كانوا يشيدون الكنائس والعمائر فى مهجرهم ، على الأساليب الفنية التى ألفوها فى بلادهم . والمعروف أن هذه الأساليب الفنية كانت قد أصبحت ذات صلة وثيقة بالفنون الاسلامية منذ استولى السلمون على أرمينيا ، وامتد نفوذهم الفنى إلى البلقان .



رسم إفريز (كورنيش) فى الكنيسة الأرمنية بمدينة لوفوف من القرن الرابع عشر

وخير دليل على ذلك ما يلاحظه مؤرخو الفنون فى الزخارف المحفورة فى الحجر بالكنيسة الأرمنية فى مدينة لوفوف ؛ وهى كنيسة ترجع إلى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، وفى زخارفها من الفروع النباتية (الأرابسك) والقرنصات ورسوم وريقات الشجر ذات الفصوص الثلاثة ، ما يشهد بتأثير الطراز السلجوقى عليها .

والواقع أن المعماريين الأرمن ومواطنيهم ممن اشتغلوا

---

(١) عند ما بعثت بولندة فى معاهدة فرساى ظلت هذه المدينة فى أملاك الروسيا على مقربة من ملتقى الحدود الروسية والبولونية والرومانية .

(٢) لوفوف أو « لمبرج » Lemberg هى أكبر مدينة فى جنوب شرق بولندة . وقد أصبحت من نصيب الروسيا بعد الاتفاق الذى عقده الروس والألمان لتقسيم بولندة فى الأيام الأخيرة .

بالنقش فى الحجر ، واستقروا جنوبى بولندة ، نقلوا بعض الأساليب الإسلامية فى العمارة وفى الزخرفة إلى الأقاليم المحيطة بهم ، والتى تقع الآن فى رومانيا أو جنوبى الروسيا ، كما يظهر من العقود الإيرانية المستخدمة فى بعض العمائر ومن الزخارف فى الأعمدة وواجهات المبانى .



سجادة من القرن الثامن عشر وعليها شعار أسرة بولندية مشهورة

وزاد اتصال بولندة بالشرق الأدنى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بعد أن امتد نفوذ الأتراك العثمانيين فى البلقان إلى حدود بولندة ، وبعد أن صار ثغر كافا Kaffa فى قبضة يدهم منذ عام ١٤٧٥ م ؛ فعظم نشاط التجار من الأرمن والترك واليونان ، وأصبحت بولندة من أهم الأسواق لتصريف البضائع والتحف التركية والإيرانية التى كان التجار يجلبونها من الشرق الأدنى . وقد كان الأرمن الإيرانيون يقومون بالرحلات إلى وطنهم الأول لإنشاء العلاقات التجارية واختيار التحف ، بل إن بعض ملوك بولندة كانوا يوفدون عملاءهم من أولئك التجار إلى قاشان أو إصفهان لشراء السجاجيد الثمينة والمنسوجات النفيسة والأسلحة الغالية . ومن ملوك بولندة الذين عنوا بالتحف الشرقية عناية خاصة اسطفان باتورى (١٥٧٥ — ١٥٨٧) وسجسمند الثالث (١٥٨٧ — ١٦٣٢) وأوغسط الثالث (١٧٣٣ — ١٧٦٤) .

وقد ورد ذكر التحف الشرقية فى كثير من الوثائق البولندية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وجاء فى سجلات البضائع عند كبار التجار بيان ما كانوا يملكونه من السجاجيد الإيرانية الغالية ، التى كان ينص على أن بعضها من الحرير والخيوط الذهبية . وهو النوع الذى يطلق عليه علماء الآثار الإسلامية اسم « السجاجيد البولندية » . وأكبر الظن أنها من منتجات مصانع البلاط بمدينة إصفهان فى القرن السادس عشر الميلادى ، وقد غلبت عليها هذه التسمية لأنها كانت تنسب إلى بولندة حيناً من الزمن ؛ ولكن الواقع أن زخارفها خليط من زخارف الأنواع الأخرى من السجاجيد الإيرانية . والمرجح الآن أن هذه السجاجيد ذات الألوان الرقيقة والأرضية الفضية أو الذهبية التى تلائم الذوق الغربى كانت تصنع فى إيران لتهدى إلى الملوك والأمراء فى الغرب ، كما أن بعض السجاجيد النفيسة كانت تنسج فى إيران وتركيا وعليها أشعرة بعض الأسرات البولندية التى كانت توصى بصنعها .



سجادة « بولندية » من القرن الثامن عشر

وكذلك ذكرت التحف الإسلامية فى القوائم التى كانت تحصر فيها التركات .

ومثال ذلك أن الأمير أوستروجسكى Ostrogski توفى سنة ١٦١٦ ، وكان من مخلفاته عدد وافر من الصناديق المملوءة بالسجاجيد النفيسة ذات الخيوط الذهبية .

وقد أشار الأستاذ مانكوفسكي[1] Tadeusz Mankowski إلى قضية بين تاجرين من الأرمن في مدينة لوفوف ، كان موضع النزاع فيها أربعاً وعشرين سجادة إرانية منسوجة بخيوط الذهب ، وقد قدرتها المحكمة بخمسة عشر ألفاً من الفلورينات البولندية . وهو مبلغ عظيم بالنسبة إلى ذلك العصر .



حزام بولندى من القرن الثامن عشر

والواقع أن لوفوف كانت مركزاً تجارياً كبيراً ، وأن نشاطها الاقتصادى لم يقف عند المتاجرة في التحف الشرقية ؛ بل عمل بعض رجال المال في منطقتها على نسج الأقمشة النفيسة على الطراز الشرقي ، فاستقدموا في النصف الثاني من القرن السابع عشر عدداً وافراً من عمال النسج في الأراضي الواطئة وأنزلوهم مدينة برودى[1] Brody وجلبوا غيرهم من بلاد اليونان وتركيا . وأتيح لهذه المصانع المحلية أن تنتج من الديباج والسجاد وسائر المنسوجات الثمينة ما لا يسهل تمييزه من منتجات إران وتركيا . فالسجاجيد المصنوعة في تلك المصانع لا تكاد تختلف عن السجاجيد الإيرانية إلا في مادتها ؛ إذ أن أرضية الأولى منسوجة من صوف غنم طبيعى غير مصبوغ ، وتغلب عليها الألوان الهادئة وتندر الألوان الحمراء الفاتحة ؛ ولكنها لا تساوى السجاجيد الإيرانية الحقة في دقة الزخرفة ومتانة الصناعة ونضارة الألوان .

أما الميدان الذى أصاب فيه البولنديون توفيقاً عظيماً في تقليد الأساليب الفنية الإسلامية فهو نسج الأحزمة (الشيلان) الحريرية ، التي لم يكن يستغنى عنها نبيل من النبلاء . وقد نشطت هذه الصناعة نشاطاً عظيماً في القرن الثامن عشر ، وأنتجت المصانع في المدن الجنوبية الشرقية في بولندة كميات كبيرة من تلك الأحزمة أو الشيلان ، التي تشبه كثيراً أحزمة الشيوخ وشيلانهم في الشرق الإسلامي .



حزام بولندى من القرن الثامن عشر

وفي مصر مجموعة وافرة من هذه الأحزمة البولندية ، جمعها المغفور له الأمير كمال الدين

(١) هو هذا الأستاذ دراسة أثر الفنون الشرقية في بولندة ، كما كتب مؤلفاً عن فنون الأرمن في مدينة لوفوف ، طبع في بولندة سنة ١٩٣٤ .

(١) مدينة صغيرة تقع شمال شرق لوفوف .

حسين ، وآلت بعد وفاته إلى دار الآثار العربية فعرضتها في فرعها الجديد بشارع الإنشا ، مع سائر التحف التي خلّفها الأمير .

ولم يكن أثر الفن الإسلامي ظاهراً في أحزمة الفرسان والنبلاء أو « شيلانهم » فحسب ؛ بل كانت ملابسهم الرسمية ذات زخارف إيرانية الأصل .

على أن الأحزمة « البولندية » كانت في بداية الأمر من أروج التحف التي كان التجار الأرمن يأتون بها من إيران وتركيا إلى بولندة ؛ وزاد الإقبال عليها ، فأنشأ أولئك التجار مصانع خاصة لنسجها في استانبول في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ثم نقل بعضهم تلك المصانع إلى بولندة ، كما أنشئت مصانع غيرها ، ولم تلبث هذه الصناعة أن أصابت نجاحاً كبيراً في بعض المدن البولندية ولاسيما لوقوف وستانسلافوف Stanislawow وبرودي Brody وكراكوفيا Cracow .

والملاحظ أن الأحزمة الحريرية المصنوعة في بولندة أصغر من الأحزمة الإيرانية والتركية ، وأن زخارفها أشرطة فيها رسوم نباتية ورسوم هندسية متتابعة ، وينتهي طرفا الحزام البولندي بزخرفتين متشابهتين كانتا في معظم الأحيان من رسوم زهر القرنفل ؛ وطبيعي أن الاصطلاحات الفنية التي استعملها البولنديون في هذا الميدان كانت من أصل تركي أو إيراني ، كما يظهر من بعض المستندات — ولا سيما « الفواتير » — الموجودة في دور المحفوظات البولندية .

ومهما يكن من الأمر فقد أتقن البولنديون نسج الأحزمة الشرقية الطراز ، حتى استغنوا عن كل ما كانوا يجلبونه من إيران وتركيا ، وتخصصت بعض المصانع البولندية في إنتاج أنواع معينة من تلك الأحزمة . ولكن تأثير الفنون الغربية لم يلبث أن غلب على هذه الصناعة أيضاً ، فحلت الزخارف الأوربية محل الزخارف الاسلامية ، وزال تأثير الفن الاسلامي على تلك الصناعة منذ بداية القرن التاسع عشر .



حزام بولندي من القرن الثامن عشر

على أن تأثير الفن الاسلامي لم يقف عند صناعة السجاد والمنسوجات ؛ بل إن صناع الجلود وصناع التحف المعدنية والحلي والأسلحة كانوا يقلدون المنتجات الاسلامية ، ولا يزال ذلك ظاهراً حتى اليوم في التحف الحلية المصنوعة في مدينة لوقوف . وكثيراً ما نرى في تلك التحف أن العناصر الزخرفية الاسلامية موجودة مع قليل من الزخارف الغربية في توافق وانسجام تامّين . ويرجع ذلك إلى أن صناع تلك التحف كانوا في البداية من الفنانين الأرمن أو اليونان الذين نزحوا إلى بولندة من البلاد الواقعة تحت النفوذ التركي أو الإيراني ، ثم قام جيل من الفنانين

البولنديين الوطنيين جمعوا بين الأساليب الفنية الشرقية والغربية .

والمعروف كذلك أن البولنديين نقلوا عن إيران زخارف الخيام ، وذلك بعد أن أرسل الملك سجسمند الثالث سنة ١٦٠١ رسولا أرمنياً من قبله إلى إيران ليشرف على صنع خيمة كبيرة له . ومنذ ذلك الحين حتى نهاية القرن الثامن عشر كانت معظم الخيام المستعملة فى بولندة ذات زخارف إيرانية .

وصفوة القول أن منتجات الفنون الاسلامية كانت معروفة فى بولندة ولاسيا فى جنوبها الشرقى ، وكانت تحتذى وينسج على منوالها ؛ وذلك بفضل التجارة مع البلقان والشرق الأدنى ، وبفضل الصناع والتجار من الأرمن واليونان واليهود . وقد بلغ تأثيرها فى بولندة أشده بين منتصف القرن السابع عشر ومنتصف القرن الثامن عشر . على أن بعض ميادين الفن البولندى — كالتصوير والنحت — لم تتأثر بالأساليب الفنية الاسلامية . والسر فى ذلك أنها كانت ذات طابع دينى ، وكانت تتأثر بالفنون المسيحية الغربية ، فضلا عن أن الفن الاسلامى كانت له فى التصوير والنحت مبادئ لم تكن لتوافق دولة مسيحية كبولندة .

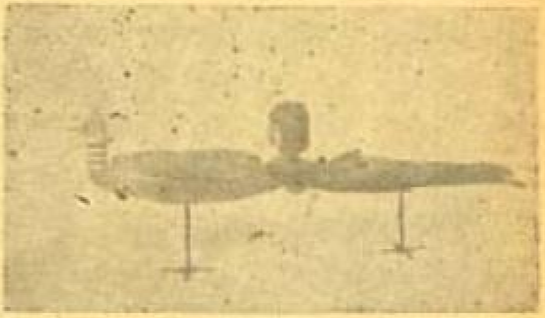
زكى محمد حسن



٢ – بدائع الفن المصرى القديم فى متحف اللوفر بباريس

لمحرر «الثقافة» الفنى

تحدثنا فى العدد الماضى عن نشأة المجموعة المصرية فى متحف اللوفر بباريس ، وأتينا بصور بعض التحف النفيسة فى تلك المجموعة . واليوم نأتى بصور أخرى من أبدع الآثار المصرية فى ذلك المتحف . والحق أن مجموعة اللوفر تعد من أكمل المجموعات الأثرية فى الفن المصرى القديم ؛ وقد عنى أمناء المتحف بعرضها عرضاً جميلاً تظهر فيه روائع هذا الفن .



ملعقة للزينة من الخشب والعاج ، على هيئة فتاة تعوم وتدفع أمامها بطة ، جسمها مفرغ وله غطاء من جناحيها ويرجع هذه الملعقة إلى عصر الدولة الحديثة



نقش من الحجر الجيرى المدهون ، أصله من قبر الملك سيتى الأول



تمثال نصفى ، من الحجر الجيرى ، للملك اخناتون من ملوك الأسرة الثامنة عشرة



تمثال الكاتب المتربع ، من الحجر الجيرى ، ويرجع إلى عصر الأسرة الخامسة



كرسي من عصر الدولة الحديثة
في تاريخ مصر الفرعوني



تمثال كلب من حجر البازلت
يرجع إلى العصر الروماني في مصر



تمثال خشبي مدهون يمثل
حاملة القربان
من عصر الدولة الوسطى



تمثال نخت مرحب
من نهاية العصر الفرعوني



باز من حجر البازلت الأسود
يرجع إلى نهاية العصر الفرعوني

قد أقبـــل الصبح . . .

للأستاذ يوسف جوهر

المحامى

سار سامى الصغير فى الصباح فى طريقه إلى المدرسة ، طروباً . . . إنه يستقبل نهاراً بهيجاً حافلاً بالتسلية . سيظفر اليوم بالأمنية التى ظل طويلا يحلم بها . لقد نجح أخيراً فى أن يقتصد ثلاثة قروش ، وصار قادراً على أن يقتنى . . طيارة . نعم طيارة ! كاملة المعدات والأدوات . إن معه ثمن الورق الملون ، وعيدان الغاب ، والصمغ ، والخيط . . عند انصرافه من المدرسة سيذهب إلى السوق ويشترى « الخامات » ، ويعود إلى البيت ليصنع طائرته . . سيتم عمله فى ساعات ، ثم يصعد إلى السطح ليرسلها إلى السماء محمولة على نسيم المساء الرخى . . .

كان سامى يضرب الأرض بقدمه فى اعتداد . إنه يملك ثلاثة قروش ، يستطيع أن يحقق بها مشروعه . يملكها أخيراً ، بعد أن راض نفسه على التوفير من مصروفه اليومى ؛ لقد قاسى ، وكابد كثيراً ، حتى وصل إلى هذه النتيجة المرجوة . كان يمر فى الصباح ببائع الفطائر الساخنة ، فتحدثه نفسه أن يميل إليه ويصيب من فطائره حظاً ولو قليلا . . ثم كان يذكر الطائرة وهى تحلق فى الجو بألوانها الزاهية ، فيكظم شهيته الثائرة ، ويزجر لعابه الواثب ، ويغض بصره ، ويمضى فى طريقه . . . إلى باب المدرسة ! . . .

وفى العصر ، عند الخروج ، كم كان يبدو صوت بائع المرطبات وهو ينادى على بضاعته مغرياً جداً ! إن الخبيث يحاول أن يستدرج زبونه القديم الدائم بصوته الناعم ، إنه يصف « المثلجات » وصفاً بليغاً رائعاً ، حتى ليهم الغلام الظامئ أن يندفع نحوه بحكم العادة . . ثم كان يذكر أن ذلك مما يؤخر تحليق طائرته يوماً أو يومين ، فيحزم أمره ويمضى فى طريقه إلى البيت لا يلوى . . . نعم ، لقد كابد وقاسى . . . وقد وصل الآن إلى هدفه ؛ ستكون له عما قليل طائرة . .

ظل سامى الصغير يدير خواطره فى رأسه ، وهو يداعب بقدمه كل حصاة تقع فى طريقه . . . وكان قد بلغ منتصف الطريق إلى المدرسة ، عند ما وقف قليلا واجماً . . .

وقف واجماً ، ينظر إلى امرأة كئيبة تجلس فى ظل شجرة ، مادة يدها فى طلب الصدقة ، وإلى جانبها طفلها يجذب ثوبها ويقول لها باكياً إنه . . . جائع ! . . .

لقد ملأه بكاء الطفل شفقة ؛ وود لو يستطيع أن يساعده ، أن يهبه قرشاً يشترى به رغيفاً . إنه يعرف ما هو الجوع ؛ طالما أحسه وهو عائد إلى البيت عند الظهر ؛ إنه شىء مؤلم ! . . .

هل يتنزل للسائلة ، التى تمد يدها ، التى يبكى طفلها ، عن أحد قروشه ؟ . . . إنه يريد ذلك . لكن الطائرة . . . إن ثمنها سينقص . لقد عانى هو نفسه الحرمان ليكتمل هذا الثمن . . .

هز رأسه ، واستأنف السير محدثاً نفسه : « ربما يمر بهما شخص آخر تكون لديه نقود زائدة عن حاجته ، فيعطيهما . . . »

غير أنه ما كاد يتمد بضع خطوات حتى وقف ثانية . لقد خيل له أن صوتاً يهمس فى أذنه : « ربما لا يمر أحد

من هذا الطريق . . . ويظل الطفل جائعاً » .

ظللت جبينه سحابة من الكدر والحيرة . وهم أن يعود إلى المرآة الكئيبة ، لكن « الطائرة » ظهرت أمامه فجأة ، وأخذت تحلق فى سماء خياله ، بألوانها الفاتنة . . . لقد أعلن أنداده من صبيان الشارع أن ستكون له طائرة كطائراتهم هذا المساء . . وأنه سيباريهم ويتفوق عليهم . . إنه لاينسى أنه سأل صديقه ابراهيم أن يدع طرف خيط طائرته فى يده بضع دقائق فرفض اللئيم وقال فى سخرية : « إن فى السوق ورقاً وغاباً وصمغاً وخيطاً . . . » حسناً . سيثبت لابراهيم أنه يستطيع أن يحصل على طائرة أكبر من طائرته . . .

واستأنف الصبي السير .

وحانت منه التفاتة إلى عصفور يثب من شجرة إلى شجرة وهو ماض فى زقزقته . كان صوت العصفور تهيأ عالياً . خيل له أن الطائر يقول له : « إنك ولد قاس . ماذا لو أخرت مشروعك يوماً أو يومين . . . إن الطفل جائع . . . إنه يبكى . . . » .

قال ساى متزعجاً : « اسمع ياعصفور . سيمر شخص آخر من غير شك ، وسيجد الطفل خبزاً . أنت لم تر ابراهيم وهو يعيرنى ، وهو يقول لى إننى لا أستطيع أن أحصل على طائرة . . . » .

وهز العصفور جناحيه فى ارتياب وسخرية وهو يختفى بين الأغصان !

وتنهد الصبي بارتياح لما رأى أنه قد تخلص من الطائر الساخر .

ووصل المدرسة . ودخل الفصل ، وأخذ يصغى إلى الشرح ، وهو يحملق فى السبورة كباقى التلاميذ .

غير أنه لم يكن يعى شيئاً . كانت تلعب برأسه خواطر بعيدة . . . إلى أى مدى يستطيع الانسان أن يحتمل الجوع ؟ . . . لقد اتهم ذات مرة بوضع بضعة زنابير فى قمطر المدرس ، وعوقب بالحبس فى « الزعرانة » من الظهر إلى الغروب دون غداء . لقد أحس يومئذ كأن شيئاً يقرض أمعاءه وبعضها . . . وذات مرة أغضبته أمه فأضرب عن الطعام ، وبات على الطوى . . . كم ذاق فى تلك الليلة من الألم . وكم بكى وهو يعض الوسادة ، وكم حدثته نفسه أن يتسلل إلى المطبخ . إن الظلام والخوف من الفضيحة هو الذى صده عن ذلك . . حقاً أن الجوع شيء فظيع ! . .

هاله الأمر . . ولم يعد يرى على السبورة الأرقام والحروف ؛ بل كان يرى صورة طفل فى أسمال ، وأم لاتبصر ترتدى ثوباً لا لون له إلا لون تراب الطريق .

ثم كانت هذه الصورة تنقشع ، وتأخذ مكانها صورة طائرة ملونة سابحة فى الجو .

وبين الحين والحين كان ساى يرى العصفور الساخر ، وهو يهز جناحيه ويختفى فى أغصان الشجر .

* * *

ودق الناقوس الأخير . . وتدفق الصبية من باب الخروج . . وقصد ساى المنزل ، لكنه لم يختر الطريق الذى جاء منه فى الصباح ؛ بل مضى من شارع آخر .

ولما قارب باب البيت حانت منه التفاتة إلى شجرة فرأى عصفوراً واقفاً على فنن ، وخيل له أنه عصفور الصباح وأنه ينتظره .

أصغى إلى زقزقته واعتقد أنه فهم مايريد أن يقول له وأنه يسأله : « لعلك أحسنت إلى الطفل الجائع فى عودتك ، واقتنعت أن إطعام طفل جائع خير من شراء طائرة ؟ . . » .

وأجابه فى فتور : « لم أصادف الطفل فى طريق . . » .

وقال العصفور : « إنك غيرت طريقك حتى لا تلتقى به . . » .

وقاطعه سامي وهو يتململ : « أبداً . أبداً . لقد غيرت طريق عفواً ، إني أفعل ذلك كثيراً . . » .

ضحك العصفور ، وقال وهو يمد لسانه الصغير ساخراً : « لا تنكر ، هذه هي الحقيقة أنبأتني بها نحلة طائرة مرت بقرب رأسك ورأت ما فيه من الأفكار ... » .

ذكر سامي بغيظ تلك النحلة اللئيمة التي كانت تطنّ حول رأسه وهو يسير في فناء المدرسة . إذاً فقد كانت الخبيثة جاسوسة العصفور ! . .

وأجاب غاضباً مصراً على المكابرة : « اسمع يا عصفور ! إنك ثرثار قبيح ، إنك حانق عليّ لأن طائرتي ستستطيع أن تعلو في السماء أكثر مما تستطيع أنت ، إن أقوالك لا تهمني ... سأفعل ما أريد ... » ، ودخل البيت .

* * *

في المساء كانت طائرته تحلق في السماء ، يمسك خيط القيادة بيد ، ويلوح بيده الأخرى إلى رفاقه من ملاك الطائرات ، وهم وقوف فوق سطوح منازلهم .

ولما رأى أن الريح تساعد طائرته أكثر مما تساعد طائرة غريمه ابراهيم وتدفع بها إلى الأعالي تنفس الصعداء ، وملأ الانتصار فمه بالضحك ووجهه بالابتسام .

غير أنه ما لبث أن أحس كأن شيئاً في دخيلته يسرق البهجة من قلبه ، ويتخطف الضحكات من فمه ، ويعلق الابتسامات التي تغشى أساريره وعينيه .

لقد صار يتصور أن كل الهواء مملوء ببكاء الطفل الجائع ! ...

وتولته السآمة ...

وأخذ يطوى الخيط في فتور ، وأخذت الطائرة تعود أدراجها ، وسقطت أخيراً عند قدميه فحملها في ضجر ، وهبط إلى حجرته ...

وتناول عشاءه وهو واجم ...

وجاءت ساعة النوم فارتمى في سريره وبصدره كآبة شديدة . وجاءته أمه كعادتها تسأله عن يومه وما اضطرب به نهاره : هل حفظ دروسه ؟ هل رضى عنه معلموه ؟ هل ضايقه أحد من رفاقه ؟ هل أطاع وصاياها وقابل الاساءة بالاحسان ؟ هل كذب وصخب أم آثر الصدق والهدوء ؟ . وهل صنع خيراً ؟ ! ...

بم يحدثها ؟ ... هذا هو سر كآبته ، إنه لم يستذكر دروسه ، لأنه صرف كل همه إلى صنع الطائرة ، ولم يرض عنه معلموه بل تلقى على يديه عدة ضربات من عصا الشيخ « شعيره » لأنه لم يصغ إلى شرح درس النحو ...

ولقد حنق على « إبراهيم » وما يزال يمقته ، لأنه يزعم أنه أمهر منه في قيادة الطائرات ...

وقد كذب أيضاً ، وأخفى الحقيقة عن العصفور لما سأله : لم غيّر طريقه ؟ بل إنه أساء للطائر الظريف وشتمه قائلا : « إنك ثرثار قبيح ، طويل اللسان » .

ثم إنه لم يصنع خيراً .. بل كان قاسياً . قاسياً جداً . لقد ترك الطفل جائعاً ، وفي جيبه ثلاثة قروش ! . .

ليست لديه أجوبة سارة ، وهو لا يجسر أن يكذب أمه . فليصطنع النعاس ...

ولم تشأ أمه أن توقظه ، فطبعت على جبينه قبلة ، ومضت عنه ...

ولم يفتح الصبي عينيه بعد ما مضت ، فإن النعاس قد تسلل حقاً إلى جسده المتعب ، وسرق روحه الصغيرة الحائرة وحملها إلى وادي الأحلام ...

* * *

كان أبوه نائماً في غرفة مجاورة ، مفتوح العينين ، يصارع الأرق رأسه ، فسمع ولده وهو يقول : « أنا آسف يا عصفور . لقد أسأت إليك . . . تقول إن الطفل المسكين مات . مات ؟! » ...

وشهق سامى باكيا ...

كان صوته الباكى الحزين ، البلل بالشفقة ، آتيا من وادى الأحلام ...

نهض الأب ، وذهب إلى سرير ولده ، وأيقظه ، وأرقده على جنبه الآخر ، ثم عاد إلى غرفته ... وإلى أرقه .

ماذا يؤرقه ؟ ...

لقد جاءه فى المساء حسن سالم صاحب المتجر المجاور لمتجره ، وأنبأه أنه مدين فى مائة جنيه ، وأن ميعاد السداد قد حلّ ، وأن الدائن لا يعرف الرحمة ولا الإمهال : الدفع أو البروتستو ، ثم إعلان الإفلاس ...

وختم حسن سالم حديثه قائلا : « لقد جئتك لتقرضنى المائة جنيه ، لتخرجنى من ضيق ، لتنقذ سمعتى ومستقبلى ، إنك جارى الكريم الشهم » ...

وأجاب الكريم الشهم : « وا أسفاه يا حسن أفندى ، ما كنت أحجم عن إقراضك لو كان لدى هذا المبلغ ، لكن ... أنت أدرى الناس بسوء الحالة وكساد السوق »

ونهض الرجل ، وهمس والشقاء يظلل وجهه : « لقد قلت لامرأتى وهى تبكى إنه لا ينبغى أن نحزن قبل أن آتى إليك ... وا أسفاه ! لنا الآن أن نيأس ، أن نيأس » ...

كانت كلمة « نيأس » تقطر مرارة وهى تتخبط على شفتيه .

ومضى حسن سالم إلى سبيله يجر قدميه جرا ...

ما زال الرجل الساهر ، الذى يعذبه الأرق يراه ... وهو يجرّ قدميه جرّا ! ...

لقد كان يظن أن صلته بالأمس ستنقطع بمجرد اعتذاره بمجرد انصراف جاره ...

لكن هاهو قلبه يحاسبه ! ...

إنه يقول له : « إنك لم تكن صادقا حينما احتججت بسوء الحال وكساد السوق . إن فى خزانتك مائتى جنيه زائدة عن الحاجة ... أنت تعرف أن جارك حسن سالم رجل أمين يوفى عند الميسرة ، ماذا لو ساعدته فى عسره ؟ » ...

وأجاب الرجلُ قلبَه : « نعم إن حسن سالم تاجر أمين سيء الحظ ، لكنى فى حاجة للنقود ، ألست معتزما أن أشترى الفدانين المجاورين لأرضى » ...

وقال قلب الرجل : « إنها مسألة كمالية » ...

فعاد الرجل يقول : « هذه الأرض ضرورية لإكمال الحقل ، ليصير قطعة واحدة » ...

فقرت من القلب ضحكة ساخرة ، وهمس بصاحبه : « ضرورية ؟! » ...

وأجاب الرجل فى إصرار : « نعم ضرورية ... إن لم أشتر هذين الفدانين سيشتريهما جارى بيومى ، سيصير هذا اللئيم المشاغب شوكة فى جنب أرضى » ...

وأغمض « ثابت افندى » عينيه محاولا أن يصطنع النعاس ، حتى يخدع عنه قلبه الذى يحاسبه ، لكن قلبه كان عنيدا ، فظل يضرب أضالعه ، عبثا حاول أن يصم أذنيه عن طرقاته ، وفتح عينيه فى يأس ...

كانت قطرات من الماء تتساقط من صنبور قريب لم يقفل جيدا ، وتُحدث فى سكون الليل نغما حزينا ... ولم يدر الرجل لماذا يذكره هذا النغم الحزين بزوجة حسن سالم ، ولا ما الذى يخيل له أن صوت قطرات الماء ليس إلا صوت دموعها تتساقط على يديها ! ...

وتململ فى فراشه ...

حقا أن توقف تاجر عن الدفع معناه إعلان إفلاسه . وإعلان إفلاسه هو قتله أدبيا ... إن متجره يغلق ، إن كرامته وأثاث بيته وكل ما يملك من معنويات وماديات يصير جثة يتقسمها الدائنون ويفترسونها فى غير رحمة ... ولن يجد ابن حسن سالم الذى أوشك أن يتم دراسته العالية

(القسط الأخير) ، وقد تفقد ابنته خطيبها ، فإن كثيرين من طلاب النسب يتزوجون مع الفتاة شهرة أبيها وصيته

ومط « ثابت » افندى كتفيه محدثاً نفسه : « حقاً أنها مسألة مؤلمة ، لكن الفدادين ، إنها فرصة ، ثم إن بيوى قد يظن أنى لم أشتر الأرض لأنى أرهب جانبه ، الأمر متعلق بهيبتى فى البلد » ...

ومل قلبه المناقشة ، ويئس من إقناعه ، فقال له وهو يحدق فيه بعينين مفعمتين بالاحتقار : « إنك رجل أنانى ... » .

وتظاهر ثابت أفندى بأنه نائم ، وبأنه لم يسمع قلبه وهو يوجه إليه هذه الإهانة ...

لكنه فتح عينيه فجأة ، فقد أحس حركة فى حجرة الصبى ...

وخشى أن يكون ولده قد تدحرج من سريره كما يحدث له أحياناً ، فنهض ونظر من خلال الباب ، وإذا بسامى يضع حذاءه فى قدميه ، ويوثقه بالرباط ، وكأنه يتأهب للخروج ! ...

نظر فى الساعة فإذا بها قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل ! ...

عاد الصبى من المطبخ ببعض الطعام ، وجعل يضمه فى رغيفين كبيرين ، ثم يلفهما فى ورقة كبيرة ...

وحمل سامى هذه الحزمة فى يد ، وحمل فى اليد الأخرى طيارته ... وقصد إلى الباب الخارجى ! ...

وازداد عجب الأب ، واعتزم أن يتبعه فى سكون ليرى إلى أين يذهب ! ...

وبدأ الصبى يهبط السلم . كان هذا الهبوط تجربة قاسية له . فقد كان الظلام حالكا موحشاً . وبلل العرق جبينه الصغير ، وأوشك أن يصرخ مستنجداً ، لكنه قمع فزعه ، وتلمس مواضع قدميه ، حتى وصل إلى الباب ...

لم تكن الليلة مقمرة . وكانت أشباح البيوت العالية القائمة على جانبى الطريق تطرد الأضواء الخفيفة التى ترسلها النجوم فى جفاء وخشونة ... والمصابيح التعبة من السهر ترقب إقبال الفجر بأجفان ثقيلة يراودها النعاس ... والسكون قد مدَّ رواقه وصار فى عنفوانه ...

وخُيِّل لسامى أن الأشباح الشريرة تستيقظ تحت خطواته ، وتتبعه بنظرات حانقة لأنه أيقظها من رقادها ... وعذبه الخوف ... ولم يجسر أن ينظر إلى الوراء ... ولم ير أباه وهو يتبعه من بعيد ...

وكان ، وهو يتعثر فى طريقه ، يرفع وجهه بين الحين والحين إلى الأشجار ، وكأنه يبحث عن شىء ...

كان يبحث عن العصفور الذى لقيه فى الصباح ، كان يريد أن يقول له : يا عصفور . . . حقاً قد أسأت إليك . أنا نادم . . لقد كنت ولداً رديئاً ، كنت قاسياً على الطفل الجائع ، ها أنا ذاهب لأصالحه ، لأعطيه خبزاً وطعاماً ، لأهدى إليه طارتى . . إنى أعرف بيت المرأة الكفيفة . . . إنها تقيم فى ذلك الكوخ القائم وراء المدرسة . . الذى لا باب له إلا صفة من البوص تحجزه عن الطريق . . سأستطيع يا عصفور أن أنبئ أبى فى الصباح أنى صنعت خيراً . . »

***

ورأى ثابت أفندى ولده وهو يضع وراء صفة البوص الطعام والطائرة ، ويتسلل عائداً . .

كان يعرف ، ككل أهل الناحية ، أن هذا هو كوخ زينب الكفيفة . . التى تستجدى .

وخفق قلب الأب ، وظهر لولده ، وعاد به إلى البيت وأرقده فى فراشه .

وجلس ثابت أفندى على حافة السرير الصغير يصغى لولده وهو يقص عليه قصته : « .. وحلمت يا أبى أن

الطفل ظل يبكى ... وأنه لم يجد طول يومه طعاماً ... وأنه مات فى حجر أمه ، ولما استيقظت حسبت أن العصفور يضرب بمنقاره زجاج النافذة قائلا لى : قم أصلح غلطتك ... » .

ونام الطفل ، نام هذه المرة ملء جفنيه ! ورقصت على وجهه الحلو ابتسامة كلها رضا . ومال الرجل عليه وقبّله ، ثم ذهب إلى سريره ...

وأحس كأن هذه القبلة سرير آخر مريح ينام عليه قلبه المتعب ..

فإن قلبه قد فرغ من الكفاح وانتصر .. إنه سيذهب فى الصباح الباكر إلى بيت التاجر حسن سالم وفى جيبه المائة جنيه ليفى دينه ...

إنه يسمع من جديد قطرات الماء وهى تتساقط من الصنبور الذى لم يحكم إقفاله ... وإنه ليجد لها صوتاً عذباً لكأنها تضحك ! لكأنها تغنى ! ..

وصعد سامى فى الصباح سرير أبيه ، ونام كعادته على صدره ليوقظه ، صائحاً فى جذل : « أبى ، أبى ، استيقظ لقد أقبل الصبح » ...

وقال الأب وهو ينهال على وجه صغيره بالقبل : « نعم يا بنى ... قد أقبل الصبح ... لست اليوم أباك ، إنى اليوم ولدك » ...

قال الطفل فى عجب : « كيف ؟ ... » .

وضحك الأب وهو يجيبه : « فى الليل ، وأنا أتبعك ، ولد قلبك قلبى ... » .

وتعانقا ...

(ختام) يوسف جوهر

ماذا يسبب السرطان

إن حظ المصاب بالسرطان مرهون باللحظة التي يتخير فيها أن يعالج . فكم منهم من كتب له الشفاء منه لأنه وفق لأن يجرى عملية أو يعالج بالاشعاع فى الوقت المناسب . ولكن أكثرهم يدركهم الموت لأنهم تباطئوا فى علاجه ، وبدءوا به فى وقت متأخر . فالمسألة العملية فى كفاح هذا الداء الذى عم انتشاره ، هو التشخيص المبكر والعلاج المبكر .

وحسبك لتقدير خطر هذا المرض المستعصى أن تعلم أن ضحاياه فى العالم يبلغون نحو مليونين ونصف مليون سنوياً ، وهو فى البلاد المتمدينة أشد فتكاً من السل والأمراض المعدية معاً ، والمصابون بالسرطان الذين يعيشون ، ويبطئ بهم الأجل ، أكثر مما يمكن استخلاصه من الاحصاآت . وتدل الأرقام الأخيرة على أن سكان بريطانيا العظمى فى الوقت الحاضر من بينهم ستة ملايين ونصف مليون قضى عليهم أن يموتوا بالسرطان .

وقد وفق البحث التجريبى والكلينيكى الحديث لتبين بعض العوامل التى تسبب كثيراً من أنواع السرطان ، وبذلك مهد السبيل للوقاية منه . فمثلا السرطان المهنى (الناشئ عن ممارسة مهنة أو حرفة خاصة) أكبر أسبابه حدوث التهابات خفيفة تتوالى وتزمن وتستحيل على مر الأيام سرطاناً ؛ ولا شك أن مثل هذه الحالات من الممكن تداركها واتخاذ إجراآت للوقاية منها . ومن أمثلة النمو البطىء للسرطان « سرطان الهباب » الذى وصفه برسيفال بوت سنة ١٧٧٥ . ففى ذلك الوقت كان الأطفال فى سن الخامسة يستخدمون فى تنظيف المداخن ، وقد كانوا يشكون من التهابات جلدية حادة تكمن فى أجسامهم ما بين العشرين عاماً والثلاثين عاماً ، ثم تصير أوراماً خبيثة سرطانية لاشك فيها . وقد أمكن بقانون حماية الأطفال أن يؤخر بدء استخدام الأطفال فى تنظيف المداخن وغيره من الأعمال إلى ما بعد سن السادسة عشرة ، وبذلك تأخر موعد ظهور سرطان الهباب فى منظفى المداخن إلى ما بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين ؛ ثم ابتكر المبتكرون نماذج جديدة من المداخن ووسائل جديدة لتنظيفها ؛ وفطن الناس إلى قيمة النظافة الشخصية ، وبذلك كاد هذا النوع من السرطان أن يختفى نهائياً .

ويشبه هذا « سرطان الرونتجن » الذى كان يصاب به كثير من الأطباء والعلماء والمساعدين الذين كانوا يشتغلون بالتجربة بتلك الأشعة فى أول اكتشافها قبل أن تعرف خصائصها البيولوجية ، ويعرضون أنفسهم لها سنين طويلة من غير وسائل وقائية فعالة ، فقد كانت تبدو عليهم بعد فترة تكون تتراوح بين أربع سنوات وعشرين سنة التهابات وتورمات تستحيل إلى أورام جلدية سرطانية . وقد قتلت هذه الأورام أكثر من مائتى شخص بين سن الخامسة والثلاثين والخمسين ، ولكن الابتكارات الوقائية المتنوعة كفلت الاحتياط ضد نشوء هذا النوع من السرطان .

ومن هذا يتبين أن السرطان المهنى ينشأ نشأة عادية فى ظروف طبيعية ، ثم يتطور على الأيام حتى ينقلب سرطاناً عصىّ العلاج . ويتميز الطور الأول من أطوار نشأته بحدوث تهيج أو التهاب خفيف مؤلم ، يتكرر يوما بعد يوم ويهمل أمره ويطول إهماله سنين طويلة فيحدث أضراراً ثابتة فى أنسجة الجسم .

والكفاح ضد السرطان يجب أن يوجه أولاً ضد العوامل التى من شأنها إضعاف قوة المقاومة فى الجسم ، كالتسمم الحاد بالخمر والدخان والزرنيخ ؛ ويجب أن يوجه بخاصة ضد الزهرى الذى لوحظ وجوده فى عشرة فى المائة من حالات الاصابة بالسرطان . وفى سرطان الفم ثبت وجود إصابة بالزهرى فى نحو ٦٠ إلى ٨٠ فى المائة من الحالات ، ولاسيما لدى مدمنى التدخين . وهكذا دل البحث

في أسباب سرطان الفم على بعض الوسائل التي يمكن اتخاذها للوقاية منه ، وهي مكافحة الأمراض الزهرية وعدم الافراط في التدخين ، والاعتدال في شرب الخمر (يلاحظ كثرة حالات سرطان الشفة بين مدخني قصبة التبغ أو البيبة) .

وهذه العوامل الثلاثة : الزهرى والدخان والخمر تفسر شيوع السرطان في أجزاء معينة في الجسم في حالات المصابين به من الرجال . ففيما بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٢٠ مات من سرطان الشفة ٣٣٦١ رجلا مقابل ١٨٠ امرأة ، ومن سرطان اللسان ١٠١١٤ رجلا مقابل ١٠١٩ امرأة في إنجلترا وحدها ؛ وسرطان الثانة والرئة يبلغ في الرجال نحو ثلاثة أمثاله في النساء . وعلى عكس ذلك نجد سرطان الصدر يكاد يكون خاصاً بالنساء وحدهن . وهنا أيضا لا تعسر مقاومة العوامل الأولية التي تسببه ؛ فكم حدث أن مجرد ملمح جلدى في حلمة الثدى أو تورم أو التهاب في الثدى ، كما يحدث لكثير من غير المتزوجات ، يتطور بالاهمال إلى سرطان ؛ ولو بادر المصابون في أول ظهور تلك الحالات لعلاجها لقل سرطان الثدى قلة واضحة .

ويتضح من الاحصاءات الانجليزية أن الوفيات بالسرطان تختلف باختلاف المهن ، ففيما بين سنة ١٩٢١ و ١٩٢٣ بلغت نسبة الوفيات به ٦٨ للقسس مقابل ١٠٢ للأطباء ، و ١٥٩ لعمال الدخان و ١٧٩ لمعدني الصفيح والنحاس و ١٨٠ للمشتغلين بالتخمير و ٢١٢ لغزال القطن و ٢٣٠ لخدم المطاعم و ٢٣١ لخدم البارات ؛ ويتعرض أرباب كل مهنة لأن يصابوا بالسرطان في أجزاء خاصة من الجسم تبعاً للعوامل التي يتعرضون لها .

فالمشتغلون بالصناعات الآتية معرضون لسرطان الجلد : الفحم وغاز الاستصباح وزيوت التشحيم والزفت والقطران والأفران وغزل القطن ومصانع الزرنيخ ومصانع النحاس والصفيح وكذلك الفلاحون والسماكون (ولا سيما في الجهات الحارة كوادي النيل) .

وسرطان الرئة آخذ بلا شك في الازدياد ؛ ففي الأعوام الخمسة والعشرين الأخيرة زاد من ٤٫٣٤ في المائة من كل حالات السرطان إلى ١٣ في المائة ؛ ويظن أن هذه الزيادة ناشئة من الاشتغال في غبار الطرق القطرانية ، وفي « جراجات » السيارات وفي الغبار المتصاعد من طحن المعادن ، وفي المصانع المتلئة بالدخان والمصانع المشتغلة بتجهيز الغازات للأغراض الحربية ؛ وتنظيف الهواء إذاً لا يقل أهمية عن العناية بتنظيف الماء .

وقد ينشأ سرطان المعدة من حدوث حروق فيها بسبب أكل طعام أو شرب شراب وهو مرتفع الحرارة كثيراً ؛ فسرطان الطباخين أكثر ما يكون من تذوقهم ألوان الطعام وهي ساخنة ؛ ويكثر في الصين مثل هذا السرطان بسبب ابتلاعهم الأرز الملتهب . والمعدة شديدة الحساسية لكل تهييج ميكانيكي أو حراري أو كيمياوي . ومن الملاحظ أنه في الأوقات التي تسوء فيها التغذية كما في أيام الحروب تقل كثيراً حالات سرطان المعدة .

إن السر في التغلب على السرطان هو في تناول المرض قبل أن يثبت قدمه في الجسم ؛ ولهذا السبب كان من الواجب على كل إنسان — وخاصة من تعرضهم مهنتهم أو سنهم للاصابة به — أن يفحصوا أنفسهم من آن لآن . إن الشأن في السرطان — فوق كل الأمراض المنتشرة — هو أن الفحص الوقائي خير من كل محاولة للعلاج ؟

عن مجلة « كونتمبوراري رفيو »

لكل عالم هفوة

كان أرشميدس من العلماء الذين نبغوا فى العصر الاسكندرى ؛ تلقى العلم فى مدينة الاسكندرية من أساتذة مصريين ، وعقب الانتهاء من دراسته انتقل إلى بلدته (سرقوسه) . وله اختراعات جليلة فى العلوم الطبيعية لا زال العالم يدرسها ويعمل بها حتى اليوم ، وله أيضاً اختراعات فى الحياة العملية ؛ فنها المنجنيق والطنبور والمرايا المقعرة التى استطاع بها احراق الأسطول الرومانى ؛ وهو أول من استنبط أن خارج قسمة محيط أى دائرة على قطرها نسبة ثابتة وهو ما يسمى بالنسبة التقريبية .

وأذكر نادرة طريفة من نوادره ؛ إذ أننا لو تعمقنا وبحثنا فى حياة العلماء والشعراء فى عصرنا الحاضر أو فى الأزمان السابقة لوجدنا لأكثرهم شذوذاً طريفاً فى العقل ، ناتجاً عن تغلب قريحتهم وعقلهم على مظهرهم وعواطفهم — ويتضح هذا جلياً إذا أمعنا النظر فى هندام عالم أو شاعر ؛ فأحياناً لا يملك الانسان نفسه عند رؤية أحدهم فيضحك ، وخصوصاً على (هرولة ملابسهم) — فنهم من لا يهم رباط الرقبة فتتحرك العقدة على محيط عنقه فى شتى الاتجاهات ، ومنهم من يترك لحيته وشعر رأسه فيبدو بشع المنظر ، ومنهم من يكلم نفسه فى وحدته . . . . وغير ذلك كثير .

فنى ذات يوم أمر ملك أرشميدس المسمى [إيرو] أن يختبر معدن تاج صنعه له أحد الصاغة ، وادعى أنه من الذهب الخالص ، فارتاب الملك فيه ، فلم يصدق أنه صنع كله من الذهب ، فاستدعى أرشميدس وأنبأه نبأه ، فحار أرشميدس فى الأمر ، ولم يوفق إلى حل ، إلا أنه كان يستحم ذات يوم فى حوض مملوء بالماء ، فلاحظ عند نزوله فى الحوض أن الماء فاض على جوانبه ، فأدرك فى الحال أنه يستطيع أن يختبر التاج ، وعلم أنه لو كان بالتاج شوائب من معدن آخر أخف من الذهب لكانت كثافته أقل من كثافة الذهب ، أى أنه يمكنه إيجاد حجم التاج بغمره فى ماء الحوض لمعرفة الماء الذى يحل محله التاج ، ومتى عرف الحجم وعرفت الكتلة أمكنه أن يستنتج الكثافة ، فإن كانت ١٩,٣ جم كان التاج من الذهب الخالص وإلا فلا ، لأنه لا يوجد معدن كثافته ١٩,٣ جم سوى الذهب . كل هذه الأفكار ساورت أرشميدس فى تلك اللحظة ، فخرج من الحمام فرحاً مسروراً ، وأخذ يعدو عارى الجسم إلى منزله ، والناس من حوله يسخرون منه وهو يقول : « وجدتها ، وجدتها ! » . بعد أن دخل أرشميدس إلى معمله وأجرى تجارب ، استنتج بعدها قاعدته المشهورة بقاعدة أرشميدس ، وهى أنه إذا غمر جسم فى سائل ما فإنه يلاقى ضغطاً من أسفل إلى أعلى يساوى حاصل ضرب حجم الجسم المغمور فى السائل فى كثافة السائل ، وبهذا وجد غش الصائغ .

(الحلمية الجديدة) **عبد الحى فتحى**

العهـــود المطولة

وهي من طرائف الشعر الوجداني

للأستاذ أحمد الزين

عَلِّلِينَــا بالأماني وَاْمْطُلِي
وَعِدِينا بالتـــداني واْمْطُلِي

وَإِذَا لَمْ تُسْعِدِي الشاكي بما
يَرْتَجِيهِ أَسْعِدِي بالأَمَلِ

كَمْ سأَلْنَا وَقَنِعْنَا أَننا
نأْمُلُ البَذْلَ وإِنْ لَمْ تَبْذُلِي

وَرَضِينَا منكِ ـ لو أَجْدَى الرِّضا ـ
بتَمَنِّي الوَصْلِ إِنْ لَمْ تَصِلِي

فاسأَلِيهِ مَرَّةً مَا سُقْمُه ؟
حَسْبُ مَنْ أَسْقَمْتِهِ أَنْ تَسْأَلِي

حَسْبُه عِلْمُكِ عَنــــه أَنَّه
مَسَّــه الحُبُّ بداءٍ مُعْضِلِ

حَسْبُهُ الظَّنُّ ـــ إِذا لَمْ تُوقِنِي ـــ
أَنَّه حُمِّـــلَ ما لَمْ يَحْمِلِ

أَخْطِرِي وَهْمَكِ فيـه مَرَّةً
خَطْرَةَ النَّجْمِ عَلَى بالِ الخَلِي

وَالمحيـه لَمْعَ بَرْقٍ خُلَّبٍ
يُطْمِعُ الصادِيَ وإِنْ لَمْ يُسْبِلِ

آهِ لو أَصْغَيْتِ لِي أَشْكُو الذي
شَفَّ جِسْمِي آهِ لو أَصْغَيْتِ لِي

رُبَّ يَوْمٍ قُمْتُ أَشْكو فَرَنَتْ
نَظَرَ العَطْفِ وإِنْ لَمْ تَفْعَلِ

لَمْ تَكَدْ تَعْطِفُ حتى رَدَّها
عَنْ حَدِيثِ العَطْفِ صَمْتُ الخَجَلِ

وَجَرَى بَيْنَ يَدَيْها مَدْمَعِي
فاتحاً أَبوابَ قَلْبٍ مُقْفَلِ

فأَجالَتْ نَظْرَةً تُمْسِكُها
خَشْيَةُ الواشي فلم تَسْتَرْسِلِ

لَسْتُ أَخْشَى عاذِلاً من غيرِها
إِنَّ تِيهَ الغِيــدِ أَقْوَى العُذَّلِ

لَيْسَ في قلبي لِعَذْلٍ مَوْضِعٌ
أَنا عَنْ عَذْلِهِمُ في شُغُلِ

خُلِقَ الحُسْنُ سلاماً فابْسُطِي
ظِلَّهُ الوارِفَ رَحْبَ المَنْزِلِ

لَمْ يكن سَيْفاً تَصُولِينَ به
أَزْرَقَ الحَــدِّ رَهِيبَ المُنْصُلِ

كيف تُدْعَى أُسْهُماً قاتِلَةً
فِتْنَــةُ الحُسْنِ بِلَحْظِ المُقَلِ

إِنما الحُسْنُ حَيَــاةٌ وَحَيَا
فاسْقِي المَيْتَ به لا تَقْتُلِي

هو ذاكَ المَنْهَلُ الصافي فلا
تَمْنَعِي الظامِئَ صَفْوَ المَنْهَلِ

إِنَّه مِنْ رَحْمَـــــةِ اللهِ فلا
تَجْعَلِي الجَنَّةَ نارَ المُصْطَلِي

لَكِ عَرْشُ الحُسْنِ فاقْضِي حَقَّه
واسْتَدِيمِي مُلْكَه أَنْ تَعْدِلِي

أحمد الزين

شخصتْ إلىَّ عيونُ هاتيك الرُّبى

للأستاذ فخرى أبو السعود

وافتْ بحشدٍ فى الفضاء عظيم
ونكا كانت فى وحشة ووجوم

قُلَلٌ تسامت فى الجواء وحجَّبت
أفقَ السماء إلى الكواكب تُومى

أنَّى رفعتُ الطرْفَ قصَّرَ شأوَهُ
إشرافُ مرفوعِ الشُّموتِ جسيم

وكأنَّ خَطوِى فى دروب وعورها
نملٌ يدبُّ على سَراة أديم

حطَّتْ على الأرجاء مُرْسِيَةً كما
حطَّتْ كلاكلَها فحولُ قُرُوم

تجلو الطريقَ إذا تفرَّقَ شملُها
فأسيرُ فى بادى الرسوم قويم

مستشرفاً مِنْ هَضْبها لمدائنٍ
منشورةٍ مِنْ دونها ورسوم

وتُبين وجهَ الأفقِ ثم تَسُدُّهُ
سدًّا علىَّ بشملها للضموم

لم أمضِ فيها صاعدًا إلا مَضَتْ
صُعُدًا لنأوٍ ثمَّ غيرِ مَرُوم

تعرَى وتكتسى بالنبات وآنةً
بطباق ثلج فى طباق غيوم

تغــدو ذراها للرياح ملاعباً
ولكل هطّالٍ أجشَّ هزيم

حتى إذا وافت ذُكاء فأوهَنَتْ
أوصالَ ثلجٍ فوقها مركوم

سالت جوانبها بسيلٍ دافق
متوثِّبٍ فوق الصخور عميم

يهوى إلى قاعٍ فقاعٍ مرعدًا
ويلجُّ فى التَّهدار والتدويم

شادت له حِيَلُ الطبيعة مَسْرَباً
متكوِّراً فى الصخر كالحلقوم

وبَنَتْ جسوراً فوقه وبرابخاً
يمضى بها عجلانَ غير مقيم

أنحى من العصر القديم على الصفا
بالنحت والتحطيم والتهشيم

يجرى على أنقاضه وحطامه
متدافعَ التيار غير مُليم

ويلجُّ فى تصويبه ويغيب فى
جُبٍّ سحيقٍ فى الحضيض بهيم

يخفى به إلا خريراً صاعداً
منه يبوح بسرِّه المكتوم

أنَّى التفتُّ رأيتُ صخراً جاسياً
يجرى بعذبٍ رائقٍ مسجوم

شخصتْ إلىَّ عيونُ هاتيك الرُّبى
فى حيرةٍ من أمرها وسهوم

وكأنما أنكرن ظاهر هيئتي
وكأنما قد راعهن قدومي
وأنا أغمغم بينها بقصيدة
عربيـــة الألفاظ والتنغيم
ولربما وطئت شوامخ هضبها
قِدماً فوارسُ جحفلٍ وتميم
ومشت عليها عُصبةٌ عربيـة
مِن كل نَدْبٍ باسلٍ وقديم
قد خفَّ فى هذى المُروج إلى حمى
مجدٍ وطيبٍ مَزارها للشموم
وإذا كساها الثلجُ حنَّ لموطنٍ
يَرْمِي هجيراً رملُهُ بجحيم
ورنا إليه من بعيدٍ مرسلاً
منه السلامَ على جناح نسيم
وشدَا به فى عذب شعرٍ لم يَدُمْ
فى صدرِ راوٍ أو بطون رقيم

(جرنوبل) فخرى أبو السعود

خرساء . . !

للأستاذ محمود السيد شعبان

هل راع قلبَك صمتُها أم تامَها
يا عاشقَ الحسنِ الفريد فتونُها ؟ !
خرساء يُعوِزُها البيانُ وسحرُها
دونَ الحسانِ عَلَى البيانِ مُعينُها
إنْ خانَها نُطقُ اللسانِ فما أرى
نُطقَ العيونِ المُغرياتِ يخونُها ! !
عقَدَ الإلهُ لسـانَها فتحكَّمَتْ
عِبءَ البيانِ عن اللسانِ عيونُها !
دَعْ عنكَ ألفاظَ اللُّغاتِ فإنَّها
حَصَرٌ إذا ما خاطبتْكَ جفونُها !
والنطقُ يَسْلُبُ الجميلةَ سِرَّها
والصمتُ يحرسُ طُهرَها ويَصُونُها
سَجَنَ القضاءُ لسانَها فتساءلتْ :
أيانَ يَطرحِ القيودَ سجينُها ؟ !
إنْ فاتَها بثُّ الشجونِ فدَمعُها
فى النائباتِ المُشجياتِ أمينُها ! !
أوْ آدَها بأسُ الهوى فخيالُها
عنها يُترجِمُ ما يقول حنينُها !
أوْ شاقَها سِحرُ الوجودِ فبَسْمَةٌ
منها تُفسِّرُ ما تُحبُّ ظنونُها !
أوْ راقَها عبثٌ فَفِى خطَراتِها
فَنٌّ يُبيِّنُ ما يرومُ مجونُها ! !
أوْ نامَها أملٌ ففى نظراتِها
معنًى يُوضِّحُ حاجَها ويُبينُها ! !
خرساء دقَّ على السامعِ قولُها
وتَغافَلُ الآذانِ ليسَ يَشينُها !
وسَمَتْ عَلَى كلِّ العقولِ لُغاتُها
فأبانَ منطِقَها الخفِيَّ جبينُها ! !
ما عابَها خَــرَسٌ وفى أعطافِها
حُسْنٌ إذا نَطَقَ الحسانُ يَزينُها
إنْ كانَ فى الأفواهِ لَغْوُ كلامِها
فاللهُ يشهدُ إنَّها لَتَصُونُها ! !

أنباء وآراء

طراز العمارة القوطي

كانت الثقافة قد نشرت مقالاً للأستاذ ابراهيم جمعة عن طراز العمارة القوطي . وقد بعث إلينا حضرة محمد أفندي كمال حسن بمدرسة الهندسة التطبيقية تعليقاً على هذا المقال نقتطف منه ما يلي :

« ذكر الأستاذ أن الفن القوطي استمد أصوله من الفن الشبيه بالروماني ولم يذكر اسم هذا الفن مع أنه معروف بالفن الرومانسكي أي الفن الروماني المتأخر . كما أنه ذكر أيضاً أن الطراز القوطي يمتاز بأبراجه العالية والعقود المدببة . وصحتها العقود المحدبة ، لأنها كانت مقوسة الأعلى متقابلة في نقطة واحدة . وقد كان هذا النوع من العقود منتشراً قبل ذلك في الشرق ، وإني لا أكتب هذه الكلمة إلا لفتاً للنظر . . . . »

مهرجان الأدب في السودان

استقر عزم فريق من أدباء الشباب في السودان على إقامة مهرجان أدبي في واد مدني خلال أيام عيد الفطر الثلاثة ، تعرض فيه جهود الشباب المتعلم وما ناله من حظ في العلم والأدب ، فتقدم فيه الأبحاث المختلفة عن شتى فروع العلوم والآداب من دراسات في الطب والفلك وما إليهما إلى أسواق للشعر يتبارى فيها الشعراء . وقد وجه الشباب السوداني الدعوة إلى كبار الأدباء والكتاب والعلماء من المصريين لزيارة السودان في رحلة شتائية ، ليروا رأي العين مدى التقدم الثقافي للقطر الشقيق ، وليشاركوا إخوانهم من أبنائه مهرجانهم ، ويتبادلوا وإياهم فنون الرأي في مختلف المواضيع .

و « الثقافة » ترحب بفكرة إقامة هذا المهرجان ، وتدعو المصريين جميعاً إلى تأييده وتشجيعه والدعاية له ، وتنتهز هذه الفرصة لتحيي أبناء القطر الشقيق ، وترجو للقائمين بأمر هذا المهرجان توفيقاً ونجاحاً يناسب جلال الواجب الذي يقومون بأدائه .

وقد أبلغتنا سكرتيرية هذا المهرجان أنها ترحب بكل راغب في المشاركة فيه ، وترجو أن تكون الرسائل والاستعلامات معنونة باسم سكرتيره (الأستاذ أحمد محمد خير بازي السوداني — واد مدني) .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي:
- ٦٠ قرشاً في مصر والسودان
- ٨٠ في الأقطار العربية
- ١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

رجل بولندا العظيم

في الجزء الأول من « مذكرات بادروفسكي »* الموسيقار العظيم وزعيم بولندا الذي ترامت الأنباء بأنه عاد ثانياً إلى ميدان الجهاد في سبيل الوطن.



أحدث صورة لبادروفسكي

في هذا الجزء الذي نشر حديثاً ، واشترك في وضعه بادروفسكي نفسه وإحدى صديقاته « مس ماري لاوتون » ، يتحدث الموسيقار العظيم عن طفولته فيقول : إنه بدأ حياته الموسيقية في سن الثالثة ، حيث كان يحاول وحده بدون إرشاد أي معلم أن يوقع على البيان ، حتى قيض الله له موسيقي متواضع شرع في تدريبه على النوتة الموسيقية والعزف . وفي هذه السن نفسها بينما كان يتلقى دروسه حرم من والده ، إذ حكم عليه بالسجن في ثورة سنة ١٨٩٣ .

وقد أشار بادروفسكي إلى أول حادث نبه حواسه وأيقظ فيه الشعور الوطني ، فقال : إنه كان يوم قبض على والده ، فقد حوصر المنزل بشرذمة من جنود القوزاق ، ودخل فريق منهم إلى المنزل فبعثروا ما فيه رأساً على عقب ، ولم تجد صرخاته فتيلا في تحريك عواطف هؤلاء الجنود القساة الذين جروا والده بعنف خارج المنزل ، فاستولى عليه شعور كراهية مبهم نحو هؤلاء الجنود ونحو من بعثهم ، ورأى فيهم صورة العدو الذي كافحه فيما بعد وهو روسيا ! وقد نما فيه هذا الشعور على مر الأيام وهو يعبر عنه بقوله : « لقد تأكدت أنه لا بد لي من أن أعمل شيئاً ، ويجب أن يقال إن نابتي الكبرى صارت في سن السابعة أن أكون نافعاً على أي شكل من الأشكال لوطني . ذلك الوطن الذي كان في ذلك الوقت مقسماً لا وجود له يعاني أشد الضغط . لذلك أصبح أملي أن أصبح شيئاً ما ، ذا شخصية ، وفي هذه الحالة أستطيع أن أخدم بولندا ، وكان هذا الشعور يطغى على كل إحساساتي وعواطفي نحو الفن . وقد قوّى هذه الروح الوطنية في نفسي ألعاب الأطفال التي كنا نقوم بها في البيت حيث كنا نمثل الجنود ، وهكذا سارت الموسيقى إلى جانب الجندية جنباً إلى جنب في نفسي . وهكذا بدأت حياتي » .

وقد تحدث بادروفسكي بعد ذلك عن الدور الذي لعبه في حياة بولندا والدور الذي لعبه في عالم الموسيقى فقال إنه لم ير في يوم من الأيام أي تعارض بين الروح والوطنية والنزعة الفنية ، بل على العكس من ذلك أنه مدين في كفاحه من أجل بولندا لكثير من إيحاآت الموسيقى .

* The Padrewski Memoirs : (Collins).

فى عالم التأليف

كتاب
«المملكة العربية السعودية»
للدكتور قستطين بانسيره

قرأت بمزيد السرور والابتهاج المقال الذى كتبه الأستاذ عبد الرحمن بدوى عن حياة المستشرق الإيطالى كارلو ألفونسو نالّينو ومؤلفاته ، فأثنيت أحسن ثناء على هذا الأستاذ المصرى الجليل الذى أراد بقلمه أن يحيى مرة أخرى فى الشرق شخصية زعيم المستشرقين المعاصرين .

ويسرنى الآن أن أقدم للشرقيين كتاباً له ظهر حديثاً فى روما تحت إشراف المعهد الشرقى ، وهذا الكتاب هو الجزء الأول من مجموعة مهمة .

ذلك أنه لما توفى نالّينو إلى رحمة الله فى شهر يوليه من السنة الماضية ، رأى مديرو معهد الشرق ورجاله أن أنفع شىء لتخليد ذكرى منشىء المعهد أن يوجهوا اهتمامهم لجمع كل ما كتبه الفقيد من مقالات مختلفة وأبحاث متنوعة ، سواء نشرت أم لم تنشر ، ليقدموا ما جمعوا منها إلى الطبع فى صورة مجموعة تتألف من بعض أجزاء رتّب حسب موضوع محتوياتها .

وستشتمل هذه المجموعة على ستة أجزاء تبلغ صفحاتها ثلاثة آلاف صفحة تقريباً .

الجزء الأول — المملكة العربية السعودية .

الجزء الثانى — الإسلام . الاعتقادات الدينية . علم العقائد . التصوف . الطرق .

الجزء الثالث — تاريخ الإسلام وحضاراته .

الجزء الرابع — الشريعة الاسلامية . الشرائع الشرقية .

الجزء الخامس — علم الفلك . علم النجوم . الجغرافيا .

الجزء السادس — علم اللغات . الآداب . فنون مختلفة .

ومما يجدر ذكره أن هذه المجموعة تشتمل على تآليف مهمة تركها الأستاذ نالّينو بين أوراقه الخاصة وهى لم تنشر حتى الآن ، ومنها فهرس للمخطوطات الشرقية الموجودة فى دار الكتب الملكية فى تورينو ، وبعض تعريبات فى موضوعات شتى ومحاضرات مختلفة ألقاها الأستاذ فى جامعتى روما والقاهرة وفى المعهد الشرقى فى نابولى وقت ما كان أستاذاً فيها .

وقد ظهر فى شهر يوليو الماضى بمناسبة الذكرى الأولى لوفاة نالّينو الجزء الأول من هذه المجموعة عنوانه « المملكة العربية السعودية » .

وكان الفقيد مع اطلاعه الواسع وإلمامه التام بجميع الموضوعات المتعلقة بجزيرة العرب ، اجتماعية كانت أم سياسية وتشريعية ، لم تسنح له الفرصة لزيارة تلك البلاد ، مع أنه قام برحلات وأسفار متعددة فى كثير من البلاد الشرقية كتونس والجزائر ومراكش وفلسطين وسوريا والعراق . أما فى شهر فبراير سنة ١٩٣٨ بعد انتهاء الدورة الثالثة لمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فقد عقد الأستاذ العزم فأبحر إلى الحجاز بصحبة ابنته ماريا التى كانت كثيراً ما تصحبه فى تنقلاته خارج وطنه . وبعد وصوله إلى تلك البلاد استطاع أن يشاهد مظاهر شتى من الحياة الحديثة فيها ، وأن يتشرف أثناء إقامته فى جدة بمقابلة جلالة الملك ابن السعود الذى أجازه بالقيام برحلة داخل البلاد مع ابنته ماريا . وقد قبل الأستاذ شرط تحمله نفقات تلك الرحلة ، وأن يرتدى هو وابنته الملابس العربية حتى لا يلفتا إليهما الأنظار .

نشر كتاب « المملكة العربية السعودية » بعناية الآنسة ماريا نالّينو ، ولن يفوتنا أن نذكر قبل كل شىء أن الفصل الأول من الفصول الثلاثة للكتاب هو الوحيد الذى أعده الأستاذ الكبير للطبع بعد ما كتبه كاملا بقلمه حين عاد من بلاد العرب . أما الفصلان الباقيان

فلم يترك ناللينو إلا عنوانيهما وكيفية ترتيب الأبواب فيهما، ما عدا تعليقات عديدة عن الفصل الثانى، بجانبها أبحاث وبيانات مأخوذة عن الكتب العربية المطبوعة فى هذا الموضوع.

ومما يزيد قيمة الكتاب أن الآنسة ماريا لم تقتصر على جمع ما وجدته من كل ذلك بين أوراق والدها الكريم، بل استدركت عليه فى الفصلين الأخيرين للكتاب بياناتها وتعليقاتها الخاصة التى كانت قد أخذتها وقت الإقامة فى جدة، خصوصاً فى تحدثها مع أعيان البلاد ومدة القيام بالرحلة من جدة إلى الطائف.

ينقسم كتاب «المملكة العربية السعودية» إلى ثلاثة فصول: فالأول منها يبسط فيه بالدقة النظم السياسية والادارية والتشريعية فى المملكة، فنستطيع أن نعد هذا الفصل من أهم المصادر فى موضوعه. ويليه فصل ثان يحتوى على أخبار مختلفة من دينية وقومية واقتصادية وثقافية. أما الفصل الثالث فهو عن جدة وضواحيها وعن الرحلة إلى الطائف. وهذا الفصل الأخير مكون من ثلاثة أبواب: الأول منها عنوانه «جدة وضواحيها» ويجد فيه القارئ أخباراً تاريخية عن تلك المدينة ووصفاً لبناياتها ومناظرها ومبانيها العمومية ومساجدها المختلفة وضواحيها وغير ذلك. وأما ثانى هذه الأبواب فيتناول تفاصيل الرحلة من جدة إلى الطائف عن طريق جدة — أم السلام — بحرة — وادى فاطمة — ميمونة — الجعرانة — وادى حنين — الزيمة — السيل الكبير — السيل الصغير (عكاظ) — أم الحمض — الطائف.

ورغم ما يكتنف هذه الرحلة من صعوبات جمة وطرق غير معبدة، فإن الأستاذ أتمها بنشاط الشبان، ولم تحل سنه المتقدمة بينه وبين تجشم أخطارها؛ ذلك لأنه كان يعتقد أنه برحلته هذه يقدم للثقافة ثمرة جنية مما اعتاد أن يتحفنا به فى مختلف نواحى حياته العلمية.

وأما الباب الثالث من هذا الفصل فموضوعه وصف مدينة الطائف وضواحيها ويتضمن حديثاً بسيطاً عن تاريخ تلك المدينة.

ويوجد بعد هذه الفصول الثلاثة ذيل نقلت فيه بالإيطالية نصوص القوانين والنظم الدستورية والادارية والتشريعية والمعاهدات والاتفاقات الدبلوماسية التى عقدت

مع بريطانيا العظمى وإيطاليا والمين والعراق . ويختتم هذا الكتاب بثلاثة فهارس عن أسماء الأعلام والقبائل وعن أسماء الأماكن وعن المفردات العربية والأشياء المهمة المذكورة في سياق الكلام . وفي أول الكتاب قائمة طويلة لكتب المراجع التي ورد ذكرها في صفحات المؤلف ، لا سيما في التعليقات العديدة الوافرة الموجودة تحت كل صفحة ، كما أن الكتاب مزين بصور كثيرة التقط معظمها الأستاذ نالينو نفسه .

وسيوالي المعهد إصدار الأجزاء الخمسة الباقية لهذه المجموعة المهمة التي ستخلد ذكرى نالينو .

(القاهرة) **الدكتور قسطنطين بانسيره**

على الدانوب

للأستاذ أحمد عطية الله

أخرج الأستاذ الفاضل أحمد عطية الله المفتش بوزارة المعارف كتابه الأخير (على الدانوب) يصف فيه مشاهداته في بلاد الدانوب — المجر ويوجوسلافيا وبلغاريا ورومانيا . والكتاب سلس الأسلوب رائق الوصف موضح بالصور الكثيرة ، تتخلله نظرات عميقة في سكان البلاد وعاداتهم وفي مظاهر الحياة العامة والتقاليد القومية وتاريخها ؛ وهو يقع في نحو ٤٠٠ صفحة من القطع المتوسط ومطبوع طبعاً متقناً . ويطلب من ناشره صاحب مكتبة الانجلو المصرية بشارع قصر النيل بالقاهرة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٩٩

العدد ٤٢ — الثلاثاء ٤ رمضان سنة ١٣٥٨ — ١٧ أكتوبر سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهرس

بعد خطاب هتلر

إخفاق الهجوم السلمى

لمحرر « الثقافة » السياسى

شغل الخطاب الذى ألقاه هتلر أخيراً فى الريخستاج حيزاً كبيراً من التعليقات فى مختلف البلدان ؛ ولكنا نستطيع بعد أن استعرضنا جميع هذه التعليقات أن نقول إن الخطاب لم يحدث أى أثر إيجابى .

وقبل أن يلقى هتلر خطابه بأيام ، ذاع حديث « الهجوم السلمى » الذى ترمع أن تقوم به ألمانيا لتحاول إحراز السلم ، بعد أن قضت على الدولة البولونية ، وحققت برامجها فى شرق أوربا بالاتفاق مع روسيا السوفيتية ؛ وقيل إن إيطاليا قد تقوم بدور الوساطة فى عرض مقترحات الصلح المنتظرة ؛ وصرحت الحكومة البريطانية من جانبها بأنها على استعداد لبحث أية مقترحات عملية للصلح على ضوء المقاصد والغايات التى دخلت الحرب من أجلها .

ولكن هتلر لم يوفق فى خطابه أى توفيق ، ولم يعدل شيئاً من أسلوبه المعاد الذى ألفناه منذ أعوام ؛ ولم يخفف شيئاً من غلوائه وغروره ، وتفاخره ووعيده ؛ ولم يذكر أن ألمانيا النازية تخوض الآن غمار حرب حياة أو موت

مع بريطانيا العظمى وفرنسا ؛ ولكنه تصور أنه يقف غداة انتصاره في بولونيا ، نفس الموقف الذي وقفه غداة ظفره بالاستيلاء على النمسا ، ثم بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، موقف الظافر الذي يملي إرادته وشروطه على أوربا والعالم .

والواقع أن هتلر كان يتمتع بمثل هذا المركز قبل نشوب الحرب ، وكان إلى وقوعها يقبض بيديه على مقاليد السلم والحرب ؛ ولكنه منذ آثر أن يخوض غمار الحرب ، تغير الموقف ، ولم يبق في وسعه أو من حقه أن يسيطر على سير الكارثة التي أثارها ، فيوقفها متى شاء ليفر من عواقب سياسته الاعتدائية الطائشة ؛ وأضحت الكلمة اليوم للذين أرغموا على خوض الحرب للدفاع عن التوازن في أوربا ، وانقاذها وانقاذ أنفسهم من خطر ذلك النظام الهمجي الذي شرعه هتلر ، وجعل أساسه القوة الغاشمة ، وغايته استعباد الشعوب والأمم .

وقف هتلر في الريخستاج ليبرر اعتداءه على بولونيا وتدميرها على تلك الصورة الوحشية التي أثارت اشمئزاز العالم المتمدن كله ، ووصفه بأنه نصر عسكري لم يسبق له مثيل في التاريخ ؛ وبدلا من أن يقدم مقترحات عملية للصلح الذي يتوق اليوم إلى إحرازه بكل ما وسع ، وقف ليملي شروطاً جديدة وليقدم مطالب جديدة ، ويلوح بتهديدات جديدة .

* * *

وتتلخص مقترحات هتلر أو شروطه الجديدة في مطالبة ألمانيا بالمستعمرات ، وفي ضمان سلامة أوربا بتخفيض السلاح ، وعقد مؤتمر دولي لبحث المشاكل الأوربية ، وهذا المؤتمر لا يتسنى عقده ، حسب رأيه ، إلا إذا وقفت الحرب . أما بولونيا ، فقد أكد هتلر أنه لا يسمح لأحد بالتدخل في شأنها ، وأن ألمانيا وروسيا ستقومان وحدهما بتسوية جميع المسائل المتعلقة بها ، وأما تشيكوسلوفاكيا فلم يذكر كلمة عن مصيرها .

وقد أثار خطاب هتلر في جميع البلدان ، ولاسيما انكلترا وفرنسا ، تعليقات كثيرة ، ولكنها أجمعت كلها تقريباً على أن هتلر لم يقل جديداً ، ولم يقدم مقترحات تصلح للبحث والمناقشة .

وذاعت قبل إلقاء الخطاب وبعده أنباء كثيرة عن الدور الذي يمكن أن تقوم به إيطاليا للتوسط في الصلح ؛ ولكن يلوح الآن أن إيطاليا لا تفكر في القيام بمثل هذه الخطوة ؛ وربما كانت عند إيطاليا مثل هذه النية من قبل ، وقد بذل السنيور موسوليني في الواقع قبيل نشوب الحرب جهوداً محمودة لمنع وقوعها ، ولكن جهوده اصطدمت بإصرار هتلر ونزقه واندفاعه ؛ والظاهر أنه بعد زيارة الكونت شيانو وزير الخارجية الإيطالية لبرلين ، وبعد تبين الأثر السلبي الذي منى به خطاب هتلر في انكلترا وفرنسا وفي البلدان المحايدة على السواء ، لم يبق لإيطاليا مطمع في نجاح أي مسعى يبذل في مثل هذه الظروف لوقف الحرب .

كذلك ليس يلوح أن أمريكا أو غيرها من الدول المحايدة على استعداد لأن تقوم بمثل هذه الوساطة ما دام هتلر متمسكاً بموقفه ، وما دامت السياسة النازية هي التي تسير ألمانيا بنفس الروح والأساليب القديمة . وقد أتى الرئيس روزفلت أخيراً تصريحاً قاطعاً بأنه لا يقبل الوساطة في حرب أوربية .

* * *

ثم إن إشارة هتلر في خطابه إلى إيطاليا تدل بأن علائق البلدين لم تبق على ما كانت عليه من القوة ، وبأن محور برلين رومة الشهير قد فقد كثيراً من أهميته بعد التطورات الدولية الأخيرة التي ترتبت على عقد التفاهم بين ألمانيا وروسيا السوفيتية ، والتي أدت إلى قلب الأوضاع الدولية في أوربا الوسطى وفي البلقان بصورة لا تتفق مع اتجاهات السياسة الإيطالية ولا مع مصالح إيطاليا ؛ ومما يلفت النظر أن هتلر قد خص روسيا هذه المرة بكل عطفه ومديحه ، وتحدث عن الصداقة الروسية الألمانية بحماسة في غير موضع من خطابه . أما إيطاليا شريكته القديمة في المحور وحليفة ألمانيا العسكرية ، فقد أشار إليها ضمن الدول

المحايدة إشارة عابرة ذكر فيها أنه ليس بين البلدين اختلافات إقليمية ، وأن حدودهما أصبحت نهائية .

وهذه دلالة جديدة تحمل على الاعتقاد بأن إيطاليا تبتعد شيئاً فشيئاً عن سياسة المحور الخطرة ، وتشق لنفسها طريقها الخاص ، بعيداً عن المغامرات الهتلرية ، وبأنها تجنح شيئاً فشيئاً إلى سياسة الحياد السلح ، مسترشدة قبل كل شيء بمصالحها ، ومؤمنة بأن هذه المصالح لا تحقق إلا في ظل حيدتها ، وحيدة البحر الأبيض المتوسط .

***

على أنه يبدو من جهـة أخرى أن هتلر قد بدأ يشعر بحرج المركز الذي انساق إليه ، ويشعر بنوع خاص بما تواجهه ألمـانيا من خطورة النضال الذي تشهره عليها الإمبراطورية البريطانية إلى جانب فرنسا ؛ ومهما كان في عباراته الرنانة من غرور وتفاخر ، فإنه توجد حقيقة بارزة ، هي أن هتلر يطلب الصلح من خصومه ، ويتوجه بهذا الطلب بالأخص إلى بريطانيا العظمى ؛ وهو يؤمن اليوم بما لم يرد أن يؤمن به بالأمس ، وهو أن السلام لا يمكن أن يسود أوربا إلا إذا عقدت ألمانيا السلم مع بريطانيا العظمى .

وهذا هو لب المسألة كلها ؛ فقد دخلت بريطانيا العظمى الحرب بعد أن ترددت طويلا في إعلانها ، وبعد أن أتاحت بترددها فرصاً ذهبية لهتلر ليفرض على أوربا الوسطى سلطانه ؛ ولم تدخل الحرب إلا بعد أن استنفدت كل الوسائل لاجتنابها ؛ وقد كانت الحكومة البريطانية صريحة في تحديد الغاية التي حملتها أخيراً على خوض غمار الحرب ، وهي القضاء على نظام الارهاب الذي فرضه هتلر على أوربا ، والوفاء بتعهداتها للأمم التي تعهدت بضمان استقلالها وفي مقدمتها بولونيا ؛ ويجب أن نضيف إلى ذلك أن نظام الارهاب الهتلري بما يحمله من المشاريع والمطامع الجنونية في القضاء على الامبراطوريات القديمة ، وتقسيم العالم من جديد ، وانتهاب ثروات الغير ، إنما هو خطر مباشر على بريطانيا العظمى وفرنسا ذاتهما ؛ وقد تحركت قوى فرنسا ، وقوى الامبراطورية البريطانية كلها للقضاء على هذا الخطر ؛ ومن الصعب أن نتصور ، كيف يمكن أن تقبل الدولتان الديمقراطيتان الكبيرتان صلحاً لا يحقق الغاية الجوهرية التي أرغمتا على خوض الحرب من أجلها .

وفي خطاب المسيو دالاديه رئيس الوزارة الفرنسية الذي ألقـاه رداً على خطاب هتلر ما يوضح بجلاء موقف الدولتين الديمقراطيتين من مسألة السلم الذي يطلبه المستشار الألماني ، فالمسيو دالاديه يصف هذا السلم « بأنه سلم يرمي إلى إقرار فتوحات الخداع والعنف ولن يحول دون إعداد فتوحات أخرى ، وبأن خطاب هتلر يمكن تلخيصه فيما يأتي « لقد سحقت بولونيا فلنكف إذاً عن القتال ، ولنعقد مؤتمراً لإثبات فتوحاتي وتنظيم السلام » .

وأقوال رئيس الوزارة الفرنسية قاطعة في رفض فرنسا المطلق لما يقترحه المستشار الألماني . وقد جاءت تصريحات مستر تشمبرلن باسم الحكومة البريطانية في مجلس العموم مطابقة في روحها ومبناها لتصريحات مسيو دالاديه ، فانكلترا مثل فرنسا ترفض إقرار الاعتداء ، ولا تثق بأقوال هتلر ولا تقبل سلماً لا يقوم على ضمانات عملية صريحة .

ثم إن شعور الارتياح الذي أثارته تصريحات مسيو دالاديه ومستر تشمبرلن في البلاد المحايدة يدل دلالة واضحة على أن ألمانيا الهتلرية لا تتمتع في محاولتها الخادعة بعطف ما .

والخلاصة أنه لا توجد بارقة أمل في نجاح هذه المحاولة الألمـانية لعقد صلح ما دام هتلر مصراً على إعدام بولونيا ومحوها نهائياً من خريطة أوربا ؛ ومن جهة أخرى فهناك مسألة جوهرية لا تستطيع إنكلترا وفرنسا إغفالها ، وهي مسألة الضمانات ؛ فهتلر قد دل بسياسته وتصرفاته كلها على أنه يتبع سياسة غادرة لا ذمام لها ، وأنه لا يؤتمن على عهد أو ميثاق ، وقد نقض جميع العهود والمواثيق التي قطعها ؛ وأضحى من المحقق أن السياسة المكيافيلية هي قاعدة النظام الهتلري ، التي يستمد منها وجوده وحياته ؛ وهذا أيضاً من

(البقية على الصفحة التالية)

فن الســـــرور

للأستاذ أحمد أمين

نعمة كبرى أن يمنح الإنسان القدرة على السـرور ، يستمتع به إن كانت أسبابه ، ويخلقها إن لم تكن .

يعجبنى القمر فى تقلبه هالة جميلة تشع فناً وسروراً ، وبهاءً ونوراً ، ويعجبنى الرجل أو المرأة يخلق حوله جواً مشبعاً بالغبطة والسرور ، ثم يتشربه فيشرق فى محياه ، ويلمع فى عينيه ، ويتألق فى جبينه ، ويتدفق من وجهه .

يخطئ من يظن أن أسباب السرور كلها فى الظروف الخارجية ، فيشترط ليُسرّ مالاً وبنين وصحة ؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف ، وفى الناس من يشقى فى النعيم ، ومنهم من ينعم فى الشقاء ؛ وفى الناس من لا يستطيع أن يشترى ضحكة عميقة بكل ماله وهو كثير ، وفيهم من يستطيع أن يشترى ضحكات عالية عميقة واسعة بأتفه الأثمان ، وبلا ثمن .

***

مع الأسف ألاحظ أن كمية السرور فى مصر والشرق قليلة ، كما لاحظت من قبلُ أن كمية الحب فى مصر والشرق قليلة . وليست تنقصنا الوسائل ، فجونا جميل ، وخيراتنا كثيرة ، وتكاليف الحياة هينة ، ووسائل العيش يسيرة ، ومصايب الشرق من الحرب أقل منهـا فى الغرب ؛ ومع هذا كله لا تزال كمية السرور فى الشرق أقل .

أكبر سبب لذلك فى نظرى أن الحياة فن ، والسرور كسائر شؤون الحياة فن ؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظِى به ، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقى به .

أول درس يجب أن يتعلم فى فن السرور « قوة الاحتمال » فأكبر أسباب الشقاء رخاوة النفس وانزعاجها العظيم للشيء الحقير ؛ فما إن يصاب المرء بالتافه من الأمر حتى تراه حَرِج الصدر ، لهيف القلب ، كاسف الوجه ، ناكس البصر ، تتناجى الهموم فى صدره ، وتقض مضجعه ، وتؤرق جفنه ، وهى وأكثر منها إذا حدثت لمن هو أقوى احتمالاً لم يلق لها بالاً ، ولم تحرك منه نفساً ، ونام ملء جفونه رضىَّ البال فارغ الصدر .

***

ومن أهم الأسباب فى أن أمم الغرب أقدر على السرور من أمم الشرق ، أن تاريخ الغرب الحربى متسلسل متتابع ، ومن مزايا الحروب أنها تصهر الأمم وترخص الحياة وتهوّن الموت ، وإذا رخصت الحياة وهان الموت رأيت المرء لا يعبأ بالكوارث إلا بقدر محدود ؛ وإذا كان لا يهاب الموت فأولى ألا يهاب ما عداه ، لأن كل شيء غير الموت أهون من الموت ، فكل أسرة أوربية لها رجال فقدوا فى الحرب أو أصيبوا فى الحرب أو ابتلوا بنوع من كوارث الحرب ، فعلمتهم الطبيعة التى تعادل بين الأشياء أن يتقبلوا هذه الرزايا بقوة الاحتمال ، ونشأ من هذا أنهم لا ينغصون حياتهم بذكرى الرزايا ، فأولى ألا

الأسباب التى تحمل انكلترا وفرنسا على الكفاح للقضاء على هذا النظام ؛ ومن المشكوك فيه أن تقدم الدولتان على التعاقد مرة أخرى مع حكومة تقوم على هذا النظام الغادر ، قبل التحقق من الحصول على ضمانات وثيقة تحول دون تكرار مأساة تشيكوسلوفاكيا أو بولونيا .

***

ينغصوها بتوافه الأمور .

أما أمم الشرق فقد مرّ عليهم دهر طويل لم يكونوا فيه أمماً حربية ؛ بل كانوا مستسلمين وادعين يتولى غيرهم الدفاع عن أنفسهم ، وإن حاربوا فحرب الضرورة ، وحرب الأفراد لا حرب الشعوب ؛ فاستفظعوا الموت ، وغلوا في الحرص على الحياة ، ولم يصابوا بكوارث شعبية يستعذبون معها الموت والتضحية ، وتبع ذلك رخاوة العيش وعدم القدرة على الاحتمال ، وتهويل الصغائر ، والجزع من توافه الأمور . ولا دواء لهذا إلا التربية القوية ، وبث الأخلاق الحربية .

وسبب آخر لقلة السرور في الشرق ، وهو سوء النظم الاجتماعية ، ففي كل بيت محزنة من سوء العلاقات الزوجية والعلاقات الأبوية ، وفي كل مصلحة أهلية أو حكومية مأساة من سوء العلاقات المصلحية ، وأحاديث الدرجات والعلاوات ، وعدم التعاون في حمل الأعباء ، وبناء المعاملات على الفوضى والمصادفات لا النظام والقانون .

ثم عدم القدرة على خلق أسباب السرور الاجتماعية ؛ فاجتماعات المنازل التي تبعث السرور محدودة ضيقة نادرة ، وفي كثير من الأحيان تنتهي بمنغصات ؛ والملاهي العامة إما داعرة لا ترضي الذوق السليم ، ولا ترمي إلى غرض شريف ، وإما تافهة لا يجمّلها فن ولا يرقيها ذوق ؛ ومن أجل ذلك كان أشد الناس بؤساً في الأمم الشرقية الطبقة المثقفة المهذبة التي رقي ذوقها ؛ فهي لا تكاد تجد لها ملهى يتفق وذوقها إلا بعض شرائط السينما ، وهي — على قلتها — لا تشبع رغبتهم في السرور ، ولا تكفي في تخفيف أعبائهم في الحياة .

* * *

ومع هذا كله ففي استطاعة الإنسان أن يتغلب على كل هذه المصاعب ويخلق السرور حوله . وجزء كبير من الفشل في خلق السرور يرجع إلى الفرد نفسه ، بدليل أنا نرى في الظروف الواحدة والأسرة الواحدة والأمة الواحدة من يستطيع أن يخلق من كل شيء سروراً ، وبجانبه أخوه الذي يخلق من كل شيء حزناً ؛ فالعامل الشخصي — لا شك — له دخل كبير في خلق نوع الجو الذي يتنفس منه ؛ ففي الدنيا عاملان اثنان : عامل خارجي وهو كل العالم ، وعامل داخلي وهو نفسك ، فنفسك نصف العوامل ، فاجتهد أن تكسب النصف على الأقل ؛ وإذاً فرجحان كفتها قريب الاحتمال ، بل إن النصف الآخر — وهو العالم — لا قيمة له بالنسبة إليك إلا عروره بمشاعرك ، فهي التي تلوّنه ، وتجمّله أو تقبحه ، فإذا جلوت عينيك ، وأرهفت سمعك وأعددت مشاعرك للسرور فالعالم الخارجي ينفعل مع نفسك فيكون سروراً .

إنا لنرى الناس يختلفون في القدرة على خلق السرور اختلاف مصابيح الكهرباء في القدرة على الضياء ؛ فمنهم المظلم كالمصباح المحترق ، ومنهم المضيء بقدر كمصباح النوم ، ومنهم ذو القدرة الهائلة كمصباح الحفلات ؛ فغيّر مصباحك إن ضعف واستعض عنه بمصباح قوي ينير لنفسك وللناس .

ولكن ما الوسيلة إلى ذلك ؟

مما لا شك فيه أن غلبة الحزن مرض قد ينشأ من عوامل كثيرة مختلفة ، فمن الخطأ رجوعها كلها إلى علة واحدة ؛ وإذن فمن الخطأ وضع علاج واحد للعلل كلها ، ولكن لحص كل نفس وأسباب حزنها ووضع العلاج الخاص بها لا يستطيعه إلا طبيب نفسي ماهر . أما الكاتب فلا يستطيع إلا قولا عاماً ، ووصفاً مشتركاً ، وتعرضاً للمسائل العامة .

ولعل من أهم أسباب الحزن ضيق الأفق وكثرة تفكير الإنسان في نفسه ، حتى كأنها مركز العالم ، وكأن الشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والأمة والحكومة والميزانية والسعادة والرخاء ، كلها خلقت

لشخصه ؛ فهو يقيس كل المسائل بمقياس نفسه ، ويديم التفكير فى نفسه وعلاقة العالم بها ، وهذا — من غير ريب — يوجب البؤس والحزن ، فمحال أن يجرى العالم وفق نفسه ، لأن نفسه ليست المركز ، وإنما هى نقطة حقيرة على المحيط المظلم ، فإن هو وسع أفقه ، ونظر إلى العالم الفسيح ، ونسى نفسه أحياناً ، ونسى نفسه كثيراً شعر بأن الأعباء التى ترزح تحتها نفسه ، والقيود الثقيلة التى تثقل بها نفسه ، قد خفت شيئاً فشيئاً ، وتحللت شيئاً فشيئاً . وهذا هو السبب فى أن أكثر الناس فراغاً أشدهم ضيقاً بنفسه ، لأنه يجد من زمنه ما يطيل التفكير فيها إلى درجة أن يجن بنفسه ؛ فإن هو استغرق فى عمله وفكر فى أمته وفكر فى عالمه ، كان له من ذلك لذة مزدوجة ، لذة الفكر والعمل ، ولذة نسيان النفس .

ولعل من أول دروس فن السرور أن يقبض الإنسان على زمام تفكيره فيصرفه كما يشاء ؛ فإن هو تعرض لموضوع مقبض — كأن يناقش أسرته فى أمر من الأمور المحزنة أو يجادل شريكه أو صديقه فيما يؤدى إلى الغضب — حوّل ناحية تفكيره ، وأثار مسألة أخرى سارّة ينسى بها مسألته الأولى المحزنة ؛ فإن تضايقت من حديث ميزانية البيت فتكلم فى السياسة ، وإن آلمك حديث « الكادر » فتكلم فى الجو ، وانقل تفكيرك كما تنقل بيادق الشطرنج .

وثانى الدروس أو ثالثها — لا أدرى — ألا تقدر الحياة فوق قيمتها ، فالحياة هينة ، وكل ما فيها زائل ، فاعمل الخير ما استطعت ، وافرح ما استطعت ، ولا تجمع على نفسك الألم بتوقع الشر ثم الألم بوقوعه ، فيكفى فى هذه الحياة ألم واحد للشر الواحد .

وأخيراً ، افعل ما يفعله الفنانون ، فالرجل لا يزال يتشاعر حتى يكون شاعراً ، ويتخاطب حتى يصير خطيباً ، ويتكاتب حتى يكون كاتباً ؛ فتصنع الفرح والسرور والابتسام للحياة حتى يكون التطبع طبعاً . **أحمد أمين**

التأمين على المـــوت !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

وسيأخذك العجب حين يقع بصرك على هذا العنوان، وستوجه الأمر على الخطأ، فتظن أنى أردت أن أقول : « التأمين على الحياة » ، فقلت : « التأمين على الموت » ، فبين الحياة والموت تضاد ، والتضاد من أقوى العلاقات . وقد يتبادر إليك الظن بأنى أعبث أو أمزح بقلب المعنى ، والدلالة بالنقيض على النقيض !

وإنى أؤكد لك ، ياسيدى القارئ ، أنى لم يلحقنى خطأ ، ولم يزلقنى غلط ؛ فقد تحريت هذا القول تحرياً ، وتعمدته تعمداً . وأؤكد لك ثانياً أنى لا أقصد إلى عبث ولا إلى مزاح ، فالأمر أجل من ذلك وأعظم . وستعلمن نبأه بعد حين !

فإذا استشرفت نفسك إلى علالة تبل بها الصدا ، أو لمحة (تصبيرة) تشد بها الثن حتى يأتى الوقت المقسوم للبيان ، فلا بأس على بذلك . إذاً فاعلم ، علمك الله الخير وحجب عنك المكروه ، أنه لن يطوى من الزمن طويل حتى تقوم فى مصر شركات « للتأمين على الموت » بجانب شركات « التأمين على الحياة » !

ولأول مرة تسبق مصر العالم جميعاً فى ابتكار هذا اللون من النظم المالية ، بل إنها ستستأثر بهذا النظام دون العالم جميعاً !

***

وبعد ، فلقد تعلم أن فى مصر أزمة زواج تشتد عاماً بعد عام ؛ وهذه الأزمة تنحصر فى المدن ، لم تطرق القرى والحمد لله !

ولقد زعمت فى بعض مقامات الكلام (لا أدرى أفى الراديو أم فى بعض الصحف أم فيهما كليهما) ، زعمت أن هذه الأزمة ترجع إلى أسباب عدة ، أهمها ما أصبحت تقتضى حياة الزوجية ، فى هذا العصر ، من جليل النفقات .

كانت البنت من أوساط الناس إذا تزوجت لا تكاد تجشم الزوج أو أولياءه شيئاً ، فطعامها من طعام أهل الدار ، وكسوتها إزاران وردا آن فى العام ، وما حاجتها إلى حذاء وهى حلس خدرها طوال الأيام ؟ ! إذاً فى الكوث (الشبشب) على رأى أستاذنا العلامة الشيخ مهدى خليل ؛ إذاً فى الكوث والقبقاب غنى وكفاية .

ثم إنها توفر على الأحماء أجور الخدم وسائر تكاليفهم بما تقوم به من العجن والخبز ، والطهى ، وغسل الثياب ، وكنس الأرض ، ونفض الأثاث ، وتقديم القهوة للزائرات ، وصنعها للزائرين ، وخدمة الطفل الصغار الخ !

والآن لا تحسن البنت (الحضرية) شيئاً من هذا ، وقد لا تعرفه ، وإن عرفته وأحسنته لا ترضى بأن تعالجه أنفةً وحفظاً للكرامة . ودعنا من الأنفة والكرامة ، وحدثنى بعيشك ، متى تضطلع البنت أو الزوجة (الحضرية) بهذا أو ببعضه ، ولا بد لها كل يوم من غشيان السينما وغيرها من دور التسلية والترويح ؟ ولا بد لمن يسهر الليل من أن ينام صدراً من النهار . ولقد يتصرم سائره فى الاختلاف إلى (الخياطة) ، ومتاجر الثياب والزينة ، وزيارة الأصدقاء والأتراب ، والتفرج فى المتنزهات فى صحبة الزوج أو بعض ذوى الأرحام ، واستقبال الضيفان . وناهيك بما يستهلك من الوقت بعض النهار وهبيط الليل فى التجمل والتزين ،

وتصفيف الشعر طوعاً لآخر بدعٍ (مودة) ، سواء جرى ذلك فى البيت أو فى دكان الحلاق . ولا بدّ أن يكون لقراءة (الروايات) من مساحة اليوم حظٌ غير قليل .

ثم إن هذا وهذا وهذا لقد ضاعف نفقات الزوجية أضعافاً كثيرة . فللسينما وسواها من دور التسلية أجر ، وللركوب فى الغدو والرواح أجر ، ولتنظيم شعر الرأس (Coiffure) أجر . ولا تنس تشذيب أصابع اليدين وصبغهما (Manicure) ، فلذلك كذلك أجر .

وإياك أن تسقط من الموازنة بين نفقات المعيشة اليوم ونفقاتها بالأمس ، أن تلك المخدورة فى الدار طوال الأيام فى غير حاجة إلى الاستكثار من الثياب ولا تعديد الألوان ولا الإغلاء فى الأثمان . أما سيدة اليوم وفتاته ، فإن موجبات الأناقة ، أو على التعبير العامىّ الشائع (الشياكة) لتقتضيها ألاّ تختلف عليها الأنظار وهى فى ثوب واحد ، بل لو استطاعت لاتخذت كل يوم من الثياب والأحذية جديداً ، ولبست مستحدثاً طريفاً ، بل إن من السيدات لمن تأنف أن تضع عليها من الثياب فى الليل ما وضعت بالنهار .

والحاصل أنك إذا جمعت هذه النفقات الهائلة إلى الخسارة المالية الناشئة عن هجر السيدات للقيام بتدبير المنزل ، ونفورهن من الاضطلاع بشئون البيت — تجلّى لك وجه العذر فى إعراض الشبان عن الزواج فى هذه الأيام . وكيف لهم بالمال الذى يكافئ هذه النفقات الجسام ، فوق ما تجشمهم تكاليف السكن ونفقات الطعام ؟

* * *

نعم ، لقد أعرضت عن الزواج كثرةُ الشبان الذين يجرون على عرق من التثقيف والتهذيب ، لأن مناداتهم — أو مواردهم بالتعبير الحديث — لا تفى بحاجاته الكثار الثقال فى هذا الزمان . فإذا فكر أحدهم فى تحصين نصف دينه ، اقترن هذا التفكير بالتماس الزوج ذات المال ، لتعينه عالما على شأنه ، وتضع عنه بعض حمله ، فإذا لم يكن لها مالٌ حاضرٌ تحسبه غنى الأب أو الأم وأنهما إذا لم يعينا فى الحاضر ، فنى ميراث أحدهما أو كليهما غناءٌ وشدٌّ لحق ، وعون على موالاة السير فى طريق هذه الحياة .

وإنى أعرف أن كثيرين من الشبان لم تطب نفوسهم بتوثيق عقدة الزواج إلا بعد أن أخرج لهم الأحماءُ حجج أملاكهم ، إن أطياناً زراعية ، وإن أبنية قائمة ، فاطمأنوا إلى صحتها واستيفائها لشروط عقود الملكية . وربما مضى أحدهم فى سرٍّ من أولياء الفتاة ، إلى المحكمة المختلطة ، فاستخرج الشهادات العقارية الدالة على خلو الأعيان من كل رهن أو اختصاص أو امتياز ، حتى يُقبل مطمئن (الضمير) على الزواج .

ولكن ! . . آه ولكن ! . . ولكن من ذا الذى يضمن أن تقصُر آجال هؤلاء الأحماء ، لتحق التعزية ويعجل المقدور بالرجاء ؟ وما يدرينا لعل أعمارهم تطول وتطول ، حتى يقيموا مآتم المناحات ، على البنات وأبناء البنات ؟

إذاً فينبغى أن يضاف إلى الاطمئنان على صحة عقود الملكية الاطمئنان إلى أن الرجل قد أسنّ وهرم ، وتزاحفت عليه العلل من كل جانب . ليُضمن (العريس) أن أيام حميه فى الدنيا غير ممدودة ، وأن خطاه إلى الضريح أصبحت إن شاء الله معدودة !

وإنى لأعرف رجلا واسع الغنى ، ذا وقار ودين ، له بنت أوفت على الغاية من الجمال والرشاقة وحسن الأدب . وقد أخذت بحظ من علوم العصر وفن تدبير المنزل . وأسرةُ هذا الرجل على استنارتها وقوة ثقافتها ، ما برحت تحافظ على جميع التقاليد التى تحرص عليها كل أسرة تشعر بالكرامة والاحترام فى هذه البلاد .

ويتقدم شاب موظف فى الحكومة لخطبة الفتاة . وترضى الأم ، فى سر من بعلها ، بإخراج أسانيد الملكية للخاطب ، وأنت خبير بلهفة الأمهات على تزويج البنات . وبعد (إجراء اللازم) من فحص هذه المستندات ومراجعة

وقائع المحكمة المختلطة ، والاطمئنان إلى أن (الأعيان) نظيفة لم يعلق بها شيء من الحقوق . وحينئذ صرف عنان السعي إلى تفقد صحة حميه العزيز .

وأول ما بدا له من هذا أن يجعل لإحدى خدم الدار جُعلا على أن تريه مناديل (البك) التي في طريقها إلى الغسيل . فتظاهرت الخادم بالرضا . وواعدته زماناً ومكاناً . ومضت من فورها إلى سيدتها فأخبرتها الخبر . فأشارت إليها أن افعلي ، وحذرتها مطالعة سيدها بذلك .

وما أشدّ خيبة المسكين ، إذ يبسط المناديل كلَّها ظهراً وبطناً ، ويحدّ النظر في خيوطها خيطاً خيطاً ، حتى يكاد من شدة التحديق ينقض نسجها نقضاً ، فلا يرى في أيها أثراً لدم من نفثة صدر . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وما له يأسى ؟ وما له يقنط ؟ أكُتب على الناس ألا يموتوا إلا بذات الصدر ؟ وإذا كان السل معجلا للآجال ، فلاشك في أن السكر والزلال من حبائل عزرائيل

وهنا تقوم مشكلة . فإن أخذ النماذج (العينات) من بول الرجل لتحليلها يقتضي ولا بد علمه ورضاه ، فليس للأبوال شأن المناديل .

إذاً لم يبق إلا اتخاذ الصراحة . ولا شك أن كل زواج لا تقوم وسائله على الصراحة لا خير فيه . بل قلّ أن يُكفل له بقاء .

وما كاد الرجل يُسأل في هذا حتى ثار ثائره ، وجُن جنونه . وهمّ بالبطش بالرسول ، لولا أن أسعفته ساقاه بالفرار . وأرسل (البك) في دعوة ابن أخيه غير المتعلم ، وعقد له على بنته لساعته .

***

وبعد ، فليس كلُّ الناس بقادر على أن يرغم ابنته على الزواج من قريبه ، واقفاً شأنه في الحياة ومن هوى الفتاة حيث وقع ، وليس كل الناس بقادر ، إذا طاب له ، على أن يعضل ابنته حتى تشيخ وتعنس . وليست الآجال بأيدي الخلق ، حتى يعجل الآباء الموسرون بآجالهم ، ليتقدم لبناتهم الخاطبون من شباب هذا الزمان .

إذاً لم يبق إلا حلٌّ واحد لهذه المشكلة الاجتماعية التي تعانيها مصر في هذه السنين . حلٌّ واحد يستدرج الشبان للزواج ، ولا بأس به على البنات ولا على آباء البنات . بل إنه فوق هذا وهذا ليفسّح في النظام الاقتصادي ويضيق من مساحة العُطلة في البلاد .

وهذا الحلُّ الفذُّ الذي لا حلَّ قبله ولا بعده ، هو أن تؤسس في مصر شركة أو شركات (للتأمين على الموت) تقوم بجانب شركات (التأمين على الحياة) .

وهذه شركات (التأمين على الموت) ، وقاك الله البليّات ، وعصمك من خِطبة الشباب للبُنيّات ، تجري في معاملاتها على عكس ما تجري عليه شركات (التأمين على الحياة) ، وإليك البيان :

يؤمن الشاب الخاطب على موت حميه الموسر أو حماته الموسرة بمبلغ معيّن ، يؤديه هو للشركة إذا حُمّ القضاء ، وحلّ إرث الأحماء . وذلك لقاء (قسط) شهري أو سنوي معيّن ، تؤديه الشركة للشاب المؤمَّن . وهنا (القسط) يقلّ ويكثر طوعاً لمبلغ التأمين من جهة ، وصحة الحم العزيز أو الحماة (المحبوبة) من جهة أخرى . وبهذا النظام يُكفل اليسر العاجل للشابّ ، والغنم الآجل للشركة . في حين لا يؤثر (المرحوم) أو (المرحومة) في زيف ولا صحيح ، اللهم إلا وهو ملحود في الضريح . وإن من قد دُسّ في التراب ، لفي شُغل بحساب غير هذا الحساب !

ولعلك وقد وقفت على هذا النظام المالي البديع ، في غير حاجة إلى من يزعم لك أن أحسن (زبائن) الشركة وأولاهم بالإعلاء في (الأقساط) ، وأجدرهم بعدم المبالغة في مقدار التأمين ، هم الذين شاعت فيهم الأسقامُ وألحت

(البقية على الصفحة التالية)

مشاهير السودان :

٤ - الزبير باشا فى مصر

تتمة

[إنه خلق ليحكم الناس ، ولو كان فى أوروبا إذاً لكان له شأن غير هذا الشأن ، ولترك فى تاريخها أثراً بعيداً]

«دكتور شفاينفورت»

حاول أعوان الزبير والمقربون منه ، أن يثنوه عن السفر إلى مصر ، لأنهم كانوا يحسّون فى أعماق قلوبهم أنه سفر لا أوبة بعده ، وأن الزبير لن يرى السودان بعد ذلك . وقد نفضوا إليه ما يجول بخواطرهم من شكوك وظنون ؛ ولكنه أعارهم أذناً صماء ، وأخذ يتأهب لسفر شاق ورحلة بعيدة ، ومضى من مدينة «دارة» يمم صوب مصر عن طريق الأبيض والخرطوم وبربر فأبى حمد .



مرّ الزبير «بالجبل» ، حيث عشيرته الأقربون ، فكان بهم براً رحيماً ، أفاض عليهم من نواله وبذله ما لم يدع فقراً لفقير ، ولا حاجة لذى حاجة ، حتى ساوى فقيرهم بغنيهم ! وسار بعد ذلك تحوطه حاشية كبيرة ، من جند وغلمان وجوار ، ومن حولهم بعير أوقر ظهورها بالزاد والنفائس والهدايا ، وفى نفســه دنيا من الآمال زاخرة ، تملأ جوانحه بالأمانىّ الحسان ، وبالثقة فى المستقبل ، وحسب أنه ملاق فى مصر من التقدير وحسن المكافأة على ما أبلى وأحسن فى نصرتها وإعلاء شأنها ، ورفع علمها فى رحاب السودان السحيقة ، حتى خفقت بنود مصر على طول وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، وحول خفاقه الحانية عليه ، لأول مرة فى تاريخ الكون على ما نعلم ، حسب أنه ملاق ما يلاقيه أمثاله من إعزاز وإكرام وحسن جزاء ، وأنه سيؤوب حاكماً على المديريات الاستوائية ودارفور المترامية الأطراف ، إن لم يعد

عليهم العلل ، ومن خنقتهم الذُّبحة أو أبطأهم الشّلل . فإذا كان فى البول سكّر أو زُلال ، فقد زامت المُنى وتدانت الآمال . وإذا كان مع السكر أستون (Acetone) ، فالحظ مكفول مضمون . وإذا كان فى الزُّلال سلندر (Cylinetres) ، فذلك السعد الذى لا يقدَّر . إذاً فقد حق اليسر والبسط ، وهبط التأمين وارتفع القسط . والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولو من طريق العلل والأسقام والأوصاب !

فليبتهل إلى الله من شاء من ذوى اليسار ، أن (ينعم) عليه بالعلل التى تقصف الأعمار ، حتى (يفرح) بالأكفاء الطرفاء من الأصهار ، دون أن يُوتَر فى درهم ولا دينار ، فاللهم هذا الغنى فى الدنيا وقنا فى الآخرة عذاب النار .

عبد العزيز البشرى

حاكماً عاماً على السودان بأسره ، وأنه إذا تحققت أمانيه فسيبسط العدل ، ويدقق فى النظام والادارة ، ويقلل من الضرائب والخراج ، وينشر العلم والمعرفة ، ويهتم بالمرافق العامة ، حتى يجعل من السودان بلداً قوياً فياضاً بالنعيم واليسر والرفاهية . . .

أقبل الزبير على مصر فى ١٠ يونيو سنة ١٨٧٥ ، فتشرف بمقابلة الخديوى إسمعيل باشا بقصر الجزيرة ، فرحّب به وأهّل ، وبالغ فى إكرامه ثم بالغ ، وأفرد له أحد قصوره بالعباســية ، فنزله ضيفاً هو وعائلته وأتباعه ، وقرّر له ولهم كل ما يحتاجون إليه من مؤونة وكسوة ومعاش .

تقدم الزبير إلى قهرمان الخديوى بكتاب طلىّ العبارة رقيق الحاشية ، يرجو فيه أن تساق إلى السدّة الكبرى السنية ، هديته المتواضعة التى أحضرها لعزيز مصر من السودان ، وما هى غير ألف عسكرى سودانى مدجّجين بالعدة والسلاح ، ومائة مثقال من الذهب ، ومائة أطهم من جياد الخيول العربية ، وخمسة وستين ومائة قنطار من سن الفيل المتناهية فى العظم والجودة ، وأربعة أسود ضارية ، وأربعة نمور كاسرة ، وستة عشرة ببغاء من الناطقات المُستَدرّات ، ذوات الألوان النادرة والمناقير الجميلة . فسر الخديوى من هذه الهدية المتواضعة سروراً بالغاً ، وأنهى إلى الزبير امتنانه وحبوره من هديته فى كتاب أرسله إليه قهرمانه خيرى باشا .

بقى الزبير فى قصر العباسـية حتى ٣ أغسطس سنة ١٨٧٥ ، فدعاه الخديوى إليه بقصر الجزيرة أيضاً ، وأصدر له أمره بالتأهب للسفر قريباً إلى السودان ، وكان ذلك بحضور قهرمانه خيرى باشا ، فتكلم الزبير شاكراً وداعياً ، وشرع يستعد للأوبة والرّماع . مكث يترقب الاذن وما سيؤول إليه أمره بعد رجوعه ، حتى دعاه الخديوى إليه فى ١٩ أكتوبر ســنة ١٨٧٦ ، وقال له :

« يا زبير باشا ! ! قد استصوبت بقاءك فى القاهرة فى ظل سـاحتى حتى أنظر فى أمرك » . قال الزبير : « فأدركت فى أعماق سريرتى ذلك الغرض الذى دعيت من أجله ، وتم ما كنت أتوقعه ، وما جال فى نفوس أتباعى بداره ؛ ولكن لم يكن لى سوى الطاعة والامتثال ، فقلت له : أمرك يا مولاى ! وانصرفت والأسى يهز نفسى ، ويقطع نياط قلبى » .

اندلعت بعد ذلك نيران الحرب بين الروس والدولة العلية فى سنة ١٨٧٧ ، فانتدب الزبير ضمن ضباط الحملة التى أرسلتها مصر لمعاونة الدولة العلية . وعهد إليه بقيادة فرقة خاصة به . قالوا إن الزبير قد أبلى فى هذه الحرب بلاءً جميلاً ، وإن فرقته لم ترتد على أعقابها قط ، بل كانت دوما فى طليعة المهاجين الشجعان ، والزبير على رأس جنوده يخوض بهم الحتوف ، ويجالد الأبطال ، ويصول أىّ مصال . وقالوا إنه ركن إلى إحدى حيله العجيبة فى الحرب ، فزحزح بها الروس من أماكنهم ، وأمنى بهم الهزيمة والخسران . فقد زعموه أنه أصبحهم والفجر لم ينبثق ، بخيل أوقر صهواتها بقش أضرم فيه النيران ، وساقهـا عليهم وهم فى إغفاءة الفجر ، والنار متأججة فوق ظهور الخيل ، وفرسانه من خلفها تحثها إلى الأمام ركضاً ، فدخلت فى صفوف العدو مجنونة تصهل ، ومُستَطارة ترفس ، ومتوثبة تضرب ، ومن ورائها الزبير وجنده يطعنون ويقتلون ، فوقع الهرج فى صفوف الروس ، ولاذوا بالفرار ، وتلاحقت جيوش المصريين والأتراك بالزبير وفرقته ، وطاردوهم حتى أجلوهم عن مواقعهم ، وكفل لهم فى تلك الوقعة الضروس الفوز والانتصار ؛ وأنعم على الزبير فى هذه الحرب برتبة فريق ، وببعض الأوسمة الرفيعة .

رجع الزبير بعد تلك الحرب ، وباويحه ، إلى مصر ، يؤمل أن تشمله نفحات الجناب العالى وعطفه ، فيأذن له بالرجوع إلى السودان . ولكنه فى سنة ١٨٧٩ وافاه خبر

مقتل ابنه سليمان الزبير على يد رجبي باشا الطلياني ، بأمر غردون ، مُتهماً بالتمرد والعصيان . وكان سليمان من أحب أبنائه العديدين إليه ، وأقربهم إلى نفسه . زكّاه أخضَوْضَر الشباب ، مكتمل الرجولة ، تلاوحه مخايل الزكانة والسداد . فحزن عليه حزناً بالغاً وبكاه بالدمع السخين ، ومضت ذكراه وما انتهى إليه أمره ، تمثل له بكل سبيل ، وأيقن بعدها أنه الأسير الذي لا يفك سراحه ، وأنه سيبقى حبيس القاهرة .

ثم مشت الأيام ، وقامت الثورة المهدية ، فانتدبته الحكومة المصرية للسفر إلى سواكن سنة ١٨٨٣ لمقاتلة عثمان دقنه ، ولفتح الطريق بين سواكن وبربر ، ثم بين بربر والخرطوم . فحشد الآلاف من الجنود السودانيين ، وعسكر بهم في السويس ، ولكنه علم أنه سيكون تحت إمرة بيكر باشا فامتنع عن الذهاب . أبَتْ الزبير في نفسه أمراً ، وخاف أن تموقه وَمْسة بيكر باشا Baker عن تنفيذه ؟ ؟ أم أن كبرياءه كقائد ومحارب ، أبت عليه أن يعمل مرؤوساً لا رئيساً ؟ ؟ أما مآل بيكر وجنده ، فقد أبادتهم جيوش عثمان دقنه ، تلك الإبادة التي أنطقت شاعر الامبراطورية البريطانية رايدر كبلنج بقصيدته الرائعة : « ذوو الشَّعَر fuzzy wuzzy » .

اشتدت الثورة ، وانتدب غردون[١] لاخلاء السودان ، فلما أعيته الحيل ، وتخاطفه الثوار من كل جانب ، وبي بصره ، وعجم الرجال ، فلم يجد سوى الزبير رجلا نهداً يصلح لمعاونته وإنقاذ الموقف ، وراح يكتب إلى سير بارنج (لورد كرومر) يستحثه على إرسال الزبير . وفي مذكرات غردون صرخات متجاوبات بطلب الزبير من الحكومتين الانجليزية والمصرية . فلما وافقتا على إرساله ، تحت ضغط الظروف ، واشتداد المحنة ، وطول الغيبات ، ثارت ثائرة جمعية إبطال تجارة الرقيق كل مثار . وشنتها غارة كلامية في الصحف ، وفي أروقة البرلمان الانجليزي تنادى بالثبور والويلات . وحسبت أن الزبير إذا عاد إلى السودان عادت تجارة الرقيق في أعقابه إلى النمو والازدهار ، وضاعت سدى محاولات الانسانيين ، كما كانوا يدعون ، في وقف تلك التجارة المقوتة . أخذ غردون يكاتب سير بارنج ويبرق لوزارة الخارجية البريطانية ، متهكماً ساخراً : « إذا كنتم تخافون الزبير لأنه ملك تجار الرقيق ، فان المهدى أعظم منه في هذه التجارة شأناً » ، وانتصر الانسانيون . . . . . . وبقى الزبير في مصر .

أتراجعت وزارة الخارجية عن الموافقة على إرسال الزبير تحت حملة الإنسانيين ، أم أن وزارة غلادستون كانت كما قال صاحب كتاب « لماذا قُتِل[١] غردون » ، تريد أن يتسع الخرق المراتق ، وأن يسقط السودان ، وتلتهم الثورة فيمن تلتهم غردون بذاته ، ويتجدد السعي بأخذ ثاراته ، فتأخذ نصيبها في فتح السودان ؟ ؟ أكانوا يقدرون أن الزبير إذا فعل أدراجه استطاع ، وهو حُوَّل ، قريع تجاريب ، ورَبيبُ حروبٍ ، أن يخمد الثورة في مهدها ، وبذلك يضيع ما كانت تحوكه وزارة الخارجية البريطانية ؟ ؟ إن هذه النقطة قد أجلاها ذلك الكاتب بكل مقنع ودليل . ومهما يكن من شيء فقد اجتمعت العوامل جميعها على أن يبقى الزبير في مصر ، وأن يَسْدر التاريخ اطّبته ، وأن يسقط السودان في قبضة المهدى ، وأن يقتل غردون في حصار الخرطوم ، وأن ترجع انجلترا مرة أخرى تلبية لصرخات الشعب المطالب بدم غردون ، إلى الاشتراك في فتح السودان ، وفي إدارته مقاسمة سنة ١٨٩٩ ، وفي السيطرة عليه مشاركة في سنة ١٩٣٦ .

(١) رشحت الحكومة البريطانية غردون ليقوم بمهمة إخلاء السودان ، ووافقت الحكومة المصرية على ذلك ، وأصبح غردون حاكماً عاماً على السودان ، ومنذ ذلك اليوم بدأ تقليد تعيين حاكم السودان العام على هذه الطريقة ، وأقرته معاهدتا سنة ١٨٩٩ ومعاهدة سنة ١٩٣٦ ، وجرى به العمل .

(١) Why Gordon Perished ? صاحب هذا الكتاب مؤلف أخفى اسمه . وكان من معارضي وزارة غلادستون . وقد دلل على ما أورده بالوثائق الرسمية . وهو كتاب ممتع جدير بالقراءة والنظر .

نشط الكاشحون مرة أخرى ، حين أبى الزبير أن يسافر إلى السودان تحت إمرة بيكر باشا ، وحين دارت مسألة إخلاء السودان على طرف كل لسان ، وهمسوا لولاة الأمور ، بأن بين الزبير وبين المهدى مكاتبات واتفاقاً على أن يهرب الزبير إليه ، ليشاركه فى الثورة والقيادة ، حتى يتم على أيديهما استقلال السودان . ونسى السامعون أن الزبير والمهدى ، عقليتان مختلفتان ، ونفسيتان متباينتان ، ولا يمكن اجتماعهما على أمر وغاية . وقد أفلح الواشون ، فهجم البوليس على دار الزبير فى جنح الظلام وفتشوها ، وأخذوا أوراقه وحققوا معه ، ولكنهم لم يجدوا شيئاً ضده . ونشط الواشون أخرى ، فإذا الزبير المنفىُّ المعتقلُ فى جبل طارق . بقاها ثلاثين شهراً ، ثم عاد أدراجه حين انجلت الغشاوة وتبين لذوى الشأن أنه البرىء المتهم .

اتهم الزبير إذاً : (١) بأنه ملك تجار الرقيق . (٢) وأنه أراد الاستقلال بالسودان . (٣) وأنه حرض ابنه على الثورة . وقد كانت هذه الاتهامات سبباً فى عدم الإذن له بالرجوع إلى بلاده .

(١) أما أنه ملك تجار الرقيق ، وأكبر من اشتغل بهذه التجارة الزرية فى السودان ، فأمر بعيد عن الصحة والصواب . كان الزبير تاجراً عمل فى بحر الغزال وتخوم دارفور يقايض التافه مما كان يروق فى أعين السكان من خرز وغيره ، بحاصلات تلك البلاد كالريش وسن الفيل . ثم لما اتسعت تجارته أخذ يشترى المجرمين من أهل تلك البلاد الذين كانت شرائع بلادهم تعرضهم فى السوق رقيقاً ، جزاء ما يقترفونه من جرم وآثام — كما بينا فى المقالات السالفة — فلما كثر عددهم لديه كون منهم جيشه الجرار ، ليحمى بهم تجارته ، ويذود العدوان عن نفسه ، ويدافع عن أعوانه وأتباعه من التجار العرب . وكان لا بد من التلاحم والاصطدام بينه وبين المغيرين من أهل البلاد ؛ فنشأت بينهم الحروب ، وانتصر عليهم ، ودانت له بذلك بلادهم . فالزبير إذاً لم يشتر غلمانه ليبيعهم فى السوق كالسلع والمتاع ، ثم يسوقهم إلى البلاد الأخرى عبيداً وأرقاء ، ولكنه اشتراهم ليكونوا جنداً ، حتى يكوّن بهم جيشاً لا يتمرد عليه . وكان يعاملهم كما أمر الإسلام أن يعامل به أمثالهم ، بل قد تبنّى الكثيرين ممن أظهروا له حسن الولاء ومحمود الخدمة . فأحبوه وساروا فى ركابه لا يعصون له أمراً ، ولا يردون له كلمة . ولكنّ الكتاب الأوربيين أمثال شفاينفورت ، وسير صموئيل بيكر وغيرهم ، قد خلطوا بين الغايتين ، غاية الزبير فى شرائهم ثم فى تجنيدهم . وتوجوه فى دنيا الوهم والالتباس ملكاً وضعوا فوق مفرقه التاج ، وسودوه على تجار الرقيق ممن كانوا يرودون أصقاع الجنوب فى السودان ، يغزون ويأسرون ، ثم يسترقون ويبيعون .

(٢) وأما أنه أراد الاستقلال بالسودان ، فتلك فرية أثارها حسد اسماعيل باشا أيوب ، حين تسابقا فى فتح دارفور ، فجلى عليه الزبير ، إحكامَ وسيلةٍ ، وسرعةَ عمل ، وعبقرى خطط ، ولم يكن له عدة يتغلب بها على الأعداء ، ووعورة الطريق غير سيفه ورمحه وقوة جنانه ، فدسها عليه اسماعيل أيوب لدى الخديوى ، وحسبوه مُيسراً بالعصيان أمره .

ثم إن الباشوات الأتراك خافوا أن الزبير إذا رجع إلى السودان مرضياً عنه ، فقد يرجع حاكماً على المديريات التى افتتحها ، وقد يشق العصا ، ويستقل بالبلاد ، ويكبد الحكومة كثيراً من النصب والمشقات ، وقد يدفعه زهو البطولة ودلها ، إلى الزحف على بقية أرجاء السودان ، فينتصر عليها ويسلخها من دائرة الامبراطورية المصرية . فإن فعل ، أو إن نصّبه الخديوى حاكماً عاماً على السودان ، أفلت ذلك المنصب الرفيع من أيديهم ، وقد كان فيما مضى وقفاً على الخاصة والمقربين من أولئك الباشوات . فكان

موضع مساومة ورشوة وتنافس بين طلاب المال والثراء ، وفي ضياعه منهم ، ضياع لمعين لا ينضب من الثراء المحقق والغنى المؤكد . فتألب كل حاسد وطامع من أولئك على نسج الأباطيل وحوكها حول الزبير ، واتهموه زوراً بأنه يسر في أغوار نفسه غاية الاستقلال بالسودان .

كان الزبير في سداد رأيه ، وبعد نظره ، يدرك ما قد يجره حسد الحاسدين ، وغيرة الأنداد . فأجلى موقفه من هذه المسألة ، حين كتب إلى اسمعيل باشا أيوب ، وهو بمحارب الرزيقات : « أن يرسل من يتولى حكومة البلاد التي افتتحها في بحر الغزال وتخوم دارفور بالنيابة عن خديوي مصر ، فإذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد ، عدت إلى تجارتي ، تاركا كل ما أنفقت من الأموال في الفتح هدية لحكومتي السنية ، وانتظرت مكافأتها الأدبية حسبما تقتضيه عدالتها وكرمها » ، فالزبير لم يخفر العهد ، ولم يغدر بالوفاء ، ولم يخف في سريرته غير الإخلاص والولاء .

(٣) أما أنه حرض ابنه سليمان على الثورة ، فغريبة منشؤها ، أن الزبير حين أجبر على الإقامة بمصر ، ذهب المتخرصون إلى غردون ، وكان وقتئذ حاكما على المديريات الاستوائية ودارفور ، يقولون له إن الزبير قد أوصى ابنه على التمرد ، فصدقها غردون ، وطلب من سليمان أن يسرح جنده ففعل . وكافأه على الإذعان لأوامره بالرتبة الثانية مع لقب بك ، وولاه على مديرية بحر الغزال . وكان الزبير قد خلف إدريس بن أبتر أحد أتباعه حين ذهب لافتتاح دارفور ، ليدير بالنيابة عنه شؤون تجارته . فلما وافاه سليمان بك بعد تلك الأحداث وحاسبه ، ألفاه قد خان ما بيديه ، وبدد الأموال . وخاف أبتر أن يحاكمه سليمان ففر إلى غردون ، وأوغر صدره ضده ، وكان غردون رجلا مشياعاً ، يرهف أذنيه لكل هامس بالنميمة ، فعزل سليمان ، وولى إدريس أبتر مكانه . وامتنع سليمان عن تسليم الحكم له ، وتقاتلا فانتصر سليمان عليه ، وقتل أخاه ورجاله ، واستعصم بتخوم دارفور ، وكتب إلى غردون يخبره جلية الأمر ، ويعلمه أنه غير عاص ، ولكنه لا يستطيع أن يستسلم إلى من كان تابعاً له ولأبيه ، وأنه مستعد أن يمتثل لأوامره ، إذا ولى رجلا غير أبتر . ولكن غردون أعاره أذناً صماء .

سمع الزبير في مصر بكل ذلك فكتب إلى ابنه يقول من كتاب طويل ، كله نصح وإرشاد : « واعلم يا ولدي ، أن من قد ربي مثلكم في كنف الحكومة أباً عن جد ، وتشرف برتبها وانعاماتها ، لا يجدر به إلا الطاعة والامتثال لأوامرها . لا سيما وأنتم تعلمون أن (الحكومة[1] عالية ويدها طائلة) وقد طالما قاومتها الجيوش ، ورجعت منها خائبة ، فما الذي زين لكم هذه الوساوس الشيطانية ، فإن كانت من رأيكم فاطرحوها جانباً ، لأنها تلقيكم في المهالك ولا تفيدكم شيئاً ، وإن كانت من تغرير المفسدين بقولهم إن الحكومة قد حجزت على والدكم ، في القاهرة ، أو أنها قتلته ، فاعلموا أنه قول كذب لا أثر للصحة فيه ؛ لأننا والحمد لله لم نزل على قيد الحياة مشمولين بإنعام الحضرة الخديوية الفخيمة ، ومقيمين في ضيافتها على أتم الراحة والأمان ، نحن وجميع أتباعنا ، ولا نجد من لدن الجناب العالي الخديوي وجميع رجاله الفخام إلا التجلة والاكرام . فارجعوا إلى رشدكم ، وعودوا إلى الطاعة ، واذكروا أمر الله تعالى في كتابه العزيز بقوله : « أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم » ، فإذا عصيتم فماذا يكون جوابكم يوم العرض ، وكيف يكون الخلاص ؟؟ .

« ثم اعلم يا ولدي أن تماديكم في العصيان يضر بمركزي الأدبي هنا ، كما يضر بكم هناك ، ويجلب عليكم سخط الله والحكومة ، فحافظوا على كرامتكم وكرامتي ، واستوعبوا الآن وصيتي . وقد أرسلت لكم كتابي هذا مع آدم محمد ، ليثبت لكم صحة قولي ، ويعيد عليكم وصيتي

(١) مثل سوداني .

شفاهاً ، فعند وصوله إليكم اذهبوا معه لمقابلة غردون باشا الحكمدار ، في الخرطوم أو في دارفور ، وأنا أعلم أنه حالاً يراكم يصفح عنكم ، ويحسن معاملتكم ، لأن شرف بريطانيا العظمى ، وكرم سجيته ، يوجبان عليه ذلك ، لا سيما وإني أوصيته بكم عند سفره من مصر فوعدني خيراً . تولاكم الله وهداكم إلى سواء السبيل » .

استمع سليمان لكتاب أبيه حين تناهى إليه ، فامتثل واستمع غردون إلى الوشاية فصدق بها . وأقبل سليمان نحو غردون طائعاً ، وأرسل غردون جسي نحو سليمان غازيا ، فلما دعاه جسي لبى نداءه وأقدم عليه . فأسره في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٩ ، ورماه هو وثمانية من أقاربه بعد يوم من تسليمهم بالرصاص .

فمن هذا الخطاب ، ومن الملابسات التي أحاطت ظروف سليمان جميعها ، يتضح أن الزبير لم يحرض ابنه على الثورة ولم يتمرد ابنه لأن أباه بقي أسير القاهرة ، ولكن لذلك الخلاف الذي وقع بينه وبين ادريس أبتر ، واستماع غردون إلى السعاية والوشايات قد دفعه إلى العصيان الأول . وأرثت همسات الواشين والحساد في غردون وجسي مرة أخرى فتخلصا من سليمان وأتباعه .

بكى الزبير سليمان ، وما فقده من مال وتجارة ومجد . وقد التقى الزبير بغردون حين استدعى لإخلاء السودان في سنة ١٨٨٤ بمنزل سير أفلن بارنج بحضور سير أفلن وود سردار الجيش المصري ، ونوبار باشا . فسأله عن سبب مصادرة أمواله ، وقتل ابنه سليمان ، فوجده مقتنعاً بأنه راسل ابنه وحرضه على العصيان . وطالبه الزبير بالدليل فلم يقو عليه غردون . وساجله الحجة والقول فانتصر عليه ، وهكذا طُلّ دم سليمان ، وصودرت أموال أبيه . فالزبير قد كان بريئاً من كل ما ألصق به . لم يكن ملك تجار الرقيق ، ولم يرد الاستقلال بالسودان ، ولم يحرض ابنه على الثورة ، ولكنه ظُلم وأهدر حقه على همسات الواشين والطامعين .

* * *

سكن الزبير حلوان ، ولا تزال داره قائمة إلى اليوم ، آلت إلى أحد الوزراء السابقين ، وقد كانت مورد العافين وذوي الحاجة . وكان الزبير سمحاً متلافاً ، لا يبقى على شيء ، بل يبدد أمواله على البر والبذل وإغاثة الملهوف ، وكل طارق مُرْمِل . وأجرت الحكومة المصرية عليه راتباً شهرياً قدره ٢٨٩ جنيها ، ولكنه لم يك يكفيه مؤونة العيش ، ولا سد عوز المحتاجين . وقد زعموا أن الخديوي السابق ، كان يوافيه كلما سمع بخصاصته وحاجته إلى المال بما ييسر عسره . وفي دار الزبير كان يلتقي العلماء ، والأدباء ، ورجال الجيش ، والحكم . وكان محباً للعلم طبع بعض الكتب الدينية على نفقته الخاصة في لندن ، وكان يجزل العطاء على الشعراء الذين مدحوه في مصر والسودان .

أخذ الزبير يطالب الحكومة المصرية أثناء إقامته بمصر بما أنفقه في فتوحاته ، وما فقده هو وابنه من مال ومتاع ، فلم تعره الحكومة بالاً . ثم أوكل عنه سر ماريوت المحامي الانجليزي لدى حكومته ، لعلها بعد أن هيمنت على الإدارة في مصر والسودان أيام الاحتلال ، أن ترد عليه ما بذل وأنفق ، ولكنها أيضاً لم تعر لمطالبه وزناً .

طالت بالزبير أيام النوى والفراق عن السودان ، ومشت الشيخوخة إليه ، وألح في طلب الرحيل ، فأجيب إلى سؤله . ورحل إلى السودان شيخاً متهدماً لا يخشى بأسه ، ولا تخاف عواقبه . وابتنى له داراً في أم درمان وأخرى بالجيلي . وعاش قريراً بين ذويه وأقاربه ، وأبنائه الكثر ، يعطي ويمنح ، ويساعد ويتفضل ، محموداً من الجميع ، محفوفاً بين الإجلال والتقدير من الجميع . وأحاط الناس سيرته بالعديد من الأقاصيص والخرافات ، حتى وافته منيته في السادس من يناير سنة ١٩١٣ ، وقد أناف على الثالثة والثمانين .

هنالك في قرية الجيلي ، القائمة على سيف النيل ، وأشجار الأراك الباسقة النضرة ، تحتاطها من كل صوب ،

نرى الرجل الصالح الذى خرج من قريته رجلا من الدهماء ، وآب إليها تكتنفه على مدى الليالى شهرة طبقت الآفاق ، ضرب بها المثل فى الشجاعة والإقدام ، والكرم والوفاء .

لقد جرى النيل ، وحاول الفراعنة والفرس والإغريق والرومان والعرب ، أن يكتشفوا مجاهله وأن يجعلوا من واديه مملكة واحدة ، فقصرت محاولاتهم دون الوصول إلى ما يبتغون ، ولكن النيل قد شاهد لأول مرة فى التاريخ ، وفى عهد اسمعيل فقط ، أحلام القياصرة والسلاطين تتحقق فى جنبات واديه . فخضع من منبعه إلى مصبه إلى سيطرة علم واحد ، وملك واحد ، وحكم واحد . ثم طوى الزمن تلك البنود ، وتقاسمته بنود أخرى . أحقاً أن التاريخ يعيد نفسه ؟؟ أيمكن أن يدور الزمن دورته فيرجع شأن وادى النيل كما كان فى عهد اسمعيل ؟؟ أم أن النيل إله الأقدمين — وقد دالت عبادة الأرباب عن الأرض — رضى أن يخضع فى تحدره لسلطة أعلام كثر ، متعددة الأجناس والألوان ، أشبه ما تكون بأزاهير شطآنه القشب ؟؟ أتراه كذلك ؟؟!!

ومهما يكن من شىء ، فقد اتسعت رقعة الإمبراطورية المصرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وامتدت شمالاً من الإسكندرية ، إلى البحيرات الاستوائية جنوباً . ومن مصوع وهرر وزيلع على البحر الأحمر شرقاً ، إلى دارفور وتخوم ودّاى غرباً . وقد ساهم فى بنائها المصريون والسودانيون ، وكان للزبير باشا أكبر نصيب فى فتح حدودها الغربية والجنوبية ، والجنوبية الغربية . فاستقرت وامتدت . ثم تقلصت وانكمشت . رحم الله الزبير باشا فقد كان أمة وحده .

توفيق أحمد البكرى

النرڤانا

تواعدنا على اللقاء بجوار كنيسة « سان سرڤان » بالحي اللاتيني ، ونفسي لا تزال تدوّي بنغمات « بتهوڤن » وإن لم أجد في نغماته — ذلك اليوم — ما ألفت من بسط لحسي . وهنالك الأمر إذ استعصت نفسي عن الرجوع إلى عناصر الطبيعة التي يستأنسها ذلك الفنان لقوة ما يأخذها به من ثورة واستسلام .

أذكر أنني لم أستطع لساعتي أن أصور لك ما كنت فيه ، فلو أني فعلت لما أصبت منك أذناً مصغية ، إذ إدراكك الباطني كان قد سبق إلى شق الحجب عن وجداني .

وسرنا إلى زقاق « القطة الصائدة » — وما أظنك إلا ذاكرة إياه — وهنالك وسط الظلام الذي لم يتخلله من ضوء إلا المختلس ، انفض فمي عن « النرڤانا » .

أخبرتك عن كيفية دخولي إليها ، ومن عجب أن ألجها على يد شاعر :

النرڤانا هي جنة بوذا ، يدخلها الناس وهم أحياء بعد طريق طويل يؤدي إليها ، على طول هذا الطريق يتعين على السالك أن يخلف عند كل مرحلة بعضاً من نفسه ، وهو يُثري بقدر ما يُنفق ، وما ذلك البعض إلا أهواء وآمال تثقل تلك النفس فتُقعدها عن الجلد على مشقة السبيل .

وانتفضت كالطير الصغير يُسقط عن زغبه النّدى عند انبعاث الضوء من جوف الماء ، ورنا إليّ منك طرف أفصح دلالة من رنين البلور يصيبه شق خفيف .

نعم ، ولجتها على يد شاعر ، وشاعر ممن يحملون قلوبهم بأيديهم وإن نضحت دماً . ولجتها على يد « موريس مياجر » .

أرجو منك المعذرة ، فما اختلست منك شيئاً ، والعهد لا زال قائماً بيننا على قسم ما نصيب بالعدل ، وإنما ساقتني إليه قدماي في ذات مساء ، وفي النفس فراغ تعصف به رياح الندم ، وقد أنهكتك في كل سبيل ، كالثمل يتحسس مأواه في ظلام الليل .

والقارئ لا شك سائلي : ولماذا انتظرت زقاق « القطة الصائدة » ؟

هنالك على ضفاف السين بالحي اللاتيني زقاق صغير لا يكاد يمر به رجلان جنباً إلى جنب ، حسبه الناس مأوى لقطة تغادره التماساً للصيد بالنهر ، فأسموه « القطة الصائدة » .

إلى هذا الزقاق وما جاوره أوت نفوس كبيرة نازحة عن بلادها عند ما تقلب لها الدهر ، والناس يذكرون بلدة ڤلمي على حدود فرنسا ، تلك البلدة التي ردت عنها جيوش الثورة الفرنسية صدمات أشراف فرنسا ، وقد جمعوا جموعهم إلى أعداء بلدهم ليعودوا إلى بسط طغيانهم بالبلاد من جديد . في تلك البلدة وقف ذات يوم « جوته » وأشار بيمينه إلى فرنسا قائلا : « هنا تبدأ بلاد الحرية » .

زقاق « القطة الصائدة » هو محط اللاجئين السياسيين وعنهم كتبت كاتبة مجرية رواية تحمل اسم الزقاق ، كان لها في العالم المتمدن دوي الجيوش الفاتحة .

لست أكذبك أني ما مررت بالزقاق إلا وتسرب إليّ الشك فيما قاله شيشرون من أنه يفضل أن يكون الأول ببلدته عن أن يكون الأخير بروما .

ذلك أن أولية يريق لها الانسان ماء وجهه ، لأحق أن يفضل عليها الموت ، لا هجران الوطن فحسب .

وتساءلت من هذا الحدث الجديد في حياتي ، وأحداثها متلاحقة تلاحق ذرات اليم ، وأبى حسك الصادق إلا أن

يرى فى تلهق إلى الترقانا ضرباً جديداً من نفسية بوفارى .

« مدام بوفارى » رواية لفلوبير Flaubert .

هنالك على ضفاف السين بقرب مدينة روان حججت إلى بيت صغير أوى إليه فلوبير ربع قرن ، ولا تزال ممشاته خلف البيت قائمة يظللها صفصافه . فى تلك المشاة كان يسير فلوبير جيئة وذهاباً يصيح بجمله الحماساً لوقع قوافيها فى نفسه ؛ وظل ينقض ما ينسج خمس سنوات إلى أن انتهى من بوفارى ، وأما ما فعله بتلك السيدة البائسة ، فيستطيع القارىء أن يجده فى الصفحة الأولى لكثير من طبعات الرواية .

على تلك الصفحة سيرى القارىء فلوبير وقد ضمر جسمه حتى لم يعد إلا رأساً ، ولقد كان الرجل هيكل العمالقة ، وإلى جانب هذا الرأس الضخم سيجد يداً صغيرة ممسكة بمشرط وبالمشرط قلب يقطر منه الدم نقطة نقطة .

هذا ما فعله فلوبير : شرّح قلب مدام بوفارى .

أتذكرين يوم التمسنا معنى لتلك الرواية فأغرقنا المانى .

فى ذات يوم كنت أقلب صفحات أدبية لبول بورجيه فعثرت بمقال عن نفسية بوفارى ، وقد وضع له عنواناً « طلب المطلق مع الإيمان بالعدم » .

نشأت مدام بوفارى بالريف ، وساقتها الصدف إلى لمح حياة ناعمة لا عهد لها بها فتلهفت إليها ؛ وكان زوجها رجلا ساذجاً ممن لا تحمل لهم النساء إلا مودة ورحمة ؛ والتمست سيدتنا ما يرضى تلهفها . عثرت أول الأمر بشاب أغواها منه عبثه بملامس البيانو ، فوهمت أن السماء ستفتح لها أبوابها ، وأمسكت بها عفة الطبع عن الهوى ، واستخذى الشاب عن أن يمد إليها من الغواية سبباً ، حتى انتهى بها الأمر إلى السقوط بين مخالب « أودلف » سيد الناحية ، وعند غروب شمس امتطى كلٌّ جواداً إلى جوف غابة مجاورة . هنالك نزلا إلى الحشائش المنبسطة وقد تآمرت الطبيعة مع أودلف ، والرجل واع لما يفعل ، فما كان عند الأولى من فريسانه . هنا يبدأ فلوبير وصف تآمر الطبيعة بالقطعة الخالدة « وامتدت الطبيعة حولها ساكنة ناعمة » . سقطت بوفارى وتمادت فى سقوطها إلى أن ذابت فى أودلف كما يقولون ، وساقها سذاجتها إلى طلب المطلق ، فرغبت إلى حبيبها أن ينفرد بها وتنفرد به فى بلاد نائية . خدعها الرجل ، فرسخ فى وجدانها إيمان قوى بالعدم لو أنطقه فلوبير لما وجد خيراً من قول « كوهيلت » بالكتاب المقدس « الكل باطل وقبض الريح » . واستمرت بوفارى فى المرور من رجل إلى رجل إلى أن أسلمها الجميع إلى الموت فلجأت إليه طائعة مكرهة .

« طلب المطلق مع الإيمان بالعدم » نوع من فلسفة النفوس يسمونه هنالك « النفسية البوفارية » .

أقسم لك أن هذا الشعور لم يكن شعورى يوم عقدت العزم على التماس « الترقانا » .

وكيف ينعقد القياس وكنت إلى جوارك .

تعالى اليوم ضعى يدك المقدسة على قلبى الجريح .

لست أدرى أى سبيل أسلك وما أنت بجوارى تهديني سواء السبيل .

أأرمى عن نفسى بعض أثقالها ، كالربان عصفت به ريح عاتية ؟ أم أسوق الجرأة إلى مداها فأبسط يدى من جديد إلى شاعرنا يهديني إلى رقائقه المقدسة ؟

ولكنى عاهدتك — وقلبى لا يعرف الحنث — أن أشق سبيلى . سأقى بعهدى ، ولتوضيح منهجى سأقص عليك أسطورة قديمة لم أجسر على ذكرها من قبل حتى لا أبدد ما كنا فيه من حجب الشعر .

يحكى — أيها الملاك الطاهر — أنه فى قديم الزمان كان ببلاد اليونان عملاق شديد البطش اسمه « أنثيه » . أمه كانت « دمتير » إلاهة الأرض أو بالأصح أم الأرض ، إذ معنى اللفظ تركيباً هو هذا ؛ من أمه كان يستمد قوته

ما استوثقت قدمه منها . واشتد فتك العملاق بالناس ، فسعوا إلى « هرقل » البطل المعروف ليتقدم من شره بعد أن قضى على كل من استهدف له .

« هرقل » ابن الاله « زيس » كبير الآلهة ، وإن تكن أمه امرأة كسائر النساء . هرع « هرقل » إلى أبيه يلتمس نصحه ، فنصحه والده بأن يبدأ هجومه على « أنتيه » برفعه له عن الأرض حتى لا تستطيع أمه أن تمده بقوتها ، وفعلا انطلق البطل إلى خصمه ورفعه وقضى عليه .

من هذه الأسطورة سأتخذ لي درساً . سأستوثق دائماً من الأرض حتى لا يقصمني أحد . وما ذلك بمانعي إن خلوت إليك أن أعود فأبسط جناحي .

وعندي بعد ذلك ذخيرة أخرى منحني إياها أستاذ لي ، لا يستطيع إلا أن يحبني ولو غضب مني يقول فيها : « إن الضرب في الأساس خير من الخبط على الرأس » .

وأنت بعد ذلك لاشك سائلتي — وعهدي بك مفتوحة النفس — كيف ولد « هرقل » إلى «زيس» و « زيس» إله وأمه بشر .

والأمر هين يا عزيزتي فاليوناني غير المسيحي .

عند المسيحي أن الله خلق الإنسان على صورته ، وأما عند اليوناني فالإنسان هو الذي خلق إلهه على صورته ، فللإله اليوناني كل صفات البشر ضعفاً وقوة ؛ وإذاً فأي غرابة في أن يهوى « زيس » « ألكمن » وأن تلد له هذه نصف إله ؟

أتذكرين يوم ذهبنا سوياً نستمع إلى الأستاذ « بندا » يحاضر الناس عن ضرورة خلق « أبطال وأساطير » لتستقيم لهم الحياة .

هذا ما أنا فاعل فسأستوثق بادئ ذي بدء من الأرض ، فإذا خلوت إلى نفسي خلقت حولي أساطير أنجو إليها من خسائس تلك الحياة .

هكذا كان يفعل اليونان ، وهم عندي أحكم من الهنود الذين يلتمسون النرفانا وهم أحياء بجد أموات .

وبعد فقد قرأنا عن برجسون مقالا يحاول فيه شرح إمكان اتصال الأرواح على بعد النوى ، ورفضنا يومئذ الايمان بما قال ، وأما اليوم وفي النفس ضعف المضني أود أن يكون قوله صحيحاً — وإن لم يكن كذلك — فلالتمس نفسي نفسك اقتباساً لقليل من الضوء أنير به مصباحي قبل أن تأتي عليه غياهب الظلام .

ثم لتذكري مني كلمة « ملتن » : « إن العقل في مكانه يستطيع أن يجعل من الجحيم جنة ومن الجنة جحيما » وسبيله إلى ذلك ألا يقنط فيلتمس النرفانا وألا يخف فيطير إلى عالم المثل ، وإنما أن يفصل بين خسائس تلك الحياة التي لا بد من مواجهتها بعزم وحزم ، وبين حياتنا الداخلية التي نستطيع أن نغنيها بخيل من عرائس الخيال .

محمد مندور

صور من السياسة والتاريخ :

ألمانيا الهتلرية كما عرفتها

تحقيق ومشاهدات واقعية

٤ – أيام الفزع

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في سبتمبر من العام الماضي ، حينما اضطرمت الأزمة الدولية من جراء مسألة السوديت ، كنا طوال الوقت في ألمانيا ، فشهدنا تطورات الأزمة كلها ، وسمعنا كل خطب هتلر الرنانة في مؤتمر نورمبرج ، وفي قصر الألعاب (شبورت بالاست) ، ورأينا مواكب الحرب الصاخبة تترى أمام أعيننا ، وقطعنا في ڤينا أمسية عديدة في الظلام الدامس ؛ ومع ذلك فقد كان يخالجنا شعور عميق من التفاؤل ، واعتقاد راسخ بأن الحرب لن تنشب هذه المرة .

ولكننا حينما هبطنا إلى برلين في أواخر أغسطس الماضي ، لم يكن يخالجنا مثل هذا التفاؤل ؛ ذلك أن نذر العاصفة كانت تبدو في الأفق على أثر عقد الميثاق السوفيتي الألماني ؛ وكان الجزع يسود كل مكان وكل مجتمع ، ولكن شخصية واحدة ممن لقينا كانت لا تزال تحتفظ خلال الجزع العام بكل هدوئها وتفاؤلها : كان صديقنا الذكي اللبق أمين بك رستم قنصلنا في برلين — جزاه الله من وافر شهامته ومروءته خير الجزاء ، وأسبغ عليه جميل رعايته ، فهو قد أبى أن يغادر برلين قبل أن يغادرها آخر مصري ، وهو لا يزال هنالك رهن تصرف القدر — يعتقد واثقاً أن الحرب بعيدة الوقوع ؛ وكان هذا رأيه منذ العام الماضي ، حينما التقينا به ذات مساء في أوائل أكتوبر في قهوة « ساخر » الشهيرة في ڤينا ، على أثر مؤتمر ميونيخ وانقشاع أزمة السوديت ؛ وقد استقبلنا هذه المرة في برلين بابتسامته الساحرة ، وأكد لنا أنه لا يزال متفائلا بنسبة تسعة وتسعين في المائة ، وأن نشوب الحرب رهين بواحد في المائة فقط .

***

ولكن لم يأت على ذلك يوم أو يومان حتى انقلبت الآية ، وغدا من الواضح أن كفة الحرب قد فازت بنسبة التسعة والتسعين ، وتركت للسلام واحداً في المائة فقط ؛ وكان لا يزال بصيص ضئيل من الأمل يساور النفوس الجزعة من جراء زيارات السفير البريطاني للمستشار هتلر ، وتردده بالمقترحات والردود بين برلين ولندن ، ولكن طلائع الحرب من جهة أخرى كانت تترى بسرعة ؛ ففي يوم السبت ٢٦ أغسطس صدر نظام البطاقات الشخصية بالنسبة للأطعمة والمواد الضرورية ؛ وفي نفس اليوم قيدت المواصلات على السكك الحديدية الألمانية ، وخفضت تخفيضاً عظيماً ، وأوقفت القطارات الدولية وقطارات الحدود ، وهرعت الجاليات الأجنبية الى مغادرة العاصمة الألمانية بناءً على تعليمات ممثليها ، وفي مقدمتها الانكليز والفرنسيون واليابانيون والترك .

وقصدنا نحن المصريين في صباح يوم الأحد ٢٧ أغسطس إلى القنصلية المصرية ، لنقف على مجرى الأمور ؛ ولم تكن هناك تعليمات أو نصائح واضحة تلقى إلينا ، وكل ما استطعنا أن نعرفه هو أنه وردت برقية بأن « الكوثر » تنتظر المصريين في مرسيليا ؛ وفي اليوم التالي ، هرعنا مع باقي إخواننا المصريين إلى دار القنصلية مرة أخرى ، فعلمنا عند الظهر أن القنصلية اتصلت بالسلطات الألمانية في فلهلم شتراسه (وزارة الخارجية) وحصلت على جميع التأكيدات اللازمة بالنسبة للمصريين ، فمن شاء البقاء منهم فليفعل ، ومن شاء السفر فليسافر ، دون قيد ولا حرج ؛ وأن مبلغاً كبيراً أرسل من مصر إلى القنصلية ليكون رهن الطوارىء ، ولمعاونة من تعوزه الموارد ، وأنه لا محل للانزعاج .

* * *

ولكن هذه التأكيدات كان ينقصها الطابع العملي ؛ ذلك أن المواصلات قيدت ، ولم تبق حسبما علمنا من المصادر المختصة ، ثمة مواصلات عادية مع فرنسا أو سويسرا أو بلجيكا ، وقد أغلقت الحدود الفرنسية والسويسرية ؛ فكيف السبيل إلى العودة إذاً ؟ لم يكن بوسع مكاتب السفر أن تقدم إلينا أية معاونة أو معلومات ، وترددنا على محطات برلين أنهالت ، وفريدرش ، وغيرهما ، وكانت جميعها غاصة بالناس ، وكان الانزعاج بادياً على جميع الوجوه ، وكانت مكاتب الاستعلامات تحاصرها جموع كبيرة ، وتتصدرها صفوف طويلة من المستفهمين ؛ وكنا نلقى من الموظفين أجوبة موجزة غامضة ؛ وكل ما علمناه هو أن السفر ممكن إلى العواصم الألمانية الداخلية ، مثل كولونيا ، ميونيخ ، فينا وغيرها ، أما قطارات الحدود فليس يعرف شيء عنها ، ولا يضمن بشأنها شيء .

وكنا عندئذ في الأيام الأخيرة الحاسمة ؛ ولم يبق عندئذ شك في انقضاض العاصفة . متى ؟ في أقرب فرصة بلا ريب . وكانت العاصمة الألمانية يسودها عندئذ نوع من الهدوء المريب الذي لا يكاد يستر ما وراءه ، وكانت مقاهي « الكورفرستندام » تسطع ليلاً كعادتها ، وتغص بالحضور ؛ ولكن طابعاً من الوجوم العام كان يسود في كل مكان ، وكانت طبعات الصحف وملاحقها الخاصة ، وتلهف الناس على تخاطفها ، وتلهفهم على سماع الإذاعة الأخبارية ، مما يبعث الكآبة إلى النفس ، ويذكرنا في كل لحظة بأن الكارثة أصبحت وشيكة الوقوع .

وقد لمست أثر هذا الجزع العام في النزل الذي كنت أقيم به ؛ فقد كان هذا البنسيون الكبير الفخم قبل يومين تاماً بالضيوف ، ولكني أصبحت يوم الثلاثاء ٢٩ أغسطس فلم يكن به إنسان سواي وسوى زميل مصري آخر ، وفد إليه مؤخراً .

* * *

وفي هذا اليوم قررت السفر ، ومغادرة ألمانيا بأي وسيلة ، ورأيت أن أقصد إلى ميونيخ ، ثم أرى هنالك ما يمكن عمله ؛ وقصدت مساء إلى محطة أنهالت ، وكانت تموج بالناس موجاً ؛ وكان ثمة ثلاثة قطر ستسافر تباعاً إلى ميونيخ ؛ ومع أني وصلت قبل أن يقوم أولها بنحو ساعة ، فإني لم أجد موضعاً للقدم ، فوقفت في رواق العربة مع كثيرين من ركاب الدرجتين الأولى والثانية رجالا ونساء ؛ وكان المسافرون مزيجاً دولياً عجيباً ، فمنهم يابانيون ، وسويسريون وترك ، ويونان ، وإيطاليون ، وأمريكيون ... الخ ؛ وكان الانزعاج بادياً على الجميع ، وكانت هنا وهنالك مناظر وداع مؤثرة ، وقبلات وعناق ، وأنات ودموع ؛ ولن أنسى منظر ميونيخ في تلك الليلة ؛ فقد كانت كساحة الحشر ، وكانت الجماهير المتراصة ألوفاً مؤلفة ، بأمتعتها وحقائبها ، كأنها جيش منهزم يبحث عن سلامته ؛ ولما تحرك القطار بقي الضجيج لحظة ، ثم ساد بيننا هدوء موحش تحت المصابيح القاتمة ؛ وسار القطار حثيثاً صوب الجنوب ؛

وكانت ليلة صافية الأديم ، والقمر يرسل أشعته على المدن ، والبسائط المديدة التي نمر بها ؛ وكنا طول الليل نرى من خلال النوافذ عشرات القطارات تسير في مختلف الأنحاء ، وهي غاصة بالجند ، والمدافع ، والسيارات ، والدبابات ، ينعكس عليها ضوء القمر ؛ ورأينا أروع هذه المناظر على مقربة من نيرمبرج ، حيث كانت تبدو كمعسكر هائل ؛ وكنا نتأمل هذه المناظر صامتين واجمين ، ولم يجرؤ إنسان على الملاحظة أو التساؤل .

ووصلنا إلى ميونيخ في صباح اليوم التالي — يوم الأربعاء ٣٠ أغسطس — بعد رحلة مضنية ، متأخرين ساعتين أو ثلاثاً عن الموعد المعتاد ؛ ورأينا في ساحة محطتها الكبيرة نفس المناظر التي رأيناها في محطة انهالت : جموع غاصة تروح وتجيء ، وصفوف طويلة من الناس أمام مكاتب الاستعلامات ؛ وقضينا اليوم في السؤال والتحري عن خير الطرق لمغادرة ألمانيا ، فعلمنا أن الحدود الفرنسية (كيل — ستراسبورج) قد أغلقت نهائيا ، وأن الحدود السويسرية الشمالية كلها (شافهاوزن وبازل) قد أغلقت أيضاً ، ولم يبق مفتوحاً سوى محطة « لنداو » من الشرق ، ولكن للسويسريين فقط ؛ وكان طريق إيطاليا (برنو) مفتوحاً ، ولكن هل كان ثمة ما يشجع على سلوك هذا الطريق ، خصوصاً بعد أن جاءت الأنباء بإغلاق البحر الأبيض المتوسط ، ووقوف السفن الايطالية في موانيها ؟ عندئذ لم يبق أمامنا سوى طريق الشرق والبلقان ، فسافرنا في مساء نفس اليوم إلى سالزبورج ؛ وانتظرنا هنالك من منتصف الليل حتى الفجر ، لكي نتمكن من اتخاذ القطار الوحيد الذي يسافر إلى ڤينا ؛ ورأينا في محطة سالزبورج منظراً غريباً ! فقد كان مطعمها الشاسع غاصاً بالناس ، وهم ما بين قائم ونائم على مائدته أو حقيبته ؛ وكان القائمون يشربون أقداحهم أو يدخنون لفائفهم ذهولا ، وكانت الأنوار ضئيلة ، والأصوات خافتة ؛ ولقد آثرت أن أتجول في مدينة موتسارت التي أعرفها جيداً ، على أن أبقى إلى جانب هذا المنظر الموحش ؛ بيد أني ما كنت أجوس شوارعها ، حتى ذعرت لما يسودها من القفر والكآبة ، وقد رأيت معظم فنادقها الشهيرة ، التي كانت تعج أيام موسمها الموسيقي الشهير ، مثل فندق أوربا ، وبرستول وغيرهما ، وقد أغلقت نهائياً .

وفي الفجر ركبنا القطار إلى ڤينا ، وكان غاصاً لا موضع فيه لقدم ، وكان الركاب مزيجاً من مختلف الجنسيات ، وكانت أمارات اللهفة والتساؤل تبدو على جميع الوجوه ، هل نصل حقاً إلى ڤينا ؟ ومتى ؟ هذا ما كان يجهله موظفو القطار أنفسهم ، وكان ثمة سؤال يحرق كل شفة ، هل تقع الحرب ؟ ولم نجد في جرائد الصباح شيئاً ؛ وسمعنا أخبار الإذاعة من آلة راديو كانت مع آنسة مسافرة معنا فلم نقف منها على جديد ، ولكن منظر القطر المحملة بالمدافع والدبابات والذخائر في كل مكان كان خير جواب على سؤالنا وكان يثير في نفوسنا أفكاراً مشئومة .

وأخيراً وصلنا بعد العصر إلى ڤينا بعد رحلة شاقة ، وقد استغرقنا ضعف الوقت المعتاد . وكانت العاصمة النمسوية هادئة ، ولكنها فقدت كل مظاهر بهجتها القديمة وأقفرت مقاهي « الرنج » الشهيرة من زوارها .

* * *

وكان يوم الجمعة أول سبتمبر يوماً حاسماً ، ففي الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم ألقى هتلر خطابه المشئوم ، وصرح فيه بأنه أعطى الأوامر بالزحف على بولونيا .

وكانت الجموع تصغي واجمة جزعة في كل مقهى وكل ميدان ، وكأنها تسمع الحكم على مستقبلها ومصيرها ؛ واستمرت محطات الإذاعة إلى ما بعد منتصف الليل تكرر إذاعة الخطاب ، ويرغم الجمهور على سماعه في كل مقهى ومنتدى ؛ وفي مساء نفس اليوم صدر قانون يقضي بمعاقبة الذين يستمعون من الألمان إلى الإذاعات الأجنبية في منازلهم بالحبس سنتين ، فإذا نشروا بين الجمهور ما سمعوا من الأخبار ، كانت العقوبة الإعدام .

وفى اليوم التالى علمت من صديق صفوت بك قنصل مصر فى ڤينا، خلاصة ما سمعه من الإذاعة الخارجية من الأنباء الهامة؛ وهو أن انكلترا وفرنسا وجهتا بالأمس إنذارهما الشهير إلى الحكومة الألمانية، بإعلان حالة الحرب معها إذا لم تسحب جيوشها من بولونيا فى ظرف ثمانية وأربعين ساعة، وأن السنيور موسوليني ألقى تصريحه الخطير بأن إيطاليا لن تدخل حرباً اعتدائية؛ ولم تنشر هذه الأنباء فى الصحف الألمانية، ولم يعلم بها سوى القليل ممن أتيح لهم أن يتلقوها من محطات الإذاعة الأجنبية.

ولم يك عندئذ شك فى وقوع الكارثة، ولم يبق سوى التساؤل عن المدى الذى تبلغ إليه.

وفى وسط الظلام الحالك الذى خيم على ڤينا منذ أول سبتمبر، أعددت حقائبى. وفى صباح يوم الأحد الثالث من سبتمبر، كانت عدة من الأوتوكارات الكبيرة الفخمة التى تسير بين ڤينا وبودابست، قد اصطفت منذ الصباح الباكر فى ميدان «شفارتزنبرج» لتقل جماهير الأجانب الذين آثروا مغادرة هذه الديار التى غدت فى ظل الحكم النازى وظل الحرب القائم جحيماً لا يطاق؛ فاتخذت مكانى فى إحداها؛ وتنفست الصعداء حينما سارت بنا العربة الفخمة التى غدت وسيلة السفر الوحيدة إلى بودابست بعد بعد أن وقفت القطر. وما كدنا نصل إلى العاصمة المجرية، ونستريح ساعات قلائل، حتى علمنا أن الإنذارين الإنكليزى والفرنسى للحكومة الألمانية قد انتهى أجلهما، وغدت انكلترا وفرنسا فى حالة حرب مع ألمانيا.

ومثلت فى الحال أمام أعيننا الحقيقة المروعة: لقد بدأت الحرب العالمية الثانية.

(تمت السلسلة)

محمد عبد الله عنان

تذهيب المخطوطات فى الفن الاسلامى

للدكتور زكى محمد حسن

عرف المسلمون منذ القرون الأولى بعد الهجرة تزيين المخطوطات بتذهيب صفحاتها . بل إن ذلك لم يكن عندهم أمراً نادراً كما كان عند الغربيين فى العصور الوسطى .

وأعظم المخطوطات الاسلامية شأناً من الوجهة الفنية هى المصاحف التى كانت تكتب بين القرنين الرابع والسادس بعد الهجرة (العاشر والثانى عشر بعد الميلاد) ، والتى كانت تذهب وتزين بأدق الرسوم وأبدعها . ولا غرو فقد كان الفنانون الذين يزينون الصفحات المكتوبة أرفع الفنانين قدراً بعد الخطاطين أنفسهم ؛ وكان المذهب أعظم أولئك الفنانين شأناً . وحسبنا دلالة على علو مكانته أن كثيرين من المصورين كانوا يضيفون إلى أسمائهم لفظ « مذهب » ، وأن المؤرخين كانوا يعنون بالنص على أن بعض المصورين كانوا مذهبين أيضاً .

وأكبر الظن أن الخطاط كان يتم عمله قبل كل شىء ، ولم يكن يفوته أن يترك الفراغ الذى يطلب منه فى بعض الصفحات لترسم فيه الصور المطلوبة بعد ذلك . وقد وصلنا بعض مخطوطات لم تتم بها الرسوم فى كل الفراغ المتروك . وكان المخطوط يسلم بعد ذلك إلى فنان إخصائى فى رسم الهوامش وتزيينها بالزخارف ، ثم إلى آخر لتذهيب هوامشه وصفحاته الأولى وصفحاته الأخيرة وبداية فصوله وعناوينه وغير ذلك من الزخارف المتفرقة . وفى الحق أن الرسوم النباتية والهندسية المذهبة كانت تصل فى المخطوطات الثمينة إلى أبعد حدود الاتقان ، ولا سيما فى القرنين التاسع والعاشر بعد الهجرة ، (نهاية القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر) ، حين بلغت الغاية فى الاتزان والدقة وتوافق الألوان .

ولا ريب فى أن تعظيم القرآن الكريم كان يبعث كثيرين من الفنانين على العناية بتذهيب المصاحف ، وكان لتذهيب المخطوطات صلة وثيقة بكتابتها بالخط الجميل ، فعنى القوم بهذا الفن ، وذهب بعضهم إلى القول بأن الإمام على بن أبى طالب كان أول من ذهب مصحفاً ، وبأن كثيرين من الأمراء وعلية القوم نسجوا على منواله ، فأتيح للخطاط المشهور محمد بن على الراوندى (المتوفى فى نهاية القرن السابع الهجرى ، والثالث عشر الميلادى) أن يفخر بمن تلقى عنه فن التذهيب من الأمراء والعظماء وكبار رجال الدين والأدب . وإذا تذكرنا أن المذهبين كانوا يحتاجون فى صناعتهم إلى بعض المواد الثمينة كالذهب وحجر اللازورد والورق الفاخر ، أدركنا ما كان لعناية الأمراء والأغنياء من عظم الشأن فى فن تذهيب المصاحف والمخطوطات .

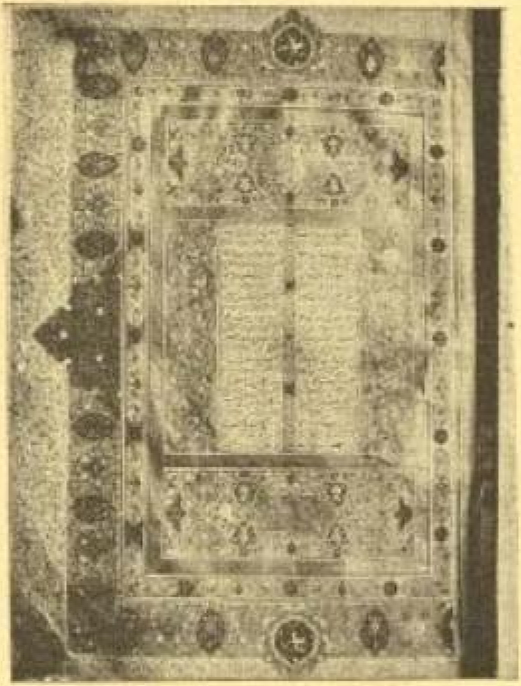
وليس غريباً أن يصيب الإيرانيون خاصة والمسلمون عامة أبعد حدود التوفيق فى تحلية الصفحات بالرسوم وتذهيبها ، فان هذه الفنون الزخرفية تتفق مع ميولهم واستعدادهم ، حتى أصبحت زخارف الصفحات المذهبة نماذج تنقل عنها الرسوم فى التحف المعدنية والخزفية والجصية ، وفى المنسوجات والسجاد . وكم توصل مؤرخو الفن بفضل ذلك إلى معرفة قسط وافر من تطور الرسوم والزخارف والعصور التى تنسب إليها ، لأن عدداً كبيراً من المصاحف والمخطوطات المذهبة يحمل تاريخ إنتاجه ، وربما كان فيه أيضاً اسم الخطاط والمذهب ، والبلد الذى كتب فيه المخطوط .

ولم يعد تزيين الصفحات فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) مقصوراً على الـ «سرلوح» أى الصفحة أو الصفحات الأولى المغطاة بالزخارف المذهبة، وعلى العناوين وعلى الجامات (المناطق) التى كان يكتب فيها اسم صاحب المخطوط، وعلى النجوم الزخرفية المذهبة التى كانوا يسمون الواحدة منها «شمسة»، بل صارت الهوامش تزين برسوم الزهور والنبات والحيوان، وبالرسوم الآدمية فى بعض الأحيان.

أما زخارف الصفحات المذهبة فكانت فى البداية خليطاً من العناصر الزخرفية الساسانية والبيزنطية والقبطية، فضلا عن الرسوم المنقولة من كتب اليهود وكتب المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية.

على أن أقدم المخطوطات المذهبة التى يمكن نسبتها إلى إيران ترجع إلى عصر السلاجقة، وتمتاز باستعمال الورق فى معظمها، وبأنها مكتوبة بالخط النسخى، وبأنها مستطيلة الشكل، وأن ارتفاعها أكثر من عرضها. ومن الرسوم التى يكثر استعمالها فى هذه المخطوطات النجوم المسدسة أو المثمنة والمراوح النخيلية (البالمت) والفروع النباتية المتصلة (الأرابسك). وقد بدأت فى عصر السلاجقة طريقة جديدة فى الزخرفة والتذهيب، وظلت قائمة فى العصور التالية، وقوام هذه الطريقة أن تحاط سطور الكتابة بخطوط دقيقة، وأن تملأ الصفحة خارج هذه الخطوط بمختلف الرسوم النباتية و «الأرابسك».

أما عصر المغول فلعل أبدع مخطوطاته المذهبة جزء من مصحف محفوظ فى دار الكتب المصرية. وقد كتب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م). بمدينة همذان للسلطان الجايتوخدابنده، وبيد خطاط اسمه عبد الله بن محمد بن محمود الهمذانى. وهو من نوع المصاحف الكبيرة الحجم (٤٠×٥٠ سنتيمتراً) التى كانت تقدم للأضرحة والمساجد، وكان كل جزء منها يكتب فى مجلد على حدة. ويمتاز هذا الجزء — كسائر المخطوطات المغولية المذهبة — بالابداع فى الرسوم والألوان، فهو غنى جداً بالرسوم الهندسية المختلفة، بين نجوم على أضرب شتى ومثمنات ودوائر متشابكة، وغير ذلك من الأشكال الملونة برسوم النبات والأرابسك. ومما يزيد إعجابنا بهذه الزخارف الهندسية أن الايرانيين عامة لم يكن لهم فيها ميدان خاص بل كانوا يقبلون على سائر العناصر الزخرفية أكثر من العنصر الهندسي، ومع ذلك فقد أتقنوها فى هذا المصحف إتقاناً عظيماً.



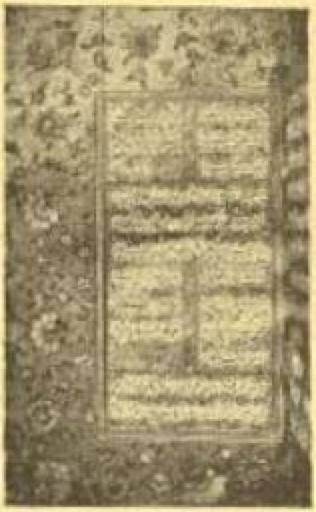
صفحة مذهبة من مخطوط إيرانى فى العصر الصفوى

واستخدم المذهبون فى العصر المغولى اللون الذهبى والأزرق والأحمر والأخضر والبرتقالى، وكانوا يتخذون الأزرق القاتم مركزاً تحيط به سائر الألوان.

وزاد ازدهار فن التذهيب في العصر التيموري ؛ فثمة مخطوط من الشاهنامة مؤرخ سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧م) يقال إن فيه صورة الخطاط والمذهب والمصور الذين اشتركوا في إنتاجه ، وصورة السلطان بايسنقر الذي قدموا إليه هذا المخطوط ، مما يدل على الاعتراف بفضل المذهب في إخراج المخطوط الفني ، وعلى أنه كان يقرن في هذا الشأن بزميليه : الخطاط والمصور .

ومن أعلام المذهبين في ذلك العصر أمير خليل وميرك نقاش ، ومولانا حاج محمد نقاش الذي كان خطاطاً ثم مذهباً ثم مصوراً ، بل إنه اشتغل أيضاً بالحيل الميكانية وبتقليد الخزف الصيني .

وقد زاد الاقبال على رسوم النبات والزهور والطبيعة زيادة عظيمة في العصر التيموري ، فكانت تزين هوامش الصفحات ، كما استعملت في زخرفة التحف الفنية المختلفة . والواقع أن العلاقة وثيقة جداً بين رسوم الصفحات المذهبة في العصر التيموري والرسوم المستعملة في سائر ميادين الفن من خزف وسجاد وجلود كتب .



صفحة مذهبة من مخطوط إيراني في العصر الصفوي

وقد ترك لنا بعض المؤرخين الإيرانيين أسماء أعلام المذهبين في العصر الصفوي ، مثل ياري وميرك المذهب وابنه قوام الدين مسعود ومولانا حسن البغدادي ومولانا عبد الله الشيرازي .



صفحة مذهبة في إنجيل من عصر المماليك

ولم يكن عمل المذهبين في هذا العصر مقصوراً على تزيين الصفحات المكتوبة والمرسومة ، بل كانوا يذهبون هوامش الصفحات المصورة . وامتازت المخطوطات الصفوية بتعدد الصفحات المذهبة في أول المخطوط وبتفضيل رسوم الفروع النباتية المتصلة (الأرابسك) ذات الوريقات الدقيقة ، ورسوم السحب الصينية ، كما امتاز بعضها برسوم حيوانية مذهبة في هوامش الصفحات ، على النحو الذي نراه في مخطوط منظومات الشاعر نظامي المحفوظ في المتحف البريطاني ، والذي كتب للشاه طهماسب بين عامي ٩٤٦ و ٩٤٩ بعد الهجرة (١٥٣٩ — ١٥٤٣) . ومن أبدع الصفحات المذهبة في العصر الصفوي ما نراه في صدر مخطوط «بستان» سعدي المحفوظ في دار الكتب المصرية والمؤرخ سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٨ م) . وعليه إمضاء المذهب «ياري» ؛ ومن زخارفه رسم بطة تطير بين سحب صينية ،

وهي من الرسوم الحيوانية النادرة في الصفحات المذهبة والمزينة برسوم متعددة الألوان .

ولم يدخل على أسلوب التذهيب تغيير كبير منذ العصر الصفوي ، اللهم إلا أن الألوان المستعملة قل غناها وصفاؤها ، بينما أصبحت الدقة في رسم الزخارف نادرة . وكان هذا كله طبيعياً بعد أن فقد الفنانون قسطاً كبيراً من رعاية الأمراء ، وبعد أن اتصلت إيران بالعالم الغربي ولم يعد للمخطوطات ما كان لها قبل ذلك من عظم الشأن .

أما في مصر فإن أبدع المصاحف المذهبة فيها ترجع إلى عصر المماليك ، وتمتاز برسومها الهندسية الجميلة ، كما يظهر من المجموعة العلية المحفوظة في دار الكتب المصرية . بل إن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفاً على المصاحف والكتب الاسلامية فحسب ؛ فقد كان الانجيل والكتب الدينية المسيحية تذهب وتزين صفحاتها بالرسوم الهندسية والنباتية العربية الطراز ، كما نرى في بعض المخطوطات الثمينة المحفوظة في المتحف القبطي .



صفحة مذهبة في مصحف من عصر المماليك

وكان تذهيب المخطوطات في تركيا شديد التأثر بفن التذهيب في إيران . كما أن الفنانين في الأندلس والمغرب الأقصى كانوا لا يختلفون كثيراً عن الفنانين المصريين في أساليبهم الفنية في هذا الميدان .

زكي محمد حسن

الحب كما يراه عالم

لجوليان هكسلي

الحب ظاهرة عامة شاملة لكل الحيوان ، ولكن الحب كما نعرفه ظاهرة يختص بها الإنسان . وما من شك في أن الباحث المتقصي يجد أصول الحب الإنساني الأولى في الحيوانات الدنيا ، وهو لا شك مدرك تلك الأطوار التي تطورتها والأشكال التي تشكلتها حتى صارت إلى تلك الصور الأخيرة التي نجدها في الإنسان ، ولكن مع كل هذا لا يستطيع الباحث أن يتملص من الإقرار بأن الحب الإنساني يفترق عن الحب الحيواني افتراقاً كبيراً ، ويمتاز عنه بميزات خاصة تجعل له كينونة متفردة بذاتها غاية التفرد ، وليس هذا بالطبع حال الإنسان في الحب وحده ، بل كذلك شأنه في مظاهر الحياة الأخرى .

فمن ميزات الإنسان على الحيوان أن الحيوان يعمل ويحيى صادراً في أعماله وحياته عن غرائز ثابتة لا تتغير ، وإن هو فكر وأحس وتخلق ، فإنما ينسج على منوال للفكر والحس والتخلق جامدة لا مرونة فيها ؛ أما الإنسان فله دوافع عاطفية مختلفة ، وآمال وآراء وتجاريب شتى تتآلف جميعها لتكون حالات عقلية أكثر تعقداً ، وأكثر تنوعاً من كل ما قد تكون من أمثالها عند كل الحيوانات التي هي دونه في جدول الأحياء .

ومن ميزات الإنسان أن حبه لا يتصل بالزمان . فبينما نجد للحيوان آنات معروفة للإتسال نجد الإنسان يتسل في كل آن .

ومن خصائص الإنسان أنه معرض لتعارض الغرائز النفسانية وتدافعها وتشاجرها في نفسه ، والحيوان على نقيض ذلك ، فحياته ليست إلا انتقالات هينة من غريزة إلى غريزة في تسلسل منتظم لين ، لا اصطدام فيه ولا اشتباك .

إن عقل الإنسان مرن مرونة بينة ، قابل للتشكل السريع قبولا لا يعرفه الحيوان ، وهو من أجل هذا يستطيع أن يجمع بين شتى التجارب ومختلف العناصر ، فيؤلف بينها في كل واحد . ولكن معنى هذا أن تلك الغرائز المختلفة المجتمعة لا تعدم اختلافاً تجده غريزة في أخرى ، أو تناقضاً يجده دافع في دافع آخر . ومن الناس من لا يستطيعون مخلصاً من هذا التناقض ، ولا مخلصاً من هذا التعارض ، وإنما يتركون تلك الدوافع تصدم بعضها بعضاً ، وتتعارك عراكاً عنيفاً يؤدي بصاحبها إلى حالة عصبية حادة نسميها بالنورستانيا . ومن الناس من يستطيع أن يلطف من حدة هذا المصام ، ويخفف من وقع هذا الصدام ، وذلك بكبح هذا الدافع أو ذلك حتى تتآلف من كل الدوافع مجموعة مؤتلفة تحمل صاحبها إلى دار السلام . وهذا الكبح نصنعه جميعاً وإن كنا أحياناً لا نحسه ، بل هذا الكبح هو بعض ما نمفناه ويتعلمه كل رجل متمدين في مدارسه . فمن أول واجبات التربية تعليم الفرد الانساني الوحشي بالطبيعة أن يكبح نفسه وأن يخضع ما يقوم في نفسه من دوافع دنيا تطلب ثمرات قريبة إلى دوافع عليا نسميها في العرف شريفة تطلب ثمرات غير قريبة ؛ ومن هذه الدوافع الدنيا ذلك الدافع الشهوي من الحب ، وهو من أقوى الدوافع الانسانية ، ولكنه كذلك من أكثرها خضوعاً للكبح في أي مجتمع منظم متمدين .

ومن أجل هذه الأسباب كان الحب في الانسان ظاهرة من أغرب المظاهر ؛ فهو يجمع في حالة عقلية واحدة أرفع الدوافع وأحطها ، وهو يرخي العنان لكبوحاته يقدر تنجري جنباً لجنب مع أسمى المطامح ، وهو يؤلف بين مظاهر الثورة والعنف ومظاهر السلام والاستسلام .

ولن يفهم من هذا أن الحب واحد عند كل الناس ، فمن صفات الحب أن له أصنافاً عدة يصنفها ، فيكاد يكون لكل محب صنف يخصه ، حتى المحب الواحد قد

يتصنف حبه أصنافاً تبعاً لما قد يستيقظ في نفسه من شتيت الدوافع . ولكن مع كل هذا فالحب واحد عند الجميع ، أي له لب متشابه لدى كل محب . فهو في الكل له صفة العنف ولو مكبوحاً ، لأنه يصدر عن أصول أولية في صميم وجود الإنسان ، وهو يتضمن نزاعاً بين دوافع وتأليفاً بين متنازعات ، وهو يتصل إن قريباً أو بعيداً بمطامع وآمال ومُثُل عُليا قد تكون رغبة في استكمال نقص ، أو إتمام وجود ، أو تكون تعبداً في جمال ، أو تفانياً في إخلاص .

ولأن الحب يصدُر عن غرائز قوية موروثة ، ولأنه يُرعى الأرضة لنوازع هوجاء مكبوحة ، نجده يستمد قواه ويأخذ مؤونته ، لا من العقل الواعي ، بل من ذلك الجانب الآخر المبهم من العقل الذي نسميه بغير الواعي . وهو إذ يفعل ذلك يُحدث عند صاحبه إحساساً بتطوّر شخصيته وتركّزها .

ولأن الحب يجمع بين آمال لم تتحقق بعد ، وبين غرائز مكبوتة محبوسة لم تحرّر ، نجده يلوّن حقائق الحب الأولية العادية بماء الذهب فيجعل منها مُثُلا رومانتيكية غير عادية يلَذّ له تمجيدها . ومن أجل هذا يدفع الحب صاحبه إلى الجمع بين المتناقضات والمصالحة بينها . ومن أجل هذا تزول من النفس مخاوف قديمة وتتهدم مقاومات قديمة ، حتى الإحساس القديم بالقبائح ، وحتى الاشمئزاز القديم بالعار يزولان جميعاً . حتى الخطيئة ذاتها ترتفع عن النفس في هذا الجو الجديد معنى القبح فيها . ولأن الحب يجمع بين عناصر يتصل بعضها بأصول وجوده ، وهي في العرف وضيعة ، ويتصل بعضها الآخر بمطامع النفس هي في العرف رفيعة ، نجد الخيبة في الحب ولقاء العقبات الصعبة المنانعة فيه يورث صاحبه ألماً لا ألم بعده ، وشقاء دونه أكثر أنواع الشقاوات .

إن الحب تَنَشّط من التناشط الإنسانية كالتديّن والتعبّد ومعالجة الفنون والتشرّب بها ، وهو كسكل التناشط العقلية الأخرى . وهو يمتد بأصوله الأولى إلى الحيوان ، ولكن ليس في الحيوان شيء كمثله في مظاهره الأكبر والأخطر . وهو يتنوع عند الإنسان أنواعاً ، ويتصنف حسب طبيعة الشخص أصنافاً . وهو قد يكون شيئاً مريعاً خاطراً وقد يكون خدعة رائقة مُهلكة ، ولكنه قد يكون أيضاً أساساً لإخلاص ثابت دائم سعيد .

إن الحب له جانبان : أحدهما رومانتيكيّ ، والآخر بيولوجي . وقد يغلب عليه الجانب الرومانتيكي حتى تتضاءل بجواره جوانبه الأخرى ، وهو عندئذ قد يؤدي إلى كثير من الضلال قد يعقبه هدى وقد لا يعقبه . وإذا غلب عليه الجانب البيولوجي فقد الحب أكبر ميزاته لدى الانسان . وعلى كل حال يجب على الانسان أن لا ينسى أن الحب وسيلة لاطراد الانسان .

إن الغالبية في الناس لا تكتمل شخصيتها إلا بالحب ، لأن الحب بين التجارب الانسانية هو أقوى تجربة بها من القوة ما يقوى على تحطيم قيود الصبي لا تأتلف مع الحياة البالغة ، وتكسير حواجز هي من لوازم السن الناشئة الصغيرة ، ولكنه لا بد من تكسيرها لاستقبال حياة الفتوة والرجولة المستقلة . وغير هذا فالحب لازم لتفهّم المرء نفسه ولتمهيد السبيل له لفهم الناس .

ثم نقطة أخيرة أحب أن أحس بها حساً . ذلك أن الحب من وجهته البيولوجية هو فن من الفنون ، فإذا وَهَمَ إنسان أنه ناجح في الحبّ من غير تفكير ولا تنظيم فهو جِدُّ خاطئ ، وهو في هذا كمن يحسب أنه ناجح في الوسيق أو الشعر أو الألعاب الرياضية من غير تفكير ولا تنظيم . ولا أقصر فنّ الحب على وجهته المادية وحدها ، ولو أن الاخفاق في هذا قد سبّب كثيراً من الأرزاء الزوجية وشقاء العائلات . ولكني أعمم حتى

سر السعادة الزوجية

استفتاء

من السيدة س . ع :

. . . مضى على زواجنا تسعة عشر عاماً كانت كلها خيراً وسعادة . ولكن لا شك أن طفلينا هما اللذان وهبا لسعادتنا صفة الدوام ، وجعلا منزلنا كعش الطائر ، فيه الدفء وفيه الطمأنينة وصنوف الهناء . إن ولدينا ملأا حياتينا رغائب وآمالا ، وأبرزا من طبيعتنا البشرية أحسن ما فيها ، ولنا منهما في حياتنا الخاصة دُعابة ومتعة وفكاهة لا يعرفها حتى الأقربون إلينا .

ويعود زوجي من عمله وكله بشرٌ وتطلع إلى أمسية هنيئة يقضيها بيننا .

والآن ، وبعد ما يقرب من خمس قرن ، أسائل نفسي : ما كانت تكون حالي لو لم تكن لي ذرية تملأ فراغ حياتي بما تثيره من هم ، وما تطلبه من اشتغال يد وانشغال بال ؟

من السيدة ل . ع :

لما كنت على وشك الزواج قالت لي جدتي : « إذا كنت تودين حياة زوجية سعيدة فتعوّدي مذاق الصبر حتى تستحليه » . وقد ذقت أنا وزوجي صبراً كثيراً ، ولكن برغم الهبوط والصعود والفقر والغنى والمرض وأحداث عظام أستطيع أن أقول صادقةً إن حياتنا الزوجية ، وقد دامت ثلاثين عاماً ، كانت حياة سعيدة بفضل الصبر والتصابر والتماسك عند كل بلية تنذر بقصم الظهور ، وفي كل مرة كان في الاحساس بسلامة ظهورنا سعادة لنا .

من السيدة ف . م :

. . . ومن أسباب سعادتنا ثقة متبادلة تامة ، وعزم كلينا أن يبتسم ونسير بالحياة كالعادة كلما اسودت وجوه الأمور ، وأن نقول معاً : « لا بأس بالذي كان ، فلا بد من صلاح الحال بالذي سيكون » . ومن أسباب سعادتنا تبادلنا الايثار ، والمشاركة في كل شيء ، وعلى الأخص في المتاعب . ومن أسبابها اهتمام بعضنا بأمور بعض ، ومحاولة فهم بعضنا آراء بعض . . وعلى الزوجة أن لا تُخلّ بمواعيد الطعام ، وأن تلقى زوجها باسمة على باب الدار إذا عاد من عمله .

وتأتي بيننا ساعات عصيبة تثور فيها زوابع من غضب شديدة ، ولكن عند كلينا مقدرة العفو والصفح والنسيان كذلك . وكلانا تلذه النكتة وهي خير الشحوم للمجلات الجافة التي ينذر سيرها بتحطيمها . ولنا لذة في

يشمل فنُّ الحب كل مظاهره . إن الحب إن كان أهوجَ ضالاً فالحكمة تهديه . وإن كان عنيفاً قوياً فالقيادة الحازمة تنكّبه شرّ المهاوي .

إن الحب كقوس قزح في جماله ، وهو كقوس قزح لا ينحط جماله في أنفسنا لأن علم الطبيعة فسّره لنا بالجزئيات والاشعاعات . إن علم الحياة يفسر لنا الحب من وجهته الطبيعية ، وهذا لا ينزع عن الحب قدسيته ، بل هذا التفسير يزيد من قدسيته ، ويجعل لهذه القدسية سنداً من العقل والفهم ، والحب في نظر العلم ليس إلا ميزة من أسمى ما ماز الله به الانسان . (السوسي)

محبة بعضنا بعضاً ، لذلك ترانا نخرج فى القالب المقصة سوياً .

وبعد فتلك وصفاتى لسعادة الحياة الزوجية .

من السيدة س . خ :

وصفتى للحياة الزوجية السعيدة هى : أعط كما تأخذ ، وليحترم بعضكما رأى بعض ، ولا تفقدا روح الفكاهة بينكما.

مضى على زواجى ثمانية عشر عاما ، ولى ثلاثة أولاد ، ولد فى السابعة عشرة ، وابنة فى السادسة عشرة ، وولد فى العاشرة ، ولكنى وزوجى أحياء إلى اليوم ، فكأنما شهر العسل طال حتى احتوى كل هذه السنين .

من السيد ف . س :

إن السياسة والاحتمال هما لدينا سر السعادة الزوجية .

تمر ساعات على زوجتى وهى كئيبة النفس ضيقة الصدر بسبب ما تقاسى من هموم البيت ، ولكنى أفهم هذه الحال منها وأعطف فيها عليها وأقدم لها فيها شيئاً من المعونة فلا تلبث الابتسامة الذاهبة أن تعود .

ومن عوامل سعادتنا أن زوجتى تعرف متى يكون السكوت من ذهب . ومن أجل هذا لا نحتك كثيراً وتجرى حياتنا ناعمة .

واختصاراً أجد الدبلوماسية وتجنب الاحتكاك هما السببان الأولان اللذان بهما نجح زواجنا أيما نجاح .

من السيدة ث . م :

تجربتى فى الزواج دلتنى على أن سر نجاحه فى أن يتزوج المرء فى أول شبابه ، وأن يجاهد بعد ذلك فى أن يظل سعيداً هانئاً كأنه فى شهر عسله . وأن لا يتحرج الزوج من ذكر حبه لزوجته ، وأن لا تتحرج الزوجة من ذكر حبها لزوجها مهما طال العهد بالزواج . وليتذكر الزوجان أن الحب ليس وقفا على الشباب .

ولقد تعلمت أنا وزوجى أن الحب لا يقع إلا من اثنين كالتصفيق لا يكون إلا من يدين .

من السيد ع . ف :

أعتقد أن سر الزواج يتلخص فى هاتين الكلمتين : الثقة المتبادلة .

لم يمض على زواجنا غير بضعة أشهر ، ومع ذلك أجد أنا وزوجى سروراً صادقاً فى أن كلينا يثق كل الثقة بصاحبه .

وتعتريني فى الحياة الآمال ، وتعتريني المطامع الحائرة المنيفة ، وتعتريني كذلك المخاوف ، وأنا فى وسط كل هذا أجد من الناس الشك والريبة ، ولا يقوينى ويشد فى عزيمتى إلا أنها هى تؤمن بى . ومن وحى إيمانها أطلب العون على المصاعب . فأحاول ثم أحاول ، وقلما يفوتنى النجاح أخيراً .

* * *

شعار مدرسة

اختيار أكفأ المدرسين والمدرسات . إعداد وسائل التمرين من معامل ومتاحف أكمل إعداد . استيفاء جميع الكتب والأدوات . حزم فى الإدارة ، مما ينمى الرجولة فى الطالب ويعوده على الخلق الكريم فى ظل الرقابة الحازمة . المصروفات مخفضة خصوصاً فى قسم البنات تشجيعاً لتعليم البنت — ذلك هو شعار (مدرسة النهضة المصرية بالظاهر رقم ٥٣) فقدم طلبك إليها من الآن

السلطان الكامل

للدكتور طه حسين بك

لا أريد أن أكتب فصلا من فصول التاريخ عمن لقب بهذا اللقب من ملوكنا القدماء ؛ وإنما أريد أن أتحدث عن كتاب ظهر بهذا العنوان منذ حين للكاتب الفرنسي العظيم جان جيرودو .

ولا شك فى أن الكاتب الفرنسي قد استعار عنوان كتابه من أصحاب السياسة لكثرة ما طلبت الوزارات الفرنسية والوزارة القائمة خاصة إلى البرلمان الفرنسي أن يمنحها السلطان الكامل الذى يمكنها من إصدار مراسيم لها قوة القانون فى غيبة البرلمان ، مراعاة لحال فرنسا فى الظروف الخطيرة التى كانت تحيط بها وبكثير من أقطار الأرض قبل أن تصبح الحرب أمراً واقعاً .

وكان الفرنسيون يختلفون أشد الاختلاف فى أمر هذا السلطان الكامل ، يرى بعضهم أن الخير فى منحه للوزارة ، تعجلا لإصلاح الأمر وتقويم المعوج والاستعداد للأخطار الداهمة ، دون تقيد بالمناقشات البرلمانية التى قد تقصر وقد تطول ، وقد تنحرف وقد تستقيم ، والتى تؤخر الإصلاح فى أوقات لا تحتمل تأخير الإصلاح . وكان بعضهم الآخر يرى أن حقوق الديمقراطية يجب أن تكون فوق كل شيء من جهة ، وأن الوزارة قد تغلو فى الاستمتاع بهذا السلطان الكامل إن أهدى إليها ؛ وكان الفرنسيون يصطنعون فى هذا الموضوع جدالا شديداً متصلا ، مختلفة ألوانه ، فيه الجد وفيه الهزل ، وفيه الدعابة المرة والفكاهة الحلوة ؛ ولعل من هذه الفكاهة ، أو من تلك الدعابة ، اصطناع الكاتب جان جيرودو لهذا العنوان ، فهو لم يعرض فى كتابه لهذا الموضوع الذى يختلف الفرنسيون فيه من قريب أو بعيد ، وإنما أعرض أو كاد يعرض عن الوزارة والبرلمان ، وعن السلطان الكامل المطلق والسلطان الناقص المحدود ، وعنى بشيء آخر له خطره العظيم فى نفوس الفرنسيين ؛ وآية ذلك أن الكتاب قد ظهر منذ أشهر قليلة ما أظنها بلغت الأربعة ، وأن الطبعة التى قرأتها منه هى الطبعة الثالثة عشرة . والموضوع الذى عنى به الكاتب فى كتابه هذا هو الإصلاح الاجتماعى ؛ وإذا كان قد اختار له هذا العنوان ، فهو لم يختره إلا فى شيء من العبث والمجاز ، إن صح هذا التعبير . فهو يريد أن يصور أقصى ما تستطيع فرنسا أن تحققه لنفسها وللعالم من الخير إذا أخذت أمورها بالعزم ، وفهمت ما يجب عليها لنفسها وللعالم فهماً صحيحاً . وأظن أن الترجمة الدقيقة لعنوان الكتاب ، الترجمة التى تؤدى ما أراد إليه المؤلف حين استعار من أصحاب السياسة كلمتهم هذه الشائعة ماثناً قاسياً فى عبثه ، إنما هو القدرة الكاملة ، قدرة فرنسا على الخير لنفسها ولغيرها من الشعوب .

أراد باستعارة هذا العنوان من أصحاب السياسة أن يقول لهم وللذين تابعوهم فيما هم فيه من جدل إن جدالهم هذا سخيف فارغ لا طائل تحته ولا غناء فيه ، فلن يصلح فرنسا أن يتسع سلطان الوزارة أو يضيق ، ولن يصلح فرنسا أن تمتد رقابة البرلمان حتى تحيط بكل شيء ، أو أن تتقاصر حتى لا تحيط بشيء ، لأن رجال السياسة يذهبون فى طريق أقل ما توصف به أنها معاكسة للطريق التى يجب أن تسلك حين يراد الإصلاح ، فرجال السياسة يصطنعون

مهنتهم ويعيشون من اصطناع هـذه المهنة ، وهى إضاعة الوقت والجهد والمـال فيما لا يمس ما يحتاج الوطن إليه من إصلاح شؤونه على اختلاف ما تتصل به هذه الشؤون من مرافق الحياة .

فالـكتاب كما ترى منذ الآن وكما سترى بعد حين نقد عنيف لاذع للحياة السياسية الفرنسية من جهات مختلفة ، والظريف الذى يستحق أن نفكر فيه هو أن جان جيرودو موظف من موظفى الحكومة الفرنسية . كان حين أصدر هذا الـكتاب موظفاً فى وزارة الخارجية ، فلما دنت أخطار الحرب كلف الاشراف على إدارة المطبوعات ، وانتقل إلى رياسة مجلس الوزراء .

فاعجب لهـذه الحرية التى أتاحت لموظف من الموظفين أن ينقد النظام السياسى لبلاده نقداً صريحاً إلى أبعد آماد الصراحة ، حراً إلى أوسع حدود الحرية ، لم يعف الحكومة ولا البرلمان ولا المجالس البلدية ولا الجمهور ولا المصارف ، ولا سلطة من السلطات ، ولا هيئة من الهيئات التى تشرف على تنظيم الحياة الفرنسية عن قرب أو بعـد ؛ ولكن اعجب أيضاً لأنه آثر فى هذا النقد أقصى ما يستطيع الكاتب أن يؤثره من النزاهة وطهارة الضمير ، والارتفاع عن الصغائر ونسيان نفسه ومصلحته الخاصة ، وتجنب التعرض لوزارة بعينها ، أو حزب بعينه ، أو فريق بعينه من الذين يمثلون وطنه فى مجلسى البرلمان .

نقد الحكومة الفرنسـية من حيث هى حكومة ، ونقد البرلمان الفرنسى من حيث هو برلمان ، فأرضى الناس جميعاً ، ولم يغضب أحداً ، ولم يجد من حكومته ولا من وزرائه أذى ولا شططاً .

واعجب لشىء آخر ، وهو أن جان جيرودو كاتب أديب قد برع فى القصص الروائى ، وبرع فى القصص التمثيلى ، وظفر فى الأدب الفرنسى بمكانة ممتازة لا حاجة إلى التعريف بها . وهو فى قصصه الروائى أو التمثيلى شاعر بارع ممتاز وإن كان يصطنع النثر دون النظم . وهذا كله لم يمنعه من أن يخرج هذا الـكتاب حين أحس الحاجة إلى إخراج هذا الـكتاب ، وحين أحس القدرة على إخراج هذا الـكتاب .

فهو إذاً لا يقيم فى برج من العاج لينزل على قرائه ونظارته قصصه الروائى الرائع ، وآياته التمثيلية البارعة ، ولـكنه يعيش مع الناس ، ومع أوساط الناس ، ومع من هم أدنى طبقة من أوساط الناس ؛ يمشى بينهم فى الطرق ، ويجوب معهم أحياء باريس ، ولاسيما هذه الأحياء الفقيرة البائسة ، حتى إذا أراد أن يصور حاجات هذه الطبقات إلى المعونة والاصلاح ، بل إلى الاغاثة والانقاذ كان بارعاً كل البراعة فى هذا التصوير .

ثم اعجب آخر الأمر للفكرة التى أقام عليها كتابه ، والتى تلائم كل الملاءمة فيما أعتقد حياتنا المصرية الخاصة ، بحيث نستطيع أن نقول إن هذا الـكتاب من أنفع الـكتب وأمتعها وأقومها للذين يتولون الاصلاح الاجتماعى فى مصر منذ أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية فى مصر . ويجب أن أعترف أن وزارة الشؤون الاجتماعية المصرية هى التى دفعتنى إلى قراءة هذا الـكتاب الذى شغلت عن قراءته بأدب جيرودو ، حتى إذا عدت إلى القاهرة وسمعت أحاديث الوزارة الناشئة وما تهم به وما تفكر فيه وما تقوله وما يقال عنها ، فرغت لهذا الـكتاب فقرأته فى جلستين اثنتين لأنه قصير وأزمعت أن أكتب عنه ، لا لأحلله ولا لأفصل القول فيه ، ولـكن لأشير إشارة مجملة ، ولألفت إليـه وزارتنا الجديدة الناشئة ، فقد يبصرها ببعض الأمر ، وقد يرسم لها بعض الخطط ، وقد يجنبها كثيراً من الخطأ ، وقد يعصمها من كثير من الزلل ، وقد يصرفها إلى العمل المفيد ، وقد يرغبها عن الأقوال العامة الغامضة التى امتلأت بها الصحف منذ أعوام وأعوام ، حتى حفظناها عن ظهر قلب ، وحتى أصبح الطلاب والتلاميذ يشقون بها على

أساتذتهم ومعلميهم ، حين يملأون بها ما يكتبون من موضوعات الانشاء .

الفكرة التى أقام عليها جان جيرودو كتابه هى أن لوطنه فى العالم مركزاً ممتازاً ، وأن هذا المركز الممتاز لم يتح لوطنه عفواً ، ولم تكسبه له المصادفات ، وإنما جاءه من أن طبيعة الشعب الفرنسى منذ عرف الحياة السياسية أنه لايستطيع أن يعيش إلا فى المقام الأول بين الشعوب ، فهو مخير بين اثنتين ، فيجب أن يكون له الصدر أو القبر كما يقول شاعرنا القديم . فهو لا يستطيع أن يتصور فضلا عن أن يرضى أن تكون الدولة الفرنسية من دول الطبقة الثانية ، وهو قلق أشد القلق ، مضطرب أشد الاضطراب ، بائس أشد البؤس إذا أخرته ظروف السياسة عن مكانته الممتازة فى الطبقة الأولى بين الدول والشعوب ، وتاريخه كله يؤيد هذه الخصلة من خصاله أشد التأييد . وإذاً فعلى الذين يسوسون هذا الشعب وينهضون بشؤون الاصلاح فيه أن يعرفوا هذه الخصلة من خصاله حق المعرفة وأن يتوخوها فى كل ما يدبرون من أمر ، وفى كل ما يشرعون من قانون ، وفى كل ما يهمون به من إصلاح . والشعب الفرنسى لا يرضيه أن يمتاز فى السياسة وحدها ، وإنما يريد أن يمتاز فى كل شىء . يريد أن تكون حياته العقلية على اختلاف فروعها أرقى ما يعرف الناس من حياة العقل ، ويريد أن تكون حياته الفنية أروع ما يعرف الناس من حياة الفن ، ثم يريد أن تكون حياته السياسية ملائمة لهذا كله أحسن الملاءمة ، ومصورة لهذا كله أحسن التصوير .

لا يستطيع أن يفرغ لنفسه وأن يعكف عليها وأن ينفرد بحياته الخاصة الضيقة ، ولكنه ينظر دائماً إلى غيره ويريد دائماً أن يكون سابقاً ، ويكره دائماً أن يكون متخلفاً . وأظن أن أيسر النظر فى تاريخ مصر ينتهى بنا إلى أن الشعب المصرى منذ عرف الحياة السياسية قد امتاز بهذه الخصلة ، بالقياس إلى أمم الشرق القريب .

نلحظ ذلك فى حياتنا منذ أقدم عصورنا التاريخية ، فنحن لم نرض قط ولم نسعد قط إلا حين كان لنا التفوق فى الشرق الأدنى ، وحين كنا دعاة الحضارة وأئمتها فى هذا الشرق ، وحين كانت حياتنا على اختلاف ألوانها مثلاً يحتذى ، وقد ردتنا الظروف فى كثير من الأحيان عن هذه المنزلة المتفوقة الممتازة ، فكنا أشقياء وكنا مع ذلك مجاهدين ، حتى نعود إلى التفوق والامتياز .

فعلى الذين يسوسوننا أن يعرفوا هذه الخصلة من خصال الشعب المصرى وأن يتوخوها فى كل ما يدبرون من أمورنا .

وأول ما عنى به جان جيرودو بل أهم ما عنى به من مواطن الضعف الاجتماعى فى وطنه أمر الجنس الفرنسى نفسه ، فقد نظر إليه من جهات مختلفة : من جهة ما يسمونه نقص المواليد وكثرة الوفيات وتناقص السكان ، ومن جهة ما تدخله المهاجرة إلى فرنسا على هذا الجنس الفرنسى من أسباب الضعف والقوة ومن أسباب الزيادة والنقص ، ومن جهة ما تدخله هذه المهاجرة السهلة من ألوان الفساد الخلقى أحياناً ، ومن ألوان العظمة الخلقية أحياناً أخرى .

والكاتب يود لو أنشئت فى فرنسا وزارة فنية لا تعنى بالسياسة وما يكون فيها من شؤون السلم والحرب ، وإنما تعنى بالشعب الفرنسى ، تمكن أفراده من أن يعيشوا عيشة مادية ممتازة ، تتيح لهم أن يعمروا بلادهم بالنسل الصالح المتزايد القوى الذى يكفى أن يوجد وأن يتزايد وأن يقوى ليكسب فرنسا من المهابة والعزة ما يرد عنها طمع الطامعين وما يضمن لها وللعالم سلماً متصلاً .

وأظن أن أمر الشعب المصرى من هذه الناحية يشبه أمر الشعب الفرنسى ، فقد لا تنقص المواليد فى مصر كما تنقص فى فرنسا ، ولكن عدوان الموت على طفولة مصر وشبابها لا يقاس إلى عدوان الموت على الفرنسيين . ومن المحقق أن مصر مفتوحة لكل طارئ وأن للمهاجرة إليها آثاراً

شنيعة جداً فى حياتنا المادية والمعنوية والخلقية أيضاً .

ويعنى جان جيرودو عناية مفصلة بحياة المدن الفرنسية وبحياة القرى من حيث ملاءمة تخطيطها لحاجة الشعب الصحية ولطبيعته ولذوقه ولآماله فى الرقى . وأؤكد لك أنك تقرأ ما يكتبه عن باريس واضطراب العناية بتخطيطها وتاريخها وصحة أهلها وذوقهم ، فيخيل إليك أنك تقرأ فصلا عن هذا الاختلاط الشنيع الذى أصاب مدينة القاهرة فى العصر الحديث . فهذه العمارات التى تقام حيث يريد أصحابها فى غير ذوق ولا نظام ولا عناية بصحة المجاورين لها ، وهذه الأحياء الأثرية التى تفقد جمالها الفنى لأن يد التجديد تعبث بها فى غير رحمة ولا ذوق ولا حساب . وهذه الأحياء التى أنشئت خارج المدينة لتكون متنفَّساً للمدينة يجد فيها الناس هواءً طلقاً نقياً ، فلم تلبث أن اكتظت بالعمارات الضخمة ، وأصبحت كغيرها من أحياء المدينة موطناً للعلل والأمراض وفساد الذوق وفتور الهمم أيضاً .

كل هذا وأكثر من هذا يصوره الكاتب بالقياس إلى باريس ويصف ما ينبغى من الطب له . وكل هذا وأكثر من هذا يستطيع كاتب مصرى أن يصوره ويصف ما ينبغى من الطب له .

وهناك علة اجتماعية يعنى بها الكاتب الفرنسى ، ويكفى أن أشير إليها لتشعر بأنها من عللنا المتوطنة ، وهى علة المحاباة فى تطبيق القوانين على أفراد الشعب ، لا من الناحية القضائية فالناحية القضائية دائماً بنجاة من اللوم ، بل من الناحية الادارية . فهؤلاء يتاح لهم أن يقيموا عماراتهم الضخمة حيث لا يتاح لأولئك أن يقيموا منازلهم المتواضعة . وهؤلاء يتاح لهم أن يخالفوا بسياراتهم عن نظم المرور ، على حين يؤخذ أولئك بأشد النظم عنفاً وضيقاً ، وهنا يحمل جيرودو على أعضاء المجالس النيابية حملة عنيفة حقاً ، لا تعدلها إلا حملته على أعضاء البرلمان . فهم قوام هذه المحاباة لأنهم يشترون بها أصوات الناخبين ثم ينفضون على رجال الادارة والوزارة حياتهم بألوان الإلحاح والرجاء .

وقد مضى جيرودو فى نقده لرجال البرلمان إلى حد بعيد ، حتى كره أن يستقر البرلمان فى العاصمة قريباً من أصحاب السلطة التنفيذية المركزية ، وتمنى أن يستقر البرلمان فى مدينة بعيدة صغيرة يفرغ فيها لعمله التشريعى ويخضع فيها أعضاؤه لمراقبة الجمهور لهم فى حياتهم الخاصة . فهم فى حاجة إلى هذه المراقبة .

وعلى هذا النحو من النقد الاجتماعى المفصل الدقيق يمضى الكاتب حتى يبلغ حاجته ؛ وإذا هو ينتهى إلى أن الأزمة التى تشكو منها فرنسا ليست أزمة التنافس بينها وبين هذه الدولة أو تلك ، وليست أزمة الخصومة بين هذا النظام أو ذاك من نظم الحكم ، وليست أزمة الاقتصاد التى ينشأ عن الاضطراب فى أعمال المال وفى الاستنتاج والاستهلاك ؛ وإنما هى أزمة أعمق من هذا كله وأيسر إصلاحا من هذا كله ؛ هى أزمة عميقة لأنها تمس حياة الشعب فى أعمق دخائلها ، وهى أزمة يسيرة ، لأن هذا الشعب قوى خصب صالح للبقاء والنماء ، ولكن هناك شرطاً لابد منه لحل هذه الأزمة ، وهو ألا يوكل هذا الحل إلى رجال السياسة الذين اتخذوها لأنفسهم مهنة يعيشون بها فى الوزارات وفى البرلمان . وإنما يوكل هذا الحل إلى الأكفاء الفنيين ، وما أكثر حظ فرنسا حتى فى هذه الظروف العصيبة من الأكفاء الفنيين الذين لا تنتفع بهم فرنسا ، فتدعوهم الدول الأخرى فى أوربا وأمريكا إلى حيث ينفعونها ويكفلون لها التفوق على وطنهم وإن قلوبهم لتمزقها الحسرات .

ألست ترى أن من النصح لوزارة الشؤون الاجتماعية فى مصر أن تلفتها إلى هذا الكتاب وأمثاله ؟ وما أكثر أمثال هذا الكتاب فى غير لغة من لغات الأرض . وقد يخيل إلىّ أن لهذا الكتاب أمثالاً قليلة ولكنها موجودة فى مصر وفى اللغة العربية نفسها .

طه حسين

الفـــخ ...

مترجمة عن تشارلز دكنز

الأستاذ صلاح الدين ذهني

ليس أصدق في الحكم على الناس من قراءة وجوههم إذا امتزجت هذه القراءة بقليل من ملاحظة أخلاقهم .

إن فن قراءة ذلك الكتاب الذي تحتم الحكمة الإلهية على كل امرئ ، ذكراً كان أم أنثى ، أن يملأ فيه صفحته الخاصة بكل دقة وأمانة ، مسطراً فيها معالم شخصيته وأخلاقه ، هو فن قد يبدو عقباً شاقاً أول الأمر . وإني لأعترف فيما يختص بي ، أنني مع عنايتي بقراءة وجوه الناس ، قد خانني التوفيق أكثر من مرة ، فخدعت في كثيرين ممن عرفت ، وخاصة من الأصدقاء . ولكن هذه الخديعة لم تأت يوما من عقم هذه القراءة أو من الخطأ فيها ، كلا ؛ فلو أنني اعتمدت في معرفة الناس على قراءة وجوههم ، وعلى ذلك الأثر الذي تتركه النظرة الأولى إليهم ، لو أنني حكمت بهذا الشعور الحق الذي تثيره رؤية إنسان لأول مرة لما خدعت أبداً ، إنما كانت خديعتي تأتي دائماً من ضياع هذا الشعور وانطوائه عند الاختلاط بهؤلاء الناس والاحتكاك بهم . عندئذ كانت عوامل أخرى تفسد دلالة هذا الشعور وأثره في الحكم ، عوامل الرياء والنفاق ، وتلك الطبيعة في الناس أن يظهروا غير ما يبطنوا من الاحساسات والأفكار والمظاهر .

كنت أعمل مديراً لاحدى شركات التأمين حين حدثت القصة التي سأسردها . وكان يفصل مكتبي عن مكاتب باقي الموظفين حاجز زجاجي شفاف أستطيع أن أرى خلاله كل ما يجري فيها . ولعلي حين أمرت باقامة هذا الحاجز بدلا من الحائط الذي كان يقوم مقامه كنت لا أرمي إلى مراقبة الموظفين ، بقدر ما كنت أرمي إلى أن أستخدم فراستي في فهم الغرباء ، ممن يفدون لعمل من الأعمال ، من قراءة وجوههم لأستعين بذلك في توجيه تصرفي معهم توجيهاً يصون مصالح الشركة التي أعمل بها .

في أحد الأيام لحظت أمام أحد الموظفين سيداً لم أنتبه لدخوله ، قد ترك عصاه وقبعته على الشجب ، ومضى يتحدث إلى هذا الموظف ويتناول منه بعض الأوراق .

كان هذا السيد يناهز الأربعين ، مرتدياً ملابس الحداد ، بادي الأناقة بقفازه الأسود ، وشعره اللامع ، والفرق الذي يتوسط هذا الشعر كأنه ممشى يتخلل حقلا من الزرازع بإنباته وتنسيقه ؛ ولا أدري لم خطرت لي وأنا ألحظ هذا الفرق في رأس الرجل فكرة الممشى يتخلل الحقل . لقد خيل لي أن هذا السيد يصيح بكل من ينظر إليه أن يلزم في حكمه حد هذا الفرق ، بالضبط كما يطلب صاحب الحقل من عابر الطريق أن يلزم الممشى فلا يتعداه .

أجل ! لقد خيل إليّ أن هذا السيد لا يسمح لانسان بأن يتعدى حدود هذا المظهر الذي يبدو عليه ، خطر لي هذا الخاطر حين رأيته يواجه برأسه الموظف الذي وقف أمامه كأنما يقول له في إيحاء خفي : « هيا يا صاحبي . الزم الفرق . خذني كما أنا . إنني لا أحب الفضول ولا أسمح بأي اعتداء » .

لقد شعرت للنظرة الأولى بشعور الكراهية لهذا الرجل . ولا أدري لم اندفعت أرقب حركاته وهو يتحدث إلى الموظف وقد صوب إليه عينيه في ابتسامة لامعة تدعو

فى مظهرها إلى الثقة والاطمئنان ، حتى أحس بوطأة نظراتى المسددة إليه ، فانحرف برأسه نحو الحاجز الزجاجى فى مواجهتى ، وحتى أحسست أنه يهمس بى أنا أيضاً فى إيحائه الخفى أن آخذه كما يظهر نفسه . . . أسير فى المشى ولا أطأ الحقل . . .

مهما يكن من أمر فقد كان شعورى الأول هو عدم الاطمئنان إلى هذا السيد ، رغم مايبدو عليه من إناقة ، حتى إنه ما كاد يغادر المكان حتى دعوت الموظف الذى تحدث إليه وبادرته سائلا :

— من هذا السيد يا مستر آدمز ؟

فأجابنى وهو يقدم إلىّ بطاقته التى كانت لا تزال فى يده :

— مستر جولياس سلنكتون ، من حى ميدل تمبل .

— أمحام هو ؟

— لا أظن ذلك ؟

— لولا أن بطاقته لا تحمل أى لقب من ألقاب الكنيسة لظننته رجل دين .

— ربما كان كذلك .

— وماذا كان يريد ؟

— بعض استعلامات ونماذج طلب التأمين والضمان .

— أقال لك إنه يحمل توصية لشركتنا ؟

— أجل . إنه يحمل توصية لك من أحد أصدقائك ، ولقد لمحك من خلال الحاجز ، ولكنه قال إنه لم يتشرف بالتعرف إليك بعد ، ولا يرى ضرورة لإزعاجك .

— أو يعرفنى شخصياً ؟

— أجل يا سيدى ، فقد قال حين لمحك : « هذا هو مستر سمبسون على ما أظن » .

— شكراً يامستر آدمز . تستطيع الآن أن تمضى لعملك .

* * *

بعد أسبوعين من ذلك اليوم كنت مدعواً للعشاء عند صديق من هواة الصور والكتب . وكان أول من رأيت من المدعوين هو مستر جولياس سلنكتون واقفاً إلى جانب المدفأة ، وقد تجلى على وجهه وعينيه الوضوح والفرح ، وإن كان كما أحسست أول مرة ، لا يزال رأسه المنسق ذو الفرق المتوسط يهمس بنفس الإيحاء الخفى لكل من يراه ، أن يأخذه على علاته ، وكما يظهر نفسه .

ولاحظت أنه يسأل مضيفنا أن يقدمه إلى وأن صديقى يوشك أن يفعل ذلك ، فحولت بصرى عنه حتى أقبلا علىّ فتم التعارف ، وأحسست أن مستر سلنكتون مغتبط بتعرفه إلى جدا ، وإن كان قد حاول أن يبدو اغتباطه كحالة عادية له لا تحمل على الشك والتخمين .

وقال الضيف موجهاً كلامه إلينا :

— أظن أنكما قد التقيتما قبل اليوم ؟ .

فأجاب سلنكتون :

— كلا . لقد ذهبت إلى مكتب مستر سامبسون بناءً على توصيتك ، ولكنى آثرت ألا أزعجه فى أمر كانه يستطيع أن يحققه لى كاتب عادى .

وأجبت على ذلك بأنى كنت أتمنى أن ألبى توصية صديق وأهتم بما يطلب . فقال على الفور :

— أنا واثق من ذلك وشكراً ، على أنه ربما جاءت ظروف أخرى أكون فيها أكثر جرأة عليك حين تجد ما يستحق إزعاجك . إنى لأقدر جيداً قيمة الوقت بالنسبة لرجال الأعمال ، وأعرف ما يعانون من مضايقة ذوى المصالح .

ورددت على هذه المجاملة بانحناءة خفيفة ، ولما سألته : هل كان يفكر فى التأمين على حياته ؟ أجابنى فى تظرف زائد :

— أوه أيها السيد العزيز . أظن أنى لست من التعقل وبعد النظر بالشكل الذى يشاء أدبك أن يفترضه فىّ . لقد كنت فقط أحاول الحصول على بعض الاستعلامات لأحد الأصدقاء يفكر فى التأمين على حياته ، وأنت تعرف بالضبط ما يحدث فى مثل هذه الأحوال ، فقد لا يؤدى الأمر إلى أية نتيجة . فمن العبث إذاً أن أزعج رجال الأعمال وأرهقهم للحصول على إرشادات للأصدقاء تقوم الاحتمالات بنسبة

ألف مقابل واحد على أنهم لن يتبعوها ويطمئنوا إليها . إن الناس كثيرو التردد ، أنانيون تلعب بهم الأهواء . ألا تلمس ذلك كل يوم يا مستر جمبسون ؟

كنت أجيب على هذا السؤال في تبسط ، لولا أن لمت رأس سلتكتون بواجه عيني ، بالفرق الدقيق المستقيم بإيمائه الماسى الحق : « سر في المشى ولا تطأ الحقل » ، كأنه برق خاطف ، فأجبت عندئذ بكل اقتضاب مؤيداً كلامه .

وأتاح لنا استبدال مضيفنا أطباقه بطاء جديد لا يرتاح إلى المحافظة على المواعيد ، فرصة الترسل في الحديث قبل تناول الطعام ، فاستأنف سلتكتون الكلام قائلاً :

— لقد سمعت يا مستر جمبسون أن شركات التأمين منيت أخيراً بخسارة فادحة .

— خسارة مالية ؟

وضحك سلتكتون من تبادر المسائل المالية إلى ذهنى وقال مصححاً :

— بل منيت بخسارة في المواهب والنشاط .

— ليست لدى أية فكرة عن هذه الخسارة .

— طبعاً لا أعنى أنك استقلت من عملك يا مستر سامبسون . إن الأمر ليس بهذه الخطورة . إنما أعنى ذلك المسكين ملتام .

وفهمت ما يقصد فقاطعته :

— آه . تعنى مستر ملتام مدير شركة « السنابل » ؟ إنك على حق . لقد كان أنشط وأخلص موظف وقعت عليه عيناى في شركات التأمين .

وفى الحق ، لقد كان ملتام كما أقول ، وكنت أكن له إعجاباً واحتراماً يفوقان الوصف ، ولشد ما آلمنى أن يعتزل مثل هذا الموظف الكفء العمل ، ويخرج من ميدان ظهر فيه نشاطه وهو لم يتجاوز بعدُ الثلاثين من عمره ، ولقد زاد في ألمى لهجة السخرية التى كان ينم عليها صوت مستر سلتكتون وهو ينطق باسم ملتام فاندفعت أمدحه بكل حماسة ، ثم سألت في تأثر :

— أتعرفه يا مستر سلتكتون ؟

— بمجرد السماع فقط فلم يكن لى شرف التعرف به كصديق ، ولو أنى أتصوره شاباً نشيطاً لا يعدو الثلاثين من عمره .

— هو فعلا في الثلاثين .

— أى كارثة أن يحطم الإنسان مستقبله في هذه السن ويخرج من ميدان الحياة . ما هى الأسباب التى دفعته إلى مثل هذا التصرف المؤلم يا مستر سامبسون ؟

— وما هى الأسباب التى سمعتها أنت ؟

— لا أظن أن ما سمعته أنا هو السبب الحقيق لتركه العمل ، أنت تعرف بلا شك كثرة تقول الناس ، وأنا لا أحب أن أعيد ما سمعت على أنه خبر أرويه ، لأن ذلك لا يعدو أن يكون إحاطة الاشاعة بجو من الصدق والخطورة . ولكن إذا شئت أن تسألنى عن الأسباب التى يشيعونها عن انسحابه من المجتمع واختفائه مرة واحدة فإنى أجيبك إذذاك ، لأنى لا أنقل إشاعة بل أروى خبراً سمعته . إنهم يشيعون أنه تخلى عن المجتمع وعن المستقبل إثر فشل مغامرة غرامية حطمت قلبه ، وإن كنت شخصياً لا أميل إلى تصديق ذلك عن رجل في مثل نشاط ملتام وشخصيته .

— إن النشاط والشخصية ليسا سلاحاً يقاوم الموت .

وأجابنى في فزع وتحسر لا أدرى لم لم أطمئن إليهما :

— الموت ؟ أمات إذاً ؟ إنى لم أسمع بذلك ! إن الأمر أشد هولاً مما أتوقع . مسكين ملتام ، إنها لكارثة لا تحتمل . لا تحتمل !

وكأنما لاحظ علىّ نظرة الريبة التى كنت أتتبع بها حركات شفتيه وهو يتلفظ بكلمات التحسر والأسى على صديق ملتام ، فقال :

— مستر سامبسون . إنك تدهش لما يبدو على من تأثر لكارثة إنسان لم أر وجهه . لقد عانيت شخصياً محنة كمحنته ، ولست عمق الأسى ولوعة الحزن اللذين يعمهما فقد حبيب . لقد فقدت إحدى ابنتي أخي وهما كل من عرفت وأحببت في الحياة . ماتت في سن الثالثة والعشرين ، وحتى أختها الباقية لا ترجى لها حياة لأنها تعانى نفس المرض الذى ماتت به شقيقتها . إن الحياة قبر كبير يا صديق .

كان يتكلم في تأثر عميق حتى لقد أنبني ضميري على ما كنت أقابل به حديثه من برود وتشكك . لقد أصبح البرود والتشكك غالبين علىّ في كل صلاتي بالناس لكثرة ما لاقيت في تجاربي من إساآتهم ، وإن كان كلاهما ليس طبيعة فىّ . ولقد فكرت أكثر من مرة في مدى ما خسرت من الحياة حين فقدت كل ثقتي بالناس ، وفي مدى ما ربحت حين اكتسبت صفتي الحرص والحذر . ولطالما أتعبني التفكير في ذلك ، فلم أصل إلى رأى أرتاح إليه ، ولم أجد في نفسي الرغبة في العدول عما كسبت رغم ضآلته والنزوع إلى استرجاع ما خسرت رغم جسامته .

ودعينا إلى الغداء ، ودار الحديث في شتى المواضيع ، وكان سلنكتون أكثرنا كلاماً وإن كان كلامه بعيداً عن الثرثرة التي تمل ، فقد كان ماهراً في إغراء الناس بالانصات إليه والتهافت على أحاديثه ، ومضيت خلال تناول الطعام أرقبه بدقة . اختبرت وجهه جزءاً جزءاً ، لم يكن في هذه الأجزاء شئ يدعو إلى الريبة أو الشك أو البغض ، كما أنه لم يكن في وجهه كوحدة كاملة ، ما يثير مثل هذا الشعور ؟ ولقد سألت نفسي أخيراً أليَ الحق في الارتياب والتشكك في إنسان لمجرد أنه يفرق شعره في منتصف الرأس ؟ .

إن ذلك لسخف مني .

بدأت أفقد شيئاً من حذرى وارتيابي ، فتخليت عن مراقبة سلنكتون واشتركت مع المدعوين في الأحاديث ، وبعد الغداء سألت مضيفي ونحن جالسان في غرفة التدخين من مدى صداقته لسلنكتون فقال لي إنه يعرفه منذ شهور ، وإنه تعرف به في منزل صديق من الفنانين كان قد تعرف بسلنكتون في غضون رحلته إلى إيطاليا مع ابنتي أخيه حيث كانتا تلتمسان العلاج ، وأن سلنكتون كان يستعد لنيل إحدى الدرجات العلمية حين فجع في إحدى قريبتيه فضعضع الحزن من عزيمته وتخلى عن أداء امتحانه .

أدركت بعد هذا الحديث كم كنت قاسياً في ارتيابي فيما أبداه سلنكتون من التأثر والتحسر على مصاب صديق ملتاع ، وخالجني الندم على هذا التصرف الشائن مني ، فقد وضح السبب في شعوره العميق بكارثة تتشابه مع كارثته تمام التشابه .

* * *

في اليوم التالي لهذا اللقاء ، كنت جالساً على مكتبي أرقب الداخلين والخارجين من خلال الحاجز الزجاجي ، حين رأيت سلنكتون داخلا من الباب الخارجي ، وللمرة الثانية التي أراه فيها دون أن أسمع صوته أحسست بشعور كراهية نحو هـذا الرجل ، لعله كان أشد من شعوري يوم رأيته أول مرة ، ولم تطل الفرصة على استغراقي في هذا الشعور ، فقد ولج سلنكتون غرفتي وهو ينزع قفازه ، ثم بادرني قائلاً :

— يوم سعيد يا مستر سامبسون ، ها أنذا جئت بناءً على تفضلك بإبداء استعدادك لخدمتي وتسهيل ما أرجوه ، وإن كان ما أتيت من أجله أمراً تافهاً لا يستحق إزعاجك بدون تحمس .

وأجبت :

— أية خدمة أستطيع أن أؤديها يامستر سلنكتون ؟

— لا شئ مهم على الاطلاق . لقد جئت بشأن هذا الصديق المتكاسل الذى حدثتك عنه ، كل ما أرجوه أن أعرف ما انتهى إليه تفكيره وتردده ، فقد وافيته بالمعلومات التي طلبها وسلمته نموذجي طلب التأمين والضمان ، أنا واثق مقدماً أنه لن يفعل شيئاً ، فأنا أعرف استهتاره

وتهاونه ، وأعرف أكثر من ذلك تلك الخرافة التي يؤمن بها الكثيرون من أن التأمين فأل سيء على صاحبه ، فهم لذلك يتشاءمون منه .

... سر في المشي ! إلى الأمام يا مستر سامبسون . لا تنحرف يميناً ولا شمالا ... لا أحب أن تفهم إلا ما أقوله ...

كنت أحس بهمس هذه الكلمات يتدافع من خلال الخط الأبيض الذي يفرق شعره والذي يبدأ من أعلى جبهته حيث تركز بصري كأنما تعلق بطلسم ، وانتبهت بعد برهة فأجبت قائلاً :

— إن ما تقوله حق يا مستر سلتكتون . فهناك خرافة من هذا القبيل ، ولكني أعتقد أنها تندثر على مر الأيام .

— على أية حال . إنني لأتمنى أن يهبط على صاحبي هذا ملك من السماء فيقنعه بأن يؤمن على حياته . فقد تورطت فوعدت والدته وأخته بأن أحمله على ذلك ، وهو أيضاً قد وعدهم بذلك . وإن كنت أشك في أنه سيفي بوعده .

وسادت فترة صمت استأنف بعدها سلتكتون الحديث ، وإنما في موضوع آخر غير موضوع التأمين ، ولم تمض بضع دقائق حتى استأذن وانصرف . وفي اليوم التالي لهذا اللقاء لم أكد أفتح أدراج مكتبي حتى وجدت سلتكتون واقفاً أمامي ، وبادرني قائلا :

— هل تسمح لي بدقيقتين فقط يا مستر سامبسون ؟ لقد جئت مبكراً لكي لا أزعجك . إنه موضوع صديقي أيضاً ، فقد قدم طلباً للتأمين على حياته . أو على الأصح أخبرني هو أنه قدم طلباً ، لعل ذلك مجرد وسيلة لتجنب كثرة إلحاح أسرته ، فأنا لا أتصور أنه يقدم على مثل هذا العمل المتزن .

وأقبل في هذه اللحظة مستر آدمز ، فسأله سلتكتون عن اسم صاحبه ، فأخبرني أنه « بكويث » ، فطلبت إلى مستر آدمز أن يبحث عما إذا كان هناك طلب للتأمين قدم إلينا بهذا الاسم ، ولم تمض لحظات حتى أقبل آدمز يحمل معه الأوراق الخاصة بطلب التأمين المقدم من الفريد بكويث على حياته بمبلغ ألفي جنيه ، وتاريخ تحرير الطلب أمس فقط .

وقرأت البيانات المدونة بالطلب ، ثم نظرت إلى سلتكتون مستفهماً :

— إنه من حي ميدل تمپل ، وهو يقدمك لتزكية طلبه . فأجابني بعدم اكتراث :

— أجل . إننا متقابلان في السكن أنا وبكويث ، فهو يقطن نفس الطابق الذي أقطنه . ولكنني لم أفكر أبداً في أنه يطلب تزكيتي . ومع ذلك . دعني أرى . على أي شكل تريدني أن أملأ هذه البيانات ؟

— بالطبع تكتب ما تعرفه على وجه الدقة .

— أو . طبعاً ما أعرفه . هل تسمح لي بريشتك ؟

— بكل تأكيد .

— وبحافة مكتبك لأستند إليها ؟

— بكل تأكيد .

ومضى يجيب على الأسئلة المدونة في نموذج التزكية ، ولكنه قبل أن يجيب على أي سؤال يتلوه في صوت مرتفع ، ويتردد قليلا كأنما يفكر في الاجابة . ثم يسجل إجابته بعد ذلك . وعند ما أجاب على جميع الأسئلة أعاد قراءة ما كتب بكل عناية ، وكأنما اطمأن إلى ما كتب آخر الأمر ، فسلم إلى الأوراق وتحدث بضع دقائق ثم انصرف .

ولعله من الضروري أن أقول إن الاجابات كلها كانت واضحة صريحة ، وإن باقي الأوراق المتعلقة بهذه العملية والتي أرسلت إلى نورفلك حيث تقيم أسرة المؤمن عليه قد وردت إلينا ببيانات مطابقة لما أوضحه سلتكتون . لذلك انتهت الاجراآت بسهولة ويسر ، وتم التأمين على حياة بكويث بعد أن دفع قسط العام الأول .

(لها بقية) صموئيل الدين زهني

آثار الأسرة الأولى بسقارة

في بدء الموسم الماضي لأعمال الحفر في نوفمبر سنة ١٩٣٨ جلست مع زميلي المستر إمري نتحدث عن توفيقنا في الموسم السابق بالعثور على مقبرة الملك (حور أحا) الذي يطلق عليه المؤرخون اسم مينا أو مينيس أول من ضم مملكة الشمال إلى مملكة الجنوب ، فأصبح بذلك أول ملك حكم على المملكة المصرية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال . جلسنا نتحدث عما لدينا من براهين دامغة تفوق بكثير ما ارتكن عليه علماء الآثار الذين سبق لهم الحفر والكشف الأثري ، وقالوا إن مقبرة الملك مينا قد وجدت في العرابة المدفونة ، وكيف أنهم كانوا موقنين من أن مدينة العرابة المدفونة (أبيدوس) هي المقر الذي كان يدفن فيه ملوك الأسرة الأولى .

ولكن كشفنا عن مقبرة أول ملك من ملوك الأسرة الأولى في سقارة ، ومن قبل ذلك عثورنا على مقابر كبيرة الحجم جداً لموظفين كبار تقلدوا الوظائف العليا في عهد الملك « أوديمو » أو « دن » خامس ملوك الأسرة نفسها ، وكذلك مقبرة موظف من عهد الملك عدزإب من نفس الأسرة ، وآخرين من عهد الملك كاع آخر ملوك الأسرة — كل هذا جعل الشك يتطرق إلى النظرية القديمة القائلة بأن مدافن الأسرة الأولى لم تكن بسقارة ، بل كانت في العرابة المدفونة .

وقد كانت المقابر التي دفن فيها الموظفون من عهد الملك (أوديمو) كبيرة الحجم جداً . وعدد هذه المقابر ثلاث . يجاور بعضها بعضاً ، وكانت الأولى للوزير حماكا ، وكان عدد الحجرات التي على سطحها ثلاثاً وأربعين ، ومن حسن الحظ أن عثرنا في كثير من هذه الحجرات على قطع أثرية ثمينة تعتبر من آيات الفن ، إذ لا تقل قيمتها من حيث الصناعة والفن عما صنع في أرقى عصور الحضارة المصرية ، أي في عصر الأسرتين الرابعة والخامسة ؛ وجميع هذه الآثار موجودة في المتحف المصري . والمقبرة الثانية كانت للوزير (عنخ كا) ولو أنها أقل من سابقتها في عدد الحجرات ، إذ تبلغ ثمانياً وثلاثين فقط ، إلا أن بناءها يعتبر من إبداع الفنان المعماري في هذا العصر السحيق ؛ وأغرب ظاهرة في هذه المقبرة أنها كانت ذات ثلاث طبقات ، مفروشة بالخشب على أحدث طراز . أما المقبرة الثالثة فكانت لموظف يدعى (نبيت كا) وفكرة بنائها تخالف المقبرتين السالفتين ، إذ بناها صاحبها على شكل الهرم المدرج ، فغير ذلك ما كان يزعمه علماء الآثار من قبل أن فكرة التدرج في البناء لم تعرف إلا في « الأسرة الثالثة » عند بناء هرم سقارة المدرج .

ومما لم يكن يعلمه رجال الآثار — إذ لم يسبق العثور على ما يؤيده — عبادة العجل أبيس في الأسرة الأولى . فقد كان من الراسخ في الأذهان أن عبادة العجل أبيس ابتدأت في الأسرة الثانية أيام الملك « نيترمو » أو « نيتر إن » ؛ ولكن بعد أن عثرنا على لوح صغير من الحجر الجيري عليه رسم هذا الحيوان المقدس في إحدى حجرات مقبرة الوزير (حماكا) لم يبق للنظرية الأولى ما يسندها ، وثبت بالدليل المادي أن عبادة أبيس بدأت في الأسرة الأولى ، أو أنها كانت معروفة في الأسرة الأولى ، إذ ربما كشف البحث عن وجود هذه العبادة من قبل .

ولما كانت السفن المقدسة قد وجدت فى الأسرة الرابعة ، فقد ظن كثير من العلماء أن عبادة الإله رع بدأت فى الأسرة الرابعة فقط . ولكن عند ما وجدنا مقبرة الوزير (عنخ كا) عثرنا فى الجهة البحرية منها على سفينة من هذا النوع ، كان لابد من وجودها بجوار المقبرة كى يشترك الميت بها فى موكب الإله رع ، ويكون بذلك فى ركابه . وهذا دليل على أن عبادة الإله رع كانت معروفة أيام الأسرة الأولى .

ورب معترض يقول إن وجود سفينة واحدة لا يكفى لإثبات نظرية مهمة كهذه . ولعل من حسن التوفيق أننا قد عثرنا على سفينة ثانية فى الجهة البحرية من مقبرة الوزير (حما كا) بعد إعادة البحث حولها لظروف نرجو أن نتمكن من الكلام عنها فى مقال آخر . ولم نلبث أن عثرنا على سفينة ثالثة فى الجهة البحرية من مقبرة الملك « حور أحا » أول ملوك الأسرة الأولى . وأظن أن فى وجود هذه السفن الثلاث أكبر دليل على صحة النظرية الجديدة وجعلها أرسخ قدماً مما كنا نظن ؛ إذ وُجدت القوارب المقدسة هذه عند بدء الأسرة الأولى ، وكذلك استمرت إلى عهد الملك الخامس « أوديمو » .

بدأت مقالى هذا بأننا كنا نتحدث عن العثور على مقبرة الملك (حور أحا) وأننا كنا نؤمل فى أن نوفق إلى العثور على مقبرة ملك آخر من ملوك الأسرة الأولى أيضاً . ولقد كان أملنا ضعيفاً جداً فى تحقيق ما كان يجول بخاطرنا ، إلا أن حياة المشتغلين بالكشف من رجال الآثار مليئة بالمفاجآت . وقد يكون بعض هذه المفاجآت مؤلماً يحز فى النفس ، كما أن بعضها مفرح .

ولكن كانت المفاجأة التى قوبلنا بها من النوع السار ، إذ لم يمض وقت طويل بعد حديثنا حتى عثرنا على مقبرة الملك (جر أو زر) الذى يرتبه علماء الآثار الثانى بعد الملك (حور أحا) أول ملوك الأسرة الأولى .

وكان من حسن الحظ — رغم احتراق المقبرة — أن عثرنا فى إحدى الحجرات التى تلى حجرة الدفن مباشرة على عدد عظيم من الأوانى النحاسية والأدوات والآلات . وأهمية هذا الكشف هى فى عثورنا على أشياء لم يسبق أن عثر أحد العلماء على شىء يماثلها ، اللهم إلا مرسومة فقط فوق جدران المقابر فى الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة ومابعدها . أما العثور على هذه الأشياء نفسها فقد كان يعتبر ضرباً من الخيال ، إذ ظن كثير من علماء الآثار أن مصر لم تكن تعرف مثل هذه الأدوات إلا بالتخيل فقط .

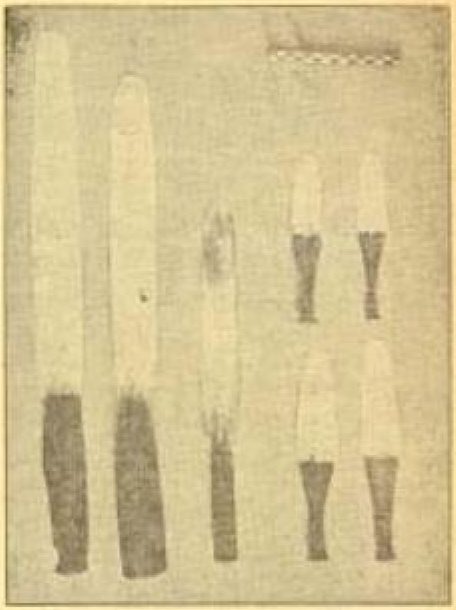


قرص مستدير من حجر الشست (الأردواز) عليه تطعيم بارز لكلبين من النوع السلوقى ، يطارد أحدهما غزالا بينما انقض الثانى على الآخر ، وجد بمقبرة حما كا (الأسرة الأولى) .

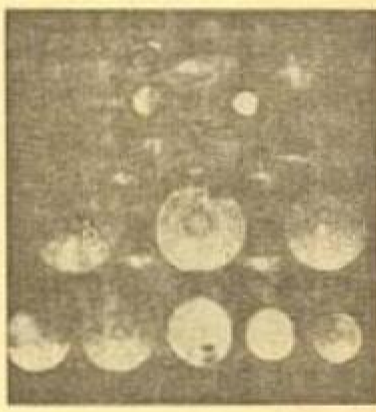


قرص مستدير من الحجر عليه تطعيم بارز لحاجين ، وفى الدائرة حولها التطعيم بالعاج ، وجد بمقبرة حما كا . وربما كانت هذه الأقراص رؤوساً للمغازل اليدوية كالمستعمل فى الريف إلى الآن .

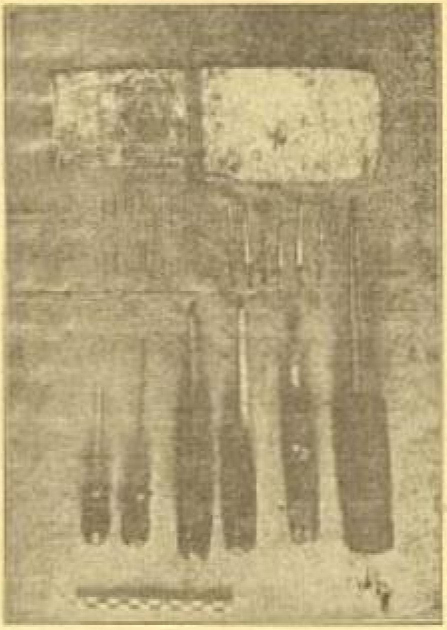
ومن بين هذه الأشياء سيوف دقيقة الصنع رقيقة الطرق، لها أيد من الخشب. وخناجر على أحسن ما تكون صنعة الخناجر، ذات مقابض خشبية. ثم هناك كثير من السكاكين والفؤوس والقوادم والثاقب. وكل هذا فى أعداد كبيرة.



سيوف وخناجر من النحاس أيديها من الخشب، وجدت بمقبرة الملك جر "زر" الأسرة الأولى.



مجموعة من الأوانى النحاسية لبعضها سنابير وبعض أطباق وصحاف مختلفة الأحجام والأشكال وجدت بمقبرة الملك "جر".



أزاميل ومثاقب ذات أيد من خشب، وإبر للخياطة وأوعان من النحاس وجدت بمقبرة الملك "جر".

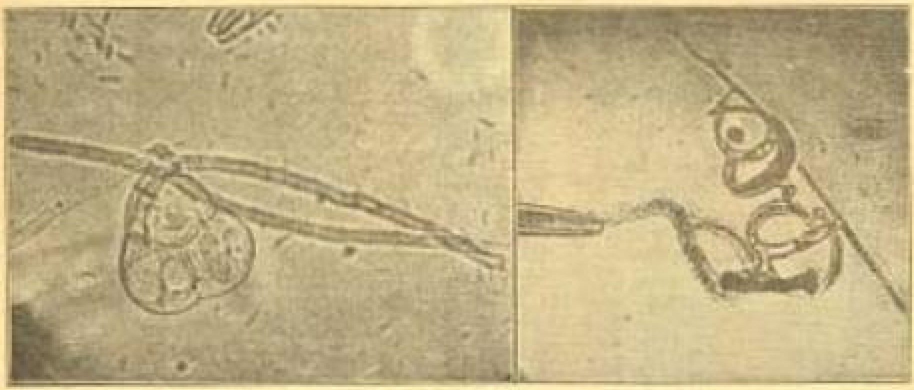
أما الأوانى النحاسية فمن بينها أباريق ذات سنابير قد ثبتت فى الأوانى بمسامير دقيقة من النحاس أيضاً. وأطباق مختلفة الأشكال والأحجام لا تقل عن أطباق هذا الزمن فى شيء. ولعل أغرب ما وجد بين هذه الأشياء جميعاً إبر الخياطة. فقد وجدنا ما يزيد على المائتين من هذه الإبر، ذوات أحجام كبيرة ومتوسطة وصغيرة. وقد بلغ بعض الإبر من الصغر حداً كبيراً، حتى إنه ليحسب وصفى له بذلك على سبيل المبالغة. أما ثقوب هذه الإبر فإنها تجعل الانسان يطيل الفكر فى دقة الخيوط التى كانت تستعمل فى هذه العصور السحيقة فى أعمال الخياطة والتطريز.

زكى يوسف سعد

السينما فى خدمة العلم

لقد فتحت السينما عيوننا على ميادين جديدة ، عجيبة بما فيها من مخلوقات دقيقة ، ومدهشة بما فيها من محتويات لم يكن ليتسنى لنا معرفتها أو رؤيتها بالعين المجردة ، فإن جماعة من العلماء والباحثين الممتازين بتجاربهم الجريئة فى بعض ممالك العالم المتقدمة فى العلم والحضارة ، استخدموا السينما فى تصوير نتائج أبحاثهم وتجاربهم ، فكانت النتيجة أن قدموا للعالم مجموعة من الأفلام العلمية المدهشة التى كشفت عنها شيئاً بحواسنا العادية ، وقدمت لنا أسرار تلك الميادين بشكل واضح ظاهر .

ولكى نعطى القراء فكرة سريعة عما أمكن كشفه من أسرار الحياة نقول إنه عند ما كبر رأس العنكبوت بواسطة الميكرسكوب ثم صور بالسينما اتضح بجلاء أن له عيناً ذات أربع فتحات ، ولما روقبت حركة النبات المعروف باسم « عش الغراب » ، لوحظ أنه يتغذى على ديدان دقيقة للغاية لا تراها العين المجردة ، ولوحظ أيضاً أن جذور هذا النبات تنتهى بفتحة تلتقط بها الديدان المذكورة ، ثم تدخلها إلى جوفها وتهضمها . أفليس عجيباً إذاً أن نرى



منظر مأخوذ من فيلم علمى عن نبات « عش الغراب » يبين كيفية التقاط هذا النبات للديدان الدقيقة بجذوره ، ويبين بشكل عجيب كيف تهضم « معدته » هذا الغذاء

كشفت القناع عن الكثير من حقائق الحياة وأسرارها الغامضة . ذلك لأنهم استعانوا بالميكرسكوب وبالأشعة دون الحمراء ، وكذا بالأشعة فوق البنفسجية وأشعة اكس ، فى تصوير هذه الأفلام ، فأظهروا بالسينما ما لم تكن تراه العين بدون هذه الوسائل ؟ كما أنهم كبروا الذرات الدقيقة ملايين المرات فبدت واضحة جلية مثيرة لكل دهشة وإعجاب . وهكذا أتاحوا الفرصة لمن يهمهم الأمر لأن يشاهدوا هذه الحقائق العجيبة وأن يدرسوها أو يزيدوا معارفهم عنها ، فكأن السينما غزت ميادين الحياة الخفية التى لم نك نعرف

هذه العملية وهى تتكشف أمامنا على ستار السينما بكل جلاء ووضوح ؟ لقد أدت السينما من هذه الناحية خدمات علمية جليلة ؛ وليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن فن الطيران تقدم كثيراً ووصل إلى ما وصل إليه بفضل السينما ، بعد أن صورت حركات الطيور وأجنحتها فى أثناء الطيران والدوران والهبوط والارتفاع ، فطبقت حركاتها على الطيران الآلى وأسفرت عن النتائج المدهشة التى وصل إليها هذا الفن العظيم .

إن الأفلام العلمية تجد فى أوربا وأمريكا اهتماماً

شديداً من الناس ، ويكاد هذا الاهتمام يفوق اهتمام الناس بالروايات التمثيلية الرائعة المواضيع ، المحبوكة الإخراج والتمثيل ؛ ذلك لأن الناس يحبون رؤية العجائب والمسائل الغريبة ، وهذه متوفرة في الأفلام العلمية التي تقدم لنا أموراً غير عادية لنا في حياتنا اليومية ، لأنها في الواقع أمور تكاد تكون سحرية ، ولو أنها حقيقية بلا أدنى نزاع .



كبر رأس العنكبوت بواسطة الميكرسكوب ثم صور بالسينما فكانت النتيجة أن اتضح أن للعنكبوت عيناً ذات أربع فتحات كما هو ظاهر في الصورة المأخوذة من أحد الأفلام العلمية .

ومع ما يبديه الجمهور من اهتمام بهذا النوع من الأفلام فإن عددها قليل بالنسبة للأفلام الروائية ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الميادين العلمية التي تغزوها السينما محدودة ، فهي لا تتعدى المسائل الفلكية وأسرار السماء وما فيها من كواكب ونجوم ، ومسائل الكيمياء الصناعية وجراحة الطب ، وعلم النفس وتجاربه المدهشة ، وعلم الحيوان والنبات وما إليها .

وفضلا عن ذلك فإن إيراد الفيلم العلمي لا يغطي مصاريفه ، فقديماً ، قبل ظهور السينما المتكلمة ، كانت المسألة لا تتعدى ثمن الفيلم وأجرة التصوير ومصاريف التجربة العلمية ؛ أما الآن وقد تكلمت السينما ، فالفيلم العلمي يجب أن يكون مصحوباً بصوت المتكلم الذي يشرح الموضوع الذي تصوره السينما ، أو بقطعة موسيقية متمشية مع النظر ، وهذا يزيد في تكاليف إخراج الفيلم كما هو واضح .

ومن الوجهة التجارية فإن دور السينما عادة لا تدفع ثمناً مغرياً للفيلم العلمي الذي يزيد طوله عادة عن ٣٠٠ متر ، لأنه يخشى أن يمل الجمهور مشاهدة مسائل علمية بحتة لو أطيل الفيلم عن ذلك ، ولو أن تحديد طول الفيلم العلمي بهذا المقدار من الأمتار يقلل في الواقع من أهميته ، لأنه لا يمكن تصوير تفاصيل الحقائق العلمية في مثل هذا القدر المحدود من الأمتار ، فكأن الفيلم العلمي رغم نجاحه الظاهر ، لا يزال ناقصا ولا يزال في حاجة إلى تعديل حاله ، حتى لا يقتصر استخدامه على مدرجات الجامعات والمدارس ، بل يتعداها إلى دور السينما العمومية ، حيث يستخدم حاليا كفيلم تكميلي فقط وليس كفيلم أساسي ، فهو يعرض عادة مع رواية طويلة لتكملة البرامج ، وإطالة مدته لوقت معين .

ولعل المؤتمر الدولي للأفلام العلمية الذي يقام سنوياً في باريس يضاعف جهوده في سبيل الوصول بالفيلم العلمي إلى المكانة الجديرة به والمناسبة لأهمية المواضيع التي يعالجها .

وبهذه المناسبة نذكر أن هذا المؤتمر أقيم أخيراً بباريس قبيل الحرب الحاضرة وعرض به ٥٠ فيلماً من إنتاج فرنسا وانجلترا وأمريكا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا والبرازيل والأرجنتين والروسيا وغيرها من البلاد التي يهتم فيها العلماء بتصوير أبحاثهم ونتائجها بالسينما . وقد دام هذا المؤتمر ثلاثة أيام ، وكان من أهم قراراته الاعتماد على السينما في المعامل الكيماوية بحيث تصبح من ضمن أدوات المعامل الرئيسية كالميكرسكوب والترمومتر ، ولا شك أن دخول « الكاميرا » في المعامل سيزيد في أهمية السينما العلمية نظراً لما يمكن أن تقدمه لنا من عجائب ومدهشات في الأفلام القادمة بإذن الله .

« كينو »

أنباء وآراء

في إدارة الدعاية

جاء في الخطاب الذي بسط فيه الأستاذ توفيق الحكيم مدير الدعاية بوزارة الشئون الاجتماعية للصحفيين مهمة إدارته، جملة جديرة بالنظر والاهتمام، فقد قال: «ولسوف نستخدم ما لدينا من وسائل في بث الفضائل وتدعيم الروح القوى النبيل، وفي تهذيب الذوق العام بتشجيع الفن الصحيح والدنو به من الكمال وتعويد الناس فهم الجمال. وعند ذلك ترق النفوس والعقول ويتم للشعب بلوغ ما نصبو إليه من مرتبة عالية بين الشعوب الراقية المجيدة».

وهذه عبارة تسترعي الانتباه حقاً، لأن الحياة الفنية في مصر جديرة بالعناية والتوجيه الصحيح، وهي إن كانت تسير في إحدى نواحيها بتقدم فإنها تتخبط في النواحي الأخرى لسبب واحد هو عدم وجود اليد القوية التي توجهها التوجيه الصحيح. وما من شك أن الأستاذ توفيق الحكيم كرجل فنان يتذوق الجمال يستطيع أن يؤدي الرسالة إن توفر عليها وخصص لها نفسه، وإننا لنحس من نفس هذا الخطاب أنه يدرك تماماً مواطن التخبط في الحياة الفنية في مصر، حين أشار إلى الأغاني وأشرطة السينما والروايات المسرحية التي تتسرب خلال كثير منها أشد الجرائم الخلقية فتكاً بكيان هذا الشعب والتي تبعد كل البعد عن الفن الصحيح.

مجلة العمارة

أهدت إلينا مجلة العمارة الأعداد الأخيرة التي أصدرتها وبينها عدد خاص عن «الفيلا» وآخر عن «الفن» وكلاهما جدير بالعناية والتقدير، فقد حوى عدد الفيلا مقالات قيمة عن إنشاء الفيلا وبيانات فنية عن أنواعها المختلفة في شتى الأمم، إلى جانب صور رائعة لنماذج من الفيلات المصرية الأنيقة التي بنيت في السنوات الأخيرة، ولطرز البناء المختلفة في كثير من البلدان الأوربية.

أما عدد الفن فقد ضم مجموعة من آثار الفنانين المصريين المختلفين مع مقالات رائعة عن كثير منهم بقلم فريق من المشتغلين بالفن والنقد الفني، وصفحة ممتازة ضمت مجموعة من صور تماثيل الفنان النابغ المرحوم مختار مع دراسة عن فنه وتاريخه.

ونحب هنا أن نشير إلى ما يلاحظه المتصفح لأعداد هذه المجلة من أثر الجهد الذي يبذل فيها والعناية التي تراعى في إعدادها، ذلك الأثر الذي يبدو في الأناقة والتبويب والفخامة وحسن اختيار الموضوعات في كل عدد من أعدادها؛ وإنه لجدير بالمثقفين أن يتلقوا مثل هذا الجهد الذي يكمل ناحية من نواحي الثقافة كانت من غير شك تنقص صحافتنا، ناحية هندسة البناء؛ فمجلة العمارة تملأ فراغاً في الصحافة الفنية، وهي من هذا الوجه حقيقة بالتشجيع جديرة بأن توفق في حياتها بتعضيدها في هذا النهج الذي تنهجه، لا سيما وأن المشرفين عليها من خيرة الشبان المصريين الذين تثقفوا ثقافة فنية عالية فيما خصصوا أنفسهم لأدائه، وتنطق بهذه الثقافة كل صفحة من صفحات مجلتهم.

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى: ٦٠ فى مصر والسودان / ٨٠ فى الأقطار العربية / ١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

إنه فى يوم الاثنين ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً وما بعده بنجع الشيخ جراو بالمحافرة سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك أحمد ابراهيم على من المحافرة وآخرين كطلب عباس محمد على نور الهدى التاجر بدراو نظير مبلغ ١ جنيه و ٢٠٠ مليم المحكوم به والمصاريف بخلاف أجرة النشر نفاذاً للحكم المدنى الصادر من محكمة كوم امبو الجزئية فى القضية رقم ١٢٤٣ سنة ١٩٣٩

عن راغب الضراء المحضر ٧٦

إنه فى يوم السبت ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بجهة بندر الفيوم وإذا لم يتم فى يوم الثلاثاء ٢٨ منه بسوق الفيوم سيباع علناً أردبين أذرة بلدى الشامى المحجوز عليها تنفيذاً فى ٢٧/٩/١٩٣٩ ملك ورثة السيد احمد مصطفى الشطى البينة أسماؤهم وصفاتهم بإعلان المحكم الرقيمى، كطلب حضرة صاحب المعالى عبد الرحمن عزام بك بصفته وزيراً للأوقاف وناظراً على وقف أبو جاب الحجيمى نفاذاً للحكم نمرة ١٠٩٧ سنة ١٩٣٧ الصادر بتاريخ ٢٨/١٢/١٩٣٦ من محكمة الفيوم الأهلية وقدره مبلغ ٨٩٢ مليم بخلاف ما يستجد

عن راغب الضراء المحضر ٧٧

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٣ — الثلاثاء ١١ رمضان سنة ١٣٥٨ — ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

الزحف الروسى نحو الغرب
ما جنته ألمانيا على نفسها وعلى العالم

لمحرر «الثقافة» السياسى

لما دخل الجيش الروسى شرقي بولونيا فجأة فى ١٧ سبتمبر الماضى ، بينما كان الجيش الألمانى منهمكاً فى غزوها وتدميرها من الغرب ، اختلفت الآراء فى شأن هذه الحركة ومداها ، فرأى البعض أنها ليست إلا أثراً من آثار الميثاق الذى عقد قبيل نشوب الحرب بين روسيا وألمانيا ، ورأى البعض الآخر أنها بالعكس حركة فجائية لا علاقة لها بالميثاق السوفيتى الألمانى ، وأن روسيا قامت بها حينما هالها توغل الألمان بتلك السرعة فى بولونيا ، وخشيت أن يمتد زحف الجيش الألمانى إلى المناطق التى تسكنها الأقليات الروسية فى شرق بولونيا وجنوبها ، فبادرت

باحتلال هذه المناطق ، معتمدة على الأمر الواقع ، واثقة بأن ألمانيا فى ظروفها الحالية لا يمكن أن تبدى أية مقاومة أو اعتراض لرغباتها .

وقد أيدت الحوادث التالية هـذا الرأى الأخير ، فاضطرت ألمانيا ، نزولا على حكم الأمر الواقع أن تسعى إلى تحديد موقفها إزاء روسـيا فى بولونيا وفى شرق أوربا ، وعقدت مع روسـيا ميثاقاً جديداً بتقسيم بولونيا ، فازت فيه روسيا بنصفها الشرقى ، وقبلت فيه ألمانيا أن تطلق يد روسيا فى شرق البلطيق ، نظير معاونة روسيا الاقتصادية لها ، ونظير الوعد بتأييدها فى مساعيها لانهاء الحرب وعقد صلح تطمئن به على استبقاء فتوحها الجديدة .

ولم تلبث روسيا السوفيتية أن كشفت القناع عن طرف من خططها ومراميهـا ، فبادرت بتهديد لتونيا (لاتفيا) ، ثم استونيا ، ثم لتوانيا ، وهى دول البلطيق الشرقية ، واستطاعت أن تفرض عليهـا الواحدة بعد الأخرى « مواثيق بعدم الاعتداء » ، وهى فى الواقع حمايات مقنعة ، إذ حصلت روسيا بمقتضاها على أن تمنح حاميات عسكرية ، وأن تقيم مطارات فى قلب كل من الدول الثلاث ، وفى شواطئها وثغورها .

ثم جاء دور فنلندة وهى رابعة دول البلطيق التى سلخت من روسيا فى الحرب الكبرى ، فدعتها حكومة موسكو لتفرض عليها نفس المطالب التى فرضتها على زميلاتها ؛ ولكن فنلندة تتصل فى الواقع بدولتى الشمال ، السويد والنرويج صـلة وثيقة ، وهى على استعداد للدفاع عن استقلالها ؛ ومن ثم فان المفاوضات التى بدأت بينهـا وبين موسكو لم تنته بعد إلى نتيجة ، وقد اهتمت أمريكا لقضيتها ، فبعث الرئيس روزفلت رسالة شخصـية إلى كالينين رئيس حكومة السوفييت يوصى فيه بعدم الضغط على فنلندة ؛ ودعت السويد إلى عقد مؤتمر من الدول الشمالية للبحث فى هذه المسألة وما يتصل بها .

ومن جهة أخرى ، فقد حصلت روسيا بحلولها فى جنوب شرقى بولونيا ، واتصالها بذلك بحدود المجر وحدود رومانيا الشمالية ، على مراكز للضغط فى أوربا الوسطى ، وظهر أثر هذا الضغط سريعاً إذ بادرت المجر التى لم تكن قد اعترفت بعد بالحكومة السوفيتية إلى الاعتراف بها ؛ واتخذ الضغط الروسى فى اتجاه البلقان شكلا واضحاً ؛ وفى قطع المفاوضات الروسية التركية التى كانت تجرى فى موسكو منذ حين وفى البيانات الرسمية التى صدرت فى أثرة عن هذه المفاوضات ، ما يدل على أهمية الاتجاه الجديد الذى تنوى أن تتجه إليه روسيا السوفيتية ، فهى تسعى إلى إغلاق مضايق البحر الأسود (الدردنيل والبوسفور) إغلاقاً تاماً ، وجعل البحر الأسود بحيرة روسية ، لا تدنو من شواطئه أو تجوز إلى مياهه أية دولة أجنبية ، وإلى استئناف نفوذها التقليدى فى بلاد البلقان ، باعتبارها حامية الأمم السلافية .

— ٢ —

وإذا كانت سياسة السوفييت الخارجية تدخل بذلك فى طور جديد ، فانها مع ذلك لم تتغير فى جوهرها عما كانت عليه سياسة القياصرة . ولقد شغل لينين وخلفاؤه البلاشفة مدى حين بغاياتهم الكبرى ، ومنتهى مثلهم العليا ، أعنى الثورة العالميـة ؛ وكانت جهود الدولة الشيوعية الثالثة (الكومنترن) فى بث الدعوة الثورية وتحريك الطبقات العاملة فى مختلف الأمم ، هى أهم وأبرز جهود موسكو فى ميدان السياسة الخارجية ؛ وكانت هذه الجهود تسفر من وقت إلى آخر عن فورات شيوعية خطرة فى بعض البلاد التى تصدع بناؤها الاقتصادى على أثر الحرب الكبرى ؛ ولا سيما فى أوربا الوسطى التى كانت بالأخص ميداناً خصباً لتجارب الكومنترن . ففى المجر قامت بالفعل حكومة شيوعية بقيت أياماً ، وغلبت الاشتراكية الثورية فى النمسا وألمانيا ورومانيا ؛ وامتدت جهود الكومنترن إلى آسيا ، فاضطرمت الصين بحركة ثورية واسعة النطاق لا تزال آثارها

بارزة فى حوادث الصين حتى اليوم ؛ ولبثت أوربا أعواماً تقاوم شبح البلشفية ، حتى استطاعت أن تتغلب عليه ، وأن تحصره فى روسيا ؛ وجنح السوفييت ، بعد إذ رأوا ما جرّته عليهم سياسة الكومنترن المرقة ، من العزلة الاقتصادية والسياسة ، إلى شئ من الاعتدال ؛ وكانت سياسة ستالين ترى بالأخص إلى التقرب من الدول الغربية ، واستئناف العلائق الطبيعية معها ؛ وأسفرت هذه السياسة عن دخول روسيا فى عصبة الأمم ، وارتباطها مع معظم الدول الغربية بمعاهدات تجارية ومواثيق سياسية ؛ بيد أن هذا التقرب لم يسفر على أى حال عن استعادة روسيا لنفوذها السابق فى شئون أوربا ، لأن الدول الغربية كانت لتوجسها وحذرها من أغراض موسكو تعمل دائماً على إبعاد هذا النفوذ .

ومن الخطأ أن نعتقد أن روسيا البلشفية قد نزلت عن الأغراض الجوهرية التى كانت تقوم عليها سياسة القياصرة الخارجية ، ولا سيا فى الناحية الاستعمارية ، والعمل على بسط النفوذ السلافى ؛ فقد كانت هذه الأغراض وما زالت روح السياسة السوفيتية ، وكل ما هنالك أن موسكو شغلت بجهودها الثورية مدى حين ، ولم تتح لها فرص صالحة للعمل فى الميدان الأوربى .

— ٣ —

أما الآن فإن روسيا تسترد مكانتها القديمة فى الدبلوماسية الأوربية بفضل السياسة الهتلرية ؛ ولقد حاولت إنكلترا وفرنسا من قبل ذلك أن تجتذبا روسيا إلى الاشتراك معهما فى العمل على إحياء جبهة السلامة الاجماعية ، ومقاومة التوسع الجرمانى ، الذى تعتبر مقاومته من الأغراض التقليدية للسياسة الروسية ؛ ولكن هذه المحاولة فشلت نظراً لأنها كانت مقيدة بغايات وظروف معينة ، ولم تر فيها روسيا ما يحقق أملها فى إطلاق يدها فى شئون أوربا الشرقية ، وفى استئناف العمل لتحقيق غاياتها الاقليمية .

أما ألمانيا الهتلرية فانها نظراً لحرج مركزها وعزلتها السياسية الخطرة ، وحرصاً على تفرغها لمقاومة الدول الغربية ، لم تقف فى سبيل تفاهمها مع روسيا عند أية تضحية إقليمية أو دبلوماسية ، ولم تجد سبيلا لأن تخطب ود روسيا بعد طول خاصمتها لها ، إلا أن تشركها معها فى اقتسام غنائمها ، وأن تتخلى لها عن مناطق البلطيق ، وأن تفسح لها سبيل الزحف إلى أواسط أوربا وإلى البلقان .

وقد كان هذا التحول الخطير فى السياسة النازية ، ضربة أليمة لألمانيا الهتلرية ذاتها ؛ فقد كانت لألمانيا قبل اتفاقها مع روسيا مطامع وحركات ظاهرة فى دول البلطيق ، وكانت تعتبر هذا البحر منطقة نفوذ خاصة بها ؛ وكان الزحف الألمانى نحو الشرق Drang nach Osten ، أعنى شرق أوربا ، ونحو الجنوب يجرى ، بعد سقوط تشيكوسلوفاكيا بسرعة عظيمة ؛ وكانت مطامع ألمانيا فى اليوكرين موضع توجس موسكو ؛ ولكن هتلر أرغم فى اللحظة الأخيرة على أن يحطم بيديه مشاريعه وأحلامه فى هذا الميدان ، لكى يحول دون تفاهم روسيا مع الدول الغربية من جهة ، ولكى يتقى خطر الحرب فى جبهتين ، ويستطيع بذلك أن يتفرغ لمحاربة انكلترا وفرنسا فى الغرب .

على أن السياسة الهتلرية كانت فى ذلك قصيرة النظر ؛ وقد عملت فى الواقع بالمثل القائل « اقتلونى ومالكاً معى » .

ذلك أنه فضلا عن انهيار مشاريع السياسة الألمانية ومطامعها فى شرق أوربا وفى البلقان ، فإن ألمانيا نفسها قد أضحت معرضة لخطر البلشفية الرهيب ؛ ومن المحقق أن فكرة الثورة العالمية تعود اليوم فتملأ أحلام البلاشفة ؛ ولقد حطم هتلر فى سبيل مطامعه ، حواجز البلشفية فى أوربا الوسطى ، ونعنى النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا ، وأضحت ألمانيا النازية اليوم تقف مع البلشفية وجهاً لوجه ؛ ولا ريب أن فى أحوال ألمانيا الداخلية ، وما يعانيه الشعب الألمانى من شنيع الاضطهاد والضغط ، ومن مصائب البؤس

الاقتصادي، وسوء التغذية، ما يجعل خطر البلشفية أقرب إلى ألمانيا مما يظن زعماؤها .

ولقد جازت ألمانيا هذه التجربة الرهيبة سنة ١٩١٩ حين خرجت محطمة من الحرب الكبرى ، وكادت تسقط فريسة الشيوعية ؛ وكانت تضطرم حتى قيام الحكم الهتلرى بحركة شيوعية قوية يمثلها فى الريخستاج زهاء مائة نائب ؛ وكان زعيمها « تيلمان » منافس هتلر وهندنبورج فى انتخابات الرآسة فى سنة ١٩٣٢ ، وقد حصل فيها على نحو ثمانية ملايين صوت . وقد عمل هتلر حينما تولى الحكم على تحطيم هذه الحركة بكل ما وسع ، وصفقت له أوربا والعالم كله ؛ ولكنه يعود اليوم فيعمل بنفسه على إحياء آمال الشيوعية فى ألمانيا ؛ وقد كان من أثر عقد الميثاق السوفيتى الألمانى أن أفرج عن آلاف من الشيوعيين الألمان بطلب موسكو ؛ ومن المحقق أن الهيئات الشيوعية التى أخمدت الهتلرية صوتها من قبل والتى تعود اليوم فتسترد شيئاً من الانتعاش ، لن تبقى جامدة إزاء تشجيع موسكو وعطفها .

فهل تسير ألمانيا مرة أخرى إلى هذا المنحدر الخطر ؟ هذا ما يتوقعه البعض ؛ بل يرى البعض أن هتلر يرى فى اقتراب هذا الخطر ذاته ، وفى التلويح به للدول الغربية وسيلة لإرغامها على عقد الصلح ، وإنقاذ ألمانيا من الكارثة المحتومة التى تنحدر الآن سراعاً فى سبيلها . (***)

فن الحـــزن . . .

للدكتور طه حسين بك

كل الناس يحب السرور ويحرص على أن تفتح له أبوابه ، وتمد له أسبابه ، ويقدر له منه حظ مقسوم . وكل الناس – فيما أظن – يقيس رضاه عن الحياة ورضاه بها ، وسأمه من الحياة وسخطه عليها ، بما يتاح له فيها من آناء السرور . فمن عظم حظه من السرور والابتهاج ، وأتيحت له هذه اللذات المختلفة التي تسره وتشيع البهجة في نفسه والغبطة في قلبه ، كان راضياً مطمئناً مستزيداً من الحياة . ومن قل حظه من هذا السرور ، ولم تمنحه الأيام أسبابه ودواعيه إلا بمقدار ، كان ضيقاً بالعيش ، منصرفاً عنه ، زاهداً فيه .

ومن أجل هذا فكر صديقنا أحمد أمين في ساعة رضى وطمأنينة ، أو في ساعة غضب وسخط ، فكر في أن ينشئ السرور فناً ، وفي أن يرسم لهذا الفن شكلا ظاهراً تخطيطياً كما يقول المهندسون ، لأن هذا هو جهد الكاتب . وأحال على علماء النفس درس هذا الشكل التخطيطي وتعمقه ، وإقامة بنائه المتين الذي يجد الناس فيه منهاجاً صالحاً يعلمهم كيف يسرون حين تريدهم الحياة على أن يحزنوا ، وكيف يفرحون حين تدعوهم الأيام إلى أن يترحوا ، وكيف يبتهجون حين تضطرهم الحوادث إلى أن ييتئسوا ، وكيف يلعبون بعقولهم ، فينقلونها من موضوعات الحزن واليأس إلى موضوعات السرور والأمل ، كما يلعبون بالشطرنج فينقلون أحجاره من مكان إلى مكان .

ولست أخفي على صديقي أحمد أمين ، وعلى قرائه وقرائي في « الثقافة » ، أني رضيت عن هذا الشكل التخطيطي لهذا الفن الجديد ، وابتهجت به نفسي ، وأني طمعت وما زلت أطمع في أن يعني علماء النفس بإقامة بنائه الدقيق العميق ، لنتعلم كيف نسر أنفسنا ونرضيها حين يكون كل شيء من حولنا يدعو إلى الأسى والابتئاس ؛ ولست أخفي على صديقي أحمد أمين ، ولا على قرائه وقرائي أني لستُ بعيد الأمل ، ولا عظيم الرجاء في إقامة هذا البناء ، ولا في إنشاء هذا الفن الجديد الذي يُعلِّم الناس كيف يسرون وكيف يلتمسون أسباب السرور . ومصدر الشك الذي أجده يسيرٌ جداً ؛ فقد طلب أحمد أمين إلى علماء النفس أن يعنوا بفنه هذا ؛ فمن الذي أنبأه بأن العناية بهذا الفن من اختصاص علماء النفس ؟ إن رضي القارئ عن هذا التعبير الإداري الذي تمتلئ به الدواوين . هنالك مسألة أساسية يجب أن نفصل فيها إن كان لنا الحق أو كانت لنا القدرة على أن نفصل في شيء : فهل السرور ظاهرة فردية ، أم هل هو ظاهرة اجتماعية ؟ وواضح جداً أن حل هذه المسألة له خطره في تحديد الاختصاص بإنشاء الفن الجديد . إذا كان السرور ظاهرة فردية كان من الممكن أن نطلب إلى علماء النفس درسه وقد درسوه ، وتبيين أسبابه وظواهره وقد بينوها ، وتنظيم الفن التطبيقي الذي يمكننا من اخضاع هذه الأسباب والظواهر لحاجاتنا وأغراضنا . ومن يدري ؟ لعلهم إن وصلوا إلى هذه النتيجة استطاعوا أن يخترعوا لنا من أدوات السرور أشياء خيراً مما في أيدينا ، وأدوات أنفذ إلى أغراضنا من الأدوات التي اخترعها الناس إلى الآن ؛ فقد اخترعت الموسيقى وأدواتها ، واخترع الرقص وألوانه ، واخترع الشراب وفنونه ، واخترعت ألوان الطعام وضروبه ،

واخترع الراديو والفونوغراف ، وما زال الناس مع ذلك يحزنون ، وما زال الحزن مع ذلك يستأثر ببعض النفوس أكثر مما يستأثر بها السرور . ماذا أقول ؟ بل إن اختراع كل هذه الأشياء التي ذكرتها آنفاً إنما جاء بعد أن منحتنا الطبيعة ما هو أقدر من كل هذه الأدوات على أن يسرنا ويردّ عنا الحزن ؛ فهي قد منحتنا جمال السماء ونجومها ، وجمال الأرض وما يختلف من مظاهرها الباسمة والعابسة ، ومشاهدها الرائعة والرائقة ؛ ومنحتنا الطبيعة ما يضطرب بين الأرض والسماء من هذه الطير التي تغنينا إذا أصبحنا لتوقظنا على صوت الغناء العذب ، والتي تجتهد ما استطاعت في أن تخلبنا بما أتيح لها من ألوان الجمال وفنون الحسن ؛ ثم لم تستطع كل هذه الأدوات التي وهبتها لنا الطبيعة والتي اخترعناها لأنفسنا أن تدعو إلينا السرور وتذود عنا الحزن ، إما لأن الحزن أقوى من أن يرد ، ولأن السرور أصم لا يسمع الدعاء ، وإما لأننا لم نستكشف بعدُ فن السرور الذي يدعو إلى إنشائه صديقنا أحمد أمين .

فلننشئ هذا الفن إذاً إذا كان إنشاؤه سيحل هذه المشكلة . ولكن من ينشئه ؟ علماء النفس إن كان السرور ظاهرة فردية ، وعلماء الاجتماع إن كان السرور ظاهرة اجتماعية . وقد وُجد علماء النفس منذ أرسطاطاليس أو قبله أو بعده لا أدري ، ولكنهم وُجدوا على كل حال منذ زمن بعيد ، ولم يقصروا عن الجد في البحث والاستقصاء ، حتى بلغ علمهم من الرقي إلى حيث يعرف صديقنا أحمد أمين وأصدقاؤنا الفلاسفة في كلية الآداب وفي معهد التربية ، ولكنهم لم ينشئوا بعدُ هذا الفن . وقد وُجد علماء الاجتماع منذ أرسطاطاليس أو قبله أو بعده لا أدري ، وما زالوا يجدون حتى أقاموا لهذا العلم صرحاً ثقلاً ضخماً ، ولكنهم لم ينشئوا بعدُ هذا الفن . وأكبر الظن أن مصدر هذا القصور ، إنما هو أن علماء النفس والاجتماع يعملون على غير نظام وفي غير تعاون ينسق أعمالهم ويلائم بين ما يبذلون من الجهود . فالخير إذاً في أن نلتمس طريقاً لتنظيم هذه الجهود المضطربة وتنسيق هذه الأعمال التي يذهب كل منها في طريق يعاكس الطريق التي يذهب فيها غيره . ويد الله مع الجماعة ، والتنظيم خير من الاختلاف والاضطراب والتشعث ، ولكن لا بد قبل كل شيء من أن نعرف أيكون السرور ظاهرة فردية أم يكون السرور ظاهرة اجتماعية ، لنكل أمره إلى هذا الفريق من العلماء أو ذاك . والواقع أن السرور يجمع بين الخصلتين ، فهو ظاهرة فردية ما في ذلك شك ، لأن الأفراد يُسرون ، وقد يُسر الفرد وهو وحيد ، ويكون مصدر سروره شيئاً يأتيه من نفسه أو من عمله أو من الطبيعة حوله ؛ وقد تسر الجماعات ويكون مصدر سرورها شيئاً يأتيها من الحياة الاجتماعية أو من الطبيعة التي تحيط بها وتؤثر فيها ، فهناك سرور فردي وسرور اجتماعي ؛ وربما كان الخير أن تنظم لجنة مشتركة من علماء النفس وعلماء الاجتماع لتدرس اقتراح الأستاذ الصديق ، وتضع لنا هذا الفن الذي سيطهر نفوسنا من الهم ويغسل قلوبنا من الحزن ، ويردنا بإذن الله إلى براءة الأطفال الذين لم تعرف آلام الحياة إلى نفوسهم سبيلا .

ولكن المشكلة لا تقف عند هذا الحد ، ولا تتضاءل أمام هذا الحل ، بل تنشأ عنها مشكلة أخرى ليست أقل منها تعسراً ولا تعقداً ، لأنها لا تتصل كما يتصل كل شيء بهذه المسألة الخطيرة جداً ، مسألة تنازع الاختصاص ؛ فأين يكون مستقر هذه اللجنة ؟ ولأي وزارة من وزارات الحكومة يصح أن تضاف ؟ وبأي مصلحة من مصالح الحكومة يصح أن تتصل ؟ أيصح أن نضيفها إلى وزارة المعارف ونقرها في معهد التربية لمكان علم النفس في هذا المعهد ؟ أم يصح ألا نضيفها إلى وزارة المعارف ولا نقطع الصلة بينها وبين هذه الوزارة ، وإنما نقرها في الجامعة المستقلة فتكون متصلة بالوزارة منفصلة عنها ، وخاضعة

للوزارة ومستقلة عنها كل الاستقلال أو بعضه على اختلاف في ذلك؟ وأنت تعلم أن علم النفس يدرس في الجامعة، وأن علم الاجتماع يدرس فيها أيضاً. أم يصح أن نضيف هذه اللجنة إلى وزارة الشؤون الاجتماعية التي أنشئت قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، لاصلاح حال الجماعات؛ وأي إصلاح لحال الجماعات يعدل انشاء هذا الفن الذي يسر الجماعات ويفتح أمامها أبواب الأمل، ويستنقذها من اليأس والقنوط والحزن إلى آخر الدهر؟

وقد بدأت وزارة الشؤون الاجتماعية تقدر اختصاصها هذا قدره وتؤدي له حقه، فسيطرت على بعض المرافق سيطرة خالصة لها من دون غيرها من الوزارات، وشاركت بعض الوزارات في بعض المرافق؛ ويقال إنها تنازع بعض الوزارات الأخرى في مرافق لم يتم الاتفاق على أصحاب الاختصاص فيها. فإلى من يكون أمر السجون؟ أإلى رجال الداخلية أم إلى رجال الشؤون الاجتماعية؟ وإلى من يكون أمر الوعظ والإرشاد؟ أإلى الأزهر الشريف ووزارة الداخلية، أم إلى الأزهر الشريف ووزارة الشؤون الاجتماعية، أم إلى الأزهر الشريف دون الوزارتين أم إلى وزارة الشؤون الاجتماعية دون غيرها من المصالح والوزارات؟ وإلى من يكون أمر الإحسان وأخذ الناس بأداء الزكاة والتبرع بالصدقات؟ أإلى وزارة الأوقاف، أم إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، أم إلى مصلحة الضرائب، أم إلى الجمعيات الخيرية الحرة، أم إلى أفراد الناس أنفسهم؟ وإلى من يكون تنظيم هذا الإحسان إذا بذل الناس أموالهم وضمنا من أموال هذه الصدقات ما يعصم الفقراء من الجوع، ويرد عنهم عادية الحر والبرد، ويكفل لهم شيئاً من السرور هذا الذي نريد أن نشئ له فناً جديداً؟ أيكون هذا التنظيم إلى وزارة المالية التي يجب أن تشرف على المال وعلى كل ما تشم منه رائحة المال، إن كانت للمال رائحة؟ أم يكون ذلك إلى وزارة الأوقاف التي هي وزارة الفقراء والبائسين؟ أم يكون ذلك إلى لجنة مختلطة يمثل فيها بنك مصر، لأنه مصرف وطني، ولأنه يستطيع أن يحفظ هذه الأموال حتى توزع على الفقراء، ولأنه يستطيع أن يضيف إليها معونة من عنده، ولأنه يستطيع أثناء حفظها أن يشغلها فينميها إن أذن في ذلك من لهم الحق في مثل هذا الاذن. وهنا تنشأ مشكلة أخرى؛ فأي المصالح له الحق في هذا الاذن؟ الأزهر الشريف، أم وزارة الشؤون الاجتماعية، أم وزارة المال، أم وزارة الأوقاف؟

وكذلك نستطيع أن ندور بين المشكلات، وأن نخرج من معضلة لنتورط في معضلة أخرى قبل أن نصل إلى إنشاء اللجنة المختلطة التي تنشئ لنا فن السرور، فضلا عن أن نصل إلى وضع هذه اللجنة في المكان الذي نريد لها الله أن توضع فيه بين مصالح الدولة ووزاراتها؛ ويوشك هذا الجيل أن يفارق الحياة دون أن يبلغ من تأليف هذه اللجنة ما أراد؛ ويوشك فن السرور الذي يريد أحمد أمين إنشاءه أن يضيع؛ ويوشك أن نكل إنشاء هذا الفن إلى جيل آخر يكون أبصر منا بالأمور، وأقدر منا على حل المشكلات، وأبرع منا في تحديد الاختصاص. ولو أن الأمر ترك إليّ لوجدت له حلاً يسيراً سريعاً، فطلبتُ إلى وزارة الشؤون الاجتماعية أن تعنى بإنشاء هذا الفن كما تعنى بغيره من الشؤون دون أن أحفل باعتراض ما، فإن اختصاص وزارة الشؤون الاجتماعية بحكم اسمها أبعد مدى وأقصى أمداً من أن يضيق بإنشاء هذا الفن المتواضع العظيم في وقت واحد. ويكفي أن نعلم أن لفظ الشؤون الاجتماعية — إن كنا نعرف اللغة العربية — يمس كل شيء يتصل بالجماعات. فلوزارة الشؤون الاجتماعية بحكم اسمها اختصاص في كل وزارة أو مصلحة من وزارات الحكومة ومصالحها، لأن الحكومة نفسها ظاهرة اجتماعية فهي شأن اجتماعي،

ووزاراتها ومصالحها شؤون اجتماعية ؛ فيجب أن تكون وزارة الشؤون الاجتماعية فى حقيقة الأمر مصلحة المصالح ووزارة الوزارات . وقد يكون هذا الحل الذى أعرضه معقداً بعض التعقيد ، فقد تختلف عليه المصالح واللجان فى وزارة الشؤون الاجتماعية . وإذاً فلأعرض حلاً آخر أشد من هذا الحل تواضعاً ويسراً ، وهو أن تؤلف لجنة لإنشاء هذا الفن من الاخصائيين فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وأن تجعل مستقر هذه اللجنة الخاصة فى هذا البناء المتواضع الأنيق ، الذى يعرف برقم ٩ فى شارع الكرداسى .

ومن المحقق أنى لم أكد أفرغ من قراءة مقال الأستاذ أحمد أمين ، وأتخيل الآفاق البعيدة التى تمتد أمام اقتراحه أو أمام فكرته ، حتى أخذنى الحسد ، ورغبتُ فى ألا يستأثر من دونى بإنشاء فن السرور ، وأبيت إلا أن أكون مثله صاحب فكرة خطيرة ، وداعياً إلى إنشاء فن خطير ، فأمليت هذا المقال لأدعو به إلى إنشاء فن الحزن . وأنا أبرع من الأستاذ أحمد أمين وأمهر فى التصور ، والفن الذى أريد إنشاءه لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان ، ولا إلى تحديد اختصاص ، ولا إلى التماس مكان ، ولا إلى تأليف كتب ، ولا إلى نشر مقالات . وإنما يحتاج إلى شئ واحد يسير جداً ، هو أن تنظر فى الحياة المصرية ، ثم تعود إلى نفسك لتفكر فيما رأيت . وأنا ضامن لك بأنك ستجد فى هذا النظر ، وفى هذا التفكير ، مصادر حزن لا تنقضى وألم لا يزول .

وإذا كان السرور خيراً لأنه يرفه على النفس ، ويحبب إليها الحياة ، فقد يكون الحزن خيراً أيضاً لأنه يدعو إلى العمل ويدفع إلى محاولة الإصلاح .

طه حسين

تجارب وزير

للأستاذ أحمد أمين

كان أبو الحسن على بن محمد المعروف « بابن الفرات » وزيراً من أشهر وزراء الدولة العباسية فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة ، استوزره المقتدر ابن المعتضد .

وكان ملء السمع ، ملء البصر ، واسع الثراء ، واسع العطاء ، إذا استوزر ارتفع ثمن الشمع وثمن الورق لكثرة ما يعطى من هدايا الشمع ، ولكثرة ما يستعمل هو وأصحابه من الورق ، فكأنه يمشق النور فيبدد الظلام بالإضاءة ، ويبدد الفوضى والجهل بالكتابة ، فلا يخرج أحد من داره بعد الغروب إلا ومعه شمعة ، مع كثرة الداخلين والخارجين ، ولا يأتى متظلم يريد أن يرفع إليه شكاة ، أو يتطلب عطاءً إلا وجد بجانب الدار أدراجاً كثيرة من الورق يأخذ منها ما يشاء ، ويستعمل ما يشاء ، حتى لا يلتزم مؤونة ما يبتاعه من ذلك ، هذا مع غلاء الورق غلاءً دونه غلاء الورق الآن فى الحرب .

عالى الهمة نبيل ، كانت الوزارة فى أيامه وقفاً على جماعة من المستوزرين أصحاب البيوت المعروفة ، يتولى أحدهم فلا همّ للآخرين إلا أن يتآمروا عليه ويكيدوا له وينصبوا الحبائل حوله ، ويسعوا بالسعايات لدى الخليفة ليفسدوا ما بينه وبينه ، حتى يتم لهم ما أرادوا ، فيُعزَل ويصادر ؛ ويتولى وزير جديد ، فتبدأ القصة من جديد على النمط القديم ، وتنتهى القصة الثانية والثالثة بما انتهت به القصة الأولى ؛ وتقرأ تاريخ الوزراء فى ذلك العصر ، فلا تقع عينك إلا على دفاع وهجوم ، وتولية وعزل ، وخِلَع المتولى ، ومصادرات المعزول ؛ ومن حين إلى حين قد تعثر على عمل إيجابى للوزير فى المصلحة العامة وقد لا تعثر .

وكان لكل وزير وكل مستوزر أعوان يأكلون من موائده ، ويستفيدون من التقرب إليه ، ويحصون على خصومه سيئاتهم التى ارتكبوها وسيئاتهم التى توهموها ، ويعدون العدة ليومهم الذى يسقط فيه الخصم ، ويتولى وزيرهم الحكم ، فيقدمون دفاترهم ويتقاضون أجورهم .

فكان من نبل ابن الفرات أنه لما وَزَرَ حُمِل إليه صندوقان عظيمان فيهما أسماء من يعاديه ومن يكيد له ومن يعمل لخصومه ، فقال لا تفتحوهما ، ودعا بنار وطرح الصندوقين فيها ، فلما احترقا قال : لو فتحتهما وقرأت ما فيهما لفسدت نيات الناس بأجمعهم علينا واستشعروا الخوف منا ، وبما فعلنا من إحراقهما هدأت القلوب وسكنت النفوس .

وكان يكره السعاية والسعاة لشدة ما عانى زمنه منها ، ولكثرة من ذهب ضحية لها ، فقد اتخذ القوم السعاية حرفة حتى كانت هى الأصل والجوهر فى حياة كثير من الناس ، وما عداها من الأعمال فعلى هامشها ، هى دأبهم فى النهار ، وسمرهم فى الليل ، وتدبيرهم إذا خلوا إلى شياطينهم ؛ فأراد ابن الفرات أن يقضى على هذه السنة السيئة ، فكان إذا رفعت إليه قصة فيها سعاية خرج من عنده غلام ينادى فى الناس المحتشدين أمام داره : أين فلان بن فلان الساعى ؟ فيشهر سعايته ، ويجمع بينه وبين من سعى فيه ؛ فلما عرف الناس منه ذلك كفوا عن سعايتهم .

ولكنهم كفوا عن السعاية إليه وسعوا به ، فكانت حياته سلسلة سعايات به وسلسلة نكبات له ، وزر ثلاث مرات وفى آخر كل وزارة يقبض عليه وتنهب داره وأمواله ويزج به فى السجن هو وأهله ، وفى آخر مرة قتل هو

وابنه المحسِّن ، وخاف الناس أن يذكروهما بخير ، فيغضب الخليفة القاتل ويغضب الوزير الجديد ويغضب أشياعه ؛ فلما أراد شاعر وقىّ أن يرثيهما عمل قصيدة فى رثاء هرة ، وكنى بالهرة عن المحسِّن أو أبيه ، أولها :

يا هِرُّ فارقتَنا ولم تَعُد وكنتَ عندى بمنزل الولد
فكيف ننفكُّ عن هواك وقد
كنتَ لنا عُدَّة من العُدَدِ
تطرُدُ عنا الأذى وتحرُسُنا بالغيب من حيةٍ ومن جُرَذ
وتُخرِجُ الفأرَ من مكامِنِها
ما بين مفتوحها إلى السدد

وعلى هذا النحو جرى فى قصيدته الرمزية البديعة التى تبلغ خمسة وستين بيتاً .

***

جمع ابن الفرات خصالا متناقضة ، فكان نبيلا كريماً وكان محباً للمال ماهراً فى اصطياده ، وكان يكره السعاية ويعفو عن الخصوم ، ولكنه ملَّ العفو أخيراً فخرج عن حلمه ، ونكل بخصومه فنكلوا به ، ومد يده إلى أموالهم فصودرت أمواله ، وفى ذلك يقول شاعرنا فى الهر :

حتى اعتقدتَ الأذى لجيرتنا
ولم تكن للأذى بمعتقِدِ
وحِمْتَ حول الردى بظلمهمُ
ومن يَحِمْ حول حوضه يَرِدِ
تدخل بُرْج الحمام متئداً وتبلعُ الفرخَ غيرَ مُتَّئِدِ
وتطرح الريش فى الطريق لهم وتبلع اللحم بلع مزدرد
أطعمك الغىُّ لحمها فرأى قتلَك أربابُها من الرَّشَدِ
كادوك دهراً فما وقعتَ وكم أفلتَّ من كيدهم ولم تكدِ
حتى إذا خفرت واتهمكت وكا شفتَ وأسرفت غير مقتصد
صادوك غيظاً عليك وانتقموا
منك وزادُوا ، ومن يصِدْ يُصَدِ

***

أردت أن تأكل الفراخ ولا
يأكلك الدهر أكل مضطهدِ ؟
هذا بعيد من القياس وما أعزه فى الدنو والبُعُدِ
لا بارك الله فى الطعام إذا
كان هلاك النفوس فى المعدِ

***

كان ابن الفرات ذا كفاية ممتازة ، فى الاقتصاد وفى تدبير أموال الدولة ، وفى ضبط الأمور والحزم وقوة الارادة ، وفى بصره بالشؤون السياسية ، حتى كان فى كل مرة يُقبَض عليه فيها ويسجن تضطرب الأمور وتفسد الإدارة ، وتختل المالية وتتعقد المشاكل ، فإذا عجزوا عن حلها لم يجدوا أمامهم إلا ابن الفرات حلّالها .

***

لطالما عانى ابن الفرات وجاهد ، وقلّب الأمور ، وصرّف الشؤون ، وانغمس فى السياسة من قدمه إلى قرنه ، وصادفه السعد والنحس ، وذاق الحلو والمر ، وقد خرج من وزاراته الثلاث بتجارب ثلاث بلورَ فيها آراءه واختباره ، يكفينا اليوم واحدة ، فكلٌّ منها يحتاج فى شرحه إلى كتاب ، بَلْه مقال .

قال :

« تمشيَةُ أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب »

لقد وقفت عند هذه الجملة طويلاً ، معلقاً لها ، مستعرضاً لحالنا فى ضوئها ، فأعجبت بها وآمنت ببعد نظر الرجل وقوة سياسته ، وقلت : ما أحوج مصر والشرق إلى أن تسود هذه النظرية كل أعمالها الحكومية وغير الحكومية !

إنما يريد « بأمور السلطان » شؤون الدولة ، ويرى أن التردد الطويل مخل بالمصلحة ، ولو كان الباعث عليه تحرى الصواب والرغبة الشديدة فى الوصول إلى الحق ، وأن

التنفيذ السريع مع احتمال الخطأ خير من البطء مع احتمال الصواب.

إن أمورنا من قديم تجرى على البطء فى التنفيذ والزمن لا يمهل، فلكل يوم مشاكله، ولكل ساعة جديدها وأمورها وتعقيداتها؛ فإذا أمهل فى التنفيذ رغبة فى الوصول إلى حق لاشك فيه، ارتبكت الأمور ارتباكاً لاشك فيه، وزاد التعقيد بمرور الزمان، وأصبح ما كان يحل أول أمره فى ساعة لا تكفى فى حله سنة.

لا أدرى لماذا وأنا أفكر فى هذا هجمت علىّ أمثلة متعددة حتى حرت فيما آخذ منها وما أدع.

كم من السنين مرت وأنا أسمع بمشكلة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب، ثم لا أجد لها حلاً بأتاً نعمل به، وكل يوم يمر تزداد المشكلة تعقداً؛ ولا أرى لحلها قولاً خيراً من قول ابن الفرات.

وكم من السنين مرت وأنا أسمع بتوليد الكهرباء من خزان أسوان، ولا أرى لحله قولا خيراً من قول ابن الفرات.

وكم سمعت بنفق شبرا وكهربة خط حلوان؟

وكم سمعت بآراء فى المجمع اللغوى تعرض وتطوى ومشروع يقدم ويؤخر، وجدال فى أن يدرس اللهجات أو لا يدرسها، ويعنى بنشر الكتب أو لا ينشرها، وتزاد أعضاؤه أو لا تزاد، ثم لا شيء؟

وأخيراً كم سمعت بمين حلوان وتحليل مائها ومحاولة ردمها ثم محاولة استغلالها ثم بقائها كما نبعت وحيرة الناس فى شأنها كما بدأت؟

وكم سمعت بتوحيد القضاء، وإصلاح الأوقاف وتحسين حال الفلاح؟ وكم وكم مما لو شئت أن أحصى ما وسعنى مقال ولا كتاب؟

فما أحوجنا إلى العمل بقول ابن الفرات وأن يكون شعار الأمة بأجمعها من أصغر موظف لأكبر موظف ومن أصغر عامل لأكبر عامل: «تمشية الأمور على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب»

ورحم الله ابن الفرات.

أحمد أمين

في سبيل جيل جديد . . .

تحت هذا العنوان سنكتب من حين لآخر بعض ما نراه معيناً للمربي على تنشئة جيل أقوى شخصية وأعظم نفعاً وأسعد حالاً من جيلنا ...

— ١ —

خرجت أم مع صديقتها، وأخذت طفلها معها إلى نزهة خلوية، وصعد الطفل ربوة عالية، وأخذ ينظر إلى أمه، فصاحت لما رأته، وأخذت تصرخ وتناديه أن ينزل، والطفل كلما سمع صراخ أمه ونداءها، تمادى في الصعود والقفز، وأصبحت حال الأم سيئة جداً، فهي لا تستطيع صعود الربوة وراء طفلها، وهي جد خائفة عليه أن تزل قدمه فيسقط من هذا العلو العظيم.

قالت لها صديقتها مهدئة حالها: دعي الطفل يصعد، دعيه، أهمليه. وبعد لأي تغلبت الأم على هياج أعصابها، فأدارت ظهرها للربوة ولم تصرخ ولم تناد.

وأحس الطفل إهمال أمه له، ونظر أمامه فإذا العلو شاهق، فنادى أمه يريد أن يلفت نظرها إليه، ولكن الصديقة كانت دائبة على أن تمنع الأم من الالتفات، ولما وجد الطفل أن لا أحد يعير عمله اهتماماً، ولما أحس أن عمله لا يثير أحداً، نزل باكياً وتمسك في أمه يسألها في دهشة: لماذا وقفتِ عن منادتي والصراخ عليّ أن أكف عما كنت أفعل؟

— ٢ —

كانت عجوز فقيرة تعلق في مطبخها كيساً صغيراً من الجلد قد ملء مليمات وأنصاف مليمات، ليكون تحت تصرف أبنائها وبناتها الذين يذهبون إلى المدرسة ليشتروا به ما قد يحتاجون إليه من أقلام وأربطة للأحذية وما أشبه ذلك من حاجات صغيرة لا غنى عنها. وكلما أحس طفل أنه في احتياج إلى شيء لم يكن عليه إلا أن يضع يده في الكيس لإخراج القدر الذي يريده، ولكنه كان يعرف وهو يعمل هذا أنه كلما أخذ نقص المقدار بالنسبة إلى غيره من إخوته ممن قد يكونون أحوج إلى هذه المليمات منه. وكان الكيس لا رقيب عليه. وكان للطفل ملء الحرية في أن يقول لماذا هو محتاج إلى ما يأخذ أو لا يقول، فهذا من شأنه هو، وفي كل ليلة من ليالي الآحاد كانت الأم تنزل الكيس، فإذا وجدت شيئاً لا يزال باقياً فيه صرفته فيما يسر الجميع..

ليس من شك عندي أن هؤلاء الأطفال انتهى أمرهم إلى أحسن النتائج. ففكرة هذه العجوز احتوت على دروس عملية في الاقتصاد وضبط الأعصاب وشرف النفس وتماسك الأسرة.

— ٣ —

قالت أم: كان أبنائي شديدي الخجل، فاتخذت طريقة لمعالجة هذا الخجل الشديد، وإني لأوصي غيري باستعمالها؛ فأولاً كنت أقول لهم إن الخجل شيء جميل، وثانياً كنت لا أشعرهم بأني ألحظ هذا الخجل. وبعد أن وصلت معهم إلى هذا الأساس من التفاهم والثقة بدأتُ تجارب للجرأة. فبدأت بأشياء صغيرة تافهة، كأن أطلب إليهم أن يسألوا أحد المارة عن الوقت، أو أن يشتروا تذاكر السفر للأسرة من محطة السكة الحديدية، ثم تدرجت إلى تجارب أصعب قليلاً. كأن أطلب إليهم أن يتأخروا عن ميعاد الأكل ثم يدخلوا معتذرين عن تأخرهم. وكان الأهم أن تكون كل هذه الأعمال اختيارية صرفة، فإذا قال ابني إني لا أريد أن أعمل هذا، قلت له حسناً، لا تتعب نفسك.

وكانت أصعب تجربة هي أن يكلموني في النادي ليسألوا عني . وعندما استطاعوا أن يجوزوا هذه التجربة كان خجلهم قد تم علاجه تقريباً .

— ٤ —

يقول الأستاذ « نيل » في كتابه « الوالدين الشاذين » إن أستاذه « هومرلين » قص عليه المثل الآتي :

يكتشف الطفل الرضيع شيئاً يتحرك أمام عينيه وهو يده ، ثم يدرك فجأة أن له قدرةً ما على السيطرة على هذا الشيء الجديد . فهو يستطيع تحريكه . فأول ما يرغب فيه إذاً هو أن يتعرف كنه هذا الجديد . وإلى هذا الوقت لم يكن لديه إلا سبيل واحد ليلوك به الأشياء وهو فمه . لذلك يبدأ بأن يوجه يده نحو فمه .

لكن هذا صعب بالنسبة إليه ، فيجرب ويجرب ، ثم يتعب ولكنه يستمر . والأم بجانبه تلحظه ، فلما رأته قلقاً ، يحاول ويبذل مجهوداً قوياً قامت ووضعت له يده في فمه ، وفي الحال رفض الطفل وأخذ يصرخ ويبكي ، لقد أفسدت عليه الأم أولى تجاربه النفسية . كان غرضه الأول أن يوصل يده إلى فمه ، ولكن هذا الغرض بدأ يتلاشى أمام رغبة أقوى وأهم ، وهي الاستمتاع بالعمل نفسه . إن الأم — دون تعقل — قد سلبته لذة النجاح بعد التعب ، لذة الانشاء والعمل . لقد قدرت الأم النتيجة المادية أكثر من اللذة المعنوية

— ٥ —

كانت « ونفريد » في الثالثة عشرة من عمرها لما عجز والداها عن أن يحببا إليها عملها المدرسي ، فأدخلاها مدرسة من مدارس الاصلاح المعدة للشواذ ، فلما قابلها الناظر قال لها : أي مواد الدراسة تكرهين وأيها تحبين ؟ فصرخت في وجهه قائلة : إنها تكره كل المواد . قال لها : حسن جداً ، وهل تحبين أن تحضري الدروس مستمعة أم لا ؟ قالت : لا . فقال لها : أنت حرة ، وإن كنت لا تريدين المجيء إلى المدرسة فلك الخيار في ذلك أيضاً . ففرحت وبدأت تلعب في المدرسة . ومضت أسابيع فإذا هي تمل اللعب وتأتي إلى ناظرها تطلب منه أن تعمل شيئاً ، قال لها : وماذا تريدين أن تعملي ؟ قالت : لست أعرف ، قال لها : ولا أنا أيضاً ، وتركها . ومضت أشهر فإذا هي تعود إلى ناظرها تقول إنها تريد أن تحضر لشهادتها ، وبدأت تتعلم دروسها بالفعل ، ولكنها كانت تبوح لأساتذتها بأنها لا تجد لذة مطلقاً في تحصيل العلم ، ولكن الغاية التي تريد الوصول إليها من هذا الدرس تلذها كثيراً . لقد عرفت « ونفريد » نفسها لما تركت لنفسها .

سهير القلماوي

(الثقافة) ترحب بهذا الباب النافع المفيد ، وتشكر للكاتبة الفاضلة حسن توجهها ، وتدعو الآنسات والسيدات المثقفات المشاركة في تحريره .

ترغنيف - عصره وحياته

كما يصورهما أندريه موروا

نشر الأستاذ خليل هنداوي في "الثقافة" المنيرة فصلين عن فن ترغنيف وفلسفته الإنسانية كما درسهما كاتب السير المشهور "أندريه موروا". وهذا الفصل الذي أنشره اليوم تتمة واجبة لما عدم به الأستاذ هنداوي، لخصت فيه سيرة ترغنيف وروح عصره كما صورها أندريه موروا في أكثر من ثنى كتابه.

كانت البلاد الروسية في مفتتح القرن التاسع عشر ما تزال — في ظل الحكم القيصري — تنوء تحت أثقال الأقطاع والاستعباد وشتى ضروب العسف والتنكيل. وكان الأمراء والنبلاء وكبار الموظفين والمُلاك يمتصون دماء الملايين من الفلاحين، حتى نخاع العظم، من ورائهم الحكومة تساندهم وتنتصر لهم، وتسن القوانين، وتضع الشرائع التي تخدم أغراضهم وتعزز مصالحهم. كان الواحد من هؤلاء الأسياد لا يملك الأرض وحدها، بل يملك معها أيضاً ألفاً أو ألفين من « النفوس »، أو حتى خمسة آلاف في كثير من الأحيان، عبيداً أرقاء لا شأن لهم في تصريف أمورهم، ولا رأي يجهرون به، ولا حق لهم في الحياة إلا الحق الذي يريده لهم السيد صاحب الاقطاع. وقد جرت العادة إذ ذاك أن يبيع الاقطاعي أرقاءه من الفلاحين، دون أن يضطره ذلك إلى بيع أراضيه: « كان الفلاح عبداً، لسيده مطلق الحرية، وله الحق في أن يجلده وينكل به ويساوم عليه ويبيعه؛ وكان من حق سيده عليه أن يملك الفلاح نفسه ليدر عليه أخلاف الرزق ويتيح له أسباب البلهنية والرفاه جميعاً ». ولم يكن تعاقب القياصرة على دست الحكم ليغير شيئاً من هذا الوضع، أو يطامن قليلا من شدة عتوه وجبروته، بل إن منهم من زاد في استشراء هذا الظلم؛ فإن « كاترين الكبيرة » مثلا قد سنت من القوانين، ووضعت من الشرائع ما كان من شأنه أن يؤكد حقوق الملاك ويزيد في قوة سلطانهم، ويمكن لهم في رقاب عبيدهم وأرقائهم وكذلك كان شأن الروسيا في عهد القيصر اسكندر الأول في مفتتح القرن التاسع عشر، فقد كان هذا القيصر يعتقد أن الله قد اتخذه أداة يعاقب بها شر الطاغية نابليون! وقد بلغ من شدة تعصبه وهذيانه التصوفي السخيف أنه غدا ينظر إلى كل معارضة — بالغة ما بلغت — كأنها مروق وزندقة يستحقان أشد العقاب، وكان أعظم ما يوغر صدره اعتقاده بأنه ضحية بريئة لغدر رعيته الجاحدة.

هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى فإن الفكر كان ممتهناً أيما امتهان، وحرية الفكر لا وجود لها مطلقاً. وكان تدريس العلوم على إطلاقها ممنوعاً في المدارس والجامعات. وكانت دراسة الأدب مقصورة على النظر في التوراة، على اعتبار أنها أسمى وأروع ما وصل إليه الإبداع الأدبي الرفيع. وكان لزاماً على أستاذ الاقتصاد السياسي أن يلقي في روع طلابه ويؤكد في أذهانهم تفوق الفضائل التي تحيل المتاع المادي إلى متاع روحي خالص! وفي كلية الطب لم يكن التشريح مسموحاً به قط. ورغم هذا كله فقد وجدت في هذه البلاد التي سلب شعبها كل حرية، وكل حق في التفكير الإنساني الصحيح، طبقة مثقفة من بعض النبلاء تلقى أفرادها التعليم على أيدي مدرسين فرنسيين، فقرأوا « فولتير » و « روسو » و « ديدرو » وتشبعوا بهذه الثقافة الحرة التي كان يذيعها جماعة « الإنسكلوبديين » واتصلوا اتصالاً وافياً بثقافة القرن

الثامن عشر الفرنسى ، ولمسوا أهداف هذه الثقافة الخطرة وتبينوا دواعيها وأغراضها . وقد ساعد أيضاً على إنماء هذا التنبه رجوع الضباط الروسيين الذين طاردوا نابليون إلى جانب الجيوش الحليفة ، فتعرفوا إلى أوربا وعاشوا فى باريس ثم عادوا من فرنسا وقد تفتحت عيونهم ووعت قلوبهم مظاهر هذه الحرية الرائعة التى ظفر بها الشعب الفرنسى ؛ فتأصلت النقمة فى قلوبهم وروعتهم صور الظلم والاضطهاد فى بلادهم وأقض مضاجعهم ما شاهدوه فى قراهم من استعباد الفلاحين وتجارة الرقيق وإنزال أفظع العقوبات الجسدية فى هؤلاء الأرقاء الخانعين . فكان من أثر هذا كله أن شاعت الحركات العدائية وتألفت الجمعيات السرية فى أنحاء البلاد جميعاً لإذاعة الأفكار والمبادئ التحريرية الجديدة .

وإذا كان الحكم الفردى المطلق ممكناً فى مجتمع يرتضى مبدأ هذا الحكم ولا يعارض فيه ، فإنه يغدو مستحيلا أو على الأقل غير ثابت فى مجتمع يلمس قريباً جداً منه مثلا لحضارة أخرى مختلفة حققت للفرد كثيراً من أسباب سعادته وحريته .

وهكذا كانت الروسيا — عند مولد ترجنيف عام ١٨١٨ — بلاداً يسودها الحكم الاستبدادى وموطناً للرق والإذلال والعبودية ، بحيث فيها الفساد ويتحكم أمراؤها ونبلاؤها ووجهاؤها برقاب فلاحيها وحياة جماهيرها الشعبية ، فى حين كانت أوربا — وقد تحررت نهائياً وإلى الأبد من ويلات ومظالم عهدها الإقطاعى — تنظر إلى هذه البلاد الثلجية الموغلة فى متاهات جهلها ووحشيتها المروعة فى كثير من الدهش والعجب .

وإذا كان هذا الوضع أكبر نذير بالثورة والتمرد مما عرفته الروسيا بعد ذلك ، فقد كان من ناحية أخرى أكبر مساعد على خلق وتكوين كبار الروائيين والقصصيين ، لأن العواطف تكون فى مثل هذه الأوضاع الاجتماعية شديدة القوة والعتو ، والشهوات وحشية خارقة ، والانقلابات مباغتة مروعة .

* * *

ينتمى إيفان ترجنيف فى طبيعة مولده ونشأته إلى هذه الطبقة المترفعة من الإقطاعيين . ولو ذهبنا نتقصى أصول منبته لوجدنا أن أحد أجداده جاء إلى الروسيا من أقصى آسيا حوالى عام ١٤٠٠ متطوعاً فى الجيش الروسى ، وقد توارث أبناؤه وأحفاده من بعده مناصب هامة فى الجيش والحكومة ، وكان منهم حكام وقضاة فى الأقاليم ، فأثروا وامتلكوا الأراضى والضياع والأرقاء ؛ ولكن صروف الدهر قلبت لهذه الأسرة ظهر المجن ؛ وما كان يطل القرن الثامن عشر حتى كانت أسرة ترجنيف قد افتقرت بعد غنى وشحب مجدها وتقلص ظل سلطانها ، ولم تعد تملك من الأرض والمتاع إلا النزر اليسير ، ومن الأرقاء إلا عدداً ضئيلا لا يعدو مائة نفس ؛ ولم يكن أبوه « سرج إيفانوفتش » أكثر من فارس برتبة ضابط فى إحدى فرق الخيالة حين التقى بالآنسة « فارفارا بتروفنا لو تفنوف » Varvara Petrovna Loutovinov فاقترن بها . كان والده — رغم هيبته العسكرية ورغم ما يبدو من قوته وشدة أسره وارتفاع قامته وجبروت مظهره الخارجى — أقرب فى دقة مزاجه ورقة إحساسه إلى الروح الأنثوية ، يزيده صلة بهذه الروح جماله الرائع وفتون عينيه الزرقاوين الهادئتين الحالمتين ودقة شفتيه الشهويتين الساحرتين ونضارة شبابه الريان ، يناقض فى هذا كله زوجته التى تكبره بست سنوات ، والتى تدل ميولها وجرأتها على ما تنطوى عليه نفسها من منازع الرجولة وقوة الشكيمة ، ورثت عن أسرتها حب الفتك والإجرام وقسوة القلب وشدة المراس ؛ وكانت تركب الخيل وتغدو إلى الصيد والقنص ، وقد عاشت قبل أن تتعرف إلى زوجها حياة صريبة ، وكانت يوماً من الأيام خليلة لأحد أقاربها . ولكنها كانت إلى هذا كله مثقفة موهوبة تحب الفن والأدب ولا تخلو من بعض الجمال الشائع ، وتملك ثروة طائلة وأراضى وضياعاً بأسرها وعدداً عظيماً من الفلاحين الأرقاء . وكان هذا وحده هو الذى أغرى سرج ترجنيف على الاقتران بها ، بعد أن لاحقته

مدة طويلة بحبها وإلحاحها ، ونصبت له الشباك ووضعت في طريقه المغريات جميعاً .

وورث « إيفان تُرغنيف » عن والديه هذه المظاهر المتناقضة ، والتقت في نفسه منازع القوة والعتو بأسباب اللين والرقة والضعف ؛ فكان له من ذلك ضرب من المزاج الفريد لعله كان من أعظم الحوافز التي دفعت به إلى صناعة القلم ، وقوة الإبداع والخلق القصصي .

قضى « تُرغنيف » طفولته كلها في قصر والديه بالريف الروسي ، وتلقى تعليمه الابتدائي على مدرسين خصوصيين ، وشاهد من أسباب الخصام بين والديه ما ظل أثره عالقاً في ذهنه طيلة حياته كلها . ورأى أباه يغازل خادمات القصر ويتخذ منهن عشيقات له ، فتثور ثائرة الزوجة ، وتنتقم لنفسها بمعاقبة الخدم والإمعان في إذلال الفلاحين الأرقاء وامتهانهم ، ولاتهدأ ثائرتها من بعدُ إلا إذا نكّلت بأولادها وأذاقتهم من العذاب ؛ ولكن « تُرغنيف » احتفظ في أعماق نفسه ، إلى جانب هذه الصور القاتمة في حداثته ، بفاتن الطبيعة في الريف الروسي ، واستقرت صور آجامها الزهرية ، ومروجها السّمريبة ، وهضابها الخالبة ، وسهولها الخصبة ، وسفوح تلالها الخضيلة ، وجناتها الفواحة بالعطر ، وأغاريد طيرها ، ووسوسات عيونها وسواقيها . استقرت هذه الصور كلها في ذاكرته ، وكان لها من بعدُ في قصصه وأعماله الابتداعية جميعاً أبعد الأثر .

وفي عام ١٨٢٧ انتقلت الأسرة إلى « موسكو » حيث راح « تُرغنيف » يواصل تحصيله في إحدى جامعاتها . وقد سحرته موسكو بمظهرها الشرقي الغريب ، وفتنته قباب كنائسها الذهبية ، وازدهفت قلبه شوارعها وساحاتها المغمورة بالثلوج ؛ وكان إذذاك ، وقد بلغ الرابعة عشرة من عمره ، فتى هادئاً ، سلس القياد ، ضعيف البنية ، يحب الشعر والأدب ، وتشي سيماؤه بمسحة من الحلم المقرر ؛ وكان في كثير من الأحيان يشترك فيما يثيره زملاؤه الطلاب من ألوان الجدل في غرفهم حول أكواب الشاي ؛ فيتناولون في أحاديثهم أخطر المسائل ، ويصفون النبلاء والاقطاعيين بالصور الفاتكة والتعابير السامة ، ثم ينتهون إلى الجدل في أصول الدين ، وفي مستقبل بلادهم ، وفي معنى الحقيقة والانسانية . وهذه صور عرف « تُرغنيف » كيف يستغلها في أعماله القصصية فيما بعد . ثم رحلت الأسرة من « موسكو » إلى مدينة « بترسبورغ » ودخل تُرغنيف جامعتها ، وكان التعليم يسير فيها وفقاً للأصول الجرمانية ، فأولع بـ « غيته » وقرأ الفيلسوف الألماني « هيغل » وأغرم بالفنيان ، ثم استفاقت شهواته وكانت له علاقات غرامية مع بعض خادمات أسرته الجميلات ؛ وكان قد بلغ الثامنة عشرة حين مات أبوه ، فأرسلته أمه إلى إحدى جامعات برلين بألمانيا ، حيث التقى بطائفة من شباب الروس المتحررين ، فأثرت أفكارهم ومبادئهم باتجاه تفكيره تأثيراً قوياً ، فانحاز إليهم واتصل اتصالا وثيقاً بواحد منهم على الخصوص اسمه « باكونين » ، وكان هذا ناقماً على الوضع الاجتماعي بالروسيا ، فأبغض القيصر وتمرد على أبيه ، وأشرك أخواته الثلاث بميوله العنيفة . وكان من أثر هذا الاتصال أن أحب تُرغنيف إحدى الأخوات الثلاث حباً عاصفاً لم يلبث أن ابتردت حدته ، فانصرف عنها بعد أن ملأ قلبها يأساً وحسرة . ثم اتصل بعد ذلك بخائطة كانت تشتغل عند أمه واستولدها طفلة قام على رعايتها وتربيتها من بعدُ ، وأتاح لها أن تنشأ في كنف اليسر والدعة ، واعترف بأبوته لها .

وقد رغب تُرغنيف في يوم من الأيام أن يكون أستاذاً للفلسفة في إحدى جامعات الروسيا ، ولكنه سرعان ما انصرف عن هذا العزم ووقف حياته من ثم على الخلق والابتداع القصصي . وقد أتيح له في شبابه أن يتصل بفريقين كانا يتزعمان الحركة الفكرية في الروسيا ، أحدهما محافظ يدعو الى الأخذ بفضائل العنصر السلاڤي ، ولا يجد إمكاناً للخلق والإبداع إلا في الاتصال بنقاء وبساطة الروح الروسية اتصالا يكون الفن ويكون التفكير خير

مظهر له . وكان كل ما عت إلى الحياة الروسية بسبب من الأسباب مقدساً في رأى هذا الفريق إلى حد الاعتقاد بأن لا بد أن تصبح الروسيا المنار الهادى الذى تسترشد بنوره الانسانية المعذبة في سيرها المتخبط ! أما الفريق الثانى فهو الذى كان يدعو إلى تجديد الحياة الروسية ، ووجوب اتصالها بالغرب اتصالا تكون الثورة على القديم في الفن والأدب والفكر ، ويكون تجديد المجتمع وإصلاح وجوه الحياة جميعاً خير مظهر له . وكان ترغنيف بطبيعة ثقافته واطلاعه الواسع على آداب الغرب ، أميل إلى الأخذ بآراء الفريق الأخير ، إلا أنه كان في ذلك كثير الحذر ، غير واضح الغرض ، فأغضب الجيل الثائر وحسبه المحافظون من أنصارهم ، ولم يكتسب في الحالين إلا النقمة والكراهية في كثير من الأحيان .

وفى شتاء عام ١٨٤٣ — ١٨٤٤ تعرف ترغنيف بممثلة الأوبرا الشهيرة « بولين فياردو » خلال مجيئها بصحبة فرقة الأوبرا الايطالية إلى بترسبورغ . ولم تكن هذه الفنانة بارعة الجمال ، إلا أنها كانت تملك صوتاً عبقرى النبرات ولها في فن الغناء قدرة معجبة . أحبها « ترغنيف » حباً نادر المثال ، وظل هذا الحب العاطفة الوحيدة التى ملأت قلبه حتى يوم وفاته ؛ ورغم أنها كانت متزوجة ولا مطمع لترغنيف في أن ينتزعها من زوجها ومن وسطها وحياتها الفنية المضطربة ، فانه ظل مشغول القلب بها وحدها طيلة حياته كلها . وقد عاش في كنفها كحبيب وصديق ، وبقى أتبع لها من ظلها في تنقلاتها المديدة في أنحاء أوربا ، وعهد إليها بابنته لتربيها وتثقفها ، واكتفى بالحرمان ، وعرف كيف يرتفع بحبه إلى أعلى ذرى التضحية ؛ وكان كلما تركها عائداً إلى موطنه ، لا يلبث أن يسوى مشاكله ويملأ عينيه من مفاتن بلاده ، ويتصل بروحها اتصالا يحفزه إلى الخلق والابداع ، حتى يسارع بالعودة إلى ظل الحبيبة والصديقة الوفية التى لم تستطع امرأة أخرى أن تنازعها مكانها في قلب ترغنيف خلال حياته الطويلة .

أثناء إقامته في فرنسا بين عامى ١٨٤٧ و ١٨٥٠ نشر ترغنيف أول أعماله القصصية ، فسرعان ما أصاب النجاح وفاز بالإعجاب واهتمام الأوساط الأدبية كلها ، وتطلعت العيون إلى هذا الفن الجديد الذى يحمله ترغنيف إلى الأدب الروسى ؛ وكان أشد ما أثار الإعجاب هو أن أشخاصه يتسمون بالطابع الروسى الأصيل ، فكان الأسياد الذين يصورهم والاقطاعيون والفلاحون جميعاً « روسيين » لحماً ودماً ؛ إلى جانب هذا قدرة فائقة على تصوير الطبيعة الروسية تصويراً قلما استطاع كاتب آخر أن يبلغ فيه الشأو الذى بلغه ترغنيف ، كما أن قصصه هذه كانت تحمل في تضاعيفها لوناً من النقد الخفى والتعريض المستتر بالنظام الاقطاعى ؛ فكان هذا سبباً من الأسباب التى أذاعت شهرته ومكنت له الحب والوفاء في نفوس قرائه جميعاً . وفى عام ١٨٥٠ ترك ترغنيف فرنسا عائداً إلى الروسيا ، ولم يكد يستقر به المقام حتى توفيت أمه ، فاقتسم هو وأخوه الثروة والضياع والأراضى ؛ وكانت قرية « سباسكوبى » من نصيب إيفان ، وهى القرية التى شاهدت طفولته والتى ظلت مفاتن الطبيعة من حولها أشد ما علق بذهنه منها ، وقد أخذ على ترغنيف أنه لم يبادر إلى تحرير أرقائه من الفلاحين ، رغم ميوله الديمقراطية ، إلا أن ما ركز في طبعه من كراهية العمل الحاسم السريع قعد به عن أداء هذا الواجب حيال ضميره وشعوره الإنسانى ؛ وكان أكبر ما يعزيه أن هؤلاء الفلاحين كانوا يتصرفون بمحصول أراضيه تصرف المالك أو تصرف المنتقم الذى يشفى حقده أن يلحق الخسائر بأموال سيده ومتاعه جميعاً . وظلت حياة ترغنيف من ثم موزعة بين أسفاره وتنقلاته في أوربا وعودته الحين بعد الحين إلى موطنه . وقد مكث في فرنسا معظم أيامه ، وكان كبار أدبائها أمثال فلوبير وزولا وموبسان وجورج ساند وغيرهم أصدقاء له لا يفترقون ، وكانوا معجبين به أشد الإعجاب ، يقدرون نبوغه وآراءه في الفن وشؤون الفكر تقديراً بعيد المدى . وقد اتصل

معاصره « تولستوى » إلا أنه لم يقدّر لهما أن يصبحا صديقين لاختلافهما فى الطبع والمبادئ وتباين نظرهما إلى الحياة . ويروى أنهما كادا يشتبكان بمبارزة على أثر خصام وقع بينهما ، غير أن كلا منهما كان يعجب بالآخر ويقدر عبقريته ؛ ولم يعودا إلى الوئام والمصافاة إلا فى أخريات أيام ترغنيف . وظل ترغنيف طوال حياته دائباً على الخلق والإبداع حتى وافاه أجله فى اليوم الثالث من سبتمبر عام ١٨٨٣ بعد أن شاهد تحرير الرق فى بلاده — وكان ذلك عام ١٨٦١ — وبعد أن خلف الروسيا تفور بأسباب التمرد وعوامل الثورة والنقمة .

* * *

ولنلق الآن نظرة سريعة على أعمال ترغنيف القصصية وفنه . إن أشهر رواياته هى : « دمترى رودين ، آباء وأبناء ، دخان ، وأحد أوكار النبلاء » وغيرها كثير من قصص صغيرة وأعمال أخرى متفرقة .

إن ترغنيف قبل كل شىء فنان يرقب ويلاحظ ويصور ، ولا يمكن أن يكون صاحب رسالة إصلاحية معينة . وظروف حياته كلها تبرر هذا . فنحن نخطئ إذا أردنا أن ننظر إليه من غير زاوية الفن ؛ وإلى هذا السبب وحده يرجع فتور ترغنيف حيال ما كان يتفاعل به مجتمعه من مختلف عوامل التحفز والتطلع إلى القضاء على أسباب الذل والامتهان ومظالم الحكم المطلق . وهو فى حياته وفى أعماله القصصية لم يستطع أن يرضى الناقمين المتمردين من الشباب ودعاة الإصلاح ، لا لتناقض أو اختلاف بينه وبينهم ، إنما لأن ميوله كقصاص وفنان كانت تضطره أن يقف بعيداً عن الصراع فيكتفى بالمشاهدة والمراقبة والتصوير ؛ فشخوصه فى قصصه إما أنهم يمثلون حقيقة الفرد الروسى سواء كان سيداً اقطاعياً أو فلاحاً من العبيد ، أو أنهم فى أحيان أخرى يصورون جيلين متناقضين فى الطباع والميول والرغبات جميعاً . فلم يكن ينحاز لفريق دون آخر ولا يتشيع لناحية دون أخرى . كلهم عنده سواء ، يؤدون مهمتهم على أحسن ما يكون الأداء على مسرح هذا الوجود . وقد لقى بسبب هذا كله كثيراً من العنت والإرهاق ، فلم يحفل شيئاً وظل يتابع سيره إلى النهاية . ومهما يكن من آراء بعض النقاد ، فإن إيمان ترغنيف كان ولا ريب أقدر من استطاع أن ينقل إلينا ألواناً حية رائعة عن عهد من عهود الحياة فى الروسيا بكل متناقضاته الاجتماعية والنفسية والخلقية جميعاً . كما أنه كان من خير وأحذق المصورين للطبيعة الروسية بكل مفاتنها ومختلف صور الجمال فيها . وأخص ما يمتاز به فن ترغنيف هو أنه « واقعى » إلا أنه يتفرد إلى جانب واقعيته بضرب شعرى فذ . وقد استطاع ترغنيف أن يمزج بين العنصرين بقوة وحذق . ونجح إلى حد بعيد فى إضفاء حلة رائعة من عناصر الحلم والشعر على حقائق الحياة الواقعية . ولم يكن لترغنيف فلسفة خاصة فى الحياة ؛ إلا أنه لم يكن ناقماً عليها ولم يقف منها موقف الإنكار ؛ بل كان يرتضيها ويحبها بكل ألوان خيرها وشرها ، أسعد ما يكون بتصوير مظاهرها جميعاً . وحتى فى ساعات غضبه ونقمته ، وفى اللحظات التى كانت تلقى فى روعه أن الحياة حقيرة تافهة ، وأن الوجود عبث وباطل ، وأن الشر أقوى فى الدنيا من الخير والقبح أغلب فيها من الجمال ... فى هذه اللحظات كان ترغنيف دائماً ذلك الفنان الذى لا هم له إلا تسجيل هذه الصور وهذه المظاهر جميعاً فى حب وإقبال الفنان العريق الذى لا يدين لشىء ما خلا فنه وقوى الخلق والابداع الكامنة فيه .

إن عالم ترغنيف يزخر بالنفوس الحائرة والضمائر القلقة والشخصيات المستسلمة لأحكام القضاء والقدر القائمة بما هى فيه من خير أو شر . ولكنه يحبها جميعاً ولا يرى فى تناقضها وتباينها إلا معنى من معانى هذه الحياة القائمة على التناقض الذى هو فى الواقع سر الاتساق فيها ومصدر الخلق والإبداع جميعاً .

(يافا — فلسطين) محمود سيف الدين الايرانى

قضية الرعد والبرق والمطر[1]

للدكتور محمد عوض محمد

من أعجب القضايا التي أخذ العالم الناشئ (مرجان) على عاتقه أن يترافع فيها، قضية الرعد والبرق والمطر؛ وما برحت قصتها حديث الخاص والعام في بلدة (نامور) وما جاورها من البلدان. وفي ذلك الاقليم النائي من ولايات أمريكا المتحدة، حيث وسائل اللهو والتسلية قليلة، لم يكن بد من أن تظل هذه القصة حديث الناس وسمرهم زمناً طويلا.

وهاك تفصيل الأمر:

حُبِسَ الغيث عن بلدة نامور وما جاورها من البلدان زمناً طويلا، حتى ظمئ الثرى، ويبس المرعى، وجف الشجر، وغاض الماء في الآبار، ورقدت حبات القمح في التراب، تنتظر القطر أسبوعاً بعد أسبوع. والسماء ما برحت صافية الأديم؛ والجو صحو بهيج، ليس فيه شبهة غمام ولا قطعة من سحاب، مع أن الأوان أوان مطر، وليس بين أهل (نامور) من يذكر أن المطر قد أخلف وعده من قبل بهذه الصورة الأليمة.

وقد أصاب الناس من جراء هذا كله ضنك شديد وعذاب عظيم. وحدث ما شئت عما قاسته الماشية من جوع وحرمان، حتى باتت هزيلة نحيلة، وقد أوشك ضرعها أن يجف، فلا تكاد تجد ما تغذى به بنيها، ولم يكن بينها بقرة إلا وتذكرنا بقول جرير في زوجته العزيزة أم حرزة:

تُعَلِّلُ وَهْيَ سَاغِبَةٌ بَنِيها
بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّبِمِ القَرَاحِ!

والخلاصة: لقد أصبحت نامور وسكانها وزرعها وثراها في أشد الضنك والظمأ، ومضت عليها في هذا سبعة أسابيع، كأنها السنون السبع القاسية، التي شهدتها مصر في عهد وزارة يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

وكان بالبلدة قسيس كأنه قديس، امتلأ صدره ورعاً وتقى، وقد آلمه ما آلم الناس، وعز عليه أن يراهم في هذا الجهد الشديد دون أن يستطيع لكربتهم تفريجاً، وللكارثة علاجاً؛ وطالما لقيه رجال البلدة وسألوه: أما عند رجال الدين من وسيلة يتوسلون بها، لعل الغيث أن ينزل بعد أن امتنع هذا الزمن الطويل؟ فكان يواسيهم بالكلم العذب، ويوصيهم بأن يخلصوا لربهم في الشدة والرخاء، على حد سواء. ثم يمضي عنهم وهو مطرق مهموم...

ثم خطر له أن يدعو أهل البلدة جميعاً لأن يشتركوا وإياه في صلاة الاستسقاء. فقال لقادتهم ورؤسائهم: إنا لو أخلصنا النية، وابتهلنا جميعاً إلى الله أن ينزل الغيث ولم يتخلف منا في هذا أحد، واشترك في هذا الدعاء الصغير والكبير، والمؤمن والزنديق، فإني واثق أنه سيخفف عنا العذاب، وتنفرج هذه الكربة.

وانطلق رؤساء البلدة وقادتها ونشروا هذه الدعوة بين الناس، فأقبلوا عليها جميعاً إقبال اليائس المكدود رأى بريقاً من الأمل.

(١) موضوع هذه القصة مقتبس من كتاب يوميات محام أمريكي نشرت خلاصتها في مجلة ريدرز دجست في عدد سبتمبر الماضي.

وفى ساعة الظهر من يوم السبت التالى خفتت فى البلدة كل صوت ، وعطل كل عمل عشر دقائق كاملة . قضاها الناس فى الدعاء والصلاة ، والابتهال إلى مُنزل الغيث أن يجود على بلدة تامور بمطر وابل غزير .

وتستطيع أيها القارئ أن تشك وتنكر ، ما وسعك الشك والانكار ؛ ولكن راوى هذه القصة يقسم أن الساعة الأولى بعد ظهر يوم السبت المذكور لم تكد تمضى حتى اكفهرت السماء ، وغشاها سحاب أسود مقتم ، ثم أخذ المطر يهطل وينهمر فى شدة وغزارة مدهشة ، كأنّ فى السماء أنهاراً تتدفق وسيولاً تفيض . . وظل المطر يهمى طوال ذلك اليوم ، والليلة التى أعقبته ، واليوم الذى تلاه أيضاً . وكان يصحبه رعد يُسمع الأصم ويُصم السميع ، وبرق يرسم فى السماء خطوطاً متعرجة عجيبة ، وصواعق يكفى بعضها لهدم حصون سيجفريد بين الرين والموزل .

وبرغم كثرة الصواعق التى انقضت من السماء ، لم يصب من سكان الإقليم أحد بسوء ؛ ولم يحترق من المنازل سوى دار واحدة لرجل يدعى دود . كان دود هذا رجلا من الأغنياء الذين جمعوا الثروة والمال من سبل ليس لها من الطهر والشرف نصيب كبير . وقد ابتنى هذه الدار الفخمة الضخمة ، وملأها بأنواع الرياش والأثاث الثمين ؛ وأقامها بعيدة عن البلدة ، لكى لا تعكر صفو حياته أصوات الناس ؛ وجعل من حولها حديقة واسعة وسوراً عالياً يرد عنها العيون ، ويحجب صاحبها عن فضول القاصدين وذوى الحاجات .

وشاء ربك ذو الجلال والإكرام أن تنقض صاعقة من أضخم الصواعق وأرعبها ، وأن تصيب الجانب الشرقى من الدار ، فتهدمه هدماً ، وتحطم ما به من أثاث ، وتترك السيارة الضخمة أنقاضاً من الصفيح ! ولولا أن الريح كانت غربية لاحترق شطر عظيم من الدار . ولكن القادر كانت رحيمة ، فلم يتحطم سوى الجناح الشرقى ، ولم يصب من سكانها أحد بسوء .

ورأى دود أن هذا البرق والرعد والمطر ، لم ينزل بالبلاد وسكانها ، إلا بعد صلاة أقامها القسيس ، وأن لا بد من المطالبة بمبلغ ضخم تعويضاً على ما حل بداره من التلف .

كان دود الرجل الوحيد الذى لم يشترك فى تلك الصلاة ، وقد اعترض على إقامتها بشدة ، زاعماً أن هذا التدخل فى القضاء والقدر غاية فى القحة والبذاءة . ولهذا لم تأخذه الرحمة على القسيس وأصدقائه ؛ بل لقد اغتاظ أشد الغيظ حين رأى الناس محتشدين حول دار القسيس مهنئين شاكرين . فقرر أن ينغص عليه انتصاره هذا ، وطالبه أمام القضاء بدفع خمسة آلاف من الدولارات الأمريكية الهيفاء !

ورأى محامينا الناشئ مرجان أن هذه فرصة قد جاد بها الدهر البخيل ، لكى يبرز مقدرته الكامنة ، ويكتسب الشهرة والصيت . فإن الاهتمام بهذه القضية قد شمل البلدة ، بل الولاية كلها ، وهو خليق بأن ينجح فيها من غير عناء ، وأن يشق بهذا النجاح طريقاً إلى المجد والسؤدد . فبادر بالتطوع للدفاع عن القسيس المحبوب قبل أن يسبقه إلى هذا الشرف بعض كبار المحامين .

وجاء اليوم الذى خصص لنظر هذه القضية ، أمام محكمة الولاية العليا ، فاحتشد الناس فى دار القضاء ، وأحدقوا بها من كل صوب ، وليس فى قلوب الجميع سوى أمنية واحدة ، وهى أن يبوء دود بالفشل والخسران المبين .

وتبوأ القضاة مقاعدهم وجىء بالشهود لكى يدلوا بشهاداتهم ولم يكن بد من أن يقرروا بأن المطر قد أخذ ينهمر فى شدة وعنف ، بعد صلاة الاستسقاء مباشرة : شهد بهذا العمدة وشيخ البلد ، ورئيس نقابة الحلاقين ، ومدير معمل الصابون ، وكل ذى مكانة فى البلدة . وقد أدلوا جميعاً

بشهادتهم كارهين ، وهم يخشون أن يحكم على القسيس الطاهر الذيل الذي لم يقم بما عمله إلا لخير البلدة وسكانها .

وارتفعت حرارة الاهتمام في الجلسة ساعة نودي على المستر دود نفسه لكي يدلي بشهادته .

وكانت اللحظة التي ينتظرها المحامي الشاب ، فلم يلبث أن نهض مستجمعاً جنانه المتقد ، وذكاءه المشتعل . وأخذ يستجوب الشاهد ، ويحاوره :

— حدث المحكمة يا مستر دود ؟ هل أنت ممن يؤمنون بأن للصلوات والأدعية أثراً فعالا ، وقوة لا ترد ؟

— من غير شك !

— قل لي إذن ، كم مضى عليك من الزمان منذ أن شهدت صلاة أو دعاء ؟

— لست أذكر .

— أيصح لي إذن أن أظن أن عهدك بالصلاة بعيد ؟

— في الغالب .

— لئن كنت شديد الإيمان بأن للصلاة كل هذا الأثر الفعال ، فهل تستطيع أن تفسر للقضاة ، كيف أهملت شيئاً له كل هذه القوة والتأثير ؟

ارتبك دود لهذا السؤال الذي لم يحسب له حساباً ، وأجاب في تلعثم أن هذا لم يخطر له ببال .

— حدث المحكمة يا مستر دود ! هل تظن أن جميع الصلوات والدعوات تجاب ؟

— كلا ! غير أن بعضها يجاب من غير شك .

— ما الذي يدعوك لأن تزعم أن صلاة الاستسقاء هذه قد أجيبت ، وأنها هي سبب المطر والصواعق التي انقضت على دارك ؟

— إن هذه لم تكن صلاة عادية ، فقد حشد لها القسيس جميع الناس . وعدا هذا فإن المطر أخذ ينهمر عقب الصلاة مباشرة .

— ولكن ألست ترى أن المطر قد انتظم الولاية كلها ؟

— هذا صحيح .

— فهل تستطيع أن تقسم بأن صلاة القسيس كانت منصبة على الولاية كلها ؟

— ليس يعنيني أن تكون الصلاة منصبة على الولاية ، وإنما يهمني أنها كانت منصبة على منزلي ، وأنها سببت هدم داري .

* * *

وهكذا انطلق المحامي البارع في استجوابه ، حتى أصبحت دار القضاء في عيني دود كـكِفة الحابل ! ولم يزل يصب عليه الأسئلة المحرجة ، حتى أخذ يتصبب عرقاً بارداً .

عند ذلك أخذ المحامي يخاطب القضاة بلسان فصيح وبيان سليم ، ويشرح لهم أن القسيس والذين عاونوه في صلاة الاستسقاء ، لم يطلبوا سوى المطر ، ولم يبتهلوا إلى الله إلا لينزل الغيث .

ولئن شاءت القوى العليا — لغرض خفي علينا نحن بني الفناء — أن يصحب المطر رعد وبرق وصواعق ينزل بعضها على دار المستر دود فيهدم جناحاً منها ، فهل من شأن القضاء الآدمي أن يحاسب القوى السماوية ؟ .

ثم ما ذنب قسيسنا الطاهر الذيل ، النبيل المقصد ، إذا كانت الحكمة الأزلية شاءت تدمير بعض الدور ؟

وكانت هذه الحجة مما لا يستطاع دحضه ! فبادر رئيس القضاة ، بالموافقة على أن المصلين لم يصلوا إلا طلباً للغيث ، وأن الصواعق قضاء نزل من غير وساطة إنسان ! ثم قرع بعصاه المنضدة ، وأعلن للناس أن الدعوى باطلة ، وعلى المدعي نفقات القضية .

عند ذلك صاح الجمهور بصوت فيه تلك الغنة الأمريكية المعروفة : ليحي العدل ! .

ومنذ ذلك العهد علا نجم مرجان ، وأصبح ممن يشار إليهم بالبنان .

محمد عوض محمد

١ – بدائع الفنون الاسلامية

بمعرض بناكى فى اثينا

لمحرر «الثقافة» الفنى

قل أن يرحل زائر من عاصمة بلاد اليونان قبل يسمع عن متحف بديع من متاحفها : هو متحف بناكى ، الذى يمت إلى مصر بصلة وثيقة ، فقد عاش مؤسسه فى مصر زمناً طويلا ، وأقبل على شراء التحف الاسلامية إقبالاً عظيماً ، كما عنى بشراء العاديات التى خلفتها مدنيات البحر المتوسط فى اليونان والشرق الأدنى . وأتيح لهذا الثرى اليونانى ذى الذوق السليم والخبرة الفنية الواسعة أن يجمع عدداً وافراً من تلك التحف ، أنفق فى اقتنائه الأموال الطائلة . وقضى أربعين عاماً يتعرف إلى تجار العاديات ويحرص على أن يشترى منهم كل ما يكمل مجموعته الثمينة .

ولما أصبحت هذه المجموعة من أكمل المجموعات الفنية فى العالم ، رأى المسيو أنطوان بناكى أن يهديها إلى أمته الكريمة ، ووهب معها قصر أسرته البديع فى أجمل أحياء أثينا . وأعد هذا القصر على نفقته ليكون متحفاً جميلا ، افتتح وتسلمته الحكومة اليونانية فى إبريل سنة ١٩٣١ .

ولا يزال المسيو بناكى يكرس لهذا المتحف نشاطه العلمى ، ويثابر على تنمية محتوياته بما يضمه إليها من التحف التى يشتريها فى أسواق العاديات .

ويمتاز متحف بناكى بجمال معروضاته ، وبحسن اختيارها ، والتوفيق فى عرضها ، واتباع أحدث الأنظمة العلمية فى المحافظة عليها ودرسها دراسة علمية صحيحة .

وقد أتينا فى هذا العدد من « الثقافة » بصور بعض التحف الاسلامية الثمينة فى هذا المتحف ، وسوف نضيف إليها صوراً أخرى فى العددين القادمين . (***)



شمعدان من النحاس
مثال من الفن المصرى السورى
فى القرن ٨ هـ — ١٤ م



« شوب » من الخزف
المصنوع بآسيا الصغرى
فى القرن ١٠ هـ — ١٦ م



سلف من كرسي خزفي
من صناعة آسيا الصغرى
في القرن ١١ هـ — ١٧ م



غطاء سرج
من القطيفة المصنوعة بمدينة بروسة
في القرن ١٠ هـ — ١٦ م



آلة فلكية
من القرن ٨ هـ — ١٤ م



صحن من الخزف
المصنوع بآسيا الصغرى
في القرن ١١ هـ — ١٧ م

تحديد النســـــل

تحديد النسل مشكلة جديدة ، وموضوع عصرى حديث يشغل بال المجتمع ، لأنه إحدى المسائل التى لم يكن لها وجود فى الماضى . فبينما كان الوالدان يفخران بكثرة عدد الأنجال ، انعكست الآية وأصبح يُرثى لحال من يكثر أطفاله .

ونشأت هذه المشكلة عن تعدد مطالب الحياة فى الوقت الحاضر ، ومن ارتفاع مستوى المعيشة من جهة ، وارتباك الحالة الاقتصادية من الجهة الأخرى . فالبلاد تضيق بسكانها يوما بعد يوم ، والمنافسة فى اكتساب الرزق أصبحت حادة شديدة ؛ أضف إلى ذلك أن الكمالىّ فى الحياة أصبح ضرورياً .

إلا أن المبالغة فى تحديد النسل أو منعه تضر بالأمة كثيراً ، وتعود بضرر كبير على الأزواج أنفسهم . فالطفل ضرورىّ للزوجين ، بل لا بد من وجوده ، إذ هو الذى يجمع شمل والديه إذا تخاصما ، وهو سراج البيت الذى ينيره ، وروحه الذى يبث فيه الحياة حيثما حل .

* * *

ومن النادر جداً أن تصادف زوجين لا يرغبان فى وجود أطفال لهما ، لكننا من حين لآخر نعثر على زوجين لا يرغبان فى تضحية مالهما ونشاطهما ومسراتهما من أجل الأطفال . ولكن لا يزال العدد الأكبر — لحسن الحظ — راغباً فى أن يكون له أولاد .

ويعتقد البعض أن الرغبة فى إيجاد الذرية ترجع إلى حب الاحتفاظ باسم العائلة ، أو بما تملك العائلة من تراث . ولكن نجد العدد الأكبر من الناس لا يملك لقباً أو عقاراً ، ومع ذلك يرغب فى إيجاد البنين بشغف لا يقل عن شغف العظماء والأثرياء بالذرية .

* * *

إن الصفات الحسنة تهيب بصاحبها أن يضاعفها كى ينشرها فى أكبر محيط يستطيع نشرها فيه . ويرى الحبيب أن حبيبه إنسان فريد فى نوعه فيجب أن يخلّد ، والزوجة الثانية والزوج الثانى لا يستطيعان أن يسدا الفراغ الذى نشأ من فقد الحبيب الأول . وإن المحب يرغب دائماً فى الاحتفاظ بأنموذج للحبيب الأول يمتاز عنه باتصافه ببعض الصفات التى يتحلى هو ويعتز بها . وهو عادة يجد فى حبيبه صفات جديرة بالمحافظة يود أن ينقلها إلى جانب صفاته ، من جيل إلى جيل .

وكثيراً ما يخامر النفوس القوية شعور بأنها جديرة بالخلود ، وتجد أن الحياة قصيرة لا يستطيع المرء أن يحقق فيها كل ما تطمح إليه نفسه ، لأنه لا يجد متسعاً من الوقت تمد فيه العالم بكل ما يجول فى خاطره ، فيأتى بالنسل كى يتعاون معه على تكملة ما بدأه من أعمال ، ويترك له أداء ما ضاق به عليه الزمان فى أدائه . فإذا أخفق الأولاد فى تحقيق أمانيه فلا ييأس ، بل يضع رجاءه فى أحفاده أن يباشروا ما أتى على عاتق أولاده .

وهذا الأمل عند الوالدين ثمين ، وإن كان غير محسوس أو ملموس . وهو نوع من الخلود يختطفه البشر من بين براثن الموت . فتجد المرء يدبر ويقتر على نفسه ويعمل ليله ونهاره كى يضمن راحة نسله ، فتراه بهذا لا يعمل لأولاده فحسب ، بل يعمل للأجيال القادمة ، الأجيال التى لم تولد بعد .

ولولا هذا الإحساس بأن البنين يحملون شيئاً من نفسه ، وبأنهم يتحلون بالصفات الممتازة فيه ، وبأنهم ينقلون آماله إلى المستقبل ، لما كانت الرغبة قوية فى إيجاد نسل طيب ، والسعى لراحة هذا النسل والعمل على إسعاده ؛ فيغادر المرء الدنيا بعدئذ بنفس راضية مطمئنة ، لأنه يتركها على أفضل من الحال التى وجدها عليها ، ويترك من يحل محله فى اقتفاء أثر مثله العليا . وهنا يبرهن الأطفال على أن والديهم قد اختبرا الحياة ، وأنهما لسبب خفى وجداها هدية نفيسة جديرة باهدائها إليهم ، وأنها بالاهداء تزداد قيمتها ، فيهبونها لمن بعدهم .

* * *

ويزعم الكثيرون أن الوالدين يرغبان فى البنين لكى يهيئا لهم حياة أمتع من الحياة التى قضياها ، أو ليعوضاهم ما فقدا من لذات . ونحن وإن كنا نقر هذا الرأى إلا أننا نحب أن تنشأ الرغبة فى الأطفال عن شعور بالسعادة ، لا عن إحساس بالنقص والحاجة . فليس من المستحسن أن يولد طفل فى جو يشعر فيه بالحرمان والخوف والخيبة ، وإن كان الوالدان يقاومان هذه الشدائد بحماس وثبات .

وهذا سبب من أسباب انحطاط نسبة المواليد فى أوربا فى السنين الأخيرة ، فارتباك الحالة الاقتصادية فى جميع الأمم ، وشبح الحرب ، وعدم استقرار النفوس ، تدفع الأهالى إلى الاقلال من النسل وتحديده تحديداً كبيراً ، مما جعل بعض النواب البريطانيين يخافون على مستقبل بلاده . لأنه وإن كان السبب المباشر للسعى وراء السلام ، هو ضمان سلامة الدولة ، إلا أنه يجب أن يكون الغرض هو أن يحضر البنون إلى عالم مطمئن هادئ .

* * *

الأولاد يتطلبون التضحية ، والأزواج المتحابون لا يكترثون بهذا النوع من التضحية ، لأنهم يميزون الفرق بين التسلية والهناءة . فالإنسان حيوان ضاحك ، لكن الإنتاج أهم لديه من الضحك . وأثمن شىء عنده هو ما يكد فى الحصول عليه ، أو ما يتعب فى إنتاجه . وأى نتاج أفضل من الطفل ؟ فما لا شك فيه أن الرجل والمرأة على السواء يجدان سعادتهما التى لا تفضلها سعادة بين أطفالهما .

ويقول علماء النفس إن الأطفال الذين يولدون فى جو مشبع بالعطف والمحبة يكونون أفضل نفساً وأرق إحساساً ممن يحرمون العطف والحب . ويقولون فى الأطفال الممتازين إن نسبة العطف بين الوالدين تنعكس فى تكوين الذرية بانتقال المواد الحيوية من الآباء إلى الأبناء . ويقولون فى الأطفال غير المرغوب فيهم أو المولودين فى جو مغمور بالحرمان إنهم عادة يكونون ضعفاء غير أصحاء .

* * *

إننا نجدد بأولادنا حياة الطفولة مرة ثانية ، لأنهم يهيئون لنا أبواباً من التسلية والفكاهة كنا نسيناها ، ويعيدون إلينا ذكريات حلوة عن الطفولة البريئة . فيذكروننا أن هذا العالم الذى عرفناه فاعتدناه وسئمناه كان فيما مضى ساحراً مبهماً . كان أقل صوت فيه يحمسنا ، وكانت أقل حركة تدفعنا إلى الفضول . وهم بهذه الأمور التافهة البسيطة يدفعوننا إلى التحمس للحياة من جديد ، والنظر إليها بمنظار آخر مختلف ، فيفتحون أعيننا لأشياء كانت خافية عنا ، ويلهموننا استنباط أعمال وابتكارات تزيد فى رزق الأسرة .

ولسنا فى حاجة إلى التحدث عن السرور الذى يبعثه الأطفال حيثما حلوا ، ولا عن اللذة التى تشيع فى نفوسنا كلما تفتحت أمامنا شخصياتهم ، وظهرت خصالهم واحدة فواحدة ، ولا عن أن الأعياد تفقد بهجتها إن لم يكن هناك أطفال تشاركهم فيها ألعابهم وسرورهم .

فيتضح من ذلك أن الأسباب التى ترغبنا فى الأطفال كثيرة . ولكن ليست المسألة هى الرغبة فى الأطفال ،

وإنما هي : متى يصح للوالدين أن يأتوا بهم ، وكم من البنين يصح أن يكون لهما ؟ فالإنسان المصري يجب أن يحتاط لكل أموره وأن يقدر المسئولية قبل أن يقدم عليها .

***

لا يصح أن يؤتى إلى هذا العالم بنسل جديد إلا إذا كان الوالدان في حالة صحية جيدة ، ونفس راضية ، وظروف اقتصادية تسمح لهما بقدوم طفل . فهذه الأمور الثلاثة ، يرتبط بعضها ببعض ، وإن كان كل منها مستقلاً في ذاته ، والحالة الاقتصادية مهمة جداً ، لأنها لو ارتبكت ارتبك معها الوالدان .

ويجب الامتناع عن التناسل إذا كان أحد الوالدين يشكو داء قد يضر بالطفل ، منعاً من إيجاد ذرية ضعيفة تتوارثها الأجيال المستقبلة لو قدر لها أن تعيش .

***

ونرى أنه لا يصح أن يكون لكل عائلة أقل من طفلين ، فكل طفل يحتاج إلى زميل ، يحتاج إلى من يشاركه في اللعب واللهو . ومن مصلحته أن ينمو بجواره طفل آخر يشاطره محبة والديه ، وإلا نشأ أنانياً ، إذ يرى نفسه محور اهتمام والديه وخدم المنزل .

ومن صالح الوالدين أن يكون لهما أكثر من طفل ، إذ أن الطفل الوحيد يكون مصدر قلق ومبعث إزعاج شديد لوالديه عند ما يلم به أي داء ، وإذا غاب عنهما يتلهفان على رؤيته في كل ساعة من النهار .

ومن جهة أخرى فالمشاهد أن الأطفال الذين يعاشرون الكبار على الدوام ، والذين يحرمون زمالة أمثالهم الصغار ، يفقدون حلاوة الطفولة وصفاتها البريئة الساذجة ، وتكبر نفوسهم قبل أن تكبر أجسادهم ، وهذا ضار بهم أقصى الضرر .

السيرة ف . ف . ب

الفـــــيرس

أو ما دون الميكروبات من جراثيم الأمراض

وجد من المشاهدات العديدة ، أن النباتات تصاب بأمراض خطرة معدية لا يعرف لها سبب ؛ فهي ليست من الأمراض الفطرية التي يسببها الفطر[1] Fungi ولا من الأمراض البكتيرية التي تتسبب عن البكتريا[2] Bacteria ، إذ هي تختلف عنها في كون المسبّب للمرض لم يتمكن العلماء من رؤيته حتى بأقوى الميكروسكوبات المستعملة ، بينما الفطر والبكتريا ترى بسهولة . كما أنهـا تختلف عن الأمراض الفسيولوجية[3] أيضاً ، في أن المرض يمكن أن ينتقل بسهولة تامة من النبات المصاب إلى النبات السليم .

حار العلماء إذاً في كنه المسبب للمرض ؛ وهم إذ درسوا خواصه ، تبين لهم أنه ضئيل في الحجم لدرجة لا يتصورها الفكر ؛ ونحن لو علمنا أن أقوى مجهر لدى العلماء الآن وهو المسمى Ultramicroscope ، يمكن أن يبين لغاية حجم ملليميكرون (الميكرون عبارة عن ١/١٠٠٠ من المليمتر) أي جزء من مليون من المتر ، وأنه مع ذلك لم يتيسر للعلماء بحال من الأحوال أن يشاهدوا تلك الكائنات ، لأدركنا بوضوح دقة حجم تلك الكائنات المتناهي في الصغر ؛ ولقد بذلت محاولات كثيرة لإنماء هذه الكائنات على بيئات صناعية ، ففشلت جميعاً ؛ كذلك لم يمكن حجزها في المرشحات مهما بلغت دقتها ؛ وقد اتفق العلماء على تسميتها بالفيرس virus .

(١) الفطر نبات خال من الكلوروفيل ، يعيش متطفلا على النباتات الراقية ، ويسبب لها أمراضاً مختلفة مثل عفن الخبز وصدأ القمح وذبول القطن .

(٢) عبارة عن أحياء دقيقة يبلغ حجم الواحدة ١/١٠٠٠ من المليمتر تقريباً وهي عبارة عن خلية واحدة عديمة الكلوروفيل .

(٣) الأمراض الفسيولوجية هي التي تتسبب من اختلال في العمليات الفسيولوجية تأتي من مؤثرات خارجية .

وضعت نظريات عدة لتفسير طبيعة الفيرس ، ففريق من العلماء يرى أن الفيرس نوع من الأنزيمات Euzymes أو كائنات شبيهة بهـا ؛ والاعتراض على هذه النظرية أن الانزيمات لا يمكنها أن تتكاثر ، بعكس الفيرس . وفريق ثان من العلماء يعتقد أنه عبارة عن أنواع من البكتريا فوق الميكرسكوبية ، ويجعـل هذا الرأي مشكوكا فيه قدرة الفيرس على المرور من المرشحات التي تمنع مرور البكتريا مهما ضؤلت في الحجم ، وكذا عدم نموه على البيئات الصناعية التي تنمو عليها البكتريا .

وفي سنة ١٩٢٨ أشار العالم بويكوت Boycott إلى أن الفيرس قد يكون كائناً يقع في سلم الارتقاء بين الأنزيمات والبكتريا ، أي بين الكائنات الميتة والحية ، فليس هناك حد فاصل بين المادة الميتة والمادة الحية ، إذ أن الواحدة منهما قد تندمج في الأخرى بطريقة غير محسوسة ، وهو يقترح أن ترتب سلسلة النشوء التدريجي التي تصل ما بين الانزيمات والبكتريا كما يلي :

(١) كائنات لا أثر فيها للحياة وهي الانزيمات Enzymes[1] .

(٢) كائنات في طريقها إلى الحياة وهي الليزوزيم Lysozyme[2] .

(٣) كائنات في المرحلة الأولى من الحياة وهي البكتريوفاج Bacteriophage[3] .

(١) الأنزيمات عبارة عن مواد تكونها الخلايا الحية ، ولها القدرة على إحداث تغيرات كيميائية مختلفة .

(٢) الليزوزيم عبارة عن مخمر تفرزه خلايا الجسم ، وله تأثير قاتل على البكتريا ، ويكثر في الدموع .

(٣) البكتريوفاج عبارة عن انزيم محلل يؤثر على البكتريا ويذيبها .

(٤) كائنات فى المرحلة الثانية من الحياة وهى الفيرس virus .

(٥) كائنات تدب فيها الحياة الكاملة وهى البكتريا Bacteria .

وأحدث رأى فى ماهية الفيرس ، هو ما أعلنه العالم الأمريكى ستانلى Stanley سنة ١٩٣٦ ، وقد كان يشتغل على مرض موزيك الدخان ، فأمكنه أن يفصل الفيرس وأثبت أنه جزىء قوى من البروتين المتبلور ، وقد بلغ من قوته أنه لو أذيب جزء ضئيل منه فى كمية هائلة من الماء ، لبقى حافظاً لحيويته ؛ وتبلغ قوته فى الإصابة ٢٥٠ ضعف قوة عصير النبات . وإصابة النبات به تتلخص فى أن عمليات النبات الفسيولوجية تتحور تبعاً لهـذه الاصابة ، فبدلا من أن يكون النبات بروتينه الاعتيادى ، يكون كميات كبيرة من بروتين الفيرس .

ومع هذا التباين فى الرأى بين جمهرة العلماء ، نجد أن الرأى السائد الآن هو اعتبار الفيرس كائناً حياً ، يؤيد هذا قدرته على التكاثر فى خلايا العائل ، وتسببه فى عدوى النباتات السليمة ، وتأثره بالمؤثرات الطبيعية والكيميائية .

أمراض الفيرس :

أمراض الفيرس منتشرة بدرجة كبيرة فى النباتات ، ومن أهم النباتات الاقتصادية التى تصاب بهذه الأمراض القمح والذرة والدخان والموز وقصب السكر والخوخ وغيرها . وتظهر على النباتات المصابة أعراض مميزة أهمها مجموعة الموزايك Mosaic ، وهذه تشمل تبقع الأوراق ببقع صفراء أو خضراء باهتة نتيجة انحلال الكلوروفيل ، ويصحب التبقع التواء فى الأوراق أو تجعد فى سطوحها ، وتتشوه الأزهار وتسقط فى النهاية ، وتضمر الثمار وتقل حيوية البذور ؛ وأما الأجزاء الباهتة فتظهر على شكل خطوط طويلة أو قصيرة ؛ وقد يبلغ من شدة الاصابة أن تتحول الأنسجة الخضراء إلى بيضاء ، وفى بعض النباتات تتجمع الأجزاء المصابة كالسوق أو الأوراق فى مجاميع مزدحمة غير طبيعية .

ويؤثر الفيرس على تركيب الأنسجة المصابة ، إذ أنه يعرقل نمو الخلايا فى الأنسجة الباهتة ، وبذلك تصبح أقل حجماً من الخلايا الخضراء ، وهو يؤثر أيضاً على الكلوروبلاستيدات ، فتقل فى الحجم والعدد ؛ وفى الاصابات الشديدة تتحلل إلى حبيبات لا لون لها ، وهناك ميل إلى تجمع النشا فى الخلايا المصابة . وقد يؤثر أيضاً على الأنابيب الغربالية والخلايا المرافقة لها الموجودة فى اللحاء ، فتموت ، ويصحب ذلك اصفرار اللون فى الأنسجة الميتة ، وكثيراً ما توجد فى الخلايا المصابة أجسام كروية لم يدرك كنهها للآن ، ولذا أطلق عليها العلماء اسم (X) ، ويحتمل أن هذه الأجسام تكونها الخلايا المصابة كرد فعل .

وقد وضعت عدة فروض لانتقال الفيرس فى أنسجة العائل ، فقيل إنه ينتقل بالانتشار من خلية لأخرى ، أو ينتقل فى الحزم الوعائية وعلى الأخص فى اللحاء ، ويحتمل أيضاً أنه يتحرك ميكانيكياً مع حركة البروتوبلازم ؛ ومن المشاهدات العديدة وجد أن الفيرس ينتقل فى مرض تخطط الذرة بسرعة ٣٠ سم فى ٣ ساعات ، وينتقل فى مرض تجعد القمة فى البنجر بسرعة ١٧,٥ سم فى ½ ساعة ؛ وهذا الانتقال أسرع من أن يكون سببه الانتشار من خلية لأخرى ، وأبطأ من أن يكون سببه انتقاله فى الحزم الوعائية مع مجرى الماء . فمن الجائز إذاً أن الفيرس يتحرك حركة مستقلة لا علاقة لهـا بصعود العصارة فى النبات . هذا ولا يستطيع الفيرس الانتقال فى الأوعية الخشبية ، وإذا ما أدخل صناعياً فى وعاء خشبى فإنه لا يستطيع أن يخرج منه ما لم يمزق ذلك الوعاء .

وأهم وسيلة لانتقال أمراض الفيرس من نبات لآخر هى الحشرات الناقلة ، وعلى الأخص تلك التى تتبع رتبة Hemiptera أى التى تحتوى على أجزاء فم ثاقب ماص .

وتتفاوت الحشرات الناقلة فى درجة تخصصها فى نقل العدوى ، فحشرة المنّ التى تعرف باسم Myzus persicae تنقل حوالى ١٤ نوعاً من أمراض الفيرس ، بينما يختص المن المسمى Pentalomia negronervosa بنقل نوع واحد فقط من الفيرس وهو السبب لمرض تورد القمة فى الورد . وإذا ما تغذت إحدى الحشرات الناقلة على عصير نبات مصاب ، فإنها تثقب الأنسجة وتفرز لعابها الذى يختلط بمحتويات الخلية ، وحين امتصاصها للعصارة ينتقل الفيرس معها وينتشر فى جسم الحشرة حتى يصل إلى الغدد اللعابية ، وبذا يصبح اللعاب ملوثاً بالمرض ويكون مصدراً لعدوى النباتات السليمة ؛ ويمكن للحشرة الناقلة إذا ما تلوثت بالمرض مرة واحدة ، أن تحتفظ بقدرتها على نقل المرض لمدة طويلة بدون أن تتغذى على نبات مصاب ؛ وكثيراً ما تكون قادرة على الاحتفاظ بنقل العدوى مدى حياتها . على أن هذه الصفة لا تورث ، فنسل الحشرات المعدية يفقد هذه الخاصية إلا إذا تغذى بدوره على نبات مصاب . وهناك نباتات تعرف باسم النباتات الحاملة Carriers وهى النباتات التى تصاب بالفيرس دون أن يظهر عليها أى أعراض تدل على وجوده ، أى أن ظاهرها سليم بينما هى مصابة فى الداخل ؛ ووجود هذه النباتات يعقد دراسة الفيرس ويزيد فى صعوبة مقاومته.

ولا يقتصر الفيرس على إصابة النباتات فحسب ، بل إنه يصيب الحيوانات بأمراض خطرة ، مثل الطاعون البقرى والجدرى والحمى القلاعية والكلب Rabies وغيرها ؛ كما أن أمراض الدنج والحمى الصفراء والأنفلونزا التى تصيب الإنسان سببها فيرس .

رضوان محمد رضوان
بكالوريوس فى العلوم الزراعية

الفـــولاذ ...

هذه المدنية الحاضرة التي تبهر مؤرخي التقدم البشري بما تم معها من انقلاب بعيد في وسائل النقل والصناعة وأساليب العيش جميعاً ، لو ذهبت تمحصها وتردها إلى أصولها لوجدتها في قرارها عالة على بضع مواد قليلة مما تخرج الأرض ، بحيث لو قدر أن تنتزع هذه المواد من الأرض لتداعى بناء المدنية الحاضرة ودكت أركانه .

وكذلك كان الشأن في كل عصر وكل مدنية يرتكز بناؤها على مادة أو بضع مواد تستند عليها في كل أعمالها ، أو إن شئت فقل تتخذ منها آلة العيش ، وآلة الدفاع ، وآلة الغلبة ، وآلة اللهو ، وآلة العبث ، وآلة الترفيه .

وهل الانسان — على حد ما يقول كارليل — إلا حيوان يصنع الآلات ؟ فهو بغيرها من أضعف الكائنات حولاً وأقلها خطراً ؛ وهو بها سيد الكون الذي تعنو له الكائنات ، وتسخر لخدمته قوى الطبيعة ، وتذلل أمامه كل الصعاب .

وهل تاريخ التقدم البشري إلا قصة جهاد الانسان في سبيل دوس مواد الأرض ، وتخير أصلحها لصنع آلاته ، وأطوعها للتشكل على النحو الذي يريد ، وأمتنها لاحتمال ما يكلفها من جهد ؟

وإذا كانت بدايته في هذا السبيل ضعيفة متعثرة ، غاية ما ناله فيها من التوفيق انتقاء غصن ملتو يصلح للجذب ، أو حجر مدبب يصلح للثقب ، أو حجر صلب ينفعه في الدق والطرق ، فان جهوده البطيئة المضنية خلال القرون الطويلة ، لم تلبث أن كللت باستكشاف بعض الفلزات ، كالنحاس والقصدير والحديد ، وباهتدائه إلى النار التي تلين هذه المعادن وتعينه على تشكيلها دخل في أدوار من المدنية أعظم ازدهاراً وأغزر إنتاجاً ، ثم انتهت به جهوده إلى الفولاذ ، فكان ظهوره إيذاناً بهذا الانقلاب الصناعي العظيم الذي يميز الحضارة الحديثة .

وإذا كان المؤرخون قد طاب لهم أن يسموا عصر المدنية الأول بالعصر الحجري ، وما تلاه بالعصر البرونزي ، ثم بالعصر الحديدي ، فان العصر الحديث الذي يقوم على نحو مليون ونصف مليون من أطنان الفولاذ سنوياً ، خليق أن يسمى بحق عصر الفولاذ .

بل ما أحسب عصراً من العصور اعتمد كل الاعتماد على مادة واحدة من مواد الأرض اعتماد هذا العصر الذي نعيش فيه على الفولاذ .

جرّد العالم اليوم من فولاذه تجد هذه الحضارة المزدهرة قد تقلص ظلها وفقدت كل خصائصها .

فكر فيما يستخدم فيه الفولاذ تجده قد مد نفوذه إلى كل دائرة في الحياة ، وبسط سلطانه على كل الأعمال البشرية ؛ ستجده في المنازل في صورة السكاكين والمقصات وآلات الخياطة ، وأجهزة الطهي بالكهرباء ، وآلات السكك وأفران النار والأقفال والمفاتيح والأدوات الصحية ؛ وحتى هذه جميعاً إذا استطعت أن تجد عنها عوضاً باستخدام غيره من المعادن ، فلست بواجد منه بديلاً في آلات النجارة والبرادة ومئات غيرها من الآلات التي يرتزق بها ذوو الحرف المختلفة .

على أنك إنما تدرك أثر الفولاذ وخطره حين تتخطى دوائر العمل الصغيرة ، وتمتد ببصرك إلى المصانع الكبيرة والمؤسسات الضخمة كالطرق الحديدية والبواخر العائمة التي تمخر عباب المحيط ، والقناطر المعلقة التي تصل شواطئ الأنهار وأمثالها ؛ فما كان لمادة أخرى أن تحتمل ما يحتمله الفولاذ من جهود جسيمة تتطلبها طبيعة تلك الأعمال ، ولا أن تصمد وتقاوم عوامل الانهاك والابلاء صموده

ومقاومته ؛ وما كان بالامكان أن تصبر مادة صبر الفولاذ على ما تتعرض له بعض الآلات ، كالآلات البخارية ، وآلات ديزل التي تقوم بأشق الأعمال ؛ وما كان لمادة أخرى أن يصنع منها ما يصنع من الفولاذ من الطواحين الدوارة الهائلة ، والمكابس العظيمة ، والطابع الضخمة ، والآلات التي تقطع وتثقب وتدق أعصى المعادن وأشدها مقاومة .

لقد أحدث الفولاذ في العالم أعظم انقلاب شهده التاريخ ، بما أتاح من وسيلة لإنشاء آلات الصناعة بمقاييس هائلة فاقت كل تصور ، وبما سهل من ابتكارات متعددة لم تدر بخلد إنسان .

* * *

كان الحديد معروفاً من عهد بعيد يمتد إلى أربعة آلاف سنة أو يزيد ، وقد وجدت قطعة منه في أهرام الجيزة ، وهذا النموذج محفوظ الآن بالمتحف البريطاني ؛ والمعروف أن المصريين والأشوريين قد أدركوا شيئاً من الحذق في أشغال الحديد وتابعهم في ذلك الإغريق .

وكان الفولاذ أيضاً معروفاً على صورة ما لدى الأقدمين ، إذ من الطبيعي أن يجيء استكشاف الفولاذ تبعاً لمعرفة الحديد وصهره وإلانته بالخشب الوقد . فالخشب ليس إلا ضرباً من الفحم ، أو بلغة الكيميائيين الكربون ؛ والفولاذ ليس إلا خليطاً من الحديد والكربون بنسبة معينة ، أو بعبارة أصح : هو خليط من الحديد النقي وكربيد الحديد . فلا بدع أن يصنع الفولاذ باليسر الذي يصنع به الحديد متى كان وقوده الفحم ، لأن الكربون يتحد بالحديد المختزل من خامه ، وبهذا كان من الهين على أذكياء الصناع أن يصلوا أثناء اشتغالهم بإلانة الحديد إلى نوع من أنواعه .

وقد وصل بعض صناع الشرق من عهد بعيد إلى صنع الفولاذ ، ومهر الهنود خاصة في ذلك ، وصار الفولاذ الهندي مضرب الأمثال بجودته ؛ ولعل هذا هو السر في أن العرب ينعتون السيف بالمهند ويمتدح الشعراء سيوفهم بأنها من سيوف الهند .

ولكن الصعوبة في طريقة الأقدمين أن نوع الفولاذ الذي كانت تنتجه لم يكن بالامكان ضمانه ، فقل أن وجد من منتجاتها نموذجان متجانسان ؛ وما كان للعالم أن يصل إلى ما وصل إليه اليوم ، من تقدم مادي في الصناعة والنقل والبناء ، حتى يهتدي إلى طريقة تكفل إنتاج فولاذ متجانس الصفة وإنتاجه بكميات كبيرة ونفقات يسيرة .

وكان أول الرواد في هذا الباب « بنيامين هنتسمان » وهو صانع ساعات من أهل دونكاستر بانجلترا ، وكان ما حفزه على الاتجاه لدراسة صناعة الفولاذ هو رغبته في إيجاد فولاذ جيد رخيص يفي بحاجاته للقطع اللازمة لصنع ساعاته ؛ وقد وفق هنتسمان بعد عمل طويل شاق بالغ في إخفائه طي الكتمان ، إلى أن يهتدي سنة ١٧٤٠ إلى إنتاج الفولاذ بطريقة الجفنة ؛ ولم يكن هذا الفولاذ كفيلا بسد حاجاته في صناعة الفولاذ فحسب ، بل كان أفضل من فولاذ الهند وأجود صنعاً . وافتتح مصنعاً لإنتاج الفولاذ بطريقته وظل محتفظاً بكتمه .

على أن هنتسمان لم يسجل اختراعه ، فاحتال صناع السلاح بشيفيلد على معرفة طريقته ، واستطاعوا بوسائل عدة أن يكشفوا سرها ، فأخذت مصانع شيفيلد تحضره بتلك الطريقة حتى عم استعمالها .

ولم تكن طريقة الجفنة سوى طريقة يقطع بها الحديد ويصهر في جفنة حتى يستحيل بالصهر إلى سائل متجانس يعالج بعد ذلك بالفحم فيكفل إنتاج صلب متجانس .

وتلت ذلك اختراعات شتى كان أهمها ما وفق إليه « هنري بسمر » سنة ١٨٥٠ . فقد وفق لطريقة تنتج الصلب بمقادير كبيرة ونفقات زهيدة . ومن العجيب أن بسمر لم يسبق له علم بالفولاذ ، فقد كان يشتغل بسبك الحروف ؛ ولكنه من طراز كان يؤمن بأن العقل المجرد

الذي يدخل أي ميدان من ميادين العمل ، غير متأثر بالاتجاهات السابقة فيه ، يستطيع أن يصل إلى نتيجة أفضل ممن درج على الطرق المعهودة وتأثر بمقاييسها . ولقد كان مقصده الأول تحسين نوع الحديد لا إنتاج الفولاذ .

وقد بدأ دراسته بقراءة كل ما كتب عن صناعة الحديد والفولاذ ، وزار شتى المصانع ، ثم أخذ يجري التجارب ؛ وقد كان نصيبه أولاً الاخفاق ، ولكنه وفق أخيراً لا لانتاج حديد سهل الطرق فقط ، بل لانتاج نوع ممتاز من الفولاذ .

وقد يكون مما يخرج عن دائرة القارئ العام أن ندخل به في تفاصيل طريقته ، ولكننا نجمل القول بأنه استطاع إنتاج الفولاذ بطريقة تجاربه بنفخ ذوب الحديد بالهواء من غير استعمال أية مادة إضافية غير ما تتطلبه عملية توليد لفحات الهواء ، وعر الحديد الذاب بعد ذلك في أدوار يضاف فيها الكربون وغيره من المواد بنسب معينة حسب نوع الفولاذ المطلوب ، وتتكرر عملية نفخ الهواء في مراحل شتى من العملية ، ويتكون في دور من أدوار العملية ما يسميه الألمان سبيجلايزن أو الحديد الوضاء . وفي دور آخر يتكون حديد نقي ، وبإضافة الاسبيجلايزن الذائب (ويتألف من حديد ومنجنيز وكربون) إلى الحديد النقي الذائب يتكون ذوب الفولاذ المطلوب .

وفي الواقع يتكون هذا الفولاذ من النسب الآتية : ٩٨ر٨ في المائة من الحديد ، ٠ر٤ في المائة من الكربون و٠ر٩ في المائة من المنغنيز و ٠ر١ في المائة من السليسيوم و ٠ر١ في المائة من الفسفور و٠ر٠٦ في المائة من الكبريت .

وقد أحدث اختراع بسمر تأثيراً قوياً في صناعة الفولاذ ، ووسع دائرة الأغراض التي يستخدم فيها ، وظل زمناً طويلاً العملية الشائعة لإنتاج الفولاذ .

على أن هناك طريقة أخرى وعا كانت أكبر خطراً من طريقة بسمر ، وهي التي يعم استعمالها الآن ، وهي طريقة الفرن المكشوف لسيمنز ، وفي هذه الطريقة لا يوضع الحديد الذاب الوارد من فرن النفخ في محولات كما هو الشأن في طريقة بسمر ، وإنما يوضع في فرن يشبه الحمام ، يعرض لحرارة عظيمة ناشئة عن لفحات من غازات ساخنة قابلة للاحتراق وهواء مضغوط ، ثم يخلط الحديد الذاب في الفرن المكشوف بقراضة الفولاذ والفحم وغيره من المواد حسب النسب المطلوبة .

وتمتاز طريقة سيمنز على طريقة بسمر بأنها أبطأ وأسهل قيادة ، وأن من الممكن امتحان نوع الفولاذ بسحب جزء صغير منه والعملية دائرة .

ويستخدم فولاذ سيمنس في صنع الصفائح الفولاذية والقاطع اللازمة للأعمال الإنشائية ، لأنهما يطمأن إلى تجانسها أكثر من سواها . أما فولاذ بسمر فيقصر استعماله على القضبان الفولاذية والمقاطع الثقيلة الدوارة .

وتصنع الآن أنواع شتى من الفولاذ كل يلائم غرضاً خاصاً ، فزيادة قليل من المنغنيز تزيد في صلابته ، وزيادة قليل من النيكل تزيد في مرونته ، والكروميوم يهذب جوده ، والسليسيوم يكون معه سبائك تقاوم فعل الأحماض ؛ وفولاذ المنغنيز يكثر طلبه في صنع الخزائن التي تقاوم السرقة ، وفولاذ النيكل في صنع الصفائح المدرعة ، وفولاذ الكروميوم في صنع آلات القطع ، وفولاذ النيكل والكروميوم في صنع أجزاء السيارات ومقذوفات المدافع .

والفولاذ الذي لا يصدأ الذي يكثر استعماله الآن في كثير من فروع الصناعة ، والذي كان نعمة كبرى للمنازل بما وفر من عناء التنظيف الكثير ، تم استكشافه مصادفة

فهذا النوع من الفولاذ اختراع انجليزي ، ويحتوي على نحو ١٢ في المائة من الكروميوم ، واكتشفه مستر هـ . بريرلي أثناء قيامه بتجارب لإنتاج فولاذ لأغراض أخرى تختلف عن الأغراض التي يقوم بها هذا الفولاذ .

فقد صنع نموذجاً محتوياً على ١٤ في المائة من

٢ – الفــــــــخ . . .

مترجمة عن تشارلز ديكنز

"كان مستر سمبسون يشتغل مديراً لاحدى شركات التأمين ، وقد تردد على الشركة التى يعمل فيها مستر سلنكتون لتسهيل التأمين على حياة شخص يدعى بكويث ، زعم أنه صديق له ، وقد أثار هذا الرجل فى نفس سمبسون شعور الكراهية والارتياب لنظرة الأولى ، وزاد هذا الشعور فى نفسه عند ما سأله عن مأساة زميل له يدعى ملدم كان مديراً لاحدى الشركات وتخلى عن عمله وحطم مستقبله إثر صدمة حلت عليه ، وهى وفاة الفتاة التى أحبها ... ..."

لم أر سلنكتون بعد ذلك مدى ستة أشهر ، وإن كان مر على منزلى مرة فلم يجدنى ، ودعانى مرة أخرى للعشاء ، ولكنى كنت مشغولاً فى ذلك الوقت فاعتذرت عن تلبية دعوته ؛ وفى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر على ما أظن كنت أقضى بضعة أيام للاستجمام على شاطئ البحر فى سكاربرو فلقيته بالصدفة يذرع الشاطئ فى أمسية أحد الأيام الدافئة برفقة سيدة صغيرة السن ترتدى ملابس الحداد ، وتشيع فى وجهها الباهت الهزيل علامات الحزن والمرض ، برغم ما يبدو فى تقاطيعها من سحر وجمال .

وقدم لى سلنكتون هذه الفتاة على أنها ابنة أخيه الصغرى مس نيتر ، وسألنى عما إذا كنت لا أمانع فى أن نتريض سوياً ، فأبديت سرورى بمرافقتهما ، ومضينا نذرع الشاطئ الرملى فى خطى متئدة وقد سارت بيننا ابنة أخيه ، ولم نكد نسير بضع خطوات على الشاطئ حتى صاح سلنكتون :

— ها هو أثر العجلات يا عزيزتى . إنه ظلك مرة ثانية بلا شك .

قلت مستفهماً وقد نظرت إلى الآثار الممتدة على الشاطئ :

— ظل مس نيتر ؟

وقال سلنكتون ضاحكاً :

— أجل ظلها يا عزيزى . أخبريه يا مرجريت ، ماذا أعنى .

والتفت إلى مس نيتر مستوضحاً فقالت :

— أجل يا مستر سمبسون . ليس لدى ما أقول إلا أننى حيثما سرت وأينما ذهبت أرى هذا السيد الكهل يتبعنى فى عربة صغيرة يدفعها شخص ، ولقد أخبرت عمى بقصته فأطلق عليه ظلى للازم .

— وهل يقيم هذا السيد فى سكاربرو .

— ما أعلمه هو أنه يقيم بها .

— وأنت . هل تقيمين هنا ؟

— كلا . وإنما أقيم لوقت معين حيث مهد لى عمى الإقامة مع أسرة هنا مراعاة لصحتى .

الكروميوم ، ولم يسبق له أن جرب إضافة مثل هذه النسبة الكبيرة ، وكانت النتيجة غير محققة لغرضه ، ولذلك ألقى بهذا الفولاذ فى زاوية مهملة من زوايا معمله .

وبعد أسبوعين لاحظ أحد مساعديه أن هذا الفولاذ المهمل ظل محتفظاً ببريقه ، ولفت إليه نظر المستر بريلى . وقد عملت مباحث دلت على أن هذا الفولاذ ليس غير قابل للصدأ فحسب ، بل هو كذلك فى مناعة من تأثير الأحماض ؛ وتبين عند ذلك أن كشفاً جديداً أضيف إلى المدنية ؛ والآن وصل إنتاج الفولاذ الذى لا يصدأ إلى درجة رفيعة من الكمال وأصبح يستخدم فى أمور كثيرة .

باحث

— وظلك ؟

— إنه مثلى على ما أظن يقيم لدى أسرة هنا ، وإنه ليخيل لى أنه يقيم لنفس السبب . وعلى أية حال فإنه يحدث أن أفتقده أحياناً فلا أجده ، ولكن الغريب فى الأمر أنى قد أذهب إلى مكان ما لبضعة أيام فلا ألبث أن أراه فى نفس المكان !

ولاحت من بعيد عربة صغيرة تسير على حافة الشاطئ فأشرت إليها قائلا :

— هل هذا هو ظلك يا مس نيغر ؟

وأجابت مس نيغر بالإيجاب ، بينما مضيت أنا أراقب العربة وهى تقترب منا ، حتى إذا صارت على قيد خطوات لمحت فيهـا رجلاً كبير السن قد تدلى رأسه على صدره ، ولم ألبث طويلا حتى عرفت هـذا الرجل ، فاستأذنت لبضع دقائق من سلنكتون ومضيت لتحيته .

وعدت بعد لحظات فكان سلنكتون هو البادئ بالكلام :

— لقد أحسنت بالعودة سريعاً يامستر سمبسون ، فقد كادت ابنة أخى تموت لهفة على معرفة هـذا السيد الذى يتبعها كظلها .

وأجبت :

— إنه الماجور بانكس المدير السابق لشركة الهند الشرقية للتأمين ، وهو صديق حميم لصاحبى الذى عرفتك فى منزله أول مرة . ألم تسمع عنه قبل الآن ؟

وأجاب سلنكتون قلقاً :

— أبداً .

والتفت إلى مس نيغر قائلا :

— إنه رجل واسع الثراء يامس نيغر ، وهو شديد الإعجاب بك وبتلك الصلة التى بينك وبين عمك .

وبدا لى إذ ذاك أن سلنكتون يمر بيده على رأسه متحسساً الفرق ، كأنما هو نفسه يوشك أن يتحداء حرصاً على أن يصدنى عن تلك النظرات التى تنحرف يمينا وشمالاً عن مظهره البادى .

— مستر سمبسون . إن ما بينى وبين ابنة أخى من علاقة لأقوى مما يتصور إنسان . ولعل السر فى ذلك أننا أقل الناس أقارب ، مما يشعرنا دائماً بالحاجة إلى التواصل والعطف ، أضف إلى ذلك أن ذكريات مريرة وأحزاناً عميقة الغور تجمعنا . لعلك تذكر أننا تحدثنا يوما عن المأساة التى حلت بى ؟ . . :

وحانت منه التفاتة إلى مس نيغر فإذا هى شاحبة الوجه قد تبلل وجهها بالدموع فصاح سلنكتون :

— دعى الحزن يا مرجريت بربك وكفى عن البكاء رفقاً بصحتك يا عزيزتى ، إنى لا أطيق رؤيتك على هذه الحال .

وسادنا الوجوم لحظة بهذا الجو الحزين الذى أفلح سلنكتون فى إشاعته بيننا ؛ ولأمر ما انصرف إلى بعض شأنه وتركنى أنا وابنة أخيه منفردين على جانب إحدى الصخور .

أثار دهشتى إذ ذاك الحماس الذى مضت هذه الفتاة تتكلم به عن عمها . لقد مضت تمتدحه لى وتصف لى عنايته بها وتضحيته لراحته فى سبيلها ، وتضحيته بكل شىء قبل ذلك فى سبيل العنـاية بأختها التى ماتت . كانت تتكلم فى تأثر وشعور عميقين مبدية إعجابها لنكران الذات الذى يبديه هذا العم حين يصرف حياته فى العناية بمخلوقتين هالكتين يتحيفهما المرض وتستحقهما الأسقام .

— مستر سمبسون . إنى أحس أنى سأغادر هذا العالم قريباً ، وإذ ذاك سوف يستطيع هذا العم الحنون أن يتفرغ لنفسه فيتزوج ويعيش سعيداً . إنى واثقة أنه لا يعيش وحيداً إلا من أجلى أنا ومن أجل شقيقتى المسكينة . . .

وخنقتها العبرات ، ولكن حدث ما هدأ شجونها ، فقد مرت أمامنا مرة أخرى تلك العربة التى يتربص عليها

الماجور بانكس ، فاسترعى صوت مجادلتها انتباهنا . وإذ ذاك التفت إلى مس نيثر وقلت وأنا ألمس ذراعها بيدى :

— سيدتى الصغيرة . إن الوقت يمر بسرعة . هل تسمعين هدير البحر ؟

وأجابتنى وقد عرتها دهشة بالغة :

— أجل .

قلت :

— أترين كم هو هادئ الآن أمامنا ، وتعرفين كم يكون مفزعاً مرعباً لا يعرف الرحمة حين تعصف الزوابع ؟

وقالت وقد زاد اضطرابها :

— أجل . ! إنك لتفزعنى يا سيدى بهذا الحديث .

— إذاً فاعلمى يا سيدتى أنك لو ألقى بك وسط أمواج هذا البحر فى أشد أوقات هياجه هولاً لما كنت فى خطر أكثر من الخطر الذى يحدق بك الآن والذى أرجو مخلصاً أن أنقذك منه . .

وكانت العربة تدنو منا للمرة الثالثة عند ما عقدت الدهشة لسان مس نيثر ، وأضحى ما بيننا وبينها لا يزيد عن بضع خطوات . فالتفتُّ بغتة وبسرعة ثم استأنفت الكلام قائلا :

— إننى كما يعلم الله وهو الحكم العدل بين كل الناس أحب لك الخير كما كنت أحبه لأختك من قبل . إن الوقت ضيق جداً ، فأستحلفك بالله إنقاذاً لحياتك أن تأتى إلى هذا السيد الذى تطلقين عليه خالك . إن فى ذلك إنقاذ حياتك ، وأقسم لك على ذلك .

إنى لأشك كثيراً فى أنى كنت سأوفق فى هذه المغامرة لو لم تكن العربة قريبة بشكل لا يدع لمس نيثر مجالا فى التفكير ؛ ما حدث بالضبط هو أننا كنا بجانب العربة قبل أن تستعيد هى تفكيرها ويغلب عليها التردد فيما دعوتها إليه ، وقد قدمتها إلى ذلك السيد الكهل وتركتهما منفردين . ومضيت وحدى إلى الصخرة أنتظر عودة سلنكتون ، ولم يطل بى الوقت فقد عاد بعد لحظات ، وكان أول ما لاحظه عدم وجود ابنة أخيه ، فقال فى لهجة تنم على الاستنكار :

— ترى أين ذهبت ابنة أخى ؟

— لقد شعرت ببرد خفيف فآثرت أن تمضى إلى المنزل .

وبدا عليه الاندهاش ، كأنما كان لا يتوقع أبداً أن تفعل شيئاً دون استشارته ، حتى فى مجرد تصرف بسيط كالانصراف إلى المنزل ، فقلت له على سبيل الإيضاح :

— لقد نصحتها أنا بالذهاب إلى المنزل وأقنعتها بأن تحتكف .

— آه . إذاً فهو أنت الذى نصحها بذلك . ! إنى لأعلم عنها أنها سريعة الانقياد ، خصوصاً إذا تعلق الأمر بصحتها . على أى حال فأنا أشكرك على ذلك ، فما من شك أنه خير لها أن تحتكف فى مثل هذا الجو الرطب .

— إن مس نيثر مرهفة الاحساس جداً كما يبدو لى يا مستر سلنكتون .

— أوه . إلى أقصى حد . إنها لا زالت تضطرب تحت هول الصدمة التى لقيتها فى أختها ، ويخيل إلى أن هذا الكابوس الذى جثم على صدر شقيقتها فى مقتبل العمر فلم يغادرها إلا جثة هامدة ، يوشك أن يطبق على صدرها هى ، بل لعله قد جثم فعلا ويزداد ضغطه يوماً بعد يوم . مسكينة مرجريت . . . ولكن لن نيأس من روح الله .

كانت العربة التى تقل السيد إذ ذاك تمضى مسرعة مبتعدة عنا . مسرعة بشكل يلفت النظر ، حتى إن سلنكتون نظر إلى قائلا :

— إنه ليبدو أن قائد عربة صديقك ثمل لا يدرى ما يفعل ، فهو يدفع العربة بشكل جنونى يعرض صاحبك للخطر .

وأجبت ضاحكا :

— إن من يتصدون لخدمة الكهول لا بد أن يعزوا أنفسهم أحياناً بقليل من الخمر .

وسرنا في طريقنا ، على حين بدأت آثار العربة تتلاشى في الظلام ، مختفية في العشير الذي تثيره أقدام قائدها ، وفجأة سألني سلسكتون :

— أتمكث هنا طويلا ؟

— إني سأرحل هذا المساء .

— هكذا سريعاً ؟ ولكن لك العذر ، فإن أمثالك من رجال الأعمال لا يملكون وقتهم . إنهم ملك للجماهير ، وليس من حقهم أن يعنوا بصحتهم وراحتهم ، ولكن أترحل إلى لندن ؟

— أجل .

— وأنا أيضاً سأرحل بعدك سريعاً إلى هناك ، فإن لدى أعمالاً .

كنت أعلم ذلك جيداً كما يعلمه هو ، فقد عرفت كثيراً حين التقيت بهذا السيد الذي يركب العربة ، عرفت أشياء كان من المتعلق أن أتوقع عودته سريعاً إلى لندن بعدها ، ولكني جهدت في أن أتلقى نبأ عودته بالدهشة حتى لا أثير شكوكه ، وحتى لا أنبه إلى ذلك الخنجر الحاد الذي يشحذ نصله لطعنه طعنة قاتلة .

وتركنا الشاطئ متجهين إلى المنازل المتناثرة ، وأقبلنا على مفترق الطرق حيث يمضي كل منا إلى سبيله ، فسألني سلسكتون وقد تظاهر بالتأثر الزائد :

— هل لي أن أسأل يامستر سمبسون : ماذا حل بصاحبك المسكين ملتام ؟ لقد انقطعت أخباره مرة واحدة ، فهل مات ؟

— إن آخر ما عرفته عنه أنه صار إلى حال يرثى لها ، وأن صحته تتدهور بسرعة مقلقة ، فقد فقد ذاكرته تقريباً .

— محزن حقاً هذا المصير ، إني لأرثى لحال هذا المسكين ، إن الدنيا كما قلت لك قبر كبير !

على هذا الحديث افترقنا كل إلى سبيله ، أنا إلى النزل حيث أعددت حقائبي استعداداً للسفر ، وهو إلى المنزل الذي أودع فيه مس نينر . ومنذ ذلك الحين ، أي من أواخر سبتمبر لم أر سلسكتون إلا في منتصف شهر نوفمبر وللمرة الأخيرة ، فقد دعيت إلى تناول طعام الافطار عند الفرد بكويث من حي ميدل تمبل ، وكان ذلك في صباح أحد الأيام الشديدة البرد ، حيث يكسو الثلج الشوارع وتتصاعد منه الأبخرة فتشيع في الجو شيئاً من الضباب يبعث على الكآبة والوجوم .

كان الداعي يقطن أحد المنازل المنعزلة في أقصى الحي ، وكان سكنه عبارة عن غرفتين يقود إليهما باب يواجه تماماً باباً لغرفتين أخريين يقطنهما سلسكتون ، وقد ثبتت على هذا الباب لوحة كتب عليها «جولياس سلسكتون» .

(لها بقية) **صلاح الدين ذهني**

٢ - من أحسن ما يُروَى فى بكاء المنازل

نشأة هذا الغرض وترقيه فى الشعر

الأستاذ أحمد الزين

تحدثت فى الفصل السابق عن تغنى الشعراء بمنازل الأحباب، ونشأة هذا الغرض فى شعر الجاهليين، وتطوره فى الشعر الاسلامى حتى أواخر القرن الثانى.

واليومَ أريد التحدث عن الطَّوْر الثالث من أطواره، من أوائل القرن الثالث إلى أوائل القرن الخامس، وفى ذلك العصر بلغ هذا الغرض ذِرْوةَ الفنّ كما أسلفتُ، وجرت فيه مَلَكات الشعراء أشواطاً بعيدة إلى أقصى غاية من الكمال الشعرىّ فى ناحيتيه الصناعيّة والعاطفيّة معاً، ومظاهر الترقّى فيه ترجع إلى عدة أمور:

١ — ما أودع فيه الشعراء من جمال الأسلوب وسحره، وقوّةِ الأداء ويُسره، وفخامة العبارة مع رقة النسج، وروعةِ الفن، وبراعة الصناعة التى يُقصد بها إلى تكميل بعض الصور الفكرية، وتوضيح الإحساسات النفسيّة، وإذكاء العواطف فى القلوب، لا مجرد العبث بالألفاظ واللعب بالعبارات، والزخرف اللفظىّ الذى يُقصد به بيانُ القدرة اللفظية وحدها، ويحول بين المعانى ومشافهتها للنفس، ويباعد بينها وبين الحسّ.

٢ — ما حشدوا فيه من الأخيلة الطريفة المبتكرة التى بَرَعوا كلَّ البراعة فى حسن وضعها واختيار مواضعها والتأتّى إليها من أقرب سُبُلها، فلا تشعر فيها بتكلف ولا إجهاد ذهن ولا قصدٍ إلى إغراب، بل تحسّ أنهم قصدوا إلى إبراز عواطفهم وخوالج نفوسهم فى حُلَلٍ فاتنة من تلك الأخيلة الرائعة التى تَزيد المعنى وُضوحاً وارتساماً فى ذهن القارئ، وتقرّب بين قلب الشاعر وقلب السامع، فتجعل معانيه أسرعَ نفوذاً وأبلغَ أثراً، وتفيض عليهما من القوّة والحياة مالم يكن لها لو ظلّت حقائق مجرّدة.

٣ — ما أضافوا إليه من دقائق الصُّوَر النفسية والإحساسات الحيّة والعواطف القوية والمعانى المبتكرة التى لم يصل إليها القدماء، فى مرارة الفراق، وحلاوة اللقاء، وذكريات ما مضى فى مغانى الأحباب من عهود قصّرَها مَتْعُ الصِّبا ولهوُ الفتوة، وصفة الدموع المبذولة على ترابها، والزفرات المتصاعدة فيها، وطول الليل على المهجور بعد فراق أهلها، وحرارة الشوق إلى آلافها، وما إلى ذلك من معانى النسيب التى تثير الشَّجن وتبعث اللوعة، وتفيض على موات هذا الفنّ الحياةَ والقوة، وتشيع فيه النَّضارة والخِصْب.

وهذه الأغراض — وإن كان القدماء قد سبقوا إلى قصدها، ومهّدوا السبل إليها — إلاّ أنّ ما زاده هؤلاء المحدَثون عليها من نتاج قرائحهم الخِصْبة، وافتنانهم فيها، وتصرُّفهم فى ألفاظها ومعانيها، جعلهم أولى بها وأحقَّ بنسبتها إليهم ممن سبقهم.

وإذا أردت علم ذلك عن بيّنة فوازنْ بين شعرين فى معنًى واحد، أحدُهما لشاعر قديم، والآخرُ لشاعر من هؤلاء المحدَثين.

قال عَبيد بن الأبرص — وهو جاهلىّ — يصف طَلَلا تعاقبت عليه الرياح حتى محَتْ أثره:

دِمْنَــةٌ (١) قَفْرَةٌ تَعَاوَرَهَا الصَّيْـ
ـفُ بِرِيحَيْنِ مِنْ صَبًا وَشَمَالِ

فهل تراه زاد فى الوصف على الحقيقة المجردة البسيطة؟ وهل تحس فى هذا البيت شيئاً من جمال الفن غير الفن العروضىّ فى الوزن والقافية؟

ثم أىّ فرق بين هذا وبين الحديث العادىّ الذى لا عمل للفِكْر فيه البتّة؟

واقرأ بعد ذلك قولَ البحترىّ فى هذا المعنى نفسه — والشاهد فى البيت الثانى:

قَسَمَ الصَّبَابَةَ فِرْقَتَيْنِ: فَشَوْقُهُ
لِلظَّاعِنِينَ وَدَمْعُــــــهُ لِلْمَنْزِلِ

مُتَقَسَّمَ الأَحْشَاءِ يَنْسِجُ أَرْبُعاً
مُتَقَسِّمَاتِ الصَّبَـــا وَالشَّمَالِ

فانظر إلى جمال الفن وروعته فى شعر البحترىّ، الذى جعل الفرق بينه وبين صاحبه فى هذا المعنى أبعد من أن تُعقد بينهما نسبةٌ أو موازنةٌ، فصار أحقّ به، وأولى بنسبته إليه من عَبيد، وإن كان عَبيدٌ قد سبقه إليه.

وإليك مثالا آخر؛ قال النابغة — وهو جاهلىّ — يصف داراً وقف بها يسألها عن أهلها فلم تُحِرْ جواباً:

وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيْلاً كَىْ أُسَائِلُهَا
عَيَّتْ جَوَاباً وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ

وقول البحترىّ أيضاً فى هذا المعنى نفسه — والشاهد فى البيت الثانى:

أَصَبَابَةٌ بِرُسُومِ (رَامَةَ) بَعْدَ مَا
عَفَتْ مَعَالِمَهَا الصَّبَـــا وَالشَّمْأَلُ

وَسَأَلْتَ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ فَكُنْتَ فِى اسْـ
ـتِخْبَارِهِ كَمُجِيبِ مَنْ لا يَسْأَلُ

(١) الدمنة: ما بقى من آثار الديار.

وما قيل فى المثال الأول يقال فى هذا المثال؛ فهل عدا النابغة فى بيته خبراً عادياً — لا أثر فيه لفن ولا تفكير — أنه وقف بالدار يسائلها فلم تجبه، وليس فيها أحد؟ والفرق بينه وبين صاحبه كالفرق بين عارٍ من كل أنواع اللباس، وكاسٍ بأفخر الحلل وأثمن الحُلِىّ؛ والموازنة بينهما ضرب من العبث، إذ هو جهاد فى غير عدوّ، وتوضيح للشمس فى رائعة النهار.

وأكثر الشعراء حظاً من الإجادة فى هذا الباب أربعة، هم الذين يرجع إليهم أكبر الفضل فى النهوض به إلى غاية كماله، وهم أبو تمام وتلميذه البحترىّ، والشريف الرضىّ وتلميذه مهيار.

وفى رأيى أن هذين التلميذين قد فاقا أستاذيهما فيه، فالبحترىّ أقوى عاطفة من أستاذه، وإن كان أستاذه أبو تمام أبرعَ منه صناعة؛ أما مهيار فهو أقدرُ على الابتكار والافتنان فى المعانى من أستاذه الشريف.

والذى يؤخذ على هؤلاء جمودهم على أسماء المواضع التى ذكرها الجاهليون فى أشعارهم، مع بعد الصلة بينهم وبين تلك المواضع وعدم معرفتهم بها إلا بالسماع من شعر القدماء؛ فتجد الشاعر يسكن بغداد أو دمشق أو غيرهما من الحواضر الإسلامية التى فيها أكبر غَناء عن البادية ومواضعها، ولا يفتأ يذكر اللوى والعقيق ونجداً وتهامة ونَعمان الأراك ومَرّ الظّهران، وما إليها.

وتلك عدّة مقطوعات من روائع ما قالوا فى التغنّى بمنازل الأحباب، وهى أصدق شاهد على ما أسلفت ذكره فى هذا الحديث:

البحترىّ

أَكْثَرْتَ فِى لَوْمِ المُحِبِّ فَأَقْلِلِ
وَأَمَرْتَ بِالصَّــبْرِ الجَمِيلِ فَأَجْمِلِ

لم يبكه نأي الأحبة (بالنوى)
حتى تثبت عليه لوم العذل
قسم الصبابة فرقتين : فشوقه
للظاعنين ودمعه للمنزل
متقسم الأحشاء ينشد أربعاً
متقسمات الصبا والشمأل

— ٢ —

لولا تعلق قلبه المنزل
معنى نبينه ومعنى مشكل(١)
وبوقفة يشفى غليل صبابة
ويقول صب ما أراد ويفعل
سارت مقدمة الدموع وخلفت
حرقاً توقد في الحشا ما ترحل
إن الفراق كما علمت فخلني
ومدامعاً تسع الفراق وتفضل(٢)
إلا يكن صبر جميل فالهوى
نشوان يجمل فيه ما لا يجمل
يا دار لا زالت رباك مجودة
من كل غادية تعل وتنهل(٣)

(١) نبينه ، أي نتبينه . يقول : إن آثار الديار بعضها بين لك فتعرف منه الدار ، وبعضها تشكل عليك معرفته لخفائه وطموسه ، ويشير بالشطر الأول إلى تردده في معرفة المنزل ، ثم تيقنه بأنه هو .

(٢) تفضل ، أي تزيد عليه . يشير إلى غزارة دموعه وأنها تزيد على ما يقتضيه الفراق من بكاء .

(٣) مجودة ، أي مسقية بالمطر . يقال : جاده السحاب : إذا أمطره . والغادية : السحابة في الغداة . وتعل وتنهل ، أي تسقي مرة بعد مرة . والنهل : الشرب الأول . والعل : الشرب الثاني .

فهمتنا دول الزمان وصرفه
وأرتنا كيف الخطوب النزل
أصبابة برسوم (رامة) بعد ما
عفت معالمها الصبا والشمأل
وسألت من لا يستجيب فكنت في استـ
ـخباره كمجيب من لا يسأل

— ٣ —

قد كان ممتنع الدموع فلم تزل
عيناك حتى استعبرت عيناه(١)
متحير ألف الملك خيرة نفسه
ممن تآه الود أو أدناه
عيش لنا بالأبرقين تأبدت
أيامه وتجددت ذكراه(٢)
والعيش ما فارقته فذكرته
لهفاً ، وليس العيش ما تنساه

— ٤ —

مهيار

أسفت لحلم كان لي يوم (بارق)
فأخرجه جهل الصبابة من يدي(٣)
وما ذاك إلا أن تجلت بنظرة
قتلت بها نفسي ولم أتعمد

(١) استعبرت عيناه ، أي دمعتا .

(٢) تأبدت أيامه ، أي أقفرت وأوحشت .

(٣) الحلم : الأناة والعقل . يقول : إن صبابته قد أخرجته من الأناة ورجاحة العقل إلى الجهل والطيش .

تَعَرَّضْ بأحقافِ (اللوى) تَعْرَ ساعةً
وَلَوْلا مكانُ الرَّيْبِ قُلْتُ لكَ : ازْدَدِ(١)

وقلْ : صاحبٌ لي ضلَّ (بالرَّمْلِ) قلبُهُ
لعلَّكَ أن يلقاكَ هادٍ فتهتدي

وسَــلْ : على ماءٍ به بَرْدُ غُلَّتِي
وظلُّ أراكٍ كانَ للوَصْلِ مَوْعِدي

وقلْ لحلمِ (الباتنين) مُهَنِّئاً :
تَمَنَّ خَلِيًّا مِنْ غرامي وعهدي

— ٥ —

إذا فُطِمَتْ قَرارةُ كلِّ وادي
فَدَرَّتْ باللوى حَــلَمُ الغوادي(٢)

وما أَرَبي إلى سُــقْيا رُبوعٍ
لها من مُقْلَتِي ســارٍ وغادي

حَمَلْتُ يدَ السَّحابِ الجَوْنِ فيها
ولستُ مُعَوَّداً حَمْلَ الأيادي(٣)

ولو بكتِ السَّماءُ لهـا وجَفْني
تَبَيَّنْتِ البخيلَ من الجوادِ

(١) يرغب إلى صاحبه أن يعرض بأحقاف اللوى ساعة فيقف بمنازل الأحباب فيها . ثم يقول : لولا أن يرتاب الوشاة بطول وقوفك فيتعرفوا منه وجدى وصبابتى ، لرغبت إليك فى أن تطيل الوقوف . وأحقاف اللوى : رماله ، الواحد حقف بكسر الحاء .

(٢) شبه امتناع القطر عن سقيا الأودية بفطام الصبى عن أمه . يدعو لمنازل الأحباب بالسقيا ، فيقول : إذا فطمت الأودية ولم تسق ماء القطر ، فلا زالت السحب تدر أخلافها على منازل الأحباب باللوى . والغوادى : التى تأتى وقت الغداة .

(٣) السحاب الجون : الذى يبيض القاطر كأنه أسود من كثرة القطر . يقول : إنه تحمل منة السحاب وعمله فى سقيا الديار ، مع أنه لم يتعود حمل المن .

وما أتبعتُ ظُعْنَ الحيِّ طَرْفي
لأَغْنَمَ نظرةً فتكونَ زادي

ولكنِّي بعثتُ بلحظِ عيني
وراءَ الرَّكْبِ يسألُ عن فؤادي

— ٦ —

سُقيتِ – وما الدِّيارُ بسالماتٍ –
على عَنَتِ البِــلَى يا دارَ هِنْــدِ

وَلا بَرِحَتْ مُفَــوَّفَةُ الغوادي
تُصيبُ رُباكِ مِنْ خطأٍ وعَمْدِ(١)

على أنِّي متى مطرتْكِ عيني
فَضَلَّ ما سقاكِ الغيثُ بعدي

أميلُ إليكِ يجذبني فؤادي
وغيرُكِ – ما استقامَ السَّيْرُ – قَصْدي

وأشفقُ أنْ تُبَــدِّلَكِ المطايا
بِوَطْأَتِها كَمَنْ تَرَكَتْ غَدِي

وليتَكِ إذْ نَحَلْتِ نُحولَ جسمي
بَقِيتِ على النُّحُــولِ بقاءَ عَهْدي

وما أهلوكِ يومَ خَــلَوْتِ منهمْ
بأوَّلِ غَــدْرَةِ الدَّهْرِ عِنْدي

— ٧ —

الشريف الرضى

هَبْ للدِّيارِ بَقِيَّــةَ الجَلَدِ
وَدَعِ الدُّمُــوعَ وَباعِثَ الكَمَدِ

(١) شبه السحب بأرداء الفوف ، وهو الذى فيه خطوط بيض .

وَاذْهَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ يُقَالَ : سَلَا
وَصَغَى لِدَاعِي العَذْلِ وَالفَنَدِ
أَتَصُدُّ عَنْ طَلَلٍ رَعَيْتَ بِهِ
مَا شِئْتَ مِنْ هَيَفٍ وَمِنْ غَيَدِ (١)
أَمْسَى الهَوَى فِيهِ بِلَا أَثَرٍ
وَجَرَى البِلَى فِيهِ بِلَا أَمَدِ
إِنَّ الأُلَى بَعُدُوا بِبَيْنِهِمُ
مَا زَوَّدُوا فِي القُرْبِ لِلْبُعُدِ
مَا ضَرَّهُمْ — وَالبَيْنُ يَحْفِزُهُمْ —
لَوْ عَلَّلُونَا بِانْتِظَارِ غَدِ

(١) الهيف : ضمور البطن ورقة الخاصرة . والغيد : النعومة ولين الأعطاف .

— ٨ —

تَلَفَّتُّ دُونَ الرَّكْبِ وَالعَيْنُ غَمْرَةٌ
وَقَدْ مَدَّهَا سَيْلُ الدُّمُوعِ بِمَا مَدَّا (١)
لَعَلِّي أَرَى دَاراً بِأَسْنِمَةِ النَّقَا
فَأَطْرَبُنَا لِلدَّارِ أَقْرَبُنَا عَهْدَا
تَلَاعَبُ بِي بَيْنَ المَعَالِمِ لَوْعَةٌ
فَتَذْهَبُ بِي يَأْساً وَتَرْجِعُ بِي وَجْدَا
مَنَازِلُ نَاشَدْتُ السَّحَابَ فَمَا قَضَى
فَرِيضَتَهَا عَنِّي السَّحَابُ وَلَا أَدَّى

أحمد الزين

(١) غمرة ، أي أن دموع العين قد غمرتها .

أنباء وآراء

حركة النشر فى أوقات الحرب

تعانى حركة نشر الكتب أزمة حادة خلال أوقات الحروب ، فعلاوة على تقييد النشر ، هناك غلاء أسعار الورق وأدوات الطباعة وموادها ، فضلا عن إعراض الناشرين عن طبع الكتب لاعتقادهم بأن جمهور القراء — وغالبيتهم تكون الجيوش التجارية — لايجدون من الوقت مايقرءون فيه كتاباً من أى نوع لأنهم يقضون أوقات فراغهم فى تسطير الرسائل لذويهم .

وقد نشرت إحدى المجلات الانجليزية إحصاء من تناقص حركة نشر الكتب خلال الحرب الماضية جاء فيه أن عدد الكتب التى نشرت فى سنة ١٩١٣ كان ١٢٣٧٩ ، صارت فى سنة ١٩١٤ ثمانية آلاف فقط ، ثم تناقصت إلى ٦٦٠٦ فى عام ١٩١٧ ، وذلك فى بريطانيا العظمى .

ولا ينجو من هذه الأزمة إلا البلدان المحايدة ، فقد بلغ عدد الكتب التى نشرت خلال عام ١٩١٧ فى هولندة ٣٩٥١ كتابا وفى الدانمارك ٣٩٨٤ كتاباً ؛ وهذه الأرقام أكبر من أرقام الأعوام التى سبقتها للنشر فى كلتا الدولتين .

والدولة الوحيدة التى قد تشترك فى حروب ولا يؤثر ذلك على حركة النشر فيها هى الولايات المتحدة التى دخلت الحرب العالمية ومع ذلك ظلت حركة نشر الكتب فيها على حالها .

حقائق عن الحرب

أذاع المسيو أندريه لابارتيه مدير مصلحة الأبحاث الفنية الفرنسية إحصاء طريفاً عن التطور فى الطاقة الحربية من عام ١٩١٨ إلى اليوم ، جاء فيه أن هذه الطاقة زادت اليوم أربعة أضعاف عما كانت ، مما أدى إلى حاجة الحرب إلى كفاح آخر لا يقل عنها هولا وشدة وخطورة ، مكانه المصانع والمعامل .



لا بد من عشرة يعملون فى شتى المصانع لكى يعد جندى واحد للميدان

ولكى يتضح مدى خطورة هذا الكفاح أورد المسيو أندريه أمثلة عديدة ، منها أنه فى عشر دقائق يستهلك المدفع الواحد طناً من الذخيرة ، وأن الفرقة الواحدة من حملة البنادق تستهلك فى عشر دقائق كذلك عشرة أطنان من الخرطوش ؛ فكم يستهلك إذاً جيش دولة كامل فى يوم واحد ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكشف عن خطورة العمل الذى تقوم به المصانع ، فإذا عرف أن هذه الذخائر تزيد نسبة المصابين أيضاً تبين مدى الزيادة فى نسبة الأدوية ونسبة أدوات العلاج والاسعاف ، ونسبة الزيادة فى الجيوش

المحاربة ونسبة الزيادة فى كميات الأطعمة .

وهكذا يصبح الجندى الواحد محتاجاً إلى عمل شاق وسلسلة من الأعمال لا يقوم بها أقل من عشرة رجال لكى يصبح هو مستعداً للقيام بالحرب .

جندى انجلترا الأول

هو الفيكونت جورت القائد العام لقوات بريطانيا فى الحرب الحالية ، والذى تتكل إليه انجلترا أمر المحافظة على سلامتها وشرفها فى الوقت نفسه ؛ وهم يطلقون عليه لقب « النمر » وإن كان اسمه الذى لازمه طوال حياته من عهد دراسته فى كلية هارو هو « الولد السمين » لما كان عليه من بدانة أيام الدراسة .



فيكونت جورت

وللفيكونت جورت قصة بسالة نادرة تروى عنه فى الحرب العظمى الماضية ، لعلها هى السبب الوحيد الذى دفع به فى طريق المجد ومهد له السبيل لكى يصل إلى مكانته الحالية السامية ؛ فقد كان على رأس فرقته فى سبتمبر عام ١٩١٨ يقاتل قوة من الجيش الألمانى وكان يتقدم جنوده حين أصيب بجرح دام ، فاندفع جنوده نحوه فى فزع ، وسرعان ما حملوه ووضعوه فوق نقالة ، ولكن جورت قفز سريعاً من فوق النقالة وتقدم ثانياً ليقود فرقته ، فأصيب بجرح ثان ، ولكنه تجلد واستمر يقفز إلى الأمام والدماء تقطر منه حتى أصيب بجرح ثالث سقط بعده إلى الأرض ، فحمله الجنود على النقالة وقد ظنوا أنه فقد وعيه ، لكن ما كان أشد دهشتهم حين سمعوه يصرخ والنقالة تمر بين صفوفهم مصدراً أوامره بمداومة التقدم ؛ ومن هذه الوقعة إلى اليوم عرف جورت بين كل المحاربين باسم النمر لأنه قاتل كالنمر إلى النهاية .

كتب للمحاربين

أرسل الدكتور ألبرت ماسبروج خطاباً مفتوحاً إلى جريدة التيمس دعا فيه الشعب البريطانى إلى التبرع بكميات كبيرة من الكتب المختلفة ، أو الاكتتاب بثمن مجموعات من الكتب لتزويد قوات المحاربين فى البحر بوسيلة للتسلية والترفيه عن هؤلاء الذين يدافعون عن الوطن ويذودون عن حماه معرضين أنفسهم لأروع الأخطار .

وقد جاء فى خطاب الدكتور أن هؤلاء الرجال فى عرض البحر فى حاجة إلى ما يبعث السعادة إلى نفوسهم ، وليس أدعى للسرور من مطالعة كتاب فى أوقات الفراغ .

وقد لقيت دعوة الدكتور ماسبروج تأييداً من كل طبقات الشعب البريطانى ، فتلقت إدارة الخدمة التهذيبية لرجال البحرية مئات الكتب والمجلدات ، كما تلقت آلاف الرسائل بتبرعات من طبقات الشعب المختلفة لشراء كتب ، مشفوعة بتحيات وتمنيات هذه الطبقات .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

هل الممثل فى حاجة إلى موهبة فنية

الكلام مقصور على ممثل السينما ، فهو ليس فى حاجة إلى موهبة فنية ليبدو أمام الناس فنانا ، والدليل على ذلك أن شركات السينما فى أمريكا لا تعتمد على الممثلين المحترفين ، بل إنها كثيراً ما تختار من أفراد الشعب الممثلين الذين ترى فيهم أنهم يصلحون لتمثيل أدوارها ؛ فروبرت تيلور



الطفل تومى كيلى بطل الفيلم المأخوذ من قصة مارك توين « مغامرات توم سوابر »

مثلا ترك الجامعة التى كان يدرس فيها ليتبوأ مكانة فنية بين مشاهير النجوم يحسده عليها الآلاف من الممثلين . وهنا دليل أهم وأقوى ، وهو أننا نرى أحيانا على الستار الفضى بعض الحيوانات وهى تقوم بأعمال مدهشة تدل على منتهى الذكاء ، فهل لهذه الحيوانات موهبة فنية ؟ إنها تدهشنا بأعمالها وحركاتها وتعبيراتها كما يدهشنا الممثل الذى يوهمنا بأنه ممتاز بموهبة فنية ، فهل من يصدق بعد ذلك بأن للحيوانات مواهب فنية ؟ وها هو دليل آخر . فالأطفال الذين نراهم على الستار الفضى وهم يلعبون أدواراً يعجز عن القيام بمثلها أناس عاديون كبار فى السن ، هل يفوقون الناس العاديين موهبة وفناً ؟ . بالطبع لا . . إذاً فما هو السر فى أننا نرى الممثلين والأطفال والحيوانات فى تلك المواقف الفنية المدهشة التى تثير إعجابنا وتجعلنا نقدرها فوق قدرها الحقيق ؟

السر فى ذلك يرجع إلى المدير الفنى ، فهو المحرك الحقيقى للمواقف التمثيلية ، وهو الذى يختار الأصلح منها ، لأنه يقوم بالفعل فى أثناء إخراج الرواية مقام المؤلف ومقام الممثل أيضاً . بحيث يمكن اعتبار الممثلين فى السينما كالعرائس الصغيرة التى تحركها أصابع المحرك بشد خيوطها المتصلة بأعضائها لتقوم بحركات معينة وفق رغبات المحرك وحسب إرادته .

يؤيد هذا القول ما نعلمه عن قوة النور وأثر الإضاءة فى إظهار المواقف التمثيلية بمظاهر خاصة ، مما يتوقف عليه نجاح الممثل فى الدور الذى يقوم به .



يورتى لى : ممثل انتخبته إحدى شركات السينما أخيرا للقيام بالأدوار المؤثرة

وهناك أسرار فنية أخرى نضطر لإذاعتها لتأييد هذا القول فالممثل فى السينما يمثل دوره أكثر من مرة أمام

الكاميرا ، إنما ينتقي منها المرة التي يراها المدير الفني أصلح من غيرها ، ويلصقها مع بقية المناظر بترتيب خاص يضمن انسجامها ووحدتها واتجاهها جميعاً لاحداث الآثار المطلوبة في نفوس الشاهدين .

فمن هـذا يتضح أن ممثل السينما يضع جسمه وشكله فقط تحت تصرف المدير الفني ليأخذ منهما الأوضاع التي يريدها ، لأن المناظر المتقطعة التي تلتقط الممثل في أثناء تمثيله لدوره لاتقدم هذا الدور كاملا للجمهور ، بل ينتخب منها المدير الفني الأجزاء التي يستطيع بها تقديم « الدور » للجمهور كما يشاء هو ، وليس كما يشاء الممثل . كذلك يستطيع المدير الفني أن يفعل المعجزات فيغير صوت الممثل ويبدله بصوت آخر أقوى وأجمل أو غير ذلك .

إن نجاح ممثل السينما أو سقوطه ليس إلا نجاحاً أو سقوطاً للمدير الفني ، لأن الكهربائي المشرف على الإضاءة في داخل الاستوديو وعامل « الماكيياج » والمصور وملصق المناظر « المونتير » ومهندس الصوت ، يستطيعون جميعاً أن يؤثروا في قوة أداء الممثل لدوره ، وهم يعملون تحت إمرة المدير الفني الذي يستغل شخص الممثل فيجعله يقلد عواطف « الشخصية » التي يراد إظهارها على الستار الفضي ، وشتان بين الممثل الذي يقـلد عواطف « الشخصيات » التي عليه أن يمثلها ، وبين الممثل الذي يحس تلك العواطف نفسها فيعبر عنها كعواطف حقيقية عنده ؛ فالممثل الأول ، الممثل المقـلد ، هو ما يسميه الفرنجة Comedien ، وأما الممثل الفنان الذي يلبس شخصية الدور الذي يمثله لدرجة أنه يحس بإحساساتها ويشعر بعواطفها فهو الذي يطلقون عليه في أوربا كلمة Artiste .

ومن هنا يظهر الفرق بين ممثل السينما وممثل المسرح ، فالأول آلة في يد المدير والثاني لاينجح إلا إذا ثبتت سيادته وأتقن التعبير بصوته عن عواطفه . كأن يعلي صوته أو يخفضه ويزيد في حركاته أو يقللها ، ويطيل وقفاته التمثيلية أو يقصرها ، أي أنه يستطيع أن ينسجم مع الجمهور حسب « الجو » الذي يمثل فيه ، فهو من هذه الناحية (ينقذ) الرواية بتمثيله بخلاف ممثل السينما الذي ليس له فضل في إحياء الدور ، إنما الفضل للمدير الفني ، أي أن لممثل المسرح فضلا ومجهوداً فنياً يفوقان نظيرهما عند ممثل السينما .

* * *

أنبـاء سينمائية

فيلم جديد لسيسيل دي ميل

للمخرج المشهور سيسيل دي ميل ولع خاص بإخراج الأفلام التاريخية ذات المواضيع الهمة ، والمناظر الكبيرة الفخمة . وقد لوحظ أنه قلل أخيراً من إخراج هـذا النوع من الأفلام ، نظراً لكثرة ما يتطلب من الجهـد والمـال . ومع ذلك فإنه تمكن من إقناع الشركة التي يعمل معها لاخراج فيلم كبير يصور فيه المجهودات العظيمـة التي بذلت في أمريكا لربط الساحلين الشرقي والغربي ببعضهما بواسطة السكك الحديدية ؛ وقد تناول هذا الموضوع في رواية اسمها (الاكسبريس الباسيفيكي) ستعرضها سينما رويال بالقاهرة هذا الأسبوع وسيظهر فيها من الممثلين باربارا ستانويك مع جويل مكريا .

عودة عزيزة أمير

بعد غيبة طويلة عن السينما ، عادت النجمة المصرية البارعة السيدة عزيزة أمير ، فظهرت في فيلم جديد اسمه « بياعة التفاح » يعرض الآن بسينما الكوزمو بمصر والاسكندرية .

« كيتو »

فى عالم التأليف

نداء المجهول : رواية قصصية

للأستاذ محمود تيمور

يُعتبر الأستاذ محمود بك تيمور ركناً من أركان القصة فى الأدب العربى الحديث ؛ وقد أخرج حتى الآن عدة مجاميع قصصية . وأقاصيص الأستاذ تيمور تمتاز بأنها تبرز بعض النواحى من حياة المجتمع المصرى . على أنه بعد ذلك يخص الطبقة الدنيا من المجتمع المصرى بكثير من عنايته ، حتى إن أمره ليكاد يشكل على القارئ العادى ، فيخاله يعيش ليله ونهاره ، صباحه ومساءه ، بين تلك الطبقة ، إن لم يظن أنه واحد منهم . ولكن القارئ المتعمق الذى يلاحظ الروح التى تظهر من أقاصيصه يلاحظ فى فنه الارستقراطية الرفيعة التى تظهر فى طريقة تناوله للموضوع الذى يديره ليخلق منه أجواء قصته .

وقد نالت أقاصيص تيمور بك التقدير فى دوائر الأدب فى جميع بلدان الغرب ، فترجمت له بعض الأقاصيص إلى أكثر من لغة ، فترجم المستشرق السويسرى الدكتور ويدمار بعض أقاصيصه إلى الألمانية ، كما ترجمت له قصته الطويلة « الأطلال » مع مجموعة قصص أخرى إلى الفرنسية باسم « غراميات سامى » ، كما ترجمت له بعض الأقاصيص الأخرى إلى بعض اللغات كالايطالية والقوقازية والروسية والتركية .

ويرجع تقدير الدوائر الأدبية لفن الأستاذ تيمور إلى أنه صاحب اقتدار فى كتابة الأقصوصة ، وقد ألمع إلى هذه النواحى فى فنه فى شىء من التحليل الدكتور اسماعيل أدهم .

وقد صدر حديثاً للأستاذ تيمور رواية قصصية طويلة عن دار المكشوف ببيروت ضمن منشوراتها ، موسومة باسم « نداء المجهول » .

ودار المكشوف تقدم الآن للأدب العربى المعاصر أروع الآثار الخلقية لأساطين الكتاب العرب وكبار الأدباء السوريين واللبنانيين . وقد صدر عنها أكثر من عشرين كتاباً فى مختلف فروع الأدب من شعر وقصص ونقد .

ونحن وإن كنا نعجب أشد الاعجاب بجهود الأستاذ تيمور فى فنّ القصة ، ولكن هذا الاعجاب لن يقف فى سبيلنا ، فيجعلنا نحيد عن الحق ، ونميل عنه ، بل بغيتنا أن ندقق النظر فى العناصر الفنية التى تميز أدب الأستاذ تيمور

الواقع — كما سبقت الإشارة — أن الأستاذ تيمور صاحب اقتدار عظيم فى كتابة الأقصوصة ، ومعظم أقاصيص الأستاذ تيمور ليست من فن الأقصوصة ، وإنما من فنّ الصور الأدبية ، ذلك أن للأستاذ تيمور قوة فى التصوير الدقيق ، فهو ينقل ببراعة الواقع المرأى والمشاهد ، والدقائق التى تسترعى النظر ، فلا يكاد يكون «فوتوغرافياً» لولا أن فيها عنصراً من الحياة والحركة تتمشى ، فى أعطافها فتتخيلها قطعة حياة تترجم عما تحتها ؛ ومن هنا جاءت براعة التصوير فى فنّ الأستاذ تيمور . غير أن هذه البراعة على ما تبدو لنا متوقفة على النقل عن المنظور . بمعنى أنها تجد لها فى العالم الواقعى ما تستند إليه ، فإذا فقد هذا الأصل ، ودارت القصة فى أجواء من خلق خياله ،

فهنالك يخون الأستاذ تيمور قلمه . ومثل هذا الاستعداد وإن كان طبيعياً فى أجواء الأقصوصة إلا أنها لا تكفى القصة ، لأنها بطولها تلزم القصصى أشياء لا يلزمه إياها فنّ الأقصوصة . من ذلك الإسهاب فى الوصف والتصوير ، ومنّ الأستاذ تيمور فى هذا كما قلنا أشبه ما يكون «بفوتوغراف» ، فهو من هنا يمكن أن يقال إنه حسىّ .

أما قصة نداء المجهول فهى قصة جديدة بموضوعها ، فقد ترك الأستاذ تيمور جوّ المجتمع المصرى وانتقل إلى لبنان ، واتخذ منه مسرحاً لجو قصته ، على أن المنحى بعد ذلك لم يتغير فى طريقة تناوله للموضوع . مع أن الموضوع كان على موقفاً يتطلب شيئاً من الملاءمة بين موضوع القصة وجوّها . فأنت تقرأ القصة فلا ترى فيها ما يشعرك بأنه قد نقلك إلى جو لبنان ومحيطه ، ولا تقع على شىء من ذلك فى القصة مما لا بد منه ، وإن كنت ترى على نقيض ذلك ما يشعرك بجو مصرى خالص .

وإن من يقرأ بعض القصص اللبنانية مثل « الرغيف » للأستاذ توفيق يوسف عواد ، أو « كان ما كان » للأستاذ ميخائيل نعيمة يدرك صحة ما ذهبنا إليه .

وموضوع القصة يظهر من عنوانها « نداء المجهول » فمس « إيفانس » بطلة القصة فتاة انجليزية مثقفة ، وهى عازفة عن مباهج الحياة الصاخبة ، هاربة من الدنية الآثمة ، رامية نفسها فى حضن الطبيعة ، وهى تجد السرور فى عزلتها ...

يناديها المجهول فتجرى وراءه ... كأن شيئاً خفياً فى أعماق نفسها لا تدرك كنهه يناديها ، فتجرى وراء النداء .... تلبى .

وهناك بعض الشخصيات الأخرى كشخصية الأستاذ كنعان ، والشيخ عاد صاحب الفندق ، وقد جلا الأستاذ تيمور شخوص روايته بكثير من اللباقة .

وقبل أن نلقى القلم نحب أن نقول كلمة فى أسلوب تيمور . فأسلوبه رائع لا تكلف فيه ، فهو يترك نفسه على سجيتها ، فتصدر كتابته من غير كلفة أو تصنع ؛ لهذا كانت كتابته قريبة من نفوس القراء . ويمتاز أسلوبه بالسلاسة والجزالة . ولا شك أن من يقرأ هذه الرواية يجد فيها كثيراً من اللذة والمتاع .

(الإسكندرية) ابراهيم معلول

إنه فى يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بناحية نجع القصب تبع الخالص وإذا لم يتم يكون بسوق نجع حادى يوم ٦ نوفبر سنة ١٩٣٩ سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز نفاذاً للحكم رقم ٦٦١٠ سنة ١٩٣٩ محكمة نجع حادى الأهلية ملك على دسوقى أحمد من نجع القصب تبع الخالص وفاء لمبلغ ١٣٠ قرش صاغ لطالب بكرى محمود طرف من المصروفات

قلم رافب القراء المحضور ٧٨

إنه فى يوم الأربعاء ١٥ نوفبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بجهة الطوابجية بالصحابين قسم الدرب الأحمر سيباع علنا أشياء موضحة بمحضر الحجز ملك محمد محمد عبد السلام وآخر لطالب حضرة صاحب المعالى وزير الاوقاف بصفته ناظراً على وقف سعيد باشا خيرى تنفيذاً للحكم الصادر بتاريخ ١/٣ /١٩٣٨ من محكمة المنشية الأهلية وفاء لمبلغ ٤جنيه و ١٨٠مليم خلاف ما يستجد

قلم رافب القراء المحضور . ٧٩

إنه فى يوم السبت ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا لما بعدها بعزبة الجرير والصادين تبع شط عب والسيالة ويوم الخميس ٢ نوفبر سنة ١٩٣٩ بسوق دمياط المصرى سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز نفاذا لحكم محكمة دمياط الأهلية رقم ٣٠٣٣ سنة ١٩٣٩ الصادر لصالح الشيخ حامد مصطفى الجندى من السيالة ضد رمضان خليل الجرير الزارع من الجهة وفاء لمبلغ ١٠١٠ قرش صاغ خلاف أجرة النشر .

قلم رافب القراء المحضور ٨٠

إنه فى يوم الأحد ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بناحية صفط زريق سيباع علنا زراعة القطن الموضح بمحضر الحجز بزمام صفط زريق بحوض الساحل وفاء لغرامة المحكوم بها على السيدة على أحمد المالكة للزراعة المذكورة وقدرها ٢ اثنين جنيه مصرى بخلاف أجرتى النشر وقدرها ٤٠٠ مليم وما يستجد من المصاريف الصادرة بجلسة ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٨ فى القضية رقم ٤٣ سنة ١٩٣٥ . قلم رافب القراء المحضور ٨١

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٤ — الثلاثاء ١٨ رمضان سنة ١٣٥٨ — ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

الحلف الثلاثى بين تركيا وانكلترا وفرنسا

والمواثيق الدفاعية فى البلقان وشرقى البحر الابيض المتوسط

لمحرر "الثقافة" السياسى

كان عقد الميثاق الثلاثى بين تركيا وبريطانيا العظمى وفرنسا أهم الحوادث الدولية الأخيرة ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أهم حادث ديلوماسى وقع منذ نشوب الحرب الأوربية .

وقد كان عقد هذا الميثاق متوقعاً منذ أشهر ؛ والواقع أنه ليس سوى المرحلة الأخيرة لعدة تصريحات وعهود رسمية تبادلتها بريطانيا العظمى وفرنسا من ناحية ، وتركيا من ناحية أخرى ، فى شهرى مايو ويونيه الماضيين ؛ ثم تأخر إدماجها وإبرامها فى الميثاق المرغوب نظراً لما وقع من تطور فجائى فى سير الحوادث الدولية ؛ فنى أواخر أغسطس عقد

الميثاق الألماني السوفيتي فجأة ، فكان له أعمق وقع في شئون أوربا الشرقية ، ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى أقدمت ألمانيا على اجتياح بولونيا ، وترتب على ذلك قيام الحرب الأوربية .

وكان يخشى أن يكون لهذا التحول الفجائي في سياسة روسيا السوفيتية واتجاهها إلى الاتفاق مع ألمانيا المقترنة على اقتسام أوربا الشرقية ، أثر في موقف تركيا التي ترتبط مع جارتها روسيا بروابط وثيقة ، وتجمع بينهما في حلبة السياسة عوامل واعتبارات هامة ؛ ولما دعي وزير الخارجية التركية في أواخر سبتمبر الماضي إلى موسكو للمفاوضة مع زعماء السوفييت ، وكشفت روسيا خلال ذلك عن طرف من مطامعها الاستعمارية بانتزاع نصف بولونيا الشرقي والضغط على دول البلطيق ، خشي أن يقع مثل هذا الضغط من جانب روسيا على تركيا ، فيؤثر في موقفها تجاه الدول البلقانية ، وتجاه انكلترا وفرنسا ، فتنهار بذلك أسس الاتفاق الثلاثي في مهدها .

ولكن تركيا استطاعت ، بالرغم مما بذلته حكومة موسكو من الضغط والوعيد ، أن تقاوم كل محاولة لردها عن الطريق الذي اختارت أن تسلكه ، وآثرت أن تبقى مخلصة لوعودها وللسياسة التي اختطتها لنفسها بعد إمعان الروية والتفكير ؛ وهكذا فشلت مفاوضات موسكو ، وعلى أثر انقطاعها وقع الميثاق الثلاثي في أنقرة بين تركيا وانكلترا وفرنسا .

— ٢ —

ويجدر بنا قبل التحدث عن الميثاق الجديد أن نذكر الخطوات التي سبقته والتي اتخذت أساساً لعقده ، وهي تتلخص فيما يأتي :

أولا — على أثر استيلاء إيطاليا على ألبانيا في أوائل إبريل الماضي ، أصدرت الحكومتان الانكليزية والفرنسية تصريحاً مماثلا بضمان من جانب واحد لرومانيا واليونان إذا اعتدى عليهما وقاومتا الاعتداء .

ثانياً — صدر في ١٢ مايو الماضي تصريح متبادل بين كل من انكلترا وفرنسا من ناحية وتركيا من ناحية أخرى نصه « إنهما (أي كل من الدولتين) في حالة وقوع اعتداء يؤدي إلى الحرب في البحر الأبيض المتوسط ، تكونان على استعداد للتعاون الفعلي ، ولأن تقدم كل منهما للأخرى كل مساعدة في وسعها » . واتفق الفريقان على أن يعقد بينهما في أقرب وقت ميثاق نهائي متبادل لتأييد السلامة والأمن .

ثالثاً — عقد في باريس في أواخر يونيه الماضي ميثاق حربي بين فرنسا وتركيا بوجوب العمل على صون السلام في البلقان ، ووجوب التشاور لتحقيق هذه الغاية ، وبذل المعاونة المتبادلة إذا دعت الضرورة إلى بذلها . وعقد في نفس الوقت في أنقرة اتفاق آخر فرنسي تركي ، ينص على تنازل فرنسا نهائياً لتركيا من سنجق الاسكندرونة .

ويبدو مما تقدم أن الميثاق الثلاثي الجديد الذي عقد بين تركيا وفرنسا وانكلترا إنما هو تتمة للخطوات المتقدمة وتنظيم نهائي للمعاونة العسكرية بين الفريقين المتعاقدين ، لدفع الاعتداء ، وإقرار السلام في البلقان وفي شرق البحر الأبيض المتوسط .

ويتلخص هذا الميثاق الذي يتكون من عشر مواد وملحقين في أنه إذا دخلت تركيا حرباً مع دولة أوربية معتدية عليها ، قامت فرنسا وانكلترا بمساعدتها . وإذا قامت دولة أوربية بعمل عدائي في منطقة البحر الأبيض المتوسط يؤدي إلى حرب تدخل فيها انكلترا وفرنسا ، فإن تركيا تقدم لهما كل عون ممكن ؛ وإذا وقع مثل هذا العمل العدائي وترتب عليه حرب تدخلها تركيا ، عاونتها انكلترا وفرنسا ؛ وأنه ما دامت الضمانات التي قطعتها انكلترا وفرنسا إلى اليونان

ورومانيا قائمة ، فإن تركيا تتعاون معهما فعلا وتبذل لهما كل معاونة ممكنة إذا اضطرتا إلى دخول حرب ما من جراء تنفيذ الضمانات المشار إليها ، وإنه إذا اشتبك المتعاقدون فى أعمال عدائية تطبيقاً لهذا الميثاق ، فإنه لا تعقد هدنة أو صلح إلا بالاتفاق المشترك .

ومدة الميثاق الثلاثى خمسة عشر سنة ؛ وقد نص فيه على أنه غير موجه إلى أحد ؛ ونص فى ملحق خاص على أن التعهدات التى قطعتها تركيا لا يمكن أن تضطرها إلى عمل يجرها إلى نزاع مسلح مع اتحاد جمهوريات السوفييت ؛ وفى هذا النص ما يدل على أن تركيا ما زالت تؤمل أن تستمر علائقها الودية القديمة مع روسيا ، وأن الدولتين الحليفتين من جهة أخرى تحرصان على عدم المساس بروسيا ، وعلى الابتعاد عن كل ما يثيرها أو يحفزها إلى العمل على تعكير السلم .

— ٣ —

هذا وقد كان لعقد الميثاق الثلاثى أحسن وقع فى جميع الدول المحايدة ، وبخاصة فى دول البلقان وفى الشرق الأدنى ؛ وهو فضلا عما ينطوى عليه من مغزى أدبى عميق لما أبدته تركيا من الوفاء بعهودها فى وقت انهارت فيه الثقة الدولية ، وعز فيه الوفاء بالعهود ، يقدم من الناحية المادية دعامة جديدة فى نظام السلامة المشتركة ، وضماناً جديداً قوياً للمحافظة على السلم فى البلقان وشرق البحر الأبيض المتوسط .

على أنه يجب لكى نقدر أثر الميثاق الثلاثى فى مركز الدول البلقانية التى تعتبر تركيا زعيمتها ، وفى موقفها من الأزمة الأوربية الحاضرة ، أن نشير إلى العهود والمواثيق المشتركة التى ترتبط بها هذه الدول ، فى سبيل المحافظة على سلامتها وعلى سلام البلقان .

فمنذ سنة ١٩٣٤ ، ترتبط الدول البلقانية ، أعنى تركيا واليونان ويوجوسلافيا ورومانيا بميثاق مشترك يعرف بالحلف البلقانى . أما بلغاريا فقد رفضت أن تشترك فيه . وينص الميثاق على أن الدول المذكورة تتعهد بالعمل على ضمان حدودها البلقانية ، وأنه متى وقع أى شىء تتأثر به مصالحها ، فلا تقوم بأى عمل مفرد دون التشاور ، أو تأخذ على نفسها أى تعهد سياسى نحو أية دولة بلقانية أخرى دون الموافقة المشتركة . وتنص اللاحق الإضافية على أنه إذا وقع اعتداء على أى واحدة منها ، سواء من جانب بلغاريا وحدها ، أو من جانب بلغاريا بالاشتراك مع دولة غير بلقانية ، فإنها تتضامن جميعاً فى دفع هذا الاعتداء ، وأن تتعاون فى قمع أية محاولة يراد بها تغيير الحالة الراهنة فى البلقان . وقد أعفيت اليونان بنص خاص من الدخول فى أعمال عدائية إذا كانت إيطاليا هى الدولة التى تشد أزر بلغاريا فى الاعتداء . بيد أنها تتعهد بالدخول فى الحرب ضد إيطاليا لحماية الحدود البلقانية متى دخلت ضدها فرنسا وانكلترا .

ومن جهة أخرى فإن تركيا ترتبط وحدها مع العراق وفارس وأفغانستان بميثاق عدم اعتداء يعرف بميثاق سعد أباد ، يقضى على الدول الموقعة عليه بحل الخلافات التى تقع بينها بطريق المفاوضة والتحكيم .

***

وقد أصيب الحلف البلقانى بشىء من الضعف من جراء موقف يوجوسلافيا التى آثرت فيما بعد أن تسوى علائقها منفردة مع بلغاريا ثم إيطاليا ، وأن تعقد مع كل منهما ميثاقاً خاصاً . على أن الحلف البلقانى يعود اليوم فيسترد كل قوته وأهميته ، بعد عقد الميثاق الثلاثى الجديد ودخول انكلترا وفرنسا لضمان رومانيا واليونان وتركيا ضد كل اعتداء . أما يوجوسلافيا فقد تركت خارج هذه المواثيق والضمانات نظراً لظروفها الخاصة ، ولأنها فضلت

أن تكون حرة فى تكييف سياستها .

ولسنا بحاجة إلى القول بأن الميثاق الثلاثى يكون سداً منيعاً ضد مطامع ألمانيا وروسيا فى البلقان والشرق الأدنى ، ويحملهما على التفكير طويلا قبل القيام بأى زحف أو اعتداء فى هذا الاتجاه . والمعروف أن حكومة موسكو قد بذلت كل ما فى وسعها لكى ترغم تركيا على إغلاق الدردنيل والبوسفور فى وجه السفن الانكليزية والفرنسية ، واعتبار البحر الأسود بحيرة روسية ؛ وكانت تعمل فى ذلك بوحى حليفتها الجديدة ألمانيا ؛ ولكن هذه المحاولة فشلت ولم تتأثر تركيا فى ذلك بتهديدات موسكو ولا بدسائس ألمانيا ، وآثرت أن تحتفظ بسيادتها وحريتها بشأن المضايق ، وأن تعتمد على الضمانات الفرنسية الانكليزية لرد الاعتداء عليها وعلى حليفاتها من دول البلقان ، وأن تفتح المضايق لسفن الحلفاء عند الاقتضاء .

ثم إن الميثاق الثلاثى يعزز جبهة الحلفاء الدفاعية فى شرق البحر الأبيض كله من مصب الدانوب حتى قناة السويس ، ويعاون معاونة فعالة فى القضاء على أى اعتداء يوجه إلى هذه الجبهة من أى دولة كانت ؛ وفى اعتقادنا أيضاً أنه يضيف عاملا جديداً على العوامل والظروف التى تحمل إيطاليا على الاحتفاظ بحيدتها ، وقد يكون له أثر حاسم فى إبعادها نهائياً عن ألمانيا وسياسة محور برلين موسكو .

وأخيراً لسنا بحاجة إلى القول بأن الميثاق الثلاثى كان صدمة قوية لألمانيا ، وأنه بما أحدثه فيها من خيبة أمل تبدو واضحة فى اضطراب الدوائر النازية ، وأقوال الصحف الألمانية ، يعتبر فوزاً سياسياً عظيماً للحلفاء ، لا يقل عن فوز ألمانيا فى أواخر أغسطس بعقد الميثاق السوفيتى .

***

تواضـــع ...

للدكتور طه حسين بك

لا أريد به هذا الخلق الكريم الذي يرفع الله أصحابه ، وإنما أريد به هذه الخصلة التي أراد إليها الشاعر القديم حين فضّل جريراً على الفرزدق بشعره وأخّر جريراً من الفرزدق بقومه ، وذلك حيث يقول :

فيا شاعراً لا شاعر اليوم مثله
جرير ولكن في كليب تواضع

أريد به هذا التضاؤل الذي يصيب بعض الأفراد وهم خليقون أن يعظموا ، وهذا التصاغر الذي يصيب بعض الشعوب وهي خليقة أن تكبر ، وهذا الاتضاع الذي يصيب بعض الأجيال وهي خليقة أن ترتفع .

ويحملني على التفكير في هذا التواضع البغيض الذي لا يدل إلا على صغر النفوس ، وقصور الهمم ، وفتور العزائم ، ما أضطر إليه من التفكير في مصر بعيداً عنها ، وقريباً منها ، وغائباً عن أهلها وشاهداً فيهم . فإن هذا التفكير يترك في نفسي أثرين متناقضين : هما الرضى الذي يعظم حتى يوشك أن يكون غروراً ، والسخط الذي يعظم حتى يوشك أن يكون ثورة . وما لذلك مصدر إلا هذا الاحساس القوي الذي أجده حين أفكر في مصر من بعيد ، وحين أسمع غير المصريين يتحدثون عن مصر التي يعرفونها من الكتب ومن أحاديث الناس . هنالك أرى مصر كما هي ، وكما يجب أن تكون ، بلداً عظيما لا يرضى إلا بعظائم الأمور ، ولا يطمئن إلى صغائرها ؛ وإنما يثور ويضطرب إن أكره على الصغائر أو دفع إليها ، وما يزال في ثورته واضطرابه حتى يرد إلى ما يجب وتألف طبيعته من عظائم الأمور وجلائل الأعمال .

وهنالك أفكر في مصدر هذه العظمة المصرية فلا أراه بعيداً ولا غريباً ؛ وإنما أراه قريباً سهلا ، يتصل بطبيعتها المادية ، ويتصل بتاريخها ، ويتصل بموقعها الجغرافي كما يقال .

يتصل بطبيعتها المادية ، فإن العظمة تكتنفها من جميع جوانبها : عظمة الصحراء ، وعظمة البحر ، وعظمة هذا الجو المشرق دائماً ، الصفو دائماً ، وعظمة هذا الاقليم المعتدل ، وعظمة هذا النهر الذي يهبط واديها في أناة قوامها الجلال ، أو في سرعة قوامها الرهبة والخوف ، وهو على كل حال يحمل الخصب واليسر ، ويشيع الحياة والنعيم .

ويتصل بتاريخها الذي يعرفه الأجانب أكثر مما نعرفه ، ويقدرونه أكثر مما نقدره ، والذي كثر القول في مكانته الرفيعة بين تواريخ الأمم والأجيال ، حتى أصبح الحديث عنه لغواً ولهواً ، وإعادته لنا لا طائل في إعادته . فمصر مهد الحضارة ، ما يشك في ذلك أحد ، ومصر قد حضّرت الشرق القريب ، وحضّرت اليونان أيضاً ، ما ينكر ذلك أحد . ومصر قد بسطت سلطانها السياسي على كثير من أقطار الأرض في كثير من العصور ، ما ينازع في ذلك أحد . ومصر قد قاومت الطامعين فيها والمغيرين عليها ، حتى ردتهم عنها ، أو أفنتهم في نفسها ، وحتى خرجت من المحن كما دخلت فيها ، عزيزة قوية ، وكريمة موفورة ، ما يجادل في ذلك أحد . ومصر قد أقامت على أرضها من الآثار في جميع عصورها

المختلفة ما يثير فى النفس الشعور بالعظمة والقوة والطول ؛ وقلما تجد من آثار مصر ما يثير فى النفس شيئاً يناقض هذا الشعور : عماراتها فى العصور الفرعونية ، وعماراتها فى العصر اليونانى الرومانى ، وعماراتها فى العصر الاسلامى ، وعماراتها فى هذا العصر الحديث نفسه ، لا تصور تضاؤلا ولا تصاغراً ولا تواضعاً ، وإنما تصور عظمة وطموحاً إلى العظمة ، وتصور قوة وتوثباً إلى القوة ، وتصـور سمواً واندفاعاً إلى السمو .

حتى حين تمس مصر بالفنون اليسيرة التى ليس من طبعها أن تصور القوة والعظمة والطموح ، وإنما من طبعها أن تصور الأناة والدقة والتأنق ، حتى حين تمس مصر بهذه الفنون لا تستطيع أن تبرأ من هذا الطموح إلى العظمة ؛ يظهر ذلك فى تأنيها وصبرها ، وحرصها على الاتقان والتجويد ، وازدرائهـا للسرعة ، واحتقارها للزمن ، وإعراضها عن الربح السريع والفوز اليسير ، وإيثارها للكَـيْف وانصرافها عن الكَـمّ . كل ذلك على ثقة بالنفس ، وثبات على الرأى ، وإيثار للمثل الأعلى ، وانصراف عما دونه من أعراض الحياة ، تلك التى ترضى بها الأجيال ذات النفوس الصغار .

وبتصـل بموقعها الجغرافى بين الشرق والغرب ، وأخذها من الشرق والغرب خلاصـة ما عندهما ، وردها على الشرق والغرب ما لا يلائم طبعها ولا يوافق مزاجها ، وقيامها من الشرق والغرب مقام الحكم العدل الذى يحمى حضارة اليونان من طغيان الرومان ، ويحمى حضـارة الاسلام من طغيان التتر ، وينهض فى هذه الأيام للتوفيق والاصلاح بين مطامع أوربا الجائعة وطموح الشرق المستيقظ إلى الحرية والاستقلال ، كل هذه مصادر واضحة قريبـة لهذا الشعور القوى الذى يملأ نفوس الأوربيين إعجاباً بمصر وإكباراً لها ، والذى يملأ نفسى حين أكون بين الأوربيين ، فأسمع لأحاديثهم ، وأقرأ كتبهم ، رضى عن مصر ، وافتخاراً بالانتساب إليها ، وطموحاً إلى أن تكون خليقة برأى الناس فيها .

فاذا عدت إلى مصر واتصلت بأهلها ، فسمعت منهم وتحدثت إليهم ، وقرأت أخبارهم وآثارهم فى الصحف ، فهذا مصـــدر آخر لشعور آخر ليس له حظ من العظمة ، وليس له نصيب من الرضى ؛ وإنما هو التضاؤل والتصاغر ، وهو السخط والضيق ، وهو الشعور المؤلم الذى يجده من كان على القمة ثم هوى فجأة إلى القاع ، والذى يجده من كان فى حلم رائع لذيذ ، ثم استيقظ على حياة مظلمة مؤلمة ، والذى يجده من كان مطلقاً حراً ، ثم أثقلته الأغلال والقيود ، ودفع إلى أعمـاق سجن بغيض . ذلك أنى لا أكاد أستقر فى مصر ، حتى أجد مس الحياة الحاضرة الواقعة ، وإذا هو مس خشن لا لين فيه ، وإذا هذه الحيـاة ضيقة شديدة الضيق ، لا حظ لها من سعة ولا رحب ، ولا يجد الذين يحيونها فرجاً من حرج ، ولا متنفساً يلتمسون بها رئاتهم حاجتها من الهواء . إنما هو الضيق إذا تحركوا ، والضيق إذا نظروا ، والضيق إذا فكروا ، والضيق إذا تحدثوا ، والضيق فى كل شىء ، حتى تصبح الحياة عبئاً ثقيلا ، وحتى يشيع فى النفس أسف حزين لاذع على تلك الأيام الحلوة التى أنفقت هناك ، حيث الهواء الطلق الذى تتنفس منه ملء رئتيك ، وحيث الجو الواسع العريض الذى تستطيع أن تطلق فيه نفسك كما أحببت وحيث أحببت ، تطلقها فيما مضى فترى عظمة تملأ النفس كبراً ، وترى مجداً تملأ النفس قوة وإباء ، وتطلقها فى المستقبل فتسبح فى رجاء واسع باسم ، وآمال مشرقة عراض ، وتطلقها فى الحاضر نفسه فترى نشاطاً يدفع إلى الأمل ، وترى إنتاجاً يحمل على الثقة ، وترى أعمالاً تعصم من القنوط .

ثم ، لا أكاد أستقر في مصر حتى أشعر بهذا الضيق وحتى أجد هذا السخط ، وحتى أكاد أرى أن حب مصر مشروط بالبعد عنها ، وأن الأمل في مصر رهين بأن تنظر إليها وبيننا وبينها مسافة غير قريبة . لماذا هذا الشعور ؟ ولماذا هذا التنقل بين موقفين أقل ما يوصفان به أنهما متناقضان أشد التناقض ، متباينان أشد التباين ؟ لسبب وحيد يسير فيما أعتقد ، هو أن مصر أعظم من أهلها ، فهي عظيمة متسامية ، وشعبها صغير متضائل ، عظيمة رقعتها من الأرض ، وشعبها يجهل هذه الرقعة ؛ فما أقل المصريين الذين يعرفون بلادهم معرفة جغرافية مقاربة ، بل ما أقل المصريين الذين يعرفون أقاليمهم معرفة صحيحة . تحدث إلى من شئت من المصريين عن هذه الصحراء التي تأخذها شرقاً وغرباً ، ثم انتظر رجع حديثك ، فلن تجد لحديثك رجعاً ولا صدى ، لأن أكثر هؤلاء المصريين لا يكادون يعرفون من أمر هذه الصحراء شيئاً . تحدث إليهم عن النيل ، تحدث إليهم عن البحر الأبيض أو عن البحر الأحمر ، فلن تجد لحديثك رجعاً ولا صدى .

عظيمة التاريخ ، ولكن أهلها يجهلون هذا التاريخ جهلاً مخزياً . وحسبك أن التعليم الحديث قد بعد عهده بمصر ، وأن اللغة العربية التي هي لغة المصريين لا تعرف كتاباً مقنعاً في تاريخ مصر يطمئن إليه أوساط الناس ، وإنما هم مضطرون إلى الجهل أو إلى التماس تاريخهم عند الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان .

عظيمة الحظ من النشاط في حياتها الحديثة نفسها ، ولكن أهلها يجهلون هذا النشاط ، فسل أوساطهم عن قناة السويس أو عن القناطر الخيرية أو عن خزان أسوان ، وسل أوساطها عما بذلت من جهد في التجارة أو في الزراعة أو في العلم أو في السياسة التي لا يتحدث المصريون إلا بها ، ولا يعيشون إلا لها في هذه الأيام ، فسترى جهلهم بهذا مخزياً مؤذياً .

ومن هنا تستطيع أن نعكس ما أراد إليه المتنبي في هجائه لكافور حين قال :

ومن جهلت نفسه قدرها ... رأى غيره فيه ما لا يرى

أراد المتنبي أن يصف كافوراً بالغرور ، ولا أدري أصدق أم كذب ، ولكنه صادق من غير شك إن قال هذا البيت في المصريين المعاصرين ليصفهم بالتواضع والتضاؤل لا بالعظمة والكبرياء . فالمصريون يجهلون من أمر مصر أكثر مما يعلمون ؛ فيرونها صغيرة ، ويرون أنفسهم معها صغاراً ، وهي كبيرة ومن حقهم أن يكونوا معها كباراً ؛ والأجانب يعلمون من أمر مصر ومن أمر المصريين أكثر مما نعلم نحن ، فلهم فينا وفي بلادنا رأي أحسن من آرائنا ، ولهم إلينا وإلى بلادنا نظر أصدق من نظرنا ، وآية ذلك أنهم يعجبون بنا ، ومنهم من يطمع فينا . وإنا نحقر أنفسنا ولا نكاد نذود عنها وعن وطنها طمع الطامعين .

وينشأ عن جهل المصريين بشؤون بلادهم في قديمها وحديثها أن تكون آمالهم في مستقبلها ملائمة لما يعلمون من أمرها ، أي أن تكون هذه الآمال صغاراً جداً قصاراً جداً ، خيرمنها اليأس لأنه مريح . لو عرف المصريون تاريخهم لكرهوا أن تكون سيرتهم أقل خطراً وأيسر شأناً من سيرة أسلافهم . ولو عرفوا هؤلاء الأسلاف حق المعرفة لكرهوا أن تكون آثارهم أهون من آثار أولئك الأسلاف ، ولكنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم ، ولا ينظرون إلا إلى حياتهم هذه البوهيمية الصغيرة الضيقة ذات الآفاق القريبة المحدودة ، فيصغر تفكيرهم كما صغرت حياتهم ، وتصغر آمالهم كما صغر تفكيرهم ، وتصغر أعمالهم كما صغرت آمالهم . وإذا مصر التي يحيون فيها قد صغرت وتضاءلت لأنهم صغروا وتضاءلوا ، وهانت على الناس لأنهم هانوا على أنفسهم . وما أحب أن تظن بي التشاؤم ، أو أن تتهمني

بالإسراف في السخط ، ولكن خذ أي ناحية من نواحي حياتنا وانظر فيها ، فسترى التفكير الصغير والنظر القصير والتواضع الذي لا يرفع الله أصحابه . هذه الحرب قد شبت نارها ، وارتفع أوارها ، واضطربت لها نفوس الذين يصطلون حرها والذين هم بمأمن منها أشد الاضطراب ، فحدثني فيم نفكر ؟ وبماذا نشتغل ؟ ولماذا نضطرب ؟

فريق منا لا يفكرون ولا يشتغلون ولا يضطربون ، لأن الله قد منحهم لذة النوم المريح ؛ وفريق آخر يفكرون في القطن ، ويضطربون للقطن ، ويشتغلون بالقطن ؛ لأن القطن مصدر المال ، ولأن المال مصدر الحياة . وأي حياة هذه التي تعصمك من الجوع ، وتبيح لك أنواع الاستمتاع بألوان الترف والنعيم ؟

وفريق آخر قد يفكرون فيما يفكر فيه الناس من أمر الحضارة ومستقبلها ، ومن أمر الإنسانية ومصيرها ، ومن أمر مصر وموقفها من هذه الكوارث التي تلم بالإنسانية ، أو تنذرها بأن تلم بها غداً أو بعد غد . ولكن هؤلاء أقل من القليل يكتمون أحاديثهم بينهم ، ويستحون أن يجهروا بها ، مخافة أن يضحك منهم الضاحكون ، أو يعرض عنهم المعرضون . وهم من أجل ذلك يضيقون بالحياة وبالأحياء ، فيفكر الأستاذ أحمد أمين في أن ينشئ لهم فن السرور .

دع هذه الناحية وخذ ناحية أخرى هي ناحية التعليم ، فسترى التفكير فيه صغيراً ، والنظر إليه قصيراً ، والعناية به على قد المصريين لا على قد مصر . فمصر في حاجة إلى أن تصلح عقول الملايين من أبنائها بالتعليم ، كما تصلح الملايين من فدادينها بالري ؛ ولكنا نضيق التعليم ما وجدنا إلى تضييقه سبيلا ، لأن التعليم عندنا ما زال ترفاً لا ينبغي أن يباح للمصري من حيث هو مصري ، وإنما ينبغي أن يباح لطبقة أو طبقات من الناس ، ولأن الترف شيء يمكن العدول عنه إذا اشتدت الأزمات وقل المال ، أو احتيج إلى إنفاقه في مصادر أخرى . فجامعة الاسكندرية ترف يمكن إرجاؤه ، والسنة الثانية في كلية الآداب بالاسكندرية ترف يمكن إرجاؤه ، وخير للدولة أن تقتصد آلافاً من الجنيهات من أن تمضي في إنشاء جامعة ، لأن المال ضرورة والعلم ترف : المال ضرورة يحتاج إليه في أوقات الحرب ، والعلم ترف يمكن الاستغناء عنه في أوقات الحرب ؛ ولا تقل إن العلم ضرورة من ضرورات الدفاع الوطني ؛ ولعله أن يكون ألزم للدفاع الوطني من السيف والرمح والمدفع والطائرة ؛ ولا تقل إن العلم ضرورة من ضرورات الحياة الوطنية ، لأنه يمكن من إنتاج الثروة واستثمار الأرض ؛ لا تقل هذا ، فإنا لم نبلغ بعدُ أن ننظر إلى الأمور هذه النظرة وأن نفكر فيها هذا التفكير ، وإنما نحن ننظر ونفكر على قد أنفسنا المتواضعة ، لا على قد وطننا العظيم .

التعليم ترف ، فليس من الضروري ، بل قد يكون من الشر ، أن تفتح أبوابه على مصاريعها للفقراء والعاجزين عن أداء نفقاته . إنك تزجر الفقير إذا رأيته يطمع فيما لا يستطيع أن يبلغه من طيبات الطعام والشراب ؛ فطيبات الطعام والشراب لم تخلق للفقراء والبائسين ، وإنما خلقت للأغنياء والمترفين . وأكبر الظن أن بطون الفقراء لا تستطيع أن تهضم طيبات الطعام والشراب ؛ وأكبر الظن أن حلوق الفقراء لا تستطيع أن تسيغ طيبات الطعام والشراب . فيجب أن تزجر الفقراء والبائسين عن التعليم إن عجزوا عن أداء نفقاته ، كما تزجرهم عن ألوان الطعام إن عجزوا عن شرائها ؛ فعقول الفقراء كبطونهم قد خلقت للجهل والعلم اليسير ، كما خلقت بطونهم للجوع والطعام الغليظ ؛ ولا تقل إن عقول الفقراء والأغنياء سواء في الاستعداد للفهم والمعرفة ، ولا تقل إن للفقراء في أموال

(البقية على صفحة ٤٢)

أخلاقيـــة الحروب

للأستاذ أحمد أمين

إن كانت الحرب تقلب الأوضاع السياسية ، والشؤون الاقتصادية ، والنظم الاجتماعية ، وتؤثر فيها أثراً بالغاً ، فأثرها في الأخلاق ليس أقل من أثرها في سائر هذه المرافق .

بل إنا نلاحظ أن أثر الحرب في الاقتصاد والسياسة والاجتماع قد يكون في كثير من الأحيان أثراً وقتياً ، يزول بزوال الحرب ، أما الأثر الأخلاقي فكثيراً ما يبقى بعد الحرب كما كان في الحرب .

لقد جاءت الحرب العظمى فهزت الأخلاق هزاً عنيفاً ، وغيّرت مجرى الحياة ، وشكلتها تشكيلا جديداً . ثم ظل هذا التغير إلى الآن . جُنّد الشبان والكهول ، فحلت محلهم المرأة في كثير من الأعمال الاقتصادية اليومية ، واتخذت ذلك وسيلة إلى أن تتحلل من كثير من قيودها . فلما انتهت الحرب لم تتنازل قيد شعرة عما كسبت ، وأنالتها أيام الحرب القصيرة من الحرية أضعاف ما نالته في أيام السلم الطويلة . ثم جاءت الحرب بأهوالها وضحاياها ، فأرخصت الحياة ، وقلت هيبة الناس من الموت ، فكان لذلك أثر قوى ، هو الأثر الذى كان عند طَرَفة إذ يقول :

ألا أيها ذا الزاجري أحضُرَ الوغى
وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنت مُخلِدى ؟

فإن كنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيتي
فدعني أبادرْها بما ملكتْ يدى

كان من نتيجة ذلك أن أفرطوا في طلب اللذائذ ، لأنهم لا يدرون ما يأتى به الغد ، وقالوا : لننهل من اللذائذ ما استطعنا قبل أن يأتى الموت ؛ ومن غريب شأن الموت أن تأثيره على الأعصاب تأثير متناقض ، فقد ينشأ من الخوف منه التقوى والصلاح إلى أقصى حد خشية ما بعده ، وقد ينشأ عنه الانهماك في اللذائذ إلى أقصى حد اغتناماً للفرصة ؛ وكان أن ساد النظر الأخير في أوربا ، فكان شعارهم « اللذة قبل الموت » وسادت بجانب ذلك نزعة تخدم هذا الغرض ، وهى أن المحاربين يقوون عناءً شديداً في الحروب فليتمتعوا كثيراً أثناء إجازاتهم ، وسرت في نفوس الناس نزعة أن يهيئوا لهم سبل المتاع ، فكان هذا عاملا جديداً لتحرر النساء والرجال من كثير من القيود القديمة أيضاً .

وطبيعى أنه إذا تغلب النظر الأول للموت وهو التقوى والصلاح تبعه الزهد والورع واحتقار المال ، أو على الأقل الإقلال من قيمته ، أما إذا تغلب النظر الثانى وهو طلب اللذائذ ، ارتفعت قيمة المال ، لأنه وسيلة اللذة ، وهذا ما حدث ، فقد ارتفعت قيمة الحرية ، وارتفعت قيمة المال وأصبحا معبودى العالم بعد الحرب .

ولسنا ندرى بالدقة ما هى الوجهة الأخلاقية الحديثة التى ستنتجها هذه الحرب الجديدة ، وإن كنا نرجح أنها ستكون استمراراً للوجهة القديمة مع تعديل قليل تقتضيه الظروف .

***

في أيام الحرب تنقلب كذلك قيم الفضائل والرذائل ، وتظهر على الناس أعراض تخالف الأعراض المعروفة أيام

السلم ، فيصبح الانتقام فى المنزلة الأولى من الرذائل ، ويتجلى فى أكبر مظاهره ؛ فتخريب فى النفوس ، وتخريب فى الأموال ، وسفك للدماء ، وفساد فى الأرض ، وكلما انتقم فريق جدّ الفريق الآخر أن يأتى بنوع جديد حتى يصلوا جميعاً فى النهاية إلى أعلى قمة فى الانتقام ؛ فكأنهم فى لمحة البرق قد رجعوا إلى الوراء كل القرون التى أسس فيها الإنسان مدنيته ، ووقفوا جنباً إلى جنب مع الوحوش الضارية ، والسباع الكاسرة ، ونسوا نسياناً تاماً أنهم من صنف الناس ، وتضاءل بجانب الانتقام الدين والعلم والحكمة والمدنية ، وكل مظاهر الانسانية ، وصفق الناس لأشدهم انتقاماً ، وأقدرهم على الفتك والتخريب والتدمير .

وكما يتصدر الانتقام ويأخذ المحل الأول فى الرذائل ، تتصدر الشجاعة وتحل المحل الأول فى الفضائل ، فتكون الشجاعة إذ ذاك بارزة متقدمة أمام العدل وأمام الحكمة وأمام سائر الفضائل ، وتتجلى فى مظاهرها المختلفة من شجاعة بدنية وشجاعة أدبية ، ويظهر الناس منها فى مظاهر مختلفة ، فمنهم من يجلى فى الشجاعة البدنية ويتخلف فى الشجاعة الأدبية والعكس ، منهم من يتقدم إلى الصفوف غير هيّاب ولا وَجل ، ويقذف القنابل ويطير فوق الأعداء ويعرض صدره للأخطار ؛ فهو فى كل ذلك شجاع بدنياً ، ولكنه إذا رأى ظلماً حل بقومه أو رأى رأياً يحقق العدالة فى مطلب من مطالب الحياة جبن عن رفع صوته وإبداء رأيه ؛ ومنهم على العكس من ذلك شجاع شجاعة أدبية إلى أقصى حد ، فيتعرض للخطر والمقت بإبداء رأيه ، ويجبن غاية الجبن فى كل ما يتطلب شجاعة بدنية — وعلى كل حال فالشجاعة بنوعيها فى المكان الأول من ثبت الفضائل فى الحروب .

* * *

وفى الحروب الحديثة مظهر جميل من مظاهر تقويم الأخلاق يسرّى عن النفوس إذا تغلب عليها جانب التشاؤم ، وهو هذا المظهر الذى يقفه الصفان المتحاربان فيدّعى كل منهما أنه المحق فى حربه ، وأن الجانب الآخر هو الغاصب المعتدى ، ويدعى كلّ أن لا رغبة له فى الحرب ، وأن السلم غايته ومتمناه ، وأنه لم يقدم على الحرب إلا دفاعاً عن نفسه وعن الانسانية بأجمعها ، وأن التاريخ أعدل حاكم فى تحديد « المسئولية » وتعيين المجرم الذى جنى على العالم هذه الحرب .

فمن ثنايا هذه الأقوال المتضاربة والتهم المتبادلة يتجلى مظهر جميل من مظاهر الانسانية ، وهو أن الرأى العام العالمى يكره الحرب ويكره الظلم ويكره الاعتداء ، وأنه لا ينقصه فى الوصول إلى غايته فى حب الانسانية إلا تقدمه العقلى فى فهم الحجج وعدم وقوعه تحت تأثير الأقوال الزيفة . أما النزعات الانسانية فموجودة ظاهرة فى كل من الفريقين ؛ وأما النية الخيرة فلا تنقص الشعوب من الجانبين وإن نقصت بعض الزعماء ، وهذه — من غير شك — علامة تبشر بالخير .

* * *

ومن غريب الأمر أن الحرب كما رفعت من شأن الانتقام ، رفعت كذلك من شأن الرحمة ، فما فقدته الأخلاق من جانب كسبته من جانب ؛ هذا يجرح وهذا يضمد الجراح ، وهذا مصنع يصنع القنابل والآلات الفتاكة ، وهذا مصنع يصنع اللفائف والأدوات لإسعاف المنكوبين من غير تفريق بين الخصوم وغير الخصوم ؛ فإذا سقط الجريح فى الميدان فالرحمة تتولاه سواء أكان صديقاً أم عدواً ، وإذا أسرف الانتقام فتك ودمّر اختفى بعد قليل وظهرت مكانه الرحمة تأسو وتعطف ، فإن كان الانتقام يمثل مظهر انعدام

الانسانية ، فازحمة ربما رق الانسانية .

***

وفى الحرب تعلم الأمم الرجولة والاحتمال ، فتترك نعومتها ورخاوتها ، وتتعود احتمال الكوارث وتستخف بالمصائب ، وتفهم الدنيا على أنها حلو ومر ، فالحلو جانب يجب أن يكون ، والمر جانب يجب أن يكون ، وليست الحياة إلا دوراً يلعب ، قد يكون فيه الهزيمة ، وقد يكون فيه النصر ، وقد يكون فيه ما يحزن ، وقد يكون فيه ما يضحك ، ولهذا ما تركت أمة الحرب إلا ذلت ، وأخلدت للذة الوضيعة ، واضطربت للحادث الصغير ، ويئست للأمر التافه .

***

وفى الحرب تكتم الحريات ، حرية الأشخاص ، وحرية الجرائد ، وحرية الآراء ، وحرية المذاهب ؛ فلا مذهب إلا ما يخدم الحرب ، ولا رأى إلا ما يؤيد الحرب ، ولا أخبار إلا بقدر ، ولا حقيقة إلا بقدر ، وحبة تجعل قبة ، وقبة تجعل حبة ؛ ويختنق صوت العلم والأدب إلا قليلا ، ويعلو صوت المدافع والغواصات والطيارات والحديث عنها وأعمالها علواً كبيراً .

ولكن حتى هذه الحرية المكبوتة ، إن كنا نفقد بفقدها مزاياها ، فإنا نتمم باختفاء رزاياها . لقد حرمنا نقد الأحزاب ، ولكنا نعمنا باختفاء سباب الأحزاب ، حرمنا القول الحكيم وكسبنا هدأة استعداد النفوس للصفاء .

***

الحق أن الحرب نسيج من خيوط سوداء وخيوط بيضاء ، ولكن أى شيء فى العالم لا يشوب سواده بياض أو بياضه سواد ؟

أحمد أمين

الإيمان

للأديب الإيطالي لويجي براندللو

ساد الهدوء غرفة القسيس دون بيترو، وقد امتزجت فيها أشعة الشمس المشرقة برائحة الخبز التي كانت تتصاعد من موقد في فناء الدار، وبرائحة البخور التي كان يحملها النسيم من الكنيسة المجاورة لدار القسيس. وكان كل شيء في الغرفة وما حولها يمثل السكون الشامل، والهدوء الكامل. وكان القسيس العجوز مستلقياً على كرسي طويل، وقد طغا عليه النعاس، وكان رأسه الأصلع مستنداً إلى ظهر الكرسي، وجسمه الذابل النحيل، ووجهه الكثير التجاعيد، قد رسم الفناء عليهما سطوراً عميقة، وكان تنفسه المضطرب ينم عن صدر ضعيف وقلب عليل. وقد كان منظره هذا مما يزيد جو الغرفة هدوءاً وسكوناً.

في تلك الساعة اندفع القسيس الشاب دون آنجيلو إلى الغرفة، وهو تلميذه الذي اختاره القسيس العجوز واصطفاه، وهو يرجو أن يكون له خير معين في شيخوخته، وخير خليفة له بعد موته. اندفع الشاب إلى الغرفة في عنف وقوة، ولكنه توقف فجأة حين رأى الشيخ راقداً رقاده المضطرب، وأخذ يخطو في هدوء ورفق، ماشياً على أطراف قدميه، حتى وقف أمام شيخه الراقد، وجعل يتأمله في صمت وقلق وضيق صدر، وهو يريد أن يوقظه ويصيح في وجهه بصوت قوي مرتفع: «أي دون بيترو. لقد عقدت النية على أن أترك هذه المهنة، فإني لا أريد أن أكون قسيساً»! ولكنه رغم اندفاعه وتحيره، لم يجرؤ على ازعاج شيخه النائم، مدركاً أنه لو أيقظه فجأة، ورآه دون بيترو في حالته تلك، فلقد يكون هذا ضربة قاضية على الشيخ المسكين. ولهذا ظل واقفاً في صمت وسكون، رغم تحيره وضيق صدره.

وكان بالأمس قد قضى مع أستاذه الشيخ ساعات طوالاً، كان فيها يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة، وهو يهز ذراعيه غيظاً وضجراً، ويريد أن ينزع عن جسمه حلة القسيس التي باتت تضايقه، وتحبس روحه. وأخذ يحدث الشيخ في قوة وصراحة بأنه قد وطد عزمه على ترك هذه المهنة التي بات يراها لا تصلح له ولا يصلح لها. ولم يكن ذلك لأنه فقد إيمانه، بل لأن نفسه قد تفتحت لإيمان جديد حر نبيل، مبرأ من شوائب المذهبية والعقائد التقليدية، إيمان ملؤه القوة والحياة، لم يتراكم عليه غبار السنين، وخرافات الغابرين. وقد تركه القسيس الشيخ ينطلق في كلامه العنيف، واندفاعه الشديد، دون أن يقطع عليه حديثه، أو يحاول أن يحاوره. ولم يزد على أن كان ينظر إليه من آن لآن بعيونه الذابلة، وهو يبتسم بشفتيه الهزيلتين، ابتسامة الرثاء والأسف، يشوبهما القليل من السخرية! وكانت تسمع من بينهما أحياناً كلمة واحدة كان يرددها: «غرور!... غرور!».

ثم يسأل نفسه: إيمان جديد! أي إيمان جديد هذا؟ وليس في الدهر غير إيمان واحد لا ثاني له! إيمان أكثر حرية وحياة! ذلك لعمري هو الغرور بعينه. فياعجبا لنزق الشباب، على أن هذا كله سيزول حين يزول نزق الشباب، ويحل محله رجحان العقل، ونضج الفكر. كان الشيخ واثقاً أن هذا الاندفاع عرض سيزول، وأن الشاب لن يخرج تهديده هذا من القول إلى العمل، وأنه لن يخلع عن جسده حلة القسيس، ولو لم يكن له من رادع عن هذا سوى خوفه على أمه المسكينة أن يصعقها بصنيعه هذا.

ومع ذلك فإن دون آنجيلو كان يريد أن يترك مهنته هذه من أجل أمه بالذات ، فإنه كان يحبها أشد الحب ، ويؤلمه أن يراها وهي منخدعة فيه ، تتوهم أنه من القديسين وتعبده كأنه من الأولياء الصالحين . ولا بد له أن يزيل عن بصرها تلك الغشاوة ، وإلا كان كذاباً منافقاً .

وقد تذكر الشاب كل هذا ، وهو واقف بالقرب من شيخه النائم ، فأخذ الدمع — دمع الغيظ والكمد — ينحدر من عينيه . . . .

وفي تلك اللحظة دخلت أخت الدون بيترو ، وهي عجوز نحيلة ، مقوسة الظهر ، ضئيلة الجسم ، ترتدي ثوباً أسود حالكاً ، وعلى رأسها خمار أسود متدل على كتفيها . وقد رفع القسيس الشاب رأسه لينظر إليها ، فسألته في همس : « أهو نائم ؟ » فهز رأسه بالإيجاب ، ثم سألته : « وما لك تبكي ؟ » .

وقبل أن يجيب على سؤالها استيقظ الشيخ ورفع رأسه قليلا ، وقال : « أهذا أنت يا آنجيلو ؟ ماذا حدث ؟ . . . »

فذهبت أخته إلى جانبه وأسرت إليه حديثاً ، فنهض من مكانه بجهد شديد ، ووضع يده على كتف الشاب ، وقال له :

« هل لك أن تسدي إليّ جميلا يا بني ؟ إن في الكنيسة عجوزاً قد أقبلت من قريتها تريد أن تتحدث إليّ ، وأنت تراني عاجزاً عن الحركة ، فهل لك أن تذهب إليها بدلا مني ؟ اذهب بارك الله فيك ، فإنك اليوم لا تزال ولدي الصالح المطيع ! » .

* * *

خرج الشاب من غرفة القسيس ، صامتاً واجماً ، وكأنه لم يفهم كلمة مما سمع ، وفي طريقه إلى الكنيسة كان يمشي متثاقلا ، مضطرب الجنان ، ضيق الصدر ، ولم يكد ينزل الدرج المفضي إلى الكنيسة ، حتى أخذ الدمع يتفجر من عينيه حاراً غزيراً . دموع أذرفها خجلا من نفسه ورثاء لنفسه ، وغيظاً من كونه قد كلف أن يؤدي عملاً من تلك الأعمال التي كان يزدريها ويمقتها .

وأخيراً وصل إلى داخل الكنيسة ، فرأى في جانب منها امرأة من أهل الريف ، رثة المنظر ، رثة الثياب ، جمعت بين ضعف الشيخوخة وقذارة الفقر المدقع . . .

وفي يسراها دجاجتان ، أمسكتهما من رجليهما ، وفي اليمنى ثلاث قطع من الفضة ، وعلى الأرض بين يديها حقيبة بالية ملونة مملوءة ثقلاً .

فنظر إليها نظرة كره وازدراء وقال : « ما خطبك أيتها المرأة ؟ » .

فرفعت المرأة عينيها المائلتين ، وأخذت تتمتم بألفاظ مبهمة ، خارجة من بين شدقيها الباليين ، ولثاتها العارية من الأسنان .

« ماذا تقولين ؟ إني لم أسمع ! ارفعي صوتك . أنت الأم كروشي ؟ » .

أجل هي الأم كروشي والقسيس الشيخ يعرفها جيداً . وقد مات زوجها غرقاً في نهر نارو منذ سنين طوال . وقد حضرت من قريتها البعيدة سعياً على رجليها ، حقيبتها على ظهرها . قطعت زهاء عشرة أميال لكي تبلغ الكنيسة . وقد أحضرت هذه الليرات الثلاث والدجاجتين وحقيبة النقل ، تتوسل بها إلى إقامة الصلوات والأدعية اللازمة ، لكي يرضى عنها سان كالوجيرو ، قديس الرحمات الذي شفى ولدها من داء عضال ، ولم تستطع أن توفي بنذرها للقديس . فلم يكد يتم لولدها الشفاء حتى ارتحل إلى أمريكا ، وقد وعدها بأن يكاتبها من هناك ويرسل لها كل شهر قليلا من المال تعيش منه . وقد مضى عام ونصف عام ، ولم يكتب الفتى كلمة ولم يرسل درهماً ، وياليتها تعلم من أنبائه شيئاً وأنه حي يرزق ، فإن هذا يرضيها على كل حال ، وإن لم يرسل إليها مالا . ولكن هذا كله قد ألم بها لأنها لم تف بالنذر الذي نذرته للقديس كالوجيرو . وهي تعلم هذا

كل العلم . غير أنها إن قصرت فى هــذا الواجب ، فما ذلك إلا أن علة ابنها قد استنفدت كل ما لديهـا من مال . ولم تترك لها سوى عينين تذرفان بدل الدمع دماً ؛ أجل دماً قانياً غزيراً . . . . وبعــد أن سافر ابنها لم يكن فى وسعها أن تقتصد الليرات الثلاث التى لا بد منها لإقامة الصلاة ؛ ولم تكن قادرة على أن تكتسب إلا ما يكفى لسد رمقها . وكان لا بد لها من عام ونصف عام ، لكى تقتصد المبلغ اللازم ، وتوفر القربان المطلوب . وها هى اليوم قد أحضرت الليرات الثلاث ، وحقيبة النقل ، والدجاجتين . ولا شك عندها فى أن القديس كالوجيرو الرحيم القلب ، سيعطف عليها ويرق لحالها ، فتسمع من أنباء ابنها ما يشرح صدرها ، ويعيد إليها السرور . . . .

أنصت الشاب إلى قصة العجوز ، وكل كلمة فاهت بها جمرة مشتعلة تزيد نار صدره اضطراماً والتهاباً . ليته يستطيع أن يثأر لهذه المرأة المسكينة من أبناء حرفته الذين غرسوا ذل الإيمان فى هذه النفوس البائسة . ثم استغلوا هذا الذل أشنع استغلال . فيا ويحهم كيف يستحلون أن يأخذوا من هذه المرأة ، ثمناً لصلوات تقام ، هذه الليرات وحقيبة النقل والدجاجتين .

وبعد هنيهة نظر إليها وصاح فى وجهها وهى ترتعد : « احملى حقيبتك أيتها المرأة وارجعى إلى بلدتك ! » .

فنظرت إليه ذاهلة واجمة ، كأن كلامه صاعقة من سماء زرقاء ؛ ولكن نظراتها لم تزده إلا غضباً ، فصاح فى وجهها : « قلت لك اذهبى ببضاعتك ؟ فما بالقديس كالوجيرو حاجة إلى نقل أو دجاج . ولئن كانت لابنك رغبة فى الكتابة إليك ، فثقى أنه سيكتب إليك . اذهبى ! ارحلى ! »

وقد ازدادت المرأة ذهولاً على ذهول ؛ ونظرت إليه وهى تقول :

« ما هذا الذى تقول لى ؟ أما تفهم أن هذا نذر ؟ .. إنه نذر قد نذرته ! » .

فاهت العجوز بهذه الألفاظ ، فى دهشة وحيرة لجهله وقلة فهمه ، حتى اضطر دون أنجليلو أن يخفف من حدته وأخذ يخاطبها فى لفظ رقيق ، وعبارة سهلة ، وطلب منها أن تأخذ دجاجتيها ونقلها ، وتعود أدراجها ، وإن أصرت على إقامة الصلاة فإنه مستعد لأن يقيمها من أجلها ، على شرط أن تأخذ ليراتها الثلاث وتعود إلى قريتها .

فنظرت إليه وقد استولى عليها ما يشبه الرعب وقالت :

« ولكن لماذا ؟ وما فائدة الصلاة فى مثل تلك الحالة ، ما دام الأمر مرتبطاً بنذر لم أوف به ؟ ولئن لم أقدم ما وعدت به فما فائدة النذر ؟ لماذا تعاملنى هذه المعاملة القاسية ؟ أولست قسيساً من رجال الدين ؟ ألعلك تظن أنى لا أعطى من كل قلبى ما وعدت به القديس الجليل صانع المعجزات ، القديس كالوجيرو ؟ رباه ! رباه ! إنى أخطأت حين أنبأتك عما لقيته من العناء فى تحصيل هذه الدراهم وهذا القربان ، وإنما أردت الاعتذار عن تقصيرى » .

ثم أخذت تبكى ، وتذرف الدمع ؛ ونظر الشاب ، فإذا هى دموع حمراء كقطرات النجيع ! فبادر إلى العجوز يلاطفها ويؤانسها ، وطلب منها أن تتنحى ناحية فى الكنيسة ؛ وتنتظر لحظة ريثما يقيم الصلاة ويقرأ الأدعية من أجلها فوراً ، من غير إبطاء .

ولم تك إلا لحظات حتى ارتدى حلة القسيس ؛ وقلبه يكاد يتميز غيظاً وإشفاقاً ، وأسفاً على هذا الإيمان المضلل ، الضارب فى بيداء الجهل ، لا يجد قبساً من نور رشده وبهديه .

ثم اندفع إلى المذبح ، وأخذ يصلى ، وهو راكع واجم ، من أجل هذه العجوز المسكينة . . . .

وبعد أن أتم صلاته ودعاءه أذن لها فى الانصراف ، وأذن لها فى أن تترك القربان ، والقطع الفضية الثلاث .

(تلخيص وتعريب : م . ع . م)

المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي):

٥ - ابن إياس

للدكتور محمد مصطفى زيادة

يعتبر ابن إياس ثالث المؤرخين الذين تداولوا الزعامة في حلبة التأليف في التاريخ المصري في القرن التاسع الهجري، وقد سبق المقال في أول أولئك المتحلّين وهو المقريزي، وفي ثانيهم وهو أبو المحاسن، كما سلف التعريف بمعاصري كل منهما من المؤرخين بترتيب زمني عام.

ولد محمد بن أحمد بن إياس المصري الحنفي[1] بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ، قبل وفاة أبي المحاسن بإحدى وعشرين سنة، وهو شبيه بأبي المحاسن من حيث أن كلا منهما نتيج أسرة مملوكية. على أن ابن إياس كان أقدم عرقاً في المجتمع المملوكي، فبينا لا ندري من أصل أبي المحاسن سوى أخبار أبيه وأمه منذ مجيئهما إلى مصر في عهد أستاذهما السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ — ٨٠١ هـ)، إذا بنا نعرف الجدّ الأكبر لابن إياس، واسمه إزدمر العمري الناصري أبو دقن، الشهير بالخازندار. وكان إزدمر من أمراء الدولة المملوكية زمن السلطانين الناصر حسن (٧٤٨ — ٧٦٢هـ)، والأشرف شعبان (٧٦٤ — ٧٧٨هـ)، وقد تولى في عهد كل منهما وظيفة أمير سلاح، ونال في عهد ثانيهما حظوة وثقة خاصة، فتقلب في نيابات صفد وطرابلس وحلب، واختير في أواخر أيامه لنيابة دمشق، ثم عاجله الموت وهو في الطريق إليها سنة ٧٧٦ هـ. ولدينا أيضاً معلومات قليلة بصدد جدّ ابن إياس لأبيه، واسمه إياس الفخري، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق، وقد تأمر سريعاً، وتولى وظيفة الدوادار الثاني في عهد السلطان الناصر فرج ابن برقوق (٨٠١ — ٨٠٨ هـ).

أما والد ابن إياس، واسمه شهاب الدين أحمد، فكان على حد قول ولده "من مشاهير أبناء الناس"، أي أنه كان من أفراد تلك الفرقة المملوكية التي ضمّت أولاد الأمراء من المماليك المتدرجين بالوفاة، وقد جرت العادة أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة "أمير خمسة" في النظام الحربي المملوكي، رعاية لسلفه، بشرط أن يندمج في الرديف السلطاني، ويكون صالحاً للخدمة في إحدى الوظائف الدينية الصغرى في زمن السلم[1]. وقد ذكر ابن إياس عن أبيه أحمد هذا أيضاً أنه كان من المحببين إلى كثير من أمراء الدولة وأربابها، وأنه عاش نحواً من أربع وثمانين سنة، وأنجب في حياته الطويلة خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث "غير السقوط"، بقي منهم بعد وفاته سنة ٩٠٨ هـ بنت وصبيان، أحدهما محمد ابن إياس نفسه، وثانيهما الجمالي يوسف. أما البنت فلعلها هي التي مات عنها زوجها الأمير قرقماس الصارع، وكان من أمراء العشرات في زمن السلطان الأشرف

(١) أورد بروكلمان (Brockelmann : Gesch. der Arab. Litt. II. P. 275) اسم ابن إياس كاملا كالآتي: "أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين أو شهاب الدين الناصري الجركسي الحنفي"، وكرّر نسبته إلى الحنابلة في ملحقه لكتاب المتقدم (Ibid : Supp. II. P. 20)، وهو خطأ بينه أن لم يكن بين المعروفين من مشايخ ابن إياس حنبلي. (انظر ما يلي).

(١) راجع القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٤، ص١٥)، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)، مقالة ابن إياس.

قايتباى ، ووظيفته أمير آخور رابع فى البلاط السلطانى ، وقد قتل سنة ٨٧٧ هـ فى وقعة البيرة على نهر الفرات ، حيث طَحَقَر الجيش المملوكى بقيادة الأمير يشبك بن مهدى بجيوش حسن الطويل (أوزون حسن) ، ملك التركمان المعروفين باسم الشاة البيضاء Ak Koyunlu . وأما الجمالى يوسف فكان بازردكاشية (هندسة المدفعية) ، فى عهد السلطان الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ) ، ويظهر أنه كان خبيراً بفنه ، وبيده وظيفة رئيسية فى عمله .

يتضح من هذه الإشارات المنوّعة أن ابن إياس نشأ فى وسط مملوكى بحت ، وأنه متّ إلى بعض رجال الدولة المملوكية فى عصر قايتباى والغورى بصلة المصاهرة والقرابة . غير أنه مما يدعو إلى العجب أن أحداً من معاصريه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وأن مبلغ ما يعتمد عليه لإنشاء ترجمة حديثة لهذا المؤرخ الكبير لا يعدو نتفاً مبعثرة فى كتبه التى ألّفها ؛ وعبثاً يرود الطالب فى غير ذلك من الكتب المعاصرة والمتأخرة ، كمؤلفات الشيخين جلال الدين عبدالرحمن السيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى ، وهما من أساتذة ابن إياس بتقريره ، وكمؤلفات السخاوى والغزّى والأعظمى والبوريني والمحبى والحسينى والمرادى ، وهم أصحاب كتب التراجم المعروفة للقرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لابن إياس لا يُعجز الكاتب أو يثنيه عن محاولة الكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوبة بربح وإن كان سلبياً ، إذ يصبح اعتماده مقصوراً على ما هنالك من إشارات للمؤلف عن نفسه ورجال عصره فيما ألّف من كتب ، فيستشف منها موقفه من الحوادث ، ويسبُر بها دخائل شخصيته وأخلاقه . ومن تلك الإشارات الخاصة بهويّة ابن إياس أنه كان كأبيه شهاب الدين أحمد ، وكأبى المحاسن أيضاً ، من "فرقة أولاد الناس" . وقد حجّ سنة ٨٨٢ هـ دون أن يقوم على وظيفة معينة ، كتلك التى أسندت إلى أبى المحاسن فى حجّته ، على أنه شاهد ما لقيه الحاج ذلك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة ، بسبب ما وقع وقت ذاك بين السلطات المملوكية وبعض المكيين ، وجاء وصفه لما حدث مثلا لما كان هنالك من دخَن دائم وكره متبادل بين ممثل السلطان وذوات الحجاز وأمرائه طيلة عهد المماليك .

وقد ظلّ ابن إياس معظم حياته متمتعاً بإقطاع وافر ، يرجّح أنه من لدن السلطان الغورى ، فعاش عيشة راضية ، واشتغل بالكتابة والتأليف فى التاريخ ، وبنظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات والمزدوجات فى مناسبات شتى . على أن منظومات ابن إياس توجب الالتفات . فمنها ما هو مدح أو رثاء لسلطان أو سلطانة أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة من مرض أو محنة لعين من أعيان الدولة ، ومنها ما هو نقد أو تعقيب على بعض الأعمال الحكومية . فهل نستخلص من تلك القرائن ، كما فعل مارجوليوث (Margoliouth) ، أن ابن إياس كان يشتغل بوظيفة مؤرخ الدولة (historiogropher) فى الحكومة المملوكية ، رغم أنه لم يذكر شيئاً من هذا على التعيين فى كتبه ، ورغم أن وظيفة بهذا الاسم لم تعرف فى نظام المماليك ؟ أو نقول بأنه كان من رجال الأدب المشغوفين بالعيش على هامش الحاشية السلطانية ، المتصلين ببعض رجالها كأبيه من قبل ، وأنه امتهن نظم الشعر اجتذاباً للشهرة كلما واتته فرصة ؟ أو نرجح أنه كان يريد لنفسه مع السلطان الناصر محمد بن قايتباى مركزاً مشابهاً لمركز العينى مع السلطان برسباى ؟ على أنه مهما يكن من ترجيح أو ميل لهذا أو ذاك أو غيره مما يحتمل أن يكون وظيفة لابن إياس فى المحيط المملوكى ، فالواضح من أشعاره هذه ومناسباتها الخاصة والعامة ، أنه كان فرداً منتفعاً عن كثب

لحوادث المجتمع الذى تقلّب فيه ، وليس ذلك بصفته مؤرخاً معنيًّا بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلا حيًّا حساساً بما يجرى فى دولة قدبدت بها مخايل الاحتضار والزوال ؛ وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد إلغاء ضرائب المشاهرة التى ألغاها السلطان الغورى فى أواخر أيامه ، ومرثيته التى قالها فى وقعة الفتح العثمانى لمصر .

ولقد حدث لابن إياس فى أواسط سنة ٩١٤ هـ ما عكّر عليه صَفْو حياته المطمئنة ، إذ تأزّمت أحوال السلطان الغورى لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه . فعمد السلطان إلى إخراج "أولاد الناس" من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم ، وقطع الرزق الأحباسية والأوقاف عن أهلها ؛ وأطلق لماليكه العنان ليهاجموا أصحاب تلك الإقطاعات فى بيوتهم ، ويأخذوا منهم مناشيرها غصباً وضرباً ، إذا احتاج الأمر إلى الضرب والإحراق و "البهدلة" . ونال ابن إياس من تلك الكارثة ما نال غيره من أبناء طبقته ، وفُرّق إقطاعه الوافر على أربعة من المماليك بمكاتبات سلطانية ؛ غير أنه لم يُحرم من إقطاعه مدة طويلة ، إذ وقف للسلطان الغورى فى أواخر سنة ٩١٥ هـ بقصة يشكو فيها حاله ، وقدّمها إليه وهو ينزل للعب الكرة بميدان القلعة ، فاستجاب السلطان شكاوته ، وردّ عليه إقطاعه ؛ ومدحه ابن إياس من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد .

على أن ابن إياس لم يكن من المعجبين حقاً بالسلطان الغورى وأعماله ، يشهد بذلك ما كتبه بصدده بعد وفاته فى كثير من المناسبات بكتابه الكبير فى التاريخ ، واسمه "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" . وهذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى ، هو الذى جعل ابن إياس خليقاً بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين فى مصر ، فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للهجرة . وقد بدأ ابن إياس فى تأليف كتابه هذا حوالى سنة ٨٩٩هـ ، وظلّ معنيًّا به حتى أواخر أيامه ، فجاء فى أحد عشر جزءاً ، وكان فى عزمه أن يضيف إليه ليكتمل اثنى عشر جزءاً[1] ، لولا موته سنة ٩٣٠هـ . ولقد تناول الناسخون هذا الكتاب فنقلوا منه نسخاً بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هى أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن إحدى هذه النسخ الناقصة نشر الكتاب فى القاهرة ، فجاء بعيداً عن الأصل ، خلواً من أهم جزء من أجزائه[2] .

ومن مؤلفات ابن إياس فى التاريخ أيضا "عقود الجمان فى وقائع الأزمان" ، وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر ، وليست له أية علاقة بكتابه الكبير أو بالنسخ المختزلة منه ، و "نزهة الأمم فى العجائب والحكم" ، وهو كتاب صغير فى تاريخ العالم ، و "مرج الزهور فى وقائع الدهور" ، وهو مؤلف شعبى فى قصص الأنبياء والرسل ، وربما كان لغير ابن إياس من المؤلفين ، برغم إشارته لبعض محتوياته فى الفصل السابع من الجزء الأول من "بدائع الزهور" . ولابن إياس أيضا "نشق الأزهار فى عجائب الأقطار" ، وهو كتاب فى الفلك والهيئة وتركيب الكون (cosmography) ، وآثار مصر الفرعونية وملوكها ، وقد

(١) تملك مكتبة فاتح بإستامبول أربعة أجزاء غير متتابعة من هذا الكتاب بخط المؤلف ، وفى حردها (Colophon) أنه انتهى من كتابة الجزء الرابع فى أوائل سنة ٩٠١ هـ ، والخامس فى أواخر تلك السنة نفسها ، والثامن فى أواسط سنة ٩١٣ هـ ، والحادى عشر فى أواخر ٩٢٨ هـ ؛ وقد وعد ابن إياس فى نفس الصفحة التى وردت بها الإشارة الأخيرة بكتابة الجزء الثانى عشر ، وهو ما لم يكتبه بسبب وفاته ، أو أنه كتبه ولم يعثر عليه أحد حتى الآن .

(٢) أدركت هذا النقص جمهرة المستشرقين الألمان بإستامبول ، فنشر الأستاذ كاله (Kahle) ، والدكتور محمد مصطفى ، والمرحوم سوبرنهيم (Sobernheim) ، ثلاثة أجزاء جديدة من هذا الكتاب .

ذكر ابن إياس فى مقدمته له أنه قصد بتأليفه أن يجمع فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى ، ولا سيما "عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة فى البرابى" ؛ وكان فراغ ابن إياس من تأليف هذا الكتاب سنة ٩٢٤ هـ ، وكثيراً ما استمد منه علماء أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

على أن شهرة ابن إياس تستند كلية إلى كتابه الأول فى التاريخ ، فقد صار به عمدة المؤرخين فى أحوال دولة المماليك وأخبارها فى الطور الأخير ، والمرجع الرئيسى لحوادث فتح العثمانيين لمصر . ولقد ميّزه مارجوليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين فى مصر وغيرها بقوله: "إن أسلوبه فى الكتابة والتأليف ، وعمله فى التفكير ، ينمّ كل منهما عن فردية واستقلال فى الرأى قلّ أن يقربه فيه معظم المؤرخين[1]" . والواقع أنه كان على جانب من القدرة فى النقد ، فلم يكفه سرد الحوادث والوقائع والوفيات على وتيرة أغلب السالفين من كتّاب التاريخ ، بل وقف بين الحادثة والأخرى ليشرح ويعقّب ويفلسف ، مع شىء من القسوة فى الحكم ، والجرأة فى التقدير ، والمغالاة نوعا فى التصوير . وربما شجّعه على ذلك اتصاله ببعض أعيان البلاط السلطانى فى عهود مختلفة ، كالأمير تمراز الأتابك ، والأمير أقبردى الدوادار الكبير ، وكلاهما من رجال عصر قايتباى ، وكأبى بكر بن مزهر ، وولده البدرى محمد ، والقاضى محمود ابن أجا ، وقد شغل كلّ منهم وظيفة كاتب السر فى الدولة ؛ وهذا فضلا عن صلته بأخيه الجمالى يوسف ، فقد كان يمدّه عما يجرى بالقلعة من أخبار ، ولا سيما أخبار الفضية التى عنى ابن إياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها فى عهد الغورى .

(١) انظر : (Margoliouth : Lectures On Arabic Historians, P. 159.)

أما عن أخلاق ابن إياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه ، ما دام الموجود من كتب المعاصرين والمتأخرين لا ينبئ عنه بشىء البتة . على أن كتبه التى ألفها ، وملاحظاته التى أودعها إياها عن نفسه وحوادث عصره ورجاله ، لتدلّ على الكثير من كنه شخصيته الكبيرة : فضخامة مؤلفاته برهان على أنه كان مجداً فى الكتابة ، ودؤوبه على تدوين الحوادث يوماً يوماً وشهراً شهراً فى الأجزاء المعاصرة من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق ، وقسوته فى الحكم على الناس قد تخبر بعلو مستواه الخلقى ، وتناوله الحكم العثمانى فى مصر بالنقد والسخرية أحياناً لإهمال رجاله مصالح المصريين ، وذلك برغم ما أحاط السيادة العثمانية فى القاهرة من رهبة وخشية ، يعطيه مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين . ومن يدرى ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثمانى هو السبب فى خفاء ترجمته من كتب التراجم .

محمد مصطفى زيادة

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى	٦٠	فى مصر والسودان
	٨٠	فى الأقطار العربية
	١٠٠	فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

فى سبيل جيل جديد . . .

سبب الشــــقاء ودواؤه

"ما أقسى الحزن الذى يشعر بعد معرفة أسبابه !!"

كتبت السيدة « كوسجريف » فى كتابها « نفسية الشباب » فصلا بهذا العنوان نلخصه فيما يلى :

هذا صبى سليم العقل صحيح التفكير ، قد أحيط بعطف والدين يحبانه حباً شديداً ، والحياة مفتحة أمامه بكل ما فيها من آمال ؛ وفى صبيحة يوم تجده منتحراً فى فراشه ، وبدور البحث الدقيق فلا تجد لانتحاره سبباً أكثر من خيبة أمل بسيطة صادفته فى الحياة ، ولكن ما من أحد إلا ويعتقد أن السبب أعمق من هذا وأشد خطراً .

وتلك فتاة قد أتمت دراستها ، ولها أصدقاء كثيرون ، وأمامها حياة مليئة بالمشروعات والأعمال اللاذة النافعة ، ولكن فجأة تنتابها موجة حزن شديدة ، وتتوتر أعصابها ، ويحس أهلها وأصدقاؤها أنها تشكو المزاج السوداوى .

هذه الحوادث ليست مجرد أخبار تذكرها الجرائد . ولكنها حقائق ماثلة فى تجاربنا اليومية ، وهى أكبر حجة ضد الاعتقاد السائد أن الشباب سعادة ، فقد تكون الحقيقة المرة التى يؤيدها الواقع أن الشباب شقاء .

إن فى أعماق حياة كل منا شيئاً يجعل للحياة قيمة ، لا بد أن نجد فيها رداً شافياً لمثل هذه الأسئلة التى ترهق تفكير الشباب : ما هى الحقيقة ؟ أتستحق الحياة حقاً كل هذا الجهاد والعناء ؟ وإلى أى غاية تسير بنا وبكل من فيها آخر الأمر ؟ لا بد للحياة من أن تزدهر ، لا بد أن تكون متعة للروح والجسد ، لابد أن تتسع آفاقها وتلهبنا حماسة وحيوية كلما تقدمت بنا ، هذه حقائق يقرها رجل الدين كما يقرها الفيلسوف ، وكما يقرها رجل الشارع .

والشباب يطلب هذا الازدهار وتلك الحيوية ، ولكنه لا يعرف كيف يصل . فالحياة تخيب مطالبه ، وتجاربه لا توحى إليه بما يجب أن توحى به . فهو يتردد ولا يجد من يرشده . وأخيراً بحماسة الشباب وبقوته يندفع فى اليأس — ولو إلى حين — من قيمة الحياة ومعناها . ولكن من الذى يمكن أن يرشد هذا الشباب ؟ أهؤلاء الذين فشلوا فى حياتهم ؟ إن السنين تمر بسرعة البرق ، وعما قريب يصبح هذا الشباب هو القائد لشباب يأتى بعده . فلو تدارك شباب اليوم نفسه مستعيناً بالقلة التى تستطيع أن ترشده لاستطاع هو أن يرشد من بعده ، ولازداد عدد الذين يفهمون الحياة ويقدرونها على ممر الأيام ، ولاستطعنا أن نتطلع إلى مستقبل قريب تجد فيه الأحياء لا يعملون لمجرد العيش وإنما يحيون حقاً .

ولنحاول أن نحلل أو نصف بعض هذا النزاع الذى يدور فى عقولنا وعقول أبنائنا . وإنى أعرف عن ثقة أنك إذا سألت هؤلاء الفتيان عن شقائهم وأحزانهم ، لأجابوك بكلام هو وصف لظاهر الحال ، وإن ظنوا أنهم يقولون أسباباً . فهم يعترفون أنهم أشقياء ، ثم يحاولون أن يذكروا أسباباً بعيدة عما يجرى فى نفوسهم من نزاع لأنهم أحياناً يجهلون وجود هذا النزاع فعلا . وقد ترى هؤلاء الأشقياء مسرورين فرحين بعد دقائق من هذا الاعتراف ، فتظن أنهم كانوا يمثلون أو أنهم نسوا سريعاً ما كانوا يحسون . ولكن الواقع أنهم مخلصون فى فرحهم كما كانوا مخلصين فى حزنهم . وقد كان الحزن حالة طبيعية تلازم مثل هذا الاعتراف ، كما أن السرور حالة طبيعية

تلى التخلص من عبء الاعتراف .

هذه الأحوال الطارئة من الحزن والفرح قد يكون سببها جثمانياً . فإن الانسان خلق ليعمل ككل . والعطب في أي جزء منه يؤثر على القيادة العليا ، وهي تترك آثارها في كل جزء . والانسان قد خلق ذا مطامع كثيرة ونزعات أكثر . وكل هذه النزعات والمطامع لا يتفق بعضها والبعض الآخر ، ومن هنا ينشأ التنازع بينها ، ومن هنا كان أكبر أسباب الشقاء ؛ إن وجد هذا النزاع فلا يمكن للظروف الخارجية — مهما تكن مفرحة مبهجة — أن تمحو أثره وإن خففته إلى حين . ولكن إن يكن من السهل أن ندرك أن هناك نزاعاً ، وأن نسمى تلك الحالة ونصفها فليس من السهل أن نصل بذلك إلى السعادة ، لا يمكن أن يمحى النزاع وآثاره إلا إذا عرفت أسبابه وعملت الارادة في توجيهها إلى ما ينفع ويسعد .

قد يكون سبب الحزن كلمة أو معاملة تلقيناها من الغير ، وإذ ذاك تصبح القضية سهلة ؛ فالنزاع قائم في هذه الحال بين ما نظن أنفسنا عليه ، وبين ما وجدنا الغير يظنه فينا . وليس من علاج إلا أن نواجه الحقيقة ؛ فنحن إما أن نكون كما وصفنا الغير ، وعندئذ يجب ألا نعترف بذلك فقط ، بل نسعى إلى الاصلاح والتحسين ، وإما أن نتأكد من أن الغير مخطئ فيما ذهب إليه ، وعندئذ ليس أمامنا إلا أن نحاول إصلاح هذه الفكرة الخاطئة عند غيرنا ؛ ولكن الأهم من كل هذا هو ألا نعزو أسباب الحزن إلى أي شيء آخر ؛ يجب أن نواجه الواقع بكل إخلاص ، فلا ننسب الحزن إلى مرض الأم مثلا ، ولا إلى اشتغال الأب ؛ فإن إغفال الواقع والافلات من مواجهته بأمانة وصدق أكبر ما يعرقل شفاء الأحزان .

وقد يكون هذا النزاع قائماً بين ما نريد أن نكون أنفسنا عليه وبين ما هي عليه في الواقع . وقد اصطلح علماء النفس على تسمية هذا النزاع بمركب النقص . وهنا أيضاً لا يمكن إلا أن نفزع إلى الحق ، فنعمد إلى ورقة وقلم ونحلل أنفسنا بكل إخلاص مدونين ما لها وما عليها ؛ ونحن لا بد واجدون أن هناك مميزات هامة ، وقد لا تقل هذه المميزات عن السيئات . وعندئذ يجب أن نعمل في عزم ومثابرة على تنمية هذه الحسنات وإبرازها ، مؤكدين لأنفسنا أن حسنة واحدة إذا وصلت إلى كمالها يمكن أن تدارى النقص في مجموعة من الحسنات .

وأحياناً يكون النزاع نتيجة شعور نحو شخص معين فنحن طوراً نحبه وطوراً نكرهه ، ولا نعرف لهذا الحب والكره اللذين يتعاقبان سبباً . وهنا نلجأ إلى نفس العلاج ، ورقة وقلم ندون بهما الحسنات والسيئات ، ثم نحاول أن نصغر من شأن السيئات إن كانت غير ذات خطر . وبذلك نصل إلى تحديد شعورنا الحق سواء أكان حباً أم كرهاً لننجو من هذا التناقض .

هذه صبية أتت بها أمها تشكو إلي أنها نزقة جداً في بعض تصرفاتها ، عاقلة متزنة أكثر من سنها في تصرفات أخرى . وبعد حديث قصير مع الصبية عرفت هذه الحقيقة : كانت الصبية تقرأ كثيراً ، فاستفادت من قراءتها نضجاً في التفكير ، وهذا ما جعل بعض تصرفاتها في غاية العقل والحكمة ، ولكن أمها لم تدع لها حق التصرف العملي في أي أمر من أمورها ، فظلت ناقصة من حيث التجارب العملية في الحياة . وقد عولجت الصبية بأن أدخلت مدرسة أدمجت فيها وسط بنات دون سنها بقليل ، ممن لا يهمهن أي شيء من هذه الأفكار العالية ، حتى إنهن لا يعرفنها أحياناً ؛ وقد ألقت عليها الناظرة تبعة أعمال عملية كثيرة . وبعد فترة اتزنت قوى الصبية واكتسبت بالتجارب ما عادل في الميزان كفة قراءتها .

وكثيراً ما يقوم النزاع بين الجيلين ، جيل الآباء وجيل الأبناء ؛ أولئك يريدون السلطان المطلق ، وهؤلاء يريدون الحرية المطلقة ؛ ولا يمكن علاج تلك الحال إلا إذا وجد التفاهم التام والثقة الكاملة بين الجيلين ؛ ولا بد لهذا التفاهم وتلك الثقة من أن تزرع بذورهما في الطفولة المبكرة

حتى يصبح الوالدان الملجأ المنيع الذى يُلجأ إليه فى كل أزمة وإبان كل خطر. فى سنى الحياة الأولى يسهل جداً اكتساب تلك الثقة ووضع أسس هذا التفاهم، حتى إذا ما جاءت سنو الصبا العاصفة صعب على الصبى أن يُعزع إيماناً قد رسخ. فإذا تأخرت هذه الثقة وذلك التفاهم إلى أوائل الشباب كان الأمل فى وجودهما يكاد يكون مفقوداً. ومهما تغيرت العادات والتقاليد، ومهما تغيرت الأذواق على مَرّ السنين، فإن أسساً راسخة من تقاليد وعادات وذوق لا بد أن توجد فى كل مجتمع متمدن فى أى مكان وفى أى زمان. وهذه لا يمكن أن يغيرها تعاقب الأجيال، ولكن لا يمكن أيضاً للشباب أن يفهم جوهرها والسر فى وجودها إلا إذا أتيح له أن يجرب بنفسه.

ولا بد من الإشارة إلى هذا النزاع الأولى بين ما يحب الإنسان أن يصل إليه وبين ميله الطبيعى إلى توفير الجهد والإخلاد إلى الراحة. فإذا اقتنعنا أن العقل والإرادة والمواهب الإنسانية لا بد أن تكون آلات فى خدمة أغراض صاحبها وآماله، وإذا عرفنا أن الغرض الذى يستحق التقدير لا بد أن يتطلب مجهوداً يستحق التقدير كذلك — إذا وصلنا إلى هذه الحقائق استطعنا أن نتغلب على هذا النزاع الخطير. فلابد — إذن — من التوفيق بين مطامعنا وجهودنا لنتجنب الشقاء، فإما أن نزيد هذه الجهود لتناسب ضخامة المطامع، وفى تلك الحال نسعد حقاً، وإما أن نقلل من هذه المطامع، وفى تلك الحال لا نشقى، ولكنا نهبط إلى مستوى نعيش فيه كالحيوان، وتمر علينا فيه الحياة متخاذلة مملة باهتة.

وللوراثة أثر عظيم فى بعض هذا النزاع. فنحن نرث مميزات عن الأب وأخرى عن الأم. وقد تتعارض هذه المميزات فنشقى من تعارضها. هذه فتاة جاءتنى وقد ورثت عن أمها حب الفنون والموسيقى خاصة، ولكنها ورثت من أبيها — وكان رجل أعمال وتجارة ناجحاً كل النجاح — مميزات تتعارض وهذا تمام التعارض. هذه الفتاة تندفع فى فنها حيناً، وكانت أمها على وشك التضحية بالزواج من أجله، ولكنها تقف أحياناً تسائل نفسها ما نفع هذا؟ أو ليس الأفضل والأنفع أن تعمل شيئاً له نتيجة تُرى. هذه الفتاة لم يكن أمامها إلا أن تخلو إلى نفسها وتدرسهما وتقرر أى الميلين فيها أقوى، ثم تصمم على تضحية الميل الضعيف فى سبيل الأقوى، ثم لا تعمل إلا فى طريق واحد فقط. ولكنها يجب أن تعرف أن أرقى الطبائع البشرية هى التى منيت بهذا التناقض والتعارض، وأن الميل الواحد الذى لا يخالطه ما عداه يخلق من صاحبه متعصباً قلما ينجح فى عمله. ولكن المهم هو ألا يوجد هذا التناقض فى العمل، ولا يؤثر وجوده فى العقل أثراً مادياً. لأن العمل يجب أن يسير فى اتجاه واحد حتى يسير دائماً إلى الأمام.

إن الشباب لا يمكن أن يخلص من مشاكله؛ فهو مشكلة فى نفسه، لأنه قليل العلم فقير التجربة؛ ولكنه فى الوقت نفسه قوى الإقبال على الحياة التى يجهلها؛ فإذا كان لا بد للمشاكل من أن تعرض فليس معنى هذا أنها لا بد أن تشقى صاحبها. وأهم ما يجب أن نذكر هو أنه كلما تأخرت مواجهة المشكلة فى إخلاص، وكلما تأخرت الرغبة الصادقة فى التغلب عليها استعصى الحل وكلف صاحبه الكثير من الشقاء والآلام.

والمشكلة لا توجد إذا كان لها جواب واحد صريح، لأنها عندئذ تكون سؤالا فقط؛ وإنما المشكلة توجد عندما نجد أمامنا جوابين وأحياناً ثلاثة، كلها صادقة وكلها متعارضة لأنها تنظر إلى المشكلة من وجهات مختلفة. فإذا آمن الشباب فى فجر حياته أنه ما من مشكلة إلا وهى قابلة للحل رفعه ذلك عن نفسه وطمأنه إلى أن الخلاص من أى نزاع يقوم فى النفس لا بد له من طريق. وليعلم الشباب، لعل هذا العلم ينفعه ويزيده شجاعة وعزماً، أنه — لِلين مزاجه ولسعة أفق الحياة أمامه ولأنه لم تتمكن منه العادات تمكنها

(البقية على الصفحة التالية)

قيصر . . . على مائدة كليوبطرا

"كانت كليوبطرا رائعة الجمال ، فياضة الصبا ، ذات صوت رخيم ، يسيحر جرس فتنة كل من سمعه " ديو كاسيس

تفرد البلاط البطليموسي في العالم القديم بخصائص لم يشاركه فيها بلاط في الدنيا ، تفرد بالبذخ والترف والنعيم ؛ وكان ملوكه نصراء للآداب والفنون ، وحماة لجامعة الاسكندرية ومكتبتها الفريدة . ولكن أفرخت في جنباته رذائل الاغتيال والإثم . . .

هنالك حيث الأقربون يقتل بعضهم بعضاً ، وحيث التبذل والفسوق ، تتناوح رغبات البطالسة الجامحة مع رذائلهم الصالحة ، فتشاد للأرباب هياكل ومذابح ، وللفنون معابد ومعاهد ، ومن بين هذا ليال حمراء معربدة تصطخب في البلاط ، أزرت بليالي كانوبس (١) Canopus التي اختصت ليؤمها رواد الخلاعة والهوى من مُجّان الاسكندرية وبهاليلها السُّراة .

(١) كانوبس Canopus إحدى ضواحي الاسكندرية ، على بعد خمسة عشر ميلا من شرقيها . وكانت تربطها بالاسكندرية قناة طويلة شيدت على جوانبها قصور الريف الجميلة ، وغرست الحدائق الغناء ، وسكنها وأمها المترفون الأغنياء .

لم يستقر للبطالسة بعد بطليموس الثالث وسْتٌ تحت الجالس عليه ، ولم يكن في وسعهم أن يتجردوا من غرائز الوراثات المتغلغلة في دمائهم ؛ فهم ، وهم اليونانيون أصلا ، قد كانت تجيش في صدورهم رغبات مستترة لا تستطيع أن تَصُمَّ جواباً عن تلبية نداء الجسم الصارخ المختلج ، ولا أن تجد في كنف الاعتدال والحشمة ما يكبت تلك الشهوات العارمة ، فاندفعوا وراءها مسوقين جيلا بعد جيل ، وغمرتهم حياة الدسائس والغدر والشهوات والاستمتاع بتيارها المتدافع ، فخرجوا على كل ما تعارف عليه الناس من مراعاة القربى وحرمة النسب والخلق والسلوك .

ففي سبيل الملك يبيِّت الابن لأبيه بليل ، وتقتل الأخت أخاها . ومضوا بعد ذلك يتحدرون في وهاد الملذات والرغبات ، يسيمون سرح اللهو كل مسام .

« وفيهم امتزجت شهوات الاغريق السافرة بغواية الشرق المحتدمة ، وفيهم قدست طقوس إفروديت طقوساً لم تعرفها سوريا ، ولم تحلم بها اليونان ، ولم تشهدها قبرص ، ولم تعلمها كورنيث (١) » .

من هذا العنصر ، وفي هذه البيئة الموروثة ، نشأت كليوبطرا ، نشأة فيها للتهذيب العقلي صقال ، وللوراثة مخايل ، وللجمال إشراق ، فاتسمت بالجرأة الفائقة والعزم الماضي ، وعرفت بقدرتها على اختيار الدسائس الفعالة في تنفيذ المؤامرات ، وحيل الشرق المزدوجة المعبقة ؛ وكانت كما قال ديو كاسيس أعدى أعدائها : « ومهما يكن

(١) كانت هذه المدائن معروفة بتبذل أهلها ، حتى جرى المثل : " قليل من الرجال من آب بالربح من كورنيث " ، أي أن الغني الذي يذهب إليها ينفق أمواله في اللهو والمجانة .

من الشيوخ — أكثر قبولا لحل المشاكل وأكثر استعداداً لزوال نتائجها بعد زوال أسبابها .

أيها الشباب : إن الحياة لاذة مليئة بكثير مما يمكن أن يكشف ويجلى اكتشافه السرور ؛ وستجد على مرّ سني حياتك كيف تتسع الآفاق وتتزاحم المسرات وتلذ الأعمال إذا استطعت أن تجعل من نفسك وحدة متماسكة تعمل كلها في انسجام ووئام . عش حياتك وأنت تفهمها الفهم الحق ، فهماً لا يوجهه الفتور ولا القانون ولكن فهماً توجهه التجربة وتؤيده المعرفة الصادقة .

سهير القلماوي

من تقلص ظل جامعة الاسكندرية الزاهر ، حين تربعت على العرش ، فقد بقيت روح الأعلام الذين طبعوا الجامعة بطابعهم منذ عهد البطالسة الأولين ، وحكمة آلاف الأسفار التي زخرت بها مكتبتها العظيمة ، وصقال الفن والثقافة والعلوم ، كل ذلك تجلى واضحاً وميتاً في عقلية كليوبطرا وروحها وتصرفاتها ؛ فكانت أيامها وعصر البطالسة بأسره كوضوح النور حين تنتفض ذبالة السراج فتشع بنور ووهج خاطف قبيل الانطفاء والفناء » .

واجهت كليوبطرا في مستهل ملكها ، وهي ريّا غصن الصبا ، الخلاف الذي نشب بينها وبين أخيها بطليموس الفتى اليافع على العرش ، فناصرها فريق وناصر أخاها فريق ، انضم إليه بوتنس Pothinus واخلاس Achillas القائدان المصريان ، فانتصروا عليها ودحروها خارج الحدود ؛ ثم أقبل يوليوس قيصر يتعقب خطى غريمه وصديقه القديم بومبي الأكبر . وكان بومبي وابنه ممن ناصروا أباها بطليموس الثالث عشر « نافخ الزمار » ، طمعاً في ذهبه وميرته ومساعدته لها ضد قيصر .



يوليوس قيصر

أقبل قيصر إلى الاسكندرية حثيثاً في آثار بومبي ، فألفاه قتيلا رميت جثته على سيف البحر ، مقطوعة الرأس لا تجد من يقوم لها بطقوس الدفن . وكان أن قتل غيلة وهو نازل بارجته الحربية في زورق إلى الشاطئ ، فأرداه مأجور من بني الرومان في الزورق . فبكى قيصر غريمه وصديقه ، ولا شماتة بعيت ، وأحرق جثته بما يليق بها من إجلال حسب الطقوس الرومانية ، ودخل الاسكندرية فاحتل الميناء ، وأقام في أحد القصور الملكية .



كليوبطرا

اعتزمت كليوبطرا أمرها ، وصممت أن تجد في هذا القائد الروماني ما وجدته في صديقه القديم وابنه من مساعدة ومناصرة ؛ فهي إذاً ذاهبة إليه مهما كلفها الأمر ، وقد ترامت إليها سمعة هذا القائد العالي ، فقد زعموه بطلا مغواراً ومهذباً مكتملا ، وغزلا متندراً ، حتى كان جنده يتغامزون إذا رأوه قادماً ، « حذار أيها الرجال ! ! على نسائكم ، فقد أقبل الأصلع المتهتك » . وقد سمعت عنه أنه يحترم النساء ، ويعبد الجمال ، ويهيم بالحسن ،

ويتعلق بالفنون والآداب . وهى قد أخذت من كل هـذا بحظ كبير ، وهو وإن أثقلته السنون والأيام ، فلا يزال فتى القلب محتدم الصبوات ، وهو يفخر فيما يفخر به بأنه نسل السماء ، وابن فينس ربة الحب الحسناء ؛ وهى مثله من سلالة الأرباب وابنة الآلهة العظام .

وأقبلت إليه فى أحد قصورها ، وقرأ نفيساً يحمله ابولودورس الصقلى بائع التحف الفنان . فلما ألقى حمله أمام قيصر انتفضت ملكة مصر ، يحوطها جلال الملك وميعة الشباب ؛ فأعجبته جرأتها ، وخوضها المهالك من أجل موقفها السياسى ؛ حتى قال ديوكاسيس : « لقد أوثق جمالها وسحر حديثها ، عيون النساء الزاهد فيهن قيصر » ، وقال بلوتارخ : « إن تدابيرها المحكمة قد فتحت لها طريق الوصول إلى قلب قيصر ، وقد استطاعت بحديثها المعسول ، ومعارفها الواسعة ، أن تستمر فى انتصاراتها عليه » .

قالوا إن قيصر العبقرى ، لم تقو نفسه على مدافعة ذلك الجمال الفاتن ، والشباب المتفتح ؛ وقد رأى فى دنياه ، ومغامراته ، وحروبه المتعددة ، وفى جولاته وصبواته ، نساء عديدات ، فما استطاعت واحدة منهن أن تسلبه لبه أو تقهر قاهر الأمم من أول نظرة ؛ ولكن كليوبطرا الطفلة التى لم يكن بها نقص فى أوضاعها الجسمانية أو العقلية ، قد تركت أحاديثها فى ليلتها تلك أثراً سحيق الغور فى قلب قيصر . « وقد انتزعته من أحلامه الكبرى ، وأنسته وقار السنين ، فركن إليها يستروح فى حديثها وقدة الركود العقلى ، ويستظل فى جنبات شبابها وتهذيبها ، أفياء الرغبات ، فيستعيد أيام لهوه اللاهى ، وتهتكه القديم » .

وأقامت له وليمة ، كأنها وليمة التهادن ، لعل قيصر يستطيع أن يخمد نيران الخلاف بينها وبين أخيها . أما ذلك القصر الذى أولمت فيه وليمة العشاء ، « فلم ير الناظرون فى ذلك العصر القديم بلاطاً فاق البلاط البطليموسى ، لفخامة بناء ، وطنافس ، وغالى رياش ، وجميل أثاث ، وروائع نقوش . ولم يقم على ضفاف التايبر ، أو لدى الاغريق ، قصر فاق ذلك النعيم والترف الذى أحاط قيصر فى ليلته تلك » . كانت المأدبة فى ردهة كأنها معبد فى عمدها وسقفها ، وقد كسيت تلك العمد بصفاح الذهب الخالص ، وحليت جدرانها بالرخام النادر المطعم بالعاج . وكانت بعض العمد من الخشب الجميل ؛ وأما أرض الردهة فقد كسيت بالعقيق اليمانى المعرق . وأقبل الغلمان يحملون أطباق الذهب وهم فى ميعة الصبا ، لم تر العيون مثلهم حسناً ، فى جدائلهم المسدلة المتموجة ، وقسماتهم النضرة وثيابهم المزركشة ، وأدب سلوكهم الرفيع .

وأقبلت الملكة وجلست ، وجلس أخوها وقيصر ، وجند الرومان ، وقادة المصريين وأهل النباهة منهم ، والملكة تألقت جواهرها ، وبدا صدرها من وراء غلالة رقيقة تسترها ولا تسترها ، وتعلقت بزنار من الجوهر النادر . وكانت موائد الطعام كلها من العاج ، تملؤها أطباق الذهب ، والمستجديات المفوفة ؛ وملئ الخوان بكل نادر المذاق ، لذيذ الطعم ، مما زخر به البحر ، وفاض به البر ، وازدحم به الجو ، ودارت كؤوس الراح المعتقة التى لم يذقها قيصر .

لم يشأ قيصر أن يدع هذا الجو الذى يفيض غنى وعظمة ، تمثل فيه مجد قرون وقرون مرت عصر ، يمضى فى أكل ولهو ، وشراب وسماع ، وتقصف ومجون ، فأدار الحديث فى الأدب ، والفن ، والفلسفة ، والعلوم . وقيصر لم يك يدرى أنه ملاق فى بلاط مصر صفوة العلماء ، والشعراء ، ورجال الفن ، ممن لم تضمهم روما أو أثينا ؛ وجال الحديث كل مجال ، وقيصر يخوض مع الخائضين فى كل فن ، والملكة الشابة تساطيهم النقاش ، وتجادل العلماء ، وتساجل الشعراء .

ووقف قيصر ، وقد أنساه ما سمع وما رأى ، الموقف السياسى ومفاوضات الصلح ؛ وطافت به طوائف الحلم

والأدب ، فأخذ يقول : « إنه مشتاق إلى أن يعرف كل ما يتعلق بأصل المصريين ، ولهذا فقد اعتزم دراسة النقوش والكتابة المسطورة فوق المعابد والقبور ، وإنه ليرجو أن يحاط خُبْراً بأخلاق المصريين وعاداتهم ؛ وإن غايته الكبرى أن يحل مسألة جالت بعقول الفلاسفة من إغريق ورومانيين فاستعصت عليهم ، وهي البحث عن منابع النيل المقدس ، فإن زعم الرومانيون أنها ضرب من المستحيل ، فإنه ليثلج صدره أن يحاول إمكان المستحيل » .

ثم التفت إلى الكاهن الأكبر أخورس وسأله باسماً : هل له أن يفض السر المحجب ؟ فقال له : « إنه يود لو سُمِح(١) له بذلك . ولكن السر المكنون لن يقال لغريب » . ثم استطرد يقول : « إن عطارد حين يقف في السماء في النقطة التي يكون فيها برج الأسد مقترناً بالسرطان ، يقذف بنيرانه المتأججة منابع النيل . هنالك تتدفق مياهه العاتية منطلقة دون قيد ، مكتسحة أمامها كل شيء ، كأنها المحيط المتوثب ، ويدفعها القمر إلى الامام ، ويظل الماء متدفقاً عالياً ، لا يهبط ولا يكف عن الدفقان ، إلى أن تُرجع الشمس ساعات الصيف إلى الليل ، أي إلى أن تتساوى ساعات النهار والليل » .

وانقلب خطاب قيصر إلى نقاش علمي ، ومضى أخورس الكاهن يستكمل حديثه ويقول : « وإن هنالك لأخطاء كبيرة متداولة بين الأقدمين ، فيما يتعلق بفيضان النيل وهبوطه ، وإني لأحسب أن سبب فيضان الإله المقدس هو ذوبان الثلوج التي تكسو قنن الجبال في أثيوبيا ، لأن الدب الأكبر والرياح الشمالية ، ليس لها من قوة في تلك الأنحاء ، كما يبدو من ألوان سكانها ، ومن تلك الرياح الجنوبية الحارة ؛ والنيل ليس كغيره من الأنهار التي تفيض في فصل الربيع ؛ ولكنه يتدفق حينما يحكم القاضي السماوي ليبرا Libra بتساوي الليل والنهار . وأما الخرافة القائلة بأن النيل يتدفق ماؤه حينما ترتد مياه البحر إلى الوراء ، فخرافة لا أصل لها » . وأخذ الكاهن يستعرض بعد ذلك كل ما اتصل بهذه المسألة في ثنايا التاريخ ، وفي الأغاني الشعبية ، وفي الاعتقاد العام . وقال : « إن كثيراً من ملوك الفراعنة الأقدمين والفرس والمقدونيين ، أرادوا ما أراد قيصر من اكتشاف منابع النيل ؛ وإن الإسكندر وقت أن كان بمصر أرسل بعوثاً من الأثيوبيين إلى هذه الغاية ؛ ولكنها ارتدت عن الوصول إليها خاسرة ، حيث اعترضت سبيلهم قبة السماء القانية ، وحيث لم يبصروا غير لظى الشمس المتوقد ، ينعكس على الماء المتدفق ؛ وإن سيزوستريس قد أرسل الباحثين ليكتشفوا مواطن المنابع فوصلوا إلى نهاية الأرض دون أن يقعوا على ما يطلبون ؛ وإن قمبيز بعث إلى الشرق بآخرين ، إلى بلاد قوم سبقوا البشر في سكنى الأرض ، ولكنهم كغيرهم قفلوا بصفقة المغبون » . ثم ركع مناجياً : « أيها النيل المبارك ! ! إن العالم لا يدري في أي البلاد مولدك ، ولم يشاهدك قوم من بني البشر ، يوم أن استهللت على الكون وليداً ، ويوم أن حبوت طفلا ، فبارك في عبادك ، وتحدر بالخير على شطآنك » .

كان أخورس متهدج الصوت عميقه ، وقد سكن كل شيء ، وخفت جلبة الجالسين ، فرأى قيصر أن يقف عند ذلك الحد ، إلى أن تواتيه فرصة أخرى سانحة ، وانتثر القوم يتجولون في أبهاء القصر ، وفي حديقته . ووقف بوتنس وأخلاس وحدهما يتساران .

قال بوتنس : « ما رأيت كالليلة ، طعاماً شهياً ، وشراباً سائغاً ، وحديثاً ممتعاً . أتراه أحبها ؟ ؟ أيحب رجل أربى على الخمسين ، كثير المشاغل ، جم بلابل الصدر ، متصل الحروب ، موفور الأعداء ، متسع الأحلام ؟ ؟ »

قال أخلاس :

(١) كانوا يعتقدون أن الكهنة يعلمون كل ما يتصل بالآلهة والنيل منها ، فهم يعرفون كل شيء عنه ، ولكنهم لا يكشفون سر الآلهة ، وإلا وقعت عليهم اللعنات ، وأمسك النيل عن الفيضان .

« ولم لا يحبها ؟ إنه أخو صبوات ، وخدين غواية ، لم يدع في حياته الذاهبة ، يوم كان رطيب غصن الشباب ، مجانةً إلا وتملق بها ، ولا لذة إلا وتذوقها . ثم هو بعد ذلك وكما رأيت يزينه عقل راجح ، وعلم وفير » .

فزمّ بوتنس شفتيه وقال متعقلا : « إني لا أعتقد أنها في سنها هذه تهيم بهذا الكهل الأصلع الحاد اللامح المجعّد المحيّا . إنه فاجر عربيد ! »

فابتسم أخلاس ساخراً وقال له : « كلا يا صديق ، يبدو لي أن كليهما قد أحب صاحبه . إن قيصر قد عرف من النساء ما لم يعرفه أحد . عرف الحسناء الساحرة ، والمثقفة الفاتنة ، والبهيمية الهلوك . ولكني — وقد رأيته يستمع إليها دهشاً ، وينظر إليها متفرساً ذاهلاً — أيقنت كأنه لم يجد مثلها صورة اكتملت فيها مزايا الجمال المطلق ، جمال الجسم ، والنفس ، والتثقيف ، والتهذيب ، ثم جلال الملك ورونق الشباب . ومن أين له ، في عمرها الغض ، أن يلقى المرأة اللعوب التي تساقيه الهوى ، فإذا أطفأ غلته ناقلته حديث العرفان والثقافة ، ثم إن يك قبل اليوم قد ارتوى من كل ذلك فأترع ، فلن يجد دنيا تفيض بالنعيم والبشر نحو هذا البلاط البطليموسي .

« لقد أرصدتها نظراتي ، وهو يجادل الكاهن ، ويتحدث إلى العلماء ، فرأيته لم يخرجه التندر والسمر وعنف الحوار عن وقاره الموسوم ، ورأيتها تستمع إليه فكأنها جميعها آذان مرهفة ، وتنظر إليه ، فكأنّ كل جوارحها عيون متفرسة ، فكلاهما قد رمى حبائله ، وكلاهما قد صاد » .

فقال بوتنس : « بلى يا صديق . إنها كذويها الذين تحدرت منهم ، إنها في سبيل الخلاص من أخيها ، والتفرد بالملك ، وقهر أعدائها ، لا تتقيد بعرف ، ولا تصد عن جرم ، ألا تذكر أنها كان لها مع كنايس بومبي (ابن بومبي الأكبر قتيل الإسكندرية) هوى وغرام ؟ فاعتقد أن قيصر سينضم إلى جانبها ، وينصرها علينا ، فلنتدبر الأمر » .

فابتدره أخلاس ، وقد لوى جيده غير مكترث : « لا عليك ياصاح ! ليس لقيصر من جيش يقاوم به جيوش المصريين غير أربعة آلاف مقاتل ، وهي ليست كافية لمحاربتنا ، فلا تخش له بأساً ، إذا لم يأته المدد من روما ... »

وفيما هما يتحدثان أقبل عليهما قيصر يتأبط ذراع كليوبطرا ، فانتفضا من غشيتهما وسهومهما ، فأومأ قيصر محيياً ، وشمخت الملكة برأسها سخطاً . ومضيا صُعداً إلى برج القصر

« فإذا معالم الفجر الرّبْداء تجلل البحر الساكن بأضوائها الكُدْر ، وبقيا ينظران فإذا الشمس تبرز مثل كَفرٍ مُلوَّح ، وإذا المدينة الهامدة في الوهد تحتهما تتقد بأشعة الشمس الأولى في حلة من الذهب المشبوب ، فتبدو في غلائل كأنما وشّتها أنامل جنّيّة ! وقد سمت المسلات والقصور الشامخة في زهو وكبرياء ، كأنهن بنات الخيال ، أو حوريات البحر ، وقفن في دَلٍّ يلبسن في وهج الشروق ، الأرجوانيّ المتألق .

ثم هاتيك هي السفن في الميناء ، كبرى وصغرى ، تغدو وتروح ، والحدائق الكثر تلتف بأحراجها وسقائفها ، وغصونها المتهدلة حول القصور ، ومن دونها البانيوم Panium (1) عاطس كالتاج المعلق في الفضاء على غير عمد أو ركاز ، يتقطر منه لون كاللظى ، أمسكت ألسنته المتطاولة عن الوجيب والاهتزاز » .

ثم كان ما كان ....

توفيق أحمد البكري

---

(1) البانيوم : معبد الإله بان Pan إله العشق والصبوات . أقيم فوق أعلى تلال الإسكندرية يسمو إليه الصعيد فوق أكثر من ثلاثمائة درج . وكان بالقرب من شارع السياق أو الشارع الأكبر في غربي الإسكندرية حسب تخطيطها في عهد البطالسة

من باريس إلى پواتييــــه

إلى أين يا ولدى ؟

إلى پواتييه يا سيدتى .

وهل اشتريت تذكرتك ؟

لم أشترها بعد ، فإن القطار يغادر باريس بعد الظهر بقليل ، والساعة الآن العاشرة .

كلا يا بنى ، أترك حقيبتك هنا ، وأسرع إلى شراء تذكرتك .

وعدت إلى « البوفيه » فى محطة « أورساى » فبدأت صاحبتى العجوز تتحدث وأنا أصغى إلى حديثها ، قالت :

« لعنة الله على الحرب ! لا أزال أذكر مثل هذا اليوم من سنة ١٤ ، حين سافر ابنى الوحيد إلى الميدان ! كان ضابطاً فى الطيران ، كان فى عنفوان شبابه وزهرة العمر ! كان جميلا رشيقاً ، يحبه كل من يراه ! ذهبت معه إلى المحطة ، إلى محطة « سان لازار » ، فوقفت بجوار نافذة القطار باكية . كانت آخر كلماته إلىّ : « علامَ تبكين يا أماه ؟ سوف أعود قريباً ، إن هى إلا رحلة قصيرة للدى لن تبعد الشقة علينا ، وسنحمل معنا آذان البوش (الألمان) وأنوفهم وأصابعهم ! » إلى أن كان ذات يوم

وسكتت السيدة العجوز هنيهة ، ثم نظرت إلىّ فأطالت النظر وقالت :

« لن أنسى أبداً ذلك اليوم ! فى صبيحته أخذتنى سنة من النوم ، فرأيت ولدى يحلق بطائرته فى الجو ، وكنت أراه من نافذتى ، كان يحيينى بمنديل الذى أخذه منى وفيه دموعى يوم الوداع ! عبثاً حاولت أن أغريه بالدخول إلى غرفتى ! كنت أناديه فيشير إلىّ ويصد عن ندائى ! وفتحت عينىّ فإذا الساعة العاشرة من الصباح ، وإذا بى فى غرفتى بعيدة عن ولدى .

« لم أستطع المكث فى البيت فخرجت إلى أختى وأنا ضيقة الصدر ، مشتتة الفكر ، وخيال الطائرة يتراءى إلى وفيها « ألبير » albert ! قصصت الرؤيا على أختى فحاولت أن تسرى عنى ما أنا فيه من القلق والهم ، وأخذت تتندر بدخول طائرة من نافذة !

« فى مساء هذا اليوم عرفت أن ولدى قتل فى الحرب قتل فى ساحة الشرف ، قتل دفاعاً عن الحرية ، قتل من أجل فرنسا ! قتله الألمان ! آه ، لعنة الله على الحرب لعنة الله على الحرب ! ! كان فى الثلاثين من عمره ، قوى البنية ، باسم الثغر ، واسع الأمل ، عظيم الهمة بعيد النظر . ألم تر إليه وقد أوقع طائرتين ألمانيتين فى يوم واحد ، ولما كانت الثالثة أخطأه الحظ فوقع واحترق ! »

وأخذت بدورى أذم الحرب وأواسى صاحبتى ، فكانت تنصت إلىّ وتؤيد كلامى بآيات تحفظها من الانجيل .

قطع الحديث علينا بائع الجرائد ، فقد دخل ينادى بأن الألمان زحفوا على بولونيا ، وأن التعبئة العامة قد تعلن بعد حين ! واشتريت الجريدة وأخذت أقرأ وأسمعها وهى تنصت فى إصغاء عجيب . حتى إذا فرغت أخبار بولونيا تكلمنا عما تم لاخلاء باريس من أهلها فقالت :

« والآن لا أدرى المصير : فقد كنت بالأمس مع زوجى الشيخ الربيض فى مصحته ، وقد ألح على أن أغادر باريس وأن أذهب إلى بوردو حيث تسكن أخته . مسكين زوجى ! إنه لا يعرف إلى أين يحملونه . إن المصحة بأسرها سوف تنقل من باريس إلى بلد بعيد ! إلى بلد

آمن ! إن كان من الطائرات أمان : لا أملك إلا طاعته إنه شيخ مريض حاد المزاج ! لعنة الله على الحرب ! مات ولدى ، واليوم أبعد مرغمة عن زوجى ، ولا أعرف أين يكون مثواه ! وها أنا فى السبعين من عمرى لا أستطيع أن أساهم فى الصليب الأحمر كما ساهمت فى الحرب الماضية ! اليوم أنا عجوز لا أصلح لشىء ! »

وحان وقت الرحيل فذهبنا سويا إلى القطار . . .

فى تور Tours رأينا ضابطاً وزوجته وطفلتهما ، أتى الضابط يودع زوجته الشابة وابنته الصغيرة ، هما ذاهبان إلى (بواتييه) حيث يقيمان مع أبيه ، كان الضابط وزوجه يتحدثان حديثاً كله عطف وكله حنان وكله حب ! كانت الزوجة تتحدث فى صبر وهى ضاحكة الأسارير ! وكان الزوج متزناً يبادلها ابتسامها فى هدوء واطمئنان ، ثم صعدت السيدة إلى القطار فتخليت عن مقعدى ليتسنى لها أن تحدث زوجها قبيل الرحيل ! كانت تحدثه عن الخطابات والموافاة بالأخبار ، وكان يوصيها خيراً بالطفلة وبنفسها وأذن القطار بالسير فقبلت يده وقبل يدها وسرنا . . .

لم تكد هذه السيدة تأخذ مكانها حتى انفجرت تبكى أمرّ البكاء ! ونظرت الطفلة إلى أمها نظرة حائرة ثم بكت بكاءً يقطع الأكباد .

حاولت العجوز وحاولت معها أن نهدئ من قلق الباكية الحزينة ، فكانت تتجلد حيناً ، فتتلهى بإسكات ابنتها ، ويخونها الصبر حيناً فتنطلق باكية وفى الحالتين تنهمر دموعها فى حزن عميق !

أكثرت العجوز من الثرثرة ، وكان كلامها يحمل على الصبر حيناً ، ويدفع إلى البكاء أحياناً ! حتى إذا هدأت الزوجة الجزعة أخذت تداعب الطفلة البريئة حتى لا تنام وهى تبكى .

فجأة وقف القطار . أعلنت التعبئة العامة وأصبحت أسبقية المرور للقطارات الحربية ، ومكثنا ساعة ننتظر ! بدأت السيدة تتحدث عن زوجها ، قالت :

« هو ضابط مختص صناعته الحرب ! عرفته طالباً فى مدرسة (البولتكنيك) Polytechnique — حين التقينا منذ خمس سنوات فى ضاحية (سان جرمان ان لاى) — S. Germain en laye — حيث كنت طالبة بالليسيه . بعد سنتين تزوجنا ، وها هو يلبى اليوم نداء وطنه ، فيودعنى ويودع ابنته ليؤدى إلى الوطن رسالته ! »

وبأعذب الألفاظ وأرق عبارات الحنان ، أخذت السيدة تناجى زوجها وهى تحدثنا : عرفته فلم يخف على من أمره شيئاً ، لم يتكلف ، وظهر إلىّ كما هو ! هذه أخلاقه ، كرجال السيف ، إنه رفيع النسب ولكنه فقير ، فقير فى ماله وغنى بنفسه ! هو يحبنى ، يحبنى من كل قلبه ! يغار علىّ ولكنه يثق بى . منذ عرفنى لم يسئ إلىّ مرة واحدة ، ومنذ عرفته وأنا متفانية فيه . ألم تروه ؟ أليست (مادلين) صورة منه ؟ وأخذت تقبل ابنتها ، والدمع يترقرق فى عينيها . . . ثم قالت :

« فى يونيو الماضى ذهبنا إلى (سان جرمان) لنحتفل بيوم تلاقينا الأول ، كنا أسعد مخلوقين ، سألنى : هل نجدد ذكرى هذا العيد فى يونيو سنة ٤٠ ؟ ! من يدرى ؟ آه ، إنى خائفة ، إنى خائفة ! . . . »

قالت العجوز :

— رفقاً يا بنيتى رفقاً .

فقد يجمع الله الشتيتين بعد ما

يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وبلغنا (بواتييه) فنزلنا ، الزوجة وطفلتها وأنا . . . أما العجوز فإلى (بوردو) .

(بواتييه — بلاط الشهداء) يحيى الخشاب

«التسلية»

اطلب إلى أبنائك تعرف وجه الخطأ فى كل واحدة من هذه الصور



تجد الاجابة عن ذلك فى العدد التالى من الثقافة

حِيل التخفى فى الحروب

(عن الأعاجيب الحديثة)

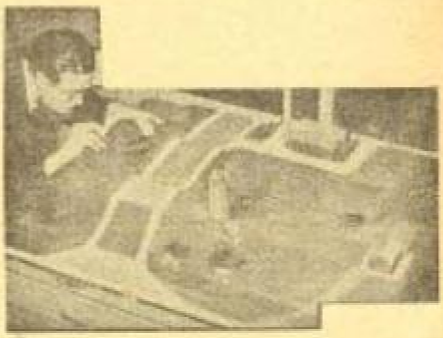
فن التخفى فن عرفه الطير والسمك والحشر وصنوف الحيوان من قديم الزمان ، فالكثير منها يعرف كيف يغير لونه وشكله ، إما صناعةً أو طبيعة ، بما يلتئم مع بيئته التى هو فيها ، فلا تكاد تميزه فيها أحدُّ العيون بصراً وأنفذُها شعاعاً .



حشرة أخفت نفسها على ورقة شجرة فلا تكاد تميز بينهما

وعلى قِدَم هذا الفن فى الحيوان نراه جديداً جداً فى الانسان ، فالانسان لم يبدأ يأخذ فى دراسته دراسة جدّية إلا فى الحرب العالمية الكبرى الماضية .

وانتهى الأمر بهذه الدراسة إلى أن خلقت فى الجيش إلى جانب القوّاد وأمراء البحر رجالا آخرين حذقوا هذا الفن حتى بلغوا به مرتبة لا تنزل عن مراتب فن قيادة الحرب ذاتها ، وصار الرجل الذى يستطيع إخفاء مصنع



فنان يعمل على نموذج صغير لمصنع

وتمويهه حتى يظهر كأنه عزبةٌ فى الحقل ، أو يدلّس فى مظهر مدفع حتى لتأمن موقعه طائراتُ الأعداء فتهبط قربه بقلوب مطمئنة مخدوعة ، صار هذا الرجل ذا خطر فى الجيش والبحر لا يقل عن خطر من بيدهم مقدّرات الجيوش والأساطيل .

وأوّل عمل يقوم به فنّان التخفّى أن يصعد فى طائرة فوق المصنع أو محطة السكة الحديدية ، أو أى مكان من الأمكنة الهامّة التى يراد إخفاؤها . ومن الطائرة تؤخذ صُوَر فوتوغرافية عدّة من تلك الأماكن . ثم على الأرض تُدرَس هذه الصور درساً دقيقاً ، ليعرف الفنان أىّ أجزائها أعونُ على تمييزها ، وأى نتوءاتها وألوانها تفضح كنهها ، ثم هو يقترح لها أشكالا وألواناً تذهب بمميّزاتها الظاهرة وتجعلها تندمج فيما حولها اندماجاً كاملا ، فلا يستبينها العدوّ الطائر إلا إذا نزل بطائرته قرب الأرض وهو لن يفعل بغير تعرض كبير للأخطار .

حتى المطارات أخفوها بهذا الفن إخفاءً شكا منه أهل الدار أنفسهم ، فكثيراً ما حلّقوا ثم حلّقوا على المطار المعروف حتى استبانوه بعد لأى . وبلغ من فنهم أنهم رسموا فى رقعة المطار أشكالا تتراءى من علٍ كأنها الأغنام فى مراعيها .

ومن الأمور التى يدرسونها فى هذا الفن مسألة الظلال ، فالطيار المطل من طائرة لا يستبين من أجرام الأرض وبيوتها وقصورها ودورها إلا ظلالها ، ومن الظلال يُستدَلّ على هذه الأجرام وأحجامها ، وهم يعمدون إلى محو هذه الظلال بأثواب كأثواب الخيام يشدّونها مائلةً على الجدران ، فتصبح المصانع العظيمة وأبنية المطارات

الضخمة وقد انعدمت فى مظهر الريف الذى حولها .



أبراج ملونة على طريقة الترقيع ، شديدة الظهور من على الأرض ولكنها لا تظهر من السماء

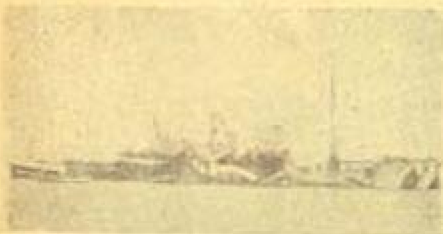
على أن توقع الحرب فى السنوات الماضية جعل الأمم تراعى أصول فن التخفى فى الأبنية الجديدة عند بنائها ، لا سيما ما يحتمل منها أن يكون هدفاً عند الاعتداء . مثال ذلك أن انجلترا بها حظائر لا تحصى لإيواء الطيارات ، ولكنها فى مأمن من الغارات لأنها بُنيت وأنصافها غاطسة فى الأرض ، وقد صُنعت سطوحها عقوداً محنية ليس فيها أركان أو زوايا ، وعلا هذه العقود طبقة من الاسمنت المسلّح ، علتها طبقة من الطين غطّتها الخضرة الشاملة والزهور المنبثقة فيها ، وصارت لا تتبيّنها الطائرة ولو طارت على ارتفاع قريب .

ومما اهتم به هذا الفن الطرقات . فالطرقات أرشد دليل على ما تؤدى إليه من مصنع أو مطار أو معسكر أو حصن أو غير هذه من أهداف الطائرة المغيرة . فهذه عمدوا فى سبيل إخفائها إلى الشباك ينصبونها فوق الطريق ، وقد يعززونها بفروع من الشجر يلقونها عليها .

والسكك الحديدية من الطرقات ، ولكن هذه ليس من السهل إخفاؤها . ولكن ما لا يُدرك كله لا يترك كله . من أجل هذا عمدوا إلى السكك التى لم يستطيعوا إخفاءها فأقاموا إلى جانبها أو على تقاطع معها سككاً كاذبة من قنوات محفورة فى الأرض قليلة العرض مُلئت بالماء ، ليتراءى بريق الماء من أعلى كبريق الحديد على القضبان الصادقة . فإذا جاءت الطائرات المغيرة ضلّت بين الخطوط الصادقة والخطوط الكاذبة . وأخاديد الأرض هذه تستخدم فى أغراض كثيرة لتضليل العدو . مثال هذا إذا أريد تضليل العدو إلى معسكر كاذب حُفرت تلك القنوات فى الزرع الأخضر لتعطى وحدها أشكالاً من ظلال تتراءى من السماء كأنها ظلال الثكنات أو ظلال الخيام .

والطائرات كذلك لها ما يخفيها . فإن كانت من ذوات العلوّ القليل مما يُخشى أن تُرى من أعلاها من طائرة أكثر ارتفاعاً ، فهذه تُدهن بأخلاط من الأدهان المتجاورة على طريقة الفسيفساء ، وإن شئت فسمّها طريقة الرُّقع أو الترقيع . وإن كانت من ذوات الصعود العالى مما يُخشى أن تُرى من أسفلها ، فهذه تُدهن أجنحتها من أسفل باللون الأسود واللون الفضى ليختلط اللونان بلون الليل الفاحم ونجومه الساطعة فيصعب على الأنوار الكشافة أن تراها .

وأخيراً سفن البحار ، فهذه تدهن جوانبها بألوان عدة مختلفة زاهية تجرى فى خطوط ذات اتجاهات عدة .



سفينة حربية ملوّنة على طريقة الترقيع المكسّر لتخفى اتجاه سيرها

وليس الغرض من هذا إخفاءها ، وإنما إخفاء اتجاه سيرها على الغواصات والسفن الهاجمة . فهذه الألوان الوهاجة المتعرجة تبهر العين وتجعل من الصعب على الناظر البعيد أن يتبين إلى أية ناحية هى سائرة ، وكثيراً ما نجت السفن وهربت فى الحرب العظمى الماضية بهذه الحيلة .

عتاقى

حب الرجال أعمى ...

للسيدة سوزان أرنس

عاش المستر وليم كوبيت William Cobbet في انجلترا منذ مائة عام ، ونبه في الحياة السياسية ، وكان له شأن فيها ، وكان كذلك مؤلفاً .

كتب كتاباً أسماه « نصيحة إلى الشباب من الرجال » ، وفي هذا الكتاب وصف لنا كيف وقع في حب الفتاة التي صارت زوجته من بعد ذلك : كان في الخدمة العسكرية في كندا ، وفي ذات صباح اشتد صقيعه وجمد ماؤه ، رأى فتاةً في الثالثة عشرة في العراء خارج منزل تحك جدران برميل تنظفه لتهيئه لغسل ملابس ؛ وكانت أضواء الصباح الأولى لم تكد تبين . وكانت بقايا النجوم لا تزال ظاهرة في السماء . ففي تلك الساعة ، بل في تلك الدقيقة ، قرر أن هذه الفتاة فتاته . وبعد أربع سنوات كنت تراها في انجلترا في بيته وإلى جانبه زوجةً له .

وعاشا من بعد ذلك في صفاء وهناء ، ومع هذا فالقارئ ذو العواطف الحارة الرومانتيكية لن يرضى عن هذا الحادث ، ويود في الصميم من قلبه لو أن الذي حرك صاحبنا عاطفةٌ أحرّ من هذه ومُغرية أقوى من محض الشغل الشاق في الصباح الباكر .

على أن الحادث لم يخلُ من العنصر الرومانتيكي ، ولو أن ظاهره أن الرجل لم يتحرك فيه غيرُ حسّه بالأمور العملية الواقعية الجامدة ، فالرومانتيكية في هذا الحادث هي في الفُجاءة التي وقع بها ، وفي معنى الحزم والعزم الذي تمسك به صاحبنا ، وفي معنى الحزم والعزم الذي لا شك اتصفت به وجهة نظر صاحبتنا إليه .

على أن « كوبيت » رجل لا كالرجال ، فالرجل العادي يحب خبط عشواء وهو أعمى ، وهو إذا أحب فقد السيطرة على نفسه ، وانسلّ من يده مقادُها ، وانطلق تدفعه العاطفة كما تدفع موجةُ البحر العاتية سابحاً قليل العلم بالسباحة ، وهو يحسب في ظلام الليل أنه راكب متنها إلى ساحل قارة عظيمة ، في حين أنها إنما تحمله إلى شِعب مرجانيّ ليس فيه ورقة خضراء تُقيم أود الحياة .

إن الرجل العادي يحب فيعمى ، وهو فوق ذلك يتجرّد من تجاربه ويجري على سَنَنه الجديد أبلهَ ساذجاً . أما حبّه القديم ، إنْ كان مرّةً أو مرّاتٍ ، فهو ينساه . وأما ما حصّله من العلم والخبرة فيه فهو يجهله أو يأبى أن يستعيد ذكراه . ويتركّز في ساعته على هذا الشيء الجديد الذي يحبّه حبًّا يخال أنه لم يحب بمثل شدّته أحداً أبداً . وهذه الحال تحجبه وتحميه من الوقوع في زلل الحبين الأكبر ، والخطيئة الكبرى التي يقترفها المحب في حق حبّه ، تلك هي إجراء المقارنات بين فتاة وفتاة ، أو بين حال له حاضرة وحال كانت له ماضية . وباحتجابه واحتمائه من هذا الزلل يتعرض لزلل أكبر هو الوقوع في الخطأ الواحد مرتين والالتداغ من الجحر الواحد لدغتين .

أما المرأة فتختلف في هذا اختلافاً كبيراً عن الرجل ، فالنساء يتعلمن من التجارب ويُردن دائماً أن يستفدن من تجاربهن . ولعل هذا هو السبب في أن الرجال عند اختيار الزوجات يحبون دائماً أن يكونوا أول الواردين ميدان هذه المرأة أو تلك ، وذلك خشية أن تعمد في أمرهم إلى المقارنات . والرجال تعلم أن الالتجاء إلى المقارنات

من سيئات النساء . ولعل هذا أيضاً هو السبب فى اختلاف ماتطلبه المرأة من الرجل عما يطلبه الرجل من المرأة . فالرجل يود من المرأة أن لا يجد فى طريقه إليها آثار أقدام . والمرأة تعلم من الرجل إذا أحبها أنه لابد ناسٍ مامضى وما يُستقبَل .

إن الرجل العاطفى العادى يعيش من دهره فى دنيا مليئة بالخُدَعات . وهو فى انخداعه يعتقد ويلتذ باعتقاده أن المرأة لا تكون امرأة حقة إلا أن يكون حبُّه إياها أول حب دخل قلبها ، وأن المرأة الصميمة الواحدة لا تحب إلا مرة واحدة . وهذا بالرغم من شواهد قد تكون على نقيض ذلك . فهى قد تكون أحبت وخابت . وهى قد تكون أحبت وعقدت ثم انفصمت العروة بعد شدّها . والرجل يهتم من حبيبته بماضيها أكثر كثيراً من حاضرها أو مستقبلها ، زاعماً فى غروره وانخداعه أنه أقدر على امتلاك عواطفها الحاضرة منه على امتلاك ذكرياتها الماضية . ويمر الخاطر فى ذهنه بأن من الرجال من أحب مرة ، ومرة واحدة لا ثانية لها ، فيشوقه هذا الخاطر شوقاً كبيراً . ومع هذا يفخر أيضاً بأنه لم يكن من صنف هؤلاء الرجال .

والحب لا يُحسِّن ويُصلح من الرجال تحسينَه وإصلاحَه من النساء . ونعم قد يحسن به الرجال وتصلح ، ولكن زمان هذا بعد الزواج لا قبله . فالرجل فى إبّان حبِّه ينسى نفسه ، بينا المرأة فى إبان حبها تتعلَّم الكثير عن نفسها وشيئاً كثيراً آخر عن غير نفسها . فالمرأة فى حبها ترى نفسها فى ضياء وهّاج بهيج ، هو الضياء الذى يُشعّه عليها محبها ؛ أما الرجل ، وقد جعلته الطبيعة أكثر استقلالاً بعقله ، فلا يرى نفسه أبداً ، وإنما يرى ذلك الجرم الذى غمره هو بضيائه ، تلك المرأة .

وينتج عن هذا أن الحب ، بينا هو يزيد من قيمة المرأة ويزيد فى مَفاتنها ، تجده ينقص من قيمة الرجل فى عين الناس ويصيِّره ثقلاً على إخوانه ، ومهزأةً عند النساء غير التى أحبها . فالمرأة لا تهتم بحب رجل يحب غيرها إلا أن تكون وحيدة تشكو الوحدة ، أو شقيّة تندب حظاً ، أو سخية بالغة السخاء . وهى بطبيعتها لا تحب التقاط الفُتات الذى يسقط من مائدةٍ يَزْخَر من الألم صاحبُها . أما الناس عامة فلا تنظر إلى الرجل المحب إلاَّ نظرها إلى رجل أضلّه ما هو فيه . وإذا هو فقد الحذر ، وفقد معه الصمت والرزانة ، صار فى أعين الناس أضحوكةً لا يعوزه لاستكمالها إلا لبس الطرطور والثوب الخَلِق المشقّق ألواناً .

وزعم الزاعمون أن المحب الرجل يأتى بأحسن أعماله أو ينظم أحسن أشعاره وهو فى إبان حبه . وهذا خطأ شائع لا يتفق مع الواقع ، فالواقع أنه لا يستطيع أن يحسن شيئاً وهو متلبس بحبّه ، فإن أحسن فلا يكون الاحسان إلا بعد هدوء العاطفة وسكونها واستقرارها ، فعندئذ ، وعندئذ فقط ، يستطيع أن يضع عاطفته التى بردت وجمدت على نار الذكرى ، ويستقطر منها شذى طيّاراً يطيب فى الأنوف عطره . إن أجمل كلمات الحب إنما هى كلمات قالتها بنت إلى زوجة أبيها — كلمات رُوث Ruth إلى نعومى Naomi — ولم يكن جمال هذه الكلمات محض مصادفة واتفاق .

إن الرجل العادى يطلق نفسه للريح تَهُبّ به كل مَهَبّ . والرجل الذى يحب ببصيرة يقظة وأعين مفتوحة ، فى حبه كثير من الرومانتيكية الحقة . وكذلك كان حب « كوبيت » .

إن الرجل العادى عند تعرضه للحب كالطفل عند تعرضه للحصبة ، لا تصيبه إلا إذا نامت خلايا المقاومة فى دمه . وهو فى عماه قد يكون محظوظاً ، فقد يأتى القدَر فيأخذ بيده ، وهو يدب فى ظلمته ، ويهديه سواء السبيل حتى يخرج به البخت الطيب من هذه الظلمة إلى نور يرى فيه أن حبه أوقعه على امرأة عادية ، أو على الأقل عادية .

السوبسى

٣ - الفـــــخ ...

مترجمة عن تشارلز دكنز

" كان مستر صمبسون قد ارتاب فى شخص حضر للتأمين على حياة صديق له يدعى بكويث ، لذلك أخذ يرقب حركاته فأقلقه أول الأمر من براثنه ابنة أخيه التى كان قد أمن عليها وشرع بعد ذلك يمهد السبيل لقتلها ، كما قتل أختها من قبل ، وقد تلقى مستر صمبسون أخيراً دعوة من مستر بكويث هذا لتناول الإفطار عنده " .

لم أكن قد زرت مستر بكويث قبل هذا اليوم ، لذلك راعنى ما رأيت عليه مسكنه من كآبة وظلام ، فقد كان كل شىء يبعث على الاشمئزاز حقاً ، فالأثاث قذر يعلوه الغبار ، والغرف مظلمة لا يدخلها النور ولا الهواء ، ورائحة الخمر والأفيون تملأ جوها ، وتبعث الضيق فى النفس ، وفى أحد الأركان وضعت مائدة أعد عليها طعام الافطار ، بينما استلقى على مقعد متداع فى الركن المقابل رجل بدت على وجهه علامات السقم والهزال ، وانحطاط الصحة ، يدل مظهره على أنه من أحط طبقات المدمنين ، ويوحى النظر إلى سحناله بالنهاية القريبة التى يخطو إليها ، وهى الموت .

وبدأ مستر بكويث الحديث عند ما رآنى قائلا فى صوت بدت فيه مظاهر الاعياء :

— إن سلنكتون لم يأت بعد . ولكن صبراً فسأدعوه . سلنكتون ! جولياس ! جولياس سيزار . تعال إلى هنا . تعال لتشرب . . .

كان صوت بكويث على ضعفه مخيفاً رهيباً ، حتى لقد عرتنى رعدة خفيفة وأنا أستمع إلى ندائه على سلنكتون ، ذلك النداء الساحر العجيب ! ولم تمض برهة حتى أقبل سلنكتون على الصوت ، ولكنه لم يستطع مع ما حاول من هدوء أن يخفى دهشته المشوبة بالاستنكار لرؤيتى فى هذا المكان !

وارتفع صوت بكويث الرهيب مرة أخرى قائلا فى هياج :

— جولياس ، جولياس سيزار . هذا هو مستر صمبسون . . . مستر صمبسون ، هذا جولياس صديق روحى ، إنه لا يكف عن سد حاجتها من الخمر . . . إنه دائم الامداد لى بكل أنواع الخمور . . . والمخدرات ، إنه رجل مفضال ، يجود علىّ دائماً بأقوى أنواع الخمر فعلا فى العقل . إن جولياس لايقبل أن أشرب القهوة أو الشاى ، فهو يقذف بما أعده لنفسى منهما فى عرض الطريق . . . إنه ليبلغ من كرمه أن يفرغ أوانى الماء وأباريقه من هذا السائل الرخيص الذى يرتوى به الجبانون ، ويملأها لى بمختلف أنواع المسكرات . هيا يا جولياس وأعد لنا النبيذ الساخن . هيا ، هيا .

كان هناك شىء مرعب يملأ جو الحجرة لم أدركه أول الأمر ، أهو رنين صوت بكويث وهو يدوى فى سخرية قاتلة ، أم هو هذا السكون الذى يسودها كلما سكت قليلا ليستجمع أنفاسه ؟ لست أدرى ؛ كل ما أعلمه أنى كنت أحس شيئاً رهيباً يتمشى فى جو الغرفة فيبعث الكآبة إلى نفسى ، ترى أين سمعت هذا الصوت ؟ هل أعرف صاحبه ؟ ذلك ما لم أستطع الاجابة عليه ، وما لم يمهلنى صوت بكويث قليلا لأفكر فيه ، فقد ارتفع ثانياً فى لهجته الهستيرية المفزعة صائحاً :

— أعد النبيذ ياجولياس . هيا إلى عملك الدائم ، خذ ، هذه هي الملعقة لتقلب بها الخمر الساخنة كمل يوم ، خذ

واندفع بكويث نحو سلنكتون وفي يده الملعقة في عنف ، حتى لقد خيل لي أنه سيشج بها رأسه ، فوقفت بينهما لأحول دون إصابة هذا الأخير . وحانت مني إذ ذاك التفاتة إلى المائدة فتأملت طعام الإفطار فإذا به إبريق من الخمر وبضع سمكات مملحة قد صفت في أحد الأطباق ، وبدا منظرها كأنها جيف صغيرة ، ونوع من الأطعمة الحريفة مما ينهى الأطباء مدمني الخمر عن تعاطيه . لقد كانت مائدة إعدام — ما في ذلك شك — لمثل هذا المريض المتداعي الذي يصرخ صرخاته الأخيرة ، وكأنما أحس سلنكتون بما يجول بخاطري ، فنظر إلي موجهاً رأسه إلى عيني لآخر مرة ، وقال في غيظ مكتوم :

— على أية حال فأنا أشكرك لتدخلك بيني وبين هذا المخلوق التعس ، ولدفاعك عني والحيلولة دون اعتدائه علي ، مهما كان سبب حضورك فإني أشكر لك هذه اليد . . . .

ولم يستطع إتمام كلامه ، فقد ارتفع صوت بكويث مرة أخرى طالباً إعداد الشراب . وتعمدت أنا أن أتجاهل تلك الرغبة الملحة التي نم عليها حديث سلنكتون في معرفة السر في مجيئي ، وقلت له :

— كيف حال ابنة أخيك يا مستر سلنكتون ؟

وأجابني وقد اشتد غيظه :

— أنا آسف لأن أخبرك يا سيدي أنها قد برهنت على منتهى الغدر ونكران الجميل لأحسن وأخلص أصدقائها ، لقد غادرتني دون أن تترك لي كلمة واحدة ، أو تفسيراً لتصرفها ، وإني لواثق أنها قد وقعت تحت تأثير شرير سافل ، ولعلك سمعت شيئاً عن ذلك ؟

وأجبت متكلفاً عدم الاكتراث :

— لقد سمعت فعلا أنها كانت واقعة تحت تأثير شرير سافل أساء توجيهها .

— أمتأكد من ذلك ؟

— كل التأكد .

والمرة الثالثة صرخ بكويث إليه طالباً إعداد الشراب ، وكان إذ ذاك قد تهالك على المقعد كأنما قد فقد وعيه ، ولكن سلنكتون لم يعر هذا الصراخ أهمية ، بل التفت إلي قائلا :

— مستر سمبسون ، إنك رجل مجتمع ، وأنا كذلك ، وأريد أن أكون صريحاً معك .

وأجبته مستنكراً :

— أنت ؟ مستحيل عليك أن تكون صريحاً .

— إني أؤكد لك أني سأصارحك بكل شيء .

— وأنا أؤكد لك بدوري أنك لن تكون صريحاً على الاطلاق ، لا معي ولا مع غيري .

ولكنه استمر في حديثه دون أن يعبأ بمعارضتي قائلا :

— إني أصارحك يا مستر سمبسون ، إني أفهم جيداً طبيعة عملك ، فأنت كمدير لاحدى شركات التأمين يهمك أن تنقذ أموال شركتك بإنقاذ المؤمَّنين لديها ، فإن لم تتمكن من إنقاذ هؤلاء المؤمنين ، فلا أقل من التشكيك في وفاتهم الهروب من دفع المبالغ المؤمن بها . ولكني أؤكد لك في هذه الحالة أنك لن تنجح فيما ترمي إليه . إنك لن تكون أمام خصم سهل المقاومة حين تقف أمامي ، ففي الوقت الموعود ستضطر إلى القيام بتحريات وأبحاث لكي تثبت وجهة نظرك وما تدعيه ، وأهم هذه الأبحاث أن تبين كيف ومتى وقع مستر بكويث في حبائل المخدرات ، ولعلك تعلم أنه ليس من السهل أن تقوم بمثل هـذه الأبحاث ، بل لعلك متأكد أنه من المستحيل إثبات ذلك . وإذاً فإني أتركك مع هذا المخلوق التعس لتسمع صرخاته الكريهة ، راجياً لك صباحاً سعيداً وتوفيقاً أكثر في حالة غير هذه الحالة .

ولكن سلنكتون لم يغادر الغرفة ، فقد حدث إذ ذاك أمر عجيب ، فإن هذا الرجل المهدم المتداعي الثمل ،

الذي كان متهالكاً على المقعد ، قد نهض في هياج وقذف في وجه سلنكتون بكوب مملوء بالنبيذ ، فشج رأسه وبلل وجهه وملابسه ! وليس هذا كل ما حدث ، لقد جد أمر غريب : هذا الشخص الهالك قد استحال إلى مارد جبار ممتلئاً صحة وعافية ، استحالت الأقدام الهزيلة المرتعشة إلى أقدام قوية ثابتة كأنها مثبتة إلى الأرض ، العينان الملتهبتان القرحتان قد استحالتا إلى مصباحين يشعان نوراً .

وأخرج سلنكتون من جيبه منديلا مسح به وجهه ، وجفف الدماء التي سالت من جرح رأسه ! ولحظت أن التغير الذي بدا على بكويث يقابله تغير جديد بدا على وجه سلنكتون ، فقد زايله ثباته ، وابتدأ جسده يرتعد ، ولونه يبهت .

وصاح بكويث به :

— انظر إلىّ أيها الشرير وتأملني كما أنا حقاً ، لقد استأجرت هذا المسكن خصيصاً لأحيله إلى فخ لك ، وكنت آتي إلى هنا كدمن سكير لأمهد الطريق لسقوطك في الفخ ، وقد وقعت فيه ولن تغادره حياً . إن المؤامرة التي دبرتها بالتأمين على حياتي لحساب تابعين من أتباعك زعمتهما أهلي ، كانت مؤامرة تدل على الغباء ، إنها لم تكن مؤامرة ضدي ، بل كانت مؤامرة ضدك ، ألم أرك أكثر من مرة تضع السوائل المختلفة من العقاقير المهلكة في كأسي ، وكان يخيل إليك أني في غيبوبة لا أراك ؟ كم من مرة خطر لي إذ ذاك أن أنسف رأسك بمسدسي الذي كنت دائماً أحتفظ به في جيبي ، ولكني كل مرة حاولت ذلك فيها وجدت أنك أحقر من أن أقدم للمحاكمة في سبيل حياتك ! !

اصغ إلىّ أيها الشرير ، ولكن كل كلمة أقولها طعنة إلى قلبك القذر . عند ما استأجرت هذه الغرفة لأرمي بنفسي في طريقك ولأقودك إلى الطريق الذي كنت واثقاً أن مظهري وخلقي وإدماني سوف تقودك إلى سلوكه ، كنت أعرف أنك سوف تسلكه بلا تردد . أتدري لم كنت واثقاً من ذلك ؟ لأنك لم تكن غريباً عني . لقد كنت أعرف أنك هو الوحش والمجرم الذي قتل فتاة بريئة وثقت به واطمأنت إليه ، والذي كاد يقتل فتاة أخرى لولا عناية الله . لا لسبب إلا لإرواء غلته من المال ، ولكن ساء ما فعلت . أنظر كم كنت أبلهَ . هذا السكير المتهدم الذي لم يشرب قطرة واحدة من السموم التي كنت تقدمها إليه ، بل كان يلقيها في كل مكان من النافذة ، على الأرض ، تحت سمعك وبصرك ، ذلك السكير الذي اشترى بالمال الرجل الذي رصدته لمراقبته قبل أن تستأجره لهذه الغاية بأيام ، ذلك السكير الذي كنت تتركه ملقى على الأرض مطمئناً إلى أنه فقد وعيه لعدم إحساسه بركلاتك الوجعة في أجزاء جسمه في منتصف الليل ، والذي كان في نفس الليل يزورك في مضجعك فيقلب في أوراقك ، ويأخذ عينات من أنواع العقاقير والساحيق التي كنت تعجل له بها الفناء ! ذلك السكير يا مستر سلنكتون هو نفسه الذي سوف يرسل بعنقك إلى المشنقة وهو مطمئن البال ، فقد كان يحمل مفاتيح كل أبوابك وأدراجك وخزائنك ، ويستطيع أن يخبرك كما تستطيع أنت أن تخبره عن تركيب كل عقاقيرك وتأثيراتها ومظاهر سريان مفعولها ، ويستطيع أن يحدثك عن تقاريرك التي كنت تسجل فيها التطور الذي يعتري حالته الصحية ، بل وهو يعلم أكثر مما تعلم أين تستقر هذه التقارير اليومية التي كنت تكتبها .

وبدرت حركة من سلنكتون كأنما كان يفكر في الوضع الذي أخفى فيه هذه التقارير ، ولكن بكويث أسكته بإشارة صارمة من يده ، واستأنف كلامه قائلا :

— لا . إنها ليست في درج منضدة الكتابة كما تتوقع . إنها ليست هناك . ولن تكون هناك بعد اليوم .

وصاح سلنكتون غاضباً :

— إذاً فأنت لص .

وأجاب بكويث دون أن يبدو على ملامحه أى تأثر من هذه التهمة وقد أشار إشارة إلى شخص قد اقترب من الباب :

— وإلى جانب ذلك فأنا خال ابنة أخيك اللازم . لقد علمت كل شيء من مذكراتك . علمت ما دبرته لابنة أخيك بعد أن أمنت على حياتها هى الأخرى . أتذكر ذلك المساء فى سكاربرو ؟ إن مستر جيبسون لم يأت ميتاً فى ذلك اليوم ولا هذا الشخص الواقف بالباب . أتذكره ؟ إنه الشخص الذى كان يجر العربة التى استلقى فيها خال ابنة أخيك الكهل . لقد دبرنا ثلاثتنا كل وسيلة لإنقاذ ابنة أخيك من بين براثنك وقد تم لنا ما أردناه .

امتقع لون سلنكتون ، وبدأ يفقد ثباته الذى طالما كافح للاحتفاظ به ، وبدأ يقلب عينيه بينى وبين بكويث وبين ذلك الشخص الذى اقترب من الباب كأنما يحرس الحجرة ويحول دون فراره منها ، وتحرك إلى الأمام خطوتين ، ولكنه عاد ثانياً إلى مكانه . وبدا لى إذ ذاك أمر غريب ! فقد رأيت هذا الشاب الأنيق يتحول إلى شخص محطم متهدم ، حتى لتبدو ملابسه التى طالما بدت لى على غاية من الملاءمة لجسمه كأنما هى ملابس قديمة يرتديها متسول لم يكن صاحبها فى يوم من الأيام . أيمكن أن يحدث ذلك ؟ أن يتغير قوام الانسان ويفقد مزايا تركيب جسمه بهذه السرعة مهما كانت الصدمة ؟ على أية حال لقد حدث هذا ، لقد بدا لى سلنكتون شخصاً آخر بهد جسده المرض وليس بينه وبين الموت إلا لحظات . بدا لى كأنه هو بكويث الذى رأيته حين ولجت الغرفة . . .

واستأنف بكويث حديثه فقال :

— عند ما أرسلت تلك الفتاة الجميلة العذبة إلى مكتب ملتام بشركة التأمين لتباشر عملية التأمين على حياتها ، تلك الفتاة التى لم ترحم شبابها فقتلتها بعد ذلك — عند ما أرسلت هذه الفتاة إلى مكتب ملتام المسكين لم تكن تعلم أن القدر يهيء لهذه الفتاة أن تصبح كل أمل هذا الشاب وأحلام مستقبله ، وأنك حين تقضى على حياتها تقضى على آمال هذا الشاب معها . ولكن يشاء الله أنه وإن فات هذا الشاب أن ينقذ حياتها فإنه لم يفته أن ينتقم لها ، وأن يوقع من أودى بحياتها فى حبل المشنقة . هذا الشاب يا مستر سلنكتون كان يوقن بعد مصابه فى حبيبته أنه مكلف بأن ينتقم لها ويحطمك ، وكان يوقن أيضاً أنه إن وفق فى هذه السبيل فإنه لا يرتكب إثماً ، بل يكون مجرد آلة فى يد القادر تهيئها لاستئصال عضو فاسد من أعضاء المجتمع . هذا الشاب يا مستر سلنكتون هو أنا . وإنى أشكر الله على أننى وفقنى إلى إيقاعك فى يد العدالة . إنك لم ترنى قبل اليوم باسمى الحقيقى ، ولكنك ترانى الآن لأول مرة ، وستراني مرة أخرى حين أنوح لك وأنت على حبل المشنقة والجماهير تهتف بلعنتك كسفاح أثيم .

بدرت إذ ذاك حركة لم نفطن لها أول الأمر من سلنكتون ، فقد امتدت يده إلى جيبه فأخرج منه منديله ومسح به جرح رأسه مرة أخرى ، وحين أعاده لم نتبين أنه أخرج ورقة مطوية من جيبه سرعان ما أدار رأسه وأفرغ ما فيها فى فمه . ثم لم تمض لحظات حتى سقط على الأرض فاقد الحراك . . . وكانت هذه هى خاتمة حياة ذلك الشخص الذى شعرت نحوه بالكراهية أول مرة رأيته فيها .

أما ملتام فإنه لم يتمتع بحياته بعد ذلك اليوم ، لقد قضى شهوراً قلائل مرتاح البال لأداء واجبه ، وإن كانت العلة لم تبارحه حتى منتصف الخريف ، فلحق بحبيبته ودفن إلى جانبها ؛ وعند ما فتحت وصيته وجد أنه ترك كل ما يملك إلى شقيقتها مس نينر التى تزوجت ابن شقيقى والتى أرى أولادها الآن وأنا أختم هذه القصة من منزل الريف الذى ركنت إليه بعد اعتزال العمل ، يمرحون ويلعبون فى هذا القصر الكبير . . . الجميل . . .

صلاح الدين زهنى

الموت والحياة فى فلسفة إقبال

محاضرة ألقاها فى حفلة تأبين « إقبال » فى الهند باللغة الأردية الدكتور رضى الدين الصديق ، وترجمها إلى العربية الأستاذ محمد حسن الأعظمى الهندى ، ونظم أبياتها الشيخ صاوى الشعلان .

ويرى فيها القارئ أمثلة بينة من آراء « إقبال » فى الحياة والموت ، والجهاد والاستكانة ، وصوراً من فلسفته التى جعل محورها « الذاتية » ، وحشد لتوضيحها كثيراً من بدائع الفكر والشعر ، وعبر التاريخ والحياة ؛ ولعلها فاتحة لامتاع قراء العربية بقطع رائعة من فلسفة إقبال وشعره ؛ ولا ريب أن القوة والأمل فى هذا الشعر بلائمان أحوالنا التى تقتضى كل إنسان ما فى فطرته من إيمان وعزم ، وجهاد وصبر .

والذى قرأ شعر « إقبال » بالأردية ، وعانى ترجمة الشعر نظماً يعجب كل الاعجاب بمقدرة المترجمين ، ويشهد أنهما أصابا التوفيق فى هذا العمل الجليل . وستنشر جماعة الأخوة الاسلامية عما قليل كتاباً يتضمن كثيراً من فلسفة « إقبال » وشعره ، يشترك فى تأليفه جماعة من الأدباء المعجبين بهذا الفيلسوف الشاعر الاسلامى الخالد ...

عبد الوهاب عزام

— ١ —

كان شبح الموت المخيف الرهيب يبدو أمام الناس جسماً عظيماً ، وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان يبدو فى عين « إقبال » ضئيلا متلاشياً . لذلك كان يرى أن العقبة الكؤود فى طريق رقى المسلمين هى مخافة الموت . ووجد أن خوف الموت معناه أمر واحد ، وهو ترجيح حياة الذلة والعبودية على موت الشرف والكرامة ، فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسى من صدور أهل الاسلام ، مبيناً أن خوف الموت والإيمان لايجتمعان فى قلب واحد ، وأن الذين تسنموا غارب العزة والشرف هم الذين حملوا رءوسهم على أكفهم فى ميدان الكفاح ، لاتنخلع قلوبهم فرقاً ولا ترتعش عزائمهم جبناً . وإنما يقبلون على الموت إقبالهم على العرس ، مؤمنين بالفوز فى الدنيا والسعادة بلقاء الله . « قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين » . (فإما النصر وإما موت فيه الفخر) . ثم يذكرنا بأسلافنا الماضين الذين ملكوا الممالك وأدالوا الدول ، ووطئت خيولهم القلاع والحصون ، وما اشتروا هذا المجد إلا بدمائهم فهو فى قصيدته « الشكوى » يذكرنا بهذه الحقيقة فى جلاء حيث يقول :

فوق الصوامع والكنائس صوتنا
قد كان يعلو بالأذان جهارا
ترنم الصحراء فى إفريقيا بصلاتنا وتسابق الأطيارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا
لم نخش يوماً غاشماً جبارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة
خضراء تنبت حولنا الأزهارا

ثم يقول :

لو فرت الآساد فى آكامها لم يلق غير ثباتنا الميدان
وكأن نيران المدافع فى صدو ر المؤمنين الروح والريحان

***

ويصف ذلك المسلم الذى ينطلق كالسهم النافذ إلى العدو بعد أن يكبر تكبيرة الجهاد فى الميدان ، يقول :

ذلك المؤمن المجاهد يغشى غمرة الحرب والردى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوى
درعه لا إله إلا الله

ويبين لنا بعد ذلك أن الحالة قد تغيرت ، وأن سنة الأقوام قد تبدلت ، واستحكم الجبن فى قلوب الكثيرين من المسلمين ، وأصبحت وجوههم تصفر اصفرار الشمس عند

الأصيل إذا ذكر الموت أو الحرب . ثم يخاطب الذين يمنعون الجهاد ، ويبين لهم أن واعظكم أصبح في المساجد غير نافع للأمة ولا مغن عنها في حياتها الحاضرة شيئاً :

لم يبق في يد مسلم درع ولا   سيف يصول به ليوم جهاد
ولو انه وجد السيوف فهل له
ذوق الخلود وحبّ الاستشهـاد ؟
من كان يجزع من منيّة كافر
هل يستطيب مصارع الأمجاد ؟

إذا كان المرء مخلصاً لله حق الاخلاص وإذا كان واثقاً بأن الموت ليس إلا العقبة الأولى التي يجتازها المرء إلى الحظيرة الأبدية والنعمة بلقاء الله . أقول إذا كان الإيمان هكذا فلا محل لخوف الموت . أما أولئك المضطرون الخائفون فهم شاكون في لقاء الله وفي الخلود ، ثم هم يعبدون المال ويؤثرون الحياة الدنيا ويظنون أن هذه الحياة المادية هي المرحلة الأخيرة للسعادة ، لذلك يخشون أن يموتوا فيحرموا . و « إقبال » يحكم على هؤلاء بأنهم فقراء وأن نارهم لا تساوى التراب وهم على كل حال سيموتون طوعاً أو كرهاً :

المؤمن الحق كان الله غايته   والله كان لديه السمع والبصرا
والآن أضحى إلهه المال كمبته   وخوفه الموت أفناه وماشمرا
سيّان في الشرك هذا عابد ذهباً
يسعى إلى جمعه أو عابد حجرا
يا مؤمناً بلقاء الله مالك في
ذعر من الموت قد أشبهت من كفرا
قد عاد قلبك مَيْتاً بين أضلعه
كأنه في حنايا الصدر قد قبرا
من كان يحسب أن الموت هاوية
وأنه عدم يستأصل البشرا
فنار آماله ينحط عنصرها
إلى التراب ويلقى الموت محتقرا

لما كان سم الموت سارياً في كل الدماء البشرية فقد حاول إقبال أن يوجد من السم نفسه ترياقاً ، وكيف استطاع أن يصل بمهارة إلى استخلاص هذا الدواء الغريب ؟ إنه عمد إلى تذكيرنا بأن الموت أمر محتوم ، وأن لكل إنسان أجلاً محدوداً ، وإذا كانت هذه النهاية قضاءً نافذاً في الخلائق ، فالخوف منها لا يجدى فتيلا ؛ ومحاولة الفرار مع كونها جبناً وانحطاطاً في الوجدان مخالفة لحكم العقل وصواب التفكير أيضاً . فالعاقل لا يفكر في النجاة من القضاء المبرم ، كما لا يفكر في أن ينفذ من أقطار السموات والأرض ، وهو في هذه الحالة إلى الجنون أقرب وبالمجانين أشبه . ولهذا عرض لنا عدة صور تمثل فناء هذا الكون ، وهي صور من حوادث الطبيعة تحمل إلينا فنًّا بديعاً في منظرها الرهيب المخيف ، وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السموات والأرض جميعاً في طريقها إلى الانتقال أو الزوال ، تعالج فينا خوف الموت ، تنبهنا من غفلتنا وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون إلى زهرة الدنيا وفتنتها .

تحت نور الأفلاك عيش جميل   وأرى النور يتطلق ويحول
وعلى كاهل المساء ترى الشمـــس نعشاً يبكي عليه الأصيل
في سنا البدر للكواكب أكفا
ن توارى بها الشعاع النحيل
بينما هذه الجبال حصون   وإذا صخرها كثيب مهيل
وتقيم الأمواج في البحر أبرا   جاً ومن أوجهها الرفيع تزول
ورياح الخريف تكمن للزهـ   ـر وفي ثغره ابتسام بليل
ثم تأتيه ساعة يذهب الزهـ   ـر هشيا وقد طواه الذبول
ليس زاد المسافرين سوى الخو   ف من الموت والحياة رحيل

* * *

رب لحن فاق البلابل سحراً   في ضمير الأوتار مات جنينا
شرر النار قبل أن يبلغ المهد   توارى تحت الرماد دفينا

* * *

قطرات الندى على الورد تجرى
لؤلؤاً سـائلا على مرجان

لم تكد تُسْعِدُ النواظر حتى ... بدد الريح شملها فى ثوان

* * *

إن كأس الردى تطوف على الدنـ ... ـيا وتسقى أبناءها أجمعينا

وبلا موعد ودون انتظـار ... تبغت الأولين والآخرينا

عالم الكون كله عالم الحز ... ن والذى فيه مصرع العالمينا

وقد حاول أن يبدّد من النفوس استسلامها إلى الدنيا وإخلادها إلى نعيمها الزائل ، ودعاها إلى الحذر منهـا والاحتياط فيها ، فقدم هذا التشبيه الرائع فى هذه الأبيات :

مثل الحيـاة كطائر مترنم ... غنى فأرقص حوله الأزهارا

ما كان أعذب لحنه لكنه ... كالحلم حلق فى الفضاء وطارا

* * *

لا يعلم الانسان كيف أتى إلى ... دنيا المتاعب أو متى يترحل

ما نحن فى الأكوان إلا دوحة ... أوراقها عما قليل تذبل

يا أيها الحرص ابك فى الدنيـا وما

دنيـــاك ليس بها لحىٍّ منزل

* * *

إن الحيـاة شرارة لم تبتسم ... إلا لتجعلنا لهـا أحطابا

فى عُرس دنيانا مآتم للردى ... تطوى شيوخا فى البلا وشبابا

* * *

والمرء لم يبرح أسيراً حائراً ... ما بين سر الأمس أو لغز الغد

إن الحياة على الأنام بخيلةٌ ... بدوامها والعيش غير مخلد

الموت فيها هين كنسيمها

والعيش أصعب من منال الفرقد

الله تعالى هو المتفرد بالبقاء ، وجميع العـالم لا بد أن يفنى ، وتفسير حلم الموت جرى فى حياة الملوك والصعاليك والعظماء والسوقة . أما خلود الانسان فهو من تقدير الله فى الأزل ، إلا أن هذا الهيكل الترابى الناقص لا بد أن يمر عليه الموت ، ولا بد أن يمر الانسان من هذا العـالم المملوء بالحوادث التى لم تترك صحراء ولا مدينة ، ولم ينج منها بر ولا بحر ، وفى ذلك يقول :

الرعد والبروق والزلازل ... والقحط والآلام والنوازل

نبات دنيـانا التى لا تلد ... إلا خوباً جرها متقد

فى الكوخ والقصر وفى الصـحراء

والمدن المنيمـــة الشماء

وفى رياض البلبل الرنان ... وفى تلال البوم والغربان

يقتحم الموت بجيش القـــدر

حصـون فغفور وبطش القيصر

إذا رأيت الموج فى البحر سكن

فالموت كامن لإغراق السفن

لا نغم العود ولا شـكوى الحزين

ولا ابتسام البشر أو دمع الأنين

ولا امتشاق السيف بين الدارعين

ولا صـــدى التكبير بين الهاتفين

يعيد نبض القلب فى الصدر الخراب

أو يرجع النفس إذا حان الذهاب

تعد هذه الصور الشعرية التالية فخراً لكل لغة ، ونغما شجياً لكل لسان ، فهو يوضح لنا أن الآلام لا بد منها لتمحيص الانسانية ، وعلى نيرانها تنضج الأرواح القوية ، ولا يمكن الوصول إلى الأفراح إلا بعد الأحزان ، ولا تنقش الحكمة على القلب إلا بحروف من دمه ، والبلبل الذى لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن استقبال الربيع ، والآلام هى الطريق إلى النور والدرجات العالية فى معراج العظمة ، والذى لم يعرف أنين المساء والعاشق الذى حُرم فى هواه من حسرة جواء ، وقاطف الزهر الذى حافظ على يده سليمة من الشوك ، والذى قضى طول عمره فى الرفاهية والترف ، لم يكدح فى تحصيل علم ، ولم يكدّ فى اقتناء فن وإحياء عبقرية — أولئك جميعاً محرومون إلى الأبد من الاحاطة بكنوز أسرار الحيـاة ، واستخلاص الذهب من مناجمه العميقة . يقدم لك هذه الأمثال الجلية فى هذه القصيدة :

إن كانت الحياة خمراً صافياً ... يغمرنا من رأسنا إلى القدم

فنى الدموع للحياة جدول ... تصفو به النفس وتنبت الهمم

إن حباب خمرة الآمال لا ... يرقص إلا فوق أمواج الألم

والله فى حكمته علّمنا أن انشراح الصدر قبله ألم
عواصف الحريف فى ليل السهادْ
علمت البلبـــل ترجيع النغم
دم الأمانى فيه للشـــعر مدادْ
وفى خطوب الدهر أسفار الحكم

***

نشيد هذا الكون يبدو ناقصاً
حتى يتم السمع ألحان النشيد
ما أيقظ الشباب من سكر الهوى
إلا الأسى ينبه العقـــل الشريد

***

يا رب شاك صاغ فى آلامه
جواهر الألحان من بحر الأنين
قد كان مثل الموثق أحلامه فأيقظته ضربات العازفين

***

آلامنا إلى العلا أجنحة تعلو بها فوق مطارات النسور
الروح سرٌّ والحياة ظلمة وشعلة الآلام للأرواح نور
فى خفقان القلب لحن صامت لم تحكه على غصونها الطيور

***

إن الذى لم يدر أنات المساء ولم تسامر عينه نجم السماء
ولم يحطم جام قلبه الأسى ولم يذر ظلام ليله البكاء
والسادر اللاعب طول عمره لم يستمع إلا إلى عذب الغناء
والعاشق المحروم فى غرامه
من لوعة الذكرى وحسرة الجفاء
ومجتنى الزهر الذى لم تختضب
يداه فى الشوك بحُمرة الدماء
جميع هؤلاء مهما سعدوا من نعم الدنيا بأمن ورخاء
فإن أسرار الحياة تختفى
عنهم وهم عنها دواماً فى اختفاء

محمد حسن الأعظمى — الصاوى الشعلان

تواضع

(بقية المنشور على صفحة ٨)

الأغنياء حقاً قد فرضه الله وفرضه العقل ؟ ولا تقل إن الله أمر الدولة بأن تأخذ من أموال الأغنياء لترد على الفقراء ؟ ولا تقل إن الفقير الذي يجند ليبذل حياته في سبيل الوطن أحق بعناية الوطن ورعايته من الغني الذي يستطيع أن يفتدى نفسه من الخدمة العسكرية بعشرين جنيهاً ورقاً لا ذهباً . لا تقل هذا فإننا لم نبلغ بعدُ أن نفكر على هذا النحو ولا أن نقدر على هذا النحو ، وإنما نحن نفكر ونقدر على قدر نفوسنا المتواضعة ، لا على قدر وطننا العظيم !

ودع التعليم ، فإن حديث التعليم طويل أليم ، وخذ ناحية الإصلاح الاجتماعي ، فسترى أن تفكيرنا فيه وغايتنا فيه متواضعان ، كما أننا نحن متواضعون . أليس من الإصلاح الاجتماعي البعيد الأثر العظيم الخطر ، أن تنشأ المواويل وأن تغنى وأن تذاع في الراديو لتحض الناس على صوم رمضان ؟ أليس من الإصلاح الاجتماعي البعيد الأثر العظيم الخطر ، أن تدير مفتاح الراديو فتسمع تقاسيم طوالا وليالي حلوة عِذاباً ، حتى إذا فرغت من ذلك وانتظرت من المغنية أن تسمعك غناء يلائم هذه الليالي العذاب ، وهذه التقاسيم الملاح ، سمعت هذا النشيد الرائع الذي يفطر القلوب ، ويقطع الأكباد ، ويزلزل النفوس ، والذي تعمدت أن أحفظ بعضه وأن أرويه لك ، لأنه يصور أصدق تصوير تفكيرنا وإنتاجنا على قدر أنفسنا المتواضعة ، لا على قدر وطننا العظيم .

يا مصر ياللي ضيا عيني ونور فكرى
نيلك وحيد الطبيعة وابنها البكرى
والدنيا شبت في حضنك في التاريخ بدرى

أليس من الإصلاح ذى الأثر البعيد والخطر العظيم أن نفكر في أخذ الناس بما أمر الله أن يؤخذ الناس به من الزكاة التي تطهر أصحابها وتزكيهم ، فنشفق من فرض ذلك بالقانون ، ونكتفي من ذلك بالتطوع ، ندعو إلى ذلك في الصحف ، وندعو إلى ذلك في الراديو بالمحاضرات والمواويل والأغاني ، وندعو لذلك بالتطويف على الناس والتوسل إليهم أو الإلحاح عليهم ؟ ثم نصنع لذلك مئات من الصناديق وننشر عددها في الصحف ليعلم الناس أننا نصلح شؤوننا الاجتماعية ، وأن عنايتنا بالفقراء تنغص أيامنا وتؤرق ليالينا ؟ ولا تقل إن حب الوطن لا يكتسب بالمواويل ؟ ولا تقل إن الزكاة أصل من أصول الإسلام ، فيجب أن تأخذ الدولة أمرها بالجد ، فإنا لا نبلغ بعدُ أن نفكر ولا أن نقدر على هذا النحو ، وإنما نحن نفكر ونقدر على قدر حالنا المتواضعة لا على قدر وطننا العظيم .

صدقني أني لأضيق بتفكيرنا الصغير وتقديرنا المتواضع وآمالنا الضئيلة وأنظارنا القصيرة ، حتى أستيئس أو أكاد أستيئس من هذا الجيل الذي لم يعرف بعدُ أن وطنه العظيم في حاجة إلى أن يعمره شعب عظيم . وصدقني أني لأتمنى على الله في بعض الأحيان أن أكون معلماً أولياً لأرسم في قلوب الجيل الناشئ من أحداثنا صورة لمصر تطابق حقيقتها ، صورة لمصر العظيمة الخالدة ، التي لا ترضى من أبنائها إلا بالأعمال العظيمة الباقية ، والآمال البعيدة الباسمة ، والجهود التي تردها إلى حيث كانت مشرق النور ، ومصدر القوة ، ومستقر السلطان الواسع البعيد .

كم أحب أن يشعر الشباب بأن وطنهم عظيم ، وبأنه لا يسيغ من أبنائه أن يكونوا صغاراً ، فإما أن يعظموا مثله ، وإما أن يلتمسوا لأنفسهم مهاجراً في وطن من تلك الأوطان الصغار ، التي تقنع من أبنائها بصغر الأعمال والآمال .

طه حسين

باطلُ الحمدِ ومكذوبُ الثنا

وهي من روائع الشعر الاجتماعي لمعالي الشيخ محمد رضا الشبيبي
وزير المعارف العراقية سابقا

فتنةُ الناسِ — وهيا الفتنا —
باطلُ الحمدِ ، ومكذوبُ الثنا
رُبَّ جهمٍ حوّلاهُ قمرًا
وقبيحٍ صيّراهُ حسنا
أيها المصلحُ مِنْ أخلاقنا
أيها المصلحُ ، أعياهُ هنا
كُلُّنا يطلبُ ما ليس له
كُلُّنا يطلبُ ذا حتى أنا
رُبّما تعجبنا مُخضرّةٌ
أربُعٌ بالأمسِ كانتْ دِمَنا
لم تزلْ — ويحكَ يا عصرَ الرقي —
عصرَ ألقابٍ كبارٍ وكُنى
حكمَ الناسُ على الناسِ بما
سمعوا عنهمْ وغضّوا الأعينا
واستحالتْ — وأذى بعضهمُ —
أذُني عينًا وعيني أذنا
إننا نجني على أنفسنا
حين نجني ، ثم ندعو : مَنْ جنى ؟
بلغَ الناسُ الأماني جملةً
وبلغناها ولكنْ بالمنى
أخطأ الحقَّ فريقٌ بائسٌ
لمْ يلوموهُ ولاموا الزمنا

خسِرتْ صفقتُكمْ مِنْ معشرٍ
شرَوا العارَ وباعوا الوطنا
أرخصوه ولوَ اعتاضوا به
هذه الدنيا لقلّتْ ثمنا
يا عبيدَ المالِ خيرٌ منكمُ
جهلاءُ يعبدونَ الوثنا
إنني ذاكَ العراقيُّ الذي
ذكرَ (الشامَ) وناجى (اليمنا)
إنني أعتدُّ (نجدًا) روضتي
وأرى جنةَ عدني (عدنا)

* * *

أيها الجيلُ اكتشفْ لي حاضرًا
كلما جرّبَ ماضيكَ ثنى
ينهضُ الشعبُ فيمشي قُدُمًا
لوْ مشى الدهرُ إليه ما انثنى
غيرُ راقي النفسِ والروحِ فتى
وضعَ الروحَ ورقّى البدنا
حالةُ النفسِ التي تُسعدها
وتُريها كلَّ صعبٍ هيّنا
فقرُ مَنْ غِناهُ طمعٌ
وغنى مَنْ يرى الفقرَ غنى

ذكريات سعادة

مَنْ عذيرى ، إذا شكوتُ غرامى
فى النَّوى ، للخمائلِ الفيحاء ! ؟
وبعثتُ الشكوى إليكِ مع الأنْ
سامِ ، فى جنح ليلتى الليلاء !
وتوسَّلتُ بالدموعِ ، وبالشو
قِ ، إلى طيفكِ الضنينِ النائى
هاتفاً باسمكِ الحبيب ، كأنى مستجيرٌ به من البأساء !
ضارعاً للسماء ، لو أبصرتنى فى صلاتى وخشعتى ، عيونُ السماء
أملى أن ينام عنى زمانى ساعةً أو ينامَ عنى قضائى
فأرى أوجهَ المنى فى جوارى وأرى وجهكِ الصبيحَ إزائى
وأحسّ الوجيبَ من قلبكِ الرا
حمِ ، فى عطفهِ على برحائى
عندها ، تصبحُ السعادةُ ملكى
وتكونين أوّلَ السعداء . . . ! !

* * *

طهّرتْ روحىَ المدامعُ والآ
لامُ ، فى طول عمر ذاكَ الشقاء
وأرانى أصبحتُ أنقى فؤاداً
من فؤادِ الحمامةِ البيضاء !
أهبُ الحبَّ كالرياضِ والطيْـ
ـرِ ، والناسُ كلهمْ بالسواء
فهَبى لى نُعمى رضاكِ على البُعْـ
ـدِ ، فإنَّ الرضى سبيلُ اللقاء
واسمعينى إذا تغنيتُ ، إنى كالرياضِ أسوقها من وفائى
وغنائى حمينةٌ لكِ ، والشو ق حداءُ الحبِّ مذهبى فى الغناء

* * *

اذكرى عهدنا ، وحنّى إليهِ
إنما الذكرياتُ كلُّ عزائى
واذكرى ساعةَ الرضى ، إذ تهادى
زورقى باسماً لوجهِ الماء
ضمّنا الليلُ فى ظلالٍ من الطُّهـ
ـرِ ، بعيداً من أعينِ الرقباء !
وسبحنا فى لجةٍ من خيالٍ
عشقتها خواطرُ الشعراء !
تتناجى بنا العيونُ بصمتٍ هاتفٍ بالنداءِ بعد النداء
ورَدَّ الأشعارَ فى صفحةِ النيـ ـلِ هوىً موجعٌ على الشعراء
ثم مالت شمسُ الأصيلِ وهامَ الْـ
ـغربُ يبكى فراقها بالدماء
وانتبهنا على دعاء من الليْـ
ـلِ ، فقمنا نجيبُ رجعَ الدعاء !

* * *

أنتَ يا ربِّ موئلُ الضارعِ الها
ئِى ، مجيبُ السؤالِ ، محيى الرجاء
قد رأيناكَ فى الجمالِ وفى الحبْ
وفى كلِّ فكرةٍ حسناء !
وسمعناكَ فى الحنينِ الذى ها
جَ على كلِّ جنّةٍ غنّاء
وعرفناكَ بالحنانِ وبالرحْـ
ـمةِ للمشتكينَ صرفَ القضاء
إنَّ روحين أُشربا فى ائتلافٍ
كيفَ تقضى عليهما بالتنائى ؟!

أحمد فتحى

بدعة جديدة فى عالم السينما

تجربة جريئة لنشر الروائح فى الأفلام

من سار على الدرب وصل ؛ وهكذا حلم المشتغلون بشئون السينما منذ بدء ظهورها فى أواخر القرن الماضى ، أنه سيأتى يوم عليها تنطق فيه ، وقد كان ؛ فدور السينما تعرض منذ أكثر من عشر سنوات الأفلام الناطقة مثيرة إعجاب الناس ودهشتهم من هذه العملية السحرية التى تجعل الخيال يتكلم ، والتى أمكن بها نقل الأصوات من مختلف الأنحاء القاصية والدانية ، وإحضارها إلى حيث يمكن لكل إنسان أن يستمع إليها كما لو كانت تصدر للمرة الأولى صدوراً طبيعياً عن أصحابها الأصليين .

ومن الأحلام التى خطرت المشتغلين بالسينما ، علاوة على حلم السينما المتكلمة ، والسينما الملونة ، والسينما المجسمة ، والسينما الذاعة باللاسلكى بواسطة التليفزيون ، حلم جرىء يبدو لأول وهلة أنه صعب التحقيق ؛ ولكن يظهر أنه ليس ثمة ما يقف أمام ذكاء الانسان وسعة حيلته للوصول إلى ما يبغى من آمال وأحلام . وهذا الحلم الجديد الذى نتحدث عنه اليوم هو ما يسميه الناس فى أمريكا منذ الآن بكلمة Smellies قياساً على كلمة Telkies التى تطلق على الأفلام المتكلمة . ولا ندرى كيف سنتفق على تسمية الأفلام التى

تفوح منها الروائح المختلفة ، تسمية مناسبة باللغة العربية ؛ فهل نسميها « السينما المشمومة » أم ترى يحسن أن نسميها « السينما الحساسة » ؟

إن الكلام عن هذا الموضوع الذى يحاول العلماء تحقيقه فى أمريكا ، سيؤدى حتماً إلى تغيير كبير فى مناظر السينما التى نراها الآن على الستار الفضى ، فسيعنى المشتغلون بالسينما بانتقاء المناظر التى لا تنبعث منها روائح مؤذية كريهة للغاية ، كما أنهم سيكثرون من تصوير الحدائق والزهور والصالونات المعطرة ، ولا شك فى أنهم سيبتدعون طريقة فنية لتخفيف الروائح وتركيزها فى أثناء التقاطها بالآلات الخاصة ، تمهيداً لعرضها على الجمهور فى مختلف دور السينما ، بحيث يأخذ الجمهور فكرة عامة عن وجود رائحة بنزين مثلا ، بدلا من أن يبقى مدة عرض المنظر تحت رحمة رائحة مركزة من هذا الوقود السائل ، وبكلمة فإنه سيتبع نفس الفن المتبع فى تسجيل الأصوات تسجيلا خفيفاً ، بحيث تبدو خافتة وكأنها من بعيد ، أو تسجيلا كاملا واضحاً ، حتى ليتخيل الإنسان أنه يستمعها مباشرة من مصادرها الأصلية .

وكيفما تكن الحال ، فإن المستقبل القريب كفيل بأن يظهرنا على نتيجة هذه التجربة الجريئة ومدى نجاحها .

« كينو »

أنباء وآراء

نسيم الصبا

حضرة الأستاذ الفاضل أحمد أمين بك :

الرجاء التفضل بإعطاء تعريف صحيح (لنسيم الصبا) ، وهل لهذا النسيم مزية ظاهرة تبرر تفضيله على غيره من الرياح بالصورة التي نهجها شعراء العرب من الجاهلية إلى يومنا هذا ؟ وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والشكر .

(البصرة) عبد الجبار وجدي

من دمشق :

حضرة :

هل صحيح ما ورد في الشعر العربي من أن الكبد موطن الحب ، ومبعث الألم من العشق ، أو هو مجرد خيال للشعراء ؟

« الثقافة » : نترك الإجابة على هذين السؤالين وأمثالها لأفاضل القراء ، ليحمل بعض عبء بعض ، وليتعاونوا على الإفادة والاستفادة . وسننشر خير ما يرد لنا من إجابة .

كيف قابل الإنكليز الحرب

كتب المستر روبرت لند الكاتب الانجليزي المعروف مقالا يصف به ما شاهده يوم أعلنت انجلترا الحرب على ألمانيا ، ويقارن بين إعلان الحرب عام ١٩٣٩ وإعلانها عام ١٩١٤ ، فقال : إنه ليس ثمة فارق بين اليومين ، فقد قابل رجل الشارع الانجليزي نبأ إعلانها هذه المرة بنفس الشعور الذي قابله بها زميله عام ١٩١٤ ، وإن كان رجل اليوم أكثر حباً للسلام من رجل الأمس ، إذ أنه يعرف تماماً ما تعني كلمة الحرب ، وعلى هذا الأساس قابل بالترحاب ما قام به المستر تشمبرلين من تضحيات لتجنبها ، ولكنه كان يعلم تماماً أن السعي لتجنب الحرب لا يعني بأية حال — ما دامت هناك دكتاتورية طامعة — أن الحرب لن تحدث ، بل كل ما في الأمر أنه كان لا يجب أن تحتمل بريطانيا وزر إقامتها .

وقد صور مستر لند هذا الهدوء الذي قابل به الانكليز الحرب بحادث بسيط حدث له يوم أن كانت محطات الراديو تذيع أنباء اجتياح الألمان الأراضي البولندية واجتماع البرلمان البريطاني لاتخاذ قرار بعد الإنذار الذي وجه إلى ألمانيا ، فقد كان مع أحد أصدقائه في طريقهما إلى لندن بالسيارة ، فلما وصلا سأل صاحبه : إلى أين يذهب ؟ فقال له : إنه يريد أن يذهب إلى ناديه للعب الجولف ، فلما دعاه إلى مرافقته للاستماع إلى قرار إعلان الحرب ، فذلك خير من لعب الجولف أجابه في هدوء :


طفلان يحملان متاعهما وقناعيهما

— لا داعي لذلك ، فسأذهب إلى النادي لأمارس رياضتي مدة ساعة ثم أتوجه لقيد اسمي بين المتطوعين .

ويختم الكاتب مقاله بوصف إخلاء لندن من الأطفال ، ويعلق على ذلك قائلا إنه من سوء حظ هتلر أن يكون أول رجل في التاريخ سيذكره الأطفال بالكراهية لأنه أرغمهم على حمل الأقنعة الواقية .

منتدى عجيب

فى مدينة ميلتون ماس بالولايات المتحدة منتدى يضم الذين شفوا من مرض السرطان تَرأسه الدكتورة أماپالز إحدى المختصات فى العلوم الطبيعية .

ولهذه الدكتورة قصة لا تخلو من طرافة . فقد كانت عام ١٩٢٠ مريضة بسرطان فى الصدر وعولجت منه حتى تم لها الشفاء ، فأنشأت هذا المنتدى لكى يضم كل من شفى من هذا المرض ؛ وهى ترى أن أبشع ما فى مرض السرطان هو الفكرة الشائعة عنه من أنه مرض لا يشفى ، فى حين أن الجهود التى تبذل فى معالجته تؤدى إلى إزالته ما دام العلاج قد بوشر سريعاً قبل أن يستفحل المرض . ولذلك أنشأت هذا النادى لكى يكون دعاية ملموسة لفساد الفكرة الشائعة عن السرطان ، ولكى يباشر بنفسه الدعاية للإسراع فى معالجة المرض وعدم تركه بدافع اليأس حتى يستفحل ، وكل عضو مكلف بأن يتحدث دائماً وفى كل مكان عن حالته وكيف عولجت وكيف تم له الشفاء .

ويشترط فى طالب الالتحاق بهذا النادى أن يكون قد أصيب بمرض السرطان وشفى منه بشهادة الطبيب المعالج له . على أن يكون مرَّ على شفائه خمسة أعوام .

ويبلغ عدد أعضاء هذا النادى الآن ٢٩١٩٥ شخصاً ، كل منهم يقوم بواجبه ويدعو الناس لزيارة النادى للحديث عن هذا المرض ونشر الدعاية ضده .

أرقام قياسية ، ولكن !

يعد الشعب الروسى من أنشط الشعوب فى القراءة كما تدل على ذلك الاحصاآت التى عملت عن الكتب التى طبعت فى روسيا خلال العشرين عاماً الماضية ، فقد طبعت من أعمال فيكتور هوجو ٣,٥٠٠,٠٠٠ نسخة ، ومن أعمال دى موباسان ٣,٠٠٠,٠٠٠ نسخة ، ومن أعمال رومان رولان ٢,٠٠٠,٠٠٠ نسخة ، ومن أعمال ديكنز ٢,٠٠٠,٠٠٠ نسخة ، وبلغ عدد النسخ من مؤلفات شكسبير وأناتول فرانس وبلزاك خمسة ملايين نسخة ، وذلك إلى جانب ما طبع من أعمال المؤلفين الروس أمثال تولستوى وتشيكوف وغيرهما .



ميشيل بلوتلتى قصصى روسى لا تعرفه روسيا

ومع هذه الأرقام القياسية فإن النشاط الأدبى فى روسيا يكاد يكون مشلولا . فبالرغم من كثرة القراء فإن الانتاج الأدبى الحديث معدوم لعدة أسباب : أهمها الاضطهاد الذى ينتظر من يبدى رأياً يكون لسوء حظه معارضاً ولو من بعيد لنظام الحكم الذى ينحصر فى ستالين وحده . ولا يمنع ذلك من أن كثيرين من المؤلفين الروس المعاصرين يطبعون كتبهم وينشرونها ، ولكن فى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، وهؤلاء هم القيمون خارج روسيا . أما القيمون فى روسيا فانهم لا يكتبون إلا قليلاً لأنهم يصرفون معظم جهدهم فى تنقية أعمالهم الأدبية من أى كلمة يشتم منها معارضة نظام الحكم وسياسة السوفيت .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٥ | الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٨ — ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــرس

بين روســـيا وجاراتها

أحيطت سياسة روسيا في الأشهر الأخيرة بسياج من الغموض والكتمان، ولعل خطاب الرفيق مولوتوف الأخير أول كلمة صريحة في هذا الموضوع، وإن لم يكشف عن نيات حكومته، صورة جلية واضحة.

وربما كانت خير وسيلة نتفهم بها اتجاهات السياسة الروسية، أن ننظر في تطوراتها منذ الحرب الأخيرة إلى اليوم، فقد نجد في مثل هذا العرض تفسيراً لما نراه اليوم غامضاً أو متناقضاً.

يمكننا أن نقسم تاريخ روسيا الحديث إلى ثلاثة أقسام: عهد الثورة، وعهد العزلة، وعهد السياسة العملية؛ ولا بد من أن نتفهم الظاهرات الأساسية لكل من هذه العهود، لكي نرى كيف انتقلت السياسة الروسية من طور إلى طور بشكل لا يتناقض مع العقل والمنطق بقدر ما أوتيت السياسة الدولية من العقل والمنطق.

عهد الثورة: تحيط بالأراضي الروسية في الوقت الحاضر أقطار ودويلات كانت جزءاً من دولة روسيا القيصرية. فلما انفجرت الثورة الروسية عام ١٩١٧ أخذ كل قطر من هذه الأقطار يبذل جهداً قوياً للانفصال عن روسيا. فكان من نتيجة ذلك أن تكونت دولة فنلندا، وإستونيا، ولاتفيا ولتوانيا، على سواحل البحر البلطي، وتكونت دولة بولنده العظيمة على الجانب الغربي من روسيا؛ واستولت رومانيا على بسارابيا، واستطاعت تركيا نفسها أن تسترد في بلاد القوقاس بعض الأراضي التي فقدتها في أثناء عراكها الطويل مع روسيا.

فأما انفصال دول البحر البلطى عن روسيا ، فلم يكن فيه ظلم لروسيا ، لأن هذه الأقطار لم تكن تشتمل على أراض روسية ، يسكنها جماعات من الروس . ومثل هذا يقال أيضاً عن الأقطار التى ضمت إلى تركيا ، فهذه قد نزلت عنها روسيا لتركيا بمحض اختيارها ، ولم يكن بها أقليات روسية تستحق الذكر .

ولكن مثل هذا لا يمكن أن يقال عن بولونيا وبسارابيا ، ففى الاقليم الشرقى من بولونيا أقليات روسية ، تقرب من مليون نسمة ، وكذلك الحال فى بسارابيا .

وسواء أكانت فى الأقطار المفقودة جماعات روسية أم لم يكن ، فإن حكومة الثورة لم تكن لتقبل عن رضى وطمأنينة انسلاخ هذه الأقطار عنها . وقد حاولت بذل جهود عنيفة للاحتفاظ بتلك الأقطار ، ولكنها اضطرت لأن توافق فى النهاية على استقلال دول البحر البلطى ، وعلى الحدود الجديدة لدولتى بولونيا وتركيا . فقد كانت الحكومة البلشفية وارحة تحت عبء ثقيل ، وهو إقامة النظام — أو شبه النظام — الشيوعى الجديد ، على أنقاض الحكم القيصرى . وكان لدى رجال الدولة من المشاكل الداخلية الصرفة ، ما يكفى لأن يشغل أقوى الحكومات وأرسخها ، فكيف بحكومة جديدة تنشئ عهداً جديداً ، وتريد أن تقلب نظام الحكم قلباً تاماً ؟

لم يكن لروسيا إذن بد من أن تصفى الموقف ، وأن تسارع إلى عقد اتفاقات مع جاراتها تعترف لها فيها بالأراضى التى نزلت لها عنها . ما عدا بسارابيا ، فإن روسيا لم ترد أن تقبل ضم هذا الاقليم لرومانيا .

وهكذا استطاعت حكومة الثورة الشيوعية أن تكرس جهودها لتوطيد العهد الجديد ، وقد تم وضع النظم الجديدة وإعلانها عام ١٩٢٣ ؛ وهى تقوم على مبدأين خطيرين : الأول داخلى ، وهو تعميم النظام الشيوعى فى الصناعة والزراعة ؛ والثانى خارجى ، وهو مبدأ الشيوعية الدولية ، الذى ينادى بأن العمال والزراع فى جميع أنحاء العالم إخوة ؛ وعدوهم الوحيد هو الرأسمالية الدولية .

ولم يكن بد من أن ترى دول العالم فى هذه السياسة فضولا شديد الخطر على كيانها ، فلم تتقدم للاعتراف بروسيا البلشفية دولة ذات خطر ، اللهم إلا دولة ألمانيا التى جمع بينها وبين روسيا جامع عداوة الدول الغربية لكل منهما .

مشكلة العزلة : مات لينين عام ١٩٢٤ ، وروسيا تعانى شدائد جمة من جراء عزلتها الأممية ، التى أضعفت تجارتها ، وجعلتها عاجزة حتى نشر الدعاية للشيوعية الدولية بالدرجة التى تمكنها من استخدام هذا السلاح لتدعيم مركزها السياسى ونفوذها العالمى . ولم تكن علاقاتها بألمانيا بالأمر الذى يكفيها ، ويرضيها عن مقاطعة معظم الدول لها ، وظهرت بعد لينين نزعة ترمى إلى التودد للدول ، والتظاهر بالعدول عن الدعاية الشيوعية ، وفى الوقت نفسه أخذ يبدو من جانب بعض الدول رغبة فى الاعتراف بحكومة السوفييت ، على شرط تعهدها بألا تتدخل فى الشئون الداخلية للدول ، وألا تحاول نشر مذهب سياسى خاص بين رعاياها ، وكان من السهل على روسيا أن تقدم مثل هذا التعهد . وهكذا أخذت الدول الواحدة بعد الأخرى تعترف بالحكومة السوفياتية ، وتستأنف العلاقات السياسية والاقتصادية ، وتمضى معاهدات « الصداقة » معها .

وكان فى دخول روسيا عصبة الأمم عام ١٩٣٤ التتويج الأكبر لهذه الانتصارات الدبلوماسية التى استطاعت بها روسيا أن تقضى على الشطر الأكبر من العزلة التى كانت ترزح تحت أعبائها .

ولما تولى هتلر زعامة ألمانيا ، وأظهر العداء الصريح للحكومة السوفياتية ، اضطرت هذه لأن تزداد تودداً إلى دول الغرب ، وعقدت محالفتها الشهيرة مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ، وتظاهرت بأنها كالدول الغربية تعشق السلم ، وتنفر من العدوان على الدول الضعيفة . وتأييداً لهذا المظهر عقدت معاهدات صداقة وعدم اعتداء مع كل من بولندة ودول البحر البلطى ، وجعلت أجلها طويلا لا ينتهى إلا فى عام ١٩٤٥ !

ولكن لا بد لنا برغم هذا كله أن نقرر أن عداء ألمانيا لروسيا لم يكن مستنداً على أساس مادي أو سياسي خطير؛ بل لقد فقدت ألمانيا بسببه تجارة واسعة رائجة، ولم يكن بين الدولتين خلاف على أرض أو حدود، أو منافسة من أي نوع كان . اللهم إلا ذلك البغض الأفلاطوني الذي استشعره الزعيم هتلر نحو النظام الشيوعي .

ومن جهة أخرى نرى أن صداقة روسيا لدول الغرب — وبالأخص بريطانيا — كان يشوبها دائماً وجود عنصر قوي من رجال السياسة ينفرون من كل شيء له صلة بروسيا . وقد رأينا ورأت روسيا أثر هذا واضحاً في مشكلة تشيكوسلوفاكيا في خريف العام الماضي، حين حاولت دول الغرب أن تحل المشكلة من غير الاستعانة بروسيا، أو مشاورتها؛ فلم تشترك في مونيخ، ولا في المداولات السابقة لمونيخ .

وجهتها أطماعها وشهواتها تحققها بكل وسيلة، وتسلك إليها أيسر السبل؛ أخذت روسيا في اتباع هذه السياسة حين قصدتها دول الغرب في الربيع الماضي، تبتغي منها المساعدة على ألمانيا النازية، فأرادت أن تتقاضى على المساعدة ثمناً لم يرد الحلفاء دفعه؛ وجاء الألمان فالتمسوا صداقة روسيا بالثمن الذي ترتضيه روسيا . ولم يكن من الصعب على حكومة السوفييت أن ترى أن الفرصة سانحة، لأن تبسط نفوذها على الأراضي التي زلت عنها من قبل لدويلات ليست بذات خطر، فلم يطل ترددها ومالت نحو ألمانيا . واليوم يحدثنا الرفيق مولوتوف أن « حكومة السوفيات طالما اعتقدت أن ألمانيا القوية شرط لازم للسلم الدائم في أوربا » .



إن الذين ادهشوا للانقلاب الفجائي في سياسة روسيا، يجب أن يذكروا مع هذا أنه إن يكن من العجب صداقة ألمانيا النازية والسوفييت، فلقد كان عجيباً أيضاً أن تتحالف الدول الديمقراطية، التي تدين بالحرية والسلم، مع حكومة لم تكن الحرية، ولم يكن السلم ركناً من أركان الحكم

عرب السياسة العملية : السياسة العملية، لفظ جئنا به للفظة الألمانية Realpolitik، وهي السياسة التي لا تعرف مبدأ ولا ناموساً ولا شرفاً؛ ولا تعرف حتى التستر والمداجاة، بل

لديها فى وقت ما . إن السبب الأكبر الذى دفع روسيا إلى أحضان الدول الغربية وإلى عصبة الأمم هو عداوة ألمانيا النازية ، فأما وقد تقدمت هذه تعرض صداقتها ومعاونتها ، فإن الفرصة باتت سانحة لأن تحقق روسيا ما تطمع فيه من استعادة نفوذها المفقود .

فلم تكد روسيا أن تنال نصيبها من بولونيا ، حتى ولت وجهها شطر البحر البلطى . فإن وجود هذه الدويلات الصغيرة قد ترك روسيا وليس لها منفذ على هذا البحر سوى ميناء لينتغراد تحيط بها مساحة صغيرة من الساحل . لهذا لم يكن بد من أن تفتتح روسيا سياستها العملية بدويلات البحر البلطى ، بادئة باستونيا ، وهى أهمها بالنسبة للسيطرة على هذا البحر ؛ فاستطاعت أن تغنم القواعد البحرية فى جزرتى داجو وإزل ، وميناء بلتسكى ، التى تسيطر على مدخل خليج فنلنده ، واستطاعت أن تنزل جيوشها فى أماكن « استأجرتها » من حكومة استونيا . وقد أملت روسيا مثل هذه الشروط على لتفيا ولتوانيا فقبلتا ؛ ثم أرادت أن تملى مثلها على فنلنده ، فلقيت مقاومة لعلها لم تكن تحسب لها حساباً ؛ فإن فنلنده ذات مركز أمنع من أخواتها ، وسكانها أنشط وأرقى وأكثر عدداً ، ولها تاريخ قديم يكسبها شيئاً من العزة والاعتداد بالنفس ، ولها من دول اسكندناوة أنصار مخلصون .

وقد دام الأخذ والرد بين روسيا وجارتها الشمالية مدة تعد بالأسابيع ؛ وبالأمس يحدثنا الرفيق مولوتوف بأن حكومته إنما طلبت من فنلنده مطالب سهلة هينة ، وهى :
١ — أن تتراجع حدود فنلنده الغربية عن لينتغراد عدة كيلومترات . ٢ — أن تستأجر مرفأ (هانجو) وبضع جزر على سواحل فنلنده لكى تقيم فيها قواعد حربية ، وبهذه الطريقة تصبح روسيا مسيطرة على الساحل الشمالى والجنوبى لخليج فنلنده . ثم يقول الرفيق إن فنلنده إذا أصرت على رفض هذه الطلبات فإن هذا يضر بقضية السلم . . . وهذا يقال عن دولة تعاهدت روسيا ألا تعتدى عليها إلى أجل غايته عام ١٩٤٥ !

والآن لنترك الشمال ولننظر إلى الجنوب ، وفى الجنوب بسارابيا ، التى يعيش فيها مليون من الروس . ما الذى يدعو روسيا الآن تتغاضى عن بسارابيا ، وتلتفت إلى البحر البلطى ؟ السبب فى هذا يسير ، وهو أن دول الشمال ليس لها من ينصرها ، وتستطيع روسيا أن تأمرها فتأتمر . أما بسارابيا فأمرها أشد تعقيداً ؛ فهنالك خطر إثارة دول البلقان ، وهنالك خطر أكبر أن يأتى الحلفاء بجيوشهم وأساطيلهم لنجدة رومانيا . لهذا لم يكن بد أن يسبق هذا العدوان على رومانيا ، محاولة التفاهم مع تركيا . وها نحن نرى الرفيق مولوتوف لا يكاد يخفى أسفه على أن تركيا لم تقابله بتلك الطاعة التى اعتادها من دول الشمال . فهو يتهمها بأنها خرجت عن حيادها ؛ ثم يقول بلغة رجال السياسة البارعين : « إنه لن يحاول أن يعرف هل ستندم تركيا يوماً ما على عملها هذا » .

من الواضح إذن أن مشكلة الجنوب أشد تعقيداً لروسيا من مشكلة الشمال ؛ ولكن ليس هنالك ما يدعو إلى الظن بأن روسيا سترجع عن طلب بسارابيا عاجلا أو آجلا ؛ غير أن هذا من المطالب التى تحتاج إلى استعداد طويل ، وتدبير وتمهيد . وهى إن مضت فى مطالبها هذا فمن الصعب أن نتصور أن هذا يحدث دون تدخل الحلفاء ، وإعلانهم الحرب على روسيا .

لقد كانت دول الغرب حتى اليوم كارهة أن تدخل روسيا الحرب إلى جانب ألمانيا ، على أن الخطة التى سارت عليها روسيا ، وخطاب الرفيق مولوتوف نفسه ، يجعل مثل هذا الاحتمال ليس بالشىء المستحيل . وأولى بالحلفاء أن يعدوا له العدة .

محمد عوض محمد

ساعة . . .

للدكتور طه حسين بك

ساعة قضيتها أمس مع جماعة من المثقفين الممتازين في هذا البلد ، ذادت عني النوم حتى تقدم الليل ، ودفعتني إلى مذاهب من التفكير والتروية ، لا أريد أن أصورها في هذا الحديث لأنها مختلفة شديدة الاختلاف ، متناقضة شديدة التناقض ؛ ولأن تصورها يحتاج إلى جهد لا يحتمله حديث قصير تنشره مجلة أسبوعية لا تكاد تنشر حتى تطوى ، ولا يكاد يقرأ ما فيها حتى ينسى .

ولكن هذه الساعة ذكرتني فيما ذكرتني كتباً ثلاثة قرأتها في هذين العامين الأخيرين ، وأكبر الظن أن هذه الساعة ستضطرني إلى أن أعيد قراءة هذه الكتب ، لأن فيها تسلية وتعزية ، ولأنها تقوى النفوس وتعصمها من الجور العقلي الذي تتعرض له في هذه الأيام .

أما أول هذه الكتب فقد ألفه الكاتب الفرنسي الفيلسوف جوليان بندا ، وسماه « خيانة المثقفين » . وأما الثاني فقد نشره الأديب الفرنسي العظيم جورج دي هامل ، وسماه « الدفاع عن الأدب » . وأما الثالث فقد أذاعه في هذا الصيف الكاتب الفرنسي المشهور جورج برنانوس ، وسماه « نحن الفرنسيين » . وموضوعات هذه الكتب مختلفة في ظاهر الأمر كما ترى من عنواناتها ، ولكنها متفقة في حقيقة الأمر كما سترى من التحليل اليسير الذي سأعرضه عليك في هذا الحديث ، لما بقي منها في نفسي ؛ وما أقل ما يبقى في نفوسنا من الكتب التي نقرأها في هذه الأيام التي طغت فيها علينا أحداث الحياة الداخلية والخارجية ، فأنستنا أو كادت تنسينا كل شيء ، وشغلتنا أو كادت تشغلنا عن كل شيء ، وجعلت من الجهاد المحمود أن يأخذ الرجل منا نفسه بالقراءة بين حين وحين ، والتفكير فيما يقرأ من وقت إلى وقت .

وهذه الكتب الثلاثة تصور نواحي مختلفة من هذه الأزمة العنيفة التي أصابت المثقفين في أخلاقهم وفي إنتاجهم وفي موقفهم من المشكلات الدقيقة التي أخذت تعرض بعد الحرب الماضية لحياة الأفراد والجماعات . فما عسى أن يكون موقف الرجل المثقف الممتاز الذي عني بحياة العقل والقلب ، وفرغ لها ووقف عليها جهده كله ، أو خلاصة هذا الجهد ؟ ما عسى أن يكون موقف هذا الرجل المثقف من مشكلات الحياة حين تعرض للناس في سياستهم وفي نظمهم الاجتماعية ؟ أيجهل هذه المشكلات كل الجهل ، ويعرض عنها كل الاعراض ، ويفرغ الفراغ كله لما يسر له وتوفر عليه من ألوان البحث والتفكير ؟ أيضرب بين نفسه وبين الحياة والأحياء حجاباً صفيقاً كثيفاً ، لا يرى من دونه شيئاً ، ولا يسمع من دونه شيئاً ، ولا يحس من دونه شيئاً ، وإنما تنقطع الأسباب بينه وبين نظرائه ، لا يعرفهم ولا يعرفونه لأن حياته العقلية العليا قد استغرقت نشاطه ، واستأثرت بجهوده ، فلم يبق منه للناس قليل ولا كثير ؟ ذلك شيء لا سبيل إليه ، فأيسر التفكير في حياة الفرد مهما يكن نشاطه في هذا العصر الحديث ، يدلك على أن كلمة أرسططاليس لم تزل تدل على معناها وعلى أن الانسان ما زال مدنياً بالطبع ؛ فهو محتاج إلى الناس ، والناس محتاجون إليه ؛ وهو متضامن مع الناس ، والناس متضامنون معه . وإذاً فلا سبيل إلى أن يقطع الرجل المثقف الممتاز ما بينه وبين الناس من صلة ، وإنما هو

مضطر إلى أن يعيش معهم وإلى أن يشاركهم فيما يلم بهم من خير أو شر، وما يعرض لحياتهم من عرف أو نكر. وإذاً فما عسى أن يكون موقفه من هذه الأحداث التي تعرض لمواطنيه خاصة، ولشركائه في الإنسانية عامة. أيقف منها موقف الذي يسمع ويرى ويحس ويشعر؟ ولكنه مع ذلك يلتزم الحيدة، فلا يصلح خطأ إن وقع، ولا يدفع شراً إن ألم، ولا يشجع على خير إن عرض، ولا ينبه إلى ما قد تدل عليه النذر من الأحداث التي قد تقع إذا لم ينتبهوا إليها فتجر عليهم شراً عظيماً. ولكن موقف الحيدة هذا غير ملائم لطبيعة الأشياء، فما دمت مضطراً إلى التضامن الاجتماعي بحكم الفطرة أو بحكم الظروف أو بحكم الفطرة والظروف معاً. فأنت مضطر إلى نتائج هذا التضامن، وأنت مضطر إلى أن تجد ما يجده الفرد العامل في جماعة من الجماعات من الرضى والسخط، ومن الفرح والحزن، ومن اللذة والألم؛ ثم أنت مضطر إلى أن تندفع إلى العمل الذي يقتضيه هذا الذي تجده. فتعلن الرضى وتدعو إلى أسبابه، وتعلن السخط وتقاوم ما يقتضيه؛ وإذاً فما عسى أن يكون موقفك من هذه الأحداث المختلفة حين تلم بالبيئة التي تعيش فيها، أو حين تلم ببيئة معاصرة لك في وطن قريب منك أو بعيد عنك؟ وكيف السبيل إلى أن تلائم بين فراغك للحياة العقلية العليا، وبين مشاركتك في أعراض الحياة العادية ومنافعها ومضارها العاجلة وما تستتبعه من المقاومة أو النشاط؟

هذه مسألة كثر التفكير فيها واشتد حولها الجدال لا لأنها محتاجة إلى أن تحل، فقد حلت نفسها أو حلتها الظروف، ولكن لأن هذه الحلول التي فرضتها الظروف تحتاج إلى كثير من البحث وتقتضي كثيراً من الجدال. أما أنها حلت نفسها أو حلتها الظروف فذلك شيء واضح؛ فعلماء هذا العصر وأدباؤه وفلاسفته ورجال الفن فيه يحيون كما يحيا غيرهم من الناس، ويشاركون في النشاط العام يؤيدون هذا المذهب السياسي أو ذاك، ويظاهرون هذا الحزب الاجتماعي أو ذاك. ويصطنعون في هذه الظاهرة وذلك التأييد ما يصطنعه غيرهم من الناس؛ فهم يؤلفون الكتب، وينشرون الرسائل، ويذيعون المقالات؛ وهم يشتركون في الانتخابات فيصوتون للأحزاب السياسية والاجتماعية التي تلائم ميولهم وآراءهم وأمزجتهم وأهواءهم؛ وقلما تجد واحداً من هؤلاء الناس قد اعتزل الخصومات السياسية والاجتماعية، فلم يكون فيها رأياً، ولم يظهر فيها هوى، ولم يتخذ لنفسه منها موقفاً معيناً معروفاً. وهذا الحل الذي اقتضته طبيعة الأشياء، أو فرضته ظروف الحياة هو الذي يحتاج إلى البحث والتفكير، وإلى أن تتبين ملاءمته أو مباينته لما ينبغي للمثقف الممتاز من خلق، وما تفرض عليه ثقافته الممتازة من واجب، وما تحظر عليه هذه الثقافة الممتازة من الأمور. ذلك أن هذا المثقف الممتاز ليس مسؤولا عن نفسه وحدها كغيره من أوساط الناس وعامتهم، بل ربما كانت تبعته بإزاء نفسه تأتي في المنزلة الثالثة. فأما التبعة التي تأتي في المنزلة الأولى فهي تبعته بإزاء ثقافته، بإزاء علمه إن كان عالماً، وأدبه إن كان أديباً، وفلسفته إن كان فيلسوفاً، وفنه إن كان من رجال الفن؛ بإزاء عقله قبل كل شيء وبعد كل شيء؛ فما ينبغي أن يبتذل العقل في سبيل الأعراض الزائلة، والمنافع العاجلة، والظروف الطارئة، وهذه الألوان التي تختلف على حياة الناس فترضي حيناً، وتسخط أحياناً، وترفع حيناً، وتضع أحياناً. بل يجب أن يكون العقل مرتفعاً دائماً عن صغائر الحياة، محتفظاً دائماً بمكانته الممتازة، لا يصغر ولا يتضاءل ولا يتعرض لما تقتضيه الحياة العاملة في بعض الأحيان من ضروب الذلة والهون.

وليس المثقف مسؤولا عن عقله فحسب، بل هو مسؤول عن نتائج هذا العقل وعن آثاره في معاصريه من جهة وفي الأجيال المقبلة من جهة أخرى. فالمثقف الممتاز أستاذ

سواء أشغل منصب التعليم أم لم يشغله ؛ ومن الحق على الأستاذ لتلاميذه أن يكون لهم مثلا صالحاً وقدوة حسنة ، وأن يعصم لهم نفسه من الضعف الذى يفسد رأيهم فى العقل ويشككهم فيه ، ويدفعهم إلى أن ينظروا إليه كما ينظرون إلى مصادر الانتاج المختلفة ، إلى التجارة والزراعة والصناعة ، على أنه شيء قابل للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وعلى أنه يصلح موضوعاً للمساومة التى مهما تكن شريفة نقية فانها لا تليق بالحق ولا بالعقل الذى يلتمس الحق ويبحث عنه . ثم هو آخر الأمر مسؤول عن نفسه ؛ فقد ينبغى للرجل الكريم ألا يأتى من الأمر ما يستخفى منه أمام نفسه إذا خلا إليها ، وألا يشارك فيما لا يطمئن ضميره الخالص إلى المشاركة فيه . وجملة القول أن المثقف الممتاز خليق أن يحتفظ لنفسه بالحرية المطلقة التى لا تشوبها شائبة ، وبالكرامة النقية التى لا يكدرها مكدر ؛ وهو بعد ذلك أو بحكم ذلك خليق أن يصطنع مع الناس صراحة واضحة جلية لا يشوبها لبس ولا غموض . فكما أنه محتاج إلى هذه الحرية وإلى هذه الكرامة ليستكشف قانوناً من قوانين العلم أو لينتج لوناً من ألوان الأدب أو ليستنبط أصلا من أصول الفلسفة أو ليخرج ضرباً من ضروب الفن . وكما أنه محتاج إلى الصراحة المطلقة ليعلن إلى الناس ما وفق إليه من ذلك فهو محتاج إلى الحرية والكرامة والصراحة فى كل ما يشارك الناس فيه من ألوان النشاط . ولا عليه أن ينكره الناس أو يضيقوا به ، ولا عليه أن يمقته السلطان أو يسخط عليه ، فانه لا يخاف سخط الناس ولا مقت السلطان فيما يتصل بعلمه وأدبه أو بفلسفته وفنه . وتاريخ المثقفين الممتازين حافل بالذين ضحوا بالراحة والأمن والحياة فى سبيل الرأى بل فى سبيل العقل ؛ فما ينبغى أن تنقطع هذه السلسلة ، بل ينبغى أن تتصل وأن يكون الاستعداد للتضحية والتعرض لها والاقبال عليها هو الذى يكف الجماعة عن إيذاء المثقف الحر ويردع السلطان عن اضطهاد العقل ، حين يشعر الناس ويشعر السلطان بأن الايذاء والاضطهاد لا يغيران من حرية العقل ولا يلقنان المؤذين والمضطهدين شيئاً . هذا هو المثل الأعلى للمثقف الممتاز ؛ فهل احتفظ به المثقفون الممتازون فى هذا العصر الحديث أم هل أضاعوه كله أو بعضه ؟ هل احتفظ العقل الممتاز بحريته المطلقة وكرامته النقية وصراحته التامة أمام المشكلات التى عرضت للأوروبيين فى حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ أليس بين المثقفين الممتازين من داهنوا فى السياسة وصانعوا فى الاقتصاد وشاركوا فى الظلم الاجتماعى ؟ أليس بينهم من غرتهم المنافع العاجلة وأغرتهم المصالح القريبة فصانعوا ولم يكن من حقهم أن يصانعوا ، وسكتوا وكان الحق عليهم أن يتكلموا ؟

هذا هو الموضوع الذى عالجه جوليان بندا فى الكتاب الأول من هذه الكتب الثلاثة ؛ وهو كما ترى يصور ناحية من نواحى الأزمة التى تخضع لها الحياة العقلية فى هذا العصر الحديث .

أما الكتاب الثانى فقد عرض لناحية أخرى من نواحى هذه الأزمة العقلية ؛ فقد كثر القراء فى هذا العصر بمقتضى انتشار التعليم ، وأصبحت أمم عظيمة قارئة كلها ، رجالها ونساؤها شبانها وشيبها ، بل صبيتها أيضاً . وكل هذه الطبقات القارئة فى حاجة إلى الغذاء العقلى اليومى ، ولكنها مختلفة متفاوتة فيما بينها ؛ فمنها الطبقات ذات الثقافة العميقة الواسعة ، ومنها الطبقات ذات الثقافة المتوسطة ، ومنها الطبقات ذات الثقافة اليسيرة جداً . وكل أولئك يريدون أن يقرأوا ، وكل أولئك يشترون ما يقرأون . وواضح جداً أن أصحاب الثقافة العميقة الواسعة قلة لا تذكر بالقياس إلى أوساط الناس ودهمائهم ؛ فالذين يكتبون لهذه القلة أجدر ألا يصيبوا من الربح شيئاً يقاس إلى ما يصيبه الذين يكتبون لأوساط الناس ودهمائهم . وإذاً فهناك أزمة خطيرة يتعرض لها الكتاب الجيد المتقن الذى يصور

الثقافة العالية الممتازة ، والتي يحتاج صاحبه إلى أن يبذل فيه الجهد العنيف ، والوقت الطويل ، والتفكير العميق . وإذاً فلن يقبل الطابعون والناشرون على هذه الكتب الممتازة في أنفسها ، لأنها لا تضمن لهم ربحاً ، وقد تجر عليهم ، بل من المحقق أنها ستجر عليهم خسارة عظيمة . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، فالناس في حاجة إلى القراءة ، ولكنهم في حاجة إلى القراءة السريعة اليسيرة السهلة ، لأن الحياة الحديثة تقتضي السرعة والسهولة واليسر ، والصحف والمجلات تقدم إلى الناس ما يريدون وأكثر مما يريدون . فما حاجتهم إلى الكتاب الجيد أو الردئ ؟ بل الأمر أشد خطراً من هذا .

فهذا الراديو الذي احتل البيوت كلها ، والأندية كلها ، والميادين كلها ، والذي يصحبك في القطار ، ويصحبك في السفينة ، ويصحبك في السيارة — هذا الراديو يغنيك عن القراءة : عن قراءة الكتب ، لأنه يحدثك في الأدب والعلم والفن ، وعن قراءة الصحف ، لأنه يحمل إليك الأنباء على اختلافها ؛ وعن كل قراءة لأنه يستطيع أن يشغلك ما دمت يقظان ، وأن يشغلك دون أن يشغلك ، وإنما هو مفتاح يدار فينصب عليك الكلام أو الغناء أو الموسيقى ، ثم يدار فيقطع عنك هذا كله ؛ ولا بأس أن تدعه يصيح بما يشاء ، وأن تمضي أنت فيما تشاء ؛ تفرغ له إن أحببت ، وتعرض عنه إذا أردت . فما حاجتك إلى القراءة التي تقيد نظرك وعقلك ، وتشغلك بنفسها عن كل شيء . ولا تنس السينما ، فأنت واجد فيه متى شئت ما يرضي عينك وأذنك معاً ؛ فما حاجتك إلى الكتاب ، وما حاجتك إلى الصحف ؟ ولكن هذا الانتاج الذي تنشره الصحف وتذيعه الراديو والسينما شيء ، والانتاج العالي الممتاز شيء آخر . فإذا أغرق الناس في الاستمتاع بهذا الانتاج اليسير السريع ، ضعفت عقولهم وقلوبهم وملكاتهم ، وضعفت شخصياتهم ، وأصبح بعضهم مشبهاً لبعض ، وأصبحوا وقد صِيغوا على صورة واحدة هي التي يَصُوغهم عليها الراديو أو السينما أو الصحف . والواقع أن هذه الأدوات الثلاث تجتمع كلها غالباً في أيد واحدة . وإذاً فليس الخطر على العقل وإنتاجه الممتاز فحسب ، ولكنه على الحرية أيضاً وعلى شخصية الأفراد والجماعات في الوقت نفسه ؛ ومن أجل هذا وأشياء أخرى كثيرة غير هذا يبث جورج دي هامل صيحة الخطر المنكر في كتابه هذا الذي سماه « الدفاع عن الأدب » . وهو بالطبع يريد الدفاع عن الأدب الرفيع الذي لا ينتج في سرعة ولا يساغ في سرعة ، وإنما هو محتاج إلى الأناة والمهل لينتج ويساغ .

أما الكتاب الثالث فقصته أظرف وأعجب من قصة الكتابين الآخرين ، ذلك أن صاحبه قد أبى أن يكون مثقفاً خاملاً ، وأبى أن يذعن لمقتضيات الحياة الحديثة ، وصمم على أن يحتفظ بشخصيته كاملة ، وعلى أن يفرضها على مواطنيه فرضاً ، غير حافل برضاهم إن رضوا ، ولا بسخطهم إن سخطوا ؛ إنما هو مزمع أن يفكر ويعلن نتيجة تفكيره ، وأن يلاحظ ويعلن نتيجة ملاحظاته . والشرط الأول للاحتفاظ بهذه الحرية المطلقة أن يضمن لنفسه استقلالها المادي والمعنوي . فأما الاستقلال المعنوي فشيء يتصل بإرادته وهو قادر على أن يوفره لنفسه متى شاء . وأما الاستقلال المادي فأمره يسير إذا تمثل المعنى الذي صوره شاعرنا القديم تصويراً حسناً حين قال :

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ
سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل

وقد تمثل صاحبنا هذا المعنى تمثلاً حسناً فعاش من عمله عيشة متواضعة ليس لأحد عليه فيها يد ولا صنيعة ؛ وهاجر من وطنه فلاحظه من بعيد وأرسل إليه كتبه من بعيد أيضاً . عاش في أسبانيا وفي جزر الباليار خاصة ، فلما شهد الثورة الأسبانية أنكر آثارها ، فهاجر من أسبانيا ،

(البقية على صفحة ٤٤)

فن الحـــــزن . . . !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لأول مرة في حياتي أدس قلمي بين قلمين يتحاوران ويتنازعان في قضية من قضايا الدنيا أو الدين ، وحين كنت قاضياً لم يكن يحرج صدري بقضية قدر تحرجه بقضية يقتحم فيها على المتخاصمين ثالث ، فتتشعب به وجوه الخلاف ، ويطول أمد النزاع ، ويحتاز صدراً كبيراً من هم القاضي في البحث والتحرى عما إذا كان هذا الخصم الثالث جاداً في دعواه ، جارياً على عرقه من الحق في مطلبه ، أو هو متواطئ مع أحد الخصمين ليدفع يده عن بعض حقه ، أو ليدفعها من حقه كله ؟

ولقد بان لي بعد امتحاني بمنصب القضاء بزمن يسير أن أكثر قضايا المحاكم الشرعية التي يقتحمها هؤلاء الخصوم ، هي قائمة على التواطؤ مع أحد الطرفين ، كيداً وعنتاً وأذى للطرف الآخر بغير حق ولا سبب مشروع ! على أن ذلك لا يعفى القاضي من البحث والتحرى وشدة التدقيق ، فلعل هذا الخصم الثالث جاد ، ولعله صاحب الحق دون المتنازعين جميعاً !

ولقد كان من أثر هذا في نفسي أن كره إليها الدخول بين متجادلين ، ولو في شأن عام ، ولو في قضايا العلوم والفنون والآداب ، فيما يقع عليه الخلاف بين الباحثين والكتاب .

ولكني رأيت أن حجتي ، في هذه المرة واضحة ، وأن سلطاني في الأمر مبين ، بحيث لا يستطيع أحد المتنازعين أن ينكره أو يكابر فيه ، ويشربه بشيء من الشك كثير أو قليل . إذاً فمن الإثم أن أسكت ، وخاصة إذا كان النزاع إنما يتعلق بالشأن العام ، وعلى الأخص إذا لم يكن بيني وبين أحد الطرفين نزاع ولا خصام !

ولقد كتب صديقي الأستاذ المحقق أحمد أمين في « الثقافة » مقالا ممتعاً ، يدعو فيه إلى استغلال (فن السرور) . ومما جاء فيه :

« مع الأسف ألاحظ أن كمية السرور في الشرق قليلة ، كما لاحظت من قبل أن كمية الحب في مصر والشرق قليلة . وليست تنقصنا الوسائل ، فجونا جميل ، وخيراتنا كثيرة ، وتكاليف الحياة هينة ، ووسائل العيش يسيرة ، ومصائب الشرق من الحرب أقل منها في الغرب ؛ ومع هذا كله لا تزال كمية السرور في الشرق أقل .

« أكبر سبب لذلك في نظرى أن الحياة فن ، والسرور كسائر شئون الحياة فن ؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظى به ، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقى به » .

وسرعان ما انبرى له صديقي العظيم الدكتور طه حسين بك ، فأتى على الفكرة ، بادئ الرأى ، ثم راح يتشكك في إمكان تحقيقها ، ثم ما لبث أن أطلق العنان لدعاباته العذبة الفخمة ، التي تسح في الوقت نفسه فناً وأدباً . وجعل يتساءل عن الجماعة التي ينبغي أن تضطلع بتنظيم « فن السرور » ، وهل تكون من بين علماء النفس ، أو من بين علماء الاجتماع ؟ وبعد أن دوخ الفكرة بشدة الترجيح بين هاتين الفئتين ، انطلق يخبرها بين « جهات

الاختصاص » . إذا صدق هذا التعبير الديواني ، فإذا هي قد ضلت المسالك جميعاً ، فلن تجد إلى مثابتها السبيل !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، رأى الدكتور طه بك أن يعدل بالحديث إلى ما هو أرفق وأقوم ، وأجدى وأنفع ، وأيسر كلفة ، وآكد تحقيقاً ، قال حفظه الله :

« ومن المحقق أني لم أكد أفرغ من قراءة مقال الأستاذ أحمد أمين ، وأتخيل الآفاق البعيدة التي تمتد أمام اقتراحه أو أمام فكرته ، حتى أخذني الحسد ، ورغبت في ألا يستأثر من دوني بإنشاء فن السرور ، وأبيت إلا أن أكون مثله صاحب فكرة خطيرة ، وداعياً إلى إنشاء فن خطير . فأمليتُ هذا المقال لأدعو به إلى إنشاء فن الحزن . وأنا أبرع من الأستاذ أحمد أمين وأمهر في التصور . والفن الذي أريد إنشاءه لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان ، ولا إلى تحديد اختصاص ، ولا إلى نشر مقالات . وإنما يحتاج إلى شيء واحد يسير جداً ، هو أن تنظر في الحياة المصرية ، ثم تعود إلى نفسك لتفكر فيما رأيت . وأنا ضامن لك بأنك ستجد في هذا النظر وفي هذا التفكير ، مصادر حزن لا تنقضي ، وألم لا يزول .

« وإذا كان السرور خيراً لأنه يرفه على النفس ويحبب إليها الحياة ، فقد يكون الحزن خيراً أيضاً ، لأنه يدعو إلى العمل ويدفع إلى محاولة الإصلاح » اهـ .

***

وبعدُ ، فلست أعرض لما اقترح الأستاذ أحمد أمين من إنشاء (فن السرور) ، ولا أمتدح الفكرة ولا أهجّنها ؛ وعلى ذلك فليس بيني وبينه أيّ نزاع ، وقد كُفيتُ المؤونة من هذه الناحية ، والحمد لله . بقيَت الناحيةُ الأخرى ، أعني فكرة الدكتور طه بك حسين ، وهي التي يدعو أو يدعو هو بها إلى إنشاء (فن الحزن) . فهي التي نكسر عليها الحديث ، والله المستعان :

وفي رأيي أن صديقي الدكتور طه قد غلط مرتين لا مرة واحدة . غلط بدعوته أولاً إلى إنشاء فن الحزن ؛ وغلط بزعمه ثانياً أن إنشاء هذا الفن لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان الخ .

ولا أدري كيف غاب عن صديقي أن (فن الحزن) فن قديم ، ولعله من أقدم الفنون . وما لنا نسافر إلى التاريخ البعيد ، فنتقرى الأخبار من نقوش الآثار ، وحسبي أن يعلم الدكتور أكثر مما أعلم أن الحزن كان في صدر الإسلام فناً له خطر غير قليل . وأظن أن أحداً لا ينازعني في أن المراد بالحزن في هذا المقام إثارته وإذكاؤه ، لأن أحداً لا يرتجل الحزن ارتجالاً ، ولا يستحدث الشجن استحداثاً .

أعود فأقول إن الدكتور أعلم مني بأن (الحزن) ، على هذا المعنى ، كان في صدر الإسلام فناً له خطر ، والدكتور أعلم مني بأن ابن سريج ، وأن الغريض كانا كلاهما نائحين قبل أن يكونا مغنيَين . وهما من نعلم ، جلالة فن ، وجودة صنعة ، وبراعة أداء . وابن سريج والغريض بعد إذ غنيا وذهب لهما في الغناء صيت وذكر ، لم يكن أحد منهما ولا من أضرابهما ليتحرج من تلحين الأصوات ، لتنوح بها النائحات ، في جُلّى الحادثات . وهذه كتب الأدب العربي تفيض بأخبار النّياحات . فلندع إذاً هذا الحديث المعاد .

أما مصر ، فلها في (فن الحزن) عرقٌ عريق ، وخاصة في العصر الحديث ، ولا يزال هذا الفن قائماً إلى الآن ، وإن جعل يُقبل على الدثور ، مع الأسف المظ . ما دمنا نزال بحاجة إلى إنشاء (فنون الأحزان) !

لا يزال في مصر إلى الآن (الندابات)[1] ، ولا يزال

(١) ندب الميت : بكاه ، أو عدد محاسنه . والاسم منه الندبة بضم النون .

فيها النائحات ، أو بالتعبير الشائع (المعدِّدات)[1] أعاذنا الله وأعاذ القراء جميعاً من الحاجة إلى هؤليا ، وإلى هؤلياء .

أما (النداليات) فجماعة من النساء يُلقين زانيهمن على نقر الدفوف في قوة وعنف ، إذ النساء من أهل الميت يَثِبن على هذا النقر وثباً ، ويوقعن على هذا النبر ، لا ضرباً على أوتار العود ، بل لطماً على الخدود ، حتى يُجرى أدمعها ، ويُنهرا لحومها .

وأما النائحـات (المعددات) فلا دفوف في أيديهن ، ولا يصوِّتن بالعديد إلا فرادى . وكلما انتهين إلى موقف عج النساء جميعاً بالصياح ، وبكين فاستعبرن ، سواء في ذلك أهل الميت ومن لا شأن لهن به من المعزيات ، ويظل هذا ثلاثة أيام من وفاة الميت ، وكل يوم خميس ، ثم تختم هذه النياحات بيوم الأربعين .

ولقـد فاتني أن أقول لك إن (المعددات) منهن المحترفات ، ومنهن الهاويات . وإن جماعات الهـاويات ليفعلن هذا احتساباً ، أو مجاملةً لأهل الميت ، أو مصانعةً لمواطفهن إذا كان الدهر قد امتحنهن أيضاً في كريم . أما (النداليات) فلا يكنَّ إلا محترفات .

ولـكي تعرف مبلغ (فن الحزن) في مصر ، والإسراف في إذكاء عاطفة الأسى والشجن ، أنك كنت إذا سعيت صباح يوم الخميس في أيّ حيّ من أحياء العاصمة ، رأيت الجماعات من النساء عليهن السواد ، وقد ضربن بالخُمُر السود على رؤوسهن وعوارضهن ، وفي أيديهن المناديل السود ، وهن يمشين على غير هدًى ، حتى تصادفهن مناحة ، فينزلقن إليها ، ما يعرفن الميتَ أو الميتة ، ولا لهن عهدٌ بأحدٍ من أهلهما أبداً . وذلك كله انتهازاً للفرصة السعيدة في البكاء الحارّ ، وسفح الدمع السخين .

ولقد تجاوز (فن الحزن) المصري نطاق التبكّي على الموتى إلى سائر مواجع النساء ، حتى لَتَرى كثيرات ممن يطلبن المناحات ، إنما يطلبنها ليُعولن ويطرحن أثقالاً من الدموع على ما لا سبب له إلى الموت ولا إلى الأموات . فما تكاد النائحة تؤذن بفترة الاستراحة (Entr'acte) بعد الفصل ، حتى تقبل عليها النساء من كل جانب ، فيلقين في حجرها بالدراهم ، ويدعوها العامة (النقوط) . هذه تسألها أن تقول فيمن هجرها زوجها ، وهذه فيمن اتخذ عليها الضَّرة ، وهذه فيمن (مال بخت بنتها) زواجها من الضارّ غير الكفء ، أو بكيد حماتها وكثرة إيذائها ، وتلك في خيبة سعي ولدها ، وأخرى في سرقة حليها وما ادخرت من المال في الدهر الأطول لليوم الأسود . الخ الخ .

وعند النائحة (المعدِّدة) الكفء ، ما يُذكي نارَ الأسى على كل هذا ، ويستدرّ الدمعَ الغزير ، فإذا لم يكن حاضرَها شيء منه ارتجلته ارتجالا ، حيث تصيح صاحبةُ الشأن صياحاً متداركاً ، أو تبكي وتنشج حتى تسكن عاطفتها وترضى !

* * *

والآن ، والآن فقط ، لقد تفطنتُ إلى أنني ظلمت صديق الجليل القدر الدكتور طه حسين ، فيما لعلي قد عزوتُ إليه ، من قريب أو من بعيد ، تجاهله قيامَ (فن للحزن) متين القواعد ، ثابت الأصول ، مفصَّل الفصول . فالدكتور طه بك أجلّ من أن يتجاهل شيئاً ليُمارَّ صاحبه في الحوار !

وأكبرُ الظن أن الدكتور ، على علمه الواسع بفن الحزن القديم ، وعلمه الضيق بفن الحزن القائم في مصر إلى الآن ، لم يرَ شيئاً منهما قادراً على أن يؤدي مطالبَ العصر الحديث ، وكذلك أسقطهما من الحساب . لأن العصرَ الحديثَ عصرُ الجماعات والشركات والقوميات ، لا عصر الفرديات التي لا تتجاوز أقطار الأشخاص . هو

(١) عدد الميت بتشديد الدال الأولى ، عد مناقبه ووصفها .

العصرُ الذي ينبغي أن تُندَب فيه المرافق العامة ، وتُبكى المنافع القومية . وهذا حقٌّ لا ريب فيه ، وهذا هو الأشبه بتفكير أمثال الصديق العظيم .

بيْد أن الدكتور ، مع هذا ، نراه يتهاون فن الحزن ، ذاهباً إلى أنه يكفي أن ينظر المرء في الحياة المصرية ، ثم يعود إلى نفسه ليفكر فيما رأى ، حتى يجد في هذا النظر وهذا التفكير مصادر حزن لا تنقضي وألم لا يزول .

لا يا سيدي الدكتور ، فليس الأمر بهذا الوضع من اليسر اليسير . فكلنا ينظر في الحياة المصرية ، وكلنا يعود إلى نفسه فيفكر فيما رأى . ومع هذا فلم يشق أحد منا حنجرته بصيحة ، ولا صك له خداً ، ولا تبادر له دمع غزير ولا رقيق ! .

إذاً لم يبق لنا بدٌّ من قيام فن الحزن قوي محكم ، عظيم الخطر ، بليغ الأثر ، مادامت المصالح العامة في مصر لا تستقيم قناتها إلا بثوران الأحزان وغليان الأشجان .

وإذا كان الفن القائم لا يواتي مطالب العصر ولا يحسن الترجمة عن حاجاته ، فلنعالج تحويله ، في رفق أو في عنف ، حتى يستطيع أن يقضي الحاجة ، ويُبلغ الطّلبة ويُنيل الأرب ، وذلك بإطلاق أصوات النّياحة في الأسباب العامة ، بدل إرسالها في الشئون الخاصة ؛ ولندع النّدبة والتعديد في ثكل الولد ، وهجر الزوج ، واتخاذ الضرة ، وسوء بخت البنت في زواجها ، وشقوة الولد ، وضياع السيد والعبد ، الخ الخ . ونصوغ الأناشيد في انحطاط مستوى التعليم ، وتدهور الأخلاق ، وتعطل الشبان من حملة عليا الشهادات ، وإهمال الانتفاع بمساقط مياه الخزان ، والإعراض عن الجد في استغلال الثروة المعدنية ، ومشكلة القطن ، والغلاء المصطنع ، وأزمة الزواج بين الشباب ، وإيثار المحسوبيات على الكفايات . ولا بأس بقرض أنشودة الموظفين المنسيين ، في زوايا المصالح والدواوين . الخ الخ ، مما لو طرّحه الناظمون نسجه ، ورقّقوا لفظه ، وجوّد الملحنون تلحينه ، وأجروه في نغم بائس حزين كالصبا والرمل مثلا ، ثم أحسن النائحات أو النائحون ترتيله وتوقيعه ، لأحزن وأبكى ، وأشجن وأشجى ، وهيج الزفرة ، واستدر العبرة !!! .

وكذلك نرى سريعاً مرافق البلاد ، وتزول عنها أسباب الضعف والفساد !

وأرجو ألا تكون شخصية اللجنة التي يعهد إليها بهذا الإصلاح العظيم أو (جهة الاختصاص) . مما يكفّ عن مباشرته أو يعوّق تحقيقه .

ولعل من الخير في هذا الباب ، أن يُعجل بإنشاء كرسيّ (لفن الحزن) الحديث في كلية الآداب .

عبد العزيز البشري

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي:
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ٦ مليم

أبو العلاء ودار العلم ببغداد

اتخذ أبو العلاء الكتاب صديقاً يغنيه عن ود الناس ، وسميراً يحدثه بأخبارهم ، وأستاذاً يطلعه على ما خفى عليه من العلم . وشأنه فى ذلك شأن من نشأ على الرغبة بالناس ، وربى على المحبة للعلم ، واستنار بهدى العبقرية ، وغنى عن التخرج على الأستاذ . عرف أبو العلاء العالم بالكتب ، وخاض غماره لأجل الكتب ، ثم عافه ولكنه لم يترك الكتب . وهناك قصة فى ذلك تركت فى نفسه أثراً عميقاً .

وافى أبا العلاء خبر دار العلم التى أنشأها سابور بن أردشير لسنين خلت ، فنازعته نفسه إلى ارتيادها لمجاورة الكتب أصدقائه فيها ، ومما زاده رغبة فى ذلك أن أولئك الأصدقاء منعمون فيها ، كثير عددهم ، يجتمع إليهم الأدباء والعلماء ، فيتكلم من له فقه ومعرفة ، ويناقش من له حكمة ورأى ، ويستمع من فى نفسه المحبة لذلك ، فاذا ما اختلفوا فالكتب تفصل بينهم ، ثم إذا طرأ عليهم الملل ، عادوا إليها ، فبددت ضجرهم وأوقدت نار همتهم .

ولكن الطريق بعيد ، والسفر عسير ؛ فهل يقدم على تلك المشقة لايثاره الاقامة بدار العلم فحسب كما يدعى ؟ إن كان فى ذلك ما نستغربه ، فلك أن تقول مع من تعمق فى درس حياته إنه كان له مآرب أخرى فى رحلته ، وكذلك تجمله يقصد بغداد فرحاً نشيطاً .

كان عليه بعد أن دخل دار السلام ، ونزل فى سويقة غالب ، أن يبحث عن السبيل لارتياد دار العلم والاقامة فيها ؛ ولم يطل بحثه ، فقد حدث يوم دخوله بغداد أن توفى أبو أحمد الموسوى سيد العلويين وكبيرهم ، والد الشريف الرضى ، والشريف الرضى كان ناظر دار العلم ، وبذلك جاءت لصاحبنا فرصة فى كسب عطفه ، فرثى والده بقصيدة ممتعة ، فكان أن اتصل به ، وقص عليه ما ينشده من سكنى دار العلم ، فأبدى الشريف سروراً فى تحقيق تلك الرغبة ، وأمر أن يخلى له بيت فى دار العلم يليق به ، وأمر أن يعنى به ويخدم .

ها هو حلمه يتحقق . وها نحن أولاء ندخل معه دار العلم ، « فنشاهد أنفس مكان » زين بالنقوش وزخرف بالرخام ، وتعددت فيه الأواوين الكبيرة ، وكثرت فيه البيوت لسكنى العلماء اللاجئين : بيوت أنفق عليها بسخاء ، ليكون العيش فيها رغداً . وعلى أن شعور صاحبنا برفاهية السكنى قوى فيه اللذة والتنعم ، فإنه كان يحن إلى التمتع ببيوت العلم أكثر من حنينه إلى بيوت السكنى ، فهلم بنا معه إليها . لندخل حيث يعمل خازن دار الكتب أبو منصور محمد بن على الكاتب . ما أكثر سرور هذا الخازن برؤية أبى العلاء وما أجمل ترحيبه به ! يعجب صاحبنا بأدب الخازن وحسن حديثه ، فيحمده على كرم وفادته ، ثم يأتى المشرف (على الخازن) أبو أحمد بن على ، فيتقدم بحيى الضيف ، ويتلوه قوام الدار يسعون لرؤية ذلك الشاب الكفيف الشاعر الذى حل عندهم ، فيوصيهم خازن الدار برعايته وخدمته .

ثم يأخذ الخازن بيده ، ويسير معه يطلعه على الدار وترتيبها ، ويعلمه أن عندهم فهرساً للكتب صنف على أقسام العلوم . ثم يمر به أمام الخزائن وهى مرصوفة على جدران البيوت ، صنعت من الخشب المزوق ، وعلقت بالأستار على أبوابها ، وفيها الكتب منضدة على الرفوف ، تفوق فى العدد عشرة آلاف مجلد . ويذكر له أن آثار ابن مقلة الذى كان ينسخ فى حلب لسيف الدولة منذ سنين كثيرة عندهم ، منها المصاحف والدروج الكثيرة بخطه المنسوب وقلمه المشهور . ثم يسير به فى أزج حسن ، تربع فيه أناس ، فيقول له إن

هذا الأزج خصص للقراءة، وإن القراء فيه من وجهاء الناس وعلمائهم وذوى الشهرة بينهم . كالوزير أبي القاسم المغربي وأمثاله ، وإنهم ينهمكون كل يوم في قراءة الكتب والبحث فيها . ثم يقوده إلى ناحية جلس فيها النساخ ، ينقلون الكتب ، وصرير أقلامهم يعزف نغمة العلم . ويذكر له أن فتاة وليت أمر إخراج الكتب إليهم ، اسمها توفيق السوداء ، تحسن خدمتهم ؛ ويعلمه أن من هؤلاء الوراقين من ينسخ لنفسه ، وأن منهم مأجورين ، يورقون للرؤساء وأصحاب الخزائن ، وأن منهم من يحتفظ بنسخه ، ليعرضها في سوق الوراقين . ويقول له إنهم إذا فرغوا من نقلهم ، خلوا يقرءون نسخهم ويعارضونها ، ثم يكتبون عليها أنهم نقلوها من دار العلم ليثيروا بذلك رغبة طالب اقتنائها ؛ ذلك أن نسخ دار العلم أحسن نسخ في العالم وأصحها ، لما عليها من تعليقات العلماء ، وتصحيحهم وسماعاتهم ، وقد انتخبت من أثمن الكتب وأندرها ومن أنواع العلوم جميعها حتى الفلسفة وما إليها .

يلجأ به إلى حلقة الجدل والدرس ، فيجد أستاذاً قد اعتلى كرسيه ، وأحاط به تلاميذه ، وهو يلقى عليهم درساً في اللغة ؛ ثم يتابع به السير فإذا به يرى رهطاً انطلقوا إلى مناظرتهم ، فيصغى إليهم ، فيسمعهم يتحدثون في أمر العقل وتحسينه وتقبيحه ؛ وفيهم رجل يدعى أن العقل أساس العلم والفقه ، وأن الله زين به الإنسان ؛ وآخر يجيبه أنه لو كان كما قال لما حكم الشرع بإيلام الحيوان ، وجعل ذبحه تقرباً إليه وقرباناً ، مع أن العقل يأبى ذلك وينفر منه ، فيعجب بحسن جدلهم .

يتقدم فيرى شيخاً قد تصدر بين فقهاء ، قد أحدقوا به ، ويسمعه يشرح لهم باباً من أبواب الفقه ، فيدرك من حديثه أنه ينحو نحو الشيعة ، ويدعو لهم بأسلوب مجازى ليس فيه تعرض صريح إلى إظهار الدعوة ؛ فيعرف أن منشئ دار العلم وناظرها قصدا منها نشر التشيع وشأنهما في ذلك شأن مؤسسي دور الكتب التي رآها في مختلف رحلاته ؛ وكلهم شيعيون اتخذوا خزائن العلم سبيلا إلى نشر التشيع .

ثم يتجه به أبو منصور الخازن نحو حلقة احتدم الجدال فيها ، والقوم غارقون في بحر جدلهم ، يريدون أن يكون معنى اللفظ الفلاني على الشكل الذي يريدون ، لا على شكل آخر ؛ فيعجبه حديثهم ، ويلاقى في نفسه ميلاً طبيعياً ، فهو قد نشأ على دراسة اللغة وتتبعها ، فيرجو أبا منصور أن يتريث به في هذه الحلقة فيفعل ؛ فيأخذ صاحبنا جانباً منها وينصت إلى البحث ، فيرى أنه لم يعد رؤية علماء في اللغة بلغوا درجة هؤلاء ، فتنازعه نفسه إلى أن يشترك في موضوعهم ، فيعترض صاحب القول منهم ، ويرشده إلى الصواب من أمره ، فتلتفت الجماعة إليه ، وكأنهم لم يشعروا به لانهماكهم في البحث ، فتأخذهم الغرابة من شكله ، ويتمتم بعضهم بأنه الوافد الجديد إلى دار العلم ، ويذكر بعضهم أنه سمع له قصيدته في رثاء أبي أحمد الموسوى ؛ فيقبلون عليه ، ويطلبون إليه تفسير ما أشكل عليهم من كلامه ، فيفعل ويعجبون ؛ ويعجب خازن دار العلم ويكبر علم ضيفه ، فيقر النفس على دعوته إلى مجتمعاتهم وأحاديثهم الخاصة ، فيفاتحه برغبته فيسر صاحبنا بذلك ؛ ويكون قد أتعبه ذلك اليوم ، فيطلب أن يخلو بنفسه ، فيعود إلى بيته ، ويستلقى على فراشه ، ويطلق لنفسه الخيال ، فإذا به يصور له سعادته ، وإذا به يطربه ويأخذ بمجامع نفسه ، فيحلو له العالم ، ويتساءل في نفسه : أحق أنه حصل على غايته منه ، وهو من تضافرت النحوس عليه ؟

وكان يوم الجمعة ، فقاده أبو منصور إلى دار شيخ الأدب في بغداد ، وأحد شيوخ الشيعة عبد السلام البصرى

خازن دار العلم قبل أبي منصور . وهنالك تبدو لأبي العلاء نواح علمية جديدة ، تزيد في سروره وبهجته .

وانقطع صاحبنا إلى هذه الحياة وسر لها ، وطفق يقرأ الكتب في دار العلم ، فلا يقرأ عليه كتاب إلا حفظه ؛ وطفق يحسب الكتب قياناً تغنيه ، فينشد قائلا :

وغنت لنا في دار سابور قينة

من الورق مطراب الأصائل ميهال

وأخذ يقع على علم جديد يحفظه ويكتسبه ، فجادل فيه الناس ، فإذا ما ذكروا أن أحد أسماء الشمس (يوحا) رد عليهم قائلا : إن الصحيح لفظها بـ (بوحا) فإذا ما احتجوا عليه بكتاب الألفاظ لابن السكيت ، أحالهم إلى نسخه القديمة بدار العلم ، فراجعوها ، فوجدوا ما قال حقاً .

هذه الأيام من حياة أبي العلاء أيام السعادة والغبطة أنس فيها إلى الناس وعالم الدنيا ، وكان يشعر وهو بين دار العلم وبين كتبها بأكبر درجات السعادة ؛ ولكن لم يكتب له أن يحيي سعيداً وفيه آنذاك — وهو في ريعان الشباب ولم يكن قد اتخذ التقية مذهباً — محبة للصراحة والمجاهرة رأيه ، والاعتداد بنفسه .

وذلك حبه لشاعر المتنبي واستنكاره التعصب عليه يقضي على أمله بالناس وبالحياة ، فلنستمع إلى حادثته المشهورة مع المرتضى كما رويها لنا ياقوت :

« وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبي ، ويزعم أنه أشعر المحدثين ، ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبي نواس وأبي تمام . وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه ، فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي ، فتنقصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه ، فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله : « لك يا منازل في القلوب منازل » لكفاه فضلا .

« فغضب المرتضى ، وأمر فسحب برجله ، وأخرج من مجلسه وقال لمن بحضرته : « أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكره ؟ » فقيل : « النقيب السيد أعرف » . فقال : « أراد :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل »

وهو بيت من القصيدة التي ذكر أبو العلاء مستهلها .

لم يعد المعري ، بعد هذا الذي طرأ عليه ، أمل في الناس وفي صفاء الحياة ، وثقل عليه أن يعيش في دار العلم بين أناس كلهم من صنائع الشريف المرتضى ، أصبحوا يجفونه ؛ ولعل الغضب بلغ بالشريف المرتضى إلى أن أوحى إلى أخيه أن يبعده عنها ؛ ولعل أبا العلاء لم ينتظر أن يلمح إليه في تركها ، فأزمع على الخروج منها ، والخروج من بغداد أيضاً فهي عنده كل بغداد .

ولما عزم على ذلك ، وسار الخبر في المدينة ، هرع الناس إليه يحاولون إقناعه بالنكوص عن رأيه . ولا نقول إنه جافى الذين اجتمعوا إليه ، ولكنه لم يجبهم .

رحل من بغداد ، وقد خرج عدد كبير من الناس لوداعه . وعاد إلى المعرة وانقطع فيها ، يزهد في الدنيا ويدعو نفسه رهين المحبسين ؛ ولكنه ما زال يذكر دار العلم ويحن إليها ؛ وهو يذكرها حتى في جنته من رسالة الغفران ، ويذكر أهلها وحلقاتها ، وهو إذا صور اجتماعات الجنة والجدل فيها تصور دار العلم وجدالها ، وتصور صغار الأمور فيها ، حتى توفيق السوداء التي صارت في جنته « أنصع من الكافور » .

ما زال يكاتب أصدقاءه في دار العلم ، ويذكر لهم حنينه إلى دارهم ، وأنه « لو قدر لم يقدح إلا بمرخ ولا سكن بلداً غير الكرخ » ، وفي الكرخ كانت دار العلم ؛ ولكنه لا ينسى أن يلوح لهم بالخصام الذي جرى له ، ويلوم الناس وبسوء حظه ، ويندب ذلك ويرثيه ، حتى إن خاطره كان يفعم بذكرى دار العلم فتضطرب نفسه المتزهدة شوقاً فيتمثل قائلاً :

(البقية على الصفحة التالية)

فى سبيل انصاف الفلاح

كيف تقوم العلاقة بين مالك الأرض الزراعية ومستأجرها ؟

للأستاذ محمد عبد البارى

شكر وعتاب :

تفضلت « الثقافة » بنشر كلمة لى باقتراح معين يساعد على توفير بعض القوت لصغار الزراع ، فلها منى جزيل الشكر على ما تفضلت به . أما ذلك الاقتراح فهو الأخذ بمبدأ التدرج التصاعدى ، وبمبدأ إعفاء حد أدنى من الضريبة فى أمر ضريبة الأراضى الزراعية ، كما أخذنا بهما فى أمر ضريبة الايراد . وأردفت تلك الكلمة بأخرى أقترح تقرير الالتزام العلاجى بالقرى لتوفير أسباب العلاج والوقاية لهذا النفر من أبنائنا ، وهم الغالبية والأعمدة التى يقوم عليها صرح الجماعة المصرية . لكن الجلة — على ما يظهر — لم تجد من الملائم حشر كلتى العارية بين درر الأدب السائغة التى يحويها كل عدد من أعداد الصحيفة الراقية ؛ بيد أنى أرى فى الجرعة المرة بعض الشفاء من أدواء هذا المجتمع الكثيرة . وأعلم أن القائمين على تحرير الجلة صفوة مختارة من إخواننا ، أخذوا أنفسهم منذ ربع قرن بالعمل المجهد المتواصل لرفع شأن هذه البلاد والنهوض بها . ولعلهم — مثلى — يؤمنون بأن الفلاح محتاج إلى مناصرتهم وعونهم لإيصال صوته الخافت إلى المثقفين ، ليأخذوا بيده ، ويرفعوا عنه حيفاً أكتنفه طول حياته وفى جميع أدوار التاريخ المصرى . من أجل هذا أسجل هنا عتابى ، وهو عتاب الصديق الصدوق .

احصاء :

اتباعاً لمنهاجى فى البحث أسوق هذا الاحصاء المختصر ليعيننى على الابانة عن غرضى وليساعد القارىء على تتبع الفكرة . قد لا يسيغ الكثيرون الأرقام والعمليات الحسابية . ولكن قوة الاحصاء فى الاقناع تبرر إيراده .

يبلغ عدد ملاك الأراضى الزراعية بمصر نحو ٢٠٥٦٠٠٠ مالك ، منهم نحو ١٣٠٠٠ يملكون أكثر من ثلث الأراضى الزراعية أو ما يقرب من نصفها . ومنهم نحو ١٣٧٧٠٠٠ يملك الواحد فداناً فأقل . ومنهم نحو ٥٢٤٠٠٠ يملك الواحد منهم بين فدان وخمسة أفدنة . ومعنى هذا أن نحو ١٩٠٢٠٠٠ يملكون أرضاً زراعية لا تفى بكفاف العيش . فالفريق الأول منهم يملك نحو ٥٣٠٥٠٠ فدان ، والفريق الثانى يملك نحو ١١١٠٠٠٠ فدان ، ومتوسط ما يملكه المالك أقل من ٨ و ٠ من الفدان . فلابد لهؤلاء أن يستأجروا أرضا زراعية ليستطيعوا الحياة ، إذ لا مهنة لهم سوى الزراعة . ويقرب من هذا العدد عمال

فوالله ما أدرى إنا ما ذكرتها

اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

لقد كانت تلك الدار عزاء لأبى العلاء فى انقطاعه عن الناس ، وكانت معيناً له فى زهده . أوليس الناس يعيشون بالذكرى أكثر مما يعيشون بالواقع كما قال الشعراء ؟ وهل كثير على أبى العلاء أن يكون له يوم سعادة ، يسلو بذكراه فى حياته التى أرادها متقشفة حبيسة ؟

(دمشق) يوسف العش

زراعيون يحترفون الزراعة ولا يملكون أرضاً . ولا بد أن يستأجروا أرضاً أو يعملوا أجراء لدى كبار الزراع ولدى المستأجرين . فاذا علمنا أن مجموع الأراضي الزراعية ، عدا ماحبس بالوقف على وجوه الخير ، وعدا ماتملكه الحكومة ، هو نحو ٥٦٠٠٠٠٠ فدان ، يمكن تقدير المساحة المعروضة للاستئجار بنحو مليوني فدان . ولكن ليس هناك أساس عادل لتقدير قيمة الايجار .

الأساس العادل لتحرير قيمة الايجار :

تبلغ قيمة إيجار الفدان الواحد أحياناً ١٥ ج فى العام حتى بالقرى البعيدة عن المدن ! ومتوسط الايجار بمصر يصعب تقديره على وجه التحقيق . لكنه لا يقل عن ٨ ج سنويا فى المتوسط للفدان . قد تتقاضى الجهات الخيرية والجميات والحكومة أقل من هذا كثيراً . ولكن الوسطاء الذين يتعاقدون مع هذه الجهات ، وهم كبار المستأجرين ، يؤجرون لصغارهم بالقيمة التى ذكرت فى المتوسط .

لكن القيمة الايجارية للفدان ، فى المتوسط ، طبقاً لتقديرات الحكومة أخيراً هى نحو ٦ ج للفدان الواحد . وأساس هذا التقدير المعاينة على الطبيعة والمشاورة والمداولة باشتراك رجال من المالية والمساحة والفلاحين ملاكاً ومستأجرين . فالأساس الذى يبنى عليه التقدير سليم فى الجملة . وهو لهذا أساس عادل . ومعنى هذا أن صغار المستأجرين ، وعددهم وافر كما تقدم ، يدفعون فى المتوسط جنيهين عن كل فدان فى العام فوق القيمة الايجارية الرسمية . وهذا يعنى أنه ينتزع من قوتهم ما قيمته أربعة ملايين من الجنيهات فى العام . وأقول إن هذا المبلغ ينتزع من أقواتهم لأن الفدان لا يغل فى المتوسط ثمانية جنيهات فى العام ، فيضطر المساكين إلى الاقتطاع من أقواتهم للوفاء بعقودهم إذا ما أمكن هذا الوفاء . والواقع أنهم يعيشون دون الكفاف ليحاولوا إبراء ذممهم طبقاً للعقود . وهكذا تجوع الغالبية ولا تقوم بالتزاماتها . هذا هو بعض السر فى فقر الفلاح وفى مرضه وفيما يتبع الفقر والمرض من علل . والوسيلة الفعالة لعلاج هذه الحالة القتالة هى جعل القيمة الايجارية الرسمية حداً أعلى لا يصح تجاوزه، ولو رضى المستأجرون . ذلك لأننا نعلم أن هذا الرضا تدفع إليه الحاجة وهو رضا غير صحيح . وطريق تنفيذ هذا عملا هو وضع تشريع بهذا التحديد . ونحن نعلم أنه ستكون محاولات شتى للتخلص من قيود القانون ، ولكن يجب أن يعمل ترتيب ما لضمان تنفيذ القانون ومحاربة التحايل . ولهذا نظير وهو تحديد حد أعلى لفائدة القروض لمنع الربا الفاحش . فالمرابون يتحايلون على التحلل من قيود القانون ، والقانون مع هذا يرتب ما يقاوم به هذا التحايل . وإذا لم يكن فى الاستطاعة منع التحايل منعاً قاطعاً فانه لابد من أن يؤثر التشريع ، ويكفى أن يعلم المتعامل أن القانون يحميه بعدم سماع الدعوى فيما زاد على الحد الأعلى ليستشعر بعض الحرية . ولا بد مع الزمن أن يفعل القانون فعله . ولا ريب فى أن توفير أربعة ملايين من الجنيهات ترفع من مستوى عيش الفلاح . ولا يقاس بهذا المبلغ العظيم ما تستجديه وزارة المعارف تارة ، وما تفرضه على أولياء أمور التلاميذ الرهقين تارة أخرى ، لتجد الغذاء الكافى لتلاميذ المكاتب العامة . ومع أن الفرق عظيم بين هذا المبلغ والمبلغ الضئيل الذى يمكن الحصول عليه بوسائل وزارة المعارف ، فإن الأثر الأدبى أهم ؛ ففى الحل الذى نقترحه لا يشعر الطفل ووليه بشىء من الذلة .

اعتراض والرد عليه :

تحدثت إلى كثير من رجال الحكومة فى اقتراحى هذا ، بعد أن آنست منه ميلا أكيداً إلى الاصلاح ، وعرضت له

اقتراحات عملية تحقق غرضه . وقد سمعت منه أقوالاً لا تصدر إلا عن مفكر عالم حساس . فقال هذا الكبير العالم رداً على ما عرضت :

— إن هناك ثلاث مسائل يجب أن تسير معاً لتحقيق ما نرجوه .

«فأولى هذه المسائل تخفيض سعر فائدة القروض المؤمن وفاؤها بحقوق عينية على الأراضي الزراعية . فالفائدة الحالية على هذه القروض تكاد لا تبقى شيئاً من الريع أو الايجار الذي يتقاضاه ملاك الأراضي الزراعية في الوقت الحاضر . فتخفيض قيمة الايجار وبقاء الفائدة مرتفعة يوقع هؤلاء الملاك في الافلاس .

« وثانية هذه المسائل هي أجر العامل الزراعي الضئيل . لخمسة وعشرون مليماً يومياً ، هي مع ذلك لا تستمر طوال أيام السنة ، لا تكفي إعاشة فرد واحد ، وهي على التحقيق دون حاجة رب العائلة الضرورية . فتخفيض قيمة الايجار مع بقاء هذه الأجور على ضآلتها يفيد منه المستأجر دون العامل .

« أما ثالثة المسائل فهي وضع حد أعلى لقيمة الايجار وهذا طلب عادل ، بشرط تحقق المسألتين الأوليين »

ثم قال في عبارة تكاد تخفيها رزانة العالم ورصانة الحاكم : « يجب أن تذكر أن اقتراحك هذا وما أشرت إليه أنا يمس الأغنياء ، وأن الحكام أصدقاء الأغنياء . فهذا ، مع ظروفنا الخاصة وحاجتنا إلى التمويل ، يدعو إلى أخذ الأمور بالهوادة والرفق » .

ومع احترامي لهذه الشخصية النبيلة وتقديري لظروفنا المحلية ، لا أرى بداً من مناقشة الاعتراض ، على طريقتي الاحصائية . فالديون العقارية على الأراضي الزراعية لا تتجاوز ثلاثين مليوناً من الجنيهات . فاذا قسمت على ستة ملايين فدان أصاب الفدان الواحد خمسة جنيهات ! وليس هذا بالدين المرهق لأن فائدته بين ٢٥٠ م و ٤٥٠ م في العام عن كل فدان . على أن هذا الايراد فيه شيء من التساهل . فصغار الملاك يعز عليهم — مع فقرهم — الاستدانة . فأملاكهم مطهرة من رجس الدين . وعلى هذا الاعتبار يصيب الفدان الواحد ، في حال كبار الملاك ، عشرة جنيهات في المتوسط ، وفائدة هذا الدين بين ٥٠٠ مليم و ٩٠٠ مليم في العام ، ومتوسطها ٧٠٠ مليم في العام .

ثم هناك ملاك استغرقت الديون جل قيمة أملاكهم ، فبلغ الدين عن كل فدان نحو ٥٠ ج . لكننا لا تعنينا هذه الطائفة لأن ديونها ناجمة عن أحد أمرين :

الأول : إسراف جنوني في ضروب الترف واللهو العابث . والثاني : شراء الأراضي الزراعية بثمن مرتفع نتيجة عدم التدبر ، والاستدانة لوفاء الثمن .

ومع أن حماية جميع الأفراد من واجب الجماعة ، فإن حماية البريء الذي لا يجد كفاف العيش أولى وألزم ، خصوصاً إذا كان غالب السكان من هذا النوع .

على أننا لا نجد ما يحول دون إصلاح الحال بتناول الأمور جميعها ، مبتدئين بأسهلها وألزمها ، وهو تحديد قيمة الإيجار ، واتخاذ تقدير لجان الحكومة المشار إليها أساساً لهذا التحديد ، لأنه أساس عادل اشترك في وضعه رجال من الملاك والمستأجرين ؛ ومن رأينا أن هذا التدبير يشجع الأجراء على الاستئجار والعمل لحسابهم ، فيقل العمال الأجراء نسبياً ، وترتفع أجورهم تبعاً لهذه القلة وبنسبتها . ومع هذا فلا مانع من وضع حد أدنى للأجور الزراعية ، فالمسألة في الواقع جوهرية . وقد سبقنا الغربيون بعدة أجيال في تحديد حد أدنى لأجور عمال الصناعة وحاطوها بالضمانات الحائلة دون التلاعب والاتفاق الصوري .

تحول لا بد منه :

تحدث صديق العالم الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف إلى قراء الثقافة عن تنظيم الاحسان ، لتخفيف شدة الحياة وقسوتها عن كثير من مواطنينا . ونحن جميعاً نعلم أن الاحسان ، منظماً أو غير منظم ، ليس من صفاتنا القومية . هذه حقيقة مرة ؛ وعندي أن هذا النقص أظهر العلامات

على فقر الشعور الاجتماعي بمصر ؛ فلنبدأ الآن بتنظيم توزيع الثروة ، بتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر بقوة القانون ، لأنه أسرع فعلا من تحقيق الاحسان المنظم في هذه الجماعة . من واجب الجماعة الرشيدة توفير حاجة الانسان الضرورية لكل عضو من أعضائها ، فليكن هذا هدفنا .

إن الحكام أصدقاء الأغنياء ؛ فلنضع حداً لهذا ، وإلا ظللنا أمة عاجزة مستكينة خاضعة في أمورها لغيرها ، مهما كانت مظاهر الاستقلال الرسمية .

إن كل شخص من ثلاثة عشر ألف مالك يحصل على إيراد سنوي من الزراعة يبلغ ١٠٢٠ ج في المتوسط ؛ وكل شخص من مليون وتسعمائة ألف من الأخنس يحصل على إيراد سنوي من الزراعة يبلغ خمسة جنيهات في المتوسط . فإلى متى تحتمل الجماعة المصرية مثل هذا ؟

نحن أبعد الناس عن الآراء الشيوعية ؛ ولكننا نبغي إصلاحاً بتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر لأراضي الزراعة لتوفير كفاف العيش للثاني ، دون المساس مساساً ما بمطالب الحياة الجوهرية للأول ، بأخذ شيء طفيف من مخصصات ترفه لسد حاجات مواطنيه الضرورية . هذا هو ما سار عليه الغرب بتحديد الأجور ، وبنظام التدرج التصاعدي في ضريبة الايراد ، مع قوة الشعور الاجتماعي هناك ووفرة الاحسان ، وضعف هذا الشعور في بلادنا وندرة الاحسان .

إن سر تأخرنا هو إمعان أغنيائنا وكبرائنا في الترف ، ونسيان فقرائنا وغالبية السكان وعماد العمل . ولن ننهض ما دام الشطر الأعظم منا لا يجد كفاف العيش ، ولا يجد فرصة للحياة كما ينبغي أن تكون الحياة . لقد أدرك الجميع هذا كله . فلنعمل في جد وفي سرعة لاصلاح أخطاء الماضي ، لنتمكن من مسايرة هذا العالم في سباق الحياة .

(شبين الكوم) محمد عبد الباري

«حبيبها!»

لمكسيم جوركى

قص علىّ صديق القصة الآتية :

كنت طالباً فى موسكو ، واتفق أنى سكنت قبالة إحدى هؤلاء النساء الشبوهات السيرة . كانت من بولندا ، وكانت تسمى تريزا ، طويلة القامة ، ضخمة ، سمراء ، ذات حاجبين مشعثين أسودين ، ووجه خشن كأنما حفرت معالمه بفأس . وكان شعاع عينيها الحيوانى وصوتها العميق الغليظ ، ومشيتها المبتذلة ، وقوتها العضلية الهائلة توحى إلىّ بالرعب . وكنت أسكن أعلى طبقة ، وغرفتها أمامى ، فاذا عرفت أنها لم تخرج لم أدع بابى مفتوحاً . وكنت أقابلها أحياناً على الدرج أو فى فناء المنزل فتبسم لى ابتسامة ماكرة ساخرة . وقد أراها سكرى بعيون مغشاة ، وشعر مشعث ، ووجه قد تجهم تجهماً مرعباً . وفى مثل هذه الظروف كانت تحادثنى قائلة : « كيف الحال يا سيدى الطالب » وضحكتها السخيفة تزيد فى كرهى لها . ولقد وددت أن أبدل مسكنى حتى أتفادى مثل هذه المقابلات والتحيات ، ولكن غرفتى كانت ظريفة تطل على منظر رحب والشارع تحتها فى هدوء مريح دائماً . لذلك احتملت وصبرت . وفى صبيحة يوم بينما كنت أتقلب فى فراشى محاولا أن أجد سبباً يمنعنى من الذهاب إلى درسى ، فتح الباب ورن صوت تريزا التى لا توحى إلا الكره ، غليظاً على عتبة الباب : « أسعد الله صباحك يا سيدى الطالب » .

قلت : « ماذا تريدين ؟ » .

ورأيت وجهها مضطرباً يستجدى شيئاً ، ولم أكن تعودت من وجهها شيئاً كهذا .

قالت : « سيدى ، إنى أطلب إليك فضلا ، فهل تمنحنى إياه ؟ » .

ظللت حيث أنا صامتاً أفكر فى نفسى ، وأقول : « يا الله ، تشجع » . فأكملت كلامها : « أريد أن أرسل خطاباً إلى أهلى ، هذا هو ما أطلب » . وكان صوتها الحيى الخافت يرجو ويستعطف . قلت فى نفسى : « يا للشيطان ! » . ولكنى قفزت إلى مكتبى وأخذت قلماً وورقة ، وقلت : « تعالى هنا . اجلسى . أملى » .

فجاءت وجلست فى تقلقل على كرسى ، ونظرت إلىّ نظرة المذنب ، قلت : « حسناً ، وإلى مَن تريدين أن تكتبى ؟ » .

قالت : « إلى بولز لاف كاشبت فى مدينة سفيتزيانا على طريق وارسو » .

فقلت : « هيا ، عجلى ، ماذا تريدين أن تقولى ؟ » .

قالت : « عزيزى بولز ، حبيبى ، حبيبى المخلص ، حفظتك العذراء ، يا من قلبه من أخلص الذهب ، لماذا لم تكتب من زمن طويل إلى حمامتك الوادعة الحزينة الصغيرة تريزا ؟ » .

كدت أنفجر ضاحكاً ، « حمامتك الوادعة الحزينة الصغيرة ؟! » إن طولها أكثر من خمس أقدام ، وقبضتها تزن أقة أو تزيد ، ووجهها أسود كأنما تلك الحمامة قد عاشت حياتها فى المداخن ولم تغتسل قط ، ولكنى حككت نفسى وقلت لها : « من هو بولز هذا » .

قالت : « بولز يا سيدى الطالب — وكأنما قد جرح شعورها أن أغلط فى الاسم — إنه بولز الشاب صديق » .

قلت متعجباً : « صديقك ! » .

قالت : « ولم تعجب يا سيدى ؟ أليس لى الحق أنا الفتاة فى أن يكون لى صديق ؟ »

قلت : « ولم لا ! كل شىء جائز أن يكون . وهل هو صديقك منذ أمد ؟ » .

قالت : « منذ ست سنوات » .

قلت : « إ . . . . حسنٌ ، فلنكتب له الخطاب » .

وكنت — فى صراحة — على أتم استعداد أن أبادل هذا البولز مكانه لو أن مراسلته كانت شيئاً آخر غير تِرِزا ، شيئاً حتى أقل منها .

وقالت فى أدب : « أشكرك يا سيدى من كل قلبى على جميل صنعك . وقد يكون من الممكن أن أقوم لك أنت بخدمة إذا أردت . »

قلت : « كلا ، وبكل احترام أشكرك جداً على أية حال »

قالت : « قد تكون فى حاجة أن أخيط لك شيئاً ، جوربا أو قميصاً »

لقد أخجلتنى تلك الكتلة البشرية ، ولكنى أفهمتها فى جلاء ووضوح تام أنى غير محتاج قط إلى أى نوع من أنواع خدماتها . وخرجت .

ومر أسبوع أو أسبوعان . وكان الوقت ليلا وكنت جالساً على حافة النافذة أصفر وأفكر فى طريق أنجو فيها من نفسى التى تلاحقنى . وكان الطقس رديئاً ولم أكن أريد الخروج . ومن ضيق بدأت تحليل نفسيتى ، ولكن هذا أيضاً أصبح مملا . ولم أكن أهتم بأن أعاود عمل شىء آخر ، ثم فُتح الباب ، قلت : يالحسن الحظ ، إنسان دخل علىّ

« آه . ياسيدى الطالب ، أرجو ألا يكون لديك عمل مُلح »

إنها ترِزا يا مغيث .

قلت : « كلا . ماذا تريدين ؟ » .

قالت : « كنت أريد أن أسألك أن تكتب إلىّ خطابا ثانيا . »

قلت : « حسناً ! لبولز ، أليس كذلك ؟ » .

قالت : « لا . هذه المرة هو من بولز » .

— ما . . . . ماذا

قالت : « ما أغبانى ! إنه لى . ياسيدى الطالب أرجو معذرتك . إنه لصديق لى ، ليس صديقاً ، وإنما هو أحد من أعرف وله حبيبة يحبها مثلى أنا ترزا . هذه هى المسألة ألا تكتب خطاباً لهذه الترزا ؟ » .

وتأملتها فإذا وجهها مضطرب وأطرافها ترتعد . حِرْتُ أول الأمر ، ولكنى كشفت من الحقيقة فقلت : « ياسيدتى ليس هناك بولز وليس هناك ترزا ، ولقد كنت تقصين علىَّ سلسلة طويلة من الأكاذيب . أرجو منك ألا تعودى إلى التجسس علىَّ بعد اليوم . ليس عندى أية رغبة فى أن أبنى أية صلة بينى وبينك . أتفهمين ؟ » .

وفجأة بدت كأنها صعقت وكأنها تكاد تجن من الحزن ، وبدأت تبدل رجليها ، تقف على هذه ثم على تلك ، وتتمتم بشكل مضحك ، كأنما كانت تريد أن تقول شيئاً ولم تستطع ، وانتظرت لأرى النهاية . وشعرت أنى فيما يظهر قد ارتكبت خطأ جسيما عندما اتهمتها بأنها تريد أن تقودنى إلى سبيل الضلال . كان الأمر فيما يلوح يختلف تمام الاختلاف عما ظننت .

وابتدأت : « سيدى الطالب » ولكنها طوحت بيدها فجأة ثم دارت نحو الباب واندفعت خارجة . ومكثت حيناً فى حرج وقلق ، وأنصتُّ فإذا بابها يُدفع فى عنف . لقد غضبت المسكينة غضباً شديداً . وفكرت فى الأمر ملياً . لم يكن لى إلا أن أذهب إليها وأدعوها عندى وأكتب لها ما تريد .

دخلتُ غرفتها ونظرتُ حولى . كانت تجلس إلى طاولتها ورأسها بين يديها . قلت لها : « اسمعى ! »

وعندما أصل إلى هذا الجزء من قصتى أشعر أنى غليظ حقاً ، ولكن الواقع أنى قلت لها : « اسمعى »

فقفزت من مقعدها وجاءت إلىّ وعيناها تلمعان وتبرقان ، ثم وضعت يدها على كتفى ، وبدأت تهمس أو تطن بصوتها

العجيب العميق قائلة :

« هذا هو الأمر . ليس هنــاك بولز مطلقاً ولا ترزا أيضاً ، ولكن ماذا يضيرك أنت . أمن الصعب عليك أن تمر بقلمك على ورقة . أنت أيضاً ، أنت الصبي الصغير الأشقر ، ليس هناك أحد ، ليس هناك بولز ولا ترزا ، ليس هناك إلا أنا . ها أنت وصلت إلى ما تريد ، وعسى أن يفيدك شيئاً . »

قلت وقد أخذنى العجب من مثل هذا الاستقبال :

« ما هى القصة ؟ تقولين ليس هناك بولز . »

قالت : « نعم هذا هو الواقع » .

قلت : « وليس هنــاك ترزا . »

قالت « ولا ترزا . . . أنا ترزا » .

حقاً أنى لم أفهم شيئاً . وحلقتُ فى وجهها محاولاً أن أتبين من منا بدأ يفقد توازن عقله . ولكنها ذهبت إلى الطاولة وبحثت عن شىء ، ثم عادت تقول فى صوت المجروح :

« إذا كنت قد تكبدت المشاق فى الكتابة إلى بولز فهاك خطابك خذه . هناك آخرون يكتبون لى بدلا منك » .

وإذا خطاب بولز الذى كتبته فى يدها .

قلت : « اسمعى يا ترزا . ما معنى كل هذا ؟ وما الذى يدعوك أن تلجئى إلى غيرى يكتب لك وها أنذا قد كتبت لك الخطاب ، وها أنت ذه لم ترسليه بعد ؟ »

قالت : « أرسله إلى أين ؟ »

قلت : « إلى بولز طبعاً ، إلى هذا البولز »

قالت : « ولكن ليس هناك شخص بهذا الاسم » .

لم أفهم فى الواقع شيئاً مطلقاً . لم يكن أمامى إلا أن أذهب وأدعها . ولكنها بدأت تشرح :

— ليس هناك إنسان كهذا كما قلت لك

وأشارت بيدها كأنها هى أيضاً لا تفهم لماذا لا يكون هناك شخص كهذا

« ولكنى أردته أن يكون . ألست مخلوقة كسائر الناس أجمعين ؟ نعم . . . نعم أنا أعرف . . . أعرف طبعاً . . . ولكن لم أضر أحداً بكتابتى إليه . هذا مما لا شك فيه » .

قلت : « معذرة ! بكتابتك إلى من ؟ » قالت : « إلى بولز طبعاً » . قلت : « ولكن ليس هناك شخص كهذا »

قالت : « وا أسفاه ، وا أسفاه ! ولكن ماذا علىّ إن لم يكن له وجود . إنه غير موجود ، ولكنه قد وجد ، فأنا أكتب إليه ، فيخيل إلىّ أنه موجود حقاً وترزا هى أنا . فهو يرد علىّ أنا . فأعود أكتب إليه ثانية . . . » .

لقد أدركت الحقيقة أخيراً . وأحسست أنى مريض نفس خجل إلى أبعد حد . إن أمامى على بعد ثلاثة أمتار مخلوقاً آدمياً ليس له فى الوجود أحد يعامله برفق وحب . وهذا المخلوق قد اخترع لنفسه صديقاً .

قالت : « كتبت لى خطاباً إلى بولز فأعطيته إلى آخر ليقرأه لى ، ولما كان يقرأ أصغيت إليه ، وخيل إلىّ أن هناك بولز حقاً ، وسألتك أن تكتب إلىّ خطاباً ، من بولز إلى ترزا . وعندما يقرءون لى مثل هذا الخطاب أوقن أن بولز موجود دون شك . وهكذا تصبح الحياة ميسرة سهلة » .

قلت لنفسى : « يا للشيطان ! ما أغبانى ! » . ومنذ ذلك كنت أكتب لها بانتظام خطابين كل أسبوع . من ترزا إلى بولز ، وآخر من بولز إلى ترزا . وكانت تنصت إلى هذه الخطابات وأنا أقرؤها فتبكى بل تزأر بصوتها الأجش العميق . وفى مقابل تلك الخطابات التى تستدر عبراتها كانت تصلح من شأن ملابسى . ولكنهم أودعوها السجن بعد ثلاثة أشهر لسبب لم أعرفه . وأظنها الآن قد ماتت .

ونفض صديق « سجارته » وحلق فى السماء مفكراً ، ثم اختتم قائلا :

« إن الإنسان كلما ذاق مرارة الحياة تعطش إلى مسراتها . ونحن ملتفون فى أسمال بالية من الفضيلة ، ناظرين إلى غيرنا من خلال غشاوة من الاعتداد بأنفسنا ،

رمضان منذ نيف وتسعمائة سنة :

رمضان فى قصر الخلافة الفاطمية

رمضان كريم ، وربما لم يُغدق على أية دولة من كرمه ما أغدق على الدولة الفاطمية . ولم تبالغ أية دولة فى مقارضته كرماً بكرم ما بالغت هذه الدولة .

لم يستهل رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، حتى كان الله قد فتح على الفاطميين مصر ذات الخير المستفيض ، بعد أن كانت جيوشهم قد تحطمت على حافة صحرائها مراراً فى مدى خمسين سنة قبل ذلك التاريخ ؛ ثم كان فى رمضان أن أصبحت مركزاً لدولتهم المترامية الأطراف ، عند ما انتقل إليها رابع خلفائهم المعز لدين الله ، واستقر فى قصره بالقاهرة هو وأولاده وحشمه وخواص عبيده ، بعد أن خر ساجداً لله وهم من ورائه ، لسبع خلون من

هذا الشهر المبارك سنة اثنين وستين وثلاثمائة . وبالنصف منه بدأ المعز يباشر أمور خلافته الواسعة من مركزها الجديد ، فجلس فى الإيوان الجديد من القصر على سريره الذهب ، يستعرض الأشراف والأمراء والأعيان وكبار الموظفين ممن قدمهم إليه قائده جوهر قوماً بعد قوم ، وتقبل أمام الجميع هدية جوهر له من « ذخائر مصر » ، وكانت على ما ذكر المؤرخون المعاصرون أربعاً وثلاثين وأربعمائة دابة بين فرس مطهم ، وناقة بُختيّة ، وبغل مسرج ملجم ، ونجيب ؛ ثم نيف وتسعمائة ما بين صندوق ودرج وسفط ، حوت كل ثمين من الجواهر والأوانى الذهبية والفضية ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة .

وكان لرمضان مركز خاص بين مواسمهم وأيامهم ، فكانوا يحيون كل ليلة من لياليه لا تفوتهم إحداها بدون إحياء . وكانوا يأتون فيه من ضروب البر والخير الشىء الكثير ، مما كان يعم الرعية جميعها ، لا فرق بين الأغنياء والفقراء ، ولا بين الخاصة والسوقة .

فاذا بقى من شعبان ثلاثة أيام ، خرج القاضى يطوف على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر ، مبتدئاً بجامع المقس ، ثم بجوامع القاهرة ، ثم بالمشاهد ، ثم بالقرافة ، ثم بجامع عمرو ، ليتأكد من عمارتها وإنارتها بالقناديل ، وفرشها بالنظيف من الحصر كرامة لرمضان . وكان يسير فى ركاب القاضى خلق كثيرون ، منهم الموظفون الذين يريدون المباهاة والظهور ، ومنهم الطفيليون الذين يطلبون جمع الموائد من الناس ، ومنهم طلاب الربح يتصايحون بالأذكار والأناشيد .

مؤمنين بكمالنا المطلق لا نفهم شيئاً غير هذا .

والأمر كله يدور فى غباء ، ولكن فى قسوة أيضاً ، « الطبقة المنحطة » هكذا نقول . وكم أريد أن أعرف من هم هذه الطبقة المنحطة . هم قبل كل شىء آدميون ، لهم نفس اللحم والأعصاب والدم الذى لنا . طالما سمعنا هذا على مدى القرون ! ونحن ننصت إليه فعلا ، ولكن الشيطان وحده هو الذى يصرفنا عنه . ومن يدرى ؟ لعل صراخ الوعاظ بالدعوة إلى التراحم قد حطمنا . والواقع أننا نحن أيضاً منحطون فيما أرى ، منحطون إلى أعمق الطبقات من اعتدادنا بأنفسنا ، ويقيننا بعظمة شخصياتنا . ولكن . . . كفى ، إنها أشياء معادة قديمة قدم الجبال الراسخة ، قديمة حتى إن الكلام فيها عمل ، قديمة جداً . نعم . قديمة . هذه هى الحقيقة .

سهير القلماوى

واستن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ — ٥١٥ هـ) أن تغلق في آخر جمادى الآخرة من كل سنة قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر ، وتختم ، ويحذر من بيع الخمر ؛ ثم عمم الوزير المأمون بن البطائحي هـذا النظام في سائر أقاليم الدولة ، فكتب به إلى جميع ولاة الأعمال ، وأمرهم بالمناداة بأن « من تعرض لبيع شيء من المسكرات ، أو شرائها ، سرًّا أو جهراً في رمضان ، فقد عرّض نفسـه لتلفها ، وبرئت الذمة من هلاكها » .

وكان الخلفاء الفـاطميون يعظمون رمضان تعظيماً بالغاً في الروعة ؛ فني أول يوم من رمضان يرسل الخليفة إلى كل واحـد من الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم ، وإلى كل واحد من أولادهم ، وإلى كل واحدة من زوجاتهم طبقاً فيه حلواء ، وفي وسطه صرة من ذهب ، فيعم بذلك سائر أهل الدولة خير عميم .

ويركب الخليفة في يوم أول رمضان(١) بموكب رائع ، وقد امتطى أكرم الجياد وتزيا بأفخم الزي ، ونشرت مظلته بجانبه من لون ثيابه ، يحف به وجوه دولته كل على حسب مرتبته ؛ وحملة الباخر على الجانبين ، وصفوف العساكر فارسها وراجلها بزيهـا وزينتها عن يمينه وعن شماله ، والموسيقى تصدح على طول الطريق . ويخرج بهذا الموكب من باب الذهب (أحد أبواب القصر) إلى باب الفتوح ، ويسير الموكب خارج أسوار القاهرة إلى باب النصر ، فيدخل المدينة منه ثانية ثم يتوجه إلى القصر . وقد قام تجار القاهرة بتزيين طريق الموكب كل على حسب تجارته ، فيشترك في ذلك الجوهريون والصيارف والبزازون (تجار الأقمشة) وغيرهم طلباً لبركة بنظر الخليفة ، واحتشد على جانبي الطريق خلق كثيرون من القاهرة ومصر يحيون الخليفة ويتبركون بالنظر إليه . وبدرات الدنانير والدراهم تنثر أمام الخليفة فيعم فيضها الرعيـة . فإذا بلغ القصر دخله من باب الذهب أيضاً فيلقاه المقرئون بالقرآن الكريم على طول الدهاليز إلى أن يدخل خزانة الكسوة ليغير ثياب الموكب .

وكان للخليفة الفاطمي عادات ورسوم تبدأ بابتداء رمضان ولا تنتهي إلا بانتهائه . فني أوله توزع الكسوات من دار الكسوة على الأمراء والوجوه وكبار الموظفين والفقراء كل على حسب مرتبته . ويصرف من دار التوابل برسم الجامع الأزهر والجامع الحاكمي مقادير هائلة من الند والبخور . وفي منتصفه ينتقل الخليفة ومعه الوزير وبعض الخواص إلى دار الفطرة ، حيث السكر والعسل والزعفران والطيب والدقيق والفستق ، إلى غير هـذا كله من مواد صناعة الحلوى ، فيجدها في الحواصل «معبأة مثل الجبال» . فيقسم كل صنف إلى أكوام تختلف في الوزن ، فمن ربع قنطار وهو أكبرها ، إلى عشرة أرطال ، إلى رطل واحد وهو أقلها . ثم ينصرف الخليفة ومعه الوزير بعد أن ينعم على مستخدمي الدار بستين ديناراً . ويوجه صاحب الديوان من معه من الكتاب المسلمين إلى دار الفطرة ، ومع كل واحد منهم قائمة بأسماء طائفة من أرباب الرسوم وأمام كل اسم مرتبته . ويبـدؤون التفريق ، فيحمل الفراشون نصيب كل شخص إلى بيته

(١) ركوب الخليفة عند الشيعة في أول رمضان يقابل الرؤية عند السنيين . وذلك بأن السنيين يثبتون أول شهر الصيام برؤية الهلال مولوداً ليلته عملا بالحديث الشريف "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" . ولذا فرمضان يكون عندهم تاماً في سنوات وناقصاً في أخرى . أما الشيعة فأحبوا أن يتفادوا الاختلاف على رؤية الهلال وأن لا يصوموا الشهر ناقصاً ، فاعتبروا السنة القمرية ٣٥٤ يوماً ، وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة ، وأن كل ناقص منها فهو تال لتام ، وجعلوا رمضان شهراً تاماً ، ولذا فهو عندهم ثلاثون يوماً دائماً . ولما طبقوا ذلك عملياً على الصوم والفطر وجدوا أنهم يصومون ويفطرون قبل ما ينتهي بيوم في أغلب الأحيان . فأولوا قوله عليه الصلاة والسلام : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" بأن معنى صوموا لرؤيته أن صوموا اليوم الذي يرى في عشيته ، كما يقال تهيئوا لاستقباله ، فالتهيؤ سابق للاستقبال .

فى صينيات كبيرة أو صغيرة على حسب مقام الشخص . ومع كل صينية رقعة من كاتب الديوان فيها كلمة بليغة تناسب المقام . ويثبت أمام كل اسم فى القاعة اسم الفراش الذى حمل إليه رسمه حتى لا يضيع شيء . ولا يزال الفراشون يخرجون بالصينيات ملأى ويدخلون بها فارغة إلى أن ينقضى شهر رمضان « ولا يفوت أحداً شيء من ذلك ، ويتهاداه الناس فى جميع الأقاليم » . وتبلغ قيمة ما يفرق من دار الفطرة سبعة آلاف دينار .

ويمد السماط بقاعة الذهب من قصر الخليفة ، ابتداءً من اليوم الرابع من رمضان إلى نهايته ليلة ليلة . ويدعى إلى هـذا السماط طبقات الموظفين والأعيان وطائفة من الأمراء كل ليـلة بالنوبة حتى لا يحرموا الإفطـار مع أولادهم ، ويُدعى قاضى القضاة ليالىَ الجُـمَع فقط توقيراً له . وإذا حضر الوزير جلس فى الصدر ، وجلس الجميع منه كل بحسب مرتبته ، وإن لم يحضر أناب عنه أخاه أو ابنه . ويمتد السماط بطول القاعة العظيمة فيكون طوله ١٧٤ متراً وعرضه أربعة أمتار . « ويهتم فيه اهتماماً عظيما تاماً بحيث لا يفوته شيء من أصناف المأكولات الفائقة والأغذية الرائقة » . ويقوم الفراشون بخدمة الآكلين ويحضرون لهم كيزان الماء المبخر . وعند ما يحضر الوزير على السماط « يخرج إليه مما هو بحضرة الخليفة وكانت يده فيه ، تشريفاً له وتطييباً لنفسه ، وربما حمل لسحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر » . ويأكل كل من الحاضرين ما يقدر على أكله ويطيلون فى ذلك نظراً لتعدد الألوان ، فلا ينفصلون عن السماط إلا بعـد العشاء . ويأخذ كل واحد منهم لعياله ما يقدر على حمله « فيأخذ الرجل الواحد ما يكفى جماعة » . ويقول المؤرخون إن هذا لم يكن معيباً ولا منتقداً ، لأنه كان يؤخذ على سبيل البركة ، لا على سبيل الجشع والنهم . ويصل من السماط الشيء الكثير إلى أهل القاهرة من بعض الناس إلى بعض . ويتكرر هذا السماط كل ليلة إلى آخر رمضان . ويبلغ ما يتكلفه هذا السماط مدة سبعة وعشرين يوماً ثلاثة آلاف دينار .

ومتى أفطر الخليفة جلس فى الروشن (الكوة) إلى وقت السحور ومعه الوزير والأمراء وعِلْية القوم . ويأخذ المقرئون يتلون القرآن ويطرّبون به على مرأى منـه . ويحضر المؤذّنون فيكبرون ويذكرون فضائل السحور ويدعون للخليفة . ثم توضع المخاد للوعاظ ، فيذكرون فضائل رمضان ويمدحون الخليفة ، وينشدون الصوفيات . ثم ينقضى دور العبادة ويأتى دور اللهو فيبدأ الرقص ويستمر إلى ما بعد منتصف الليل . فتقـدم إلى الجميع جفان القطائف وجرار الجلاب ، فيأكلون ويشربون ويملأون أكمامهم ، ويوزع عليهم أحد الأستاذين ما أنعم به الخليفة عليهم . ثم يجلس الخليفة إلى المـائدة يحيط به خاصته ومن حضر السهرة معه . وتكون المـائدة معبأة من أصناف الحيوان والحلوى من بقلويات وقطائف وغيرهـا ما لا يحصى . ويومئ الخليفة فيأكل كل من الحاضرين ما يقدر على أكله ، ويحمل معه ما يريد « على سبيل البركة لأولاده وأهله ، لأن ذلك كان مستفاضاً عندهم غير معيب على فاعله » . وكل من تناول شيئاً قام وقبل الأرض أمام الخليفة وانصرف .

وفى التاسع والعشرين من رمضان يحتفل احتفالاً رائعاً بنهاية الشهر وختم القرآن الكريم . فيحضر الوزير ويتناول طعام الإفطار مع الخليفة . ويجلس معه فى الرّوشن يسمع المقرئين والمؤذنين وقد جلسوا تحت الروشن عادتهم كل ليلة يتلون ويطرّبون ويكبرون ويدعون للخليفة . وترسل السيدات من كرائم البيوتات وأهل القصور موكبيات وأوانى مملوءة ماءً وملفوفة فى الديباج ، وتوضع فى وسط المقرئين لتشملها بركة ختم القرآن الكريم . وفى

هذه الليلة الختامية يرتل المقرئون جميع القرآن من فاتحته إلى خاتمته . ومتى ختم القرآن حملت أوانى الماء إلى دور أصحابها فيتهاداه الناس على سبيل البركة . ثم ينشد المؤذنون الصوفيات ويهللون ويكبرون إلى أن تنثر عليهم الدنانير والدراهم من الروشن . ويقدم من القطائف والحلوى أضعاف ما يقدم كل ليلة فيأكلون ويملأون أكمامهم . ثم يخرج أستاذ بما يخلع الخليفة على الخطيب والمقرئين والمؤذنين فيأخذون ذلك وينصرفون داعين مكبرين .

***

هكذا كان يحتفل برمضان فى القصر الفاطمى . وعلى هذا النحو المتقدم — بل وأكثر منه — ما كان يصيب الشعب من الخير العميم فى هذا الشهر المبارك . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الوزراء والأمراء والأعيان وكبار الموظفين كانوا يحاكون الخليفة كل على قدرة موارده ، وأن الطبقة المتوسطة من الناس تميل إلى محاكاة الخاصة ، عرفنا إلى أى حد بلغت عظمة الاحتفال برمضان ، وإلى أى مدى عم البر والاحسان طبقات الشعب فى أيامه المباركة ؛ وأمكننا بهذه المعرفة أيضاً أن نتتبع أصول ما أدركنا بقاياه من مظاهر تعظيم هذا الشهر ، التى كادت تختفى وسط عجيج المدنية الحديثة ، التى طغت فيها « القهوة » على « الضيفة » ، والمفتشون على المقرئين ، والمنكرات على « القطائف وجرار الجلاّب » ، واستغرقت كماليات الترف ما كان مخصصاً لضروريات الزكاة ، وأكل التزاحم على الجاه والمناصب وحطام الدنيا ما أودعته الفطرة الحكيمة فى القلوب من نبيل العواطف وكريم التآلف والتعاطف .

أبو الفتوح رضوان

الاجابـــــة

عن أوجه الخطأ فى الصور الواردة فى صفحة ٢٩ بالعدد الماضى

١ — القدم اليمنى محل اليسرى ، واليسرى محل اليمنى
٢ — الغطاء ينقصه قطعة المعدن التى تكمل القفل
٣ — بهذا الوضع يستحيل فتح المحفظة ، لأن اليد المستديرة تعوق إخراج العصا المستطيلة
٤ — الجزء الحاد من المقص فى الخارج بدلا من الداخل ، فلا يمكن استعماله فى القطع
٥ — ظل الطفل إلى اليمين وظل الكلب إلى اليسار ، وهذا مستحيل
٦ — الابهام فى الجونت مجاورة للخنصر بدلا من السبابة ، كما هو الواقع فى الطبيعة
٧ — عمق الماء قليل ، بحيث يتهشم رأس من يحاول أن يغطس فيه من علو كبير
٨ — السلاح الصغير للمبراة مقلوب الوضع ، فيجب أن يكون حده إلى الجهة اليمنى بدلا من اليسرى
٩ — هذه الطائرة لا يمكن تسييرها ، لأنه ينقصها الدفة التى تكون رأسية فى الخلف

٢ – بدائع الفنون الاسلامية
بمتحف بناكى فى اثينا

لمحرر «الثقافة» الفنى

كتبنا فى عدد سابق من « الثقافة » عن نشأة متحف بناكى بمدينة أثينا ، وعما فيه من التحف الاسلامية النفيسة . واليوم نأتى ببعض صور أخرى ، لما فى ذلك المتحف من آيات الصناعة الاسلامية ، ولا سيما نسج الأقمشة النفيسة فى آسيا الصغرى .

والحق أننا – إذا استثنينا متاحف استانبول – رأينا أن متحف بناكى أغنى متاحف العالم قاطبة فى التحف الفنية التركية .

والمعروف أن صناعة النسج كانت زاهرة فى آسيا الصغرى منذ القرن العاشر الهجرى (١٦ م) ، ولا سيما فى بروسة واسكتارى . وامتازت المنسوجات التركية النفيسة برسوم الزهور كالقرنفل والخزامى والسوسن والورد وما إلى ذلك مما نجده أيضاً على الخزف والقاشانى الذى كان يصنع إبان العصر نفسه فى بعض أنحاء تركية وسورية .



علبة من العاج المصنوع بجزيرة صقلية
فى القرن ٧ هـ — ١٣ م

وكانت المنسوجات ذات الموضوعات الزخرفية الكبيرة الحجم تستخدم فى صناعة الستائر والأغطية ، بينما كانت سائر الأقمشة تتخذ لعمل الملابس النفيسة فى شتى أنحاء الامبراطورية العثمانية .

وتغلب على المنسوجات التركية الألوان : الأحمر والأخضر والأرجوانى ، كما أنها كانت تزين فى بعض الأحيان بخيوط الفضة المذهبة .

ولا تزال قصور بعض العظماء فى بلادنا عامرة بهذه التحف النفيسة من آثار العهد التركى . وفى الفرع الجديد لدار الآثار العربية تحفة طيبة من هذه المنسوجات ، خلفها المغفور له الأمير كمال الدين حسين .



قطعة من القطيفة المصنوعة بآسيا الصغرى
فى القرن ٩ هـ — ١٧ م



قطعة من « القطيفة » المصنوعة بآسيا
الصغرى في القرن ١١ هـ — ١٧ م



قطعة من « القطيفة » المصنوعة بآسيا
الصغرى في القرن ١٠ هـ — ١٦ م



قطعة من « القطيفة » المصنوعة بآسيا
الصغرى في القرن ١٠ هـ — ١٦ م



قطعة من « القطيفة » المصنوعة بمدينة
بروسة في القرن ١٠ هـ — ١٦ م



قطعة من « القطيفة » المصنوعة بآسيا
الصغرى في القرن ١١ هـ — ١٧ م

حول فن السرور

١ - هل يمكن أن يكون للسرور فن؟

للدكتور أبو العلا عفيفي

قرأتُ بشغف مقال الأستاذ أحمد أمين فى « فن السرور » ، والصورة التى رسمها لهذا الفن ، وقصور أو تقصير المصريين وأهل الشرق عامة فى أن يأخذوا بنصيبهم من سرور الحياة ولذاتها المشروعة ؛ كما قرأت المقال البارع اللبق الجاد الهازل الذى عقَّب به الدكتور طه حسين بك على مقال الأستاذ وعنونه « بفن الحزن » ، فانتهيت من المقال الأول إلى أن كاتبه لم يقصد بفن السرور إلى أبعد من أنه أسلوب خاص لحياة الفرد ، كغيره من أساليب الحياة التى يختطها كل منا لنفسه ، يمكِّن ذلك الأسلوب صاحبه من أن يقتنص السرور حيثما وجده وفى أى لحظة ظفر به ؛ وأنه لم يقصد بمقاله الدعوة إلى إنشاء فن للسرور يكون له جميع صفات الفن وخصائصه . وانتهيت من المقال الثانى إلى أن كاتبه قارب المعنى العلمى أو الاصطلاحى لكلمة « الفن » ، فتحدث إلينا عن فنّيّة « فن السرور » ، وكيف يمكن إنشاؤه ، ومَنْ هم أولى الناس — فى مصر أو غيرها — بوضع أسس ذلك الفن الجديد .

دعانى هذا وذاك إلى أن أتقدم لقراء الثقافة بكلمة أبحث فيها إمكانية « فن السرور » ؛ وهل يصح أن نتكلم عن « فن السرور » كما نتكلم عن فن الموسيقى ، أو فن التصوير أو فن الملاحة ؟ أم أن ذلك التعبير ضرب من المجاز نلمح فيه معنى ما — مهما كان غامضاً — ونمر به مرّ الكرام ؟

يعرّف الفن بأنه جملة منظمة من القواعد يراد بها تحقيق غاية عملية ؛ وهو بهذا يمتاز عن العلم الذى هو جملة منظمة من القوانين يراد بها تفسير حقيقة من الحقائق المتصلة بالعالم الطبيعى أو بالإنسان .

فالطب فن بهذا المعنى لأنه جملة قواعد ترمى إلى تحقيق غاية عملية هى الصحة ؛ وفن التربية فن لأنه جملة قواعد يراد بها تكوين الطفل عقلياً وبدنياً وخلقياً ، وإعداده للحياة الكاملة ؛ والملاحة فن لأنها جملة قواعد يراد بها تأمين حياة الملاحين فى عبورهم البحار ، وإيصالهم إلى مرافئهم سالمين ؛ وكذلك المنطق بمعنى من معانيه والموسيقى والتصوير ونحوها . ولا بد للفن — ليكون فناً بالمعنى الدقيق — من أن يستند إلى أساس من العلم النظرى ، فيستمد أصوله وقواعده من ذلك العلم : أى لا بد للفن — وهو الناحية التطبيقية لبعض قوانين العلوم النظرية — من أن يتخذ أساساً له بعض القضايا العامة التى وصل إليها العلماء فى ميادين البحث العلمى الحر . ففن التربية مثلا يعتمد فى وضع قواعد التعليم وطرقه ومناهجه على القوانين العامة التى اهتدى إليها علماء النفس فى بحثهم النظرى فى نفسية الطفل ؛ وفن التفكير يستند إلى القوانين العامة التى يخضع لها الفكر الانسانى من حيث هو بقطع النظر عن اختلاف الناس فى أجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم ؛ وفن الملاحة يعتمد على النتائج العلمية التى وصل إليها علماء الفلك والرياضة والجغرافية وغيرها . فاذا لم يقم الفن على أساس من العلم النظرى الصحيح ، كان ضرباً من العبث ، ومجالا للتخبط والفوضى ، أو أسلوباً من أساليب الدجل ، كما هو الحال فى تعليم غير الفنيين ، وطب غير الفنيين .

فاذا كان السرور فناً من الفنون ، أو إذا قدر له أن يكون فناً من الفنون ، فلا بد لمثل هذا الفن من أمرين :

(الأول) أن يضع القواعد ، ويسن النظم لتحقيق الرفاهية الانسانية ، فيبين للناس ما هو سار ، وما هو محزن ومؤلم ؛ ويرشد إلى مواطن السرور والبهجة فى العالم الطبيعى وفى ضروب النشاط الانسانى ، الفردى منها والاجتماعى ؛ ويوضح السبل التى يمكن بها اقتناص اللذات من خلال سحب الأحزان والآلام التى تتلبد بها سماء كل منا فى وقت ما من أوقات حياته .

(الثانى) لا بد له من أن يتخذ لهذه القوانين ، وهذه النظم والتعاليم أساساً من علم أو أكثر من العلوم النظرية . فاذا أخل بشرط من هذين الشرطين ، فليس فى نظرى فناً من الفنون ، ولا هو جدير وحقيق بهذا الاسم .

أما الأول فهو فى الحقيقة تحديد لمهمة « فن السرور » كما أفهمه ، وكما يجب أن يكون . وقد حاول وضع مثل هذا الفن بعض الأقدمين من فلاسفة اليونان كالرواقيين الذين تحولت الفلسفة اليونانية النظرية على أيديهم — تحت تأثير الروح الرومانية — إلى فلسفة عملية ، جعلت غايتها البحث فى الحياة الانسانية وكيفية تحقيق السعادة والرفاهية للانسان . فكانت الفلسفة فى نظرهم هى العلم بالوسائل التى تجلب السرور واللذة إلى قلب الانسان ، وإعداده لتقبل ذلك السرور أياً كان مصدره ، ولذلك أكدوا فى مذهبهم عدم المبالاة بالآلام ، والسخرية من مصائب الأيام ونوازلها ، حتى لقد قيل فى الرواقى إنه لا يعرف الألم ، ولا يرى فى الحياة إلا بشراً وسروراً وسعادة ؛ وفى هذا المعنى أيضاً يقول شيشرون الفيلسوف والخطيب الرومانى الشهور (١٠٦ — ٤٣ ق . م) مخاطباً الفلسفة : « أيتها الفلسفة . أنت المدبرة لحياتنا ، أنت صديق الفضيلة وعدو الرذيلة . ما نحن ، وما حياة الانسان لولاك ؟ » .

وأما العلم النظرى الذى يمكن لفن السرور أن يعتمد عليه ويستمد قواعده منه فأحد علمين : علم النفس أو علم الاجتماع ، أو العلمان معاً . إن السرور أسلوب من أساليب التعبير عن الناحيــة الوجدانية من الحياة النفسية ؛ فهل وصل علم النفس أو علم الحيـاة أو هما معاً إلى قوانين عامة عن الحياة الانسانية الوجدانية ، والعوامل العامة التى تدخل السرور إلى قلوب الناس جميعاً أو تحدث القبض أو الألم أو الامتعاض والحزن فى نفوس الناس جميعاً ؟ وإذا أخفق علم النفس أو علـم الاجتماع فى الوصول إلى قوانين عامة تخضع لها الحياة الوجدانية ، كما وصلوا إلى قوانين عامة تخضع لها الحياة الفكرية والارادية ؛ وإذا قرر علم النفس أن الحياة الوجدانية لكل فرد وحْدَةٌ خاصة بذلك الفرد لا يشاركه فيها غيره إلا بطريق المصادفة والاتفاق ، ألا يعد ذلك ضربة قاضية على كل أمل فى إنشاء فن لسرور بالمعنى الذى أسلفناه ؟ إن علم النفس الحديث قد وصل إلى بعض القوانين التى تتصل بالحياة الوجدانيــة والتى تصدق صدقاً عاماً على جميع أفراد الناس ، بل وأفراد الحيوان أيضاً ، ولكنها الحياة الوجدانية فى أبسط صورها ، أى الناحية الوجدانية التى تتصل بالأعمال العكسية أو الغرزية أو بإدراكات الحواس . فاذا ما ارتقمنا درجة أو درجات فى سلم التطور الوجدانى ووصلنا إلى اللذة فى عالم المعانى — بل فى عالم الحس والمعانى معاً — وجدنا اختلافاً بيّناً بين الناس ، بتفاوت بتفاوت أجناسهم وأعمارهم وبيئاتهم الطبيعية والثقافية مما لا سبيل مطلقاً إلى ضبطه أو توحيده .

فالسرور — كما يشير إليه الأستاذ أحمد أمين — نتيجة لتفاعل يقوم بين النفس والمحيط (المادى والمعنوى) الذى تعيش فيه النفس ؛ وما دامت نفس الفرد وحدةً خاصة به وعالماً خاصاً لا يشاركه فيه غيره ، فسيظل السرور الذى تُشِعُّه كل نفس (نتيجةً لذلك الانفعال) وقفاً على تلك النفس ذاتها وعلى ما فى تكوينها الخاص من مبادىء ومعان متصلة بالحيـاة الفردية التى اختارت أن تحياها .

وهل أدل على اختلاف الناس في هذه الناحية واستقلالهم في أحكامهم عما هو سار وما هو محزن، من أن الشيء الواحد، أو المنظر الواحد، أو القطعة الموسيقية أو الشعرية الواحدة، قد تغمر قلب فلان من الناس بالسرور، وتغشى جوانبه باللذة والبهجة، في حين أنها لا تحرك ساكناً في فلان الآخر، أو تغمر قلبه بالحزن أو تملؤه انقباضاً وامتعاضاً؟ ما أشبه الناس في انفعالاتهم الوجدانية المؤثر الواحد بأنواع الحيوان، ينفعل كل نوع منها انفعالا خاصاً به تقتضيه طبيعته والمؤثر واحد؛ وما أصدق المثل الانجليزي القائل: «إن الشفق الذي يرسل الدجاج لينام يدفع ابن آوى إلى الخروج ليسعى».

وخلاصة القول أن الحياة النفسية الوجدانية التي يعتبر السرور أخص مظاهرها لا ضابط لها ولا قانون، وأن الأحكام التقديرية التي تنبعث من الشعور الوجداني لا ضابط لها ولا قانون أيضاً، اللهم إلا قانون الفردية البحتة؛ وهذا معناه أنه لا أمل في إنشاء فن للسرور يتولى وضعه معهد من معاهد العلم أو وزارة من وزارات الحكومة.

ثم ما بال المصريين وأهل الشرق عامة — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — كاسفي البال كسيري القلب كثيري الحزن قليلي الحظ من السرور ومن كل ما تهبه الحياة من لذة وبهجة، حتى لقد يبلغ بالمرأة المصرية أن تبحث عن اللذة في البكاء والعويل، وأن تجد المتعة في التحدث عن الأموات في المآتم؟ ليس هذا في نظري لأن فناً من فنون السرور لا يزال مجهولا عند القوم لأنه لم يوضع بعد، أو لأنه وضع في الغرب، ولم يبلغ أمره إلى الشرق، ولا لأن المصريين أو غيرهم من الشرقيين أقل استعداداً للتمتع بلذات الحياة حيثما وأينما وجدت — وإن كان حرمانهم من التعليم ومن التكوين العقلي والخلقي والاجتماعي الصحيح جر عليهم حرمانهم من كثير من هذه اللذات. ولكن السبب الحقيقي في نظري أنهم قد أتيحت لهم جميع وسائل الحزن، ويُسِّرت لهم جميع أسباب التعاسة والألم، ولم يفتح لهم من أبواب السرور إلا القليل. لم يفكر أولو الأمر في الشرق عامة، وفي مصر خاصة، كما فكر إخوانهم الغربيون في خلق الوسائل وابتداع الطرق واقتناص الفرص لبعث السرور في نفوس الأفراد والجماعات. والناظر في حياتنا الاجتماعية العامة وحياتنا العائلية الخاصة، وحياة طلبتنا في المدارس والجامعة، أو خارج المدارس والجامعة، وحياة فلاحينا وعمالنا، يتبين له مقدار ما أعدت الحكومة وما أعدت الجامعة والمدارس، وما أعدت النقابات والاتحادات (على فرض وجودها!) بل ما أعده الآباء والأمهات من أساليب السرور لكل من يقع تحت رعايتهم من أفراد المجتمع. يطلب كل مصري السرور بطبعه كما يطلبه الناس جميعاً ويدأب في تحصيله كما يدأب الناس جميعاً، ولكنه إما ألا يجد وسائله على الاطلاق أو يجدها عظيمة النفقة غالية الثمن! أوجِدوا وسائل السرور ويسِّروها واجعلوها في متناول عامة الشعب. ابتدعوا من النظم في الحياة الاجتماعية ما يكفل تحقيق السرور. انتهزوا فرص الأعياد والحفلات الشعبية واقلبوها إلى أفراح شعبية حقة. أنشئوا أنشئوا وسائل السرور لا «فن السرور»، وأنا ضمين بأن المصري (المرح الطروب بطبعه) سيأخذ منها بحظ أوفى ويفوز منها بنصيب الأسد!.

أبو العلا عفيفي

٢ - فن السرور وفن الحزن

سيدي الأستاذ . . .

هل يمكن أن تسمح لمثلي أن يتوجه بلوم خفيف لك ثم نقد موضوعاتك فن السرور ؟

أريد أن أقول إن نظرة الفلاسفة لكل شيء جميلة شائقة تملك اللب وتقطع الحجة ، تتفق والمنطق والمعقول ، ولكنها تصنع عادة في سماء عالية من الفلسفة والعلم .

وإني لأتمنى أن يظهر في مصر فيلسوف ينام على الطوى لأنه لا يجد ما يأكله ؟ أو يضطر أن يلقي زوجته المريضة على باب المستشفى من الصباح إلى الظهر ، حتى يحضر طبيب المستشفى فيسألها عن اسمها ، ثم يصف لها الدواء بغير أن ينظر إلى وجهها ، فيحملها هذا على ظهره ، ثم على ظهر دابة يقطع بها آلاف الأمتار حتى يصل إلى جحره يسقيها الدواء لعله يكون بالصدفة الدواء الموافق . أو مضطر أن يفلح الأرض طول يومه والبلهارسيا تسري في جسمه تدميه وتمزقه .

نحن نريد فيلسوفاً مات له ستة أولاد أو سبعة بعد أمراض طويلة أو قصيرة ، لم تفلح فيها الوصفات البلدية ولا الأحجبة ولادواء المستشفى العمومي . أو ضرب أخوه بالنار لنزاع على معدية ، وقتل عمه لثأر بين عائلته وعائلة أخرى مرت عليه سنوات وسنوات ، أو جلد هو بالسوط لأنه رد على ضابط النقطة ولم يحن رأسه كالعبيد ، أو بيعت جاموسته التي يفضلها على زوجه وأولاده في المزاد العلني ، لأنه لم يجد ما يسدد به إيجار مالك الأرض لقلة المحصول وكساده .

نحن نريد فيلسوفاً يظهر بين الموظفين الذين لا يمتون لأصحاب الجاه أو النفوذ بقرابة أو بصلة أو بصداقة ، يتحملون ألم الحرمان من جميع العلاوات والترقيات . نريد فيلسوفاً تعلم حتى نال الشهادة ، وما زال يطوف في الطرقات يطرق أبواب الأعمال بغير جدوى ، واضطر في النهاية أن يعمل كاتباً ، مع أنه درس الحقوق أو التجارة .

فيلسوف كهذا يا سيدي في استطاعته أن يجلس إلى جواركم وأن يهمس في آذانكم أنكم تظلمون المصريين عندما تقولون عنهم إنهم غلوا في الحرص على الحياة ، وإنهم لرخاوة العيش عندهم انعدمت القدرة على الاحتمال ، فإنكم لن تجدوا شعباً في العالم يتحمل كما يتحمل المصري . إنه يتحمل الجوع والعري والفقر والاهانات والإذلال والجهل والظلم والقسوة والكبرياء والاهمال والمرض والموت ، صابراً ساكناً هادئاً . إن كلامك قيمة وجميلة وشائقة ومعقولة ومنطقية ، ولكنها ياسيدي أشبه بالمخدر الذي يعطيه الطبيب لمن يصرخ من جروحه وأمراضه ، بدلاً من أن يعالج تلك الجروح والأمراض ، وفي استطاعته أيضاً أن يهمس في آذانكم سائلا : أليس هناك علاج لذلك الجو الحزن الذي يعيش فيه المصريون إلا اصطناع السرور اصطناعاً ، والنصح باحتقار العالم وآلامه ، وأن يتناسى الناس ما هم فيه من ألم ومن بؤس ؟ أليس الأجدى عليهم أن نقف معاً نحن الفلاسفة ونقول لأصحاب السلطة إنكم تسيئون استعمال سلطتكم ؛ ولأهل الحكم إنكم تنفقون من وقتكم ومن جهودكم فيما لا يفيد ، قدر ما تنفقون فيما يفيد ، عشرات المرات ؛ ولأصحاب الأراضي والثروات خففوا الوطأة قليلا على عبيدكم ؛ والمربين والمعلمين إن نظام التعليم في مصر فاسد ، لأنه لا يهيئ رجل أعمال ؛ ولكبار الاجتماعيين إن نظام الأسرة فاسد ، وعليكم تقع تبعة فساده ، لأنكم لا تجدون في محاولة إصلاحه ؛ ولرجل الحكومة إن جميع الأعمال معطلة بين اللجان والمصالح والكتاب ، ومكتب الوكيل ومكتب الوزير ؟

ثم يستأنف ذلك الفيلسوف قوله : « إني مستعد أن أريكم أسباب الآلام جميعاً ومواطنها ، مستعد أن أريكم كيف عمت الفوضى والاستخفاف بمصالح الناس وبأرواحهم وبأموالهم وبصحتهم ، وأثبت لكم أن حل مشروعات

(البقية على الصفحة التالية)

الترجمـــــة الذاتية

(ترجمة الكاتب لنفسه)

كان جيته صادقاً حقاً ، موفقاً أعظم التوفيق ، حين أطلق على ترجمته لنفسه اسم « الشعر والحقيقة » ، فكل ترجمة ذاتيـة ، مهما يكن من دقة صاحبها ، وبراعته في الوصف ، وقدرته على التحليل والتصوير ؛ ومهما يكن من حرصـه على أن يكون صريحاً عارى الصراحة ، قاسياً في تشريح نفسيته والكشف عن نواحى حياته الحسـاسة المستورة ، هى لا بد مزيج اشترك في تكوينه عاملان متعارضان هما الحقيقة والخيال ، وكلا العاملين ضرورى ، وكلاهما أيضاً صادق .

فمن من الناس أقدر على وصف حياةٍ من صاحب هذه الحياة ؟ ومن أدرى منه بجهازها المعقد الدقيق وهو صانعها ؟ ومن أشـد إحساساً منه بها وهو بطلها الممثل لمآسيها ، العانى لأطوارها وأحداثها ، المبدع لمضمونها الروحى ومحتوياتها ؟ ألا إنه وحده هو الذى يستطيع أن يعرف الدوافع الحقيقية التى دفعته إلى ما قام به من أعمال لعلها أن تكون غير مقصودة ، أو مقصودة على نحو آخر غير الذى جرت عليه بالفعل . وهو الذى يدرك تمام الادراك ، أو على أقل تقدير هو أقدر النـاس على إدراك المؤثرات التى خضع لها في حياته الباطنة وحياته الخارجية الظاهرة ، والعواطف المختلفة التى تضطرب بها نفسه ، والشروعات الناقصة ، والخواطر القلقة التى أجالها في ذهنه . وما أشد حرص الانسان على أن يستر من أحواله عن الناس الشيء الكثير ! فللانسان رغبات وميول طبيعية ، وله نزعاتٌ نحو معانٍ لا تقره عليها الجماعة ، وتنكرها منه أشد الانكار ، فيحاول هو أن يحققها في غفلة منها ، فلا يعلم الناس من أمرها شيئاً .

هذا في داخل نفسه ، وهو في حياته الخارجية ليس بأقل قدرة . لأن الإنسان كالبؤرة الضوئية تتجمع فيهـا أشعة يكاد يكون من المستحيل على من هو خارج البؤرة أن يتبين مصادرها ، ويحصر مداها ، ويدرك أثرها ومقدارها ؛ فإن لبعض هذه الأشعة سبلا ملتوية معقدة ، ولبعضها الآخر مسارب خفية لا تستبين للناظر إلا عند أطرافها البعيدة ، أو لا تكاد تظهر إلا لدى طرف واحد ، هو المكان الذى تنتهى إليه ، أى صاحب الحياة التى تكونها هذه الأشعة .

ثم إن القدرة على التعبير عن التجارب الروحية لا تتوفر لإنسان ما من الناس كما تتوفر لمن يعانيها . فهو وحده القادر على الكشف عن شدتها النوعية ، ووصف الفروق

الإصلاح غير جدياً وغير مجدية ، فنتعاون جميعاً على إزالتهـا . وعند ما تزول الآلام التى مصـدرها الظلم أو ما شابه الظلم من الأسباب التى لا ترضى الله ولا ترضى الناس ، يصبح السرور فناً يجب على الناس أن يأخذوا به ويصطنعوه ليتغلبوا به على الآلام التى تأتى بها الأقدار . يقول للجميع : التمسوا السرور من أنفسكم ، وتناسوا الشقاء الذى يحيط بكم . افعلوا ما تشاءون والتمسوا السرور من أى طريق إلا الطريق الطبيعى ، فان هذا الطريق يتعب السادة وأشياعهم ويضايقهم .

سيدى الأستاذ . أسـباب قلة السرور في مصر والشرق واضحة ، وطرق علاجها أوضح . والسلام .

(ميت غمر) دكتور يوسف سعد

الدقيقة بين أطوار التجربة الروحية الواحدة ، وتلوينها بألوان لا نهاية لتدرجها . وفى هذه التجارب الروحية تتلخص حياة الانسان بمعناها الصحيح ، لأن بها وحدها يتميز الفرد الواحد عن الآخر . أما التجارب الخارجية فالعادى منها يكاد الناس جميعاً أن يشتركوا فيه ، والممتاز من بينها ليس فى الواقع إلا المظهر الخارجى للتجارب الروحية التى تقابلها ، والتى هى ينبوعها الذى تصدر عنه .

كل هذا يؤكد جانب « الحقيقة » فى الترجمة الذاتية ، فيكفى من يصف حياته أن يكون أميناً فى هذا الوصف ، مخلصا فى بيان حقيقتها ، لا تخدعه الأثرة ولا يجور به عن من سبيل الحقيقة الغرور ، كى يقدم لنا صورة صادقة كاملة لهذه الحياة التى حييها ، ولما عاناه من تجارب روحية ، وما مر عليه من أحوال وأطوار . فحياته سجل فليقرأ صفحاته ، وحياته مناظر متتابعة فليلتقط صورها ثم ليعرضها من بعد على الناس .

ولكن هيهات هيهات ، فدون ذلك أشد العقبات . فليست المسألة من السهولة واليسر بالقدر الذى يذهب بنا إليه الظن أول الأمر . فإن ثمة من العوامل الكثيرة ما يكاد يستحيل على المترجم لنفسه بسببها أن يعطينا عن حياته صورة دقيقة أو حتى صورة كثيرة القرب من الحقيقة . ولم يكن عبثاً أو تواضعاً زائفاً أن يصف جيتة ترجمته لنفسه بأنها « شعر » وخيال ، إلى جانب كونها « حقيقة » وصدقاً . وتاريخ هذا الفن من فنون الكتابة أصدق شاهد على ما نقول .

وأول هذه العوامل وأقواها الحياء . فلئن دفعنا الحياء الظاهرى — إن صح هذا التعبير — إلى ستر أجسامنا وعلى الخصوص الأجزاء الحساسة منها ، حتى أصبحت فكرة التعرى المطلق فكرة مخيفة يقشعر من تصورها ضمير الانسان اليوم ، بعد أن بلغ ما بلغ من سمو فى الحضارة وعلو فى التطور ؛ فأحرى بالحياء الباطنى — وهو الرقيب على جوهر الانسان وكيانه الروحى الحقيق — أن يكون أشد حرصاً على كتم ما نيط به حراسته من أسرار ، وأعظم ضناً بها من أن تكون مذاعة فى الناس . ومهما يكن من تنازع الحياء والصراحة ، فلن تستطيع الصراحة ، كائناً ما كان برودها وصفاقتها ، أن تقضى على الحياء قضاء تاماً أو شبه تام ، وأن تمنعه من أن يحدث أثره ، ويلعب دوره . بل إن الحياء نفسه قد يتخذ من الصراحة أداة غير مباشرة لتحقيق أغراضه ؛ وذلك بأن يكون المرء صريحاً فى ناحية خطيرة ، كى يستطيع أن يخدع الناس عن ناحية أخرى أقل منها خطورة فى نظر الناس ، ولعلها أن تكون فى نظره هو أخلق من الأولى بالستر والاخفاء ؛ فاذا كان رسو ، الذى بلغت الصراحة به فى « اعترافاته » حد الوقاحة الفجة ، لا يجد حرجاً فى ذكر أفضح المسائل الجنسية ، ولا يتورع من القول بأنه كان يرسل أبناءه إلى ملجأ اللقطاء ، فلعله لم يفعل ذلك إلا ليخفى حقيقة أشد إيلاماً بالنسبة إلى نفسه ، وهى أنه لم يكن له أولاد ، لأنه لم يكن فى استطاعته ذلك ، كما لاحظ إشتيفان تسفايج . فهذه الصراحة الفاضحة فى ناحية ليست إلا لحساب حياء فى ناحية أخرى . فاذا شاهدت واحداً من هؤلاء الكتاب الذكرن يلجأ إليها ، فاعلم مقدماً أن هناك عورة فيه يريد إخفاءها بطريق غير مباشر ، وذلك أن يوهمك بأنه صريح كل الصراحة لا يخفى عنك شيئاً .

ولا تحسبن الحياء مقصوراً على الناحية الجنسية وحدها ، وإن كانت هذه الناحية أوضح نواحيه . بل هو عام شامل ينتظم مرافق الحياة الانسانية جميعها ، فيدفع الانسان إلى أن يخفى ما هو عليه من نقص ، وما يعتور سلوكه ونشاطه من عيوب ؛ ويحمله على تزييف الواقع وتصويره تحت أضواء باهرة ، بتبديده ظلال الخطايا والنقائص .

فلا قِبَل للانسان إذاً بالتعرى ، سواء منه ما هو جسمى وما هو روحى .

ولئن كان الحياء عاملا سلبياً لا يقتضى من المرء إلا الصمت عن الخطايا وإخفاء العيوب ، أى أنه أداة دفاعية صرفة ، فإن هناك عاملا آخر إيجابياً يهاجم الحقيقة الفعلية والواقع فى غير ما تأثم ولا تحرج : فيكذب ويخترع ويموِّه ويضيف ، ويستبعد ويختار . ذلك لأن الذى يكتب تاريخ حياته لا يقصد به إلى العلم الخالص أو التاريخ الصرف ، بقدر ما يقصد به إلى قضاء حاجة فى نفسه ، وتحقيق غاية يرمجها من وراء هذا العرض لحياته . والموضوعية التى يتصنعها إيهام وتلبيس ، ومن ورائها يخفى أغراضه الذاتية المستورة .

فتراه أولا يختار الأحداث المهمة الضخمة فى حياته ، والوقائع الممتازة التى تدفع إلى الظن أنه عظيم ممتاز ، ساحباً ستار النسيان على الحياة العادية ، وكأن حياته لم تترك إلا من هذه الوقائع الممتازة وتلك الأحداث الخطيرة . وفى هذا الاختيار والاستبعاد تلعب إرادة القوة دوراً خطيراً من شأنه أن يعطى صورة ناقصة مشوهة لصاحب الترجمة الذاتيـة . والواقع أن هذه الوقائع والأحداث جزء ضئيل جداً من حياته .

وتراه ثانياً يخترع من الأسباب والدوافع للأعمال التى صدرت عنه مالم يكن ماثلا فى ذهنه حين عزم على القيام بهذه الأعمال . فأكثر هذه الأعمال جبرية لا اختيار له فى إتيانها ، وإنما اندفع فيها قهراً ، وسيق إليها قسراً ؛ أو قدر القيام بها على نحو آخر ، ورسم خططها فى مخيلته بطريقة مباينة ؛ وحين يذكرها من بعد يذكرها وكأنها إرادية مقصودة ، ويدعى أنه قدرها من قبل على النحو الذى حدثت عليه بالفعل . ولعله أن يكون مخلصاً فى هذا القول . ولكن هذا الإخلاص ليس معناه أنه غير مخدوع ، فقد خدعته ذاكرته وعقله عن الدوافع الحقيقية ، والخطة الأصلية . وإن من طبيعة الإنسان ألا يصدر فى أفعاله عن العقل والمنطق غالباً ، وإن من طبيعته أيضاً أن يحاول تبريرها من بعد عن طريق العقل والمنطق . وأوضح نموذج للتراجم الذاتية فى هذا الباب مذكرات القواد العسكريين . فهم يدَّعون أن الخطة التى وضعوها للدفاع والهجوم ، والكر والفر ، هى بعينها الخطة التى حدثت على نحوها المعارك فى الواقع ، مع أن خططهم الأصلية عبثت بها رياح المعركة منذ بدأ هبوبها .

ثم إن واضعى التراجم الذاتية فنانون قبل كل شىء . ومعنى هذا أنهم لا يستطيعون أن يسردوا الوقائع سرداً ، ويسجلوها تسجيلا خالصاً ، لا أثر فيه للصنعة والخيال . وإنما هم يحاولون جهدهم أن يقدموا لنا حياتهم كلوحة فنية رائعة ، قد روعيت فيها النسب والأوضاع ، وأحسن فيها توزيع الأضواء والظلال ؛ أو كقطعة موسيقية بارعة ، لم يوضع اللحن الواحد بجانب الآخر إلا تبعاً لقوانين الانسجام ، ولم تختلف النغمة عن النغمة شدة ونوعاً إلا حسبما تقتضيه قواعد التأليف . فكأنهم إذا كتبوا ترجمة حياتهم سيكتبونها كروائيين ، يخلقون الكثير من وقائعها ، ويؤلفون بين أحداثها تأليفاً بديعاً ، ولكنه بعيد عن الواقع كل البعد . فالخلق والاختراع إذاً ضرورة لا مناص لهم من الخضوع لما تقتضيه .

وحتى لو سلمنا جدلاً بأن صاحب الترجمة الذاتيـة سيتحلل من هذا كله ، فلا يمنعه حياء ، ولا تخدعه أثرة ، ولا يغريه بالاختراع فن ؛ وبأنه سيكون صريحاً كأوقع ما تكون الصراحة ، قاسياً كأشد ما تكون القسوة ، فإنه لا يستطيع أن يكون بهذه القسوة ، وتلك الصراحة إلا فيما يتصل بشخصه فحسب . أما فيما يمس الآخرين ، الأحياء منهم والأموات ، فلا بد أن يجد من نفسه وازعاً ، ويشعر بشىء غير قليل من الحرج ، وهو يقص ما كان بينه وبينهم من صلات ومغامرات . وصلات

الإنسان بغيره من الناس لها النصيب الأوفر في تكوين نسيج حياته ؛ فكان جزءاً كبيراً إذاً سيتورع صاحب الترجمة الذاتية من ذكره ، مما يجعل الصورة التي يقدمها لنا مبتورة ، لا تخلو من الهوات والاضطراب .

كل هذه عوامل إرادية ، أغلب الظن أن صاحب الترجمة الذاتية يشعر بها شعوراً قوياً وهو يكتب هذه الترجمة ، ويدرك تمام الادراك أنه سببها ومريدها عن قصد ووعي ، أو عن شيء يشبه الوعي والقصد . ولم أحدثك بعدُ عن عوامل أخرى لا تقل أثراً في تشويه الصورة الحقيقية لحياة صاحب الترجمة الذاتية ، عوامل غير إرادية ولا واعية ، يخضع لها المترجم لحياته قسراً دون شعور منه بها ولا إدراك ، وتكاد ترجع كلها إلى الذاكرة والطريقة التي يسير عليها هذا الجهاز المعقد الغريب .

فالذاكرة ليست آلة صماء تسجل الأحداث والأفكار دون تحويه أو تشويه ، أو دون زيادة ولا نقصان ؛ وإنما هي جزء من نسيج الإنسان الحي — وكنت أقول إنها كائن حي — يتطور ويتغير ، ويخضع أعظم الخضوع لعامل الزمان . فهي أولاً لا تحتفظ بكل الآثار والأفكار ، ولا تسجل كل ما تضطرب به حياة الانسان من تجارب وأحداث . وإنما هي تميز وتختار ، وتأخذ وتدع . وهي في هذا الأخذ وذلك الاختيار مدفوعة الغاية وخاضعة لشروط ؛ فهي إذا اختارت فإنما تختار السار والنافع ، وهي إذا أخذت لم تأخذ غير الثابت الوطيد القادر على البقاء والحياة . فذكريات الطفولة مثلاً نادراً ما تبقى طويلا ، لأنها قلقة مزعزعة ، لم تحكم ربطها في الذاكرة الأوضاعُ الاجتماعية ، ومن هنا ندر جداً من يكتب وصفاً دقيقاً لطفولته مثل تلستوى . والذاكرة لا تحتفظ بالكثير من الأحداث المؤلمة ، لأن النسيان المقدس ، وهو هذه النعمة الكبرى التي تجعلنا أقدر على احتمال الحياة ، يمحو عليها قدر المستطاع ؛ وبعد هذه المعركة الانتخابية التي تكون الذاكرة دائرتها

والتي فيها يضحي بالكثير من الذكريات ، لا يخرج ظافراً إلا عدد ضئيل من الأحداث والتجارب والمؤثرات . وليت هذا العدد الضئيل بقي كما هو لا يتغير نوعاً أو مقداراً . وإنما الواقع هو أن الذكريات تنمو أو تضعف كالكائن الحي سواء بسواء ، والذكريات الجديدة تمحو على الذكريات القديمة أو تطبعها بطابع جديد ، يغير من طبيعتها تغييراً غير قليل . وكلها يؤثر بعضها في بعض ، وتتفاعل جملة تفاعلات . وأوضح مثال لهذا النوع من تأثر الذكريات بالذكريات واختلاطها بعضها ببعض ، اختلاطاً يكاد يستحيل معه التمييز بينها ، ما رواه إستندال من أنه لم يستطع أن يتبين ما إذا كانت الصورة التي يستثيرها في ذاكرته اجتياز نابليون لمضيق سان برنار الكبير (في جبال الألب) ، هي حقاً ذكرى لحادث شهده بعينه ، أو هي ذكرى للوحة تمثل هذا الحادث . فهو في الواقع قد شهد الحادث واشترك فيه ، ثم هو قد رأى من بعدُ لوحة فيها تصوير له ، ومن بعدُ اختلطت ذكرى شهود الحادث بذكرى رؤية اللوحة فلم يعد يقدر على التمييز بين كلا النوعين .

تلك إذاً عوامل رئيسية قوية تثبت ما « للشعر » والخيال من نصيب وافر في الترجمة الذاتية . فهي ليست حقيقة خالصة ، وليست شعراً خالصاً ، وإنما هي تجمع بين الاثنين ، ولم يستطع واحد من أصحاب الفكر أو أصحاب الفن أن يجعل من ترجمته الذاتية حقيقة صرفة ، على الرغم مما بذلوه من محاولات ، وما أنفقوه من جهد في هذا السبيل ، وما أكثر هذه المحاولات ، وما أشد اختلاف الأغراض التي قصد إليها أصحاب هذه المحاولات ! .

فالانسان من قديم حريص على الخلود ، كلف بمصارعة الزمان ، يريد جهد استطاعته أن يؤكد ذاته وسط سيله القوي الجارف اللانهائي . فكان يكتب اسمه وطرفاً من حياته على أحجار ينصبها فوق مقبرته . وكان هذا أول صورة من صور الترجمة الذاتية ، وكان هذا أول غرض قصد إليه

الانسان منها ، ولا يزال غرضاً حتى اليوم لدى هؤلاء الذين يكتبون تراجمهم الذاتية في صورة بدائية أولية . فكأن هذا النوع الأول اذاً يقصد منه الانسان أن ينقذ حياته من الغرق والفناء في بحر الزمان العميق غير المحدود؛ وهو لهذا يقتصر على ذكر حوادث خارجية فحسب ، وليس للتحليل النفسي العميق من أثر فيه ، لأنه لا يدرك ذاته ، وإن أدركها فإدراكه لها إدراك يسير هين ، فليس لها عنده كيان مستقل ، وإنما هي نغمة خافتة وسط ضجيج الوجود الخارجي .

وأما حين يبدأ الإنسان بإدراك ذاته إدراكاً قوياً ، ويشعر بنفسه شعوراً مليئاً ، أو على حد تعبير القديس أوغسطين حين يصبح الإنسان مسألة بالنسبة إلى نفسه ، وحينا يحاول أن يجد من هذه المسألة جواباً لنفسه هو وحده فحسب ، تكون الثانية من هذا الفن أكثر سمواً وأعظم نزاهة . فيصبح معرضاً يعرض فيه الإنسان مجرى حياته الباطنة ، وتجاربه الروحية ، ومعملاً للتحليل النفسي الدقيق الذي يكشف عن خبايا النفس وقواها ، ومدّها وجزرها ، وضلالها وهداها .

وهنا يختلف الغرض من هذا العرض والتحليل . فمنهم من يرى من ورائهما إلى أن يقدم حساباً عما أدته نفسه من أعمال ، وعما ارتكبته من خطايا ، وما بذلته من نشاط ، وما سلكته لأجل تحقيق غايتها من سبيل . وهذا النوع من الترجمة الذاتية يقصد به إلى شيء آخر غير معرفة حياة صاحب هذه الترجمة معرفة حقيقية . فإما أن يقصد به إلى غرض ديني ، كما فعل القديس أوغسطين في « اعترافاته » ، حيث أراد منها أن يرى الناس كيف يسلك الإنسان طريق الهدى ، ويهتدي إلى الصراط المستقيم ، بعد أن ضل وظل سادراً في غيه في مستهل حياته . وإما أن يقصد به إلى غرض فكري أو فني ، كما فعل اسبنسر في « ترجمته الذاتية » ونيتشه في كتابه « هاهو ذا الإنسان ! » ؛ أو كما فعل بنفنوتو تشلّيني في « ترجمته الذاتية » . فهؤلاء أرادوا أن يكشفوا عن طبيعتهم الروحية ، الفنية أو الفكرية ، والخصائص التي بها يتميزون ، والدوافع التي تضطرب أو اضطربت في نفوسهم ، والمؤثرات التي وقعوا تحت تأثيرها . وكلا النوعين يتجه إلى الخارج ، أي أنهما يفترضان وجود أناس إليهم يتحدثون بهذا الحديث ، ومن أجلهم أيضاً أنشأوا ما أنشأوا من تراجم ذاتية ؛ فهم فيها يخاطبون شيئاً آخر غير نفوسهم في واقع الأمر ، وإن كانوا يخاطبون نفوسهم أولاً وبالذات .

ومنهم من لا يريد من ترجمته الذاتية إلا أن تكون حديثاً بينه وبين نفسه ، يخاطبها فيه فتستمع إليه ، وتخاطبه هي بدورها فيستمع إليها ويأخذ عنها ، في شيء كثير من الرفق والهدوء واليسر ؛ فهي مناجاة عذبة ، ولكنها عميقة دقيقة ؛ ساكنة ، ولكنها حية خصبة . وتراها مكتوبة على شكل «يوميات» حديثها هادئ ، قصير النفس ، لم يتعمد صاحبها تأليفها ، ولم يصطنع في كتابتها ما يصطنعه المؤلفون . ومن أجل النماذج في هذا الباب «يوميات» كيركجورد ، و« اليوميات الخاصة » لنوفالس .

وبين هذين النوعين نوع ثالث يجمع بين المناجاة والحديث الملقى ، لم يبرع فيه كل البراعة إلا العبقريات الخصبة الفسيحة ، مثل جيته واستندال وتولستوي ، وهم أقطاب هذا الفن في أوربا ، بل وفي تاريخ الإنسانية بأسره .

وإن لنا في اللغة العربية تراثاً ضخماً من التراجم الذاتية . فهلاّ ترى معي أن نفرد له فصلاً خاصاً ، نتحدث فيه عن تاريخه ومصادره ومميزاته ، باحثين محللين ، مقارنين إياه بتراث الأوربيين ؟

عبد الرحمن بدوي

التربيـــــة فى المدارس الحديثة

— ١ —

"ظهر هذا المقال الممتع فى مجلة "العصر الجديد فى المدرسة والمنزل" ، وهى لسان حال رابطة التربية الحديثة فى لندن . وقد شرحت فيه كاتبته ما أحدثه تقدم علم النفس من تطورات فى أساليب التربية والتعليم ، مثل الحرية فى النظام وطريقة المشروعات ... الخ ، فآثرنا أن ننقله للقراء" — المحرر

ليس من اليسير أن نعزل تأثير عامل بذاته من العوامل التى يرجع إليهـا ما نشاهده اليوم من انقلاب متواضع فى عالم التربية . ومن الممكن أن نعزو الكثير من هـذا الانقلاب إلى التطور السريع المطرد فى أساليب الحياة الاجتماعية عامة ، وما علم النفس الحديث إلا واحد من المؤثرات الكثيرة التى خضعت لها المدارس . على أن مما له مغزاه أن المشتغلين بعلم النفس أنفسهم قد أخذوا يولون وجوههم شطر المدارس ، ويقررون أن فيهـا — لا فى عياداتهم — الميدان الحقيق لبحث السيكولوجى ، وأن رجال التربية فى جميع أنحاء العالم قد أخذوا ينسبون التغيرات العملية فى أساليبهم صراحة إلى النظرية الحديثة عن طبيعة الطفل . فما هى هذه التغييرات التى نتجت من اتصالنا بعلم النفس الحديث زهاء ربع قرن ؟

تغير نظرة المعلم :

أول ما يلفت النظر أن عملية التربية قد اتضحت عناصرها واكتسبت أهمية لم تبلغها من قبل . وقد أصبح المكان الأول للتربية المنزلية بدلا من التربية المدرسية ، وذلك بعد أن ثبتت أهمية السنين الأولى من الحياة لتعيين القالب أو الأسلوب الذى يتخذه سلوك الطفل الاجتماعى فى المستقبل . فنحن إذا أردنا علاج رجل من مرض نفسانى ، لا نبحث عن مركزه الحالى ، ولا عن رصيده فى البنك ، بل نبحث فى الغالب عن صلاته العاطفية الأولى فى الأسرة . فالطفل الذى يشعر بأنه غير محبوب يكون فريسة لأشباح الخوف أو لثورات الغضب التى تولدها الغيرة فى نفسه . ومن المحقق أنه يصبح طفلا مشكلا فى المدرسة ، ثم بعـد ذلك رجلاً حسوداً ، قلقاً ، ثائراً لمناسبة ولغير مناسبة . ومن الغريب أن ما يتعلمه فى هذه الأثناء ليس له أى تأثير فى حالته هذه ؛ فقلبه يظل كما هو فى جوهره، سواء أكان يتعلم نظريات إقليدس وخطابات شيشرون ، أم كان يتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب فيما يسمى المدارس الأولية .

ومن الجلى إذن أن المعلم الذى يعتقد أن واجبه الأساسى تزويد الطفل بالمعلومات سيجد نفسه أمام موقف عسير ؛ فعليه أن يدرك أن كل ما فى جعبته من معلومات دراسية لا يمكن أن يصل بالطفل القلق إلى أن يصير أقل قلقاً فى رجولته ، بل إن قلق الطفل بالذات قد يجعل المعلومات التى يتلقاها عبئاً ثقيلا عسيراً له ، لأنه لا يستطيع أن ينتفع به على وجه من الوجوه .

وبإزاء هـذه المشكلة كان على المعلم أن يتحول ، فلم يعد مجرد « مدرس » ، بل إنساناً قبل كل شىء ، مستعداً لأن يقف من الطفل الموقف الذى تقتضيه حاجته النفسية إلى تبادل المودة والعطف ، مع ما يتطلبه هذا الموقف من المدرس من سعة صدر وما يكلفه إياه من جهد . وفى الوقت نفسـه عليه ألا يهمل القيام بوظائفه الثانوية التى لا يزال الكثيرون يرون فيها عمله الأساسى ، أعنى تمكين الأطفال من اجتياز الامتحانات وبلوغ المستويات العلمية المقررة .

ونرى من هذا أن عمل المعلم قد يكون أشق من عمل الأخصائى فى العيادة السيكولوجية ، فهذا يعمل على إصلاح ضرر وقع ، أما ذاك فعليه أن يمنع وقوع الضرر بتهيئة الأسباب التى تساعد على النمو الطبيعى ، وهو عمل وقائى يتطلب منه بصيرة ثاقبة ، وملاحظة دقيقة دائبة ، وعناية فائقة فى معاملة التلاميذ .

وهناك أمران يدلان أصدق الدلالة على ما يمتاز به المعلم الحديث من المرونة والشعور الإنسانى ، وهما :

(أولاً) اتصاله اتصالاً وديًّا منتجاً بالعيادات السيكولوجية عند معالجة الأطفال المشكلين بها .

(ثانياً) اتصاله الوثيق بمنازل الأطفال واهتمامه بما فيها من ظروف قد تؤثر فى حياة الطفل العاطفية .

النظام :

ولم يكن ثمة مفر من أن يغير هذا الفهم العميق لظروف الطفل مركزه فى الفصل : فى بعض الحالات ينبغى أن يعامل بكثير من التسامح ، وفى حالات أخرى يتعين التشدد فيما يطالب به . وعلى أى حال فإن التطبيق الدقيق للمبادئ الاجتماعية والخلقية بدون تمييز لم يعد من المستحب ، إذ أن من العوامل التى تساعد على زيادة احترام الطفولة الاهتمام بالمشاكل العميقة الخطيرة التى يواجهها كل طفل على انفراد . فالمدرس الآن لم يعد واعظاً أخلاقياً ، بل صار على تمام الاستعداد ليقوم بالاشتراك مع الطفل فى كشف قانون أخلاق جديد ، يمكن الأطفال والراشدين من أن يعيشوا معاً مع احتفاظ كل منهم بشخصيته فى شجاعة وإخلاص . وهذا هو المعنى الحقيق « للنظام الحديث » ، إذ ليس المقصود منه ، كما يتوهم بعضهم ، مجرد الأخذ عرضاً بنظام للحكم الذاتى . وقد أوجب هذا الفهم الجديد للنظام على المعلم قدراً من المرونة يفوق ما يتصوره معظم الناس .

وكثيراً ما نسمع احتجاجاً مثيراً للعواطف من المدرس الذى يحاول أن يطبق هذه الأفكار ، إذ يقول :

إن علم النفس يفسر كل شىء ، ويدعو إلى الصفح عن كل ذنب ، فاذا يبقى بعد ذلك من المبادئ الخلقية ؟ والجواب على هذا أن تفسير علم النفس لصعوبات الطفل فى التوفيق بين نفسه وبين مطالب الحياة يمدنا بوسيلة فعالة لجعل هذا التوفيق ممكناً . فإنك إذا استطعت أن تعيد إلى الطفل « الغيران » الثقة بأنه محل عطف ، أزلت بذلك نتائج « غيرته » المضادة لقوانين الأخلاق ، كالكذب ، والتخريب ، بل السرقة . كما أنك ربما عالجت بذلك ما قد يكون به من تقصير فى العمل وعجز عن فهم الدروس ، لأنك تحرر عقله من مشكلة « الغيرة » التى تأخذ عليه مسالك تفكيره ، فيصبح الطفل من جديد قادراً على أن يحشد كل قواه لمواجهة ما يصادفه فى دراسته من عقبات ومشكلات .

إن التجارب التى أجريت على الحرية فى النظام لم تبن فى كل الحالات على أسس حكيمة . فإننا إذ نحاول تجنب استخدام السلطة القاسية ونعمل على الاحتفاظ بشعور المودة فى نفس الطفل نحو أبيه ومعلمه ، ونحو القانون نفسه ، كثيراً ما نتطرف فنلغى السلطة بتاتاً . هذا ما يفعله الأب الذى يدلل طفله من قديم الزمان ، وهو بعينه ما يحدث فى أنظمة الحكم الذاتى إذا لم تقم على تفكير وفهم كافيين .

ولكن الطفل لا يريد هذا . إن المحبة التى تحتاج بها نفس الطفل فى بداية حياته تعتمد على المعاونة المتواصلة من الوالدين . وهو فى مراحل النمو التالية ، بالرغم من نقص اعتماده على الأبوين شيئاً فشيئاً ، لا يزال أشد ما يكون حاجة إلى الإرشاد والتوجيه ، ورغبة فيهما . وإنه لينتظر الإرشاد من معلمه أولاً ، ثم من جماعات خاصة من الرفاق ، وأخيراً من المجتمع عامة .

إن حرية الفرد التامة فى تصريف شئونه أمر نادر جداً حتى بين الكبار . فنفس الإنسان — إلى ما بعد بلوغه الرشد — إنما هى خلاصة للأفكار والقيم التى استخلصها من محيط اجتماعى دائم الاتساع . وكثيراً

أنباء وآراء

سؤالان

(١) لعلك تؤمن معي يا سيدي أن مهمة التعليم الجامعي إرشاد الطلاب إلى منابع المعرفة، وتوجيههم إلى طرق البحث والاستقصاء، وتعريفهم بقادة العلوم والفنون في العالم — القدماء منهم والمحدثين — وهـذا ما يحرم منه الذين لم تؤاتهم الظروف لإتمام تعليمهم الجامعي. فماذا يفعل هؤلاء لكي يستطيعوا أن يدرسوا دراسة منظمة مثمرة يتممون بها ثقافتهم ويشبعون بها ميولهم؟ فهل تستطيع المجلة أن تفتح باباً لدراسة قادة الفكر في العالم من فلاسفة وعلماء وأدباء وفنانين دراسة مختصرة جداً؟ ولو تكتفي فقط بإرشاد القراء إليهم وتعريفهم على آثارهم، أو حتى تعريفهم على الكتب التي تستطيع أن ترشدهم.

لشد ما يحزنني يا سيدي ألا أستطيع أن أنتقي الكتاب الذي ينفعني . . . ويشبعني!

(٢) ولعلك تؤمن معي أيضاً أن بعض القراء لهم موهبة الإنتاج. وقد يكون هـذا الإنتاج دون مرتبة الكمال، ولكنهم على كل حال يفكرون وينتجون. ولعلهم يغرقون المجلة بمنتجاتهم. فماذا فعلتم من أجلهم؟ إنكم تهملونهم ولا تنشرون لهم. وهم لا يعلمون إن كان هذا الإهمال من ضعف إنتاجهم أم أن المجلة لا تتسع لغير محرريها. إني أريد أن أنبهكم إلى نقطة أعتقد أنها جوهرية بالنسبة إليهم، ولها أثرها في مستقبلهم. وهي أنهم يريدون من نشر منتجاتهم أن يعرفوا إن كانوا قد نجحوا فيما كتبوا . . . وما يكتبون. وإني أذكر أن الأستاذ توفيق الحكيم كان قد بحث هذا الموضوع وتساءل إن كان من الخير إعداد هؤلاء المبتدئين قبل إظهارهم أم إظهارهم قبل الإعداد. ولم يزل سؤاله يحتاج إلى جواب من أساتذتنا إلى الآن. فما عملتم على إظهارهم وإعدادهم.

فهل تتدخل المجلة في حل هاتين المشكلتين . . . ؟

إني أعني أن يكون هذا في أقرب عدد . . .

مع عظيم الشكر ؟ «زوللو»

«الثقافة»:

للاجابة على السؤال الأول نحيل القارئ على كتاب صغير صدر منذ أعوام عدة هو «قادة الفكر» للدكتور طه حسين بك، فهو سيجد أسماء قادة الفكر الانساني الأول فيه، وهو يستطيع أن يقرأ كل ما كتب عن هؤلاء من الكتب إذا شاء في دار الكتب أو مكتبة الجامعة؛ فاذا لم

ما يشعر الأطفال بالارهاق إذا فرض عليهم نظام للتوجيه الذاتي فرضاً لم تراع فيه الحكمة. وإني لأعرف طفلا جاء يتوسل إلى ذويه ليرسلوه إلى «مدرسة عادية»، حيث لا تترك الدروس لمحض اختياره، وحيث لا تكون مسائل الزي وآداب السلوك وكيفية قضاء وقت الفراغ مثلا كل فردية، على كل طفل أن يحلها بنفسه!

ولعلنا قد هيأنا مسألة شائقة نعود إليها في فرصة مستقبلة: وهي دراسة الصعوبات الخلقية التي تنشأ من شعور الأطفال بانعدام الاستقرار والطمأنينة عند ما يعوزهم التوجيه القائم على السلطة، بدلاً من شعورهم بوطأة الضغط الناشئ من استعمال السلطة القامعة، كما يحدث في المدارس التقليدية.

(لها بقية)

يشأ أن يقرأ هذا الكتاب فما عليه إلا أن يقرأ أى كتاب من كتب تاريخ الأدب ، أو تاريخ الفن ، أو تاريخ الفلسفة ، فسيجد فى كل منها تاريخ هؤلاء القادة وتطور المعرفة البشرية على مرّ الزمن ، وله بعد ذلك أن يختار ما يوافق هواه من أنواع الدراسة . فإذا لم يشأ هذا ولا ذاك فليحدد ما يريد أن يوجه دراسته نحوه بالضبط ، والمجلة مستعدة لأن ترشده إلى المراجع التى يعتمد عليها فى اطلاعه ، وهى لا تتأخر عن إرشاده إلى المناهل التى يردها لينال ما يريد من علم .

أما عن السؤال الثانى فإن لهذه المجلة نظاماً مفصلا لقراءة ما يرسل إليها من مواد النشر ، وهى تنشر ما تراه صالحا من نتاج الكتاب دون النظر إلى أى مؤثر غير الصلاحية ؛ فعدم نشر مقال أو قصة أو بحث معناه فى الواقع أن ما أنتجه الكاتب لا يتفق ومشرب المجلة أو لم يبلغ المستوى الذى تحب المحافظة عليه ؛ وليس معنى هذا أن الكاتب الذى لا تنشر له رسالة لا يعيد الكرة ، وليست الموهبة وحدها سر النجاح ، فهناك المثابرة والاطلاع ، وهما لا يقلان عن الموهبة شأناً . إن صفحات المجلات للقراء والكتاب فقط ، أما الإعداد فأمر لا يعنى سوى الكاتب المتطلع إلى التبرز وحده ، وعليه التماس الوسائل التى تؤدى إلى غرضه . والمجلة على يقين من أن الفرد الموهوب لا بد أن يصل إلى غايته يوما من الأيام مع المثابرة والجد .

استفتاء عن الكتب

شاعت أخيراً بدعة جديدة هى تحلية الكتب بصور الأبطال والمناظر والأماكن المختلفة التى يرد ذكرها فيها ، وخاصة فى كتب القصة ، وقد صدرت فعلا بضع طبعات لكثير من الأعمال الأدبية المعروفة مزينة بصور لمشاهير الرسامين ، مما دفع مجلة ماريان الفرنسية أن تستفتى بعض الكتاب والمصورين فى قيمة هذه البدعة الجديدة وأثرها فى الأعمال الأدبية ، فوصلت إليها ردود مختلفة ، نجتزئ منها ردين أحدهما لمصور هو المسيو جس بوفا ، والثانى للكاتب الفرنسى المعروف جوزيف كيسيل ، فالأول يرى أن تحلية الكتب بصور من صنع مشاهير الفنانين عمل يقصد به أولاً ترويج هذه الكتب ، وذلك نوع من التجارة



جس بوفا

لا يتناسب مع ما للأدب من وقار . أما أثر هذه الصور فى الأعمال الأدبية نفسها فهو ضار على أى حال . ففى الكتب التى يكون غموض الفكرة والشخصيات بعض الميزات تؤدى هذه الصور إلى التحديد والايضاح الذى قد يفقدها سحرها ، وقلما يتفق مع ما يرى إليه المؤلف ؛ وأروع مثل لذلك أعمال جان جيرودو التى تستمد روعتها من العمق والغموض فى الشخصيات ، وكلاهما تقضى عليه صورة ترمز للشخصية فتفسد ما يمكن أن يتصوره عنها القارئ . وكذلك فى كتب بيير لوتس التى يتوقف جزء كبير من جمالها على وصف المناظر والأماكن التى زارها ، تؤدى صور هذه الأماكن إلى أن يفقد هذا الوصف سحره وجماله . أما فى الأعمال الأدبية « الكلاسيك » كأعمال رابليه وكبلنج مثلا ، فتزيين الكتاب بالصور يعد جريمة ، لأنه مجازفة فاشلة تؤدى إلى تغيير روح الكتاب وتفقد شخصياته ما لها من قيمة خلقية وفلسفية قد تخلقها فى نفس القارئ القراءة الحرة التى يرسم الفكر وحده فيها الصورة التى يتخيلها ، وهذا ما حدث فى فشل السينما فى تصورها لكثير من الشخصيات التى خلقتها الأعمال الأدبية كفاوست ودون كيشوت مثلا .



جوزيف كيسيل بريشة كوكتو

أما المسيو جوزيف كيسيل ، فهو يرى أن خيال القارئ يستطيع فى أغلب الأحيان أن يتخيل أبطال الأعمال الأدبية فى صور أكمل وأدق من الصور التى يفرضها عليه المصورون . ويرى أن فى تصوير شخصيات الأعمال الأدبية حداً من حرية القارئ فى التصور والتفكير اللذين يعتمدان — فى كل حالة — على مدى ثقافته الخاصة وذوقه الخاص .

ويبيح المسيو جوزيف كيسيل تحلية الكتب بصور شخصياتها فى حالة واحدة فقط ، وهى أن يكون المؤلف نفسه هو الذى يضع هذه الصور بريشته ، كما يفعل جان كوكتو ، ففى هذه الحالة تكون الصورة معبرة عما رمز إليه المؤلف ، والتحديد هنا يكون تحديداً من صاحب الشأن فى الفكرة والموضوع . ولكن ، كما يقول مسيو كيسيل ، قلما يملك كاتب موهبتى التصوير بالريشة والقلم معاً كما يملكهما جان كوكتو .

ساعة . . .

(بقية المنشور على صفحة ٨)

وصور إنكاره هـذا فى كتاب رائع ، ما أظن إلا أن المتمصرين فى أسبانيا قد ضاقوا به كل الضيق ؛ ولكنه لم يترك أسبانيا ليستقر فى وطنه ، بل ليعبر المحيط إلى أمريكا الجنوبية ، ومن هناك أرسل كتابه هذا الذى أتحدث عنه .

وهذا الكتاب يصور ما يملأ نفس الكاتب من السخط العنيف على ثلاثة أشياء : على موقف فرنسا فى مؤتمر مونيخ فى السنة الماضية ، لأنه كان موقف خزى وذلة لا يلائم الشرف الفرنسى ، ولا يلائم طبيعة الشعب الفرنسى العظيم ، ولا يلائم مصلحته القريبة والبعيدة ؛ وإنما يلائم أهواء جماعة من الساسة أصحاب النفوس الضعيفة والنظر القصير . وعلى حزب الملكيين الفرنسيين ، فالكاتب ملكى متطرف فى حب الملكية وفى بغض الجمهورية ، ولكنه ينكر سياسة حزبه أشد الانكار ، لأن هذا الحزب يضلل الشعب الفرنسى من جهة ، ويضلل صاحب الحق فى العرش الفرنسى من جهة أخرى ؛ يصانع فى السياسة وما ينبغى للسياسة الملكية أن تصانع أو تداجى ؛ يميل إلى دكتاتورية موسلينى وهتلر ، لأن الديكتاتورية تخاصم الجمهورية ولكن الدكتاتورية تخاصم الملكية الصحيحة أيضاً أو الملكية الفرنسية على كل حال . وعلى الكنيسة الكاثوليكية ، فصاحبنا متدين إلى أقصى غايات التدين مؤمن كأقوى ما يكون الايمان ، ولكنه يريد من الكنيسة الكاثوليكية أن تكون صادقة مخلصة للدين ، لا تصانع فى ذلك ولا تداجى ؛ وهو يراها قد صانعت المتمصرين فى أسبانيا ؛ فشاركت فيما اصطنعوا من عنف وغمست يدها فيما سفكوا من دم برئ . فهو ينكر عليها ذلك فى حرية مطلقة وصراحة لا حدّ لها ، لا يعنيه أن ترضى الكنيسة عنه أو تسخط عليه ، كما لا يعنيه أن يعرفه الملكيون أو ينكروه ، وكما لا يعنيه أن يحبه الساسة الجمهوريون أو يبغضوه ؛ وإنما الذى يعنيه شئ واحد ، أن يفكر حراً وأن يعلن رأيه حراً وأن يحتمل بعد ذلك تبعات هذا الرأى مهما تكن !

وواضح جداً أن مثل هذا الكتاب يلقاه القراء الفرنسيون أحسن لقاء ، لأنه حر أولاً ، ولأنه يهاجم فى عنف ما يكره الناس مهاجمته ، ولأنه يثير الغيظ والحنق فى قلوب كثير من الناس ، ولأنه بعد هذا كله قد جلى فى أروع صورة أدبية ممكنة ! .

أرأيت إلى هذه الكتب الثلاثة وإلى ما تصور من النواحى المختلفة لأزمة الحياة العقلية على اختلاف فروعها ؟ ألست توافقنى على أن قراءتها خليقة أن تسلى عن كثير مما نسمع ونرى فى مصر من التقصير فى ذات الثقافة العليا ، ومن ابتذال العقل الممتاز فى سبيل المنافع العاجلة والاعراض الزائلة وحسن المكانة عند هـذا العظيم أو ذاك ؟

وحسن المكانة عند عامة القراء الذين يستطيعون أن يهدوا إلى من يرضاهم ويهبط إليهم شهرة عظيمة بعيدة الصوت ، ولكنها أشبه بهذا الحب الذى يكوى أن تنفخه ليخمد كأنه لم يكن .

نعم لقد كان لى من التفكير فى هذه الكتب الثلاثة تسلية عن بعض ما سمعت فى تلك الساعة التى قضيتها أمس بين جماعة من المثقفين الممتازين ؛ ومع أن كثرة هذه الجماعة كانوا مثلى يؤمنون بالعقل ، ويعرفون للأدب الرفيع حقه ، فقد ذادت عنى هذه الساعة النوم حتى تقدم الليل ، لأنى سمعت فيها صوتاً شاذاً ، وقد صدر هذا الصوت عن آخر من كنت أظن أنه يصدر عنه ؛ ومن أجل هذا أستأذنك أيها القارئ الكريم فى ألا أسمى صاحب هذا الصوت ، لأنى لا أريد أن أوذيه ، وفى أن أهدى إليه مع ذلك هذا المقال .

طه حسين

مع النســـيم

وهى مقطوعة من الشعر الوجدانى الممزوج
بالوصف من شعر الأستاذ أحمد الزين

يانَسيماً أهْدَى إليها اشْتِياقِى
ما أبَرَّ النَّسِيمَ بالمُشْتـاقِ
يارَفيقاً كَمْ حَمَّلوكَ رَقيقاً
مِنْ مُنًى عَذْبَةٍ ومِنْ أشْواقِ
ورَسولاً حَوَى مِنَ اللُّطْفِ مايَلْـ
ـمَسُ فى القَلْبِ مَوْضِعَ الإشْفاقِ
وأميناً على الهوَى دُونَ مايَطْـ
ـوِيه تَعْيا الوُشاةُ والسِّرُّ باقِ
شَفَّ عَنْ كلِّ ماطَواهُ وصانَ الـ
ـسِّرَّ منه فى مُحْكَمِ الأغْلاقِ
وعجيبٌ كِتْمانُهُ السِّرَّ فيـه
وهُوَ يَسْرِى به إلى الآفاقِ
يالَهُ كَيْفَ لايَحُولُ سُموماً
بالَّذِى فيه مِنْ جَوًى واحْتِراقِ
حامِلُ النَّارِ كَيْفَ يَبْرُدُ مَسًّا
أىُّ واقٍ منها لهُ أىُّ واقِ
كَمْ عُيونٍ رَوَيْتَ عنها فَسُمِّيـ
ـتَ بَليلاً والفَضْلُ للآماقِ
وفُؤادٍ حَمَلْتَ عنـه خُفُوقاً
بالهَوَى فى فُؤادِكَ الخَفّاقِ
مَنْ رَسُولٌ سِواكَ يَحْكِى خُفُوقَ الـ
ـحُبِّ فيه مُصَوَّراً مايُلاقِى
سِرْ إليها واحْمِلْ إلى شَفَتَيْها
قُبْلَةً ثُمَّ لُفَّها بِعِنـاقِ
لُفَّ جِسْماً أرَقَّ مِنْكَ وأنْقَى
أبْدَعَتْ فيه قُدْرَةُ الخَلّاقِ
فيه لِينُ النَّسيمِ واللُّطْفُ لَكِنْ
زادَ حُسْناً عليه بالإشْراقِ
لَيْتَ شِعْرِى أىُّ النَّسِيمَيْنِ أشْهَى
ضَلَّ فى ذاكَ مَنْطِقُ الأذْواقِ
مُتْعَةُ الحِسِّ ذاكَ ، وفى هـ
ـذا مَتاعُ الأرْواحِ والأحْداقِ
يانَسيماً سَرَى على الرَّوْضِ يَرْوِى
نَفَحاتِ الأزْهارِ والأوْراقِ
دَعْ أرِيجَ الرِّياضِ إنَّ بِفِيها
طِيبَ نَفْحٍ ذَكا وطِيبَ مَذاقِ
ضَمِّخِ الأُفْقَ مِنْ أرِيجِ ثَنايا
ها وهَبْ نَفْحَةً إلى المُشْتاقِ
إنَّ فيما تُهْدِى إليـه عَزاءً
وشِفاءً من لاعِجاتِ الفِراقِ
ورَدًى يَحْمِلُ المُحِبُّونَ طَوْقاً
مِنْ نَداها يَظَلُّ فى الأعْناقِ
يارَسُولاً لاتَمْنَعُ الحُجْبُ مَسْرا
هُ ولو ضُوعِفَتْ بِسَبْعٍ طِباقِ
قُلْ بِما لَمْ أقُلْ به وتَهَنَّأْ   رُبَّ فَوْزٍ يَجِى عَفْواً اتِّفا

أحمد الزين

من وحي الحرمان:

ظمأ الحب ... !!

" لقد كنت أمل ... ولكن قبساً من نورك
ما زال يتراءى لي يناديني : إياك واليأس ! تعال
يا قاتلي ... أدركني برحمتك ! ! ... "
"هو"

فيم البعاد فديت أنت المسعد ؟!
الحب يؤمن بي فمالك تجحد ؟!

يا طيفها ... أيان يجمعك الكرى
بفؤاد من بفؤاده لك معبد ؟!

أنت البشير بها ... فمر بخاطري
وامنحه منك يداً تجل وتحمد !

* * *

يا بنت أحلامي ! فديتك إنني
أبصرت فيك رغائبي تتجسد !

فكبحت نفسي عن هواك مكابداً
فيك العفاف ! وأنت أنت المقصد !

جاهدت فيك رغائبي ! ... فكأنما
أنا في غرامك ناسك متعبد !

وشربت سرك فانتفضت كأنني
وتر تحركه البنان فينشد !

وملأت منه دمي ... فلقنني الهوى
وأعارني أملاً به أتغرد !

ولثمت ثغرك فاهتززت وعادني
من رعشة الأشواق مس مرعد !

ورشفت سحرك فانتشيت .. ولم أزل
أسمو إلى دنيا الخلود وأصعد !

ورأيت فيك من الكمال معانياً
أبداً على طول المدى تتجدد !

وعبدت فيك من الجمال رسالة
علوية كالحق ليست تجحد !

وشقيت في حبي ! .. ومن عجب الهوى
أن الشقاوة في المحبة تسعد !!

* * *

أوحيت لي الألحان تستلب النهى
كالسحر لا يفنى ولا هو ينفد !

وتركتني نشوان تسكرني المنى
ولهان لا أغفو ولا أتهجد !!

ظمآن ! ... أرتشف الضياء كأنما
هو من جبينك مشرق متوقد !!

هيمان ! ... يغمرني الشباب سعادة
فاضت بها نفسي ... فعشت أغرد !

لهفان ! ... أستبق الزمان يقودني
شوق إلى لقياك لا يتبدد !!

حيران ! ... يطربني الجمال فأنثني
ثملاً كأني في النعيم مخلد !!

غيران ! ... أحسد من يراك وكلهم
لي في غرامك يا جميلة حسد !!

علمتني حب الحياة ... ولم أكن
ممن يقدس عيشه ويمجد !!

* * *

كيف تلتحق بالمسرح

استعداد الطالب — معاهد التمثيل ومصاريف الدراسة بها — كيف تنتخب المسارح الكبيرة ممثليها

ماذا يتعلم الطلبة فى معاهد التمثيل ؟

قبل أن يستقر رأى هاوى التمثيل على احتراف هذا الفن ، ليتخذه وسيلة لكسب عيشه ، يجب عليه أولا أن يجيب على الأسئلة الآتية ، بكل أمانة وإخلاص ، حتى لا يخدع نفسه من ناحية ، وحتى لا يكون عالة على هذا الفن من ناحية أخرى :

١ — هل شكلك مقبول ، وهل حزت من التعلم درجة مناسبة ، وهل صوتك واضح فى أثناء الكلام ؟ .

٢ — هل اختيارك لهذا العمل لمجرد إرضاء رغبتك فى الظهور وحبك لسماع تصفيق المعجبين ، أم أن اختيارك له هو لأنك تحبه حباً حقيقياً ، وتريد أن تتفانى فى خدمته ، بكل جد وإخلاص ؟ .

٣ — فى حالة عدم وجود عمل مستمر فى ميدان التمثيل ، وهذا كثير الحدوث ، هلا تمانع فى القيام بأى عمل آخر أقل قيمة بصفة مؤقتة لكسب القوت ، لحين سنوح الفرصة للعمل من جديد على المسرح ؟ .

٤ — هل من أخلاقك تحمل أنواع السخرية التى يتعرض لها كل المبتدئين تقريباً فى عالم المسرح ، أم أن اليأس يستولى عليك من أول تهكم يوجه إليك ؟ .

إن التمثيل كأى عمل آخر مزدحم بالكثيرين ممن يرغبون فى الالتحاق به ، إلا أن الانسان إن لم يكن ذا شكل مقبول ، وصوت واضح ، ودرجة من التعليم مناسبة ، فان حظه فى النجاح يكون ضئيلا . ولهذا فانه يلزم أن يجيب الانسان على الأسئلة السابقة إجابة صريحة بدون أن يخدع نفسه ، أما إذا كان هاوى التمثيل يرغب فى الالتحاق به لمجرد إشباع رغبته فى الظهور والتمتع بإعجاب الشاهدين به فانه مخطىء ، لأن هذا يندر أن يتحقق ، وتكون النتيجة أن يظل الهاوى مسكيناً فى هذا الميدان ، وإن كان يتقاضى مرتباً ، فهو ضئيل يكاد لا يكفى قوت يومه الضرورى .

بعد أن تتم الاجابة على هذه الأسئلة ، ويتضح للهاوى أنه يصلح للتمثيل ، فان أول ما يجب عليه عندئذ هو معرفة كيفية الالتحاق بهذا العمل الفنى باتباع الطريق الصحيح ، وهذا هو ما سنبينه فيما يلى :

كان كبار الممثلين يقولون فيما مضى إن فن التمثيل لا يمكن أن يدرس بين جدران المدارس ، لأنهم كانوا يعتقدون أن المدرسة الحقيقية لهذا الفن هى المسرح نفسه . غير أن هذه النظرية قد تغيرت الآن ، ففى كل أنحاء أوربا وأمريكا أنشئت معاهد محترمة لتدريس فنون التمثيل ، وهذه المعاهد مشهود لها من كبار الممثلين أنفسهم فى هذا الزمن ، ومن مديرى المسارح الكبرى فى كافة أنحاء

قَالُوا : لَقَدْ سَحَرَتْكَ ! .. قُلْتُ : سَحِيَّةٌ
فِى مُقْلَتَيْهَا تُسْتَحَبُّ وَتُحْمَدُ ! !
قَالُوا : لَقَدْ فَتَنَتْكَ ! .. قُلْتُ : بِرَغْمِهَا !
مَا مِنْ مَفَاتِنِهِ الْهَوَى يَتَجَرَّدُ ! !
يَا لَائِمِى فِى حُبِّهَا دَعْنِى ... فَمَا
يُصْغِى إِلَى لَوْمِ الْخَلِىِّ مُسَهَّدُ ! !
الْحُبُّ قِيثَارِى ! ... وَمَا أَنَا بِالْهَوَى
إِلَّا نَشِيـــدٌ فِى الْوُجُودِ مُرَدَّدُ ؟ !

(القاهرة) محمود السيد شعبان

العالم ، وهذه المعاهد لا تكتفي بتعليم الطلبة فنون التمثيل بل تساعدهم أيضاً على الالتحاق بالمسارح المختلفة بطرق سهلة .

والذي نعرفه أن بعض المعاهد التمثيلية تمهد لطلبتها الالتحاق بفرق متجولة في الأقاليم ؛ ومن هذه الفرق يتدرج الطلبة إلى أن يركزوا جهودهم الفنية في فرق مستقرة في المدن الكبرى ، غير أن هذا التدرج قد يستغرق وقتاً طويلا .

غير أن بعض المعاهد الكبيرة تقيم كل سنة حفلات تمثيلية يشترك فيها طلبتها ، ويحضر هذه الحفلات مديرو المسارح الكبرى ، فيحدث في أغلب الأحيان أن ينتخب هؤلاء المديرون من بين الطلبة الممثلين ، من تبدو عليهم دلائل النجابة والنباهة والصلاحية للعمل على المسارح الكبيرة رأساً ، فمن يكون لهم هذا الحظ فقد اختصروا الطريق .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أنه توجد بعض معاهد غير شريفة ، كل غرضها الأساسي هو الربح من بعض الضحايا الأبرياء من هواة التمثيل ، فيجب الحذر والتدقيق في اختيار المعهد الذي يريد الطالب أن يتم دراسته به .

والعادة أن يدرس الطلبة في المعاهد التمثيلية فن الالقاء والرقص والمبارزة ، والغناء (إلى حد ما) ومعلومات عامة من فن التمثيل نفسه ، لأن فن التمثيل في أسمى درجاته لا يمكن أن يدرس ، إلا أنه توجد أمور كثيرة لو ساقها المدرسون بمهارة إلى أذهان الطلبة لسهلت مهمتهم عندما يقفون أمام الجمهور على خشبة المسرح .

ومصاريف الدراسة بهذه المعاهد ليست مرتفعة ، ولكنها أيضاً ليست منخفضة ، فالطالب الذي ليس له أي إيراد ، لا يمكنه الالتحاق بها ، وإذاً فكيف يفعل مثل هذا الطالب ليدرس فن التمثيل ؟

الطريق الوحيد هو أن يبدأ السلم من أسفله ، فعليه أن يسعى للالتحاق بإحدى الفرق التمثيلية الموجودة بالمدينة التي يقيم بها ، ليعمل بها في أي قسم ، حتى يتدرب على الأعمال التي تجري خلف الستار ، وفي الوقت نفسه يجتهد أن يظهر ما عنده من مزايا فنية حتى يتسنى له الترقي والتدرج من تلك الأعمال الآلية إلى الأعمال التمثيلية الفنية ؛ بيد أن هذا الطريق صعب ، نظراً لكثرة المحترفين الذين تعتمد عليهم المسارح للقيام بكافة الأعمال ؛ وإذاً فالوسيلة الأخيرة هي الالتحاق بإحدى الفرق المتجولة لمجرد اكتساب بعض الخبرة بشئون المسارح ، مما قد يساعد الطالب على التقدم بطلب العمل في المسارح الأهم ، وهكذا إلى أن يصل إلى بغيته .

ولا شك أن الأندية التمثيلية قد تمهد الطريق لهواة العمل ، غير أن الاعتماد عليها نهائياً ليس من الأمور التي تحقق رغبة الهاوي في وقت قصير ؛ فالمعاهد التمثيلية المحترمة هي في الواقع السبيل الوحيدة لاحتراف التمثيل .

ولا نختم هذه الارشادات قبل أن نوصي هواة التمثيل بأن يجددوا صورهم الفنية كل عام ، لأنه في كثير من الأحيان يطلب إليهم تقديم صورهم ، فإن لم تكن هذه الصور مناسبة وجذابة ، فإن الفرص التي تسنح لهم قد تضيع منهم .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٦ | الثلاثاء ٣ شوال سنة ١٣٥٨ — ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهرس

قانون الحياد الأمريكي

أهميته وآثاره بالنسبة للحرب الأوربية

لمحرر «الثقافة» السياسي

في الرابع من شهر نوفمبر الحالي ، وافق مجلس النواب الأمريكي على قانون الحياد المعدل ؛ وكان مجلس الشيوخ قد وافق عليه قبل ذلك في ٢٨ أكتوبر ، بعد مناقشات استغرقت نحو ثلاثة أسابيع ؛ فتمت بذلك موافقة البرلمان الأمريكي (الكونجرس) بمجلسيه ، على القانون ؛ وأصدره الرئيس روزفلت في نفس اليوم الذي تمت فيه موافقة مجلس النواب ، على أن توضع نصوصه في الحال موضع التنفيذ .

وبذا حددت أمريكا موقفها من النزاع الأوربي بصورة واضحة بعد أن لبثت أشهراً في حالة غموض وتردد ؛ وأضحى قانون الحياد الأمريكي بمبادئه وأحكامه الثابتة مرجعاً لسياسة الولايات المتحدة إزاء جميع الدول المتحاربة والمحايدة على السواء .

والقانون الجديد يمكن تلخيصه في عبارة واحدة هي

«العود إلى إباحة تصدير السلاح والذخائر إلى المتحاربين» . ومن ثم كانت أهميته القصوى فى الظروف الدولية الحاضرة التى تضطرم الحرب فيها بين فريق من الدول العظمى ، وكانت أهمية الآثار المادية والمعنوية التى يمكن أن تترتب على تطبيقه فى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى ، ومن أجل ظهرت خطورتها بصورة جلية فيما استقبل به القانون الجديد فى انكلترا وفرنسا من مظاهر الغبطة والارتياح .

النظريتان الديمقراطية والجمهورية

وقد سبق لنا أن شرحنا فى هذا المكان من « الثقافة »(١) خلاصة النظريتين اللتين لبثتا تتجاذبان السياسة الأمريكية فى الأعوام الأخيرة التى اشتدت فيها الأزمة الأوربية ، وهما نظرية الحياد أو النظرية الديمقراطية ونظرية العزلة أو النظرية الجمهورية ، وقلنا إن نظرية الديمقراطيين (وهم الذين يضطلعون الآن بالحكم) ترمى إلى تحديد مركز الولايات المتحدة من النزاع الأوربى تحديداً دقيقاً ، يراعى فيه صون المصالح الأمريكية من جهة ، وبذل أقصى ما يمكن من التأييد الأدبى والمادى للجبهة الديمقراطية الأوربية التى تقاتل فى سبيل وقف الاعتداء ، والدفاع عن الحقوق والحريات الدولية من جهة أخرى . هذا مع الحرص على عدم توريط أمريكا فى النزاع بأية صورة مباشرة ؛ وإن نظرية المعارضين من الجمهوريين تتلخص فى وجوب تمسك أمريكا بمبدأ العزلة المطلقة واعتصامها بمبدأ مونرو وعدم التدخل فى شئون أو أزمات لا صلة لها بالعالم الجديد .

ولما كان قانون الحياد هو عماد النظرية الديمقراطية ، فقد كان هذا القانون فى الأشهر الأخيرة مثار نضال شديد بين الرئيس روزفلت وأنصاره الديمقراطيين من جهة ، وبين الجمهوريين أنصار العزلة من جهة أخرى ؛ وبدأ هذا النضال بصورة عملية منذ أواخر يوليه الماضى ، حيث بذل الرئيس روزفلت ، حين اشتداد الأزمة الأوربية ، مجهوداً لتجديد قانون الحياد المعروف بقانون « ادفع وانقل » Cash and carry ، واستطاع أن يفوز فى ذلك بتأييد مجلس النواب ، ولكن مجلس الشيوخ رفض أن يبحث القانون ، وقرر إرجاء البحث فيه إلى الدورة البرلمانية الجديدة (أعنى إلى يناير القادم) ولم يبق أمام الرئيس روزفلت يومئذ إلا أن يستعمل حقه الدستورى فى دعوة «الكونجرس» (البرلمان الأمريكى) إلى الانعقاد متى وقعت ظروف وطوارئ تبرر هذا الانعقاد ؛ وقد تحققت هذه الظروف بقيام الحرب الأوربية ، فاستدعى «الكونجرس» فى أوائل أكتوبر ، وعرض عليه قانون الحياد مرة أخرى ، وفاز الرئيس روزفلت هذه المرة ، بتأييد مجلسى الشيوخ والنواب ، وصدر قانون الحياد الجديد محققاً لمشروع الرئيس روزفلت وسياسة الديمقراطيين .

الأطوار التى مر بها قانون الحياد

وقد صدر قانون الحياد Neutrality act لأول مرة فى سنة ١٩٣٥ ، قاضياً بمنع تصدير الأسلحة والذخائر إلى المتحاربين ، ومنها الطائرات وبعض المواد الكيمياوية ، واستثنى من هذا الحظر البترول والحديد . فلما وقعت الحرب الأهلية الأسبانية ، وتدخلت فيها إيطاليا وألمانيا علناً إلى جانب أحد الفريقين المتحاربين ، ولم تستطع أمريكا أن تنجد الفريق الآخر ، بتصدير الأسلحة والذخائر ، أدركت الحكومة الأمريكية ، ما ينطوى عليه بقاء قانون الحياد بهذه الصورة من تشجيع لسياسة العنف والاعتداء ؛ ورأت أن تقوى حيادها بدرء هذا النقص ، بحيث إذا وقعت حرب أوربية ، كان فى وسعها أن تقف نفس الموقف إزاء الفريقين المتحاربين ؛ وعدل قانون الحياد فى شهر مايو سنة ١٩٣٧ متضمناً لمبدأ التصدير على قاعدة « ادفع وانقل » ولكن حدد تطبيق هذا التعديل بمدة عامين .

(١) راجع عدد ٣٠ من الثقافة الصادر فى أول أغسطس الماضى .

وفى شهر مايو سنة ١٩٣٩ انتهى أمد التصدير على قاعدة « ادفع وانقل » ، وعاد قانون الحياد إلى أصله ، يحظر تصدير الأسلحة والذخائر إلى الفريقين المتحاربين .

ومن ذلك الحين نشب النضال فى أمريكا بين أنصار الحياد القائم على حرية التصدير وأنصار العزلة التامة ؛ وتردد صدى هذا النضال قوياً فى أوربا فى المعسكرين الدكتاتورى والديمقراطى ؛ فالمعسكر الدكتاتورى وقوامه ألمانيا كان يحارب نظرية الحياد بكل قواه ويرى فى فوزها خطراً عليه لأنه يمكن المعسكر الآخر أى المعسكر الديمقراطى من استيراد الأسلحة والذخائر الأمريكية ، بماله من وفرة المال وسيطرة على البحار ؛ والمعسكر الديمقراطى وقوامه انكلترا وفرنسا يؤيدها بكل قواه لما يترتب عليها من المزايا بالنسبة إليه ؛ وكانت دعاية الفريقين تتردد فى أمريكا نفسها . على أن المعسكر الديمقراطى كان يحظى دائماً بعطف الكثرة الغالبة من الشعب الأمريكى ، نظراً لما بينهما من وحدة فى المبادئ الديمقراطية ، ونظراً لما أثارته سياسة المعسكر الدكتاتورى القائمة على العنف والاعتداء من النفور والسخط فى أمريكا ، واعتبارها خطراً سياسياً واجتماعياً مشتركاً يجب التعاون فى رده ومقاومته . وكان لهذا العطف أثره فى تأييد سياسة الرئيس روزفلت القائمة على إحياء قانون الحياد الحر ورفع الحظر عن تصدير السلاح ثم فى فوز هذه السياسة أخيراً حسبما بينا .

قانون الحياد الجديد

ومبدأ ادفع وانقل

وقانون الحياد الذى أصدره الرئيس روزفلت فى الرابع من نوفمبر الحالى ، يقوم كما قدمنا على حرية تصدير السلاح والذخائر إلى الفريقين المتحاربين ، على مبدأ « ادفع وانقل » متضمناً للأحكام الآتية :

١ — يحظر على الرعايا الأمريكيين السفر على بواخر المتحاربين .

٢ — يحظر على السفن الأمريكية الذهاب إلى موانئ المتحاربين ، ودخول المناطق الحربية التى يحددها رئيس الجمهورية .

٣ — لا يسوغ منح اعتمادات ما للمحاربين ، وبأية صورة من الصور .

٤ — يجب على المتحاربين أن يحصلوا على ملكية جميع المنتجات التى يشترونها من الولايات المتحدة ، ويجب أن يتم نقل الملكية إليهم قبل تصدير البضائع المشتراة .

٥ — يسوغ لشركات الملاحة الأمريكية متابعة أعمالها مع استراليا وزيلندة الجديدة والأملاك البريطانية والفرنسية والصين وكندا ، وأراضى المتحاربين الداخلة فى نطاق القارة الأمريكية ، ومع أفريقيا الجنوبية ، وهذا مع استثناء نقل الأسلحة والذخائر ، ولا يسوغ للسفن الأمريكية نقل البضائع إذا لم تتم ملكيتها .

٦ — يخول القانون لبواخر الدول المحايدة الحق فى نقل جميع البضائع — ما عدا الأسلحة — المرسلة إلى جميع البلدان الواقعة على المحيط الهادى والمحيط الهندى والبلدان الأمريكية الواقعة تحت درجة ٣٥ من خط العرض الشمالى .

وقد اشترط القانون الجديد فى تصدير الأسلحة والمواد الحربية إلى الدول المتحاربة أن يجرى على قاعدة « ادفع وانقل » Cash and Carry ، وهى فى الواقع لب القانون ولبابه ، ومؤداها أنه يجب على المشترى أن يدفع ثمن المواد المشتراة فوراً ، وأن يتكفل بأن ينقل ما اشتراه على سفنه الخاصة ، لأن السفن الأمريكية ممنوعة من نقل الأسلحة ، ولا يسوغ لها أن ترسو فى موانئ المتحاربين .

ولهذه القاعدة مزايا جمة ، ففيها أولاً ضمان مؤكد لحقوق المنتجين الأمريكيين ، لأنها تكفل لهم دفع ثمن المواد المبيعة قبل تصديرها ، ومن جهة أخرى فهى بما تشترطه

على المشترى (وهو من المتحاربين) من نقل هذه المواد وسائل نقله الخاصة ، تعاون أمريكا على الابتعاد بقدر المستطاع عن المشاكل التي يمكن أن تترتب على إغراق البضائع واحتجاج الفريق الآخر من المتحاربين ، وبعبارة أخرى تعاونها على المحافظة على الحياد المرغوب .

بعض البواعث والنتائج

ولا ريب في أن أمريكا ترمى بإصدار قانون الحياد إلى المحافظة على مصالحها الخاصة ، واجتناء أقصى ما يمكن اجتناؤه من الأرباح المادية ، وذلك بافتتاح أسواق المتحاربين والمحايدين على السواء لمنتجاتها الوفيرة ؛ والحرب الأوربية بما تستهلك من الأسلحة والمواد الحربيـة تفتح أمام الموارد الأمريكية الضخمة أسواقاً رائجة ، وتعاون في معالجة البطالة بمـا تبث إلى الصناعة الأمريكية من نشاط مضاعف .

على أن المسألة — فضلاً عن هذه الناحية المادية التي يعود غنمها على الأمة الأمريكية وحدها — ناحية سياسية أهم وأخطر ، تترتب عليهـا بالنسبة لمصاير الحرب الأوربية نتائج خطيرة ؛ وهي أن أمريكا بما تبيحه من تصدير الأسلحة والذخائر ، تقدم للدولتين الديمقراطيتين ، أعنى انجلترا وفرنسا ؛ فرصاً ذهبية للمعاونة العسكرية غير المباشرة . ذلك أنه بالرغم من إباحة تصدير الأسلحة والذخائر للفريقين المتحاربين ، فإن اشتراط الدفع والنقل Cash and carry يكاد يجعل هذه الميزة وقفاً على انجلترا وفرنسا ، فهما وحدهما اللتان تملكان أموالاً احتياطية عظيمة من الذهب والنقود والسندات الأجنبية ، وفي وسعهما دون غيرهما أن تدفعا ثمن ما تحتاجان إليه من الأسلحة والذخائر ، وهما اللتان تسيطران على البحار وخاصة على مياه المحيط الأطلنطى ، وفي وسعهما دون غيرهما أن تنقلا المواد المشتراة على سفنهما الخاصة . أما ألمانيا فإنه يستحيل عليها أن تنتفع بهـذه الفرصة ، نظراً لنضوب مواردها المالية من جهة ، ونظراً لانقطاع مواصلاتها البحرية تمام الانقطاع من جراء الحصار المضروب عليها .

وفي وسعنا أن نقدر أهمية هذه الميزة بالنسبة لانكلترا وفرنسا متى علمنا بأن آلاف الطيارات التي صنعت في أمريكا لحسابهما تنتظر الآن في حظائرها على الشاطئ الأمريكي السفن التي تقوم بنقلها إلى الشواطئ الانكليزية والفرنسية ؛ هذا عدا كميات عظيمة من المواد الحربية الأخرى ، أعدت برسمهما منذ حين وأرجئ تصديرها حتى يصدر قانون الحياد . ثم إن افتتاح السوق الأمريكية الغنية يمكن الحلفـاء من توفير الأيدى العاملة ، والمحافظة بقدر المستطاع على نشاطهما الصناعى وعلى أسواقهما الخارجيـة حتى في وقت الحرب . أما ألمانيا فإن اضطرارها إلى الاعتماد على نفسها في صنع ما يلزمها من الأسلحة والذخائر ، يشل صناعاتها ويقضى على تجارتها الخارجية بالبوار ، ويعاون بذلك في تشديد آثار الحصار الاقتصادى عليها .

وسواء أكانت الولايات المتحدة تقصد بإصدار قانون الحياد أن تصل إلى مثل هذه النتائج أو لم تكن تقصد ، فإن الذي لا ريب فيه هو أنها تتجه بميولها وعواطفها إلى الحلفاء ، وترى إلى تأييدهم بكل الوسائل الأدبية والمادية الممكنة دون أن تعرض حيادها للخطر ، وترى في فوزهم بتحطيم ألمـانيا الهتلرية وسياستها العنيفة البربرية فوزاً للمبادئ والنظم والحضارة التي تعتنقها . ولا ريب أن قانون الحياد يعاون في تقريب هذه الغاية أكبر المعاونة ؛ ومن ثم كان وقعه العظيم في أوربا ، وفي العالم ، وكان ما أثاره في انكلترا وفرنسا ومعظم الدول المحايدة من مظاهر التأييد والارتياح .

(* * *)

تجربة

للدكتور طه حسين بك

أما أنها نجحت نجاحاً باهراً فاهراً فذلك شيء لاشك فيه، وأما أن نجاحها كان خيراً للناس وللحضارة؟ فهذا هو الشيء الذي أشك فيه كل الشك، ولعلى أقطع بما يناقضه من جميع الوجوه؟ ولنعرف أولاً ما هذه التجربة الناجحة المخفقة، الرابحة الخاسرة، التي أحيت ناساً كثيرين وعرضت خير ما في الانسانية للشر والتلف، والتي خيلت إلى الناس أن حضارتهم قد بلغت من الرقى أقصاه، وانتهت من الكمال إلى غايته؟ على حين أنها زلزلت أركان هذه الحضارة، حتى انتهت بها إلى ماتتعرض له الآن من الانهيار؟ وأريد بها تجربة الاعلان أو تجربة الدعاية.

وقد قلت إن نجاحها ليس فيه شك، وما أظن أحداً ينازع في أن الاعلان قد أصبح من أصول الحياة الحديثة وركناً من أركانها، بل لعله أصبح أهم أصولها وأعظم أركانها خطراً. عظم شأنه في التجارة والصناعة فكان مروجاً للبيع والشراء، والأخذ والعطاء، ثم عظم أمره في السياسة وأمور الحكم، فكان مروجاً للأحزاب السياسية، وكان حكماً بين هذه الأحزاب يقضى لبعضها على بعض، ويديل لبعضها من بعض. وكان مروجاً للحكومات حين تنهض بأمور الحكم، وللمعارضة حين تقاوم هذه الحكومات. وكان إليه الأمر في كل ما يكون، من قيام الوزارات وسقوطها، ومن ظفر الأحزاب في الانتخاب وانهزامها. أعانه على ذلك انتشار القراءة والكتابة وانتشار الصحف التي تحمل إلى كل قارىء ما يستطيع أن يقرأ والتي تدس على كل قارىء فيما يقرأ هذا الإعلان أو ذاك، تروج به لما تراد على أن تروج له، من أمور التجارة والصناعة والسياسة ومن أمور الثقافة أيضاً.

ثم أتاح العلم والاختراع للصحافة شريكاً له خطره وأثره في الاعلان، وهو الراديو. هذه تروج بالقراءة في الصباح والمساء، وحين يتوسط النهار، وحين يتقدم الليل، وهذا يروج بالإلقاء في كل ساعة من ساعات النهار والليل؟ بل في كل لحظة من لحظات النهار والليل.

هذه تسلك إلى النفس طريق العين، وهذا يسلك إلى النفس طريق الأذن، وكذلك يحاط بالفرد وبالجماعة من جميع وجوههما، ويؤخذ الفرد والجماعة من جميع أقطارهما، يخضعون للاعلان في كل لحظة من لحظات الحياة؟ والانسان كما قال أرسطاطاليس مدنىّ بالطبع، وليس معنى ذلك أنه بطبعه يحب الحياة المنظمة تنظيماً سياسياً دقيقاً فحسب، بل معناه أيضاً أنه يتأثر أشد التأثر بهذه الظواهر التي تنشأ في حياة الجماعات، ويشتد تأثيرها فيها، فلا تكاد ظاهرة من هذه الظواهر تنشأ ويدعى إليها ويقبل عليها بعض الناس حتى يتهالك الناس جميعاً عليها، وما أسرع ما تصبح لهم نظاماً، ولحياتهم قواماً، كأنها أصل من أصول الحضارة وضرورة من ضرورات العيش.

لقد عرفت القطارات فأعرضت عنها كثرة الناس إعراضاً وأقبلت عليها منهم قلة؟ ولكن وقتاً قصيراً لم يمض حتى أصبحت القطارات أساساً من أسس الحضارة الحديثة؟ ثم تقدم الاختراع وأنشئت وسائل أخرى للمواصلات أسرع وأيسر من القطارات، فقاومها الناس وأقبلت عليها

قلة ثم لم تلبث أن أصبحت أصلا من أصول الحياة .

وكذلك كان الاعلان نفسه ، لم يقبل عليه في أول أمره إلا المجربون ثم المطمئنون إلى التجربة ؛ ثم لم يلبث هؤلاء المجربون أن كثروا ، ولم يلبث هؤلاء المطمئنون أن تزايدوا وأصبح عددهم ضخماً ، ثم لم يلبث الاعلان أن أصبح أصلا من أصول حياتنا الحديثة ، لا نكاد نتصور عملا من الأعمال الخطيرة أو الضئيلة التي نريد أن نقدم عليها ، حتى نقدر حظ الاعلان منه أو حظه من الاعلان . فاذا أهملنا هذا التقدير فعملنا معرض للخطر ، بل مقضي عليه بالإخفاق الذي لا مخرج منه ولا منصرف عنه .

والظريف أن هـذا التقدير لأمر الاعلان قد أصبح جزءاً طبيعياً ، وهو مضحك بنوع خاص حين يتصل بأمور الثقافة ، وحين يتصل بالانتاج الأدبي الممتاز . ولا سيما في أوربا ، فلا يكاد الأديب أو الفيلسوف يفرغ من كتابه أو يفكر في إنشاء كتابه ويتحدث فيه إلى الناشر — وأنت تعلم أن من المؤلفين من يتفق على نشر كتابه قبل البدء فيه ، ومنهم من يتفق على ذلك بعد الفراغ منه — حتى يكون الاعلان أول شيء يعرض له الحديث . فالناشر يحسب ما سيكلفه الاعلان من نفقة ، والكاتب يحسب ما سيكلفه الاعلان من نسخ ؛ وقد نشرت ترجمة الأيام بالفرنسية وتحدث إلى في أمرها الكاتب الفرنسي العظيم دي هامل ، فكان مما قاله لي يجب أن توطن نفسك على توزيع ٣٧٠ نسخة مجاناً على الصحف ليعرف الكتاب ، فبغير هذا لا سبيل إلى معرفته . وقد حدثتك في الأسبوع الماضي عن كتاب دي هامل « الدفاع عن الأدب » وهو من أشد الكتب بغضاً للاعلان وسخطاً عليه ؛ وما أشك مع ذلك في أنه قد قدر أمر الاعلان مع الناشر حين هيأ كتابه هذا للنشر ، قدر ما سيكلفه الاعلان من نسخ وما سيكلفه الناشر من مال ، يحسب عليه هو في آخر الأمر .

فالإعلان إذاً أصل من أصول الحياة الحديثة قد تغلغل في فروعها كلها ، فلم يبق للناس سبيل للتخلص منه أو الفرار من سلطانه ؛ وهو من هـذه الناحية قد نجح نجاحاً باهراً قاهراً ؛ بل هو قد نجح من ناحية أخرى ؛ فهو يفيد الذين يلجأون إليه ويحسنون الانتفاع به فائدة قريبة محققة ؛ وهو يضر الذين لا يلجأون أو لا يحسنون الانتفاع به ضرراً قريباً محتوماً . فالتاجر الذي يحسن الإعلان ، وينفق عليه الأموال الضخمة ناجح رابح ، والتاجر الذي يقصر في ذات الاعلان أو تقصر يده عما ينبغي له من الضحايا والقربان خاسر مقضي على تجارته بالكساد من غير شك . والكتاب الذي تعلن الصحف ظهوره ومحاسنه سريع النفاد ، والكتاب الذي تجهله الصحف أو لا تذكره إلا قليلاً بائر على مؤلفه وناشره جميعاً بإذن الله .

والحزب السياسي الذي يظفر بالصحف المنتشرة الرائجة كثير الأتباع موفق إلى الظفر في حياته السياسية مهما تختلف ألوانها ؛ والحزب الذي يقصر به الفقر أو ترتفع به الكرامة عن الإعلان مخذول مدحور في حياته السياسية مهما تكن مبادئه ومذاهبه ، ومهما كانت استقامة أعضائه ، ومهما يكن حظهم من رجاحة الحلم ونزاهة القصد وحب الوطن وإيثار المنفعة العامة على كل شيء .

وقل مثل ذلك في كل ما يمس حياة الجماعة وحياة الفرد ؛ لا سبيل إلى الإقدام على عمل تنشئه إلا إذا قدرت حظ الإعلان في الترويج له ؛ ولا سبيل إلى الإقدام على شيء تحتازه احتيازاً ماديا أو معنويا إلا إذا عرفت رضى الإعلان عنه ، وما أنتج من حسن رأي الناس أو سوء رأي الناس فيه .

كل هذا حق واضح قد أطال الناس فيه حتى أصبح ذكره حديثاً معاداً .

ولكن هل أفادت الحضارة من هذه الظاهرة مايصلحها ويرقيها ويدنيها من المثل الأعلى ، ويقربها من الكمال الذى يقال إننا نسعى لندركه ولندنو منه ؟ أم هل أفادت الحضارة من الإعلان ما يسوؤها ويغض من قدرها ويضع من مكانتها ، ويردها إلى هذه الملطة التى لاتلائم ارتفاع النفوس عن الصغائر وتنزهها عما لا يليق بالقلوب الكريمة ، هذه التى ينبغى أن تصوغها حضارتنا ذات الخطر العظيم من الامتياز فيما نزعم ؟

هذه هى المسألة التى أشك فيها كل الشك ، بل أكاد أقطع بأن الجواب عليها لايرضى ولايسر ، بل لايشرف ، بل لا يسمح لنا بأن نفاخر بحياتنا الحديثة ، وبما أنتجت من حضارة ، وبما انتهت إليه من مثل عليا فى الأخلاق . ذلك أن الإعلان يفقد قيمته كلها إذا اعتمد على العقل ، وقام على ما وراء العقل أساساً للحياة الكريمة النقية من الفضائل وخصال الخير . فالإعلان الذى لا يقول إلا حقاً ، والذى لا يتحدث إلى الناس إلا بالصدق ، والذى لا يتجه من الناس إلا إلى عقولهم وملكاتهم الفكرة المقدرة المتدبرة فيما تكون من رأى وما تصدر من حكم — هذا الإعلان لاوجود له ولايمكن أن يوجد ولاينبغى أن يوجد ، لأنه لو وجد لما حفل به أحد ، ولا أقبل عليه أحد ، ولا أذعن لسلطانه أحد . ولكان أمره كفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، مقصوراً على طبقة من الخاصة ، بل من خاصة الخاصة ، وكانت نتيجته إخفاقاً تاماً ، وإفلاساً محتوماً . وليس من العسير أن توازن بين الكتب القيمة ذات الخطر العظيم التى لا يعلن أصحابها أو ناشروها أمرها إلا بمقدار وفى صحف معينة قد خصصت لها ولأمثالها ، وبين الكتب الأخرى المتوسطة أو ذات الخطر الضئيل أو التى لا خطر لها ، ولكنها تظفر بالإعلان الهائل الذى لا يصدر من عقل ولا من صدق ولا عن نصيحة للقارىء وإنما يصدر عن رغبة فى البيع وحرص على الرواج ؛ فسترى نتيجة هذه الموازنة مصدقة لهذه الحقيقة الواضحة وهى أن الاعلان لا نفع له إلا إذا اعتمد على شىء غير الصدق ، وصدر عن مصدر غير العقل ، وقصد إلى شىء غير النصح والارشاد .

وتعليل ذلك يسير عند علماء النفس وعلماء الاجتماع ، فصاحب الاعلان مروج ومروج فى بيئة اجتماعية تختلف طبقاتها وتتفاوت أقدار أفرادها وحظوظهم من العلم والجهل ، ومن الذكاء والغباء ، ومن قوة الحس وبلادة الطبع ، ومن سرعة التصديق والابطاء فيه ، ومن سهولة الانقياد وصعوبة المراس ؛ ولابد من أن يتجه الاعلان إلى هؤلاء جميعاً ، ولابد من أن يبلغ هؤلاء جميعاً ، ويصل إلى نفوسهم ، ويحدث فيها الأثر الذى يريده صاحب الإعلان . فالاعلان لون من الخطابة التى تتجه إلى الجماهير ، ولكنه لا يتجه إلى جمهور بعينه قد اشتمل عليه مكان محدود وأحاط به إطار معنوى محدود ؛ وإنما هو خطابة مكتوبة فيه خصائص الخطابة التى تتجه إلى عواطف الجماهير ، وتهاجم منها مواطن الضعف لتقهرها وتبهرها ، وتبلغ منها كل ماتريده ؛ وفيه خصائص الكتابة التى تتجه إلى القارئين منفردين ومجتمعين ، فتقرأ جهراً وتقرأ سراً ، ويقرأها الفرد وحده ويقرأها الفرد مجتمعاً إلى غيره ؛ وهو من هاتين الناحيتين بعيد كل البعد عن أن يكون شيئاً عقلياً ممتازاً ، أو متوسطاً قوامه الصواب والصدق والنصح والاخلاص ، إلا أن يكون الاخلاص متصلا بما يريد المعلن أن يروج له ويدعو إليه .

فالاعلان إذاً شىء يقوم على غير الصدق وعلى غير الصواب فى أكثر الأحيان ، وتلاحظ أنى متحفظ محتاط لا اصطنع كلمة الكذب ولا كلمة الخطأ ؛ لأنى لا أريد هاتين الكلمتين ، وإنما أريد شيئاً وسطاً بين الصدق

والكذب ، وشيئاً وسطاً بين الخطأ والصواب ، وشيئاً وسطاً كذلك بين النصح والغش ، وبين الاخلاص والنفاق ، وأريد شيئاً أقل ما يتصف به أنه غامض من جميع نواحيه إلا من ناحية الترويج لما يريد المعلن أن يروج له ، والدعوة لما يريد المعلن أن يدعو إليه ، أى من ناحية تحقيق المنفعة القريبة العاجلة مهما يحط بها من الظروف الحسنة والسيئة ، النقية والكدرة ، البريئة والمدخولة .

ومعنى هذا كله أن الاعلان حين اندس فى الحضارة الحديثة وتغلغل فى أعماقها حتى أصبح لها قواماً ، قد دس فيها عنصراً غامضاً مبهماً خطراً ، قوامه الشبهات ، وقد أضعف بهذا العنصر حظ العقل من التأثير فى الحضارة ، وحظ الاختيار القائم على التفكير الصحيح وعلى تحرى الصواب والاخلاص فى هذا التحرى . وهو بهذا قد ألغى حظاً عظيماً جداً من حرية الفرد ومن حرية الجماعة ، واستعبد الناس لفريق قليل ضئيل من هؤلاء الذين ينظمون الاعلان ويصوغونه ويذيعونه ويشرفون عليه .

ومعنى هذا أن الاعلان فى حقيقة الأمر خصم من خصوم الحرية الفردية والاجتماعية ، وخصم من خصوم العقل ، وخصم من خصوم التفكير وتحرى الصدق والصواب ؛ ونتائج هذا كله ظاهرة فى حياتنا وحضارتنا ؛ فالاعلان هو الذى أفسد قلوب الألمان وخدعهم بزخرف القول حتى أضاع عليهم عقلهم ، وحتى سلبهم حريتهم ، وحتى أخضع ملايينهم الضخمة لفرد أو لأفراد يصرفونهم كما يحبون ، ويتصرفون فى أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وآرائهم كما يشتهون . والاعلان هو الذى دفع الألمان ، بعد أن صاغهم هذه الصيغة ، إلى هذه الطاعة المطلقة التى انتهت بهم وبجزء عظيم من العالم إلى هذه الكارثة التى نشهدها ، والتى نرجو ألا تشمل العالم كله بآثارها المنكرة .

فالاعلان إذاً شر قد لا يكون منه بد ، ولكنه شر لا بدّ من الاحتياط حينما نضطر إليه ، وحينما تكرهنا الظروف على اصطناعه ؛ وما أكثر الشرور التى لا بدّ منها ، ولكن ما أشد ما يجب على الناس أن يصطنعوا من الحذر والاحتياط حين يضطرون إلى بعض هذه الشرور ؛ فهل نحن نصطنع شيئاً من الحذر والاحتياط فيما يكون بيننا وبين الاعلان من صلة تضطرنا إلى أن نصطنعه فى بعض شؤوننا ومصالحنا ؟ أم هل نحن قد فُتِنَّا به كما فُتن غيرنا ، وأذعنا له كما أذعن له غيرنا ، وأهدينا إليه عقولنا وقلوبنا فى غير تحفظ ولا احتياط كما أهداها إليه غيرنا ؟

وأنا لا أريد بالطبع أن أقوم مقام الواعظ المرشد ؛ فليس لى أن أقوم هذا المقام ، ومصر والحمد لله غنية بالوعاظ والمرشدين ، قد امتلأت الصحف والراديو والأندية بوعظهم وإرشادهم ؛ وإنما أنا باحث يحاول أن يفهم ويحاول أن يدعو غيره إلى الفهم والاستقصاء . ولست أخفى عليك أن الذى حملنى على التفكير فى أمر الإعلان هو هذه الظاهرة الغريبة التى رأيتها فى مصر حين عدت من فرنسا آخر هذا الصيف ، ظاهرة التهالك على الإعلان ، فى بيئات قد كانت خليقة ألا تفكر فى الاعلان الآن ، فضلا عن أن تتهالك عليه . وقد قرأت فى بعض الصحف ما دعانى إلى هذا التفكير ، وهو أن الذين يعلنون يجب أن يكون عندهم ما يعلنونه إلى الناس ؛ فأما أن يعلنوا قبل أن يظفروا بما يريدون إعلانه فهذا هو الشيء الغريب حقاً ؛ وواضح جداً أن هذا الكلام إنما يمس وزارة الشئون الاجتماعية ، التى لم تكد تنشأ ، ولم يكد الناس يبتهجون بإنشائها حتى كان أول ما أقدمت عليه وآخر ما أقدمت عليه وأهم ما أقدمت إلى الآن الاعلان . أنشأت له إدارة ، وعينت له موظفين أستغفر الله ، بل أساءت إلى الأدب الخالص ؛ فأخذت أدبياً كان الناس يحبون أن يقرأوا له ، وكلفته أن يفرغ لأبعد الأشياء عن الأدب ، وأبغضها إلى الأدب ، وأسوئها أثراً فى الأدب وهو الاعلان . وأخذنا لا نعرف توفيق الحكيم

(البقية على صفحة ٤٢)

في يوم العيـــــد (١)

للدكتور محمد عوض محمد

قلتُ للراوي : أريد منك اليوم قصة تناسب العيد — أعاده الله على الأمّة المصرية بالأمن والسلام ، والاستقلال التام : قال : أتريد قصة جديدة مبتكرة ، أم قصة قديمة في ثوب جديد ؟ قلتُ : ما دمتَ تركتَ الخيار إليّ ، فإني أريد قصةً من أساطير الأولين ، في ثوب مستطرَف مستظرف ؛ فإني سئمت التجديد والمجددين ، الذين لا يفتح عليهم في تجديدهم إلا بكل سخيف هزيل .

قال الراوي : إذاً فاعلم أنه في يوم العيد — ولا أذكر أكان العيد الصغير أم الكبير — نالت البطة المسماة «مليحة» ما كانت تتوق إليه نفسها الطامحة من نعيم دام ساعات عديدة .

قلتُ : وكيف كان ذلك ؟؟

قال : زعموا أن «مليحة» كانت بطة هيفاء القد ، مُوَرَّدَة الخد ، دعجاء العينين ، كحلاء من غير كُحل ؛ ذات منقار بديع أحمر اللون ، ولكن حمرته لم تُجتَلب من دكان العطار ، كهذه الأصباغ التي تتلطخ بها شفاه بناتنا في هذا الزمان ؛ وأنا أستطيع أن أقسم لك ، على طريقة الأستاذ الشيخ البشرى ، أن بطتنا هذه كانت ذات حسن موهوب لا مجلوب .

قلت له : أرجوك ألا تقسم ، كما أرجوك أن تلزم حديث البط ، ولا تخرج عنه .

قال : فاعلم إذاً أن «مليحة» كانت قُرّة عين صاحبتها وولية نعمتها الست زبيدة . وقد اختارت لها هذا الاسم لأنه اسم ابنتها العزيزة التي فقدتها ، أو بالأحرى التي تُخيّل لها أنها فقدتها ؛ ولا يخفى عنا أن أصارحك بأن الست زبيدة لم تلد بنتاً تدعى مليحة ، أو تدعى أي شيء آخر ؛ ولكنها كانت دائماً ترجو وتؤمل أن يرزقها علام الغيوب بنتاً تسميها مليحة ، فكان القضاء يخلف ظنها أبداً ، وكانت تنجب الفتى إثر الفتى ، وهكذا دواليك ، حتى تم لها من الأبناء النجباء سبعة ! ولهذا كانت البطة «مليحة» قرة عينها ، لأنها تذكرها بابنتها المصونة ، والجوهرة المكنونة التي لم يسمح لها القضاء الجائر أن تولد .

(هنا أخذ الراوي يتنحنح لكي يحرك الضفدعة التي في حلقه عن موضعها ، حتى يصير مجرى النفَس خالياً نوعاً ما ، ثم قال بعد أن زالت العقبة) :

وأخذت الست زبيدة ترعى مليحة بعينيها ، وتحنو عليها بقلبها وجوارحها ، وتغدق عليها الهبات ، وتدللها أيما تدليل . ومن أغرب ما فعلته في هذا الباب أنها قلدتها عقداً من الزمرد الأخضر ، وحلّت أذنيها بقرط من الماس الفاخر .

هذا ما كان من أمر الست زبيدة ؛ وأما ما كان من أمر «مليحة» فإنها لم تظهر امتناناً شديداً من كل هذا العطف والحنان ، ولم تكن تجد بأساً كبيراً في أن تُدلَّل وتُعلّل ، ولكن هنالك أمر واحد كان يضجرها ويُعنّيها ؛ وذلك أن الست زبيدة قد ألزمتها أن تعيش في الدار لا تبرحها ، وقد أحيط فناء البيت بأسوار عالية قد بنيت بالحجر المتين ، ولم يكن يضارعها في المتانة بناء في قرية «زبدون» على كثرة ما بها من الأبنية المتينة .

وأمرت هذه السيدة الطيبة القلب بردم جميع البرك

(١) ألفت هذه القصة محاكاة لقصة في موضوع مشابه للكاتب الانكليزي كوبارد Coppard .

والغدران ، فى القرية وما يحيط بها من الحقول ، إلى مسافة أميال عديدة ، لكيلا تحدث «مليحة» نفسها الطموح بأن تطير من المنزل إلى إحدى البرك لكى تتمتع بما تتوق إليه من سباحة واستحمام . . .

وقد ضاقت نفس بطتنا ذرعاً بهذا الحرمان القاسى : كيف ترضى ، وهى سليلة البط المجيد ، أن تقضى حياتها على الحصا والتراب ، فى منزل تحيط به الجدران والحجر الصلد ؟ إن أرواح آلاف الأجيال من السلالة البطية العظيمة ، تناديها بأن تسبح وتعوم ، وتثب على صفحات الغُدران ، وتلوى عنقها يميناً ويساراً ، ثم تغمسه فى الماء ، وتغوص من خلفه إلى غور بعيد ، كأنها غواصة ألمانية فى بحر الشمال . . .

وفى يوم من أيام الربيع بلغت روح مليحة المنقار ، ولم تعد تطيق صبراً ، واستطاعت — رغم ريشها المقصوص — أن تثب إلى قمة شجرة جميز ، وأخذت تحدق فى الفضاء المحيط بالقرية لعلها ترى غديراً أو بركة آسنة ، فلم تجد شيئاً ؛ ورآها مسعود — وهو الابن الأصغر للست زبيدة — فأخذته الشفقة عليها ، وكان يعلم بما تتوق إليه نفسها . فاصطحبها إلى قناة صغيرة ضئيلة قليلة الماء ، لعلها تشفى بها غلتها ، وتنال بعض أمنيتها . . ولكنها نظرت إليها فى اشمئزاز ونفور ، وصاحت : إنى أريد غديراً غزير الماء لا هذه القناة الحقيرة ، فيا ويحك أما تستطيع أن تدرك الفرق بين الغدير والقناة ؟ .

قال مسعود : « ولكن ماذا يهمك من الغدير يا مليحتنا العزيزة ؟ ألا تجدين لدينا كل ما تطمحين إليه من طعام وشراب ، وحلى وحلل ؟ . »

قالت : « ومتى كانت الحياة عبارة طعام وشراب وثياب ؟ إن ساعة واحدة أقضيها فى الغدير أسبح وأعوم وأقعد وأقوم ، أحب إلى من كل طعام ، بل من قصر الست والدتك أيضاً . وأى بطة تحترم نفسها تقبل الإذعان لكل هذا الحرمان ؟ »

كان مسعود يعطف على البطة «مليحة» أشد العطف ، فأخذته الشفقة عليها ، إذ رأى فى كلامها من قوة الحجة والوجاهة ، ما لم تستطع أمه أن تراه وتقدّره حق قدره . فأخذ يهدىء روعها ، ويقول لها : « أصغى إلىّ يا مليحة ! إذا جاء يوم العيد ، تغذى أهبتك ، وكونى على استعداد لمصاحبتى . فأنى ذاهب فى الصباح الباكر لزيارة فريق من أصدقائى ، وسأمر فى طريقى ، قريباً من قرية « عمون » على غدير جميل فأتركك فيه بضع ساعات ، ثم أعود فألتقطك عند رجوعى ؟ » .

وقد أبرقت أسارير « مليحة » لهذا الوعد الجميل ، وأوشكت أن تطير من شدة الفرح برغم جناحها المقصوص

***

قال الراوى : وفى يوم العيد السعيد نالت « مليحة » الأمنية التى كانت تتوق إليها ، فإذا هى على صفحة الغدير تغنى الهوينا حيناً ، وتسبح بسرعة حيناً ؛ وطوراً ترفع رأسها شامخاً عالياً كأنه برج طرادة أو بارجة ، وتلوى عنقها حيناً كأنه القوس المنثوية للرماية ، وتقترب من البر آونة فترى دوداً مختلفاً ألوانه ، فتلتقط منه ما تشاء كما تشاء ، بل لقد رأت فى ذلك اليوم ثعباناً ينساب بين الحشائش ، فعاجلته بضربة منقار فصلت بها رأسه عن جسده الغض الطرى ، كما فصل سيف عنترة رأس لا أدرى مَن مِن الأبطال . . . تلك لعمرى — أو لعمر البطة — هى الحياة البطية الخالصة ، وذاك غذاؤها الحى المنعش ، لا تلك الأطعمة الفاترة المزيلة التى تقدمها لها الست زبيدة .

ولا تسل عن سرورها حين أخذت تغوص إلى قاع الغدير ، وقد خيل لها أنها غابت عن الأنظار تماماً ، مع أن مؤخرتها لم تزل طافية على وجه الماء . . .

ورآها وهي على هذه الحال «بهلول» المتسكع الأكبر لقرية عمون ، وقد خرج مبكراً فى زيه الرث ووجهه الملوث ، يهيم فى الحقول على عادته ؛ فاستوقفه هـذا المنظر ، فأخذ يقترب من حافة الغدير متمهلا ، وهو يصفر صفيراً غريباً مريباً ، فلم تمالك بطتنا أن أخرجت رأسها من المـاء ، والتفتت إلى ناحية الصوت .

كان بهـلول — برغم تسكعه وتشرده ، أو ربمـا بسبب تسكعه وتشرده — ملماً إلمـاماً جيداً بلغة البط ، ولهذا لم يلق عناءً فى التحدث إليها :

— عمى صباحا سليلة البط !

— كواك ! — كواك ! — كوا آ آ ك !

— ما هذا الصياح المنكر ؟ أهكذا تردين التحيـة على الصديق المسَّـلِّم ؟ كنت أحسبك أسمى أدباً من هذا . وأكبر ظنى أنك لم تشهدى درساً فى كليـة آداب البط بحدائق الأورمان !

— لاتؤاخذنى ، فإنى اليوم فى عيد سعيد ، وصدرى منتفخ مرحاً وفرحاً !

— إنى أقبل عذرك ، ومثلى من يعذر ويغفر . ولست أخفى عنك أنى ما رأيت أدعج من لحظك ، ولا أرشق من قدك ، ولا أجلّ خدٍّ بط من خدك ؛ فمن أى البلاد أقبلت ؟

لم تكد البطة تسمع هذا السؤال حتى نشطت للكلام ، وكانت تتلهف شوقاً إلى شخص يصغى إليها فتبثه شكواها مما تعانى من السجن والعذاب فى قرية زيدون تحت رعاية الأم العزيزة الست زبيدة .

وقد أصغى «بهلول» إليها طويلا ، وأظهر العطف الشديد والألم المبرح لمـا تعانيه بطة فى حسن «مليحة» ورشاقتها فى تلك البيئة الضالة الخاسرة . . .

« فيا ويلهم ، كيف يريدون أن يسجنوا هذه الثروات البطية المجيـدة ، ويصفدوها بالسلاسل والأغلال ؟ . . ولـكن هوّنى عليك ؛ وليطب خاطرك ؛ فقد أنشئت لجنة لتحرير البط من الرق والعبودية ، وسأذهب بك إلى مقر هذه اللجنة لـكى تعرضى عليها شكواك .

« وفوق هذا فقد أخذ مجمع اللغة يعنى بشأنكم معشر البط عناية خاصة ، فقضى فى بحثكم ثلاث جلسات ، انقسم فى نهايتهـا إلى ثلاثة أقسام : الفريق الأول يزعم أنكم على وزن فعل ؛ والثانى ينادى بأنكم على وزن فل ؛ والثالث يقسم بأنكم على وزن فع ! . . . وسيعرض الموضوع للتحكيم على لجنـة محايدة ترأسها بطة . ولست بمستبعد أن يقع الاختيار عليك لرئاسة تلك اللجنة .

« إن مثلك يا سـيدة البط حسناً ورشاقة ، لم يخلق للسجن والقيود والأغلال ، فيا عجبا ! كيف ارتضيت المكث فى تلك الدار الظلمة ، بجوار تلك العجوز الشمطاء ؟ »

— لقد أكرموا مثواى .

— أجل . ولـكنهم قصوا جناحيك ، وحالوا بينك وبين الحرية والحياة ، إن أحقر بطة فى قريتنا عمون ترتع فى بركة واسعة مترامية الأطراف ؛ تعالى فانظرى إلى قريتنا . وكيف أحدقت بها الغدران من كل جانب ، والبط يمرح فيها ويسبح ، ويتمايل عجباً وتيهاً . تلك لعمرى ، ولعمر الهاليل أجدادى ، هى الحياة البطية الحقة . وماسواها إلا هراء وسخرية .

« ياعجبا لزبيدتك الشمطاء ، كيف تستعبد البط (وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟) أمن أجل عقد حقير أو قرط سخيف ، تضحى بطة عريقة فى الحسب والنسب بحقها فى الحرية والحياة ؟ . .

« حدثينى بأبيك إن كنت تعرفين أباك بعد أن حالت بينك وبينه تلك العجوز ، وما أشك فى أنه من أشرف الأسر القارية وأمجدها ، حدثينى : هل استطعت أن تستمتعى بصحبة أصدقاء من سلالة البط وأنت فى سجنك ذاك ؟

— كلا ! إنى أعيش وحدى ، وطالمـا تاقت نفسى إلى بنى جنسى .

(البقية على الصفحة التالية)

ذكاء العرب

أشرت في مقال[1] سابق إلى ما اصطلح عليه جمهرة العلماء المعاصرين من اعتبار الذكاء « مقدرة ذهنية عامة تولد مع الشخص وتنمو معه إلى سن معينة ، ويظهر أثرها واضحاً في الخطوات العقلية الراقية من حكم وتعليل واستنباط واختراع ، وتنشط على الخصوص عند مواجهة الجديد من الشئون ، وعند معالجة المشكلات » .

وقد لخصت في ذلك المقال بعض الجهود الحديثة في قياس ذكاء العبقريين ، وتمنيت على المهتمين بمثل هذه الدراسات في مصر أن يفردوا عظماء مرحلة من مراحل تاريخنا القريب أو البعيد ببحث من هذا الطراز .

والواقع أن أدبنا العربي لم يخل من محاولات شبيهة بهذه ، قصد فيها أصحابها إما إلى إثبات صفة الذكاء لأشخاص بعينهم « كأبي تمام » بين الشعراء ، و « زياد » بين القواد والخطباء ؛ وإما إلى القول بأن العرب عامة كانوا على درجة كبيرة من الذكاء وقوة الفهم ، مدللين على هذا القول بذكر أمثلة وحوادث تتناقلها كتب الأدب .

ومن بين هؤلاء الأخيرين « السيد محمود شكرى الألوسى » صاحب كتاب « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » ، فقد عقد في الجزء الأول من كتابه فصلا تحت عنوان « بيان فضل جنس العرب وما امتازوا به »[1] بدأه بإعادة تقرير النظرية الفلسفية القديمة من أن كمال كل نوع إنما هو بحصول صفاته الخاصة به ، وصدور آثاره المقصودة منه . وتناول الانسان وفضله ، فقرر أن ذلك الفضل إنما يكون بالعلم النافع أو بالعمل الصالح ؛ والعلم له مبدأ وتمام ، فبدؤه قوة العقل الذى هو الحفظ والفهم ، وتمامه قوة المنطق الذى هو البيان والعبارة ، والعرب هم أفهم من غيرهم وأحفظ وأقدر على البيان ، وإذاً فهم أفضل من غيرهم من الأجناس .

إلى هنا ينتهى « الألوسى » من إجمال دعواه ، ثم يأخذ في ذكر أدلتها واحداً بعد الآخر .

(١) « ذكاء العبقريين وخصائصهم » ، ص ١٧ — ٢١ في العدد ٢٤ من « الثقافة » .

(١) ص ١٨ — ٢٨ من بلوغ الأرب ، ج ١ ، الطبعة الثانية .

— إذاً لا بد من إنقاذك اليوم — بل في هذه اللحظة — من ذلك الحجر الوحشى الظلم ؛ وها أنذا أمد يدى إليك ، معاهداً إياك على الصداقة الخالصة ، والمودة السابغة ، التى لا يمحوها نضوب البرك ، ولا جفاف الحقول ؛ وسأكون لك منذ اليوم عوناً ونصيراً ، وصديقاً حمياً ، ما ناح حمام ، أو نعب غراب ، أو تطاير ريش ، أو نقر منقار ! .

***

قال الراوى : فامتلأ صدر البطة « مليحة » حماساً وفرحاً ، وأقبلت تتهادى على صفحة الماء حتى التصق عنقها بالكف التى امتدت لمصافحتها .

ولم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب ، حتى أطبقت الكف القذرة الخشنة على العنق الغض المليح . وألقيت البطة للمرزّة المدللة ، جثة هامدة في داخل حقيبة « بهلول » المرقعة الملونة .

واندفع إلى كوخه الحقير ، كاشراً عن أسنان مخرقة صفراء ، وهو يتمتم : « إنها لطائر بديع ! أجل لعمر الهاليل أجدادى إنها لطائر بديع ، مهما قاله المجمع اللغوى في وزنها ! . »

(طبق الأصل) محمد عوض محمد

١ – « (أما كالهم في الفهم) فلأنهم كانوا لا يبارَوْن قوة ذكاء وإصابة حدس وحدة ألمية وصدق فراسة ، يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم كأن قد شاهدوه ، ويصف لهم الحدسُ الصائب حال الورد قبل أن يردوه . . . . وقد كان منهم في الأزمنة المتأخرة من هو دون السابقين بمراتب كثيرة ، ومع ذلك يتفطنون للرمزة والدقيقة ، ويتنبهون من اللحظة الخفية والاشارة اللطيفة » ، كما يحكى أن «سليمان بن عبد الملك» أتى بأسارى وكان «الفرزدق» حاضراً ، فأمره سليمان بضرب واحد منهم فاستعفاه فلم يعفه ، وقد أشير إلى سيف غير صالح للضرب ليستعمله ، فقال الفرزدق : بل أضرب بسيف أبى رغوان سيف مجاشع ، يعنى نفسه ، وما كان بعد ذلك من نبوّ سيف الفرزدق وضحك سليمان ، وما قال الفرزدق فى هذا من الشعر ، وما تنبأه من هجاء « جرير » إياه إذا هو علم الخبر ، ثم ما تنبأه جرير من رد الفرزدق عليه ، وصدق النبوءة فى كلتا الحالين .

٢ – وبعد أن يروى الألوسى مثلا آخر يقول : « ولا تسأل عن فطانتهم المنبهة على الرمزة اللطيفة ، وحدة نظرهم المدركة اللمحة الضعيفة » . وفى هذا روايات مشهورة منها أن شريكا النميرى لقى رجلا من تميم فقال له التميمى : « يعجبنى من الجوارح البازى » ، فقال شريك : « وخاصةً ما يصيد القطا » . أراد التميمى بالبازى الإشارة إلى بيت جرير :

أنا البازى المطلّ على نمير أتيح من السماء له انصبابا

وعنى شريك بذكر القطا قول الطرماح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا

ولو سلكت سُبل المكارم ضلّت

ومثل هذه روايات أخرى عن فزارى ونمرى ، وعن معاوية والأحنف ، وعن عبد الله بن يزيد الهلالى ورجل من بنى محارب .

٣ – ويحاول الألوسى أن يثبت صفة الذكاء والفطنة لنساء العرب أيضاً ، فينسب إلى الخنساء ذلك النقد الفنىّ المعروف لبيت حسان بن ثابت (أو بيتيه) :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

٤ – ليس هذا فحسب ، ولكن يرى الألوسى أن العرب قد وصلوا فى الفطنة والذكاء وحسن الفهم إلى ما كاد يصل إلى حد الإعجاز ، وينقل فى إثبات هذا رواية طويلة لأبى الفرج الأصبهانى من أن امرأ القيس آلى أليّةً ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنتين . . . الخ ، وهى رواية طويلة حافلة بألغاز وتفسيرات واستنتاجات طريفة .

٥ – ومن أدلة الألوسى على ذكاء العرب ما ينقله عن المبرد من أن العرب كانت تستدل باللحظة واللفظة ! فمن ذلك ما روى أن « جميلا » قال لكثيّر : لو صرت إلى « بثينة » فأخذت لى منها موعداً ؛ فرمز لها ورمزت له من غير أن يفهم عمها وكان حاضراً .

٦ – ومما يدل عند الألوسى على غزارة فهم العرب ودقيق نظرهم ما اختصوا به من قرع العصا ، « وهو أشد أنواع الرموز استخراجاً وأصعبها استنباطاً ، لخلوه من النطق ، وللاقتصار فيه على مجرد الفعل فإنه إشارة بالفعل دون القول » .

٧ – يقول الألوسى فى ختام هذا الفصل ، « ولما كانت العرب فى قوة الفهم وحدة الذهن إلى غاية الغايات كان معجزهم القرآن ، فإن المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم ، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم . وكان فى « بنى إسرائيل » بلادة وغباوة لأنهم لم ينقل عنهم ما يدون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر ، وقالوا لنبيهم حين مرّوا بقوم يعكفون على أصنام لهم : « اجعل لنا إلهاً كما

لهم آلهة » ، فخصوا من الإيجاز بما يصلون إليه بدراية حواسهم . والعرب أصح الناس أفهاماً ، وأحدهم أذهاناً ، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ، ومن المعانى أغربها ، ومن الآداب أحسنها ، فخصوا من معجز القرآن بما تجول فيه أفهامهم ، وتصل إليه أذهانهم ، فيدركونه بالفطنة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة ، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها » .

***

إن الطريقة التى اتبعها الألوسى فى تقرير دعواه ، وفى إثباتها ، عليها الطابع العلمى ؛ فقد بدأ تحدد الناحية التى سيتناول منها موضوعه ، وهى الكمال والفضل ، فارتضى فيهما ما ارتضاه الإغريق من قبل من أن كمال أى شىء ، إنما هو بحصول صفاته الخاصة به ، وصدور آثاره المقصودة منه ، وحدد على ضوء هذا ما يعتبره فضلاً فى الإنسان من قوة فهم ومنطق وبيان . والعرب فى رأيه قد أخذوا من هذا بأوفر نصيب ، فهم على هذا القياس أفضل الأجناس .

وهذا الجزء الفلسفى لا يعنينا كثيراً فى مقامنا هذا ، وإنما الذى يعنينا أدلته الاستقرائية على كمال الفهم وحدة الذكاء عند العرب .

ا — وأول ما نلاحظه على هذه الأدلة أنها (إلا الأخير منها) أدلة جزئية فردية ، إن صحت ، وإن دلت على ذكاء حقيق ، فإنما تدل على ذكاء أفراد بعينهم ، لا يمكن أن يقال عنهم إنهم يمثلون المجموع ، فإن لمثل هذا التمثيل ضوابط إحصائية معروفة ، وعلى هذا فأقل ما يقال عنها أنها استقراء ناقص .

ب — وهذه الأمثلة على فرض صحتها التاريخية لا تدل إلا على بعض نواح خاصة من الذكاء كصدق التوقع ، وصحة التأويل وإدراك الإشارات ؛ وليس هـذا كل الذكاء ، فهناك من أهم نواحيه الاختراع . ولا بد قبل الحكم على العرب من هـذه الوجهة أن نتتبع آثارهم العقلية والعملية ، وأن نرى مبلغ ما فيها من طرافة وابتكار ، وأن نقيس هذا بما اصطلح العلماء الآن على اعتباره مقياساً لقوة الإنشاء والاختراع .

ح — ومن هذه الأمثلة ما قد يؤول على أنه نتيجة المران والتدريب ، فى حين يحاول العلماء الحديثون أن ينأوا بمقاييسهم عن هذه الناحية ، ويقصروا أنفسهم جهد استطاعتهم على قياس نواح يشترك فيها العدد الكبير من الناس ، دون أن يكون المران كبير الأثر فيهـا . وإذاً فلن نستطيع أن نعتمد على قرع العصـا دليلا على الذكاء إذا عرفنا أن قبيلة أو قبائل من العرب كانوا يمرنون عليه ويتوارثونه كما يتوارث الفن من الفنون — اللهم إلا الناحية الابتكارية منه ، فهى لا شك مظهر من مظاهر الذكاء . ويخيل إلىّ أن الاستدلال بقرع العصا هنا قريب فى طبيعته من الاعتماد على المقاييس غير اللفظية التى لجأ إليهـا العلماء اليوم ليتحاشوا الاختبارات اللغوية ، فتلك لا تسوى بين المختبرين إذا اختلفت لغاتهم ، أو اختلفت قدرتهم على الكلام بلغة واحدة .

كذلك لن نستطيع أن نعتبر مقدرة الخنساء والسيدة سكينة فى نقدهما الفنى للشعر دليلا على ذكائهما العام ، بَلْهَ ذكاء نساء العرب جميعاً — إذا نظرنا إلى هذا النقد من وجهة أنه دربة ومران وممارسة .

على أن النقد المنسوب للخنساء هنا ، إنما ترويه معظم كتب الأدب كالوشح والأغانى والخزانة للنابغة الذبيانى ، وهو به أشبه .

ء — ومن هذه الأمثلة ما يثبت دعوى الذكاء من ناحية وينفيها من ناحية أخرى : فإذا كانت « بثينة » قد فطنت للإشارة المقنعة فى شعر رسول جميـل ، فإن هذه

الإشارة قد دقت على دماغ عمها لم يفطن لها . وهكذا الشأن فى ملاحن « ابن دريد » وغيره من الرواة ، مثل حكاية أسير بكر بن وائل حيث سألهم رسولا إلى قومه ، فقالوا لا ترسل إلا بحضرتنا ، إشفاقاً أن ينذر قومه ، فقد كانت بكر همُّوا بغزوهم ؛ فجيء بعبد أسود ، فحدثه ذلك الأسير حديثاً دقَّت إشاراته على بكر وفطنت له تميم .

هـ — وكأنما فطن الألوسى إلى أن إثبات الأفضلية الذهنيــة للعرب على غيرهم من الأجناس لا يجيء إلا بعد دراسة الأجناس الأخرى وآدابها وعلومها دراسة اجتماعية سيكولوجية ، وموازنتها بالعرب من هذه النواحى ، فأشار إلى بنى إسرائيل وغبائهم ، وقلة ما أُثِر عنهم من كلام مستحسن ، أو معنى مبتكر ، وجهالتهم إذ قالوا لنبيهم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . وهــذه موازنة مشروعة ، ولكنها تستلزم بحثاً أعمق وأوسع ، ولو سلمنا أن اليهود لم تؤثر عنهم نتائج عقلية خالدة ، فهناك من الأمم القديمة كالإغريق من نُقل عنها الكثير ، ودوِّنت كتبها وفلسفتها وعلومها وآدابها . ولاشك أن مجيء القرآن معجزة للعرب دليلٌ على ما أوتيه أولئك من لَسَن وجدل وبيان ؛ وهذه القدرة اللغوية موهبة خاصة ترتبط كثيراً بالقدرة العقلية وقوة الفهم . ولكن الإشارة إلى غباء بنى إسرائيل فيها نظر . فالشائع الآن فى أنحاء العالم أن اليهود قوم ذوو حذق ومهارة . وقد حاول اثنان من تلامذة الأستاذ (BURT) فى جامعة لندن أن يثبتا — باختبارات قاما بها — أن اليهود من أذكى الأمم ، وأيد نتائجهما فى هذا بعض الباحثين فى أمريكا ؛ وتساءل « برت » فى شأن هذه النتائج قائلا : « أنقول فى تعليل هذا إن قروناً من الاضطهاد قد اقتضت ألا يبقى من هذا الشعب (اليهودى) إلا أذكاه وأنجبه ؟! »

ولقد قام العلماء الحديثون بإجراء عدد كبير من اختبارات الذكاء على مجموعات من كل الأجناس الأوربية تقريباً ، قصدوا فيها إلى قياس القوى الفطرية أو الوراثية لكل جنس . ولكن هؤلاء العلماء اصطدموا بصعوبات : منها اختلاف اللغات ، مما جعل الموازنة عسيرة (إلا فى الأحوال التى استعملت فيها اختبارات عملية لا لفظية) ، ومنها اختلاف الطرق التى ينهجها الباحثون ؛ ولهذا ينظر الكثيرون بعين الشك إلى نتائج بعض هذه الاختبارات التى تشعر بتفضيل بعض أجناس على أخرى فى الذكاء ، وفى هذا يقول « برت » : « إن هذه الفروق مهما تميزت وتحددت بين الأجناس المختلفة ، فإنها ليست فقط على درجة من العِظم . . . . وإن الفروق الواســعة فى الذكاء بين الأفراد الذين ينتمون شعب واحد ، لأوسع وأبعد مدى من الفروق بين شــعب وآخر ، وإن الفروق البيِّنة بين الأقوام لتتجلى فى الطبع والمزاج ، أكثر من تجليهــا فى الذكاء »[1] .

إذاً فالبحوث الحديثة — رغم ما وصلت إليــه من إتقان — تطرق موضوع الموازنة بين الأجناس فى الذكاء على حذر ، وتتردد فى تفضيل جنس على آخر تردداً كبيراً . ومثل هــذا ينبغى أن يكون شأننا فى الكلام على مزايا العرب وصفاتهم ومنزلتهم العقلية بين الشعوب .

ولا شك أن « الألوسى » وأضرابه قد طرقوا موضوع الخصائص العقلية عند العرب من ناحية موفقة ، إذ حاولوا استقراء الأمثلة والمظاهر التى تنم عن ذكاء فى الجنس العربى ؛ فليقم من باحثينا اليوم من يوسع مدى ذلك الاستقراء ، ويعالج أمثلته من الوجهتين التاريخيــة والاحصائية ، ثم من الوجهة النفسانية ، على ضوء ما وصل إليه علم النفس الحديث من كشف عن حقيقة الذكاء ، وقياس لآثاره ومظاهره .

محمد خلف الله

(١) ص ٢١٤ من كتاب How the Mind Works وهو كتاب يقوم بترجمه كاتب هذا المقال والأستاذ محمد رياض عسكر .

جون ملتن وشـــعره[1]

على ضوء الأبحاث النفسية الحديثة

كان العصر الذى ولد فيه « ملتن » من عصور الكفاح الدينى والسياسى ، عصر بطولة وإقدام . لم يكن عصراً مستقراً ، بل كان عصراً مضطرباً . لم تكن قد تحددت فيه العلائق بين الحاكم والمحكومين ، ولا بين الكنيسة والمتدينين ؛ وإنما كان كل ذلك مثاراً للضجة والنقاش . وكان بعد ذلك عصراً حافلا بألوان من الكفاح حول المبادئ العامة ، فاتخذ كل مفكر سياسى أو دينى وجهة يذود دونها . واشتعلت بين كل طائفة وطائفة حرب شعواء ، اصطنعت السيف والنار حيناً ، واكتفت باللسان والقلم أحياناً .

وقد ولد « جون ملتن » فى سنة ١٦٠٨ — أى بعد موت « إليزابث » بخمس سنين — وعاش حتى نيف على الستين . فهو قد عاصر التاريخ الإنجليزى فى أشد عهوده حرجاً . وهو قد استشرف على تلك القوى الفتية التى اصطرعت فى حياة الانجليز بعد موت الملكة إليزابث ؛ وحينما ماتت إليزابث فى سنة ١٦٠٣ خلفت لخلفائها تراثاً من المشاكل العامة . فهى قد طبعت الحياة الإنجليزية بشخصيتها ، فكانت الملكية الإنجليزية كسائر الملكيات فى القارة ، مستبدة لا تعترف بحقوق الدهماء إلا قليلا . وهى قد خلقت سلطة توارثها برلمان قائم . وكانت هناك كنيسة إنجليزية خلقتها إليزابث خلقاً بعد أن قطعت كل سبب بينها وبين البابا . وكان يقوم إلى جانب تلك الكنيسة فئة من المتطهرين[2] الذين رجعوا إلى الأصول الأولى للمسيحية . وكان فى الأدب مثل ذلك الصراع الذى قام فى السياسة والدين . فقد رأيت المدرسة الوجدانية[1] التى تزعمها شكسبير ، وقام بين النقدة من يدعو إلى توجيه الأدب فى نواح أخرى عقلية تحتفل بالأصول والقواعد[2] ؛ وكانوا فى ذلك متأثرين بالمدرسة الكلاسيكية التى قامت فى فرنسا خلال القرن السابع عشر .

وكذلك نرى أنه كان عصراً قوياً ذلك الذى ولد فيه « جون ملتن » . فهناك كفاح سياسى بين الملكية وبين البرلمانية . وهناك كفاح دينى بين الكثلكة وبين مبادئ التطهر[3] . وهناك صراع أدبى بين أنصار الرومانتيك وأنصار الكلاسيك . وكان لا بد لشاعر عبقرى مثل ملتن أن يندفع بين تلك القوى الثائرة . ولعل كتاباته نفسها لم تكن إلا صفحة تمثل ذلك الصراع الدينى والسياسى والأدبى . ذلك بأن « ملتن » يمثل روح العصر الذى نشأ فيه . وذلك بأنه كان شاعراً يحس بكل الآثار التى تختلف عليه . وقد أسهم فى كل النقاش السياسى الذى قام بين أنصار الملكية المستبدة وبين أنصار البرلمان الحر . فدافع عن سياسة البرلمان حتى شبت حرب مسلحة بين الفريقين . ودافع عن فكرة التطهر فى الدين حتى نصرها على التفكير البابوى . وكذلك حمل لواء الأدب الكلاسيكى فأشرب قلبه حب القديم . وآمن بالقواعد والأصول التى امتاز بها أدب الإغريق والرومان ، واتخذ من تلك القواعد وسيلة مُثلى حيث كتب مسرحياته وشعره .

كان شعر « ملتن » جماع تلك المبادئ المتضاربة ،

(١) John Milton . (٢) Puritans .

(١) Romanticism . (٢) Classicism .
(٣) Puritanism .

ومركزاً تلتقي فيه الأفكار والأمثلة العليا التي اضطربت بها الحياة الإنجليزية في القرن السابع عشر. فهو يمثل القوة السياسية الفتية التي دافعت عن حقوق الشعب، وهو يمثل قوة العقيدة المتطهرة التي أرادت أن تبرئ الدين مما علق به من بهرج وكذاب. وهو يمثل قوة الذهن التي امتاز بها فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ هو يمضي مع «هوبز» و«ديكارت» إلى ناحية التفكير الخالص، وهو يحاول أن يفهم الدين كما فهم السياسة والأدب. ثم هو يمثل بعد كل ذلك تلك القوة الأدبية الناشئة، التي اندفعت ظمأى نحو المثل الأدبية القديمة، وحاولت أن توفق بين الانجليزية وبين اليونانية واللاتينية في الأخيلة والأساليب.

***

رجل تختلف عليه كل تلك القوى وتجتمع في حياته مثل تلك المبادئ، كان لابد أن يضيق بها جميعاً. وإذا كان الأدب السامي تعبيراً عن التجارب التي يلقاها الشاعر أو الأديب، فقد كان على «ملتن» أن يعبر عن ذلك جميعه في حياته الطويلة الصاخبة. لذلك كان موزعاً بين ثنائيات تخلخل إحساسه امتلاخاً، ولذلك تقاسمته طائفة من التناقض فحاول أن يلائم بينها جميعاً. وقد آمن بالأفلاطونية التي أحيتها النهضة، وكان في نفس الوقت متديناً تقياً يؤمن بالعفة ويمقت الفحشاء. ثم لقد كان مفكراً قوى الذهن، فحاول أن يلائم بين الدين وبين العقل. وهو قد تعمق دراسة الأدب الإغريقي واللاتيني، لكنه حاول أن يوفق بين أساطير الإغريق وبين قصص الانجيل والتوراة. فكأنما كان الدين عند ملتن هو القوة الدافعة في كل شأن من شئون السياسة والاجتماع والأدب. فلم يصدر من كل الذي كتبه إلا عن إيمان ديني قوي. وكل الذي حاوله في حياته لم يكن أكثر من التوفيق بين المسيحية والفلسفة، وبين الدين والعقل، وبين الأدب الوثني وأدب الانجيل، وبين العقيدة الشعرية والعقيدة الدينية.

وقد شغلت كل تلك الثنائيات حياة «ملتن» وكان لها أبلغ الأثر في شعره. ولقد يطول بنا الحديث إذا نحن حاولنا أن ندرك كل الآثار التي نتجت عن ذلك. وحسبنا أن نقف عند أمر واحد لعلنا نستشف من ورائه ذلك الصراع الدائم الذي عاناه «ملتن». حسبنا الساعة أن نتحدث عن المرأة في شعره — لأن تفكيره في المرأة يبين لك مدى الذي عاناه من ذلك التوزع بين النقيضين، ويجلو لك ما كان يتدفع في نفسه من الشاعر المتضاربة. وسترى أنه كان موزعاً بين العاطفة الملتهبة الأخاذة وبين العقل الساكن الرشيد. وقد بدأ «ملتن» بنفسه حين حاول أن يعبر عن كل ذلك. فهو يصف في كتاباته الكفاح بين العاطفة الانسانية وبين العقل البشري. لكنه لا يصدر في كل ما كتبه إلا عما كان يعانيه هو نفسه من ذلك الصراع الدائم بين الشهوة وبين العفة، وبين الغريزة وبين الخلق، ثم بين حاجات النفس التي فطرت عليها وبين أوامر الدين ونواهيه.

أدرك النقاد المحدثون أن «ملتن» كان يعاني كل ذلك ولجأوا إلى علم النفس يطبقون أصوله على حياة «ملتن»، فإذا بهم يطلعون على نفس حساسة كانت تشعر بغريزة جنسية حادة في أعماقها. ثم هي بعد ذلك مكبلة بقيود الخلق، تخشى الدين من جانب وأوضاع المجتمع الذي نشأت فيه من جانب آخر. وإذا كان قد استطاع أن يكبت تلك الغريزة وهو فتى، وإذا كان قد اتقى الفحشاء حتى تزوج في الخامسة والثلاثين، فإن شعره لم يخل من التعبير عن ذلك الضيق النفسي الذي كان يحس به. وأنت تستطيع أن تلمس في شعره ذلك الصدام بين شهوات النفس وبين وازع الدين. فهو يجيل ذلك الكفاح الشخصي الذي شب في أطواء

نفسه إلى كفاح عام ينشب بين قوى الخير وبين قوى الشر في هذا العالم . لذلك يذهب كثير من النقدة إلى أن الفكرة الأساسية التي تقوم عليها حياة « ملتن » لم تكن إلا الكفاح بين العاطفة وبين العقل ، وأن هذا الكفاح قد نشأ شخصياً خاصاً في نفس « ملتن » واتصل بغريزته الجنسية الحادة ، لكنه أحيل إلى كفاح عام عالمي بين الفضيلة وبين الرذيلة ، وبين الخير وبين الشر ، وبين الطيب وبين الخبيث .

وهذا في نفسه مثل للعلائق التي يجدها المتفننون والأدباء بينهم وبين المجتمع الذي يعيشون فيه . فهم ينظرون إلى المجتمع نظرة جامعة مجملة ، يحاولون أن يؤلفوا بين النقائض التي تصطخب فيه . لكنهم في كل ذلك لا يصدرون إلا عن العواطف والمشاعر التي تختلج في نفوسهم . هم في الواقع يفكرون في أفرادهم ، لكنهم يحيلون ذلك التفكير الفردي إلى تفكير عام . هم يصورون المجتمع صورة خيالية رائقة تتألق في أشعارهم وكتاباتهم ، لكن هذه منتزعة من حياتهم الخاصة . فاذا هم حققوا هذا الخيال في بيئتهم كان ذلك نجاحاً للفن والشعر . وإذا هم ارتطموا بحقائق الحياة ولم يجدوا سبيلا إلى تحقيق هذا الخيال ملأوا الدنيا وشغلوا الناس . لذلك يعتور الفشل والنجاح حياة المتفننين والأدباء ، ولذلك تختلف على نفوسهم نوبات من السخط والرضى . ونفس المتفنن أو الأديب هي المبدأ والمعاد لكل الذي يقيمونه من عوالم خيالية يضفون عليها ما في أغوار نفوسهم من الموجدة أو الأمل أو الإصلاح .

وإذا كان ذلك يصح على كثير من أهل الفن والأدب فإن « ملتن » من خير الأمثلة التي يستطيع الناقد أن يعرضها ، لولا أن الكفاح بين الخيال وبين الواقع كان دقيقاً في نفسه ، ولولا أن أحداً من النقدة لم يستطع أن يتأثره إلا بعد الكشوف الحديثة في علم النفس . فهو قد نشأ نشأة دينية جافة ، وهو قد آمن بتطهير النفس ؛ وآية من آيات التطهير أن يكبح الفرد رغائبه وأن يقهر شهواته ، وأن يكون خشناً جامداً يقمع الغريزة في كل مظهر من مظاهرها . وهو قد كان في نفس الوقت أفلاطونياً يؤمن بأن لكل شيء في الوجود مثلاً خالداً في عالم المعاني ، وأن تلك المعاني ما هي إلا الأمثلة العليا التي تتشكل على مثالها كل الموجودات ، ولكن هيهات أن تدانيها . ثم هو بعد ذلك إنسان يحس بحاجاته الفطرية الأولى ، وهذه الغرائز المكبوتة كانت تثور به أحياناً ، وكانت تطغى عليه في أحيان أخرى . لذلك كان هذا الكفاح النفسي دقيقاً . وقد حاول أن يستعلي بكل تلك الغرائز والشهوات ، فأرسلها في شعره متشحة بخيال متألق أخاذ . ولذلك يستطيع الناقد الحديث أن يدرك لمَ كانت الفضيلة أحد المعاني التي رددها « ملتن » ولم كان ذلك الصخب الذي اصطنعه حول شهوات النفس وطبائع البشر ؟

يستطيع الناقد الحديث أن يدرك كل ذلك ، لأن مدرسة التحليل النفسي قد أثبتت أن لكل غريزة مكبوتة متنفساً تنفذ خلاله . فهي قد تسكن في العقل الباطن ، لكنها لا بد أن تظهر في مظاهر شتى ؛ هي لا تفنى ولا تتلاشى ، بل هي قد ترسب لتطفو . ويذهب النفسيون إلى أن المرأة في حياة الشاعر أو الأديب هي الأصل فيما ينتجه من شعر وأدب . فالشاعر إذ يحس بذلك التدلي نحو الغرائز الدنيا يحاول أن يخلق لنفسه جواً من الجمال يستعلي بطبيعته ويضفي عليها ثوباً خلاباً من الشعر الوهاج . والغريزة الجامحة التي كانت تدفع بالإنسان الأول إلى اقتناص المرأة والاستمتاع بها كما تستمتع البهم ، هي نفسها التي دفعت بشاعر مثل « ملتن » إلى نسج تلك الأخيلة السامية التي ظهرت فيها المرأة في مظهر الملاك المقدس حيناً ، وفي مظهر الشيطان المَريد أحياناً .

(المقال بقية) أحمد خاكي

«الأميرة نتيتا»

جلست الأميرة نتيتا بنت فرعون فى إحدى شُرف قصر أبيها ذى العمد الشاهقة بطيبة ، تدقق النظر فى الأفق بعينيها الواسعتين الجميلتين اللتين صيغتا من ماس أسود ، عساها تبصر الركب الذى يعود بزوجها المحبوب الأمير هوروس إلى الوطن ، وكان قد سافر بعد الزواج من الأميرة مباشرة إلى أقطار الشام للحرب ... كى يثبّت هناك سلطان مصر الذى كان يمتد فى ذلك العهد السعيد إلى تخوم العراق ... وكان فرعون أيضاً الذى تقدمت به السن ، ولم يكن له وريث ذكر ، لايقل عن ابنته اهتماماً بعودة الأمير ، إذ سوف يخلفه بعد موته فى الذود عن مصر وعن حدودها الواسعة البعيدة المترامية الأطراف ... مرت الأيام تباعاً ولم يعد الأمير ولم ترد عنه ولا عن حروبه أنباء ... فازداد قلق الأميرة ولم يعد فى استطاعة ندماء القصر تسليتها والترفيه عنها رغم كل محاولة ، ولم يفلح كذلك مُهرّج القصر بأطا القزم فى إضحاكها بحركاته البهلوانية ، وهو الذى كان فيما مضى يجعلها تغرق فى الضحك من أعماله ... مسكينة الأميرة ! كيف يراد منها أن تسلو وقلبها يذكرها بمحبوبها فى كل دقة من دقاته ؟ رأت الأميرة ذات يوم وهى تجلس كعادتها بالشرفة ، ترقب المراكب القادمة من الدلتا ، سنونوة تمر أمامها متجهة إلى الغرب ، فأخذت تناجيها: أيتها السنونوة المحبوبة ... هلاّ حملت إلى زوجى حبى وأشواقى ؟ أيتها السنونوة المحبوبة ... هلاّ عدت إلىّ بأنبائه وأخباره ؟ ولكن السنونوة استمرت تطير دون أن تكترث بالأميرة ؛ فكان عجيباً أن لاتفهم السنونوة اللغة المصرية ... وهى لغة العصافير ؟ ... ولكن ما للقصر مائجاً هائجاً على غير عادته ؟ لقد وفدت إليه رسل من قبل الأمير ! ... من أجل هذا ترى القصر كله فى فرح وحبور ... وهؤلاء الندماء يضحكون ملء أفواههم وهم يتبادلون التهانى ... لما علمت الأميرة بهذا النبأ السعيد جعلت تعدو كالطفلة فى طرقات القصر قاصدة الحجرة التى ينتظرها فيها رسل الأمير ؛ وهرول فرعون كذلك نحو الحجرة دون مبالاة بمقامه السامى الرفيع ، والندماء أيضاً أقبلوا كلهم يدفعهم التطفل وحب الاستطلاع ... تقدم كبير الرسل من الأميرة فجثا أمامها محيياً ثم نهض بإشارة منها فقال : أميرتى ، إننا نحمل إليك هذه العلبة بأمر من زوجك الأمير هوروس . ثم قدم إليها علبة صغيرة أخرجها من جيبه ... فأخذ الندماء عند ذلك ينظر بعضهم إلى بعض فى عجب ، مستصغرين الهدية ... ولكن أحدهم صاح : ربما حوت هذه العلبة الصغيرة بخوراً للآلهة ، وهو كما تعلمون نفيس ونادر جداً . فأمن الآخرون على كلامه مرددين : أجل هو لاشك بخور الآلهة ! ... ثم استلمت الأميرة العلبة بيد مرتجفة قائلة : ولكن متى يعود الأمير ؟ قال كبير الوفد فى تردد : أميرتى ، نحن لا نعلم شيئاً ... قالت : ألم يعطكم لى كتاباً ؟ قال : كلا ! قالت تخاطب نفسها : عجيب هذا ! ربما وضع لى الأمير كتاباً داخل العلبة حتى لا تقع عليه أعين المتطفلين ... ثم أخذت تعالج فتح العلبة فى قلق واضطراب ؛ ولكن لم تكد ترفع عنها الغطاء حتى أغمى عليها ... فقال أحد الندماء الذى لم تمكنه قصر قامته من مشاهدة ما يجرى تماماً لصديق بجانبه طويل : أهو بخور الآلهة ؟ وهل هو قوى الرائحة إلى حد أن يغمى على الأميرة بمجرد فتح العلبة ؟ ... فقال الآخر : لم يكن بالعلبة بخور الآلهة ... قال الأول فى دهشة : إذاً ما كان بها ؟ فأجاب الآخر فى حزن : هو شئ أغلى وأعز من بخور الآلهة ... هو قلب الأمير ، بعث به إلى زوجه .

(ترجمة ابن هانئ)

حسين شوقى

قراءة الكتب

للأستاذ زكى نجيب محمود

سأعرض على القراء هذه الصفحة الناصعة من أدب «جون رَسْكِن» ، فهى دعوة قوية جميلة ، وجهها هذا الناقد العظيم إلى جمهور من المستمعين ، يستحثهم بها على قراءة الكتب الخالدة ؛ ولو كان الشعب الانجليزى بحاجة إلى أديب يزين له الكتب ويغريه بمطالعتها ، فما أحوجنا إلى كل ما انطلقت به ألسنة الأدباء ، فى كل عصر وفى كل أمة ، لعلّ الدعوة الكريمة تلتمس سبيلها إلى قلوب قرائنا ، وقد أخذتهم عن الكتب سِنَةٌ ، نخشى أن تعمق وتطول .... قال «رَسْكن» فى لغته القوية الرائعة ما معناه :

هبنا قد رغبنا فى اختيار أصدقائنا اختياراً موفقاً ، فكم بيننا من له القدرة على هذا الاختيار ؟ وإن وجدت القادرين ، فما أضيق دائرة الاختيار ! فإن المصادفة حيناً ، والضرورة حيناً آخر ، تكادان تكونان الوسيلتين اللتين تحدوانا إلى من نصطفى من الأصدقاء ، فليس فى مقدورنا أن نعرف من نحب أن نعرفه ، بل إن هؤلاء الأصدقاء الذين اصطفيناهم بحكم الضرورة أو المصادفة قلما نجدهم إلى جانبنا حين تشتد بنا الحاجة إليهم .

ودَعْ رجال الطبقة الأولى من النابغين ، فلن نصل إليهم إلا فى لحظات خاطفة ، ولن يتاح لك أن تطالع فيهم إلا جانباً واحداً دون سائر الجوانب ؛ فقد يسعفك حسن الحظ فتستمتع بلمحة من شاعر عظيم ، وتسمع نبرة صوته ؛ وقد يصيبك التوفيق فتلقى سؤالا إلى قطب من أقطاب العلم ليجيبك عنه فى طمأنينة ورضا ؛ وقد تقحم نفسك إقحاماً لتظفر بحديث من وزير ، لا يطول



جون رسكن

أكثر من دقائق عشر ، وقد يجيبك فيه الوزير بما هو شر من الصمت ؛ وقد يشاء لك حسن الطالع ، مرة أو اثنتين إبان الحياة ، فيتيح لك الفرصة لتلقى طاقة من الورد فى طريق إحدى الأميرات ، أو لتجتذب من الملكة وهى سائرة نظرة خاطفة ... إن هذه جميعاً فرص قلما يجود بها الدهر ، ومع ذلك ، فكم نطمع فى هذه الفرص العابرة ؟ كم ننفق من أعوامنا وعواطفنا وقوانا ، لعلنا نظفر بمثل هذا النزر القليل ؟ ! نصنع هذا ، وتحت أيدينا جماعة من أمثال هؤلاء الجبابرة ، ترجو رجاءً يتصل ولا ينقطع ، أن ننصت لهم ليتحدثوا إلينا بما يحلو لنا من حديث ، مهما تكن منزلتنا من المجتمع ، ومهما يكن العمل الذى نؤديه . على مقربة منا طائفة من أمثال هؤلاء ، تتمنى لو تحدثتْ إلينا فى أروع ما تستطيعه من لفظ ؛

فإذا ما أعرتها أذناً مصغية ، تقدمت لنا بالشكر الجميل !!
هي جماعة كثير عددها رقيق خلقها ، لا يضجرها أن تبقيها في انتظارك طول اليوم ، تنتظر ، لا تهبك حظ الاستماع إلى حديثها العذب ، بل لتكسب منك هذا الاستماع ! هي طائفة من ملوك وساسة ينتظرونك بصبر فارغ ، ويشوقهم أن تدنو منهم في غرفهم التي اكتظوا فيها بأثاث ساذج ، وأعني بها رفوف المكاتب . . . ألأنّ رجاءهم في أن تنصت إلى حديثهم قد بلغ هذا المبلغ ، وإنا لا نستمع قط إلى كلمة مما ينطقون ؟ !

قد يذهب بكم الظن إلى أن ازدراء الناس لهذه الجماعة النبيلة ، التي تتوسل إليهم أن يصغوا إلى حديثها ، في الوقت الذي ينحرفون فيه إلى محادثة طائفة أخرى ، ربما كانت من الضعة بمكان ، وهي طائفة تحتقرهم وليس لديها ما تعلمهم إياه ؛ أقول إن الظن قد يذهب بكم إلى أن ازدراءنا لتلك الجماعة ، ورجاءنا أن نتعقب هذه الطائفة من عظماء الأحياء ، قائمان على هذا الأساس : وهو أننا إذ نحدث الأحياء ، نشاهد وجوههم ، وذلك أدعى إلى اتصالنا بنفوسهم ، ونفوسهم — دون أقوالهم — هي الغرض المنشود . . . ولكن ذلك زعم باطل . فافرض أنك لن ترى وجوه العظماء الأحياء ، ثم افرض أنه قد أتيح لك أن تقف وراء ستار في مجلس الوزراء أو في غرفة أمير من الأمراء ؛ ألا يسرك أن تنصت إلى حديث هؤلاء من وراء الستار ؟ فإذا ما نقصنا لك من سُمك الحائل ، وجعلناه لك من جناحين بعد أن كان ذا أجنحة أربعة ، أعني إذا دعوناك أن تختفي وراء غلاف الكتاب ، لتنصت طيلة يومك ، لا إلى حديث عارض ، بل إلى حديث انتقاه وتعمق فيه أنبغ الرجال ، إذا دعوناك إلى مثل هذا الموقف لتستمع إلى هذا الجمع المصطفى النبيل ، كان جوابك أن تشيح بوجهك ازوراراً !!

قد يقول معترض : إن السبب في ذلك هو أن الأحياء يحدثون عن أمور عارضة ، فتلذ لسماعها لأنها تمس حياتنا مساً مباشراً ؛ ولكن الأمر ليس كذلك . لأن الأحياء أنفسهم قد يحدثونك عن هذه الأمور العارضة فيما يكتبون أروع مما يحدثونك عنها في حديثهم الذي يطلقونه إطلاقاً ؛ ومع ذلك فأنت تحب أن تنصت إلى هذا الحديث المهمل ، أكثر مما تحب أن تطالع تلك الكتابة المتقنة . . . ولو أني أعترف أن لهذا العامل أثراً في نفسك ، لأني أعلم أنك بين الكتب نفسها ، تؤثر الكتابة السطحية السريعة على الكتابة الجيدة الناصعة — مع أن هذا النوع الثاني هو الكتب بمعناها الصحيح .

فالكتب صنفان : كتب أُريدَ بها هذا الوقت الحاضر وأخرى أُريدَ بها أن تحيا على وجه الزمان . ولاحظ أني لا أفرق بهذا بين جيد الكتب ورديئها ؛ إذ ليس الكتاب الرديء وحده هو الذي لا يبقى ، وليس الكتاب الجيد وحده هو الذي يعيش . فهنالك كتب جيدة للساعة الراهنة وكتب جيدة للدهر كله ، وهنالك كتب رديئة للساعة الراهنة وأخرى رديئة تعيش الدهر كله أيضاً .

فالكتاب الجيد الذي يكتب للساعة الراهنة — ولا أتحدث عن الكتب الرديئة — هو حديث نافع لذيذ ، يقوله شخص ليس في مكنتك أن تتحدث إليه من غير هذا الطريق ، فطُبِعَ من أجلك الكتاب ليحدثك ؛ وكثيراً ما يكون حديثه نافعاً أقصى النفع ، فيعلمك ما تحب أن تعرفه ، وكثيراً ما يكون حديثه ممتعاً غاية الإمتاع ، كما يمتع حديث الصديق من نفس صديقه ؛ فهذه القصص تروى لك عن الأسفار ، وهذه المناقشات الذكية الطلية البارعة تدور حول المشكلات الناشئة ، وهذه القصة الحية تسري العاطفة بين أجزائها ، وهذه الحقائق يسوقها لك أصحابها الذين يتصلون بحوادث التاريخ الجارية . كل هذه

كتب أريد بها الساعة الحاضرة ، وهي تزداد كل ازدياد التعليم انتشاراً ، ولعلها تميز هذا العصر من سائر العصور السالفة ، وهي ذخيرة هيئت لنا أسبابها ، وينبغي أن نقف إزاءها شاكرين ، وأن يأخذنا الخجل إذا لم نحسن استخدامها .

ولكنا نسيء استخدام هذه الكتب أشد ما تكون الإساءة ، إذا أجزنا لها أن تملأ فراغنا كله ، بحيث تغتصب منا وقت الكتب النافعة التي قصد بها أن تخلد على الدهر ، وأعني بها الكتب بمعناها الصحيح . لأننا إن توخينا الدقة ، فلسنا نعد الصنف الأول من الكتب كتباً على الإطلاق ، بل هي في حقيقة أمرها خطابات ، أو صحف للأنباء طبعت طبعاً أنيقاً . إن الخطاب يأتيك من صديقك قد يكون لذيذاً أو ضرورياً اليوم ، والصحيفة اليومية قد تكون ملائمة لساعة الإفطار ، ولكنها بغير شك لا تصلح لقراءة اليوم كله . وكذلك قل في خطاب مطول يقص لك الأنباء الممتعة عن الفنادق والطرق والجو ، في مكان معين خلال السنة الماضية ، أو يحدثك بقصة لذيذة ، أو يروى لك الوقائع الحقيقية في إحدى الحوادث : فمثل هذا لا يمكن أن يكون « كتاباً » بمعنى الكلمة الدقيق ، مهما يكن له من غلاف يصون جوانبه ؛ وإذا لم يكن مثل هذا « كتاباً » بمعنى اللفظ الصحيح ، فلا ينبغي أن « نقرأه » بمعنى القراءة الصحيح .

إن الكتاب الذي أريد به أن يحدثك حديثاً ما ، لم يطبع كتاباً ، إلا لأن كاتبه يعجز أن يتحدث إلى ألوف الناس دفعة واحدة ، ولو استطاع لفعل ؛ فما كتابه سوى نشر لصوته في أفق فسيح . إنك لا تستطيع أن تتحدث إلى صديقك في الهند ، ولو استطعت لفعلت وما لجأت إلى الرسائل ، ولكن ذلك فوق مقدورك ، فأنت مضطر أن تكتب له ما يغني عن الحديث . فكتابتك عندئذ لا تزيد على أن تكون وسيلة تنقل بها صوتك إلى مكان بعيد ، ومثل هذا كتاب مما كتب للساعة الراهنة ؛ فأما الكتاب الحق فلم يرد به صاحبه أن يكون أداة لنقل صوته في نطاق واسع وكفى ، بل أراد به أن يحتفظ بما فيه . إن الكاتب النابغ لديه ما يقوله وما يظن أنه حق ونافع وجميل ، وهو يظن فوق ذلك أن لم يسبقه أحد إلى قول ما يقوله ؛ بل وفي رأيه أن أحداً ، كائناً من كان ، لا يستطيع أن يعبر عنه بمثل ما عبّر هو ، فهو إذاً مضطر أن يسجل هذا التعبير واضحاً ، ومنغوماً إذا استطاع . إنه حين استعرض حياته كلها ، وجد أن هذا الذي يعبر عنه في كتابه ، قد تجلى له أنه الحق ، أو على أنه المنظر الرائع الذي أذن له قسطه من الأرض وضوء الشمس أن يمسك به ، ولذا فهو يريد أن يسجله إلى الأبد ، يريد أن يحتفره في الصخر إذا استطاع ، قائلا : هذا أفضل جوانب حياتي ، أما بقيتها ، فقد أكلت وشربت ونمت وأحببت وكرهت كما يفعل سائر الناس . كانت حياتي كالبخار ، وقد زالت الآن من الوجود ، أما هذا فقد رأيته وعرفته ، هذا جدير أيها الناس أن تحفظوه في الذاكرة ، إن كان من جوانبي ما هو خليق أن يحتفظ به » . تلك هي « كتابته » ، تلك هي رسالته ، فذلك « كتاب » .

إني لأسائلكم : هل تؤمنون بالشرف ، وهل تثقون في الرحمة ؟ أم هل تظنون أن حكماء الرجال لا يملكون من الشرف والخير شيئاً ؟ لا أحسب بيننا أحداً بلغ به التعس بحيث يظن هذا ؛ فإن كان للرجل الحكيم شيء من الخير والشرف ، فقد صبه في كتابه ، أو في آيته الفنية . ثم قد تمزج خيره بفتات من الشر ، فتراه — مثلا — سيء التعبير ، أو يعمد إلى التكرار الممل ، ولكنك إن قرأته قراءة صحيحة ، هان عليك أن تكشف فيه عن جوانب الحق ، وتلك هي « الكتاب » .

إن عصور التاريخ بأسرها قد شهدت هذا الضرب من الكتب الجيدة ، كتبها أعظم من عاش فى تلك العصور من الرجال — نوابغ القادة ، وكبار الساسة ، وفحول المفكرين . كل هؤلاء ينتظرونك لتنتقى من بينهم من تشاء ، والحياة قصيرة الأمد . لقد سمعتَ قولى هــذا من قبل ، ولكن هل أيقنت كم تسع هــذه الحياة القصيرة ؟ هل علمت أنك إن قرأت هــذا ، فلن تستطيع أن تقرأ ذلك ، وأنك إذا أضعت اليوم فلن تكسب الغد ؟ هل يحلو لك أن تَلْغَط مع خادمك أو سائسك ، ويمكنك أن تتحدث إلى ملكات وملوك ؟ أتحب أن تحادث العامة فى لغوها ، وأنت ترى هذه الطائفة الخافقة الخالدة تنتظرك بكل أعضائها ، وهم كثيرون كثرة الأيام ، هم الصفوة المختارة فى كل زمان وفى كل مكان ؟ إنك تستطيع فى كل لحظة أن تنخرط فى سلك هذه الجماعة المختارة ، يمكنك أن تكون عضواً بين أعضائها ، وأن تضع نفسك فى المنزلة التى تشاء ، ولن يخرجك من هذه الزمرة الطيبة إلا خطأ يقع منك . إذا كنت تجاهد حقاً أن تنزل بين الأحياء منزلة رفيعة ، فها هو ذا مقياس ما فى جهادك من صدق وإخلاص . فسترى أى مكانة ستختار لنفسك فى جماعة الخالدين .

وأقول « المكانة التى تحبها » و « المنزلة التى تهيئ نفسك لها » لأنى أعلم أن هذه الطائفة من عباقرة الماضى ، تختلف عن أرستقراط الأحياء فى هذا ، فى أنها تقبل بينها العامل الجدير دون سواه . إنك لن ترشوهم بثرائك ، ولن تُلْقى باسمك الرعبَ فى نفوسهم ، ولن تخدعهم برياشك . فلن يُسْمَحَ بالدخول فى تلك الفراديس لمجرم ولا وضيع . سيسأل حارس الباب سؤالاً واحداً لمن يريد الدخول : « هل أنت جدير بهــذا ؟ إذاً فدونك الأبواب قد فتحت . هل تريد أن تزامل النبلاء ؟ إذاً فكن نبيلاً تكن زميلاً . هل يشوقك أن تحادث الحكماء ؟ إذاً فاعلم كيف تفهم عنهم تسمعْ حديثهم . أما إن أبيت شيئاً من ذلك فلا دخول . إذا لم ترفع نفسك إلينا فلن نهبط إليك . إن الرجل العظيم من الأحياء قد يتكلف لك الظرف ، والفيلسوف من الأحياء قد يكلف نفسه عناء شرح فكرته لك وهو من ذلك فى ألم ممض ؛ ولكنا هنا لا نتكلف ولا نفسر ، فإذا أردت أن تستمتع بأفكارنا فارفع نفسك إليها ، وإذا أردت أن تكون جليساً لنا فشاطرنا المشاعر » .

هذا ما أكلفك بعمله ، وهو كثير . وبعبارة موجزة : يجب أن تحب هؤلاء الناس ، إذا أردت أن تكون بينهم ، ولكى تحبهم فلا بد من أن تتوفر لديك الرغبة الصادقة فى أن يصادقوك ، وأن تعد نفسك للدخول فى أفكارهم ؛ ولاحظ أنى أشير إليك بالدخول فى أفكارهم ، ولا أقول لك أن ترى أفكارك منطوقة بلسانهم . فإن لم يكن كاتب الكتاب أحكم منك ، فلا حاجة بك إلى قراءته ، وإن كان ، فستجد تفكيره يخالف تفكيرك فى نواح كثيرة .

نحن مستعدون أن نقول عن الكتاب الذى نقرؤه : « ما أجود هذا الكتاب . هذا هو بالضبط ما أرى من رأى ! » ولكنى أريد لك أن تنتقى من الكتب ما تقول عنه : « ما أغرب هذا الذى أقرأ ! إنى لم أفكر هذه الفكرة قط من قبل ، ومع ذلك فإنى أراها فكرة صحيحة . وإن لم أرها صحيحة اليوم ، فأرجو أن أراها كذلك بعد حين » .

فلا بد لك قبل كل شىء أن تذهب إلى الكاتب لتأخذ عنه معناه ، لا أن تجد عنده معناك . . . وإن كان كاتباً رفيعاً ، فاعلم علم اليقين أنك لن تستطيع أن تأخذ معناه كله دفعة واحدة ، بل لن تستطيع أن تفهم كل ما يريد من معنى مدى زمن طويل ، مهما تكن وسائلك إلى فهمه . لا لأن الكاتب لا يقول ما يريد أن يقوله ، وفى كلمات قوية ، بل لأنه لا يبسط كل معناه إلا على نحو من التخفى ،

لكى يثق من قارئه أنه يريد معناه ! وقد لا أستطيع أن أعلل لك هذا التكتم القاسى من الحكماء ، الذى يغريهم بستر أفكارهم العميقة . إنهم لا يقدمون لك المنى تقدمة هينة ، بل هم يكافئونك به على ما احتملت من العناء ؛ فهم يثقون أولاً أنك جدير به قبل أن يأذنوا لك بالوصول إليه ! وما أشبه هذا بالذهب ، وهو من الطبيعة كالقول الحكيم من الحكماء . « فلست أرى سبباً يبرر ألا تتضافر قوى الأرض جميعاً ، لتحمل ما فى جوفها من ذهب ، حيث تضعه على قمم الجبال ، فيعلم الملوك ويعلم الناس كافة ، أن كل ما فى الأرض من ذهب قد أودع هنالك ، دون أن يحتملوا عناء الحفر وضياع الوقت وانتظار المصادفة ، فيجدونه قريباً منهم فيصوغونه فيما يشاءون من النقود . لكن الطبيعة لا تسلك فى إعداد أمرها هذا السبيل . إنها تخفى ذهبهـا عن أعين الناس ، فقد تحفر زمناً طويلاً ولا تجـد شيئاً ، ولا منصرف لك عن الحفر وعنائه إذا أردت شيئاً .

وذلك مثال ما يحدث فى حكمة الحكماء . فإذا أقبلت على كتاب جيد ، فلا بد أن تسأل نفسك أولاً : « هل أنا راغب فى العمل كما يعمل العاملون فى مناجم الذهب ؟ هل أعددتُ فؤوسى وسائر عددى ؟ وهل هيأت نفسى للعمل ، فشمرت عن ساعدى ، واستقام منى جهاز التنفس واعتدل المزاج ؟ » . إن الذهب الذى تنشده هو فكرة المؤلف ومعناه ، كأنه صخور ينبغى أن تطحنها طحناً وتذيبها إذابة لتصل إلى ما استتر فيها ؟ وفؤوسك هى عنايتك وذكاؤك وعلمك ؛ وأتون الانصهار هو نفسك المفكرة ... لا تَرْجُ أن تبلغ عند كاتب معنى جديداً بغير تلك الآلات وهذه النار ...

زكى نجيب محمود

روميـــــو وجوليت . . .

كما صورهما شكسبير

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

" ألف شكسبير هذه القصة في العصر الأول من حياته — قيل كتبها سنة ١٥٩١ ، وقيل بعد ذلك — وطبعت أول مرة في سنة ١٥٩٧ .

وتمتاز هذه القصة عن كل ما كتبه في ذلك العصر الأول ؛ لأنه كان عند ذلك يحاول أول خطواته في ميدانه الفني الذي قدر له أن يبرز فيه فيما بعد .

كانت محاولاته الأولى لا تزيد على محاورات ليس لها سلك قصصي ، وليس بها أشخاص حية ، فكانت أقرب إلى أن تكون مجموعات من الشعر البديع الذي يعبر عن أسمى العواطف وأدق المعاني ، على حين كانت القصص نفسها ساذجة ابتدائية ناقصة . أما قصة روميو وجوليت ، فقد جمعت بين الشعر والقصص . واستطاع شكسبير أن يمزج بينهما مزجاً جعلها إحدى جمائله الخالدة ؛ فشعرها يبلغ قصارى ما يبلغه الشعر الانساني من الجمال والروعة ، وسلكها الروائي يصل إلى القمة في حبكه ، وتصوير أشخاصها يكاد يسمو إلى حد الاعجاز .

وقد قال بعض النقاد عن هذه القصة : إن جمالها قد خلع عليها لوناً زاهياً ينسى الناس أنها مأساة ، فلا يكاد أحد يحس فيها ما للموت من رهبة ، فكأن الموت قد استحال فيها — بسحر المؤلف العبقري — إلى منظر فاتن .

والقصة مستمدة من أصل قديم ، يرجع إلى القرن الثاني للميلاد ؛ ولكن يقال إن حوادثها وقعت في مدينة (فيرونا) الإيطالية في سنة ١٣٠٣ للميلاد ، في مدة حكم (بارتولوميو دلى سكالا) ؛ وكتبت عنها مؤلفات عدة ، أهمها ما ورد في مجموعة القصص التي ألفها (ماتيو بانديلو) .

وقد ترجمت القصة إلى الفرنسية سنة ١٥٥٩ ، محورة بعض التحوير ، ومن هذه الترجمة نقلت القصة إلى الانجليزية ، نقلها (آرثر بروك) سنة ١٥٦٢ ؛ ومن هذه الترجمة أخذ شكسبير قصته " .

وأما قصة شكسبير ، فهي :

كانت مدينة فيرونا بإيطاليا مسرحاً للتنافس بين أسرتين كبيرتين ، وهما أسرة (مونتاجو) وأسرة (كابوليت) . وكان شبان الأسرتين ينتهزون كل فرصة للمخاصمة والمعاركة ، حتى اضطر أمير المدينة أن يتدخل في الأمر ، فحكم بأن من يثير الفتن من أفراد الأسرتين يتعرض لعقوبة الموت .

وكان من أسرة (مونتاجو) فتىً وديع جميل اسمه روميو ، لا يشترك في تلك الفتن ، بل يحب العزلة في الروح والغابات ؛ وكان يحب فتاة اسمها (روزالين) ، ولكن تلك المحبوبة كانت تعرض عنه ، وتقابل تودده بالجفاء ، وعلم أحد أصدقائه (بنفوليو) بسرّ حبه الخائب ، وأحب أن ينتشله من صدره ، فجعل ينصحه بالتمتع بغيرها قائلا : « قلِّب الطرف طليقاً ، لترى باهر الحسن ، فتسلو حبها » . فلم يجبه روميو إلا بقوله : « إنني أزداد حباً كلما أبصرت عينيّ حسناً في سواها » . ولكن صديقه ما زال به حتى جعله يرضى بالذهاب معه إلى مهرجان أقامته أسرة (كابوليت) ، وكان بنفوليو يقصد بذلك أن يجعله يتسلى عن حبه بالنظر إلى الفتيات الجميلات في ذلك المهرجان . ولكن (روميو) أطاع صديقه لأنه علم أن محبوبته (روزالين) كانت بين الحاضرات في ذلك الحفل .

فتنكر الصديقان ، وذهبا إلى المهرجان ، فوقعت عين روميو على فتاة صغيرة في سن الرابعة عشرة ، لم يرَ في

حياته مثلها حسناً ولا فتنة ، فما كاد يراها حتى وقعت في قلبه وأنسته حبيبته الجافية وسحرت لبه سحراً ، فقال لصديقه يحدثه عنها :

« نورها الباهر في لمته جعل الأنوار تزداد سنا . وبدت في صفحة الليل كما زهر الجوهر في قرط الزنوج . إن هذا الحسن لا أحسبه حسن أهل الأرض ، حاشا أن يكون » .

فسمع صوته (تيبوليت) أحد شبان أسرة (كابوليت) فعرفه وأسرع إليه غاضباً مخاصماً ، ففطن صاحب الدار إلى ذلك ، وبادر إلى منع قريبه من الاعتداء عليه ، خوف أن يفسد بهاء المهرجان بالعراك . واستطاع (روميو) أن يبقى في الدار ، وأن يجد فرصة للحديث مع الفتاة التي استولت سريعاً على قلبه ، ولكن اللقاء لم يطل ، لأن ظئر الفتاة جاءت تدعوها إلى أمها ؛ فسأل (روميو) عند ذلك عنها وعلم أنها (جوليت) ابنة (كابوليت) عدو أسرته . ولم تكن الفتاة بأقل شغلا بالفتى الجميل ، وجعلت تسأل عنه ، فعرفت أنه ابن (مونتاجو) عدو أسرتها . فذهبت إلى مخدعها حزينة تناجي نفسها بما ثار في قلبها من الشجون .

لم يقدر روميو بعد انتهاء الحفل على الذهاب إلى داره ، فعاد إلى بيت الفتاة يلتمس نظرة منها ، فاعتلى أسواره العالية ، ووثب إلى البستان المحيط به ، وجعل يتنسم النسيم المقبل من ناحيتها ، حتى اقترب من نافذة مخدعها ، فرآها جالسة في ضوء القمر تناجي نفسها ؛ فسار في حذر حتى صار على مسمع منها ، وملأ عينيه من جمالها ، وأخذ يحدث نفسه قائلا :

« أي نور طلعت أعلامه من ثنايا البيت ! هذا مشرق أشرقت من أفقه جوليت شمساً . أيها الشمس تعالى في السماء ، واقتلي البدر الذي يحسدنا ، فبدا من حقده في صفرة ، مذ رأى حسنك أبهى منظراً » ، ثم نظر نحوها وقال :

« أسمعيني صوتك العذب ، فما أنت إلا زينة الليل ، كما زانت الأفلاك أطباق السماء » .

وفيما كان يتحدث هذا الحديث ، سمعها تنطق باسمه ؛ وما كان ألذ وقع هذا الصوت في نفسه ، فأنصت إليها بجوارحه جميعاً ، وكانت تقول :

« ليت شعري ، أين يا روميو تُرى ؟ إن أحببتك عندي فاهجر أباك ، واسحك انزعه ، تبرأ من ذويك . فإذا لم ترض هذا فليكن قسم منك على صدق الهوى وثبات الحب : عهداً موثقاً ، فإذا أقسمت أنكرتُ أبي ، وتركت الأهل والصحب إليك » .

فعلم روميو عند ذلك أن له في قلبها مكانة ، فلم يطق الصمت وصاح قائلا :

« لبيك ! لبيك ! » وأخذ يحدثها عن استعداده للتبرؤ من اسمه ، ومن أهله من أجلها . فارتاعت الفتاة وقالت :

« أي مرء أنت هذا ؟ تختفي في ظلام الليل ، كي تكشف ما كنت أخفي في ضميري ؟ » .

فقال روميو معتذراً :

« إنني أيها القديس لا أدري بما أُسمي لك . إن اسمي هذا أبغض الأشياء عندي ، إذ أرى أن هذا الاسم مكروه لديك . إنه لو كان مكتوباً لما رمتُ أن مزقته بين يديك » .

فردت جوليت قائلة :

« إن أذني تعرف الصوت ، وما سمعتْ إلا قليلا من حديثه . إن هذا صوت روميو نفسه » .

ولما عرفت أن الذي يحدثها هو ذلك الفتى المحبوب ، زال عنها روعها ، وأقبلت عليه قائلة :

« كيف أقبلت ؟ وماذا تبتغي ؟ حائط البستان عال سمكه واعر المرقى . وقد جئتَ إلى بيت أعداء به الموت إذا لحت عين من القوم مكانك » .

فرد روميو قائلا : « حملتني أجنح الحب هنا فوق هذا

السور ، فالحب إذا شاء لم تمنعه أسوار البناء . والهوى يركب فيما يمشي كل ما يصعب من وعر شديد . إن عندي دون أهليك رحمتى من غرامى ، لن يبالوني بشىء . »

فقالت جوليت : « إن أهلى إن رأوا أنك فى ذلك الموضع لم يبقوا عليك » .

فأجاب روميو : « إن فى عينيك لحظاً فاتكاً ، وقعه أبلغ من وقع السيوف ، فانظرى نظرة عطف عذبة ، لا أبالى بمداوات العدى » .

واستمر بينهما حديث هذا الهوى العذرى إلى أن أقبلت ظئر الفتاة تناديها ، فكان آخر هذه المناجاة عهداً قطعته جوليت على نفسها قائلة :

« إن حبى مثل بحر زاخر ، واسع الأطراف ذى غور بعيد . كلما أسرفت فى انفاقه لم يزد إلا اتساعاً وامتلاء » .

فأجابها روميو : « هذه الليلة ما أسعدها . ليلة ليس لها الدهر قرين . غير أنى كلما أبصرتها ليلة أخشى : لعلى فى كرى ، ولعل السعد فيها حلم . فهو أحلى من لذاذات الحقيقة » .

ثم ودع كل منهما الآخر وداعاً حاراً بعد أن اتفقا على دوام الوفاء وعلى الارتباط برابطة الزواج .

وذهب روميو فى اليوم التالى إلى راهب كبير السن عظيم القلب والعقل ، كان يأنس إليه ويفضى إليه بأسراره وشجونه ، وكان ذلك الراهب يعرف قصة حبه لروزالين ، فلما رآه ظن أنه آت إليه ليبثه شكواه من حبيبته الجافية ؛ وما كان أشد عجبه عندما عرف أن الفتى إنما جاء إليه يطلب منه أن يعقد له على حبيبة جديدة اسمها جوليت بنت السرى الأمثل (كابوليت) . ولما انقضى عجبه رضى بأن يعقد ذلك الزواج وحدد لذلك موعداً عصر ذلك اليوم نفسه . ولما حان الوقت الموعود جلس روميو ينتظر حبيبته فى قلق وسرور ، وقال وكأنه يتحدى الأقدار : « أيها الدهر لا أباليك ، أنزل كل ما اسطعت من صروف الليالى . إن سعداً يناله القلب عفواً من لقاء الحبيب طرفة عين ، لجدير بأن يعوض قلبى من دواهى حوادث الأيام . فإذا نحن باركتنا عهود أوثقت بيننا الرباط ، فإنى لا أبالى بالموت إذ هو نادى ، وكفانى أنى ملكت حبيبى » .

فسمعه الراهب الحكيم العارف بصروف الدهر فقال مشفقاً : « إن هـذا الهوى العنيف لعمرى لا يؤدى لغير عصف وعنف » .

ثم أقبلت جوليت وذهب الجميع إلى المحراب وأشهدوا الله على الارتباط الزوجى ، وكان الجو كله طهراً وحباً ونبلاً .

ثارت بعد هذا معركة من المعارك المتمادة بين الأسرتين المتنافستين ، وكان روميو حاضراً بها ، وحاول أن يمنع من التمـادى فيها وإراقة الدماء بين أسرته وأسرة حبيبته ؛ ولـكنه لم يفلح ، وتبارز الفريقان ، وقتل فى المبارزة أحد أصدقاء روميو ، فلم يكن له بد من القتال ، فبارز قاتل صديقه حتى قتله ؛ وكان ذلك القتيل الثانى هو (تيبولت) ابن عم جوليت العزيز عليها .

وكاد أمير (فيرونا) يحكم على روميو بالقتل عقاباً له ، لولا ما ظهر من محاولتـه صرف النزاع وحسم الخلاف ، فخفف الحـكم عليه وجعله النفى من المدينة .

وبلغ النبأ (جوليت) فتوزع قلبها بين ابن عمها القتيل وبين زوجها القاتل الحبيب ، وصدمها النبأ فقالت مرتاعة : « وافؤاداه ! القتيل ابن عمى ؟ والشقى السفاك روميو حبيبى ؟ . »

فلما تأكدت من صدق الخبر اندفعت مع حزنها تسب روميو قائلة : « قلب أفعى من تحت وجه مليح . ليت شعرى أكان كهف الأفاعى ليغطيه مثل هذا الرواء ؟ أيها الظالم الجميل المحيا ، أنت جن فى صورة ملاك . أنت ذئب قد جاء فى شكل شاة ، وغراب أتى بريش حمام ، وزنيم فى مظهر الأطهار . لحت للعين جنة ونعيماً ، ثم أخفيت دون ذاك جحيماً ؛ يا ولياً مدنساً وشريفاً فاجر النفس . . . »

واستمرت فى قولها مندفعة اندفاع التيار القوى ،

فأقبلت ظئرها تشاركها في سبابها وطعنها فقالت : « ذلك روميو ، أخزاه ربي عقاباً ! »

فما كادت جوليت تسمع ذلك الدعاء حتى عاد إليها صوابها الذي ضل عند سماع خبر موت ابن عمها . فاندفعت تخاطب ظئرها في هياج شديد ، قائلة : « قدح الله في لسانك قدحاً ، إذ تقولين مثل ذلك قولا . إن روميو ما كان أهلا لخزى ، أو هوان ، حاشا لمثل حبيبي أن يذوق الهوان ، إن حبيبي خلق الله وجهه للمعالي كي تكون العلا له إكليلا ، وتكون الدنا العلياء ملكاً . ويل نفسي ماذا دهاني حتى قلت ما قلت في سبابي وطعني ؟ »

ثم أقبلت على نفسها تلومها على ما فرط منها نحو روميو وتندب لجيمتها العظيمة في نفيه .

وكان أمر النفي كذلك شديد الوقع على نفس روميو ؛ فلما أراد الراهب لورنس أن يعزيه ويقلل من وقع مصابه أجابه قائلا : « ليس في الأرض موطن غير هذا . والفضاء الفسيح سجن عذاب وجحيم من بعد سور فيرونا . إن نفيي هو الهلاك ، وهذا هو موت سماه قومي نفياً . إنهم يضربون رأسي بسيف مرهف ، غير أنه من نضار ، وأراهم إذ يسفكون دمائي قد علا البشر وجههم بابتسام » .

فراجعه الراهب مبيناً له أن النفي أرحم من القتل وأهون خطباً ؛ فأجابه روميو قائلا : « ليس هذا رحمة ، بل عذاب . إنما جنة الخلود بأرضي ، ها هنا ، إذ تعيش جوليت فيها » .

بقي روميو في تألم وحزن في انتظار إنفاذ أمر النفي ، ولكنه أراد أن يروي شوقه بموعد يلاقي فيه زوجته المحبوبة قبل أن يخرج من المدينة ، فواعدها ليذهب إليها في الليل . ثم ذهب إليها في الموعد وصعد إليها من بستان القصر إلى مخدعها على سلم من حبال مجدولة ، وقضى معها ليلته في حديث طاهر يتغنى معها بأناشيد الغرام البريئة ؛ وما زالا كذلك إلى أن راعهما طلوع ضوء الصباح خيوطاً بيضاء بين السحب ، وصوت قُبَّرة تحيي الفجر الوليد . فأراد روميو عند ذلك أنه يذهب ، خوفاً من أن يراه أحد فيكون عقابه القتل ، ولكن رغبة جوليت في إطالة مدة اللقاء دفعتها إلى أن تقول له : « ذاهب أنت ؟ لم يلح بعد فجر . إن هـذا الذي يغني قريباً فوق غصن الرمان بلبل ليل . لم يكن قُبَّر الصباح . فصدق يا حبيبي ولا تفارق سريعاً » .

فقال روميو مراجعاً :

« إنه قُبَّر الصباح لعمري ، فانظري مشرق السماء منيراً مثل خيط بين السحاب مضيء ، أطفأ الليل شمعه وتجلى ، والصباح الضحوك شب مطلا فوق رأس الجبال يرنو إلينا ، فدعيني أسر بعيداً وأحيا . أو ذريني هنا ألاقي هلاكي » .

فراجعته جوليت مرة أخرى متشبثة به قائلة :

« ليس هذا ضوء الصباح لعمري ، إن هذا شهاب نور مضيء أرسلته إليك شمس النهار . أرسلته لكي يكون دليلا في دجى الليل إذ تسير وحيداً نحو منفاك . لكن ابق قليلا . لم يحن بعد موعد التفريق » .

لجل روميو من إصراره على الذهاب وقال :

« فليكن ما يشاء مني حبيبي . أنا راض بأن أكون أسيراً في يد الشانئين . بل أنا راض بدمائي تسيل هدراً مضيماً ، لن أقول الصباح لاح ولكن هو ضوء الهلال هل مساءً ، ليس هذا الذي يغني علينا صائحاً يملأ السماء غناءً قُبَّر الصبح منذراً بالنهار . لا أود الذهاب . لست أبالي بهلاكي هنا . سأبقى مقيماً إذ رأيت الحبيب يرضى بقائي ، فهلمي إلى حديثي فإنا في دجى الليل لم يلح لي صباح » .

فأدركت جوليت عند ذلك خطورة الأمر فودعته ، وسار روميو إلى النافذة فهبط على الحبل إلى البستان بعد أن خطف منها قبلة سريعة ، ولكن الحبيبين عند ذلك أحسا إحساساً عجيباً من الحزن والكآبة وتوجس الشر . كأن الأقدار كانت تنذرهما عند ذلك بما تخبئه لهما .

جاءت أم جوليت عقب تلك الليلة تزف إليها بشرى ظنت أنها تبعث في قلبها السرور وتعزيها عن قتل ابن عمها ، وذلك أن (باريس) الفتى الجميل الغني الحسيب أتى لخطبتها ، وأن يوم زفافها سيكون يوم (الخميس) أي بعد ثلاثة أيام .

ولنترك للخيال تصور وقع ذلك النبأ على قلب الفتاة المسكينة .

ورأى أهلها أنها غير راضية بالزواج ، فأراد أبوها إرغامها عليه ، فوقعت في حيرة شديدة لا تجد لنفسها مخرجاً منها ، فأسرعت إلى الراهب الحكيم الذي عقد زواجها من روميو تطلب منه النصح . وقصت عليه قصتها قائلة له إنه إذا لم يجد لها منفذاً لم يبق لها سبيل إلا أن تقتل نفسها . فأخذ الراهب يهدئ من روعها وهي ثائرة النفس ، ذاهلة من شدة خوفها ومن ورطتها . وجعلت تقول في ثورتها :

« إن خيراً لدى موت سريع ، بوثوبي من رأس برج منيف ، والخير لدى أن أتردى في مهاوي اللصوص ، أو أن ألاقي أكبر الهول في جحور الأفاعي ، من زواجي بخاطب غير زوجي ، بل الخير من ذلك صحبة دُبٍّ ، قيدنا واحد ، زمجر قربي ، أو أقضي الليل الطويل بجُحْرٍ فوق فرش من عظام موتى رميم ، وبقايا جماجم باليات ، أو مبيتي بطيّ لحد مخيف ، وأنيسي به رفات دفين ، يقطع الدهر في جواري شريكاً . كل هذي مخاوف بشعات ، ذكرها يفزع الفؤاد ، ولكن أشتهي لو يكون هذا جميعاً ، لا أرى فيه رهبة أو عذاباً ، كي ألاقي زوجي الحبيب ، وإني لم أدنس طهارتي بخدين » .

فلما رأى الراهب شدة خوفها وأشفق من ثورة نفسها عزم على أن يسلك خطة جريئة ظن فيها نجاتها . وذلك أن يعطيها دواءً من صنعته إذا شربته ظهرت عليها أعراض مثل أعراض الموت ، حتى يظن أهلها أنها قد قضت نحبها ، فإذا جيء بها إلى الكنيسة ودفنت فيها أتى إليها الراهب عند ما يحين موعد صحوها ، ويكون ذلك في صحبة روميو ، إذ يكون قد أرسل إليه في منفاه بمدينة (مانتوا) يدعوه للحضور ، فتذهب العروس بعد ذلك مع زوجها ليعيشا معاً حيث شاءا . وبيّن الراهب هذه الخطة للفتاة فرضيت بها فرحة ، وأخذت منه الدواء وذهبت إلى بيتها .

وجاءت ليلة الزفاف وشُغِل أهل البيت في مهام العروس ، فتسللت جوليت إلى مخدعها ، وجعلت تناجي نفسها بآمالها ومخاوفها ، وبعد شيء من التردد شربت الدواء ! فلم تلبث إلا قليلا حتى كانت كالأموات باردة هامدة . وجاء وقت الزفاف ، وأقبل الخاطب الأمير ، وأرسل السيد كابوليت إلى ابنته لتقابل زوجها ، فذهبت الظئر لتأتي بها ، ولكن يالهول ما رأت : رأت العروس جثة لا حراك بها !

كان روميو في منفاه لا يعرف شيئاً مما حدث ، وكانت نفسه تحدثه بالأماني في صحوه وفي أحلامه . وقال يوماً يصف حلماً هنيئاً رآه : « إن يك الحلم صادقاً في منامي ، فسألقى سعادة وسروراً . فليك الفؤاد بين ضلوعي عرشه القلب يعتليه سعيداً . وأرى اليوم بين جنبيّ رُوحاً ثائراً بالسرور كاد يطير . قد كأني رأيت في الحلم نفسي ميتاً — إنه لحلم عجيب ! — عجباً كيف يذكر الحلم ميت ؟ ورأيت الحبيب حين رآني ميتاً جاءني سراعاً ، فأهوى فوق ثغري بقبلة . فإذا بي أستعيد الحياة مذ قبلتني . وكأني أصبحت مَلِكاً عظيماً فيها ، وقوة وجلال . إن تكن هذه السعادة جاءت من خيال الغرام في أحلامي ، أي سعد إذاً يجيء إذا ما لقيتني في الصحو لا في الخيال ؟ »

غير أنه ما كاد ينتهي من مناجاة نفسه بتلك السعادة حتى رأى رجلا أتى من فيرونا ، فسأله متلهفاً عن أخبار وطنه ، ومن فيه من أحبابه فأخبره أنه رأى جنازة جوليت وأنه شيعها إلى قبرها .

لم يظهر روميو علامة تدل على الجزع ، فإن الصدمة التي أصابته كانت أعمق من أن تنم عليها مظاهر الحزن ،

ولم ينطق بكلمة عن مصيبته إلا حين صار وحيداً إذ قال : « سأكون بجانبك هذه الليلة يا جولييت » . ثم أسرع إلى صيدلاني يصنع العقاقير ، واشترى منه سماً ، وذهب إلى فيرونا ، وكان أول هم له أن يذهب إلى قبر جولييت . ولما دخل المقبرة كان هناك (باريس) خطيب (جولييت) وقد جاء ليزور قبرها . فلم يملك باريس نفسه عند ما رآه ، لأن روميو هو الذى قتل ابن عم جولييت ، وكان الناس جميعاً يظنون أنها لم تمت إلا حزناً على ابن عمها . فاعترضه باريس واستفزه حتى بارزه فقتله روميو .

ثم أسرع إلى حبيبته ينظر إليها ، وكان ظاهرها جميلا ليس فيه شىء من ظاهر الأموات ، فأقبل عليها فقبلها وضمها ، وجعل يناجيها ، ثم أخرج السم الذى معه وشربه وهو إلى جانبها ، ومات وهو يقول : « أنا هذا أموت وبان حباً ، زودتنى الموت قبلة حب » .

وجاء عند ذلك الراهب الحكيم ، وكان قد أرسل خطاباً إلى روميو يدعوه إلى الحضور ويبنئه فيه بكل ما كان ، ولكن الأقدار أرادت أمراً ، فلم يصل ذلك الخطاب إليه . وقد أتى إلى المقبرة عند ذلك إذ قرب موعد صحوة جولييت ، فرأى كارثة جديدة عند ما وقع بصره على روميو فى صفرة الموت وباريس مضرجاً بالدماء . واتفق فى تلك اللحظة كذلك أن عادت جولييت إلى وعيها ، فرأت الراهب وجعلت تسأله عن روميو وعن إتمام تدبير حطته .

وفيما هى فى ذلك سمعت ضجة ، فخرج الراهب لاستجلاء سببها ، فنظرت جولييت حولها ورأت ما هنالك : رأت روميو والكأس فى يده وأدركت ما كان منه فقالت :

« ويح نفسى ! ماذا أرى ؟ أى كأس هذه الكأس ؟ إنها كأس سم . إنه السم لا أشك وفيه كان حتف الحبيب قبل الأوان » .

ثم جعلت تخاطب روميو قائلة :

« أيها البخيل . تشرب هذا كله لا تذر لغيرك شيئاً . فلأقبل فم الحبيب لعلى منه أحيى بقية من سموم » .

ثم أخذت خنجره ، وطعنت به نفسها ، فوقعت على جثته .

طارت أخبار هذه الحوادث كل مطار ، فما أسرع أن أتى أمير المدينة وأبو روميو ووالد جولييت ووقفوا جميعاً حول حطام المأساة ، وعلم الجميع بعد البحث أن القضاء وحده هو الذى كان يدفع الجميع ، ويدبر لهم سعيهم ، ويسير بهم إلى قصده .

وكانت عبرة المأساة عظيمة الأثر فى نفوسهم ، فتركوا ما كان فى قلوبهم من غل ، ولم يخرج (كابوليت) و (مونتاجو) من الكنيسة إلا صديقين متصافيين ، فلم يبق فى فيرونا من أثر تلك العداوة المشبوبة إلا القصة الخالدة ، قصة روميو وجولييت .

محمد فريد أبو حديد

في سبيل جيل جديد . . .

من تجارب صاحب مدرسة

رأس الأستاذ ا . س . نيل مدرسة في أرياف انجلترا جعلها حرة مطلقة ، ولم يقبل فيها إلا الذين يريدون أن يعالجوا أنفسهم بالخلاص من نقص يحسونه أو يحسه آباؤهم فيهم . ولقد كتب عن تجاربه في تلك المدرسة وآرائه التي وصل إليها بعد الدرس والعمل كتابين ، الأول يعالج فيه الطفل الشاذ ، والثاني يعالج فيه الوالدين الشاذين ، مؤمناً أن الطفل لا يكون شاذاً إلا إذا كان الوالدان شاذين .

وسنقتطف هنا بعض ما جاء في كتابه الثاني .

الطفل مطبوع على حب الخلق والابتكار ، فإذا كبت هذا الطبع تحول إلى ضده ، كالحال في الحب ، فإنه إذا كبت يتحول إلى الكره . ولقد صادفتني حادثة مؤيدة لهذا ، وهي أن صبياً في الثانية عشرة من عمره قد ترك مدرستي ليذهب إلى إحدى المدارس النظامية ، فترك الحرية ليذهب إلى القانون ، ترك الخلق والابتكار ليذهب إلى المقاعد المصطفة ، والأوقات المنظمة ، وخوف الأستاذ ؛ وفي أول إجازة له دعا نفسه إلى مدرستي زائراً ، فكسر في الأسبوع الأول أكثر من عشرين نافذة ، ولكنه تُرك يفعل ما يريد ، ففي "محرهيل" (المدرسة) كل له ملء الحرية ما دام عمله لا يضر بالغير . وكان أثناء إقامته في المدرسة لا يحاول أن يكسر شيئاً . لقد أفسد القانون النظامي ملكة الخلق والابتكار عنده ، وحولها إلى الهدم . ولقد منعه الخوف أن يكسر زجاج مدرسته المنظمة ، ولكن هنا حيث لا خوف ولا كبت اندفع يكسر في لذة وفرح . وكان الصبي في حالة صحية جيدة لا تؤدي إلى أي شذوذ ؛ ومرة ظهرتُ أمامه أثناء عمله في الكسر ، وسألته في عدم اكتراث : « ماذا ؟ ما الفكرة وراء كل هذا ؟ » . قال : « لا شيء ، مجرد قرف » . قلت : « قرف من أي شيء ؟ » . قال : « من مدرستي » . قلت : « ولِمَ لا تكسر زجاج مدرستك بدل أن تكسر زجاج مدرستي أنا ؟ » . قال : « آه ، لم أكن أجسر » .

* * *

وهذه طفلة جاءت بها أمها تشكو من صراخها وقذارة ملابسها . والطفلة في السابعة من عمرها ، والأم من هؤلاء اللواتي يعشن في تقدير ، مبالغ فيه دائماً ، للرأي العام . وكان الصراخ والقذارة مما أغاظ الأم لأثر هذين النقصين في الرأي العام — رأي جاراتها . وبعد درس تبين لي السبب . هذه الطفلة كانت موضع عناية أمها وحبها كله ، ثم جاء في الأسرة زائر جديد هو طفل أخو الطفلة ، فتحول جزء كبير من حب الأم ، وجزء أكبر من عنايتها نحو هذا المولود الجديد . وكان الطفل الجديد دائم البكاء ، والبكاء يلفت نظر الأم إليه ويضطرها أن تزيل سببه ، وكان الطفل إذا اتسخت ملابسه نال من عناية أمه التي تحرص على المظهر أكبر قسط . لم تجد الطفلة أمامها إلا هذين السلاحين تستعيد بهما حب الأم وعنايتها ، لذلك هي تصرخ ، ولذلك هي تقذر ملابسها . ولقد كرهت الأم منها ذلك كل الكره ، ولكن هذا لا يؤثر كثيراً ، المهم أن الأم تظل دائماً ملتفتة إليها ، دائماً معتنية بها .

* * *

لا يمكن لدروس التاريخ والقانون أن تجعل من الانسان عضواً عاملاً في المجتمع راضياً عن قوانينه . الطريق الوحيد

هو التجربة ، والتجربة يجب أن تتاح للأفراد فى سن مبكرة ، والتجارب القاصرة لا تؤدى شيئاً ، لابد من التجربة الكاملة ! فالطفل يجب أن يترك له الحرية فى تقرير مسائل جسيمة شديدة الخطر ؛ والتجربة التى تعطى للطفل فى أن يشرّع لنفسه القانون الذى يسير عليه عجيبة النتائج ! هذا صبي فى السادسة عشرة من عمره قد طرد من المدارس العامة لأنه غير صالح ، بل إنه سارق دائم الثورة على القانون . وظل فى مدرستى ستة أسابيع اشترك فيها فى وضع قوانين المدرسة كسائر التلاميذ ، وأحس أنه هو الذى يضع القانون ، وهو الذى يقتنع بفائدته قبل أن يطبقه . وفى يوم جاء إلىّ يقول : « قل لى يا نيل أتأذن لى أن أذهب إلى المدينة وحدى ؟ أريد شيئاً أصلح به جهازى اللاسلكى ، وليس بين زملائى من يريد أن يذهب معى » .

وكان القانون إذ ذاك (فالقانون عندنا متقلب دائماً) أن الذهاب إلى المدينة يجب ألا يكون على انفراد .

قلت : « إنى لا أستطيع أن آذن لك فأنا لا أشرع القانون » . ثم ابتسمت وقلت له : « ولماذا لا تهرب من الباب الخلفى ؟ لن يراك أحد » .

قال : « أنا لا أفعل هذا » ولم يذهب إلى المدينة . كان عمله معجزة فى نظرى ! فهذا ثائر على القانون لا يريد أن يخالفه لأنه كان عضواً عاملا فى تشريعه .

* * *

كثيرون من الأطفال يستسلمون للخيال فراراً من الحقائق التى يكرهونها . ولعل أخطر شئ على حياة الطفل أن تهدم له خيالاً قبل أن تبنى له ما يحل محله فى نفسه . هذه « بيجى » فى التاسعة من عمرها . وكان تكوينها أقل من المتوسط جسماً ونفساً . ولقد قالوا إنها متأخرة فى الفهم ، ولكن الواقع أن لا . هى تعيش فى الخيال ، لأن الواقع قد أفسده عليها حب أمها لأختها مارى ، فمارى أولى فضلها ، ومارى تستطيع أن تعمل هذا وأن تتقن ذاك . دخلت علىّ ذات يوم وقالت : أريد درساً خاصاً . قلت : « حسناً . ماذا تريدين أن أتحدث عنه » . قالت : إنها لا تعرف ماذا تتحدث عنه . قلت : « ما اسم أختك » ؟ قالت : « مارى » ، ثم لوت شفتيها وكشرت قليلا ثم قالت : « أنت لا تعرفها ، أنت لم ترها ؟ » قلت : « لم أفعل ؟ كيف ذلك ؟ إنها هنا ، ها هى » . ثم توجهت إلى مخدة وسلمت عليها وقلت : « كيف حالك يا مارى ؟ » فكشرت بيجى مرة أخرى وسألت : « وهل هذه هى مارى ؟ » أجبتها : « نعم ، ألست فرحة بلقائها ؟ » . فلم تجب ، ولكنها أمعنت النظر فى المخدة ثم ضربتها فجأة ضربة قوية . قلت : « ماذا ؟ ماذا تريدين ؟ » فلم تجب ، ولكنها قفزت فوق المقعد ورمت بالمخدة فى الأرض ، وقالت : « مارى ماتت » . قلت : « حسناً جداً ، والآن أين الأم ؟ آه ، إنها هنا » . ثم عمدت إلى مخدة أكبر مسلماً عليها قائلا : « كيف حالك يا أماه ؟ » . لم تقل بيجى شيئاً ، ولكنها قفزت إلى الأم أيضاً فرمت بها إلى الأرض ، وقالت : « وأمى أيضاً قد ماتت » . قلت : « حسناً » . ثم اقتربت من مخدة ثالثة وقلت : « أهلا ، شرفتنا يا مستر سمث » وسمث أبو بيجى . فجزت على أسنانها ولم تتحرك ، فقلت : « وماذا ستفعل فى أبى ؟ » . قالت : « لا شئ » . قلت : « إذاً مارى ماتت وكذلك أمى . لم يبق إلا أبى . وسأكون أنا الأب . ها هو فى سريره . بيجى ، من فضلك فطورى » . فقفزت إلى الطاولة وجعلت تتحرك كأنما هى تعد شيئاً ، ثم قالت : « أتظل فى السرير يا أبى ، أم أنك قائم لفطورك ؟ » قلت لها : « لا ، إنى أريد الفطور فى السرير » . وجاءت إلى بالفطور وهى تتمتم : « إنك كسول ، وأنا لا أريد رجلا كسولا كزوج ، آه لا كوالد » .

لقد ظهر واضحاً أنها الآن وقد تخلصت من مزاحمتها على حب الأب قد بدأت تشعر بمكانتها . وانتفضت فجأة وقالت : « إن أحداً يطرق الباب ؟ » . قلت : « ومن يكون ؟ » ، قالت : « جارتنا » ، قلت : « أدخليها » . فقامت إلى الباب وفتحته ، وكأنما قد أدخلت شخصاً ، قلت

منذ نيف وتسعمائة سنة :

عيد الفطر فى الدولة الفاطمية

وكيف لا تحتفل دولة الأعياد بعيد الفطر ، وهى التى خلقت أعياداً من غير أعياد ، ومواسم فى غير مواسم . فلقد كان عيد الفطر من أجلّ أعيادهم ، وكان احتفالهم به من أروع احتفالاتهم ، وكان يبالغ فى إحياء أيامه حتى تكون خير ختام لليالى رمضان .

ففى آخر يوم من رمضان يبدأ الوزير ورجال الدواوين وحاشية القصر يعدون العدة لخروج الخليفة فى موكب العيد ، كلٌّ فى دائرة عمله ، وتبدأ مطابخ قصر الخليفة ، ودار الفطرة تعدّ معدّات أسمطة العيد من مختلف الأشكال والألوان ، أما دار الكسوة فتكون قد أتمت صناعة الكسوات التى يخلعها الخليفة على وجوه الدولة وطوائف العامة .

وكان عدد الأسمطة التى يحضرها الخليفة بنفسه فى عيد الفطر سماطين ؛ أما الأول فكان بسيطاً غير حافل بالألوان ، وإن كان حافلا من حيث كميات ما يعبأ عليه من الطعام ، ولعل ذلك راجع إلى الوقت الذى كان يعد فيه هذا السماط ، وهو وقت الفجر من أول أيام العيد ، فقد كان السماط يعد بالليل فى الايوان أمام الشباك الذى يجلس فيه الخليفة ؛ ويقتصر فى تعبئته على أصناف الحلوى التى منها ما هو على شكل تماثيل ، وما هو على شكل قصور ، وما هو على غير ذلك من الأشكال ، كالتمور التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره وتسد وتختم ، مما كانت تتفنن فى صنعه دار الفطرة . فاذا صلى الخليفة الفجر حين يلوح مباشرة ، ذهب فجلس أمام الشباك متصدراً السماط ، ويحضر الوزير فيجلس عن يمينه بعد أداء السلام ، ثم يدخل الأمراء والقاضى والداعى ، ثم عامة الضيوف من الخاصة ، وكل منهم يسلم ثم يجلس على حكم مرتبته ، ثم يبدأ الخليفة بالتكبير ، ويتناول تمرة يفطر عليها ، ثم يتناول الوزير مثلها ، فاذا كان يعتقد بالفطر فى يوم العيد أكلها ، وإلا قبّلها وتظاهر بالفطر عليها ، ثم جعلها فى كمه ، ويتناول الحاضرون كلٌّ مما أمامه على حسب ما يشتهى ، فمن كان مفطراً أكل ، ومن أراد صيام العيد أوماً ، ثم اختزن فى كمه على سبيل البركة . ومن الخلفاء الفاطميين من اضطر الناس إلى الافطار يوم العيد ، وهدد من بلغه عنه أنه صائمه . وكان الوزير يضرب لهم المثل فى أخذ الطعام معه ويشجعهم عليه . فمن ذلك ما قال الوزير المأمون بن البطائحى فى فجر ذات عيد وقد استقر الجمع على السماط : « ما على من يأخذ من هذا المكان نقيصة ، بل

للداخلة الموهومة : « آه ، أنت جارتى تريدين الآن وقد ماتت زوجى أن تعنى بى ، لا ، إن يحيى ستقوم نحوى بكل شىء » .

وقادتها يحيى إلى الباب فرحة ، لأنها كانت تريد بقصة الطارقة أن تمتحن مركزها الجديد أهو ثابت أم مزعزع ، أما وقد اطمأنت فهى تدفع الباب وراءها فى عنف ، بل تخرج لها لسانها أيضاً .

بعد أن مثلت هذه المسرحية بدأت يحيى تتحسن ، فقد عاشت ما كانت تتخيله وتحلم به . كل فتاة تريد أن تكون هى موضع حب أبيها قبل الأم وقبل الأخت . ويحيى إحدى كثيرات يتعطل نموهن النفسانى لأنهن يكن فى المكانة الثانية فى أسرتهن .

سرير القلماوى

له به الشرف والبركة » وملأ كُمّه من على السماط ، وحذا حذوه الحاضرون ؛ فإذا انتهت هذه الطبقة ، فشبعت مما أكلت ، وتبركت بما أخذت ، أباح الوزير السماط لعامة الناس ممن تجمعوا بالقصر ، فيدخلون وينهبون السماط ، « فيأخذ من يأكله في يومه ومن يدخره لغده ، ومن لا حاجة له به فيبيعه . ولا يُفرغ من هذا السماط إلا وقد بزغت الشمس ، فيتهيأ الجميع لموكب الخليفة لصلاة العيد .

وكانت صلاة العيد في عهد الدول الفاطمية تؤدى خارج أبواب القاهرة ، وذلك عملا بما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن صلاة العيد تقام في الصحراء لا في داخل المدن ، لذلك كان من أول منشآت الفاطميين في مصر مسجد عرف باسم « مصلى العيد » ، أقامه جوهر الصقلي في خارج باب النصر في صحراء الريدانية (العباسية الآن) لأنها أقرب بقعة صحراوية من القاهرة . وكان ذلك في رمضان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) في نفس الوقت الذي اختط فيه المدينة .

وفي ليلة العيد تتخذ الشرطة ورجال القصر بإشراف قاضي القضاة العدة لمرور موكب الخليفة من قصره داخل أبواب القاهرة إلى مصلى العيد خارجها . فيصطف المؤذنون وقوفاً على المصاطب على طول الطريق ما بين القصر والمصلى حتى يتصل التكبير بينهما . ويجلس المقرئون وأتباع المذهب الشيعي من مغاربة ومصريين على تلك المصاطب بمقتضى قوائم تصدر من ديوان الانشاء ، حتى تمتلىء بهم تلك المصاطب ؛ ويبيتون في أماكنهم تلك الليلة . ويترادف الجنود صفوفاً على الجانبين بطول الطريق ، ويقبل أشتات من الناس من أنحاء مصر والقاهرة للتفرج على موكب الخليفة حتى تكتظ بهم جوانب الطريق .

وفي نفس الليلة يشرف صاحب بيت المال على فرش مصلى العيد وإعداده للصلاة بإمامة أمير المؤمنين .

فيُفرش المصلى بثلاث سجادات متراكبة تعلو إحداها الأخرى ، وفوقها جميعاً « السجادة اللطيفة التي كانت عندهم معظمة » . وهي قطعة من الحصير قيل إنها كانت لجعفر ابن محمد الصادق الإمام السادس من أئمة الشيعة ، وقيل إنه كان يصلي عليها . ثم يكمل فرش المصلى بالحصير ، ويعلق على المحراب الشروب المذهبة ، ويعلق على المنبر ستران جيلان نقش على الأيمن منهما البسملة والفاتحة و « سبح اسم ربك الأعلى » ، وعلى الأيسر مثل ذلك مضافاً إليه « هل أتاك حديث الغاشية » وتفرش جميع درجات المنبر ، ويوضع في أعلاه مخدة من الديباج الطرز يجلس عليها الخليفة بين الخطبتين . ويوضع في المصلى أربع مباخر في صينيات من الفضة : إحداها في المحراب واثنتان حول المنبر عن يمينه وعن شماله ، وواحدة في الموضع الذي يجلس فيه الخليفة إلى أن تقام الصلاة .

ومتى بزغت الشمس في صبيحة يوم العيد ، أقبل الوزير وحاشيته ، والأمراء وأصحاب الدواوين والقاضي والدعاة ، وكل من له موضع في موكب الخليفة ، ووقف كل منهم في موضعه على حسب مرتبته . ويخرج الخليفة من القصر من طريق باب العيد وهو في زي عيد الفطر ، وهو الثياب البيضاء الموشحة . ومتى خرج نشرت المظلة البيضاء المثقلة بالجواهر والذهب عن يمينه ، وسار الموكب على نحو ما مرّ بك في « مقالة رمضان » . ويزيد عليه قضيب الملك في يد الخليفة . وخروج جميع طوائف العساكر في الركب من المغاربة والأتراك والعزيزية والأخشيدية والكافورية وأهل العراق ، بالسيوف والمناطق الذهبية ، وعلى الخيل السروج المذهبة ؛ وأمامه الفيلة شدت عليها الأسِرّة ، مملوءة رجالا لا تظهر منهم إلا الأحداق وفي أيديهم السيوف المجردة . ومتى بدأ الموكب تجاوب المؤذنون والنظّارة ، بالتكبير الذي لا ينقطع بين القصر والمصلى .

ومتى بلغ الموكب باب المصلى الخارجي ، ترجل الجميع ،

فلا يدخل المصلى راكباً إلا الخليفة والوزير . فإذا بلغا باب المصلى ترجّل الوزير ، ثم سلم على الخليفة فأجابه هذا بكمه ، ثم يتقدم الوزير ، فيأخذ بشكيمة جواد الخليفة إلى أن يترجل هو الآخر . ويدخل الخليفة المصلى من بابه الشرقي إلى مكان يستريح فيه برهة ، ثم يدخل المصلى وقد كبّر المؤذنون وأطلق البخور ، فيقف في المحراب وحوله الوزير من يمينه ، والقاضي من شماله ، وكاتب الدست وصاحب ديوان الإنشاء تحت عقد المنبر ، ثم يقف الدعاة والأمراء والأشراف والشيوخ ، ثم من هم دونهم في الرتبة . ويشرف على ترتيب الجميع «الداعي» فلا يتمكن من دخول المصلى إلا من «يعرفه ويكون في ضمانه» .

ويصلي الخليفة بالناس صلاة العيد ، تامة طويلة جداً على الأصول الشيعية ، حتى لقد قرر ابن زولاق المؤرخ المعاصر أنه سبّح خلف الخليفة المعز لدين الله في كل ركعة وكل سجدة نيفاً وثلاثين تسبيحة . ويبلّغ الوزير والقاضي عن الخليفة التكبير لجماعة المؤذنين في جانبي المصلى ، ويتصل التكبير من هؤلاء إلى مؤذني مصلى الرجال والنساء خارج المصلى الكبير ، ومن هؤلاء إلى المؤذنين على المصاطب فيما بين المصلى والقصر ، فيكون للصلاة روعة أي روعة . ومتى سلم الخليفة خرج من المحراب وانعطف إلى اليمين ، وصعد المنبر في خشوع وسكينة ، والجميع شاخصون إليه داعون له ، حتى إذا بلغ آخر مرقاة منه ، أومأ إلى الوزير فيصعد المنبر ويقف بحيث يكون وجهه موازياً قدمي الخليفة فيقبلهما ، ثم يقوم ويقف بجانبه . ثم يومئ الخليفة لقاضي القضاة فيصعد إلى سابع درجة ويقف عندها . ثم يخرج من كمه ورقة تصدر إليه من ديوان الإنشاء وفيها أسماء من سيتشرفون بالصعود إلى المنبر مع الخليفة ، ويأخذ في قراءتها بصوت جهير . وفي مقدمتها ما جرت به العادة من تسمية يوم العيد وسنّتيه والدعاء للدولة ، وهي كما وردت في إحدى هذه الأوراق : «بسم الله الرحمن الرحيم . ثبّتْ عن مُشرّف بصعوده المنبر الشريف في يوم كذا وهو عيد الفطر من سنة كذا من عبيد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين . . . » . ثم يبدأ في نداء الأسماء ، ويعد كل اسم ما كتب أمامه من الصفات والنعوت والدعاء . وكل من سمع اسمه صعد المنبر وقبّل الأرض ووقف على الدرجة التي تتفق ومرتبته . ومما كان يتفق من الفكاهة في هذا المشهد أن اسم القاضي كان يرد بين هؤلاء ، ولما كان هو القارئ فقد كان يضطر إلى التواضع فلا يذكر ما أمام اسمه من الصفات والألقاب والدعاء ، بل قد كان يضطر إلى قلب المعاني ، فيذكر من عنده أمام اسمه صفات التحقير ، كالذي اتفق للقاضي ابن أبي عقيل حين قال عن نفسه : «العبد الذليل ، المعترف بالصنع الجميل ، في المقام الجليل ، أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل» . أو القاضي ابن سلامة حين قال : «المملوك في محل الكرامة ، الذي عليه من الولاء أصدق علامة ، حسن بن علي بن سلامة» ثم يقف الجميع وقد أمسك كل منهم بما أمامه من أطراف ستري المنبر ، فيستتر الخليفة ويستترون . وينادي في الناس بأن ينصتوا ! ومن النادرين من قد تفنن وبالغ كالذي كان من صنيع الشريف ابن أنس الدولة حين أشار إلى الحاضرين والخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٩ هـ) على المنبر ، وقال :

خشوعاً فإن الله هـذا مقامه
وهمساً فهـذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بزوره
تحيانه من ربنا وسلامه

وكان من مبالغته أن أمر الخليفة من استوقفه ، فلم يزد على ما قال شيئاً .

ويسلم الخليفة على الناس يميناً وشمالاً ، ثم يخطب مبتدئاً باسم الله الرحمن الرحيم ، ثم يقول : الله أكبر ، الله أكبر . ثم يخطب بخضوع وخشوع . ومن الخلفاء من أبكى الناس وهو يخطب ، كما حدث من الخليفة المعز لدين الله فى عيد الفطر من سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) . فإذا انتهى من خطبته ترك كل من على المنبر ما بيده من أطراف الستر ، ثم يأخذون فى النزول من على المنبر بترتيب وقوفهم ، فالأقرب من الباب ينزل أولاً ؛ ويكون نزولهم جميعاً القهقرى ، فلا يولون ظهورهم نحو الخليفة وهو واقف فى أعلى المنبر .

ويركب الخليفة من المصلى بنفس الهيئة التى قدم بها ، ويتوجه إلى تربة آبائه فيزورها ، ثم يعود إلى قصره ، والدنانير والدراهم تنثر أمامه على طول الطريق ، فيعم الناس خير كثير . قالوا وقد اعتادت طائفة من أهل برقة تعرف « بصبيان الخف » أن تقوم ببعض الألعاب فى موكب الخليفة ، ولهم جرايات وكسوات وهبات . قالوا فيمدون حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض : حبلاً عن يمين الباب وحبلاً عن شماله . فإذا عاد الخليفة من المصلى نزل على الحبلين طائفة منهم على خيل من الخشب الدهون ، وفى أيديهم رايات ، ويلعبون ألعاباً تذهل العقول . ويركب جماعة منهم فى الموكب على خيول يركضون بها وهم ينقلبون عليها ، ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ، ويعود فيركب من الجانب الآخر . ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف . وكانوا كثيرين ينضمون إلى موكب الخليفة فينالهم مما لعبوا خير وافر .

ومتى عاد الخليفة إلى قصره وجد السماط الكبير قد مُدّ فى قاعة الذهب ، وفيه ضروب من الوصف الممتع تقرأها إن شاء الله فى مقالة « عيد الأضحى » . ويقترن بهذا السماط ضروب لا تحصى من الهبات والانعامات والخلع وتفريق الفطرة ، على من صعدوا المنبر مع الخليفة ومن أذنوا فى المصلى وعلى المصاطب ، وعلى وجوه الدولة والشيوخ والقضاة والأمراء والكتاب والشعراء ، والمتصدرين بالجوامع وفقهاء القاهرة ومصر ، وطوائف العامة . ومن الخلفاء الفاطميين من شملت هباته اليهود والنصارى فى يوم العيد .

وكان عيد الفطر يسمى فى الدولة الفاطمية « عيد الحلل » . وذلك لأن الحلل التى يخلعها الخليفة على الناس كانت تعم الطبقات جميعاً غنيها وفقيرها ؛ أما فى غيره من المواسم فكانت للأعيان خاصة . فكانت الكسوات ترسل إلى الناس كل واحد حسب مرتبته ؛ ومن الحُلل ما كان مرصعاً بالذهب والجوهر . وكان يرسل مع كل كسوة رقعة من ديوان الانشاء يوجه الخطاب فيها إلى من خلعت الحلة عليه . وكانت فى هذه الرقاع تتجلى بلاغة كتاب ذلك العصر . فمن ذلك رقعة من إنشاء ابن الصيرفى أرسلت مع حلة لأحد الأمراء فى عيد الفطر سنة ٥٣٥ هـ جاء فيها :

« . . ولم يزل أمير المؤمنين منعماً بالرغائب ، موليّاً إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب ، مجزلا حظهم من منائحه ومواهبه ، موصلا إليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه . وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه ، وأحراهم باستنشاق نسيمه ، وأحلقهم بالجزء الأوفى منه عند قسمه وتقسيمه ، إذ كنت فى سماء السابقة بدراً ، وفى جرائد الناصحة صدراً ، وممن أخلص فى الطاعة سراً وجهراً ، وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفاً ، وسير له ذكراً . وقد أقبل هذا العيد السعيد ، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم ، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ؛ ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه ، وفى المواسم التى تجاريه ، بكسوات على حسب منازلهم ، تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمع للآمال »

أبو الفتوح رضوان

طوابع البريد المصرية

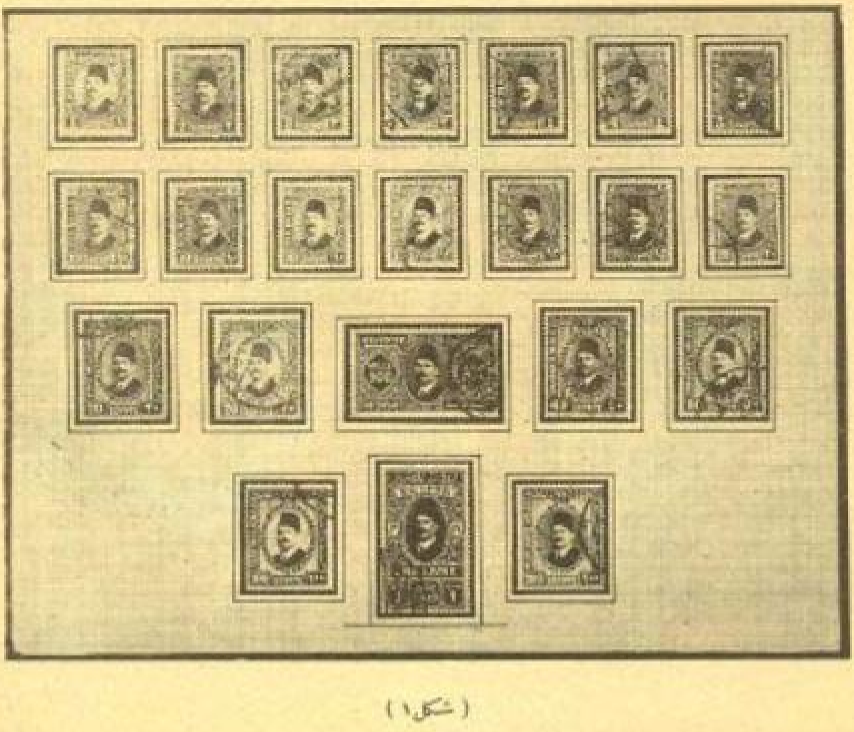
للأستاذ محمد يوسف همام

لطوابع البريد قيمة فنية كبيرة . ولهواة جمعها دراية واسعة بتواريخها وتطوراتها وقيمتها ، مما لا يتسع المجال هنا لإيراده بالتفصيل .

فذلك الطابع الصغير الذي تقرب مساحته من مساحة بصمة الإبهام ، هو نتاج فني كبير . فهو في تصميمه ، وإعداد رسمه ، وطبعه وإخراجه ، سلسلة من الأبحاث الفنية ذات الشأن ، تنتهي بإنتاج هذه الصورة المصغرة ، ذات القيمة الفنية العظيمة ، بذلك الثمن الرخيص .

وقد كانت طوابع البريد المصرية تطبع في إنجلترا ، إلى أن قامت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وما تلاها من تعذر طرق المواصلات ، فبدأ التفكير إذ ذاك في إنتاجها محلياً ، ثم صادف أن لجأت حكومة الحجاز بعد استقلالها وخروجها من حكم الأتراك سنة ١٩١٦ ، إلى مصلحة المساحة المصرية ، لإعداد طوابع البريد الحجازية ؛ فكانت تجربة ناجحة ، أدت إلى إنتاج فني بديع ! ولما انتهى عقد الاتفاق بين الحكومة المصرية وبين دار الطباعة الانجليزية التي كانت تقوم بإمدادها بالطوابع المصرية في سنة ١٩٢٠ ، بدأت مصلحة المساحة المصرية في تجاربها ودراساتها لتقوم بهذا الواجب المهم ؛ وها هي ذي لا تزال تتدرج من سنة ١٩٢٥ حتى الآن بطابع البريد المصري ، إلى أن وصلت به إلى ما نراه الآن ، وهو من أجود طوابع البريد في العالم (شكلا ١ ، ٢) .

ولقد قامت في سبيل ذلك عقبات عدة ، ولكنها كانت تذلل بفضل الجهود الطيبة التي كانت تبذل . وكان



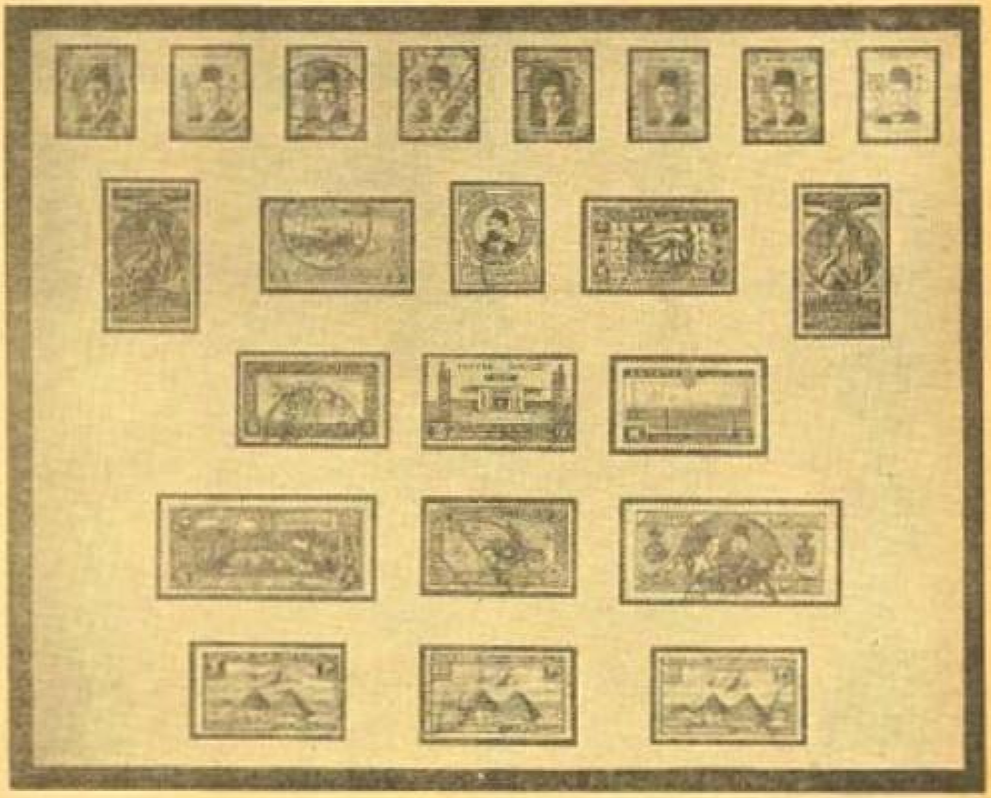
(شكل ١)

من علامات نجاح مصر فى هذا الميدان ، أن نقصت نفقات إنتاج الألف طابع إلى أربعين مليما فقط ، دون إخلال بذلك الرونق الفنى الباهر المعروف .

وتتخذ بعض الاحتياطات خوف التزييف ، منها « العلامة المائية » Watermark التى تظهر فى ورق الطوابع ، وهى حرف « ف » أول حرف من اسم حضرة

وتطبع الطوابع المصرية الآن بطريقة « الفوتوجرافير » أى بالتصوير الفوتوغرافى ثم حفره فى ألواح النحاس . وسأشرح هذه الطريقة بإيجاز فيما يلى :

١ — يبدأ بعمل تصميم للطابع بمقاسه الأصلى ، وبعد الحصول على الموافقة السامية من حضرة صاحب الجلالة الملك يعاد رسمه مكبراً ١٦ مرة (أى طول الضلع أربعة أمثال



(شكل ٢)

صاحب الجلالة الملك ، يعلوه تاج . وهذه العلامة (الحرف والتاج) منثورة بشكل منتظم ، وتظهر فى الورق على صورة شفافة ضمن نسجه . على أن نوع الورق ، والألوان المستعملة للطبع ، والصمغ المستعمل للإلصاق ، وطريقة تخريم الطوابع ، كلها ضمانات مهمة ضد التزييف .

الطول الأصلى) ، ليمكن إتقانه إلى أقصى حد . ثم يعاد عرضه مرة ثانية على حضرة صاحب الجلالة الملك للموافقة النهائية . ولجلالته ولع شديد بطوابع البريد ، وذوق فنى عظيم ، يضمن دائما أرق التصميمات وأدق الرسوم .

٢ — يصغر ذلك الرسم النهائى إلى مقاسه الأصلى

تقريباً لأعداد الوحدة ، بالجهاز المرسوم في (شكل ٣) . ويقصد بالتكبير وما يتلوه من التصغير ، إلى الزيادة في دقة الرسم .



(شكل ٣)

٣ — ويبين شكل ٤ آلة Step & Repeat ، وهي جهاز فوتوغرافي يستعمل لتكرار طبع الطابع الواحد مراراً ، فيكوّن مجموعتين عدد طوابع كل منهما مائة بينهما فاصل ، وذلك على لوح زجاجي حسّاس ، مقاسه ٥٠ × ٦٠ سنتيمتراً ، وهو المشار إليه في شكل ٤ بعلامة × ، ويسمى « الموجب الرئيسي » . وتجرى عليه عملية الإظهار والتثبيت المعروفة في التصوير الفوتوغرافي . ثم يخرج إلى الضوء العادي لتوضع عليه علامات خاصة تساعد في ضبط الطباعة والتقطيع والتخريم .



(شكل ٤)

٤ — يلي ذلك إعداد فرخ ورق الكربون الذي ستطبع عليه الرسوم ، وهذا الورق مغطى بطبقة هلامية ، تحول إلى سطح حسّاس بمعالجته بمحلول بيكرومات البوتاسيوم .

٥ — يؤخذ فرخ ورق الكربون هذا ، فتُطبع على سطحه الحسّاس شبكة من الخطوط الدقيقة ، تحتوي كل بوصة مربعة منها على ١٧٥ خطاً طولياً و ١٧٥ خطاً عرضياً .

٦ — تُطبع الصورة الموجبة الرئيسية التي أُعدت على اللوح الزجاجي في بند ٣ ، على نصف فرخ الورق الكربون الحساس الذي أعد في بندى ٤ ، ٥ ، وذلك بوساطة مكبس الطبع ، فتُسلط عليه أشعة خاصة من مصباح القوس Arc Lamp . ثم تكرر عملية الطبع هذه مرة ثانية على النصف الثاني من فرخ الورق الكربون الحسّاس ، في وضع مجاور للطبعة الأولى ؛ وبذلك يصير عدد المجموعات المطبوعة عليه أربعاً ، في كل منها مائة طابع ، أي يُصبح العدد كله في كل فرخ ، أربعمائة طابع .

٧ — ثم يُلصق فرخ الورق الكربون على لوح نحاسي أملس ، بحيث يكون السطح الهلامي هو المواجه للوح النحاسي ، ويُستعان على هذا الالصاق بالماء المثلج ، الذي ينصبّ على اللوح في أعلاه من أنبوبة ذات ثقوب كما ترى في (شكل ٥) .



(شكل ٥)

٨ — يُغمر اللوح النحاسي بعد ذلك في ماء ساخن ، تبلغ درجة حرارته ٥٠° تقريباً (تتغير بتغير الجو) ، ثم

يُعالج بالملك الخفيف ، إلى أن يسهل فصل فرخ الورق الكربون ، فتظل الطبقة الهلامية الحسّاسة ملتصقة بسطح اللوح النحاسي ، وهذه الطبقة هي الحاملة لرسم الطوابع الأربعمائة السابق ذكرها ؛ ثم يُغسل اللوح بالماء الساخن ، ويُنظف حتى تصبح الصورة واضحة تمام الوضوح

ولما كان اللوح النحاسي رقيقاً وعرضة للثني ، فإنه يُثبّت على لوح آخر زجاجي أكبر منه بقليل ، وتلصق حافاته عليه بورق مصمّغ ، ثم تُدهن تلك الحافات وما حولها من أجزاء اللوح الزجاجي ، بمادة سوداء خاصة مضادة لمفعول الحفر .

١٠ — يعد سائل ثانى كلوريد الحديد بنسب معينة ، توضع كل منها فى حوض خاص مصنوع من الأبانوس السميك ، ويغطس اللوح فى تلك الأحواض بالتدريج ، وبنظام خاص ، وفى أثناء ذلك يتخلل السائل الطبقة الهلامية ، إلى سطح اللوح النحاسي بدرجات مختلفة ، طبقاً لأثر التصوير الفوتوغرافى فيه . فتتكون حفر داخل مربعات الشبكة (التى سبق شرحها فى بند رقم ٥) ، يتفاوت عمقها حسب كمية حفر السائل فيه . وبعد انتهاء عملية الحفر يغسل اللوح بالماء ، لإزالة المادة الهلامية ، ثم يعاد غسله بالبترول لإزالة المادة السوداء ، ثم يفصل اللوح النحاسي من اللوح الزجاجي المذكور .

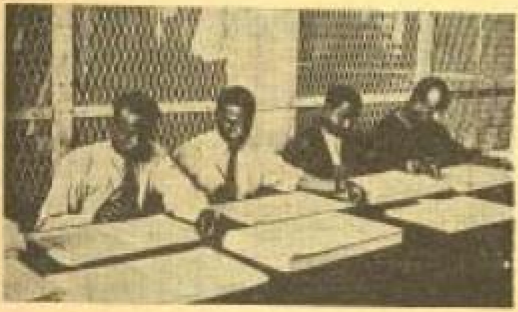
١١ — ينقل اللوح النحاسي بعد عملية الحفر المذكورة إلى إحدى آلات طباعة الفوتوجرافير (شكل ٦) ، فيثبت



(شكل ٦)

حول اسطوانة فيها ، وتدور الآلة فيملأ الحبر تلك الحفر . ثم تمر حافة من الصلب على سطح اللوح ، لتزيل الحبر الزائد من فوق الأجزاء التى لم تحفر . فلما تمر أفرخ الورق على اللوح بعد ذلك ، ينقل إلى كل منها رسم الطوابع الأربعمائة . وهكذا تستمر عملية الطباعة .

١٢ — تقص الأفرخ المطبوع عليها الطوابع إلى نصفين ، فى كل نصف مجموعتان ، فى كل منهما مائة طابع . ويبين (شكل ٧) عمالا منهمكين فى وضع ثقوب مكان



(شكل ٧)

العلامات التى سبق التكلم عنها فى آخر بند ٣ ، وذلك لضبط الثقوب التى تحيط بالجوانب الأربعة لكل طابع .

١٣ — تفصل كل مجموعتين بعد ذلك بالقص ، وتمر كل واحدة منهما على حدة فى آلة لعمل الثقوب . ويبين (شكل ٨) بعضاً من تلك الآلات أثناء العمل .



(شكل ٨)

١٤ — تجرى بعد ذلك عملية مهمة دقيقة ، لفحص

النـــــاى

١ — هبى أنه بتحطم النــاى ستتحطم نغماته ، ثم خبريني : أما يهولك الأمر لو صدق هذا الفرض ؟

ألق عليك هذا السؤال وعليه مايشبه الجدة ؛ والحق أنه قدم الأمل الانسانى ، فقد أورده أفلاطون فى حوار له ، وأنت قديم تعلمين مبلغ صداقتى لهذا الرجل لطول ماعاشرته ، فلكم شكوت إليه ذات نفسى ، ولكم وجدت لديه دواءها .

ذلك أن من يقولون بعدم خلود الروح ، واستحالة إفلاتها من سجنها الحسى ، كانوا يلجأون فى عهد أفلاطون إلى تشبيه تخيلىٍّ لست أدرى أشد منه قسوة على النفس ، فهم يزعمون أنه بتحطم الجسم ستتحطم الروح ، كما تتحطم الأنغام بتحطم الناى .

ولم يكن هذا القول كل ما حز فى نفسينا ، وأنا أعلم عنك كما تعلمين عنى ، تلهفاً إلى اليقين ، تلهف العابد إلى رؤية وجه ربه ، ولقد اتفقت لنا مشاهدات وآراء أعطاها حسك النافذ — لفرط ما أرهف من معانيها — قوة وجمالاً وشعراً .

فللأسبانى « جويا » Goya صورة مخيفة خطط عليها هذا الفنان القاسى باللون الأسود قبراً أزاحت غطاءه يد عارية ، إلا من عظامها ، وامتدت اليد إلى خارج القبر حتى وصلت إبهامها إلى لوحة سوداء ، وعلى تلك اللوحة رسمت الابهام الكلمة الاسبانية Nada « لا شىء » ، رسمتها بلون أبيض ، لاح لنا وسط سواد اللوحة المطبق كشهاب ليل دامس .

وبالوفر وقفنا طويلا إلى لوحة « هوبلين » Hoblein ، أتذكرين مكانها إلى ركن القاعة ؟ وتدارسنا ما رمز إليه الفنان ، رأينا الموت فى هيكل عظمى أبيض فوق ســواد اللوحة ، وبيده قيثارة ثلاثية الأوتار ، ومن خلفه جمع حافل يقوده إلى الفناء ، وقد وضع الشيخ يده بيد الطفل وتعلقت الفتاة بذراع من تهوى ، وفى جفاف الشكل ما يندى النفس رعباً .

وخفقتِ من وجدانى بملاحظاتك الدقيقة : فالقيثارة ثلاثية الأوتار كالثالوث المقدس ، ونغمات الموسيقى ذكرتك بأصوات ساحرات اليونان Sirènes اللاتى كن يأوين إلى صخور صقليا يرسلن منها أنغامهن إلى السفن العابرة يجذبن بحارتها ، إلى أن تتحطم سفنهم على حافى الصخر . وبلغ بك نفاذ البصيرة أن ألقيت علىّ هذا السؤال المؤلم : وأين الأرواح فى هذا الحفل ؟ ترى أما الموت ما يقود إلى الفناء غير تلك الهياكل الجسمية ؟

وغادرنا « اللوفر » ولا حديث لنا إلا « هبلين » ، واستقر بنا الرأى على العودة إلى « فنى » Vigny نستذكر قصيدته التى يقص فيها محنة عيسى « على جبل الزيتون » .

وقد عثرت به رجال « بونس بيلات » Ponce Pilate فرفع رأسه إلى السماء سائلا مستغيثاً : « ربى ! لم تركتنى

أفرخ الطوابع ، وفصل الأفرخ التى تظهر فيها عيوب من أى نوع ، ثم تعدم تلك الأفرخ وغيرها من التالف بالاحراق ، أمام لجنة خاصة .

١٥ — تُرَحَّل الطوابع فى صناديق خاصة إلى مخازن مصلحة البريد ، تحت حراسة البوليس ، ومنها إلى مكاتب البريد ، فأيدى الجمهور .

محمد يوسف همام

وحيداً » . وبعلاقة خفية ربطت ما ادعاه « ڤنى Vigny » من أن السماء لم تردّ على دعائه بما رأينا فى لوحتى « جوتا » و « عبليون » . وأ كبر ظنى أن تلك العلاقة كانت ما سمعت منك غير مرة من أن الله روح تميزت بالكمال عن غيرها من الأرواح .

وإذاً فسؤالى قديم العهد بيننا وها أنا أ كرره عليك :

— هبى أنه بتحطم التاى ستتحطم نغماته ، ثم خبرينى : أما يهولك الأمر لو صدق هذا الفرض ؟ .

٢ — أتدرين لماذا — والجمع مشتعل — لماذا كنت لا أرتعد رعباً عند ما كان يفتر فمك من ابتسامة جانبية ، ألمح فيها استسلامك لما يمكن أن يكون من فناء روحينا ، وإشفاقك علىّ لهول مايتركه احتمال كهذا بنفسى من خراب ، وأنا شرقى والشرق مهد كل الديانات ، وأنا مصرى ولأجدادى شهد هيرودوت Herodote بأنهم أشد شعوب الأرض تديناً ؟ ذلك أنى كنت فى سبيل كسب ما وصلت إليه اليوم ، وهو إدراك كل ما أدرك فى شكل هيكل يصح له أن يصيب الخلود .

ونقطة البدء — أيتها الروح الخالصة . كانت جمالك ، فما انصرف إليه وجدانى إلا تمثل لى فى شبح هيكل أسكن إليه ، فإذا به عرائس من الشعر تطرز هواءه بأرق خواطر النفس ؛ ومن الفضول بعدئذٍ أن أفصح لك عما قلت من إمكان خلود الحيا كل .

بدأت شوطى إذاً نحو الجمال بدافع من قلبى ؛ وهكذا تبدأ دائماً جلائل الأحداث فى حياتى ، وكان بدءاً ميموناً .

وألقينا عصا التسيار بمدينة « دلف Dephes » بأغريقيا ، والنفس عامرة بأناشيد بندار Pindare ، وإذا بتمثال سائق عربات السباق النحاسى L'awrige وقد استوى على قدميه والأعنة فى أنامله ، وفى نظراته قسوة المنتصر ، يذكرنى بأنه فى استطاعتنا أن نشبع ماقى نفوسنا من التماس للخلود بفضل الفن الذى يمسك فى مراسيه صورنا الحسية دون الفناء ؛ وأنى صادق ذوقك يومئذ إلا أن ترى فى إحراق اليونان لجثثهم وإقامة صور لها رغبة منهم فى استبدال ما هو فانٍ بما هو باقٍ .

وشددنا الرحال إلى أولمبيا Olmpia لنرى ما طالما منّينا النفس برؤيته . لنرى تمثال « هرميس Hermès » حاملا بين ذراعيه الإله الصغير « ديونيزوس Dionysos » وودنا لو عثرنا على لوحته براكسيتل Praxitèle فستطلعه سر ما نحت . ووقفنا أمام التمثال ساعة من الزمن ، ما أظننى أنفقت فى حياتى مثلها خصباً . سبحانك ربى أتسمح للفناء أن يمتد إلى هذا الوجه الجميل ؟ وكيف لعينى يومئذ أن تنعم بهذا الأنف الأغريقى الممتد فى اتجاه الجبهة ؟ بحيث ينحدر عنه البصر كاليد تنحدر عن وثير الديباج . وتلك الشفة السفلى المقوسة إلى الخارج ، هذا المقوس الخفيفة خفة جناح الطائر ، أما لنا أن نضرع إليك أن تجنبها الموت ؟ وتلك النظرة الممتدة إلى غير غاية وإلى كل غاية تتشع كالشعر ، أما من سبيل إلى صون جمالها ؟ وهذا الإله الصغير المرح الذى يمد يده إلى قطوف العنب الدانية لينهل عصيرها ، أما تحرك رقته أجف القلوب الناسكة ؟

رأيت فى كل ذلك صوراً وهيا كل خلدت واستحقت الخلود ، وود جبروتك أن لو انحصر الخلود فى مثل ما رأينا .

وأما اليوم ، وقد ضربت بيننا الأحداث ، فإنى أعود فأسائلك :

— هبى أنه بتحطم التاى ستتحطم نغماته ، ثم خبرينى : أما يهولك الأمر لو صدق هذا الفرض ؟

محمد مندور

تجربة ...

(بقية المنشور على صفحة ٨)

ولا نسمع عنه ، ولا نلقاه إلا وهو غارق فى الاعلان إلى أذنيه ، قد اتخذ لنفسه من الاعلان معطفاً وعصاً مكان معطفه وعصاه اللذين طالما تحدث عنهما الناس ؛ وسيتخذ لنفسه من الاعلان صنماً يشغله عن أصنامه تلك التى كان مفتوناً بها كل الفتنة ، والتى كانت تسمى الموسيق والتمثيل والغناء والقصص ؛ فكان من أول الشر الذى جناه تهالكنا على الاعلان فى وزارتنا الجديدة تعقيم توفيق الحكيم . وأنا أستأذنك فى الضحك من هذه الكلمة ، فقد أراها تصلح عنواناً لرسالة طريفة تصور صديقنا حين كان أديباً خالصاً للفن ، وتصوره بعد أن أصبح معلناً خالصاً للاعلان .

ولكن أمر الاعلان فى وزارة الشؤون الاجتماعية — وقد كنت أملى فى وزارة الدعاية — لايقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى ما هو شر منه من إضاعة الوقت والجهد والمال فى غير نفع ولا غناء . فإدارة الدعاية فى هذه الوزارة تريد أن تعظ الناس وترشدهم إلى الخير والاصلاح ، والأزهر قائم بهذا الارشاد والوعظ منذ زمن بعيد ، ووزارة الداخلية قائمة بهذا الارشاد والوعظ منذ زمن بعيد أيضاً . وما أظن أن وزارتنا الجديدة ستبلغ من التوفيق من الوعظ والارشاد إلى مالم يبلغه الأزهر ووزارة الداخلية .

وأكثر من هذا أن كل وزارات الحكومة لم تنشأ عبثاً ، وإنما أنشئت لمصلحة الناس قبل كل شىء ، وهى من هذه الجهة محتاجة إلى الاعلان كما يحتاج الاصلاح الاجتماعى نفسه إلى الاعلان . فما رأيك لو أنشأت وزارة العدل إدارة للإعلان تذيع فى الناس فضائل العدل وتدعوهم إليه ؟ وما رأيك لو أنشأت وزارة التعليم ووزارة الأمن ووزارة الرى والصرف إدارات للاعلان ، تذيع فى الناس فضائل التعليم والأمن والرى والصرف ، وتدعوهم إلى ما يصلح من ذلك وتردهم عما لا يصلح ؟ وما رأيك لو أنشأت وزارة المال والاقتصاد ووزارة الدفاع عن الوطن ووزارة البر والاحسان إدارات تدعو الناس من طريق الاعلان إلى الخير وتردهم عن الشر فى كل ما تعالج من مرافق البلاد ؟

وأطرف من هذا كله أن وزارة التجارة وهى وزارة الاعلان ، بأصح ما لهذه الكلمة من معنى ، لم تنشىء إدارة للاعلان أو أنشأتها ولكن لا تتحدث عن نفسها ولا تشغل الناس بنفسها !

أليس يكون من أغرب الأمور أن تنشىء كل وزارة إدارة للإعلان وأن تختار لها الموظفين وتنفق عليها المال وتتغذى منها الصحف والراديو ، وتصبح أمور الحكومة كلها إعلاناً فى إعلان ، ولا شىء غير الإعلان ؟ ألست توافقنى على أن هذا كثير ، وعلى أن الخير أن نرجع فى هذا كله إلى القصد والاعتدال ؟ ألست توافقنى على أنى لا أسرف على وزارتنا الجديدة إذا طلبت إليها ناصحاً لها أن تلغى هذه الإدارة الجديدة ، وأن ترد موظفيها إلى أعمال أنفع وأجدى وأحسن ملاءمة للمصلحة من أعمال الإعلان هذه ، وأن ترد توفيق الحكيم إلى أدبه وكتبه وأحاديثه فى الصحف ؛ فذلك أحسن موقعاً عند الناس من هذا الجهد الضائع الذى يضر كثيراً ولا ينفع شيئاً ، والذى أقل ما يوصف به أنه تهالك على الكلام الذى لا يدل على معنى وعلى الدعاء الذى لا يحصل منه شىء ، وأظنك تستطيع أن تؤكد معى لوزارة الشؤون الاجتماعية أن المصلحين إن كانوا قد سئموا شيئاً من مصر والمصريين ، فقد سئموا الكلام والإعلان ، وطال شوقهم إلى أن يفكر المصريون تفكيراً صحيحاً منتجاً فى كلمة قاسم أمين رحمه الله : « إن الوطنية الصحيحة تعمل ولا تعلن عن نفسها » .

طه حسين

عند شيخ الشعراء

زار السيد حسن القاياتي شيخ الشعراء المرحوم « إسماعيل صبري باشا » نضّر الله مثواه ، مع صديقه الدكتور محمد صبري بك مدير المطبوعات الآن ، فكان لهما عنده جلسة ممتعة ، داعب فيها الشاعر في « إحسان » ، وهو الاسم الخيالي الذي تعود التغزل فيه ، وأقبل يطلب إلى الدكتور أن يعفيه مما اقترحه عليه من أخذ ترجمته وطائفة من شعره ، ليثبتهما في كتابه « شعراء العصر » ، ثم أجابه إلى مقترحه .

بدا للشاعر بعد تلك الزورة أن يسجل ما جرى فيها بهذه القصيدة التي طويت فلم تنشر إلا اليوم .

قال السيد القاياتي :

أَنَا وَقَدْ زُرْتُكَ فَلَا عَجَبٌ
بِرُتْبَةٍ أَدْنَتْ مِنَ الكَوْكَبِ !
نَوَّهَ بِي قَصْدِيكَ فِي مُنْتَدًى
زَاحَمْتُ فِيهِ البَدْرَ بِالمَنْكِبِ
يَا زَوْرَةً أَقْبَلَ بِي نُبْلُهَا
أَجُرُّ ذَيْلَ التَّائِهِ المُعْجَبِ
مَنْ نَادِ خِلِّي عِنْدَهُ
أَزُورُ عَرْشَ المُلْكِ فِي مَوْكِبِ
لِسُنَّةٍ فِي البِرِّ قَبَيْتَنَا
حِبَاءَ مُخْضَلِّ النَّدَا مُخْصِبِ
كَمْ رَحَّبَ البِشْرُ بِنَا جُهْدَهُ
وَالنَّارُ لَوْلَا البِشْرُ لَمْ تُرْحِبِ

* * *

مَوْلَايَ إِسْمَاعِيلُ عَرَّفْتَنِي
فِي عِطْفِيَ النُّبْلَ وَنَوَّهْتَ بِي
بِبِرِّ تَقْرِيبِكَ لِي وَالنَّدَا
كُلُّ النَّدَا فِي المَجْلِسِ الأَقْرَبِ
حَلَّيْتَ شِعْرِي فَازْدَهَى مُعْجَبٌ
طِرَازُهُ السِّحْرُ لَدَى مُعْجَبِ
سَلَّى « بِإِحْسَانَ » كَمَا تَشْتَهِي
إِحْسَانُ حَوْرَاءُ مِنَ الرَّبْرَبِ
صَانَتْ أَبِي عَنْ ذِكْرِهَا خَجْلَةٌ
إِنَّ حَيَاءَ الحُرِّ لَمْ يَذْهَبِ
قَدْتُ شَيْخِي بِأَبِي حِلْيَةً
أَيْنَ السَّرِيُّ الحُرُّ إِلَّا أَبِي ؟ ؟
إِنَّ أَبِي وَالنِّيلَ مُذْ أُرْسِلَا
فِي مِصْرَ لَمْ نَعْطَشْ وَلَمْ نَسْغَبِ
لَا تَحْتَدِي خَافٍ وَقَدْ رُعْتَنِي
مُسَائِلًا عَنْهُ وَلَا مَنْصِبِي
سَائِلْ : إِنِ ارْتَبْتَ بِنَا مَرَّةً
إِنَّكَ إِنْ سَاءَلْتَ لَمْ تَرْتَبِ
رِضَاكَ حَسْبِي نِسْبَةً ضَخْمَةً إِنْ أَنَا بِالعَلْيَاءِ لَمْ أُنْسَبِ

* * *

عَابَ نَسِيبِي كُلُّهُ فِتْيَةٌ
يَا غَضْبَةَ الحُسْنِ عَلَى العَيِّبِ
هَلْ غَضَّ مِنِّي أَنَّنِي نَاسِبٌ
إِنْ قُلْتَ هَذَا أَنْتَ لَمْ أَنْسِبِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ لِي فِي الصِّبَا مَلْعَبٌ
يَا حَرَّ قَلْبِي فَمَتَى مَلْعَبِي ؟ ؟ ؟
بَدْرِي كَمَا طَالَعْتَهُ مُشْرِقٌ
أَنَّى مَتَى عَطَّلْتَهُ يَغْرُبِ

أقبح ما أبصرته ناشئ
غض الصبا في حلية الأشيب

لست ببال مذهبي في الهوى
ولا ببال في الهدى مذهبي

رب جميل بت في ثوبه
ثم اغتدى والمجد لم يغضب

أباحني الريق على برده
وحر أحشائي فلم أشرب

أكذب في وصفي غض الصبا
وإن وصفت المجد لم أكذب

لا تدعني اللاعب أو فادعني إن أنا بالألباب لم ألعب

* * *

أشكو إلى المولى وحسبي به
دهري هـــذا إنه مغضبي

حسب التشكي حول قلب
يعيــذني من حول قلب

ذنبي إلى دهري جزل الحجا
لا أدعي أني لم أذنب

إن غرد الشادي تصدى له
غبي فلم ينجع ولم يعجب

تبه دوني فتيــة فضلها
أني إذا أطربت لم تطرب

غني فلان فانثنى ناعبا
وقمت غريدا فلم أنعب

كن نابها ملء الحجى تنثني
من المنى والخلد بالطيب

مزني أجني الزهر في كتبه
وسم فلانا مثله يحطب

كم رعت من شعري بمطبوعة
تحل بي من حبوة المحتبي

عودت للدهر فما هزة
شدوي فهزني مرة أنعب

غيري يمل الدهر من عتبه
ولبس دهر الكيد بالمعتب

* * *

مولاي ما للشعر ما خطبه
براك يا مرضيه كالمغضب ؟؟

إن دمت غضبان هوى نجمه
ناشدتك الآداب لا تغضب

ونح صديقي إذ بغى منحة
لديك نعماها فلم توهب

تألق البشر له فانثنـــــه
فليس برق الحر بالخلب

إن رابك السفر[1] على عزة
فقد يلوح البدر في الغيهب

طرازه المذهب إن فته
بعد طرازا ليس بالمذهب

خلقت للحمد فكنا له
فما أعز الحمد من مكسب

(السكرية : دار القاياتي) حسن القاياتي

(١) هو كتاب « شعراء العصر » للدكتور الكبير محمد صبري .

إلى الدكتور
طه حســـين بك

قرأ الأستاذ أحمد الزين كتاب «مع أبي العلاء في سجنه» للدكتور طه حسين بك، فبعثه الإعجاب بهذا الكتاب إلى تحية مؤلفه على صفحات «الثقافة» بهذه الأبيات الرائعة:

يا مُؤْنِسَ المَسْجُونِ فِي سِجْنِهِ
وسَلْوَةَ المَحْزُونِ مِنْ حُزْنِهِ
مَنْ كُنْتَ فِي السِّجْنِ له صاحِباً
فَسِجْنُهُ الجَنَّـــةُ فِي حُسْنِهِ
أَســـاء بالعالِمِ ظَنًّا وَلَوْ
أَدْرَكْتَهُ حَسَّنَ مِنْ ظَنِّهِ
وَجادَ بالدُّنْيا احتقاراً لها
ولو رَآكَ اشْتَدَّ فِي ضَنِّهِ
فَلَنْ يَرَى سِحْراً بِجَنَّاتِهِ
كَسِحْرِ هٰذا الثَّغْرِ فِي فَنِّهِ
وكَمْ تَمَنَّى أَنْ يَحِلَّ الطِّلَا
يُنْسِيهِ دَهْراً لَجَّ فِي غَبْنِهِ
فَدُونَهُ نَثْرُكَ فَلْيَصْطَبِحْ
مِنْ كَأْسِهِ وَلْيَغْدُ مِنْ دَنِّهِ
خَلَّتْهُ أَكْثَرَ مِنْ شِعْرِهِ
فَصارَ نَثْرُ الشِّعْرِ فِي سِنِّهِ
أَقْسِمُ لو خُيِّرَ فِي عَيْنِـهِ
وَفِيكَ لَاخْتارَكَ عَنْ عَيْنِهِ

أحمد الزين

دراسات مسرحية :

كيفية دراسة الأدوار التمثيلية

أوضحنا فى المقال الذى نشرته «الثقافة» فى الأسبوع الماضى ، أنجع الطرق التى تساعد هاوى التمثيل على الالتحاق بإحدى الفرق التمثيليـة ، والآن فلنفرض أنه وفق ، والتحق فعلا بإحدى الفرق ، فما هو أول عمل سيؤديه ، إذا حدث أن وقع عليه الاختيار لتمثيل دور من الأدوار ؟

لاشك فى أن أول عمل فى هذه الحالة هو دراسة الدور التمثيلى الذى سيقوم به الهاوى على المسرح .

والواقع أن مهمة الهاوى تزداد خطورة منـذ لحظة التحاقه بإحدى الفرق ؛ فعليه إما أن ينتهز فرصة الطريق المفتوحة أمامه والسير فيها بنجاح ينتهى به إلى مجد فنى ، وإما أن يؤوب بالفشل ويعود بالخسران .

ومن المسائل المهمة فى حياة الممثل ، دراسته للأدوار التى يكلف بتمثيلها ؛ والعادة أن تعطى للممثل الهاوى نسخة كاملة من الرواية التى ستمثل ، بخلاف الممثل المحترف ، فإنه تعطى له فقط نصوص الدور الذى سيمثله هو ، مع آخر كلة سيقولها الممثل (أو الممثلة) المفروض أن الحديث سيدور بينه وبين الممثل المحترف ، ولهذا فإن الممثل يعتمد كثيراً على أذنه ، وخاصة فى أثناء عمل التجارب ، لأنه بناء على سماعه لآخر كلة يقولها الممثل الذى يمثل أمامه ، يبدأ هو نطق رده أو تعليقه عليها ، حسب سير الرواية ؛ وقد يضاعف بعض الممثلين انتباههم إلى أواخر كلمات الممثلين الآخرين ، أكثر من اهتمامهم بدورهم شخصياً ، مخافة أن يفقـدوا ساعة وجودهم على المسرح المواضع التى يجب عليهم فيها أن يتكلموا . . .

وكيفما تكن الحال ، فإن أسرع طريقة لكى يستذكر بها الممثل دوره ، هى أن يكتب الممثل دوره ، كلة كلة ببطء وهدوء ، حتى إذا انتهى من كتابة كل سطر عاد فقرأه بإمعان لفهم معناه وإدراك كنهه ، فإذا انتهى من كتابة صفحة من الصفحات ، راح يراجعها ويقرأها بهـدوء وإمعان وبصوت عال . ولا يغرب عن البال أنه إذا كتب الممثل دوره بسرعة ، ونسخه بطريقة آلية ، فإن هذه العملية لا تفيده شيئاً على الإطلاق فى استذكاره .

أما إذا كان أمام الممثل متسع من الوقت ، كأن أعطى له الدور قبل تمثيله بعدة أسابيع ، فلا داعى لاتباع طريقة الكتابة فى استذكاره ، إذ يكتفى فى هذه الحالة بأن يطالعه الممثل عدة مرات فى الأوقات التى تناسبه .

ولعل أنفع طريقة لدراسة الأدوار التمثيلية على العموم هى طريقة الاستذكار فى الفراش ، قبيل النوم ؛ فقد اتضح أن الإنسان يستذكر فى الصباح كثيراً مما يكون قد طالعه قبيل نومه ، ولهـذا فإن بعض مشاهير نجوم المسرح لا يستغنون قط عن مطالعتهم لأدوارهم قبيل النوم ، مهما كانوا متعبين ، ومهما كانوا مرهقين .

على أنه توجد طرق أخرى لدراسة الأدوار التمثيلية ، نذكر بعضها على سبيل المثـال ، لأنه رغم كل القواعد ، يوجد « لكل شيخ طريقة » . فقد كان الممثل الانجليزى سير جورج الكسندر يدرس دوره ، وهو سائر فى الطريق ، بينما كان جاريك يستذكره وهو فى الحمام . ولعل أغرب طريقة هى التى اتبعها ممثل معروف ، فقد سجل دوره على

اسطوانة «فونوغراف» ويراح يديرها ويستمع إليها عدة مرات، لكي يمرن أذنه عليها.

وينصح بعض الناصحين بألا يدرس الممثل دوره دراسة تامة، لأنه يحدث أحياناً أن تقطع مناظر من الرواية قبل تمثيلها، فيضطر الممثل إلى بذل مجهود لاستنزال الجزء المحفوظ مما يكون قد درسه؛ وإذاً فخير طريقة هي أن يفهم الممثل دوره، وأن يدرك معناه، وأن يدرس الشخصية التي سيمثلها، ويدرب نفسه عليها عدة مرات، بحيث يكون تمثيله كاملاً عند ظهوره على المسرح.

ومن النصائح التي يجدر بالممثل اتباعها ألا يدرس دوره وهو مرهق أو متعب، اللهم إلا إذا كانت هناك ضرورة مُلحّة تدعو إلى ذلك.

هذا ويوجد ممثلون إخصائيون في أدوار معينة معروفة من روايات مهمة، ولمثل هؤلاء الممثلين، تعتبر دراسة الأدوار مسألة ثانوية؛ ولهذا يفضل بعض الناشئين من الممثلين التخصص في أدوار معينة لتمثيل شخصيات معينة. وسنفصل في بحوث قادمة أهمية هـذا التخصص في حياة الممثل على العموم.

***

تصوير فتح السودان بالسينما

يصور الأنجليز فتحهم للسودان بالاشتراك مع الجيش المصري في أواخر القرن الماضي، في قالب روائي في كتاب اسمه «الريشات الأربع» ألفه المستر ملسون الروائي المعروف. وقد وقع الاختيار على هذا الكتاب لتصويره بالسينما، فكان أن قامت الحكومة الانجليزية بالاشتراك مع الحكومة المصرية بمعاونة الشركة الانجليزية التي تعهدت بتصوير هذا الحادث التاريخي الجليل تصويراً مطابقاً للواقع؛ وبالفعل حضر مندوبو هذه الشركة إلى مصر فالسودان في الشتاء الماضي، حيث التقطوا المناظر اللازمة لهذا الفلم الكبير في نفس المواقع والأماكن التي جرت فيها حوادثه الدامية، وبالأخص موقعة أم درمان المشهورة.



ويرى القراء مع هذا الكلام أحد مشاهد هذا الفيلم الرائع الذي تم تصويره بالألوان الطبيعية زيادة في تقريبه للحقيقة والواقع.

«كينو»

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين. مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرمانى عابدين ، القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٤٧ الثلاثاء ١٠ شوال سنة ١٣٥٨ — ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٩ السنة الأولى

الفهـــــرس

بلغاريا والســـــياسة البلقانية

للدكتور محمد عوض محمد

إذا كان لنا أن نقيس ما لدولة من الخطر بمساحة أراضيها ، وعدد سكانها ، فإن بلغاريا ليست بالدولة الأوربية ذات الشأن . وإذا كان اعتمادنا فى التقدير ، على ما للدولة من التقدم المادى فى الصناعة والتجارة ، أو النفوذ الثقافى والفكرى ، فهى دون كثير من الدول التى تنقص عنها فى المساحة مثل بلجيكا وهولندة ، أو فى عدد السكان مثل سويسرة ونروج والدانمارقة ، بل إننا نراها فى شبه جزيرة البلقان نفسها دون باقى الدول البلقانيــة أرضاً وسكاناً ، كما نرى فى الجدول الآتى :

	المساحة بالكيلو متر المربع	السكان
بلغاريا	١٠٣،٠٠٠	٦،١٧١،٠٠٠
اليونان	١٣٠،٠٠٠	٦،٨٤٠،٠٠٠
يوغوسلافيا	٢٤٨،٠٠٠	١٥،٠٠٠،٠٠٠
رومانيا	٢٩٥،٠٠٠	١٩،٢٥٠،٠٠٠
تركيا (فى آسيا وأوربا)	٧٦٣،٠٠٠	١٦،٣٠٠،٠٠٠

(ولم نذكر ألبانيا الواقعة تحت النفوذ الإيطالى ؛ وذكرنا تركيا لما لها من المركز الممتاز فى شبه جزيرة البلقان ، وقبضها على المضايق الخطيرة التى تصل البحر الأسود ببحر الروم) .

وهكذا يتضح لنا أن بلغاريا أقل دول البلقان مساحة

وسكاناً ، وموقعها فى الجزيرة ليس بالمكان الممتاز ، فهى تحتل موضعاً صغيراً فى وسطها ، تطل منه على جزء محدود من ساحل البحر الأسود ، وليس لها ببحر اليونان ، ولا بالبحر الأدرياتى صلة . وموقعها المتوسط بحيث تحيط بها جميع دول البلقان ، يجعل من السهل على جاراتها أن تتفق على الاغارة عليها ، كما حدث فعلا فى الحرب البلقانية الثانية .

ومع هذا كله رأينا اسمها يتردد كثيراً فى الأسابيع الماضية ، كأنها عضو شديد الخطر فى المجموعة البلقانية . ورأينا الدول الغربية وروسيا وألمانيا وإيطاليا يحاول كل منها أن يجتذبها نحوه ، وأن يكتسب معاونتها فى الترويج للسياسة التى ينشدها . . . وكذلك لم تقصر دول البلقان الأخرى فى محاولة التأثير فى سياسة بلغاريا ، وتوجيهها إلى الناحية التى تلائم كلا منهم . فكأن بلغاريا هى مفتاح سياسة البلقان كله .

وهذه الحالة التى قد تبدو لأول وهلة غريبة ، لا بد لفهمها من إلمامة يسيرة بتاريخ بلغاريا الحديث .

إذا صرفنا النظر عن تاريخ الدولة البلغارية فى العصور الوسطى ، يوم كانت تشتمل فى وقت عزها وسطوتها على الشطر الأعظم من جزيرة البلقان ، فإن تاريخ بلغاريا الحديث يرجع إلى عام ١٨٨٥ ، حين اتحد النصف الجنوبى منها بالنصف الشمالى ، وتكونت منهما الدولة الحديثة ، التى كانت — رغم خضوعها الاسمى لسلاطين آل عثمان — متمتعة بنصيب وافر من الاستقلال الذاتى . وقد تحول هذا إلى استقلال تام فى سنة ١٩٠٨ ، يوم انتهز أميرها فرصة الاضطراب السائد فى الدولة العثمانية ، فأعلن انفصاله التام عنها . ونادى بنفسه ملكاً على البلغار .

فى ذلك الوقت كانت مساحة بلغاريا أقل منها اليوم . ولكنها كانت تحدثها نفسها بالتوسع وبامتلاك أقطار جديدة ، واستطاعت حكومتها أن تؤلف من دول البلقان عصبة للاغارة على تركيا ، وإخراج العثمانيين من أوربا ؛ وهكذا بدأت حرب البلقان الأولى عام ١٩١٣ ، التى لم تلبث أن انتهت بنزول تركيا عن كل ما تملكه فى أوربا ، ما عدا بقعة صغيرة فى شمال المضايق . واستطاعت بلغاريا أن تستولى على مساحة عظيمة من الأراضى فى مقدونيا وطراقيا ، وأن يكون لها منفذ عظيم على سواحل بحر اليونان .

على أن هذه الحرب لم تكد تنتهى حتى دب الخلاف بين دول البلقان ، وثارت الحرب البلقانية الثانية ، التى وقفت فيها بلغاريا منفردة تحارب كلا من تركيا واليونان والصرب والجبل الأسود ورومانيا ؛ فلم يكن لها بد من التسليم ، واضطرت بلغاريا إلى النزول لتركيا عن الاقليم الذى لا تزال تركيا تحتله إلى اليوم ، وتركت لليونان عن مساحة عظيمة فى مقدونيا الجنوبية ، وللصرب عن مقدونيا الشمالية ، ولرومانيا عن النصف الجنوبى من الدبروجا .

ورغم هذا كله صح لبلغاريا بأن تحتفظ بجزء من السواحل المطلة على بحر اليونان . وكان هذا أكبر غنم غنمته فى مقابل الخسائر الباهظة التى منيت بها فى هذه الحرب الضروس .

وكان طبيعياً أن تصبح حكومة بلغاريا حانقة على جاراتها ، لأنها وهى التى اضطلعت بالعبء الأكبر فى الحرب تؤوب منها بمكسب صغير فى الجنوب ، يقابله خسارة فى الشمال ؛ وكانت حانقة بوجه خاص على رومانيا ، التى لم تشترك فى الحرب الأولى ، ثم دخلت فى الحرب الثانية لكى تستولى على إقليم ذى صبغة بلغارية قوية وهو إقليم دبروجا .

والحقيقة أن ما كسبته بلغاريا فى الجنوب أهم مما خسرته فى الشمال . فالأراضى الجنوبية التى مكنتها من الوصول إلى سواحل البحر اليونانى ، أجل خطراً من إقليم

دبروجا الجنوبية ، التى يسكنها جماعات من الترك المسلمين وأقليات من البلغار .

ومع ذلك فان بلغاريا ظلت حانقة على رومانيا ، وحينما ثارت الحرب الكبرى لم تلبث بلغاريا أن دخلتها إلى جانب ألمانيا . وكانت نتيجة هذا أنها لم تسترد دبروجا ، وخسرت الأراضى التى تصلها ببحر اليونان . هذا إلى باقى ضروب الارهاق التى لم يكن بد للمنهزم فى تلك الحرب أن يعانيها ، وعادت بلغاريا فى عام ١٩١٩ لا تزيد مساحتها إلا قليلا عما كانت عليه وقت تكوينها فى عام ١٨٨٥ !



وقد خرجت كل من رومانيا ويوغوسلافيا واليونان من الحرب العامة بأقطار تزيد كثيراً عما كان لها قبل الحرب ، واستطاعت تركيا أن تصلح من مركزها ، وشئونها السياسية وعلاقاتها مع الدول ، وباتت بلغاريا الوحيدة بين دول البلقان الساخطة على ما آل إليه أمرها ، الناقمة على جاراتها الثلاث رومانيا ويوغوسلافيا واليونان .

ولئن كانت بلغاريا أفادت من كل هذه الكوارث شيئاً ، فلعلها تكون قد أدركت أن سياسة الحرب التى كانت تدين بها ، ليست بالشىء الذى تقدم عليه بسهولة وتسرّع ، بل لابد لها من التريث ، وانتهاز الفرص ، ومحاولة الوصول إلى بغيتها بطرق أخرى لعلها أن تكون أجدى وأنفع من الحرب .

وقد حاولت دول البلقان — رغم ما هو معروف عنها من التخاذل والانشقاق — أن تؤلف عصبة بلقانية تستطيع باتحادها وتضافرها أن تكوّن كتلة قوية تحول دون عدوان الدول الكبرى التى تريد كل منها بسط نفوذها الاقتصادى والسياسى على شبه الجزيرة ، ولكن بلغاريا أبت أن تنضم إلى هذه الكتلة البلقانية ، حتى يرد إليها ما خسرته فى دبروجا ، وفى مقدونيا ، وسواحل بحر اليونان .

وموقف بلغاريا هذا هو الذى أغرى بها الدول الكبرى لكى يتخذوا منها عوناً لهم على ترويج سياستهم فى هذا الإقليم .

من الجائز أن الدول الكبرى لا ترى — على الأقل

فى الوقت الحاضر — إلى الاستيلاء الفعلى على جزيرة البلقان ؛ وأن يكون مقصدها الأول أن تجعل منها ما يسمى فى العرف السياسى « منطقة نفوذ » لها ؛ ولكن استيلاء إيطاليا على ألبانيا فى الربيع الماضى ، يرينا كيف تتحول منطقة النفوذ بسرعة هائلة إلى منطقة خضوع تام . وليس من شك فى أن إيطاليا باستيلائها على ألبانيا ، قد اكتسبت مركزاً ممتازاً فى جزيرة البلقان ، بل أصبحت إيطاليا فعلا دولة بلقانيـــة . وهى أقوى دول البلقان جيشاً ، وأعظمها خطراً .

ولقد اهتمت بريطانيا حين رأت عدوان إيطاليا على ألبانيا ، وتوغل ألمانيا الاقتصادى فى رومانيا ، فأعلنت فى الربيع الماضى استعدادها لأن تناصر كلاً من اليونان ورومانيا إذا أغارت عليهما دولة أجنبية واضطرتا إلى الدفاع عن أراضيهما . وبهذا اتخذت بريطانيا موقفاً إيجابياً قويا فى سياسة البلقان . إذ ليس من شك فى أن تحول جزيرة البلقان إلى منطقة نفوذ لإيطاليا وألمانيا يهدد مركز بريطانيا وفرنسا فى البحر المتوسط أشد التهديد .

وقد غيرت الحرب الحالية من مجرى الحوادث فى شبه جزيرة البلقان ، فإن امتناع إيطاليا عن خوض غمار الحرب من جهة ، وتحالف روسيا مع ألمانيا من جهة أخرى ، قد أحدث تعديلاً جوهرياً فى سياسة بعض الدول التى تهتم بشئون البلقان . فقد أرادت روسيا أن تشاطر ألمانيا النفوذ فى هذا الاقليم بحيث تبسط سلطانها السياسى والاقتصادى على النصف الشرقى من الجزيرة ، تاركة لألمـانيا نصفها الغربى . وهذا الضغط الروسى على شبه جزيرة البلقان ، التى تعدها إيطاليا ميدان توسعها الطبيعى ، من أكبر الأسباب التى أضعفت قوة المحور الألمانى الايطالى ، ودفع بإيطاليا إلى أن تطرق باباً جديداً فى السياسة البلقانية ، قوامه المسالمة والتحريض ، وتحسين الصلات بينها وبين دول البلقان من جهـة ، وبين الدول البلقانية نفسها من جهة أخرى . ولهذا أخذت فى إرجاع جنودها عن الحدود

اليونانية ، وفى إنشاء صلاة مودة وصداقة بين الدولتين ؛ بل أخذت تفكر فى تحسين صلاتها حتى مع الجمهورية التركية ، بعد أن ظلت العلاقات متوترة بينهما أعواماً طوالا ؛ ولإيطاليا فى شبه الجزيرة دولة صديقة توشك أن تكون حليفة وهى يوغوسلافيا ، وستجد منها نصيراً قوياً فى السياسة التى تنشدها فى البلقان . كما أن بلاد المجر المجاورة لشبه جزيرة البلقان تربطها بإيطاليا صلات طيبة . وتقوم السـياسة الايطالية الجديدة على إيجاد اتحاد بلقانى كامل يشمل جميع دول البلقان ، وتدخله أيضاً بلاد المجر .

وليس من شك فى أن مثل هذا الاتحاد خير وسيلة لنشر السلم فى البلقان ، وإذا أتيح له النجاح ، وكان قائماً على أساس من الاخلاص والتعاون ، فإنه يجعل عدوان الدول الكبرى على البلقان ليس بالأمر السهل . وكان الأوفق أن يتم مثل هذا الاتحاد من غير تدخل أجنبى ؛ ولكن ما امتازت به دول البلقان من التخاذل يجعل مثل هذا الأمر عسيراً ؛ وعلى فرض أنه تم فعلا ، فإن بقاءه ليس بالأمر اليسير . ومن السهل دائماً على بعض الدول الكبرى أن تتدخل فيما بين الدول البلقانية ، فتوقع بينهـا ، كما استطاعت أن تفعل فى الماضى من غير كبير عناء .

إن الأساس الحقيقى الصالح لاتحاد بلقانى ، هو عقيدة تتغلغل فى صـدور الشعوب البلقانية بأن هذا الاتحاد هو الوسـيلة الوحيدة لانقاذها من مطامع الدول الكبرى ، وللمحافظة على كيانها واستقلالها . وليس هنالك دليل واضح على أن مثل هذه العقيدة قد رسخت إلا فى قلوب أفراد قلائل . على أن الخطوة الأولى فى مثل هذه السياسة هى إرضاء بلغاريا بأن تنزل لها اليونان عن منفذ إلى البحر اليونانى ، ورومانيا عن شطر من دبروجا ، ويوغوسلافيا عن قطعة من مقدونيا يسودها العنصر البلغارى الصرف ؛ مثل هذه التضحيات اليسيرة لن تلحق بتلك الدول ضرراً كبيراً . ولكن هـذا مالا تريد حكوماتها أن تسمح به اليوم ؛ فبلغاريا تريد أن تقبض هذا الثمن مقدماً ، ودول

البلقان تريد أن تؤجل الدفع إلى ما بعد الحرب الحاضرة ، وهى فى هذا ليست مخطئة الخطأ كله . فان دولة مثل رومانيا تخشى إن هى تركت لبلغاريا عن دبروجا أن تضطر لأن تنزل لدولة المجر عن إقليم ، ولروسيا من إقليم آخر ، وفى هذا إضعاف لها فى الوقت العصيب الذى تجتازه أوربا اليوم . ولكن هنالك مطلب واحد من مطالب بلغاريا ، ولعله أهمها ، يجوز أن تُمْنَحَهُ اليوم ، وهو المنفذ إلى بحر اليونان . ثم ترجأ مطالبها الأخرى إلى ما بعد الحرب . ومثل هذا الحل الوسط لا يمكن لدول البلقان فيما بينها أن تنتهى إليه . ولهذا اتسع المجال لتدخل إيطاليا وسعيها فى تأليف كتلة بلقانية تعطف عليها ؛ وتكون هنغاريا عضواً فيها . وقد فشلت المحاولات التى قام بها فريق من الدول ، وعلى الأخص ألمانيا وروسيا ، فى عزل تركيا عن الكتلة البلقانية .

إن الاتحاد البلقانى الجديد سيكون من غير شك ذا صلات طيبة بإيطاليا ، ولكنه سيكون أيضاً شديد العطف على الدول الديمقراطية ، وهو يخالف السياسة الإيطالية القديمة التى كانت ترمى إلى الضغط على اليونان ، والانقباض من تركيا ، واستغلال يوغوسلافيا . ولكن إيطاليا قد تجنى من سياستها الجديدة منافع أجل وأعظم مما تجنيه لو أنها مضت فى سياستها القديمة العنيفة . وهذا المسلك الجديد هو الرد الوحيد الذى تستطيع إيطاليا أن ترد به على محاولات روسيا التوغل فى هذا الإقليم .

وإذا جاز لقائل أن يزعم أن مثل هذه السياسة البلقانية الجديدة ، وإن كان الغرض منها مقاومة روسيا ، فإنها تضر ألمانيا صديقة إيطاليا القديمة ؛ فان من العبث أن ننكر أن صداقة ألمانيا لروسيا ، قد أضعفت كثيراً من قوة محور برلين وروما ، الذى ليس فى الأفق السياسى اليوم أقل دليل واضح على أنه قد بات له قيمة سياسية ذات شأن .

محمد عوض محمد

البـــركة

للأستاذ أحمد أمين

من ألذ الأشياء للباحث اللغوى مراقبته للكلمات وتطور معانيها ؛ فالكلمة يبدأ معناها ماديًّا ساذجاً ، ثم يأخذ فى النمو والتطور على اختلاف العصور وتقدم الزمان ؛ حتى ليعجب الناظر إذا هو وازن بين المعنى الأخير للكلمة والمعنى الأول لها ، لبُعد العلاقة بينهما ، وكلما تجلّت لى هذه الفكرة عجبتُ من الجامدين الذين يتخذون شعارهم « ليس فى القاموس » . كأنهم يريدون أن تقف اللغة على ما كانت عليه فى القرون الأولى ، يوم دُوِّنَت المعاجم ، ويريدون أن يتجاهلوا فعل الزمان فى كل شىء ، وفى اللغة نفسها من أثر دائم وتطور مستمر . ولا زلتُ كلما كشفتُ عن مادة فى اللغة الانجليزية فى معجم أكسفورد ، وأراه يؤرخ الاستعمالات المختلفة للكلمة الواحدة ، فيقول إنها استعملت فى معنى كذا سنة كذا ، ثم استعملت فى معنى كذا سنة كذا ، أتمنى أمنيتين فى اللغة العربية : إحداهما أن يؤمن الناس مثى أن اللغة فى تطور مستمر ، وأن من الإجرام أن يُريد اللغويون قصر معانى الكلمات على ما جاء فى معاجم اللغة القديمة ، متناسين كل عمل الأجيال التى أتت بعدها . وثانيتهما أن ينشط علماؤنا فيستطيعوا أن يخرجوا لنا معجماً مؤرِّخاً تُدَوَّن فيه كل كلمة ، ومنشأ استعمالها ، وتطور معانيها مع الزمان إلى الآن .

* * *

خطَرَ لى هذا الخاطر وأنا أبحث فى كلمة « البركة » من أين أتت ، وكيف وصلت إلى ما نستعمله اليوم ، فنقول : « رجل مبارك » و « المرتب ليس فيه بركة » و « ذرية مباركة » و « ذرية غير مباركة » و « زمنه مبارك » و « عمره لا بركة فيه » الخ . . . وهكذا .

وقد عجبت إذ رأيت بعض علماء اللغة يعودون بهذه المعانى كلها إلى المعنى الأساسى وهو « برك البعير إذا أناخ فى موضع فلزمه » ثم نقله العرب من هذا المعنى إلى معنى النمو والزيادة ، أو معنى السعادة ، كأن البعير إذا أناخ استراح ونما وسعد . واشتقوا من هذا المعنى بارك الله الشىء وبارك فيه وبارك عليه ، أى أكثر خيره وأسعد به ، ومنه قالوا : طعام مبارك ، ومال مبارك ، ورجل مبارك ، وجاء فى القرآن الكريم : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » الخ .

* * *

قفز ذهنى بعد ذلك من البحث اللغوى إلى البحث الاجتماعى أو البحث النظرى : ما معنى « البركة » ؟

يرى الناس رجلا يتقاضى مائة جنيه فى الشهر ، وليس له إلا ولد أو ولدان ، ومع ذلك مرتبه لا يكفيه ، ويستدين ، وتضطرب ماليته ، فيقولون : « إن مرتبه لا بركة فيه » . ويرون آخر مرتبه ثمانية جنيهات أو عشرة ، ومعه أربعة أولاد أو خمسة ، وهو يعيش عيشة حسنة بمرتبه الضئيل ، لا يستدين ، ولا تضطرب ماليته ، فيقولون : « إن مرتبه فيه البركة » .

ويرون رجلين فى يد كل منهما جنيه ، فأما أحدهما فخرج من بيته وعاد وليس معه شىء ، وذهب جنيهه فى أشياء تافهة لا قيمة لها ، فيقولون : « إن جنيهه لم يكن فيه

بركة » . وأما الآخر فاشترى أشياء وأشياء نافعة لنفسه ولبيته ، وعاد ومعه بقية من جنيهه ، فيقولون : « إن فى جنيهه بركة » .

ويومُ كل الناس أربع وعشرون ساعة ، وشهرهم ثلاثون يوماً ، وأيام سنتهم متساوية ؛ ومع هذا نجد الفروق بينهم فى استخدام الزمن واسعة ؛ فهذا تمر عليه الأيام والشهور والسنون وليس له إنتاج علمى ، ولا أدبى ، ولا مالى ، ولا صناعى ، وهذا دائم الإنتاج كثيره ، كأن أيامه سنون ، وكأن عمره مائة عمر ، فيقولون : « إن عمر الأول غير مبارك ، وعمر الثانى مبارك » .

وترى رجلا رزق الحظوة فى أولاده ، فبناته زوجن خير الأزواج ، وأبناؤه ما شئت من استقامة ونجاح ، هذا زراعى ناجح ، وهذا عالم ناجح ، وهذا صانع ناجح ؛ ورجلا آخر خاب كل الخيبة فى أولاده ، فبناته مع أزواجهن مصدر نزاع دائم ، وقضايا فى المحاكم لا تنتهى ، وأبناؤه بين سكير ومقامر ومحتال ، فيقولون فى الأول : « إن فى ذريته البركة » وفى الثانى : « لا بركة له فى أولاده » .

فما هى هذه البركة ؟ أهى حجر الفلاسفة وكيمياء السعادة ، وسرٌّ مكنون كالروح ، نرى أثره ونعجز عن إدراك كنهه ؟ أم هى قوانين الطبيعة التى يشرحها عالم الاقتصاد فى شؤون المال ، وعالم الأخلاق فى شؤون الأخلاق ، وعالم التربية فى شؤون التربية ، وأن الأمر ليس سراً مكنوناً ، وإنما هى قوانين طبيعية مكشوفة ، لها مقدماتها ونتائجها المحتومة ، من سار على المقدمات وصل إلى النتائج المعينة حتماً ، ومن لم يسر عليها لم ينل نتائجها حتماً ؟

أما بعد ، فإنى أمْيَلُ إلى الرأى الثانى « ورزق على الله » .

فالموظف الذى يتقاضى مائة ويستدين ، سبب انعدام بركته عدم سيره على قوانين الاقتصاد الطبيعية المعروفة ؛ والموظف الذى يتقاضى عشرة ويعيش عيشاً رغداً ، سبب بركته سيره على قوانين الاقتصاد الطبيعية المعروفة ؛ قد وضع الاقتصاد قوانين واضحة ، تتطلب أموراً : منها أن يكون إيجار منزله بنسبة كذا من مرتبه ، وحاجات منزله كذا الخ ، وأن تقدم الضروريات على الكماليات ، وأن يحسب حساب ما يشترى ويوازن بينه وبين المال الذى ينفق فيه ، إلى غير ذلك من القوانين ؛ فكلها إذا سار عليها سائر انتظمت ماليته وكانت مباركة ، وإن لم يسر عليها اختلت ميزانيته وكانت غير مباركة ؛ والاقتصادى يسمَّى من يسير على القوانين « مقتصداً » أو سائراً على قوانين الاقتصاد ، ومن لم يسر مسرفاً أو مبذراً أو مخالفاً للقوانين الاقتصادية ؛ والناس يسمون المال مباركاً أو غير مبارك ، وفيه بركة أو انتزعت منه البركة ؛ والاختلاف ليس إلا فى التعبير والمعنى واحد .

وكل ما يمكن أن يقال إن العلم بهذه القوانين وعدم العلم بها ليس له كبير شأن فى الموضوع ؛ فقد يكون الرجل ماهراً فى علم الاقتصاد ، درس فى مصر ودرس فى انجلترا ، وحاز أكبر شهادة فى الاقتصاد ، ومع ذلك لا يسير فى حياته العملية وفق قانون الاقتصاد ؛ فلا ينفعه علمه فى حياته اليومية ، وتطبق عليه قوانين الفشل حتماً رغم علمه . وقد لا يدرس الرجل الاقتصاد ولم يسمع بهذا الاسم مطلقاً ، ولكنه يسير بطبيعته وفق تعاليمه ، فتنطبق عليه قوانين النجاح رغم جهله بالعلم ؛ والشأن فى ذلك شأن كل القوانين الطبيعية ؛ فمن أخذ سكَّراً على أنه سم لم يضره السكَّر ، ومن أخذ سماً على أنه سكر قضى عليه السم ، ولم ينفع العلم ولم يضر الجهل ؛ فالبركة وعدم البركة هى السير على قوانين الطبيعة أو عدم السير .

وعلى هذا الأساس مال الحكومة ، قد يكون مباركاً

وقد يكون غير مبارك على هذا المعنى ؛ فالحكومة التي تبعثر أموالها فيما لا يفيد، وتقدم الكمالي على الضروري، وتنفق الأموال الطائلة في فتح شارع لمترف، وتتدفق على المؤتمرات للشهرة، وتتلف الأموال الكثيرة في الإكثار من عدد الموظفين ورفع درجاتهم، وتنشىء المشروعات الكبيرة المفخفخة قبل أن تمد المدن لفلاحيها ليشربوا ماء نظيفاً، وقبل أن تمد المدن لعمالها ليجدوا الكفاف، ميزانيتها لا بركة فيها، ومعنى خلوها من البركة عدم سيرها على قوانين الاقتصاد الطبيعية. وإذا رأينا أمة أخرى ميزانيتها أقل من الأولى وهي بها أسعد من الأولى كانت ميزانيتها « فيها البركة » لهذا المعنى.

وحينئذ يكون معنى البركة التوفيق في سير المرء أو المرأة أو الحكومة حسب قوانين الاقتصاد.

والرجل ذو الذرية المباركة بركته عبارة عن أن أولاده ورثوا من آبائهم وأمهاتهم بذوراً صالحة، ثم ربوا تربية صالحة، فكانوا في الحياة ناجحين موفقين، وهذا معنى البركة ؛ فإذا هم ورثوا وراثة سيئة أو ربوا تربية فاسدة كانوا لا بركة فيهم، والذرية المباركة وغير المباركة خاضعة لسنة الله في خلقه وهي القوانين الطبيعية.

والعمر المبارك هو الذي عرف صاحبه كيف يستغله، والعمر غير المبارك هو الذي جهل صاحبه كيف يستغله، وهكذا.

* * *

ولكن مما لا شك فيه أن المسألة ليست بهذا القدر من البساطة والوضوح ؛ ففي الحياة أمور معقدة خفية تجعل الأمر أعقد من هذا وأصعب.

فقد يكون المرء سائراً على قوانين الاقتصاد في دقة وإحكام كما ترسم قوانين الاقتصاد، ومع ذلك تضطرب ماليته وتسوء حاله لأسباب لا دخل له فيها، كأن يصاب هو أو أحد أفراد أسرته بمرض يتطلب مالاً كثيراً، فتختل ميزانيته وتذهب بركتها، ولا دخل له في ذلك ؛ أو يحدث حادث سماوي يتلف زراعته، أو يصاب بكارثة مالية ليست في الحسبان، أو تدهمه سيارة تكسر رجله بخطأ من السائق، أو نحو ذلك من تصاريف القدر ؛ فكل هذه وأمثالها قد تفسد عليه نظامه المالي وتربكه ارتباكاً شديداً، مع أنه الحريص في تصرفاته الحكيم في تدبير ماله ؛ وكذلك نرى في الدنيا عكس هذا، نرى المسرف المبذر الساخر من قوانين الاقتصاد، ومع ذلك يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب، فيبارك له في معيشته رغم تبذيره ورغم القوانين الطبيعية والاقتصادية.

وكذلك الشأن في الأولاد، قد ينشأون خير تنشئة ثم يصابون بصحبة من يفسدهم، مع أن الآباء قد بذلوا في تربيتهم كل جهد، وساروا على قوانين التربية بكل دقة، والعكس صحيح. ويعجبني في ذلك قول الشاعر :

فموسى الذي رباه جبريل كافر

وموسى الذي رباه فرعون مرسل

هذا كله صحيح، وهذه أمور تستوجب التفكير، وليست الإجابة عنها يسيرة ؛ ولكن ألست معي في أن هذه أمور استثنائية في الحياة ؟ وربما كانت هي الأخرى خاضعة لقوانين لم تحل بعد ؟ أليس من الخير أن نسير من القوانين على ما علم ونلتزمه، ونؤمن بالقوانين القليلة التي لم نعرفها حتى نعرفها ؟ أو الخير أن نهمل كل القوانين لأننا نجهل بعضها ؟

أظن من الخير أن نسيّر حياتنا على ما علم، فإذا أردنا البركة فلنسر على قوانين الطبيعة، ولا يضيرنا أن يكون جزء من حياتنا في يد القدر.

وعلى حسب تفسيرنا، إن كان هذا المقال سائراً على قوانين الفن مثيراً للنظر، ناجح الأثر، ففيه البركة، وإلا فلا بركة فيه ؛ والعلم عند الله.

أحمد أمين

فن العمـــــل

من أقوال «شيلي»: «فرحُ النفس في العمل»، ولكن ما هو هذا العمل الذي يدخل الفرحَ على النفوس؟

عرّفه فريق من أصحاب المعجمات الفرنسية بأنه إتعاب النفس في إنفاذ الشيء، وقد نقد «موروا» هذا التعريف، فلم يجده كاملا من جميع وجوهه، والذي استهجنه فيه خاصّة إنما هو هذا القيد (إتعاب النفس) أفلا يستطيع الإنسان أن يعمل وهو فرح القلب؟ فلم يشأ «موروا» أن يعرّف العمل كما عرّفه صاحب معجم «ليتره»، أو صاحب معجم «لاروس»، وإنما عرّفه بضرب الأمثال.

انتقل «موروا» من عالم الألفاظ إلى عالم الأعمال، فتمثل بطائفة من العمّال، سواء أكان عملهم ماديًّا أم كان فكريًّا.

ماذا يعمل الزّجّاج؟ إنه يأخذ مادّة لا شكل لها، ويجعل لها شكلاً نافعاً.

أم ماذا يعمل المُعدّن؟ إنه ينقل مادّة ابتدائية كالحديد أو الفحم، ثم يدفعها إلى العمّال، فيحوّلونها إلى قوة، أو إلى حرارة، أو إلى آلة.

وماذا يعمل الحرّاث؟ إنه يشق الأرض، فيُعدّها للزرع، ثم يطرح البذر في منابته.

وماذا يعمل الروائي؟ إنه يقص علينا طبائع المادّة البشرية التي تلقّطها بعايناته، فمن هذه المادّة المجرّدة من كل شكل يستنبط عملا فنيًّا.

وماذا يعمل التلميذ؟ إنه يحاول أن يكتسب العلوم التي اقتبستها البشرية قبله، فهو يرتّب عقله؛ وبعبارة أدق: إنه ينشئ نفسه.

فالعمل في رأى «موروا» إنما هو تغيير أشكال المواد أو الأشخاص الذين تقدمهم لنا الطبيعة، أو نقل هذه المواد وهؤلاء الأشخاص إلى صورة أنفع أو أجمل، العمل إنما هو دراسة الانسان لقوانين هذه التغييرات حتى يتولى تهيئتها أو مباشرتها.

فلم يشأ «موروا» في هذه الأمثال التي ضربها أن يجعل التعب شرطاً من شروط العمل، فكأن هذا الزّجّاج، وهذا المُعدّن، وهذا الحرّاث، وهذا الروائي، وهذا التلميذ يشعرون بعد الفراغ من أعمالهم المادية أو الفكرية بشيء من الفرح.

بَيْد أن العمل لا يكون نافعاً إلا إذا جرى صاحبه على أصول ذكرها «موروا»، وهي لا تخلو من بعض الحِكَم، فما هي هذه الأصول؟

لا يستطيع الرجل أن ينصرف إلى كل الأعمال في وقت واحد، فان لقوته ولعقله حدوداً، فمن أراد أن يعمل كل شيء، فانه لا يعمل شيئاً، وهؤلاء الذين يحاولون أن يمارسوا الموسيقى والتجارة والسياسة، وأن يعالجوا كل شيء، فانهم لا يفلحون في موسيقاهم، ولا في تجارتهم، ولا في سياستهم، فقد علّمنا «نابليون» أن فنّ الحرب إنما هو حصر القوّة في موطن من المواطن، وكذلك فن الحياة، فانه يقضي علينا بأن ننتخب جهة من الجهات لنركز فيها كل قوانا، فكل واحد منا ينبغي له أن يقول: لأي عمل أصلح؟ ما هو مبلغ استعدادي؟ فنحن لا نستطيع أن نكره الطبيعة على إعطائنا ما لا قدرة لها عليه، فالولد المقدام قد يكون طيّاراً ولا يكون رئيس ديوان، فاذا اختار أحدنا مهنة له لزمه أن يواظب عليها

دون شيء من الندم ، إلا إذا طرأ عليه طارئ قهرا .

على أن العامل واجب عليه حتى بعد انتخاب مهنته أن يعنى بانتخابات ثانية ؛ فالكاتب لا يستطيع أن يكتب كل نوع من أنواع الروايات ، ورجل الدولة لا يستطيع أن يصلح كل دائرة من الدوائر ، والمسافر لا يستطيع أن يزور كل بلد من البلدان ؛ ففي كل عمل من الأعمال يختار الانسان الدائرة التي يقدر على التجويد فيها ، ويطرح غيرها ، فمن عادة رجال الحروب إذا وزنوا عواقب أمر يريدون إصداره أن يغلقوا باب كل مناقشة في هذا الأمر فلا تبقى الا كلمة التنفيذ ، وكذلك يجب علينا بعد انتخاب المهنة أن تغلق أبواب مناقشاتنا الباطلة ، فلا يبقى لنا إلا التنفيذ !

هذا هو الشرط الأول من شروط العمل ، وهو الإخصاء ، وإني أعتقد أن هذا الشرط إنما هو سر من أسرار نجاح رجال الغرب في أعمالهم ؛ فإن عصرنا هذا إنما هو عصر التخصص ، فاذا اختار أحدنا المهنة المناسبة له فمعنى هذا أنه اختار المهنة التي تقدر قواه على البلوغ إليها ، فمن العبث ، لا ، بل من الخطر أن يختار مهنة لا تبلغ إليها قوته ، مخافة أن يخفق فيها ، لأن من عادة الاخفاق أن يقتل القلب ، ويشل المجهود ؛ فقد كان « غوتي » ينصح لشباب الشعراء بأن ينظموا قصائد قصيرة بدلا من الملاحم ؛ وكان « صمويل بوتلر » يقول : ينبغي لنا إذا أكلنا العنب أن نبدأ بأكل العناقيد الجيدة ؛ فاذا شاء أحدنا أن يقطع مرحلة دفعة واحدة ، ووجد أن هذه الرحلة طويلة ، لزمه أن يجزئها أجزاء ، وأن يبذل جهده في قطع كل جزء على حدة ، من دون أن ينظر إلى الجزء الثاني قبل قطع الجزء الأول ؛ وما مثلنا في ذلك إلا كمثل الجبلي الذي يجرف الجليد في الجبال ، فانه لا ينظر إلى رأس الجبل لأن التصعيد في هذا الجبل يرعبه ، ولا ينظر إلى سفحه لأن الانحدار إليه يرهبه ؛ ولكنه كلما جرف جزءاً من هذا الجليد هان عليه العمل ، فدنا من رأس الجبل ؛ ومن هذا القبيل كتابة التأريخ ، فقد تكون كتابة تأريخ بلد من البلدان في صدر الأمر عملا يفوق طاقة البشر ؛ ولكن المؤرخ يجب عليه أن يقسم عمله إلى أدوار ، وأن ينصرف إلى الدور الذي يتقنه أكثر من غيره ، فاذا فرغ منه انتقل إلى دور آخر ، حتى إذا فرغ من عمله الجليل دهش من إتمام هذا العمل .

ولقد أضاف « موروا » إلى هذين الشرطين في نجاح الأعمال : التخصص بالعمل وتجزئته ، شرطاً ثالثاً يكاد يكون روح هذا النجاح : وهو النظام ، فكثير من الناس يشكون قصر الحياة ، ولكن هل يعملون على الأقل ثماني ساعات في النهار ؟ فان العمل الذي يستطيع أن يعمله الانسان كل يوم إنما هو أعجوبة من الأعاجيب ؛ فالكاتب الذي يكتب صفحتين كل يوم ، فانه في خاتمة عمر طويل يؤلف مؤلفات تعادل مؤلفات « بلزاك » أو « فولتير » من حيث الكثرة ، إن لم تعادلها من حيث العبقرية ؛ غير أن الانسان لا يكفيه أن يجلس وراء منضدته للعمل ، وإنما المهم أن يمتنع عنه ما يفسد عليه عمله حتى لا يتعطل ، فاذا لم يقطعه أحد عن عمله ازداد عمله بحسب السلسلة الهندسية ؛ فالعامل سواء أكان عمله مادياً أم كان فكرياً ، يلزمه أن يبعد عنه في أثناء عمله من يأكل وقته ؛ ومن هؤلاء العمال الذين لا يرحمون أحداً في هذا الباب « غوتي » فمن قوله في هذا المعنى : ينبغي لنا أن نقضي على عادة الناس في مفاجآتنا دون أن يعلمونا بهذه المفاجأة ، إنهم يطلبون إلينا أن نهتم بمصالحهم ، فلا فائدة لنا في زياراتهم التي يزورونها لنا ، إنهم يعطونني أفكاراً غريبة عن أفكاري ، وأنا لست في حاجة إليها ، إن أفكاري وحدها تكفيني ، حتى إني لا أكاد أقدر على إظهارها كلها .

وإذا لم يستطع « غوتي » التخلص من هؤلاء الذين

كانوا يفسدون عليه عمله ، ودق بابه واحد منهم ، استقبله بوجه كريه ، فكان يمنع يديه وراء ظهره ، ويسكت ؛ وإذا كان الزائر صاحب مكانة سمل « غوتي » حتى لا يضطر إلى الكلام ؛ أما الرسائل التي كانت ترد إليه فكان يقسمها قسمين : فالرسائل التي كان أصحابها يطلبون فيها أمراً من الأمور كان يلقي بها في السلة ، والرسائل التي كان أصحابها يعرضون فيها أمراً من الأمور كان ينظر في بعضها ، فإذا وجد له منفعة فيها أجاب عنها بهذا الكلام : أيها الشباب ! إنكم لا تعرفون قيمة الوقت !

قد تكون أثرة « غوتي » في هذا الباب قاسية ، وقد يكون بين أعاظم الرجال من يجيب عن رسائله الخاصة ، فقد يجوز أن يكون بين أصحابها من هم أهل للشفقة أو للمحبة ؛ فكثير من الناس كانوا يشكون هذا التجهم من « غوتي » ويجدون فيه شيئاً مخالفاً للبشرية ، ولكن هذا الشيء المخالف للبشرية هو الذي مكنه من أن يخلف لنا في جملة ما خلفه من الآثار « فوست » و « ويلهلم مستر » . فمن ترك الناس يأكلون أوقاته مات من دون أن يتم أعماله ؛ والرجل المولع بأعماله لا يهمه من أمر الناس إلا ما يتم به هذه الأعمال ، حتى إن « غوتي » كان ينصح لغيره بأن لا يهتم بحوادث النهار إذا لم يكن له تأثير في هذه الحوادث ؛ فإذا قضينا ساعة في كل صباح نبحث فيها عن حروب بعيدة ، وساعة أخرى نبحث فيها عن خواتيم هذه الحروب ، ولم نك وزراء ولا قواداً ولا رجال صحافة ولا شيئاً من هذا كله ، فإننا نضيع الشيء الذي لا يعوض في حال من الأحوال ، أي حياتنا القصيرة الوحيدة .

وقد بلغ من حرص « غوتي » على نظام العمل أنه كان يحرص على نظام حواسه نفسها ، فإنا إذا أطعنا حركات الحواس طاعة لا حد لها جعلتنا هذه الحركات عاجزين عن العمل ؛ قد تكون هذه الحركات طبيعية ، وقد يجوز أنا لا نقدر على أن ننصح للناس بأن يضحوا بحياتهم الحسية في سبيل أعمالهم ، ولكن يجب علينا أن نحفظ في هذا الباب قاعدتين .

القاعدة الأولى : لا ينبغي لنا أن تصرفنا عن أعمالنا انفعالات باطلة ، مفرطة . والقاعدة الثانية : يجب علينا أن نضحي بكل شيء في سبيل طائفة من الأعمال يستلزم عظم شأنها تضحية من هذا القبيل ؛ فقد كان القائد « جوفر » يمنع نفسه من أن تكون رقيقة الجانب ، حتى شكا بعض أصحابه قساوة طبعه ، ولكن هذه القساوة هي التي جعلت منه بطل « المارن » .

لقد أكثر « موروا » من الكلام على فن العمل ، ولا عجب في ذلك فإنه عامل كبير ، والعمل في نظره إنما هو الطب الوحيد في هذه الحياة ؛ إنه يشتغل من الساعة الثامنة فلا يخرج من مكتبه إلا الساعة الواحدة بعد الظهر ، فيتغدى ، ثم يتنزه ساعتين في غابة من الغابات ، ثم يعود إلى العمل ؛ إنه يرى أن العمل ينقي الضجر والرذيلة ، فهو الدواء الذي يشفي من جامع آفات المخيلة ؛ وما يقال في الأفراد يقال في الجماعات ، ففي رأيه أن الحكومة الحازمة التي تضع للبلاد برنامج عمل تتم به نهضة البلاد ، تبعد الناس عن الإمعان في الأحلام الغامضة ، فتشترك طبقات الأمة كلها في عمل جليل نافع ، فتنادي هذه الأمة : بارك الله في العمل !

ولكن العمل قد يحتاج صاحبه إلى العزلة في بعض الأحايين ، وأكابر المشتغلين يعرفون كيف يعتزلون الناس من وقت إلى وقت ، فلهم دار في الأرياف ، أو كهف في الجبال ، أو ملجأ في الشواطئ ، حيث ينقطعون عن كل صلة من الصلات ، حتى من صلات الحب والصداقة ؛ وفي هذه العزلة وحدها تستطيع الحوادث والانفعالات

(البقية على الصفحة التالية)

صور من التاريخ الإسلامي :

أبو العباس السفاح

هل كان سفاحاً للدماء حقاً ؟

للأستاذ عبد الحميد العبادي

كان أبو العباس الملقب بالسفّاح أوّل خلفاء بني العباس ؛ وَلِيَ الخلافة عام ١٣٢ ، وتوفي عام ١٣٦ ، وكان شاباً لم تزد سنه وقت أن توفي على ست وثلاثين سنة على أكثر تقدير . وكان جميل الخلقة ، وسيم الطلعة ؛ يقول فيه الطبري إنه « كان ذا شعرة جعدة ، وكان طويلاً أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه واللحية » . ويروى ابن الأثير أنه « نظر يوماً في المرآة ، وكان من أجمل الناس وجهاً ، فقال : اللهم إني لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك : أنا الملك الشاب ، ولكني أقول اللهم عمرني طويلاً في طاعتك ممتعاً بالعافية ! »

وكان أبو العباس متصوناً عفيفاً ، حسن المعاشرة لأهل بيته . روى المسعودي أنه كان قبل الخلافة فقيراً مملقاً ، واتفق أن رأته أم سلمة المخزومية ، أرملة هشام ابن عبد الملك ، فأعجبت به ورامت التزوج منه ، فاعتذر بضيق ذات يده ، فأرسلت إليه من المال ما وفى بحق الصداق والهدية . وقد حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . فلما صارت إليه الخلافة ، وسيقت إليه الدنيا ، وفى لها كأشد ما يكون الوفاء والبر بالعهد .

وكان أبو العباس مقتصداً في معيشته ، لم تخرجه أبّهة الملك وعظمة السلطان عن حد البساطة في مأكله ومشربه وملبسه ؛ وقد أحصوا ما خلف من الثياب ، فإذا هي تسع جباب ، وأربعة أقمصة ، وخمسة سراويلات ، وأربعة طيالسة ، وثلاثة مطارف خز . تلك ثياب رجل ملك مشارق الأرض ومغاربها نحو خمس سنوات .

وكان أبو العباس كريماً معطاءً ، يقول فيه المسعودي : « وكان إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً » ، ويقول فيه : « وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة » ، ويقول لا يكون سروره معجّلا ومكافأة من سره وأطربه مؤجّلا » .

أن تجد لها في قلوبهم المكان المناسب ، أما في ضوضاء المدن فقد يكون لمشهد حقير من المشاهد شأن ما ، فيحل هذا المشهد من نفوسهم محلّ الأعمال والعواطف الجليلة ؛ ولكنهم إذا اعتزلوا المدن من حين إلى آخر ، فإن الأمور الحقيرة التي يشاهدونها في المدن قد تنطمس آثارها في ظلام العزلة ؛ فإذا خلوا إلى نفوسهم في هدوء الليل أو على بقعة من البقاع التي لا يجدون فيها للأمور الحقيرة من الآثار ما يجدونه في المدن ، وضعوا في خلواتهم أسس الأعمال الخالدة في البشرية . لقد كان « موريس بارس » يقول : أيتها العزلة ! أنتِ وحدكِ لم تخدعيني ؛ وأضاف « موروا » إلى هذه الصرخة صرخة ثانية ، فقال : أيتها العزلة ! أنتِ وحدكِ لم تضعفيني !

(دمشق) شفيق جبري

وكان طروباً « يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ! فأعد هذا الصوت ! » . (المسعودى) .

وكان أشد الخلفاء حباً لمسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً » . فقال له أبو بكر الهذلى : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويروى نقصاً » . (المسعودى فى مروج الذهب) .

* * *

فهل صحيح أن هذا الخليفة الشاب الجميل العفيف الوقور ، الكريم الطروب ، المقتصد الحريص على مسامرة الرجال ، كان قتّالا للناس سفّاكاً لدماء البشر ؟ وهل صحيح أنه إنما لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء وأزهق من أرواح ؟ وهل صحيح أن الطبيعة البشرية تتسع للتناقض والتباين إلى هذا الحد ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة بالإيجاب ليثير الدهش ويستنفد العجب ؛ ومع ذلك فهذا ما أجابت به روايات تاريخية كثيرة متأخرة وحديثة . وقبل أن نعرض لتلك الروايات التى تصور أول خلفاء بنى العباس فى تلك الصورة البشعة ، نبين المعنى الاصطلاحى واللغوى للفظ « السفاح » ، ثم نعرض للروايات القديمة والمعاصرة لأبى العباس ، لنرى كيف تصور شخصية ذلك الخليفة .

إن لفظ « السفاح » وصف عربى قديم جرى مجرى السَّمَر ؛ فثم السفاح التغلبى الذى كان رئيس تغلب فى يوم الكلاب الأول . ويقول فيه ابن دريد صاحب كتاب الاشتقاق : « وإنما سمى السَّفّاح لأنه سفح المزاد أى صبها يوم كاظمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإنكم إن هُزِمتم مُتم عطشاً . قال الشاعر :

وأخوهما السفاح ظمأ خيله
حتى وردن جبا الكلاب نهالا »

وهناك السفاح بن عبد مناة الشاعر ، ويعلق ابن دريد على اسمه بقوله : « والسفاح فَعّال من سفحت الماء سفحاً إذا صببته » . فالعرب إذاً لم تطلق هذا الوصف اصطلاحاً على من يسفك الدماء كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما لحظت فى إطلاقه معنى آخر منصوصاً عليه .

وأما لغة فهذا الوصف يقع على جملة معان ، منها السفاك للدماء ، ومنها المعطاء ، ومنها الفصيح القادر على الكلام . (اللسان مادة سفح) . فعلى أى هذه المعانى نحمل لقب أبى العباس ؟ إن الرواية التاريخية وحدها ، هى التى تعيّن هذا المعنى . فهم يقولون إن أبا العباس لقب بالسفاح أخذاً من قوله فى خطبته المشهورة التى خطبها أهل الكوفة غداة بويع بالخلافة :

« يا أهل الكوفة : أنتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وآتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير ! » فنلحظ من هذه العبارة أنه يخاطب أهل الكوفة الذين أفاض عليهم من الأوصاف الكريمة ما أفاض ، وأنه قد زاد فى أعطياتهم ؛ فهل يتأتى له أن يقول لهم بعقب ذلك أنه سفاك للدماء ؟ هذا بعيد ، والأقرب إلى البيان والبلاغة أنه إنما أراد أن يقول لهم إنه لأوليائه كريم معطاء ولأعدائه ثائر مبير . والعارف بأساليب العرب الخطابية يعلم أنهم فى مثل هذا المقام ، مقام الترغيب والترهيب ، كثيراً ما يوردون المعانى المتقابلة ؛ وهذا من قبيل قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » أضف إلى ذلك أنه لا يجمل بخليفة إسلامى يقول إنه تحدر من أكرم

أرومة ، واشتق من أشرف سمة ، أن يصور نفسه تصويراً جاهلياً منفراً دون محاشاة ولا تحفظ . وعهدنا بألقاب الخلفاء الإسلاميين كلها أنها ألقاب جميلة وأسماء حسان توحى بمعانى الإيمان والحسن والهداية والرشاد .

ولكن هذا التعليل البيانى لا يكون شيئاً إذا كانت الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة تسند إلى أبى العباس من الحوادث الفظيعة ما يسوغ أن يوصف بالسفاح على معنى السفاك للدماء . والواقع أن الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة لا تكاد تقول شيئاً من ذلك . بل هى لا تذكر لفظ السفاح مطلقاً عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين ؛ ومن شاء أن يتحقق ذلك فليرجع إلى كتاب « الأخبار الطوال » لأبى حنيفة الدينورى المتوفى عام ٢٨٢هـ ، وتاريخ الطبرى المتوفى عام ٣١٠ ، فسيجد أن كلا المؤرخين لا يزيد عند الإشارة إلى أبى العباس على قوله : « أمير المؤمنين أبو العباس » وأكثر من ذلك أن رواية هذين المؤرخين ، وكلها من حيث الإسناد تكاد تصعد إلى عصر السفاح نفسه ، لا تضيف إلى أبى العباس من حوادث القتل والمثلة التى تمت فى عهده شيئاً . والمراد بحوادث القتل والمثلة التى حفل بها ذلك العصر قتل العباسيين الأوائل بنى أمية غدراً وصبراً . بل تولى كبر ذلك رجال غير أبى العباس . فيقول الطبرى : « وفيها (أى سنة ١٣٢) قتل عبد الله بن على من قتل بنهر أبى فطرس من بنى أمية ، وكانوا اثنين وسبعين رجلا » وعبد الله بن على هذا عم للخليفة ، وكان على الشام ، ونهر أبى فطرس بفلسطين . ويقول الطبرى كذلك : « وفيها (أى سنة ١٣٣) قتل داود بن على من كان أخذ من بنى أمية بمكة والمدينة » وداود هذا عم آخر لأبى العباس ، وكان على الحجاز واليمن . فأنت ترى أن الرواية التاريخية القديمة تعصب بكل بساطة جرائم قتل الأمويين برجلين اثنين هما عبد الله بن على وداود بن على . فاذا رجعنا إلى

الرواية المعاصرة لأبى العباس نفسه وجدناها مؤيدة للرواية التاريخية . وهذه الرواية المعاصرة هى تلك القصيدة المؤثرة البليغة التى رثى بها ابن أبى شبة المسبلى مواليه من بنى أمية ، والتى يقول فى مطلعها :

تقول أمامة لما رأت . . . نشوزى من المضجع الأنفس

وقلة نومى على مضجعى . . . لدى هجعة الأعين النعس

أبى ! ما عراك ؟ فقلت الهموم . . . عرون أباك فلا تبلسى

ويقول فيها معدداً المواضع التى قتل فيها بنو أمية :

أفاض المدامع قتلى كدا . . . وقتلى بكثوة لم ترمس

وقتلى بوج وباللابتيـ . . . ـن من يثرب خير ما أنفس

وبالزابيين نفوس ثوت . . . وأخرى بنهر أبى فطرس

أولئك قومى أناخت بهم . . . نوائب من زمن متعس

وكدا وكثوة ووج واللابتان أمكنة بالحجاز ، وهى التى قتل عندها داود بن على من قتل من بنى أمية . والزابيان موضع واقعة الزاب التى قاد الجيش العباسى فيها عبد الله بن على ، ونهر أبى فطرس بفلسطين وهو الذى قتل عنده عبد الله بن على الأمويين غدراً وصبراً كما ذكرنا . ولا يذكر الشاعر وهو يعدد مصارع قومه الحيرة ولا الكوفة ولا الأنبار وهى المواضع التى نزلها أبو العباس فى خلافته ؛ فالرواية المعاصرة والرواية القديمة كلتاهما تنطق ببراءة أبى العباس من دماء الأمويين وتحمل غيره وزرها .

* * *

ولنعرض الآن بالإيجاز للروايات المتأخرة والحديثة . ونريد بها الروايات التى ظهرت منذ القرن الرابع إلى أيامنا . فنلاحظ قبل كل شىء أن تلك الروايات على وجه العموم تلقب أبا العباس بالسفاح ، مخالفة فى ذلك الرواية القديمة . وهى تمت ذلك الخليفة بالسفاح على أنه سفاك قتال ، فصاحب كتاب الأغانى الذى ينتسب إلى بنى أمية والمتوفى عام ٣٥٦

يمتون فصلا فى كتابه (ج ٤ ص ٩٢ — ٩٦) بقوله : « ذكر من قتل أبو العباس السفاح من بنى أمية » ، ويدير أبو الفرج فصله هذا على قصة سديف الشاعر ، فيزعم أنه دخل على أبى العباس بالحيرة وعنده بنو هاشم وبنو أمية فأنشده قصيدته :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس

ويقول فيها محرضاً الخليفة على الأمويين :

لا تُقيلن عبد شمس عثاراً واقطعن كل رقلة وغراس
خوفهم أظهر التودد منهم وبهم منكم كحز المواسى

قال فتغير لون أبى العباس ، وأمر بمن فى مجلسه من الأمويين فأخمدوا ، وتزيد رواية أبى الفرج أن الخليفة أمر ببساط فبسط على جسوم الأمويين وجلس فوقه يأكل ، فلما فرغ من الأكل أمر بهم فألقوا فى الطريق ، فكانت الكلاب تجرهم بأرجلهم ، إلى آخر ماروى رحمه الله . ويورد ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ نفس الشعر والحادثة ، ولكنه يضيف الشعر إلى شاعر آخر هو شبل بن عبد الله والحادثة إلى عبد الله بن على ، إلا أنه يعقب على ذلك بقوله : « وقيل إن سديفاً أنشد هذا الشعر للسفاح ومعه كانت الحادثة وهو الذى قتلهم »

فأنت ترى أن مانصت عليه الرواية القديمة بكل وضوح وجلاء ، وعزته إلى عبد الله بن على فى يوم نهر أبى فطرس قد عزاه أبو الفرج إلى أبى العباس ، واضطرب فيه ابن الأثير بين النفى والإثبات . على هذا الخلط والاضطراب تقوم الرواية المتأخرة التى تصور أبا العباس شخصية قتالة بشعة تذكرنا بشخصيات جنكزخان وهولاكو وتيمورلنك .

وقد اتبع المؤرخون المحدثون هاتين الروايتين ؛ فمنهم من أخذ برواية أبى الفرج مثل ڤايل الألمانى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » ، وميور الانكليزى فى كتابه « تاريخ الخلافة » ، والمرحوم الخضرى بك فى تاريخ الدولة العباسية ؛ ومنهم من أخذ برواية ابن الأثير مثل المرحوم جورجى زيدان بك فى الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامى .

* * *

أما بعد ، فإنا لم نقصد إلى الدفاع عن أبى العباس دفاعاً مطلقاً ، ولكنّا أردنا إنصافه من طريق البحث العلمى . وعندنا أنه إذا كانت يده قد برئت من دماء الأمويين فإنها لم تبرأ من دم ابن هبيرة الذى استنزله أخوه أبو جعفر من معقله بواسط على الأمان . فإن أبا العباس لم يجز أمان أبى جعفر ، وقتل ابن هبيرة غدراً ، ناسياً قول صاحب الشريعة المحمدية : إن ذمة المؤمنين واحدة يجير عليهم أدناهم . ولم يكن أبو جعفر فى الحق أدنى المؤمنين ، بل من أعلاهم وأشرفهم . والرواية القديمة تعزو إلى أبى العباس هذا الحادث دون أية مواربة ، ولكن ذلك لعمرى لا يسوّغ أن يوصف بأنه سفاح للدماء ، وهو ما نصبنا أنفسنا لنفيه عنه .

بقى أن يقال إن أبا العباس كان الخليفة وهو المسئول الأول عن جرائم عماله . ولكن يردّ على ذلك بأن العصر كان عصر زعازع وهزاهز ، وأن أبا العباس كان مغلوباً على أمره لعمه عبد الله بن على بالمغرب ، ولأبى مسلم بالشرق ، ولم تصفُ الخلافة والسلطان لأخيه أبى جعفر من بعده إلا بعد أن تخلص من هذين الجبارين . وقد انتقم الله منهما على يديه أشد الانتقام .

* * *

ترى هل ثبت أبو العباس على هذا التمحيص ؟ وهل خرج منه كما دخله ، فكان أولاً وآخراً ذلك الخليفة الشاب الوسيم العفيف ، الوفى الكريم الطروب المقتصد الحريص على محادثة الرجال ذوى العقول ؟

أكبر الظن أن قد فعل ؟

عبد الحميد العبادى

٢ – جون ملتن وشعره

على ضوء الأبحاث النفسية الحديثة

كان « ملتُن » مخلصاً لأفلاطونيته وكان يرى أن كثرة التدبر وإمعان النظر في « معاني » أفلاطون كفيلة بأن تخلق في النفس ذلك الدافع الأسمى الذي يهدي الانسان سواء السبيل . وهنا تلتقي الافلاطونية والدين في نفس واحدة . ثم لقد كان يرى أن المعرفة في نفسها ينبغي أن تكون ذريعة من ذرائع الفضيلة وأنها ينبغي أن تخلق في نفس الانسان إرادة تسيطر على حياته الخلقية . فكل معارف الانسان يجب أن تكون سبيلاً لإدراك الأمثلة العليا التي أثبتها أفلاطون . وكلما كسب الانسان معرفة كان جديراً به أن يتقدم ويتهدأ نحو تلك المثل حتى يبلغ حالة أدنى إلى الكمال . وليست العفة ولا الفضيلة إلا واحداً من تلك المثل . فكل تفكير المرء في المرأة جدير بأن يتقدم به نحو حالة مثالية بينه وبينها ؛ وهي حالة نبيلة فيها الحب العذري الكريم ، وفيها الطهارة السامية والوقار الانساني .

ثم هو في إحدى مباحثه (١) يعالج تلك الافلاطونية معالجة الواثق الوقور . وكان لم ينيف على الخامسة والعشرين إلا قليلا حينما كتب Comus . حيث صور فيها الفضيلة آمنة مطمئنة وسط عاصف عنيف من التضليل والاغراء . فهو يصور فيها فتاة ضلت الطريق في غاب واسع موحش ، وهي تلتقي بروح الشر نفسه . وكان « كومَس » Comus الذي التقت به هو الرذيلة في أشد صورها إغراء ؛ من ذلك لم يستطع أن ينال منها مأرباً ؛ ذلك بأن الفتاة في كل ذلك كانت تمثل حالة عقلية خاصة هي التي صدت الرذيلة صداً .

(١) قصد بذلك Comus وهي نوع من أنواع الملاهي اسمه Masque يشبه المسرحية لولا أن علية القوم هم الذين كانوا يقومون بأدواره فيمثلونه في بيت من بيوت النبلاء ويلبسون فاخر الثياب .

والحالة العقلية عند « ملتُن » هي التي تقيم الفضيلة في النفس ، فاذا هي ماتت أو التوت ذهب الانسان نهباً مقسّماً بين الهوى وبين الخداع .

كان في الخامسة والعشرين أو يزيد حينما صور الفضيلة هذا التصوير . ولكن أين العنصر الشخصي في كل ذلك ؟ لم يكن « ملتُن » إلا تلك الفتاة ، لأنه استطاع وهو في تلك السن أن يصد عن نفسه كل لون من ألوان الاغراء . انتهب غيره ملذات الحياة وعبّ غيره منها عباً ولكنه كان وهو فتى في ورع الكهل ، فهو لم يخلق ليكون نهباً مقسّماً بين الهوى وبين الاغراء . بل صدف عن مزالق الشباب واستعان على الشر بقوة التفكير وقوة الارادة وقوة الخلق . واستطاع أن يعيش زكيّ النفس ، لا تأخذ منه الرذيلة ولا يستهويه شيطان يخلو إليه .

وإذا نحن انتقلنا بعد ذلك إلى كبرى آياته وهي « الفردوس المفقود » (١) رأيناه يزيد تلك الصورة وضوحاً ، وتحس وأنت تقرأ تلك الملحمة أنك أمام صورة من خيال الشعر . وهو يصور الفردوس حينما كان يعيش فيه آدم وحواء قبل أن يقربا الشجرة المحرّمة . وترى في « الفردوس المفقود » فكرة مزدوجة هي التي تؤلف فلسفة « ملتُن » في المرأة . أما هذه الفكرة فهي تآلف الاحساس الجنسي من ناحية والمعرفة من ناحية أخرى . وبين آدم وحواء أوشاج من الحب النبيل ، وحواء نفسها لم تكن إلا صورة من العاج والذهب بينها وبين آدم ذلك التعاطف الكريم : يسكن إليها وتسكن إليه ؛ بل هما قد سلبا معرفة

(١) Paradise Lost .

الشر لأن الشر لم يدنس تلك الجنة الطهور ؛ وهما لم يفرقا بين الطيّب وبين الخبيث لأن حياتهما كانت طيبة متصلة . وهما لم يعرفا الرذيلة لأن حياتهما كانت خلواً مما يميز بين الفضيلة وبين الرذيلة .

تلك الصورة النبيلة التي صوّرها « ملتُن » في الجزء الرابع من « الفردوس المفقود » وهي صورة من الحب الروحاني حيث يجد الرجل والمرأة تناسقاً أو تآلفاً بين روحيهما ، وحيث كان الغرام الجنسي نفحة من نفحات الله وسراً مقدساً من أسراره . فكان الحب شيئاً يتصل بالالهام أو الايحاء ، لكنه لا يتصل بالعلم ولا بالتدبير .

وقد أفاض « ملتُن » على صورة حواء جلالاً وجمالاً تحدرا إليه في أصول الأدب الأوربي ؛ فحواء في « الفردوس المفقود » تشبه المرأة في خيال العصور الوسطى حينما كانت النساء قانتات عابدات يبعثن في نفوس الرجال شعور النجدة والنخوة والإقدام .

وكأنما لم يفقد « ملتُن » وهو في سن الستين ما كان يؤمن به وهو في الخامسة والعشرين ؛ وهذه الصورة التي صورها في « الفردوس المفقود » تشاكل النفسية الطاهرة النقية التي أملت عليه Comus ؛ فهو قد انتزع ذلك الخيال من كل الذي اختلف على عقله من فلسفة الافلاطونية ، ومن طهارة الدين . فأنت تحس بالشاعر ماثلاً في كل تلك الصورة التي رسمها في قصيدته .

* * *

لكن « ملتُن » لا يطمئن طويلاً إلى ذلك الخيال الروحي الذي أقامه في Comus والذي تبلج في الشطر الأول من « الفردوس المفقود » ؛ ذلك بأنه يهوى من ذلك الخيال فيرتطم بالواقع ، وهو يهوى من ناحية الروح إلى ناحية اللحم والدم . وهو يصدف عن الخيال مدحوراً فيلتقي بالحقائق الجامدة .

و « ملتُن » يرسم لك صورة أخرى لآدم وحواء بعد أن يقربا من الشجرة التي حرم الله عليهما ، وبعد أن يأكل الاثنان تتفتح عيونهما على صورة من صور الشهوة والاثم ، فهما يدركان الخجل لأول مرة ، ويعرفان أن هناك شيئاً اسمه عار . وتشحذ تلك الأكلة إحساسهما الجنسي فيسرفان على نفسيهما ، ثم يدركان أن ذلك النبل الروحي قد تزايل ، وأنه قد حيل بينهما وبين تلك العذوبة الروحية التي كانا يتذوقانها عن جهالة قبل أن يقربا الشجرة التي حرم الله .

لقد أوتي آدم وحواء بعد الخطيئة العلم بالخير والشر ، وبالفضيلة والرذيلة ؛ وكان الشيطان هو الذي أغرى بهما ؛ فهبطا إلى الأرض حيث اضطربا في نواحيها ، يصيبان وأولادهما الرزق . وكذلك هبط « ملتُن » من عليا، خياله إلى الحقائق الدنيا ، وعرف أن الصورة التي رسمها وهو في سن الخامسة والعشرين لم تكن صورة كاملة للعلائق بين المرأة والرجل . كان يتحدث حينذاك عن الغرام الروحي كفنّ ، لكنه لم يكن يعلم أنه قد كلف نفسه شططاً .

وحينما كتب « الفردوس المفقود » وهو يتقدم إلى سن الستين كان يعلم أن لحقائق الحياة مرارة ، وأن إلى جانب الحب المعنوي شهوة بهيمية قد تطغى عليه . وبين الخامسة والعشرين وبين الستين كان « ملتُن » قد عرف مرارة الفشل وأدرك أن العلاقة الجنسية ليست هي العفة وحدها ولا النبل وحده ولا الفضيلة فحسب .

وإذاً فقد انتهى الكفاح بين العاطفة والعقل بهزيمة العاطفة ؛ وإذاً فقد برزت أمام « ملتُن » تلك الحقائق ، فهبط خياله على قصة أخرى من قصص الانجيل ، واستخرج منها مسرحية ، هي التي أسماها « كفاح شمشون »[1] وهي تمثل الفشل الذي لقيه ملتُن في حياته الدينية والسياسية . وفي الحق لقد كانت تلك المسرحية خاتمة تمثل السنين الأخيرة من حياة ملتن أدق تمثيل . كانت زفرة من تلك الزفرات التي يرسلها المحزون حينما يطلم عليه الخطب وحينما

(١) Samson Agonistes

يرى مثله العليا تنهار جميعاً . وبين « شمشون » وبين « ملتن » كثير من علائق التشابه . فقد كان شمشون قوياً قذف الرعب فى قلوب أعدائه ؛ وكان ملتن قوياً يخشاه أعداؤه ، وفقد شمشون بصره ، وكذلك فقد ملتن بصره فى سنة ١٦٥٢ ، وانتهت حياة شمشون بأن أسلم الأمر لله ، وكذلك فعل ملتن ؛ فقد رجع شارل الثانى فى سنة ١٦٦٠ ومشت فى ركابه الكثلكة وقضى على التطهرين . وكذلك قبع فى عقر داره محزوناً ضريراً يبنى ذلك الخيال السامق الذى أقامه على فلسفة أفسدتها حقائق الحياة .

والمرأة كانت فى « شمشون » عاملا من عوامل ذلك الفشل المروع . فقد حسب شمشون أن زوجه دليلة ستكون برّة به مخلصة له تخاب فأله . وصور ملتن المرأة فى تلك المسرحية كما يكون الشقاء التمام .

أما شمشون فهو مازال قوياً على الرغم من كل ما أصابه من ألم لاذع يحز فى النفس ، وإشفاق ممض يكاد يبعث اليأس والأسى . على أنه يتملق بقوة عقله التى لا تصدع بإغراء دليلة ، ومازال بأعدائه حتى يرديهم حتفهم جميعاً ، ويموت معهم فى صعيد واحد .

ولم يكن شمشون فى كل ذلك إلا صورة تمثل ملتن نفسه ، وهو يصب جام غضبه على المرأة ما شاءت له الأيام المنكودة التى عاشها بعد أن أخطأه التوفيق .

* * *

وكذلك نرى « ملتن » موزعاً بين عاطفة شديدة تهفو للمرأة حيناً ، وتنبو عنها فى أحيان أخرى . وهو لم يكن يعبر فى كل ذلك إلا عن تجارب خاصة . فهو فى مبدأ حياته كان أفلاطونياً متديناً ، يقدر العفة ويدعو إلى الفضيلة . على أن كل الذى كان يكتبه إنما يصدر عن شعور جنسى حاد يهذبه الخيال . وهو فى أخريات أيامه صور المرأة فى صورة الشيطان الذى يسى بالنميمة والوقيعة والرياء .

ولكن ما شأن حياة ملتن وكل هذا ؟ إن فى حياته مواطن جديرة بالتفطن والتدبر . فانه لم يوفق فى حياته الزوجية ، فقد تزوج وهو فى الخامسة والثلاثين من « مارى باول » Mary Powell وقضت معه سبعة أيام ، بعد ليلة العرس تبين خلالها أن الفرق عريض بين الحقيقة والخيال . فقد كان يرجو الأمن والطمأنينة ، وهو لم يجد عندها أمناً ولا طمأنينة . وكان يريد شيئاً ينسق بينه وبينها ، فاذا هى تختلف عنه حتى فى المذهب السياسى . لذلك شجر بينهما خلاف عنيف أدى إلى الفرقة المؤقتة . وغضب « ملتن » أشد الغضب حتى لقد كتب فى تلك الفترة يؤيد الطلاق فى المسيحية . وماتت « مارى باول » فى سنة ١٦٥٢ أى فى نفس السنة التى فقد فيها بصره . وتزوج بعدها من ثلاث أخريات لم يكن لهن من الأثر فى نفسه أكثر مما خلفته زوجه الأولى .

ولأنه لم يوفق فى حياته الزوجية الأولى ، ولأنه لم يلق من النساء اللائى عاشرنه ذلك التعاطف الذى كبر فى وهمه ، فقد وجد ملتن موجدة صاخبة على بنات حواء . ولذلك فقد أنتج هاتين الصورتين اللتين حاولنا أن نرجيهما إليك : صورة المرأة فى جلالها وجمالها ، وصورة المرأة فى حياتها البهيمية العمياء ، صورة الحب كفنٍّ والحب كملم ، أو قل صورة الغرام القدسىّ وصورة الشهوة العاتية . ونرجو أن نكون قد تأثرنا العلاقة بين حياة ملتن الخاصة وبين كل ذلك . لأنه كما أسلفنا مثل للشعراء الذين أحالوا مثاً كلهم الخاصة إلى مثل كل عالية شغلوا بها الناس .

والمرأة التى صورها ملتن ذلك التصوير المتناقض لم تكن إلا نتاجاً لدراساته المختلفة ولإيمانه القوى بالأفلاطونية من جانب ، وبالدين من جانب آخر . وليس التناقض بين الصورتين إلا مثلا لذلك الكفاح الحاد الذى قام بين العاطفة والعقل فى نفس ذلك الشاعر العبقرى .

أحمد خاكى

أحمد بن طولون

بقلم منصور البلوى[1]

صوّر البَلَوى أحمد بن طولون صورة جميلة ، وخلع عليه من الثناء ثوباً فضفاضاً . صوّر ذكاءه وقوة ملاحظته ، ووسع فراسته وسياسته ، وعدله ورحمته ، وصدقاته ومكارمه ، مُعْتَجباً بكل ما أكد ، عاذراً له على ما قدمت يداه ، لم ينقده في شيء مما قصّ من أخباره . ونسب كل ما وقع له من موت عدوّ ، وتبديل في مجرى أحوال الدولة ، أو غير ذلك من المصادفات ، إلى الإقبال الذي عرف به طالعه ، والحظ الذي « حسّن قبيحه وأصلح رديئه » . والبَلَوىُّ يعتقد بالإقبال كثيراً ، يقيم للطالع والنجوم والمنامات والكرامات وزناً على ما كان أهل عصره .

والمعقول أن ليس هناك إقبال ولا بخت ، والعامل في توفيق ابن طولون تربية صالحة ، كانت من أرقى ما عُرِف في دهره ، وذكاءٌ نادر تفرد به دون أبناء جنسه . نشأ في أشرف عصور بغداد جنديًّا مطبوعاً على أجمل صفات الجندى الشريف ، ولُقِّن في بيته وهو طفل أموراً أفادته في حياته ، وحفظ القرآن وجوّده وتَفَصّح بالعربية فعُدّ من فصحاء رجال السياسة بلسانه وقلمه ، وأخذ عن المحدّثين قطعة صالحة من العلم ، ورُزِق صوتاً جميلاً ، وأتقن الموسيقى ، ونظم الشعر بالتركية لغة أبيه وأمه .

وتأفف في مُفْتَتَح شبابه من الظلم الذي يأتيه الأتراك في عاصمة الخلافة ، فآثر الهجرة إلى طَرَسوس من مدن الثغور ، وكانت يومئذ مقيل القراء والعلماء والزهاد ، فتخرّج بهم وتأدب بآدابهم ، وانصرف إلى العبادة حتى كان يخشى أن لا تصادف أعمال السلطان موقعاً من قلبه لانصرافه إلى أمور الدين . ولما عُهِد إليه منصب الولاية في مصر نيابة عن باكباك من وزراء العباسيين تجلى نبوغه بأجلى مظاهره ، وثبت غرامه بحسن التدبير والنظام ، واستبان طموحه وثقته بنفسه .

ومن حسن حظه أن كانت ولايته على مصر ، ومصر من طبيعتها أن تُغرى من يزلها بالتوطن فيها ، وأن تُدمج فيها غيرها ولا تندمج هي في غيرها ، ومن العسير على بغداد أن تحكم مصر مباشرة للبعد الباعد بينهما ، ومصر وسط رمالها يتعذر الوصول إليها من البر ومن البحر . وطبيعة القطرين متخالفة ، وبلاد الرافدين يومئذ مشغولة بفتنة عظيمة كادت تودى ببنى العباس ، وهى فتنة الزنج في البصرة .

ومما ساعد ابن طولون على التوفيق في حكم مصر أن كان في طباع أهلها من الانقياد لمن يتقلدون فيه الإخلاص لهم ، والحرص على إسعادهم ، ما ظهر أثره في الدول السالفة والخالفة . وفي هواء مصر وتربتها خصائص تطلق عليها اليوم اسم « الإقليمية القبلية » . ومصر إلى هذا تعتقد بالأمر الواقع ، إذا كانت حسنات راعيها أكثر من سيئاته ارتضته وتَبنَّته ، وسايرته في السبيل التي يُزجّيها فيها .

(١) يقلم الأستاذ محمد كرد على بك ، ناشر سيرة ابن طولون للبلوى التى يصدر قريباً بعناية المكتبة العربية بدمشق ، في أربعمائة صفحة .

أول ما فكر فيه أحمد بن طولون لما هبط مصر أن يبعد الفوضى عن أحكامها وتراتيبها ، فوضع لها قواعد فرض عليها العمل بها ، فأفلح فى ولايته ، وأراحت رعيته . نظر إلى خصب تربتها وسهولة العيش فيها ، وإلى تدنى خراجها ، بعد أن كان بوفرته مضرب الأمثال عند العرب ؛ فأصلح ، برأيه السدود ، الرىّ والصرف والجسور والطرق والترع ، وأسقط ضريبة المعاون وغيرها من الضرائب ، واكتفى بالخراج والمكوس ، فبلغت عبرة خراجها أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار ، عدا المكوس التى تجبى فى المواني والحدود ، ذلك بعد أن انحط خراجها إلى ثمانمائة ألف دينار ، وما كانت تجبى إلا بشىء من العسف .

هذا هو سر نجاح ابن طولون فى حكم مصر ، لم يعرض له البلوى وأشار إليه المؤرخون . وهناك سر آخر له صلة بهذا ، وهو عنايته بتحسين حال الفلاح ، ونشر العدل بين الرعية ، لا فرق بين مسلم وقبطى ، ورومى ويهودى .

قام فى نفس ابن طولون أن ينشىء فى مصر دولة ؛ فأمر بإنشاء القطائع ، وبنى قصره « الميدان » على مثال قصور الخلفاء فى الخلافة ، وعمر رجاله وغلمانه الدور والقصور وتنسّكوا فى النعيم . وما خلت بلاد الأقاليم أيضاً من استيفاء حظها من العمران ، فأضحت عاصمة الديار المصرية فى أعوام قليلة كأعظم مدينة من مدن الشام . زعموا أن ابن طولون عثر على كنوز عمر منها جامعه العظيم ومستشفاه والعين والحصن ؛ والحقيقة أنه كانت تفتح له كل عام كنوز من أرض مصر وثروتها الطبيعية .

صرف جهوداً عظيمة لتثبيت قدمه بالديار المصرية كما يصرف فى العادة كل من يفتح فتحاً جديداً ، ويحاول أن يصفو له إلى الأبد . وجرؤ على نزع يده من قيود بنى العباس ، وكان من اشتغالهم بأنفسهم أن سار حراً طليقاً لا يخضع لسلطان لا يرضيه شىء ، ولا لخليفة على كل يوم إرادة عليه . وحركته لم تخف على أهل البصر من أصحاب الدولة ، ومن يهمهم بقاؤها عباسية .

عرف ابن طولون من أين تؤكل الكتف ، فاختار من المصريين ومن غيرهم طبقة من الوكلاء والسماسرة والزبانية والمدّاحين ، وأغدق عليهم إدراراته ، فهيأوا له الطريق إلى المجد ، واستماتوا فى حبه ، وأخلصوا له القصد فى الخدمة . وهو بما فطر عليه من بسطة اليد كان يرضى الخليفة بما كان يرسله إليه مُسانَهةً من المال ، ويرضى ولى العهد ، وإن كانا فى الظاهر متشاكسين ، ويرضى خزانة الدولة وخزانته الخاصة ، ويرضى أصحاب السلطان وطبقات العلماء والقراء والفقراء فى بغداد ، ويرضى أهل الثغور والعواصم والحرمين ، بما كان يحمل إليهم من المؤن والعدات والثياب والأموال ، ويرضى أهل الشام والجزيرة وبَرْقَة بما كان يوليهم من عطفه ولطفه ، ويرضى كل من تحدثه نفسه أن يخالفه فى تقلّد عمل مصر ، ويرضى قواده وكتابه وغلمانه وجميع من يمتّ إليه بصلة . ويعيش مع هذا هو وآله عيش الملوك ، لا عيش أبناء الأجناد من الولاة والمتصرفين . وخلّف فى خزائنه من الناضّ ما لم يخلف مثله قبله أحد من الولاة ، خلف على ما قيل عشرة آلاف ألف دينار أو خمسة ملايين جنيه ذهباً ، عدا عشرات الألوف من العبيد والمماليك والجوارى والخيول والبغال والعُدد والآلات ، وعشرات من أسفاط الجواهر والحلىّ ؛ وبلغ رَيْع إقطاعاته خمسين ومائتى ألف دينار فى السنة ؛ وأقام فى مصر من المصانع ما كانت حضرة بنى العباس عاجزة عن محاكاته .

كان لشدة انتباهه إذا رأى منفذاً يتسرب إليه منه ضرر يسعى إلى ردمه ، وإذا شاهد خدشاً يخاف أن يستحيل جرحاً نغّاراً يبادر إلى معالجته لساعته بضروب من الوقاية . وكان يتفنن فى أخذ الأخبار إلى ما لم تصل إلى

أكثر منه أعظم الدول مهارة فى الجاسوسية اليوم ، وإلى ما لم يتسامَ إليه رجل من عظماء التاريخ فى الدول الإسلامية . ولو تساهل فى هذه السبيل ما صفا له ملك مصر والشام وما إليهما هذه الحقبة . ووفق لأن يشهد مصرع أعدائه واحداً بعد واحد ؛ ونال من بعض مَن طاوَنوه على قيام دولته ، لمّا اعتقد أنهم يخالفونه فى بعض الطرق ، لم تأخذه بهم شفقة ، ولا شفعت بهم لديه سابقة من خدمة ، أو يدٌ سلفت من إخلاص ، فصفا له بذلك جوُّ مصر وجوُّ بغداد .

كان ابن طولون مُحبَّباً فى سيرته ، إن احتملت نفسه كل مخالف فلا تحتمل من ينابذه فى رأيه ، ويعترض على عمله ولو فى سرّه ، يتطالُّ إلى توحيد كلمة الناس فى التغنى بحمده ، ومن خرج فى نظره عن الحدود المرسومة عوقب بالقتل . منح الناس حريتهم فى النطاق الذى ارتآه ، فإذا اصطدم بما يردهم عليه ، وأدرك من طرف خفىّ أنهم من المارضين ، أو ممن يفاوضون أعداءه ، أو يفاوضهم أعداؤه على غير علم منهم ؛ فهناك الإفراط فى تطبيق مفاصل قانونه ، لا يسمع حواراً ولا مناقشة ، ولا يسير إلا مع حظ نفسه ينتقم لها .

وقد يُهلك رجلاً لا يستحق جرمه أكثر من مؤاخذة أو بكاء فى تعزيره حبسه أو تشريده ؛ وقد يغضى عن كبير الجرم لأنه رق له ، أو كانت له به صلة ، أو جاءه فى حالة سرور ، كما فعل مع ابنه العباس ، عصى عليه فضربه مقارع يسيرة واعتقله ، وقضى ، على أفظع صورة من التمثيل ، على من رافقوه إلى بَرْقة وطرابلس .

ما عرف ابن طولون الوفاء ولا الولاء : كان إذا غضب أساء إلى أقرب الناس إليه ؛ ولا يزال يسىء الظن بالمخلص له إساءته بالخائن ، لا يثق حتى بمن صدقوه ، وكانوا من أكبر العوامل فى إنشاء دولته ، مثل أحمد بن محمد الواسطى الذى رافقه منذ ظهوره فى واسط إلى آخر أيامه . وما كان يهدأ له بال إلا إذا اطلع على ما تنطوى عليه قلوب عماله ؛ ولهذا كان يُعنى من يقلده أمر البريد . وإلى البريد يومئذ تُردُّ مراقبة العمال وغيرهم . ويعنى من ندبهم لموافاته بالأخبار فى بلاده وخارجها .

كان يُدِرُّ الرواتب على عماله وقوّاده وغلمانه وجنوده يقبضونها مشاهرات ، ويجزل لهم الهبات والصلات ، ليتعفّفوا عن ظلم الناس ، آمنين على رزقهم ورزق عيالهم ، ويجرى على المستورين والمستورات ، ويحسن إلى الفقراء بإطعامهم وكسوتهم ، ويحمل من ترضيه سيرتهم على دوابه ، ويجرى الجرايات على المحاويج والمعوزين ، وجريدة صدقاته طويلة ، ومن قُدِّر له الوصول إليه ساعة رضاه يسعد . وكان يُفْضِل على النُّسَّاك والقرّاء والفقهاء والمحدّثين والمتطببين والمهندسين ، يجرى عليهم ما يكفيهم ، ولا يُعْنَى كثيراً بالمنجمين والشعراء على ما يظهر ، لبعده عن الاعتقاد بتأثيرات النجوم على أهل الأرض ، ولا تُهمه كثيراً مصانعات الشعراء . وقد مدحه البحترى ثم هجاه ، وتوفّر محمد بن داود على هجوه عند كل سانحة .

ظهر أن ابن طولون كان من الحافظين المأخوذين بعادات لهم موروثة ، يحافظ على صلواته ، ولا يخلو يوماً من التوسل والتضرع والسجود فى الملأ . وظهر أنه كان معتدلا فى عشرة النساء ، لا يُفْرِط فى التسرى واقتناء الجوارى ، وهمه أبداً حفظ نعمته ، وصيانة دولته . فهذّبه يحب المنادمة والطرب ، ويعقد مجالس الأنس أحياناً ، ويتناول ما استحل تناوله من الشراب ؛ وكان حتى فى مجالسه الخاصة ، يؤثر الوقار ويصطنع التقوى ، وهو يحسن الجمع بين اللذات المحللة ، ويمتنع على ما يظهر عن المحرمات ؛ فهو ذو شخصية عانت كل عباب ، وطرقت كل باب .

أحسن ابن طولون الاضطلاع بأعباء الحكم ، وتمرّس

بالسياسة ، وقدَّر التبعات التي ألقيت على عاتقه ، فكان يهون عليه إتعاب نفسه لتستريح رعيته ، ويسهر عليهم ليناموا مطمئنين ؛ وبفضل يقظته ما نجم ناجم يجاذبه حبل السلطة إلا قضى عليه ، ولا قاومه عامل أراد خدمة بغداد على حسابه إلا قهره ؛ ومعظم أهل هذه الطبقة قضوا في سجنه ، أو تحت سياط جلاديه ، وجُرُّوا بأرجلهم جرًّا من حضرته ، على مكانتهم في أنفسهم .

حسب ابن طولون حساب كل طارىء ، وما كان يدور في خَلَده أن يفترص ابنه البكر المسمى بالعباس فرصة تغيُّب والده عن مصر فيجيِّش وهو نائبه عليها جيشاً ، ويستتبع أناساً من رجال أبيه ، ويحمل أموالاً وآلات كثيرة ، ويرحل إلى بَرْقَة يرفع لواء العصيان على أبيه فيُرمِضه ويؤلمه . وكان من لؤلؤ ، وهو غلامه وغذيُّ نعمته ، أن ثار عليه في آخر عهده ، وفي أحرج أوقات حكمه ، فأخذ أموال الجباية من الشام والجزيرة ، ولحق بالموفق عدوّ ابن طولون اللدود في دار السلام ، فباع ابن طولون حرمه وولده في سوق الرقيق .

كان ابن طولون في الظاهر ليّن الملمس لمن في بغداد ، وهو في باطنه شديد الوطأة عليهم ، لا ينزل لهم عن أقل حق من حقوقه ، هو يتقيهم لإيقانه أنهم لا يُرضيهم سيره بحال ؛ وكيف يرضون عنه وهم يتوجسون خيفة من انبساط ظلّ حكمه ، ولا ينفكون يذكرون ويذكّرهم الذاكرون أنهم دونه علماً وعقلاً وعدلاً ، وأنه يخشى أن يكيد بعد حين لبني العباس ؟

وكان من جملة وصاياه لقوّاده ولأبي الجيش ابنه وخليفته ألا يغتروا بمخاريق أهل العراق ، وألا ينسوا ما في نفوسهم عليهم ، وأن يذكروا أبداً أن من في مصر شجاً في حلوق من في بغداد ؛ وتقدم إليهم ألا يضعوا أيديهم في أيديهم ، وقال لهم إني أعرف ذنبي لهم . وكل هذا يدعو إلى التفكير في إخلاصه للعباسيين ، ويلقي الشك في تَزيُّده بإظهار إخلاصه لهم ؛ وإن دعواه أنه لا أرب له في نشوزه على ولي العهد إلا دفع عدوانه على أخيه مسألة فيها نظر ، وهو يعلم علم اليقين بأن الموفق يعمل ليله ونهاره في دفع صائل الأعداء عن دولتهم ، وأن المعتمد لا يستجيب لغير صوت شهواته . ويلمح من يقرأ ما في القلوب أن الحرص على الاحتفاظ بحقوق المعتمد ليس كله من أجل بيعة له في عنقه كما كان يزعم ، ولا كان انتصاره له بعامل ديني قويّ في نفسه ، بل كان هناك أمور يكنها صدره ، ولا يعرف غيره سرّها ، وربما كانت تظهر لو لم تعاجله المنية .

ولولا حرب علويّ البصرة ما تيسر لابن طولون أن يحكم هذه الأعوام الطويلة في وادي النيل ؛ ولولا أنه أصهر إلى بارجوخ من قوّاد الترك في بغداد ما صارت إليه مصر مرة ثانية نيابة عن حميه أيضاً ، كما كانت له على عهد باكباك ؛ ولولا أن ملأ قلوب رجال الدولة وصدورهم بهداياه ورشاواه لتقدم بعض الأقوياء من أصحاب السلطان فاستولى على مصر قبل أن ترسخ قدمه فيها . وما كان بُعد ولايته عن الحضرة ، ولا صعوبة الوصول إليها ، ولا المائة ألف عنان من جيشه لتنفعه لولا أن جاء في غفلة الدهر ، وبنو العباس محكومون فعلاً للأتراك ، لا يعملون إلا ما يرضيهم ؛ ومن عادة العباسيين إذا استبسلوا افترسوا ، وإذا ضعفوا استكانوا وذلّوا .

وأيّاً كان ، فأحمد بن طولون وحيد عصره في إدارة الملك ، رزق صفات تعذر اجتماع مثلها فيمن عاصروه ، وحسناته على التحقيق أوفر من سيئاته . ومهما قيل في مؤاخذته فهو إلى الاعتدال أقرب من معظم أمراء تلك الأيام . رأيناه لما حاول الموفق أن يُقصيه عن ولاية مصر كيف يعمد إلى استدعاء الخليفة المعتمد إلى مصر

ليقيم فيها الخلافة العباسية ؛ فلما تعذر نفوذ الخليفة إليه قام بخلع الموفق في مدينة دمشق ، ذاكراً في وثيقة خلعه أسباباً معقولة تنم عن جَرْبَزَة ودهاء ؛ على حين رأينا الموفق يتقوّل عليه ، ويشتمه على منابر بلاده ، ويرميه بالمروق من الدين ، ويتهمه بإخراب ثغور المسلمين ، وبقتال المجاهدين بأهل الفسق الملحدين ، وباستباحة الحريم وسفك الدماء ؛ وكل هذا لم يحصل منه شيء ، وكانت سياسة ابن طولون عكس ذلك ؛ كان يغضّ عن مساوئ أصحاب الثغور ، يمونهم ويقويهم ليكونوا في حرز حريز من مطامع الروم . وعَهِدَ السلطان إلى غير واحد أن يحموا حمى الثغور فأخفقوا ، وما أمن عليها إلا لما عهدت حمايتها إلى كفاءة ابن طولون .

وبعد ، فإن أنكر منكر شيئاً على ابن طولون فأكثر ما ينكر عليه إسرافه في سفك الدماء ؛ قتل فيما قيل في سجنه ثمانية عشر ألف إنسان . والمنكر اليوم يتكلم بعقلية ابن هذا القرن الناشئ على حب الحرية ، المتشبع بحقوق الانسانية . ولا مرية بأن الدماء كانت رخيصة في الأزمان الماضية ؛ وكان ابن طولون يحاول مع هذا أن يظهر بمظهر الشفقة ؛ وما ندري هل كان ذلك منه عن تدين ورحمة ؟ إن معظم رجال السياسة كرجال المال قساة القلوب ، غلاظ شداد ، لا يحنّون ولا يعطفون ؛ وهم ، وإن حاولوا الظهور بما يقضي به الدين ، أشد الخلق تحللا من جوهره في باطنهم .

إن ست عشرة سنة قضاها ابن طولون في تأسيس دولته ، قد يقضي الطغاة في الحكم مثلها وضعفها ، ولا يقوم لهم عمل ، ولا يتم لهم مشروع ؛ أما هو فقضى في آخر العقد الخامس من عمره محققاً الآمال بإصلاحات كثيرة ابتدعها فحدثت من بنات أفكاره ، كعنايته بوضع الأضابير والجزازات والتقاييد ؛ فكان حيث انقلب يصحبه كاتب يدون كل ما يقوله وما يقال في حضرته ، فإذا كان الليل خلا بكاتبه ، وأصلح له ما كتب ، ليحفظ ما دار من الكلام على حقيقته ويرجع إليه عند الاقتضاء .

كان الراضون عن حكم ابن طولون ، المغتبطون بأيامه ، أكثر من الناقمين ؛ استراح الناس إلى أحكامه ، على أنه صورة من رجل الاستبداد يخالط سيرته تدين وتصوّن ، في عصر فسد بعض أوضاعه ، وفي دولة قامت باسم الدين وهدفها الدنيا . يسترخص الصالح والطالح من أصحاب ولايتها إهراق الدماء ؛ وهل كان ابن طولون إلا واحداً منهم ؟ تثقف في تلك المدرسة ، وجرى على تلك الطريقة ، استحل احتجان الأموال كما كانوا يحتجنون ، وجار على من لا تسمع أصواتهم ، وهو إلى هذا يطعم الفقراء ، ويصطنع الرحمة ، ويجود على من ينفعه أو يتوقع نفعه ، ويقيم الشعائر الدينية ، ولا يعمل إلا ما فيه فتنة العامة ؛ بيد أنه كان ممن يأخذ ويعطي ، ويخزن وينفق ، ويعدل ويظلم ، ويجمع بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة . يعرف ما يريد وما يراد ، وما يجب وما لا يجب ، وهدفه الأسمى استقلاله بالديار المصرية ، وتركها إرثاً شرعياً لأولاده من بعده ؛ سعى لذلك ضروب السعي ، وما تعفف لبلوغ غرضه عن ارتكاب كل عظيمة .

لأحمد بن طولون مشابه من الحجاج بن يوسف الثقفي ؛ يتشابهان في إحسان السياسة ، والتجديد في طرق العمل ، وبقوة العزيمة وشدة البطش ؛ الحجاج مثال العربي الحازم في القرن الأول ؛ وابن طولون مثال التركي الحازم في القرن الثالث ؛ جاهد الحجاج لتكون كلمة دولته هي العليا ، وجاهد ابن طولون فكان جهاده لنفسه ولبيته ؛ ذلك لم يخلف من حطام الدنيا شيئاً يعتد به ، وهذا خلف من الخزائن والكنوز ما لم يخلف أعظم أمراء تلك العصور مثله .

(دمشق) **محمد كرد علي**

٣ – بدائع الفنون الاسلامية بمتحف بناكى فى أثينا

لمحرر «الثقافة» الفنى

كتبنا فى عددين سابقين من «الثقافة» عن متحف بنا كى فى مدينة أثينا ، وعن المجموعة الثمينة التى يفخر بها من التحف الاسلامية ، والتى تشهد بنبوغ الفنانين المسلمين فى عالم الصناعات الزخرفية الدقيقة . وذكرنا أننا لا نعرف متحفاً خارج تركيا فيه ما فى متحف بنا كى من تحف إسلامية تركية الطراز .

واليوم نأتى بصور أخرى لبعض النفائس المحفوظة فى هذا المتحف . وجلها من الخزف الذى اشتهرت بصناعته آسيا الصغرى فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الهجرة (السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) . وكان هـذا الخزف يغطى بقشرة بيضاء وفوقها رسوم حدودها سوداء ، وألوانها حمراء أو زرقاء أو خضراء أو صفراء ، وفوق الرسوم طلاء أبيض شفاف وبراق . وقد صنع الخزفيون منه الأوانى المختلفة فضلا عن تربيعات القاشانى التى كانت تغطى بها الجدران وينقش فيها على كل تربيعة موضوع زخرفى قائم بذاته ومكرر فى التربيعات الأخرى أو أجزاء يكمل بعضها البعض لتصبح فى مجموعها موضوعاً زخرفياً كبيراً .

وامتازت زخارف هذا الخزف برسومها النباتية التى تمثل الطبيعة فى دقة عظيمة وما فيها من الزهور المختلفة المرسومة بمهارة فائقة تدل على تأثر الفنانين فى رسمها بالأساليب الفنية الايرانية . وفضلا عن ذلك فان فى كثير من الأوانى الخزفية التركية رسوم بعض الطيور والحيوانات . وقد كان هذا الخزف ينسب خطأ إلى جزيرة رودس ؛ ولكن الثابت أن جله من صناعة الخزفيين فى مدينة أسنيك (نيقية) التى كانت أعظم مراكز صناعة الخزف التركى فى منتصف القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . ولا تزال جدران بعض العمائر القائمة فى استانبول وبروسة وغيرها من المدن التركية الكبيرة مغطاة بتربيعات القاشانى البراق ذى الزخارف النباتية الجميلة .

ولكن صناعة الخزف التركى تطرق إليها الضعف منذ نهاية القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، فأصبحت ألوانها باهتة ، وقل إتقان الزخارف ، وظهر الاهمال فى الأساليب الفنية .



قطعة من « القطيفة » المصنوعة بمدينة بروسة فى القرن ١٠ هـ — ١٦ م



قنينة من الخزف المصنوع بآسيا الصغرى فى القرن ١١ هـ — ١٧ م



طبق من الخزف المصنوع في آسيا الصغرى
في القرن ١١ هـ — ١٧ م



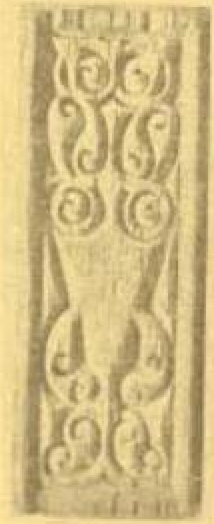
حشوة من الخشب ذي الزخارف
المحفورة . من صناعة مصر
في العصر الأيوبي



طبق من الخزف المصنوع في آسيا الصغرى
في القرن ١١ هـ — ١٧ م



تربيعات من الخزف المصنوع في آسيا
الصغرى ، وعليها رسم الكعبة



حشوة من الخشب ذي الزخارف
المحفورة . من صناعة مصر
في نهاية القرن ٤ هـ — ١٠ م



قنينة من الخزف المصنوع في آسيا الصغرى
في القرن ١١ هـ — ١٧ م

تضحيـــــة الأرنب

قصة روسية (لنيكولا شدرين)

كاتب هذه القصة قصاص روسي ، يمتاز بسعة الخيال والسخرية اللاذعة ، وقد كانت قصصه كلها حملة قوية على كبار موظفي الدولة الذين كانوا يعدون أنفسهم أنصاف آلهة ، ويتحكمون في عباد الله من أفراد الشعب الذين يرميهم سوء الطالع تحت أيديهم . . . .

وفي هذه القصة الطريفة « تضحية الأرنب » لم ينج من سخريته اللاذعة المتخاذلون الذين يضعفون من مجابهة الظلم .

جلب الأرنب على نفسه ذات يوم سخط الذئب ، إذ كان يجرى على مسافة غير بعيدة من عرين الذئب — وكان الذئب حاكماً بأمره في هذه الناحية ، فلتهاون ولتسمّ جحره عريناً — فرآه الذئب وناداه قائلا : « أيها الأرنب الصغير ! لحظة قصيرة يا عزيزى ! » . ولكن الأرنب بدلا من أن يقف أطلق لساقيه العنان ، وجرى بأسرع ما في طاقته ؛ فما كان من الذئب إلا أن قفز قفزات ثلاثاً كان الأرنب على أثرها بين يديه . قال له الذئب : « أما وقد جريت حين أمرتك بالوقوف ، فهاك حكمي عليك : إنى أحكم عليك بالاعدام ببتر أعضائك . ولما كنت قد تناولت غذائى اليوم ، وكانت زوجتى هى الأخرى قد تغدت ، وكنا قد ادخرنا طعاماً يكفينا خمسة أيام ؛ فستجلس هنا تحت هذا الأيك وتنتظر دورك . وربما — ها ! ها ! ها ! — أعفو عنك ! » .

وهكذا ربض الأرنب تحت الأيك وما تحرك . كل ما كان يدور بفكره شيء واحد : كم من الأيام وكم من الساعات ستمر قبل أن يلقى قضاءه ؟ كان ينظر إلى العرين فيرى أعين الذئب البراقة ترقبه ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن الذئب كان يخرج من العرين مع زوجه أحياناً ويتمشيان بالقرب منه ، ثم يرمقانه بنظرة ، ويقول الذئب شيئاً لزوجته بلغة الذئب ، ثم ينفجران بعد ذلك ضاحكين : « ها ! ها ! ها ! . . » وقد يخرج معهما صغار الذئب جميعاً ويجرون حوله ويلهون ويتمسحون فيه برؤوسهم ويكشفون من أنيابهم . . . فيخفق قلب الأرنب المسكين ، ويثب بين حنايا ضلوعه .

ما أحب الحياة كما أحبها إذ ذاك . كان أرنباً وسيماً عليه مهابة ووقار ، وكان قد اختار عروساً له كريمة أرملة من عقيلات الأرانب ، وكان في طريقه إليها — تلك الخطيبة المحبوبة — عند ما قبض عليه الذئب من عنقه .

ستبقى خطيبته المحبوبة وحدها تنتظر وتفكر : « إن محبوبى الجميل قد هجرنى ! » ، أو ربما — انتظرت — انتظرت . . . و . . . وأحبت غيره . . . و . . . أو ربما هى الأخرى ، تلك العزيزة الصغيرة ، كانت تلهو بين الأحراش واقتنصها ذئب ! . . .

وبكى حتى كادت الدموع تخنقه : « إذاً فهذه هى نهاية قصور الأمانى التى بنيتُها فى الهواء ! أنا الذى لم يكن بينى وبين الزواج قيد أنملة ، واشتريت أدوات الشاى ، وكنت أتطلع بشوق إلى الوقت الذى أشرب فيه الشاى بالسكر مع زوجتى الصغيرة . والآن بدلا من كل ذلك ما الذى حدث ! . . . كم من الساعات بقيت لى حتى أموت ؟ » .

وغلبه النعاس ذات ليلة فنام حيث كان يجلس ، ورأى فيما يرى النائم أن الذئب عيّنه مندوباً له فوق العادة ، وفى

أثناء غيبته لأداء واجباته كان الذئب يقوم بزيارات إلى عروسه الأرنبة ... وفجأة أحس بيد تمس جانبه . فصحا من نومه مذعوراً ، ورأى شقيق عروسه بجانبه يقول له : « إن عروسك تحتضر ، لقد سمعت بما حل بك ، فحزنت حزناً شديداً ، ولم تحتمل هول الصدمة ، وكل ما يشغل فكرها الآن هو كيف تفارق الحياة دون أن تودع حبيبها الوداع الأخير ؟ ! »

وأحس المحكوم عليه عند سماع هذه الكلمات كأن قلبه سيثب من بين ضلوعه . لم كل هذا ؟ ! وهل يستحق هذا القضاء الرير والحكم القاسي ؟ لقد عاش طول حياته نزيهاً شريفاً ، فلم تدنس نفسه الأغراض ، ولم يحرض على فتنة أو ثورة ، ولم يحمل فى يده سلاحاً ! لقد كان دائماً مقبلا على عمله معنياً بشئونه . أو ينبغى أن يموت من أجل ذلك ؟ الموت ! يالها من كلمة رهيبة قاتلة ! ثم لا يموت هو وحده ، بل ينبغى أن تموت هى أيضاً ، هى ! حبيبته العذراء ، التى كان كل جرمها أنها أحبته ، أحبته من كل قلبها ! آه لو كان فى مقدوره ! إذاً لطار إليها — حبيبته الشهباء الصغيرة — وأخذ رأسها الجميل بين يديه الأماميتين وداعبها وراء أذنيها وعركهما ، وأمر يده فى لطف عليها مدللا ! لو كان فى مقدوره ! ! ولكن أنى له ذلك ؟ !

قال الرسول : « فليهرب » .

وحين سمع المحكوم عليه هذه الكلمة وقف مبهوتاً لحظة كمن قد سحر . وتقلص الأرنب وامتدت أذناه على طول ظهره ، وتحفز للوثوب والعدو ؛ ولكن بصره اتجه فى تلك اللحظة إلى عرين الذئب ، فخفق قلبه رعباً ، وقال لزميله : « لا أستطيع فلم يعطنى الذئب إذناً » ، وكان الذئب طول هذا الوقت يرقب ويتسمع ويهمس خافتاً بلغة الذئاب إلى زوجه . لا شك أنهما كانا يمتدحان نبل الأرنب .

وقال الرسول مرة ثانية : « فليهرب » .

فكرر المحكوم عليه : « لا أستطيع » .

وفجأة دوى صوت الذئب : « ما الذى تتآمران عليه هناك ؟ » .

ووقف الأرنبان مسمرين فى مكانهما . لقد ضاع الرسول هو الآخر . أن يحرض سجيناً على الفرار ، أهذا مسموح به ؟ آه ! ! ! إن الأرنبة العذراء ستفقد الحبيب والشقيق كليهما ، فلسوف يمزقهما الذئب وزوجه شر ممزق .

وعند ما ثاب الأرنبان إلى وعيهما كان الذئب وزوجه يكشفان لهما عن نيوبهما وأبرقت عيونهما فى الظلام كشرر من نار .

وتمتم المحكوم عليه ، وقد استولى على قلبه الهلع :

— ياسعادة الذئب ! ليس فى الأمر شىء . لقد كنا نتكلم ، نتكلم ليس غير . . . جاء لى أخى يزورنى .

— لا شىء ! ها ! ها ! أنا أعرفك ! لايذوب الزبد فى فمك ! ها ها قل الحق ! ما معنى كل هذا ؟ .

وهنا قال شقيق العروس : « المسألة ياسعادة الذئب هى أن أختى خطيبته على فراش الموت ، وتستفهم إن كان فى المستطاع أن يذهب ليودعها ؟ » .

فهزت الذئبة رأسها وقالت : « هم . . ! من الحق أن تحب العروس خطيبها . وسيترتب على هذا أن يكون لهما نسل كثير ، ويكون للذئاب غذاء أكثر . أحب الذئب ويحبنى ، ولنا الآن أبناء كثيرون ، كبر أغلبهم وبقى لنا أربعة صغار ؛ ذئبى ! ماذا لو تركناه يذهب لوداع خطيبته ؟ » .

— ولكن المفروض أن نأكله بعد غد . . .

فأسرع المحكوم عليه قائلا : « سأعود ثانياً ياسعادة الذئب . سأذهب فى لمح البرق . . أنا . . حقيقة . . . سأرجع ثانية » .

ولـكن يُرى الذئب أنه يستطيع أن ينطلق فى أقل من لمح البرق ، هَمَّ فى خفة عجيبة ، حتى إن الذئب لم يتمالك نفسه من فرط الاعجاب وقال لزوجه : « آه ! لو كان جنودى كهذا الأرنب ! » وقالت : « ألا ترى ذلك ؟ ليس إلا أرنباً ومع ذلك انظر كيف يحب أرنبته » .

لم يكن هنالك بد قِبَل الذئب أن يسمح للأرنب بالذهاب على أن يعود فى الوقت المحدد بالضبط ، وعلى أن يحتفظ بشقيق العروس كرهينة ، ثم قال : « إذا لم تعد فى الساعة السادسة من صباح بعد الغد سألتهمه بدلاً منك ، وإذا أتيت سألتهمك أنت أيضاً ، على أنى ربما ها ! ها ! ها ! أعفو عنك ! » .

وانطلق الأرنب كالسهم انطلق من قوسه ، وارتجت الأرض تحت قدميه وهو يعدو ، لم يعبأ بما لقى فى طريقه من صعاب ، فالجبل كان يتخطاه متسلقاً ، والنهر لم يقف ليبحث عن مكان ضحل فيه ليعبر منه ، بل كان يقفز سابحاً على الفور ، والمستنقع كان يجتازه واثباً من عشب إلى عشب — لم يكن ذلك بالأمر الهين ! أن يقطع الريف الشاسع ويذهب إلى الحمام ويتزوج (طول الطريق وهو يقول لنفسه سأتزوج . . . سأتزوج . . . سأتزوج) ثم يعود ثانية فى الوقت المضبوط لإفطار الذئب . . . .

حتى الطيور عجبت لسرعته وتحدثت بذكرها .

وأخيراً . . . وصل . لا اللسان بقادر على الكلام ولا القلم بمستطيع وصف ذلك اللقاء وحرارته .

نسيت الأرنبة الشهباء ما بها من مرض عند رؤية حبيبها ، ونهضت على رجليها الخلفيتين ، ووضعت على رأسها طبلة وأخذت تدق قطعة موسيقية أسمتها « قدوم الفارس » أعدتها كفاجأة لخطيبها المحبوب ! وطارت الأرنبة الأرملة من الفرح بزوج ابنتها المقبل ، فلم تعرف أى مكان تجلسه فيه ولا أى طعام لائق به تقدمه له ! وأقبل العمات وأولاد العم والجيران من كل صوب ليحظوا برؤية العريس ، وربما ليتذوقوا بعض ما يقدم إليه من ألوان والتكريم وصنوفه .

العريس وحده لم يكن فى حالة عادية ؛ فبينما هو بين يدى خطيبته إذا به يصيح فجأة قائلا : « لا بد أن أذهب إلى الحمام وأتزوج فى الحال » .

فسألته حماه مبتسمة : « ولِمَ هذه العجلة ؟ »

— لا بد أن أعود ، فقد أعطانى الذئب إذناً بالغياب ليوم واحد » .

ثم قص عليهم كل شىء ، والدموع تنهمر من مآقيه فى غزارة وحرقة . ولقد كان الذهاب شاقاً مؤلماً ، ولكن لم يكن منه بدٌّ . لقد أعطى كلمته والكلمة عند الأرنب قانون . وصاح العمات وأولاد العم فى صوت واحد : « الحق ما تقول أيها الأرنب العزيز ، فما دمت قد وعدت فالوعد مقدس ، وما عرف من قبيلتنا قط أن أرنباً أخلف وعده » .

تحكى الحكاية وسرعان ما تنتهى ، ولكن حياة الأرنب أسرع مضياً وانتهاءً ، ففى الصباح رحبوا بالأرنب العزيز وقبل أن يأتى المساء ، كان قد افترق عن زوجه الصغيرة ، قال لها قبيل رحيله : « سيأكلنى الذئب لا شك فى ذلك ، فكونى وفية لى أمينة على عهدى . وإذا رزقت صغاراً فأحسنى رعايتهم وربيهم على الاستقامة والانصاف ، وخير ما أوصيك به أن تلحقيهم بسرك يتعلمون فيه ، فهناك لا يتعلمون الدق على الطبول فحسب ، وإنما يعلمونهم إلى جانب ذلك رماية البندق » . وكأنما قد تذكر الذئب فأطرق مفكراً ثم قال فجأة : « وربما ، ها ، ها ! ها ! يعفو الذئب عنى »

وكان هذا آخر عهدهم بالأرنب .

وبينما كان الأرنب ينعم فى أحضان الحب وزوجه كانت كوارث وأهوال تقع فى ذلك الفسيح من الأرض الذى يفصله عن عرين الذئب . ففى إحدى النواحى هطلت سيول حتى إن النهر الذى عبره الأرنب فى اليوم السابق بسهولة

وبساطة امتلأ وفاض ، وغمرت مياهه مساحة كبيرة من الأرض المحيطة به ! وفي ناحية أخرى أعلن الفلك آرون الحرب على الفلك تيكيتا ، وقامت معركة حامية الوطيس في طريق الأرنب بالذات ! وفي مكان ثالث ظهر وباء الكوليرا وأقيم محجر صحي على امتداد مائة ميل مربع ! وفوق كل ذلك كان الطريق مليئاً بالذئاب والثعالب والبوم . وكأنها كانت متحفزة للانقضاض عليه في كل خطوة

وكان الأرنب الصغير حريصاً عاقلا رتب أمره على أن يكون لديه ثلاث ساعات فوق ما تستغرقه الرحلة عادة من زمن ! ولكنه لما وجد العقبات الكؤود تصادفه الواحدة بعد الأخرى خار عزمه ! على أنه ظل يعدو دون توقف طيلة المساء ومعظم الليل . شققت الأحجار قدميه ، ومزقت الأعشاب الشائكة فراءه فتناثرت ، وعلت عينيه غشاوة ، وطفح الزبد والدم من فيه ، ولم يزل أمامه أشواط ، وتراءت له صورة صديقه الرهين ، وعذبت نفسه وأشقتها . إنه يقف الآن كالديدبان أمام عرين الذئب يفكر : « سيصل نسيبي العزيز بعد ساعات ويخلصني » . . . .

وعند هذه الفكرة اندفع بكل قواه كالسهم . كل شيء كان لديه سواء ، الجبال ، الوديان ، الغابات ، المستنقعات . لم تكن لتوقفه تلك من سبيله . وكثيراً ما شارف على اليأس والاستسلام ، ولكنه كان يتغلب بإرادته الحديدية على تلك النزعات التي تريد أن تثنيه عن عزمه . لم يكن لديه وقت للأسى والبكاء ، ولا ينبغي أن يفكر إلا في شيء واحد ! كيف يخلص صديقه من براثن الذئب .

انبثق فجر اليوم التالي ، فانسلت الخفافيش والبوم إلى مخابئها ، وأقبلت نسائم الصباح الباردة ! وفجأة خيم على الكون سكون رهيب لا يفترق عن سكون الموت . ولم يزل ذلك الأرنب الصغير منطلقاً في طريقه تسيطر على نفسه فكرة واحدة : « هل أصل بعد فوات الوقت لانقاذ صديقي ؟ » ، وبدت في الشرق ظلال حمراء ، صبغت في البداية أهداب السحب المترامية في الأفق البعيد بحمرة نارية خافتة أخذت تنتشر وتنتشر ، وتأججت في النهاية واستعرت لهيباً ، وتألق الندى فوق الحشائش ، وصحت الطيور من رقدها ، وأخذت الهوام تدب ، وعلا في السماء دخان خفيف من بعيد ، وسرى بين الحشائش همس وحفيف أخذ يتضح ويتجلى رويداً رويداً . ولكن الأرنب الصغير لم ير شيئاً ، ولم يسمع شيئاً ، وإنما طفق يردد في نفسه المرة بعد المرة : « لقد ضيعت صديق ! ضيعت صديق ! » .

وأخيراً تل ! ووراء التل مستنقع ، وفي المستنقع عرين الذئب . . . . وا أسفاه أيها الأرنب وا أسفاه ! لقد جئت بعد فوات الوقت !

وبمجهود نهائي جمع كل ما بقي فيه من قوة ثم وثب إلى قمة التل ، ولكنه لم يستطع بعد ذلك حراكاً ! لقد أضناه الكلال والاعياء . أفبعد كل ذلك يخفق ؟ وعرين الذئب تحت ناظريه ؟ ومن بعيد دقت ساعة ست دقات كل دقة منها كانت كالمطرقة تدق فوق قلبه ، ذلك المخلوق البائس الحطم . وعند الدقة الأخيرة نهض الذئب من عرينه ، وتمطى ، وهز ذيله تيهاً وعجباً ، ومضى إلى الأرنب الرهين ، وقبض عليه بين مخالبه وأنشب فيه أظفاره كي يشطره شطرين : شطراً له ، وشطراً لزوجه ! وأحاطت صغار الذئب بأبويهم كاشفين عن أنيابهم متطلعين .

وفجأة دوى صوت الأرنب الصغير كأنه ألف أرنب في واحد : « ها أنذا ! ها أنذا ! » وألقى بنفسه من قمة التل إلى المستنقع .

أثنى عليه الذئب . ثم قال : « الآن أدرك أن من الممكن الثقة بكلام الأرنب يا صغيريَّ العزيزين . ها كما قضائي ، اجلسا كلاكما تحت هذا الأيك وانتظرا حتى أستعدَّ لكما . وبعد ذلك فإني ! ها ها ! سأعفو عنكما » .

محمد فتحي

فى أعماق الصحراء

للدكتور طه حسين بك

خَرَجَ متثاقلاً يصطنع الأناة ، ويتكلف الوقار ، ويمشى مشية الشيوخ ، وما به من الشيخوخة إلا علمه بأنه قد صحب الدنيا وتنفس من هوائها خمسين عاماً ، وإلا هذه الخيوط البيضاء الناصعة ، تشرق فى لمته السوداء الفاحمة ، وتذكّره بين حين وحين ببيت الفرزدق المشهور :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه
ليلٌ يصيح بجانبيه نهارُ

وهو كلما ذَكَرَ هذا البيت لم يحققه ، ولم يكتنه معناه ، ولم يحاول أن يلائم بين ما أراد إليه الفرزدق وبين هذا البياض الناصع الذى يشيع فى شعره الفاحم ، وإنما شُغِلَ عن هذا كله بالبيت نفسه ، يقف عند ألفاظه ، ويستخرج منها ، أو تخرج عليه منها صورة رائعة لليل الذى يصيح النهار بجانبيه ، فتشغله عن شيبه وشبابه ، وعن الشيب كله والشباب كله ؛ ولعله أن يقدّر أن الفرزدق إنما اتخذ الشيب والشباب وسيلة إلى عرض هذه الصورة الرائعة لا أكثر ولا أقل .

على أنه قد جعل يمشى مشية الشيوخ تلك ، مستمسكاً بها ، حريصاً عليها ، يرى أنها تليق به ، وأنه يليق بها ؛ وربما أعانه على اصطناع هذه المشية ذلك الرمل الغزير المهيل ، الذى كان يرتفع قليلا وينخفض قليلا ، فيدعوه إلى شىء من الاحتياط والتحفظ فى تقدير الخطو ووضع قدميه حيث ينبغى لها أن توضعا ؛ وكان فى أثناء هذا كله مستغرقاً فى تفكير عميق عريض ، قد دُفع إليه منذ أصبح ، فلم يستطع أن يخلص منه نهاره كله ، على كثرة ما حاول ذلك ، وعلى كثرة ما تحدّث إليه الناس ، وما تحدّث هو إلى الناس ، لأنه أصبح وفى نفسه أنه أتمّ الخمسين . وإذا هذه الفكرة لا تفارقه ، وإذا هو يحاول أن يستقصيها من جميع أطرافها ، وإذا هى تثير عليه ، أو تثير له ، ألواناً من الخواطر لا تكاد تحصى ؛ وإذا هو ينفق جهداً متصلاً فى جمع هذه الخواطر وتنظيمها ، لعله يستطيع أن يستخلص منها خاطراً واحداً يأنس به ويطمئن إليه ؛ ولكنه لا يظفر من ذلك بشىء ، وإنما يعييه الجهد ، ويشق عليه التفكير ؛ وهو فى حقيقة الأمر لم يخرج من حجرته تلك التى كان قد خلا إلى نفسه فيها بعد الغداء ، فى طرف من أطراف الصحراء ، إلا ليخلص من هذا الجهد المتصل ، وهذا التفكير الطويل . وكان النهار قد أوشك أن ينقضى ، وكانت الشمس قد أخذت تسعى متباطئة إلى مغربها ؛ وإذا صاحبنا يرى فى شيخوخة النهار صورة لشيخوخته ، ويرى فى سعى الشمس البطىء إلى الغروب ، وتلكئها فى طريقها إليه ، وفى هذه الأشعة الشاحبة الفاترة التى تجررها الشمس وراءها على وهاد الصحراء وهضابها ، صورةً لسعيه المتهالك المتثاقل إلى مستقره الأخير ، ولما يجرر وراءه فى فتور وتهالك وتثاقل ، من آثار ضئيلة نحيلة ، تمر بالناس فلا يلتفت إليها أكثرهم ، وقد يلتفت إليها قليل منهم فى عناية تختلف قوة وضعفاً ، ولكنهم سينسونها جميعاً ، وسيشغلون عنها جميعاً ، بآثار أخرى يثيرها فيهم ، أو يجررها بينهم

رجال آخرون ، شباب أو كهول أو شيوخ ، سينسونها وسيشغلون عنها ، وستمحى من بينهم كما تمحى هذه الآثار الفاترة الضئيلة التي تتبع الشمس في طريقها إلى الغروب حين يقبل الليل فيبسط ظلمته على كل شيء ، ويرسل من أثناء هذه الظلمة سهاماً من بريق النجوم تمسك عليهم شيئاً من الأمل ، وتحفظ عليهم ثقة بالحياة ، وتقر في نفوسهم أن الشمس تغرب اليوم لتشرق من الغد ، وأنهم يستطيعون أن يسكنوا الآن لينشطوا من الغد . وإذا تصور صاحبنا هذا رده إلى التفكير في نفسه رداً عنيفاً ، وبشيع في قلبه حزناً عميقاً . فهو يساير الشمس إلى الغروب ، ولكنها ستعود ويبقى هو حيث يستقر ، لا عودة له ولا أمل في العودة . وإذا هو يذكر قول لبيد :

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟
غلب الرجال وكان غير مغلب
دهرٌ طويلٌ دائمٌ ممدُود
يوماً أرى يأتي عليّ وليلة
وكلاهما بعد المضاء يعود
وأراه يأتي مثل يوم لقيته
لم ينتقص وضعفتُ وهو يزيد

وما تكاد هذه الأبيات تعرض له ، وما يكاد ينشدها في نفسه ، وقد وقف فلم يمش مشية الشيوخ ولا مشية الشباب ، حتى يذكر شعراً آخر للبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وإذا هو ينشد في نفسه هذه الأبيات إلى آخرها ، كما أنشد في نفسه تلك الأبيات إلى آخرها . وإذا هو قائم واجم في الصحراء ، قد نسي شيبه وشبابه ، ونسي الدنيا وصحبته لها نصف قرن ، وأخذته هذه العادة الأدبية العربية التي تدفع الأدباء إلى الاستطراد من فن من فنون الأدب إلى فن آخر ، لا يكاد يفتح لهم باب من الشعر أو النثر إلا ولجوا منه إلى أبواب أخرى . وإذا هو يستحضر ما يحفظ من شعر العرب في الشيب والشباب ، ومن شعر العرب في الحياة والموت ، وفي البقاء والفناء . وهو قائم في الصحراء لا يتقدم ولا يتأخر ، كأنما أنسي نفسه وأنسي ما حوله ، والله يعلم كم قام في مكانه ذاك من وقت ؛ ولكنه يثوب إلى نفسه فجأة ؛ وأكبر الظن أنه إنما يثوب إليها بعد أن استنفد ما وعتْ ذاكرته من شعر ونثر ومثل في هذه الموضوعات .

فلا يكاد يعرف نفسه بعد هذه الغيبة ، حتى ينكر إغراقه في الشعر والنثر والأمثال . فهو لم يأت إلى هذه الصحراء البعيدة ، ولم ينتقل إلى هذه البيئة الغريبة ، إلا ليهجر حياته المألوفة يوماً أو أياماً ، ولينس أدبه العربي القديم ، وأدبه الغربي الحديث ، وكل هذا العلم المختلف المتباين الذي تتألف منه حياته العقلية حين يصبح ، وحين يمسي ، وحين يلقى الناس ، وحين يخلو إلى نفسه ، حتى كأن شخصيته ليست إلا مزاجاً قد ألف من ألوان هذا العلم على اختلافه ؛ فهو يستطيع أن يرد كل جزء منه إلى مكانه من هذا العلم أو ذاك ، ومن هذا الفن أو ذاك ، بل من هذا الكتاب أو ذاك ؛ وهو قد ضاق بهذا كله أشد الضيق ، وسئم فناء نفسه في غيره وائتلاف مزاجه الخاص مع أمزجة الكتاب والشعراء والمؤلفين الذين يقرأ لهم ، ويفكر فيهم ، ويتحدث عنهم . وهو قد سئم مع ذلك شخصيته المادية التي تتألف من حياة مختلفة الأجزاء ، يرجع بعضها إلى هذا العمل أو ذاك ،

ومن يشاركون في هذا العمل أو ذاك ، ويرجع بعضها الآخر إلى عمل آخر وإلى قوم آخرين يشاركون فيه . سئم حياته تلك التي لا يستقل بها ولا ينفرد بخيرها وشرها ، وإنما يرجع بها إلى غيره ، أو يعتمد فيها على غيره ، أو يشترك فيها مع غيره . وأراد أن يستخلص شخصيته ولو وقتاً قصيراً من كل هذا الاختلاط والاضطراب ، وأن يريح نفسه ولو ساعات من هذا العناء المتصل ، والشقاء الثقيل ، عناء الحياة لغيره ، وبغيره ، ومع غيره ، ففزع إلى تلك الصحراء البعيدة التي لا يخلو فيها إلى نفسه خلوة تامة ؛ ولكنه يجد فيها شيئاً من الفراغ ، وفضلا من الراحة ، ويتصل فيها بأجيال غير جيله الذي يعيش فيه ويتصل به ، فليست هذه الصحراء إلا مستقر مدينة قديمة ، قد اتخذها المصريون القدماء لموتاهم ، وجعل بعض الباحثين عن الآثار يبحث فيها وينقب حتى استكشف منها شيئاً كثيراً ؛ فيه جمال وروعة للذين يلتمسون الجمال والروعة ، وفيه علم وفن للذين يطلبون العلم والفن ، وفيه موعظة وعبرة للذين يلتمسون الموعظة والعبرة ، وفيه تسلية وعزاء لنفسه هذه المحزونة المكدودة ، التي لا تريد إلا أن تستريح حيناً من الحياة والأحياء ، وإن لم تجد هذه الراحة إلا في جوار الموت والأموات . وأي بأس عليه من ذلك ، وهو قد صحب الدنيا خمسين عاماً ، وأنفق من عمره أكثره ، وآن له أن يدنو من الموت والموتى بعقله وشعوره وعن إرادته ورضاه ، بعد أن دنا من الموت والموتى بجسمه وسنه وعلى غير إرادة منه ولا اختيار ؟

وكذلك ترك القاهرة أمس في آخر النهار ، وبلغ صحراءه تلك حين تقدم الليل ، فلم يزد على أن آوى إلى مضجعه ليستريح من سفر طويل شاق ، حتى إذا أصبح فرغ للصحراء ، ولهذه الآثار التي تقوم فيها متفرقة منتشرة مختلفة أشد الاختلاف ، في أشكالها وصورها ، وفي أحجامها وأجرامها ، وفي دلالاتها وفي معانيها وفي قيمها عند أصحاب الفن ، وأصحاب العلم ، والباحثين عن اللغة والتاريخ ؛ وما كاد يصبح ويفكر في صحرائه ويهم بالخروج إليها والانطلاق فيها ، حتى قام دونه هذا الخاطر الذي خطر له فأنبأه بسنه ، واضطره إلى التفكير ، وأثار له أو أثار عليه ما أثار من العواطف والأهواء ؛ وإذا أكثر يومه يذهب في هذا التفكير المقيم ، وإذا هو يصرف عما قصد إليه حين أقبل إلى الصحراء ، من الراحة والفراغ والاتصال بآثار تلك الأجيال من الأموات .

فلما كان العصر استطاع أن يخلص من نفسه كما خلص من الناس ، وأن يخرج إلى صحرائه ؛ ولكنه كان كما قلت متثاقلا مستأنياً ، يتكلف الوقار ، ويمشي مشية الشيوخ . فما هي إلا أن يعود إلى نفسه ، ويغرق في تفكيره ذلك ، ويكاد يصرف عن الصحراء صرفاً ، لولا أن أراد الله به خيراً ، فأنقذ ما حفظ من الشعر والنثر والأمثال ، واستأنف مشيته الهادئة المستأنية في صحرائه العريضة المنبسطة وعلى هذا الرمل الغزير المنهيل ، وفي هذا الأصيل البطيء الشاحب الحزين . وليس من الحق أنه كان يمضي في الصحراء إلى غير غاية ، أو أنه كان يسعى لمجرد السعي ، يتجه إلى هذه الجهة أو تلك ؛ وإنما الحق أنه كان يتجه وجهاً بعينه ، ويقصد إلى غاية رسمها لنفسه حين خرج من الدار ، بل حين ترك القاهرة ؛ فهو لا يزور صحراءه هذه لأول مرة ، وإنما يزورها للمرة الثالثة أو الرابعة ، وقد اتخذ فيها لنفسه من آثارها ، ومن نفوس أصحاب هذه الآثار أصدقاء وأخلاء ، يجد في الخلوة إليهم لذة ، وفي الاتصال بهم غبطة ومتاعاً .

وكان قد خرج في ذلك اليوم يريد دار صديقته تلك الصبية التي اختطفتها عذارى النيل منذ ثمانية عشر قرناً أو أقل من ذلك أو أكثر ، وهي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها الغض ، فجزع عليها أبوها أشد الجزع ،

وحدب عليها في الوقت نفسه أشد الحدب، وأقام لها في تلك المدينة من مدن الموتى، وفي هذه الصحراء من صحارى مصر، هذه الدار الصغيرة الأنيقة، وأقام لها في أعماق هذه الدار سريراً أقر فيه جسمها الصغير الضئيل الذي رده إليه عذارى النيل، بعد أن استأثرن بنفسه الحلوة وروحه العذب، وشبابه النضر. ونقش على بعض جدرانها قصتها هذه اليسيرة المؤثرة، في لغة يونانية حلوة ساذجة؛ ووعد ابنته في آخر القصة بأن يؤلهها كما ألهها أولئك العذارى اللاتي اختطفنها، وبأن يقدم إليها من القربان في أول فصول السنة ما يقدم إلى أمثالها من الآلهة الأخيار اللاتي لم يتجاوزن الصبى، ولم يبلغن طور الشباب.

وكان صاحبنا منذ عرف قصة هذه الصبية كلفاً بزيارة دارها والوقوف على آثارها، والوقوف بنوع خاص عند سريرها ذلك الساذج الأنيق، الذي خلا حتى من جسمها الضئيل النحيل، لأن الدهر قد أفنى هذا الجسم وأبلاه، ورده رماداً لا يكاد يمس حتى يتفرق وينهار، ويعجز عن البقاء والثبات.. ولم يحفظ من شخصها إلا خاتماً ذهبياً صغيراً لم يستطع أن يستقر في مكانه بعد أن بليت الأصبع التي كان يدور حولها، فانتقل إلى المتحف المصري واستقر فيه بين هذه الآثار التي لا تحصى. وظل السرير خالياً من كل شيء، كما ظلت الدار خالية من كل شيء، إلا من هذه الذكرى التي تصور الصبية نائمة في سريرها، أو تصورها مضطربة في دارها، والتي كان صاحبنا يلقاها قوية نفاذة إلى أعماق قلبه كلما دخل الدار أو وقف عند السرير، والتي كانت تستأثر بنفسه استئثاراً تاماً، فتقطع الأسباب بينه وبين كل شيء، وبينه وبين كل إنسان، وتكاد تنسيه نفسه، وتكاد تمنحه حياة غريبة في عصر غريب ليس بينها وبين حياته وعصره صلة ما.

إلى هذه الدار كان قصد صاحبنا حين خرج إلى الصحراء مع العصر في ذلك اليوم مفكراً في الشباب والشيب، وفي الحياة والموت، وفيما أنفق من عمره في صحبة الحياة، وفيما سينفق من عمره في انتظار الموت. وكان كل شيء من حوله ملائماً لخواطره تلك الحزينة، وعواطفه تلك الكئيبة. فكان يشعر بلذة عميقة شاحبة كأنها لذة الموسيقى، تأتيه من هذا الانسجام بين نفسه وحسه وعواطفه؛ وهذا الأصيل الحزين، وهذه الصحراء المقفرة، وهذه القبور والدور التي خلت حتى من الموتى ومن بقايا الموتى؛ فجعل يمشي أمامه هادئاً مستأنياً، يتكلف الوقار ويمشي مشية الشيوخ، حتى انتهى إلى تلك الدار، دار صديقته الصبية ايسيدورا. فحياها بقلبه لا بلسانه، وما حاجته إلى حديث اللسان، وفي حديث النفوس كل الغناء؟ حياها بقلبه، وخيل إليه، أو تحقق في نفسه، أنها قد ردت عليه تحيته، وأنه قد تلقى هذه التحية، لا يدري كيف تلقاها، ولا من أين تلقاها، وإنما جاءته من جميع أقطاره، وأخذت نفسه من جميع نواحيها، وقد وجد لرجع هذه التحية روحاً ومتاعاً ليس إلى وصفهما من سبيل؛ وقد جلس على عتبة الدار جلسة المنتظر أو جلسة المستريح، أو جلسة المتفكر، لا يدري. ولكنه جلس؛ وما هي إلا لحظات قصار حتى نسي نفسه، ونسي ما يحيط به، ونظر فإذا هو يحس قريباً منه شخصاً ضئيلاً نحيلاً، ولكنه ماثل منه غير بعيد. ولو أنه سأل نفسه في ذلك الوقت: أين يستطيع أن يقر هذا الشخص بالقياس إلى مكانه لما استطاع أن يظفر لهذا السؤال بجواب. فقد كان يخيل إليه أنه يرى هذا الشخص ماثلاً أمامه، فإذا تحول إلى اليمين أو إلى الشمال أو إلى وراء، رآه ماثلاً عن يمينه ومن شماله، ومن خلفه أيضاً. شخص ضئيل، نحيل، ضعيف، متواضع، ولكنه قد أخذ عليه وجوهه كلها، فهو لا يستطيع أن يجد منه مهرباً، ولا عنه منصرفاً. ولو قد

ظهر له هذا الشخص فى غير هذا المكان لملأ قلبه رعبا ، ولأثار فى نفسه شكوكا وظنونا . ولأشفق من العلة أن تكون ألمت به ، ومن الضعف أن يكون عبث بأعصابه ، ولأسرع إلى الطبيب يعرض عليه الداء ، ويطلب إليه الدواء .

ولكنه فى ذلك المكان من الصحراء وفى ذلك الوقت من آخر النهار وأول الليل ، لم يحس رعبا ولم يستشعر خوفا ولم يشك فى صحة جسمه وعقله ، ولم ينكر من هذا الشخص الضئيل النحيل الوحيد الماثل من حوله والمحيط به من جميع جهاته شيئا ؛ وإنما رأى مثول هذا الشخص من حوله أمراً طبيعياً مألوفاً لا يثير شكاً ولا يدعو إلى استغراب ، وربما أحس شيئاً من الاستغراب لأنه لم يسمع لهذا الشخص صوتاً ، ولم يتبين له حركة ، وإنما كان يراه واحداً ماثلاً مع ذلك من حوله ساكنا مع ذلك ؛ وكان يعجب فى نفسه بهذا الواحد الكثير ، ولهذا الفرد الذى يشغل أكثر من حيز . وكان يرى على وجه هذا الشخص حزناً عميقاً ، ولكنه على ذلك حلو يرىء يشبه حزن الأطفال الذى يبلغ أقصاه ، ويشعر النفوس مع ذلك بشىء من الحلاوة والدعة ، ويشيع فيها الحب والحنان أكثر مما يشيع فيها الرحمة والإشفاق .

ولم يشك صاحبنا لحظة فى أن هذا الشخص الماثل من حوله شخص صبية ناشئة لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها بعد ، ولم يشك فى أنه شخص ربة الدار ابيدورا هذه التى أقبل يزورها ، وما أكثر ما زارها فى دارها ووقف عند سريرها ، فلم يكن يجد إلا ذكراها . أما الآن فهو يجد أكثر من الذكرى ، ويجد أقل من صديقته نفسها ؛ يجد شيئاً وسطاً بين الذكرى التى لا تحسها إلا القلوب وبين الكائن الحى الذى تدركه الحواس ، يجد ظلا تدركه بعض الحواس وتدركه النفس والقلب معاً .

والغريب أنه على ذلك كان يقدّر أن هذا الظل سيؤذنه بمكانه ، وسيصل بينه وبينه الحديث ؛ وكان يعلم حق العلم أنه لم ير قط ظلاً يؤذن الناس بمكانه ، ولم يسمع قط ظلا يتحدث إليه أو إلى غيره من الناس . ومع ذلك فقد أقام ينتظر أن يرى من الظل إشارة أو يسمع منه كلمة . وقد طال انتظاره دون أن تبلغ عينه إشارة أو تصل إلى أذنه كلمة ، وإذا هو يبدأ بالإشارة ويبدأ بالحديث ويقول : ما تصنعين هنا يا ابنتى فى هذا الوقت ومن تكونين ؟ وقد سمع صوت نفسه فأنكره شيئاً ، وكاد يثور من مجلسه وينقلب إلى داره فزعاً قد بلغ منه الرعب ، ولكن الظل لم يمهله ولم يتح له روية ولا تفكيراً ، بل أجابه فى صوت غريب يتصوره ولا يستطيع تصوره ، وسينسى كل شىء قبل أن ينسى جرس هذا الصوت فى أذنه وموقعه من قلبه ؛ أجابه الظل فى صوته ذاك الغريب : إنك لتعلم من أنا ، وهل أقبلت إلا للقائى ، أما ما أصنع هنا ، فلست أصنع شيئاً ، وإنما ألتمس شخصى ، وأنتظر أن يرد إلىّ جسمى . قال الشيخ : لقد زرت هذه الدار غير مرة ، ووقفت عند هذا السرير غير مرة أيضاً ، فلم أر لك شخصاً ولم أسمع لك صوتاً . قال الظل : لم ترنى ، ولكنى رأيتك ، ولم تسمع صوتى ، ولكنى سمعت صوتك ، زرت هذه الدار أثناء النهار فلم تلقنى ، ولو قد زرتها فى الليل منذ تغرب الشمس إلى أن تشرق لما فقدتنى . ولو قد استطعت أن أبلغ نفسك وألقى فيها بعض الحديث لسألتك أن تزور هذه الدار فى مثل هذا الوقت الذى أقبلت فيه اليوم . ومن يدرى ؟ لعلى بلغت من ذلك ما أريد ؛ فلأمر ما أقبلت إلى هذا المكان مع الأصيل حين أخذ النهار ينصرم ، وأخذ الليل يسعى ليغمر الصحراء بظلمته ، وأتيح لى أن أخرج من تلك الزاوية التى ألزمها النهار كله ولا أفارقها . قال الشيخ : إنى لم أفهم عنك يا ابنتى

ما تريدين . ما لزومك زاوية من دارك هذه لا تفارقينها أثناء النهار ، وما خروجك من الدار إذا أقبل الليل ، وما حاجتك إلى لقائي والتحدث إلي ؟ قال الظل : إن ضوء النهار يؤذيني ، وإن حركة الناس من حولي تشق عليّ ، ولقد أقمت عند هذا السرير دهراً طويلاً لا أرى ضوءاً ولا أسمع صوتاً ولا أحس حركة ، فقدّر ما يلقى من الأذى وما عسى من الألم حين يفجأني الضوء وحين يحتلّ الجو من حولي حركة ونشاطاً وحديثاً ؛ فأقصى ما أستطيع أن أفعله لأتقي هذا الألم وذلك الأذى أن ألزم هذه الزاوية من زوايا الدار متضائلة متفانية محتملة لما لا أستطيع له رداً ، حتى إذا جلا الضوء وانبسط الظلام وشمل السكون كل شيء ، خرجت إلى حيث تراني وأقمت هادئة ساكنة لا أريم ، حتى يردني مطلع الفجر إلى زاويتي تلك داخل الدار . ولقد كثر الزائرون لي والواقفون عند داري والمعجبون بسريري ذلك الخالي والقارئون لقصتي هذه التي طمس رسمها أو كاد ؛ فميزتك من بينهم لأنك ميزتني من جميع هذه الآثار . لم تشغلك الدار عن أهلها ، ولم يشغلك السرير عن صاحبته ، ولم تشغلك القصة عن بطلتها ؛ إنما فكرت فيّ حين أقبلت علي واتصلت نفسك بي اتصالاً أحسسته وأنست إليه ، وأحسست أنك حين كنت تفارق الدار لم تكن تفارقني ، وإنما كنت تأخذ معك طرفاً من ذكراي ، تشغل به نفسك وتعمر به قلبك ، وتأنس إليه إذا خلوت إلى سكون الليل وظلمته ؛ وكان هذا الطرف الذي كان يصحبك من أطراف الذكرى يدعوني إليك دعاءً شديداً ؛ ولو قد استطعت أن أستجيب لهذا الدعاء لصحبتك غير مرة في بعض ظعنك وبعض إقامتك ؛ ولكنني موكلة بهذا المكان لا أبرحه ولا أتحول عنه حتى يرد عليّ شخصي كاملاً ويعاد إليّ جسمي موفوراً .

قال الشيخ : ما رأيت كالليلة عجباً ، ولا سمعت كالليلة حديثاً طريفاً ؛ من تكونين يا ابنتي ؟ قال الظل : وإنك لتشك فيّ بعد هذا الحديث ؟ ! لقد أنبأتك بأني صديقتك اسيدورا ، تلك التي اختطفها عذارى النيل من أهلها ، ثم رددن جسمها إليهم بعد أن حجزن نفسها هناك في تلك الدار الجميلة الرائعة التي كان أهلها يستمتعون بالسعادة والغبطة والنعيم والتي ما أزال أذكرها فتكاد تهلكني الحسرة وتفنيني اللوعة ، لولا أني على أمن من الهلكة والفناء .

قال الشيخ : وما أخرجك يا ابنتي من تلك الدار وما ردك إلى هذا المكان القفر الخشن ؟ قالت : ما أدري ، ولكني أحسست ذات لحظة أن قد أذن في أهل الدار بالفرقة والرحيل ، ورأيتني أنتزع ممن كنت أعيش بينهم انتزاعاً ، وأدفع إلى هذا المكان دفعاً ، وأكلف لزوم هذه الدار ، ومصاحبة ذلك الجسم الذي كان مستلقياً في السرير ، وأوصى ألا أفارقه حتى يرد إليّ أو أرد إليه ، ثم أقيم حيث أنا ، لا أدري كم يمر عليّ من وقت ، ولا ما يكون حولي من حركة أو نشاط أو سكون أو خمود ، حتى أفجأ ذات لحظة أخرى بالضوء يغمرني ويغمر داري ، وبالحركة والنشاط والأصوات تملأ كل شيء من حولي ، وأنظر فإذا شيء قد مس ذلك الجسم الذي كان ماثلاً في مكانه من السرير ، فرده تراباً متفرقاً ، ثم حمل هذا التراب إلى حيث لا أدري . ولقد تعلقت بذلك الخاتم الصغير الذي وضعه أبي في أصبعي ذات يوم من أيام أعيادنا تلك ، وأردت أن ألزمه وأن أتخذه رمزاً لما بقي من جسمي ، وما فني من شخصي ، ولكن هذا الخاتم نفسه قد أخذ من مكانه ، وحمل إلى حيث لا أدري ؛ وإذا قوة أجهلها ولا أستطيع لها دفعاً تفرق بينه وبيني وتلزمني هذا المكان على ألا أبرحه ولا أتحول عنه حتى يرد عليّ شخصي كاملاً ويعاد إليّ جسمي موفوراً . فمتى يرد عليّ ذلك الشخص ؟ ومتى يعاد إليّ ذلك الجسم ؟ ومتى أخلص من هذا السجن الذي ضقت

به وضاق بي ؟ . قال الشيخ : وإنك لتجدني في هذا السجن ألماً ؟ قال الظل : ما أدرى ماذا أجد ، لقد بعُد عهدى باللذة والألم حتى أنسيتهما وفقدت ذوقهما ؛ وإنما أجد ضيقاً لا أطيقه وما أراه يطيقني ، وأود لو استطعت أن أخلص منه أو استطاع هو أن يخلص مني . قال الشيخ : لقد علّمنا فلاسفتنا ووعاظنا يا ابني أن الحياة تعب كلها ، وأن الرغبة فيها حمق ، والاستزادة منها سفه ، وأن الموت راحة وأمن ودعة وهدوء ، وإنك لتنبئني بغير ما أنبأني به أولئك الفلاسفة والوعاظ ! قال الظل : فإني لم أعرف من الحياة إلا لذتها ؛ فارقتها قبل أن تشرف بي على آلامها ومتاعبها ؛ فأما الموت فقد نعمت به حيناً ، ثم شقيت به كما ترى ؛ نعمت به ما أقمت في تلك الدار وشقيت به منذ رددت إلى هذه الدار التي تراها ، ومنذ ردت هذه الدار خاصة إلى الضوء وجوار الناس ، وما أدرى أأنقل من هذا الشقاء إلى شقاء شر منه ، أو أرد إلى نعيم كالذى عرفته بين عذارى النيل ، أم أرد إلى لذة كالتي عرفتها بين أهلي وإخوتي . قال الشيخ : لعلك يا ابني إن ظفرت بما كان أبوك قد وعدك من ألوان القربان أن تجدى في ذلك عزاءً وروحاً . قال الظل : لا تذكرني بذلك فتؤذيني ، فما أشد ما اشتقت إلى ما كان أبي يقدم إلى في الصيف والشتاء والربيع ، من ألوان الثمر والزهر وصنوف الفاكهة والجنَى ، ولكن هذا متاع قد انقضى كما انقضت الحياة ، وتصرم عهده كما تصرم عهد ما عرفت من النعيم . قال الشيخ : لقد رددتني يا ابني إلى شيء من الحيرة عظيم ؛ أحياء يضيقون بالحياة ويتمنون الموت ليستريحوا ، وأموات يضيقون بالموت ويودون لو يردون إلى الحياة ليجدوا فيها ما أحبوا من نعماء ، وما كرهوا من بأساء . قال الظل : هذه أشياء لم أفكر فيها قط ، لأن دواعي التفكير فيها لم تعرض لي . لقد فارقت الحياة وما كنت أضيق بها ولا أقدر لها فراقاً ، ولزمت الموت وما كنت أرغب فيه ولا أقدر له لقاءً . وما أرى إلا أن الراحة شيء لا ينبغي أن يطلب إلى الحياة ، ولا أن يلتمس عند الموت . قال الشيخ : فأين يطلب إذاً ؟ قال الظل : لا أدرى ، ولعل أسعد الناس من وجد الراحة في نفسه فلم يلتمسها عند أحد ، ولا عند شيء .

وأطرق الشيخ يفكر في صحبته للدنيا خمسين عاماً ، وفي دنوه من الموت أو دنو الموت منه ، وفي يأسه المحقق من الراحة في الحياة ويأسه الممكن من الراحة في الموت ؛ ولكن الظل يقول له في صوت سريع ضئيل : أنظر إني أرى ضوءاً وأحس حركة . ويحاول الشيخ أن ينظر ، فإذا هو يفتقد الظل ، وإذا هو يرى أصحابه قد أقبلوا من بعيد يلتمسونه وفي يد أحدهم مصباح يضيء لهم الطريق ، وإذا هو يعود إلى نفسه ، ويثوب إلى رشده ، وينكر من أمره كل شيء ، ويرى أنه قد أخذته سنة من نوم وقد عبثت به الأحلام . فما هذا الظل الذى رآه ، وما هذا الحديث الذى أداره مع هذا الظل في لغة عربية فصيحة . وما كان هذا الظل لو تكلم ليفهم العربية أو يدير فيها الحديث ؛ وإنما لغته القبطية أو اليونانية . لقد عبث النوم وأحلامه بالشيخ آخر النهار كما عبثت اليقظة وأحلامها بالشيخ أثناء النهار . وأكبر الظن أن الناس إذا صحبوا الدنيا خمسين عاماً شاخت عقولهم وقلوبهم ، وتعرضوا الكثير من التخليط والهذيان . ولكن الشيخ مع ذلك نهض متثاقلاً للقاء أصحابه ، ولم يكد يلقاهم حتى قال : لعل من الخير والبر أن ترفقوا بهذه الصبية ، وأن تقدموا إليها بعض ما كان أبوها يقدم إليها من القربان . وتلقى القوم حديث الشيخ ضاحكين ، ولكن الشيخ لم يشاركهم في الضحك ، وإنما بكت نفسه بكاءً مراً .

طه حسين

شهيـــــــة الطفل

للدكتور مصطفى الديوانى

إن شهية الطفل من المسائل الجديرة بالعناية والاهتمام، وإن كان بعض الأمهات يبالغن أحياناً مبالغة لا مبرر لها فى الاهتمام بأقل تغير فيها عند أطفالهن، وخاصة فى حالة الأم المغرمة بطفلها الوحيد، والتى تود أن تراه يُقبِل على غذائه فى أى ساعة تعطيه إياه، وبأى كمّية تقدمه له، فإذا ما أخذ كفايته، ورفض الباقى عن شِبَع، وزُهْدٍ فى الكثير المقدم إليه، جزعت وأسرعت إلى الطبيب تستشيره، لا سيما إذا كان لإحدى قريباتها أو صديقاتها طفل سمين أحمر الخدين، ظانّةً أنها لو كانت فعلت ذلك لضاهَى طفلُها طفلَ ابن الجيران فى فرط السمنة، وحُمْرة الوجه. وقد يكون طفلها فى الواقع أوفر صحة وأكثر عافية.

وللشهية حَدٌّ طبيعى قد تقل عنه أو تزيد، أو قد ينتابها شذوذ فى نوع الأشياء التى يقبل عليها الطفل. وسأتحدث عن كل منها على حدة.

فقد الشهية:

مسببات فقد الشهية إما أن تكون مَرَضية، أو فسيولوجية، أو نفسانية.

فأما فقد الشهية المَرَضى: فيصحب معظم الأمراض، إذ المعلوم أن أى ألم أو مرض فى أى جزء من أجزاء الجسم يضعف قابلية الطفل للطعام؛ ومن أمثلة ذلك التسنين والتهابات الفم، وتسوس الأسنان، والتهاب الأنف واللوزتين، وفقر الدم، والتدرن الرئوى. وهذا الأخير هو أول ما يتبادر إلى ذهن الوالدين إذا ما لاحظا أى نقص فى شهية ابنهما، وخاصة إذا صحبه بعض شحوب فى اللون أو نقص فى الوزن. ولحسن الحظ يندر أن يتحقق ظن الوالدين، بعد البحث والفحص والاستقصاء.

وأما فقد الشهية الفسيولوجى: فيظهر فى الحالات التى لا تعطى للطفل فيها الفرصة حتى يجوع، والجوع أهم منبه للشهية، وبذلك يفقد القابلية نحو الوجبة أو الرضعة التالية؛ فمثلا إذا أكل الطفل بعض الأشياء المحببة إليه كالبسكويت والشكولاتة والفواكه وغيرها قبل ميعاد الوجبة الأساسية بمدة قصيرة، فيجب أن تمنع عنه كل ما يطلبه من المأكولات قبل الأكل بساعتين على الأقل، وبذا يقبل على غذائه الحقيق بشهية.

كذلك قد تكون المدة التى تنقضى بين الرضعات أو الوجبات قصيرة بحيث لا يتسنى للمعدة أن تفرغ محتوياتها تماماً. وعلاج ذلك أن نطيل المدة بين الأكلات؛ فمثلا إذا قارب عمر الطفل على السنة تكون المدة أربع ساعات، وعند سن السنة والنصف تكون خمس ساعات وهكذا.

كما أنه يحدث أحياناً أن تكون نسبة القشدة فى اللبن كبيرة، أو يكون الطعام محتوياً على كثير من المواد الدسمة، والمواد الدهنية تبقى بالمعدة مدة أطول من غيرها، أو يكون الطفل يتناول زيت السمك كمقوٍّ لاحتوائه على نسبة كبيرة من الدهن.

وأما فقد الشهية العصبى أو النفسانى: فهو فى الغالب فى الطبقات التى ترتاد عيادات الأطباء الخصوصية، وقد

يكون الطفل وحيد والديه أو بكرهما ، يشعر بما له من منزلة هامة عندهما ، ويرى نظرات القلق التى تبدو على وجه والدته ووالده كلما امتنع عن تناول طعامه ، ويسمع عبارات الجزع التى يقصها أهل المنزل لجيرانهم وزائريهم عن شهيته المفقودة ، ويرى والدته المسكينة تتنقل به من طبيب إلى آخر وقد ظهر البؤس فى عينيها ، وعند الجلوس إلى المائدة تلحف فى رجائها له أن يرق قلبه ويتناول طعامه ليريحها من عذابها الأليم ، وقد تصل بها الدرجة للصراخ والعويل ؛ وفى أثناء ذلك كله يرجع الوالد من عمله فينضم إلى جماعة الشاكين المتضرعين من سادة وصبيات وخدم ؛ والطفل لا يسعه إزاء ذلك إلا أن يجلس على كرسيه وقد داخله الزهو والكبرياء ، ولا يزيده التضرع والرجاء إلا عتواً وطغياناً .

مثل هذا الجبار الصغير يجب أن يعامل بما يستحقه من الطرق السلبية ، وإن الوالدين ليضرانه أعظم الضرر بإلحاحهما المستمر ، والطريقة الوحيدة هى أن لا يظهرا للطفل أى اهتمام بكمية الطعام الذى يتناوله ، بل يوضع الطبق أمامه لمدة عشر دقائق أو ربع ساعة ، فإذا لم يأكل يرفع الطبق من أمامه بدون أى كلمة عتاب أو تقريع . وبتكرار هذه العملية يتغير الموقف تماماً : الطفل يصمت مطالباً بالزيد ، والأم فى زهو الانتصار ، تصمم على أن لا تعطيه أكثر من قدر محدود ، ثم لا يلبثان أن يعقدا هدنة ، يعقبها صلح ، فسلام طويل الأمد ! ويجب فى الوقت نفسه أن نلاحظ مزاج الطفل ، فقد يكون امتناعه عن الأكل ناشئاً عن كون طعامه على وتيرة واحدة من حيث ألوانه فيمث إلى نفسه الملل ، والإنسان بطبعه ميال إلى التغيير .

زيادة الشهية وشذوذها :

تلاحظ زيادة الشهية بكثرة فى الأطفال السمان الذين لا يمتنعون عن التهام كل ما يقدم لهم من الطعام فى أية ساعة من ساعات النهار . وفى بعض الحالات لا تكون زيادة الشهية أكثر من عادة قبيحة نتيجة خطأ فى تربية الطفل ، وقد تكون نتيجة اضطراب فى الهضم ، أو إصابة بديدان الأمعاء ، أو البول السكرى .

وكثيراً ما تشاهد أطفالاً يميلون إلى التهام الطين أو التراب أو الطباشير أو الصابون أو الجير ؛ وأحياناً يأكلون شعرهم ، وفى حالات نادرة برازهم ؛ وقد يكون هذا الطفل طبيعياً فى مظهره ، لا يدل فحصه على وجود أى مرض ، ولكن هذه الظاهرة تحدث غالباً فى الأطفال الضعفاء المصابين بفقر الدم ، أو ديدان الأمعاء ، وكثيراً ما تلاحظ فى حالات نقص القوى العقلية .

وتبدأ هذه العادة السيئة بين سن ستة أشهر وثمانية عشر شهراً ؛ وقبل أن يمشى الطفل يحبو نحو حذاء والده ويمسكه بيديه ، ويمتص التراب أو الطين العالق به ، أو يلعق التراب العالق بعجلات عربة نزهته . فإذا ما تعلم المشى أصبح حراً فى الوصول إلى غرضه بسهولة ، فإذا وجد جزءاً من بياض الحائط سهل الإزالة التقطه بشغف وأخذ يمضغه بلذة ، وكذلك يبتلع كل ما تصل إليه يداه ، غير عابئ بالنتيجة ما دامت اللذة الوقتية متوفرة .

ويجب أن نتدارك هذه العادة الخطرة من بدء حصولها فقد ننجح فى إيقافها كلية . أما إذا تهاونا فى علاجها وتركنا الطفل يمضى فى ميوله الشاذة بضعة شهور ، فإن علاجها يصعب ، وقد يستحيل إيقافه عند حده . وفى معظم الحالات التى لا يصحبها أى مرض آخر ، يشفى الطفل فى السنة الثالثة أو الرابعة من عمره . ولكن قد تستمر العادة إلى سن المدرسة ، وحتى سن المراهقة ؛ وقد لا يكون فى استمرارها أى ضرر — وهذا هو الغالب — ولكن يحدث أحياناً أن يتسبب عنها نوبات

إسهال شديدة ، أو قد يؤدى ابتلاع كميات كبيرة من الشعر أو الرمل أو الحصى إلى عواقب وخيمة جداً .

وعلاج مثل هذه الحالة يتلخص فى الآتى :

أن يُبْعَدَ الطفل بقدر المستطاع عن المادة التى يميل إليها ، وأن يُعالج بعناية أى اضطراب فى الجهاز الهضمى ، لأن هذا يساعد على استفحال العادة . كما يجب تقوية الطفل وتحسين حالته العامة ، لأن هذه العادة تتمكن من الطفل الضعيف ، أما القوى الصحيح فيمكنه التغلب عليها بسهولة . وأخيراً يستحسن تغيير البيئة التى يعيش فيها الطفل ، وأن يُحبَّبَ إليه بعض الألعاب التى تشغل ذهنه ، وتحول مركز اهتمامه إلى اتجاه آخر .

كيف نربى شهية الطفل :

يجب تنظيم مواعيد الأكل ورياضة الطفل على احترامها ، كما يجب تقديم أصناف الطعام بترتيبها الطبيعى ، بحيث تأتى الحلوى والفاكهة فى آخر الأكل ؛ ومهما صرخ الطفل مطالباً بها قبل أوانها فلا يصح أن نعيره أذناً صاغية . وينبغى تقديم الطعام بصورة جذابة مشوقة وبكميات غير كبيرة .

يجب أن يلزم الطفل المائدة طول مدة تناول الأكل التى تتراوح بين عشرين وثلاثين دقيقة ، وبذلك يدرك أنه لا فائدة من الإسراع فى الأكل بقصد الرجوع إلى اللعب مع إخوانه .

يجب أن يكون الجو العائلى أثناء الأكلساراً مبهجاً ، لأن السرور والبهجة ينبهان الشهية ، بعكس الحزن والكآبة فهما يفقدانها . وينبغى إشراك الطفل فى الحديث حتى لا يتطرق إليه الملل ، ولكن حذار من جعله محور الحديث طول المدة لأن ذلك يشغله عن الأكل ؛ وعلى الحاضرين أن يتحاشوا ذكر كرههم لأى لون من ألوان الطعام حتى لا يقلدهم الطفل فى ذلك .

يجب ألا يعنف الطفل أو يزجر أو يهدد بالعقاب إذا لم يأكل ؛ فما علينا إلا أن نضع الأكل أمامه صامتين ، فإذا لم يأكله بعد المدة المقررة رُفِع الطبق من أمامه بغير عتاب أو تقريع .

وإذا قدم للطفل طعام جديد لأول مرة ، فليكن قليلا ، ويجب فى الوقت نفسه أن يقبل عليه جميع الجالسين إلى المائدة ؛ ويحسن أن تقدم الأصناف الجديدة فى أول الأمر حينما يكون الطفل جائعاً فيقبل عليها بشهية . كما يجب أن لا نسأل الطفل إذا كان قد أحب الصنف الجديد أم لا ، فقد تدفعه غريزة حب الظهور أن يجيب سلبياً . ومن الحكمة أن نجعل الطفل يدرك بغريزته أن رفض أى نوع من الطعام ليس معناه تبديله بصنف آخر أحب إليه .

مصطفى الديواني

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى	٦٠ قرشاً فى مصر والسودان
	٨٠ فى الأقطار العربية
	١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ٦ مليمات

٢ – الموت والحياة فى فلسفة إقبال

– ٢ –

وإنه ليملكك العجب إذا رأيت الشعراء جميعاً فى ناحية و «إقبالا» وحده فى ناحية أخرى ، فهم يتغنون بالوصال ويذمون الفراق ، ويتبرمون بالأسفار ويحمدون الإقامة الهادئة ، بينما هو يحب الرحلة والتجوال ويطرب لدمدمة الرعود وأزيز الأمواج فيقول :

الوصل فى الحب غال وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلو ولكن عواقب الهجر أحلى

فى القرب موت الأمانى والعيش فيه فناء
والبعد فيه حياة يذكى ضياها الرجاء

إن اتقاد الأمانى وحسن شدو الطيور
ونجمة الخلق سعياً فى العالم المعمور

والسحب حين تراها تسق الربا والهضاب
والموج فى البحر يعلو حتى يفوق الهضاب

وكل ما فى البرايا من روعة وجلال
لو لا يد الهجر فيه لم يزدهر بالجمال

يحدثنا «إقبال» عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة ، ويبين لنا مراراً أن الربيع لا تتفتح أزهاره ، ولا تنضر أغصانه ، ولا يبدو كل ذلك جميلا فى الحدائق إلا عند ما تتساقط كل الأوراق بعواصف الخريف ، وتبدو الطبيعة جافة صامتة نائمة حتى يوقظها ذلك الربيع بتغريد أطياره ، كما مر فى الصور السابقة ، فيقول لنا إن ظواهر الحياة تعطينا درساً بليغاً ، فليس الموت إلا غروباً لشمس الروح ، ثم تستطع بعد ذلك فى صبح الخلود الذى لا فناء بعده :

زعم الجاهلون أن المنايا مغرب فيه للحياة انقضاء
أفلم ينظروا إلى الشمس يبدو نورها بعد ما طواها المساء
تغرب النفس ثم يشرق صبح فيه للنفس بالخلود انقضاء

عند ما أريد بناء مستشفى فى الحجاز أراد «إقبال» أن يقدم إلينا من سحره بلسماً يهون صدمة الموت ، ويوضح أن المرء بعد اجتياز تلك الرحلة يحيى حياة هادئة لا يحياها الحضر فى عمره الطويل . ثم يهون احتمال الصدمة الأخيرة بعبارات سما فيها خياله وتصوره . فأنت ترى أن الشاعر ينظم القصيدة فإذا لم يجدها ملائمة لطبيعة روحه حذف منها أشياء ، وأثبت غيرها جديدة ، وأعمل فيها التغيير والتبديل . كذلك الرسام والمهندس والكاتب وكل الفنانين الذين نشاهد ابتكاراتهم أمام أعيننا . والقدرة تبدع فى فن الإنسان وترقى به تحسيناً وتجميلاً . وليس الموت إلا حالة يراد بها إصلاح النفس وإعلاؤها ؛ وتتجلى لك هذه الحقيقة واضحة فى هذه الأبيات :

يا أساة الحجاز هلا علمتم أن برء الحياة أرض الحجاز
إن سر الحياة يكمن فى المو ت فيحكى حقيقة فى مجاز

فرح المؤمنين فى سكرة المو ت بقرب المهيمن المتعالى
هو أحلى من عيشة الحضر فى الد نيا طوال الدهور والأجيال

لم جئتم المؤمنين ببرء إن إيمانهم يداوى الجريحا
والذى ذاق من يد الوحى كأساً ليس يحتاج للدواء مسيحا

كل كون أبلته أيدى الليالى أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين ليبقى منزلا عالياً وقصراً مشيدا

فى أحوال عديدة وبأساليب مختلفة يبيّن شاعرنا أن الحياة تختفى ضعيفة لتظهر قوية ، فلا خوف من ذهاب شىء لأنه سيظهر بصورة أجمل وأحسن ، كما مرّ فى الصورة السابقة ؛ وفى هذه القطعة يتحدث لنا عن تزلزل الحياة واضطرابها الدائم ليزيدنا يقيناً بها :

فى خِضَمّ الحياة يضطرب المو
ج ولا يستقر فى أىّ حال

ثوران الحياة فى الكون باد   كل شىء به رهين انتقال
كل ذرات هذه الأرض دوما   فى احتدام وثورة واشتعال
لا يغرّنك فى الجبال سكون   قد يجىء السكون بالزلزال

ليس ذاك الثبات فى الفلك الدا   ئر إلا من خدعة الأنظار
لا ترى فى السير قافلة الكو   ن ولا تنتهى من الأسفار

عالم دائم التجدد موّار   خُطُى ليس فى الطريق يوان
لا يملّ التغيير إلا تحول   ليس يدرى ما لذة الطيران

الحياة الجهاد والجد والوث   بة والعزم ماضيا والسكون
يقطف الزهر فى الفروع ولكن
فوق تلك الفروع تنمو زهور

« إقبال » يعرف هذه الحقيقة ، ويخلق لها من الطبيعة أجمل الصور وأحدث التشبيهات ، ليزيل اليأس المظلم بنور الأمل المشرق ؛ وفى هذه الأبيات دقة هذه المعانى متجلية ، تريك الحياة ماثلة فى تغيرها من جميل إلى أجمل ومن حسن إلى أحسن . فهو يخاطب النجم الذى يلمع فى ظلام حالك مضطرباً فى القبة الزرقاء ، قائلا لمك تخشى فناء حياتك بإشراق الصباح ، فذلك تقضى ليلك فى فزع ، ويقول المسافر فى رحلة الدنيا إن موت البراعم حياة للزهور :

فناء ملايين النجوم مبشّر   بأنوار شمس فى السموات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة
بخمر حياة فى الخلود تُجدّد

وتوديع أيام البراعم مؤذن   بخلق الزهور الباسمات جمالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر
فإنى أرى فيه السكون محالا
وليس سوى التغيير فى الكون ثابت
يغيّر حالا ثم ينشئ حالا

سبق لنا أن تحدث « إقبال » فى صور مختلفة عن خلود الحياة الإنسانية ؛ والآن تأمل إلى النهر الذى ينحدر من القمم المرتفعة فى ملاءته البيضاء ، هابطاً كسلاسل الفضة ، مرسلا من خريره نغماً شجياً يتعلم منه البلبل ترجيع ألحانه ، حتى إذا هبط إلى السفوح والوديان تفرقت قطراته كما يتفرق الآلاف ، وكأنك لا ترى الآن من ذلك الماء السلسال شيئاً ، فإذا سرت قليلا بعد ذلك بين الرمال رأيت النهر متجلياً فى حلاه الفضية يسق من حوله النابات والأعشاب ؛ كذلك نهر الحياة يهبط من سمائها ثم يغيب حيناً ليظهر متسقاً فى مجرى الخلود . ويقدم لنا هذه الصورة الأنيقة :

من رؤوس الجبال ينحدر النه
ر طروب الأمواج عذب الأغانى

ينقل الطير عنه بين الروابى   ما يبث الغصون من ألحان
كخدود الحور الحسان تراه   فى صفاء البلور حلو الخرير
ثم تمضى تلك المياه ضياعاً   فى تلال منثورة وصخور

قطرات من النهر طوتها   فى ثنايا الرمال أيدى الفراق
ثم تجرى بها الينابيع فى الأر
ض فتحظى بعد النوى بالتلاق

فإذا النهر بعد ذلك فى   مجراه يحيى الزهور والأعشابا
فضة تنبت الزمرّد فى الأر
ض وتسقى النخيل والأعنابا

وحياة الإنسان نهر سماوى   تولت بسيره الأقدار
كلما غاض ماؤه عاد فيا   ضاً فما ينقضى له تيار

شعلة النفس لا تصير رماداً   ضوؤها خالد على الأزمان
كل شيء يمضى وكل حياة   تنقضى غير جوهر الانسان

وطالمنا « إقبال » ببرهان عميق يحملنا على الاذعان والتصديق ، ويزيد الإيمان فى أنفسنا جلاءً ووضوحاً ، وذلك أن الحرص على الحياة وتنازع البقاء مركوز فى جميع طباع الأحياء ، ومستقر فى غرائز الكائنات ، وكأن القدرة بذلك نقشت سر الخلود فى حب الحياة . وعموم الموت وشموله يدلنا على أنه لا يؤثر فى حقيقة الوجود ، وأنه لا يزيد عن كونه أمراً عرضياً كالنوم الذى لا يؤثر فى حيوية النائم ؛ وإلى هذا المعنى يشير بقوله :

سر الخلود جرى مع الدم فى العرو
ق وخالط الأرواح والأحياء
لم يحيينا الرحمن فى الدنيا سدى
وهو الحكيم مشيئة وقضاء
لما رأيت الموت يشملنا علـ
ـت بأنه لن يستحيل فناء
الموت مثل النوم يبدأ سكرة   ويعود صحواً دائماً وبقاء

فى علوم الطبيعة لا توجد قيمة خاصة للحياة الانسانية ، وليس للانسان شأن خاص فى هذه الكائنات ، ولكن الدين يعلمنا أنه أشرف المخلوقات ، بل إن هذه الكائنات خلقت لأجله . وإذا كان هذا صحيحاً فتأملوا إلى تلك النجوم التى تنير منذ ملايين السنين ، والتى تعجز العقول دون حساب أعمارها ، فلنوازنها بالانسان الذى هو أبعد نظراً من النجوم ومما وراء الأفلاك . وليست السماء فى سعة فطرته إلا نقطة ، ومقصد حياته أعلى من مقامات الملائكة ، ومن أنفاسه يتجلى النور فى محافل القدرة ، وقد حمل الأمانة التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . فهل تحيا هذه النجوم كل هذا العمر الطويل ، والانسان الذى يساويها بقلامة ظفره يفنى فى لحظة . . . ؟ وهل هو أقل من هذه الذرات اللامعة حتى تبقى هى فى لمعانها ثم يمحى ضوؤه فى لمحة . . . ؟؟

يا أيها المسلم إن   الأرض والسماء لك
ضياؤك القدسى أعـ   ـلى من شرارات الفلك
ما جئت فى الدنيا لتفـ   ـنى وهى بالخلد تدوم
هل تصبح الشمس أقل   قيمة من النجوم؟

تأملوا إلى حقيقة البذور عندما غطيت بتراب الأرض ؛ لم تضمحل تحت الثرى ، ولم ينضب معين حيويتها وهى دفينة فى ترابها . بل كانت فى تفاعلها مضطربة للنشوة والنماء ، وشعلة الحياة المستورة فى وجودها لم تنطفىء من تلك الظلمات ، بل نمت وترعرعت وتفتحت أكمامها بالزهور الباسمات عن أجمل الألوان وعطر النسيم ، حتى أوحت إلى نفس الشاعر هذه الأبيات :

لقد دفنوا فى التراب البذور
فلم تفن فى لحدها الهامد
ولم تنطفىء نارها فى الحياة   على طول مرقدها البارد
لقد نسجت للحياة القباء
وصاغت من الزهر أبهى حلاء
نمى غصنها زاهراً واستفادت
من الموت تجديد ذوق الحياة

محمد حسن الأعظمى والصاوى الشعلان

الجبال

قد حجبت أفق السماء شواهق
وافت فبارق خلفهن فبارق

قامت سوامق في الفضاء وفوقها
من يانع الأدواح سامر سامق

وتفردت في وحدة فكأنها
لما تلاقت في الخلاء أصادق

وكأنهن من الأنيس نوافر
أو من ضجيج الحاضرات أوابق

وكأنها في صمتها وخشوعها
لما تكامل جمعها المتناسق

عقدت هنالك مجلساً في خلوة
يقضى به أمر جليل خارق

وكأنها تبغى اكتناه مصيرها
أو شاقها سر الوجود الشائق

لكن مضت حقب وهن مواثل
بكم وما منهن قول ناطق

ما إن يفتهن إلا زائر
في جنح ليل أو نهار طارق

إن جاء يسعى شيعت خطواته
أذن لمن صغت وطرف رامق

كم من محاسن ثم ليست تجتلى
قد غاب عنهن المحب العاشق

كم أينع الدوح الكثيف فما احتفى
أحد هناك أيانع أم ناقق

ومضى هباء عطرة وزهت بلا
جدوى غصون بالزهور خوافق

وغدت ذكاء تصب حسن ضيائها
فمضى سدى ذاك الضياء الشارق

وجرى غدير دافق لا يحتفى
بجماله وهو النمير الرائق

متكسر فوق الصخور مكسر
أشلاءها من كل فج مارق

الحسن في تلك الربى متصارع
حيناً وحيناً ساكن متعانق

تطغى على كر العصور بها القوى
ويهول منها شاهق أو حالق

والغدر من أخلاقها لا تتقى
منها غوائل إن هوت وبوائق

الهول في هاماتها متشاجر
والحسن في الوديان حال آنق

وإذا طغى برد الشتاء على ذرى
طود فني السفح الربيع العابق

نمت الحقول على خصيب سفوحه
وجرى بها الحراث فهى شقائق

وابث في أحضانه وحجوره
زمر البيوت ورهطها المتلاحق

جثتْ على أقدامه وجثتْ على
سيقانه وزهتْ بينَ حدائق
وغدتْ وراحتْ أمةٌ في غبطةٍ
قد قام يرعاها المنيفُ الشاهق

فخرى أبو السعود

تحية اللقاء

[إلى البلبل الذى غنى فى البلد ..]

أنساكِ ! كلا وألف كلا ... لا كان قلبي إذا تسلّى
ناجيتني واحتضنت حبي ... كما تضم الرءوم طفلا
يا أيها الكوكبُ المغنى ... بأىّ صوتٍ شدوت ليلا
صارت نجوم السماء تدنو ... فكل نجمٍ دنا أطلا
وظل يصغى له كأن لم ... يسمع غناء الخلود قبلا
ورفّ منه الشعاعُ شوقاً ... وذاب فى الماء واضمحلا !

* * *

كان نشوراً لكل قيس ... وكان بعثاً لكل ليلى !
أطلقتِني فى ذرى خيالى ... أسبح فى غابرٍ تولّى
كأن ماضى الهوى كتاب ... طوته كف البلى فظلا
إن طمس الدهر منه فصلا ... أقرأتِني أنتِ منه فصلا !
أطلتُ بعد اللقاء هجرى ... أقتل نفسى عليكِ قتلا
من أى أفق وراء ظنى ... ذاك الشهاب الذى تجلى
يطوف عقلى فكل غالٍ ... مر ببالى أراك أغلى
وطار فكرى فكل أفق ... أرقى إليه أراك أعلى

ابراهيم ناجى

أنباء وآراء

أسرار البلاغة في علم البيان

أهدت إلينا دار المنار كتاب « أسرار البلاغة » في علم البيان لمؤلفه الإمام « عبد القاهر الجرجاني » مطبوعاً طبعاً متقناً على ورق جيد صقيل . والكتاب ومؤلفه غنيان عن التعريف . وقد وضع في وقت تحكمت فيه دولة الألفاظ واستبدت على المعاني . وهو خير ما كتب في موضوعه عبارة وأسلوباً ، وإيضاحاً للمسائل وبسطاً للدلائل . وقد امتاز بإرجاع الاصطلاحات الفنية إلى علم النفس ، وتأثير الكلام البليغ في العقل والقلب . وقد عني بتصحيحه علامتا المعقول والمنقول المرحومان الشيخ « محمد عبده » ، والشيخ « محمد محمود الشنقيطي » ، وعلق حواشيه المرحوم « السيد محمد رشيد رضا » .

وثمن النسخة ٢٥ قرشاً .

أشعار الحرب

من الكتب الجديدة التي صدرت بعد الحرب في انجلترا ديوان شعر للمستر لوريت عنوانه « بضعة أشعار لبعض الألمان » ضمنه كثيراً من الشعر السياسي يخاطب به الشعب الألماني ، وقدم له مستر ماسفيلد الناقد والشاعر الانجليزي بمقدمة ذكر فيها العلاقات التي تربط بين انجلترا وألمانيا من الوجهة الفنية ، إذ أخرجت انجلترا للعالم أعظم شاعر وهو شكسبير ، وأخرجت ألمانيا للعالم أعظم موسيقي وهو بيتهوفن ، وتحدث عما كان يشعر به الفنانون الألمان نحو انجلترا من الحب والتقدير ، حتى إن بيتهوفن وهو يحتضر في فينا في وقت اشتعلت فيه نيران الحرب بين الدول ، لم يتمالك حين سمع بنبأ هذه الحرب أن قال لمن حوله : « ليبارك الله الانجليز » .

وقد ختم مستر ماسفيلد مقدمته بالإشارة إلى الفنانين الذين آوتهم انجلترا في أوقات محنتهم ، ثم خاطب الشعب الألماني قائلا : ترى هل تستطيع انجلترا أن تأوي اليوم أصدقاءها الألمان المنكوبين وقد أصبحوا الشعب بأسره ؟

تحرير البشرية

في الكتاب الذي أصدره أخيراً السير موريس روبترى بعنوان « تحرير البشرية » آراء طريفة عن أسباب الاضطراب العالمي . فهو يرى أن العوامل التي ساعدت على النزاع الأوربي الحالي لا تعود كلها إلى الحالة الاقتصادية ، بقدر ما تعود إلى الحالة النفسية للأفراد ؛ تلك الحالة التي نشأت من النظريات الحديثة وتهافت الأفراد عليها كسبيل للخلاص من متاعبهم الخاصة . فالفرد العادي الذي كان إلى عهد قريب لا يشغل نفسه بأكثر من شئونه الخاصة أصبح يجد شيئاً من الأمل في التخلص من متاعبه بالانضمام إلى حزب معين ، يقوم على نظرية خاصة ، وينادي بسياسة خاصة ؛ وقد استطاع أصحاب النظريات أن يكسوا نظرياتهم لوناً زاهياً ، ويحيطوها بما يشبه أن يكون عناية بالفرد ومصلحته ، مما جعل كثيراً من الأفراد في الدول التي أجهدتها الحرب الماضية ونشرت عليها ظلالا من اليأس ، ينخدعون بهذه الألوان ، ويهرعون إلى هذا النقد الجديد مما هم فيه من ضيق ؛ وقد بلغ من دهاء أصحاب هذه النظريات أن ربطوا نجاحها بالتفاني في الإخلاص لها ،

مستعينين ببعض الطلاسم التي يولع بها الجماهير ، كالنزعة الآرية في ألمانيا ، والامبراطورية المقدسة في إيطاليا ، وتلك الاشارات والملابس الخاصة المأخوذة فكرتها مباشرة من الطقوس الدينية .

أما الحالة النفسية للأفراد التي يعلل بها المستر رونترى الاضطراب العالمي ، فهي الضيق الناشيء من فشل اللجوء إلى هذه النظريات لحل المشاكل الخاصة ، وأثر التورط في تحمسها والتفاني في التحمس لها ، ذلك التورط الذي ينشيء حالة من اليأس تدفع الفرد إلى الاستمرار في الاندفاع لتأييد هذه النظريات — مع إيمانه بخطئها ويأسه من صلاحيتها — اندفاعاً يشبه اندفاع المقامر الخاسر في اللعب بكل ما بقي معه .

ويرى المستر رونترى أن البشرية لن تحرر إلا إذا استطاعت النظم الصحيحة أن تسود ، أو بمعنى أصح إلا إذا قضى على المندفعين اليائسين ، أو على الأقل وجدت الوسيلة لتهدئة أعصابهم وإخراجهم من أسر هذه النظريات دون تعريضهم لخجل المنهزم ؛ وما دام الحل الأخير قد فشل في اليوم الذي غامرت فيه ألمانيا بدخول الحرب ، فان على الديمقراطيات أن تبذل كل جهد لتحقيق الحل الأول ، أي القضاء على المندفعين اليائسين في غير تردد ، لأن ذلك هو الحل الوحيد لتحرير البشرية .

فن الكتابة

هل الكتابة موهبة أم مران ؟ .

ذلك هو السؤال الذي تعرض للإجابة عنه الكاتب الانجليزي المشهور ج . ب بريستلي . فهو يقول إن الكتابة ليست إلا مراناً قبل كل شيء ، وما على الانسان حين يريد أن يجيد الكتابة إلا أن يضحي بمبلغ ضئيل يشترى به قلماً وورقاً ومداداً ، ثم يمضي في الكتابة في أي موضوع شاء ، ولا شك أنه إن أخذ نفسه بهذا المران سيجد نفسه يوماً ما قادراً على الكتابة بالأسلوب الذي يروقه أو الذي تهيء له الظروف أن يروقه .



ج . ب . بريستلي

ويوضح بريستلي الفرق بين إجادة الكتابة والنجاح فيها فيقول : إنه في الوقت الذي لا تحتاج فيه إجادة الكتابة إلى مران فإن النجاح ككاتب يتطلب من الانسان أشياء أخرى أهمها المناعة الذهنية ، وهي أن يكون الانسان قادراً على أن يفصل بين العوامل النفسية المختلفة وبين قلمه . فلا يؤدي به الغضب من نقد ناقد مثلا إلى أن يلقي بالقلم فلا يرد عليه ، أو يدفعه الغضب إلى الرد في حالة نفسية مضطربة ، فيؤدي ذلك إلى وقوعه في أخطاء قد تكون أشد هولاً من أخطائه التي كشف عنها الناقد في نقده .

ويلي المناعة الأدبية أهمية لنجاح الكاتب قدرته على إخفاء فشله المالي ومداراة نتائج هذا الفشل . لأن الناس لا يقتنعون بقدرة الكاتب من قراءة ما يكتب بقدر ما يقنعهم شعوره بأنه كاتب رابح يدر عليه قلمه مئات الجنيهات . ويقول بريستلي إنه جرب ذلك بنفسه حين فشل أحد مؤلفاته فشلاً ذريعاً ، وكان في ذلك الوقت يكتب لاحدى الصحف ، فما كان أشد دهشته حين جاءه خطاب من هذه الصحيفة تعتذر إليه بعدم حاجتها لكتاباته لأنها لا تلاقي إقبالاً من الجمهور . ولكنه استطاع بعد عدة شهور أن يتدارك موقفه ويستعيد مكانته بوسيلة وحيدة هي إعادة طبع هذا الكتاب . .

* * *

دراسات مسرحية :

فى أثناء عمل التجارب المسرحية

تبدأ التجارب المسرحية فى معظم مسارح العالم قبيل الظهر ، فيما بين الساعة العاشرة صباحاً والساعة الثانية بعد الظهر ؛ ولقد كانت المسارح فى أوربا وأمريكا تكثر من عمل هـذه التجارب ، إلى أن وضع أخيراً نظام خاص بذلك ، يقضى بدفع أجور الممثلين نظير حضورهم واشتراكهم فى عمل التجارب ، اللهم إلا بقدر ما تدعو إليه ضرورة العمل .

والعادة أن تقام هذه التجارب بالمسارح التى ستمثل بها الروايات ، غير أنه يحدث فى كثير من الأحيان أن يلجأ المشتغلون بالمسرح إلى عمـل تلك التجارب بإحدى الصالات الخالية — فى حالة تعذر إجرائها بمسرحهم الخاص — وأحياناً يقيمون تلك التجارب بصالة أحد الفنادق الكبيرة أو ما شابهها مما تسمح به الحالة .

وأول واجب على الممثل الناشئ فى أثناء وجوده بالتجربة المسرحية ، هو أن يفرض أنه كالجندى ، وأنه يجب عليه أن يطيع الأوامر التى تصدر إليه مهما بدت له أنها مغايرة لآرائه الشخصية ، فإذا كانت له آراء خاصة عن موقف من المواقف ، فإن المخرجين عادة يرحبون بسماع أية ملاحظات بعد انتهاء التجربة وليس فى أثنائها بأى حال . ذلك لأن المخرجين يحضرون لعمل التجارب المسرحيـة ومعهم رسوم تخطيطية مدروسة للمواقف التمثيليـة التى تتكون منها مناظر الرواية ، بحيث يتسنى لهم إرشاد الممثلين على ضوء تلك الرسوم وتوجيههم للقيام بالحركات والخطوات اللازمة ؛ وهذا هو السر فى أن العناية بالتمثيل نفسه فى أثناء عمل التجارب المسرحية أقل كثيراً من العناية بالمواقف التمثيلية نفسها ؛ فالمخرجون يعطون كل عنايتهم لها لتحديد كل خطوة وكل حركة على الممثل أن يقوم بها ، بحيث لا تترك حركة من الحركات ، أو خطوة من الخطوات للصدفة ؛ ولهذا فإننا ننصح كل ممثل ناشئ بأن يضاعف انتباهه إلى إرشادات المخرج فى أثناء التجربة المسرحية ليتسنى له دراسة مواقفه التمثيلية دراسة صحيحة ، وبعدئذ يمكنه أن يمثل دوره تمثيلا متقناً حسب مقدار فهمه له ، وحسب مقدار ما عنده من موهبة فنية . ولعل هذا البيان فيه الكفاية للإجابة على السؤال الذى طالما ردده المشتغلون بالتمثيل وهو :

— هل يجب على الممثل أن يمثل دوره تمثيلا تاماً فى أثناء التجربة المسرحية ؟ أم يكتفى بالتدرب على المواقف التمثيلية تحت إرشاد المخرج ؛ على أن يترك التمثيل للتجربة النهائية التى تقام عادة قبل تمثيل الرواية أمام الجمهور ؟

غير أن الإجابة الصحيحة على هذا السؤال تتوقف فى الواقع على طريقة المخرج نفسه ، فبعض المخرجين يفضلون سماع أصوات الممثلين ومشاهدة حركاتهم التمثيلية فى أثناء التجارب المسرحية تماماً ، كما لو كانت الرواية تمثل أمام الجمهور ؛ بيد أن هذه الطريقة تتعب الممثلين من ناحية وتجعلهم يسأمون أدوارهم ويجشون أصواتهم قبل ابتداء التمثيل الحقيقى أمام الناس ؛ ولذلك فإن الأفضل هو الاعتناء بدراسة المواقف التمثيلية فى أثناء التجربة وتدريب الممثلين عليها تدريباً كافياً ، لا سيما أنه لأسباب فنية عديدة يتعذر إعطاء التمثيل أصوله وحقوقه الفنية من إضاءة وما إليها فى أثناء عمل التجارب ؛ فمحاولة إرغام الممثلين على التمثيل تمثيلا حقيقياً فى أثناء تلك التجارب لا يمكن أن تعطى النتائج الفنية المقبولة ، وإذاً فيجب الاكتفاء بما أسلفنا بيانه

من تدريب الممثلين على مواقفهم التمثيلية وتحفيظهم أدوارهم .

وبهذه المناسبة لا يفوتنا أن ننبه الممثل الناشئ إلى أنه يجب أن لا يخدع نفسه فيتوهم أنه سريع الحفظ فيدخل المسرح في أثناء عمل التجارب ، بدون نصوص دوره ، فتكون النتيجة أن يخترع عبارات جديدة ، ولو أنها تؤدي المعنى إلا أنها تسبب ارتباكاً للممثلين الآخرين الذين يعتمدون على نهايات الجمل التي عليه أن يقولها لكي يبدأوا هم عباراتهم ؛ فمهما كان الأمر يجب على الممثل أن يعتمد اعتماداً كلياً على النصوص المكتوبة لدوره في أثناء عمل التجارب ، إلى أن يحين الوقت لعمل ما يسمونه عادة (التجربة العامة) فهذه تكون في الواقع كالتمثيل تماماً كما سيحدث أمام الجمهور ؛ غير أنه يمكن تدارك ما قد يكون بها من أخطاء ، لأن الذين يحضرون هذه التجربة العامة هم في العادة أسرة المسرح نفسه ، وليس الجمهور ؛ وبتصحيح ما قد يلاحظ من أخطاء ، يمكن تقديم الرواية في اليوم التالي أمام الجمهور وهي خالية من أي خطأ .

وقبل أن ننتهي من هذا الفصل ننصح الممثل الناشئ بأن يعنى بهندامه ، لكي يترك أثراً طيباً في نفوس الذين يرونه من رجال الإدارة المسرحية ، لأن هؤلاء الناس يعتقدون أن الممثل الرث الثياب في حياته العادية لا يعرف كيف يعنى بملابسه التمثيلية على المسرح ، وربما كان لهم حق فيما يعتقدون .

ولا ينبغي أن يثير الممثل أعصابه في أثناء عمل التجارب ، مهما طلب إليه المخرج إعادة تمثيل مواقفه التمثيلية ، لأن الممثل العصبي المزاج لن يجد في المستقبل مخرجاً يختاره لتمثيل أي دور على الإطلاق ؛ فالواجب على الممثل إذاً أن يضبط عواطفه ، وأن يطيع أوامر المخرج ، وأن يجتهد في أن ينفذ رغباته كلها ، لأنه هو الذي يقدم الرواية ، وهو الذي يتحمل مسئولية مظهرها أمام الجمهور .

« كينو »

إنه في يوم السبت ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٩ بناحية ميت طاهر مركز دكرنس وفي يوم الأربعاء ٢٩ منه بسوق دكرنس سيباع علنا أرز موضح بمحضر الحجز ملك عزيز محمد جمعة من الناحية نفاذاً لحكم محكمة دكرنس الأهلية في القضية رقم ٢٠٩٦ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ١٩٣ قرش صاغ قيمة المحكوم به والمصاريف خلاف ما يستجد كطلب الشيخ عبد الرحمن محمد عز التاجر

فعلى راغب الشراء الحضور ٩٧

إنه في يوم الثلاثاء ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا وما بعدها بالطرية دقهلية وفي يوم الأحد ٢٦ منه من الساعة ٨ صباحا بسوق المنزلة دقهلية إذا لم يتم البيع في اليوم الأول سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك السيد اسماعيل الجمل بالطرية دقهلية نفاذاً لحكم نمرة ٢٠٧٣ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٥٥ قرش صاغ المحكوم به والمصاريف خلاف النشر كطلب مصطفى محمد الشوربجي تاجر بالطرية دقهلية

فعلى راغب الشراء الحضور ٩٨

إنه في يوم الثلاثاء ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً وما بعدها بالبهو ومنشية الأخوة سيباع علنا زراعة أرز موضحة بمحضر الحجز ملك جبة عبده وآخر من البهو وفاء لمبلغ ١٥٦٧ قرش صاغ المحكوم به والمصاريف نفاذاً لحكم نمرة ٩٩٣ سنة ١٩٣٩ مدني أجا كطلب الحاج محمد ابراهيم السكاكيني التاجر بميت العامل فعلى راغب الشراء الحضور ٩٩

إنه في يوم السبت ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا وما بعدها بناحية كفر الرماية مركز دكرنس وفي يوم الأربعاء ٦ منه بسوق دكرنس إذا لم يتم البيع في اليوم الأول سيباع علنا أشياء موضحة بمحضر الحجز ملك عبد الفتاح محمد الشامي وآخر تنفيذاً للحكم الصادر من محكمة مركز المنصورة في القضية رقم ٢٩٥٢ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٣٧٥ قرش صاغ وهو مبلغ المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب ميرم الحفني مرقس من المنصورة

فعلى راغب الشراء الحضور . ١٠٠

إنه في يوم السبت ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٩ الساعة ٦ أفرنكي صباحا بناحية القرامانة تبع كفر منصور مركز ميت غمر وفي يوم الخميس ٣٠ منه بسوق ميت غمر سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك مربيح فرج هنداوي السكيع من ناحية القرامانة مركز ميت غمر وفاء لمبلغ ٤١٢ قرش صاغ قيمة المحكوم به والمصاريف خلاف أجرة النشر وما يستجد نفاذاً لحكم رقم ٤٠ سنة ١٩٣٩ مدني ميت غمر كطلب طه أحمد اسماعيل من كفر منصور مركز ميت غمر

فعلى راغب الشراء الحضور ١٠١

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ٤٨ | الثلاثاء ١٧ شوّال سنة ١٣٥٨ — ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــــرس

موقف ألمانيا وحوادثها الداخلية

وما يمكن ان تدل عليه

لمحرر «الثقافة» السياسى

تتجه أنظار العالم منذ حين إلى ألمانيا وحوادثها الداخلية أكثر مما تتجه إلى ميدان القتال ذاته ؛ ذلك أن ميدان القتال لا يزال هادئاً لا تكاد تقع فيه حوادث ذات شأن ، سوى ما نقرأ كل يوم من تبادل دوريات الاستطلاع ، والغارات الجوية الاستكشافية ، وإغراق بعض السفن التجارية من مختلف الجنسيات بفعل الغواصات أو الألغام الألمانية .

ولكن أحوال ألمانيا ذاتها ، وما يقع فيها من الحوادث الداخلية ، وما يتردد حول خططها ومقاصدها من الاشاعات المختلفة ، وما يكتنف موقفها وسياستها من الغموض هو الذى يجتذب اليوم اهتمام العالم .

فقد مضى نحو شهرين منذ انتهت ألمانيا من غزو بولونيا والاجهاز عليها ، واقتسامها مع روسيا السوفيتية ، وتحويل كل نشاطها وقواها إلى الميدان الغربى ، ومنذ ألقى المستشار

هتلر خطبته في ٦ أكتوبر يعرض فيها عقد الصلح على أساس الأمر الواقع ، ورفضت الحكومتان البريطانية والفرنسية عرضه ، وألمانيا تلزم خطة الجمود ، ولا تكاد تقدم على عمل ذي شأن . وكان المظنون أن ألمانيا ، بعد أن أخفقت خطتها في إرغام الحليفتين الديمقراطيتين على قبول الأمر الواقع ، وأيقنت أنه لابد للاحتفاظ بسيطرتها الهمجية على أوربا ، والاحتفاظ بما اغتصبت من أسلاب الدول المغلوبة ، أن تخوض معهما حرباً حقيقية لا هوادة فيها ، سوف تقدم حتماً على القيام بعمل عسكري ضخم ، سواء في البر أو في الجو ، تحاول فيه إحراز بعض النتائج العسكرية ، وخصوصاً بعد أن اشتدت عليها وطأة الحصار الانكليزي الفرنسي .

وقد ترددت بالفعل طوال الأسابيع الأخيرة إشاعات لا نهاية لها عن استعداد ألمانيا للقيام بهجوم على فرنسا ، سواء بمحاولة اختراق خط ماجينو ، أو خرق حيدة سويسرا وبلجيكا ، أو مهاجمة انكلترا من الجو ومن البحر ، وذلك باقتحام هولندة واتخاذ شواطئها قواعد للطيارات والغواصات ، أو غير ذلك مما أفاضت فيه الأنباء بلا انقطاع .

ولكن شيئاً من ذلك لم يقع ، ولا تزال الجيوش الألمانية مرابطة على طول الحدود الغربية ممتنعة وراء خط سيجفريد ، ولا تزال ألمانيا على جمودها ، مكتفية بما ترسله على لسان صحفها من ضروب التهديد والوعيد .

* * *

على أن ما يقع داخل ألمانيا ذاتها هو الذي يجذب أنظار العالم قبل كل شيء .

لحادث قنبلة ميونيخ ، وما تلاه من تفتيش ألوف المنازل في برلين وميونيخ وفينا وبراج وغيرها ، والقبض على آلاف الأشخاص من مختلف الطبقات من المعروفين بخصومتهم أو عدم ولائهم للنظام النازي ؛ وحوادث بوهيميا التي وقعت أخيراً ، وأخصها مظاهرات براج التي قتل فيها الألمان عدداً كبيراً من طلبة الجامعة التشيك ، بصور همجية ، وقبض فيها على عشرات الألوف من الطلبة والأساتذة وغيرهم ، أخذوا إلى معسكرات الاعتقال ، وأغلقت الجامعات والمعاهد التشيكية ، وما أذيع من القبض على الرئيس هاشا ، رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابق ، واشتداد أعمال القمع والإرهاب في جميع أنحاء بوهيميا ومورافيا ؛ وما يقال أخيراً من اشتداد الخلاف بين دوائر الحزب النازي ، والخلاف في الرأي بين هتلر والقيادة الألمانية العليا ، وما يبدو من التردد حول خطط ألمانيا السياسية والعسكرية ، كل هذه الحوادث والأنباء غطت على ما عداها وأثارت كثيراً من التعليق والتكهن بما عسى أن تدل عليه أو تسفر عنه .

وليس من ريب في أن حادث ميونيخ الذي انفجرت فيه قنبلة وضعت في مكان الاحتفال الذي كان يخطب فيه هتلر ، وانفجرت عقب انصرافه بقليل ، وذهب ضحيتها عدد كبير من القتلى والجرحى ، هو حادث عظيم الدلالة على سير الحوادث في ألمانيا ؛ ومع أن ألسنة الدعاية الألمانية حاولت أن تلقي في روع الشعب الألماني والرأي العام الخارجي أن الحادث من تدبير بعض العناصر المعادية للنظام الهتلري وللحزب النازي ، وأنه وقع على أي حال نتيجة لبعض المؤثرات الخارجية ، وذهبت في هذا الفرض إلى حد القول باشتراك قلم الاستخبارات البريطانية في تدبيره ، فإن هذه الايضاحات لم تقنع الرأي الخارجي بوجاهة النظرية الرسمية الألمانية في شأنه ؛ ذلك أن في ظروف الحادث وفي تفاصيله ، وفيما هو معروف من شدة الرقابة التي تقوم بها السلطات النازية في مثل هذه المناسبات ، ما يحمل على الظن بأنه قد يكون من تدبير البوليس السري السياسي ذاته (الجستابو) وأنه دبر لغاية خاصة تبدو آثارها اليوم في إجراءات القمع الجديدة التي تنشط الحكومة النازية إلى القيام بها .

وسوابق حكومة ألمانيا النازية ، وشناعة وسائلها الاجرامية السياسية مما يبرر مثل هذا الشك ؛ ويكفي أن

تذكر أنها هي التي دبرت حريق الريخستاج الشهير في في بداية اضطلاعها بأعباء الحكم ، ونسبت هذه الجريمة إلى الحزب الشيوعي ، كي تفوز بهزيمته في الانتخابات البرلمانية ؛ وفي يونيه سنة ١٩٣٤ قام هتلر ومعاونوه بمذبحتهم الشهيرة التي زهق فيها مئات من أعضاء الحزب النازي والزعماء السابقين ، وذلك بحجة أنهم اشتركوا في مؤامرة يراد بها قلب الحكم ، وهي مؤامرة لم تقدم عنها أية أدلة ، ولم يجر بشأنها أي تحقيق أو محاكمة ، وكانت على الغالب من صنع هتلر ومعاونيه الأقربين لتكون ذريعة للتخلص من معارضيهم الذين يخشون بأسهم ورقابتهم ؛ وعلى هذا المنوال دبر حادث ميونيخ ، لتجنى الحكومة الهتلرية من ورائه نتائج سياسية معينة . والواقع أنه يبدو من دلائل وأمارات كثيرة ، أن المعارضة قد اشتدت بوادرها منذ وقوع الحرب ، وظهرت في قلب الحزب النازي ذاته ، وأخذ الصراع الخفي بين الفريقين المتنازعين يهدد سلطان النظام الهتلرى ؛ ومن صالح هتلر ومعاونيه القابضين على السلطة أن تقمع هذه العناصر قبل أن يستفحل أمرها ، وإذاً فلا بد من وجود مبرر لهذا القمع أو التطهير ؛ وقنبلة ميونيخ يمكن أن تتخذ مبرراً سياسياً حسناً للقيام بمثل هذه الحركة ، وهي تتخذ الآن بالفعل ذريعة للقيام بحركة مطاردة واسعة النطاق لجميع العناصر التي يخشى من معارضتها ، سواء داخل الحزب وخارجه ، والتخلص منها بالقتل والسجن في معسكرات الاعتقال المروعة ، ومنها الكاثوليك واليهود وأنصار النظام الملكي .

وإذا كانت مثل هذه الوسائل والاجراءات المكشوفة لاتكفي لاقناع الرأي العام الخارجي بصحتها ومشروعيتها ، ففي وسع الدعاية النازية أن تقدم عزائمها إلى الشعب الألماني الذي يعيش بمعزل عن باقي العالم ، وأن تقنع فريقاً كبيراً منه بأن أعداء ألمانيا يأتمرون بحياة زعيم ألمانيا ومنقذها من ظلم فرساي ، وأنه يحق للحكومة إزاء ذلك أن تتخذ الاجراءات الشديدة لقمع المعارضين خصوم النظام والحزب وخصوم ألمانيا الكبرى .

على أن الحادث في ذاته ، سواء أكان من تدبير العناصر المعارضة ، أم كان حسبما يظن من تدبير البوليس السرى السياسي (الجستابو) ، ينطوي على مغزى ودلالات خطيرة تلقى ضوءاً على سير الحالة الداخلية في ألمانيا ؛ فهو يعني قبل كل شيء ، أن المعارضة للنظام الهتلرى قد اشتدت إلى حد يزعج القابضين على ناصية الحكم ، أعني هتلر ومعاونيه الأقربين ؛ وأنه إذا كانت مؤامرة ميونيخ من تدبير العناصر المعارضة ، سواء داخل الحزب ذاته أو خارجه ، كالعناصر الشيوعية والملكية وغيرها ، فمعناه أن هذه العناصر قد بلغت حداً من القوة يسمح لها بالاقدام على أعمال العنف ، في حين أنها لم تكن تستطيع التنفس من قبل ، وأن رقابة البوليس السياسي ، وفرق الهجوم ، ومختلف الاجراءات الصارمة التي تلجأ إليها الحكومة النازية لاخماد كل صوت معارض ، لم تعد كافية لحماية النظام الهتلرى ، وحماية « الزعيم » من تدابير المعارضة ، وأن هذه التدابير قد تسفر عاجلاً أو آجلاً عن الغرض المنشود ، وهو قلب هذا النظام الحديدي الدموي ، الذي ترزح ألمانيا تحت عبئه المرهق منذ عدة أعوام ، والذي دفع بها إلى أتون الحرب ، وهاوية الخراب . أما إذا كانت المؤامرة من صنع « الجستابو » وتدبيره ، فمعناه أيضاً أن المعارضة قويت إلى حد يزعج الحكومة الهتلرية ، ويحملها على التذرع بوسائلها الاجرامية المعروفة لاخماد هذه المعارضة ، وعلى أن تحاول تبرير إجراءاتها الدموية بمظاهر من الشرعية على الأقل في نظر الفريق المخدوع من الشعب الألماني .

وأما اضطرابات بوهيميا فهي أوسع نطاقها ، ووحشية الأساليب التي اتخذت لقمعها ، ما يدل على أن ألمانيا الهتلرية بدأت تجنى عواقب سياستها الاعتدائية الغاشمة ؛ ففي النمسا ، وفي بلاد التشك (بوهيميا ومورافيا) تشتد وطأة الحكم النازي باشتداد حركة المعارضة ؛ وقد اتخذت هذه الحركة في بوهيميا منذ بداية الحرب صوراً عنيفة ،

واشتدت السلطات الألمانية فى قمعها ، ولم تدخر فى ذلك شيئاً من أساليبها الشهيرة ؛ ولقد قلنا غير مرة إن استيلاء ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا كان أعظم خطأ ارتكبه هتلر ، وأنه كان أعظم عامل فى تطور سياسة الدول الغربية ، وتحولها نهائياً عن سياسة الوفاق مع ألمانيا ، واعتزامها مقاومة ألمانيا بمثل أساليبها العنيفة ؛ ونعتقد اليوم أن حوادث بوهيميا الأخيرة إنما هى إنذار واضح لهتلر ، وأنها قد تغدو فى القريب العاجل عاملاً خطيراً فى إزعاج الحكومة الهتلرية ، وتشجيع حركة المعارضة فى النمسا وباقى أنحاء « الريخ » .

* * *

والواقع أنه لم يبق شك فى أن النظام الهتلرى يجوز أزمة داخلية شديدة . وقد ظهرت بوادر هذه الأزمة واضحة قبيل نشوب الحرب على أثر عقد الميثاق الألمانى السوفيتى ، وما أحدثه من صدمة عنيفة فى بعض الدوائر النازية التى ظلت على بغضها القديم لروسيا البلشفية ؛ وأرادت ألمانيا الهتلرية الحرب عامدة معولة على أن تضرب ضربتها السريعة فى بولونيا ، وأن تعمل بعد ذلك على إرغام انكلترا وفرنسا على عقد الصلح وقبول الأمر الواقع ؛ ولما انتهت بمعاونة التدخل الروسى من الإجهاز على بولونيا بالصورة البربرية التى تمت ، قامت بمحاولتها لعقد الصلح ، ولكنها فشلت إزاء حزم انكلترا وفرنسا ورفضهما عقد صلح يقوم على الأمر الواقع ؛ وتطورت الحوادث بصورة مزعجة ، فبسطت روسيا ، فضلا عن استيلائها على نصف بولونيا الشرقى ، حمايتها على دول البلطيق ، واستردت سيادتها السياسية والعسكرية على شواطئه الشرقية ؛ وقضى بذلك على نفوذ ألمانيا ومشاريعها فى هذه المنطقة ؛ وكذلك منيت ألمانيا بالفشل الذريع فى سياستها البلقانية ، وجاء عقد الميثاق الثلاثى بين تركيا وانكلترا وفرنسا ضربة شديدة لخططها ومطامعها فى جنوب شرق أوربا ؛ ثم كان صدور قانون الحياد الأمريكى ، ورفع الحظر عن تصدير السلاح ، وما يهيئه ذلك للدولتين الحليفتين من فرص عظيمة لاستيراد المواد الحربية والأسلحة من أمريكا ، نذيراً آخر لألمانيا يجب أن تحسب حسابه فى المعركة الهائلة التى يجب أن تخوضها ؛ ومن جهة أخرى فقد ألفت ألمانيا نفسها فى الغرب أمام قوى إنكلترا وفرنسا الزاخرة ، ولم تستطع حتى اليوم أن تقوم فى الجبهة الغربية بأى عمل حاسم ، ولم تسفر حرب الغواصات التى عولت عليها ، عن نتائج ذات شأن ، ولم تفلح فى خرق الحصار الانكليزى أو تخفيف وطأته ؛ وفى موقف هتلر ومعاونيه ، وفى جمودهم المستمر كثير مما يدل على حيرتهم وترددهم فى شأن الخطط أو السبل التى يجب اتباعها ؛ ومنذ أسابيع ونحن نسمع عن مشاريعهم فى غزو انكلترا من الجو ، أو خرق حيدة هولندا وبلجيكا أو سويسرا ، أو غيرها ، ولكن الأمر لم يعد حتى اليوم حدود الكلام والوعيد الأجوف .

وليس من شك فى أن الشعب الألمانى قد بدأ يشعر بفداحة المأزق الذى دفعته إليه سياسة زعمائه الطائشة ، وبدأ يرتاب فى حكمة هؤلاء الزعماء وكفايتهم ، ويلمس ترددهم وتخبطهم واضحاً ؛ كما أنه بدأ يعانى الكثير من آثار الحصار والضيق الاقتصادى ؛ وهو بلا ريب يتساءل اليوم عن مصيره فى ظل هذا النظام الذى ساقه إلى هذا الصراع المحفوف بالمخاطر ؛ وإذا كان من الواجب أن نتقبل كل ما يقال عن اشتداد المعارضة للنظام الهتلرى بشىء من التحفظ ، فإنه لا ريب مع ذلك أن تلك المعارضة قد وجدت فعلا ، بعد أن كانت معدومة من قبل ، وأخذت آثارها تبدو واضحة فى سير الحوادث الداخلية ؛ وفى نظرنا أن قنبلة ميونيخ ، وما ترتب عليها من حركة التطهير الدموية التى تقوم بها السلطات النازية فى جميع أنحاء ألمانيا ، وحوادث بوهيميا الأخيرة ، هى مقدمات خطيرة الدلالة والمغزى لما قد تسفر عنه الحوادث الداخلية فى ألمانيا فى المستقبل القريب .

(* * *)

يوميات أندريه چيد

للدكتور طه حسين بك

قرأتُ له كثيراً، وقرأتُ عنه كثيراً؛ وشُغِلْتُ بأحاديثه كما شُغِلَ بها كثيرٌ من الناس الذين يعنون بالأدب الفرنسيّ خاصة، وبالأدب الانسانيّ الحديث عامة. وكنتُ شديد الشوق إلى لقائه، والحرص على أن أسمع منه بعض الحديث ساعة من نهار، أو ساعة من ليل. ولكن ظروف الحياة لم تتح لى ذلك، على كثرة ما أتاحت لى من لذة الحديث إلى الأدباء البارعين من الفرنسيين وغير الفرنسيين، حين أسافر أنا إلى أوربا، أو حين يسعون هم إلى مصر.

ثم زار أندريه چيد مصر فى الشتاء الماضى، وحاولت لقاءه، بل حاولت أن أتيح للمثقفين المصريين الاستماع لبعض أحاديثه فى محاضرة من محاضرات كلية الآداب، فلم أجد إلى ذلك سبيلا، لأن أندريه چيد كان محزوناً كئيب النفس، كاسف البال، يخضع لأزمة من هذه الأزمات العنيفة التى تلم ببعض الأدباء والمفكرين الممتازين، فتدفعهم إلى العزلة دفعاً، وتزهدهم تزهيداً شديداً فى لقاء الناس.

وقد كتبَ إلىّ أندريه چيد فى ذلك الوقت كتاباً رقيقاً عذباً، يعتذر إلىّ فيه من امتناعه على هذا اللقاء بأزمته تلك، ويرجو منى أن أصدقه، وألاّ أظن به التعلل أو تعمد التقصير.

ثم عاد إلى فرنسا، ومضيت أنا فى القراءة له والقراءة عنه، والاشتغال به، حتى أتيح لى بعد أن عدت من أوربا آخر الصيف الماضى أن ألقاه لقاءً طويلا فى القاهرة، وأن أختلف إليه أربع مرات فى الأسبوع، وأنفق معه فى كل مرة ثلاث ساعات، أو أقل من ذلك أو أكثر. وقد اتصل هذا اللقاء شهراً وبعض شهر، وأكبر الظن أنه سيستأنف متى سمح الوقت باستئنافه، وأرجو أن يكون ذلك قريباً.

لقيته فى القاهرة، مع أنه مقيم فى باريس، يعمل مع زميله وصديقه جيرودو فى نشر الدعوة لفرنسا أثناء الحرب. وما أشك فى أنه يلقى من إقامته المتصلة فى باريس مشقة شاقة وعناءً ثقيلاً، فهو أبغض الناس للإقامة المتصلة، وأحبهم للسفر القريب والبعيد. ولكنى مع ذلك لقيته فى القاهرة، وأستطيع أن ألقاه متى شئت، سواء أراد ذلك أم لم يرده، وسواء ألمت به أزمة المفكرين أو انجلت عنه. والفضل فى ذلك المطبعة التى نشرت لنا فى هذه الأيام يومياته، والفضل فى ذلك لابنى الصغير الذى أهدى إلىّ هذه اليوميات قبيل إبحارنا من مارسيليا. وهذه اليوميات صورة دقيقة مطابقة للأصل كما يقال أشد المطابقة، ترتسم فيها شخصية أندريه چيد كأوضح ما يمكن أن تكون، وهى طويلة تقع فى أكثر من ١٣٠٠ صفحة، قد طبعت طبعاً أنيقاً فى حرف دقيق، وتصور من حياة صاحبها خمسين عاماً كاملة، فقد بدأها سنة ١٨٨٩، حين كان فى العشرين من عمره، ووقف منها عند أول سنة ١٩٣٩ حين أبحر من مارسيليا قاصداً إلى مصر.

فهو إذاً يحدثنا من حياته أثناء نصف قرن كامل، وهو لا يحدثنا عن نفسه كما تعوّد أصحاب اليوميات أن يفعلوا؛ أريد أنه لا يظهر لنا نفسه فى كتابه هذا كما يظهر نفسه للناس فى المجالس والأندية والشوارع، وقد اتخذ

من اللباس والزينة والهيئة المصنوعة ما تواضع الناس على أن يتخذوا حين يلقى بعضهم بعضاً . وأنت تعلم أن أكثر الذين يكتبون اليوميات والمذكرات يزينون أشخاصهم المعنوية للناس كما يزينون أشخاصهم المادية حين يلقونهم . يقتصدون فى ذلك حيناً ، ويسرفون فى ذلك أحياناً ، ولكنهم يتكلفون على كل حال ، ويظهرون نفوسهم كاسية لا عارية . أما أندريه جيد فإنه قد أعرض عن هذا الصنيع إعراضاً تاماً لا غش فيه ولا محاولة للغش ، لا لأنه أراد أن يكون صريحاً صادقاً ، بل لأنه لم يستطع إلا أن يكون صريحاً صادقاً . وخصلة الصراحة والصدق هي المميز الأول والأخير . المميز الأساسي لشخصيته المعقدة الخصبة البسيطة المتعددة الواحدة مع ذلك . فرضت هذه الخصلة نفسها عليه ، فلم يستطع أن يخلص منها ولا أن يخالف عن أمرها ؛ ولعله لم يحاول ذلك على كثرة ما أرادته الظروف والناس ومنافعه القريبة والبعيدة على محاولته . فأما فى الكتب التى كتبها للناس وأذاعها فيهم فقد أذعن لخصلة الصراحة والصدق إذعاناً صريحاً صادقاً ، ولكنه راعى ما لا بد من مراعاته فى الكتب الأدبية التى تذاع فى الناس من أصول الفن قبل كل شىء ، ومن ظروف النظام والعرف بعد ذلك ؛ فكانت خصلة الصراحة والصدق فى هذه الكتب مقيدة بهذه القيود التى لا تكاد تخفى شيئاً ، ولكنها مع ذلك لا تظهر الكاتب كما هو أو كما يجب أن يراه الناس . وأما فى اليوميات فقد ألغى أندريه جيد هذه القيود نفسها ، لأنه لم يكتبها للناس وإنما كتبها لنفسه ، ولنفسه وحدها . وقد أقام من نفسه رقيباً يلاحظ أدق الملاحظة ما كان يجرى به قلمه من هذه اليوميات ، وينبهه فى سرعة وقوة إلى ما قد يدفعه الفن إليه من التكلف أحياناً ، ومن التفكير فى الناس ، وفى أنهم قد يقرأون ما يكتب فى يوم من الأيام أحياناً أخرى ، فيرده إلى السذاجة والطبع ، ويجرده من التكلف والزينة ، ويضطره إلى ما ينبغى له ، حين يخلو إلى نفسه ، من التبذل وإرسال المزاج على سجيته .

وقد عوّد الناس ، فيما كان يذيع فيهم من الكتب ، صراحةً لم يألفوها ، وصدقاً لم يعرفوه ، وتمرّداً لا عهد لهم به ؛ حتى إذا تقدمت به السنّ ، وعرف الناس منه ذلك ، وبَلَا سخطهم عليه وتبرمهم به ، وتم الاتفاق الصامت بينه وبين الناس على أنه قد خلق كذلك ، فلا سبيل إلى أن يغير نفسه ولا إلى أن يغيره أحد ، ولا بد من أن يؤخذ كما هو ويُقبل أو يُرفض على علاته ، دون أن يصنع شيئاً ليتملق الناس أو يرضيهم من نفسه وعن آثاره — أقول لما تعود الناس صراحته وصدقه ، وتعود هو من الناس سخطهم وإنكارهم ، سقطت الفروق بين ما كان يكتب لنفسه وما كان يكتب للناس ، فجعل يكتب لتلك كما كان يكتب لأولئك ، أو جعل يكتب لأولئك كما يكتب لتلك . واستقام له طبعه الصادق الصريح فى آثاره الخاصة والعامة ، فلم يتحرج من نشر بعض يومياته فى المجلة الفرنسية الجديدة التى أنشأها مع جماعة من أصدقائه ، ثم فى أسفار صغار ؛ ثم لم يتحرج من نشرها كاملة حين طلبت إليه ذلك دار من دور النشر . وما يدعوه إلى التحرج وقد صارح الناس من أمره بالمعظم ؟ فليصارحهم بما بقى من أمره ، فلن يستطيعوا له ضراً وإن يستطيعوا له نفعاً ؛ وقد عود نفسه الاستقلال التام ، فهو لا ينتظر من الناس شيئاً ، كما أنه لا يخاف منهم شيئاً . وشخصية أندريه جيد متمردة بأوسع معانى هذه الكلمة وأدقها ، متمردة على العرف الأدبى وعلى القوانين الخلقية وعلى النظام الاجتماعى وعلى النظام السياسى وعلى أصول الدين نفسها ، متمردة على كل شىء ، حتى على نفسها فى أكثر الأحيان ؛ وفى كل إنسان حرّ أو مؤمن بحريته حظ من التمرد على هذا النظام أو ذاك من نظم الحياة الاجتماعية ، ولكنه يصانع ويداجى ويحتال ليلائم بين شخصيته وبين البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها .

فى حياته شىء من الكذب قليل أو كثير ، وفيهـا حظ من النفاق عظيم أو ضئيل ، يظهر للنظم الاجتماعية طاعة لها ورضى بها وهو لها كلها أو بعضها كاره ، وعليهـا ساخط ، وبها متبرم ؛ ولكنه محتاج إلى أن يعيش ، فلا بد له من الكذب والنفاق وخداع الجماعات وسرقة لذاته ما وجد إلى سرقتها سبيلاً ؛ والناس قد عرفوا ذلك وأقروه وتواضعوا عليه ، وأصبح الكذب والنفاق وسرقة اللذات وإخفاء السيئات أوضاعاً اجتماعية يألفها الناس ، ينكرونها فى ألفاظهم ويقرّونها فى سريرتهم وفى أعماق نفوسهم . أما أندريه جيد فإنه ينفرد بالملاءمة بين تمرده الداخلى وسيرته الخارجية إن صح هذا التعبير ؛ يرى الرأى فيعلنه مهما تكن نتيجة ذلك ، ويشتهى الشىء فيسعى إليه ويحققه مهما تكن نتيجة ذلك ؛ ويحس هذا الحس أو ذاك ، ويشعر هذا الشعور أو ذاك ، ويجد القدرة على تصوير حسه وشعوره فلا يتردد فى تصوير حسه وشعوره ، يقسو فى هذا كله على الناس ، ويقسو فى هـذا كله على نفسه ، ولا يقبل فى هذه القسوة هوادة ولا موادعة .

ومن أجل هذا أنكره النـاس إنكاراً شديداً وعابوه بالحق والباطل ؛ ولعلهم عابوه بالباطل أكثر مما عابوه بالحق ؛ فهم حملوا عليه أشياء لايد له فيها كهذه المرأة التى كان لها خليل أديب يسىء عشرتهـا ويشتط عليها فى المعاملة ولا يعفيها من الضرب والإيذاء ، فكانت تحمل هذا كله على أندريه جيد ، وتزعم أنه يغرى تلاميذه وأصدقاءه بإيذاء الأزواج والخليلات ، مع أن خليلها ذاك لم يكن يتصل بأندريه جيد من قريب ولا من بعيد . ولكن سيرته الصريحة وأدبه الصريح ، وهذه الحرية المطلقة التى أباحها لنفسه ، كل ذلك أساء رأى الناس فيه ، فحملوا عليه من النكر والإثم ما جنى ومالم يجن . وكأن المصادفة قد أعانت الناس على ذلك ومهدت لهم سبله ، فالكتّاب الذين ينقدونه عائبين له وهم كثيرون ، لا يكادون يروون عنه جملة أو نصًّا حتى يروونهما محرفين ، إما لخطأ اضطروا إليه أو لعمد دفعهم إليه سوء النية . والكتّاب الذين ينقدونه مثنين عليه وهم قليلون ، لا يكادون ينقلون عنه نصاً حتى يدركه التحريف ، وإذا هم يحملون على صاحبه من الخير مالم يرد ، ويهدون إليه من الثناء مالا يستحق . وهو يرى هذا كله فى الصحف والمجلات والكتب ، ويسمعه فى الأحاديث ويهم بتصحيحه ورد الأمر فيه إلى نصابه ، ولكنه يكف عن ذلك آخر الأمر ، لأنه لا يحفل بما يقول الناس فيه من خير أو شر ، وحسبه أن يسجل هذا كله فى يومياته .

قلت إن شخصية أندريه جيد متمردة وإن تمرده صريح صادق ، وإن هذا التمرد الصريح الصادق هو الذى عيزه من غيره من الكتّاب والأدباء والمفكرين . وأحب أن أشير إلى بعض النواحى التى يظهر فيها تمرده هذا قوياً عنيفاً ، ولكن أحب أن ألاحظ قبل كل شىء أن القسم الأول من يومياته ، هذا الذى كتب فى أول الشباب ، يصور لنا هذه الشخصية الناشئة ، وفيهـا أصول القوة والبأس والتمرد والثورة . فهو لا ينشأ كما ينشأ غيره من الشبان الممتازين ، متأثراً بما حوله من الحياة الأدبية والعقلية مؤثراً فيه ، ولكنه ينشأ ناقداً لتأثره وتأثيره ، مسجلا لما يأتيه من خارج ولمـا يصدر عنه ، مبيناً مافى هذا وذاك من خير أو شر . محاولا إصلاح ما يراه شراً والاستزادة ممـا يراه خيراً ، محاسباً نفسه حساباً شديداً على ما أخذ وما أعطى ، مراقباً فيه الناشئ النفس مراقبة دقيقة ، يقوّمه إذا اعوج ويرده إلى الطريق إذا جار عنها ، وإلى الطريق التى يريدها هو ، لا التى يريده عليها الأدباء وأصحاب الفن الذين هم أكبر منه سناً وأبعد منه بالفن والأدب عهداً وأعمق منه بهما علماً .

وهو لا يقرأ كتاباً ولا مقالاً ولا فصلاً فى صحيفة ، ولا يسمع حديثاً من أديب ناشئ مثله أو أديب متقدم فى السن ممتاز فى المكانة ، إلا مسه بالنقد والتحليل ورده إلى

أصله ، واستخلص منه ما يلائم مزاجه وطبعه ، ونفى منه ما يجافى هذا الطبع أو ينافى ذلك المزاج . فهو إذاً ينشىء شخصيته الفنية تنشيئاً ممتازاً قوامه الملاحظة الدقيقة والمراقبة الشديدة والنقد لا اسماح فيه ، حتى إذا تمت نشأة هذا الفن واستقرت فى نفس الشاب هذه الثقة أو هذا الشيء الذى يشبه الثقة ويدفع الأديب إلى الإنتاج ، واجه الناس بآثاره ناقداً لنفسه فى إصدار هذه الآثار ، مسجلا ما يعرف من مواطن الضعف فيها ، منتظراً ما سيلقى الناس به آثاره من الرضى أو السخط ، ومن النقد أو التقريظ .

وقد كان أندريه جيد أقل الناس حظاً من رضى النقاد وثنائهم عليه ، ثم من رضى الناس وإقبالهم على آثاره ؛ وكانت كتبه الأولى أقل الكتب رواجاً وانتشاراً ، ولكن ذلك لم يغير من سيرته مع نفسه ، ومع الناس ، فمضى فى طريقه قدماً حتى غصب القراء غصباً ، وأكرههم على قراءته إكراهاً ، وحملهم على الإعجاب بفنه حملا ، وأظهر للنقاد أن الأديب الممتاز يستطيع أن يفرض نفسه على قرائه سواء رضى النقاد أم سخطوا . على أنه كان وما زال فيما أعتقد يغرى نفسه بأنه لا يكتب لهذا الجيل أو لهذه الأجيال التى يعيش فيها ، وإنما يكتب لأجيال مقبلة ، فليس عليه بأس إذا لم يفهمه معاصروه .

وقد نشأ أندريه جيد بروتستنتياً ، ولكنه لم يلبث أن عرض لشؤون الدين بالنقد كما عرض لغيرها من الشؤون ، فلم يبق له من مذهبه الدينى الموروث إلا شدته على نفسه وأخذه إياها بالحزم والعنف والدقة فى بعض سيرته وفى تفكيره وحياته العقلية بوجه خاص . وإذا هو يفرق بين الدين والأوضاع الدينية والاجتماعية ، فينقى هذه ويستبقى ذاك . وإذا هو مؤمن أشد الإيمان وأقواه حتى يظن به التصوف ، منكر الكنيسة أشد الإنكار ، ثائر عليها أعظم الثورة ، ولكنه لا يؤمن إيمان المقلد وإنما يؤمن إيمان المجتهد ، فيعرض له الشك ويؤذيه الريب . ثم هو ينظر فى غرائزه وفى الأوضاع الاجتماعية ، وفيما يأخذ الدين والعرف والأخلاق والقوانين هذه الغرائز به من النظام . وإذا هو ينحرف عن هذا النظام انحرافاً منكراً فى سيرته ، فيألف لوناً من اللذة تنكره النظم الدينية والاجتماعية إنكاراً شديداً . ولكنه لا يتحرج من إرضاء غرائزه على هذا النحو البغيض ، ثم لا يداجى فى ذلك ولا يصانع ولا يخفى منه شيئاً ، بل يجهر بآرائه فيها فى كتبه ثم يؤلف فى الدفاع عنها كتاباً وأى كتاب . وقد أحب فتاة تجمعها به صلة القرابة أشد الحب واتخذها له زوجاً ، وكان أسعد الناس بحبها كما كانت أسعد الناس بحبه ، ولكن ذلك لم يمنعه من المضى فى طريقه تلك ، فى غير تردد وفى أيسر تحفظ واحتياط . وأكبر الظن أنه شقى بحبه وأشقى به أيضاً ، فهو ينبئنا فى يومياته بأنه لا يريد أن يودع هذه اليوميات شيئاً مما يمس زوجه ؛ ثم ينبئنا فى آخر الكتاب بأنه نادم على هذه الخطة ، لأنه انتزع من هذا الكتاب نفسه . ونحس نحن أثناء قراءة اليوميات الخلاف المؤلم الذى كان بين الزوجين حول المسألة الدينية خاصة ، فقد كانت مدام أندريه جيد مؤمنة صادقة ، وآذاها من غير شك أشد الايذاء ما ظهر من انحراف زوجها الذى كانت تحبه وتؤثره ، عن جادة الدين وعن جادة العرف أيضاً . وقد وجد أندريه جيد نفسه فى أشد الألم وأعنفه حين أحس حزن زوجه وبعد الأماد بينه وبينها فى السيرة والتفكير ؛ وإنه ليصف لنا بعض سعادته تلك العوجاء التى ظفر بها فى بعض أيامه ، فحببت إليه الحياة ، وجددت نشاطه بالعمل والانتاج . وإذا شىء واحد ينغص عليه هذه السعادة ، وهو تفكيره بين حين وحين فى يأس امرأته وقنوطها ، لو أنها علمت أنه يجد السعادة فى غير حبها ، وفى غير قربها .

ومن أجل هذا ، وأشياء أخرى غير هذا ، قلت

(البقية على صفحة ٤١)

بلاغة التلحين!..

للأستاذ عبد العزيز البشرى

كنا، وما برحنا، نشكو من هذه التطرية التى لحقت الغناء المصرى فى السنين الأخيرة، بل لا تحرج علىّ إذا قلت من شيوع التخنيث فى هذا الغناء، لا نستثنى من ذلك نظم المقطوعات الغنائية، فى بعض الأحيان. ولا تلحينها، فى كثير من الأحيان، ولا أساليب أدائها فى أكثر الأحيان.

تسمع المغنى وكأنك تستمع إلى أنين عليل أو جريح، أو حشرجة محتضر، إذا استثنيت الصرخة (الأفرنجية) الأخيرة التى لا بد من أن تختم بها الأصوات فى هذه الأيام، ولعلها الصرخة الأخيرة التى تشبه من المحتضر إغاضة الجود!

ذلّ، وتوجّع، وتميّع، وتسايل، وترايل، واسترخاء لا يليق بامرأة فضلا عن صدوره من الرجال!

ومن العجب العجيب أنك لا تجد أثراً مطلقاً لهذا التخنيث فى غناء مغنياتنا، وأعنى مغنيات الطبقة الأولى، على وجه خاص، فإن غناءهن تشيع فيه القوة والرجولة، اللهم إلا ما يستكرههن عليه بعض السادة الملحنين! أما التميّع والترايل، فأكثر ما تجده الآن فى أغانى الرجال. ومن أعجب العجب أن يكون صوت المغنى، بطبيعته، قويًّا شديد الأسر، فيأبى هو إلا أن يتكلّف تطريته وإلانته، بحبس جوهره فى الحلق، وصوغ صوت له من سقف الحنك.

ولا يذهب عنك أنّ الأصوات مما يمكن أن يصنع ويصاغ. وكذلك يتهيأ للمغنى أن يلين ويسترخى ويسيل. وإنى أؤكد لك، يا سيدى القارئ، أن أكثر من تسمع الآن من هذا الضرب من المغنين، إنما يتغنّون بأصوات مستعارة، لا بالأصوات الطبيعية التى تجرى فى الحلوق!

وأرجوك ألا تستعجل بلوم محطة الاذاعة، ولا بلوم هؤلاء المغنين؛ فهم إنما يواتون نزوة تصطلح فى الصدور فى هذه السنين، مع الأسف الشديد. ولست أكتمك أنى، من بضعة أسابيع، سمعت نشيداً (حماسيًّا)، جعل رئيس الجماعة يتكسّر فى إنشاده، ويترايل فى إلقائه، ويلين من صوته، ما أسعدته القدرة على التليين، حتى لقد ظننت فى أول الأمر أن هذا النشيد (الحماسى) إنما يقصد لحث الجند على الفرار، لا لحثهم على الاقدام، لولا ما فطنت إليه أخيراً من أنه لا يصلح لهذا أيضاً، لأنه يرخى الجوانب ويخذّل السوق، وهيهات لمتخذل الساق الفرار! وكل هذا إنما يتكلفه المغنى مطاوعة لذلك الطائف الكريه.

وبعد، فإذا كان هذا سائغاً فيما خلا من الزمن. وهو غير سائغ فى أمة من الأمم، فى أى زمن من الأزمان — فإنه على كل حال غير سائغ فى هذا الوقت الذى تستنفر فيه الشباب لحمل السلاح. ليس سائغاً البتة فى هذا الوقت الذى ندعو فيه الأمة شيبها وشبابها، رجالها ونساءها وأطفالها إلى الحياة العسكرية التى لا تعرف ترفاً ولا ليناً، حتى تستطيع أن تلقى الشدائد، مهما يكن لونها، بالصبر والقوة والعزم الحديد.

وأخيراً، يظهر أن أولياء الغناء فى مصر، تفطنوا إلى أن هذا، ولكن فى الأناشيد الحماسية فحسب، أمر

سخيف مليخ . فاذا صنعوا ، يا رعاك الله ، ليُخرجوا أناشيد تَرجّ النفوس رجاً ، وتستحمس الشباب أيّما استحماس . ولا تذر فى البلاد كلّها فتى ولا شاباً ، ولا كهلا ولا شيخاً إلا قذفت به إلى الميدان ، ليروى غُلته إلى الضرب والطعان . ما يبالى أين يقع من الموت الزؤام أو أين يقع منه الموت الزؤام !

أتدرى ماذا صنعوا فى سبيل إدراك هذا المطلب الجُسام ؟ لقد شمّروا عن سواعدهم ، وشدوا متونهم ، وقوّوا عزائمهم ، وحدّوا أنيابهم . أرأيتَ الليث وقد تهيأ لوثب ، أو (اخرنْبقَ لينباع) كما يقول أئمة اللغويين . وأطلقوا الحناجر بأصوات تُرعب سكان الربع ، لو كان فى الربع سكان !

وليت لى حظاً من البلاغة يُهيىء لى أن أصف لك بعض هذه الأناشيد الحماسية ! ولكنى عاجز أبلغ العجز عن أن أفعل . وكلُّ ما أستطيع أن أصورها به لنفسى أن أذكر أيام كنا أطفالا ، وكانت العجائز يُسلّين عنا بمتون الأحاديث (الحواديت) ، حتى إذا انتهين إلى (أمّ الغولة) ، ونهوضها لافتراس العابر المسكين فى جوف الفلاة ، جوّفن أصواتهن أشدّ التجويف ، وفخّمن لفظهن أعظم التفخيم ، وقلن يحاكين زمزمتها ساعة قرَمها وافتراسها : « هم أكلك منين ؟ ! » .

وأرجو أن أكون بهذه الصورة قد أجدت التعبير عن أكثر هذه الأناشيد .

وصدقونى ، يا سادتى القراء ، إذا قلت لكم إن بعض هذه الأناشيد قد أُتى ذات يوم وأنا جالس ، وولدى الصغير بين يدىّ ، وهو الآن فى طريقه إلى الثانية عشرة ، حتى إذا فرغ المنشدون من نشيدهم (الحماسىّ) أقبل علىّ وقال : « يعنى يا بابا مستحمستناش » ، وفى رنينه ورشينه لثغة . فأجبته من فورى : «الحق علينا يا ابنى اللى متحمستاش . يالّلا بنا نتوكل على الله ونتحمس ! »

ماهذا أيها الاخوان الملحّنون ، وما هذا أيها الاخوان المنشدون ؟ ولله أبو الشاعر يقول :

أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتمِل
ما هكذا تورَدُ يا سعدُ الإبل

وما هكذا يكون الاستحماس ، ولا استنفار الشباب للقتال ، بل إنه لأشبه بما كان يُدخل به الذعر على قلوب الأطفال فى سالف الأجيال !

* * *

وبعد ، فليست البلاغة مقصورة على فن الكلام ، بل إن لكل فن جميل بلاغة ، فللتصوير بلاغة ، وللموسيقى كذلك بلاغة . وهكذا . فإذا خلا الفن من هذه البلاغة ، خرج سمجاً مؤذياً ، أو سخيفاً بارداً ، كما هو الشأن فى الكلام الفسل الركيك ، الضعيف التأليف سواءً بسواء .

وأنت ، بعدُ ، خبيرٌ بأن البلاغة قوامُها الذوقُ ورعايةُ المقام . وهنا قد يقول قائل : إذا جاز لك أن تنكر من الملحّنين تلك الأناشيد (الحماسية) التى يشيع فيها اللين والاسترخاء ، فكيف لك بأن تنكر هذه الأناشيد التى وصفتها بالقوة فيما تقدم من الكلام ؟

والواقع أن الأناشيد الحماسية كما تحتاج فى لفظها إلى الجزالة ، تحتاج فى نظمها إلى المتانة ، وتحتاج أخيراً فى تلحينها إلى القوة . ثم تحتاج إلى القوة القوية . فذلك هو الأشبهُ بأيام البأس ، والدعوة إلى ملاقاة الأهوال . ولكن لعله ذهب من ذلك القائل أن العنف لم يكن على الدوام دليلاً على الشدة ، ولا كان الصُّراخ عنواناً لقوة الأقوياء ! بل لقد يدل هذا وهذا على الضعف والخوَر فى كثير من الأحيان . وإن من يظن أن المعنى الشديد لا يُؤدّى إلا باللفظ الصاخب العنيف ، وإن من يحسب أن الموسيقى الحماسية لا تُصوَّر إلا فى التلحين الصاخب العنيف ، لهو واقع فى خطأ عظيم .

ولأضرب لناشئة المتأدبين فى هذا الباب مثلا من أبلغ الأمثال :

كلة هادئة رفيقة وادعة ، قالها رجل هادىء رفيق وادع . ولعله لم يبرعه فى هذه الخلال أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا صح أن هذا الرجل كان ممن شاك السّل صدورهم ، فقدّر مبلغ حظ هذه الكلمة من الظرف والرقة واللين ، فليس أرق ولا ألين ولا أخف على الأذن من حديث مسلول . ومع هذا ، لو تفطنت ، فانك واجد لهذه الكلمة من الترجمة عن القوة والسطوة والسلطان ما لا يكاد يدانيها فى ذلك كلام .

وجّه أبو بكر الصدّيق ، رضى الله عنه ، يزيد بن سفيان على جيش إلى الشام ، وخرج يشيّعه راجلا ، فتعاظم الأمر يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال له الصدّيق : ما أنا براكب وما أنت بنازل ! ثم أنشأ يقول : إن هى إلا خُطَى أحتسبها لله وفى الله . الخ .

لعلك استشعرت ما وراء هذه الكلمة الرفيقة الوادعة من سطوة ومن سلطان ، فاذا تعاظمك ، مع هذا ، أنها خلت حتى من صيغة الأمر والنهى ، فاعلم أن من أسباب قوتها وبأسها ، إذا لم يكن السبب الوحيد فى قوتها وبأسها ، هو خلوها من ذلك ، وكذلك يُخبر قائده إخباراً بأن إرادته قد مضت بما سيكون ، فليس له بتغيير الأمر يدان !

* * *

ونعود إلى القول بأن التدليل على القوة لا يحتاج البتة إلى عنف ، ولا إلى صُراخ واصطخاب . فمن لنا بذلك اللحن البليغ الذى يصوغ هذه الأناشيد فى قوة تنزه عن مثل هذا الصُّراخ الحقيق بتخويف الصبيان ؟

من لنا بذلك اللحن البليغ الذى يصوغ لنا هذه الأناشيد فى لحن قوى يشيع فيه الطرب ، وأقول الطرب ، لأنه شرط أساسى فى مثل هذه الأناشيد . فالطرب مما يثير الأريحيّة ويدعو إلى الإقدام .

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام أن القوة والطرب كانا ، إلى وقت قريب ، هما الطابع المصرى لما يصاغ من التلاحين فى هذه البلاد ، كشأن التلاحين الشامية والتركية جميعاً !

وأخيراً فلست أشك فى وجود الملحنين القادرين على هذا ، ولكن يظهر أنه قد جرفهم هم الآخرين هذا التيار مع الأسف العظيم .

عبد العزيز البشرى

على من تقع التبعة

حول موقف المثقفين في العصر الحديث

كل من يحاول التفكير في أحوال الدول الحديثة والمجتمعات العصرية يشغل باله ذلك التناقض الظاهر والخلاف الملموس بين مقتضيات المصلحة ومطالب التضحية أو ما تقتضيه الرغبة في المساومة والحرص على المنفعة ، وما يفرضه الحق والواجب في القرارات التي تصدرها الحكومات والمواقف التي تقفها الأحزاب ؛ وقد تناول هذا الموضوع مفكران خطيران في الطليعة من مفكري العصر الحديث : أحدهما راينهولد نيبهر في كتابه « الانسان الأخلاقي والجماعة اللاأخلاقية » ، والآخر جوليان بندا في كتابه عن « خيانة الكتبة » .

أما كتاب نيبهر فهو يعمد إلى هتك ستار الأضاليل السائدة في المجتمع الحديث بتحليل قوى حاسم ومنطق آسر متماسك ؛ والنظرية التي يرمى إلى إثباتها هي أن الأفراد يستطيعون بطريق العطف واستعمال العقل أن ينظروا إلى مصالح غيرهم من الناس نظرة عادلة ريثة ، في حين أن الجماعات لا تطيق ذلك ، ولا تستطيع الارتفاع إلى هذا المستوى العالي ؛ فالحكومة أو الطبقة السائدة لا تستطيع أن تكبح جماح حوافز الأثرة ودوافع المصلحة ، ويعجزها أن تتجرد من أهوائها عند النظر إلى مطالب غيرها ؛ والسبب في ذلك في رأى نيبهر هو أن نفس هذه الغرائز المفرطة في الأثرة ، ودوافع الميل إلى الاستئثار والامتلاك هي سبب تماسك الجماعات وسر تضافرها ؛ وعن طريق طلب القوة أو البحث عن المصلحة تضم الحكومة أو الجماعة شتاتها ، ويستوثق بنيانها وتتآزر عقدتها ، وتصبح شاعرة بنفسها ، معتزة بوجودها ؛ والأنانية الاجتماعية هي أساس تفكير الجماعات ؛ وليس من شأن الجماعات أو الحكومات أن تحمل نفسها عناء النفاذ إلى أعمال الغير وإدراك وجهة نظره ورعاية مصلحته ، وهي لا تعترف لغيرها بحق ولا تقر له مطلباً إلا بالتهديد الضاغط والقوة المرهوبة ؛ فمن الوهم أن نتصور أن الحياة الاجتماعية للجنس البشري تستطيع العدالة التامة والنزاهة المنشودة .

ويفرط نيبهر في التشاؤم وانقطاع الرجاء ، فيقول : « قد لا تجد الانسانية سبيل الخلاص من أوقار الظلم الاجتماعي التي ترزح تحتها إلا إذا ساقها إسراف روح الجماعات إلى الهاوية السحيقة والنكبة المروعة » . وفي هذا الموقف غير السار يتركنا المفكر نيبهر دون أن يقدم لنا علاجاً ناجعاً ، أو أن يرسم لنا خطة للخلاص .

وقد طالما دار الخلاف بين آداب الفرد وآداب الجماعات والحكومات ؛ واستمساك الفرد بالآداب وقوانين الأخلاق أمر لامعدى عنه ولا هوادة فيه ؛ وكل شذوذ عن الأخلاق القويمة ، وانحراف عن قوانينها يحاسب عليه الفرد حساباً عسيراً ؛ ولكن أمر الحكومات والدول غير ذلك ، فهي في سياستها العامة ، وأعمالها الادارية المألوفة تخضع لنفس القانون الأخلاقي ، وتحسن معاملة رعاياها وتصون مصالحهم ؛ وليس هذا بالمستغرب ، لأن الحكومة نفسها مكونة من أفراد ، وكل فرد من أفرادها يعتقد أنه مقيد بقوانين الأخلاق . فالأفراد والحكومات إذاً يعترفان بسلطان الأخلاق ، سوى هذا الفرق البعيد الأثر والنتائج ، وهو أنه في حالة الحكومات من المسموح الشذوذ عن تلك القوانين والخروج عليها ؛ أما في حالة الأفراد فان ذلك جد محظور .

وتعتذر الحكومات عن ذلك بأن المصلحة العامة والمحافظة على كيان الدولة ، وتعزيز قوتها مقدمة على كل شيء وفوق كل اعتبار . وقد اعترف المستشار الألماني بتمان هلفج أن اعتداء ألمانيا في الحرب السابقة على حياد البلجيك كان من الأخطاء والكبائر ؛ ولكنه ادعى أن وجود ألمانيا كان في ذلك الوقت قائماً على ارتكاب هذا الخطأ ؛ وكثير من الحكومات نقضت الاتفاقات وخاست بالعهود والمواثيق تحت ضغط المصلحة أو نزولا على أحكام الضرورة القاهرة ، ولم تلق مقاومة من الرأي العام ، أي أنه أقر فكرة أن الحكومة ليست كالأفراد ، وأنها تدبر سياستها حسب المصلحة المتوخاة .

والذين يقومون بالدفاع عن تحري الحكومات المصلحة وغض الطرف عن مقتضيات الأخلاق ، يقولون إن الحكومات تخضع لقانون أسمى ، وهو قانون المحافظة على كيانها ، والحكومات التي تدبر الأمور وتفصل في شتى المسائل لا يصدر وزراؤها القرارات بصفتهم الفردية وإنما بوصفهم أمناء على الشعب والأجيال القادمة ؛ ومطالبة الحكومات بأن تراعي شرائع الأخلاق وتسترشد بنبيل المبادئ بمثابة المطالبة بأن الطبيعة الانسانية يجب أن تسمو إلى مستوى أرفع .

والذي يعنينا مناقشته هنا هو الحجة الأخيرة ، حجة ضرورة رفع مستوى الطبيعة الانسانية حتى يتيسر التوفيق بين آداب الفرد وآداب الحكومات والجماعات ؛ فهل يمكن السمو بالطبيعة الانسانية ؟ وما سبيل ذلك ؟ .

لا نزاع في أن الدين من الأشياء التي تسمو بالطبيعة الإنسانية ، ولكن من الحق أن نعترف أن تأثير الدين في حياة الجماعات قد تضاءل إلى حد كبير في العصر الحديث ، وذلك لأسباب مختلفة لا يتسع المقام لتفصيلها ؛ وهناك إلى جانب الدين وسائل أخرى لترقية مستوى الإنسانية ، يلوذ بها المصلحون ؛ في طليعتها التربية ، سواء التربية المنزلية أو التربية المدرسية أو التربية الجامعية ، ثم الكتب والصحف والمجلات ، فهي أصدق وسائل التثقيف والتهذيب ؛ وقد ظهر تأثيرها الفكري في العصر الحديث ظهوراً بيناً ، ولكن تأثيرها الأخلاقي لم يظهر ظهوراً جلياً ، ولا يمكن الافراط في إطرائه ، وهذا الفشل هو سبب الضعف الأخلاقي في العصر الحديث وعجز الانسانية عن الارتفاع إلى مستوى أسمى ؛ وعلة هذا الفشل واضحة ، وهي أن هؤلاء الأفراد الذين تزودوا بالثقافة العالية وخصتهم الطبيعة بالمواهب السامية أثبتوا عدم ولائهم للمثل العليا الأخلاقية وخانوا رسالتهم الأدبية في سبيل المطامع العاجلة والمآرب الأرضية ؛ ولعل أبرع من تناول هذا الموضوع ووفاه حقه من البحث والتحليل المفكر الفرنسي الممتاز جوليان بندا في كتابه "خيانة الكتبة" الذي سبق أن تحدث عنه إلى قراء الثقافة الدكتور طه حسين بك في مقاله الشائق « ساعة » .

وقد راج هذا الكتاب في فرنسا أيما رواج وجاوز عدد طبعاته العشرين ؛ وبندا يعتبر المجتمع منقسماً إلى فريقين ، فريق الكتبة — ويقصد به المثقفين — وفريق العامة والدهماء ، والعامة في رأيه هم أصحاب المصالح المرتبطة بالكسب وتدبير الشؤون المادية ، وهم بطبيعة الحال واقعيون ، وتفكيرهم محدود لأنه مقصور على مصالحهم العملية أو مصالح من يخدمونهم ويرعون شؤونهم ؛ ومنهم الحكام والسياسيون والموظفون ورجال المال ورجال الصناعات وأصحاب الجرائد والصحف والملاك وأصحاب المتاجر ، وكلهم هدف لثائر الأهواء ، والانقياد للمطامع ، ولا يحركهم سوى الطموح والرغبة في الامتلاك والحرص على إنماء ثروتهم أو ممتلكات وطنهم ، وأن يزداد نفوذهم وتتسع سلطتهم ، وهم على الدوام في حرب دائرة الأرحاء من التنافس والتزاحم ، وهم يجعلون مصلحة بلادهم قبل كل شيء ، ولذا يمكرون الجو ويخلقون المداوات ، وهم لايقدرون النتائج السيئة لهذا التهافت والاندفاع ، لأنهم مستغرقون في أعمالهم وكفاحهم .

أما الفريق الآخر فريق « الكتبة » فهم طلقاء من

أسر المصالح المادية والشواغل العملية ، ولا يخشون موائد أحد ولا يتحرون مواقع رضاه ، ولا يحملون هم الدنيا ، وعملهم هو البحث عن الحق والتفاني في خدمته ؛ ومن هؤلاء الفريق المربون وكبار رجال الدين والعلماء والكتاب والفلاسفة وأعالي الشعراء ؛ ومن أمثلتهم في التاريخ توما الأكويني ودانتي وجيتي وفولتير وكانت ورينان واستورت مل وكروتشه ، فهم طلاب المعرفة الخالصة النزيهة وبغاة العدالة المطلقة والحق المجرد ، ولا يشغلهم عن أداء رسالتهم احتجان المال ولا الطمع في الجاه والنفوذ .

وقد ظلوا منذ سقوط الدولة الرومانية وهم يؤدون واجبهم ويقومون بنصيبهم في الهداية والإرشاد ويقاومون الاضطهاد والقسوة والجشع والطغيان ، وكانت آراؤهم في بعض الأوقات خاطئة ، ولكنهم كانوا صحيحي الإدراك للغاية الأدبية أمناء على مبادئ الأخلاق ؛ وكان الملوك والحكام وأصحاب الأعمال يقدرون آراءهم ويتأثرون بأحكامهم مهما تقلبت أهواؤهم ومطامعهم ؛ وقد ظل من أجل ذلك الحق حقاً وإن لم يتبع ، والخطأ خطأ وإن كان عزيز الجانب محمي الحوزة ؛ ولم يشذ عن هؤلاء « الكتبة » ويخدم الدولة سوى مكيافلي وهوبز ، وكان الكتبة هم ضمير العالم الحي وحارسه الأخلاق الأمين ؛ وكان الجميع يحترمونهم لعلمهم أنهم على الحق مهما تظاهروا بتجاهلهم وتنكروا لهم ، وكان هذا هو أكبر فخر للكتبة وأصدق دليل على نزاهتهم وإخلاصهم للحق

ولكن في العصر الحديث تبدل الحال وتغير موقف الكتبة ، فقد انتقل الكتبة إلى الصف الآخر واستعملوا مكانتهم وما لهم من احترام وتأثير وما أوتوا من براعة ومقدرة لتبرير غايات « الواقعيين » والدفاع عنهم ؛ ومن الصعب تحديد بدء هذه الحركة ، فالبعض يعزوها إلى هجل ومقالاته في فلسفة الدولة وتأليهها ؛ ومهما كانت الأسباب فإن الكتاب والعلماء والمربين في هذا العصر يرددون الآراء القائمة على النظم الحاضرة ، ويشيدون بالأفكار السائدة ، وقد تركوا موقف الباحث المحايد الذي لا ينقاد لأهوائه ولا يستذله الحرص ، وقبلوا آراء الجماهير وتملقوا حماقات الشعب وانغمسوا في الدعاية ؛ ولم يحتفظ بنزاهته واتزان تفكيره وحرية رأيه سوى عدد قليل منهم ؛ ومنذ الحرب السابقة تفشى ذلك المرض واستشرى الداء ؛ ولنضرب لذلك مثلاً المفكر الألماني « روزنبرج » صاحب كتاب « أسطورة القرن العشرين » الذي ينم على علم واسع ومقدرة فكرية فائقة ، ولكنها موجهة إلى إثارة أحقاد الشعوب وتحريك الميل إلى السيادة القومية .

وفي الأمم المحكومة حكماً مستبداً يتخذ الحكام سلاح الإرهاب لإرغام الكتبة على تمجيد الدولة والدفاع عن وجهات نظرها ؛ وأما في الدول الحرة فقد تطوع الكتبة من تلقاء أنفسهم لناصرة الدولة ، وأصبحوا يعيشون على إثارة الأهواء القومية وتسويغ الخطط السياسية .

لذلك قل عدد طلاب الحق وأنصار البحث المجرد ، وفقد الكتبة قيمتهم الفكرية ومنزلتهم العالية ، ووقف تقدم الإنسانية الأدبي ، لأن ارتفاع مستوى الإنسانية الأدبي رهن بوجود مثل أعلى تتطلع إليه النفوس وتحاول بلوغه ؛ وكان عمل الكتبة هو صيانة هذا المثل الأعلى وجعله قبلة الأنظار ومطمح الهمم ، وكان يقعد بالناس العجز عن بلوغه لغلبة المطامع والأهواء . ولكنهم عند ما كانت تهدأ مطامعهم ويعود إليهم رشدهم كان يخالجهم الأسف ويغمهم الحزن لتقصيرهم عن بلوغه وعجزهم عن تحقيقه ؛ وكان لذلك أثره المحمود ، إذ أصبحت الطبيعة الإنسانية في أكثر الأمم المتحضرة أكثر اعتدالاً وأوسع أفقاً ؛ ونقد الكتبة للتعصب وتنديدهم بالاسترسال مع الأهواء ، وترفعهم عن ابتذال أنفسهم ، ساعد على خلق جو من التسامح والعطف الإنساني .

أما اليوم ، وقد انضم الكتبة إلى فريق المتعصبين

وأصحاب النزعات المتطرفة بدلا من أن يكافحوا الأوهام « ويسحقوا الأباطيل » — كما كان يقول فولتير — فقد أصبح العمل على تهذيب الطبيعة الإنسانية شاقاً بعيد النزع ؛ وأشد الناس يأساً من الطبيعة الإنسانية وتبرماً بها لا يستطيع أن ينكر أن فى الإنسانية ناحية من الخير يحسن الإبقاء عليها ، وبعض القابلية للإصلاح التى يجمل بنا تقويمها وتعهدها ؛ وكل إنسان مهما ضؤل شأنه يحاول أن يعيش لشىء أسمى من أنانيته ، وأقدس من مطامعه الخاصة ، ولكن من الصعب عليه أن يلتزم حدود المثل الأعلى لأن المثل الأعلى ثابت غير متغير ، ولا يقبل المساومة ولا المهادنة ولا الاستقادة للأهواء والخضوع للضرورات ؛ فإذا تخلى قادة الفكر عن رسالتهم وأخذوا يتملقون الأهواء ويترضون نزعات الشعوب الهوجاء وتعصبها الذميم ، وأجهدوا خواطرهم وكدوا أذهانهم ليثبتوا للأمم أنها غير ملزمة باتباع مثل أعلى أخلاق ، فإن محاولة تهذيب الطبيعة الانسانية تصبح محاولة فاشلة غير مرجوة النجاح ولا التحقيق .

ومن طبيعة الحكومات والجماعات أن تكون مغرضة ، وأن لا تعمل إلا بدافع المصلحة ، غير متأثرة بتوخى العدل والحق ؛ والكتبة يناصرتهم الحكومات والجماعات مناصرة مطلقة يخذلون الطبيعة الانسانية أيما خذلان ، ويتركونها فريسة للغرائز العمياء والنوازع الطاغية ، دون أن يحاولوا رفعها من هذا الدرك الأسفل واستنقاذها من هذا الحضيض الأوهد .

فعلى من تقع تبعة انصراف النفوس عن المثل العليا وجريها وراء الغايات القريبة والمطامع العاجلة ؟ على المثقفين الذين خانوا رسالتهم وخذلوا المثل العليا ، كما يقول جوليان بندا ، أو على عقلية الجماعات والحكومات الرتكسة فى أوحال المطامع والأهواء ، والتى لا يرجى لها إصلاح كما يقول نيبهر ؟

وقد عالج هذا الموضوع من زاوية أخرى الكاتب الفرنسى جورج دى هامل فى مقدمة كتابه « الدفاع عن الأدب » الذى تحدث عنه الدكتور طه فى مقاله الممتع ؛ وقد بث فى هذه المقدمة القيمة المخاوف التى تساوره من ناحية تغلب « المذياع » على الكتاب ، والاكتفاء بالسماع عن القراءة والتفكير ؛ ومن أقواله فى تلك المقدمة : « من سنوات كان هناك أمل فى الاعتقاد بأن الاستنارة ستنحدر إلى الجماعات ، والكتاب ككل مجهود إنسانى قادر على أن يخدم ويعبر عن القوتين المتماسكتين ، قوة الخير وقوة الشر ، ولكن مع ذلك كان هناك أمل فى الاعتقاد بأن ممارسة الثقافة وما تبتعثه من تأمل وتفكير ورغبة فى البحث عن الحق والاتصال بالعقول الكبيرة ، ستصقل الأرواح وتسرع بالانسانية إلى الحضارة الحقيقية ؛ ولكن حدث تغيير حاد فى اتجاه الثقافة له نظائر كثيرة فى قصة الحياة الانسانية ، وتبذل الآن مجهودات لتعطيل تقدم الحضارة وتحويله إلى قنوات أخرى » .

ويقول فى موضع آخر من تلك المقدمة عن أثر المخترعات الحديثة : « كل هذه العجائب التى تعين على إيجاد الانحاء البشرى فى القرن العشرين والتى تحيط الانسان علماً بكل مايحدث ويقال ويفكر فيه حوله ، وكل هذه المخترعات التى دبرت لتزيد فى عقله وتفتح عينيه وأذنيه وتثير ملكاته وتسمو به ، تتضافر جميعها لتقضى عليه وتكتم أنفاسه ، وتهبط بمثله العليا وتستنفد نشاطه وحيويته » .

ويرى دى هامل أن الطريق غير مفروش بالورود والأزاهير بل هو على النقيض حافل بالعقبات والعوائير ، وأن معضلات جمة ترفع النقاب عن وجوهها الشوهاء ، ومعضلة الثقافة ومصيرها فى طليعتها .

فشكلة الثقافة والمثقفين فى العصر الحديث من المشكلات المعقدة التى لا تجدى فى علاجها الخواطر العارضة والآراء المرتجلة ، ولعلها فى مصر أشد تعقيداً وأكثر استعصاء على الحل والعلاج .

على أدهم

بحوث الذكاء فى كتب العرب

(كتاب الأذكياء لابن الجوزى)

يطلق العرب كلمة « الذكاء » على ما اصطلح الغربيون على تسميته (Intelligence) ، والمتتبعون لتاريخ الكلمة الأفرنجية واشتقاقها يعلمون أنها من أصل لاتينى يدل على الفهم والتمييز والاختيار ، وأنها فى بعض اللغات الأوربية — كالانجليزية مثلا — لم تدخل فى الاستعمال الأدبى قبل القرن الخامس عشر الميلادى ، وأن العلماء الأوربيين لم يتعرضوا لبحث ظاهرة الذكاء إلا فى القرن التاسع عشر . وكان فى طليعتهم العالم الانجليزى « سبنسر » والفيلسوف الفرنسى « برجسون » ، على أن بحث هذين العالمين لظاهرة الذكاء إنما جاء تبعاً ، وفى سياق بحوثهما الفلسفية . فلما جاء القرن الحاضر تفرغ لهذا البحث علماء مشهورون وألفوا فيه ، وأعدوا له المقاييس وأحكموها ، وأصبحت بحوث الذكاء محور الدراسات النفسانية الحديثة .

* * *

أما الذكاء فى لغة العرب فأصله « تمام الشيء » ، ومنه الذكاء فى السن وهو تمام السن ، ومنه الذكاء فى الفهم ، وهو أن يكون فهماً تاماً سريع القبول ، وذكيت النار إذا أتممت إشعالها . ويقول أبو بكر بن الأنبارى : قولهم فلان ذكىّ معناه كامل الفطنة تامها ، من قول العرب قد ذكت النار تذكو إذا تمّ وقودها ، ويقال أذكيتها إذا أتممت وقودها ، ويقال مسك ذكى إذا كان تام الطيب نفّاذ الريح »

هكذا يتحدث عن اشتقاق الذكاء شيخ الاسلام « أبو الفرج بن الجوزى » فى كتابه « الأذكياء » ، الذى يقول فى مقدمته : « ولما كان العقلاء يتفاوتون فى موهبة العقل ، ويتباينون فى تحصيل ما يتقنه من التجارب والعلم ، أحببت أن أجمع كتاباً فى أخبار الأذكياء الذين قويت فطنتهم وتوقد ذكاؤهم لقوة جوهرية عقولهم ؛ وفى ذلك ثلاثة أغراض : أحدها معرفة أقدارهم بذكر أحوالهم ، والثانى تلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم نوع استعداد لنيل تلك المرتبة ، وقد ثبت أن رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللب ، فسماع أخباره يقوم مقام رؤيته ... والثالث تأديب المعجب برأيه إذا سمع أخبار من تمسر عليه لحاقه » .

وظاهرٌ من هذه المقدمة أن المؤلف وضع أمام عينيه أغراضاً ثلاثة فى تأليف كتابه : أولها نظرىٌّ علمىٌّ ، يرمى إلى تحصيل المعرفة ، والبيان عن أقدار الأذكياء ؛ والغرض الثانى بيداجوجى يرمى إلى تنمية عقل السامع وتربية استعداده ؛ والثالث أخلاقى يتجه إلى التأديب والتهذيب .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة وثلاثين باباً ، تناول فيها فضل العقل وماهيّته ، وحدّد معنى الذهن والفهم والذكاء ، وذكر العلامات التى يُستدل بها على ذكاء الذكى ؛ وأورد ما نقل عن السالفين مما يدل على قوة الفطنة ، سواء أكانوا أنبياء أم صحابة أم خلفاء وسلاطين ووزراء ، أم قضاة وزهاداً وفقهاء ، وروى شيئاً من الحيل المأثورة عن بعض الأذكياء ، وطرفاً خاصة بالعوام وذكائهم ؛ ثم تناول فى تسعة أبواب ذكاء بعض الطوائف الخاصة ، كالشعراء والمحاربين والمتطببين والصبيان والمجانين والنساء ؛ وتكلم فى البابين الأخيرين عن ذكاء الحيوان البهيم .

فالكتاب كما ترى بحث فى سيكولوجى الذكاء يتناوله

بالتحديد النظرى ، ثم يدرسه فى علاماته وآثاره ، ثم يتتبع مظاهره فى مختلف طوائف الناس والحيوان .

* * *

لقد عاش ابن الجوزى فى القرن السادس الهجرى (٥١٠ — ٥٩٧) أو الثانى عشر الميلادى (١١١٦ — ١٢٠٠) . وتذكر كتب التراجم والطبقات أنه كان علامة عصره فى الحديث وصناعة الوعظ ، وأنه صنف فى فنون كثيرة ، منها التفسير والتاريخ ، وأن مؤلفاته أربت على المائة ، وأنه كانت له فى مجالس وعظه أجوبة نادرة ، وكان يجتمع لسماعه فى بغداد خلق كثير .

أليس مما يطمئن له قلب الباحث العربى الحديث أن يجد من بين شيوخ الاسلام من اتجه إلى مثل هذا النوع من البحث والتأليف منذ أكثر من سبعة قرون ؟ ! ألا إنه لو عثر على مثل هذا الكتاب بين المؤلفات الأوروبية القديمة لجعل له الباحثون مكاناً ظاهراً فى تاريخ علم النفس ، ولاعتبروه من المراجع التى لا بد من دراستها لكل متخصص فى هذا الفرع . ولكن سلسلة هذه الدراسات لما تتصل بعدُ فى مصر ، ولا تزال معظم جهودنا موجهة إلى تلمس هذا العلم فى مصادره الغربية ، ولا نزال نتعلم عن نشأة هذا العلم منذ عصر الاغريق ، وعن تطوره خلال العصور فى أوربا ، أكثر مما نتعلم عن جهود علمائنا فيه ، شيوخاً وأدباء وفلاسفة ومتصوفين ؛ ولا يزال المنصفون من علماء الغربيين يسبقوننا إلى عرفان فضل العرب فى هذه الدراسات . وأقرب مثال من هذا النوع كتاب الأستاذ « سبيرمان » عن « علم النفس خلال العصور » فإنه يشير فى أكثر من موطن إلى أقوال الكندى وابن سينا وابن رشد وغيرهم من علماء المسلمين .

* * *

يفرق ابن الجوزى فى صدر كتابه بين الذهن والفهم والذكاء (ولعل هذه تقابل فى الاصطلاح الافرنجى Intellect ، Understanding ، Intelligence على التعاقب) . فأما الذهن فهو قوة النفس المهيأة المستعدة لاكتساب الآراء . وأما الفهم فهو جودة التهيؤ لهذه القوة ، وأما الذكاء فهو جودة حدس من هذه القوة تقع فى زمان قصير غير ممهل فيعلم الذكى معنى القول عند سماعه .

والعلامات التى يستدل بها على عقل العاقل وذكاء الذكى تنقسم — عند المؤلف — قسمين : أحدهما من حيث الصورة ، والثانى من حيث المعنى والأحوال والأفعال .

فأما الأول فقد قال الحكماء : الخلق المعتدل والبنية المتناسبة دليل على قوة العقل وجودة الفطنة ، وإذا غلظت الرقبة دلت على قوة الدماغ ووفوره ، ومن كانت عينه تتحرك بسرعة وحدة فهو مكار محتال لص . . . . .

وإذا كانت العين صغيرة غائرة فصاحبها مكار حسود ، ومن كان نحيف الوجه فهو مهتم بالأمور ، والطف فى النحاف القصار أظهر ، والمعتدلون فى الطول صالحو الحال .

وأما القسم الثانى فيستدل على عقل العاقل بسكوته وسكونه وخفض بصره وحركاته فى أماكنها اللائقة بها ، ومراقبته للعواقب ، فلا تستفزه شهوة عاجلة عقباها ضرر ، وتراه ينظر فى القضاء فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل ، ويترك ما يخاف ضرره ، ويستعد لما يجوز وقوعه .

ومن طريف أمر هذا الاتجاه إلى تلمس الخصائص العقلية والخلقية فى العلامات الجسمية الظاهرة ، أن بعض الباحثين الحديثين فى أوربا اتجهوا إليه أيضاً ، فقسموا الناس إلى قسمين نحيف وسمين ، وقرروا أن لكل منهما مزاجاً عقلياً خاصاً ، وسموا الأول متحفظاً ، أو تأملياً ، أو باطنى الاتجاه ، أو ذاتياً ؛ وسموا الثانى منبسطاً ، أو صريحاً ، أو خارجى الاتجاه أو موضوعياً ؛ وتلمسوا لهذين النوعين نماذج فى أشخاص الروايات الأدبية القديمة ، كهاملت من ناحية وفولستاف وهنرى الثامن من ناحية أخرى فى روايات شكسبير . وقام العالم كرتشمر Kretschmer بدراسات طويلة من هذا النوع ، وصل منها إلى تقسيم الناس من حيث

(البقية على الصفحة التالية)

بعض صور الزهد فى الاسلام

للدكتور أبو العلا عفيفى

قد يكون الحديث فى الزهد اليوم ضرباً من « النشاز »(١) فى عالم غمرته نغمة المادية والأنانية ، وطغى عليه الجشع والنهم ، وحطمت فيه المبادئ الأخلاقية والحقوق الانسانية من أجل أطماع الفرد وحب عظمة الفرد . ولكنه « نشاز » حبيب إلى بعض النفوس ، عظيم وقعه من قلوب بعض الناس ومن أسماعهم ، بل هو أعذب عند تلك القلوب وتلك الأسماع من نغمة المادية والأنانية المقوتة ، على الرغم مما قد يبدو فيها من انسجام وائتلاف ، وعلى الرغم من أن الذين يستمعون إليها ويطربون لها ويتعبدون بها هم الكثرة الساحقة من بنى الانسان ! وهل يَضير ذلك الصوت الناشز — صوت الزهد — أن يكون الذين يطربون به القلة من الناس ، وأن تكون الكثرة منهم من الذين يطربون للنغمة الأخرى ؟ وهل يَضيرهم أن يكونوا وحدهم على حق ، وأن يكون غيرهم على ضلال ؟ أو أن يكونوا وحدهم الذين أدركوا القيمة الحقيقية لهذا العالم ، وحقارة الأطماع الانسانية ، فى الوقت الذى ألّه فيه غيرهم العالم وألّه الانسانَ وأطماعَه ؟ إن تلك النغمة الناشزة الشاذة لهى لحن السماء أو لحن القلب الزاهد الذى تتفتح له أبواب السماء ؛ وإن نغمة المادية والأنانية لهى لحن الشيطان أو لحن القلب الذى استهواه واستعبده الشيطان .

وما يَضير الانسان اليوم ، وقد هبط بنفسه إلى أسفل الدرك الخلقى ، وانخلعت من قلبه عواطف المحبة والإحسان والإيثار ، أن يلتفت لحظة إلى ورائه لعله يرى بصيصاً من ذلك النور الالهى الذى حمل مشكاته الأنبياء فى كل العصور ثم الذين حذَوا حذوهم وساروا سيرتهم ونشروا تعاليمهم ؟ ليس العالم اليوم فى حاجة إلى رسالة جديدة أو نبى جديد ، ولكنه فى حاجة إلى التذكير بالرسالة الانسانية الكبرى التى حملها الأنبياء جميعاً ، ثم ورثهم من الصالحين والزهاد من بعدهم .

تحدثت إلى قراء الثقافة الغراء فى بعض أعدادها السابقة عن التصوف ومنزلته من الحياة الروحية فى الاسلام . وتكلمت عن الصوفى ما هو ، وعن الصفات التى يجب أن يكون عليها ، وعن موقفه من نفسه ومن ربه ومن الناس . واليوم أعرض لصورة خاصة من أروع صور

(١) النشاز فى الأصل الأرض المرتفعة النابية ، وقد استعملها بعض الأدباء حديثا على سبيل المجاز للنغمة الموسيقية الخارجة على النغمة العامة فى أى لحن موسيقى — وهو المسمى فى اللغة الانجليزية بكلمة discord .

صفات أجسامهم أنواعاً أربعة رئيسية ، وذكر لكل نوع خصائص عقلية ومزاجية متميزة . وحاول آخرون أن يعقدوا بين وجه الشخص وعقليته صلة . وكذلك دعاهم انتشار المذياع إلى بحث الصلة بين صوت المتكلم وشخصيته .

ومهما تكن نتائج هذه المحاولات فإن العلماء المحققين لا يعتمدون عليها إلا بقدر ، ولا يقبلون منها إلا ما تتوافر الأدلة على اطراده ، ويرون أن السبيل الصحيحة إلى فهم العقل وذكائه لا تكون بالنظر السطحى إلى الجسم وهيئته ، ولكن بالنظر الداخلى إلى العقل ومظاهره ، وما يصدر عنه من قول وعمل .

(للحديث بقية) محمد خلف الله

التصوف — أو بالأحرى من أروع صور الزهد — فى الإسلام ، كما تتمثل تلك الصورة فى حياة وآداب طائفة من الصوفيـة يعرفون بالملامتية أو بالملامية على حد قول بعضهم . ظهرت طائفة الملامتية فى القرن الثالث الهجرى فى ابتداء العصر الذهبى من عصور التصوف الاسلامى بمدينة نيسابور بخراسان — وخراسان مهد الفرق والاختلافات الدينية والمذهبية الغريبة منذ دخول الاسلام إليها — وكان على رأسها الشيخ أبو صالح حمدون بن أحمد ابن عمارة المعروف بحمدون القصار المتوفى سنة ٢٧١ هـ . ومن أجلة مشايخهـا أبو حفص عمر بن سالم الحداد المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، وأبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى المتوفى سنة ٢٩٨ هـ . ولم يكن لهؤلاء القوم طريقة منظمة محدودة المعالم كما كان للطرق الصوفية التى ظهرت فى العصور الاسلامية المتأخرة ، ولكنهم كانوا جماعة من الزهاد — أشبه بجماعة « إخوان الصفا » فى نظامهم — ثاروا على بعض تقاليد الصوفية التى كانت تتنافى فى نظرهم مع صفات الكاملين من الرجال ، وعلى ما تفشّى فى عهدهم — على قربه من عهد الرسول عليه السلام — من شرور وآثام ، وفساد فى الطبع ، وضعف وتراخ فى المعاملة مع الله ؛ وجعلوا الغاية من حياتهم — كما يشهد بذلك اسمهم — تأديب النفس بملامتها واتهامها فى كل مايصدر عنها من قول أو فكر أو عمل ، قصداً إلى إصلاحها وتقويم معوجّها ، وتحريرها من قيود عبوديتها وهى قيود الشهوات والأطماع ، وقد سُمّوا ملامتية من أجل هذا ، وتحقيقاً فى أنفسهم لذلك المعنى النبيل الذى يشير إليه القرآن فى قَسَمِ الله بالنفس اللوامة المحاسبة العاتبة المراقبة لصاحبها فى كل حركاته وسكناته ؛ أو لأنهم — كما يقول بعض النقاد — راقبوا الله وحده فى أعمالهم وخواطر قلوبهم ، فأخلصوا له العمل والنية فيه ، ولم يعبأوا بظواهر الأعمال ، ولا بما قد يجره خروجهم على بعض الأحكام (فى الظاهر) من لوم الناس وتأنيبهم ؛ بل ربما تعمدوا ذلك الخروج استجلاباً لذلك اللوم والتأنيب وقهراً للنفس وتحقيراً لها . ولكن لندع الآن اسم هذه الطائفة واختلاف الكتاب فى أمره ، ولننظر قليلا فى أخص صفات مذهبهم فى الزهد ، وتعاليمهم التى امتازوا بها من غيرهم ، وكان لها بفضلها أثر بالغ تجاوز موطنهم الأصلى (خراسان) إلى غيره من الأقطار الاسلامية ، وظل يلعب دوراً هاما فى هذه الأقطار — لا سيما الشرقية منها — إلى عهد قريب .

للزهد ناحيتان : ناحية عملية يظهر أثرها فى أعمال الزهد الظاهرية المتصلة — على حد قولهم — بأعمال الجوارح ، أو المتصلة بأسلوب الحياة الروحية الخاصة التى يختارها الزاهد لنفسه أو التى يطالبه الشرع بها ، من مأكل ومشرب وملبس ، أو صلاة وصوم وحج ، أو تهجد وقيام بالليل ونحو ذلك . والناحية الثانية هى الناحيـة النفسية أو الباطنية المتصلة بأحكام القلوب وأعمالها من محاسبة للنفس ومراقبة لها ورعاية لله وحقوقه فى كل ما يصدر عن النفس من قول أو عمل أو يخطر بالقلب من خاطر . وقد ظهرت هـذه التفرقة فى الزهـد الاسلامى أول ما ظهر ، بل قد وضعت — منذ العصور الاسلامية الأولى — حداً فاصلا بين الفقهاء والمتصوفة من جهة ، وبين مدرستين من مدارس التصوف الاسلامى : هما مدرستا العراق والشام ، من جهة أخرى . وفى هـذا المعنى يقول رُوَيم البغدادى المتوفى سنة ٣٠٣ : « كل الخَـلْق قعدوا مع الرسوم (أى أحكام الشرع الظاهرة) وقعدت هـذه الطائفة (الصوفية) مع الحقائق ؛ وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع ، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق » . وبهذا المعنى أيضاً يفرق بعض رجال الصوفية بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة : أهل الظاهر وأهل الباطن . والصوفية

بالرغم من إجماعهم على التمسك بالشريعة الاسلامية واتباع أوامر الدين واعتبارهم ذلك ركناً أساسياً من أركان التصوف، يختلفون فيما هو المقصود بالشريعة على وجه التحقيق؛ فبعضهم يفهم الشريعة بمعناها الظاهري من أنها جملة أوامر ونواه تتصل بالعبادات والمعاملات والاعتقادات؛ وهؤلاء يعتبرون اتباع الرسول والقيام بشعائر الدين على نحو ما قام بها الرسول شرطاً أساسياً في طريقتهم؛ وبعضهم يقوم بشعائر الدين، ولكنه يعتبرها صوراً ورموزاً لمعان روحية أعمق في النفس وأبعد أثراً. وطائفة ثالثة وهم الملامتية لا يقيمون لظاهر الأعمال الشرعية وزناً، إذ الشريعة عندهم هي المعاملة الخالصة الصادقة مع الله؛ بل ربما عمد بعضهم إلى فعل ما يتنافى في الظاهر مع الشرع — ولا يتنافى في الحقيقة مع روحه — استجلاباً للوم الناس وتعذيرهم وتحكماً للنفس وتأديباً؛ وأكثر ما يدفعهم إلى ذلك الفرار من الشهرة والرغبة في الابتعاد بالنفس عن مواطن الرياء؛ حتى إن أحدهم ليمر بالأذى فما يمنعه من رفعه عن الطريق إلا مخافة الشهرة، وإن أحدهم لتأتيه الدمعة فيصرفها إلى الضحك مخافة الرياء. ومن أمثلة أعمالهم التي يستجلب ظاهرها اللوم والتعذير، ما روى من أن أبا عثمان الحيرى طلب يوماً مالاً لينفقه في بعض الثغور، فتأخر عنه، فضاق صدره وبكى على رؤوس الناس، فأتاه أبو عمرو اسماعيل بن نجيد السلمى (وكان آخر من مات من الملامتية من أتباع أبي عثمان) بعد العتمة بكيس فيه ألفا درهم، ففرح أبو عثمان ودعا له. ولما جلس في مجلسه نوه بعمل أبي عمرو وقال: «أيها النـاس، إن أبا عمرو قد نأب عن الجماعة في ذلك الأمر، وحمل كذا وكذا، لجزاه الله خيراً»، فقام أبو عمرو — وقد شعر أن صدقته قد ظهرت للناس — وقال ردوا إلى المال، فقد أخذته خطأ من مال أمي، ولا بد من رده عليها، فأخرج إليه الكيس وتفرق الناس،

فلما جاء الليل ذهب إلى أبي عثمان وأعطاه المال وقال اجعله في ذلك الوجه من حيث لا يعلم الناس.

كانت حياة الزهد الحقة عند الملامتية هي حياة الروح لا الحياة التمشية مع ظاهر الشرع، أو هي صدق المعاملة مع الله والاخلاص له وحده، لا المعاملة مع الناس؛ فلما حاولوا الوصول إلى هذه الغاية الشاقة العسيرة وجدوا النفس وأطاعها أكبر عائق اعترض سبيلهم، وأكثف حجاب وقف بينهم وبين ربهم؛ فأعملوا معاولهم في هدم ذلك العائق وتمزيق ذلك الحجاب، وكانت معاولهم في ذلك أساليبهم في لوم النفس وعتابها وتأنيبها وتعريفها قدرها وإيقافها عند حدها؛ إذ طريق النفس في نظرهم طريق الأسر والعبودية والتعاسة والشقاوة في الدنيا والآخرة؛ والتخلص من النفس طريق الحرية والسعادة في الدارين. وفي هذا الجهاد الطويل العنيف ينحصر مذهب الملامتية، وفيه أيضاً تنعكس تلك الصورة الخاصة من صور الزهد الاسلامي التي هي موضوع هذه الكلمة. ويتلخص مذهبهم في النفس فيما وصفها به بعضهم بأنها «كف من نجس في قالب ظلمة، وكف من جهل في قالب رعونة، وأن دواءها الاعراض عنها، وتأديبها مخالفتها، وصيانتها ملامتها» وفي قول آخر: «حسن الظن بالله غاية المعرفة بالله، وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها». فأصل الآفات كلها هي النفس وهي مصدر الآثام والآلام والشرور. ولكن آفة آفات النفس عندهم والدليل على فقرها وفقرها هو «الرياء». ولذلك كان لهم في الرياء كلام لا يدانيهم فيه غيرهم، وحوله تجتمع أصول مذهبهم. ولما كان الاخلاص في نظرهم هو الخلو من الرياء — إذ الاخلاص ليس صفة ايجابية وإنما هو حال تتحقق في النفس عند انعدام الرياء — كان أول واجب على الملامتى أن يمحو من صفحة النفس كل أثر من آثار الرياء، وهي كثيرة متنوعة، جلية أحياناً دقيقة خفية

أحياناً أخرى. فن الرياء الجلي الظهور بين الناس بلبس خاص، كلباس الصوفية من العباءة أو الخرقة أو ما شاكلهما، أو اعتزال الناس والانقطاع عن الكسب، أو الجلوس إلى الناس في مجالس الوعظ، أو التزين بشيء من العبادات، أو التباهي بالكرامات أو بأحوال الوجد والسكر والجذبة، وغير ذلك من الأعمال التي تورث الشهرة وتنم عن حب الظهور. ولذلك حرم الشيوخ الملامتية على مريديهم كل مظهر من هذه المظاهر. ومن الرياء الخفي أن ينظر ملامتي إلى عمله فيعجب به أو يرى فيه أثراً لنفسه لا يكون فضلا ومنّة من الله. وكل عمل تقع عليه رؤية العبد باطل، بل إن وقوع الرؤية عليه دليل الغفلة ودليل عدم قبوله، فالواجب على الملامتي ألا يرى عمله، بل يرى العجز والتقصير في أدائه. ولقد يبالغ بعضهم فيرى أن النظر في العبادات والأعمال وتعظيمها ضرب من الشرك، لأنها تقلب العابد معبوداً إذ المعظم لعمله يشرك في حق الله بتعظيمه عملاً غير عمل الله.

ومن خفيّ الرياء عندهم أن يجد العابد لذة العبادة والطاعة في نفسه، لأن من استحلى شيئاً واستلذه عظم ذلك الشيء عنده، وتعظيم عمل النفس رياء؛ لذلك كان أخلص الأعمال والأحوال عندهم ما اعتقد صاحبه أنه مما أجراه الله على العبد من غير أن يكون له فيه إرادة؛ وليس على العبد إلا الاقتداء وترك الاختيار. ومن هنا كانت الطاعة في نظرهم من مرض النفس، لأن الطاعة تقتضي الاختيار؛ ودواء ذلك المرض الانابة إلى الله والتسليم بمسبوق قضائه، بحيث لا يكون للعبد في عمله قليل أو كثير. وقد أدى بهم منطقهم لا إلى إسقاط الأعمال فحسب، بل إلى إسقاط الثواب على الأعمال أيضاً. فأقل الناس معرفة بربه هو الذي يظن أن عمله أو طاعته تستجلب عطاءً من الله أو ثواباً؛ بل المعرفة الحقة هي العلم بأن كل ما يرد من الله من نعم الدنيا وثواب الآخرة إنما هو فضل من الله من غير استحقاق من العبد.

وقد كان الملامتية والمتقدمون من الصوفية يرون أن من صفات العبودية الحقة لله ألا يكون العبد في أعماله وأحواله التي بينه وبين الله كالأحرار، لأن من عادة الحر طلب الأجر وانتظار العوض على ما يعمل، وليس ذلك من شيمة العبيد؛ فإذا طمع العبد في شيء من ذلك فقد ترك سمة العبيد. وقد غلط بعض القوم فظن أن الحرية أعلى مقاماً من العبودية، قياساً على أن الأحرار أعلى مرتبة في أحوال الدنيا من العبيد، فذهبوا إلى أن العبد ما دام بينه وبين الله تعبد فهو مسمى باسم العبودية، فإذا وصل إلى الله صار حراً وسقطت عنه العبودية وتكاليفها. والحقيقة أن العبد لا يكون عبداً حقاً إلا إذا كان قلبه حراً من جميع ما سوى الله: فهذه هي الحرية الخالصة، ولكنها العبودية المحضة أيضاً.

على هذه المبادئ قام مذهب الملامتية، وبروحها استرشدوا فيما يقولون وما يعملون، بل وفيما يخطر بقلوبهم ويختلج ضمائرهم من خواطر ونزعات؛ ولا شك أنهم ومن على شاكلتهم قد ضربوا لنا مثلا أعلى — وإن كان فيه شيء من المبالغة أحياناً — لما يجب أن يكون عليه إنكار الذات، كما ضربوا بالغرور والرياء والعجب والادعاء الانسانى عرض الحائط. ولكن من عجب الأمور وسخرية القضاء أن تكون الطبيعة الإنسانية التي تستسلم للدعاوى والغرور ورعونات النفس الأخرى، حتى تدّعي الألوهية في شخص فرعون ونمروذ، أو شبه الألوهية في شخص هتلر والحاكمين بأمرهم من رجال هذا الزمان، هي هي الطبيعة الانسانية التي تذهب إلى أقصى حدود التواضع، وتنادى بسحق الأنانية وتلاشيها، في أشخاص رجال الملامتية ومن حذا حذوهم! ما أحوجنا إلى قطرات من ذلك التواضع وإنكار الذات والاخلاص لله ولمثلنا العليا في القول والعمل والنية، تُلقَى في بحرنا الزاخر بالعُجب والرياء والأنانية!

أبو العلا عفيفي

على ضفاف الدانوب — قصة صربية :

«أعداء ألداء...»

كنا مسافرين معاً ، ولم يكن معي سوى حصان واحد ، حصان كريم ؛ أنا أعرف أنه كريم ، لأني وقعت من فوق ظهره عدة مرات ، وأنا في الغاب لا أقع إلا من فوق ظهور الخيل الكريمة . سار جوادي مسرعاً مزهواً بنفسه ، رافعاً رأسه عالياً في السماء ، وركب رفيقي في هدوء وسلام فوق فرسه البيضاء ، وكانت تتبعها عدة خيول من خيول الحمل ، ولكنها لم تكن تحمل شيئاً .

كان رجلاً قوي البنية ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، لونه شاحب قليلا ، إلا أن هندامه الوطني — بأزراره الزاهية المتعددة التي كانت تحلى صديريته ومنديله الحريري اللماح الذي لفه حول رأسه وتدلت أطرافه فوق أكتافه وصدره — كان جميلا جذاباً ، حتى إنني لم أستطع أن أحول نظري عنه ، ولم أشأ أن أتكلم خشية أن أفسد اللذة التي كنت أنعم بها وأنا أتأمله في صمت .

كان اسمه « دوكومريوفتش »

وكنت قد سمعت عنه أغرب الحكايات وأعجبها ، وكان الناس يسمونه الرجل الشجاع الحذر ، فقد قطع الطريق ، وألقى الرعب مدة طويلة في منطقة عظيمة من مقاطعة الهرسك ، ولعل هذا السبب الذي من أجله اهتممت به كل الاهتمام .

سألته بعد صمت طويل ، محاولا أن أستدرجه في الحديث :

— لِمَ تأخذ كل هذه الخيل معك وليس معك شيء تحمله ؟

— لقد أفرغت أحمالي في المدينة ، وأنا عائد منها الآن .

— وماذا كنت تحمل ؟

— منتوعات . . . خبز ، بطاطس ، كرنب .

— ولمن ؟ ؟ . . .

— لأولاد المرحوم على مويانجتش .

فوقفتُ مدهوشاً ناظراً إليه ؛ فعلى مويانجتش كان فارساً تركياً ، وكان فوق ذلك عدو الروفتش اللدود .

— ماذا ؟ هل استأجرت منهم مزرعة ؟ !

— لا ، ولكني مدين لهم ، مدين لهم بدين كبير .

ثم سكت وأحنى رأسه ، وضرب جواده بكفه على رقبته ، رغم أن الجواد كان يركض مسرعاً ، فرفع الجواد رجليه الأماميتين وانحرف قليلا ، فضربه مرة ثانية اعتدل بعدها في سيره .

ولما رأيت ذلك لم أشأ أن ألحف عليه في السؤال ، وأرخيت العنان لجوادي وانطلقت أدندن بنغم منخفض ؛ لا أذكر الآن الأغنية التي كنت أرددها ، ولكن الظاهر أنها استهوته ، فقد اقترب بجواده مني وأخذ يصغي بانتباه :

— غنِّ بصوت أعلى .

فرفعت صوتي ، وجذب منديله الذي لفه حول رأسه إلى أسفل رقبته ، وصاحب غنائي بهزات من رأسه .

وأخيراً سكتُّ .

— استمر !

— ذلك كل ما أعرفه من الأغنية !

فتحول عني في شيء من الضيق ، وجذب عنان جواده ، واتجه نحو الطريق الذي يؤدي إلى الغابة . فقلت له :

— إلى أين ؟ ؟

— إلى الغابة ، تعال نسترح قليلا .

فتبعته ، وعند وصولنا إلى الغابة ترجلنا وتركنا خيولنا ترعى ، وجلسنا تحت ظل شجرة بلوط ضخمة ، ثم أخرجنا أكياس التبغ وحشونا غلايينا ، وجلسنا ندخن في هدوء ،

ونحن ننصت إلى صوت مضغ الخيل ، وإلى نقر طائر بعيد . .

وأخيراً قطعت حبل السكون وسألته مبتدئاً الحديث :

— متى أصبحت مديناً لعلي ؟

فقطب ديوكو وجهه ، وأجاب وهو يلوح بيده :

— من زمن بعيد .

— وهل انتهيت من قضاء دينك ؟ .

— كلا كلا . سيحتاج الأمر إلى وقت طويل قبل أن أتمكن من قضائه .

وقال وتطلع لحظة إلى الدخان الذي أخذ ينفثه من غليونه :

— إنها قصة طويلة ، ولكني سأقصها عليك بالرغم من أنني لا أرتاح لذلك .

« دفعتني فظائع الترك لأن أكون قاطع طريق - كنت قد سئمت حياة الخنوع والخضوع للترك ، محروماً من حق كل إنسان . تعبت من الاعتداء لكل واحد ، ومن ازدراء الترك لنا ، فحملت بندقيتي وذهبت مع ستة من الرفقاء إلى التلال المغطاة بالأحراج ، وهنا أخذنا نتربص للترك وننقض عليهم ، فلم يكن يمضي يوم دون مناوشة ما ، وكنا دائماً نفلت من المعركة بشيء ، وانتهى الأمر بنا إلى ملاقاة الموباجتش وتصفية حسابنا معهم ، فهاجمناهم في دورهم وقتلنا ثلاثة من آلهم ، إلا أن علياً أفلح في الفرار ولم نستطع العثور عليه ، رغم بحثنا الطويل عنه ، وسلبنا البيت وعدنا إلى غارنا محملين بالأسلاب والغنائم الثمينة كبيرة العدد والعدة .

« ولكنا دفعنا الثمن غالياً . فقد جمع علي قوة تفوقنا أخذت تطاردنا فوق التلال والوديان إلى أن حصرتنا في قلب أرض جرداء موحشة ، لم يأو إليها حتى ماعز الجبل ، فحصنا أنفسنا ، وعولنا على القاتلة إلى النهاية ، وأحدق بنا علي وأتباعه ، وسدوا علينا المسالك ، ومرت بنا فترة من أشد الأوقات وأقساها ، ذقنا فيها قسوة الجوع والحاجة ؛ فقد نضب معيننا من الماء والخبز ، ولم يجسر أحد على التسلل من نطاق الحصر بغية الحصول على شيء ، وأخذ الجوع والظمأ يفتكان بنا .

« وكان الرفاق يتحركون يائسين مقطبين ، ولكن أحداً منهم لم يتبرم ، أو يندب الحظ ويشكو ؛ ورأيت أخيراً أن هذه الحالة لا يصح أن تستقر ، فقلت لزملائي : أيها الاخوان ، ألا ترون معي أن بقاءنا على هذه الحال لا يليق بنا ، وأن الواجب أن ننقض على العدو فنثأر لأنفسنا ، ونموت موت الرجال بدلاً من أن نهلك هنا جوعاً ؟ إذا لم يكن من الموت بد ، فلم لا نموت مقاتلين بدل أن نحمل معنا إلى الأبدية الرغبة في الدم التركي والظمأ إليه ؟

« أدركوا جميعاً أنني على حق ، ولم يكن أمامهم منفذ آخر ، فوافقوا على اقتراحي .

« وكنت أولهم في الوثب على العدو ، وسيفي ذو الحدين في يدي ، وتبعني الآخرون . قابلنا الترك على الفور بإطلاق النار ، ورأيت اثنين من أصدقائي يخران صريعين . ولم يكن أمامي فرصة أخرى ، فانقضضت على العدو ، وحذا الباقون حذوي . كانت عيناي حراوين كالدم فلم أتبين شيئاً ، واندفعت إلى الأمام ملوحاً بسيفي في الهواء ، وما أحس إلا بضربة هائلة من الوراء تفقدني الشعور .

« ولما عاودني الشعور ألفيت نفسي في بيت موباجتش راقداً على فراش وحولي أتراك عديدون ، وفي وسطهم علي موباجتش ، ولما فتحت عيني انحنى علي فوقي وتناول يدي ، وقال لي :

— كيف حالك ؟ .

« هممت بالنهوض ، ولكني شعرت بالألم كما لو كانت أصابتني ضربة ثانية ، ومرة ثانية فقدت شعوري . . .

« قضيت شهراً كاملاً كنت فيه على شفا الموت ، وعلي لم يفارقني لحظة واحدة . كان يرعاني ويتعهدني بعنايته أكثر من رعاية الأب لابنه ، فكان يغير ضماداتي بيديه ، ويناولني الشراب ، ويطعمني كالطفل ، وكان يشجعني على الأكل عندما كنت لا أجد الشهية له ، بل كان يأخذ رأسي فوق ركبتيه أحياناً ويحشو فمي باللحم والبيض .

« وأخيراً بدأت أتماثل للشفاء ، وأسترد قواي ، وما كنت

أحس القدرة على الوقوف حتى نهضت وأخذت أمشي في الغرفة مستنداً إلى الجدار . وكان على كثيراً ما يضع ذراعي في ذراعه ، ويأخذني إلى فناء الدار ، وهناك كنت أستريح تحت ظل أشجار التوت .

« وأخذت قوتي تزداد يوماً بعد يوم ، ولحظت عليّا يشرق وجهه ببريق عجيب ، وقال لي مرة وهو يبتسم :

— هل تعتقد أنك تستطيع الوثوب ؟ فقلت :

— لا أظنني أستطيع . ما زلت ضعيفاً جداً .

« ففتل شاربه وقال ضاحكا :

— قريباً . . قريباً جداً سيكون في مقدورك ذلك .

« وبعد أيام قليلة أعاد عليّ نفس السؤال فأجبته :

— سأجرب .

« فتنحى جانباً ، وتأهبت للوثب والجرى . كانت الوثبة عالية جريئة ، فتنحى على مبتهجاً وقال :

— معنى هذا أنك الآن في تمام الصحة .

« وتركني في فناء الدار ثم دخل البيت فتتبعته بنظرى وأنا في أشد حالات الحيرة ، وبعد لحظة عاد وفي يده بندقيتان محشوتان . وكان وجهه شاحباً شحوب الموت ، وتألقت عيناه ببريق وحشي كبريق قطة مفترسة جائعة . فقال لي وهو واقف أمامي :

— الآن قد شفيتك وأوقفتك على قدميك . والآن وأنت في قوتك كما كنت قبل أن تصاب تستطيع أن تدفع لي الدين الذي تدين به . ودينك لي كبير : ثلاثة رؤوس بأسرها ، لأنك قتلت أخوىّ .

« وبدأت عيناه تتألقان ببريق مخيف ، وبدأ فكه الأسفل يرتعش ثم قال :

— كنت أستطيع أن أقتلك وأنت ملقى أمامي جريحاً ، ولكني لم أشأ أن أفعل ذلك . أردت أن أشفيك ثم أقتلك بعد ذلك ، فعلى موياجش لم يقتلك طول حياته بعدوّ عاجز ، ولا يريد أن يستثنيك من هذا المبدأ .

« وقدم لي إحدى البندقيتين وقال :

— هاك بندقية ! وهي قوية متينة كبندقيتي ومحشوة مثلها ، فلنذهب إلى الغابة ولنجرب قوة أسلحتنا .

« لم أجد كلمة أقولها ، ومشيت وراءه حزيناً مطأطئ الرأس ، ووصلنا الغابة ، وقال :

— قف حيث أنت ، وسأقف هنا ، وعند ما يواجه بعضنا بعضاً ، نطلق النار في وقت واحد ، هنا في الحال .

« كنت إذ ذاك قد استعدت حواسي ، فألقيت ببندقيتي وتنحيت جانباً وقلت :

— هل أرفع يدي عليك ؟ هل تحسب أن تصل بي الخسة إلى أن أطلق النار عليك ؟ لن أفعل ذلك مهما يكن من أمر !

« فقال وعلى فمه ابتسامة ازدراء :

— لابد أن تفعل ! سأرغمك ! لا أستطيع أن أؤجل المبارزة ، ولا أريد أن أطلق النار على رجل أعزل . خذ البندقية ! أنا لا أمزح .

« فلم أتحرك . فصاح :

— خذ البندقية أقول ! وإلا عددتك جباناً !

« فانحنيت والتقطت البندقية .

— التفت هنا .

« فالتفت .

— صوب البندقية نحوي !

« صوب بندقيته نحوي ، وصوبت بندقيتي نحوه . وأطلق النار ، وتردد دوى الطلق في أرجاء الغابة .

« لا أذكر إن كنت قد شددت الزناد أم لا . ولكني حين نظرت إليه رأيته يترنح ويسقط ، فصرخت فزعاً آلماً ، وهرعت إلى جانبه ، ولكنه كان قد أسلم الروح . .

« ومنذ ذلك اليوم وأنا أعطى أولاده كل سنة أحمالا من البطاطس والكرنب والقمح ، وعدداً من الأغنام والأبقار » .

وفرغ ديوكو من قصته ، وجلس مطأطئ الرأس وهو يناضل في مصارعة الدموع التي كانت تسيل فوق خديه .

(انتهت) ترجمة محمد فهمي

حديث عائد

— أمجنون ؟ تريد الذهاب إلى ألمانية ، والشائع أن الناس هنالك يأكلون ما يعلم الله : الزُّبد مفتعل ، والقهوة مُرتجلة ، والخبز أغبر ، والفاكهة أندر من المطر في القاهرة ! تريد الذهاب إلى ألمانية ، والمعلوم أن جيوشها تُعدّ العدّة لأمر مجهول ، فتحتشد عند التخوم ، وتستولى على قطارات السكك الحديدية ... إبقَ في فرنسة ، هنا الأكل عزيز والسلم منتشر . أو لعلك تميل عن هذه الناحية التي أنت فيها : هضبات الفوج Vosges ، حيث المطر مِلْحاح وشجر الغابة غير ملتف ؟ فاهبط إلى الجنوب ، إلى مدينة كان Cannes مثلا ، أو ارحل إلى جبال السفوا Savoie . أتكون في فرنسة وتحنّ إلى ألمانية ؟

— أما الجنون ، فهل يَضيركم أن تطيب نفسي من التعقّل ؟ وأما الزُّبد والقهوة والخبز ، فلي منها عوض بالغابة السوداء Schwarzwald حيث أنا ذاهب ... الغابة السوداء ! مبعث حياة ومنبثَق وحي . وأما جلبة الجيوش فستغلبها عَلَيّ أمرها تلاحين (فاجنير) ، فلن تبلغ مسمعي ... في ألمانية وحدها يلذّ لي سماع الموسيقى الرفيعة ، لأن الألحان هنالك (والأشعار أيضاً) منطلقة من الغابات ، والغابات في ألمانية كالعيون السود في مصر ، ما أكثرها وما أحلاها !



الغابة السوداء

* * *

دخلت ألمانية ، للمرة السادسة ، في العاشر من شهر أغسطس ، وهبطت ، أوّلَ ما هبطت ، مدينة كارلْسْرُوه Karlsruhe ، في الجنوب ؛ وسرعان ما دار بيني وبين حذّاءٍ قصدتُه في حاجة هذا الحديث :

— أإيطالي أنتَ ؟

— لا ، بل مصري .

— ها ! مصري ؟ هذا شيء ظريف !

— وما ظرفه ؟

— تأتينا من بلد نامٍ . بالله قل لي : ما رأي المصريين في هتلر ؟ أظنّه كرأي الإنجليز فيه ؟

— ولِمَ تظن ذلك ؟

— أليست مصر مستعمرة إنجليزية ؟



كارلسروه

— من قال لك هذا ؟

— إن صحفنا لا تنفك تذكر ذلك .

— هذا خطأ ، بل وراء الأمر غرض ، إذ وزارة الدعاية عندكم تريد أن تلقى فى أذهانكم أن لإنجلترة مستعمرات كثيرة ، على حين أن ألمانية مفتقرة إلى اثنتين أو أكثر .

* * *

أمرتُ بفنجان شاى صباحاً فى الفندق الذى نزلت فيه ، فجاءنى الشاى من غير ليمون ، وأرسل صاحب الفندق إلىّ يعتذر ، وفى صباح الغد جاءنى الشاى يصحبه الليمون ، فاستكشفت الخادم عن الأمر فقال : أنت غريب ، والغرباء يظفرون بما لا يحق لنا أن نطمع فيه : الليمون والقهوة الخالصة والزبدة الوافية . قلت : وماذا تصنعون ؟ قال : لا نستطيع شيئاً نحن الفقراء ، أعنى نحن عامة الناس .

واتفق لى أن ذهبت إلى مرقص . فقمت أدعو فتاة إلى المخاصرة . فأخبرتنى بأنها قادمة من حقول الجنوب ، حيث عاونت الفلاحين على الحصاد . ثم أخذتْ فى الشرح فقالت : إن الفلاحين إلا أقلهم يتدربون على الأعمال الحربية ، فوجّهت الحكومة طلبةَ الجامعات وتلاميذ المدارس الثانوية ، وعدداً من الفتيات العاملات إلى الحقول .

ولما عُدت إلى الفندق أتمشى رأيت الفتاة التى تخاصرنى ساهمة الوجه ، وكانت على جانب من الظرف والرقة .

— ما قصتك « فرُيْلَيْن » ؟ (يا آنسة)

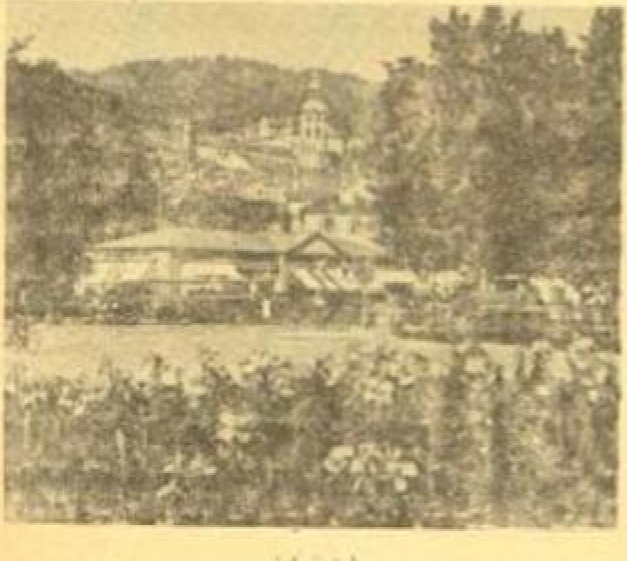
— إن غداً يوم بطالتى ، وفيه أخرج مع صديق ، فنستحم فى نهر الراين ونتغدّى على ضفته ، ثم نقصد إلى الغابة ونعود إلى المدينة فنرقص أو نعبث هنا وهنا . وهذا صديق أمرَه من أمره بأن يقصد إلى منطقة كذا للتدرّب الحربى .

— لا عليك ، لا عليك . إن صديقك عائد بعد أيام ، وسيحظى بنهر الراين والغابة والرقص والعبث بعد فُرقةٍ قصيرة .

نظرت إلىّ الفتاة كأنها تقول : وما يُدريك أنها فرقة قصيرة . ثم عادت إلى كآبتها وهى تحمل لى طبقاً كثر فيه اللحم والمرق الدسم والبطاطس ، وقلّت فيه الخُضَر حتى إنى شكوت وشكوت .

* * *

بادن — بادن قبلتى فى ألمانية ، أجد فيها الراحة واللهو جميعاً : نسيم حلف ليخلّصن الشاعر من شاغله والكاتب من نصبه ، وأودية لو نزلت إليها لخشيت عليها الوطء لرقة صعيدها : صعيد من ورق تنثره الأشجار على غير ملالة إجلالاً للزائر أو العابر . وأما اللهو فلا تكاد تصيب من صنوفه كلها فى اليوم الواحد : الرياضة البدنية على ألوانها ،



بادن — بادن

وتمثيل المسرحيات ليلا وسباق الخيل نهاراً ، والجلوس إلى شراب وسماع للموسيقى والرقص . . . وحديث الغزل أستغفر الله .

وفيما نحن في مقصف الكازينو ذات ليلة ، والخلق باللهو يغصون ، إذ جاء بعضهم بنبأ طلت معه الكؤوس بالأكف ملصقة ، والأنامل على الأوتار جامدة ، وجعلت معاصم الملاح الشقر على أكتاف المحاضرين ، وجمدت في الهواء كلمات الهوى .

قال قائل : إن ألمانية وروسية اتفقتا على المسالمة ، فأقامتا سياستهما على محورٍ واحد .

نظر الخلق بعضهم إلى بعض ، ولسانُ كلٍّ منهم يشغله سؤال ؟ سؤال واحد ، ولكن من الذي أقدم فطرحه ؟ لم أسمعه قط .

وفي الغد كان الناس في بادن — بادن يتناقلون الرد على هذا السؤال . فكان منه أن الاتفاق الذي حدث محلية للسلم الشامل ، فلا يظنن أحد أن المتلرية خرجت على مبادئها ، وأنها ارتدّت وكفرت لأنها بسطت يد التوفيق إلى عدوها الألد . السلم قبل كل شيء . إنه يجب قطع الانهار بألمانية . . . كلاّ لم تخرج ألمانية على مبادئها ، أعملوا النظر في الأمور ، كونوا فلاسفة ، كونوا . . .

ذكرني هذا الرد بحديث الزوج المغلوب (« المغفل » كما في لغة مصر) يقول للناس إذا ما اشتهرت حاله : وما يُدريكم أن زوجي تخونني ؟ إنكم تقالون ؛ أترمونها بالفسق لأنها ابتسمت لأحدهم ، كأنّ الابتسامة حرام ؟ أو لأنها ضغطت على يد فلان ، كأن التظرف محظور ، أو لأنها . . .

بشر فارس

آثار الأسرة الأولى بسقارة

ذكرت في مقالي السابق أنني أرجو أن أكتب عما عثرنا عليه حول مقبرة «حا كا» بعد إعادة البحث حولها من جديد، وكشفنا عن المركب المقدس الذي كان في الجهة البحرية منها، وكنا نظن أنه لم يبق من المصطبة شيء لم نكشفه، وعلى هذا الزعم نشرنا مؤلفاً خاصاً بها؛ ولكن بعد عثورنا على هذا المركب، أو بتعبير أصح على ما بقى منه، رأينا أن نقوم بالبحث حول المصطبة من جميع جهاتها.

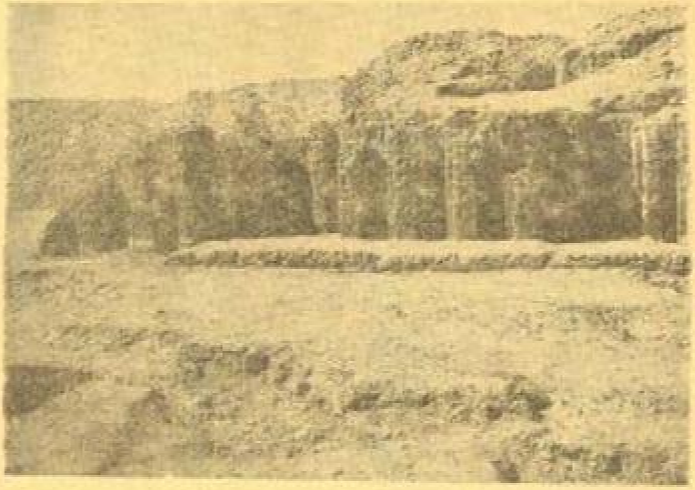
وقبل أن أتكلم على ما عثرنا عليه، أرى من واجبي أن أفسر للقارئ الكريم كلمة مصطبة وكيف استعملت. أما كلمة مصطبة هذه فهي الكلمة التي تطلق على القاعد الكبيرة المستطيلة الشكل التي يبنيها القرويون عادة بجوار منازلهم في الريف، ولعل أشهر مصاطب القرية مصطبة العمدة؛ فلما كان ماريت باشا يقوم بالحفر في منطقة سقارة عام ١٨٥١، كان العمال عند كشفهم عن الجزء الظاهر المقبرة وهو مستطيل الشكل لا يرتفع كثيراً عن الأرض، كان هؤلاء العمال يطلقون اسم مصطبة على هذا الجزء، فكان أن استعمل ماريت باشا هذه الكلمة وتبعه في استعمالها جميع علماء الآثار الأجانب، ووضعوها في مؤلفاتهم كما هي على اختلاف لغاتهم.

وهناك كثير من الأسماء التي أطلقت على الآثار وأصبحت مشهورة يعرفها الجميع، والعمال هم مصدر هذه التسمية وليس العلماء. وأظن أن كثيراً من الناس قد سمعوا بتمثال شيخ البلد، إن لم تكن قد سمحت لهم ظروفهم برؤيته في دار الآثار المصرية. ولم يكن هذا التمثال إلا لعظيم من عظماء الأسرة الرابعة، عثر عليه ماريت باشا بدهشور، فما إن رآه العمال حتى صاحوا: «هذا شيخ البلد»، فلما سألهم ماريت باشا عن السر في هذه التسمية أخبروه أن هذا التمثال يشبه شيخ بلدتهم إلى حد بعيد، فكان أن أطلق هذا الاسم على التمثال وعرف به.

ولنرجع الآن بالقارئ الكريم إلى المصطبة التي نحن بصددها فنجد أنها كانت مكونة من جزأين. جزء سفلي يصل إليه الإنسان بدرج بني جزء منه بالطوب النيء (اللبن) ونحت الباقي في الجبل (طبقة الأرض الجبلية) حتى ينتهي في حجرة كبيرة نحتت في الجبل وبها ثلاثة أبواب يصل كل منها إلى حجرة متوسطة الحجم. وكانت هذه الحجرات الثلاث معدة لدفن صاحب المصطبة وما معه من الأثاث الجنازي، وقد كشف هذا الجزء من قبل ووجد مسروقاً أكثر من مرة.

أما الجزء الثاني فهو جزء المقبرة الظاهر فوق الأرض والذي سميت المقبرة من أجله بالمصطبة لما بينهما من تشابه؛ وهذا الجزء مستطيل الشكل طوله حوالي خمسة وسبعين متراً، وعرضه قرابة الستة والعشرين. وقد بنيت جهاته الأربع على شكل البراويز التي يسميها رجال الآثار الأبواب الوهمية؛ وكان الاعتقاد السائد أن هذا الجزء أصم، حتى أعدنا البحث فوجدناه يحوى مخازن كان عددها في الأصل ثمانية وأربعين تهدم منها ثلاثة. وقد وجدنا من هذه المخازن ثمانية وعشرين خالية تماما، ووجدنا بالسبعة عشر

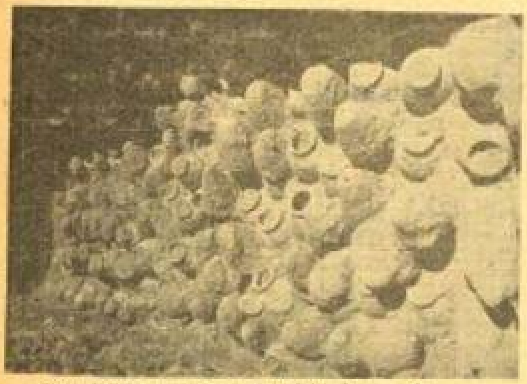
الباقية بعض ما تركه اللصوص ، ولم نعرف بالضبط كيف ترك اللصوص هذه التحف ؛ وأكبر الظن أنها لم تكن في نظرهم ذات قيمة ؛ والمعروف لدينا أنهم كانوا يبحثون بصفة خاصة عن المعادن وأهمها الذهب .



شكل يبين البراوز (الأبواب الوهمية) حول مصطبة « حماكا » والأفريز والأرضية التي تمتد فوق القبور الصغيرة

ومن أهم ما عثرنا عليه مخازن وضعت فيها مئات من أواني الفخار الكبيرة الحجم ، ذات سدادات مخروطية الشكل من الطين . وليست أهمية هذه المخازن لما احتوته من الأواني وإنما لما عثر على سداداتها من الكتابة الهيروغليفية التي تعتبر عند رجال الآثار أهم من أي تحفة أثرية . إذ بقراءة ما كتب على هذه السدادات يمكن معرفة اسم صاحب المقبرة والزمن الذي عاش فيه ، وفي كثير من الحالات اسم الملك الذي كان يعاصره . فلما قرأنا ما كتب فوق هذه السدادات عرفنا أن صاحب المقبرة كان من كبار الموظفين يدعى « حماكا » . وكانت له بعض الألقاب « كحامل أختام الملك » و « التربع في قلب الملك » أي المقرب إليه . وكان يعيش في أيام الملك « أوديمو » أو « دن » .

أما المخازن الباقية فكانت بها مجموعات مختلفة ذات قيمة فنية ، لم يعثر على مثيل لها بين الآثار التي وجدت من قبل ، وكان بينها بعض الآثار عليها اسم « حماكا » . وقد غير هذا الكشف رأي علماء الآثار الذين كانوا يعتقدون أن الفن في الأسرة الأولى كان في نشأته الأولى ، وأصبحوا بعد ذلك يرون رأياً غير هذا الرأي ؛ وقد سلم كثير منهم بأن لا بد هناك حضارة سابقة لهذه الحضارة العظيمة ؛ فما لا يقبله العقل أن تكون أمثال هذه التحف النادرة بدء الفن ، بل لا بد من أجيال طويلة سبقته نشأ فيها وتطور حتى رق وازدهر .

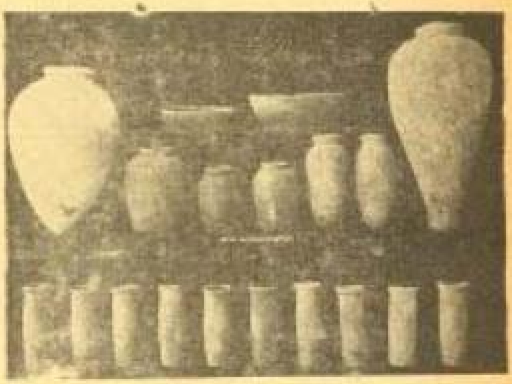


شكل يبين أحد المخازن المملوءة بالفخار ذات السدادات التي كتب عليها باللغة الهيروغليفية

وقد ذكرت في مقالي السابق أمثلة من هذه التحف ، وجميعها الآن معروض في إحدى قاعات دار الآثار المصرية .

كان عثورنا على هذه التحف عام ١٩٣٦ ، وفي الموسم

التالى انتقلنا إلى مصاطب أخرى ، وما عتمنا أن عثرنا على المركب التى ذكرناه سابقاً ، فرأينا أن نعيد البحث حول المصطبة من جديد ؛ وبينما كنا نعمل فى الجهة القبلية



شكل يبين أنواعاً من الفخار الذى وجد فى المقابر الصغيرة

(الجنوبية) منها عثرنا على قبر صغير (لحد) تبينا أنه لشخص من العامة لفقره . وقد لفت أنظارنا أن الطوب الذى بنى به هـذا القبر يشبه كثيراً الطوب الذى بنيت به المصطبة الكبيرة ؛ وكذلك كان الشبه عظيماً بين أوانى الفخار التى وجدت به وتلك التى وجدت فى المخازن . كل هذا شجعنا على توسيع نطاق الحفر حتى عثرنا على صف من المقابر الصغيرة يفصل الواحدة عن الأخرى جدار رقيق من الطوب ، وكلها متشابهة بنيت على نمط واحد ؛ وقد بلغ عددها تسع عشرة مقبرة ، هدمت المصاطب المتأخرة منها خمساً ، وكانت فى كل منها جثة ملفوفة لفاً محكماً فى قماش رقيق ، وموضوعة فى صندوق صغير من الخشب على جانبها الأيسر . وكان الجسم موضوعاً بحيث يمثل الجنين أى كمن يجلس القرفصاء . وقد وضع خارج كل صندوق عشرة آنية من الفخار أسطوانية الشكل صغيرة الحجم . وإناء كبير الحجم من الفخار يظن أنه كان للخمور ، وقد وجد فى بعض هـذه القبور أطباق من الفخار وفى بعضها آنية بها فواكه .

وقد اتضح من البحث أن هذه القبور الصغيرة جميعاً بنيت فى وقت واحد ، ودفن بها الموتى فى وقت واحد ؛ إذ وجدت فوقها جميعاً طبقة من الطوب الذى استعمل فى بناء المصطبة الكبيرة ، وهذه الطبقة من الطوب تمتد من إفريز المصطبة وتغطى القبور الصغيرة وتنتهى وراءها . وليس هناك إلا تعليل واحد لهذا كله . وهو أنهم بعد أن أتموا بناء المصطبة ودفن بها صاحبها قتل عدد من خدمه ، ودفن فى هذه القبور الصغيرة ليقوم بخدمته فى العالم الآخر كما كان يقوم بخدمته فى حياته . وقد زودوا جميعاً بما يلزمهم فى حياتهم الثانية .

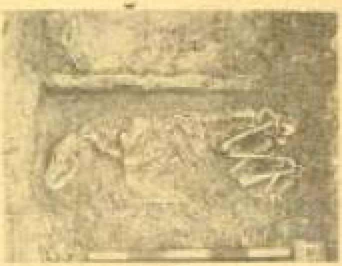
وعثرنا فى الجهة الشرقية للمصطبة على صف آخر من القبور الصغيرة تشبه القبور التى فى الجهة الجنوبية من المصطبة إلا أنها أصغر منها حجماً . ولم يبق بهذا الصف إلا أحد عشر قبراً فقط . وجدنا بالثلاثة الأولى منها جثث طيور لفت فى قماش رقيق ووضعت فى صناديق صغيرة من



شكل يبين أحد الطيور كما وجد فى الجهة الشرقية من المقبرة

الخشب . كما وجدنا فى سبعة قبور أخرى جثث كلاب ملفوفة فى قماش أيضاً ، وموضوعة فى صناديق من الخشب ، وقد وضع فى كل قبر إناء من الفخار الأسطوانى الشكل . أما القبر الحادى عشر ، ويقع فى آخر الصف ، فقد عثرنا فيه على جثة شخص دفن كالأموات الذين عثرنا عليهم فى

الجهة الجنوبية ، وكان معه آنية من الفخار كالتي وضعت معهم أيضاً ؛ وكانت الأرض التي تمتد من إفريز المصطبة تغطي هذه القبور وتمتد إلى ماوراءها أيضاً ؛ ومن الرجح



شكل يبين أحد الكلاب عثر عليه في الجهة الشرقية من المقبرة

أن هذه الطيور والكلاب لم تكن إلا طيور « حا كا » المحببة إليه وكلابه التي يعتز بها . وما الرجل الذي وجد مدفوناً بجوارها إلا حارسها دفن بقربها ليسهر على خدمتها في العالم الآخر ، كما كان شأنه معها في حياته .



شكل يبين أحد أصحاب القبور الصغيرة
التي وجدت في الجهة الجنوبية من المقبرة — أحد الخدم

ومما جعلنا نفكر في أن هؤلاء الموتى لابد وأنهم قتلوا يوم وفاة « حا كا » ودفنوا معه ، وكذلك الطيور والكلاب ، أنه من غير المعقول أن يموت عشرون رجلا وخمسة طيور[1] وسبعة كلاب موتاً طبيعياً في يوم واحد . ولما كانت المصطبة قد تم بناؤها وجهزت بالمخازن والحجرات لتوضع فيها جثة صاحبها عند وفاته ، وكذلك أثاثه الجنائزي ؛ فلا بد من أن تكون القبور الصغيرة قد بنيت ودفن بها الخدم والطيور والكلاب وحارس الطيور والكلاب يوم وفاة « حا كا » ليكونوا في صحبته ، وليقوموا على خدمته في الحياة الثانية التي كان قدماء المصريين يهتمون بالاستعداد لها استعداداً كبيراً ، إذ كانوا يعتقدون أن حياتهم فوق الأرض ما هي إلا فترة قصيرة ، أما الحيـاة الحقيقية الطويلة فهي حياة الخلود في العالم الآخر .

ولعل الأصل في وضع التماثيل الصغيرة المعروفة باسم « المجاويين » وتماثيل الخدم والحيوانات الأخرى المحببة إلى الإنسان ، في مقابر الملوك والأفراد ، ابتداءً من عصر الدولة الحديثة ، كان لاجتناب تضحية هؤلاء الخدم والحيوانات أنفسها ، والاكتفاء بقيام هذه التماثيل بالغرض المطلوب بعد قراءة بعض التعاويذ السحرية .

زكي يوسف سعد

(١) كان بأحد القبور الثلاثة الأولى ثلاث جثث لثلاثة طيور .

التربيـــة فى المدارس الحديثة

— ٢ —

المنهج :

إن تأثير علم النفس الحديث فى المنهج يكاد يكون ثورياً . فقد ظهر للعلماء بعد دراسة لعب الأطفال دراسة دقيقة أن اللعب ليس نشاطاً عرضياً ، بل محاولة جدية من جانب الطفل لتفهُّم المواد والأشياء التى يتألف منهـا الكون ، ولتفهُّم وجوه النشاط التى يرى الكبار يقومون بها . فالطفل الذى يحفر جحراً فى الحديقـة يتحسس بشغف خواص الرمل والماول ، ويتعلم الكثير عن « الأحجار » . وقد لا يكون عمله المستمر فى حفر الجحر ثم إعادة ملئه بالرمل عملا مثمراً فى نظر الراشدين ، ولكنه مع ذلك يكشف فى أثناء قيامه بهذا العمل عن عدد من قوانين الطبيعة التى يعتبرها الراشد مسائل مفروغاً منها . وكذلك الطفل الذى يمثل ساعى البريد ، أو أخوه الأكبر الذى يمثل فى لعبه آخر شريط سينمائى رآه ، يستكشف بالطريقة نفسها مواقف اجتماعية ، ويجرب الشعور الذى يختلج فى نفوس من يقفونها . وليس مثل هذا الطفل ، ولا الطفل الذى يقوم بالحفر ، بحاجة إلى أى نوع من أنواع الإرغام تدفعه به إلى النشاط ؛ والسبب فى ذلك أن الطفل لديه من الرغبة فى السيطرة على عالم الأشياء والناس مثل ما للراشد ، وهو يتأذى مثله إذا أدى به جهله إلى الشعور بالنقص أو الوقوع فى الحيرة .

وهذه الحقائق البسيطة تكشف لرجال التربية عن طريقة التعليم التى ينبغى اتباعها من جهة ، وعن الموضوعات التى ينبغى أن يتألف منها منهج الدراسة من جهة أخرى .

فقد صار جلياً أن الطريقة القديمة التى تقضى بأن يختار المدرس موضوع الدرس ، وأن ينحصر عمل التلميذ فى الانصات — أو عدم الانصات فى بعض الأحيان — أن هذه الطريقة ليس من المستطاع السير عليها إلا إذا تأيدت باستخدام سلطة المعلم . أما إذا أراد المعلم — تمشياً مع روح النظام الجديد — أن يراعى وجهة نظر الطفل ، فإن الاحتفاظ بتلك الطريقة يصبح متعذراً .

إن الطفل يهتم اهتماماً حقيقياً ببعض المواقف المثيرة التى تصادفه فى العالم خارج المدرسـة ، فينبغى أن يشتمل المنهج عليها . ولـكن هذه المواقف تختلف باختلاف الأطفال واختـلاف بيئاتهم ، فالطفل الريفى يستخرج دودة من الأرض ، بينما الطفل المدنى يرى مضخة للحريق ؛ وإذن يجب أن يختلف المنهج لمختلف الأطفال . ولـكن كيف يمكن أن نضع منهجاً بالمرة ما دمت لا تستطيع أن تعرف سلفاً ما هى الحوادث الفاجئة التى قد تثير اهتمام التلاميذ إلى حد يصبح لا مفر معه من تناولها بالمدرسة — كزيارة « سيرك » للمدينة أو انهيار صف من المنازل ؟ والجواب على هذا أنه لايتحتم وضع منهج لدراسة كهذه مقدماً ، بل يكفى تسجيل ما درس بعد الفراغ من دراسته .

هذا فيما يتعلق بموضوعات الدراسـة ، أما فيما يتعلق بالطريقة فالطفل يلذ له النشاط فى اللعب . وكثيراً ما يكون ميله إلى النشاط الجسمى ، خصوصاً إذا كان اللعب متصلا بالمواد والآلات ؛ لـكنه بصرف النظر عن ذلك ينشط دائماً فى لعبـه نشاطاً عقلياً . فتراه يتساءل : متى يصل الجحر إلى باطن الأرض ؟ ولِمَ ينهال الرمل فى داخله ؟

ولِمَ يأخذ الحجر هذا الشكل الخاص ، ولا يأخذ شكلا غيره؟ ... وهكذا ينتقل من سؤال إلى سؤال دون انقطاع . أما إذا بدأت بإعطائه درساً على « الأحجار » فإن هذه الأسئلة لن تتوارد على ذهنه ، بل إنه سوف يمل دراسة الأحجار كما يمل دراسة التاريخ . فالطريقة الطبيعية إذن أن تدع الطفل يجرب في مواقف حقيقية بقدر ما تسمح به ظروف غرفة الدراسة ، وأن تشكل تدريسك وفقاً لتطور تجاريبه .

والآن لننظر كيف يمكن تنفيذ هذا عملياً .

وجدت معلمة حاذقة اشتغلت بالتعليم عشر سنوات ، أن معظم تلاميذها كانوا مشتركين في مجلة من مجلات الأطفال ، وكانوا يكثرون من الاشارة إليها في أثناء الدروس والاستماتة بحقائقها في مناقشاتهم ، كما كانوا يقرءون فيها سرًّا في أوقات الدراسة . وكان من الواضح أنه ما دامت هذه المجلة مركز اهتمام الأطفال ، فقد وجب أن تكون مركزاً لنشاط الفصل ؛ ولذلك أفسحت المعلمة المجال لدراستها في الحصص ، وصارت تضع للأطفال أسئلة عما فيها ، وتطالبهم بأن يبينوا لها مزاياها والخطة المتبعة في تحريرها . ومن هنا نشأت فكرة تحرير صحيفة للفصل ؛ ولكن كل طفل فضل أن يحرر لنفسه صحيفة خاصة ، وأصر على ذلك بقوة .

ودارت مناقشة الفصل وقتاً ما حول الناحية التي يرغب كل طفل أن تكون بارزة في صحيفته . فمثلا رأت « دوروثى » أنها تجيد الكتابة حول مباريات الفصول في كرة الشبكة ، وقالت « إيلين » إنها ستخصص عدداً من صحيفتها لأسبوع الطفل ، أما « فيرا » فقد قالت إن في حديقة منزلها وردة للرياح ، وإنها لذلك ستكتب عن أخبار الجو . وقد أعجبت هذه الفكرة بقية الأطفال ، فشرعت مجموعة منهم في عمل مقياس للمطر ووردة للرياح ، وإعداد خريطة لتسجيل حالة الجو عليها ، حتى يمكن إبلاغ ذلك إلى جميع الصحف . ولم يقتصر كل طفل على التحرير في صحيفته الخاصة ، بل صاروا يكتبون لصحف غيرهم ، ويأخذون على ذلك أجوراً حددت فئاتها . وكانت هذه الأجور وغيرها من النفقات تقيد في دفاتر خاصة ، فتدرب بذلك كل طفل على أعمال الحسابات وإمساك الدفاتر وعمل بيانات الايراد والمصروف . وقد كانت كتابة الصحف في أول الأمر سيئة ، فأشير على الأطفال باستخدام نوع أجود من الأقلام ، ثم تدربوا على الكتابة بالحروف المنفصلة (Script) ؛ وأعقبت ذلك دراسة الاعلانات العادية والمصورة . وقد فاجأت « دورين » الفصل يوماً بتأليف قصيدة ، ومنذ ذلك الحين تدفق سيل الشعر ، ودرس الأطفال الأوزان والقوافي لتحسين شعرهم .

وقد ابتكرت « دوريس » في صحيفتها فكرة « الرسائل إلى المحرر » ، وبدأتها بخطاب قوى هذا مطلعه : « سيدتي المحررة : إني لأرجو أن تعنى بالنظر في مسألة الواجبات المنزلية ... » . وتبعت ذلك « فيرا » بخطاب تسأل فيه عن نصائح في التجميل . وتلا ذلك فتح أبواب جديدة لنقد الكتب ، وفلاحة البساتين ، وملاحظات عن الطبيعة ، والحوادث السياسية الجارية ؛ وقد تعاقبت هذه الأبواب بسرعة . وأدى « أسبوع الطفل » الذي نفذته « إيلين » إلى مراجعة كل كتب الصحة التي في مكتبة الفصل .

وعلى مر الأيام طرأت أسئلة أخرى ، إذ وجدت المعلمة يوماً ما قشرة رقيقة من الخشب في نسيج ورقة صحيفة من الصحف ، فدفعهم هذا إلى البحث عن كيفية صنع الورق ومن أين يجيء ؟ وبدءوا بدراسة صناعة الورق في كندا ، فاندفع جماعات منهم إلى الكتب لدراسة عدد من المسائل التي شغلت كل تفكيرهم ، مثل : كيف يعيش قطاع الخشب ؟ وكيف ينقل الخشب بعد قطعه ؟ وكيف

يسير العمل في مصانع نشره ؟ وما هي البلاد الأخرى التي يوجد بها ؟ ...

وقد أدى ذلك بالطبع إلى سؤال آخر ، هو : كيف كان الناس يكتبون الرسائل قبل صناعة الورق ؟ وهكذا انتقل الفصل خطوات عديدة في ثنايا التاريخ ، فدرست مجموعات من التلاميذ الطرق الفطرية لكتابة الرسائل ، وأعدت مكتبة في ركن من الغرفة تحتوي على ما في متناولهم من الكتب والصور ، ودونت مذكرات ، وصنعت نماذج لكل شكل من أشكال الكتابة القديمة على المواد اللائقة له ؛ وبعد ذلك أعطيت نتيجة هذا الاستقصاء للفصل على صورة محاضرات قصيرة . وكانت الخطوة التالية دراسة نظام البريد ووسائل المواصلات الحديثة ؛ ولم تكن المواصلات الدولية بعيدة عن البحث .

إن المحافظين على القديم منا لن يسعهم إلا أن يتساءلوا بإزاء هذا كله : هل تتسع هذه الطريقة لاعطاء الطفل معلومات في التاريخ أو الجغرافيا وإن لم يكن في المواقف التي يصادفها في بيئته ما يدفعه إلى البحث عنها ؟ والجواب أن هذا ممكن ، وإني أسوق الأمثلة الآتية على إمكانه : فقد رأيت في الأسابيع الأخيرة فصلا مكوناً من بنات في سن الثانية عشرة يدرسن سجلات مدينة لندن في سني الوباء والحريق ، وذلك نتيجة لشغفهن بمذكرات «مستر بيبس» (Mr Pepys) ، ورغبتهن في عمل يوميات مشابهة ليومياته . كما رأيت جماعة أخرى في التاسعة من العمر مشغولة بعمل نموذج من الخشب والورق المقوى لشارع في القرون الوسطى ، بمنازله وما فيه من وسائل النقل ، وقد وضعت فيه نماذج تمثل الناس في أزياء ذلك العصر ؛ وكل ذلك كان منقولاً بدقة تامة من الصور . وإني لأذكر كذلك فصلا يتألف من تلاميذ في الحادية عشرة من عمرهم صنعوا في العام الماضي نموذجاً لنظام الري في حقل هندي ، كما أنه عرضت عليّ حديثاً خريطة للعالم صنعها تلاميذ فصل ما من الخشب ، ودلوا على أماكن الموانى الجوية والبحرية الرئيسية فيها بمصابيح صغيرة تضاء بالكهرباء .

هذه أمثلة قليلة ، جادت عليّ بها ذاكرتي ، من كثير من وجوه النشاط التي تنصب على المواد الدراسية مباشرة . وإني لا أشك في أن الاهتمام بها بدأ في أول الأمر بإيحاء من المعلمة ، ومع ذلك فقد تقبلها الأطفال برضى وحماسة ، فأثار تنفيذها نشاطهم من الناحيتين العقلية والجسمية . وقد سمح لهم بأن يقوموا بتجارب على المواد اللازمة لتحقيق أغراضهم ، كما أن التنفيذ أتاح لهم الفرصة كي يدرسوا ويكتبوا ويتحدثوا ويرسموا الخطط ، منقسمين إلى جماعات متعاونة ؛ وما كانوا يدركون قط إذا كان عملهم يعد درساً في اللغة الانجليزية أم في التاريخ أم الجغرافيا ؛ ذلك أن النشاط أزال الحواجز بين المواد في عقل الطفل ، فلم يعد يرى إلا أن كل عمل من أعمال الفصل كان خطوة معقولة في سبيل إتمام مشروعهم ؛ وكان له في ذهنه معنى ، لأن له غرضاً .

* * *

لقد أثبت علم النفس الحديث — وأيدته تجارب المعلمين في ذلك — أن بالأطفال حاجة نفسية لأن يتعلموا ، وأن التعليم بالنسبة للطفل لا يخرج عن كونه طريقة خاصة تمكنه من السيطرة على بيئته . فلماذا إذن نجد من الأطفال من يأبون أن يتعلموا ؟ يرجع ذلك أولاً إلى أن الحقائق التي كنا نريد أن يتعلمها الطفل في الماضي لم يكن لها اتصال ظاهر ببيئته ، ومن ثم لم يكن يرى فيها وسيلة للسيطرة في أية صورة من صورها . ويرجع ثانياً إلى أن التعليم الجمعي (في فصول يتراوح عدد تلاميذها بين الثلاثين والخمسين) لم يكن بالنسبة للتلاميذ الذين لم يوهبوا سرعة الفهم سبيلا إلى القوة ، بل كان أداة تبعث في نفوسهم

شعوراً مفزعاً بالعجز والضعف . كانت عملية التعلم أشبه بالكابوس يثقل صدورهم لعجزهم عن التقدم ، وكانت فى النهاية ، لقلة مايلاقونه من عناية فردية ، تسلمهم إلى الجهل والانحراف .

ولقد عرض على فى الشهر الماضى أربعة أولاد من هذا الطراز كانوا فى العاشرة من العمر ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون قراءة سطر واحد . وقد بلغ اليأس من أحدهم أن قال لى : « إنك لا تستطيعين أن تعلمى كل الناس القراءة أيتها الآنسة » ، فوافقته على ذلك فى أول الأمر . وكان اثنان منهم ممن عرضت حالاتهم على الحاكم ، ووالد أحدهم من المشغوفين بسباق الخيل ، وكانوا جميعاً يعيشون فى أحياء كلها بؤس وشقاء .

قلت لهم إن القراءة مفيدة فى المراهنة على الخيل ، وإن الحوادث المثيرة لا تسجل إلا فى الصحف ، فتجلى فى نظراتهم إلىّ عندئذ احترام لم ألحظه من قبل . وانتهى بنا الأمر إلى أن نشتغل بجد مدة عشرين دقيقة ، تعلم فيها كل منهم قراءة فقرة صغيرة من كتاب ، وكان ثلاثة منهم يتلون معظم ما يقولونه من الذاكرة ، ولكنهم كانوا يحسبون أنهم يطالعون . وفى نهاية هذه المدة كنت لا أعرف أولئك الصغار لفرط ما بدا عليهم من تغيير . وحينما خاطبنى أشد الأربعة بؤساً قائلا : « هذا غريب ! يظهر أن تعلم القراءة يدخل السعادة إلى نفس الانسان » ، شعرت أن الفوز قد تم ، وأن التقدم أصبح محققاً . ويرجع التغيير الذى طرأ عليهم إلى أنهم قد خصوا بالعناية الفردية مدة عشرين دقيقة ، وأن مطالبتهم ببذل شىء من المجهود قد بنيت على سبب يفهمونه ، وأخيراً — وهذا أهم الأسباب — إلى أنهم قد أدركوا بعض النجاح وشعروا بلذته . ولم يكن لدىّ شك فى أن كل هذا ستكون له نتيجته .

إن المعلمين قد أخذوا يكسبون خبرة فى تنظيم أعمالهم على صورة تسمح بتفرغهم للعناية بالأفراد والجماعات الصغيرة من تلاميذهم ، وذلك بترك بقية التلاميذ ليدرسوا بأنفسهم . وهذه الطريقة لا يتم نجاحها إلا إذا صغرت الفصول ، وخفت الأعمال الاضافية التى تستغرق كثيراً من جهد المعلم ووقته ، بالاستغناء عما يمكن الاستغناء عنه من الأعمال الكتابية مثلا .

التنظيم والإطراد العادى :

من الواضح أن أساليب كالتى بسطناها ستقلب جداول الدراسة المألوفة رأساً على عقب . ولكن الجدول أيضاً يجب أن يخضع لأحدث المعلومات عن العمليات العقلية ، فما من طفل مشغول بإقامة مسرح صغير يرضى أن يلقى آلاته بعد مضى أربعين دقيقة من بدء العمل ، ومن الصعب أن تخرج الأطفال من غرفة الدراسة للفسحة فى مثل هذه الحالة . كذلك قد يقوم الأطفال بدراسات فى الجغرافيا والتاريخ ومشاهد الطبيعة فى وقت واحد ، فى فصل واحد ، وفى مشروع واحد ، وعلى هذا لا يمكن فصل بعض هذه المواد عن بعض . على أن اليوم المدرسى يجب أن يتناوله بالرغم من هذا شىء من التقسيم ، إذ أن تهيئة الطفل لأنواع النشاط المقربة فى الفصل ، وللحياة الاجتماعية المستقبلة ، يتطلب تدريبه على بعض العمليات الخاصة ، حتى يتقنها ويصير قادراً على القيام بها بطريقة آلية . ومن ذلك العمليات الحسابية ، والقراءة والكتابة ، فهذه المواد لا بد أن يفرد لها وقت خاص فى الجدول . كما أن المواد التى لا تجد لها مكاناً فى أنواع النشاط التى يقوم بها الأطفال فى وقت معين يجب أن تخصص لها من آن لآخر بعض الحصص ، حتى يكون المنهج متزناً . كذلك يحتاج الطفل إلى ممارسة الرياضة البدنية والموسيقى والقراءة التى يقصد منها إلى التسلية . وفيما عدا ذلك ، فإن

الجدول ينبغي أن يحتوى على فترات طويلة تخصص لأنواع النشاط ، وتختلف تسميتها باختلاف أذواق المدرسين . وإني أعرف مدرساً أسماها حصص « الكشف » ؛ وقد يكون الكشف تاريخياً ، أو جغرافياً ، أو طبيعياً ، أو مجرد تنفيذ لفكرة نشأت من اقتراحات الأطفال ، وأخذوا يسيرون غورها حتى يصلوا منها إلى القرار .

ومن المسائل التي تواجهنا إذا أردنا الأخذ بأساليب التربية الحديثة ضرورة توافر الفضاء في غرف الدراسة وتزويدها بما يلزمها من الخامات والأدوات . وكل فصل يجب أن يكون حجرة للأشغال ، فلا يجدى كثيراً أن يكون في المدرسة حجرة واحدة للأشغال أو النشاط . وينبغي أن يكون لكل طفل كرسي ونضد يمكن زحزحتهما بسرعة عند الحاجة ، لإيجاد الفضاء الكافي للتمثيل . كما أن الأثاث يجب أن يكون متحركاً حتى يستطيع جماعة من الأطفال أن يقتربوا بعضهم من بعض للمناقشة . ويجب أن يكون بالفصل مائدة لعرض ما تم أو ما قارب التمام من أعمال التلاميذ ، كما يلزم أن يكون به مخزن للخامات والأدوات . إني أقول « يجب » و « يلزم » ، ولكن المعلمين في الواقع يأتون بالمعجزات من غير أن يتوافر لهم شيء من هذا ، متى تحلوا بالصبر والأناة . والحقيقة أنه ما من شيء تتوقف عليه هذه المشروعات ويتعذر السير فيها من غيره متى وجدت جماعة من الأطفال وقدر من فضلات المواد الأولية ومعلم له وجهة نظر خاصة . أما أخطر الأشياء عليها — على الأقل مع أطفال لم يتجاوزوا العاشرة — فهم المعلمون الأخصائيون الذين لا يعلم كل منهم إلا مادة واحـدة . فالتخصص في التعليم يجب ألا يكون له وجود إلى هذه السن ، بل إلى ما بعـد ذلك في اعتقادي . وإن هذا لأمر على جانب كبير من الأهمية .

ومن المسائل الأخرى مسألة الكتب المدرسية للأطفال . فعهد الكتب القديمة التي تحتوى على استعراض عام لمادة معينة قد انقضى ، ولم يعد من المرغوب فيه أن يجمع كل ما يحتاج إليه فصل معين من مادة التاريخ أو الجغرافيا في كتاب واحد . إن أمامي الآن مجموعة من رسائل صغيرة مكتوبة بخط اليد ، وهي من عمل زميلة أعدتها للاستعمال في الدراسة ولم تطبعها بعدُ . إنها صغيرة ، وموضحة برسوم حقيقية ، ولن يتجاوز ثمن الواحدة منها بعد طبعها تسعة بنسات أو شلناً . وهي لفصل يدرس الحياة الاجتماعية في القرون الوسطى ، وسن الأطفال فيه العاشرة . أما عنوانات الرسائل فهي :

١ — الحرف في المدينة .
٢ — الحرف في الريف .
٣ — منازل القرون الوسطى .
٤ — الأزياء .
٥ — الطعام والولائم .
٦ — الموالد وحفلات الاستعراض .

* * *

وبعد فمن الواضح أن كثيراً من المشكلات التي كشف عنها علم النفس الحديث لم تطرق في هذا المقال . فتعليم الفن والأدب والإنشاء الابتكاري مثلاً قد تقدمت كثيراً في السنين العشر الأخيرة ، وقد اتخذنا موقفاً جديداً إزاء بعض المسائل الشائكة مثل تعليم النحو والحادثة ، ونتجت عن ذلك تعديلات في طرق التعليم لا تحصى .

ثم إن كثيراً من التغييرات التي أشرنا إليها لا تزال في بدايتها ، ولكن النزعة التجريبية في التعليم قد حلت في كل مكان ، وستكون لنا من نتائجها موضوعات شائقة للدراسة في المستقبل .

(مترجم بتصرف عن مجلة « العصر الجديد في المدرسة والمنزل »)

دمعـــة

على صديق ولى فى أوج الشباب

أمثلك يطغى عليه الحِمامْ
حرامٌ لعمرى عليه حرامْ
ولِمْ لا لعلّ له عذرَه
لعلّ الحِمام أحبّ وهام
فقد كنت صِنوًا لشمس الضحى
وقد كنت تذرى ببدر التمام
علام تعجل عنا الرحيل
وحيث أقمت يطيب المقام
فقد كان طبعك مثل الربيع
وروحك ترشف مثل المدام
وقد كان ودك أصفى الوداد
وكان ذمامك أوفى ذِمام
أمثلك «سامى» يضم التراب
ويغزل بين الصفا والرجام
وكنت طليقاً بوادى الصبا
طلاقة طرفى كما شاء هام
وكنت تفيض حياة وبشراً
فكيف ثواؤك تحت الرغام
لقد بتّ بعدك فى حسرة
وفى كبدى وقدة من ضرام
سلامٌ على خدنىَ المنتوى
ويا قبر خدنى عليك سلامْ

(كرمة ابن هانئ) **صبحى شوقى**

منيـــة النفس

منية النفس تعالَىْ نستبقْ
فى حياض اللهو والعيش الرغيدِ
ولنعد لحن أغاريد الصبا
ونجدد سالف العمر الحميدِ
كأسنا لمّا تزلْ مترعة
ببوادير الأمانى والوعود
فاكرعى منها كما شاء الهوى
جرعة تعتق روحى من قيودى
ودعى عنك أقاويل العدى
ووشايات عذول أو حسود

***

هو ذا (نيسان) فى سفح الرُّبى
يسحب الذيل على وجه الصعيد
وقيان الحور هبّت سَحَراً
سلمات الجيد والساق النضيد
نفض (السوسن) عن أكتافه
كفن الموت وأغلال الجليد
فانفضى أوهام عهد بائد
وانزعى عنك تقاليد الجدود
وهلمّى نقتسمْ ميراثنا
من سراب العمر فى هذا الوجود

***

ما لعينيك جفت طيب الكرى
عندما أمعنت فى الماضى البعيد

حول إدارة الدعاية

حضرة الأستاذ المحترم رئيس تحرير الثقافة .

قرأت المقال المستفيض الذي نشرتموه في عددكم الأخير لحضرة الأستاذ الدكتور طه حسين بك . وقد تناول فيه وزارة الشئون الاجتماعية بملاحظات ومآخذ ، لعلى لا أعدو الصواب إذا لخصتها فيما يلي :

بعد أن أدلى الدكتور ببحث قيم في « الإعلان » وتغلغله في جميع شئون الحياة من سياسة إلى أدب إلى ثقافة إلى تجارة ، وتأثيره في النفوس والعقول ، واعتماده في كثير من الأحيان على غير الحقيقة والصدق ، عاد فلاحظ على وزارة الشئون الاجتماعية أنها تسرف في « الإعلان » وأنها خصصت له إدارة وموظفين وأموالا ؛ وبيّن أنه إذا كان من أغراض هذه الإدارة الوعظ والإرشاد فالأزهر ووزارة الداخلية قائمان بهما من عهد بعيد ؛ ونصح أخيراً بإلغاء هذه الإدارة ، ورد موظفيها إلى أعمال أنفع وأجدى وأحسن ملاءمة للمصلحة من أعمال الإعلان . . .

وأظنني أبعث الراحة والاطمئنان في نفس الدكتور إذا قلت له إن إدارة الدعاية لم تقم لتعلن عن جهودها أو جهود وزارة الشئون الاجتماعية ، بل لتدعو للمبادئ والأغراض الاصلاحية الجليلة التي أنشئت من أجلها هذه الوزارة . ولا بأس في هذا المقام من أن أورد أغراض هذه الادارة التي خصها الدكتور بحملته دون بقية إدارات وزارة الشئون الاجتماعية .

أولا — إرشاد الفلاح والعامل إلى وسائل تحسين حالتهما الصحية والمعيشية ، وحمل الشعب على هجر البدع والعادات السيئة ، كالزار وتشييع الجنائز بالصورة المخزية التي نراها الآن .

ثانياً — نشر المبادئ الاجتماعية القويمة ، والاشراف على برنامج الاذاعة وترقيتها ، وتدعيم المسرح القومي ، وجعله وسيلة لتثقيف الشعب وإصلاحه .

ثالثاً — مراقبة الروايات والأفلام السينمائية والأغاني الشعبية .

رابعاً — الاشراف على المهرجانات والأعياد القومية والموالد إشرافاً يحقق استفادة الشعب منها ، من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية .

خامساً — تنفيذ القوانين واللوائح الخاصة بالمحال العامة ودور التسلية وتطهيرها من المآخذ .

* * *

ولا شك أن في كل فقرة من هذا البرنامج غرضاً إصلاحياً وخدمة وطنية بارزة . وليس فيه ما يمكن أن يسمى « إعلاناً » أو « ترويجاً » .

ونحن ندعو لهذه الأغراض بمختلف الوسائل التي توصل صوتنا وفكرتنا إلى الشعب بجميع طوائفه ؛ ندعو بالنشر في الصحف ، وبالخطابة في الاجتماعات والحفلات ، وبالاذاعة في الراديو وبالتمثيل وبالسينما ، وسندعو بكل ما يمكن أن ينتجه العلم الحديث من أساليب الدعوة .

وبودي بعد هذا الايضاح أن يوافقني الدكتور على أن

أشجا قلبك أن يذوى الصبا
ويغيب الحسن في كهف اللحود
أم شجا قلبك مني هفوة
صعدتها غيرة ملء الكبود
... ... أتفور بعدما أرهقتني
بلظى الوجد ونيران الصدود
منية النفس هبيني مجرماً
أفلا يغفر لصب الشهيد
أنا إن أخطأت كانت قبلتي
خير ما جاش بصدري من قصيدي

(دمشق) عدنان مردم

« الدعوة » شيء و « الإعلان » شيء آخر ، وإن كنت — والدكتور مي — لا أنتقص من فائدة الإعلان ولا أنكر ضرورته .

ولكي يزداد وضوح الفارق بين الأمرين ، أو بين التعبيرين ، أقول إن الإعلان ترويج لعمل بلغ دور التمام ، أو ترغيب في بضاعة معروضة في أسواق السياسة أو الأدب أو التجارة أو غيرها .

أما « الدعوة » فتوجيه إلى خطط مرسومة وأغراض منتواة ، وهي بهذا الوضع أعم وأهم من أن تكون مجرد وعظ وإرشاد .

إن وزارة الشئون الاجتماعية وزارة توجيه وإصلاح ، قبل أن تكون وزارة أمر ونهي وسلطان ؛ وهي تتناول ببحثها وعملها مشكلات اجتماعية أفنى العلماء ، والفلاسفة والمصلحون أعمارهم وتجاربهم في درسها ورسم الحلول لها .

فهل يرى الدكتور أن تستغنى الوزارة عن « الدعوة » التي تهيء لمفكري الشعب فرصة الاشتراك معها في البحث والتفكير قبل سن النظم وفرض القوانين ؟!

ينعى الدكتور من سياسة القول ويوصي بالعمل . فماذا عسى أن يكون ذلك العمل ؟ أهو مفاجأة الأمة بمراسيم ملكية وقرارات وزارية لم تفسح الفرصة لتمحيص موضوعها ، ولم تهيأ الأذهان والنفوس لقبولها ؟ .

إن الذي تقوم به إدارة الدعاية هو العمل بعينه ، نلخصه في جملتين : التفكير والتوجيه ، ثم التشريع والتنفيذ .

وكل زيادة في مجهود إدارة الدعاية ، وكل تكبير لميزانيتها ، وكل تشجيع من الأمة وقادة الرأي ، كل أولئك يقربها ويقرب الوزارة الجديدة إلى النجاح فيما تنتويه للوطن من خير وفلاح .

حسن الشريف

يوميات أندريه جيد

(بقية المنشور على صفحة ٨)

في أول هذا الفصل إن شخصية أندريه جيد متعددة واحدة في وقت معاً ، فهو يحب زوجه أصدق الحب وأعمقه وأبقاه ، ويجزع لموتها أشد الجزع ، ويصور جزعه في صحف خالدة ، ولكنه في الوقت نفسه ينحرف عنها انحرافاً منكراً ، ولا يرى بذلك بأساً ولا جناحاً . وقد قلتُ كذلك في أول هذا الفصل إنه يقسو على نفسه كما يقسو على غيره في صراحة وصدق ؛ وربما كان من أوضح الأدلة على هذه القسوة أنه عرف من نفسه البخل وحب المال ، فلم يتردد في تسجيل هذه الخصلة من خصاله ، وفي تسجيل ما تكلفه من العناء المادى والخلق ؛ فهو يذهب إلى المطعم فيأكل غير ما يشتهى أو أقل مما يشتهى بخلاً بالمال ، ثم يألم لذلك ويشكو منه ، وهو يدعو غيره إلى الطعام ، فاذا أدى الثمن قصر في إرضاء الخادم ، ولم يمنحه إلا قليلاً ، ولعله لا يمنحه شيئاً بخلاً وتقتيراً ، ثم يستخذى لذلك ، ويسجل خزيه ، ويعرف الناس عنه هذا البخل فيتندرون به ، ويخترعون القصص والأحاديث ، وتنتهى نوادرهم إلى أندريه جيد ، فلا يتردد في تسجيلها وتصحيحها ، إن احتاجت إلى التصحيح . ولا أذكر قسوته على نفسه في الفن ، فتلك خصلة لا يكون الأديب أديباً إلا بها . وأما قسوته على غيره فتصورها هذه الأحكام الصارمة التي يدمغ بها أصدقاءه وأحبَّ الناس إليه في فهم ، وفي أخلاقهم ، وفي صورهم وأشكالهم ؛ كما يدمغ بها خصومه وأبغض الناس إليه ، ثم لا يتردد في إذاعتها ، وأصدقاؤه وخصومه أحياء ، كما أنه هو حى أيضاً . ومن الممكن ، بل من المحقق ، أنهم سيقرأونه وسيلقونه ؛ ولكن أى بأس عليه وقد أخذ نفسه بالحرية والاستقلال ، وبالصراحة والصدق ؟ وهو على بخله وحبه للمال ، رقيق القلب جداً ، طيب النفس جداً ، عطوف على الفقراء والبائسين ، لا يتردد في معونتهم ، وتيسير الحياة لهم ، فهو يبخل على نفسه ، ويبخل على القادرين من أصدقائه وذوى معرفته ، ولكنه لا يبخل على العاجزين والبائسين .

وعطف أندريه جيد على الفقراء والبائسين ، وإيمانه بالحرية والمساواة ، وكرامة الشخص الانسانى ؛ كل هذا مضافاً إلى مسيحيته الخالصة ، قد دفعه إلى الشيوعية حين ظهرت وعظم أمرها . وإذا هو يدافع عنها أشد الدفاع وأقواه ؛ ولكنه حر صادق ، فلا يكاد يزور روسيا ويرى فيها ما يرى ، حتى يعود ساخطاً على النظام القائم فيها ، معلناً سخطه ، متعرضاً لغضب المتطرفين ، كما تعرض من قبل لغضب المحافظين ، ساخراً من غضب أولئك وهؤلاء ، كما سخر من غضب البروتستنت والكاثوليك والملحدين .

وهناك مسألة يعنى بها أندريه جيد في يومياته عناية شديدة ، وهى مسألة تأثيره في الشباب ؛ فخصومه يشفقون من هذا التأثير أشد الإشفاق ، على حين يرى هو في بعض أوقاته أنه لم يؤثر في الشباب أو لم يؤثر فيهم كما ينبغى ، ويتمنى في بعض الأوقات لو استطاع أن يؤثر في الشباب ، فيعلمهم الحرية والاستقلال ، ولا سيما بالقياس إلى أساتذتهم وبالقياس إليه هو خاصة . والشىء الذى لا شك فيه هو أن أندريه جيد قد أثر في أجيال من الشباب الفرنسيين تأثيراً عميقاً ، ولا سيما من الناحية الفنية ومن ناحية الحرية الأدبية في الشعور وفي تصوير الشعور . ولعلى أتحدث إليك في يوم قريب عن تلميذ من تلاميذه كاد يكون صورة منه لولا أن الموت اخترمه قبل أن يبلغ الأربعين .

وبعد ، فقد يكون من الخير أن رد هذه الشخصية القوية المتمردة إلى أصولها وعناصرها في أسطر قصار بعد

هذه الإطالة التي لم نجد منها بدًّا؛ وقد ذكرت مسيحيته الموروثة وأثرها في أخلاقه وتفكيره، فلأضف إليها كلفه بالعلوم التجريبية ومشاركته فيها، وأسفه لأنه لم يفرغ لها؛ ثم لأضف إلى هذين العنصرين عنايته بالموسيقى وبراعته فيها، وأخذه نفسه بالتوقيع ساعات في كل يوم، وحزنه أن حالت الظروف بينه وبين هذا التوقيع. فأما القراءة فقل فيها ما شئت، ولا سيما قراءة الأدب الإنجليزي والألماني والروسي، وبنوع خاص شيكسبير وجوث ودوستويفسكي. وهو من أكثر الأدباء قراءة للأدب الفرنسي قديمه وحديثه، يقرأ الكتاب مرة ومرتين وثلاثاً، ويجد في كل مرة لذة جديدة ورغبة في الإعادة. وهو مشغوف شغفاً خاصاً بلزاك وزولا؛ وله على معاصريه أحكام تبلغ القسوة المنكرة، وأحكام أخرى تبلغ الإعجاب الذي لا حدّ له. وما ينبغي أن أنسى عنايته بالأدب القديم وبالأدب اللاتيني خاصة، وتأثره بهذا الأدب في فنه، ولا سيما من ناحية النظم والموسيقى، حتى يضيق أحياناً بهذا التأثر؛ فنثره يوشك أن يكون شعراً، لأنه يقيمه على لون من الموسيقى يوشك أن يكون حساباً.

وأندريه جيد حضري الغريزة بدوي السيرة، حريص أشد الحرص على لذات الحضارة ورفاهيتها، مبغض أشد البغض للإقامة المتصلة في مكان واحد، كأن أبا تمام قد قال فيه بيته المشهور:

كأن به ضغناً على كل جانب
من الأرض أو شوقاً إلى كل جانب

فأنت تراه متنقلاً بين باريس وقريته في نورمنديا وجنوب فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأفريقيا الشمالية وتركيا ومصر والروسيا. ولأفريقيا الشمالية أثر خاص ممتاز في حياته الأدبية، وقد ألهمته أجمل كتبه وأروعها. ولم يتصل جيد بشعب، بعد الشعب الفرنسي، كما اتصل بالشعب العربي في أفريقيا الشمالية، وبالشعب العربي الساذج

الغافل، يلتمس عنده لذاته على اختلافها.

وقد أطلت، ولكن ماذا أصنع وأنا مطيل بطبعي، ومضطر في هذا الحديث إلى أن أصوّر لك كتاباً يبلغ أكثر من ألف وثلاثمائة صفحة، وشخصاً واحداً ولكنه لا يكاد يحصى؟ ومع ذلك فهل أختم هذا الحديث دون أن أذكر ما يجده قارئ هذه اليوميات من المتاع الذي لا حدّ له حين يرى الكاتب يصور له أصدق التصوير وأدقه عنايته بآثاره الفنية منذ يفكر فيها وحين يأخذ في إنتاجها إلى أن يتمها، مبطئاً حيناً مسرعاً حيناً، شقياً بالزائرين له والصارفين له عن العمل دائماً؛ ثم قراءة هذه الآثار على أصدقائه وخاصته، وعلى زوجته مرتان دي جار من بينهم بنوع خاص؛ ثم قبوله للاحظاتهم، يذعن لها عن رضى، ويذعن لها عن كره، ويمتنع عليها أحياناً، ويندم على هذا الامتناع؛ ثم إذاعته لهذه الآثار، وانتظاره لآراء الناس فيها، وعنايته بهذه الآراء، لا ليرد عليها، ولا ليصححها؛ بل ليسجلها في يومياته ليس غير.

وهل أختم هذا الحديث دون أن أشير إلى ما تصور لنا هذه اليوميات من أصدقاء الكاتب وخصومه، وهم خلاصة الأدباء الفرنسيين وصفوتهم؛ ولكن هناك أشياء كثيرة جداً في هذه اليوميات لم أشر إليها، ولن أستطيع الإشارة إليها، إلا أن أطغى على غيري من الزملاء الذين يكتبون في « الثقافة »، كما فعلت في الأسبوع الماضي، آسفاً معتذراً.

فلأقف عند هذا الحد؛ ولأسجل حزني حين أقرأ ما تتيح لي الأيام قراءته من الكتب الممتعة، فأود لو يشاركني المثقفون من المصريين فيما فيها من متاع؛ وأعجز عن تمكين كثير منهم من هذه المشاركة. ما أشد حاجتنا إلى الذين يقرأون ويلخصون للناس ما يقرأون، ويترجمون لهم بعض ما يقرأون.

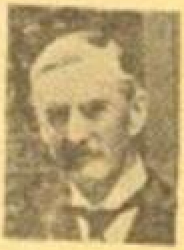
طه حسين

أنباء وآراء

ما هو الغرض من الحرب ؟

ذلك هو السؤال الذي وجهته مجلة بكتشر بوست إلى فريق من رجال السياسة والأدب في إنجلترا ؛ ونشرت في ثلاثة أعداد متوالية إجابات الكثيرين منهم . وإننا لنورد هنا آراء بعض من أجابوا على هذا السؤال مبتدئين برجال السياسة .

يرى المستر تشمبرلين أن غاية هذه الحرب هو تخليص أوربا من الخوف الدائم ، والقلق الذي يسودها من اعتداآت الألمان المتوالية ، وذلك بمحق الهتلرية وتمكين الشعوب الأوربية من أن تعيش متمتعة بحريتها واستقلالها .



مستر تشمبرلين

ويشاركه هذا الرأي المستر دف كوبر وزير حربية إنجلترا الذي استقال عقب اتفاق ميونيخ ؛ إلا أنه يزيد على ذلك أن الغاية الثانية من هذه الحرب يجب أن تكون وضع نظام ثابت يكفل لأوربا السلام ، ويشترط أن تشترك ألمانيا نفسها في تطبيق هذا النظام بعد أن يمهد للشعب الألماني سبيل التمتع بحكومة منظمة تستطيع أن تمنحه الثقة في مستقبله .

أما المستر لويد جورج فيرى أن الغرض الأول من هذه الحرب هو تحرير الشعبين البولندي والتشيكوسلوفاكي ، على أن رأيي ألا نرغم على الدخول في نطاق هذين الشعبين عند تحريرهما أجناس لا تميل إلى الدخول في هذين الشعبين ، حتى لا يفتح مرة أخرى باب الاستفتاآت المضحكة . ولا يقف غرضنا من الحرب عند هذا الحد ، بل يجب علينا نحن إذا ما انتهت الحرب أن نقوم بتضحية أخرى ؛ فلن يعني انتهاء الحرب دوام السلم ، إلا إذا جعلنا نصب أعيننا تخفيض التسليح إلى الحد الذي لا يتعارض مع حفظ النظام والأمن ، فذلك التخفيض أمر ضروري لا بد منه لتعويد الناس حب السلام ، ولا بد إلى جانبه من جهد آخر ، هو بث روح الاخاء بين الشعوب ، بجعل الأساس الوحيد في التشريعات والقوانين سعادة الجنس البشري ، لا المحافظة على القوميات والعناية بشعوبنا فقط .

أما رجال الأدب والفكر الذين أجابوا على هذا السؤال فهم : ويلز ، وبرنارد شو ، وبريستلي ، ومستر لندساي عميد كلية باليدل بأكسفورد .

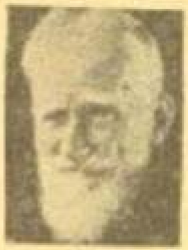


ه . ج . ويلز

فالأول ه . ج . ويلز — يرى أن غاية الحرب لا يجب أن تقتصر على هزيمة ألمانيا وعقد مؤتمر يمنح بولندا وتشيكوسلوفاكيا وغيرهما من الدول التي عرضت لاعتداآت ألمانيا استقلالا ؛ ولا يجب أن يكون وضع خريطة جديدة لأوربا تمليها روح النصر . وإنما يجب أن تشمل معالجة مشكلتين : أولاهما مشكلة السكان والثروة ، والثانية هي مشكلة القوميات ؛ فالحرب إذا انتهت دون أن تأتي بحل لهاتين المشكلتين ستكون الكلمة التي تقال بعدها هي : « لابد من حرب جديدة تنهي هذه الحرب » . وعلى ذلك فويلز يرى أن المسألة ليست مسألة القضاء على هتلر ، وإنما هي التمهيد لكي تفهم الشعوب شيئاً جديداً بدل

القومية ، وهو العالمية ، ولكي يتم ذلك لا بد من إعادة النظر من جديد في النظم الاقتصادية وطرق الاستثمار . وهو يعتقد بأن المأساة الحالية كفيلة بأن تدفع الشعوب إلى تقبل هذا الفهم الجديد للعالم ، وكفيلة بأن تجعل الساسة يفكرون في إعادة النظر في النظم الاقتصادية .

أما برنارد شو فإنه أجاب على هذا السؤال على طريقته التهكمية ، فعرض بكل ما وراء الناس غرضاً للحرب قائلاً : إن هتلر لم يتم ولم يعلُ شأنه لأنه عظيم ، وإنما لأن فريقاً من الساسة في فرساي مهدوا له الطريق ، فإذا كان لهذه الحرب غاية ، فلا يجب أن تكون القضاء على هتلر كما قامت الحرب الماضية للقضاء على غليوم ، لأن الأيام عودتنا أن مثل هذا الغرض يمهد السبيل دائماً لحرب أخرى . وإنما يجب أن يكون الغرض من الحرب هو إقامة السلام مع ألمانيا نفسها قبل أن يكون مع أي دولة أخرى . ويجب حين توضع قواعد هذا السلام أن يكون الهدف منها معاونة المغلوب على أن يعيش .



برنارد شو

ويتفق مستر بريستلي الكاتب المعروف مع ويلز في رأيه من ضرورة إقامة نظام عالمي يقوم على فكرة العالمية



ج . ب بريستلي

لا فكرة القومية ، ولكنه يصر مع ذلك على ضرورة تحطيم نزعة الاغتصاب والعدوان بالقضاء على الهتلرية قضاءً مبرماً .

ويتهكم الأستاذ لنسباى على تلك الألفاظ الرنانة التي ينادي بها ويلز وغيره من المفكرين . فالغرض الأول من الحرب في نظره هو القضاء نهائياً على النازية مع تجنب الأخطاء التي وقع فيها الساسة عام ١٩١٨ . أما فكرة « العالمية » و « أوربا الجديدة » و « القانون العالمي » ، فتلك كما يقول خرافات وجمل لا طائل تحتها ، نستطيع أن ندرك قيمتها حين نتذكر أن اليابان تحارب الصين الآن تحت ستار أحد هذه المبادئ ، وهو « تقرير السلام ووضع نظام دائم قائم على أسس العدالة والمدنية » . والطريق الوحيد لجعل هذه الجمل ذات قيمة ليس هو المناداة بها ووضعها في سوق النظريات ليتخير منها كل معتقد ما يروقه ، وإنما هو القضاء على نزعات العدوان والاغتصاب ، فتنشأ فكرة هذه الجمل في نفوس الشعوب قبل أن توضع في الكتب سلاحاً للمهوسين من المقامرين .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

فى عالم التأليف :

النثر الموسيقى

« البلبل » تأليف حسين عفيف

من أظهر ما تمخضت عنه حركة التجديد فى الأدب ظهور أسلوب جديد فيه موسيقية الشعر ، ولكنه متحرر من القيود والأوزان ، فهو فى تحرره هذا يشبه النثر ، ولكن تسيطر عليه موسيقى تنظم شطوره وتتجاوب فى ثناياه . وقد أطلق عليه أحياناً النثر الشعرى ، وأحياناً الشعر المنثور . وفى تسميته « بالنثر الموسيقى » مطابقة لحقيقته ومجانبة لاضطراب التسمية .

وقد امتاز أسلوب الأستاذ « عفيف » فى كتبه — وهذا هو الخامس منها — بموسيقية تجعله صاحب طريقة خاصة فى الكتابة ، فتشعر وأنت تطالعه بجو تشيع فيه نفحات الشاعرية ، وشذى الزهور ، ويعبق بسحر الحب . والأستاذ عفيف شاعر يحملك على أجنحة خياله الرقيق ، ويطوف بك فى دنيا حافلة بألوان الجمال . الجمال الذى يؤمن به ويعيش من أجله ، هذا الإيمان يأسر القارئ فى دنيا عفيف ، فيحس وهو يطالعه وكأنما يعيش معه فى دنياه ، يتنقل بين الزهور والورود ، والحقول والخمائل ، يسمع أغاريد الطير ، ويشاهد جمال العذارى . وقد استولى المؤلف على القارئ بسحره وفنه ، فيشعر هذا وكأنما اندمج مع الشاعر تماماً ، حتى ليشاركه إحساسه ويقاسمه البسمات والأشجان ، واسمعه يقول فى ص ١٦٦ « البلبل » :

إنى أنا من درجت على أن أعصر قلبى
كلما جلست فى الأشواق أكتب
فأخضب الصفحات أمامى بدمائه المهراقة
وإذا تفوح من دفقها رائحة الصدق
تقع على القلوب الوقع الحسن
ولسكب الدموع أنهاراً بين السطور
تحمل فيها ذوب نفس بشرية
يلمس جرحها جرح كل إنسان
أنقل اليوم إغانى
إلهاماً من نور يطفو فوق الورق
كما تطفو الأحلام على المقل المكحولة بالنعاس
تُرى وليست تُرى . . .

***

هذه النفحات الشعرية المعطرة تذكرنا بأجواء طاغور شاعر المنشد الكبير فى دواوينه « البستانى » و « جنى الثمار » و « جيتنجالى » ، استمع إلى عفيف يقول ص ١٩٢ :

الأيام ! . . . التى قدر لى أن أحياها شارفت النهاية .
هـذا أرغنى تتحشرج النغمات فيه ثم ترسب فى قاعه وكأنها غصة . والأكاليل ، التى نظمتها لى أيدى العذارى ، وعقدتها فوق مفرق فى الليالى المقمرة ، ذوت زهراتها وتهاوت .

فإليكم يا من أهديتمونى الزهور الحسان ، ولنفس أصفيتم كلما جلستم فى الخمائل تعاطون نديماً ، أو على شواطىء الأنهار تتشاكون الهوى ، أزجى وداعاً أبدياً .
وا أسفا ! قضى الأمر وانتهى زمن الترنم بالأغانى ، وحان للمنشد أن يعزف لحن الختام . . .

***

ولقد كنت أظن أن « عفيف » متأثر بطاغور حتى إنى فى إحدى مقابلاتى له أبديت له هذا الرأى بعد مطالعتى كتابين من مؤلفاته ؛ واشد ما كانت دهشتى حين علمت علم اليقين أنه حتى ذلك الوقت لم يقرأ أى كتاب لطاغور ! وأخيراً انكشف لى السر الذى حيرنى . فهذا الإيمان بالجمال وهذه الوداعة المتناهية والرقة المفرطة التى تتفق فى كثير من الوجوه مع طاغور سببها وجود تشابه (إلى حدٍّ ما) فى نظام المعيشة . فعفيف ليس ككثير من الشعراء .

شـاعر فقط حينما يكتب ، وفيما عـدا ذلك فهو إنسان كبقية الناس يعيش مثلهم ويحيا حياتهم ، لا يفترق عنهم إلا في لحظات الكتابة والإلهام . كلا . . . . بل هو شاعر في ليله ونهاره ، شاعر في صحوه وأحلامه ، شاعر حين لم يستطع أن يوفق بين دنياه « دنيا الشعر والجمال » وبين دنيا الناس ؛ فترك المحاماة ليخلص للشعر والأحلام ! وقد بلغ به التفاني في إيمانه برسالته أن ابتنى لنفسه في حديقة منزله كوخاً على حافة بحيرة صغيرة زرع بشاطئها الغاب والحلفاء ، وكل أثاثه في الكوخ قنديل صغير بضاء بالزيت وكومة من القش ملقاة على الأرض ينام عليها ... وهنا في هذا الكوخ العجيب (الصومعة) . قضى عفيف ثمانية أشهر معتزلا الناس لا تطأ قدماه عتبة المنزل! ...

والآن بعد أن ترك عزلته ليؤدي رسالته ها هو يقول : « الآن وقد غنيتُ أغنيتي التي هجرتُ مليًّا عزلتي من أجلها . وليتَ طلباً سألته عزيز ، إني إذاً لا إلى المحراب عائد» . وهكذا يعيش هذا الشاعر حياة للفن خالصة .

وأنت تقرأ « لعفيف » في كتبه الكثير من وصف حياة الكوخ والزعاة وشاطئ البحيرة وحياة الزهر والطير ، والدعوة للرجوع إلى كنف الطبيعة المجردة من بهرج المدنية ؛ وتعجب لهـذا الصدق في التصوير ، والدقة في الوصف وعمق الإيمان ؛ وما ذلك إلا لأنه يعبر عن دنيا عاش فيها ليس بخياله فقط ، بل بروحه وجسمه أيضاً .

الفكرة :

الفكرة عند عفيف نابعة للإحساس الشعري ، أو هي ظل له وصدى ، فهو يترك نفسه على سجيتها حتى تفيض بها الشاعرية ، فتسجل ما تسجل ، غير خاضعة لفكرة غير فكرتها هي ، أو مبدأ غير مبدئها ؛ وهو يتلخص في « الجمال والشعر والحب » . وأنت تستطيع أن تضع هذه الكلمات الثلاث عنواناً لكل كتب عفيف ؛ فهي شعاره الذي لا يحيد عنه . وعفيف ككل شاعر وفنان ، عليه أن يشدو ويدعو إلى المثل الأعلى الذي يتخيله ؛ وللناس أن يتبعوا طريقه أو يقفوا عند تذوق ما في شدوه من سحر ، وما في خياله من جمال !

الحب :

أول ما يلفت النظر في حديث عفيف عن الحب أنه محب متمرد ! ! فهو لا يعرف القناعة في الحب ، وله فيه فلسفة بوهيمية ! ولعل هذا لأنه لم يصادف بعدُ الروح التي تكافئ قوته وجبروته ، فتحتويه في طياتها احتواءً ، وتصهره في سعيرها ، فيتلاشى تماماً ، ويستحيل إلى بخور نماوى ؛ وقد تمنّى له صديقنا الشاعر « الصيرفي » حين تناول كتاب مناجاة منذ سنين أربع ، أن يوفق إلى هذه « الروح » ، ولكن عفيف وإن كان ربما أحياناً أنه عثر عليها إلا أنه سرعان ما يتمرد ! !

على أنه يقدم لنا ذلك البخور السماوي حين يقف أمام عروس خياله ، فيبدو كالطفل الصغير يتوسل أمام جبّار شديد (انظر المناجاة ص ١٢٤) .

أما حين يقف أمام حبيبة من بنات حواء ، فهو المجرب اللبق الذي يعرف رغبات الحس ، ويفهم ما تنطوي عليه نفسية المرأة .

وعفيف أمام الطبيعة صوفيٌّ متبتل ، وصلاته للفجر ص ١٥٩ من أبدع ما خطته براعة فنان ؛ ولا أريد أن أنقل منها شيئاً حتى لا أفقدها جلالها وروعتها . . .

إن من يريد أن يدخل دنيا عفيف ، فليدخل إليها بقلبه فقط ، فهو يكتب للجيل المتحرر ، الجيل الذي يطلب الفن للفن ، والذي اتسعت آفاق وجدانه وعرف أن في العالم آماداً تموج بآيات الفن الخالص الرفيع . على أنني آخذ عليه سأمه من الحياة ، وإن كان ما دهاه به القدر من مصائب — لاسيما في أخويه الشابين — لما ينوء بثقله جبار ! ولكن لماذا تطلب الموت ؟ كلا أيها البلبل الغرِد ، إن مجال العُمر أمامك لا يزال فسيحاً ، وإنا لننتظر منك الشيء الكثير .

محمد فهمي

الأفـــلام الاخبارية

هل يأتى يوم تحل فيه محل الجرائد اليومية وتعرض فى البيوت

بدلا من دور السينما ؟ — أحلام قديمة وحقائق جديدة

مضى أكثر من خمس وثلاثين سنة على تصوير أول فلم إخبارى بالسينما ، وقد كان موضوعه حادثة وقعت لاحدى السيدات فى أحد ميادين السباق المشهورة بانجلترا . وعند ما عرض هذا الفلم على الجمهور ، تنبأ كثيرون بمستقبل عجيب للأفلام الأخبارية .

ولعله مما يشوق القراء أن يطلعوا الآن على مدى ما كان يحلم به الناس فى ذلك الوقت من مستقبل للأفلام الأخبارية ، فبمقارنة هـذا الحلم الخيالى بما وصلت إليه الأفلام الأخبارية تحت تأثير القيود العملية للحيـاة فى الوقت الحاضر ، قد يتسنى لبعض القراء أن يتنبأوا بما يمكن أن تصل إليه حقيقة الأفلام الأخبارية .

زعم الناس فى أوائل عهدهم بالأفلام الأخبارية أن يوماً سيأتى تنتشر فيـه هذه الأفلام انتشار الكتب والجرائد والمجلات ، وقالوا إن صناعة هذه الأفلام ستتقدم وتنتظم ، بحيث تنشأ لها شركات كبيرة تقوم بتصوير أهم الحوادث العالمية بواسطة مندوبين مصورين موزعين فى كافة الأنحاء ، مهمتهم تلقى تعليمات مديرى تلك الشركات بالانتقال من مكان إلى مكان ، حيث توجـد حوادث وأخبار جديرة بالتصوير ، ثم عليهم إرسال ما قد يصورون من الحوادث والأخبار بأسرع الوسائل — ولعلهم لم يحلموا فى ذلك الوقت بامكان النقل الجوى ، وإلا لحددوا وسائل النقل فى أحلامهم تلك — إلى مقر الشركات التى ينتمون إليها ، فتقوم هذه الشركات بانتقاء المناظر اللائقة للعرض وترتبها وتطبع منها آلاف النسخ لتوزيعها على آلاف المشتركين ليروا بعرضها على الستار الفضى فى بيوتهم أو فى أنديتهم آخر الأنباء والحوادث العـالمية مصورة بالسينما .

وقد ذكروا فى ذلك الوقت أن الانسان يستطيع أن يبتاع نسخة من أى فلم اخبارى من باعة مختصين بهذا النوع من الجرائد السينمغرافية ليعود بها إلى منزله ؛ وبدلا من أن يطالعها كما يطالع صحيفة أو كتاباً مثلا ، فانه يعرضها بواسطة آلات صغيرة لعرض الأفلام . وأضافوا إلى ذلك فقالوا إن الكتب الأدبية ، والأوصاف الجغرافية ، وما إليها ، سيمكن تسجيلها على فيلم السينما ليقتنيها الهواة فى بيوتهم ، ويكوّنوا منها مكتبات للأفلام ، بدلاً من المكتبات العادية التى تحفظ بهـا الكتب المطبعية ؛ فاذا أراد الانسان أن يطلع على رواية أدبية ، فما عليـه إلا أن يسحب فيلمها من مكتبته الخاصة ويعرضه ، فيطّلع على حوادثها بالتفصيل ، بدلا من أن يتعب خياله فى تصورها ، أو يجهد فكره فى تخيل شخصياتها ... كل هذا كان حلماً من الأحلام التى تخيلها الانسان ، وتنبأ فيها بما يمكن أن تصل إليه الأفلام الاخبارية . بيـد أن الأيام أثبتت أن صناعة آلات العرض بالكثرة التى يتطلبها تحقيق مثل هذا الحلم غير ممكنة ، أولاً لارتفاع أسعار تلك الآلات حتى ليتعذر على الانسان العادى أن يقتنى واحدة منها ، فى حين أن أى إنسان يستطيع بسهولة أن يبتاع نسخة من جريدة

من الجرائد التي تطبع على الورق ، حيث يطلع فيها على أهم الحوادث والأخبار ، علاوة على البحوث المتنوعة التي تنشرها الجرائد عادة لرضاة قرائها ، ولخدمة المجتمع . كما أن طبع آلاف النسخ من الفيلم غير ممكن أيضاً لأسباب فنية عديدة ، وأسباب عملية أيضاً ، فضلا عن صعوبة النقل السريع ، وعدم انتظام التوزيع ، وما إلى ذلك مما لا يتسع المجال هنا لبيانه بالتفصيل . وكل ما أمكن تحقيقه من هذا هو إنشاء شركات كبيرة لصنع الأفلام الاخبارية في أوربا وفي أمريكا ، وقد أمكن هذه الشركات الاعتماد على عدد محدود من المندوبين الموزعين في أهم المناطق المركزية في العالم ، بحيث لا يقصر مندوب معين على مملكة معينة ، بل يمكنه عند اللزوم الانتقال من مملكة إلى المملكة المجاورة لها ؛ فالشرق الأدنى تتخذ معظم شركات الأفلام الاخبارية بلادنا مصر كمركز لمندوبيها ، فيقوم هؤلاء المندوبون بتصوير أهم الحوادث المصرية أولاً ؛ ثم إذا استدعى الحال أن ينتقلوا إلى فلسطين أو سوريا أو العراق أو إلى أية مملكة أخرى مجاورة لمصر ، فانهم لا يترددون من القيام في الحال إليها لتصوير الحوادث التي تستوجب سفرهم وتدعو إلى انتقالهم .

وهناك حقيقة أخرى ، فبدلا من أن يرى الناس الأفلام الاخبارية في بيوتهم كما كان يحلم الحالمون بمستقبلها منذ ٣٥ سنة أصبحوا يرونها الآن في دور سينما خاصة بها ، كما هو الحال في أوربا ، حيث توجد معارض خاصة بالأفلام الاخبارية وحدها ، يؤمها هواة من الناس ليطّلعوا على أهم الحوادث العالمية ، وآخر الأنباء كما تقلها السينما .

ولا ينكر أحد أن صناعة الأفلام الاخبارية قد تقدمت تقدماً عظيماً ، ولو أن هـذا التقدم لم يؤد إلى تحقيق الحلم الذي أشرنا إليه في صدر هذا الكلام ، فمن الضروريات لكل دار سينما في الوقت الحاضر أن تعرض مع برنامجها فلماً إخبارياً ، لأن الجمهور أصبح يحب هـذا النوع من الأفلام ، وإن كان لا يعتبره ضرورياً للغاية بحيث تخصص له دور سينما ، وبسبب هذه الحالة نظمت شركات الأفلام الاخبارية خدمات أسبوعية منظمة ، ترسل بها مئات النسخ من الأفلام الاخبارية المحتوية على آخر ما جاءها من مصوريها من أخبار العالم ، بحيث تعرض هذه الأفلام في كل الممالك تقريباً في وقت واحد ، مع فارق الوقت المناسب لبعد المسافة بين المملكة التي تعرض فيها هذه الأفلام وبين المملكة التي تصدرها .

غير أن المستقبل القريب كفيل بتحقيق ما أدخل على الحلم القديم من تعديلات ، فقد اخترع الراديو المرئي « التلفزيون » ، الذي يمكن بواسطته الاستماع والرؤية في وقت واحد ، ولا شك أنه بعد تحسين هـذا الاختراع وجعله في إمكان كل إنسان ، سيتسنى للجميع أن يسمعوا آخر الأنباء ، وأن يروا أهم الحوادث والمناظر على ستار « التلفزيون » ، بنفس السهولة التي تسمع بها أخبار العالم بالراديو في الوقت الحاضر . وإن المستقبل القريب لكفيل باظهار هذا الحلم إلى حيز العمل وتحقيقه ليكون أعجوبة هذا الزمن .

« كينو »

إنه في يوم الثلاثاء والسبت ٥و٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا في اليوم الأول بناحية الكوم الأحمر مركز امبابه جيزة وإن لم يتم البيع فى اليوم الثاني بسوق امبابه سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضري الحجز ملك ورثة المرحوم الشيخ أحمد علي تما بناحية الكوم الأحمر مركز امبابه جيزة نفاذا لحكم محكمة امبابه الأهلية رقم ٢٧٢٩ سنة ١٩٣٨ كطلب الست فائزة محمود علي ومحمد بك ابراهيم القيسيني بحطة الزين رقم ١٢ بالناصرية قسم السيدة زينب بمصر وفاء لمبلغ ٥١٤٠ قرشا صاغا خلاف رسم هذا وما يستجد فعلى راغب الشراء الحضور ١٠٧

إنه في يوم السبت ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٩ بناحية كفر سرنجا وفي يوم الأربعاء ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٩ بسوق ميت غمر العمومى سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك ظهرة على هجرس نفاذاً للحكم رقم ٣٥٦٠ سنة ١٩٣٩ ميت غمر ووفاء لمبلغ ٧٠٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب ابراهيم افندى الوتيدى من تلا فعلى راغب الشراء الحضور ١٠٨

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٩ — الثلاثاء ٢٤ شوال سنة ١٣٥٨ — ٥ ديسمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهـــرس

الصراع الاقتصـــادى

ابرز مظاهر الحرب الحالية

لمحرر «الثقافة» السياسى

امتاز الأسبوع المنصرم باشتداد حوادث الاعتداء البحرية التي تنظمها ألمانيا ، أولاً بواسطة الغواصات ، ثم بواسطة الألغام السائبة ، وغرقت من جرائها طائفة كبيرة من السفن ، ينتمى كثير منها لدول محايدة .

وهذه الحوادث أو الاعتداءات البحرية تكاد تكون ابرز ما فى الحرب القائمة بين الفريقين المتحاربين من مظاهر النضال والعنف ؛ فالهدوء الذى يسود الميدان الغربى لا تكاد تقطعه سوى بعض الحوادث والصادمات التافهة ، ونشاط الحرب الجوية يقتصر من الجانبين على حملات استكشافية صغيرة .

ولكن البحر يكاد يكون منذ نشوب الحرب وحده ميدان النضال الحقيق بين ألمانيا وبين انكلترا وفرنسا ،

وفى البحر وحده تقع ، منذ نشوب الحرب ، أعنف الحوادث ، التى ترتبت عليها خسائر تذكر فى السفن وفى الأرواح .

على أن هـذا الاعتداء البحرى الذى تشهره ألمانيا بوسائل وأساليب تنافى كل قانون وعرف دولى ، ويصيب شرها المحاربين والمحايدين على السواء ، ليس إلا مظهراً من مظاهر الحرب الحقيقية التى تضطرم بين الفريقين ، والتى تستغرق فى الواقع كل جهودهما فيما وراء ميادين القتال .

تلك هى الحرب الاقتصادية ، التى ترى إلى تحطيم موارد الخصم ، واستنفاد قواه ؛ والحرب الحاضرة ليست فى الواقع حرب المواقع العسكرية الضخمة مثلما كانت الحرب الكبرى ، بل هى قبل كل شىء حرب إنهاك وإفناء للقوى والموارد القومية ؛ ونية كل من الفريقين تتجه فيها أولاً إلى تحطيم موارد خصمه ، وإرغامه على استهلاكها ، وحرمانه من وسائل تجديدها أو تنميتها ، حتى تنفد وتفنى ، ويصبح عاجزاً عن متابعة الحرب .

ولما كانت ألمانيا ، بموقعها الجغرافى ، وظروفها الاقتصادية ، وضعف مواردها من المواد الأولية ، هى من الناحية الاقتصادية فى مركز أضعف بكثير من مركز انكلترا وفرنسا ، اللتين تسيطران على أملاك ومستعمرات شاسعة ، وعلى كميات هائلة من المواد الأولية ، فإن الحرب الاقتصادية التى تشهرها عليها الدولتان الحليفتان تعتبر من أهم وأخطر وجوه الصراع بين الفريقين المتحاربين .

ويمكن أن نجمل عناصر هـذه الحرب الاقتصادية فى كلمة واحدة : هى «الحصار» الذى ضربته بريطانيا العظمى وفرنسا منذ نشوب الحرب على ألمانيا ، والذى مكنته لها قواتهما البحرية الزاخرة ، وسيادتهما على الطرق البحرية ؛ فألمانيا فى الواقع تجد نفسها منذ نشوب الحرب محصورة من ناحية البحر ، والمواصلات البحرية فى نطاق حديدى لا يتسنى لها اختراقه ، ويحول بينها وبين أن تتلقى بطريق البحر (ما عدا بحر البلطيق) ما كانت تتلقاه من المواد الغذائية والأولية .

— ٢ —

ويتكون هذا الحصار الذى تفرضه انكلترا وفرنسا على ألمانيا من عنصرين أساسيين : أولهما قطع المواد الواردة إلى ألمانيا ، والثانى سحق الصادرات الألمانية .

فأما العنصر الأول ، فقد لبث وحده قوام الحصار منذ نشوب الحرب حتى أواخر نوفمبر . وذلك أن بريطانيا العظمى وفرنسا أعلنت كل منهما يومئذ قائمة بالمواد الأولية وغيرها ما تعتبره من المواد المهربة ، مما قد يفيد فى زيادة قوى العدو أو تحسين تموينه ، وترى منع تصديره إلى ألمانيا ، وفرض الأسطولان الانكليزى والفرنسى حق التفتيش على جميع السفن المحايدة المتجهة إلى ألمانيا أو إلى البلاد الساحلية المجاورة لها مثل هولنده وبلجيكا ودول الشمال ؛ وصودرت بهذه الوسيلة كميات عظيمة من المواد الأولية التى كانت مصدرة إلى ألمانيا ، واعتبرت غنائم حربية ، أما السفن التجارية الألمانية ، فقد استحال عليها بالطبع منذ نشوب الحرب أن تظهر فى عرض البحار ، ولجأ معظمها إلى الموانى المحايدة وأغرقت أو أسرت السفن التى اجترأت أن تغادر مراسيها .

وأما العنصر الثانى ، وهو العمل على سحق الصادرات الألمانية ، فهو رد إنكلترا وفرنسا على حملة الألغام الألمانية الأخيرة ، وما ترتب عليها من فتك بالسفن والأرواح ؛ ويتلخص فى أن الحكومتين البريطانية والفرنسية قررتا أن تعتبرا كل المواد والبضائع الصدرة من ألمانيا إلى البلاد المحايدة مهربات يجب ضبطها ، مهما كانت جنسية السفن التى تقوم بحملها ، وتنفيذ هذا القرار معناه القضاء التام على تجارة ألمانيا الخارجية فيما وراء البحار ؛ وخطورة

الآثار الاقتصادية التي يمكن أن تعانيها ألمانيا من جراء ذلك، تبدو جلياً متى ذكرنا أن ألمانيا ما زالت حتى بعد نشوب الحرب تقوم بمعاملات ومبادلات تجارية واسعة ضخمة مع الولايات المتحدة وجمهوريات أمريكا الجنوبية، وفي مقدمتها الأرجنتين والبرازيل؛ وتحصل في هذه البلاد مقابل صادراتها على معظم ما تحتاج إليه من المواد الأولية والنقود الأجنبية؛ فقطع مبادلاتها التجارية معها يصيب التجارة الخارجية الألمانية بضربة مميتة، ويحرمها في الوقت نفسه من الحصول على كثير من المواد الأولية والغذائية التي كانت تحصل عليها حتى بعد نشوب الحرب بطريق بعض البلاد المحايدة مثل إيطاليا، ويفقدها طائفة من الأسواق الخارجية الهامة، التي لم تحصل عليها إلا بعد جهود عظيمة.

والمعروف أن ألمانيا تعاني قبل نشوب الحرب بأعوام من مصاعبها الاقتصادية، وأن الجهود الهائلة التي بذلتها في التسليح، قد حطمت مواردها، وأنها لم تدخر وسيلة لاصلاح هذه الموارد باستعمال جميع الوسائل الاستثنائية الممكنة، والضغط على بعض الدول الضعيفة للحصول على بعض ما تحتاج إليه من المواد الأولية بطريق المقايضة مثل المجر ورومانيا، وليس من ريب في أن المسألة الاقتصادية كانت أيضاً من أهم العوامل التي دفعتها إلى الاتفاق مع روسيا، ولكن ما تستطيع الحصول عليه من روسيا بمقتضى هذا الاتفاق، لا يمكن أن يسد كثيراً من حاجاتها، فضلا عن أن روسيا لا تعطي إلا إذا أخذت؛ وعلى الصناعة الألمانية أن تعمل بالرغم من مهامها العسكرية الفادحة، لاخراج الآلات والمواد التي يجب أن تدفعها ألمانيا ثمناً لما تستورده من روسيا وغيرها من الدول التي تتعامل معها بطريق المقايضة، وهي الوسيلة الوحيدة التي يمكن لألمانيا الدفع بها بعد أن نضبت كل مواردها من الذهب والنقد الأجنبي.

— ٣ —

وقد قال أدولف هتلر في خطبه وتصريحاته غير مرة: «إن ألمانيا يجب أن تصدر أو تموت». وفي هذه العبارة تتمثل حقيقة المعركة الاقتصادية الهائلة التي ترغم ألمانيا اليوم على خوض غمارها.

فبينما تجد إنكلترا وفرنسا طرق البحار مفتوحة أمامهما، وبينما تسير تجارتهما الخارجية كما كانت دون خسائر تذكر، وبينما تسيطران في مستعمراتهما الشاسعة على موارد لا تنضب من المواد الأولية والغذائية، هذا فضلا عما تملكان من رصيد ضخم من الذهب والنقد الأجنبي مما يمكنهما من شراء كل ما تحتاجان إليه من الأسلحة والمواد الأولية التي تنقصهما — إذا بألمانيا تجد نفسها من جراء الحصار الاقتصادي المضروب عليها وقد سدت في وجهها جميع البحار، ولم يبق لديها مخارج لتجارتها سوى شرق أوربا وجنوبها، وانهارت أسس تجارتها الخارجية، وأضحت مهددة بعجزها عن الحصول على ما تحتاج إليه من الأطعمة والمواد الأولية؛ ولعلنا نجد أسطع إيضاح لما يعانيه الاقتصاد الألماني من جراء الحصار الاقتصادي، فيما يعانيه الشعب الألماني من نقص شنيع في جرايات الأغذية والملابس وجميع ضرورات الحياة منذ نشوب الحرب، وهي حالة ليس من شأنها أن تعاونه على الاحتفاظ بقواه المعنوية طويلاً.

وقد كانت حرب الغواصات أول سلاح ردت به ألمانيا على الحصار الاقتصادي، فلما خبت حدته لأسابيع قلائل فقط أمام الجهود التي بذلتها انكلترا وفرنسا لمقاومته، عمدت ألمانيا إلى بث الألغام السائبة والمغناطيسية بكثرة ودون تحرز في مياه بحر الشمال الانكليزية، وترتب على ذلك الفتك بطائفة كبيرة من السفن التجارية من مختلف الجنسيات، وهلاك كثير من الأبرياء دون تحوط أو تمييز.

وترى ألمانيا بهذه المحاولات المثيرة — التي هي أجدر بأن تسمى بالقرصنة البحرية منها بالحرب المشروعة لمخالفتها لجميع القوانين والمعاهدات الدولية التي أقرتها ألمانيا ذاتها — إلى أن ترد على الحصار البحري البريطاني الفرنسي بنوع من الحصار المعاكس للشواطئ الانكليزية ، وذلك بإرهاب الدول المحايدة وإرغامها على قطع تجارتها مع الجزر البريطانية اتقاء لما يصيب سفنها وأموالها من الهلاك إذا هي اقتربت من مياهها الخطرة ، وإرغام السفن البريطانية ذاتها على وقف سيرها ؛ وقد أخذت الدول المحايدة بالفعل تبدى قلقها من حوادث الألغام ، وقدم بعضها احتجاجات إلى الحكومة البريطانية على سياسة الحصار التي آثارت هذه الحوادث ، ولما أصاب سفنها ورعاياها من الخسائر ؛ بيد أن من الصعب أن نعتقد أن حوادث الألغام ، يمكن أن تحدث مثل هذا الأثر الذي تحلم ألمانيا المثيرة بإحداثه ، خصوصاً وقد بدأت السلطات البحرية الانكليزية بمكافحتها مكافحة ناجعة ، ولن يلبث أثرها أن ينهار ، كما حدث بالنسبة لحرب الغواصات من قبل . ويصعب علينا من باب أولى أن نتصور أن ألمانيا تستطيع بمثل هذه المحاولات الخاطفة المحدودة الذي أن تخرق الحصار الحديدي المضروب عليها ، والذي يشتد ضغطه الخانق عليها يوماً بعد يوم .

أما موقف الدول المحايدة التي وجهت احتجاجها إلى انكلترا فهي بالأخص الدول الصغرى المجاورة لألمانيا مثل هولندة وبلجيكا والسويد والنرويج ، ومن السهل أن نتصور الباعث لها على القيام بمثل هذا الاجراء الشكلي ، وهو العمل على إرضاء جارتها الخطرة ألمانيا .

وهذه المحاولة التي يبذلها هتلر لحصار الشواطئ البريطانية بواسطة الألغام ، وإرهاب الدول الأوربية حتى تكف عن المتاجرة مع بريطانيا العظمى ، تذكرنا بما حاوله نابليون من قبل ، حينما أصدر من برلين قراره الشهير (سنة ١٨٠٦) بإعلان الحصار على الجزر البريطانية ، ومصادرة جميع البضائع البريطانية ، وإرغام دول القارة التي تحت نفوذ فرنسا (وقد كانت معظم دول القارة تخضع يومئذ لهذا النفوذ) على قطع كل معاملة تجارية معها ، وبما ردت به بريطانيا العظمى يومئذ من إجراءات مماثلة ، وما انتهى إليه قرار برلين بعد ذلك من الفشل المطبق .

إن الاقتصاد عصب حرب اجتماعية كالتي نشهدها اليوم ، والعوامل الاقتصادية لا تقل في مفعولها عن العوامل العسكرية . بل ربما كانت في بعض الأحيان أبعد أثراً في مصاير الحرب من الوقائع العسكرية ذاتها ؛ ومهما قيل في مقدرة ألمانيا على المقاومة ، ومهما كانت الوسائل الفتاكة المؤقتة التي تلجأ إليها ، فان ذلك لا ينفي أن ألمانيا ، هي الفريق الأضعف في هذه الحرب الاقتصادية الهائلة التي تشهرها عليها انكلترا وفرنسا ومن ورائهما موارد امبراطوريتيهما الاستعماريتين العظيمتين .

ومن ثم كانت أهمية الزمن في هذا النضال ، والزمن بلا ريب مع أغنى الفريقين موارد ، وأقدرها على الكفاح الاقتصادي .

(* * *)

على هامش السيرة

شوق الحبيب إلى الحبيب

للدكتور طه حسين بك

وقف حارثة بن شراحيل ذات يوم على بعض غلمانه ، وقد انحدرت الشمس إلى مغربها مسرعة ، كأنما كانت تنهزم أمام هذا الليل الذى أقبل فى هدوء وجلال ، كأنه سيل من الظلمة الحالكة يغمر الصحراء والآكام قليلاً قليلا . فقال فى أناة لا تخلو من حدة : شبوا ناركم يا هؤلاء وأطعموها من جزل الحطب ويابسه ، فانى أراها منذ ليال خامدة هامدة ، لا يكاد يسطع لها لهب أو يرتفع لها سنا ؛ وأنتم ترون ظلمة الليل تغمر الأرض ، وظلمة السحاب تحجب السماء ، وما أرى إلا أننا نستقبل ليلة قاسية عاتية على من ركب الطريق ، وقد قل الطارقون لنا منذ حين ، وقد كنت أرجو أن يكون منزلنا هذا أمناً للخائف ، وهدى للجائر ، وخصباً للمجدبين . ثم تحول عنهم ومضى إلى نادى قومه . فقال بعض الغلمان : ويل للابل الرائحة ، إنا لنرى فى وجه مولانا شراً ، وما نظنها تمر به ثم تجوزه موفورة ، إن نفسه لتنازعه إلى قرى الضيف ، ولئن لم يطرقه ضيف ليضيفن من حضره من أهل الحى . قال قائل : فانى أعرف فى وجهه الملل والضيق منذ أيام ، وما أرى إلا أن غيبة زوجه وابنه قد طالت عليه ، ولولا أنه يصطنع الأناة ويحرص على الوقار ، لخف إليهما وتعجل عودتهما ، ولكنه يكره أن يقال غابت عنه سعدى شهراً فلم يستطع عنها صبراً ؛ ومن يدرى ؟ لعله حين أمرنا بأن نشب النار ليسطع لهبها ويمتد سناها ، إنما فكر فى سعدى وزيد ، وقدر أنهما يتجشمان إليه وعورة الطريق وظلمة الليل ، وريح الشمال هذه التى تلفح الوجوه ببردها الذى لا يطاق . فلتشب له النار ، ولترتفع من لهبها وسناها ما يخرق الظلمة ، ويهدى الجائر ، ويدعو إلى الأمن والدعة والقرى ، ولنا من هذا كله حظ مقسوم ونصيب موفور ، ولنا من رضى سيدنا غبطة ، ومن راحته بهجة وسرور . ولم يخطئ غلمان حارثة فيما أداروا بينهم من حديث ، فقد كان سيدهم منغص النهار ، مؤرق الليل ، موله الفؤاد ، مفرق النفس ، حين اتصلت غيبة زوجه عنه ؛ وكانت قد فارقته منذ شهر أو أكثر أو أقل ، لتزور قومها فى هذا الحى من طيء ، حيث يقيمون غير بعيد ، وإنما هى ثلاثة أيام تقطع فيها الابل أمداً من آماد الصحراء ، فتبلغ منازل طيء فى ظل الجبلين أجأ وسلمى . وكانت سعدى قد احتملت معها أصغر أبنائها زيداً ، وكان غلاماً يافعاً ، لم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره ، تريد أن تزيره أخواله ، وتصل بينه وبين صبية قومها وغلمانهم ؛ وقد شقت هذه الرحلة على زوجها حارثة ، ولو أطاع نفسه ، وأرسل طبعه على سجيته ، لأجل هذه الرحلة أشهراً ، حتى تتاح له المشاركة فيها ، ويأمن فراق آثر الناس عنده وأحبهم إليه . ولكنه لم يستطع ، ولم يرد أن يظهر نفسه ضيقاً رقيقاً ، فخلى بين امرأته وبين ما أرادت ، وتقدم إليها فى ألا تطيل المقام عند قومها ، وأن تعود قبل أن يتقدم الشتاء ، ويكثر هبوب الشمال . وقد أخذ يرتقب عودتها منذ أيام ، لا تكاد

تمضي ساعة من نهار أو من ليل ، حتى يمضي معها شطر من صبره وقسط من احتماله ، وحتى يشتد شوقه إلى زوجه ونزاع نفسه إلى ابنه ، وضيقه بالانتظار بين قومه من كلب . وكثيراً ما كان يخرج من خبائه حين يرتفع الضحى ، فيمضي أمامه حتى يبعد ، ثم يرقى ربوة فيقوم فيها مقام الربيئة ؛ إلا أنه لم يكن يرقب العدو أو يتحسس الخبر ، وإنما كان يرسل نظره في الصحراء ، يرجو أن ترفع له العير التي تحمل إليه سعدى وابنها زيداً . وكان إذا طال وقوفه على ربوته تلك ، وتقليبه نظره في وجوه الصحراء ، ظن بنفسه الظنون ، وأشفق أن يظن قومه به الظنون ، فعاد أدراجه ، كاظماً ما يجد من شوق ، كاتماً ما يحس من وجد ، شاغلاً نفسه أو متكلفاً شغلها بما يمكن أن يُشغَلَ به الأغنياء الموسرون من أهل البادية الوادعين الآمنين .

وكان كلما تقدم النهار يُقدِّر أن العير ستقبل عليه مع الليل ، فإذا أقبل الليل أشفق منه على هذه العير التي لم يكن يشك في أنها قد ركبت الطريق . وقد كتم على نفسه أحاديثها تلك ما استطاع ؛ ولكنه في تلك الليلة أحس الخوف يساوره ، والاشفاق ينازعه نزاعاً شديداً ، واحتفظ مع ذلك بشيء من أناة وفضل من وقار ، فتقدم إلى غلمانه في أن يشبوا نارها ويذكوها ، وقَدَّرَ في نفسه أنه سيستعين على ليله الطويل بإطعام الحي وإذاعة الكرم والجود فيه . حتى إذا كان الغد تقدم إلى ابنيه الشابين في أن يذهبا في الطريق إلى منازل طيء ، فإن أدركا العير عادا معها ، وإن لم يدركاها مضيا حتى يردا هذه النائية التي أسرفت في الغيبة ، وقَصَّرت في ذات الزوج والأبناء والبنات . وما كاد الرعيان يروحون بالإبل مع العَتَمة ، حتى نهض حارثة كأنه الجن ، وأومأ إلى ابنيه الشابين ، فتبعاه ومضوا حتى تخيّروا من هذه الإبل ناقة كوماء وجزوراً سميناً ، فعقروا ونحروا ، وأذّنوا في الحي أن هلمّ إلى الطعام واللهو . وقضى الحي ليلة خصب ولهو ودعة ، شبع فيها الجائع ، وطَعِم فيها البائس ، ولَهَا فيها المترف الميسور . ولكن الليل لم يكد ينقضي حتى سمع دعاء الطارق من بعيد ؛ ويسرع حارثة وابناه إلى الاستجابة لهذا الدعاء ، وما هي إلا ساعة حتى يقبل الضيف ، وإذا هم جماعة من شباب البدو وشياطين الصحراء ، قد شقّ عليهم الليل ، واشتدّ عليهم البرد ، وعصفت بهم الريح ، فاضطروا إلى الهدوء والراحة ، وقد كانوا يودون لو استطاعوا أن يمضوا في طريقهم ، حتى يبلغوا غايتهم من الغد أثناء النهار ، أو حين يشرف الليل .

ويتلقاهم حارثة وابناه لقاءً حسناً ، ويبلغونهم من الأمن والقِرَى السريع ما يشتهون ؛ حتى إذا أشرقت الشمس من غد ، ومضت الابل أن تمضي لمراعيها ، نهض حارثة وابناه فاستبقوا منها ما عقروا ونحروا ، ثم أذّنوا في الحي أن هلمّ إلى الطعام والقِرَى ؛ وإذا هم ينفقون نهاراً خصباً كما أنفقوا ليلة خصبة ؛ وقد وجد حارثة في كرمه وجوده عزاءً عن شوقه وسلوة عن وجده ، ورجوعاً إلى ما كان ينبغي لمثله من الصبر والحلم والوقار . وارتحل عنه ضيفه موفورين راضين ، واستأنف هو حياة هادئة بعض الهدوء ، راضية بعض الرضى ؛ ولكنها أيام تمضي وتتبعها أيام ، ولا يبلغه من أخبار النائية شيء ، حتى يشق الأمر عليه ، ويبلغ الجهد به ، وحتى يهمّ بالرحلة إلى منازل طيء ، لا يكتم ذلك ولا يخفيه ، وإنه ليستعد لهذه الرحلة ، وإذا نبأ يبلغه فيملأ قلبه جزعاً ويأساً ، فقد أغار نفر من صعاليك العرب وشياطين الصحراء على أطراف طيء ، فساقوا إبلاً ، واختطفوا صبية ، ومضوا قبل أن يبلغ الصريخ معظم الحي ، فانطلقوا إلى حيث لم تبلغهم الخيل ؛ على

أنها وجهت فى طلبهم كل وجه من وجوه الصحراء جميعاً .

وصور أنت لنفسك جزع ذلك الأب البائس ويأس تلك الأم النازح ، وما ألم بهذين الحيين فى طى ، وكلب من هـذا الحزن المغيظ الذى لا شفاء له ولا سبيل إلى إطفاء ناره بثأر أو انتقام ؟ وعند من يكون الثأر وممن يكون الانتقام ؟ وقد أغار المغيرون فانتهبوا واختطفوا ولم يدّعوا لحى من أحياء العرب ، ولم ينتسبوا لقبيلة من قبائل قحطان أو عدنان . ومتى ادّعى الصعاليك والخلعاء لحى أو قبيلة ؟ ومتى نهضت الأحياء والقبائل بجرائر الخلعاء والصعاليك ؟ ولكن أعواماً تمضى وحارثة يلقى من اللوعة والحسرة ما يلقى ، وسعدى تجاهد من اليأس والقنوط ما تجاهد ؛ ونفر من كلب يزورون مكة فى الموسم فيلقون عند المسجد شاباً قصيراً آدم أفطس الأنف ، يتوسمون فيه ملامح كلب ، ثم يسمعون له ويتحدثون إليه ، فما يشكون فى أنه كلبى ، وفى أنه من رهطهم الأدنين ، عرفوا لغته ثم نسبوه فعرفوا نسبه ، ثم سألوه عن قصته فأنبأهم بأن نفراً من الصعاليك اختطفوه مع جماعة من أترابه بنين وبنات ، ثم تفرقوا بهم ، وأقبل به خاطفه إلى سوق عكاظ فباعه من حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، وأداه حكيم هذا إلى عمته خديجة بنت خويلد الأسدية ، وأحسنت هذه العناية به والرعاية له ، حتى إذا تزوجت من الأمين محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب وهبته له فهو قائم على خدمته منذ أعوام .

وبهم هؤلاء النفر من كلب أن يسموا فى فدائه عند الأمين وأن يعودوا به على أمه البائسة وأبيه الملتاع ؛ ولكن الفتى يردهم عن ذلك أجمل الرد وأرفقه ، ويلح عليهم فى ألا يفعلوا ويحملهم إلى أبويه وعشيرته تحية فيها الحب والبر ، ولكن فيها الرضى بهذه الحال التى صار إليها والحرص على هذا المنزل الذى استقر فيه . ومن غريب ما قص الفتى على هذا النفر من كلب أنه لا يشك فى أن الذين اختطفوه قد كانوا حديثى عهد بأبيه ، طرقوه ذات ليل فتلقاهم لقاءً حسناً وتقدم فى قراهم وتزويدهم بخير ما أحبوا ، سمعهم الفتى يتحدثون بذلك ، ويثنون به على حارثة بن شراحيل ، وظن أنه إن انتسب لهم وعرفوا مكانه من حارثة ردّوه إليه ، فلما فعل لم يلق منهم إلا ظلماً وعسفاً وإنكاراً ؛ كذبوه وآذوه وظنوا به الخديعة والكيد .

ويعود هذا النفر من كلب إلى حيث ينزل قومهم فى طرف من أطراف الشام ، فيردون الأمن والهدو ، والغبطة والأمل إلى الأبوين البائسين اليائسين ؛ فإذا كان الموسم من قابل أقبل حارثة وأخوه كعب حاجّين وزارا مكة ، والتمسا الأمين فدلا عليه ، فيقولان : « يا ابن عبد الله يا ابن عبد المطلب يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سنرفع لك فى الفداء . قال : ما هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله (ص) : فهل لغير ذلك ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً . قالا : قد زدتنا على النصف وأحسنت . قال : فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . من هما ؟ قال : هذا أبى وهذا عمى . قال : فأنا من قد علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والأم . فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم . إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر . فقال : يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا ، فدعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام (١) » .

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ صفحة ٢٨ .

وقع حب هذا الفتى فى قلب الأمين وملأ حب الأمين قلب الفتى ؛ وإذا الأمين يعلو ذلك من نفسه ومن غلامه ، فيأبى الفداء ، ويخالف عما ألف الناس ؛ وإذا الفتى يخرج من هذه المحنة منتصراً على نفسه وعلى أواصر القربى ، وعلى ما ألف الناس من إيثار الحرية على الرق ومن إيثار الوطن على الغربة ، ومن إيثار الأهل على الأجانب فى الدار والنسب . ولكن الله قد أعد لزيد ألواناً أخرى من المحن وقرنها بألوان أخرى من الخير والكرامة . فهذا الأمين قد اتخذه له ابناً ، وزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب . وقد اختص الله أمين قريش بنبوته وائتمنه على وحيه ورسالته ، وإذا ابنه زيد أسرع الرجال استجابة له وانحيازاً إليه . وقد أخلص زيد فى صحبة مولاه وأبيه ونبيه ما أقاما فى مكة يحتملان من ألوان الأذى وصنوف المكروه ما يحتمل المسلمون ، ويصبران من الفتنة على ما صبر عليه الذين منحهم الله قلوباً جلدة ونفوساً حرة وإيماناً عميقاً ؛ حتى إذا أذن الله لنبيه والمؤمنين فى الهجرة ، هاجر زيد مع المهاجرين فآخى رسول الله بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب .

يجعله بهذا كله فرداً من أفراد الأسرة وواحداً من أهل البيت ، ويتحدث إليه بأنه مولاه وبأنه منه ومن قومه . ويشهد زيد معه بدراً ويشهد زيد معه أحداً ، ويغزو النبي فيخلف زيداً على أمر المدينة من ورائه ، ويقيم النبي فيخرج زيداً أميراً على سراياه وغزواته ، حتى تقول عائشة رحمها الله : « ما بعث النبي رسول الله (ص) زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده استخلفه [1] » .

ولكن لله فى عباده أمراً هو بالغه وإرادة هو ممضيها وحكمة هو حاملهم عليها . لقد كان المسلمون لا يدعون هذا الرجل إلا زيد بن محمد ، ولا ينظرون إليه إلا على أنه ابن نبيهم ، ومن أقرب الناس إليه وألصقهم به وآثرهم عنده ، وكان النبي نفسه يقول ذلك ويجهر به . ولكن الله يريد أن يلغى نظام التبنى هذا ، وأن يرد الناس إلى أنسابهم ، وأن يدعو الأبناء لآبائهم ؛ وإذا هو يمتحن فى ذلك نبيه ويمتحن فى ذلك زيداً ، ويمتحن فى ذلك المؤمنين الصادقين جميعاً . يلقى فى قلب النبي حب زينب زوج زيد ، ويلقى فى قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها .

وهذه نفس محمد مضطربة أشد الاضطراب ، ممتنعة أشد الامتناع ، واجمة أشد الوجوم ، ترفض هذا الحب رفضاً وتزور عنه ازوراراً ، وإذا هى تنكره حتى على نفسها ، ولكن الله يبدى ما تخفى ويعرف الناس ما تنكر ؛ وإذا زيد يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهاه ويزجره ويحذره ، ولكن الله بالغ أمره وممض إرادته ومتم حكمته .

وإذا زيد يطلق امرأته ، وإذا النبي يتزوج زينب ؛ ويقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض فى ذلك ما يقولون ؛ ولكن الحب الخالص بين زيد ومحمد يخرج من هذه المحنة المنيفة ظافراً منتصراً كأنقى وأصفى ما يكون ، وإذا الله ينزل فى هذه المحنة قرآناً ويسمى فيه زيداً فيقول : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا » . ثم يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليماً » . وقد تلقى المؤمنون الصادقون هذه المحنة كما كانوا يتلقون أمر الله كله راضين به مخلصين فى الرضى ، قد اطمأنت إليه قلوبهم ، وصفت له نفوسهم ، وصحت على إمضائه عزائمهم ، ووثقوا بأن الله قد اختار لهم فاختاروا لأنفسهم ما اختار لهم الله ،

(البقية على صفحة ٤٦)

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ صفحة ٣١ .

اقتراح

للأستاذ أحمد أمين

هذه وزارة الشؤون الاجتماعية بدأت حياتها تنظر في اختصاص الوزارات المختلفة ، وتستعرض أعمالها ؛ فما رأته يمس اختصاصها من قريب أو من بعيد طالبت به وسعت أن تضمه إلى اختصاصها ، وتستأثر به دونها ؛ فنجحت حيناً ولم تنجح حيناً ، طالبت بالفرقة القومية ، وطالبت بالسجون ، وطالبت بالملاجئ ، مما يطول شرحه . فأجيبت إلى بعض ، ورُدَّت عن بعض . فهل لها أن تصغي إليّ لأدلّها على عمل جديد مبتكر ، لم تلتفت إليه وزارة من الوزارات ، مع وضوحه وجلائه ، ومع الحاجة الشديدة إليه ، يغنيها عن أن تقف من الوزارات موقف السائل يحسن إليها مرة ، ويردها مرات ؟

وهذا الأستاذ توفيق الحكيم يكتب في الصحف والمجلات ، يعلن تارة أنه عدو المرأة ، وتارة أن ليس في مصر امرأة مثقفة ، ولا زوجة صالحة ؛ فيظن الساذج أنه يكره المرأة أشد الكراهية ، ولا يحب أن يراها ، ولا أن يسمع عنها ولا منها . ولو درسوا قليلاً من علم النفس لعلموا أن الإكثار من القول في الشيء — على أي نحو كان — دليل الاهتمام به ، سواء كان القول هجوماً أو دفاعاً ، وإعلاناً للحب أو للكراهية ، وللصداقة أو للعداوة ، وأن إعلان العداوة والكره والخصومة ليس إلا أسلوباً شيطانياً من أساليب الثاقة ، كالمرأة تصد لتصل ، وتكره لتحب ، وتمرض لتقبل ، وتبكي لتبسم ، وتشتد لتلين .

وها هو بحمد الله قد تولى منصباً خطيراً في وزارة الشؤون الاجتماعية « منصب الدعاية » ، والدعاية كما تكون للرجل تكون للمرأة ؛ والوزارة لم تنشأ لاصلاح الرجل دون المرأة ، ولو قد انشئت لاصلاح الرجل وحده لاضطرت إلى إصلاح المرأة كوسيلة لاصلاح الرجل ؛ فهل له كذلك أن يصغي إلى اقتراح يرضي رغبته الباطنة في الحديث عن المرأة وما يتصل بالمرأة ؟

* * *

هو اقتراح بسيط جداً وخطير جداً ، هو : إنشاء مدرسة اسمها « مدرسة الزوجات » ، فهو كفيل أن يلفت النظر إلى وزارة الشؤون الاجتماعية من جهة ، وهو أهم وسيلة من وسائل الدعاية من جهة أخرى ، وهو يحقق مصلحة من أكبر المصالح ، وحاجة من أهم الحاجات من جهة ثالثة .

وكل ما أخشاه أن يقول « المتفرنجون » إن أوربا لم تنشئ مدرسة كهذه ، وهي أعرق في الحضارة ، وأسبق إليها منا ؛ فكيف نجرؤ على ما لم تجرؤ هي عليه ؟

وهو قول مردود جداً ودليل على سخافة المنطق جداً ؛ فمتى كان مقياس الحق والباطل والصواب والخطأ هو عمل أوربا ، فما عملته فصواب ، وما لم تعمله فخطأ ؟ إن هذا منطق العجزة ، ومنطق الفقر العقلي ، وإن كان هو المنطق الذي نسير عليه في أكثر شؤوننا ؛ فالقانون الصحيح ما وضعته أوربا ، والتعليم الصحيح ما سارت عليه أوربا ، والدستور الصحيح ما سنته أوربا ، والبدع الجديد في الأزياء ما ابتدعته أوربا ، والقول الفاسد ما لم يقل في أوربا ، والنظام الفاسد ما لم تسر عليه أوربا ، وهكذا . فإن عرضت أمراً من الأمور أو نظرية من النظريات ،

فأسرع وقل إنه قال بهـا وسار عليها عَلَمٌ من أعلام أوربا ، أو دولة عظيمة من دول أوربا .

وقد كان علماؤنا رحمهم الله يقولون إن الأدلة أربعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ؛ ولكن هذا القول عقلية القرون الوسطى في الشرق ، أما في القرن العشرين فالأدلة خمسة : هذه الأربعة ، وعمل أوربا ؛ فإن أنت أخذت بحظ أوفر من المدنية فليست الأدلة خمسة ، وإنما هي واحدة تغني عن كل ما عداها ، وهي عمل أوربا ؛ فهي الكتاب وهي السنة وهي الإجماع وهي القياس .

ولكن — يا أخي — أرجو ألا تكون قد بلغت هذه الدرجة من المدنيـة ، فتصغي إلى اقتراحي « مدرسة الزوجات » ولو لم تعمله أوربا ؛ أليس من اقتراحي أن تتبع هذه المدرسة لوزارة الشؤون الاجتماعية ، وهذه الوزارة نفسها مبتكرة ، فلا أعلم دولة من دول أوربا لها وزارة بهذا الاسم ، فإذا كان الأصل مبتكراً فلم لا يكون الفرع مبتكراً ؟

على كل حال أريد أن تصغي إلى اقتراحي إلى النهاية ، وأنت حر بعدُ في قبوله ورفضه ؛ فقد نظرت فوجدت لكل شأن من الشؤون الاجتماعية مدرسة ؛ وجدت للحرب مدرسة ، وللبوليس مدرسة ، وللهندسة مدرسة ، وللقانون مدرسة الخ ؛ ووجدت للطبيبات مدرسة ، وللخدم مدرسة ، وللتراجمة مدرسة ؛ فقلت : أليس الزواج شأناً من الشؤون الاجتماعية ؟ فلم لا يكون له مدرسة كذلك ؟ بل إنه شأن الشؤون ، فلم لا تكون مدرسته مدرسة المدارس ؟ إن الزواج السعيد هو الذي ينجب الطفل السعيد ، فالرجل السعيد ؛ وهل الوزارات كلها ومنها وزارة الشؤون الاجتماعية إلا لإيجاد الإنسان السعيد ، فما بالنا ننشئ المدارس للفروع ونترك الأصل ؟

قال المتحذلقون : إنك لم تأت بجديد ، فقد سبقك بالفكرة وزارة المعارف ، فأنشأت مدارس الثقافة النسوية ومدارس التدبير المنزلي ؛ وهل تحتاج الزوجة لشيء غير الثقافة والتدبير ؟

قلت : نعم ، هذا كله ليس إلا مقدمة لمدرستي ، فالثقافة والتدبير ليسا إلا وسيلتين من وسائل ترقية البنت ، كالدراسة العامة في المدارس الثانوية للبنين والبنات قبل التخصص لشأن من الشؤون الاجتماعية .

قد كان يكون هذا صحيحاً لو أن فشل الزواج يعود فقط إلى أن المرأة غير مثقفة وغير مدبرة ، أما وهذه أقل أسباب الفشل ، فالمدرستان لا تكفيان .

وقد يكون بعض هذا صحيحاً ، لو أن من درست في مدرسة الثقافة كانت مثقفة حقاً ، ومن درست التدبير كانت مدبرة حقاً ؛ أما ودراسة الثقافة والتدبير في جانب ، والثقافة الحقة والتدبير الحق في جانب ، فالمدرستان أيضاً لا تكفيان ؛ ولو كان الأمر هيناً بهذا القدر ، لعددنا كل من درس الأخلاق في المدارس الثانوية ذا خلق كريم ، وكل من درس الاقتصاد في « الحقوق » مقتصداً ، وكل من درس الآداب في كلية الآداب أديباً ، وهكذا ؛ وقد عودتنا المدارس أن نرى الدروس فيها للامتحان ، وليست الدروس للحياة ، وأن الدراسة نوع من الزخرف أكثرها لا يمس جوهر العقل ولا جوهر القلب . فدراسة الثقافة النسوية والتدبير المنزلي لا تغني شيئاً عن مدرسة الزوجات .

إن أكبر سبب في فشل الزواج هو أن المرأة لا تنظر إلى الزواج نظرة جدية تتطلب واجبات وتحمّل أعباء ، فهي مطالَبة بتهيئة المنزل الصالح والمنزل السعيد والاستعداد للأمومة السعيدة ؛ ولكنها تنظر إلى الزواج على أنه لعبة وعلى أنه متعة ، وليس تعلّمُ إسعاد البيت وإسعاد الرجل مقصوراً على ثقافة المرأة ، ومعرفتها بالجغرافيا والتاريخ والحساب وأخذها دروساً في إمساك الدفاتر ؛ ففن الإسعاد وراء كل هذا وإن اعتمد بعض الاعتماد على هذا . إن

أكثر ما يفسد الزواج هو تصوره على أنه شعلة ملتهبة من اللذائذ التي لا حد لها ، فإذا تم ولم تلتهب هذه الشعلة أو خمدت — وهي لا بد أن تخمد — ضاع الأمل وفسدت الصورة الفنية البديعة التي رسمت قبل الزواج وأحس كلٌّ خيبة الأمل . أما تصوره على أنه واجبات وتبعات غايتها الأسعاد الدائم ، واللذائذ الهادئة الدائمة ، وتوزع العبء على الزوجين ، والتضحية المتبادلة للسعادة الدائمة ، فهذا هو ما ينتج الزواج السعيد ، وهو — أيضاً — جزء من برنامج مدرستنا .

إن وسائل السعادة من إجادة عزف على البيانو وثقافة علمية واسعة ومال يواجه الحاجات ونحو ذلك ، لا يصح أن تكون وسائل حقة إلا إذا عرفت الزوجة كيفية استخدامها ، وإلا فلا قيمة لها ؛ وهذا سر ما نرى من توفر الأسباب وفشل الزواج .

* * *

وإن من أكبر أسباب الفشل أيضاً عدم التوافق بين مزاجي الزوجين ، فقد يتزوج خمسة بخمس وكلهم فاشل ، فإذا أعيد التوزيع كان كلهم سعيداً ، ككتب خمسة بعضها في القانون وبعضها في الرياضة وبعضها في الأدب ؛ فلو أنك أعطيت القانوني كتاباً في الرياضة والرياضي كتاباً في القانون والطبيب كتاباً في الهندسة لشقي الجميع ، ولو أحسنت التوزيع لسعد الجميع .

والزواج الآن مهما أدخل عليه من التحسين نوع من « النصيب » لا نتيجة امتحان ودرس وتفكير ، وإنما يكون أسعد حالاً بقدر ما يقلل فيه من قدر « النصيب » ويزاد فيه من الاختيار ، وهذا أيضاً جزء من برنامج مدرستنا .

تسألني : ولماذا لم تجعل للأزواج مدرسة أيضاً ، فيكون هناك مدرسة للزوجات ومدرسة للأزواج ؟

وجوابي عن ذلك أنه لو كان لوزارة الشؤون الاجتماعية عدو الرجل ، كالأستاذ توفيق الحكيم عدو المرأة ، لاقترحت هذا الاقتراح .

وفوق ذلك فإني أعتقد أن مهمة الزواج خلق « البيت » ، و « البيت السعيد » من صنع المرأة أكثر منه من صنع الرجل ، فالبيت بمطبخه وترتيب أثاثه ونشر النظام والراحة والطمأنينة فيه من صنع المرأة ؛ فهي التي تحتاج إلى مدرسة تعلم فيها كل ذلك ؛ أما الرجل فكل مايطلب منه شيئان ، الكسب وحسن العشرة ، وطرق الكسب هي ما يتعلمه في مدرسة حرفته ، وحسن العشرة هو ما يتعلمه كإنسان . فإن كان إنساناً طيباً كان زوجاً طيباً ؛ أما المرأة فليس يكفي أن تكون إنساناً طيباً لتكون زوجة طيبة ، بل لا بد لها من « فن الزواج » وهو ما ستتعلمه في مدرستنا أيضاً .

* * *

تسألني بعد ذلك : وما برنامج المدرسة التفصيلي وما عدد الدروس ، وما عدد سني الدراسة ، وما مؤهلات الدخول في المدرسة ، وما الحدود التي ترسمها لاتصال من يريد الزواج بالمدرسة ؟ وهل تشترط فيها قدراً من الجمال أو القبح ؟ وكيف تحتاط حتى لا يتحول الطالبات من طالبات زواج إلى طالبات وظائف ؟ وهل تبيح الانتساب ؟ وهل تبيح الدراسة من الخارج ؟ وهل تعمل البرنامج وحدك أو تشكل لجنة ؟ وكيف تضع نظام الامتحان ؟ وهل تقول بنظام الملحق ؟ وهل تحكم على من رسبت بأنها لا تصلح زوجة ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا تنتهي .

فأجيب : إني أضن بوقتي أن أضيعه في مثل هذه التفاصيل قبل أن أسمع من وزارة الشؤون الاجتماعية رأيها في قبول هذا الاقتراح أو رفضه .

وإلى اللقاء . . .

أحمد أمين

لماذا نضحك ؟ ...

للأستاذ زكي نجيب محمود

لقد قال قائل في تعريف الانسان إنه حيوان ضاحك ، لأن الضحك ظاهرة تفرّد بها دون سائر الحيوان ، ولذا استحق أن يكون موضع بحث عند كثير من الفلاسفة وعلماء النفس ، وكان طبيعياً أن تختلف الآراء في تعليله .

ففريق من أصحاب النزعة المادية يزعمون لك أنه عملية جثمانية أرادت بها طبيعة الجسم أن تكون منصرفاً للطاقة الزائدة ، وأنه فوق ذلك نافع للرئتين ؛ فلا يرى هذا الفريق من الباحثين في الضحك معبراً عن شعور ، ويؤيدون وجهة نظرهم بما يحدث عند الدغدغة من انفجار في الضحك ، فهاهنا ترى مؤثراً جسدياً ، ينتج ظاهرة جسدية لا أكثر ولا أقل .

ولسنا نقصد في هذه الكلمة إلى ذلك التعليل المادي لظاهرة الضحك ، وإنما نريد أن نبسط أمام القارئ بسطاً سريعاً مختلف الآراء التي تنظر إلى الضحك على أنه ظاهرة نفسية يعبر بها الضاحك عن حالة عقلية ، فلماذا يضحك الضاحك ؟

أول الآراء أنه يضحك حين يرى ما يدل على التناقض بين عظمة الانسان في داخله ، وهوان أمره في خارجه . . إن الانسان ليشعر في دخيلة نفسه أنه عظيم لا يقاس إلى هذه الكائنات الحقيرة من حوله ، فأين هو من الحيوان الأعجم والصخر الأصم ؟ إنه مفكر شاعر مُريد ؛ أما سائر الكائنات فجبَرة مسيَّرة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، فأي غرابة في أن يتيه الانسان ويُزهى ، وأي عجب في أن يظن بنفسه العظمة والجلال بالقياس إلى سائر الأحياء والأشياء ؟ ! لكن الطبيعة الخبيثة قاسية لا ترحم ، فسرعان ما تصيبه في موضع عزته ، وتستخف به في مكان غروره ، كأنها تلقي عليه درساً أنه في رأيها كائن كسائر الكائنات ، فتراها حيناً تلقي به من شاهق كما تلقي بالحجر الصامت ، وتدفعه حيناً آخر بالغريزة دفعاً آلياً كما تدفع الحيوان الأبكم ! عندئذ يظهر التناقض حاداً شديداً بين الوهم والحقيقة ، بين ما ظنه الانسان بنفسه وبين ما ظلمته الطبيعة فيه ؛ ومن هذا التناقض بين داخل الانسان العظيم ، وخارجه المهين الصغير ينشأ الضحك . فأنت تضحك حين تشاهد الرجل المتأنق يزل فيهوي على الأرض ، ولكنك لا تضحك إن رأيت شجرة ساقطة أو حجراً هاوياً ، لأنك تعلم أن الشجرة أو الحجر ليس يختلج في باطنهما شعور بالعظمة يناقض ما أصابهما في البيئة الخارجية من صغار .

ورأي آخر — زعيمه هوبز — يعلل الضحك برغبة الانسان في السيادة والسيطرة ؛ فأنت مدفوع بغريزتك أن تسود وتعلو ، فيسرك أن تصادف ما يحقق لك ذلك السلطان ، ويحزنك أن تلاقي ما يحط من شأنك كائناً ما كان ؛ وكلما نهض لك الدليل على أنك متفوق في ثرائك أو في ذكائك أو في قوتك ، أثار ذلك من نفسك راحة وطمأنينة ، وكلما شهدت البرهان قائماً على أنك بين الناس قليل تافه أحسست كآبة وضيقاً . . . وأما هذه السيطرة التي تنشدها فقد تتحقق تارة بارتفاعك على أقرانك ، وطوراً بانخفاض أقرانك من دونك . ومن هنا كان الذي يصيب سواي من صنوف الزراية والتحقير ، يشيع السرور في نفسي ، لأنه يرضي غريزة متأصلة ، هي بين الغرائز من أقواها وأشدها فعلاً بالنفس ، بل لعلها أقواها جميعاً — كما ذهب نيتشة ، وارتأى من بعده أدلر — فإن أبصرت رَذَاذ الوحل يصيب الرجل الشامخ بأنفه ، والذي أخشى أن يكون أرفع مني منزلة ، أثار ذلك فيَّ الضحك ، مع

أني قد لا أضحك حين أرى ذلك بعينه يحـدث للعامل الأجير ، إذا كنت أدرك أنه ليس مني بالقرن المنافس ، وأشعر نحوه برقة غير منازعة .

ورأيٌ ثالث أخذ به كثيرون — من بينهم شوبنهور — يفسر علة الضحك بالانحراف عما يتوقعه الانسان من مجرى الحادثات أو من سياق الحديث انحرافاً فاجئاً مباغتاً . فإذا ارتفع ستار المسرح عن قرد ، وكنا نتوقع أن نرى إنساناً ، كان ذلك باعثاً قوياً على الضحك . وإذا رأيت شخصاً قد ارتدى من الملابس ما لا تنتظر أن يرتديه في زمان القابلة ومكانها ثار منك الضحك ؛ وهذا التعليل يفسر لنا سر الضحك من نكات كثيرة ؛ فالنكتة تضحك حين تنحرف بمنطق التفكير انحرافاً لا ينتظره السامع . انظر مثلا في أمثال هذه النكات : شوهد (جحا) مرة ، وقد امتطى حماره ، ووجهه إلى ذيل الحمار ، فسأله سائل عن هذا الوضع العجيب ، فأجابه في دهشة : لماذا تعجب وأنت لا تدرى إلى أين أعتزم السير ؟ وقيل لمدمن خمر : لماذا تشرب كل هذه الخمر مع أن ذلك انتحار بطىء ؟ فأجاب : ولماذا تريد أن أسرع في الانتحار ؟ . . وغير ذلك من هذا الضرب كثير .

ورأيٌ رابع — زعيمه برجسون — يرى أن مبعث الضحك انتكاس في مجرى التقدم والرقى . فمراحل التطور قد انتهت بالجماد إلى الكائنات الحية التي يقف الانسان عند ذروتها ؛ فإن رأينا إنساناً يتصرف بما يدل على رجعته إلى مرحلة الجماد ، أثار ذلك الضحك ؛ فأنت حين ترى السائر يقع في الطريق يتدحرج كما يحدث لقطعة الحجر ، ارتسم في ذهنك الشبه بينه وبين الصخرة الجامدة في خضوعها لقانون الجاذبية ، فتندفع إلى الضحك . وهكذا في كل حالة من حالات الحياة إذا شابهت حالة آلية ؛ كأن تمشي الانسان مشية معينة تخلو من يسر الحركة الحية ونعومتها ؛ أو إذا رأينا صورة من الحياة ناقصة مشوهة ، فتلمح فيها نكوصاً في مجرى التقدم ، فإن ذلك يبعث الضحك ، مثال ذلك أن ترى قزماً شائهاً ، أو مخبولا يخلط في الحديث .

ومما لاحظه برجسون أن الضحك ظاهرة اجتماعية لا فردية ، أى أن الإنسان ما كان ليضحك لو كان يعيش في غير جماعة ، ولذا قلّت أن ترى أحداً يضحك وهو بمفرده ، وإن فعل كان سلوكه هذا موضع تعجب وتساؤل . فقد تجلس إلى جانب جماعة من المسافرين في القطار — مثلا — فيضحكون من نكتة قالها أحدهم ، فلا تشاطرهم في ضحكهم ، حتى وإن كانت النكتة بارعة تستدعي الضحك حقاً ، ولو كنت واحداً من جماعتهم لانفجرت ضاحكاً ؛ ولكنك لا تفعل ، أو تحاول ألا تفعل بكل وسائل الكبت ، لئلا تضع نفسك موضع السخرية إن ضحكت وحيداً . وما نقوله في الضحك قل مثله في البكاء — وإن يكن في حالة الضحك أشد — فقد سئل رجل وهو يستمع إلى واعظ في كنيسة ، وكان غريباً عابراً : لماذا لا تبكي وكل من حولك يبكون من فرط التأثر ؟ فأجاب : لست من أتباع هذه الكنيسة لأني غريب .

ويؤيد القول بأن الضحك ظاهرة اجتماعية ، أنه كلما ازداد النظارة في المسرح ، كانوا أسرع إلى الضحك مما يسمعون ؛ وجدير بنا أن نلاحظ في هذا الصدد أن كثيراً جداً من النكات لا يترجم من لغة إلى أخرى ، لأنه يشير إلى عادات القوم وأفكارهم ، أى إلى بعض ظواهر المجتمع .

ورأيٌ خامس مؤداه أن الضحك وسيلة يهوّن بها الإنسان على نفسه عبء الحاضر ، كما يدرّى بالنسيان كوارثَ الماضي ، ويستعين بالأمل المشرق على ظُلمة الغيب المجهول ؛ وليس للإنسان مُنصرَف ولا محيد عن هذه السُّبُل الثلاثة يخفف بها عنف الزمان وقسوته ، فلولا النسيان لازدحمت الذاكرة بفوادح الماضي ، حتى ينوء بحملها فلا يقوى على فكر أو عمل ؛ ولولا الأمل لاجتمعت مخاوف المستقبل ، فيرتد أمامها الإنسان جازعاً فازعاً ، ولولا الضحك نواجه به الحاضر لكان لنا من حادثاته ما يُنقض ظهورنا ويهدّ بناءنا هدّاً .

وقريب من هذا الرأي مذهبُ مكدوجل في تعليل الضحك ، إذ يقول فيه إنه وسيلة ابتكرتها الطبيعة لتنفي ما يشبه التوازن في نفسية الإنسان ؛ فهو مضطر بحكم اجتماعه بسائر الأفراد ، وبحكم ما غُرِزَ في جِبِلَّته من ميل نحو مشاركة غيره في أحزانه وهمومه ، أن يحمل كثيراً من مصائب الناس ؛ ولو كلّفه المجتمع بهذا العبء — دون تَحدُّ منه — لَقَدَحه وأبطأه ؛ فكان حتماً أن نضحك من غيرنا في المصائب الصغرى لنحزن معهم في الكوارث الكبرى ، فإذا خدش القط أصبع الطفل تارمنا الضحك ، أما إذا عضه كلب فهشم أصابعه تحرك في نفوسنا الحزن والأسف ؛ وإذا أصيب رجل في وجهه برذاذ من الوحل ضحكنا ؛ أما إذا أصابته شظايا قنبلة فعرضته للخطر ، حزنّا لموقفه ، وهكذا .

ورأيٌ سادس في تفسير الضحك أنه أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراده ؛ فقد تواضع الناس في كل جماعة على لون من السلوك لا يجوز للفرد أن يخرج عليه ، إلا إذا أراد أن يضع نفسه موضع الضحك المتصل والسخرية اللاذعة ، حتى يرتد إلى حظيرة المجتمع . فقد اصطلح المصريون — مثلا — على أن يكون (زر الطربوش) إلى وراء ، فإن عكست الوضع فدليته فوق جبهتك ، ضحك الناس منك إلى أن تعود إلى الصواب . وكم من شاب شهدناه يعود إلى أرض الوطن من بلد أوربي ، وهو يشتعل حماسة إلى تبديل جانب من سلوكه المصري القديم ، فما هي إلا أن تنصبّ على رأسه النكات صباً حتى يرتد إلى مصريته من جديد .

تلك أجدر الآراء التي قيلت في تعليل هذه الظاهرة الإنسانية التي يعبر بها الناس عن سرورهم ، وقد عرضناها عرضاً سريعاً ، وأرجو أن يكون مفيداً .

زكي نجيب محمود

كليوبتره المظلومة

على ذكر تمثيل «مصرع كليوبتره» على مسرح دار الأوبرا الملكية

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ومن العجيب أن يجرؤ مثلى من الرعايا المصريين على أن يتكلم بلهجة الرثاء عن الملكة العظيمة ، التى طالما ارتجت مصر لمقياها : الملكة الإلهية (إزيس) ابنة الشمس ، كليوبتره !

ولكن الملكة العظيمة جديرة بالرثاء والعطف ، لما أصابها من الظلم جيلاً بعد جيل . ظلمها القدر فى حياتها ، فكدس عليها الشدائد والمحن حتى ذهبت فى اليأس إلى الموت ساعية سعياً حثيثاً ، وقتلت نفسها قبل أن يهبط التاج عن مفرقها . ثم ظلمها الروم الفاتحون ، فلوثوا اسمها ، ودنسوا ذكراها ، واختلقوا عليها ما شاءت لهم العداوة من صفات الخبث والدهاء ، والقسوة والفجور . ثم ذهب الرومان وحلت فى أرضهم أمم أخرى ، ولكن قصصهم بقيت فى الصحف تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل ، وبقيت المثالب التى ألصقوها بذكرى الملكة المصرية تتلقفها العامة طبقة بعد طبقة ، حتى صار اسمها علماً على المرأة الخليعة الماكرة القاسية .

ولكن التاريخ لم يغفل كلمة الصدق ، ولم يضن على كليوبتره فى صحائفه بذكر حقيقتها لمن أراد الانصاف . فى استطاعة الباحث دائماً أن يراجع ويقارن ويناقش ، حتى يصل إلى الصورة الحقيقية لتلك المرأة العجيبة التى كانت خاتمة الملوك فى مصر القديمة . وقد فطن العالم اليوم إلى كثير من الحقيقة ، وأخذ يردُّ إليها كما يقولون اعتبارها ، وأخذت (كليوبتره) تحل فى مكانها الجدير بها بين أشخاص التاريخ غير خجلة ولا ناضبة .

ولم يكن ظلم كليوبتره مقصوراً على أعدائها ، بل شارك فى ذلك طائفة من الأدباء والشعراء ، رأوا فيما تداوله الناس عنها من القصص العجيبة الشاذة مجالاً فسيحاً لخيالهم ، فلم يتورعوا عن المشاركة فى طعنها وتجريحها وتصورها ملكة فاتكة ، ماجنة متهتكة ، ماكرة قاسية ، تستغل حسنها وسحر جمالها فى الغواية وإشباع أطماعها وشهواتها . فما تكاد تخلو لغة من لغات الأمم المتحضرة من قصص أو قصائد بالغت فى وصفها بمثل هذه الأوصاف ، ولم يشذ عن ذلك إلا أفراد قلائل من كبار الأدباء ، كالشاعر الانجليزى الأعظم شكسبير ، فانه كتب عنها آية من آيات الأدب الانجليزى الخالدة ، وهى رواية «أنطون وكليوبتره» ، فبلغ فيها القمَّة من الاجادة والابداع مع القصد والعدل . وإنه لمن الواجب علينا أن نعترف بأن عبقرية ذلك الشاعر الانجليزى قد أبت عليه أن يصور الملكة المصرية فى صورة مُزرية ، وكأن إلهام نبوغه قد مكنه من اختراق حجب الأوهام والأكاذيب ، وجعله يصل إلى الحقيقة بنفوذ قلبه الذكى .

ولم تخلُ العربية من ذكر كليوبتره ، فقد ألف شاعرنا العظيم شوقى قصة شعرية عنها ، وهى «مصرع كليوبتره» ، مثلت على المسارح المصرية غير مرة ، وظهرت أخيراً على مسرح الأوبرا الملكية ، إذ أخرجتها الفرقة القومية منذ أسابيع قليلة .

ولقد رأينا القصة الممثلة كما رآها الناس ، وقرأناها من قبل أن تمثل كما قرأها الناس ، وهي قصة قبل إنها تاريخية قبل كل شيء . ألفها الشاعر المصري الكبير ليحيي بها كليوبترة ، وأخرجتها الفرقة القومية لتبرز فيها صورة كليوبترة ؛ ولكنا لا نستطيع أن نكتم أنا منذ قرأناها ؛ ومنذ رأيناها ممثلة ، شعرنا بالفرق الذي بين صورتها المصرية ، وبين صورتها التي أحياها الشاعر الانجليزي ، كما شعرنا بالبون الكبير الذي يفصل بين شخص كليوبترة الذي خلقه شوقي ، وبين شخص كليوبترة الذي احتوته صحائف التاريخ العادلة ؛ فعادت إلينا ذكرى ذلك الظلم الذي أنزلته المقادير بالملكة العظيمة في حياتها ، وذلك الظلم الذي أوقعه بها حقد أعدائها في دعاياتهم التي بثوها للزراية بها والحط من قدرها ، أو تلك القصص والقصائد التي ألفها الأدباء عنها ، ولم يتورعوا فيها عن قذفها وتلويث سمعتها . ولم نملك عند ذلك أنفسنا من أن نحس لذعة ألم شديدة ، أن يكون شاعر مصر العظيم داعية من دعاة الظلم للملكة التي كان هو أولى من رعى حقها ، وأنصف في وصفها وتحرى حقائق التاريخ في تصويرها .

ولسنا هنا في سبيل التحدث عن شوقي الشاعر ؛ فلسنا ننكر أنه شاعر مصر الكبير ، الذي سما إلى مراتب الخلود في قصائده . ولسنا ننكر ماله من الفضل العظيم ، في فنون الخيال الرائع والمعنى السامي ، ولسنا نجحد أنه شاعر العاطفة الوثابة والقلب الكبير ، والبيان الساحر ، واللفظ اللؤلؤي العذب . لسنا ننكر ذلك كله ، ولسنا نستطيع انكاره ، فهذا ديوانه بين أيدينا ينطق بما له من فضل وعظمة

ولكنه ألف في كليوبترة رواية ، وجعلها كما يبنى رواية تاريخية ؛ فإذا نحن قرأنا هذه الرواية أو رأيناها ممثلة ، لم نكن حيال قصائد من الشعر ، بل حيال قصة تاريخية ، قوامها خلق الأشخاص خلقاً طبيعياً حياً ، وتحريك هؤلاء الأشخاص في ميدان من ميادين التاريخ ، الذي لا يصح فيه التبديل ، ولا يُقبل فيه الافتعال أو المسخ والتغيير .

وقصة « مصرع كليوبترة » على هذا الوضع ذات جانبين متباينين . فأما شعرها فشعر شوقي ، ويكفي أن نقول إنه شعر شوقي ، لم ينزل فيه عن سموه ، ولم يتزحزح عن روعته وحلاوته . وأما أشخاصها وحقائقها ، فلها شأن آخر نرجو أن نبينه بالإشارة والتمثيل ، وإن كان المجال لا يتسع للافاضة والاستيعاب . وسنكتفي بذكر بعض أمثلة من مخالفات شاعرنا لحقائق التاريخ في أمور صغيرة ، نرى أنه كان أولى به لو عُني بتحري الحق فيها ، إذ لا نجد حكمة لمخالفتها ، بل إن مخالفتها قد أذهبت كثيراً من قوة القصة وروعتها .

تبدأ قصة شوقي بعد الهزيمة التي ألحقها أكتاف الروماني بأسطول منافسيه الخطيرين انطون وكليوبترة ، عند أكتيوم في بلاد اليونان . وفي أول القصة تظهر كليوبترة مع وصيفتين ، سماهما الشاعر « شرميون » و « هيلانة » وجعل معهما قيصرون ابن كليوبترة من يوليوس قيصر ، وكان عند ذلك شاباً في السابعة عشرة من عمره . ونحن نعرف في التاريخ أنه كان لكليوبترة وصيفتان أثيرتان إحداهما (شرميون) والأخرى (إيراس) وقد ظلتا مخلصتين لها طول الحياة ، حتى ماتتا إلى جوارها عند موتها . ولسنا ندري لم عدل الشاعر عن مجاراة حقائق التاريخ هنا فأبدل (إيراس) بهيلانة ، ثم جعل (هيلانة) تحيا بعد أن كادت تموت مع سيدتها ، ثم جعلها تذهب مع حبيب لها لتتم معه بالحياة ، وهي ترى جثة مليكتها ملقاة تحت عينيها ، فأذهب بذلك التغيير أكبر الأثر للفاجعة الأخيرة ، وجعل ختام القصة

أشبه بتلك الهازل العامية التي لا تبلغ نهايتها إلا عند حادثة سعيدة من لقاء أو زواج . وهنا فرق واضح بين قصة شوقي وقصة شكسبير ، فإن الشاعر الانجليزي لم يستبح لنفسه مخالفة التاريخ في الوصيفتين ولم يمس ختام المأساة التاريخي بما يذهب بشيء من روعتها ، فجعل الوصيفتين تصحبان سيدتهما إلى الموت في قصته ، كما صحبتاها إلى الموت في حياتهما الأولى في صحائف التاريخ .

وأما قيصرون فله قصة أخرى :

كانت كليوبترة لا تطمع في آخر حياتها إلا في أمر واحد ، جعلته محوراً لكل سياستها ، وذلك أن تمهد لبقاء الملك لولدها الحبيب قيصرون ، باذلة في سبيل ذلك كل ما في وسعها من جهد وحيلة . وأرادت أن ترشحه لوراثة الملك قبل أن تتحرج الأمور وتشتد الكروب ، فأقامت له احتفالاً عظيماً عند بلوغه سن السابعة عشرة مؤذنة ببلوغه سن الرشد السياسي ؛ وكان هذا الاحتفال آية باهرة من آيات بذخ الملكة ومجدها ؛ وشارك الشعب المصري فيه كعادته من مشاركة ملوكه في أفراحهم ؛ فكان الاحتفال اعترافاً عاماً بولاية قيصرون للعهد وترشيحه للملك . ولما انتهى ذلك الاحتفال في أول الربيع ، أسرعت الملكة فأرسلت ولي عهدها إلى مكان بعيد ، ليكون في مأمن من طوارئ الحروب ، واختارت له مدينة (برنيقه) على ساحل البحر الأحمر (قرب موضع القصير اليوم) ، وبعثت معه معلمه (رودون) ليكون له دليلا ومشيراً . وسافر قيصرون إلى تلك المدينة في أواخر مايو من عام ٣٠ قبل الميلاد ، أي قبل بدء المعارك التي ثارت حول الاسكندرية بين أنطون وأكتاف بنحو شهرين .

ولكن الشاعر شوقي جعل قيصرون يسير وراء أمه الملكة ، ويقابل الكاهن (أنوبيس) عند ما كانت الحرب على أبواب الاسكندرية ، وعند ما كان أنطونيو يعد عدة الدفاع عن العاصمة ، ويتوقع هجوم عدوه عليه . ولم يكن ذلك إلا في صيف ذلك العام ، أي في شهر يوليو من سنة ٣٠ قبل الميلاد ، وكان قيصرون عند ذلك بغير شك بعيداً في مقره على ساحل البحر الأحمر ، يتنسم أخبار الحوادث عن أمه بالاسكندرية .

ثم صور الشاعر كليوبترة وهي ترجو الكاهن (أنوبيس) أن يبارك ولدها . وقد سبق وصف حرصها على اعتراف الناس به ، واحتفالها الباهر ببلوغه سن الرشد ، وقلقها العظيم عليه من خوف حوادث الدهر ؛ ولكن الكاهن (أنوبيس) لم يبارك ولدها ، ولم يجبها ، ولم يعبأ بتوسلها ، بل قال (لنفسه) :

إيزيس كيف أسلى ... على ابن يوليوس قيصر
أبوه عال ولكن ... فرعون أعلى وأكبر

ومع ذلك فقد أغفلت الملكة أمر هذا العصيان ، ولم تظهر غضباً ، ولم تخاطب الكاهن بكلمة ، بل انصرفت انصرافاً عجيباً إلى ضجة سمعتها عند ذلك ، وجعلت تسأل من سرها ، وهل هي لها ، أم هي عليها . ثم علمت بسر الضجة ، وعرفت أنها صيحة الشعب وهو يرتل الأناشيد فرحاً بما ذاع بينه من نبأ انتصارها . ولكن الملكة التي كانت شديدة الحرص على بقاء هيبتها ، والتي كانت تعرف أن نبأ الهزيمة قد يحرض الشعب عليها ، ويغريه على الوثوب بها ، لم ترتح إلى هتاف الشعب لها ، وترتيله الأناشيد في تمجيدها ؛ فأقبلت على من حولها تظهر التألم من أن تذيع بين الشعب أنباء كاذبة عن انتصارها الموهوم ، وتتأسف أشد الأسف على أن شعبها قد انخدع عن علم حقيقة خذلانها وهزيمتها . وما نظن ملكة في مثل ذكاء كليوبترة ، وفي مثل موقفها الحرج تجزع من ذيوع مثل هذه الأنباء الكاذبة ، بل إن الذي ينبغي أن يزعجها

هو اطلاع الملأ على ضعفها وفشل أمرها .

والتاريخ يذكر لنا أن كليوبترة قد عمدت قصداً إلى إخفاء هزيمتها ، فأمرت برفع الأعلام ، وإضاءة الأنوار ، وإقامة الزينة فى أنحاء الاسكندرية ، لكي تظهر للناس أنها إنما عادت من أكتيوم بالنصر والتوفيق ، ولكي تبعد عنهم ظن انكسارها وغلبتها . والحق أن هذا الموقف العجيب الذى صوره شاعرنا يجعل الملكة تتحرك كأنها دمية جامدة تتكلف القول ولا تبين .

ثم يبدأ المنظر الثانى ، فاذا بالملكة فى قصرها والحرب دائرة فى ظاهر المدينة ، ومصير البلاد ومستقبل عرشها معلقان على نتيجة تلك الحرب الدائرة . ولكن الشاعر شوقى يجعل الملكة تفرغ من كل هذه الهموم الكبيرة ، لتجمع بين وصيفتها (هيلانه) وبين حبيبها (حابى) ، وتأتى بالكاهن (أنوبيس) الذى أبى أن يبارك ولدها ، لكي يبارك للحبيبين زواجهما ؛ ثم تنتبه إلى نفسها أخيراً ، فتذكر الحرب الدائرة فى خارج المدينة ، كأنما قد عاد إليها الوعى بعد سِنة من النسيان ، فتقول للكاهن :

أبى ، قد نسينا حديث القتال فمنذ الصباح تدور الرحى

كأن ذلك القتال الدائر ، لم يكن قتالاً يحكم فيه عليها وعلى دولتها إما بالحياة وإما بالموت ! ثم يمضى النهار ويعود أنطونيو من ميدان القتال ، بعد أن يوقع بعدوه أول الهزيمة ، وأراد أن يقضى ليلته فى الاسكندرية لكي يذهب فى الصباح الباكر لاستئناف الحرب لاتمام ما بدأ فيه من الايقاع بجيوش منافسه المخيف . ويذكر التاريخ أن أنطونيو أمر خدمه فى تلك الليلة بأن يجهزوا له وليمة عظيمة ، وأن يكثروا له فيها من الطيبات والخمر ، وكان فى تلك الليلة يحس فى نفسه انقباضاً وحزناً ، ولعله أراد بالخمر أن تفرج له كربته ، وتزيل عنه ضيقه . والتاريخ يخبرنا أن أنطونيو أظهر ذلك الحزن الدفين فى كلامه لأتباعه وأصحابه ، إذ قال لهم : « لا تضنوا بالخمر فى هذه الليلة ، فلعلكم فى الغد تكونون فى خدمة سيد غيرى ، أو أكون أنا فى الميدان صريعاً » .

ولم يخلُ حزنه وقوله من أن يعدى من حوله ، فأخذوا فى البكاء ، حتى أشفق أنطونيو عليهم من وقع كلامه ، وأخذ فى مواساتهم وإزالة ما أحدثه قوله من إيلامهم ، وجعل يحور معنى كلامه ، ويشرح لهم قصده الذى عناه منها ، وهو يتكلف الضحك والمرح .

فلم تكن مأدبة أنطونيو إذاً بالمأدبة الصاخبة الماجنة ، بل كانت أقرب إلى حفلة وداع يريد بها القائد العظيم أن يذوق آخر جرعة من مباهج الحياة ولذاذاتها . ولم تكن كليوبترة عند ذلك خلية مرحة ، بل كانت مشغولة مضطربة ، تتوقع ما يحمله لها الغد من حوادث جليلة ؛ وما كان أحراها أن تكون فى تلك الليلة موزعة القلب ، غارقة فى تذكر ولدها النازح وما يكون من أمره وما تخفى له الأقدار فى طياتها .

وكانت فوق ذلك كله كما يقول التاريخ زوجة شرعية لأنطونيو ؛ وكانت شديدة الأنفة والاعتزاز بمجدها ، تامة العقل ، وقد بلغت سن الثامنة والثلاثين ، ولها من الابناء خمسة ؛ وكانت معروفة بأنها لا تذهب مع الخمر إلى حد السكر ؛ حتى قال أعداؤها عنها إنها كانت تستعين بالسحر لكي تجعل الخمر لا تحدث فيها أثراً . ثم كانت ترى من أنطونيو وأعماله فى السنوات الأخيرة وسوء تصرفه أثناءها ما جعلها كثيرة المغاضبة له والخلاف معه . ولقد أحسنت استقباله بعد عودته من الحرب فى ذلك اليوم لكي تبعث فى نفسه القوة ؛ ولكنها لم تكن بعدُ بالمحبة الوالهة ولا الفتاة الغريرة التى جعلت كل نفسها للحب العنيف . ولئن كانت كذلك فى سن الشباب وأنطون فى كل قوة عقله وشخصيته ، فأنها لم تكن كذلك فى ذلك اليوم ، وقد تحول أنطون فصار

رجلاً غريب الأطوار ، مُدمِناً للخمر ، ضعيف الرأى خائر النفس .

لنذكر كل هذا قبل أن نرى كيف صور شاعرنا مأدبة تلك الليلة التى كان (أنطونيو) و (كليوبتره) ينتظران بعدها نهاية الحرب الفاصلة . ويجب ألا ننسى مخرج الفرقة القومية الذى أضاف ما أضاف إلى هذه الصورة حتى برزت فيها كليوبتره وأنطونيو فى ذلك الموقف العجيب :

يبدأ المنظر على قول أنطونيو يخاطب كليوبتره .

مرى بالكاس والطاس   وبالندمان يسقينا
وبالقصف وبالعزف   وحُذّاق المغنّينا
وما طيّبَ أوانا   وما طاب رياحينا الخ

إلى أن قال :

غداً نستأنف الحرب   ونطويها ميادينا

فيجيب (أنشو) الضحكة قائلا :

وننشاها مخامير   ونلقاها مجانينا

ثم تبدأ الحفلة الصاخبة ، ويأخذ أنطونيو على غير انتظار فى التحدث عن الحرب ، ويخاطب (أخيل) القائد فى شأن الاستعداد للغد وما يتوقعه فيه من حوادث ؛ فيجيبه أخيل على قوله مثله ، ويأخذان فى الاهتمام بأمور القتال ، فلا ترضى الملكة بهذا ، بل تخاطب أخيل قائلة :

أخيل دعنا من غد   إن غداً لم نرم
أخيل ما العيش سوى   ساعة صفو تغتنم
فلا تكن كباخل   على الندامى بلطم الخ

ويبدأ القصف والشرب ، وتأخذ كليوبتره فى محادثة من حولها من خدمها وحشمها حديثاً لا كلفة فيه ، تمزجه بالمزاح والدعابة والمجون ، ويجيء العرّاف فيقرأ لها كفّها ، ويجمل يثنى محاسنها ، وأنطون زوجها يضحك ويبدى سروره ، ثم يطلب العرّاف تقبيل يدها جزاءً له على خدمته ، فتسمح له بذلك ، ولكنه يتردد ، فيحضه أنطون على التقبيل ! ويستمر القصف فتقول كليوبتره :

يا عاعـيز هات النبيـذ
هات اسقنى واسق الحبيب
واسق الملا

ثم يطلب أنطونيو من الفتى أن يطربه بأغنية على لسان الملكة ، أو بشعر من تأليفها ، فيصدع الفتى بالأمر ، ويُغَنّى تلك القصيدة الثائرة المضطربة بأعنف الحب وأحمقه :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا   ما لروحينا عن الحب غنى

ولا ينتهى الغناء إلا بذلك البيت الذى يتنبأ بزوال الملك عن أنطونيو وزوال كليوبتره عن تاجها ! نعنى ذلك البيت :

هو أعلى الحب تاجى قيصر   لم لا أعلى الهوى تاجى منا

وكأن الأمر قد استقر فى قلب كليوبتره وسخت نفسها بزوال تاجى قيصر وتاجى منا فى سبيل غرامها العجيب من زوجها الذى طالما ذكر لنا التاريخ أنباء خلافها معه ، والذى قضى معها فى حياة الزوجية تلك السنين الطويلة .

أليس من العجيب أن تبذل كليوبتره ملكها بهذه السهولة ، وهى التى لم ترض بالحياة نفسها عند ما أيقنت بزوال ذلك الملك عنها ؟

ولما انتهى الاحتفال قامت كليوبتره . وأبى شوق إلا أن يجعلها سكرى تترنح « وتتعثر فى خليع غدارها » ، وهى التى عرف عنها أنها لم تسكر قط ، كما أشرنا من قبل ؛ ولما أراد أنطونيو أن يستأذن فى الذهاب للاستعداد للقتال ، ولأخذ نصيب من الراحة قبل استئناف الحرب فى الغد ، لم تجبه الملكة إلا بقولها :

مكانك قيصر لا تدعنى   ولا تبرح القصر أهلك أمنى

كأنها قد نسيت كل شيء من ملكها ومستقبلها ومستقبل ولدها وعرشها فى سبيل أن يكون أنطون قريباً منها ساعة أخرى . فالحق أننا لا نملك إلا أن نجهر

بالقول أن شاعرنا لم يقف عند مسخ التاريخ وتغيير حقائقه ؛ بل أخرج لنا صورة غير طبيعية ، لا يلتئم أولها مع آخرها ، ولا يبدو روح ولا انسجام فى حركاتها .

ثم استمرت الحرب فى اليوم التالى ، وحلت الهزيمة الطاحنة بأنطون ، وعاد إلى الإسكندرية مخذولا خائر النفس . ويقول لنا التاريخ إن الملكة قد بلغ منها اليأس عند ذلك مبلغاً عظيماً ، وعزمت على ترك العالم والاستعداد للموت ، فأسرعت إلى مقبرتها التى كانت قد أعدتها على مقربة من القصر ؛ وهناك حدثت لها الفاجعة الأخيرة ، فقتلت نفسها بالسم أو بلدغة الأفعى ، بعد أن كان أكتاف المنتصر قد أوقف حولها الحراس والجنود . ولكن شوقى أبى إلا أن يجعلها فى قصرها تقابل من تشاء وتتردد حيث تشاء ، وفى ذلك ذهاب بروعة الموقف ورهبته ؛ وكانت صورة الملكة بذلك بغير شك ، دون تلك الصورة المجيدة التى رسمها الشاعر الانجليزى شكسبير ، الذى لزم الحقيقة التاريخية وجعل ختام القصة بديعاً مناسباً لمأساة الملكة العظيمة .

هذا كله فى القصة ذاتها ، وأما مخرج الفرقة القومية فانه زاد فى إبتذال القصة ، وإضعاف أثر المأساة بأن أضاف من عنده زيادات إن دلت على شىء فانما تدل على أنه لم تكن عنده صورة تقرب من حقيقة الملكة ولا مأساتها ، وكأننا به قد أراد أن يخرج لنا صورة امرأة خليعة من تلك الفتيات اللاتى يمرحن فى الحانات بين أذرع طلاب اللهو من الماجنين ، وهى صورة لا تمت بسبب إلى ملكة مصر ذات التاجين ، سليلة الآلهة وابنة الشمس ، ووارثة عرش أجيال الملوك — تلك الملكة التى أبت أن تنزل من كبريائها وعزتها لأعظم عاهل منتصر فى العالم ، وآثرت الموت على حياة الذلة ، والتى كانت تمثل أعلى ما بلغته الثقافة فى مصرها ، وأسمى ما يمكن أن يبلغه الذكاء الانسانى فى طول الآباد .

محمد فريد أبو حديد

بلفاجور

قصة لمكيافللي — مترجمة عن الإنجليزية

قال الرجل الصالح يروى قصة ما رآه في إحدى الليالي حين كان مستغرقاً في العبادة :

أبدى فريق كبير من الأرواح المعذبة التي حكم عليها أن تهبط الجحيم تضرره من هذا الحكم ، وراح يجأر بالشكوى مما ناله من ظلم ، مدعياً أن المسئول عن خطاياه وما هو فيه من حال سيئ نساؤهم اللاتي خلفنهم على الأرض يلعبن ويمرحن .

ولما كان مينوس ورادامانتوس وغيرهما من قضاة الجحيم أحرص من أن يأخذوا هذا الاتهام الموجه إلى النساء على علاته دون تحقيق ، وكانت تلك الأرواح في الوقت نفسه لا تفتأ تثير الضجة وتقلق بشكايتها رَعة العدالة في نفوسهم ، فقد رفعوا الأمر إلى بلوتو إله الجحيم ، الذي رأى بدوره أن يدعو ذوى الأمر في مملكته ليبحث هذه الشكاية وتدبير الوسائل الكفيلة بإظهار ما فيها من حق أو باطل . فأقبل الجميع إلى دعوته ، حتى إذا اكتمل عقدهم وقف يحدثهم عن هذا الأمر قائلا :

— أيها الشياطين من ذوى الأمر في الجحيم ، لقد دعوتكم لأستعين بآرائكم في مشكلة قد تسبب — لو لم تعالج — بعض الاضطراب في حكومتي ؛ ولم أشأ وأنا صاحب الأمر في مملكتي ، ولى حق التصرف فيها كما أراه ، أن أنفرد بالرأى دونكم ؛ إن هؤلاء الرجال الذين تلقى إلينا بهم الحياة يوماً بعد يوم لا يزالون دائبين على الشكوى من جور الحكم عليهم ملقين تبعة ما ارتكبوا في الحياة من أوزار على زوجاتهم ، زاعمين أنهن أحق منهم بهذا النصيب من الآخرة ، وتلك شكاية لا نستطيع — إرضاءً للعدالة التي يمتاز بها عالمنا — أن نقطع برأى فيها دون تحرٍّ أو بحث ، فإن ذلك يعرضنا لتهمتي الإهمال والظلم ، وكلتاهما من أسوأ عيوب الحكومات .

لذلك دعوتكم لنتشاور في الوسائل التي نستطيع بها أن نعرف حقيقة ما يشكو منه هؤلاء الرجال حتى نستطيع أن نتجنب كل ظلم .

وبدأ المجلس بعد سماع هذا الخطاب يفكر في الأمر ، فكان من رأى فريق أن يرسل وفد إلى الحياة الدنيا على صور آدمية ، ليتحقق من هذه الاتهامات بنفسه ؛ ورأى فريق آخر أن الأمر لا يستدعى هذا المجهود ؛ وما على المجلس إلا أن يرغم بعض هذه الأرواح التي تشتكى على الاعتراف بالحقيقة بوسائل التعذيب والترغيب .

ولما كان الرأى الثاني يناقض العدالة والرأفة ، فقد مال المجلس إلى الرأى الأول ، وسرعان ما اتخذ قراراً بتنفيذه . واقتصاداً في النفقات والجهد رؤى أن يتألف هذا الوفد من شيطان واحد ينتخب بالاقتراع .

وأجريت القرعة ، فكان من نصيب بلفاجور ، أحد الشياطين الذين كانوا إلى أمد قصير ملائكة أطهاراً ثم حلت عليهم اللعنة ، أن يقوم بهذه المهمة ؛ فامتثل الشيطان لما قسم له ، وتلقى التعليمات اللازمة ، وزوِّد بما يكفيه من المال . ونصَّت التعليمات على أن يصعد إلى الحياة الدنيا ، فيتخذ سيرة أهلها ، ويندمج فيهم ، فيعيش كما يعيشون ، ويتصرف كما يتصرفون ، ويتزوج كما يتزوجون ، ويقضى عشرة أعوام على هذه الحال يدرس فيها حال الناس ، حتى إذا أمضى هذا الأجل ، عاد إلى الجحيم ، فقدم تقريراً بنتيجة بحثه مبيناً فيه ما وجد في الحياة — وما في الزوجية بنوع خاص — من متاعب وآلام ، أو مسرات ومباهج .

وحرص ذوو الأمر في الجحيم على أن يبينوا في ختام هذه التعليمات أن الشيطان الموفد إلى الأرض عليه أن يخضع خلال هذه المدة لكل ما يجرى على الجنس البشرى من صروف الأقدار من أمراض ومصائب وأفراح وأحزان، غير مستعين بأى سلاح من الأسلحة التى يختص بها الشياطين.

وأمضى بلفاجور تعهداً باتباع هذه التعليمات، ثم صعد إلى الأرض؛ وما لبث بما لديه من المال أن استطاع تأليف حاشية ضخمة من الأتباع والخدم تحيط به في مظهر من البذخ والفخامة، هبط بها فلورنسا التى اختارها لما سمع عنها من توفر أسباب السعادة والحياة فيها، فاستقبله أهلها أحسن استقبال ورحبوا به أجمل ترحيب.

ولما كان لا يقدر على إذاعة سر قدومه إلى الأرض، فقد زعم للأهلين أنه تاجر عظيم أثرى من تجارته في سوريا، وأقبل إلى فلورنسا ليتزوج من نسائها ويستقر بين أهلها ناشداً الراحة والهدوء.

ولم يطل الوقت على بلفاجور في فلورنسا حتى استطاع بما وصل إليه من مكانة ممتازة أن يتعرف إلى الأسر الكريمة في فلورنسا؛ وما لبث إلا قليلا حتى تزوج من أونستا ابنة السيد أميريجو دوناتى أحد أشراف الفلورنسيين الذى كان رغم فقره وكثرة أولاده يعيش عيشة يبدو عليها سمة من الترف والثراء في مسكن صغير أنيق.

وأقام بلفاجور عرساً فاخراً يتناسب مع ما يتظاهر به من الثراء؛ وسمح لنفسه — طبقاً للتعليمات — أن يحس مختلف الاحساسات التى يحس بها البشر من سرور وفرح؛ وخاض غمار الحياة الزوجية كأى إنسان؛ وما لبث حتى شعر فملأ بالحب نحو تلك الزوجة الجميلة، فلم يدخر وسعاً في إرضائها وتقديم كل ما تحتاج إليه من جواهر وملابس وطعام؛ وأضحى منزل السيد رود ريجو (وهو الاسم الذى اختاره في الحياة الأرضية) مضرب الأمثال في الفخامة والرواء والترف، وأصبحت السيدة أونستا حديث الناس من أهل فلورنسا لما تتحلى به من جواهر وما تقيم من سهرات رائعات.

وتوالت الأيام «ورود ريجو» ينفق عن سعة، وطلبات «أونستا» تنهال عليه فيحققها جميعها، من مطالب خاصة لها، إلى مساعدات يقدمها لأسرتها التى كانت تعانى إذ ذاك أشد الضيق، ولم يبق لها من مصدر للحياة إلا ما يقدمه رود ريجو لها من عون إرضاء لزوجته، حتى لقد جهز أكبر أبناء حميه بتجارة واسعة ليسافر بها إلى ليفانت، وجهز الثانى برأس مال كبير ليتاجر في الحرير في الغرب.

كان يفعل كل ذلك راضياً مرتاحاً مادام فيه رضا زوجته وراحتها. ولكنه أحس بعد قليل بأن زوجته تزداد تمرداً وجفاء، ولمس ذلك الحب الذى أظهرته أول الأمر يفتر يوماً بعد يوم، ويتحول إلى كراهية وضيق يدفعانها إلى خلق المشاجرات لأتفه الأسباب، ولمجرد تنغيص حياته، حتى لقد استحال المنزل إلى جحيم لا يطاق ولا تهدأ فيه الأصوات الصاخبة.

ومرت الأيام وأونستا تزداد وقاحة وتمرداً، وهو ممعن في الصبر والتجلد، وبلغ من خلقها أن الخدم لم يطيقوا البقاء في المنزل، فهربوا واحداً بعد الآخر، وتركوه وحيداً تحت رحمة قلبها الذى لا يعرف الرحمة، وبين خدم جدد لا يعرفهم ولا ميل إليهم، اختارتهم أونستا على مزاجها ووفق هواها.

وتهاوت صروح ماله واحداً بعد آخر، وأقبل عيد من أعياد فلورنسا يقام تكريماً للقديس يوحنا، ورغبت أونستا أن تحتفل بهذا العيد احتفالاً لم تر فلورنسا مثله، وأدلت برغبتها إلى رود ريجو الذى كان قد نفد كل ذهبه؛ فلم يجد منقذاً إلا أن يستدين اتكالاً على ماله من نصيب في تجارة أخويها في الشرق والغرب؛ وما لبث أن استمرأ سبيل الدين، وزينه له المرابون طامعين في أرباح تجارته الواسعة؛ ولم تشعر أونستا يوماً بما جرته على زوجها من

الفساد ، فتتلطف فى معاملته وتترفق به ، بل كانت على العكس لا تترك فرصة تمر دون أن ترهقه بطلباتها وتؤذيه بسبابها وبذاءتها ؛ حتى لقد فكر جدياً أكثر من مرة أن يفر من الأرض ويعود إلى الجحيم متخلياً عن المهمة الملقاة على عاتقه ، ولكن عقابه كائناً ما كان ، فهو أخف بكثير مما يعانيه من أونستا .

ولكن تفكيره لم يطل ، فقد حلت الكارثة أخيراً ، وترامت الأخبار بأن أخوى أونستا قد أضاعا التجارة التى يعملان فيها لحسابه ، وخسرا كل ما كان قد زودهما به . وما شعر المرابون بذلك حتى جمعوا أمرهم وهجموا على منزل رود ريجو ليأخذوا حقه مقابل الدين تبعاً لشريعة فلورنسا فى ذلك العهد .

لم يكن أمام رود ريجو إلا الفرار ، فامتطى صهوة أحد الجياد وفر من المرابين الذين اقتفوا أثره حتى أوشكوا أن يدركوه ، فاضطر لترك جواده وتوغل فى الأحراج المحيطة بالمدينة ، حتى وجد منزلا صغيراً يملكه أحد العمال الطيبين « ماتيو دل بريكا » .

دخل رود ريجو إلى المنزل ، فوجد ماتيو جالساً ، فطلب إليه أن يخفيه عن أعين مطارديه واعداً إياه أن يجعله من أغنى أغنياء فلورنسا ، وقدم له ضماناً لذلك حياته نفسها ، وإذا لم يبر بوعده فعليه أن يعود به إلى المدينة فيسلمه إلى مطارديه .

كان ماتيو رجلا شجاعاً رغم فقره ، فوضع رود ريجو تحت حزمة من القش ، وضلل مطارديه حتى عادوا بالفشل . وعند ما اطمأن إلى انصرافهم نادى رود ريجو ، وهدأ من روعه ، حتى إذا هدأ هذا قص عليه قصته كلها وسر قدومه إلى الأرض ، وختم حديثه بقوله :

— ولما كنت لا أملك ما أعطيه لك ، فإنى سألجأ إلى سبيل تضمن فيه الربح ، وذلك بأن أتسلل بروحى الشيطانية إلى جسد إحدى فتيات فلورنسا ، حتى إذا سمعت بذلك تقدمت إلى أهل هذه الفتاة مدعياً أنك تستطيع إخراج الأرواح الشريرة وتطلب الأجر الذى يرضيك ، فإذا ما اتفقت مع أهلها تقترب من أذنها وتناديني فأغادر جسدها وتنال أنت أجرك .

وصدق رود ريجو وعده ، فلم تمض أيام حتى أذيع أن ابنة أحد الأشراف السيد « امبريجو أميدى » قد تقمصتها روح شريرة ، فتقدم ماتيو إلى أهلها عارضاً استعداده لشفائها ، ولكنه طلب أجراً قليلا . فلما اقترب من أذنها ونادى رود ريجو أجابه هذا :

— سأخرج . ولكنك طلبت مبلغاً تافهاً أيها الأبله . لذلك سأحل فى جسد آخر بعد خروجى من هنا . فاذا سمعت بذلك ، فاطلب لاخراجى ثمناً كبيراً يحقق لك الثروة التى وعدتك بها .

عندئذ خرج الشيطان من جسد الفتاة ، ونال ماتيو الأجر المتفق عليه ، ولم تمض أيام حتى أذيع أن روحاً شريرة قد تقمصت جسد ابنة الملك شارلس ملك نابولى . ولما عرف عن ماتيو من القدرة على طرد الشياطين ، فقد استدعى بعد أن عجز الطب والكهانة عن شفاء الأميرة . وبر « رود ريجو » بوعده ، فما إن همس ماتيو فى أذن الفتاة حتى أجابه بأنه سيخرج على شريطة ألا يتعرض بعد هذه المرة لاخراجه من أى جسد يحل به ، وهدده بأنه لن يطيعه بعد هذه المرة ما دام قد وفى له بوعده وحقق له من الثروة ما يريد .

* * *

مرت أيام طويلة غادر فيها « رود ريجو » إيطاليا إلى فرنسا ، فحل فى جسد الأميرة الصغيرة ابنة الملك لويس ملك فرنسا ، ولم يكن ذلك حباً فى الشر ، وإنما لأنه كان لا يستطيع أن يظهر بمظهره البشرى خوفاً من مطاردة الدائنين .

حار الأطباء فى ابنة الملك ، فلم يتركوا وسيلة من وسائل العلاج إلا اتبعوها ، وأرسل الملك فى طلب السحرة والكهان ، حتى ترامت آخر الأمر إلى أسماع رسله قصة

شفاء ابنة ملك نابولى وابنة السيد امبريجو أميدى ، وما فعله ماتيو من الخوارق فى الحالتين ! فبعثوا فى طلبه ، ورفض ماتيو الحضور متعللا بشتى المعاذير ، حتى اضطر ملك فرنسا أخيراً أن يلجأ إلى مجلس الحكم فى فلورنسا طالبا إليه أن يرغم ماتيو على الحضور لمعالجة ابنته ؛ فلبى المجلس الطلب مراعاة لما بين البلدين من صداقة ، وأرغم ماتيو على السفر . فلما وصل إلى باريس وقابل الملك أخبره بأن هناك أرواحاً لا تخضع لأمره ، ولا يستطيع إقناعها بالخروج من الجسد الذى تحل فيه ، وطلب من الملك أن يلتمس له العذر إذا عجز عن علاج الأميرة .

ولكن الملك ، وقد كان يحب ابنته حباً بالغاً ، صمم فى أن يزاول ماتيو علاج الأميرة ، ويبذل قصارى جهده ، وهدده بالشنق إن لم يوفق ؛ ووعده بجزيل العطاء إن نجح فى رسالته ؛ فلم يكن بد من أن يذعن ماتيو للأمر ويتوسل إلى رود ريجو مذكراً إياه بما بينهما من صداقة ، وبما قدم له من يد حين أنقذه من مطارديه .

ورفض رود ريجو الخروج فى حزم وأجاب صاحبه قائلا :

— لقد أنقذت حياتى حقاً يا سيدى ، ولكنى وفيت لك دينك وقمت بما وعدت به . فلم تحاول الآن إقلاقى ومطاردتى ؟ إننى لن أخرج مهما فعلت ، وسوف يطيح رأسك جزاء مخالفتك لأمرى وجشعك .

وأسقط فى يد ماتيو وشعر بأن حياته وشيكة الانتهاء ، فأخذ يفكر فى الأمر وفى موقفه التعس ، حتى لاحت له بارقة أمل ، فالتفت إلى الملك بعد أن أمر بإخراج الفتاة من الغرفة وقال :

— لقد رفض الشيطان الخروج يا مولاى ، وليس أمامى غير طريقة واحدة ، هى أن تجمع كل عظماء المملكة وقوادها ، وتدعو الشعب كله إلى الحضور غداً إلى أوسع ساحة فى المدينة ، ثم تأمر بجمع كل حملة الطبول ليكونوا تحت أمرى فى صباح الغد ، وعندئذ سأحاول آخر محاولة ؛ فتجلسون جلالتكم والقواد على مرتفع ، وتقف الأميرة يحيط بها كاهنان ، ويقف الشعب فى الساحة تتقدمه الطبول وفرق الموسيقى ، وكل ما يستعمل فى الحرب من آلات ، حتى إذا ما أشرت إلى الجنود إشارة خفية دقوا الطبول بأقوى ما يكون من الشدة ، واصطنع الموسيقيون أبشع الألحان وأشدها بعثاً للرعب فى النفوس .

* * *

بكرت جموع الشعب فاحتلت أماكنها فى الساحة وتقدمتها الجنود وحملة الطبول والموسيقيون ، وأقبل الملك فى حاشيته ، وسكت الجمع حين تقدمت الأميرة الصغيرة يحيط بها الكهان ورجال الدين .

وفى الموعد المحدد قدم ماتيو وصعد إلى المرتفع حيث تقف الفتاة ، فاقترب من أذنها وهمس مخاطباً « رود ريجو » :

— أيها الصديق . ألا تنقذ حياتى فتغادر جسد هذه الفتاة ، وأعدك بألا أتعرض لك بعد هذه المرة ؟

وأجاب رود ريجو ضاحكاً :

— لقد نفذ السهم . من قال لك أن تعصانى . وما هذه الجموع التى تقف على هذا المرتفع ؟

— هم الملك وأتباعه ينتظرون أن أوفق إلى إخراجك أو يأمرون بشنقى .

— إذاً دعهم يشنقوك ، فسأرى فى رأسك المعلق منظراً بديعاً .

. . . . عندئذ أدار ماتيو ظهره وسار حتى شارف نهاية المرتفع فأشار إلى الجند ورجال الموسيقى المختفين فى الساحة المنخفضة أن يبدأوا . . .

ودوت الطبول بشدة رهيبة ، وعلا صوت الموسيقى مزعجاً يصم الآذان ، فارتعد رود ريجو فى مخبئه من جسد الفتاة ، واضطرب اضطراباً شديداً ، ولم يدر من أين يصدر هذا الصوت ، إذ رأى الملك والحاشية فى مكانهم لا يتحركون فصاح بماتيو :

— ما هذه الضجة أيها الصديق ؟ .

وأجاب ماتيو فى خبث متظاهراً بالدهشة :

الغـــــراب

للشاعر الأمريكي أدجار ألن پو

المعروف عن أدجار ألن پو ، هو أنه قصّاص ممتاز ، وأن خياله يكاد يقطن عوالم الفناء ، ينقل لنا عنها ما يملأ النفس رعباً ؛ وفي الحق أننا لا نعرف من القُصّاص من هو أشد من پو أخذاً بالنفس ، وإيلاماً للحس ، وإلماماً بالتصور .

وفي قصصه غشاء ينم غالباً عن معنى رمزي يستطيع المعن فيه الكشف عنه ، وهذا لون من الأدب يذهب إليه تفضيلي ، وذلك لأني أتصور النفس البشرية دائماً كشكل مختلط معقد ، لا سبيل إلى تمييز ما يشغله من محس أو مدرك ؛ ونحن في غالب الأحيان لا نرى في نفوسنا إلا ما يشبه السديم ، وفي هذا السديم مادة من الفن ما لا سبيل إلى تفصيله وتحليله مهما أعملنا فيه ذكاءنا ، إذ من الثابت أن كل مركب يبدو وحدانه .

— أوه . يالحظ السيء ! إنها زوجتك آتية من بعيد ، ومعها أهلها وأقاربها ، ترى من دلهم على مكانك ؟ .

ومضت فترة سكون بعد أن هدأت الضجة ، ودهش الجمع الحاشد بعدها حين رأوا الأميرة الصغيرة تتقدم إلى والدها وقد استردت صوابها وعادت إلى حالتها الطبيعية . وما كان أشد فرح الملك بذلك حتى لقد أمر لنا تيو بالعطاء الجزيل والهدايا الثمينة !

أما رود ريجو فقد عاد إلى جهنم قبل أن تمضي المهلة التي منحها لكي يقدم تقريره ؛ ولكنه مع ذلك قدم تقريراً وافياً ثبت منه أن ما يقوله الرجال المتزوجون هو عين الصواب .

صموع الدين ذهني

الكونة ، فالسبيل إلى أداء ما يختلط بنفس متجاوبة الأصداء ، ما أحسبه يستقيم بغير الرمز والإيحاء ، فبه تحمل الوقائع المادية لون نفوسنا ، ونحن لا نؤمن للأدب بغاية أسمى من أداء ذلك اللون .

والوقائع المادية لا شك أغنى من كل معنى مجرد ، إذ كل قارئ يستطيع أن يحملها على أن تدع بين يديه ما يحسه خلفها من معنى ، وغنى الأدب لا يمكن أن يكون إلا غنى احتمالات ؛ ومن هنا يستطيع أن يصل بوضوح إلى ما يتصل بأعماق نفسه .

قصص « أدجار پو » من هذا النوع ، يحسبها القارئ العَجِل هذيان محموم ، ولقد كان الرجل محموماً بالفعل ، ولكن ذلك لم يمنعه من الخوض وراء أبعد المعاني يؤديها في وقائع ما كان يستطيع بدونها استقصاءً ، ولتلك الوقائع لون صبغتها به نفس «پو» المضطربة الجائشة الحزينة .

وليس پو في ذلك نسيجَ وحدِه ، فالأدب الانجليزي على العموم ، وخصوصاً الشعر فيه ، يمتاز عن الأدب الفرنسي بعماء مقاصده وكثرة أسراره ؛ وآداب البلاد الشمالية أمعن من الأدب الانجليزي في تلك الخاصية ؛ ففي روايات ومسرحيات أبسن Ibsen ضباب كثيف ، يسبح فيه القارئ أو الشاهد ، وكأنه في عالم مسحور ؛ وفي الأغاني الشعبية لبحارة مقاطعة بريطانيا بفرنسا من نسمات ما وراء الحياة ما يقود الخيال إلى ظلمات كثيفة ، ترقص لها النفس طرباً ؛ والنفس أحوج ما تكون إلى أن تنزع حيناً مما درجت فيه لتتحرر من ملل الاطراد .

في هذا النوع من الأدب مجال لا أستطيع أن أصفه

بغير أن أطلب عون حواسّي ؛ هو جمال من يقنع بالوميض دون الوهج ، لعلمه أن خير الجمال ما لمحه دون استقراء كالمرأة الجميلة تسلب حواسّنا ما اكتفينا باللمحة وما استترت صورها خلف رقيق الثياب ؛ وأي وجه أجمل منه عندما يختلط إطاره بما يلابسه من ظلام ؟ وأي وجه يثبت جماله لقاسي الضوء .

« بو » إذاً قصاص وقصاص أصيل ؛ ولكنه إلى جانب ذلك شاعر ، وشاعر منقطع النظير ، ولقد يحسب القارئ لما يعلمه عن بو من انحلال في الحياة أن شعره كالطائر الغَرِد تسكره حبات العنب فيغرد كيفما اتفق ؛ ولكن الأمر ليس كذلك ؛ فبو شاعر صناع كـكل شاعر مجيد ، بل لقد تبلغ الصنعة عنده أبعد من الكمال ؛ وليس في ذلك عيب ، وإنما العيب أن نظن أن أدباً ما يستقيم بغير الجهد الطويل .

والناظر في شعر بو وفي لغته واجد آثار تلك الصنعة ، فهو إن وصف ساق إليك بأسماء الأصوات وأفعالها من الصور السمعية ما يهيئ لبصرك عوالم من الرؤيا في حفل زاخر يأخذ بأصلب النفوس ممدناً ؛ وهو يعطيك لون نفسه بشطرة يختتم بها مقطوعات شعره ، يكررها تباعاً حتى تدمغ نفسك بلونها كدقات القضاء المتتابعة . وهو قبل أن ينفض مكنون نفسه يهيئ له جواً كالاطار يزيد اللوحة بهاءً . ثم هو في شعره قصاص يمر بك من بسط إلى حوار ومن حوار إلى بسط ، فانتباهك دائماً يقظ ونفسك معلقة بشفتيه .

وفي شعره من موسيقى اللفظ ما لا أظنه اتفق لكثير ؛ وللقارئ إن أراد أن يراجع شعره وقلمه بيده ليحصي تتابع الأحرف المختلفة في البيت الواحد ، فسيرى أنها تنتظم مجموعات يقابل بعضها بعضاً ، كما تقابل كل مجموعة منها في جرسها لون المعنى المقصود إشراقاً وظلمة ، وبسطاً وانقباضاً ؛ وذلك أن للأصوات المختلفة وقعاً في النفس يمكن بسهولة بعد مران قليل أن تصل إلى تمييزه ، وهو واجد في أوزان شعره طرقاً للأداء تعجز عنها الألفاظ يجمع بينها من يدعى الشعر في تفاعيل لا تمتّ إلى المعنى بأي سبب .

من خير قصائد بو قصيدته المسماة بالغراب ، بل هي خيرها ؛ وفي الحق أنني لا أعدل بها قصيدة أخرى في أي شعر كان ؛ ولست أنا أول من أولع بها ، فقد ترجمها « مالارميه » إلى الفرنسية ، كما ترجمها من بعده « بودلير » وحللها أجمل تحليل .

« الغراب » قصيدة رمزية ، فقد تصور الشاعر أن ذكرى حبيبة له واسمها « لينور » أتته في ظلام الليل زائرة في صورة غراب ضخم مخيف ؛ وهو في تلك القصيدة يقص تلك الزيارة في شعر اجتمعت فيه عبقرية ذلك الرجل .

ونحن اليوم ننقل إلى القارئ عن الانجليزية تلك القصيدة ، والقصيدة على مشقتها سهلة المأخذ ، فبا يصاح قليل تنفذ إلى أسرارها ؛ وأعز أمانينا أن يتمهل القارئ عند مقطوعاتها فسيجد في صبره أجمل العزاء .

قال بو :

كان الليل المخيف في منتصفه وقد قوست ظهري في عناء المتهافت فوق جملة من المجلدات الغريبة النادرة ، أستطلع ما بها من علم دارس . تمايل رأسي كمن في سنة ، وإذا بدق لجائي . دق سيد رفيق بباب غرفتي « إن هو إلا طارق يدق بابي . هو ذلك ولا شيء غيره » .

* * *

آه . أذكر أوضح الذكرى أننا كنا في ديسمبر الحالك القارس البرد ، والجمرات تطرز تباعاً أرواحها فوق أرض الغرفة قبل أن تحتضر ، وقد نزعت نفسي بلهف إلى الصباح . عبثاً كنت أحاول أن ألتمس في كتبي مرجئاً لما في النفس من حسرة : حسرة من فقد « لينور » ، إذ تلك الحسناء المشرقة المنقطعة النظير التي تسميها الملائكة « لينور » لن يتردد اسمها هنا بعد اليوم .

* * *

لقد كان فى حفيف ديباج الستائر الخافق ما يملأنى رعباً ، رعباً خارقاً ما شعرت بمثله من قبل ، فنهضت قائماً لعلى أهدئ من ضربات قلبى ، وأخذت أردد : « إنه طارق يلتمس مدخلا إلى غرفتى ، طارق ليل يلتمس مدخلا إلى غرفتى ، هو ذلك ولا شىء غيره » .

* * *

عادت نفسى إلى التماسك فصحت فى غير تردد ولا مهل : « سيدى ، أو سيدتى ، بكل إخلاص أرجو عفوك أيها الزائر إذ كنت فى سنة ، وقد أتيت بكل رفق تدق بابى ، تدق دقاً متهافتاً لم أكد أسمعه » . ثم فتحت الباب على مصراعيه فإذا به الظلام ولا شىء غيره .

* * *

أمعنت البصر فى الظلام ، وظللت فى مكانى فى دهشة المرعوب ، وقد انسابت إلى نفسى الشكوك والأحلام ، أحلام لم يجسر قبلى أحد أن يحلم بمثلها ، ولكن الصمت ظل مطبقاً ، والهدوء لم يحركه قول ، إلا كلمة واحدة همس بها هى « لينور » . همست بها دون أن يرتد إلىّ غير الصدى « لينور » . ذلك ما كان ولا شىء غيره .

* * *

عدت إلى الغرفة ، ونفسى تحترق فى مكنونها ، وإذا بالدق يعود أقوى مما كان ، فقلت : إنه لا شك بالنافذة . هيا نرى من هنالك لعلنا نستطلع السر . لتهدأ أيها القلب حتى نستطلع السر ، إنها الريح ولا شىء غير ذلك .

* * *

فتحت النافذة على مصراعيها ، وإذا بغراب مهيب كغربان العصور الخالية يدخل الغرفة فى حركة وحفيف . لم يحيّنى أقل تحية ، ولا وقف ، ولا مكث بالمدخل دقيقة واحدة ، بل انطلق فى جلال الأشراف . انطلق إلى أعلى باب الغرفة . انطلق الى التمثال النصفى «بالاس» بأعلى الباب . نزل به واطمأن فى جلسته ، ولا شىء غير ذلك .

* * *

ثم ساق ذلك الغراب الأسود خيالى الحزين إلى الابتسام ، بجلسته الكئيبة المتكلفة ، فصحت به : « إنه وإن تكن حليقاً أصلع ، ما أحسبك غراباً أيها الشبح المخيف ، أيها الغراب العتيق المنطلق من شواطئ الظلام . خبرنى عن اسمك فى عالم الموت المظلم » فأجاب : « هيهات ! » .

ملأتنى الدهشة إذ سمعت ذلك الكائن الدميم ينطق بالجواب بهذا الوضوح ، وإن لم يكن لجوابه معنى ولا رابطة بالسؤال . إذ يجب أن نسلم بأنه لم يتح لإنسان قبل ذلك أن يرى بأعلى باب غرفته طائراً أو حيواناً نازلا فوق تمثال نصفى يحمل الاسم « هيهات » .

* * *

ولكن الغراب من أعلى التمثال الصامت لم ينطق بغير تلك الكلمة ، حتى لكأنه أسلم فيها روحه . لم ينطق بغير ذلك ولا حف بريشه ، حتى حيرت فى أمرى ، ولم أجد إلا أن أقول : « لقد رحل عنى من قبل أصدقاء ، ولا شك أنه عند الصباح طائر عنى هو أيضاً كما طارت جميع آمالى » . ولكن الطائر أجاب قائلا : « هيهات ! » .

* * *

انتفضت إذ جاء ذلك الجواب الفاصل يحرك السكون حولى قائلا : لا شك أن هذه الكلمة هى كل ما عنده من لفظ . حفظها من سيد له . سيد نزلت به الأحداث بغير هوادة ، تطارده فى عنف أشد من عنف ، حتى لم يعد له من قول إلا تلك الكلمة ، وحتى استحالت آماله إلى أغنية تختتم مقاطعها تلك الكلمة « هيهات ! هيهات ! » .

* * *

ولكن الغراب استمر يسوق نفسى الحزينة إلى الابتسام ، فدفعت مقعداً وثيراً إلى أمام الطائر والتمثال والباب ، وألقيت بنفسى إلى ديباج المقعد ، وأخذت أنظم خواطرى

خاطراً خاطراً ، متسائلا عما يمكن أن يكون هذا الطائر العتيق ، وقد اجتمع به القبح والنحس والضمور ، ثم عما يعنى عند ما ينعق باللفظ « هيهات ! » .

* * *

وظللت مستغرقاً فى أحداسى دون أن أفوه بمقطع واحد أمام هذا الكائن ، وقد أخذت عيناه ترسل إلى أعماق قلبى لهيباً من النار . وازددت استغراقاً وقد طرحت رأسى إلى ظهر القعيد ، الذى يكاد ضوء المصباح ينهب ديباجه ، ترى هل ستعود فتتكىء إلى هذا الديباج والضوء ينهبه . « آه ! هيهات ! » .

* * *

ثم لاح لى أن الهواء قد ازداد كثافة بما يتطاير فيه من عبيق مبخرة لا أراها ، مبخرة تلوح بها ملائكة أسمع وقع أقدامها على أرض الغرفة المنثرة زهراً . وصحت : « أيها البائس ، لقد أرسلت لك السماء برداً وسلاماً لتسلو عن ذكرى (لينور) ، تمتع بما أنت فيه ، تمتع به بكل قواك وانس (لينور) ! » . وإذا بالغراب يصيح : « هيهات ! » .

* * *

فرددت : « أيها الرسول ، رسول الشر . أيها الرسول ، طائراً كنت أم شيطاناً رجيماً ، سواء أساقتك إلى أرواح الغواية ، أو حملتك قوة العواطف — أيها الطائر الحزين بوحدته — وإن لم يفقد بأسه ، بتلك البيداء المسحورة — بهذا البيت الذى أوى إليه الذعر — قل لى وايم الحق . قل لى أضرع إليك . أما هناك من بلسم فى واد من الوديان . قل لى وربك . قل لى أضرع إليك » . فأجاب : « هيهات ! » .

* * *

فصحت قائلا : « أيها الرسول ، رسول الشر ، طائراً كنت أم شيطاناً رجيماً ! بحق تلك السماء التى تحنو علينا . بحق الله الذى نعبده ، أخبر نفسى المثقلة بالحسرات ، أخبرها عما إذا كانت ستستطيع يوماً ما — فى جنة الخلد النائية — أن تقبل حسناء مقدسة تسميها الملائكة (لينور) ؟ » فصاح الغراب : « هيهات ! » .

* * *

« لتكن تلك الكلمة فراق ما بينى وبينك ، طائراً كنت أم صديقاً — هكذا صحت به وقد نهضت قائماً — عد إلى العاصفة فى عالم الموت المظلم . لا تترك أى ريشة من ريشك الأسود تذكاراً لما فاهت روحك به من كذب . اترك وحدتى غير معتدى عليها — غادر التمثال من أعلى بابى — انزع منقارك من صدرى ، وخذ عنى شبحك المخيف » . فصاح الغراب : « هيهات ! » .

* * *

وظل الغراب جالساً لا يحرك ساكناً — ثم لا يحرك ساكناً — فوق تمثال « بالاس » الشاحب . فوق باب غرفتى ، وقد لاحت فى عينيه صورة شيطان يحلم والضوء ينهال عليه كالسيل فيلقى بشبحه على الأرض . وأما عن روحى فهى سجينة فى ذلك الشبح الملقى على الأرض . أتراها مفلتة منه ؟ « هيهات » .

وفعلاً لم يفلت بو من حسرة الذكرى ، فقد فقد زوجته وهى بنت عمه Virgine Cleman ، وحاول التعزى عن فقدها فلم يستطع ، حتى عزم أخيراً على التزوج بغيرها ؛ وفعلا اتفق وأهل خطيبته ، وجاءت ليلة الخطبة ، وإذا بو المسكين يعثر فى طريقه ببلدة « بلتيمور » بحانة دخل إليها ولم يغادرها إلا ليلقى بنفسه على قارعة الطريق لا حراك به ؛ وفى الصباح وجده أصهاره ميتاً ، والله يعلم أن لو والاه الشعر لقال فيه ما قال شينيه Chenier فى « حسناء تارانت » مات « بو » فى الأربعين من عمره سنة ١٨٤٩ .

محمد مندور

الذرات...

كان للمتقدمين من العلماء آراء مختلفة في بناء الأجسام، ولكن لم يعن أحد منهم بمقارنة رأيه وما يترتب عليه من نتائج، بالشاهد من صفات المادة، فجاءت هذه الآراء اجتهادية لا أساس لها من الواقع. فلما جاءت النهضة العلمية في القرن السادس عشر، أخذت العلوم الطبيعية تبنى على أساس جديد من المشاهدة والتجربة والاستقراء. وفي النصف الأخير من القرن الثامن عشر تقدم بحث الظواهر الكيميائية من الوجهة الكمية تقدماً عظيماً، وتراكت النتائج في انتظار قانون جامع ينظمها ويظهر ما بينها من الصلات. وجاء ذلك في السنين الأول من القرن التاسع عشر؛ إذ تقدم جون دالتون John Dalton (١٨٠٣ — ١٨٠٧) بنظريته الذرية، وهي تنص على أن كل جسم بسيط يتركب من ذرات تامة التشابه وزنها ثابت لا يتغير، ولكنها تختلف نوعاً ووزناً عن ذرات الأجسام البسيطة — العناصر — الأخرى. كما تنص على أن الأجسام المركبة تتكون من اتحاد ذرات العناصر بنسب بسيطة. واتخذت ذرة الايدروجين وحدة للوزن الذرى، فجاءت الأوزان الذرية لكثير من العناصر المعروفة حينئذ مضاعفات صحيحة تقريباً لوزن هذه الذرة، مما دعا بروت Prout (١٨١٥) إلى القول بأن جميع الذرات مركبة من وحدات متشابهة متساوية هي ذرات من الايدروجين. ولكن بتقدم البحث وجدت أوزان ذرية بعيدة عن الأعداد الصحيحة، فحاول بروت تفسير ذلك بأن جعل وحدته نصف ذرة الايدروجين ثم ربعها وهكذا، ولكن لم تجد هذه المحاولات، واضطر القائلون بهذا الرأى إلى التخلى عنه.

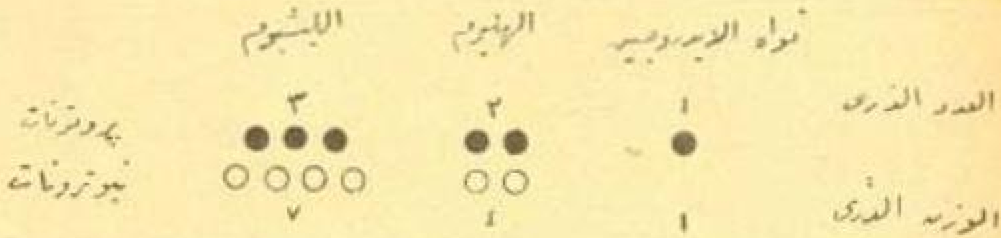
ولكن البحث أدى بعد ذلك إلى اكتشاف صلة وثيقة بين العناصر المختلفة لا تجعل هناك شكاً في أنها ليست مختلفة عن بعضها اختلافاً تاماً، بل أن هناك عوامل مشتركة بينها جميعاً؛ فقد وجد مندليف Mendeleeff الروسى ولوثار ماير Lothar Meyer الألمانى (١٨٦٩ — ١٨٧٠) أن العناصر إذا رتبت ترتيباً تصاعدياً بحسب أوزانها الذرية، كان كثير من صفاتها الكيميائية والطبيعية العامة دورياً يتكرر بعد عدد معين من العناصر؛ فالعنصر الثانى يشبه العاشر والثامن عشر. ويشبه الثالث الحادى عشر والتاسع عشر، وهكذا، أى أن الصفات تتكرر كل ثمانية عناصر في أول الأمر؛ ويسمى هذا الترتيب للعناصر النظام الدورى أو الجدول الدورى، وتسمى رتبة العنصر في هذا الجدول العدد الذرى. ولكن بالرغم مما دل عليه هذا الكشف من الصلة بين العناصر، فمنذ تقدم دالتون بالنظرية الذرية في أوائل القرن إلى قرب نهايته كان الاعتقاد السائد هو أن الذرات جسيمات مصمتة خلقت من جواهر مختلفة عددها كعدد العناصر الموجودة، وأن أصغر الجسيمات في الكون هي ذرة الأيدروجين. استمر هذا الاعتقاد إلى أن اكتشفت الأشعة المعروفة باسم أشعة المهبط، وهى جسيمات صغيرة جداً مشحونة شحنة كهربائية سالبة تصدر عن القطب السالب عند ما يحدث تفريغ كهربى في أنبوبة فيها غاز مخلخل. وبين عامى ١٨٩٧ — ١٨٩٩ استطاع سير ج. ج. تومسون J. J. Thomson تقدير وزن هذه الجسيمات فوجده دون وزن ذرة الايدروجين ألفى مرة تقريباً، ووجد كذلك أن هذه الجسيمات تصدر عن المهبط مهما

كانت المادة المصنوع منها ؛ بل إنه يمكن أيضاً الحصول عليها من جميع أنواع المادة بطرق أخرى ، مثل التسخين وغيره ؛ كما وجد أنها تتشابه تماماً مهما كان مصدرها . لذلك كان أغلب الظن أنها تدخل في تركيب جميع الذرات ، ووجد أن لا مناص من التخلي عن الرأى القائل بأن الذرات متباينة لا صلة بينها ، وقد سميت تلك الجسيمات الصغيرة الكترونات واتخذت وحدة الكهرباء السالبة .

بعد ذلك أخذ العلماء يبدون آراء متعددة في تفاصيل بناء الذرة ، وكان أول من وفق إلى رأى مقبول هو رذرفورد Rutherford عام ١٩١١ ، وقد تطور رأيه بعض التطور في السنين الأخيرة ، ولكنه لا يزال أساساً صالحاً لشرح تركيب الذرة ، ولذلك سيوصف كما وضعه رذرفورد ولكن بتعديل بسيط .

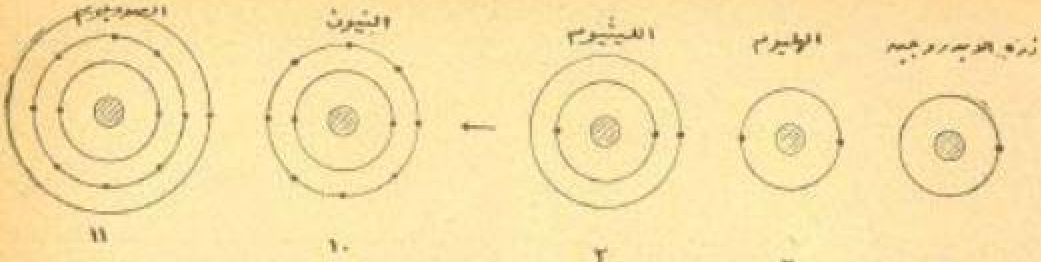
تتركب الذرات حسب هذا الرأى من نواة مركزية ، بها معظم كتلة الذرة ، تدور حولها الالكترونات كما تدور الكواكب السيارة حول الشمس ، وإن اختلفت عنها في أن أفلاكها ليست في مستوى واحد ، فهى أشبه بطبقات حول النواة على بعضها بعضاً ، ويشغل كلاً منها الالكترون أو أكثر . والجزء الأكبر من جرم الذرة خال تماماً من المادة ، فلو أن الذرة كبرت مليون مليون مرة لأصبحت النواة بحجم حبة الحمص وحولها الالكترونات تشغل محيطاً قطره ١٠٠ ياردة ، ولكنها لا تملأ هذا الفراغ كما يملأ الماء الحوض ، بل أنها مبعثرة هنا وهناك ، ومع ذلك لا تتدخل الذرات في بعضها .

وتتركب النواة من نوعين من الجسيمات . بروتونات . كتلة كل منها تساوى كتلة ذرة الايدروجين ، ومشحونة بشحنة تساوى شحنة الالكترون ، ولكنها موجبة ، وعددها في ذرة أى عنصر يساوى العدد الذرى لهذا العنصر ، أى ترتيبه في الجدول الدورى . ونيوترونات وكتلتها أيضاً تساوى كتلة الايدروجين ، وهى غير مشحونة بأية شحنة كهربية ، وعددها مضافاً إليها البروتونات يساوى الوزن الذرى للعنصر .



الشكل الأول

وعدد الالكترونات المحيطية في كل ذرة يساوى عدد البروتونات في نواتها ، وهى تتوزع حول النواة بنظام خاص لا تحيد عنه مطلقاً ، فأقرب الطبقات إلى النواة لا تحتوى على أكثر من الكترونين ، والطبقة الثانية لا تحتوى على أكثر من ثمانية وكذلك الثالثة . مثل ذلك إذا كان بالذرة الكترون واحد (الايدروجين) فإنه يختص بطبقة قريبة من النواة ، فإذا كان بها الكترونان (الهليوم) اختصا معاً بنفس الطبقة السابقة ، أما إذا زاد عدد الالكترونات عن اثنين ، فإن الثالث يبدأ طبقة ثانية تلى الأولى من الخارج ، ويشغل هذه الطبقة كذلك الالكترونات من الرابع إلى العاشر ؛ فإذا تمت هذه الطبقة الثانية ثمانية الكترونات أخذت طبقة ثالثة في التكون ، إلى أن تتم



الشكل الثانى

ثمانية الكترونات أيضاً ، فتتكون طبقة رابعة ، ولكن بعد ذلك يأخذ التوزيع فى التعقيد مما لا شأن لنا به .

وهذا التوزيع ذو شأن عظيم فى تعيين الخواص الكيميائية والطبيعية للذرة ؛ فكل الذرات تميل إلى أن تكون جميع طبقاتها كاملة الالكترونات ، وذلك إما بالتخلى إلى ذرة أخرى عن الطبقة الناقصة — وهى لا تكون إلا الخارجية لأن الطبقات الداخلة تكمل إلا فى القليل النادر قبل أن يتكون ما يليها من الخارج — أو بإكمالها من ذرة أخرى ، ولذلك فهى تميل إلى الاتحاد بغيرها من الذرات التى تمهد لها ذلك . مثل ذلك الذرة من الفلور (غاز فعال شديد التأثير) بالطبقة الثانية منها سبعة الكترونات ، فهى تتحد دائماً بالعناصر التى بها الكترون واحد فى الطبقة الخارجة ، فتكمل هى طبقتها ثمانية الكترونات ، بينما تتخلى الذرة الأخرى من الالكترون الواحد ، فتبقى كذلك طبقاتها الباقية كاملة . ومما سبق ينتظر أن تكون جميع العناصر التى بطبقتها الخارجة سواء أكانت الثالثة أم الرابعة أم غيرها سبعة الكترونات مشابهة تماماً للفلور فى صفاتها الكيميائية ، وهذا هو الواقع ؛ فالكلور والبروم واليود فى طبقاتها الثالثة والرابعة والخامسة على الترتيب سبعة الكترونات ، وهى جميعاً تشبه الفلور فى صفاتها الكيميائية .

والعناصر التى طبقاتها تامة لا تتحد مع غيرها مطلقاً ، مثل ذلك الهليوم فى طبقته الأولى الكترونان فهى تامة ؛ والنيون والأرجون والكريبتون والزنون تحتوى طبقاتها الثانية والثالثة والرابعة والخامسة على ثمانية الكترونات ، وهذه العناصر جميعاً غازات موجودة بمقادير صغيرة فى الجو وهى لا تتحد مع غيرها مطلقاً .

وعدد البروتونات الموجودة فى النواة هو كما سبق القول الذى يعين عدد الالكترونات المحيطية ، فهو الذى يحدد «شخصية» الذرة ، فإذا فقدت الذرة الكتروناً أو أكثر من الكتروناتها المحيطية ، بل حتى لو فقدتها جميعاً ، فإن وجود هذه الشحنة الموجبة فى النواة كفيل بأن يجتذب إليها الالكترونات السالبة من هنا ومن هناك حتى يتم بناؤها ثانية وتعود سيرتها الأولى . وزيادة نيوترون أو أكثر على نواة الذرة لا يؤثر مطلقاً فى صفاتها جميعاً ماعدا وزنها الذرى ، بل إن الذرات المتساوية فى عدد البروتونات ، المختلفة فى عدد النيوترونات ، لا يمكن فصلها عن بعضها بالطرق الكيميائية ، ولم يهتد إليها إلا حديثاً لتشابهها تماماً من جميع الوجوه . أما إذا تغير عدد البروتونات فى النواة فإن العنصر يتحول إلى عنصر آخر .

أحمد مختار صبرى

الــكلمة الأخيرة فى هذه الحرب للزيت

البترول فى أوقات السلام مادة أساسية تعتمد عليها وسائل النقل الحديثة ، وتستخدم فى إدارة كثير من الآلات ، ولكنه فى أوقات الحرب ضرورة لا غنى عنها ولا يمكن الانتفاع بمعدات القتال الحديثة بدونها .

فالطيارات ، والغواصات ، والدبابات ، والسفن الحربية ، ومطابخ الميدان ، والمدافع الضخمة ، كلها تدار بالبترول وتضعف حركتها جميعاً إذا نقص موردها منه .

ولا نزاع فى أن النصر فى هذه الحرب القائمة معقود للفريق الذى لا ينقطع مدده من البترول ، ولا تقصر موارده عن سد حاجاته المتزايدة منه .

فلنلق نظرة على موقف كل من الفريقين المتحاربين من مشكلة البترول .

يبلغ إنتاج العالم السنوى من البترول نحو مائة وأربعين مليوناً من الأطنان ؛ وأهم الجهات التى يستخرج منها هى الولايات المتحدة ، وهى أكبر منبع لهذه المادة الثمينة ؛ والروسيا ، وإيران ، والشرق الأدنى ، ورومانيا ، وفنزويلا ، وجزر الهند الشرقية الهولاندية ، وكندا .

وتكاد كل موارد البترول فيما عدا الولايات المتحدة وروسيا ورومانيا تقع تحت تصرف بريطانيا العظمى ، وحليفتها وأصدقائهما .

وأهم الموارد التى تعتمد عليها بريطانيا إيران ، ولها فى ثغر عبادان محطة تكرير تنتج وحدها سنوياً نحو ١١ مليون طن ، وجزر الهند الغربية الهولاندية وبها محطتان لتكرير بترول فنزويلا تنتجان سنوياً نحو ستة عشر مليوناً من الأطنان .

ويضاف إلى هذه المنابع جزر الهند الشرقية الهولاندية ، وهذه تنتج نحو ثمانية ملايين طناً سنوياً ، والعراق وينتج نحو أربعة ملايين ونصف ، وكولومبيا وتنتج أكثر من ثلاثة ملايين ، وترينيداد وبيرو وتنتجان معاً نحو خمسة ملايين ، وكندا وتنتج نحو مليون طن ، ومصر وتنتج نحو ربع مليون طن .

وهذه الموارد كلها تمد بريطانيا وفرنسا وصديقاتهما من البترول . والولايات المتحدة كذلك وعطفها عليهما ظاهر ، تستطيع أن تمدهما عدا هذا كله بالكثير من بترولها .

وبحكم سيادة بريطانيا فى البحار ، وكثرة ما تملك من مراكب الزيت التى تنقله من محطات التكرير ، تستطيع أن تطمئن هى وحليفتها إلى مدد متصل منه يسد حاجاتهما الصناعية والعمرانية ، وحاجاتهما الحربية الكثيرة .

أما ألمانيا فتنتج فى بلادها نحو مليونين ونصف ، ويدخل فى ذلك ما تصنعه بطريق التركيب الكيميائى البارع ، وهذا القدر لا يكاد يفى بثلث حاجتها وقت السلم ، وهى تعتمد فى سد حاجاتها على ما تستورده من إيران ورومانيا والولايات المتحدة وجزر الهند الهولاندية .

والحصار البحرى الذى ضربته عليها بريطانيا وفرنسا يضيق عليها الفرصة فى أن تنال شيئاً من البترول من إيران أو أمريكا أو جزر الهند . أما رومانيا فكل ما تنتجه من البترول يبلغ نحو ستة ملايين من الأطنان ، ولا تأخذ ألمانيا منه إلا ما دون النصف ؛ على أنها لو أخذته كله لما وفى بحاجتها وقت الحرب ؛ ومع هذا فلا يحتمل أن تأخذه إلا إذا وضعت يدها على رومانيا ، وفى تلك الحالة يرجح أن تنسف آباره كما حدث فى الحرب العظمى الماضية فلا تنتفع به .

بقى أن تتطلع ألمانيا إلى روسيا تستمد منها حاجتها من البترول ، وروسيا تنتج نحو ثلاثين مليوناً من الأطنان ، ولكنها تستهلكها جميعاً لحاجتها ، ولا تكاد ظروفها تسمح

٣ – الموت والحياة فى فلسفة إقبال

الشاعر الواحد يعبر عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة، ولا ضير عليه من تكرار المعنى الذى يفتن له فى تجديد الحلة وتجميل الأسلوب؛ وهذا هو شأن إقبال. فقد عبر لنا عن مساء الموت وصبح الخلود فى الصور السابقة، ثم يعيد هذا المعنى فى ثوب آخر حين يعرض علينا الصباح مقبلا فى حلته الباهرة يوقظ العالم لاستقبال الحياة بنشوة وأمل، وما الموت إلا صورة لهذا المشهد الطبيعى. وهاك هذه الأبيات:

حينما يسفر الصباح نديا ناصعاً فى مواكب الاشراق
يغسل النور فى المشارق أدرا ن الدياجى عن حلة الآفاق

ويطير الكرى ويبتث العشـ
ـبُ وتصحو عزائم الكائنات

ويهب الأحياء فى البر والبحـ ـر ليستقبلوا عروس الحياة

وإذا كان للخلائق نامو س يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقاء

بالنزول عن شىء منه لأحد.

لم يبق من سبيل لألمانيا لاستيفاء حاجتها من البترول إلا ما يرد إليها عما يشبه التهريب من الأمم المحايدة، ومن المحتمل أن يضيق عليها خصومها السبل فى ذلك.

وأكبر الظن أنها أعدت العدة من قبل لهذه الحرب التى بيتتها، وأنها ادخرت منه كميات كبيرة، ولكن هذه الكميات ستقل كلما طال أمد الحرب؛ وسيأتى اليوم الذى لا يغنيها فيه كثرة ما أعدت من عدد لأن قلة الزيت تضعف انتفاعها بها..

(م)

ليست حلقات الحياة الإنسانية ضيقة إلى حد أن ترتبط بالهيكل الترابى وجوداً وعدماً. الدنيا أول المنازل وليست آخرها. هذه القبة الزرقاء ليست نهاية وجودنا، وليس الجسم إلا وكراً لهذه الأرواح، فإذا ذهب الوكر يخلق وكر آخر. هذا هو عمل الفطرة التى لا تتقيد بسلاسل الليل والنهار. وقد حدثنا «إقبال» عن هذا العمل أحسن الحديث، وبيّن أن المسلم عظيم الشأن فى الخلود وأنه أقوى وأعظم من هذا الكون المحدود:

فوق السماء أيها الـ حرُّ سمٰوات أخر
وفوق هذا المجد فى دنياك مجد منتظر

بعد الحياة أيها الـ مسلم تبدأ الحياه
صانع دنياك وأخـ راك معاً هو الإله

إن البرايا دول بها الفضاء حافل
لم تنقطع من الطريـ ق هذه القوافل
وكم وراء عالم الـ أكوان من عوالم
فلا تضع حداً لما فى النفس من عزائم

كل الذى تعرفه ليس نهاية الوجود
فكم توارت مدن وراء هذه الحدود
إن هُدم العشّ ففى الـ بستان تنشأ الوكور
طرْ للخلود مؤمناً ليس الجمود للطيور

فبعد هذا الظل يا بلبل ماء وهواء
وجنة أخرى يطيـ ب فى رياضها الغناء

الليل والنهار للآ مال لا يتسعان
فاطلب مقاماً للعُلى فوق الزمان والمكان

تذهب الأفراد ويبقى النسل والأمة. ويجب على المسلمين

أن يذكروا أن بقاءهم فى هذه الدنيا ضرورى لتكميل حكمة الله . والرسالة التى لم تتمّ فى أمتَّى الخليل والكليم يتمها أذان المسلم . إن النسيم العليل يمرّ على البراعم ، ولكن الزهور لا تستكمل نموها حتى تدمى يد البستانى أغصانها وأشجارها بالتشذيب . والصاعقة تسقط على وكر القمرى فيموت ، والبلبل يقع فريسة فى شرك الصيّاد . ولكن رونق الربيع باق . وآلاف الطيور تقبل وتنشد ألحانها وتطير والبستان لا يزال قائماً :

إذا سقطت زهرة فى الربيع — فكم فى بساتينه من زهور
ويا رُبَّ لؤلؤة حطموها — لتُرفع فى التاج أو فى النحور

يغيب الصباح من المشرقين — ويمضى المساء من المغربين
وما زال يقبل هـذا وذاك — جديدين فى حلة النيِّرين

مئات السنين مضت فى الحياة — وما استنفدت خمر أزمانها
وكم أفرغ الشاربون الكئوس
وما زالت الخمـر فى حانها

وكم زال أمسٌ توالى غدٌ — وكم أشرق النور بعد الظُّلَم
يزول عن الأرض أفرادها — وتبقى الشعوب بها والأمم

المسلم آية من آيات الله . وآيات الله لا تزول . المسلم باق ليرفع العَلَم ويتسنّم خلافة الأرض . وأعداء الإسلام يحاولون أن يسقط هذا العَلَم وأن يذهب المسلمون ؛ ولكن هؤلاء الأعداء أنفسهم كثيراً ما يشاهدون نور الإسلام فيصبحون فى طليعة أنصاره وحُماته ، فينقلب عـدوانهم حماية ورعاية . وإذا سقطت بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيبقى والإسلام لن يفنى :

ذلك المسلم من أندلس — سيعيد العزم فى الشمس مكانه
من سقاه العشق يوماً خمره — لم يعد فى السكر محتاجاً لحانه

والليالى علّمتنا عبَرًا — فى الذى مرّ به غزو التتار
كفروا ثم اجتلوا نور الهدى
فاهتدوا لما رأوا ذاك النار

عرفوا الإسلام فانقادوا له — وغدا أعداؤه ركن حماه
عزت الكعبة وانهار الصنم
وهوى الشرك بتوحيد الإله

إن هذا العصر ليلٌ فأنِرْ — أيها المسلم ليلَ الحائرين
وسفين الحق فى لج الهوى — لا يرى غيرك رُبَّانَ السفين

أنت كنز الدرّ والياقوت فى
موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتـاج إلى
صوتك العالى وإن لم يسمعوك

ليسَ فى الوقت فَرَاغٌ فاعتزم
واملأ الدنيا بأعمال شريفـة
أنتَ نور الأرض تهدى أهلها
لن يُرى غيرك فى الأرض خليفة

ما زال المسلم ممتحناً بالشدائد والحوادث الجسام . ولقد انهالت على المسلمين مصائب الزمن ، ورأوا من البلايا ما ضاع عنده ملك جميع الأمم السابقة من إغريق ويونان ورومان وفراعنة ؛ ولكن الحوادث ارتدت عن المسلم كما ترتد الحصباء عن القلعة الشماء ؛ وكل مصيبة تنزل بالمسلم تصير عاملاً على إسعاده ، وسبباً فى رقيّه :

نحن نُهدى الخلق زهراً وثماراً
وسـوانا يبعث النـار ضراما
كل نمروذ إذا أوقد ناراً — عادت النيران برداً وسلاما

نحن بالإيمان نبقى عِزَّنا
لا نبالى الهول أو نخشى الضحايا
وإذا الباغى رمى فى غرسنا — جذوة الظلم جعلناها ترابا

ذهب اليونان والرومان والـ … فرس قدماً وفراعين الزمان
وهُدى الإسلام ما زال على … قمة الدنيا يدوِّى بالأذان

ها هو يذكّرنا بأن المثل لوجود الله هو الأمة . وأما الأفراد فهم زائلون . بهذا يدعو المسلم إلى أن يبذل نفسه فرداً لكى يحيى دولةً وشعباً ، ثم يذكّره بأصله الأزلى وفرعه الأبدى ، ويضع نار اليقين فى صدر المسلم محولة إليه فى ثنايا هذه الأبيات :

معيشـــة الفرد خيال … والبقـــاء للأمم
فكُنْ فداء المبدأ الـ … أعلى إذا نادى العلم
منزلك العلوىّ لا تحـ … جب سرحه الغيوم
أنت من الجيش الذى … غبار خيـــله النجوم
فى العالم الأول من … مطالع الأنوار كُنت
والناطق الأخير فى … رسالة الرحمن أنت
قم وانشر التوحيد فى الد … نيا ووَحِّد الأمم
فأنت خير مَنْ دَعا … وأنت خير من حكم

النظر الذى يروّع الإنسان هو حركة الموت التى تسكن بعدها الأعضاء ، وتبرد الحواس ؛ لهذا يراك «إقبال» مرتعداً مذعوراً لهذا المشهد الرهيب ، يضع على قلبك برد العزاء ، ويبين لك أن ملك الموت لا يميت الأرواح ، وإن أفنى عالم الأشباح :

يعصف الموت بالجسوم ولكن
ليس يُفنى من قوة النفس شيئا
تصـــعد الروح للخلود ويبقى
عالم الغيب والشهادة حيا
لا تمت من مخافة الموت جهلا
فبغير الأنفاس روحك تحيا

ليس الإنسان من هذا العالم فى شىء ، فجميع ما حوله من المظاهر المادية تضمحل وتذهب مع الهشيم ، ويبقى بعد ذلك جوهر الإنســان ساطعاً . يحدثنا عنه «إقبال» :

هوى سرير كيقباذَ … وانطوى إكليل جم
وأصبح الكلّ رمادا … مثلَ هيكل الصنم
أما أنا فلست أدرى … أين يعلو نظرى
أنا تراب غير أن … الشمس دون جوهرى

فى سكون السَّحر تتفتح قلوب الشعراء كما تتفتح الأزهار لتحتضن النسيم وتستقبل الندى . وتغنى مشاعرُ ذلك القلب على الأحياء ، وغير الأحياء ، حتى تتسع للوجود كله بما فيه من ماض وحاضر ، فينظر إلى تلٍّ من الرماد فيسمع من صمته حزن الماضى ، ويقول إننى كنت شجرة مشتعلة يأوى المدلج إلى نارى ، ثم أطفأتنى عواصف الصحراء . هكذا سمع «إقبال» ، سرعان ما تلفت فإذا نهر «سار» قد صفت مياهه كأنها مرآة لنجوم السماء ، فعادت نفسه الحزينة إلى الأمل بعد اليأس ، والرجاء بعد الخوف . وحدَّث عن هذه المشاعر بقوله :

قد تغنى قلبى فأسمع أذنى … نغماً فاق رنة الأوتار
وكأنى رأيت نهر حياتى … نابعاً من صفاء عين السار[1]
أزلىٌّ بعنصرى أبدىٌّ … منزلى فى الخلود فوق المنازلْ
إن جسمى من التراب ولكن
رُوحِىَ البحر ما له من ساحلْ

ما دام المرء لا يقف على حقيقة نفسه ، وما دام يقيس الجوهر الإنسانى بالهيكل الترابى ، فإنه كل وقت مستهدف للخوف من ساعته الأخيرة . و «إقبال» يندد بهؤلاء ويصفهم بهذا البيت :

يلزم خوف الموت كلَّ مضلِّل
يرى أن مقياس الحيــاة تراب

إن الذى يحافظ على كمال ذاتيته يحيى بعوامل الموت . هذه الكواكب والأقمار تزول ، ولكن لنشوة الذاتيــة لا يخبو لمعانها إلى الأبد . والذى تمكن من كمال ذاتيته ونضج إيمانه لا يخاف من الموت القادم . وقد أفهمنا «إقبال» مراراً أن ارتكاب أقبح الذنوب أساسه الخوف ، ولا سيما خوف الموت . هذه الخشية وما يتبعها من يأس وقنوط

(١) اسم نهر فى الهند .

يسميها « أم الخبائث » . وكثيراً ما وازن بين القلوب الفزعة المضطربة والقلوب الآمنة الثابتة ، وبيّن أن الواثق بنفسه يهجم على الأسد كالمعز ، والخائف يفر من الغزال كأن أسداً تعقّبه . ولو لم تكن فى قلوبنا شائبة الوجل لعبرنا البحر كأنه صحراء . وأما الفزع فيرينا فى كل موجة تمساحاً :

يعلو على الموت من تسمو إرادته
وفى عزيمته صدق وإيمان

عمر الكواكب محدود وأنت إلى
غير انتهاء بكأس الخلد ريان

يرى الجبان غزال القاع مرتعداً
كأنه أسد فى القاع ضرغام

والحر يلقى أسود الغيل مبتسماً
حتى كأن أسود الغيل أغنام

إن الشجاع يخوض البحر مقتحماً
كأنما الموج أزهار وأدواح

وموجة النهر فى عين الجبان بها
غول وحوت وتنّين وتمساح

هل يدفع الخوفُ آجالاً محتمة
يجرى على الخلق فى أحكامها القدر

ومن زكت نفسه بالطهر واكتملت
فليس يلحقها من موتها ضرر

محمد حسن الأعظمى والصاوى الشعلانى

من أحسن ما يروى
دراسة واختيار
للأستاذ أحمد الزين

شوقي

حديثي اليوم في هذا الشاعر عن قصيدة من روائع شعره ، بل من روائع ما قيل في عصره ؛ وكان شوقي معجباً بها أشدّ الاعجاب ، مزهواً بها أشدّ الزهو ، كَلِفاً بسماعها من رُواة شعره ، لا يملّ ترديدها على سمعه ؛ وإذا سئل : ما أحسن قصائدك ؟ كان جوابه : « مصارع الأيام » ، وهي خليقة بإعجابه وزهوه وكَلَفِه بسماعها ، فانها تُعدّ بحق من عيون الشعر التصوري والعاطفيّ والفكريّ جميعاً .

أما كونها من عيون الشعر التصوري ، فلأنها في جملتها صورةٌ بارعة الفن ، كاملة الأجزاء ، دقيقة الصنع لمجتمع التلامذة في معاهدهم من حين يجمع بينهم الدرس في حياة التحصيل والأمل ، ثم تفرقهم حظوظهم المقسومة في حياة الجهاد والعمل ، متنقلين في مراحل الحياة بين ناجح ومخفق ، وراجٍ ويائس ، متفرقين في سبلها بين واصل ومنقطع ، وماضٍ ومبطىء ؛ متباينين في عُدد الكفاح بين مسلحٍ وأعزل ، ومرهَفِ الحدّ وكليله ؛ مختلفين في ثمرة هذا الجهاد ، بين ناعم ومخيَّب ، ومُعطًى ومحروم ؛ إلى أن تنقضي تلك الرحلة كلُّها ببلوغ الأمد وانقطاع الأجل .

سار الشاعر تلك القافلة المكدودة من حين تأهّبها لهذه الرحلة الشاقة ، متنقلا معها من مرحلة إلى أخرى من مراحل الحياة ، حتى ألقت عصاها ، واستقرّت بها نواها ، سارداً قصةَ الحياة جميعها ، مستوعباً ما يتعاور هؤلاء الركبان في صحرائها الموحشة من خوف ورجاء ، ومشقّة وراحة ، وكيف تعبث بهم رياح القدر ، فتضلّ بعضهم عن القصد ، وتحيد به عن الجادّة ، وتمضي بآخرين الى الغاية .

تنقّل ذلك الشاعر الفذّ مع لِداته وأتراب صباه من عهد الطفولة ، فصورهم فيه تصويراً رائعاً إلى عهد الشباب ، فوصفهم في ذلك الطور وصفاً بارعاً ، ثم إلى الكهولة فالشيب ؛ فلم يدع دقيقاً ولا جليلا من أحاسيس الكهول والشيوخ إلا أبرزه في لفظ شريف وبيان رائع ومعنى طريف .

ثم وقف موقف الحكيم الذي يحسن استنباط العظة واستخلاص العبرة وإثارة الذكرى ، فلم يدع في ذلك زيادة لمستزيد ، حتى انتهى بهم إلى الموت الذي يقف عنده كل سفر ، وينقطع كل أثر ؛ تاركاً دموع القارئ وأشجانه اللتين أثارهما بتلك الخاتمة المحزنة يتممان قصيده ويستجيبان لشجوه .

ومن هنا كانت هذه القصيدة من عيون الشعر العاطفي أيضاً — كما أسلفتُ — بما تثيره خاتمتها المؤلمة من أسى ولوعة ، ولما فيها من ذكريات حارّة تبعث الحزن والأسف على عهود خلَتْ ، وأزمنة ولّت ، ورفقة في طريق الحياة فرقتهم أيدي الغِيَر ، وعبثت بشملهم أعاصير القدر ، فتساقطوا في الطريق جماعة بعد جماعة ، وأدركهم الفناء فريقاً بعد فريق (كما فني السراب على القفر اليباب) .

ولا يُجيد القول في الذكريات والحنين إلا شاعر غمرت العاطفة قلبه ، ونفذ شعاعها إلى قرارة نفسه ، فلم يقصر نظره على ما حوله ، بل ينظر إلى الماضي نظر الباكي المستعبر ، وإلى المستقبل نظر الآمل المتشوّف .

أما كون هذه القصيدة من روائع الشعر الفكري

فلما أودعه الشاعر فيها من طرائف العظة وروائع الحكمة ودقائق المعاني التي لا ينفذ إليها إلا ذهن قوي وفكر محيط بكل ما يتناوله من جميع وجوهه .

وإنه ليطالعك في هذه القصيدة من دقائق المعاني في الحياة وتقلبها بأهلها ما يسلك شاعرها في عداد كبار الفلاسفة ومقدمي الحكماء الذين لهج التاريخ بذكرهم وزين صفحاته بمآثرهم .

وبعد ، فإن لي على شوقي في هذه القصيدة مؤاخذات لا ينبغي أن يفوتني الإشارة إلى بعضها ، فهو حين بدأ قصيدته بالحديث عن عهد الحداثة ، نسي أنه يتحدث عن عهد مملوء بالمرح واللهو اللذين لا تشوبهما شائبة من هموم الحياة وكدر العيش ، ولا ظلٌّ من التفكير فيما يتلو هذا العهد من أعباء ثقال ومصاعب شداد ؛ ولكن الشاعر قد نسي ذلك فملأ حديثه عن هذا الطور عما ينتظر تلك الأزهار الغضة بعد الطفولة من غِيَر الزمان ونوائب الأيام ، وما سيقاسونه بعدُ من شدائد يضيق عنها احتمالهم ؛ ولم يكتف بذلك ، بل ذكّرهم بالموت الذي هو غاية كل حي ، وما أبعد المدى بينهم وبين تلك الغاية المحتومة ! فكان كمن يرى الطفل يلهو ويلعب فرحاً بالحياة باسماً لها ، غافلاً عما ينتظره فيها ، فيقول له : العب كما تريد فإن أمامك من حوادث الزمان ما يقطب وجهك ويعبّس جبينك ويمنعك اللعب ؛ ولشوقي العذر في ذلك ، فإنه قال هذه القصيدة وهو شيخ قد أشرف على الغاية وأوفى على الموت ، وكادت سفينته تلقي مراسيها على الساحل الآخر ، فهو يلتفت بنظره الباكي إلى من لم يزالوا على الساحل الأول ، فيذكرهم بأنهم إلى مثل ما صار إليه صائرون .

وكان أولى به أن يعود إليهم بذهنه ، إن لم يعد إليهم بسنه ، فيتحدث فيهم كأنه منهم .

والحق أن شوقي كان في حديثه عن الطفولة في هذه القصيدة حكيماً حيث كان ينبغي له أن يكون شاعراً .

وإليك تلك القصيدة الرائعة بتمامها لم أقتضب منها غير بضعة أبيات قليلة ، قال :

ألا حبذا صحبة المكتب
وأحبب بأيامها أحبب !
ويا حبذا صبية يمرحون
عنان الحياة عليهم صبي
كأنهم بسمات الحياة
وأنفاس ريحانها الطيب
يراح ويغدى بهم كالقطيع
على مشرق الشمس والمغرب
إلى مرتع ألفوا غيره
وراعٍ غريب العصا أجنبي
ومستقبل من قيود الحياة
شديد على النفس مستصعب
فراخٌ بأيك ، فمن ناهض
يروض الجناح ، ومن أزغب
مقاعدهم من جناح الزمان
وما علموا خطر المركب
خليون من تبعات الحياة
على الأم يلقونها والأب
عصافير عند تهجي الدروس
مهارٌ عرابيد في الملعب
جنون الحداثة من حولهم
تضيق به سعة المذهب
عدا فاستبد بعقل الصبي
وأعدى المؤدب حتى صبي

لهم جرس مطرب في المراح
وليس إذا جد بالمطرب
توارت به ساعة للزمان
على الناس دائرة العقرب
تشول بإبرتها للشباب
وتقذف بالسم في الشيب
يدق بمطرقتيها القضاء
وتجري المقادير في الموكب
وتلك الأواسي بأيمانهم
خطائب فيها الغد المختبي
فمنها الذي إن يقم لا يعد
من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها المؤخر خلف الزحام
وفيها المقدم في الموكب
جميل عليهم قشيب الثياب
وما لم يحمل ولم يقشب
كساهم بنان الصبا حلة
أعز من المخمل المذهب
وأبهى من الورد تحت الندى
إذا رف في فرعه الأهدب
وأطهر من ذيلها لم يلم
من الناس ماش ولم يسحب

* * *

قطيع يزجيه راع من الحمد
ر ليس بلين ولا صلب
أهابت هراوته بالرفاق
ونادت على الحيد الهرب
وصرف قطعانه فاستبد
ولم يخش شيئا ولم يرهب
أراد لمن شاء رعي الجديب
وأنزل من شاء بالمخصب
وروى على ريها الناهلات
ورد الظماء فلم تشرب
وليس يبالي رضا المستريح
ولا ضجر الناقم المتعب

* * *

فيا ويحهم هل أحسوا الحياة
لقد لعبوا وهي لم تلعب
تجرب فيهم وما يعلمون
كتجربة الطب في الأرنب
سقتهم بسم جرى في الأصول
وروى الفروع فلم ينضب
ودار الزمان فدال الصبا
وشب الصغار على المكتب
وجد الطلاب وكد الشباب
وأوغل في الصعب فالأصعب
وعادت نواعم أيامه
سنين من الدأب المنصب
وعذب بالعلم طلابه
وغصوا بمنهله الأعذب

وتمنهم به شهوات الحياة
وحب التباهة والتكسب
وزهو الأبوة من منجب
يفاخر من ليس بالمنجب
وعقل بعيد مرامي الطماح
كبير الثقافة والمأرب
ولوع الرجاء بما لم تنل
عقول الأوائل ولم تطلب

***

توهمهم في ظلال الرخاء
وفي كنف النسب الأقرب
وتكسير فيهم غرور الثراء
وزهو الولادة والمنصب
بيوت مطرزة كالعتيق
وإن لم تنجز ولم تنجب
يضاهي ثراها ثرى (مكة)
ويقرب في الطهر من (يثرب)
إذا ما رأيتهم عندها
يموجون كالنحل عند الربى
رأيت الحضارة في حصنها
هناك وفي جندها الأغلب
وتعرضهم موكبا موكبا
وتسأل عن علم الموكب
دع الحظ يطلع به في غد
فإنك لم تدر من يجتبي
قد زين الأرض بالعبقري
محلى السموات بالكوكب

وخدش ظفر الزمان الوجوه
وغيض من بشرها المعجب
وغال الحداثة شرخ الشباب
ولوثت المرد في الشيب
سرى الشيب متئدا في الرءوس
سرى النار في الموضع المعشب
حريق أحاط بخيط الحياة
تعجبت كيف عليهم غبي
ومن تظهر النار في داره
وفي زرعه منهم يرعب
قد انصرفوا بعد علم الكتاب
لباب من العلم لم يكتب
حياة يغامر فيها امرؤ
تسلح بالناب والمخلب
وسار إلى الفاقة ابن الغنى
ولاقى الغنى ولد المترب
وقد ذهب المثري صحة
وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب في تلقي الدروس
تلقى الحياة فلم ينجب

***

وغاب الرفاق كأن لم يكن
بهم لك عهد ولم تصحب
إلى أن فنوا ثلة ثلة
فناء السراب على السبسب

أحمد الزين

أنباء وآراء

إلى أخي الأستاذ العبادي

قرأتُ مقالك البديع عن السفاح ، فأعجبت بجدته وابتكاره ؛ ولكني لا أكتمك أنه ترك في النفس شيئاً أرجو أن تسمح لي بعرضه عليك :

١ — لقد استبعدتَ أن يكون الشاب الجميل العفيف الوفي الكريم الطروب سفاكاً لدماء البشر ، وقلتَ إن الطبيعة البشرية لا تتسع لهذا التناقض .

فما قولك يا أخي فيما استشهدت أنت به من خطبته ، إذ يقول فيها عن نفسه : « أنا الثائر المبير » ، والابارة : الابادة والاهلاك ؛ فهل كنا أعرف بنفسه منه ؟

٢ — وذكرتَ أن الكتب التاريخية المتقدمة لم تسمِّ أبا العباس سفاحاً ، كأبي حنيفة الدينوري والطبري ؛ ولكني رأيتُ في الدينوري نفسه (ص ٣٥١ طبع مصر) عنواناً هكذا « ظهور أبي العباس السفاح وبيعته » ، فهل كلمة « السفاح » زيادة من الناسخ ، أو ماذا ترى ؟ ورأيت ابن واضح اليعقوبي — وهو أسبق من الطبري — يسميه « السفاح » أيضاً ، فيعنون فصله بالعنوان الآتي « أيام أبي العباس السفاح » . وإن قلنا إن العنوان قد يكون من الناسخ فقد وَرَدَتْ الكلمة في أثناء الحديث ، ص ٣٨٦ من الجزء الثاني ، إذ يقول : « وعبد الله الأصغر ، وهو السفاح » .

٣ — واستشهدت بقول المسعودي : إنه كان طروباً محباً للعلم . فما رأيك في قول المسعودي أيضاً نقلاً عن محمد ابن علي العبدي : « أما أبو العباس السفاح فكان سريعاً إلى سفك الدماء ، واتبعه عماله في الشرق والغرب في فعله ، واستَنُّوا بسيرته » ٢/٤٠٠ .

٤ — وما قولك يا أخي فيما رواه الكندي في كتاب « الولاة والقضاة » ، وهو يكاد يكون معاصراً للطبري ، من أن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان هرب بثلاثة أولاد له ذكور إلى فقط ، فأعطوا أماناً من صالح ابن علي (والي مصر) ، وكتب فيهم إلى أبي العباس أمير المؤمنين ، فكتب أبو العباس بأمره أن يشخصهم ، فحملوا في محامل أعراء ، فمضى بهم إلى قلنسوة من أرض فلسطين فقتلوا بها ، وقتل معهم عيسى بن الوليد بن عمر ابن عبد العزيز ؟

أترى أن ذلك فعل بأمره أو بغير أمره ؟

الرأي إليك — يا أخي — حتى يتجلى الحق ، والسلام .

أحمد أمين

فقيد كريم

فقد المسرح المصري في الأسبوع الماضي دعامة من دعائمه ، وركناً مكيناً من الأركان التي قام عليها صرحه ، وهو المحامي والممثل القدير الأستاذ عبد الرحمن رشدي ، وهو من المثقفين الذين هووا المسرح ، وهجروا عملهم الذي تؤهلهم له شهاداتهم العليا ليخدموا المجتمع عن طريق الفن الجميل .

ولقد ظهرت هوايته للتمثيل وهو بعدُ في عداد طلاب الحقوق ، فكان يقيم الحفلات الخاصة ، ولا يني عن شهود التمثيل والاختلاط بأوساطه ، كما كان مشتركاً

فى إنشاء (جمعية أنصار التمثيل) فى عهدها الأول مع المرحوم الأستاذ محمد عبد الرحيم .

وقد تخرّج الأستاذ عبد الرحمن رشدى فى مدرسة الحقوق ، وتوظف فى قلم قضايا الأوقاف ، فلما أن قدم من فرنسا الأستاذ جورج أبيض من بعثته المسرحية ، وألف فرقته ، لم يتردد المرحوم فى ترك الوظيفة فى الوقت الذى كان شبان مصر أشد ما يكونون حرصاً عليها ، وكان مستقبل الوظيفة الحكومى مفتوح الأبواب واسع الأفق . وقد تولى الأستاذ رشدى أدواراً عظيمة لا يزال تمثيله لها على مسرح دار الأوبرا الملكية ماثلاً فى الأذهان لا تمحوه الأيام ؛ وكان أول هذه الأدوار (تيمور) فى رواية لويس الحادى عشر ، وكان أداؤه له قوياً رائعاً عميق الأثر ، وكذلك سائر أدواره كرسول القصر فى أوديب الملك . وفرنسوا الأول فى مضحك الملك — ورودريجو فى عطيل ، وأدواره فى الساحرة — وغيرها .

ولما أن انفضت فرقة الأستاذ جورج أبيض عاود المحاماة ، ولكن نزوعه إلى التمثيل ظل ملازماً له ، ملحاً عليه ، يغالبه على نفسه حتى غلبه ؛ فألّف فرقة بالاشتراك مع الأستاذ عمر وصفى أخرج فيها رواية العرائس وروايات أخرى أخصها بالذكر روايتان لشكسبير ، إحداهما مكبث حيث قام فيها بدور كدوف ؛ والثانية عطيل ، وقام فيها بدور ياجو . ثم عاد ثانياً إلى المحاماة ، ولم تمض فترة حتى عُيّن فى إدارة المطبوعات ، ولم يلبث فيها حتى عاوده داؤه القديم ، فحنّ إلى التمثيل وألّف مرة أخرى فرقة جاب بها الأقاليم ، فكانت دعاية طيبة للفن المسرحى ؛ وانفضت الفرقة فعاد إلى المحاماة ، حتى إذا تألفت الفرقة القومية انتخب ضمن الأعضاء البارزين ، ولم يطل مكثه بها وعاد إلى المحاماة فترة من الزمن عُيّن بعدها مفتشاً لشؤون التمثيل فى وزارة المعارف حيث وافاه القدر المحتوم .

ولقد كان المرحوم إلى جانب هوايته للتمثيل من العاملين فى الحركة الوطنية ، كما كان غنى النفس بالعقيدة الدينية ، فلم يفته الحج إلى بيت الله الحرام . ولم يزل حتى آخر أيامه متحمساً لفنه لم تخمد قط جذوته فى نفسه حتى لفظ نفسه الأخير وهو مشغول الفؤاد بالفن ، عامر القلب بمشاريع إصلاحه .

السرعة فى الأدب

كتب السير هيو والبول القصصى الإنجليزى المعروف يشكو من طغيان السرعة على كل شىء فى الحياة حتى على الأدب ، وينذر التراث الأدبى للجيل الحاضر بوقفة مزرية سيقفها بين تراث الأجيال السابقة من أعمال أدبية خالدة ؛ فالأدباء فى السنوات الأخيرة ، على حد تعبيره ، لم ينتجوا شيئاً له قيمته لسببين : سرعة القراءة والاطلاع ، وسرعة التفكير وسرعة الكتابة .

ويرى السير والبول أنه إن كان من مظاهر المدنية الحديثة أن تسود السرعة كل شىء ، فإن من مظاهر الانحطاط العقلى أن تسود السرعة الإنتاج ، لأنه — كما يقول — « لا يمكن للكاتب الخالق أن يدفع إنتاجه كما يدفع أحد العمال فى مصانع السيارات صنع قطعة الحديد التى يمارس صنعها مئات المرات كل يوم ويقذف بها إلى الآلة . إن العمل الأدبى غير ذلك بالمرة ، لا تغنى عادة الكتابة فيه شيئاً ، ولا يمكن أن تكون كثرة ممارسته سبباً يمهد للكاتب أن يكتسب السرعة فى إنتاجه مع الاحتفاظ بالجودة . إن المسمار الصغير لا يمكن للمتأنى فى صنعه أن يجعل منه شيئاً أكثر من مسمار ؛ أما العمل الأدبى فإن المتأنى فى إنتاجه يستطيع أن يتدرج به بتدرج التأنى من الموضوع الإنشائى التافه إلى القطعة الأدبية الرائعة ، إلى العمل الأدبى الخالد » .

ويضرب سير والبول المثل بالكتاب السابقين ، فيقول : « إننى وهكسلى وشو وغيرنا من الكتاب

المعاصرين تستطيع أن تخرج فى كل شهر كتاباً وكتاباً رائعاً تطبع منه عشرات الطبعات . ولكن هل منا من يستطيع أن يجلس إلى مكتبه خمس سنوات ليكتب قصة كمدام بوفارى كما فعل فلوبير ، أو يصور عصراً فى قصة واحدة ، كما فعل زولا ؟ أغلب الظن أننا سنعجز ؛ فإن أزيز الطائرات والقطارات والسيارات التى تمرق مروق السهم لن تسمح لنا بالتأنى . إننا نريد أن نجارى العصر ، وتلك علتنا الكبرى . السرعة هى الداء الذى يقتل فى الأدب الحديث كل عناصر الخلود » .

ومع هذه الشكوى التى يرسلها سير هيو والبول فإنه يتفاءل خيراً بهذه الحرب فإنها ستستنفد طاقة البشر وشهيتهم للسرعة ، وستكون نتيجة ذلك أن يزهد الناس فى السرعة ، وسيكون أول الناس إحساساً بذلك هم الكتاب .

الفن كما تراه كاترين مانسفيلد

فى الجزء الذى صدر حديثاً من مذكرات كاترين مانسفيلد صفحات من الخواطر التى كانت تحررها فى فترات متقطعة ، وتدون فيها رأيها فى بعض مسائل الفن والأدب . والذين قرأوا لكاترين مانسفيلد يعرفون أنها كانت غير سعيدة فى حياتها لما توافر عليها من ظروف وأمراض ، وأنها مع ذلك من القلائل الذين أنتجوا إنتاجاً قليلا ، ومع ذلك فقد تركوا خطوطاً واضحة فى صفحة الأدب ، ولاسيما فى القصة ، فهى كما يقول المستر موراى جامع هذه المذكرات تنفرد بلون من القصة لا يمكن أن يسمى إلا بقصص مانسفيلد !


كاترين مانسفيلد

وبين الخواطر التى دونتها كاترين مانسفيلد ، وظهرت فى هذا الجزء ، رأى لها فى الفن والفنان . نذكره على علاته لما فيه من عمق ودقة فهم . فهى تقول : « إن الحقيقة لا يمكن بأى حال أن تكون هى المثل الأعلى . وليست وظيفة الفنان أن يضرب بالفأس ليستخرج الحق ، ولا أن يفرض على العالم الكائن نظرته إلى الحياة . إن الفن ليس هو محاولة الفنان أن يوفق بين نظرته وبين العالم . وإنما هو أن يخلق الفنان عالمه المنشود فى هذا العالم الكائن . إن ما يلهم الفنان موضوعاته ليس الحقيقة ، وإنما هو نقص العالم أو خلوه مما يتصوره » .

تلك هى بعض الخواطر التى دونتها القصصية الإنجليزية عن الفن ، وهى كما يرى القارئ فيها من الغموض ما يلمحه القارئ لقصصها نفسها من الإبهام .

الدعاية البريطانية

بالرغم من الاحتياطات القوية التى يتخذها النازى لمقاومة الدعاية البريطانية فى ألمانيا ، فإن هذه الدعاية تقوى وتشتد يوما بعد يوم ، حتى لقد أصبحت مهمة مقاومتها لا تقل أهمية عن مواجهة حالة الحرب عند الحكومة الألمانية ؛ فالنشرات السرية التى تكشف من مساوئ الحكومة النازية لا تلقى من الطائرات فحسب ، بل تطبع فى برلين نفسها ، وتوزع فى كل أنحاء البلاد . ومحطة الاذاعة السرية التى أجهدت الشرطة السرية نفسها للكشف عن أمرها ، تواصل إذاعتها ويستمع إليها الكثيرون ، رغم القرار الشاذ الذى استصدرته الحكومة بإعدام من يستمع إلى إذاعات الأعداء .

وقد كان آخر خطوات هذه الدعاية أن عثر الناس فى برلين منذ أسبوعين على إعلانات كبيرة للحائط تحوى بياناً بعدد الخسائر والضحايا الحقيقى معلقة فى كل مكان فى برلين وضواحيها — الأمر الذى أفزع رجال البوليس ، ففتح باب التحقيقات الطويلة التى لم تؤد إلى نتيجة . فلجأت الحكومة إلى الحل الذى تستعمله دائما فى مثل هذه الأحوال ، وهو إعدام عدد كبير من رجال البوليس بتهمة الخيانة .

فى عالم التأليف

كتاب بلوغ المرام

نشر العلامة الكبير الأب أنستاس الكرملي كتاب «بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام» للقاضي حسين بن أحمد العرشي ، وهو من علماء اليمن الذين عاشوا فى الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجرى ؛ وهو كتاب يقع فى ٨٢ صفحة من الحجم المتوسط ، اختصر فيه كاتبه حوادث اليمن من أوائل الدولة الأموية إلى حوادث سنة ١٣١٨ هـ . وقد أضاف الناشر إلى هذا الكتاب أربعة ملحقات أكمل فى أولها حوادث اليمن من حيث انتهى المؤلف إلى حوادث اليمن فى سنة ١٣٥٣هـ . وتكلم فى الملحق الثانى على بلدان اليمن ، وضمن الملحقين الثالث والرابع مطامع الغربيين فى اليمن ، والاتفاقيات والمعاهدات والتقريرات ، ثم أردف هذه الملحقات الأربعة بتسعة عشر فهرساً لخص فيها كل ما جاء فى الكتاب والملحقات الأربعة ، ورتبه ترتيباً أبجدياً رائعاً .

وقد أسدى الأب العلامة بنشره هذا السفر القيم خدمة جليلة لن ينساها له أبد الدهر المشتغلون باليمنيات وبلاد العرب الجنوبية ، كما أنهم لم ينسوا له من قبل إخراجه فى سنة ١٩٣١ الجزء الثامن من كتاب الاكليل للهمدانى . ولكن ليسمح لى سيدى الأب بذكر بعض التصحيفات اليسيرة التى وقعت فى هذا الكتاب الفخم الرائع ، والتى قد يكون جلها إن لم يكن كلها من خطأ الطابع لا الناشر ، كما أرجو أن يسمح لى بذكر ما عنّ لى عند قراءة هذا الكتاب من تعليقات وإيضاحات .

— ١ —

ص ٤٢ س ١ — (ودسال) . صحح الناشر هذا الاسم فى ص ٢٧٩ هكذا (وردشار) دون أن يذكر لنا سبب هذا التصحيح ، ولم يتكرم بإرشادنا إلى المصدر الذى اعتمد عليه فى تصحيحه ، خصوصاً وأننا نجد هذا الاسم يرسم هكذا (وردسان) فى كتاب (تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن) ص ٣١ س ١ ، و (وردسار) فى كتاب (العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية) للشيخ على بن الحسن الخزرجى ج ١ ص ٤٣ س ١١ .

ص ٤٩ س ١٦ — (الحسن بن وهاش . صحة هذا الاسم (الحسن بن وَهّاس) وهو الأمير الحسن بن وهاس ابن أبى وهاس بن محمد بن حسين بن حمزة بن الإمام المهدى لدين الله النفس الزكية الحسن بن عبد الرحمن . دعا لنفسه بالامامة فى سنة ٦٥٦ بعد قتل الامام المهدى لدين الله أحمد بن الحسين ، فبايعه الأشراف وبعض الزيدية وازورّ عنه البعض الآخر . وفى سنة ٦٥٧ قبض عليه الأمير صارم الدين داود بن الامام المنصور بالله عبد الله وسجنه فى حصن ظفار عشر سنين . وتوفى الحسن بن وهاس فى سنة ٦٨٣ فى صَعْدَة ودفن فى حصن ظَفَر بجبل الظاهر من بلاد حاشد[1] . وقد ورد (وهاس) محرفاً

(١) انظر كتاب (تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم) ص ٣١ ، وكتاب (إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ومن قام باليمن الميمون من قرناء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء =

أيضاً فى ص ١٨ س ٥ وص ٥٦ س١٦ و ٢٠ . وكذلك فى فهارس الكتاب .

ص ٥٠ س ٨ — (الشميبى سنجر) . الصواب (الشعبي سنجر) وهو الأمير علم الدين سنجر الشعبي عامل المظفر الرسولى على صنعاء . (العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٦ — ١٣٧) و (إتحاف المهتدين ص ٦٢) .

ص ٥٠ س ١٠ — (ودفن بالوشل) . الصواب (ودفن بالوشلى) والوشلى هو مسجد الأجذم بصنعاء . جاء فى فرجة الهموم ص ٣٥ : « وقبر فى مسجد الأجذم المسمى الآن الوشلى » .

ص ٥٠ س ١٦ — (بتنعيم) . الصواب (بتنعم) وهى من جبال اللوذ ببلاد خَولان العالية . وقد وردت (تنعم) صحيحة فى س ١٩ من هذه الصحيفة . وورد فى كتاب (إتحاف المهتدين) ص ٦٣ : « محل تنعم من جبال اللوذ فى بلاد خَولان العالية » .

ص ٥١ س ١٣ — (بحبوب السودة) من بلاد الشطب . الصواب (بالجُبوب من سَوْدَة شَظَب) . (إتحاف المهتدين ص ٦٤) .

ص ٥٣ س ٨ — (الطاهر) الصواب (الظاهر) وهو جبل فى بلاد حاشد .

ص ٥٦ س ٢٠ — وقبر (بظفر) . صحح الناشر كلمة (ظَفَر) فى ص ٢٨١ بـ (ظفار) ولكن ظَفر صحيحة . وهى اسم حصن لبنى وهاس بجبل الظاهر من بلاد حاشد (العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١١٤ و ٤٠٦ و ٤١٠) . وجاء فى إتحاف المهتدين ص ٧٢ ما يلى :

وقد دعا فى حصنه بالظاهر إدريس وهاس بلا موازر
وبعد حين قد ثوى بلحده وقبره فى ظفر بجده

ص ٦٨ س ١٠ (وقبر بقرينة) . صحح أستاذى الفاضل هذه العبارة فى ص ٢٨١ هكذا (وقبر بقريته) ولكن (بقرينة) هى تحريف كلمة (بالقِراس) فقد جاء فى كتاب اتحاف المهتدين ص ٨٣ ما يلى : « ومشهده بالقراس قريب من حصن ذى مرمر » .

ص ٦٨ س ١٥ — بجبل (رضوان) . الصواب (بجبل ضُوران) كما ورد فى كتاب فرجة الهموم ص ٥٥ .

ص ٦٩ س ٢ — بلاد (المصميات) . الصواب (بلاد المُصَنَّعات) وهى من حاشد (فرجة الهموم ص ٥٧) .

ص ٦٩ س ١٩ — (وقبر بقبة) . (بباب السبحة) . الصواب (وقبر بقبته بباب السبح) كما ورد فى اتحاف المهتدين ص ٨٨ . وجاء فى فرجة الهموم ما يلى : « وقبر بقبته المعروفة بباب السباح من صنعا » .

ص ٧٥ س ١٩ — (وإحسانهم (كذا) ومرهبة على بعض) . صحح أستاذى الفاضل هذه الفقرة فى ص ٢٨١ هكذا (وأحسوا أنهم رهبة لهم) ولكنى أظن أن الأصل هكذا (وأحباء نِهْم ومُرْهِبَة على بعض) . وعلى ذلك فقراءة سطرى ١٥ — ١٦ هكذا (وتغلبت أحياء خولان العالية على بعض منه وأحياء نهم ومرهبة على بعض) . أى أن (احسا) تحريف كلمة (أحياء) ونهم ومرهبة اسما قبيلتين . جاء فى صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٨١ س ٩ ما يلى : « وثَم قرية المعدن معدن الفضة وهو معدن لا نظير له فى الغزر ، وخرب بعد قتل محمد بن يعفر ، وذلك أنه كان حداً بين نِهْم من همدان ومُرْهِبَة ومُراد و بَلْحَرث و خولان العالية » .

ص ٨٠ س ١٣ — ١٤ . (كل ما كان ملكه إذ ملكوه) . ذكر أستاذى الفاضل لهذه العبارة فى ص ٢٨٢ تصحيحاً غريباً غير مفهوم ، وهو (كل ما كان ملوكه ملكوه) . ولكن عبارة المتن صحيحة من جهة النحو ، وقد أتى اللبس من زيادة (كان) بين الصلة والموصول .

إذاً فقراءة هذين السطرين هكذا : « إلا أنه خسر كل ما كان مَلَكَه إذ مَلكوه ثم استرجعه ثم استردوه »

* * *

= والمرسلين) للسيد محمد بن محمد بن يحيى زبارة ، ص ٦٠ — ٦١ و ٧٢ . وكتاب (العقود اللؤلؤية) جـ ١ ص ٢٣٧ . وجاء فى القاموس المحيط مادة (و ه س) وكذلك الأسد وطء) .

يقول أستاذى الفاضل فى وصف النسخة الخطية ص ٢٤٥ : « وقال فى مصدر انثال . الانثوال لا الانثيال (ص ٦ وهو غريب عجيب) » . ولكنى أقول إن هذه المسألة من باب قلب الياء واواً ، وهى شائعة فى البلاد اليمنية ، وقد سمعتهم يقولون (الله يخلوه) بدلا من (الله يخليه) و (علوه) بدلا من (عليه) . وقد ورد مثل ذلك فى النقوش القديمة كلمة (بنى) التى ترد فى النقوش المعينية والسبأية القديمة تصير (بنو) فى بعض النقوش الحديثة . وقد احتفظ اليمنيون بهذا الاختلاف إلى يومنا هذا ، فتجد أن (بنى) تسبق أسماء بعض القبائل اليمنية و (بنو) تسبق أسماء البعض الآخر . مثل (بنى يعفر) و (بنو محمد) . كما ورد العكس ، فقد جاءت فى أحد النقوش القديمة التى عثرت عليها فى متحف صنعا كلمة (يسط) عوضاً عن (وسط) . وكلمة (الرخية) الواردة فى ص ٤٣٦ من كتاب سيدى الأستاذ هى من هذا النوع ، فهى تقابل (الرخوة) فى اللغة العربية الفصحى .

إذاً فورود كلمة (الانثوال) عوضاً عن (الانثيال) هو من أثر اللهجات اليمنية الحديثة على المؤلف ؛ كما نلحظه أيضاً فى استعماله الجمع فى مكان المثنى ، كقوله مثلا فى ص ٦٧ من الأصل . « وتوفى الحسن بضوران فى سنة ١٠٤٨ ، والحسين بذمار بعد أن حمدت أعمالهم وشكرت أحوالهم . ولم يزل المؤيد بالله بمدهم هادياً ومهدياً . . . » الخ . وهذا أمر شائع جداً فى اليمن ، بل يكاد يكون قاعدة عامة . كما أنه ورد كثيراً فى نقوش جنوبى بلاد العرب .

هذه هى التصحيفات التى أمكننا العثور عليها فى المتن الذى نشره العلامة الكبير الأب أنستاس الكرملى ، وسأتكلم فى المقال الثانى إن شاء الله على الكلمات اليمنية التى جاءت فى الكتاب .

خليل نامى

على هامش السيرة

(بقية المنشور على صفحة ٨)

وقد مضى زيد مع نبيه وصاحبه كما كان يمضى مع أبيه ، وفياً أميناً مخلصاً ، مجاهداً فى سبيل الحق ، مضحياً فى ذات الله . وإذا رسول الله يزوجه حاضنته أم أيمن الحبشية ، ويعده الجنة ، فتنجب له أسامة بن زيد .

ثم تقبل المحنة الأخيرة ، فهذا النبى يجهز لغزوة مؤتة ، فاذا أتم جهازه اختار الأمراء ، فقدّم زيداً وقال : فان أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فعبد الله بن رواحة .

قال المحدثون : فوثب جعفر بن أبى طالب فقال : يا رسول الله ، ما كنتُ أرهب أن تستعمل علىّ زيداً . فقال رسول الله : امضه فانك لا تدرى أى ذلك خير[1] .

ومضى المسلمون إلى مؤتة ، يقودهم زيد ، حتى إذا كانت الوقعة ، قاتل المسلمون على صفوفهم ، وقاتل الأمراء مترجلين ، فقتل زيد رحمه الله طعناً بالرماح ، وقال النبى حين بلغه ذلك : إنه دخل الجنة يسعى .

وصعد النبى المنبر ، فأنبأ المسلمين بمصرع الأمراء الثلاثة . وقال : اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لجعفر ولعبد الله بن رواحة . يستغفر لزيد ثلاث مرات ، ويجمع بين ابن عمه جعفر وعبد الله بن رواحة فى استغفار واحد .

تحدث ابن سعد عن الواقدى فى إسناده ، قال : « لما أصيب زيد بن حارثة ، أتاهم النبى (ص) ، قال فجهشت بنت زيد فى وجه رسول الله (ص) ، فبكى رسول الله (ص) حتى انتحب . فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : هذا شوق الحبيب إلى حبيبه »[2] .

طه حسين

(١ و ٢) طبقات ابن سعد ، طبع ليدن ، جزء ٣ ، صفحة ٣٢

دراسات مسرحية :

كيفيـــــة تهيئة وجوه الممثلين

قبل ظهورهم على المسرح

معلومات سريعة وقواعد عامة عن فن « الماكياج »

" أبان الكاتب فى الفصول السابقة التى نشرناها فى أعداد ماضية كيفية التحاق هاوى التمثيل بإحدى الفرق المسرحية وكيفية دراسة الأدوار التمثيلية ، كما أبان فى آخر بحث نشرناه له ما يجب على الممثل أن يعمله فى أثناء وجوده بالمسرح لعمل التجربة التمثيلية للرواية المسرحية . وفى البحث الجديد يلخص الكاتب كيفية تهيئة وجوه الممثلين قبل ظهورهم على المسرح " .

من المؤكد أن المجال هنا لا يتسع لنشر بيانات وافية مفصلة عن فن تهيئة الوجوه « الماكياج » لا سيما أن هذا الفن عظيم ومتشعب الأطراف ، وقد أثبتت التجارب الحديثة أنه لا تنفع فيه قاعدة معينة للاتباع ، لأنه اتضح أن ما يوافق ممثلا معيناً قد لا يوافق ممثلا آخر ، نظراً لاختلاف السحن البشرية وطبائع كل إنسان من بعضها ، غير أنه توجد قواعد عامة نعتقد أنها هى الأساس الأول لكل عملية من عمليات الماكياج مهما تنوعت أساليبها وتغيرت طرقها بتنوع الممثلين وتغير الأشخاص .

وسنجتهد فى هذا البحث أن نلخص للهواة خير ما جاء بالكتب الحديثة التى تعتبر كمصادر يعتمد عليها فى هـذا الفن ، وما تلخيصنا هذا إلا باب نفتحه لمن يشاء التعمق فى هذا الفن ، فى الكتب العديدة التى تبحث فى هذا الفن معلومات وافية ، تفيد الهواة فائدة أعظم ، وتنفعهم نفعاً أكثر .

وعلى العموم فالقاعدة الذهبية التى توصى الهواة باتباعها هى ألا يبالغوا فى طلاء وجوههم ، لا سيما أن المخرجين يميلون فى هذا الزمن إلى انتخاب ممثليهم بحيث تتفق طبيعتهم وشخصيات الروايات التى يخرجونها ، فبذلك لا يكون هناك داع كبير لتهيئة وجوههم بشكل يختلف كثيراً عن أصلها ، وقد لاحظنا فى رواية « مصرع كليوباترة » التى أخرجتها الفرقة القومية فى أوائل هذا الموسم أن المخرج اختار الأستاذ حسين رياض لتمثيل دور مارك أنطوان ، ونعتقد أن شكل الأستاذ حسين رياض كان من الأسباب القوية التى جعلت المخرج يفضله على غيره من الممثلين الذين يتمتعون بمقدرة تمثيلية تساعدهم على تمثيل الدور . ولا شك فى أن اختيار حسين رياض لهذا الدور خفف مهمة عامل « الماكياج » ، لأنه لم يعتمد كثيراً على هذا الفن ، ولم يستعن به فى نقل شكل الأستاذ حسين رياض إلى شكل مارك أنطوان ، لما بين الشخصيتين من شبه قريب من الأصل .

والعادة أن يغسل وجه الممثل جيداً قبل البدء فى عملية « الماكياج » ، ثم يجفف تماماً ، ويطلى بعدئذ بطبقة من زيت جوز الهند أو من زبد جوز الهند ، الغرض منها حجز بقية المساحيق والألوان التى يدهن بها الوجه ومنعها من التسرب إلى مسام البشرة ، مما قد يضر بالجلد ، كما أن هذه الطبقة تسهل أيضاً عملية إزالة تلك المساحيق والألوان بدون تعريض جلد الوجه إلى كثير من الدلك والحك

مما قد يسبب بعض الالتهابات .

وبعد إزالة تلك الطبقة من زيت جوز الهند أو زبد جوز الهند يشرع الممثل في طلاء وجهه بالألوان والمعاجين المناسبة للشخصية التي سيمثلها ، مع مراعاة اختيار ألوان متمشية ولون البشرة . ولفائدة الهواة نذكر أن الألوان المستعملة لتهيئة وجوه الممثلين تحمل عادة أرقاماً تعرف بها لدى المشتغلين بفنون التمثيل ، فهناك ألوان غامقة تحمل الأرقام الآتية : ٥ر١ — ٢ — ٣ بينما يدل رقم ٤ في هذا الموضوع على لون أحمق ؛ وهذه الألوان تستعمل عادة في طلاء وجوه الأشخاص المفروض أنهم يعيشون في الهواء الطلق والخلاء ، كالفلاحين وأهل القرى ومن إليهم . أما اللون رقم ٥ فعبارة عن لون أصفر خفيف ، ويستخدم عادة كأرضية يطلى بها وجه الممثل عند ما يراد إكسابه شكل رجل مسن . وأما اللون رقم ٦ فعبارة عن أصفر أعمق من اللون رقم ٥ ، بينما يؤخذ اللون البني من اللون رقم ٧ ، واللون البني المائل إلى الحمرة من اللون رقم ٨ ، وهكذا تعرف الألوان بمجرد ذكر أرقامها أمام المهتمين بالشئون التمثيلية وخاصة في المحلات التي تتجر بها .

ولطلاء الوجه بهذه الألوان يجب أن يكون الممثل أو عامل الماكياج — في حالة اعتماد الممثل على عامل الماكياج — ملماً بعض الشيء بفن التصوير بالألوان ، لكيلا يجعل الألوان تطغى على بعضها . والطريقة المتبعة على العموم هي طلاء الوجه بأطراف الأصابع بحيث يوزع الطلاء على كل البشرة توزيعاً ناعماً ، وتراعى الدقة في عملية الطلاء والعناية بطلاء جزء من الرقبة والأذنين لكيلا يبدو للناس الفرق بين لون الممثل الطبيعي واللون المختار للشخصية التمثيلية التي يمثلها .

أما دهان العين والحاجبين فيتم بقلم خاص من الرصاص الأسود الأزرق ، والعادة أن يمد الممثل حاجبيه بالقلم المذكور إلى الطول المناسب ، كما أنه يرسم عادة خطاً أسود تحت كل عين وخطاً أفقياً عند نهاية كل عين من ناحية الخد ، وميزة هذين الخطين هي إظهار العين واسعة وواضحة . وليس في الإمكان تحديد طول كل من هذين الخطين ، فالمسألة تتوقف على ذوق الممثل أو عامل الماكياج وعلى ملاءمة الممثل للشخصية التي يمثلها . وفي بعض الأحيان يضع الممثل نقطة حمراء في النقرة التي تنتهي بها العين من ناحية الأنف ، والغرض من ذلك هو التجميل لا أكثر ولا أقل .

وبعد الانتهاء من هذه العملية يغطى الوجه بطبقة من المسحوق البنفسجي (بودره) لكيلا يبدو على الوجه أي بريق من الدهانات الشحمية التي يطلى بها عند تلوينه ، وفي جو حار كجو بلادنا يجب استخدام هذا المسحوق أكثر من مرة في أثناء قيام الممثل بدوره (بالطبع لا يتم ذلك أمام الجمهور) .

« كينو »

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي	٦٠	في مصر والسودان
	٨٠	في الأقطار العربية
	١٠٠	في سائر الممالك

ثمن العدد ٦ مليم

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم | ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٥٠ | الثلاثاء ١ ذو القعدة سنة ١٣٥٨ — ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــــرس

سياسة الحيـــــاد !

خاضت غمار الحرب دول ، وآثرت الأخرى أن تلتزم الحياد . لكن قليلاً من التفكير يرينا أن ظاهرة الحياد هذه ليست بالأمر البسيط ، بل هى ظاهرة شديدة التعقيد . فحياد سويسره غير حياد إيطاليا ؛ وبريطانيا محايدة بالنسبة إلى روسيا وفنلنده ؛ ومحاربة بالنسبة إلى ألمانيا . ويوشك أن يكون حياد كل دولة نوعاً خاصاً بها . ولهذا جاز لنا اليوم أن نقف لحظة لننظر إلى ظاهرة الحياد هذه ، وكيف تأثرت فى كل قطر بمؤثرات صاغتهـا صياغة خاصة ، وألبستها ثوباً ممتازاً . بحيث أصبحنا اليوم وليس أمامنا لونٌ بل ألوانٌ من الحياد .

ازدادت ويلات الحرب أضعافاً مضاعفة بفضل مبتكرات التدمير الحديثة ، فخافت دول على شعوبها أن تنالها الحرب بالويل والخراب ، فظنت أن موقف الحياد سيعصمها ، ويدرأ عنها كل شر ، فأهملت وسائل الاحتياط ولم تدخر للحرب عدة . وبلغ الأمر بواحدة منها — وهى دانمارك — أن تجردت من السلاح تماماً ، وظلت مجردة منه إلى آخر عام ١٩٣٦ .

وكثير من هذه الدول كان مؤمناً بأن حروب أوربا ستكون دائماً حروب الدول الكبرى ، وأنه لن يكون لها فيها « ناقة ولا جمل » . وأن من الخيانة لشعوبها أن تزج بهم فى حروب لا تعنيها من قريب ولا من بعيد ... وأن العقل والوطنية يقضيان عليها أن تقف بمعزل عن تلك المنازعات الدموية المخربة ... وكان بعضها — بل كلها — يهمس أحياناً بأن فى موقف الحياد ربحاً طائلاً وغنماً عظيماً

المحايد ، الذى يبيع للمتحاربين سلماً وتجارة تدر عليه الربح الوفير والكسب الكثير (ومصائب قوم عند قوم فوائد !) إذن فالخير كل الخير فى الحياد ؛ فهو السبيل إلى السلامة من ناحية ، والربح الجزيل من ناحية أخرى .

وفى نفوس أكثر هذه الدول أن هذا الحياد سيحترم ، ولن يعتدى عليه اعتداء صارخاً . ولهذا لم يحاول إلا القليل منها أن يعد للدفاع عن هذا الحياد عدته المادية والسياسية .

وجارات روسيا بوجه عام ، ودول البلطيق بوجه خاص أهملت فى اتخاذ عدة الحرب إهمالاً شديداً . وربما كان لها فى هذا بعض العذر ؛ لأن روسيا البلشفية كانت تمشى فى طريق ظاهرها المسالمة والموادعة ، وإظهار الصداقة ، و« عدم الاعتداء » لجاراتها ؛ وانتهى بها الأمر إلى الانضواء تحت راية عصبة الأمم لكى تثبت أنها حَمَلٌ وديع كسائر الحُملان الوُدَعاء !

وقد أثرت سياسة الحياد هذه حتى فى بولونيا ، التى خيل لساستها أن من الظلم لشعبها أن يخدم المصالح الفرنسية بمعاداة ألمانيا ، فعقدت معها معاهدة ومع روسيا معاهدة .

وظلت فى موقفها هذا حتى بعد يوم « مونيخ » الشهير ؛ ولم تحاول أن تبدل منه إلا بعد أن أعلنت ألمانيا حمايتها على بوهيميا فى شهر مارس الماضى .

***

إذا أردنا أن نعرض لحياد المحايدين ، ومظاهره التى تختلف فى كل قطر عنها فى قطر آخر ، وجب علينا أولاً أن نفرق بين حياد الدول الصغيرة ، وحياد الدول الكبيرة . وقد طالما رددنا فى هذه الصفحات أن الكتّاب قد اصطلحوا على هذا التمييز بين الدول ، وعلى أن الدول الكبرى سبع لا ثامن لها : وهى اليابان ، وأمريكا (الولايات المتحدة) ، وروسيا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا . هذه الفكرة تستند من غير شك إلى حقائق لا مجال لانكارها ، وهى تمثل لنا ظاهرة لعلها أهم الظاهرات السياسية فى وقتنا هذا . ويجب ألاّ ننسى أن حياد الصغير صغير مثله ؛ فلنبدأ حديثنا بالكلام على حياد الدول الأربع الكبرى .

حياد روسيا : أعلنت روسيا حيادها عند بدء الحرب ، وحشدت جيشاً عرمرماً ، قوامه أربعة ملايين من الجند ؛ فأما موقف الحياد ، فقيل فى تفسيره إنه يعبر عن رغبة روسيا فى أن يضعف القتال من قوة الفريقين المتحاربين ، وهو ما تتمناه روسيا ؛ ولئن كان أحد الفريقين أضعف من الآخر ، فلا بد من مساعدته ومناصرته جهد الطاقة ، حتى يستطيع المقاومة زمناً طويلا ، وبهذا تطول الحرب وتشتد . أما الجيش العظيم الذى حشد ، فلكى تمضى به روسيا سياسة جديدة ، ترمى إلى انتهاز الفرصة السانحة اليوم لاسترداد الأقطار التى كانت من قبل جزءاً من دولة روسيا ؛ وهكذا أخذت تبسط يدها على دول البحر البلطى ، وشنت الحرب على فنلندة ، وفى جعبتها من غير شك سهام أخرى لأغراض أخر سيكشف عنها المستقبل القريب .

فالحياد الروسى إذن حياد بالنسبة للحرب الكبرى ، مشرب بروح المساعدة لألمانيا ، والتنكر لفرنسا وبريطانيا ، وهو حياد مصحوب بالضغط على الدول الصغيرة وإرهابها ، والاعتداء عليها .

بريطانيا وفرنسا : لم تعلن الدولتان الغربيتان الحرب على روسيا لاعتدائها على بولندة ، أو لاعتدائها على فنلندة ؛ ولا يعبر هذا الموقف السلبى عن عدم اكتراث كل من الدولتين لمصير بولندة أو فنلندة ، ولكن الدافع إليه فيما يظهر أن ليس من الحزم فى الوقت الحاضر أن تتسع دائرة الحرب والعدوان من غير جدوى ؛ فان موقع الدولة الروسية من المنعة بحيث لا يكون من السهل مصارحتها العداء . ولئن تناول العُدوان الروسى تركيا أو دول البلقان ، فقد يكون للدول الغربية إزاءها موقف غير هذا الموقف .

حياد إيطاليا : دهش الناس حين أعلنت إيطاليا أنها لن تدخل الحرب إلا إذا اعتدى عليها ؛ فقد كان محور برلين وروما من مظاهر القوة ، ما يبعث على اليقين بأن إيطاليا واقفة حتماً إلى جانب حليفتها ؛ ولهذا كثر التساؤل : أليس من الجائز أن موقف الحياد هذا قد اتخذته إيطاليا حرصاً على مصلحة ألمانيا ؟ ومن الغريب أن كثيراً من الناس قد اعتقدوا صحة هذا الرأى ، مع ما فيه من الحط من قيمة إيطاليا الحربية ، ومن اعترافها بأنها لن تستطيع الثبات أمام الجنود الفرنسية . .

على أن الناس قد نبذوا هذا الرأى بالتدريج ؛ وقيل فى تعليل حياد إيطاليا أقوال منها أن إيطاليا لم تكن بعدُ مستعدة لحرب عنيفة طويلة ؛ ومنها أن إيطاليا كانت تعطف حقاً على بولونيا ، ولم تكن راضية كل الرضى من الإغارة عليها ؛ ومنها أن تحالف ألمانيا وروسيا قد أضعف من تحمس إيطاليا ، وحملها على أن تتريث حتى ترى عواقب هـذا التحالف . وقد حاولت حكومة إيطاليا ألا تظهر عطفاً شديداً على أحد الفريقين المتحاربين ، فلم تقل كلمة تنصر بها ألمانيا ، أو تحط بها من شأن الدول الغربية . ولم يظهر أى أثر إيجابى يشم منه أن محور برلين روما قد تلاشى أو ضعف ؛ اللهم إلا فى هذه الأيام الأخيرة ؛ فإن حكومة روما سمحت لشعبها أن يبدى نفوره من خطة روسيا فى فنلنده ، مع أن ألمانيا أظهرت عطفها الرسمى على هذه الخطة .

فحياد إيطاليا إذن فى جملته حياد صحيح المظهر ، لا يشوبه عطف شديد على ألمانيا ، ولا نفور شديد من فرنسا وبريطانيا ، ولكنه مشفوع بشىء كثير من سوء الظن بروسيا وسياستها . وإذا اتخذ هـذا الحياد صورة عدوانية ، فالأقرب إلى العقل اليوم أن تنقلب فيه هـذه النزعة العدائية لروسيا ، رغم ما نسمع أحياناً من الصيحات الخاصة بتونس وقناة السويس وجيبوتى . وهى صيحات لابد من الاعتراف بأنها خفت قليلا عما كانت عليه من قبل .

حياد الولايات الأمريكية المتحدة : فى الولايات المتحدة الأمريكية وسائل غير رسمية تتبع أحياناً لاستطلاع اتجاهات الرأى العام من آن لآن . وقبيل هذه الحرب بأسابيع أظهرت هذه الاستفتاءات أن نصف سكان الولايات تقريباً ينادى بأن تقف أمريكا إلى جانب الدول الديمقراطية فى حربها مع ألمانيا . غير أن النصف الآخر كانت له الغلبة ، واكتفت أمريكا بأن تمد الحليفتين الغربيتين بالمساعدة المادية والأدبية . حقاً أنها اليوم تتغاضى عن كل سلعة تقدمها لبريطانيا أو فرنسا ؛ غير أنه ما من شك فى أنها ستمضى فى هذه المساعدة إلى أبعد مدى ، وإذا طال أمد الحرب فإنها قد تفسح للحلفاء فى أمر الدفع ما وسعها ذلك .

فحياد الولايات المتحدة بالنسبة لدول الغرب ، يشبه حياد روسيا بالنسبة إلى ألمانيا . أى حياد مشرب بروح العطف الشديد على الدول الديمقراطية ؛ وقد ازداد هـذا العطف أخيراً حين اعتدت روسيا على استقلال فنلنده ، حتى أوشك هذا الحادث أن يؤدى إلى قطع العلاقات السياسية بين الدولتين .

حياد اليابان : لم يبدُ من ساسة اليابان اهتمام بشئون أوربا ومشاكلها فى يوم من الأيام ، وشغلهم الشاغل شئون الشرق الأقصى ، حيث الحرب الصينية تدور رحاها أكثر من عامين . ولئن كانت اليابان غاضبة على بريطانيا لسياستها الصينية ، فليس هنالك ما يبعثها على الرضى عن روسيا وسياستها الصينية ؛ ولهذا ليس فى الجو اليوم دليل يستحق الذكر ، بأن اليابان ستميل فى وقت قريب إلى أحد الفريقين وتؤزره بالمعاونة والمساعدة .

حياد الدول الصغيرة : نلتفت الآن إلى حياد الدول الصغيرة ؛ وهـذه تنقسم إلى مجموعات ، بعضها غير مرتبط بمعاهدة أو حلف مثل دويلات البحر البلطى ، وبعضها مرتبط بمحالفة ضعيفة ناقصة مثل دول البلقان ،

والبعض مثل دول اسكنديناوة بينها تفاهم وتعاون يوشك أن يكون تحالفاً . وبعضها منفرد بنفسه مثل سويسرة وبلجيكا وهولنده .

فأما سويسره فهي الدولة الوحيدة التي كان الحياد دائماً شعارها المقدس ، لم تخرج عنه يوماً قيد الشعرة . وقد بذلت دائماً جهداً جباراً في المحافظة على هذا الحياد ، وأنفقت في سبيله من العدة والمال ما لا يقل عما تبذله الدول المحاربة . والحق أن حياد سويسره كان دائماً ذا فائدة للمتحاربين ؛ ولعل أكثرهم ليس شديد الحرص على أن يغامر بخرق هذا الحياد ؛ فمن مصلحة الجميع أن تبقى هذه الجزيرة الآمنة المسالمة وسط هذا البحر الصاخب من الحرب والقتال .

أما هولنده وبلجيكا فحيادهما معرض تعرضاً شديداً للعبث ، وللضغط الشديد من المتحاربين ، ولقد رأيناهما في المدة الأخيرة تحاولان التفاهم على خطة مشتركة تسلكانها حالة الاعتداء على واحدة منهما ، ولكن هذا التفاهم إذا درأ عنهما بالأمس خطر الاغارة الصريحة ، فانه لم يدرأ عنهما الطائرات المحلقة تخترق جوهما . أو الغواصات والألغام تدمر سفنهما وتفتك برجالها ، ولقد اختطف من أرض هولنده ثلاثة من الرجال ونقلوا عنوة إلى ألمانيا ، دون أن تستطيع حكومة هولنده أن تفعل شيئاً سوى الاحتجاج الهادىء الرزين ؛ والحقيقة أن حياد كثير من المحايدين في المدة الأخيرة لم يكن سوى سلسلة من الاحتجاجات الهادئة الفاترة القليلة الأثر .

أما دول اسكنديناوة الأربع فقد اعتزمت الحياد منذ عهد بعيد ، ولكن مقدرتها على الدفاع عن هذا الحياد محدودة ؛ وليس من بينها دولة قد اتخذت للدفاع عن حيادها مايتطلبه من العدة الحربية ؛ وقد اعتدت روسيا على فنلنده ، وربع سكانها من السويد ، فلم نر أسوج تبادر إلى نصرتها والوقوف إلى جانبها ؛ ولو شاءت ألمانيا أن تغير على داغارك فان هذه لن تستطيع للعدو دفعاً ولا رداً . ولعل خير ما يقال في وصف حياد هذه الدول أنه حياد المستسلم للقضاء والقدر ، الذي ينتظر لعل عاصفة الحرب أن تتجنبه ، فينجو من شرها ، لا بفضل سياسة حكيمة قد اتبعها أو عدة حربية أعدها ، بل لأن المحاربين قد آثروا أن يبقوا عليه ويتجنبوه .

ودول البلقان هي أيضاً متمسكة بالحياد وهي عالمة علم اليقين أنها لن تترك لشأنها ولحيادها ، ولكنها مشغولة بخصوماتها الصغيرة ، وما بينها من ثأر قديم ، وحزازات في النفوس ، تشغلها عن التفكير في ذلك الحياد وما يتطلبه من وسائل الدفاع عنه ؛ ولو أن هذه الدول تعقل ما لهذا الحياد من الخطر في حياتها وما يستدعيه من التضافر والتعاون المؤقت لنحت خصوماتها جانباً ، وضحت ببعض مصالحها مؤقتاً للدفاع عن هذا الحياد الثمين .

* * *

هذا العرض السريع لموقف الحياد في مختلف الأقطار ، يرينا في وضوح أن الحياد الصحيح قليل نادر ، وتوشك سويسره أن تكون الدولة الوحيدة التي عرفت قيمة الحياد واستمسكت به ، وأعدت للدفاع عنه عدة قوية . أما سائر المحايدين فحيادهم مشرب بالعطف على أحد الفريقين ، أو حياد المغلوب على أمره ، المعرض في كل لحظة لأن يغار على أرضه ، وأن تخترق حرمة حياده . ومن المآسي العجيبة ما نراه اليوم من انتظار الدول الصغيرة ، حتى يأتي دور كل منها فتتعرض لأشد ضروب الذل والعدوان . فاما أن تذعن صاغرة للمحارب القوى ، أو تتعرض لحرب طاحنة ضروس .

ليس من شك في أن هذه الدول يوم اعتنقت سياسة الحياد ، لم تكن تحسب أنها ستكون عرضة لكل هذا الهوان ؛ ولو علمت لكان لها في هذه الحرب شأن غير هذا الشأن ، وخطة سوى هذه الخطة .

محمد عوض محمد

مدرســـة الأزواج

للدكتور طه حسين بك

أرادت وزارة الشؤون الاجتماعية أن تصلح نظام الحياة في مصر ؛ وكان بين النظم التي ذكرتها في أحاديثها وإعلاناتها نظام الأسرة ، لأنها لاحظت كما لاحظ الناس منذ زمن بعيد ، وكما سيلاحظون إلى زمن بعيد ، أن نظام الأسرة المصرية في حاجة إلى الاصلاح . وقد بحثتُ ، وأستطيع أن أبحث دائماً عن بيئة متحضرة ترضى عن نظمها الاجتماعية ، وتطمئن إليها ، ولا تبتغي لها إصلاحاً فلم أجد ، ويظهر أني لن أجد مهما أمعن في البحث والاستقصاء .

فالسخط على الحياة الحاضرة أصل من أصول الطبيعة الانسانية ، وهو سبيل هذه الطبيعة الانسانية إلى التطور والرقي ، كما أن الرضى المطلق سبيلها إلى الجمود والخمود ، ثم إلى التدهور والانحطاط ؛ فستظل دائماً في حاجة إلى الاصلاح مهما تكن أمورنا صالحة ، وسنسخط دائماً على نظام الأسرة مهما يكن هذا النظام مصدر لذة لنفوسنا وغبطة لقلوبنا ، وسعادة تعيننا على احتمال أعباء الحيـاة . والشر كل الشر أن نسرف في تقدير هذا السخط الطبيعي الذي يدفع إلى العمل ، ويسمو بالناس إلى الكمال ، ويطمح بهم إلى المثل العليا . الشر كل الشر أن نغلو في تقدير هذا السخط فنحوله إلى يأس مثبط للهمم ، مفسد للآراء ، صارف عن العمل ، باعث على القعود .

فليس نظام الأسرة في مصر بالقياس إلى الحياة المصرية ، من الفساد والقبح بحيث يظن المتشائمون ، ولكنه نظام يلائم حياتنا ، وقد أنتج لنا نتائج رضينا عنها ورغبنا فيها ؛ وهو كغيره من النظم قابل للتطور ، مصدر لشيء من القلق ، معرض لكثير من الاضطراب ؛ فالخير في أن نلاحظه ملاحظة دقيقة ، ونلائم بينه وبين ما يلم بحياتنا من ألوان التطور ، حتى لا يختل التوازن بين أعضاء الأسرة من جهـة ، وبين الأسرة والبيئة الاجتماعية من جهة أخرى .

وكنتُ أظن حين أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية أنها ستكون وزارة ملاحظة ومراقبة وإحصاء وتسجيل ؛ تلاحظ حياتنا من جميع أنحائها ، وتراقب ما يعرض لها من العوارض ، وما يلم بها من التطور ، وما يكون لذلك من أثر في الدقيق والجليل من أمرها ، ثم تسجل هذا كله وتحصيه وتستخلص نتائجه وتعلنها إلى الناس ، ليتعلم منهم من يريد العلم ، وليصلح منهم من يريد الاصلاح ؛ وتعلنها بنوع خاص إلى الذين إليهم تدبير الأمر في هذه البلاد ليروا فيها آراءهم ، وليطبقوا لها ما تقتضيه من أعمال التشريع والتنفيذ .

كنتُ أظن ذلك ، وكنت أظن أن وزارة الشؤون الاجتماعيـة ستستقبل حياتها على طريقة ديكارت ، قد جردت نفسها من كل علم سابق ، ومن كل رأي سابق ، وأخذت تدرس شؤون مصر في أناة ومهل ، كأنها لا تعلم من هذه الشؤون شيئاً ، وهيأت لهذا الدرس وسائله قبل البدء فيه ، فأنشأت إدارة الاحصاء ، وإدارات مختلفة لمراقبة شؤوننا الاجتماعية وملاحظتها . وكنت أظن أنها ستنفق عاماً أو نحو العام في إعداد هذه المصالح والادارات ، وإمدادها بوسائل البحث العلمي الدقيق ، وأدوات الملاحظة الصحيحة المنتجة ، ثم تأخذ بعد ذلك

فى الدرس على مهل وفى روية وتثبت . وكنت أظن أنها ستحتاج إلى عامين ، أو إلى أعوام ، قبل أن تظهر لانشائها نتائجه اليسيرة الأولى . ولكننا فى مصر نحب العجلة ونكره الأناة ، وليس لنا صبر على الروية والبحث ، ولا طاقة لنا بالحياة يوماً أو أياماً دون أن يقول الناس عنا شيئاً ، ودون أن نرى أسماءنا فى الصحف والمجلات مقرونة إلى أعمال تضاف إلينا خطأ أو صواباً ، وتحمل علينا صدقاً أو كذباً ؛ وليس المهم أن نعمل ، وإنما المهم أن يُظن بنا العمل ؛ وليس المهم أن ننتج أو نصلح ، وإنما المهم أن نتهم بالانتاج والاصلاح . وأنا أستعمل كلمة الاتهام عن عمد .

ومهما يكن من شيء فقد أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ، فكنت أسعد الناس بإنشائها ، ثم أخذت وزارة الشؤون الاجتماعية فى النشاط ، فلا أقول إلا أنها رسمت فى نفسى وعلى وجهى ابتسامة فيها مرارة شديدة . ومهما ننكر على وزارة الشؤون الاجتماعية ، فنحن مضطرون إلى الاعتراف بأنها قد أعطتنا مادة الكلام ، وقد أعطتنا مادة للدعاية أيضاً . ونحن فى مصر نحب الكلام ، ونحن فى مصر نكلف بالدعاية كلفاً شديداً . فلنشكر لوزارة الشؤون الاجتماعية فضلها علينا ، ولعلها أن تتقاضانا غداً أو بعد غد شكراً آخر أقوم وأجدى من هذا الشكر .

وكان من أول ما أنشأت وزارة الشؤون الاجتماعية إدارة الدعاية . وكانت الدعاية نفسها أول ما أقبلت عليه ؛ وكان صديقنا توفيق الحكيم هو قائد هذه الحملة الهائلة ، التى وجهت فى عنف شديد إلى نظمنا الاجتماعية الفاسدة لتدكها دكاً ، ولتقيم لنا مكانها نظلاً اجتماعية صالحة لسنا نعرف ما هى . ولم يرد القائد أن يكون أقل بلاء من جنده ، ولا أن يكتفى بتدبير الخطط ، وتوزيع الجيوش على مناطق

الخطر . وإنما كان قائداً باسلاً مغامراً ، كقادة القصص القديم ؛ يسبق جنده إلى الميدان ، ويعرض نفسه للخطر ليكون أسوة حسنة ، وقدوة صالحة لأتباعه المستبسلين .

وقد افتتح الحرب بحملة عنيفة على خصمه القديم ، وصديقه القديم أيضاً ؛ ذلك الخصم الذى ينغص يومه ، ويؤرق ليله ، ذلك الصديق الذى تنقطع نفسه حسرات فى سبيله ، والذى ألهمه ما أنتج من أدبه الجيل ؛ ذلك الخصم وذلك الصديق الذى يسمى المرأة . وكانت غارة القائد المستبسل عنيفة ظريفة ، وكانت مضحكة ، وكانت مخيبة للآمال . لم يقل فيها صديقنا الأديب شيئاً لم يكن قد قيل من قبل ؛ ولكنه أعاد حديثاً زهد فيه الناس ، وأعاده فى لهجة محنقة من جهة ، ومؤذية للذوق من جهة أخرى ؛ محنقة لأنها لا تلائم الحق ، ومؤذية للذوق — وأريد الذوق الأدبى — لأنها نزلت بالأستاذ إلى أن يتحدث عن أشياء لم تألف الحديث عنها فى أدبه الرفيع عن البطاطس والفرن ، وما يتصل بالبطاطس والفرن . وقد قرأت وضحكت وغضبت ، ثم انتهى بى الغضب والضحك إلى هذه الابتسامة المرة التى ترسمها على وجهى وزارة الشؤون الاجتماعية دائماً كما ذكرت . وقلت فى نفسى : هذا فن جديد من فنون الإعلان ، فلن يمضى حديث مدير الدعاية دون أن يثير السخط ، ويدعو السيدات والآنسات إلى الرد والجدال ، فيكثر القول ، وتُذكر وزارة الشؤون الاجتماعية فيه ، وتتحقق الدعاية العنيفة بيسيرة مهلة ، لم تكلف عناءً ، ولم تحتج إلى نفقة . ولم أخطئ فى التقدير ، فقد هاج السيدات والآنسات ، وما أسرع ما يهجن ! وكان من حقهن أن يهجن فى هذه المرة ، وقد أخذن على غرة ، ولم يقدرن كما قدرت أن الأمر لا يراد به إيذاؤهن ، ولا النقص من قدرهن الرفيع فى نفوسنا جميعاً ، وفى نفس الأستاذ توفيق الحكيم خاصة ؛ وإنما هو لون من ألوان الدعاية وفن من فنون الإعلان .

هاج السيدات والآنسات ، فاتصلت ردودهن فى الصحف العربية والفرنسية ، وثارت بينهن المناقشات ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ ولكن الشكوى لم تلبث أن ارتفعت إلى الوزير ، والسؤال لم يلبث أن وجه إلى الوزير فى مجلس الشيوخ ؛ وإذا الوزير ينفى ، وإذا الكاتب يبرأ ، وإذا الأمور تستقر والحمد لله ، بعد عاصفة لم تكن هوجاء ، ولم تكن فاترة ، ولكنها كانت شيئاً بين ذلك ، وكانت تثير فى نفوس أصحاب الجد والحزم غضباً وضحكاً فى وقت واحد ؛ ولا مصدر لهذا كله إلا الإعلان . فمتى يريحنا الله من الإعلان ؟ ومتى تقتصد وزارة الشؤون الاجتماعية فى الإعلان ! ومتى يكلف الأستاذ توفيق الحكيم شيئاً غير إدارة الإعلان ؟

وكذلك كنت أجيل فى نفسى هذه الأحاديث وأعبث بها مع بعض الأصدقاء ، وإذا «الثقافة» تحمل إلىّ ذات يوم فصلا لصديقنا أحمد أمين ، يصور هذه الآراء التى ذكرتها آنفاً تصويراً دقيقاً . فصديقنا أحمد أمين جادٌّ فى هذا الفصل ، عابث فيه أيضاً ؛ جاد لأنه يريد الإصلاح ويبتغى إليه الوسائل ، وعابث لأنه يساير وزارة الشؤون الاجتماعية فى هذه الطريق القريبة التى سلكتها ، طريق التفكير السريع ، والاقتراح السريع ، والإعلان السريع ، والإقدام على السهل والمسير ، فى غير تحفظ ولا احتياط .

يريد صديقنا أحمد أمين مجاراة لوزارة الشؤون الاجتماعية أن تنشأ فى مصر مدرسة للزوجات ، ولم لا ؟ ولكل شىء فى مصر مدرسة . والزوجات شىء ، فيجب أن تكون لهن مدرسة ، ولم لا ؟ والدولة تنشئ المدارس فى فروع العلم والعمل لتخرج من تحتاج إليهم فى مرافق الحياة ، وحياة الأسرة أهم مرافق الحياة ، فما بالنا لا ننشئ مدرسة تخرج اللاتى يقمن على هذه المرافق الخطيرة ، التى هى أساس الخير والشر فى كل ما يمس حياتنا الخاصة والعامة .

وقد احتاط الأستاذ أحمد أمين فى لباقة وظرف وعبث أيضاً ، لى ولأمثالى من الناكثين — الذين يثيرون الاعتراضات ، ويخلقون المشكلات ؛ فرد على الاعتراضات قبل أن تثار ، وحل المشكلات قبل أن تخلق ، وظن أن فصله هذا سيمضى دون أن أعقبه ، كما تعقبت فصله البديع فى فن السرور .

ولكن صديقنا لم يقدّر أنى مصمم على تعقبه دائماً فى هذا اللون من ألوان الحديث الذى يمس شؤوننا الاجتماعية ويلتمس لها العلاج السهل اليسير القريب ، الذى يكفى أن نفكر فيه ساعة ، ونكتب فيه فصلا ، لنظن أننا قد وصلنا به إلى الغاية ، وانتهينا به إلى أبعد آماد الإصلاح .

فمدرسة الزوجات هذه فكرة ظريفة ، ذكرتنى لمجرد قراءتها بآثار أدبية رائعة لموليير وجيد وموروا ، وغيرهم من الكتاب والشعراء . ولعلها شوقتنى إلى أن أعود إلى قراءة هذه الآثار الأدبية التماساً للمتعة الفنية ، والتماساً لبعض ما أتحدث به إليكم أيها القراء الأعزاء . ثم هى ذكرتنى فى الوقت نفسه بكتاب آخر خطير ، ألفه المسيو ليون بلوم رئيس الوزراء السابق فى فرنسا ، وزعيم الاشتراكية الفرنسية منذ حين ؛ ألفه فى أول هذا القرن وأعاد نشره حين كان رئيساً للوزارة الفرنسية منذ عامين . وهو كتاب الزواج ، وهو كتاب ضخم طويل ممتع ، ولكن الحديث عنه لا يلائم هذا الطور من أطوار حياتنا الاجتماعية ، ولا يوافق عرفنا وأخلاقنا . وحسبك أنه أثار وما زال يثير فى فرنسا سخطاً عنيفاً . وهذا الكتاب يمكن تقسيمه إلى قسمين : أحدهما تعريف الزواج وتصويره وتصوير الأغراض التى ينبغى أن تلتمس منه وتطلب إليه ؛ والثانى تصوير الوسائل التى تمكن من تحقيق الزواج على النحو الذى يلائم ما أراد المسيو ليون بلوم من الأغراض .

والقسم الأول يمكن أن يختصر فى أسطر ، وهو

يطابق كل المطابقة رأي صديقنا أحمد أمين ؛ فليس الزواج عند مسيو ليون بلوم متعة عنيفة ، ولذة متهالكة ، وليس الزواج وسيلة إلى إرضاء طائفة من الشهوات الجامحة ، التي تضبط ولا تنظم ؛ وإنما الزواج نظام عادي ، ينظم حياة هادئة ، ويؤدي إلى سعادة هادئة ، ويعين على احتمال أعباء الحياة في طور من أطوار السن ، يصعب فيه احتمال أعباء الحياة . وإذاً فلا بد من أن يعد الزوجان إعداداً صحيحاً دقيقاً لهذا الطور المادي المريح الخصب من حياتهما ؛ وإلى هنا يتفق مسيو ليون بلوم والأستاذ أحمد أمين .

ولكنهما يختلفان بعد ذلك في مسائل إعداد الزوجين ؛ فأما مسيو ليون بلوم فيفرض مدرسة لا تقيمها وزارة المعارف ولا وزارة الشؤون الاجتماعية ولا أي وزارة من الوزارات ، مدرسة لا بناء لها ولا برنامج لها ولا ناظر لها ، وإنما الدنيا كلها هي بناؤها والحياة كلها هي برنامجها والطبيعة كلها هي ناظرها ، يدخل الناس فيها أحراراً ويخرجون منها أحراراً — إن كان الناس أحراراً في هذه الحياة — ولكنهم قد يندفعون إلى الشر الذي لا حد له وإلى الفوضى التي لا ضابط لها ؛ وأما مدرسة الأستاذ أحمد أمين فهي كما رأيت مدرسة ستقام في شارع المنيرة أو في شارع العباسية أو في شارع من شوارع القاهرة ، سيكون لها برنامج محدود مكتوب ، يأبى الأستاذ أحمد أمين أن يرسمه ، لأنه لا يستطيع أن يرسمه ، ولأن رسمه لا سبيل إليه ؛ وستكون لها ناظرة درست بالطبع في فرنسا أو في انجلترا ونالت الليسانس أو الدكتوراه أو البكالوريوس أو الماجستير ؛ في أي مادة ؟ لا أدري ولا يدري الأستاذ أحمد أمين . وستكون هذه المدرسة تابعة لمراقبة تعليم البنات في وزارة المعارف أو لفرع من فروع الشؤون الاجتماعية ، لا أدري ما هو ولا يدري الأستاذ أحمد أمين ما هو ؛ وسيكون في هذه المدرسة أساتذة لا أدري أيكن من السيدات والآنسات ؟ أيتخرجن في مصر أم في أوربا أم يتخرجن هنا وهناك ، ولا أدري في أي مادة يتخرجن ولا يدري الأستاذ أحمد أمين أيضاً . وليس يكفي أن تزعم أن ذكر البرنامج تفصيل وأنك لا تريد الدخول في التفصيل ، فحاجتنا إلى التفصيل أشد من حاجتنا إلى الإجمال ؛ فحدثني ماذا تريد أن يدرس في هذه المدرسة ؟ صنع البطاطس في الفرن كما يريد توفيق الحكيم ؟ فإن بناتنا يتعلمن هذا وكن يتعلمنه قبل أن تنشأ المدارس ؛ العزف على البيانو والعود والقانون ؟ فإن هذه أشياء تدرس الآن في المدارس والبيوت ؛ تفصيل الثياب وألوان اللباس ؟ فإن هذا يدرس عند المعلمات قبل أن تنشأ المدارس . ويدرس في هذه المدرسة بعد إنشائها ثقافة العقل والقلب والحس والشعور بالأدب والعلم وبالفن والفلسفة ؟ فإن هذا يدرس في المدارس والجامعات . الأخلاق وآداب الأسرة والاجتماع ؟ فإن هذا يدرس ولا يجدي درسه والخير أن يكتسب من الحياة العملية اكتساباً . ماذا تريد إذاً أن يدرس في هذه المدرسة ؟ وأين تريد إذاً أن يتخرج الأساتذة الذين يعلمون في هذه المدرسة برنامجاً لم ترسمه ، وما أرى إلا أنك ستجد إلى رسمه سبيلا ؟ وهل من الحق أن الزوجات وحدهن يحتجن إلى العناية وإلى أن تنشأ لهن مدرسة خاصة ؟ أعليهن وحدهن وزر الفساد الاجتماعي الذي تشقى به الأسرة والأمة ؟ أليس من الحق بل من الواجب أن نصارح أنفسنا في شجاعة وحزم وبراءة من الأثرة والكبرياء ، بأن وزر الفساد إن كان هناك فساد إنما يقع على الرجال قبل أن يقع على النساء ، وأن النساء إن شاركن فيه فإنما يشاركن فيه بمقدار يسير . إن المرأة لا تشكو من آثام الزوج أو لا تشكو منها إلا قليلا جداً ، وأؤكد لك أن آثام الزوج وسيئاته أعظم وأضخم وأشد هولاً مما يمكن أن تؤخذ به المرأة .

إنك لتعلم كما أعلم أن أكثر الرجال يلغون المرأة إلغاء من حسابهم في حياتهم اليومية ، فهم يهملونها إذا أقبلوا على أعمالهم لينهضوا بتكاليف الحياة ، وليس عليهم بذلك بأس ،

(البقية على صفحة ٤١)

الأدبُ الفـــجّ!

للأستاذ عبد العزيز البشرى

كان من مزايا صديقنا شاعر النيل حافظ بك إبراهيم، عليه رحمة الله، مطاوعةُ البديهة، وحضورُ النكتة، يتصرف فيها ويفتنّ لكل مقام، ما تتعاصى عليه ولا تتعثّر على لسانه أبداً.

وكان، إلى هذا، يحفظ أظرف النوادر وأطرفها وأدعاها للعجب، وأبعثها للضحك.

وقد سمعتُ منه، رحمه الله، النادرةَ الآتية، قال:

قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور (الكبارى)، كان الناس يتخذون الفُلْك (المعدية) فى طلبهم العِبْرَ من العِبْر.

وجاء رجل من المدينة ليعبُر إلى الروضة من ساحل (فم الخليج)، وكان الليل قد تقدّم، فوجد الملاحَين يغطّان فى نوم ثقيل، من (تحشيش) الليل وكدّ النهار، فما زال بهما حتى نبّهما، ونهض أحدهما إلى موضع المجاذيف، وتولى الثانى الدفّة، وأنشأ صاحب المجاذيف يضرب بمجدافيه جنبَ الماء. على أنه ما كاد يفعل مرتين أو ثلاثاً حتى تَبهَّر وانقطع نَفَسُه، وانخذلت قواه، وأحس شدة جفاف الحَلق من أثر الحشيش، فتناول الكوز، ولم يكن يعلم أن زميله كان قد أذاب فيه ملحاً ليعالج به أذنه، واغترف به من النهر غرفة، وأصاب من الماء، فإذا هو مِلح أجاج، فصاح من فوره بزميله صاحب الدفّة:

— يا ريس عويس! ....

— هوه!

— إيدك! .... دخلنا المالح! ....

***

ولقد أذكرنى هذه الحكايةَ، بعد نسيانها السنينَ الطوال، شأنُ أبنائنا من رادةِ الأدب فى هذه الأيام، وحرصهم على الظفَر بالشهرة، بل بالبطولة والمجد والخلود، بعد علاجٍ منظومٍ أو منثورٍ فى بضعة أشهر، أو فى بضعة أسابيع، وأخشى أن أقول فى بضعة أيام فى بعض الأحيان!

وقبل أن أخوض فى لُجّة الموضوع، أرى من الخير أن أنقل إلى قراء (الثقافة) صدراً من حديث لمتحدث، أذاعه بالراديو فى غاية الأسبوع الماضى، كان بعضه يطوف بهذا الموضوع، قال:

«لا ريب أن ما نسمع الآن من المقطوعات الغنائية إنما هو من النوع الواطئ الردىء، الذى لا قيمة له ولا وزن، ألفاظ سوقية مبتذلة، وتراكيب سقيمة مفككة ومعانٍ منحطة، وأخيلة ظاهرة التزييف والترقيع، فإذا عُدّت هذه الأناظيمُ من الأدب، على أى وجه من الوجوه، فهى من الأدب الفَسْل الوضيع. أو على التعبير العامى الشائع من الأدب (الفلصو) الذى لا محل له بين كرائم الآداب.

«وإنى أشكّ فى أن أكثر هؤلاء الناظمين قد أصابوا حظاً من اللغة، أو جَرَوا على عِرق، ولو ضئيل، من آدابها. إنى أشك فى أن أيهم حفظ شيئاً من شعر البحترى أو أبى نواس أو أبى تمام. بل إنى لأشكّ فى أن أيّهم شق ديوان المتنبى، أو أرسلَ النظرَ يوماً فى ديوان

ابن المعتز أو في ديوان مسلم بن الوليد . وما أحسب أحداً منهم طالع ، ولو بنظرة واحدة ، كتاب (البيان والتبيين) ، إذا كان قد سمع باسم الجاحظ ، ودرى بأن لهذا الجاحظ كتاباً يدعى (البيان والتبيين) !

«وماله ، لعمرى ، يقرأ ، وماله يكد النفس ويعنتها في الحفظ والمراجعة ؛ وماله يستهلك الزمن في تقليب النظر في روائع الآداب ، وترشف ألوان البلاغات ، كما يترشف الماء الزلال ذو الغلة الصديان ؟ — ماله يعانى كل هذا أو بعض هذا ، ولقب الأديب ولقب الشاعر مكفول له من غير كد ولا مطاولة ولا مقارفة جهاد ؟ » الخ الخ .

* * *

وبعد ، فلقد يكون في هذا الكلام شىء من القسوة ، ولكنه لا يعدو الرغبة في الخير على كل حال . وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الضرب من الأدب قد انحط ، في الجملة ، بل لقد هوى إلى قرار سحيق . وإن ما تسمع من هذه المنظومات الغنائية ليشعرك حقاً بأن كثرة هؤلاء الناظمين قد ارتجلوا حرفة الأدب ارتجالاً ، وانتحلوها انتحالا ، ما عناهم في سبيلها جهد ولا تحصيل . وإن من لا يبذل في سعيه إلا الجهد الرخيص ، لحقيق بأن لا يظفر ، إن ظفر ، إلا بالحظ الرخيص . وليس أدل على هذا من أن الكثرة الكثيرة من هذه المنظومات الغنائية لا يكتب لها العيش إلى اليوم الثانى . ولا أدرى كيف لا يكون من هذا وحده عبرة لأولئك الناظمين ؟[1]

ولو قد تفقدنا السبب الحق في تدلى المستوى ، في بعض أسبابنا ، وأعنى مستوى الأدب ، على وجه خاص ، إلى الحد الذى يضر ويؤذى ، لأصبناه في هذا الطائف الذى يطوف بنا في هذه السنين ، وهو ضعف العزائم ، وقلة الصبر ، وتعجل الثمرات ، وابتغاء النتائج من غير تقديم ما يحتم المنطق وتقضى الطبيعة بتقديمه من المقدمات !

هؤلاء ناس يحبون المال ، ويشتهون الغنى ، ولكنهم لا يبتغون المال من وسائله ، ولا يطلبون الغنى من طريقه المقسوم ، من حسن القصد ، وموالاة السعى ، والتخفف مما لا حاجة إليه من النفقات ، وموالاة الجمع والتثمير . ولكنهم لا يجدون في أنفسهم الكفاية من الوسائل المقدرة لإصابة الثابة ، لا من قوة الصبر والانتظار ، ولا من احتمال الجهد في سبيل الجمع والادخار ، ولا شىء من هذا الذى يدرك به ، في العادة ، الغنى واليسار . إذاً فليقامر فلقد يكون إقبال الدنيا في القمار . والقمار ، حرسك الله وعصم عليك مالك ، وإن قل ، سبيل ميسرة لكل إنسان . فمن ثقل عليه أن يستوى إلى إحدى موائده الخضراء ، لهوان شأنه وضيق يده ، فلا يثقل عليه أن يخاطر في حلبة السباق . أليس الجواد (الفلانى) قد أغل الريال عليه مائتى جنيه ؟ . ومن ثقل عليه أن يؤدى نصاب الرهان على الخيل فليشارك في النصاب ، وإلا ففى ورقة (اليانصيب) متسع للجميع ! وفيها المائة والمائتان والخمسمائة والألف والآلاف ، وهكذا يجىء الغنى عفواً بلا سعى ولا كد ولا عناء ! ثم إذا كف المسكين صفر ، سواء في آخر الليل أو في آخر النهار !

وإذا كان هناك فرق بين هذا الذى يطلب الغنى من غير سبيله ، وذلك الذى يشتهى أن يجنى ثمرات الأدب من

(١) ليس المراد مطلقا أن تجرى هذه المنظومات الغنائية مجرى جيد الشعر من جزالة اللفظ ، وطولة النظم ؛ بل الأمر على العكس ، فإنه ينبغى لها سهولة اللفظ ، ويسر التركيب ، بل لقد يقتضى الأمر استعمال العامية في بعض الأحيان إذا كان لا يحلو إلا بها الكلام . =

= وكذلك كان يصنع كبار الشعراء والزجالين فيما مضى ، وكذلك كتب لأغانيهم البقاء إلى الآن . وكذلك يصنع كبار الشعراء والزجالين اليوم ، وكذلك يرجى أن تعيش أغانيهم إلى الغد البعيد إن شاء الله .

غير سبيله ، فإن الحظ محتمل لذلك ، ولو بنسبة ....
أما هذا فغير مقدور له حظ أبداً !

لا . لا ، يا بني لا تظن أن المنزلة في الأدب أو في غير الأدب تواتي بمثل هذا اليسر كله ؛ فالأدب يقتضيك ، مهما تكن قد رزقت الموهبة ، أن تسهر الليالي في حفظ الروائع التي جاد بها من سبقوك من أئمة البيان ، وفي تقليب الذهن في بلاغات من تقدموك من كفاة أصحاب البلاغات ، وشدة المطاولة في محاكاتهم ، والتشبه بهم في منازع بلاغاتهم ؛ فإذا تهيأ لك أن تستحدث طريقاً أو تبتدع في الفن جديداً ، فأنت الأديب الموهوب بفضل الله . أما أن تطالب الطفرة ، وتلتمس النتيجة من غير مقدمات ، فالطفرة ، لو علمت ، محال . لن تكون أكثر من أديب مرتجل ، أو بالتعبير العامي ، أديب (شيطاني) ما دمت تقنع من السعي بأن تنظم كلاماً فارغاً مليحاً ، تلفقه تلفيقاً لا براعة فيه ، من كلمات جمال الطبيعة ، والأشجار ، والأزهار ، والأطيار ، والعبير ، والغدير ، والهدير ، والقمر والنجوم ، والسحاب والغيوم ؛ فإذا وصلت ، بسلامة الله إلى (لحن الخلود) ، فقد أديت (رسالة الأدب) ، وحق أن يذهب لك صيت وذكر في التاريخ . وما شاء الله كان ! .

لا ، لا يا بني . لا يكفي أن تؤلف ، أو على الصحيح أن تلفق من هذه الكلمات ، أو منها ومن سواها ، كلاماً بائخاً مليخاً ، لا طعم له في مساغ النظام ، ثم تطالع به على مغن حدث أو مغنية حدثة ، لتصك بترديده أسماع الناس صكاً . لا يكفي هذا في ابتغاء الرزق من الأدب والمنزلة في الأدباء .

وسامحني ، يا بني ، إذا قلت إنك وأمثالك من أصحاب هذا الأدب الفج (المعجنر) لتجنون على أنفسكم أولاً . وتجنون ثانياً على الأدب في هذه البلاد وغير هذه البلاد !

وأرجو ألا تصغ إلى أصحابك ولداتك الذين يدمجون نك بالثناء دمجاً ، فيصفونك بالعبقرية ، ويضيفون منظومتك إلى الخلود . وكذلك يرم أنفك . وكذلك يطمعونك في المنزلة بين السما كين ، وكذلك تقطع كل سبب بينك وبين مساعي الحياة ، إذ كفك صفر ، وإذ أنت لا تزال هائماً في القفر : فأنت إذاً (كالمنبت ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) ، وصدق رسول الله .

أما أن يصدق هؤلاء الناشئون أنهم قد رزقوا (الموهبة) جميعاً ، فلا حاجة لأحد منهم بسعي ولا تحصيل ، ولا جهد كثير ولا قليل . فليعلموا أن الناس لا يحظرون المواهب بمثل هذه الفداحة الفادحة ، وإذا كانت أمثال هذه المواهب مما يباع ويشرى ، لما ابتغت لها معرضاً أليق من (سوق العصر) .

***

هذه ، شهد الله ، نصيحة صادقة مخلصة ، يسديها إلى جمهرة الناشئين من الناظمين من لا يشعر لهم إلا بعطف الوالد على الولد .

فإذا أصروا ، بعد هذا ، على أنهم يضربون من الحذاق (قد دخلوا المسالخ !) ، فأمرهم وأمر الأدب إلى الله ! ...

عبد العزيز البشري

صور قضائية

في زمان الامتيازات

للقاضي الفاضل صاحب الامضاء

كنت أيام الصبا وحداثة السن أمر في بعض طريق وأنا أسير في مدينة الاسكندرية بتمثال رجل عجوز عجيب الهيئة يجلس على كرسي وقد تدلى شاربه المنفوش على فمه كما تدلى طربوشه على أذنيه ، فسألت عنه فقيل : هذا نوبار باشا الذي كان رئيساً للحكومة في عهد إسماعيل . فقلت أناجي نفسي الطفلة :

« عجيب أمر هذا البلد العجيب ! وكيف يصل رجل أرمني فيه إلى رياسة الحكومة ؟ ثم أي أرمني ! ؟ إنه في حياته لم يكن يجد ولا شك قرشاً يكوى به طربوشه ، فجاء تمثاله بين التماثيل بدعة وأضحوكة ، ثم ها هو بعد موته لا يجد ولو حماراً يركبه ، وتلك التماثيل من حوله تقوم على كل فاره وضامر ، ومنها الذي يشير بذراعيه ، والذي يقبض على سيفه ويشمخ برأسه في السماء . وأما هو فقد قبع فوق كرسيه على سطح الأرض ، لا خيل ولا إناقة لباس ! !

***

هذا كان فيما مضى منطق الطفولة الجاهلة ، واليوم أريد أن أعتذر لهذا الرجل العظيم عن تلك الخلجات التي كانت تطوف برأسي وأنا أمر أمام تمثاله المتواضع ، فأقدم للقراء صورة واحدة من حياته الحافلة بالصور المشرفة وبجلائل الأعمال ... ...

***

كانت مصر في عهد نوبار خاضعة لنظام الامتيازات ،



نوبار باشا

وكان هذا النظام قد بلغ في عهد إسماعيل من الشدة والتفاقم أقصى ما قدّر له أن يبلغه . فقد كان الأجانب في ذلك العهد ينتمون إلى سبع عشرة دولة ، لكل دولة قنصلها الذي يطبق قوانينها فيما يمس رعاياها . ولم تكن في مصر في ذلك العهد محاكم من الطراز الذي يشهده أبناء الجيل الحاضر ؛ فكان المصري لا يملك أن يقاضي الأجنبي أمام المحاكم المصرية ؛ وكان هؤلاء الأجانب على تعدد جنسياتهم يربط بينهم تفاهم ضمني على هضم حقوق الوطنيين ، والتمتع بما هم فيه من حصانة قضائية ؛ فاذا أجّر أحد الوطنيين منزله مثلا لايطالي ، فلم يدفع الايطالي ما عليه من الأجرة ، وزيّن الشيطان للمصري أن يقاضي مدينه أمام القنصلية الايطالية ، ظل الايطالي ساكناً ساكناً حتى تكتمل الاجراءات الأولى للدعوى ، وحتى يتكبد المصري دفع رسومها ، وحتى تسير القنصلية في

نظر الدعوى شوطاً بعيداً توشك بعده أن تفصل في النزاع، ثم يتنازل عن عقد إيجاره إلى زميل فرنسي مثلاً، فينتقل المنزل إليه، وتسقط الاجراءات الأولى كلها، وتضيع على المصري نقوده، ويضيع عليه وقته، ويضطر إلى تجديد الدعوى أمام القنصلية الفرنسية برسوم جديدة وباجراءات جديدة! وفي الوقت المناسب يرى أن الفرنسي قد صنع به مثل ما صنع الايطالي من قبل، ويرى إلى منزله وقد انتقل إلى يد ألماني ... وهكذا تدور الدعوى بقدر ما يدور المنزل من يد إلى يد، وليس ما يمنع أن تتم دورانها سبع عشرة دورة، يعلم الله ما تستغرقه من زمن وما تستنفده من مال!

هذا مثل واحد يبين مسلك بعض الأجانب نحو مضيفيهم المصريين في ذلك العهد. ولكن من الخير أن لا ينسى الانسان في هذا المقام أن يسجل أن هؤلاء الأجانب لم يكونوا يؤثرون «الشعب المصري» وحده بهذه المعاملة. بل لقد كانوا يسوون فيها بين «الشعب» و«الحكومة» نفسها — بل إنهم لم يكونوا يتورعون أن يتخذوا نفس هذا السلوك مع «ولي الأمر» وولي نعمتهم «إسماعيل». فان حديث دعاوى التعويض التي كان يرفعها الأجانب على الحكومة المصرية في ذلك العهد حديث طويل عريض لا ينتهي ولا يغيض! حتى لقد قيل في مقام التمثيل على هذه الحال إن أجنبياً استأجر مكاناً على شاطئ البحر في الاسكندرية ليقيم عليه (أكشاكاً) للاستحمام! فما كاد ينتهي من عمله حتى هبت على الشاطئ عاصفة هوجاء اقتلعت تلك (الأكشاك) وتركتها حطاماً، فرفع الدعوى على الحكومة يطالبها بتعويض مالي جسيم لأنها لم تنبهه إلى أن هذا الموقع من الشاطئ عرضة لأمثال تلك العاصفة!!

أما المثل التاريخي الذي يرويه قراء التاريخ — والذين لم يقرءوه أيضاً — فهو ذلك الذي وقع لاسماعيل نفسه، إذ دخل عليه أحد كبار الأجانب وكان بالقاعة التي استقبله فيها نافذة مفتوحة، فما كاد المجلس يستقر بالضيف والمضيف حتى ابتدر الخديو أحد أتباعه بقوله: «اقفل بالله عليك تلك النافذة لئلا يصاب جنابه بالبرد فيكلفنا ذلك عشرة آلاف جنيه تعويضاً!»

***

ومن الحوادث المشهورة[1] الدالة على غطرسة بعض الأجانب وبجرفتهم وعجز الحكومة عن كبح جماحهم أن إحدى الصحف الفرنسية في سنة ١٨٧٠ دأبت في الطعن على الحكومة المصرية وعلى القنصلية الفرنسية نفسها. فطلب إسماعيل باشا إلى قنصل فرنسا تعطيل هذه الجريدة، ولكن القنصل تغافل عن هذا الطلب، وترك كتاب الجريدة يتمادون في مسلكهم الشائن. فلما رأى نوبار باشا هذا التقصير من جانب القنصلية وآنس من محرري الجريدة استهتاراً بكرامة البلاد أصدر أمراً بتعطيل الجريدة بالقوة، إلا أن صاحبها لم يطع الأمر وتحداه، وظل يحرر جريدته ويصدرها ويوزعها في الطرقات، على الرغم من أمر نوبار الذي كان قد أصدره إلى رجال البوليس المصري بمصادرة كل عدد يعرض للبيع. واتفق بعد ذلك أن ضبط أحد رجال البوليس عدة نسخ مع رجل كان يبيعها. فاستنجد البائع برجل فرنسي اسمه ماروفي، فنهض هذا لنجدته واستل سيف البوليس يريد أن يفتك به عن ضبط تلك النسخ، إلا أن الشرطي تمكن من القبض عليه وعلى بائع الجرائد واقتادهما — لا إلى المخفر — ولكن إلى القنصلية الفرنسية صاحبة الاختصاص. فما كان من القنصل — بدلاً من أن يؤاخذهما بتهمة الاشتراك في جرائم القذف والطعن والسب

(١) كتاب المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية للأستاذ عزيز بك خانكي.

ومخالفة أوامر الحكومة — إلا أن انحاز إلى جانب الفرنسى . وأدهى من ذلك أنه لم يكتف بذلك بل طالب الحكومة بتعويض أساسه أن البوليس المصرى انتزع بالقوة أعداد جريدة فرنسية من أحد الرعايا الفرنسيين ! وهنا برز له نوبار فرفض سماع الشكوى ، وأصر على معاقبة بائع الجريدة لأنه خالف أوامر الحكومة ومعاقبة الفرنسى الذى هم بضرب الشرطى ؛ ولكن القنصل تجاهل هذا الطلب ، وظل على تحديه للحكومة ذلك التحدى الفاضح بأن علق منشوراً على باب القنصلية دعا فيه جميع الفرنسيين إلى حمل السلاح لمقاومة رجال البوليس المصرى . . . .

عند ذلك أدرك إسماعيل باشا خطورة الحد الذى تطور إليه النزاع ، ولم يطمئن إلى استفحال الخلاف بين الحكومة المصرية والقنصلية الفرنسية على هذه الصورة ، فأشار على نوبار باشا بتخفيف وطأته واصطناع المرونة لتفادى هذا الاصطدام . إلا أن نوبار أخذته العزة وأشار بوجوب انتهاز هذه الفرصة التى برز فيها حق الحكومة بروزاً محسوساً ، لتسترد بعض هيبتها وتظهر مقدرتها وسطوتها ، وتضع حداً لهذه الفوضى . ثم دعا جميع القناصل الأجانب ليجتمعوا ويحكموا بينه وبين القنصلية الفرنسية . وكان هو فى خلال ذلك قد هدد بالقبض على كل فرنسى يحمل سلاحاً . فاجتمع القناصل وتباحثوا فى الخلاف ثم قضوا بأن قنصل فرنسا مخطىء فى مسلكه وأن نوبار لم يخرج من حدود القانون . ولكن العجب بعد ذلك ما شاء لك العجب حين تعلم أن حكومات أولئك القناصل ما كادت تقف على ما كان من أمرهم حتى ألحت عليهم باللائمة على تدخلهم فيما لم يكن ليعنيهم ولا يعنى فرداً من رعاياهم . وآخذتهم على أنهم زجوا بأنفسهم فى مشكلة لا تتعلق بحكوماتهم ، بل تتعلق بقنصل دولة أخرى وبأجنبى غير تابع لهم . . . . .

على أن القنصلية الفرنسية ذاتها لم تقتنع بهذا الحكم . واتصلت بحكومتها لتتدخل بصفة رسمية فى هذا النزاع ؛ وبعد مباحثات دبلوماسية طويلة طلبت الحكومة الفرنسية تحكيم ثلاثة من قناصل الدول الكبرى للفصل فيما إذا كان البوليس المصرى يملك مصادرة جريدة أجنبية تباع فى الطرقات العامة أم لا . فاجتمع القناصل الثلاثة — وهم قنصل انجلترا وقنصل ألمانيا وقنصل إيطاليا — وحكموا بالإجماع بأن نوبار باشا كان على حق وأن قنصل فرنسا كان مخطئاً . . . .

* * *

هذه صورة يطالعها أبناء الجيل الحاضر فيقرءون فيها أنهم يعيشون فى زمان أسعد من زمان آبائهم . ولكن أهم من ذلك أن يقرءوا بين سطورها أن عليهم واجباً مقدساً ، وهو أن يقوموا بدورهم بما يجعل زمان أبنائهم أسعد أيضاً من زمانهم .

ع . ج

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك

ثمن العدد ١ صاغ

على هامش الدانوب :

حزمة الرسائل

قصة هنغارية — لاوراشي جوفاني

في ساعة مبكرة من صباح ذات يوم ، طرق بيت الدكتور « ك » أحد مشاهير الأطباء في بشت زائر طلب مقابلة الدكتور ، وألح في ضرورة مقابلته في الحال ، قائلاً بأن أي تأخير قد يترتب عليه أخطر النتائج .

أدخله الخادم غرفة الاستقبال لينتظر ، وذهب لايقاظ الدكتور الذي أسرع بارتداء عباءته ، وأمر أن يحضر المريض إليه .

وجد أمامه رجلاً لم يقع عليه نظره من قبل ، ولكنه من مظهره وسلوكه كان ينتسب إلى أرقى طبقات المجتمع ، كان وجهه ترتسم عليه علائم الألم المبرح الجثماني والنفساني ، وكانت يده معلقة في رباط يتدلى من رقبته ، ورغم أنه كان يبذل الجهد في سبيل ضبط نفسه فإنه لم يستطع أن يكبح زفرة مكتومة كانت تفلت من بين شفتيه من حين لآخر .

قال في صوت ضعيف خافت :

— الدكتور ك ... ... ؟ ؟

— نعم أنا هو ... ...

— لم أتشرف بمعرفتك من قبل ، وذلك لأني أقيم في الريف ، ولكن صيتك الذائع وشهرتك بمجلاتك معروفاً لدى الجميع ، على أني لا أستطيع أن أقول إن هذه المعرفة سعيدة ، أو إن زيارتي ستسرك ...

ورأى الدكتور أن قدمي الرجل التالم لا تقويان على حمله ، فأشار إليه بالجلوس .

— متعب أنا ومكدود ، لم أذق طعم الكرى منذ أسابيع ، بيدي اليمنى لا أدري ما بها ، لا أدري إن كان دملاً أم سرطاناً ... بدأ الألم خفيفاً ، ولكنه أصبح الآن التهاباً فظيعاً ... التهاباً فظيعاً لا ينقطع ، بل يزداد يوماً بعد يوم ... ولما لم أقدر على تحمله أكثر من ذلك ، جئت إليك لتزيل الجزء المصاب ، فساعة أخرى من هذا العذاب كفيلة بأن تذهب بعقلي .

وحاول الدكتور أن يبعث في نفسه الطمأنينة ، فقال له إنه قد يستطيع أن يشفيه من آلامه بواسطة المراهم والمحاليل ، دون الحاجة إلى استخدام المشرط .

ولكن المريض صاح :

— لا لا يا سيدي ... ليس هناك مراهم أو محاليل يمكن أن تريحني ، لا بد من المشرط ، لقد جئت إليك لتقطع بمبضعك الجزء الذي يسبب لي كل هذا الألم الفظيع .

قال الدكتور :

— أرني هذه اليد ... ...

مد المريض يده وهو يصك أسنانه ، كأن ألمه فيما يظهر لا يحتمل ، وأخذ يفك ضماداتها بحيطة وحذر بالتين في الشدة ... ...

— قبل كل شيء ، أرجو منك يا دكتور ألا تتردد إذا رأيت ما يدعو إلى الدهش ... مسألتي غريبة جداً ، وسيتولاك الدهش ، ولكن يجب ألا تولي ذلك أهمية ما .

فطمأن الدكتور بال المريض ، وأكد له بأنه كطبيب

يزاول مهنته ، قد ألف رؤية كل شيء ، وليس هناك ما قد يدهشه .

ولكنه بالرغم من ذلك تولاه الدهش والذهول عند ما وقع نظره على اليد ، بعد أن خلصت من أربطتها . لم يكن بها ما يلفت النظر ، كانت كأية يد ليس بها خدش أو جرح ، أو أي مظهر لمرض ... وفي ذهوله وحيرته تركها تقع من يده ...

وما فعل ذلك حتى صرخ الرجل من شدة الألم صرخة عالية ، وحمل يده المصابة بيده الأخرى ليرى الدكتور أنه حقاً يتألم ، وأنه لم يأت بقصد مداعبته أو تحييره .

— في أي موضع تحس الألم ؟

— هنا يا سيدي .

قال الرجل ذلك وهو يشير إلى موضع في ظاهر يده يفترق عنده عرقان ، وسرت في جسمه رعدة حين مسها الدكتور بطرف أصبعه مساً خفيفاً

— أتحس الالتهاب في هذا الموضع ؟

— بدرجة لا تطاق !

— هل تحس بشيء حين أضع أصبعي عليه ؟

ولكن الرجل لم ينطق بجواب ، بل امتلأت عيناه بالدموع ، كأن ألمه حادٌّ لا يحتمل .

— عجيب ! أنا لا أرى شيئاً !

— ولا أنا ، ولكن ما أحسه فظيع ... فظيع حتى ليدفعني أحياناً إلى أن أضرب رأسي في الجدار وأهشمه .

تناول الدكتور عدسة مكبرة وفحص الموضع الذي قال الرجل إنه مصاب ، ولكنه هزّ رأسه وقال :

— الجلد ممتلئٌ حيوية ، والدم يجري فيه بانتظام ، وليس هناك التهاب أو سرطان . وهذا الموضع سليم كأي موضع آخر في يدك !

— ولكني أظن البشرة حمراء قليلا هناك .

— أين ؟

أخرج الرجل قلماً من جيبه ، ورسم به على ظاهر يده دائرة بحجم قطعة النقد الصغيرة وقال :

— هنا ... ...

رفع الدكتور عينيه وتطلع في وجه الرجل ، وقد بدأ يعتقد بأنه معتوه . وأخيراً قال له :

— ابق هنا بضعة أيام وأنا أشفيك .

— لا أستطيع الانتظار . لا بد يخالك أني مجنون أو معتوه . هذه الدائرة التي رسمتها بقلمي هي مقر هذا العذاب الجهنمي الذي ألقاه ، وقد جئت إليك لتزيله .

قال الدكتور :

— هذا أمر لا أستطيع أن أفعله .

— لماذا ؟

— لأن يدك لا يظهر بها أي اعتلال باثولوجي ، وليس في الموضع الذي رسمته اعتلال ما .

— الظاهر أنك تعتقد حقيقة بأني مجنون أو أني أتيت لأهزأ بك .

قال الرجل ذلك ثم دس يده في جيبه ، فأخرج منه ورقة من أوراق البنكنوت قيمتها ألف فلورين وضعها على المائدة ثم قال :

— لعلك ترى الآن أني لست ألهو وأن الخدمة التي جئتك من أجلها عاجلة بقدر ما هي مهمة . إني أستحلفك أن تزيل من يدي هذا الموضع .

— أكرر لك ياسيدي القول بأن كنوز العالم بأسره لا يمكن أن تجعلني أعتبر الصحيح معتلا ، ولا يمكن أن تجعلني أجس بمبضعي جسماً سليماً .

— ولم لا ؟

— لأن مثل هذا العمل يلقي الشبهات على درايتي الطبية

ويؤثر فى سمعتى . سيقول الناس إنك كنت مجنوناً وإنى كنت إما رجلاً عديم الذمة فقمت باستغلال حالتك أو جهولاً فلم أعرفها .

— هـذا حسن . هل تسمح لى بأن أطلب منك شيئاً واحداً ، خدمة بسيطة . إنى أستطيع أن أقطع بنفسى الوضع المصاب . لن أقطع كما يجب لأن المبضع سيكون فى يدى اليسرى ، ولكن هذا لا يهم . كل ما أرجوه منك هو أن تتفضل وتضمد الجرح بعد العملية .

دهش الدكتور حين رأى الرجل جاداً فيما ذهب إليه ، فقد خلع رداءه وشمر عن ساعده وتناول مبضعاً فى يده اليسرى . وقبل أن يستطيع الدكتور أن يفعل شيئاً كان صلب المبضع قد أحدث فى الجلد قطعاً عميقاً .

— قف .

صاح الدكتور وهو يخشى أن يمس الرجل عرقاً مهماً :

— ما دام الأمر كذلك فدعنى أقُم بالعملية .

وتناول المبضع ووضع يد المريض اليمنى فى يده اليسرى وطلب منه أن يشيح بوجهه ، فأكثر الناس لا يطيقون منظر الدم .

— ليست هناك حاجة إلى ذلك ، بل بالعكس يجب أن أرشدك أنا إلى الموضع .

شهد الرجل العملية إلى النهاية ببرود عظيم ، بل لقد كان يرشد الدكتور إلى حدود القطع ، ولم ترتعش قط يده المبسوطة فى يد الدكتور . وبعد أن انتهت العملية وأزيلت الدائرة التى رسمها بقلمه زفر زفرة هائلة كمن أزيح عن كاهله عبء ثقيل باهظ .

— لا يؤلمك الآن شىء ؟

أجاب الرجل وقد انفرجت أساريره بابتسامة :

— كل شىء زال والألم قد اختفى ، وكأنه زال بزوال الجزء المقطوع . والعناء القليل الذى يسببه نزيف الدم تافه إذا قرناه بالألم السابق ، بل إن مثله مثل النسيم الصافى الرقيق بعد لفحة من جهنم . إنى أشعر بارتياح كبير عندما أرى الدم يفيض منى ، دعه ينزف ، دعه ينزف ، ففى ذلك راحة كثيرة لى .

كان الرجل يرقب منظر الدم يسيل من جرحه بارتياح وبهجة ، ولكن الدكتور أصر على تضميد يده .

تغيرت ملامح وجهه كل التغير أثناء عملية التضميد ، فقد امحى ذلك التعبير المفعم بالألم ، وتلاشى ما كان يبدو على وجهه من عبوس ويأس ، وارتسمت عليه أمارات البشر والارتياح . عاد إليه حبه للحياة واستوى حاجباه ، وجرى ماء الحياة فى وجنتيه — تغير الرجل تغيراً كلياً بان أثره فى ملامح وجهه وحركاته .

وما إن وضعت يده فى الرباط المتدلى من عنقه حتى مد يده اليسرى ، وصافح الدكتور وضغط على يده بحرارة وقال له :

— تقبل شكرى العميق فقد شفيتنى تماماً ، والمال التافه الذى أقدمه لك لا يقاس بتاتاً بالخدمة التى قدمتها لى . سأبقى مدة حياتى مديناً لك ، وسأبحث عن الوسيلة التى أستطيع أن أردَّ بها دينى لك .

لم يشأ الدكتور أن يستمع إلى شىء من ذلك ، ولم يشأ أن يقبل الألف فلورين الموضوعة على المائدة ، إلا أن الرجل هو الآخر رفض أن يستعيدها والتمس منه أن يهدى النقود إلى أحد المستشفيات وانصرف .

وبقى الدكتور « ك » عدة أيام يتعهد مريضه إلى أن شفى الجرح الذى فى يده شفاءً تاماً . وقد استطاع فى خلال تلك المدة أن يطمئن إلى أنه يعالج إنساناً مهذباً على درجة كبيرة من الثقافة والاطلاع المنوَّع ، سديد الرأى ، صائب الحكم على الأشياء . وكان بجانب ثرائه يشغل منصباً مهماً فى الدولة . ومنذ زال ألمه الخفى لم يلحظ عليه

الدكتور أى أثر لمرض جثمانى أو نفسانى .

وانتهى العلاج أخيراً وعاد الرجل فى هدوء إلى مسكنه بالريف .

ومضت على ذلك ثلاثة أسابيع ، إلى أن حدث صباح ذات يوم أن تقدم المريض العجيب مرة أخرى .

خف الدكتور « ك » لاستقباله فوجده معلق اليد فى رباط رقبته وقد تقلصت تقاطيع وجهه من فرط الألم بحيث لم يكن من السهل معرفته . لم ينتظر الرجل دعوة الطبيب ، بل ارتمى فوق أحد المقاعد ، وزفر زفرة عميقة تدل على شدة الألم الذى كان يعانيه ، ثم مد يده للدكتور دون أن ينطق بكلمة .

سأله الدكتور ك ذاهلاً : « ما الذى جرى ؟ »

أجاب الرجل فى صوت حزين خافت : « لم نعمق القطع عمقاً كافياً ، فالالتهاب شديد محرق أقسى من ذى قبل ؛ لقد هدّ قواى وصلّب ذراعى . ولم أشأ أن أضايقك مرة ثانية ، فتحملت الألم طويلاً على أمل أن يتدرج ذلك الألم الحق فيصعد إلى رأسى أو يسرى إلى قلبى ، فيضع حداً لحياتى التعسة ، ولكنه لم يفعل ، فالألم ثابت لا ينتقل ؛ إنه لا ينتقل ولكنه لا يوصف ، ألا ترى وجهى يا دكتور ؟ تأمله لتعرف مقدار ما أعانى من ألم » .

كان ممتقع الوجه فى لون الشمع ، وقد تعقد فوق جبينه العرق البارد . فك الدكتور الرباطات التى أحاطت بيده ، كان موضع العملية قد التأم وتكوّن جلد جديد ، لم يبدُ أثر لشىء غير عادى .

وكان نبضه يدق بسرعة وأطرافه كلها ترتعش ، ولكن حرارته لم تكن مرتفعة .

صاح الدكتور وقد ازدادت دهشته : « الحق أن هذا مدهش ، فأنا لم أر فى حياتى حالة كهذه ! »

— أجل إنها عجيبة يا دكتور ، عجيبة مروعة ! لا تحاول أن تجد لها تعليلا ، وإنما خلصنى من هذا العذاب . تناول مبضعك واقطع قطعاً عميقاً واسعاً ، فبغير هذا لا يمكن أن أجد راحة أو هدوءاً !

رأى الطبيب نفسه مضطراً لأن يخضع لتوسلات مريضه ، ومرة ثانية أجرى العملية معمقاً القطع أكثر من ذى قبل . والمرة الثانية قرأ فى وجه المريض علائم الارتياح وابتهاجه العجيب لرؤية الدم ينزف من الجرح .

وبمجرد أن اشتملت يده اللفائف تلاشى شحوب الموت من وجهه وعاد إلى خديه نور الحياة ، ولكن الابتسامة لم تعلُ شفتيه هذه المرة . وشكر الطبيب فى نبرة حزينة :

— شكراً يا دكتور . لقد زال الألم مرة ثانية وسيلتئم الجرح فى أيام ، ولكنى أرجو ألا تندهش إذا رأيتنى مرة ثانية قبل انقضاء شهر !

— يا سيدى العزيز ! اطرد هذه الفكرة من دماغك .

* * *

ذكر الطبيب هذه الحالة العجيبة إلى الكثيرين من زملائه ، كان كل منهم يرى رأيه فيها ، إلا أن أحداً منهم لم يستطع أن يدلى بتفسير مقبول لها .

اقتربت نهاية الشهر وانتظر الدكتور « ك » ظهور تلك الشخصية الغامضة ، إلا أن الشهر انقضى ولم يظهر الرجل .

وانقضت أسابيع تلتها أسابيع ولم يبدُ له أثر ، إلى أن كان ذات يوم تسلم الدكتور رسالة واردة من نفس التائم الغريب . كانت الرسالة مكتوبة بخط ضيق ، واستنتج من التوقيع أنها كتبت بيد المريض نفسه ، وأن الألم لم يعد إليه ، وإلا لما كان من الميسور له أن يمسك القلم .

أما الرسالة فقد جرت كالآتى :

« سيدى الدكتور العزيز ، لست أستطيع أن أتركك أو أترك الطب فى شك وحيرة بشأن هذا المرض

الغامض العجيب الذي سيؤدي بي قريباً إلى القبر .

« سأذكر لك الآن منشأ هذا المرض الفظيع . لقد عاد إليّ في الأسبوع الماضي ، ولكني لن أكاشفه أكثر من ذلك . إنني في هذه اللحظة أستطيع أن أكتب لأنني أضع على الوضع الحساس قطعة من الصوفان الملتهب ؛ بهذه الكيفية فقط أستطيع أن أمسك القلم ، وما دام الصوفان مشتعلا فإنني لا أشعر بالألم الآخر وألم النار تافة بالقياس له .

«منذ ستة شهور كنت في عداد السعداء ، كنت رغيد العيش ناعم البال خالياً من الهم والشجن ، أنعم بكل ما يمكن أن ينعم به رجل في الخامسة والثلاثين ؛ قبل ذلك بعام كنت قد تزوجت من سيدة شابة وهبها الله حسناً خلاباً وعقلا راجحاً وقلباً طيباً . كانت تدير بيت جارة لي كونتس ، أحببتها ولم تكن غنية فشغفت بي شغفاً عظيماً ، لا عرفاناً منها بالجميل فحسب وإنما نتيجة حب ساذج حقيق .

« تزوجنا وانقضت ستة شهور ، كان كل يوم منها أسعد من اليوم الذي سبقه ، وكانت زوجتي إذا اضطررت للذهاب إلى بشت لا تعرف الراحة طعماً طيلة غيبتي ، وتخرج للاقاتي في الطريق على بعد أميال من البيت . وكانت إذا ما تأخرت تقضي الليل مسهدة ساهرة في انتظار أوبتي . وكانت لا تترك البيت إلا إذا توسلت أنا إليها في زيارة الكونتس سيدتها السابقة ، التي كانت ما تزال شديدة التعلق بها ؛ ولكن رغم ذلك لم يكن هناك ما يمكن أن يقصيها عن بيتها أكثر من نصف يوم . كان غيابي دائماً سبباً في كدرها ، فلقد ذهبت في حبها لي إلى أن تركت الرقص لئلا تضطر إلى مراقصة إنسان غيري . وقصارى القول أن زوجتي كانت مخلوقاً ساذجاً لا يشغل فكره شيء سواي ؛ حتى الأحلام كانت في نظرها جرائم تعترف بها إذا لم أكن أنا لحمتها وسداها .

« لست أدري أي شيطان همس في أذني ذات يوم قائلا : وإذا كان هذا كله نفاقاً ورياء » ؟

« والرجال كثيراً ما يذهب بهم الجنون وهم في عزتهم وسعادتهم ، إلى حد البحث عن الشقاء والعذاب . كان لزوجتي مكتب صغير ، وكانت تعنى بحفظ أحد أدراجه مغلقاً على الدوام . لاحظت ذلك غير مرة ، ولاحظت أنها لم تنس المفتاح مرة واحدة ، أو تترك الدرج مفتوحاً .

« أخذ هذا الهاجس ينتابني . ما الذي يمكن أن تخفيه هناك ؟ جننت ! لم أعد أعتقد في سذاجة طلعتها ، أو في طهارة نظراتها ، أو في تدليلها ، أو في قبلاتها ، كيف إذا كان كل هذا رياء » ؟

« وجاءت الكونتس من جديد صباح أحد الأيام لتدعوها إلى بيتها ، وبعد إلحاح نجحت في حملها على الذهاب وقضاء اليوم معها ، وكان البيتان يبعدان عن بعضهما عدة أميال ، فوعدت زوجتي باللحاق بها بعد قليل .

«ولم تكد العربة تغادر فناء الدار حتى جمعت كل المفاتيح الموجودة بالبيت ، فأخذت أجربها على قفل الدرج الصغير إلى أن فتحه أحدها . كنت كالرجل الذي يرتكب جرمه الأول ، كنت كاللص على وشك مفاجأة أسرار زوجتي المسكينة ؛ ارتعشت يداي وهما تخرجان الدرج في حذر ، أخذت أقلب الأشياء الموجودة فيه واحداً واحداً باحتراس حتى لا يتغير ترتيبها ، ولكي لا ينم عن أي يد غريبة عبثت به . كان صدري ضيقاً وكنت أكاد أختنق ، وفجأة — تحت قطعة من الدانتلة — وضعت يدي على حزمة من الرسائل . سرت في جسمي رعدة سريعة كأن وميضاً من البرق اخترقني من الرأس إلى القدم . أوه ! كانت من نوع الرسائل التي يعرفها الانسان من لمحة — رسائل حب .

« وكانت الحزمة ملفوفة بشريط وردي اللون موشى بالفضة .

« أخذت أفكر . أهذا ممكن ؟ أهذا عمل رجل شريف ؟ أن يسرق الرجل أسرار زوجته أسراراً تتعلق بها أيام أن كانت فتاة صغيرة . هل لى الحق فى أن أحاسبها على ماضيها قبل أن أتزوجها ؟ هل من حق أن أغار على زوجتى قبل أن تكون زوجتى ، بل وقبل أن أعرفها ؟ من ذا الذى يرتاب فى طهارتها ؟ من ؟ إنما أنا مجرم أثيم إذا ارتبت فيها .

« إلا أن الشيطان همس فى أذنى مرة ثانية : ولكن ماذا إذا كان تاريخ هذه الرسائل يعود إلى الوقت الذى لك فيه الحق فى الاطلاع على كل أفكارها . الوقت الذى لك أن تغار فيه حتى من إصلاحها . الوقت الذى هى فيه ملك لك ؟

« حللت عقدة الشريط ولم يرنى أحد . لم يكن هناك أحد ، حتى ولا مرآة تجعلنى أخجل من نفسى . فضضت رسالة وثانية وثالثة وقرأتها كلها حتى نهايتها .

« يا لها من ساعة ! كانت ساعة لقيت فيها من الهول والروع ما يصرع !

« أحط أنواع الخيانة التى يمكن أن يروح ضحيتها رجل ! وكان كاتب هذه الرسائل صديق عزيز لى ! والهجة التى كتبت بها ! أى عواطف وأى حب ! ! لا بد أنه متبادل ! كم تكلم عن حفظ السر ! وجميع هذه الرسائل كان يقع تاريخها فى الفترة التى كنت فيها متزوجاً وسعيداً !

« كيف أستطيع أن أفسر لك طبيعة إحساسى إذذاك ؟ تصور النشوة التى يحدثها سم قاتل . . قرأت تلك الرسائل واحدة واحدة ثم أعدت ترتيبها كما كانت فى شكل الحزمة وربطتها بالشريط ووضعتها تحت الدنتلة وأقفلت الدرج .

« كنت أعلم أنها ستعود وحدها إذا لم ألحق بها . وهذا ما حدث ، فقد استقلت العربة فى المساء وعادت إلى البيت ؛ وما كادت العربة تقف بالباب حتى نزلت منها وأسرعت نحوى ، وكنت فى انتظارها على درجات المدخل وقبلتنى بحنان وحب . ارتسمت على وجهها أمارات السعادة الحقيقية وقد وجدت نفسها مرة ثانية معى . أما أنا فلم أدع شيئاً مما يدور فى نفسى يظهر أثره على وجهى . تحادثنا وتناولنا طعام العشاء سوياً ، ثم افترقنا كل منا إلى مخدعه . لم يغمض لى جفن بل سهرت أعد الساعات ، ولما دقت الساعة الربع الأول بعد منتصف الليل نهضت من سريرى وذهبت إلى مخدعها . رأيت رأسها الأشقر الجميل بين الوسائد البيضاء كملاك وسط سحب من الثلج . ألا ما أبشع رياء الطبيعة حين يرتدى الإثم ثوب الطهر والبراءة ! كنت فى مثل عناد المجنون قد ملئت عزماً تغلغل فى عميق نفسى وسرى إلى روحى . ملئت عزماً على أن أنتزع روحها وهى نائمة .

« سأمر على تفاصيل الجريمة مروراً . فاضت روحها فى هدوء ووروعة — كما روح الانسان فى النوم ، ولم تحاول مقاومة ما . طول ذلك الوقت الذى قضيناه سوياً كزوجين لم تغضب منى ، ولم تنفعل مرة واحدة ، وفى لحظاتها الأخيرة التى انتزعت فيها روحها لم تغير هذا الطبع بل انتهى كل شىء فى هدوء ، نقطة واحدة من الدم سقطت على ظاهر يدى — أنت تعرف أين . لم أرها إلا فى اليوم التالى وكانت قد جفت .

« وواريناها التراب دون أن يشتبه أحد فى الحقيقة . كنت أعيش فى عزلة ، فمن ذا الذى يستطيع أن يكشف عن الحقيقة ؟ ولم يكن لها أب أو وصى يستطيع أن يوجه إلىّ سؤالا أو استيضاحاً ، وتعمدت تأخير إرسال الدعوات المعتادة لحضور الجناز ، حتى لا يصل أصدقائى فى الوقت المناسب .

« وعند ما عدت من الدفن لم أحس بشىء من وخز الضمير . صحيح أنى كنت قاسياً ، ولكنها كانت تستحق ذلك . لم أستطع أن أكرهها ، ولكنى حاولت أن أنساها ،

وفعلا لم أفكر فيها كثيراً . لم يرتكب إنسان جريمة قتل ثم لم يحس وخز الضمير والندم القاتل على فعلته كما فعلت أنا .

« وعدت إلى القصر فوجدت الكونتس هنــاك . وكنت قد رتبت كل شيء بحيث تصل متأخرة عن الزمن . ولمـا قابلتني كانت تبدو شديدة الاضطراب ، وكان فى صوتها رنة غريبة لم أفهمها . لا أدرى إن كانت كلماتها قد أشربت بالرعب ، أو العطف ، أو الحزن ؛ ولم أفهم ما قالته لى على سبيل التعزية .

« هل كنت أستمع إليها ؟ هل كنت فى حاجة إلى العزاء ؟ لم أكن حزيناً . لم أكن حزيناً . وأخيراً أخذتنى من يدى فى رفق ، ثم قالت وهى تخفض صوتها إنها مضطرة إلى أن تسر إلىّ بشيء ، وأنها تعتمد على شرفى كجنتلمان أن لا أبوح بالسر . أما هذا السر فهو أنها أعطت زوجتى حزمة من الرسائل لتحفظها ، لأنها لم تستطع أن تحفظها فى بيتها ، وسألتنى أن أعيد إليها هذه الرسائل ...

« أحسست رعدة تسرى فى جسدى .. انتفضت انتفاضاً متتالياً وهى تتكلم ، على أننى تصنعت البرود ، وسألتها عن محتويات الرسائل ، فانتفضت السيدة حين سألتها هــذا السؤال ، وأجابت غاضبة :

— سيدى ، لقد كانت زوجتك أكثر منك كرماً ، فمنذ ما أودعتها الرسائل لم تسألنى ما فيها ، وقد ذهب بها كرم الخلق أن وعدتنى أن لا تنظر إليها ، وأنا على بينة بأنها لم تقرأ سطراً واحداً منها . لقد كانت نبيلة القلب ، ولا يمكن أن تكون قد حنثت بوعدها . قلت :

— هذا حسن . وكيف أعرف هذه الحزمة ؟

— كانت مربوطة بشريط وردى اللون موشى بالفضة .

— سأذهب وأبحث عنها .

« وأخذت مفاتيح زوجتى ، وأنا أعرف جيداً أين أجد الحزمة ، ولكنى تظاهرت بأنى عثرت عليها بعد بحث وجهد .

« قلت للكونتس وأنا أناولها الرسائل :

— هل هذه رسائلك ؟

— نعم هى بعينها ، أنظر ! فالعقدة التى عقدتها بنفسى لم تمسها يد .

« لم أجسر على أن أرفع عينى فى عينيها . خفت لئلا تقرأ فيها أننى حللت عقدة تلك الحزمة ، بل وأكثر من ذلك .

« استأذنت منها فجأة ، فركبت عربتها وانصرفت .

« زالت نقطة الدم ، ولم يتخذ الألم أعراضاً خارجية ، إلا أن المكان الذى وقعت عليه نقطة الدم كان منبع ألم هائل ، يزداد من ساعة لساعة ، وكأنه أصيب بسم فتاك . وقد يغمض الكرى جفنى ، إلا أن الشعور بالألم لا يفارقنى مطلقاً . وأنا لا أشكو لأحد ما ، فليس هناك من يمكن أن يصدق حكايتى ، وقد رأيت شدة عذابى ، وتعلم كيف أراحتنى العمليات ؛ ولكن الألم يعود بمجرد التئام الجرح ؛ وهاهو يعاودنى للمرة الثالثة ، ولم تعد لدىّ قوة على احتماله ، ففى ظرف ساعة أكون فى عداد الموتى . فكرة واحدة تعزينى ، وهى أنها قد انتقمت لنفسها فى هذه الدنيا ، وربما تسامحنى فى الدار الآخرة .

« وفى الختام أرجو ياسيدى الدكتور أن تقبل شكرى على كل ما فعلته من أجلى ، وليكن جزاؤك عند الله » .

قرأ الناس فى الصحف بعد ذلك بأيام أن « س » أحد كبار الملاك قد انتحر ، بأن أطلق الرصاص على نفسه ؛ وقد أرجع البعض سبب انتحاره إلى حزنه على فقد زوجته ، وأرجعه آخرون أكثر علماً إلى جرح عضال لا يشفى ؛ وأما من أولئك الذين كانوا يعرفونه جيداً ، فقد قالوا بأنه أصيب بجنون موضعى ، وبأن جرحه المستعصى لم يكن له وجود إلا فى خياله .

(انتهت)

محمد فهمى

القـــوة...

تحليل اجتماعي جديد

حاول كثير من الحكماء والفلاسفة أن يتأثروا العنصر الأساسي في حوادث التاريخ، وأن يفسروا الأحداث التي تجرى على ظهر الأرض بفلسفة سياسية أو اجتماعية خاصة . وكانت هذه النظرة نحو التاريخ ذات آثار عميقة في حوادث التاريخ نفسه، لأنها وجهت الإصلاح السياسي والاجتماعي وجهات خاصة، وبعثت في الناس روحاً يسرى من جيل لجيل . ونظرتنا للتاريخ هي التي تقرر احترامنا للأسس التي تقوم عليها الجماعة ، وهي التي تفرض علينا احترام التقاليد ، والاحتفاء بالنظم والعادات والقوانين التي انحدرت إلينا من أسلافنا .

وراء حوادث التاريخ ، ووراء أعمال الحرب والسلام كان المال عند « كارل ماركس » هو الذي يبعث الطبقات إلى العمل ، لذلك فكر أصحاب الاقتصاد في الحاجة والإنتاج قبل أن يفكروا في أعمال السياسة ونظم الاجتماع . ولذلك فقد وصلوا كل شأن من شئون الحياة الدنيا بما يشاكله من شئون الاقتصاد ؛ فالحرب لم تكن إلا وليدة الضيق الاقتصادي الذي يشعر به المتحجون ؛ والقسوة والجرعة والظلم بين كل طبقة وطبقة لم تكن إلا نتيجة القلة من ناحية والكثرة من ناحية أخرى ؛ ثم تلك الامبراطوريات لم تقم في التاريخ إلا لأن دولاً أرادت أن ترضى حاجاتها من حيث المادة . بل كل ظاهرة من ظواهر المجتمع ، يستطيع « كارل ماركس » وأصحابه أن يفسروها تفسيراً اقتصادياً مقبولاً .

و« برتران رسل »[١] يرى في ذلك كثيراً من الحق ، لكنه لا يقف مطمئناً راضياً عند ذلك التفسير المادي للحضارة ، لأنه لا يراه وحده أساساً للتاريخ . و « برتران رسل » عالم يعيد إلى الذهن ذكرى الفلاسفة الأولين ، لأنه لم يختص لوناً من ألوان المعرفة بكل جهده ، ولا فرعاً من فروع العلم بجميع ما يبذل . بل لقد وسعت ثقافته علم الرياضة والفلسفة والتاريخ والاجتماع ، فهو متعدد النواحي يتخذ الشك أداة لليقين ، ويناقش الفكرة من جميع وجوهها ، ويجمع شعاب البحث فيجلوه لك في صورة كثيرة المعالم ؛ وهو يرى أن العالم يعاني من التعصب الأعمى أشد العناء ، وأن العمل العنيف قد أصبح يلقى من الإعجاب ما لا يلقاه التفكير الرشيد . ولن يتقدم هذا العالم الذي نعيش فيه إلا إذا أقمنا ثقافة عالية تؤلف بين وجهات النظر مهما اختلفت . والمعرفة على اختلاف أصولها جديرة بأن تخلق تعاطفاً بين الشعوب والأفراد ، وأن تبث روحاً من التسامح والعفو تتزايل عندها الإحن والحزازات .

وقد كتب « برتران رسل » كتاباً في نوفمبر الماضي اسمه « القوة »[١] كان بحثاً في أصل الحضارة وفي قواعد الاجتماع . فقد حاول أن يحلل فيه المجتمع تحليلاً جديداً يجمع بين تلك الآراء التي ذهب إليها « كارل ماركس » وغيره . والكتاب في نفسه مثل من أمثلة البحوث التي يقوم بها الأدباء العلميون في العصر الحديث ؛ فقد جمع هؤلاء إلى علمهم بأصول الاجتماع علماً زاخراً بأصول الفلسفة ، وحاولوا أن يطبقوا أصول الرياضة وعلم الأحياء على النشاط الاجتماعي . فبرتران رسل يعالج مشاكل الاجتماع والسياسة

(١) Bertrand Russell .

(١) Power, A New Social Analysis, by Bertrand Russell .

كما يعالج الرياضي مثلا كل الهندسة والفلك . وبحثه في القوة وضع جديد لتلك الكشوف العلمية التي وصل إليها « مكيافلي » و « هوبز » و « ماروين » و « هيجل » و « نيتشه » و « كارل ماركس » .

***

وعند « برتراند رسل » أن نشاط المجتمع متحرك غير ثابت ، وأن القوة فيه تشبه « الطاقة »(١) في علم الطبيعة . فالطاقة هي ذلك النشاط الذي يكمن في الأجسام ، ولها مظاهر تتباين حسب العلائق التي تأتلف أو تختلف بين كل جسم وجسم ؛ فإذا اصطدم جسمان كان مظهر الطاقة عند ذلك الحركة أو الحرارة أو الضوء .

وكل واحد من أولئك يمثل ذلك النشاط الكامن في الأجسام . وكذلك قل عن « القوة » في المجتمع ؛ فهي النشاط الكامن بين الفرد والفرد أو بين الجماعة والجماعة ، وهي كالطاقة تتظاهر لك في أشكال عدة ، بعضها الثروة والسلاح والدعاية والسلطة الدينية والسيطرة على الرأي العام ؛ فكل واحد من هؤلاء يتصل بالمجتمع اتصالاً وثيقاً ، ولكن ليس أيّ واحد منها هو العامل الذي يمكن أن يكون وحده مركزاً تدور حوله أعمال المجتمع . كل واحدة من تلك القوى مرتبطة مع القوى الأخرى أشد الارتباط ؛ فالثروة قد تكون نتيجة لقوة السلاح وقد تكون سبباً له ، وقد تكون نتيجة وسبباً في وقت معاً . وتتآخى كل تلك القوى وتتساند فيظهر بها المجتمع وحدة متعددة الوجوه متباينة المظاهر .

وكما أن الطاقة تسري بين الأجسام فتنتقل من شكل إلى شكل ، فكذلك القوة ؛ فهي تتشكل في سهولة وتتحول من الثروة إلى السلاح إلى الدعاية في أقل بكثير مما تظن . فإذا أوتيت الثروة فقد تستطيع أن تحولها إلى حديد ونار ، وقد تستطيع أن تبعث بها دعاية تطبق أنحاء الأرض . وإذا أوتيت حظاً من الدعاية فقد تخلق بها إيماناً ثابتاً يدك الأرض دكاً . فتلك القوى متفاعلة متغيرة متحولة ، ولها في تحولها قوانين خاصة تتحكم في سير التاريخ وتسري في نواحي المجتمع .

وحب القوة والغلبة والتفاني في كسب السلطة والغرام بالسيطرة ، كل ذلك هو الباعث الأول في حياة المجتمع . هذه القوة ذات النواحي المتعددة التي ذكرنا لك منها ما أسلفنا هي التي تدفع بالإنسان نحو العمل ، وهي التي تبعث في الإنسان روح الكفاح أو التعاون . وليس الأمر في ذلك مقصوراً على الفكرة المادية المجردة التي استكشفها « كارل ماركس » ؛ وليس يكافح الإنسان على ظهر الأرض من أجل حاجته المجردة ، لأنه كلما أوفى على تلك الحاجة طمح إلى ثروة كمالية فائضة . أرأيت إلى كل الذين حواليك ؟ كم منهم يكافح من أجل حاجاته الأولى ، وكم منهم يكافح من أجل فيض من المال أو المجد ؟ أرأيت كيف يجاهد كل واحد في المجتمع حتى ينال مالاً فائضاً يطوع له قليلا من السيطرة على الفقراء الآخرين ؟ ثم أرأيت كيف يصطنع أكثر هؤلاء الدعاية المنيفة ؟ وكيف يحاولون أن يقيموا إيماناً في نفوس الجماهير ؟ ثم لِمَ اجتاح رجل مثل تيمورلنك أصقاعاً شاسعة من العالم ؟ أتراه كانت تعوزه الطمأنينة والراحة فحاول أن يرضي حاجاته المادية الأولى ؟ أم تراه كان يندفع وراء الغلبة والفتح والسيطرة والسلطة والقسوة وغير هؤلاء من ضروب القوة ؟ .

حب القوة — لا البحث وراء المادة المجردة — هو الحافز الأول الذي يلح على طبقات الخاصة . لكن حب القوة ليس شائعاً في الدهماء إلا بمقدار الفرص التي تتاح لهم . ذلك بأن الخاصة هم دائماً الذين يتحكمون في مصائر الجماهير ؛ فليس الأمر في حياتهم مقصوراً على إرضاء حاجات الساعة ،

(١) energy .

بل هم يطلبون المزيد دائماً من المال والدعاية والسلاح ، حتى يثبتوا قوائم القوة التي نالوها . أما الدهماء فهم قد يقنعون بهذا أو بذاك من حاجات المأكل أو المشرب ، لكنهم يرضون حبهم للقوة وغرامهم بالسلطة حين يتبعون هذا أو ذاك من الزعماء . هم يتبعون زعماءهم لأن هؤلاء يمثلون لهم القوة التي يعجزون عن إدراكها . وهم يتمثلون في مجد قادتهم ذلك المجد الذي يتشوقون له في قرارة نفوسهم . أما إذا رأى فرد من هؤلاء أنه كفء لتلك السلطة وأنه يستطيع أن يحقق ذلك الخيال فهو قد أصبح زعيماً من أمثال جنكيزخان ونابليون ولينين وهتلر وموسوليني .

ولكن لِمَ انقسم الناس فريقين : فريق خلق ليأمر ، وفريق آخر خلق ليطيع ؟ ولِمَ كانت هذه القوة مقسمة بين قلة تتحكم في العالم وكثرة تقبل ذلك التحكم ؟ إن حب القوة هو الذي يدفع الأولين ، ولكن الخوف هو الذي يمنع الآخرين . فخوف الجماهير هو أساس القوة التي يتمتع بها الزعماء ، لأن الجماهير تخشى على التقاليد التي سارت عليها ، ولأنها تخشى آلام الغزو والفتح ، ولأنها تشفق على قوانينها ودينها ونظمها . فإذا أحست الجماهير بذلك الخوف فهي تفزع إلى زعمائها توليهم زمامها ؛ وعلى ذلك قامت الجماهير تولى قيادها الملوك والأمراء ، فهم الذين يذودون عنهم إذا تلاحقت عليهم الحروب والفتن . ومن ذلك الفزع قامت ممالك أوربا الحديثة وسارت تحت إمرة الملوك الذين قاموا من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر .

فالطاعة من جانب الجماهير هي التي تمكن الزعماء من أسباب القوة . وهذه الطاعة هي التي تؤمّن العامة من الخوف ، بل هي التي تؤلف بين أفراد الدهماء ، فيحسون روحاً من الطمأنينة والرضى في ذلك التآلف ، بل هم يحرصون كل الحرص على الذي يقوم ، لأنهم يحسون بتلك الطمأنينة التي تميز التعاطف الاجتماعي ، أو المشاركة الوجدانية[1] ؛ فهذه الحماسة الشائعة التي تبعث الرضى في نفوس الجماعة ، هي التي تمهد أسباب القوة للزعماء ، وهي التي تفرض عقلية اجتماعية عامة تحرص على قوائم النظم والتقاليد .

* * *

الفزع والطاعة من جانب ، وحب القوة والغلبة من جانب آخر ، هو الذي يفسر لنا العلائق بين الزعماء وبين الدهماء . ولقد قامت قوة الملوك في أوربا كما رأيت لأن الناس فزعوا إليهم من ظلم الأمراء والقسيسين . ومثل ذلك قل عن السلطة الدينية التي تمتع بها رجال الكنيسة ، فهم قد أثاروا في نفوس العامة فزعاً من الحياة الأخرى . وهذا الفزع كان في نفسه أساساً لتلك القوة التي نالتها الكنيسة ، والتي حاربت سلطة الملوك في أعوام طويلة من التاريخ .

ولكن سلطة الزعماء تقوم على تقاليد ثابتة تنحدر في تاريخ المجتمع ، أو قل إنها تخلق هذه التقاليد خلقاً . وكلما تقدم المجتمع تثبت هذه التقاليد حتى تصبح نظماً وعقائد ؛ فإذا لم تقم السلطة أو القوة على هذه التقاليد ، وإذا فرضت على العامة من غير أن تتصل بعاداتهم وعقائدهم ، كانت قوة غشوماً[1] ؛ فالقوة الغشوم هي التي تبعث الاحترام والرهبة في نفوس العامة ، لأنها قوة وحسب ؛ بل لقد تكون القوة محترمة في نفوس الناس لارتباطها بتقاليد المجتمع ، فإذا اضمحلت هذه التقاليد أصبحت القوة غشوماً ؛ وهذا يفسر لك كثيراً من حوادث التاريخ : يفسر لك تحلل سلطة المماليك في مصر ، وكيف أصبحت قوة غشوماً في أخريات القرن الثامن عشر ، ويفسر لك كيف تحللت سلطة البوربون في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية .

وفي تاريخ الإنسان كثير من العصور برز فيها قوم من أصحاب القوة الغشوم . وحينما تضطرب قوائم المجتمع وحين تتلاشى تقاليده ، وحين تدب الفوضى ويتضاءل الإيمان

(١) Sympathy

(١) يسميها برتراند رسل Naked power أي القوة العارية

بالنظم والمبادئ ، يصبح للقوة الغشوم السلطان الأول والأخير . حدث مثل ذلك في أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد ، وحدث ذلك في القرن السادس عشر أيام النهضة في أوربا ، ثم حدث عند تكوين الإمبراطوريات الغربية في القرن التاسع عشر ؛ ولسنا ندري أهو يحدث الآن أم لا يحدث . لعل الكفاح الحالي حرب بين التقاليد والمبادئ من جانب وبين القوة الغشوم من جانب آخر . ولعل انتصار الديمقراطية سوف يكون انتصاراً حاسماً للقوة القائمة على التقاليد واندحاراً للقوة الغشوم التي لا تعترف بتلك التقاليد .

***

والكثرة التي تَخشى وتُطيع ، والتي تجد في قوة الزعماء ملجأ يحميها ، والتي تحرص على تقاليدها كل الحرص ، تقول تلك الكثرة تحتفظ في مجموعها بقوة كامنة هي قوة الثورة . فإذا أحست الجماهير وطأة الاستبداد والعسف قامت في نفوسهم موجدة على القوة القائمة التي تنزل بهم العسف فتندك أصول لتقوم مكانها أصول أخرى . وقد ظهرت قوة الثورة في حوادث زلزلت قواعد المجتمع . أما هذه فهي قيام المسيحية الأولى ، ثم حركة الإصلاح الديني ، ثم الثورة الفرنسية والحركة القومية ، ثم الحركة الاشتراكية التي بدأت في القرن التاسع عشر . ففي كل حركة من هؤلاء قامت الجماهير ضد نظام قائم لتستحل محله نظاماً آخر . وفي كل واحدة كانت الثورة نتيجة لقوة غشوم تحس بها الجماعة وتثور على الذين يصطنعونها .

ونستطيع أن نلمس دورة القوة في كل مجتمع من المجتمعات التاريخية التي نعرف . فالقوة تقوم على تقاليد خاصة تختلقها الأحوال والأجيال اختلاقاً . ثم تتلاشى تلك التقاليد ، فتصبح القوة غشوماً . وتثقل تلك القوة الغشوم على الجماهير فتنفر إلى الثورة . ثم يأتي بعد الثورة عصر من الفوضى لا تقاليد فيه ولا مبادئ ، ويخرج من بين العامة الرجل القوي الذي يستطيع أن يلم شتات المجتمع . تلك هي دورة القوة ، وذلك هو الذي حدث تماماً في فرنسا . فالقوة التقليدية المستنيرة التي ورثها لويس الرابع عشر قد انقلبت قوة غشوماً في عصر خلفائه . والفرنسيون قد ثاروا بتلك القوة الموروثة حتى دكوا نظم المجتمع دكاً . ولكن القوة آلت بعد ذلك إلى نابليون ، فألف هذا بين النظام وبين القوة . وتستطيع أن تطبق ذلك على الحكومة الرومانية من أيام يوليوس قيصر حتى آخر أيام أجسطس . وأظنك تستطيع أن تطبقه على الانقلابات العاصفة التي حدثت في دولة بني أمية حينما انقلبت الخلافة ملكاً سياسياً مستبداً .

أما القوة الاقتصادية فإنها تضعف أو تقوى تبعاً لمقدرة الدولة على الدفاع عن أرضها ، وعلى مبلغ تهديدها للدول الأخرى ، وعلى ما تحوزه من المواد الخام وحاجات الأكل والملبس ، والمهارة الصناعية الخاصة ؛ وهي تتوقف كذلك على مقدرة الدولة نفسها على إمداد الدول الأخرى بتلك المواد الخام . والقوة الاقتصادية لها وزن كبير في إثارة الحروب بين كل دولة طامعة ، وكل دولة طامعة أخرى . وكلما تقدم العلم أصبحت الحرب آلية ، وأصبح للقوة الاقتصادية أكبر أثر فعال في كسب الحروب . أما في داخل الدولة فإن القوة الاقتصادية تروح وتغدو بين طبقات الشعب ، تبعاً للنظم الاجتماعية والسياسية التي تمكن طبقة دون طبقة من الاستيلاء على المال ، أو احتكار الصناعة أو التجارة أو الزراعة ؛ لذلك قامت نظم في داخل الدولة تنظم ذلك الاحتكار وتخفف من حدته . وكذلك نرى أن قوة المال تعتمد على الحرب ، في خارج الدولة ، وعلى أنواع كثيرة من النظم في داخلها . ويمكنك ، في غير عناء ، أن تقدر مثل تلك الآثار في الكفاح الحاضر بين البلاد الديمقراطية ، والبلاد الديكتاتورية . فقوة إنجلترة الاقتصادية لا تقوم فقط على أنها قد حازت فعلا كثيراً من المواد الخام ، وإنما تقوم أيضاً على أن لديها مهارات

صناعية وتجارية خاصة ؛ ولها أسطول يستطيع أن يجوب البحار بصرّف ماءلتها ، ثم إنها تستطيع أن تهدد أي بلد يحاول أن يعتدى على قوتها الاقتصادية أو الحربية .

وليس الأمر في القوة مقصوراً على كل الذي أسلفنا ، بل ينبغي أن تشيع في الجماعة عقيدة أو عاطفة واحدة ، هي التي تؤلف بين أفرادها ؛ ولكن لن تكون تلك العقيدة أو العاطفة مصدراً من مصادر القوة حتى يحس بها ويدافع عنها السواد الأعظم من الأفراد ، بما في ذلك فئة من الأكفاء الذين يستطيعون أن ينفذوا ما تمليه عليهم إيمانهم . وذلك هو الذي حدث عند قيام الاسلام ؛ فلم يعتمد الاسلام إلا على ذلك الإيمان العميق الذي كان يميز الجماعة المسلمة الأولى ، ولم يعتمد النبي على قوة اقتصادية خاصة ، ولا على كثير من عدة الحرب وعتادها . وإنما بدأ حياته الجاهدة بقوة العقيدة التي ائتلفت أنصاره وتابعيه . وكان ذلك الإيمان العنيف شائعاً في قلوب المسلمين الأول حتى بلغ حد الجود بالنفس والتفاني في سبيل الدين . ثم لقد كان على رأس هؤلاء ، أجمعين فئة من رجال العمل الأكفاء ، هم الذين وجهوا الجماهير نحو الفتح والنصر ، وهم الذين أقاموا قوائم الحكومة المسلمة فيما بعد .

***

لقد رأيت من كل ذلك كيف تتحكم القوة في حياتنا الاجتماعية ، وكيف تحكمت في أحداث التاريخ . ولست أزعم أن كل الذي نقلت إليك هو بعينه الذي قاله « برتران رسل » في كتابه من « القوة » . لكني قد استوحيت ما كتب ، وحدثتك فيما حدثتك فيه عن ذلك الوحي . ولقد لقيت في ذلك كثيراً من التتاج النفسي والعقلي ، وأرجو أن أكون قد أفلحت في نقل قليل من ذلك التتاج إليك .

أحمد فاكى

صور من التاريخ الإسلامي

عبد الله بن على العبـــاسى

هو السفاح ، لا أمير المؤمنين أبو العباس

للأستاذ عبد الحميد العبادى

أخى الأستاذ أحمد أمين :

أشكر لك ثناءك الطيب على مقالى عن أمير المؤمنين أبى العباس . إلا أنك يا أخى ذكرت أن ذلك المقال ترك فى نفسك شيئاً رأيت أن تعرضه علىّ استجلاءً للحقيقة ؛ فاسمح لى أن أتقدم لمناقشة اعتراضاتك فى شىء من الإيجاز ، لأنتقل بعدُ إلى تفصيل ما أجملت فى مقالى السابق ، وإيراد رأيى الأخير فى موضوع « السفّاح » .

١ — قلتَ إن أبا العباس قال عن نفسه فى خطبته المعروفة : « أنا الثائر المبير » . وسألت : هل كنا نحن أعرف منه بنفسه ؟ وأنتَ تعلم يا أخى أن طلب الثأر صفة يتمدح بها العرب ، وكان واجباً على ولى الدم فى الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فجعله حقاً له . والمراد بالعبارة أنه شديد الوطأة على أعدائه ومن له قبلهم ثأر . وماذا تنتظر يا أخى من رئيس دولة أن يقول عن أعدائه ؟ على أن العبارة ليست بأكثر من عبارة خطابية يراد بها الإرهاب والإخافة ، والمقام — كما تعلم — مقام ترغيب وترهيب .

٢ — وقلتَ إنك وجَدْتَ فى كتاب الدينورى هذا العنوان « ظهور أبى العباس السّفاح وبيعته » ، تريد بذلك نقض ما قلت من أن لفظ « السّفاح » لم يرد فى الكتاب المذكور . فأخبرك يا أخى أنى اعتمدت على الطبعة الأوربية للكتاب المذكور ، فى حين أنك رجعت إلى الطبعة المصرية ، والكلام فى الطبعة الأوربية مثله فى الأصل الذى أخذت عنه ، مرسل من أول الكتاب إلى آخره إرسالا وغير مقسم أبواباً أو فصولاً . فالعنوان الذى ذكرته هو من عند ناشر الكتاب المصرى ، الذى تبرع بتقسيمه فصولا على ما يظهر .

وذكرت أنك رأيت اليعقوبى المؤرخ الذى هو أسبق من الطبرى (وفاة لا عصراً) يسمى أبا العباس بالسفاح ، فيعنون له فصلا بقوله : « أيام أبى العباس السفاح » ، ثم قلت : فإن قيل إن العنوان قد يكون من الناسخ ! فقد وردت الكلمة فى ص ٣٨٦ من الجزء الثانى ، إذ يقول : « وعبد الله الأصغر وهو السفاح » ، وأجيب يا أخى على اعتراضك هذا بأن لفظ السفاح المذكور فى العنوان هو لا محالة زيادة من بعض النساخ ، بدليل أنه لم يذكر أبو العباس مقروناً بلقب السفاح فى غير هذا الموضع من الكتاب . وأما لفظ السفاح الذى ورد أثناء الحديث فهو وصف لشخص آخر غير أبى العباس بالمرة ، وسأحدثك عن عبد الله الأصغر هذا بعد الفراغ من مناقشة اعتراضاتك .

٣ — وقلت إنى استشهدت بقول المسعودى فى أبى العباس : « إنه كان طروباً محباً للعلم » ، وهو القائل كما لاحظت أنت : « أما أبو العباس السفاح فكان سريعاً إلى سفك الدماء ، واتبعه عماله فى الشرق والغرب فى فعله » ، وكل الذى أجيب به على هذا الاعتراض هو أن المسعودى أورد دعوى لم يُقم على صحتها دليلا من الوقائع الثابتة .

فإن قلت : فلم أخذت من كلام المسعودى بعضه وتركت بعضه ؟ أجبت بأنى إنما أخذت ما تؤيده الرواية القديمة والوقائع الثابتة وتركت ما يتعارض وذلك .

٤ — وقلت إنك وجدت فى كتاب « الولاة والقضاة »

للكندى أن رجلاً من بنى مروان فرّ مع بنيه الثلاثة إلى فقط ؛ فأمنهم صالح بن على والى مصر ، وكتب فيهم إلى أبى العباس فكتب إليه فى إشخاصهم إليه ؛ فلما صاروا بفلسطين قتلوا بها . وسألتنى أ كان قتلهم عن أمر أبى العباس أو بغير أمره ؟ وأجيب بأنى لم أجد فيما تحت يدى من المراجع ما يفيد أن أبا العباس أمر بقتلهم ، ولكنى أكاد أجزم بأن عبد الله بن على ألحقهم بقتلى نهر أبى فطرس ، وقتلهم فيمن قتل من بنى أمية بالشام .

على أنى يا أخى لم أقم بحثى فى السفاح على مجرد الأقوال ، سواء أكانت مما قاله أبو العباس فى نفسه ، أم مما قاله فيه غيره ؛ بل أقمته على الوقائع التى هى مادة المؤرخ الأساسية ؛ فتبينت أن الرواية القديمة المعتمدة لا تكاد تنسب إلى أبى العباس نفسه من حوادث القتل والمثلة التى وقعت فى زمنه إلا حادثين أو ثلاثة يمكن تأول بعضها والاعتذار من بعضها الآخر . وأنها تنسب عظم تلك الحوادث إلى غيره : إلى أبى مسلم بالشرق ، وأعمامه عبد الله بن على بالشام ، وداود بن على بالحجاز ، وسليمان ابن على بالبصرة . وكانوا طغاة وحكاماً بأمرهم . ثم وجدتنى أمام رواية أخرى هى رواية ابن قتيبة والمسعودى تلقبه صراحة بالسفاح ، فاضطرنى ذلك إلى أن ألحظ فى هذا اللقب معناه اللغوى الدال على الكرم والسخاء ، ولا سيما أن الروايات كلها مجمعة على أنه كان أسخى الناس .

* * *

على أنى أعلن اليوم أنى لا أتمسك بهذا التفسير للفظ السفاح لأسباب سأذكرها ؛ وأقرر ثلاثة أمور أختم بها هذا البحث الطريف .

أولا — أن أبا العباس ، وإن كان قد قال عن نفسه أنه السفاح المبيح والثائر المبير ، لم يلقب أصلا بهذا اللقب لا على معناه الحسن ولا معناه السيئ ؛ والدليل على ذلك أن أقدم الروايات التاريخية التى تصعد إلى عصر أبى العباس نفسه ، والتى نهج أصحابها فيها نهج رواة الحديث من حيث الدقة فى الإسناد وتحرى الصدق فى الأخبار ، والتى نجدها مضمنة إلى حد بعيد فى تواريخ ابن عبد الحكم ، والبلاذرى ، والدينورى ، واليعقوبى ، والطبرى ، والكندى ؛ أقول إن هذه الروايات كلها لم تذكر أبا العباس مقروناً بلقب « السفاح » قط .

ثانياً — أن لقب « السفاح » إنما أطلق أصلا على عبد الله ابن على الوالى على الشام لعمه أبى العباس ؛ وقد استحق هذا اللقب بإسرافه فى قتل الأحياء من بنى أمية ، وبنبشه قبور موتاهم ، وتحريقه جثثهم وتذريتها فى الهواء ، وبقوله بعد ذلك كله مخاطباً صرعاه من الأمويين :

بنى أمية قد أفنيتُ جمعكم
فكيف لى منكم بالأول الماضى
يطيب النفس أن النار تجمعكم
عوضتم من لظاها شر معتاض
مُنيتم لا أقال الله عثرتكم
بليث غاب إلى الأعداء نهّاض
إن كان غيظى لفوت منكم فلقد
منيت منكم بما ربى به راض

هذا هو السفاح حقاً ؛ وإذا شاء القارئ دليلا على صحة هذه الدعوى ، فاليه أكثر من دليل :

١ — جاء فى الجزء الثانى من تاريخ اليعقوبى (ص ٣٨٦) فى تعداد أولاد على بن عبد الله بن عباس :

« ... ... وعبد الله الأصغر وهو السفاح » .

فإذا سأل سائل : مَنْ عبد الله الأصغر هذا ؟ قلت : جاء فى كتاب « أنساب الأشراف » للبلاذرى (ج ٣ ص ٥٧٦) : « وأما عبد الله بن على الأصغر فيكنى أبا محمد ، ولاه أبو العباس محاربة مروان بن محمد » ، ثم مضى فى الكلام على ولايته الشام وفعله ما فعل ببنى أمية . فقد بان إذاً أن عبد الله الأصغر هو عبد الله بن على ، وأنه هو السفاح بنص اليعقوبى ، وليس المراد به عبد الله بن محمد ابن على الخليفة كما ظن أخى الأستاذ أحمد أمين .

ولا بأس أن أشيع بالحجة والبرهان هذا الموضع الذي هو صميم بحثنا فأقول : جاء في كتاب « أخبار مجموعة في قيام دولة بني أمية بالأندلس » ، وهو لمؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الرابع ، جاء فيه في ص ٤٦ تحت عنوان « ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس » ، ما يأتي : « لما كان من أمر مروان بن محمد رحمه الله ما كان وانصرم أمر بني أمية بالمشرق ، وتغلب على ملكهم بنو العباس ، وقتل مروان سنة اثنتين وثلاثين ، سير برأسه إلى السفاح ، ثم سير به إلى أبي العباس ببغداد (كذا !) ، وهو معسكر بها ، وتتبع السفاح بني أمية حيث كانوا يقتل ويقتل » ، وجاء فيه (ص ٤٨) : « فلما اجتمع بنو أمية عند السفاح قعد لهم وأدخلهم على نفسه في سرادق له ليرسلهم بزعمه إلى أمير المؤمنين » ، والظاهر هنا إطلاق لفظ « السفاح » على عبد الله بن علي .

وجاء في ص ٣٣٦ من كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب إلى ابن قتيبة والآخذ بطرف من التاريخ والقصص : « وذكروا أن أبا العباس ولى عمه عبد الله بن علي الذي يقال له السفاح الشام ، وأمره أن يسكن فلسطين . . . فقدم السفاح فلسطين . . . وأن السفاح بعث إلى بني أمية ، وأظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه بهم » ، وجاء في (ص ٣٣٨) . . . « فقال أبو العباس رحم الله عبد الواحد . . . ولولا أن السفاح عمي ، وذمامه ورعاية حقه علي واجب لأقدت منه ولكن الله طالبه . . . . ثم كتب إلى عمه السفاح ألا يقتل أحداً من بني أمية حتى يعلم به أمير المؤمنين ، فكان هذا أول ما نقم أبو العباس على عمه السفاح » . وجاء في ص ٣٣٩ : « وذكروا أن الهيثم بن عدي أخبرهم قال لما ولي السفاح الشام واستصفى أموال بني أمية » الخ . فالروايات التاريخية وشبه التاريخية متظاهرة في الدلالة على أن لفظ « السفاح » إنما هو لقب عبد الله بن علي العباسي .

والأمر الثالث الذي أريد تقريره والذي هو سبب عدم تمسكي بما فسرت به لفظ « السفاح » هو أن لفظ « السفاح » نقل خطأ من حامله الأصلي عبد الله بن علي إلى أمير المؤمنين أبي العباس الذي لم يكن يستحقه كما بينا . وتعليل ذلك ظهور طبقة من المؤرخين من أواخر القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع لم تبلغ شأو ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري ، في التحقيق والتدقيق والاستمداد من المصادر الأولى ، طبقة جعلت من قصدها في كتابة التاريخ إمتاع القارئ وتفكهته ، أو الاستعانة به على تحقيق أغراض تعليمية أو أخلاقية ؛ فكانت تقتضب الرواية اقتضاباً أو تنتخبها انتخاباً ، غير متحاشية أن تضمنها ما شاهده رجالها في أسفارهم من العجائب وما سمعوه من الغرائب . من هذه الطبقة المؤرخة الجديدة ، ابن قتيبة ، والمسعودي ، وأبو الفرج الأصفهاني . سمع هؤلاء المؤرخون الجدد الرواة يذكرون عبد الله السفاح فخيل إليهم أن المراد عبد الله بن محمد بن علي أبي العباس الخليفة ، لا عمه عبد الله بن علي واليه على الشام ؛ فتشابه الاسمين كان علة هذا اللبس . وزادهم لبساً ورود لفظ « السفاح » في خطبة أبي العباس ، فراحوا يقصون على قرائهم في كتبهم كيف قتل أبو العباس السفاح بني أمية ، وينسبون إليه ما هو منه بريء . وقد تبعهم في هذا التخليط من جاء بعدهم من المؤرخين حتى يومنا هذا ؛ ونسيت الرواية القديمة الصحيحة إلى أن أراد الله لهذا الضعيف أن يرجع إليها ويتخذها هادياً له في هذا التحقيق .

وبعد ، فهل يرى أخي الأستاذ أحمد أمين أني أفلحت في مناقشة اعتراضاته ؟ وهل يرى أني وفقت في إنصاف رجل أسس دولة من أعظم دول التاريخ ، بعد ظلم حاق باسمه ولزمه أكثر من ألف عام ؟ وهل يراني قبل كل شيء وبعد كل شيء ، أرضيت الحقيقة التاريخية ؟ لقد كنت يا أخي زمناً ما مؤرخاً إسلامياً ، وكنت زمناً ما قاضياً تقضي في المنازعات وتفصل في الخصومات ، فأنت لعمري بهاتين الصفتين على أقل تقدير حقيق بأن تقول حكمك في هذه القضية بعد الذي أدلى إليك به من الحجة والبرهان ، لقد أصبحت الكلمة لك ، والسلام .

عبد الحميد العبادي

فن النحت عند المصريين القدماء

الفن كلمة اعتدنا أن نخص بها أشياء مختلفة متباينة ، فالتمثال قطعة فنية ، والنقش قطعة فنية ، والرسومات سواء ما كان منها بالزيت أو بالألوان الأخرى قطع فنية أيضاً ، ثم الموسيقى فن ، والشعر فن ، والنثر فن ، وكذلك التلحين فن ، والغناء فن . إذاً فالفن هو كل ما يخرجه لنا ذوق الانسان ليرضى به غريزة فيه لا يمكن أن نسميها إلا غريزة الفن ، إذا صح هذا التعبير .

ونحن إذا أنعمنا النظر فى غرائز الحيوان والانسان رأيناها متشابهة فى الأصل . ذلك الأصل الذى يدفع بكل من الانسان والحيوان إلى هدف واحد وهو البقـاء ، والمحافظة على ذلك بالأكل والشرب ، ثم بالمدافعة عن النفس ؛ ولكن الطبيعة اختصت الانسان بغريزة أخرى هى (غريزة الجمال) أو قل غريزة الذوق السليم . فالانسان الذى يصنع مثلاً إبريقاً من الطين أو الحجر كى يملأه ماءً للشرب ، كان فى بدء حياته الأولى (أقصد بذلك الإنسان الأول) يصنع إبريقاً يصلح لاحتواء الماء ، شكل هـذا الأبريق الخارجى يحتمه الغرض الذى من أجله صنع ثم الآلة التى صنع بها . ولكن سرعان ما تظهر الغريزة الأخرى ، غريزة الذوق السليم ، فتراه قد طلى هذا الابريق بلون أحمر ، أو أحرقه فى النار حتى يكتسب ملاسة لامعة ، أو رسم على سطحه الخارجى صوراً مختلفة لا علاقة بينها وبين ما يحويه الابريق .

وأول آثار للفن وصلت إلينا كانت من صنع إنسـان عصر الفيضان (الطوفان) ؟ الذى سكن قبل آلاف من السنين المناطق التى خلت من الثلوج . ذلك الانسان الذى سكن الكهوف فى جنوبى فرنسا وشمالى أسبانيا ، ترك لنا أثراً من الفن أحجم البعض عنـد أول وهلة أن ينسبه إليه ، فترك لنا رسومات جميلة نقشها على صخور تلك الكهوف ، دلت على مهارة فائقة فى فن الرسم (صورة رقم ١) . وبعد ذلك انتهت حضارة ذلك الانسان الأول فى أوربا ، وظهرت حضارات مختلفة فى الشرق الأدنى وشمالى أفريقية[1] ، كانت آثارها الأولى متشابهة كل الشبه لآثار ذلك الانسان الأول الذى ظهر فى أوربا ؛ ولكننا نجد بعد ذلك أن الشرق الأدنى تقدم فى حضارته تقدماً محسوساً ، حتى إذا ما حل العصر الحجرى الحديث رأينا أن الفن فى الشرق الأدنى ، وخصوصاً فى مصر ، قد انتحى ناحية أخرى .



(الصورة رقم ١)

والفن المصرى بدأ فى عصر فجر التاريخ يطبع بطابع يختلف فى مظهره عن فنون الأمم المجاورة ، وهذا الطابع المصرى الذى كونته البيئة المصرية ، وعمل على تقدمه وتنميته العقل المصرى والفكر المصرى ، احتفظ بمظهره الخارجى طوال التاريخ المصرى ، أى ما يقرب من أربعة آلاف سنة . ولكننا بعد الدرس والمقارنة سوف نجد أنه ليس من الصعب علينا أن نقسم هذا الفن إلى عصور مختلفة يمتاز كل منها بطابعه الخاص .

---

(١) فى عصور فجر التاريخ الغابرة حلت بشمال أفريقيـة عوامل طبيعية جعلتها مغمورة بالثلوج بينما أوربا كانت منطقة أمطار غزيرة ، وبعد حين انتقلت هذه العوامل الجوية إلى أوربا فجعلتها مغطاة بالثلوج ، بينما شمال أفريقيـة كان منطقة أمطار غزيرة . وهذا هو السبب الذى من أجله اختفت حضارة الانسان الأول فى أوربا ، وظهرت حضاراته فى شمال أفريقية والشرق الأدنى .

وفى كلمتى هذه ، أود أن أتحدث باختصار عن فن نحت التماثيل عند المصريين القدماء ، ولكنى أرى أنه يحسن قبل أن أبدأ بحثى أن أبين لقراء الغرض الذى من أجله صنع المصرى التماثيل .

اعتقد المصرى القديم فى الحياة الثانية ، واعتقد أيضاً أنه عند ما يحل الموت تفارق قرينته (روحه) جسده ، على أن تعود بعد ذلك إلى هذا الجسد من حين لآخر ، كى تحيا معه حياة تشابه من كل ناحية الحياة التى اعتاد صاحبها أن يحياها على الأرض . ولكى تحيا هذه (القرينة) فى المقبرة يجب أن تجد ما كانت تأكله وتشربه وتتمتع به فى حياتها الأولى ، ليس هذا كل ما يساعدها على الحياة فى المقبرة ، بل يجب أن تجد جسدها فى حالة جيدة لا تهدم فيه ولا انحلال . وعلى ذلك اهتم المصرى منذ بدء حضارته على ملء مقبرته بكل ما تشتهيه النفس ، وما اعتاد أن يأكله ويشربه ويرتديه ، وبكل ما أسعده وجلب الهناءة إلى نفسه . كانت هذه الأشياء توضع إما بذاتها فى المقبرة أو تنقش صورها على جدرانها . ثم حاول المصرى جهده المحافظة على جسده ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فكان أول أمره يجفف الجثة ويضعها فى توابيت متينة سميكة من الخشب أو من الحجر ، أو منهما معاً . ثم عرف التحنيط وبرع فيه فحنط جثث موتاه . ولكن المصرى لم يقتنع بهذا كله وخاف إذا ما حدث للجثة ما لم يكن فى الحسبان ، بأن تبلى أو يصيبها شىء من العطب ، أن يحرم من التمتع بالحياة الثانية حيث يتعذر على القرينة أن تعثر على جثتها أو تتعرف عليها ، ففكر وأمعن فى التفكير ، حتى اهتدى إلى طريقة اعتقد فيها ما يؤكد له رجوع القرينة إلى المقبرة ، فصنع التماثيل الجنائزية ، ووضعها فى المقبرة لتحل فيها القرينة إذا ما بليت الجثة .

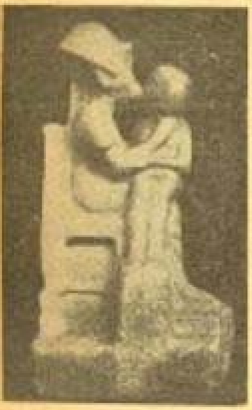
***

لقد تحدثت فيما سبق أن الفن المصرى قد اختص من دون فنون الأمم الأخرى بطابع خاص ، وبقى علىّ أن أتحدث عن قوانين هذا الفن ، وأقصد بذلك القوانين التى يتمسك بها الفنان عند نحته تمثالا .

هذا القانون هو ما سماه الأستاذ (شيفر Schaefer) قانون الاتجاهات المستقيمة ، ويقصد بذلك أن كل نقطة على التمثال المصرى إذا مد منها خط مستقيم عمودى توازى مع أى خط عمودى مد من نقطة أخرى ، بينما هذا يستحيل فى التمثال اليونانى ، إذ أنه يفيض حركة أعضاؤه غير مستقيمة كلها اعوجاج لا يوازى خط مد من الصدر خطاً مد من الذراع اليمنى أو الرأس (انظر صورة رقم ٢) . وأحسن مثل يضرب لقوانين الفن المصرى ، هو ذلك التمثال الذى يمثل لنا الملك [إخناتون] يقبل ابنته (انظر صورة رقم ٣) نرى الأب جالساً على كرسيه أعضاؤه مستقيمة كل الاستقامة ، لا حركة فيها تدل على ما يكنه من عطف أو حب لابنته ؛ وهكذا جلست الابنة على فخذى أبيها ، جسمها الصغير ممتد من الأمام ، والتوى وجهها نحو وجه أبيها ، وبذلك مثل من الجانب حتى يصبح وجه



(الصورة رقم ٢)



(الصورة رقم ٣)

الابنة مواجهاً لأبيها ، أما القبلة فنحن لا نشعر بها ، بل نراها ونلمسها .



(الصورة رقم ٤)

وقوانين الفن المصرى كانت هى السائدة بين فنون شعوب العالم المتحضر القديم ، أقصد بذلك فلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين (بابلونيا) وبلاد الأناضول (الحيثيين) ثم فى بلاد اليونان نفسها (حتى عام ٥٠٠ ق . م) (انظر صورة رقم ٤) أى إلى أن قامت الثورة الفكرية فيها وتفتقت أذهان اليونانى القديم وظهرت فلسفته العالية .



(الصورة رقم ٥ ا)

وليس من السهل علينا أن نفسر هذه الطريقة فى النحت ، ولا زلنا نتساءل : لماذا لم يهتد المصرى القديم إلى قوانين النحت والتصوير التى اهتدى إليها الأغريق بعد عام (٥٠٠ ق . م) ؟ هذا مع العلم بأنه ليس فى مقدورنا أن نتهم المصرى بعدم مهارته فى النحت ، فلدينا تماثيل الدولة القديمة والدولة المتوسطة ، ونخص بالذكر تماثيل عصر العمارنة والعصر الصاوى ، فهى أكبر دليل على تفوق المصرى فى فنه ولو أنه اتبع فى ذلك قانونه الخاص ؛



(الصورة رقم ٥ ب)

ثم تفوق المصرى فى علم التشريح واستعمال هذا العلم فى نحت تماثيله أصبح معروفاً (انظر صورة رقم ٥ ا ، ب) فتماثيل الملك « إخناتون » أحسن مثل يضرب لهذا ، فقد تمكن المثال من إعطائنا صورة صادقة لملك مريض ولكنه ملك ذكى جبار .

***

الحركة فى الفن اليونانى تُحتم الوقت ، فإذا نظرنا إلى قطعة فنية يونانيـة (انظر صورة رقم ٨) وجدنا أن الفنان أراد أن يُمثل فيها لحظة من وقت ، وأكاد أشبّه ذلك بشريط سينمائى اقتُطعت منه صورة واحدة من عدة صور تمثّل حركة واحدة لإنسان مُعين ، هذه الصورة اختيرت لتظهر للرائى ما يكنه صاحب هذه الحركة ؛ فالمثّال اليونانى مرتبط فى هذه الحالة بالطبيعة كل الارتباط ، ثم هو مضطر فى نفس الوقت أن يُلبِس هذا الارتباط الوثيق بالطبيعة لباساً يستمده من شخصيته الفنية الفلسفية . الفنان اليونانى لا يكفيه أن يتقن علم التشريح ، بل يجب عليه أن يُلم بعلم النفس ، ولا يكفيه أن يدرس فن النحت ، بل يجب عليه قبل ذلك أن يدرس فن الاجتماع . يجب كذلك عليه أن يكون رجلاً كاملاً ذا شعور حساس ، وقلب ممتلئ بالحياة ، وعقل حكيم ، يدرس الناس قبل أن يدرس تشريح الأعضاء ؛ فنى الفن اليونانى نسعى لرؤية شخصية الفنان قبل أن نرى إلى أى حد بلغ فنه ، ونحاول أن نرى كيف تمكن من الوصول إلى رؤية الطبيعة قبل أن نحكم على مهارته الفنية .

زد على ذلك أن الفنان اليونانى كان ينشد الكمال ،

ويتطلع إلى المثل العليا متأثراً فى ذلك بفلسفة « سقراط » و « أفلاطون » التى كانت ترنو إلى مملكة السماء حيث الآلهة تحيا حياة الإنسان ؛ فهى تأكل وتشرب وتتنزه وتتزاور ، وتقيم الحفلات وتلتحم فى الحروب . هذه المملكة (مملكة الآلهة) كانت تحوى كل ما يعيش على الأرض من نبات وحيوان وجماد ؛ الأصل فى مملكة الآلهة والفرع على الأرض ، والكمال فى مملكة الآلهة والنقص على الأرض . فكان محتماً على الإنسان أن ينشد المثل العليا ، ويحاول أن يصل بشخصه الأرضى إلى أصله الكامل فى السماء .

المصرى كان ينشد الخلود فى فنه ، الخلود الممزوج بالوقار . ثم إن الفن المصرى كان أيضاً يرنو إلى الوصول إلى حد الكمال ، إلا أنه كانت هناك عوامل تقيّد من حركته وتحتم عليه السير فى طريق واحد .

الدين هنا كان العامل الأكبر الذى تسلط على الفنان المصرى وأجبره على اتباع قوانين الفن المصرى وعدم الخروج عليها ، ثم المركزية فى مصر أقصد بذلك تلك المركزية التى تُخضع الفنان لأحكامها وتجبره على السير تحت لوائها ؛ وعلى ذلك فالفن المصرى كان فناً غير شخصى Anonym . فالفنان المصرى كان يعمل لأنه يجب عليه أن يعمل ، فهو الآلة التى تخرج إلى حيز الوجود ما تحتمه القوانين ورجال الدين .

لهذا كان الفنان المصرى إذا مثّل شخصاً فلا يمثله إلا جالساً أو راكعاً أو واقفاً ؛ وفى كل حالة من هذه الحالات يصبُّ الفنان على التمثال الجمود الذى رأى فيه معنى الوقار الخالد ؛ وإذا أراد أن يمثله فى حالة السير قدم الساق اليسرى على اليمنى ، بينما يبقى الجسم على جموده .

* * *

وليس من الواجب علينا أن نفضل فناً على فن ، فلا زلت أؤكد أنى إذا وقفت أمام تمثال (الخفرع) أو (الأمنمحت الثالث) (انظر صورة رقم ٦) أو لقسيس من قساوسة العصر الصاوى (انظر صورة رقم ٧) ملأتنى



(الصورة رقم ٦)



(الصورة رقم ٧)

هذه التماثيل إعجاباً قد يفوق إعجابى بأى تمثال من تماثيل العصر اليونانى ؛ فنى التمثال المصرى : أرى الوقار والخلود والعظمة المملوءة أسراراً .



(الصورة رقم ٨)

بينما فى التمثال اليونانى : أرى الجمال القلق والمبالغة فى تقليد الطبيعة كما يجب أن تكون ، ولكن ليست كما هى . فكما قلت يستحيل أن تطابق تماثيل اليونان الطبيعة ، بل من المستحيل أيضاً أن تكون الطبيعة قد أنجبت جمالاً وتناسقاً يماثل الجمال والتناسق الذى نراه مطبوعاً على تماثيل اليونان . (انظر صورة رقم ٨)

إذاً فالمصرى كان بلا نزاع لا يتملق الطبيعة كما كان يتملقها اليونانى .

* * *

ومن الطبيعى أننا إذا وقفنا أمام تمثالين أحدهما مصرى والآخر يونانى نشعر بأن الثانى أقرب إلى فهمنا وذوقنا من

(البقية على الصفحة التالية)

صورة من صور الحياة :

ليلة القـــدر

للآنسة صاحبة الامضاء

دقت الساعة الخامسة بعد الظهر ، فقامت ليلى إلى غرفة المائدة تشرف على إعداد طعام الافطار . وأذّن المؤذن أذان المغرب ، فاجتمعت الأسرة حول المائدة ؛ ومرت عشر دقائق لم يفه فيها أحد بكلمة ، فالكل يأكل بشراهة فائقة . وجاء الخادم بفطيرة صنعتها ليلى بنفسها ؛ ولما كان من الحتم أن تنتقد الأم كل ما تعمله ليلى ، حتى تتعلم لتصبح ربة بيت حقاً ، قالت :

« هذه الفطيرة ليست كما يجب يا ليلى ! إن مقدار السكر فيها ناقص جداً » .

لم تنتبه ليلى إلى ما قالته أمها ، بل بقيت سابحة فى عالم آخر من الأحلام .

« ألم تسمعى ما قلته يا ليلى عن مقدار السكر ؟ إنى أنصحك لفائدتك ، فغداً سيكون لك بيت تديرينه بنفسك » .

ثم التفتت إلى زوجها رب البيت فقالت باسمة :

« كم أتمنى أن أرى ابنتى فى بيتها مع زوجها وأبنائها ، كم أود أن يكون زوجها شاباً كاملا أتم الشباب وأحسنه »

ثم قالت وقد خفضت صوتها :

« كم أتمنى لو يتقدم شاب مثل محسن ابن الجيران لخطبة ليلى ، إنه شاب راق تبدو عليه مخائل الرجولة والكمال ! »

وسمعت ليلى هذه الهمسات فاحمر وجهها خجلا ، ولمعت عيناها بريق عجيب ، والتفتت إلى شقيقتها الصغرى فوجدتها ترمقها بنظرة كلها استفهام وتعجب ، ثم صاحت الصغرى مصفقة ضاحكة ، وقد سمعت هى الأخرى همسات أمها :

— وهل تقدم محسن فعلا إلى ليلى يا أماه ؟ .

فتبسمت الأم وداعبت ابنتها ضاحكة وقالت :

— أيتها الشيطانة الصغيرة !

وقال الأب بغير مبالاة :

— محسن ؟ ما لهذا بنا ، وما شأنه معنا ؟ لسنا له ، وليس هو لنا يا بنية .

فأضافت الأم قائلة : « نعم . إنه ابن هذه الأسرة الغنية العريقة » .

ثم تنفست متأثرة فاندفعت ليلى عند ذلك قائلة فى ثورة عنيفة :

« ومن قال لكم إن محسناً يعجبنى ؟ إن منظره يبعث فى نفسى شعوراً بالكراهية نحو كل الرجال لا نحوه فقط . ما أثقله وهو واقف أمام النافذة يربط رباط عنقه ، أو وهو ينظر فى المرآة كأنه مخلوق أرق من سائر المخلوقات . لو لم

الأول ؛ والسبب فى ذلك أن الحضارة الحديثة والذوق الحديث والعقل الحديث قد تكونت على أُسس الحضارة والذوق والعقل الأغريقى القديم . فنحن لا نزال نفكر ونرى الأشياء كما فكر ورأى الأشياء الأغريقى القديم .

وعلى ذلك نحن نفهم الفن اليونانى بالسليقة ، ونحتاج إلى دراسة لفهم الفن المصرى ؛ وإذا تمكنا من فهم الفن المصرى ، فإن إعجابنا به واستساغتنا له واحترامنا لفنانيه سوف يعادل — إذا لم يفق — إعجابنا واستساغتنا للفن اليونانى واحترامنا لفنانيه .

عبد المنعم أبو بكر

يبق في الدنيا سوى محسن لما فكرت في أن أتزوجه » .

قالت ليلى كل هـذا وهي ترتعش من شدة الانفعال . ثم قامت مسرعة تجرى نحو غرفتها .

جلست ليلى وحدها تفكر في محسن . هل هو حقيقة ثقيل يبعث النظر إليه على الكراهية والنفور ؟ إن قوامه لا بأس به وتقاطيع وجهه مقبولة وعينيه كعيني إنسان عادي ، وهو فوق ذلك معروف بين أهل الحي بالرجولة والشهامة والذكاء ؛ وبالاختصار ليس في محسن ما يبعث حقيقة على الكراهية ، سوى أنه قد ينظر إليها وإلى أسرتها نظرة لا تنطوي على الاحترام الكامل . فهو من عائلة عريقة ثرية ، أما هي فليست سوى ابنة أحد التجار المتوسطي الحال . هكذا قال أبوها ، وهكذا قالت أمها على الأقل ؛ ولكن ربما كان محسن ديموقراطي النزعة ، لا يهمه النسب ولا الحسب . على كل حال إن منظره لا يبعث مطلقاً على الكراهية بل بالعكس إن ملامح وجهه الدقيقة تنم عن دقة في الشعور ورقة في المعاملة . إن مظهره في الواقع جميل ؛ أما عيناه فليستا عاديتين ، بل هما عينـان فيهما وداعة وصراحة . وهما في الواقع لا تبعثان إلى سوء الظن ولا إلى النفور ! .

وهكذا مكثت ليلى سابحة في عالم من التفكير حتى غلب عليها النوم .

استيقظت ليلى في ساعة السحور على صوت الخـادمة وهي تقول : « صباح الخير يا ست ليلى . ستكون الليلة القبلة ليلة القدر . كل عام وأنت بخير » .

تنبهت ليلى وألفـاظ الخادمة ترن في أذنيها « ليلة القدر ! » نعم ليلة القدر . إنها تعرف أن هذه ليلة مباركة تستجاب فيها دعوات من تتفتح له أبواب السماء . إن من يرى ليلة القدر ويفجأ بنورها الباهر ، ولا يفقد لبّه ثم يسرع بطلبه وصل طلبه إلى السماء حتماً .

قضت ليلى يومها التالي في اضطراب وتفكير فلم تكلم أحداً . وبعيد الغروب جلست على مائدة الإفطار وهي ساهمة ساكنة سكوتاً عميقاً . ولما سمعت أذان العشاء اضطربت ودق قلبها دقاً عنيفاً . لقد حانت الساعة التي يمكنها فيها أن تقترب من الله وتطلب منه ما تتمناه . جرت مسرعة إلى غرفتها وولت وجهها شطر القبلة .

ظلت واقفة أمام النافذة ترقب تلك الساعة التي يشع فيها هـذا النور السماوي . ومرت عليها الساعات وهي واقفة تحملق في السماء . لم تشعر بتعب ولا ملل في طوال الساعات البطيئة ، لم تفكر في شيء سوى أنها سترى ليلة القدر — نعم سترى هذا النور الساحر ، وتطلب من الله ما تشاء . وفجأة اقشعر بدنها ، واهتزت هزة عنيفة — إنها ترى أمامها نوراً يكاد يعمى البصر من شدة لمعانه ، إنها لم تفقد رشدها ، بل صرخت قائلة : « ربِّ وجِّه إليَّ قلب محسن » .

لم يلبث النور إلا ثانية ثم زال كالبرق ، لا يكاد يلحق به البصر .

ارتمت ليلى على السرير بعد أن أعياها التعب ، تعب الوقوف والانتظار . أخذت تطلب المغفرة من ربها لأنها آذت محسناً أمام والديها . ولكن ما ذنبها ؟ لقد دفعوها إلى هذا دفعاً . . وهي لا بد أن تظهر أمام والديها بالكبرياء ؛ فما كان يليق بها أن تظهر الرغبة في زواج محسن ولا أي شاب آخر .

مكثت ليلى سابحة في عالم آخر ، وأخذت تتصور أن محسناً جاء لأبيها يخطبها ، وأن أباها سألها إن كانت تقبله زوجاً ، وأنها طبعاً بكت وولولت وصرخت أنها لا تريد أن تتزوج محسناً بالذات ، ثم تصورت أن أباها أكرهها على قبوله ، فقبلت وهي باكية في الظاهر ، ومبتهجة فرحة في قلبها . وهذا هو يوم زفافها . رأت نفسها وفي يدها خاتم من المـاس الثمين ، وحولها صديقاتها يرمقنها بعين الحسد ؛ وأفراد أسرته ، أسرة محسن العريقة الواسعة الثروة ، ها هي ذي أمه ترمقها بنظرات كلها نقد ؛ إن

(البقية على الصفحة التالية)

بين الاسلامية والوثنية

— ١ —

يرى الباحث المنصف فى الاسلامستان[1] الهندى الذى هو قسم إسلامى عظيم فى الهند ، أن الإسلامية الهندية فى تصادم دائم مع الهندوكية التى تحاربها باسم تلك البدعة التى تطلق عليها الهندوكية اسم الوطنية .

وقد بلغت فى التوغل والسيطرة حداً تكاد معه أن تمحو كل شىء يعترضها فى طريقها ، وتعصف بكل عقبة تحول بينها وبين تحقيق غايتها ، بلا هوادة ولا رحمة . ولم تتورع فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف عن محاربة الإسلامية نفسها ، وهى الجامعة الشاملة الكاملة للحقيقة الأبدية الخالدة ، والكمال المطلق الذى تحتويه تعاليمها ، وقد دأبت الهندوكية على النيل منها ، وتشويه جمالها جاهدة بكل وسيلة .

— ٢ —

وتدل المظاهر — بلا شك — على أن هذا الصراع (بين الوطنية والإسلامية) لم يبق محصوراً فى نطاق الهند وحدها ، بل خرج من هذه الدائرة إلى جميع بقاع الدنيا التى تحتويها الأقطار الإسلامية . على أن الصراع الإسلامى الهندى هو أقوى وأعنف صراع يشهده العالم الإسلامى كله فى فجاج الأرض المتشعبة وأنحائها المختلفة .

(١) الاسلامستان : لقب اختاره الفيلسوف الهندى (صاحب هذا المقال) : مولاى آزاد سبحانى — لجمهرة البقاع التى يقطن فيها سواد مسلمى الهند ، حيث يؤلفون الأغلبية العددية الساحقة ، مضافاً إليها بقاع أخرى تسود فيها غلبة المسلمين وقوة بأسهم ، وإن قل عددهم بالقياس إلى سواد أهليها من الوثنيين . وتحتوى البقاع الاولى مجموعة الأقاليم الخمسة فى القسم الغربى من الهند ، التى يطلقون عليها اسم بكستان ، وهى :

« بنجاب وكشمير وسرهد وسند وبلوخستان » . والاسلامستان هو مجموع هذه الأقاليم الخمسة مضافاً إليها قسم شرقى يطلق عليه اسم البنجال وآسام ، وقسم جنوبى يشتمل على دولة حيدر أباد ، وهو يمتاز — على قلة عدد المسلمين فيه — بشدة قوتهم وسيطرتهم .

ومن هذه البقاع مجتمعة يتألف الاسلامستان .

أمه ليست ظريفة جداً ، ولكن هذا طبيعى ، فهى ليست إلا حماتها ؛ وماذا يهمها إذا كانت والدة محسن ترمقها بنظرات حب أو كره ، ما دام محسن أصبح لها ، ولها فقط ؟ ما أجمل بيتهما الجديد ، وما أجمل سيارتهما الجديدة ! وما أجمل ! . . . وما أجمل ! . . .

وهكذا ظلت ليلى سابحة فى عالم من الأحلام حتى غلبها النعاس ، فراحت فى سبات عميق .

دق الباب بشدة ، فاستيقظت ليلى من النوم على صوت أمها تقول : « ما هذا يا ليلى ؟ هل تعرفين كم الساعة ؟ لقد أذن آذان الظهر . إنى حقيقة أتعجب كيف لم تقلقك الضوضاء التى أحدثها الجيران . لقد سافر اليوم صباحاً ابن الجيران إلى أوربا ليمكث ثلاث سنوات ، وأخذ معه عروسه . ألم تسمعى صوت السيارات وصوت الخدم وهم ينزلون الحقائب إلى السيارة ، وصوت أهله وهم يقولون له مع السلامة ؟ ألم تسمعى كل هذا ؟ يا إلهى ، ماذا بك يا ليلى ؟ ليلى ! . . . ليلى ! . . . أجيبينى مالك تحملقين فىَّ هكذا ؟ » .

لم تتحرك ليلى ولم يطرف جفناها ، بل ظلت تحملق فى وجه أمها مشدوهة :

— من الذى سافر يا أماه ؟

— قلت لك ابن الجيران — محسن ! ! !

« أمينة »

وحسبك دليلا على ذلك ما تلمسه من مجموع قوى الفريقين المختصمين ، مادياً ومعنوياً .

ولئن أصابت الاسلامية الهندية فى هذه المركة الهائلة خذلاناً وانكساراً ، منيت الإسلامية العالمية كلها بالهزيمة والاندحار . أعنى أن النكبة التي تلحق المسلمين فى بقاع الأرض تصبح عامة شاملة ، لا تنجو منها أرض إسلامية شرقية كانت أم غربية ، عربية كانت أم أعجمية ، صغيرة كانت أم كبيرة .

— ٣ —

فلا غرو إذا نبهنا الأذهان إلى خطر هـذا التصادم الهندى ، الجدير بالاهتمام العظيم ، حتى لا ينظر إليه كما ينظر إلى المسائل العادية البسيطة الجزئية . وإن أول واجب على المخلصين أن يحرصوا على إنقاذ الاسلامية من براثن الوطنية المعتدية التي ترمى إلى ابتكار ضروب وأفانين من البلاء والرزايا تصبها على الروح الاسلامى بكل وسيلة شنعاء ، معتقدة أن الاسلامية إذا لم تنجح فى هذه المعركة الناشبة فى الميدان الهندى ، فلعلها لن تصيب نجاحاً فى معركة أخرى فى أى ميدان من ميادين العالم الاسلامى بعد ذلك . وإنما نقرر ذلك ونؤكده ، لأن تعمق الاسلامية ، وتغلغل الروح الدينى فى مسلمى الهند ، وثبات العقيدة فى نفوسهم ، قد بلغت حداً لا يستطيع الفكر الانسانى أن يتخيل بعده زيادة لمستزيد ؛ ولن يفوقه فى ذلك أى إقليم إسلامى يعيش فى زماننا هـذا ، بل حسبه أن يبلغ مبلغه فى التعمق والتمكن والثبات .

— ٤ —

بقى علينا أن نسأل :

— على أى عاتق تقع هذه التبعة الخطيرة ؟ وعلى من يتحتم أن يلتفت هذه الالتفاتة المتقدة ، ويتجه هذا الاتجاه المعين ؟ وعلى من يجب الاضطلاع بأداء هذا الواجب العظيم ؟

لا شك أن العالم الاسلامى كله ، مسئول عن هذا ، ولا جَرَم أن كل قطر إسلامى — بَعُدَ أو قَرُبَ — عليه قسط يجب أن يؤديه المساهمة فى سبيل هذه الغاية . ذلك حق لا ريب فيه .

ولكن بعض الأقطار الاسلامية ، جدير بأن يحتمل أوفر قسط ، ويضطلع بأكبر نصيب من هذا الواجب العام . وما عنيت بذلك إلا بلدين : مصر أولا ، وتركيا ثانياً .

عنيت مصر أولاً ، لما توفر لها من بسطة فى العلم ، وتفوق فى الحضارة المتسامية فى المدنى .

وعنيت تركيا ثانياً لما توفر لها من أسباب الاجلال ، والتفوق فى الشوكة والقوة .

وإن الاسلامية الهندية بالأسلامستان لتصرخ مستغيثة فى هذه المحنة ، مهيبة فى كارثتها بالعالم الاسلامى عامة ، والعالم المصرى خاصة .

فهل نرى لهذه الصرخة الدوية سمعاً مجيباً ؟

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق العالم الاسلامى والعالم المصرى لتلبية هذا النداء بأذن سميعة .

— ٥ —

وبعد فهل عرف العالم الاسلامى خارج الهند شيئاً عن هذا الصراع الذى لم تذع شهرته ولم يعرف عن حقيقته تفصيل ولا إجمال ، لأن أسباب الدعاية لم تيسر له كما يسرت لخصمه ، فلم يدر عنه سواد المسلمين شيئاً يذكر ؟

بل أنا أزعم أكثر من ذلك . فقد عرفت من محادثاتى ومشاهداتى المتوالية أن الجهل بهذه الحقائق قد بلغ مبلغاً عظيماً ، حتى إن أغلب الناس ليجهلون أصوله الأولى ويفهمونه على عكس حقيقته ، ويعتقدون خلاف الواقع .

فاذا سمع مسلمو الهند ما تلقفه مسلمو الأقطار الأخرى من معلومات خاطئة ، ومزاعم فاسدة فى هذا الباب ،

استغرقوا فى العجب ، وتملكهم الحزن والأسف .

* * *

والغاية العملية لهذه المقومات الملحوظة ظاهرة جلية ؛ وليس أدل على ظهور أثرها ووضوح نتيجتها من أن الاسلامية الهندية ، وهى فى محنتها الحاسمة ، ومعركتها الفاصلة التى يقرر فيها أمر حياتها وموتها ، لم تصل إليها إعانة ، ولو حقيرة ، من شتى الأمم الاسلامية ، مع توالى صراخها واستغاثتها .

وليت المسألة وقفت عند هذا الحد ، بل تجاوزته إلى حد بعيد فى توالى المخالفات التى قوى بها ساعد الهندوكية وقويت بها شوكتها .

ولئن عذرنا الجاهل لجهله ، ولم نجأر بالشكوى صارخين من النتائج المترتبة على ذلك ، لقد حق لنا أن نأسف لما جرت إليه هذه الحال من نتائج ضارة .

فأول واجب علينا هو أن ننبه العالم الاسلامى قبل كل شىء إلى حقيقة القضية ، ونصحح ما وقع فيه من أوهام ، ولهذا اعتزمت أن أبذل جهد استطاعتى فى الوصول إلى هذه الغاية ، وقد نويت أن أكتب مقالة طويلة فى هذه المجلة أبعث بها أقساطاً متتابعة ، وهذا أول قسط منها أؤديه ، راجياً أن أتمكن من إنجاز الأقساط الأخرى على قلة فرصتى واضطراب أحوالى .

ولأبدأ أولاً بملاحظات أولية أصرح بها لإزالة المغالطات والأوهام التى تعرض لمن يتصدى لهذا الموضوع ، رغبة فى محو آثار الخطأ الذى نجم مما أذاعه الخصوم المائدون من دعايات كاذبة .

— ٦ —

وأول ما أوجه إليه الأنظار ، أن فريقاً من الدعاة الذين يناوئون الاسلامية الهندية ويشتبكون معها فى هذا الصراع العنيف ، ليس كما زعم ممن يدينون بالوطنية الحقيقية ، وإن أكثروا من دعواها وتفننوا فى إقناع العالم الإسلامى بها .

وإن لوطنيتهم لظاهراً سطحياً مموهاً وباطناً عميقاً متأصلاً فى جحد ما يظهرون بأفواههم من أقوال منمقة . أعنى أن وطنيتهم اسمية لا حقيقة لها . وليست فى صميمها إلا دينية هندوكية ألبستها الدعاية لبوس الوطنية ، وسترتها بقناع جميل ليخفى وجهها القبيح فلا تظهر دمامته للناظرين .

— ٧ —

وهل يجهل كائن من كان أن الاسلام هو قبل كل شىء دين توحيد ؟ وأنه ظهر على وجه الأرض لإبطال الأوهام وقهرها ، ومحو آثارها من الوجود ؟ وأنه لم يخلق إلا لإبادتها ، وإعلان الحرب عليها دائماً وأبداً بلا هوادة ، والحكم عليها بالفناء حكماً ظاهراً مؤبداً بالنفاذ .

ولم يرخص للإسلامية قط فى أن تترك فرصة تمكن الأوهام من التحكم فيها ، أو مهادنتها .

فهل يدور بخلد مسلم صادق العقيدة أن من الجائز لنبله أن يطالب الإسلامية الحقة بالخضوع لها أو الاشتراك فيها ؟

وأزيد على ذلك فأقول :

كيف يدور بخلد كائن من كان أن يتصور أن يوجد فى الدنيا مسلم صحيح الاسلام يعرف معنى دينه وغايته ، وما يحتمه دستور عقيدته على الأمم الاسلامية من استقلال متفرد أينما كانت وحيثما وجدت فى حرية تامة ونظام أتم ، كيف يتصور ذلك المسلم الحق أن ترضى هذه الأمم بالوقوع فى ربقة الذل والخضوع للمقائد الأخرى أو التنازل عن كرامتها وحريتها ؟ ومتى أقررنا ذلك ، حق لنا أن نسأل : كيف يمكن الاسلامية الهندية أن ترضى بالخضوع لحكم الهندوكية والاستسلام لنظمها ، وليس لخضوعها

إلا معنى واحد ، هو تغيير حقيقتها ، وتبديل ذاتيتها ، ومسخ جوهرها ؟

— ٨ —

ويبقى أن أصرح هنا أن الوطنية العادلة لا تنافى الإسلامية ولا تخاصمها ، بل تعضدها وتوجبها ، وهى من توابعها اللازمة ، وحواشيها الواجبة الأصيلة .

فليس معنى الوطنية العادلة الاستسلام للعصبية الجنسية أو إكبار المحلية الضيقة ، إلى حد يجعلها تؤثر الشطط والغلو على الاعتدال والرحمة ، بل معناها ، أن تحرص على الاستمرار فى عدالتها واعتدالها ، حتى تصبح قادرة على البقاء دائماً وأبداً خادمة للعدل فياضة بالبر والمواساة .

والوطنية العادلة أيضاً جزء من العالمية وطريق إلى النوعية الشاملة .

أما الوطنية المدلسة فهى فى حقيقتها رغبة فى السيادة وإيغال فى حب السيطرة لا وطنية ، فهى لا تعمل لشىء غير محو الإسلامية وإزالة شخصيتها وكرامتها .

وخلاصة القول : أن الإسلامية ليست حرباً على الوطنية العادلة الصادقة ، بل هى حرب على الوطنية المدلسة المعتدية . وهى فى تلك الحرب مطابقة لأحكام العقل والدين ، منتهجة سبيل الحكمة والصواب .

— ٩ —

بقى أمر آخر ، وهو تنبيه الأذهان إلى أن صورة الصراع القائم بين الإسلام والهندوكية ليست فى حقيقتها — كما زعم المغرضون — صراعاً نفسياً بل صراعاً أصولياً .

أعنى أن التصادم ليس واقعاً بين نفوس الهندوكيين ونفوس المسلمين ، أفراداً كانوا أو جماعات ، ذاتاً وأصلا ، بل تبعاً وضمناً فقط ؛ لأن التصادم الذاتى الأصلى فى صميمه إنما هو بين الأصول والأصول .

فما هى الأصول المصطرعة المتصادمة إذاً ؟

هى العالمية العادلة ، والمحلية المعاندة .

أو بعبارة أخرى : هى النوعة الشاملة العالية ، والطائفية الضيقة المتطرفة .

فالهندوكية تدعو إلى المحلية المعاندة والطائفية الضيقة ، فى حين أن الإسلامية المتدينة تهتدى بأهدى التعاليم ، وتدعو إلى العالمية والنوعية ، وهما أقسى ضربة توجه إلى المحلية المعاندة والطائفية المتطرفة .

فالهندوكية تخشى من الإسلام أن يتمكن بتعاليمه العالية السمحة من أن يسدد إليها طعنة نافذة فى الصميم ، وأن يحفظ على المسلمين الهنديين ما يحرصون عليه من كرامتهم وحريتهم واستقلالهم ، وهم شعب يبلغ فى العدد عشرات من الملايين الذين يحملون بين ضلوعهم أقوى إحساس بالعزة والكرامة وتقديس الحرية . وليس فى شرعة العدل والإنصاف أن يضحّى بمثل هذه الملايين العديدة وعقيدتهم ومثلهم العليا فى سبيل رغبة جامحة تحمل مواطنيهم على اللجاجة فى رغبة السيطرة والسيادة عليهم .

وسنبين فى كلمتنا القبلة حقيقة موقف المسلمين فى الهند فى صراعهم المشروع ، لتطلع العالم الإسلامى على أنهم إنما يرغبون فى الحياة المسالمة الحرة ، بحيث يتعاونون مع سائر إخوانهم فى حدود المصلحة الوطنية الحقيقية ، بغير أن يتزلوا عن عقائدهم الدينية أو مثلهم العليا أو كرامتهم وحريتهم .

معـــجزة !

كنا نتحدث فى أفضلية عصرنا الحاضر على سائر العصور الغابرة من حيث المدنية والرقى ، حين عارض صديقنا (س) فى ذلك وقال محتداً ، إذ كان عصبي المزاج : إن تلك العصور أفضل لأنها كانت مسرحاً للمعجزات التى حدثتنا عنها الكتب المقدسة ! فقال آخر وكان شديد الاعجاب بالحضارة الأوربية الحديثة : والطيارة ؟ أليست من المعجزات ؟ .

أليس من العجب العُجاب أن يعبر الأطلنطيق اليوم فى ساعات معدودات بعد ما كانوا يقضون شهوراً فى الذهاب من أوربا إلى أمريكا ؟ والكونت ماركونى ؟ وهو الذى تمكن ، فى بضع سنوات ، من إضاءة ميناء فى أوستراليا بينا كان فى بحثه بجنوا ؟ لكن صديقنا (س) أبدى حركة تدل على احتقاره لمثل هذه المعجزات الحديثة التى يأتى بها العلم ، بل هم بالانصراف ؛ فرأيت أن أروى الحادثة الآتية إكراماً لصديقنا (س) هذا ، حتى يطيب بالاً ونفساً :

فى أثناء إقامتنا بأسبانيا مدة الحرب الكبرى ، كنا نقطن فى منزل قديم بضواحى مدينة برشلونه ، وكان بهذا المنزل مصلًّى فى الحديقة به صورة جميلة للعذراء مريم عليها السلام ، لأن الأسبان فى ذلك العهد كانوا شديدى التعلق بالدين ، لا يمتون قط إلى أبنائهم الذين حرقوا الكنائس ومثلوا بالراهبات والقسس أثناء الثورة الأهلية .. وكان بين معارفنا من الجيران الأسبان الذين يترددون علينا سيدة فاضلة متقدمة فى السن تدعى ألدونيا بيلار ، زوجها طبيب توفى من سنوات ، وكانت لها ابنة فى العشرين تدعى مريتا جميلة ولطيفة على السواء ؛ ولمريتا هذه خطيب ضابط فى الجيش سافر إلى مراكش لأن المغاربة فى ذلك الوقت أخذوا يشنون الغارات بكثرة على المنطقة الأسبانية ، ومن أجل ذلك صارت مريتا تبدى شيئاً من القلق . . . وكانت ألدونيا بيلار وابنتها على جانب كبير من التقى والورع ، لذلك فهما تستأذنان أحياناً منا ونحن جلوس فى حجرة الاستقبال ، للذهاب إلى المصلى فى الحديقة ، وهو أقرب مكان لهما لتأدية الصلاة ، ثم حدث يوماً أن جاءتنا مريتا وحدها ، وهى فى حالة جزع واضطراب ، إذ وردت إليها برقية من مقر القيادة الأسبانية فى مراكش تعلن أن خطيبها قد أُصيب بجرح خطير وأنه سوف تعمل له عملية جراحية فوراً . . . ثم استأذنت منا فى الذهاب إلى المصلّى ، كأنها قد جاءت إلينا فى ذلك اليوم من أجل الصلاة عندنا فقط ، قائلة إنها ستتوسل إلى العذراء كى تنجى خطيبها المحبوب من الخطر ! ثم بعد مضى زمن غير قصير على ذهابها إلى المصلّى ، رأيناها عائدة من الحديقة وهى تصيح فرحة مستبشرة : معجزة ! معجزة ! قلنا متعجبين : ماذا ؟ قالت : قد استجابت العذراء رجائى ، فقد رأيتُ بعد ما انتهيتُ من الصلاة وهممتُ بالانصراف ، وجهها مبللاً بالدموع . . . والعجيب أن مريتا وردتها فى هذه الأثناء برقية ثانية تنبئ أن خطيبها أجريت له العملية وأنه الآن تجاوز الخطر ! فصاح صديقنا (س) فرحا : أرأيتم ؟ هـذه هى المعجزات الحقيقية ! . . . ثم تابعتُ حديثى بعد هذه المقاطعة قائلا : ثم انصرفتْ مريتا بعد ذلك قائلة إنها ذاهبة لشراء شموع للعذراء شكراً لها على هذا الجميل . . . لما انصرفت مريتا ذهبت من فورى إلى المصلّى لمشاهدة المعجزة بدافع الفضول ، فقاطعنى صديقنا (س) مرة أخرى قائلاً : وهل شهدت الدموع حقيقة على خد العذراء ؟ قلت : أجل ، كانت العذراء حقاً دامعة ، لكن كان فى سقف المكان شق صغير تتسرب منه قطرات الأمطار !

(كرمة ابن هانئ) صبحى شرقى

مدرسة الأزواج

(بقية المنشور على صفحة ٨)

ولكنهم قد يسرفون فى تكاليف الحياة هذه فيغرقون فيها إلى آذانهم ويضحون فى سبيلها بتكاليف الحياة المنزلية ، وإذا المرأة وحيدة مهملة قد أصبحت أجيرة تقوم لسيدها ومولاها على إعداد طعامه وتنظيم حياته المادية اليسيرة ، وتقوم على تربية أبنائها كما تستطيع ؛ تعمل فى النهار وتعمل فى الليل ، تعمل عن علم إن علمتها ، وتعمل عن جهل إذا لم تعلمها ، وتحظى بالرضى قليلا وتشقى بالغضب كثيراً .

ثم لا ينصرف الرجال عن أزواجهم إلى تكاليف الحياة وحدها ، ولكنهم ينصرفون إلى متاع الحياة وفضولها وسخافاتها ، يتخذون بيوتهم فنادق يؤوون إليها ليناموا ويأوون إليها ليطعموا ؛ ولعلهم يطعمون فى بيوتهم مرة فى اليوم ويأخذون حاجتهم إلى الطعام فى الأندية والمطاعم والقهوات . وإنك لتعلم كما أعلم جناية القهوات والأندية على البيوت وجناية حياة الشارع على حياة الأسرة . وإنك لتعلم أن الرجل يؤثر نفسه بما استطاع من ألوان اللذة والمتاع ، ويترك امرأته حيث هى فى بيتها البائسة القلقة كأنها لم تخلق للذة ولا للمتاع ؛ فإذا سئل عن ذلك تعلل بأن امرأته لا تلائمه وبأن الزوج الصالحة لم توجد فى مصر بعد . وإنما هى معاذير لا تغنى عن الحق شيئاً . والحق أن الرجل ليس خيراً من امرأته ؛ ولعل امرأته أن تكون خيراً منه وأسمى نفساً وأطهر قلباً وأقوى إرادة وأشد احتمالاً وأنقى ضميراً .

شيئاً من الرفق أيها السادة : لا تظلموا أنفسكم بظلم النساء ، ولا تزعموا أنهن فى حاجة إلى الاصلاح من دونكم ؛ فهن فى حاجة إلى أن يتعلمن كما أنكم فى حاجة إلى أن تتعلموا ؛ وهن فى حاجة إلا أن نلائم بين حياتهن وبين التطور الذى انتهينا إليه أو الذى نقبل عليه ؛ وأنتم فى حاجة إلى مثل ذلك . ولكنكم فى حاجة إلى أشياء لم تظهر حاجتهن إليها بعد ؛ أنتم فى حاجة إلى ضبط أنفسكم والقصد فى لذاتكم وإرضاء شهواتكم والاعتدال فى إيثاركم أنفسكم بالخير واعتقادكم بأن الدنيا قد خلقت لكم ولكم وحدكم . فأصلحوا أنفسكم تصلح المرأة .

والله يعلم ما أزعم أن المرأة ليست فى حاجة إلى الاصلاح ؛ ولكنى أزعم أن حاجة الرجال إلى هذا الاصلاح أشد من حاجة النساء . ثم أزعم بعد ذلك أن هذا الاصلاح لا يكون بانشاء مدرسة تخرج الزوجات الصالحات أو الأزواج الصالحين ؛ وإنما يكون بالملاءمة بين حياتنا الاجتماعية وبين ما يقتضيه العصر الحديث من التطور فى النظم السياسية والاقتصادية قبل كل شىء ، وفى النظم الاجتماعية المختلفة بعد ذلك . حققوا العدل بين الناس فى الغنى والفقر وفى الاستمتاع بلذات الحياة والاحتمال لآلامها ومشقاتها وفى الاستمتاع بالحقوق والنهوض بالواجبات ، وأنشئوا للحكم وتحقيق العدل ونشر التعليم والعناية بالصحة العامة أدوات صالحة مستقيمة ، وثقوا بأن هذا كله سيصلح شؤون الرجال والنساء جميعاً ، وسيكفل تخريج الزوجات الصالحات والأزواج الصالحين .

وأخيراً ، أين تكون الشكوى من الزوجات غير الصالحات ؟ إنا لا نسمعها فى القرى والريف ، لأن الرجال والنساء يشقون جميعاً شقاء مشتركاً بحياة قوامها البؤس والضنك والعلل والأمراض . ولا نسمعها فى طبقات العمال التى تعيش فى المدن ، لأن هذه الطبقات يشقى رجالها ونساؤها شقاء مشتركا بعذاب مشترك ، يشبه ما يشقى به أهل الريف ؛ وإنما نسمع هذه الشكوى فى بيئات ضيقة بين الشباب المتعلمين الذين ارتفعوا شيئاً ما عن طبقتهم ، فارتسمت لهم مثل عليا فى الحياة ، لا يجدون من النساء

(البقية على الصفحة التالية)

أكوان فى كون

١ — المسافات بالسنين

الشموس نجوم ، والنجوم شموس ، نورها وحرارتها من نفسها ، تشعهما إلى الفضاء فى جميع جهاته ، وبهما تمد الكواكب القريبة بالطاقة والجمال ، تزين السماء وتضفى عليها الروعة والجلال ؛ يرى فيها الناظر آيات المصوِّر البارىء ناطقةً بعظمته وقدرته ، مدللة على الابداع فى أبلغ صوره وأسماها . وما شمسنا — وهى مصدر الحياة والجمال على الأرض — إلا نجم من هــذه النجوم المنتشرة فى الكون ، فهى متوسطة الجرم على الرغم من كونها تبدو كبيرة بالنسبة إلى أمثالها ، وبين النجوم ما هو أكبر منها ، كما أن بينها ما هو أصغر . وهى (أى النجوم) ليست قريبة إلى بعضها كما نراها ، بل متوزعة فى الفضاء ومتفرقة على أبعاد شاسعة ، بلغت من الكبر درجة تتضاءل أمامها أقيستنا التى نستعملها كالكيلومتر والميل ؛ وقد أصبحت غير صالحة كوحدات لقياس المسافات بين الأجرام السماوية ؛ لهذا لم ير الفلكيون مناصاً من الاستعانة بسرعة النور الذى يسير فى الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل !!! ... فاذا ضربت هذه السرعة فى (٦٠) ثم فى (٦٠) ينتج ما يقطعه النور فى ساعة واحدة ؛ وإذا ضربت الناتج الأخير فى ٢٤ ثم فى ٣٦٠ ينتج ما يقطعه النور فى سنة واحدة ، وهو حوالى ٦ ملايين مليون ميل !!! ... هذا العدد الضخم يستعمل كوحدة فى قياس المسافات بين النجوم ، ويسمى بالسنة الضوئية .

إن أقرب نجم إلينا بعد الشمس هو (الفا قنطورس) يصل نوره إلى الأرض فى أربع سنوات وربع سنة ، أى أن بعده عنا يزيد على (٢٥) مليون مليون ميل ! . وبتعبير آخر أن النور الذى نرى به (قنطورس) الآن خرج قبل أربع سنين وربع ؛ فلو تلاشى من الوجود لسبب ما ، فاننا نبقى متمتعين بنوره فى المحل الذى كان فيه مدة ٤ سنوات وربع سنة ، غير شاعرين بما حدث له . وكذلك يصل نور النجم المسمى بالنَّسر الطائر فى ١٤ سنة ونصف سنة ، وذلك لأن بعده عنا (٨٧) مليون مليون ميل . أما نور نجم السِّماك الرامح فيصل فى مدة خمسين سنة ، أى أن بعده يبلغ (٣٠٠) مليون مليون ميل !! . . .

ومن النجوم ما هو أبعد من النَّسر الطائر والسِّماك الرامح بكثير ؛ وقد يذهل القارىء إذا علم أن نور بعض المجموعات النجومية ، والسدائم الكونية ، قد خرج منها منذ ألوف السنين ؛ فنور سديم الدجاجة الذى نراه بها الآن خرج منها منذ (٥٠٠٠) سنة ، ونور سديم العقاب خرج قبل (١٧) ألف سنة ، وكذلك بعد السديم فى المرأة المسلسلة يزيد على (٦٠٠) ألف سنة نورية ! . . ويقول جينز :

« . . . إن أبعد ما كشفت عنه التلسكوبات من السدائم هى من البعد بحيث يستغرق الضوء فى الوصول إلينا منها نحو ١٤٠ مليون سنة !! . . . . » .

والآن لا أشك فى أن من قرأ هذا المقال من يرى فى هذه الأقوال والأرقام الضخمة خيالاً رائعاً أنتجته قريحة الفلكيين الخصبة . . .

أعواناً عليها ؛ وهــذه أزمة طارئة ستزول يوم يتحقق العدل بين المصريين جميعاً ، وبين الرجال والنساء خاصة فى جميع مرافق الحياة .

فالعدل العــدل أيها السادة ، العدل الاجتماعى وحده هو قوام الاصلاح ، وهو سبيله ، وهو غايتــه ، وهو كل شىء . وقد كنت أظن أن وزارة الشؤون الاجتماعية قد أنشئت لتحقيق هذا العدل الاجتماعى ، وما زلت أظن بها ذلك وأنتظره منها .

طه حسين

للفلكي أن يقول ما يشاء ، قد يكون هذا لسان حال بعض الذين يطلعون على هذه العجالة ، ومن يستطيع أن يحاسب الفلكي على أقواله ؟ ؟

بل من الذي يجهد نفسه ويحملها عناء وتعباً ليتحقق من هذه الأقوال ؟

وهل في الامكان التحقق من ذلك إذا أراد ؟

ألا يقتضي تمحيص هذه الأقوال ، وتدقيق تلك الأرقام درس علم الفلك وأصوله ؟

والذي لا ريب فيه أن من يدرس علم الفلك ويبحث في أصوله ، ويقف على دقائقه ، ويغوص في أرقامه ومعادلاته ، يخرج مقتنعاً أن هذا الفرع من المعرفة من أسمى العلوم وأدقها ؛ فيه لذة عقلية ، ومتاع روحي ، لا يجدها في علوم أخرى ، وأنه علم يقوم على الرياضيات قبل كل شيء ، وإذا جردته منها ، فقدَ أهميته ودقته أولاً ، وروعته وسموه ثانياً .

قلنا إن بين النجوم والسدائم ما تقاس أبعادها بألوف من سني النور وملايينها ؛ ولا بد أن يكون هناك طرق لحساب هذه الأبعاد استطاع الفلكي أن يصل بها إلى ما وصل إليه من نتائج رائعة في اتساع الكون وحجمه .

ولدى الفلكي أربع طرق لقياس المسافات العظيمة بين أجزاء الكون .

أولاها — طريقة لقياس زاوية الاختلاف ، وهي تستعمل للنجوم القريبة .

وثانيها — قياس أبعاد مجاميع النجوم بسير النظام الشمسي في الفضاء .

وثالثها — قياس البعد من مقابلة نور النجوم المجهول بُعدُها بنور النجوم المعلوم بُعدها ، من حيث تأثيره على ألواح التصوير الشمسي .

ورابعها — بوساطة آلة مبين الأطياف .

وعلى الرغم من هذه الطرق فلا يزال هناك نجوم وسدائم يعجز العلم عن قياس أبعادها والوصول إليها ، حتى عن طريق تلسكوب جبل ولسون ، وهو من أكبر تلسكوبات العالم الذي يبلغ قطر عدسته العاكسة مترين ونصف متر . ومن يدري ؟ فلعل التلسكوب الجديد الذي قطر عدسته العاكسة خمسة أمتار يكشف لنا عن أجرام أخرى ، لا سيما وأن مدى النظر سيكون في هذا العمل الهندسي العظيم ثلاثة أضعاف ما هو عليه الآن . ومع ذلك فمجال النظر قصير جداً ، فإن الأقسام التي أصبحت معروفة من الكون ليست شيئاً بالنسبة إلى ما زال مجهولاً .

ويهتم الفلكي في حساب الابعاد ويصرف لها أكثر جهوده وعنايته ، وفيهما يرى بعض خاصيات النجوم وما يساعده على التفريق بين اللمعان وقوة الانارة وعدم الخلط بينهما .

لماذا يبدو أحد النجوم ألمع من الآخر ؟ وهل شدة اللمعان دليل على القرب ؟ وهل ضعف لمعان نجم ما دليل على بعده أم على قوة إنارته ؟

هذه أسئلة استطاع الفلكي من خلال حسابات الابعاد أن يجد لها أجوبة شافية ؛ كما أنه تمكن من هذه الحسابات أن يزيل بعض التعقيد والغموض المحيطين ببحوث اللمعان وقوة الإنارة .

والنجوم في حركة دائمة ؛ ولم يكشف العلم ذلك إلا في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد ، فلقد كانت الفكرة السائدة أن النجوم ثابتة لا حركة لها . والثابت أن حركة النجوم لا تظهر للعين لبعدها الشاسع عنا ، وقد تحتاج إلى أجيال وعصور ليعرف إذا كان هناك تغير في مواقع بعضها . وقد وجد الفلكيون أن معدل حركة النجوم تقدر بمئات الملايين من الأميال في السنة ، وأن هناك اختلافاً كبيراً وتغيراً بعيد المدى في حركاتها ، فمنها السريع ومنها البطيء .

(نابلس) **قدري حافظ طوقان**

المرحوم الشيخ قراعة المفتي والأديب

طوى الموت في ثالث أيام عيد الفطر صفحة حياة جليلة هي حياة المرحوم الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتي الديار المصرية السابق وأحد أئمة الدين المعدودين ، ففقدت مصر بفقده عالماً جليلا جمع بين التفقه في الدين والتفوق في الأدب ؛ فقد كان رحمه الله ناثراً وشاعراً كتب في كثير من المواضيع ، ونظم في شتى المناسبات قصائد رائعات ، تدل على مكانته في الأدب .

حدث مرة أن دس له بعض الحاسدين عند شيخ الإسلام المرحوم الشيخ محمد الانبابي ، وذلك عند ما تولى الأخير المشيخة بدلا من المرحوم الشيخ المهدى . وكان من التهم التي نسبت إليه أنه أنشأ قصيدة يهجو بها المغفور له الشيخ الانبابي مطلعها :

خذوا حِذركم فالأمر قد جاء بالضد
فقد ظهر الدجال واحتجب المهدى

فأحدثت هذه السعاية أثراً في نفس الشيخ الانبابي ، فكتب إليه الفقيد رسالة تعد آية أدبية ، برأ نفسه فيها مما اتهم به ، وعاتب الشيخ على سرعة تصديقه لوشاية الساعي فيه وتسرعه في مهاجمته وذمه ، قال فيها : « يا مولاي وهو الوالد البرور والناقد الشكور ، والعاتب الذي تتوخى رضاه والغاضب الذي تخشى أن يجر غضبه إلينا غضب الله ، يُمزّق في مجلسه أديمي ، ويستحل ما حرم الله من عرضي ، وأقذف بما أوجب الله فيه الحد ، وينتهك من حرمتي ما الله يعلم أني منه براء ، ولا نجد منه إنكاراً على القائل ، ولا إعراضاً عن الناقل . ولو شاء لعاملنا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا . . . » الآية .

وكأن هذه الرسالة لم تكن كافية على ما فيها من حجج وعتاب ، وتقدير واستنكار ، فنظم رحمه الله قصيدة بعث بها أيضاً إلى الشيخ الانبابي استهلها بقوله :

أما آن أن تسلو الرباب وزينبا
وتقلع عما كان في زمن الصِّبا ؟

ألم تعتبر إذ كنت أجرد أمردا
ودهم الليالي قد تركنك أشيبا ؟

إلى أن قال مخاطباً الشيخ الانبابي رحمه الله :

ملاذي وأستاذي وكهفي ومعقلي
ووالد روحي البرُّ إن شاء أو أبي

« محمد الانبابي » أندى الورى يداً
وأقومهم في نصرة الحق مذهبا

* * *

لعلك بالعفو الذي أنت أهله
تمن على من لم يكن لك مذنبا

وهب أنني قارفت ما زعم العدا
فإعراضك الماضي كفاني مؤدِّبا

على أن أروع ما تظهر فيه براعة الأستاذ الأدبية إنما كانت رسائله إلى أصدقائه من الأدباء والعلماء ، سواء لمجرد المساجلة الأدبية ، أو لقضاء حاجة من الحاجات .

فقد كتب مرة يعاتب صديقاً : « لو غيرك طارحني العتاب ، وناقشني الحساب ؛ لعرفت كيف أجيد الدفاع ، وأين أضع قدمي في موطن النزاع ؛ ولكنه الود الذي يعقل اللسان عن البيان ، ويربط الجنان عن إقامة البرهان ؛ مشفوعاً بأياديك التي لا أجحدها ، ومنّتك التي ما عشت لا أزال أحمدها ؛ وكلاهما سفير لا تخيب سفارته ، وشفيع لا ترد شفاعته ؛ فلا تبالي مهما أسأتَ أم أحسنت ، وضننتَ أو مننت ، وصلتَ أو جفوت ، وجرحتَ أم أسوت ؛ ومعاذ الله أن أردّ عتباً بعتب ، أو ذنباً بذنب ... » الخ .

وإليه ينسب (رحمة الله عليه) المنور الثنائي المشهور : « الله يصون دولة حسنك » .

وبعد فتلك أمثلة صغيرة اجتزأنا بها من نماذج لشعر ونثر المرحوم الشيخ قراعة ، راجين أن تتاح الفرصة لبعض المشتغلين في الأدب ، فيجمع آثاره نثراً ونظماً ، سائلين الله للفقيد الرحمة ، معزين فيه إلى جانب أهله الأمة والدين جميعاً .

في عالم التأليف

نيتشـــــه

تأليف الأستاذ عبد الرحمن بدوي بكلية الآداب

منذ أربع سنوات أو يزيد ، كنت أتحدث فى كلية الآداب إلى أبناء الأمس وزملاء اليوم عن حظ الدراسات الفلسفية فى مصر فى الخمسين سنة الأخيرة ؛ وكنا حين ذلك نئن حظها ونلاحظ أنها مهملة من الخاصة ، ومجهولة من العامة ؛ فالنظم التعليمية لا تأخذ بيدها ، ولا تحاول نشرها ، والجمهور ينفر منها ولا يعنى بتفهمها . وكأن المشتغلين بالفلسفة إزاء هذا الاعراض لم يجرؤوا على أن يكتبوا فيها ويؤلفوا ، بل خلوا الميدان لطائفة أخرى ليس لديها من التعاليم الفلسفية الحقة قسط كبير ، فأخذت تقدم للقراء فى الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية بحوثاً لا تدل مطلقاً على أن أصحابها نفذوا إلى صميمها ، وأدركوا تماماً كنهها ، وبذا بدت الفلسفة فى ثوب مشوه منقوص ، أقل ما يقال عنه أنه زاد الناس فيها بغضاً وعنها إعراضاً .

وقد انتهيت فى حديثى هذا إلى أن الدراسات الفلسفية ذات دخل كبير فى الثقافة العامة التى ننشدها ، ولها أثر يعتد به فى تربية الشباب تربية عقلية وروحية . ودعوت إلى أن نتذوق الفلسفة ونذيقها للناس ، لأن الحياة تملى علينا درسها ، والعلم الصحيح يعتمد عليها ، والأدب الراقى ينهل من حياضها . وأعلنت أنه لا سبيل إلى النهوض بها إلا إن توفرت لدينا بحوث فلسفية سهلة يجد فيها العامة غذاءهم ومتعتهم ، وأخرى دقيقة يشحذ فيها الخاصة أذهانهم . فشخصية كسقراط مثلا يمكن أن تقدم لجمهور القراء فى قالب قصصى جذاب ، بل ويمكن أن تكون موضوعاً لمسرحية شائقة ، كما يمكن أن تصاغ صوغاً علمياً منظماً ؛ وما أحوجنا إلى هاتين الناحيتين إن كنا نريد للتعاليم الفلسفية أن تنفذ إلى مختلف الطبقات ، وأن يأخذ كلٌّ منها بنصيب .

ومن حسن الحظ أنه لم تمض سنوات حتى رأينا أحد أبناء كلية الآداب يضطلع بقسط من أعباء هذا الواجب ، ويحاول إنجاز شطر من هذه المهمة . وهذا الابن البار هو الأستاذ عبد الرحمن بدوى الذى كان دائماً موضع ثقة أساتذته ومبعث الأمل والرجاء فيهم . لم يكد يتم سنوات الدرس والطلب حتى بدأ يعد مشروعاً ضخماً يرمى إلى عرض « خلاصة الفكر الأوربى » على القارىء المصرى . وهاهو ذا يتحدث عن مشروعه قائلاً : « ليس من شك فى أن هذا الوطن فى أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما ألف من قيم ، وما اصطلح عليه حتى الآن من أوضاع ؛ فى أشد الحاجة إلى أن يطرح هذه النظرة القديمة فى الوجود وفى الحياة ، كى يضع مكانها نظرة أخرى ، كلها خصب ، وكلها قوة ، وكلها حياة ؛ وفيها تعبير واضح عن كل ما يخالج ضميره من مطامح نحو السمو ونحو العلاء ، وشعور حى نابض بالنزوع إلى تطور روحى هائل ، تصاعد فيه قواه متدفعة متوترة ، حادة متوثبة ، خالقة تبدع فى كل طور من

أطوار هذا التصاعد صوراً للوجود خصبة سامية ، وقيماً للحياة جليلة عالية : فى الاعلان بها إعلان بإمكان خلق جيل من أبنائه عظيم ، وفى تحقيقها تحقيق لمتنوع من الحضارة زاهر ممتاز » .

ولكى يساعد على تحقيق هذا التطور وتكوين تلك النظرة الجديدة فى الوجود والحياة ، رأى أن يقدم إلى جمهور القراء صوراً سامية من الفكر الأوربى كان لها أثرها الفعّال فى تطور الأمم الغربية مادياً وأدبياً والنهوض بها عقلياً وروحياً . ولجأ إلى الفلاسفة والمفكرين والشعراء ، متخيراً من بينهم « أقدرهم على الإلهام وإثارة التفكير ، وأقربهم إلى روح العصر ، وأعظمهم أثراً فى تطور أوربا الروحى ، وأشدهم عناية بمشاكل الإنسانية الحقيقية ، وأحرصهم على أن يكون فكرهم حياً ينبض بدماء الحياة ، خصباً يقدر على النمو من بعدهم والإنتاج ، جريئاً يهاجم المشكلات ، حراً يبدد ما قُدس من أوهام » .

مشروع هائل كما ترى ، وجل ما نخشى عليه أن يكون من طراز تلك المشروعات الضخمة التى فتنا بها فى السنوات الأخيرة ، وعنينا بوضعها و (تصميمها) أكثر مما عنينا بوسائل تطبيقها وتنفيذها ، لا سيما وواضع المشروع من شباب المؤلفين ، والشباب مملوء دائماً بالآمال العذبة والأحلام اللذيذة . وما كان أجدره بأن يقف نفسه على جماعة الفلاسفة فى مختلف العصور ، وهو ألصق بهم وأقرب إليهم ، فيقدم لنا عنهم ما راق لديه من آراء وأفكار ، أو أن يتخير عصراً ما فيعرضه علينا فى متنوع ألوانه ومتعدد أشكاله . ومهما يكن من أمر توجسنا وخيفتنا فإن صاحب الفكرة بدأ فى تنفيذها بكيفية تثير الغبطة وتبعث فى النفس الطمأنينة والأمل .

فقد افتتح سلسلته الفلسفية بصورة — كما يقول عنها بحق — « حية قوية فيها عنف وفيها قسوة ، وفيها تناقض وفيها اضطراب ، وفيها خصب وفيها حياة . نحذرها وهو يعلم مقدماً أننا لن نطمئن إليها ، وأن الكثير من القلق سيساور أنفسنا بإزائها ، وأن أعيننا ستقع دهشة واستغراباً ، وقلوبنا ستهتز جزعاً منها وقشعريرة ؛ ولكنه يعلم أيضاً أن هذه الهزة هى القادرة وحدها على انتشالنا من ظلمة الهوة التى نحن فيها إلى حيث نور الفكر الحر ، والنظر الصحيح إلى الأشياء ، وأن هذه القشعريرة هى الخليقة وحدها بأن تدفعنا إلى الخلق المستمر والإبداع . وتلك الصورة صورة فكر نيتشه » .

حقاً أن نيتشه شخصية غريبة فى بابها بين مفكرى القرن التاسع عشر ؛ فى حياته ما يبعث على الأسى والحسرة ، وفيها ما يثير المقت والكراهية ؛ وفى آرائه ما يخرج على المألوف ويحارب العقل والمنطق ويهدم المبادئ المسلمة ؛ ولكنه بعد أن يأتى على معالم الكون يعود فينشئه نشأة أخرى ، ويخلقه خلقاً جديداً . هو فيلسوف النزعة الجامحة التى تعتد بالعنف والقوة وتسخر مما اصطلحنا عليه من مثل عليا أو ما نردده من حجة وبرهان ؛ وتصير الحياة المملوءة بالنشاط والحرارة ، فهى كالسيل الجارف الذى لا يعترضه معترض ولا يصده صاد ؛ وداعية إلى تطور يقضى بحركة لانهائية وتغير لا ينقطع ؛ وهذا التغير وتلك الحركة هما وسيلة السعادة والكمال . هذه الآراء ، على الرغم من أنها تدعو إلى الثورة ، تفتح باب الأمل وتتعلق بأهداب المستقبل ، فهى تدفع الانسان عنها حيناً ثم تجذبه ، وتستثيره لحظة ثم لا تلبث أن تهدئ روعه .

ولقد نجح الأستاذ بدوى فى أن يرسم من حياة نيتشه وأهم آرائه لوحة صادقة الملامح زاهية الألوان ، وأن يصوغ ذلك كله فى قالب قصة لا يكاد القارئ يبتدئها حتى يرغب فى متابعتها إلى النهاية ؛ فلم يشأ أن يكون المؤلف الذى يعنى بالعد والترقيم والتنظيم والتبويب ، بل أبى إلا أن يكون الكاتب والأديب الذى يشغله الأسلوب الشائق ، والخيال الرائع ، والعبارات الرصينة . وقد وفق فى هذا إلى حد كبير ؛ اللهم إلا هنات هينات ما كنا نود أن يقع فيها ، ولا نحب أن ندخل فى تفاصيلها ؛ ويخيل إلينا أن سرعة

النشر هي التي قضت عليه بها ، وأملنا كبير في أن يتداركها في الطبعة التالية إن شاء الله . وما كان لشخص أن يكتب عن نيتشه دون أن يتخير أسلوبه وينتقي عبارته ، فإنه يعد بين كتاب الألمان الأول في القرن التاسع عشر ؛ ولقد انتهى به الأمر — فيما يحكي عن نفسه — أنه ما كان يصوغ أفكاره في ألفاظ وعبارات ، بل يقدمها في وحي ولمحات .

وإذا كان كتاب « نيتشه » أقرب إلى العرض الأدبي منه إلى البحث الفني ، فليس ثمة مجال لأن نتحدث عما جاء فيه من مصطلحات أو ألفاظ أريد بها أداء معان جديدة ؛ ومع ذلك فقد بذل المؤلف في هذه الناحية مجهوداً يذكر ، فعرّب بعض الكلمات الأجنبية تعريباً موفقاً ، واقترح لبعض المعاني ألفاظاً تلائمها ؛ وفلسفة المعاصرين — كما نعلم — ليست يسيرة النقل إلى اللغة العربية . بيد أنه سيراً مع طريقته الانشائية لم يبرز هذا المجهود للقراء ، ولم يحاول أن يقابل الكلمات الأجنبية بما اقترحه لها من ألفاظ عربية ، ليبين إلى أي حد وفق في ترجمته ، وليقدم لنا ثروة تنفع لا محالة في المستقبل .

هذا هو كتاب « نيتشه » من الناحية الشكلية ؛ وليس صاحبه أقل توفيقاً في موضوعه منه في طريقة عرضه ؛ فقد وقف فيه عدة فصول على حياة نيتشه ، حللها تحليلا دقيقاً ، ورسمها رسماً كاملا ، وبين مختلف العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته ، وخاصة علاقته بفاجنر وشوبنهاور . غير أننا نعتقد أنه لم يتأثر بالتفكير الألماني وحده ، بل سرت إليه أيضاً عدوى الأفكار الانجليزية والفرنسية المعاصرة ؛ لهذا كنا نود أن يربط نيتشه ببيئته الألمانية الخاصة ، ثم يبين مقدار اتصاله بالبيئة العلمية والفلسفية العامة .

وقد حاول المؤلف أن يتدارك هذا بعض الشيء في ذلك الفصل القيم ، الذي عقده للقرن التاسع عشر ، وأجاد فيه كثيراً ؛ وليس بغريب عليه أن يتحدث عن هذا القرن حديث الخبير به الملم بأطرافه ، وخاصة ما اتصل منها بالثقافة الألمانية ؛ فقد تفرغ لدراسته منذ عام أو يزيد . لهذا نراه يقدم لنا في نحو عشرين صفحة الاتجاهات الفكرية المهمة ، والتيارات الفلسفية الرئيسية التي تفصله عن القرن الذي قبله ، ويبين لنا ما عده أعراض انحلال بُلي بها من عاشوا فيه .

فاذا ما انتقل إلى آراء نيتشه سافها في قالبها الهيكلي المجبوي ، فرغب في أن يحطم معه أصنام الأخلاق والفلسفة ، وأن يلي على الناس وحي زرادشت المملوء قوة وجبروتاً والداعي إلى التعلق بأهداب الحياة والتمسك بهذا الوجود الذي يجب أن تظل معه للأرض مخلصين . وجميل من الروائي أن يتقمص روح بطله ، ومن المحامي الدرء أن يضع نفسه تماماً في مكان موكله . ولكنا كنا نود من المؤلف أن يهاجم نيتشه الذي هاجم من سبقوه ، وأن يتهكم بذلك الذي لم يدخر وسعاً في التهكم بالآخرين ؛ كنا نود منه في اختصار أن يتذرع بسلاح النقد في دراسة شخصية أبت إلا أن تنقد كل شيء .

وبعد ، فلعلي أطلت على غير إرادة ، وأطنبت في غير ما داع ؛ وألذ شيء لدى الانسان أن يتحدث عن أبنائه بالأمس وزملائه اليوم . وإني لكبير الأمل في أن أتحدث عن الأستاذ بدوي من حين لآخر حديثاً مملوءاً دائماً بالسرور والغبطة والتقدير والاعجاب .

إبراهيم مدكور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ ٥٦٧٦٩

العدد ٥١ | الثلاثاء ٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٨ — ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩ | السنة الأولى

الفهـــــرس

موقف إيطـــــاليا

من الزحف الروسى نحو الوسط والجنوب

لمحرر «الثقافة» الســـياسى

للمرة الثانية منذ نشوب الحرب الأوربية يجتمع المجلس الفاشستى الأعلى ليحدد مرة أخرى موقف إيطاليا من الحوادث والتطورات السياسية والعسكرية الأخيرة ، وليلقى شيئاً من الضياء على وجهات النظر الإيطالية .

ونذكر أن المجلس الفاشستى أصدر قراره فى مساء يوم أول سبتمبر ، أعنى على أثر بدء الزحف الألمانى على بولونيا ، بأن إيطاليا لن تدخل حرباً اعتدائية ، فكان قراره مثار الدهشة والارتياح معاً ، أما الدهشة فلأنه لم يكن من المتوقع أن تأتى رومه مثل هذا التصريح ، فى نفس اليوم الذى تندفع فيه شريكتها وحليفتها فى المحور لأول مرة إلى خوض حرب حقيقية ؛ وأما الارتياح ، فلأن التزام إيطاليا موقف الحيدة مما يعاون على حصر نطاق الحرب ، وعلى صون السلام فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد مضى منذ نشوب الحرب أكثر من ثلاثة أشهر ، وتطورت الحوادث بسرعة ، فصرعت بولونيا ، وقسمت

بين ألمانيا وروسيا ، وامتد الزحف الروسي نحو الشرق ، وفرضت روسيا حمايتها على دول البلطيق ؛ ولما حاولت فنلندا أن تجتنب المصير الذي فرض على زميلاتها ، وأن تحافظ على استقلالها ، انقضت عليها روسيا بقواتها الزاخرة لتجهز عليها ؛ فى هذه الآونة التى تقف فيها فنلندا الصغيرة مستبسلة فى الدفاع عن كيانها أمام جارتها الكبيرة المتجنية عليها ، يجتمع المجلس الفاشستى للمرة الثانية ، ويؤكد قراره الأول « بعدم دخول إيطاليا الحرب » ؛ ثم يقرنه بتصريحين جديدين هما :

أولاً — أن المجلس يصرح إزاء الأنباء المغرضة التى تذيعها المصادر الأجنبية ، بأن العلائق بين إيطاليا وألمانيا ستظل كما حددها ميثاق التحالف بين البلدين ووفقاً لتبادل وجهات النظر الذى تم قبل ذلك وبعده .

ثانياً — أن كل ما يمكن أن يقع فى حوض الدانوب وبلاد البلقان لا بد أن يهم إيطاليا مباشرة نظراً إلى حدودها الأقليمية والبحرية التى أصبحت مجاورة لهذه المنطقة بعد ضم ألبانيا إلى إيطاليا .

— ١ —

ولنترك جانباً ما يثيره الفرق بين « الحياد » وبين « عدم الدخول فى الحرب » وهى العبارة التى يتمسك بها المجلس الفاشستى للتعبير عن موقف إيطاليا ، فإن مؤداهما واحد من الناحية العملية ، وهى أن إيطاليا تؤكد مرة أخرى أنها لا ترغب فى الاشتراك فى الحرب .

غير أن إيطاليا تصرح فى نفس الوقت بأن كل ما يمكن أن يقع فى حوض الدانوب وبلاد البلقان لا بد أن يعنيها بصفة مباشرة ، أو بعبارة أخرى إنها قد تعدل موقفها إذا سارت الحوادث فى هذه المنطقة بما لا تشتهى ، ورأت أن فيها ما يهدد مركزها أو مصالحها ، سواء فى حوض الدانوب أو فى بلاد البلقان .

وإذا كانت إيطاليا لم تصرح باسم الدول التى يمكن أن يقع على يدها مثل هذا التهديد لمصالحها ، فمن البديهى أن الاشارة هنا لا يمكن أن تنصرف إلا إلى روسيا وألمانيا ، وهما الدولتان القويتان اللتان تجاوران هذه المنطقة ، واللتان تنهض القرائن منذ الحرب على أنهما تضمران نحو المجر والدول البلقانية خططاً ومشاريع لم تتضح بعدُ حقيقتها ومداها . بل هنالك ما يدل على أن إيطاليا تعنى على وجه التخصيص بهذا الانذار روسيا السوفيتية ؛ فمن أسابيع تتوالى حملات الصحف الايطالية على البلشفية وزعمائها ، وعلى سياسة موسكو وموقفها تجاه الدول البلقانية ، وما كشفت عنه أخيراً من اتجاهها إلى التوسع نحو الشرق والجنوب ؛ وتؤكد أن إيطاليا لا يمكن أن تسمح بامتداد الشيوعية إلى حوض الدانوب أو البلقان . ولما زحف الجيش الأحمر أخيراً على فنلندا ، لم تكتم الصحف الايطالية سخطها على هذا الاعتداء ، ونظمت المظاهرات فى جميع أنحاء إيطاليا إظهاراً لعطف الشعب الايطالى على فنلندا ، وأرسلت إيطاليا بصفة غير رسمية عدداً من الطائرات إلى فنلندا معاونة لها على الدفاع عن نفسها ضد الغزو الروسى .

ومع أن إيطاليا لا تعنى بأمر التوسع الروسى فى منطقة البلطيق بصورة مباشرة ، فانها تنظر بجزع إلى تقدمه واتساع نطاقه ، وترقب فى يقظة وحذر خطوة روسيا التالية . هل يكون تحرك روسيا البلشفية واندفاعها نحو الشرق استئنافاً لسياسة روسيا القيصرية ؟ وهل تتحول روسيا بعد انتهائها من الاجهاز على فنلندا ، نحو المجر ورومانيا والبلقان ، فتنتزع منها بعض الأراضى ، ثم تحاول السيطرة على البواغيز التركية (البوسفور والدردنيل) لتغلق البحر الأسود فى وجه الدول الغربية ؟ وهل تحاول روسيا بث المبادئ الشيوعية فى تلك المنطقة استئنافاً لخطتها القديمة فى العمل على بث الثورة العالمية ؟ هذه هى المسائل التى تشغل بال إيطاليا وبال الدول ذات الشأن ،

والتى لاريب أن تصريح المجلس الفاشستى يقصدها ويعنيها .

ومع ذلك فإنه يصعب علينا أن نتبين خطة إيطاليا تجاه هذه الاحتمالات بصورة واضحة ، فقد لجأت إيطاليا حتى الآن إلى العمل السياسى فى مقاومة الضغط الروسى على المجر ودول البلقان ؛ ولكن يلوح لنا أنها قد لا تتأخر عن العمل الحربى إذا أصبح الغزو الروسى لهذه المنطقة حقيقة واقعة ، والدفاع بقوة السيف عن مركزها ومصالحها .

وتعتبر رومانيا هى موطن الخطر والهدف الأول للغزو الروسى ؛ والمعروف أن لروسيا إزاء رومانيا مطالب إقليمية تتعلق باسترداد ولاية « بسارابيا » الروسية ، وهى الرقعة الممتدة من مصب نهر الدانوب إلى جبال الكربات ، والتى ضمت إلى رومانيا بمقتضى معاهدات الصلح ؛ وقد لوحت الصحف السوفيتية غير مرة بهذه المطالب ، وهددت رومانيا بمصير كمصير بولونيا ؛ ولا ريب أن هذه التلميحات تطابق خطط موسكو ، وإن كانت قد أنكرتها فى بلاغ رسمى .

وليس يبعد أيضاً أن تكون موسكو متطلعة إلى ما هو أبعد من ذلك ، وأن يكون من برامجها الزحف نحو البوسفور والدردنيل ، ومحاولة الاستيلاء على قسطنطينية ، وتحقيق حلم القياصرة القديم ، أو يكون من برامجها أن تزحف على تركيا من ناحية القوقاز وقارص توصلاً إلى نفس الغاية .

ومن جهة أخرى فقد أصبحت روسيا تجاور المجر من ناحية بولونيا ، وربما كانت تنوى مهاجمة المجر واسترداد روثنيا الكرباتية ، أو ربما حاولت أن تفرض عليها النظام السوفيتى ، كما حدث من قبل عقب انتهاء الحرب الكبرى ، حيث قام بها الحكم البلشفى مدى أيام ؛ ومتى سقطت المجر فريسة الشيوعية ، كان ذلك تمهيداً لبلشفة بلاد البلقان .

فهذه الاحتمالات جميعها تلوح فى الأفق ، وإيطاليا ترقب مجرى الحوادث بعناية ، متحفزة فيما يبدو للتدخل إذا اقتضى الأمر ؛ ومن الصعب أن نتصور منذ الآن كيف يقع هذا التدخل ، ولكن إيطاليا تحتل باحتلال ألبانيا فى البلقان مركزاً حربياً منيعاً تستطيع الزحف منه داخل البلقان ، وتسيطر كذلك على جزر الدودكانيز القريبة من الدردنيل ، ولا تفصلها عن المجر صديقتها وربيبتها سوى رقعة صغيرة من أرض يوجوسلافيا .

وخطة إيطاليا فى العمل على وقف الزحف الروسى نحو جنوب شرقى أوربا ، والمحافظة على سلام البلقان ، وشرقى البحر الأبيض المتوسط ، تتفق تمام الاتفاق مع خطة الدولتين الحليفتين ، أعنى انكلترا وفرنسا ؛ وقد قطعت كلتاهما كما نعلم على نفسها عهود ضمان لرومانيا وتركيا واليونان ، وعقدتا مع تركيا ميثاقاً دفاعياً خاصاً ؛ ومع أن إيطاليا تسترشد فى موقفها بمصالحها الخاصة ، وتعمل مستقلة عن أى تفاهم مشترك ، فان خطتها مما يسهل مهمة الدولتين الحليفتين فى العمل على رد الزحف الروسى نحو البلقان .

— ٢ —

والآن لنر ماذا يمكن أن يدل عليه تصريح المجلس الفاشستى من التنويه بأن العلائق بين إيطاليا وألمانيا ستظل كما حددها ميثاق التحالف بين البلدين وفقاً لوجهات النظر المتبادلة .

إن محور رلين رومة الشهير الذى توج بمعاهدة التحالف الألمانية الايطالية فى شهر مايو الماضى ، لم يبق له اليوم وجود عملى ؛ وقد تلقى ضربته القاضية فى عقد الميثاق الألمانى السوفيتى ، ولم يسمع به من ذلك اليوم أحد ؛ ومن ذلك التاريخ تعمل رومة فى سياستها حرة مستقلة ، وتتوالى الأدلة من يوم إلى آخر ، على ابتعادها عن برلين .

ولما كانت ألمانيا هى التى سهلت بتفاهمها مع روسيا ،

(البقية على الصفحة التالية)

٢ - القـــوة ...

تحليل اجتماعي جديد

تحدثت إليك فى مقالى السابق عن « القوة » ورأينا كيف تفترق القوة بالتقاليد وكيف تنقلب قوة غشوماً ، وكيف تجتاحها الثورة ، وقلنا إن القوة فى نفسها تشبه الطاقة التى تسكن فى كل جسم من الأجسام وتتشكل فى الحركة أو الحرارة أو الضوء أو غير ذلك . وفصلنا القوة فرأيناها ظاهرة فى قوة الملك والزعيم ورجل الدين ، ثم رأيناها جلية فى قوة المال وقوة العقيدة ، وقلنا إن هذه القوى تختلط بعضها بالبعض ، وتتحول من حالة لحالة كما تتحول الطاقة من حركة لحرارة لضوء .

* * *

والحق أن « برتران رسل » لم يكن أول المفكرين الذين اختصوا القوة بكل ذلك التفصيل ، فقد ظهرت فى تاريخ الفكر فلسفات كانت كل واحدة منها تحتفى بالقوة فى مظهر واحد من تلك المظاهر المتعددة . كان « مكيافلى » أول المفكرين الحديثين الذين كشفوا قوة الأمير ، وكان أحد عباقرة النهضة الذين بحثوا حقائق الحياة الدنيا ، فهو سواء و « جاليليو » و « بيكون » ، لأن هؤلاء جميعاً حاولوا أن ينظروا إلى الحياة نظرة فاحصة متثبتة . لكن « مكيافلى » بدأ مدرسة بأسرها سارت على نهجه فى تاريخ الفكر السياسى ، فقد كان « هوبز » أحد الفلاسفة الذين أيدوا قوة الأمير ، وأول من لمس فى حياة الجماهير ذلك الخوف الذى يلجئهم إلى الزعيم الأعلى . ولم يخلُ عصر لويس الرابع عشر من فلاسفة مثل « بوسويه » يحتفلون بحق الملك المقدّس ، ويؤيدون ذلك بآيات من الانجيل .

كانت تمتاز الملكيات فى القرن السابع عشر بأن لها أساساً فلسفياً خاصاً يؤمن بالقوة ، وكانت تتمثل فى الملك كل التقاليد التى انحدرت فى حياة الشعوب . لكن هذه الشعوب كانت تتحول اقتصادياً واجتماعياً ، ففقدت إيمانها بتلك الملكيات ، وحين فقدت ذلك الايمان حاول

وجرها إلى حلبة السياسة الأوربية ، فالبلاشفة سبيل الزحف إلى أوربا الوسطى وجنوب شرق أوربا ، وحركت بذلك على إيطاليا خطراً كانت فى مأمن منه ، وسببت لها بذلك قلقاً ومتاعب كانت بعيدة عنها ، فانه لا يصعب علينا أن نقدر إزاء ذلك شعور إيطاليا الحقيقى نحو ألمانيا .

أضف إلى ذلك أن ألمانيا لا تقتصر على دفع روسيا وتحريضها للزحف نحو البلقان ، بل هناك ما يدل أيضاً على أن ألمانيا لم تنبذ مشاريعها الخاصة فى الزحف فى هذا الاتجاه ؛ وربما كانت متفاهمة مع روسيا فى ذلك على خطة معينة ، تشتركان فى تنفيذها فى الوقت المناسب ؛ فهذه الحقائق والاحتمالات لا تدع مجالاً للريب فى أن ميثاق التحالف الألمانى الايطالى قد نسخته الحوادث من الوجهة العملية ، ولم يبق له أثر فى توجيه خطط رومه .

وإنما تنوه رومه بقصة العلائق الألمانية الايطالية فى هذا الوقت لباعثين : أولهما محاولة التوفيق من الوجهة النظرية بين احترام ميثاق التحالف ، وخطة الحياد ؛ والثانى هو العمل على استبقاء ود ألمانيا بهذه المجاملة ، فقد يكون فى استبقاء هذا الود ، ما يحمل ألمانيا على التريث فى خططها نحو الجنوب . وهى مجاملة لا يمكن أن يترتب عليها فيما نعتقد أى أثر عملى .

* * *

المستبدون أن يفرضوا عليها قوة غشوماً لا تتصل بالتقاليد الموروثة ، وعند ذلك ظهرت فلسفات أخرى تؤيد قوة الشعب ، وترى الزعيم الأعلى نفسه ممثلا لتلك القوة . كان من هؤلاء الفيلسوف الانجليزى لوك Locke وبعض الفلاسفة الألمان فى القرن الثامن عشر . ولذلك كانت الملكية عند هؤلاء تعبيراً عن رغبة الشعب نفسه ، يتمثل فيها المجد والقوة والسيطرة والعظمة والسلطان .

وسرعان ما انتقل كل ذلك إلى الدولة نفسها ، فقد خُلِقَت الدولة خلقاً آخر ، حينما شاعت هذه الفلسفة السياسية ، وأصبح للدولة كيان ميتافيزيقى ، تضاءل أمامه كيان الأفراد . وأصبحت سيادتها هى التى تؤثر فى حوادث الحرب والسلم ، بل أصبح يتمثل فيها كل تلك القوى الحربية والاقتصادية التى بسطناها لك . وقد كان هذا التحول فى الفلسفة السياسية نتيجة لنظرة عقلية خاصة ، امتاز بها فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، لأن هؤلاء قد حاولوا أن يمدلوا من فلسفتهم السياسية بمقدار ما تعدّل من حياة الجماعة فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة ؛ وكان من أكبر هؤلاء المفكرين الفيلسوف الألمانى « هيجل » Hegel .

وإلى جانب تلك الفلسفات التى عالجت السلطة التقليدية والتى بعثت فكرة الدولة فى تاريخ الفكر ، نرى عنصراً آخر من عناصر القوة مستمداً من الشعب . وهنا تظهر لنا الفكرة القومية التى كان لها أكبر الأثر فى حوادث القرن التاسع عشر . بدأت هذه القوة الجديدة بالثورة الفرنسية ، لكنها اشتدت حينما قومها « نابليون » ، وكانت السنوات التى تلت سقوط « نابليون » هى السنوات التى كبُرت فيها الفكرة كما يكبر الجنين ، ثم ظهرت فتيّة قوية فى أخريات القرن التاسع عشر ؛ وكان مظهرها ذلك الاستقلال الذى أحرزته القوميات المختلفة ، وتلك القوة البرلمانية التى صاحبت ذلك الاستقلال ؛ ولعل « مازينى » هو نبى هذه الفكرة ، فهو الذى فصلها ، وهو الذى أقام منها خيالا تحقق فيما بعد ، هو خيال القومية الايطالية الموحدة .

وكان القرن التاسع عشر زاخراً بفلسفات القوة ؛ وقد رأيت كيف قدّر « كارل ماركس » قوة المال وكيف نضجت فلسفته من ذلك الإيمان بالمادة . إلا أنه كان يرى أن الاشتراكية نتيجة للتطور الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، ولذلك فإنه عارض الرأسمالية ، ورأى القوة الكامنة فى هؤلاء العمال والصناع الذين ينتجون ، وفرّق بين طبقتهم وطبقة المستفيدين من أصحاب العمل ؛ ولذلك فقد لمس قوة الطبقة المنتجة[1] ونفث العداء بين الطبقتين ، وأيد حق الطبقة الأولى فى الثورة على الطبقة الأخرى حتى تتمكن من السلطة ؛ وكان يؤمل أن يعيش العالم بعد ذلك فى عصر تتحقق فيه المساواة . كان ذلك هو الحلم الذى لعب بخيال « كارل ماركس » ، وقد أسرف كثيراً فى تقديره ؛ وما زال هذا الحلم بعيد التحقق ، لكنه على الرغم من ذلك قد أثر كثيراً فى النظم السياسية ، فقد وجه الديموقراطية إلى نواحى الخدمة العامة ، واعترفت النظم السياسية بحق طبقة المنتجين ، لكنها تبينت أن المساواة الدينية شىء والمساواة الاقتصادية شىء آخر ، وأن أقصى ما يباح للمنتجين إنما هو أن تتاح لهم الفرصة فى أن يخرجوا من زمرتهم الأولى ليدخلوا فى زمرة أصحاب العمل .

ثم كان « نيتشه » أحد أولئك الفلاسفة الذين رأوا القوة فى الفرد . فأقام عبادة البطل واحتفى بالزعامة ودعا إلى تمجيد « السُبرمان » أو الانسان الأعلى[2] . وذهب « نيتشه » إلى أن الناس فى هذا العالم ينقسمون إلى طبقتين : طبقة السادة وطبقة العبيد ، وأن السادة وحدهم هم الجديرون بأن يستولوا على السلطة ، وأن الجماهير ليست بذات قيمة فى نفسها إلا بمقدار القوة التى يهدونها

(١) اسمها The proletariat .
(٢) The superman .

للإنسان الأعلى . ثم لقد كان صريحاً غاية الصراحة فى تفصيل هذه القوة ، حتى إنه أغفل كل الإغفال قواعد الخلق التى توارثتها الجماعة الانسانية ، وادعى أن الأخلاق نفسها ما هى إلا مبادىء الثورة التى قام بها العبيد ضد السادة ، وأن مبادىء المسيحية لم تنتج إلا عن خور فى الطبيعة الانسانية ؛ وعند « نيتشه » أن حب القوة هو الدافع الأول والأخير فى الحياة الانسانية ، وأن إرادة القوة هى القانون الأسمى الذى يتحكم فى حياة الجماعة .

وإذا كان هذا هو الرأى الذى اصطلح عليه بعض الفلاسفة والساسة الذين آمنوا بالقوة ، فإن كثيراً من أصحاب الفلسفة والسياسة قد ذهبوا إلى الضد من ذلك الرأى . وهؤلاء على أن العالم قد سار — وهو يسير — فى طريق التقدم ، وأن الحياة الانسانية ما زالت تتقدم نحو غاية مثلية عليا ؛ يؤمن هؤلاء بأن فى التطور قوة خاصة ، وهذه القوة هى التى تبتكر وتخترع وتخلق . وأن الحياة قد بدأت فى جو من المحبة والرحمة ، وأنها لا بد أن تنتهى كأول ما بدأت . ومن هؤلاء الفيلسوف الفرنسى « برجسون » Pergson ، فهو أحد الذين استهانوا بقوة الفكر ، وآمنوا بقوة الرغبة ، وذهبوا إلى أن التطور نتيجة من نتائج الرغبة الملحّة المتلهفة ، وأن كل عمل رهينٌ بالنجاح أو الفشل ، تبعاً لما يعتور هذه الرغبة من الشدة أو الوهن ؛ ويذهب إلى مثل ذلك « برنارد شو » ، وهو يدعو لذلك فى عنف وسخرية ، فى أكثر مسرحياته .

* * *

تلك بعض فلسفات القوة التى استخدمها « برتران رسل » فى كتابه عن « القوة » . ولكنه زيد على كل أولئك بأن موازناته تمتاز بالشمول والإلمام . وإذا كنا قد شبهنا « مكيافلى » « بجاليليو » ، لأن الاثنين كشفا كشوفاً علمية ، أولهما فى السياسة ، وثانيهما فى الفلك — فإن « برتران رسل » يشبه العلماء المحدثين الذين أفادوا من التراث العلمى والفلسفى الذى قامت عليه الحضارة .

* * *

ولم يكن ينتج كل تلك الفلسفات التى أوجزناها لك ، إلا الرغبات المتضاربة التى تستثير الفلاسفة على اختلاف مبادئهم ؛ فلكل فيلسوف من هؤلاء رغبة تملك عليه نفسه . وما تاريخ الفكر إلا كفاح بين الرغبة الخاصة وبين حقائق الحياة التى لا يستطيع إنسان أن يسيطر عليها ؛ وليس ينطبق هذا على الذين كانوا يؤمنون بالقوة الغشوم فحسب ، وإنما ينطبق أيضاً على أولئك الذين آمنوا بالقوة فى أعماق نفوسهم ، لكنهم حاولوا أن يلبسوا فلسفتهم لبوس الخلق السامى أو رغد العيش أو كيان الدولة أو قوة الشعب ، أو غير ذلك من مظاهر القوة التى ذكرنا . فرغبة الفيلسوف أو المفكر هى التى تبدأ فى الظهور ، ثم هى التى تنسج حولها فلسفته العامة ، وما يزال بها حتى تصبح شائعة يدعو الناس إلى اعتناقها .

والفيلسوف حين يذهب إلى ما يذهب إليه متأثر بالبيئة التى هو فيها ؛ فالبيئة التى يعيش فيها ، والدراسة التى عالجها ، والتجارب التى مرس بها ، كل ذلك هو الذى يولّد عنده تلك الرغبة التى تلح عليه ، حتى يتفتق ذهنه لحقائق الفلسفة التى يدعو إليها . على أنه إذا كانت بيئته ذات أثر عميق فى تفكيره ، فان فلسفته هى الأخرى ذات أثر عميق فى البيئة التى نشأ فيها . فقد كان لكل فلسفة من هذه الفلسفات أثر عميق فى حياة الجماعة ، وكان لها كل الوزن فى تشكيل النظم السياسية التى اختلفت على ظهر الأرض . فالفلسفة السياسية تتأثر بحياة الجماعة ، كما أنها تؤثر فى حياة الجماعة ؛ هى فعالة مؤثرة ، كما أنها منفعلة متأثرة . فما تشيع تلك الرغبات — أو قل تلك الفلسفات — حتى تنقلب نظماً لها أصول وقوانين . وليست النظم إلا بيئات

اجتماعية أو سياسية ، تتحقق فيها تلك الرغبات .

والجماعات المنظمة ليست إلا مجموعات يجتمع فيها الناس طوعاً أو كرهاً . وهي تشبه الكائنات العضوية الحية من حيث النشوء والارتقاء ، ومن حيث التدلي والانحطاط . والحكومة على رأس تلك الجماعات لازمة ، مهما ارتقت الجماعة أو انحطت . وحيث تكون الحكومة فلا مساواة في توزيع تلك القوى التي عالجنا . فالحكومة قد تحتكر القوة بأجمعها ، لكنها قد توزع القوة على أجزاء المجتمع توزيعاً غير عادل . لذلك قامت نظم مثل الكنيسة والنقابة ومجلس النواب ، ومجلس الشيوخ ، وبذلك تشكلت الحكومات ؛ فكانت ملكية طوراً ، وكانت جمهورية طوراً آخر . بل لذلك قامت نظم اختلفت باختلاف الطبقة التي تلي السلطة ، فكان هناك ديموقراطية ، وأرستقراطية وأوليجاركية[1] ، وثيوقراطية[2] . وربما اجتمع في الحكومة كثير من هذه النظم كما كان الأمر في أسبرطه ؛ وربما قامت أحزاب كل منها يدعو إلى نوع خاص من أنواع الحكومة ، كما يحدث الآن في فرنسا وإنجلترة .

فإلى جانب الحكومات جماعات منظمة أخرى تنمو اليوم وتترعرع . لكن كلاً منها يستمد قوته من إحدى الفلسفات التي تحدثنا عنها . وكل جماعة منظمة تتصل من قريب أو من بعيد بإحدى فلسفات القوة ؛ فالأحزاب السياسية جماعات تكافح من أجل السلطة ، وليس يدفعها إلى ذلك إلا التنافس حول القوة والمجد . ورجال الدين كذلك يريدون أن يحتكروا العقيدة وأن يحلوا الإيمان ، والمدرسة قد تصبح مصدراً من مصادر القوة للحكومة القائمة ، كما تكون مصدراً من مصادر الضعف والوهن . أما الجيش فهو الذي يمثل القوة القومية في أبعد مداها .

(١) Oligarcly .
(٢) Theocracy .

ثم إنه يمثل قوة الحديد والنار التي تحدث عنها « مكيافلي » . وكذلك قل عن الشركات والمصارف ، فكل هذه جماعات منظمة أوتيت قوة من القوى التي كانت موضعاً من مواضع النقاش عند فلاسفة السياسة . ونرى من كل ذلك أن القوة تروح وتغدو بين كل جماعة وأخرى ، وأن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا تستقر على حال واحدة بل هي قلقة تتقلب بين عشية وضحاها تبعاً لتقلب القوة .

* * *

وإذا كان هذا هو الشأن في القوة وتقلباتها لحرى بنا أن نبحث العلاقة بين القوة وبين الخلق . أفنذهب إلى ما ذهب إليه «مكيافلي» حين قال إن الأمير يجب أن يتحلى بقوة الأسد ودهاء الثعلب ؟ أيجب أن تقترن القوة دائماً بالغدر ؟ أم نذهب إلى ما ذهب إليه « نيتشه » حين استهان بالخلق الذي تواضعنا عليه ، وحين مجّدت عبادة القوة الغشوم ؟ لا يرى « برتران رسل » هذا ولا ذاك ، بل هو يذهب إلى أن تاريخ الإنسانية لا يتجه نحو الغدر ولا نحو القوة الغشوم ، وإنما يتجه نحو روح من الرحمة والعطف[1] تشيع في كل العالم . هذه الرحمة ، أو قل المشاركة الوجدانية ، هي التي تزرع في نفوس الناس تقدير الآخرين . فإن هي شاعت أصبحت أساساً من أسس الحياة السعيدة .

يذهب « برتران رسل » إلى مثل ذلك ، لأن العطف يؤثر دائماً في الخلق ، ولأن الخلق لا يقوم إلا على ما يستوحيه الفرد من وجدانه . فالعطف الشائع المرهف أساس الخلق العام . والعطف في ذلك يشبه التفكير الموضوعي عند العلماء . فكما أن العالم يجب أن ينتزع شخصه من الباحث التي يعالجها ، فكذلك العطف يجب أن يكون شاملاً لا يفسده إحساس بالمصلحة الذاتية الخاصة .

(١) sympathy .

وكما أن قروناً طويلة قد انقضت قبل أن يكون التفانى فى خدمة العلم أساساً للعلم ، فكذلك سوف ينقضى طويل من الزمن ، حتى يكون التفانى فى العطف أساساً للخلق . وبذلك تتزايل القسوة والظلم والاستبداد وكل ما يحيط القوة من شرور وآثام . وإذا نحن أردنا أن نتخذ معياراً خلقياً نطبقه على أصحاب القوة والطامعين فيها ، أمكننا أن نبحث اتجاهاتهم فى ضوء هذا العطف .

ثم هناك قوم يكافحون للقوة من أجل القوة فحسب ، وهناك قوم آخرون يكافحون لها من أجل الاصلاح والخير العام ؛ الأولون يتخذون القوة غاية ينتهون عندها ، والآخرون يتخذونها وسيلة نحو مثلهم العليا ؛ الأولون هم الذين تطغى عليهم شهوات النفس ، والآخرون هم الذين يتحكمون باحساسهم فى شهوات النفس ؛ الأولون لم يؤتوا ذلك العطف الذى يجعلهم صالحين عاملين ، أما الآخرون فهم الصالحون الذين يرثون الأرض وينشرون فيها السعادة والرغد والعمران .

بهذه المعايير التى نقيمها لأنفسنا نستطيع أن نقرب القوة ، وأن نحكم عليها ، إن شراً فشر ، وإن خيراً فخير . فالعطف ، أو قل الاحساس ، أو قل الوجدان ، هو أساس الخلق . ولن يكون الخلق شاملاً عاماً حتى يكون ذلك العطف عاماً يؤلف بين طبقات الناس على اختلافهم .

* * *

والقوة كما رأينا عنيفة شرود ، فيجب أن تتجاذبها نظم خاصة حتى تسكن وتسلس . أو قل إننا يجب أن نروضها كما يروض الوحش الكاسر . يجب أن تعنى الجماعات الانسانية بأن تجتنب السيئات التى تلازم القوة فى جميع مظاهرها . فهناك استبداد الأقوياء ، وهناك قسوة الأغنياء ، وهناك الدعاية الخبيثة التى يصطنعها أولئك وهؤلاء . ثم هناك أخطاء نفسية يقذفها المربون ، إذا هم أنشأوا الجيل الذى بين أيديهم على التفكير الملتوى ، وعلى العطف المحدود . فتلك نواح أربع يساء فيها استعمال القوة . ولابد لكل جماعة منظمة أن تصطنع نظماً خاصة تقمع بها هذه السيئات .

أما من حيث استبداد الأقوياء فإن الديموقراطية علاج يخفف منه ، لأنها تتيح الفرصة للجماهير أن ترتقى إلى مراتب القوة ، وهى بعد ذلك متنفس للجماعة ، وأما من حيث قسوة الأغنياء فهناك الدولة التى تفرض على الناس أجمعين واجبات الخدمة العامة ، وهى قد جمعت سلطة عليا بين يديها حتى لتستطيع أن تتحكم فى الأفراد والجماعات مهما تبلغ من الثروة . ثم هناك قوة الدعاية التى نستطيع أن نوجهها من أجل الجماعة ، وهناك أساليب التربية التى نصطنعها لتنشئة جيل جديد يرى كل وجهة من وجهات النظر ويستوحى العطف كله من دراساته وتعاليمه .

* * *

لقد انحدرت إلينا من حكمة الصين قصة ينبغى لنا أن نرددها فى نهاية حديثنا عن القوة . فقد زعموا أن « كونفوشيوس » كان يسير مرة فى ناحية بجبل تى ، فمر بامرأة تبكى بكاء مراً عند قبر مهجور . فأرسل إليها أحد أتباعه يسألها : ما خطبها ؟ فقالت له : « إنى لألقى حزناً مبرحاً يحز فى نفسى ، فقد قتل زوجى وأبوه هنا منذ عهد قريب — افترسهما النمر ، وقد قتل ابنى اليوم فى نفس هذا المكان — أكله النمر أيضاً » . فقال لها « كونفوشيوس » : « ولم لا تغادرين هذا المكان وقد تربص لكم النمر فيه وأخذ عليكم المسالك ؟ » فقالت له : « ليس فى هذا المكان حكومة ظالمة فأغادره . » ولذلك كانت الحكومة الظالمة عند « كونفوشيوس » أشد قسوة من الوحوش الضارية .

أحمد خاكى

سلطان العوامل النفســـية

كثرت الاشارة فى هذه الأيام إلى سلطان القوى المادية فى الشعوب ، حتى كاد يغفل الناس عن سلطان القوى النفسية ؛ فى كل مجلس من مجالسنا نسمع هذه النغمة : أى ضمان لفكرة الحرية أو لمبدأ الاستقلال بعد اليوم إذا كانوا يكتسحون أمةً تبلغ خمسة وثلاثين مليوناً فى خلال ثمانية أيام ؟ فما هى قيمة المبادئ السامية إلى جنب عوامل القوة ، كعامل الطيارات فى السماء ، والجيوش فى الأرض ، والغواصات فى البحار ؟

هذه خطرات تظهر أول وهلة فى صورة الحقائق الثابتة التى ليس إلى ردها من سبيل ؛ ولكنها إذا عرضت على التمييز فإنها لا تلبث أن تضعف بعض الضعف ، لأن الأمم لا تخضع للقوى المادية وحدها .

ولقد عنى الفلاسفة الجرمانيون بهذه القوى المادية كلها ، فكانت لهم فيها آراء تختلف عن آراء غيرهم من الفلاسفة الأوربيين ؛ فالقوى المادية فى نظرهم إنما هى المصدر الوحيد الذى يصدر الحق عنه ، ولا تستطيع أن تدل على مواضع الحق إلا عواقب الحروب وحدها !

لا شك فى أن للقوى المادية أثراً بليغاً فى حياة الأمم ، فقد قلبت وجه الحضارات ، ففى أقل من قرن كان للبخار وللكهرباء من الآثار ما لم يكن لغيرهما فى عصور التاريخ كلها ، فإن حياة الأمم السياسية أصبحت فى بعض نواحيها متوقفة على ما ولّده العلم من الفحم ؛ وكان الفحم من قرن مادة لا قيمة لها ، ولكن من هذه المادة خرجت اليوم عناصر الحضارة الحديثة ، كما خرجت منها عناصر التخريب .

غير أننا إلى جنب الفحم والبترول والكهرباء وغيرها من القوى المادية التى كان لها شأن عظيم فى تاريخ الشعوب ، نجد قوى غير مادية كان لها فى بعض العصور شأن أعظم .

ولقد تبسط الدكتور « غستاف لوبون » فى توضيح سلطان هذه القوى النفسية فى كثير من كتبه ، ولا سيما فى كتابيه : روح العصور الحديثة ، وتطور هذا العالم ، فقد بين أن العالم على الرغم من الاهتداء إلى حقائق مادية ثابتة استنبطها أهلها من ظلال المخابر ، لا يزال خاضعاً لطائفة من القوى الصوفية ، تارة تكون فى صورة معتقدات دينية ، وتارة فى صورة معتقدات سياسية لا سبيل إلى مجادلة أصحابها فيها ، ولقد خضع العالم لهذه القوى من مبدأ التاريخ ، ولم يتغير منها إلا الشكل وحده ، ونشأت من إيمان بعض الأمم بهذه القوى — كإيمان اليونانيين والرومانيين بإله الآلهة « جوبيتر » وإيمان البوذيين ببوذا — حضارات بارعة ، سواء أتضاءل ظل هذه الحضارات أم تقلّص ؛ فقد ملأت العالم من مصر إلى الهند بآلهة عظيمة ، وأخرجت من العدم أهرام مصر ، ومعابد الشرق الأقصى ، والكنائس ، وطائفة من عجائب الفن التى جعلت زينة هذه الحياة ؛ ولولا سيطرة العوامل النفسية على البشر لبقى الناس فى ظلمات الكهوف والغيران ، ينازعون ما يحيط بهم من ضروب الحيوان حتى يظفروا بمآكلهم وشربهم ولباسهم .

فالصوفية لا تزال قائمة فى عصرنا هذا ؛ ولم يعن الدكتور « غستاف لوبون » بالصوفية فى هذا المقال ما نعنى بها معاشر المسلمين ، وإنما أطلق الصوفية من باب المجاز على الإيمان بسلطان فوق الطبيعة ، تتمتع به مرةً آلهة الشعوب ، ومرةً المعتقدات والمذاهب ، ومرة النصوص وحدها ؛ فالرجل الخاضع لمعتقد دينى إنما هو صوفى ، و « روبسبير » الذى كان يقطع الرؤس فى الثورة الفرنسية

لاقامة رسم الفضيلة كان صوفياً ؛ والشيوعى الذى يعتقد أن انجيل «كارل ماركس» يجعل من هذا العالم فردوساً إنما هو صوفى ؛ ومتى استولى على قلب الرجل معتقد صوفى أصبحت لهذا الرجل قوة عظيمة ، حتى إنه ليضحى بماله وبحياته فى سبيل معتقده ؛ فلا نزال فى روسية بعض شيع تقضى على رجالها ونسائها أن يبتروا طائفة من أعضائهم على صورة شنيعة ؛ فالعالم لا تنقطع حاجته إلى توجيه حياته نحو سلطان عال يعتقد الناس أنه معصوم ؛ وقد بلغ من اشتداد هذه الحاجة أن الأمة ما تكاد تطرح آلهتها التى كانت تؤمن بها حتى تفتش لها عن آلهة آخرين ؛ فالاشتراكية فى بعض الأمم والشيوعية لها السلطان الصوفى الذى كان لآلهة المتقدمين ، فالصوفية مسيطرة على تاريخ الشعوب .

وإلى جنب السلطان الصوفى الذى يقود البشر ، سلطان آخر يقود العواطف والأهواء ، يضعف معه سلطان العقل مهما يعظم شأنه ، لأن القوى العقلية عاجزة عن توجيه الشعوب . ولقد شهدت البشرية ميلاد عقول راجحة استطاعت أن تحسب ثقل الكواكب ، ولكنها فى أفياء الحياة الاجتماعية لم تشهد إلا عدداً قليلا من العقول التى تستطيع أن توجه الشعوب وجهة صالحة ؛ فالرجال يسيرون فى الحياة عادة بأخلاقهم لا بعقولهم ، وليس بين هاتين الناحيتين : ناحية الخلق وناحية العقل شىء من التساوى ؛ ولو كنا نعرف هذه الحقيقة فى بدء الحرب العظمى وفى الحرب التى يمارسونها اليوم لما كنا نعجب من إقدام شعب ذى حضارة كبيرة على تهديم المدن ، وقتل الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز .

قد يتوقف مستقبل الأمم على عوامل مادية ، ولكن العوامل النفسية تظل أقوى منها ؛ فإن نسيج الأمم مؤلف من أخلاق أفرادها ومن صفات نفوسهم ؛ ومهما يكن لطيارات السماء ، ولجيوش الأرض ، ولغواصات البحار أثر فى هذا النسيج ، فإن للأخلاق وللنفوس أثراً آخر فيه ليس بقليل الشأن ؛ وإذا كان الناس لا يلمسون سلطان العوامل النفسية لمسهم لسلطان العوامل المادية ، فهذا ناشئ بعض سببه عن أن النتيجة التى وصل إليها علم النفس من بعد أرسطاطاليس وأفلاطون لا تزال واهية .

لقد كانت حرب سنة ١٩١٤ بمثابة مختبر متسع جربت فيه العوامل النفسية ؛ فقد بينت لنا هذه الحرب شأن هذه العوامل فى الأمم ، كما أنها بينت فساد الأساليب المتبعة فى التدريس للوصول إلى معرفة أخلاق الأمم وسيرها ؛ فلم يعرف الفرنسيون شيئاً من الروح الجرمانية أو عن الروح الروسية ، ولم يعرف الجرمانيون شيئاً عن الروح الفرنسية أو عن الروح الإنكليزية ؛ ونشأت عن جهل الجرمانيين بهذين الروحين غلطات شتى ؛ فقد كانوا مثلا يظنون أن فرنسة عرضة لنازعات دينية واجتماعية ، فكان يسهل عليهم اجتياحها ، ولم يعرفوا أن روح الآباء والأجداد تؤلف مجامع القلوب الفرنسية فى وجه العدو .

من هنا يتبين أن علم النفس لا يزال ناقصاً ؛ ولو تقدم هذا العلم بعض التقدم ، ووصل إلى حل أخلاق الأمم كما تُحل مادة من مواد الكيمياء ، لبقى غير متكامل من جميع الوجوه ، فإنه لا يتكامل كل التكامل إلا إذا وضح كيف يكون انتكاس الأخلاق إذا ضغطتها مصائب جديدة كمصيبة حرب ونحوها ؛ ومع هذا كله فقد اهتدى علم النفس إلى بعض عواقب لا بأس بها ، فإنا نعرف مثلاً الآن أن روح الفرد وروح الجماعة تابعان لقوانين متباينة ؛ فقد يكون فرد من الأفراد فى أثناء عزلته عن الجماعة موصوفاً بالأثرة ، ولكن هذا الفرد إذا لصق بالجماعة تغيرت أثرته إلى تضحية ، فتذوب الأثرة فى الجماعة ، فيضحى بحياته فى سبيل الفكرة التى تناضل عنها الجماعة .

وإننا نعرف الآن أن إلى جنب العوامل المتحركة التي تعمل في أخلاق الأفراد عوامل ثابتة تنحدر عن الآباء والأجداد ، فإن هذه العوامل توحّد القلوب وتلفّ الأهواء في أزمة من الأزم .

فالعوامل النفسية الخاصة بكل أمة هي التي تميز مصير هذه الأمة أكثر مما تميزه قوة البترول والكهرباء وغيرها من العوامل المادية ؛ وإذا استطاع ستون ألف انكليزي أن يُدخلوا في طاعتهم ثلاثمائة مليون هندي يعادلونهم في مدى العقل أو يقربون منهم في هذا المدى ، فالفضل في هذا كله يرجع إلى أخلاق الانكليز ؛ وإذا لم يستطع الأسبانيون أن يبسطوا في أميركة اللاتينية إلا الفوضى ، فهذا سببه عيب في أخلاقهم ، كما قرره الدكتور « غستاف لوبون » .

للتأثير في الشعوب أساليب شتى ، منها أساليب مادية يستعين أصحابها بقوى البترول والكهرباء وغيرهما من أشكال المادة ، وهي تشتمل على التهديد والشدة والإفساد ، كالأساليب التي استعملت في « بولونية » أخيراً ، أو التي تستعملها بعض الأمم العظيمة في الأمم المغلوبة على أمرها ؛ وقد كثرت الإشارة إليها يومنا هذا كما ذكرت في صدر المقال ؛ فقد تكون هذه الأساليب ناجعة ولكن قيمتها غير ثابتة ؛ ومنها أساليب نفسية وهي أضمن ، فإنها خالية من كل شدة ، وقد يحتاج بيانها إلى فصل خاص ؛ فسياسة الأمم ينبغي لها أن تستعين بمعرفة أخلاق هذه الأمم ، وبمعرفة حدود تقلبات هذه الأخلاق ، وبمعرفة أساليب التأثير فيها ، أكثر من استعانتها بقوى الفحم والبترول والكهرباء ، وغيرها من العوامل المادية ؛ ولكن تمييز هذه المعرفة أمر صعب ، فإن روح الأمم الكبيرة ، كروح الانكليز ، وروح الجرمانيين ، وروح الأميركانيين ، كانت مجهولة قبل الحرب العظمى ، حتى إننا لا نعرف أنفسنا حق المعرفة ؛ ولا ينبغي لنا أن نستغرب هذا كله ، فإن معرفة المرء بنفسه أصعب من معرفته بغيره ، حتى إنه من الصعب أيضاً أن نوضح كيف تكون سيرة أمة من الأمم في حال من الأحوال إذا كنا لا نعرف هذه الحال بعدُ ؛ ولقد وصل قليل من رجال الدول في عصور التاريخ إلى تمييز روح أمم شتى ، وكانت معرفتهم بهذه الروح سبباً من أسباب نجاحهم ، لأنه على هذه المعرفة تتوقف الأوضاع التي تصلح لها هذه الأمة والأساليب التي تصلح لسياستها .

أحببت في هذا المقال أن أستميل النظر إلى العوامل النفسية في الشعوب متوخياً غاية واحدة ، وهي أنه قد يُغلب شعب في معركة من المعارك بفضل بعض عوامل مادية ، وقد يقتطع منه جزء من وطنه ، ثم ينتعش هذا الشعب بعد هذه المصائب إذا كانت العوامل النفسية فيه قوية ؛ ولكنه إذا تجرّد من المثل الأعلى فقد تجرّد من كل شيء ، وأضاع كل شيء ؛ فللعوامل النفسية في حياة الأمم شأن عظيم ربما كان أعظم من شأن العوامل المادية .

(دمشق) شفيق جبري

مجموعة الثقافة

صور قضائية :

المذنب البرىء

من مذكرات قاض لم تنشر

للقاضى الفاضل صاحب الامضاء

تقدم إلىّ فى جلسة الجنح الماضية متهم — وكانت تهمته أن رجال البوليس الملكى فى المدينة وجدوه ينام ليلاً فى مصلّى على حافة الترعة . فأيقظوه إذ رأوه — على حد تعبيرهم — من « الأغراب » . وسألوه : من أين أقبل ، وإلى أين يريد أن يمضى ؟ فقال : إنه من بلدة ز ، وأنه ضاقت به سبل العيش هناك ، فخرج يضرب فى الأرض ، ويسعى فى مناكبها ، لعله يوفق إلى عمل يعيش منه ، وأنه دخل المدينة مع الليل ، فلم يجد ما يأوى إليه ، فاعتزم أن يقضى ليلته فى « بيت الله » حتى إذا طلع عليه النهار عاود سعيه فى طلب الرزق . . .

وقد لايعلم القارئ أن تعليمات البوليس تقضى بوجوب « التحرى » عن أمثال هذا « الغريب » ، لعله مجرم هارب فرّ من جريمة ارتكبها ، أو مجرم مقبل على جريمة اعتزم ارتكابها . ولذلك فإن رجال البوليس استاقوا هذا الرجل إلى المخفر حيث أودع السجن ريثما تنتهى عملية « التحرى » وأخذت بصمات يديه وأرسلت إلى قلم تحقيق الشخصية . وجاء الرد بالبرق يفيد أن صاحب هذه البصمات سبق أن أنذره البوليس بوصف كونه متشرداً ليست له صناعة أو وسيلة مشروعة للتعيش . ولما كان هذا الإنذار يقتضى أن يتخذ المنذَر لنفسه عملاً يرتزق منه فى مدى عشرين يوماً من تاريخ توجيه الإنذار إليه ، وإلا حق عليه العقاب باعتباره « عاد إلى حالة التشرد رغم إنذاره » فقد رأى رجال البوليس أن الحالة التى بين أيديهم تستوجب المحاكمة . . . وقُيدت الواقعة « جنحة عود للتشرد » — وقدمت للجلسة . . .

***

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن العقوبة التى يجب على القاضى أن يحكم بها فى مثل هذه التهمة هى عقوبة مركبة ، يقضى فيها بالحبس ، ثم يقضى أيضاً بوضع المتهم — بعد انقضاء الحبس — تحت مراقبة البوليس لمدة معينة .

ومعنى وضع المتهم تحت مراقبة البوليس أنه يجب عليه أن يعود إلى مسكنه عند غروب الشمس ، وألا يبرحه قبل طلوع النهار . ومن مقتضيات ذلك أن يمر به جنود البوليس ليلاً مرة واثنتين وثلاثاً ، فيوقظوه ريثما يتأكدوا من وجوده ، ثم يتركوه ليعاودوا إيقاظه « والتتميم » عليه بعد قليل ، وهكذا . . . .

وأنت ترى من ذلك أن العقوبة قاسية نوعاً ما ، لأنها تفترض أن العمل ميسر لكل من يطلبه . وأن من لا يتخذ لنفسه عملاً يكون قد فعل ذلك عامداً ليبقى عاطلاً ، وليعيش طفيلياً على أرزاق الناس وكسبهم الحلال ؛ فى حين أن الواقع غير ذلك ، وأن الرجل قد يسعى إلى أن ينتعل الدم فى البحث عن الرزق ، ويعود وليس معه إلا الحسرة والحرمان ! . . . .

***

وعرضت القضية . فسألت الرجل :

— هل كنت خالياً من العمل وقت أن ضبطك البوليس ؟

— نعم !

— وهل طالت مدة خلوك من العمل قبل ذلك ؟

— نعم !

— وهل لم تجد عملاً فى هذه المدينة ؟

— لم يمهلونى أبحث فأجد ، لأنى أودعت السجن ليلة دخلتها !

— ولماذا تركت البلدة التى كنت فيها ؟

— كنت أعمل فى مقهى ساءت حال صاحبه فأغلقه فتعطلت ، فقصدت إلى غيره وعرضت نفسى على أصحابه ، ورضيت أن يكون أجرى ما يكفينى لطعام يومى ، فلم أجد من يستخدمنى حتى بهذا الأجر .

وضاعت منى فى سبيل هذا البحث أيام ، حتى جعت وساءت حالى ، فقصدت إلى محطة السكة الحديد ، وقلت أحمل حقيبة أحد المسافرين أو سلة إحدى المسافرات فتنقدنى أجراً آكل به . واستقام أمرى على هذه الحال أياماً ؛ ولكن فاجأنى رجل البوليس ذات يوم وأنا فى عملى ، فساقنى إلى المخفر لأنى « أشتغل حمالاً بغير رخصة » ، وحكم علىّ القاضى بغرامة جسيمة لم أجدها مما لحبسونى أياماً عديدة (بواقع) يوم واحد عن كل عشرة قروش . . .

وخرجت بعد ذلك أعاود البحث عن أى عمل فلم أجد ، وأدركنى الجوع ، فبسطت يدى إلى الناس أستطعمهم حتى يبعث الله بالفرج . فضبطنى الجندى « متلبساً بجريمة التسول فى الطريق العام » ، وبعثوا بى مرة أخرى إلى القاضى . فأمر فى هذه المرة بحبسى خمسة عشر يوماً . .

وخرجت من السجن أعاود البحث عن العمل ، فعطف علىّ تاجر من تجار البصل . سلمنى غرارة مملوءة ، وسلمنى عربة صغيرة أضع عليها بضاعتى ، وأخذت أجوب الطرقات ببضاعتى وأنا شامخ مرفوع الرأس لأنى لا أجد لأحد علىّ من سبيل . غير أن البوليس لا حقنى وسألنى عن « رخصتى » فأفضيت إليه بحقيقة حالى ، فلم يستمع إلىّ وقادنى إلى المخفر مرة أخرى حيث قدمت إلى المحكمة بتهمة أنى « بائع متجول بغير رخصة » ، وحكم علىّ القاضى هذه المرة بغرامة تحولت كالمعتاد إلى حبس . فضقت ذرعاً ببلدى وبرجال البوليس فيها ، وقلت أبحث عن رزق فى غيرها فجاءوا بى إليك . . .

* * *

استمعت إلى قصة الرجل ، وأنا لا أجد فى كلامه ما يصح أن يؤاخذ عليه . ولست أدرى كيف وثب إلى ذهنى هذا الخاطر :

« ترى لو كان الحاضرون فى قاعة الجلسة كلهم من »
« ذوى الأعمال ، ثم تعطلوا جميعاً كما تعطل هذا المتهم . »
« ثم وجه البوليس إلى كل واحد منهم إنذاراً بالبحث »
« من عمل فى مدى عشرين يوماً . . . . ترى كم منهم »
« كانوا يعودون إلى هذه القاعة وهم فى قفص الاتهام ؟ ! »

ألا إن كثيراً من القوانين ليحتاج إلى القاضى الذى يعرف أحياناً كيف يتفادى تطبيقها !

ح . ج

النبوغ والعبقرية فى رأى فاينجر

للأستاذ على أدهم

أوتو فاينجر مفكر ممتاز ، طلق الرأى ، على الأسلوب ، وقد أخرج كتابه الموسوم «بالجنس والأخلاق» قبل بلوغه الثلاثين ، وهو كتاب يدل دلالة واضحة على التعمق الفلسفى ، والنضج العلمى ، وطرافة التفكير ، وقد ظفر بتقدير المفكرين ، سواء من وافقه وأقر أكثر أفكاره ، أو من خالفه وخطأه ؛ والنتائج التى انتهى إليها لا يتفق أكثرها مع مزاعم أنصار الحركة النسائية ؛ وكتابه يعد من الكتب الهامة فى محاولة الكشف عن سريرة المرأة ، وإظهار خوالجها الخفية ودوافعها المجهولة ، وقد تناول مسألة المرأة من نواحيها الثلاث : الناحية الحيوية العضوية ، والناحية النفسية الوصفية ، والناحية الفلسفية التقديرية ، وهو عمل يستلزم الاضطلاع به إلماماً واسعاً بالتاريخ الطبيعى ، ومعرفة مستفيضة بعلم النفس ، وتضلعاً من دراسة الفلسفة . وقد ضمن كتابه — علاوة على الفصول الخاصة بطبائع المرأة ، وتحليل أخلاقها — فصولاً أخرى عن الذاكرة والنفس والنبوغ والعبقرية ، وما إلى ذلك من شائق البحوث التى تمت بسبب إلى مسألة المرأة ؛ وتمتاز جميعها بإشراق الفكر ، واستقامة الملاحظة ، وسعة الأفق ؛ وقد مات فاينجر منتحراً سنة ١٩٠٣ . ويرى أنطونى ليدوفتشى — وهو مفكر انجليزى من تلامذة نيتشه ، ومؤلف كتاب « تبرئة المرأة » — أن فاينجر بانتحاره كان أميناً مخلصاً لفكره ، ومنطقياً مع نفسه ، لأن من كره المرأة فقد رفض الحياة ؛ وغير فاينجر من أعداء المرأة أكثرهم من فريق المتعصبين ؛ والمتعصبون فى رأى ليدوفتشى ليسوا أمناء فى تفكيرهم ، ولا منطقيين مع أنفسهم . والمفكرون الذين يذهب بهم التفكير إلى أن يقفوا من المرأة موقف العداء أعتقد أنهم أعقل من أن يخدعهم عن أنفسهم ليدوفتشى هذا بمنطقه الماكر وتحديه الخبيث .

وإلى القارئ خلاصة رأى فاينجر فى النبوغ والعبقرية :

يرى أكثر الناس أن هناك قرابة ووشيجة بين العبقرية والنبوغ ، وأن العبقرية نوع أسمى من النبوغ أو أنها أرقى أنواعه ، ويعتقدون أن الملكات السامية المنوعة بمثابة وسيط بين الاثنين ؛ ولكن هذا الرأى لا يقوم على أساس مكين ، وحتى إذا افترضنا أن للعبقرية أطواراً ودرجات فإنه ليس ثمة من علاقة بينها وبين النبوغ ؛ فمثلاً قد تكون ملكة الرياضة والحساب مركوزة فى الانسان منذ ميلاده ، فيحل بسهولة كل عقدة حسابية ، ولكنه مع ذلك ليس فى شىء من العبقرية .

ومن مترادفات العبقرية الشخصية الواضحة ، والقدرة على الانتاج والابتكار ، واستفتاح أبواب جديدة من التفكير ، واعتساف طرق مجهولة من المعرفة ؛ ومن ناحية أخرى فإن هناك جماعة من ذوى العبقريات السامية لم تبرهن حياتهم على أن الطبيعة قد آتتهم شيئاً من النبوغ . وليست العبقرية أسمى درجات النبوغ كما يتوهم الكثيرون ، وبين الاثنين فرق ضخم ، وتختلف طبيعتهما تمام الاختلاف ، فلا يجوز أن نوازن بينهما ولا أن نقيسهما بمقياس واحد .

ومن خصائص النبوغ أنه يورث ، وقد ينحصر فى أسرة بعينها ؛ ولكن العبقرية لا تنتقل ولا تتشعب ، وتمتاز بأنها شخصية بحتة ، وليس آكد من العبقرية فى إيقاد الكراهة والبغضاء وإثارة الحقد والشحناوات .

ومن مميزات العبقرى أنه سابر لأغوار النفوس نافذ النظرة إلى أعماق السرائر ؛ فهو أوسع علماً من غيره بالطبيعة الانسانية ، وأكثر إحاطة بجوانبها المتعددة ؛ انظر مثلاً إلى العدد الكبير من الشخصيات التى صورها شكسبير أو الشخصيات التى تموج بها صفحات روايات زولا .

ولكى نرسم شخصية علينا أولاً أن نفهمها ، ومن أجل

أن نفهمها يلزم أن تكون مماثلين لها ؛ ولا يستطيع أحد تصور شخصية ما تصوراً صادقاً إلا إذا أمكنه أن يستحضر في نفسه دوافع تلك الشخصية ونزعاتها المختلفة ؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا كانت فيه طبيعتها ؛ ولا بد أن يكون عقل الانسان مماثل العقل الذي يحاول الوقوف على دخيلته والخلوص إلى سره ، ولا يفهم اللص إلا اللص ، كما أن البراءة لا يقدرها إلا البرىء .

وقد يستنتج من ذلك أن الإنسان يستطيع أن يفهم نفسه فهماً أصدق وأصح من فهمه لغيره ؛ ولكن هـذا الاستنتاج معكوس ، فإنه ليس فى طاقة أحد أن يفهم نفسه ، لأن معنى هذا التجرد من النفس ؛ ولو استطاع الانسان الوصول إلى أعماق نفسه والكشف عن غامضها ، لأدرك سر الخليقة ؛ وإنما يمكننا استمداد معلومات عن أنفسنا بملاحظتنا ودرسنا لمن يشبهنا من الناس .

والعبقرى يعرف الناس معرفة عميقة لا يصل إليها إلا القلائل ، ويروى أن جيتى قال عن نفسه : « ليس هناك رذيلة من الرذائل أو جريمة من الجرائم ، إلا ويمكننى أن أقتفى أثر الميل إليها فى نفسى » . فنفسية العبقرى إذاً أكثر تعقيداً وأوفر تنوعاً من نفسية الرجل العادى ؛ ويدنو الانسان من العبقرية كلما تكاثرت أنواع الشخصيات فى نفسه ، وكلما كان وجودها قوياً حقيقياً . وإذا كان فهم العبقرى لمن حوله شاحب الضوء ، قليل السطوع فى نواحى نفسه ، فإنه لا يستطيع أن يرتفع إلى سماء الشاعرية العالية ، ولا أن ينفخ حياة جائشة وثابة فى أبطال رواياته ، ولا أن يطبع مبتكراته بميزات بارزة . والمثل الأعلى للعبقرية الفنية هو أن يحيا صاحبها فى الناس كلهم ، وأن يتسرب إلى الشخصيات كافة ، وأن يقلع نفسه فى عباب نفوس الجماعات ؛ كما أن المثل الأعلى للعبقرية الفلسفية هو أن يستجلى صاحبها فى نفسه أنواع الشخصيات ومختلف النفوس ، وأن يخالطها جميعها بوحدة ذاتية ، هى فرديته ووحدته الذاتية .

وتمر بالعبقرى أوقات خصبة مثمرة ، تسخو فيها عبقريته بروائع المبتكرات ، ثم يجىء فى أثرها أوقات العقم والكزازة ، وخلالها يفقد ثقته بنفسه ، ويضعف إيمانه بعبقريته ، وتتوالى عليه حالات من الميول الفكرية مختلفة ؛ فتارة يميل إلى الفلسفة والعلم ، وطوراً يعكف على الفن ، ومرة يحول بصره إلى التاريخ ودراسة الحضارات البائدة ، وأخرى يتصوف ، وتظلل كتاباته سحائب من الغموض والابهام ؛ وفى أوقات أخرى تسلس عبارته ، ويصفو تفكيره ؛ وهذه الشخصيات المتعددة التى تظهر فى نفوس العبقريين تترك أثرها على صفحات وجوههم ؛ وهذا هو السر فى تغير وجوه العظماء واختلاف صورهم الشمسية ؛ وأغلب الذين لا تتغير ملامح وجوههم من ذوى العقول الضئيلة . ولا تزال وجوه العظماء حيرة علماء الفراسة ، لأن الشخصيات التى تظهر فى نفوسهم من الحين إلى الحين ، تترك أثراً قليل الدوام على ملامح الوجوه .

وقد يبتدرنى أحد المعترضين بقوله : إن ما ذكرته وقررته يدل على أن شكسبير مثلاً كان فيه ضعة وخسة وخشونة وقسوة ، لأنه يحمل كاهل العظماء وزر الأشياء الوضيعة التى تناولوا وصفها جيماً . ودفعاً لذلك أقول إن تراجم العبقريين تدل على استهدافهم لكثير من الأهواء الغريبة والغرائز المتكسة ؛ على أن هـذا الاعتراض غير متين ، فإن زولا مثلاً الذى وصف بأمانة الدافع على ارتكاب جريمة القتل لم يعرف عنه أنه ارتكب جريمة القتل ، وذلك لأن فى نفسه مستودعاً لأنواع شتى من الأخلاق ، وصنوف كثر من الشخصيات ؛ فى حين أن القاتل الحقيقى واقع فى قبضة محرك واحد ؛ والمؤلف الذى يصف القتل تتحرك فى نفسه طوائف لا تمد من الدوافع والمحرضات ؛ ومثل زولا يفهم الباعث على ارتكاب جريمة القتل أكثر من القاتل نفسه ، لأنه يتتبع أثر الجريمة فى نفسه ، فإذا جشأت إلى سطحها تصدت لها ، وفى هذه الحالة يتغشاها ضوء العقل وأشعة الفن فتتحول إلى غاية فلسفية عند الفيلسوف ، وتتحول إلى مأرب فنى عند الروائى ،

ولكنها لا تتحول إلى جريمة حقيقية .

ويعرف أصحاب الشخصيات المعقدة الناس أكثر مما يعرف الناس أنفسهم ، لأن نفوسهم الكبيرة تحتوى على الصفات التي يصفونها ، وعلى نقائضها ، وبأضدادها تتميز الأشياء .

ويختلف في الناس نضج الملكات ونمو الحواس ، فترى بينهم من يعرف أنواع الطيور معرفة محكمة ، ويحاكى لك أصواتها محاكاة دقيقة ، وآخر يميل إلى دراسة النباتات ويكلف بالزراعة ؛ وترى من يؤثر علم طبقات الأرض ، ومن يولع بالفلك والنجوم ، ومن يحب مناظر الجبال ويكره رؤية البحر ؛ وعلى عكسه من يحب البحر ويكره منظر الجبال ؛ وهكذا لكل إنسان هوى في جانب خاص من جوانب الطبيعة تصفو فيه قريحته ؛ والمثل الأعلى للعبقرية تشتمل نفسه على كل الشخصيات ، بما في ذلك ما تحبه وما تكرهه ، ويلتقى بنفسه عدو أكثر من الأضداد ، ولذا تفضى إليه الأشياء بأسرارها ويسهل عنده اكتناهها .

والعالمية من العلامات المميزة للعبقرية ، لأنه ليس هناك عبقرية خاصة ، كعبقرية الموسيقى أو الرياضة أو الشطرنج ؛ والموسيقى العبقرى لا تقتصر معلوماته على الموسيقى ، بل له نظرة نافذة في الأشياء ، كنظرة الشاعر والفيلسوف ؛ وهناك شيء عام مشترك بين العبقريين ، سواء كان العبقرى شاعراً أو فيلسوفاً أو موسيقاراً أو مصلحاً دينياً ؛ وليس في المرأة عبقرية ، وذلك لأن حياة المرأة حياة لا تنبهية ، وحياة الرجل حياة تنبهية واعية ؛ وقد أصاب توماس كارلايل مفصل الحق في كتابه عن الأبطال ، لقرنه العبقرية بأرقى أنواع الرجولة .

على أدهم

على ضفاف الدانوب :

ناجـــــا

قصة كرواتية – تعريب محمد فتحى

لاحظت من مدة أن زميلى بيرو يبدو عليه الحزن والاكتئاب، وكان بطبعه ميالا إلى العزلة والسكون، فلم يحدث أحداً عن سبب اكتئابه وحزنه، ولكنك لم تكن تشك لحظة إذا ما صحبته طويلا أن نفسه كانت ترزح تحت أعباء حزن عميق هائل؛ ولقد كان الحزن يبدو عليه دائماً، ويتمثل فى تقاطيع وجهه، حتى لقد أصبح جزءاً منه لا ينفصل.

وفى مساء يوم صائف جميل كنا نتمشى جنباً لجنب على ضفاف الدانوب، وقد انعكس فوق الأمواج القاتمة نور النجوم الفضية اللامع، كما انعكست صورة السحاب الخفيف الذى كان يمرق مروقاً أمام القمر، وحمل إلينا النسيم من القرية أصوات موسيقى خافتة، وشدا البلبل شدواً عذباً بين أفنان الشجر، وسرى الماء فى خرير خافت تحتنا، وأتى من بعيد صوت طاحون متحرك يشبه الأنين. كان المساء رائعاً لذيذاً فى هدوئه وسكونه. وفجأة قطع السكون صوت فتاة جميل واضح، فتاة تغنى فى قارب بعيد أو فى الطاحون، فجفل بيرو ووقف فى مكانه وأخذ يرتعش كقصبة فى مهب الريح، وتمتمت شفتاه وهو فى مكانه لا يتحرك: «أغنيتها ... أغنيتها ... » ووقفنا ساكتين ننصت إلى الصوت الجميل حتى خفت وتلاشى فى ظلام الظلال، فالتفت صديقى إلىّ وأمسك بذراعى وبدأ يتكلم وهو لا يكاد يستطيع التنفس. لقد كانت قصة حزنه الدفين ...

أفكر فيها دائماً فيبرح بى الشوق، وتزداد آلامى يوماً بعد يوم كلما تذكرت أيامنا اللذيذة، ثم شناعة ما حدث بعد ذلك؛ لا تبرح مخيلتى صورتها الجميلة، ويتردد اسمها على شفتى، وأمد ذراعى لأحتويها، بالرغم من أنى أعلم أنها فى عالم الفناء، أراها كل لحظة ماثلة أمام عينى: «ناجا» جميلتى! «ناجا» فتاة القرية السلافية الغامضة. إن الكلمات لتعجز عن وصفها! وحتى الآن، بعد تلك السنين الطويلة، ما زلت أعتقد أن تلك العيون السود النجل، وذلك الوجه البيضاوى الجميل، الذى يحيط به الشعر الفاحم الأثيث، ونظراتها الجذبة الوادعة، ولون بشرتها الحية الفائق، وقوامها الذى يحاكى الغصن فى اعتداله — ما زلت أعتقد أن هذا الجمال المفقود ليس له على ظهر الأرض مثيل؛ رغم كل ذلك لم أكن أحبها، أو على الأقل كنت أظن أنى لا أحبها، حتى فقدتها إلى الأبد ... الله عادل وجبار.

رأيتها لأول مرة فى الغابة. كنت أصطاد وقد اضطرتنى حرارة الشمس للبحث عن مكان ظليل ألجأ إليه. رأيتها واقفة بجنب أغنامها، وهى تخيط قطعة من القماش الزاهى اللون. فلم أستطع أن أتحول ببصرى عنها .. ذهلت ... إذ لم أر فى حياتى مثل هذا الجمال. وكان يرتسم على وجهها الجد والوداعة، فلم يكن فى المستطاع أن يعاملها الانسان كفتاة عادية يلقاها بطريق المصادفة. أظن أنى سألتها عن أقرب طريق إلى القرية.

فلم تجاوبنى أول الأمر، بل استمرت منهمكة فى خياطتها، دون أن ترفع رأسها نحوى. فلما كررت عليها السؤال أجابتنى إجابة مقتضبة غير ودية، وأشارت بأصبعها إلى الطريق.

فقلت لها ثانية وقد خلعت قبعتى لأمسح العرق الذى

كان يتصبب على جبيني ، وجلست على أصل شجرة قريبة :

— أليس الطقس حاراً اليوم ؟

فلم تعرني أي اهتمام . فقلت :

— من أنت أيتها الفتاة ؟

فأعرضت عني ولم تجب . فقلت بغضب :

— ألا تفتحين فمك . . . لم لا تقولين اسمك ؟ . .

فأجابت في لهجة سريعة وهي تبتعد عني :

— وما أهمية اسمي لك ؟ أنا من القرية هناك . .

ثم طوت صوفها ونادت على أغنامها التي كانت ترعى هنا وهناك . . . فقلت :

— هل لا يستطيع الانسان أن يسألك عن اسمك ؟ . ليس في هذا شيء غريب . . . اسمك تيجكا . أو ملجكا . أو ماوا .

فقالت وقد احمر وجهها الجميل :

— لا . اسمي ناجا . نوشا نيدلجوفيك ناجا .

ثم جرت بعيداً ، فتركت الصيد وجريت في الاتجاه الذي جرت فيه ، على أقابلها مرة ثانية .

كنت أذهب بعد ذلك إلى الغابة كل يوم ، وكنت أقابل ناجا هناك . كانت في أول الأمر تخافني ولا تتكلم معي ، أو تجاوبني إجابة ودية ، وقد أصبحت أنا أخجل منها ، ولعل ذلك ما شجعها على أن تقلل من خجلها وتألفني . ثم كانت أن أصبحت تصارحني بكل شيء ، وقالت لي إني لست كبقية الرجال . وأخذت تقص عليّ متاعب بيتها ، وكل ما يجري في القرية ، وأن فتيان القرية يغضبون منها لأنها لا تراقصهم ، ولا تشاركهم في ملاهيهم .

وسألتها : لماذا لا تجاريهم ؟ فقالت :

— لا أدري . . ولا أريد ذلك ، والفتيان شياطين ، ولكن . . . وأبي يقول إنه لا يحق لنا أن نضحك كثيراً ، وقد حل علي ذلك التقسيم الجديد للأرض .

— تقصدين نظام المساحة الجديد . .

قالت :

— نعم . قل لي يا سيدي . .

ثم أخذت تسألني عن الحق والقانون ، وعن مسح الأراضي وغير ذلك ، فقلت لها في النهاية :

— ولكن يا ناجا ذلك الرجال ليتكلموا فيه ، وليس من شأن الفتيات .

— أظن ذلك ، ولكني لا أستطيع أن أتكلم مع أحد غيرك في هذا الموضوع . يقولون في القرية إن القسيس مشترك مع الساحين ، وإنه سيوافق على أن يأخذ المعمدة مدفن القرية في حصته ، ويبنون لنا مدافن جديدة في الغابة .

— وماذا يهمك هذا ؟ . .

— ماذا يهمني ؟ . أجدادنا وأجداد أجدادنا مدفونون هناك . كذلك يقول أبي هذه المدافن ترجع إلى الوقت الذي جاء فيه أسلافنا الأقدمون من البوسنة إلى هذه القرية ؛ والآن سيعطونها الكونت لترعى أبقاره فيها ثم يدفنوننا في الغابة مع الذئب والثعالب .

فنظرت إليها مندهشاً ، وقد شحب وجهها وأخذت تحدق إليّ بعينين محمومتين .

وفيما عدا ذلك كانت مقابلاتنا عادية لا غريب فيها ؛ ولعل هذا هو الذي جعلني لا أدرك مقدار اهتمامي بها حتى اللحظة الأخيرة ، حين أدركت ذلك بعد ما فات الأوان .

وتركت البيت ذات يوم عند الفجر للصيد ، ولما وصلت القرية كان كل شيء ساكناً كالليل ، وقادتني قدماي تجاه بيت نيدلجوفيك ، فرأيت ناجا في الحديقة بجانب نبع الماء . كانت قد غسلت وجهها وبدأت تمشط شعرها الأسود الطويل . . . كانت جميلة . فاتنة . نضرة كالزهرة ، وانعكس النور الخافت فوق شعرها ورقبتها ووجد طريقه خلال قميصها الذي فتح نصفه كاشفاً عن صدر ناهد فتيّ . . . لم أستطع أن أضبط نفسي الجامحة ووجدتني قد وثبت إلى

جانبها ، وقبل أن تراني أخذتها بين ذراعيّ وقبلتها .

خلّصتْ نفسها من بين ذراعي وهي تصرخ صرخة لطيفة ضاحكة . لقد حسبتني فتى من فتيان القرية ، فلم تغضب كثيراً ولم تنزعج ، ولكنها حين التفتت نحوي وعرفتني تقلصت الابتسامة على شفتيها وأرخت عينيها وطوت ذراعيها في ارتباك فوق صدرها العاري ؛ لقد أسفت على ما بدر مني ، ولكني تمتمت : « أو ناجا . جبلتي ناجا . . »

فأجابتني بصوت حزين مرتعش : « لو كنت تهتم بي حقاً لما كان يجدر بك أن تفعل ذلك » .

ثم تحولت ببطء نحو البيت فأخذت أحدق إليها النظر وأنا لا أكاد أصدق أن فتاة ريفية بسيطة تحس مثل هذا الاحساس . وبدأت أدرك أن ناجا لم تكن كبقية الفتيات . وها أنا قد أسأت إليها وعاملتها كأي فتاة ريفية يصادفها الانسان .

وشعرت شعوراً ثقيلا وأنا أراقبها تقف بجانب حوض من أحواض الزهور تجفف دموعها ، وامتلأت خجلاً من نفسي ولم أستطع الاقتراب منها ثانية . أما هي فقد لمحت لمحة نحوي فرأت أنني ما زلت هناك ، وخيّل إليّ أنني رأيت بريقاً من السعادة يضيء في عينيها المبللتين بالدموع .

وأشرقت الشمس فوق الأفق فتلألأت وريقات الشجر والحشائش المحمّلة بقطرات الندى والنسيم يداعبها ؛ واكتست الطبيعة بحلة وردية بيضاء ، اللهم إلا تلك الوديان البعيدة التي كانت ما تزال ترتعش في ظلال بنفسجية . كان الصباح مشرقاً ، صبوحاً ، كالطفل يصحو باسماً سعيداً ؛ وغرّد فوق رأسي عصفور صغير ، وأخذ نظري يعلو ويهبط ، وامتلأ قلبي بالشوق والحنين ، ولم أتمالك نفسي من الاندفاع نحوها وقد أشرقت طلعتها وأنا أردد اسمها في أمل سعيد : « ناجا ناجا » ؛ وفي هذه اللحظة سمعت إنساناً يناديني باسمي في لهجة ضاحكة ، فالتفت فرأيت صديقي جيرا عمدة القرية ، وهو صياد مثلي ومزاح كبير .

خجلت إذ ذاك من عواطفي ، وحسبت ألف حساب لما عساه يكون قد رأى ، إلا أنني — ويا للجبن — تنفست الصعداء عند ما رأيته يعدها مجرد مغازلة عادية .

وتمشيت معه ولم أنظر إلى الوراء مرّة واحدة ، ولم أجسر على الذهاب إليها في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي تلاه أو الذي بعده ؛ وفي اليوم الرابع اضطرني عملي الحكومي للسفر إلى مكان بعيد . بقيت هناك أربعة أشهر ، وكان من المحتمل أن أبقى أطول من ذلك لولا أنني استدعيت من أجل مهمة ذات شأن .

بعد ذلك باثنتي عشرة ساعة علمت أن هذه المهمة ذات الشأن تتلخص في أن أهل قرية ناجا ثاروا ضد تقسيم الأراضي الجديدة ، وتعدوا على رجال الكونت وأصابوهم إصابات مختلفة عندما كانوا ذاهبين بمحاريثهم للعمل في الحقول التي كانت من قبل ملكاً للفلاحين ، كما أنهم هددوا اللجنة التي أرسلت لاغلاق المدافن القديمة وطاردوا رجالها وسجنوا القسيس وأعضاء المجلس المحلي في سجن القرية ، واستولوا على الماشية التي كانت ترعى في أراضيهم حسب النظام القديم .

كانت الثورة مشتعلة النيران ، ولم يجسر أحد على دخول القرية . أرق ضابط المقاطعة طالباً النجدة العسكرية ، وعهد إليّ بأن أتولى الاجراآت الدنية . ولحظي السيء كنت مشهوراً بالنشاط والحزم ، وهذه الشهرة التي كانت سبباً في انتدابي لمثل هذه المهام الخطيرة . ولا أدري حقيقة إن كنت على شيء من النشاط ، ولكن الذي أدريه هو أنني كنت واثقاً قادراً على كسر شوكة أشد المقاومات عناداً وعنفاً . صحيح أنني اليوم لم أعد كما كنت في النشاط والقدرة ، ولكني كنت إذ ذاك في شبابي طائشاً ، وكنت أومن بسلطة القانون وسيطرته وبالدولة والمجتمع ، وكنت أعتقد أن الدفاع عن هذه السلطة من أقدس الواجبات . كم كنت غبياً وطائشاً إذ ذاك . . . وقد اكتستْ هذه الغباوة . . . أوه كست نفسها بهذه الألفاظ الضخمة الرنانة ، فقد كان لابد منها لتغطي عريها

وخطأها ، ولكني كنت أومن بتلك السخافة ، وأعتبر نفسي محقاً في أن لا أقيم أي اعتبار لهؤلاء الفلاحين الثائرين .

لم يداخلني أي شك في مقدرتي على القضاء على هذه الفتنة . وكنت أعتقد بأن الأخبار مبالغ فيها ، وانتظرت اليوم الذي أدخل فيه القرية على رأس القوة العسكرية ، وكنت سعيداً لأنني سأرى ناجا مرة ثانية . كنت قد نسيت جانباً ما دار بيننا من حديث عن نظام مسح الأراضي وتوزيعها ، ولو كنت تذكرت إذ ذاك فربما أثر ذلك في مجرى الحوادث ، ولكني لم أفكر في أي صلة بين ناجا والثورة ، رغم أن صاحبة البيت أخبرتني أن فتاة ريفية سألت عني أثناء غيابي عدة مرات .

— ناجا ؟

— لا أعرف اسمها ، ولكنها كانت قمراً ... أظنك أنت تعرف من هي .

قالت العجوز ذلك ، وهي تبتسم بخبث ، وتشير بأصبعها نحوي ... كلام فارغ ...

ولكنها قاطعتني وقالت :

— أحضرت لك شيئاً ... مفرشاً مطرزاً .

— لم تقول لها أين سافرت ؟

— ها ها ... لا . كنت بعيداً ... ثم إني افتكرت أنك ربما لا تحب هذه المسائل ... أنا لا أعرف ما الذي جرى لبنات هذه الأيام . ليس عندهن حياء ولا خجل . سوف تسمع عنها !

فصحت فيها : « كفى كلاماً فارغاً » وأسرعت لأشتري هدية لناجا . كنت ممتلئاً شوقاً لرؤيتها . وحين تحركت ركابنا إلى القرية لم أكن أفكر في واجبي بقدر ما كنت أفكر في لقاء ناجا .

ولما وصلنا إلى القرية وجدت أن التقارير لم يكن مبالغاً فيها ، فلو كنا تأخرنا دقائق قليلة لكان القسيس وأعضاء المجلس لقوا حتفهم ؛ فقد أشعلوا النار في السجن الذي كانوا فيه . ولم نلق مشقة كبيرة في القرية إذ لم يكن بها سوى عدد قليل من الأهالي ؛ وحاول بعض الفلاحين الاستيلاء على محاريث العمدة في الحقل ، ولكنهم أطلقوا لسيقانهم العنان عند ما شاهدوا الحراب ، وبدأ العمل الحقيقي عند مدخل الغابة في أرض المرعى حيث تبودلت الطلقات النارية ؛ ولكن أخطر المواقف كان عند مدفن القرية ، فقد اجتمع هناك كل السكان تقريباً رجالاً ونساء ، شيباً وشباناً وأطفالاً ، وكلهم مسلحون بشكل ما ، ورأيت فيهم صبياً ممزق الثياب يدق على طبلة دقاً عنيفاً جنونياً ؛ وقبل أن نصل إليهم سمعت صياحاً وضحكاً وهتافاً ووعيداً ، فقلت في نفسي : « فليصيحوا ... هذه علامة حسنة ، فالكلاب النابحة لا تعض » وحيّوا وصولنا بسكون مفاجئ ، ولمعت سنان الحراب المديدة ، وكان في لمعانها وبريقها روعة وإرهاب أحدثا أثرهما ، ثم أعقب ذلك فترة سكون ، صحت أثناءها في الناس : أن تفرقوا في هدوء ؛ ولم يكن صوتي في قوته وثباته المعتادين ، فتلاشت كلماتي بين أصوات الاستنكار المتصاعدة .

لن نقبل ذلك ... لقد خدعنا القسيس والمجلس ، وأخذوا أطيب الأرض ، ما الذي يبقى لنا إذا أخذوا كل شيء لهم ؟... ياليت الذئاب الجشعة قنعت بالأرض وحدها ، بل هم يريدون مدافننا أيضاً ... مدافننا التي دفن فيها أجدادنا وأجداد أجدادنا منذ أجيال .

وفجأة تذكرت كلمات ناجا فأخذت أتفرس في الجماهير المزدحمة باحثاً عنها ، وارتحت إذ لم أجدها هناك ؛ ولكني كنت ما أزال أحس بشيء من القلق ؛ لأول مرة وقفت متردداً لا أدري ماذا أصنع ، ماذا لو رأتني هنا ؟.. ما يكون رأيها فيّ ، لمحت هذه الخواطر في فكري بسرعة ، إنها تكرهني دون شك ... بالشيطان ... لماذا اختاروني لهذا العمل الشنيع ؟

وبينما أقف متردداً ، إذا بالضوضاء تزداد بسرعة ، فالحيوان الثائر والرجل الغاضب يرى دائماً في التردد دليل الضعف . تدافع الفلاحون إلى الأمام نحو الجند ،

فدار رأسي دوراناً سريعاً ؛ وحاولت بشكل فوقي أن أضبط نفسي ، وأمرت بإطلاق النار . . . وقابل الفلاحون هجوم الجند بقذف الأحجار وإطلاق النار . لم يكن هنـاك مفر من إراقة الدماء ، ولكنني أعطيت الأمر بإطلاق النـار في الهواء أولاً ، وفهم الفلاحون قصدى فلم يتحركوا من أماكنهم :

— لن تجسروا على إطلاق النـار ونحن رعايا الامبراطور ، وهو لا يسمح بأن نقتل . . . . لسنا خائفين . . .

وكان ذلك جوابهم على طلقات الهواء ، وبدأت الجموع تهزأ بالجند ، وتدافعوا إلى الأمام غاضبين . . . وأعقب ذلك مناوشة خر فيها أربعة جنود ونحو خمسة عشر فلاحاً ، وأخيراً فر القرويون واستولينا على مقبرة الكنيسة .

وفجأة ظهرت امرأة فوق التل المواجه ، ورن صوتها جلياً وهي تصرخ في الجموع الهاربة :

— أيها الجبناء . . . أتهربون عند الطلقة الأولى ؟ . . ألا تخجلون من أنفسكم ؟ من كان منكم رجلا فليأت هنا بجانبي . . . أين تذهبون إذا سلبوكم كل شيء حتى قبور آبائكم . . دعوهم يتقدموا — فهنا هدف لطلقاتهم . . هيا أيها الجنود الشجعان . . إذا كنتم أبطالا حقاً أطلقوا هنا . . صوبوا بنادقكم نحو صدري . .

عرفت صوت ناجا ، ورأيت قميصها الأبيض يفترق فوق صدرها الناهد الجميل ، مستحيل ، حتى في هذه اللحظة المروعة لم أكن أفكر إلا في جمالها . ومضت عدة ثوان قبل أن أفكر في خطورة الموقف ، وتصاعد الدم إلى وجنتي ، ووقفت جامداً في مكاني حتى أيقظتني صرخة داوية ، ولم أدر ماذا حدث في اللحظة التالية . . . لا أدرى إن كنت أعطيت أمراً باللفظ أو بالاشارة ، كل ما رأيته إذ ذاك كما أراه الآن صورة مروعة . . ناجا على التل هناك . . رأيتها تسقط ذراعيها ، ورأيت سائلا أحمر يجرى فوق صدرها ، ثم رأيتها تترنح وتقع .

نسيت كل شيء آخر ، وهرعت إلى جانبها . . لم تستطع أن تتكلم حين ارتميت بجانبها ، ولكنها حاولت أن ترفع رأسها ، فضمدت جرحها وحملتها وسط الزحام بين ذراعي وانتهت الثورة . وأدركت وأنا أحملها فوق صدري أني على وشك أن أفقدها إلى الأبد . أدركت أني أحب هذا المخلوق الصغير ، حباً لا حد له .

وكان ذلك جزائي ، لاعتقادي الخاطئ بأن قوانين المجتمع أسمى من إرادة الشعب . وفي هذيانها أخذت تتكلم عني وعن مقابلاتنا ، ثم بدأت تردد في صوت خافت لحناً عذباً كطنين النحلة ، واختلط ترديدها لهذه الأغنية القديمة بأنينها الخافت . وسيبقى ذلك على الدوام يرن في ذاكرتي . ولم أستطع أن أضبط دموعي التي فاضت من عيني ، فأخفيت وجهي بين الوسائد وأنا أشهق بالبكاء . وحين عدت إلى نفسي بعد الصدمة الأولى ، رأيت عينيها النجلاوين تصوبان النظر إلي ، ولمع فيهما وميض من الشعور . . ونظرت إلي نظرة طويلة . . . طويلة . نظرة حب وأسى . نظرة لن تفارق ذهني حتى أفارق الحياة .

وحين فارقها النفس الأخير فارقت السعادة حياتي . أيمكن أن يمر على الانسان شيء أروع من أن يقتل من يحب ؟ لقد أصبحت قاتلها وأنا في خدمة أولئك الذين يظلمون الشعب .

اذكرني الآن ، وتذكر بأن صوت الشعب هو صوت الله .

* * *

وبعد ذلك حين علمت بأن بيرو استشهد في معركة زاجكار ، حمدت الله على خلاصه من آلامه . . . ولكني حين أفكر في ناجا . تلك الفتاة الريفية يغمرني إحساس من الثقة والارتياح . . . فشعب أولئك بناته ، لا حاجة له بأن يخشى المستقبل .

محمد فهمي
بالاذاعة اللاسلكية المصرية

زيادة عدد سكان العالم وآثارها الاقتصادية

بين المتشائمين والمتفائلين

في أوائل القرن التاسع عشر لاحظ الأستاذ مالتس الانجليزي أن سبب انخفاض مستوى الأجور ، وفقر عدد كبير من الناس يرجع إلى ظاهرة ميل عدد السكان إلى الزيادة بسرعة ونسبة لا تتفق وما تجود به الطبيعة من خيرات زراعية ومعدنية وغذائية ؛ وذهب إلى أن عدد السكان يتضاعف كل ربع قرن . ويعلل الأستاذ توسيج الأمريكاني ذلك بزيادة نسبة المواليد على نسبة الوفيات في كل عام ، ويقول إن النهاية العظمى لمعدل المواليد في بيئة عادية تبلغ ٤٥ في الألف ، بينما تقل النهاية الصغرى لنسبة الوفيات فيها عن ١٥ في الألف ، فتكون زيادة السكان سنوياً حوالى ٣٠ في الألف . ويفسر علماء النفس سبب ذلك بأن الانسان ما هو إلا حيوان تشتد لديه غريزة التناسل وحب الآباء للأبناء ، ولذلك فهو يحتمل الزيادة الجنسية غير المحدودة ، والتي توجد سبباً دائماً للتنازع على المسكان والغذاء .

ولقد بلغ عدد سكان العالم الآن ١٩٠٠ مليون نسمة ؛ ويقول علماء الاقتصاد إنه آخذ في الزيادة بمعدل ١١ مليون نفس سنوياً ، فإذا استمرت الزيادة بهذه النسبة فسوف يصبح عدد السكان في سنة ٢٠٢٠ نحو ٤٠٠٠ مليون نسمة ، وبعد مائتي سنة ٨٠٠٠ مليون نسمة ، وبعد ثلثمائة سنة ١٦٠٠٠ مليون نسمة ، وتكون نسبتهم إلى نسبة المواد الغذائية الممكن الحصول عليها كما يقول مالتس ، كنسبة ٤٠٩٦ إلى ١٣ ، وهذا لا يمكن أن يحصل ، خصوصاً إذا علمنا أن الأرض لا تتسع لايواء وتغذية أكثر من ٧٠٠٠ مليون نسمة ، وتكون في حالة إشباع ، ويعيش الناس على سطحها معيشة السوائم ، يتنازعون على وسائل التغذية الرديئة ، ويعودون بجنسهم إلى الحالة الفطرية الأولى ، وتتدهور مدنيتهم نحو الهمجية ، ويلقون من الرخص والهوان مبلغ الانسان في الشمال أو في مجاهل أفريقيا .

ثم إنه لا يمكن أن تستمر الزيادة بهذه النسب المتضاعفة ، لأنها لا بد أن تصطدم بالمشكلة المعقدة الناشئة من صعوبة الحصول على الغذاء اللازم لقوام حياة الناس المعيشية ، خصوصاً وأن كل مولود يأتي العالم يولد وله فم وساعدان ، إلا أن عمل فمه يبدأ قبل ذراعيه بعشرين ربيعاً ، ولذلك يسبق الاستهلاك الانتاج ويتعداه . هذا ومن جهة أخرى فإن إنتاج الأطعمة لا بد أن يخضع لقانون تناقص الغلة ، الذي يقول مادامت مساحة الأرض محدودة في الكمية فإن كمية النتيجات التي تستخرج منها تكون محدودة كذلك ، وإن الانتاج الزراعي يكون محدوداً بكمية المواد المعدنية اللازمة لحياة النبات ، لأن كل قطعة من الأرض حتى الأكثر خصوبة منها تحتوي على مقدار معين محدود من النتروجين والبوتاس والفوسفور وغيره ؛ وكل محصول يستنفد جزءاً من هذه المواد ؛ ومع نجاح فن الزراعة في رد العناصر التي استنفدت من الأرض إليها ، وزيادة خصوبتها بإضافة عناصر أخرى جديدة إليها ، إلا أن المواد التي يحصل منها الفلاح على هذه العناصر محدودة ، وبذلك أصبحت خصوبة الأرض لها حدود تؤثر في إنتاج الكمية اللازمة من المواد الغذائية ، وجعلت الانسان يكدح ويتعب في سبيل الحصول على خيرات الطبيعة ، وأدى نشاطه الصناعي والزراعي نتيجة نظام توزيع الثروة الجغرافية إلى تركيز السكان في المناطق الصناعية حول المناجم ، ومساقط الماء ، والمصانع الضخمة ، للقيام بعمليات الانتاج الكبير ، معتمدين في تغذيتهم على ما تقدمه أهل الجهات الزراعية . ويخشى أنصار مالتس أصحاب النظرية التشاؤمية ، أن يأتي

يوم يعجز فيه الزارعون عن القيام بواجب تغذية أهل البلاد ، ويظهرون خوفهم هذا بالمتوالية الحسابية التى افترض بها الأستاذ مالتس أن عدد السكان يتضاعف بإطراد هندسي مزدوج ، بينما لا تزيد إنتاج المواد الغذائية إلا بمعدل حسابى فردى ؛ فبينما يزيد عدد السكان بنسبة ١ إلى ٢ إلى ٤ إلى ٨ إلى ١٦ إلى ٣٢ إلى ٦٤ إلى ١٢٨ إلى ٢٥٦ ، يزيد إنتاج المواد الغذائية بنسبة ١ إلى ٢ إلى ٣ إلى ٤ إلى ٥ إلى ٦ إلى ٧ إلى ٨ إلى ٩ ، وهكذا يبدو لهم أن الفرق شاسع يدعو إلى الخوف على مصير البشرية ، ولذلك يرون أنه ولو أن هناك مساحات واسعة من الأرض ولم تستغل ، ويمكن زراعتها واستغلالها ، وأخرى ما زالت تحت التجارب والبحث لزيادة إنتاجها ، فانها ليست بذات قيمة كبيرة بالنسبة لعدد السكان المتزايد ، ولا تكفى لسد حاجة الأجيال المقبلة ؛ ويضربون لذلك مثلا مسألة الخبز ، فقد كان عدد سكان العالم البيض آكلى الخبز منذ قرن مائتى مليون نسمة ، زادوا اليوم على ٧٠٠ مليون نسمة ، أى أن عددهم زاد أكثر من ثلاثة أضعاف ما كان عليه ، بينما لم تبلغ زيادة إنتاج الغلال فى هذه المدة أكثر من الضعف ، مع اتساع مساحة الأراضى المزروعة قمحاً وزراعتها عدة مرات فى السنة . حقيقة أن الانسان لا يعيش على الخبز فقط ، بل إنه ليستبدله بأصناف أخرى نشوية وغيرها ، حتى قلت الكمية المستهلكة منه ، إلا أن كل أنواع الطعام المعروفة أو التى سيوجدها العلم والاختراع ، إنما تصنع وتهيأ من نفس المواد الغذائية التى توجد بكميات محدودة .

ويقولون إن عدد رؤوس الماشية آخذ فى التناقص لكثرة ما يذبح منها يومياً فى المجازر الكبرى ؛ ولا يعود ضرر ذلك فقط على الإنسان من الوجهة الغذائية ، ولكن بفقده أيضاً مساعداً له أهميته الكبرى فى شئونه الزراعية ؛ ويقولون إن مناجم الفسفور قد استغلت منها كميات هائلة وأصبح ما يستخرج منها سنوياً لا يكفى لفلاحة الأرض اللازمة لانبات المحاصيل الزراعية التى زادت حاجة الناس إليها ، حتى جعلتهم يزرعون الأرض عدة مرات فى السنة ، فبدأوا يستعيضون عنها بالنيتروجين ، يأخذونه من الهواء لعمل سماد صناعى ، وهم يرون فى هذه العملية خطراً جسيماً سوف يظهر بعد عشرات القرون ، وذلك بتغيير نسب مركبات الجو والهواء ؛ ولذلك يقول الأستاذ آرمسترنغ : « إن مسألة استعمال النيتروجين تجعلنا نقترب من النهار بدلاً من أن تنقذنا منه ، فقد كانت الكمية المستخرجة منه ٣٥٢ ألف طن مترى فى سنة ١٩٠٣ بلغت مليونى طن فى سنة ١٩٢٨ منها ١٠١٩٢٠٠ طن استخرجت من نيتروجين الهواء » .

مما تقدم يتبين لنا أهمية النتائج الاقتصادية التى تترتب على مشكلة زيادة السكان ، والتى قال أرسطو فى كتابه « السياسة » فى صددها : « يجمل ألا تترك مسألة الزواج هوية الشبان يرضون بها عواطفهم ، بل يجب وضعه تحت إشراف الدولة لكى تحدد سن الزواج لكل من الجنسين ، ولتضمن سلامة النسل من جهة ، وتضبط عدد السكان من جهة أخرى ، لأنه إذا زاد عدد السكان زيادة كبيرة فسيضطر الآباء إما إلى قتل الأبناء بعد ولادتهم ، وإما إلى إجهاض الأجنة قبل وضعها » ، والتى جعلت الأستاذ مالتس يتوجس خيفة ، وينصح باتباع الحكمة فى مسألة التناسل ، ويقول هو وشيعته بضرورة ضغط ظاهرة ميل عدد السكان إلى الزيادة ، حتى يمكن ضمان سعادة الناس ورفاهيتهم بتحسين حالتهم والمحافظة على الأجور المرتفعة وزيادة المقدرة الانتاجية للزراعة والصناعة ؛ ويكون هذا الضغط بأحد عاملى الضبط الايجابى أو السلبى ؛ ويقصدون بالضبط الايجابى إنقاص عدد الناس الموجودين فعلا فى هذا العالم ، ويكون ذلك بانتشار المجاعات والأمراض والأوبئة والحروب والفاقة ، وبالضبط السلبى منع إيجاد أناس جدد إلى تلك الحياة الدنيا ؛ ويتجلى العامل الأول فى ارتفاع نسبة الوفيات ، والآخر فى هبوط معدل المواليد ، أو بعبارة أخرى الأول فى زيادة عدد الموتى ، والثانى فى تحديد النسل وانتشار العقم .

ويمكن ملاحظة العامل الأول بوضوح فى البلاد التى يرتفع فيها معدل المواليد كرومانيا وهنغاريا وبلغاريا ، إذ يصحب ذلك ارتفاع نسبة الوفيات نتيجة ما يعانيه السكان من سوء التغذية ورداءة المأوى وقلة الدفء وعدم توفر العناية التامة بالمرضى والأطفال . ويقول الأستاذ توسيج فى ذلك : « إن ارتفاع نسبة المواليد والفقر فى مثل تلك الجهات وغيرها من البيئات الصناعية ظاهرتان متلازمتان مسببتان إحداهما عن الأخرى ، فزيادة نسبة المواليد يعنى الفقر ، والفقر بدوره يزيد نسبة المواليد ، لأنه عندما يكون الانسان فقيراً ويفقد كل أمل فى التخلص من فقره ، يتناسل بدون تفكير فى المستقبل ما دام المستقبل يبدو أمامه بلا أمل ، وهذه الخصوبة التناسلية نفسهـا تقف عثرة فى سبيل المستقبل . هذا وتستخدم النساء والأطفال بكثرة فى المصانع والمعامل فى تلك الجهات ، لأن الناس كثيرون والأجور منخفضة ، وهذا ما يدعو إلى زيادة التناسل حتى تضمن الأسرة دخلا يكفى حاجتها ، يتكون من ربح وأجرة الأم وأبنائها ، وبذلك تتهيأ أسباب الفاقة والفساد الخلقى مع الضعف الجسمانى وقصر الأعمار » .

ويلاحظ العامل الثانى فى البيئات المتعلمة المتمدنة ، وخصوصاً بين الأغنياء ، حيث ارتفع مستوى المعيشة بين الأفراد ، وأصبح كل واحد منهم يعمل فى حدود مصلحته الذاتية ، متخذاً كل وسيلة لتأخير سن الزواج أو منع الحمل محافظة على مستواه الراقى أو لرفعه إلى مستوى عال ، وذلك كما قال الأستاذ مالتس : « لو تغلبت الحكمة على الناس لما أقدموا على الزواج ، حتى يتأكدوا من أنهم صاروا فى مركز يقدرهم على العناية بتربية أطفالهم وإسعادهم » .

وقد يجد أنصار مالتس فى الحروب وانتشار الأوبئة عاملاً فعالاً يدعو إلى سرعة انكماش عدد السكان ونقصه ، ولكن ذلك بسبب تعطيل وسائل الانتاج وتخريب موارد الثروة ، وإبادة محاصيل ومزروعات وحيوانات جمة ، وإنفاق ملايين الأموال فى تحويل المادة الخام إلى أدوات للقتال والتدمير ، لو أنها أنفقت فى وسائل الانتاج لعادت بالخير على الجميع ؛ وفى بعض جهات أوربا حيث المدنية وارتفاع مستوى المعيشة ، يشكون من العقم وهبوط نسبة المواليد ، كما هو الحال فى فرنسا وإيطاليا ، إذ الأولى فى حاجة إلى فلاحين وعمال وجند لزيادة الثروة الأهلية وحماية حدودها ، والثانية تعمل لاعادة مجد القياصرة .

لذلك وعلى عكس نظرية مالتس ومبادئ المتشائمين قام دعاة القومية وأصحاب النظريات الاستعمارية ، يحضون على كثرة التناسل وزيادة الذرية ؛ وحجتهم فى ذلك أنه بالرغم من تزايد عدد السكان المستمر السريع ، فان الأسواق الدولية والمتاجر العمومية تزدحم بالبضائع والمنتجات الزراعية والصناعية ، مع أن المنتجين وأصحاب رؤوس الأموال دائماً يحددون كمية الانتاج الزراعى والصناعى ، والتجار والمصدرين يحجزون المنتجات والمحاصيل فى مخازنهم ؛ وإنك لتلمح ذلك فى تجارة القطن مثلا ، إذ بلغ مقدار الصادر منه حتى أول سبتمبر هذا العام ١٠٤٥٧٣٥ قنطاراً بينما المخزون منه فى ذلك التاريخ فى الاسكندرية ١٢٩٥٠٥٩ قنطاراً . وقد يتلف المنتجون بعض المحاصيل أو المنتجات ومن ورائهم الحكومات تفرض رسوماً جمركية وتمنع دخول المنتجات الأجنبية ، محافظة على مستوى الأسعار وحماية الصناعة المحلية ، دون أن يراعوا حاجة البشر من هذه السلع والمنتجات التى هم محرومون منها ، تمنعهم النظم الاقتصادية من الحصول عليها وإشباع رغباتهم منها ؛ وفى ذلك يقول الأستاذ ريموندب فوسديك : « لقد زاد البشر إلى مشاكلهم تلك الحروب الجمركية والرقابة الشديدة والمنافسة الحادة ومئات أخرى من التحاريم الدولية الخارقة التى تركت نصف العالم فى مجاعة ، بينما ينعم الباقون بوفرة الغذاء ؛ فبينما يجوع شرقى أوربا يستعمل الفلاحون فى الغرب الأوسط منها القمح كوقود ، وبينما آسيا لا تجد الغذاء الكافى يلتمس الأمريكان الأسواق لتصريف منتجاتهم » .

وهؤلاء هم أنصار حرية التجارة وتسهيل المعاملات

الاقتصادية وإباحة الواردات وتشجيع الصادرات ، ويقولون إن بالأرض معيناً من الثروة لا ينضب ، فإذا كانت مناجم غربيّ أوربا وشرقيّ أمريكا قد استغلت منها كميات كبيرة تؤثر في المحصول المالي ، فإن في الصين مناجم كثيرة مازالت بكراً ، وفي مناطق كثيرة في شماليّ أفريقيا وغربيّ آسيا فوسفور وحديد بكميات وفيرة لم تستخرج بعد ، ومساقط الماء تغني عن القوى المستمدة من الفحم الأسود ؛ وما زالت بأفريقيا واستراليا مساحات واسعة وقطع كبيرة من الأرض يمكن إصلاحها وزراعتها أو تهيئتها لرعي المواشي ؛ وهنالك مشروعات ضخمة للاستفادة من حرارة الشمس في رمال الصحارى لادارة الآلات في مصانع تنشأ في تلك القيافي ؛ وبذلك يمتد العمران وتتسع مساحة الأرض الصالحة للسكنى ، ويمكن عندئذ أن تؤوي الأرض وتغذي أكثر من ٧٠٠٠ مليون نسمة .

والباحث المتفائل لا يجد مبرراً لخوف مالتس وذعر شيعته ، فإن المواد الغذائية متوفرة ، بل إن تقدم العلوم والاختراعات وفن الطهي وتقدم وسائل النقل والمواصلات ورخصها وقضاءها بذلك على المسافات ، وجعلها العالم كله سوقاً واحدة تتبادل فيها حاصلات ومنتجات المراكز الزراعية والصناعية بسرعة وسهولة ، أدى إلى إيجاد أنواع كثيرة وجديدة من الطعام لم تكن معروفة لمالتس من قبلُ . بل إن الناس لا يشكون من قلة المواد الغذائية شكايتهم من النظم الاقتصادية الحالية التي حرمتهم من الحصول على تلك المواد الغذائية ، والتي كما يقول الأستاذ فوسديك تركت نصف العالم في مجاعة ، بينما يتلف الباقون ما زاد لديهم من المواد الغذائية . وقد انقضى أكثر من قرن منذ عهد مالتس زاد فيه عدد السكان زيادة كبيرة ، ولكن لم ينقصهم الطعام ، وإنما انتشر الفقر بين طبقات العمال في المراكز الصناعية لجشع أصحاب رؤوس الأموال وأرباب العمل الذين يستأثرون بكل الربح ويجمعون المال من السوق في شكل فائدة وربا وإيجار ، ويعطلون جانباً كبيراً منه في البنوك والخزائن ، ويمنعون واردات البلاد الأخرى بما تفرضه الحكومة من الرسوم والقيود الجمركية لتوزيع منتجات مصانعهم وضمان تحكمهم في الأسواق ، حتى ضعفت القوة الشرائية لدى غالبية طبقات الأمة ، وأصبحت الأزمات أكثر حدوثاً وأحد خطورة ، لأن الثروة قد تجمعت في أيدي نفر قليل وشحّت عند الأكثرية ؛ وما كان سبب الحرب التي نشبت أخيراً في أوربا زيادة عدد السكان وقلة الطعام ، وإنما سببها القيود الاقتصادية والرغبة في السيادة والسيطرة والاستعمار .

ولو أن الناس اتبعوا نظماً أخرى تقوم على السلام والجد والمبادلة الحرة والتخلص من القيود وصاروا دعائم قوية في هيكل البشرية يعملون للإبداع والتعمير ، لما ظهرت بينهم حاجة للغذاء ولا قام لديهم سبب المشاحنة وامتشاق الحسام ، بل إن حالة الحرب الطارئة التي تنذر بفناء عدد كبير من الناس قد أظهرت حاجة الشعوب للسكان لامدادها بالجيوش والجنود اللازمين للذود عن حياضها ؛ ولذلك قامت وزارة الشئون الاجتماعية في مصر بدعاية واسعة النطاق للترغيب في الزواج بشتى الوسائل كمنع المغالاة في المهور وتخفيض الحد الأدنى لسن الزواج وتخفيف نسبة الضرائب العامة للمتزوجين وخاصة من كان منهم له أولاد كثيرون ، وتفضيل المتزوجين عند التعيين في الوظائف ، ولقد أصابت .

وهذا هو نفس ما سبق أن دعا إليه الاسلام فقد أباح للمسلم أن يتزوج أربعاً من النساء إذا أمكنه أن يراعي تمام العدل بينهن غير ما يحظى به من السبي ، وذلك لغرس بذور الاسلام في منابت متفرقة ، حتى ينمو وينتشر بسرعة في الآفاق وليعتز بكثرة أبنائه وجنوده ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني مُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة » .

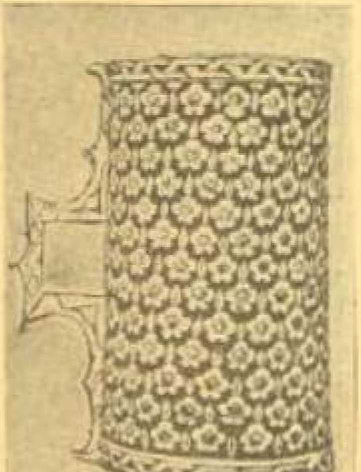
ابراهيم زكي
بكالوريوس تجارة

٤ – بدائع الفنون الاسلامية
بمتحف بناكى فى اثينا
لمحرر «الثقافة» الفنى

نختم اليوم حديثنا عن المتحف الذى أنشأه فى عاصمة اليونان المسيو أنطوان بناكى، بعد أن عاش فى مصر مدة طويلة، أتيح له فيها أن يجمع جزءاً كبيراً من المجموعة الأثرية الاسلامية المعروضة فى هذا المتحف. ويأتى ببعض صور من التحف النفيسة فى هذه المجموعة، بينها علبة نحاسية جميلة مطعمة بالفضة، وعليها نقوش نباتية جميلة، وعبارات بالخط النسخى، منها «المجد الصاعد»، و«العز الدائم»، وما إلى ذلك من العبارات الدعائية التى ألفناها فى الفنون الاسلامية. وقد كانت مدينة الموصل فى بلاد الجزيرة أعظم المراكز الفنية لصناعة التحف المعدنية فى العالم الاسلامى فى القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (١٢ — ١٣ م) ونبغ صناعها فى تطعيم البرونز والنحاس (أى تكفيتها) بالفضة والذهب. وانتقل هذا الأسلوب فى الزخرفة إلى سائر أنحاء العالم الاسلامى. وكانت الرسوم فى التحف المعدنية النفيسة تتكون من أشرطة أفقية فيها مناظر موسيقى ورقص وطرب وشراب وصيد، وبينها كتابات عربية، كوفية ونسخية، وقد تنتهى بعض قوائم الحروف فيها برسوم آدمية وحيوانية. والمعروف أن معظم أولئك الصناع فروا من بلاد الجزيرة حين دهمها المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى (١٣ م)، فنزحوا إلى مصر وسورية، حيث ازدهرت صناعة التحف المعدنية فى عصر المماليك.

***

وصفوة القول أن متحف بناكى مثال طيب للمجموعات الفنيّة الجميلة، التى يجود بها أصحابها على حكوماتهم، فيكون لها شأن عظيم فى تثقيف الشعب وتربية ذوقه، ونشر الفن بين طبقاته التى لا يتاح لها الدراسة فى الجامعات أو مدارس الفنون. والحق أن معظم المتاحف الأوربية قامت على مجموعات خاصة أهداها الأفراد إلى شعوبهم، ثم كوّنوا لها الجماعات ترعاها، وتجمع لها الأموال والتحف لتستطيع النمو والتطور فى سبيل الكمال الذى ينشده الجميع. أما فى مصر فلا تزال المتاحف عالة على الحكومة التى ينوء كاهلها بسائر المشروعات العمرانية والاجتماعية!! فلا عجب إذا رأيناها بعد ذلك ضيقة، لا تستطيع أن تؤدى مهمتها فى تثقيف الشعب، ولا تملك أن يكون لها من وسائل العرض والاضاءة وحفظ التحف وعلاجها والكتابة عنها ما نراه لمتاحف الغرب ومجموعاته الأثرية. فهل آن لمصر أن يكون لمتاحفها المختلفة جماعات تعنى بها وتعمل على نموّها بشراء التحف اللازمة لها وزيادة النشاط العلمى فيها!!



« شوب » أو كأس من الخزف المصنوع بآسيا الصغرى فى القرن ١٠ هـ ١٦ م



إناء من الخزف المصنوع بآسيا الصغرى
في القرن ١١ هـ — ١٧ م



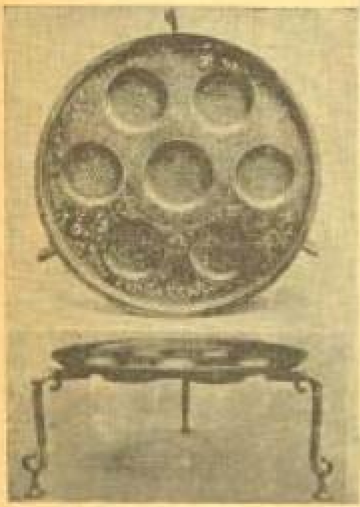
سلطانية للفاكهة من الخزف المصنوع بآسيا
الصغرى في القرن ١١ هـ — ١٧ م



اسطرلاب من النحاس
صنع بمصر أو سورية في القرن ٧ هـ — ١٣ م



علبة من النحاس المطعم بالفضة
من صناعة الموصل في القرن ٧ هـ — ١٣ م



صينية « قلل » من النحاس المصنوع بمصر
في القرن ٨ هـ — ١٤ م

ريح الصَّـــــبا

للدكتور محمد عوض محمد

سيدى الفاضل رئيس تحرير الثقافة :

سألك أحد فضلاء الكتاب منذ بضعة أسابيع عن « نسيم الصبا » ما هو ، وأية ميزة جعلت شعراء العرب منذ العهد الجاهلى إلى يومنا هذا تفضله على سواه . . .

سألك الأديب الفاضل هذا السؤال ، فرأيتَ أن يتقدم القراء بالاجابة عليه ، فلم يفعل أحد إلى الآن .

وسألك أديب آخر عن الكبد وأثرها فى العشق ، وأثر العشق فيها . . وهل حقيقة تحترق حزناً ولوعة ، وتذوب أسى ووجداً ؟

فأما السؤال الثانى ، فلا أجد من نفسى قدرة على الاجابة عليه ، وكل ما أعرفه عن الكبد وتأثرها باللوعة والحب تلك التجارب التى اكتسبناها جميعاً من التردد على « الحاتى » ، ودكاكين الكباب والشواء .

أما « نسيم الصبا » فأمر آخر ، ولا أستطيع أن أرد نفسى عن رغبتها فى الاجابة على سؤال الأديب الفاضل ، وستكون هذه الاجابة مزيجاً من الجغرافيا والأدب ، كما هو المنتظر من شخص يمشى واحدى رجليه فى بر العلم ، والأخرى تغوص فى بحر الأدب ، شأنه فى هذا كشأن الضفدع ، تراها آونة فى البر وآونة فى الماء .

الأفضل أن يكون الكلام عن ريح الصبا لا « نسيم » الصبا ، لأن النسيم هو الريح الضعيفة الهبوب ، التى لا ينبغى أن تزيد سرعتها عن ثلاثة أميال فى الساعة ؛ ومع أن الصَّبا كثيراً ما تهب فى صورة نسيم فان من الجائز أن يكون لها بعض القوة أحياناً .

والأصل فى الصَّبا أنها ريح تهب على الحجاز عامة ، وعلى مكة خاصة من جهة الشرق ، وتكون الكعبة قبالتها ، ولذلك سميت القبول ، وليست كل ريح شرقية صبا إلا على سبيل التجاوز ، ونقل الشىء إلى غير موضعه . فالصَّبا هى الريح التى تهب من نجد إلى الحجاز .

وكانت الرياح الرئيسية لاقليم الحجاز أربعاً : وهى الصبا ، والدَّبور ، والشمال ، والجنوب ، وتسمى الصبا أحياناً القَبول لأنها تستقبل الحرم ، كما سميت الدَّبور بهذا الاسم لأنها تأتى من خلف الحرم ، وبهذا تكون أسماء الرياح مشتقة من جهة هبوبها ، وهـذه العادة فى تسمية الرياح شائعة فى جميع الأقطار والأمصار .

ولكن لبعض الرياح أسماء خاصة بها كما يسمى الأشخاص بأسماء ؛ ومن هـذه الرياح الصبا ، كما أن منها ريح المسترال فى جنوب فرنسا ، والبورا فى البحر الأدرياتى الشرقى ، والشنوك فى الولايات المتحدة الغربية والفوهن فى جبال الألب .

إن إطلاق اسم خاص على ريح يكسبها ميزة ، وليسامحنى أساتذة الفلسفة إذا قلت إنه يكسبها شخصية ، فيصبح التحدث عنها مشعراً بأنه حديث عن كائن حى يتحرك ، لا مجرد هواء ينتقل من جهة إلى جهة أخرى .

وقد أكثر الشعراء من ذكر الصبا لأسباب عديدة ، لا أستطيع أن أزعم أنى أعرفها جميعاً ، ولكنى سأدلى هنا بما يبدو لى منها :

أولا : كانت الصَّبا ريحاً عليلة دافئة تهب عادة فى أوائل الربيع حين يستوى الليل والنهار ، جالبة معها مقداراً من الغيث لا يستهان به ؛ فهى تؤذن بانقضاء الشتاء ببرده

وزمهريره ، وابتداء الربيع بغيثه ونباته ، وهذا بلا شك يجعلها مُحبّبة إلى النفوس .

ثانياً : أن الصَّبا لفظ رقيق عذب ، حسن الوقع في الأذن ، يلائم من غير شك لغة الشعر عامة ، وشعر النسيب خاصة .

ثالثاً : تهب الصَّبا من جهة نجد نحو الحجاز .

وكانت جموع من الناس تقصد حواضر الحجاز للبيع والشراء ، أو للحج ، وكثير منهم من نجد أو من الأقطار الشرقية المجاورة ، فكان من المعقول أن يحنّوا إلى نجد وسكانها ، وأن يستفزهم هبوب الصبا إلى نظم القريض .

وشعر ابن الدمينة مثال جيل لهذا حين يقول :

ألا يا صَبا نجد متى هِجْتِ من نجد

لقد زادني مسراكِ وجداً على وجدي

هـذا هو الأصل في التحدث عن الصبا ، في البيئة العربية الخالصة . أما الشعراء الذين سكنوا العراق وإيران والشام ومصر ، فإن تحدثهم عن الصَّبا كتحدثهم عن الأماكن العربية التي لم يروها ، أو عن الأشجار والنباتات العربية التي لا تنبت في أرضهم . وأشعار مهيار الديلمي خير مثال لهذا ، كقوله من قصيدة مشهورة :

سل طريق العيس من « وادي الغضا »

كيف أغسقتِ لنا رأد الضحى

ألشيءٍ غير ما جيراننا

تقضوا « نجداً » وحلّوا الأبطحا ؟

يا نسيم الصبح من « كاظمةٍ » !

شد ما هجتَ الجوى والبُرحا !

الصبا — إن كان لا بد — الصبا

إنهـا كانت لقلبي أروحا

يا نداماي « بسلع » هل أرى ذلك المَغْبَقَ والمُصطَبَحا

فأنت ترى يا سيدي الرئيس كيف تحدث مهيار الديلمي الإيراني عن نبات لم يألفه ، وأمكنة لم يقم بها إلا لماماً ، ورياح ليس له بها عهد . لأن هذا كله مما ألف القدماء أن يتحدثوا عنه ، ثم جاء المتأخرون فاقتدوا بهم .

على أن الشعراء الأول لم يخصوا الصبا بالذكر ، ولم يفضلوها دائماً على سائر الرياح . وهذا بشار بن برد يقول :

هوى صاحبي ريحُ الشمال إذا جرت

وأهوى لِقلبي أن تَهبَّ جَنوبُ

وما ذاك إلا أنها حين تنتهي

تَناهَى وفيها من عُبيدةَ طِيبُ

ولا شك في أن حاسة الشم عند بشار قوية جداً .

ومن أحسن ما جاء في الحديث عن الرياح ، ما ورد في قصيدة لطرفة بن العبد في تأنيب رجل . يقول له :

وأنت عَلَى الأَدْنَى شمالٌ عَرِيَّةٌ

شآميـــةٌ تَزْوِي الوُجوهَ بَليلُ

وأنت على الأقصى صَبًا غيرُ قرةٍ

تَذاءبُ مِنْها مُرْزِغٌ ومُسِيلُ

يؤنب الشاعر هذا الشخص لأنه يسيء إلى أقاربه ، ويحسن إلى الأباعد . فهو مع الأدنى (أي القريب) كريح الشمال الباردة الجافة ، التي تجيء من جهة الشآم ، فتقبض الوجوه بقرّها وزمهريرها . وهو مع الأقصى (أي البعداء الأجانب) كالصَّبا الدافئة التي تحمل الغيث مبهلاً وهطالاً .

وأنت يا سيدي الرئيس أدرى مني بهذا الطراز من أبناء آدم ، الذين تراهم حرباً على أوطانهم ، ووداً وسلاماً على غير أمتهم من الأمم ، كفانا الله شرهم ، وزادهم الشعراء من أمثال طرفة تأنيباً وتمديداً . . .

هذا يا سيدي ما عنّ لي أن أجيب به على سؤال السائل الفاضل ، وما أشك في أن إجابتي قاصرة كل القصور ، فلعل من القراء الكرام من يزيدنا فائدة في هذا الباب ، أو يصحح ما قد يكون القلم قد سبق به من الخطأ .

المخلص

محمد عوض محمد

الســـــفاح

للأستاذ أحمد أمين

إلى أخي الأستاذ العبادي :

قرأتُ مقالكَ الثاني ، بعد أن قرأتُ مقالك الأول ، وقد راعني في مقالك الأخير أن تطلب إليّ ، وأنا مؤرخ زمناً ما ، وقاض زمناً ما ، أن أحكم في القضية ؛ ورأيتك بذلك قد كلّفتني شططاً أي شطط ، فكيف يجرؤ — أولا — مؤرخ زمناً ما أن ينقد مؤرخاً دائماً قضى طول حياته باحثاً منقباً مؤرخاً ؟ إن ذلك — يا أخي — مطلب — بلا شك — عسير ؛ وكيف أحتمل — ثانياً — أن أكون حَكَماً ، وقد كنتُ قبلُ خصماً ، وأنت تعلم استهجان الناس قديماً وحديثاً لمن كان خصماً وحَكَماً معاً ، فالخصم محام يؤيد وجهة نظر خاصة ، ويهمه أن يجليها ، وقد يبالغ فيها ، والقاضي وازن للآراء المختلفة ، مجرد من العاطفة ، والتحيز لرأي خاص ، فكيف تطلب مني أن أجمع بين المحاماة والقضاء ، وأن أعطف على وجهة نظر ، وأتجرد منها في وقت واحد ؟ وهل هـذا جائز في الطبيعـة البشرية ؟ وإذا كنتَ قد أنكرتَ أن تجمع الطبيعة بين كريم جميل وسفاك ، فكيف تجيز أن تجمع الطبيعة بين الشيء وضده ، والأمر ونقيضه ؟ . ألا ترى بعدُ — يا أخي — أنك طلبت فأعسرت ، وكلفت فشققت ؟ ومع هذا لا يسعني إلا أن أنزل على حكمك ، وأن أحاول التجرد من تحزبي ما استطعت ، ولأمر في مسألتك سيرى قبلُ في قضائي .

تتلخص « عريضة » الدعوى المقدمة منك في أمور :

(الأول) أنك تنكر أو تستبعد أن يكون شاب جميل عفيف وفيّ كريم طروب كأبي العباس سفاكاً للدماء .

واسمح لي أن أقول إن هـذا الجزء من الدعوى غير صحيح ، فالطبيعة البشرية سمحت به وتسمح به كل يوم ، والتاريخ مملوء بالشواهد الكثيرة على ظهور رجال جمعوا بين اللطف والكرم ، والعفة والشباب ، والجمال والطرب ، وبين سفك دماء البشر ؛ بل إن هذا هو المثل الأعلى للعربي الجاهلي ، كرم إلى أقصى حد حتى لا يبقى شيئاً ، وشجاعة إلى أقصى حد حتى ليفني الأعداء إفناءً . ولا أحيلك على معلقة طرفة ، « فإن تبغني في حلقة القوم تلقني » ، و « متى تأته يصبحك كأساً روية » ، « وهو في ذروة البيت الرفيع المصمد ، نداماه بيض كالنجوم » . وهو طروب : « إذا قال أسمعينا ، انبرت له مطروقة » ؛ فيسمع ويطرب ويشرب ، ومع كل ذلك إذا قال القوم من فتى ، فإياه يعنون ، يجيب ويصول ويطول : « ويسقيهم بكأس حياض الموت قبل التهدد » .

فهل ترى أن طرفة في هذا خالف الطبيعة البشرية ، أو هو مثل واضح من الطبيعة البشرية ؟

ولا أذكرك بعنترة وهو القائل : « سهل مخالقتي إذا لم أظلم » . والقائل :

فإذا شربت فإنني مستهلك
مالي وعرضي وافر لم يكلم

وهو أيضاً القائل :

جادت يداي له بعاجل طعنة
بمثقف صدق الكعوب مقوم

ولست أحدثك عن عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وأمثالهما ، وما روى التاريخ لهم من أعمال تقرأ بعضها فتراها تسيل رقة ولطفاً ووداعة وكرماً وعفة ، وتقرأ بعضها لهم أنفسهم فتراها ترعبك قسوة وغلظة وسفكاً ؛

وترى الرجل الواحد أحياناً يحن حنين حمامة ، وأحياناً يلبس جلد نمر ؛ والطبيعة البشرية تفسح صدرها لكل هذه المتناقضات ، أو على الأقل التي نسميها أنت متناقضات .

ولعلنا نقرأ من حين إلى حين من تعدّ ملكة الجمال لطفاً ورقة وعذوبة ، ثم هي تستفزّ لسبب من الأسباب فتسفك الدم ، وتقتل أشنع قتل وأجرأه وأقساه ، ولا يمنعها جمالها ورقتها من وحشيتها .

وأنت أعلم مني بهذا الباب من التاريخ .

إذاً فهذا الجزء من الدعوى مرفوض شكلا وموضوعاً ، وأن السفاح يجوز أن يكون شاباً ظريفاً عفيفاً كريماً ، وسفاكاً للدماء ، بحكم الطبيعة البشرية .

* * *

والجزء الثاني من الدعوى ، أن السفاح الذي وصف به أبو العباس مؤسس الدولة العباسية ، والذي وصف هو به نفسه في خطبته ليس معناه السفاك للدماء ، بل معناه الكريم السخي ، وذلك من معانيه اللغوية .

والمحكمة ترى أن هذا الجزء من الدعوى قد عدل عنه المدعي في مقاله الثاني فقال : « إني أعلن اليوم أني لا أتمسك بهذا التفسير للفظ السفاح ، لأسباب سأذكرها » فالمحكمة تهمله لأنه لم يعد مطلباً للمدعي . ولكن لا يفوتها أن تلاحظ أن لفظ السفاح لما كان في الدعوى الأولى يوصف به أبو العباس مؤسس الدولة ، اجتهد المدعي أن يفسره بالكريم ، فلما تبين له أنه وصف لعمه أقر بأن معناه السفاك للدماء ، وعلى قول إخواننا الأزهريين « في هذا ما فيه » .

* * *

الدعوى الثالثة أن السفاح بمعنى السفاك : « إنما أطلق أصلا على عبد الله بن علي الوالي على الشام لعمه أبي العباس ؛ وقد استحق هذا اللقب بإسرافه في قتل الأحياء من بني أمية » ، « وأن لفظ السفاح نقل خطأ من حامله الأصلي عبد الله بن علي إلى أمير المؤمنين أبي العباس » ، « ومع هؤلاء المؤرخون الجدد الرواة يذكرون عبد الله السفاح ، فخيل إليهم أن المراد عبد الله بن محمد بن علي أبي العباس الخليفة ، لا عمه عبد الله بن علي واليه على الشام ، فتشابه الاسمين كان علة اللبس » .

والمحكمة ترى أن هذه الدعوى ذات شطرين : الشطر الأول أن السفاح لقبٌ لقب به عبد الله بن علي عم الخليفة وواليه على الشام . وهذا الشطر صحيح بالأدلة التي ذكرها وإن كان لا يمنع أن يكون لقب السفاح أطلق على أكثر من واحد .

وشطر آخر هو أن الخليفة لم يلقب بالسفاح أيضاً ، وإنما هو خطأ المؤرخين الجدد . وهذا الشطر الأخير غير صحيح لما سيظهر في مناقشة الجزء الآتي من الدعوى .

* * *

والجزء الأخير من الدعوى ، وهو أهم الأجزاء ، وهو أساس القالين ، أن « السفاح » لم يكن لقباً للخليفة الأول ، ولم يعرفه المؤرخون الأولون إلى عهد الطبري ، وأن القرن الثاني والثالث مرّا من غير أن يلقب هذا الخليفة بالسفاح ، وإنما جاء هذا اللقب للخليفة من طبقة من المؤرخين جعلت قصدها إمتاع القارئ وتفكهته كأبي الفرج الأصفهاني وأمثاله .

هذه هي النقطة الجوهرية في الموضوع ، والمحكمة تخالفه في هذا الرأي كل المخالفة ، وتبني حكمها على « مستندات » تدل على نسبة هذا اللقب للخليفة في القرن الثاني والثالث الهجريين .

وتقدم لذلك مقدمة منطقية بديهية ، وهي أن المدعي إذا قال إن ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري لم يلقبوه بالسفاح فليس معنى ذلك أنه لم يلقب بالسفاح ولم يكن عدم ذكرهم حجة على الدعوى ، وأن الخصم إذا أثبت أن شخصاً واحداً موثوقاً به كان في القرن الثاني أو الثالث لقب أول خليفة بالسفاح كان ذلك حجة لقول الخصم ؛ فكيف إذا أثبت ببراهين متعددة استفاضة هذا اللقب للخليفة ؟

إذا كان هذا مسلّماً فلنسق الأدلة .

ثبت لدينا أن جملة من مشهوري المؤرخين والأدباء لقبوا الخليفة الأول بالسفاح ، وهم المدائني شيخ ابن جرير الطبري والناقل عنه والمتوفى نحو سنة ٢٢٤ هـ عن ثلاث وتسعين سنة ، والجاحظ إمام الأدباء والمتوفى قبل ابن جرير الطبري بنحو خمس وخمسين سنة ، وابن قتيبة الدينوري إمام عصره في اللغة والأدب والحديث والمتوفى سنة ٢٧١ .

فهؤلاء ، وهم أعلام القرن الثالث إذا لقبوا أبا العباس أول الخلفاء العباسيين بالسفاح كان ذلك دليلا على اشتهار هذا اللقب قبل الطبري ، وأنه كان معروفاً منذ أوائل القرن الثالث على الأقل .

أما النصوص فهي :

(١) روى ابن النديم في الفهرست — وهو أيضاً حجة — عند كلامه على المدائني أنه ألف كتباً في أخبار الخلفاء ، منها كتاب أخبار الخلفاء الكبير «ويحتوي على أخبار أبي بكر وعمر ، إلى أن يقول : والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، ومروان ، والسفاح ، والمنصور » الخ ص ١٠٣ .

فابن النديم يعدد عناوين الكتاب ، ومنها عنوان السفاح ، ولا يمكن أن يكون السفاح عم أبي العباس لأنه يعدد الخلفاء .

(٢) أما الجاحظ فقد روى في البيان والتبيين ما يأتي قال :

« أخبرني ابن السندي قال دخل العماني الراجز على الرشيد لينشده وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال الرشيد : إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان . قال : يا أمير المؤمنين ، قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ... وأنشدت السفاح ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته وأنشدت المنصور » الخ . جزء ١/٩٣ .

فالعماني — أولاً — في عهد الرشيد يسمي الخليفة الأول « السفاح » كما ترى ، والجاحظ — ثانياً — يروي هذا اللقب .

(٣) وأما ابن قتيبة فيقول في كتابه « الشعر والشعراء » ما يأتي :

ا — روى قصة العماني كما رواها الجاحظ وسماه السفاح ص ٤٧٥ طبع أوربا .

ب — وقال في ترجمة أبي دُلامة ، وكان منقطعاً إلى أبي العباس السفاح ، فقال له يوماً : سل حاجتك ، قال يا أمير المؤمنين الخ ص ٤٨٧ .

حـ — وقال في ترجمة حماد عجرد : وهو القائل في محمد بن أبي العباس السفاح كذا ص ٤٩١ .

وأعيذك — يا أخي — أن تستشهد بابن قتيبة في كتاب «الإمامة والسياسة» وهو الذي يشك المؤرخون في نسبته إليه ، وتنكر ما قاله في الشعر والشعراء ، وهو ما أجمع الناس على نسبته إليه .

بل أريد أن أقول إنه لا يصح إنكار هذه المستندات إلا إذا أنكرنا نسبة هذه الكتب إلى أصحابها ؛ وفي هذا جرأة لا أتوقعها منك ؛ فإذا صح نسبتها إليهم ، فليست المسألة مسألة رواية يمكن مناقشتها وادعاء صحتها وبطلانها ؛ بل هي ، ولو كانت روايات باطلة ، يكفي أن ينطق فيها باسم السفاح المدائني والجاحظ وابن قتيبة لنتأكد من أن هذا الاسم معروف من أول القرن الثالث .

* * *

هذا — يا أخي — رأي المحكمة التي حكمتها ، حاولت بقدر ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تتجرد من التحزب والعصبية ؛ فإن أرضاك الحكم فيها ونعمت ، وإلا فلا كلام للقاضي في القضية بعد أن ينطق بالحكم ، وإنما لك الحق كل الحق في الاستئناف عند هيئة أخرى .

والسلام عليك من أخ يحبك ويجلك ؟

أحمد أمين

الأدب عسر لا يسر

منذ عودتى من أوربا بعد السنين الطويلة التى قضيتها بها وأنا أرسل للثقافة المقال تلو المقال فتنشر القليل وتمسك الكثير بحجة أن فيها أكثر غموضاً وكثرة استطراد وإشارات إلى بعض الآداب الأجنبية ، لا يستطيع القارىء المصرى فهم مداها ، وقد خلا ذهنه مما نفترضه معلوماً لديه من أسس الثروة العقلية التى يملكها مثقفو القوم فى أوربا . والرأى عندها أنه من واجبنا أن نلحظ القارىء ونقدم إليه ما يتناسب وثقافته فى وضوح وجلاء ، وفى هذا إهدار لكل القيم ، فالماء الوشل لا يعرف إلا لوناً واحداً تتفق عليه كل الأبصار ، ونحن نحرص على أن نترك له عمقه حتى نهيأ له من تكاثف طبقاته تلك الألوان المتباينة وتباين ما يلقى عليه من ضوء أو تنعكس فيه من ألوان السماء ؛ وفى نفسى — إذ أقول ذلك — صور حسية لبحيرة (Bourget) فى جبال السفوا بفرنسا ، فهنالك تتغير ألوان مياهها بتغير حالات الجو وساعات النهار ؛ فطوراً تنحدر الأضواء عما يحيطها من جبال شامخة لتنتهى إلى صفحة الماء وكأنها مأخذ آلة مصورة تجتمع إليها الأشعة ، فإذا بشدة البريق تلهينا عن لون مياهها ، فكأن البريق لون ؛ وطوراً يخف الضوء بما انتشر فوقه من ظلال ، وإذا بالماء فى زرقة قاتمة أو خفيفة كالعين المبصرة ؛ وكثيراً ما تعبس السماء فلا ترى إلا ما يشبه النحاس علاه الصدأ ، وفى ذلك من الجلال مثل ما تحسه كل نفس صادقة الحس إذا وقفت على أثر قديم قد كساه الزمن بذلك الطلاء القاتم الذى يخلع على كل ما يرتديه من نبل القدم ما يأخذ بكل نفس عريقة ؛ وعلى شاكلة تلك البحيرة أود أن لو كان كل مقال — أود أن نترك له عمقه حتى لا يجد فيه كل قارىء ما يجد الآخر ، والنفوس متباينة وبحكم هذا التباين نفسه لن نستطيع أن نقدم لكل منها ما تبغى ؛ فسبيل التوفيق إلى ما نطمح إليه من تغذية النفوس بالحق والجمال لا يمكن أن يكون بغير ترك احتمالات لا حد لها ترقد تحت ألفاظنا تلتقط منها كل نفس ما تريد ، وحسبما كان لونها الدائم أو الموقوت ؛ ونحن بعد ذلك لا نكتب لنسكب ما فى نفوسنا فى أنفس الغير وإنما لنعين كل نفس على الوعى بمكنونها ، إذ النفوس حبلى بكل حق وجمال ؛ والمقال الجيد هو ما يأخذ بتلك النفوس إلى حيث يستقر منها ذلك الحق وذلك الجمال .

أقول ذلك وأنا أبعد ما أكون عن كل تفكير مجرد ، فليس لنا أن نزج بسقراط أو غير سقراط إلى ميادين الحواس التى لا يجوز للأدب أن يعدوها ؛ والواقع أن فى نفسى الآن صورة حسية أخرى واضحة حتى لأكاد أراها — صورة الرخام . إذ يخيل إلىّ أن الطبيعة البشرية كقطعة من الرخام حلتها الطبيعة بأجمل « التجازيع » ، ولكنها مختفية كما هو الأمر فى الرخام . ولكى تظهر تلك التجازيع لا بد لها من محك يذهب بالطبقة السطحية التى تخفيها ، وهذا المحك فى الطبيعة البشرية هو الحياة . فنحن إذ نكتب لا نفعل ذلك إلا لأن الحياة قد كشفت لنا بجسيم أحداثها عما فى طبيعتنا من « تجازيع » نطلع الغير عليها ، لا لأننا نرمى بها عليهم ، بل لنعينهم على اكتشاف ما اكتشفنا لعلهم واجدون فى أنفسهم ما وجدنا ، وتلك أنبل غايات الحياة ، ذلك أنه وإن تكن تجاربنا الخاصة لن تغنى الغير عن التجربة الذاتية ؛ إلا أنه ما من شك فى أن كل حياتنا الروحية خاضعة لقانون عام هو قانون « ادخار الطاقة » . فالرواية التمثيلية نراها فتشفى النفس مما بها من غريزة مكبوحة أو أمل مكتوم ، وكأننا أحيينا تلك الغريزة أو حققنا ذلك الأمل ، وبذلك نحل المشاهدة وما يصحبها

من مساهمة خيالية محل المزاولة الفعلية ، وبهذا نجنب أنفسنا التجربة المباشرة ، فنحن ندخر بذلك ما فى جهدنا من طاقة ؛ والأمر فى الرواية كغيره فى كل أثر أدبى أو فنى .

وإذاً فنحن نكتب لنساعد الغير على اكتشاف نفسه ، ونحن نريحه بتجاربنا المرة من المزاولة الفعلية . وخلاصة تجاربنا فى أكثر الأحيان ليست من الوضوح بحيث يظن ، إلا أن تكون تجارب مدّعاة ؛ فالحياة لسوء حظنا أحمق من أن تسلم إلينا أسرارها ، والخلق الأدبى ليس خلقاً عقلياً بل خلق حواس ، فليس لرجال العقل أن يزجوا بأنفسهم فيه بأى وسيلة ، وإلا فالزمن لهم بالمرصاد كفيل بإغراق دعاويهم الباطلة ؛ وكل من يحترم ما فى الخلق من نصب يعرف له قدره — وذلك أننا لن نستطيع أن نخلق شيئاً يصح له الخلود إلا إذا أحسسنا بطبيعة ذلك الخلق .

ليس لرجل الفن أن ينتظر حتى تأخذ الصور الحسية عنده دلالاتها العقلية ، وإلا حكمنا عليه ببعد طبيعته عن إمكان ذلك الخلق ، وإنما هو يأخذها عند نبعها ؛ وهنا أيضاً يلوح لى الأمر فى شكل حسى لا أكاد أدفعه ؛ فما تصورت أديباً أو فناناً ممن يستحقون هذا الوصف إلا رأيته فى شكل هيكل عظمى وقد كست عظامه شباك من الأعصاب المرهفة ، تحمل إلى نفسه صوراً حسية لاعداد لها ، وهو يتصبب عرقاً فى التربص لها ليقطع عليها الطريق قبل أن تصل إلى نفسه فتأخذ دلالاتها العقليـة ، وإذاً تكون قد سقطت إلى ميدان ما يشترك فيه جميع الناس ؛ وكيف نستطيع أن ندعى الخلق بما هو شائع بين البشر — تقتنص أذن الفنان الصور المحسة وهى فى طريقها إلى عقله ، وكأنى به ينتزعها دامية من أعصابه ؛ فمن القسوة أن يمسها أحد وهى بضعة من جسم بشرى انتزعها صاحبها فى ألم لا يعرفه إلا من عاناه .

من هذه الصور الحسية الثقل نصوغ ما نعرضه على القارىء وقد شاطرنا صفة الإنسانية والتقين أنه واجد فى نفسه ما عاناها وما دفع ثمن ذلك ؛ ونحن بعد ذلك لا نعرض عليه ما فى نفوسنا من حب أو ألم تطفلا منا وزجًّا له فيما لا يعنيه ليضيق بنا نفساً ، بل لإيماننا بأنه يحب ويألم كما نحب ونألم ؛ والواقع أنه ليس هناك أى خلق أدبى يستند إلى حادثة بذاتها ؛ فالكاتب الغزل لا يتغنى بامرأة بعينها بالغاً حبه لها ما بلغ ، وإنما أقصى ما يستطيع أن يفعل هو أن يحضرها إلى نفسه ليخلق جواً من هـذيان النفس يستطيع بفضل ما يشيع فيه من حرارة أن ينفذ إلى صميم النفس البشرية إطلاقاً ، وفى نفسى الآن صورة أخرى لتلك النفس أجازف بها لقوة دلالتها ؛ فنفس الفنان وقد التهب الجو من حولها تلوح لى كالنفس البشرية إطلاقاً ، وقد عريت عن كل ملابساتها وشدت إلى سقف حجرة ملتهبة تنضح ما فيهـا من دم وماء يتلقاه رجلنا لينظر إخوانه فى الانسانية ما احتوت ، فهو ليس بالأثر المتجنى على الغير ، بل هو أحق الناس بالمحبة والرحمة ، وقد فعل بنفسه ما فعل وأدى إلى الغير ماء حياته .

والفنان رضى بعذاب نفسه لأنه يؤمن بأنه صائر إلى الفناء ، وهو منذ نشأته يحس بأن فى نفسه رسالة لا بد من أدائها ، وهمه الأول هو تحديد تلك الرسالة وقد شاعت فى نفسه غامضة مؤلمة ؛ فليس لإنسان أن يزيد نصيبه نصباً وقد شد عزمه ليجمع ما انتثر من تلك الرسالة ، ولا أن يطالبه بتأديتها دفعة واحدة ، فلو أنه استطاع لما توانى ، وإنما لنا وعلينا — كواجب مقدس — أن نهيئ متلقين ما يحمل لنا من فتات مقدرين له جهده حانين عليه ، عالمين أنه خير للإنسانية أن تؤدى نفسٌ واحدة رسالتها ولو نقطة نقطة من أن يملأ الناس آلاف الصفحات المستعارة الرقيعة .

هذا هو الأديب كما أراه وإن ندر وجوده . وأما من

يدعون الأدب بغير رسالة تضطرب بها نفوسهم فتلك أرواح خلقت خطأ كما خلق أكثر الناس بغير سبب ولا مبرر، إلا إتلاف الحياة على من يستحق الحياة، وفي نفسي ذكرى أقصها على القارئ ولو أنه كان مكاني لما استطاع لها دفعاً.

وذلك أني رأيت بمسرح الأديون بباريس رواية لأبسن Ibsen هي رواية « بيرجنت » « Pyr Gynt » موضوعها خيالي استقاه المؤلف من أساطير البلاد الشمالية، ووضع لبعض أجزائها الموسيقي « Greeg » ما زاد في دلالتها من ألحان، والذكرى التي علقت بنفسي منها هي ذكرى أحد أشخاصها الوهميين، وقد سار على المسرح وبذراعه سلة وبيده الأخرى « مجراف » وقد أخذ يجرف من يلقاه من الناس الذين خلقوا خطأ يلقيهم بالسلة ليعود خلقهم من جديد رحمة بهم وبغيرهم ممن يشاركون في صفة الانسانية.

كلما فكرت في أمر الأدب أو الفن عندنا عاودتني تلك الذكرى، ويودي أن لو ساقت هذا الرجل قدماه إلى بلادنا، فما أشك أنه واجد ما يملأ أضعاف سلته.

فالأدب عندنا تزجية فراغ أو احتيال على العيش، وفي هذا امتهان لحياتنا لا حد له، وهو إن سمي إلى غاية ما جاءت غايته حقيرة مزرية؛ فمن قائل إنه مرآة لحياة الجماعة أو حياة الفرد، ومن قائل إنه منبر وعظ وسبيل إرشاد، ومن قائل إنه مصري أو يجب أن يكون مصرياً، والكل يجمع على ضرورة تيسيره لكل الناس حتى تكسب من ورائه المال.

ثم أعلم أننا بوجه عام لم نزل في حالة فطرية حيث نقاس الأشياء بما تعود به من نفع مادي أو معنوي مباشر، وأنه لا بد لنا من زمن حتى نصل إلى تقدير الحق والجمال في ذاتهما، فعندئذ سنصل إلى تقديس النفس البشرية، فلا نعتدي على رسالتها، بل نترك لها سبيل الخلود ما سعت إليه محتكمين إلى الزمن يذهب بما هو جُفاء.

ولكن أما لنا أن نحاول بسط أجنحتنا؟ وشباب هذه الأمة النبيل يتحفز نشاطاً، فما له لا يأخذ عدته، فيبحث وينقب عما نشير إليه مجرد إشارة يغني بتفاصيله نفسه المتعطشة إلى الحق والجمال؟

فرجاؤنا إلى الشاب اليقظ النفس أن يرجع إلى ما يشير إليه الكاتب الذي يحبه، فيستوعبه ليرى أثره العام في نفسه، وليذكر مثل هذا الشاب « أن الثقافة الحقيقية هي ما يبقى في النفس بعد أن ننسى كل ما حفظنا »، وهذه الثقافة هي ما نحاول أن نعده بها، وإن يكن ذلك غير مغنيه عن التحصيل بنفسه من كتب البسط، فهمتنا ليست في ذلك، بل هي فيما هو أسمى بكثير، وهو تعليمه كيف يجد نفسه! وأما من يحاول غير ذلك فهو إما غير مخلص فيما يكتب أو جاهل بطبيعة الإنسان.

وسترى أيها الشاب عند محاولتك تكوين نفسك أن الأدب عسر لا يسر، وما ينبغي أن يكون غير ذلك! على أنك مجازى بغير ريب عن جهدك، فسترى أمامك عوالم لم تحلم بها من قبل. وسيأتي يوم يخيل إليك فيه بمجرد نظرة أنك تشق الحجب فترى في النفوس ما تكنه من جمال أو قبح، كما سترى خلف الأشياء ما فيها من حق أو باطل! وأي كسب يعدل كسباً كهذا؟ وأي معنى للحياة بغير الفطنة إلى أسرارها وغاياتها؟.

محمد مندور

الألغام أو الموت العائم

بقلم الربان الإنجليزى برسى فيليبس

عادت الألغام إلى الظهور ، وامتلأ البحر مرة أخرى بهذا الموت العائم ! لقد كنت طوال الحرب الأخيرة أقود السفن ذهاباً وجيئة وسط لجج مفعمة بالألغام ، وكان للحلفاء ألغام مبثوثة ، فى وسطها طرق وممار تحرسها المدمرات ، وكانت المساحة الملغمة تبدو فى صورة موج هادئ برىء ، ومن تحته من المفرقعات ما يكفى لاغراق عشرة من أكبر الأساطيل وأعظمها : كان تحت الموج عشرات بل مئات من الألغام ، وليس فى مظهر الماء وشكله ما يسترشد به الربان الحائر ، وهو واقف على جسر سفينته المشحونة بأنواع الحبوب والمآكل ، يحدق فيما أمامه من الزبد الطافى واللج الثائر ، فلا يهديه طرفه إلى شىء . وإذا صوت كصوت الرعد ، وبركان من الماء الثائر وهوة واسعة الشدقين ، قد بدت فى جانب الباخرة ؛ وإذا الهلاك قد حل بسفينة عظيمة ، وحمولة من الطعام ثمينة ، وإذن أسعد الربان الحظ ، فقد يجد الوقت الكافى لانزال زوارق النجاة إلى المـاء .

وفى الحرب الأخيرة قد فقد الحلفاء والمحايدون من السفن ما حمولته خمسة عشر مليون طن . أكثرها ذهب ضحية الألغام ، وكان المفقود فى المدة من مارس إلى يونيو سنة ١٩١٧ وحدهـا نحو مليونين ونصف مليون طن !

يزن اللغم المغمور (أى العائم تحت سطح الماء) نحو ثلثمائة رطل ووزنه مع ثقالته نحو ١٤٠٠ رطل ، ويتصل بكل لغم أهداب دقيقة حساسة طويلة قد يبلغ طولها عشرين متراً طافية على صفحة الماء ، ويكفى أن تمس الباخرة أحد هذه الأهداب ، حتى يقضى على سفينة جميـلة ، ويضيع معها أحياناً عدد من كرام الملاحين .

فى الحرب الماضية كان الألمان يستخدمون الغواصات التى من الرتبة الثانية لبث الألغـام العائمة فى مسالك الملاحة المطروقة ، وفى أى مكان يظن أن البوارج البريطانية قد تجتازه ، ولقد يحدث أحياناً أن تقبل غواصة تحت ستار الليل لبث ألغامها ، وبينما هى منهمكة فيما هى فى سبيله ، إذا شعاع باهر من النور يغمرها ووابل من القنابل ينصب عليها من البارجة الخفية ، وهناك تغرق الغواصة بمن عليها فى مثل لمح البصر ، ويكون الحظ فى هذه المرة فى جانبنا ، وقد وقينا بهذا شر مئات جديدة من المنايا العائمة التى تهدد الربان السـالم بالويل والثبور .

على أن الألغـام قد ألحقت بنا فى تلك الحرب ضرراً بليغاً ؛ وحسبنا أن نذكر مثالا واحداً وهو السفينة همبشير التى كانت تقل اللورد كتشنر ، وقد غرقت بسبب لغم أصابها . ولقد كانت البوارج البريطانية التى أغرقتها الألغام أكثر عدداً ممـا أغرقته القنابل والطربيد . ولـكن الخسارة لم تحل كلها بفريق واحد ، فقد استطعنا نحن أيضاً أن نغرق مائتين من غواصات العـدو . وقد هلك أكثرها بسبب ألغامنا .

***

كُلِّفْتُ مرة فى الحرب المـاضية أن أقود سفينة محملة ديناميت من انكلترة إلى بمباى . وحدث ما شئت مما جاش بصدرى من العواطف حين طُلِب إلىَّ أن أقوم بهذا الواجب ! فقد كانت الغواصات فى البحر الأبيض

المتوسط كالأسماك احتشاداً ، والألغام تسبح في كل مكان كأنها الأعشاب فوق صفحة الغدير . ومع هذا لازمني الحظ الحسن ، ووصلت بسلام . وعند ما ألقيت المراسي في مرفأ بمباي أخذ رجال السلطة هناك ينظرون إلىّ كأني شبح خارج من وسط المقابر . وقال لي قائلهم : « إن هذا من طالعك السعيد أيها القبطان ! وإلا فكيف نجوت من مخالب البارجة « وُلف » وربانها كارل نرجر ؟ إنه يطوف بها في بحر الهند ، وقد صاد بها عدة سفن ! » .

كانت « وُلف » هذه طرادة ألمانية حمولتها ستة آلاف طن ، مسلحة بأربعة مدافع من عيار ست بوصات ، وطالما اجتازت الحصار البحري مراراً ، وفي كل مرة كانت تحمل خمسمائة من الألغام الطافية لتبثها في مختلف البحار .

ولا بد لي هنا أن أشير إلى أن بث الألغام العائمة — التي تقضي على السفن من جميع الأنواع ، لا فرق في هذا بين سفينة حربية ، أو ناقلة الجرحى ، أو سفينة تجارية ، وسواء في هذا المحارب والمحايد — إن بث هذه الألغام مخالف تماماً للقانون الدولي . ولكن ألمانيا لم تكن تكترث للقانون الدولي في تلك الحرب ، وهاهي اليوم قد عادت تبث الألغام مرة أخرى .

وفي أثناء الحرب الأخيرة وضعت بريطانيا نحو مائتي ألف من الألغام ، وكان بعضها يحمل عثابة حاجز قائم يشتمل على نحو عشرة آلاف لغم ، وكان هنالك حاجز عظيم من الألغام طوله نحو مائتي ميل يشتمل على صفوف من الألغام بعضها فوق بعض ، ومنها ما هو متعمق في البحر نحو ثلثمائة قدم ، وكان هذا الجدار الهائل من الألغام يشتمل على ما لا يقل عن ١٢٠٠٠٠ لغم ، وبواسطة هذين الحاجزين استطعنا أن نضيق نطاق نشاط الغواصات الألمانية ، بحيث أصبح في فاتحة عام ١٩١٨ مقصوراً على البحر الشمالي .

وقد بُثّت عشرات الآلاف من الألغام من حول السواحل البريطانية ، لكي تحمي نقطاً حيوية خطيرة ، وكم من غواصة ألمانية جاءت تزحف من تحت الموج مخترقة لجج هذه البحار ، وهي تحاول انتهاز الفرصة للإيقاع بسفننا ، ذهبت ضحية بعض ألغامنا المبثوثة حول سواحلنا .

***

إننا — معشر الملاحين — قد استهدفنا لكثير من الأخطار بسبب الألغام الألمانية ، وكم من ربان من أصدقائي وزملائي قد نسف هو وسفينته نسفاً . وقضى هؤلاء نحبهم وهم يؤدون لوطنهم أجل خدمة ، إذ ينقلون إليه الطعام والغذاء . . إن الملاحين البريطانيين لم يرهبوا يوماً أن يلاقوا مثل هذا الموت ؛ ولن يرهبوا أن يلاقوه في أي وقت من الأوقات . .

(مترجمة عن عدد ديسمبر من مجلة بارايد)

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي
- ٦٠ في مصر والسودان
- ٨٠ في الأقطار العربية
- ١٠٠ في سائر الممالك

ثمن العدد ١٠ مليمات

إحصاءات هامـــــة

عن الامتحانات العمومية فى سنة ١٩٣٧

تصدر مراقبة الامتحانات بوزارة المعارف نشرات سنوية تحتوى على مجموعة من الإحصاءات عن الامتحانات العامة ، وهى إحصاءات قيمة يستطيع الباحث أن يستنبط منها كثيراً من الحقائق عن سير التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية . وقد ظهرت منذ وقت قصير إحصاءات سنة ١٩٣٧ فى ثلاث كراسات ، تختص الأولى منها بامتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، والثانية بامتحان شهادة الدراسة الثانوية (القسم العام) الذى عقد لأول مرة فى تلك السنة ، والثالثة بامتحان شهادة الدراسة الثانوية (القسم الثانى) الذى عقد لآخر مرة فيها ، إذ بدأ امتحان السنة التوجيهية فى السنة التالية . وقد رأينا أن نوقف القراء على بعض ما فى هذه الكراسات من معلومات طريفة ، وسنبدأ بامتحان القسم الثانى .

أول إحصاءات هذا الامتحان إحصاء يحتوى على عدد الطلبة المتقدمين له ، والناجحين فيه ، والنسبة المئوية للنجاح ، من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٣٧ . وقد لخصنا ذلك فى الجدول رقم ١ .

ويبدو من هذا الجدول أمران :

الأول سرعة انتشار التعليم الثانوى فى مصر ، كما يستدل عليها من عدد التلاميذ المتقدمين للامتحان .

والثانى تغير متوسط النسبة المئوية للناجحين من فترة إلى فترة . فمنذ بدء إنشاء الامتحان إلى سنة ١٩٠٥ كان متوسط النجاح منخفضاً ، ثم ارتفع ارتفاعاً محسوساً فى الفترة الممتدة من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٢٥ ، ولكنه عاد إلى الانخفاض نوعاً بعد ذلك ، وإن لم يبلغ فى انخفاضه مستوى السنين الأولى للامتحان . ولا عبرة بارتفاع النسبة قليلا فى متوسط السنوات (١٩٣١ — ١٩٣٥) ، فهو ارتفاع ظاهرى ، لأنه يرجع إلى ارتفاع نسبة النجاح صدفة فى سنة واحدة (هى سنة ١٩٣٥) ، إذ بلغت ٦٦٪ . ولو أخرجنا هذه السنة لكان متوسط نسبة النجاح للسنوات الأربع الباقية ٤١ ٪ .

الجدول رقم ١

امتحان شهادة الدراسة الثانوية * من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٣٧

الفترة: من سنة	الفترة: إلى سنة	متوسط عدد الطلبة الذين امتحنوا كل سنة	متوسط النسبة المئوية للنجاح فى الامتحان
١٨٩١	١٨٩٥	١٠٣	٣٨٪
١٨٩٦	١٩٠٠	٣٦٠	٣٧٪
١٩٠١	١٩٠٥	٣٣٦	٣٩٪
١٩٠٦	١٩١٠	٩٤٣	٥١٪
١٩١١	١٩١٥	١٠٦٣	٤٦٪
١٩١٦	١٩٢٠	١٣٤٨	٤٥٪
١٩٢١	١٩٢٥	١٨٢٨	٥٤٪
١٩٢٦	١٩٣٠	٢٧٥٠	٣٧٪
١٩٣١	١٩٣٥	٤٢٢٨	٤٦٪
١٩٣٦	١٣٩٧	٥٣١٣	٤١٪

(*) كان الامتحان إلى سنة ١٩٠٥ قسماً واحداً ، ومن سنة ١٩٠٦ تفرع إلى قسمين : العلمى والأدبى .

وإذا تركنا هذا جانباً ، فربما كان أهم ما يستحق النظر فى إحصاءات هذا الامتحان الجداول التى تتعلق بأعمار الطلبة . ففى جدول منها نجد بياناً عن متوسط

سن طلبة المدارس الأميرية وغيرهم فى كل سنة من السنوات العشر التى تنتهى بسنة ١٩٣٧ . وهـذا البيان يدل على تناقص سن الطلبة من كلتا الفئتين سنة بعد سنة ، وحسب القارئ المقارنة الآتية ليتبين نتيجة هذا التناقص :

الجدول رقم ٢

متوسط سن الطلبة فى امتحان القسم الثانى (الدور الأول)

الفئـــة		سنة ١٩٢٨ – الطلبة الذين حضروا الامتحان (سنة)	(شهر)	سنة ١٩٢٨ – الطلبة الذين نجحوا فى الامتحان (سنة)	(شهر)	سنة ١٩٣٧ – الطلبة الذين حضروا الامتحان (سنة)	(شهر)	سنة ١٩٣٧ – الطلبة الذين نجحوا فى الامتحان (سنة)	(شهر)
طلبة المدارس الأميرية	أدبى	٣٠*	١١	٣٠*	٩	١٩	١٠	١٩	٣
	علمى	١٩	٥	١٨	٩	١٨	٩	١٨	٤
الطلبة الآخرون	أدبى	٢٣*	—	٢١*	٩	٢٢	٥	٢٠	٧
	علمى	٢١	١	١٩	٢	٢٠	٨	١٩	٤

(*) هذا العدد يشمل طلبة تجهيزية دار العلوم ، ولكن عددهم قليل لا يحتمل أن يؤثر تأثيراً كبيراً فى متوسط السن للجميع

ومن هذا الجدول يمكن استخلاص عدة حقائق . وبعض هذه الحقائق ليست جديدة ، فمن المعروف أن طلبة المدارس الأميرية أصغر سناً فى المتوسط من طلبة المدارس الأهلية والمتقدمين من منازلهم ، كما أن أحداً من مدرسى المدارس الثانوية لن يدهشه أن يعلم أن طلبة القسم العلمى كانوا فى كل من السنتين أصغر سناً من طلبة القسم الأدبى ، ولعل القارئ يستطيع تعليل ذلك بعد أن ينتهى من قراءة هذا المقال .

أما الجديد الذى نستخلصه من هذا الجـدول فهو أن متوسط سن الطلبة الناجحين يقل فى جميع الحالات عن متوسط سن الطلبة المتقدمين للامتحان ، وبعبارة أخرى أن الطلبة الأصغر سناً تنجح منهم نسبة أكبر من نسبة النجاح للطلبة الأكبر سناً . وهذه حقيقة تبرزها بصورة بارزة البيانات التى يحتوى عليها إحصاء آخر من إحصاءات امتحان شهادة الدراسة الثانوية (القسم الثانى) ، وهو الاحصاء الذى يبين تقسيم الطلبة المتقدمين للامتحان على حسب أعمارهم ، والنسبة المئوية للنجاح فى الدور الأول لكل عمر . ويجد القارئ خلاصته فى الجدول رقم ٣ .

فإذا تأملنا فى هذا الجدول لفت نظرنا أن النسبة المئوية للنجاح تتناقص باطّراد كلما زادت سن الطلبة . وهذا التناقص المطرد ظاهر فى جميع الفئات ، فنراه فى القسم الأدبى كما نراه فى القسم العلمى ، ونراه فى طلبة المدارس الأميرية كما نراه فى طلبة المدارس الأهلية والمنازل . وإذا نظرنا إلى الخانة الأخيرة ، وهى التى تحتوى على النسبة المئوية للناجحين من جميع الطلبة ، رأينا بوضوح أن نسبة النجاح كانت تزيد على ٩٠ ٪ للطلبة الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة ، ثم نزلت إلى مستوى الـ ٤٠ ٪ للطلبة الذين يبلغون التاسعة عشرة أو العشرين من العمر ، ثم نزلت إلى مستوى الـ ٢٠ ٪ للطلبة الذين تصل أعمارهم إلى ٢١ و ٢٢ سنة ، ثم انحطت دون ذلك لمن بلغت أعمارهم ٢٣ سنة أو زادت على ذلك .

وهـذه الظاهرة ليست مقصورة على هذا الامتحان وحده ، ولا على سنة ١٩٣٧ وحدها ، بل إننا قد فحصنا إحصاءات جميع الامتحانات العمومية منذ سنة ١٩٣٠ فوجدنا هذه الظاهرة متجلية فيها جميعاً ، وإن كانت أقل بروزاً فى امتحانات شهادة الدراسة الابتدائية منها فى امتحانات شهادة الدراسة الثانوية بقسميها . ويكفى أن نورد للقارئ على سبيل المثال ملخص البيانات المتعلقة بأعمار الطلبة فى امتحان القسم العام لسنة ١٩٣٧ ، وهو المبين فى الجدولين رقم ٤ ورقم ٥ . ويرى القارئ بوضوح

من الجدول رقم ٥ تناقص النسبة المئوية للنجاح بين الطلبة جميعهم من ٦١ ٪ في عمرى ١٤ و ١٥ إلى ٢٢ ٪ في عمر ٢٠ ، ثم إلى ما دون ذلك لمن تبلغ أعمارهم فوق الحادية والعشرين . وهذا التناقص واضح أيضاً في نتيجة كل فئة من فئات الطلبة على حدة ، ولا عبرة بنسبة ٢٥ ٪ الواردة أمام عمر ٢٤ سنة في المدارس الأميرية ، ولا بنسبة ٥٠ ٪ الواردة أمام الأعمار من ٣٠ إلى ٣٤ سنة في المدارس الأهلية ، لأن الناجح في كل من الحالتين طالب واحد . أما طلبة المنازل فلم ينجح منهم أكثر من طالبين في أي عمر .

الجدول رقم ٣

تقسيم طلبة القسم الثانى على حسب أعمارهم والنسبة المئوية للنجاح فى الدور الأول لكل عمر

السن	طلبة المدارس الأميرية – القسم الأدبي – عدد الطلبة المتقدمين للامتحان	طلبة المدارس الأميرية – القسم الأدبي – النسبة المئوية للنجاح	طلبة المدارس الأميرية – القسم العلمي – عدد الطلبة المتقدمين للامتحان	طلبة المدارس الأميرية – القسم العلمي – النسبة المئوية للنجاح	الطلبة الآخرون – القسم الأدبي – عدد الطلبة المتقدمين للامتحان	الطلبة الآخرون – القسم الأدبي – النسبة المئوية للنجاح	الطلبة الآخرون – القسم العلمي – عدد الطلبة المتقدمين للامتحان	الطلبة الآخرون – القسم العلمي – النسبة المئوية للنجاح	جميع الطلبة – النسبة المئوية للنجاح
		٪		٪		٪		٪	٪
١٤	—	—	—	—	—		١	صفر	صفر
١٥	١	١٠٠	١٩	٨٤	١	١٠٠	٤	٧٥	٨٤
١٦	١٩	٨٤	١٥٢	٧٠	٥	٨٠	٣٣	٦٥	٧١
١٧	٥٧	٧٤	٣٥٥	٦٩	٣٣	٨٦	١١٣	٥٣	٦٥
١٨	٩٨	٧٣	٤٧٣	٥٩,٥	٧٣	٥٣	١٧٣	٤٤	٥٧
١٩	١٤٧	٦٧	٤٠٤	٤٨	١٣١	٤٤,٥	٢٠٦	٣٨	٤٦
٢٠	١٣٧	٤٨	٣٣٧	٤٣	١٧١	٤٤	٢٣٦	٣٧	٤٠
٢١	١١٧	٤٥	١٦٩	٣٩	١٥٣	٣٣	١٩٧	١٥	٢٩
٢٢	٦٩	٤٥	١١٢	٣٤	١٥٨	١٨	١٩٠	١٨	٢٥
٢٣	٤٤	٣٣	٤٣	٣١	١٤٦	١٧	١٠٢	١٦	١٨
٢٤	١٦	١٩	٨	٢٥	١٣٩	١٨	٦٥	٦	١٥
٢٥	—	—	٣	صفر	٧٠	٧	٤٠	١٥	١٠
٢٦ — ٣٠	—	—	—	—	١٤٠	١١	٦٣	٦	٩
٣١ — ٣٥	—	—	—	—	١٩	٥	١	صفر	٥
٣٦ — ٤٠	—	—	—	—	١٥	٧	—	—	٧
الجملة	٦٩٥	٥٦	٢٠٦٤	٥٣	١٣٤٤	٣٧	١٤١٤	٣٥	٤٠

قربت الكسور فى النسب المئوية ، ما عدا النصف فقد أبقى

وبعد ، أليس في هذه الظاهرة المطردة في جميع الامتحانات دليلٌ كافٍ — إذا احتاج الأمر إلى دليل — على أن كبار السن من الطلبة في أية فرقة معينة أقل استعداداً للدراسة من أصغارهم ، وعلى أن الطلبة الذين يبقون في المدارس الثانوية إلى ما فوق العشرين ، أو الذين يبقون في القسم العام منها إلى ما فوق الثامنة أو التاسعة عشرة من عمرهم ، هم طلبة ضعيفو الاستعداد للتعليم الثانوى ؟ وإذا سلمنا بهذا — وهو في الواقع يكاد يكون من بديهيات التعليم ، حتى لو صرفنا النظر عن الدليل المستمد من الاحصاءات — ألا يترتب عليه ضرورة تحديد السن في المدارس الثانوية تحديداً دقيقاً ، منعاً لضياع

جهود عدد كبير من الطلبة فى دراسات لا يصلحون لها ؟ ثم أليس مما يدعو إلى هذا التحديد أيضاً ما يعرفه كل معلم وكل ناظر فى المدارس الثانوية من أن أولئك الطلبة المتقدمين فى السن هم مصدر الكثير من الإخلال بالنظام والفساد الخلقى المتفشيين فى تلك المدارس ؟

الجدول رقم ٤

متوسط سن الطلبة فى القسم العام — (الدور الأول)

الفئة	الطلبة الذين حضروا الامتحان		الطلبة الذين نجحوا فى الامتحان	
	سنة	شهر	سنة	شهر
طلبة المدارس الأميرية	١٧	٩	١٧	٣
طلبة المدارس غير الأميرية	١٨	١١	١٨	١
طلبة المنازل	٢٣	٣	٢١	٢
جميع الطلبة	١٨	٥	١٧	٥

لقد مضى على وزارة المعارف أكثر من عشر سنين وهى تبحث عن أسباب نزول مستوى التعليم الثانوى وضعف نتائج امتحاناته ، وقد بحثت عن هذه الأسباب فى كل ناحية إلا ناحية التلاميذ أنفسهم ومدى استعدادهم لهذا التعليم النظرى . ومع أنه من المحقق أن أسباب النقص متعددة ، فالاحصاءات التى أمامنا تدل على أن كل إصلاح لهذا التعليم لا يقوم على تحديد سن الطلبة فيه تحديداً دقيقاً لن يبلغ بنا النتائج التى ننشدها . إن التعليم الثانوى فى عرف رجال التربية فى جميع البلاد هو التعليم الذى يعطى فى مرحلة المراهقة والبلوغ ، وهى المرحلة التى تبدأ حوالى سن الثانية عشرة ، وتنتهى حوالى سن السابعة أو الثامنة عشرة . ومتى تجاوز الطالب هذه السن ، وجب أن ينتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل التعليم إذا كانت استعداداته تؤهله لذلك ، أو إلى الكفاح فى ميدان الحياة . فإذا أردنا التيسير فى بلاد كبلادنا ، يكفى أن تفسح

الجدول رقم ٥

بيان تقسيم طلبة امتحان القسم العام على حسب أعمارهم والنسبة المئوية للنجاح فى الدور الأول لكل عمر

السن	المدارس الأميرية: عدد الطلبة	المدارس الأميرية: النسبة المئوية للنجاح	المدارس الأهلية: عدد الطلبة	المدارس الأهلية: النسبة المئوية للنجاح	طلبة المنازل: عدد الطلبة	طلبة المنازل: النسبة المئوية للنجاح	النسبة المئوية للنجاح فى الفئات الثلاث
		٪		٪		٪	٪
١٣	٣	١٠٠	—	—	—	—	١٠٠
١٤	٢٨	٪٦٤	٨	٥٠	—	—	٦١
١٥	٢٠٤	٪٦٣	٥٠	٥٨	—	—	٦١,٥
١٦	٤٩٩	٥٧	١٦٤	٥١	٥	٢٠	٥٥
١٧	٦٨٤	٥٠	٣١٦	٣٨	٦	صفر	٤٦
١٨	٥٥٨	٤٥	٣٠٨	٣٠	٦	١٧	٤٤
١٩	٤٢٢	٣٢,٥	٢٩٦	٢٥	١٠	١٠	٢٩
٢٠	٣٦٠	٣٦	٢٣٥	١٩,٥	٢٩	٧	٢٢
٢١	١٣٢	١٧	١٥٢	٢٠	٢٠	١٠	١٨
٢٢	٥٣	١١	١١٠	١٩	٢٣	٩	١٦
٢٣	١٣	٨	٦٠	١٠	١٨	صفر	٧
٢٤	٤	٢٥	٢٩	٣,٥	١٥	صفر	٤
٢٥ — ٢٩	—	—	٣٧	١١	٤٩	٤	٧
٣٠ — ٣٤	—	—	٢	٥٠	٨	صفر	١٠
٣٥ — ٣٩	—	—	—	—	١	صفر	صفر
٤٠ — ٤٤	—	—	—	—	٢	صفر	صفر
٤٥ — ٤٩	—	—	—	—	١	صفر	صفر
الجملة	٢٨٦٠	٤٤	١٧٦٧	٢٩	٢٩٣	٦	٣٧

قربت الكسور فى النسب المئوية ، ما عدا النصف فقد أبق

فى الحد الأعلى لسن القبول بالمدارس الثانوية سنتين ، وترفع الحد الأعلى للبقاء بها سنتين كذلك ، فلا يقبل بها طالب يزيد عمره على ١٤ سنة ولا نسمح ببقاء طالب يزيد عمره على ٢٠ سنة ، وأمامنا تجربة مدرسة فاروق الأول الثانوية تبين لنا الأثر الطيب الذى ينجم عن ذلك .

(البقية على الصفحة التالية)

ليلة فى النخيل

يا عروس النخيل قد أوشك اللي
لُ ، وما زلتُ ساهداً فى انتظارك
فوق صدر الربابة آنس بالعُشْ
بِ ، وأغفو بخاطرى لمزارك
مستعيداً جولاتنا فى الأماسى
وأمانا وجدته فى جوارك
فتعالى مع الربيع ، وهاتى
أغنيات الرجاء من قيثارك !

***

بى اشتياقٌ إلى صباحك أمضى
فى سناه ، وأرتوى من نداه
بى انتظارٌ إلى ربيعك ينمو
فى حياتى بعطره وشذاه
بى حنينٌ لأنْ أحسك قربى
وجهة أتقى أجاد فيــــه الإله
فتعالى .... فقد يضيء بك القلْ
بُ وتنجاب — إذ يراك — دجاه !

***

ملعبُ الذكريات ألمح فيه
زمرا من عواطف تتعانق !
ملعب الذكريات أسمع فيه
همسات من المنى تتسابق !
ملعب الذكريات ينساب حولى
بجديد من الفنون وشائق
ونسيم الحياة يبعث فى الوا
دى حنينا كأنه شجو عاشق !

***

فى شعاب النسيان أفردتُ وحدى
فعبرت الأيام حيا كميت
أجد القدر والجحود من النا
س ، وألقى الظلام فى عقر بيتى
والعذاب الروحى فى ليلى الدا
جى أورى دمى وأنصب زيتى !
فتعالى .... وفى يديك انطلاقٌ
من فجاج النسيان .... إنما أتيت !

***

إن التعليم الثانوى النظرى مرحلة إعدادية للتعليم العالى . والوصول إلى التعليم العالى ينبغى أن يقوم — كما قرر معالى وزير المعارف فى حديث له مع إحدى الصحف الكبرى منذ وقت قريب — على التنافس بين الطلبة وانتقاء المتفوقين فى الاستعداد منهم . وهذا الانتقاء ينبغى أن يبدأ فى مرحلة التعليم الثانوى ، وإلا كانت النتيجة من جهة هبوط مستوى هذا التعليم ، ومن جهة أخرى تخريج عدد من الطلاب من المدارس الثانوية لا يصلحون لمتابعة التعليم العالى ، ولا يعرفون ماذا يكون اتجاههم فى الحياة ، مادام التعليم النظرى الذى تلقوه لا يعدهم لغير التعليم العالى .

مُنْذُ مَا بَعْثَرَ القَضَاءُ صِفَاتِي
فِي مُحِيطِ الرَّغَائِبِ الهَوْجَاء
وَجَمَ النَّايُ فِي فَمِي وَانْزَوَى الشِّعْـ
ـرُ بِقَلْبِي مُجَرَّحَ الأَصْدَاءِ !
وَاخْتَفَتْ بَسْمَةُ التَّفَاؤُلِ مِنْ كَوْ
نِي ، وَعَادَ الذُّبُولُ رَجْعَ غِنَائِي
فَتَعَالَيْ . . . وَأَطْلِقِي فِي وُجُودِي
وَمَضَاتِ الحَيَـــاةِ بَعْدَ الفَنَاءِ !

* * *

وَادْخُلِي مِنْ كُوَى الفُؤَادِ وَهُبِّي
نَسَمَاتٍ تَعِيشُ فِي أَعْمَاقِي !
وَاطْلِعِي وَالحَيَـــاةَ فِي مُهْرَاقِي
وَاحَـــةً ظِلُّهَا عَلَى الدَّهْرِ بَاقِ
وَازْخَرِي فِي دَمِي عُبَابًا مِنَ الفَنِّ
وَفَيْضًا مِنْ نُورِهِ الأَلَّاقِ
وَادْفَعِينِي إِلَى الحَيَـــاةِ جَدِيدًا
فَلَقَدْ طَالَ لِلْحَيَـــاةِ اشْتِيَاقِي !

* * *

يَا عَرُوسَ النَّخِيلِ ، يَا بَسْمَةَ الفَجْـ
ـرِ ، وَيَا رَوْعَةَ الصَّبَاحِ الجَدِيدِ
هُوَ ذَا الرَّوْضُ قَدْ غَفَا ... فَتَعَالَيْ
وَاسْمَعِي فِي النَّخِيلِ نَجْوَى نَشِيدِي
وَادْفَعِي عَالَمَ الظَّلَامِ إِلَى الغَيْـ
ـبِ ... إِلَى هُوَّةِ الفَنَاءِ البَعِيدِ !
وَانْشُرِي فِي وُجُودِيَ الفَرَحَ الخَا
لِدَ ، يَا رَبَّةَ الوُجُودِ السَّعِيدِ !

وَعَلَى النِّيلِ مَعْبَـــدٌ أَزَلِيٌّ
شَاعِرِيُّ الإِيحَاءِ ، صَافِي الجَلَالِ
رَقَصَتْ رُوحِيَ الغَرِيبَـةُ فِيهِ
بَيْنَ عَزْفِ العُصُورِ وَالأَجْيَالِ
وَظِلَالُ الأَشْبَاحِ كَمْ عَانَقَتْنِي
بِظِلَالٍ مِنْ رَقْصِهِنَّ الخَيَـالِي
فَتَعَالَيْ إِلَيَّ فِي المَعْبَدِ الفَا
نِي السِّحْرِ . . . . يَا عَرُوسَ اللَّيَالِي

* * *

يَا هَوَانَ الحَيَاةِ . . . . إِنْ لَمْ تَرُدِّي
وَجْهَهَا القَفْرَ جَدْوَلًا وَخَمِيلَا !
يَا ظَلَامَ الوُجُودِ . . . . إِنْ لَمْ تَكُونِي
نُورَهُ السَّابِغَ الَّذِي لَنْ يَحُولَا !
يَا مَلَالَ الأَيَّامِ . . . . إِنْ لَمْ تَكُونِي
أُنْسَهَا الشَّائِقَ الَّذِي لَنْ يَزُولَا !
يَا ضَلَالَ الفُؤَادِ . . . إِنْ لَمْ تَظَلِّي
أَبَدَ الدَّهْرِ رُشْـدَهُ وَالدَّلِيلَا !

عبد العزيز عتيق

إنه في يوم الثلاثاء ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٩ بناحية كفر الكردى مركز المنزلة وفي يوم الأحد ٣١ منه بسوق المنزلة سيباع علناً لجل بقر موضح بمحضر الحجز ملك المحكوم عليه الحاج عبد الله عبد الرحيم من الناحية نفاذاً للحكم رقم ٨١٨ سنة ١٩٣٨ مدنى المنزلة وفاء لمبلغ ٣ جنيه و ٩٠ مليم بخلاف المصاريف كطلب عبد الفتاح عبد الصمد تاجر بكفر الكردى

١٢٥ نعلى راغب الفراء المحضر

أنباء وآراء

صوت من الغرب

هو صوت العالم المجرى المستشرق الدكتور عبد الكريم جرمانوس ، الذى ارتفع تحت قبة الشورى ، حيث تعقد جماعة الأخوة الاسلامية اجتماعاتها ، وتذيع محاضراتها . وحيث اجتمع حشد من الأدباء والكتاب ليستمعوا إلى محاضرة الدكتور — أو خطبته كما شاء أن يسميها — عن الاسلام وأثره فى المدنية الغربية ، وما أفادته منه هذه المدنية ، سواء فى ميدان العلم أو الأدب أو الفلسفة .

قدم الدكتور عبد الوهاب عزام المحاضر بتحية رقيقة ألمع فيها إلى مكانته كأستاذ بجامعة بودابست ، وكصديق للشرق ، له به صلة قوية ؛ ثم قام الأستاذ بعد ذلك فتكلم من حضارة الاسلام الأولى ، وفتوحه فى عالم الفكر والبحث العلمى ، وما استطاع الغرب أن يفيد من هذه الحضارة وتلك البحوث ، مما ظهر أثره أولا فى الفلسفة الحديثة ، ثم بعد ذلك فى النظم الاجتماعية ، وأسهب فى ضرب الأمثلة المحققة لما اقتبس من الاسلام إلى أوائل هذا القرن ، كبعض نظم النزل ، وبعض نظم الاقتصاد .

وقد عقب على هذه الخطبة الأساتذة لطفى جمعة ، ومحمد الهياوى ، والصاوى شعلان ، بكلمات طريفة رائعة .

على مسرح دار الأوبرا

قدمت الفرقة خلال الأسبوعين الماضيين ، على مسرح دار الأوبرا الملكية ، مسرحية الأمل ، وهى قصة اقتبسها الأستاذان سليمان نجيب وعبد الوارث عسر من مسرحية برنشتين المسماة بهذا الاسم ، وأخرجها الأستاذ فتوح نشاطى . وهى تدور حول أسرة مصرية من الطبقة الراقية ، تضم أمًّا وابنتين ، إحداهما من زوج سابق ، والأخرى من الزوج الحالى وهو من ذوى الشاب . أما الابنة الأخيرة فهى صورة أمها ، فى حبها المظاهر وتهالكها عليها ؛ والأخرى ذات نفس رقيقة حسّاسة ، تنظر الحياة نظرة صادقة ، فهى على نقيض أمها وأختها لأمها ، تعيش فى هذا الجو غير راغبة فيه ، ولا يقف بجانبها ويشاركها فى احتمالها إلا زوج أمها المشغول بشئون عمله ، المحتمل على مضض ما هى فيه من ضلال ؛ وإلى جانب هذه المجموعة شاب مثقف ، هو خطيب الفتاة الأولى أول أمره ، ثم خطيب الثانية وزوجها آخر الأمر ، بعد أن يتبين عن كثب ما فى الأولى من عيوب ونقائص ، وما فى الثانية من مزايا أهمها فهمها الحياة على وجهها الصحيح .

الأمل : هو الذى يُسيّر هذه الشخصيات من بداية الفصل الأول ، إلى أن يبلغ بها النهاية ؛ الأب الآمل فى عودة زوجته إلى الصواب ، حتى ليبعث فيه هذا الأمل لونًا من الاستكانة ، يلمسه الشاهد ويكاد أن يثور عليه أكثر من مرة ؛ ولا يرده عن هذه الثورة إلا التفكير فى حال هذه الأم التى لا تزال تأمل فى أن تدفع بابنتها الثانية فى تيار المظاهر الذى تعيش فيه ، وأن تخرج زوجها إلى هذا الجو من عزلة رجل الأعمال ؛ ثم الابنة الآملة فى عدول أمها عن اضطهادها ، والأخرى الآملة فى إعادة خطيبها إلى أحضانها .

فالقصة بهذا اللون المصرى تمصير كامل للحوادث والألوان والجو ؛ وإذا كان البعض يأخذ على المقتبسين أن الطابع الفرنسى لا يزال عالقًا بشخصية الأب وأن الحياة المصرية لا تعرف مثل هذا الرجل المستسلم الذى يرى القبيح على أهل بيته ويسكت ، خصوصًا إذا كان هذا

الرجل بالقوة التي نراه بها في الفصل الأخير، وهذا الفهم الدقيق الذي نحسه منه في مناقشته إذ ذاك مع زوجته، فإن الحق الصراح يقضي بأن نقرر أن شخصية الأب غير معدومة الوجود كل العدم في الطبقة المتفرنجة.

بقيت بعد ذلك مسألة الاخراج والتمثيل؛ فما من شك أن المخرج المصري قد ساعد إلى حد كبير في نجاح هذه الرواية وصبغها باللون المصري، فجهوده واضح في كل شيء، في تنسيق المناظر، في الاضاءة البديعة، في سماء الجيزة الصافية، تبدو من خلالها القلعة بلون فضي جذاب. ولعل هذه الرواية بعد «تحت سماء أسبانيا»، وهي الرواية الأولى لهذا المخرج، دليلان على مستقبل مكفول ينتظره ويُنتظر له.

أما التمثيل فقد أجاد الممثلون في أدوارهم، ونستطيع أن نرتبهم بحسب الاجادة على هذا الوجه: الأستاذ منسى فهمي (الأب)، الأستاذ حسين رياض (الخطيب الشاب)، الأستاذ أنور وجدي (صديق الأم). أما الممثلات فقد أجادت السيدة دولت أبيض دور الأم، ولكن آفتها في روايتي هذا العام «امرأة تستجدي، والأمل» هي عدم حفظها لأدوارها، واحتفالها كثيراً بالنظر إلى الجمهور، كأنما تنظر أثر تمثيلها عنده، وإلى جانب هذا فقد سطع في هذه الرواية نجم الآنسة فردوس حسن (الابنة المضطهدة)، والسيدة روحية خالد (الابنة المدللة).

جائزة مختار للنحت عام ١٩٤٠

تقيم جماعة أصدقاء مختار مسابقة سنوية بين الفنانين المصريين، تخليداً لذكرى المثال المصري العظيم محمود مختار. وقد رأت هذه الجماعة أن تكون مسابقتها هذا العام إحياء لذكرى أحد أصدقاء مختار والفن، وهو المرحوم المسيو فيبي، الذي كان ممن شجعوا الفنانين المصريين وساهموا بنصيب وافر في نهضتهم. وقد تقدم بالجائزة لهذه المسابقة صاحبة العصمة السيدة هدى شعراوي، ومقدارها خمسة وأربعون جنيهاً مصرياً، تقسم بين الفائزين كالآتي: ٢٠ جنيهاً للأول، ١٥ جنيهاً للثاني، ١٠ جنيهات للثالث.

وموضوع المسابقة هذا العام هو «الحرف الجوالة» كبائع العرقسوس — المسحراتي — الحلوى.. الخ الخ.

وقد تحدد يوم ٢٩ فبراير عام ١٩٤٠ كآخر موعد لقبول الطلبات للاشتراك، ويوم ٢٥ مارس كآخر موعد لتقديم التماثيل بصالة العرض التي سيعلن عنها فيما بعد. وتقدم الطلبات باسم سكرتير جمعية أصدقاء مختار حضرة الأستاذ جبرائيل بقطر، بشارع الاستكخانة رقم ٦ بالقاهرة تليفون ٥٣٩٤٧.

وتلفت الجماعة نظر الفنانين إلى أنه لا يحصل أي رسم للاشتراك في هذه المسابقة.

فى عالم التأليف

الفنان تيمــــور

على ذكر قصته الأخيرة « نداء المجهول »

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

بدأ الفنان يوقع على قيثارته توقيعاً منسجماً ، وهو فى ضجة صاخبة ، وحوله جمع مزدحم من طلاب الحياة ولذاذاتها ، والمتلفين حول أنوارها . وكانت الأنوار الساطعة تبهر الأنظار فى البهو الفسيح الذى وقف الفنان فيه يرسل أنغامه العذبة . وكانت عذوبة الموسيقى يخالطها شىء يسير من الحزن ، ولكن ضجة الحفل ، وطرب السامعين ، وضحكات الحاضرين ؛ جعلت الفنان يسرع فى عزفه ، ويشارك الجمع فى طربه ، فخفيت النغمة الحزينة ، وظهر فى موسيقاه روح آخر — روح لا يعبأ إلا بالحاضر ، ولا يهتز إلا للحياة الصاخبة المضطربة العنيفة . ولم ينج الفنان نفسه من أثر الأنوار والضجة ، فعلت وجهه حمرة ، وشارك القوم فى طربهم وضحكهم وفكاهاتهم ؛ وأخذ يصور لهم فى موسيقاه ما يضطرب فيهم وحولهم من ثورات وصرخات وضحكات . وبلغ فى فنه من القدرة والابداع ما مكنه من تصوير رنين الكؤوس ، وتماس العيون ، ووسوسة الهمسات .

ولكن نفس الفنان لم تطاوعه بعد انفضاض ذلك الحفل الصاخب ، على أن يعود إليه فى الليلة التالية . لقد كانت نفسه تشعر بشىء من الحزن فى أثناء عزفه . وكاد ذلك الحزن يفسد عليه طربه ويفسد على الحضور لذتهم . لولا أنه تدارك الأمر ، فشاركهم فى طربهم ، وصور لهم كل خلجات نفوسهم . ولكنه عند ما خلا إلى نفسه بعد انفضاض الحفل أحس انقباضاً شديداً ، وكبر عليه فنه وتكبر أن يعود به إلى ذلك البهو الصاخب مرة أخرى . أبى عليه أن يرجع إلى ذلك الجو الكثيف الذى انعقدت فيه سحب الدخان ، وتطايرت فى أنحائه رائحة العطور القوية ممتزجة بشىء من ريح الخمر . لم يجد من نفسه رغبة فى العودة إلى العزف فى داخل البهو ، وأصر على الوقوف بعيداً أمام الباب . وأخذ يعزف وهو ينظر إلى الفضاء الفسيح الجليل ، وتمكن فى هذه المرة أن يقاوم بعض التأثير الذى تحدثه الضجة المنبعثة من داخل الحفل المضطرب . ولذلك كانت نغمته أكثر شجى ، وأبطأ توقيعاً ، وأخفض رنيناً . ولكن صوت الحياة الثائرة فى داخل البهو المتلألىء بالأنوار ، كان لا يزال ينازعه ويغالبه ويميل به إلى مشاركة القوم فى طربهم ، وإن كان قد خلط موسيقاه ببعض أنغام استمدها من وحى قلبه الشجى .

ولما انفض الحفل فى تلك الليلة الثانية عاودت الشجون ذلك الفنان ، وثارت به نفســه ثورة أعنف وأقوى . فأبت عليه أن يدخل إلى البهو الصاخب أو أن يقف عند بابه . فترك ذلك البهو المتلألىء بالأنوار المزدحم باللاهين ، المضطرب بالحياة . وسار بعيداً موغلا فى المراعى

المحيطة ، وقصد إلى الغابات الظليلة القائمة فوق سفوح الجبال الشامخة . وهناك أخذ يغنى أغنية أخرى ، لم تشبها شائبة من صخب الحياة . أغنية لم تصدر إلا عن وحى النفس والقلب الشجى ، وإن كان وترها لا يزال صادراً عن قيثارته التى تعودت أن تصدح بالأنغام المطربة والأهزاج المرحة فى المحافل الصاخبة .

هذه هى صورة الفنان التى تصورته عند قراءة قصة « نداء المجهول » ، وهى الصورة التى خيل إلىّ أنها صورة الأستاذ محمود تيمور مؤلف تلك القصة ، وهو ينتقل فى حياته الفنية من دور إلى دور ، ومن مرتبة إلى مرتبة .

لقد قرأت قصصه الأولى « الحاج شلبى » وسواها . ثم قرأت له قصصه الثانية « فرعون الصغير » وسواها ، ثم قرأت له قصته الأخيرة « نداء المجهول » ، فلم أستطع أن أصور له إلا تلك الصورة التى قدمتها بين يدى هذه الكلمة — فقد بدا فى القصص الأولى فناناً ، ما فى ذلك شك ؛ فهو يصور وهو يطرب ، وهو يدعو إلى التقدير ، ولكنى لم أتمالك أن ألمح فيه صورة فنان المجتمع الصاخب الذى لا يعبأ إلا بتصوير الحاضر المضطرب الصاخب الثائر مع الحياة (الثرية) ؛ ثم بدا فى القصص الثانية فناناً كذلك ، ولكنه كان فيها أقل صخباً وأكثر هدوءاً وأشجى نغمة ؛ ثم بدا فى القصة الأخيرة فناناً كذلك ، ولكنه كان هذه المرة فناناً من نوع جديد . لقد ترك الأنغام الصاخبة التى تصور الحياة (الثرية) ، وقصد إلى المراعى البعيدة عن الضجيج ، وإلى الغابات الحافلة بالروح والمعنى العميق ، وإلى الجبال الجليلة التى تلهم وتسمو بالنفس ؛ وهناك أطلق لنفسه العنان ، فأخذت تشدو بأنغام جديدة فى تركيبها ، وإن كانت هى فى طبيعتها صادرة عن القيثارة الأولى نفسها .

لقد أخذت على الأستاذ تيمور فى صفحة كتبتها من قبل فى (الثقافة) أنه يصور الواقع ويقف عنده ، وأنه يكتب فى دائرة خاصة من المجتمع ، تلك الدائرة الأرستقراطية التى نشأ فيها ؛ وتساءلت : « هل تقف مهمة الأديب الفنان عند حد تصوير الواقع بما فيه من خير أو شر ؟ » ، ثم تساءلت : « أليست للأديب رسالة يسوقها إلى الناس يحاول أن يرتفع بهم إلى مثله الأعلى ؟ »

وكنت أرى وأنا أسأل هذين السؤالين أن الأديب المصرى فى حاجة إلى مثل (تيمور) ليشير إلى الآفاق العالية من الفكر ومن العاطفة ، وأن وظيفة الأديب الفنان أن يكون فى قومه فى مقام الحادى إلى الأمام ، لا فى مكان العازف بأنغام الرقص والطرب ، ولا فى مكان المصور الذى يكتفى بتمثيل الواقع ، وترك الصورة بعد ذلك للناس لينظروا إليها ، لا يريد منهم أكثر من النظر إليها والتملى بحسنها والإعجاب ببراعته فى تصويرها . كنت أرى كل ذلك وأتمنى لو أجاب تيمور بإشارة نحو المثل الأعلى يحرك بها الفكر أو العاطفة ، وإن كنت فى قرارة نفسى أحسب أنى أتمنى شيئاً لا يمكن إدراكه ، أو أنى أرجو تحولاً تأباه طبيعة الفنان وتنفر منه ميوله الخاصة ؛ ثم قرأت « نداء المجهول » . . . أو بدأت أقرؤها . هاهى « مس إيفانز » الشخص البارز فى القصة . هى « مس إيفانز » السائحة الفرنجية !.

« مس إيفانز » أيضاً . بعد « مس كلارك » فى فرعون الصغير ! وقلت لنفسى متأسفاً : « إن هذا الفنان لا يبرأ من تصويره الأرستقراطى البعيد عن روح مصر ، وعن روح شعب مصر ! .

ثم واليت القراءة . عجباً ! إن « مس إيفانز » هذه تمثل ناحية عجيبة من الحياة . إنها إنسان بعد كل شىء . إنها قطعة من الإنسانية التى تمتّ إلينا بصلة كبرى برغم شخصيتها الأجنبية .

ثم واليت القراءة . ما أعجب هذه السيدة ! إنها تمثل ناحية عميقة من الفكر الإنسانى . إنها ليست أجنبية بل

هى أقرب إلى نفسى من أشخاص الحياة . إنها فكرة أحياها الأستاذ تيمور فصارت شخصاً .

ولست أستطيع أن أمنع نفسى من أن أظهر عجبى ، أو إن شئت قلت إعجابى بمقدرة تيمور على التصوير . لقد شهدت له بذلك من قبل . ولكنه كان يصور من قبل أشخاص الحياة الواقعية تصويراً بارعاً ، وهو فى القصة الأخيرة إنما يصور حياة خيالية . إنه يصور فيها قصراً خفياً مسحوراً فى الجبال . ويصور حجره أو حجوره ، وما فيه من أسرار ، كأنما هو يصور شيئاً رآه بعينى رأسه . فإن الصورة واضحة ، أكاد أقول إنى رأيتها بعينى .

أليس هذا هو مستوى كاتب مثل (ريدر هاجرد) أو (كونان دويل) أو (هـ . ج . ولز) ؟ أرجو المعذرة إذا قلت إن تصوير القصر المسحور فى هذه القصة لا يقل براعة عن تصوير (ريدر هاجرد) فى قصة (كنوز الملك سليمان) أو فى قصة (عائشة) . ثم انتهيت من قراءة القصة . وأى زفرة بعثتها عند ذلك ! لقد مس الأستاذ من النفس أعمق أعماقها ، عندما عاد بالمس إلهام إلى (القصر المسحور) فى ثنايا الجبال الوعرة ، تاركه وراءها العالم الصاخب بما فيه من مغريات ولذاذات ، لكى تنعم بالحياة الحقيقية التى امتلأ قلبها بها .

وبعد ، فقد يقول القارئ : « وما هذه القصة ؟ » . وقد يقول قائل : « أما كان ينبغى لناقد القصة أن يصفها أو يلخصها قبل أن يتحدث عنها ؟ » ولكن مالى وذلك ؟ فإنى لو فعلت لذهبت بكثير من روائها وسحرها . فليس ينبغى أن يغفل قارئ فى العربية أن يقرأها ويجنى ما فيها من متعة .

وإلى الأستاذ تيمور شكر العربية على جهاد جديد .

محمد فريد أبو حديد

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٥٢ — الثلاثاء ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٨ — ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الأولى

الفهرس

قدس المعاهدات

للدكتور محمد عوض محمد

فى هذا العصر العجيب ، الذى بسط فيه الانسان سلطانه على قوى الطبيعة ، يُصرفها كيف شاء ، ويسخرها فى تحقيق أغراضه ومشتهياته ؛ أليس من الغريب وسْطَ هذا التقدم الباهر الهائل ، أن يظل عاجزاً هو نفسه عن أن يجارى فى التقدم تلك المنشآت التى استحدثها هو وابتكرها ؟ ذلك النور الساطع الذى انبعث من العقل البشرى ، فكشف عن أسرار الطبيعة كلَّ غامض خفى ، قد غادر ركناً واحداً شديد الظلمة والحلكة ، وهو روح الانسان ، أى أشد الأشياء قرباً منه والتصاقاً به . أليس ابتكار الطيران والبخار والكهرباء ، قد محا الأبعاد ، وقرب بين البلاد ؟ فلماذا نعجز عن التقريب بين القلوب ، والربط بين الشعوب ؟

لا نريد أن نُسرف أو نغلو فى القول ، فمن الجائز أن يقال لنا إن أخلاق الأفراد قد ارتقت اليوم عما كانت عليه فى الأزمنة الجاهلية العتيقة ، ولا نريد أن نجادل فى هذا الآن ، وإنما نحاول فى هذا المقال أن نعرض الأخلاق

الدولية، أى الأساس الخلقى للعلاقات التى تربط بين الدول .

لو أن مؤرخاً قديراً استطاع أن يدرس ظاهرة العلاقات بين الجماعات، والنواميس التى خضعت لها منذ نشأتها إلى وقتنا هذا، لكان هذا بحثاً ممتعاً شائقاً . ولكننا هنا نكتفى – على قدر طاقتنا – بناحية واحدة من تلك العلاقات، وهى المعاهدات ورعايتها، ونقصر الكلام على الأزمنة الحديثة دون سواها .

من البديهى أن إخلاف الوعد إذا شاع فى مجتمع عمّته الفوضى، وشمله الارتباك والانحلال من جميع نواحيه، ولهذا نرى العرف يقتضى الناس فى الوعود الخطيرة التى يرتبطون بها أن يحتفلوا لهذا العهد المقطوع احتفالاً خاصاً، بأن يدلوا بقسم، أو يثبتوه بالكتابة وبشهادة الشهود؛ لأن المجتمع رأى أن بعض الوعود المقطوعة لا تحتمل النقض، ويجب أن تحاط بسياج منيع من الحرمة والقدس .

وكذلك تحتفل الدول، وتستعد للتعاهد والتحالف بمختلف الوسائل والمظاهر، فمن مفاوضات طويلة مضنية تستغرق الأسابيع والأشهر، إلى وثائق يتعب فى تحريرها الساسة ورجال القانون، إلى حفلات تقام لامضاء هذه الوثائق، إلى تصديق الهيئات النيابية التى تمثل الأمم، إلى تبادل الزيارات بين قادة الأمم ورؤسائها لتوكيد التعاهد، وإظهار ما اشتمل عليه من شرف وإخلاص، إلى خطب تلقى، وبيانات تصدر . . .

بعض هذه المظاهر أو كلها يُلجأ إليه لكى لا يكون هنالك أدنى شك فى أن هذا العهد المقطوع ليس بالشىء الذى ينقض فى سهولة وبغير اكتراث؛ وهذه المظاهر لم تنقص فى العهد الحديث عما كانت عليه فى العهود السابقة، بل لعلها ازدادت كثيراً عما كانت عليه فيما مضى، وكان مقتضى المنطق أن يكون الحرص على شرف التعاهد قد ازداد أيضاً بازدياد تلك المظاهر . غير أننا نحس جميعاً أن الحال بخلاف ذلك، وأن شرف التعاقد لا يستند اليوم إلى أساس من الخُلُق الدولى أمتن وأثبت مما كان عليه فى القرون السابقة .

ليس معنى هذا أن العهود لم تكن تنقض، والوعود لم تكن تخلف قبل الحرب العظمى، ولكن ليس من شك فى أن هذا الأمر كان بمثابة الشذوذ، وهو اليوم يوشك أن يكون القاعدة : ويكاد الوفاء بالعهد اليوم أن يكون هو الظاهرة الشاذة؛ فكأن الأخلاق الدولية قد جارت عصر السرعة الذى نعيش فيه اليوم فى أمر واحد، وهو سرعة نقض الوعد، الذى لم يمض على التفوه به أشهر، والمعاهدة التى لم يكد حبرها أن يجف .

لقد دهش الناس منذ نحو شهرين حين رأوا تركيا تأبى أن تجيب روسيا إلى ما طلبته من إغلاق المضايق لبوارج الدول الأجنبية، لأن هذا يناقى ما بين تركيا وبين بعض الدول من المعاهدات، وقد عجب الناس من أن تنفرد تركيا فى هذا الزمن الذى شاع فيه إخلاف العهود بالحرص على الوفاء، وأن ترفض لروسيا هذا الطلب، مع أنها حريصة على صداقة روسيا، وليس من مصلحتها فى شىء أن تجابه جارتها العظيمة أو تعاديها، وعلى الأخص فى هذا الوقت العصيب الذى تتمسك فيه بعض الدول بالقول المشهور : « من ليس منا فهو علينا . »

من الجائز أن يكون هنالك اختلاف فى الرأى فى أن مسلك تركيا قد أملته المصلحة أو الوفاء بالعهود، ولكن ليس من شك فى أن هذا العمل كان ذا أثر حسن فى نفوس الذين يرقبون الأخلاق الدولية، والذين هالهم ما اعتراها من الضعف والفساد .

ونحن فى مصر منذ زمن بعيد نطالب بريطانيا بأن تفى بوعدها بالجلاء عن أرض مصر، وليس من شك فى

أن هذا الإصرار من جانبنا قد كان له أثره في نفوس رجال السياسة البريطانية . فنحن نرى اللورد ملنر يقول في تقريره المشهور سنة ١٩٢١ :

« إننا قد رددنا دائماً وعداً بأن تصبح مصر دولة مستقلة . ورأيي أن الوفاء بهذا العهد لا يحتمل التأجيل » .

ولم تزل العلاقات بين مصر وبريطانيا تنتقل من طور إلى طور ، حتى انتهت إلى معاهدة بدلا من الوعود التي كان يدلي بها أحد الطرفين .

والذي نرجوه اليوم ، ونلح في الرجاء ، أن تعمل كل من الدولتين على الوفاء بكل نص من نصوص هذا العهد بمنتهى الدقة والإخلاص . وليس تحقيق هذا الأمل مقصور الفائدة على ما تجنيه مصر وبريطانيا من تنفيذ نصوص المحالفة ؛ بل هنالك اعتبار يفوق هذا الأمر خطراً ، وهو أن الصلات الدولية تعاني اليوم أزمة عنيفة توشك أن تودي بالبقية الباقية من الشرف الدولي ؛ ولا بد لإنقاذها من بذل جهود جبارة في تغليب الوفاء والصدق على المصلحة العاجلة .

***

لقد خلقت الحرب الكبرى التي دامت أربعة أعوام ، وقسمت العالم إلى معسكرين متناحرين ، جواً من البغضاء والكراهية ازداد كثافة وشدة على مدى الزمن ؛ وكلما انتقلت تلك الحرب من دور إلى دور ، ازدادت نار البغضاء اشتعالا ، وزاد حقد فريق على فريق ؛ وفي هذا الجو المسمم عقدت معاهدات الصلح ، التي لم يكن بد من أن يغدو نصيبها من الثبات والبقاء ، نصيب تلك العواطف التي ولدتها ، والظروف التي خلقتها ، وكان المعقول أن تسلك الدول خطة مثلى في تعديل تلك المعاهدات وتلطيف حدتها ، بالتفاهم والمباحثات والمفاوضات ، وهذا الاتجاه السلمي لتنقيح تلك المعاهدات ، قد ظهرت آثاره فعلا ؛ ومن المغالطات الشائعة في وقتنا هذا ما نسمعه من أن معاهدات الحرب الكبرى هي السبب الوحيد فيما نشاهده اليوم من انحلال الأخلاق الدولية ، وخيانة العهود المقطوعة . فإن أكثر هذه العهود لم يكن يمت إلى معاهدات الصلح بأدنى صلة . وإلا فأي صلة بين معاهدات الصلح وبين إغارة اليابان على منشوريه ، أو إغارة إيطاليا على الحبشة ، أو اقتحام اليابان لبلاد الصين ؟

إن معاهدة فرساي وصواحبها كانت معاهدات رديئة ، ولكن يجب على المنصف ألا يسرف في أن يعزو إليها ما هي بريئة منه ؛ وفي الواقع أن هذه المعاهدات قد بدىء في تعديلها فعلا بالوسائل السلمية كما نراه في معاهدة لوكارنو التي أدخلت ألمانيا إلى حلقة التعاون الأوربي ، وكذلك الاتفاق المالي الذي أعفيت بمقتضاه ألمانيا من دفع ديونها قبل الحكم النازي ، ثم المحالفة البحرية بين ألمانيا وبريطانيا التي عقدت في عام ١٩٣٥ والتي استطاعت ألمانيا بمقتضاها أن تبني أسطولا قوياً .

إن قليلا من التأمل يرينا أن هذا العبث بالمعاهدات ، وهذا الانحطاط الظاهر في الشرف الدولي لا يمكن أن يعزى كله — حتى ولا جله — إلى معاهدات صلح سنة ١٩١٩ ، فإن الحرب الكبرى نفسها قد بدأت بانتهاك حرمة بلجيكا وبنقض عهد مقدس قطعته الدول باحترام حياد هذه الدولة ؛ وأخذنا نسمع منذ ذلك الحين ذلك الوصف العجيب للمعاهدات بأنها « قصاصات من الورق » ؛ وذلك قبل معاهدات الصلح بأكثر من أربع سنين .

وقد كانت الحرب فاتحة لسلسلة من الاتفاقات الغريبة المريبة التي عقدتها الدول ترغيباً لبعضها في دخول الحرب ، فكثرت الوعود الخلابة ، وكيلت الهبات من الأراضي والمقاطعات كيلا ، دون أن يفكر أحد في إمكان الوفاء بمثل تلك العهود .

ثم انتهت الحرب وأنشئت عصبة الأمم لتكون فاتحة عهد جديد يكون قوامه الشرف الدولي والاخاء بين الشعوب ؛ وكان من أول العاملين على إنشائها رئيس الولايات المتحدة ولسون . فاذا البرلمان الأمريكي يهدم ما بناه الرئيس ، وينقض الوعد الذي وعده ، وتخلت أمريكا عن العصبة ، فضربتها في كيانها ضربة لم تفق منها إلى اليوم .

واستدانت الدول من أمريكا قروضاً عظيمة ، وتعاقدت معها على الوفاء بهذه الديون ، وكانت ثلاث عشرة دولة ، لم يثبت على الوفاء بالدين منها سوى أصغرها وأقلها ديناً وهي فنلندة . أما الدول الأخرى فقد انقطعت عن تسديد ديونها دون أن يكون هنالك طارئ جديد يبرر مثل هذا المسلك .

ثم جاء عهد الدكتاتوريين العظام ، وما امتاز به هذا العهد من غلو في المطامع وإسراف في إشباع شهوة كل دولة على حساب الدول الضعيفة . وفي هذا العهد نرى ثلاث ظاهرات جديدة في انتهاك حرمة الاتفاقات ، وازدراء المعاهدات تستحق التسجيل .

الظاهرة الأولى : الإغارة على دولة مستقلة ذات سيادة من غير إعلان حرب . وهذه البدعة أريد بها ألا يكون هنالك مخالفة رسمية للمعاهدات المعقودة . وتكملة لهذه البدعة تقام حكومة مصطنعة في ناحية من النواحي ، ويُعترف لها بأنها هي الحكومة صاحبة الشأن ؛ أما الحكومة الشرعية فلا يعترف بها ، وتشن عليها الحرب . وهكذا نرى اليابان تغير على منشوريا ، وتقيم فيها حكومة منشوكو ، وتغير إيطاليا على الحبشة ، وتقيم في ركن منها حكومة لرئيس من الرؤساء الخاملين . وأغارت اليابان مرة أخرى على دولة الصين ، وأقامت حكومة هزيلة في القطر الشمالي منها . وها نحن اليوم نشاهد هذه البدعة تظهر مرة أخرى في فنلندة ، فتؤسس روسيا ما تسميه « حكومة » في إقليم ضئيل حقير على الحدود الروسية الفنلندية ، وتأخذ في مفاوضة هذه الحكومة ، وفي عقد الاتفاقات معها إلى آخر الرواية التي أصبحت مألوفة .

والظاهرة الثانية ، التي امتاز بها هذا العهد الجديد ، هي أن يقطع الدكتاتور على نفسه عهداً لكي يخدر به أعصاب فريسته ، وهو يعلم حين قطع ذلك العهد أنه ما أدلى به إلا لينقضه ، وما أمَّن فريسته إلا لكي يغدر بها .

وهنالك فرق كبير بين معاهدة تعقد بإخلاص ، ثم يبدو لأحد المتعاقدين أن ينقضها ؛ وبين عهد لم يُقطع إلا كجزء من سياسة العدوان المُبَيَّتَة . وقد تكررت هذه الظاهرة مراراً في السنوات الأخيرة . حتى أصبح كل تصريح يصدره الدكتاتور القوي بأنه لن ينوي الاعتداء على جارة ضعيفة ، بمثابة نذير بالويل والثبور لتلك الدولة المستضعفة .

والظاهرة الثالثة أننا نرى المعاهدات نفسها قد أصبحت ضرباً من ضروب العدوان ، الذي ينتحل اسم الصداقة ، فتعقد الدولة القوية مع الدولة الضعيفة معاهدة أو محالفة تفقد بها هذه كل أثر من آثار استقلالها ، وتجعل منها آلة تسخرها الدولة القوية لإنفاذ مطامعها ورغباتها . ومثال سلوفاكيا ودويلات البلطيق أوضح من أن يشار إليه .

***

إن بعض هذه الظواهر ليس جديداً بالمعنى الصحيح ، فقد استُخدمت هذه الوسائل زمناً طويلاً في الميدان الاستعماري للحصول على مزايا وحقوق للدولة الأوربية من حاكم إفريقي أو أسيوي ضعيف . ولكن الأمر الجديد هو اتباع هذه الأساليب في أوربا نفسها ، مع دول ذات حضارة وتقدم . وإذا أمعنا النظر في تدهور الأخلاق الدولية في أوربا اليوم ، فإننا قد لا نكون مخطئين

مدرسة المروءة

للدكتور طه حسين بك

وإنى لا أقترح كما يقترح الناس ، وكما يقترح صديق أحمد أمين خاصة ، فهو قد ابتكر لنا فن السرور ، وابتكر لنا مدرسة الزوجات . وعنى الناس بفن السرور هذا عناية عظيمة ، فكتبت فيه المقالات ، ودبجت فيه الفصول ؛ وعنيت وزارة الشئون الاجتماعية ، إن صح ما قرأناه فى بعض الصحف ، بمدرسته التى أراد أن تنشأ لتخريج الزوجات عناية خاصة ، فهمّت بإنشائها ، وزعم الزاعمون ، وأرجو أن يكونوا مازحين ، أن شيئاً من تنازع الاختصاص قد ثار حول هذه المدرسة قبل إنشائها بين وزارة التعليم العام ووزارة الإصلاح الاجتماعى . فلأسلك طريق الأستاذ الصديق ، ولأقترح كما يقترح ، وإن كنت واثقاً منذ الآن بأن اقتراحى لن يلقى من العناية والرعاية مثل ما تلقى اقتراحات أحمد أمين ، لأن الناس يتلقون آراءه واقتراحاته بالقبول والحب ، ويتلقون آرائى واقتراحاتى بالخوف والإعراض ، وما أدرى أأغبط الأستاذ الصديق وأرثى لنفسى ، أم أغبط نفسى وأرثى للأستاذ الصديق ؛ وأكبر الظن أن الخير فى ألا أغبط أحداً ، ولا أرثى لأحد ؛ فرضى الناس وسخطهم فى هذه الأمور سواء ، لأنهم يرضون لحظة ثم لا يلبثون أن ينسوا ما رضوا عنه ؛ ويسخطون حيناً ثم لا يلبثون أن ينسوا ما سخطوا عليه ؛ وتستقر اقتراحات الأستاذ واقتراحاتى فى هوة عميقة سحيقة من الإهمال ، كأنها لم تكلفنا جهداً ولا عناء حين فكرنا فيها ، وحين كتبناها وأعلناها ، وتعرضنا فى سبيلها للوم أو الثناء ؛ وكأنها لم تحمل قراءنا جهداً ولا عناء فى قراءتها ومناقشتها ، ولم تثر بينهم ألواناً من الخصومة وفنوناً من النزاع . مهما يكن من شىء ، فأنى كذا خلقت كما يقول أصحاب النحو ، ومصر كذا خلقت ، فلا نستطيع لها تغييراً ولا تبديلا فى هذه الأيام على أقل تقدير ؛ ولعلها أن تتغير وتتبدل غداً أو بعد غد ، فتعنى بما يذاع فيها من الاقتراحات ، ولا سيما حين تكون عظيمة الخطر بعيدة

إذا أرجعنا بعض هذا التدهور إلى السلك الاستعمارى المعوج الملتو سلكته بعض الدول مع الجماعات التى تعدها أوربا متأخرة ومتخلفة فى ميدان الحضارة المادية . فإن ناموس الشرف والنبل ليس بالشىء الذى يحتمل أن يقاس فى أوربا بمقياس وفى آسيا بمقياس . والكف التى تتدنس مرة ، يصعب عليها بعد ذلك أن تعلن للناس طهرها ونبلها .

إن كل عمل لا ينطوى على الخير يكون له أثران خطيران : أولها أن الذى قام به اليوم يتعذر عليه ألا يعود إليه فى الغد ، والأثر الثانى أن مسلك الشر قد يكلل بما يشبه الفوز ، فيحط من مستوى الأخلاق الدولية ، ويبعث على الاستهتار بالشرف الدولى .

وقصارى الحديث أن الشرف الدولى قد تدهور فى هذه السنين الأخيرة تدهوراً شنيعاً ، تلك ظاهرة ملموسة يستحيل إنكارها ؛ ولكنها ليست بالظاهرة السهلة التفسير ، فهى عَرَضٌ لمرض متأصل ، ذى جذور ممتدة متشعبة ؛ وليس من اليسير أن نبلغ ببحثنا هذا إلى أصولها العميقة . ومن المحزن حقاً أن يكون هذا الداء قد ازداد على السنين شدة واستفحالاً . من أجل هذا بات العلاج — ويا للأسف — عسيراً بعيد المنال . . .

محمد عوض محمد

الأثر ، كاقتراح الأستاذ أحمد أمين في فن السرور ، واقتراحي في فن الحزن ، وكاقتراح الأستاذ أحمد أمين في مدرسة الزوجات ، واقتراحي في مدرسة الأزواج ، وكهذا الاقتراح الجديد الذي أريد أن أتحدث عنه اليوم ، والذي يدل عنوانه على أنه عظيم الخطر حقاً ، بعيد الأثر في أخلاقنا الفردية والاجتماعية ، وفيا يمكن أن يكون بيننا من صلات . وما رأيك في مدرسة ستخرج لنا رجالاً يستحقون هذا الاسم ، لأنهم سيستكملون خصال المروءة الكاملة ، وهذه الصفات التي تجعل الرجل رجلا ، والانسان الفاضل إنساناً فاضلا ، والتي نقرأها في الكتب الخلقية والفلسفية ، وفي الآثار الأدبية أيضاً ، فنحبها ونعجب بها ، وترضى عنها عقولنا ، وتطمئن إليها قلوبنا ، وتطمح إليها نفوسنا ؟ فاذا اضطربنا في حياتنا العاملة صددنا عنها صدوداً ، ونفرنا منها نفوراً ، ومضينا على سجيتنا ، متكلفين من الأخلاق والخصال ما يخيل إلى الناس أن لنا من المروءة والرجولة أعظم الخطر ، وإن لم يكن حظنا منها في حقيقة الأمر إلا ضئيلا نحيلا منقوصاً ؟

ما رأيك في هذه المدرسة التي ستخرج لنا رجالا يرتفعون عن الصغائر كلها أشد الارتفاع ، ويتنزهون من النقائص كلها أعظم التنزه ، ويرقون من الفضائل إلى أسمى منازلها ، حتى إذا نظرنا إليهم في منازلهم تلك التي يعيشون فيها مع المثل العليا حسبناهم ملائكة أطهاراً ، وأنكرنا أنفسنا أشد الانكار ، لبعد ما سيكون بينهم وبيننا من الآماد ؟

ثم ، ما رأيك في مدرسة ستخرج لنا رجالاً يقولون فيصدقون ، دون أن يحتاجوا إلى تكلف الصدق ، لأنه سيكون لهم طبيعة ، ودون أن يحتاجوا إلى اجتناب الكذب ، لأنه سيمحى من فطرتهم وأمزجتهم محواً . ومن يدري ؟ لعلهم أن يسمعوا لفظ الكذب دون أن يفهموا له معنى ، أو يحصلوا له حقيقة ، ويعدون فلا يعرفون إلا الوفاء بالوعد ، ولا يقدرون إلا عليه ، ولا يستطيعون التفكير إلا فيه ، ويجرون فيما بينهم وبين الناس ما يجرون من أنواع المعاملات ، فلا يكون بينهم غش ولا خداع ، ولا يكون بينهم مكر ولا نفاق ، ولا يكون بينهم تحاسد ولا تنافس ، ولا يكون بينهم تنازع ولا تقاطع ، وإنما هو الوفاء الخالص والصفاء الخالص ، والنقاء الخالص ، والامتياز في كل قول ، والامتياز في كل عمل ، والامتياز في كل تفكير ، وينهضون بالأعمال العامة ، فإذا أمانة لا تعدلها أمانة ، وإخلاص لا يشبهه إخلاص ، وقصد في السيرة ، وعدل في الحكم ، وإنصاف في الخصومة . ومن يدري ؟ لعلهم أن لا يحتاجوا إلى العدل ، لأن أمرهم كله سيكون عدلا ، ولا إلى الانصاف لأن أمرهم كله سيكون إنصافاً . ستلغى من نظامهم الحاجة إلى التحكيم ، لأن نفوسهم ستبرأ من أسباب الخصومات ، ومصادر الخلاف ؛ ستصبح حياتهم صفواً عفواً لا تشوبها هذه الآثام والخزيات التي تنغص حياتنا وتكدرها ، وتفسد آراء بعضنا في بعض ، وصلات بعضنا ببعض ، وتورطنا فيما نتورط فيه من الغش والخداع ، ومن الكيد والنفاق ، ومن التصنع والرياء .

بل سيلقون في حياتهم هذه النقية الطاهرة ، والرفيعة الممتازة ، بعض ما يسوءهم ويحزنهم حين يقرأون آثارنا ، ويتدبرون أعمالنا ، وينظرون في سيرنا ، وحين يرون ما يفسد حياتنا من هذه الآثام والنقائص ، التي لا أحتاج إلى أن أذكرها ، ولا إلى أن أصورها ، لأننا نعرفها جميعاً حق المعرفة ، ونعيش معها جميعاً أثناء اليقظة ، ونعيش معها جميعاً في أحلام الليل .

سيألمون ويا ويحهم حين يألمون ، حين يعرفون أن قد كان من آبائهم وإخوانهم الكبار قوم لم يكونوا يعرفون للوفاء طعماً ، ولا يجدون له ذوقاً ، وإنما كانت الصداقة عندهم استغلالاً للصديق ، واستثماراً لمودته ، وانتفاعاً بجاهه وسلطانه وإخلاصه ، حتى إذا مضت

الأيام ، ودارت الأرض ، وتنكر الزمان ، جحدوا الصداقة والمودة ، وأنكروا الجميل والمعروف ، وجزوا بالخير شراً ، وبالاحسان إساءة ، وبالعرف نكراً ، وبالوفاء خيانة وغدراً .

سيألمون ويا ويحهم مما يألمون ، حين يعرفون أن قد كان من آبائهم وإخوانهم الكبار قوم يصغرون ويتضاءلون حتى كأنهم النمل حين يحتاجون ، فاذا أرضوا حاجتهم ، وقضوا أوطارهم ، ضخموا وانتفخوا ، حتى كاد يدركهم من الانشقاق والانفجار ما أدرك ضفدع لافونتين فى أسطورته المشهورة ، تلك الضفدع التى رأت ثوراً فأرادت أن تكون مثله فانفجرت .

سيألمون ويا ويحهم مما يألمون ، حين يعرفون أنه قد كان بين آبائهم وإخوانهم الكبار قوم يهيئون أنفسهم للأعمال العامة ، ويسمون إليها ، حتى إذا أتيح لهم النهوض بها اتخذوها وسيلة إلى إرضاء شرههم إلى المال ، ونهمهم إلى الجاه ، وتهالكهم على السلطان ، واتخذوها وسيلة إلى التحكم والتسلط ، وإلى التغلب والتجبر ، وإلى إذلال الشعب الذى استأجرهم لخدمته ، كما يقول أبو العلاء ، وإلى الاستطالة على الصديق الذين مدوا لهم الأسباب ، ومدوا لهم الطرق ؛ وانتهوا بهم إلى حيث بلغوا من مكانة سامية أو منزلة رفيعة .

واتخذوها وسيلة إلى إرضاء أذنابهم وأسبابهم على حساب الشعب ، يتملقهم هذا الذنب فيمنحونه هذا المنصب أو ذاك ويهدون إليه هذه الميزة أو تلك ، يكافئونه من أموال الشعب ، وكان الحق عليهم أن يكافئوه من أموال أنفسهم ، ولكنهم كلفوا الخدمة فأصبحوا سادة ، وخلطوا بين أنفسهم وبين عبيدهم من خلق الله ؛ ثم واتخذوها وسائل لإرضاء أيسر شهواتهم وأدنى حاجاتهم ؛ يريد أحدهم أن يخرج للنزهة إلى مكان قريب أو بعيد ، فيخرج على حساب الشعب ، وينفق من أموال الشعب على نزهته . يريد أحدهم أن يغير البيئة وأن يروح على نفسه بالرحلة القريبة أو النائية ، فينفق على ذلك من أموال الشعب ، والفقراء يتضورون جوعاً ، والبائسون يلقون من البؤس ألوان الألم وضروب الشقاء .

سيألمون ويا ويحهم مما يألمون ، حين يعرفون أن قد كان بين آبائهم وإخوانهم الكبار قوم قد برئت قلوبهم من الحب ، فبرئت من كل عاطفة كريمة أو خلق نبيل ؛ ولكنهم مع ذلك برعوا فى المكر والخداع ومهروا فى الغش والنفاق ، حتى خيلوا إلى العامة وأشباه العامة أنهم مثل الطهر والنبل وصور الشرف وكرم النفس ورسل الحب والمودة ؛ وعاشوا على ذلك مطرقين ينفثون السم كما تنفثه الحيات فى بيت تأبط شرا ، ينتظرون أن تتيح لهم الظروف فريسة يحكمون فيها أنيابهم الحادة وينفذون فيها سمهم القاتل ويتمثلون بعد ذلك قول الشاعر القديم :

وأطرقُ إطراق الشجاع ، ولو يرى
مَساغاً لنابيه الشجاعُ لصمما

سيألمون ويا ويحهم مما يألمون ، حين يعرفون ذلك وأمثال ذلك من آبائهم وإخوانهم الكبار ؛ ولكم سينعمون وما أسعدهم بما ينعمون ! حين يرون أنهم قد ارتفعوا عن نقائص آبائهم وإخوانهم وبرئوا من آثام آبائهم وإخوانهم وطهرت قلوبهم ونفوسهم وضمائرهم من رجس آبائهم وإخوانهم ؛ وأصبح آباؤهم وإخوانهم لهم عبرة وموعظة ومرآة يتظرون فيها فيرون الصغر والضعة والهوان ، ويحمدون الله على أنهم قد كبروا وارتفعوا وعزوا ، وينظرون إلى الحياة باسمين لها راضين عنها مستزيدين منها مبتغين فيها الوسيلة إلى الخير وإلى الخير وحده ، ذلك الذى لا يشوبه شر ولا إثم ولا فساد .

ما رأيك فى مدرسة ستخرج لنا هؤلاء الرجال ؟

ألست تراها خليقة أن تقترح ؟ ثم ألست تراها إذا اقترحت خليقة أن تظفر بعناية المفكرين والكاتبين ؟ ثم ألست تراها إذا ظفرت بتأييد الكاتبين والمفكرين خليقة بعناية الحاكمين والمسيطرين حتى تنشأ ويدخل فيها الشباب أفواجاً ؟

أما أنا فما أشك فى أنك ترى فى هذا الاقتراح رأيى وتحرص على هذه المدرسة حرصى وتلح فى إنشائها كما ألح .

ثم ولكن تلح على من ؟ هنا يظهر تنازع الاختصاص ، وهنا تظهر عقدة العقد المعقدة تعقيداً ، كما كان يقال فى بعض القصص التمثيلية المضحكة منذ أعوام !

من ينشىء هذه المدرسة ، ويقوم على أمورها وأمور المختلفين إليها من الشباب ؟ رجال السلطان المدنى أم رجال السلطان الدينى ، وبين أصحاب السلطان المدنى وزارة المعارف أم وزارة الشؤون الاجتماعية ؟ من يضع لها البرامج والمناهج ؟ وكيف توضع برامجها ومناهجها ؟ من يؤلف لها الكتب ومن ينهض فيها بأعباء التعليم ؟ من يكون لها ناظراً أو مديراً أو عميداً ؟ ماذا تعطى من الدرجات والاجازات ؟ أتكتفى بالليسانس ، أم تصل إلى الماجستير ، أم ترقى إلى الدكتوراه ؟ وما عسى أن يصنع الظافرون بدرجاتها ؟ وما عسى أن تخصص لهم الدولة من المناصب ؟ وما عسى أن تعين لهم من المرتبات ؟ وفى أى كادر يوضعون ؟ أفى الكادر الفنى ، أم فى الكادر الكتابى ؟ مشكلات كما ترى منيفة لا يستطيع حلها إلا صديقنا أحمد أمين الذى نفزع إليه فى حل المشكلات ، فليعتمد على الله ، وليشمر عن ساعد الجد كما يقال ، وليفرغ لهذه المشكلات يوماً أو بعض يوم ؛ ولست أرى بأساً بأن يؤلف لها لجنة إن أراد ، لتدرسها وتضع فى نتائج درسها تقريراً . ولكن بالله إلى من يرفع هذا التقرير ؟ . . .

طه حسين

فن الاعـــلان !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

وهل بقى من لا يؤمن بأن الاعلان أصبح فناً له ، كسائر الفنون ، قواعد وأصول ؟ بلى ! هو فن له أثر وله خطر ، يتدارسه طلابه ويستذكرون مسائله وقضاياه ، ويراجعون الأساتيذ فيما يشتبه عليهم من تلك المسائل ، ويتبارون فى حذقه وتجويده ، حتى يبلغ بعضهم فيه رتبة العبقرية والنبوغ .

وما للفن الاعلان لا يكون له هذا الشأن وأجل من هذا الشأن ، وهو الوسيلة الفذة إلى تحريك التجارات ونفاق الأسواق ، وإيتاء الغنى ، وذهاب الصيت فى كل مكان . بل لقد يكون إحسان الاعلان أهم الداعيات إلى ميل جماعات الدول إلى دولة ، وصفو قلوب الأمم إلى أمة ، واستلطافها على عدوها مهما يكن خطبه . ومن شأن هذا العطف وهذا البغض أن يبعث على الإمداد بألوان المعونة المادية من جهة ، والكيد بالمنع والمضارة من الجهة الأخرى ، مما يُسعد على النصر ، ويعجل للخصم الغلب والقهر .

ورُوى أن سائلاً سأل الثرى العظيم المستر فورد صاحب مصانع السيارات المعروفة باسمه : لو تجردت من الغنى ، ولم يبق فى يدك إلا ألف جنيه ، فما عسى أن تصنع ؟ فقال : أخرج منها أولاً سبعمائة وخمسين للإعلان ، وأستأنف السعى فى الحياة بالباقى !

ولقد أدركت مصر حظ فن الاعلان وأثره البعيد فى المطالب الخاصة والعامة ، فجعل سكانها ، أو من يعنيهم الأمر من سكانها ، يتبارون فى تجويد الاعلان ، ومد رواقه ، وبسط آفاقه ، حتى بذوا الأمريكان ، وكانوا مضرب المثل فى هذا الشأن !

وأرجو ألا تتعاظمك هذه الدعوى ، فتتعجل بالحكم على بالتزيد أو الغلو ، فسأقيم لك الدليل ، إن شاء الله !

ولنمض أولاً فيما كنا فيه من أثر الاعلان ، سواء فى استخراج الأموال ، أو فى استخراج العواطف بشتى الأساليب . ولقد تكون ماضياً فى طريقك ، ما بك أن تشترى أى شىء ، فيميل بصرك إلى معرض من معارض بعض الدكاكين (الفترينات) ، فتستهويك بعض السلع المعروضة بجمال شكلها ، بل بجمال وضعها ، فى بعض الأحيان ، فتتقدم لابتياعها ، مهما يجشمك الثمن . وهذا كما أسلفنا من أثر جودة الاعلان .

ولست بحاجة إلى من يقول لك إن جميع مدن المملكة المصرية ، لا فرق بين كبيرها وصغيرها ، ودانيها وقاصيها ، أصبحت تزخر بفنون الاعلانات . فهذه الصحف السيارة ، والمجلات الدورية وغير الدورية ، تسيل أنهارها بالاعلان . وهذه جدران المبانى العامة والخاصة لا يكاد يرى متر مربع فيها من الاعلان ، بين مطبوع على الأوراق ، أو مكتوب على الحائط ، أو متألق فى أعلى المبانى بنور الكهرباء . دع آلاف الاعلانات التى يلقاك بها الموزعون فى كل سبيل . والاعلانات الصوتية (الميكروفون) التى تجول بها السيارات فى الطرق والأسواق الخ الخ .

ومن أطرف ما يذكر فى هذا المقام أن للحكومة معهداً كبيراً ، يقع على شارع من الشوارع الرئيسية فى قلب القاهرة ، وسور هذا المعهد يمتد إلى مسافة كبيرة من جانب الشارع . وقد بدا للقائمين على تكليفه (بياضه)

أن يبالغوا في تزيينه وتبهيجه ، بتقسيمه إلى مربعات متساوية المساحة . ولم يمض على هذا التزيين والتبهيج بضعة أسابيع ، بل بضعة أيام ، حتى كانت جميع هذه المربعات (محلاة) بالإعلانات المختلفة ، ماخلا مربعاً واحداً لا أدرى لماذا ترك المسكين عرياناً ، لا أثر للنقش ولا للكتابة فيه !

فهناك الهلك ، والبيد ، والبط ، ووربش المعدة ، وطروش النسر الخ الخ . ومن العجيب أنها كلها مكتوبة بالحبر الأسود وبارداً الخطوط ، حتى يخيّل إليك أنها منضوحة بماء الحبر نضحاً لم تجر بها أنامل ، أستغفر الله ، بل أكف الكاتبين !

وطال الزمن على هذا ثم طال . وأخيراً يظهر أن القائمين على شأن هذا المعهد الحكومى قد عزّ عليهم أن يبقى ذلك المربّع فذاً بين سائر المربعات ، فاستخاروا الله وكتبوا فيه : « ممنوع لصق الإعلانات !! »

* * *

ولقد زعمتُ لك أن مصر قد برعت أمريكا ، فضلاً من أوربا ، في فن الإعلان ، واستنطرتك الدليل ، فها كه الآن .

لعلك تعرف ، ولعلك لا تعرف ، أن الأطباء لا يعلنون عن شأنهم بأية وسيلة من الوسائل في بعض البلاد الأوربية . ولا شك في أن هذا من الجهل بفن الإعلان ، الناشئ عن الجهل بفوائد الإعلان ، فإذا أحلت الأمر على أن القانون في تلك البلاد يحظر الإعلان على الأطباء ، فما كان عسيراً عليهم ، لو أرادوا ، السعى إلى إلغاء هذا القانون ، ليُفيدوا ، ما شاء الله ، من طيبات الإعلان .

أما عندنا فعوق إعلانات الأطباء والمحامين في الصحف السائرة وغير السائرة ، فلقد ترى (اليافطة) الطويلة العريضة مرفوعة على ساريتين تطاولان السحاب ، وهذه على جانب الشارع الرئيسى ، ثم أخرى على مدخل الشارع الفرعى ، ثم ثالثة على ناصية المنعطف ، ثم رابعة على صدغ العمارة ، وكلما انعطف بك السلّم رُفعت لبصرك (يافطة) ، وهكذا حتى تبلغ باب العيادة أو المكتب ، فإذا هو مرصّع بجمهرة من (اليافطات) المختلفة الأشكال والخطوط والأحجام .

ولا يبعد أن يتقدم فنّ الإعلان في بلادنا حتى يخترع شباكاً سحرية تصطاد الزبائن ، وتسحبهم في لطف ودعة ، حتى تصل بهم إلى العيادة أو المكتب في أمان ، وما شاء الله كان !

وأبدع من هذا وأبرع ، أن يعلن الطبيب أنه إذا لم يَشف من المرض في ٤٨ ساعة فقط ، فإنه يردّ إلى العليل ما دفع من النقود .

أرأيت مثلاً أبلغ من ذلك في الكفاية ، والثقة بالنفس ، والتمكن من الفنّ ، والقدرة المستيقنة على شفاء العلل ، مهما تعاصت في ٤٨ ساعة لا تزيد ولو دقيقة واحدة من الزمان ؟

ولولا فضل الإعلان ما تسنّى للذين ضربتهم العلل ، وقست عليهم الأسقام ، وألحت الأوجاع والآلام ، أن يبرؤا من عللهم ، ويتخلصوا من آلامهم وأوجاعهم في مثل هذا الزمن اليسير ، والشفاء مكفول ، وإلا فالمال مردود ، وموفى غير منقوص .

ومن الآيات التي تشهد لمصر بالبراعة والتفوّق ، في فن الإعلان ، أنك ترى صاحب مصنع الأثاث مثلاً يجلو صورته هو بدل أن يجلو عليك صورة كرسى ، أو سرير ، أو تربا ، أو صندوق ، أو نضد (ترابيزة) ، فإن الانسان ، من غير شك ، أكرم وأشرف من كل ما على وجه الأرض من صنع الانسان . ثم إنه ، من غير شك أيضاً ، أحسن خلقاً وأجل شكلاً من كل ما أخرجت مصانع الشرق والغرب ، من فاخر السرر والكراسى والصناديق والتربيات والأنضاد . أليس قد قال الله تعالى في كتابه الكريم : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » صدق الله العظيم .

المثـــــــل الأعلى

يقول سبينوزا : « صور لنفسك دودة صغيرة تسبح في الدم ، لها من قوة الابصار ما تستطيع أن تميز به عناصر الدم التي تسري فيه ، ومن قوة الفكر ما ترى به كيف أن كرات الدم يكافح بعضها بعضاً ، وتؤثر إحداها في الأخرى . . . إن مثل هذه الدودة تعيش في الدم كما يعيش الانسان على وجه الأرض ، فهو لا يرى العالم جزءاً من الكون العام ، بل يحسبه وحدة كاملة مستقلة ، لا علاقة لها بغيرها من أجزاء الكون الأخرى ! وهو لا يدرك أن كل كائن يخضع لتأثير الطبيعة الشاملة ، ويتصل بغيره على نحو ما تريد هذه الطبيعة ، ويتعاون معه وفقاً لقانون الطبيعة » . ومغزى هذه العبارة — وهي خلاصة فلسفة سبينوزا بأسرها — أن الانسان ينبغي له أن يحيا ويتحرك ويقضي حياته متأملا في الكون اللانهائي غير المحدود ، لا في هذا العالم النهائي المحدود ، كما ينبغي له أن يفكر في حدود الجماعة المتحدة ، لا في حدود الفرد المستقل . أو بعبارة أخرى أن الانسان لا ينبغي له أن يعيش كالدودة في الدم ، بل كالفراشة التي تضرب بجناحها في أجواز الفضاء . وهذه الحياة تقتضيه أن يضرب لنفسه مثلا أعلى يعمل على تحقيقه ، ويرفع بصره أبداً إليه ، مثلا أعلى يخرجه من حدود فرديته وشخصيته إلى حدود أوسع أفقاً وأبعد مدى .

هذا ما يرمي إليه سبينوزا ! ولا ريب أن من الخير للانسان أن يعيش كالفراشة تحلق في الفضاء ، وتشرف من علٍ ، لا كالدودة ذات البصر المحدود والنطاق الضيق . ولكن هل تستطيع الدودة أن تستحيل إلى فراشة ؟ هل هذه المعجزة في حدود للقدرة الانسانية ؟ إن الدلائل جميعاً تشير إلى استحالة تحقيق هذا المطلب العسير . ثم إن العقل المجرد — بشيء من إعنات الذهن — يستطيع أن يتصور وحدة الوجود غير المتناهية التي تمثل وحدها الحقيقة الأبدية . ونستطيع — في شيء من الجهد — أن نتصور أن هذه الوحدة لا تتجزأ ، وأن هذا العالم الذي نعيش فيه ، والذي يتميز بالفروق وأوجه الخلاف ، إن هو إلا وهم باطل . وإننا نستطيع كذلك — في شيء من العسر — أن نرد الزمان والحركة إلى دائرة الوهم ، وأن نحسبهما من الأباطيل التي يتخذها الانسان وسيلة لفهم هذا الكون الفريد الذي لا يتحرك زماناً ولا مكاناً . نستطيع هذا وغير هذا ، ولكن بشيء من المجهود الذي لا يتيسر إلا في لحظات الالهام والوحي ، وذلك حين يخرج الانسان من قيود عاداته في الفكر والاحساس والشعور ! وحتى لو استطاع الانسان — بعد كل هذا المجهود — أن يتصور بعقله الكون اللانهائي ، وارتباط كل جزء منه بالآخر ، فما إخاله بقادر

أما التبرز في العبقريات ، وإصابة غاية الغايات ، ففي التفات صاحب المطعم عن أن يصور في إعلانه عن طعامه حملاً مشوياً ، أو أرنباً برياً ، أو ديكاً رومياً ، أو سمكاً طرياً ، أو (طاجناً) مربياً ، أو تمراً جنياً ، أو كعكاً شهياً ، أو نحو ذلك مما يزعمون أنه يبعث الشهوة إلى الطعام ، ويحفز المعدة للازدراد والالتقام . بل تراه يلتفت في إعلانه من هذا الكلام الفارغ ، ويصور شخصه هو ، وعلى ثغره ابتسامة أحلى وأشهى من كل ما أنضجت الأفران ، من حلوى وسمك وألوان ، ومن كل ما حملت الأغصان ، من فاكهة ونخل ورمان !

أصدقت ، بعد هذا ، أننا قد بذذنا الأمريكان في فن الاعلان ؟ ! !

عبد العزيز البشري

على أن يحيا فى هذا العـالم الجديد ، لأن الانسان يعيش بجسمه ، والجسم يأبى بطبيعته إلا أن يتميز عن غيره من الأجسام ، ويستقل بنفسه وبحركته ، وليس على وجه الأرض ما يستطيع أن يوهم الجسم بأنه مخدوع ، وأنه فى حقيقته جزء من كل .

يقول (ألدوس هكسلى) إن العقل قد يصيح بالجسم قائلاً له : « إنك غير موجود . إنك لست فى مكانك . إنما أنت ثمة فى المـادة غير المحدودة . هناك حقيقة واحدة : وهى وَحدة الوجود . إن فرديتك المـادية هذه التى تتوهمها تناقض الحقيقة العليا . إنما وجودك غير موجود » . فلا يحير الجسم جواباً ، ولكن حركة يسيرة فى معدته تذكره بأن موعد الغداء قد حل فيذكر صاحب الجسم قول (بليك) Blake : « إفعل ما بدا لك ، إنما هذه الدنيا خيال ، وهذا العالم قوامه التناقض » .

إنما هذه الدنيا — خيالاً كانت أو حقيقة — هى الدنيا التى نعيش فيها ، وإنّا لا نستطيع أن نفر منها ، وإن استطعنا فى لحظات خاطفة ، وبعقولنا دون جسومنا ، وما دام الإنسان لا يستطيع أن يفر من هذا العـالم الموهوم ، فواجبه أن يستغله على قدر ما يستطيع ، وأن يستمد من هذه الضرورة متعة ومنفعة . أراد الله بالانسان أن يعيش عيش الدود ، فلنكن كذلك ، بل لنكن كالديدان بكل ما فينا من حماسة ، ولنبذُل جهداً ما وسعنا البذل ، حتى نبلغ (بالدودة) حد الـكمال ، لأن الدودة الطيبة خير من ذلك المخلوق الشاذ ، الذى يتحول إليه الإنسان ، لو حاول أن يعيش فوق ما فطره الله عليه ، أىَ أن يعيش فى عالم الطيور يسبّح فى الهواء ، لا فى عالم الحيوان يمشى على الأرض . حاولْ ما استطعت المحاولة ، فإنك لن تخلق من الدودة فراشة ، ولعلك لم تنس بعدُ قصة ذلك الغراب الذى لم تعجبه مشيته ، وحاولَ أن يمشى كالطاوس ، فاختل سيره ، ولم يعد إلى الطاوس ولا إلى الغراب . إن الانسان مهما حاول لا يستطيع أن يخرج من إنسانيته ليصبح كالملاك الطاهر .

وقد تقول إن من واجب المرء أن يضع نصب عينيه مثلاً أعلى ، وليس من واجبه أن يتحقق هذا المثل ، لأن الإنسان فى هذا كالحيوان ، تلوّح له بالطعام فيعدو كى يلقفه ، فإن أدركه أكل منه حتى شبع ، ثم كف عن العدْو والعمل ؛ وإن لم يدركه تابع الجهد والسير . وقد تشرط فى المثل الأعلى أن يظل بعيد المنال مستحيل التحقيق ، لأن الثمرة قد تكون حلوة المنظر ، مرة المذاق . وقد تقول إن من أجل هذا كثيراً ما نرى أن رجال الأعمال — بعد ما يكسبون المـال الوفير — يضعون أمام أعينهم مُثلاً أخرى غير المثل المـادية ، فيوهمون أنفسهم أنهم يعملون لخير الإنسانية جميعاً ، أو على الأقل لخير السـاهمين فى أعمالهم .

قد تقول هذا ، وقد يقبل السامع أن المثل الأعلى يجب أن يكون للانسان حافزاً كافياً للعمل ، وأن يظل بنأى عن الإدراك حتى لا يقف دولاب العمل .

هذا حق . ولكن العبرة بالوسيلة التى يتخذها المرء لبلوغ مأربه . وهنا يتساءل هكسلى : هل وسائلنا فى الوقت الحاضر طيبة تبشر بالخير والأمل ؟ كلا . لأنها تطلب إلينا أن نتنازل عن إنسانيتنا ، وأن نحلق فوق المستوى الإنسانى ، وأن نكون كالآلهة لا كالبشر . وإذا أراد الإنسان أن يعلو على مستوى البشرية ، فهو جبان يفر من مشاكل هذه الدنيا . إن كنت تطمح إلى حياة متزنة ، فكن لبقاً رقيق الحس ، صادق الحكم ؛ وعليك أن تواجه الظروف وتحسن فيها التصرف ، لا أن تفر من الظروف .

وبدهى أن الحياة المثالية التى تخضع لقانون ثابت أيسر من هذه الحياة الأخرى التى تحتاج إلى الحكم فى كل حين ؛ الأولى كالعملية الجراحية تبتر بها العضو ، والثانية كالعلاج

بالهواء ، يحتاج إلى الصبر وطول الأناة . إن الأخلاق الحديدية اعتراف بالضعف والعجز ، أما الأخلاق المرنة فدليل القوة والقدرة . إن أصحاب الفكرة الأولى يفرون من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال . ومن أكبر الدعاة إلى الارتفاع عن مستوى البشرية (برنارد شو) فهو يدعونا في روايته التمثيلية (Back to Methuselah) أن نرحب بعالم جديد يسكنه صنف من المخلوقات لا جنس له (لا هو بالمرأة ولا هو بالرجل) له خلق غير خلقنا ، ويفكر بطريقة غير طريقتنا . ولو فكرت قليلا لأدركت أن هذا المخلوق العجيب الذي يتخيله (شو) لا يعلو بصفاته هذه عن مستوى الإنسانية ، بل قد ينحط عنه . وكثيراً ما يهبط الصاعد فجأة من قمة الجبل إلى أسفله . وقد يريد الإنسان أن يرتفع عن مستوى البشر ، فينقلب وحشاً ضارياً ، لا إنساناً رفيعاً .

زعم أصحاب المثل الأعلى أن الإنسان في خلقه ثابت لا يتناقض ، أو هو على الأقل يجب أن يكون كذلك ؛ ويا إفك ما زعموا ! يقول (هكسلي) : إن المرء بطبيعته متناقض مضطرب ، وإن الانسان لا يبقى على حال واحدة لأكثر من بضع ساعات قلائل . الإنسان كالأفعوان الخرافي ذي الرؤوس المتعددة hydra — نراه واحداً وهو متعدد ، وهو تارة يطل من هذا الرأس ، وطوراً يطل من ذاك . ويريدنا أصحاب المثل الأعلى أن ننكر على الانسان طبيعته هذه ، أو أن نناصبها العداء . يقولون إن أهم ما في المرء عقله ، وأما ما عداه فوهم عرضي لا ضرورة منه ؛ ويقولون إن رؤوس الأفعوان يجب أن تبتر جميعاً سوى رأس واحد ، ويجب أن يعيش الانسان بجانب واحد ، هو جانب الروح . وأما الانساني humanist فيقول بأن لكل رأس حق الوجود ، وواجبنا أن نحتفظ بالرؤوس جميعاً في سلم دائمة — أو على الأقل في عداء متزن ، لا تدوم فيه هزيمة ، ولا يبقى نصر .

الإنسانيّ في نظرته للأخلاق يقدّس الحياة الواقعة التي يحياها الناس ، وهو في هذا على نقيض المثاليّ . يقول هرقليطس : « لقد أخطأ هومر حينما تمنى أن تزول الشحناء من قلوب الآلهة والناس . إنه بهذه الدعوة يدعو إلى خراب العالم . لأن هذه الأمنيّة إن أجيبت يفنى معها كل شيء . إنما الحياة تقتضي التناقض والانقسام والنضال » . والمثاليون أنفسهم لا يعيشون عيشة متسقة ، فهم يعتقدون ما لا يفعلون ، ويخففون من زهد الروح بمتعة الجسد ، ومن جمود الفضيلة ببعض الرذيلة ، ومن رزانة العقل بشيء من الخرافة . إن طبائع الإنسان المتنوعة لها جميعاً حق الحياة ؛ ومن ثَمّ تعددت آلهة اليونان وتنوعت ؛ فهناك إله الحب ، وهناك إله الشعر ، وإله الخمر . . . الخ .

إن الحياة لا تستقر إلا إذا سُمح لكل لون من ألوان الحياة أن يظهر وأن يعبّر عن نفسه . ويؤيد تاريخ اليونان هذا الرأي ، فقد تنوعت في أثينا ضروب الحياة وتعددت مناحيها . يقول (زكانز) في خطبته التي ألقاها على جثث الموتى في حرب البلبونيز — وهي وصف رائع لأثينا في القرن الخامس — « إن أثينا بلد يستطيع كل فرد فيه أن يعبّر عن رأيه في شئون الدولة . والأثينيون جميعاً أحرار في شئون منازلهم ، يفعلون ما يشاءون . أثينا بلد ليس لأحد فيه أن يتدخل في حياة غيره الخاصة . بلد مُلذات الفرد الشخصية لا تُحسب فيه إثماً ولا جريمة . الأثينيون أحرار في علاقاتهم الخاصة ، أما فيما يتعلق بالوطن فإن المصلحة العامة تقتضيهم الوحدة والإخلاص ، وكلهم يخضع لحكم القضاء والقانون . إنا نتعزى عن مشقة الحياة باللهو والمسرات . . . أما الأسبرطيون — وهم عبيد النظام العسكري — فيؤخذ الواحد منهم بالشدة منذ الطفولة ؛ ونحن — وإن كنا أحراراً في عيشنا وفي أحوالنا — نستطيع أن نجابه المخاطر عينها التي يجابهون . إنا نؤثر

أن نواجه الخطر بعقيدة حرة على أن نواجهه بعقل مقيد ، ونثق في الرجولة الطبيعية أكثر مما نثق في الشجاعة التي تدين للدولة . ونحن في هذا خير من أهل اسبرطا ، لأننا لا نكابد مشقة التدريب الذي يكابدون ، وإذا ما عارضتنا مصاعب الحياة قابلناها بشجاعة لا تقل عن شجاعة منافسينا . . . نحن نحب الجمال دون إفراط ، والحكمة دون تزيد . مواطنونا يؤدون واجبهم نحو أنفسهم كما يؤدون واجباتهم نحو الجماعة ، ولا ينغمسون في شهواتهم إلى درجة ينسون معها حقوق الوطن » .

وإنما يقصد بركليز أن الإنسان ينبغي له أن يقبل طبيعته كما فطرها الله — الإنسان له عقل ، فليفكر ، وله حس يحرك به المتعة ، فليستمتع ، وله غرائز ، فعليه أن يشبعها ، وله عواطف ، ومن الخير أن يلين لها بين الحين والآخر . وله خيال فليتفكر ، وشعور بالجمال فليبحث عن أسباب الجمال ، وإحساس بالرعب فليعبد الله . الإنسان متنوع ، متناقض ، متضارب . وقد فطن الأثينيون إلى ذلك ، فعاشوا عيشة فيها التناقض ، وفيها التضارب ، وفيها التنوع . لأبدانهم عليهم حق . لا يكرسون حياتهم للدولة كأهل اسبرطا أو أهل روما .

كان الأغريق والصينيون ، يعترفون بتناقض الطبيعة البشرية ، فصاغوا دينهم وأخلاقهم ، ونظامهم الاجتماعي ، على هذا الأساس . ويرى هكسلي أن من الخير أن تحذو حذوهم وتتبع مثالهم . ولو أخذت بالمثل الأعلى لقضيت حياتك في سبيل غرض واحد ، لا تحيد عنه ولا تميل ، فكانت حياة جافة ، لا متعة فيها ولا سرور .

ومن الناس في عصرنا هذا من يجعل المادة مثله الأعلى ، فيزهق نفسه بالعمل الميت . ولعل الآلة من أشد ما يعمل على ضيق الحياة في هذا الجيل ، فهي تقتل روح الابتكار ، وتقضي على متعة الخيال . والعمل المبتكر وحده مصدر سعادة الانسان . والآلة تحرم الانسان من هذه السعادة ، لأنها تجعل العمل آلياً ، بل تجعل الفراغ نفسه آلياً كذلك ، فيلتمس الفرد أسباب سلواه في السينما والصحف المبتذلة ، حتى لقد فسدت الأذواق وراجت سوق الأدب الوضيع . ولم يعد الفرد العادي خالقاً مبتكراً ، بل لقد أضحى سالباً منفعلاً ، يتأثر ولا يؤثر . وقد حاول غاندي وتولستوي أن يعيشا عيشة ساذجة لا أثر للآلة فيها . ولكنهما نسيا حقيقة هامة ، وهي أن الآلة تعمل على زيادة السكان ، فسكان العالم اليوم ضعف ما كانوا عليه منذ مائة عام ، ولو وقفت الآلة لقضى نصف سكان العالم .

فالآلة إذاً لا بد أن تبقى رغم شرورها . وإنما العلاج الناجع هو في أن نعيش عيشة متناقضة متنوعة ، لا عيشة مثالية واحدة ، وأن ننظر إلى العمل كأنه شر لا بد منه ، نعوضه خيراً بالابتكار والتسلية أثناء الفراغ .

إن رجال الحكم اليوم يشتغلون بمشاكل الاقتصاد السياسي ، وتوازن القوى ، وتنظيم الحكومات . وهي مشاكل لو تدبر الإنسان قليلاً لغلبها وحل عقدتها . وإنما المشكلة الكبرى مشكلة نفسية ! وربما بات واجب السياسيّ في المستقبل القريب أن يعالج شئون النفس لا شئون السياسة ، وأن يبحث في غرائز الانسان وفي طرق التنفيس عنها ، وأن يهتم بالعلاقة بين الفرد وبين بيئته ، وبالملاءمة بين الانسان وبين الحياة الصناعية الحديثة . إننا لا نستطيع اليوم أن نعيش عيشة إنسانية صالحة ، وسيف (الآلة) مسلول فوق الرؤوس .

* * *

إن النزعة المثالية التي تقتضينا أن نحيا حياة لا ترمي إلا إلى غرض واحد : هو اللذة العقلية ، أو المتعة الروحية ، أو القدرة المادية ، تنتهي بالجنون والانحطاط ، ثم تسير بنا نحو الفناء . إنما سبيل الخلاص أن نغرس النزعة الانسانية في النفس ، وأن نقدس مظاهر الحياة جميعاً . إن دودة سبنوزا إما أن تبقى على فطرتها دودة أو أن تفنى .

محمود محمود

١ – شـــــعراء الاسكندرية
فى عهـد البطالسة

("اسكندرية" يا عروس الماء وخيلة الحكماء والشعراء
نشأت بشاطئك الفنون جميلة وترعرعت بسمائك الزهراء
قد جملوك ، فصرت زنبقة الثرى للوافدين ، ودرة الدأماء)

"شوقى"

(إن إنشاء مدينة الأسكندرية ، ومكتبتها ، وجامعتها ؛ قد أربى فى ساحة الخلود على فتوحات الأسكندر الباهرة) .

"نابليون"

« كان القادم العابر ، إذا أقبل على الاسكندرية ، شارفه فنارها ذو الطبقات الثلاث ، المشيد من الرخام الأبيض ، يتألق صقاله فى وجه الضحى ، ويشب ضوؤه فى غسق الدجى ؛ فإذا دخل الميناء من الشمال الغربى ، كان الفنار على يمينه ، ثم تدنو به السفينة قليلا قليلا ، فتأخذه روعة ما يرى ويبصر ، فلا يقيم لجزيرة فاروس Pharos وحسنها اهتماماً وبالا ؛ ثم يرى ببصره كرة أخرى ، ويتوزع لبه ، فماذا ينظر وماذا يدع ؟؟ . فهاتيك هى القصور والمعابد تتسامى إليه بغتة فى كثرة وتعدد ، حتى تلهيه عن النظر والتحديق ؛ فقصور لصق قصور ، بنيت جميعها على الطراز الاغريقى ، يختلج وميض رخامها الناصع مع الشمس الساطعة ، وقد برزت منها شرفات جميلة ، وضربت بين حدائقها سقائف تحملها عمد رخامية لولبية ، تعلوها أشجار الدفلى ، يزهو نورها المتفتح ، من أبيض ناصع ، وأحمر قانئ ، وأصفر فاقع ، وزينتها تماثيل رائعة ، أحسن تجديدها صناع بارع .

ويمضى العابر فى مشيته ، فيلمح على شماله وعند نهاية جزيرة لوخياس Lochias التى تكون حائط الميناء الشرقى ، معبد إيزيس ، قد تعالى سامقاً إلى السماء ، ومن خلفه قصور ودور ملكية ، كل قصر أبهى وأجمل من الذى يليه ، ومن وراء ذلك كله ، وإلى داخل المدينة ، امتدت قصور ملكية أخرى ، كأنها حلقات سلسلة ذهبية مفرغة فى جيد حسناء عطبول ، وعلى هضبة غير بعيدة من الميناء مسرح مشيد للإله ديونيسس Dionysus [1] الجد الإلهى للبطالسة ، وعلى كثب منه السوق الزاخرة تموج بالناس كما تموج بهم جوانب الميناء .

أما الجزيرة الصغيرة التى كانت تقع أمام مدخل الميناء الملكى ، فهى جزيرة أنتيرودس Antirohdus ، وكأنها سميت كذلك لتكون منافسة لجزيرة رودس المشهورة فى بلاد اليونان . وأما ذلك البناء العاطس الشمخر ، ذو العمد المقدودة الهيفاء ، الذى كان يقع وراء هذه الجزيرة ، فقد كان مكتبة الاسكندرية ، ذات الشهرة العالمية التى احتوت على مئات الآلاف من المجلدات والأسفار ، والتى عدت بتلك الذخائر أكبر وأضخم مكتبة فى العالم القديم ، وبجانبها مدرسة الاسكندرية ، أو جامعتها الذائعة الصيت فى التاريخ ؛ وعلى جلوة حجر منهما

(١) ديونيسس : إله الراح عند اليونانيين ؛ كانت تقام له أربعة أعياد فى كل عام ، اثنان فى الربيع ، واثنان فى الشتاء ، حيث يكون موسم عصر الخمر فى شهر يناير . فلما كان القرن السادس قبل الميلاد ، استغل اليونانيون هذه الأعياد بتمثيل روائع المسرحيات اليونانية .

هيكل الإله بوسيدون Poseidon [1] .

« كانت المكتبة والجامعة تقعان أمام البحر الساجى ، فإذا انتفض الفجر ، وبسط أجنحته الربداء على صفاح الماء ، وانعكست زرقة السماء على البحر ، فكأنه لا سماء ولا ماء ، وانبسط أمامها كالماجج الوسنان ، رأى الرائون فى بكور الصباح ، فتية الجامعة وأحبارها الأعلام ، يغدون ويروحون ، أو جالسين متأملين ، كأنما يترقبون بزوغ الشمس ، ليسْمنوا لها بالقداسة والابتهال . وكان إذا تحدرت وآذنت بالمغيب ، وهدرت أمواج البحر وزاخرت ، واصطبغت حمرة الشفق بالموج المتواثب المتكسر ، تلألأت ألوانه القزحية ، وتعالى رشاش الماء ، وتسابقت الأمواج وتدافعت مزمجرة نحو الشاطئ ، أو إذا سكن آذيّه المتقلّع ، وامتد رائقاً ، هادئاً ، أملس كالمرآة المجلوّة ، لمح اللامحون علماء الجامعة ، وسدنة المكتبة وحواريهم الأفهام ، يسيرون الهوينا على الرمل ، يروحون عن أنفسهم عناء الدرس ، أو التفوا جماعات جماعات ، يتناقشون ، أو يقرأون ، أو يصغون لمرتل من الشعراء » .

تلك هى مكتبة الاسكندرية وجامعتها ، التى أنجبت فوق من أنجبتهم من العلماء والأحبار والأدباء ، طائفة من الشعراء ، أنشدوا وملأوا سمع الدنيا وقتذاك بالسحر الحلال ، وبقيت ذكراهم تتردد على الأيام فى جلال وإعجاب وتقدير ، للدارس المتعمق ، والباحث المتفهم ، والوامق المتبتّل .

وكانت أول مجموعة المكتبة قد قصد بها أن تكون مكتبة خاصة للمائلة المالكة ، فأفرد لها جناح خاص بالبلاط . وتركت مزاراً يغشاها كل مثقف من رواد العلم وحكماء الاسكندرية . فلما زادت أسفارها بنيت خلف جزيرة أنتيرودس ، على القرب من الميناء وعلى شاطئ البحر ، وكانت مدرسة الاسكندرية أو جامعتها ملاصقة لها . وكانت أبنيتها الرئيسية غير مستودعات الكتب ، صالة متسعة يجلس فيها الزوار المطلعون ، ثم صالة أخرى بجوارها حيث يستطيع المتحدثون أن يتناقشوا فى الفلسفة والأدب والعلوم . ثم صالة ثالثة أعدت لتناول الطعام . فالعلماء والشعراء فى خدمة البلاط ، أغدق عليهم من نائله ما لم يدع لهم مجال التفكير فى كدّ الحياة ، واكتساب الرزق ، حتى يبحثوا ، ويتنجوا ، وتستفيد الدولة منهم . وقد كان شعار بطليموس الأول : « إن مهمة الشعر والفلسفة ، أن يكونا فى خدمة الدولة ، لتقوية مرافقها ، وروحها المعنوية ، فبهما وحدهما تذكو العقول ، ويصح الادراك ، ولا يخطئ الفهم السليم . وبهما وحدهما ، يستطيع رجال الادارة والسياسة أن يصدروا فى أعمالهم عن تصرف لا يعوزه السداد ، ولا يتجافى عن طرائق الصواب والحق » .

وكان البطالسة الأولون ، مشغوفين بنشر الثقافة والعرفان ، فلما أعقب بطليموس فيلالفوس والده على الملك تجلت فيه بوادر هيام بالفن والأدب والعلم ، وأربى على أبيه فى ذلك وجلّى عليه . فزاد فى مكتبة الاسكندرية فى أخريات أيامه ، حتى ارتفعت بعددها من مائتى ألف مجلد إلى اربعمائة ألف مجلد . ونظمت المكتبة . وبُدئ فى أيامه بالاهتمام بأدب هوميروس ، فأنشأت فى الجامعة شعبة خاصة به ، ودرست الالياذة والأوديسا ، دراسة تفصيلية عميقة . وكان يرأسها ويديرها زينودوتس Zenodotus الأفسوسى . وفى هذه الفترة تم إعداد فهارس المكتبة واشترت مؤلفات العلماء المشهورين ، وصدر مرسوم بتفتيش السفن القادمة لأخذ ما فيها من كتب وأسفار ، ومنع السفن الراحلة من أخذ الكتب إلى الخارج . وراح البطالسة الأولون يستقدمون العلماء من بلاد اليونان وروما ومن الشرقين الأدنى والأقصى . ورغبوهم بالعطاء الجزل

(١) بوسيدون : إله البحر ، وشقيق زيوس وبلبتو . كان إن شاء أهاج البحر عاتياً ، وإن شاء أسكنه راضياً . كان الزلزال من جنده الخلصاء ، يدمر به ويخرب ، وصولجانه المعروف ، رمح ذو ثلاث شعب .

والأرزاق السَّخيية . فلما مشى الزمن بالبطالسة ، خلف الأولين خَلْفٌ ، عصفت بأعطافهم نشوة الملك ، والتهالك على النعيم ، وألهتهم عن اقتفاء تقاليد أسلافهم الأمجاد ، حياة الصراع الدائمة على الملك والسلطان . وسلكوا بين هذا وذاك على المصريين ، واعتبروا أنفسهم مقدونيين أو هيليين . أما المصريون فكانوا لديهم رعايا قيدهم الاستعمار والفتح بقيوده ، فما لهم بهم من شأن ، وحسبهم في مجال التفاخر أن يتيهوا على العالمين بمكتبة الاسكندرية وجامعتها ، وعلمائها وفلاسفتها وشعرائها ، الذين جلبوهم من كل صوب ، وحسبهم أن يهتف المتملقون لهم ، بأنهم حماة العلم وأنصار العرفان .

وبقيت على المدى أسماء تجاوبت أصداؤها في سمع التاريخ . فكان ممن أنجبتهم الجامعة ديمتريس فاليروس ، المستشار العلمي لبطليموس الأول ، وفيليتاس Philetas الكوسي ، عالم النحو المشهور ، والشاعر الغزل ، ومنهم هيجياس Hegesias الفيلسوف المتشائم ، الذي أخذ يحاضر ويبشر بعبادته في قوة وسحر بيان ، حتى دبّ في الفتيان وباء طاحن من الانتحار(١) . ثم اقليدس أبو الرياضيات والهندسة ، وهيروفيلوس Herophilos ، الطبيب والعالم الفذ ، وأول من شرح الجسم البشري ، وأول من اقترح تشييد مدرسة الطب في الاسكندرية ، وفيها تقدمت دراسات التشريح ، ومعرفة وظائف الأعضاء ، وما تؤديه في الجسم من خدمات .

وقد فكر بطليموس الثالث ، أي قبل مجيء يوليوس قيصر بمائتي سنة في إصلاح التقويم الزمني ، فقام بهذا العمل إراتوستينس Eratosthenes أستاذ الرياضيات والجغرافيا والكوزمقونيا (نظرية الخلق والتكوين) . وقد

(١) كان أثر هذه الدعوة المتشائمة على الفتيان ، كأثر كتاب "آلام فرتر" الرواية المالية التي كتبها جيته شاعر الألمان ، فقد أصبحت (المودة) في ذلك الوقت ، وشعر الشباب من تأثيرها بداء الانتحار .

حدد إراتوستينس حجم الأرض ورسم لها خريطة بخطوط الطول والعرض ، حسب ما وصل إليه فهمهم للجغرافيا في ذلك الحين .

بقيت جامعة الاسكندرية ومكتبتها تزيد في أسفارها ، ويكثر طلابها ، ويتوافد عليها العلماء من شتى بقاع الأرض ، ويتغنى شعراؤها بالطريف الممتع ، حتى جاء يوليوس قيصر إلى مصر ، فلما اختلفت كليوبطرا وأخوها على العرش ، وناصرها عليه ، وقامت الحرب بين الفريقين ، أراد المصريون أن يستولوا على الميناء ، وعلى جزيرة فاروس ، حتى يقطعوا خط الرجعة بحراً على قيصر وجنوده . وفي الميناء ما يقرب من مائة بارجة حربية ، وقفت موقف الحياد حتى ينجلي ذلك الصراع بين المتخاصمين ، وخشي قيصر أن يأخذها المصريون أو أن تنضم إلى الفريق الثاني ، فدبرها حيلة ماكرة أحرق بها بعض قطع الأسطول أو كله ، وتطاولت ألسنة اللهب ، وهبت الرياح ، وسارت بالنيران من البحر . . . . نحو المدينة ، فأحرقت كثيراً من الأبنية وهدمتها ، وابتلعت النيران فيما ابتلعت جامعة الاسكندرية ومكتبتها .

كان احتراق المكتبة والجامعة كارثة عظمى ، تألم لها المصريون أكثر من ألمهم لأسطولهم القوي ، فقد كانتا محل عناية البطالسة ، ومن التف حولهم من العلماء . وقد زعموا أن النيران في هبوبها وتطاولها ، أخذت تبتلع المكتبة ، وتهدر مزمجرة بتطاير شررها ، وتمتد ألسنتها ، ويتصاعد دخانها ، كأنما يعلو في لظاها المتأجج خلاصة ما وصلت إليه علوم الانسان ، وضاعت هباء مع الرياح ، أثمن ما انتهى إليه العقل البشري من ثقافة وعرفان ؛ وقد سجلوا أمتع ما حدث في تلك الساعة الرهيبة من حوار شائق محتدم بين يوليوس قيصر ، وبين تيودوتس القائد والعالم البطليموسي ، الذي كان يفاوض قيصر في ذلك الحين ، وجند الفريقين يتنازلان ؛ فلما رأى المصريون

ما حل بمكتبتهم انصرفوا عن القتال إلى إطفاء الحريق ، والقائدان المحتدان ، يتناقشان فى عتب تارة ، وفى استعطاف أخرى ، فكلاهما قائد يدافع عن غاية ، وكلاهما عالم وأديب ، يتأبى عليه أن تلتهم النار تلك الذخائر العقلية النادرة ، ولكن قيصر لن يتردد فى أن يترك العقل وما أنتج ، يذهب طعمة للنيران فى سبيل امتلاك الموقف ، أو فى سبيل تنفيذ خطة حربية ، أو إحراز نصر ، أو تحقيق مجد . تدمرت المكتبة والجامعة ، ولكن قيصر قد فاز وانتصر ، ومنذ ذلك اليوم تحطم الوكن الذى كان مسرب الشعراء ، والمغنى الذى كان مراح الفلاسفة والعلماء .

إن جامعة الاسكندرية لم تستطع فى أوج مجدها أن تبدع شيئاً جديداً تضيفه إلى الفلسفة اليونانيـة ، وإن أضافت الشىء الكثير فى العلوم والرياضيات والطب ؛ ولم تستطع أيضاً أن تنافس مدارس أثينا أو رودس فى علوم الخطابة والبلاغة ، ولكنها جاوزتهما فى فنون الشعر الغنائى وحسن السبك ، وطلاوة الأساليب ، وابتكار المعانى ، والأخيلة الجميلة . ومما ساعد على الركود فى بعض النواحى ، أن الحياة فى مصر بعد بطليموس الثالث لم تكن مساعفة على الابداع والخلق والابتكار ؛ فقد ذهبت بذهاب البطالسة الأوائل فكرة تشجيع العلوم والآداب ، وحرية البحث . وخرجت فكرة جلب العلماء ، ورعاية جامعة الاسكندرية عن الغرض الأساسى منهـا ، إلى تقليد متبع ، وعرف موروث . وساعدت التقلبات السياسية ، والاختلافات الداخلية ، واستبداد الملوك ، على قتل حرية الفكر ، وعدم ترك العلماء والفلاسفة أحراراً فيما يبحثون ويفكرون . فقد « كانوا طغاة فى حكمهم ، مستبدين فى سياستهم ، لم يدعوا مجالا للتفكير الحر الطليق ، حتى يستطيع العلماء أن يبدعوا كما أبدع أسلافهم فى أثينا ، أو فى ظلال البطالسة الأوائل » ، وقد كانوا يخشون أن حرية البحث قد تدعو إلى الخروج على الأوضاع المرسومة ، فيما يتصل بالادارة والحكم ، أو فيما تواطأ عليه الناس من استسلام ورضى وخنوع ، مما قد يؤدى إلى تبلبل الأفكار ، واضطراب الرعية .

ولكن برغم ذلك كله . فقد كان الشعراء أسعد حالاً ، وأمدّ ظلا . وكانت للشعر دولة ، وللشعراء مكانة . فقد مضت شعبة هوميروس فى الجامعة ، تدرسه والشعراء المسرحيين فى شغف وتعمق وتجويد . وكان الشعراء فوق ذلك هم المتقدمين فى الحفلات والولائم الرسمية فى البلاط ، ينشدون الشعر ، وينالون الجوائز الحسان .

وساعد على ذلك أيضاً ، أن حوادث القرن الرابع قبل الميلاد قد عملت على انحطاط أثينا ، وعلى إضعاف شهرة الفن الاغريقى ، وضاعت بها تلك الأسواق والمواسم الأدبية التى كان يرتل فيها شعر الملاحم والكوميديا والتراجيديا والقراءات المسرحية لتاريخ هيرودوتس ترتيلا . وطغت الأحداث أخرى ، فأصبحت الحياة الاغريقية ، والمدنية اليونانية بأسرها ، فى فورانها تارة ، واستقرارها أخرى ، وقلقها ثالثة ، نهباً مقسما بين الملوك والقواد العسكريين ؛ فلما تألق نجم المقدونى ، واتسعت فتوحاته ، انتقلت الحضارة اليونانية بعلومها وفنونها وتقاليدها ، إلى حيث انتهت خطواته ، وخفقت بنوده ، وعسكرت جنوده ، وانتشرت ، فاستقرت فى الشرقين الأدنى والأقصى ، وتبنتها مصر وسوريا ، وأخذت الأوتوقراطية محل الديموقراطية والارستقراطية ، وأصبح الفن والأدب من سمات القلة الممتازة ، وظهرت فى عالم الأدب بشائر البحث والاستقرار .

ولكن الأدب الخالص بين ذلك كله ، وقد جافته تقاليده ، وانتقل إلى أجواء جديدة ، واحتضن أربابه الحكام المستبدون ، لم يستطع أن يقرب من عوالمه التى كان محلقاً فيها ، ولا أن يبدو فى غلائله التى كان يتشح بهـا غلائل الابتكار والابداع . فقد وجدت العبقرية الاغريقية الجديدة بعد المقدونى ، جديداً من المعانى تفصح عنها ، وجديداً من الأساليب تعبر بها . وتحولت الحضارة الاغريقية جميعها إلى الاسكندرية ، وتركزت فيهـا فى أخريات القرن الرابع قبل الميلاد .

فى الاسكندرية ، وفى أروقة جامعها ومكتبتها ، وتحت كنف البطالسة الأوائل أخذ الشعر يسمو فى أجواء جديدة ، وأخذ بعض الموهوبين من الشعراء يتراسلون به فيما بينهم ، ويمشون ويمُتّون من الحياة ولذائذها ، فينشدون وينظمون ، وانقطعوا إلى قداسة الفن والشعر ، يعبدونه مخلصين له الولاء ، فأفاض عليهم آلهته بالبديع الطريف ، وكفاهم الملوك مؤونة النضال فى سبيل القوت ، فعاشوا للفن وللفن وحده ، وكانوا بذلك أول من حقق المذهب الذى ظهر فى أوربا فى القرن التاسع عشر الداعى بأن يكون « الفن للفن » . غير أن فنهم وشعرهم فى مجموعته كان أقل مرتبة وجودة من روائع الأدب اليونانى القديم ، وإن كان فى كثير من النواحى أرشق وأظرف ، ولكن إخلاصهم وصدق نفوسهم ، وانصرافهم إلى النظم والتجويد والتفكير ، ومقدرتهم على جميل الأداء وحسن السبك ، واتباعهم لتقاليد الأدبية القديمة المألوفة ، واحتفاظهم بروحها ، قد جعلتهم وجعلت للاسكندرية وشعرائها مكانة مرموقة فى عالم الشعر الاغريقى بأسره ، وكانوا دعاة لكثير من المذاهب الأدبية التى أخذ بها الأوربيون .

ثم أخذوا فى أخيلتهم المبتكرة يرودون حتى جوانب الخيال السحيق ، الذى يدخل فى عوالم المجهول ، وفى طباق المعانى الفريدة التى قلما تخطر بالاخيلية المتعارفة المألوفة ؛ ثم تناولوا عويصات العواطف المتشابكة ، ومعقدات الأحاسيس البشرية ، فجعلوا بذلك كله من شعر الاسكندرية ، فناً ومدرسة قائمين بذاتيهما ، لهما معالمهما وخصائصهما ، التى تميز بينهما وبين شعراء الاغريق وأدبهم ، وزادوا بعد ذلك ففاقوا الغاية وأبدعوا أيما إبداع .

فمن هم إذاً أعلام أولئك الشعراء ؟؟؟ .

(يتبع) توفيق أحمد البكرى

هدية عيد الميلاد

للكاتب الأمريكي أو. هنري

في يوم عيد الميلاد قررت ليلى أن تقدم إلى زوجها العزيز هدية ثمينة . واعتزم زوجها الشاب أن يتحفها بتحفة نادرة . وقرر القضاء الثالث أن يهدي إليهما هدية تشتمل على دعابة من ذلك الطراز الغريب ، الذي لا يستطيع أن يضحك منه ملء فيه سوى القضاء نفسه .

هذه الهدايا الثمينة كانت نتيجة لمؤامرات ثلاث ، قام بها كل من أبطالنا الثلاثة منفرداً دون أن يطلع الآخرين على ما اعتزم . وكلنا نعرف أن التكتم الشديد يزيد الهدية الثمينة جمالا ، ويضاعف الفرح في صدر الواهب والموهوب .

وجلست ليلى تعد ما لديها من الدراهم لشراء هديتها ، فاذا المبلغ الذي اقتصدته في شهور طوال قضتها في التدبير والتقتير لم يزد على ريال أمريكي واحد ، وثلاثة أرباع الريال الأمريكي .

ولم يكن بد — بالطبع — من أن يكون الريال أمريكيًا ، أولا : لأن القصة جرت في أمريكا ، ثانياً : لأن الريال الأمريكي تستطيع أن تشتري به شيئاً ذا قيمة في أي بلد من الأرض إلا في أمريكا نفسها ، فانك لا تستطيع أن تشتري به هناك إلا التافه المبتذل من المتاع . ولم تكن ليلى بالتي تقبل أن تقدم لزوجها العزيز هدية تافهة في هذا اليوم المقدس الجليل . ولهذا تراها وقد أخذت تنظر بحسرة إلى المبلغ الحقير الذي بين يديها ، وهو كل ما استطاعت أن تقتصده من نفقات البيت ، فلم يكن بد من أن تشرق الجفون بالدموع ، وأن تتصاعد الزفرات ، وتمتلئ الصدر الرقيق بالكمد والأسى .

لقد اقتربت ساعة الغروب ، وبعد قليل تغلق الدكاكين ، ولا يتسنى لها شراء الهدية . . . أليس لديها شيء — لعلها أن تكون قد نسيته — تستطيع أن تبيعه وتشتري بثمنه التحفة التي تبغي شراءها ؟ إن معاصمها عطل من الحلي ، وجيدها الجميل لا تحيط به قلادة ، فماذا عساها أن تعمل ؟ . . . أخذت تحدق في النافذة طويلا ، ثم نهضت من مكانها ، ونظرت إلى وجهها الشاحب في مرآة ضيقة مستطيلة ، وأطالت النظر فيها ، ثم رفعت يدها فجأة إلى رأسها ، وأطلقت شعرها من رباطه ، وأرسلته وراءها إرسالا ، فاذا هو يتدلى إلى ما تحت الركبتين . . .

في الزمن الذي ترجع إليه هذه القصة ، كان النساء — اللواتي رضيت عنهن الآلهة — شعر غزير عميم ! وكان أجمل شيء تمتلكه ليلى وزوجها إدوارد ، شيئان اثنان قد بلغا من النفاسة والجلال قدراً عظيماً ، بينما كل شيء في الدار متواضع هزيل إلى أقصى حدود التواضع والهزال ، وهذان الشيئان هما الساعة الذهبية الثمينة ، التي يحملها إدوارد ، والتي ورثها عن أبيه وجده ؛ والثاني شعر ليلى العسجدي البديع ، الذي يكاد يسترها إذا أرسلته .

وقد نظرت إليه طويلا ، وكأنه شلال من الماء الذهبي المتدفق ؛ ثم عادت فرفعته كما كان من قبل . . . ثم تحركت من مكانها في شيء من التردد لم يطل . وتناولت من الصوان معطفاً رماديا ، وقبعة رمادية ، وانطلقت من دارها إلى الطريق . فجعلت تمشي فيه مسرعة حتى وقفت أمام لوحة تبرز منها العبارة الآتية :

« مدام رعونا . إخصائية في جميع أصناف الشعر وملحقاته » .

وبعد لحظة كانت ليلى واقفة أمام السيدة المذكورة تسألها : « هل لك فى شراء شعرى ؟ » .

فأجابت العجوز : « إنى أشترى الشعر الجميل ، اخلعى قلنسوتك ، وأرينى أى شعر تفتنين به رأسك ! »

وفى لمحة الطرف كان الشعر العسجدى الجميل ، فى يدى العجوز تقلبه بكف الخبير العالم .

— أدفع لك فى هذا الشعر عشرين ريالا ! .

— أسرعى بالدراهم :

وبعد دقائق كانت ليلى تقطع الشوارع سعياً ، باحثة منقبة عن الهدية الثمينة التى تنشدها .

وأخيراً وجدت ضالتها المنشودة ؛ هدية ما صنعت إلا لكى تهدى إلى إدوارد ؛ سلسلة من البلاتين النقى الخالى من كل زخرف ، أغناها جمال معدنها عن كل تنميق وتحلية . وهكذا فلتكن كل هدية قيمة .. دفعت ليلى فى هذه السلسلة واحداً وعشرين دولاراً ، وعادت إلى المنزل وفى جيبها الدراهم الباقية ، وفى صدرها السرور والرضى والابتهاج . إن إدوارد لن يحمل ساعته بعد اليوم معلقة فى قطعة بالية من الجلد الحقير . فما ينبغى لهذه الساعة الأثرية النفيسة أن تعلق إلا بسلسلة من المعدن النفيس .

اقتربت الساعة السابعة ، وحان موعد عودة الزوج العزيز .. فأودعت ليلى هديتها ركناً من خزانتها ، وقامت إلى المطبخ تعد القهوة ، وتهيء الوعاء لطبخ الشواء لطعام العشاء .. ثم رأت من الحزم أن تبادر بإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فأخذت فى إصلاح رأسها الجميل ، الذى حرم ذلك التاج الباهر من العسجد ، ولم يبق منه إلا بقية يسيرة ، أخذت فى تصفيفها وتنظيمها ، بحيث أمسى رأسها كرأس أحد الفتيان الذين أولعوا بإرسال شعرهم ، وتصفيف طررهم ، فعسى إدوارد ألا يمقتها وهى فى مظهرها الجديد !

وسمعت خطاه على السلالم ، وكان من عادتها أن تبتهل إلى الله بالدعوات الحارة فى كل أزمة تعرض لها .. فلم تكد تسمع خطاه حتى ركعت ونادت : « اللهم لا تنزع حبى من قلبه ! اللهم اجعله يظن أنى ما زلت مليحة رغم ذهاب شعرى ! » .

وفتح إدوارد الباب برفق ودخل ثم أغلقه ، وكان وجهه النحيل يبدو فيه الاهتمام الشديد . مسكين ذلك الفتى ؛ إنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين ، وقد اضطلع فى هذه السن المبكرة بأعباء الأسرة ومسئوليتها ؛ إنه فى حاجة إلى معطف جديد .. ويداه لم يكن يسترهما قفاز !

لم يكد يدخل الغرفة حتى أخذ يحدق فى ليلى ويطيل التحديق ، وكان فى نظراته معنى غريب لم تستطع ليلى أن تفهمه .. لم ينظر إليها نظرة الدهشة ، أو الغضب ، أو السخط ، ولم تكن نظرته تنم عن أى شعور أو إحساس من ذلك الطراز الذى كانت ليلى تتوقعه .. بل كانت نظرات ملؤها الوجوم والذهول !

وقد استولى عليها الرعب حين رأته يحدق فيها على هذه الصورة ، فدنت منه وقالت : « إدوارد ! لا تنظر إلىّ هذه النظرات ! لقد قصصت شعرى ، وبعته ، لأنى لم أكن أستطيع أن أعيش هذا العيد ، دون أن أقدم إليك هدية ! كن واثقاً أنه سينمو مرة أخرى ، إن شعرى سريع النمو جداً ، فبالله حينى تحية العيد . إنك لا تعلم أى تحفة ثمينة سأقدمها لك . إن جمالها يفوق كل وصف ! »

— إذاً لقد جعلتهم يقصون شعرك !

كان قالها ببطء شديد كأنه بعد كل هذا الشرح والإيضاح لم يستطع أن يفهم .

— أجل لقد قصصته وبعته ! ألست تحبنى رغم هذا ؟ إنى ما زلت كما تعهدنى فى كل شىء ، ما عدا الشعر !

— أتقولين إن شعرك قد ذهب ! .

— لا تنظر إلىّ كأنك تبحث عنه ! إنه ضاع تماماً !

لقد بعته ! ألم أقل لك إني بعته ، ناشدتك الله أن تذكر أن الليلة ليلة العيد ، فكن رفيقاً بي ولا تسىء إلىّ ! إني ما فعلت هذا إلا من أجلك ! إن هذا الشعر على غزارته قد يحصى ويعد ! ولكن حبي لك لن يعد ولن يحصى ! والآن هل تأذن لي في أن أضع الشواء على النار ؟ .

أخذ إدوارد يفيق من غشيته شيئاً فشيئاً . ودنا من زوجته وأخذ يقبلها قبلات امتزج فيها ألف إحساس وشعور . . ثم أخرج من جيبه حزمة وألقى بها على المائدة وهو يقول :

— لا تخطئي فهم ما يجول بخاطري . . . . فشعرك مقصوصاً ، أو ممزقاً ، أو محلوقاً لن ينقص من حبي لك مقدار الذرة ! ولكن فكي رباط هذه الحزمة وافتحيها لكي تدركي ما بنفسي .

ولم تكد ليلى ترى ما اشتملت عليه تلك الأوراق حتى صاحت صيحة الفرح ، ولكنه فرح لم يلبث أن انقلب إلى نوع من الهستريا ، امتزجت فيها الدموع والصيحات المتنافرة : ذلك لأن الهدية الثمينة التي اشتراها زوجها العزيز كانت ثلاثة أمشاط ليزدان بها شعرها العسجدي البديع . . .

كانت تلك الأمشاط الثلاثة معروضة في نافذة دكان في (برودواي) : وهي مصنوعة من العاج الثمين ، وأطرافها محلاة بالجوهر . . . ولقد طالما نظرت إليها ليلى وهي مارة أمام الدكان ، فكانت تتلهف رغبة في أن تكون لها تلك الأمشاط ، ولكن كان قصارى جهدها أن تتلهف عليها وتتحسر : فهي تحفة ثمينة غالية ، وأنى لها أن تحصل على مثلها . . . والآن ها هي قد أصبحت ملكاً لها . . ولكن الشعر الذي من أجله اشتهت تلك الأمشاط قد ذهب .

وتناولت الهدية الثمينة بيديها ، وضمتها إلى صدرها ، وأخذ الهدوء يعود إليها ؛ واستطاعت أن تنظر إليه بعينين قد انحسر عنهما الدمع قليلا ، وشفتين يكسوهما الابتسام ، وقالت : « لا يحزنك هذا يا إدوارد ! فإن شعري لن يلبث أن ينمو ! لكنك لم تشاهد بعد هديتي التي اشتريتها من أجلك » . انظر إليها ها هي ! أليست في أقصى مراتب الحسن ؟ لقد طفت بأرجاء المدينة ، ولم أدع مكاناً إلا دخلته باحثة منقبة ؟ وها هي ذي . انظر ما أبدعها ! إنك بعد الآن ستنظر في الساعة مائة مرة في كل يوم . . ولن تستحي من إظهار ساعتك الجميلة الثمينة أمام الناس ! أين هي ؟ أخرجها من جيبك ودعني أعلق فيها هذه السلسلة التي لم تصنع إلا لها ! » .

ولكن إدوارد لم يجب زوجته إلى ما طلبته ، ولم يخرج ساعته من جيبه ، بل ألقى بنفسه على الأريكة ، ونظر إليها مبتسماً . وقد جعل يديه من خلف رأسه :

— ما رأيك يا ليلى في أن نحتفظ بهذه الهدايا مؤقتاً في مستودع أمين ؛ فإنها في الحقيقة أجمل من أن ننتفع بها الآن ! لقد بعت ساعتي أيتها العزيزة لكي أشتري لك الأمشاط . . والآن أظن أن خير ما تفعلينه أن تعدي لنا العشاء ! .

وفي تلك اللحظة دوى في الآفاق صوت قهقهة القضاء . . . لأن القضاء يحلو له أن يضحك ! . .

(مترجمة بتصرف عن الكاتب الأمريكي أو . هنري)

فى سبيل جيل جديد . . .

مشاكل الأطفال

شجعتني دعوة « الثقافة » إلى المساهمة في البحث في موضوع تنشئة جيل جديد قوى ؛ وأعتقد أنه من أهم المشكلات التي تواجه النشء الجديد . لذا رأيت أن أتحدث اليوم فى مشاكل أطفالنا وكيف نعالجها .

يحتاج هذا الموضوع إلى درس دقيق ، وهو من المسائل التي يجب على الوالدين والمربين درسها درساً وافياً ؛ كما أنه موضوع واسع جداً لا يمكننا حصره فى هذه الكلمات القليلة ، ولكن يمكننا أن نقول بالإجمال إن ما يحكم توجيه الطفل يتوقف على بيئته وتربيته ؛ فرغبات أطفال المدن تختلف عن رغبات أطفال القرى ، وتفكير الطفل الفقير يختلف عن تفكير الطفل الغنى .

ولقد كان لأبحاث العلامة الانكليزى الكبير A. S. Neill صدى عظيم فى دوائر التعليم وبين المشتغلين فى بحوث تربية النشء وسيكولوجية الأطفال ؛ ومن أقواله أن لكل فئة من الناس صفة خاصة تميزهم عن غيرهم ؛ فمثلا يتميز رجال الجيش بالشجاعة ، ورجال الدين بعمل الخير ؛ ومع ذلك فهناك صفات عامة يشترك فيها كل الطبقات والأجناس ، كأن يتفق كل الناس على اختلاف نزعاتهم وطوائفهم على أن القتل والكذب والسرقة رذائل خطرة ؛ وبالاجمال يمكننا أن نقول إن مستوى الفضيلة واحد فى معظم البلدان .

ولقد شاع ذلك الزعم الخاطئ أن الطفل شرير بطبيعته ؛ ولكن أثبت الباحثون بطلان هذا الاعتقاد وقرروا أن الطفل صالح بطبيعته .

وقد نجد كثيرين من الآباء يشكون سوء أخلاق أولادهم برغم ما بذلوا من عناية فى سبيل تربيتهم تربية صالحة ، وينسبون ذلك إلى ما ورثه الطفل من جدوده ، أى أنه ورث طبيعة شريرة فلا يجدى فيه الاصلاح ؛ ولكن أثبت المربى الكبير Neill أن كل ما يرتكبه الطفل من شر ليس إلا نتيجة سوء إرشاد والديه فى سنيه الأولى . فقد يرث الطفل مرضاً أو عاهة ، ولكنه لا يرث خلقاً . لذا كانت التبعة الواقعة على عاتق الآباء والمربين خطيرة جداً ؛ ففى أيديهم إنشاء جيل قوى صالح أو ضعيف شرير منحط .

وقد تحدثت الجرائد الانكليزية من مدة عن رجل بريطانى كان كل همه أن يقف فى الشارع ويقذف بالمداد على ثياب من يمر به من نساء ، وحكم عليه بالسجن . إن هذا الرجل فى نظر القانون مجرم مخل بالأمن ؛ ولكنه فى نظر العالم النفسانى ما هو إلا إنسان مريض بأعصابه ومختل فى تفكيره غير مسئول عما يأتى من شر ، ومكانه المستشفى لا السجن .

وعندما سئل ذلك الرجل عن سبب تصرفاته هذه اعترف أنه كان يحمل منذ طفولته حقداً وكرهاً شديدين لوالدته ، لأنها كانت دائماً تكذب عليه وتخلف وعودها ، وتقسو فى معاملته ، فكان يتألم وهو حاقد وعاجز عن الانتقام ، فلما كبر رأى أن ينتقم من أمه بإساءته إلى كل النساء ، وهذا تفسيره عند علماء النفس .

لذا كان الإجرام لدى علماء النفس نتيجة سوء معاملة الطفل وتربيته تربية خاطئة فى حياته الأولى .

ومثل آخر : ولدٌ فى العاشرة من عمره كان له رغبة شديدة فى أن يحرق المنزل . فبينما تراه جالساً هادئاً يستذكر

دروسه إذا به يهب بغتة ليشعل النار فيما حوله من أثاث ؛ وقد عالجه مدرسوه مرة بالنصح وأخرى بالعصا ، ولكن دون جدوى ، لأنهم لم يعالجوا السبب بل عالجوا الأعراض بالارشاد والتخويف وكلاهما خطأ . فهذا الولد ليس بمجرم ولكنه مريض . فليس فى طبيعة الطفل شر أكثر مما فى الزهرة مثلا .

يخلق الطفل وعنده غرائز حب البقاء، وحب الاستطلاع والكفاح وغيرها ؛ وهذه تجعله يطلب الغذاء ويستطلع حقيقة كل ما يقع فى يده ، ويكافح للوصول إلى أغراضه . فهو مثلاً يأكل كل ما يستطيع أن يحصل عليه ، ظناً منه أنه غذاء . وإذا قبض على ساعة صغيرة حاول فتحها وإخراج ما فى داخلها من آلات دقيقة ، ليكتشف ما خفى عليه منها . فكل شىء — بالنسبة إليه — جديد ، وهو يريد أن يعرف ويستطلع بنفسه ؛ وهذا فى نظر الراشدين هو عين الشر ؛ فهم يصفون هذا النوع من السلوك فى الطفل « بالشقاوة » ، وهذا بالطبع خطأ .

ومن الأخطاء الشائعة التى يرتكبها الآباء والمربون فى تربية النشء ، كثرة النصح والارشاد والتحذير ؛ فالطفل — كما قلت سابقاً — شديد الرغبة لاستطلاع ما خفى عليه بنفسه وهو يمقت تنفيذ ما يلقى عليه من أوامر ونصح ، ويثير فيه رغبة التمرد ؛ فقد يفيد الوعظ الخلقى الراشدين ، ولكن ليس له لدى الصغار أقل قيمة أو أهمية ، وهو خطأ من وجهة علم النفس ؛ فمثلاً إذا أعطى طفل تفاحة تكون رغبته الوحيدة أن يأكلها كلها وحده ؛ فاذا أخذت والدته تلقى عليه وعظاً فى احتقار الأنانية ، ومدح إنكار الذات والتضحية ، وأخيراً تشير عليه أن يقتسم التفاحة مع أخيه ، فهو يفعل ذلك مكرهاً ، ويكون هذا سبباً فى أن يمقت أخاه .

ومن ذلك نرى أن تعليم الأطفال التضحية وخدمة الآخرين تنتج عكس المطلوب . ولا يفيد النصح إلا بعد أن ينمو الطفل فيفهم تدريجياً وطبيعياً ، دون أن يُقاد إلى السلم مكرهاً .

أما إذا ضغط عليه فى تربيته الأولى أن يبذل ما عنده لغيره كما جاء فى مثل التفاحة ، فهو لا شك ينشأ على حب الذات ، لأن الرغبات التى يعجز عن تنفيذها فى صغره تبقى فى عقله الباطن وتحاول الظهور كلما سنحت لها الفرص .

كذب الوالدين على الأطفال من أشد الأسباب خطراً على أخلاق النشء . فمثلاً جاءت يوماً سيدة إلى الأستاذ نيل تشكو ابنها الذى لا يتجاوز الثامنة من العمر ، بأنه يسرق أدوات إخوته وزملائه المدرسية ، مع أنه ليس فى حاجة إليها ، لأن عنده كل ما يحتاج إليه من كتب ولوازم . فطلب من السيدة أن تحضر ابنها إلى المدرسة ليكون تحت إشراف أستاذ علم النفس ، فأحضرته . وفى أحد الأيام فقد أحد المدرسين ساعته ؛ وبعد البحث عنها فى كل مكان ، فكر الأستاذ فى احتمال وجود الساعة فى حقيبة الطفل الجديد ؛ وبحث عنها هنالك فوجدها بين ثيابه محطمة . فنادى الصبي وتظاهر أنه لا يعرف عن مسألة الساعة شيئاً . وسأله بكل لطف ورقة : هل تعلم يا بنى كيف خلقت وكيف وجدت فى هذا العالم ؟ أجاب الصبي : « لقد سألت والدتى فقالت إنها وجدتنى عند مدخل الكنيسة » ولم يقنع الطفل بهذه الاجابة ، ولكنه لم يبد لأمه ممانعة .

ففهم الأستاذ السبب الذى دفع الولد إلى السرقة ، ألا وهو اعتياد أمه الكذب عليه ، وأفهمه فى أسلوب سهل بسيط كيف وجد . وفى الحال ذهب الولد إلى مكان الساعة وأرجعها إلى المدرس مع الاعتذار .

فكذب الأم على ابنها جعله حاقداً عليها وعلى المجتمع .

فهو يريد إغاظة الآخرين بسرقة أشيائهم . وجهله لحقيقة نفسه وسر وجوده ، جعله يحطم الساعة كي يكتشف حقيقتها ويعلم مم تتركب ، كي يشبع غريزة حب الاستطلاع .

يختلف مرض السرقة المسمى (كليبتومانيا) من السرقة بسبب الفقر أو العوز ، أو السرقة بسبب التقليد ؛ فالمصاب بهذا المرض (كليبتومانيا) لا يسرق رغبة في امتلاك الشيء لاحتياجه إليه ، ولكن لاشباع إحدى الغرائز المكبوتة .

والمصابون بهذا المرض كثيرون ؛ ولقد شاهدت سيدة ربة زوجة لأحد الوجهاء قيل لي إنها مصابة بمرض السرقة ، فهي تذهب إلى المحال التجارية فتتظاهر بالشراء وتسرق كل ما تتمكن من إخفائه ، مع أن حالتها المالية تمكنها من شراء كل ما تريد . وقد ضبطت عدة مرات ، وكان زوجها يرجع الأشياء المسروقة إلى محالها وأحياناً يدفع ثمنها . وبعد البحث السيكولوجي وجد أن هذه السيدة ليست سعيدة في حياتها الزوجية ؛ فهي تسرق لاشباع غريزة مكبوتة عندها ، لا تعرف هي عن أمرها شيئاً .

ومن الأمور التي تؤثر تأثيراً سيئاً في الطفل وتؤدي إلى مشكلات خطيرة ، الغيرة والتفضيل ، والمقارنة والخوف ، ومنه الطبيعي وغير الطبيعي ، ومنه الخوف من الظلام والخوف من الصور المفزعة والقصص المزعجة ، والخوف من الألم والتهديد بالطبيب ، ورجال البوليس والعفريت ؛ وكلها في نظر الطفل واحد ، لاشتراكها في التخويف ؛ وكل هذه تفسد أخلاق الطفل وتضعف ثقته في نفسه وفي أهله وتجعله مريض الأعصاب .

ومن أهم الأسباب التي تمنع الخوف عن الأطفال شدة ثقتهم بوالديهم وشدة ثقتهم بأنفسهم ، فيشعرون حينئذ أنهم آمنون بعيدون عن كل خطر ، ولأنهم إن وقعوا في خطر علموا أن وراءهم من ينتشلهم منه ، ثم إن ثقتهم بأنفسهم تشجعهم على التخلص منه .

وإني وإن تحدثت عن مشاكل الشيء ، فلا بد أن أذكر أنه قد ينشأ شذوذ الطفل عن إهمال الوالدين له ، أو اهتمامهم بأخ أصغر منه في شكل واضح ؛ فقد يدفع مثل هذا الطفل إلى إثارة غضب والديه ، ولا ينفع معه العقاب ، وهو يرى من وراء ذلك إلى لفت نظرهم إليه وجذب اهتمامهم به ، فقد يلجأ إلى التخريب في المنزل أو الصراخ وهو نائم أو الإضرار بأخيه الأصغر ، أو غير ذلك مما يثير الغيظ في الوالدين ؛ فعلاج هذا الطفل يكون بإعطائه مسئولية العناية بهذا الأخ الأصغر ليشعر أنه في مرتبة والديه يجب عليه أن يعتني به ، ولا يجوز مطلقاً منعه عن الاضرار بأخيه بالضرب ، لأنه يقوده إلى الثورة والبغض .

أما الطفل الذي يمتنع عن تناول طعامه ، فإن لم يكن هذا الامتناع بسبب المرض ، ويكون أساسه فقط عدم رغبته في الأكل ، فعلاجه أن يترك وشأنه حتى يجوع ويطلب الغذاء بنفسه ؛ ورأيي عندئذ أن يرتب الطعام ، ويوضع أمام الطفل في أطباق جذابة وبطريقة منسقة تجذب الطفل إلى تناوله ، كما يراعى دائماً التنويع حتى يروق للطفل تناوله .

وأخيراً يواجه الوالدون مشكلات عديدة في سبيل تربية أبنائهم وبعضها شديد الخطر على مستقبلهم ، فمنهم من ينشأ مجرماً لسوء علاج هذه المشكلات كما رأيت فيما ذكرت من أمثلة .

وكنت أود أن أتحدث عن كل من هذه المشاكل بالتفصيل ؛ ولكني أخشى التطويل ؛ وأتمنى أن تتاح لي الفرصة لأن أتحدث عن كل منها على حدة .

احسان شرابت

أولداس هكســـــلى

والقصة العلميـــــــة

بلغت القصة التقليدية المعهودة ذات التصميم والعقدة والأشخاص والأحداث المتوالية فى نظام منطقى وحبكة فنية — أوج تطورها ورقيها فى أواخر القرن الماضى على أيدى هاردى ، ثم ولز فى أوائل قصصه ، ثم أرنولد بنيت ؛ وفى أوائل هذا القرن بدأت القصة تتأثر بالعصر الجديد ، وتتحول تدريجياً عن ذلك الشكل التقليدى ، وتتأثر بأحوال العصر الاجتماعية والصناعية ، وبالتقدم العلمى والسيكولوجى ، واهتمت بالمجتمع فوق اهتمام القصصيين الفكتوريين به ؛ ولفرط اهتمامها بتلك النواحى الجديدة اضطرت إلى هجران كثير من تقاليدها القديمة وأهملت زينتها الفنية الخالصة إلى حد كبير ، وقدمت الفكرة على الفن ، وهكذا تغيرت القصة الانجليزية الحديثة شكلا وموضوعاً ، وكان السابق إلى نهج هذا السبيل بها ولز أيضاً ، فإنه هجر الضرب الفنى الواقعى الذى عنى به فى بدء اشتغاله بالأدب ، ومال فى قصصه إلى بحث مسائل العلم والحاضر والمستقبل والأكوان البعيدة .

جرى ولز فى ذلك شأواً بعيداً ، فمهد الطريق للجيل الجديد الذى ظهر أثناء الحرب الكبرى وعقبها الذين مالوا بالقصة إلى شعاب من التفكير وضروب من الصياغة لم تعرف من قبل ، وما زال أكثر هؤلاء إلى اليوم أحياء وما زال قصصهم تطالع القارئين من حين إلى حين ، وما زال الناس منقسمين فى أمرهم بين مسفّه متكبر محنّق ، وبين معجب مجيد مستبشر بهذا البعث الجديد فى عالم القصة ؛ ومن قصصى هذا الجيل المعاصر — وإن كان الفرق بينهم عظيماً ، وكانوا من كثير من الوجوه لا يكوّنون مدرسة مستقلة — جيمس جويس وفرجينيا وولف وأوبث سيتول وستيفن هدسن وأولداس هكسلى .



أولداس هكسلى

ولد أولداس هكسلى سنة ١٨٩٤ ، فهو ما زال فى إبان نضجه . وهو ينحدر من نسل توماس هكسلى العالم الكبير ، الذى يقرن اسمه دائماً إلى اسم داروين ، كما ينحدر من جهة أخرى عن جد آخر عظيم ، هو توماس أرنولد أحد كبار رجال الدين والتعليم فى العصر الفكتورى ، الذى تولى تنظيم كلية رجبى ، حتى أذاع شهرتها فى كل ناحية ، وكان ماثيو أرنولد خال أولداس هكسلى ، أحد كبار كتاب العصر الفكتورى أيضاً . وكان والد أولداس كذلك ذا ميول وآثار فى الأدب . وجوليان هكسلى أخو أولداس ، عالم معاصر كبير ذو تواليف ذائعة .

نشأ أولداس فى بيت علم وأدب باذخ ، فورث الخلتين عن أجداده ؛ ونشأ شاعر الحس ، مرهف الشعور ، نزاعاً إلى السمو ، وثاب الخيال ؛ كما نشأ مشغوفاً بالعلم ، كلِفاً بالدرس ، معنى بشؤون الكون ؛ وتلقى علومه فى إيتن واكسفورد . ويقول عن نفسه إنه كان يحب ما يلقى عليه من الدروس حباً جماً ، ويقول إنه يخيل إليه أن تلك المناهج

إنما وضعت لتوافق عقلية كعقليته، ميالة إلى البحث النظرى زاهدة فى الحياة العملية، بيد أن مناهج المدرسة والجامعة لم تكن إلا جزءاً طفيفاً مما زود هكسلى نفسه به من معلومات؛ وحسبك أنه يقول إن متعته فى وقت فراغه هى مطالعة الانسكلوبيديا البريطانية. وكتبه جميعاً تصفحتها مصطبغة بهذا التعمق العلمى القليل النظير.

وكان الأدب الانجليزى فى عهد نشأته يعانى ركوداً وقتياً، وكان الزى الشائع إذ ذاك قراءة الأدب الفرنسى؛ وكان الاقتصار على الأدب الانجليزى يعد نقصاً فاضحاً، فاستوعب هكسلى كتابات الشعراء الفرنسيين، كما تضلع فى الأدب الانجليزى القديم. وبدأ منذ عهده بالجامعة يقوم بسياحات فى أوربا تارة، وفى الشرق الأقصى وفى أمريكا، وفى بلجيكا تعرف بمن صارت بعد ذلك زوجته؛ وقضى فى إيطاليا زمناً طويلاً، وأحب مناظرها وآثارها حباً جماً، وكتب عنها فى كثير من قصصه. وبدأ وهو فى الجامعة ينظم الشعر وصدرت أول مجموعة من شعره فى خلال الحرب؛ وكان هكسلى فى ذلك العهد قليل الاكتراث بأمر الحرب أو السياسة، فلم يفكر كما فكر غيره من الطلاب فى الانخراط فى سلك الجيش، وبعد تخرجه اشتغل بالتحرير فى الصحف والنقد المسرحى حيناً، حتى بدأت كتاباته تعود عليه بربح جيد، فهجر الصحافة غير آسف، وتوفر على التأليف؛ ومنذ ذلك العهد لم تعد حياته إلا سلسلة من الأسفار والتواليف.

بدأ هكسلى حياته الأدبية — كما يبدأها أكثر الشبان — بالشعر فأبدع فيه آثاراً فريدة فى بابها، ثم انصرف إلى القصة فظهرت أولى قصصه وهو فى السابعة والعشرين من عمره، وعالج المقالة بجانب ذلك، وكتب الكتب عن أسفاره العديدة شرقاً وغرباً، وتوالت مؤلفاته بسرعة قليلة النظير، ونال تقديراً سريعاً ونجاحاً مطرداً، وإن يكن قد ظل دائماً يشكو عدم تغلغل قرائه إلى صميم آرائه، وقنوعهم بظاهر كتبه ذات الأسلوب الجذاب والفكاهة المهذبة، والأفكار الجديدة الطلية، وقد وضع تلك الشكوى على لسان «مس نويلو»، بطلة إحدى قصصه.

وأظهر ما يمتاز به هكسلى فى شخصه وفى كتاباته، نزعته العلمية المتعمقة؛ فهو خدين كتب، وحليف آراء ونظريات، مشغوف بالبحث النظرى فى كل شىء، وهو من جهة أخرى شديد الزهد فى الحياة العملية، شديد الشعور بعجزه فى مجالها، وتخلفه عن أربابها. وكتاباته حافلة بشعوره هذا، حيث يتحدث عن نفسه رأساً أو حيث يضع الكلام على لسان بعض أبطال قصصه. قال من قصيدة: «كنت حليف الكتب وأشتات الأفكار، وكانت روائع الكلم تختمر فى نفسى، وتختلج موسيقاها العذبة، ثم استحالت رحيقاً أتصرف فى مزاجها كيف شئت، كنت حليف هذه الأشياء، وكانت حقائقَ لدى كأنها الشفاه والعيون الساحرة والصدر الحار؛ وكنت أحب الكلمة البليغة، أو البيت الرقيق من الشعر، كما تُحبُّ كأس حسناء فاتنة، وكنت أزدرى ما ينبعث من لحظ العيون، فيذكى لو العاطفة، أزدريه ولكن أهابه، أهابه وأغبط أولئك الذين رأوا جمال الحياة الصحيحة فلبوا نداءها، حتى أنى حين ملت تأملاتى المعهودة، وانصرفت عنها متمنياً لو أن قيثارتى الشاعرية كانت أقدر على تصوير جمال أقرب إلى الحس والادراك، من مجرد الألفاظ والأحلام...»

وقال فى موضع آخر: «أنا أمُتُّ إلى ذلك الفريق الشقىّ من الناس الذى لا تعذبه بسهولة حرارة مشاعر الآخرين؛ وما أكثر ما أرانى جامداً بارداً عابساً بين مظاهر مَرحٍ مصطخب، وهذا شعورٌ من أمقت المشاعر؛ وهذا العيب يرجع بعضه إلى المزاج وبعضه إلى التأنق العقلى والترفع الفكرى الذى يُصِرُّ على رفض كل ما هو سهل

واضح ، وهذا إحدى نتائج التثقف المحزنة ، وكم يتعذب المرء بهذا التقشف الذهني ! وكم يحن أحياناً في حسرة إلى التخلص من عادة الرفض والانتقاء والتمتع بكل العواطف الحمقاء المحبوبة البيّنة اللذة دون مراجعة للنفس »

وقال في موضع آخر : « أنا أجد مماشاة العصر والزى والانقياد في المجتمع أمراً مرهقاً جداً » . وقال : « إن تفكيري منصرف أشد انصراف إلى العالم الخارجي ، ولكني أمقت النشاط العملي أشد المقت ، أنا مشغوف بالعالم ، ولكن شغفي ذهنيٌّ بحت غير عملي ، وهمّي ولذتي في الفهم لا في العمل ، وحين يتحتم عليَّ العمل آسى على الوقت الذي يستغرقه عمل أشياء في عالم لا أريد إلا أن أفهمه فهماً ذهنياً . . . وحياة الصانع في نظرى ليست إلا كابوساً ، ولا ريب أني أجَنُّ أو أنتحر إذا اضطُررت إلى تضييع وقتي — لأن ذلك ليس في نظرى إلا تضييعاً — في صنع حذائي أو أزرارى ، وفي زراعة خُضَرى ، وفي بناء دارى » .

ومن ثم كانت حياة هكسلى كما تقدم القول خلواً من الأعمال ، وإن كانت مَلأَى بالتطور الفكرى الباطني ، وكانت رَجعته رَجعة لتطور أفكاره في كتبه المتوالية ؛ وبجانب الكتابة والقراءة كانت لذات هكسلى في وقت فراغه تكاد تقتصر على التصوير ، ثم أُولع بالموسيقى وتعمق في علمها تعمقاً تبدو آثاره في شتى كتاباته ، حيث لا يستطيع متابعته إلا عالم بمخارج ذلك الفن ومداخله ؛ ومن محاسن وصفه لأثر الموسيقى في النفوس قوله في إحدى قصصه : « بَدَا كأنَّ السماء قد ارتدت في طرفة عين أعظم سموٍّ ، وانتقلت من كمالها المعهود إلى كمال أعمق غوراً وأبعد مَدى ، وتمادى ذلك السكون الذى لا يوصف ، ولكنه لم يعد سكون العليل النَّبيل الضَّجِر ، بل اختلج واستجدَّ حياةً ، وبدا كأنه يزكو ويشتد حتى اغتدى سكوناً جياشاً بالعاطفة والوقار ، وتحققت بالموسيقى تلك المعجزة الأبدية ، معجزة الحياة الأزلية والسكون الأزلى » .

وكان هكسلى لنزعته هذه الموسيقية الشاعرية وميله العلمى ، شديد الحرص على دقة الأسلوب ونصاعته ، وعلى حسن تأليف كتبه وصياغتها ، وقد امتدح تشسترتون مرة — على بعد ما بينهما — لاحتفال الأخير بأسلوبه وانتقاء ألفاظه . ولهكسلى في النقد الأدبي آراء ضمَّن بعضها مقالاته وبعضها قصصه . أما موضوع كتاباته فهو الكون أجمعه بما يجيش به من حقائق علمية ، والحياة العصرية بأسرها بما تعج به من مشاكل تَهم المثقفين من أبناء جيله . وهكسلى لعميق ثقافته يرى الكون وَحدة عامة وكلاً مؤلفاً من أجزاء كأنها الأنغام مؤتلفة في لحن عظيم ؛ وهو لذلك يعمد في قصصه إلى تصوير ما يحدث في شتى أنحاء الكون وأجزاء الكائنات في كثير من اللحظات المهمة في سياق القصة .

مثال ذلك وصفه لما أعقب مقتل أحد أشخاص قصته « نقطة إزاء نقطة » : « أَلْقَى سباندْرِل النفضة على الكرسى وبدأ يسدل كُمَّىْ قميصه الشموزين ، وفي ساعتين اثنتين تنقبض عضلات القلب وتنبسط ، ثم تنقبض وتعود فتنبسط ثمانية آلاف مرة لا أكثر ، وتجرى الأرض أقل من ثُمن مليون من الأميال في مدارها ، ولا ينتشر التين الشوكى في استراليا إلا مائة فدان أخرى . إن ساعتين اثنتين شيء لا يُذكر فَهُما الوقت الذى يستغرقه الاستماع إلى بعض الألحان الكنسية العتيقة ، أو الطيران من لندن إلى باريس ، أو انتقال الغداء من المعدة إلى الأمعاء الصغيرة ، أو قراءة « ما كبث » ، أو الموت من أثر عضة ثعبان ، أو اكتساب إحدى الخادمات الطارقات بنساً وثُمن بنس ، ليس إلا ؛ ولكن تينك الساعتين لا حَتَّا أبداً أبداً في نظر إلْبدْج وهو جالس ينتظر ، وجثة القتيل ملقاة وراء الستار ، يرتقب حلول الظلام » .

ومن أمثلة هذه الطريقة العلمية الطريفة في سرد

القصص والتيقظ إلى كل ما يحدث فى شتى مناحى الكون قوله بعد ذلك بقليل : « كان الجسد مُلقى وراء الستار . . . وقد بدأت الكائنات الحية الهوائية الدقيقة تغزوه غزوها الذى لا يُقاوَم ، وسوف تستمرئ الحياة فى خلايا الميتة ، وتنمو وتتكاثر تكاثراً هائلا ، فينحلّ نموها وتكاثرها جميع كيان الجثة الكيميائى ، وتتفكك جميع موادها المتوشجة المشتجرة ، حتى إذا ما انتهى عملها كانت أرطالٌ قليلةٌ من الكربون ولترات معدودةٌ من الماء ، وقليل من الجير ومن الفسفور ومن الكبريت ، وأثارةٌ من الحديد والسلكات ، وحفنة من الأملاح الممتزجة — مبعثرةً جميعها وممتزجةً من جديد بالعالم المحيط ؛ كانت هـذه كلّ ما تبقّى من طموح إفيرارد وميله إلى الحكم وحبّه لإلينور وآرائه فى السياسة وذكرياته عن طفولته ، وكل ما تبقى من مهارته فى المبارزة وركوب الخيل ، ومن ذلك الصوت القوى الرخيم وتلك البسمة السريعة الوميض . . . »

ومن أمثلة هذه المعالجة العلمية للقصص أيضاً ، قوله فى نفس القصة عن امرأة قد اقترب أوان وضعها ، وهى قلقة تخشى ذهاب حبيبها عنها : « بعد ستة أشهر يولد طفلها — شىء لم يكن إلا خلية واحدة ، ثم ارتد جملة خلايا ، ثم أمسى جُنَيْبَةً من الأنسجة ، فاستحال ضرباً من الديدان ، ثم سمكةً ذاتَ زعانف وذات قوى لم تزل كامنة — تحرك ذلك الشىء فى رحمها ، وسيكون فى يوم من الأيام رجلاً — رجلاً تام الخَلْق ، يشقى وينعم ، ويحب ويكره ، ويفكر ويتذكر ويتخيل ؛ وهذا الذى كان كتلة هُلاميّة داخل جسدها ، سيتخذ لنفسه إلهاً ويعبده » .

ويعود فى نفس القصة فيتابع تطور مثل ذلك الجنين فى الحياة ، حتى يراهق ويقف فى الكنيسة أمام القس ينصّره ، قال : « شعرت مارجورى بالتعب والمرض ، وبعد خمسة عشر عاماً سيُتنصّر غلام ، فيقول له القس وهو قائم فى مُسوحه الفضفاضة كأنه سفينة كاملة الأهبة : (أتَجْحَدُ هاهنا أمام الله وأمام هذا الجمع ، ذلك الوعدَ الأكيد ، الذى أُقسِمَ به أهلوك باسمك يوم عمادك ؟) ، فتجيب السمكة السابقة فى حرارة إيمان : نعم ! » .

هذه الطريقة العلمية فى النظر إلى شؤون الحياة المادية طريقة قد انفرد بها هكسلى دون سواه من القصصيين ، وكانت طرافتها لا شك من دواعى رواج كتبه ، وارتفاع صيته سريعاً ، وهى طريقة تبعث التهكم والضحك ، لما فيها من مقابلة بين بسائط الحياة التى نأخذها قضية مسلمة وبين حقائق العلم التى تقوم من ورائها ؛ والتهكم من خصائص أسلوب هكسلى ، لأن ذهنه المثقف القوى ما ينفك يلتفت إلى كل ما فى الحياة من مناقضات وأوهام وعواطف ، وما يعتور حياة الفرد والمجتمع ، من غرور وجهل وادّعاء واقتناع لم يؤيده دليل ؛ فيهتك حجاب كل ذلك بالنظرة العلمية والمنطق الصارم ؛ وهكسلى لذلك لا يرخى العنان للعاطفة فى قصصه طويلاً ، وهو كما تقدم القول لا يرخيه لنفسه فى حياته الشخصية ، وهو لا يتوانى فى كثير من المواضع من كتبه من التهكم بنفسه .

انظر إليه كيف شيّع ذلك القتيل سالف الذكر — لم يبك عليه ويستبْكِ ، كما قد يفعل غيره من القصصيين ، وإنما راح يشرح جثته تشريح الطبيب أو عالم الحيوان . ولا غرو ، فقد قال هكسلى مرة إنه يعتقد أن القصصى الجيد لا بد له من أن يكون عالماً من علماء الحيوان . وانظر إليه كيف يتدبر أمر المرأة الحامل المهددة بفقدان حبيبها : لا يرثى لبلواها ، ولا يعطف عليها فى كربها ، بل يتأمل فى التطورات العلمية المادية التى ستمر بها وبابنها المنتظر ؛ ومن شأن هذه الطريقة بالطبع أن تكبح عنان العاطفة التى تكون قد قامت بنفس القارئ ، وتحمله قسراً على التحول من مجال العاطفة ، إلى مجال الفكر المحض .

وقد كان هكسلى فى بدء أمره يتخذ العقل وحده نبراساً فى الحياة ، ويعد العاطفة خداعاً من خداع الغرائز

والحس ؛ وذلك من أثر النشأة العلمية التي نشأها ، ولكنه مالبث تدريجاً أن اهتدى إلى أهمية العاطفة ومزايا الغرائز ، وأيقن أن العقل وحده غير كاف ولا مقنع ؛ ومما وجهه تلك الوجهة ، اطلاعه على كتابات الشاعر وليام بليك ، والقصصي المعاصر له د . هـ . لورنس ؛ وكلاهما يمجد العاطفة والخيال ، ويحس بأهمية الغريزة ، ولا يقدم العقل على شيء من ذلك ؛ فعاد هكسلي يقول أخيراً في كتابه المسمى « استمع ماشئت » ، وهو اسم مشتق من بيت شعر لبليك : « إذا أراد المرء الحياة الصحيحة ، فعليه أن يحيا حياة كاملة ملء كيانه ، بكل جسمه وغرائزه وعقله الواعي معاً » .

وهكسلي يقول عن نفسه إنه لم يدّع يوماً أنه قصصي مطبوع ؛ والحق أنه كاتب مقالات مطبوع ، لأن المقالة هي الظرف الذي يتسع لما لديه من آراء طريفة كثيرة ؛ وإنما نزع به إلى القصة عزوفه الذي فطر عليه عن كل سهل واضح ، وتطلُّبه الصعبَ والبعيد ؛ والقصة ولا شك أبعد منالاً وأعظم مشقة من المقالة ؛ هذا إلى رواج القصة في العصر الحاضر ، وطموح هكسلي إلى مخاطبة أكبر عدد من المثقفين ؛ هذا رغم أنه قد ظل دائماً متسامياً في كتاباته لا يخاطب بها إلا المثقفين الرفيعي النظرة ، النيري الفكرة ، المشاكلين له هو نفسه .

ليس هكسلي قصصياً مطبوعاً ، وقصصه في جملتها غريبة الطراز ، بعيدة كل البعد عن الطراز القديم من القصص : ليس لها تصميم محكم ، وليس يرمي هكسلي فيها إلى تصوير شخصيات أو إغراب في الأحداث ، وليست تنتهي قصصه إلى خاتمات منطقية محكمة بينة ، وليست تخطر قصص هكسلي له على صورة حكاياتٍ مطردة الوقائع ، وإنما هي نظرات في الحياة والكون تتجمع في نفسه حتى إذا ما تجمّعت في صدره صاغها أشخاصاً يؤلف بينهم على نحوٍ ما ويجمع بينهم في شتى المناسبات ليتبادلوا المناقشات في مختلف المسائل ؛ وهذه هي « قصة الآراء » ، وهكسلي نفسه أول عارف بمواضع ضعفها ؛ فهو يقول إن أكبر عيوبها هو أنها لا يمكن أن تحتوي إلا على شخصيات مثقفة مهذبة نادرة الذكاء ، معنية بشؤون الكون ، لا تكف عن مناقشة تلك الشؤون ؛ أما الرجل العادي الذي يحتفل به القصصي المطبوع الذي يريد تصوير الحياة على علاّتها ، فلا يمكن أن يجد في قصص هكسلي مكاناً .

وكل قصة من قصص هكسلي ليست إلا طوراً جديداً انتقل إليه فكرُه ، وخطوة أخرى خطتها آراؤه بعد القصة السابقة ؛ وأشخاص كل قصة لذلك لا يكادون يتجددون ، بل هم أشخاص القصة السابقة ، قد تغيرت ملامحهم قليلاً وتطورت آراؤهم ، والشخصية الرئيسية بينهم عادة شخصيةُ قصصيٍّ أو قصصية ، يضع هكسلي على لسانها أو لسانه آراءه الخاصة ويصور في شخصهما ما يعهد من خلاله هو نفسه ؛ وليس كهكسلي كاتب يعرف نفسه حق المعرفة ويحاسبها حساباً عسيراً ، ويتهدى من مغامزها إلى ما لا يتهدى إليه ناقدوه ؛ كل ذلك في صراحة وجد نزيهين ، لا في نفاق ولا في لهجة هازلة يقصد من ورائها مجرد المجون .

أما تلك المسائل التي يبحثها أولئك الأشخاص المثقفون ، فهي كل ما يعني مثقفي جيلنا هذا ، من شؤون الفرد والمجتمع ، من السياسة إلى الحرب إلى الحكم إلى التعليم إلى الجنس وضبط النسل وتحسين الذرية إلى آثار العلم والآلات في الحاضر والمستقبل ؛ وقد عبر هكسلي عن آرائه في كل تلك المسائل على لسان أولئك الأشخاص في قصصه وبلسانه هو نفسه في مقالاته ومحاضراته ؛ وهو في عالم الحكم والسياسة لا يدين بمبدأ المساواة لمنافاته لحقائق العلم الذي يثبت لنا أن الناس مختلفون في مواهبهم ، وإنما مَثَله الأعلى في الحكم هو مَثَل العلماء والفلاسفة من قبله كأفلاطون وأرسطو ، فهو يقول إن الأرستقراطية الذهنية هي الجديرة بالحكم ، وهو يرى أن هذا متحقق

في عصرنا الحاضر في السلطة التنفيذية ، إذ لا بد للمرء من مؤهلات ليلتحق بوظائف الحكومة ويترقى فيها ، أما في السلطة التشريعية فالحال غير ذلك ، إذ كثيراً ما ينتخب المرء بفعل السياسة والجماهير ، لا بحكم العقل والكفاية .

ولهكسلي في أسباب الحرب رأي طريف ؛ فهو لا يراها راجعة إلى أسباب اقتصادية كما يرى جمهور الناس ، بل مرجعها الأكبر سيكولوجي ، مرجعها ما في الناس من نشاط عاطفي كامن إذا لم توجهه إلى الخير اتجه إلى الشر ، واتجه به الساسة المغرضون وجهة الوطنية المحتدمة المفرقة ووجهة الحرب المدمرة ؛ وهكسلي عالم يعتمد على الأرقام فيما يرى من رأي ، والأرقام تدل على أن نسبة الانتحار تقل في إبان الحروب عنها في زمن السلم ، وهذا يدل على أن كثيراً من الناس يرون الحياة جديرة بالبقاء فيها زمن الحرب ، لأن اضطراب الخواطر إذ ذاك يشبع غرائزهم الطامحة إلى أعمال الحماسة ، وأسباب الاضطراب تقطع ملال حياتهم الراتبة المألوفة .

وهو لذلك ينصح بتوجيه ميول الناس الخطرة إلى منافذ لا ضرر فيها ، كالتربية البدنية والاستكثار من وسائل المرح كالمسارح والملاعب وغير ذلك من الأدوية السيكولوجية لا الاقتصادية ؛ ومن قوله في ذلك : « ما جدوى نزع السلاح أو عقد مؤتمر دولي اقتصادي ما دام قادة كل شعب يشجعونه عمداً وبغير انقطاع على الإفراط في الشعور بالرابطة القومية ممزوجة بالتباهي بالنفس وقائمة على الاحتقار للأجانب ؟ إنما نحن بحاجة إلى مؤتمر دولي سيكولوجي يقرر فيه خبراء نشر الدعوة أي ضروب التربية العاطفية يُسمح بها وتُشجَّع في كل دولة ، وأي فلسفة وتقاليد تناسب تلك التربية الروحية وتُصاحبها ! » .

فخري أبو السعود

من وحي الحرب :

لقاء بين القائد والمنطق

مترجمة عن القصصي الروسي أركادي أورشنكو

" أهدى مؤلف هذه القصة قصته إلى أدلف هتلر "

أقبل رجل أنيق الملبس مهيب الطلعة في صباح أحد الأيام على دار وزارة الحرب في دولة لا يعني القارئ اسمها في شيء . وما إن ولج حجرة ضابط الاستعلامات حتى قال له في لهجة لا تخلو من كبرياء :

— قدمني يا سيدي إلى واحد ممن يجيدون الفهم في وزارتكم ، فإن لدي ما أحب أن أتحدث فيه إليه من شئون الوزارة .

ونظر ضابط الاستعلامات إلى الرجل في تطلع قائلا :

— يجيدون الفهم ؟ وفي أي شيء يا سيدي ؟

فأجاب الرجل الأنيق :

— في شئون الطيران . إن لدي اختراعاً أريد أن أبيع حقوق فيه ، اختراعاً يحدث ثورة وانقلاباً في وسائل الحرب ، لأن من يشتريه يصبح سوط عذاب ونقمة على من يعاديه .

وكان طبيعياً ، بعد هذا التصريح الخطير ، أن تتغير نظرة الضابط نحو الرجل ، ويزيد اهتمامه به . لذلك نظر إليه في احترام وعناية ، وقاده بأدب إلى غرفة القائد ، مبالغاً في إظهار احترامه له كلما انحنى بهما الطريق في ردهات الوزارة الطويلة ، ومنتهزاً كل فرصة تلتقي فيها أنظارهما ، ليومئ برأسه في ابتسامة يفيض منها السرور والابتهاج .

ولم يكن القائد العام أقل حفاوة بهذا السيد من الضابط ، فإنه ما كاد يسمع التقدمة التي قدمه بها حتى بدت على أساريره وجهه علامات الارتياح والاغتباط ، وقاده بنفسه إلى أفخر مقعد في حجرته ، ثم قال له في توقير زائد :

— والآن يا سيدي . هل لي أن أسأل ما هو هذا الاختراع الذي توصلتم إليه ؟

وأجاب الرجل الأنيق في هدوء :

— إنه طراز جديد من قاذفات القنابل يمكن أن يظل في الجو أسبوعاً كاملا حاملا فرقة كاملة من جنود الدفعية ومتحدياً أسوأ الأحوال الجوية ، وإني لأظن أنه قد يهمكم إلى حد بعيد أن تحصلوا على امتياز هذا الطراز من الطائرات .

وأجاب القائد بالإيجاب ، طالباً أن يطلع على تصميمات هذه الطائرة مقسماً أن يحتفظ بسرية الاختراع وبحقوق المخترع ؛ فمد هذا الأخير يده إلى لفافة من الأوراق ، أخرج منها بضعة رسوم نشرها على المائدة ، وأخذ يشرح للقائد تفاصيل اختراعه .

وقال القائد بعد لحظة :

— أجل ياسيدي ، يخيل لي أنك موفق في اختراعك ، فكم تطلب ثمناً لحقك فيه ؟

— مليوناً من الجنيهات .

وقال القائد دون أن يزعجه هذا الثمن :

— ثمن مناسب ، هاك يا سيدي تحويلا بالمبلغ على خزينة الدولة بالمليون الذي تطلبه ، وإذا وقفت إلى اختراع

آخر وأردت بيعه فأرجو أن تطرق باب وزارتنا به في الوقت المناسب .

ومد يده ليحيي المخترع النابغة ؛ فقال هذا دون أن يتحرك من مكانه :

— في الواقع يا سيدى لدى اختراع آخر . لا شك أنه سيثير دهشتك وعجبك .

وأجاب القائد في دهشة :

— وما هو هذا الاختراع ؟

— إنه مدفع رائع . يستطيع أن يحطم قاذفة القنابل التي يعتكم امتيازها في فترة لا تزيد عن الثانيتين ويرسل بها إلى الأرض قطعاً متناثرة . إنه مدفع تصبح أمامه قاذفة القنابل لعبة أطفال .

— أو تقول الحق يا سيدى . أتمنى أنك اخترعت أول الأمر قاذفة القنابل ، ثم عزّ عليك بعد ذلك أن تتركها في أمان ، فاخترعت هذا المدفع لتمزق به أوصالها ؟ ألا تشعر بأى خجل لذلك يا سيدى ؟

واعتدل الرجل الأنيق كأنما طعن بسكين حاد ، ثم قال :

— لا أدرى في الواقع سبباً أشعر من أجله بالخجل . ألا توافقني أيها القائد على أن وسائل القتال تتقدم باستمرار وأنه ما من إنسان رضى أن يقف حيث هو دون أن يتقدم في معركة الحياة نفسها . إن قاذفة القنابل التي ابتكرتها سلاح جهنمى فظيع . ألا ترى معى أنه كان لا بد من أن يبتكر سلاح أشد منه قوة ، تمشياً مع منطق الحياة ؟

وتململ القائد في حيرة وقال بامتعاض :

— قد يكون ما تقوله حقاً . ولكن لو أن إنساناً آخر غيرك هو الذى تقدم لنا بهـذا المدفع لفهمت أو على الأصح لكان ذلك معقولا . أما أنت . أنت .

— أنا ؟ وما الفرق ؟ ألا أستطيع أنا أن أغادر مكتبك ، وأمضى إلى الحلاق فأحلق لحيتى وشاربى ، وأعود إليك بعد قليل شخصاً آخر باسم آخر ، وأبيعك امتياز المدفع . أليس هذا تمسكاً بشكليات لا معنى لها ؟

وكأنما أحس القائد بالخجل وغلب على أمره ، فأجاب بصوت خافت :

— ليكن ما تريد . ليس لدينا ما يمنع شراء هذا المدفع فكم تبيعنا امتيازه ؟

— مليون من الجنيهات .

وكتب القـائد التحويل ثم دفع به إلى المخترع وهو يربت على كتفه قائلاً في دعابة :

— إني لأعترف يا سيدى أنك شاب كفء موفق . قاذفة قنابل هائلة ! ومدفع يحطمها . . . رائع !

— إنك تسرف في إطرائى يا سيدى القائد . على أية حال لابد من ترياق لكل سم . فمثلاً قاذفة القنابل التي اخترعتها كان لا بد لها من سلاح ليتغلب عليها . وبالفعل اخترعت هذا السلاح . هو المدفع الذى بعتكم إياه أيضاً . . . وهذا المدفع بدوره . . .

وبدا على القائد القلق ، ولكن الرجل استمر في حديثه :

— هـذا المدفع بدوره كان لا بد من شيء يقاومه . أأفضى إليك بسر يا سيدى ؟ . . . لقد توصلت إلى ابتكار درع حديدية تتدرع بها قاذفة القنابل ضد هذا المدفع . إن هذه الدرع من القوة بحيث لا يستطيع هذا المدفع حتى ولا أن يخدشه . . .

— لا شك أنك تسعى لكى تفقدنى صوابى يا سيدى . فإن تصرفك بهذه الطريقة الشائنة شيء لا يطاق . . . لا يعقل . . .

ولكن صاحبنا لم يتحرك ، ولم ينبس ببنت شفة . بل ظل ساكناً حتى فرغ القائد من ثورته ، ثم أجاب في هدوء :

— أتظن يا سيدى أنك تملك الحق في أن تثور هذه الثورة وتنعت تصرفى بالطريقة الشائنة . أهنـاك فتش

في اختراعي الأول أم أنه اختراع رائع على حد تعبيرك ؟ أهناك وجه نقص في تصميم المدفع الذي بعثتكم حتى سئمه ؟ إنك تصمت يا سيدي ولا تجيب . أين إذاً التصرف الشائن الذي ارتكبته أنا ؟

— كان يجب عليك أن تعرض عليّ أول الأمر هذه الدرع .

— معذرة يا سيدي القائد . إن فن الحرب هو فن ذو قواعد ونظم لا يمكن أن يسير إلا خطوة فخطوة ، ما فائدة الدرع إن لم تكن هناك قاذفة قنابل أولاً ، ومدفع يحطمها ثانياً . ثم تأتي الدرع بعد ذلك ، لكي تقاوم هذا المدفع ؟ . .

وانقطع الحديث بين القائد والرجل الأنيق لحظة كان القائد فيها ينقر بأصابعه على المنضدة في حركات عصبية ، على حين ظل صاحبنا ينفث في اطمئنان سحاب لفافة أشعلها . وكأنما كان القائد يحاول أن يقول شيئاً فلا يستطيع ، ولعله كان يحاول أن يعترض نفس اعتراضه السابق ، من أنه كان أكثر ملاءمة أن يتقدم بهذا الاختراع الجديد شخص آخر لولا خشيته من أن يجيب هذا الرجل الغريب نفس جوابه الأول . . وأخيراً تكلم :

— وبكم تبيعنا هذه الدرع الواقية ؟ .

— بمليون من الجنيهات ! .

— ألا تكتفي بنصف المليون ؟

— آسف أشد الأسف يا سيدي القائد . إني أستطيع أن أحصل ثمناً لها مليونين من الدولة المجاورة . . .

— أجل . أجل . أعرف ذلك . هاك التحويل . إنك تسعى لخرابنا أيها الشاب العجيب !

ووضع المخترع التحويل في جيب سترته ثم صافح القائد في حرارة وخطا نحو الباب ، ولكن القائد استوقفه سائلا :

— أواثق أنت يا سيدي من أن هذه الدرع تستطيع أن تقاوم أي طراز من المدافع المضادة للطائرات ؟

— بلا شك يا سيدي . إلا إذا اخترع طراز جديد من المدافع يكون أقوى أثراً وأشد وطأة من المدفع الذي بعتكم إياه .

وأجاب القائد في ذعر :

— أو تظن جدياً أن مثل هذا المدفع سيخترع ؟

— سيخترع ؟ إنه اخترع فعلا يا سيدي .

— ومن الذي اخترعه ؟

— أنا ! !

وصرخ القائد بانفعال :

— أنت ؟ يا للشيطان ! ولكنك لم تحدثني عن ذلك ؟

— وماذا تعني ؟ ها أنذا أقول لك الآن في الوقت المناسب . لقد اخترعت مدفعاً لا تقف في وجهه أية دروع واقية .

وجلجل صوت القائد بنفس انفعاله :

— نعم . نعم . مدفع لا تقف في وجهه الدروع ، ستبيعه لنا بمليون جنيه ، فنشتريه ونحن صاغرون ، وبعد شرائه ستحدثنا عن درع جديدة تقاوم هذا المدفع .

— ما في ذلك شك يا سيدي . . .

— ثم بعد ذلك تحدثنا عن مدفع جديد ينسف هذه الدرع ؟

— بكل تأكيد ؟

— ليأخذك الشيطان أيها الشاب فأنت من أتباعه إنك لص محتال ! !

واعتدل الشاب وغادره اطمئنانه ، وبدت على وجهه ملامح الجد الممتزج بالغضب ، ثم صعد نظره في القائد ودوى صوته في سخرية لاذعة :

— أنا لص محتال ؟ إنك تكذب يا سيدي القائد . لو أنك كنت أكثر فراسة وأصدق نظراً لعرفت أنني لست لصاً ولا محتالا . قليلاً من الذكاء يا سيدي تعرف أنني لست إلا المنطق في ثوب إنسان ، ينقصك الذكاء ، ما في ذلك

حول «السفاح» أيضاً

للأستاذ عبد الحميد العبادي

إلى أخي الأستاذ أحمد أمين :

أبتدئ مقالي اليوم بالاعتذار إليك مما فهمته من قولي في ختام مقالي السابق إنك كنت زمناً ما مؤرخاً إسلامياً ، فلم أقصد بذلك – علم الله – إلا إلى أنك كنت أستاذاً للتاريخ الإسلامي السياسي ؛ وهذا أبلغ عندي في الدلالة على أهليتك لولاية الفصل في هذه القضية . أما التاريخ بمعناه الأعمق ، ومعناه الألطف ، فأنت بحمد الله كنت ولا تزال تمانيه في بحوثك الشائقة ، وتآليفك القيمة في حياة المسلمين العقلية . ولعمري لأنتم المؤرخون حقاً ، معشر مؤرخي الآداب والحياة العقلية ، أنتم الذين تؤرخون الجوهر واللباب من حياة الأفراد والجماعات والشعوب ، في حين أنا نحن المؤرخين السياسيين إنما نؤرخ من تلك الحياة الصور والأعراض . أنتم تؤرخون ما ينفع الناس ويمكث في الأرض ؛ أما نحن فنؤرخ الزبد الذي يذهب جُفاء .

أما ما طلبت إليك يا أخي من ولاية الفصل في هذه القضية بعد الذي أوردت من اعتراض ناقشته في مقالي السابق ، فلم أقصد إلى أن أشق به عليك أو أكلفك به شططاً . إني إنما اعتبرتك يا أخي باحثاً ، ولم أعتبرك محامياً ولا مجادلاً . والباحث غرضه الأول والأخير الوصول إلى الحق من طريق الاقتناع والاقناع . أما المحامي أو المجادل فغرضه في أغلب الأحوال قطع الخصم وإلزامه الحجة في مجلس الحكم ؛ وسواء عليه بعد ذلك أوصل إلى الحق أم لم يصل إليه . والباحثان في موضوع واحد زميلان يتعاونان ؛ وأما المحاميان أو المتجادلان في قضية واحدة ، فخصمان يصطرعان . والباحث قاض فيما بينه وبين من يباحثه ، فإن كان مستقلا بالبحث كان قاضياً فيما بينه وبين نفسه التي بين جنبيه ، ولا كذلك المحامي ؛ ومن ثم كانت النقلة من مقعد البحث في موضوع معين إلى منصة الحكم فيه سهلة على الباحث ، على حين أنها ليست كذلك بالاضافة إلى المحامي أو المجادل . وهذه السهولة هي التي لحظتها يا أخي عندما رغبت إليك في الفصل في قضية أخذت من البحث فيها بنصيب . ولقد كنت في حكمك كما توقعت أن تكون : كنت قاضياً وباحثاً . لذلك أستأذنك يا أخي في مناقشة بعض « حيثياتك » ، ولا تقل يا أخي إنك قد قضيت ، فالعلم لا يعرف أحكاماً نهائية ، ولا أحكاماً مستعجلة ، ولا أحكاماً مشمولة بالنفاذ ؛ بل أمره من هذه الناحية هو اليسر بعينه ، وقد عافى الله العلماء ، في بحوثهم من أمثال هذه الأمور التي ابتلى بها غيرهم في شئون دنياهم .

***

شك ، لتدرك هذه الحقيقة الملموسة ، ما من سم إلا وله ترياق ، وما من سلاح إلا وله دافع . سواء ياسيدي خرجت دولتكم من تخمة التسليح أو من نضوب المال . إنك تريد أن تحرز لدولتك سلاحاً لا يصد وتفوتك حقيقة أخرى : إن النبوغ الانساني لا حد ولا رابط ، إني آسف ياسيدي ، آسف لكذبك أولاً ولغبائك ثانياً . وإلى اللقاء .

وحيا ذلك الرجل الأنيق القائد بعد ذلك اللقاء العجيب ، وخرج مسرعاً من وزارة الحرب في الدولة التي لا يعني القارئ اسمها في شيء .

صلاح الدين ذهني

الدعوى الأولى : ومؤداها أنى استبعدت أن يكون أبو العباس مع صفاته الجميلة التى تذكرها له المصادر كلها سفاكاً سفاحاً . وقد حكمت المحكمة برفض هذه الدعوى شكلاً وموضوعاً بحجة أن من الناس رجالاً عرفوا بلطف الشمائل وكرم الخلال لم يتحرجوا من سفك الدم أمثال طرفة وعنترة وغيرهما . وأنا آسف كل الأسف لأن يغيب عن المحكمة الموقرة الفرق الجسيم ، بل التناقض التام بين من نسميهم أبطالاً أمثال عنترة وعلى بن أبى طالب وصلاح الدين ، وبين من نسميهم سفاحين أمثال صاحب الزنج وجنكزخان وهولاكو . إن من وراء سيف البطل قلباً وحياً وضميراً حياً ونفساً ورعة ، ومن دون سيف السفاح قلب صلد وضمير ميت ونفس خبيثة فاجرة لا تعرف وفاء ولا كرماً ولا زهداً ولا حياء .

على أن مناط الحكم فى هذه الدعوى إنما هو الوقائع الثابتة لا مجرد ضرب الأمثال ، وقد بينت أن الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة لأبى العباس لا تنسب إليه من الوقائع ما يسوغ تلقيبه بالسفاح . هذا الأساس المادى لم تعن به المحكمة عند إصدار حكمها مع الأسف الشديد .

الدعوى الثانية : وهى أنى فسرت فى مقالى الأول « السفاح » بمعنى الكريم المعطاء ، ثم عدلت عنه فى مقالى السابق لما ثبت عندى أن أبا العباس لم يلقب بالسفاح أصلا . وقد أهملت المحكمة هذه الدعوى بناء على هذا العدول ، وإن كانت عقبت على ذلك بقولها : « وهذا العدول فيه ما فيه على رأى إخواننا الأزهريين » ، وقد يكون لهذا التعقيب محل لو كنت بدأت بنفى اللقب ، ثم عدت فأثبته متأولاً له ، فيكون هذا تراجعاً منى من غير شك . فأما والنفى البات هو اللاحق لا السابق ، فلا محل للإشارة المذكورة .

الدعوى الثالثة : وحاصلها أن لقب « السفاح » أطلق أصلاً على عبد الله بن على عم الخليفة أبى العباس وعامله على الشام . وقد حكمت المحكمة بصحة هذه الدعوى ، فقالت : « وهذا الشطر صحيح بالأدلة التى ذكرها » . ونحن نتمسك بهذا الحكم الخطير فى هذه القضية ونسجله تسجيلا . ثم إن المحكمة قالت بعقب حكمها المذكور : « وإن كان لا يمنع أن يكون لقب « السفاح » أطلق على أكثر من واحد » . وهو تعقيب فيه ما فيه كما يقول إخواننا الأزهريون . فإن هيئة المحكمة ، وهى من البصر باللغة العربية بأعلى مكان ، تعلم أن نص اليعقوبى الذى استندنا إليه ، والذى يقول : « وعبد الله الأصغر وهو السفاح » يفيد الحصر والتخصيص ، كما تعلم أن نص كتاب أخبار مجموعة القائل : « فلما اجتمع بنو أمية عند السفاح قعد لهم وأدخلهم على نفسه فى سرادق له ليرسلهم بزعمه إلى أمير المؤمنين » يؤيد هذا التخصيص كما تؤيده عبارة كتاب الإمامة والسياسة الذى قلنا إنه منسوب إلى ابن قتيبة وأنه آخذ بطرف من القصص والتاريخ . فلم يكن إذاً إلا سفاح واحد هو عبد الله بن على . وإنا لنعتبر هذا الحكم حكما بيراءة أبى العباس مما رمى به . ومع ذلك فلنمض فى مناقشة الدعوى الرابعة .

الدعوى الرابعة : وملخصها أن أبا العباس لم يلقب أصلاً بالسفاح بدليل أن أئمة الرواية التاريخية القديمة ، وهم ابن عبد الحكم ، والبلاذرى ، والدينورى ، واليعقوبى ، والطبرى ، والكندى ، لم يلقبوه بالسفاح قط . وأن اللقب انتقل إليه من حامله الأصلى عبد الله بن على من طريق تشابه اسمه باسم عمه المذكور ، وأن أدباء القرن الثالث غير المتخصصين فى الرواية التاريخية لم يحققوا المسألة ، فذكروا أبا العباس فى كتبهم مقروناً بلقب « السفاح » . وقد حكمت المحكمة بعدم صحة هذه الدعوى ، وقالت إن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ، وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧١ والمدائنى المتوفى نحو سنة ٢٩٤ لقبوا أبا العباس بالسفاح . أما أن الجاحظ وابن قتيبة من أعلام الأدب العربى فما

لا نزاع فيه ، وأما أنهما حجتان في المسائل التاريخية الدقيقة فما لا يمكن التسليم به . وعلى كل حال فلا ينبغي ترجيح أخبارهما عند التعارض على رواية الطبري وطبقته من أئمة الرواية التاريخية القديمة . وليت شعري ما الذي منع البلاذري واليعقوبي والطبري من النقل عن الجاحظ وابن قتيبة وهما سابقان عليهم . يستحيل ألا يكون الطبري وأصحابه جميعاً اطلعوا على كتب الجاحظ وابن قتيبة . إن السبب في عدم أخذهم منهما هو عدم اطمئنانهم إلى صحة روايتهما التاريخية . أما المدائني فقد أحسن استشهاد المحكمة به لأنه مؤرخ ولأنه شيخ الطبري . ولكني رأيت المحكمة لم تنقل عن المدائني رأساً النص الذي تحتج به ، وإنما نقلته عن صاحب الفهرست . فقالت إن صاحب الفهرست أورد موضوعات « كتاب الخلفاء » الذي وضعه المدائني ومن بين هؤلاء الخلفاء السفاح . ونحن نرى أن الاستشهاد بالمدائني على هذا النحو غير مقنع ، فقد يكون ابن النديم — وهو ليس معدوداً من العلماء — قد ذكر موضوعات الكتاب من ذاكرته . وليت شعري أيهما أولى بالرجوع إليه في هذا الموضوع : الطبري الذي نقل عن المدائني عشرات الصفحات بل مئاتها نقلاً حرفياً دون أن يذكر لفظ « السفاح » ، أم ابن النديم الذي لا ندري هل عبارته منقولة عن المدائني نقلا صحيحاً أو لا ؟

والنتيجة التي نخرج بها من هذا النقاش الذي طال أمده هي أن لقب « السفّاح » قد ثبت إطلاقه أصلا على عبد الله بن علي ، كما ثبت استحقاقه له بفظائعه التي أتاها ؛ وأن الخليفة أبا العباس لم يثبت استحقاقه للقب المذكور ، ولا لقبته به الرواية التاريخية القديمة ، وإنما لقبته به الرواية الأدبية القديمة التي لم يتأثر بها في ذلك أئمة الرواية التاريخية المعتمدة ، وأنه ينبغي ، على أقل تقدير ، أن يسعنا نحن الآن ما وسع أئمة الرواية التاريخية قديماً ، فلا نسمى مؤسس أعظم دولة في العصور الوسطى بغير « الخليفة أبي العباس » ، أو « أمير المؤمنين أبي العباس » .

* * *

وبعد ، فقد ابتدأت هذا المقال بالاعتذار إليك يا أخي الأستاذ أحمد أمين ، وأحب أن أختمه بشكرك ، فلقد كانت معارضتك كلها خيراً وبركة على هذا البحث ؛ فإني عند ما علمت بعزمك على الرد على مقالي الأول ، حسبت لذلك الرد حسابه ، فرجعت إلى مقالي وراجعت كل جملة فيه ، وتوثقت من صحتها ، فلما نشرت ردك شجعني ذلك على المضي في البحث من حيث وقفت في المقال الأول ، وقد استنجدت على الصبر ، وشحذت عزمي للكمال ، فأداني البحث إلى تلك النتيجة التي لخصتها ، والتي أنا مغتبط بها ومطمئن إليها كل الاطمئنان ؛ فشكراً لك يا أخي أولا وآخراً . والسلام عليك من أخ يبادلك حباً بحب ، وإجلالاً بإجلال ؟

عبد الحميد العبادي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

* * *

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوي	مليم	
	٦٠	في مصر والسودان
	٨٠	في الأقطار العربية
	١٠٠	في سائر الممالك

ثمن العدد ٦ مليم

المشى على النــــار

عادة قديمة منتشرة في الهند وجزائر المحيط الهادى يزاولها السحرة و «الحكماء» الذين يداوون بالرُّقى والتعاويذ، وهو نوعان: الأول المشى على الحجارة المحماة، ويزاوله سكان جزائر المحيط الهادى، فتوقد نار عظيمة من الخشب حول حجارة في حجم الوسادة إلى أن يحمرّ لونها من شدة الحرارة، وحينئذ يتقدم كاهن النار فيتطهر ويصلي ويقوم بأعمال يحيطها بجو من الغموض والسحر، ثم يمشى فوق تلك الحجارة عارى القدمين دون أن تحترقا، أو يناله شىء من الضرر.

والنوع الثانى المشى على الخشب المتوهج، وأصله هندى، ولكنه لا يزاول في الهند فقط بل في سائر البلاد الأخرى التى نزح إليها واستوطنها الهنود مثل الشمال وترينيداد وغيرها، وكذلك في اليابان، فتشعل عدة أحمال من الخشب في حفرة مستطيلة، قدرها نحو ست أقدام في اثنى عشرة قدماً وعمقها ساق، وبعد أن يتم الاشتعال ويخمد اللهب، ويصير الخشب أحمر متوهجاً يمشى فوقه الرجل حافى القدمين من إحدى الحافتين إلى الأخرى مشياً متزناً مستقيماً في غير تعجل، ومع ذلك لا يظهر عليه شىء من الألم ولا يصاب بحروق أو ما يشاكلها.

وقد شاهد كثير من الأوربيين والأمريكيين السير على النار ومنهم الأستاذ لانجلى من معهد سمثون الذى قال يصف ما شاهده في إحدى جزائر المحيط الهادى بالقرب من تاهيتى: «كان طول الحفرة ٢١ قدماً وعرضها تسع وعمقها ساق، ألقيت فيها عدة أحمال من الخشب ثم نثر فوق الخشب نحو ٣٠٠ حجر مستدير من البازلت السامى يزن الواحد منها بين الأربعين والثمانين رطلا، وبعد أربع ساعات من إشعال الخشب كانت الحجارة التى في داخل الكوم قد وصلت إلى درجة الاحمرار وصارت تنفجر بصوت عظيم، ثم تقدم الكاهن فعبر النار أربع مرات وهو حافى القدمين وخرج سليماً لا أثر في قدميه للاحتراق» وقد أخذ لانجلى حجراً من التى سار عليها الكاهن وألقى به في دلو من الماء فاستمر يغلى في الماء اثنتى عشرة دقيقة، دليلا على أن الحجر ردىء التوصيل للحرارة، فلو أنه كان جيد التوصيل لجاد بما فيه من حرارة بأسرع من ذلك كثيراً. وقد حمله لانجلى معه إلى واشنجتون، وهناك أحماه إلى نفس الدرجة من الاحمرار وقاس درجة حرارته فوجدها ٦٥٠° مئوية.

وشاهد الفلكى لوول السير على الخشب المتوهج في اليابان. كما شاهده غيره في أماكن أخرى، ولا تختلف المشاهدات وأوصافها كثيراً، وكلها تجمع على أن الكاهن يمشى على النار حافى القدمين دون أن يصيبه ضرر بعد أن يكون قد مهد لذلك بأعمال وصلوات يدّعى أنها السبب في سلامته من الأذى؛ وقد حاول كثير ممن شاهدوا هذه الظاهرة أن يفسروها؛ فبعضهم رمى المحترفين بالشعوذة، وبعضهم دفع عنهم ذلك، ومنهم لانجلى الذى رجح أن لرداءة التوصيل أثراً عظيماً في حماية القدمين، ولما شاع أمر هذه الظاهرة اهتم بها جمهور العلماء الانجليز بلندن وقرروا أن يقوموا بمباحث دقيقة في هذا الصدد؛ فهناك مجلس جامعة لندن للأبحاث النفسية، ويتكون من عشرة أعضاء منهم أربعة من أساتذة الجامعات، قد قرر منذ بضع سنين أن يفحص الموضوع، فنشر إعلاناً عن رغبته في الاتصال بمن يستطيع المشى على النار فتقدم إليه هندى مسلم اسمه كودا بوكس، وقام بما طلب منه من تجارب، فمشى على النار مراراً. وكان الدكتور وليم كولدار يفحص قدميه للتأكد من أنهما لم تدهنا بطلاء، ثم يأمر بغسلهما وتنشيفهما





نجد في الصورة اليمنى كودا بوكس السائر المتفنن بعد اختراق النار ؛ وفي اليسرى أحد الهواة (أدكُك) بعد كودا بوكس في اجتيازه النار . وقد نجح أدكك في القيام بكل ما قام به المحترفون الشرقيون

جيداً قبل اجتياز الحفرة المتأججة بالأخشاب المتوهجة .

وحدث عند إعادة التجربة مع كودا بوكس أن الريح كانت عاصفة فزادت في اشتعال النار لدرجة محسوسة اضطر معها المساعدون إلى لبس نظارات واقية ، ولما قيست حرارتها وجدت درجتها عند السطح ٤٣٠° مئوية وفي الداخل ١٤٠٠° مئوية ، ومشى كودا بوكس مرتين وخرج سليماً ولكنه رفض أن يمشي مرة ثالثة محتجاً بأن إيمانه قد تزعزع زعزعة وقتية بحيث يخشى الاحتراق لو حاول المشي مرة أخرى ، وحاول بعض الحضور من الانجليز المشي على النار فأصيبوا بإصابات مختلفة ولكنها غير خطيرة .

وكان الغرض من هذه التجارب هو التحقق مما إذا كان عند كودا بوكس مناعة تحميه من الاحتراق عند مشيه على النار ، وإذا كان الأمر كذلك فما سبب هذه المناعة ؟ أم أن في الأمر شعوذة ؟ كذلك تساءلوا عما إذا كان في استطاعة أي شخص أن يفعل ذلك ؟ وعما إذا كان المحترفون الهنود يدهنون أقدامهم بطريقة ما ، مثل دهنها بعجينة من الشب أو الملح أو الصودا ؟ أو يعالجونها

عادة مخدرة ؟ وهل يعدون أنفسهم لهذا الامتحان بالصوم أو بعلاج نفسي آخر ؟ وهل يكون هؤلاء المحترفون في حالة انفعال نفسي خاصة ، أم أن مقدرتهم ترجع إلى إيمان ديني قوي كما يدّعون ؟ وأخيراً هل في استطاعتهم أن ينقلوا ما عندهم من مناعة إلى الغير ، أم أن الأمر يرجع إلى أسباب علمية ، مثل تكوين الرماد لطبقة عازلة على سطح النار تحول دون الاحتراق ؟ وهل لسرعة السير على النار أو بطئه دخل في إحداث المناعة ؟

وقد كان كودا بوكس يعزو ما لديه من مناعة إلى قوة الإيمان ، فكان يدّعي أنه يستطيع أن ينقل هذه المناعة إلى أي شخص آخر فيكسبه المقدرة على المشي على النار دون أن يصاب بأذى .

وفي تجربة أخرى أحدث من السابقة اختير هندي آخر قد اعتاد المشي على النار في الهند ، واشترك معه في المشي أربعة من الإنجليز أصيبوا بإصابات بسيطة . وفي تجربة ثالثة اشترك أحد الانجليز فلم يصب بضرر ما ثم عاد فمشى بنعال من حبل فلم يظهر بها أثر للاحتراق .

وتتلخص نتائج تلك التجارب فيما يلي :

ليس في المشي على النار أي سحر أو خدعة ، بل هو سير طبيعي على قدمين عاريتين فعلاً لم تعالجا بأية مادة من المواد الكيميائية .

لا يتطلب هذا المشي مهارة خاصة تضمن المس الخفيف للنار في أجزاء مختلفة من القدم ، فإن الأقدام قد تغوص في تلك النار بوصات ؛ وإنما المفيد في هذا المشي الاتزان ؛ بحيث لا تطول مدة اعتماد الجسم على قدم واحدة أكثر من فترة اعتماده على القدم الأخرى .

رطوبة قدم السائر على النار قد تضره لما قد ينتج عن هذه الرطوبة من التصاق قطع صغيرة من الفحم وهي مشتعلة فتسبب حروقاً .

كما أن النجاح لا يستلزم الصوم والصلاة وما يليهما من التمهيدات .

لم يقم دليل على أن المناعة من الاحتراق يمكن أن ينقلها المتمتع بها إلى شخص آخر .

لا ترجع النجاة من الاحتراق إلى وجود رماد قد يرد فقام حائلاً بين الرجل والنار ، فإن هذا الرماد كان قد أزيل عن سطحها في التجربة التي أجراها كودا بوكس ، كما أن القدم تغوص عادة بقدر يجعلها تصل إلى الفحم المتوهج أو اللب الذي في الداخل .

وبما أن الهواة قد استطاعوا القيام بما يقوم به المحترفون في هذا الصدد ، وبما أن النعال المصنوعة من الحبال التي لبسها البعض أثناء المشي على النار لم تحترق ؛ فنستطيع أن نقول إذاً إن ذلك المشي على النار لا يحتاج إلى إرادة قوى نفسية غير عادية تعين السائر على النار ، وإنما السر كله في هذه المقدرة يرجع إلى أمر واحد ، وإلى تفسير علمي صحيح ، وهو ضعف التوصيل الحراري في مادة الخشب أثناء احتراقه (وفي بعض الحجارة المحمية كذلك) ، ويتضح تأثير هذا العامل إذا ذكرنا أن قوة التوصيل الحراري في النحاس مثلاً تعدل نظيرتها في الخشب ألف مرة . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن زمن التلامس يكون في العادة قصيراً جداً ؛ فلكي يتأثر جسم بارد من ملامسته لجسم حار يجب أن ينتقل مقدار كبير من حرارة الجسم الساخن إلى الجسم البارد بسرعة ، وهذا لا يحدث عندما يكون الجسم الساخن ضعيف التوصيل للحرارة ؛ ويؤيد ذلك أنه إذا تعددت مرات التلامس فقد يكون مقدار الحرارة الذي ينتقل من النار إلى القدمين كافياً لاحداث بعض الحروق بهما ، وتدل التجارب التي أشير إليها فيما سبق على أن السائر على النار يستطيع عادة لمسها مرتين فقط بالقدم الواحدة دون أن يصاب بأذى ، فإذا زاد عدد مرات التلامس تعرض الشخص للاحتراق ، وهنا يظهر بعض الاختلاف بين الأشخاص ، فإن الذي يمشي عادة عاري القدم يكون في الغالب أكثر مناعة ضد الاحتراق غيره على من يلبس الحذاء .

وبذلك فسرت تلك الظاهرة التي أحدثت ضجة هائلة تفسيراً علمياً بقصر اللمسات ، وقلة عددها ، ورداءة التوصيل الحراري للجسم الساخن .

مترجمة بتصرف من (Scientific American)

سيرانادا مصرية

أغنية ليالي النيل

دنا الليـــل ، فهيا الآن يا ربة أحلامى
دعانا ملكُ الحبِّ ، إلى محرابهِ السّامى
تعالَ ، فالدُّجى وحىُ أناشيدٍ وأنغام
سرتْ فرحتُه فى الماء والأشجارِ والسُّحْبِ
تعالَ نعِشِ الآن ، فهذى ليـلة الحبِّ

على النيلِ ، وضوء القمرِ الوضّاح كالطّفلِ
جرى فى الشّفةِ الخضراء ، خلف الماء والظلِّ
تعالَ نمشِ نلهو بلثم الورد والفلِّ
هناك على رُبَى الوادى ، لنا مهدٌ من العشبِ
يلفُّ الصمتُ رُوحينا ، ويشدو بلبلُ الحبِّ

يطوفُ بنا على شَطٍّ من الأضواء مسحورِ
شراعٌ خافقُ الظلِّ ، على بحرٍ من النّورِ
تناجيه نجومُ الليـل نجوى الأعينِ الحور
وأنتِ على فمى ويدى خيالٌ خافقُ القلبِ
تعالَ نعِشِ الآن ، فهذى ليـلةُ الحبِّ

ليالى الصيفِ أحــلامٌ تراءت لمُحبّينا
تغيبُ الخمرُ والسّاقى ، ويبقى سحرُها فينا
وهذا كأسُها الوهّاجُ صــدّاحٌ بأيدينا
فهيّا نشرب الليـلةَ من سلسالها العذبِ
تعالَ نعِشِ الآن ، فهذى ليـلةُ الحبِّ

على محمود طه

هنا محرابها!...

هُنا مِحْرابُها ! ... فاخْشَعْ   مَعِي لِلْحُسْنِ يا قَلْبِي
وَبارِكْ سِرَّ الحَـــانِي   فَهذا مَعْبَـــدُ الحُبِّ !
هُنا وَكْرُ الهَوى ! .. كَمْ فِـ   ـهِ هَدْهَدْنا أَمانِينا !
وَكَمْ فِي ظِلِّهِ يا قَلْـ   ـبُ رَدَّدْنا أَغانِينا !
فَيا ذاتِي ! ... تَعالَيْ قَدْ   لَمَا يَقْضِي مَعِي نَحْبِي ...
تَعالَيْ ... حُبُّنا يا مَهْـ   ـدَ أَشْواقِي يُنادِينا ! !

* * *

سَكَبْتُ الرُّوحَ قُرْباناً   عَلَى مِحْرابِكِ الظّامِي ! !
وَصُغْتُ الحُبَّ أَنْغاماً   عَسَى تُرْضِيكِ أَنْغامِي !
فَيا دُنْيا تَـــبَاهِي !   فُؤادِي مِنْكِ مَسْحُورُ ...
أَنا الشّادِي ... تَغَنَّتْ فِي   لَيالِي بِالهَوى الحُورُ ! !
فَعِيشِي فِي حِمَى حُبِّي   تَرِفُّ عَلَيْكِ أَحْلامِي !
وَرَبّاتُ الهَوى وَالطُّهْـ   ـرُ وَالإيمانُ وَالنُّورُ ! !

* * *

أَنا الشّادِي ! .. وَكَمْ رَفَّتْ   أَغارِيدِي عَلَى ثَغْرِكْ ! !
وَكَمْ يا فِتْنَتِي أَغْفَتْ   مُنَى نَفْسِي عَلَى صَدْرِكْ ! !
وَكَمْ ضَمَّ الدُّجَى الصّابِي   عَلَى شَــوْقٍ خَيالَيْنا !
وَطافَ السِّحْرُ يا نَبْعَ الـ   ـهَوى الشّافِي حَوالَيْنا ! !
فَيا دُنْيايَ ! ... ماذا لَوْ   عَمَرْتِ الرُّوحَ فِي نَهْرِكْ !
وَقُلْتِ لَها : مَعِي عِيشِي !   وَقَرِّي بِالهَـوى عَيْنا !

* * *

تَعالَيْ يا هُــدَى رُوحِي   وَعِيشِي لِلْخُلُودِ مَعِي ! !
تَعالَيْ ! ... قَدْ مَضَى أَمَلِي   لِيَحْيا فِي دَمِي جَزَعِي !

(البقية على الصفحة التالية)

أنباء وآراء

ذكرى الحسن بن الهيثم

أقامت الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية اجتماعاً تمهيدياً بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة فؤاد الأول ، إحياءً لذكرى العالم الجليل ، والمهندس البصرى ، الحسن ابن الهيثم ، لمناسبة مرور تسعمائة سنة على وفاته بالقاهرة . وقد أم هذا الاحتفال جمهور كبير من أساتذة الجامعة وطلابها ، وفريق من المشرقيين نزلاء القاهرة ، كما تفضل بتشريفه سمو الأمير محمد عبد المنعم الرئيس الشرفى للجمعية ، فكان مظهراً رائعاً من مظاهر التقدير للعلم ، والوفاء لمن أفادوه وساهموا فى ميدانه .

كانت كلمة الافتتاح لسعادة لطفى السيد باشا ، ولكن حالت أعذار طارئة دون حضوره ، فافتتح الاجتماع الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق بك ، فعرض سيرة ابن الهيثم عرضاً سريعاً ، ثم تناول آراءه الفلسفية معلقاً عليها ، مبيناً أثر فلسفة ابن الهيثم فى الفلسفة عامة ، وقيمتها فى الفلسفة الإسلامية خاصة . ثم قام الدكتور محمد على حجاب مدير مكتبة الجامعة ، فعدد جهود ابن الهيثم فى شتى نواحى العلم ، وأشار إلى مصنفاته التى لا تحصى فى كل من الهندسة والطب والفلك ، هذه المؤلفات والتصانيف والمقالات التى تبلغ فى الطبيعة فقط ٢٤ مؤلفاً ، لا يعرف منها اليوم إلا أحد عشر مصنفاً موجودة فى مختلف مكتبات العالم . وقد أثارت كلمة الأستاذ حجاب سؤالاً لا بد منه ، وهو : ألم يحن الوقت بعدُ لتضافر الجهود للبحث عن مؤلفات ابن الهيثم ؟ ذلك هو السؤال الذى دفع الأستاذ وهو يذكر أن لابن الهيثم حوالى الأربعين مؤلفاً فى الفلسفة والمنطق والأخلاق ، لأن يتمنى أن يوفق العلماء للعثور على الكثير من مؤلفات ابن الهيثم المفقودة .

وتحدث الدكتور مصطفى نظيف بك عن ابن الهيثم كعالم طبيعى ، فشرح كيف أن ابن الهيثم منذ أكثر من تسعمائة عام اعتمد فى كتابه المناظر ، على الاستقراء والقياس والمشاهدة والاختبار ، وهى دعامة علم الطبيعة الحديث ، فأدرك بذلك ما لم يدركه فرنسيس باكون بعده بمئات السنين ، حين اعتمد على الاستقراء وحده ؛ ثم أشار إلى نظرياته فى الأبصار ، التى لا تزال فكرتها إلى اليوم هى المعتمد عليها مع تعديل طفيف ، وإلى بحوثه الرياضية فى الهندسة المستوية والهندسة الفراغية ، وتجاربه فى الضوء وفى الصور ، ودراساته المرايا المحرقة ، ثم أخيراً إلى أبحاثه فى أغلاط البصر ، الأبحاث التى يقوم عليها اليوم أحدث العلوم التى يطالعنا بها الغرب ، وهو علم هندسة الإضاءة الذى يعبر عنه عند ابن الهيثم بأنه « الشرائط التى لا يتم الإبصار الصحيح إلا بها » .

وتكلم الدكتور محمد رضا مدور مدير مرصد حلوان عن ابن الهيثم الفلكى ، فأشار إلى مؤلفاته فى الفلك التى تبلغ أكثر من ٢٤ مقالة ، لم يصلنا منها إلا أربع عشرة ،

وَمَا يُرْضِيكِ أَنْ تَنْضِي حَيَاتِي فِي الْيَبَابِ سُدًى !

فَهَيَّا نَسْكُبِ الْأَشْوَا قَ فِي ثَغْرِ الزَّمَانِ هُدًى !

وَنَسْقِي الْكَوْنَ بِالْأَلْحَا نِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَعِي ..!

وَنَشْرَبْ مِنْ عُبَابِ الشَّـو قِ ... قَدْ كِدْنَا نَمُوتُ صَدًى !!

محمود السيد شعبان

(القاهرة)

ثم شرح دراسات ابن الهيثم للقمر ورسالته فيه « الأثر الذى فى وجه القمر » ورسالته الأخرى فى كيفية الرصد ونظريته فى الظلال ، وفى شتى نواحى الفلك .

أما ابن الهيثم كعالم رياضى ، فقد حدثنا عنه الدكتور على مصطفى مشرفه بك عميد كلية العلوم ، حديثاً طريفاً كشف لنا فيه عن نظريات هذا العالم الجليل الذى عالج منذ تسعة قرون مسائل لا زالت إلى اليوم شغل العلماء ، كمسألة تربيع الدائرة وغيرها من مسائل العلم الحديث .

وقد اختتم الاحتفال بكلمة الدكتور محمد محمود غالى عن ابن الهيثم والهندسة ، فأكمل بذلك الصورة التى شاءت الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية لهذا العالم الفذ ، وهى صورة تدعو إلى ما هو أكثر من الاحترام والتقدير ؛ فبعد هذه الأحاديث القيمة التى قدمها الأساتذة المحاضرون عن الحسن بن الهيثم ، لا يسع المرء إلا أن يهدى تحية وفاء وإكبار ، إلى روح هذا الشرقى الذى أنجبه الشرق منذ عشرة أجيال ، فاستطاع أن يسجل فى ميدان العلم نظريات وأبحاثاً ، هى إحدى دعامات الحضارة الحديثة بعلومها وكشوفها .

تصحيح خطأ مطبعى

ورد فى الكلمة التى نشرت فى هذا الباب بالعدد ٤٩ عن المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعة ، ذكر الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أتصيبوا . . . . . . » ، وصحة الآية « أن تصيبوا . . . »

ونحن نثبت هذا التصحيح معتذرين عن الخطأ المطبعى ، شاكرين لمن نبهنا إليه صنيعه

حول قصة

كتب إلينا الأستاذ أحمد جمعه الشرباصى بكلية أصول الدين ينتقد القصة التى نشرتها المجلة منذ عددين بعنوان « ليلة القدر » ؛ وقد حصر نقده فى أمرين : أولهما أن ليلة القدر « لم تجعل لقبول الدعوات وإجابة الطلبات دون سائر الليالى ، وإنما جعلت للعبادة والتقرب من الله . والثانى أن مؤلفة القصة جعلت بطلة قصتها تدعو الله فى هذه الليلة ولا تجاب دعوتها » .

ونحن نشكر للأستاذ غيرته على الحقيقة ، وإن كان لا يفوتنا أن نسجل أن مجال القصة غير مجال الحقيقة ، فقد تقوم القصة على فكرة وهمية ، وقد تقوم على مجرد خيال الكاتب . والخيال القصصى واسع المدى ، لا تحده الحقائق ولا الأشخاص ولا الأفكار ؛ ونحسب أن الكاتبة حين جعلت موضوع قصتها هذه البدعة الشائعة التى يؤمن بها الكثيرون ، لم تعد فى شىء ما للفنان من حرية التخيل والتصور ، ولم تؤيد هذه البدعة حتى يقال إنها خرجت على الدين . وإذا كانت بطلة القصة قد رأت النور الذى تزعم هذه البدعة أنه يظهر فى ليلة القدر ، فإن علم النفس يقف فى صف المؤلفة ، فهو يقرر أن الانسان قد يرى أحياناً أشياء لا أثر لها فى عالم الواقع بدافع العوامل النفسية المختلفة من رغبة وخوف .

ديوان الفؤاديات

للمرحوم فؤاد بك محمد

ناظم هذا الديوان من الشعراء الذين وهبوا قول الشعر الحى ، الذى ينفذ إلى أعماق النفوس ، إذ كان يقوله إرضاء لعاطفته ، وإجابة لنداء قلبه ، فجاء كله شعر عاطفة ووجدان ، من غزل ، ورثاء لذوى قرباه ، ومواساة للفقير المسكين ، والمكلوم الحزين ، بعيداً كل البعد عن التهالك والمديح .

وقد حال بينه وبين الإكثار منه شواغله الجمة ، وأبت عليه نفسه بعد أن أتم دراسته العالية بكلية الحقوق المصرية ، أن يمارس مهنة المحاماة ، أو أن يقبل وظيفة ، وتفرغ لإدارة أملاكه وأملاك والده الواسعة .

فقد ولد — رحمه الله — فى بلدة بلقاس ، من أسرة عريقة هى أسرة « شهاب الدين » لأب كريم هو المرحوم محمد أحمد باشا ، عضو مجلس الشيوخ السابق ، ومن كبار أعيان مديرية الغربية .

(البقية على الصفحة التالية)

فى عالم التأليف

نقد كتاب :

فى الأدب المصرى الاسلامى

من الفتح الاسلامى إلى دخول الفاطميين

عرف رواد الأدب منذ عشر سنوات دعوة الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك ، إلى ضرورة الاهتمام بدراسة الأدب المصرى فى شتى عصوره ، وسرتهم رغبته فى إنشاء كرسى لتدريسه بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب ، ثم أعلن القسم فى نهاية العام الدراسى المنصرم أنه اعتزم تحقيق هذا المشروع فى عامنا الراهن ، ورشح الأستاذ الجليل أحمد أمين أستاذاً للأدب المصرى ، يعاونه اثنان من أصدقائنا : أحدهما الأستاذ محمد كامل حسين ، صاحب هذا الكتاب الذى وضعنا عنوانه فى رأس هذا المقال ؛ وأثارت هذه الحركة الطيبة اغتباطاً ملحوظاً فى نفوسنا جميعاً ؛ ولكن الغريب حقاً أن الأستاذ العالم أحمد أمين قد شغل عطلة الصيف الماضى بمقالاته الطيبة التى نشرها فى « الثقافة » وأعلن فيها « جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى » ، وصوَّر فى ثناياها طغيان الروح العربىّ على الآداب الاقليمية طغياناً أفقدها خصائص البيئات ومميزات العصور ، ومسح عنها طابع الزمان والمكان معاً ! . . . . فقضى الأستاذ بمقالاته القيمة — فيما قضى — على الأدب المصرى فى روحه وطابعه وخصائصه ، ولم يُبق من هذا الأدب — وهو أستاذه الأول — إلا اعتباره شعراً ونثراً قيلا فى أرض علكها المصريون ! . . .

وفى نفس هذه الفترة التى كان فيها قسم اللغة العربية معنياً بالاستعداد لتدريس الأدب المصرى فى كلية الآداب ، نشر صديقنا الأستاذ كامل حسين كتابه عن الأدب المصرى الاسلامى منذ الفتح العربى إلى دخول الفاطميين أرض مصر ، فكان طبيعياً عند الواقفين على هذه الحركة الطيبة أن يبحثوا فى هذا الكتاب — أول ما يبحثون — عن خصائص الأدب المصرى ، عسى أن يهتدوا إلى روحه وطابعه الذى يميزه عن سائر الآداب الاسلامية فى شتى البقاع الأخرى . وما أظننى أتجنى على صديق المؤلف حين أطالبه باستقصاء العناصر المصرية فى الأدب الذى تناوله بالدراسة والبحث ، فان الأدب المصرى بغير هذا يكون

وقد تنقل رحمه الله فى التعليم ، ولكن لم يمنعه نعيمه أن يرثى للفقراء والبائسين فى كثير من شعره .

وتوفى فى مايو سنة ١٩٣٧ ، عن خمسة وثلاثين عاماً قبل أن يتألق نوره ، ويتم سناه .

وقد قام الأديب عبد القادر يوسف شهاب الدين ، الطالب بكلية الحقوق وابن عم الفقيد بجمع ديوانه وطبعه .

وتفضل فأهدى « للثقافة » خمسين نسخة لمشتركيها .

و « الثقافة » تضع النسخ لمن يطلبها من المشتركين بنفسه فى دار « الثقافة » ، أو لمن يبعث بأجرة البريد لارسالها إليه .

وتعلن شكرها للناشر ، وتطلب من الله الرحمة للشاعر .

عبارة عن الشعر والنثر اللذين يحدان شمالاً بالبحر الأبيض ، وجنوباً بالسودان ، وشرقاً بالبحر الأحمر و . . . إلى آخر ما يراه الجغرافيون فى تحديد مصر ! . . . ويصبح كل ما قيل فى أرض مصر من شعر ونثر ، مصرياً ، ولو لم يحمل إلا طابع الجاهلية الأولى ! . . . وإذا قدر لمصر أن تعيد الشام لحكمها ، أصبح أدب الشاميين مصرياً صميماً لأنه قيل فى أرض يحكمها المصريون ! . . .

على أن ثورة الأستاذ العالم « أحمد أمين » على الأدب الجاهلى قائمة — فيما يلوح لى — على حق تشوبه المبالغة التى تبررها الرغبة فى إيقاظ النيام من المشتغلين بالأدب . . فإن طغيان الروح الجاهلى ، لم يمنع من ظهور الطابع الاقليمى ظهوراً قد يسهل التماسه فى الأدب المصرى أحياناً ؛ وقد وضع فى سنة ١٩٣٠ معالى الأستاذ الجليل مصطفى بك عبد الرازق بحثاً قيماً عن « البهاء زهير » أبان فيه عن النفحات المصرية الصادقة فى شعر هذا الرجل ، وانتهى إلى القول بأن « الروح المصرى يتجلى فى هذا الشاعر القوصى الصعيدى بأكثر مما يتجلى فى أى شاعر مصرى عرفناه فى القديم والحديث » ، وأن هذا الشاعر يحسن التعبير عن الطابع الانسانى والمصرى معاً ، وذلك خير ما ينتظر من شاعر مصرى مطبوع ؛ ولو كان للاعتبارات الجغرافية حساب فى عرف أستاذنا ما اعتبر هـذا الشاعر الذى ولد فى الشام مصرى الروح والطابع .

ويشهد كذلك بوجود الطابع المحلى فى الآثار الأدبية العربية هذا البحث الممتع الذى نشره الأستاذ أمين الخولى فى الجزء الأول من المجلد الثانى لمجلة كلية الآداب — التى يقوم الأساتذة بتحريرها — وأبان فيه عن أثر « مصر فى تاريخ البلاغة » ، وإن كان الأستاذ قد هدم فكرة البحث باعتراف ورد فى نفس المقال . . . ! وسنعرض لمناقشته فى نهاية هذه الكلمة .

على أن صديقنا صاحب الأدب الاسلامى قد فطن إلى ضرورة البحث عن الخصائص المصرية فى الأدب الذى اهتم بدراسته ، وهو كثيراً ما يأسف حين تعز عليه أسباب الكشف عنها فى بعض الفترات المظلمة فى عصره (ص ١١٦ مثلا) ، ثم هو يطرب لفرط الاغتباط إذا لاح له أنه اهتدى فى بحث إحدى الفترات إلى ما يومئ بوجود الطابع المصرى ؛ وحسبنا الآن أن نعترف له بهذا الفضل ، وإن كنا سنعود لمناقشته فى الأسباب التى أدت إلى أسفه ، أو انتهت باغتباطه ، لأن هذا هو جوهر الخلاف القائم الآن بينى وبينه .

وقد كنت أحب — كقارىء له — أن يعقد فى كتابه فصلاً تمهيدياً يكشف فيه عن خصائص الأدب المصرى ، ويحدد طابع مصر وروحها ، ثم يطبق ما يقوله فى هـذا الفصل على ما يدرسه فى شتى الفصول الأخرى من ألوان الأدب فى عصره ؛ وليست تكفينى تلك الاشارات المقتضبة التى نثرها فى الكثير من صفحات الكتاب ، وأعلن فيها اغتباطه بالعثور على الخصائص المصرية ؛ لأنها إن دلت على شىء فانما تدل على أننا على خلاف ملحوظ فى فهم الخصائص التى تميز أدبنا عن سائر الآداب ؛ فاشارات المؤلف تشى بأنه يفهم من الخصائص المصرية ، الحديث عن البقاع المصرية ، وما يمر بأهلها من أحداث . . فالشاعر مصرى تنساب فى شعره النفحات المصرية متى ذكر النيل وبنى سويف ، ولم يهمل ذكر طنطا ودمياط . . ! وهو مصرى صادق التعبير عن الروح المصرى متى سجل الحوادث التى شاهدها المصريون من اضطرابات سياسية أو اجتماعية . . ! من ذلك قوله فى شعر أبى نواس حين وفد على مصر : « ثم ذكر النيل صباراً وما به من التماسيح ، وهو معنى لا يتأتى لشاعر لم ير النيـل ، ولم يسمع عما به من التماسيح » (ص ١٨٧) وتمشياً مع هذا المنطق تستطيع أن تقول إن فى استطاعتك أن تكون أديباً روسياً أو ألمانياً أو انجليزياً متى قرأت كتاباً فى جغرافية بلاد هؤلاء الأقوام ، ووصفت معلوماتك التى استقيتها عن هذا الكتاب فى شعر أو نثر فنى ، ويومئذ يتنازع عليك الروس والألمان

والانجليز ، يريد كل فريق أن يمترك من أهله . . . ؛ إن دعاة الأدب القومي يتصورهم الأدب المصري على هذا النحو ليشبهون الشعراء الذين يزعمون أنفسهم مجددين ، لأنهم عدلوا عن وصف الناقة والصحراء ، إلى ذكر الطيارة والتليفون ، وما إليه مما لم يسمع به القدماء .

وقد يقتضب المؤلف حيث ينبغي الأسهاب ، فحديثه من الخصائص المصرية مجرد إعلان عن مرضاته عن كشفها ، دون تحديد لها أو إشارة إليها ؛ فمن ذلك قوله عند ما عرض لحديث عن النحو : « وهنا أتساءل : هل استطاع هؤلاء العلماء — المصريون — أن يتخذوا لأنفسهم مذاهب نحوية تختلف من مذاهب الكوفيين ، والبصريين والبغداديين ؟ وهل هناك فرق بين آراء النحويين المصريين والنحويين في العراق . . ؟ أستطيع أن أجيب على هذا كله بأنه كان للمصريين آراء تختلف بعض الشيء عن آراء العراقيين ، وأترك تفصيل ذلك كله إلى البحث الذي سأنشره قريباً عن مدرسة النحو في مصر . » ص ٦٩ .

على أنه ينبغي أن نعرف على وجه التحقيق ، أن انفراد عالم أو شاعر مصري برأي أو مذهب من المذاهب ، لا يعني أن هذا الخلاف من أثر مصر وإملاء روحها ، فإن أفراد الأمة الواحدة يتفاوتون في فهم الأمور ، ويختلفون في وجهات النظر ، وهذا التفاوت في التفكير لا يبرر القول بأنه من أثر البيئة وإملاء المكان ؛ ولكن المؤلف يعمم في أحكامه حيث يجب التخصيص ، فتراه يقول عند الكلام على علم القراآت في مصر : إن أبا يعقوب المصري انفرد عن أستاذه « ورش » بتغليظ اللام وترقيق الراء ، ثم يعقب على هذا قائلاً : « من ذلك كله نستطيع أن ندرك أن المصريين كان لهم أثر واضح في القراآت . . . كما كان المصريين رأي خاص . . . كالذي ذكرناه من قراءة أبي يعقوب المصري في تغليظ اللامات وترقيق الراآت » ص ٣٩ ؛ ولا أظن أن هذا التغليظ والترقيق من خصائص الروح المصري ، ولعله من طبيعة الخلاف الذي ينشأ عادة بين الأفراد .

ولست أجني على صديق المؤلف في شتى الملاحظات التي أسلفتها ، فقد اعترف هو بصدقها دون أن يشعر ، فقال : « فبعد أن كان الشعر المصري في العصور السابقة يكاد يكون صورة من الشعر العربي في الأقطار الأخرى من حيث المعاني والخيال . . . أصبح الشعر في عصر الطولونيين والأخشيديين يأخذ مظهراً آخر لم نعرفه من قبل . . . تطور الشعراء في عصر الطولونيين ، فترك أكثرهم العلم واهتموا بالفن الشعري والتكسب به . . . » (ص ٢٢٣ — ٢٢٤) ؛ وليس في هذا التطور الذي يذكره في نصه إشارة تفي ، بأن الشعر المصري قد تميز عن الشعر العربي في الأقطار الأخرى من حيث المعاني والخيال — إلى آخر العصر الذي درسه المؤلف ؛ والمعنى الذي يفيده النص السالف أن المؤلف الكريم يعترف بأن الشعر المصري تعوزه روح البيئة المصرية ، قبل عصر الطولونيين والأخشيديين ، وفي عصر الطولونيين والأخشيديين على السواء . . . ! !

ومما يسترعي النظر في كتاب صديقنا ، تعليل بعض الظواهر ؛ وقد أسلفنا الإشارة إلى أن بعض المقدمات التي يعتمد عليها لا تبرر النتائج التي ينتهي إليها ؛ ونضيف الآن بضعة أمثال كقوله (ص ٩٤ — ٩٥) : « وكانت مصر الاسلامية تسير نحو الأخذ بحظ وافر من العلوم ، فازداد عدد المشتغلين بها يوماً بعد يوم ، فكان ذلك من الأسباب التي وجهت الكتابة العربية في مصر إلى ناحية خاصة ، هي الناحية الفنية التي يتكلفها الكاتب ويتعمد تجميلها وزخرفتها وهذا ما نراه . . . » . وأكبر الظن عندي أن انتشار العلم لا يؤدي إلى هذه الزخرفة اللفظية المتكلفة ؛ ولعل الأصح أن يقال إنه يقضي عليها ولا يعيش معها أبداً ؛ وما كان يجمل بالمؤلف أن يعتبر هذا العبث القائم على التكلف اتجاهاً فنياً . . . ! ويعتمد صديقنا على قصيدة واحدة لشاعر واحد أعلن فيها اغتباطه لهبات أمير ، ويقول

إن المصريين قد تخذوا الشعر فى هذا العصر وسيلة لهجاء الوالى! . وذلك رغم أنه يعترف بأنه لا يكاد يعرف لهذا مثيلا فى الهجاء المرفى، ولا فى الشعر المصرى . . . » ص ٢٢٠

وقد يروى ظاهرة ويفصل الحديث فى أمرها ، ثم لا يحسن تعليلها ، وربما كان فى شرحه ما يمكّن الناقد من مناقشة تعليله ، فمن ذلك قوله : « ولولا هـذا الطمع فى المال ما أتى أبو نواس من بغداد إلى مصر . . . وهذا المدح الذى أنشده أبو نواس للخصيب يختلف عن مدح المتنبى لكافور الأخشيدى، إذ كان المتنبى كاذباً فى مدحه، كان يصانع كافوراً ويجامله . . . » ص ١٧٩ — ١٨٠ . ومعنى هذا أن أبا نواس كان صادقاً فى مدحه للخصيب ! وأظن هذا لا يتفق مع الفقرة الأولى فى النص السالف ، ولا مع قوله بعـد ذلك بصفحة واحدة : « وهكذا انتقل أبو نواس من مدح الخصيب إلى هجائه ؛ ويغلب على ظنى أن الخصيب لم يفِ بوعده لأبى نواس ، أو أن أبا نواس كان يطمع فى أضعاف ما ناله من الخصيب » ص ١٨١ . أى أن المديح إذاً كان مرهوناً بالعطـاء ، ولا أظن هذا النوع من المديح يكون صادقاً أبداً .

ومما يدخل فى هذا الباب حاجة البحث إلى الدقة أحياناً ، من ذلك ما رآه عند الكلام على المتنبى فى مصر ، فقد أحال المؤلف قراءه على خمس وثلاثين ومائة صفحة من كتاب « مع المتنبى » للأستاذ طه ، لكى يعرفوا أثر مصر فى شعر هذا الشاعر، قائلاً لهم : « تحدث الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلا عن أثر مصر فى شعر المتنبى » ص ٢٤٧ ، فإذا التمس القراء هذا الأثر فى الكتاب عرفوا أن الصفحات التى يشير إليها الأستاذ كامل ، هى كل ما كتبه الدكتور عن المتنبى منذ فكر فى زيارة مصر إلى أن بارحها فاراً إلى الكوفة ، وأن حديث الدكتور عن أثر مصر فى شعر المتنبى قد استغرق بضع صفحات ، أعلن فيها أن البيئة الطبيعية — مصرية أو غير مصرية — لم تكن تؤثر فى نفس المتنبى كثيراً ، وأن البيئة الثقافية فى مصر قد كان كل أثرها أن حملت الشاعر على أن يحسّن لمعانيها كل حساب ، وليس فى هذا ما يدل على أن الروح المصرى قد تمكن فى هذه الفترة التى أقامها المتنبى فى مصر ، من التسلل إلى شعره والتجلى فيه . . .

بقيت ملاحظاتنا على الكتاب من حيث اللغـة ، وحسبنا أن نسجل على صديقنا المؤلف إهماله العناية بأسلوبه الفنى ، وأن نشير إلى نماذج من أخطاء كان ينبغى أن يخلو منها كتابه ، كقوله فى ص ٢٨ : قنع المصريون اللغـة اليونانية من الكنائس ، واستبدلوها باللغة القبطية ، والصواب استبدلوا بها اللغة القبطية . وفى ص ٢٥ : حتى إذا كان أيام المعتصم فأمر بإسقاط . . . والصواب كانت أيام المعتصم أمر . . . وفى ص٣٢ : فكثر بذلك أموالهم — وفى ص ٨٤ : ولم تسام مصر القدر الذى — بتعدية الفعل اللازم ، وفى ص ٥٣ : الناظرات الشيقة ، وصوابها الشائقة ، وفى ص ٧٢ : اعترفوا له بالفضل والرئاسة ، وصوابها الرّآسة أو الرياسة . . . الخ الخ .

حسبنا الآن هذا ، فقد طال الكلام ، ولكن ينبغى — لا مجاملة لصديقنا المؤلف — بل إنصافاً للحقيقة أن نعترف بأن موضوعه بكر لم يتناوله بالدراسة أحد قبله — فيما نعلم — وقد سلك فى ارتياد مناطقه المجهولة منهجاً علمياً هداه إلى الكثير من تراثنا القديم ، وينبغى أن نلتمس له الأعذار فى الكثير من هناته ، فإن رواد هـذا النوع من الأدب قليلون ، وهم فى ارتيادهم لآفاقه المظلمة لا شك ملاقون الكثير من الصعاب ، فإن أحجموا عن محاولة كشفها ، بقى الأدب المصرى فى خفاء عنا ، وظلت هذه الكنوز الثمينة دفينـة مجهولة ، وبفضل هذه الجهود الطيبة نبلغ الغاية فى فهم القديم من آثارنا الأدبية والفنية ؛ وصديقنا الأستاذ كامل من الطلائع الذين يعتبرون أصحاب الفضل الأول والجهد المشكور فى هذا العمل الجليل ؛ والقارئ لا يملك إلا الاعتراف بتوفيقه فى الكثير من جهوده ، ومتاعبه التى تطالعنا بها كثرة المصادر والمراجع

العربية والأفرنجية ، وهى منتشرة فى صفحات الكتاب كله ؛ ويزيد فى قيمة بحثه حسن تفهمه المصادر ، ومناقشته لنصوصها فى اعتزاز مشكور برأيه المستقل ، وملاحظاتنا التى أسلفناها لا تحط من شأن كتابه القيم ، ولا يكاد يخلو منها — أو من بعضها — بحث عن العناصر القومية — بالغاً ما بلغت قيمته ، فنى وسع الناقد أن يقول للأستاذ الخولى فى البحث الذى أعلنا إعجابنا به فى مستهل هذا المقال ، كيف تدلل على التفرقة بين البيئة المصرية والمدرسة الشرقية الفلسفية ، مستنداً إلى أن مؤلفاً مصرياً عدل عن تسمية « الالتفات » فى البلاغة إلى « الانصراف » ؟ . . . وتقول معقباً : « فهذا يدل دلالة واضحة على عدم الاتصال الوثيق بين مصر والمدرسة الفلسفية الشرقية فى هذا الدور » ص ١٤ ، بل لقد هدم الأستاذ الفكرة التى أقام عليها بحثه بنص أورده فى مقاله واعترف فيه بأن المدرسة الأدبية التى عاشت فى مصر كانت لا تعبر عن الروح المصرى وحده ، بل كانت تعبر عن روح الشرق الأقرب كله ! . . . وواضح أنا نريد الكشف عن الخصائص المصرية وحدها ، لا خصائص الشرق الأدنى كله .

على أن هذه الملاحظات كلها لا تمنعنا من تقدير هذه الجهود الموفقة ، والثناء على أصحابها ، وإنا لنرجو أن يواصلوا حملاتهم على المجهول من آدابنا ، ليكشفوها لنا ، نحن النازعين لدراسة آدابهم وتقدير آثارهم ؛ رغم ما نبديه من حرص على مناقشة آرائهم ؛ وليذكر صديقنا كامل قول أحدهم — ولعله جلد محث — إن النقاد قوم يشتغلون بالنقد ، لأنهم أخفقوا فى أن يكونوا أدباء .

ث . الطويل

إنه فى يوم السبت ١٣ يناير سنة ١٩٤٠ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بالراشدة وإن لم يتم البيع يكون يوم الأربعاء ١٧ منه بسوق دشنا الصوبى سيباع علناً بقرة حمراء موضحة بمحضر الحجز ملك محمد عبد الرحمن إسماعيل من الراشدة نفاذاً للحكم نمرة ٢٤٩١ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٣٢٧ قرشاً صاغاً بخلاف أجرة النشر كطلب محمد حسن على حمد من الراشدة

فلى راغب الشراء الحضور . ١٣٢

إنه فى يوم السبت ٦ يناير سنة ١٩٤٠ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بمقادوس مركز ميت غمر وفى يوم الأربعاء ١٠ منه من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بسوق ميت غمر إذا لم يتم البيع فى اليوم الأول سيباع علناً الأرز الموضح بمحضر الحجز ملك عبد الفتاح الصرف من مقادوس نفاذاً للحكم رقم ٢٥٠٦ سنة ١٩٣٩ مدنى ميت غمر وفاء لمبلغ ١٦٩ قرش صاغ بخلاف رسم النشر وما يستجد كطلب الشيخ ابراهيم مصطفى خليل التاجر بمقادوس

فلى راغب الشراء الحضور ١٣٣

إنه فى يوم الأحد ٧ يناير سنة ١٩٤٠ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية دملاش وفى يوم الخميس ١١ يناير سنة ١٩٤٠ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بسوق بطره إذا لم يتم البيع فى اليوم الأول سيباع علنا نصف بقرة ونصف عجلة بقر ملك السيد أحمد ابراهيم من دملاش مركز شربين نفاذاً للحكم الصادر من محكمة شربين الجزئية الأهلية فى القضية رقم ١١٧ سنة ١٩٣٩ وفاء لمبلغ ٨ جنيه و ١٧٠ مليم خلاف رسم هذا وأجرة النشر وما يستجد كطلب الشيخ ابراهيم رمضان من المصورة . فلى راغب الشراء الحضور ١٣٤

إنه فى يوم الأربعاء ١٧ يناير سنة ١٩٤٠ بمحل الحجز بنصر أسوان وفى يوم ٢٥ منه بسوق أسوان إذا لزم الحال سيباع بالمزاد العلنى أشياء موضحة بمحضر الحجز ملك عبد العال عبد الرحيم طفيق الجزى العربى بأسوان نفاذاً للحكم رقم ٦٠٨ سنة ١٩٣٩ أسوان الأهلية وهذا البيع كطلب أحمد محمد مكى مختار صباكب بأسوان وفاء لمبلغ ١١٦ قرشاً صاغاً بما فى ذلك أجرة النشر

فلى راغب الشراء الحضور . ١٣٥

إنه فى يوم الأربعاء ١٧ يناير سنة ١٩٤٠ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بعزبة الجبارة مركز الصف وإن لم يتم فى يوم الخميس ١٨ منه بسوق الحزمان مركز الصف من الصباح للمساء بناء على طلب عبد القادر أفندى أحمد دوحار من جزيرة الشاعدة مركز الواسطى سيباع علناً أشياء موضحة بمحضر الحجز ملك جبيل سليم إسماعيل من عزبة الجبارة مركز الصف وفاء لمبلغ ٧ جنيه و ٦٠ مليم المحكوم به والمصاريف بخلاف ما يستجد بما فيه أجرة هذا النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٢٦٩ سنة ١٩٣٩

فلى راغب الشراء الحضور . ١٣٦

بهذا العدد تتم السنة الأولى للمجلة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٥٦ — الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ١٣٥٨ — ٢٣ يناير سنة ١٩٤٠ — السنة الثانية

الفهرس

حياد إرلنده

للدكتور محمد عوض محمد

نشرت « الثقافة » منذ بضعة أسابيع مقالا عرض فيه كاتبه ظاهرة الحياد السائدة اليوم ، والصور المختلفة التى تبدو بها تلك الظاهرة . واليوم نعرض لصورة جديدة من صور الحياد ، وهى صورة تستحق — لطرافتها وغرابتها — أن يفرد لها بحث خاص . . . صحيح أن حياد دولة صغيرة مثل إرلنده قد لا يقدّم أو يؤخر كثيراً ، وقد لا يكون ذا أثر خطير فى هذه الحرب . ولكنه مع هذا يمثل لنا صورة سياسية فريدة فى بابها وهى لهذا حقيقة أن نقف ريثما لنتأملها ، وندرسها .

فى الوقت الذى أسرعت فيه دول الأمبراطورية البريطانية ، مثل كندا وأستراليا وأفريقيا الجنوبية إلى إعلان تضامنها مع دولة الأم — كما يسمونها — وبادرت جميعها بإعلان الحرب على ألمانيا ؛ نرى إرلنده تبادر منذ اللحظة الأولى بإعلان حياد حازم لا يحيف ولا يميل . وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الجزر البريطانية التى نرى فيها جزيرة منها — بل جزءاً من جزيرة — ينفرد بسياسة مستقلة ، ويمضى فى طريق يخالف الطريق التى تسلكها المملكة المتحدة .

لفهم هذه الظاهرة العجيبة ، لا بد من الاشارة إلى تطور الصلات بين بريطانيا العظمى من جهة ، وبين دولة إرلنده من جهة أخرى .

تنقسم الجزر البريطانية من الوجهة السياسية إلى قسمين : الأول ويشتمل على انكلترا ، وبلاد الغال ، واسكتلنده ، وإرلنده الشمالية ، والجزر الصغيرة المنتشرة من حولها جميعاً . وهذا القسم هو الذى يطلق عليه اسم المملكة المتحدة . وأما القسم الثانى فيشتمل على دولة إرلنده المستقلة ، التى تحتل ثلاثة أرباع الجزيرة الارلندية [1] .

إن استقلال إرلنده هذا لم يأت طفرة واحدة ، بل انتقل فى عدة مراحل منذ عام ١٩٢١ ، حتى بلغ نهايته القصوى فى ابريل سنة ١٩٣٨ حين أمضت بريطانيا معاهدة مع دولة إرلنده تكفل لهذه استقلالها التام ، بحيث لا يربطها بالأمبراطورية البريطانية سوى رباط سياسى ضعيف ؛ وأهم مظاهره أن العلاقات الخارجية للدولة تكون باسم جلالة ملك انكلتره .

وقد استطاعت دولة إرلنده أن تسلك طريقاً مستقلة فى سياستها الخارجية ، فكان لها وزراؤها المفوضون فى أمريكا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وبلجيكا ، وإيطاليا ، ولدى الفاتيكان ، ولها مندوب خاص فى لندن ؛ وكذلك نرى فى دبلن وزراء مفوضين لكل من الدول المذكورة ، عدا فيها ألمانيا .

وزاد فى مظاهر استقلالها أن أصبحت لغتها الرسمية اللغة الارلندية ، وأن بات للدولة رئيس تنتخبه الأمة بالاقتراع العام ، وهو الآن المستر هايد ، هذا خلاف رئيس الوزراء المستر ديفاليرا .

وكان المنتظر — بعد أن نالت إرلنده هذا الاستقلال الذى ليس له نظير فى أية وحدة من وحدات الامبراطورية البريطانية — أن تصفو العلاقات بينها وبين جارتها المملكة المتحدة ، فيحل الصفاء محل الجفاء ، والصداقة مكان النفور . غير أنه بقى أمر واحد لم يزل يحز فى نفوس الارلنديين ، وهو أن إقليم إرلنده الشمالية لا يزال منفصلاً من إرلنده وما برح جزءاً من المملكة المتحدة . وبالرغم من أن سكانه لا يريدون مطلقاً أن ينفصلوا عن بريطانيا العظمى ، فان العناصر المتطرفة فى إرلنده لا تزال تضمر العداء للمملكة المتحدة ، وتتهمها بأنها هى السبب فى شطر إرلنده شطرين على هذه الصورة .

وتضم هذه العناصر المتطرفة جماعات تسمى نفسها جيش إرلنده الجمهورى ، وهى التى من دأبها أن تلجأ إلى وسائل العنف والتخريب ، لكى تصل إلى بغيتها . وقبل الحرب بثمانية أشهر وقعت سلسلة من حوادث التدمير فى جهات مختلفة من انكلتره سببت هلاك كثير من الأنفس ، ولا يزال ذكرها عالقاً بالأذهان . وقد قال زعيم هذا الجيش وهو يتحدث إلى بعض الصحف فى الولايات المتحدة الأمريكية : إن جماعته التى تعمل فى انكلتره يتراوح عددها بين الخمسمائة والألف ، وأنه ليس غرضهم الذى ينشدونه إزهاق الأرواح ، وتخريب المبانى ، بل إرغام حكومة إنكلتره على ترك إرلنده الشمالية حتى تتحد الجزيرة كلها .

وقد ارتأت حكومة إرلنده نفسها لما تقوم به تلك العناصر المتطرفة من التخريب فى انكلتره ، وهى تظن أن المركز الذى تدار منه تلك الأعمال هو فى إرلنده نفسها ، ولهذا رأيناها فى شهر أغسطس الماضى تنشئ محكمة عسكرية

---

(١) القسم الشمالى من إرلنده ، وعاصمته بلفاست ، ومساحته ١٤٫٠٠٠ ميل ، وسكانه ١٫٣٠٠٫٠٠٠ نسمة ، يدين معظمهم بالدين البروتستانتى . أما القسم الجنوبى — الدولة الإرلندية — فعاصمته دبلن ، ومساحته ٦٩٫٠٠٠ ميل ، وسكانه ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة والديانة السائدة هى المذهب الكاثوليكى ، واللغة هى الإرلندية ، وتختلف عن الانكليزية اختلافاً شديداً .

خاصة ، وتسن قانوناً يخولها حق تفتيش المنازل من غير قيد ولا شرط .

ومع ذلك فإن المستر دي فاليرا نفسه كان كثيراً ما يظهر العطف على هذه العناصر ، ويتوسل بها إلى الوصول لما ينشده من الاستقلال التام لدولة إرلنده . ولم يكن في وسعه دائماً أن يوقف تيار العواطف التي أثارها عند حد محدود . ولم يستطع — بعد أن قضى مدة طويلة يناوئ بريطانيا ويثير معها حرباً اقتصادية دامت زمناً طويلاً — أن يقلب سياسته الخارجية مرة واحدة ، رغم المعاهدة التي عقدت في إبريل سنة ١٩٣٨ والتي نالت بمقتضاها إرلنده كل ما تبتغيه ، ما عدا ضم المقاطعة الشمالية .

والعواطف القومية إذا أثيرت لا يمكن أن تهدأ دفعة واحدة . ولهذا لم يكن من الممكن — وجيش المتطرفين لا يزال ذا حول وقوة — أن تدخل إرلنده الحرب إلى جانب بريطانيا . صحيح أن كثيراً من الإرلنديين لم يتعصب في بغض انكلترة إلى مدى بعيد . ولكن لو أن دي فاليرا حاول أن يقف بالحكومة الإرلندية في هذه الحرب إلى جانب بريطانيا ، لأدى هذا من غير شك إلى نزاع داخلي عنيف ، قد يتخذ صورة حرب إرلندية داخلية .

على أن إرلنده قبل الحرب بشهور عديدة كانت منهمكة في شئونها الخاصة ، وفي مشروعات اقتصادية واسعة المدى . ولم تكن تفكر في المشاكل الحادة التي كانت تهز القارة الأوربية هزاً عنيفاً . والموقع الجغرافي لإرلنده الذي يجعلها بعيدة كل البعد عن القارة الأوربية هو وحده كفيل بأن ييسر لنا هذا الانعزال .

على أن المستر دي فاليرا نفسه كان مدركاً أن إرلنده لن تستطيع دخول الحرب . ففي اليوم الثاني من سبتمبر قبل دخول بريطانيا الحرب بيوم واحد ، دعت الحكومة مجلسي البرلمان إلى الاجتماع على عجل لكي تطلب منه الموافقة على قانونين : الأول يخول الحكومة حق إعلان الأحكام العرفية ، وإن لم تشتبك في حرب . والثاني قانون يعطي الحكومة سلطة واسعة لحماية الأمن العام ، والمحافظة على كيان الدولة ونظمها ، ولضمان وصول الغلات اللازمة للتغذية والصناعة .

وعند ما عرض هذان القانونان على مجلس النواب تكلم المستر دي فاليرا فقال : « إن خطة الحياد التي قررت الحكومة التزامها لن تدهش أحداً . فقد سبق لي في فبراير الماضي أن أعلنت أنه في حالة حرب أوربية ستبقى إرلنده خارجة عنها . ولكن هذه السياسة لا يمكن المضي فيها إلا إذا كان من ورائها شعب مصمم على ألا يؤذي أحداً ، وألا ينصر فريقاً على فريق ... فالإرلندي أولى الشعوب بأن يعرف معنى عدوان القوي على الضعيف ، وأن يدرك أهوال الإغارة والتقسيم . فنحن لم ننس تاريخنا بعدُ . وما دام هناك جزء من بلادنا عرضة للخضوع لسلطان أمة قوية ، فإن الشعب الإرلندي — أيًّا كانت عواطفه وميوله — لا بد أن ينظر إلى بلاده أولاً ، وأن يراعي صالحها قبل كل شيء » .

وفي خطابه بمجلس الشيوخ أعلن أن وزير ألمانيا المفوض قد زاره في ٣١ أغسطس وأكد له أن نيات ألمانيا نحو إرلنده سلمية ، وأنها في حالة وقوع الحرب ستحترم حياد إرلنده ، إذا قررت هذه أن تلزم الحياد . وقد أجابه المستر دي فاليرا بأن إرلنده ستبقى في حياد تام بالنسبة لألمانيا ولسائر الدول » .

لم يعارض أحد من أعضاء المجلسين قرار الحياد الذي اتخذته الحكومة الإرلندية . وكل ما حدث أن زعيم المعارضة أعلن أنه يريد أن يسجل أن التزام إرلنده الحياد ليس معناه أنها غير مكترثة للأمور التي ثارت حولها الحرب . فإن الكثرة الساحقة من الإرلنديين تعطف على

بولونيا ، وبريطانيا وفرنسا ، وتستنكر خطة برلين وموسكو . وأن من الواجب تسجيل هذا .

ولم تلق خطة الحياد معارضة ذات شأن خارج البرلمان ، بجريدة التيمس الارلندية ، على ميلها الظاهر إلى السياسة البريطانية ، رأت أن هذه الخطة هي الوحيدة التي تستطيع الحكومة أن تسلكها . على أن هنالك كثيرين ممن قبلوا الحياد السياسي ، ولكنهم بعيدون من الحياد بعاطفتهم وشعورهم .

فهنالك فريق يرى أن المصلحة الاقتصادية والسياسية والروحية تربط إرلنده برباط وثيق إلى انكلترا وفرنسا . وأن انتصار هتلر على الدولتين ، سيؤدى إلى القضاء على إرلنده بل على الحضارة نفسها .

وفريق آخر — على بغضه لهتلر وسياسته — لا يزال يذكر كيف قبلت الدول — بما فيها بولونيا — أن تمزق تشيكوسلوفاكيا — ويرى أن هذه الحرب ليست سوى مظهر للعراك السائد بين القوات الأوربية ، وأن ليس فيها لارلنده نفع ولا ضرر ، وأنه ليس هناك معنى لأن تكون إرلنده أكثر غيرة من بلجيكا وهولندة والدول الاسكندناوية ، وهي من خير الدول الدمقراطية .

والأستاذ هوجان : أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كورك نشر مقالاً أعلن فيه أن انتصار ألمانيا وروسيا يكون نهاية أوربا المسيحية . وفاتحة لحالة جديدة يقضى فيها القضاء المبرم على جميع تلك المبادئ ، والمظاهر التي تميز حياة الانسان على حياة الحيوان . وبرغم هذا يرى الأستاذ أن إرلنده لا بد لها أن تتريث قبل أن تدلى بدلوها في الدلاء ! .

أما رئيس الكنيسة الارلندية فقد ألقى خطاباً عجيباً على طريقة الرؤساء الدينيين يقول فيه : إن من واجب كل مسيحي مخلص أن يصلي لأجل السلم .. في الوقت الحاضر لا يزال هنالك أمل في عقد صلح عادل . أما الانتظار إلى أن تضع الحرب أوزارها ، فانه لا يأتي إلا بصلح ظالم يمليه الغالب على المغلوب ، ويكون تمهيداً لحرب أخرى . ولا يستطيع نصراني أن ينظر بعين الرضى إذ يرى النصارى يقتل بعضهم بعضا . ويمهدون بهذا لانتشار الشيوعية الروسية !

ولعل الرئيس الديني العظيم أن يحس ما في كلامه من التناقض ، حين يذكر أن روسيا الشيوعية حليفة ألمانيا المسيحية .

وإلى جانب هؤلاء جميعاً تلك الأقلية الصغيرة التي لا تزال تبغض انكلترا إلى درجة الرغبة في مساعدة ألمانيا .

وقد لخص المستر ديفاليرا موقف الأمة الارلندية تلخيصاً حسناً ، حين أعلن أن الارلنديين ينقسمون قسمين : أولهما ، وهو يمثل الكثرة العظمى من الأمة — أياً كانت عواطفه وميوله — يرى الابتعاد عن الحرب . وأما الآخرون فقوم متعصبون لأحد الفريقين ، ويريدون أن يزجوا بالأمة في أحد المعسكرين .

وقد اتخذت كل من حكومة إرلنده الشمالية والجنوبية خطة حزم شديد لقمع جميع مظاهر الاضطراب والفوضى ، التي لم يكن من ظهورها بد .

* * *

على أن حياد إرلنده لم يمنع كثيراً من أبنائها أن يتطوعوا في القوات البريطانية ، وفي انكلترا كثير من الارلنديين المستوطنين فيها ، وقد انضم كثير منهم إلى صفوف المحاربين في البر والبحر ؛ وحينما أغرقت البارجة كوراجيوس كان خمس بحارتها الغرقى من الارلنديين .

وبرغم بقاء وزير ألمانيا المفوض في دبلن ، فان جميع

الرعايا الألمان قد رحلوا إلى بلادهم . أما انكلترة فقد استحكمت الصلات الاقتصادية بينها وبين إرلنده . فقد كانت انكلترة تبتاع من إرلنده نحو تسعين في المائة من صادراتها ، وتبيعها نصف وارداتها ، وستزداد هذه النسبة في أثناء الحرب . ونظراً لظروف الحرب الحاضرة اتفقت الدولتان على أن يرسل مندوب خاص لتمثيل بريطانيا في دبلن . وقد اختارت بريطانيا لهذا المنصب السير جون ماڤي ، وهو من الساسة الانجليز المشهورين ، كاثوليكي المذهب ، وكان من قبل حاكماً للسودان المصري ، ووكيلا لوزارة المستعمرات ؛ وهو اختيار موفق . . . ولم يكن لانكلترة من قبل من يمثلها في دبلن سوى مندوب تجاري .

على أن حياد إرلنده نعمة لا تخلو من المكدرات ؛ فإن البرنامج الصناعي سيلقى تعطيلاً شديداً ، لقلة المواد الأولية وصعوبة استيرادها ، وقد نقص وارد البترول نقصاً فاحشاً . ولكن من الجائز أن التعاون الاقتصادي المتزايد مع جارتها القوية قد يقلل من الصعوبات التي تكابدها إرلنده الآن . وقد تعرضت إرلنده — كما تعرض غيرها من الدول المحايدة — إلى عدوان الغواصات والألغام ، فأغرق لها بعض السفن ؛ بل وقد اقتحمت إحدى الغواصات خليجاً من خلجانها . ومن بواعث القلق لإرلنده أنها لا تملك أسطولاً من السفن يمكنها من حماية سواحلها ، وتأمينها ضد كل عدوان .

وقد اتخذت إرلنده لنفسها راية قومية ذات ثلاثة ألوان ؛ ولكن هذه الراية الحديثة العهد لم يعترف بها دولياً ؛ ولهذا لم يعبأ بها قائد إحدى الغواصات الألمانية ، وبادر بإغراق السفينة التي حاولت جهدها أن تبدي له رايتها غير البريطانية . وبسبب هذا الحادث رفض كثير من اللاعبين أن يسافروا في السفن التي تجري عبر الخليج الإرلندي حتى تضمن الحكومة ما يقوم بأود أسراتهم إذا فقدت من يعولها .

* * *

وهنالك حادث طريف مرتبط بحياد إرلنده لا يخلو من فكاهة . وسنختم به بحثنا هذا . ذلك أن إرلنده لها مفوضية في برلين ، يشرف على شئونها وزير مفوض ؛ وكان هذا المنصب خالياً وقت نشوب الحرب . وتقتضي المعاهدة القائمة بين بريطانيا وإرلنده لا يعين هذا الوزير إلى بكتاب يرسله جلالة الملك — الرئيس الأعلى للامبراطورية البريطانية كلها — وقد اختارت الحكومة الإرلندية مرشحها لهذا المنصب . . ثم نشبت الحرب ، وليس في وسع جلالة الملك — نظراً لأنه ليس على الحياد مثل إرلنده — أن يرسل مثل هذا الكتاب إلى الزعيم هتلر ؛ فلم يكن هنالك بدٌّ من تأجيل هذا التعيين وترك إدارة المفوضية الإرلندية ببرلين إلى حضرة سكرتيرها العام .

هذه خلاصة موقف الحياد الذي اختارته دولة لا تزال تعد من جملة الدول التي يطلق عليها جميعاً اسم الامبراطورية البريطانية [1] .

محمد عوض محمد

---

(١) استعان الكاتب في تأليف مقاله هذا بمقالة لكاتب إرلندي في العدد الأخير من مجلة Round Table.

جَمَلٌ يطيرُ وجَمَلٌ يسيرُ

للأستاذ أحمد أمين

لفت نظرى وأنا أقرأ المطهر المقدسى فى كتابه « البدء والتاريخ » وصفه لجماعة من أصحاب القلانس والمجالس الذين يشحنون صدور العامة بترهات الأباطيل ، ويقصون على الناس غرائب العجائب ، ثم يقول فى وصفهم : « إن الحديث إليهم من جمل طار ، أشهى إليهم من الحديث من جمل سار » .

وهل الدنيا كلها أيها المطهر إلا هؤلاء ؟

كل العالم يصدق جملاً يطير ، ولا يصدق جملاً يسير ، يصدق المحال ويكذب الواقع ، ذلك دأبهم فى كل شأن من شؤون الحياة .

إن قلت إن اللغة العربية خير اللغات ، وآدابها خير الآداب ، وإن اللغة العربية ، أو الأدب العربى كامل مكمّل ، ليس فيه نقص ولا عيب ، ولا يحتاج إلى نوع ما من الإصلاح ، وإن اللغة العربية بزّت لغات العالم ، والأدب العربى لا يدانيه شىء من آداب العالم ؛ فذلك جمل يطير ، إن قلت به صفق لك الناس طرباً ، وشادوا بذكرك إعجاباً وحباً ، وعدّوك العالم الحق ، وقائل الصدق . وإن قلت إن اللغة العربية كـكل اللغات ، والأدب العربى كـكل الآداب ، فيه نواحى القوة ونواحى الضعف ، وفيه ما يحسن وما لا يحسن ، وفيه وجوه النقص التى يجب أن تكمّل ، وفيه وجوه التخلف التى يجب أن تستقصى حتى تصلح ، فهذا جمل يسير ، لا يصدقك الناس فيما تقول ، ويرمونك بقول الزور والبهتان ، وما شئت من ألفاظ منتقاة .

فذلك جمل يطير ، وهذا جمل يسير .

وإن قلت فى التاريخ من أول عهده إلى اليوم ما يرضى الحكام والولاة والشعوب ، فرفعت من شأنهم ولو زوراً ، وغلوت فى مفاخرهم ولو كذباً ، وسكت عن مساويهم ولو كانت صارخة ، وعمدت إلى اتجاه عواطفهم فسرت معها ، وقصدت إلى الأوتار التى تطربهم فغنيت عليها ، وشهرت بخصومهم ، وقللت من شأنهم ، وكذبت فى إنكار فضلهم ، وكان لك من البلاغة ما استطعت به أن تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وتجعل السماء أرضاً والأرض سماء ، والحلو مراً والمر حلواً ؛ واستطعت بفصاحتك أن تظهر مهارتك فى اختراع حجج تشوه بها وجه الصدق ، وتجمل بها وجه الكذب ، فهذا جمل يطير ، إن قلت به فأنت المؤرخ وأنت البطل ، وأنت البليغ ، وأنت الذى يصدق عليه المثال ، وأنت الذى يمنح خير الألقاب ، وأنت الحقيق بأن يقام له تمثال ؛ وأما إن أنت لم تعبأ بميول الحكام والولاة وعواطف الشعوب ، وأخذت تحلل كل خبر وتتبين بواعثه ودوافعه كما يحلل الكيماوى المادة فى معمله ، وتصدر حكمك لا تراعى فيه إلا الحق ، فتارة يرضى العواطف ، وأحياناً يغضبها ، وأحياناً يرضى الرأى العام ، وأحياناً يغضبه ويهيجه ، وأنت لا يهمك أرضى أم غضب ، وكره أم أحب ؛ ولا يهمك أتفق رأيك ورأى الناس ، أم خالفهم ، وتعمد إلى ما يعده الناس وثائق فتهزؤها ، وإلى الإشاعات فتنحراها وتركزها فى بوتقتك ، وتشعل تحتها النار فتبخرها ، وتصدر حكمك على من يسميه الناس بطلاً فتنكر بطولته ، وعلى

من يعده الناس سافلاً تعرضه نبيلاً ؛ إن فعلت ذلك فهذا جمل يسير . فأنت الفقير ، وأنت الثقيل ، وأنت المتفلسف ، وأنت المتعجرف ، وأنت الذي ترى بأن لا وطنية له ولا شعور عنده . وأنت الذي يطرد ويبعد ويشرد .

فهذا أيضاً جمل بطير ، وجمل يسير .

وفي السياسة : إن أنت سرت على هوى الناس فرميت من يكرهون بأشنع التهم ، واجتهدت أن ترفع نقمتك على نقمتهم ، فإن قالوا : « مخطئ » قلت : « مجرم » ، وإن قالوا : « مبطل » قلت : « خائن » ، وإن قالوا : « مسرف مبذر » قلت : « سارق » ؛ وتحريت ما يرضيهم فدعوت إليه ، وسفهت مشروعاً لا يرضونه ، وأيدت مشروعاً يعطفون عليه ، واتخذت إمامك الرأي العام ، تنكر ما ينكر ، وتؤيد ما يؤيد ؛ وسرت وراء الزعماء ، إن انحرفوا يميناً انحرفت يميناً ، أو يساراً فيساراً ، وإن قالوا قولاً ظاهر البطلان ، قلت إن لهم غرضاً لا ندركه ، وغاية لا تتبينها إلا بعد حين ؛ وإن كان السياسة بدون الحرب ، قلت الحرب ، وإن قالوا السلم ، قلت السلم ؛ وإن قالوا الحرب في هذا الجانب قلته ؛ وإن قالوا في الجانب الآخر قلته ، وإن قالوا عدوُّنا فلان ، قلت إنه عدو لدود ؛ وإن قالوا صديقنا فلان ، قلت إنه صديق حميم ، واستعملت في كل ذلك حنجرتك إن كنت من ذوي الحناجر ، وقلمك إن كنت من ذوي الأقلام ، ومالك إن كنت من ذوي الأموال ، فهذا كله جمل بطير . أما إن أردت أن تحكم عقلك وهداك إلى أن تقول على الشيء إنه أسود حيث قالوا أبيض ، وصوبت الرأي العام حيناً ، وخطأته حيناً ، ووافقت عواطف الناس حيث يوجب العقل الموافقة ، وخالفتها حيث يوجب المخالفة ، وحبذت قول الزعيم حين يرضى ضميرك أن تحبذه ، ونقدته حين يدعوك ضميرك أن تنقده ، وقلت السلم حيث قالوا الحرب ، أو الحرب حيث قالوا السلم ، وأيدت ذلك كله ببراهينك المنطقية ، وأعلنت رأيك ، ولو كنت فيه وحدك ، فهذا كله جمل يسير ؛ أقل نتائجه أنك تعد ثقيلاً بغيضاً ، وقد يكون فيه الخروج من منصبك ، وقد يكون أن تؤذى في مصالحك ، وقد يكون فيه أكثر من ذلك كله .

فهذا أيضاً جمل بطير ، وجمل يسير .

وهذا هو الشأن في « منطق الحوادث » جاهل ينال خير منصب ، ويمنح خير مرتب ، وعالم كفء لا يجد عملاً ولا يجد قوتاً ؛ وحسناء فاضلة تتزوج بفقير سيء السيرة ، سيء السلوك ، وشوهاء شريرة ترزق الحظوة بغنى يأتمر بأمرها ، ويسير طوع إرادتها ، وغني غبي يرتع في النعيم ، ولا مبرر لهذا إلا أنه ورث أباه الغني في الغنى ، أو لعب في « البورصة » فربح من حيث لا يدري ، أو احترف الرذيلة فكسب المال وخسر الشرف ، أو لم تكن له شخصية فكسب بالملق ما لم يكسبه أخوه بالكفاية ؛ وهذا ذكي عالم أمين سدت في وجهه كل الطرق حتى لم يجد ما يسد رمقه ، أو فقد عمله بصراحته وأمانته وشخصيته .

فهذا أيضاً جمل بطير ، وجمل يسير .

والمصلحون في كل عصر إنما أوذوا وحوربوا وشردوا وقُتلوا ، لأنهم كانوا يقولون بالجمل يسير حيث يقول الناس بالجمل بطير .

والفلاسفة البُلْهُ حبسوا أنفسهم في حُجَر ضيقة لا يدخلها نور العالم ، وأخذوا يضعون علماً سموه « علم المنطق » يضعون فيه للمقدمات شروطاً وللنتائج شروطاً وللقياس شروطاً ، وللفروض شروطاً ، والدنيا خارج حُجَرهم تهزأ بمنطقهم وتسير على منطق آخر خلاصته :

جمل بطير ، وجمل يسير .

فمنطق الدنيا الواقعة في الغنى والفقر يهزأ بقواعد

الاقتصاد ، ومنطق الدنيا الواقعة يهزأ بمنطق النجاح والفشل ، ومنطق الحوادث الواقعة يهزأ بالمنطق النظرى ، وهكذا ! وكان المنطق السليم يقضى عليهم بأحد أمرين : إما أن يكون لهم من السيطرة والسلطة ما يخولهم أن يسيّروا الدنيا على منطقهم ، أو أنهم — وقد عجزوا — يسيّرون منطقهم على منطق الدنيا .

بل وأحداث الطبيعة نفسها سائرة على هذا المنطق ! فهذه صحراء تشكو الظمأ ، ولا تجد رشفة ماء ، وهذا بحر يشكو الرى ، ولا يجد ما يبثه شكواه ؛ ولو كانت الدنيا بالعقل لسمعت الطبيعة شكوى الصحراء من الظمأ ، وشكوى البحار من الرى ، وكان فى علة هذا برء ذاك ، كالغنى يشكو التخمة ، والفقير يشكو المخمصة ، وفى الدنيا جو يشكو القيظ وجو يشكو البرد ، وأرض جرداء وحديقة غناء ، ومنجم ذهب ومنجم زفت ، ونسيم وسموم ، وسكّر وحنظل

أليس هـذا كله — أيضاً — منطق جمل يطير وجمل يسير ؟

هل اقتنعت منى — يا أيها الظهر — بأن ليس من نصفهم وحدهم هم الذين يصدقون جملاً يطير ولا يصدقون جملاً يسير ؟

أو ليس هذا ما شعر به المعرى إذ يقول :

لحاها الله داراً ما تُدارى
بمثل المَيْن فى لُجج وقَمْس (١)
إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتى
وإن قلتُ اليقينَ أطلتُ همسى

أحمد أمين

(١) القمس : مصدر قمس فى الماء إذا غاص فيه .

٢ - الثقـــافة والنقد

عند ماثيو أرنولد

يتبقى أن نتحدث قليلاً عن النقد فى فرنسا قبل أن نعالج أصول النقد التى حاول أن يؤصلها « ماثيو أرنولد » . وذلك لأن ماثيو أرنولد قد تأثر أشد التأثر بحركة النقد الأدبى فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر .

ولقد ذهب كثير من الكتاب والأدباء إلى أن العقل الفرنسى يمتاز بالصفاء والتنظيم فى كل منتجاته . يظهر ذلك واضحاً فى تاريخ الفلسفة الحديثة ، فقد تناول الفلاسفة الفرنسيون ما انحدر إليهم من الفكر الأوربى ، فجودوه وصقلوه ورتبوه . وابتدع المفكرون الفرنسيون أساليب للنقد هى التى ميزت أفكارهم فى العصور الحديثة . وقد بلغ هذا التفكير النقَّاد أسمى ما بلغ من التحليل والتنظيم فى القرن السابع عشر . لأن الفلسفة الفرنسية بلغت فى ذلك القرن أسمى ما بلغته . وكذلك نرى أن الفلسفة قد اقترنت بالنقد الأدبى ، وأن النقدة قد حاولوا أن يتّبعوا الأساليب الفلسفية التى ترسَّمها الفلاسفة .

لقد حاول الفكر الفرنسى أن يقيم الحياة جميعاً على أساس من القانون العام ، وكذلك حاول النقد الفرنسى أن يقيم الأدب على جملة من المبادئ العامة . وقد كان هذا النقد قوة دافعة فى القرنين اللذين جاآ بعد القرن السابع عشر . فقد ذهب سابقةً فى تاريخ الأدب ، وأصبح النقدة فيما بعد ذلك القرن يردون كل أصل من أصول الأدب إلى الفلسفة . وحينما قامت مدرسة القرن التاسع عشر كانت تحاول أن تقيم أساساً فلسفياً للنقد الأدبى . فنُقَّاد القرن التاسع عشر احتفظوا بذلك الطابع الموضوعى للنقد . إلا أن الفلسفة التى احتفوا بها والتى حاولوا أن يستمدوا منها أصول النقد ، كانت فلسفة اجتماعية خاصة ، تحاول أن تدرك العلاقة بين الأدب وبين الوسط الذى يعيش فيه . كانت نظرة فلسفية تحاول أن تدرس المبدأ العام أو القيمة الخلقية والجمالية العامة قبل أن تدرس الشاعر أو الأديب نفسه .

ذهب تين Taine إلى أن الأدب فى نفسه نتاج ثلاثة عوامل : هى الجنس والساعة والوسط . ومن الجنس والساعة والوسط يستطيع مؤرخ الأدب أن يستنتج حياة الشاعر أو الأديب . ومثل تلك الناحية من نواحى النقد كانت علمية أكثر منها فنية ؛ كانت تعتمد على العقل والتحليل أكثر مما كانت تعتمد على الوجدان والتركيب ؛ كانت موضوعية أكثر منها ذاتية ؛ وكانت تحتفى بالقاعدة أكثر مما كانت تحتفل بالقنانة ؛ كانت كلاسيكية أكثر منها رومانتيكية .

وكذلك كانت تستطيع أن تتأثر هذا العنصر فيما ذهب إليه سانت بيف Sainte Beuve ؛ وقد كان سانت بيف مؤرخاً للأدب ، وداعية للثقافة الأدبية الخالصة . وكان يرى أن الأدب خير علاج لثقافة الطبقة الوسطى . وقد أنشأ فى النقد أصولاً وقيماً . وكانت طريقته فى التحليل أن يبدأ بوصف الميول الأدبية الشائعة ، وأن يستنبط منها حياة الأديب الخاصة .

أما رينان Renan فقد قدر الجنس تقديراً عظيماً فى حياة الأدب ، حتى لقد أرجع إلى الجنس تطور الأدب وارتقاءه ؛ وأرجع إليه أيضاً انحطاطه واضمحلاله . وكان يرى أن الأجناس حينما توزعت فى شعاب الأرض ، واضطربت فى نواحيها قد خلقت لنفسها أخيلة خاصة ، هى التى يتوارثها جيل بعد جيل ، ولكل أدب نصيب من

تلك الأخيلة ، يغوص ويطفو فى الشعر والقصص والملاحم وغير ذلك .

***

تأثر « ماتيو أرنولد » بكل ذلك ؛ والحق أن النقد الانجليزى طالما تأثر بالنقد الفرنسى ؛ فقد وقف النقد فى انجلترة متردداً بين الفكر وبين الوجدان منذ القرن السادس عشر ، وتأثر الانجليز بمدرسة النقد الفرنسى فى القرن السابع عشر ، وكانت نتيجة ذلك مدرسة بأسرها ، كان منها « ملتون » ، ودرج على آثارها « دريدن » Dryden ، ويوب Pope . إلا أن النقد الانجليزى لا يمتاز بما يمتاز به الفرنسى من صفاء المعنى ، ومن دقة التحليل ، هو نقد ذاتى أكثر منه موضوعى ، وهو نقد لقن أكثر منه نقد تمثل وتكلف . فاذا كان « ماتيو أرنولد » قد لجأ إلى النقد الفرنسى يستمد منه أصوله ، فانه لم يكن يعمل إلا ما فعله النقاد الانجليز من قبله ؛ وإذا كان قد حاول أن يعالج النقد فى انجلترة ، فقد انقلب إلى النقد فى فرنسا ليتخذ منه العلاج الناجع

***

ولقد قارب النقد الأدبى وهذه فكرته عن الثقافة والنقد . ولقد كان يضيق بالمدرسة الشعرية التى قامت فى الربع الأول من القرن التاسع عشر . وكان يرى أنها قامت على بضعة من الأفكار المبهمة المهوشة ، وأنها لم تقم بعد مجهود عقلى جبار . ولذلك اعتمدت على آراء وأصول ومُثل هى نفسها منهوكة بالية . كان يرى أن المدرسة التى تمثلت « وردزورث » و « بيرون » و « شلى » و « كيتس » مدرسة غير خالدة ، لأنها لا تقوم على مثل تلك الثقافة التى دعا إليها . ولم يكن يعجب من بين هؤلاء الشعراء إلى وليم وردزورث ، وحتى وردزورث نفسه لم يكن يرضيه كل الرضى . وهو قد كان يرى على الضد من ذلك أن الحركة الأدبية التى قامت فى فرنسا وألمانيا فى ذلك المهد ، كانت أسمى إنتاجاً وأعمق شعوراً من الحركة التى قامت فى انجلترة . كان يرى أن « جوت » خير من « بيرون » لأن « جوت » كان مثقفاً جمع إلى قوة النقد حيوية الشعر . وكان يرى أن « رينان » و « سان بيف » قد خدما النثر الفرنسى أجل خدمة ، لأنهما وصفاه على أصول النطق والجلاء .

ثم إنه حاول أن يوازن بين الأدب الانجليزى والأدب الفرنسى ، فخرج من موازناته بأن الإنجليز يمتازون بالنشاط فى الانتاج والأمانة فى التعبير . أما قوة الذهن فهى خاصة يمتاز بها الفرنسيون . ولذلك فقد أفلح شعراء من الانجليز فى كتابة الشعر ، لأن النشاط فى الانتاج والأمانة فى التعبير يلائمانه ، لكنه لم يكن راضياً عما أنتجه كتاب الانجليز من النثر . أما الذى أشاع فى النثر الفرنسى تلك الروح التى تحتفى بالفكرة وتحتفل بالقاعدة وتندفع نحو مستوى عال من الصقل والتجويد ، فإنه المجمع الفرنسى (١) . ولقد كان ذلك المجمع منذ سنة ١٦٢٨ محكمة أدبية عليا تعرض عليها كتابات المؤلفين فتحكم لها أو عليها . ولذلك فقد خلقت مستوى عالياً يحاول الكتاب أن يبلغوه . واهتمت جمهرة المؤلفين بأن يرضوا هؤلاء القضاة ، فشاعت هذه الروح الكلاسيكية التى خلقت قواعد الفن وفرضت قوانين الفكر . وكان هذا أهم ما يميز الأدب الفرنسى خلال القرون الحديثة . أما فى انجلترة فإن الانجليز نموا بذلك النشاط الجامح الذى ميز حياتهم فلم يقم بينهم مثل هذا المجمع ، ولم يلق الأدباء أمثلة سامية يحاولون أن يبلغوها . فأصبحت انجلترة مثابة لشعراء الهوى ، ولم يفرض على الكتاب والمؤلفين تلك الأصول التى فرضت على أمثالهم من الفرنسيين .

ذلك جانب من جوانب النقد استطاع « ماتيو أرنولد » أن يبسطه فى مقال له عن الآثار الأدبية التى تخلفها

(١) L'Académie Française

الجامع ؛ لكن ذلك لم يكن إلا شعبة من رأيه من النقد الأدبي بوجه عام . فهو قد كان يذهب – كما أسلفنا – إلى أن الأدب يستمد غذاءه من فئة من الأفكار التي تتبلور في نفس المثقف والأديب . ولقد تكون تلك الأفكار سياسية أو اجتماعية أو دينية ، لكنها أفكار على أية حال منتزعة من مُثُل عليا ؛ ولقد تشيع مثل تلك الأفكار في أحيان ، ولقد تنضب وتتزايل في أحيان أخرى ؛ أما إذا كانت شائعة فليس على الأديب إلا أن يهوى عليها فيحيلها شعراً ونثراً ؛ فإذا هي كانت آسنة ناضبة ، فإنه يكون من شأن الناقد أن يأخذها بالصقل والتجويد حتى تتهيأ لأن تكون مادة من مواد الأدب . لذلك لم يكن النقد عند « ماثيو أرنولد » سلبياً لا غناء فيه ؛ بل النقد عنده ملاك الأدب ؛ لأن الناقد يهيئ أفكار الأديب ، ولأن الأديب لا يستطيع أن يدرك ما الغث وما السمين ، إلا إذا اطمأن لرأي الناقد .

والنقد على ذلك خالق مكوّن ، بل لقد تمضي بين عصور الأدب فترة يكون النقد فيها كل شيء ، وتلك هي الفترة التي تمهد الطريق للانتاج الأدبي ؛ فإذا تكثرت الأفكار وظهر نقاد يؤلفون بينها ، وإذا نمت الثقافة حتى كانت شائعة في الحياة العامة ، فلا بد أن يعقب ذلك عصرٌ من الانتاج الأدبي ؛ الفترة الأولى هي فترة التحضير والتهيئة ، أما العصر الثاني فهو عصر الخلق والتكوين ؛ ولا يكون للعصر الأدبي قيمة حتى تتهيأ العقول بتلك الثقافة الفكرية العامرة التي ينتجها النقد .

وإذا كان الأدب جميعه نقداً للحياة ، فقد كان أحرى بالنقد أن يكون كذلك نقداً للحياة . لذلك حدد « ماثيو أرنولد » وظيفة النقد فقال : إنه ذلك الجهد النزيه الذي يبذله الأديب لينشر خير ما عرفه الناس وفكروا فيه .

أما عن المعرفة والتفكير ، فقد بسطنا الرأي فيهما . وأما النزاهة ، فذلك ما نريد أن نحدثك عنه في كثير من الإيجاز .

لقد رأيت أن الجمهرة من الانجليز وصلوا حياتهم الخاصة بالمبادئ العامة التي كانوا يلاحون فيها ، وقد رأيت أن مصالح الطبقة الوسطى هي التي كانت تسيّر السياسة ومبادئ الاجتماع حيث شاء لها الهوى ؛ وكذلك كان النقد الأدبي ، فإنه لم يخل من التحزب . قامت الصحافة بدورها في نقد آيات الفن والأدب ، لكنها كانت تصدر من هوى الأحزاب السياسية والدينية ؛ فكان الأديب ملَكاً أو شيطاناً ، وفق ما يؤمن به الناقد في الدين والأخلاق والسياسة . لذلك اتصل النقد بمبادئ الساعة ، فلم يكن في انجلترة حدود واضحة يصطلح عليها النقدة ؛ ولم يكن للعواطف الهوجاء موانع تقف بها عند حد معلوم . وكانت تصطرع الإحن والحزازات بين الشعراء والكتاب والنقاد ، فتحيّف ذلك الأدب نفسه . فالنزاهة التي دعا إليها « ماثيو أرنولد » كانت لازمة لبعث تلك الحياة الأدبية الجديدة التي كان يبشر بها .

ثم لقد رأيت أن الذي ميز الحياة الانجليزية في عصره كانت تلك النعرة الانجليزية الشديدة التي كانت تنتقص الأدب الأوربي ؛ وكانت مخدوعة تحسب الأدب الانجليزي منتهى ما يصل إليه جهد الأديب ؛ ولقد تحدثنا عن ذلك فقلنا إن « ماثيو أرنولد » قد سمّى كل ذلك إقليمية خبيثة . وقد كان ذلك الشعور يتدخل في النقد ، فحاول « ماثيو أرنولد » أن يتخلص من تلك الإقليمية ، كما تجرد من الهوى ومن الإحن والحزازات . ولقد كان موفقاً في كل ذلك ، فقد جاءت مقالاته في النقد مبرأة من كل تلك الرذائل التي حاول أن يستأصلها .

* * *

ألم أقل لك إن دراسة « ماثيو أرنولد » تفيدنا كثيراً ؟ ألسنا نرى أنفسنا اليوم في مفترق الطريق مثل ما كان يرى أدباء الانجليز أنفسهم في منتصف القرن التاسع عشر ؟ ثم

(البقية على الصفحة التالية)

قصة نفس مفكرة

للأستاذ على أدهم

« لم أكن يوماً ما طفلا ، وليس لى سابق عهد بالطفولة .

« فما هى أيام الطفولة النضرة الضاحية وأحلامها الذهبية الماتعة ؟ وما تلك البراءة الرفافة الوريفة ، وذلك الابتهاج الذى يشيعه فى النفس تكشف أسرار الكون والاهتداء إلى عجائبه ؟

« لم أعش فى كنف الطفولة ، ولم أنعم بظلالها ، ولقد عدتنى أيامها الغر وعهودها الحسان .

« لقد عرفت عنها بعد ذلك أشياء من الكتب ، وتوسمتها فى محيا الأطفال الذين ألقاهم ، ولم أدرك أنى قد اجتزت عهدها ، ولابستنى صفاتها ، وعرفت بشاشتها إلا بعد أن أربت على العشرين سنى ، وفى فلتة من فلتات النسيان ، وومضة من ومضات الصفاء .

« الطفولة معناها الحب والمرح وعدم الاكتراث ، ولقد وجدتنى فى سالف الأيام وحيداً مهموم البال .

« منذ نشأتى وأنا أشعر شعوراً قوياً بالعزلة والتفرد ، ولست أدرى لم ذلك ؟ ألأن قومى كانوا فقراء معسرين ، أو لأنى ولدت فذاً مختلفاً عن سائر الناس ؟

« لا أستطيع أن أعرف ، ولا أن أدلى برأى ، ولا أذكر سوى أن عمة لى صغيرة السن لقبتنى بالكهل ، وقبل أقاربى جميعهم هذا اللقب ، وصاروا يدعوننى به ! والواقع أنى كنت فى أغلب الأوقات منقبض النفس ، ملتزماً الجد الصارم .

« كنت قليلا ما أحادث أترابى من الأطفال ، وكنت أضيق بألوان المجاملات وأمقت مظاهر التكلف ، ولا أشاطر أقرانى لهوهم ومتعهم فى أسعد أوقات حياتهم ، وأوثر أن آوى إلى ركن مظلم ، وأنتحى ناحية مهجورة فى منزلنا الصغير الزرى ، وكان الجميع يمقتوننى أشد المقت ، وكنت أشعر بشدة الكراهة التى يضمرونها لى ، فيزيدنى ذلك احتجازاً وهماً ، ورغبة فى العناد والمشاكسة .

« وعند ما كانت تجمعنى المصادفة بغيرى من لداتى

أليس من الحق أننا فى حاجة إلى مثل تلك الثقافة السابغة التى دعا إليها ذلك الناقد العظيم ؟ أجل ! إن أدبنا فى حاجة إلى ثقافة تأتلف خير الذى أنتجه الشرق والغرب وتنطوى على أفكار وأفكار وأفكار ! وبغير تلك الثقافة المركبة المؤتلفة لن نستطيع أن نبلغ بأدبنا إلى حيث نريد . ثم أليس من الحق أننا فى حاجة إلى كثير من قوة الذهن حتى تتبلج أفكارنا وتتبلور ، وحتى يكون أمامنا دائماً طائفة من المثل العليا الناجحة نصدر منها ونرد إليها ؟ نحن فى حاجة إلى كل ذلك . ونحن فى حاجة أيضاً إلى قمع تلك النعرة الخبيثة التى تستنيم للدعة والاطمئنان فى الأدب والتى تنفى من الأمثلة العليا فى سبيل التشوق والمهارة . وهذه « الإقليمية » الخبيثة التى تحسب الأدب العربى قد انتهى إلى أرقى درجات التطور ما هى إلا روح الإقليمية الإنجليزية تبث فينا ، لأن بيننا كثيراً من أنصاف المتعلمين أولئك يشاكلون أمثالهم من إنجليز القرن التاسع عشر ، لولا أن هؤلاء كان يحدوهم الولاء الخالص لبلادهم . ثم أليس الحق أننا فى حاجة إلى التنزه عن الغرض والهوى والتجرد مما تمليه حزازات الساعة ؟ إننا ما نزال فى حاجة إلى الثقافة والنقد ، وأحسب أننا قد رأينا جانباً كريماً منهما فى حديثنا عن ذلك الناقد الكريم .

أحمد خاكى

لأطفال كنت لا أشترك فى ألعابهم ، وأظل مجتنباً لهم ، معرضاً عنهم ، ناظراً إليهم من علوة جدى الصارم بعين الناقد الزارى ، أو عين العدو الكاشح ، لا لأنى كنت أبغضهم ، فقد كنت لا أشعر نحوهم بغير الاحتقار .

« ومن ذلك الوقت بدأت الحرب بينى وبين بنى الانسان ، كنت أباعدهم وأتحاشى لقاءهم ، وكانوا يهملون شأنى ولا يعنون بأمرى ، كنت أبغضهم وأزهد فيهم ، وكانوا يظهرون لى العداء ويضطهدوننى ، وكان أقاربى يجاملوننى مراعاةً للعرف ؛ وكان يسوؤنى هذا التظاهر بالود فأقابله بخشونة وجفاء .

« كنت لا أدخل السرور على قلوب الغير ، وزادنى عداء الناس لى تجافياً وتشبثاً بالوحدة وإصراراً عليها ، وزادتنى الوحدة هماً على هم ، وهـذا الهم اللازم أغلق قلبى وألهب فكرى ، وزادنى شذوذاً ، وجعلنى غريباً بين الأهل والأقارب ؛ وهكذا منذ بدء حياتى شرعت أعلّ وأنهل من ذلك الحزن المجهول غير المحدود الذى لا يُشفَى من دائه ولا يستعان عليه بالسلو والنسيان .

« كنت أعيش فى دنيا من نسج أوهامى ، ولا ترفُّ على وجهى ابتسامة ، ولا يستخفنى مرة الطرب ، وكنت شاحب الوجه حائر النظرة ؛ وأعود فأكرر أنى لم أكن يوماً ما طفلا !

« أسلمتنى هذه الحالة إلى ضرب من ضروب التشاؤم الأصم المقلق ، وأخذت أسائل نفسى عن قيمة الحياة وغرضها ، فلم أفز بجواب أطمئن إليه ولم أجد عزاءً ، لأن الحياة لم تمدنى بشىء ، ولم تمنحنى شيئاً ، ولم يكن لى أمل فى الثراء ، ولا نيل الفخار فى مجال المعرفة ، لأنى لم أتلق سوى دراسة مدرسية محدودة ؛ ولم أحلم بالفوز فى ميادين الحب وغزو قلوب النساء ، لأنى كنت دميماً جم الحياء والتردد ؛ وقليل من الناس من يحفل بى ، ولم يحبنى أحد غير والدى ووالدتى ؛ ولقد كانت هذه النفس التى نبت منها شاذة عجيبة حتى فى عينيهما . ولقد ولّد ذلك فى نفسى الاعتقاد بظلم القضاء ، والشعور بغرور الحياة » .

* * *

بهذه الكلمات التى تفيض بالمرارة استهل الكاتب الإيطالى القدير جيوفانى بابينى كتابه « إنسان كامل » ، وبابينى علم من أعلام الأدب الإيطالى الحديث وأحد ممثلى الثقافة الإيطالية الأقلاء المعدودين ؛ وفى حياته ظاهرة تستدعى التفكير والمراجعة فى هذه الأيام التى تكتوى فيها الأمم بنيران تلك الحرب الجديدة المشبوبة ؛ وسأشير إليها فيما بعد .

ولد بابينى بمدينة فلورنسا فى ٩ يناير سنة ١٨٨١ من أبوين فقيرين ، وكان والده صانع أثاث رقيق الحال ، ولكنه كان مع ذلك حر الفكر متقد الذكاء .

ومنذ تعلم بابينى القراءة أولع بالاطلاع ، وأقبل على تحصيل المعرفة والاستزادة من العلم ، حتى خطر له أن يقوم بتأليف « موسوعة » ، وأخذ يمعن فى الاطلاع ويكثر من القراءة ، ويسجل ملاحظاته ، ويجمع مختلف المعلومات وينسقها ؛ وصادفته عقبات لم يستطع التغلب عليها ، فهجر فكرة الموسوعة ، وأخذ يفكر فى كتابة تاريخ العالم ابتداءً من الخليقة إلى العصر الحاضر ، لأن الحاجة ماسة إلى مثل هذا التاريخ ! والإنسانية الضاربة فى الظلام والغارقة فى الفوضى لا ريب فى حاجة إلى الاسترشاد بضوء هذا الكتاب الحفيل فى التاريخ العام الذى يقدمه لها الشاب الفطن المجرب والمؤرخ الحجة « بابينى » ! ولكن صاحبنا على ما يظهر كان موعوداً بالعقبات التى تعترض طريقه ؛ فالدنيا خلقت حسب النصوص الدينية فى ستة أيام ، وهو يحاول أن يفسر التاريخ تفسيراً علمياً جديراً بطالب ناضج مثله فى الخامسة عشرة من عمره المبارك ؛ ثم حاول أن يتعلم العبرى ليسهب فى الشرح ويجيد التعليق ، ولكنه وجد أن الموضوع سيطول

ويتشعب ، ففكر فى أن يضع كتاباً فى الأدب المقارن .

وانغمس فى الاطلاع والقراءة ، حتى تأذت عيناه ، وتداعت صحته ، واعتل مزاجه ، واستولى عليه التشاؤم ، ولوّن أفكاره بلون قاتم ، وأخذ عليه مسالك خطراته ؛ واقتفى آثار شوبنهاور ؛ وحاول أن يجعل تحبيذ الانتحار رسالته الأدبية السامية ؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يتقدم هو إلى الهاوية شأن الشجعان ، ويضرب للناس مثلا شروداً فى رفض الحياة وإنكار النفس ؟ ولكنه أقنع نفسه بأنه إنما يعيش ليذيع رسالته ويحمل غيره على ذلك ؛ ثم أدرك غرابة موقفه ، وأغضبه ذلك فصب غضبه ونقمته على طائفة من الفلاسفة المرموقين فى كتاب أسماه « تجر الفلاسفة » .

ثم أنشأ هو وجماعة من أصدقائه مجلة لترويج آرائهم الأدبية ونقد مذاهب الفكر السائدة ، وبدأ يشرح فيها فلسفة وليم جيمس ؛ واشترك بعد ذلك فى تحرير طائفة من المجلات ، وأخرج كتباً شتى بين نقد وقصص وشعر تمتاز جميعها ببلاغة الأسلوب وحرارة العاطفة وقوة التفكير ؛ وقد ظل يجاهد جهاداً متواصلا ، ويصدر الكتاب تلو الكتاب دون أن يعلو صيته ويعرف اسمه خارج إيطاليا ، حتى وضع كتابه عن حياة السيد المسيح ، فذاع اسمه فى الخافقين ، وأقبل الناس على قراءة كتابه ودراسة أدبه ومعرفة شخصيته ؛ وسبب الضجة التى أثارها الكتاب هى أن « بابينى » كان معروفاً من قبل بأنه ملحد متطرف فى إلحاده ، وكان موصوفاً بسلاطة اللسان وشدة النقد والاستطالة على الكتّاب ، والنيل منهم بالعبارات الجافية والهجة الساخرة فى غير مواربة ولا تردد ؛ فكيف انقلب هذا الأستاذ البارع فى صناعة القوارص والقذف بالقذعات ، وهذا الملحد الفوضوى مؤمناً يترجم للسيد المسيح ، ويعجب بتعاليمه ويرتضى مذهبه ؟ وما سر هذا التحول من النقيض إلى النقيض ؟

وُجّه إليه هذا السؤال فأجاب :

« إن الحرب هى سبب هذا التحول الذى حير عقول الناس ، فعند ما استعرت الحرب ، وأخذت تخوض غمارها الأمة بعد الأمة ، منساقة بعواطفها دون فكر ولا نظر ، ورأيت الفريقين المتحاربين يمعنان فى التخريب ، ويسرفان فى سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، ضحكت ضحكة مرة خالية من أثر السرور ، لأن سوء ظنى بالانسانية قد تحقق ؛ ولقد كنت أعتقد من قبلُ أن الانسان مجرم أبله ، وأنه غير أهل للخير ، وأنه مطبوع على الشر ، وأن النزعة الغالبة عليه هى الرغبة فى التدمير والافساد ؛ ثم ضحكت وسررت لأن يقينى العميق قد قامت على صدقه الأدلة والشواهد .

« ولكن هذا الشعور بالشماتة والازدراء سرعان ما مضى لسبيله ، وأخذ يتردد فى نفسى سؤال : لم هذا كله ؟ وما سبب كل هذا القتل والتدمير ؟ وأقبلت على قراءة التاريخ لأستزيد من دراسته ، وعدت إلى أقدم الأزمنة ، إلى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، ورأيت أن الأمم فى مختلف العصور ، كلما جرت فى مضمار التقدم انساقت إلى الحرب ، وأن هذا الترقى لا يؤدى الى الحرب إلا لوهن الدين القائم على روح الحب الصادق ، وبدا لى أن الحرب هى النتيجة الطبيعية المحتومة لذلك .

« بدأت أعيد النظر فى تاريخ الرأسمالية ، والنهضة الصناعية ، وتقدم إيطاليا ، وتقدم أوربا منذ القرن الخامس عشر ، وأرسل الفكر فى الأسباب والنتائج ، فلم أر إلا الحرب والتدمير .

« أليس هناك ما يساعد على تجنب هذه الطرق المفضية إلى الهلاك ، وتلافى هذه المآسى المروعة ومحوها وإزالتها ؟

« استبان لى أن الحل الصحيح والطريق السوىّ هو

تبديل روح الانسان وتحويلها إلى الدين .

« شرعت بعد ذلك فى إعادة قراءة كتب طولستوى ، ودستوفسكى ، وأخذت أدير الطرف فى أنحاء نفسى منقباً فى أعماقها باحثاً فى ظلماتها ، فلم أستطع الفرار من مواجهة هذه النتيجة التى انتهيت إليها ، وهى أنه لا دواء يستطب به من داء الحرب والتدمير والتخريب سوى « الدين » القائم على روح الحب » .

وأدرك عاقبة إعلان مثل هذا الرأى ، وما يجره عليه من خلاف ، وما يثيره حول اسمه من لغط بين الكتاب والمفكرين ؛ ولكنه كان فى مختلف أدوار حياته إذا آمن بفكرة أقبل عليها بنفس مجتمعة غير موزعة ، وأسرف فى الاخلاص لها ، والذود عنها ، ويعرف أن خصومه سيتلقون هذه العقيدة الجديدة بالزراية والسخرية ، ويكيلون له التهم ؛ ولكنه اعتقد أن طريق الخلاص قد وضحت معالمه ، واستبانت أضواؤه ، وليس من شأنه أن ينكص على الأعقاب ، ويتردد فى إبداء رأى مهما يكن مخالفاً لسابق آرائه ، خشية سوء القالة ، وهو الذى لم يسلم من لسانه كاتب ولا ناقد ، ولم ينج من هجومه مذهب من المذاهب ؛ وفرغ لاتمام كتابه عن حياة المسيح ؛ ولما أذاعه لم يقصر أعداؤه فى اتهامه بأنه إنما تحول إلى الله ليركع فى معبد « مأمون » .

وبعض المفكرين الايطاليين ذوى المكانة عند تحدثهم عن « بابينى » يشيرون إشارات خفية تنم على سوء ظنهم بهذا التحول الفجائى من الالحاد إلى الايمان ؛ وهم بطبيعة الحال أعرف منى بأديبهم الكبير ، وأدرى بنواياه ؛ ولكن ما لمسته فيما تيسر لى قراءته فى كتب هذا الرجل من صراحة فى قولة الحق ، وجرأة فى النقد ، وحرارة فى الأسلوب ، يجعلنى أتردد كثيراً قبل أن أشك فى حديثه ، وأستريب بإيمانه ؛ ولعله هذه المرة غير مخدوع فى الطبيعة الانسانية ولا فى أخلاق بعض الكتاب والمفكرين .

هذه هى الظاهرة التى أردت أن أشير إليها فى حياة بابينى بمناسبة الحرب القائمة اليوم ؛ فهل حقيقة أن العودة إلى الدين ، والاستمساك بأصوله ، والتشبع بروحه ، تقضى على أسباب النزاع وعوامل الشقاق بين الأمم ؟ وهل فى تاريخ الأديان وماضى الحضارات ما يؤيد هذا الرأى ؟

يقول ألدوس هكسلى فى كتابه القيم « الغايات والوسائل » ما معناه : إن أنبياء الانسانية من لدن أشعيا إلى كارل ماركس متفقون فى أن الغاية التى تعمل على تحقيقها الانسانية هى الحرية والسلام والعدالة والحب الأخوى ؛ ولكن الاختلاف على الوسائل ، فالبعض يرى أن الطريق المسلوك هو الاصلاح الاقتصادى ، والبعض يرى أنه الغزو والفتح ؛ والبعض يرى أنه مناصرة الدكتاتورية ، والبعض يرى أن الطريق الصالح هو اصلاح أساليب التربية ، والبعض يرى أن التحليل النفسى هو خير علاج وأقرب سبيل ، والبعض يرى أنه لا يمكن تحقيق ذلك دون الاستعانة بقوة أكبر من قوة الانسان ، فالعودة إلى الدين هى السبيل الوحيد .

لكل مذهب من هذه المذاهب شيعته ، وأنصاره ، والمتعصبون له ؛ ولكن ما السبيل إلى ترجيح أحد هذه المذاهب على الآخر ؟ السبيل إلى ذلك هو المحاولات التى تستغرق فى هذا العصر جهود المفكرين على اختلاف آرائهم وتباين أساليبهم ؛ وأخشى ما يخافه الناس أن يظل الخلاف على اختيار الطريق قائماً ، والنقاش مستمراً ، فلا تصل الانسانية إلى الحرية والعدالة والسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

على أدهم

الفن الانسانى وأنصاره

للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

لم يعدم فن الانسان أنصاره . ولعل هؤلاء أشد حماسة وأكثر مبالغة فى تمجيده ، من المعجبين بالطبيعة وممجديها ، لأن الانسان ، كما ذكرنا فى مقالنا السابق ، أكثر إدراكاً لفنون بنى جنسه وائتلافاً بها . ويحسن بنا بعد أن أشدنا فى المقال السابق بمحاسن الطبيعة وسموها فى تثقيف الانسان ، وتوفير النماذج لفنونه ، أن نعرض للرأى المعارض ، ويحل أن نحشد هنا خواطر من نعرفهم من المتشيعين لذلك الرأى مما لا يتسع له المجال ؛ نكتفى بعرض بعض من آراء واحد منهم برز سائرهم فى تعصبه لما ارتآه ، وفى مضيه الحثيث فى تحقير الطبيعة ، والاستهانة بروائعها ، وإنكار قيمة الحياة كلها إلا ما تعتز به من آيات فن الانسان ؛ هذا الكاتب هو « أوسكار وايلد » الذى لج فى الجدل حتى شط فزعم أن الطبيعة هى التى تحاكى فنون البشر لتصل إلى الكمال . وإلى القارىء شذرات مختارة مما كتب فى هذا الصدد .

قال عن أشخاص روايات « بلزاك » : « مواصلة درس هذا القصصى تمسخ أصدقاءنا الأحياء فتبدلهم أشباحاً ، ومعارفنا فتحيلهم إلى ظلال أشباح ، ولأشخاصه حياة متأججة متوهجة الألوان ، وهم يهيمنون علينا ، ويتحدون كل من يجحد وجودهم ؛ وما موت « روبيمبرى » إلا مأساة من أفجع مآسى حياتى ، ولم أستطع أن أنجو كل النجاة من ملاحقة أساها ، فهو يطيف بى فى أوقات مرحى ، وتصدمنى ذكراه كلما ضحكت . إن بلزاك يخلق الحياة خلقاً ولا ينسخها » .

ومما جاء فى مقاله « الكذب يذوى » قوله : « يبدأ الفن فى أول مراحله زخرفاً مجرداً ، وصنعاً بهيجاً من نسج الخيال ، يتناول ما لم يعرف له كنه أو وجود ؛ هذه مرحلته الأولى ، ثم تتشبث به الحياة ، وتطلب الاذن لتدخل دولته الطليّة ، فيتخذها فى موادّه الأولية ، بعد أن يمنها ثانياً ، ويعيد صبّها فى قوالب جديدة ؛ ثم يبقى بعيداً عن الواقع ، فيبتدع ويتصور ويحلم ، ويقيم بينه وبين الحقيقة حاجز الأسلوب الجميل ، والزخارف المنمقة البديعة ؛ ثم تأتى المرحلة الثالثة التى تفوز الحياة فيها بالمقام الأول ، فتخرج بالفن إلى فضاء الله ، ويبدأ بذلك الانحطاط الجدىّ ، الانحطاط الذى نعانيه الآن .

« خذ الدراما الانجليزية مثلاً لما نقول . فقد بدأ فنها على أيدى الرهبان زخرفاً خرافياً . ثم أفسحت صدرها للحياة ، واستعارت منها مناظرها الظاهرة ، وابتدعت جنساً جديداً من البشر ؛ أحزانه أفجع من كل ما عاناه الناس ، وأفراحه أعمق أثراً من فرحة العشاق . يثور فى غضبه ثورة « التيتونيين » . ويهدأ هدوء الآلهة ، وله ذنوب ذميمة طريفة ، وفضائل كذلك طريفة ذميمة . ثم أجرت على لسان أشخاصها لغة تختلف عن اللهجات المتداولة ، لغة لها رنات موسيقية وأوزان عذبة . تستمد جلالها من النغم العميق الهادىء ، ورقتها من القوافى المبتكرة ، وتنتظم فى سلكها الألفاظ اللؤلؤية ويجلّ قدرها بديباجتها الفخمة ، ثم خلعت « الدراما » على أشخاصها أردية غريبة ، وقنّعت وجوههم . وما أهابت بالدنيا القديمة حتى هبّت من قبرها المرمرىّ . فإذا بقيصر جديد يخطر فى شوارع روما بعد بعثها ، وإذا بكليوبترا أخرى تمخر النيل فى مركب ذى شراع أرجوانى ، ومجاذيف توقع ألحان الناى ؛ وإذا بالأساطير والقصص

القديمة والأوهام تتجسم وتتميز ، وإذا بالتاريخ يعاد تدوينه من جديد ؛ ولم يبق كاتب من كتاب « الدراما » يجهل أن الفن لا يرمى إلى جلاء الحقيقة ، بل يرمى إلى جلاء الجمال الوشيج . هذا هو الرأى الصائب ، فما الفن إلا ضرب من المبالغة ، وما الاختيار الدقيق — وهو روح الفن الصحيح — إلا الإفراط فى الإيضاح والتجسيم .

« ولكن الحياة لم تلبث أن شوهت كمال الأسلوب ، وبدأت مقدمات النهاية تظهر حتى فى شيكسبير . فإن انصرافه التدريجى فى رواياته الأخيرة عن شعره غير المقفى إلى النثر الذى غلب عليه ، والمكانة الكبرى التى أولاها الوصف المفصل ، يؤيد ماذهبنا إليه . فليس شيكسبير فناناً مبرءاً من كل عيب ، وإنما هو مولع بالانحدار إلى الحياة ، واستعارة لغتها الطبيعية ، ناسياً أن الفن متى ما يفرط فى أسلوبه الخيالى ، يفرط فى كل شىء . . »

وذكر فى هذا المقال ذاته أن سيدات لندن ، فى نواديهن ومجتمعاتهن ، يجهدن أنفسهن فى احتذاء صور الفنانين النوابغ ، فيسدلن شعورهن ، ويسبلن أهدابهن ، ويعطين مثل الصورة المحتذاة ؛ ويرى أن الطبيعة تحاكى بذلك فن الإنسان ، ومضى على هذه الوتيرة إلى أن قال : « وقد أدرك الإغريق هذه الحقيقة بسليقتهم الفنية . فدرجوا على وضع تماثيل هرميس وأبولو فى غرفة كل عروس ، لتديم النظر إلى هذه التحف الفنية فى ساعات أوجاعها وساعات مرحها ، فتنجب أبناء لهم جمالها ، وقد فهموا أيضاً أن الحياة لم تقتصر على جنى فوائد روحية من الفن ، ولم تستفد منه عمق تفكير وشعور ورخاء بال أو قلق فكر فحسب ؛ ولكنها عرفت كيف تتشكل وفق ظلال الفن وألوانه ؛ ومن هنا بدأوا يرفضون الواقع ، وينفرون منه لدوافع اجتماعية ؛ إذ وجدوه ينشر القبح بين الناس . والحق كل الحق فيما ارتأوا ؛ ونحن فى هذا العصر نسعى إلى تحسين حال الناس ، بتشييد المنازل الصحية لسكناهم ، وتزويدهم بالماء النقى ؛ ولكن هذا السعى لا يوفر لهم إلا الصحة ، ولا يحبوهم الجمال بحال ؛ إذ الفن وحده هو الذى يحبوه ؛ وما تلاميذ الفنان وأتباعه الحقيقيون من ينسجون على منواله ، ولكنهم أولئك الذين يتشكلون وفق فنونه ، سواء كانت هذه الفنون تماثيل من صلصال كتماثيل الإغريق ، أو صوراً عصرية ؛ ومجمل القول : أن الحياة آية الفن الكبرى ، وهى تلميذه وتابعه »

وقد عزا إعراض العرب عن رسم طلعة الإنسان ، وأشكال الحيوان ، وصور الطبيعة ، واكتفاءهم بتخطيط الأشكال الهندسية وتلوينها ، إلى استهانتهم بالطبيعة . وفى ذلك يقول : « وما يصدق قوله عن الدراما والقصة ، يصدق كذلك على الفنون التى ندعوها الفنون الزخرفية ؛ وما تاريخ هذه الفنون إلا سجل الصراع بين الشرق وإعراضه عن المحاكاة ، وتعلقه بالأساليب الفنية ، ونفوره من تصور الكائنات ، وبين روحنا المحتذى المقلد ؛ وأينما كان لفن الشرق تأثير غالب — كتأثيره فى الفن البيزنطى والاشبيلى والأندلسى إبان اتصاله المباشر به ، أو تأثيره فى نواحى أوربا الأخرى أيام الحروب الصليبية — فقد ازدهرت لنا فنون جميلة تصورية ، تحولت فيها ظواهر الطبيعة المرئية إلى نظريات فنية ، وتم ابتداع كل نقص فى الحياة وتهذيبه فى سبيل توفير بهجتها . ولكننا متى نكصنا إلى الحياة الطبيعية ، انقلب فننا تافهاً دارجاً غير ذى بال . وقد أبدى لنا أحد المسلمين مرة الملاحظة الآتية : « أنتم المسيحيين شغلتم أنفسكم بتفسير الوصية الرابعة ذلك التفسير الخاطئ ، فشغلتم بذلك عن تطبيق الوصية الثانية تطبيقاً فنياً » . وبيده الحق فيما لاحظ . ونستخلص مما تقدم « أن الحياة ليست أفضل مدرسة لتعلم الفن ، ولكنه الفن نفسه » .

وقال فى موضع آخر من الفصل المذكور : « ما هى الطبيعة ؟ لا أقول إنها الأم الكبيرة التى فطرتنا ، ولكننا نحن الذين ابتدعناها . هى لا تخطو إلى الوجود إلا فى

أذهاننا ؛ فكأنها موجودة لأننا نراها . وما نراه منها ، والحالة التي نراه عليها ، متوقف على الفن الذي يؤثر فينا . والنظر إلى الشيء يختلف عن رؤية الشيء اختلافاً بيّناً . ولا يستطيع أحد أن يرى أي شيء قبل أن يرى موضع جماله ، فعند ذلك يصير للشيء وجود ؛ وهاهو الضباب الهابط على شوارع لندن لم يره الناس لأنه موجود فعلا ، وإنما رأوه في هذه الأيام لأن الشعراء والرسامين كشفوا لهم جماله الحق ؛ وربما كان يخيم على لندن منذ أجيال ، أو كان يخيم فعلا ؛ ولكن لم يره أحد ، ولذلك لم نعلم عنه شيئاً حتى أتيح له الفن الذي خلقه ؛ وبينما الرجل المثقف يصاب بتأثير جماله ، إذا بغير المثقف يصاب بتأثير برده .

« ومتى أحدث الفن تأثيره الفريد ، نفض يده من الموضوع وانتقل لغيره . أما الطبيعة فلا تني تحدث نفس التأثير وتكرره حتى تمله ! ولا يوجد في هذه الأيام إنسان مثقف حقاً يتحدث عن جمال غروب الشمس ، فإن الشفق بغروبها طراز قديم يرجع إلى العهد الذي كان « تورنر » يعد فيه رساماً من الطراز الأول . إن تمجيد الغروب ينم عن ذوق دنيء » .

وقال أيضاً : « لا يوجد فنان عظيم يرى الأشياء على حقيقتها ، فإذا رآها كذلك قصر عن أن يكون فناناً عظيماً . وهاك مثلاً نقتبسه من عصرنا الحاضر . أنا أعلم أنك مغرم بكل ما هو ياباني . فهل تحسب اليابانيين الذين تستعرض صورهم الفنية كائنين حقاً ؟ إذا حسبت ذلك جهلت الفن الياباني كل الجهل ؛ فهذه الأشكال المرسومة من صنع فنانين مبدعين متفننين . ومتى قارنت بين صورة من رسم « هوكوزي » أو رسم « هوكي » أو من رسم أي فنان ياباني آخر موهوب ، وبين طلعة أي رجل أو سيدة من أهل اليابان ، افتقدت كل شبه بين الشكلين ؛ فالشعب الذي يعيش في اليابان لا يختلف في شيء عن شعبنا الدارج ، أي أنه عادي لا يمتاز بطرافة أو صفة خارقة ؛ وما اليابان التي نعرفها إلا من محض الخيال ؛ وقد رحل أحد فنانينا الظرفاء أخيراً إلى بلاد الأقحوان بأمل رؤية اليابان ، فلم يجد شيئاً جديراً بالتصوير إلا بضعة مصابيح ملونة ومراوح مزركشة ؛ وهذا ما قلناه من أن اليابان ليست إلا نمطاً جديداً من نتاج الخيال الفني .

« وهاك مثلا آخر نستقيه من عهد قدماء اليونان . أتخال أن الفن اليوناني يبدي لنا حقيقة ما كان عليه اليونانيون؟ أتعتقد أن المرأة اليونانية كانت كتماثيل إلهاتهم البديعة ؟ إنك لا شك تعتقد ذلك متى بنيت حكمك على ما تراه من فنونهم . ولكنك متى تقرأ مثل أريسطوفان ، وهو حجة فيما يقول ، تعلم أن الأثينيات كن يشددن أرديتهن على أجسامهن ، ويلبسن أحذية ذات نعال طويلة ، ويصبغن شعورهن بالصبغة الصفراء ، وخدودهن وشفاههن بالحمراء ، مثل أي فتاة سخيفة متصنعة ، أو فتاة ساقطة من فتيات هذا العصر . إننا في الواقع لا نرى العصور السالفة إلا بواسطة الفن . ومن حسن الحظ أن الفن لم يصدق في مرة من المرات » .

* * *

وبمقارنة آراء « وايلد » البادية في هذه الشذرات ، بآرائنا المفصلة في مقالنا السابق ، يظهر وجه اختلافنا ؛ فهو يزعم أن الفن لا يتصل في مرحلته الأولى بالطبيعة ، وإنما يبتدئ زخرفة مخططة ملونة ، كأن التخطيط الزخرفي ليس منقولاً من الطبيعة ، أما للدوائر والزوايا والأضلاع والألوان نظائر في قبة السماء وقوس قزح ، وفي جلود الأفاعي والحمير الوحشية ! وفي ذيول الطواويس وأجنحة الفراش ، وفي أكمام الورود والزهور ، وفي الأهلة والبدور والأملاح المتبلورة وغيرها من بدائع فنون الله التي يعجز الانسان عن إحصائها ، ويقصر الفنان عن إبرازها في جمالها الأصيل ؟

وقال أيضاً : إن الحياة تتسرب إلى الفن في مرحلته

الثانية ؛ ولكن الفنان يصبها في قوالب فنية ، ويحيلها إلى نوع جديد من الجمال لا عهد للطبيعة به . ومردُّ ذلك على هذا الزعم أن الفنان أصدق نظراً وأصوب رأياً وأرهف إحساساً من سائر الناس ؛ فهو لذلك يرى من معاني الحياة وصورها ، ومن أسرار الغرائز وألوان الشعور ما لا يراه غيره ؛ ويبدو كأنه يبدع الحسن من العدم ، وهو إنما يتصيد الجمال الخافي على عامة الناس . ولم يأت كُتَّاب الروايات والملاحم الشعرية بأشخاص مؤلفاتهم من عالم الخيال كما يقول « وايلد » ، وليست أفراحهم وأتراحهم مما لم يبل الانسان نظيره ؛ فصدور الناس جياشة بأمثال هذه المشاعر ، وليس للفنان إلا فضل اقتفائها في مسارب نفسه ، وهتك ستورها الكثيفة ، وبذل الجهد في تفهم معانيها الدقيقة ، ثم إبرازها للناس جلية مفهومة ؛ فالفنان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وينظم لهم المعاني المكنونة في نفوسهم ، وإلا لما تجاوب صداها في صدور متلقي آثاره ومريديها .

وأعجب ما قال وايلد أن « الطبيعة تحاكي من الانسان » . كيف تحاكيه وهو ما زال عاجزاً عن كشف أسرار فنونها كلها ؟ أليست لديه نماذج تماثيل أبولو وغيره من التماثيل واللوحات الفنية الممتازة ؟ فإذا حاول النساء الأنيقات أن يصغن على غرار تلك الصور والتماثيل ، فإنهن إنما يحاكين الطبيعة لأن الأصول كلها منها .

ويرى وايلد أن المبالغة والتفخيم من روح الفن الصحيح . والحق أن أجمل الفنون أصدقها . والفنان الصادق هو الجدير بالتقدير . وما المبالغة إلا خدعة كاذبة لا يلبث أن ينكشف بهرجها وتفتضح خساستها . وقد تحوم شبهتها حول الفنون لأن عمق شعور الفنان وتوقد ذهنه يضخمان له ما يراه ، فيصوره بصدق وأمانة تخيلاً جليلا ، أو على الأصح أن قصور ذهن الرجل العادي وتفاهة إدراكه يصغران له الواقع في نظره ، فيرى في أعمال الفنان جلالاً وفخامة غير طبيعيين .

أما الزعم بأن اقتصار العرب على الفن الزخرفي دون فن النحت والتصوير الطبيعي دليل على إعراض فنانيهم عن الطبيعة ونفورهم منها ، فغير موفق أيضاً ؛ لأن عدم رواج فن النحت عندهم يرجع إلى شعورهم الديني الذي ظل على نفوره من التماثيل بعد تحطيم أصنام الكعبة . وقد أعرضت الفنون الاسلامية عن مجاراة الدول الغربية في مضمار التصوير الطبيعي ، لأن المرأة كانت دعامة هذا الفن إذ ذاك ، وكانت طلعتها الجميلة السافرة وجسمها العاري مادتها الرئيسية ؛ فلم يكن عجيباً أن يهمله العرب ومن تقاليدهم الغيرة على المرأة ورعاية حرمتها .

ولكن الذي فاتهم في فن التصوير المادي المكشوف لم يفتهم في الشعر المعنوي المتسع للكناية والتورية ؛ فقد صوروا في شعرهم كل ما وقعت عليه أعينهم وما تفتحت له بصائرهم من مرئيات الطبيعة ؛ فلم يتركوا الابل والدمن والأثافي دون وصف أشكالها وأجزاء جسمها وطباعها ؛ ولم يترفعوا كذلك عن المرأة ووصف جمال طلعتها ودقائق جسمها ؛ ولم يتخلفوا عن تمجيد الطبيعة ضاحكة في وضح النهار أو متجهمة في غبش الليل ، وعن التغني بجمال الربيع ، وعن مناجاة البدر والنجوم ، وعن البكاء على المعالم والرسوم ؛ فليس لديهم قصيدة من الشعر لم تتقمص فيها الطبيعة ؛ فكيف يصح بعد ذلك القول بأنهم ازدروها وأعرضوا عنها ؟!

ومهما تكن لباقة « وايلد » في التدليل على صحة رأيه ، ومهما يكن دهاؤه في صوغ منطقه والتدرج به في مهارة إلى تدعيم وجهة نظره التي لا يقصد من ورائها إلا الإغراب ، فإنه لا يستطيع أن يغير الواقع ؛ فالإنسان من الطبيعة وإليها ، وهي التي تغذي جسمه وروحه وثقافته ، وهي التي تحافظ على بقاء جنسه ، وتحفزه بوسائلها إلى المثل الأعلى ؟

محمد منير الشورباشي

«يا نجمة الفجر ... !»

كان يفرّ من المدينة شهراً فى العام ، يقضيه فى الريف ، فى ضيعة أبيه ، بعيداً عن كتبه ودراساته وهمومه .

وكان يجد راحة أعصابه فى الهدوء الشامل الذى مدّ رواقه على الحقول الحالمة ، يحلق فيها الزرع الأخضر النضير فيتضوع شذاه ، ويعطّر الحياة ، ويملأ الوجود من حوله بذلك السرّ الذى يرقص الطير على أفنان الشجر ، ويشق أجنحة الفراش ألوانها الفاتنة ، ويشيع البهجة والابتسام فى مياه الغدير ...

وعرف « بهجت » فى المكان أشياء كثيرة صاحبها وأحبها ، وخيل له أنها صاحبته وأحبته .

عرف أشجار النخيل النحيلة المشوقة ، التى تمايل أعوادها الهيفاء فى دلال ورشاقة ، ساخرة من السنين ، حاملة ثمرها الحلو على مفرقها ، كأنه يواقيت زيّن شعرها الذهبى الحلول ...

وعرف الساقية العاملة فى صدر الحقل عمل الرئة فى صدر الانسان ، أما يحيا الحقل بها ؟ .. إنها دائمة التنهيق والزفير ، إنها تدور دائماً ... تغنّى حيناً ، وتئن وتشكو حيناً ، وتبكى وتتوجع أحياناً ، فى صرير ترومها كل الألحان التى تروى قصة الحياة . إنها امرأة مجربة تعرف كل شىء ... إن خشبها اليابس المتآكل قد شبع من الحياة ، وذاق حلوها ومرها ... لقد دارت فى موهن الليل والفجر يجرر أذياله الوردية ، ودارت فى حرّ النهار متلظية تحت شمس الصيف ، ودارت بينا دموع الأمطار تغسلها من همومها ، وقبّلتها أحياناً أشعة القمر ...

يا لجمال وروعة الأقاصيص التى تحكيها الساقية ! إنها تفطن — وهى تدور — إلى كل ما يدور فى رأس مالك الحقل ؛ إنها تعرف خواطره ، وهمومه ، وهواجسه ، ونياته ... إنها قد خبرته كما قد خبرت أباه وجده وأسلافه ... ! كم شهدت من أحقاد ، وأفراح ، ودماء ... كان القاتل أحياناً يأتمنها على سرّه ، ويلقى فى بئرها جثة ضحيته ... ! وكان المحزون والعاشق يتخذ من صريرها قيثارة يوقع عليها مواويله وأغانيه ونجواه .. !

وعرف « بهجت » أيضاً أحجار « الوردة » القائمة منذ بعيد على حافة النهر السعيد لتستقر عليها أقدام القرويات حين يملأن الجرار ... كم صارت هذه الأحجار ملساء ناعمة ... ! إن حياتها حب واحتمال ... إنها تتلقى قبلات الموج التى لا عدد لها وتعيش فى أحضانه . وإنها تحتمل القرويات وتحملهن من صباهن إلى شيخوختهن ، تحتمل الحبليات والدميات ، والباسمات والدامعات ، وتصغى إلى شكاياتهن من أزواجهن ، وإلى نميمتهن وغيبتهن للصويحبات ؛ كما تصغى إلى همس الخلخال فى سيقان الصبايا بأقاصيص العشق الرخيص والعشق العفيف ...

وعرف أيضاً الأحجار الأسطوانية العتيقة المدفونة إلى الأعناق فى ثرى أطراف الحقول ، لتبين حدودها الأربعة ، وتكون معالم الملكية ... إن كل حجر من هذه الأحجار رمز إلى حب الانسان للأرض وتعلقه بالثرى الذى نبت منه . كثيراً ما كتب الدم على هذه الأحجار أقاصيص النزاع الطويل ، والقضايا الخاسرة والبغضاء ... ثم الاغتيال فى جوف الليل ، وربما فى وضح النهار ... واستحكام العداء بين الأهل الأقربين . وعودة العرائس اللائى لم تبهت الحناء على أكفهن إلى بيوت آبائهن ! ..

ثم ... لقد عرف كل هذه الأشياء ، وأحبها وأحبته

وفهمها وفهمته ، ولاح لها بذات ضميره ، وباحت له بمكنون سرها . . .

وعرف أيضاً . . . سميحة .

الريفية الصغيرة ، المليحة ، السمراء . . .

أول ما رآها منذ أربعة أعوام . . . كانت تخطو إلى ربيعها الثاني عشر . . . ثم زار القرية في السنين الثلاث التالية ثلاث مرات ، وكان كل مرة ، وهو في طريقه إلى الضيعة ، يجد في قلبه الشوق لأشجار النخيل ، وللساقية ، ولأحجار الوردة ، ولعالم الحدود . . . ولسميحة .

كان في العشرين من عمره لما كانت في الثانية عشرة . وأحب طفولتها العذبة ، وتبناها قلبه . . . منذ ذلك الصباح الباكر الذي شاهدها في طراوته في الحقل الذي يستأجره أبوها ، وهي تحكم ربط العصابة على أعين زوج البقر الذي يجر الساقية في رفق وحنان . . .

كانت تغنى بصوتها الرقيق الرائق موالاً مطلعه :

« يا نجمة الفجر طلّي ، وارجعى روحي . . . وسلى لى على اللى ، عندهم روحي . . . »

وكان صوتها يقطر حلاوة وبراءة . كانت توسوس بنغمها في آذان البقر ، كأنها تواسيه ، وكان البقر يسلس القياد ، ويدور في رضا حول الساقية ، وكأنه هفا إلى الأغنية ونسى المشقات التي تنتظره في نهاره . . .

ورأته سميحة ، وابتسمت له تلك الابتسامة الواسعة السخية ، التي تنبع من قلب الطفولة الغرير ، الذي تفيض السعادة دائماً على شطآنه ، مغرقة في جدلها الصادق العميق كل الوجود الذي يحيط بها . .

ورأى « بهجت » في لمحات عينيها ذلك الذكاء الفطرى الذي قدر له أن يحيا ويموت في الحقل دون أن يشعله ويذكيه التهذيب والصقل ، كالزهرة التي قسم لها أن تعيش في الأصيص ، ثم تذبل حين ترتطم جذورها بجدران الفخار التي تعيش في إساره .

كانت ترتدى ثوباً ساذجاً ملوناً ، وتضع في يديها « غوايش » زجاجية ملونة ، ويضحك في ساقيها خلخال فضى . . . كانت في مجموعها تشبه ابتسامة في وجه الشمس الضاحكة . . .

من ذلك الوقت أحبها ، وأحل لها مكاناً عزيزاً في نفسه ، وألف — كلما قصد إلى الريف — أن يجلس في ظل شجرات النخيل القريبة من الساقية يتحدث إلى سميحة ، ويعرف منها أخبار القرية ، ويصغى إليها وهي تغنيه مواويلها الساذجة ، بصوتها الحنون الصافي . .

وكبرت سميحة . . وأخذ سر الأنوثة الثاوى في طبيعتها يكبر معها ، وتفتحت أكمام الوردة ، وصار لها شذى وعبير .

وبدأت أحلام الشباب تلون ألحانها وأغانيها . . لم يعد صوت الطفلة هو الذي يترنم ، بل صوت العذراء التي يداعب روحها الظامئة الحنين إلى المجهول . . .

* * *

وفي ذلك العام ، لما وصل في المساء إلى القرية ، لم يكد يستريح حتى أسرع إلى شجرات النخيل . . ورأى — كما كان يتوقع — سميحة عند الساقية ، فتسلل حتى دنا منها دون أن تشعر ، فاذا بها ملقية خدها على كفها ، تخط على التراب بيدها الأخرى ، وهي تغنى في سهوم موالها المحبوب :

« يا نجمة الفجر طلى ، وارجعى روحي . . . وسلى لى على اللى ، عندهم روحي . . . قلبي دموعي ، وقلبي باعه لوحى . . . جرى دموعي وأنا ، الكاتبة على روحى . . . يا نجمة الفجر . . . »

لقد عمقت ألوان الألحان في صوتها ! . . وألفت مع نواح الساقية وظلال المساء ، ذلك الغناء الحالم الحزين ، الذي تتنفس به الحقول . . . الحقول التي مرت بها الأحقاب ،

وعاصرت الماضي السحيق ، وعبرت عليها ظلال آلاف الرجال الذين سقوها من دموعهم ، وعرقهم ، وآمالهم ، ثم مضوا ! . . .

في صوت سميحة الآن جرس دفين ! . . . إنه مشوب بقلق مبهم ! إنه واجف ! إنه يلهث ! كأنه آت عدواً من المجاهل السحيقة في روحها ، حيث ترقد الأسرار البعيدة الدفينة التي يكتمها الإنسان ، حتى عن نفسه . . .

وناداها باسمها فالتفتت مذعورة . وأخذت تتمالك نفسها كأن خواطرها كانت مبعثرة مع الرياح الأربع . ورأى الخجل يصبغ وجهها ! . . لم تكن تخجل من قبل من أمانيها ! فما لها الآن تذعر كأنه هتك الأستار ، وكشف الأسرار ؟ . .

طاف بها بصره وهو يمد إليها يده ، فرأى ما صنع عام كامل بالوردة النافعة في أكمامها .

إن الأنوثة الآن قد أعلنت سرها وسحرها ، وقد تمت آية الحسن ، وصارت الصبية التي كانت تشبه ابتسامة في وجه الشمس ، عروساً من عرائس النور الباهر النادر .

أحياناً تحب الطبيعة أن تتأنق وتتفنن ، فتجرى جدولاً ، رقراقاً بين الأدغال ، تضحك أمواجه مقبلة العشب الأخضر أو تنبت زهرة يذكر جمالها بالفردوس ، أو تصادف طائراً فتلون ريشه بألوانها العجيبة ، وتنفث في صوته من موسيقاها السماوية المدخرة .

وأحياناً تحب الطبيعة نبتاً من نباتاتها النابتات في كنفها العائشات في حضنها ، فتسرق له جمال الجدول ، وفتنة الزهرة ، وروح الطائر — وتمنحه كل ذلك بركة من الله فاطر الحسن ، وبارئ آياته . . .

والطبيعة لا تعرف المحاباة ولا الملق ، فما فكرت في أن تحقق حلمها المتأنق المتفنن لم تسبغ نعمتها على ابنة العمدة ولا على شقيقة ملاحظ النقطة . . بل على سميحة الفقيرة ، التي يستأجر أبوها أربعة أفدنة من أرض الضيعة يحصل من ريعها على القوت والكساء . .

وسألها أن تنشد مواله المفضل : « ياعجمة الصبح » فاستحيت وتمنعت ، ثم لانت . . .

هيه ! . . . إن صوتها لم يعد صوتها . . إن فيه غنة جديدة . . إنها تغيرت ! . . .

ووصلت في غنائها إلى مقطع الموال : « وسلمي لي على اللي عندهم روحي . . » وجفلت فجأة ، وأخفت وجهها في ذراعها ، وفرت ! . .

وعجب من ذلك ! . . .

ومضت الأيام . .

وكان يلقاها ، ويتحدث إليها ، ويسمع إلى صوتها الجديد . . . وازداد يقيناً أن في حياتها شيئاً جديداً ، وأن الطبيعة التي أجزلت لها كل هذا الجمال ، قد سرقت قلبها . . .

لكنه لم يعرف أين قرت الطبيعة بالقلب المسروق ، وأين خبأته ! . .

إن كان لكل قلب قصة ، فلا شك أن قلبها قد بدأ قصته . . .

يالمذارى ! . . كلهن سواء ! كلهن يبحثن عن الهناء في مستهل شبابهن ، وينشدنه في قلب رجل تعتمد عليه حياتهن . ويحلمن أن يمشين له وحده ، طيعات ، مضحيات ! . . . كل فتاة تتمنى أن تكون عروساً . . .

إن سميحة غير ملومة إن كانت قد انتخبت رجلها . إن كانت قد ربطت قلبها بحبيب فتى وسيم من فتيان القرية ، يعود بزوج البقر إلى الدار ، ويعين أباها في زراعة الحقل ، ويمنحها طفلاً يرضي غريزة الأمومة الثاوية في طبيعة كل امرأة ، ويغني لها المواويل . . .

لكن: من الفتى السعيد الذي سيحصد الأحلام النائمة في عينيها؟ الذي يضمها هواه فتحكي لساقية الباكية قصتها معه: «قلبي زموشي، حبري دموعي.. وأنا الكاتبة على روحي....!»..

* * *

صار يهجت بفاجئها دائماً ساهمة مطرقة تخط في التراب، أو تمرك بأناملها زهر البرسيم، أو تقشر الثوب الأخضر عن غصن من أغصان الشجر.. وكانت تفزع لقدومه، وتفيق كأنها كانت في حلم عميق، وتضطرب في عينيها حلاوة آسرة، وتسير على صفحة وجهها الصبوح ظلال وردية من نسج الحياء... وكانت لا تلبث بعد إلحاحه أن تغنيه، وهي جالسة عند قدميه، تلك الأغاني التي تؤلفها وتلحنها روحها البسيطة الصافية، المرسلة على سجيتها...

وكان خلال ذلك يلمح فرحاً نامضاً يلمع في وجنتيها، وروى صوتها، ويتسلل إلى أعطافها، فيهزها اهتزاز الوتر في قيثارته...

وكثيراً ما كان يرى فرحها ذاك ينطفئ فجأة، وتنطفئ معه رنة صوتها ونضرة وجنتيها، حتى ليخيل له أن ينبوعاً من الحزن ينفجر في نفسها فجأة، وتعلو أمواجه السوداء حتى تغرق قلبها..

في فرحها وحزنها كان يسألها عن ذلك الفتى الذي بدل من أطوارها، الذي لا شك أنه دخل حياتها؟ فكانت الظلال الوردية تتداول على وجهها، وتخفيه بين ذراعيها، وتفر هاربة.

* * *

وجاء ميعاد الرحيل..

وأنبأها ذات مساء أنه سيبارح القرية في الفجر ليأخذ قطار الصباح إلى العاصمة من البلدة المجاورة.. ومد لها يده مودعاً.. وتناولت يده وقبلتها.. إنها دائماً تقبل يده أول قدومه وعند رحيله.. هذه هي تقاليد القرية... في المدينة القبلة على اليد تحية الرجل للمرأة.. وفي القرية هي تبجيل المرأة للرجل..

وانفعل الفتى.. بالبتيئة الأمينة! لقد أبقت شفتيها على يده رهة طويلة.. ليخيل إليه أن تلك القبلة حارة أكثر مما ينبغي... وأنها رفعت وجهها عن أنامله بعناء!...

وأتى يدها في يده، وتشبث بها، وهم أن يدنيها من شفتيه، وأن يجر الحسناء إلى صدره حتى مهب أنفاسه... لكنه ذكر أبراجه العالية.. وأن هذه الزهرة في بطن السهل.. وأن عبيرها ليس له.. بل لذلك القروي الذي لا بد أنها ربطت قلبها بساعديه، وعينيه القويتين، وفأسه، وحقله...

وترك يدها، وانطلق عائداً إلى القرية...

ولم ير الدموع التي ملأت عينيها...

وظلت الفتاة تنظر بهذه الدموع في الناحية التي ذهب منها.. ثم جلست على الأرض متهالكة.. ووضعت رأسها بين ركبتيها، وانفجرت باكية...

إنه ذهب...

ولم تقو أن تصارحه بما كانت تبطن... لقد بدد كل شجاعتها... لقد كانت مصممة أن تلتمس منه أن يأخذها معه إلى المدينة، ويجعلها خادمة في بيته، تجلس عند قدميه كالقطة الأليفة، وتغنيه الأغاني التي يحب، وتبتسم الابتسامات التي ترى صداها على وجهه... فإنه هو وحده زارع هذا القلق الذي راود قلبها، والعاطفة التي عبثت بروحها، والشوق الذي تمل شبابها وكيانها... إنها لم تربط قلبها بقلب فتى في القرية كما يتوهم.. إن عينيه

هما اللتان ألقتا بذرة الهيام فى أعماقها ، فى التربة الخصبة الليّنة ، وقد استيقظت من أحلامها ، فوجدت البذرة قد شقت التربة ، وخرجت إلى النور . . . ومن عينيه وابتساماته رويت ، واغتذت ، وترعرعت . . . إنها لم تتاح غيره فى أمانيها . إن شبابها لم يصبُ إلى سواه . . . ولم تخط فى التراب وتستسلم إلى الوجوم إلا وهو يملأ نفسها ويلهم تمنيها إياه كل خواطرها . . . كان قدومه إلى القرية هو فصل الربيع لقلبها وشبابها ، فكانت تحاول أن تحيا فيه كل حياتها . . . قبل أن يذهب ، ويأتى فصل الصقيع . . . فلما عنف شبابها وترعرع الزهر فى نفسها ، وصارت فى حاجة قاسية للرى والشبع ، لم تعد تستطيع بعاده . . . وقد كانت معتزمة أن تسقط عند قدميه ملتمسة منه أن يأخذها معه ، خادمة طيعة . . .

نعم خادمة . . إنها لا تطمع فى أكثر من ذلك . . إنه ابن السيد الذى يملك كل هذه الأرض . . إنه لن يعطى حياته للقروية الخاملة الفقيرة . . .

وفى ذلك المساء جلست سميحة طويلاً حيث هى ، ورأسها بين ركبتيها ، وتقدم الليل ، واستلت لحم مضطرب الشباب أثناءه ، من بين جفنيها ، خيط دقيق من الدموع . . .

* * *

وفى الفجر . . كان الفتى يغادر القرية على فرسه . . . ووراءه الخدم يحملون حقائبه . . .

ومرّ بحقل الأذرة الذى يزرعه والد سميحة ، وأطاف بشجرات النخيل التى ألف أن يراها تحتها نظرة بائسة . كان الصباح باكراً جداً . ولم تكن هناك . . .

ليته نظر إلى يساره . . إنه لو فعل لرأى عينين مغمضتين بالدموع تنظران إليه من خلال أعواد الأذرة . . . لقد كانت سميحة متخفية فى قلب الحقل ، تنتظر مروره ، وجسدها ينتفض . . . من الصقيع ! ! . .

* * *

وأيقظها من ذهولها صوت بعيد هو صوت صفير القطار ، فمدت بصرها إلى الأفق ، نحو خط طويل أسود من الدخان أخذ يتبدد فى السماء . .

ورفعت وجهها ، متعقبة الدخان الضائع فى الهواء ، وناحت بصوت يقطر كآبة : « يا نجمة الصبح . . . طلّى ، وارجعى ، روحى . . وسلمى لى على الفتى ، عندهم روحى ! . . »

(طنطا) **يوسف جوهر**

المحامى

إصـــــلاح !...

للأستاذ عبد العزيز البشرى

من بضعة أيام وجّه صديق الكاتب الجليل القدر الأستاذ محمد توفيق دياب فى صحيفة « الأهرام » كتاباً إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء . وهذا الكتاب يدور حول « الشئون الاجتماعية » . ولا أكتم القراء أن هذا الكتاب لم يعجبنى فحسب ! بل إنى لا أجد حرجاً من القول بأنه أطربنى ، لأنه أحسن الترجمة عن خاطر طالما شغل نفسى ، واحتاز صدراً من همى .

ولا بد أن يكون كثير من قراء « الثقافة » قد قرأوا هذا الكتاب . على أنى ألخص موضوعه تلخيصاً شديداً لمن عسى أن تكون قد فاتتهم قراءته ، ليكون حديثنا بعد ذلك بيّناً واضح المعارف بين يدى الجميع .

لستهلّ الكتاب بشكر صاحب المقام الرفيع على عنايته الجليلة بالشئون الاجتماعية فى بلادنا ، حتى أنشأ لعلاجها وزارة خاصة ، وبلادُنا أشد ما تكون حاجة إلى العناية « بالشئون الاجتماعية » ، فنى الحق أننا محتاجون ، من هذه الناحية ، إلى فنون كثيرة من الإصلاح .

على أنه ذهب فى كتابه إلى أن الإصلاحَ المادىَّ لا يكفى وحده فى إدراك الغرض المنشود ! بل لا بد من الإصلاح الرُّوحىّ أيضاً ، ويعنى به إعداد نفوس الشعب لِتَقَبُّله ، وتجريد العزائم لتحقيقه والمعاونة عليه . وضرب لذلك الأمثالَ مشتقةً من الواقع المشاهَد الملموس .

ومن هذه الأمثال أنه لا يكفى أن يصدر تشريع بوجوب ردم البرك ، لعصمة الفلاحين من أذى الأمراض التى يحتربهم بها البعوض ؛ فإنه إذا قدِّر وردمت البركة أو البرك حول القرية فسرعان ما يحتفر سكانها بأيديهم غيرها لصنع الآجر أو لحاجة زروعهم إلى التراب يخلط بالسماد !

ولا يكفى أن يجرى الماء النقىّ إلى دورهم ليشربوا منه ، ويتقوا كثيراً من الأمراض والأسقام التى تصيبهم من شرب الماء الكدر الذى كثيراً ما يلوَّث بألوان الكروبات ؛ فنى الغالب أنهم سيعدلون عنه إلى التروى من هذا الماء الكدر ، إيماناً بأن الماء إذا صفا من الطين لا يجدى على الأبدان .

ولا يكفى أن تقام المرافق فى القرى لِيُكَفَّل للفلاحين قضاءُ حاجاتهم وتطَهُّرهم ، وكفُّ الكثير من عاديات الأمراض عنهم ؛ فأكبر الظن أن الفلاح مُشْوَلٌ ، فى قضاء حاجته ، إلى الخلاء . مؤثرٌ الاستحمامَ فى الترعة أو الجعفر الصغير إذا طَلَب ، يوماً ما ، الاستحمام . وهكذا !

إذاً ، لا بدّ من أن يقترن هذا الاصلاحُ المادىُّ بالإصلاح النفسى ، الذى يرمى إلى ترسيخ الاعتقاد فى نفس الفلاح والعامل جميعاً بأن هذا الإصلاح الذى يراد له أمرٌ نافع جداً ، لا بد منه ، ولا محيص عنه لمن يريد الحياة السعيدة ، ولو بمقدار ، الحياة الخالصة من التعاسة والأسقام والأكدار ، ولو بمقدار .

هذا الإصلاح الذى يَطبع الفلاحَ والعاملَ على إدراك ما ينفعه وما يضره ، ويستكرهه استكراهاً ، بدافع من نفسه لا بقوة خارجية ، على ترك ما ألف من مكروه العادات ، ولو كان هذا الإلف إرثاً منحدراً من ألوف السنين .

وأخيراً هذا الإصلاح الذى يشعر الفلاح والعامل أوفى الشعور أنه عضو ، بكل معنى الكلمة ، فى هذا المجتمع ، لا خير له إلا فى خيره ، ولا سعادة لشخصه إلا بسعادته . يشعره أنه عضو حقاً فى هذا المجتمع ، ويملأ قلبه إيماناً بأن عضواً من الأعضاء لا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كان البدن معتلاً سقيماً .

فإذا جرى هذا الاصلاح فى طريقه ، وسلك من النفوس مسالكه ، فحينئذ لا يُخشى أن يقاوم الفلاح أو العامل ما يراد لمعيشته من حماية وترقية وإسعاد . بل لا يُخشى أن يحتل على هذا أو يتثاقل عن الاستجابة لدعوة العاملين الصالحين . بل إنه لَيُرجَى ، حينئذ ، أن يطلب الاصلاح جاهداً إذا أبطأت عنه وسائله . وإنه ليعين على تحقيقه بكل ما يمتد إليه عزمه . بل إنه ليوجه السعى فى الحياة ، أو يوجه صدراً عظيماً من السعى فى الحياة إلى ما يُجدى المجموعَ لشدة إيمانه بأنه جزء متصل تمام الاتصال بهذا المجموع ، وأن كل خير يصيب هذا المجموعَ هو خير له ، ولو لم يعد على شخصه ، من الجهة المادية ، بكثير ولا قليل !

* * *

وبعد ، فلقد يأخذك أشدُّ العجب إذ ترى بلادنا ، والحمد لله على السراء ، سبّاقة إلى اقتباس أحسن النظم فى أكثر مرافق الحياة ، وسنّ أحكم القوانين وأدق (اللوائح) ، ووضع أجلّ المشروعات فى مختلف نواحى الاصلاح ، مما من حقه أن يكفل لنا الأمن ، والدعة ، والرغد ، والغنى ، ورفع المستوى العلمىّ والثقافىّ ، وتحريك الأيدى المغلّقة ، ومنع التشرد والتسوّل الخ الخ مما لا تطمع أمة على ظهر الأرض فى مزيد عليه ، أو تتطلع إلى سعادة تتراءى وراءه ؛ ومع ذلك فنحن نحن ، والحمد لله على الضراء ، لا نكاد نتزحزح فى شىء أو نَريم .

سِرّ هذا ، فى مذهب الأستاذ دياب ، أن الاصلاح لا يجدى إلا إذا تهيأت لتقبُّله النفوس بحيث يتلقاه الجمهور راضياً مغتبطاً .

وهذا حق لا ريب فيه . على أن هناك علة جوهرية تتقدم هذه العلة ، وهى التى أحبس عليها بقيةَ الكلام ، وهذه العلة هى أن الخمسين أو الستين عاماً التى عشناها محرومين السلطان ، ممنوعين من الاضطلاع بالعظائم ، مُقالين ، بالضرورة ، من احتمال التبعات — هذه السنون الطوال التى عشناها فينا آياً أضعفت فينا الشعورَ الحقَّ بالواجب إلى حد كبير !

نعم ، لقد أضعفت فينا هذه السنون الشعورَ الحقَّ بالواجب إلى حد أن أصبح العامل منا إذا عمل ، سواء فى الأسباب العامة أو الخاصة ، لا يكاد يشعر بأنه يؤدى واجباً ؛ وإنما يسوقه إلى علاج ما يعالج خوفُ المسئولية ، وحسبان العواقب المادية . وكذلك جعل سعينا يتحول إلى الأشكال والأوضاع ، ما دامت هذه الحيا كل تُسقِط عن المرء التكاليف ؛ أما اجتماعُ النفس ، وحشدُ العزم ، وتجريد الهمة لادراك الأغراض ، وإصابة الأهداف التى شرع لها الثقف ما شرع ، وأعدّ لها المصلح ما أعدّ ، فلقد صرنا من ذلك أبعد ما نكون .

الأمر كله لا يعدو عندنا ، مع الأسف العظيم ، ملء الاستمارة ، أو سدّ (الخانة) ، أو (تخليص القلم) كما يقولون ، وعلى ذلك يستحيل كثيرٌ مما نُعِدّ من وسائل الاصلاح هيا كل لا يدب فيها شىء من الحياة ؛ ولأضرب لك ، يا سيدى القارئ ، بعض الأمثال ، لا أعدو فيها ما يقع لسمعك وبصرك فى كلّ صباح وفى كل مساء .

تصدر الأوامر (المشدّدة) إلى رجال البوليس بمنع التسوّل فى الطرق ، وكفّ الغلمان المشرّدين من حاملى الأعقاب ونحوهم ، فإذا الشرط يجدون ويجهدون ، حتى تكاد تشعر بأن القاهرة مثلاً قد خلت من كلّ متشرد أو شحاذ . وقد تظل على هذا الشعور ثلاثة أيام ، وقد تظل كذلك أسبوعاً . ثم إذا المتسولون والمتشردون يظهرون لعينيك رويداً رويداً ، فلا يمضى أسبوع آخر حتى ترى الطرق تزخر بهم ، وهم يقومون بمهمتهم (الشريفة) بعين جندى البوليس .

ذلك بأن رئيسه كان يشدّد عليه ، ويطالبه الحين بعد الحين ، فلما فتر عنه فتر هو الآخر عن الآخرين .

يقضى النظام الحكومي بأن يحضر الموظفون إلى مكاتبهم فى وقت معيّن ، وأن لا ينصرفوا عنها إلا فى وقت معيّن ، بحيث يجزى من تأخر من الأول ، ومن تقدم على الثانى ، وقد تضبطهم بدفتر أو (ساعة) ترقم وقت حضورهم مثلا ، وذلك رغبة فى سرعة انجاز ماتعالجه المصالح من وجوه الأعمال ، وإنهم لينفذون هذا النظام راضين أو كارهين ؛ ولكنك ، مع هذا ، تجد المسألة ليس من شأنها أن تشغل من وقت الموظف ساعة أو بعض الساعة ، تلبث بين يديه الأيام ، بل الأسابيع ، بل الشهور فى بعض الأحيان ، وكذلك تعوّق المصالح العامة ، وكذلك تتعطل مصالح الناس .

ذلك بأننا نحضر فى الميعاد ، وننصرف كذلك فى الميعاد . ألسنا قد خرجنا من العُهدة ، وأمنّا حتى سوء المقال ؟

ولقد يكون بعض الموظفين مرهقين بكثرة مايعالجون من الأعمال ، ولكنهم ليسوا كثرة على كل حال .

وقس على هذين المثلين ما تهيأ لك القياس . على أنى لا أحب أن أدع الكلام فى هذا المقام قبل أن أضرب مثلاً ثالثاً قد يجهله كثير من القراء . ولعل فيه ما يروّح عنهم بعد ذلك الحديث الأليم ، وإن كان هو أيضاً لا يخلو من العظة والاعتبار !

زعموا أنه فى عهد (السلطة) صدرت الأوامر إلى (رجال الادارة) بمصادرة جميع الأسلحة التى يحرزها الأهلون ، فجعل حضرات (رجال الادارة) وعلى رؤوسهم حضرات مأمورى المراكز يتبارون فى تنفيذ هذا الأمر ، استباقاً إلى إدراك الحظوة ، وتبوء منزلة الرضا عند من فى يدهم السلطان .

ويسمع هذا المأمور أن زميله فلاناً جمع من بلاد مركزه خمسة آلاف (بندقية) فى خلال الشهر ، فيأبى هو إلا أن يجمع ستة آلاف ، وهكذا ويستحر التنافس بين (حضرات المأمورين) فى جمع (البنادق) حتى أقبلوا على (العمد والأعيان) يكلفونهم الهبوط إلى القاهرة لشراء كل ما يتيسر لهم شراؤه من الأسلحة القديمة فى (سوق السلاح) !!

وأخيراً عزَّ على أحدهم ألا يعزّهم جميعاً ، ويظفر دونهم من الحظوة بأعلى مكان ، فحشر إليه كل النجارين والحدادين فى مركزه ، وكان فى الوجه القبلى . وتقدم إليهم بأن يتفرغوا من كل ما بأيديهم إلى صنع (بنادق) لا تزيد على كعوب وأنابيب ، وشىء يشبه الزناد ، وكذلك تم له أن (يورّد) فى خلال عام وبعض العام نحو مائة ألف بندقية مصادرة من الأهلين !!

ويشاء الله أن يرقى هذا المأمور ، فى إثر ذلك ، إلى منصب وكيل مديرية ، وما شاء الله كان !

* * *

وبعد فأعزز علىّ أن أجلو من نفوسنا هذه الخلال ؛ وما بى ، شهد الله ، إلا أن نتفطن إلى أمراضنا لنسعفها بالدواء الناجع إن شاء الله . ولله در القائل : « أمرّ مبكياتك لا أمرّ مضحكاتك » ، فإن من أبكاك اليوم أضحكك فى الغد ، وإن من يضحكك اليوم ليبكيك طول الأبد .

على أنى لست اليوم متشائماً ، بل إنى لمتفائل ، والشكر لله ، أعظم التفاؤل ؛ متفائل لأننا أنشأنا ندرك واجبنا ، ونعهد لألوان التبعات عواتقنا من يوم صار إلينا السلطان فى بلادنا . متفائل لأننا جعلنا ندرك ما فاتنا فى تلك السنين الطوال ، فرحنا نستدركه فى قوة وعزم ، أرجو لها مزيداً على الأيام .

متفائل لأننا الآن ، ولا ريب ، فى نهضة ترسل الحياة دراكاً فى جميع نواحى الحياة . وحسبنا أن كنا إذا سيق الشاب من أبنائنا إلى الجندية ، شيعته أمه وأخواته ، وعماته وخالاته ، كما يشيّع أعز الموتى ، وماذا بعد النواح والعويل ، ولطم الخدود وشق الجيوب . حيث لا حرب ولا قتال ،

(البقية فى الصفحة التالية)

من الأدب الأوربي :

مأساة العقـــل

في قصة (يوليوس قيصر)

للشاعر الإنجليزي الكبير شكسبير

— ٢ —

يبدأ الجزء الثاني من قصة « يوليوس قيصر » بمنظر فيه مناقشة عميقة ، تدل على ذلك الاتجاه الذي ذكرناه في حديثنا عن الجزء الأول من القصة ، ذلك الاتجاه الواضح إلى التحليل والتعمق ، وإلى إبراز قوة العقل وتحليل أحكامه ، وإلى إظهار سلطان العقل وأثره في مآسي الحياة .

وأما المنظر فهو : تم الاتفاق بين كاسيوس وبروتس على الاشتراك في مؤامرة واسعة النطاق، على قيصر قبل أن يتمكن من إحداث الانقلاب في الحكم والانفراد بالسيادة في رومة .

وذهب كاسيوس في جماعة من صحبه وشركائه في المؤامرة إلى بيت بروتس فلقيهم مرحباً ، وأعلن لهم أنه قد صار منهم ، وأنه قد رضي بقتل قيصر معهم ، مضحياً في سبيل ذلك بصديقه العزيز الذي طالما أكرمه وأحسن إليه . وأنه يقبل هذه التضحية في سبيل إنقاذ الوطن من طغيانه .

وسأله المتآمرون عند ذلك أن يقسم لهم قسماً يجعلونه موثقاً لهم ؛ ولكن بروتس الحكيم الواثق بشرف نفسه أجابهم قائلا : إن التثبت بالأيمان غير جدير بالشجعان والأشراف ، وفيه إهانة لأولى العقول الحكيمة الذين يهتدون بهديها ويسيرون على أحكامها .

فقبل الشركاء أن يعفوه من القسم ، وأخذوا في رسم تفاصيل المؤامرة والاتفاق على من ينوون قتله مع قيصر ؛ فاقترح أحدهم أن يقتل أنطون معه ، فقال بروتس : « سوف نغدو بغاة قتل وسفك إن قتلنا في يومنا غير قيصر ، سوف نغدو كمن أطاح برأس ثم قدّ الأعضاء عضواً فعضواً ، إنما نحن ثائرون حفاظاً ، لم يكن كرهنا لقيصر حقداً ، إن أنطون لم يكن غير عضو من شوى قيصر ، فلا تقسوه . نحن قوم لا نطلب القتل بغياً ، بل نؤدي في قتلنا قرباناً ، إنما قصدنا نضال لمعنى وقتال لروح طغيان قيصر ؛ فدعوا القتل والدماء ، فلسنا في نضال الأرواح نبغي دماءً . ليت روح الجبار قيصر كانت دون أعضائه ، وكنا استطعنا نزعها عنه لم نصب منه عضواً » الخ الخ .

ولا توقّع حرب ولا قتال ؛ إن هو إلا تدريبٌ عسكريّ لاستعراض في هذا المهرجان أو ذلك المهرجان ؟ أما اليوم والسيوف مسلولة وأفواه المدافع مفغورة . والموت يتخطف بلا حساب من البر والبحر والهواء ، فهؤلاء شبابنا ، بل هؤلاء كهولنا يتبارون جاهدين في إدراك الشرف بحمل السلاح ، فإذا شيعهم أهلوهم فكما تزف العروس ، وماذا بعد أرن (الزغردة) وأحلى الغناء ؟

نحن في نهضة قومية جليلة ، أرجو أن تجدي علينا ، أول ما تجدي ، قوة شعورنا بالواجب ، ومسارعتنا ، بباعث من أنفسنا ، إلى القيام به لأنه الواجب ، لا طمعاً في ثواب ، ولا خوفاً من عقاب . وأن يكون ذلك الفتح في القريب جداً إن شاء الله .

عبد العزيز البشري

ويمضى بروتس فى قوله يورد المعانى الدقيقة ، ويتعمق فى تحليل الدوافع التى تسوقه إلى عداوة قيصر ، ويحيط لأصحابه قناعاً بعد قناع عن فلسفته المالية ، حتى قرع حججهم وصرفهم عن التفكير فى قتل أحد غير الرجل الذى يقصدونه وحده لتخليص الجمهورية من طغيانه ؛ فى هذا المنظر استطاع شكسبير مرة أخرى أن يظهر سلطان العقل وتغلبه على قوة الإلهام ، كما أنه فى تحليله الدقيق بيّن كيف تنطوى الحجة العقلية القوية فى كثير من الأحيان على مغالطات وسفسطة منشؤها المبالغة فى الاعتداد بقوة العقل وجعله الأساس الأول فى السلوك فى الحياة .

وأصبح الصباح بعد تلك الليلة وكان ميعاداً لاجتماع عظيم فى دار مجلس الشيوخ فى (الكابتول) . وبكر الشعب فازدحم فى الطريق المؤدية إلى الساحة الفسيحة المقابلة لتلك الدار ؛ واتفق بروتس وأصحابه على أن يذهبوا إلى الاجتماع ويجتمعوا جميعاً حول قيصر إذا أتى ، ليبدأوا إنفاذ خطتهم عند إشارة اتفقوا عليها .

وكان قيصر فى ذلك الصباح يحس شيئاً من الاضطراب ، وكانت الليلة الغابرة ليلة عاصفة ذات رعد وبرق ، وكانت زوجته (كالبورنيا) أشد منه اضطراباً وقلقاً ، فقد قضت تلك الليلة بين أحلام مزعجة ، وزادها خوفاً ما سمعت من حوادث تلك الليلة ، إذ قيل إنه قد رؤيت لبؤة يعركها المخاض فى الطريق ، وإنه قد انشقت القبور وأخرجت موتاها ، وإنه قد شوهدت فوق السحب جنود تتحارب وتسيل الدماء فوق الكابتول ، وإنه قد سمع صهيل أفراسها وأنين قتلاها ، كما سمع صراخ من الجان والأشباح فى طرقات المدينة .

وحاولت (كالبورنيا) أن تمنع قيصر من الخروج فى ذلك الصباح لشهود الاحتفال ؛ فمانع ودافع وقال فى رده على مخاوفها : « ويك إنما الجبان يلقى حتوفاً ، ويذوق الشجاع موتاً وحيداً ، إن من أعجب العجائب عندى أن يخاف الرجال ، فالموت حق ، سوف يلقاه كل حى إذا ما جاءه يومه » الخ .

وألحت كالبورنيا مع ذلك عليه ، وعادت تسأله ألاّ يبرح ، وجثت على ركبتيها تتوسل إليه فى ذلك حتى مال إلى طاعتها وعول على البقاء فى منزله . وكان المتآمرون يخشون أن يتخلف قيصر عن الحضور فيفسد ما دبروه ، فبعثوا أحدهم رسولاً إليه ليحمله على الخروج إذا رأى منه تردداً أو امتناعاً ، وذهب ذلك الرسول إلى قيصر ، فعلم أنه يريد الامتناع عن شهود الاجتماع ، ودارت بينهما مناقشة طويلة حاول فيها جهده أن يحمله على الخروج بكل ما استطاع من حجة ومن حيلة ، ثم جاءت جماعة أخرى من المتآمرين إلى قيصر عندما رأوا أن رسولهم قد أطال المكث عنده ، فرحب بهم قيصر وسقاهم من الخمر ، واضطر إلى أن يقاوم رغبة زوجته ويخرج معهم .

ثم بدأ الاحتفال ، وقد تعمد المتآمرون أن يحيطوا بقيصر ، وأن يبعدوا عنه صديقه الشجاع أنطون ؛ فتقدم أحدهم يطلب من قيصر أن يتفضل عليه بإرجاع أخيه من النفى ، فأجابه قيصر رافضاً فى شىء من الجفاء ، فتقدم بروتس ليشفع للرجل فى أخيه ، فلم تجد شفاعته ، وتبعه كاسيوس راجياً ، فلم يلن قيصر ، بل رد عليه رداً شديداً ينم عن الكراهة التى كانت فى قلبه نحوه ، قال :

« دع رجائى فلست مثلك نفساً . أنا لو كنت أستطيع رجاءً وخشوعاً لكنت أقبل ممن جاءنى خاشعاً يلين فؤادى . لست هذا فإن قلبى ثبيت ، مثل نجم الشمال ، يبقى مقيماً مستقراً بين النجوم فريداً ، لا يدانيه فى السماء قرين » الخ .

فتقدم آخرون يشفعون ، وقيصر يردهم واحداً بعد واحد ، وفيما هو كذلك وثب كاسكا أحدهم ، فطعنه فى رقبته . فحاول أن يدافع عن نفسه ، فأسرع الشركاء إليه فأخذوه بسلاحهم ، وأقبل عليه بروتس فطعنه . وما كاد قيصر يرى بروتس صديقه العزيز يرفع يده إليه بالسيف ،

حتى وضع ثوبه على رأسه ، واستسلم قائلا : « وأنت أيضاً يا بروتس ؟ إذاً فمت يا قيصر » ، ووقع على الأرض صريعاً .

ذعر الناس عندما رأوا قتل قيصر أو سمعوا به ، وهربوا سراعاً كأنهم حيال نكبة من نكبات الطبيعة ، وانتهز المتآمرون هذه الفرصة ليقبضوا على زمام الأمور ، وكان أكبر من يخافون من أصدقاء قيصر هو أنطون ، غير أنه تظاهر بالإذعان وأرسل إليهم يطلب منهم أن يبينوا له السبب الذي قتلوا من أجله قيصر ، فإذا هم أقنعوه به انضم إليهم وأقر عملهم . فأرسل بروتس إليه طالباً أن يلقاه ليتحدث معه في الأمر ، فجاء أنطون يسعى إليه وأوهمه بعد حديث قصير أنه قد اقتنع بما ظهر له من الحجة ، وأنه اقتنع بأن قتل قيصر إنما كان قصاصاً عادلاً عن طموحه إلى الملك والطغيان . ثم استأذنه في أن يشترك في جنازة قيصر وأن يسمح له بأن يقول كلمة رثاء ، ليؤدي بذلك حقاً من حقوق الصداقة نحو صديقه الحميم . فسمح له بروتس بذلك على شرط ألا يتكلم إلا بعد أن يهدأ روع الناس ، وأن يقول في أول حديثه قولا صريحاً يدل على أنه إنما يتكلم بإذن من بروتس وأصحابه .

وأسرع بروتس إلى الساحة الكبرى مع صاحبه كاسيوس ليخطبا في الناس ويبينا لهم القصد الشريف الذي من أجله أقدما هما وأصحابهما على قتل قيصر ، وأنهم لم يرتكبوا جناية شخصية ، بل ضحوا بصديق عزيز حرصاً على حرية رومة . وما أسرع ما أثر قولهم في عقول العامة ! وجعل الشعب يهتف لبروتس ويحمد ما أتاه هو وأصحابه . فلما اطمأن بروتس إلى ذلك ، طلب من الجموع المحتشدة أن تبقى حيث هي لتسمع ما يريد أنطون أن يقوله في رثاء صديقه القتيل ، مظهراً بذلك أنه رجل عالي النفس لا يحمل حقداً لقيصر ، وإن كان قد غضب عليه وقتله من أجل الحرية العامة ومصلحة الوطن . ثم انصرف تاركاً الميدان لأنطون والجمهور الصاخب من حوله .

صعد أنطون المنبر وبدأ كلامه ، والناس متحفزون له يترقبون منه كلمة سوء تبدر ، أو فلتة لسان تفلت لكي يرجموه ويوقعوا به ، ولكنه بدأ يتكلم محترساً ، ويتحاشى أن يصدم مشاعر الجمهور بكلمة واحدة . بل خاطبهم خطاباً ليناً ، وتملقهم ملقاً خفياً ، فإذا جاء ذكر بروتس وأصحابه لم يقل إلا أحسن الثناء ، يلف فيه بين حين وآخر طعنة خفية أو إشارة نقد دقيقة ، ثم اتجه إلى قيصر فأثار ذكريات حسناته ، وبالغ في تصوير ميوله للشعب وخدمته له ، حتى استدرج السامعين بغير أن يشعروا إلى الرقة والحزن على قيصر ، واستدر دموعهم وأثار حفيظتهم ؛ فلما رأى أنه قد بلغ من ذلك ما يطمئن إليه ، خلع الستار ونادى باتهام القتلة ، واستثار الجمهور للانتقام منهم ، وأشعلها فتنة هوجاء مدمرة . وهذه الخطبة كما قدمنا من تأليف الشاعر ، لم ينقلها عن تاريخ ، وإنما استوحاها عقله القوي وخياله الفسيح ، وإلهامه الفطري الموفق . قال أنطون في خطبته :

« أي صحابي ، أبناء روما ، وإخواني ، أعيروا أسماعكم لحديثي ، لست آتي أسوغ قيصر مدحاً ، بل لأسجى مثيّماً أرثاه . إنما تخلد الذنوب وتبقى بعد من خلفها ، على حين تثوى حسنات الماضين بين القبور . فليكن حظ قيصر مثل هذا . قد حدثتم بروت — وهو كريم — قال يا قوم إن قيصر طاغ ، ولئن كان ما يقول صحيحاً ، كان لا شك فيه وزر كبير . ولقد ناله جزاء أليم ، فلندع ذكر ذلك — إني مدين لبروت وصحبه إذ أجازوا أن أقوم الغداة أرثي صديق . فبروت كما علمتم كريم وذووه كما عرفتم كرام . قيصر كان لي صديقاً وفياً — لا ، ولكن بروت يتهم منه أنه طامع حريص ، وأنتم قد عرفتم بروت شهماً نبيلاً . قيصر قد أتى بأسرى كثار ،

وجيئاً فداهم أموالاً ملأت بالغنى خزائن رومة . أبهذا ترون قيصر يطمع ؟ كان والحق إذ يصيح فقير يذرف الدمع رأفة ، ولعمرى إنَّ قلب الطغاة ذات صليب . غير أنى أقول هذا وأنتم قد سمعتم بروت وهو كريم قال : قد كان قيصر طامحاً — أرأيتم تلك الغداة وأنا يوم عيد الربيع ؟ إذ قد شهدتم كيف قدمت نحوه التاج ، أرجو لو تلقاه بالقبول ثلاثاً ، فأباه . أكان ذلك حرصاً ؟ لا ولكن بروت قد قال فيه إنه طامع — ولا شك فيه — فبروت كما علمتم شريف ، ولئن قلت ما علمت فإنى لست فيه مكذباً لبروت . أيها النـاس ، كان قيصر فيكم فى ثنايا القلوب وهو جدير ، فلماذا أرى العيون صلاداً جامدات ، وفيم هذا الجفاء ؟ لاه : قد أصبح الرجال سواماً منذ طارت أحلامهم ، وكأنى بوحوش الفلاة أرجح عقلاً .

« أى رفاق لاتعذلونى ، وعفواً إن تعديت فى المقال ، فإنى ضاع لبى وضل منى فؤادى ، فهذا عند نعش قيصر رهناً ، فدعونى حتى ألاقى فؤادى . أنظرونى حتى يعود جنانى » .

ووقف أنطون عند ذلك لحظة رأى فيها وسمع ما دله على أن الشعب قد بدأ ينظر إليه فى عطف ورقة ، وأنه مستعد لأن يسمع رثاء قيصر ويسخط على قتله ؛ فاستأنف قائلا : « كان بالأمس قيصر وإليه يخضع العالمون إن قال حرفاً ، ثم أضحى معفراً يتجافى عنه كل امرئ علواً وكبراً . أيها الأكرمون لست أرجّى أن تثوروا لما أقول ، فإنى لست أرضى بما يضر بروتا ، لا ولا أرتضى لكاسيوس سوءاً ، فهمُ مثلما علمتم كرام . لست أرضى لهم أذى ، ولخير ظلم نفسى وظلمكم ؛ بل لخير أن أسىء الأموات ، من أن يلاق هؤلاء الكرام أمراً كريهاً . أى رفاق ، لقد وجدت كتاباً بين ما كان فى خزائن قيصر . هذه رقعة بما كان أوصى ، فوقها خاتم

التقييد ، ولكن لست أستطيع ذكر ما جاء فيها . إن فيها ما لو عرفتم لقمتم ولثمتم جراح قيصر حباً ، وغمستم ثيابكم فى دماه ، أو ظفرتم بشعرة منه ذكرى ، ثم من مات بعد ذلك أوصى لبنيه بها تراثاً جليلاً » .

فصاح عند ذلك أحد السامعين والشعب ينصت :

« ما الذى جاء فى وصية قيصر ، قل وأظهر لنا وصية قيصر » .

فقال أنطون متردداً :

« أى رفاق الكرام ! صبراً . دعونى ، ليس لى أن أقول ما جاء فيها . ليس لى أن أقول أى وداد كان فى قلب قيصر مكنوناً ، ليس فيكم غلاظة أو جحود — لا — ولستم حجارة لا تحس . إنكم أهل نخوة وحفاظ ، ولئن قلت كيف أوصى إليكم باذلاً ماله ، إذا قلت هذا ، لعصفتم وحل منكم بلاء » .

فصاح به الشعب من كل جانب يطلب قراءة الوصية ، وهو يتمنع ويرفض ، حتى رأى أنه قد بلغ بسامعيه حالة يأمن معها أن ينزع الغطاء الرقيق الذى كان يتستر به ، فقال فى قوة وتأثر :

« إن يكن فى العيون دمع فهيئا واسكبوه ، فالآن حق البكاء »

ثم استمر يندب قيصر ، ويستفز الشعب جهاراً إلى الثورة ، حتى هاج وصاحت جموعه قائلة : « الانتقام . هيا اقتلوا الخونة ، ولا تدعوا واحداً منهم حياً » .

وما هو إلا قليل حتى كانت الجموع الهائجة تجوس خلال طرقات رومة ، وتنشر فيها الفوضى وتسيل الدماء ، وتنادى بالويل والثبور لبروتس وأصحابه .

وهكذا استطاع شكسبير أن يصور فى هذه الحوادث صورة خالدة لذلك الصراع بين العقول والميول ؛ أو بقول آخر بين العقل والعاطفة ، ثم أظهر أن هداية العقل ،

والمثل العليا ليست دائماً هي السبل المؤدية إلى النجاح في هذه الحياة ، وأن العقل لم يوهب العصمة بل يتعرض للأغلاط ، وهو في كل حال لا يستطيع أن يغالب الأقدار .

بعد ذلك التحول العظيم في ميول الشعب ، اضطر بروتس وأصحابه للخروج من رومة الساخطة ، وانقسمت الدولة الرومانية إلى جيشين متطاحنين ، أحدهما مع بروتس وأصحابه ، والآخر مع أنطون ، وقد انضم له أكتاف قريب قيصر وولى دمه .

ودارت رحى الحرب بين الجيشين ، وكانت حرباً هائلة .

وقد ختم شكسبير قصته الرائعة بصورة فيها تحليل آخر لا يقل في عمقه وقوته عن ذلك التحليل الأول الذى تحدثنا عنه ، فهو قد أظهر أن العقول القوية يتجه كل منها في اتجاهه . فكل منها له آراؤه الخاصة وله نظراته التى يمتاز بها ولا يحب أحدها أن يفنى في سواه أو يكون تابعاً لغيره . على حين أن العقل القوى إذا انفرد بين الدهماء أسلمت الجماهير له قيادها ، وألانت له عنانها ، واتجهت معه حيث أراد . فصور بروتس وكاسيوس في شقاق دائم ونزاع متصل ، كل منهما يعبد مبدأه ويقدس آراءه ، ويغضب أشد الغضب إذا نزل صاحبه عن المستوى العالى الذى التقيا عنده ، وهما فوق ذلك يختلفان على كل معنى وفى كل موضع ؛ فيختلفان على طريقة الحكم وعلى خطة السير وعلى موضع المعركة وعلى طريقة الحرب . لأن كلا منهما يعبد عقله ، ولا يرضى بأن يتبع إلا ما يراه ، وإن اتبع غيره كان مرغماً لا يتحمس ولا يرضى بل يملأ قلبه باليأس والسخط . وصور أنطون وأكتاف من جهة أخرى طالبى ثأر يملؤهما الحرص على الانتقام والتطلع إلى الحكم ، ولا يتردد أحدهما في الاتفاق مع الآخر على قسمة الأسلاب واستخدام الدهماء للوصول إلى غايتهما ما دام كل منهما قد رضى بنصيبه وأرضى صاحبه .

وقف بروتس يناقش كاسيوس قبيل المعركة الفاصلة بينهما وبين منافسيهما ، فقال له مغاضباً وقد اتهمه بالاستيلاء على بعض الأموال العامة :

« ويك لا تنس يوم مارس يوماً ، إذ قضى قيصر العظيم قتيلا ، أوجب الحق قتله ؛ أى نذل كان يرضى بطعن قيصر إلا أن دعا الحق ؟ هل فتكنا بفحل ، بعظيم الأنام ، إذ قد رأينا منه نصراً للظلم ، كى نندق لأخس الرشى ، ونرضى بديلاً من فخار ورفعة بحطام من متاع الحياة ؟ بئس متاع ! إن خيراً لدى كلب خسيس ينبح النجم جاهلاً ، من دنىء من بنى الروم إن أتى مثل هذا » .

وكانت مثل هذه المواقف العاصفة بين الزعيمين الثائرين تنتهى بالمصالحة والموادعة ، ولكنها كانت تترك في نفس كل منهما أثراً عميقاً من ندم على ما أقدما عليه أو يأس من النجاح فيما هما مقبلان عليه .

حتى لقد تجسمت تلك الهواجس في نفس بروتس ، وتمثلت له شبحاً ظهر له مرة قبل المعركة ، وقال له :

« إنى روح الشر لك يا بروتس » .

ثم أردف : « ولقد جئت لأخبرك أنك سوف تراني عند فلبى » ، وما فلبى إلا ذلك المكان الذى اتفق الشريكان ، على أن يجعلاه ميداناً للمعركة الحاسمة بينهما وبين منافسيهما .

وأخيراً جاء يوم المعركة الكبرى وأقبل بروتس وكاسيوس إلى الميدان ، وفى نفسيهما ذلك اليأس الكامن إذ قال كاسيوس لصاحبه :

« أترى لو جرى القضاء علينا بانهزام ، نرضى لنا بالهوان ؟ أترانا نسير في موكب النصر أسيرين في ركاب عدانا ؟ » .

فقال بروتس : « أى صديق كاسيوس ! لا تحسبنى أرتضى عودة لرومة عبداً في قيود الهوان . لا . إن عقلى

فوق هذا المكان قدراً وأسمى . سوف يمضى هذا النهار ختاماً لقتال خضناه منذ قتلنا قيصراً فى الربيع فى يوم مارس ».

وبعد حديث طويل قال كاسيوس يرد عليه :

« أى صـديقى ، الوداع خير وداع ! وإذا كان فى القضاء لقاء ، فلنلتقى باسمين حقاً ، وإلا فعزائى أنا افترقنا كراماً » .

فقال بروتس ، وهو يفكر على عادته ذلك التفكير القلق المادى ، الذى ينم عما فى نفسه من الألم العميق :

« سر أمامى إذاً ، ألا ليت شعرى ، ما الذى يخبىء القضاء ؟ ولكن حسبنا أنه سيبدو وشيكاً . سوف يمضى النهار حتماً ، وإذا سوف ندرى ماذا يكون القضاء » .

وهكذا بدأت الحرب فى ذلك اليوم الحاسم ، وهكذا أحس العقل أخيراً أنه قد عجز ، وأن فوقه قوة لا يستطيع أن يدركها ، وأن دونه حُجُباً لا يستطيع النفوذ فيها ، ولا الاحتيال معها .

ودارت الدائرة على بروتس وأصحابه ! ولما أحس كاسيوس بالهزيمة نادى عبداً له اسمه (بندارس) ، وأعطاه سيفاً ، أمره أن يطعنه به ، وكان ذلك السيف هو الذى طعن به قيصر . ومات وهو يقول :

« قيصر اهدأ — قد نلت ثأرك منى — بالسلاح الذى أصاب فؤادك » .

ولما علم بروتس بموت صديقه وشريكه قال :

« قيصر الجد ، لا تزال عظيماً . أنت هذا تسير فى الأرض روحاً ، وترد السيوف نحو حشانا » .

ثم وقف يرثى صديقه كاسيوس رثاء حاراً جاء فيه :

« أنت يا آخر الكرام ، وداعاً يا ابن روما ، هيهات تنجب روما أبد الدهر من بنيها قرينك » .

وما زال يقاتل بعد ذلك حتى رأى أن الأمل قد زال ، وأن الهزيمة قد تمت ، فطلب من بعض من حوله أن يساعده على الموت ، ومات وهو يقول :

« اهدأ الآن روح قيصر ، إن لم تكن طعنتى لقلبك أرضى لفؤادى من طعنتى اليوم قلبى » .

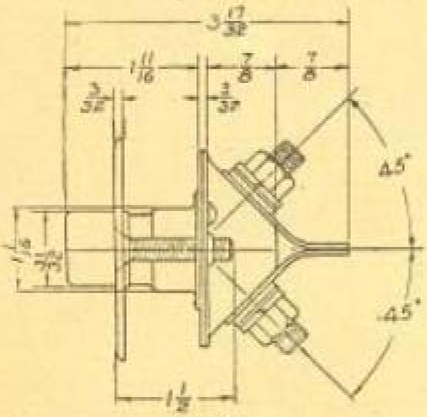
وبهذا يختم الشاعر العظيم قصته ، فيجعل العقل ينطق أخيراً مقراً بعجزه عن توجيه الأقدار ، ويحكم على نفسه ، ذلك الحكم المادى ، الذى يشعر بأن العقل يسوق بخطئه إلى مآسى الحياة مع كل احتياطه وتدبيره ، كما تسوق إليها العاطفة الهوجاء مع تهورها وطيشها .

بل إن العقل ليعجز بغير خطأ منه عن أن يكون الهادى الأوحد أو الأرشد فى هذه الحياة .

محمد فريد أبو حديد

صناعة كليشيهات الطباعة

تقدمت الطباعة فى العصر الحاضر تقدماً محسوساً ، يظهر أثره فى الصحف والمجلات والاعلانات والكتب ، وأصبحت طباعة أدق الصور والكتابة اليدوية والرسوم ، سهلة ميسورة ، ونشأت من ذلك صناعة فنية مهمة ، هى إعداد رقائق الطباعة المعروفة باسم « الكليشيهات » . والعامل الأصيل فى هذه الصناعة هو التصوير الفوتوغرافى والحفر الكيميائى . وفيما يلى بيان بالخطوات التى يمر بها إعداد الكليشيهات الخطية ، (أى كتابة اليد ، والرسوم المكونة من خطوط فقط ، شكل ١) .



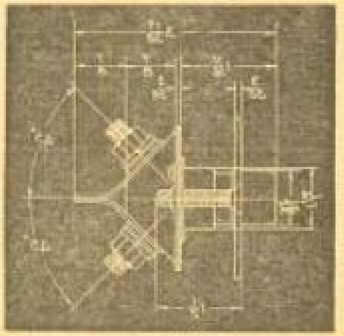
(شكل ١)

يُعد اللوح الزجاجى الذى ستطبع عليه صورة الكتابة أو الرسم المدوّن ، بشرط أن يكون سليماً خالياً من الفقاقيع الهوائية ، مستوى السطح تماماً ، ثم تُجرى عليه عملية تنظيف كيميائية دقيقة ، وبعد ذلك يدهن بقطعة من القطن ، مشبعة زلال البيض الذاب فى مزيج من الماء والنوشادر ، وذلك لتغطيته بطبقة تعرف باسم Substratum الغرض منها تثبيت الكلوديون الذى سيلى وضعه عليه ، ثم يجفف اللوح الزجاجى ، وينقل إلى حجرة مضاءة بضوء برتقالى أو أصفر ، لا يؤثر فيه بعد أن يكتسب الحساسية ، عند وضعه فيما بعد فى حمام نترات الفضة ، ثم يُغطى بطبقة من مادتى الكلوديون Collodion والأيودزر Iodizer ؛ فلما يتبخر منهما الكحول والأثير ، تظهر على اللوح طبقة رقيقة شفافة فوق سطح الزجاج ، مكونة من أملاح راسبة ، مهمتها حمل المادة الحساسة التى سيكتسبها اللوح عند وضعه فى محلول نترات الفضة ، إذ ترسب فوقها مادة جديدة لبنيّة اللون ، تتحول فيما بعد إلى لبنيّة مُصفرّة ، هى الطبقة الحساسة المقصودة ، وهى تتأثر إذا عرضت للضوء الأبيض أو الأزرق ، كما سبق ذكره .

ثم يرفع اللوح ويُصفّى جيداً وينظف ظهره بورق النشاف ، ويوضع فى (شاسيه) أى إطار مغطى ومقفل ، حتى يتسنى نقله إلى خارج الحجرة المظلمة ، دون أن يتعرض للضوء ، لكى يوضع داخل آلة التصوير ، بحيث يكون الوجه الحساس ، مواجهاً لعدسة التصوير . ويكون الشكل المراد عمل الكليشيه له قد وضع أمام عدسة آلة التصوير ، ثم تضبط المسافات للحصول على التصغير أو التكبير المطلوب ، وتمد الإضاءة الكهربائية بالقدر اللازم . وتحتوى آلة التصوير المذكورة على منشور ثلاثى عاكس ، يجعل الصورة التى ستطبع على اللوح الزجاجى الحساس معدولة الوضع ، حتى إذا ما طبعت على رقيقة الزنك جاءت معكوسة . فإذا طبع من الزنك على الورق عادت الصورة معدولة كما كانت فى الشكل الطبيعى .

وعند ما تفتح العدسة ، يتعرض اللوح للضوء المدة المعينة ، وتتم عملية التصوير ، فيرد غطاء العدسة ، ويعاد الشاسيه مقفلاً إلى الحجرة المظلمة ، حيث يفتح لأخذ اللوح منه لإجراء عملية الإظهار Developing عليه ،

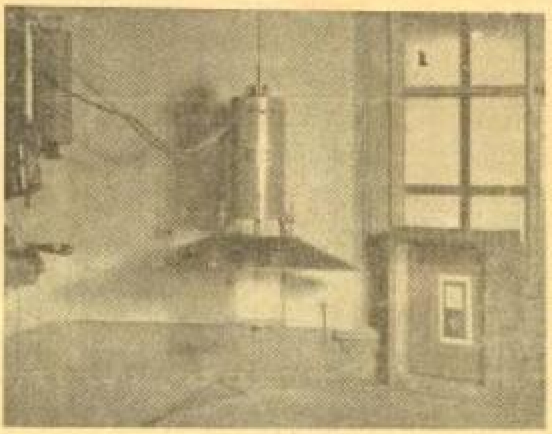
لاختزال جميع أملاح الفضة الموجودة فى طبقة الكلوديون التى تأثرت بالضوء ، وتحويلها إلى معدن الفضة ، بينما تبقى الأملاح التى لم يصلها الضوء ، ولم تتأثر به ثابتة على حالها ، فتُذاب فى محلول خاص ، وتسمى هذه العملية بالتثبيت Fixing ، وتلى ذلك عملية أخرى تسمى التكثيف Intensifying وهى تحويل لون معدن الفضة إلى لون قاتم بوساطة بعض المحاليل ، وبذلك يتم إعداد الصورة السلبية على اللوح الزجاجى (شكل ٢) فتصبح خطوط الكتابة أو الرسم شفافة ، وتصير أجزاء اللوح الزجاجى سوداء قاتمة .



(شكل ٢)

وبعد أن يجف اللوح ، يُغطى بطبقة من الورنيش الشفاف لحفظه أثناء الطباعة من الخدش والمحو ، إذا لمسته الأنامل أو غيرها .

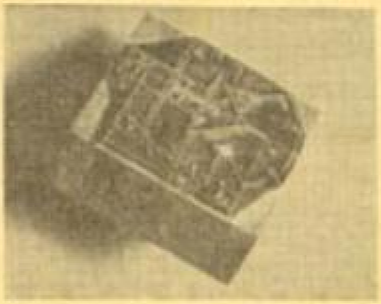
وبعد ذلك تُجهز رقيقة الزنك التى سيطبع عليها الرسم ويتراوح سمكها ما بين مليمتر ونصف ومليمترين ، ويغطى سطحها بطبقة حساسة من غراء السمك أو زلال البيض المزوجين ببعض مواد كيميائية ، ثم يوضع وجه الصورة السالبة السابق إعدادها ، على سطح الرقيقة ، ويكبسان فى إطار ذى سطح زجاجى سميك ، بحيث يكون



(شكل ٣)

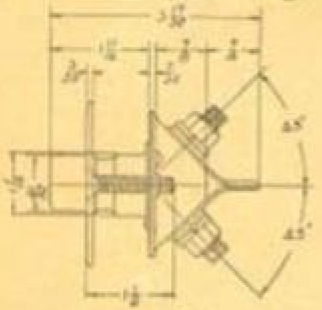
ظهر اللوح الزجاجى الحامل للصورة السلبية ، ملاصقاً لسطح الزجاجى للإطار ، ثم يعرضان للضوء (شكل ٣) لمدة تتراوح بين ٣ ، ٥ دقائق ، فتنفذ الأشعة خلال الخطوط الشفافة المكونة للشكل ، وتؤثر فى سطح الرقيقة الحساس ، وتحولها إلى مادة غير قابلة للذوبان فى الماء ؛ فإذا غسلت الرقيقة بالماء ذابت الأجزاء ، التى لم تتأثر بالضوء ، وعندئذ تغطى الرقيقة بطبقة من حبر خاص فيصبح الرسم واضحاً عليها . فإذا دُفئت فوق نار هادئة ، وغطيت خطوط الرسم بمسحوق من الأسفلت الأسود ؛ وأعيد تسخينها ، فان الأسفلت يمتزج بالحبر ويصبح الرسم مغطى بطبقة لا تتأثر بالاحماض . وإذا غُطى ظهر الرقيقة وسمكها عادة تقاوم تأثير الاحماض بعد إجراء عملية (الرتوش) المعتادة ، وغمرت الرقيقة فى حمض النيتريك المخفف ، بدأ الحفر فى الأجزاء الخالية من الرسم . وبعد نحو خمس دقائق ، تغسل الرقيقة وتجفف ، ليعاد حفرها فى حمض أكثر تركيزاً من السابق ، بعد تغطية خطوط الرسم بمادة أخرى مضادة لتأثير الحمض ، هى مسحوق دم التنين Dragons-Blood ، وهى مادة حمراء من نوع الراتينة (القلفونية) ، تحمى جوانب خطوط الرسم

والكتابة من الحفر ، إذا سخنت قليلا قبل وضع الرقيقة في الحمض ؛ وبذلك يمكن الحصول على عمق أكثر من الحالة الأولى . وقد تكرر هذه العملية مرتين أو ثلاثاً إذا اقتضى الحال ، ثم تغسل الرقيقة وتجفف ، ويمكن قص المساحات الكبيرة المحفورة بأجهزة خاصة ، حتى لا يؤدى وجودها إلى ترك علامات أو حافات تشوه الطباعة . وبعد تجربة الطباعة بالرقيقة التى انتهى عملها فيما سبق ،



(شكل ٤)

تُثبَّت على قطعة من الخشب ، وتسمّر عليها (شكل ٤) ، على أن تكون زواياها قائمة تماماً ، وعلى أن يكون سُمكها مضافاً إليه سُمك الرقيقة ، مساوياً لارتفاع أحرف الطباعة ، لأنها ستطبع جميعها على مستوى واحد ، هو سطح أفرخ



(شكل ٥)

ورق الطباعة . و(شكل ٥) يبين الرسم مطبوعاً نهائياً من الرقيقة المذكورة .

محمد يوسف همام

حول إنصاف الفلاح أيضا

للأستاذ محمد عبد البارى

أثار ما نشرته « الثقافة » حول إنصاف الفلاح، اهتماماً في بعض الدوائر. وأدى هذا الاهتمام إلى مناقشة دعتني إلى كتابة هذه الكلمة تبريراً للبحث والحديث في هذا الموضوع الخطير.

أما المناقشة فتناولت النقط الثلاث الآتية :

أولا — أن وضع حد أعلى لإيجار الأراضي الزراعية على أساس التقدير الرسمي للقيمة الايجارية لهذه الأراضي، يؤدى إلى مباشرة الملاك الزراعة رأساً دون التأجير. وبذا يلحق الضرر بصغار الزراع من حيث أردنا بهم النفع، فالمالك إنما يؤجر لأن فيات الايجار المرتفعة تغريه.

ثانيا — أن هذا التحديد يضر بالفلاح المستأجر في حالة حصول ضرر بالغ من فيضان مكتسح أو جفاف يؤدى إلى الجدب. ويضر بالملاك إذا ارتفعت قيمة الحاصلات الزراعية، لظروف طارئة، ارتفاعاً عظيماً كما حصل في بعض السنين.

ثالثا — أن تحديد حد أعلى للايجار، يؤدى إلى التوازن الداخلي. ولكن تبقى الحاصلات الزراعية منخفضة القيمة، فتباع بثمن بخس ويبقى الزراع والمستأجرون عبيداً للمستهلكين؛ وخصوصاً لرأس المال الأجنبي، وهو المسيطر على السوق المصرية.

علاج الحالة الأولى وهى الزراعة رأساً :

هذه في الواقع ليست مسألة. فحلها الطبيعي وضع حد أدنى لأجور عمال الزراعة، تتفق وحاجة الانسان المصري الضرورية؛ وهذا الحد الأدنى يجب أن يحافظ ...

يمنع الاتفاق الصورى للهرب من تطبيقه. وقد حددت الأمم الغربية من قبل أجور العمال على نفس الأسس. فمن السهل الاسترشاد بما فعلوا مع مراعاة اختلاف نفقات العيش. وإذا ما تحقق هذا واستخدم المستأجرون عمال زراعة، وهو ما لا بد منه، تحقق الغرض الأصلي وهو حصول سواد سكان مصر على ما يكفى العيش اللائق بالإنسان في هذا العصر. وسواء عندنا أتحقق القصد من طريق وضع حد أعلى لأجور الأراضي الزراعية، أم من طريق وضع حد أدنى لأجور عمال الزراعة. والغرض الاجتماعي والانساني واحد في الحالتين، فمن حق كل مواطن على الجماعة أن يجد في نظامها ما يكفل له العيش الكفاف اللائق بالانسان، بشرط أن يعمل له.

ومع هذا فإن ما يخشاه أصحاب الرأى الذى نناقشه وهم. فمن الثابت أن كثيراً من كبار الملاك لا يستطيعون زراعة أملاكهم بالذات. والزراعة بالواسطة تكلف أكثر وتغل أقل من الزراعة بالذات، للاسراف من جهة والضياع من جهة أخرى. ولا يصح أن نسقط من حسابنا قلة الدراية وقلة المران، واشتغال كثير من الملاك بمهن أخرى غير الزراعة.

ومن الأمثلة على صحة هذا القول ما تغله مصلحة الأملاك ووزارة الأوقاف، فالمطلع على ميزانية الدولة موازناً بين نفقات مصلحة الأملاك وإيراداتها، مع حذف الاصلاح، يدرك بسهولة ما أقرر.

وأعرف أن مالياً كبيراً موفقاً في أعماله، اشترى أرضاً وباشر زراعتها. وقد أخبرني الباشر لعمله أن

التصرف أكثر من الإيراد باستمرار . فاضطر هذا المباشر إلى تأجير ما يمكن تأجيره وعمل على اجتذاب كثير من عائلات النوفية إلى البحيرة ليستأجروا بأجور دون القيمة الإيجارية فى تلك المنطقة .

علاج الحالة الثانية :

وأما الحالة الثانية ، وهى ضرر التحديد فى حالات الغرق أو الشرق أو ارتفاع الأثمان ارتفاعاً غير عادى فى ظروف طارئة ، فيمكن علاجها بأن يضع الشارع بعض التحفظات ، فيمكن مثلا النص على أنه فى حالات الغرق والشرق كبير الأثر فى كمية المحصول ، يخفض مقدار من الإيجار إذا تجاوز الضرر حداً معيناً ، كذلك يمكن النص على أنه فى حالة زيادة أثمان المحاصيل الرئيسية ، فى ظروف استثنائية ، فوق حد معين ، يشترك المالك والمستأجر فى الربح المرضى على أساس يحدد .

علاج الحالة الثالثة :

أما علاج الحالة الثالثة وهى هبوط قيم الحاصلات الزراعية فى ذاتها وبالمقارنة إلى المبادلات مع الخارج ، فمسألة مهمة يقتضى علاجها عناية كبرى . ثم إن هبوط أثمان كثير من الحاصلات الزراعية وكثير من منتجات الصناعة مسألة المسائل فى هذا العصر . ونقطة الضعف هذه هى النقطة التى يهاجم منها الاشتراكيون النظام الرأسمالى السائد فى هذا العصر الحديث . فنظام يجوع فيه عدد كبير من الناس لعدم القدرة على الشراء ، وتعدم فيه كميات من إنتاج البشر ، لعدم وجود الثمن المناسب والتقليل المرض — هذا النظام — لا يخلو من عيب .

لكن الذى يشاهد بمصر أن هبوط الحاصلات الزراعية ذو أثر يوشك أن يكون مدمراً لسببين : الأول أن التمويل فى مصر فى يد الأجنبى الذى يشترى ما تنتج ، وفى نفس الوقت يبيع ما تستهلك ، وهو الذى يقوم بالوساطة وينقل الحاصلات وعنده جُلّ شركات التأمين . أما السبب الثانى فهو عدم تنويع الحاصلات تنويعاً يمنع الضرر أو يقلله ، لأن التنويع يساعد على التوازن فيسد رواج بعض الحاصلات كساد البعض الآخر .

إن المسألة بمصر يمكن أن تحل كما حلت الدانمرك مشكلة مماثلة . إن القطن عندنا هو المحصول الرئيسى ، كما كان محصول القمح المحصول الرئيسى بالدانمرك من قبل ، وقد حصل بتلك البلاد فى أواخر القرن الماضى أن هبطت أثمان محصولها الرئيسى وهو القمح ، فكانت أثمانه فى الواقع الدانمركية أعلى من أثمان القمح الأجنبى بنفس الواقع ، فسارعت إلى تحويل حقول القمح إلى مراع ، ومارست تربية الماشية والدواجن ، وربحت من بيع الزبد والجبن والبيض واللحوم ونحوها ، أكثر مما كانت تربح من القمح فى أحسن مواسمه غلة ورواجاً ، ولكن يجب أن نذكر أن أهم عوامل النجاح عندها قيام الإنتاج ، وما يلزم من الاستهلاك فى سبيل الإنتاج ، على أسس تعاونية سليمة قوية .

والذى نجح به غيرنا يمكن أن ننجح باتباعه ، فلننوع الحاصلات معتمدين على ما لا يتعرض للصعود والهبوط الكبيرين وهو قوت الإنسان . وبلدنا زراعى يساعد على هذا ، وموقعنا الجغرافى يهون أمر التصريف . ولنمارس الصناعة ، والزراعية منها خاصة ، جنباً إلى جنب مع الزراعة ، فالزراعة وحدها لا تكفى شعباً يريد أن يتحرر من معيشة العبيد . ولكى نستفيد الفائدة الكاملة يجب أن نملك رأس المال وأدوات الانتاج والنقل ، وأن نلغى أو نقلل إلى أقصى حد هذه الوساطة .

فبامتلاك رأس المال نوفر الفائدة . وبامتلاك أدوات

الانتاج وأدوات النقل تزيد فى الأرباح . وبتقليل الوساطة نضيف كثيراً من الثمن إلى جيب المنتج . وكل هذا ممكن تحقيقه بالتدبير الحكيم والاستمرار والصبر ، إذا عممنا نظام التعاون ونمهدناه بالدعاية الصالحة والارشاد والتقويم ، واتخذناه أساساً للاقتصاد المصرى .

ولما كانت تجربة التعاون عندنا ، من سنة ١٩٠٨ للآن غير ناجحة ، فإنى سأحاول فيما يلى بيان أسباب العلة ووصف العلاج الشافى . وسيرى القارئ أنه قريب المنال بالعزم والحزم ورعاية المصلحة العامة قبل غيرها .

لماذا فشل التعاون فى مصر للآن ؟

بدأت الحركة التعاونية فى مصر من سنة ١٩٠٨ . لكنها للآن لم تخط خطوة تذكر . ومن أسباب البطء جهل الكافة ، وإهمال الخاصة ، وضعف الخلق بوجه عام . على أن السبب الأصلى هو أن الحركة التعاونية عندنا لا تزال فى الغالب رسمية يعمل لها الموظفون ؛ والموظفون بوجه عام لا يقومون بواجبهم على ما ينبغى .

ولا أمل فى نجاح التعاون عندنا النجاح المرجو ما لم يقم من خاصتنا وكبار رجالنا المفكرين الأحرار نفر يدعون إليه متطوعين رواداً يطوفون جميع أنحاء البلاد . أما ترك الأمر كله لعمال الحكومة وحدهم يكتفون بأداء واجباتهم بصفة شكلية وبغير روح ، ويتعرضون لبطء الإجرآت الحكومية تارة ولجمودها تارة أخرى فلا يغنى ولا يقدم .

إن سوء استخدام القروض التعاونية الزراعية وسوء توزيعها وصعوبة وبطء تحصيلها ، لا ترجع إلى جهل الفلاح بقدر ما ترجع إلى ضعف الإشراف والإرشاد ، لأنهما — فى وقتنا هذا — خارجيان لا ذاتيان . ودليلنا على هذا نجاح بعض الجمعيات التعاونية ، لا لأن الوسط أرقى ، ولكن لأن بعض الأعضاء أشربوا روح التعاون فبثوها فى الهيئة فاستمدت منها الحياة والرشاد .

وفوق هذا فان صعوبة التمويل ، لفقر السواد الأعظم من القرويين ورزوح معظم كبار الملاك بديون من أملاكهم غير مهتمين بغرامهم ، غلت أيدى أنصار التعاون المخلصين من رجال الحكومة وعطلت جهودهم ، لأن هذه الجهود لا تقابل بروح تعاونية كالتى أوحت بها ، ولكن ببطء الاجرآت الحكومية وجمودها ؛ فالعمدة على التمويل مركزة تقريباً فى الحكومة ؛ وهذه تقلت الوساطة بينها وبين الأهالى من بنك مصر إلى بنك التسليف الزراعى ؛ وهذا الأخير مؤسسة شبه حكومية ؛ وهى على كل حال مؤسسة رأسمالية .

فربط مصير التعاون بهذه الهيئة الرأسمالية هو التناقض بعينه ؛ هذا إلى أن المال المخصص أقل من اللازم .

من هذا الاستعراض السريع يظهر للقارئ أن علة ركود حركة التعاون عندنا ناشئة أولاً عن أن الاهتمام به مقصور على رجال الحكومة . وثانياً عن ضعف وسائل التمويل ومناقضة نظمه للنظم التعاونية وأسسها ووسائلها .

ولا سبيل إلى القضاء على السبب الأول إلا باهتمام الزراع الكبار والمستنيرين من أهل القرى .

أما الأمر الثانى فنعالجه فيما يلى :

صعوبة التمويل وكيف تعالج :

ولكى يكون مقصدى جلياً أسارع إلى القول بأن التمويل الذى أشير إليه لا يمكن أن يكفيه نصف المليون جنيه المخصص لهذا الغرض من جانب الخزانة العامة ، يضاف إليه مثله قيمة الاكتتابات التى يدفعها أعضاء الجمعيات التعاونية التى تسجل ؛ فعدم توزيع الثروة عصر ، وفقر صغار الزراع فقراً مدقعاً يجعلهم يعيشون عيشة الحرمان ، وكون السوق المصرية مفتقرة إلى المال الأجنبى لكى تدب فيها الحياة — كل أولئك — يدعو إلى بذل

عناية خاصة لتمويل التعاون . فالتعاون الذى يستطيع ، فى نهاية مرحلته ، امتلاك أدوات الزراعة المصرية ومعامل الصناعات الزراعية ومعامل الأسمدة ووسائل النقل فى الداخل وإلى الخارج ومخازن الايداع ونحو ذلك — هذا التعاون — يجب أن تدعمه مالية قوية ثابتة . فكيف تدبر هذا المال ؟

فى أوائل سنة ١٩٣٤ شكلت لجنة اشترك فيها المالى والتعاونى والصحافى وعضو مجلس النواب ، وقررت ضرورة إنشاء بنك تعاونى . وأقرتها الحكومة ؛ لكنها اعتذرت بأن الظروف وقتئذ لا تسمح . وكرت السنين وكرت والحالة تزداد إلحاحاً فى ضرورة إنشاء البنك التعاونى . ولا بد أن يكون جواب السلطات المالية فى الحكومة أن الحالة لا تسمح . ولهذا فانى أقترح ما يأتى لتمويل البنك التعاونى :

أولا — أن يعود رسم القطن الصادر ، ويخصص لصندوق التعاون ؛ ذلك أن الحكومة أخذته معتقدة أنه يعود إلى الفلاح فى النهاية . ولكن ما حصل بالضبط هو أن أسعار العقود ارتفعت ، لحد ما ، وبقيت العلاوة منخفضة إلى حد غير عادى . ومعنى هذا أن العشرة القروش ذهبت للتاجر أو بالأحرى للمصدر ، ولم ينتفع بها الزارع . فاسترداد عشرة القروش وتخصيصها لصندوق تعاون زراعى ، يمد الصندوق سنوياً بمبلغ ثمانمائة ألف جنيه تقريباً . وفى عشر سنين يكون التجمع من هذا المورد وحده حوالى ثمانية ملايين من الجنيهات ؛ وليس هذا بالمبلغ اليسير . ولا نمس أن نبق جامدين طوال هذه السنين ، بل نظل نعمل مع توسيع نطاق الأغراض والدعاية للتعاون الأهلى دعاية يقوم بها رواد أحرار لا موظفون فقط . ومن الآن إلى أن تنقضى السنون العشر يمكن تطور التعاون تطوراً يحرره من جمود مكاتب الحكومة وقيودها لحد كبير .

ثانياً — يضاف إلى هذا المورد الرئيسى المهم مورد آخر لا يقل شأناً وإن قل مقداراً ، أعنى بهذا إنشاء اكتتاب إجبارى تشترك فيه جميع طبقات الأمة القادرة على الدفع ، فتحصل مثلا عشرة مليمات تخصص لصندوق التعاون ، من كل إيصال تحرره المصالح العامة أو الشركات ذات المقار المنظمة بسداد (ا) أجور المياه والنور والغاز متى زادت على عشرة قروش فى الشهر (ب) أجور المساكن والمتاجر والمكاتب متى زادت قيمة الايصال على جنيه واحد فى الشهر (ح) أجور الأراضى الزراعية متى زادت على عشرة جنيهات فى العام ، (د) عوائد الأملاك المبنية والأرصفة (ﻫ) أقساط التأمينات بكافة أنواعها ، ويستمر هذا لمدة عشر سنين .

ثالثاً — يحصل بصفة مستمرة لمدة عشر سنين أيضاً عشرة فى الالف من مرتب الموظف الشهرى يقسم على عشرة أشهر ، أو يحصل مرة واحدة ، بشرط مراعاة التوحيد ليسهل الحساب والمراجعة .

بمثل هذه الوسائل يمكن تدبير المال اللازم لعمل عظيم مثل تدعيم التعاون ؛ فالتعاون هو الدعامة التى لا بد منها إذا أردنا أن نتحرر من نير استعباد رأس المال الأجنبى .

هذا التدبير أوردته على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، وهو تدبير لا يرهق أحداً ، بل لا يكاد يحس به أحد ، ولو التجأنا إلى شئ ، من هذا منذ فكرنا فى التعاون سنة ١٩٠٨ ، أو على الأقل بعد أن أعلن استقلال البلاد سنة ١٩٢٢ ، لكان بصندوق التعاون الآن أكثر من عشرين مليوناً من الجنيهات .

إن الأنهر الزاخرة تتجمع من قطرات المطر . وتجمع مثل المبلغ الجسيم من تحصيل مبالغ جزئية فى مثابرة واستمرار ، فتمد التعاون الزراعى المصرى بما يكفل امتلاك جماعات الزراع واتحادات هذه الجماعات

(البقية على صفحة ٤٤)

بيننا وبين القراء :

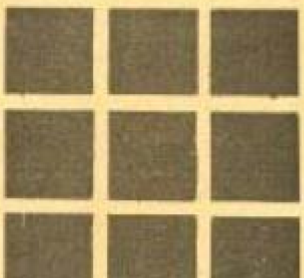
لماذا وكيف

أيجوز في العلم أن يُنكَر ما تراه العين والحواس ؟

نعم يا سيدي . فالعلم على قدر اعتماده على الحواس في تقديراته يخشى دائماً زللها . وهل أدل على ذلك من أن العلم يقول لك إنك عندما تنظر إلى حاجب الشمس الأعلى لدى الغروب وهو يختفي في الأفق تكون الشمس في تلك البرهة نفسها قد غربت في الواقع قبل هذا الاحتجاب بزمن ، وأنك إنما تنظر إلى خيال منها .

إن خداع الحواس معروف ومدروسة أسبابه . بل إن هناك أمثلة يؤلفها أرباب الفن تأليفاً ، ويؤلفونها عمداً للتسلية أولاً ، ولكن في هذه التسلية درس وحكمة لذوي الرؤوس الصلبة . إن الشيء قد يكون واضحاً صوابه ، وواضحاً جداً ، ولكنه مع هذا يكون ممعناً في الخطأ أي إمعان . ومن أمثلة ذلك ما يلي :

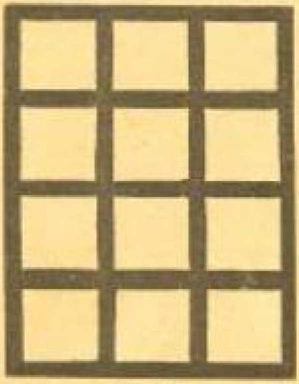
هذه مربعات سود اثنا عشر (شكل ١) يفصل ما بينها



(شكل ١)

خطوط بيضاء بعضها أفقي وبعضها رأسي . فتوجه بعينك إلى حيث تتقاطع هذه الخطوط البيضاء ، وانظر متقاطعاتها إجمالاً ، فستجد فيها ظلالاً سوداء أو سمراء . فهذه ظلال لا وجود لها أصلاً ، ولكنها من خداع العين . وهي ظلال هرّابة ، فإذا أنت حدّقت في ظلّ منها اختفى ، ولكن تبقى الظلال الأخرى تتراءى لك في المتقاطعات الأخرى وأنت تنظر إليها ازوراراً .

وهكذا تنعكس الآية إذا أنت استبدلت الأبيض بالأسود والأسود بالأبيض . ففي الشكل الذي تحت (شكل ٢)



(شكل ٢)

تجد الخطوط المتقاطعة هذه المرة سوداء . فانظر إلى حيث تتقاطع ، فستجد في سواد هذا التقاطع بقعاً بيضاء تهرب منك كلما أمعنت النظر في إحداها ، بينما تظل ترى الأخرى من أخواتها ازوراراً .

ثم انظر إلى الشكل الثالث تجد خطاً أفقياً قُسّمَ



(شكل ٣)

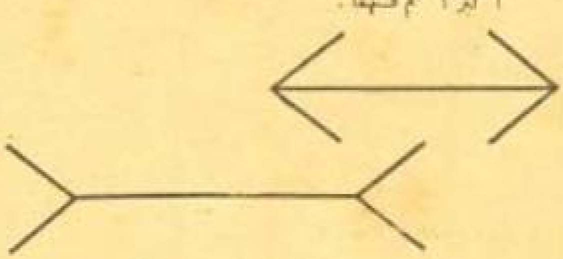
بعضه بخطوط رأسية قصيرة و تُترك البعض الآخر من غير تقسيم . فأىّ البعضين أطول : البعض المقسّم أو غير المقسّم ؟ لا شك القسم فى رأى العين . ولا شك أنك ستحلف بأغلظ الأيمان أنه القسم ، وستكون فى عينك محقوقاً ، وفى قسمك مدخولا عليك ؛ فإن كنت فى شك من هذا فعليك بالمسطرة ، فستجد الجزئين متساويين تماماً .

وانظر إلى الشكل الرابع ، وقل لى : أىّ المسافتين أكبر بين رؤوس هذه المثلثات ، المسافة ما بين الألف والباء ، أم ما بين الباء والجيم [1] ؟



(شكل ٤)

ثم انظر إلى الشكل الخامس : أى الخطين الأفقيين أكبر ؟ ثم قسهما .



(شكل ٥)

ثم انظر إلى الشكل السادس ، إلى هذه الستة الخطوط الرأسية ، فهل تراها رأسية متوازية حقاً ؟ إن لم ترها كذلك فاعلم أنها كذلك ، رغم عينك .

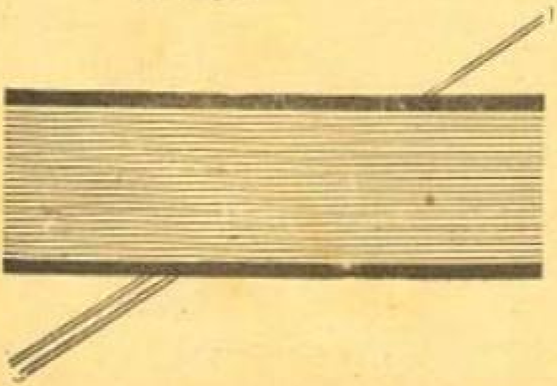
ثم انظر إلى الشكل السابع ، وقل لنا : أى الخطين المستقيم : الخط ا ب أم الخط ا حـ ؟ وإذن فاعلم أنه الخط ا حـ .



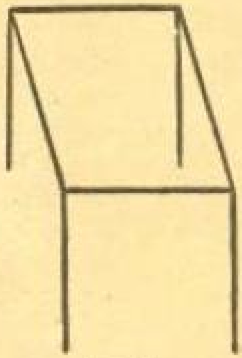
(شكل ٦)

ثم انظر إلى المنضدة التى فى الشكل الثامن ، فستجد قرصها تحمله أربع قوائم . ثم أطل النظر إليها فستجد نفسك بعد حين تنظر إلى سطح القرص ، ولكن إلى ناحيته الأخرى ، إلى أسفله . فأى نظرتيك الصادقة ، واذكر هذا عند الجدل ومناقشة الاخوان فى أمر أهم وأجل خطراً .

(شكل ٧)

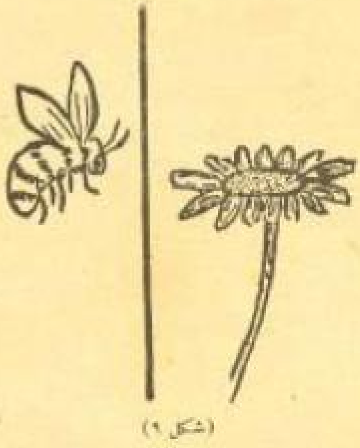


(١) الألف والباء والجيم تشير إلى رؤوس المثلثات التى تتكون من تلاقى أضلاعها الثلاثة لا الرأسية



(شكل ٨)

ثم انظر إلى النحلة والزهرة فى الشكل التاسع ، إذ يحول بينهما حائل ، هو خط أسود لا تستطيع النحلة أن تتخطاه إلى الزهرة . ولكن قرّبْ عينيك من الصورة بحيث يكون أنفك على بعد قيراطين فقط من الورقة ، واصطبر قليلا ، فستجد النحلة استطاعت أن تتخطى الحائل وتَحُطَّ على الزهرة . فهل حقاً فعلت ؟



(شكل ٩)

وما يجوز على الاحساسات فى انخداعها ، وأُسُسُها مادية صرفة ، يجوز بمقدار أكبر وعلى أسلوب أوسع على المعنويات — على إدراك الناس لأمور الناس وأمور الحياة ؟

حول إنصاف الفلاح

(بقية المنشور على صفحة ٤١)

لكافة وسائل الانتاج والتصريف المصريين من آلات ومعامل ومراكب فى النهر والبحر .

فهل هناك أبسط من هذا فى التفكير وفى التنفيذ ؟ اللهم كلا ! !

إذاً فلم يقال ، فى سهولة وبلا حرج ، إنه لا يستطاع ، لظروف محلية إنشاء بنك تعاونى ؟

السبب الوحيد ، والسبب الموجب لمزيد الأسف ، والباعث على الحسرة ، هو أن الفلاح أضعف من أن يسمع صوته لسادته المتعالين . والنفوذ الأجنبى بمصر ، وإن كانت مستقلة ، أقوى من أن تتجه سياسة الحكومة اتجاهاً فعالاً إلى الاستقلال المالى خاصة ! فهذا الاستقلال المالى بدء عصر جديد يضع حداً لاستغلال الشعب المصرى استغلال العبيد . فإلى متى نتغفل عن هذه الحقائق ؟

وإذا ما امتلك المنتجون أدوات الانتاج والتصريف قلت نفقة الانتاج وزادت أثمان التصريف ، بالانتفاع بأسعار الجملة وباستبعاد أرباح الوسطاء ، واستطاع الزراع تنويع الحاصلات وتنظيم العرض وحرية التنقل من سوق إلى سوق .

هذه هى الوسائل التى يتوسل بها الأقوياء بنظمهم التعاونية للتغلب على صعوبتى هبوط أثمان الحاصلات الزراعية والاعتماد على محصول واحد . فلنلجأ إليها نصل إلى ما وصل إليه الدانمرك وغير الدانمرك . والنجاح مكفول للعاملين المجدين . وبشر الصابرين .

(شبين الكوم) محمد عبد البارى

(الثقافة) تنشر هذا البحث القيم لحضرة الكاتب الفاضل وهو رأى خاص به تعرضه لبحث الباحثين .

مســــألة منهج

تعليق على بحث في مجلة المجمع اللغوي

للدكتور بشر فارس

في العشرين من أغسطس لسـنة ١٩٣٦ نشرتُ في « الأهرام » نقداً للجزء الثاني من مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية . وفي هذا النقد تعقبت مقالاً للأستاذ البحاثة أحمد العوامري بك ، وهو من أعضاء المجمع ؛ وعنوان المقال : « بحوث وتحقيقات لغوية » ، وغايته التنبيه على ألفاظ وتعبيرات فاشية شاذة عن المنقول والمتواتر ، أو منزلة في غير منازلها . وبعد أن أكبرت هـذا التقصيد أخذت على صاحب المقال أموراً ثلاثة : أولها تشبثه بما جاء في المعجمات المتداولة ، كأنما المعجمات تحصر اللغة . والأمر الثاني استرساله الإسهاب ، بحيث احتاج إلى خمس وأربعين صفحة للتنبيه على تسع عشرة كلمة . وأما الأمر الثالث فتنبيه على ما نبه عليه غيره من قبل .

وهذا الجزء الرابع قد خرج ، وفيـه يجرى الأستاذ العوامري في « بحوثه وتحقيقاته » . وقد حمل مقدمة مقاله الجديد جملها ، من وجه خفي ، كالردّ على نقدى ، فقال ما معناه : حقاً أن المعاجم لا تحصر كل مفردات اللغة وتراكيبها ، بل من المعجمات ما ضاع ، ففقدت اللغة بفقده ثروة كبيرة ، وزاد أنه مد بصره إلى ما وراءها من « آثار الثقات الأئمة وجهابذة اللغويين » ، وقال أيضاً إنه يعمد إلى الاسهاب تيسيراً على المتعلمين لا العلماء . ثم قال إنه لا يدعى أنه انفرد بكل ما أورد ، ولكنه يدعى أنه انفرد بطريقته في البحث .

وليأذن لي الأستاذ العوامري في أن أناقشه من جديد ، وسأختصر القول اختصاراً :

أما تنبيهه على ما نبه عليه من سبقه من اللغويين ، فلا يعود عليه بشيء أن يقول إنه لا يدعى الانفراد بكل ما أورد . فإنما المقتدَى في المباحث العلمية أن يذكر اللاحق عمل السابق ؛ وخير من هذا ألا يعود إليه ، إذ الفائدة قد تمت . وأما قول الأستاذ إنه انفرد بطريقته في البحث ، فما يتعذّر عليّ أن أسلّم به ، ذلك أن اللغويين لهذا الزمان على منحىً واحد ، إذا هم نهضوا يهذبون عبارات الكتّاب ؛ من ذلك قولهم : هذه كلمة لم ترد ، أو لم تأتِ بمعنى كذا ، وهذا تعبير خارج على أصول اللغة ؛ ومستندهم في ذلك المعجمات ودواوين اللغة ، ومأخذهم آراء الثقات من القدماء . هذا وإني رأيت الأستاذ يعود في مقاله الأخير إلى التنبيه على ما قد نبه عليه غيره ، من هذا تنبيهه على كلمة « تعالى » ، وفيمن سبقه إلى ذلك الصديق العراقي الأستاذ مصطفى جواد (مجلة « لغة العرب » ١٩٣٠ ، السنة ٨ ج ١٠ ص ٧٨٧) ؛ ومن هذا أيضاً تنبيهه على « ضاهى » بمعنى وازن وعارض وقابل ، وقد سبقه إلى ذلك أسعد داغر (« تذكرة الكاتب » مصر ١٩٢٣ ص ٧٨) .

وأما قوله إنه يسهب لإرادة التيسير على المتعلمين لا العلماء ، فلا أدرى هل يقوى على قراءة مجلة المجمع سوى العلماء بل أصحاب الصبر منهم ؛ وإن كانت المجلة للمتعلمين فحسبهم أن يعلموا أن هذه الكلمة ليست في معجم كذا ولا كذا وأن صوابها كذا ؛ وأما العلماء فيكفيهم الاشارة والتنويه ،

وعليهم المراجعة وهم بها فرحون .

***

بق الأمر الثالث وهو الأهم ، وعنده أتمهل :

قد سلم الأستاذ بأن المعجمات لا تحصر اللغة ، وإذا هو يشدد في تخطئة الكتاب إلى أساس البلاغة والصحاح ولسان العرب والقاموس وشرحه والنهاية والمصباح وأقرب الموارد ، وقد رجع إلى تفسير البيضاوى في موضع .

وهنا أعود فأقول إن العلماء السابقين أجمعوا على أن المعجمات ليست كل اللغة (راجع « لغة العرب » السنة ٦ ج ١٠ ص ٧٨٣ وما يليها) ؛ وهذا رأى المجمع نفسه (راجع الجزء الأول من مجلته ص١٧٨ وما يليها) ، إذ يقول : « إن أمثلة المعجمات ليست حتماً مقضياً على منع استعمال غيرها . . . وقد اعترف بذلك السابقون واللاحقون من أئمة اللغة حتى أصحاب المعجمات أنفسهم ، ولذلك لا يتعرضون في معجماتهم للنص على الألفاظ القياسية اكتفاءً بأقيسة النحو والصرف . . . » . هذا سبب ، وثمة غيره : منها أن المعجمات التى بين أيدينا معدودة ، فضلاً عن أن الباحث يقنع بالاستناد إلى المتداول منها كالقاموس والأساس واللسان والتاج . ومنها أنه يتفق لك أن تصيب الكلمة أو التعبير في غير موادها ، من ذلك إصابة « أستاذ جليل » لكلمة المتضدة في مادة ف ج ج من الأساس (راجع « الرسالة » ٣٢٨ ص ١٩٩١) . ومن ذلك أيضاً إصابة العلامة الأب الكرملى تعبيرهم : « هذا كلام ساذج » في مادة غ س ل من الأساس (« لغة العرب » ج ١٠ السنة ٦ ص ٧٨٥ وما يليها) . ومنها أن لأصحاب المعجمات أوهاماً ، ألا ترى كم كتاب يجمع مفردات « القاموس » ؟ ومنها أن لغة العرب — وما أوسعها ! — إنما انتهى إلينا منها الأقل (راجع « الصاحبي » لابن فارس مصر ١٩١٠ ص ٣٤ و « المزهر » للسيوطى ، مصر ط صبيح ج ١ ص ٤٢ وما يليها) .

وأجل من ذلك شأناً أن أبين كيف نبه اللغويون المدنون — وفيهم الأستاذ العوامرى — على كلمات إنما هى صحيحة فصيحة ؛ ومعتمدى في ذلك ما سطره الكتاب الأثبات المقدمون : كان الامام الشيخ إبراهيم اليازجى نبه في « الضياء » (السنة الأولى ص ٣٢٤ ؛ وتبعه أسعد داغر في « تذكرة الكاتب » ص ١٠٣) ، على أن « نوه بالأمر وعنه » بمعنى ذكره تلويحاً ، وأشار إليه من طرف خفى ، ليس من استعمال العرب ، وأن المعنى : « رفع ذكره وشهره » كما في الأساس — فنى رسالة « العشق والنساء » للجاحظ (« مجموعة رسائل » مصر ١٣٢٤ ص ١٦٢) : « وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون أن يظهروا المعنى بأبين اللفظ إما تنويهاً وإما تفصيلاً » . أليست القالة بينة ههنا ؟

ونبه اليازجى أيضاً (« الضياء » السنة ٧ ص ٣٨٧ ؛ وتبعه أسعد داغر في « تذكرة الكاتب » ص ٣٣) على قولهم : « استعرض الجيشَ إذا أمرَّه على نظره » . والمستعمل في هذا — عنده — عَرَض الجيش ، لأن الاستعراض إنما هو بمعنى طلب العرض — فمن قول ابن الرومى في وحيد المغنية (« ديوان » ط كامل كيلانى ، القاهرة ج ١ ص ١٠٠) :

ليت شعرى — إذا أدام إليها
كرَّةَ الطرف مبدئٌ ومعيدُ
أهى شىء لا تسأم العين منه
أم لها كلَّ ساعة تجديد
بل هى العيش لا يزال — متى استـ
ـرض — يُجلى غرائباً ويعيد
منظر ، مسمع ، معانٍ من الله
و ، عتاد لنا يجب عتيد

ونبه أسعد داغر (« تذكرة الكاتب » ص ٤٤) أن « أسف لذلك » خطأ ، وصوابه « أسف عليه » —

فى « كتاب التاج » المنسوب إلى الجاحظ (مصر ١٩١٤ ص ٧٣) : « فأسف لذلك سابور » .

ونبه كثير على كلمة « طبيعى » ، فقالوا إن النسـبة إلى الطبيعة : « طبعى » قياساً — فى « الخصائص » لابن جنى (مصر ١٩١٣ ص ٩٧) : « ومن الأمر الطبيعى الذى لا بد منه . . . » ؛ وفى « الإمتاع والمؤانسة » للتوحيدى (ط أحمد أمين وأحمد الزين ، مصر ١٩٣٩ ص ٢٠٦ ، أيضاً ص ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٥٠) : « الـسكائن كثيرة : طبيعيّة ونفسيّة وعقليّة وإلهيّة » ، ثم فى « المصباح المنير » (مادة ج ب ل) : « وشىء جِبِلّىّ : منسوب إلى الجِبِلّة ، كما يقال : طبيعى . . . » .

ونبه الأستاذ نجيب شـاهين فى « المقطم » على استعمالنا : « لعلّه أن » ، إذ رأى الوجه فى إسقاط « أن » — فى الشعر القديم (« المفضليات » مصر ١٩٢٦ ص ٥) « فإنى لعلك أن تحظى وتحتلى . . . »[1] ، وفى « رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة » (« مجموعة رسائل » ص ١٨) : « بل لعلّنا أن لا نخبر من . . » ؛ وفى « كليـ[illegible]ـنة » (بيروت ١٨٩٩ ص ١١٩) : « لعلّه أن يتوقف [illegible] » وفى « كتاب التاج » المنسوب إلى الجاحظ (ص ٧٥ [illegible]) : « لعلّه أن يعتد به اليوم » ، « ولعلّه أن لا يبلغ ما يريد » .

ومن تنبيهات الأستاذ المواصرى أن استعمالنا : « أصارحك كذا أو بكذا » مع التعدية خطأ (« مجلة المجمع » ج ١ ص ١٥٣) . وإنما الصواب عنده « صارح بما فى نفسه » — فى « خزانة الأدب » للبغدادى (الشاهد ٩١) قصيدة منسوبة إلى أبى طالب جاء فيها : « وقد صارحونا بالعداوة والأذى »[2] .

ومن تنبيهات الأستـاذ المواصرى فى الجزء الرابع من « مجلة المجمع » أن استعمالنا « ضاهى » بمعنى « وازن وقابل وعارض » خطأ ، وإنما الصواب يكون « شاكل » و « شابه » — فى « الصاحبى » لابن فارس (ص ١٣) : « فإن قال قائل : فهل يوجد فى سنن العرب ونظومها ما يجرى هذا المجرى ؟ قيل له : إن كلام الله جلّ ثناؤه أعلى وأرفع من أن يضاهى أو يقـابل أو يعارض » . أفلا ترى كيف رادفت الـكلمات الثلاث وتجاورت ؟

ومن تنبيهات الأستاذ المواصرى فى هذا الجزء أيضاً أن استعمالنـا « ساهم » بمعنى « شارك » خطأ ؛ والصواب عنده « قارع » و « أسهم » فى — الإمتاع والمؤانسة ص ٤ : « وساهمتك فى جميع ما وقرته فى أذنى (من ألوان الشكوى) بالجزع والترجع والاستفظاع والتوجّع » ؛ وفى « إحياء علوم الدين » للغزالى (مصر ١٣٤٨ ص ٤١) : « وما نقل عنهم (يعنى علماء الدين) من المؤاخاة والتناصر والتساهم فى السرّاء والضرّاء » .

فمن كل ذلك يتبيّن أنّ اللغة تحصّل مما سطره الأئمة والبلغاء ، وعلى هـذا يجرى الفرنجة اليوم . ولعلّ مطالعة المؤلفات الجليلة تردّنا عما زعم ؛ من ذلك أن الأستاذ المواصرى نفسه راجع مذهبه فى إسناد « تساءل » إلى الفرد ، فقد كان يرى ذلك من الأوهام ، وإذا « تفسير » البيضاوى فى « عمّ يتساءلون » رجعه عن رأيه (راجع « مجلة المجمع » ج ٤ ص ٢٢٠) .

* * *

تلك أمثلة لا أذهب إلى ما يليها ، بل دعنى أنتقل إلى مطلب آخر ، مداره أن الأستاذ المواصرى يتشبث بنصوص المعجمات ، حتى إنه ينقلب لغوياً جدّ متشدد . ألا تراه ينكر الألفاظ القياسية ، لأن المعجمات لم تثبتها ؟ من قبيل هذا إنكاره « تعالم » ، (وهو أن يُظهر من العلم ما ليس به) . وأنت تقول « تجاهل » كما تقول : تغافل وتعامى ، وغيرها

(١) كان الدكتور طه حسين استشهد بهذا المصراع فى رده على الأستاذ نجيب شاهين .

(٢) أرشدنى إلى هذا النص [illegible] ، بصير باللغة ، متضرّ[illegible] لدقائقها ، يردنى على أن أغفل اسمه .

من التواتر كثير . فما عنعك أن تقول « تعالَمَ » إن صح أنه غير مسموع ؟ وذلك جرياً على وضع من أوضاع المعانى المعروفة لوزن تفاعل ، كما نصت كتب اللغة (مثلا : « المفصَّل » للزمخشرى ، مصر ١٣٢٣ ص ٢٨٠) .

وأما قول الأستاذ إن « تعالَمَ » جاء فى المعجمات على نحو هذا : تعالَمَ النـاسُ الخبرَ فهو « متعالَم » ، فلا ينهض نهضة الحجة ، لأن « تعالم » فى هذا المثل وغيره إنما يكون من اثنين فصاعداً ، وأما « تعالم » هنالك فسند إلى الفرد (فما فوقه) : تعالم التلميذ (وتعالَمَ التلاميذ) ، وهذا فضلا عن أن المعنى متغاير فى الوجهين .

ثم إنى أحب أن أقول للأستاذ العوامرى إن الجاحظ إمام المترسلين استعمل فى « ذمّ أخلاق الكتّاب » (ثلاث رسائل — مصر ١٣٤٤ ص ٤٦) لفظة « تحاذق » فى قوله : « فإن أحدهم (يعنى الكتّاب) ، يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله ... » ؛ ولأخبر الأستاذ بأنى لم أصب « تحاذق » فى القاموس ، ولا شرحه ، ولا فى اللسان ، ولا فى الصحاح ، ولا فى أقرب الموارد ، وهى المعجمات التى رجع إليهـا لينقب عن « تعالم » ، فهل أقول إن الجاحظ أخطأ ؟ بل أقول إن الجاحظ بدا له أن يستعمل « تحاذق » صوغاً من عنده أو نقلاً عن غيره ، ليؤدى معنى فى صدره . وكان من الميسور له أن يستعمل « تحذَّق » أو « تحذلق » ، واللفظان فى المعجمات ؛ إلا أنه جرى على مقاييس العرب فى كلامها ، واستن بسنتها فى وضعها للغة ، فقال تحاذق كما قال غيره : تجاهل .

وليس لأحد أن ينكر ذلك ، فقد نصّت العلماء (الخصائص لابن جنى ص ٣٦٢) على أن : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول ، وإنما سمعت البعض فقست عليه غيره ؟ » إلى آخر ما أورده ابن جنى الحجة الثبت فى ذلك الوضع من كتابه ، وهو لطيف .

وفى « الخصائص » أيضاً (ص ٣٧٤) : « وذكر أبو بكر أن منفعة الاشتقاق لصاحبه أن يسمع الرجل اللفظة فيشك فيها ، فإذا رأى الاشتقاق قابلاً لها أنس بها ، وزال استيحاشه منها ؛ فهل هذا إلا اعتماد فى تثبيت اللغة على القياس ... ؟ » . وأزيد : إذا لم يعارضه السماع معارضة ، (كورود « استحوذ » فى القرآن) ، فالوجه ههنا أن ندع ما أنت عليه فى القياس إلى ما عليه العرب فى النطق

* * *

ألا إنى لأرجو أن ينبه المنهومون على الحرف المصحّف ، واللفظ المختل القلق ، والتعبير الذى فيه اضطراب وركة . وأما الذى يلى ذلك مما يتصل بفن الاشتقاق والمجاز ، ويجرى مجرى التوليد اللطيف ، والتعريب المقبول ، فليفوّضوا أمره إلى الناشئين المتصرفين فى وجوه المعانى ، ومذاهب الأساليب ، البصراء بأسرار لغتهم ، وأوضاعها ... إننا نريد الهواء النشط واللغة تريده ؛ والجمع إنما أنشىء ليغنى لا ليُفتقر .

بشر فارس

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك السنوى
٥٠ فى مصر والسودان
٤٠ للطلبة ومعلمى الإلزام
٧٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
١٠٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٠٦ — الثلاثاء ٩ من ذى الحجة سنة ١٣٥٩ — ٧ يناير سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

"الثقافة" فى عامها الثالث

باسم الله تفتتح "الثقافة" العام الثالث من حياتها ، وهى أشد ما كانت اغتباطاً ، وأوسع ما كانت رجاءً ؛ فقد اتصلت بنفوس قرائها الكثيرين ، وأصبحت جزءاً من حياتهم العقلية ، يترقبون موعدها ، ويتحينون صدورها ، وينشدونها إذا غابت ، ويشفقون بقراءتها إذا حضرت ، ويعدونها غذاءً من غذائهم الروحى ، ومتاعهم الأدبى ، وقد وثقوا صلاتهم بها ، يقدمون إليها خير نتاجهم ، ويستفسرون منها عما خفى عليهم ، ويحبذون نواحى قوتها ، وينقدونها فيما يأخذون عليها ، ويحنون عليها فى حالها .

وهى من جانبها لم تدخر وسعاً فى أداء واجبها ، فأخلصت للعلم والأدب ، وحرصت على أن تخدم الحق ؛ فلم ترض للعلم الرخيص ، ولم تنزل للأدب الوضيع ، ولم تحد عن الحق .

لقد صادفتها مصاعب كثيرة ، منها ما هو مادى ومنها ما هو معنوى ؛ فقد غلا الورق وصار ثمنه أضعاف ما كان ، حتى صار ثمن المجلة ورقاً أبيض يكاد يكون أكثر مما تباع به — فكيف مع التحرير والطبع ؟ وعز فى السوق حتى صعب الحصول عليه ، وفرغ الناس لأخبار الحرب والسياسة أكثر مما فرغوا للعلم والأدب ، ولم تكثر قراء المجلات الجدية فى الشرق بنسبة انتشار التعليم فيه ، وانكماش الأمية منه ؛ وقلّ الانتاج الأوربى ، وقلّ وصوله إلينا ، إلى غير ذلك من عوائق ؛ ومع هذا ظلت المجلة سائرة فى سبيلها ، علماً منها بأنها تؤدى واجباً ولا تطلب مغنما ، وتغزو الجهل ولا تغزو المال ، وتفتح أبواباً للعلم والأدب ولا تفتح متجراً ؛ و " لجنة التأليف " من ورائها تشجعها على المضى فى سبيلها مهما لاقت ، ولا تعبأ بالمال مهما تحملت ؛ وكل غايتها أن تخدم غرضاً رمت إليه ، وتحقق أملا آمنت به وصممت عليه .

لست أنسى يوم خروج " المجلة " لأول عهدها ، واللجنة واجفة تحسب لها ألف حساب ، وتخشى الفشل أشد خشية ، وترى أن هذا أول عمل لها من نوعه ، وأنه يخالف ما درجت عليه ، فهو يعرضها للاتصال بالجمهور وجهاً لوجه ، ويربطها به ارتباطاً دقيقاً بالساعة والدقيقة ، ويلزمها بتقديم الغذاء الصالح له دائماً أبداً ، لا يعفيها من ذلك صيف ولا شتاء ، ولا إجازة ولا عيد ؛ وأنها لا تفرغ من عدد ظهر إلا لتفرغ لعدد يظهر .

ومما كان يزيد خوفها أن الله وفقها فى كل ما حاولت ، من اختيار أعضاء ، ونشر كتب ، وإنشاء مطبعة ، وما إلى ذلك من أعمال ، فهى لم تجرب الفشل أبداً ؛ ومن أجل ذلك هلعت من تصور الفشل فى عمل .

واليوم ، وقد مضى عليها سنتان ، تستقبل العام الجديد بقلوب مطمئنة ، حامدة الله على النجاح المتتابع ، والفشل الهارب ، شاكرة لجمهور القراء حسن ثقتهم ، ولطف معونتهم ، وجميل تشجيعهم .

وليست السنتان الأوليان فى عمر مجلة بالشىء اليسير والزمن القصير ، فقد وُضعت الأعلام ، ووضح النهج ، وتفتحت العيون للتجارب ، تستفيد من النجاح ومن الفشل ، وتتعرف وجوه القوة فتستزيدها ، ووجوه الضعف فتقويها ؛ ولا سيما أنهما سنتان بعشر ، استوت مع باقى السنين فى الطول ، ولكنها اختلفت عنها فى العرض ، فاذا صلب عودها على العسر فأولى أن تزهر فى اليسر ، وإذا سلمت فى البؤس فهى أصلح للبقاء فى الرخاء .

لقد استرشدنا بنصيحة ابن المقفع الغالية ، إذ يقول : " على العاقل أن يحصى على نفسه مساويها فى الدين ، وفى الرأى ، وفى الأخلاق ، وفى الآداب ؛ فيجمع ذلك كله فى صدر أو فى كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف عليها توظيفاً ، من إصلاح الخلة أو الخلتين أو الخلال فى اليوم أو الجمعة أو الشهر ؛ فكلما أصلح شيئاً محاه ، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب " .

فنحن أعرف بما عملنا ، وما يجب أن يعمل ، وما كان عليه ماضينا ، وما يجب أن يكون عليه مستقبلنا ، والخطوات التى قطعناها ، ومدى الأغراض التى ننشدها . ولكنا لا نسرف فى وعود ، ولا نتبجح فى آمال ؛ نؤثر أن نعمل من أن نتكلم ، ونفاجئ بالاصلاح من غير سبق نُذُر . ولنكرر شعارنا الذى اتخذناه من يوم إنشائها ، وهو : " إلى الأمام والله يؤيدها " .

أحمد أمين

أمريكا ودول المحور

رسالة ونبوءة

لمحرر « الثقافة » السياسي

كان الرئيس روزفلت في رسالته التي أذاعها على الشعب الأمريكي لمناسبة العام الجديد ، والتي تناول فيها موقف أمريكا من الحرب الحاضرة أشد صراحة ووضوحا منه في أية رسالة سابقة ؛ وإذا كان الرئيس روزفلت لم يخف في أي تصريح سابق أن أمريكا تزمع بالرغم من حيادها أن تبذل كل ما في وسعها لمقاومة عدوان النازية والفاشستية ، ونصرة الجبهة الديمقراطية ، فإنه يحمل في رسالته الجديدة على دول المحور وعلى أغراضها أعنف حملة ؛ ويصرح بصورة قاطعة أن أمريكا ستقف في هذه الحرب صراحة إلى جانب بريطانيا العظمى ، وأنها لا تفعل ذلك مدفوعة بباعث الروابط التاريخية والشعبية المشتركة ، ووحدة النظم والمدنية والمصلحة فقط ، ولكن أيضاً لأن أمريكا يجب أن تعتبر بريطانيا خط دفاعها الأول ، وأنه إذا قهرت بريطانيا ، استطاعت دول المحور أن تتحكم في مصاير أوربا وآسيا وأفريقية والبحار ، وتمكنت بذلك من أن تسير إلى العالم الجديد بقوى هائلة ، وأن أمريكا يجب ألا تعتقد أنها تستطيع الاعتصام من الخطر بإزاء المحيطين الأطلانطي والهادى ، بل بالعكس فإن الخطر يمثل أمامها منذ الآن ، فإذا انهارت بريطانيا ، أضحت معرضة لنزوات الفاتح ؛ وأن أمريكا إذا أرادت أن تجتنب ويلات الحرب المباشرة فما عليها إلا أن تقدم لبريطانيا كل ما استطاعت من سلاح ومواد وذخيرة ، وأن تشد أزرها في وقفتها التاريخية للذود عن المدنية والديمقراطية ، وأن تغدو أمريكا بالفعل داراً لتموين الديمقراطية كلها بالسلاح ، وأن تفعل ذلك كله بروح العزم والتضحية كما لو كانت تخوض الحرب ذاتها .

وإلى جانب هذه التصريحات القوية الواضحة عن موقف أمريكا من الفريقين المتحاربين ، يصرح الرئيس روزفلت بأمرين في منتهى الأهمية والخطورة ، أولهما أن الولايات المتحدة ، إزاء ما توجهه إليها دول المحور من التهديد ، لا ترى ثمة أي سبب يدفعها لأن تشجع حديث الصلح حتى يجيء اليوم الذي يبدو فيه عزم المعتدين على التنحي عن فكرة السيطرة على العالم . والثاني هو اعتقاد الرئيس روزفلت بناءً على أحدث وأصح المعلومات التي وصلت إليه ، بأن دولتي المحور لن تنتصرا في هذه الحرب .

***

لما نشبت الحرب الحاضرة ، لبثت الحكومة الأمريكية مدى حين قبل أن تستطيع تحديد موقفها إزاء الفريقين المتحاربين بصورة جلية ؛ وكان الحظر عندئذ قائماً على تصدير السلاح والمواد الحربية ، وفقاً لقانون الحياد الأمريكي ، وفي نوفمبر سنة ١٩٣٩ ، أصدر البرلمان الأمريكي قانون الحياد الجديد ، وأباح فيه العودة إلى تصدير السلاح والذخائر إلى المتحاربين على أساس « الدفع والنقل » ؛ ومع أن القانون لم يفرق في ذلك بين الدول المتحاربة ، غير أنه كان من الواضح أن بريطانيا العظمى وحليفتها فرنسا يومئذ هما اللتان تستطيعان وحدهما الاستفادة منه بما تملكان من أموال احتياطية وأساطيل ضخمة ؛ ومن ذلك الحين بدأت معاونة أمريكا لبريطانيا

وحلفائها بتصدير السلاح والذخائر ؛ فلما انهارت فرنسا ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا ، أدركت أمريكا فداحة الخطر الذى تستهدف له بريطانيا بوقوفها وحدها فى وجه الخطر الألمانى ؛ وصرح الرئيس روزفلت يومئذ بأن أمريكا ستمد خصوم القوة والعدوان بمواردها المادية ، وأخذت أمريكا فى مضاعفة جهودها لامداد بريطانيا بالسلاح والذخائر والمواد الحربية على اختلافها .

ووقفت بريطانيا وقفتها المشهورة فى وجه السلاح الجوى الألمانى فى شهرى أغسطس وسبتمبر الماضيين ، وأثبتت بما أنزلته بالطائرات المغيرة من الخسائر الفادحة ، متانة سلاحها الجوى ، ومناعة أعمالها الدفاعية ؛ وانهارت بذلك مشاريع الغزو الألمانى لبريطانيا ، مؤقتاً على الأقل ؛ فازدادت ثقة أمريكا وثقة العالم بقوة بريطانيا ومقدرتها الدفاعية ؛ وتقدمت أمريكا خطوة أخرى فى التفاهم مع بريطانيا على بعض خطط الدفاع المشتركة فى المياه الأمريكية ؛ ونزلت بريطانيا لأمريكا عن بعض القواعد الحربية الهامة فى بعض أملاكها الأمريكية فى مياه الأطلنطيق الغربية ؛ ونزلت أمريكا من جانبها لبريطانيا عن خمسين مدمرة كاملة العدة ، فقدمت بذلك أعظم عون للأسطول البريطانى على القيام بالمهام الخطيرة التى يضطلع بها .

وقع ذلك كله قبل انتخابات الرياسة الأمريكية ؛ وكان يخشى أن تتأثر هذه السياسة الحازمة فى تأييد بريطانيا بمنافسات الرياسة ؛ ولكن الرئيس روزفلت مالبث أن خرج من هذه المعركة ظافراً بالرياسة للمرة الثالثة ، فى أوائل نوفمبر الماضى ؛ فكان ذلك ظفراً للسياسة التى اختطها من مقاومة العدوان الفاشستى ، ومناصرة الديمقراطية ، وتوطيداً لها ، وكان ذلك خير رد على الميثاق الثلاثى الذى سعت ألمانيا وإيطاليا إلى عقده مع اليابان ، قبل ذلك بأسابيع قلائل ، وفيه تزعم ألمانيا وإيطاليا لنفسيهما الحق فى وضع نظام جديد لأوربا ، وتعترفان لليابان بالحق فى وضع نظام جديد للشرق الأقصى ؛ وتتعهد اليابان نظير ذلك بالدخول فى الحرب إلى جانب دولتى المحور إذا دخلت فيها أمريكا إلى جانب انكلترا ؛ وكانت ألمانيا ترمى بذلك إلى إرهاب أمريكا وتثبيط همتها فى معاونة انكلترا ؛ فجاء انتخاب الرئيس روزفلت بالعكس دليلاً على أن أمريكا لا يثنيها عن ذلك أى وعيد أو تهديد .

وقد كان لذلك بالطبع أثره الواضح فى ازدياد المعاونة الأمريكية لبريطانيا ، وتدفق السلاح والذخائر والمواد الحربية إليها ؛ وكان من جراء ذلك أن لجأت ألمانيا ، بعد التهديد المقنع ، إلى التهديد المباشر ، وصرح الناطقون بلسانها بأن مضى أمريكا فى معاونة انكلترا على هذا النحو يثير موقفاً دقيقاً ، وإن ألمانيا لا تستطيع أن تصبر على ذلك إلى ما لا نهاية ؛ وتلا ذلك أن هددت الصحف الألمانية ، وهى لا تنطق إلا بوحى حكومتها ، بأن الأوامر ستصدر بإغراق كل سفينة تأتى بالامداد الأمريكية عن طريق المياه الارلندية .

وقد رأينا رد الرئيس روزفلت فى رسالته على ذلك كله . فقد بسط بمنتهى الشجاعة والصراحة موقف الولايات المتحدة ، وأكد عزمها الذى لا يتزعزع على مقاومة العدوان الألمانى إلى النهاية ، ومؤازرة بريطانيا العظمى بكل ماوسعت باعتبارها خط الدفاع الأول عن أمريكا ذاتها . هذا إلى أنه لا لوم ولا تثريب على أمريكا فى موقفها ، فهى لا تفعل فى معاونة بريطانيا بمواردها إلا كما تفعل روسيا والسويد وغيرها فى إمداد ألمانيا ببعض المواد الحربية التى تستهلكها .

* * *

على أن أهم ما يلفت النظر فى هذه الرسالة التاريخية ، هو تصريح الرئيس روزفلت بأن الولايات المتحدة لا ترى

إزاء التهديد الفاشستي وجهاً لأن يشجع حديث الصلح ، وبأنه يعتقد بناءً على أحدث المعلومات وأصحها أن دولتي المحور لن تنتصرا في الحرب .

فأما عن حديث الصلح ، فقد أغلق الرئيس روزفلت باباً كانت دولتا المحور تحاولان أن تلجآ إليه كلما لاحت لهما بارقة أمل في إنهاء الحرب لصلحتهما قبل أن تبلغ بريطانيا مرتبة التفوق في القوى ؛ وقد بذلت أمريكا قبل نشوب الحرب وبعد نشوبها جهوداً عديدة لتسوية أسباب النزاع الذي دفع بأوربا إلى الهاوية ، وكانت انكلترا وفرنسا دائماً على استعداد للدخول في أية تسوية معقولة ؛ ولكن ألمانيا وإيطاليا وقفتا في وجه كل محاولة سلمية ، وأبتا إلا أن تلجآ إلى حكم القوة . وربما أراد الرئيس روزفلت أن يشير في تصريحه إلى بعض المحاولات التي بذلتها دولتا المحور أخيراً في هذا السبيل عن طريق بعض الدوائر المحايدة ، مثل الفاتيكان وغيره ، ولم تلق سوى الإعراض من جانب بريطانيا .

وأما نبوءة الرئيس روزفلت عن مصير الحرب ، فهي بلا ريب تصريح ذو شأن ؛ ومن المحقق أن كثيرين يشاطرون الرئيس اعتقاده ؛ وفي تطورات الحرب منذ أغسطس الماضي ما يشجع على هـذا الاعتقاد ؛ فقد وقفت موجة الظفر الألماني في فرنسا عند شواطىء المانش ، وفشلت مشاريع هتلر في غزو انكلترا ؛ وانكشفت قوى الفاشستية في ألبانيا ، وفي الصحراء الغربية ، وكسبت بريطانيا معركة الامبراطورية في الشرق الأدنى ؛ واضطربت خطط المحور في البلقان وأوربا من جراء هذا التطور الفجائي ، واعتبرت فرنسا من جانبها بهذا التطور فازدادت مقاومة للضغط الألماني ، وازدادت إباءً لمطالب هتلر وشريكه المنهزم . هذا من ناحية تطور الحوادث الظاهرة . بيد أن هنـاك ناحية أخرى لها قيمتها ؛ فنحن نعرف أن أمريكا ما زالت تحتفظ بممثليها في ألمانيا والبلاد المحتلة ، وأن الرئيس روزفلت قد أوفد من جهة أخرى بعض الثقات من المندوبين الخبراء لتتبع جهود انكلترا الدفاعية في البر والبحر والجو ؛ ولا بد أن الرئيس روزفلت استأنس في تكوين اعتقـاده بتقارير هؤلاء الممثلين والخبراء ، عن أحوال الفريقين المتحاربين .

لقــد وعد هتلر جنوده في الرسالة التي وجهها إليهم بمناسبة العام الجديد بأنهم سيحرزون في سنة ١٩٤١ نصراً يفوق نصرهم في العام الماضي ؛ وهتلر يكرر لجيشه وللشعب الألماني مثل هـذا الوعد منذ أشهر ؛ وإذا كان ثمة في هذا الوعد من جديد فهو أن هتلر يشكو من أن العالم كله متحالف عليه ، بيد أن الوعد شيء ، والتنفيذ شيء آخر . وقد كانت لدى هتلر فرصة للعمل منذ يوليه الماضي ؛ ولعله كان قد أعد كل شيء لتابعة انتصاره الساحق على فرنسا ، بالهجوم على بريطانيا العظمى ؛ ولكن وقفة سلاح الطيران البريطاني في شهري أغسطس وسبتمبر في وجه الحملات الجوية الألمانية ، وضعت حداً لسيره المظفر ، وغيرت سير الحوادث في الغرب ؛ ومن ذلك الحين تتضاءل احتمالات الغزو الهتلري لبريطانيا شيئاً فشيئاً ، وتزداد قوى بريطانيا الدفاعية ، وتبدو مناعة الجزيرة في أروع صورها .

ولا يزال هتلر حيث وقف جيشه في يونيه الماضي على أطلال فرنسا المهزومة يلتمس السبل لتحطيم الصخرة البريطانية ، ولا يجد أمامه حتى اليوم من وسيلة لهاجمتها سوى الغارات الجوية المخربة ، والقرصنة في عرض البحار . ولكن تخريب المدن ، وقتل المدنيين ، وإغراق السفن التجارية لا تكسب حرباً ، ولا تنهيها ؛ وما زال على هتلر أن يجد لنفسه طريق النصر الذي يحلم بتحقيقه ، وهو طريق تزداد وعورته يوماً بعد يوم .

(***)

استعطاف

يا عروس الشعر هذا شاعر جف معينُهْ
شارد اللب معنًّى واجف القلب حزينه
فى غيابات الليالى طالما ثارت شجونه
ويحه من ساهدٍ لم تطعمِ الغُمضَ جفونه
ما على الليل إذا انجا بت عن البدر دجونه؟
ما على البدر إذا لا ح من الغيم جبينه؟
ما على الغيم إذا فا ضت على الروض عيونه
ما على الروض إذا رنَّـ ت على النهر غصونه؟
ما يضير النهر لو تر سو على الشط سفينه؟
آه يا وحى يراعى أى عهد لا أخونه
ألهمينى الشعر إنى بين عينىّ أصونه
وإذا سال دموعاً فهو لا تحصى فنونه
تسحر الناس أغانيـ ـه ويشجيهم رنينه
والذى قد ذاب وجداً يرجف الكون أنينه
يا عروس الشعر عوديـ ـه فقد جن جنونه

(القاهرة) **محمد على مخلوف**

نزعتـــان

للأستاذ زكي نجيب محمود

لقد تعجب أشد العجب لهذين الصديقين ، يتلازمان حتى لا يكادا يفترقان في غدو أو رواح ، فإذا هما اجتمعا لنقاش رأيت فيهما نقيضين لا يجتمعان ؛ ولطالما سعيت إلى مجلس هذين الصديقين أستمتع بما يدور بينهما من حوار ، يعمق أحياناً ويضحل أحياناً ، ولكنهما فيه طرفا نقيض على كل حال ؛ ولست أذكر أني جالستهما مرة دون أن يرد إلى خاطري هـذا التقسيم الذي اقترحه وليم جيمس ، والذي يقسم الناس شطرين ، يطلق على أحدهما « أصحاب العقول الحساسة » ، ويطلق على الآخر « أصحاب العقول الجافة » ؛ ويضع في الفريق الأول المتفـائلين والمتدينين والموحدين والمحافظين والقائلين بحرية الارادة عنـد الإنسان ؛ كما ينظم في الفريق الثاني المتشائمين والملحدين والمتشككين والقائلين بالجبر في إرادة الانسان والذين يعتمدون في الرأي على التجربة والحواس .

جلس الصديقان ذات مسـاء يتحدثان حديثاً حافلاً شاملاً ، كأنما أراد كل منهما أن يبسط نفسه بسطاً فلا يخفى من مكنونها شيئاً :

— سبحانك اللهم ربي ، قد خلقت هذا الوجود فسويت ، فكأني بهذي الكائنات أنغام من لحن متسق جميل ، كل شيء في الكون يجاوب كل شيء ؛ انظر إلى غريزة الأمومة عند الحيوان تزداد شدة ورسوخاً كلما ازداد النسل ضعفاً ، وهي تزداد فتوراً كلما كان الصغار أقوى على احتمال الحياة بغير حنـان الأمومة ؛ وانظر إلى هذه الزهرات التي لا تخصب إلا إذا وجدت ما ينقل اللقاح من ذكرها إلى أنثاها ، قد بدت أروع ما يكون الزهر جمالاً في أعين النحل ، فينجذب مشوقاً إليها ، ينتقل فرحاً مرحاً من زهرة إلى زهرة ، فينقل معه اللقاح المخصب من الذكر إلى الأنثى وهو لا يدري ؛ ثم انظر إلى هذا الذي يرويه هيرودوت من أن الحيوان الخطر — كالأفاعي — لا ينسل إلا قليلاً وفي عسر شديد ، لأن خطرها وحده كفيل ببقاء هذا النسل القليل ؛ أما الحيوان الذي يقع فريسة لغيره ، لعجزه عن الدفاع ولأنه يصلح أن يكون طعاماً — كالأرانب — قد مُكِّن له من النسل اليسير الكثير ليضمن البقاء بكثرة الأبنـاء . . . . تلك وأشباهها — عندي — آيات بينات على ما في الكون من تدبير حكيم .

— وهي عندي أدلة ناهضات على أن الطبيعة قد قست حتى أسرفت ؛ فهي في ذلك كرجل أراد أن يصيد أرنباً في مزرعة ، فأقفل المزرعة على ألوف الأرانب وجمع آلاف البنادق ، وأخذ يصب ناره صباً حامياً ليظفر بالأرنب التي يريدها ، أو كرجل أراد لنفسه بيتاً يسكنه ، فابتنى مدينة بأسرها ، سكن منها منزلاً وخلّف باقيها للدمار ؛ إن هذه الطبيعة يا صاحبي تهلك شيئاً لتبقي على شيء ؛ إنها تفني أمة لتبقي على أمة ، وتقتل فرداً لتمهد الحياة لفرد ؛ إنها تتلف زرع الزارع لتسقط المطر ، وتفتك بحيوان ليحيا بلحمه حيوان .

— أرسل بصرك يا أخي إلى الأفق وانظر إلى هـذا الجمال الفتان ؛ أنظر إلى الشفق وقد خضب السماء ، وإلى الأشجار السامقة وقد انتثرت في نظام بديع ، ثم إلى . .

— صه ؛ ماذا أسمع ؟ إن طائراً يصيح في هذه الأشجار

نفسها صيحة الفزع ، فلعل طيراً جارحاً قد فتك به ليطعم .

— أفهم ما تريد ، ولولا أننا في صدر الربيع ، حيث الأرض قد لبست زخرفها وازينت في أعين الناظرين ، فانتعش بين أحيائها الأمل والرجاء ، لعذرتك في هذه النظرة السوداء ؛ إن كل ما حولنا ناطق بنشوة الحياة وجمالها ، وهذه الزهور اليانعة وحدها لحقيقة أن تستلك في لحن الوجود ، ولكن . . .

— نعم ، كانت هذه الزهور كفيلة بهذا ، لولا أنني رأيت في طريقي إليك صبياً يبيعها ، وكان الصبي عارياً جائعاً لا يرحمه الراحمون ، فقلت لنفسي : أيكون في الدنيا جمال وبين دفتيها مثل هذا البائس المسكين ؟ !

واتجهت أنظار الصديقين إلى كأنما يستطلعان رأيي ، فقلت : ليس لي معكما رأي ، غير أني آمنت أن النطق هراء في هراء ؛ إن تفكير الانسان متأثر بمزاجه ، إن اعتدل هذا اعتدل معه ذلك ، وإن مال مال ؛ فلا مناص من أن نرى أغاليط الناس المختلفة أغاليط مختلفة من التفكير ، ولا سبيل إلى وحدة الرأي إلا إن اتحد المزاج ، وهذا محال ؛ فحسبك أن تعلم عن شخص ما مزاجه لتعلم كيف يفكر ؛ إن الدنيا تعرض حقائقها أمام أبصارنا ، فينظر كل منا إلى هذه البضاعة المعروضة من ناحية تتفق ورغبته ، والعجيب أن كلا واجد منها ما يؤيد وجهة نظره ، ذلك لأن ميل الانسان يمسك زمام انتباهه فيوجهه الوجهة التي يريد ، فيرى التفاؤل من الظواهر جانباً ، ويرى التشاؤم منها جانباً آخر ، ومن مجموعة ما يرى الانسان ينشأ مذهبه .

فقال صاحب العقل الحساس لصاحب العقل الجاف — على حد تعبير وليم جيمس :

— لست أشك في هذا الذي يقوله فلان ، فلن يصلح أمرك إلا إن طرحت النطق الصارم جانباً ، وبدلت من مزاج نفسك لتصبح قادراً على فهم الوجود فهماً صحيحاً ؛ إنك لن تبلغ حقائق الوجود العليا إلا إن أقبلت عليها إقبالاً على غير هذا النحو التحليلي الذي تنهجه ، أما إن أصررت على تشريحه بمبضع العقل الجاف فلن تصل منه إلا إلى قمة باردة لا حرارة فيها ولا حياة ؛ وإن أردت لنفسك الخير فاصطنع في ذلك أسلوب المتصوفين .

— وما ذاك ؟

— ألا تعتمد في فهم الدنيا إلى عقلك وحواسك ، لأن حقائق الدنيا فوق العقل والحواس ؛ إن التصوف يشترط مزاجاً خاصاً بغيره لا يمكن الفهم ، ولا يعتد كثيراً أو قليلاً بما عند الباحث من علم ومعرفة .

— إن كانت حقائق دنيا كم فوق مقدور الحواس والعقل ، فهي عندي ليست جديرة بمشقة البحث والفهم ؛ إنني أدعو كل شيء أمام محكمة العقل ، فإن استطاع أن يبسط نفسه بسطاً واضحاً فذاك علم صحيح ، وإلا فهو نفاية منبوذة لا أقيم لها وزناً ولا قدراً ؛ إن هؤلاء الذين يفرون من حكم العقل ليحتموا وراء الايمان هم طبقة دنيا من المفكرين ، هم أصحاب عقول عاجزة لا تملك لنفسها دفاعاً من هجمات أصحاب العقول المنطقية الراجحة ، إن التقوا بهم في معترك مكشوف ؛ هم فئة حرموا القدرة العقلية القوية فتراجعوا قائلين إنه حصرهم ، وإن حقائق الحياة العليا : الله والنفس وطبيعة الوجود لا يمكن فهمها بالعقل مهما بلغت قدرته .

— قل ما شئت ، وحسبي أن العقل الصرف لم ينتج على مر الزمن إلا فلسفات متضاربة ، ولو ركن هؤلاء الأفذاذ إلى البصيرة لكان شأنهم غير هذا الشأن .

***

ثم استطرد الصديقان يتجادلان في شتى نواحي

الفكر ؛ فصاحب العقل الحساس لا يتصور أن يكون الكون مادة تخلو من الروح ، بل الكون عنده نفس كبرى كهذه النفس الانسانية الصغرى ؛ إنه لا يطيق أن يكون الانسان دابة على الأرض لا تربطها بأطراف الوجود أقوى الوشائج ، فذلك في رأيه يؤدى به إلى عزلة روحية لا يحتملها ؛ وأما صاحب العقل الجاف فلا يريد أن يرى في الكون إلا ما تدل عليه الحواس : مادة صماء ، وما هذه الحياة الانسانية في هذا الخضم الزاخر من المادة إلا فقاعة ماضية عابرة ، هي ظاهرة كهذه الظواهر الكثيرة لا أكثر ولا أقل .

وصاحب العقل الحساس يرى في الإنسان كائنا حر الارادة ، عقله يملى وهو ينفذ ، ولو لم يكن كذلك ما كانت له قيمته بين سائر الكائنات ، وأما ذو العقل الجاف فمن رأيه أن الإنسان لا يملك الاملاء ؛ إن الرغبة في شيء ما ، تلك الرغبة التي فطرت في طبائعنا ، هي التي تريد ، والعقل أداة تدبر الطريق الذي يوصل إلى الغاية التي تنشدها الارادة .

يرى العقل الحساس أن الفكرة إذا امتزجت بالعاطفة وأصبحت شعراً ، زاد ذلك من قدرها ، وأما زميله فمذهبه أن العاطفة تقلل من شأنها ، وخير للفكرة أن تصب في قالب واضح ولفظ مستقيم كالذى تصطنعه العلوم .

* * *

الصديقين نزعتان مختلفتان في كل شيء ، وإلى هاتين النزعتين ينقسم الناس جميعاً ، فئة تحس نبض الحياة ، وأخرى لا تبصر حولها غير الموت ؛ فئة يلفت نظرها ما بين الكائنات من أوجه شبه فتوحد الوجود وتوحد خالق الوجود ، وأخرى يلفت نظرها ما بين الكائنات من أوجه خلاف فتحلل الوجود في المعامل ، فإذا به ذرات كثيرات تكاد تخلو من المعنى ؛ النزعة الأولى هي نزعة الفن والأدب وما إليهما ، والثانية نزعة العلوم ؛ الأولى تتمثل في أفلاطون الذى تشابهت في عينه الموجودات فطواها تحت نماذج من المُثُل ؛ والثانية يصورها أرسطو الذى حلل كل شيء ونظر إلى الأفراد على أنها حقائق في ذواتها تستحق البحث والنظر .

النزعة الأولى تسود الفكر الألماني ، فالوجود على وجه العموم هو الحق والأجزاء لا شيء ، ومن ذلك اشتقوا نظريتهم في الدولة : الدولة هي الحق والأفراد لا شيء ؛ والنزعة الثانية تسود التفكير الانجليزي ، فلا بد في هذا التفكير من التحليل ، بدأه بيكون وعقبه لوك ، ويمثله الآن برتراند رسل ، فالأجزاء كل شيء والكل ليس إلا مجموعة أجزائه ، ومن هنا استمدوا رأيهم في الدولة : الأفراد كل شيء ، والدولة مجموعهم .

وعدت بعد هذا الحوار الجميل مفكراً متدبراً ، فاختلاف الصديقين في الرأى هو في صميمه اختلاف بينهما في المزاج والتكوين ؛ ومن العبث أن يطلب إلى أحدهما أن يفكر على غرار أخيه إلا إذا جاز أن يطلب إلى لابس المنظار الأزرق أن يرى الدنيا كما يراها لابس منظار أحمر ؛ فأخذت على نفسي منذ ذلك الحين أن يكون التسامح عندي أول الأخلاق .

زكى نجيب محمود

المقاومة الشعبية

عند قدوم نابليون إلى مصر

للأستاذ أحمد خاكى

يبدأ تاريخ مصر الحديث من اليوم الأول الذى وطئ فيه نابليون أرض بلادنا المقدسة ، فقد بدأت مصر الحديثة منذ ذلك اليوم أن تستيقظ ، بعد أن مضت عليها حقبة من الزمن استسلمت فيها للدعة والاطمئنان ، وقد بدأت علاقاتها مع الدول الأوربية تتوثق ، وبدأت الدول الأوربية من ناحيتها تنظر إلى مصر نظرة المرشد الناصح حيناً ، والطامع المتعنت أحياناً . ولكن لعل أشد ما يميز تاريخ الأمم الحديثة هو ذلك الشعور القوى الذى طاف بها منذ بداية القرن التاسع عشر . وقد تنبه الشعور القوى عند الأمم الحديثة حينما غزاها نابليون فقاومته : تنبه ذلك الشعور فى الروسيا وفى إسبانيا وفى إيطاليا ، لأن هذه الأمم جميعاً ثارت على نابليون ، وكان للمقاومة التى اصطنعتها كل الفضل فى تكوينها القوى ؛ والمقاومة فى كل أمة هى التى تبعث الشعور الأول الذى يميز المبدأ القوى .

فهل نلق حين نبحث تاريخنا الحديث مثل ذلك الشعور القوى الذى ميز حياة الشعوب الأوربية فى القرن التاسع عشر ؟ أفليس يحق لنا أن ننظر إلى تاريخ مصر منذ الفتح الفرنسى إلى الآن كوحدة عامة تمت فيها القومية المصرية ، حتى بلغت عنفوانها فى القرن العشرين ؟ أجل ! إن لنا أن ننظر تلك النظرة العامة ، ولكن ينبغى ألا نسرف كثيراً فى تقدير شعورنا القوى عند الحملة الفرنسية ؛ ذلك بأن الممالك الأوربية الأخرى التى قاومت نابليون ، كانت قد بلغت درجة كبيرة من التقدم ، فهى قد أفادت من شعور المقاومة الذى طاف بأفرادها ، وقام من بينهم زعماء ثبتوا حقوق الشعب . وكان أفراد هذه القوميات قد نالوا قسطاً عظيماً من الثروة والعلم ، فتمثلت مقاومتهم لنابليون فى حركات شعبية عامة . لكن مصر كان ينقصها كثير من العلم والمال . لذلك لم تكن المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية ظاهرة كل الظهور ، ولم تنتج ما أنتجته الحركات الأخرى من وضع أسس دستورية ، أو جهاد فى سبيل إصلاح النواحى العامة .

حينما أغارت الحملة الفرنسية كانت القوى موزعة فى مصر بين فئات ثلاث . فكانت القوة الأولى عسكرية ، فى أيدى البكوات المماليك الذين ورثوها عن فئات منهم ، وانتقلت بين أيديهم من جيل إلى جيل . كان هؤلاء موكلين بأمر الدفاع عن مصر ، لكنهم كانوا يعتمدون على نظم الدفاع القديمة ، وكان غاية ما يحسنونه أساليب الفروسية من كرّ وفرّ وغير ذلك . ثم كانت هناك قوة ثانية ، هى قوة البدو الذين سكنوا الصحراوين الشرقية والغربية وكثيراً من أنحاء الصعيد . وكان بين هؤلاء البدو عصبية تجمع بينهم ، وتخلق منهم قوة عنيفة إذا أحسن القيام عليها . ثم كانت هناك قوة ثالثة خفية فى الشعب المصرى نفسه ، وهى خليط معقد من عقيدة الشعب الدينية ومن شعوره بأن هؤلاء المغيرين كانوا أجانب يجب أن يدفع بلاؤهم .

تلك هى القوى الثلاث التى التقت بها الحملة الفرنسية حينما أغارت على مصر . ولكن لم كانت المقاومة فى مصر

ضعيفة واهنة ؟ ولم استطاع نابليون أن يقضى عليها فى قليل من الزمن ؟ كانت هذه القوى متوزعة ، فلم تكن فى البلد حكومة تستطيع أن تنسق تلك القوى الثلاث ، بل لم يكن فى مصر جيش قائم مدرب على أمور الدفاع ؛ وكان زعماء المماليك يجهلون كثيراً من نظم الحرب الحديثة ، وكانت بينهم حزازات لم يستطيعوا أن يتناسوها فى ساعة الخطر المحدق . وكان الجيش الفرنسى ثلاثين ألفاً أو يزيد ، وكلهم جنود خبروا الحرب ، وذاقوا حلاوة النصر . وكان نابليون نفسه على رأس هذا الجيش واتبع خططاً حربية حديثة كفلت له النصر السريع . لذلك أخفقت المقاومة العسكرية التى تزعمها المماليك ، والتى ساعدهم فيها بدو الصحراء . وكان أشدُّ فشل مُنيت به تلك المقاومة فى واقعتين : أولاهما شبراخيت فى ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨ ، وثانيتهما فى امبابه فى ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ .

لم يكن هنالك جيش قائم من الجنود المصريين ، بل كان أمر الدفاع موكولا إلى هؤلاء المماليك ؛ هذا على أن آلافاً من المصريين اشتركوا فعلا فى ذلك الدفاع وانخرطوا بين صفوف المماليك . لكن قوة المصريين كجماعة بدأت تظهر جليّة واضحة فى الأشهر القليلة التى تلت دخول الحملة الفرنسية . وكأنما كان المصريون فى سبات عميق فأيقظتهم أحداث الحملة ؛ كان المماليك قبل ذلك يمثلون القوة السياسية المشئوم ، لكن المصريين كانوا راضين بحكم المماليك على ما كان ينطوى عليه من تعسف ، لأنه كان لذلك الحكم تقاليد انحدرت فى الحياة المصرية من جيل إلى جيل . أولئك المصريون اهتزوا حين رأوا أن هذه السلطة السياسية قد انتقلت إلى أجانب لا يجمعهم بالمصريين صلة من الدين أو العادة أو العرف . لذلك لم يذعن المصريون مطلقاً للحكومة الفرنسية الجديدة ، على الرغم من أن هذه الحكومة حاولت أن تستهويهم وتتملقهم بمختلف الوعود ، بل وحاولت أن تصلح من شأنهم وأن تدفعهم إلى التقدم فى كثير من نواحى الحياة .

كان نابليون يريد أن يجتذب الشعب المصرى إليه ، فكان أول ما فعل عند قدومه إلى مصر أن أذاع منشوره المعروف . وفيه ينعى على المماليك أنهم أفسدوا فى مصر ، وفيه يكاد يدعى أنه مسلم ، وفيه يتملق الوطنية المصرية . لكن أهم ما فيه أنه وعد بإقامة حكومة أهلية يدير شؤونها العلماء والفضلاء . وإقامة حكومة أهلية كان شيئاً لم يسمع به المصريون من قبل ، ولعلهم لم يكونوا يعرفون كيف تكون الحكومة أهلية . ولكن لم يكن نابليون كريماً صادقاً فى بذل تلك الوعود ، فلم يكن يريد من كل ذلك إلا أن تستقر الحال فى مصر . فهو لم يكن يرى من وراء هذه الحكومة الجديدة إلا إلى اتخاذها واسطة بينه وبين الشعب حتى يستطيع أن يحصل على الضرائب التى يفرضها ، وحتى يستسيغ الشعب أوامره حين يوافق عليها مشايخه وزعماؤه . وقد كان نابليون يظن أنه سوف يكسب عطف المصريين حين يقيم حكومته على أساس شبه دستورى ، لكن الشعب المصرى لم ينصرف عن سوء الظن بالأجنبى . بل لقد كان الشعور الاجتماعى حياً متنبهاً ، حتى أصبحت العلاقة بين المصريين والفرنسيين سلسلة من الفتن والمقاومات والثورات .

أقام نابليون حكومته الجديدة ، محاولاً أن يشرك بعض شيوخ الأزهر وعلمائه فى الحكم ، فأنشأ نظام الديوان . وهذا فى نفسه اعترافٌ بقوة الشعب المصرى الناشىء . ولكن هذا الشعب المصرى لم يكن حينئذ يشعر بقوته تمام الشعور ، لأن العلم والمال كانا ينقصانه . لذلك لم يستطع هؤلاء العلماء أن يستفيدوا من موقفهم هذا . كان يشعر الشعب بذلك الضيق أو الهوان الذى يملك النفس ، إذا ظُلمت أو أُهينت أو اعتدى عليها .

وما لبث هذا السخط أن انقلب إلى ثورة بعد ثلاثة شهور من وجود الفرنسيين . وكان يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يوما مشهوداً في القاهرة ، لأنه اليوم الذي ثار فيه المصريون على الفرنسيين ، ولأن قوة الشعب الخفية التي انكشت في ٢١ يوليه ، لم تزل تحاول أن تجد لنفسها مخرجاً حتى انفجرت في ٢١ أكتوبر ، وبين التاريخين حدثت أحداث كان من شأنها أن تثير المصريين . ولنبحث قليلاً في تلك العوامل التي أدت إلى هذه الثورة.

أما أول هذه العوامل فهو عامل اقتصادي . وقد تحطم الأسطول الفرنسي في واقعة أبي قير البحرية في أول أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وشعر الفرنسيون أنهم لا بد أن يستغلوا موارد مصر استغلالاً كاملاً لأن السبل انقطعت بينهم وبين فرنسا . لذلك لجأوا إلى فرض الضرائب حتى أرهقوا الأهالي إرهاقا لا حدَّ له . فقد طلبوا قروضا من تجار يبلغ مجموعها مائة ألف من الجنيهات ، وعينوا قروضا إجبارية خاصة يؤديها أصحاب كل مهنة من المهن . واشتطوا كثيراً في نهب دور المماليك وأساءوا معاملة زوجاتهم ، حتى أخذوا من زوجة مراد بك وحدها ٦٠٠ ألف فرنك . وأسرفوا في قتل الذين خالفوهم من مماليك وعرب ومصريين .

ثم إن الفرنسيين حاولوا أن يصلحوا كثيراً من أبنية القاهرة حتى توافق أساليبهم في الدفاع والهجوم . فقد كانت القاهرة تضيق بشوارعها وأزقتها ، وكان على كل حارة باب يعتصم الناس وراءه . وقد خشي الفرنسيون أن تساعد تلك الأبواب على العصيان فخلعوا بعضها . فأثار ذلك شبهات العامة . لكن العامة أحرجوا كثيراً حين تدخل الفرنسيون في شئونهم ، إذ لم يحاول أحد من قبل أن يلزمهم بتغيير عاداتهم الخاصة . ثم إنهم كانوا يرون في تلك الحارات معتصماً وأمناً . زد على ذلك أن الفرنسيين في نفس الوقت كانوا يحصنون القلعة فحسب الناس أنهم مقبلون على أمر جليل وفقدوا الأمن والراحة والطمأنينة .

على أنه إلى جانب تلك العوامل كان هناك عامل اجتماعي آخر ، هو ذلك الاختلاف في الأمزجة والعادات بين الفرنسيين والمصريين . وظهر اختلاف العادات بين الفريقين في الفترات القليلة التي كانوا يختلطون فيها ؛ وقد حاول نابليون أن يقيم حفلات في مهرجان النيل ، والمولد النبوي ، وتعيين أمير الحج ، وعيد الجمهورية الفرنسية ، حاول نابليون أن يقيم هذه الحفلات ليجتذب إليه الشعب المصري ، لكن الشعب المصري كان محافظا ، فساءه ما كان يظهره الفرنسيون في تلك الحفلات من إسراف في طلب السرور ومن تهتك النساء في أحيان . فلم يستسغ المصريون مثل تلك الحفلات حتى لقد كان يرفض جمهورهم أن يشتركوا فيها .

من أجل هذه العوامل ظهرت الثورة في ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، واجتمعت لجنة من الثوار في الجامع الأزهر ؛ وليس من شأننا أن نصف ما حدث في ذلك اليوم العصيب ؛ ولكن حسبنا أن نقول إن تلك الثورة أظهرت فئتين من الزعماء ، كان لهم أكبر الأثر في الحوادث التي حدثت في مصر في السنين السبع التي بدأت بقدوم نابليون وانتهت بولاية محمد علي . أما الفئة الأولى فهي فئة شيوخ الأزهر وعلمائه ، وكانوا أكثر المصريين علماً ومالا . وقد أجلسهم نابليون مجلس الزعماء حين اختار بعضهم أعضاء في الديوان . أما الفئة الثانية فقد كانت فئة زعماء الرعاع . وأولئك قوم من أولاد البلد لم يؤتوا إلا قليلا من العلم ، لكنهم كانوا يسيطرون على الرعاع والدهماء . وتلحظ في الثورات دائماً هذين العنصرين : تلحظ قادة مستثيرين إلى جانب آخرين غير مستثيرين ؛ وزعماء الرعاع هم الذين يظهرون في أول الأمر فيقودون العامة إلى التدمير

تغذية الفلاح وعلاقتها بالديدان الطفيلية التى تصيبه

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

استرعت حالة الأطفال فى معاهد التعليم المختلفة انتباه الرأى العام المصرى بما نشر عن حالتهم الصحية ، وسوء تغذيتهم وهزالهم ؛ حتى قامت بعض الهيئات بتنظيم الحفلات لجمع التبرعات وصرفها فى تغذية هؤلاء الأطفال ، ولم تلبث هذه الحركة أن تلاشت ككثير غيرها فى مصر .

وهذه الحالة السيئة من جهة التغذية ليست مقصورة على أطفال الفلاحين ، فالكبار أيضاً فى كثير من جهات مصر تظهر عليهم علامات نقص التغذية ، ولا يسلم العمال المصريون وأطفالهم من ذلك أيضاً .

ومسألة التغذية مسألة معقدة لها وجوهها المختلفة ، فلها وجهة اقتصادية تتعلق بمقدار كسب الفرد ، وكفاية هذا الكسب أو عدم كفايته لسد مطالب الحياة المختلفة للعائلات الكبيرة العدد ، وهى تتأثر بمقدار ما يصرف من الدخل على التغذية . وكثيراً ما يصرف معظم الدخل على حفظ المظهر الخارجى للأفراد على حساب ما يلزم لتغذيتهم ؛ والتغذية تتأثر أيضاً بحسن أو سوء الاختيار لمواد الغذاء ، فالكثيرون ينقصهم معرفة أرخص المواد الغذائية ثمناً مع أفضليتها لسد حاجات الجسم .

كل هذه وغيرها أمور لها أهمية كبيرة فى حالة الشعب الغذائية . أضف إلى ذلك قلة المعلومات التى يمكن الاعتماد عليها فى تقدير القيمة الغذائية لمختلف الأطعمة الشعبية فى مصر ، ومن حسن الحظ أنه بدئ أخيراً فى دراسة هذا الموضوع الأخير . وإنى سوف لا أتعرض لهذه الوجوه المختلفة من مشكلة التغذية ، وسأقصر كلامى فقط على أثر الديدان الطفيلية المنتشرة عدواها فى مصر على تغذية الشعب المصرى .

والتخريب ، ثم يظهر المستنيرون أخيراً حين تهدأ الثورة . وقد حدث ذلك فى سنة ١٧٩٨ وما بعدها . فقد بدأت هذه الثورة بالتدمير والتخريب ، وكان يقودها رجال من أبناء البلد لهم عزة وكرامة . لكن هذه الثورة خمدت ومالبثت أن تجمعت تحت زعامة العلماء ، حين تولاها السيد عمر مكرم بعد خروج الفرنسيين من مصر .

وكذلك بدأت الحملة الفرنسية والمقاومة الشعبية لا تكاد تكون شيئاً مذكوراً فى حياة مصر السياسية . ولكن لم يمض عليها شهور ثلاثة حتى أصبحت هذه المقاومة كل ما يهتم له نابليون وجيشه . ولا شك فى أن إخماد الثورة كان قاسياً ، لكن الثورة أظهرت الفرنسيين والمصريين فى موقفهما الحقيق . فقد ألغى نابليون الديوان ، وأغلظ القول لأعضائه ، ودخل الأزهر بجيوشه ، وتحلل المصريون من ذلك الشك الذى كان بداخلهم ، فكان العداء بينهم وبين الفرنسيين صريحاً .

فلنذكر إذاً أن مصر قد تحرك فيها شعور المقاومة الشعبية عند ما غزاها نابليون . ولنذكر أن هذا الشعور لم يكن قومياً أو وطنياً بالمعنى الذى نفهمه الآن ، ولكن لقد كان شعوراً اجتماعياً يأبى الظلم ويشعر بالهوان . وقد كان هذا الشعور مقدمة لحياة قومية عرف فيها الشعب نفسه ، لكنها لم تبلغ عنفوانها إلا بعد قرن أو يزيد .

(بنى سويف) أحمد غناكى

وعلاقة عدوى الطفيليات بالتغذية قد عرفت من زمان بعيد ؛ فقد ذكر ابن سينا فى كتابه القانون فى الطب منذ تسعة قرون أن المصابين بالدودة الوحيدة يشكون دائماً من جوع كلبى ، فهم يقبلون على الطعام بشهية كبيرة ، يستوعبون منه مقداراً كبيراً ، وذلك غير مقصور على عدوى الدودة الوحيدة ، فالأمهات المصريات كثيراً ما يقدمن أطفالهن للطبيب قائلات إن الطفل يأكل كثيراً ، ولكن لا يظهر لهذا الأكل أثر فى نمو جسمه . ويتبين عند الفحص أن الطفل يأوى الكثير من ثعابين البطن (الاسكارس) فى أمعائه .

وقد تنبه قدماء المصريين لعلاقة أخرى بين الطفيليات وتغذية الفرد ؛ فقد جاء فى ورقة البردى الطبية الشهيرة Ebers Papyrus أن العدوى بالديدان تسبب بطأً فى نمو الجسم وتأخيراً فى الوصول إلى سن البلوغ .

وما شوهد على الانسان يشاهد أيضاً على مختلف أنواع الحيوان فى مصر ، بل إن الحيوانات أسوأ حالا منه ؛ فالمواشى المصرية والأغنام والدواب تأكل كثيراً ولا يظهر أثر ذلك عليها ، فهى على حال سيئة من الضعف والهزال ؛ ولا غرابة فى ذلك ، فكثير منها يأوى فى أمعائه آلافاً من الديدان التى تمتص غذاءه ولا تترك للحيوان إلا القليل مما يأكله ليمتص من الأمعاء ويستخدمه الحيوان فعلا .

ولنأخذ مثلا ديدان الاسكارس (ثعابين البطن) فهى ديدان يبلغ طول الواحد منها ربع متر ، ويوجد منها عادة فى أمعاء المصاب بضع عشرات ، وقد تبلغ فى حالات قليلة عدداً كبيراً ؛ فهناك طفل من قليوب خرج منه بعد العلاج ٢٥٣ دودة من الاسكارس محفوظة فى متحف كلية الطب . فلنتصور طفلا يأوى ٥٠ دودة ، وهذا ليس بالعدد الكبير ، يأكل طعامه العادى الذى لا يكاد يهضم حتى تلتهمه هذه الديدان الواقفة للغذاء بالمرصاد . وإذا علمنا أن كل أنثى من هذه الديدان تضع فى اليوم الواحد ٢٠٠٫٠٠٠ بويضة وهى تزود كل بويضة بمقدار من المح لغذاء جنينها داخل البويضة حتى يبلغ أشده ، وإذا علمنا أن المح هو من أدسم مواد الغذاء وأغناها ، لأمكننا أن نتصور المقدار الكبير من الغذاء الذى تمتصه الاسكارس من أمعاء الطفل المصاب بها ، وأنها لا تترك له إلا القليل لينتفع به ، ولعلمنا لِمَ يأكل الطفل كثيراً ولم تشكو الأمهات من أن هذا الأكل الكثير لا يظهر له أثر فى نمو الطفل .

وهذا هو الحال أيضاً فى الدودة الوحيدة التى تبلغ سبعة أمتار طولا وتبلغ عقدها ألفاً كل منها كأنها حيوان مستقل من الوجهة التناسلية ، تخزن العدد الكبير من البويضات ، وتحتاج لكميات كبيرة من الغذاء تزود بها أجنتها ، وعلى ذلك فليس هناك غرابة فى أن المصاب بها يشعر بجوع مستمر كجوع الكلاب كما ذكر ابن سينا .

وهذا هو الحال أيضاً فى عدوى ديدان الانكلستوما التى تضع أنثاها ٢٠٫٠٠٠ بويضة كل يوم . وتمتاز ديدان الانكلستوما من الديدان الأخرى بإفرازها سما يحدث فقر الدم ، ويذهب بقوى الفرد البدنية ويضعف حدة ذكائه .

أما البلهارسيا الموية فتؤثر على التغذية بإتلافها جدران الأمعاء الغليظة فتعوق امتصاص الغذاء ، وتفتح لمختلف الميكروبات طريقاً للدخول إلى الجسم .

وهذه الطفيليات المختلفة لا تنتشر بنسبة واحدة فى أنحاء القطر المصرى ، فهى أكثر انتشاراً فى الوجه البحرى منها فى مصر الوسطى ، وهى نادرة الوجود فى مصر العليا ، أى مديريات جرجا وقنا وأسوان . وذلك يرجع إلى انتشار الرى بالراحة وكثرة ترع الرى وارتفاع مستوى الماء فى باطن الأرض ورطوبة التربة .

فبفحص سكان قرية صفط العنب فى مركز كوم حاده تبين أن ٩٦٪ منهم مصابون بعدوى الطفيليات ، بينما تبين بفحص سكان قرية السباعية بمديرية اسوان

سنة ١٩٣٣ أيام ريها رياحوضيا أن بها صفرا ٪ مصابا بعدوى الطفيليات . ولكن بعد إدخال الري الصيفي إليها بواسطة الطلمبات صارت عدوى البلهارسيا بها ٤٤٪

وانتشار عدوى الطفيليات له أثر محسوس في حالة التغذية ، ولكن كثيراً من الباحثين قد أغفلوها عند دراستهم هذا الموضوع . فمتوسط كسب الفلاح في أراضي الدلتا يفوق كثيراً ما يكسبه زميله في مديريات جرجا وقنا وأسوان ؛ وكمية الغذاء التي يتناولها الفرد في الوجه البحري أكثر وأسخى ومتنوعة إذا قورنت بما يأكله الأفراد من نفس الطبقة في المديريات الجنوبية ، وهم الذين تنتج أراضيهم محصولاً واحداً في السنة عقب فيضان النيل ، ثم تستمر جرداء معرضة للشمس المحرقة باقي العام إلى أن تغمرها مياه الفيضان في العام التالي .

إن أصحاب الأملاك في هذه المديريات الجنوبية متذمرون من هذه الحالة ، ويطالبون الحكومة دائماً بتحويل أرضهم من ري حياض إلى ري مستديم ليزيد دخلهم . ولكننا إذا قارنا صحة سكان هذه المناطق الجنوبية بصحة سكان الدلتا لوجدناهم أحسن المصريين صحة وأقواهم عضلاً وأطولهم أعماراً ؛ فعليهم نعتمد في الأعمال الشاقة كتعبيد الطرق وإنشاء المباني الضخمة ومد الطرق الحديدية وشق الترع والمصارف حتى في أنحاء الدلتا نفسها وشحن وتفريغ السفن في الموانى ، فهو هو الصعيدي الذي يحتكر هذه الأعمال ؛ وما ذلك إلا لأن المقاولين قد وجدوا بالخبرة أنه أكثر إنتاجا وأشد قوة من سكان الدلتا . ولو شاهدنا هؤلاء الصعايدة مجتمعين فيما يسمى التراحيل لوجدناهم يعيشون على طعام تافه يحملونه في أكياس من الخيش يكون معظمه من الخبز الجاف المصنوع من الأذرة والشعير وقليل جداً من الادام مما يجدونه في المزارع في الأماكن التي يشتغلون بها .

ومرض البلاجرا — وهو أهم مظهر لنقص التغذية في مصر — لا أثر له في مديريات الوجه القبلي الجنوبية ، ومعظم حالاته في ريف الوجه البحري ، حيث وجد في بعض القرى أن نسباً عالية من السكان مصابون به ؛ وهذا المرض يسبب طفحاً جلدياً في الأجزاء الظاهرة من الجسم التي لا تغطيها الملابس ؛ وهي الوجه والرقبة والصدر خارج حدود الجلباب ، وكذلك اليدان عند نهاية الأكمام والقدمان ؛ وهذا الطفح يسميه الفلاح القشف ، هذا المرض هو الذي يعتمد عليه الباحثون في تقرير نقص التغذية وتحديد مناطقها في مصر ؛ وقد وجد أن الطفيليات موجودة بكثرة في الأفراد المصابين بهذا المرض ، حتى إن بعض الباحثين قد قرر أن البلاجرا في مصر نتيجة لعدوى الديدان ، واعتبر الطفيليات كسبب مباشر للمرض ؛ فأثناء الحرب الماضية تفشى مرض البلاجرا بين أسرى الأتراك في المعادي ولا توجد البلاجرا في بلادهم الأصلية . وانتهى الباحثون إلى أن السبب في تفشي المرض هو عدوى الأسكارس التي انتشرت بين الأسرى . وقد وصل بعض الباحثين المصريين إلى أن البلاجرا في مديرية البحيرة سببها العدوى بالبلهارسيا المعوية . ولكن المتفق عليه الآن هو أن الطفيليات تسلب الناس غذاءهم أو تعطل امتصاص الغذاء من الأمعاء فتسبب البلاجرا . فليست العبرة بكمية الغذاء التي يتناولها الشخص بل بكمية الغذاء التي تمتص نهائياً من أمعائه ويستعملها جسمه . ولا شك في أن أهالي المديريات الجنوبية يستفيدون الفائدة التامة من كل ما يأكلون ، وعلى تفاهة غذائهم فهو كاف لاحتفاظهم بحيويتهم كاملة ؛ بينما سكان الوجه البحري تسلب الطفيليات معظم غذائهم على كثرته فتظهر عليهم علامات وأمراض نقص التغذية .

وللتغلب على هذه الحالة لنا أن نختار بين طريقين :

فاما أن نزيد في غذاء الأفراد وتلاميذ المدارس حتى يمكننا أن نسد حاجة الطفيليات ويبقى ما يكفي لجسم الشخص ، أو أن نطرد الطفيليات ونعمل على عدم الاصابة مستقبلا فيكفيهم غذاؤهم الحالي .

وقد اتجه الرأي إلى العلاج الأول لأنه لم ينتبه الكثيرون إلى السبب الحقيقي في نقص التغذية ، وقامت تلك الحركة الكبيرة وجمع المال لاعطاء أطفال المدارس غذاء إضافيا ، ولم تلبث تلك الحركة أن جمدت ويكاد أن لا يكون لها أثر الآن ، بل إننا نسمع أن الظروف الاقتصادية قد قضت بتخفيف كمية الغذاء التي يتناولها الطلبة . ولا شك أن هذا العلاج ليس بالأفضل ؛ فلو عالجنا هؤلاء الأطفال من هذه الديدان — وهذا سهل ميسور — لأصبنا كما يقال عصفورين بحجر واحد ، فشفيناهم من الأمراض التي تنشأ من عدوى الطفيليات ، وهي مهمة خصوصاً في بيئات التعليم كالتأخر في نمو الجسم وبلادة التفكير والذاكرة وكثرة النسيان والأنيميا ؛ وهذه كلها ذات أثر لا يستهان به في الهبوط بمستوى التعليم ، ويكون نتيجة التخلص من الطفيليات أن يصبح الغذاء الحالي كافياً في أكثر الحالات .

وفحص الفرد لعدوى الطفيليات وعلاجه منها أمر سهل ميسور ، فمستشفيات البلهارسيا والانكلستوما المنتشرة في طول البلاد وعرضها تعمل ذلك بدون أجر ؛ وفحص البول والبراز مكرسكوبيا في أي معمل للتحليل كفيل بمعرفة ما هنالك من الديدان الطفيلية . ويجدر بوزارة المعارف أن تعمم نظام فحص التلاميذ جميعاً للوقوف على ما بهم من عدوى الطفيليات وعلاجهم منها . وسترى إن فعلت أن ما سينتجه ذلك من رفع مستوى التعليم يعوضها أضعافاً لما أنفقته في سبيل الفحص والعلاج . فقد حدث أن بعض الأطباء زار مدرسة في مكان ما في كينيا ، وفحص جميع التلاميذ للطفيليات وعالج المصابين منهم ، وكان يشرف على المدرسة جماعة من الارساليات الدينية ، فلاحظوا أن أكثر التلاميذ الكسالى والتلاميذ الشاغبين والذين يتكرر سقوطهم في الامتحان مصابون بالانكلستوما ، وقد تحسنت حالتهم بعد العلاج بشكل ظاهر ، فاتبعوا خطة علاج جميع الراسبين بعد كل امتحان بدون فحصهم طبياً لتعذر ذلك في مكانهم النائي وكانت النتائج طيبة جداً في إصلاح حال التلاميذ .

فيجدر بكل والد أن يعمل على فحص أبنائه دوريا لعدوى الطفيليات وعلاجهم منها ، خصوصاً إن شاهد على أحدهم سرعة نسيان ما يحفظه من الدروس أو عدم القدرة على المذاكرة طويلا ، أو إذا شاهد المعلم عدم قدرته على الإصغاء والانتباه طول وقت الدرس ، فقد يكون الفحص وعلاج الطفل في ذلك الوقت له أثره البالغ في تحسين مستقبل حياة الطفل بل وتحويله من فشل محقق إلى نجاح تام .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	ص ٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

نظرات فى الأدب الغربى :

القصـــــة

للمرحوم الأستاذ فخرى أبو السعود

يبدو لأول وهلة أن القصص أحدث ضروب الأدب ، ولكن الواقع أن الحديث هو هذه الصورة التى يبدو فيها اليوم . أما القصص نفسه فهو أقدم أشكال الأدب ؛ فإن حب الحكاية من أعمق الميول فى نفس الانسان تأصلا ، والجماعات البدائية تتداول شتى القصص والأخبار والأساطير عن تاريخها ورجالها ، وعن مظاهر الطبيعة المحيطة بها قبل أن تعرف الشعر والأدب الراقى . وحين ترتقى الجماعة ويرتقى الشعر بين أظهرها يدخل القصص فى شعرها دخوله فى نثرها ، فتكون الملاحم والدرامات ، كملاحم اليونان الأقدمين ودراماتهم التى يدور موضوع كثير منهـا حول حروب طروادة وحول حرب فارس .

عرف اليونان الملاحم والدرامات ، وعنهم أخذها الرومان ، ومن هؤلاء وأولئك أخذ الأوربيون هذه الأشكال الأدبية ؛ فكان ممن عالج الدرامة فى عصر النهضة الأوربية شعراء العصر الاليزابيثى فى انجلترا ، وكان ممن عالج الملحمة وأشعار المخاطرات وقصصها أريوستو وتاسو الايطاليان ، وسبنسر وملتون الانجليزيان ، وسرفانتيس الأسبانى صاحب قصة دون كيشوت ، وبلغ من رواج هذه القصة الأخيرة أن غدت فى أوربا كلها مثالا يحتذى ، وظلت قصة المخاطرات هى النوع الرئيسى للقصص إلى القرن السابع عشر .

وكانت أكثر قصص المخاطرات تصور أعمال أبطال متحلين بكل فضيلة من الشجاعة إلى الصلاح إلى العفة ، فضلا عن القوة والجمال ؛ يأخذون على عواتقهم مهمات خطرة صعبة المنال ، وتتكلل مجهوداتهم بالظفر ببطلة القصة التى تتحلى هى أيضاً بالمُثُل العليا من الفضائل والصفات ؛ وكانت هناك بجانب هذه القصة قصة الأفّاق الشارد الذى يحمل رأسه على كفه ، ويكتسب قُوتَه بالضرب فى الأرض ، لا رأس مال له إلا مهارته وحيلته وخدعته والسيف والحصان .

نفقت تلك القصص فى ذلك العصر لأنها كانت تلائم نفسية أهله وتعكس صورة ذلك المجتمع وتُردد أصداءه . كانت الملكية المطلقة تسود أوربا إلى ذلك العهد ، وكان الأشراف لا يزالون محتفظين بالكثير من امتيازاتهم ، وكانت عامة الناس لا تزال تشقَى وتحتقر ، وكانت الحروب لا تكاد تهدأ بين الدول والملوك والأمراء والمذاهب الدينية ، وكان الأمن لم يتوطد بعد ، والمجتمع الحديث لم تستقر قواعده ؛ ومن ثم كانت تلك القصص تتغنى بأعمال الملوك والأبطال والأشراف ، وحتى الأفاقين وقطاع الطريق ، وتهمل عامة الشعب الذين لم يكن لهم باع ولا يد فى محفل ذى بال ؛ وكانت تلك القصص التى تردد أصداء ذلك المجتمع تزخر بأنباء الحرب والمبارزات وسفك الدماء ؛ ولأن الفكر الأوربى كان لا يزال فى نشوئه ونهوضه ، كانت تكسو تلك القصص مسحة من الغرارة والبساطة ، فتتغنى بالفضائل المطلقة ، وتترنم بتغلب الفارس الفاضل دائماً على الفارس الشرير ، كما كانت تعج بآثار السحر والخرافة .

فلما توطد المجتمع الأوربى فى فرنسا وانجلترا وغيرهما فى القرن السابع عشر تحت حكم المصلحين من البوربون والتيودور ، وفترت الحروب الدينية التى زعزعت جوانب المجتمع وعرفت تقدم النهضة زمناً ، ظهرت طبقة من الشعب متوسطة عرفت أخيراً بالبورجوازى اكتسبت

ثروتها ومكانتها من التجارة والصناعة وغيرهما من الأعمال التي تتفق بتوطد السلم ، وانتشر التثقف والتأدب بين هذه الطبقة وذاع حب الأدب بينها ، فلم يعد وقفاً على فئة قليلة من الأشراف ؛ وبتوطد المجتمع على هذا النحو اتخذت القصةُ صبغتَها « الاجتماعية » الحديثة التي اطرد وضوحها على مر الزمن ، فنبذت الخاطرات في البقاع المجهولة والتفتت إلى الأعمال المادية في الحياة اليومية المألوفة ؛ وبدلاً من التغني بالخير المطلق والفضيلة المطلقة وتصوير الشر المطلق والرذيلة المتجسمة ، انصرفت القصة إلى تحليل النفس وتمييز خيرها وشرها وتقرير حقائقها على ما هي عليه .

فأهم ميزات القصة الحديثة التي ازدهرت في الآداب الأوربية منذ القرن الثامن عشر إلى اليوم أنها اجتماعية تجول في المجتمع الحاضر وتحلله تحليلاً واقعياً ، وتصور أفراده وتحلل نفوسهم تحليلاً دقيقاً ، وإن لم ينف هذا أن قصص الخاطرات لم تندثر ولم ينبذها ذوق الجمهور القارئ وما تبدأ تماما ، ولكن القراء إنما يلجأون إلى قصص أمثال والترسكوت وستيفنسون ودماس أحياناً طلباً للتفكه والتغيير والفرار من الحاضر الواقع إذا ثقلت وطأته على النفوس ؛ ولكن أهم ميزات القصة الحديثة هي كما نقول أنها قصة اجتماعية ، بينما كانت القصة القديمة قصة بطولة ؛ والقصة الحديثة واقعية علمية تحليلية ، والقصة القديمة كانت خيالية سطحية مملوءة بالخوارق والفارقات والمصادفات غير المحتملة .

وكانت فرنسا في القرن السابع عشر والذي يليه تقود القارة الأوربية في الحضارة والثقافة ، فكانت القصة بمظاهرها الحديث أسبق ظهوراً فيها ، وكانت كتابات مدام لافاييت الحجر الأساسي في صرح القصة الفرنسية الحديثة . وممن عالج القصة بعدها ماريفو الذي كان له أثر عظيم على ريتشاردسون المعدود مؤسس صرح القصة الانجليزية في القرن الثامن عشر ، كما عالج القصة الطويلة والقصيرة في فرنسا في ذلك القرن كاتبا العظيمان روسو وفلتير . وما استهل القرن التاسع عشر حتى زخرت بحور القصة في انجلترا وفرنسا ، وتابعتهما الشعوب الأخرى ، حتى ظهرت القصة الروسية على أيدي جوجول وترجنيف وتولستوى وغيرهم من أقطاب القصة الروسية التي بهرت أوربا الغربية .

وإنما توطدت القصة في الأدب الأوربي ، ونمت هذا النمو وراجت كل هذا الرواج للظروف الاجتماعية المصاحبة لانتشارها ، وأهم هذه الظروف انتشار الديمقراطية ، فالقصة صورة من الأدب ديمقراطية ، على حين أن الشعر والدراما صورتان من الأدب أرستقراطيتان ، إما لأن الاستمتاع بهما يستلزم ثقافة لا تتوفر للفرد العادي ولا ينالها جمهور الناس ، وإما لأن شهود الروايات الممثلة في غير مقدور الفرد العادي الفقير ؛ وقديماً حين أراد بركليس أن يجعل الدرامة في أثينا متعة شعبية عامة اضطر إلى إدخال الجمهور المسرح مجاناً .

والقصة إنما نشأت في النمو كما تقدم القول بظهور الطبقة الوسطى التي تلذ قراءة تلك القصة ، والتي تدرس القصة أحوالها المادية بدل التوفر على وصف مغامرات الفرسان والأبطال ؛ واستتبع نمو الديمقراطية انتشار التعليم بين مختلف طبقات الشعب ، فاستطاع الكثيرون مطالعة القصة . وكان الأميون في العهد القديم يروون ظمأهم إلى الحكاية بتبادل القصص والأسمار شفاهاً ، فلما تعلموا القراءة آثروا القصص المكتوبة التي هي عادة أبرع تأليفاً ، وإذ كثر الجمهور القارئ للقصة كثرت القصص حتى طغت على ما عداها من ضروب الآداب .

ثم كان التقدم العلمي الذي تجسم في القرن التاسع عشر فساعد أيضاً على رقي القصة وأبان مزاياها ؛ فإن القصصيين تبعاً للنزعة العلمية التي سادت العصر الحديث انصرفوا إلى الدقة في الأوصاف والتحليلات والتزموا الواقع وصوروا الحقيقة عارية ، والقصة ولا شك أرحب

صدراً لهذه النزعة العلمية من الشعر أو الدوامة ، لأن القصة تتسع لشتى الأوصاف والتفصيلات التي لا يتسع لها الشعر الذي هو بطبيعته أميلُ إلى الخيالي والنظرة العامة والتعبير المحكم الجامع ، فاتسعت القصة الحديثة لشائق الممتع من الأوصاف للطبيعة وحياة المجتمع ودخائل النفس .

وانتشار التعليم العام كان له أعظم الأثر في حالة المرأة : فبعد أن كانت في العصر القديم — باستثناء بعض نساء الطبقة الأرستقراطية — معزولة عن الأدب والعلم أقبلت عليهما معاً ؛ والقصة ولا شك أليق بطبيعة المرأة المتأدبة من الشعر أو غيره : هي بطبيعتها أميلُ إلى قراءتها نظراً لسحة القصة الاجتماعية سالفة الذكر ، وهي بطبيعتها أقدرُ على التأليف فيها لما في القصة من دقة وتفصيل تنزع إليهما المرأة ، على حين تعزف عن النظرات الشاملة والأخيلة الجامحة ؛ ومن ثم راجت القصة بين النساء المتعلمات رواجاً عظيماً ، ونبغت كثيرات منهن في كتابتها ، ومنهن في انجلترا جين أوستن وشارلوت برونتي والكاتبة المعاصرة فرجينيا وولف ، وفي فرنسا جورج صاند وكولت وجاربيل رفال .

وصحب نمو الديمقراطية الحديثة أيضاً اتجاه الأدب كله اتجاهاً اجتماعياً وسياسياً ونزوعه إلى المشاركة في حكم الدولة وإصلاح أحوال الشعب ، فوجد الأدباء الراغبون في الاصلاح وقيادة الفكر في بلادهم أن القصة سلاح لهذه الأغراض ماض : ففي القصة يستطيع الكاتب أن يصور الحالة التي يبغي إصلاحها أدق تصوير حتى يجسم لقرائه عيوبها وبشاعتها ، وفيها يستطيع أن يصور العلاج ويوازن بين الصالح والفاسد ؛ ففي انجلترا اتخذ دكنز القصة وسيلة لإصلاح أحوال العمال كما عمل قصصيو الروس على عرض ما كانت تجيش به أحوال بلادهم الاجتماعية من مفاسد ورذائل ، ولقوا في سبيل ذلك العنت والاضطهاد ، كما كان للقصصيين الأسبان أثر بعيد في الحركات التي توالت على أسبانيا في العهد الأخير .

فالظروف الصالحة لظهور القصة هي التي عملت على نموها هذا النمو السريع حتى كادت تستأثر من دون أشكال الأدب الأخرى بمواهب المؤلفين واهتمام القارئين ؛ كما ساعد على نموها أيضاً ما لها من مزايا خاصة منها رحابة الصدر للدقة والتفصيل كما تقدم القول ، وما تستعرض من صور المجتمع والنفس الانسانية يصعب على الشعر عرضها في ذلك الوضوح والجلاء ، واتساعها لشائق الحوار بجانب ممتع الوصف ؛ فالكاتب القصصي القدير إذا التفت إلى الوصف أمتعك بما يمتعك به المصور الفنان بريشته ، وإذا اتجه إلى الحوار أطربك بما يطربك به الممثل القدير ؛ ثم إن القصة المقروءة تطوف من الآفاق وتصف من المواقف ما لا قبل للرواية الممثلة ببعضه .

هذه بعض مزايا القصة من جانب القارئ . أما من جانب المؤلف فإن في نسج مواقفها وتأليف حوادثها وتحريك أشخاصها متعة للقصصي كبيرة ، وكل ذلك يحتاج إلى مهارة عظيمة وفنية ناجحة وعبقرية خالقة . كما أن القصة تتسع لتصوير المؤلف نفسيته وتجاربه في شتى المواقف وتحت ستار شتى الشخصيات التي يخلقها ، وتتسع لفيض ذكرياته التي يحملها لعهد طفولته ، بما فيها من أشباح الرجال والنساء الذين مثلوا قصة الحياة على مسرح طفولته ، وهو يشهدها بعينيه الصغيرتين الحائرتين . والحق أن كل القصصيين عرضوا شخصياتهم في قصصهم على صور شتى ، وسجلوا ذكريات طفولتهم في مواضع متعددة .

وكان طبيعياً إذا ارتقت القصة كل هذا الرقي وشغلت من نفوس الكتاب والقراء هذه المكانة ، أن تتعدد فروعها وأشكالها ، فنمت القصة الاصلاحية والقصة النفسية التحليلية والقصة العلمية ، وقصص الرحلات إلى الشرق والغرب والحياة في المستعمرات ، وقصص الرياضة البدنية وقصص الأطفال والمراهقين . ومن القصصيين من كتب في الكثير من هذه الأنواع ، ومنهم من توفر على ضرب

خاص ، ومن القصصيين من قام بالرحلات عن قصد ليجمع الطريف من الموضوعات والمناظر لقصصه ، ومنهم من عاشر العمال زماناً حين أراد الكتابة عنهم .

ولظهور القصة وارتقائها في العصر الحديث عصر المواصلات الراقية والاتصال الفكري والحضاري الدائم بين أمم أوربا ، تأثرت قصة كل شعب أوربي بقصة الشعوب الأخرى : تأثر الإنجليز بالفرنسيين ، وتأثر القصصيون الفرنسيون ببعض قصصي إنجلترا كوالتر سكوت وديفو ، وتأثر الروس بالقصة الفرنسية والانجليزية زمناً حتى نضج قصصهم نضجه الفائق ؛ فعاد يؤثر في القصص الأوربي كله أبلغ الأثر ، بيد أن القصة الانجليزية تمتاز على العموم بأنها أكثر اجتماعية من القصة الفرنسية ؛ فالانجليز شعب يؤمن بالعمل الجموعي ، ويعنيه المجموع أكثر مما يعنيه الفرد من اهتمام ؛ ومن ثم تنصرف القصة الانجليزية إلى تصوير أحوال المجتمع ، وكثير من القصصيين الانجليز شاركوا في الدعوة إلى الإصلاح مشاركة فعالة .

أما القصة الفرنسية فلم تشارك في ذلك كثيراً ، وسمتها النـزعة الفردية ، ونزعتها تتجه إلى التحليل السيكولوجي الفرد ، كما أن نزعة الحرية الخلقية أبين فيها ، وفيها من تصوير المفاسد الخلقية ، والحياة الزوجية التاعسة والخيانة والتقلب وما جرا ، ما تنزه عنه القصة الانجليزية في جملتها ، لميل الانجليز إلى المحافظة على التقاليد الظاهرية وموجبات اللياقة . أما القصة الروسية فتجمع بين نزعة القصة الفرنسية السيكولوجية ، وبين صبغة القصة الانجليزية الاجتماعية ، وتضم إلى هذه وتلك واقعية صارمة وبساطة في التأليف وبعداً عن الصناعة الشكلية وجواً عابساً داجناً يعكس الأحوال السيئة التي كانت ترزح تحتها روسيا في القرن الماضي .

زاحمت القصةُ الشعرَ في عالم الأدب ، وعالجها كثير من الشعراء ، كوالتر سكوت ، واميلي برونتي وميرديث وهاردي في الانجليزية ، ولامرتين وهوجو في الفرنسية وبوشكين وليرمونتوف الروسيين ؛ وصحب نهوض القصة في العصر الحديث هبوط الشعر حتى اعتقد كثير من النقاد أن عصر الشعر قد غبر ، وأنه لم يعد يلائم المجتمع الجديد ؛ وهو وهم لا يبرره النظر في تاريخ الآداب ، ولا النظر في تاريخ القصة ذاتها ومكانتها ووظيفتها ؛ فالعصر الحديث ليس أول عهد ركد فيه الشعر ثم هبَّ من ركوده هبوباً رائعاً ؛ فقد ركد في القرن الثامن عشر ، ثم نهض نهضة رائعة على أيدي الرومانيين ؛ وكما أن الشاعر الفرد يُخصب زمناً ، وتغيض ينابيع شاعريته حيناً ثم تعود أقوى وأغزر مما كانت ، فكذلك المجتمع كله تتدفق شاعريته حيناً وتنبسط ، وتغيض حيناً وتنقبض . .

والقصة على عظيم قيمتها لا تحل محل الشعر ولا تؤدي وظيفته التي كان يؤديها في القديم ، من الافصاح عن نوازع النفس الانسانية الخالدة على تغير الأحوال الاجتماعية وتوالي العصور ؛ وإنما راجت القصة في هذا العصر الحديث كما تقدم القول لتكاثر الجمهور القارئ ، ممن نالوا حظاً من التعليم يؤهلهم للقراءة دون أن ينالوا حظاً من التثقيف يمكنهم من تقدير الفنون العليا والآراء الراجحة والنظرات السامية ، وإنما يجدون غذاء عقولهم في القصص السهلة التناول ، القريبة الغور ؛ والسواد الأعظم من قراء القصة هم من هذا الفريق ، والقصص السامية القوية الناطقة العميقة الفكرة الرفيعة الأسلوب كاسدة لدى هؤلاء كساد الشعر تماماً ، فإن قرأوها فإنما يقرأونها لحوادثها السطحية ولا يفطنون إلى ما وراءها من المغازي ، وما في أطوائها من التحليلات ويمرون بما يتخللها من وصف وتحليل مرَّ الكرام ، ويتجاوزون ذلك إلى ما هناك من رائع حادثة أو واقعة غرام .

فالقصة ضربٌ من الأدب حديث عظيم القيمة تمتاز به

٢ - شاعر عباس باشا الأول

الشيخ محمد شهاب الدين

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

كان العصر الذى نشأ فيه الشيخ محمد شهاب الدين عصر صناعات لفظية ومحسنات بديعية . وهو أثر من آثار عصر الأتراك الذى اتجه فيه الشعر إلى هذا النوع من الكلام اتجاهاً نقص من قيمته وحط من شأنه ، وجعله مجرد ألفاظ مرصوفة ، وجمل مصفوفة ، لا عناية فيها بمعنى جليل ، أو تفكير سليم ، أو حس دقيق .

وكان من الطبيعى أن يجول الشيخ محمد شهاب فى هذا الميدان ويصول ؛ ما دامت الأذواق لا تزال على حالها من ولوع بالزخرف من الكلام ، والوشى من القول ؛ ولهذا نرى ديوان هذا الشاعر زاخراً بفيض لا نهاية له من هذه المحسنات البديعية . فهو يتكلفها تكلفاً ويتصيدها تصيداً ، ويحتال فى الوصول إليها بكل حيلة ممكنة لديه .

ومن الظاهرة الغريبة فى شعره أنه اتخذ من اسمه « شهاب » آلة ميسورة لاصطناع الكناية الرقيقة ، أو التورية الخفية ، أو الجناس الذى يحلو حيناً ويسمج أحياناً .

فهو يقول فى صفحة ٣٩ من ديوانه الذى لم يطبع غير مرة واحدة ، مادحاً الخديو عباس باشا الأول ، قبل توليه أريكة الحكم :

هاك من خريدة بنت فكر ما افترَّتها يد الخنا عباس
لو أتاها الشيطان يسترق السمـ ـع رماه (شهابها) بانتكاس

فهو هنا يحشر الشيطان حشراً فى القصيدة لكى يسلط عليه اسمه (شهاباً) ، مشيراً بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الجن : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » .

وقد تكون هذه التورية مستملحة ومقبولة ، لو أن الشاعر لم يكثر استعمالها ؛ ويطل إدارة الذهن عليها ، فقد أنهكها بذلك ، حتى كادت تكون مملولة فى الأذن ، مردودة ثقيلة على السمع . فهو يقول مادحاً ومهنئاً أدهم باشا مدير ديوان المدارس بمناسبة عودته من أوربا :

هاك منى وصيفة بنت فكر مثلها خادم ومثلك يخدم
حرست فى سماء حسن حلاها (بشهاب) به الشياطين ترجم

ويقول فى مدح الشيخ أحمد الصائم شيخ الجامع الأزهر ، ويهنئه بالسلامة من مرض اعتراه :

هذا (شهابك) بالمرصاد يثقب من
يستمعون ، وترديهم قوافيه

ويقول مورياً أيضاً باسمه شهاب :

الآداب الأوربية الحديثة على الآداب القديمة جميعاً ، ويناسب المجتمع المصرى كثيراً ؛ ولكن القصة لا تحل محل الشعر ولم تقض عليه ، وليس ركود الشعر فى العصر الحديث راجع إلى مزاحمة القصة إياه ؛ فالقصة والشعر ضربان من الأدب لكل منهما مزاياه ومناحيه الخاصة به ، يتجاوران ولا يتضاربان ، كما تتجاور شتى ضروب الأدب الأخرى ، وسيأتى الوقت الذى تفقد فيه القصة هذه الصدارة التى تتمتع بها فى الوقت الحاضر ، وترتد ضرباً عادياً من ضروب الأدب ، وإن ظلت لها دائماً مكانتها المحدودة ومزاياها الخاصة .

فخرى أبو السعود

إن بين الشهاب والبدر بوناً
هل تساوى فرع وأصل أصيل ؟

***

أما « الجناس » — وهو اتفاق الكلمتين فى اللفظ مع اختلافهما فى المعنى — فشائع فى شعر « الشهاب » . ولا شك أنه كان يتعمله تعملا كما اقتضته طبيعة عصره ، وذوق أهله . فالشاعر فى زمانهم كان يقاس ويوزن بما حوت قصائده من هذه الصناعات الكلامية التى لا تعدل شيئاً فى زماننا . وأغلب (جناسه) كان فى مفتتح قصائده ومستهل أبياته ومقطعاته . ولو أخذنا نحصى عليه ما استعمل من أنواع الجناس لخرج بنا القول عن المقام فنكتفى بإيراد بعض الأمثلة للدلالة على ما نقول .

فهو يخاطب عباس باشا الأول ويستهديه « بغلة » بقصيدة مطلعها :

أكئوسٌ تُجلى بنت (الدوالى)
أم شعىٌ الرضاب فيه (الدوا لى)

ويلاحظ الجناس بين الدوالى الأولى وهى جمع دالية ، والدوا لى الثانية وهى مركبة من كلمتين (الدوا) وأصلها الدواء ، ومن حرف الجر مع ياء المتكلم (لى) .

ويقول « مجنساً » أيضاً فى مطلع قصيدة يهنئ بها « عباساً » بعودته من الآستانة :

شرح الصدور قدوم أعدل (وال)
فأدر مدام الأنس صاح (ووال)

ويقول فى مطلع قصيدة يهنئ بها سموه بسلامته من الهواء الأصفر :

تاب الزمان وقال إنى (نادم)
فادعوا الندامى والمدام (ونادموا)

ويقول فى مطلع أبيات يهنئ بها سموه بولده محمد الصديق :

جاد الزمان وأبدى ليلة (القدر)
بوضع نجل جليل الشأن (والقدر)

وهكذا نرى التكلف المرذول فى استعمال الجناس واصطياد الألفاظ التى بها يتم ما ذهب إليه وقصد له . وقد يكرر الجناس فى قصائده أكثر من مرة ، فتراه فى هذه القصيدة أو فى تلك ، وتحس حين تقرؤه بسماجة النغمة المكرورة ، وثقل الكلام المردود . وأحسن مثال على ذلك جناس (الدوالى) ! ! فقد أعاده فى قصيدته التى يهنئ بها (عباسا) بقدوم الأميرة شقيقته من الآستانة حيث يقول :

صاح حيا بكأس بنت (الدوالى)
واسقنيها فإن فيها (الدوا لى)

على أن بعض هذه (الجناسات) والتوريات كان يختفى من مطالع قصائده ويظهر فى أثناء القصيد ، وفى وسط الشعر ، كقوله فى مدح صبحى بك نجل عبد الباقى بك الذى كان فى ذلك الحين أميناً لخزانة المديرية :

كم أرى (سائل) دمعى فى حمى فضلك ينهر

والتورية فى كلمة سائل ظاهرة واضحة ، وفيها إشارة إلى قوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر » .

وأغرب من ذلك كله هو إغراق هذا الشاعر فى استعمال مصطلحات العلوم وخاصة علم النحو والصرف . فهو يذكر « الحال » مورّيا بين الحال بمعنى الشأن والحال التى هى من منصوبات الأسماء فى علم النحو . ويذكر الضمير (ويورّى) بين الضمير (الإنسانى) والضمير (النحوى) . ويذكر (الأمر) و(النهى) ويقصد التورية بمدلولها فى علم النحو .

اسمعه يقول فى مدح مصطفى بك مختار مدير المدارس :

رأيت « حالا » « مُغنى » « فعل »
« أبرز » فى « شأنه » « الضمير »

فكل كلمة فى هذا البيت تحمل خلفها تورية نحوية

من حال إلى فعل ماض إلى إبراز الضمير إلى ضمير الشأن .

واسمعه يقول مادحاً سامى باشا ناظر الوقائع :

هو الفلك المحيط بكل معنى وفياض الفضائل فى الأنام
(بيان)حلى(معانيه)(بديع) وسحر حديثه حكم الكلام

فهو يورى هنا بعلم البيان والمعانى والبديع فى شطر واحد .

واسمعه يقول مادحاً حسن باشا محافظ المحروسة ومورياً فى الحقيقة والمجاز من علم البيان :

ما لأيديه فى (الحقيقة) شبه
إذ (مجاز) النوال فيها (مرسل)

فاستعمل هنا كلمات الحقيقة والمجاز والمرسل ، وهى من اصطلاحات علماء البيان .

ويقول فى القصيدة نفسها مشيراً إلى علل الصرف :

علل الصرف فى الضرورة تلفى
كيف ذو الصحة اختياراً يعتل

ويورى فى قصيدته لابراهيم بك رأفت وكيل ديوان المدارس ببعض مصطلح الحديث فيقول :

إنى على دعوى الهوى والحب لى حجج قويه
(وحديث) أشواقى إليـــك (مسلسل) بالأوليه

***

وكان الشهاب أولع فيما أولع به من المحسنات الكلامية بالكنايات الكثيرة ؛ فهو لا يدعو القمر قمراً ، ولكن يسميه « سليل الشمس » . ولا يسمى الخمر خمراً ولكن يدعوها « ابنة الكرم » . ولا يسمى قصائده قصائد ولكن يدعوها « وصائف » أو « أبكاراً » أو « أوانس » أو ما إلى ذلك . ولا يسمى المطر أو الماء ماء ولكن يدعوه (ابن السحاب) أو (ابن المزن) .

اسمعه يقول من قصيدة لعبد الباقى بك خازن الخزانة الخديوية :

زوجت (ابن مزنة) بنت كروم العنب

ويقول ممتدحاً السيد محمد البكرى شيخ السادة البكرية ونقيب الأشراف فى زمنه :

(بنت كرم) عذراء شهد لماها
كشذا المسك فى مذاق العقار

ويقول فى القصيدة نفسها :

زوجوها (بابن السحاب) فجاءت
من دراري حبابها بذرارى

والمعنى لطيف فان الخمر لما مزجت بالماء حدث من هذا المزج أو الزواج ذرية كثيرة هى الحباب الذى يطفو على وجهها كالدرارى المنثورة .

ويقول فى مدح عارف بك شيخ الاسلام فى تركيا :

أرجو قبول (وصيفة) قد قلدت
بحلاك عقداً لم تنله وصائف

فهو هنا يكنى عن قصيدته (بالوصيفة)

ويقول فى مدح الخديو عباس باشا الأول :

هاك منى(خريدة بنت فكر) ما اعترتها يد الخنا بمساس

ويكرر الشطر الأول بنصه فى قصيدة أخرى يمدح بها الشريف « محمداً بن عون » . ولا شك أن هذا التكرار فى الأشطار والألفاظ والمعانى والجناس دليل على إفلاس الشاعر وقلة بضاعته . فهو يقول للشريف :

هاك منى خريدة بنت فكر جهرت فى منصة وزفاف

ويكنى عن قصيدة أخرى للشريف عون بأنها « وليدة فكر » فيقول :

خذها (وليدة فكر) راق منظرها
كأن ريقتها ضرب من الضرب

ومما ذهب إليه الشيخ محمد شهاب فى شعره « استعمال التاريخ » وهى بدعة شاعت فى عصور الشعر المتأخرة ؛ وكان لها فى ذلك الزمان شأن أى شأن . وإذا راجعنا دواوين الشعراء منذ أيام محمد على باشا إلى العشر الأولى من مطلع القرن العشرين وجدناها مشحونة باستعمال

التاريخ ؛ ولم يسلم من ذلك شاعر واحد . حتى امتدت العدوى إلى شعراء فى العصر الحديث نعدهم من الفحول ، ونحسبهم فى شعراء الطليعة ؛ كالمرحوم اسماعيل باشا صبرى ؛ فان المتصفح لديوانه الذى طبع أخيراً فى ثوب من العناية والرونق ، وجلى فى حلة من التدقيق وحسن الذوق يرى الشاعر الكبير يستعمل التاريخ فى بعض مقطعاته .

على أن هذه البدعة الشعرية قد ماتت فى زماننا هذا ولم يعد بحمد الله من يبكى على موتها ، أو يتطلع إلى إحيائها ؛ فقد أدرك شعراء العصر الحديث ما تقتضيه صناعة التاريخ الشعرى من التكلف والعنت والضرورات التى قد تضحى باللفظ الفخم النبيل ؛ أو الأسلوب العالى المستوى إلى لفظ ساقط أو أسلوب مرذول لتستقيم الحسبة التاريخية .

أما الشيخ شهاب فقد عنى بالتاريخ الشعرى عناية فائقة ، واختص به جزءاً كبيراً من ديوانه ، فهو يؤرخ لكل حادثة فى زمانه ، أو لكل حدث من أحداث عصره ، بالبيتين أو الثلاثة أو الأربعة أو الخمسة ، ولم يزد تاريخ من تواريخه عن ستة أبيات ، ولم يقل عن بيتين .

فهو يؤرخ لبناء القناطر الخيرية سنة ١٢٦٣ هجرية فى خمسة أبيات ، ويؤرخ لتولية عارف بك مشيخة الاسلام فى تركيا ببيتين ؛ ويؤرخ لقنطرة جددها ابراهيم باشا نجل محمد على باشا سنة ١٢٦٤ ھ ؛ ويؤرخ لستر الكعبة الشريفة سنة ١٢٤٣ ھ ، ويؤرخ لباب قبة الامام الحسين رضى الله عنه سنة ١٢٢٩ ھ فى ثلاثة أبيات ؛ ويؤرخ لوفاة الأميرة حواء هانم أخت الخديو عباس باشا الأول سنة ١٢٢٩ ھ ؛ ويؤرخ لكثير غير ذلك مما عظم أوهان من أحداث الزمان ، فيؤرخ لانشاء منظرة أو بناء حمام ، أو وضع غلام . . .

* * *

ويظهر من مطالعة ديوان الشهاب أنه كان خفيف الظل ، بارعاً فى الطلب ؛ وكثيراً ما عاد من مطالبه مجاب الدعاء ، محقق الرجاء . فهو يطلب (بغلة) من الخديو عباس باشا الأول فى شعر خفيف ظريف ، فتجاب طلبته . . . وكان (السَّمن) نادر الوجود فى زمن من الأزمان ، فيكتب إلى على بك حسيب أمين جمرك بولاق قصيدة طويلة يطلب فيها مقداراً من السَّمن بثمنه . . ويقول فيها :

أَلْيَّةً بالسمن أو زبدة ... لله در أصلها الحليب
لأعرضن الحال للفتى الذى ... رجاء من رجوه لا يخيب

* * *

ولقد مدح الشيخ شهاب كثيراً من أعلام عصره ، ورجالات دهره . فمدح منشئ مصر الحديثة « محمد على باشا » ونجله ابراهيم باشا وعباس باشا الأول . ومدح أدهم باشا ومصطفى بك مختار ناظرى المعارف أو مديرى إدارة المدارس كما كان الاسم فى ذلك الحين . ومدح الشريف محمد بن عون وعارف بك شيخ الاسلام بتركيا والسيد محمد البكرى نقيب الاشراف والسيد محمد العروسى والشيخ حسن العطار والشيخ حسن القويسنى والشيخ أحمد الصائم شيوخ الجامع الأزهر والشيخ محمد العباسى المهدى المفتى ، والشيخ محمد عليش شيخ السادة المالكية وغيرهم .

وكان يخاطب ممدوحيه بالكنى اللامعة لأسمائهم ؛ فتراه مثلا يخاطب عبد الرحمن بك مظهر بقوله :

فأبشر (أبا عوف) بعفو وحظوة
وطب طربا واشرب على رنة الزهر

وعلى الجملة فهو مثال جيد لشعراء مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، وشعره صورة صحيحة لعصره ، ومرآة صادقة لبيئته التى كانت خاتمة لفتح عصرنا الحديث .

(القاهرة) محمد عبد الغنى حسن

الصندوق الأبنوس

للآنسة راجية فهمي

قال الكولونيل « فون التروك » : كلا كلا ، إن هذا غير صحيح ! ثم هدأ الكلام بغتة ، والتفت إليه المدعوون ينتظرون تمام الحديث ، غير أن الكولونيل أخذ يلعب بكوب النبيذ في حركة عصبية ظاهرة ، ثم عاد إلى الكلام في خجل فقال : « مما لا شك فيه أن الحرب تلهم أعمالا نبيلة ، وتظهر صفات عظيمة من رجال لم يكن ينتظر منهم أي شيء . ولكن من ناحية أخرى بعد أشهر من الغزو تضطرب الأعصاب ويفعل التعب والخطر فعلهما ، حتى لينسى الانسان نفسه ، وينحط أحياناً حتى يصل إلى الوحشية . إني أعرف هذا تمام المعرفة . مضى ثلاثون عاماً على حصار باريس ، واليوم لا أندم على شيء من حياتي ندمي على ما حدث حول منتصف ليلة عيد الميلاد سنة ١٨٧٠ ؛ وإذا شئتم قصصت عليكم ما حدث ، غير أن حديثي ربما أخركم عن مشاهدة الأوبرا » .

كانت « فاوست » أوبرا ذلك المساء ، قد سمعها أغلب المدعوين ، فأجابت مضيفته : « إن هذا لا يهم » . فاستأذن الكولونيل في أن يدخن ، وبدأ يقص فقال :

« كنت ضابطاً في الفرقة الخامسة ، وفي شهر ديسمبر كونا جزءاً من حلقة الحصار حول باريس . وفي ليلة عيد الميلاد كنت في « نوازي لوجران » أؤدي واجبي ، وفي تلك الليلة انخفضت الحرارة حتى الثانية عشرة تحت الصفر ، فخيل إلينا أن كوخنا الصغير مأوى مريح . وكنا نستعد للاحتفال بليلة العيد ، وقد وصلنا في الصباح برميل من البيرة من أبي ، غير أن قائدنا ما كاد يقترح شرب نخب أبي حتى سمعنا طارقاً على الباب يناديني للعمل ، فخرجت ، ولم أجد الوقت الكافي للتذمر ، وسرت متثاقلا في الظلام وأنا أسمع من الخلف قائدنا يغني » .

وصلت حيث معسكر الكولونيل فوجدته في غرفة عارية ، نورها ضئيل ، وهو يقرأ في قطعة ورق ممزقة ، وقد انهمك في قراءتها حتى لقد مرت بضع دقائق قبل أن يراني . أعطاني رسالة شفوية أؤديها لقائد حامية رانسي ، وحذرني من خطورة الطريق ؛ ولكن قبل أن أخرج ناداني وأعطاني الورقة التي بيده وسألني عما أستنتج منها . أخذت الورقة فرأيت عليها جملة واحدة فيها كثير من الغلط ، وهي فيما ظهر لي رسالة من مسيو بونيه إلى ولده في باريس يقول له إن الخنزيرة الكبيرة السوداء ولد لها خمسة عشر ولداً . تطلعت إلى الكولونيل وقلت : « إنها لا تعني أكثر مما فيها » فأخذها مني وقال : « أجل ، ربما لا تعني أكثر ما فيها » .

غير أني ما كدت أتوغل في الطريق حتى طارت من مخيلتي هذه الأفكار كلها ، فأمامي أخطار لا بد أن أواجهها . عبرت المارن وسرت في الغابة حتى آخرها ، وبعد ميل وصلت إلى كوخ على مفترق طريقين فلم أعرف أيهما أسلك . ذهبت نحو الكوخ وقرعت بابه بشدة ، فلما لم يجبني أحد كسرت زجاج النافذة بمقبض مسدسي وصرخت قائلا : « أهنا يوقظكم ؟ » وإذا بالباب يفتح وتقف أمامي امرأة قروية عجوز مقعدة من الروماتيزم تحمل شمعة وتحجب ضوءها بيد ترتعش وقالت معتذرة : « إني لا أستطيع الحركة كما كنت في صباي . هل من خدمة أؤديها لسيدي ؟ » لم تسمعني كلمة لوم على زجاجها المكسور ، غير أني قطعت عليها

اعتذارانها وسألتها بخشونة عن الطريق .

وصلت إلى رانسى وأديت الرسالة وفى العودة أمدنى القائد ببعض الحراس . سرت وأنا أفكر لا فى العجوز القروية وزجاجها المكسور ، ولكن فى خنازير السيو بوتيه ! وهل إذا ضرب العدد فى شىء يعطى عدد الجندى الجدد فيقوى هذا من عزيمة أهل باريس فتطول مدة الحصار .

كنت أفكر حينما لفت نظرى بغتة قصر مضاء كله فى هذا المكان القفر ، كان قصر « آل فيلا نانوز » . وكان حول باريس قصور مثل ما هو الآن ولكنها كانت مهجورة لهرب سكانها . فكان منظر القصر وهو مضاء كيت يعيش أفراده حياة منتظمة ؛ غير أنى كنت كلما أمعنت النظر فيه ازداد تفكيرى فى خنازير السيو بوتيه ، وهل يكون هو حلقة الاتصال المفقودة . أمرت رفقائى بالسكون وترجلنا . ثم طلبت من أحدهم أن يراقب أى منفذ خلفى بينما تقدمت نحو السلم ، وقبل وصولى إليه فتح الباب وخرجت منه فتاة تحمل مصباحا . حملت المصباح عالياً حتى إن نوره وقع على شعرها ووجهها وملبسها . كانت فتاة طويلة نحيفة ، عيونها واسعة سوداء ولها وجه جميل جذاب خلق للضحك ، ولكنها الآن كانت شاحبة اللون مقطبة الجبين وقفت هنيهة ثم بدأت تحرك المصباح من الشمال إلى اليمين ، وفى الفترة التى يفىء نور المصباح وجهها كنت أرى القلق مرسوما عليه . سألتها بغتة : « من تنتظرين هذه الساعة أيتها الآنسة ؟ » لم تتحرك أو تصرخ ، ولكن المصباح فقط اهتز ووقفت بضع ثوان دون حركة ، ثم أنزلت المصباح وقالت : « إنك بروسى ! » . « أجل ياسيدتى لا تخافى شيئاً » فأجابتنى بهدوء : « إنى غير خائفة . . . ظننت أنى سمعت صوت حصان يتحرك فنزلت لأرى » فقلت : « إذاً لم يكن المصباح إشارة لرجل يختبئ فى الغابة ؟ » فنظرت إلىّ دهشة ، فقلت حقا أنها تتقن التمثيل ، ولكن مظهرها لم يخدعنى لأنى كنت رأيت على كتفيها معطفاً حربيا « ستقولين أيضاً إن هـذا معطف سيدة » فانفجرت ضاحكة ! حقا أنها كانت إهانة . إنه مهين دائماً لشاب ألا يعامل بجد وخاصة إذا كان هو المنتصر . وبكل تسامح أجابتنى : « هذا المعطف لضابط فرنسى مجروح أسر ثم أفرج عنه بكلمة الشرف وهو الآن فى منزلنا » . فقلت : « سأتشرف إذاً بمعرفته » ثم ناديت الجندى ، وما اقترب حتى ظهر على وجهها الرعب وقالت بخوف : « إنك لن تأخذه . إنه لم يضر أحداً حتى لو أراد ذلك . إنه لايستطيع » غير أنى لم أعبأ بها ، ولم أثق بما قالت ، بل ظننت أنى قد وضعت يدى على الدليل الخاص بتسرب الأخبار حول معسكرنا .

دخلت إلى غرفة الاستقبال فرأيت فتى يرقد على أريكة وعلى رجليه غطاء . ومن المؤكد أن وجهه كان جميلاً جمالاً غير اعتيادى حينما كان معافى ، ولكنه كان متعباً ، شاحب اللون . وكانت تجلس أمامه عجوز تلعب معه الشطرنج . فعرفت أنه الضابط المجروح وأن السيدة هى عمة مدموازيل « صوق » البارونة جراشيل . والتفت إلى « صوق » وسألتها عن سبب وجودها بينما هرب الجيران ، فقالت : « لان أبى مريضة لا تستطيع الحركة ونحن لا نستطيع تركها بمفردها » . فقلت : « سأتحقق من ذلك » فقالت : « سآخذك بنفسى » ولكنى أجبتها : « هذا بالضبط ما كنت أنتظر . ستأخذيننى أنت لتترك أصدقائك يحرقون كل ورقة لها أهمية ؛ إنى لا أخدع بمثل هذه السهولة » .

ناديت على الحارس وأمرته بالبحث فى أنحاء المنزل . ثم التفت إلى الضابط وسألته عن سبب مجيئه هنا أول ما أفرج عنه ، فأدار وجهه نحو صوق وقال : « لأنه يعيش هنا أعز أصدقائى » وأخذ يدها برشاقة الرجل الفرنسى

ورفعها إلى شفتيه وقبلها ، فعرفت فجأة العلاقة التي بين هذين الشابين .

ثم رجعنا إلى الملعب كأن لم يكن بالغرفة متطفل ، وشعرت بسرور عظيم حينما عاد الجندي وقال إنه لم يجد بالقصر أحداً إلا أم الدموازيل صوف وخادما تحرسها . غير أني لم أطمئن ، فبدأت بدوري أبحث في أنحاء الغرفة لعلي أجد شيئاً . ولكني لم أجد ما يثير ريبتي . كان للغرفة باب آخر فسألت عنه ، وقالت صوف إنه باب غرفة نومها ، فدخلتها حاملا الوحل والثلج إلى المخدع الجميل النظيف . بحثت في أنحاء الغرفة حتى وجدت درجا مغلقاً فطلبت منها فتحه . وبينما هي تفعل لاحظت أنها تراقبني في حذر ، فأيقنت أنها ستحتال علي ، فانتبهت وحسناً فعلت ، لأنها خطفت شيئاً وجرت مسرعة نحو باب آخر ، ولكني لاحقتها وأخذت منها ما بيدها بالقوة . كانت علبة أبنوسية منقوشة ، هذا هو الشيء الذي أبحث عنه .

ثم رأيتها تأخذ سلسلة ذهبية من عنقها تدلى فيها مفتاح ذهبي صغير ! ومدت يدها إلي وقالت بصوت منخفض : « افتحه هنا » . غير أن هذا التغيير الفجائي زاد شكوكي فقلت : « هذه حيلة أخرى . ربما تريدين كسب الوقت لصديقك في الغرفة المجاورة . كلا سنعود ونفتحه بجانب المدفأة » هززت الصندوق فإذا هو يحتوي على ما أبحث عنه ، أوراق ! جلست قرب المدفأة ، وبينما أدخل المفتاح في القفل وضعت صوف يدها على ذراعي ، وبكل رقة قالت : « أتوسل إليك ألا تفتح الصندوق هنا ، فإنك لو فعلت لنالني ذل عظيم ، وأما أنت فستندم ندماً كثيراً . لا شيء فيه يهمك . إنه يحوي أسراري الصغيرة ، ولكل فتاة أسرار تقدسها » . غير أني أجبتها بأن أدرت المفتاح فوضعت يدها على الغطاء وهمست : « كنت ألبس المفتاح في سلسلة حول عنقي . ألا يدلك هذا على شيء ؟ افتح الصندوق واقرأ الخطابات ، فستسبب لي بعملك هذا حياة موحشة حياة الوحدة والانفراد . إنك ستحطم كل أمل لي في السعادة . حقاً أننا أعداء ، ولكن سيأتي يوم تنتهي الحرب ، وأظنك لا ترغب في إطالة آلامها أكثر مما يحتمل ، وهذا ما ستفعله . ستأسف كثيراً حينما تكون بين أهلك وتعلم أن هناك فتاة في فرنسا تتألم بسببك . أجل ستأسف كثيراً » . تكلمت ببساطة غريبة ، واستغاثة اليائس ، ومنذ ذلك اليوم أتخيلها بكل وضوح كما كانت واقفة تنطق بالإخلاص الذي كنت لا أريد الإصغاء إليه ، والاستغاثة التي أغلقت أذني عنها . أتخيلها كثيراً حين لا أود رؤيتها طلباً لراحتي . كانت تتوسل من أجل كبريائها ! وليكون ملتمسها مؤثراً تنازلت عن كبريائها ، ولكنها لم تضع وقارها . ظننت أن الصندوق يحتوي خطابات غرامية ، ولكني وجدت عكس ذلك ، فأول ما قرأت كانت دعوة لحفلة عشاء وكان الإمضاء بالاسم « أرمان » ويفهم من الأسطر القليلة أنه قريب للعائلة وصل مؤخراً إلى باريس للدراسة . نظرت إلى صوف بجفاء وقلت : « كل هذه الضجة حول دعوة للعشاء إذاً ؟ هل إذا عرفت أن مسيو أرمان سيتناول عندكم العشاء يلحقك ذل ، وتضيع فرصتك الوحيدة في السعادة ؟ » ثم قرأت الخطاب بصوت عال وبتمهل . لم تجبني . بل كانت تجلس وبيدها تحجب وجهها وكل الألم باد عليه . أخذت الخطاب التالي ، إنه مسيو أرمان يكتب ليشكرهم على العشاء ، لقد كان لذيذاً وكان شكره عظيما صادراً من فتى رقيق لم يتعود ضبط النفس . وجدت بعض الكلمات تتكرر بشكل واضح ، فحاولت حل رموزها ، ولكني وجدت بعض الخطأ من الوجهة الفرنسية ، فقرأت غيرها لعلي أجد ما يفيدني . وكنت أثناء ذلك أقرأ بعض الجمل بصوت مرتفع لعلي أفزع صوف فأضطرها إلى الاعتراف ، غير أن هيئتها لم

تتغير . ثم بدأت أقارن بين الخطابات ، فكلها بنفس الخط والامضاء « أرمان » وهى تعطى صورة لفتى عاش فى باريس السنتين السابقتين للحرب ، وتعد سجلاً للحوادث من زيارة المتاحف ودور التمثيل إلى الامتحانات والجوائز والسابقات . إذا كان لهذه الجمل معنى خاص فياله من اكتشاف ، ولكن كيف لم يمر خطاب منها فى باريس ؟ وبدأت أشك فى تقديرى ، فقرأت غيرها ثم رجعت ثانية إلى الأول وقارنت بعضها بالبعض . بدأت أخاف من أن تكون هذه الخطابات حقيقية . ولاحظت الأسلوب يتغير بكل بطء ولكن بوضوح ، بدأت أشهد تقدم مسيو أرمان من فتى ريفى إلى مدنى يفقد شيئاً فشيئاً الارتباك ويصقل برقة باريس . فالشكر لا يتدفق ولا هو يحملق بإعجاب فى رشاقة السيدات . وبالاختصار لقد بدأ مسيو أرمان يملك زمام نفسه . إنها خطابات حقيقية ، ولكنها لم تكن غرامية . نظرت إلى سوق متحيراً ! لماذا كان كل هذا التمنع لفتح الصندوق ؟ إن المكاتبات تسجل بدء معرفة ، ثم نمواً مطرداً للصداقة بين فتى وفتاة ، لا شىء غير ذلك . ربما كانت تنتهى بالزواج ، ولكن لم يكن هناك أى إشارة إلى هذا . كنت لا أزال متحيراً بينما رفع الضابط نفسه من المتكأ ومشى إلى سوق ، وكان يتوكأ والألم ظاهر على وجهه ، فلم أشك فى صحة جرحه ، لقد كان حقيقياً كالخطابات ، انحنى على سوق وبكل رقة رفع يدها عن وجهها وقال : « سوق ! لم أجرأ أن أفكر فى أنك احتفظت لى بهذه المكانة من نفسك ، وكنت أقول من زمن ما أقوله الآن . إنى أرجو إذنك بالتقدم إلى مدام فيلانانوز لأطلب يدك للزواج !! فى ثانية واحدة انهار بيتى الزجاجى . كان الضابط مسيو أرمان . لقد احتفظت بكل ما كتب أرمان كعادة السيدات ، ولكن دون علمه . كان يجب ألا يعرف ، فكبرياؤها تمنعها من إظهار هذا السر ، لأنها كانت هى العاشقة . أما هو فلم يكن إلا الصديق ، حتى الكلمة التى ألقاها كانت تحوى كثيراً من الرسميات وقليلا من الحرارة ، ففهمت جيداً كيف أنى أذللتها كثيراً . وتجيب مسيو أرمان رفعت رأسها ببطء ، وقالت : « إنك تريد أن تزيل عنى الخجل . إنى أشكرك كثيراً ، ولكنك قلت ما قلت بسبب هذه الخطابات » فقال لها : « كلا ! » ولكنها أجابت بحزم : « لو أن هذا السيد لم يفتح الصندوق فربما كنت تقول ما قلت الآن ، وعندئذ أكون نلت السعادة الحقة . أما الآن فسأشعر دائماً أن الخطابات هى الحافزة لك على ما قلت » ثم انحنى لها مسيو أرمان .

لقد أضعت عليها فرصة السعادة . إن الصداقة التى بينهما ربما انتهت بالزواج لو تركت لنفسها ، ولكنى لم أتركها ، فقلت لها : « سيدتى إنى آسف » التفتت إلى وقالت : « ياسيدى لقد حذرتك لقد ضاع الآن وقت الندم »

وبينما أنا واقف لا أعرف ماذا أفعل قالت بكل رقة : « ألا تذهب يا سيدى ؟ » .

خرجت من الغرفة ومشيت فى الظلام مع الحراس ، ولكنى لم أفكر فى أى خطر يقابلنى ، فالندم قد تملكنى ، لقد سلكت مسلكا ليس فيه بطولة ولا شرف ، بل ولا أى خلق كريم . لم أستطع أن أعرف الصدق حينما صرخ فى وجهى ، ولا الأمانة حينما تراءت لى من عينى الفتاة السوداوين . إنى أفكر بأمل حائر ! هل كان الزمن بعد ذلك كفيلا بإصلاح ما أفسدت ؟ وحتى لو عرفت فإنى سأذكر وأنا فى غاية الندم ليلة العيد هذه .

ترك الكولونيل بقية السيجارة يقع من يده وقال وهو ينظر فى الساعة :

« أرى أننا تأخرنا عن ميعاد الأوبرا » .

راجية فهمى

حظ الأمم من فصائل الدم

[تكلمنا في العدد السابق عن فصائل الدم المختلفة وأشرنا في آخر المقال إلى الاحصائيات الطريفة المتصلة بتوزيع هذه الفصائل في مختلف الأمم . ورجونا أن تتاح لنا فرصة لنشر شيء من هذه البحوث وتلك الاحصائيات ولا سيما المصرية منها . وقد تفضل علينا حضرة الدكتور يوسف ميدوش الطبيب المشرف على معامل مستشفى الجيش المصري بكثير من المعلومات استقينا منها ما سنورده لقرائه في هذا المقال فله منا جزيل الشكر] (المحرر)

بعد أن اكتشف اختلاف الأفراد من حيث الفصيلة التي ينتمي إليها دم كل منهم ، اتجه الباحثون إلى معرفة مقدار توزيع هذه الفصائل المختلفة في كل أمة من الأمم . وساعد على ذلك ما تنبه إليه العلماء من أهمية هذه المباحث من ناحية إسعاف جرحى الحرب بنقل الدم إليهم لتعويض ما فقدوه أثناء النزف . ولما كان من الضروري إجراء هذه العملية بأسرع ما يمكن ، فقد رؤى أنه مما يسهل على الطبيب مهمته ويعينه على سرعة الإسعاف ، أن يكون الجندي أو الضابط قد فحص من قبل وعرف إلى أية فصيلة من الفصائل ينتمي دمه ، ووضعت له علامة تدل على ذلك ، بها يعرف الطبيب أي نوع من أنواع الدم يسعف به هذا الجريح .

وقد أدى البحث الواسع في فصائل الدم لأغراض علمية مختلفة إلى نتائج ذات أهمية خاصة ، إذ لوحظ أن نسبة توزيع الفصائل الأربع تختلف باختلاف توزيع الأجناس البشرية ، فبينا نجد في بعض البلدان تتغلب نسبة الذين تحتوي كريات دمهم على الأجلوتينوجين ا « A » بالنسبة إلى من تحتوي كرياتهم على ب « B » ، أو من خلت كرياتهم من الأجلوتينوجين ، إذا بنا نجد بلداناً أخرى تتغلب في سكانها نسبة الذين تحتوي كريات دمهم على ب « B » . كما أننا نجد بلداناً يزداد فيها عدد الذين تخلو كريات دمهم من النوعين .

وقد لوحظ عند فحص نتائج تلك التقاسيم أن الأمم التي تسكن شمال أوربا كانجلترا وفرنسا وألمانيا يكثر في دمها الأجلوتينوجين ا « A » ؛ فإذا ما اتجهنا من هناك شرقاً أو جنوباً ، أخذت نسبة هذا الأجلوتينوجين تتناقص ؛ بينما تزداد نسبة الأجلوتينوجين ب « B » ، حتى تصل إلى نهايتها العظمى في الهند .

ومن الطريف أيضاً أن نسبة من لا يحتوي دمهم على الأجلوتينوجين مختلفة التوزيع على وجه الأرض ؛ فبينما نجدها في الأجناس الأوربية والأفريقية تتراوح بين ٣٥٪ و ٤٠٪ ، وفي الأجناس الأسيوية تتراوح بين ٣٥٪ و ٢٠٪ تكون هذه النسبة عالية جداً في بعض الأجناس القديمة التي ظلت محافظة على وحدتها متجنبة الاختلاط بغيرها ؛ ومثل هذه الأجناس الهنود الحمر والأسكيمو حيث تصل نسبة الفصيلة « لا » إلى ما تزيد على ٥٠ ./· بل إنها قد تزيد على ٩٠ ./· في بعض الجهات . وهناك قبيلة من الأسكيمو تبلغ فيها هذه النسبة ١٠٠ ./· .

والظاهر أن الفصيلة لا « o » تمثل الأجناس الأولية ، التي ظلت على الفطرة ، ولم تختلط بغيرها ، ثم حدث أن وجد في العالم جنس ظهر في دمه أجلوتينوجين ا كما ظهر في دم جنس آخر أجلوتينوجين ب . (تحدث هذه الظواهر في الطبيعة ويطلق عليها لفظة طفرة ولا يعلم سببها بالضبط) . ثم حدث بعد ذلك اختلاط بين هذه الأجناس التي ظهرت فيها تلك الطفرات بالأجناس الأصلية التي خلت كرياتها من الأجلوتينوجين ، ومن ثم أخذت

النسب المشار إليها آنفاً تختلف زيادة ونقصاناً؟[١].

وقد قسمت الأجناس البشرية تقسيماً مبنياً على هذه الفروق المشار إليها هنا، وقد اتخذت نسبة خاصة أساساً لهذا التقسيم وهي النسبة المسماة بالدليل الجنسي، وتحسب بالكيفية الآتية:

متى عرف مقدار النسبة المئوية في جنس من الأجناس للأفراد الذين يحتوى دمهم على أجلوتينوجين ا والذين يحتوى دمهم على ب والذين يحتوى دمهم على ا ، ب معا، يجمع الرقم الدال على النسبة الأولى على الرقم الدال على الثالثة، ثم يجمع الرقم الدال على النسبة الثانية على الرقم الدال على الثالثة، ويقسم المجموع الأول إلى المجموع الثاني، فينتج هذا الدليل الجنسي الذي يصح كتابته بالرموز: $\frac{ا + اب}{ب + اب}$

وقد اعتبرت الأجناس التي يزيد فيها هذا الدليل على ٢ أجناساً أوربية، والأجناس التي ينقص فيها هذا الدليل عن ١ أجناساً أسيوية أفريقية. وبينها أجناس وسط هي التي يقع دليلها بين ١ ، ٢ . وهذا جدول فيه بعض تلك الأرقام:

	المجموعة حسب موس تركيب الكرية الحمراء	١ اب	٢ ا	٣ ب	٤ لا	الدليل الجنسي	عدد الأشخاص المختبرة	أسماء الفاحصين
	الانجليز	٣,٠	٤٣,٤	٧,٢	٤٦,٤	٤,٥	٥٠٠	هرشفيلد ، لانت
	الفرنسيون	٣,٠	٤٢,٦	١١,٢	٤٣,٢	٣,٢٠	٥٠٠	هرشفيلد
	الايطاليون	٣,٨	٣٨,٠	١١,٠	٤٧,٢	٢,٨٠	٥٠٠	هرشفيلد
	الألمان	٧,٥	٤١,٠	١٦,٠	٣٤,٠	٣,٠٠	١٠٠٠	سليفان
	الأتراك	٦,٦	٣٨,٠	١٨,٦	٣٦,٨	١,٨٠	٥٠٠	هرشفيلد
	العرب	٥,٠	٣٢,٤	١٩,٠	٤٣,٦	١,٥٠	٥٠٠	هرشفيلد
	المصريون	٢	٣٦	٢٤	٣٣	١,٣٨	٤٠٠٠	عبدوش
الجنس الهندي	الهنود	٨,٥	١٩,٠	٤١,٢	٣١,٣	٠,٥٦	١٠٠٠	هرشفيلد ولانت

ومما لا شك فيه أن نتائج البحوث في هذه الناحية تلقى ضوءاً يساعدنا كثيراً على حل أصعب المسائل المتصلة بأصل الإنسان، لكن ما وصل إليه العلم في هذا الصدد لا يزال مجرد قشور؛ ولابد من إجراء أبحاث كثيرة وتحليل نتائجها وربط بعضها ببعض وبمعلوماتنا الأخرى قبل أن نطمع في الوصول إلى معرفة أصل الانسان من هذا الطريق. ولا يمكننا الآن أن نقطع بصحة ما ذكر سابقاً من أن بعض الأجناس وجد قبل غيره، وأن الذي يحتوى دمه على ا أو ب وجد متأخراً عن الذي لا يحتوى أيهما. وإذا استطعنا أن نعرف بصفة يقينية أي الحالتين أقرب إلى البداية: وجود الأجلوتينوجين ا ، ب أو عدم وجودهما قربنا قرباً عظيماً من حل مشكلة أصل الانسان.

ومما يساعد على الوصول إلى نتائج شافية، التعاون بين الأمم في إجراء بحوث واسعة النطاق متجانسة في وقت واحد وتنظيمها تنظيماً محكماً على أساس دولي معتمد.

(١) هذه المسائل ما زالت قيد البحث وهناك اعتراضات علمية وجيهة على مثل تلك الافتراضات، ومن أهمها أنه قد وجد بالفعل في دم بعض القردة العالية أجلوتينوجين ا ، ب وهذه حقيقة يصعب تعليلها، إذا أخذنا بالرأي القائل بأن الجنس الأصلي هو الذي يخلو من ا ، ب وأن الجنس الذي يحتوى أيهما ظهر متأخراً بعد ذلك الجنس الأصلي.

لجة الليـــــل

يا « لجة الليل » حيِّ البدر « ملّاحا »
واستقبل نجمك الوضّاء « سبّاحا »
طال السهاد به حتى لأحسبه صبًّا يناجي أمام الليل أرواحا
واهـــتز فى الأفق حتى لا قرار له
كأنه قلبُ إلفٍ إلفـــه راحا
والزهر رق له فى سهـــده فبكى
كأنما ظنّـــه فى الأفق « فلّاحا »

******

غشيتِ وجه « ذُكاء » غير راحمة
فليغشَيَنَّكِ نور الفجـــر مجتاحا
مهما تفيضى تغيضى ، صُنع مقتدر
قد فصَّل الوقتَ إمسـاء وإصباحا
الديك — ميعادك المحدود — صيحته
فآذني بمغيض كلّمــــا صاحا
وخبّرينا أصاح الديك تحتك مُرْ
تاعاً لغيضك ، أم قد صاح مرتاحا ؟
يالجة الليل ما غذَّى مشـــاعرنا
كرؤية الروض بكّاء وصـــدّاحا
الروض فى « مأتم » ، يبكى عليك ، وأطـ
يارُ الصباح أقامت فيه « أفراحا »

شاعر البرارى

ومثل هذه البحوث أجريت فى أوربا من زمن بعيد ، ولكنها لم تجر فى مصر إلا حديثا ؛ وأهم تلك البحوث المصرية التى أجريت لمعرفة توزيع فصائل الدم بين المصريين هى التى قام بها حضرات الدكاترة : شوشة ومحمد على

٤٠٠٠ جندى لاعتبارات إحصائية ثم فحص دمها . وقد لوحظ أن نتائج المجاميع المختلفة متجانسة ومتشابهة ، ويظهر ذلك فى الجدول .

هذا وإلى القارىء خريطة للعالم ، رسم عليها توزيع



ومحرم وعبدوش . وقد أدت جميعها إلى نتائج متقاربة .

وكانت أحدث تلك البحوث وأوسعها نطاقا هى التى أجراها الدكتور عبدوش فى المستشفيات العسكرية على جنود الجيش ، وقد قسم الجيش إلى مجاميع كل منها

الاجناس البشرية ، وقد بين عليها توزيع الجنس المتوسط ؛ ويتبين منها أننا نحن المصريين ننتمى إليه ، كما أنها جمعتنا والعرب والترك والروس فى صعيد واحد من هذه الناحية الهامة .

إليهــــا ! ...

رتّل الفجر آية مستكينـــــه
وانحنى النور فوق لحد السكينة
وسرى فى الفضاء يرتع فى الكو
ن ويغشى الأماكن المسكونه
نغمات كأنها دفقة السحر   تهاوت صـــبابة مجنونه
كل شيء فى الكون يضحك بشراً
ويغنى للنـــور زهواً لحونه
العصافير فى رباها تنادى   والأزاهير كلها مفتونه
والسهول الخضراء تهيم فيهـــا
نفثات تنـــاثرت فى رعونه
القطيع الصخّاب أهوى على السه
ل يغطى مروجـــــه وحزونه
والفراش الجميل طوّف فى الرو
ض وغشى بســـحره ياسمينه
يا لصبح تموّج السحر فيه   وتهادى على مناه الحزينه
يقطر البشر ناعماً فى رؤاه   وتذيب الألحان منه حنينه
ليلة من كآبة أعقبتها   دفقة من هناءة موزونه
كغريق تقاذفته العوادى   فى خضمّ والموج يقفز دونه
أغمض الجفن مكرهاً حين ولّى
أمل بالحيـــاة لن يستبينه
وأفاق الغـــداة حياً معافى   ورأى حوله رجال السفينه .
الأمانى سعادة حين تقضى
وهى بؤس إذا قضت مكنونه ! ...

* * *

ووصمت الفتاة ظلماً بهجر   وصدود وقلت عنها خئونه
تعشق المال فهى للمال تحيا   لا فؤاد يريدها أن تصونه
قلت عنها بأنها غادرتنى   حيث تلقى الغنى وتلقى فتونه
حيث تمشى مواكب السعد سكرى
تتخطى فـــؤادها لتلينه
غير أنى رجعت بعد قليل   فإذا بالفتاة روح أمينه
زهرة لن ينال منها خداع   وكلام منمق يحسنونه ...

* * *

يا فتاتى أحبك اليوم حباً   أجّجتــه آهاتى المحزونه
وتراءى يثور ملء فؤاد   قرّحته أمواج دمعى السخينه
إن تكونى رجعت عندى وفاء   لعهودى فيا لنفس مصونه
أو تكونى رجعت عنـــدى ازدراء
لغرام أمال شـــلّ يمينه
لن تلاقى فى مهجتى غير حب
مستفيض وعطف نفس حزينه
يذهب المال والغرام متين   يقف الدهر والمصائب دونه
وتزول الكنوز والحب يسرى
فى قلوب تحب ما تحـــذرينه

* * *

يا فتاتى الحســـناء عفوك إنى
قلت ما قلت تحت وطء الخشـــونه
لا تقولى للسكين يهذى ويهذى
بغـــرام يكاد يدمى جفونه
أنت ما زلت ترتعين بحب   مطلق جامح فلا تبصرينه
فولك المال غـــير شيء خداع
أنت للحب .. للهوى .. للسكينه !..

(دمشق)   يحيى الشهابي

أنباء وآراء

قصة أبي زيد الهلالي

كنا قد وعدنا قراء الثقافة بمناسبة استفهام أحد القراء عن حقيقة الأمر في قصة أبي زيد بأن ننشر شيئاً من هذه القصة . وقد وردت إلينا بضعة ردود من حضرات القراء تناولت بالبحث منشأ هذه القصة وتاريخ بني هلال ، وقد عثرنا في نفس الوقت على بحث للأستاذ أحمد أمين عن شخصية أبي زيد الهلالي نشر في مجلة الاذاعة اللاسلكية بالعدد ٢١١ بتاريخ أول ابريل سنة ١٩٣٩ نجتزئ منه ما يأتي ، راجين من شاء من حضرات القراء أن يرجع لزيادة الإلمام إلى هذا العدد .

كان أبو زيد هذا في القرن الخامس الهجري وهو من قبيلة « هلال » ونسب إليها فقيل هلالي .

وهلال هذه كانت قبيلة كبيرة بدوية تسكن نجداً يجاورهم في مسكنهم قبيلة أخرى اسمها سليم ، وكانت هلال وسليم جفاة سلابين نهابين ؛ يخرجون من ديارهم فيغيرون على أطراف الشام والعراق حتى ضجت منهم الدولة العباسية وأرسلت في أيام الواثق سنة ٢٣٠ حملة بأمر القائد التركي (بغا الكبير) لتأديبهم على ما ارتكبوا من فساد في « المدينة » .

وهاجر قوم من « هلال » و « سليم » إلى مصر ونزلوا أولاً في الوجه البحري ، ولكنهم ساروا سيرتهم الأولى من سلب ونهب ، حتى ضج منهم الناس ، فأمر الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦) بطردهم إلى الصعيد ؛ ولكنهم فعلوا في الصعيد كما فعلوا في كل مكان من سلب ونهب وتخريب — وكان من بني هلال هؤلاء فروع مختلفة ، منهم زغبة ورياح وعدي ، فعم ضررهم واستغاث أهل البلاد من شرهم ؛ وفي خلافة المستنصر الفاطمي ثارت بلاد المغرب عليه فنصحه بعض مشيريه أن يبعث إلى المغرب هؤلاء العرب من هلال وسليم ، فإن ظفروا بالثائرين فقد كسب تلك البلاد وأخضع الثورة وظفر بالخصوم ، وإن انهزموا وقى الله مصر شرهم ، فأرسلهم سنة ٤٤١ وأعطى لكل واحد منهم بعيراً وديناراً ، وقال لهم قد أعطيتكم المغرب ، ففرحوا بذلك وجازوا النيل إلى برقة ببلاد المغرب ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها ، وكتبوا لاخوانهم في مصر يدعونهم إلى السفر إليهم ويصفون لهم ما هم فيه من خير ونعيم ، فأرادوا الرحيل فمنعهم المستنصر حتى يأخذ من كل واحد دينارين ، فعوض بذلك ما دفعه لمن قبلهم ؛ وسارت سليم وفروع هلال من دياب وزغب إلى تونس كالجراد المنتشر ، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى تونس سنة ٤٤٣ ، وقسموا البلاد بينهم وبين قبيلة سليم ، فأخذت سليم شرق تونس وهلال الغرب ، ووقعت بين هؤلاء العرب وبين سكان البلاد الأصليين من البربر كقبيلة زناته وصنهاجه حروب يطول ذكرها ، كما وقعت الفتن والحروب بين بعض العرب وبعض ، وبعض البربر وبعض ، وكان ذلك فيما بين سنة ٤٤٠ وسنة ٤٦٠هـ واشتهر في هذه الحروب رجال كثيرون منهم دياب بن غانم وأبو زيد الهلالي .

هذه الحروب وهذه الوقائع في القرن الخامس الهجري في بلاد المغرب هي ميدان لسيرة أبي زيد .

وهذه القصة ثلاثة أقسام : القسم الأول منها يصف تاريخ بني هلال في بلاد السرو (وهي منازل حمير بأرض اليمن) وكان من أعيان الهلالية جابر وجبير أبناء المنذر

الهلالى ، وقد رحل جبير بأمه إلى نجد وصار فيما بعد سلطانها .

أما القسم الثانى فتدور حوادثه حول رحلة بنى هلال إلى نجد وقد ألجأهم إلى هذه الرحلة من السرو إلى نجد مجاعة عظيمة فى بلاد السرو واليمن .

وقد استقبل الهلاليون فى نجد استقبالاً حسناً من الملك غانم وابنه دياب (وكان دياب من فرع جبير) ومن بنى زغبة .

وقد وقعت الحرب أخيراً بين دياب ابن غانم وأبى زيد الهلالى لأسباب نسائية يطول شرحها وانتهت بانتصار أبى زيد وخضوع دياب .

والقسم الثالث تدور حوادثه حول رحلة الهلالية إلى الغرب ، فإن أبا زيد ذهب مع أتباعه إلى تونس ليبحث عن أرض خصبة لما حلت المجاعة بنجد ، فلما حلوا بتونس واتصلوا بالبربر حدث أن وقعت « سعدة » بنت الزناتى خليفة وهى من البربر فى حب « مرعى » أحد أصحاب أبى زيد ، وقد وقعت حروب بين الهلالية والزناتية بسبب ذلك انتهت بقتل الزناتى خليفة ، ثم اختلف الهلاليون فيما بينهم على قسمة أملاك الزناتى خليفة ، ودارت الحرب بين أبى زيد ودياب انتهت بقتل دياب لأبى زيد ، فاجتمع قوم للأخذ بثأر أبى زيد منهم بريقع والجازية بنت الحسن وانتقموا من دياب وقتلوه ، وقد قتلت الجازية أيضاً فى هذه المعارك .

شاعر حقاً

قرأت فى العدد الثامن والتسعين للأستاذ الفاضل ع . ع مقالته « من وحى الأقلام » ، وعجبت منها لقوله قبل التحدث عن بعض ما كتبه الأستاذ شفيق جبرى عن تقديس الماضى :

« الأستاذ شفيق جبرى كاتب مجيد ، يعجبنى فيه أن يحتفل دائماً بما يكتب ، وينحو فيه منحى الطرافة والجدة ، وأحسبه شاعراً فى نظراته وتأملاته وخواطره » .

عجبت لهذا لا لأنى أنكره ، بل لأنى رأيت قليلاً فيه أن يُعلم من نثره أنه شاعر فى نظراته وتأملاته وخواطره ، ولا يعرف ذلك من شعره الذى ملأ ديوانه (نوح العندليب) المطبوع من نحو عشر سنين ، وفاض على نخبة من الصحف فهذا العواطف وهز الشاعر وحلق فى سماء الخيال.

إنه من مقدمى الطبقة الأولى من شعراء الشام ، سكب عبراتها فى قريحته الباكى ، ونظم مسراتها فى شعره الباسم ، وردد رجاءها وشكواها فى قصائده الخالدة . وهو الذى مثلها فى مأتم الملك والشعر فى دار الجوار ذى القربى . وهو الذى بكى لمصر العزيزة شاعرك أمير شعراء العرب فى حفلة تأبينه التى أقيمت فى دمشق ، وهو الذى قال عنه إن شعر العرب لم يجد منذ ألف عام له مثيلا ، وهو الذى حدثنا عنه عاماً فى كلية الآداب بدمشق حديثاً معجباً .

لا جرم أن بعض تبعة خفائه على بعض الباحثين تعود إلى الأستاذ الشاعر نفسه الذى كاد يصبح شاعر حفلات فيما يطالع به الناس ، ولكن شعره فى ذلك على قلته جدير بأن يجعله من شعراء العروبة الخالدين ، وقد رفع الأدب العربى ذكر من كانت قصائده تدعى بالحوليات ولم يقلل ذلك من شأنها .

ويرجع بعض التبعة إلى ضعف أسباب التعارف بين الأقطار العربية ، وزهد كثير من أبنائها فى مطالعة غير الصحف والمؤلفات المحلية .

وبعد فإن عجيباً أن يسمع قديم اليونان من هوميروس وغيره ، ويسمع قديم العرب من امرىء القيس وغيره ، ويكون لأولئك (الجمنازيوم) ولهؤلاء أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز ، ثم لا يكون لحاضر العرب منبر يتحرقون حوله بالذين يهتفون بعظمة ماضيهم وينشدون مجد مستقبلهم ، ويبكون أسى القلوب الواجفة ، ويغردون فتنتشق العطر وتستقبل البشر وننشط فى الحياة ! .

فهل من يسمون لحفلات تتوج فيها المملكة الشعر كل عام شاعراً ، وتؤلف له وزارة تعتز بها دولة الشعر العربى ؟

(العراق — أربل) أحمد مطرهد العطار

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الادارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٠٧ — الثلاثاء ١٦ من ذى الحجة سنة ١٣٥٩ — ١٤ يناير سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العــــــدد

ومصر . . . !

ملكت حوادث السياسة العالمية والحرب الثائرة فى أطراف الأرض اليوم كل اهتمام الناس فى مصر ، كما ملكت اهتمامهم فى سائر الأقطار حتى كأنهم قد أصبحوا جميعاً وليس لهم إلا وطن واحد هو العالم كله ، وقد ثارت فى ذلك الوطن حرب أهلية بين حزبين أو بين شيعتين تنادى كل منهما بمبدأ وتسعى إلى الاستيلاء على الحكم ، والناس يترقبون سير المعركة ، ويترقبون نهايتها بقلوب قلقة وشجون ثائرة .

ولم تخل النفوس فى كل شعوب الأرض من هزة خفية أو لذعة ألم كمينة فى قرارتها كلما شاهدت ما فى هذه الحرب العنيفة من كوارث تهدد المدنية بالانتقاض من أساسها . حتى الأمم التى تخوض المعركة فى أقسى صورها ، لم تخل شعوبها ممن يرددون رثاء العالم ويظهرون الجزع على المدنية الحاضرة . تلك المدنية التى تعاونت الشعوب كلها على بنائها ، والتى بذلت فى سبيل إتمامها أعمار ثمينة وعبقريات فذة ، والتى علقت عليها آمال عظام فى مستقبل البشرية عامة . ولقد سمعنا فى أقوال زعماء السياسة آيات تفيض بالأسف على ما تقاسيه الانسانية من ويلات ، وتلوح فى ثناياها عواطف الانسان نحو الانسان ، وإن كان ذلك الانسان من شعب قد ساقه

قادته إلى التصميم والتفانى ، وأكرهوه إلى الحقد والعداوة التى لا تعرف هوادة . فلا يسع المتأمل فى هذا كله إلا أن يرى أن هذه الحرب الثائرة لم تدع إليها عداوة بين الشعوب من أمثال تلك العداوات التى كانت تدفع بشعوب الشرق والغرب فى القرون الخالية ، وتجعلها تجتاح الأرض وتدك ما تجده فى سبيلها من آثار العدو المقوت . ليس الحال اليوم قريباً من حال تلك الأيام الغابرة ، فقد قطعت الانسانية مرحلة التقاطع والتنابذ ، وكادت تبلغ أملها فى التعاون بين الأقوام ، وفى إقامة السلام العام بينهم على أساس من التفاهم والتوافق لولا أن أصيب العصر الحاضر بمرض اعترض سلامته ونقض كل ما كان مؤملا من التقريب والتعاون بين شعوبه ؛ فقد تمكن أفراد قلائل فى بعض البلاد من انتزاع أزمة الحكم قهراً من جمهورها ، وقاموا على رأس دولهم يوجهون سياستها كما شاءت لهم نفوسهم المريضة ، وكما صورت لهم عواطفهم الشاذة ، وبذلك شهد العالم مشهداً لم يسبق له مثيل فى دول لها مثل ما لدول الوقت الحاضر من رقى فكرى وبصر عميق بأمور العلم والثقافة .

وليس من شأننا هنا أن نناقش الدوافع التى دفعت هؤلاء الزعماء المرضى إلى موقفهم ، الذى أدى إلى إشعال تلك النار المدمرة فى العالم ، مجازفين بتحطيم المدنية وإزالة آثارها التليدة . ولكن علينا أن ننتبه إلى ما يجرى حولنا ، وأن ننظر اتجاه الحوادث لمعرفة مكان مصر منها . فقد وقف شعب مصر فى وسط هذه الحوادث كما وقفت الشعوب الأخرى ، وقد غلب عليه الأسى والاهتمام حتى كاد ينساه نفسه ، ويحسب حوادثه الخاصة كأنها أمور ثانوية ترد إلى ظهر النظر ولا تبرز فى صدره .

ولكن الواجب واضح ؛ فنحن إذا نظرنا حولنا إلى معركة العالم ، كان علينا أن نذكر دائماً أين موقفنا منها ، وأن نحاول أن نعرف موضع أقدامنا فى الوقت الحاضر ، وفى مستقبل الأيام ، بصفتنا شعب مصر العريق فى القدم ؛ المتطلع إلى آمال المستقبل .

ليس بين أقطار العالم قطر يشبه مصر فى ظروفها الجغرافية والسياسية ، فهى بلاد فذة منذ طلع فجر التاريخ من الناحية الجغرافية ؛ فليس يوجد قطر آخر تلتقى عنده مواصلات الشرق من جهة ، ومواصلات الغرب من جهة ؛ وإذا قلنا « مواصلات » فلسنا نعنى بها مواصلات البحر وحده ، بل نعنى كذلك مواصلات البر والهواء ؛ كما أنه لا يوجد قطر آخر يصح تشبيهه كله بأنه قلعة حصينة تحوى فى داخلها كل ما يسمح لها بالمقاومة وتقوم على حدودها جدران هائلة من الصحارى الفسيحة التى تمكن حاميتها من الدفاع عنها بغير أن تصاب هى بآثار الهجوم الخارجى وبكوارث الغزو . فإذا وجدت فى مصر الحامية القوية وخطوط المواصلات السليمة كان من السهل أن تمدها مصر بما تحتاج إليه من المؤونة اللازمة لمواصلة القتال ، وأن تجعلها فارغة للدفاع وحده لا تنظر إلى شىء غير قتال العدو ، وتتسع أمامها المجال للحركة فى مدى واسع النطاق ، لا تقيدها قيود الطرق والأنهار ، ولا تعترضها القرى الآهلة .

وأما من الناحية السياسية فإن شعب مصر شعب قديم قد شعر بنفسه منذ عشرات القرون . شعر بأنه شعب قائم بنفسه متجانس فى كل مميزاته معتز بماضيه حريص على استقلاله ووحدته فى مستقبله .

وهو شعب هادىء وديع يرحب بمعاملات العالم كله ، ويحرص على تدعيم علاقاته بسائر الشعوب ، قريب إلى تفهم ثقافات العالم المختلفة ، راغب فى الانتفاع بكل ما هو مفيد منها ، غير ضنين بأن يبذل للعالم خير ما عنده فى سبيل خير الانسانية الأعم . ولكنه مع هذه الأوصاف ثابت العقيدة فى وجوده لم يتزعزع عنها فى عصر من عصوره ؛ فقد قاوم الرومان والتمس لهذه المقاومة وسائل شتى . لم يزل أبناء حكمهم له عن مقاومته ، ولم يتهاونوا فيها فى جيل من

الأجيال . ثم قاوم الحكم الأجنبي كله حتى أيام الترك ، فما زال حريصاً على التحرر عنه والاحتفاظ باستقلاله النفسي ، حتى آل أمره إلى الاستقلال السياسي المنشود . وقد أبدى في ذلك الجهاد حرصاً شديداً وعناداً قوياً لم يضعف شيء منهما على توالي الكروب والأهوال .

ولا يمكن لأحد يريد أن يرسم لمصر سياسة أن يهمل كل هذه الاعتبارات جميعاً وهي كلها تؤدي إلى نتيجة واحدة : أن مصر بطبيعتها الجغرافية وطبيعتها السياسية وحدة تامة مستقلة ، لم يكن من الممكن في وقت من الأوقات أن تندمج في غيرها ، أو تتنازل عن شخصيتها ، أو تفنى في غيرها . بل لقد دلت حوادث التاريخ على أنها مثلت كل الشعوب التي طغت في وقت من الأوقات أنها غلبتها ، وضمت أبناء تلك الشعوب إلى أفراد شعبها وخلطت دماءهم بدمائها .

فكل سياسة مستنيرة لا بد أن تعتد بكل هذه الظروف وأن تقوم على أساس واحد واضح ، وهو أن تكون مصر وحدة مستقلة تتعاون مع الوحدات الأخرى التي يضمها العالم في الشرق والغرب . وإن كانت حوادث الحرب اليوم تجعل الجو مظلماً غير واضح المعالم ، فإن على الساسة أن يخترقوا حجب الظلام الحاضر لكي يجعلوا خطاهم متجهة نحو هذا القصد الواضح ، حتى تؤمن العثرات وتتحاشى الأخطاء .

وقد استقر مركز مصر السياسي منذ أبرمت معاهدة الصداقة الوثيقة بينها وبين بريطانيا العظمى ؛ ولم تكن تلك المعاهدة حادثة مفردة ناشئة عن الصدفة أو الاتفاق الوقتي بل كانت نتيجة سير تيار الحوادث منذ سنين طويلة . فإن بريطانيا العظمى بحكم ظروف إمبراطوريتها قد وجدت نفسها مرتبطة بمصر ، ووجدت مصر بحكم ظروف موقعها أنها مرتبطة ببريطانيا العظمى ؛ وكانت بين الأمتين وجوه عظمى من التلاؤم مع اختلاف البيئتين ، وذلك لأن المصالح قد جمعت بينهما عند نقطة قوية كانت أساساً صالحاً لعقد تلك المعاهدة المباركة .

فمصر الحريصة على استقلالها قد رأت أن ذلك الاستقلال يستلزم انضمامها إلى جانب بريطانيا في نضالها حتى تطمئن إلى عدم الانفراد أمام الدول الأخرى التي قد تطمع في الاعتداء عليها ، كما أن بريطانيا قد رأت أنها محتاجة في ذلك الجانب من العالم إلى صديق تطمئن إلى صداقته للأمن على مواصلاتها الامبراطورية ، ولا تخشى منه طعنة توجه إلى نقطة هامة من كيانها ، وتجد عنده في وقت الأزمات ما يساعدها على حفظ مصالحها . فاستقلال مصر بالنسبة لمصر أساسي لحياتها ، واستقلال مصر بالنسبة لبريطانيا أساسي كذلك لضمان وجود الصديق على طريقها الحيوي .

هذا هو ملخص الموقف في نظرنا ، وهو ما يجب أن يوضع أمام الأنظار دائماً لكي تتوفر المصالح جميعها وتطمئن الخواطر من نواحيها . ومنذ أحست مصر أنها قد صارت حليفة لبريطانيا سادها اعتقاد قوي بأن مصلحتها هي أن تكون بريطانيا سالمة قوية ، وأصبح أهم ما تصبو إليه أن يبعد عنها خطر الاعتداء من أية دولة أخرى قد تطمع في الاعتداء على استقلالها ، ولذلك قد بذلت في هذه الحرب كل ما تستطيع قلة حصينة أن تبذله في سبيل المعاونة على تحقيق سلامتها . حقاً أنها ليست عدوة لبلد من البلاد المتحاربة بالمعنى المفهوم من المعاداة الدولية ، ولكنها حريصة كل الحرص على أن تدفع عن أرضها كل محاولة المساس باستقلالها . حتى وإن كانت هي غير مقصودة بالاعتداء في نفسها ؛ فإذا كان القتال الدائر بين الأمم يؤدي إلى المساس بذلك الاستقلال استرخصت في سبيل الذود عنه كل غال من الأموال والأنفس ، حتى تكون أرضها حرماً مصوناً . وهي اليوم واقفة مع حليفتها العظمى وقلبها ثابت وغرضها واضح ، ونفسها سخية بكل ما يستلزمه الجهاد في سبيل المحافظة على أرضها من تضحيات .

وقد بذلت مصر من تلك التضحيات ما نعتقد أن الدولة

العلم والمشكلات الحديثة

للأستاذ علي أدهم

يعتقد أكثر الفلاسفة أن القيم المطلقة ثلاث وهي: الجمال والخير والحق؛ والعلم هو البحث المنظم عن الحق، وأخص مزاياه أنه يطلق العقول من أسر الأوهام، ويقاوم التعصب للأفكار السابقة، ويعين على النزاهة الفكرية والتجرد من الأثرة، وهو من هذه الناحية ميدان عقلي صالح وغاية مطلوبة لذاتها، وهو ليس من ثم في حاجة إلى سبب مادي ملموس ليبرر وجوده ويقضي بفائدته، ولكن المعرفة قوة، وإدراك طبيعة الأشياء واكتناه أسرارها يمنحنا سيطرة عليها وقدرة على تسخيرها والانتفاع بها؛ فالعلم إذاً يجمع بين طرفي الحق والقوة، فهو من ناحية غاية في نفسه وفي عين الوقت وسيلة لغايات أخرى؛ والعلم من حيث هو غاية في نفسه يعني أكثر ما يعني العلماء والفلاسفة والمفكرين وأمثالهم من طلاب الحق المجرد والمعرفة الخالصة؛ ولكنه من حيث هو وسيلة يعني كل فرد متحضر.

والحضارة الحديثة تعاني أزمات خطيرة، وتعالج مشكلات تكاد تكون مستعصية، وإذا تدبرنا أكثرها وجدنا سببها أن العلم قد طبق على شؤون الحياة تطبيقاً غير محكم؛ وقد أغدقت الاختراعات العلمية الخيرات على الناس، ويسرت لهم الرخاء المادي بصورة تفوق تجارب الإنسانية الماضية، وتسمو على ما كان يحلم به الإنسان وتناجيه به الأوهام؛ وقد ساقت إليه من ضروب التنع

الحليفة العظمى تقدره لها حق قدره. ولم تتردد في إنفاذ عهدها بحرفه وروحه، كما يجب على أية أمة شريفة.

ولسنا في حاجة إلى بيان ما يجب على مصر أن تقوم به من التجهز لكي تكون قادرة على تأدية واجبها كاملا في الدفاع عن نفسها، فإن كل مصري يعرف ذلك ويرغب فيه أشد الرغبة؛ وإذا كانت ظروف الماضي قد عاقت ذلك التجهز فإن ظروف اليوم مواتية للمضي فيه بغير تردد؛ وإنا نحمد الله على أن عقيدة الحليفة العظيمة في صداقة مصر قد صارت اليوم تامة بفضل ما أظهرته الأيام من قاعدة تلك الصداقة وإخلاصها؛ فليس في الوقت الحاضر ما يمنع من أن تسير مصر في تجهزها إلى مداه لتكون أقدر على تأدية واجبات الدولة المستقلة الصديقة.

ولكن يجب ألا يبعد عن أذهان أبناء هذه البلاد، ولا عن أذهان أبناء الشعب البريطاني الصديق أن مصر إذا كانت ترغب في الاستمرار على التجهز وإتمام وسائل صيانة الاستقلال فإنها قد بذلت إلى اليوم في سبيل الدفاع عن نفسها جهوداً لا تقدر، وإنه بفضل هذه الجهود العظيمة وبفضل إخلاصها في انفاذ معاهدتها المباركة قد مكنت حليفتها العظمى من أن يصاحبها الفوز في هذا الركن من الأرض. وهي تنتظر ذلك اليوم الذي تنجلي عن العالم غمة هذه الحرب القاتمة، وتنتهي المعركة بنصرة الحق والمدنية والديمقراطية، لكي تكون أقدر على تدبير شئونها وعلى معاونة العالم في أيام السلم وعلى تطمين صديقتها الكبرى على أمنها في هذه النقطة التي يصافح فيها الشرق الغرب. فمصر القوية المستقلة بغير شك خير ضمان لأمن صديقتها وشد أزرها والمحافظة على مصالحها، ولا شيء أضمن في علاقات الدول من صداقة قائمة على الثقة وحسن النية وإخلاص الأحرار.

«مصري»

وألوان المسرات وصنوف اللهو ما لم يكن يطمح إليه بصره ولا يدنيه الوهم إلى خاطره ؛ ولكي نقدر ذلك نمد إلى ما كان عليه العالم قبل مائة سنة ، والذين ينتقدون الأحوال الحاضرة ، وينادون على طريقة جان جاك روسو بالعودة إلى الطبيعة — إذا ثبت أن عقولهم سليمة وأعصابهم غير مختلة ، أو أنهم جادون في دعوتهم ، وليست هي من قبيل التدلل على الحضارة والولوع بالغرائب والمفارقات — لا يحتملون هذه العودة إذا ظفروا بها وظفرت بهم ؛ والطبيعة في العصر الحاضر قد ذلل عصيها إلى حد كبير ، وريض جامحها وامتنع خطرها ؛ ومتاعب الانسانية في هذا العصر مصدرها التقدم العلمي ، فقد سبق تقدمنا العلمي رقينا الاقتصادي وتفكيرنا الاجتماعي ؛ وهكذا شاءت الجدود العواثر أن لا تكون عطايا العلوم بريئة من العيوب ولا خالية من الشوائب ؛ وقد أحدث التقدم العلمي مشكلات جمة تزداد شدة وتفاقماً على مر الأيام .

وأكثر هذه المشكلات حديثة وليس لها نظير في العصور السالفة ، لأن الاختراعات العلمية أوجدت ظروفاً غير مسبوقة وليست على مثال متقدم ، وقد نقلت الانسان من أحوال مضت عليها مئات السنين إلى أحوال جديدة وآفاق غير مألوفة وأحاطته بقضايا طريفة وأزمات مستحدثة . وقد بدأ هذا التحول المعروف في عرف الاقتصاديين والسياسيين بالثورة الصناعية منذ اختراع جيمس وات للآلة البخارية في أواخر القرن الثامن عشر ؛ فقد كان استعمال البخار بمثابة تسخير خادم قوى لا يمسه اللغوب ولا يدركه السأم ، وفي وسعه أن يضاعف مجهوده ، فهو أغرب شأناً من خادم مصباح علاء الدين ، وقد مكن ذلك أصحاب المعامل والمصانع من زيادة الانتاج والاستغناء عن عدد كبير من العمال ، وقلب ذلك الأوضاع الصناعية والأحوال الاقتصادية ، وأوجد علاقات اقتصادية جديدة وأفكاراً غير مسبوقة ؛ وقد كانت هذه الثورة في بادىء أمرها مقصورة على بريطانيا ، فحفلت مصانعها ، وتدفقت الخامات إلى الجزر البريطانية من شتى الأنحاء ، وأصبحت بريطانيا مصنع العالم ، ولكن هذه الأيام السعيدة لم تدم طويلا ، فقد أخذت دول أخرى تتعلم الصناعة وتحذقها وتنافس بريطانيا ، وانتقلت المنافسة من أوربا وأمريكا إلى آسيا ؛ فاليابان والصين والهند التي كانت أسواقها مفتوحة على مصاريعها للمصنوعات البريطانية أصبحت ضمن منافسي بريطانيا ، وبذلك ذهبت سيطرة بريطانيا الصناعية .

وقد كان لهذا الرقي الصناعي نتيجتان محتومتان ، فمن ناحية أخذت المصانع تخرج سلعاً ومصنوعات أكثر مما كان في الماضي لإشباع مطالب الإنسان المادية ، ومن ناحية أخرى قلت الحاجة إلى استخدام عدد كبير من العمال ، وقد نشأ من ذلك مشكل متناقض عجيب ، وذلك أننا في بهرة الرخاء الوافر والإنتاج العميم نلمح اشتداد الفاقة وتزايد الحرمان ؛ والخطأ هنا في التوزيع وأساليبه لا في الإنتاج وطرائقه ، وهذه المشكلة من أكبر مشكلات العصر الحديث .

وليست البطالة في العصر الحاضر مشكلة محلية موقوتة ، وإنما هي الآن مشكلة عالمية عسيرة ، لا يخفف من وطأتها انتعاش التجارة ووفرة الأرباح ، وقد استفحل دواؤها وعز علاجها ، وهي لا تتلبث فحسب ، بل تتزايد وتتفاقم لأنها ناشئة في الأصل من تقدم العلم وتطبيقه العملي الذي تزداد كفايته وتنمو مقدرته ويتسع نشاطه وتعظم براعته ؛ وقد تصدى لعلاجها الديكتاتوران المعروفان هتلر وموسوليني ، وأوهما أمتيهما أنهما سيأتيان بالمعجزات ، ويفجران الماء من الصخر ، وكان قصارى صنيعهما أن يعالجا تلك الأزمة بالاسراف في صنع الأسلحة وتهيئة أمتيهما للحرب ؛ وما صنعاه لم يخرج عن كونه أكذوبة

اقتصادية قبلتهـا أمتاهما في صرعة من صرعات اليأس ، ونوبة من نوبات الحيرة .

وحل هـذا المشكل لا يصلح له رجال على طراز الديكتاتوريين الحاليين ، دأبهم إضمار السوء وتبييت الشر ونقض مبرم العهود والاستهانة بكل شريعة ؛ وإنما يتطلب أسمى العقول وأرجحها ، ويستلزم جدة في الرأي ونضارة في التفكير وصفاءً في النفس ونزاهة في القصد ، ووضع مصلحة البشرية فوق كل اعتبار ، لا مصلحة شعب من الشعوب أو أمة من الأمم أو طبقة من الطبقات ؛ فكيف توزع هـذه الفيوض الغامرة من الخيرات وهذا الانتاج الضخم الزاخر الذي يحيل العالم فردوساً أرضياً ؟ وكيف توازن بين الجهد والمثوبة ، وكيف تلبي حاجات الانسان المادية دون أن تسيء إلى نفسه وتنقض بناءه الروحي وكيانه الأدبي ؟ هذه هي المشكلات التي لا مفر من مواجهتها إذا أردنا سلامة المجتمع الانساني ووقايتـه من الانحدار إلى الهاوية والتعثر في السير .

فتأثير تطبيق العلم على شؤون الحياة إذاً هو أقوى أسباب أزمة العمال المتعطلين التي تطيح من هولها أكثر الأمم ؛ وعلاجها على طريقة الاكتفاء بالمصنوعات القومية وإقامة حواجز التعريفات والرسوم الباهظة ؛ أو من ناحية قومية خالصة ، لا تكفي بل يزيدها استعصاءً .

والمشكلة الفادحة الأخرى التي قذف العلم بها العالم الحديث ، هي مشكلة التسليح وخطر الحرب ، وهي مسألة تستوجب أن نفكر فيها تفكيراً أممياً دولياً ، فتوفر الثقة بين مختلف الأمم يخفف هـذا العبء الثقيل ويراخي هذا الضغط الشديد ، ويمنع وقوع المآسي الروعة ، ويجنب العالم أهوال الحرب . ولا ريب أن كل من كان يطرب ويبتهج لتقدم العلم قد صدمت الحرب القائمة آماله أشد صدمة ، وخيبت ظنونه ؛ فقد أظهرت هذه الحرب بصورة واضحـة أن المخترعات التي لم يكن يشك في عظيم نفعها يمكن أن يساء استعمالها فتصبح مصدر شر كثير ، وبلاء مستطير ، وآلة كيد وانتقام ، ووسيلة هدم وتخريب ، على مدى واسع وبخبث ودخل يفوق ما كان يحدث في الجاهلية الأولى . فكيف انقلب هذا النبع العذب تياراً جارفاً لا يبقي ولا يذر ؟ لقد تعب الانسان في بناء الحضارة ، واستلزم ذلك تضحيات كثيرة ومجهودات عنيفة متواصلة ، واستغرق طويل السنين ، فهل هو يعمل الآن على هدم بنيانها وتدميرها ؟ وما علة ذلك ؟

إن العالم قبل أن تنضج حكمته ، وتتوحد كلمته ، وتسمو أخلاقه ، وتتسامى أحقاده وشروره ، قد ألقيت بين يديه وسائل يستطيع بها أن يبيد جنسه ويستأصل شأفته ، فان لم يتنبه ضمير العالم من غفوته فكيف نتقي أخطار الحرب وندفع غوائل تخريبها ؟

إن تقدم فن الحرب قد جعل قوة أسلحة الهجوم أكثر وأمضى من أسلحة الدفاع ، وذلك واضح في الطيران ؛ ولسنا نعلم ما عسى أن تتكشف عنه الحرب الحالية ؛ فان بقية من الضمير أو الخوف من مقابلة العمل بالمثل تمنع الآن من استعمال جراثيم الأوبئة والأمراض الفتاكة والغازات السامة والخانقة ؛ ولكن من يدري ما يولده الاحراج والخوف من شبح الهزيمة ، واليأس من الانتصار ، في نفوس قوم تنكر فلسفتهم وجود الضمير ، ولا تعترف بالرحمة . وليس بينهم وبين الشر حجاز من دين أو عقيدة أو نحوه ؟

وقد سادت في السنوات الأخيرة فكرة الحكومة « التيكنولوجية » وهي ترمي إلى إلقاء مقاليد الحكم إلى أيدي الفنيين بعد سحبها من أيدي الساسة ؛ وهذا الرأي يرينا مقدار التخبط الذي أصاب العالم ، لأنه من السهل أن نستكشف في السياسيين مواضع النقد ومواطن الضعف ،

ولكن الحقيقة التى لا تحدى المراء فيها أن السياسة صفات مختلفة اختلافاً غير يسير عن الصفات التى تجعل الانسان صالحاً لمتابعة البحوث العلمية ؛ وليست هناك فائدة كبيرة تتجتنى من وراء نقل قوم من الميدان الذى يتقنونه إلى الميدان الذى يجهلونه ويتطلب صفات مختلفة . وحقيقة أن العالم قد ألف أن ينظر إلى الأشياء نظرة مجردة خالية من الغرض ، وهذه صفة نافعة فى المسائل العامة وليست بالقليلة القيمة ، ولكن سرعة توالى الحوادث وتبدل المواقف ستذهله وتضل رأيه ، وسيعجز عن سبر أغوار وعواطف الجماعات ومشتبك المصالح القومية والعلاقات الدولية .

ولقد زاد تقدم العلم بعض الجرائم الاجتماعية ، ولكن معالجتها من الأمور الميسورة ، والنقص الجوهرى هو أن التقدم الاخلاقى لا يزال متخلفاً عن التقدم العلمى ، والعمل على التقدم الأدبى هو طريق العلاج ودفع الخطر .

إننا لا نستطيع أن نلوم العلم لـكثرة الانتاج إلا إذا لمنا الطبيعة على وفرة المحصول ؛ وليس الخطأ فيما يسره العلم من أسباب الراحة ووسائل الرفاهية ، وإنما فى النظام الاجتماعى الذى يحول دون التوزيع العادل . والمشكلة الآن هى أن نلائم بين نظامنا الاجتماعى والاقتصادى والظروف الجديدة التى أوجدها تقدم العلم والاختراع ، لأن اشتداد البؤس وكثرة الحرمان مع وفرة الخيرات وكثرة الإنتاج دليل واضح على وجود عيب دخيل فى النظام الاجتماعى والحالة الاقتصادية .

ولقد كانت الحضارات القديمة تسقط فى غالب الحالات بسبب الغزو الخارجى والغارات التى تشنها الأمم القوية من الوجهة الحربية على الأمم التى أنهكها الترف وأضعفتها الحضارة ؛ وكان يُظن أن الحضارة الحديثة ستفلت من مثل هذا المصير لما فى يدها من أسلحة قد زودها بها العلم الحديث ؛ ولكن الخطر الذى يعترض المدنية الحديثة ليس من الأمم التى تستعمل معدات حربية قوية ، وإنما من الأمم التى افتنت فى إبلاغ هذه المعدات مرتبة عالية من الاجادة والإتقان ؛ فالعلم الحديث بدلاً من أن يدفع عن الانسانيـة شر العدوان أصبح سبباً من أسباب إعداد وسائله وتمهيد السبيل لوقوعه .

وقانون الغابات والأدغال هو قانون الاعتراف بالقوة وحدها والقضاء على الضعيف وفقدان الشعور بآلام الغير وعدم تقدير القيم السامية ؛ وقد تغلب الانسان فى معركة تنازع البقاء لأن ذكاءه وبناء جسمه مكناه من السيطرة على الأشيـاء ، ومغالبة الحيوانات التى كانت تستطيع إبادته ؛ وخلال ذلك تهذبت غرائزه بعض التهذيب ، واتسعت دائرة عطفه من الأسرة إلى القبيلة ، ثم ترقت إلى الوطن والقوميـة ، وهى تصل إلى أسمى المراتب عندما تشمل العالم بأسره والانسانية جميعها ؛ وكل أمة تقصر همها على طلب السيادة وابتغاء المجد مدفوعة إلى ذلك بأسباب وهمية وتحريضات إجرامية ، تعوق حركة التطور ، وترجع بالعالم إلى الوراء ؛ وصيانة الحضارة تقتضى أن تتعاون الأمم جميعاً على حل تلك العقـدة التى أوجدها العلم بتمكينه الانسان من السيطرة على قوى الطبيعة والإنتاج الـكثير والافتنان فى صناعة الأسلحة الفتاكة . وخلاص الانسانيـة موقوف على التوفيق بين المثل العليا الأخلاقية ونتائج البحث العلمى الحديث .

على أدهم

إنه فى يوم الاثنين ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ افرنكى صباحاً بناحية بيت خلاف مركز جرجا والأيام التالية إذا لزم الحال سيباع هذا الغلال المبينة بمحضر الحجز ملك الشيخ أحمد عبد القادر محمود سيال من الناحية نفاذاً للحكم الصادر من محكمة جرجا الجزئية الأهلية فى القضية المدنية رقم ٦٢٥٩ سنة ١٩٤٠ وفاء لمبلغ ٣٠٤ قرش صاغ خلاف أجرة هذا النشر كطلب الست عطرة بنت موسى الشرانى بجرجا

فعلى راغب الشراء الحضور .

٢ – هل يتقدم الانسان ؟

للأستاذ محمود محمود

رأينا في المقال السابق أن جمهرة المفكرين بعد النهضة كانوا يؤمنون بأن الانسانية تسير في طريق التقدم ، ولم يشذ منهم سوى (روسو) الذي عاد إلى التمدح بالعصر الذهبي القديم . وكان (روسو) يعتقد أن الانسان يجلب لنفسه أسباب الألم والشقاء كلما ابتعد عن حياة السذاجة والبساطة . والانسان عنده يميل إلى الخير بطبيعته ، ولكن هذه المدنية التي ينشأ فيها شر كلها ، لأن العلوم والفنون المختلفة تفسد النفوس والأخلاق . ويتخذ روسو من التاريخ شاهداً على ما يقول . فقد تقدم العلم عند اليونان والرومان وأهل الصين ، فساد البؤس والشقاء بين الناس . أما الفرس والجرمان فقد عاشوا عيشاً سعيداً لأن الجهل كان من أهم ما يميزهم من صفات . ويقول روسو إن الانسان لم يعرف الملكية إلا بعد ما اشتغل بالزراعة . حينئذ تقسمت الأرض بين الأفراد ، وظهر الغني والفقير ، فخرج الناس من قاعدة المساواة القديمة . وفي هذه التفرقة بين الأفراد أس الشقاء . ثم أخذ الانسان يتقدم في علمه ونظمه ، ولكن التقدم لم يشمل سوى طبقة الأغنياء ، أما الجماهير فقد لبثت إلى يومنا هذا فقيرة جاهلة .

ويحاول تشاستلكس Chastellux أن ينقض نظرية روسو ، ويقول بأن هـذا الانسان الأول الذي نادى به روسو لا نعرف عنه شيئاً ما ، ولذا فانا لا نستطيع أن نحكم — ونحن على ثقة — بأنه كان أسعد منا حالاً . فان أردنا أن نقدر عصرنا هـذا حق قدره فانما ينبغي لنا أن نقيسه إلى فترة تاريخية معروفة ، لا إلى عصر ذهبي خيالي . ويتتبع تشاستلكس مراحل التاريخ ، ثم ينتهي إلى الحكم بأن الانسان لبث يعاني صنوفاً من الشقاء وضروباً من الذل ، من عهد قدماء المصريين حتى النهضة الأوروبية . ثم أخذ يسعد حالا بعد النهضة لا لتقدم العلوم وحسب — لأن العلم وحده لا يكفي لتوفير أسباب الهناء ، فقد انتشر بين الاغريق ومع ذلك بقيت كثرتهم تكابد ذل الرق والبؤس — ولكن لانتشار السلم ، وذلك لأن الكاتب عاش في عصر ساد فيه السلام بعد فترة طويلة تطاحنت فيها شعوب أوربا ، وقاست فيها أهوالاً جسيمة . ثم يثبت بعد هذا أن عدم المساواة لا يؤدي حتما إلى الشقاء ، فقد يسعد المرء في خضوعه لغيره ، وقد يشقى في سيادته وغناه . هذا إلى أن الحكم على سعادة الفرد أو شقائه بسعادة المجموعة أو شقائها خطأ ينبغي أن لا يقع فيه الباحث ، لأن السعادة أمر نسبي ، وتتوقف على انسجام الفرد مع الجماعة التي يعيش فيها ؛ فان كان متفوقاً وسط جماعة متأخرة كان أسعد منه متأخراً بين جماعة متقدمة . ولما كان الحكم على سعادة الأفراد عسيراً هكذا ، فان (أوجست كت) يقول بأنا يجب أن نبعده من الميدان عند البحث في موضوع المدنية .

واندلع بعد هذا لهيب الثورة الفرنسية . ومن كتاب هـذه الفترة التاريخية الذين بحثوا في تطور الإنسان Condorcet (كوندرسيه) . وكان شديد الثقة في العلم ، يعتقد أنه يعمل على محو الرق بين الطبقات وبين الأمم ، وعلى قتل جراثيم المرض ، ومد أجل العمر ، وتخفيف ويلات الحروب . ولذا فهو في بحثه التاريخي لا يقسم التاريخ وفقاً لتطورات السياسة ، وإنما التاريخ عنده يتبع مراحل التقدم العلمي ، وهو يقع في عشر فترات ، انقضى

منها تسع ، وبقيت واحدة للمستقبل . وقد تكونت الجماعات البدائية فى الفترة الأولى ، وعرف الانسان الرعى فى الفترة الثانية ، والزراعة فى الفترة الثالثة ، وانتهت هذه الفترة باختراع الكتابة . وتشمل الفترة الرابعة تاريخ الفكر اليونانى وتمتد حتى أرسطو الذى قسم المعارف علوماً مختلفة . وتأخذ العلوم فى التقدم خلال الفترة الخامسة ، ولكنها تنحط قليلا فى عهد الرومان . وتشمل الفترة السادسة العصور الوسطى المظلمة وتمتد حتى الحروب الصليبية . وفى الفترة السابعة يتهيأ العقل البشرى للثورة الفكرية التى تشعلها الطباعة . وفى الفترة الثامنة تتغلغل العلوم بين طبقات الشعب لذيوع الطباعة وانتشار الكتب . وتبدأ الفترة التاسعة بثورة ديكارت العلمية ، وتقديسه للعقل، وتنتهى بالجمهورية الفرنسية . وهكذا تستمر الانسانية فى سبيل التقدم حتى تبلغ الكمال فى الفترة العاشرة ؛ وحينئذ تسود المساواة بين الناس ، والمساواة عنده هى سمة الكمال وأهم مميزاته . وكوندرسيه فى هذا لا شك متأثر بروح الثورة الفرنسية .

وكما شغل البحث فى تقدم الانسان أذهان الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، كذلك تعرض له فلاسفة الانجليز ، وكان هؤلاء أشد تفاؤلاً من زملائهم فى فرنسا ، لأن حكومتهم كانت أشد من الحكومة الفرنسية استقراراً ، ونظامهم أقرب إلى العدل والمساواة ، والحكومة عندهم أداة لحفظ الأمن والنظام ، لا وسيلة للاصلاح والترقى ، لأن الانسان مدفوع إليهما بطبعه ، وليس بحاجة إلى من يرشده فى ذلك سواء السبيل . ويتمثل رأيهم جميعاً فى عبارة Pope (بوب) المشهورة : «Whatever is, is right» أى (كل ما كان فهو خير) ، ومن المتفائلين الانجليز (هيوم) و (آدم سمث) و (جِبُن) و (جدوين) ولم يشذ عنهم غير Malthus (مالتس) لأنه كان يخشى أن يطرد ازدياد السكان حتى تشح موارد الرزق فى العالم .

وإلى جانب المدرسة الانجليزية كانت تقوم المدرسة الألمانية . ومن زعمائها (كانت) ، وكان يرى أن العقبة الوحيدة فى سبيل الترقى هى الحروب ، ثم (هجل) وكان يعتقد أن الانسان يتقدم بتحقيق الحرية ، وأن التاريخ يسير فى هذه الطريق من قديم ، فقد بدأت المدنية فى الصين ، ثم انتقلت إلى الهند وإلى غربى آسيا ، ثم سارت من الشرق إلى بلاد اليونان ، ثم إلى الرومان ، وأخيراً إلى العالم الجرمانى . وكان الناس فى الشرق يعتقدون أن الحرية لا تتوفر كاملة إلا لفرد واحد ، ولذا فقد كان حكمهم يقوم على نظام الملكية المطلقة التى يستبد بها فرد واحد ، هو وحده حر فى كل ما يفعل وكل ما يريد . أما اليونان والرومان فكانوا يعتقدون أن الحرية تتوفر لبعض الناس دون بعضهم الآخر ، ولذا فقد كانت حكومتهم مزيجاً من الارستقراطية والدمقراطية . أما العالم الحديث فيرى أن الناس جميعاً أحرار ، ولذا فحكومتهم هى الملكية المستنيرة التى يتمتع فيها كل فرد بقسط وافر من الحرية .

ثم أخذت فكرة التقدم بعد هذا تتطور ، وتتخذ أشكالاً متنوعة ، ونستطيع أن نقول إن Comte (كنت) هو مؤسسها الحقيق . وقد حاول هذا الفيلسوف أن يضع لارتقاء البشرية قانوناً ثابتاً ، فقسم الفكر الانسانى إلى مراحل ثلاث : المرحلة الأولى وهى المرحلة الدينية ، وفيها حاول الانسان أن يفسر الظواهر الطبيعية بفعل الآلهة وتأثير الدين . والمرحلة الثانية ، وهى المرحلة الميتافزيقية ، وفيها يحاول الانسان أن يفسر ظواهر الكون بالتأمل وبالفكر المجرد . ثم المرحلة الأخيرة ، وهى المرحلة العلمية ، وفيها يعتمد الانسان على الملاحظة والتجربة . وأرقى المراحل وأثبتها أساساً هى المرحلة الثالثة . ولكن فروع العلم المختلفة لا تبلغ مرحلة واحدة فى آن

واحد ، فقد يبلغ بعضها المرحلة الميتافيزيقية بينما يتخلف بعضها الآخر في المرحلة الدينية ، وقد يرتفع بعضها إلى المرحلة العلمية ، ويبقى بعضها الآخر في المرحلة الميتافيزيقية .

فبأي فرع من فروع العلم إذاً نقيس حضارة الانسان ؟ يرى (كنت) أن العلوم الاجتماعية هي معيار المدنية ، لأن معارف الانسان جميعاً إن هي إلا وسائل متنوعة لرفع مستواه الاجتماعي والخلقي والعقلي ، ولا قيمة للتقدم المادي إذا لم يعقبه تقدم في النظم الاجتماعية . وقد اجتاز الانسان المرحلة الدينية عام ١٤٠٠م . ثم انتقل إلى المرحلة الثانية ، وقد أوشك أن يجتازها هي الأخرى ، وينتقل إلى المرحلة العلمية التي كان (كنت) نفسه يمهد سبيلها .

ومن الباحثين المعروفين في تاريخ المدنية في القرن التاسع عشر Buckle (بكل) ، ومن رأيه أن المدنية القديمة كانت تخضع الانسان للطبيعة ، بينما تخضع المدنية الحديثة الطبيعة للانسان . ولما كانت قوى الطبيعة ثابتة لا تتغير ، على خلاف قوى العقل التي تنمو باطراد ، كانت المدنية الحديثة قابلة للتقدم والتطور ، وهي في هذا على نقيض المدنية القديمة الجامدة ؛ وقوى العقل إما علمية أو خلقية . ويتساءل (بكل) : أيهما أقوى أثراً في سير المدنية ، وأيهما يصلح مقياساً لها ، العلم أم الخلق ؟ وهو يرى — جواباً على هذا — أن معايير الأخلاق لم تتغير كثيراً منذ آلاف السنين ، أما العلوم فتتقدم تقدماً حثيثاً ملموساً ، ولذا فالعلم هو مقياس الحضارة الحق ؛ والتقدم العلمي — فوق هذا — أقوى أساساً من التقدم الخلقي ، لأن الأول يسجل في الكتب ، وينتقل من الآباء إلى الأبناء ؛ أما الثاني فيكاد كل فرد أن يبدأه من جديد دون أن يفيد من خبرة السابقين وحكم الغابرين . فعلى تقدم العلوم إذاً يتوقف سير المدنية إلى الأمام .

ثم أخذت فكرة التقدم تقوى تدريجاً في القرن التاسع عشر ، وتجد لها الأعوان والأنصار ، وبخاصة بعدما أذاع (دارون) نظرية التطور التي تقول بأن الانسان قد نشأ عن نوع دنيء من الحيوان ، وأخذ يصعد في سلم الترقي من الناحية الجثمانية .

وأخذ (سبنسر) نظرية التطور من (دارون) وطبقها على الاجتماع والأخلاق ، واستنتج أن الانسان يرتقي في ناحيته الروحية كما يرتقي في الناحية الجثمانية . ويقول (سبنسر) إن كل شيء في الوجود يتغير ولا يثبت على حال ، فليس من المعقول أن يبقى الانسان وحده نافراً لا يخضع لهذا القانون العام .

وأخذ الفلاسفة بعد هذا يتعرضون لهذه الفكرة ، ومنهم المتشائمون من أمثال (جيته) و (شوبنهور) و (نيتشه) ، ولكن كثرتهم تميل إلى التفاؤل .

***

وبعد ، فهذا عرض موجز لآراء الفلاسفة والمفكرين في تقدم الانسان . ومنه يتبين أن فكرة الترقي ترجح فكرة التدهور أو الجمود ؛ فليس من الشطط أو من الرأي أن ننظر إلى الحياة باسمين ، وأن نشخص بأبصارنا إلى السماء ، نخترق بها هذه السحابة الكثيفة التي تخيم على العالم اليوم . وليس ببعيد ، بل إننا لعلى يقين ، أن الانسان بعدما يخرج من هذه الحرب التي يصطلي سعيرها سوف يتابع سيره نحو الخير والنور .

محمود محمود

رجاء لأصحاب الإعلانات القضائية

نرجو من حضرات أصحاب الإعلانات القضائية مراعاة كتابتها بخط واضح منعاً من الوقوع في خطأ يضر بمصلحتهم .

عواصم عالمية كبرى

خلال التاريخ

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

العاصمة أو الحاضرة أو القصبة كلها بمعنى واحد. وفي العاصمة دائماً مركز الحكم، وأداة الحكومة، وفيها يجتمع رجال الدولة لتصريف الشئون، وإدارة الأمور. وفكرة إنشاء العواصم والحواضر قديمة منذ نشأت البلاد، وقامت الجماعات الكبيرة تسكن أرضاً معينة، أو تقطن بلداً بذاته.

وفي التاريخ القديم تتردد أسماء عواصم كبرى، ومراكز رئيسية تمثلت فيها ثقافات أمم مختلفة، واجتمعت فيها جماعات متعددة من رجال الحكم وأهل السلطان لتدبير شئون الرعية وإدارة الأعنة. وهذه العواصم تعد بحق مناراً للحضارات تشع منها على البلاد فتمشي في شعاع نورها، وعلى هدى ضوئها.

ولقد ذهب كثير من هذه العواصم، وعفى الزمان على آثارها، ودرست السنون معالمها، اللهم إلا بقايا من طلل متهدم، أو جدار متصدع، أو حجر باق، أو تمثال قائم. ولكنّ ذكر هذه العواصم لا يزال قوياً يجلجل في أصداء الزمان، وفي أنحاء الخلود.

والبلاد بائدة زائلة. تتقلب عليها أحوال، وتنتابها أمور، ويلمّ بها ما يلم بالحادث من فناء وعفاء. ولكن ذكر العواصم يبقى مدوياً يرنّ في أذن الزمان كأنه النغمة الخالدة، أو الأنشودة الأبدية.

وفي الشرق القديم نجد أسماء: طيبة، وممفيس، وتدمر، وبابل، وصنعاء، وصور، وجلّق، والاسكندرية؛ وفي الغرب القديم نجد رومة وأثينا، كما نجد بين الشرق والغرب مدينة بيزنطة التي سميت بعد بالقسطنطينية.

وفي شبه الجزيرة العربية على بداوتها ومكانها من الفطرة عرفوا نظام العواصم. فللحجاز عاصمته، ولنجد حاضرته، والليمن قصبته، ولكل قطر من أقطارها أو حي من أحيائها مدينة كبيرة يجتمع فيها الحكم والتجارة، وتشد إليها الرحال من كل ناحية تبعاً لأهميتها ومنزلتها.

ولا شك أن مكة من أقدم العواصم في الشرق العربي، وترجع شهرتها إلى بناء الكعبة فيها، وحجّ وفود الجاهلية إليها، يفدون من كل قطر، وينصبون من كل واد. ويطوون الأرض القفار فدفداً أثر فدفد، تقرباً وتعبداً. سكنها أول من سكن إبراهيم وذريته وهي في واد غير ذرع، فتهاوت إليها الأفئدة، وانهالت عليها الثمرات. وظلت كذلك حتى جاء الاسلام. فبقي لها جلالها القديم، وطهرها العتيق. وكأن النور الذي انبثق منها لفت إليها الأنظار، وجذب إليها القلوب، فزادت شهرتها، وجمع أهلها إلى تجارة الصيف والشتاء بين الشام واليمن، شرف الهجرة إلى المدينة عند ما اشتد الأذى على النبي. وشرع بعد ذلك الحج إليها والطواف بكعبتها، والوقوف بعرفاتها، والسعي بين صفاها ومروتها، فزادت شهرة وشرفاً وتعظيماً.

وليس عندنا وصف أو تخطيط لهذه العاصمة الاسلامية الكبرى أيام النبي عليه السلام إلا ما ورد في كتب السيرة، وقصص المغازي، فلم تكن الخطط عرفت في ذلك الحين، غير أننا نستطيع أن نتصورها مدينة عامرة مزدحمة السكان كثيرة الأسواق، ونتصور فيها الدور والأخبية، ولكنها لم تصل إلى فخامة الدور، وارتفاع القصور؛ ونتصور فيها الشوارع فيها الغادي والرائح، وفيها الغاض من بصره، وفيها الفاسق بنظره — كما في الحديث

الشريف — وفيها مجالس الصحابة من النبي يستمعون إليه ، ويرسمون الخطط ، ويديرون النظم .

انتقل الحكم الاسلامي من مكة إلى المدينة بهجرة الرسول ، ففقدت مكة مركزها السياسي الحكومي ، لأن الأداة الحكومية ابتعدت منها . ولكنها لم تفقد مركزها الديني ، فهي إلى اليوم العاصمة الدينية المقدسة للآلاف المؤلفة من المسلمين ، يولون وجوههم شطرها . . وهناك وجه الله .

ومن الغريب أن مكة الجاهلية على اشتهارها ومكانها وكثرة الوافدين عليها لم يعرفها قدماء المصريين ، على حين أنهم عرفوا كثيراً من مدن الشام وفلسطين وأغاروا عليها ! وسبب ذلك بعد الشقة ، وطول الطريق . ولقد كانت هذه الشقة تهون على عرب الجزيرة ، ويسهل أمامهم كل صعب في الوصول إليها ؛ لأنها دار حجهم ، ومكان أصنامهم ، وبيت آلهتهم . يفد إليها الجرهمي ، كما يدخلها القرشي ، ويذكر ذلك زهير بن أبي سلمى فيقول :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم

ويقسم بها النابغة الذبياني معتذراً للنعمان فيقول :

فلا لعمرو الذى طيفت بكعبته
وما هريق على الأنصاب من جسد

ويحلف النابغة بالنياق المتدافعة الذاهبة إلى جبل ألال قرب مكة فيقول :

مصطحبات من لصاف وثبرة
يزرن ألالا سيرهن التدافع

على أننا نسأل : هل سمع العرب بمدينة طيبة المصرية ؟ وهل جاءهم خبر عن ممفيس ؟ وهل ذهب منهم رحالة إلى بلاد آمون ورع ، كما وفد «هيرودت» المؤرخ الرحالة اليوناني الكبير ؟

ونعود فنسأل سؤالاً آخر : لقد زار أبو التاريخ هيرودت مصر القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد . وساح في بلاد الشام ، وجاب آسيا الصغرى وفرع آشور وبابل ، فهلاً خطرت له مكة عاصمة الصحراء البعيدة الأطراف ، المترامية الأكناف ؟ الله خاف أن يضل في رمالها أو يتيه في وديانها . . .

أما بابل فقد كان لها نصيب من جولة هيرودت ، وكانت في ذلك الحين عاصمة البابليين ، وكان لها من الحضارة حظ عظيم . وتكاد تجمع كتب التاريخ وأسفار الخطط القديمة على أنها واحدة من أغنى مدن العالم القديم وأكثرها عظمة وجلالا ! ونكاد نتخيلها في أيام (نبوخذ نصر) مدينة عجيبة ، كثيرة المباني ، تخمة الدور ، مختلطة السكان مائجة بالقطان متبلبلة الألسن ، حتى ضرب بها المثل لكل مدينة عظيمة مزدحمة مثل لندن في وقتنا هذا .

ولقد اشتهرت بابل بحيطانها الضخمة العالية ، وبحدائقها المعلقة التي تعد من عجائب الدنيا السبع . ولم تطل أيام بابل — وكل ما في الدنيا قصير العمر ، سريع الأجل — فسقطت في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، ومن ذلك الحين اندمج تاريخها في تاريخ الفرس .

على أن هذه الحضارات القائمة على شواطىء دجلة وعلى مجرى الفرات ، كانت تطاولها حضارة وتساميها مدنية قائمة على شواطىء النيل المترنم بخريره الباقي على تتابع السنين ... وكان لابد لهذه الحضارة المصرية من عاصمة ، كما كانت لحضارة البابليين عاصمة ، وكما كانت لعرب الصحراء العربية الوثنيين عاصمة .

وتوالت على مصر الحواضر والعواصم تبعاً لرغبة الملوك وأهواء الحكام ، وظروف الأزمان . . . ولا شك أن أخلد تلك الحواضر وأبقاها على الدهر (مدينة طيبة) التي كانت يوماً من الأيام حاضرة الصعيد أو مصر العليا .

وطيبة منبسطة الساحة ، واسعة الرقعة ، تغطى عشرة أميال مربعة من وادى النيل على شاطئيه الشرقي والغربى. وأكاد أتخيلها الآن مدينة عامرة زاهرة ، فيها القصور الشاهقة ، والمعابد الضخمة ، والشوارع الواسعة ، وفيها بيت الملك ، ودار الحاكم ، وقصر الشريف ، ومعبد الكاهن ، وفيها المنازه والرياض ، والضواحى والأرباض ، وفيها البركة المقدسة ، والروضة المنسقة .

ازدهرت هذه العاصمة التاريخية فى مسافة ما بين القرنين السابع عشر والثانى عشر قبل الميلاد . وإن كانت ترجع إلى ما قبل ذلك بكثير ، فى بعض خرائبها ما يعود إلى سنة ٢٥٠٠ ق م ولكنها الآن :

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا

أخنى عليها الذى أخنى على لبد

ولم يبق منها إلا آثار نواطق ، وخرائب محدثات صوادق ، ومعابد ومعالم ، هى وديعة الآباء عند الأبناء ، وتراث الأجداد للأحفاد .

وبالقرب من طيبة الآن وادى الملوك والملكات على الضفة الغربية للنيل ، تتكاثر فيه القبور ، وتتناثر فيه المعابد ، وتطوى تحت صخوره الصُّبل أجسام ملوك :

قرب مصفد منهم وكانت تساق له الملوك مصفدينا

ومن العواصم المصرية المشهورة ممفيس التى أسسها الملك « مينا » ليوحد فيها حكمى الوجه البحرى والقبلى . وهى قديمة عريقة ، وكانت تزخر بالسكان وتموج بهم موجاً ، وقد قدرتها بعض المصادر التاريخية بأنها زخرت بسبعمائة ألف ساكن ، وهو عدد عديد بالنسبة إلى تلك الأيام السحيقة .

على أنه بجانب العواصم السياسية المختلفة ، كانت تقوم عواصم أدبية : إما لشهرة فى الأدب أو لمركز فى العلم ، أو لمكان فى الثقافة أو لمنزلة بين العلماء والحكماء والفلاسفة . وكانت هذه المراكز الثقافية الأدبية تغطى على شهرة العواصم الرسمية ، وتبتلع أهميتها . والاسكندرية أصدق مثال يحضرنا على ذلك ؛ فهى لم تكن فى مصر إلا مركزاً ثقافياً ؛ ولكنها غطت على كل مدينة سواها فى هذه الديار ، وكسفت آثارها . أسسها اسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، وماهى إلا لحظة من لحظات التاريخ حتى رأيناها حافلة بالعلماء ، غاصة بالفلاسفة ، مائجة بأهل الفضل والمعرفة ، مشحونة بالأسفار القيمة ، يفد إليها أهل العلم من كل حدب ينسلون . ثم تكون فيها مكتبة حافلة بالكتب العظيمة ، ثم تبلغ الكتب فيها على رواية المؤرخين سبعمائة ألف مجلد . ثم تجذب هذه الحركة العلمية فى الاسكندرية العلماء من اليونان والرومان ، فإذاهم حضور وقوف على بابها ، ينهلون من موردها ، ويستقون من معينها ، ثم تصطرع فيها أفكار ، وتحتك آراء وتكون فلسفة جديدة إفلاطونية ، ثم يدركها ما يدرك المدن من خراب ، وما يلحق الديار من دمار ، فتحرق المكتبة ، ويسىء المؤرخون ذوو الأغراض الظن بالاسلام ، فيتهمون عمر بإحراقها . ثم تذوى شهرة الاسكندرية فى غضون تاريخ مصر رويداً رويداً . ثم تعود إليها الشهرة عن طريق التجارة ، ويزورها محمد بن عبد الله بن بطوطه المؤرخ الرحالة المشهور فى القرن الرابع عشر الميلادى فيصفها بأنها (الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين) . وكان زارها قبله أبو عبيد البكرى الأندلسى من رحال القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٤٠ — ١٠٩٤) فأحسن وصفها فى كتابه « المسالك والممالك » .

وإلى هذه الحواضر الزاخرة فى الشرق كانت تقوم حاضرتان كبيرتان يدين لهما العالم بدين كبير فى التراث الفكرى : أولاهما « أثينا » والأخرى « روما » .

أما « أثينا » فهى العاصمة القديمة والحديثة لبلاد اليونان ، ويكفيها شرفاً أنها موطن « إفلاطون » تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو . فعلى أرضها درج ، ومن هوائها الطلق تنشق ريح الحكمة ، وعبير الفلسفة . ويزيدها شرفاً أنها مهد الحكمة الغربية القديمة ، ومنبع الفلسفة الذى استقى منه كل ذى فكر يفكر ، وعقل يدبر .

ولقد بلغ من مكان (أثينا) فى الحكمة ، ومنزلتها فى العلم والمعرفة ، أن كثيراً من المدن الحديثة سميت باسمها . وفى الولايات المتحدة وحدها أكثر من عشرين مدينة تحمل هذا الاسم العظيم . وإلى عهد قريب كانت مدينة (أدنبره) تسمى أثينا لمضاهاتها لها فى حمل لواء الحكمة والمعرفة والفلسفة .

وفى « أثينا » نفسها عاش أحكم الحكماء سقراط ، وقضى أيام حياته فيها . وكان يختال فى طرقاتها ، وفسيح فضائها ، معلماً الناس العدالة والصدق . وكان ملزماً فيها نفسه بالتدين والورع ، ولم يصنع فيها شيئاً يغضب الآلهة — كما روى عنه (أكزنوفون) .

وفى أثينا أيضاً عاش أرسطو مدة من حياته ، وعلم الاسكندر بن فليب وعاد — بعد حملة الاسكندر على آسيا — إلى الليسيوم ، يعلم الطلبة الحكمة والفلسفة .

كانت أثينـا ماتجة بطلاب الحكمة وأهل المعرفة ، كما كانت زاخرة بأهـل الثروة والتجارة . وكانت فيها المصانع والمبانى ذوات الطراز الجميل ، ولا يزال فيها إلى اليوم « البارثنون » ناطقاً بقديم جلالها . وهو معبد مشيد للإلاهة (أثينا) العذراء الحكيمة — إلاهة الحكمة ، وخاصة فى الفنون الحربية والسلمية . وباسم هذه الربة الجليلة سميت (أثينا) المدينة الخالدة على مر السنين وتوالى العصور .

و« البارثنون » هو أجمل بناء قديم فى العالم اليوم ، وإذا كانت أهرام الجيزة تمتاز بضخامتها وجلالها فإن مزية « البارثنون » فى جمال بنائه ، وحسن موقعه ، الذى جعله فريداً فى آثار العالم قديمها وحديثها . وطراز زوايته (معياره) هو الطراز (الدورى) المعروف بقدمه وقوته وبساطته من دون الطرز اليونانية الأربعة .

ومن تلازم المعانى وتداعيها فى مثل هذا المقام أن نذكر « روما » . وأى عاصمة أحق من « روما » بالذكر جنباً إلى جنب مع أثينا ؟ ؟ فقد حملت كل منهما شعلة الحضارة فى عصور متقاربة ، وأزمان متدانية . وأسلمت (أثينا) التراث البشرى الثالى إلى « روما » ، وهذه أسلمته إلى الاسلام حتى انتقل إلى الغرب ثانية على يد المسلمين أنفسهم .

وقصة بناء « روما » ونشأتها ، وعظمتها وسقوطها ، تكون قصة تاريخية مؤثرة من أمتع ما يستطيع المؤرخ أن يكتب ، أو من أحزن ما يستطيع أن يدون . ويرجع بناؤها إلى خرافة قديمة لم تحقق علمياً ! فيقال إن (روميلوس) بناها سنة ٧٥٣ قبل الميلاد . ثم أخذت تنمو كالزهرة المتفتحة للحياة ، المتبسمة للشمس والهواء . وأصبحت أم مدينة فى المملكة الايطالية ، ثم عاصمة للامبراطورية الواسعة المتسعة ، الآخذة فى توسيع رقعتها وبسط سلطانها ، الهاوية بعد ذلك إلى قرار سحيق سنة ٤٧٦ بعد الميلاد حينما أغار البربر عليها فى تقدمهم وزحفهم .

وإذا كانت (مكة) مقر الوثنية وساحة الشرك ودار الأصنام فى الجاهلية ، وقبلة المسلمين ، ودار حجهم ومحل شعائرهم فى الاسلام ، فإن (رومة) كانت عاصمة الامبراطورية الوثنية قبل المسيح والمدينة المقدسة ، وقبلة النصارى ودار البابوية بعد ميلاد المسيح . وذلك اتفاق عجيب بين هاتين المدينتين المقدستين . فقد احتفظتا بصبغتهما الوثنية أيام الوثنية ، ثم احتفظت كل منهما بدين سماوى

الجامعة ورسالتها

٣ – الحياة الجامعية[1]

يتجه الباحث الذي ينشد الاصلاح عادة إلى مواطن الضعف أكثر مما يتجه إلى مظاهر القوة فيما يحاول بحثه ، وهذا شأن الكثيرين منا ممن يتناولون شئون الجامعة المصرية بالنقد والتحليل . فنحن نؤمن بأنها – على حداثة عهدها – قد أثبتت حقها في الوجود ، وقد أحرزت في جهودها نصيباً من النجاح ، وقد أثرت بعض الأثر المحمود في حياة البلاد . ونحن إذ نوازن بينها وبين الجامعات الأخرى لا نغفل ناحية التطور ، ولا ندعو إلى الطفرة في اقتباس النظم الصالحة .

ولكن هناك نواحي نقص في حياتنا الدراسية والاجتماعية ، يبدو لنا معظمها ميسور الإصلاح متى صحت العزيمة على فهمه وعلاجه . ومن تلك النواحي نظم الامتحان ؛ فالأمر ما أخذت هذه الجامعة الناشئة بنظام الامتحان مرتين كل سنة ، وكُتب على الطلبة والأساتذة أن يوجهوا جهودهم طول العام للامتحان ، وتخصصت في هذه العملية طائفة من هيئة التدريس في كل كلية أصبحت مراجع يعتمد عليها في كشف خفايا هذا النظام وإدراك دقائقه ؛ فما يكاد ينتهي شهر إبريل حتى تعتكف هذه الطائفة في حجرة خاصة على الأسئلة والأجوبة والقوائم والدرجات . وتستمر في اعتكافها هذا حتى منتصف شهر يونيه ، ثم تنفض على أن تعود إلى استئناف جهادها في أواخر أغسطس حيث مأساة الدور الثاني . ويتخلل ذلك بالضرورة اجتماعات لمجالس الأقسام ومجالس الكليات ، يبحث فيها أمر الدرجة والدرجتين ، والسقوط في مادة أو مادتين ، واغتفار الدرجة الواحدة في المجموع أو حسابها ، وضياع الامتياز من أجل درجة أو إبقاؤه ، ومحاكمة من يرعون حول حمى الشبهات العقلية ، والاختلاف على النسبة المطلوبة للنجاح ، وما إلى ذلك مما يصلح مادة خصبة للناقد الحصيف . .

صارت مباءة ودار حمايته ومقر عبادته .

و « روما » « كأثينا » في حفولها بالآثار القديمة والأطلال الباقية ، والرسوم العافية ، والبقايا المتناثرة هنا وهناك ، تشهد بمجد قديم ، وحضارة عظيمة .

ففيها الآن بقايا (الكولوسيوم) وهو المدرج العظيم ، وفيها بقايا الحمامات التي كانت معدة لتسع ١٦٠٠ شخص . وفيها القناطر المائية التي ترجع إلى ماقبل المسيح والتي تمد المدينة الآن بحاجتها إلى الماء من جبال (الابنين) ومن هضاب (ألبان) . وفيها الحائط العظيم أو السور الذي يحيط بها ويحجزها من الضواحي التي أنشئت في العصور المتأخرة .

و « روما » اليوم عاصمة إيطاليا الحديثة ، كما كانت عاصمتها في القديم .

ومن عجب أن هاتين العاصمتين الغربيتين – أثينا وروما – قد أخذتا الكثير من حضارة الشرق وثقافته . وكانت حضارة مصر تسبق حضارتيهما بأشواط بعيدة ، وأزمان بعيدة . ورحم الله شوقي حين يقول عن الفراعنة :

مشت بمنارهم في الأرض (روما)
ومن أنوارهم قبست (أثينا)

(الكلام بقية) محمد عبد الغني حسن

(١) راجع العددين : ١٠٣ و ١٠٤ من الثقافة .

إن الشكوى من الامتحانات ظاهرة عامة لا تكاد تخلو منها أمة من الأمم الراقية ، وقد كشف العلماء عن مساوئ الامتحان عما لا يدع زيادة لمستزيد . ولكن النظام الذي أخذت به جامعتنا أربى في نقائصه على كل نظام جامعي معروف ، ويكفي في التدليل على هذا عقد موازنة بسيطة بينه وبين النظام المتبع في جامعة أوربية معروفة كجامعة لندن . إن الطلاب الانجليز في المدارس الثانوية يبقون في دراستهم حتى سن السادسة عشرة ، ومتى بلغوا هذه السن استطاعوا أن يغادروا المدرسة ، ولو لم يجتازوا امتحان (Matriculation) . وهو المقابل للبكالوريا عندنا — ومن أجتاز منهم هذا الامتحان فله الخيار بين أن يخرج إلى دنيا العمل وبين أن يبقى سنة أو سنتين في المدرسة ، ليقوم بدراسة وسط بين التعليم الثانوي والتعليم الجامعي ؛ حتى إذا بلغ الثامنة عشرة كان له أن يتقدم لدخول الكلية التي يريدها من الجامعة ؛ والكثرة الغالبة من هؤلاء التلاميذ تنصرف عادة عن الجامعة إلى العمل في المصانع ، أو إلى الاستعداد للتدريس في المدارس الأولية ، أو إلى الالتحاق بالمعاهد الفنية ، أو التمرن على أعمال التمريض في المستشفيات . . .

أول ما يعمله الطالب — بعد دخوله واحدة من كليات لندن . هو الاتصال برئيس القسم الذي سيدرس فيه ، والاتفاق معه على الزمن الذي يحسن أن يستغرقه الإعداد للدرجة ، وعلى نوع هذه الدرجة ، شرفاً أم عادة . ويقضي الطالب السنة الأولى في دراسة فرعين من فروع المادة التي سيتخصص فيها ، وفرعين آخرين يختارهما من بين مجموعة تحددها لوائح الجامعة . وفي آخر السنة يتقدم في هذه الفروع الأربعة لما يسمونه « الامتحان المتوسط » ؛ فإذا جازه بدأ المرحلة الأساسية في دراسته ، وهي تستغرق سنتين ، وفي الأغلب ثلاثاً ، ولا يتخللها امتحان مطلقاً ، بل يقسم الطالب محاضراته حسب مدة دراسته ، فيحضر منها مجموعة كل عام ، ويُعدّ فيها البحوث والمقالات لأساتذته ، ويبقى على اتصال دائم « بمُثَقِّفه » الخاص ؛ حتى إذا جاء موعد الامتحان الأخير كان الطالب قد أعدّ له عدته ، وأحاط بفروع دراسته ، وربط بين بعضها وبعض رباطاً وثيقاً .

من أخص مزايا هذا النظام — كما ترى — الاقتصاد في الوقت ، وإلقاء مسئولية الدراسة على عاتق الطالب ، وإشعاره أن النجاح في الدرجة أمر يخصه هو ، وفي يده بلوغه والامتياز فيه . ويسير مع هذا — جنباً إلى جنب — حرص الأساتذة على أن ينصحوا لطلابهم ألا يحضروا في الأسبوع أكثر من سبع محاضرات أو ثمان ، معللين هذا بأن الدراسة الجامعية الصحيحة تستلزم من الوقت الخاص للطالب (لكل ساعة يحضرها في الجامعة) ثلاث ساعات ، يراجع فيها المصادر ، ويبحث مستقلاً ؛ وبعض طلاب السنة النهائية في الأقسام العلمية يمنعون أحياناً من أن يحضروا أكثر من محاضرتين في الأسبوع .

أرأيت الفرق بين هذا النظام وبين نظام حياتنا الدراسية في مصر ؟ ؛ إن الطلبة في بعض الأقسام عندنا يحتم عليهم أن يحضروا أكثر من عشرين محاضرة في الأسبوع . لهذا ترى الملل مخيماً عليهم ، وتراهم يندفعون لانتهاز أول فرصة تعرض لتضييع شيء من الوقت ؛ ومنطقهم في هذا جد معقول ، فكل يوم يمر من غير دراسة يخفف من أعبائهم أثناء العام ومن أثقالهم يوم الامتحان .

هناك إذاً — من بين العوامل — عاملان يتعاونان على شلّ الجهود العلمية في الجامعة ، وعلى تعكير صفو الحياة فيها ، ذانك هما الامتحانات السنوية ، والإسراف في عدد المحاضرات التي يكلف الطلبة حضورها . ولعل من

التدرج في إصلاح الناحية الأولى ، أن نجعل التحضير للدرجة من مرحلتين ، تتكون كل منهما من سنتين ، وتنتهي كل منهما بامتحان ، ويستطيع الطالب أن يفرغ — في الامتحان الأول — من المواد غير الأساسية في دراسته ، ثم يعد عدته للامتحان الأخير في فروعه التي تخصص فيها .

أنا — إذ أقترح هذا الاقتراح — أعلم تمام العلم ما يعترض به المعترضون من أن الطلبة عندنا ليس لهم وازع من أنفسهم على العمل ، وأن نظاماً قريباً من هذا قد جُرِّب في بعض الكليات ، ثم عدل عنه بعد أن تبين إهمال الطلاب في الدراسة ، وتقصيرهم في التحصيل . ولكني لا أفهم أن يداوى النقص بنقص مثله ، ولا أرى من الحزم قبول هذا المبدأ في فلسفتنا التعليمية . فإذا كنا نشكو من طلبتنا ضعف الثقة في نفوسهم ، وعدم اعتمادهم على مجهودهم ، وعدم شعورهم بالمسئولية الفردية ، فلنتخذ نحن من جانبنا الوسائل الإيجابية التي تصلح من شئونهم ، إن لم يكن عاجلا فآجلا ؛ والعبرة في مثل هذه النظم بالنتائج المستقبلة الدائمة ، لا الحاضرة العارضة .

* * *

على أن هذا الجو المدرسي — الذي غمرنا به الجامعة عندنا — لم تقف أضراره عند إضعاف الانتاج العلمي فيها ، بل تعدته إلى إضعاف حياتها الاجتماعية . وناحية الاجتماع — كما يعلم المشتغلون بالتعليم — ركن أساسي في بناء أي جامعة . فالجامعة — كما يدل اشتقاقها اللغوي — وكما تقتضيه طبيعة عملها ، تقوم على الاجتماع والتعاون . وكل من درسوا في الجامعات الانجليزية — مثلا — يعلمون كيف يصر الانجليز على اعتبار العضوية في جامعة عضوية في جماعة ؛ فليست الدراسة عندهم مجرد معرفة تحصل ودرجات تنال ، ولكنها حياة غنية حافلة الجوانب ؛ وليست صلات الطلاب معاً ، ولعبهم معاً ، بأقل أهمية في حياة الجامعة من دراستهم معاً ؛ وليست الامتحانات مقاييس للعلم والمعرفة فحسب ، ولكنها مقاييس للخلق والإرادة أيضاً .

يبدأ العام الدراسي هناك — وتختم فصوله بصلاة عامة يشترك فيها أفراد الكلية جميعاً ، طلبة وأساتذة ، حيث يخرج موكبهم ، يخطر في جلاله ووقاره ، حتى يصل بيتاً من بيوت الله فيصلي الجميع لله ويعودوا لاستئناف العمل . والانجليز — حتى أساتذتهم في الجامعات الأجنبية — حريصون كل الحرص على الظهور في ردائهم الجامعي في مختلف المناسبات الرسمية : في صلواتهم وحفلاتهم ومناظراتهم وما أشبهها . وتلعب المناظرات عندهم دوراً كبيراً في توثيق الصلة بين الكليات والجامعات المختلفة ، وفي السمو بغرائز المنافسة والخصام في الشباب ؛ فلكل كلية فريق ، ومن فرق الكليات يتألف الفريق المختار الذي يمثل الجامعة في مناظراتها مع الجامعات الأخرى . وقل مثل ذلك في مختلف الألعاب . وهم يتبادلون الزيارات لهذه الأغراض ، وتذهب مع كل فريق مجموعة كبيرة من الطلاب يشجعونه ويشدون أزره ؛ وتكون هذه المواقف في العادة فرصاً تغتنم للسمر والفكاهة ، ولمثلها يُعِدُّ الطلاب الانجليز كل طرفة مستملحة ، ونكتة مستظرفة ، وقد خلقوا لمجتمعاتهم من هذه الناحية تقاليد يتوارثونها جيلاً بعد جيل .

ومن تقاليدهم الصالحة أسبوع يحتفلون به أثناء العام — وهو أسبوع الذكرى لتأسيس الكلية — يتفننون فيه في ضروب الفائدة واللذة البريئة ؛ فمن عاداتهم فيه دعوة عظيم من العظماء لإلقاء محاضرة في أحد الأمسية ، تحضرها أسرة الكلية وأصدقاؤها — بلباس السهرة — ويعقبها حفل سمر ؛ ومنها يوم للمناظرة ضد جامعة أو منتخب من فرق الجامعات الأخرى ؛ ومنها حفلة سمر

خاصة يقيمها اتحاد الطُّلاَّب ، وأخرى أنيقة يقيمها اتحاد الطالبات ؛ وهاتان الهيئتان وأتنا النشاط أثناء العام ، وعليهما تقوم معظم النواحي النشاطية في الكلية ؛ وأعضاؤهما من الطلبة ، ينتخبهم الطلبة ، ورياسة كل منهما شرف يتطلع إليه ذوو القدرة والاستعداد ، حتى من الطلبة الأجانب ؛ وكثير من زعماء انجلترا في الأيام الحاضرة كانوا رؤساء اتحاد في جامعاتهم أيام الدرس والطلب .

***

هذه النواحي المتعددة من النشاط ذات أثر كبير في بناء الخلق عند الطالب الجامعي ، وفي تكييف سلوكه بصورة ترضاها البيئة والاجتماع . على أن لها فوق ذلك أثراً سيكلوجيا مهما : ذلك هو التخفيف مما يساور الطالب في تلك المرحلة من حياته من قلق واضطراب . وقد كشف علم النفس الحديث من منابع هذا القلق ومظاهره ، وعما يتقلب على نفس الشاب حينئذ من شكوك وخيالات وآمال وآلام . ولقد أعرف من بين طلابنا عدداً شكوا إليّ هواجس نفوسهم ، وما ينتابهم من مخاوف وأوهام ومتاعب داخلية . فالشاب في هذه المرحلة من عمره يجتاز دور البلوغ إلى الرجولة ، ويمر بأزمات وجدانية وعاطفية ، وذهنية واقتصادية ، وهو أحوج ما يكون إلى جو حر نشيط ينفس فيه عن رغباته ، ويسمو فيه بنوازعه ، وينصرف فيه من الجموح الغريزي إلى أنواع من النشاط الحر ، كالاشتراك في لجان الموسيقى والفنون والرحلات والمناظرات ، وكالاندماج في سلك الجمعيات الاصلاحية والتعاونية وما إليها .

إن جامعتنا قد خطت في بعض هذه النواحي خطوات موفقة ، وقد نشطت الجمعيات في كلياتها نشاطاً كبيراً ، ولكن مجال التكمل لا يزال فيه متسع . وأهم نقص يلاحظه الباحث في نواحي النشاط الجامعي عندنا هو قيام إدارات الكليات وهيئات التدريس بالنصيب الأكبر في تنظيمها ؛ ويظهر أن هذه نتيجة لازمة لما مر بنا من ظروف سياسية في السنوات الأخيرة ، فمعظم اللجان يرأسها فريق من هيئة التدريس ؛ وأعضاء الاتحاد يصلون الآن إلى مراكزهم بالتعيين لا بالانتخاب ؛ وكلما نادى المنادون بالرجوع في هذه الشئون إلى الأوضاع الجامعية الديمقراطية قيل لهم إن الطلبة يسيئون استعمال الحرية ، وإن سياسة الأحزاب تتدخل حتى في الانتخابات الداخلية لاتحاد الجامعة ، وإن نتائج هذه الانتخابات ينظر إليها في دوائر السياسة الحزبية كما ينظر إلى انتخابات نقابة المحامين مثلاً . ويخيل إليّ أن مخاوف أولى الأمر من هذه الناحية مبالغ فيها ؛ وهذا ظن أبنيه على تجربة شخصية ؛ فقد دعوت إلى تأليف جمعية لأحد الأقسام في كلية الآداب ، وتوليت الإشراف على عملية الانتخاب في سنتين دراسيتين منه ، وأعجبت كل الإعجاب بالروح الديمقراطي الهادئ الذي تجلى من جانب الطلبة ، وبما بينهم من ود خالص لم تكدره شوائب الانتخاب . ولعل الحل الوسط الذي لجأت إليه كلية الآداب في هذا الموضوع يكون خطوة موفقة في سبيل ديمقراطية الاتحاد ، فقد اشتركت الكلية عميدها وأساتذتها في تنظيم جمعيات النشاط المختلفة فيها ، على أن ينتخب من بين أعضاء هذه الجمعيات — في نهاية العام الحاضر — ممثلو الاتحاد للعام المقبل . وتألفت كذلك في هذه الكلية جماعة للعناية بأبناء الأقطار الشقيقة فيها ، ولتوثيق الصلات الثقافية بين مصر وجاراتها من الممالك العربية .

هذه وغيرها بشائر نهضة نرجو أن تؤتي أكلها قريباً بإذن الله ؛ ونرجو أن تنجح الجامعة في أداء رسالتها على النهج الذي صوره — منذ أيام — سعادة مديرها في خطابه الحافل بكلية العلوم .

محمد خلف الله

العفة الجنســـية

بحث طبي نقله في إيجاز عن الانجليزية

الدكتور جورجي ميخائيل

يحدثنا ثقة كبير في أمراض الجهاز التناسلي عن العفة الجنسية ، أي الامساك عن الاتصال الجنسي بما موجزه[1] :

مشكلة الأمراض الزهرية[2]

إن مسألة العفة الجنسية مسألة حيوية تهم جميع الأطباء على اختلاف تخصصهم ، لأننا لا نجد عضواً من أعضاء الجسم في المصابين بالزهري قد سلم من غائلة هذا المرض . وعلى الرغم من ذلك فقد أهملت هذه المسألة الخطيرة إهمالا فاحشاً .

راجع كتب الأمراض الزهرية وابحثها تجد فصولا مستفيضة في مضار الاتصال الجنسي غير الشرعي وعواقبه الوخيمة . ولكن خبرني كم فصلا تجد في هذه المصنفات عن العفة عن هذا الاتصال . بحثت هذا الموضوع منذ عدة سنين خلت ، وراجعت أغلب الكتب التي وضعت باللغة الانجليزية في علم وظائف الأعضاء . فلم أجد في الواقع أي نبأ يحدثنا عما إذا كانت العفة الجنسية هي من النظام العادي لوظائف الأعضاء أو لا . فكان ذلك نقصاً بيناً في هذه المصنفات . وكان له أثره في الطب الوقائي . فقد غاب عن كثيرين من الأطباء في ذلك العصر أن العفة الجنسية هي من النظام العادي لوظائف الأعضاء ، وأهملوا نصح مرضاهم بالعفة عن الاتصال الجنسي غير الشرعي للوقاية من الأمراض الزهرية . فأدى ذلك إلى انتشار هذه الأمراض . وقد دلت أسرة الأطباء على هذا الاهمال ، وذكرت عدة حالات تؤيد قاعدة وضعتها تقول : «إن الاتصال الجنسي غير الشرعي يساوي مرضاً زهرياً» . تقدم الطب بعد ذلك العصر وخطا خطوات واسعة ، فكشف « تفاعل واسرمان »[1] في مرض الزهري ، و « اختبار التثبيت التكميلي[2] » في مرض السيلان ، وأثبت هذان ال‍‍ شفان صحة ما قدرناه من قبل في خطورة الأمراض الزهرية ، فضلا عن أنهما أكدا ما يترتب على كل من مرضي الزهري والسيلان من عواقب وخيمة ، وأوضحا العلاقة القائمة بين هذين الداءين وبين كثير من أمراض الجسم الحيوية المستعصية العلاج . ونشرت الصحافة ما للاتصال الجنسي غير الشرعي من مضار ، فتنورت فتياتنا في هذا الموضوع ، وأصبح نشر الثقافة الجنسية قانوناً مرعياً في هذا العصر . ولم تسمح آنساتنا بعدُ بأن يجعلن من بدنهن حقلا لاستنبات « المكورّ السيلاني واللولبية الزهرية[3] » ، ورفضن أن يحرمن من نعمة الأمومة وملذاتها ، أو أن ينجبن أطفالا مشوهين أو ضعافاً سقاماً بسبب فتك الزهري الوراثي بهم . وعز عليهن أن يمرضن أنفسهن للعقم ، أو لأن يعشن عيشة

(١) كتاب اختلال النظم الجنسية ، الباب السادس عشر ، لمؤلفه الدكتور ماكس هوهنر الحجة في أمراض الجهاز التناسلي البولي في مدينة « نيويورك » ، وطبع في سنة ١٩٣٧ .
Sexual Disorders, by Max Hohner, M. D. New York City, U. S. A. Chapter XVI on Continence. Published 1937.

(٢) المقصود « بالأمراض الزهرية » هنا هو الزهري والسيلان

(١) Wassermann Reaction.

(٢) Complement-Fixation Test.

(٣) ...nococcus and Spirochaeta Pallida.

كلما تماسة في نظير أن يثيرن لقبهن من « آنسة » إلى « حرم » .

وفي العصر الذي تثور فيه علة الشعب في الشئون الجنسية شعر الناس أيضاً بوطأة عامل آخر وهو العامل الاجتماعي الاقتصادي . ولم يكن هذا العامل جديداً . وإنما شعر الناس بوطأته اليوم أكثر مما شعروا به في أي زمن مضى . وإننا نسلم بأن بحث الأسباب المباشرة لهذا العامل ليس من اختصاص مهنتنا ، ولكنه من اختصاص الشئون الاجتماعية الاقتصادية . غير أن النتائج التي ترتبت على هذا العامل تواجهنا وتحملق فينا ، وتتطلب منا أن نبذل المجهود في مسألة العفة الجنسية وإعلاء قدرها أكثر من قبل ، ولا سيما أن تكاليف الحياة قد فاقت في هذا العصر تكاليفها في جميع العصور السالفة ، وأرهقت الشاب وأقعدته من أن يشرع في الزواج المبكر كما كان يفعل منذ خمسين سنة أو مائة . فاذا قنع الشاب بأن يعيش عيشة المتوسطين وأن يعمل على تربية ما يرزقه الله من بنين تربية حديثة وجب عليه أن يؤجل الشروع في الزواج حتى يفوق دخله كثيراً دخل جده حينما شرع في الزواج ، أو يفوق على الأقل دخل أبيه في ذلك الحين .

والنتيجة أن المسألة في العصر الحاضر تنحصر في ثلاثة عوامل :

أولاً : أن الاتصال الجنسي غير الشرعي مصدر العدوى بالأمراض الزهرية .

ثانياً : أن الفتاة المصرية ترفض أن تتزوج شاباً مصاباً بمرض زهري .

ثالثاً : أن الشئون الاجتماعية الاقتصادية تمنع الزواج المبكر .

وبديهي أننا — نحن الأطباء — لا نستطيع أن نغير شيئاً من العامل الثالث ، لأنه ليس في استطاعتنا أن نخفض شيئاً من تكاليف الحياة أو أن نرفع الأجور ، كما أننا أيضاً لا نستطيع أن نغير شيئاً من العامل الثاني ، لأننا لا نرضى أن نقول للفتاة المصرية : « إنه يجب عليك أن تتزوجي شاباً مصاباً بمرض وبيل » . وإذا تقرر ذلك لا يمكننا أن نعالج إلا العامل الأول . وهنا تواجهنا المشكلة التالية . إن الشاب لا يتيسر له أن يتزوج حالما تنضج أعضاؤه التناسلية . وإذا باشر اتصالاً جنسياً غير شرعي يصاب بمرض زهري . وإذا أصيب بمرض زهري ولم يبرأ منه لا يستطيع أن يتزوج . فكيف إذاً نستطيع حل هذا الاشكال ؟

قبل أن ندخل في الموضوع أريد أن ألفت النظر إلى أني سأحاول بحث هذه المسألة من الوجهة الطبية لا من الوجهة الاقتصادية وأن أعالجها على ضوء ما وصلت إليه اليوم معارفنا الطبية في الأمراض الزهرية .

قد يتيسر لنا في المستقبل القريب أو البعيد أن نهتدي إلى تحصين الناس ضد العدوى من السيلان أو الزهري ، كما نحصنهم الآن ضد الجدري ، أو القضاء على الأمراض الزهرية وتطهير المرضى منها بعد الاصابة مباشرة . وإلى أن يأتي هذا العصر يتعين علينا أن نعالج المسألة من وجهة أخرى .

إن أول حل يتبادر إلى الذهن في هذه المسألة هو أن نمنع انتشار الأمراض الزهرية . وإن لم يتيسر ذلك فنقضي على المرض ونبرئ المريض منه بأسرع ما يستطاع ، على أن يكون إبراؤه منه إبراءً تاماً ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

أما منع انتشار الأمراض الزهرية فموضوع يشمل إنشاء البناء بأكمله . وهذا موضوع شائك الأطراف ومعقد كل التعقيد . وكتبت فيه مصنفات عدة . وفي الواقع أن أمماً متمدنة كثيرة قد جاهدت كثيراً في هذه

السبيل منذ العصور الأولى السابقة لتاريخ المعروف ، ولكنها كلها فشلت وأخفقت . هذا بصرف النظر عن بحث أسباب الفشل . فرضت لهذا المرض القرامة الفادحة وعقوبة السجن أيضاً ، وفي بعض الأحيان عقوبة الاعدام ، ولكن في غير جدوى . ولما شرعت مدينة « نيويورك » تستأصل منازل البغاء فيها ووجهت إلى ذلك ما استطاعت من جهود لم تنل إلا فائدة وقتية . وكانت النتيجة أن البغايا كن يطردن من ناحية ليلجأن إلى ناحية أخرى ، ولم يتيسر القضاء على البغاء قضاء تاماً دائماً .

انصرفت جهود الأطباء في منع انتشار الأمراض الزهرية إلى علاج المريض نفسه بعد تعرضه للعدوى مباشرة ، وقد أتت الطريقة المتبعة في الجيش والبحرية في الولايات المتحدة للوقاية من الأمراض الزهرية بنتائج باهرة لا شك فيها . ولكن لهذه الطريقة أيضاً عيوباً . فنجد أولاً أن النظام الصارم الذي يمكن فرضه على الجند والبحارة يستحيل فرضه على عامة الشعب . وثانياً أن هذا النظام لا يمنع خطر العدوى عن كل الذين يتعرضون له . بل يخفض فقط عدد الذين يأخذون العدوى منهم . وفي عبارة أخرى إذا عرض ألف بحار أنفسهم لخطر العدوى واتبعوا النظام المتبع في الجيش والبحرية للوقاية منه ، وتعرض عدد مثلهم لنفس الخطر ولم يتبعوا هذا النظام . فان الفريق الأول لا يسلم كله من العدوى ، وإنما يسلم منه عدد يفوق عدد الذين يسلمون منها من الفريق الثاني . ولذلك لا يستطيع أحد حتى أشد الدعاة لهذا النظام أن يضمن السلامة لشخص معين يزود نفسه بعقاقير مطهرة من التي تصرف للجند والبحارة ، ويعرض نفسه لخطر العدوى ويتبع ذلك النظام . إذاً ما هو حظ الذي يتصل اتصالا جنسياً غير شرعي ؟ .

إن هذا السؤال لا يحتاج إلى جواب . فاذا اتصل شخص اتصالاً جنسياً مع بغي فلا يندهش إذا وجد أنها قد نقلت إليه المرض . لأنه لا ضمان من العدوى في دور البغايا ، حتى التي يشرف عليها طبيب خاص ، ولا سيما عدوى السيلان للأسباب التالية :

أولا : من السهل أن تنتقل المرأة موضعياً قبل الفحص الطبي ، وبذلك تغش الطبيب .

ثانياً : قد تصاب المرأة بالسيلان بين زيارة الطبيب والزيارة التالية أو أن تظهر عليها علامات المرض الأولى بين الزيارتين .

ثالثاً : أن حالات السيلان المزمنة — التي تدعى حالات شفيت من المرض — هي أكبر مصدر لعدوى السيلان وأهمها . وتفصيل ذلك :

قد تصاب امرأة بالسيلان ومع ذلك يحتمل كثيراً ألا يظهر على أعضائها التناسلية أي أثر للصديد أو أي إفراز . وقد تؤخذ عينات بطريقة كشط غشاء هذه الأعضاء ، ولا يظهر فيها « الكوكس السيلاني » بعد الفحص المباشر بالمجهر ، وحتى بعد عملية الاستنبات ، ومع ذلك نجد أن هذه المرأة — عند الاتصال الجنسي وتحت تأثيره — قد تصب آلاف الألوف من « المكوكس السيلاني » مع إفراز الغدد حيث تختبئ هناك ، فتنتقل المرأة العدوى إلى شريكها . ولذا نجد أن كل من عنى عناية خاصة بملاحظة هذا المصدر من مصادر العدوى يتفق معي على أنه إذا أصيبت امرأة مرة بالسيلان فليس لدينا في الواقع أية وسيلة من وسائل الفحص الطبي تساعدنا على أن نقطع بأنها قد شفيت أو لم تشف .

ننظر الآن في مسألة خادمات المنازل وخادمات النزل وغيرهن من المدعوات « أشياء مضمونة » . فنجد أن كل من له خبرة واسعة في الأمراض الزهرية يقرر أنه من

الفكاهة المعروفة أن أغلب المصابين قد أخذوا العدوى من أولئك الدعوات « أشياء مضمونة » . ومن عادتى ألا أجيب أحداً من مرضاى الذين يؤكدون بأنهم لم يتصلوا إلا بشىء مضمون ، إلا بجواب واحد وهو : « إن التى تسلم نفسها لك تسلم نفسها أيضاً لغيرك . ولذلك لا تسلم من خطرها » .

وأخيراً ننظر فى مسألة السيدات المتزوجات ، ولا سيما الدعوات « محترمات » . باشرت علاج حالات كثيرة من هذه الطبقة كان لها وقع كبير عندى . فقد كنت أباشر علاج سيدتين كانتا بلا نزاع من الطبقة المحترمة وفوق كل شبهة ، ومع ذلك كانتا مصابتين بالسيلان . وقد أخذت كل منهما المرض من زوجها . وكان الزوجان أيضاً تحت رعايتى . هنا أريد أن ألفت النظر إلى النقطة التالية : هب رجلا أجنبياً أمكنه أن يغرى إحدى هاتين السيدتين إلى أن يتصل بها . فيمكنه أن يقطع بأنها كانت امرأة محترمة ، كما يقطع أيضاً بأنها قد أصابته بمرض السيلان ؛ إذاً يتعين على من يحاول الاتصال بامرأة متزوجة أن يتأكد أولاً من سلامة زوجها ويضمنه ، ولكن هذا عسير وغير مستطاع . هذا وإن مجرد تسليم هذه المرأة له دليل على أنها ليست امرأة محترمة ، وينطبق عليها ما قيل من الطبقة الأخرى للدعوة « أشياء مضمونة » .

وعلى ضوء هذا البحث نستطيع أن نقدر أن الأغنياء وهم الذين يستطيعون أن يحصلوا عالمهم على كل ما يحتنون — هم أيضاً يعانون آلام الأمراض الزهرية كغيرهم على السواء . وإذا حللنا المسألة من جميع نواحيها يمكن أن نجملها فى القاعدة التالية وهى « إن الاتصال الجنسى غير الشرعى يساوى مرضاً زهرياً . . . »

وأسجل هنا أننا لم نهتد بعد إلى أية وسيلة تقى الانسان خطر العدوى من الأمراض الزهرية وتضمن له السلامة ، حتى إذا استعمل غمداً من مطاط ؛ فقد شاهدت فى حالات كثيرة أن غمداً كهذا قد تمزق وأصيب صاحبه بسيلان . وفى حالات أخرى أن الشخص قد أصيب بقروح فوق مستوى ذلك الغمد .

أما علاج هذه الأمراض فانه — على الرغم من تقدمه فى السنين الأخيرة — لم يصل إلى الآن إلى القضاء على هذه الأمراض بعد الاصابة مباشرة أو إبراء المريض منها فى أقصى سرعة . فقد أخفق مشروع القضاء على مرض الزهرى بعد الاصابة مباشرة باستعمال مركّبات « السلفرسان » ولم يتيسر لنا إبراء المصابين بهذا المرض فى مدة أقصر من ذى قبل ، على الرغم مما لهذه المركّبات من فوائد طبية . وإنك لا تجد طبيباً ذا ضمير حى يسمح لمريض بأن يتزوج قبل أن يمضى بضع سنين تحت الملاحظة . وفى الواقع أننا — بعد ممارسة « تفاعل واسرمان » — نمد مدة الملاحظة فى كثير من الحالات إلى مدة أطول بكثير من ذى قبل . هذا وإن طريقة القضاء على السيلان بعد الاصابة مباشرة لم تفلح إلا فى نسبة ضئيلة جداً . ولا تفيد هذه الطريقة إلا المصابين الذين يتقدمون إلى العلاج فى مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة أو ستاً وثلاثين ساعة على الأكثر . ونرى أيضاً أن ممارسة « اختبار التثبيت التكميلى » وطرق الاستقصاءات الحديثة فى تشخيص مرض السيلان قد أدت إلى حجز المريض تحت الملاحظة مدة أطول بكثير من ذى قبل .

وأنت ترى أن الطب — على الرغم من تقدمه — لم يحقق الوقاية من الأمراض الزهرية أو القضاء عليها بعد الاصابة مباشرة أو علاجها فى أقصى سرعة ، ولم يساعد على حل المشكلة « موضوع البحث » بل بعكس ذلك ترى أن تقدم الطب كله لم يزدنا إلا تأكيداً بأن أدق طرق الفحص المعروفة فى تحقيق الشفاء من هذه الأمراض لم تف بالغرض المقصود منها تماماً .

(له بقية)

جورجى ميخائيل

هل لدينا سياسة نسلية عامة ؟

كثيرون سيجيبون على هذا السؤال بالنفي ، ولكن الذين سيتألمون لذلك أقل من القليل ، وهم بعض أفراد الطبقة المثقفة ثقافة اجتماعية عالية ، ذلك لأنه وقر في أذهان معظم الناس أن الغرض من وضع سياسة عامة للنسل في مصر هو الرغبة في منع التناسل كلية ، ومحاربة الطبيعة ، والقضاء على الجنس البشرى المسخر لنشر العمران . وبعبارة أوضح : الوقوف في وجه إرادة الخالق القهار !! ويتجاوز ذلك الجهلاء من هذا الفريق إلى حد اتهام الداعين إلى تلك الفكرة الاجتماعية الحديثة بالزندقة ، وخيانة الوطن ، والإغراق في التشاؤم الذى يورث أصحابه الكفر ، وزعزع كيان الشعب ! ولعمرى إنها كلها اتهامات باطلة ، ودعاوى مردودة ، كسيحة ، متخاذلة ، قصيرة النظر .

فالمقصود حقيقة من وضع سياسة عامة للنسل في مصر هو رسم سياسة صالحة للسكان حتى لا يترك الأمر فوضى في يد رجل الشارع المحدود الثقافة ، الذى قلما يتحسس موضع قدميه في طريق الحياة الشاق ، الملىء بالمجهول . ثم إن خطر تلك الفوضى النسلية لا يقتصر عليه وحده بل يتعداه إلى كيان الأمة بأسرها . وهل الأمة إلا مجموعة أفراد ؟ . فمشكلة النسل متصلة اتصال رحم ، أو نسب ، أو دم بالاقتصاد القومى ، وسياسة السكان ، ومعنوية الشعب ، وتماسك العائلى ، ومستوياته الأخلاقية .

لنقف هنيهة نتأمل فيها شعباً كالشعب المصرى لا تعنى فيه الطبقات القوية المنتجة على تكوين نسل صالح شهى الثمرات ، ويسمح فيه بالزواج والإنسال للمجرمين إجراماً خطيراً ، والمصروعين صرعاً وراثياً ، والمدمنين على الخمور إدماناً ذريعاً ، والمتوهين ، وضعاف العقول ، والمرضى بأمراض معدية مستعصية مستفحلة .

ويجب أن لا ننسى أن ثروة هـذا الشعب ، وأساسها الملكية العقارية الزراعية ، لا تزداد بنسبة نمو العطرد .

وكان من نتائج هذه الفوضى الاجتماعية ما يأتى :

(١) أحجمت عن الزواج والتناسل الطبقات المثقفة ، القوية ، المنتجة ، الراقية . وزاد تبعاً لذلك نسل الطبقات الجاهلة ، الضعيفة ، الضئيلة الانتاج ، الاتكالية ، التى تلقى عبئها على المجتمع . ومن الغريب أن نسل هذه الفئة كالحصى كثرة وتفاهة ، أعجف لا يكاد يعرف كيف يحتفظ بحياته ، فضلاً عن التكسب والكفاح .

وقد تمخض ذلك عن زيادة في عدد السكان لا مثيل لها بين الشعوب الأخرى ، رغم ارتفاع نسبة الوفيات كما يتبين من الأرقام التالية :

الدولة	نسبة المواليد	نسبة الوفيات	نسبة الزيادة
ألمانيا	١٨٫٤ ٪	١٠٫٩ ٪	٧٫٥ ٪
فرنسا	١٦٫١ ٪	١٥٫١ ٪	١ ٪
أمريكا	١٥٫٣ ٪	١٢ ٪	٣٫٣ ٪
مصر	٤٠٫٤ ٪	٢٦٫٩ ٪	١٣٫٨ ٪

(٢) دل الاحصاء على أن عدد أفراد الأسرة المصرية يتراوح بين ١ و٢٤ شخصاً . وهو أمر يستوقف النظر حقاً . ولنذكر الأرقام التالية على سبيل التوضيح :

أسر من ٥ أشخاص	أسر من ٦	أسر من ٧
٣٣٣٠٠٠	٢٧٠٠٠٠	١٩٨٠٠٠

أسر بين ١١ و ١٦	أسر بين ١٧ و ٢٤
٣٩٠٠٠	٣٦٠٠٠

(٣) إن نمو الثروة القومية لا يتناسب مطلقاً مع نمو السكان . فقد زادت الأراضى المزرعة (وهى عماد الثروة المصرية كما قلنا) في القرن الحالى بنسبة ٥ ٪ فقط بينما زاد السكان بنسبة ٣٨ ٪ . وقد أدى ذلك إلى هبوط

متوسط نصيب كل مصرى من أرض بلاده الصالحة للزراعة من ٢١ قيراطاً إلى أقل من عشرة قراريط .

ومتوسط دخل الفرد قد أصابه بالطبع ما أصاب متوسط الملكية ، إذ تناقص بالتدريج فى السنوات ١٩٢١ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ على النحو الآتى بالترتيب : ٢١ جنيهاً ، ١٢ ، وأقل من ١٠ جنيهات .

وهذه الأنصبة التى نذكرها هى وهم وفرض لاحقيقة ولا واقع ، لأنها متوسط ما يصيب كل مصرى من أرض بلاده ودخلها الأهلى لو وزعا بالتساوى . إذ لو كانت حقيقة وواقعاً لارتفعت حياة الملايين من مواطنينا الساكين من مستوى السوائم وها هى الاحصاآت تؤكد ذلك ، فانها تذكر أن ٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، بين رجل وامرأة وطفل ، لا يمتلكون شيئاً ، ولا يمولون أنفسهم . وهناك ٣,٠٠٠,٠٠٠ شخص يزاولون العمل الزراعى ، ويلتصقون بأراضى كبار الملاك كأجراء .

وبهذه المناسبة نذكر أن رابطة الاصلاح الاجتماعى كانت عقدت مؤتمراً فى العام الماضى ، وخصصت يوما منه لاصلاح الأسرة جاء فى قراراته : « إن مسألة الدخل فى معظم الأسرات المصرية يؤدى إلى ضعف القدرة الاستهلاكية ، ويعوق نشاط الأمة الانتاجى ، ويساعد على انتشار المرض ، وكثرة الجرائم ، واضطراب حبل الأمن ، والثورات الاجتماعية ، ويهدد نظم الدولة . وإن أسباب هذا العامل يرجع أهمها إلى نمو عدد السكان نمواً مطرداً بدون أن تصاحبه زيادة مناسبة فى موارد الثروة . . . » الخ

وليس من المنتظر أن تتقدم نهضتنا الصناعية والتجارية بخطوات أوسع وأسرع مما فعلت إلى اليوم ، بحيث تسد ذلك الفراغ الهائل المخيف الموجود فى بنائنا الاقتصادى .
ويؤكد من لا يجهلون الأمور أن مصر أمة زراعية ، وستظل حضارتها الغالبة زراعية إلى الأبد ، أو إلى مدى أبعد من حياة جيلنا وبضعة أجيال قادمة على الأقل .

وعلى ذلك تكون هذه الملايين من العاطلين والفقراء ، والمحرومين من مباهج الحياة وفرصها الكثيرة . . . هذه الملايين من الأبرياء هى جناية الحكومة التى كان يجب عليها أن ترشد الشعب إلى الخطر الاجتماعى الذى يهدد مستقبله ، إذا استمر فى إغراق السوق الاجتماعية ببضاعته الكاسدة ! وهى أيضا جناية الآباء العاجزين عن الإنفاق على أنفسهم ، ومع ذلك أخرجوا إلى الوجود آلاف الأولاد الأبرياء الذين يطاردون الناس فى الطرقات والأمكنة العامة كالذباب ، ويطالبونهم بنصيبهم فى الحياة ! ! والويل للناس إذا لم يعطوهم هذا الحق الموهوم ! فهناك التشرد ، واضطراب حبل الأمن ، والمبادىء الهدامة ، والأمراض المعدية . ومن عجب أن كثيراً من الناس يدركون هذا الخطر ولا يتقونه متعللين بخرافات موروثة ، أو معتمدين على عظات دينية لم توضع لتسخير قداستها فى مثل هذا العبث بنواميس الطبيعة والعمران ، فان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة !

ولقد صارت الحياة اليوم أكثر تكاليف مما كانت قبل الحرب الماضية ، كما أضحت أغلى ثمناً ، وأثقل عبئاً .

وإذا قيل بحاجة الأمة إلى النسل الكثير فى تجييش الجيوش ، والدفاع عن أرض الوطن المفدى ، فليكن فى حسابنا قبل كل شىء أن الجيوش القوية الظافرة لا تؤلف من جياع لا يأكلون ، وسقام لا يصحون ، وعجزة لا ينفرون إلى الحرب خفافاً أو ثقالا . بل وما أغنى الوطن عن شبان مثقلين بالهموم والنوائب ، مبهظين بالتكاليف .

(٤) ومن أفجع أخطار الفوضى النسلية أيضا كثرة المجرمين بالوراثة ، والمدمنين على الخمور بالوراثة والمعتوهين ، والمصروعين ، وضعاف العقول ، والمجانين الذين صاروا

كذلك بالوراثة ، وما حياتهم في الواقع إلا امتداد لحياة آبائهم ، ولسان حالهم يقول :

«هذا ما جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد !»

ومن المضحك المبكي أن حكومات مصرية متعددة اهتمت اهتماماً زائداً من الحد بتحسين نسل الكلاب والخيل والجاموس في الوقت الذي لا يعطون أقل عناية للإنسان الذي هو أهم من الحيوان والعجماوات ، والذي يتوقف على نوع نسله مصير البلاد ، ومصير الحضارة ، ومصير العمران ! فيا لسخرية الأقدار ، ويا لمرارة التناقضات !.

وعلاجاً لهذه الفوضى المتعددة الوجوه فعلت الدول الأوربية الأمور التالية :

(١) ميزت المتزوجين وذوي الأولاد في الوظائف والعلاوات والترقيات ، وخففت كثيراً من أعبائهم ، حتى يتمكنوا من تنشئة جيل سليم قادر على الكفاح .

(٢) في بعض البلاد لا يسمح للشخص بالزواج إلا إذا كان قادراً على الإنفاق على أسرته .

(٣) أنشئت جمعيات نسائية لإعطاء النصائح الخاصة بتنظيم النسل إلى النساء الفقيرات . وفي أمريكا وانجلترا عيادات معترف بها رسمياً تدعى «Birth Control clinics» أي «عيادات تنظيم النسل» .

(٤) أظهرت الحكومات الأفراد على أضرار الأمراض المعدية ، وتأثيرها الذريع في النسل . وسخرت في ذلك كل الوسائل الحديثة والصريحة .

(٥) وأصدرت التشريعات الخاصة بتعقيم المجرمين الخطرين والمجانين والمصروعين وضعاف العقول ومن إليهم . وأشهر هذه التشريعات ما صدر في ألمانيا سنة ١٩٣٣ ، وفي النرويج سنة ١٩٣٤ ، وفي فنلندا سنة ١٩٣٥ .

وهي كلها إجراآت اقتضتها العاطفة الإنسانية في أبرع صورها ، وأرحم وسائلها ، وأجدى أساليبها ، كما استلزمها الرقي الاجتماعي ، وحتمها العمران الحديث .

والدولة بعملها هذا قد تقدم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد أحياناً . على أنه مما يؤسف له كل الأسف أن الحكومات لا تتدخل إلا بعد أن تشيخ شعوبها ، وبعد الانحلال في أوصالها !.

والآن ها أنذا أسأل فعلّي أظفر بجواب : ألا يخلق بمصر أن تتنبه إلى هذه الفوضى النسلية التي تعبث بكيانها وتلعب بمصيرها ، فتأخذ من الدول الأخرى ما ينفعها ويرجعها ، أم ستترك أمرها — دأبها دائماً — نهباً مقسماً بين الفوضى والرجعية ؟ .

ولكن حذار أن يفوت الوقت ، وأغلب الظن أنه فات أو كاد !.

محمد عبد الرحيم عنبر

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	الطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

كلاب ... وناس

قصة مصرية — للأستاذ صلاح الدين ذهني

جلس عبد الصمد على حافة الجدول الصغير فى رفقة من زملائه عمال ضيعة شوكت بك ، وأخذ يرسل بصره إلى السماء كأنما يستشف فى أعماقها شيئاً يعنيه أن يراه ، وطال تحديقه دون جدوى ، حتى إذا يئس من تبين ما يرقبه عاد ببصره إلى الأرض ، وأخذ يضرب بعصاه سطحها الهش مفتتاً تلك القشرة التى كونها الماء ، وقد غاب فكره عن حديث زملائه واستحالت كلماتهم فى أذنيه إلى همهمة قد امتزجت مع صوت تدفق الماء الرقيق الناعم .

وكأنما راق له عبثه بذرات التراب ، أو بدا له أن يرقب عند الأرض ما تلمسه فى السماء منذ لحظات ، فظل ببصره عالقاً بما تحدثه عصاه من آثار فى الطمى المتجمد .

ومر عليه وهو فى جلسته هذه نصف ساعة كان الليل فى خلالها قد تسرب إلى الفضاء والأرض معاً فشملهما بسكينته وظلامه ، وكأنما لم يحس عبد الصمد بما حوله من ظلام تسبح فيه أصوات رفاقه كأنها همهمة أشباح ، فظل بصره عالقاً بالأرض رغم أنه لم يعد يرى شيئاً ، وظلت عصاه تعبث عبثها بذرات التراب ، وإن كان قد بدا فى سرعتها ما يفىء بيد قلقة تصدر فى حركتها عن عقل مضطرب .

وبدر من خلال الحشائش الممتدة على حافة الجدول صوت أقدام تطؤها فى قسوة وعنف ، فانتبه عبد الصمد إلى رفاقه ، وشاركهم التفاتهم مستطلعاً بأذنه مصدر الصوت حتى إذا تبين اتجاهه قال مخاطباً رفاقه :

— ترى من القادم ؟

واختلط صوته بأصوات رفاقه فى أذنى هــذا القادم ، فأجابهم فى صوت امتزجت به حشرجة الحشائش القريبة :

— أهذا أنتم . لقد حسبتكم انصرفتم إلى دوركم منذ زمن ! ولكن ماذا تفعلون هنا ، وفى هذا الظلام ؟ وأنت يا عبد الصمد لقد مضيت من الضيعة منذ ساعة .

وقال عبد الصمد وقد خرج تماماً من ذهوله :

— نفعل ؟ لا شىء طبعاً . أتظن فى مقدور إنسان أن يفعل شيئاً بعد عمل يوم فى أرض شوكت بك إلا أن يجلس إلى حافة جدول ، يرقب السماء طوراً ، ويفحص الأرض طوراً آخر ، باحثاً عن الرحمة ، أو يصرف النظر عن تقصى الرحمة فيمضى ورفاقه فى حديث ينسيه إلى حين ما عاناه من تعب ؟

وساد الصمت برهة كان سالم خلالها قد اتخذ مجلسه إلى جوار رفاقه ، وأخذ يبادلهم حديث التحية المعتاد ، ثم مالبث عبد الصمد أن قال كأنما تذكر فجأة ما يدعو للحديث :

— أسمعتم ما قاله الشيطان اليوم ؟ سيحضر شوكت بك بعد غد لقضاء أسبوع فى العزبة ، ومعنى ذلك أسبوع من الأهوال تعمل فيه العصا !

وقاطعه سالم فى بلاهة :

— وتتحكم فيه الكلاب .

وكأنما ذكر ذلك عبد الصمد بشىء مهم فقال :

— على فكرة ؟ أسمعتم ما قال الشيطان أمس ؟ لقد أخبر عبد العال الجزار أن البك اشترى كلبين جديدين ثمن كل منهما لا يقل عن مائة من الجنيهات ، وأن هــذين الكلبين سيحلان ضيفين علينا مدة الشتاء ، فيصبح أسيادنا خمسة عشر ، وقد أوصى عبد العال بزيادة راتب اللحم أثنين .

واستدرك سالم :

— بل ثمانية عشر ، أنسيت الخروسين الثلاثة الذين أنجبتهم الكلبة الانجليزية ؟

وأجاب عبد الصمد :

— لم أنس بالطبع . ألم يكفني خروج هؤلاء الثلاثة إلى الحياة زوجة في ريعان الصبا ؟ ألم أترك ريانه في ليلة ولادتها وحيدة في المنزل لأذهب بعد نصف الليل لاحضار الحكيم البيطرى ؟ وكانت النتيجة أن ريانه لم تجد أحداً يدعو لها الطبيب أو ينقلها للمستشفى . . . .

. . . ومرت سحابة حزن في رءوس الجالسين حلت معها ذكريات هذه الليلة الماثلة . . ليلة عاصفة حالكة الظلام من ليالى فبراير ، حين عاد عبد الصمد من ضيعة شوكت بك إلى منزله الحقير الكائن عند أطراف الضيعة بين مساكن الاجراء المتلاصقة المتعانقة كأنها أطفال صغار تجد في تلاصقها ما يبث في نفوسها الطمأنينة .

كان عبد الصمد يعلم أن زوجته وشيكة الوضع ، ولكنه لم يكن يدرى أن أوان وضعها قدحان . لذلك مضى إلى فراشها يهون عليها ما تشعر به من ألم ، وكأنما أشفقت الزوجة المسكينة على زوجها واستشعرت ما ينوء به جسده من ضنى ونصب ، فكتمت آلامها ، وتصنعت الراحة ، واجتمع على الزوج خدعة الزوجة الساذجة ووهن القوى ، فراح في سبات عميق لم يشعر بعده بالأنات المكتومة تحاول الزوجة تصريفها بالتقلب على جنبين يكادان يتقدان من الألم . حتى إذا انتصف الليل فزع عبد الصمد من فراشه على صوت يناديه في غلظة وعنف :

— ولد يا عبد الصمد . اصحى يا ولد ! .

وإذ تبين عبد الصمد الصوت انكفأ ثانياً إلى فراشه ظاناً أنه كابوس ثقيل يحكى صوت الشيطان وجثم على أذنيه ، ولكنه لم يلبث أن سمع الصوت يتكرر ، ولم يلبث أن أحس بما حواليه ، بزوجته التي تتقلب على الفراش ، وبثوبه الخشن ، وبالصوت الجاف يصل إلى أذنيه واضحاً جلياً .

إذ ذاك أيقن أنه مستيقظ ، وأن ما يسمعه هو صوت الشيطان بنفسه يناديه ويطرق النافذة بعصاه ، تلك العصا الضخمة التي طالما عبثت بأبدان الأجراء في أرض شوكت بك ، وتدخلت في احساساتهم لتحوث منامهم نشاطاً وأحزانهم اغتباطاً ، والتي طالما تنسب إليها الفضل في زيادة محصول الأرض واطراد النسل بين الماشية والدواجن .

أجل . كانت هي عصا الشيطان الثقيلة التي ترتسم على سطحها الأملس الجامد قصة عشرات الفلاحين منذ شبوا عن الطوق إلى اليوم . وكان هذا الشيطان ، ناظر العزبة المجهول الأصل ، والذى ينم وجهه عن تمازج خلاصات الشر في كافة أجناس البشر عندأب وأم أنجباه ، تنفيذاً لمشيئة الله في شقاء طائفة من الفلاحين رمت بهم الأقدار في تلك البقعة من الأرض يلتمسون عندها القوت .

كان اسمه عواد المغربي ، وكانت شهرته عند الفلاحين (الشيطان) تخيروا له هذا الاسم عفوا ، وكانوا يهمسون به كلا أقبل أو رحل ، وكان في تخيرهم هذا الاسم تلخيص صادق لاحساساتهم بالقدر الذى تتخيله عقولهم الساذجة لمعنى الشيطان ، وكانوا لا يدرون شيئاً عن ماضى هذا الرجل ، ويحارون في حاضره في نفس الوقت . كيف وقفت الأقدار بينه وبين شوكت بك ؟ وكيف وقع لذلك السيد القاسى الطبع والغليظ الخلق هذا الوكيل القاسى الطبع والجاف الخلق ؟ ذلك ما لا يدريه أحد منهم وإن كانوا يؤمنون إيماناً تاما بأن لا بد لشوكت بك من عواد ولا يخالطهم أمل في زحزحة هذا الوكيل الشرس . حتى

الموت ما كانوا ليروه منقذاً لهم إلا إن ألم بالاثنين معـا واختارهما معا .

قام عبد الصمد من فراشه فزعاً ، وفتح الباب فإذا هو وجهاً لوجه أمام الشيطان يسب ويلعن متهماً إياه بالكسل والبلادة . ومرت فترة قبل أن تنتهي سلسلة الشتائم التي ازدحم بها فم المارد ذي العصا ، ولعلها لم تنته كما يجب بل ابتلع جزءاً منها ليقول في جد واهتمام :

— اسمع يا عبد الصمد . الكلبة الكبيرة الانجليزية ستلد هذه الليلة ، ويبدو أنها تعاني ألماً شديداً ، فعليك أن تذهب الآن إلى البندر لتدعو الحكيم البيطري حالاً ، حالاً . أفهمت ؟ هيا قبل فوات الوقت . . .

إلى البندر ؟ في هذا الظلام والبرد والريح العاصف ؟ خطرت لعبد الصمد إذ ذاك صورة زوجته حين رآها قبل نومه تغالب الألم ، وصورتها حين هب من نومه منذ لحظة وهي تتقلب على الفراش ، وذكر على صوت شيطان الضيعة وهو يتحدث عن الكلبة التي تعاني آلام الوضع صورة الزوجة التي تعاني نفس الآلام .

أيمكن أن يكون ذلك هذه الليلة أيضاً ؟ أتكون زوجته أيضاً وشيكة الوضع ؟

سرعان ما اتخذ هذا الخاطر صورة هائلة مفزعة ، وسرعان ما ارتبطت الخواطر فتخيل ما يطلبه إليه الشيطان وما يمكن أن يحدث : أن يفاجئ زوجته تعاني آلام الوضع ، وقد تضع في غيابه وتستدعي الأمر نجدة سريعة فلا تجد ريانة من ينجدها ، كل ذلك لكي يذهب هو في أعماق الليل طالباً الطبيب للكلبة . . . .

ولكن الشيطان لم يدع حتى لمجرد الخواطر أن تتدافع في رأسه ، فقد صرخ فيه مستحثاً إياه على المضي إلى البندر ، مستنكراً صمته وذهوله .

وتمتمت شفتا عبد الصمد في فير وعي منه :

— ولكن . ولكن امرأتي يا خواجه عواد !

ولم يعن عواد بشأن امرأته في الموضوع ، بل قال في غضب :

— امرأتك ؟ إنت عايز تخرب بيتك بإيدك ، أما قلت لك ورايح على السراية ، أنت عرفت وأنا غير مسئول وامرأتك لن تطير .

وتردد هذا السؤال الأخير في رأس عبد الصمد لحظة ، هل ستطير امرأته ؟ إنه لن يستطيع أن يمنع عنها الألم ، فهي ستتألم في وجوده كما تتألم في غيابه ، وهو يستطيع أن يمضي فيدعو الطبيب ويعود به إلى السراي ، ثم يقفل إلى منزله مسرعاً قبل أن تحين ساعة الوضع . وإنه ليعلم أن الفترة التي تسبق الوضع تطول أحياناً لأكثر من يوم .

ليكن ما يكون إذاً ، وليترك ريانة لرحمة الله ، وليمض إلى ذلك التكليف رفقاً بحياته وحيـاة ريانة معاً ، فليس له إلى معصية الشيطان وإغضابه وسيده معاً من سبيل .

وقد كان . ترك عبد الصمد ريانة لرحمة الله ، وكان سبيل هذه الرحمة إليها أن آوتها وجنينها إلى دار تبعد بها عن طغيان الشيطان وجبروت سيده ، فقد أعسرت الولادة على ريانة وحارت جاراتها في الأمر ، وساعد الجو القارس البرد والريح العاصف على أن تصاب بحمى النفاس ويهملها العلاج السريع ، فإن عبد الصمد لم يعد إلا بعد أن وضعت الكلبة العزيزة في الصباح الباكر ، وبعد أن تمكنت الحمى من الزوجة ، فلم يجد العلاج وذهبت وجنينها حيث نعي لها عبد الصمد . . . . إلى رحمة الله . . . .

* * *

مرت هذه القصة في خيال الجماعة الجالسين إلى حافة الجدول ، وكأنما ضاقت بما فيها من بشاعة رؤوسهم الظللة ، فلاحت حافة الجدول وما يحيط بها من هواء غير خفيف تطيف به الأشباح ، وخالطت الرهبة ذرات الهواء ، وبدا

فى خرير ماء الجدول أنه يرتل لحناً حزيناً دامياً . كان كل شىء مفزعاً مخيفاً يلوح فيه الحزن وتبدو الكآبة .

وطالت لحظات السكون ، وطال تحليق ذكريات هذه القصة المفجعة فى رؤوس الجماعة ، وكان أشدهم انقباضاً لها عبد الصمد ، حتى إذا خطت بعيداً عنهم فى تباطؤ ، قال سالم كأنما يطارد آخر آثارها من جو المكان :

— لم لا نشكو عواداً إلى شوكت بك . نقول إننا نحبه ولا نود أن نخدم غيره ، وإن عواداً يرهقنا بالعمل . إن شوكت ليس معنا دائماً ولا شك أنه يجهل ما نعانيه . ما رأيكم فى كتابة عريضة نطالب بها ؟

وقاطعه عبد الصمد فى استهزاء :

— عريضة ؟ نقول فيها إن عواداً يرهقنا بالعمل فتؤدى أحسن شهادة لذلك الشيطان ؟ أتظن أن شوكت بك يهتم بشىء غير زيادة المحصول وكثرة المواشى وتربية الكلاب . وما دام كل ذلك يسير على خير حال ، فعواد فى نظره أحسن ناظر عزبة فى الوجود .

ولم يقتنع سالم بهذا الجواب بل عاد إلى شرح ضرورة إرسال عريضة ، وبدا فى حديث رفاقه تحبيذ هذه الفكرة وتأييدها ، كأمل ضعيف يحرصون على ألا يضيع من أيديهم .

قال واحد منهم : لا أرى داعياً لأن نشكو عواداً حتى لا يصب علينا نقمته . بل ولا أرى داعياً لكتابة عريضة ، فلنتقدم لشوكت بك يوم وصوله فندعو له بالخير ، ونقبل أقدامه ونرجو منه .

وقال آخر : ومن يجرؤ على مخاطبة هذا السيد المتكبر ؟

وأجاب الأول : إذاً فلنرسل العريضة . نقدمها له مكتوبة بعد غد . أنت ياسالم تعرف تقرأ وتكتب . غداً بعد العمل تذهب إلى دارك وتكتبها لنا وتحاول فيها أن تكون مؤدباً و . و . . .

وطال حديث الجماعة فى صيغة ما يكتبون ، وأشفق الليل على أبدانهم الرقيقة فأرسل ريحاً أرغمتهم على أن يفضوا سامرهم ويعضوا إلى دورهم يلتمسون عندها الراحة ويحلمون فى مستقبل من العيش خير من حاضرهم ، وقد أسرفت الآمال فى أثر عريضتهم فتخيلوا طوال الليل أحلاماً سعيدة .

* * *

بعد يومين من تلك الأمسية جلس شوكت بك فى شرفة سرايه يقرأ قطعة من الورق سكب فيها عشرات من أجراء ضيعته آمالهم المتواضعة فى الحياة ، وهو يربت فى رفق على عنق كلب تنم نظراته على الصحة المسرفة .

ولكنه لم يكد يتم القراءة حتى ضحك ضحكة جافة ، ونظر إلى صديقه الرابض بجواره ثم قال فى تهكم :

— أسمعت يارالف ما يقوله هؤلاء الناس . إنهم يريدون أن أرفق بهم ، وأعاملهم معاملة الكلاب . يعنى زيك ! أسمعت ؟

ولم يبد على شوكت بك أنه فهم من أمنية أجرائه الذليلة أكثر من أنها مقارنة معقولة ومستحية أيضاً . . ؟

صلاح الدين ذهنى

رجـــاء

إلى حضرات المشتركين

نرجو الثقافة من حضرات الراغبين فى الاشتراك لسنة ١٩٤١ أن يتفضلوا بالاطلاع على شروط الامتياز التى تنشر على غلاف المجلة .

كما نرجو من حضرات المشتركين فى أعدادها عن سنة ١٩٤٠ ولم يسددوا جميع الاشتراك أن يتفضلوا بإرسال ما بقى منه إلى إدارة المجلة فى ميعاد غايته عشرة أيام تبتدئ من يوم صدور هذا العدد .

البريد الجوى والمدن الصغيرة

كان البريد الجوى إلى الآن مقتصراً على المدن الكبيرة ، حيث يمكن أن تفى الرسوم البريدية الكبيرة التى تحصّل من المبعوثات بنفقات المطارات ومكاتب البريد اللازمة . وذلك لأن هذه المطارات تكون عادة خارج المدن ، والانتقال منها وإليها يتكلف نفقات كثيرة ، كما أن نزول الطائرة إلى الأرض لتسليم أكياس البريد التى معها ، وتحليقها إلى الجو للسفر بعد تسلم أكياس البريد المرسلة من هذه المدن ، هذا النزول والصعود يتكلف كثيراً من النفقات للعمال اللازمين وغيرهم من المهندسين الأرضيين والمهندسين الفنيين الأخر ، والآذنين بالهبوط ، ثم بالسفر ، إلى غير ذلك من ترتيبات تتطلب مصاريف .

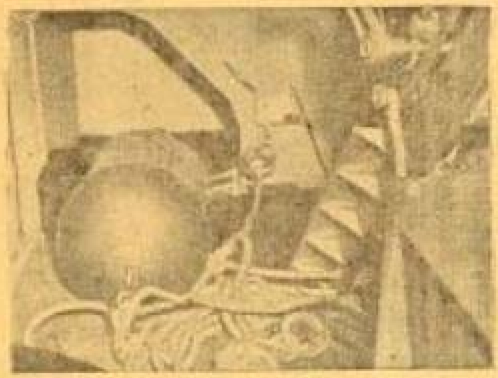
لكن اختراعاً بسيطاً طريفاً وصل إليه الأمريكان قد مكن إحدى شركات الطيران من توزيع البريد على ٥٨ مدينة صغيرة فى أربع ولايات متجاورة فى شرق الولايات المتحدة الأمريكية . ويتلخص هذا الاختراع فى إجراء تحوير فى تصميم الطيارة ومحتوياتها وترتيب آخر على الأرض فى المدينة الصغيرة ، بحيث أصبح فى الإمكان إنزال أكياس البريد المرسلة إلى المدينة ، والتقاط الأكياس المبعوثة منها أثناء طيران الطائرة بسرعة تتراوح بين ٩٠ و ١١٠ أميال فى الساعة ، بغير حاجة إلى الهبوط على الأرض ؛ وعلى الرغم من أن جميع التفاصيل الفنية للاختراع لم تذع بعدُ إلا أنه يمكن شرح النقط الأساسية فيه :

فأما الطائرات فقد أزيل جميع ما بداخلها من الأدوات المألوفة عدا مقعد الربان ولوازمه ، وذلك لكى تتسع الطائرة لأكبر عدد من أكياس البريد ولجلوس وكيل البريد المسئول ؛ كما وضع فى الطائرة جهاز خاص يديره هذا الوكيل ، فيتمكن بذلك من التقاط الأكياس بحبل ربط بآخره خطاف (شكل ١) ، وجهاز آخر يشغله ربان الطائرة



(شكل ١)

النرض منه فك الأكياس المراد إنزالها إلى الأرض ، (شكل ٢) .

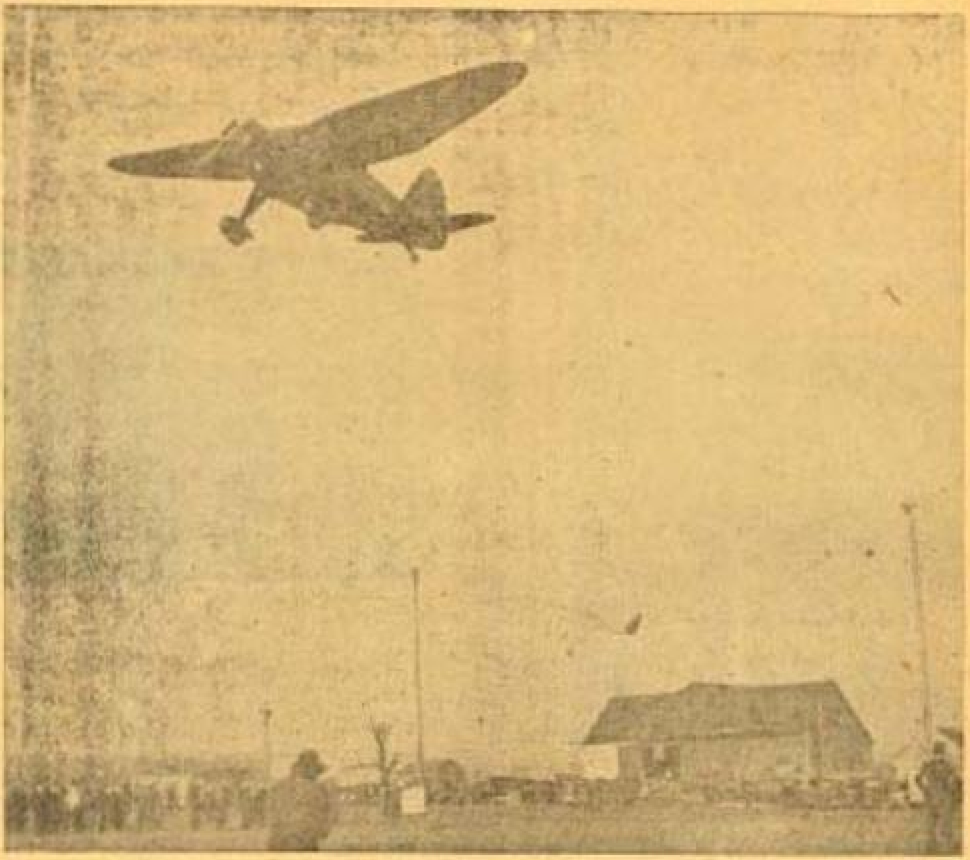


(شكل ٢)

وأما الأرض فقد وضع عليها جهاز آخر (شكل ٣) يتركب من ساريتين من الصلب طول كل منهما عشرة أمتار والمسافة بينهما ٢٠ متراً ، وفى رأس كل منهما علم زاهى اللون يتقابل . ويمتد بين الساريتين حبل مستعرض مشدود إلى كل منهما بماسك زنبركى ينفصل بسهولة إذا جذب الحبل فجأة . ويحمل هذا الحبل كيس البريد المعد لأن تلتقطه الطائرة .

وهذا بيان الخطوات التى يعملها وكيل البريد لتسلم الأكياس والتقاطها فى وقت واحد :

يقترب الربان من المحطة ، وقبل الوصول إلى الساريتين ، يفك الكيس المراد تسليمه فيسقط دون أن يتشبك بحبل



(شكل ٣)

يدلى الوكيل باليد الكيس الذى يريد تسليمه ، وهو متصل بالطائرة بحبل ينتهى بجهاز لفكاكه تحت إمرة الربان كما قدمنا . ثم يدلى بحبل آخر الخطاف الملتقط . ويتصل الطرف الأعلى لهذا الحبل بجهاز فى الطائرة لتخفيف أثر صدمة الالتقاط (شكل ٤) . وهذا الحبل يتدلى من جسم الطائرة على بعد يبلغ نحو قدمين أمام حبل التسليم . ويمنع الحبلين من التفاف أحدهما حول الآخر أنهما مختلفان فى الثقل والمقاومة للهواء ، فيتدليان بقوسين مختلفى الشكل . وعندما



(شكل ٤)

الالتقاط. ثم تمر الطائرة بين الساريتين على ارتفاع يتراوح بين خمسة عشر وعشرين متراً، فيرتكز حبل الالتقاط على الحبل المستعرض الذي بين الساريتين، وينسحب فوقه تبعاً لسرعة الطائرة إلى أن يشتبك الخطاف الذي في نهايته بالحبل المستعرض، فيفصله عن الساريتين ويجذبه معه، وعندئذ يرفع الوكيل الكيس إلى الطائرة كما تراه في (شكل ٥).



(شكل ٥)

وفي الوقت الذي يشد فيه الخطاف الحبل ينحدر كيس البريد على الحبل مبتعداً عن الخطاف، وهناك جهاز في أعلى الكيس يعمل على تقليل سرعة انحداره بالتدريج، حتى يسكن تماماً عند وصوله إلى نهاية الحبل. والواقع أن هذا الجهاز هو الذي يتلقى الجزء الأكبر من صدمة الالتقاط فيخفف من وقعها على الحبل، وما بقي منها بعد ذلك يتلقاه الجهاز الذي في الطائرة (شكل ٤).

ويقال إن الرجال الذين في الطائرة لا يكادون يشعرون بالتقاط الأكياس. وإذا حدث أن اشتبك الحبل أو الخطاف بمانع على الأرض، فإن هناك « وصلة سلامة » تنفصل حالاً فتقطع اتصال الحبل بالطائرة، فتمنع وقوع أي حادثة. وفي الوقت الحاضر قد حدد وزن ما يلتقط من أكياس البريد بعشرين رطلاً، ولو أنه أثناء التجارب التمهيدية قد أمكن الالتقاط لغاية ٧٠ رطلاً! وسيزداد القدر المسموح به كلما ازداد الوثوق بالجهاز ومتانته واستجابته للعمل.

هذا وقد صنعت أكياس البريد المستعملة في هذه العملية (شكل ٦) على صورة تجعلها تتحرك في الهواء وهي معلقة في الطائرة بأقل مقاومة من جانب الهواء، كما أنها مقواة لتتحمل صدمة السقوط أثناء الحركة بسرعة كبيرة. وهذه الأكياس ذات مقدمة ملساء مستديرة كما يتبين من الشكل، ومصنوعة من الفيبر ومتصل بها إزار من المطاط يغلف علبة البريد، وتراه تحت المقدمة في الشكل.



(شكل ٦)

وبما أن السرعة هي أساس هذا البريد الجوي فمن المناسب أن نذكر هنا أن طائرات الشركة القائمة بهذا العمل تطير ١٥٤٠ ميلا كل يوم، وتلتقط ٧٥ كيساً لتوزيعها على الثماني والخمسين بلدة في مواعيد منتظمة بسرعة متوسطها ١٠٠ ميل في الساعة، سواء أكان الطقس مناسباً أم غير مناسب. وبما أن البعد بين المحطتين التتاليتين يتراوح بين خمسة أميال واثنين وعشرين ميلاً فقبل هذا العمل لم يكن ليتم لأن الطائرات كانت مضطرة إلى الهبوط والصعود في كل محطة.

أحمد مختار صبري

من شعر الشباب

إيه يا بدر ! لقد طو   لت نفسى بالمنى !

حسنك الفياض قد   أسكر روحى بالسنى

قد أضل النور قلبى   فى خيال حائر

وإذا بالقلب يشـو   نحو نور ساحر

هو نور شاعت الأحـ   لام فيه والنغم

ذاب فيه الوهم حتى   كاد يبدو من حُلُمْ

هذه الأحلام تزهو   أم تراها تحترق ؟!!

هذه الأنغام تزكو   أم تراها تختنق ؟!!

إننى أبخل يا بد   ر بهاتيك المنى !

ابقها لى ! هى حسبى   من نعيم أو هنا !

•••

أنت قد أضللتَ قلبى   بالأمانى يا قمر

ما الذى يهديه ؟ شمس   فى نهار تزدهر !

إننى أخشى على الأحـ   لام قيظاً ولهب

فيجف الزهر والنـ   ـيا أتون يصطخب

ذاك دمعى يا زهور !!   قلب ، نبع من سموّ

سيواليك بقطر   من حنين وحنو

فإذا ما جاءت الشـ   ـس لتروى من دمك

شربت دمعى فداء؟ .   لرحيق فى فمك !

لن تجف يا زهور !!   قلب بل أنت الندى !

لن تجف يا زهور !!   قلب بل هاتى الشذا ،

هات حلم الدهر يا أز   هار ، أنفاس الربيع

قبل أن تفنى مع الصيـ   ف وفى الصيف تضيع

•••

جاء فى الليل أيا بد   ر من الخلد ملك

جاء يهفو فى دلال   بين أجرام الفلك

مس وجه الليل والبا   ل حزين مكتئب

فإذا أنت ضياء !!   يشرق الأفق التهب !

مسح الأحزان عنه   بجناح طاهر

فسرى الفرح إليه   فى الجبين الزاهر

هزه العطف فذاب الد   مع روحاً ينطلق

وإذا بالدمع نور   ضاء أجواز الأفق !!

يا إلهى ! قد أضاء النو   ر من قلب الدجى !

علّم الحب الليالى   خير ألوان البكا

•••

هذه الأنوار يا بد   ر أهازيج الهوى

وحديث الشعر والسحـ   ـر وأوهام الصبا

طلها الليل طروباً   فوق وجنات السما

شربت منها زهور !!   قلب وحياً وهدى

•••

إننى أسمع فى ذا !!   نور أنغام الحنان !

ذوبوها فى نشيد   من أناشيد الجنان !

سكبوها فى حنايا الليـ   ل وحياً للكمان

فاستقى منها أغانى الا   يل قلب الكروان

•••

هذه الأنوار يا بد   ر خيالات الشباب

تملأ الجو بعطر   من أمانى عذاب

والشباب الحلو يا بد   ر خيالات الزمن

الزمان الطفل لا يعـ   روه شيب أو وهن !

•••

إيه يا هذا الزمن !   أيها الشيخ الصبىّ

تتغذى بالشباب الـ   غض كى تبقى الفتىّ ؟!

فيك دوماً منه جيل   يتغنى بالحياه

ثم يذوى بعد حين   فترى جيلا سواه !

إيه يا خالد ، يا جبا   ر ، يا حرب العدم !

أنت نبق؟! نحن نفنى   كزجاج يتحطم ؟!
عجباً يا شيخ ؟! دوماً   فى رياض من نعم ؟!
نحن أطفالك يا شيـ   ـخ سيفنينا الهرم
سوف ينضو عن نهانا   حلو أثواب الخيـال
فترى الدنيا هشيماً   قد أعدت للزوال
فتعرى النفس إن جز   نا غيابات الضلال !
حكمة العجز تغنى ا   لحق دوماً بالظـلال

ملك عبد العزيز

العندليب الكئيب

يتغنى بين الطيـــور كئيباً
عنـــدليب رمت به الأقدار

***

كان هذا ، يوماً ، على غصن بان   فى الخميله
يتساقى كأس الهوى ، والحنان   وخليلـه
وهو من حادث النوى فى أمان   لا يبى له
كان يفتن فى ضروب الأغانى
يتغنى ، بأعـــذب الألحان
فتراه — فى كل وقت — طروبا
ليس يدرى ، ما الحزن ، ما الأكدار

***

مطرب ، حوله الزهور العواطر   تتبسم
شاعر ، شعره يكل الخواطر   قد تجسم
يتناجى مع إلفـــه ، ويسامر   كالمتيم
بينما يحتسى المنـــا ، ويباكر
إذ بباز على الطوى غير صابر
يخطف الإلف ، مستبداً ، قطوبا
فأراقت دماءه الأظفـــار

***

هكذا يقتل القوى الضـــعيفا   لا يبـالى
هكذا يفقد الأليف الأليفـــا   فى الليالى
هكذا يصرف الزمان الألوفا   للـزوال
إن من كان فى الحيـــاة ضعيفاً
عاش للبؤس ، والشـــقاء حليفا
قل لمن رام عيشــــه أن يطيبا
ليس فى العيش للضعيف قرار

***

غنّ العنـــدليب يبكى الحبيبا   بانكسار
«يجرح الدمع مقلتيـــه صبيبا»   بانحدارِ
أصبح الوجد فى حشـــاه لهيبا   نحوَ وارِ
دبّ فى جســـمه الهزالُ دبيباً
حيث أمسى بين الطيور غريبا
إن أتى شاكياً لحن الخطوبا
نفرت عنـــه تلكم الأطيار

(الكاظمية — بغداد)   على جليل الوردى

إنه فى يوم السبت ١٨ يناير سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية كفر النقى وفى يوم الأربعاء ٢٤ منه بسوق قويسنا إذا لزم الحال سيباع علنا عمرات وأشياء منزلية موضحة بمحضر الحجز ملك محمد موسى زرمى ومحمود عبد الصادق رمضان من الناحية وفاء لمبلغ ٢٣ قرش بخلاف أجرة النشر نفاذاً للحكم رقم ٣٧٦١ سنة ١٩٤٠ أشمون كطلب محمود رضوان شرف الدين ووقفه

تمنى راغب الشراء الحضور .

إنه فى يوم الاثنين ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً وما بعدها بناحية الشابية مركز القنزلة وفى يوم الأحد ٢٦ منه بسوق القنزلة كطلب حضرة أفندى السيد القطان من القنزلة سيباع علنا بقرة حمراء بمحضر ملك أحمد أحمد عبد الرازق من الشابية وفاء لمبلغ ١ جنيه و ٢٨٠ مليم بخلاف رسم التنفيذ وأجرة النشر وما يستجد تنفيذاً للحكم رقم ١١٤٩ سنة ١٩٣٩ القنزلة

تمنى راغب الشراء الحضور

أنباء وآراء

فى عالم التأليف

حكايات من الهند

ضمت المكتبة العربية أخيراً كتاباً جديداً ترجمه الأديب الأستاذ عبده حسن الزيات من الانجليزية هو « حكايات من الهند » للكاتب الهندى ا . س . ب . إيار . وهذا الكتاب يمثل لوناً من ألوان أدب القصة عرفه الشرق وأجاد فيه كتابه ، هو الحكاية ذات المغزى التى تصطنع فيها « الحادثة » لترسم الحكمة أو تقرر الموعظة .

وكتاب حكايات من الهند مجموعة اختارها الأستاذ الزيات من كتاب لهذا المؤلف اسمه Indian After. Dinnerstories ، وقد أجاد المترجم فى اختياره للقصص التى ترجمها ، يشهد بذلك الاطلاع على هذه القصص ، فما من واحدة منها إلا تشير إلى فكرة سامية أو توحى بفضيلة ، أو تسخر من رذيلة ، أو تناقش مذهباً أو نظرية فلسفية ؛ فهى بذلك تجمع بين التسلية الخفيفة المحببة ، فيقرأها طالب التسلية على هذا الوجه ، والحكمة السامية الرفيعة ينتفع بها طالبها ويجدها فى غير مشقة ولا عناء ، ولا يمنع ذلك من أن تتسرب الحكمة إلى طالب التسلية فى يسر لا يحس معه بما استفاد إلا عن طريق الانعكاس النفسى الخالص ، وأن تتسرب التسلية إلى نفس طالب الحكمة فتيسر عليه مشقة الفكر . ولعل القصة — حين نشأت — لم تكن لها مهمة غير ذلك ، وإنما كان انحرافها عن ذلك القصد فى العصر الحديث هو منشأ تلك الثورة التى ثارها عليها أمثال السير هيو والبول فنعتها بأنها استحالت « عملاً علمياً بغيضاً » ووصف شخصياتها بأنهم « أنابيب اختبار تتفاعل فيها نظريات العلم الحديث على صورة مادية بحتة أفقدتها جمالها وخرجت بها من مهمتها » .

ويقول الأستاذ الزيات فى المقدمة التى وضعها لهذه المجموعة : « إن هذه « الحكايات » ليست مجرد لهو خفيف يقرأ بعد الطعام ، ولكنها بعيدة المغزى على قرب منالها ، عميقة القاع على هدوء سطحها ، قوية الايحاء على بساطة مظهرها ... وفيها فوق ذلك خصال أنجبتنى ، منها الرمزية . . . . ومنها العناية بالايحاء الاجتماعى الطيب من ناحية ، وبالتحليل النفسى من ناحية أخرى ؛ فبين هذه الحكايات جملة أستطيع أن أنعتها بأنها حكايات إصلاحية ناجحة ، سيجد القارىء المصرى أنها تصلح لمخاطبة مجتمعه » .

وفى هذا التقديم الصادق شرح واف لمزايا هذه القصص ؛ فإذا أضيف إليها ما توفر للمترجم من مقدرة على الأداء ، وبراعة فى الأسلوب ونزاهة فى الترجمة ، استطعنا أن نقول فى غير مبالغة إن الخدمة التى أداها الأستاذ الزيات إلى الأدب ليست فى مجرد زيادة عمل أدبى يضاف إلى المكتبة ، وإنما هى قبل كل شىء خدمة اجتماعية تؤتى ثمرها فى الاصلاح الاجتماعى المنشود .

المهندس الصغير

هذا هو اسم الكتاب الذى نشرته مطبعة المعارف للأستاذ محمد عاطف البرقوقى أخيراً ، وهو من كتب المعلومات العامة والمعارف العلمية التى يجمل بكل مثقف أن يلم بها .

وقد اقتصر هذا الكتاب على طرق المواصلات ، فتناول فى أسلوب لطيف العبارة تاريخ وسائل المواصلات متتبعاً إياها من نشأة الانسان إلى تطورها الحاضر ، مع إلمامة موجزة بتاريخ كل مخترع ، وشرح مبسط لتركيب كل وسيلة من الوسائل .

وهذا الكتاب ، كما يقول مؤلفه بحق : « إلى الأديب والطبيب ، والمحامي والزارع ، والتاجر والصانع ... فهو كتاب الجميع ... »

كتب عن الحرب الحاضرة

صدرت حديثاً ثلاثة مؤلفات عن الحرب الحاضرة لثلاثة من الكتاب ، تناول فيها المؤلفون الحرب الحاضرة بوجه عام ، ومحنة فرنسا بوجه خاص .

وأول هذه الكتب لأندريه سيمون وعنوانه « إني أتهم » . هو جملة من الاتهامات لساسة فرنسا ، وقواد حربها ، وهو يبدأ هذه الاتهامات بتوجيه اللوم إلى حكومة الجبهة الشعبية ، لمسئوليتها عن إهمال صناعة الطيران ، ولتمكينها الشيوعيين من عرقلة الصناعات اللازمة لوسائل الدفاع ، لاسيما بعد أن وضحت نيات الألمان من اتفاقية برلين — موسكو ..

ويؤيد أندريه سيمون اتهاماته بسلسلة من الاحصائيات تبين أثر الحزب الشيوعي في تأخر الصناعات الحربية في فرنسا ، ثم أثر الشيوعيين أخيراً في الهزيمة . ومن الحقائق التي يلفت إليها النظر أن فرقة الدفعية الشيوعية في جيش الجنرال كوراب الحادي عشر ، كانت هي السبب — كما ثبت قطعاً — في نجاح الغزو الألماني لفرنسا .

أما الكتاب الثاني فهو لأندريه موروا ، وعنوانه « مأساة فرنسا » ، وهو يتفق مع الكتاب الأول في اتهام أحزاب الشمال ، ولكنه يحدد أسباب الهزيمة ، ويرى أنها

أولا — سوء تعبئة المصانع وتنظيمها إذ أدى ذلك إلى حرمان مصانع الحرب من أحسن العمال الذين يصلحون للصناعات الحربية ، فلم يكن يشتغل بصناعات الحرب غير ٧٠٠٠ عامل من ٣٠٠٠٠ عامل من مهرة صناع الأدوات الحربية .

ثانياً — اعتقاد المهندسين ورجال المال الخاطئ بأن حرب سنة ١٩٤٠ ستكون كحرب سنة ١٩١٤ ، وعلى هذا الأساس شرعوا في إعداد المصانع الحربية للعمل ببطء ، حيث كان من المتعذر أن تبدأ هذه المصانع عملها قبل عام ١٩٤١ أو عام ١٩٤٢ ، ظناً بأن هذا هو الوقت الذي ستحتاج فرنسا فيه إلى أدوات الحرب حقاً

ثالثاً — كان القواد الحربيون الفرنسيون قد أعدوا لحرب الثابتة بينما كانت أداة الحرب الألمانية تعتمد على سياسة الحركة السريعة في الحرب ، وعلى هذا الأساس أعدت القيادة الألمانية .

رابعاً — الحالة المعنوية وخصوصاً عند الشيوعيين ورؤساء العمال الذين كانوا يديرون الأداة الفعلية لصناعة الحرب ، فقد كانت الحالة المعنوية عند هذه الطبقة من الشعب الفرنسي من أحط ما يمكن وفي منتهى الضعف .

ويشير أندريه موروا بعد عرض هذه الأسباب إلى أن الشعب الذي يريد أن لا يفقد حريته يجب أن يكون مستعداً للموت في سبيل الوطن الذي يضم جميع الأحزاب ، والتي تكون هذه الأحزاب عربات من قطاره في سير الحياة . ثم يقص موروا بعد ذلك قصة مؤثرة حدثت أثناء هزيمة الفلاندرز إذ وقف فلاح شيخ يشاهد جموع اللاجئين والجنود الهاربين من وجه الغزو الألماني ، فبللت عينيه الدموع ، ثم نظر إلى قائد إحدى الفرق الدبرة قائلاً في حسرة :

— أية خسارة يا سيدي الكولونيل ! مثل هذا البلد العظيم !

أما الكتاب الثالث فهو للكاتب الأميركي كليربوث وعنوانه « أوربا في الربيع » وهو يتناول الحالة المعنوية للشعب الفرنسي وشعوره بإزاء الحرب الحاضرة وأثر الخيانات المتوالية ، ثم عرض لأسباب الهزيمة ، وهو يختلف عن موروا في إرجاعه أسباب الهزيمة لعاملين أساسيين هما : اعتماد الفرنسيين الكلي على خط ماجينو ، واستهتارهم — أو سوء تقديرهم — لقوة ألمانيا الحقيقية .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ١٠٨ — الثلاثاء ٢٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٩ — ٢١ يناير سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

معركة الامبراطورية
بين بريطانيا وإيطاليا

لمحرر الثقافة السياسي

لما نشبت الحرب الحاضرة ، واشتبكت فيها ثلاث من دول أوربا العظمى ، هي ألمانيا وانكلترا وفرنسا ، وتدخلت لاجتناء بعض فوائدها دولة رابعة هي روسيا ، كانت إيطاليا هي الدولة الأوربية الوحيدة التي تشغل دور الحكم ، وكانت تتبوأ يومئذ في حلبة السياسة الأوربية مقاماً لم تبلغه من قبل ، ولبثت أشهراً قبل دخولها في الحرب إلى جانب شريكتها في المحور قبلة أنظار المتفائلين ودعاة السلم ، يخطب ودها الفريقان المتحاربان ، وتحاول انكلترا وفرنسا إرضاءها بكل ما وسعتا من العروض المغرية ! وكان في وسعها أن تجتني بالمحافظة على حيدتها أطيب الثمرات . ولكنها كانت تتربص الحوادث ، فلما رأت فرنسا صريعة في الميدان وظنت أن الوقت قد حان لاجتناء نصيبها من الأسلاب ، دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا ، ودفعتها روح الفاشستية الباغية ، وأحلامها

الأمبراطورية المزرقة ، إلى أن تزج بنفسها دون تبصر إلى الهاوية التى تتردى الآن فى حمأتها .

وكان الاضطلاع بالحرب فى البحر الأبيض المتوسط وأفريقية هو الدور الذى أسند إلى إيطاليا منذ البداية ؛ وكان زعماء الفاشستية يحلمون بإحراز انتصارات سريعة باهرة فى هذه الميادين التى يسمونها بمجال إيطاليا الحيوى ؛ وكانت إيطاليا تستعد بالفعل للقيام بهذا الدور منذ أعوام ؛ فقد وزعت جيوشها وقواتها المصفحة والجوية فى ألبانيا ورودس تحفزاً للعمل فى البلقان وشرق البحر الأبيض المتوسط ، وفى لوبيه استعداداً للزحف على وادى النيل ، وفى الحبشة استعداداً لغزو السودان وأفريقية الشرقية البريطانية ؛ ولبثت تجد فى الاستعداد فى هذه الميادين قبل نشوب الحرب بمدة طويلة ؛ وكانت تعتقد بعد انهيار فرنسا ، وما ترتب عليه من اضطراب خطط الدفاع البريطانى مؤقتاً فى الشرق الأدنى وأفريقية ، أنها ستصل إلى أهدافها وفق ما تنشد ؛ وشجعها على هذا الأمل الخلب أنها استطاعت أن تحتل الصومال البريطانى وكسلا ، وأن تسير جيوشها فى الصحراء الغربية دون مقاومة حتى سيدى برانى ، وأنها حين اعتدت على اليونان استطاعت جيوشها أن تتقدم فى البداية بضعة أميال داخل الأراضى اليونانية ؛ ولكن هذا الحلم مالبث أن تبدد أولاً فى الحرب اليونانية ، حيث انكشفت قوى الفاشستية بسرعة ، وردت على أعقابها فى ألبانيا بخسائر فادحة ، وأصيبت فى البحر والجو على يد الأسطول البريطانى وسلاح الطيران البريطانى بعدة ضربات شديدة ؛ ثم كان دور الصحراء الغربية ، حيث استطاعت القوات البريطانية أن تداهم قوات المارشال جراسيانى وقواعده الهجومية فى سيدى برانى ، وأن تكتسحها بسرعة مدهشة ، وأن تتابع زحفها حتى حدود لوبيه ، وأن تطهر الأراضى المصرية من الغزاة فى أيام قلائل ، وأن تتوغل بعد ذلك فى لوبيه فى أعقاب الجيش المهزوم ، وأن تنتزع حصون البردية المنيعة من يد حاميتها القوية ، وأن تأسر من الجيش المهزوم عشرات الألوف ، وأن تغنم معظم سلاحه وعتاده ؛ وهى الآن تطوق طبرق ، ميناء برقة الرئيسى ، وقد تسقط فى يدها قبل أيام قلائل .

وهكذا تنهار آمال الفاشستية تباعا فى شهرين فقط ، بعد أن لبثت منذ غزو الحبشة خمسة أعوام تستعد لتحقيقها بالسيف ، وترتكب العدوان بعد العدوان ، وتتكشف قواها فى جميع الميادين بصورة يرثى لها . وقد كنا نظن حينما بدأت القوات البريطانية هجومها فى الصحراء الغربية أنها ستقنع مؤقتاً بتطهير الأراضى المصرية ، والاستيلاء على مثلث السلوم والبردية وجغبوب ، وذلك نظراً لطول المسافات التى قطعتها فى توغلها ، وبعدها بذلك عن قواعدها الرئيسية ؛ وأنها قد تبدأ العمل بعد ذلك فى الساحة الحبشية ؛ ولكن الظاهر أن القيادة البريطانية قدرأت ، بعد الذى أحرزته من توفيق فى الأعمال الحربية الأخيرة ، أن تتابع توغلها فى برقة مراحل أخرى ، وأنها قد ترى بعد الاستيلاء على طبرق الزحف على درنة ثم بنغازى ؛ وقد ترى إذا سنحت الفرص ، أن تستمر فى توغلها حتى تقضى على القوات الايطالية فى لوبيه كلها .

* * *

أما عن الحرب فى أفريقية الشرقية ، وخطط القيادة البريطانية فيها ، فقد كشف الجنرال سمطس رئيس حكومة اتحاد جنوبى أفريقية ، فى خطاب أذاعه عن مشاريع القيادة البريطانية فى هذه الساحة ، فذكر أن الايطاليين يحتفظون فى هذه الجبهة بجيش يبلغ نحو مائتى ألف ، ولا يقل استعداداً من الجيش الذى حطمته القوات البريطانية فى الصحراء الغربية ؛ وأن القوات البريطانية

اكتفت حتى الآن بأن تعمل لمطاولة هذا الجيش أو شل حركاته ، ولكنها ستضطلع في سنة ١٩٤١ بمهمة أخطر ، وهي العمل لتطهير الحبشة من العدو ، واسترداد الصومال البريطاني الذي استولت عليه قوات معادية متفوقة في العدد . والجنرال سمطس من أعظم ساسة الامبراطورية البريطانية وأبعدهم نظراً ، ومن أقطاب المنظمين لحركة الدفاع الامبراطورية ، وقد اشترك في المؤتمرات التي عقدتها القيادة البريطانية أخيراً في السودان وشهدها مستر إيدن وزير الدفاع البريطاني يومئذ ، ولهذا فإن لتصريحاته أهمية خاصة ؛ وفي وسعنا أن نتوقع بالفعل وقوع تطورات عسكرية خطيرة في هذه الساحة في المستقبل القريب .

والواقع أن طلائع الهجوم البريطاني في شرق أفريقية تبدو منذ حين وتشتد يوما عن يوم ؛ فقد استردت القوات البريطانية نقطة القلابات الواقعة على الحدود السودانية الحبشية من الشرق ، وهي تشدد الضغط على الايطاليين في هذه المنطقة وفي منطقة كسلا تمهيداً لاستردادها . هذا ومن جهة أخرى فإنه يستفاد من الأنباء الأخيرة أن مجرى الحوادث في الحبشة قد يسفر في القريب العاجل عن نتائج هامة ؛ فقد بدت طلائع الثورة على الايطاليين في بعض الأقاليم الحبشية ، واضطر الايطاليون إلى إخلاء منطقة جوبا والتراجع إلى الداخل ، وتبدو خطورة الحوادث المقبلة في هذه الساحة أيضاً فيما تبديه الحكومة البريطانية من استعداد لتسهيل ترحيل النساء والأطفال الايطاليين من أفريقية الشرقية إذا طلبت إليها إيطاليا ذلك ؛ وفي تصريحات الإمبراطور السابق هيلاسلاسي الذي يوجد الآن في الخرطوم ، على مقربة من بلاده ، ما يدل على أنه يستعد قريباً للعمل ، وقيادة القوات الحبشية الوطنية ، ضد الايطاليين ؛ وقد يقع ذلك قبل بدء الهجوم البريطاني على الحبشة لانهاك قوى الجيش المحتل ، وقد يقع في نفس الوقت ؛ وعلى أي حال فمن المرجح أن الجيش الايطالي في الحبشة يواجه الآن ظروفاً صعبة ، بعد أن مرت عليه أشهر ، وهو منقطع الصلة بايطاليا ، ومرغم على الاكتفاء عا لديه من موارد ومؤن وذخائر تنضب يوماً بعد يوم ؛ هذا إلى ما يواجهه من صعاب داخلية في بلاد يحتلها بقوة السيف ؛ وقد كان الجيش الايطالي في الحبشة يعتمد من الناحية « الاستراتيجية » على معاونة زميله في لوبيه وعلى كونه يستغرق اهتمام القوات البريطانية ونشاطها في الشمال ؛ بل كان كل منهما يحلم بأن يلتق مع الآخر ، في خطة عسكرية مزدوجة ، يخترق بها جيش الحبشة السودان إلى حدود مصر الجنوبية ، ويلقاه جيش لوبيه في اتجاه واحة الكفرة ؛ ولكن ما أصاب جيش المارشال جراسياني أخيراً من الضربات الأليمة قد قضى على هذا التناسق بين عمل الجيشين قضاء مبرماً ؛ وفي وسع القيادة البريطانية أن توجه بعض قواتها من الجبهة المصرية للعمل في الساحة الحبشية ، فتستطيع بتعاونها مع قوات أفريقية الجنوبية ، وكنيا والسودان ، أن تنظم على الحبشة هجوما سريعاً ساحقاً كالذي نظمته على جيش المارشال جراسياني في لوبيه .

ومتى تم القضاء على الجيش الايطالي في الحبشة ، أسوة زميله في لوبيه ، فإن قوى إيطاليا العسكرية تكون قد حطمت بصورة لا يمكن أن تنهض معها بعد . وقد لاحظ بعض النقدة العسكريين حينما دخلت إيطاليا الحرب أن توزيع قواتها على هذا النحو ، في ألبانيا وروودس ولوبية والحبشة ، مع تعرض مواصلات هذه الجيوش بإيطاليا للانقطاع ، إذا استطاع الأسطول البريطاني أن يسيطر على البحر الأبيض المتوسط ، هو توزيع خطر يعرض قوى إيطاليا العسكرية للانهيار ؛ وقد تحققت

ملاحظة أولئك النقدة تمام التحقق فيما نشهد اليوم من انهيار الجيوش الإيطالية في هذه الساحات تباعاً ، دون أن تستطيع إيطاليا أن تنجدها بطريقة ناجعة .

ومن الواضح أن انهيار قوة إيطاليا العسكرية على هذا النحو معناه انهيار امبراطوريتها الاستعمارية التي كانت تحلم بمضاعفتها بالاستيلاء على وادي النيل ، ومعناه أن بريطانيا العظمى قد كسبت معركة الامبراطورية التي عهد إلى إيطاليا أن تخوضها ضدها ، لكي تشل قواها ، وتهدد مواصلاتها وخطوطها الدفاعية الامبراطورية ؛ وقد كانت هذه المعركة تضطرم في الواقع بين بريطانيا العظمى وإيطاليا منذ غزو إيطاليا الحبشة في سنة ١٩٣٥ ؛ وكان احتلال إيطاليا الحبشة إلى جانب احتلالها لوبيه خطراً على وادي النيل ، وعلى الأملاك البريطانية في شرق إفريقية ؛ فالآن يتقوض هذا الصرح الاستعماري الذي حاولت الفاشستية بناءه بالقوة الغاشمة سراعاً ؛ والمفهوم أن الخطط البريطانية تتجه كما صرح الجنرال سمطس إلى سحق هذا الصرح في افريقية سحقاً تاماً ، فيطرد الايطاليون من لوبيه (برقة وطرابلس) ، ويطردون من الحبشة ، وتغدو كما كانت دولة مستقلة تحت حكم امبراطورها السابق ، وتنتزع منهم الأرترية والصومال وتوضعان تحت الحكم البريطاني . أما جزر الدود كانيز (رودس وغيرها) ، فالمفهوم أنها سوف ترد بعد النصر النهائي إلى أمها القديمة اليونان ؛ وأما ألبانيا فسوف يرد إليها استقلالها الداخلي الذي كانت تتمتع به قبل الغزو الايطالي ؛ وبذلك تجرد إيطاليا من جميع أملاكها الاستعمارية ، وتغدو كما كانت منذ نصف قرن دولة ثانوية ، ليس لها كبير أثر في سير الشئون الدولية ، وتحمل بذلك تبعات ما ارتكبته الفاشستية الباغية مدى عشرين عاماً من ضروب العنف والغصب والاعتداء .

***

هذا ، ولم يبد حتى الآن أن ألمانيا قد اعتزمت أن تسارع إلى نجدة حليفتها المهزومة بصورة ناجعة ؛ وقد ظهر أخيراً من اشتراك الطائرات الألمانية في حوادث المعركة البحرية التي وقعت في مياه صقلية الجنوبية بين السفن الحربية البريطانية والسفن الحربية الإيطالية ، وغرقت فيها مدمرة إيطالية ، وأصيبت بعض السفن البريطانية ببعض الخسائر والأضرار — أن ألمانيا قدمت إلى حليفتها بعض المعاونة الجوية ؛ ولكن مثل هذه المعاونة المحدودة لا يمكن أن تؤثر في مجرى الحوادث تأثيراً يذكر ، أو تحول دون استمرار الهزائم الإيطالية في الميادين البرية . وليس هناك حتى الآن ما يدل على أن ألمانيا ستقدم على اجتياح البلقان في القريب العاجل لانجاد الجيش الايطالي في ألبانيا ؛ ولو شاءت أن تقوم بهذا الانجاد لفعلت منذ البداية ؛ ومن الصعب الآن إزاء غموض الحالة في البلقان ، وتضارب الاشاعات المختلفة — التي يظن على الأغلب أنها من صنع الدعاية الألمانية ، كنوع من حرب الأعصاب التي درجت على شهرها من آن لآخر — أن تتبين وجهة الحوادث في هذه المنطقة بصورة واضحة ، ولا سيما إزاء الموقف الغامض الذي تقفه روسيا من ألمانيا ومن الحوادث البلقانية ؛ ولا بد لنا من أن ننتظر قليلاً حتى تبدو طلائع الحوادث المقبلة .

(***)

رحـــــلة .... !

— إلى أين — يا قائد الرحلات — رحلتك هذا العيد؟

— إلى الطور .

— فليكن .

«وشددنا رحالنا» ، ولكن هذا تعبير لا يعجبني ، فقد كان تعبيراً صحيحاً أيام الجمال والرحال ، أما الآن فلم نركب جمالاً ولم نشد رحالا ، وإنما أعددنا السيارات ، واختبرنا الآلات ، وزودناها بما يكفي من ماء وبنزين ؛ فلنعبر عن ذلك كله تعبيراً واقعياً لا تقليدياً . وسرنا على بركة الله نضرب في الصحراء ، ونقطع في عشر ساعات ما كانت تقطعه الإبل في عشرة أيام . ولكن ما أعجب العرب ! كانوا يركبون الإبل فبلغوا الغاية في التعبير عنها ، وعرفوا أجزاءها ، وسموا أعضاءها ، ووصفوا كل شيء فيها ، وأنشئوا حولها أدباً استوفوا فيه كل معنى رائع وقول جميل ، حتى لم يتركوا من بعدهم فيها قولاً لقائل ؛ وأتينا بعدهم فلم نستطع — مع حضارتنا وتقدمنا وزعمنا إرث العرب — أن نضع أسماء عربية لأجزاء السيارة ، ولا أن ننشئ حولها أدبا لا رائعاً ولا غير رائع ؛ واكتفى خبراؤنا أن ينقلوا أسماءها الأفرنجية ، كما نقلوا سيماها الأفرنجي ، وأخذنا نصوغ عبارات الإبل للدلالة على سير السيارات ، وهكذا نحن عالة على الأوربيين في المسمى ، وعالة على قدامى العرب في التعبير عنها ؛ فمتى نشعر بالاستقلال ؟

ما لنا ولهذا ؟ فقد قطعنا الطريق البديع يجمع بين السهول الفسيحة ، والوديان تكتنفها الجبال الجليلة ذات الألوان البديعة ، تقرب من البحر فتؤخذ بزرقته وتموجه وحركته ، وتبعد عنه فتؤخذ بألوان الأرض المختلفة وجمال وشيها وسكونها ؛ وننظر جميعاً إلى ذلك كله نظرات متفاوتة حسب تفاوتنا في ثقافتنا ؛ هذا عالم جيولوجي يقرأ في كل لون دلالة على نوع من المعدن ، وفي كل طبقة دلالة على الأعمار ، وهذا أديب لا يعنيه من كل ذلك إلا جمال المنظر وجلاله ، وروعته وبهاؤه ، وموسيقاه ونغماته ؛ وهذا اقتصادي يقرأ في كل صفحة تطالعه منجماً مجهولاً وثروة ضائعة ، يعلم ويندم ، ويدرك ويتحسر ، وكلنا يلقي خطرات من فيض علمه أو فيض أدبه ، وكلنا يأنس بالطبيعة ويستوحيها ويستوعبها ؛ ومن حين إلى حين ندع الطبيعة وحقائقها وجمالها ، ونستمع إلى حديث يسرنا بأفانينه ، ويؤلمنا بإعادتنا إلى ما هربنا منه .

وكان جميلاً منظر الغروب في الصحراء والماء ، وحنت علينا الشمس فأخذت تلعب أمامنا ألعاباً مدهشة ! وآخر ما فعلت أن رسمت لنا في السماء لوحة عجيبة في ألوانها ورسومها وتخطيطها ، فلم تدع لوناً إلا عرضته في دقة وإحكام ، وجمال وانسجام ، ورسمت لنا أشكالا فوق الهندسية ، تسحر النفس وتأخذ باللب ؛ ثم أشفقت علينا أن نجن بإبداعها فأسرعت في الاحتجاب ، وأرسلت إلينا ابنها البار القمر ، فلم يلعب بالألوان لعبها ، ولم يتفنن في الأشكال أفانينها ، ولكن لونه الفضي الواحد جميل في الماء ، جميل في الصحراء ، وادع في غير عنف ، هادئ هدوء الليل ، ملهم إلهام الحب .

***

هذه هي الطور ، أرخى عليها الليل سدوله ، وكساها من غموضه فلا نرى إلا أشباحاً : شبح أحجار ، وشبح أبنية ، وشبح شجر ، فلندعها في غموضها وسدولها حتى تأتي إلينا الشمس القوية ثانية فتمزق حجبها ، وتكشف أستارها ، ولننم الآن نحلم بجمال ما رأينا ، ونتذوق ما ادخرنا .

وأصبحنا فارتدنا البلد ، أبنية حديثة جميلة نظيفة متفرقة ، بنيت كلها على أساس فكرة الحجر الصحي ، حيث يعود الحجاج يقيمون فيه أياما للتحقق من صحتهم ؛ فهذه

حجر الحجاج، وهذه بيوت الأطباء، وهذه البواخر للتنقيم، وهذه أبنية الموظفين لخدمة هذه الفكرة. ودعانا الشوق إلى ارتياد مكان نزلنا فيه حين عدنا من الحج منذ ثلاث سنين، فاستعدنا ذكريات الحج ومن صحبنا وما لقينا، وكيف كنا في سجن لطيف لا نقدر على ما نقدر عليه اليوم من الطواف في البلد ورؤيته.

وعلى مدى الطرف رأينا مكاناً بعيد الناس، عليه حراس أقوياء، شاكو السلاح.

— ما هذا أيها الدليل؟

— إنه مجمع المجرمين الخطرين، حيث منهم أثناء الحرب، فتحرى عنهم في أنحاء القطر بشهادة العمد والمشايخ وأمثالهم، وجُمعوا جوعاً وأرسلوا إلى هذا الحجر تباعاً، ألف وراء ألف يقدمهم ألف حتى زادوا على الثلاثة الآلاف، وهم متخصصون في نواح من الاجرام مختلفة: منهم المتخصص في القتل، ومنهم في تسميم المواشي، ومنهم في الكينات، ومنهم في السرقة، إلى ما شئت من أنواع الاجرام، قد بلغ من مهارتهم أنهم يجرمون ويختفون ولا تثبت عليهم التهمة فيعاقبون، فلم يكونوا في السجون، أو حكم عليهم عدد انتهوا منها، ويُخشى أن يعودوا إلى ما ارتكبوا، وليست الحكومة فارغة لهم حتى تفكر في شؤونهم مع تحملها أعباء الحرب بل خشية الحرب، لحشدتهم إلى الطور حتى تأمن شرهم وتوفر على الناس ويلهم.

— ولكن لماذا اختاروا لهم هذه البقعة؟

— اختاروها لبعدها وانقطاعها، حتى تسهل مراقبتهم ويصعب فرارهم؛ ولعلهم اختاروها لأنهم سيكونون على بعد أمتار من الحجاج، فيكون في البقعة أطهر قوم وأخبث قوم، فلعل بركة الحجاج تنضح على خبث المجرمين فتزيل إجرامهم وتمحو الشر من نفوسهم، كما يذهب الماء الطهور بالخبث.

وأحسست بما يجذبني نحوهم، فقربت من سورهم بقدر ما يسمح النظام بالقرب منهم، ومشى أمامي نابور منهم عند عودتهم من عمل كلفوه، فتفرست في وجوههم وقرأت في سحنهم، ورثيت لحالهم، ووددت لو سمحت الظروف بأن أعاشرهم، وأدرس نفسيتهم، وأقف على خواطرهم، وكيف يأكلون ويشربون، وكيف يتحدثون — إذاً لكان كل هذا مادة خصبة للأديب والنفسي والاجتماعي، يشرفون منها على مجال فسيح في الأدب والنفس والاجتماع.

ورأيت بعض شبابيكهم عريت منها أخشابها، فسألت عن سبب ذلك، فعلمت أنهم أحياناً يعوزهم الدفء فيقلعون أخشاب الشبابيك يستدفئون بنارها، وأحياناً يعوزهم التدخين على نمط خاص فيأخذون عوامات السيفونات يتخذون منها «جوزة» للتدخين إلى كثير من أمثال ذلك. ولولا أصحابي لوقفت بجانبهم طويلا أعيش في لذة الخيال في أحوالهم ومعيشتهم وبؤسهم والبؤس منهم.

أيها النفس، لقد جئنا للرياضة وخلفنا الدرس في القاهرة فارأفي بنفسك وروضي ولا تدرسي.

وهذا دير كبير من سلسلة أديار في الصحراء، يدل حسن موقعها على دقة ذوق منشئها، فقد عرفوا خير الأمكنة ينعمون فيها بالهدوء، ويقربون فيها من الله، ارهف حسهم فلم يحتملوا أباطيل الدنيا، وفشلوا في الدنيا فأدركوا أنهم خلقوا للآخرة، وخافوا أن تغويهم زخارف الحياة، فهربوا إلى حيث تنقطع عنهم أسباب الغواية، وقاسوا أبعاد الدنيا وأبعاد الآخرة، ووزنوا لذائذ الدنيا ولذائذ الآخرة، وحاولوا أن يجمعوا بين الأبعاد المختلفة واللذائذ المختلفة، فرأوا من اختلاف طبائعها ما يحيل الجمع بينها، ففضلوا ما يطول على ما يقصر، وما يبقى على ما يفنى، وصدمتهم الدنيا صدمة عنيفة ففروا منها حتى لا تتكرر؛ ولفظوا الحياة أو لفظتهم الحياة فعاشوا على هامشها؛ وثاروا على الطبيعة الإنسانية فهربوا من العمار إلى الخراب، ولكن سرعان ما خضعوا للطبيعة، فأخذوا يعمرون الخراب وينشئون من الصحراء جناناً تزهر بالنخيل والأعناب.

ومشينا ومشينا، ووصلنا إلى عين ماء بني عليها حوض

يخرج الماء من جانب عذباً دافئاً ، ويخرج من جانب آخر فيسيل في الوادي ، فتنبت منه الأعشاب والأشجار والنخيل ، وتُزيِّن الصحراء بجمال الخضرة .

ونتسلق الجبال فنحس بما خلقته الحضارة في نفوسنا من أثقال وأوباء ، حتى نعيا من السير اليسير وتنقطع أنفاسنا من الصعود القليل ، ونفتقد مزايا المعيشة البسيطة الطبيعية الملائمة للصحة ، ولكنا نكدّ ونجد حتى نبلغ القمة ، وقد بلغ منا الإعياء مبلغه ، وإذا بمنظر رائع تنسينا لذته ما نالنا من العنت ! ننظر يمنة فهذا واد فسيح ، وصحراء جرداء نمت فيها أشجار تكافح للحياة ، وننظر يسرة فهذا بحر يعج بالموج وبالحياة ، وأمامك جبال متسلسلة تبعث فيك الروعة والجلال ، وتتناغم كل هذه المناظر فتؤلف موسيقى يعجز عن وصفها البيان .

ونعود إلى مأوانا فنسمر سمراً لذيذاً فيه الفكاهة الحلوة ، والقصص الممتع ، والحديث يجري عذباً في غير كلفة ولا تصنع ولا تمطق ، وملأ وقتنا شاعر يطربنا من إنشائه ومن إنشاده ، وتضيق بنا الحجرة فنخرج إلى الجو الطلق والسماء الصافية ، والبحر يلاعبه القمر .

ثم إذا خلوت إلى نفسي لا يبرح خيالي حال المعتقلين من المجرمين ؛ أمن الحق أن يحشر المجرمون المتنوعون في مكان واحد ، فيكون كل مجرم أستاذاً في نوع إجرامه يلقنه تلاميذه ، فإذا هم جميعاً مجرمون في كل أنواع الإجرام ؟ أمن الحق أن نضعهم في هذا الحجر الصحي الذي صرف في أبنيته نحو مليون من الجنيهات ، فنعيده إلى مكان غير صحي بفضل ما تسببه معيشة هؤلاء المعتقلين من الأوبئة والأمراض ؟ أمن الحق أن نقيد هؤلاء في حريتهم ثم نضيق عليهم في معيشتهم من حيث الأكل والدفء ووسائل الحياة ، فيفشو فيهم المرض وتكثر الوفيات ؟ قد يصح أن نذهب إلى هذا ونقول إنهم مجرمون خطرون ؛ فليتهم يموتون فتستريح الأمة منهم ، ويستريحوا هم من أنفسهم ، ولكنهم لم يحاكموا ، ولم يحكم عليهم بالإعدام . فإلى أن يصلح القانون إن كان فيه نقص يجب أن يتمتعوا ولو بأقل ما يتمتع به الإنسان من ضرورات الحياة .

ولكني أعود فأكرر على مسامعي أني أتيت للرياضة ولم آت للدرس ، فوبخ نفسي من نفسي ، ولا سبيل للرياضة الحقة إلا إذا خلت نفسي إن عزمت على الرياضة ، وحبذا هذا لو كان في الإمكان .

* * *

وقضينا في الطور ثلاثة أيام كثلاثة الحجر ، ننعم فيها بالمعيشة البسيطة ، ونهرب من تكاليف الحياة ، ونمعن مرة في الصحراء ، ونمشي مرة على هامش البحر ، ونرقى جبلاً ونهبط وادياً ، حتى مرت كأنها حلم لذيذ .

واعتزمنا العودة فأخذنا على أنفسنا أن ننعم بمنظر لم نره في المجيء .

قمنا قبل الفجر والطبيعة كلها نائمة والقمر قد أضناه السير فملأ وجهه الشحوب ، وأدى رسالته فاعتزم الراحة ، وعلم بقدوم أمه الشمس فأخلى لها الطريق ، وسارت سيارتنا تقلق السكون بأزيزها ، وبدت تباشير الصباح ، ومحت آية النهار آية الليل ، وبدت الشمس فأضفت على الكون من شعاعها الذهبي الجميل ؛ وعادت مناظر الصحراء والماء تعرض علينا من جديد ، من غير أن تفقد شيئاً من روعتها الأولى وجمالها ؛ وكانت فصول الرواية طويلة غير مملولة ؛ وصحبنا الشمس في كل حالاتها ، واستقبلنا القمر في طلعته كما ودعناه في غيبته ، وتزودنا من محاسن الطبيعة ما تزودنا ، وقربنا من خالقها ما استطعنا .

ثم ها هي أضواء القاهرة وضوضاؤها تردنا إلى حياتها المعقدة وتكاليفها الشاقة ؛ وها هم باعة الجرائد يتصايحون يذكروننا بما نسينا من شؤون الحرب وويلاتها ؛ وها هي أماكننا المحدودة وأبنيتنا المتلاصقة تحجبنا عن الطبيعة وجمالها ؛ وها هي حياتنا الأولى تعود سيرتها وتكرر نغمتها ، حتى تسنح لنا الفرصة فنفر منها في رحلة أخرى إن شاء الله ؟

أحمد أمين

٢ - موضع القصة في التربية

إنشاء القصة

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

الفكرة :

إن القدرة على إنشاء القصة موهبة طبيعية تولد مع المرء ، ولا يمكن كسبها بالتعلم والمزاولة ، كما لا يمكن كسب الموهبة الموسيقية أو الموهبة الشعرية لمن حُرمها مهما حاول أن يكون موسيقياً أو شاعراً . ولكن الموهبة وحدها لا تكفى فى أى فن من الفنون ، بل لا بد من تهذيبها وترقيتها وتوجيهها ، حتى يلائم إنتاجها الميول والأذواق والأوضاع البشرية المختلفة . ولقد عنى علماء النفس بدراسة أنواع القصة — من حيث الفكرة — ومعرفة أيها أكثر ملاءمة للطفل والمراهق والبالغ فى أطوار النمو العقلى والوجدانى المختلفة ؛ وهم وإن كانوا غير متفقين فى تحديد هذه الأطوار ، إلا أنه يمكن حصرها فيما يأتى :

(الطور الأول) الواقعى المحدود بالبيئة ، (الطور الثانى) الطور الخيالى الحر ، (الطور الثالث) طور البطولة ، (الطور الرابع) طور الغرام ، (الطور الخامس) طور المثل العليا .

وهنا يجب أن أشير إلى تداخل هذه الأطوار بعضها فى بعض من حيث السن ، وإلى أن مدة هذه الأطوار تختلف من جنس إلى جنس ، ومن أمة لأمة ، بل من فرد لفرد ، وأن خواص الطور الواحد قد تظل باقية فى الطور التالى له ، وإن اختلفت قوة وضعفاً .

الطور الأول الواقعى المحدود : وهو من الثالثة للخامسة . يستطيع الطفل الآن أن يمشى ، وأن يحرك عضلاته ، وأن يستخدم حواسه لاختبار البيئة المحدودة المحيطة به ، فى المنزل والحديقة والشارع أو المدرسة إن كان يذهب إليها . وهو يرى حوله نباتات وحيوانات تتحرك ، ولها ألوان متشابهة وغير متشابهة ، وتصدر عنها أصوات . ويرى أيضاً أفراد أسرته بميزاتهم الحسية كوالديه وإخوته وأخواته ، ويدرك علاقتهم به .

ثم هو يختلط بالأطفال من سنّه . وهو مشغول فى هذا الطور بكشف هذه البيئة المحدودة الواقعية المحيطة به ، وبمعرفة الكثير من صفاتها ، كما تقوى فيه — كضرورة طبيعية لنموه — غريزة الاستطلاع ، والحل والتخريب لغير ما غاية معينة . لهذا كله كان أفضل القصص للطفل ما احتوى شخصيات من الحيوانات والنباتات ، وحوادث عنها ، أو شخصيات مألوفة له كأمه وأبيه والأطفال مثله ، على أن تكون لهذه الشخصيات صفات حسية سهلة التصور للطفل كالدجاجة الحمراء ، والبنت ذات الشعر الأصفر ، والرجل الشيخ ذى اللحية البيضاء ، والأرنب ذات الآذان الطويلة . وعلى أن تكون هذه الشخصيات — حتى الجماد منها — متكلمة ، أو ذات أصوات وحركات .

وبالرغم من أن الطفل يطمئن للعزلة فى هذه المرحلة ، ويحب اللعب منفرداً فإن المشاركة الوجدانية عنده قوية ، ولا سيما لأولئك الذين تربطه بهم صلة أسرية ، فهو يضحك لضحكهم ، ويبكى لبكائهم . ولذلك يرى علماء التربية أن تحتوى القصة على حوادث تثير فى الطفل المشاركة الوجدانية ، وتستدر عطفه .

ولما كان الطفل قصير مدى الانتباه فى هذا الطور كان من الضرورى أن تكون القصة قصيرة ، وحوادثها سريعة الوقوع والعبور . والطفل فى هذه السن لا يكتفى بلمس الشىء ، أو تقليبه مرة ، بل يكرر العملية مرات ، كأنه يريد أن يتأكد من كنه الشىء الذى بيده ، أو الذى يدركه بإحدى حواسه ، وهذا ينطبق على القصة كذلك . فالطفل يتمتع بسماع الحوادث والأصوات والأوصاف المكررة فى القصة ، كأن يقال : وقد مشت البطة الكبيرة ، ووراءها أولادها الصغار إلى البركة . وكان يسمع لمشيها أصوات : بط بط .. بط بط .. بط بط .

هذا وفى منتصف هذا الطور يبدأ الخيال فى النمو ، ويقوى بالتدريج . ولكن يجب أن نذكر أن الخيال هنا محدود بالأشياء التى فى بيئة الطفل ، والتى اختبرها وأدركها بحواسه . فهو لا يقتنع بلمس الوسادة ، وحملها والنوم عليها ، ولكن يتخيلها حصاناً يمتطيه أو سفينة يركبها ، والكراسى عنده ليست كراسى خشب ، ولكنها أطفال مثله — فى بعض الأحيان — وإن كانوا لا يستطيعون النطق أو الحركة بأنفسهم . وهذا النوع من الخيال مبنى على الزعم والافتراض أو ما يسمى (Make believe) . فالطفل لا يكتفى بأن يرى السمكة تعوم فى الماء ، ولكن يميل لتخيلها تطير بأجنحة . وهو لهذا يسر بأنواع القصص الخيالية ذات الشخصيات الخرافية ، التى يعرف عنها شيئاً حقيقياً فى حياته الواقعية . وقوة الخيال هذه لا تنتهى بانتهاء هذا الطور ، بل تمتد إلى الطور الثانى الذى هو فى الواقع الطور الخيالى بحق . ومن القصص الخيالية التى يلذ للأطفال سماعها قصة البطتين والسلحفاة ، وكيف طارتا والسلحفاة قابضة بفمها على وسط العود ، إلى أن فتحت فمها فوقعت وماتت . فالطفل هنا لا تعنيه الناحية الخلقية ولا المغزى الخلقى الذى فى القصة ، ولكنه يتمتع بالفكرة الخيالية التى تضمنتها القصة ، ويتخيله تلك الشخصيات الحيوانية المعروفة المألوفة له وهى تتصرف ذلك التصرف غير المألوف فى الواقع .

ولما كانت غرائز الأطفال وميولهم متقاربة فى هذا الطور كانت قصص الأطفال عند كل الأمم تكاد تكون متشابهة الفكرة . غير أنه يجب عند اختيار فكرة لقصة أطفال ملاحظة البيئة واختلافها من شعب لشعب ، ومن حضرية لقروية .

ومن العيوب الشائعة فى القصة أن تكون الفكرة مخيفة لما بها من حوادث الغيلان ، وقتل الأطفال ، وسجنهم فى الظلام من غير شرب أو طعام ، فهذه الحوادث على ما بها من خيال ، مزعجة ، ويجب تجنبها . وكلنا يذكر تلك الأحاجى المرعبة التى كانت تسردها علينا أمهاتنا وجداتنا ، والتى كانت تفزعنا فى أحلامنا ، وفى يقظتنا فنصيح ونصرخ . ويرى علماء التحليل النفسى أن أثر هذه الأقاصيص المخيفة — كغيرها من الحوادث الحقيقية المخيفة طبعاً — يظل باقياً فى العقل الباطن للطفل إلى ما بعد الرجولة ، وإليه تعزى بعض الحالات النفسية العصبية .

الطور الثانى أو طور الخيال الحر : وهو من الخامسة إلى الثامنة أو التاسعة . يوجد خلاف بين المربين فى أى أنواع القصص الخيالية يلائم اليافع فى هذا الطور . وأكثرهم على أن القصص الخرافية والميثولوجية كقصص الجنيات والساحرات والحيوانات نصف البشرية ، وغيرها من الخيالية المعقولة أيضاً ، تناسب هذا الطور ، لما فيها من غزارة الخيال ، واتساع أفقه ؛ حتى ولو كان الخيال حراً غير مقيد بالحقيقة الواقعة بما فيه من الحوادث المعجزة التى تخالف العقل . وشبيه بهذا قصة علاء الدين والمصباح

السحرى ، فإن مجرد مسح المصباح فى القصة يكفى لاستحضار الجنية التى تتقدم كالخادم المطيع القدير بتنفيذ كل ما يأمر به سيده . فهذا النوع من المصباح المعجز لما يكتشفه العلم بعد ، ولم يحدثنا عنه التاريخ . ومدام منتسورى ترى أن هذا القصص الخيالى الخارق يجب ألا يسرد للوليد لأنه يغذى الخيال الجامح ، ولأنه وإن كانت « قوة الخيال موجودة دائماً عند الطفل ، سواء أكان التخيل مبنياً على أساس من الحقيقة أم لا ، فالصور الخيالية المبنية على غير الحقيقة الواقعة بدلاً من أن تكون مركباً سماوياً تكبت الذكاء ، وتحجز الضوء من أن يصل إلى العقل ، فما أكثر ما يضيعه المرء من زمن ومجهود فى هذا النوع من الخيال الخاطىء ! وإن استخدام هذا الخيال الذى لا غاية له شبيه بارتكاب الرذيلة التى تفقد من مناعة الجسم حتى يصبح مريضاً . فهذا النوع من الخيال يذهب بقوة العقل شيئاً فشيئاً إلى أن يتركه فى حال شبيهة بالجنون »[1]

أما أغلب المربين فيرون أن ما ذهبت إليه مدام منتسورى من ضرر القصص الخرافية مبالغ فيه ، ويظهر هذا الرأى فيما كتبه برتراند رسل إذ يقول : « إن أنصار طريقة مدام منتسورى لا يميلون إلى تخيل الأطفال أدوات لعبهم قطارات أو بواخر أو ما شاكل ذلك ، ويسمون هذا النوع من الوهم الخيال الجامح . . . . . وهم يعترضون أيضاً على سرد القصص الخرافية كقصص الجنيات والعمالقة والساحرات للأطفال . ولكنى لا أعطف على من يبالغون فى وجوب سرد القصص الحقيقية للأطفال أكثر مما أعطف على من يبالغون فى سرد القصص الخرافية . والشائع أن الأطفال لا يميزون بين ما هو حقيقى وما هو خيالى . ولكن ليس عندى من الأسباب ما يكفى لاعتقاد هذا . إننا لا نعتقد أن هملت قد وجد أو عاش أبداً ، ولكنا نغضب إذا قيل لنا أثناء مشاهدة الرواية إن هملت هذا شخصية خرافية ، وكذلك الأطفال يكدرون إذا ما قيل لهم إن حوادث القصة الخرافية غير حقيقية . وهم لا يعتقدون فى وقوع مثل هذه القصص »[1]

وفى هذا الطور يكون الطفل قد قطع مرحلة التعرف إلى البيئة المحسوسة الظاهرة المحيطة به فى المنزل والشارع ؛ فهو يعرف أن الكلب يعض ، وأن النحلة تلسع ، وأن القط يخدش ، وأن البقرة الحمراء تدر اللبن الأبيض ، وأن النار تحرق . ولكنه يتوق إلى شىء وراء هذه الظواهر الطبيعية التى خبرها بنفسه ، إلى شىء غير مألوف ، شىء لا يمكن تعليله بما يلاحظه من قوانين الحياة اليومية . وكأنه قد ضاق ذرعاً ببيئته المحدودة فطالقها ، وذهب يبحث عن بيئة أخرى حرة هى بيئة الخيال التى تظهر فيها المخلوقات العجيبة ، وبنات الحور ، والملائكة ذات الأجنحة الرفرفة . ولذلك فالقصص الخيالية التى من هذا النوع تلائم هذا الطور . وكذلك القصص التى يلعب الأطفال فيها دوراً هاماً أو محبباً . كالتغلب على عملاق[2] ، والتحايل على حيوان مفترس وصيده أو قتله ، والحوادث التى فيها الحيل المعجزة . وقصص ألف ليلة وليلة تحوى الكثير من هذا النوع إلا أن بعضها مخيف يجب ألا يسرد للأطفال .

وتكثر القصص الخيالية ذات الحوادث العجيبة فى البلاد الجبلية والجزرية ، وذات الغابات والأنهار ، والمناظر الطبيعية المتباينة . وتقل فى الوديان لوداعة سكانها وهدوئهم . وفى أوربا تمثل هذه القصص خاصة للأطفال ، وإن كان يستمتع بها الكبار أيضاً ، كقصص البانتوميم

(١) صفحة ٢٦٦ من الجزء الأول من كتاب Advanced Montessori Method ترجمة Simmonds and Hutchinson

(١) صفحة ١٠٠ من كتابه المسمى On Education

(٢) كما فى قصة Jack & the Giant Killer المشهورة فى الانجليزية .

Pantomime فى أيام عيد الميلاد المسيحى . وقد تنبهت لهذا الشركات السينمائية فأخرجت عدداً من الروايات الخيالية اللائقة للأطفال فى هذا الطور كرواية الأقزام السبعة .

وقد يرتبك الطفل حين سماع هذه القصص الخيالية العجيبة ، أو رؤية حوادثها على الشاشة ، فيسأل : وهل وقعت هذه الحوادث حقاً ؟ فيكون جواب المسئول : لا ، وإنما هذه قصة فقط ، وكان الناس فى الزمان الماضى يصدقونها .

الطور الثالث فى القصة هو طور البطولة : وهو من الثامنة أو التاسعة إلى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وفى هذا الطور يمزج الناشىء من الأمور الوجدانية ، وينصرف من الخيال الجامح إلى الحقيقة الواقعة ، وينظر إلى الأشياء نظرة موضوعية (objective) أكثر منها ذاتية (Subjective) . وتقوى أيضاً فى هذا الطور غريزة المقاتلة وحب السيطرة . فترى الناشىء يتسلق الأشجار والحيطان ، ويعتدى على زرع غيره فيقطعه أو يسرق ثماره ، ويشترك فى الألعاب التى تظهر فيها المنافسة والشجاعة ، ويكوّن فرقة المحاربة والهجوم على فرق أخرى معادية له ، سواء أكان ذلك فى المدرسة أم فى الحارة أم فى القرية . لذلك أطلق على هذا الطور طور البطولة .

ويرى أنصار نظرية التلخيص أو الاسترجاع (Atavistic theory) أن هذا الطور فى حياة الناشىء يمثل طور الصيد والقنص الذى مر به الانسان البدائى الأول ، ويقول السير پرسى نن : إن الأطفال فى سن التاسعة يمثلون بألعابهم ، التى تشبه أعمال القنص والصيد وسفك الدماء ، حياة الانسان البدائى فى دور الفطرة الأول . ولهذا تشتد عندهم غريزة المقاتلة البربرية . وكثيراً ما تنقلب غريزة الاستطلاع إلى غريزة تخريب وعبث . والأطفال فى هذا الطور يتوقون إلى أن يعيشوا فى الليالى المظلمة ، وفى نُهُر[1] من المغامرات . ولكن المشرفين عليهم من الآباء والمدرسين يراقبونهم ويصدون من حدة غرائزهم ؛ فهم لذلك يلجئون إلى تغذية هذه الناحية الغريزية بالاصغاء إلى أحاديث البطولة ، وقصص المخاطرات والعنف والتعرض للهلاك ، ويقرءون كل ما تصل إليه أيديهم منها .

والقصص البوليسية وقصص البطولة من أى نوع شائقة جذابة للنشء فى هذه السن ، ولا سيما تلك التى تظهر فيها البطولة الجسدية ، سواء أكان الدافع إلى هذه البطولة معقولا أم غير معقول ، وسواء أقر المجتمع الغاية أم أنكرها .

فعلى منشئ القصة أن يكون ملماً بهذا الطور ومظاهره ، وأن يختار من حوادث البطولة ما له دوافع شريفة وغايات محترمة اجتماعياً . وإلا كانت القصة مشجعة على التهور والمغامرة الحمقاء . وكثيراً ما يخرج الناشىء على نظام المجتمع فى مثل هذه السن ، أو يترك أسرته ويطمئن إلى التشرد وحياة العُصَب . ومن أمثلة القصص اللائقة لهذا الطور قصص صلاح الدين الأيوبى ، وكولومبس ، وجان دارك ، وطارق بن زياد ، وإبراهيم باشا . وليس هذا الميل إلى قصص البطولة مقصوراً على القصص الحقيقة التاريخية ، بل يشمل أيضاً القصص الخيالية فى البطولة كبعض القصص التى تروى عن عنترة العبسى وعن أبى زيد الهلالى .

وتأخذ غريزة الاجتماع فى النمو فى هذا الطور ، وتظهر فى تكوين الناشىء الفرق الرياضية والتمثيلية ، واتخاذه الأصدقاء ، وخضوعه لرأى الجماعة . ولذلك فهو يتأثر بالقصص التى تكون فيها العصابات ، وتظهر روح الجماعة (L'ésprit de corps) ، والتى أبطالها صغار فى سنه .

(١) جمع نهار .

الطور الرابع طور الغرام : وهو من الثانية عشرة أو الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة أو أكثر ، ويبكر عند البنات . وهو من الأطوار العنيفة فى حياة المرء . ذلك لأنه طور انتقال من حال إلى حال أخرى مغايرة ، من الطفولة المستسلمة إلى الرجولة المستقلة . ويمتاز هذا الطور بقوة الغريزة الاجتماعية ، وبظهور الغريزة الجنسية ، وباضطراب الناحية الوجدانية ، وعدم التوازن بين الآمال الجائشة فى النفس وبين قوة الواقع والحقائق . كما تمتاز الناحية الإدراكية عند المرء بالنظرة الفلسفية للعالم والحياة وبالتفكير الدينى ، وكذلك تتسع دائرة الخيال الابتكارى وأحلام اليقظة .

لذلك تجد الناشىء فى هذا الطور يميل إلى كل أنواع القصص الغرامية والوجدانية ، كما يظل ميله لقصص البطولة ، ولا سيما تلك التى تمتزج فيها البطولة بالعلاقات الجنسية . ومن القصص الشائقة قصص الثورات الاجتماعية والقصص التى تتحقق فيها الرغبات الطامحة كالترقى من رتبة الجندى الصغير إلى رتبة القائد العظيم ، وكالوصول من طبقة عامة إلى منصب الزعامة . وقد يجنح بعض المراهقين إلى قصص المُثُل العليا صعبة المنال كقصص الزهد والتنسك ، وقصص الصوفية ، وقصص النظم الاجتماعية المتطرفة مثل الشيوعية أو الفاشستية . والسر فى هذا ما ذكرناه من عدم التوازن بين الناحية الوجدانية والناحية الادراكية ، وخضوع المراهق للوجدان ، وسيره وراء العواطف المتضاربة ، وتعطش الغريزة الاجتماعية لمعرفة كل ما يتعلق بالمجتمع ونظمه .

ومن القصص الملائمة لهذا الطور قصص ماجدولين ، وغادة الكاميليا ، وروميو وجوليت ، وقصص الزعماء والعلماء والمصلحين والقديسين ، كابرهام لنكولن ، وإسحاق نيوتن ، وماركونى ، ومصطفى كامل ، وغاندى ، والقديس بول .

بعد هذا الطور يدخل الفتى — أو الفتاة — فى مرحلة الرجولة ، ويكون قد نضج عقله ، وتم نموه ، واتخذ له بعض المبادئ الاجتماعية أو السياسية — وإن كانت غير ثابتة — واتضحت فى الغالب ميوله واتجاهاته فى الحياة ، وشعر بعضويته فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وحاجته إلى دراسة هذا المجتمع وطبائع أفراده ونفسياتهم ، وعلاقة بعضهم ببعض . لذلك يكون الفرد خاضعاً لظروفه الشخصية أكثر من ظروف سنه . فالفتاة التى لم تتزوج بعدُ لا تزال تعنى بقراءة القصص الغرامية التى تحقق رغبة عندها خفية . والتاجر الطموح يفضل من القصص ما يتضمن حوادث المضاربات والمصارف . والمهتم بعلم النفس والاجتماع يؤثر القصص التى تحلل الشخصيات وتكشف من عقولها الباطنة . ويمكننا أن نقول بوجه عام إن تعقد حياة الرجولة يجعل من الصعب تحديد نوع القصص الذى يناسب هذا الطور ، لأن ثمة عوامل كثيرة تعمل مجتمعة على تعيين ميول الفرد القصصية .

عبد العزيز عبد المجيد

الثائر فاسكو نونيز دى بالبيو *

يكشف المحيط الهادى

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

ما عاد خريستوف كولومبوس إلى وطنه من رحلته الفذة التي انتهت بكشف أمريكا حتى تسقط الناس ما حمل إليهم من أنباء. وقد حدثهم عن عجائب تلك القارة المجهولة، وعرض عليهم الأذرة وأوراق الدخان وجوز الهند وغيره من النبات والفاكهة الجديدة التي جاء بها من وراء المحيط، فسلب لبهم سحر الغريب المجهول. ولكن أنباء كولومبوس الجغرافية، ونظرياته العلمية، وغرابة ذلك العالم الحق الذي تجلى فجأة في الوجود، لم تحدث بعض الأثر الذي أحدثه نبأ العثور على التبر الخالص في سهول تلك القارة الشاسعة.

لم تبق سفينة في أسبانيا لم تشد بعد ذلك النبأ قلاعها إلى أمريكا. واكتظت الشواطئ بجموع المهاجرين الصائبين بحمى الجشع. وجاء بعضهم بأدوات الحفر والصناديق الفارغة والخدم والبغال ليغترف التبر بمجرد الوصول إليه ويختزنه دون أن يعوقه عائق. ولم تنقض على هذه الحال فترة وجيزة حتى تنفست أسبانيا الصعداء لخلاصها من أغمار قومها غير المرغوب فيهم، من كل مدين هارب من دائنيه، أو مجرم مفلت من القصاص، أو مغامر مستهتر بالنظم والقوانين. ولم يتوقع أحد أن هذا الركب المنبوذ يضم أفراداً أعد لهم العالم الجديد حياة جديدة حافلة بجلائل الأعمال. وأن ينقلب بعض أولئك الأغمار أعلاماً يشيد التاريخ بذكرهم.

وصل عباد الذهب إلى الأرض المسحورة. ولكنهم وجدوا تربها ترباً، ولم يجدوه تبراً. ولو عقلوا لاستعاضوا من كنوز الذهب المرجوة بسائر خيرات تلك الأرض البكر الغنية. ولكنهم جاءوا وراء التبر النقي. فكيف يرضون عنه بديلا؟ إنهم يركبون في سبيله المخاطر، ويجابهون الشدائد، ويستسهلون الصعاب، ولكنهم يرفضون أي ربح يجيء من طريق الفلاحة، أو من طريق أي عمل هادئ سهل، لأنهم يحسبون المهن من مطالب الخاملين ذوي النفوس الذليلة والهمم المتخاذلة. أما الكماة الشجعان فلا صناعة لهم غير ضرب الحسام، ولا مهنة إلا المغامرة.

* * *

كان حاكم جزيرة «هاييتي»(١) يرقب تدفق أولئك المهاجرين إلى مستعمرته بعين القلق، إذ لم يجهل خطرهم على أمنها وسلامها. فعمل جهد طاقته على ترويضهم، وتحبيب العمل إليهم، وتهوينه عليهم. فأقطعهم الأراضي الشاسعة، ووهب لهم العبيد والدواب، وأقرضهم المال للقيام بأود الزراعة. ولم يتطلب منهم العمل الجديد إلا مجرد إشرافهم عليه. ولكنهم انصرفوا عنه إلى اللهو والعبث، وباعوا العبيد والدواب، وبددوا المال على موائد الميسر. ثم استدانوا وتراكمت ديونهم حتى ساء حالهم، وأظلم مصيرهم.

جاء الجزيرة في هذه الأثناء نبأ بأن الهنود الحمر أغاروا على مستعمرة «قلعة الذهب» القائمة على ساحل فنزويلا بالقرب من برزخ بناما، وأن المستعمرين الاسبانيين هناك في حرج. فأقلق النبأ بال غني من أغنياء الجزيرة يدعى «مارتن انسيسو» كان قد سخر جل ماله في أعمال التنقيب عن التبر في تلك المستعمرة. فأخذ يدعو مواطنيه إلى التطوع لنجدتها. ووجد المدينون في إجابة دعوته فرصة سانحة للخلاص من ديونهم، فقابلوها باغتباط وترحاب. ولكن الدائنين أبوا من ناحيتهم أن يفلت حقهم من أيديهم وهم لا ينبسون. فاستنجدوا بالحاكم الذي أمر بمنع كل مدين من مغادرة البلاد وبإبعاد السفينة

* هذا الفصل مقتبس من مصادر مختلفة.

(١) الجزيرة التي كشفها كولومبوس في أمريكا الوسطى واسماها «أسبانيولا».

التي أعدها « أنسيسو » لحملته من الشاطئ . وضرب نطاق من الجند حولها لا يجتازه إلا من يحمل إذناً بالرحيل .

وامتلأت السفينة بالمتطوعين . وأقلعت متهادية تشيعها نظرات أولئك المدينين المتخلفين ممن يؤثرون الموت على العمل . وما خرجت إلى عرض البحر حتى لفت نظر المسافرين كلب ضخم يحوم حول صندوق كبير وينبح نباحاً عالياً . ولم يلبث غطاء الصندوق أن انفتح . ووثب إلى خارجه رجل ما نصب قامته حتى بدا فارساً عملاقاً مدججاً بالسلاح .

بهذه الحيلة المسرحية استطاع « فاسكو نونيز دى باليو » أن يهرب من « هاييتى » . ويفلت من قبضة دائنيه . ولكن « أنسيسو » رئيس الحملة ، والسيد المطاع على ظهر السفينة ، والشريف المتمسك بأصول الحق والعدل ، لم يرض عن هروب ذلك المحتال . وأقسم أن ينزله إلى أول شاطئ يظهر له ، سواء أكان شاطئاً قفراً بلقعاً أم مأهولاً بالوحوش الضارية .

ولكن وقعت إذ ذاك مصادفة من المصادفات النادرة ، إذ ظهرت سفينة مقبلة من بعيد على ندرة السفن التي تمخر هـذا المحيط المترامي الأطراف . فكيف تقابلت السفينتان ؟ ! ولم تلبث المصادفة أن ازدادت غرابة . فقد ظهر عند التقائهما أن القادمين هم بقية الأحياء من قطان « قلعة الذهب » . وما وقف « أنسيسو » على أخبارهم حتى تزعزعت آماله . فالمستعمرة محيت من الوجود وقد هرب حاكمها « أوجيدا » فولى فى أثره رعيته . وأقلعوا فى سفينتين غرقت إحداهما بمن فيها . وها هى الأخرى لا تحمل غير أربعة وثلاثين مهاجراً يقودهم رجل قدر له أن يصل فيما بعد إلى ذروة المجد . هو « فرنسيسكو بزارو » .

عبثاً حاول « أنسيسو » المنكود الطالع أن يقنع أتباعه بمواصلة السفر إلى « سان سبستيان » . وأن يزين للفارين العودة إلى بلادهم . فقد رفض أولئك وهؤلاء أن يعرضوا صدورهم لسهام الهنود الحمر المسمومة . ورؤوسهم لسلخ جلدها بينما هم على قيد الحياة . وكان الرأى الغالب أن يعود الجميع إلى جزيرة « هاييتى » . ولكن كيف يعود « فاسكو دى باليو » إلى الجزيرة ؟ كيف يواجه دائنيه أو يتعرض لحنق الحاكم العاتى ؟ انبرى متحدثاً للقوم . وعرض عليهم اقتراحاً جديداً . زعم أنه طاف حول ساحل أمريكا الوسطى مع الرحالة « باستيداس » فألم بأحوال شتى البلاد الواقعة عليه . وعرف فيما عرف ناحية بالقرب من برزخ بناما تدعى « أربان » ، تقطنها قبيلة هندية وديعة مسالمة . ويكثر فيها الذهب . فماذا على القوم لو قصدوا إليها ، وجربوا حظهم هناك ؟ ولم يلبث أن أمال القوم إلى رأيه . ودارت دفتا السفينتين إلى برزخ بناما .

* * *

أنشأوا مستعمرة أطلقوا عليها ذلك الاسم الدال على التقوى والورع « سانتا ماريا دل داريان » . وحاول أنسيسو أن يوطد فيها الأمن والنظام . وجلس إلى مكتبه يصدر الأمر تلو الأمر ، كأنما هو حاكم مقاطعة متحضرة فى إسبانيا . وكان مما حذره شراء الذهب من أهالى البلاد الوطنيين زعم أن شراءه من حق ملك إسبانيا وحده . أمر هيهات أن يطيعه مثل أولئك الصعاليك المغامرين . وقد عانى من عصيان « باليو » ما أورثه أصدق الندم على إبقائه عليه وقتما كان داخل الصندوق فى عرض البحر . وانحاز القوم إلى رجل السيف دون رجل القلم . ولم يلبث ذلك الهـارب المتخفى أن صار حاكم المستعمرة الفعلى .

ووصلت أنباء هذه الإيالة الجديدة إلى مسامع ملك الأسبان . فولى عليها حاكماً يدعى « نيكوسا » ليدخل شيئاً من النظام على الفوضى المتفشية فيها . ولكن الثائر باليو لم يأذن له حتى بالنزول إلى البر . وأعاده أدراجه إلى إسبانيا ، ولازم الحظ العاثر ذلك الحاكم الفاشل فغرقت به سفينته وهو فى طريق أوبته . وسرعان ما أدرك باليو خطورة فعلته . وما عز موت مبعوث مليكه حتى خشى مغبة تصرفه . فهو مسئول من غير شك عن غرقه ؟ ورغم بعد الشقة بينه

وبين إسبانيا ، فإن العقاب لاحق به آجلاً إن لم يلحقه عاجلاً . ولكن هذا البعد أفسح له المجال ليتدبر أمره .

وبلغ من حاجة عرش إسبانيا إلى المال في ذلك العهد أن أباح في سبيل الحصول عليه ما لا يباح ، واغتفر من أجله كبريات الذنوب . فنشط بالبيو إلى جمع الذهب من الوطنيين . وقسا عليهم في جمعه ، وشن عليهم الغارات بمعاونة بيزاريو (قائد السفينة التي كانت تقل فلول قطان سان سبستيان) غير عابىء بحسن ضيافتهم . وجعل يختطف كل ما وصلت إليه يده من ذلك المعدن . ويأسر كبار الزعماء . ويغالي في تقدير فديتهم . حتى وقع في أسره أمير من أمرائهم يدعى « كاريتا » عجز قومه عن أداء فديته ، فهمّ بإعدامه . ولكنه عفا عنه قبيل تنفيذ حكمه حتى يكسب عطف الأهلين . وقد أصاب في تقديره وحفظ الأمير له الجميل فزوّجه من ابنته . ومن الغريب أن يظل هذا الأوربي المستهتر مخلصاً للفتاة الهندية . ويبقى لها خدينا وفيًّا حتى أيامه الأخيرة .

ومكنته هذه الظروف الموفقة من مدّ سلطانه على القبائل المجاورة له . وعظم شأنه بينها حتى وصل صيته إلى أمير من أمرائها « كاسيك كوماجر » . فبعث إليه يدعوه وأصحابه ، وأحسن وفادتهم ، وبالغ في إجلالهم وإكبارهم ، وقدم لهم فيما قدم من هدايا صحفة بها كومة من التبر الخالص . وما كان أشد دهشته إذ رأى السادة البيض الأجلاء ينسون وقارهم . ويطيش صوابهم . ويفيض حياؤهم فينقضّون على الصحفة ينهبون ما حوته .

وبعد أن اقتسموا الغنيمة وهدأ روعهم ، أدلى لهم الأمير بهذا البيان : « عجيب ما رأيته من اهتمامكم بهذا المعدن الأصفر ! فما دمتم على هذه الرغبة في التزوّد منه فوراءكم بلاد يصنع أمراؤها منه أوانيهم . هناك تحصلون على كفايتكم منه . ولا يحول بينكم وبينها غير هذه الفيافي القريبة . فمتى قطعتموها — وهي لا تستغرق إلا مشى بضعة أيام — ترى أمامكم بحر خضم تقع بلاد الذهب على شاطئه المجنون » .

وأنصت بالبيو إلى بيان الأمير مرهف السمع خفاق الصدر . فقد وضح له طريق « ألدورادو » . وسهل عليه تحقيق الأماني التي طافت بخلده وخلد غيره من روّاد القارة الجديدة . أماني لو حققها لضمن إلى جانب تخليد ذكره في صفحة التاريخ ، إنقاذ عنقه من حبل المشنقة .

***

لجأ إلى صديقين من أوفى خلصائه . وطلب إليهما السفر إلى اسبانيا ، وعرض قضيته هناك ، والدفاع عنها لدى الحاشية الملكية ، والاشادة بما أداه من أعمال جليلة في خدمة التاج ، وبسط المشروع الخطير الذي أزمع إنفاذه ، ذلك المشروع الذي أعجز كولومبوس من قبل . فاذا أمدته الدولة بألف فارس مدجج ، استطاع أن يميط الحجاب الكثيف عن بلاد الذهب ، وأن يحقق لاسبانيا أمنيتها . .

استراح إلى إنجاز صديقيه ، وعاش فترة من الزمان في اطمئنان ، يحلم بالمجد والأمان . ولكن أحد رسوليه عاد إليه بأنباء سيئة . أخبره بأن « انسيسو » الذي هرب من المستعمرة ، وصل إلى اسبانيا ونسب إليه مختلف التهم هناك ، من عبث بالقانون وثورة على النظم ، إلى هضم حقوق الدولة واستلاب أموالها . وقد رفع الأمر إلى القضاء ، ودعمه بالأدلة والأسانيد . وإن الحكم فيه يوشك أن يصدر . واضطرب بالبيو بعد فترة الهدوء . وهاله إحداق الخطر به . ولم يبق له إلا الخيار بين أمرين : فإما أن يقتحم الفيافي والأدغال غير معتمد إلا على أشياعه حتى يحقق أمنية اسبانيا وينال صفحها ، أو ينتظر الاصفاد والأغلال مذعناً . . . . . إما أن يجازف بحياته في سبيل المجد والخلاص . أو يقاد مستسلماً إلى ساحة الاعدام .

أخذ يبث الدعاية بين أنداده المغامرين . ويوقظ فيهم شتى الرغبات . فها هو ساحل الذهب وراءهم يتوهج تحت أشعة الشمس ، وليس أمره ببعيد المنال ، ليس بينهم وبينه غير مسيرة بضع ليال وأيام ، تتحقق بعدها أعجب

الأوهام . سوف يصيب تابعوه الغنى والجاه . ويقدمون لوطنهم ومليكهم أغنى هدية فى الحياة . ويتسامون من صفوف العامة إلى مراتب الأبطال .

ولم يطل ترويجه للرحلة حتى كاد ينسى قصده الأول منها . إذ وقع فى حبائل دعايته ، وهام بالمجد الذى أراد ترويجه لغيره . وسرت حرارة إخلاصه إلى قلوب مستمعيه ، وأصابهم بعدوى هواه . وعرف كيف يزيدهم فورة وحماسة ، إذ أخذ يحدثهم عما يكتنف رحيلهم من مخاطر مجهولة وأهوال غير متوقعة . فما كان شىء أحب إلى نفوسهم من ركوب المخاطر والأهوال ، فهتفوا للمشروع وأيدوه .

أخذ للسفر إلى المجهول أهبته . ولم يكن — وهو الرجل الخشن — ولا صحبه وهم الخلص المتقشفون . فى حاجة إلى مؤن وفيرة . أو إلى أدوات لهو وراحة . وتم الاستعداد فى فترة وجيزة . وجاء نسيبه المعتدى بعدد من الأدلاء والخدم . وفى صبيحة أول سبتمبر ١٥١٣ اجتمع حوله مائة وتسعون مجاهداً وطنوا النفس على الموت أو الوصول إلى هدفهم . وتحرك هذا الركب صوب الغرب ، وابتدأ مسيره التاريخى المجيد فى موكب منفرد الجلال . وهكذا حلق « فاسكو نونيز دى بالبيو » . اللص والبطل ، قاطع الطريق والرحالة الجليل ، فى مراقى الخلود ، لينجو بجلده من القصاص .

***

قد تبهر الانسان أمانيه فيستخف بالصعاب القائمة دونها . ولكن ابتلاء الصعاب يختلف عن مجرد تصورها . وقد استهان أشياع بالبيو بعناء السفر وأخطاره . بل هزأوا بالموت وقتما كانوا فى نشوة أحلامهم ! ولكنهم عانوا فى رحلتهم من الآلام والأسقام ما لم يتوقعوه ، وما لا يدركه إلا مكابدوه . ساروا فى ذلك الاقليم الاستوائى فوق رمال تتقد حرارة . وأخذ النقع الملتهب يلفح جلودهم . وما توغلوا فى جوف ذلك الجحيم المستعر حتى تصاعدت من شقوق الأرض تلك الأبخرة الخانقة التى أجهزت على آلاف من العمال الذين قاموا فى نفس المكان بعد ذلك العهد بثلاثة قرون بحفر قناة بناما . ثم اعترضت طريقهم غابات كثيفة ذات أشجار باسقة . تهدّلت أغصانها وتوشجت . فأخذوا يحطمون الأفرع النائتة بالفؤوس ليشقوا بينها طريقهم . وساروا الواحد تلو الآخر فى صف طويل . وفى قبضة كل منهم سلاحه . يضغط عليه كلما شعر بحركة غير عادية . ويدور بعينيه فى نواحى الطريق حتى لا يفاجئه الهنود ويأخذوه على غرة . وكم سدت الأنهار عليهم الطرق فاجتازوها سباحة . ثم تبدلت الأنهار بسيول جارفة اضطروا إلى إعداد مراكب من الأغصان لعبورها . وطن طنين الهوام التى لم تهدأ منهم ولم تشبع من مص دمائهم . حتى تورمت من لسعها وجوههم . ومزقت أشواك الشجر ثيابهم ، وأدمت أجسامهم ، وامتزج دمهم الراق بعرقهم المتصبب . ووتر ارتقاب الخطر أعصابهم . وضعضع الجوع والعطش قوامهم . ونال من جلدهم وشجاعتهم . ولكنهم والوا السير رغم وهنهم وإعيائهم . ثم صك أسماعهم دوىّ مفزع أخذ يتوالى . فاذا به الرعد يتخلله البرق . وإذا بصوب مدرار يغمر أديم الأرض كأنما هو الطوفان . وأعقب الحر المميت الرى المقيت . وما تطرق العجز والضعف إلى بعض الأجسام حتى دبّ فى أثره المرض . وما مر أسبوع على هذه الحال حتى عجز أكثر من نصف القوم عن مواصلة السير . فلم يعبأ بالبيو بمن سقط منهم فى الطريق ومن تخلف . وأمر القادرين على السير بالتقدم زاعماً أنه فى حاجة إلى صفوة الأشداء دون غيرهم لتحقيق مشروعه الخطير . فهم وحدهم الجديرون بالعز المنتظر .

ووصلوا إلى نهاية الغابات . وانبسطت أمامهم السهوب الشاسعة . وانكشفت لهم السماء فأصلتهم الشمس الملتهبة نارها . وعادوا يلهثون من الحر وتقلصت شفاههم من العطش . وقطر العرق من أذقانهم . ولم يبق من بعثة بالبيو غير سبعة وستين رجلا خائرى العزيمة ، ما كادوا

يلقون نهاية مطافهم حتى ظهر لهم الهنود الحمر من وراء الهضاب القائمة حولهم وانقضوا عليهم . ولكن الأسبان سبق لهم أن مرنوا على مقاتلة الهنود . فما أشعلوا لهم البارود كعادتهم ، وما أطلقوا قذائفهم النارية حتى ولى هؤلاء الأدبار . ولم يكتف بالبيو بهذا النصر السهل . وإنما أخذ فى تقتيل الأسرى ليوقع الرعب فى قلوب تلك القبائل المناوئة . ولم يبق على بقيتهم الباقية إلا بعد أن علم منها أن المحيط المنشود منبسط وراء الجبل القائم أمامهم .

تجددت آمال القوم ، وانتعشت نفوسهم ، وخفت أبدانهم ، واقتحموا الجبل العالى غير مبالين بمشقة الصعود إليه . وطال عليهم الطريق إذ قربت الغاية واشتدت اللهفة على بلوغها . وقبل أن يصلوا إلى القمة ببضع خطوات أمرهم زعيمهم بالوقوف ، حتى ينفرد دونهم برؤية المحيط قبل غيره . وصعد إلى القمة معلق الأنفاس ، مضطرب الحواس ، مأخوذاً بجلال الساعة التاريخية . ورأى المحيط الهادى ساجياً أمامه . تسترخ فى فسحته النفس . وينطلق فى سرمديته الطرف . وبدا فى سجوة كمرآة هائلة تعكس لألاء الشمس وألوان السحب . وملأ صدره الزهو إذ خال أنه أول أوربى ، بل أول متحضر انعكس هذا العباب الزاخر فى حدقة عينه . وأخذ يشبع ناظريه ونفسه من المنظر الباهر الخلاب ثم أهاب بصحبه فتبعوه ليتملوا هم أيضاً رؤية ذلك المحيط الذى كان يعد إلى أمس القريب أسطورة من نسج الخيال .

ووقف بالبيو فى صحبه خطيباً يذكر العمل الجليل الذى تم بفضل إيمانهم وولائهم وصدق عزيمتهم . وأشار عليهم بالتوجه إلى المولى عز وجل بالشكر على نعمته الجلى . وما انتهى من خطبته حتى اتسعت حدقات النظارة من الوطنيين دهشة وعجباً ، إذ سمعوا صوت أولئك السادة الأجانب يترنم بنشيد دينى . ويتعالى طبقة بعد طبقة حتى يبلغ بالمرتلين كل مبلغ من الحمية والطرب . وجىء بعد الترتيل بقلم ودواة وورقة حملها كاتب البعثة طوال الرحلة لتسجيل الحادث الجلل . وأخذ فى تسطير الوثيقة التى ظلت على مر العصور شاهداً بما جرى فى تلك الآناء الفريدة . ثم اختتمها بهذه العبارة : « وعلى السادة الفرسان الحاضرين فى هذه الآونة التى انكشف فيها المحيط الشرقى أن يشهدوا بأن « السيد الفارس فاسكو نونيز دى بالبيو مأمور صاحب الجلالة الملك كان أول من رأى تلك المياه المجهولة ثم أراها بعد ذلك لبقية الشهود .

وكان عليهم أن يقطعوا شوطاً آخر للوصول إلى الشاطئ . فانقسموا إلى ثلاث فرق اختار كل منها طريقاً لمعرفة أى الطرق أسهل وأقصر . وانحدروا من قمة الجبل إلى سفحه . ووصل الفريق الذى يقوده « الونزو مارتن » إلى البحر قبل غيره . وقطع الشوط فى يومين كاملين . ومما يدل على تعطش أولئك الأفاقين جوابى الآفاق إلى العظمة والمجد إصرار « ألونزو » على تسجيل واقعته فى الوثيقة التاريخية . والنص على أنه « أول من غمس رجليه ويديه فى المياه المجهولة ، وأول من ذاقها ووجدها ملحة ، فشكر الله على آلائه » ولم يهدأ باله حتى ضمن لنفسه هذه الذرة من خلود الذكر .

ولم يشأ بالبيو أن يختتم مغامرته الموفقة من غير أن يقوم بتمثيل فصل مسرحى أخير . فجمع صحبه ووقف معهم على الشاطئ فى الموضع الذى تهزم عنده الأمواج وترتد . وزعم أن الأمواج تسعى إلى مواطئ أقدامه لتلثمها وتتمسح بها . ولما وثق من أن البحر يذعن له ويدعوه إليه تقدم فى الماء حاملاً اللواء الأسبانى فى يمينه ومهنده فى يساره . حتى إذا وصل الماء إلى نطاقه . وقف وخفض العلم فى كل جهة من الجهات الأربع ، وأعلن أن كافة هذه الأراضى والأمواه ، هذه الشواطئ والجزر صارت ملك العرش الأسبانى ، وأنه يضع يده عليها باسم تلك السدة ، ويقسم هو ومن معه على الدفاع عن حق العرش فيها ما بقى فيهم دماء . . . وبذلك تمت مهمة كشف المحيط .

محمد مفيد الشوباشى

٢ – العفة الجنسية*

العفة الجنسية وحل المشكلة

ننتقل الآن إلى البحث في مسألة العفة الجنسية كحل ميسور للمشكلة الحاضرة . وفي سبيل ذلك نشرح المسألة في حرية تامة مع استعراض النظريات التي أثيرت في موضوع العفة الجنسية ، سواء أكانت لها أم عليها .

تبينا أنه في الواقع مستحيل على الانسان أن يتقي خطر العدوى بالأمراض الزهرية إذا ما اتصل اتصالا جنسيا غير شرعي . والآن تواجهنا الأسئلة التالية وتتطلب منا جواباً . وهي :

أولا : هل الاتصال الجنسي غير الشرعي ضروري ؟

ثانياً : هل العفة عن هذا الاتصال من نظام وظائف الأعضاء تتفق والصحة الكاملة ؟

ثالثا : هل يمكن للشاب غير المتزوج أن يظل عفيفاً ومع ذلك يكون في صحة جيدة ؟

إن شطراً كبيراً من أسباب انتشار الأمراض الزهرية يحوم حول الجواب على هذه الأسئلة . لأن هذا الفرع من فروع الطب له علاقة وثيقة بالأخلاق والدين كما لسائر فروع الطب . ففي جميع الأديان تتمشى أهم الشرائع وأخطرها إلى حدٍّ ما مع القوانين الصحية . فقد يتناول الاسرائيلي المحافظ أنواع الطعام المحرمة عليه شرعاً إذا كان ذلك ضروريا لصحته . حتى إنه قد يتدخل في شريعة الختان وشريعة الامساك عن الطعام يوم الكفارة إذا كانت الحياة في خطر . وقد يتناول المسيحي المحافظ أنواع الطعام في الأيام المعينة للامساك منها إذا رأى أن في ذلك ضرراً على صحته . « ونجد في الاسلام أن الشرع يبيح للمريض الافطار في شهر الصوم إذا ما خاف على نفسه الضرر »[١] .

وهكذا نجد الحال في موضوع بحثنا هذا . فترى رجال الدين فينا يعظون بالعفة والطهارة صباح مساء ، ويستعينون في ذلك بأقوى الأدلة الدينية والأخلاقية والفلسفية . ولكن إذا ما قام الطبيب وقال إن العفة الجنسية تضر بالصحة ولا تتفق معها وإن الاتصال الجنسي من الضروريات اللازمة للأصحاء من البالغين ، فان غير المتزوجين من مرضانا يعرضون عن نصح رجل الدين ويسمعون لقول الطبيب .

أوضحت أن الاتصال الجنسي غير الشرعي في الواقع يساوي مرضا زهريا . فاذا كنا نحن الأطباء نعتبر أن الاتصال الجنسي ضروري فينبغي ألا ندهش لما نرى من تفشي الأمراض الزهرية وألا ننتظر أن تقل انتشاراً .

ولما كانت العفة الجنسية في الواقع لا تضر بالصحة ، سواء أكان ذلك من وجهة نظام وظائف الأعضاء أم من الوجهة النفسية فاني سأعنى بأن أدلل على ذلك فيما يلي :

نظام وظائف الأعضاء في العفة الجنسية

منذ عدة سنين خلت بحثت جميع ما دون في اللغة الانجليزية على وجه التقريب في السنين العشر السابقة لذلك العهد في علم وظائف الأعضاء ، فكم كان غريباً حقاً ألا أجد بينها مصنفاً واحداً قد ذكر شيئاً في موضوع العفة الجنسية وعلاقتها بنظام وظائف الأعضاء ؛ هذا إذا ما استثنينا ما كتبه أوستن فلنت الصغير Austin Flint, Jr. في عام ١٨٧٥م في إشارة يسيرة في هذا الموضوع إذ قال : « إن الاتصال الجنسي إنما يكون من نظام وظائف

(١) فات من محدثنا أن يذكر حكم الشرع الإسلامي في هذه النقطة وقد أثبتناه هنا إتماماً للفائدة .

* بحث ملقى في إنجلترا من الإنجليزية الدكتور جورجي ميخائيل .

الأعضاء إذا بوشر فى الحدود الشرعية » . ولم أجد بين جميع المصنفات المذكورة غير هذه الاشارة اليسيرة .

غير أن هناك مراجع أخرى فى علوم طبية غير علم وظائف الأعضاء قد سجلت آراء فى هذا الموضوع ، ليس أقلها شأناً مرجع للأستاذ برايانت Prof. Brayant الجراح الانجليزى الكبير . فقد قال : « إنه يجب على الطالب أن يذكر أن وظيفة الخصية تماثلها مثل وظائف غدة الثدى والرحم . فان هذه الأعضاء قد تتوقف من تأدية وظيفتها زمناً طويلاً ، ومع ذلك يظل تركيب الانساج فيها سليما ، ويكون لها قدرة على أن تستيقظ وتنشط إلى العمل إذا ما دعاها إلى ذلك أى منبه طبيعى . لأن هذه الغدد تختلف عن سائر غدد الجسم ، إذ أنها لا تهزل وتضمر بعلة عدم الحاجة إلى تأدية وظيفتها »

وإن رأى الجراح الانجليزى الكبير هذا يرد على اعتراض على جانب كبير من الأهمية أكده كثير من الأطباء على العفة الجنسية . فقد سمعت بعضهم يقول : « إن كل عضو فى الجسم يضمر إذا لم يؤد وظيفته مدة طويلة ؛ فالعضلات تفقد قوتها والمفاصل تتصلب ولا تلين . وإذا تعاطى المريض عقاقير صناعية مدة طويلة لتساعده على الهضم فان المعدة والامعاء ترفض أن تفرز العصارة اللازمة للهضم . كما أن مراكز المخ العليا قد « تصدأ » إذا أهملت بلا عمل . وعليه ينبغى أن نعنى بأن تؤدى أعضاء التناسل وظيفتها وإلا تضمر وتصبح بلا نفع »

قالوا ذلك وغاب عنهم أن الأعضاء التناسلية قد كونت على أسس أخرى تختلف كل الاختلاف عنها فى معظم أعضاء الجسم . فانها قد كونت لتؤدى عملاً متقطعاً غير مستمر . وعلى أن تقف عن تأدية وظيفتها إلى أجل غير مسمى دون أن يحصل أى إخلال فى تركيب الانساج فيها أو نقصان فى وظيفتها . شاهد غدة الثدى تجد امرأة تحمل وتضع مولوداً وإذا بغدة الثدى — التى ظلت فى سبات عميق سنين عدة بلا عمل — تتورم وتفرز لبناً . وبعد انتهاء مدة الرضاعة تنكمش ولا تؤدى وظيفتها . وقد لا تحمل المرأة بعد ذلك عشر سنين أو أكثر وتظل الغدة طيلة هذه المدة بلا عمل . ولكن إذا عادت المرأة وحملت بعد ذلك فان الغدة تعود وتتورم ثانياً وتكون ذات نفع وتؤدى وظيفتها . وتنطبق هذه الحال على الرحم أيضاً .

شرحت وظيفة الخصية فى تفصيل وبينت الفارق بينها وبين سائر وظائف أعضاء الجسم لما لها من الأهمية الكبرى ، ولأن معارضى العفة الجنسية يثيرون هذه المسألة كل حين ، وقد يؤثر ذلك على عامة الشعب .

وقال الأستاذ سكوت Jams Foster Scott الحجة الكبير فى الغريزة الجنسية : « إن هناك عقيدة خاطئة وفاشية تقول إن المران على تأدية الوظائف الجنسية ضرورة ملحة للاحتفاظ بالصحة . . . والحال أن الغدد التناسلية قد كونت بحيث يمكن إيقافها من تأدية وظائفها الخاصة مدداً طويلة من الزمن دون أن تضمر أو يحصل لقدرتها على تأدية وظيفتها أى ضعف أو نقصان . وهى فى هذه الخاصة تشبه ثديى المرأة والقوة الكامنة فيهما . فيمكن لهاتين الغدتين أن تظلا فى راحة عن العمل عدة سنين ، ولكن عند الحاجة تلبيان النداء وتؤديان وظيفتهما الطبيعية على أكمل وجه ... وإنه لتعليم خطر القول بأن المران على تأدية الوظائف التناسلية ضرورة ملحة لتحفظ على الانسان نشاط العقل وقوة البدن » .

وقال أكتون Acton : « إن هناك نظرية تؤيد إباحة الاتصال الجنسى غير الشرعى تستحق الذكر ، لأنه يبدو عليها كأنها تستند إلى علم وظائف الأعضاء . قال لى بعض المرضى إنهم يخشون أن الأعضاء التناسلية قد تضمر إذا لم تمرن على تأدية وظيفتها أو أن العفة الجنسية قد تؤدى إلى « العُنّة » ، وكان ذلك الخوف سبباً مباشراً لارتكاب

الفجور . غير أن هذا القول لا يستند إلى أساس طبي ولا يوجد خطأ أشد منه ، ولا ما يناقض نظام وظائف الأعضاء أكثر منه . وإني أقرر أنه بعد اختبار طويل دام سنين عدة لم أعثر على حالة واحدة كان فيها ضمور في الأعضاء التناسلية تسبب عن العفة الجنسية . . . . وعليه لا يجوز لأي رجل أن يتهيب عيشة العفة الجنسية خوفاً من ضمور الخصيتين . فإن ذلك خوف لا محل له » .

وقال بيل Beale الأستاذ في كلية الملك في لندن : « إنه لتعليم خاطئ كل الخطأ ولا يستند إلى أساس طبي القول بأنه إذا لم يتيسر الزواج لدواع خاصة فيتعين — لأسباب تتعلق بنظام وظائف الأعضاء — البحث عما يقوم مقام الزواج . والحال أن أدق شروط العفاف والطهارة تتفق تمام الاتفاق ونظم وظائف الأعضاء كما تتفق والقوانين الخلقية . وإن أي تسليم للرغبة أو الشهوة لا يمكن أن يبرره قانون من قوانين وظائف الأعضاء أو القوانين الخلقية أو الدينية » .

وقال السير باجيت Sir James Paget الجراح الانجليزي الكبير : « إن كثيراً من مرضاك سيسألونك من الاتصال الجنسي ، وينتظر البعض منهم أن تبيح لهم الاتصال غير الشرعي . . . . غير أن العفة منه لا تحدث أي ضرر للعقل أو الجسم ؛ وإن نظام العفة الجنسية مفيد غاية الفائدة ، وبه يمكن انتظار الزواج في ثقة وأمان » .

ومن الانصاف أن أذكر أن هناك بعض الكتاب يتمسكون بنظريات تناقض النظريات السابقة . ولأكون مخلصاً في هذا البحث أذكر بعض هذه النظريات . على أن أعنى بالتعليق على ما جاء فيها من أخطاء .

يقول ليدسن Lydson : « إن الشخص البالغ — رجلا كان أو امرأة — لا يكون على أحسن حال في نظام وظائف أعضائه ، ما لم تؤد أعضاؤه التناسلية وظيفتها وفق الطبيعة وفي نظام مستمر » .

قد يبدو هذا القول وجيهاً أول وهلة ، ولكنه يفقد قيمته إذا ما انتقلنا إلى صفحات أخرى من نفس الكتاب . فنجد في باب المادة السرية أن هذا المؤلف المتطرف الرأي لا ينكر أن العفة الجنسية تتفق تمام الاتفاق وحسن النظام في وظائف الأعضاء . فقد قال في ذلك ما نصه : « إن هناك نقطة في نظام الوظيفة الجنسية يجب أن نلفت مرضانا إلى أهميتها . وهي أن هناك عقيدة متسلطة على الشبان تقول إن الزنا أو العادة السرية الجنسية ضرورة طبيعية ملحة ، بصرف النظر عن الطريقة المتبعة في هذا الزنا . غير أن هذه العقيدة لها عواقب وخيمة بالغة . ويتعين علينا أن نقاومها . فلو أن الشخص البالغ — رجلا كان أو امرأة — الذي يعيش عيشة العفة الجنسية في وسط المجتمع الحالي ، لا يكون متزناً في نظام وظائف أعضائه تمام الاتزان ، إلا أن هذا الشخص يكون في صحة تامة قوي البنية طيلة ما عاش في العفة الجنسية ، إذا روض العقل وهذبه كما يجب ، وأخضع الجسم للإرادة . أما القول بأن الطبيعة الجنسية تستلزم الزنا فإنه عذر باطل لا يبرر الاتصال الجنسي غير الشرعي ولا العادة السرية نفسها . وإن مجرد القول بهذا لدليل ناطق على الجهل الفاشي في نظام الوظائف الجنسية . وهذا الجهل ينادي بضرورة العناية بنشر الثقافة الجنسية . فيجب على المريض أن يعتقد اعتقاداً تاماً بأن أعضاء التناسل قد توقف عن تأدية وظائفها مدداً طويلة ومع ذلك لا يترتب على ذلك أي ضرر لها ؛ فإنه بعد الإيقاف الطويل عن العمل يمكن لهذه الأعضاء أن تؤدي وظائفها عند الحاجة دون أن يظهر عليها أي دليل على الاضمحلال بسبب هذا الإيقاف الجبري » .

وواضح أن الكاتب يريد أن يقول إن الاتصال

الجنسي مرغوب فيه في حياة الانسان بعد سن البلوغ للاحتفاظ بالتوازن في نظام وظائف الأعضاء ، ولكن ليس بضرورة لازمة إذا ما عاش الانسان في جو مشبع بالثقافة الجنسية الحقة . غير أن الكاتب قد يقودنا بذلك إلى أن نستنتج أن الاتصال الجنسي قد يصبح ضرورة ، وكثيراً ما يكون لازماً تحت تأثير العوامل غير الطبيعية التي تسود المجتمع في العصر الحالي .

ومن الواضح أن تفكير الانسان يكون نقياً ، ويزيد صفاءً بقدر ما ينشأ في الطهارة ، وبقدر ما يعيش في بيئة نقية . وهنا يسهل عليه أن يستمر في العفة الجنسية والطهارة . . وبعكس ذلك إذا ظل ذهنه في تهيج مستمر بسبب قراءة أدب رخيص فاحش أو معاشرة أصدقاء السوء والفجور ؛ فيكون من العسير عليه الامتناع عن الاتصال الجنسي . وتزيد هذه الصعوبة شدة إذا كان الانسان سبق وباشر الاتصال الجنسي من قبل . وفي هذه المرحلة قد يصبح الفجور ضرورة لازمة ، على حد قولهم : إن الخمر ضرورة لازمة لسكير المدمن ، وإن المورفين ضروري لازم للمدمن على تعاطيه .

أذكر نظرية أخرى لأحد الكتاب المتطرفين الذين يشيرون أن الاتصال الجنسي ضروري للاحتفاظ بالصحة الجيدة :

قال فون شرنك نوتزنج Von Schrenck-Notzing:

« إن أفضل علاج للاختلال بالنظم الجنسية كالعادة السرية ، وما إليها عدا بعض حالات استثنائية هو الاتصال الجنسي » .

وقال أيضاً : « بناءً عليه يجب على الشاب المستقيم أن يواظب على الامساك عن الاتصال الجنسي طيلة ما أمكنه مقاومة هذه الغريزة دون أن يؤثر ذلك على صحته . فاذا تعرضت صحته للخطر بسبب ازدياد ميله الجنسي أو ممارسة بعض النظم الجنسية غير الطبيعية فمن الواجب على معلمه أو طبيبه أن يشير عليه بممارسة الاتصال الجنسي على أن يزوده بإرشادات تقيه خطر العدوى بالأمراض الزهرية والنسل غير الشرعي .

أما الشطر الأول من هذه النظرية فمردود بما يأتي :

أولا : مما يؤسف له أن الكاتب لم يذكر ما هي الحالات الاستثنائية التي تعالج بغير الاتصال الجنسي . فقد يتضح أن هذه الحالات تنطبق على سائر الحالات .

ثانياً : على فرض أنه ليس لدينا علاج للاختلال بالنظم الجنسية غير الاتصال الجنسي فاني أتردد كثيراً في وصف « علاج » يحمل معه خطر العدوى المحقق بالأمراض الزهرية . وليس من الحكمة أن نصف « علاجا » أشد ضرراً من المرض نفسه . مع أن لدينا لحسن الحظ ولخير الانسانية علاجا آخر مؤكد الفائدة مأمون العاقبة وليس فيه أي ضرر .

سبق أن أوضحت في باب « العادة السرية » أن ممارسة هذه العادة مدة طويلة تسبب احتقانا في « البروستاتا » وتزيد الحساسية شدة في الجزء المتصل بها من مجرى البول ، وأن هذا الأثر الوضعي في هذا الجزء من مجرى البول يرسل رسالة عصبية تنبه المراكز الجنسية العليا في المخ ، وهذه المراكز ترسل بدورها رسالة عصبية تنبه العاطفة الجنسية ، وهذا التنبيه يزيد الرغبة في ممارسة « العادة السرية » وهكذا تدور الدورة وتزداد الحالة سوءاً .

وقد أوضحت أيضاً في الباب المذكور أن من الميسور علاج الأثر الوضعي في « البروستاتا » والجزء المتصل بها من مجرى البول بأن تدلك « البروستاتا » وتوضع بآلة خاصة نقطاً قليلة من (محلول نترات الفضة ١ : ٣٠٠٠) في تجويف الجزء التاثر من مجرى البول .

وقد دل الاختبار على أنه بمجرد الشفاء من الأثر

الوضعي السالف الذكر تنقطع الرغبة في ممارسة « العادة السرية » ويشفى المريض منها تماماً .

ننظر الآن في الشطر الثاني من نظرية الكاتب . وموجزه أنه يجب على الشاب المستقيم أن يمسك عن الاتصال الجنسي بقدر ما يستطيع . ولكن إذا رأى أن هذا الامساك يؤثر على صحته فعلى طبيبه أن يشير عليه بممارسة الاتصال الجنسي ، على أن يزوده بإرشادات تقيه خطر العدوى بالأمراض الزهرية والنسل غير الشرعي .

أما الجزء الأول من هذه الفقرة فكلام ينقصه الصراحة . فمن الجبن والخديعة أن يرفع الطبيب المسئولية من عاتقه ويلقيها على المريض . فإن القول للشاب : « امتنع عن الاتصال الجنسي وإن لم تستطع ذلك فعليك به » إنما هو قول يدل على موافقة صامتة لهذا الاتصال . لأن كل شاب يعود الطبيب ويقول إنه لم يستطع الامتناع من هذا الاتصال . وإذا عاد إليه بعد ذلك وهو مصاب بمرض زهري فيقول له الطبيب : « قد قلت لك ذلك من قبل . قلت لك امتنع عن الاتصال الجنسي ولكنك لم تسمع لي » .

وفي الجزء الأخير من الفقرة السابقة لم يذكر الكاتب كيف يتقي الشاب خطر العدوى بالأمراض الزهرية ! وخيراً فعل لأنه لا يستطيع ذلك . فإن القول بإمكان اتقاء هذا الخطر تضليل فاضح . فإذا كان الطبيب ، وهو مجهز في الفحص الطبي بأجهزة الاضاءة والآلات الخاصة والمجهر وآنية الاستنبات ، لا يستطيع في أغلب الحالات أو كلها أن يقطع بأن امرأة ما مصابة بالسيلان أو سليمة ، فإذا كانت الحال كذلك فقل لي بربك كيف يستطيع الشاب العادي — الذي ينقصه فن الطبيب ومعداته — أن يعرف ما إذا كانت هذه المرأة سليمة أو لا !

وأريد أن ألفت نظر عامة الشعب وأؤكد لهم كل التأكيد أن الرجل لا يأخذ العدوى من امرأة مصابة « بسيلان حاد » . وأن أكثر المرضى يأخذون العدوى من نساء مصابات « بسيلان مزمن » ، لا يظهر عليهن أي صديد يذكر أو أي أثر منه . وفي هذه الحالات يحتاج الطبيب إلى جميع الوسائل الفنية الحديثة ليعرف ما إذا كانت معدية أو لا . وإذا تقرر ذلك فمن الخطل أن ننتظر من الشاب العادي أن يصل بنفسه إلى نتيجة حاسمة في ذلك .

أما المشورة بإرشاد الشاب إلى تجنب خطر النسل غير الشرعي ، فهي مشورة تقودنا إلى الاجرام ولا يجب أن تذكرها أي رسالة بريئة .

تكلمت بإسهاب في النظرية الأخيرة لأنها نموذج يمثل آراء الذين يعارضون العفة الجنسية .

ولهذه المناسبة أقتبس ما دونه إستَرجس Sturgis في الرد على الاعتراض على العفة الجنسية فقد قال : « إن مدرّبي اللاعبين ومدرّبي الأشخاص الذين يرغبون في الاشتراك في مباريات الألعاب الرياضية يدركون تمام الادراك ما للاتصال الجنسي من تأثير على قوى الذين يدربونهم ، سواء في ذلك القوى البدنية والعقلية . ولذا يحرمون على هؤلاء الناس الاتصال الجنسي تحريماً باتاً . حتى إنهم في نظامهم سنوا لهذا التحريم قانوناً صارماً كان الوحيد من نوعه ، ففرض على مخالفيه أشد العقوبة وأقصاها . وروى لي ملاكم اعتزل المهنة أنه لما بدأ في المران للاشتراك في إحدى المباريات عانى كثيراً ألم الحاجة إلى الاتصال الجنسي وكان يحتلم كثيراً وتكراراً . ولكن كل ذلك زال قطعياً بعد زمن يسير وبمجرد أن انصرف إلى عمله وتفرغ له . على أنه بعد أن أتم عمله وانتهى من المباراة عاد إليه ميله الطبيعي ووجد أن قواه الجنسية على أحسن حال وأتمها » ثم قال الكاتب : « إني مقتنع كل الاقتناع ، مما سمعته من خبرة هذا الرجل وكثير غيره ، بأن القوى الجنسية في مثل هذه الحالات لا تضمحل بعلة الامساك عن الاتصال الجنسي إذا لم يعمل الانسان على تهييج أعضائه التناسلية

تهيجاً مستمراً بمغازلة النساء ومداعبتهن أو قراءة أشياء من الاتصال الجنسي أو التحدث عنها أو التفكير فيها »

النتائج العصبية

شرحت المسألة من وجهة نظر الثقات في علم تركيب الأنسجة وفي علم وظائف الأعضاء . والآن أشرح المسألة في إيجاز من وجهة نظر الثقات في أمراض الجهاز العصبي . وهنا لا أجد أفضل من أن أقتبس ما دونه كبير من أكبر الثقات في أمراض الجهاز العصبي المعروفين في التاريخ .

قال الأستاذ جوَرْز (Prof Gowers.) في محاضرة له عن مرض الزهري والجهاز العصبي ما نصه : « إني أدفع بكل ما أملك من قوة في المعرفة ، وأقرر في صراحة تامة وبكل ما لي من حجة وثقة اكتسبتها من طول الملاحظة ، وتقدير جميع العوامل ، فأقول إنه لا يوجد إنسان تقدمت صحته أي تقدم ، أو نال أي تحسين لأنه سار في غير عفة جنسية . كما أني واثق كل الوثوق بأنه لا يوجد إنسان كان دائماً على أحسن حال إلا لأنه عاش في عفة جنسية تامة ! وهذه هي نصيحتي . وهنا نحرص على ألا نعطي أي موافقة ولو كانت صامتة لأمر نعتقد أن من الواجب علينا أن نواجهه في حزم ونرفع صوتنا عالياً بأشده » .

ألقى الأستاذ جوَرْز المحاضرة التي أخذنا عنها هذا الاقتباس في سنة ١٨٨٩ ميلادية . وإلى الآن لم يستطع البحث الطبي الحديث في شئون الجهاز العصبي أن يغير شيئاً من رأيه هذا . والواقع أن كبار الثقات في أمراض الجهاز العصبي في العصر الحاضر لا يقتصرون على اعتبار أن العفة الجنسية من نظام وظائف الأعضاء ، بل إنهم يعتقدون أيضاً — بما لهم من خبرة واسعة — أن هذه العفة لا تؤدي إلى أي مرض عصبي ؟

(تم) مرسي ميخائيل

الخليفة المأمون في مجلس القضاء

دخل رجل على الخليفة المأمون ، وفي يده مظلمة من أمير المؤمنين ، فقال : أمظلمة مني ؟ فقال الرجل : نعم يا أمير المؤمنين .

قال المأمون : وما هي ظلامتك ؟ . . قال : إن سعيداً وكيلك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار . قال : فإذا اشترى سعيد منك الجواهر تشكو الظلامة مني ؟ ! . . قال : نعم ، إذا كانت الوكالة قد صحت له منك .

قال : لعل سعيداً قد اشترى منك الجواهر وحمل إليك المال ، أو اشتراها لنفسه ، فلا يلزمني لك حق ، ولا أعرف لك ظلامة . فقال الرجل : إن في وصية عمر بن الخطاب « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » .

قال المأمون : إنك قد عدمت البينة ، فما يجب لك إلا اليمين . والله حلفتها لأنا صادق ، إذا كنت لا أعرف لك حقاً يلزمني . قال : فإذاً أدعوك إلى القاضي الذي نُصب لرعيتك . قال : نعم ، عليّ بيحيى بن أكثم .

فلما حضر ومثل بين يديه ، قال له المأمون : اقض بيننا . قال : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء . قال : قد فعلت . قال : إني أبدأ بالعامة أولاً ليصلح المجلس للقضاء . قال : افعل . ففتح الباب وجلس في ناحية وأذن للعامة . ثم نظر في دعوى الرجل . وطالب المأمون بحلف اليمين ، فحلف . ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه . فقال له الخليفة : ما أقامك ؟ . . . فقال : إني كنت في حق الله عز وجل حتى أخذته منك . وليس الآن من حقي أن أتصدر عليك . وهنا أمر المأمون أن يحضر ما ادعى الرجل من المال ، وقال له : خذه إليك ، والله ما كنت أسمح لك فأفسد ديني ودنياي ، والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية ، وإنها لتعلم الآن أني ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال ؟

حسين رباب

القطن فى مصر والسودان

قبل الفتح العربى

للأستاذ أحمد فخرى

يعتقد الكثيرون أن مصر لم تعرف القطن قبل القرن التاسع عشر، وأنها لم تزرعه إلا عندما اهتم المغفور له محمد على باشا بأمره؛ ولكن الحقيقة أن مصر لم تكن خالية من زراعة القطن فى ذلك الوقت، بل عرفته فى عهد المماليك. كما أن العرب بعد ظهور الإسلام أدخلوا زراعته فى شمال أفريقيـة وصقلية وأسبانيا، كما أثبت ذلك «شتولسان» و «شريدر» فى كتابيهما — تاريخ التجارة (ص٢٠٤) — ونريد أن نبحث فى هذا المقال تاريخ القطن فى العصر السابق لفتح العرب لمصر، لنبين أنه كان على الأرجح يزرع فى مصر فى عهد قدماء المصريين، ومنه كانوا ينسجون الثياب.

متى بدأت زراعة القطن فى العالم:

المتفق عليه أن موطن القطن الأصلى كان فى سهول الهند؛ ومن الثابت أن الهنود كانوا (فى عام ٨٠٠ ق. م) يزرعونه ويغزلونه ويلبسون الثياب المصنوعة منه، كما يفهم من ذكر ذلك فى قوانين «مانو» المقدسة التى كتبت فى ذلك العهد[1]. ولم تقف زراعة القطن عند حدود الهنـد الجغرافية بل بدأت تنتشر فيما جاورها من البلاد. فنرى مسطوراً فى التاريخ الأشورى على إحدى لوحات الملك «سنحريب» التى فى المتحف البريطـانى، (وكتبت عام ٦٩١ ق. م) أنه أدخل زراعة هذا النوع من النبات إلى بلاده، وكانت شجرته تعرف «بشجرة الصوف»، وهو الاسم الذى عرف به هـذا النبات فى اللغة اليونانية القديمة. كما أنه مازال حياً فى بعض اللغات الأجنبية ومنها اللغة الألمانية، وهو اسم يلائم هذه الشجرة التى تطرح شيئاً يشبه صوف الأغنام يمكن غزله ونسجه ولبسه، ويقوم مقام الملابس الصوفية، وعندما قام «هيرودوت» برحلته فى ممالك العالم المختلفة فى القرن الخامس قبل الميلاد وزار الهند، استرعت انتباهه هذه الشجرة؛ وقد جاء فى الجزء الثالث من مؤلفه القيم (ص ١٠٦) ما يأتى: «هناك تنمو أشجار صوف برية أجمل وأفضل من صوف الأغنام، وهذه الأشجار تمد الهنود بالملابس».

وقد امتدت زراعة شجرة القطن من الهند إلى الخليج الفارسى والعراق وبلاد العرب؛ وقد ذكر «تيوفراست» الذى عاش بين القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد فى كتابه (مباحث فى النباتات) ص ٧ و ٨، أن جزيرة البحرين التى فى الخليج الفارسى تزرع (الشجرة التى تنتج الصوف) بكثرة، وتحدث أيضاً عن الملابس التى تصنع منها، كما أشار إلى أن هذه الشجرة تنبت وتثمر فى الهند، وفى بلاد العرب. وقد وصفها وقارن شكل ورقتها بورقة شجرة العنب.

القطن فى مصر:

عندما زار هيرودوت بلاد النيل كان يعرف شجرة القطن ويعرف منسوجاتها، وسبق له أن رآها فى الهند وفى غيرها من البلاد؛ وقد جاء عند تناوله تاريخ مصر فى الجزء الثالث ص ٤٧ والجزء الثـانى ص ١٨٢ أن الملك «أمازيس» الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد أهدى صدرية لمعبد مينرفا فى «لاسيديمون»، وقد كانت من الكتان محلاة برسوم بعض الحيوانات ومطرزة بالذهب

(١) W. H. Schoff, The periplus of the Erythraean Sea, P. 71

والقطن ، وكان كل خيط من هذه الصدرية يدعو إلى الإعجاب ، لأنه كان مجدولا من ٣٦٠ خيطاً يمكن تمييز كل منها على حدة . وهذه الصدرية تشبه الصدرية التي أهداها الملك نفسه إلى معبد الآلهة « مينرفا » في « لندوس » .

وقد ذكر السير جاردنر ولكنسون أن بقايا الصدرية الأولى كانت حتى أيامه (عام ١٨٣٦) محفوظة بقاياها لدى أهل رودس ويعرفون أنها أهديت إليهم من الملك أمازيس المصري ، وقد رآها بنفسه من قص ذلك على ولكنسون ، وهو شخص سماه وشغل منصب القنصل ثلاث مرات في تلك البلاد . أما « بليني » الذي زار مصر في القرن الأول بعد الميلاد فقد ذكر أن بعض ملابس الكهنة كانت تصنع من القطن وكذلك بعض لفائف الموميات ، وأنه لم يكن يسمح للكهنة بلبس الملابس الصوفية فوق جسدهم مباشرة لعدم سهولة تنظيفها .

يأتي بعد ذلك المؤرخ Juluis Pollus الذي ذكر في كتابه Onomasticon عند حديثه عن صناعة القطن في الهند أن مصر تصنع مثله أيضاً من ذات النبات ، وأن المصريين كانوا يصنعون الكثير من أثاث منازلهم من « صوف لوزة شجرة الصوف » ، كما ذكر أيضاً أن بعض المصريين يصنعون ثياباً لحمتها من القطن وسداها من الصوف . وقد أشار « فرجيل » في الجزء الثالث من كتابه الشعري باللاتينية في علم الجغرافيا إلى القطن الذي ينمو في بلاد النيل .

من ذلك نرى أن لا جدال في أن مصر عرفت القطن ونسجته في القرن السادس قبل الميلاد على الأقل أي قبل عهد مصلح مصر الكبير بنحو ألفين وثلاثمائة سنة . هذا مانقله إلينا المؤرخون القدماء . ولننتقل الآن إلى علم الآثار ولنلق على أنفسنا الأسئلة الآتية :

١ — هل عثر في إحدى المقابر على بقايا من هذه الشجرة أو عثر عليها مرسومة على جدران معبد أو مقبرة من المقابر ؟

٢ — هل عثر على ملابس مصنوعة من القطن — وما تاريخها ؟

٣ — إذا كانت هذه الشجرة قد عرفها المصريون واستعملوا نسيجها في لباسهم فلا بد أنهم أطلقوا عليها اسماً ما — فهل ورد لها اسم في النصوص القديمة ؟

فأما عن السؤال الأول فإننا لم نعثر إلى الآن على رسم لها على جدران المقابر ، كما أنه لم يصل إلى يدنا إلى الآن أوراق هذه الشجرة . ولكن يجدر بنا هنا ذكر بعض بذور من القطن عثر عليها العالم الإيطالي « روز لليني » عام ١٨٦٦ في إحدى مقابر طيبة داخل إناء ، وقد بحث الكثير من العلماء هذه الحبوب وظن « لوريه » أنها من نوع Gossypium Religiosum ، ولكن اعترض عليه من الكثيرين ، وثبت أنها من نوع Gossypium Arboreum . وقد حام الكثير من الشك حول قدم هذه البذور لأن روزلليني قد أحضر معها قمحاً آخر بها قمح وشعير على اعتبار أنها وجدت في ذات المقبرة ، وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن هذا القمح جديد ؛ وليس هناك شك في أن العمال قد أحضروه له انتظاراً لما يجود به عليهم من نقود كلما عثروا على شيء له قيمة في نظر الحفار . أما الآنية فهي قديمة بلا شك . وإزاء هذه الشكوك فإن الكثير من العلماء يفضل عدم البت بأثرية هذه البذور ، خصوصاً وأنه بعد تحديد فصيلتها قام العالم النباتي « شفينفورت » يثبت أن هذه الفصيلة من القطن لم يعرفها المصريون قبل دخول العرب . ولكن بعض معارضيه الذين يريدون التسليم بأنها قديمة يقولون بأنها ربما جاءت إلى مصر كهدية لصاحب المقبرة عن طريق السودان أو الحبشة . ومع كل

هذا فالمقبرة التى وجدت فيها ليست مؤرخة حتى يمكننا تحديد العصر الذى وضعت فيه هذه البذور إذا سلمنا — وهذا أمر ليس سهلاً — أنها قديمة .

وأما عن السؤال الثانى فقد عثر العلماء على الكثير من بقايا الملابس المصنوعة من القطن ، ولكن ليس فيها ما هو قبل العصر الرومانى .

وأما عن السؤال الثالث فلا نعرف إلى الآن على وجه صحيح اسماً للقطن فى اللغة المصرية القديمة ؛ كما أن اللغة القبطية لم تحفظ لنا اسماً له . وفى جميع الأوراق البردية اليونانية التى عثر عليها لم يرد فيها اسم لهذا النبات ، وكل ما قيل عن وجود اسم للقطن عند قدماء المصريين لا يقوم على أساس علمى صحيح ، بل لا يعدو أن يكون خلطاً بين اسمه واسم بعض الأنسجة الأخرى التى عرفها المصريون القدماء ، وعلى الأخص بعض أنواع الكتان الذى نبغ المصريون فى نسيجه إلى درجة جعلت بعض الاخصائيين يظنون لأول وهلة أنه موسلين . والكلمة التى تدل على هذا النبات فى معظم اللغات الأوروبية الحية مأخوذة من الكلمة العربية ، ولكن هذه الكلمة ذاتها دخيلة على العربية ؛ فمن أين جاءتها ؟ لقد زعم بعض الباحثين — ومنهم الأستاذ « ليبان » المستشرق المعروف — أنها من أصل مصرى قديم ، ولكن هذا الظن ليس له ما يؤيده .

واسم القطن باللغة الهندية السنسكريتية هو « كارباساه » التى نقلها الفرس إلى لغتهم وكتبوها « كارباس » ، كما نقلت أيضاً إلى اللغة العبرية ، وأخذها اليونان والرومان وكتبوها « كارباسوس » (انظر ما كتبه عن ذلك J. Low فى كتابه Flora der Juden) ، وفى بلاد الحبشة يطلقون عليه « توت » وهى كلمة قديمة وردت فى نص يرجع عهده إلى القرن الرابع الميلادى ، ولكن أصل هذه الكلمة مجهول أيضاً ولا يوجد فى اللغة المصرية القديمة .

القطن فى السودان :

لقد انتهينا الآن من الكلام على القطن فى مصر بوجه عام ، وننتقل الآن لبحث تاريخه فى السودان . تقدم « إزانس » الحبشى فى عام ٣٥٠ ميلادية من أكسوم عن طريق العطبرة إلى بلاد النوبة فى غارة حربية ، وهو يقول فى وصفها : « لقد حرقت بيوتهم سواء المبنى منها وما كان من القش ، واستولى رجالى على قمحهم ونحاسهم وحديدهم ولحمهم القدد ، وحطمت تماثيل آلهتهم ، وأخذت ما لديهم من القمح والقطن » (النص مترجم بمعرفة ليبان) ، ومن ذلك نرى أن القطن كان يزرع فى جنوبى مصر ، كما نعرف أيضاً أن الحكومة المروية كانت غنية من تجارتها فى القطن الذى كانت تنتجه البلاد (راجع مقالة Griffith-Crowfoot in J. E. A. 20) .

العثور على منسوجات قطنية :

فى عام ١٩٢٢ — ١٩٢٣ كان الأستاذ « ريزنر » قائماً بإجراء حفائر فى مروى فى السودان ، فعثر فى بعض المقابر هناك التى يرجع تاريخها إلى العصر الواقع بين ٣٠٠ ق . م — ٣٠٠ ب . م على بعض منسوجات من القطن ؛ وبالرغم من أنها كانت فى حالة سيئة جداً تكاد تتفتت عند لمسها واسودّ لونها ، فقد أمكن فحصها فى معهد الأبحاث فى الخرطوم ، وثبت أنها منسوجة من نبات القطن .

وقد عثرت بعثة جامعة بنسلفانيا عند قيامها بالحفائر فى « كرانوج » على منسوجات أخرى من هذا النبات محفوظ معظمها الآن فى فلادلفيا بأمريكا ، وقد فحصت فحصاً تاماً عام ١٩٣٣ ، ونشرت النتيجة فوجد أن قطر الخيط الواحد ٠,١٩٧ من المليمتر ، وأن ثقل الشعرة Hair Weight للسنتيمتر الواحد ٠,٣٥٤ من المللجرام ، وترجح أن يكون نبات القطن الذى نسجت منه البينات

ليس من أصل هندى بل من أصل أفريقى من النوع السودانى Gossypium arboreum Soudanensis . والأنسجة التى عثر عليها فى « كرانوج » نوعان : نوع منها يقرب جداً من نسيج « البشاكير » والآخر تنتهى حافته بنسيج مفرغ ينتهى بشراريب ؟ فهل كان القطن الذى عرف فى مصر وزرع فيها واستعمل فى النسيج من هذا الأصل السودانى الذى ينمو على حالة فطرية فى جهة سنار إلى الآن ، أم جاءها عن طريق الهند ؟ مثل هذا الموضوع لا يجدى فيه منطق أو سرد أقوال المؤرخين ، وإنما القول الفصل فيه لإخصائى المعمل الذى يفحص ما وجد فى مصر من هذه الأنسجة ، ويحدد لنا فصيلة النبات التى غزل ونسج منها القماش الذى استعمله المصريون .

وفى رأيى أن الاعتماد على ما شاهده « هيرودوت » أو « ثيوفرات » أو « بوللكس » أو « بلينى » أو ما ذكره بعضهم من أن الشجرة التى رأوها فى مصر هى نفس الشجرة التى رأوها فى الهند ، لا يمكن أخذه حجة على كون الشجرتين من فصيلة واحدة ، إذ أنهم جميعاً باستثناء « ثيورات » لم يكونوا من علماء النبات ، وحتى لو كانوا كذلك فإن التفصيل فى معرفة مميزات الفصائل المختلفة من النبات الواحد لم يكن قد تقدم فى عهدهم تقدمه فى الوقت الحاضر ، بل كانت العبرة لديهم جميعاً فى هذا النوع الذى تطرحه الشجرة ويشبه الصوف ويمكن غزله ونسجه . ومهما قيل أيضاً عن الصلة بين مصر والعراق فى الوقت الذى أدخل فيه « سنخريب » زراعة القطن فى بلاده ، فإنها صلة لن يمكننى أن أسلم بأنها أكثر من الصلة التى كانت لمصر بالسودان فى جميع الأوقات ؛ والبت فى ذلك متروك إلى الإخصائى الذى سيقوم بفحص العينات فحصاً علمياً كاملا .

الخلاصة :

أن مصر عرفت القطن وزرعته ونسجت منه الثياب فى القرن السادس قبل الميلاد ؛ وزرع أيضاً فى بلاد النوبة وفى السودان ، كما عثر هناك على بقايا منسوجات مصنوعة منه . وقد عرف العرب هذا النبات ونشروا زراعته فى كثير من الممالك التى فتحوها ونشروا فيها الحضارة الإسلامية . كما أن زراعته لم تنقطع من مصر ، ولو أنها كانت ضئيلة وتكاد تنحصر فى زراعته فى بعض البساتين . وفضل المغفور له مؤسس الأسرة العلوية الكريمة لا ينكر فى كونه أدرك بثاقب بصيرته صلاحية هذا النبات للقطر المصرى وإذا أصبحت مصر الآن فى مقدمة الممالك المنتجة للقطن فإنها زرعته ونبغت فى نسجه قبل المغفور له محمد على باشا بنحو ألفين وثلثمائة عام . وبقايا المنسوجات التى عثر عليها فى وادى النيل — ويرجع تاريخها إلى ما يقرب من ألفى سنة — تضارع فى دقة صناعتها خير ما تنتجه الماكينات فى مصرنا الحالى .

أحمد فخرى
الأمين المساعد بالمتحف المصرى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	قرش	
	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١ صاغ

قصة عربية :

زنوبيـــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

في تاريخ العرب حلقات ذهبية مجيدة ، تدل على ما كان لهم قبل الاسلام من حضارة واتصال بالعالم . ومن هذه الحلقات الزاهية مدينة تدمر التي امتدت دولتها حتى صارت أعظم قوة في الشرق ، في وقت من الأوقات ، وذلك في عصر الملكة (زنوبيا) . وقد ورد في تاريخ أدب العرب ذكر قصة الزباء ، ولكنها لا تنم عما كان لتدمر من عظمة . وقد دلت أبحاث كاتب هذه القصة على أن الزباء كانت في عصر سابق لعصر زنوبيا ، ولعلها كانت جدة لها .

كانت المدينة لا تزال هادئة ساكنة لا يسمع فيها إلا نفس النسيم الوديع إذ يهب بين سعف النخيل الباسقة . وكانت النجوم ترنو إلى الطرق الخالية وانية كأنها تهوم للنوم بعد طول السهر ؛ وانبلج الفجر من الأفق الشرقي متباطئاً كما تفتح فتاة منعمة عينيها في استرخاء وفتور ، وهي مترددة في التيقظ ، إذ لا تجد حاجة لها تقلقها من فراشها الوثير . وكان القمر قد غاب في الأفق الغربي منذ حين ، فسكتت الكلاب ، وأغمضت جفونها ، وقد اطمأنت إلى السكون العميق .

وكانت أسوار المدينة — أسوار تدمر — عالية منيعة وأبوابها العالية الضخمة تحرس الناس من عاديات الصحارى ، فلم يكن لها من حاجة إلى كثير من الجند للسهر على الدفاع عنها ؛ ولهذا لم يكن فوق الأسوار إلا أفراد من حملة المشاعل يدورون بين حين وحين فوقها ثم يعودون إلى أبراجهم آمنين . فلما بدا خيط الفجر الأول أطفأوا النيران ومالوا على جنوبهم يختلسون سنة من النوم قبل أن تشرق الشمس ، إذ كان كل شيء في تدمر ينم عن الدعة والاطمئنان والسلام .

ولكن ما كاد الحراس يستقرون في مضاجعهم حتى سمعوا ضجة أيقظتهم فزعين ، فقاموا يتنادون في ذعر واضطراب وأسرعوا إلى نوافذ الأبراج ينظرون أنى جاءت إليهم أصوات تلك الضجة ، وكان الفجر قد تكشف وبدا نوره الرقيق ينتشر ويتسع ، فرأى الحراس ركباً مقبلاً يتقدمه فرسان يركضون وهم ينفخون في الأبواق نفخاً متداركاً ، حتى إذا اقترب الركب من الأبواب سمعوا أصوات النداء ، فإذا هي أصوات أصحاب لهم خرجوا بالأمس إلى الصحراء في صحبة الأمير العظيم أذينة صاحب تدمر وقائد جيوش الشرق وسيد الأرض من جانب الفرات إلى حدود مصر . وكان قد خرج بالأمس منذ الصباح على عزم أن يقضي في الصيد أياماً أو أسبوعاً كعادته ، وخرجت معه امرأته سيدة تدمر وشريكته في الأمر وصاحبته في حله وترحاله (زنوبيا) .

ولم يكن عند الحراس علم أن سيدهم يعود في ذلك الصباح ، فراعهم أنهم رأوا موكبه مقبلا ، وأسرعوا نحو الباب الأعظم لاستقباله وهم يتساءلون عما عاد به قبل أن يبلغ أربه من صيد السباع والضواري ، كما اعتاد في كل مرة يخرج فيها للنزهة مع صاحبته !

وفتح الباب الكبير بعد شيء من الكد ؛ فقد كان مصراعاه الحديديان ، وما وراءهما من دعامات ، وأقفال وقضبان تحتاج إلى كثير من السواعد القوية كيما تنزاح من مواضعها ، فلم يقدر الحراس القلائل على فتحه إلا وقد صار الأمير وزوجته على المدخل ينتظران في قلق

وكان الأمير راكباً على فرس ، وإلى جانبيه فارسان يسندانه على درعين قد وضعتا خلفه ، ومال عليهما قليلاً في فتور ، وهو يكاد يكون مغمض العينين .

وسارت الأميرة خلفه ، وقد بدا على وجهها القلق والحزن ، وهي تنظر نحوه في إشفاق تنطق به عيناها السوداوان . وانحنى الحراس للركب حتى دخل الأميران وسار وراءهما الاتباع . وأسرع الحراس يتبعون الركب ، وأخذوا يسألون إخوانهم عما أصاب سيدهم فعاد به إلى تدمر في مثل تلك الحال . ثم أشرقت الشمس ، وصحا أصحاب القوافل الذين قضوا ليلتهم خارج الأسوار ، وكانت الأخبار قد تسربت إليهم أن أذينة عاد من صيده قبل أن يصيب منه شيئاً ، وأنه رجع ضعيفاً يسنده أصحابه ، وأخذ كل منهم يشارك في إيراد خبر أو التماس علة ، ولهذا كانت أسواق تدمر في ذلك اليوم مضطربة يملؤها جو من الغموض والخشية والوجوم .

ولكن لم يطل أمد ذلك الاضطراب في المدينة ، فما هو إلا أن انتصف النهار حتى سمعت الأبواق من ناحية قصر الأمير مؤذنة بخروجه ذاهباً إلى المعبد المعظم — معبد الشمس — فوقف الناس على جانبي الطريق الأعظم ليملأوا أعينهم منه ، وليطمئنوا على أنه لم يصبه أذى .

وكان الطريق الفسيح يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي مسافة تقرب من ميل ، وحوله على الجانبين صفان من الأعمدة الوردية اللون على رأس كل منها تمثال أو رمز مصور أو لوح قد نقشت عليه شرائع المعاملات . واتصلت على حافتي الطريق وراء هذه الأعمدة متاجر السلع وقصور الأعيان ومنازل عمال الحكم .

وسار الموكب ، فانطلقت في الطليعة كوكبة من فرسان عليهم المغافر الصفراء ، والدروع الحديدية السوداء ، وهم في سلاح تام من سيوف ورماح وأقواس .

وكانت جيادهم العربية تسير بهم وائبة خفيفة مرحة كأنها ترقص بهم في خيلاء . . . وأقبل الملك في وسطهم على فرسه الأدهم الذي لم يكن في بلاد العرب مثله في سرعة جريه ولا في جمال منظره . وكان يسير على عادته عالي الرأس أسمر اللون في حمرة تشبه لون الخمر ، وكانت عيناه السوداوان تلمعان وهو يلتفت باسماً بين حين وحين إلى الشعب المزدحم بهجة إذ يسمع هتافه ودعاءه وإعجابه ، وكان رأسه معصوباً بمنديل من الحرير الأحمر وعنانه مقبوضة إلى صدره بحمالة من الكتان الأبيض وقد أمسك بعنان فرسه بيسراه ، وقد بدت على معصمه الجواهر تتلألأ في ضوء الشمس ، من سوار ذهبي عريض يبدو من كم ردائه الأرجواني . وكان التاج الذهبي فوق رأسه وعليه حلية بديعة من صنع مصر ، نقشت جوانبه بأشكال من زهر البشنين ورأس النخيل . فكان مظهره ينم عن مكانه الجديد الذي حل فيه منذ سنين — أمير الشرق من جانب الفرات إلى حدود مصر .

وسارت زنوبيا إلى جانبه على فرس أبيض ، تلبس حلة من الحرير الأبيض ، وعلى رأسها تاج صغير من الذهب المحلى بالجوهر ، ويبدو في مقدمته رأس الأفعى التي اعتاد ملوك مصر أن يجعلوها في تيجانهم ؛ وكانت تفتخر بأنها جمعت إلى دمها العربي وراثة مجد جدتها كليوبترا ملكة مصر ، وكان شعرها الأسود الفاحم ينسدل لامعاً من تحت التاج كأنما هو حاشية من الحرير الدمشقي ، فكان الناظر إليها كأنه ينظر إلى تمثال بديع الصنع للإلـهة إزيس في معبد الشمس . وكان وجهها الدقيق الأسمر يطفح بشراً وزهواً ، لولا سحابة من القلق تمر به كلما نظرت إلى ناحية زوجها البطل ، ولكنها لا تلبث أن تزول تحت ابتسامة مذبة كلما سمعت هتاف الشعب المتزاحم على جانبي الطريق .

وسار الموكب متجهاً إلى المعبد حتى إذا بلغه نزل أذينة من فرسه ومد يسراه إلى الملكة ليساعدها على النزول

وهو يبسم لها ، فردت له الابتسامة ثم وثبت إلى الأرض خفيفة ، وسارت إلى جانبه بين صفين من الحراس والفرسان ، وسار وراءهما الأتباع والأمراء حتى دخلوا المعبد لتأدية الصلاة لإله الشمس فى المعبد الكبير ، شكراً له على حمايته فى الليلة السابقة من الأسد القاتل الذى عدا عليه فى أثناء صيده وكاد يمزق أعضاءه .

لم يشأ أذينة أن يمر عليه ذلك اليوم وهو محتجب فى قصره ، فقد كان يعرف أن أهل تدمر قد سمعوا بعودته من الصيد تسنده جنوده ، وعرف أن قصته سوف تنتشر بينهم وتذهب فيها الظنون مذاهبها ، فأراد أن يظهر لهم ليعرفوا أنه لم يصبه أذى من ذلك الأسد الفاتك الذى كاد يذهب بحياته لولا شجاعته ولولا ذكاء امرأته زنوبيا ، وإخلاص أصحابه الذين كانوا معه فى الصيد . فإنه خرج بالأمس كعادته إلى الصيد وخرجت معه امرأته ، لأنها كانت تحب أن تصحبه فى تلك الرحلات الشاقة ، وكان يحلو له أن يتجه إلى آجام الأسود ومساكن السباع من الوحش لينازلها ، إذ كان يرى صيد الظباء والوعول وأمثالها من الأوابد دون ما ينبغى لمثله أن يتعرض له . وكانت الليلة مقمرة ، فرأى عند غروب الشمس آثار أسد ، فثارت رغبته فى اقتفائه على ضوء القمر ؛ ولم تشأ امرأته أن تقاوم رغبته ، لأنها كانت تعرف أنه إذا ثارت نفسه إلى شىء لم يستطع أحد أن يمنعه منه ؛ ولكنها كانت تحس قلقاً شديداً من أن يتعرض زوجها لذلك الصيد الخطر فى ضوء القمر الخافت . وكانت وهى تسير قريباً منه يخيل إليها أن أشباحاً من السباع تتراقص حولها وتتواثب أمامها ؛ ولذلك كانت تسير حذرة مترقبة ، وتحاول أن تكتم مخاوفها فى صدرها خوف أن ينقص شىء من قدرها فى قلب زوجها البطل الحبيب الذى لا يعرف الخوف ؛ وطال بهم السير فى أثر الأسد حتى أحسوا التعب يدب فى أجسامهم ، فأراد أذينة إشفاقاً على زوجه أن يميل للراحة عند كثيب من رمال ناعمة صفراء كالذهب . فسبق أصحابه قليلا لكى يختار مكاناً للجلوس ، وكان فى ذيل الكثيب أجمة ملتفة الأغصان فلمحت زنوبيا بعينها المترقبة حركة خفيفة فى شجيرات على حافة الأجمة ، فانتفضت مذعورة وصاحت على الجند مشيرة إلى الأجمة ، وسمع أذينة صيحتها فالتفت نحوها فى فزع يحسب أن قد أصابها أذى . فوجدها تشير نحو الأجمة ، وهى تصرخ وقد وضعت يديها على خديها ووقفت مرتاعة ذاهلة . فأسرع مشرعاً رمحه واتجه نحو الأجمة ، فى حين أسرع الجنود وراءه وأشرعوا رماحهم ، وما كادوا يلحقون سيدهم حتى كان أسد عظيم قد خرج من بين الأشجار ووثب عليه ورماه على الأرض وقذف رمحه من يده . فجرى الجنود نحو الأسد يصرخون ، فلما رآهم يقبلون نحوه ترك الرجل الصريع بعد أن مزق جلد رأسه وحطم عظم يده اليمنى ، واتجه إليهم وهو يزمجر ويضرب الأرض بذيله غاضباً ، فتردد الجنود قليلاً ثم هجموا عليه فوضعوا فيه رماحهم فتراجع الأسد إلى الوراء من قوة الصدمات ، ولكنه هز نفسه ولا تزال أسنة الرماح فى صدره ووثب على أحدهم فجدله وأفرغ فيه غضبه فحطم رأسه ومزق أعضاءه ، ثم ارتمى إلى جانبه صريعاً . فقذف عليه الجنود بأسيافهم ، وعادوا ينظرون ماذا أصاب صاحبهم فوجدوه قد مات ؛ فأسرعوا نحو أذينة فرأوا الأميرة عنده مكبة عليه تلمس أعضاءه ، وتنظر فى وجهه وهى تناديه بصوت خنقته العبرات ، فتحرك أذينة فى فتور ونظر إلى وجهها الذى قلبه الارتياع الشديد وتبسم لها ، وهم يريد القيام وهى تساعده . ولكنه صرخ من الألم الذى أحسه فى ذراعه اليمنى وعاد فرقد إلى جانب الكثيب خائراً . فأخذت تمزق ما معها من المناديل والعصائب ، وعصبت رأسه وربطت ذراعه . وساعدها الجنود على ذلك ، ثم حملوا سيدهم بقلوب واجفة وركبوا عائدين إلى تدمر يسندونه على درعين كما وصفناه إذ يدخل من باب المدينة .

رنت جوانب معبد الشمس بأناشيد الكهنة عليهم المسوح السوداء ، وتقدم الأمير وزوجه نحو المذبح فقربا القرابين وركعا إلى جانبه يصليان لإله الشمس ولإله يحل على حاميهما ويبركهما .

وانتهت الصلاة بعد حين وذهب الموكب خارجا ، فمال أذينة إلى مجاس البخور فألقى فيها حفنة من المر واللبان والأعواد العطرية ، ووقف قليلا يستروح رائحتها ، وكان إلى جانب زنوبيا معلمها الروى (لونجين) فالت إليه وهمست في أذنه كلمة ، ثم نظرت إلى رجل حسن الهيئة في لباس غريب . كان واقفاً في آخر الجمع .

فتبسم المعلم وقال لها :

— لو رآه أتباعه هنا لانفضوا من حوله . هذا المنافق !

فقالت له الأميرة هامسة :

— صه ! إنه يسمعك في هذا السكون ، أما تعرف أنه صديق الأمير ؟ .

فقال (لونجين) ، وقد خفض صوته :

— هو يزعم لأصحابه أنه لا يعرف غير المسيح .

فقالت زنوبيا في لهجة اللوم :

— ألا تحب أن يشاركنا اليوم في هذا الفرح أيها السيد الحكيم ؟

فهز الرجل رأسه وقال :

— إني لا أكره أن يكون معنا حيث نكون ، ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف يذهب بعد ذلك إلى هؤلاء الأتباع الأغبياء ، ويصفنا عندهم بأننا أنجاس !

فنظرت زنوبيا إليه نظرة لوم ، ولكنها تبسمت وقالت له :

— سترى الليلة ماذا يكون من دفاعك أيها الصديق عندما تجلسان للمناظرة . قد كان الأمير يريد أن يسمع مناظرتكما بعد عودته فلتكن إذاً الليلة . فإنها تذهب عنه الضجر وتروح من نفسه وتنسيه آلامه .

وكان أذينة قد تحرك عند ذلك ، فذهبت زنوبيا إلى جانبه ، واتجها نحو باب المعبد ، وسار الموكب في آثارهما ، ولكن الشيخ الذي كانت الأميرة تحدث معلمها عنه تأخر وسار وحده . فنظر أذينة حوله ، فلما لم يجده قريباً التفت في الجمع يبحث عنه حتى رآه ، فناداه :

— تقدم أيها السيد الكريم . تقدم أيها الأب (بولس) السمساطي .

فنظرت العيون نحو الرجل وهو يتقدم نحو الأمير الواقف في انتظاره ، فجعله أذينة عن يساره واستأنف السير إلى الباب وهو يحدثه ؛ ومضى (لونجين) الروى سائراً وراء الأميرة يختلس النظرات إلى الأسقف المسيحي في كراهة ظاهرة . وكان وجهه يزداد ظلمة كلما رأى الأميرة تشترك مع زوجها ومعه في الحديث .

محمد فريد أبو حديد

نشيد الذكرى

يا زهرةً ودعتها باكياً … الله يدرى وحده ما بيا
فالقلب محزونٌ به لوعة … هل أرتجى من حرقتى شافيا
عواطف مكبوتة كبلتْ … بقيد يأس لم يزل طاغيا
أقول يا قلبي لماذا البكا
أصبحت من طول الأسى عانيا
والدمع ذوب الروح لكنني … يوم النوى أرخصته غاليا
يا خافقاً حسبك بعض الأسى
صيرت جسمي في الصبا باليا
فرب ذكرى أحرقت نارها … قلباً فتياً هانئاً ، خاليا
لقد حجبت المرّ في بسمةٍ … لكن دمعي لم يزل واشيا
بحثت عن سلوى ولكن قضى
قلبي وأضحى صبره جافيا

محمد فهمي توفيق

تحيـــة الثقافة

فى عيـدها الثالث

[وردت للثقافة قصائد رائعة من حضرات الشعراء أصدقاء الثقافة لهذه المناسبة ، يبدون فيها رقيق شعورهم . ونحن إذ ننشر هذه القصيدة مكتفين بذلك لا يفوتنا أن نسجل لحضراتهم جميعاً موفور الشكر على رقيق إحساسهم]

زَفّها الحُسْنُ سافِرًا وَجلاها
وَهْيَ حسْناء لم تَزَلْ فى صباها !
كلّما أشرقَ الصّـــباحُ عليها
صاغَ من فَيْضِ نُورِهِ وَكَساها
بنتُ عامَيْنِ يهتدى الكونُ طرًّا
بهُداها ، وما أجلَّ هُـــداها
تشرَعُ الحقَّ والجمـــالَ لقومٍ
جعلُوا الحقَّ والجمـــالَ سفاها
وتجوبُ البـــلادَ تبعثُ فيها
نشـــوةً تمنحُ النُّفوسَ مُناها
هِيَ للضّـــادِ مَوْئلٌ وهْيَ للآ
دابِ حِصْنٌ إذا الزّمانُ جفاها
مَوْرِدٌ يَزْحَمُ الظِّماءُ حَوالَيْـ
ـهِ قـــلوبًا وأنفسًا لا شِفاهَا
مَعْرِضٌ للحياةِ فى صُوَرٍ شتّى
وشُمُوسٌ هيهاتَ يخبو ســـناها

***

كلّما أشرقتْ بنورِ (أمين)
زفّها الســـحرُ من يراعةِ طه !

وتبارتْ بها الجيـــادُ المذاكى
قصَبَ السَّبْقِ لم يُتَحْ لسواها !
وبها من نسائمِ الخُلْدِ شِـــعْرٌ
كزُهورِ الصـــباحِ طابَ شذاها
عَزَفاتٌ من الشـــياطين ترجو
عَبْقَرٌ لو تنالُ رجعَ صـــداها
وهُتَـــافٌ من الأمانىّ ظمآى
لجمالٍ يَبُلُّ بعضَ صـــداها !
وحياةٌ هى الحيـــاةُ بحقٍّ
يعجـــزُ الفكرُ عن بُلُوغِ مداها
تلك دنيا من الخيـــالِ حبَتْها
نفثاتُ الشـــبابِ عِزًّا وجاها !
يتبدّى على «الثقـــافة» منها
شُعَلٌ يخمُـــدُ اللهيبُ لظاها !!
فاسلمى يا ثقافةَ النيـــلِ حتى
تبلُغى فى الحيـــاةِ أوجَ علاها !
وتنالى من الخُلُودِ حيـــاةً
ومن المجـــد والمنى منتهاها

(كوم النور) **أحمد أحمد العجمى**

يا صديقي . . . !

أفي «كسلا» مقامك أو «كورتزا» ؟
وفي السلوم أم جاورت «عكا» ؟

فما «رسل البريد» إليّ تأتي
ولا نبأ يطمئنني عليكا

لِمَ الماضي الذي وفيت فيه
متى راجعته استروحت مسكا

إذا استعرضت ماضينا طويلاً
وجدت سوابق الأعمال منكا

أمن قصدٍ قطعت عهودَ ودي
وكنتُ أعزّ مخلوق لديكا ؟

أأوتيت الغنى فنأيتَ عنا
شموخاً منك أم «رقيتَ سلكا» ؟

فما أرجوك للجُلَّى ولكن
وداد قد خشيت عليه رَبْكا !

ولولا أن عهدتك لي وفيًّا
طلبتُ على عهود الود «صكاً» !

تجازيني على الاخلاص صداً
وعن زهر الرُّبَى حسكا وشوكا !

أتنْ قطعَ الوشيجةَ مستهيناً
كمن رومي أواصرها وزكا ؟

تؤرقني ظنونٌ مضنياتٌ
تمر بخاطري سدّاً وحلكا

عمت . . . . فردني قلبٌ وفيٌّ
ولو راجعت . . . . ما أخفي بذلكا !

فمن لي بالصديق صفا وداداً
إذا استخلصته استخلصتُ مُلكا ؟

سأذكر نعمةً للماضي وفله
وأبكي من صروح الود مبكي !

(أبو تيج) محمد سيد سلطان

مصر والأزمة الدولية

بوركت يا مهد القرا	عنة الجبابرة العظام
وحمى الأولى رفعوا لوا	ءهم على حدّ الحسام
حكموا وسادوا العالمي	ن وأيقظوا القوم النيام
ذهبوا ومن آثارهم	مجدٌ يطل على الأنام
يا مصر ذكرك في فمي	وهواكِ في قلبي أقام
أضحيتِ «ليلى» في الجما	لِ وكلهم «قيس» الغرام
هيا شباب النيل يا	أُسدُ الشرى يوم الصدام
إني رأيت الحرب يرْ	مقكم بعينٍ لا تنام
هيا ابذلوا الأرواح صو	ناً للكرامة والسلام
ذودوا العداة عن الحمى	واستعذبوا الموت الزؤام
في حبّ مصر ونيلها	يحلو لذائقه الحمام
والحرُّ إما أن يعيـ	ش مكرّماً بين الأنام
أو يحتسي كأس الردى	متوسّداً فرش الرجام

منيرة توفيق

أنباء وآراء

حول مقال

كانت الثقافة قد نشرت مقالا للأستاذ أبو مدين الشافعي في العدد ١٠٥ تحت عنوان « جهل لذيذ » عرض فيه الكاتب لرأي أبداه الناقد المعروف سانت بيف في لامرتين وقال فيه : « إن لامرتين جاهل لا يعرف إلا نفسه » فحلل هذا الرأي وحدد الجهل الذي يعنيه سانت بيف بأنه « بعد الشاعر عن التدقيق في الأشياء التي يلاحظها ، فهو لا يعرف أن الطبيعة شيء لا يسمع ولا يخاطب ، ويجهل أن كثيراً من الأشياء من صنع خياله ، وليس لها وجود حقيق . . . . »

وقد بعث إلينا الأديب الفاضل ربيع يوسف من فلسطين تعليقاً على هذا المقال أخذ فيه على كاتبه ذلك التخريج لكلمة سانت بيف ، مستشهداً بثقافة لامرتين الفلسفية ودقة إحساسه ، مستبعداً أن يكون مثل هذا الشاعر الحس بجمال الطبيعة أعمى الاحساس جاهلا لا يعرف ما حوله ، ومؤيداً تجاهل لامرتين لما حوله في فترتين من حياته ، هما شبابه وشيخوخته ، حيث حالفه البؤس والاعواز في الفترة الأولى ، وتألب عليه نظام الحكم وخذلته السياسة في الفترة الثانية ، وكان في ذلك جميعه سبب كاف لتجاهله ما حوله .

و« الثقافة » تقدر الكاتب على دفاعه عن لامرتين ونفي وصمة الجهل عنه ، وإن كانت ترى في الوقت نفسه أن نقد « سانت بيف » لا ينتقص من قدر لامرتين ، فالجهل وسعة النفس نقيضان . ولعل أنمى ما في شاعر هو إحساسه بنفسه إحساساً صادقاً ، كذلك الاحساس الذي نلمسه لامرتين في كتاباته .

الأموي لا المهدي

لفت نظرنا الأديب أحمد عبد الله على إلى خطأ غير مقصود ورد بمقال الأستاذ عبد الرازق ابراهيم حميده في العدد ١٠١ من (آلهة الشعر وشياطين الشعراء) ، إذ ذكر أن شيطان قيس (مجنون ليلى) اسمه المهدي . والواقع أن (المهدي) هو اسم أبي ليلى . أما شيطان المجنون فاسمه (الأموي) كما ورد في مسرحية أمير الشعراء شوقي بك رحمه الله .

ملاحظتان

بعث إلينا الأديب أحمد صفوان بهاتين الملاحظتين نشرهما للفائدة .

١ — ولد مفقود

كان العلامة الأمير شكيب أرسلان نشر سنة ١٣٥٢ هجرة كتاب « محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي » عن نسخة مخطوطة ، وقال إنه لم يذكر فيها اسم المؤلف . فلما طبع « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي » سنة ١٣٥٤ عثرت فيه على ترجمة مؤلف « محاسن المساعي » وهو العلامة الفقيه الأديب المؤرخ أحمد بن محمد بن أحمد الموصلي المعروف بابن زبد ، وبعد أن طال ارتقابي نسبة هذا الابن المفقود إلى أهله أصبح من الواجب عليّ التنبيه على ذلك . فلعل الأمير يأمر بطبع ترجمة المؤلف لتضم إلى الكتاب ، فكم من (ابن فكر) كان أعز من (ابن النفس)

٢ — قبرص

يقع لبعض الأدباء الناشئين كتابة (قبرص) بالصاد، وصوابها (قبرس) بالسين، على ما فى القاموس المحيط للفيروزابادى ومعجم البلدان لياقوت وغيرهما.

المسرح الفرنسى

كان من أثر الحروب الحالية على المسرح أن حرمت مصر من قدوم الفرق الأجنبية التى كانت تساهم إلى حد ما فى النشاط الفنى خلال السنوات الماضية.

وقد فكر فريق من المشتغلين بالمسرح فى تأليف فرقة مصرية تقوم بعرض بعض المسرحيات الفرنسية، وتضم الممثلين والهواة من عشاق المسرح الفرنسى، وتألفت هذه الفرقة فعلاً، وعلى رأسها الأستاذ جورج أبيض، وتقرر أن تقوم بتقديم اثنى عشرة حفلة على مسرح دار الأوبرا الملكية بخصص نصف إيرادها للهلال الأحمر المصرى والصليب الأحمر البريطانى.

وستبدأ أولى هذه الحفلات مساء السبت ١٨ يناير فى الساعة التاسعة مساء".

إنه فى يوم الأحد ٢٦ يناير سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية تى الأمديد وفى يوم الخميس ٣٠ منه بسوق السنبلاوين سيباع علنا ٤ أرادب أذره شامى بكيزانه ملك ورثة السيد العدل من الناحية نفاذاً للحكم رقم ٢٨٥١ سنة ١٩٣٢ مدنى السنبلاوين وفاء لمبلغ ٢ جنيه و٣٦٥ مليم قيمة المحكوم به والمصاريف بخلاف رسم هذا النشر وما يستجد كطلب عبد الحميد افندى سليمان المنصورة فنى رئاسة الاجراء المحضور

إنه فى يوم الأربعاء ٥ فبراير سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بناحية كفر المصيلحة مركز شبين الكوم وفى يوم الأحد ١٦ منه الساعة ٨ صباحا بعزبة كوم الضبع مركز منوف منوفية سيباع علنا ثمار جنينة يوسفى وبرتقال ملك السيد أفندى ابراهيم من كفر المصيلحة وجاموسة موضح أوصافها بالمحضر ملك عبد العاطى موسى أحمد من عزبة كوم الضبع مركز منوف نفاذاً لحكم محكمة شبين الكوم الجزئية الأهلية فى القضية المدنية ن ٤٢٨٧ سنة ١٩٤٠ وفاء لمبلغ ١٠٥ قرش صاغ خلاف مصاريف النشر كطلب الحاج سيد محمد الشرقى التاجر بمنوف

فنى رئاسة العمراء المحضور.

إنه فى يوم الأربعاء ٢٩ يناير سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بعزبة فراج تبع السيرات والأيام التالية إذا لزم الحال سيباع علنا محصول زراعة قصب مبنية بمحضر الحجز ملك حسين محمود أحمد من الناحية نفاذاً للحكم رقم ٨٧٧٩ سنة ١٩٣٣ تجم عادى وفاء لمبلغ ٤٣٩ قرش صاغ ونصف بخلاف رسم التنفيذ وأجرة النشر ورسم إعادة الاجراءات كطلب الست ليلة سليمين قرشوط

فنى رئاسة العمراء المحضور

بيت بأسطارة*

زعم الأديب (سعد محمد حسن) فى الثقافة العدد (١٠١) أن رواية المتنبي شعر ابن الرومى إسطارة من الأساطير ظاناً أن رواية الشعر لا تكون إلا بالمشافهة والمقابلة . ولكن الرواية هنا ليس المقصود منها ما ظن ؛ بل هي على معنى القراءة والتأثر ، والدرس والحفظ . .

ومما لا شك فيه أن المتنبي تأثر بشعر ابن الرومى أيما تأثر ، وآثره عن شعر غيره بعنايته ورعايته ؛ ولحظه باهتمامه . وذلك لما بينهما من توافق فى صور الحياة ، ولوقوفهما مواقف إن لم تكن متحدة فهى متشابهة .

فابن الرومى كان فى نسبه دَخَل ، فكانت أمه فارسية . والمتنبي كان من والدين وإن كانا عربيين إلا أنهما كانا محتقرين ! وابن الرومى كان غريباً فى قومه ومعارفه ، والمتنبي ظل كذلك طيلة حياته . وابن الرومى كان متشككا فى دينه ، متشيعاً لآل على ، والمتنبي اعتقد القرمطة حيناً ، ثم تشيع حيناً آخر . وابن الرومى كان يطمع فى ولاية ، ويأمل فى إمارة « وتوسل إلى الرؤساء أن يجربوه فى ولاية أو جباية ، أو يتخذوه بعمل فى الديوان يريحه من ذل السؤال وعذاب القلق والانتظار » . هكذا قال العقاد ص ١٧٣ . والمتنبي هام بالولاية ، وعبدها حتى العبادة . وما حديثه مع كافور عنا ببعيد .

فلذا كان لزاما على المتنبي أن يعرف أقوال سابقيه فى مثل هذه المواقف ، وأن يتزود مما قالوه ليكون عدة له إن دعى إلى النزال ، وليحذر الخطأ الذى ارتكبوه فى حياتهم ويتقى العثرات التى صادفتهم . وذلك ما تفعله قادة الجيوش الآن .

ولا غرابة بعد ذلك أن يكون ابن الرومى خير إمام المتنبي فى ذلك ، وأكبر مؤثر فى شعره وآرائه ، ولقد تظهر فى الشاعرين خصائص متحدة تمام الاتحاد :

فالمتنبي كان طويل النفس مسترسلا وابن الرومى كذلك . والمتنبي كان شديد الاستقصاء للمعانى الدقيقة ، وابن الرومى كان كذلك . والمتنبي هام بتوليد المعانى وخلق الأفكار ، ولقد سبقه إلى ذلك ابن الرومى ، حتى إنه بز البحترى من هذه الناحية . والمتنبي كان يدخل إلى شعره معانى فلسفية ، وألفاظاً غريبة عن العربية ، وكذلك كان ابن الرومى .

ولا ننسى أن ابن الرومى كان حجة فى اللغة ، محيطاً بمفرداتها وتراكيبها ؛ وشاعر كهذا قمين بأن يأخذ المتنبي عنه ، ويروى له . زد على ذلك أن ابن الرومى شاعر بغدادى — وبغداد فى ذلك العصر هى بغداد — والمتنبي نشأ بالكوفة ، وكانت الكوفة إذاك مصراً من الأمصار . وشعراء الأمصار أشد افتتاناً بشعراء العواصم والحواضر ، وأكثر استماعاً لهم .

وبعد : فلنفرض أن كل ذلك لم يكن ، وأن المتنبي لم يرحل إلى بغداد — مع أنه رحل وطال مكثه هناك ، وتردد على أندية الأدب ، ومجالس العلم والشعر ، كما يقول الأستاذ (بلاشير) — ولنفرض أن ابن الرومى كان ضعيفاً ، ألا يجدر بشاعر العربية (غير منازع !) أن يقرأ شعره ، ولو للنقد والمقارنة . وقديماً قيل « وبضدها تتميز الأشياء » ؟

كما لا يفوتنى أن أنبه الأديب إلى أن كتاب « الوسيط » من خير ما ألف فى الأدب العربى للطلاب ، ولا يمكن أن تعرف قيمته إلا إذا قورن إلى سواه . ويكفى أن يكون الاسكندرى أحد مؤلفيه .

(الزقازيق — شرقية) السعيد محمد

* قال فى القاموس : الأساطير الأحاديث لا نظام لها ، جمع إسطار وإسطير بكسرهما وأسطور . وبالهاء فى الكل .

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١١٠ | الثلاثاء ٨ من المحرم سنة ١٣٦٠ — ٤ من فبراير سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الديكتاتورية وعقلية الجماعات

كان لمساءة بعض الناس فشل الديمقراطية وإفلاسها وتغلب حكومات الطغيان على دول أوربية ، وقع أليم وتأثير بالغ فى نفوس عامة المفكرين ، وقد هالهم ذلك وأثار ظنونهم ومخاوفهم وشغل بالهم ، وعدوه نكبة أصابت الأمم وأضلت العقول ، وأخذوا يروون مكمن الداء ويستقصون أسبابه . وقد خدع الكثيرون بزخرف الدعاية الديكتاتورية ، وغرتهم أباطيلها وفتنتهم عن عقيدتهم الديمقراطية ، وأوهمتهم أن الديكتاتورية أسلوب جديد مبتكر فى الحكم وسياسة الأمور ، وفلسفة حديثة من فلسفات السياسة ملائمة لمطالب العصر الحاضر ومستلزمات المدنية الحديثة ، وأنها تختط فى الحياة سبلاً غير مطروقة ، وتسن سنناً صالحة تقوّم الأخلاق ، وترم بناء المجتمع ، وتقود الناس إلى أرض الميعاد ، وأنها توقظ قوى الأمم الخامدة ، وتبرز مذخور فضائلها ، وتنشر مطوىّ محاسنها ، وأنها الوسيلة الفذة لعلاج ما يهيظ الأمم فى العصور الحديثة من أعباء ، وما يستقبلها من مشكلات ، وأنها تنشىء الجيل الجديد نشأة حسنة ، وتربيه تربية نظامية حربية ؛ وقد ألقى دعاتها فى روع بعض من نمّ عليهم أمر الديكتاتورية أن الديكتاتوريين ميسولو قدر ومندوبو عناية ، وأنهم يعرفون من موارد الأمور ومصادرها ما يند عله على غيرهم ، ولا يطيقه سواهم ، وخلقوا منهم أسطورة جديدة لها سحرها الخلاب ، وتأثيرها الخادع .

ولكن برغم مهارة الدعاية الديكتاتورية ظل كبار

المفكرين على سوء رأيهم فى هذا الأسلوب الرجعى العتيق من أساليب الحكم ، وإن بدا فى ثوب قشيب لتمويه حقيقته وستر عيوبه ، وأشد ما يفيض إليهم النظام الديكتاتورى عمل الديكتاتورية على خنق حرية التفكير ، وتكبيل الخيال ، وإرهاق النفوس ، وإفساد الجماعات الانسانية واستعبادها ، ليفتات الديكتاتور برأيه ، ويستشرف إلى صفات الألوهة ، ويمكّن لصحابته وحوارييه ، ويثير فى نفوس الجماعات هوج العواطف وبواعث الإجرام ؛ ومن أمثلة ذلك تحريك نزعة كراهة الساميين فى ألمانيا ومعسكرات الاعتقال ، وتدبير الجرائم والاغتيالات ، وحوك الأشراك والدسائس ، للفتك بمخالفيهم فى الرأى . والديكتاتورية تلقن الشعب أن العدالة والحرية والراحة أشياء مزهود فيها ولا لزوم لها ، وتجعل الانسان لا يصدر عن رأيه ، ولا يعتمد على تفكيره الخاص ، وبذلك يصبح الانسان حيواناً اجتماعياً مهدر الكرامة مضيع الحق .

ومما يسترعى النظر أن أكثر المفكرين الذين كتبوا عن الديكتاتورية ، ونعوا عليها عيوبها ، وأوضحوا مساوئها وسوء آثارها ، لم يشيروا بوجه خاص إلى ما يبذله الديكتاتوريون من جهد لخلق ما يسمى « عقلية الجماعات » أو « تفكير الجمهور » ؛ وبيان ذلك أن كل نظام صارم سواء كان سياسياً أم دينياً أم اجتماعياً يفرض على الناس فرضاً ، ويأخذون به أخذاً ينزل العقل من عليائه ، ويستتبع ذلك خضوع الفرد خضوعاً تاماً ضرورياً ، وتخاذل تفكيره ورقدة ضميره ، وانحلال شخصيته ؛ وإذا طال الحال على ذلك أصبح الميل إلى التفكير رذيلة من الرذائل ونقيصة يحاسب عليها الفرد ، وتنزل به من أجلها العقوبة الرادعة ، ويسود تفكير الجماعات التى تسيطر عليها العاطفة وأفسد عقولها التعصب والضيق ، وهذا اللون من تفكير الجماعات من أخطر مظاهر الديكتاتورية وأبعثها على النفور والتقزز . وجميع المربين الأحرار يسلمون بأن أول غاية يجب أن يتجه إليها التعليم هى تشجيع استقلال التفكير وحرية الرأى وإنماء القدرة على تكوين الأفكار الصحيحة والآراء الصائبة البعيدة عن مؤثرات الدعاية وبواعث الاغراء ؛ وهذا نقيض المتبع فى الدول الديكتاتورية ، لأن الطفل معتبر هناك عجينة تتشكل بحسب ما يتراءى لولاة الأمور ، وهو يُنشأ على المثال المطلوب ليكون شخصاً صناعياً وآلة طيّعة تلبى الأوامر وتخضع لإرادة الغير ، وتدين بعبادة الأصنام الحديثة ، ويمكن بذلك أن يحشر فى زمرة العبيد ، ويشغل موقفه من القطيع ، وتعمل الدعاية من ناحية وفرط الخضوع للأوامر من ناحية أخرى على سحق كل امتياز فردى والقضاء على كل نزعة للثورة على هذه القيود الضرورية والأصفاد الموهنة ، وتقضى على الملكات الفنية ، وتعرقل الذكاء ، وإنماء الشخصية ؛ ويعقت هذا الأسلوب علماء الاجتماع والتربية ، وينفرد بترجيحه وتحبيذه المفكرون المتكرون بالخضوع للديكتاتورية والذين يشك فى إخلاصهم لآرائهم وتحريهم الحق فيما يقررون . وقد جربت الأمم الغربية القائمة على هذا النمط العسكرى فوجدتها تشجع على خلق تفكير الجماعات ، وتؤدى إلى عبودية العقل ، وانحطاط التفكير ، وفقدان القدرة على الابتكار ، وشدة الاحساس بالحزبية والخضوع التام للتقاليد والصيغ ، والاستمساك بالأوامر والنواهى الخالية من المعنى ، وهى فى الدين تؤدى إلى التعلق بالقشور ، وعبادة الشعائر والخضوع التام للمذهبية والتعصب وتؤدى فى السياسة إلى تعطيل التفكير والابتعاد عن مواجهة المشكلات ، والاكتفاء بالانقياد لأوامر الحاكمين .

ولا نزاع فى أن الجماعات المختلفة المقاصد ، والأحزاب المتباينة الآراء ، والطوائف المتعددة ، لها مكانها فى التفكير الاجتماعى ؛ ولكنها عندما تزعم لنفسها حق احتكار الآراء وفرض المذاهب ، وتلجأ إلى الضغط على الحريات فى سبيل ذلك ، يبطل نفعها ويعظم ضررها ؛ وبدلا من أن تكون عوامل لحفز الهمم وخلق الأفكار ، وبيان وجوه الآراء المختلفة ، وطريقاً للاهتداء إلى الحق والنافع ، تعمل

للأغراض الصغيرة والمآرب الوضيعة والاستغلال الذميم؛ ويستلزم ذلك ظهور محطمي الأصنام والثائرين على الأوثان؛ ومثل ذلك واضح في التربية، فإن الأب الذي ينشيء ابنه على أن يعتمد عليه في كل شيء، ويرجع إليه في كل كبيرة وصغيرة، يقضي على ابنه بأن يظل طفلا عاجزاً حتى عندما يبلغ سن الرجولة، ويستوفي أطوارها، ويبقى طول عمره خاضعاً لإرادة غيره؛ فهل يقال إن مثل هذا الأب قد نجح في تربية ابنه؟ إذا كان النجاح هو الطاعة العمياء، والخضوع المطلق، وفقدان الشخصية والاستقلال والقدرة على التفكير، فلا شك أن هذا الوالد البار بأبنائه قد نجح ذلك النجاح الذي يطلب له الجامدون والذين يعبدون التقاليد الزيد منه؛ ولكنه في رأي العقلاء والمستنيرين قد جنى على ابنه أكبر جناية، وخان واجب الأبوة الحقة خيانة يستحق من أجلها العقوق والعقوبة. وأول واجبات الآباء هو تعويد أبنائهم الاستقلال والاعتماد على النفس؛ وكذلك في النظم السياسية، فالنظام الذي يعتبر الرجال أطفالاً قاصرين تحت الوصاية، ولا يقيم وزناً لعقولهم وأفكارهم، بل ولا لآدميتهم وكرامتهم الانسانية، ولا يرضى منهم بأقل من الخضوع التام، والاستسلام الخالص، ويهدم بناء شخصيتهم ويسلبهم استقلالهم، لا بد أن يكون نظاماً فاسداً ومسرفاً في الفساد مهما افتن دعاته في الإشادة به، ونطقهم التهاليل، وحججهم المردودة، ووزنهم الوضيعة المرذولة. وليس الناس في حاجة إلى التبحر في العلم والكرع من حياض الفلسفة ليهتدوا إلى هذا السر الواضح، ويعرفوا أن أكبر غاية للتربية والتعليم هي بناء الشخصية وتحرير العقل وتشجيع الاستقلال؛ وليس معنى ذلك بطبيعة الحال البحث عن العزلة في جزيرة نائية ليكمل الاستقلال وتتم الحرية، أو الثورة على كل قيد والخروج على كل شيء، ورفض التأثر بأي عقل من العقول؛ فقد اعترف أكثر أئمة المفكرين وأعيان الفلاسفة بتأثرهم بآراء غيرهم وسيرهم في السبيل التي عبدها من سبقوهم؛ ولكنهم كانوا يقبلون من الآراء ما يلائم تفكيرهم الخاص وما يعينهم على حل مشكلاتهم وجلاء غوامض نفوسهم، ويربأون بأنفسهم عن الاستسلام المهين للآراء والانقياد الأعمى للدعايات، ولا يخضعون لرأي مهما كانت مكانة قائله إلا بعد وزنه بموازينهم، وعرضه على بصيرتهم لرفضه أو قبوله؛ وبذلك يستطيع المفكر أن يتقدم بالفكر الإنساني خطوات إلى الأمام، ويؤدي ما عليه من الديون للمتقدمين والقدماء، وينهض بواجباته نحو الفكر الانساني؛ وقد يرى بعض السطحيين في ذلك ضرباً من الأثرة والترفع عن الفناء في غمار الجماعات وامتناعاً عن مشاركة الأكثرية تفكيرها ووجهات نظرها؛ ولكنها أثرة لازمة لحياة الفكرين وحرية الأفراد؛ ولا يستطيع الإنسان أن يعطي الجزيل وينهض بالأعباء إلا إذا وجد نفسه في بادىء الأمر، وتقررت شخصيته، وتبين اتجاهه؛ وهذا هو شأن طلاب المعرفة والحق والاستقلال والحرية؛ فطلب المعرفة والبحث عن الحق من نصيب العقل الباحث الجوال والنفس القلقة المتطلعة النافرة الجاهدة؛ وصاحب العقل الخاضع والنفس الذليلة لا يتوق إلى الحق ولا يحرص على الاستقلال، ولا يرغب في الحرية. وعمل المربين والكتاب والقادة والزعماء والسياسيين هو أن يشجعوا ظهور «العقل المستقل» ويجنبوا بلادهم خطر «عقلية الجماهير»، وإيجاد العقل المستقل. وإساءة خطر عقلية الجماهير واجب من ألزم الواجبات، وعمل من أقدس الأعمال في هذه الأيام الحالكة التي نشطت فيها الدعايات المختلفة، وكثر الإرجاف بالأباطيل وزائف الآراء. وخلق عقلية الجماعات في الأمم الديكتاتورية هو الذي مكن القادة من التغرير بها وتوريطها في المآزق الضنكة دون أن يستطيع أحد أن يشد طرفه إليهم ويناقشهم الحساب على أخطائهم وجرائمهم؟

علي أدهم

برجسون والأعرابية

كتب أخي الدكتور طه حسين مقالا قيماً في «الثقافة» عن برجسون الفيلسوف اليهودي الفرنسي وموقفه النبيل واعتداده بكرامة العقل ، إذ « عرضت عليه الحكومة الفرنسية القائمة في « فيشي » أن تحفظ عليه حقوقه كاملة لما أدى إلى العلم والأدب من خدمة ، ولما بذل فيهما من جهد ؛ ولكن هذا الفيلسوف الفرنسي أبى أن يقبل ما عرضته الحكومة ، وكره أن يمتاز من هذه الكثرة الضخمة من الاسرائيليين الفرنسيين الذين حرمهم النظام الجديد في فرنسا حقوقهم كلها أو بعضها » .

ليس بعجيب — يا أخي — أن يشعر فيلسوف كبير كبرجسون في القرن العشرين — في عصر سادت فيه معاني الوطنية والقومية — بارتباط الفرد بأمته ، وشدة علاقته بجنسيته ، فيرفض امتيازاً يعرض عليه دون أبناء جنسه ، ويؤثر أن يحتفظ بكرامة العقل وكرامة الفلسفة .

إنما الذي يدعو إلى العجب والإعجاب حقاً أن يستولي هذا الشعور على امرأة بدوية أعرابية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، فترفض منحة يمنحها خليفة المسلمين لها دون قومها ، وتزيد على برجسون في تلميحها أنها لو قبلتها لكان ذلك عار الدهر وخزي الأبد .

إنها « سَوْدة بنت عمارة » من قبيلة يمنية مشهورة اسمها همْدان ، كانت تسكن شمال صنعاء ، تأخر إسلامهم إلى عام الوفود ، فأوفدوا وفداً منهم إلى النبي (ص) ، فلقوه عند رجوعه من تبوك ، ببرودهم الحبْرية ، وعمائمهم العدنية ، على مهاريهم الأرحبية ، وارتجزوا بين يدي الرسول رجزاً يعتزون فيه بهمدان ، وأنها ليس لها في العالمين مثال ، وأنها منبع الأبطال ، وعادوا إلى قومهم ، ففشا الاسلام في ربوعهم .

فلما كان الخلاف بين عليّ ومعاوية ، وقفت همدان بجانب علي ، وكان منهم في جيشه نحو اثني عشر ألف جندي يحاربون معه في العراق ، وكان عليّ يعتز بهمدان ، ويمدح قومه وحاله ، وينشد فيها :

ناديتُ همْدان والأبوابُ مغلقة ... ومثل همْدان سنّى(1) فتحة الباب

كالهُنْدواني لم تُفْلَلْ مضاربُه ... وجهٌ جميلٌ وقلب غير وجّاب

وكانت صاحبتنا هذه « سودة » قد منحت لساناً مبيناً وقلباً لا يهاب ، آمنت بحق عليّ في الخلافة ، فوقفت تحرض قومها ، وتستخرج شجاعتهم ، وتثير حماستهم ، بالشعر حيناً ، وبالنثر حيناً ، فتقول لأخيها :

شمّرْ كفعل أبيك يا ابن عُمارة ... يومَ الطّعانِ ومُلتقَى الأقران

وانصر علياً والحسين ورهطه ... واقصدْ لهندٍ وابنها بهوان

قُدِ الجيوش وسِرْ أمام لوائه ... قُدُماً بأبيض صارمٍ وسِنانِ

* * *

لقد انتهت الحروب بين عليّ ومعاوية ، وقُتل عليّ ، واستتب الأمر لمعاوية ، ونعم بالملك وأبهته وعظمته ، وكان يستعيد من آن لآن ذكر ما كان ، فكان يسره أن يداعب أنصار عليّ ويهيج أشجانهم ، ويعتز بحلمه ، ويشعرهم بفضله ، ويعطف قلوبهم ، ويتألف نفوسهم ؛ وكان أكثر ما يعجبه من ذلك سيدات القبائل اللاتي وقفن في قومهن يحرضن ويشجعن ، ويخطبن ويشعرن ، أمثال بَكّارة الهلالية والزرقاء الهمدانية ، وأم سنان المذْحجية ، ودارميّة الحَجُونية ، فكان يبعث إليهن أحياناً يستقدم

(1) سنّى الباب فتحه ، ومنه تسنّى لى الأمر إذا سهل .

حديثهن ويسر بحوارهن ، ويأنس بفصاحتهن وحسن بيانهن ؛ وأحياناً ينتهز فرصة مجيئهن لحاجة عرضت لهن ، فيتظاهر بمظهر المتشفي منهن ، إذ احتجن إليه بعد التأليب عليه ، ليتدفقن في الحديث الرائع ، والقول الممتع ، والبديهة الحاضرة ، والجواب المسكت .

***

كانت صاحبتنا سودة من هذا القبيل ، عرضت لها حاجة مما يعرض للناس ، ولم تجد لها حلاً إلا أن تلجأ إلى معاوية . لو كانت حاجتها فقرها لهان الأمر ، ولاحتملته في صبر ، ولم تبذل وجهها لعدوها ؛ ولكنها حاجتها وحاجة قومها ، فإن صبرت على نفسها فإنها لا تستطيع الصبر على محنة أهلها . هذا ابن أرطاة واليهم من قبل معاوية يظلمهم ويأخذ أموالهم ؛ والسكوت عن الظلم مذلة ، والثورة عليه لا تنجح ، إذ لم تتم وسائلها ، ورجاء معاوية أمر بغيض إلى النفس مشعر بالذل ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فلأذهب إليه ، ولأكلمه في غير وهن ولا استخذاء ، ولأصارحه القول في غير رجاء ، ولأكلمه بنفس اللسان الذي كنت أؤلب به الناس عليه ، فأكون قد أدركت حاجتي ، وحفظت كرامتي .

هيا إلى معاوية !

— السلام عليك يا أمير المؤمنين !

— وعليك السلام يا ابنة الأشتر . كيف أنت ؟

— بخير يا أمير المؤمنين !

— ألست الجادة في تحريض قومك ؟

— دع تذكار ما قد نسي .

— قد فعلت ، فقولي حاجتك .

— هذا « ابن أرطاة » قدم بلادي من قبلك ، فحصدنا حصاد السنبل ، وداسنا دياس البقر ، وسامنا الخسيسة ، وسألنا الجليلة ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ؛ فاما عزلته فشكرناك ، وإما لا فعرفناك .

— إياي تهددين ؟

— رحم الله عليا ! أتيته مرة في مثل هذا فبكى وقال : اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، وأخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب بعزله !

سكت معاوية برهة ثم قال : اكتبوا بالانصاف لها والعدل عليها .

سكتت سودة برهة كالتي سكتها معاوية ، ولكن كان موضع تفكيرها هذه الضمائر « لها » و « عليها » ماذا يقصد بلها وبعليها ؟ أأراد شخصي ؟ أظن أن ذلك يسرني ؟ ثم انفجرت سائلة :

— ألي خاصة أم لقومي عامة ؟

— وما أنت وغيرك ؟

— هي والله — إذاً — الفحشاء واللؤم ، إن كان عدلاً شاملاً ، وإلا وسعني ما وسع قومي(1) .

— اكتبوا لها — إذاً — بحاجتها .

***

إن كان رفض « برجسون » كرامة العقل ، فرد « سودة » كرامة الطبع ، بل إن في سلوكها خير مصداق لفلسفة « برجسون » ، إذ أشاد بقيمة الطبع أو الفطرة أو « اللقانة » أو ما شئت فسمه ، ورفع شأنه على شأن العقل . وكم راعنا البدو بحكمهم أكثر مما راعنا فلاسفة اليونان بفلسفتهم . تلك هبة الفطرة ، وجريان السليقة ، وسلامة الطبع ، ولطف البديهة ؛ وهذه إعمال الفكر وأناة التروي وجهد العقل ، ونتاج الاجيال ومولد الحضارة ؛ تلك معجزة الطبيعة كالماء يخرج من صخر ، والنار تنبعث من شجر أخضر ، واللبن من بين فرث ودم ؛ وهذه مألوف العادة كالعلم من عالم ، والماء من نهر ، والثمرة من شجرة ؛ وفي كلٍّ فضل ، ولكن الروعة للأول . والعجب إنما يكون من غير المألوف ؟

أحمد أمين

(1) هذه الألفاظ بنصها في باب الوفود في العقد الفريد .

كتاب مفتوح

من عمر المختار — إلى الماريشال جرزيانى

للأستاذ عبد العزيز البشرى

عزيزى الماريشال :

أكتب إليك هذا وأنا حىّ والقوى من أنك لم تنس ، بل حىّ والقوى من أنى ، وخاصة فى هذه الأيام ، أمثل لك سوادَ الليل وبياض النهار . ومهما يكن من أمر ، فإن آخر لقائنا لم يمض عليه من الزمان ما يُنسى الصديقَ عهدَ الصديق !

أتذكر ، يا عزيزى ، ذلك اليومَ الذى جاءوك بى وأنا مقرّنٌ فى الأصفاد ، فتقدمت إلى أحراسك أن يُلقوا بى فى الطيارة التى أشرت بإعدادها لمهمّ لم تقم به طيارة من قبل . وسُرعان ما حلّقت بى ، تشق أجواز الجوّ ، طبقة بعد طبقة ، حتى كادت تصكّ وجهَ الشمس . ثم قُذِف بى من ذلك الحالق قذف النواة ، لا رحمة ولا إشفاق !

وإن أعجبْ لشىء ، وإن أفرحْ بشىء ، فبطياراتكم التى بلغت هذه السرعة الهائلة ، بحيث تحمل المرء من هذه الدنيا فتبلغه جنة عدن فيما دون عشر دقائق !

ولئن عاب أهلُ الدنيا طياريكم ، معشر الطليان ، بأنهم لا يحسنون إصابةَ الأهداف ، لقد اضطرب هذا الحكمُ عليهم بين الجهل والتجنى . فطياروكم أحسنُ الطيارين تسديداً إلى المرامى وإصابةً للأهداف ، ما دامت القذيفة شيخاً فى حدود المائة ، والهدف ظهر الصحراء !

عزيزى الماريشال :

لقد انعقد إجماعُ أهلِ العلم على أن الشجاعة تلازمها الرقة للضعيف ، ورحمةُ من ليس له بالكفاح يدان .

وكذلك كان شأنكم ، يا معشر قادة الجنود ، فإنكم لا تؤذون الأسرى ، وتسرعون إلى مداواة الجرحى من عدوكم ، كما تداوون جرحاكم سواءً بسواء ، وتلقون الجميعَ بالبشاشة ، وتعاملونهم بالإكرام . فما بالك قد صنعت بى ، أنا الشيخ الفانى ، ذلك الذى لم يسمع بمثله أحدٌ فى طول الزمان . هذا الذى لا ترضى بفعله الحجارة ، لو كانت الحجارة تشعر وتريد .

لقد التمستُ لك وجهَ العذر ، يا عزيزى الماريشال ، ولا تعجب لأن ألتمس أنا العذرَ لك أنت ، فإنى فى دار لا نحس فيها حقداً ، ولا يجد الضغن إلى قلوبنا سبيلا . ألم يقل اللهُ تعالى فى كتابه الكريم : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » الآية .

وجهُ العذر ، فيما أرى ، أنكم ، معشر الطليان ، أو معشر الفاشست ، على الأصح ، وقد جمتم العزم على فتح أفريقيا ، لتستنقذوها من الجهالة ، وتخرجوها إلى نور الحضارة ، رأيتم سلفاً أن تُشهدوا العالم على مبلغ ما أحرزتم أنتم من حضارة وعطف على الإنسان . وليس من شك ، بعد هذا ، فى أن فعلتك تيك إنما كانت أصدق نموذج (عينة) لحكمكم إذا ملكتم نواصى الأرض ، وبلغتم مُنيتكم فى استعادة ملك الرومان !

ولعلك ، أيها الماريشال الشجاع جدا ، ساعة تقدمت بإعدامى على تلك الصورة ، قدّرت أنى لن أتعذّب أكثر من دقيقة واحدة ، فإنى كنت أجهل مصيرى ، حتى إذا قذفوا بى فى الجوّ ، خفق قلبى خفقة أو اثنتين ، ثم

استشعرت صدمة ، هل علمت خطرة البرق ؟ ثم لم أدر شيئاً ، ولم أحس شيئاً ، حتى رأيتني في الجنة ، بين الصدّيقين والشهداء . وحَسُن أولئك رفيقاً .

ولعل هذا مما كان داخلا في تقديرك أيضاً ، فأبت همتك إلا أن تسدي إليّ هذا الجميل . جزاك الله عني أعظم الجزاء !

* * *

هناك يا صديقي سؤالٌ يضطرب في صدري ولا يجد له متنفَّساً من جواب : لقد كنت أعلم ، وأنا من أهل الدنيا ، وازددت يقيناً حين صرتُ إلى الآخرة ، أن السيدَ المسيحَ عليه السلام ، كان أكبر مظاهر رسالته الرفق والرحمة ، والمحبة والسلام ، والعفو عمّن جنى ، والصفح عمّن أساء . ولقد كان ، عليه السلام ، أول رسول لم يؤيد بمعجزة من عصف أو خسف ، أو إغراق أو دمدمة ، أو ريح عاصفة ، أو رجفة قاصفة ، وإنما كان يُبرِئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله . وليس وراء هذه الرحمة رحمة ، وليس أبلغ من هذا في باب العطف على الإنسان . فهل من الفضائل المسيحية التي تتشادق بها أنت ومعشرك ، والتي تزعمون أنكم ما شهرتم هذه الحربَ على خصومكم إلاّ لتسودوها في العالمين — هل من هذه الفضائل أن تمثلوا بشيخ مثل هذا التمثيل ، وتقتلوه بصورة لم تعهد في تاريخ التذبيح والتقتيل ؟

لا والله ! لقد برِئ منكم المسيح الرحيم النبيل ، وبرئت منكم التوراةُ والإنجيل !

* * *

وبعد ، فاعلم ، يا هذا الرجل ، ولعلك الآن أنشأتَ تعلم . اعلم أن الله تعالى يُمهل ولا يُهمل ، وهو للظالمين بالمرصاد . وإنه ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلِته .

ولقد أملَى لك وأمهلك . وما أمهلك ولا أملَى لك ، إلا ليَزيدَ لك في العقاب ، ويُضاعفَ لك العذاب ، فَتَفَسَّح لك في الأمل ، وأدنى منك كرائمَ المنى . وقطع ، في نفسك ، جميعَ علائق الشك في أن ستكونُ الغازي الفاتحَ الذي يردّ لقومه ملكَ الرومان القديم ، في غير مشقة ولا جليل عناء ، حتى خيلتْ نفسُك كذلك ، واستخفّك الزهو به ، وتقبلتَ الهناء عليه .

نعم ، لقد أذّنت وأذّن معشرك ، لا في بلادكم وحدها ، بل في جميع رقاع العالم ، بأن مصر والقناة التي تسلكها بين البحرين ، وأن السودان من قسمكم ، كما أضحت الحبشة والصومال والأريتريا من حُرّ ملككم ، لا ينازعكم في ذلكم منازع ، ولا يستطيع أن يدافعكم عن شيء منه مدافع . ولقد سكنتم إلى هذا واطمأننتم إليه ، وخلتم أنكم قد فرغتم من الشغل به . وما لكم تشغلون البال بما حصل في أيديكم ، ومكنت لكم القوة الساطيةُ منه تمكيناً ؟ !

أمهلك اللهُ وقومَك وأملَى لكم ، حتى بلغتم من حسن الظنّ بالأيام هذا المدَى .

أليس أعداؤكم الانجليز قد خشُوا بأسكم ، فسبقوا إلى إخلاء وجه الصومال لكم ، كما خلّوا بينكم وبين السلوم وسيدي براني ، فاحتللتموها في غير جهد ولا قتال ؟

إذاً لقد تمّ الأمر لكم ، فأنتم ولا محالة بالغو قُصارَى مُناكم في يسير من الزمان ، حتى لقد واعدَ كثيرٌ من جندكم خطيباتهم قضاءَ شهر العسل ، بعدَ أسابيعَ أو بعدَ أيام ، على ضِفّةِ النيل ، والنعيم في واديه الجميل .

ثم ما فعل الله ، يا مارشال ، بإمبراطورية الرومان ؟

هذا قِرنُك ويفل يضربك في كل نهار ضربة . فلا يقنع بأن يسترجع منك سيدي براني والسلوم . بل إنه ليُغير على ملككم في لوبيا ، فيفتح بلادَها مدينة بعد مدينة ، ويستولي على حصونها واحداً بعد آخر . ويأسر

حامياتها التي حشدت فيلقاً بعد فيلق . ويضم من المدافع والدبابات والذخائر وسائر آلات الحرب وعَتادها ما لو كنتم تعاقدتم ، من قبل ، مع انجلترا على أن تورِّده مصانعكم إليها بالثمن العاجل ، لعجزت في هذه الفترة عنه ، ولم تستطع ، على شدة حاجتها إلى المال ، الوصولَ إليه !

ولقد بلغ من خِذلان الله لكم أن تظل طائراتكم ، وهي تعدّ بالآلاف ، جاثمة في أفاحيصها (مطاراتها) التي تعدّ بالمئات ، في انتظار الطائرات البريطانية التي تصبِّحها وتمسِّيها كلَّ يوم ، حتى إذا أصلتها ضرباً وتمزيقاً ، وأوسعتها تدميراً وتحريقاً ، عادت إلى حظائرها وكأنها لم تعانِ غزواً ، ولم تُلاقِ عدواً !

أفتراك ، يا ماريشال ، قد تعهدت للإنجليز بأن تعينهم على تمرين طياريهم في إصابة الأهداف وتسديد المرامي ، فنثرت لهم الطيارات في كل مطار ، ليتعلموا فيها الرماية في كلّ ليل وفي كلّ نهار ؟

ألا خبرني بعيشك ؟ لماذا حشدت كل هذه الجيوش ! وهي لا تضطلع من أعباء الحرب بأكثر من التسليم ! ولماذا أقمت كل تلك الحصون ؟ وهي لم تقم بأكثرَ من تفتيح الأبواب للغازي المغير ! ولم أرصدتَ كل هاتيك الموبقات الفواتك من آلات الحروب ؟ إذ هي لم تصنع أكثر من أن تمدّ نفسها غنيمة للعدوّ باردة بُرودَ الثلج !

ثم ماذا كنت تَصنع أنت ، يا ماريشال ؟

لم يسمع أحدٌ قطُّ أنك قمت بهجمة ، أو تحركتَ لاتقاء صَدمة . أو أمددت فيلقاً حَبسه ، أو أنجدت جيشاً انهدّ حيله !

أتراك قد جئت إلى شمال أفريقيا لتتفرج في هذه الحرب ، لا شأن لك بوضع خطة ، أو تدبير مكيدة ، أو سن منهج ، أو إصدار أمر ، أو المشورة ، ولو ساعة الضيق ، برأي ؟

صدقني ، يا ماريشال ، فنحن أهل الجنة لا نكذب أبداً — صدقني إذا قلت لك : إنك لو كنتَ ماريشالا في رواية مسرحية ، وجرى في أحداثها بعضُ هذا الذي يجرى في لوبيا ، لكان لك من الأثر ، في عالم الحقيقة ، أكثر مما رأى العالم منك في هذه الحرب ، إذ لم يكن أقلَّ من أن يصدِّع الماريشال الممثل كرسياً ، أو يكسر طبقاً ، أو يمزق ، ولو بأسنانه ، ستاراً !

صدقني ، يا ماريشال ، أنه لو كان في موضعك حي لصارع ، أو حام لدافع وقارع ، أو طفل لنضح ، أو جدي لنطح !

على أنك لم تصنع شيئاً من ذلك قطُّ يا حضرة الماريشال الغازي القائد العظيم .

* * *

جرزياني : لقد قتلتني مرة واحدة . وها أنت ذا تذوق أمرّ ألوان القتل كل يوم عشرين مرة !

ها أنت ذا ، يا سند إيطاليا ، ومعقد أملها في ملك روما القديمة ، لا تفتأ تبوء بالفشل بعد الفشل ، ولا تفيق من لطمة إلا لتتلقى لطمة . ولا تجوز بفضيحة إلا لتستقبل فضيحة . أرأيت عذاباً أشد من هذا العذاب ، وعقاباً على الظلم أوجع من هذا العقاب ؟

اللهم إني لم أكتب إليك هذا شفاءً لحقد ، أو بدلا لضغن ؛ فقد علمت أننا ، معشر أهل الجنة ، لا نحقد ولا نضطغن ، ولكن بسطاً للعظة ، وضرباً للعبرة .

وفي الختام ، أرجو ، يا حضرة الماريشال ، أن تنوب عني في إزجاء أخلص التهنئات إلى صديقك موسوليني ، قيصر الرومان العظيم ! ؟

جنة عدن في ٢ من المحرم عام ١٣٦٠

(طبق الأصل) عبد العزيز البشرى

صور قضائية :

شهادة شاهد

من مذكرات قاض لم تنشر

٥ يناير سنة ٩٢٠ .

انتهت الجلسة اليوم حوالى الساعة الثانية بعد الظهر . فخرجت منها محطم الأعصاب ، لا أريد إلا أن أستلقى على كرسى فى « غرفة المداولة » مسترخياً حتى أسترد بعض نشاطى ، فأنهض عائداً إلى منزلى لأستأنف فيه الجهاد مع القضايا الأخرى التى لم تكشف فيها النظرة السطحية ، ولا المناقشة العادية ، والتى لا بد فيها من تقليب الأوراق وفحصها ودراسة مستنداتها . ولكنى ما دخلت قاعة المداولة حتى وجدت فيها صديق (م) ينتظرنى على بعض عادته لنقطع طريقنا معاً إلى منازلنا المتجاورة . فاستأنست به ، وسُرِّيت أسرى من نفسى بحديثه الفكه . ولم أمض فى ذلك إلا قليلا حتى دخل علينا أحد كتاب المحكمة ومعه « ملف » أشعث ليخبرنى بأن هذه القضية محالة علينا من محكمة ... كى نسمع فيها شهادة شاهد لم يستطع السفر إلى مقر تلك المحكمة لضعف صحته . وأن الشاهد حاضر خارج القاعة يريد الإدلاء بهذه الشهادة . وأنه كان ينتظر انتهاء الجلسة منذ الصباح ، وأنه شيخ كبير يؤذيه أن يعود مرة أخرى إن لم يتيسر سماع أقواله اليوم .

فلم يمهلنى صاحبى حتى أقول كلمتى فى هذا الطلب . بل اعترض الكاتب محتجاً على هذه المهمة التى جاء من أجلها ، منبهاً إلى أن وقت العمل قد انتهى ، وإلى أن القاضى من حقه أن يكف عن العمل متى انتهى موعده حتى ولو بقى بعض هذا العمل غير منجز . . . ثم أشار له نحوى بيده وهو يقول :

— وهل بقى فى هذا الهيكل المتخاذل ما يستطيع معه أن يفهم الشاهد إذا شهد أو يستمع له إذا قال ؟ ! انصرف عنا بهذا مأجوراً غير مأزور . فإن المدة الحالية آخر ما يصلح للقضاء والفتيا ! .

فاستمهلت صديقى ، واقترحت أن نسمع لهذا الشاهد فلعل فى شهادته ما يدخل على نفوسنا شيئاً من التسلية . ونبهته إلى أن المطلوب منا هو الاستماع فقط ، فلا هى الفتيا ولا هو القضاء !

فقال لى : إنك مكابر ! إنك لن تقوى على المناقشة . ولن تفطن إلى النقط الحساسة التى ينبغى أن تحضر فيها الكلام . ألم تسمع فى الأقوال المأثورة أنه لا رأى لحاقن ولا لحازق ! فإذا كان الخف الضيق يذهب بالرأى السليم . وإذا كان البول المحبوس يقضى على الفكرة النيرة ، فما بالك بالمدة الخالية التى تترد طيورها — أستغفر الله ، بل التى تنعق غربانها ، وتهر كلابها ، وتعوى ذئابها ! : قم بنا إلى الغداء ، وليحضر الشاهد فى الغد أو تتمه له أنت بعد الظهر إذا شئت ! .

ولم يكد يفرغ صاحبى من « مرافعته » حتى لاح بالباب شيخ كبير السن ، وضىء الوجه ، يستأذن فى الدخول . فابتسمت إلى صاحبى وقلت :

— لقد وضعنا الشيخ أمام الأمر الواقع فدعنا نتقبله ، وسيكون جزاؤك عندى أن تتغدى معى متى فرغنا من سماع أقواله ! .

فقال : أما بهذا الشرط فأنا أرضى الانتظار ! دونك الشيخ فخذ شهادته . . . . ولكن لا تثقل عليه بكثرة السؤال .

* * *

واستدنيت الشيخ منى ، وجلس الكاتب بجانبى ، واطلعت على القضية لأرى فى أى شىء يراد سؤال الشاهد ، فوجدت الدعوى تتلخص فى أن هذا الشيخ من أهالى القاهرة ، وأنه زوج ابنته لأحد تجار الريف ، وأنه كانت له زوجة . وكان لهذه الزوجة مصاغ كثير . فرضت وانتقلت إلى أحد المستوصفات . فأودعت مصاغها عند كريمتها . ثم ماتت هى فى هذا المستوصف ، وبقى المصاغ مع ابنتها فى الريف . ثم توفيت الابنة عن ولدين صغيرين . فسافر الشيخ ليتسلم جثمان ابنته ، وليسترد مصاغ زوجته . فاعترف الزوج بجثة زوجته ، ولكنه أنكر المصاغ — وتبين أن المطلوب هو سماع أقوال الشهود الذين يعلمون أن مصاغ الأم كان محفوظاً مع ابنتها ، وأن هذه سافرت إلى الريف عند زوجها . . . . .

ورأيت أن أبدأ بسماع أقوال الشيخ . فقال :

— كنت موظفاً بالحكومة . ولكنى الآن بالمعاش . وكان عملى يقتضينى أن أنتقل من بلد إلى بلد . فكنت فى بدء أمرى أستصحب زوجتى وأولادى إلى كل بلد أنتقل إليه . ولكن الأولاد كبروا . ودخلوا المدارس . وأصبح من المتعذر علىّ أن أجد لهم المدارس الموافقة فى البلاد التى أسافر إليها . فاكتريت لهم منزلا فى القاهرة ليستقروا فيه مع أمهم . واكتفيت أنا بأن أتردد عليهم كل شهر مرة أو مرتين . ثم أعود إلى مقر عملى فأقيم فيه . وكان الله يبارك لى فى مرتبى ، فلم أكن أنفق فيه أنا وأسرتى أكثر من نصفه . وكنت أحفظ الباقى مع زوجتى ، ولم تكن هى تثق بالمصارف . ولم أكن أنا أرغب فى استغلال مالى فى الأرض لسوء معاملة الفلاحين ، ولا فى الأسهم ونحوها لعدم خبرتى فى هذه الشئون . فاتفق رأينا على أن نشترى بكل ما ندخره من المال مصاغاً يظل محتفظاً بقيمته عند الحاجة إلى بيعه . وتتحلى به زوجتى وبناتى كلما دعا إلى ذلك داع — واجتمع لنا من ذلك شىء كثير كنا نضمه فى حقيبتين إحداهما صغيرة الحجم سوداء اللون والثانية أكبر من أختها حجماً ، ولكنها ذات لون بنى — وارتفع سعر الذهب وعز تداوله ، فجعلنا نصيد الجنيهات الذهبية نشتريها حيثما وجدناها . فاجتمع لنا منها مبلغ طائل أيضاً كنا نحفظه فى الحقيبتين مع المصوغات . وفى سنة — ١٩ كانت إحدى كريماتى قد أتمت دراستها الابتدائية . ودخلت الامتحان ونجحت فيه ، وكان ترتيبها الأولى بين الناجحات . وكأنما لفت ذلك أنظار الناس إليها وإلينا ، وأنا ممن يؤمنون بشر الحاسد إذا حسد . وقد تحققت مخاوفى ، فإن ابنتى هذه أصيبت عقب الامتحان مباشرة بحمى شديدة أوشكت أن تموت بسببها ، ولكن الله سلم . فنجت من الخطر بعد مرض طويل تركها فى غاية من الضعف والهزال . وكان ابنى الأكبر قد نال شهادة التخرج من مدرسة الحقوق فى ذلك العام . فاقترح علينا أن نقضى الصيف خارج القاهرة فى ثغر من ثغور مصر التى يرتادها المصطافون ، لعل ذلك أن يساعد أخته على استرداد صحتها . ويعوض باقى أفراد الأسرة عن بعض ما كابدوه فى الشهور الأخيرة . وعلى الرغم من أنى لم أكن أرتاح إلى ارتياد هـذه المصايف بنفسى . ولا أرضى لأسرتى أن ترتادها أيضاً ، فإنى رأيت فى الملابسات التى أحاطت بحياتى ذلك العام ما جعلنى أرحب باقتراح ابنى ، وأعددنا عدتنا للرحيل ثم سافرنا . ووقع اختيارنا على مدينة . . . . فنزلناها فى مكان معتكف بعيد عن ضوضاء (البلاجات) ومفاسدها . واستقام أمرنا على ذلك زماناً تحسنت فيه صحة ابنتى وشعرنا جميعاً بتأثير اختلاف الهواء فى صحتنا ومزاجنا . وحمدنا الله على ما وفقنا إليه فى هـذا الصيف . وشكرنا لابنى اقتراحه الذى كان سبباً فى هذا التوفيق .

وفى ذات صباح جاءنى ابنى هذا باقتراح جديد وهو أن نقضى النهار فى ضاحية . . . القريبة من هـذا الثغر . فإن الناس يقولون إنها تستحق الزيارة لجمال موقعها وطيب هوائها . فلم أعترض . ورأيت أن أدخل على نفسه هذا السرور البرىء . فقمنا من فورنا وقصدنا إلى ذلك المكان

نحن الاثنين بعد أن هيأنا طعامنا الذى سنتناوله هناك وقت الغداء . وجلسنا على الشاطئ نلهو بمنظر البحر ومنظر المستحمين فيه حتى كان وقت الظهيرة . فخلا المكان إلا منا ومن رجل إنجليزى كان يجلس بعيداً عنا مع زوجته بملابس الاستحمام . فاستأذننى ولدى ليقوم فيستحم قبل الغداء . فلم أشأ أن أعارضه لا سيما وأنا أرى البحر هادئاً غير هائج ولا ثائر . فاستأجر ثوباً من ثياب البحر ونزل أمامى . وظل يرتع ويلعب ساعة كان الهواء فى خلالها قد اشتد نوعاً ما فضرب سطح البحر فارتفع موجه وثقل ماؤه . وتطلعت فاذا الولد بعيد عن الشاطئ . ولكنه كان يسبح ليعود إلىّ . فظللت أرقبه لحظة تبينت فى خلالها أنه لم يكن يتقدم كثيراً ، فان الماء والهواء كانا يغالبانه . ووقفت ألوح له بمنديل ويشير هو إلىّ بيده مطمئناً . ولكن طال بنا ذلك . وبدأت أحس فى حركاته أثر الاعياء . فجريت على طول الشاطئ أبحث عن أحد من حراس البحر أستنجده فلم أظفر بأحد . فعدت إلى حيث تركت ابنى فوجدته قد بدأ يستسلم للموج . ولم أكن أحسن السباحة ولم يكن لى عليها جلد ، فوقفت أصيح به وأناديه وأشجعه حتى التفت إلى الانجليزى وزوجته . وشعرا بما فيه ابنى من الخطر . فأسرعا نحوى ونزلا معاً إلى البحر يريدان نجدته . ولكنهما ما كادا يتوسطان المسافة حتى خارت قوى المرأة فعاد بها زوجها بكل مشقة : بعد أن أوشك أن يغرق معها .

وكانت الريح قد بلغت أشدها فى خلال ذلك . واختفى ابنى عن نظرى بين أمواج البحر الصاخبة .

وبدأ الناس يقبلون من هنا وهناك ويقفون على قصتى وقصة ابنى . ولكن معظمهم كانوا يحوقلون وينصرفون . ولم يجرؤ أحد على نزول البحر فى ذلك الوقت لشدة ثورته وعنف أمواجه . . . .

وبعد نحو ثلاث ساعات قذفت الأمواج بالجثة إلى الشاطئ . فاستقبلتها وسط رثاء الحاضرين لحالى ، وجاء رجال البوليس ومنعونى من نقل الجثمان حتى يحضر الطبيب لتوقيع الكشف عليه ، وتقرير سبب الوفاة ثم التصريح بدفنه . فلبثت أنتظر . . . وطال بى الانتظار ، وأخيراً تقدم إلىّ أحد الموجودين ، وأسر فى أذنى قائلاً :

— يا عم ! سوف يطول انتظارك على غير جدوى إن لم تبعث إلى الطبيب بأجرة انتقاله . فاستفسرت منه عن قدر ذلك ، وعمن يصلح لأداء هذه الرسالة فأرشدنى إلى عمدة المكان . . . .

. . . .

[أستأذن القارىء فى قطع الحديث عند هذه النقطة ، فان من كلام الناس ما إن جاز الاستماع إليه . فإن نقله لا يجوز] .

* * *

. . . وأردت أن أقوم بغسل ابنى قبل نقله من مكانه . فجاءنى حامل الماء يساومنى على خمسة قروش للصفيحة الواحدة من الماء العذب . فقلت فى نفسى : سبحان الله ! وهل انتزعت المروءة حتى من نفس هذا « الحمال » البسيط لجرفه التيار مع الآخرين ؟ اذهب يا بنى وجئنى بما أريد من الماء أعطك ما تشاء من النقود !

وانتهيت من عملية الغسل بنفسى — فإنى أعلم أن ثواب ذلك عند الله عظيم — ثم سلمت ثوب البحر لصاحبه — وأقسم لقد طالبنى بأجرته لأن ابنى لم يكن قد دفعها سلفاً — وألبست ابنى ثيابه ، وطلبت سيارة فجاءونى بها ، فركبتها ووضعت ولدى بجوارى . وكان الليل قد أرخى سدوله منذ ساعات . فأعطيت السائق عنوان منزلى فى المدينة وطلبت إليه أن يعود بنا إليه .

ووصلنا حوالى منتصف الليل . فلم أجد أحداً فى المنزل وعلمت من الجيران أن زوجتى ساورها الشك فى أمرنا . فظلت تتنقل منذ أقبل الليل من النافذة إلى الشرفة ثم من الشرفة إلى النافذة حتى نفد صبرها . فأصرت على النزول للبحث عنا ، واستأجرت سيارة لتطوف بها على أقسام

البوليس . فطلبت إلى السائق الذى كنت فى سيارته أن يذهب فى أثرها لنعود بها . وجعلنا ندور خلفها من قسم إلى قسم حتى اهتدينا إليها . وعدنا جميعاً حوالى الساعة الثالثة صباحاً إلى المنزل . ولست أريد أن أذكر لك مقدار ما أخذه منا السائق . فإن كل شىء كان هيناً بجوار ما كنا فيه من الهم والحزن .

ولم تشرق شمس اليوم التالى إلا وقد فرغنا من إعداد كل عدتنا للعودة إلى القاهرة . فبلغناها مع الظهر ، وشرعنا فى إقامة المأتم ، ولم تنقض أيام حتى كانت زوجتى طريحة الفراش من كثرة ما احتملت من ألوان العذاب فى الشهرين الأخيرين . .

وتفرغت لتطبيبها أنا وبناتى حتى استحال علينا أخيراً أن نقوم بما يجب نحوها ، واستدعت حالتها أن تنقل إلى المستوصف فنقلناها . وظلت هناك أربعين يوماً أجريت لها فى أثنائها عمليتان جراحيتان ، وكان يتردد عليها فى المدة الأخيرة طبيب معروف يزورها فى اليوم مرتين ويتقاضى عن كل زيارة جنيهين ، ولم يُجْدِ فى عِلَّتها شىء من كل ذلك ، فأسلمت روحها فى نهاية اليوم الأربعين . . . . . .
وهكذا أصبت فى عام واحد بفقد ولدى وفقد زوجتى .

* * *

وكانت ابنتى مخطوبة قبل أن تتوفى أمها . فجاءنى خطيبها يستنجزنى إتمام العقد ، فاشترطت عليه ألا تنتقل ابنتى من القاهرة إذا كان يريد زواجها ، لأنها هى التى ستتولى فتح بيتى بعد أمها . فرضى بهذا الشرط ، وقبل أن يثبته المأذون فى وثيقة الزواج نفسها . وعقدنا العقد على هذا الأساس . فكان هو يقيم فى منزلى أياماً ثم يعود إلى بلدته التى يمارس فيها تجارته ، وكنت أنا أيضاً أقضى فى القاهرة بضعة أيام فى كل شهر ثم أقضى بقية الشهر فى محل عملى ، وكانت ابنتى الكبرى هى التى تتولى شئون إخوتها وتحافظ على أموالى ومصوغات أمها .

وجاء زوجها إلىّ يوماً يستأذننى فى أن تسافر معه ولو أسبوعاً واحداً . لأن أهله وأهل بلدته يعيرونه بأن زوجته لم تزره فى موطنه ، فلم أر بأساً فى ذلك ، وسافرت ابنتى معه ، ورأيت أن تأخذ معها الحقيبتين (إياهما) لكى تكونا فى مأمن معها ما دام المنزل سيخلو منى ومنها فى بحر هذا الأسبوع ، وانقضت الزيارة على خير حال ، وعادت ابنتى إلى القاهرة ، وعاد زوجها إلى ما كان عليه من الاقامة فى القاهرة حيناً وفى بلدته أحياناً ، إلى أن وضعت زوجته ابنها الأول ، وإلى أن حملت مرة أخرى واقترب ميعاد وضعها . . .

وهنا عاد الزوج يلح علىّ مرة أخرى فى أن تذهب معه زوجته لزيارة بلدته مرة ثانية بدعوى أن الحمل يقتضى الحركة والرياضة وتبديل الهواء . فكاشفته بأنى أخاف أن يكون فى هذه الحركة ما يؤذى الحمل أو الحامل ، ولكنه تغلب على مخاوفى ، وظل يحسن لى هذه الرحلة حتى وافقته عليها أخيراً . وسافر الزوجان — والحقيبتان كالعادة فى حاشية ابنتى — وانقضى الأسبوع ولم يعودا ، ولكن وصلنى من ابنتى خطاب تقول فيه إنها مسرورة من الاقامة فى الريف ، وإنها تود أن تطيل إقامتها فيه أسبوعاً آخر . فلم أر فى ذلك بأساً ، وفى نهاية الأسبوع الثانى جاءنى خطاب آخر تقول لى فيه إن الوضع قد أوشك أن يتم . وإنها تخشى العودة فتفاجأ فى الطريق بما لا تحمد عقباه ، فسلمت أمرى إلى الله ، ورضيت لها أن تضع فى منزل زوجها . وأرسلت إليها الهدايا المناسبة لهذا المقام ، وبعد قليل جاءنى من زوجها خطاب يبشرنى فيه بأن زوجته وضعت غلاماً ثانياً فحمدت الله على نعمته . وبدأ تحمسى لفكرة رجوع ابنتى إلى القاهرة يضعف شيئاً فشيئاً ، إلى أن بلغ مقامها عند زوجها ما يقرب من شهرين ، انقطعت عنى فيهما أخبارها ، فأوفدت أحد أبنائى إليها لزيارتها والاستفسار عن حالها . فجاءنى منه فى اليوم التالى لسفره

ما يفيد أن أخته مريضة منذ زمان ، وأنها دخلت في مرحلة الخطر . فأسرعت إليهـا فإذا هى كما وصفها أخوها فاستدعيت لها طبيباً من القاهرة فوصف لها دواء كثيراً ، وأمر بضرورة وجود ممرضة إلى جوارها لتقوم على خدمتها . فأرسلنا فى إحضار ممرضتين تتكفل إحداهما بخدمة النهار وتقوم الثانية بخدمة الليل ، ولم يفتنى أن أسأل ابنتى لما خلوت إليها عن الحقيبتين . فطمأنتنى عليهما ، وقالت إنهما محفوظتان تحت سريرها الذى تنام عليه . فرفعت طرف الملاءة فرأيتهما واطمأنت نفسى عليهما ، ولبثت معها يومين ، ثم اضطررت للعودة إلى القـاهرة فتركت أخاها معها ورجعت . . .

* * *

وشاءت الأقدار أن تنتزع منى ضحية ثانية . فلم تمض على عودتى أيام قلائل حتى جاءتنى برقية من ابن بنتى فيها أخته . فأسرعت إليهما لأقوم على شئون الجنازة ولأعود بابنتى إلى القاهرة .

وانتهى كل شىء على ما ينبغى ، ثم عدت إلى الريف لآخذ الحقيبتين ، فوجدتهما فى مكانهما ، ولكنى لم أجد فيهما إلا خلخالاً واحداً من الفضة ، وبعض توافه أخرى لم تكن لزوجتى ولا لابنتى ، وزعم الزوج أن هـذا كل ما كان فى الحقيبتين ، وأن زوجته فتحتهما أمامه مراراً . فلم يكن يرى فيهما غير هذه الأشياء ! فتقززت نفسى من عمله ، وساورتنى الشكوك فى أمر مرض ابنتى ، وفى إخفائه عنا أمر هذا المرض فى حينه ، وعدت بذاكرتى إلى يوم كان يلح فى سفرها معه وهو يعلم أنها حامل ، وأنه لم يبق لوضعها إلا أيام . فامتلأت نفسى يقيناً بأنى أمام مؤامرة مدبرة لقتل ابنتى وسلب مالى . فهددت وتوعدت . وكأنما كنت أصيح وحدى فى واد غير آهل ، إذ لم يهتم الرجل فى قليل ولا كثير بشىء من تهديدى ووعيدى . فعدت أستعطف وأستنجد ، وعرضت عليه أن نتقاسم ما فى الحقيبتين ، وأن يكون له الخيار فى أى النصفين يشاء ، ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحمل الرجل على تغيير موقفه منى . فلم أجد أمامى إلا ساحة القضاء أشكو إليهـا بثى ، وأروى فيها قصتى . والله من وراء كل ظالم محيط !

* * *

وسمعت بعد ذلك أقوال بعض الضيوف الذين كانوا يترددون على الزوجة فى القاهرة فتطلعهم على ما فى الحقيبتين ، كما سمعت أقوال الممرضتين اللتين أقامتا معها فى أيامها الأخيرة ، واللتين شهدتا بأن الفقيدة كانت فى ساعات صحوها من المرض تستحضر الحقيبتين فتفتحهما وتعرض عليهما ما تحويان من التحف الذهبية والنفـائس الأثرية ، وسمعت كذلك أقوال بعض التجار الذين كانوا يداينون الزوج فى مبالغ كثيرة ، والذين شهدوا بأنه سدد لهم كل ديونهم عقب وفاة زوجته بقليل .

وانتهى التحقيق على ذلك ، وقررنا إعادة القضية إلى محكمتها .

وسلمت على الشيخ مودعاً . وأنا أحاول تشجيعه على ما حل به من الأرزاء وما صادفه فى أيامه الأخيرة من المحن . فما راعنى منه إلا هدوء شامل يغمر نفسه ، وثبات عجيب يتجلى فى نظراته وقسماته . ثم قوله فى تنهد عميق :

« كل شىء هالك إلا وجهه ! »

ومد الرجل يده مسلماً فشددت عليها ، وسرت معه إلى باب الغرفة وتركته ، وهو يتمتم بينه وبين نفسه : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ! »

* * *

وعدت إلى صاحبى الذى لم أكن أدرى كيف يكون اعتذارى إليه إذا لم يعجبه غدائى بعد كل هذا التأخير . فابتدرنى بقوله :

هنرى برجسون
أو مذهب اللقانة

للأستاذ زكى نجيب محمود

مات هنرى برجسون منذ أيام بعد حياة دامت اثنين وثمانين عاما ، كانت كالصخور الشمّ الرواسى ، تحطمت على جلاميدها الموجة المادية الجارفة التى طغت على أوربا حتى غمرتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وفى هذا الجزء الذى انقضى من القرن العشرين ؛ فقد راع الناس ما رأوا من نتائج العلم فى هذا العصر الحديث ، فأكبروه إكباراً ومجدوه تمجيداً ، وتمسكوا بأهدابه وتعلقوا بأذياله ؛ ولما كان العلم قائماً على العقل الخالص فقد آمنوا بهذا العقل ومكنوا له حتى صار لهم فيصلا فيما يصدقون وما ينكرون ، وويل للناس إذا ألقوا زمامهم إلى العقل وحده ، فهو مُنْتَهٍ بهم إلى شك هادم لا نجاة لهم منه ولا خلاص ، إلا أن يتيح لهم الله من يأخذ بأيديهم مما أحاط بهم من شك قاتم مميت . . . وما أشبه الليلة بالبارحة ! ففى عصر النهضة أنشأ بيكون وديكارت مذهباً عقلياً انتهى بالناس إلى عبادة العقل من دون الله ؛ فأدى بهم ذلك إلى شك كهذا الذى نراه عند هيوم وفولتير ، شك تناول المادة والروح جميعاً ، فكان أن قيض الله للفكر الانسانى « كانت » الذى أخذ على نفسه أن يَنقُد العقل ورده إلى حدوده المشروعة ، حتى لا يطغى على ما ليس يصلح له فيفسده ؛ ولكن ما هى إلا دورة دارها الزمان حتى انتصف القرن التاسع عشر ، فنهض العقل من جديد ونهض فى إثره بالطبع مذهب مادى عماده داروين ، فانتهى تمسك الناس بالعقل وحده إلى موجة طاغية من شك وإلحاد ، فأتاح الله للانسانية فيلسوفنا برجسون يدعو الناس إلى الركون إلى قوة أخرى أصل من العقل وأرسخ ، تلك هى اللقانة .

فبين مذاهب المعرفة ثلاثةٌ لا تثق فى قدرة العقل على الوصول إلى حقيقة الوجود ، وهى مذاهب اللاأدرية ،

— من كان يظن أن بين الناس من خصه الله بكل هذا القدر من الغفلة وبلادة الحس ! . الرجل يغرق ولده بين سمعه وبصره فلا يلقى بنفسه فى الماء . ويبقى يتفاوض فى أسعار الأشياء حتى فى ثمن الماء الذى سيغسله به . وتموت زوجته فلا يذكر إلا ما تقاضاه الطبيب وما دفعه للمستوصف ، ويهبه الله مالاً موفوراً فلا يعرف كيف ينفقه ، ولا كيف يحتفظ به ، ويتركه لابنة غريرة ، وصهر نصاب فيفجعانه فيه ، ويضيعانه عليه . ثم لا تنشق مرارته ، ولا تختلج جوارحه ؟ ! اللهم إن هذا صنم ! .

فأخذته من يده ، وخرجنا من الغرفة وأنا أقول له :

— هون عليك ياصاحبى ! إن فى هذه الدنيا شيئاً لا تعرفه أنت ولا أمثالك . فتعيشون وسط نعيم الدنيا منغصين ، وإذا أصابكم فيها سوء اختلجت جوارحكم وانشقت مرائركم . أما مثل شيخنا فإن الله أنعم عليه بهذا الشىء قبل أن ينعم عليه بالمال والبنين فهان عليه كل شىء حتى المال والبنون ... ذلك الشىء ياصاحبى الذى ينقصك أنت ، ولم ينقص الشيخ هو « الايمان الصادق » .

ادع الله لى ولك أن يثبت قلوبنا على الايمان به ، لنعيش فيمن أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين .

ع . ج

والذرائع ، والثقافة ؛ والفرق بينها هو أن اللاأدرية تيأس من بلوغ الحق فتقف مكتوفة اليدين لا تبحث لنفسها عن رأى فى الوجود ، ومذهب الذرائع عنده أن لا مناص للإنسان من رأى فى الكون يعتنقه ، وما دام الحق المطلق مستحيلا عليه ، فخير له أن يختار لنفسه رأيا ينفعه ويعينه فى الحياة اليومية العملية . وأما مذهب الثقافة فيتخذ لنفسه موقفاً آخر ، فعنده أن حقيقة الوجود ليست مستعصية إلا على العقل ، وفى مستطاع الانسان أن يكشف عنها الستر بقوة أخرى طبعها الله فى فطرته ، ألا وهى الوجدان .

إن نفس الانسان مثلثة الجوانب : إدراك لحقيقة ما ، ووجدان يثور فى النفس نتيجة لما أدركت ، ثم نزوع إلى عمل يتفق وما شعرت من وجدان ؛ فالانسان يدرك بعقله شيئاً ، ثم يشعر نحوه بوجدان معين يدفعه إليه أو يمنعه عنه ، ثم يتصرف بناءً على ما شعر ؛ ويرى مذهب الثقافة أن الوجدان هو الجانب الأصيل الذى تفرع عنه الجانبان الآخران على مر الزمان : وهما العقل الذى يدرك ، والارادة التى تعمل .

ونستطيع أن نتبين موضع الوجدان من العقل إذا قارنا بين لغة الانسان ولغة الحيوان ؛ فلأفراد الحيوان لغةٌ هى صنوف من الأصوات والاشارات تستخدمها للتفاهم ، ولقد تبلغ هذه الاشارات الصوتية درجة بعيدة من الدقة فى أنواع الحيوان الجمعى ، فهذه صيحةٌ تعنى دنوّ الخطر ، وتلك صيحة معناها طلب القوت ، وهكذا ترى لكل مقطع صوتى يصيح به الحيوان معنى كاملا ، فيكون بمثابة الجملة التامة من لغة الانسان ؛ ذلك أن لغة الانسان قد أفردت صوتاً — أى كلمة — لكل جزء من المعنى المطلوب ، وليست تدل الكلمة الواحدة فى معظم الحالات على شىء إلا إذا تعاونت مع طائفة من الكلمات ، فيتكون منها جميعاً معنى واحد ؛ لا بل إن هذا المعنى الواحد الذى يتكون — إن كان جملة خبرية — فهو لا يدل السامع على شىء مما يجب أن يعمله إزاء الموقف المُخبَر عنه ؛ فاذا قلت لصاحبك : إن بيت الجار قد شبّت فيه النار ، فقد أخبرته بهذه الكلمات عن حادث وقع ، ولكنك لم تطلب إليه أن ينجز عملا ، ولذا تنشأ فى نفوس السامعين صور كثيرة لما ينبغى أن يُعْمَل ، ومن هنا ينشأ الاختلاف بين الأفراد فى الحكم ؛ والأرجح أنك إذا صحت فى الجالسين : « النار ! » كان ذلك الصوت الواحد أكمل تعبيراً من الجملة الكاملة ، لأنه يوحى بعمل يلائم الظرف الطارئ .

فالفرق بين الحيوان والانسان فى اللغة ، هو أن الأول لا يعرف الجملة الخبرية ، وكل صوت فى لغته يحمل إدراكاً وعملاً ملائماً لذلك الادراك فى وقت واحد ؛ فكأن اللغة عند الحيوان أداة توجيه للغرائز التى من شأنها أن تصون الحياة وتحفظ البقاء ، وبعبارة أخرى فان الكلمة عند الحيوان — أو الصيحة — فيها إعلانٌ عما حدث فى البيئة وأمر بما يجب أن يُتّخذ إزاءه فى آن واحد ؛ ومعنى ذلك أن لغة الحيوان تعبر عن الوجدان وما يتضمن من شعبتيه : إدراك وعمل ، أى أن الوجدان فى الحيوان يظهر فى صورته الأصيلة ، لا تفرقة بين أجزائه : فهو وجدان وهو عقل وهو إرادة فى لحظة واحدة . وأما الانسان فتدل لغته على أن وحدة الوجدان فيه قد تفككت أواصرها ، فأصبح العقل شعبةً مستقلة تدرك وتعى ، والارادة شعبة أخرى ، وهو يحكم على البيئة بعقله لا بوجدانه ، مع أن الأصل فى الفطرة هو أن الوجدان مصدر تنبثق منه المعرفة ، ويستحيل أن يشعر كائن حى بوجدان لا يتضمن نوعاً من المعرفة ؛ فمحال — مثلاً — أن يثور فى الحيوان وجدان الخوف إلا إن أدرك

مصدراً للخوف ؛ فأيما نشأ فى النفس وجدان نشأ معه بالضرورة إدراك .

هذا الوجدان الذى هو مصدر المعرفة ، يشترك فيه الانسان والحيوان ، بل إن الحيوان كثيراً ما يفوق الانسان فى إدراك البيئة بوجدانه الغريزى ، فيعلم من أين يأتى الخطر ومن أين يظفر بالقوت . . . فهل يمكن لمثل هذا الوجدان الذى يعين الحيوان على فهم ما يحيط به فهما يساعده على حفظ بقائه ، أن يهذب فى الانسان بحيث يصبح أداة صالحة لتحصيل المعرفة ؟ ولسنا نريد أن يستبدل الانسان الوجدان بالعقل فيلغى هذا العقل إلغاءً ، فليحتفظ بعقله ليتخذ منه وسيلة للتحليل والاختراع ، على أن يضيف إليه هذه القوة الأصيلة فى النفس التى من شأنها أن تفهم الوجود بصفة عامة ، فيستعين بها على معرفة ما استغلق على العقل أن يعرفه من أسرار الوجود . . . ذلك ما يدعو إليه مذهب اللقانة .

ولئن كان هذا المذهب قديماً فى تاريخ الفكر ، إلا أنه لم يملأ الأسماع ويستوقف الأنظار إلا بفضل هذا الفيلسوف الفرنسى العظيم الذى نحته الأنباء منذ حين ، فقد حفزه الطموح حين كان يطلب العلم فى مدرسة المعلمين العليا بباريس أن يظفر بفهم دقيق للأساس الذى يقوم عليه علم الطبيعة ، وسرعان ما اهتدى إلى فكرة هى من فلسفته قطب الرحى ، إذ أدرك أن « الزمان » الذى يفهمه علماء الطبيعة حين يصوغون حقائق علمهم ليس بصور الزمان الحقيق كما هو فى الواقع ، لأنهم يرون الكون بعقولهم ، مع أن « الزمان » بمعناه الحقيق فوق مقدور العقل أن يدركه ؛ وإنما وسيلة معرفته هى إدراكنا لمجرى الخواطر فى بواطن نفوسنا إدراكاً مباشراً ، وهذا الإدراك المباشر هو ما نسميه باللقانة .

وما قيمة هذه الفكرة حتى يجوز لنا أن نقول إنها من فلسفته فى الصميم واللباب ؟ قيمتها الكبرى هى أننا لو سلطنا العقل وحده على الكون ليفهمه أو على نفس الانسان ليدركها ، فإنه لن يدرك من ذلك ولا من هذه إلا صوراً متعاقبة بعضها يجىء فى إثر بعض ، إنه سيدرك صورة الكون فى هذه اللحظة ، ثم صورته فى اللحظة التى تليها ، ثم صورة ثالثة فى التى تليها ، وهكذا ؛ وهو يظن بعد هذا أن حقيقة الوجود تتألف من مجموع هذه الصور ، وهو فى ذلك مخطىء أفحش الخطأ ، إذ أفلت منه جزء من الحقيقة فشوه إدراكه كله ، فقد فاته أن هذه الأجزاء المفككة التى أدركها لا تكون حقيقة الوجود إلا إن ارتبطت فى سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، هى ما نسميه بالزمان . إن العقل إذا أراد أن يفهم نفس الانسان جزأتها إلى أسباب ومسببات فهو لا محالة فاشل ، لأن الحالات النفسية لا يتبع بعضها بعضاً كما يتبع السببُ سببه ، بل إنها تمتد كلها مع الزمان ، فتحمل ماضيها معها فى حاضرها ، ثم هى تضيف هذا الحاضر إلى الماضى ، على أنه إضافة لما سبق لا معلول الناشىء عنه ، كما تدحرج كرة على الثلج ، فتظل تحمل ثلجاً جديداً كلما أمعنت فى السير ؛ فالنفس تكبر بالحادثات كلما امتد بقاؤها دون أن يتساقط منها ما علق بها فى الزمان الماضى ، فليست حياة الذات إذاً سلسلة من حالات متتابعات ، بل هى شريط موصول لا تفكك بين أجزائه ؛ ولما كان العقل من شأنه أن يرى الحالات المتقطعة ، كلاً على حدة ، وليس فى مكنته أن يرى الحقيقة المتصلة ، فهو لا يصلح أداة لمعرفة الذات ، ولا لمعرفة الزمان ، لأن كليهما لا يمكن تجزئته إلى حلقات ؛ فعبثاً تحاول أن تفهم الكائنات الحية والكائنات المتغيرة إلا إن رَكَنْتَ فى ذلك إلى اللقانة دون العقل ؛ وإلا فحدثنى كيف يمكن أن تفهم الشجرة مثلا بالعقل وحده ، سيتناول العقل بفروعها وأوراقها وجذورها ، ولكن هل

تتكون الشجرة من هذه الأشياء مجتمعة وكفى ؟ كلا . إن الشجرة هي هذه الأجزاء كلها مضافاً إليها عنصر آخر ، هو الحياة ، هو الاستمرار الزمني لهذه الأجزاء في وحدة ، فأين ترى ذلك والعين لا تبصره ، والأيدي لا تمسه ؟ تراه بالبصيرة لا بالبصر ، وتلك هي اللقانة التي يريدنا برجسون أن نفهم بها حقيقة الوجود ، لأن الوجود في مجموعه كائن واحد متصل ، له مركز ينبض بالحياة ، ويبعث الحياة في أطرافه جميعاً . ولا تقل : أين هو فلست أراه ، لأنك إن قلت ذلك أخطأت كما يخطئ الآخذون بالمذهب العقلي ، فهو موجود ولكنك تدركه ببداهة الفطرة ، ولا تراه بالحواس والعقل . . . كلا ، لا تركن إلى العقل إن أردت فهم الوجود وما في الوجود من الأحياء والأشياء المتغيرة ؛ فعقلك يصور لك الأشياء ساكنة ميتة ، وما هي بميتة ولا ساكنة ، بل هي تنبض بالحياة والحركة . سائل عقلك : ما معنى « شجرة » ؟ يجبك جواباً واحداً لا يتغير ، كأنما الشجرة شيء جامد على صورة واحدة ، مع أنها تنمو وتذبل وتزهر وتذوى ؛ أفليس معنى ذلك أن الصورة العقلية للشجرة — وهي صورة ثابتة إلى آخر الدهر — لا تصور الحق تصويراً صحيحاً ؟

لا بد إذاً للإنسان من القوتين معاً ، حتى يكون علمه من الوجود علماً كاملاً : العقل ليحلل ، واللقانة لتدرك حقيقة الشيء في مجموعه ؛ بالعقل نعرف من الكون مادته ، وباللقانة نعرف منه ما هو حياة وروح . باللقانة ندرك وجود الشيء ، وبالعقل نحدد م يتكون . باللقانة ندرك الشيء في ذاته ولذاته ، وبالعقل ندركه في علاقاته التي تربطه بسائر الأشياء . العقل قادر على فهم الحقائق الساكنة فيضع لها القوانين الثابتة . أما الحياة — وهي دائمة الحركة دائمة التحول — فليس في مقدور العقل أن يدرك كنهها ، لأنها تسير في الزمان سيراً دائماً دائباً ، وتضيف إلى نفسها في كل لحظة جزءاً جديداً ، لأن كل لحظة زمنية فيها الماضي كله مضافاً إليه هذه اللحظة الجديدة ؛ فإن أراد العقل أن يفهم الحياة أفلتت منه هذه الاضافات التي تستجد في كل لحظة ؛ ولو كان العقل قادراً على فهم الحقيقة كلها لكان معنى ذلك أن الحقيقة بدأت كاملة منذ الأزل ؛ وليس الأمر كذلك في الحياة ، لأنها تزداد نضجاً وترتفع تقدما على مر الزمان ، وهيهات للعقل أن يفهم حياة تنمو وتترقى .

أفيكون معنى هذا أن الحياة من الحقائق المستغلقة على إدراك الانسان ، فلا ينبغي أن ينفق في فهمها مجهوداً ولا نصباً ؟ هل كتب على الانسان ألا يفهم معنى الحياة في صميمها ما دام العقل عاجزاً عن فهمها ؟ هل كتب عليه ألا يرى الحياة الكونية إلا في صورها القائمة أمام الحواس ، فلا يكشف عن سرها المكنون الذي لا يفتأ يدفعها إلى اتخاذ صور جديدة ؟ ألا يتاح للانسان أن يدخل إلى الحياة في محرابها ليراها على حقيقتها ؟ . . . لو كان العقل هو أداة المعرفة ولا أداة سواه ، فإن سر الحياة سيظل خافياً عن البشر إلى أبد الآبدين ، ولكن الحياة التي ترفض أن تكشف عن سرها إلى ذكاء العقل ، تسفر عن وجهها لملكة أخرى من ملكات الانسان ، وهي ملكة خافتة ضئيلة ، وفي مستطاع الانسان أن يتعهدها بالنمو كما يتعهد العقل ويرعاه ، وتلك هي قوة اللقانة التي تتمم العقل في معرفة الوجود ؛ والانسانية الكاملة هي التي يتطور فيها الذكاء واللقانة معاً ، لأن الذكاء إذ يتقدم يصبح قادراً على فهم البيئة المادية فيوضحها لنا توضيحاً جلياً بحيث تهيء أنفسنا للعيش فيها عيشة راضية ، واللقانة إذ تترقى تلقى ضوءاً على حياة الانسان وحريته وأصله ومصيره .

زكي نجيب محمود

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

خرج أذينة أمير تدمر كعادته من مدينته العظيمة الحصينة لكى يصيد السباع فى الصحراء . وكانت معه زوجته الباسلة الجميلة زنوبيا ، حفيدة بيت الملك فى تدمر ، والتى تجرى فى عروقها دماء من كليوبطره ملكة مصر . وأصابه أسد فى أثناء الصيد بجراح اضطرته إلى العودة قبل أن ينال أربه من الصيد ؛ ولكنه خشى إن هو اعتكف فى قصره أن تذهب الظنون مذاهبها ، فتضطرب أحوال المدينة ، ويختل نظامها . فخرج فى موكبه وهو جريح إلى معبد الشمس لشكر الآلهة على حمايتها له .

وقضى الليلة التالية فى ألم ، وقامت زنوبيا على تمريضه بقلق وعطف . ثم نام قبيل الصباح ، وذهبت زنوبيا لالتماس الراحة . ولكن أفكارها لم تدع لها إلى النوم سبيلا . فقضت وقتها مضطربة بين القراءة حينا ، وبين التحدث إلى وصيفتها المسيحية (ليس) حينا آخر . وأظهرت فى حديثها ما كان يملأ قلبها من الآمال العظيمة فى عظمة تدمر ، كما أظهرت أنها لا تأبى أن تكون مسيحية لو ظهرت لها آية تدلها على أن ذلك الدين يفيدها فى حماية زوجها ، وفى تحقيق عظمة دولتها .

كانت ليس فتاة بيضاء طويلة واسعة العينين سوداء الحاجبين ، وضاحة الجبين ، يبدو على وجهها خفر ينم عن وداعة . وكان شعرها الأسود الطويل مسدلا وراء ظهرها فى غدائر كثيفة لامعة قد زينته بقطع من الذهب فى رباط من كتان مصر الرقيق . وكان جسمها فى كمال خلقته كأنه دمية مثال بارع ، فإذا سارت مشت خفيفة فى خطى هادئة متسقة ، وإذا تكلمت كان صوتها مطمئناً ، وكان حديثها مثلما يتغنى الطير ؛ وكانت أقرب الوصيفات إلى زنوبيا وأحبهن إليها ، إذ لم تكن وصيفة من بين الخدم أو العبيد ، بل كانت ناشئة فى بيت الأمير ، أتى بها أذينة صبية من أنطاكية بعد مقتل أبيها ، وكان له صديقاً . كان أبوها عربياً مسيحياً يخدم فى جيش قيصر الروم أميراً على كتيبة عربية ، ثم قتل فى بعض مواقع الحرب المتصلة ، فترك ابنته لا عائل لها ، وكانت أمها ماتت منذ ولدتها ، فحملها أذينة معه إلى تدمر ، وجعلها بينه وبين امرأته زنوبيا فى مكان الابنة الكريمة ، ولم يحاول أن يحملها على دين غير دينها ، براً بصداقة أبيها ، فنشأت فى بيته مسيحية لا تجد حولها إلا العطف والبر ، ولا تجد فى نفسها إلا الصفاء والسلام والشكر . واتخذتها الأميرة بعد أن شبت وصيفة لها لكى تصقلها بمعاشرة علية أهل المدينة من نساء الأمراء ، ولكى تتم لها أدبها بمداومة مجالستها ومخالطتها . وكانت تتيح لها أن تذهب فى أيام الآحاد وأعياد النصارى إلى الكنيسة الصغيرة التى كان المسيحيون يجتمعون فيها لكى تؤدى معهم الصلاة ؛ ولكنها كانت تمنعها من شهود غير ذلك من مجامع أصحاب هذا الدين الجديد ، خوفاً عليها مما كانت تسمعه عنهم من تهم وظنون .

وعرفت الفتاة فى اختلافها إلى الكنيسة فتى مسيحياً كان فى خدمة الأمير ، وأنست إليه منذ كان يصلى فى كل أحد إلى جانبها ، حتى إذا ما انتهت الصلاة عاد معها إلى القصر يشيعها . ثم يتركها بعد أن يودعها بدعوة مباركة ، وتودعه بدعوة مثلها مباركة .

كان ذلك الفتى حسان بن عدى ، وهو فارس باسل اتصل بجيش أذينة منذ سنوات ، جاءه هارباً من جيش الروم فى دمشق ، يريد أن ينجو بنفسه من الاضطهاد الجارف الذى أحدثه قيصر الروم (فاليريان) فى آخر سنوات

حكه . فلما لجأ إلى أذينة وجد عنده الأمن والاطمئنان فقد كان ذلك الأمير العربي لا يعبأ على أي دين كان صاحبه مادام يراه عربياً باسلاً . وما هو إلا قليل حتى صار حسان من أحب فرسانه إليه ، وأقربهم إلى ثقته .

انتهت لبس من صلاتها في مخدع الأمير أذينة وهو نائم في ذلك الصباح عقب ليلته المسهدة ، وجلست حيناً تناجي خواطرها وآمالها ، وتنتظر أن يصحو الأمير من نومه فتسرع إلى سيدتها لتوقظها كما أمرتها ، وعند ذلك تذكرت أن ذلك اليوم كان يوم أحد ، وأنها لم تذهب إلى الكنيسة كعادتها إذ شغلتها حوادث القصر وأحاديث الأميرة ، وما أثارته تلك الأحاديث فيها من هموم وأماني .

وأحست بخوف شديد أن تمضي ذلك اليوم بغير أن تذهب إلى صلاتها ، فاقتربت من سرير الأمير فوجدته لا يزال نائماً ، فخرجت مسرعة تريد أن تدرك الصلاة في الكنيسة قبل أن يفوت وقتها ، مؤملة أن تعود إلى القصر قبل أن يصحو سيدها من نومه . وكانت وهي في طريقها مسرعة جائشة النفس ، ثائرة الأحزان ، حتى إذا ما بلغت الكنيسة وجدت الجمع يصلي فأسرعت إلى موضعها ، واشتركت في ترتيل الدعاء ، وكان قلبها متجهاً إلى الله تدعوه لكي يبرئ أذينة كما أبرأ على الأرض المرضى ، وكما أعاد الحياة إلى الأموات .

ولما فرغت من الصلاة قامت مطرقة ، وجعلت تجفف عينيها ، وبادرت تريد السير ، فأسرع حسان نحوها في لهفة لم يملك نفسه من إظهارها ، وسار إلى جانبها صامتاً والقلق باد في عينيه العاطفتين .

كان حسان قد لحظ في أول الصلاة غيابها ، وأحس في قلبه قلقاً وحزناً لم يفرغ إلى مساءلة نفسه عن كنههما ؛ فقد شغلته الصلاة عن مثل هذه المساءلة إلى حين . ثم رآها مقبلة تخفق قلبه خفقة وتدفق إليه البشر ، ولكنه جمع نفسه وصرفها إلى ما هو فيه من العبادة ؛ ثم سمع صوتها المتهدج في الصلاة ، فلم يستطع أن يمنع من صدره هزة من القلق والإشفاق ، ورآها بعد الصلاة تجفف عينيها فلم يملك أن يقاوم وخزة الألم التي اعترته .

عجب حسان من أمر نفسه ، وسار إلى جانبها يفكر في ذلك الشعور الذي يملأ جوانب نفسه . ذلك شعور لم يفطن إليه من قبل ، ولم يحسب أنه يجده لفتاة مثلها غريبة عنه لم يعرفها إلا في سويعات عابرة من الحياة في أوقات العبادة .

لقد كان في الحق يترقب أيام الآحاد لكي يصل إلى جانبها ، وكان يجد طرباً يسري في نفسه كلما سار معها يشيعها إلى القصر ، وكثيراً ما كان يذكرها وهي غائبة فيحس حنيناً إليها ، ويجلس ساعة أو بعض ساعة لكي يتأمل صورتها ويستعيد القليل الذي عرفه من خصالها . لقد كانت لا تتكبر على الفقراء الذين يصلون في تلك الكنيسة المتواضعة ، وكثيراً ما كانت ترسل إليهم الهدايا أو تساعد المعوز منهم أو تعود المريض . كانت تفعل ذلك وهي الناشئة في قصر الامارة التي لا تعرف إلا حياة النعيم والدعة ، وما ذلك كله إلا لأنها صادقة في حب المسيح .

كان حسان يعرف نفسه مسيحياً تقياً ، ولكنه لم يشعر بحب المسيح بمثل تلك الحرارة التي أصبحت تدفئ صدره إلا منذ عرفها .

كانت هذه الأفكار تضطرب في صدر حسان ، وهو يسير إلى جانب الفتاة ، حتى ظهر اضطراب نفسه في حركة أنفاسه وتقلب نظراته ، واعتراه ارتباك وتردد في إشاراته وحركاته ، وجعل يسائل نفسه : أمن حقه أن يسألها عن سبب حزنها وعما أثار الدمع في عينيها ؟ أم أن الحاجز الذي يحجب بينهما من تفاوت الأقدار يأمره بأن يبقى على ما اعتاده معها من ملازمة البعد والتحفظ ؟ وكأن لبس قد أحست بما يدور في نفسه من الخواطر فقطعت الصمت قائلة له :

— ألم تصلّ من أجل الأمير يا حسان ؟

فقال حسان مسرعاً :

— عفواً يا سيدتي . لم يخطر لي ذلك في الصلاة .

ونظر إليها كأنه يعتذر .

فقالت له في لهجة لوم رفيق :

— لعلك لم تصلّ من أجله لأنه لا يعرف المسيح ؟

فتردد حسان لحظة ثم قال بصوت ضعيف :

— هو ما تقولين يا سيدتي .

فنظرت نحوه بعينيها الواسعتين كأنما تستغفر له من خطيئته ثم قالت :

— صل من أجله يا حسان . إنه يحسن إليك وإلي .

فأطرق حسان وقد تمثل صدق قول الفتاة ، وتذكر ما لقيه من بر أذينة بعد عسف الروم واضطهادهم ، ثم قال وهو ناظر إليها كالمستعطف :

— سأكفر عن خطيئتي يا سيدتي . وحسبه دعاؤك . فأنت ...

ثم عاوده ارتباكه وتردده، فسكت ومضى في السير إلى جانبها صامتاً حتى بلغا القصر .

عاد حسان بعد أن ودع لبس ، وسار مطرقاً يفكر في ألفاظه التي فاه بها ويزنها ويحاسب نفسه عليها .

ودخلت لبس مسرعة لترى الأمير خوف أن يكون قد صحا أثناء غيابها ، فلما بلغت المخدع لقيت سيدتها عند الباب ، وكان وجهها متهللا تعلوه حمرة ، وتلمع عيناها ببريق السعادة . ولم تنتظر زنوبيا حتى تتلقى تحية الفتاة أو اعتذارها ، ففتحت لها ذراعيها وضمتها إلى صدرها وقبلتها بين عينيها وقالت بصوتها العذب :

— أبشري يا لبس لقد أصبح الأمير معافى . إنه اليوم يطلب الطعام ويتحدث ويضحك . أبشري يا لبس .

فضحكت لبس ضحكاً وديعة أودعت فيها ما تخالجها من سرور وقالت :

— الشكر لله يا سيدتي ، لقد تقبل دعائي .

فأخذت زنوبيا بيدها ودخلت بها مسرعة نحو حجر القصر وهي تقول :

— إذاً كنت تصلين له ؟

فقالت لبس :

— صليت له وتضرعت المسيح . إنه يقبل الدعاء .

فضحكت زنوبيا وقالت :

— لسرعان ما استجاب لك المسيح ! إنه يحبك يا لبس

فقالت لبس متحمسة :

— إنه يجيب الدعوة الخالصة يا مولاتي .

فضحكت زنوبيا مرة أخرى وقالت :

— سأجعل له تمثالا هنا لكي تصلي عنده يا لبس . لابد من ذلك .

وعند ذلك بلغت باب مخدعها فتغيرت الحديث فجأة وقالت :

— هات لي أحسن ثيابي يا لبس . واحملي إلي حليّ .

فذهبت لبس مسرعة تلبي أمرها ، وجعلت زنوبيا تخلع ثيابها ، وقالت في أثناء ذلك :

— ما كنت أحسب المسيح يقدر على شيء يا لبس ، هكذا كان يقول أعداؤكم عنه ، ولكنه شفى لي أذينة . أليس هكذا تقولين يا لبس ؟

فقالت لبس :

— أجل لقد استجاب دعائي .

قالت ذلك وهي منهمكة عند الخزائن تختار من الملابس ما تطمئن إلى أنه يروق سيدتها الأنيقة ، ومن الحلي ما تظنه يوائم تلك الملابس ويبرز محاسنها ، ثم عادت تعين سيدتها على التزين وهي تنظر إلى عينيها لترى هل لقي اختيارها عندها قبولا .

ونظرت زنوبيا إليها وهي مقبلة على تسوية الحلة عليها فقالت لها وهي باسمة :

— لقد ألهانى مرض الأمير عن الافضاء إليك بخبر يسرك يا ليس .

فنظرت إليها ليس ولا تزال دائبة على تسويتها :

— ليس بعد سروري بشفاء مولاى الأمير شيء يزيدني سروراً .

فاستمرت على ابتسامتها وقالت :

— هكذا تقول الفتاة دائماً وهي تخادع نفسها . أنت أهل للخير كله يا ليس . لقد أتى إلى الأمير قبل خروجه للصيد خاطب لك من أبناء الأمراء .

فأمسكت ليس عن خدمتها ، ونظرت إلى الأميرة في دهشة يشوبها الذعر وقالت :

— خاطب لي ؟ .

فقالت زنوبيا وقد فارقتها الابتسامة :

— نعم . ولكني لم أجد فرصة لكي أحمل إليك النبأ . فكيف كنت أذكر ذلك وقد لقي الأمير مالقي . أوه ! ما كان أظلم تلك الليلة !

وأغمضت عينيها كأنها تريد أن تبعد من ذهنها صورة كريهة . ثم استأنفت بعد قليل قائلة :

— يسرنا أن نجد لك زوجاً من الأكفاء . إنه كفء كريم وفتى جميل .

فترددت ليس لحظة ، ثم هزت رأسها وقالت بغير اهتمام :

— مولاتي ! دعي ذكر هذا .

فقالت زنوبيا :

— إنك لم تسمعي بعدُ كل ما أحب أن أقوله لك . أنا لم أقل لك اسم الرجل . إنه عمرو بن أسيد .

ثم نظرت إليها وقالت باسمة :

— ولا شك أنك الآن تحبين مواصلة الحديث ؟ فهو ابن سيد من سادات تسليح .

وكانت ليس أثناء هذا مرتبكة حتى لم تستطع أن تفرغ كعادتها لإتقان خدمتها ، وأخذ صدرها يضطرب ، فنظرت إليها الأميرة وتركت ملابسها وقالت لها بصوت فيه شيء من الغضب :

— مالك لا تتكلمين يا ليس ؟

فزاد اضطراب ليس وأمسكت عن عملها وأطرقت قائلة :

— ليس عندي شيء أقوله يا مولاتي .

فقالت زنوبيا وهي تنظر إليها بدهشة :

— أرى النبأ لم يسرك يا ليس . وهذا أمر عجيب ! لقد حسبتك تطربين وتهنئين نفسك بهذه السعادة .

فلم تستطع ليس أن تملك نفسها ، وأطلقت منها دموعها وقالت في ضراعة :

— مولاتي ! مولاتي ! ترفقي بي كما كنت ترفقين أبداً .

فلانت الأميرة ورقت لها وقالت بصوت عاطف :

— فكري يا ليس ، ولا تطيعي خرافات الحمق . أظنك لا تريدين الزواج من غير مسيحي ، هذه خرافة . لقد رحب الأمير بضيفه أسيد عند ما جاءه يخطبك لابنه . لأنه لا يختار لك إلا كفأً كريماً .

ثم وضعت يدها على رأس الفتاة الباكية ، وجعلت تمر بها عليه برفق وهي تقول كأنها تحدث نفسها :

— حقاً لقد سمعت أن في المسيحيين كثيراً ممن لم يكن على دينهم ، وهم يرغبون في أشباههم في الدين وإن كانوا غيرَ أكفاء لهم ، ولكن هذا حمق يا بنيتي . هذا حمق وخرافة . فلن يمنعك شيء من عبادة المسيح إذا شئت في بيت عمرو كما تعبدينه هنا في بيت أذينة .

ولكن الفتاة بقيت جاثية إلى جوارها وهي تبكي ، فعاد الغضب إلى زنوبيا وقالت :

— مالك لا تجيبين يا ليس ، إن في الأمر لسراً .

إن فى الأمر لسراً . قولى . تكلمى .

فهزت الفتاة رأسها وقالت :

— لا أريد زواجاً . لا أريد زواجاً . هذا كل شىء .

فسكتت زنوبيا لحظة ، ولمعت عينها لمعة خاطفة ، كأنما مر بخاطرها رأى سريع ، ثم تبسمت وأخذت بيد الفتاة وجذبتها إليها وقالت لها بصوت عاطف :

— جفنى هذه الدموع وتكلمى . كلمى صديقتك زنوبيا كما كانت صديقتك تكلمك ، تكلمى يا لبنى . لقد طالما حدثتك عن نفسى فاذا أنت تحدثت إلى تحدثت إلى قلب عاطف أمين . قولى يا لبنى هل ثمّ فتى ؟ . . .

ثم وضعت يدها على رأسها ، وجعلت تمسح على شعرها الناعم وهى تنظر إلى عينيها . فنظرت الفتاة إليها لحظة وهى مترددة ، ثم أطرقت وقد اشتدت حمرة وجهها الجميل وجعلت تبكى صامتة .

فقالت زنوبيا بصوت هادئ :

— ومن هو يا لبنى ؟ أهو كفء لك ؟

فرفعت الفتاة رأسها ، وكأنها قد اعتزمت أمراً جديداً ، وتغيرت هيئتها فهدأت بعد اضطرابها ، وبرقت عيناها الواسعتان ، وقد جفت منهما الدموع ، وقالت :

— كنت أحب يا مولاتى أن تكونى بى أكثر رحمة فلا تحمليني على قول أرى فيه إذلالاً لنفسى . وما دمت قد أبيت إلا أن تعرفى ما عندى ، فاعلمى أن قلبى منصرف عن الزواج . ولست أعرف أحداً من الفتيان ، اللهم إلا فتى عرفته فى الصلاة ، لم أكلمه فى غير الصلاة ، ولم يكلمنى إلا فى مواساة الضعفاء ، ولم نتحدث يوماً إلا عن المسيح والشهداء ، وليس فى نفسى نحوه إلا ما أحسه من مشاركته إياى فى حب المسيح .

فقاطعتها زنوبيا فى شىء من الغضب المكتوم وقالت :

— وكيف تريته ؟ .

فأسرعت الفتاة قائلة :

— أراه أفضل الناس وأكرمهم وأشجعهم وأقدسهم .

ثم نظرت إليها نظرة ثابتة بعينيها الواسعتين وهما لا تطرفان .

فأطرقت زنوبيا أمام نظرة الفتاة ، وكانت أول مرة تغضى فيها زنوبيا أمام نظرة إنسان . وقالت كأنها تحدث نفسها :

— أنت لا تعرفين ما عندك يا بنية ولكنى أعرفه .

ثم تنفست نفساً عميقاً ، ووقفت حيناً صامتة ، ثم تذكرت أنها كانت تريد إتمام زينتها للذهاب إلى أذينة ، فقالت فى سرعة وهى باسمة :

— على يا بنيتى الآن لاعام لبسى . لقد ألهيتنى عن نفسى وأنا أكاد أكون عارية . على إلى هذا الثوب فأحسنى تسويته على . أما هذا الحديث فانه أحب إلى فى وقت آخر فى سكون الليل إذا البدر بدا .

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

احمد أمين

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	فى مصر والسودان
لستة أشهر	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١ صاغ

من الأدب الإغريقي :

أزهار من أكاليل [١] إغريقيه

ترجمة الأستاذ محمد محمود السلاموني المعيد بكلية الآداب

محاضرة ألقاها الأستاذ W. G. Waddell أستاذ الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في جماعة الدراسات اللاتينية واليونانية

ما أشبه قارئ الأدب الاغريقي بسائح يجوب أرضاً تتخللها التلال والوهاد ، وتكتنفها الأحراش والسهول الخصبة — أرضاً أشبه ببلاد الاغريق مهد هذا الأدب — فهو حين يقرأ « آيسخيلوس Aeschylus [٢] » و « بنداروس Pindaros [٣] » ، إنما يقف على قمة الجبل ، على ذروة كتلك التي بسط عليها أيسخيلوس مشهد مسرحيته « بروميثيوس في الأغلال » ، حيث مدى البصر بعيد والهواء ضنين — أو قد يدخل هذا السائح ، هذا القارئ ، جنات « هومر Homerus » العبقري الخالد ويستمتع بالهواء نقياً عليلا صافياً ، كما استطاع « كيتس Keats » بفضل ملكته الشعرية أن يستمتع به ، عند ما أرهف السمع إلى صوت « شابمان [٤] Chapman » القوى الواضح النبرات ، فاذا بلغ به المطاف مملكة أفلاطون الذهبية اجتاز أحراش

(١) يطلق هذا الاسم على مختارات من الشعر الاغريقي تخيرها الشاعر « ميلياجر » وجمعها في مؤلف سماه الاكاليل وقد أتى من بعده آخرون ساروا على نهجه فأتموا رسالته . ويسمى الاغريق القدماء هذا الشعر « Epigramma » . وهو عبارة عن قطعة من الشعر دقيقة الحجم قصيرة تمتاز بالسهولة والرصانة والبساطة في التعبير . كان ينقش هذا النوع من الشعر في أول أمره على مقابر الأموات فيحمل بين طياته اسم الراحل ولقبه ومهنته . وما شواهد القبور الحالية إلا أثر من آثار هذا الشعر . وقد تطور على أيدى الشعراء إلى أن صار أداة يعبر به الشاعر عن مختلف إحساساته ومشاعره وآرائه .

(٢) شاعر المأساة Tragedy المشهور ولد حوالي سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، يمتاز أسلوبه بالجلال والسمو وزخر بالمجاز والاستعارة .

(٣) أشهر شعراء الأغريق الغنائيين ، ولد حوالي سنة ٥٢٢ قبل الميلاد ، يمتاز أسلوبه بالرفعة والصعوبة .

(٤) مترجم آثار هومر .

« الأكاديمية [١] » وسط أشجار الزيتون الوارفة الظلال حيث ينساب نهر كفيسوس Chephissus في هوادة ولين ؛ ولئن نال منه الجهد في هذا المكان البهيج فمن مكنته أن يلتمس راحته بين الخمائل والرياض ، وكان له فيها غناء ، أيما غناء .

إلى هذه الخمائل ، إلى هذه الرياض ، إلى حدائق الشعر الاغريقي أدعوكم الآن ، وأحب أول الأمر أن أقف لألقى نظرة على (بعض أزهار مبكرة من البنفسج الأبيض) فهذا هو الوصف الذي خلعه « ميلياجر Meleager » على قصائده التي أثبتها في مؤلفه الذي ضمنه مختارات من الشعر اليوناني القصير التي جادت به قرائح شعراء الاغريق القدماء وأطلق عليه اسم « الاكاليل » . قدم ميلياجر لهذا الاكاليل من أزهار الشعر بمقدمة شعرية خص فيها كل شاعر من الشعراء الذين حوى « الاكاليل » أشعارهم بزهرة خاصة اختيرت بعناية فائقة لتمثل أدق تمثيل أسلوب الشاعر أو الشاعرة . وهذا الاختيار ، اختيار الزهرة لكل شاعر ، على الرغم من أنه يبدو غريباً لأول وهلة ، إلا أنه أشد ما يكون انسجاماً وطبيعة هذه الأشعار . ويرى الأستاذ « ماكايل Mackail » (أن اختيار الزهرة الرمزية لكل شاعر قد تم على يدى ناقد صادق الحس وشاعر في نفس الوقت) .

لقد ضمن « ميلياجر » « إكليله » — كما يقول — : (زهرات عديدة من السوسن « لأنيتى Anyte [٢] » ،

(١) هي مدرسة أفلاطون الفلسفية .

(٢) شاعرة موهوبة عاشت في القرن الرابع قبل الميلاد .

و« مورو Moero »[١] ، وزهرات قليلة « لسافو » Sappho[٢] إلا أنها ورود كلها) . لم يحفظ لنا الزمن من أشعار « سافو » إلا القليل جداً ، مع أنه قد انحسرت رمال مصر فى السنين الأخيرة عن عدد من أشعارها مخطوطة على أوراق البردى ، كما اكتشفت منذ عهد قريب جداً قصيدة كتبت على قطعة من الفخار . وإنى لأرجو أن يوفق الأستاذ سامى جبرة إلى اكتشاف جديد لهذه الشاعرة فى حفائره « بتونة الجبل » . هذه الحفائر التى أثارت الإعجاب والتقدير . لقد ضمن « ميلياجر » « إكليله » كذلك كروماً وأزهاراً متعددة الأنواع مختلفة الألوان لشعراء آخرين أمثال « سيمونيدس Simonides »[٣] ، و « الكايوس Alcaeus »[٤] ، و « كاليماخوس Callimachus »[٥] ، و « أنا كريون Anacreon »[٦] ، كذلك حوى إكليله (غصن أفلاطون الذهبى الذى يضىء ببريقه البديع وسنائه الأخاذ هنا وهناك) .

وقبل أن نقطف أية « بنفسجة مبكرة بيضاء » من بنفسجات « ميلياجر » ، نذكر شيئاً يسيراً عن جامع هذه الزهرات نفسه :

ولد ميلياجر فى شمال فلسطين ببلدة « جادارا Gadara » ولا نكاد نعرف شيئاً عن سيرته وحياته أكثر مما أمدتنا به أشعاره التى لم تجد إلا بحقائق قليلة . كتب هذا الشاعر فى شيخوخته قطعتين من الشعر لتنقشا على قبره لا تخلوان من فكاهة مثيرة للعاطفة ، فهو يقول فى إحداهما : (خفف الوطء ، أيها العابر ، وسر حثيثاً ، فهنا أغمض الجفن بين الموتى الطاهرين ، شيخ غمره النوم الأبدى الذى هو مآل الجميع ، « ميلياجر ولد يوكراتيس » الذى وثق روابط الألفة بين إله الحب حلو الدامع وبين مبدعات الفنون وإلهات الخير الطروبات . لقد شب وترعرع وبلغ الحلم فى « صور » المقدسة وأرض « جادارا » الطيبة ، وقضى شيخوخته فى حضانة « كوس » المحبوبة . أحييك تحية السوريين إن كنت سورياً ، أو تحية الفينيقيين إن كنت من أهل فينيقيا ، أو تحية الاغريقيين إن كنت إغريقياً . حيّنى بمثل ما أحييك به) .

لهذه التحية الثلاثية دلالتها وخطرها ، فقد ولد هذا الشاعر فى « جادارا » وقضى شبابه وشيخوخته فى « صور » و « كوس » . ومع أن هذا الشاعر سورى المولد إلا أنه إغريقى الأصل ، فوالده يدعى « يوكراتيس » ويحمل الشاعر نفسه اسم بطل أسطورة يونانية . وهو يكتب الاغريقية دون تعثر ، بل وببراعة فائقة ، وفقط كان للشرق الذى قضى الشاعر به حياته تأثير كبير عليه ، فقد طبع شعره بطابع جديد لم يألفه الشعر الاغريقى من قبل . إذ لا نلمح فيه هذه المميزات التى عرف بها الشعر الاغريقى فى عصور أوجه وازدهاره من رصانة وسهولة ، وإنما هو شعر رقيق بديع خيالى .

وغاية القول أن الحرارة العاطفية والحذق فى التعبير عن الانفعالات النفسية هما من خصائص نفحات هذا الشاعر العبقرى . وعدا قطعتى الشعر اللتين كتبهما هذا الشاعر لتنقشا على قبره تذكاراً له ، فقد وضع ميلياجر أشعاراً أخرى من النوع نفسه . إحداها مرثية لشاب يدعى « خاريكسينوس » قد اختطفته يد المنون ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره . نقتبس منها هذين البيتين اللذين يصوران فى جلاء حسرة الشاعر وفداحة المصاب :

(. . . وحتى أحجار البيت قد صرخت عند ما حمل الشباب من خلصائك جثمانك ناحبين مولولين) .

وقد رثى « كلياريستا » وهى عذراء قد تجرعت كأس

(١) شاعرة بيزنطية عاشت حوالى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد .
(٢) شاعرة غنائية رقيقة عاشت فى القرن السابع قبل الميلاد .
(٣) شاعر غنائى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد .
(٤) شاعر غنائى عاش حوالى سنة ٦١١ قبل الميلاد .
(٥) شاعر اسكندرى توفى حوالى سنة ٢٤٠ قبل الميلاد .
(٦) شاعر غنائى عاش حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد .

إلى زوجتي!

اقرئي نفسي يا عزيزتي قبل أن تقرئي أسارير وجهي . . . ولا يغرك مني بسمات أصطنعها اصطناعاً محافظة على عناءك . فإذا علمت أني مهموم فلا تستجوبيني ، ولكن اصطنعي الحيلة ، فإن عجزت فاتركيني . . . وإن إلحاحك في طرد حزني يثقلني أحياناً ، ويزيد في اضطراب نفسي . . . نعم إنك تعلمين عني كل شيء لأني أخلص لك وأصارحك بكل شيء ، ولكن ما رأيك في أني أراني كأني لم أقل لك شيئاً طول حياتي . . ! ؟ ربما خلقتُ نفسي ملتوية ، فكيف ألوي نفسك معها لترى ما تراه وتحس ما تحسه ؟ ! ربما استعذبتُ الألم في بعض الأحيان ، فكيف أحملك على ذلك ؟ ! ولكنا اصطحبنا لنقطع مرحلة الحياة سوياً ، وقد رأيت فيك ما أحب ورأيتِ فيَّ ما تحبين ؛ وكأنَّ هذا كلُّ ما كان يلزمنا من زاد المسافر !

كلا يا عزيزتي ! ليس إخلاصنا كل شيء ، وليس اتفاقنا أو انسجامنا كل شيء ، ولكن هناك هذا الاختلاف أو هذا التنوع في حياتنا الشعورية ، فهو لازم لنا ضروري لحياتنا . . . فلا تعجبي إن طلبتُ إليك مثلاً أن تزيحي مني في بعض الأحيان هذا الهدوء وهذا الاطمئنان الذي نعتقد أنه ضروري لحياتنا . . . ولا تعجبي إن طلبت إليك ألا تجعل حياتي ورداً كلها دون شوك . لا تعجبي إن طلبت إليك أن تثيري ما ركد من شعوري ، لأنَّ الشيطان يقول لي أحياناً إن طيبتك من بلادة ! لا تعجبي إن قلت لك إن جفاءك لي يلزمني بقدر عطفك عليَّ ! إنني أحياناً أثيرك بكلمة نابية أو نظرة قاسية ، وما أصل ذلك — علم الله — من بغض لك أو تبرم بك ، ولكن حباً في أن أراك معك في حالة جديدة . . . ربما كرهتك في هذه اللحظة لأحبك في اللحظة التالية .

وربما تلطفت معك في الحديث كأنك لست أهلي ، فلا تعجبي من ذلك ، فقد أحب أن أنظر إليك كأننا نلتقي لأول مرة . . . أنت إن منحتني قلبك كله اليوم فماذا أنت مانحتي غداً ؟ ! اقتربي مني حتى تذهب لهفتي عليك ، وابتعدي عني حتى تريني كنت أجن بك . . . اكذبي أحياناً فقد مللت الصدق ، لا بل اصدقي دائماً فإني أخاف الكذب . . . إن النظام يجب أن يكون قوام حياتنا ، ولكن ما رأيك فيمن يحب شيئاً من الفوضى ؟ ! . .

إنَّ إحساسنا بالحياة يزيد ويتجدد حين نغير من حياتنا المادية ، فلم لا نعمل على أن نغير حياتنا العاطفية ؟ إن النفس يا عزيزتي — أو نفسي ونفس أمثالي على الأقل — يلزمها برد الشتاء القارس كما يلزمها حر الصيف اللافح ، يلزمها الإعصار العنيف يهزها كما يلزمها النسيم الهادئ يلطفها . .

إنك تغيرين في كل حين من سكني وثوبي وطعامي ، فهلا غيرت أحياناً من مشاعري ! ؟

محمد عبده عزام

النبية الزهر ، إذ استأثر بها الموت لنفسه دون عروسها ليلة عرسها فقال :

(. . . . . وفي الليل كانت تصدح الموسيقى شجية النغمات وقد دخلت العروس إلى خدرها وأوصد الباب من دونها ، فما إن لاحت تباشير الصباح حتى علا نحيب الموت ، فشقت الجيوب وخفتت ألحان الغناء ، وعلا صوت البكاء ، وسارت مع الركب هذه المشاعل التي أضاءت بالأمس مضجع العروس لتودع جثمانها مع المودعين)

كتب « ميلياجر » كذلك في موت « آيسجينيس » صغير أحد معارفه هذين البيتين :

(حياك الله أيتها الأرض يا أم الجميع ، لم يكن « آيسجينيس » حملاً ثقيلا عليك ، فهلا كنت رحيمة به فلا تكوني حملاً ثقيلاً عليه ؟) .

(يتبع) محمد محمود السلاموني

نقد لا يقره أدباء مصر

بقلم الأستاذ مصطفى مشرف

انتهيت الآن من قراءة ديوان لشاعر مصري اسمه بيرم التونسي ، ولا أدرى متى ظهر هذا الديوان ، ولا أعرف صاحبه معرفة شخصية ؛ فكل علاقتي به أنني ترجمت له إلى الانجليزية منذ أعوام قصتين ، وأرسلت له عددي المجلة التي نشرتهما فرُدَّا إلى بعد أشهر لجهل مصلحة البريد بعنوانه .

وأذكر أنني لما قرأت قصتي التونسي ظننت لنفسي أن ما بهما من فن وجمال وأمانة جاء من طريق الصدفة ، ولم يخطر ببالي عندئذ أن بمصر كاتباً يقارن بكتاب أوربا ، بل ويعتبر إذا قيس بمقاييس الفن الغربي من كتاب الدرجة الأولى ، ولكني بعد قراءة ديوانه أعتقد الآن أن بيرم التونسي أديب شرقي يصل في نبوغه إلى مستوى أي أديب أوربي شئت من الدرجة الأولى ، وأنه كشاعر لا يقل في فنه عن شاعر الانجليز الحديث (ت . س . اليت) ولا في أمانته وجرأته وقوة تصويره عن الشاعر الفرنسي (بودلير) بل إني أذهب إلى أكثر من هذا فأتنبأ بأنه سوف يأتي يوم يكون فيه مركز التونسي في الأدب المصري (إذا قدر لهذا الأدب أن يستمر) مركز « تشوسر » في الأدب الانجليزي ؛ والحقيقة أن بين الشاعرين شبهاً كبيراً .

أنشر هذا الحكم وهذا التنبؤ ، وأشعر في ذلك بكل الفخر والسرور الذي يشعر به الباحث الذي وفق إلى اكتشاف سعيد ، وأعلم أيضاً أن حديثي هذا سوف يضحك أدباء مصر ؛ فالتونسي « زجال » كما سمعت ، ومنزلة الزجال في بلدنا هذا من كتاب المجلات منزلة « المولدى » و« العالمة » من عبدالوهاب والآنسة أم كلثوم ، أو إن شئت فنزلة النفير من ضابط البوليس ، ولكن أمرى إلى الله .

وسوف أحاول فيما يلي أن أبرر حكمي هذا ، وأن أنقد ما تيسر من ديوان التونسي نقداً أبنيه على أصول الفن الغربية . وسوف أمهد لذلك بمقدمة لا مناص منها .

الشعر الغربي له ميزات يقرب أو يبعد بها من درجة الكمال على قدر اتصافه بها .

هذه الميزات يمكن إجمالها فيما يلي :

١ — أن تتآلف نبضات موسيقاه (rybthm) وبحره وأصوات كلماته بحيث تؤثر أكبر أثر ممكن في القارئ ، لتعطيه أكبر قسط ممكن من تجربة الشاعر .

ليس من السهل أن أعطى أمثلة كاملة من الشعر العربي لتوضح للقارئ ما أجمله ، ولكني سوف أحاول ذلك جهدي ، عالماً أنه مهما كانت الفوارق بين الناس فالنبوغ الشعري له صفات مشتركة بين كل شعراء الأرض .

ا — البيت العربي الآتي تتآلف نبضات موسيقاه كما يئت بحيث تؤثر أكبر أثر ممكن :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا

لى الليل هزتني إليك المضاجع

تحدث الوقفة في الشعر العربي غالباً بين شطريه ؛ ومن الواضح هنا أنه لأجل أن نقرأ هذا البيت قراءة صحيحة يجب علينا أن نقف بعد « الناس » وأن نصل بين الشطرين وأن نقف بعد « ليل » وقفة قصيرة سوف نهمل البحث فيها هنا [1] .

هذا التقسيم لا يؤيده المعنى فقط ، بل وموسيقى البيت ،

(١) هذه الوقفة التي هي بمثابة وقفة الشطر لمتابعة السير لا تؤثر في سرعة البيت بعد « نهارى نهار الناس » فقد أهملت بحثها .

فنهارى نهار الناس نبضها بطىء ، والبقية نبضها سريع .

هذا النبض البطىء عليه علينا أصوات الكلمات أى الأربع مدات . نهـــارى نهـــار النـــاس . ثم صوت النون والهاء المتكررين وهمس السين ، وكل هذه السواكن من الحروف الشبيهة بالحركات . فهى منها بمثابة الصدى من الصوت .

هذا (أو الكثير منه بحيث يعم قصيدة بأكملها) هو ما أقصده من توافق النبض وأصوات الكلمات ، إذ لو استبدلنا هنا « نهارى نهار الناس » بـ « يوى كيوم القوم » أى لو أتلفنا التوافق بين صوت الكلمات ونبضها ، لما تأثر القارىء أكبر أثر ممكن ، ولما حملت هذه المجموعة من الأصوات أكبر قسط ممكن من الشعور الذى استمد الشاعر منه تجربته ، وهو ملل عادية النهار وسأم طوله وشعوره ببطء مر الزمن .

بقية البيت : « حتى إذا بدا لى الليل هزتنى إليك المضاجع » سريعة النبض تجبر قراءتها قراءة صحيحة على أن تقصر الحركات الطوال ما أمكن وهى أربع ، مع أن كلماته أكثر من ضعف كلمات « نهارى نهار الناس » ، ثم إن مقاطع هذا الجزء من البيت يغلب عليها أن تكون مفتوحة :

إِ — ذَا ، — بَ — دَا — ىَ — مَ —

ضَا — عُ [1] وحروفه يغلب فيها التفجير :

ب ، د ، إ ، ت ، ك ، ض وهكذا ، وهذه المجموعة من الأصوات إذا لم يعترض سبيلها حركات طوال ساعدت على سرعة الكلام .

هذا النبض السريع وهذه الأصوات التى تتآلف معه تؤثر فى القارىء تأثيراً لاشعورياً ، وتصدر من الشاعر عادة بغير قصد أو تفكير ، إذ لو تعمد الشاعر والقارىء رصدها

(١) تنقسم المقاطع إلى مفتوحة (طويلة أو قصيرة) ب — ا — بو — بى ، ومقفلة (طويلة أو قصيرة) جيم ، نون ، جيم ولن جن قل .

وتحليلها لما أمكن أن يعطى الأول الثانى أكبر قسط من تجربته ، والشعور وراء تجربة الشاعر هنا هو اللهفة للقاء محبوبته ، والشوق إليها عند تذكر لياليه معها ، وهذه اللهفة تحملها إلى القارىء موسيقى البيت فتزيد من أثر خياله وتسهل تصوره .

ولعل القارىء يدرك لنفسه بعد ذلك القيمة الفنية لطول البحر الذى استعمله الشاعر ، وضرورة هذا الطول لتمثيل الملل واللهفة متقاربين هكذا متقابلين ، إذ لو قصر البيت لما أمكن الوقف على نصف أحد شطريه ، وإذا أنهى الشاعر النبض البطىء بين الشطرين لقلل من أثر الفصل بين الجزء البطىء والجزء السريع تطابقه مع الوقف العادى فى البيت .

ب — يتضح بسهولة فى نصف البيت المشهور :

« مكر مفر مقبل مدبر معاً »

إذا حللت أصواته إلى مقاطع ، كيف أن أصوات الكلمات وخواص مقاطعها يمكن أن يستعملها الشاعر الموهوب فى أداء المعنى . فى الشطر المذكور تسعة مقاطع مقفلة [1] ، ومن صفات هذه المقاطع القوة ، خصوصاً إذا كانت قصيرة مخطوفة كما هى الحال هنا ؛ ثم إن المقاطع المفتوحة وعددها خمسة : ثلاث مبات وما آن ، لها نظام هندسى بديع يلاحظه القارىء عند النطق أو النظر ؛ وهذا النظام هو الذى يعطى البيت سهولة نطقه وازدياد نبضه ، ويسهل من النطق بالمقاطع المقفلة ، فتجمع الأصوات بين السرعة والقوة اللتين يؤديهما معنى البيت .

لاحظ هنا كيف أن نظام ترتيب المقاطع المفتوحة فى (مكر مفر) يختلف عنه فى (مقبل مدبر) عما يشعر بحركة الذهاب والإياب . ولاحظ كيف أن المقاطع المقفلة رن — رن — إن — رن — عن . لها رنين متردد كوقع حوافر الخيل ، وكيف أنها تحضر ذهن السامع تحضيراً

(١) هذه مجموعة تعبر فى عبارة قصيرة كهذه ، إذ اللغة العربية يغلب فيها المقطع المفتوح .

لطيفاً لبقية البيت : بجلود صخر . . . . الخ .

قارن هذا العنف وهذه القوة فى بيت امرىء القيس بـ(سكون ووحشة وظلمة وليل بلا آخر) تدرك لنفسك كيف أن عبقرية الشاعر تدفعه إلى اختيار أصوات وموسيقى تهيء أذن القارىء ، وتساعده على الشعور معه بشعوره ، فالعبارة الثانية بها من المقاطع ما بالأولى .

(٢) أن تكون لغة الشعر أبعد ما يمكن أن تكون عن لغة المعنويات ، وأقرب ما يمكن أن تكون من لغة الحسيات .

فمثلا العبارة الآتية : « يجب على الفنان أن يستمر فى فنه ، ويحتمل الفقر وإهمال الناس ، رغم أن يقتله ميتة الحس لا تقدر فنه ولا تكافئه عليه ماديا » هذه العبارة مصوغة فى لغة أقرب ما تكون من المعنويات ، والأبيات الآتية التى تؤدى نفس المعنى هى أقرب ما تكون من لغة الحسيات :

ياريس الفن يا سارح بأرغولك   طالب من الله(١)
إن شفت بين القبور أطرش بداويلك   أجرك على الله
زمر على بلوتك واجمع هلاهيلك   وتوب إلى الله

بعبارة أخرى : لغة الشعر لغة رمزية كلغة الأحلام ، فهى تثير فى المخيلة صوراً ، وهذه الصور هى رموز المعنى .

(٣) لا يجب أن تستعمل معانى الشعر لمجرد الأخبار ، بل للتأثير العاطفى ، أى أنه يجب أن يكون اعتماد الشاعر على قيمة شعره الأخبارية أقل اعتماد ممكن ، مثلا :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

هذا البيت يعتمد لأكبر حد على قيمته الأخبارية ، فهو يوصف بالصدق أو الكذب ، لهذا كان مجرد نظم ، ليس فيه من الشعر إلا موسيقاه ، وقيمته من هذه الناحية هى قيمة أى بيت من الألفية مثل :

وتخلف الفاء إذا المفاجأة   كإن تجد إذا لنا مكافأة

(١) من بين القبور من ديوان الشاعر ص ٣١ .

ولكن البيتين :

تضحك الضبع لقتلى هذيل   وترى الذئب لها يستهل
وعتاق الطير تغدو بطانا   تتخطاهم فما تستقل

لا يعتمدان على قيمتهما الأخبارية ، فهما لا يحتملان الوصف بالصدق أو الكذب ، كأن تقول مثلا : « إن قتلى هذيل دفنوا فى أرض ليس بها ذئاب وضبع ولا جوارح من طير » ، فالشاعر إذاً كاذب .

(٤) يتصل بميزة الحسية المذكورة خاصة الإيحاء (suggestivenees) ؛ فلغة الشعر تكون فى أكمل حالاتها عند ما توحى عباراتها وكلماتها أكبر إيحاء ممكن ، وهذا الإيحاء يجب أن ينسجم وتجربة الشاعر وجو القصيدة ومحتوياتها ؛ فمثلا(١) فى الأبيات المقتبسة من التونسى : « طالب من الله » تذكرنا عن طريق تداعى المعانى « بشحاذ » يستجدى ، و « أجرك على الله » تذكرنا بـ« روح الله يحنن عليك » ، ثم « توب إلى الله » تذكر برجل ينهى عن المنكر (كما قال صديق) وتذكرنى أنا بامرأة تتجر بمفاتنها وجمالها ؛ وهذه الصورة تقوى فى نفسى وجه الشبه بينها وبين الفنان الذى يتجر بفنه ، أو ينتظر مكافأة عليه .

ومن الواضح للقارىء أن ما تثيره الشطرات المذكورة عما أثبته من صور ومعان ، ينسجم مع تجربة الشاعر وجو القصيدة ومحتوياتها ، ويقوى من أثر لغتها فى نفس القارىء .

باب الإيحاء هذا واسع ، وأسبابه ونتائجه متعددة ، وهو من لحمة الشعر الغربى وسداه ، ولكن المجال لا يتسع لبحثه هنا .

(له بقية)   مصطفى مشرف

(١) رجعت إلى التونسى لأتحاشى أمثلة جديدة اقتصاداً فى وقت القارىء ووقتى .

عاشـــــوراء

للأستاذ عبد الحميد لطفى

عيد الخريف :

احتفل المصريون القدماء بعيد الخريف ، إذ وافق يوم وفاء النيل ، أساس حيوية الأرض الزراعية ، عماد ثروة مصر ، وأحيوا هذا العيد فى يوم الشروق الاحتراق helical rising لنجم سُبْدِت أو أزيس المسمى بالافريقية سوتس Sothis [1] ، وجعلوا سنتهم تبدأ من هذا العيد [2] .

واحتفل البابليون والأشوريون بعيد الخريف ، واعتقدوا أن الآلهة تجتمع فى هذا العيد حيث تعقد مؤتمراً ، تحاسب فيه أرواح الأحياء والأموات على ما قدمته من أعمال ، وتَزِن حسناتهم فى الميزان الذى يمثله برج الميزان [3] ، فمن ثقلت موازينه ، كان من أصحاب اليمين ، ويمين برج الميزان برج السنبلة أو برج العذراء [4] ، حيث يتمتع أصحاب اليمين بالجنان الخضراء ، وما فيها من رَوح وريحان ، وحور عين . ومن خفت موازينه ، كان من أصحاب الشمال ، وشمال برج الميزان برج العقرب ، حيث يلقى أصحاب الشمال جزاءهم من الزبانية حراس زبانى العقرب [1] ، وبدأت سنة البابليين أيضاً من الخريف ، أى من شهر تشرى (الذى معناه البدء) ، واحتفلوا بالعيد فى أحد الأيام التسعة الأولى من هذا الشهر .

وورث اليهود عن المصريين الاحتفال بعيد الخريف ؛ ولما خرجوا من مصر ، وكان خروجهم فى اليوم السابع من الأسبوع المصرى وفى عيد الربيع ، اعتبروا اليوم السابع من كل أسبوع عيداً دينياً ، ينقطعون فيه عن الأعمال الدنيوية ، ويتفرغون للعبادات ، وأطلقوا عليه يوم سبّات أو شبّات [2] ، واحتفلوا بعيد الربيع فى كل سنة شكراً لله الذى نجاهم من فرعون وجنوده ، وأحيوا هذا العيد فى يوم البدر الذى يقع فى الاعتدال الربيعى أو بعده مباشرة ، وأطلقوا عليه يوم پساح [3] ، وأخذوا من البابليين تقويمهم القمرى الشمسى ، وكذلك أسماء شهورهم ، وجعلوا سنتهم الدينية تبدأ من شهر عيد الفصح ، أى من شهر نيسان ، ولم ينسوا الاحتفال بعيد الخريف الذى ورثوه من المصريين ، خصوصاً وأن البابليين الذين عاشروهم مازالوا يحتفلون به ، وأنه يقع فى الشهر السابع من سنتهم الدينية ، والشهر السابع ، كاليوم السابع ، مقدس ، واحتفلوا بعيد

(١) قيل إن النجم سوتس هو السماك الأعزل Spica ، وقيل إنه الشعرى اليمانية Sirius ، ويرى Duncan Macnaughton فى كتابه : A Scheme of Egyptian Chronology, 1932 أنه السماك الأعزل ، ورأيه هذا ظاهر الرجحان ، بالنسبة لما أورده من الأدلة .

(٢) إن كان سوتس هو السماك الأعزل كان أول السنة هاتور ، وإن كان هو الشعرى كان أول السنة توت .

(٣) البروج الاثنا عشر يجمعها قول الشاعر :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

(٤) أهم نجم فيه هو السماك الأعزل ، وتمثله بعذراء تحمل سنبلة من القمح .

(١) تسقط أشعة الشمس عمودية على خط الاستواء فى يوم الشروق الاحتراقى لبرج الميزان ، ثم تنتقل عموديتها جنوب خط الاستواء . ولذلك اعتقد البابليون أن إله الشمس يبدأ فى نزوله إلى العالم السفلى بعد هذا اليوم ، والبرج التالى لبرج الميزان هو برج العقرب ، فيكون برج العقرب هو ممثل العالم السفلى ، حيث يقيم فيه إله الجحيم وأعوانه الزبانية .

(٢) يوم الراحة ، وتقل إلى العربية يوم السبت ، (وجعلنا نومكم سباتاً) أى راحة ، والسبت القطع ، للانقطاع عن الأعمال .

(٣) يوم التطهير ، وتقل إلى العربية باسم الفصح . وفى الأرمية والقبطية باسم بصخة ، وفى الانجليزية Passover ، وفى الفرنسية Pâque .

الخريف فى أحد الأيام العشرة الأولى من شهر تشرى ، واعتبروا أول تشرى أول سنتهم فى معاملاتهم المدنية .

عاشوراء اليهود :

احتفل اليهود بعيد الخريف ، على أن يكون فى أحد الأيام العشرة الأولى من شهر تشرى ، وقد قيل إنه فى اليوم العاشر من شهر تشرى عاد موسى عليه السلام من جبل سيناء ، حيث عفا الله عما اقترفه قومه من خطيئة العجل الذهبى ، واستقبله القوم مصلين صائمين ؛ ولذلك أحيا اليهود اليوم العاشر من شهر تشرى بالصوم تطهيراً لهم عمـا اقترفوه فى بحر السنة من خطيئات وآثام ، وأطلقوا عليه صوم الكبور ، وعرف باسم يوم عاشوراء .

عاشوراء المسلمين :

يمكن تلخيص الأحاديث المختلفة ، وخصوصاً ما ورد منهـا فى صحيحى البخارى ومسلم عن صوم عاشوراء فى الأحاديث الثلاثة الآتية ، وإن اختلفت فى بعض التفاصيل :

(١) كانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان رسول الله (ص) يصومه ، فلما هاجر إلى المدينة صامه ، وأمر بصيامه ، فلما فرض شهر رمضان ، وترك عاشوراء ، قال النبى (ص) : « من شاء صامه ، ومن شاء تركه » .

(٢) وصل النبى (ص) إلى المدينـة ، وكان اليهود صائمين يوم عاشورائهم ، فسألهم النبى (ص) عنه ، فقالوا : هذا اليوم الذى نجى الله تعالى فيه موسى وبنى إسرائيل ، وأغرق فرعون وقومه ، فنحن نصومه شكراً لله تعالى . فقال النبى (ص) : « أنا أحق بأخى موسى » ، ثم أمر مناديا فنادى : من أكل فليمسك ، ومن لم يأكل فليصم .

(٣) « لئن سلمت إلى قابل لأصومن اليوم التاسع » . ولم يحل عليه (ص) الحول .

ويفهم من الحديثين الأول والثانى أن الاسلام لم يبتدع صوم عاشوراء ، وإنما أخذه عن الجاهلية واليهود ؛ ويعتمد المسلمون الآن عاشوراء المحرم الذى يدور على مر الأيام ، ويعتمد اليهود عاشـوراء تشرى الذى يكاد يكون ثابتاً فى الخريف ؛ فيا ترى أ كان عاشوراء الجاهلية عاشوراء المحرم ، أم كان عاشوراء تشرى ؟ فان كان عاشوراء المحرم فانه يتعارض مع ما ورد فى الحديث الثانى وما أشير إليه فى الحديث الأول ، إذ أن النبى (ص) لم يصل إلى المدينة فى شهر المحرم ، وإنما وصلها فى يوم الاثنين الثانى من شهر ربيع الأول ، أى فى ٨ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ١٠ تشرى سـنة ٤٣٨٣ عبرية (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م) ، كما أن الامام الأعظم أبا حنيفة ارتكن على الجزء الأخير من الحديث الثانى فى عدم ضرورة النية قبل الصيام ، فضلا عن أنه فى المدة من سنة ١٣ ق هـ إلى سنة ١١ هـ ، أى ما بين بدء الرسالة وانتقال النبى (ص) إلى الرفيق الأعلى ، لم يوافق عاشوراء المحرم عاشوراء تشرى[١] . وأرى من ذلك أن عاشوراء الجاهلية هو عاشوراء تشرى[٢] ، وإذاً فمتى انتقل عاشوراء من تشرى إلى المحرم ؟

قد يكون ذلك فى السنة الثانية الهجرية حينما فرض صوم رمضان ، وأصبح صوم عاشوراء اختيارياً .

وقد يكون فى السنة العـاشرة الهجرية حينما نزلت الآية : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » ، والآية : « إنما النسىء زيادة فى الكفر » ، فالآية الأولى تحرم جعل السنة أكثر من اثنى عشر شهراً ، فهى بذلك تحرم الاعتماد على التقويم العبرى الذى سنته الكبيسة ثلاثة عشر شهراً ، وتحرم الآية الثانية النسىء ، فهى بذلك تحرم تأخير عاشوراء عن موضعها بالنسبة للسـنة العربية . وتحريم الكبس والنسىء فى هاتين الآيتين يقضى بإزالة جميع ما ترتب

(١) ربما وافق عاشوراء المحرم عاشوراء تشرى على الأكثر مرتين فى سنتين متتاليتين فى المدة السالفة الذكر .

(٢) ربما بدأت العرب عاشوراءها حين وافق ١٠ المحرم ١٠ تشرى ، ثم تأخذه ١١ يوما فى كل سنة ، ليتفق مع ١٠ تشرى . وهذا يتفق مع طريقة النسىء التى ذكرها القلقشندى فى « صبح الأعشى » والنويرى فى « نهاية الأرب » . أما ما ذكره أبو معشر فى « الألوف » ، والبيرونى فى « الآثار الباقية » ، والمسعودى فى « مروج الذهب » فانه يتعارض ويتناقض ويصعب استيعابه .

إلى الثقافة

ترقرق فيك جمال الصبا
وأشرق منك جلال الكبر
فلو كنت يوماً لكنت الضحى
ولو كنت ليلا لكنت السحر
عصرت التليد فعاح الشذا
وصنت الجديد فذقنا الثمر
وزدت « الزميلات » حسناً كما
يزيد الشذا فى جمال الزهر
فنحن الشفاه وأنت المنى
ونحن العيون وأنت الحور
فنعم الصديقة فى حلنا ونعم الرفيقة عند السفر

شاهر البرازى

شكوى

رقص الغيد على نايى فما
لبراعى تحرم الخصر النحيل ؟
وتكحلن بأحزانى فهل
نهلت عيناى من جفن كحيل ؟
نحن يمشين على وردى وأمـ
شى على الشوك وفى خطوى عويل
إن يمل للزهر غصن فاذكروا
أن لى فى أضلعى قلباً يميل
يشتهى الحسن ويهوى لثمه
فى ربا الروض على الظل الظليل

حسين عفيف

عليهما ، ومن ذلك عاشوراء ، فانتقلت بطبيعة الحال إلى العاشر من شهر المحرم ، وثبتت على ذلك ابتداء من سنة ١١ هـ . وتحريم الكبس والنسىء نبه المسلمين إلى التشابه مع اليهود فى الاحتفال بعاشوراء ، ودعاهم إلى عرض الأمر على النبى (ص) حيث قال الحديث الثالث الذى ورد فى بعض رواياته : «صوموا التاسع والعاشر ولا تشبهوا باليهود» . وقد قيل هذا الحديث فى عاشوراء سنة ١١ هـ إذ انتقل النبى (ص) إلى الرفيق الأعلى بعد ذلك بحوالى شهرين ، أى فى يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٨ من يونيو سنة ٦٣٢ م .

وقد ورد فى خطبة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » ، وكانت هذه الخطبة فى ٩ من ذى الحجة ١٠ هـ ، ووافق أول المحرم ١١ هـ أول نيسان سنة ٤٣٩٣ عبرية . وذكرت المراجع اليهودية والمسيحية أن العالم خلق فى شهر نيسان ، ويفهم من هذا أن العالم خلق فى شهر المحرم الذى كان متفقاً مع شهر نيسان ، وأنه حينما عاد إلى هذا الاتفاق ، كان الزمان قد استدار ، أى أكمل بعض دوراته . ويمكن أن يقال أيضاً إن المحرم وافق نيسان حينما خرج اليهود من مصر وتكون نجاة بنى إسرائيل فى عاشوراء نيسان الموافق عاشوراء المحرم ، وليس فى عاشوراء تشرى ، كما ظن ذلك اليهود الذين سئلوا فى الحديث الثانى . ويكون الصوم شكراً لله على نجاة موسى عليه السلام فى عاشوراء نيسان (عاشوراء المحرم) كما حدث فى سنة ١١ هـ .

وقد اكتسب عاشوراء معنى أعظم عند الشيعة ، إذ فيه قتل سيدنا الحسين رضى الله عنه .

وفوق كل ذى علم عليم ، والله أعلم ؟

عبد الحميد لطفى

٢ - كتاب الحيوان للجاحظ

جواب رسالة المحقق الكبير

الأب أنستاس مارى الكرملى

بقلم عبد السلام محمد هارون

وفى ص ١٧٩ (التاء المفتوحة) بمعنى المبسوطة هكذا : (ت). قلتَ : إنها من غريب مصطلحاتى . والحق أنها مصطلح متوارث عندنا نحن المصريين ، ورثه آباؤنا من آبائهم ، وورثناه عنهم ، ونحن الآن نلقنه أبناءنا وتلاميذنا فى جميع مدارسنا . ولهذا المصطلح نظير آخر ، هو التاء المربوطة (ة) وهو اصطلاح من اصطلاحات علماء الرسم المتأخرين . والمتقدمون منهم يطلقون عليها اسم الهاء فقط . ولا مشاحة فى الاصطلاح ، كما يقولون .

على أن التاء المبسوطة التى ذكرتُ ، يعبر عنها بعض العلماء بالتاء فقط ، بدون زيادة شىء ، وبعضهم يسميها : التاء المجرورة(١) .

وفى ص ١٨٤ (مسألة : مصدر ميمى) قال حضرة الأب : « والمصدر الميمى لا يختم بهاء ، على ما راجعنا كتب القوم » ولست أدرى أىَّ كتب القوم عنيت ؟ ! فإن المصادر الميمية المختومة بالهاء كثيرة ، ذكر بعضها سيبويه فى كتابه (١ : ٢٤٧ - ٢٤٨ طبع بولاق) . وسرد الإمام الرضى فى شرح الشافية (١ : ١٧٠ - ١٧٤ طبع ١٣٥٧) طائفة صالحة منها . ومن ذلك : محمدة ، ومذمة ، ومعجزة ، ومظلمة ، ومعتبة ، ومهلكة ، ومعرفة ، ومغفرة ، ومعذرة ، ومعصية . كما أن المعاجم اللغوية تكفلت بإثبات ما ورد على هذا النحو . وفى القاموس : « سأله كذا وعن كذا وبكذا بمعنى . سؤالاً ، وسآلة ، ومسألة ، وتسآلاً ، وسألة » فذكر بينها المصدر الميمى (مسألة) .

وفى ص ٢٠٣ (غشوشة) ظننتَ أنها جمع (غش) ، وتأوَّلت لذلك بما تأولت — فيه كثير من العسر . والأقرب أن تكون مصدراً مفرداً فى وزان السهولة والليونة والصعوبة والكدورة .

وفى ص ٢٥١ جاء فى المتن : (سجَرَتُ التنور) ، وفى الشرح : (سجرت التنور : أحميته وأوقدته) قلت : الصواب (أحمته) ، ولعل سبب الإشكال أنك قرأت عبارة الشرح مطابقة لعبارة المتن ، وذلك أمر لا يلتزمه المفسر ؛ إذ أن من المذاهب الشائعة فى تفسير الكلمات أن ينسب المفسر الكلام إلى نفسه . فأنا أردت فى الشرح أن أقول (سجرتُ التنور) أعنى بتاء التكلم ، وقرأتها أنت بتاء المؤنثة ، فمن ذلك ما حدث الخلاف والشبهة . وتجد حضرتك أنى فسرت (نقَتْ عظامَها) فى ص ٩ بقولى : « نقى العظم نقيا : استخرج نقيه » ولم أقل (نقت عظامها : استخرجت نقيها) .

وفى ش ص ٣٦٩ : « والحوَّاء بالضم : جمع حاو . وهذا الجمع ليس قياسياً ، ولا مما ذكرته المعاجم » فقلت إنه (قياسى ومبتذل) . والحق أنه ما قيس ولا ابتذل ؛ إذ أن جمع الوصف من فاعل على فُعَّال مطرد حقاً ، ولكن فى غير المنقوص . أما المنقوص منه فجمعه على فعَّال نادر(١) . وهذا ما عنيتُ بقولى أنه ليس قياسياً .

وما ذكرتَ من الأمثلة الكثيرة ، جله غير منقوص فلا يحتج بكثرته . وليس فيهن من المنقوص غير (جانٍ ، وسادٍ) فهاتان من النادر ، كما ندر أيضاً غازٍ وغُزَّاء ، وسارٍ وسُرَّاء . وفى ذلك ما قال ابن مالك :

وفُعَّل لفاعل وفاعلهْ وصفين نحو عاذل وعاذلهْ
ومثله الفُعَّال فيما ذُكرا وذان فى المعَلّ لاماً ندرا

(١) انظر المطالع النصرية ١٤٢ والصبان (٤ : ١٨٨ س ٢٢ بولاق) .

(١) همع الهوامع (٢ : ١٧٧) والأشمونى (٤ : ١١٦)

٤ — أوهام في الآراء

وفي ش ٢ من ص ٧١ قلتُ إن يأجوج ومأجوج (جنس من الأسيويين) فعقّبتَ على ذلك بقولك: « وهذا الخلق لا وجود له في الدنيا كلها. والذي أعرفه ... » الخ. وليس بين القولين أي تعارض أو أي تضارب. فوطنهم (سقوتيا) الذي ذكره الهمْداني — هو إقليم أسيوي بلا ريب. وقد جعلهم الهمداني أصحاب الإقليم السادس (١). وجعل حد الإقليم السادس أرض الصين إلى نهر بلخ إلى بحر الشام الذي يلي الشرق (٢). أفلا يتضح من هذا أن يأجوج ومأجوج، أو السقوتيين (جنس من الأسيويين)؟!

وفي صفحة ٢٠٥ و ٢٢٥ و ٢٠٠ و ٢٠١ أخذتَ عليّ أني لم أعلق على هذه الروايات بأنها خرافات (تقفنا في العين حصرماً). فكأن حضرة الأب قد زعم لنفسه أني أقر هذه الخرافات. ولا وحقك ما إن كان من رأيي تصديق خرافة! وما يكون لرجل من غيري، نصب نفسه لدراسة هذا الكتاب العجيب، أن يتعثر في تمييز ما هو خرافة ظاهرة، وأن يتبين فصل ما بين الأباطيل والحقائق. فخرافة الشوك (٢٠٥) وخرافة السلاح البرغوث ببوضة (٢٢٥) مصدَّرتان بكلمة (زعم). وهذا يكفي التنبيه على خرافيتها.

وأما مرويات كعب الأحبار في (٢٠٠ و ٢٠١) فإن القارئ الذي تحدثه نفسه بقراءة كتاب الحيوان، ليس يفتقر إلى أعلام تنصب له في طريقه، كي لا تضلّ به السبيلُ حين يقع بصره على هذه المرويات، ذات الشهرة الخاصة.

وأما كتابة (يحيى بن برمك) بإسقاط الألف، مع أن (برمك) جد يحيى، لا أبوه — فهو المذهب الصحيح من

(١) صفة جزيرة العرب ص ٦ س ٨.
(٢) صفة جزيرة العرب ص ٦ س ٢٠.

مذاهب علماء الرسم (١). على أن الحجاج في الرسم أمر لا يجدي فتيلا؛ فمن المؤسف أن الرسم لا يمكن جمع الناس فيه على مذهب خاص دون سواه، مهما حاول المحاولون.

وفي ص ٤٨٣ ذكر (كنيسة القُمامة) المعروفة بكنيسة القيامة. وقد أثبتُّها بالميم، اعتماداً على ما ورد في الحيوان (٦ : ٦٢ ساسي) وعلى ترجيح ياقوت لهذه التسمية. وقد رأيتَ حضرتك تأباه (لا يجوز لأحد أن يحقق هذه التسمية غير النصارى) وهذه عاطفة مشكورة نجلّها ونحترمها. ولكني أعرف أن التاريخ ملك للبشر جميعاً، يتداولونه بينهم بالبحث والتفتيش، والامتحان والتحقيق. وأنت ترى أن غير المسلمين ينظرون في تاريخ المسلمين ويحققونه، ونقبل منهم أقوالهم وأفكارهم ما كانت مستقيمة صالحة، ونرحب بها ترحيباً خاصاً. وياقوت حين عرض لتحقيق اسم الكنيسة، لم يشب تحقيقه غرض أو يخالطه هوى، فهو يتحدث عن تسمية كانت معروفة متعالَمة، منذ القرن الثالث الهجري على الأقل. ولا ريب أنها غبرت دهراً طويلا معروفة بذلك بين الناس. كما أن هذه التسمية لم تقتصر على الجو العربي فحسب، بل هي سارت أيضاً في اللغة الفارسية عن طريق اللغة العربية. ففي معجم استينجاس الفارسي الانجليزي ص ٩٨٨ نجد هذا النص:

Kanīsatu' l-qumāma, The church of the holy sepulchre at Jerusalem.

تفسيره: (كنيسة القمامة: كنيسة القبر المقدس بأورشليم). وسواء أكان ياقوت مخطئاً في تعليل هذه التسمية أم مصيباً، فهي تسمية شاعت حيناً، وهي التسمية التي عناها الجاحظ بلا ريب (٢). وأنا إنما أثبتها تحقيقاً لنص الجاحظ، لا تحقيقاً للوضع التاريخي الذي يجب أن يكون؛ فإن مهمة كل ناشر أن يجتهد في إثبات النص اللفظي الذي أراده المؤلف. وأنت تجدني في ص ٤١٥ قد

(١) المطالع النصرية ١٧٤ س ١١.
(٢) انظر تعليلا آخر لتسمية كنيسة قمامة في القاموس (قم).

أثبت نص الجاحظ في رواية بيت الحارث بن حلزة اليشكري ، مع يقيني بأنها رواية مخطئة فاسدة ، كما نبهت عليه .

وليس من الغريب في الأعلام العمرانية أن يتساور اسمان مختلفان مسمى واحداً . فالمدينة سميت بيثرب وبالمدينة ، وبكل نطق القرآن[١] . ومكة قيل فيها (بكة) أيضاً ، وبكل جاء القرآن[٢] . وأحياناً تمحو التسمية الجديدة نظيرتها القديمة وتعفى عليها . فلو أن صاحب الهرم بعث من مثواه ، وعرض عليه اسم الهرم أو ترجمة معناه لأنكره إنكاراً وغلب عليه العجب . ومن يدري ؟ لعل اسمه بعد دهر يصيبه تغيير !.

وفي ص ٣٣٦ ش ٥ « الصومعة كجوهرة : بيت للنصارى سمي بذلك لدقة في رأسه » فقلت : الصومعة كلمة لاتينية من Summa ومعناها القمة وكل شيء دقيق . ولست أدري لم نفر من الاشتقاق العربي ما دام مستفيضاً جامعاً في مادة من المواد ؟ ! فالمعنى السائر في مادة (صمع) العربية هو دقة الأعلى ؛ فالصمعاء : الدملك المدقق من النبات ، وكل برعومة لم تتفتح بعد . والصومعة : البرنس ، وذروة الثريد . ويقال صومع الثريدة : إذا دقق رأسها . ومنه قول الراجز[٣] .

قد دقه تارده وصوما   تحت أبان اليخاني جمجما

ونحن لا نستطيع أن نحكم بتعريب كلمة قبل أن نعدم وجود أصل لها من الاشتقاق اللغوي العربي ؛ فإذا وجدنا الأصل ووجدنا معه النظائر ، كان من الظلم البيّن أن ننفي من الكلمة نسبتها إلى العربية .

٥ — ما غمض تحقيقه

وفي ش ص ٤٨٨ تفسير الشهاب بأنه ينقض على أثر الشيطان بالليل ويقذف به . وهذا تفسير ديني عناه الجاحظ ويعرفه عامة المسلمين . وأما تكلف بتفسير عبارة الجاحظ على النحو الذي عنيّ . فقول الجاحظ : « كأنه شهاب قذف » لا يحتمل غير هذا التأويل . وكان من المستحسن أن تمهل حضرتك قليلاً فيما حكمت به . فأنا قلت إثر كلامي السابق في حواشي الصفحة : « وفي الكتاب[١] : إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . وأضيف إلى ذلك قول الله[٢] : « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » . وقوله[٣] « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » . وقوله[٤] : « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » .

وأما التفسير العلمي ، الذي يعرفه طلبة الفرق الدنيا من مدارسنا الثانوية بمصر ، فإنه لا يتنافى مع هذا التفسير الديني ولا يعارضه ، فمع وجود السبب العلمي قد توجد العلة الدينية ، ليس في ذلك ريب .

وقد جاء في القرآن الكريم[٥] في شأن مدينة سدوم : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ » وجاء في سفر التكوين (١٩ : ٢٤ — ٢٥) : « فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض » . فالعلة الدينية لتخريب سدوم هو العقاب الإلهي على إجرام أهلها وشدة فجورهم . والسبب العلمي الظاهر هو زلزال وانفجار جبل للنار ، أمطر أهلها بالحمم والقذائف المهلكة ، وقلب أرضهم وديارهم . ونسبة الحجارة إلى الجحيم والسماء إشارة إلى العقوبة الإلهية . وهذا مثل من أمثلة .

(له بقية)   عبد السلام محمد هارون

(١) سورة الأحزاب ١٣ والتوبة ١٠١ .
(٢) سورة الفتح ٢٤ وآل عمران ٩٦ .
(٣) الحيوان (١ : ٢٣٦) .

(١) سورة الصافات ١٠ .
(٢) سورة الملك ٥ .
(٣) سورة الجن ٨ — ٩
(٤) سورة الصافات ٨
(٥) سورة هود ٨٢
(٦) سورة الشعراء ٦٣

أنباء وآراء

ترجمة انكليزية

لكتاب مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام

نشرت أخيراً في الهند ترجمة انكليزية لكتاب « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وهو من الكتب التي قامت على إصدارها ونشرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وظهرت منه إلى اليوم باللغة العربية طبعتان .

وقد صدرت الترجمة الانكليزية بعنوان :

Decisive Moments in the History of Islam

وتولى إصدارها الناشر الشهير السيد محمد أشرف بمدينة لاهور ، وظهرت في مجلد أنيق الطبع في ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير ، ومجلد تجليداً حسناً كأفخم ما تخرجه المطابع الانكليزية ، ومغطى فوق ذلك بغلاف فني جميل .

والترجمة الإنكليزية التي أشرف على إخراجها المؤلف ترجمة مطابقة دقيقة ، سلسة المبنى : ويقول المؤلف في خاتمة مقدمة هذه الترجمة ما يأتي : « لقد رحبت بفكرة نشر ترجمة إنكليزية لهذا الكتاب لكي يقرؤها المسلمون في أنحاء العالم ممن يعرفون الانكليزية ، ولا يعرفون العربية . إن الاسلام يجوز اليوم عهد إحياء جديد من الناحيتين السياسية والمعنوية ؛ والعمل على تقوية الروابط الفكرية والثقافية بين مختلف الأمم الاسلامية ، واستعراض ذكريات الماضي المجيدة ، والتعاون في إلقاء الضياء على التراث المشترك : كلها عناصر ذات شأن في هذا الاحياء »

وقد وردت من الترجمة الانكليزية إلى القاهرة نسخ قليلة ، ويمكن طلبها من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن مكتبة النهضة المصرية . وثمن النسخة أربعون قرشاً .

أمريكا تقترب

نشرت إحدى المجلات الأمريكية أخيراً مقالا لكاتب بالعنوان المتقدم يتنبأ فيه بقرب دخول أمريكا الحرب .

وقد بنى الكاتب مقاله على أثر اضطراب الحياة الاقتصادية في العالم القديم على أمريكا . فقال إن أمريكا لا تستطيع أن تبقى طويلا بعيدة عن المعترك الحاضر الذي يشل حركة أسواقها الخارجية ويجعل من المتعذر عليها أن تواصل حياتها الاقتصادية التي تقوم على اضطلاعها بعبء الانتاج لحيز كبير من العالم القديم . فواجبها يحتم عليها أن تسعى لفض هذا النزاع على أي وجه من الوجوه . وقد سعت فعلا لفض النزاع وإحلال السلم محل الحرب ، ولكنها لم توفق ، وكان سعيها الظاهر في سبيل ذلك يكشف عن الضرر الذي يعود عليها من استمرار الحرب أولاً ، وعن استعدادها دائماً للقيام بدورها الذي تفرضه عليها تقاليدها بصفتها دولة مسالمة تحمي الديمقراطية .

وتكلم الكاتب بعد ذلك عن تطورات الحرب العالمية وعما تكشفت عنه الروح التي سادت أمريكا خلال معركة انتخابات الرآسة ، وعما أسفرت عنه نتيجة هذه الانتخابات من إقرار الشعب الأمريكي وشعوره بضرورة القيام بعمل (حاسم) إزاء الموقف الحالي .

ثم قال : « لا يستطيع المرء أن يتصور انفصال أمريكا عن أوربا بأي حال من الأحوال ؛ فدعوى الهر هتلر بأن ما تقوم به أمريكا خلال الحرب من مد يد المساعدة

لانكلترا هو تدخل لا معنى له، لا يقوم على أساس من الصدق. إذ أن هذا التدخل معناه أن أمريكا تريد أن تكون ممن يقررون نتيجة هذه الحرب بشعورها بأنها أول من يتأثر بهذه النتيجة؛ وليس ذلك فقط، بل إنها لا تقل عن انجلترا اضطلاعاً بعبء الدفاع عن الديمقراطية، وفي الوقت الذي يبدو فيه أن اشتراكها الفعلي في هذه الحرب سيقرر نتيجة الحرب ستشترك فيها لا محالة.

فالمسألة اليوم ليست مسألة جدال كالذي كان بين الديمقراطيين ومنافسيهم أول الأمر في هل تتدخل في سياسة أوربا أو لا تتدخل، وعلى أي صورة يكون هذا التدخل؛ وإنما هي مسألة أفضل وقت لهذا التدخل، وقد وضحت نياتنا جميعاً من صورة هذا التدخل؛ فليس في أمريكا حزب واحد يستطيع أن يتصور هذا التدخل على أنه مجرد محاولات دبلوماسية للمرة العاشرة أو أكثر.

لقد قرر الهر هتلر دخولنا الحرب، ولكنه لم يحدد الموعد ولا يستطيع تحديده لأننا نحن الذين نملك هذا وحدنا ولعلنا نقترب الآن بصورة جدية من هذا الموعد.

ويختم الكاتب مقاله بالاشارة إلى استعداد أمريكا المتواصل الذي لا يمكن أن يكون له معنى إلا شعورها بالخطر وتحفزها لصده.

ولعل القراء يقدرون نبوءة هذا الكاتب، بالعودة إلى خطاب الهر هتلر الأخير الذي يهدد فيه أمريكا صراحة، مما يشعر بإحساسه نفس الاحساس الذي يحس به هذا الكاتب.

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرى عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٢٦٩

العدد ١١١	الثلاثاء ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٠ — ١١ من فبراير سنة ١٩٤١	السنة الثالثة

فهرس العـــــــدد

الزحف الألمانى نحو الجنوب

لمحرر « الثقافة » السياسى

كل ما هنالك فى ميادين الحرب والسياسة يدل دلالة واضحة على أننا سوف نشهد فى القريب العاجل ، عند اقتراب الربيع ، تطورات وحوادث هامة ؛ ولكن ماذا عسى أن تكون هذه الحوادث والتطورات ؟ هذا ما يشغل الأذهان اليوم فى جميع أنحاء العالم . ويكاد يكون من المجمع عليه أن ألمانيا تستعد فى الوقت الحاضر للقيام بمحاولة أو محاولات عسكرية خطيرة ؛ وأن هذه المحاولات ، قد تتجه نحو الغرب ، بإقدام ألمانيا على تنفيذ مشروعها القديم لغزو الجزر البريطانية ، أو تتجه نحو الشرق بصورة لم تتضح معالمها بعد .

ونحن نشهد الآن فترة هدوء نسبى ، كالتى شهدناها فى العام الماضى قبيل اجتياح ألمانيا للدانماركة والنرويج ؛ ففى الجبهة الغربية يقتصر النضال على الغارات الجوية التى يتبادلها الألمان والانكليز ، والتى خفت حدتها فى الأسابيع الأخيرة بشكل ظاهر . أما فى الجبهة الشرقية فإن التطورات الحربية سواء فى ألبانيا أو فى لوبية أو شرق أفريقية تسير فى مجراها الذى كان متوقعاً منذ بدأ انهيار الجيوش الإيطالية فى هذه الميادين فى شهرى نوفمبر وديسمبر الماضيين .

على أن فى تطور الحوادث الأخيرة ، وفى الخطاب

الأخير الذى ألقاه المستشار هتلر ، وفى الأزمة التى تجوزها العلائق الفرنسية الألمانية ما يدل على أن هذا الهدوء النسبى الذى نشهده الآن ، إنما هو الهدوء الذى يسبق العاصفة ؟ ولقد صرح هتلر فى خطابه بأن ألمانيا ستبدأ هذا الربيع حرب الغواصات ؟ وحرب الغواصات قائمة بالفعل ، ولكن هتلر يتوجه فى إشارته قبل كل شىء إلى أمريكا ، وإلى موقفها من مساعدة بريطانيا ، وهو يتوعد أمريكا بأنها إذا حاولت التدخل فى النزاع الأوربى على هذا النحو ، فإن ألمانيا تقابل هذا التدخل بتعديل أغراضها ، أو بعبارة أخرى تعمل على مقاومته ؟ وحرب الغواصات هى سبيل هتلر إلى مقاومة النجدات الأمريكية .

وإذا كان فى هذا التصريح ما يكشف لنا عن الوعد الذى تزمع ألمانيا أن تحاول القيام فيه بضرباتها القبلة ، ففى الخطاب أيضاً ما يدل على أن هذه الضربات قد تكون متعددة متنوعة ؟ وهتلر يؤكد لنا أن ألمانيا ستضرب بريطانيا أينما استطاعت ضربها .

* * *

ومن الطبيعى أن يكون غزو الجزر البريطانية فى مقدمة المشروعات والخطط التى تعتمد عليها ألمانيا فى تحطيم مقاومة بريطانيا . وقد كثر التحدث عن هذا الغزو المحتمل منذ انهيار فرنسا ، ولاح غير مرة فى الخريف الماضى أنه وشيك الوقوع ، ولكنه لم يقع حتى اليوم ؟ ومهما كانت الأسباب التى حالت دون وقوعه ، فلا ريب أن تقدم وسائل الدفاع البريطانى ، وثبات بريطانيا فى وجه الحملات الجوية الألمانية الكبرى فى شهرى أغسطس وسبتمبر الماضيين ، كانا فى مقدمة هذه الأسباب ؟ ولا حاجة بنا إلى التحدث عن الصعاب الجمة التى تعترض تنفيذ مثل هذا المشروع ، بعد أن كثر الحديث عنها فى مختلف المناسبات ؟ بيد أننا نقول فقط إن قوة بريطانيا واستعداداتها لدفع هذا الغزو المحتمل ، قد زادت زيادة عظيمة ، وهى تزداد كل يوم بما تتلقاه من النجدات الأمريكية فى السلاح والعتاد والطائرات . وإذا كنا ما زلنا نشك أكبر الشك فى احتمال وقوع هذا الغزو فى المستقبل ، فإنه ليس بمستحيل أن يقدم الألمان بما عرف عنهم من الاقدام والمغامرة والبراعة فى استحداث الخطط العسكرية ، على محاولة ضرب انكلترا وتدميرها بقوات جوية عظيمة ، تصحبها محاولات يائسة لانزال قوات برية فى بريطانيا أو إرلنده .

على أنه يبدو من المرجح أن يحاول الألمان لقاء بريطانيا فى ميدان أو ميادين أخرى يكون النضال فيها أجدى وأقل خطراً ، وأقرب إلى النجاح ؟ وهنالك ما يدل على أن البحر الأبيض المتوسط قد يكون فى المستقبل القريب مسرح هذه المرحلة الجديدة من النضال بين ألمانيا وبريطانيا ؟ وقد أسندت ألمانيا من قبل مهمة مهاجمة بريطانيا فى هذا الميدان إلى حليفتها إيطاليا ، باعتبار أن البحر الابيض المتوسط هو « بحرها ومجالها الحيوى » ؟ وحاولت إيطاليا أن تغزو مصر والسودان ثم اليونان ، ولاح لها مدى حين أنها ستظفر بتحقيق أحلامها الضخمة ؟ ولكن الضربات الساحقة التى أصابت جيوشها منذ ديسمبر ، فى جميع هذه الميادين قد أيقظتها يقظة مرعبة ؟ ولم تر ألمانيا مناصاً بعد انهيار خطط الفاشستية وتوالى الانتصارات البريطانية ، وتوطيد سيطرة بريطانيا البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، من أن توجه خططها إلى هذه الناحية ؟ وقد ظهرت القوات الألمانية الجوية بالفعل فى صقلية وقواعد إيطاليا الجنوبية ، وبدأت غاراتها على القوافل البحرية الانكليزية فى البحر الأبيض وعلى مالطه ؟ وتدل الأنباء الأخيرة على أن قوات ألمانية تجوز ممر برنر إلى شمال إيطاليا .

ومن الواضح أن الأمر لن يقتصر فى ذلك على إنجاد

ألمانيا لحليفتها المنهزمة؛ فنحن نشهد الآن في الواقع استعداد ألمانيا للزحف نحو الجنوب Drang nach Süden . ولم يتضح بعدُ أي اتجاه تنوي أن تتخذه ألمانيا لتحقيق هذا الزحف؛ هل تعبر إلى الجنوب بطريق البلقان، أعني من الشرق، أم تعبر إليه بطريق إيطاليا، أم بطريق فرنسا وأسبانيا، أعني من الغرب؛ ومن المحقق أن لموقف فرنسا الحالي، والأزمة التي تجوزها العلاقات الفرنسية الألمانية، صلة وثيقة بهذا الشأن؛ فقد أجمعت الدوائر العليمة على أن الألمان يحاولون الضغط على حكومة فيشي لكي تذعن لمطالبهم فيما يسمونه خطة التعاون بين ألمانيا وفرنسا؛ ولهذا التعاون قصة معروفة نبأنا مستر تشرشل بحقيقتها في بعض خطبه، وهي أن الألمان يرغمون على فرنسا على أن تقف إلى جانب ألمانيا في محاربة انكلترا بصورة من الصور، كأن تسلم إليها ما بقي من وحدات الأسطول الفرنسي، أو تنزل إليها عن بعض قواعدها في شمال أفريقية لتتخذها مراكز للأعمال الحربية ضد القوات البريطانية في البحر الأبيض المتوسط. وقيل إن حكومة فيشي كادت في وقت ما أن تسلم للألمان بمطالبهم؛ ولكن تطورات الحرب في الشهرين الأخيرين قضت على هذه الخطة، وبثت في حكومة فيشي روحاً جديداً، وشجعتها على مقاومة الضغط الألماني، ورفض كل مطلب يراد به دفع فرنسا لمحاربة حلفائها السابقين.

والآن يشتد التوتر بين حكومة فيشي وبين الألمان؛ وهتلر يضع خططه لحرب الربيع، ولا بد أن تصل القوات الألمانية إلى البحر الأبيض المتوسط، وتحصل فيه على قواعد تمكنها من مواجهة القوات البريطانية؛ فهل يكون اقتحام البلقان من طريق بلغاريا أو يوجوسلافيا سبيل هتلر إلى ذلك؟ بيد أن هذه الخطة تصطدم بموقف تركيا واستعدادها لخوض غمار الحرب إذا رأت في هذا الزحف ما يهدد سلامتها؛ وتركيا على اتصال دائم في ذلك بحليفتها بريطانيا العظمى، والبحث مستمر بين القيادات العسكرية التركية والبريطانية لمواجهة كل احتمال في هذا الميدان؛ هذا إلى غموض موقف روسيا إزاء الحوادث البلقانية؛ وعلى ذلك فإن ألمانيا قد تؤثر أن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط من الناحية الغربية؛ وما دام البحر يحول بين ايطاليا وبين الشواطئ الأفريقية، فلا بد أن تحصل القوات الألمانية على قواعد برية أمينة في الشواطئ المقابلة؛ وهذا يمكن تحقيقه بالاستيلاء على تونس وقاعدتها البحرية الشهيرة بزرته؛ وإذا استطاع الألمان إنشاء قواعد برية وجوية في تونس، سهلت مهمتهم إلى حد كبير في مواجهة القوات البريطانية براً وبحراً، وسهل عليهم أن يعرقلوا أعمال الأسطول البريطاني من الجو. أما شواطئ برقة وطرابلس فلم تعد هدفاً صالحاً لنزول القوات الألمانية بعد أن تقدم الانجليز نحو قلب طرابلس، واستولوا على معظم القواعد القريبة من الشواطئ الايطالية، وأصبح من المتعذر أن تعبر إليها الامداد.

ولكن هذه الخطة تصطدم من جهة أخرى بموقف حكومة فيشي ومعارضتها؛ وقد أصبح معروفاً أن الماريشال بيتان وأنصاره يعارضون في كل مطلب ألماني لا علاقة له بشروط الهدنة، ويأبون التعاون مع ألمانيا في غير الميدان الاقتصادي؛ وصرح الأميرال دارلان، وهو من أشد مؤيدي بيتان، والمسيطر على مصير الأسطول الفرنسي، بأن فرنسا تحتفظ بأسطولها للدفاع عن إمبراطوريتها، وبأن هذا الأسطول مصمم على أن يرد كل اعتداء أو تحد. وتأبى فرنسا من جهة أخرى أن تنزل عن أية قاعدة من قواعدها الأفريقية؛ والظاهر أن الجنرال فيجان، وهو الذي عهد إليه بالسهر على سلامة الامبراطورية الفرنسية، يهدد بالانفصال من حكومة فيشي إذا هي سلمت في أي مطلب يمس هذه السلامة؛ وحكومة فيشي

من جانبها تلوح للألمان بهذا الوعيد ، وبأن إصرار ألمانيا على مطالبها العسكرية يدفع بالامبراطورية الفرنسية إلى جانب حركة فرنسا الحرة التي يتزعمها الجنرال دى جول ، وهو أمر تخشى عواقبه ألمانيا ؛ ولا تدخر ألمانيا من جانبها وسعاً في الضغط على حكومة فيشي ، وتلوح في ذلك بمصير المليونين من الأسرى الفرنسيين ، واحتلال الجزء الباقي من فرنسا ، وإقامة حكومة فرنسية جديدة في باريس تذعن لمطالبهم ؛ وقد شرع الألمان بالفعل في تنظيم حزب فرنسي جديد في باريس قوامة نفر من الساسة الموالين لهم ، ومن ورائهم بيير لافال ؛ ولكن حكومة فيشي لا تزال ثابتة في موقفها حتى كتابة هذه السطور .

وسوف نرى ماذا يسفر عنه هذا النضال في القريب العاجل . والظاهر أن الألمان اعتزموا أمرهم ، ولا بد لتنفيذ خططهم من الوصول إلى نتائج سريعة . وقد نشهد في القريب العاجل احتلال الألمان لفرنسا الحرة ، وفرار حكومة فيشي والأسطول الفرنسي إلى شمال أفريقية ؛ وقد نشهد أيضاً محاولة الألمان النزول في تونس بالقوة ، وهي بلا ريب مجازفة خطيرة تصطدم بقوة الأسطول البريطاني ؛ وقد تصطدم بقوى الامبراطورية الفرنسية ؛ وقد يحاولون العبور إلى طرابلس ، قبل أن تجهز عليها القوات البريطانية الزاحفة ؛ وهي أيضاً محاولة محفوفة بأعظم الصعاب والمخاطر ؛ هذا إذا لم يؤثر الألمان في النهاية الزحف إلى الجنوب بطريق البلقان ، باعتباره أصلح للزحف السريع ، وأقل تعرضاً للمقاومة والفشل .

ولا شك في أن بريطانيا العظمى من جانبها تحسب حساباً لكل تطور وكل احتمال مفاجىء ؛ وهي تجد اليوم نفسها في البحر الأبيض المتوسط مسرح المعارك المنتظرة بعد انتصاراتها المتوالية في لوبيه وشرق أفريقية ، وسيطرتها على جزيرة كريت وغيرها من القواعد اليونانية ، في مركز أفضل مما كانت عليه في الخريف الماضي ؛ كذلك لا ريب في أن مضاعفة أمريكا لمعاونتها وامداداتها لبريطانيا وفق قانون الاعارة والتأجير الذي ينتظر أن يقره البرلمان الأمريكي في القريب العاجل ، مما يزيد مركز بريطانيا ثباتاً وتوطداً .

هذه هي طوالع الموقف الحاضر ؛ وعلى أي حال فان النضال بين ألمانيا وبريطانيا العظمى ، لا بد أن يدخل في دوره الحاسم ، ولا سيا بعد أن سقطت ايطاليا صريعة أطماعها ، ولم يبق لها كبير شأن في هذا النضال . وتدل جميع القرائن على أننا سوف نشهد هذه المرحلة في المستقبل القريب .

(* * *)

٤ – صناعة التاريخ فى مصر

بقلم الدكتور محمد مصطفى زياده

موضوع هذه السطور مدرسة التاريخ الحالية بمصر ، من حيث إنها أداة خطيرة من أدوات التثقيف القومى ، ولها – أو يجب أن يكون لها – برنامج ومنهج ورسالة ، وعليها أن تؤدى ذلك بياناً غير مكتوب ، بأن تشيع ما ترمم من خطى فى سبيل برنامجها ، وتذيع منهجها بطريق الدعاية التعليمية الهادئة ، وتعلن رسالتها بالعمل السليم المحمود ؛ وبذا يعلو القدم على صناعة التاريخ ما لحرفته المرجوة من قواعد وتقاليد مرعية ، فضلا عما سلف بالمقالات السابقة من لوازم المؤرخ ، وما ينبغى له فوق مادته من علوم وأدوات مساعدة على البحث ، والتأليف المأمون .

إنما يستحسن أولاً تنوير القارئ أن المراد بمدرسة التاريخ ليس مدرسة بالمعنى الحرفى لذلك اللفظ ، فإنه لا يوجد بمصر معهد بتلك التسمية ، وليس فيما كان أو سيكون من الهيئات والمجالس والمجامع الحكومية وغير الحكومية ما يصح له أن يحتكر هذا الاسم العريض أو يختص به ؛ إنما المقصود بمدرسة التاريخ فى الواقع مبلغ ما أنتج الجيل الحاضر فى ميدان البحث والاستقصاء ، من نشر وترجمة وتأليف ، باعتباره فيض ذلك الجيل وكلمته الدالة على مذهبه فى صناعة التاريخ ؛ وهذا من غير ما تعرض للأعمال الفردية ، وإلا جاء بعض الحديث مدحاً ، والمقام أبعد ما يكون من المدح أو نظمه عقوداً للمستحقين . .

أما أن مدرسة التاريخ – بهذا المعنى – أداة للثقافة القومية ، فحسب العارف أن التاريخ صور الماضى غير متكررة ، وأن تلك الصور ليست لمجرد الامتاع والمؤانسة لمؤلفيها أو الناظرين فيها ، بل هى الوسيلة لتعريف الأمة بأصلها وكيفها وطاقتها وماضيها ووضعها ومكانتها بين الأمم فى مختلف الأزمنة ؛ والأمة – بالغة ما بلغت من حاضر القوة والمنعة – مفتقرة إلى معرفة ذلك كله جيد المعرفة ، كى تستنير به فى مشكلاتها الطارئة ، وليستضىء عليه أبناؤها السبيل إلى القومية الصحيحة المعتدلة . ولذا فالمسؤولية الملقاة على عواتق أجيال المدرسة التاريخية جد عظيمة ، وليرع الأمة وماضيها وحاضرها ومستقبلها كل من تناول جزءاً أو انتحى ناحية من تاريخها النشر ، أو التأليف فيه ، وليعلم أنه بحكم صناعته مطالب بالبحث عن الحقيقة المجردة وعن تبيانها ، وليذكر أن واجبه تقدير السابقين تقديراً عدلاً ، ليكون منه للاحقين نموذج ومقياس حكيم ، وهذا حق الأجيال المتتابعة بعضها على بعض .

وأما البرنامج والمنهج والرسالة ، وما إليها من أصول وروح واجبة المراعاة والاتباع فى صناعة التاريخ ، فلا قبل لهذا المقال مهما طال ، ولا لكاتبه مهما تطاول وكتب ، أن يفصح عن تلك المواضيع الشاسعة فى أسطر قليلة أو كثيرة . إذ ليست المسألة برنامجاً تحصى أجزاؤه ومواده ، أو منهجاً تشرح مناحيه ومقاصده ، أو رسالة تبلغ أسرارها وأركانها ولو كان الأمر بتلك السهولة لما عسر على كاتب نقل المكتوب فى هذه الأبواب بمرجع من المراجع الأوربية مثلا ، وتمصيره ، بحيث يصبح دستوراً لا محيد عنه للمؤرخين . إنما الممكن فى كل من تلك النواحى المتداخلة ، هو التنبيه إلى بعض ما يجب أن يكون هنا وهناك من أسس توجيهية عامة : ففى البرنامج مثلا يجدر بالمدرسة التاريخية أن تستهدف التاريخ القومى بمجهودها الحالى ، وهذا بالقيام على نشر ما ظل حتى الآن فى ظلمة

المخطوطات من الكتب المعاصرة والوثائق الخاصة والعامة ، والاهتمام بتوفير أدوات البحث التي تقدمت الاشارة إليها في ذيل المقال السابق ، والعمل على إخراج المؤلفات النهائية فيما تمت مراجعه وأسانيده من الأزمنة والعهود والأحداث والأعيان . وليس المقصود بذلك دعوة إلى قومية مسرفة ، أو إلى إهمال تواريخ الأمم الأخرى لقلة الصلة وضآلة العلاقة بها ، فإن التواريخ الأجنبية محتاج إليها لإتقان الصناعة في التاريخ القومي من عدة وجوه ، وهي أيضاً من مقومات الثقافة العامة ومكملاتها . وإنما الغرض تركيز النشاط الكائن في الميدان الذي من معدنه ، سيما وأنه ميدان بكر وخام ، وفيه أكثر من متسع لجميع القادرين على مقارفة التاريخ ومعاناته مخلصين مؤمنين بضرورة الانصراف إلى تلك المقوّمة الأولى للحياة الثقافية في مصر الحديثة (١)

والتاريخ القومي في الحق مشكلة طال عليها الأمد ، وكل تأخير أو تسويف في معالجتها وفق خطة عملية مدرجة يزيد في حجمها وصعوباتها ومضاعفاتها ؛ إذ التاريخ ظاهرة نامية دائمة النمو ، والعمل فيه أمر لا يمكن أن ينتهي ؛ وكفى أن معظم ما بدىء فيه حتى الآن قد جاء على أيدي فضلاء المستشرقين ، ونحن لا نفتأ نستورد ذلك شاكرين ، كما نستورد الأدوية وأطايب الأغذية وروائع الحوائج . وإنه لمن الخزي حقاً وصراحة أن يسأل سائل عن أحسن متن منشور أو تأليف محترم في أغلب عصور التاريخ المصري ، فلا يجده إلا في غير اللغة العربية ، ولا يجد من اهتم به وتخصص فيه وعرف خباياه إلا من غير المصريين ؛ وذلك مع العلم بأن المادة الأولية والخامة كبيرها في اللغة العربية ، ومن أصل مصري أيضاً . وهذا حال ماثل ، لا يسر العدو ولا الصديق ، وليس كذلك بين الأمم التي نجرر الأذيال في تقليدها أو التشبه بها ؛ فأحسن التواريخ الخاصة بانجلترا مثلا ، وأقرب الموارد والمراجع والمجموعات اللازمة للتاريخ الانجليزي ، مكتوبة بأيدي أبناء الجزر البريطانية ؛ ويقال مثل ذلك بصدد آيات التأليف وأدوات البحث في تاريخ الغالبية العظمى من أمم الشرق والغرب .

والاشتغال بالتاريخ القومي في مصر يتطلب منهجاً جديداً ونحواً مخالفاً لما سار عليه المتصدرون في صناعة التاريخ : فلا يجب مثلا أن يقتصر النشر على المتون الضخمة ، كالحوليات ومعاجم السير الشيقة ، إذ لدينا عدد من المؤلفات الصغرى والتراجم الخاصة بالأفراد من السلاطين والملوك والأعيان ، ولهذه أهمية تقصر عنها كتب التاريخ الكبرى (١) وكذلك لا ينبغي أن تنصرف مجهودات المعنيين بالتأليف إلى المواضيع الواسعة فقط ، فإن كثيراً من المسائل والمشكلات المفردة في التاريخ المصري بحاجة إلى دراسة تفصيلية واستقصاء عميق ، كما يصبح التعميم في المؤلفات الكبيرة بعد ذلك مأموناً سليماً . وهناك أيضاً مسألة التقاسيم الشائعة في معظم الكتب المتداولة ، كتقسيم الأزمنة إلى سلسلة رتيبة من عهود الملوك ، مع أن الملوك ليسوا وحدات قائمة بذاتها في تجارب الأمم ، بل الأمم نفسها وعلى رأسها ملوكها وحكوماتها وقادة الرأي فيها هي التي تعين وحدات تاريخها وتقاسيمه ، وذلك عما تحدثه — أو يحدث لها — من تغير وتطور طفرة أو بالتدريج . وعلى المؤرخ الناشئ أن يجعل من تلك الحقيقة الجامعة ضابطاً ومساراً لعمله ، لتجيء كتابته تصويراً حياً ممثلا لمجموعة الأمة (Body-politic) حكاماً ومحكومين ؛ كما عليه أن ينظر إلى تاريخ الأمة من زاويتها الطبيعية المحددة لها بوضعها الجغرافي : فلا يكتب في تاريخ الدولة المملوكية الأولى مثلا ، وكأنما هو يطل على القاهرة

(١) تناول الدكتور عزيز سوريال عطية هذا الموضوع في محاضرة عنوانها "تاريخنا القومي" ، وهي منشورة في مجلة العلوم ، ج ٢ ، سنة ١٩٤٠ .

(١) انظر شرح هذه الدعوى في تصدير كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة" صفحة هـ . (مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٠) .

من منظرة عالية ببغداد المغولية أو عكا زمن الصليبيين ، ولا يتناول الفتح العثماني لمصر وكأنما هو يشرف على الحوادث من برج بإسطنبول .

ومن أسس هذا النهج الجديد أيضاً أن التاريخ في صميمه دراسة وتحليل للسلوك الانساني في مختلف مدارجه ومراقيه ، وأنه ليس "دراية ورواية" وكفى ، كما اقترح الدكتور أسد رستم بخط عريض بالصفحة الأولى من كتابه "مصطلح التاريخ" ، ليبين أوجه الشبه الظاهرة بين التاريخ والحديث النبوى . فمع أن التاريخ فرع مبارك من شجرة الحديث ، وأصوله من أصوله ، وبعض علومه الوصلة من علومه ، فهو متفق مع الحديث في أنهما دراية فقط ، وتلك بديهية لا تحتاج إلى إعلان ، وشرط كفاية لجميع أنواع المعرفة والعلوم النقلية والعقلية . غير أن التاريخ مخالف للحديث في الركن الثاني من هذا التعريف الخلاب ، لأنه برغم اعتماده على روايات النصوص والمتون كمادة للصياغة والانشاء ، لا يحمل النصوص كل شيء فيه ، ولا يحتم ترديد المتون وتوجيهها لفظا بلفظ حسبما وردت في الكتب ، ولا يطلب أن يكون عمل المشتغل به شرح الغامض من هذا وذاك على طريقة المدرسيين (Scholastics) ، كما هو الحال في طبيعة المنهج الخاص بعلم الحديث والنقد فيه . ثم إن التاريخ ، بحكم أنه من العلوم الدنية (ويقال العلوم الكونية ، والدنيوية أيضاً) ينظر إلى النصوص والمتون كروايات متوافقة أو متناقضة في حوادث معينة ، ويستخرج منها ما يبدو راجحاً من حقائق . والمؤرخ هنا في حل من جميع الحدود المفروضة على المشتغل بعلم الحديث ، ولا جناح عليه ولا تثريب إذا لم يذكر من تلك الروايات سطراً ، بل الجناح والتثريب إذا ظن أن عمله مقصور على إيراد تلك الروايات واحدة بعد أخرى دون هضم وتمثيل وصوغ جديد .

وأما الرسالة الواجب على المدرسة التاريخية تبليغها بطريق الإنتاج ، سواء بالنشر أو الترجمة أو التأليف ، فهى أن التاريخ المصرى أولى من غيره من تواريخ الأمم بالمعرفة والتعلم والدراسة المتواصلة ، وأنه فضلا من أولويته المنطقية هذه لا يقل طلاوة وقيمة عالية وأهمية مطلقة عن تاريخ أى من الأمم ذوات التاريخ المجيد . ولا حاجة للتدليل على ذلك القول بالتاريخ الفرعونى المعظم ، فتلك صفحة معروفة مخدومة ، وفضل المصريين الأقدمين على سائر الأمم واضح غير منكور أو مجهول . إنما المجهول المغمور هو التاريخ المصرى في العصور الوسطى ، وهذا على الرغم من عظم الدول التى قامت بمصر في أواسط تلك العصور ، وهى الدولة الفاطمية التى جعلت من جنوبى البحر الأبيض المتوسط وشرقيه بحراً مصرياً ، والدولة الأيوبية التى كونت بشرقى آسيا ووادى النيل إمبراطورية مهيبة الجانب بين القاصى والدانى من القوى الاسلامية والمسيحية ، والدولة المملوكية التى أنقذت أوربا والشرق الأدنى من خطر المغول [١] ، وسيطرت على التجارة الدولية سيطرة مشابهة لما كانت تتمتع به الامبراطورية البريطانية في القرن الثامن عشر . ثم فقدت مصر مكانتها هذه بزوال دولة المماليك على يد الأتراك العثمانيين ، وصارت ولاية تابعة لسادة يبدونها على مصالحهم ومشيئاتهم . وقد ظلت على تلك الحال المظلمة حتى اكتنفتها مطامع الدول الأوربية أيضاً ، لوقوعها وسط الطريق البرى إلى الهند ، وكان ما كان من مشروعات حربية آخرها حملة نابليون ، ثم ظهور مؤسس البيت الملكى الحالى في مصر ، وقيام سلالة هذا البيت على شؤونها حتى عادت دولة مستقلة ذات سيادة مرة أخرى . وهذا كله معروف ، غير أن ما كتب فيه باللغة العربية لا يزال ناقصاً قاصراً في كثير من النواحى ، وعلى مدرسة التاريخ أن تضاعف مجهودها فيه إتماماً لرسالتها ، فإنه حلقة الختام في التاريخ القومى !

محمد مصطفى زياده

(١) الاشارة هنا لوقعة عين جالوت ، فانظر شرح هذه الاشارة في مجموعة كامبردج للعصور الوسطى (Camb. Med. Hist. V. PP. 642-644.)

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة أمير تدمر فارساً باسلاً مغرماً بالصيد ، وكانت مدينته عاصمة كبرى للتجارة تجتمع فيها سلع الشرق والغرب ؛ ونال من وراء ذلك غنى واسعاً . وخرج الأمير يوماً للصيد كعادته مع امرأته زنوبيا الجميلة المثقفة ، سليلة البطالمة وحفيدة كليوبترة ملكة مصر ، فأصيب بجراح من أسد ، فعاد جريحاً ، واضطر إلى الاعتكاف بعد أن أظهر لأهل المدينة أنه لم يصب بأذى كبير .

وقضت زنوبيا الليل إلى جوار سريره تعنى به ، وكانت شديدة القلق عليه ، حتى نالها من وراء ذلك تعب شديد ، كان له أثر في زعزعة نفسها واضطراب أعصابها . وجعلت تتحدث مع وصيفتها المسيحية لبنى عن آلامها وعن مخاوفها . وجعلت لبنى تصف لها المسيحية ، فأحست في ضعفها ميلا إلى الالتجاء إلى الله ، وتفتح قلبها بعض التفتح إلى الدين الجديد ، إذ حسبت أنها تجد فيه ما يبعث الاطمئنان إلى قلبها ويساعدها على تحقيق آمالها الواسعة .

وذهبت لبنى على عادتها إلى الكنيسة للصلاة وجعلت تدعو الله ليشفى الأمير ، فلما عادت وجدت أن الأمير قد صحا وعليه دلائل العافية ، وذهبت مع سيدتها زنوبيا لتساعدها على التزين . وجعلت زنوبيا في هزة سرورها تحدثها وهي تمدحها ، فأفضت إليها بحديث أمير شاب جاء إلى أذينة يخطبها منذ أيام . وكانت الفتاة قد تعلق قلبها بشاب مسيحي من جند الأمير . فلم تطرب لذلك النبأ ؛ وعلمت زنوبيا من حديثها بسر حبها] .

عم الفرح أرجاء تدمر عندما ذاع نبأ شفاء أذينة مما ألم به من صراع الأسد ، وأكسبه ذلك الحادث الجليل ذكراً يتردد في أنحاء البلاد بأنه قاهر السباع ، فكانت حلقات الشعب تتجمع أيام الأسواق في رحاب المدينة تسمع قصائد الشعراء وأغاني القيان في مدحه والإشادة بشجاعته .

وجلس في يوم بعد تمام شفائه في قصره يستقبل وجوه تدمر وكبار جندها ووفود قبائل العرب الذين أتوا إليه يحملون هدايا شيوخها ، ووفود مدائن الشام الذين جاءوا يؤدون لأذينة العظيم تحية الولاء لأمير أغنى بلادهم وأكثرها عمراناً ، وكان من بين الوفود جماعات أتوا من الاسكندرية وآخرون من أنقرة ليظهروا لأمير الشرق عرفان بلاد الأمبراطورية الرومانية بمكانته وفضله .

كان ذلك اليوم أسعد أيام (زنوبيا) ، إذ اجتمع لها السرور بشفاء زوجها البطل الحبيب ، وسرور آخر لا يقل عنه بأن ترى تدمر محط رحال وفود أقطار العالم .

وامتلأ قلبها بأملها الأثير أن تصبح تدمر ذات يوم سيدة كل تلك الأقطار وقبلة دولها .

وخرج أذينة في أصيل ذلك اليوم إلى معبد الشمس سائراً في موكب رائع من الجند والوفود على خيل عربية أصيلة ، وكان أهل المدينة كلهم في عيد شامل أبرزوا فيه كل ما عندهم من زينة وثروة ، وأرخوا لأنفسهم العنان في المرح والغناء والقصف ، واختلط مع أهل المدينة في ذلك العيد العميم جماعات من أهل الصحراء الذين جاءوا بقوافلهم إلى تدمر من أطراف السواحل في الجنوب والشرق والغرب ، فكانت طرق المدينة تضم ألواناً من الوجوه ، فيها من كل سن وجنس ، وألواناً من الملابس والأزياء ، بين شملة الأعرابي ، وملاءة الرومي ، وقباء الفارسي .

وفي مساء ذلك اليوم مدت الموائد لإطعام الوفود في إيوان القصر واجتمعت عليها أطايب ما في الشرق وما في الغرب من صنوف الطعام بعضها حضري وبعضها بدوي ،

وقدمت فيها من أطباق الفاكهة ما لا عهد به لأهل الصحارى ، ومن صنوف الحلوى والألطاف ما أدهش ألباب القوم من حضر الشرق والغرب . وجلس أذينة بعد انصراف الوفود والضيوف في جماعة قليلة من أصفيائه وأصحابه وحضرت الأميرة ووراءها وصيفاتها تشار كهم في سمرهم ، كما كانت عادتها من قبل كلما خلا أذينة إلى أقرب الأصدقاء .

وكانت في تلك الليلة باهرة الحسن ، فإن السرور الذي كان يملأ قلبها قد خلع عليها لألاء ساحراً ، فكانت عيناها السوداوان الواسعتان تتألقان بنور البشر ، ووجهها الأسمر الخمري يشع سعادة وفتنة . وكانت تلبس ثوباً من الحرير الأحمر الامبراطوري ، وزينت ذراعيها وأصابعها وصدرها ورأسها بحلي من الذهب الثقيل والجواهر الزدحمة ، ولكنها مع ذلك كانت رشيقة القد خفيفة الحركة أنيقة المنظر .

وتطلعت إليها العيون حيناً وقد بهرها الحسن البارع ، ولكنها ما لبثت أن أغضت إجلالاً لمكانها وهيبة لزوجها البطل الجليل . وقام أذينة يستقبلها باسماً ، ثم أخذ بيدها في بساطة وكبرياء . وقال لها في لهجة المباهاة :

— أميرة الشرق تحية طيبة ! .

فابتسمت ونظرت إليه وأجابته قائلة :

— تحية لسيدي أمير الشرق ، أذينة العظيم .

ثم مالت إليه وقالت بصوت هامس :

— أوشكت أن أقول تحية لامبراطور الشرق .

فتبسم أذينة ونظر نحوها نظرة أودعها ما يحسه نحوها من إكبار لذكائها وغرام بحسنها . ثم جلس وأجلسها إلى جواره ووقفت الوصيفات وراءها يحملن المناديل وقماقم العطور ، وينظرن إليها ينتظرن إشارتها ، وكانت أبرعهن حسناً (ليس) ابنة عامر .

جلس أذينة مع زنوبيا في صدر البهو الفسيح وقد نصب له تخت عال من خشب الأرز الذي جلب إليه من لبنان ، عليه حلية من الذهب في أركانه وفي ظهره على هيئة تماثيل لايزيس إلهة الخصب والطير وأبولو إله الشمس والقوة ، وكانت قاعدتاه الخشبيتان على صورة أسدين رأساهما على هيئة رأس رجل متوج بأكاليل في صورة الحية الملكية المصرية ، وقد وضعت فوق التخت صنوف من الطنافس والمساند المغطاة بنسيج دقيق من الكتان الناعم ، وعليها نقوش ملونة من أشكال الزهر والحيوان .

ووضعت على جانبي البهو أرائك أقل علواً من أريكة الأمير قد زينت كلها بالنقوش وطليت حليتها بأغشية الذهب والنحاس . ووضعت عليها فرش وثيرة ومساند جبة وفراء ناعمة مختارة من الأبيض والأسود والمصبوغ بالأحمر والأصفر . ووضعت عند كل من هذه الأرائك مناضد من الخشب والمعدن مختلفة الرسوم والنقوش .

وكانت المنضدة الملكية قطعة من خير ما أنتجه فن الاسكندرية من الخشب الثقيل المطعم بالذهب والفضة والعاج ، رسمت نقوشها على هيئة سباع وشجر وطير وزهر . وجلس الضيوف حول البهو الفسيح ، فكانوا خليطاً عجيباً من المشارق والمغارب ، فيهم شيوخ من مضر وجرهم قد أتوا من بلاد اليمامة والحجاز ، ووجوه من اليمن قد أتوا مع تجارتهم من أقصى الجنوب ، وفرسان من جنود تدمر يلبسون ملابس تشبه زي الروم وحليهم ، بعضهم من العرب وبعضهم من أهل الشام أو جبال حوران .

وكان بين الحاضرين اثنان من المسيحيين ، أحدهما الزاهد (فليس) في ملابس سوداء خشنة ، والآخر أسقف أنطاكية بولس السمسطائي ، وهو رجل ملء الجسم أحمر الوجه أسود اللحية ، يظهر عليه أنه غير غريب عن حاشية الملوك ، فقد كان أميراً تجبي له أموال من المسيحيين على أنه لهم زعيم ، ولكنه كان يعرف مفاتن العالم ، ويقبل على لذاته ويعرف كيف يجمع بين عز المال والجاه ، وبين رياسة الدين ومظاهر قداسته ؛ وكان إلى يمين الملكة معلمها لونجين ، وهو رجل في وسط العمر ، عليه سيماء الوداعة والسلام ، وتنم ملامح وجهه عن صراحة وقوة نفس وشجاعة وذكاء .

ووضعت على الناضد أباريق الخمر والأكواب بعضها من الذهب لشراب الأمير والعظماء ، وبعضها من الفضة لمن هم دون ذلك من الأصحاب ، وعليها حلى مختلفة ونقوش متنوعة . ووضعت إلى جانب الأباريق والكؤوس صحاف من الفضة مليئة بالفاكهة والثمار والأعشاب المعطرة والأزهار ، وفرشت أرض البهو بأنواع من الطنافس والبسط ، وألقيت بينها جلود فهود وأسود ودببة مما صاده أذينة فى غزواته للوحوش . وكانت بين المقاعد قوائم من المرمر الملون والنحاس الأصفر قد وضعت عليها مجامر الند والعود ، أو تماثيل شتى للآلهة المعبودة عند ذلك من بلاد مصر إلى بلاد الروم .

وأخذ الملك فى الشراب مع أصحابه ، وجعل يحدثهم فى حماسة وبساطة عن صيده ومخاطراته فيه ، وعن حوادث العالم الجليلة التى كانت تلك السنين تضطرب بها ، وجعل الخدم والعبيد يتنقلون خفافاً ليملأوا الكؤوس ويقربوا النقول .

وتدفق الحديث فى غير تكلف ولا حذر ، واندفع فيه أبناء الصحارى الذين لاتعقل ألسنتهم الرهبة ، وشارك فيه من كان هناك من الأمراء والعلماء الذين كانوا من أنداد الملوك . فكان أذينة وهو بينهم محاربا بين محاربين أو صديقا مع أصدقاء ؛ وجرى الحديث على وقاره ممتعاً أعظم الإمتاع للنفوس . وأقبل الجمع على الشراب ، غير أن معلم الملكة وقلبس الزاهد كانا يرشفان كأسيهما كأنهما يريدان المشاركة ولا يحبان أن يغلبهما الشراب ، وشاركت زنوبيا فى الشراب والحديث وبعثت بذكائها ورخامة صوتها روحاً من الطرب كان له حُميا مثل حُميا الشراب .

والتفت الأمير إلى (لونجين) فوجده يذوق الشراب ولا يتجرعه فقال له باسماً :

— مالك أيها الأخ النبيل تحاذر فى الشراب كأنك تخاف أن ينفد ؟

فنظرت نحوه زنوبيا باسمة وقالت :

— إن صديق يرى له رأيا فى الشراب ، هو يضن بذهنه المتوقد أن يعتريه النسيان .

فنظر لونجين إلى الأمير باسماً ثم اتجه إلى الأميرة فى حياء وقال :

— أعرف أن أباريق مولاى لا تفرغ ، وأعرف أن من كان فى حضرة مولاتى لا يبعد عنه الإلهام .

فضحك أذينة ملء صدره وقال :

— لقد عرفت هؤلاء الفلاسفة لا يعجزهم القول .

ثم شرب ما بقى فى كأسه جرعة واحدة والتفت إلى الفيلسوف وقال :

— آه أيها الفيلسوف . إنها رُوى الظمأ وتنعش النفس . إنك لو عرفت الهموم لوجدت فيها شفاءها ، ولو خضت الحروب لعرفت أنها بلسم لجراحها .

ثم التفت لفتة إلى زنوبيا وقال فى تردد موجها الخطاب إلى لونجين :

— ولو عرفت الحب لوجدتها الجرعة التى لا غنى عنها .

فأطرق لونجين واحمر وجهه ولم يجب ، ولكن زنوبيا نظرت إلى زوجها نظرة تنم عن شىء من الدهشة . إنه يذكر الحب فى حضرة القوم كأنه يلهو بذكره

وجالت فى نفسها خواطر مسرعة تمر مرور الريح الثائرة . فلعل الخمر قد فكت عقال لسانه فأطلقته بما كان يخفى فى صدره . أتراه يهاتر بذكر الحب ؟

ولم يفطن أذينة إلى ما بدا على وجه الملكة من الدهشة ، فما ملأ الساقى له الكأس حتى رفعها وشرب منها جرعة طويلة واتجه إلى (بولس) أسقف إنطاكية وقال فى شىء من الخفة :

— وما رأيك أنت أيها الأب المقدس . هل يحرمها عليك دينك كما تحرمها الفلسفة على لونجين ؟

وكان (بولس) يشارك فى الشراب مشاركة الناصح

في أناقة وتظرف جديرين بندماء الملوك . ولما سمع سؤال الأمير نظر إليه باسماً وقال :

— إن ديني لا يحرمها علي ، وإن الاستئناس بمجلس مولاي فوق ما عكن أن تبعثه الكؤوس .

فتحرك أذينة مرتاحاً وقال :

— مرحى لك أيها الأب المقدس !

ثم رفع كأسه وأشار بها نحوه قائلا :

— إذاً فلتشاركني في جرعة على محبتك .

وشرب ما بقي من كأسه ورفع الأب كأسه فشرب منها جرعة طويلة ، وكان في حركته وإشارته ومظهره أنيقاً ظريفاً على كبر سنه .

وجرى الحديث بعد ذلك في بهجة ومؤانسة لم يكن فيه غضبة ولا عتبة . على أن مجراه كان في أعمق المسائل وأجل الحوادث . فاتجه إلى مسيل من الفلسفة وخاض فيه الملم لونجين مع الزاهد والأسقف ، وجعل كل منهم يذكر مذهبه ويدل على صلاحه وسداد الرأي فيه ، إلى أن اختلف الزاهد والأسقف على معنى الثالوث المقدس وبنوة المسيح لله ، فكان (فليبس) الزاهد إذا تكلم احمر وجهه الجعد بالحماسة ومازجه الغضب إذا وجد قوة الحجة في معارضه فقال له (بولص) الأسقف كأنه يثيره :

— أترى أن يكون الخالق هو المخلوق ؟

فتغيرت ملامح الزاهد وهم بالوقوف ثائراً وأجاب في غضب ظاهر :

— كأني بك أيها الأسقف تنكر ألوهية المسيح ؟

فخشع الأسقف وهو يجيب قائلا :

— المسيح مخلوق من روح القدس . أليس الروح من الله ؟

فهم الزاهد بأن يرد وهو ثائر ، فتدخل لونجين في المناقشة وجعل يورد من مذاهب الفلاسفة ما يدل على أن المسيحية متصلة بمذهب صديقه أفلوطين ومذهب معلمه القديم أفلاطون ، وقال في هدوء لم يخل من سخرية :

— إن الحقيقة واحدة قديمة : ولكنا نفهمها على ما تهيئه لنا عقولنا .

وتدخلت الملكة في الجدال دخولاً هيناً لتهدئ من سورته ، وتوفقت بصوتها الرخيم عند ما أحست أن غضبة الزاهد توشك أن تعكر صفاء الحديث ، وتنفست عليها بفكاهتها حتى أذهبت حدتها وأبدلت مرارتها . ثم نظرت إلى الأمير فلحظت ما اعتراه من كثرة الشراب ، ووجدت أن السكر قد غلبه ، فنظرت إلى معلمها كأنها تستعين بحسن رأيه على صرف المجتمعين خوف أن تبدر منه بادرة تؤخذ عليه أو أن يفضي بسر يخشى من ذيوعه ! ونظر إليها المعلم عاطفاً مرتبكا وقد فهم من نظرتها ما أرادت ! وفيما هما كذلك سمعت جلبة تتعالى من فناء القصر ، فأرهف القوم جميعاً آذانهم نحوها إلا أذينة ، فقد مال نحو الكأس التي ملأها الوصيف يريد أن يرفعها ، ثم أحس أن القوم قد أمسكوا عن الحديث ، فنظر نحوهم متسائلا ، وعند ذلك بلغت مسمعه الجلبة ، فبدا عليه شيء من القلق وقال متجهاً إلى الملكة :

— ما هذا الذي سمعت ؟

فقامت الملكة من مكانها ، ونهض الجميع لوقوفها إلا أذينة ، فقد بقي حيث كان ، يتحرك حركة بطيئة كأنه يهم بالقيام ولا يستطيع ، ودخل عند ذلك فارس وحيا ، ثم وقف معتدلاً وقال :

— وصلت الساعة رسالة لمولاي .

ثم انتظر أن يخلو بالأمير . فعرف الحاضرون أنه قد أتى بأمر خطير ، فاستأذنوا وأخذوا يخرجون بعد التحية حتى لم يبق إلا لونجين وقد استوقفته الملكة ليسمع ما أتى به الرسول .

وألقى الفارس رسالته وهي تنبيء من أجل حدث هز الشرق والغرب معاً . قد أسر أمبراطور الروم (فاليريان) وحمله الملك المنتصر (سابور) الفارسي ، وذهب به في الأغلال يعرضه على جنده حيث سار في آفاق الأرض .

(يتبع) **محمد فريد أبو حديد**

كشف كنوز ألدورادو[1]

الزحف إلى الذهب

للأستاذ محمد منير الشوباشي

إذا ساءت حال إنسان فى بلده . وأدّى به الضيق إلى تنكّب الطريق القويم . ودفعه إلى استباحة الجرائر والمعايب . ثم صحا ضميره من سباته ودعاه إلى البراءة من ماضيه . والتكفير عما فرط منه ، وتقويم ما زاغ من أمره ، فهو لا يلجأ فى أكثر الأحيان إلى إرادته يستنجد بها . ولا يعقد العزم على الصمود لنزعات نفسه . وإنما يهتف به هاتف يغريه بالفرار من موطنه ، والالتجاء إلى بلد بعيد . وإلقاء مثالبه وجرائره وراءه . ويحسب أن تغيير ما بنفسه لا يتم إلا بتغيير موطنه ، وأن البلد الجديد سوف يهيئ له حياة جديدة . ويطهر نفسه من أوصاب ماضيه .

رحل « جوهان أو جوست سوتر » من بلده « رونتبرج » مدفوعاً بذلك الدافع ، بل غادر أوربا بأسرها قاصداً إلى أمريكا ليقيم المحيط الواسع حائلا بينه وبين حياته القديمة المهجورة . ركب البحر حوالى عام ١٨٣٤ ، (وكان يومئذ فى سن الثلاثين) تاركا وراءه زوجه وأطفالا أربعة . وانتهى به المطاف إلى مدينة « نيويورك » حيث زاول عدة مهن لم يطمئن إلى واحدة منها . وضاقت به المدينة الفسيحة . وبرم بصخبها وضوضائها . وتاقت نفسه الصديعة إلى الريف . وأهاب به جمال الطبيعة وهدوء الخلاء . فانتقل إلى « ميسورى » . واتخذ الفلاحة مهنة واستطاع بعد مجهود يسير أن يقتنى مزرعة تكفل له معاشاً ميسوراً .

سمع الناس يتناقلون أعجب الأحاديث عن بلاد الغرب . ورأى التجار يفدون من تلك الأصقاع النائية المجهولة ويصفون مناظرها الرائعة . ويذكرون نماءها الطبيعى المهمل . فأخذ روحه القلق يحن إلى المجهول . ويتوق إلى اجتياز الفاوز الشاسعة الآهلة بالهنود الحمر ، والجبال السامقة المكللة بالعشب . وما الذى يعوقه عن بلاد الغنى والجمال ؟ إنه لم يهجر وطنه وأهله ليعيش وسطاً بين الغنى والخصاصة . وها هى فرصة الإثراء مؤاتية . فلم لا يقدم ويحقق أمانيه ويعود سيداً غنياً مهيباً إلى زوجه وأولاده ؟

باع مزرعته وصبر نفسه وانتظر أول ركب متجه صوب الغرب لينضم إليه . وفى يوم من أيام عام ١٨٣٨ استقل مركبة كبيرة تجرها الثيران . وغادر البلد فى صحبة ضابط وسيدتين وخمسة مبشرين . وتنفس الصعداء إذ انبسط أمامه الفضاء الممتد امتداد الأبد . وبهر جمال الطريق المسافرين . وطال السفر وأخذوا يعتادون المناظر المتشابهة حتى ملّوها . وظلت الجبال ترفعهم والوديان تضمهم ، والسهوب تطوى لهم حتى شفّهم الملل والكلال . ووصلوا بعد ثلاثة أشهر انقضت على هذه الرحلة الشاقة المجيدة ، إلى قلعة « فان كوفر » . وماتت إحدى السيدتين من جهد السفر . وكانت بلدة « كوفر » مقصد سائر المسافرين . فاضطر « سوتر » إلى مواصلة الرحلة بمفرده . وعبثا حاول رفقاء الطريق أن يستبقوه معهم . وكم زينوا له المعيشة فى مدينتهم . وكم حذروه أخطار الرحيل بمفرده فى الأقطار النائية الموحشة . ولكن بلاد « ألدورادو » كانت شغله الشاغل . وكان كلفه بها قد جرى فى دمائه . فركب لها البحر . ثم قطع فى سبيلها جانباً كبيراً من « ألاسكا » على ساحل المحيط الهادى . وتجشم السرى ، وعانى الطوى حتى وصل إلى ثغر بسيط قائم على المحيط ، تائه بين صحراوى الأرض والبحر يدعى « سان فرنسيسكو » . وليس بين ذلك الثغر القديم وبين مدينة « سان فرنسيسكو » المزدهرة فى هذا العصر وجه للمشابهة . وإنما كان موطن بعض صائدى

---

(١) هذا الفصل مقتبس من كتاب الكاتب « بليز سيندرارز » عن تاريخ حياة « جوهان أوجوست سوتر » .

الأسماك تابعاً لولاية «كاليفورنيا المكسيكية». تلك الولاية المهملة، رغم أنها أخصب ولايات القارة الجديدة تربة، وأغناها موارد طبيعية.

ما جال «سوتر» في تلك البقاع. ونزل وادي «سكرامنتو». ورأى الأشجار الباسقة والأعشاب الكثيفة حتى وثق من شدة تلك الأرض البكر. وأيقن أن قطوف آماله دانية. وأنه لا يستطيع أن ينشيء في تلك الربوع مزرعة مثمرة فحسب. ولكنه يستطيع أن ينشيء فيها مملكة مترامية الأطراف ينصب نفسه عليها ملكاً.

وعاد من جولته جذلاً راضياً. وقابل حاكم الولاية، وصارحه بما اعتزم من وضع يده على وادي «سكرامنتو» وتمهيده للزراعة والاستغلال. فوافق الحاكم على المشروع ووعد برعايته وتأييده. ونشط «سوتر» للعمل، فاستأجر عمالا وطنيين، واقتنى خيولا وماشية وآلات تجارة وزراعة. وسار إلى بلده الجديد على رأس موكب كبير قوامه ثلاثة أتباع من الأوروبيين. ومائة وخمسون خادما وطنياً. وثلاثون عربة محملة أنواع الميرة والذخيرة والآلات المختلفة، وخمسون حصاناً، وعدد عديد من البغال والثيران والبقر والخرفان. وحط الرحل على شاطئ نهر مسجور. حيث قامت المستعمرة الجديدة التي أطلق عليها «سوتر» اسم «هلفشيا الجديدة» تخليداً لذكرى بلاده العزيزة عليه.

أشعل النار في الشجر. فاندفعت ألسنتها مع الرياح والتهمت الغابات الشاسعة، وانكشفت الأرض بهذه الطريقة الهينة منبسطة صالحة للزراعة. ودار العمل فقامت المنازل الخشبية وتكاثرت، واتسعت رقعة الأرض المزروعة، وتوالت المواسم وتضاعفت، وأثمر المجهود المبذول، وأربى نجاحه حتى جاوز الأحلام والأطماع. ولكن «سوتر» لم يشبع ولم يهدأ، وواصل الجهاد. فجاء بأشجار الفاكهة من البلاد النائية، وزرع منها مساحات مديدة، وجلب أحدث الآلات البخارية المعروفة، إذ وجد الأيدي العاملة والبهم لا تكفي العمل الكبير ولا تسعف، وأثث منزله برياش فاخرة طلبها من باريس. ودفع عن كل شبر من أرضه غارات الهنود الحمر واللصوص الطامعين في ماله، ولم يمر على هذه الحال عشرة أعوام حتى صار من كبار الأثرياء، وذاع اسمه بين بيوت المال الكبيرة في أوروبا، وتوهم أن العمل إذا سار على هذا المنوال من التقدم والازدهار فلن يلبث أن يصير أغنى رجل في العالم، ولما استراح إلى هذه الآمال، عاودته بعد الأعوام الطويلة ذكرى زوجه وأولاده المهجورين في أوروبا، فكتب لهم يدعوهم إلى اللحاق به.

* * *

في ليلة من ليالي يناير سنة ١٨٤٨ جاء «جيمس مشيل» النجار إلى سيده «سوتر» ممتقع اللون مضطرباً، وقدم له حفنة من التبر المخلوط بالتراب، وأخبره في صوت متهدج بأن بريق هذا المعدن الوهاج خطف بصره أثناء قيام العمال بحفر قناة في مزرعة «كولوما». واحتبست أنفاس «سوتر» واختلج قلبه لشدة وقع النبأ، ولم ينتظر الصباح لينتقل إلى تلك المزرعة النائية، بل جرى إلى عربته في غير وعي، وركبها إليها غير عابيء بهول الظلام وعصف الريح في تلك الليلة الشاتية الداجية، وطار النوم من عينيه، ولم يكف أثناء الطريق عن مناجاة نفسه. سيصير إذاً أغنى رجل في العالم. بل سيصيب غنى لم يصبه أحد قبله، ولن يصيبه أحد بعده. فمن ذا الذي يملك أراضي شاسعة كأراضيه؟ وما هي هذه الأراضي تحوي تبراً خالصاً؟ من الذي يتدفق الذهب من بين أصابعه هذا التدفق؟ هل من شك في أنه أغنى أغنياء العالم؟

وصل إلى «كولوما» في الصباح، وأسرع إلى المكان المسحور. وفتح العمال سدود القناة فتدفق منها

الماء حتى ظهر قاعها الرملي . انحدر « سوتر » إليه . وأخذ منه حفنة ما تأملها في كفه حتى تلألأت ذرات التبر الخالص . وتلفت حوله فرأى رجاله متكأ كثين عليه يستطلعون رأيه فيما رأى . فلم يحاول تمويه الحقيقة ، واستحلفهم بشرفهم أن يكتموا الأمر حتى يغربلوا التبر وينقلوه إلى مكان أمين ، ووعدهم بالجزاء السخي في حالة برهم بيمينهم .

ثم عاد إلى عربته . واستوى فيها ساهماً . وظهرت عليه سيماء الجد والوقار . وقفل راجعاً بها إلى داره . وطال به الطريق . وأبطأ الزمن . وافترست روحه أطماع عنيفة لا قبل لإنسان بها . وعاد إلى مناجاة نفسه : أهذا الكنز ملكي حقاً ؟ ! أأنا أغنى أغنياء العالم ؟ !

ولكن هل قدر له حقاً أن يصبح أغنى أغنياء العالم ؟ لا . بل أشقى من في الوجود ، وأشدهم فقراً ، وأولاهم بالشفقة والرثاء .

حدث له ما لم يحدث لغيره من الناس . وقع ما لم يقع نظيره في التاريخ . فقد ذاع خبر منجم الذهب . وهل يمكن أن يبقى مثل هذا النبأ مكتوماً ؟ تناقلته الألسنة . وانتشر انتشار البرق في سهول « سكرمنتو » . لجن جنون القوم ، واندفع خدم « سوتر » وصناعه وزراعه إلى « كولوما » تاركين خلفهم أعمالهم وصناعتهم ومهنهم ، حاملين ما حصلوا عليه في لهفتهم وعجلتهم من غرابيل وأوعية لغربلة التبر وحفظه . وفي بحر ساعات قصيرة ، أضحت مزارع « سوتر » الآهلة قاعاً صفصفاً . وتلف أكثر ما فيها ونفق . فالبقر الحلوب لم تجد من يحلبها . فانتفخت ضروعها حتى تفزرت . وجاهت الماشية لحطمت قيودها وجرت وراء أكلها في الحقول . فدهست الحرث وأتلفته . وتعطلت مصانع الجبن وآلات الفلاحة والري . وفسدت الأنبار ، وعم الخراب .

ولم يقف نبأ العثور على الذهب عند حدود كاليفورنيا ، وإنما تعداها إلى الولايات المجاورة . ثم شغل جميع أنواع المواصلات ، فاهتزت به أسلاك البرق ، وجرى به سعاة البريد . وتناقله الراكب والراجل . وطوى البلاد واجتاز البحار . ووصل من أمريكا إلى أوربا . فبدأ الزحف العام إلى الذهب . وتجمع الناس من الشرق والغرب . ومن كل حدب وصوب . من كل ضارب في الأرض بقدميه ، ومن كل فارس أو راكب عربة ، وانقضوا على « كولوما » في صفوف متزاحمة متسابقة لا ترى العين آخرها .

وتوزعت هذه الجموع المحتشدة . هذه الأمم المتنوعة الأجناس ، المختلفة الأشكال والألوان ، الناطقة بكل لسان ، في ضياع « سوتر » ومنازله ، فاكتسحتها في طريقها ، ولم يردعها رادع من قانون ، أو وازع من ضمير أو إقرار حق ، أو عاطفة إشفاق ورحمة ، وإنما استماتت في سبيل الوصول إلى الذهب ، غير معترفة إلا بحق القوة والغصب ، أو خاضعة إلا لعاطفة الأثرة والجشع .

نزل هذا الجمع ربوع « سوتر » عنوة واقتداراً ، واحتلها احتلالا ، وقطع شجر الفاكهة ليبني منها منازل تؤويه ، واقتحم المخازن فنهب ما تحتويه من فاكهة وجبن وسمن وحب ، وذبح الماشية والتهمها ، وشق وجه الأرض حفراً كأنما هي أرضه ، ونقب عن الذهب في كل مكان ، وقلب كل حجر ومدر ، وعاث في الربوع الخصيبة حتى أجدبت .

ولم يقف الهرج والمرج عند حد . بل ظل الخطب يفدح والكارثة تتفاقم ، فقد تألفت الشركات لتوفير وسائل جديدة للتنقل . وأخذ بعضها في مد سكك حديدية من شرق الولايات المتحدة لغربها . وفي بناء سفن تدور بركابها حول رأس هورن . وصار لاسم « ألدورادو » وقع كوقع السحر . ومرت الأيام وسيل أولئك الوفود يشتد ، حتى خشيت الدول أن تتحول رعاياها إلى غرب أمريكا ، وتترك أوطانها خاوية على عروشها . وانقلبت الهجرة إلى

غزوة استباح فيها الغزاة البلاد المغزوة . فاغتصب أتوباؤهم أراضي « سوتر » وأخذوا يبيعونها لضعفائهم . كأنها هي حلال لهم . وقامت على أنقاض « سان فرنسيسكو » — ذلك الثغر القديم الذي سبق لحكومة المكسيك أن نقلت إلى « سوتر » حق ملكيته وملكية الأراضي المحيطة به — مدينة عظيمة زاهرة . وضاع وسط طوفان الغاصبين اسم « هيلفيسيا الجديدة » كما ضاع حق مالكها .

حاول « سوتر » المسكين أن يشارك الغاصبين في الحصول على شيء من تبره الدفين . وطلب عون أتباعه القدماء . فازوروا عنه وأهملوه . ولم يهتم أحد منهم إلا بشأنه . وضاع المسكين في معمعان النهب والسلب . وهجر أراضيه وهو يستنزل اللعنة على الذهب ويوم ظهوره في قاع الجدول المشئوم . ولاذ بمزرعة نائية مهجورة صفر اليدين . يكاد يستجدي السابلة . فصار مثل « ميداس » الذي اختنق بالذهب الذي تمناه .

ولحقت به في ذلك الأوان زوجه وأولاده ، وكأنما جاءوه بالعهد القديم وما اشتمل عليه من إملاق وشقاء . ولم تلبث الزوج المسكينة أن لقيت حتفها من شدة حزنها على النعيم المفقود . ولم يطل عهد النكد والضيق . إذ وجد « سوتر » في أولاده شبابه المتجدد . واعتمد على سواعد أولئك الفتيان الثلاثة في إدارة مزرعة جديدة . واستعان بأعضادهم القوية على حرث الأرض وتربية الماشية ؛ ولم يلبث اليسر أن والاه بعد العسر ، بفضل خبرته ومثابرته وخصوبة أرضه

* * *

انسلخت كاليفورنيا عام ١٨٥٠ من المكسيك ، وانضمت إلى حكومة الولايات المتحدة . وكان لمنجم الذهب الفضل الأول في هذا التغيير السياسي . لأن المهاجرين من ولايات الغرب أربوا على عدد القاطنين الأولين ، فصاروا حزب الأكثرية . وآثروا الانضمام إلى بلادهم الأصلية . وسارعت حكومة وشنطن إلى القبض على ناصية الحال في تلك المقاطعة الهائجة المائجة . وقضت على الفوضى ، فاسترد القانون سلطانه . وتوطدت دعائم النظام . وخفت وطأة حمى الذهب .

وما فتحت محكمة « سان فرنسيسكو » أبوابها حتى كان « جوهان سوتر » أول عميل من عملائها . ادعى أنه مالك المدينة وتخومها وضواحيها وما جاورها من البساتين والحقول الممتدة حتى سفوح الجبل . وقاضى عشرات الآلاف من الملاك مطالباً برد ما اغتصبوا من أملاكه ومن تبر مناجمه ، وبتعويضه عما تلف من مصانعه الكبيرة ومحصولاته الوفيرة ، وبساتينه الزاهرة ، وسواقيه التي لاتعد ، وأرسل ابنه الأكبر « أميل » إلى واشنطن ليدرس القانون . ثم باشر بنفسه هذه الدعوى الكبرى حتى يأمن خيانة المحامين ، وطالت إجراآت التقاضي ، واستمر نظر الدعوى أربع سنوات .

وفي ١٥ مارس سنة ١٨٥٥ صدر الحكم في الدعوى ، وجد « طومسون » القاضي العدل الذي لم يستخفه وعد ، ولم يرهبه وعيد ، أن « سوتر » محق في مطالبه ، فقضى له بها . فانتعشت الآمال بعد مواتها ، وإذا بالحظ يعود إليه بعد النحس ، وإذا بالذهب يرجع بعد اليأس منه ، وإذا به يصل إلى هدفه .

عاد قلبه إلى الخفوق ، وأعصابه إلى الاختلاج . ها هو في هذه المرة أغنى أغنياء العالم بغير منازع ... ولكن هل رضي القدر بتحقيق هذه الأمنية الكبرى ؟

أغنى أغنياء الأرض ؟ ! كلا . وكلا . بل أشأم أهل الأرض طالعاً ، وأنكدهم حظاً ، وأكثرهم بلاءً .

قوبل حكم القاضي « طومسون » بالسخط العام . وأخذ الجريء من القوم في إعلان تذمره . فثار العامة الذين اعتادوا منذ استوطنوا « كاليفورنيا » أن يعبثوا بمبادئ القانون ، ويستخفوا بحرمة الحق والعدل . وحال

التذمّر إلى تمرد . وخطر لبعض الموتورين أن يتوجهوا إلى دار المحكمة محتجين . وساروا في مظاهرة ابتدأت هينة الخطب . ولكنها تطورت فصارت خطيرة غير مأمونة عن انضم إليها من الرعاع الذين يحفلون أبداً بالقلاقل والثورات . ليُبرق لهم الصيد في الماء العكر . وألقوا الوقود في النار بهتافهم الصارخ ضد الحكم الظالم . وبندائهم الحار بسقوط محكمة الطغيان . وهرع الناس إلى المظاهرة من كل ناحية . وانضووا تحت لوائها . ودبّت في أعصابهم كهرباؤها . واستفحل أمرها واستشرى حتى استحال إلى ثورة عامة . وأخذت الجموع المتكاثرة تموج كالبحر الزاخر . وتهدر هدير موجه الثائر . وتتوق إلى العدوان والإتلاف . ووصلت إلى المحكمة فأضرمت فيها النار . وتهجمت على القاضي الوقور فأوسعته إهانة وضرباً ، حتى كادت تقضي عليه . ثم غادرت المحكمة فريسة للنيران واندفعت إلى مزرعة « سوتر » الجديدة . وجرفت في طريقها كل ما صادفها من ماله ومتاعه حتى بلغت داره فحاصرته . وما رآها الرجل وهي مقبلة حتى أدرك العاقبة . وحاول الفرار وأولاده . فلم يقره على هذه الخطة إلا أصغرهم ، وأبى الآخران إلا أن يصمدا للثائرين . ويدافعا عن حق أبيهم . ويقنعاهم بوجهة نظرهما . وحسبا أمر إقناعهم سهلاً ، إذ كيف لا يقتنعون والحق ظاهر ؟ أليس لدى أبيهما حجة شرعية بملكية الضياع المتنازع عليه ؟ ألم يقم بإصلاح هذه الأراضي شبراً شبراً حتى أخصبت واخضلّت ؟ ألم ينفق شرخ شبابه ويستنفد قواه في العمل الشاق المضني ، حتى وطدّ هذه المستعمرة الزاهرة ؟ أفقد هؤلاء القوم كل شعور بالعدالة ؟ أأقفرت قلوبهم من كل عاطفة انسانية ؟ أماتت ضمائرهم في جنوبهم ؟

وجابه أحد الأخوين الجماهير الحانقة . وبدأ يؤيد حق أبيه . ويسفّه ثورتهم الآثمة . فضاع صوته بين الصخب الداوي ؛ وأخذ الرعاع يرجمونه حتى سقط مضرجاً بدمه ، وخطا الحانقون على جثته وهم يقتحمون الدار . ورأى الأخ الثاني أن يموت بيده فانتحر ، وأشعل الهاجمون النار في المنزل المخرب بعد أن نهبوا كل ما حوى من رياش ومال . وحطموا أثناء عودتهم كل ما بقي قائماً سليماً في المزرعة . وبقروا بطون شائها وماشيتها ، وغادروها يباباً بلقعاً . وكان « سوتر » قد تمكن من الهرب مع ابنه الثالث الذي لحق بأخويه ، إذ مات غرقاً في طريق أوبته إلى مسقط رأسه .

* * *

لم يشف « سوتر » بعد فقد زوجه وأولاده وماله . من هول كارثته بقية لياليه ، ولم ينهض موتور من كبوته . فقد قسم الهم كاهله . وطمس عقله الذي لم يبق منه إلا خلية واحدة سليمة تجنح إلى ناحية واحدة من التفكير ، إلى ناحية حقه المهضوم ، والقضايا التي سوف يرفعها لاستعادته

وعرفت مدينة « وشنطن » شيخاً هرماً يرتدي « ردنجوت » رثاً وجوارب ممزقة ، ويطرق في هيئته الغريبة أبواب المحاكم والمجالس النيابية والوزارات ، ويطالب بملايينه المغتصبة ، فقضى ثلاثين عاما يسعى وراء هذه الملايين من غير أن يكلّ أو ييأس ، وعرفه الناس باسم « الجنرال » واتخذه كل هازل ماجن موضوع مفاكهته في مجالس اللهو والمجون ، وكانت الحكومة تمنحه إعانة شهرية صارت من رزق المحتالين الذين أدخلوا في روعه أنهم قادرون على تحقيق مطلبه العزيز المنال

ظل هذا الصعلوك صاحب الملايين يجري وراء سراب لامع ، لا يرى أو يسمع أو يعي غيره ، حتى توفي على عتبة مجلس النواب في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ ، وحمله بعض المارة جثة هامدة ذابلة وفي جيب ردائها حجة تثبت امتلاكه مدينة تعد عاصمة الولايات المتحدة الثانية ، وولاية هي أغنى ولايات الأرض

محمد منير الشرباشي

«رغبة الخلود»

(إلى طلبة كلية الآداب الذين سافروا في رحلة الآثار إلى الصعيد)

للأستاذ محمد مندور

لم يكن باستطاعتي أن أجيبكم لساعتي إلى ما طلبتم من رأيي كلما زُرنا بأثر مما خلف أجدادنا، وأنّى لي بالعبارة عما كنت أحس، والاحساس لا يسكن إلى لفظ أو يتناوله التفكير فيحيله رواسب عقلية. ولقد كان مثلي مثل من يُنزل به حادث جلل فيذهله عن نفسه، ولكنه لا يفطن إلى مداه حتى يصبح شعوره مادة لتفكيره، فعندئذ يعمق ذلك الشعور وإن هدأت ظواهره، وعندئذ تمكن العبارة عنه وإن اشتد تأصله بالنفس، وعندئذ يستحيل الاحساس معاني عقلية يمكن أن أحدثكم عنها.

ولقد سرت إلى آثار أجدادي ونفسي أسيرة لجمال ما رأيت ببلاد اليونان، وقد زرتها بعد أن قرأت من آدابها ما أيقظ الرغبة في رؤية ما خلف ذلك الشعب الذي بلغ حبه للجمال حد العبادة؛ فعندهم نشأت الفنون كما نشأت عند أجدادنا في كنف الآلهة، ولكنهم لم يلبثوا أن تخطوا العبادة إلى الجمال، فاستقلت الفنون واكتشفت قيمها بذاتها؛ وأي عبادة في تماثيلهم التي تغص بها متاحف العالم؟ ولعلكم ذاكرون كيف أقاموا للنصر على الفرس تمثالا في صورة فتاة هيفاء، جعلوا لها أجنحة من مرمر، ثم قصوا تلك الأجنحة ليظل النصر بديارهم، ولهذا التمثال أقاموا معبداً رشيقاً إلى جوار مدخل «الأكروبل»، لا يزال إلى اليوم يحمل ذلك الاسم الجميل «النصر المهيض الجناح».

ببلاد اليونان سمعت الأحجار تقص من الماضي أجمل القصص، ولقد تنكر من قبلي أناس لماضيهم، وقد أخذهم سحر «الأولب»، فألقى «رينان» مسوحه ليخف إلى قمة الأكروبل يضرع بالصلاة إلى آلهتها، وقد صدف عن أنشودة الأناشيد ليستمع إلى ربات الشعر، وغادر قباب الكنائس القوطية ليأوي إلى أبهاء المعابد الدورية، وهاجر «بيرون» من بلاد الضباب إلى بلاد الضوء ليريق دمه في سبيلها، وفي جمال آلهة فتونهم ما يغري، ولكني — أيها الشباب — موزع النفس، وبي حنين إلى تراث أجدادي.

وتراثهم ككل تراث أشبه ما يكون بصفحة كتاب جيد يقرؤه فرد فلا ينفذ إلى غير معانيه القريبة، ويقرؤه آخر فيحمل إليه كلُّ لفظ فيضاً من حس أو قبساً من معنى. وما بالصفحة من غنى أو فقر إلا بقدر ما بنفس هذا القارئ، أو ذاك؛ فالأمر فيها كما فيما عداها أمر تجاوب بين النفوس واستطراق لحمولها. ولكم من زائر لا يفهم للحجارة لغة، ولا يحس جرساً، لأن نفسه هواء، ولكم من زائر يرى في كل شجرة زيتونة مقدسة، وفي كل واد مستقراً للملوك. وحضارة أجدادنا تسمو إلى آلاف السنين والزمن عادية تذهب بكل شيء، حتى لقد اضطر كبير آلهة اليونان أن يقتل أباه كرونوس (أي الزمن) ليفلت من الفناء؛ ولهذا لم يصل لنا من آداب أجدادنا إلا القليل مما نقشوا فوق الحجارة. وأما اليونان — وأقدم ما كتبوا لا يرجع إلى أبعد من القرن العاشر قبل الميلاد — فقد انتهى إلينا الكثير من تراثهم العقلي نقرؤه اليوم فيهيء بالنفس ذلك الجو الذي تنطق فيه الحجارة.

ولكني لا أكذبكم أن ما رأيت من معابد أجدادنا

قد ترك بالنفس أثراً ما أظنه سيزول يوماً ما ، وكيف يزول أثر ما صدر عن الخلود وفيه تتركز مُثُل فنهم ؟ شغفوا بخلود الروح واتخذوا إلى الخلود سبيله ، وها نحن لا نزال إلى اليوم حيارى ، لا ندرى على أى حال ستعود أرواحنا ؟ ألى أجسام من نور أم إلى ما سوف يبعث من رفات يوم تنشر القبور ، وأما أجدادنا فقد استقر رأيهم على عودة الروح إلى ما تأثرت من جسم ، فحاولوا الاحتفاظ به ، وإلى جانبه أقاموا ما نرى من تماثيل تسكن إليها الروح إن أخطأت جسمها ؛ ومن هنا جاء حرصهم على مشاكلة التمثال للجسم حتى لا تضل الروح ، فجاء فنهم على ما هو عليه من واقعية .

إلا أنهم لم يقفوا فى فنهم عند حد المنفعة أو الضرورة ولو أملاها الإيمان ، فالتمسوا الجمال لذاته كما التمسه اليونان من قبل ؛ ولعلكم تذكرون ما حاولنا سويا أن نتبين السر فيه مما يسميه علماء الآثار « قانون الجبهية » فيما نقشوا على جدران القبور والمعابد من صور ، حيث رأينا الجسم وقد صور صدره كأنه يواجه الناظر ، بينما صور الوجه والقدمان والبدان كأن الناظر يراها من جنب ، وهذا وضع مستحيل يفسره حرصهم على إظهار ما فى الجسم من جمال الخطوط ، وقد اتسع الصدر لينحدر إلى الخصر الناحل ، ولاحت معالم الوجه أجمل ما تكون فى مقطعها الجانبى ، وانبسطت الأقدام ، كما لاحت أصابع اليد ممتدة الطول دقيقة الملتقى مسحوبة الأطراف على نحو ما نرى عند كل أصيل عريق من الناس .

ولعلكم تذكرون كيف كنا نتساءل : أكانت هؤلاء القوم جميعاً شباباً ممشوقى القد حتى تقام لهم كل تلك التماثيل ، فلا نجد بينها تمثالاً لشيخ قبل عصر صان الحجر ، ولا لمريض ولا لذى عاهة إلا ما ندر ، وفى هذا أيضاً رأينا جنوحاً منهم إلى الجمال وتخطياً لضرورة الدين . ومن يدرينا ؟ لعل أرواحاً منهم دفعت ثمن هذا الشغف بالجمال فضلت عن جسمها ، وظلت إلى اليوم حائرة تصيب بأذاها كل من تمتد يده إلى مأواها بسوء ، على نحو ما كانت تهيم أرواح اليونان إذا لم تُوارَ تراب الوطن .

ومراكب اليم التى رأيناها على جدران معبد الأقصر ، أما تذكرون تلك المحاولة الساذجة المؤثرة التى لجأوا إليها ليرضوا رغبة الناظر فى رؤية الأشياء ، وقد تتابعت فى المدى بعضها خلف بعض ، وقد التوت بهم سبل الفن فعجزوا عن الفطنة إلى استخدام نسب الأحجام وتوزيع الضياء والظلال والألوان وأنصافها ، فعبروا عن المدى بوضع القريب تحت البعيد ، على نحو ما رأينا من رجال على الشاطئ ، يجرّون مراكب الموكب المقدس ، وقد انطلق من الكرنك إلى الأقصر ، ومن فوقهم نيلنا الجليل ، والمراكب تخوض أمواجه . أليس فى ذلك حرص منهم على جمال النسب والأبعاد ؟ أليس فى ذلك إحساس فنى خالص بوجهة نظر الرائى ، على نحو ما كان يفعل الاغريق عندما عالجوا خداع الحواس فى معابدهم ، بأن أقاموا آخر عمود من أبهائهم مائلاً قليلاً إلى الأعمدة الداخلية ، حتى لا يلوح للرائى كالذاهب إلى الفضاء ، أو عندما زادوا قليلاً فى محيط الأعمدة كلما ارتفعت ، حتى يراها الرائى متساوية من أسفل إلى أعلى .

وفى وادى الملكات ، أما تذكرون تلك الأميرة الجميلة التى صوروها بتلك الألوان النضرة ، وفى ملامحها الأعلى الجمال ما لا زال يؤمن به أرقى القوم ذوقاً بأوربا اليوم ؟ وهل بعد هذا الخصر الناحل وتلك الصبغ الجميلة الاستدارة وذلك الثوب الأبيض الشفاف الذى يخون معالم الجسم من جمال . وهبهم لم يفطنوا إلى استخدام توزيع الضوء ، وهبهم لم يلتفتوا إلاّ إلى تدرج الألوان واستخدام أنصافها . ترى أذهب كل ذلك بشىء من جمال ما رأينا ، وفى تخطيطهم له بساطة وتناسق فى النسب يهدأ إليها كل بصر ؟

لقد كان أجدادنا أشد شعوب الأرض تديناً ، وكانوا من أحرص الناس على التقاليد القديمة ، وفى ريفنا اليوم

هذا الخلق ، وفى أشرف أمر أوربا وأعرق أممها مجداً نفس النزعة ، وإلى اليوم لا يزال الانجليز يعلنون موت ملكهم وقيام خلف له بأصوات المنادين فى الطرقات أو على ظهور الخيل ، رغم ما وصلت إليه المدنية الحديثة من سبل الإذاعة ؛ ولهذا ظل فن أجدادنا حبيس أصوله الأولى ، ولهذا عند ما تطورت دياناتهم من عبادة الحيوانات لذاتها أو لما ترمز له من صفات ، إلى عبادة بشرية ، لم يجدوا سبيلاً إلى التوفيق بين أصولهم وما صاروا إليه غير الجمع بين رؤوس الحيوانات وأجسام البشر .

لم يستطع فن أجدادنا الخلاص من الدين ، ولم تستطع نفوسهم أن تتحرر من القديم ، وطغت رغبة الخلود على كل حياتهم ، فجاء فنهم أبعث للروعة منه للجمال ، وأعوزته حرية الخيال وانطلاق النفس وراء الجمال ؛ وظل دينهم صلباً قاتماً كمابدهم تتدرج فيها من فناء إلى بهو أعمدة إلى قدس أقداس ، وكلما سرت من جزء إلى جزء ارتفعت بك أرض المعبد وازداد الظلام من حولك .

فيا عجبا ! أما من سبيل إلى التماس الضوء واضحاً ؟ أما من سبيل إلى تحرير نفوسنا ؟ أما من سبيل إلى التماس الجمال لذاته ؟

وقف خيال أجدادنا عند ما حولهم من جماد أو حيوان ، فعبدوه رغبة أو رهبة ، بينما خلق اليونان آلهتهم خلقاً وخلقوهم على شاكلة البشر ليكونوا ألصق بهم وأقرب إلى قلوبهم ، فآلهتهم تأمل وتفرح ، وتقتتل وتتصافى ، وتتحاب وتتعادى كما يفعل البشر سواءً بسواء .

رهب أجدادنا ما حولهم أو التمسوا فيه صفات أعوزتهم فعبدوه ، وشل ذلك من حياتهم ، بينما ملأ اليونان ما حولهم بعرائس الخيال ؛ فى الجبال والأنهار والوديان والجداول وينابيع المياه ربات تشدو وترقص ، ولكلها ما للبشر من صفات ، فى الوجود كله معان بشرية حملت العلماء على تسمية آدابهم بالآداب الإنسانية .

ولهذا أخشى أيها الشباب أن يكون فى حرية خيال اليونان وعبادتهم للجمال وفطنتهم لمرونة الأوضاع ورشاقة الحركة وتوزيع الضياء ، ونفث الحياة فى الحجارة وخلع المعانى الانسانية على الطبيعة ، ما لا يزال يكمن بين أعماء نفسى ، وقد خلقت حراً أحب الحياة وتهتز نفسى لجمال الوضع وجمال الحركة .

ولكنى كلما ذكرت وطأة الزمن وهول الفناء وعطشنا إلى الخلود ، عدت إلى جوار أجدادى ، ووددت لو استطعت أن أركن إلى أمل كأملهم وفيه ما يسحر الخيال ، وقد عشقت النفس سجنها حتى لترجو أن تعود إليه لتفر من فراغ الوجود المطلق ، وقد انتشر من حولها ما ألفت فى دنياها . وللجمادات روح تلصق بروحنا فتحملها على المحبة .

وهذا خلود تهدأ إليه حواسى ، وقد أحاطته صور الحياة من كل جانب ؛ فهذا قلمى وهذا كتابى وذاك معولى وذاك محرائى ؛ فأى نشوة تستشعر النفس عند ما تتعرف إلى ما عهدت وتجد ما فقدت ، وقد أمنت غوائل الفناء ووحشة الخلود المجرد .

لقد صاح من قبل بقلوب الشعراء صائح : « أنه يتحطم الناى ستتحطم نغماته » واهتزت لذلك أفئدة لا ترى الجمال فى غير ما هو فان ، حتى لكأنها تعشق ذلك الفناء ؛ فالوردة تطربهم لما هى سائرة إليه من ذبول ، كما يخفقون لاستنشاق أول نسمات الربيع لأنها لا تدوم . ولكم من صوت ارتفع يشكو أبدية الطبيعة التى نفنى نحن البشر تباعاً بين أحضانها ؛ ولكنى لا أدرى كيف يكون منطقهم لو أنهم آمنوا بما آمن به أجدادى من خلود الحياة ! وأكبر ظنى أنهم ما رهبوا إلا ذلك النوع من الوجود الذى تخلو فيه النفس لذاتها على نحو ما يقول « فرلين » : « ما أشقه ألماً ذلك الذى نجد عند ما يخلو القلب من كل حب أو بغض » .

محمد مندور

٢ - نقد لا يقره أدباء مصر

بقلم الأستاذ مصطفى مشرفة

هذا من جهة الصياغة واللغة في الشعر الغربي . أما من جهة الهيكل والمادة فالوحدة الفنية شرط أساسي فيهما ، وهي من الأهمية بحيث تكون أول ما يحتمه الذوق الغربي في القصيدة التي يشترط فيها أن تكون وحدة فنية قائمة بذاتها ، وأن يكون لكليتها أثر أكبر من أثر مجموع أبياتها إذا أخذ كل على انفراد ؛ هـذا التأثير الـكلي يجب أن يتوزع توزيعاً يتناسب مع طول القصيدة ، وأن يستمد من هيكلها ومادتها أكثر مما يستمد من مفردات أبياتها .

القصيدة إذاً كعمل فني لا تشـبه باقة من الورد يكون جمالها إلى حد ما في مجموع جمال فرادى وردها ، بل تشبه شجرة ورد حيث الجمال في مجموعة ساقها وأغصانها وورقها ووردها ، كل هذا مصوغ في هيئة شجرة .

يصعب علي أن أضرب هنا مثلا إيجابياً من الشعر العربي لأوضح به هـذه النقطة ، لذا أكتفي بالأمثلة السلبية الآتية :

ا — كل قصيدة عربية تبتدئ بغزل وتنتهي بمدح تنعدم بذلك وحدتها .

ب — الأبيات الآتية للمتنبي في وصف « بحيرة طبرية » جمالها من نوع جمال باقة الورد ، لا من نوع جمال الشجرة ، لذا فهي ليست بقصيدة ، بل هي مجموعة من الأبيات الشعرية كثير منها يروق للذوق الغربي .

(١) لولاك لم أترك البحيرة والـ
غور دفيء وماؤهـا شبم

(٢) والموج مثل الفحول مزبدة
تهدر فيهـا وما بها قطم

(٣) والطير فوق الحباب تحسبها
فرسان بلق تخونها اللجم

(٤) كأنها والرياح تضربهـا
جيشا وغى هازم ومنهزم

(٥) كأنها في نهـارها قمر
حف به من جنانها ظلم

(٦) ناعمة الجسم لا عظام لها
لها بنات ومالهـا رحم

(٧) يبقر عنهن بطنها أبداً
وما تشكى ولا يسيـل دم

(٨) تغنت الطير في جوانبهـا
وجادت الروض حولها الديم

(٩) فهي كماوية مطوقة
جرد عنها غشاءها الأدم

والدليل على عدم وحدتها أن من الممكن أن تقرأ أبياتها بالترتيب الآتي مثلا .

١ ، ٨ ، ٩ ، ٣ ، ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٥ ، أو ١ ، ٦ ، ٧ ، ٢ ، ٤ ، ٣ ، ٥ ، ٩ ، ٨ .

وغير هذا الـكثير من التباديل ، ومع ذلك فالوصف مستقيم والجمال غير ناقص ، هذه العملية لا يمكن إجراؤها على قصيدة جيدة غربية من تسعة أبيات لشاعر من الدرجة الأولى من غير إتلاف هيكلها .

هذا مجال ضئيل لا مناص منه ولا من ضآلته ؛ فقد حتم ضيقه واختصاره أنني أكتب في مجلة ؛ وحتم كتابته رغبتي في أن أبين القواعد التي أحكم بها على شعر التونسي

حتى يحكم القارئ لنفسه إن كانت مقدماتى تؤدى إلى نتائجى أم لا

وحتم كتابته أيضاً كرهى لأن يقتصر النقد على «ما أجمله» و «ما أقبحه» وعلمى أن الزجل والعامية من ناحية ، والشعر وعربية الدارس من ناحية أخرى ، أصبحت فى مصر أمر مقابلة بين أدباء بمعلومات يكتبون فى المجلات لتثقيف المثقفين ، وبين عوام رقاق الحال يبتغون الرزق بتسلية الناس ، وأنه أمر مفاضلة بين حياة أقبلنا عليها ، هى حياة الشوارع الممهدة بالأسفلت والسيارات ، والعمارات ذات المصعد الكهربائى ، والصالونات الوثيرة الأثاث ، والبدلة والفستان ؛ وبالجملة كل ما يمتاز به حى الافرنج مثلا فى بور سعيد ، وبين حياة نخجل منها كشعب ، ونتحاشاها كأفراد ، هى حياة الحارات والربع وغرفة السطوح والحصيرة والطبلية وكل ما يثيره فى الذهن حى العرب من صور وعادات . وأخيراً فقد أصبح الأمر فى مصر أمر عوام متواضعين لا تسع لغتهم إلا قدر ما يفكرون وقدر ما يطمعون فيه من سلع العيش ، وأمر خاصة تكتب لغة إضافية تمتاز بها عن بقية الناس ، وتعتز بمعرفتها كما يعتز المتكلمون بالفرنسية أو الانجليزية بهما .

فإذا كان هذا التقدير خطأ منى ، وإذا كان إقبال أدباء مصر على عربية الدارس أمر تذوق أدب يرونه فى العربية كما يرونه فى الفرنسية مثلا ، إذا كان الأدب بغيتهم فما الذى يصرفهم عن رؤية أمثال هذه الصور وتقديرها كأدب ممتاز :

وصف سلاملك :

وع السلاملك كان صبارة فى برميل
وكف مريم والبلوبة وفل جميل
وشخص راجل خزوق واقف عريض وطويل
يحمى الجنينه ، وقلة تحت منها ماجور
وفوقه ع الباب تشوف فى الوش فوق الراس
حجاب وحدوة حصان كانت فى رجله مداس
وخمسة وخميسة قال تمنع عيون الناس
والباب ملوش أكره واللوح القزاز مكسور(1)

أو (أم مصرية) :

. . . .

الصبح نيته لما يخرج سرسى
ترقيه تلات مرات بآية الكرسى
ويفوت سبع خطوات على العتبه
وتقول يا قادر يا كريم تهديه لى
أنت اللى آخر قطعتى مديه لى
بقدرتك من ريحة أبوه خليه لى
لحد ما ياخد بأيده عزايه(2)

أو (داخل سوارس) :

قعدت يوم الحسين أشرب هناك خروب
جت قعدتى بين جدع مايق وبين كركوب
وشبه فى الوش قاعدة وابنها القطوب
بيعوى زى اللى راكبه ستميت عفريت
طلعت لنا شبه بص لها اللى جنبى وساح
طلع كان بعيد منها شيخ يطلع فلاح
محمله خرجين وموهبة حطهم وارتاح
قال العجوز اللى جنبى : سوق بنى يا بخيت

* * *

يا خلق لسه الولد نازل بكا وعياط
والوش غرقان لشوشته فى عماص ومخاط
الحلوه قالت لأمه : يختى ابنك شاط !
قالت : عارفى اشترى له اولمدى كتاكيت(3)

(1) من «الأسطى على منصور» من ديوان الشاعر ص ٩٠ .
(2) من «دكان سرسى» من ديوان الشاعر ص ١٠٤ .
(3) من «ركاب سوارس» من ديوان الشاعر ص ٦٠ .

ما الذى يعرفه قراء « هومر » بين أدبائنا أو قراء « تشوسر » أو « موليير » أو « شكسبير » من وصف يفوق فى حسيته وقوة إيحائه ودقته وأمانته هذا الوصف ؟ أنا لم أقرأ « هومر » ولا « موليير » إلا ترجمة ، ولا أرى لى حقاً فى تقدير شعر أو أدب إلا إذا قرأته فى لغته الأصلية ؛ ولكنى قرأت « تشوسر » وقرأت « شكسبير » فى لغتيهما الأصلية ؛ وأنا لا أقارن هنا بين التونسى وبينهما ، إذ أنى لم أقرأ للأخير غير ديوانه وقصتيه ، ولكنى أقارن عبقريته بعبقريتهما ، وأرى أن خير ما فيه يقرب كثيراً مما عاثله من خير ما فيهما .

فى شعره القصصى وهو حوالى ٢٤ قصة أو صورة إن شئت ، وقد اقتبست منه هنا ما يتسع المجال له ، أرى لغة تثير فى المخيلة صوراً حسية تجعلنى أجزم بأن التونسى سمع ولمس ورأى الحياة حوله بحواس مرهفة لا تهب الطبيعة مثلها إلا لشاعر ، وأنه لا يقف من هذه الحياة موقف المصلح أو الفيلسوف فيحللها أو ينكرها أو يخبرنا بشىء عنها ، إنما هو يعطينا تجاربه فيها ، كما يعطى الشعراء تجاربهم فى ألوان سحرية ، لا هى كل ما تراه العين ولا هى كل ما تهبه الروح أو تحسه ، فهى مزيج على مقاديره ونسبه عبقرية الرجل وفنه . وفى كل من هذه القصص أحسست بوحدة حية فنية وبأثر شعورى كان يقوى فى نفسى قراءة البيت تلو البيت ، حتى إذا انتهت القصة أو الصورة كمل بذلك هذا الشعور .

هذه كانت تجربتى ، وهى لا تبرهن على شىء لأحد سواى ، ولكن القارئ يدرك أن النقد التفصيلى حتى لواحدة من تلك القصص مستحيل هنا ، فأنا أدعو أن يقرأها القارئ لنفسه تحت ضوء ما كتبت عن الفن الغربى ، وأن يحاول عند قراءتها أن يتناسى آراءه عن العربية والعامية ، فهذا تقسيم نحوى فقهى لا علاقة له بالأدب ، وليذكر أن أليق لغة لأدب ما هى لغة من يكتب منهم هذا الأدب ؛ فلا عربية المدارس ، ولا أى لغة من لغات الأرض ، بقادرة على وصف حياتنا كما تصفها به لغة حديثنا على لسان شاعر موهوب .

ويوجد غير هذه الصور المصرية فى ديوان التونسى صور أخرى غربية لا يقل الكثير منها فى روعته وشاعريته عن الأولى ، وهى صور تذكرنا بشعر أوربا الحديث ، وتشترك مع كل شعر الشاعر فى خاصة الجرأة فى تخير الكلمات ؛ فالتونسى « كأليت » و « بودلير » و « جويس » ، وغيرهم من المحدثين لا يهاب « الكلمة الوقحة » إذا أملى عليه الفن استعمالها .

وأبدع هذه الصور الغربية ، بل ربما كانت أبدع ما بالديوان هى قصيدته (مراقص الزنج فى باريس) . والحق أنى لا أذكر أنى قرأت فى العربية شعراً وصفياً تألفت نبضات موسيقاه وبحره ، وأصوات كلماته واتحدت مع ما يصف الشاعر كما تألفت واتحدت معانى هذه القصيدة وأصواتها وموسيقاها . وأنا أنقل هنا للقارئ الذى لا يتاح له قراءتها فى ديوان الشاعر بعض أبياتها ليحكم لنفسه ، ثم أطلب ممن لديهم الديوان أن يقرءوها كما قرأت مثل :

تحت فى الظلام دا تسبخ   بجمع السيدور والزنج

أو :

بنج من جمال أشكال   بنج من نغم شغال
من جمب قصار وطوال   متدغم نغم شياطين

أو :

طبلة العبيد السود   دايرة والنفير ممدود
خلت أم أجمل عود   تنفتل شمال ويمين

أو :

تسمع الودع يشن   بقلب الملايكة يجن

فريديك هورنيمان (*)

مثال آخر للاقدام

للأستاذ محمود الدسوقي

تحدثنا فى عدد سابق من « الثقافة » عن الرحالة يوهان لودفيج بوركارت أو الحاج ابراهيم سلمان اللوزانى (نسبة إلى لوزان مسقط رأسه)، وما كنت أقدر أن يهم أمره الأستاذ الجليل أحمد أمين ، فيطلب إلىَّ المزيد من الكتابة عن مؤلفاته . وإنها فى الحق لأمنية جاش بها صدرى ، فلما وجدت مثلها عند الأستاذ أسقط فى يدى ؛ فلست أجد السبيل إلى كتب بوركارت ورسائله إلا بشق الأنفس ، وهى كثيرة ، غزيرة فياضة ، لكنها مستعصية فى الأونة الراهنة على مثلى على الأقل . والقليل الموجود منها صعب المنال ، جم التكاليف . ولست أزعم أنى قرأت لبوركارت ، ولكنى قد قرأت عنه ؛ وحين عثرت أخيراً على بعض مؤلفاته عند كتبى يتجر بالعاديات أذهلنى

(*) رجعنا فى هذا المقال أيضاً إلى كتاب « كبار المخترعين والمكتشفين » لهاتر أورفاله

ما طلب فيها من ثمن ، فتراجعت . على أنى قد حاولت فى هذه الأثناء أن أطرق أبواباً أخرى ، ولعلها تفتح لى فى القريب إن شاء الله .

وبعد فانه إن فاتنى الكلام من مؤلفات بوركارت ، فلن يفوتنى أن أعرض لشخصية كانت رائداً لبوركارت ومثالاً أراد أن يحتذيه ، وأن يتم ما بدأه : شخصية عقدت بها آمال كبار فى البحث والكشف ، فلم تلبث أن اختفت ، وعزت على البحث والكشف . تلك هى شخصية فريدريك هورنيمان أول رحالة ألمانى إلى أفريقيا .

وأفريقيا قارة تختلف والقارات المكتشفة اختلافاً كبيراً ؛ ذلك أن أمريكا لم تكد تكتشف حتى اوتيدت أرضها ، لكن أفريقيا لم يعدُ الاكتشاف شواطئها ، ولم يتجاوز ارتيادها هذه المناطق الامينة .

لقد كان كل هم جوَّابى البحار البرتغاليين المشهورين أمثال كوفلهان Covilhan ، وديجو كاو Wiego Cao ، وبَرْتُلمِن دياز Diaz متابعة التطواف على امتداد شواطىء أفريقيا ، شاطئاً شاطئاً . ولعل السبب الذى عزف من أجله هؤلاء الرحالة من مجاهل الداخل أن أفريقيا لم تكن بغيتهم المباشرة ، وإنما كانت واسطة لغاية ومطلب شهى

أو :

إن نده عليهـا جادوه   بالمجل تقـول له ألوه
يبق محل تشيل يا هوه   وردى يعجب الجانين

أظنه انهاماً لنباهة القارىء بعد هذا ، ولدوقه أن أبين له كيف توحى هذه الأصوات بأصوات الصدف ، والطبل والسكسفون والنفير ، وغير ذلك من آلات جوقة الجاز ، وأظن أن أغلب القراء سوف يتذكرون قصيدة شوقى التى مطلعها :

حف كأسها الحبُ   فهى فضة ذهب

فالبحر يكاد يكون واحداً ، وهو فى العربية سريع الخطى قصيرها ، عنيف الحركة لا وقار له إذا قورن بالبحر الطويل مثلا .

فاذا ذكرنا أن شوقى وصف مرقصه الملكى فى وقت لم يكن يُعْتَرف فيه بالجاز ، وأن الرقص الذى رآه كان من نوع الوُلْتز Waltz والبولكا Polka واللانسرز Lancers وغير هذا من الرقص القديم الذى يمتاز برشاقة الحركة وعذوبة الموسيقى ، والاتئاد والوقار ، أفلا يرى القارىء معى أن البحر المذكور هنا أليق برقص الزنج وموسيقى الجاز منه بموسيقى ورقص كلاسيكى ؟

مصطفى مشرف

هو الهند . فأفريقيا كانت عقبة فى طريقهم ، فهم يطوفون من حول هذه العقبة فى عجلة ، سعياً وراء الذهب والحجارة الكريمة والتوابل الهندية الغالية الثمن . فلم يقفوا بشواطىء أفريقيا إلا ليسدوا حاجة ملحة إلى الزاد ؛ فما صادفوه إبان ذلك لم يكف لاستهوائهم إلى الداخل . وما دامت أغراض التجارة والثروة والسعى وراء الفرص هى بواعث سفرهم ، فقلب أفريقيا لم يكن ليحقق بغية أحد ، ولون القارة السوداء قد كان من ثم حائلاً إلى الرحيل .

لكنه لما خفت حدة السعى وراء الذهب ، وأشبعت كنوز الهند بالغ النهم ، ولما هبطت التصورات إلى مستوى المألوف ، ولم يعد فى سماء الهند مجال للتحليق ، أخذت أوربا تلتفت إلى غير آسيا شيئاً فشيئاً . وكانت النهضة وإحياء العلوم وبعث الاهتمام بالطبيعة والاقدام على ارتياد مجهولها وخفيها ؛ فخرج الناس إلى الكشف تحدوهم بواعث جديدة ، وسموا إلى طلب العلم والمعرفة فى مناطق الجغرافيا والطبيعة . وإذا كان التاريخ يحفظ مثل هذه البواعث ويسجلها لطائفة سابقة من الرحالة ، فان العلم لم يصبح طابع الكشف إلا قبيل القرن التاسع عشر . وقد كان الانجليز أول من أحسوا ضرورة تنظيم هذه الرحلات العلمية إلى أفريقيا ، وأول من أدركوا فى ذات الوقت أن مثل هذه الكشوف المتواصلة خليقة أن تخدم مصالحهم الاقتصادية .

أجل كان الانجليز أول من رصدوا لمثل هذه الأغراض الأموال وأعدوا الرجال ، وأول من نظموا لها الرحلات ، وأمانوها بعون الدولة ؛ فأسسوا الجمعية الجغرافية بلندن فى سنة ١٧٨٨ . لكن غير انجلترة من البلدان ومنها ألمانيا ساهمت فى هذه الأغراض بنوع آخر من المعونة ، ساهمت بروح المثابرة والاقدام والجلد والمثابرة ، فكانت إنجلترة أو بالحرى الانجليز يقدمون المال فى أغلب الحالات ، وكان غير الانجليز فى كثير منها يقدمون النفس . فخرج يوهان لودفيج بوركارت فى خدمتهم ، وخرج من قبله فريدريك هورنيمان . فكانت حياته دليلا جديداً على أن استعداد المرء لغرض من الأغراض واتجاهه إليه ، خليقان أن يتغلبا على كل العقبات ، بالغاً ما بلغ انصرافه عن هذا الغرض بفعل الظروف .

كان فريدريك هورنيمان من أسرة قساوسة ، وابنا لواعظ فى هيلدسهيم Hildesheim ، فوجّه ، كما هو الغالب ، إلى دراسة اللاهوت ، فدرسه فى جوتنجن Goettingen ، وعين واعظاً كأبيه . وكان هذا بفعل الجو الذى عاش فيه — جو البيت الأبوى ، ومن أثر رغبة أبيه الشخصية . لكنه ظهر أن هذه المهنة لم تصادف هوى فى نفسه ، فكان يزاول إلى جانبها دراسات فى تقويم البلدان ، ويعنى عناية خاصة بما تم فى عصره من الكشف فى شمال أفريقيا . وكانت الجمعية الأفريقية اللندنية قد أوفدت فى ذلك الحين الماجور هوتن Major Houghton فى سنة ١٧٩٠ إلى أفريقيا ، فقضى دون تأدية رسالته . وقفاه الطبيب الأسكوتلندى منجو بارك Mungo Park فوفق فى سنة ١٧٩٥ فيما قصر سالفه عنه ، وأكد ما أثبته هيرودوت من أن نهر النيجر Niger يجرى من الغرب إلى الشرق ، وقد تكون قراءة أبحاث منجو بارك هى التى أيقظت فى فريدريك هورنيمان اقتناعه بأنه لم يخلق إلا لأعمال الكشف . فتقدم إلى الجمعية الأفريقية اللندنية بتوصية اثنين من جلة العلماء ، هما الجغرافى المعروف ريتر Ritter ، والأستاذ الشهير بلومنباخ Blumenbach . واتصل هورنيمان بعد ذلك اتصالات أفادته ، وجنى منها أثناء ثمانية أشهر قضاها فى لندن أعظم الثمار ، فأثبت أنه الرجل الذى لا يجهل كيف يعاشر الناس ، وأنه العالم الذى

يعرف في العالم غير فرقته — عالمه الصغير . وزوده رعاته الانجليز بالتوصيات ، فتوجه إلى باريس في سنة ١٧٩٩ ، وقدم فيها إلى المعهد الوطني شاباً يرجو علم الشعوب ، وعلم تقويم البلدان ، على يديه المزيد ؛ واتصل في جملة من اتصل بهم بقناصل فرنسا في سواحل أفريقيا الشمالية ، وكانوا واسطة تعريفه بتاجر تركي كبير يتجر مع تونس وطرابلس ، فأبان له التاجر التركي أن السلك الوحيد إلى داخل أفريقيا هو من طريق طرابلس وفزّان . وقرر هورنيان أن يكون خروجه إلى رحلته من القاهرة ، ليقصد منها إلى فزّان في طريقه إلى داخل أفريقيا . وزوده التاجر التركي بكتاب توصية كتبه بالعربية إلى تاجر في القاهرة ، وقدّمه إليه على أنه تاجر إنجليزي شاب .

وبلغ الاسكندرية وأراد الطواف حولها مستطلعاً ، فحالت دون ذلك ظروف اضطرته إلى التعجيل بالرحيل . ووصل إلى القاهرة من طريق النيل ، فقضى فيها عشرة أشهر لم يكف في خلالها عن القيام برحلات أربة حول القاهرة والاستعداد للسفر . وقد كان علياً بأنه من أشق الأمور على أوربي مسيحي أن يجوس خلال بلد إسلامي وهو معروف الشخصية ، فقد كان خليقاً في ذلك الزمن أن يلقى في بعض خطواته حتفه ، أو يتعرض على الأقل لعواقب الغيرة الدينية . فقرر من ثم أن يتزيا بزي المسلمين ، وأن ينضم إلى قافلة من الوطنيين . وهو في القاهرة يمكن أن يشرع في ذلك ، على حين يسهل افتضاحه في غير القاهرة . وكانت قوافل الحجاج تأتي من فزان وتعود إليها من مكة المكرمة ، وكانت تنضم إليها في طريق العودة قافلة من التجار ، تقصد إلى مُرزق . واتصل هورنيان بهؤلاء التجار وانتظر عودة الحجاج من الأراضي المقدسة .

وجدّ ما لم يكن في الحسبان ؛ فانه في الوقت الذي اعتزم فيه هورنيان الخروج في رحلته دخل الفرنسيون البلاد بقيادة بونابرت ، فهجست بنفس هورنيان الهواجس ، وساورته المخاوف مما كان بين فرنسا وانجلترة من عداء . وهو إنما يخرج في خدمة الانجليز وفي وفادتهم ؛ لكنه لحسن حظه لقي نقيض ما كان يتوقع ، ووجد في نابليون رجلا تام الادراك لقيمة بعثته وأهميتها العلمية . فلم يبخل عليه بالجوازات اللازمة ، بل إنه عرض عليه مالاً فأبى ، لكنه تقبل شاكراً معروفاً أولاه إياه ، إذ أخذ بونابرت على عاتقه إيصال كتاب من الرحالة الألماني إلى الجمعية الأفريقية اللندنية عن طريق فرنسا مزوداً بخاتمه . وقد بلغ الكتاب مصيره ، وعلم منه أن هورنيان لم يكن يجهل ما يتعرض له من أخطار ، وكان في جملتها جهله باللغة العربية ؛ لكنه كان يأمل أن يظل أمره خافياً على الأقل على أولئك الحجاج الذين يعرفون غير واحد من المسلمين من غير الناطقين بالضاد . وقد تغلب على مصعبة التفاهم مع رفاقه في السفر باتخاذه ألمانياً اسمه يوسف فروبدنبورج Joseph Freudenburg ترجماناً له ، وكان قد أقام في البلاد اثنتى عشرة سنة ، واعتنق الاسلام ، وتضلع من العربية والتركية وحمل هورنيان معه من الأدوات الفلكية ما يستعين به على تحرياته الجغرافية غير خاش اكتشافها ، فهي بضاعة ، ومن السهل إقناع المشتبهين بأنها كذلك .

وجاء يوم الرحيل بعد استعداد مضن ، وبعد التغلب على كل العقبات ، فاعتزم السير في طريق للقوافل من قديم الزمان لم تطأه قدم أوربي قبله ، متجهاً نحو الغرب صوب مُرزق داخل فزان . وكانت الشقة تمتد من القارة مارة بأم صغير وسيوه وأنجلا مخترقة جبال الهروج إلى مرزق . وليس من شأن هذا المقال أن يتناول الأبحاث الجغرافية بالوصف أو التقدير ، فانما تنصب عنايتنا على أشخاص المكتشفين لاظهار جوانب تطورهم وكيانهم كبشر من بني الانسان . ومن ثم كان اجتزاؤنا بالمواضيع التي تظهر شخصية هورنيان ومواساتها لمشروعه الجريء .

وفي مفكرة سفره على ما يُذكر مواضع زاخرة بقوة الملاحظة المحبذة المتعددة الجوانب .

كانت المصاعب التي كتب على هورنيمان تذليلها جمة عسيرة . فمن تعرض للسطو ولأخطار المناخ في تلك الأصقاع ولجهد الركوب — ركوب الجمال — ولنقص الزاد ، والحرمان . هذه كلها قد شاطره رفاقه في السفر إياها ، لكن وقعها على أوربي لم يألفها أمر لا يخفى على أحد .

قال : « لم أر في السفر متاعب تذكر ، بل إن هذا السفر كان بالنسبة لي بديعاً . أنا الذي لم أسافر في قافلة قط . لكنه كم كانت دهشتي أول الأمر حين رأيت عند الظهر بعض سراة التجار وأربابهم يقضمون في خبز جاف وبضع بصلات ، وحين سمعت أنهم لا يحطون الرحال بالنهار ، ولا يستوقفون الجمال إلا في الحاجة القصوى ، فلم يكن لي بد بعد هذا من أن أسأل بعض العرب ممن يجاورنني في الركوب أن أشاطرهم أكلهم » .

واعتاد هورنيمان ، وهو إذ ذاك شاب في السادسة والعشرين من عمره مأكل القافلة ومشربها ، ولم يكن في كليهما ما يعز عليه اعتياده ورياضة النفس عليه . والماء في الصحراء ، مع ندرة الواحات وطول ما بين إحداها والأخرى من سفر يستغرق عدة أيام ، عزيز .

ولعل من الممتع أن نستمع إلى هورنيمان وهو يفاضل بين القرب ويفضل النوع السوداني : « ففيه يبقى الماء خمسة أيام صالحاً للشرب من دون أن يتغير طعمه ، على حين يردُؤ مذاقه في غير النوع السوداني في اليوم الثاني وتفوح منه رائحة العطن . ولكي تلين جلود القرب ولا يلم بها بلى سريع ، تدهن الحين بعد الحين بالزبد الذائب . ويدهنها أجلاف العرب بالزيت فيظل الماء من جراء ذلك في المبدأ كريه الطعم ، ردىء المذاق » .

ويتعذر على القافلة أحياناً إعداد الطعام ولا يتسع وقتها أو ظروفها له ، فيلجأ المسافرون إلى نوع هين منه ، إلى دقيق الشعير الذي يحملون دائماً حاجتهم منه ، ويعدونه إعداداً خاصاً ، إذ يغلون الشعير حتى يفور ثم يجففونه في الشمس ، ثم « يحمصونه » في قدر فوق النار ، ثم يطحنونه . فإذا فعلوا أضافوا إلى دقيقه ملحاً وفلفلاً وكموناً وغير ذلك من التوابل ، وحفظوه في قرب . فإذا أرادوا استعماله خلطوه بالماء ، وأعدوا منه عجينة كثيفة وألانوها بالزبد أو الزيت وتناولوها . فإذا شاءوا منه صنفاً آخر زادوا ماءه وأكلوا معه البلح . وقد يستعاض من الشعير المهيأ على هذه الصورة بالدقيق العادي ، فيخلط بقليل من الماء البارد ويصب عليه بعض الأدم . ويقول هورنيمان إنه كان يقضي أياماً على هذا الطعام ، « وإن البصل والملح والفلفل « الأرنؤوطي » الأحمر هو كل ما يعرفه المسافر في تلك الأصقاع . لكن هناك بضاعة تحل أحياناً محل هذا كله : الجوع . فإنه خليق بعد سفر مضن طويل أن يجعل من أردأ الأطعمة لذاذات » .

(له بقية) **محمود الدسوقي**

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	لطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

من الأدب الإغريقي :

٢ – أزهار من أكاليل إغريقيه*

ترجمة الأستاذ محمد محمود السلاموني المعيد بكلية الآداب

يدين «ميلياجر» بشهرته إلى أشعاره في الحب ، وهذه تبلغ أربعة أخماس ما كتبه تقريباً . والحق أنه قد برع في هذا النحو من الشعر ويقول : « سانت بيف » إن شعر ميلياجر كثيراً ما يذكره بأغنيات « بترارك » أما مناجاة هذا الشاعر الرقيقة لحبيبتيه « زينوفيلا » و « هيليودورا » فستذكر أبداً ما بقي المحبون على وجه الأرض .

ليس من الميسور أن أحدثكم عن قصة حب ميلياجر إلا حديثاً عاما ، وكل ما أراه هو قراءة تراجم لأشعار مثالية لهذا الشاعر الأسيوى الموله . لقد جره خياله المتقد حماسة وغيرة إلى المجاز والكناية التي نزع إليهما شعراء الانجليز في عهد الملكة اليزابث من بعده بنحو ستة عشر قرناً . لنأخذ لذلك مثلاً « شكوى محب » (الحب مخيف ؛ مروع ! ولكن ماذا أفيده من قولى ، الحب مروع ، أردده الفينة بعد الفينة في تنهدات لاعداد لها ؛ فالوليد[1] يضحك من شكواى ويسر لأن يلام على الدوام ، وإذا ما شتمته وجهت له السباب ألواناً فإنه يطمع في المزيد . إنى ما أعجب له يا « كوبريس Cypris, »[1] كيف تنشئين من المياه الجارية وتلدين ناراً حامية »

إله الحب ، أيروس ، مزود « بسهام تلفظ اللهب » ، ولكن ميلياجر كان الوحيد الذى سلحه بثلاث أقواس واختار له نعلى « الجيد » و « مهلك العباد » ، هذان النعتان اللذان خلعهما هومر على « آريس Ares, » إله الحرب في أشعاره . لقد خلع عليه نعتاً آخر لا يسلم من رخاوة وضعف ، فهو عنده « صاحب الحذاء الدقيق » ، وعبر عن طبيعة هذا الاله الصغير الختارة بمثل هذه النعوت « خداع النوم » و « خدّاع الروح » ولم ينس له بغيه وتعسفه فقال يناجى روحه وقد وقعت في فخ هذا الاله على حين غرّة : (لقد وقعت في الشرك وأحكم الإله نفسه وثاقك وقيد جناحيك . لقد ألقاك في السعير وذر عليك في غشيتك بخوراً ، وسقاك دمعاً حاراً تطفئين به غليلك) . لقد خاطب « ميلياجر » إله الحب بصيغة الجمع ، فقال متبرماً من آلهة الحب وقد اتخذوا من صدره مقراً يقيمون فيه : (هل لك أن تمرحى أيتها الآلهة ذوات الأجنحة بين جوانحى ، ولكن في غير شدة أو عنف) ولم ير ميلياجر في إله الحب سبباً من أسباب اللهو والبهجة ، فهو يعتبره قوة خفية غاشمة خليقة بالتعيير والتقريع (طأ رقبتى بقدمك ، أيها الجنى المشئوم ، فقد أحنيت لك رأسى ، إنى أعرفك وأقسم بالآلهة أنى سأحتمل عسفك وجورك ، صوب سهامك

* محاضرة ألقاها الأستاذ W. G. Waddell أستاذ الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في جماعة الدراسات اللاتينية واليونانية .

(١) « أيروس » إله الحب عند الاغريقيين ، هو ولد « أفروديت » « إلهة الحب والجمال » . لقد صور الأدباء والفنانون هذا الاله تصويراً خياليا لا يخلو من روعة وجمال . فهو طفل رضيع جميل له جناحان ذهبيان يطير بهما كالعصفور ومزود بالسهام النارية يحملها على ظهره في جعبته الذهبية . وهو في عرفهم الطفل الماجن العابث الذى لم يسلم البشر حتى ولا الآلهة من غدره ومكره ، فهو يصوب سهامه على غير هدى إلى القلوب فيدميها ، فإذا أصابها صرعى الغرام والهيام والجوى والشجن .

(١) اسم ثان « لافروديت » « إلهة الحب والجمال » التي كانت تعبد في جزيرة قبرص . وتقول الأسطورة القديمة إن « كوبريس » قد نشأت من ماء البحر .

المتقدة ناراً إلى قلبي ، فلن تنال منه موضعاً بَعْد أن غدا رماداً كله) . لم يكن إله الحب فى نظر ميلياجر بالقوة الخفية فحسب ، بل هو طفل يلعب النرد ، ويعبث بأرواح البشر عبثه بقطع النرد (لقد عبث إله الحب بروحى وأفناها ، بينما كان يلهو فى الصباح الباكر بنرده ، وهو يعدُّ الطفل اليافع الذى يتربع فى حجر أمه) .

من أروع نفحات « ميلياجر » هـذه القصيدة التى يناجى بها حبيبته « زينوفيلا » والتى صور بها معبودته كزهرة ، وشاء حبه أن يظهرها على أزهار الروض كله (اليوم يتفتح البنفسج الأبيض ، والنرجس ربيب الغيث ، والزنبق نزيل الربوات ! واليوم تينع وتزدهر بين أزهار الروض « زينوفيلا » بهجة الحب ووردة السحر الحلوة ، والليلك المتربعة على عرش زهور الربيع . لِمَ الفرح أيتها الرياض ؟ ولم هذا السرور أيتها الخمائل المخمور بضفائرك الناصعة وأزهارك الأخاذة ؟ إن صاحبتى لتفضل بكثير أزهارك وورودك مهما كان جمالها ومهما كان عبيرها) .

نلمح حب ميلياجر لزينوفيلا فى هذه القطعة الثانيـة التى يبحث فيها شاعرنا عن « إله الحب » وقد ولّى الأدبار إلى حيث يجهل ميلياجر مكانه (صيحوا أيها القوم فقد شرد « إله الحب » وهرب الوحش الخيف . لقد ترك مضجعه فى الفجر الباكر وأطلق العنان لجناحيه — لقد[1] عرف بدمعه الحلو وثرثرته وسرعته ووقاحته ، لقد عرف كذلك بضحكاته الخبيثة وجناحيه ، وجعبة سهامه المشدودة إلى ظهره . من يكون والده وما اسمه ؟ هـذا ما لا أستطيع الإدلاء به . فلا السماء ولا الأرض ولا البحر تعترف لهذا العابث بنسب ، فهو مكروه أينما يمم ، بغيض إلى نفوس البشر أينما حل . إياكم وهـذا الماكر حتى لا يوقع فى أشراكه قلوبكم . . . ولكن هل لكم أن تنتظروا قليلاً ، فلم يذهب الولد بعيداً ، فهو قريب من وكره . آه منك أيها

(١) الشاعر هنا كأنما هو « منادى المدينة » يعلن أوصاف إله الحب الشارد على الناس فى صورة الغريض الواضح .

الصغير ، يا صاحب القوس والسهم ، لقـد أحكمت أمرك فاختفيت من ناظرى واعتصمت بعينى زينوفيـلا) ، ولـكن سرعان ما تتغير حالة الشاعر النفسية ، فلا يعود يبحث فى إلحاح من « إله الحب » وإنما يرغب كل الرغبة فى التخلص منه . وهكذا نراه فى الأبيات الآتيـة يشهر مزاده (بع هذا الصغير وإن لم يزل نائماً فى حجر أمه ، بعه غير مبـال ، أى شىء يضطرنى لتنشئة هـذا المارد الصغير . هو خبيث كل الخبث ، ذو جناحين دقيقين وأظافر يعملها فى فريسته فى استهتار ، ويمزج بين صراخه وابتسامه ، وأكثر من ذلك ، إنه ليستحيل على المرضع أن ترضعه . هو ثرثار ذو عيون حادة ، هو الوحش الضارى الذى لم تستطع أمه العزيزة[1] تذليله . لهذا كله سيباع اليوم ، فإذا كان هناك من يزمع الرحيل خارج البلاد ويبغى شراء الطفل فليتقدم . . . ولـكن ما هذا ؟ انظروا إليـه ! إنه يتضرع وقد أجهش بالبكاء . حسناً ! لن أبيعك إذاً . اطمئن فلا خوف عليك . ستبقى هنا فى صحبـة معبودتى زينوفيلا) فى كلتا القصـيدتين الأخيرتين يتشبث الشاعر بحب زينوفيلا . ولقد كان من أثر هذا التشبث هـذا الانتقال الفجائى الذى لا يخلو من فـكاهة تثير الدهشة والضحك .

لقد ناجى الشاعر معشوقة أخرى حل لها فى قلبه أخلص الحب وأصدق الود . هذه المعشوقة هى « هيليودورا » (لقد نقش إله الحب فى قلبى بيديه صورة « هيليودورا » ذات الحديث المعسول . هى روح الحياة واللذة) . نلمح شغف شاعرنا القوى بالزهور فى هذه القطعة التى يعد فيها باقة من الزهر المختار يحلى بها جبين معبودته الوضاء . (سأنظم البنفسجات البيضاء ، والنرجس الغض والريحان ، سأنسق الزنبقات الضاحكة ، والزعفران الحلو ، والورد صديق العاشق . سأنظم هذه الأزهار إكليلاً يتحلى به جبين

(١) الإلهة « أفروديت » (إلهة الحب والجمال) .

« هيليودورا » ذات الضفائر الطيبة الشذى ، كما تنثر الزهر على شعرها الجميل) . ليلياجر مثل شغف « كاتولوس[1] » بكل جميل فهو يحب النرجس ودبيب الغيث ، والزنبقات الضاحكة التى تجوب الروابى كعرائس البحر فرادى وجماعات.

لقد رأينا بعض هذه الصور الكثيرة والنعوت الغريبة والصفات الخالية التى ظهر فيها إله الحب وأسندت إليه فى شعر ميلياجر . وها هو ذا إله الحب يظهر فى أشعار أخرى فى أشكال مختلفة ؛ فهو السمير الذى يصاحب العاشق الموله ، فيقود له سفينته متخفياً فى الليالى المطرة العاصفة (إله الحب يقود الروح ، السفينة ذات الأجنحة التى تمخر عباب محيط الرغبة المفعم بالخاطر) وهو الطبيب الشافى الذى تلتئم على يديه الجراح التى سببتها سهامه بلمسة من يديه . فى القطعة التالية التى ركب فيها الشاعر متن المجاز الغريب نرى إله الحب وقد أخذ صورة لاعب كرة اتخذ من القلب كرة يلعب بها (هذا الحب الذى يسكن قلبى مشغوف بلعب الكرة ، وقد دفع إليك يا « هيليودورا » بقلبى الذى يترنح فى صدرى ويرتجف . ولكن تعالى وارقصى باللعب معه ، لأنك إن رميت قلبى بعيداً عنك فسوف لا يحتمل هذا التعدى الصارخ الذى لا يتفق وأدب اللعب) .

يظهر تردد الشاعر جلياً فى هذه القطعة التى تتنازع فيها قلبه عاطفتان متباينتان : عاطفة الكراهية وعاطفة الحب ، فهو يرسل خادمه « دوركاس » إلى معبودته ليبلغها رسالة منه (بلغها رسالتى يا « دوركاس » . أخبرها بكل ما أمليته عليك ولا تنقص منه شيئاً ، أعد الخبر على مسامعها مرتين ، وثلاث مرات . والآن ؛ فلتسرع إليها فلم يعد هناك ما أقوله لك بعد هذا . هيا أسرع ! لحظة قصيرة يا « دوركاس » . لم هذه العجلة ولم أنته بعد من حديثى معك ؟ أضف إلى ما قلته لك من قبل . . . أو لا تضف شيئاً بالمرة . أولى لك أن تخبرها بكل شىء . هيا لا تتردد ولا تقصر فى إبلاغ رسالتك كاملة . . ولكن لِمَ أرسلك إليها يا « دوركاس » أفلا ترى أنى ذاهب معك ؟ بل سأسبقك إليها ؟) . نلمح فى ثنايا القطعة التالية نفسية الشاعر التى لا تستقر على حال واحدة ، ولنا فى انتقاله الفجائى وجموح خياله خير برهان وأبلغه (لقد سُرِقَتْ ، من يكون هذا الوحش الذى سولت له نفسه فاقترف مثل هذه الجريمة الشنيعة ؟ من يكون هذا المكابر الذى جَسُرَ على نزال « إله الحب » الذى لا يقهر ؟ أسرع وأشعل المشاعل ! ولكن ماذا أسمع ؛ خطوات « هيليودورا » بعينها . تعالَ إذاً يا قلبى ، وادخل إلى صدرى) .

لقد اختطفت يد المنون « هيليودورا » فكان هذا نهاية جموح شاعرنا ، فتحرر أسلوبه من المجاز والكناية ، وخلص من الترصيع والمبالغة . لقد بكى الشاعر اللتاع حبيبته الراحلة ورثاها بهذه المرثية التى يعرفها قراء قصة « كليوباترة » التى وضعها « Rider Haggard » وهم يعرفون كيف أنه شاء أن يرسل على لسان خادمة الملكة مرثية هذا الشاعر السورى الموهوب ، فتنشدها لها وهى على فراش الموت ؛ وهم يعرفون كذلك كيف أن كليوباترة قد تأثرت بها فسال دمعها على خديها ورغبت فى أن تُرَجِّع الخادمة غناءها مرة ثانية بعد أن تسلم الروح : (دموعى ، قربان الحب الضائع ، أرسلها إليك ، يا هيليودورا ، فى مرقدك الأخير . دموعى الحارة أزجيها مدراراً على قبرك ، مذكى الحسرة والدمع السخين ، ذكرى الحب والحنين . إن ميلياجر أحرى الناس بالرثاء ، لينتحب عليك ، وما زلت العزيزة عليه فى موتك . . . واحسرتاه ! أين محبوبتى الجميلة ؟ أين بغية القلب ؟ لقد امتدت إليها يد المنون فأخفتها ، فأضحت — وهى الزهرة اليانعة المكتملة — رهينة الثرى . أتوسل إليك ، أيتها الأرض ، أمى الرؤوم ويا أم البشرية ، أن تضمى فى حنان ودعة إلى صدرك هذه الوديعة التى يبكيها الناس أجمعون) . وهكذا نودع ميلياجر الشاعر الموهوب الذى جمع بين عمق الشرق وطرافته ، وصفاء الاغريق ورقتهم .

محمد محمود السعوصرفى

(١) شاعر غنائى رومانى ولد عام ٨٤ قبل الميلاد

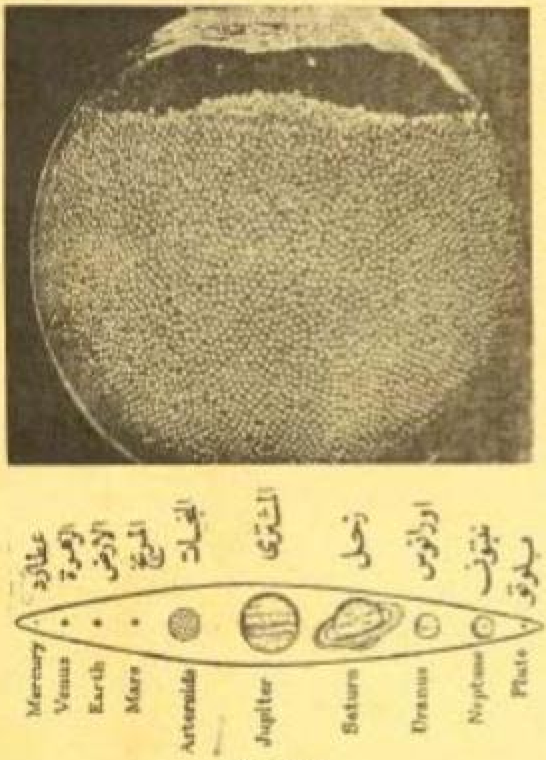
حول الأجرام السماوية

أمثلة توضح أحجامها وأبعادها

منذ اختراع المنظار الفلكي ، وباستمرار التقدم في صناعته والزيادة في قوته ازدادت معرفتنا بالعالم الذي نعيش فيه والكون الذي يحيط بنا ، دقة ووضوحاً ، حتى أصبح في مقدور العلماء اليوم أن يصوروا السماء وما فيها ، وصاروا لا يتحدثون عن السيارات وأقدارها وأبعادها فحسب ، بل أيضاً عن النجوم والسدائم وكثافتها ، والعناصر التي تتركب منها ، ونسبة كل منها في بناء النجم أو السديم ؛ وذلك كله بناءً على قوانين معروفة ومشاهدات تتكرر كل يوم في مراصد العالم .

ولا نريد أن نعيد هنا على القارئ ما يراه مفصلا تفصيلا شائقاً في الكتب الفلكية ، ولاسيما المبسطة منها ؛ وإنما نريد أن نذكر بعض الأمثلة العملية التي يلجأ إليها علماء الفلك في تقريب تلك المسائل إلى أذهان القراء ؛ وذلك لأن الأرقام التي يعبرون بها عما يرد في تلك المباحث من الأبعاد مثلا — تلك الأرقام هي من الضخم بحيث يقصر عن إدراكها على حقيقتها العقل ، ويعجز عن تصورها الفكر . ومن ثم كان لا بد من توضيحها وإظهار دلالتها بقوة بواسطة تلك الأمثلة التي سنورد طرفاً منها هنا :

فشكل (١) يمثل الشمس في أعلاه والسيارات في أسفله مرسومة بمقياس واحد . وقد رتبت السيارات تبعاً لبعدها عن الشمس ، ومن الصورة يتبين كيف تزداد أقدار تلك السيارات حتى المشترى ، ثم تتناقص . ولم يحاول واضع الرسم أن يمثل المسافات كما مثل الأقدار بمقياس رسم واحد ؛ ولو أنه حاول ذلك لوجب عليه أن يجعل الأرض على بعد نحو عشرة أمتار من الشمس ، بينما يكون بعد بلوتو عنها نحو ٤٠٠ متر .



(شكل ١)

وفي الجزء العلوي من هذا الشكل نفسه قد وضح معنى آخر ، هو نسبة قدر الشمس إلى قدر الأرض ؛ فالمعلوم أن قطر الشمس يساوي قطر الأرض مائة مرة وتسع مرات ، ومن ثم يكون حجم الشمس قدر حجم الأرض نحو مليون وثلث مليون من المرات . ولما كانت الكرة الكبرى تمثل الشمس ، وكانت كل كرة من الكرات الصغيرة التي

بداخلها تمثل الأرض بنفس النسبة ، فالشكل يوضح لك كيف أن الكرة الكبرى تحتاج لأكثر من مليون من هذه الكرات الصغيرة لكي تملأها .

ويقول سير جيمس جينز(1) إننا لن نستطيع أن نمثل المجموعة الشمسية بعربات تدور حول تمثال مقام في وسط ميدان كبير ، فإن التمثال يكون أكبر كثيراً من أن يمثل الشمس ، والعربات أعظم كثيراً من أن تمثل السيارات .

ولو أردنا أن نجعل ميداناً مثل ميدان لاظوغلي مثلا يتسع لنموذج دقيق المجموعة الشمسية طبقاً لقياس رسم صحيح لوجب أن نمثل الشمس بجسم صغير كالفولة أو الحمصة ، ونمثل السيارات ببذور صغيرة وحبات من الرمل وذرات من التراب . ومن تصور هذه الحبات والذرات في الميدان نستطيع أن ندرك دون عناء أن المجموعة الشمسية فضاء واسع لا يكاد يكون فيه شيء ، ونستطيع أن نفهم لماذا تبدو السيارات في السماء بذلك الصغر الذي تبدو به .

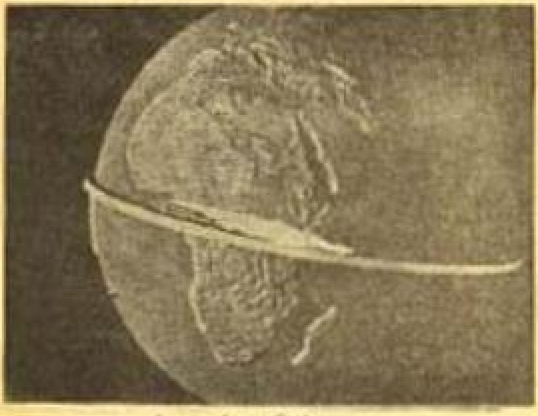
ومع ذلك فالمجموعة الشمسية مزدحمة جداً إذا قورنت بالفضاء الذي حولها . فإذا كانت الفولة وتسعة أجسام أصغر منها تمثل الشمس وسياراتها في ميدان لاظوغلي ، فإن أقرب النجوم إلينا تمثله حينئذ ذرة بالقرب من (شربين) إذا كان الفراغ بين المكانين خالياً لا شيء فيه . وبذلك نرى مقدار انعزال المجموعة الشمسية في الفضاء .

. . .

والآن لننتقل من المجموعة الشمسية (تلك المستعمرة المنعزلة) إلى أقرب النجوم إلينا ، فنجد أن بعده عنا قدر بعد الشمس نحو ٢٧٠٫٠٠٠ مرة ، أي نحو ٢٥ مليون مليون ميل ؛ ومن هذا يتبين أن الوحدات المألوفة ، وهي الكيلومتر والميل تقصر عن إعطائنا فكرة من تلك الأبعاد الهائلة ؛ ولذلك اتخذت للتعبير عن الأبعاد الفلكية وحدات من نوع آخر :

(1) راجع كتابه « النجوم في مسالكها » الذي طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

لنفرض أن قطاراً سريعاً يقطع ٧٠ ميلا في الساعة (فيقطع المسافة بين القاهرة والاسكندرية في أقل من ساعتين) ، هذا القطار لو سار حول الأرض (كما في شكل ٢) ليلاً ونهاراً من غير توقف ، فإنه يحتاج إلى ستة عشر يوما ليتم دورة كاملة حول الأرض ، وعندئذ يكون قد قطع مسافة تقرب من ٢٥٠٠٠ ميل .



(شكل ٢)

فإذا استمر هذا القطار في دورانه ، وأتم سبع دورات ونصف دورة أو أقل قليلا (كما في شكل ٣) فإنه يكون قد قطع مسافة ١٨٦٠٠٠ ميل ، وعندئذ يكون قد مضى



(شكل ٣)

عليه فى هذه الرحلة نحو ثلاثة أشهر . وهذه المسافة الهائلة يقطعها الضوء فى ثانية واحدة فقط . وقد سميت هذه المسافة (١٨٦٠٠٠ ميل) ثانية ضوئية . واتخذها الفلكيون وحدة لقياس المسافات الفلكية الصغيرة . ثم اشتقوا منها وحدة أخرى للمسافات البعيدة ، وهى السنة الضوئية ، أى المسافة التى يقطعها الضوء فى عام كامل ، وتبلغ نحو ٦ ملايين مليون ميل .

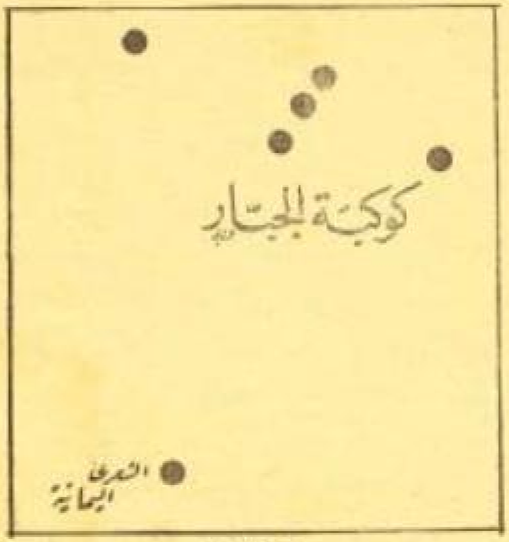
وباستعمال هذه الوحدات ينتج أن المسافة بين الأرض والقمر تزيد على ثانية ضوئية وتقل عن ثانية ونصف ثانية ، والمسافة بين الأرض والشمس قدر هذه المسافة بين الأرض والقمر ٤٠٠ مرة ، أى أن أشعة الشمس تحتاج إلى نحو ثمانى دقائق للوصول من مصدرها إلى أعيننا . وأقصى الكواكب وهو پلوتو يبعد عن الأرض بنحو خمس ساعات ضوئية ونصف ساعة .

. . .

وإذا تركنا المجموعة الشمسية ودخلنا فى الفضاء الذى يبعدها ، فإن أسطع نجوم السماء وهو الشعرى اليمانية لا يحتاج الضوء للوصول منه إلى أعيننا إلى ساعات أو أيام أو شهور ، بل إلى تسع سنين كاملة . وهو مع ذلك أقرب النجوم إلينا (شكل ٤)

ونورد هنا للقارئ تقديراً آخر لهذه المسافة الهائلة : نعلم أن أمواج اللاسلكى تسير بسرعة الضوء ، فى عام ١٩٢٧ نقلت هذه الأمواج إلى العالم أن لندبرج قد عبر المحيط الاطلانطى على متن طائرته ، ومع ذلك لم يصل هذا الخبر إلى الشعرى اليمانية هذه إلا عام ١٩٣٦ أى بعد تسع سنوات من وقوع الحادث .

وإذا أخذنا أقرب نجم فى كوكبة الدب الأكبر وجدنا بعده عنا نحو ثمانين سنة ضوئية . أما كوكبة الجبار (وترى فى شكل ٤ أيضاً) فلا يصل إلينا الضوء منها فى أقل من ٥٠٠ سنة ضوئية ، أى أن الضوء الواصل إلينا منها الآن قد بدأ سيره منها قبل اكتشاف أمريكا بنحو ١٥٠ سنة .



(شكل ٤)
كوكبة الجبار والشعرى اليمانية . وترى فوق الأفق الجنوبى الشرقى عند الغروب

. . .

ومن أجمل المناظر التى ترى فى السماء نهر المجرة أو سكة التبانة ، وهى مجموعة مركبة من ملايين من النجوم ، وليست الشمس إلا قطرة من ذلك البحر الخضم من النجوم المبعثرة التى تبدو متراصة . وبعض مجموعات النجوم فى المجرة تبعد عنا نحو ألفى سنة ضوئية ، أى أن الضوء الواصل إلى أعيننا الآن قد ترك هذه النجوم قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

والآن ما هو شكل هذه المجرة ؟ إن وجودنا داخلها يحول دون تصورنا لها كما ينبغى ، ولكن الفلكيين قد استطاعوا أن يكونوا فكرة عن شكلها ، ووصفوها بأنها تشبه عدسة هائلة يبلغ قطرها نحو ١٠٠ر٠٠٠ سنة ضوئية . وهذا العدد الهائل من النجوم فى المجرة

رثاء وردة

يا وردة قطفتها كف غانيـــــة
فزايلت غصـنها والروض يبكيها
جئت عليك ولم تدر الذي فعلت
وأسرفت وتغـالت في تجنيها
قد كنت ناعمة في الروض هانئة
يغذوك من قطرات الماء هانيها
الحسن فيك تجلى لاهياً طرباً
والطيب زادك تقديساً وتنزيها
تسرى النسائم إن جاءت وإن ذهبت
لا يعرف الطيب منها في مساريها
حتى تمر على واديك عارية   فتكتسي مايحليها ويذكيها
والنحل يرقصها الوادي ويخفضها   حتى تفيض عليها مايغذيها
والطل منتشر في الجو محتجب   عن العيون بعيد عن مجاليها
فتجمعين صـــباحاً كل لؤلؤة
قد موهت بطلاء الحسن تمويهـا
لا الدر يقرب منها في تساويها
يوماً ولا النجم في العلياء يحكيها
والبدر يرسل من أنواره رسلا   يهدي إليك تحاياه ويزجيها
والشمس قد قبلت خديك كاشفة
من المحاسن أسراراً تجليهـــا
خجلت خجلة عذراء محجبة   أبدى النسيم محياها لرائيها
قد كنت دنيا تمر الناس لاهية   بها وقد جهلوا أدنى معانيها
حتى دهتك يد لم ترع فيك كما   رعيت أنت على الدنيا وأهليها

• • •

يا وردة كان في الفردوس مسكنهـا
وأنزلتهـــا الليالي من أعاليها
ذبلت من بعد ما قد كنت ناضرة
وضمت ضيعة من قد جاور التيها
لا تحزني إنه دهر يسير بنا   وحالة بعد أحوال نقاسيها
أمنت للناس في الدنيا وقد نقضوا
كل العهود وعابوا من يؤديهــا

(سبك الضحاك)   **متولي أحمد كيوان**

يسبح جميعه في الفضاء بسرعة كبيرة خاضع لقوانين ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ومع ذلك فعلى الرغم من هذا العدد العظيم ، ومن تلك السرعات الكبيرة ، فإنه لا خوف من وقوع الاصطدام بين هذه النجوم ، وذلك لأن المسافات التي تفصل بعضها من بعض هائلة ، حتى لكأنما كل نجم منها يقع وحده في فراغ تام . وندرك هذه الحقيقة بشكل أوضح إذا تذكرت ما قلناه سابقا من أنه إذا كان أحدها يمثل بذرة في ميدان لاظوغلي فإن الآخر يمثل بذرة أخرى واقعة عند الاسكندرية مثلا . ومن ذلك كله يتضح أن احتمال وقوع التصادم بين أي اثنين من هذه النجوم التي في المجرة يماثل احتمال وقوع التصادم بين قاربين صغيرين قد دفعا في المحيط : أحدهما من شمال أمريكا ، والآخر من جنوب أفريقا .

• • •

وليست هذه نهاية القصة ، فقد بلغ الفلكيون إلى أبعد من هذا . فهناك حول المجرة توجد مجموعات من النجوم يبلغ بعدها عنا نحو ١٠٠٫٠٠٠ سنة ضوئية . ومع ذلك فلا يزال يليها سحب أخرى من النجوم هي مجرات أخرى ، بعدها عنا يصل إلى نحو مليون من السنين الضوئية ، وكل مجرة من هذه المجرات بها ملايين الملايين من النجوم ! .

من كتاب «العبير»*

تأليف الأستاذ حسين عفيف

— ١ —

على وقع قدميك ، ألحّن أشعارى . وبمحاسنك ، أطلقها تُنشد .

يا داعة التنقل فى قلبى آه من وقع خطواتك السحرى ! لولاه ما أوحىَ إلىّ ، ولما كان لمزمارى ترانيم .

فيا حبذا الوحى أنتِ الهمستِ ، ويا حبذا الأغنيات أغانيك !

روحى وجيئى بالفؤاد ، واتكلى الساق عليه ودقى بالقدم .

روحى وجيئى به وابعثى الأنغام فيه تلافيف . كلما خرجتْ من نايى مع تنفسى المحترق ، أرهف القوم لى سمعهم .

— ٢ —

ما أنتِ إلا زهرةٌ مرموقة ، وأنا النحلة التى تمتص رحيقك ، وتطير مترنحة فى الرياض .

فعلى شفتىَّ منك حلاوة ، وبشدوى طنينٌ ثمل .

وهكذا أشرب كأسى من خمرك ، حتى إذا أرسلتُ أنغامى سكرى ، لحق على نشاسها الناس .

— ٣ —

فى الصباح ، حملتُ سلالى الخالية ، وقصدت إلى روضك .

وطفقتُ حتى انصرم النهار ، أجمع من خدك الخوخَ ، والكرازَ من ثغرك .

وعندما عدتُ بمآلى وسلالى مفعمة ، أفرغتُها بجانب قلبى ورحت فى نوم لذيذ ، كطفلٍ احتضن دميته ونام .

(*) نشر حديثاً بمكتبة النهضة .

— ٤ —

حان السفر ، ودق ناقوس الفراق ، فإذا ما شمسُ اليوم غابت ، لن نعود نلتق .

فيا طيرُ صَهْ ، ويا زهور اذبلى ! وقِفْ يا نسيمُ ، ويا روض أغلِقْ أبوابك ، فلن يعود يطأ مماشيك الحبيب .

وانزوِ يا قلب والزم ركنك ، وافتحْ لكَ فيه طاقة وأطِلْ منها على ما ضيك ، وارقبْ فى ضمير الزمان خيال نجمك .

وقُلْ تُرى يا زمان نعود ويا نجم ترجع أفقك ؟ وتنير لى ليلى البهيم كما نورتَ عندك ؟

— ٥ —

لا أغنيةَ جية لا يَشيع منها الأسى ، الذى ينبع فى نفوسنا من معين مجهولة .

لا زهرةَ لا يقطر منها الندى ، ولا سرورَ لا يعبِّر عن نفسه بدمعة يذرفها فى صمت .

لا شىءَ البتةَ لا يدين للألم . الوجود نفسه كان ألماً كبيراً ما زال تمايه الخليقة . لأنه انفصالٌ أليم للكون عن الروح السرمد .

قبل أن يلتئم الجرح ، ستظل الدنيا تقطّر مرارتها الخالدة فى كل كأس تشربها ، حتى لو كانت من سلسبيل .

أنباء وآراء

سؤالان

١ — ما هو رأيك فى نظام صالح للعالم بعد الحرب الحاضرة ، بشرط ألا تغتصب حقوق أى أمة كانت ، مع العلم أن الحوادث قد برهنت على فساد الأنظمة الحالية .

٢ — ما هى الشروط التى يجب أن تتوافر فى عصبة الأمم لتكون ذات الكلمة النافذة فى تقرير مصير العالم ؟ وهل فى الامكان تشكيل عصبة أمم مرهوبة الجانب ؟

سامى داود سلطون

(الثقافة) تناول موضوع تنظيم العالم تنظيما جديداً أكثر من كاتب ومفكر . فهناك هـ . ج . ويلز الذى اقترح إعادة تنظيم العالم على أساس جديد يتمشى مع تطور الأخلاق تبعاً لتطور الحضارة ، وهو النظام الذى أسماه Re-Oreintation of the World ؛ وقد كرر ويلز مقترحاته لتنظيم العالم الجديد فى كتابيه الأخيرين[١] . وقد نشرت الثقافة فى عامها الماضى تلخيصاً لكل من الكتابين فى هذا الباب ، كما نشرت عرضاً لكتاب آخر فى نفس الموضوع لرئيس تحريرها ، وهو كتاب « الاتحاد الآن » لكلارنس سترايت[٢] .

وغير هذين الكاتبين تعرض الكثيرون لذلك الموضوع ؛ وفى الواقع لا يعدو ما يكتب أن يكون آراء تبسط ، فيها الصالح وغير الصالح ، وإنه لمن المغالاة أن يحكم بفساد الأنظمة الحالية دفعة واحدة ، فقد يكون الفساد راجعاً إلى سوء تطبيق هذه الأنظمة ، أو التقصير فى تطبيقها ، أو الاسراف فيه .

أما الجواب عن السؤال الثانى للقارئ الفاضل ، فإن أهم شرط يجب توافره فى عصبة الأمم لتكون لها الكلمة النافذة ، إنما هو تضافر جميع أعضائها وتوافر جهودهم وحسن نيتهم لإنجاح مهمتها . ولا نحسب أن هناك سبباً لما منيت به من فشل فى أداء رسالتها غير عدم إخلاص بعض أعضائها ، وضعف إيمانهم بها ، مما عرقل أعمالها وشل نشاطها .

ولا يمنع ذلك من أن نفتح للقراء باب الادلاء برأيهم فى سؤال القارئ الفاضل .

حول تبرج المرأة

نقرأ فى هذه الأيام فى « الثقافة » مقالات عن تبرج المرأة وخلاعتها وانسلاخ الكثيرات من ثوب العفة والرزانة ، وبعدهن عن صفات الأنوثة ، وعن خروجهن وتمردهن عما هيئ لهن من الوظائف والأعمال ، وتطلعهن إلى مزاحمة الرجال حتى فى القيام عليهن . فرأيت من كتب من السادة يظهرون أسفهم وحزنهم وانزعاجهم لانحراف المرأة عن الميدان الذى خصها به طبيعتها .

وأنا — إن جاز لى أن أدلى دلوى فى الدلاء — أشارك هؤلاء السادة فى أسفهم وحزنهم لمصير المرأة الزعج الذى سيفقدها قدسيتها ومكانتها المرموقة .

غير أنى أخالف حضرات السادة فى توجيه اللوم للمرأة ؛ إذ الرجال وحدهم سبب هذا الانحراف ؛ ذلك أن من المسلم به — لدى الجنسين — أن الرجل أقوى من المرأة ، وأن المرأة محتاجة أبداً للانضواء تحت لوائه ،

(١) The Fate of Homo Sapiens By H. G. Wells
New World's Order By H. G. Wells
(٢) Union Now. By Clarence Streit

تعتني بقوته ، وتتفاخر بسطوته وعزته ؛ فهي لهذا كله تحرى نفسية الرجل وتتعرف ما يلذه ويرضيه ، فتتظهر له بالمظهر الذي يضمن لها استمالته . فاذا تبرجت ، وتبذلت الحشمة والوقار ... فانما سببه الرجل وحده . ومظهر المرأة يعكس لنا نفسية الرجل وما يصبو إليه ، ونظرته إليها ؛ ولو أرادها عفة قاصدة غير جائرة لكانت دون مراء .

والرجل إنما يخادع نفسه أو هي سنة القوى مع الضعيف حين يحاول إلقاء التبعة على الجنس اللطيف .

وشيء آخر يخفف ذنب المرأة ؛ ذلك أن الرجل هو المسيطر المتحكم في الخلق ، وهو ربان السفينة في هذه الحياة الزاخرة ، فان استقامت السفينة ونجت فان ذلك لحذقه وقدرته ، وإن اضطربت فلإهماله ، وإذاً فتبعة انحراف المجتمع واضطرابه على الرجل ، الرجل القائد القابض على أزمة الأمور . فلينظر قادتنا الأدواء منصفين ، وليشخصوا الداء بالحق ، فلا تصرفهم عصبية الجنس فيخطئوا العلاج ويتعاظم الداء ! !

فالتهذيب (أيها المصلحون) والعفة والتصون للرجال ألزم ، لأنهم بأيديهم مقاليد الأمور (فان عجزتم من إصلاح الرجال فأنتم من إصلاح النساء أعجز) .

(الحلة — العراق) هاشم محمد الرجب

مفاتح جمع مفتح لا مفتاح

أشكل الأمر على الأستاذ عبد السلام محمد هارون حين راح يعجب من تعقيب الأب أنستاس ماري الكرملي في ملاحظاته على تحقيق كتاب الحيوان للجاحظ في العدد ١٠٤ من مجلة الثقافة فظن أن الكوفيين احتجوا بقول الله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب » على جواز حذف الياء من هذا الجمع على اعتبار أنه جمع مفتاح . والواقع أنه جمع مفتح بالكسر ، وهو الآلة التي يفتح بها ، أو جمع مفتح بفتح الميم وهو المكان ، لا جمع مفتاح . إذ لو كان كذلك لقلبت ألف المفرد ياء فيقال مفاتيح كدنانير ومصابيح ومحاريب ولم نسمعهم قالوا في جمع دينار ومصباح ومحراب دنانر ومصابح ومحارب .

على أنه لا وجه للمقابلة التي عقدها الأستاذ بين حذف الياء المزعوم وبين زيادة النحويين للياء في جمع ما لا مدّة في مفرده ، كقولهم دراهيم وصياريف . فذلك شيء وهذا شيء . والله أعلم ؟

مصطفى محمد ابراهيم

كنوز أدبية

من بين كنوز الشعب البريطاني تلك المكاتب العديدة التي يملكها الكثيرون من سراة الانجليز وعظمائهم . وبعض هذه المكاتب لا يقوم بثمن لما يحويه من مخطوطات ومؤلفات نادرة . ولما كان من أثر الغارات الألمانية على الجزر البريطانية تعرض كثير من المباني الضخمة للتدمير كما روت التلغرافات ، فقد كان يخشى ضياع الكثير من هذه المكاتب .

غير أن الصحف الأمريكية نشرت أخيراً أنباء وصول كثير من المكاتب الخاصة إلى الولايات المتحدة ، وأفردت إحداها مقالا أحصت فيه عدد المكتبات المهمة التي تم نقلها ، فاذا به يزيد على خمسمائة مكتبة ، وبعضها يحوى أهم وأندر آثار الأدباء ، وبين هذه الآثار مجموعات رسائل من بينها رسائل لشوسر ويوميات لشعراء مثل لونجفلو ورسائل من كيتس وتينيسون وغير ذلك .

وقد ذكرت هذه الصحيفة تفصيلات لما تعرضت له الباخرة التي نقلت غالبية هذه الكنوز الأدبية من مخاطر ، إذ هوجمت مرتين بالطائرات ، كما أوشكت أن تمس الألغام أكثر من مرة ، ولكن نظام القوافل البحرية كفل لها الوصول سالمة إلى الشاطئ الامريكي .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ١١٢ — الثلاثاء ٢٢ من المحرم سنة ١٣٦٠ — ١٨ من فبراير سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الدعوة فى العصر الحاضر

للأستاذ على أدهم

الدعوة والإعلان فى العصر الحاضر شأن ملحوظ ، ومكانة غير مجهولة ، وهى فى نظر القائمين بها خليقة بما يرصدونه لها من أموال وما يستنفدون فيها من جهد . ولم تصل الدعوة حتى اليوم إلى أن تكون علماً من العلوم له أصوله وقواعده ونظرياته ومذاهبه ؛ وأبرع الدعاة أو أقدر المعلنين لا يستطيعون أن يعرفوا بصورة قاطعة مدى نجاحهم ؛ وقصارى ما فى الأمر أن المعلنين قد اكتسبوا خبرة وأفادوا معرفة فى عرض السلع فى شكل سائغ وترويج البضائع ، وحذقوا فن التكرار والتقرير والتلوين ، وأدركوا كيف يترضون عواطف الجمهور ، ويتملقون الغرائز الوضيعة ، ويستغلون الخوف فى مختلف مظاهره ، سواء الخوف من الأمراض ، أو الخوف من الموت ، أو الخوف من الشيخوخة الباكرة ، أو الفزع من الدمامة وتغضن الوجه وتشنن الجلد .

والإعلان فى التجارة وإن كان يستلزم الكثير من البراعة والبصر بدوافع الأهواء ، والإلمام بمختلف العادات

ومتباين الأذواق ، أقل تعقيداً وأيسر مطلباً من الدعوة فى الأخلاق والسياسة ، لأن عمل الداعية الأخلاقى فى جوهره قائم على تمكين الناس من الانتصار على أثرتهم ، ونسيان مطامعهم الشخصية ومآربهم الدنيوية فى سبيل غاية بعيدة ، ونظام مأمول ؛ والفلسفات الأخلاقية على كثرتها واختلاف مراميها أساسها إنكار الذات ، ونبذ المطامع ، ومغالبة الأهواء ، لتحقيق المثل الأعلى المنشود ؛ ومن ثم كانت الدعوة فى الأخلاق والسياسة من أشق الأمور ، وتستلزم إجادتها معرفة عميقة بالقلب الانسانى ، وخبرة واسعة بالنفس البشرية ، وإلماماً بالتاريخ فى مختلف أدواره وشتى عصوره ، وهى مع ذلك لا تصادف التوفيق إلا إذا ناصرها الزمن وواتتها الظروف . فى الحرب الكبرى السالفة ظلت دعوة الحلفاء عقيمة غير مثمرة حتى صيف سنة ١٩١٨ ، ولم تجن من مزعة الألمان ؛ ولكن بعد انقضاء ذلك الصيف عضتهم الحاجة ، وبدا لهم شبح المجاعة ، ومهدت الوقعات غير الموفقة السبيل لتأثير الدعوة ؛ فالدعوة السياسية والدعوة الدينية والدعوة الأخلاقية لا تؤتى تأثيرها البعيد ، ولا تحيك فى النفوس ، إلا إذا أصابت استعداداً وقبولا كما فى قول أبى الطيب :

إنما تنجح المقالة فى المر ء إذا وافقت هوى فى الفؤاد

وقد لقى كتاب « كل شىء هادئ فى الميدان الغربى » رواجاً عظيماً عند ظهوره ، فتعددت طبعاته ، وترجم إلى أكثر اللغات ، لأن العالم كان لا يزال يعانى ويلات الحرب ويضمد جراحاتها ، ويحاول إصلاح ما أفسدته ، ولكن سرعان ما نشأ الجيل الذى لم يكتو بنيران الحرب ، وعادت الأمم إلى الاستعداد للتسلح والتأهب للحرب .

وخطأ القائمين بالدعوات فى كثير من الأحيان مصدره أنهم يظنون أن الاتجاه النفسى الذى يلحظونه فى المجتمع مقدر له أن يستمر على حاله أو أنه يتزايد ويعم ، ففى عصور الشك يظن دعاته أن الخرافات قد قضى عليها وذهبت إلى غير رجعة ، وأن العقل قد انتصر انتصاراً نهائياً حاسماً ، وفى أيام رد الفعل الدينى يظن رجال الدين أن الشك قد دُمّر تدميراً ، وقضى عليه إلى الأبد ، وكلا الظنين مخطئ ، لأن التاريخ البشرى يسير فى تموجات ، والناس سرعان ما تسأم أى لون من ألوان التفكير إذا طال عهدهم به ؛ وإذا استحكم فى نفوسهم التبرم به والزهد فيه اتجهوا إلى نقيضه . والدعوة الموفقة هى التى تحسن مراقبة هذه الاتجاهات النفسية ، وتعمل على تعميق مجراها وتوسيع دائرتها .

وفى الأمم الديمقراطية تكثر الدعوات وتتنافس ، وتتفق كل دعوة فى اجتذاب الجمهور واسترعاء الأسماع . أما فى الأمم الخاضعة للنظام الديكتاتورى فإن الحكومة تحتكر الدعوة ، لأنها قائمة على مصادرة الحريات والاستئثار بالتفكير والقيادة والتوجيه . واستمالة الحكام الأقوياء بالدعوة قد تبدو غريبة متناقضة ، لأن لهم من امتداد النفوذ واستقرار السكانة ما يُخيَّل إلى الناظر أنهم فى غير حاجة إلى الدعوة ، والاستزادة من السكانة والنفوذ ؛ ولكن الواقع أن الحكومات الديكتاتورية تحاول على الدوام أن تكتسب الصفة الشرعية ، وتدرأ عن نفسها تهمة استلاب السلطة ، وهو أمر لا تشعر الحكومات القديمة التى رسخ نظامها بأنها فى حاجة ماسة إليه .

ومنذ حدوث الثورة الفرنسية أصبح الشعب هو مصدر السلطة ، لذلك يحاول كل مغتصب السلطة فى العصر الحديث أن يسوغ ذلك فى صورة ديمقراطية ؛ فالديكتاتوريون الذين هدموا الديمقراطية ، واستخفوا بعبادتها ، وخانوا تعاليمها ، يتخذونها برغم ذلك وسيلة لتحليل حكمهم وتبرير مذهبهم ؛ والنظام الديكتاتورى قائم

على الخضوع التام والاستسلام المطلق ، وهو لذلك يحاول أن يعوض الناس عما فقدوه من الحرية والكرامة ، بأن يذيع فيهم أنهم شعب ممتاز وأمة راقية ، ويلجأ فى ذلك إلى الدعوة ليصرفهم عن الشعور بما يعانون من العبودية وثقل القيود ويعدهم بأسباب تدعو إلى أن يحسنوا الظن بأنفسهم ، ويطلقوا العنان لكبريائهم وغرورهم ، ويمكنهم من علاج مركب النقص والشعور بالهوان .

والدعوة فى أكثر الأوقات عنصر من عناصر السياسة وعتاد الزعيم السياسى ، وقد أوفى فيها على الغاية زعيم ألمانيا المرهّب وجذيلها المحكك المستشار هتلر ، وهو يفرق فى كتابه « كفاحى » بين التوضيح العلمى والدعوة ، فالتوضيح العلمى للمستنيرين ، ولا شأن له بهم ؛ أما الدعوة فإنها للجماعات ، وهذا ما يهمه ويعنيه . وقد اقتبس هتلر أسلوبه الخاص فى الدعوة من البلاشفة وأدخل عليه التعديلات اللازمة ، واستوفى نواحيه وهذب حواشيه . ولم يكن عند لينين وتروتسكى جيش قوى عند قيام الثورة الروسية ليرد عنهما غائلة الأعداء وغارات الخصوم ، فعمدا إلى أسلوب جديد لاشعال الثورة وخلق أسباب التفرقة والخلاف فى الأمم الرأسمالية ؛ وهذا الأسلوب هو إيجاد جيش من الصناع والزارعين الذين فى داخل البلاد المناوئة لها ، ليعتمدوا عليه فى الخروج على الدولة وزعزعة النظام وهدم البناء الاجتماعى . وهتلر رجل بعيد المطامع يريد أن تكون السيادة العالمية للشعب الألمانى ، ولكى يتم له ذلك قد ابتكر أسلوبا جديداً للحرب الشاملة . وليس معنى ذلك عند هتلر تعبئة قوة الرجال وحشد القوى الصناعية لخوض المعركة وإحراز النصر ، فإنما ذلك مجرد مظهر من مظاهر ذلك الاستعداد الضخم ، وإنما الحرب الشاملة عند هتلر يقصد بها توهين قوى خصمه وتفكيك روابطه ، لا الاكتفاء بهزيمته فى ميدان القتال ؛ وهو يريد بذلك حربا مستمرة لا تهمد حركتها ولا تهدأ نيرانها ، سواء أراد ذلك خصومه أم لم يريدوه ، وهو يستعمل فى تلك الحرب كل سلاح يحقق غرضه ويدنيه من الانتصار .

وأكثر الدول فى العصر الحديث تعد الحرب شراً يلجأ إليه عند الضرورة القصوى ؛ ولكن هتلر يعتبر الحلول السلمية وهناً فى الرأى وضعفاً فى السياسة ؛ والحرب فى زعمه عمل شريف ومطلب سام ما دام هناك من يقف فى سبيل الشعب الألمانى ؛ وقد تحقق هتلر أن خلق أقوى جيش وإيجاد أتم نظام اقتصادى حربى لا يكفيان لبلوغ غرضه ، وأدرك أنه لا بد له من عاملين يكفلان له النجاح ، وهما نظام فى داخل البلاد يجعل عقول الأفراد موحدة متشابهة ، ونظام فى خارج البلاد يعمل على إضعاف الروح المعنوية فى معسكر خصوم أمته وبين صفوف أعدائها ؛ ولذلك أنشأ نظام الجستابو فى ألمانيا ، وأوجد نظام الطابور الخامس فى خارج ألمانيا ، وقوام النظامين الدعوة الواسعة النطاق ؛ ونظام الجستابو يشبه من بعض الوجوه نظام الأوجبى عند البلاشفة ، وأعضاؤه مدربون على فهم المشكلات السياسية والاجتماعية ؛ والطابور الخامس يبذر بذور النقمة والشقاق ويمهد للتردد والهزيمة ؛ وقد كانت روح التذمر والضجر غالبة على العالم فى السنوات السابقة للحرب ، فحاول جبلز وزير الدعوة الهتلرية أن يفصم عرى الدول الرأسمالية ويصدع وحدتها ، وجعل الأقليات الألمانية فى أغلب الدول طابوراً خامساً ، وكان دعاة هذا الطابور يعدون الأقليات بالانتصاف من ظالميهم ، ويعدون الرأسماليين بمجاهدة البلاشفة ، ويعدون تروتسكى وأنصاره بالقضاء على الرأسمالية ، ويعدون الشعوب المغلوبة على أمرها بالاستقلال والحرية ؛ وبراعة جبلز فى قدرته على تلفيق الوقائع وتسريع الأكاذيب ، وهو ينتقص من الحقائق ويقطع أوصالها ، لتلائم غايته وتؤثر تأثيرها فى نفوس من

يريد مخاطبتهم والتأثير عليهم . وقد فطن دعاة النازية إلى أنه من الميسور أن يقوم الإنسان بدعوات متناقضة في نفس الوقت ، وأن الأكاذيب والافتراآت والمتناقضات لاتفسد الدعوة ولاتبطلها ، على شريطة أن يكون في الدعوة جرثومة من الصدق ؛ والدعوة هي فن الاستهالة والإقناع ، والناس على أتم استعداد ليُجتذَبوا ويُستَمالوا نحو الشيء الذي يريدون أن يصدقوا به ؛ فإذا بالغ صاحب الدعوة في التفصيلات أو زيّد فيها وكذب فليس في ذلك كبير بأس ؛ وما دام قد زوّدهم ببعض الأسباب التي تبعثهم على الإيمان بما يلائم معتقداتهم السابقة فإن في ذلك الكفاية ، ولا عبرة بما ينشر بعد ذلك من أكاذيب وما يزكى من باطل . والدعوة النازية لاتسمح لأتباعها بالمناقشة الموضوعية لأنها تمهد السبيل للشك والظنون ؛ ولكي تنتصر وتكسب لايجوز أن تسمح لرأي مناقض لرأيك أن يعبر عنه ويصغى إليه ، ويلزم أن يتمسك الناس صاغرين منقادين . والإنسان العادي واجبه في رأي النازيين الطاعة والخنوع ، لأنه لا يمكن أن يكون أكثر من ترس في دولاب الدولة العظيم . ويستبيح النازيون في سبيل دعوتهم إحراق الكتب وإخضاع الراديو والسينما والصحافة ومنابر الخطابة ومعاهد التعليم ؛ وما دام قد أمكن عزل الشعب عن العالم الخارجي بحيث لا تصله الجرائد الأجنبية ، ولا يصغى إلى الإذاعات الخارجية ، فلا خطر إذاً هناك من إذاعة أية نظرية ؛ وإذا ساور الشك بعض النفوس فإن معسكرات الاعتقال جديرة بإزالة ذلك الشك وردها إلى حظيرة الإيمان والتسليم ؛ ولكن الدكتاتورية فاشلة في النهاية ، لأن الروح الإنسانية لم تخلق لتسام الهوان ، وتحتمل العبودية والضيق والظلام . وتجارب التاريخ لم تذهب عبثاً ، وجهود الأحرار والمصلحين لم تكن باطلا .

علي أدهم

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

حديث الخميس

للأستاذ أحمد أمين

وعدت القراء أن أوافيهم من حين إلى حين بما يدور ليلة الخميس فى لجنة التأليف .

لقد كان حديث الليلة حديثاً طريفاً ؛ فبعد أن التأم الجمع بدأ أحدنا يقص علينا عملا عمله فى يومه ، وأعقبه بقوله : « لقد كانت قرفته ثقيلة » .

وهنا تعلق أحد الحاضرين بهذه الكلمة وسأل :

— من أين جاء هذا التعبير ، فيقولون للعمل إذا سار فى يسر وسهولة : « إن قرفته خفيفة » ، وإذا تعقد وارتبك « إن قرفته ثقيلة » ؟ وكلنا يعرف القرفة ، وأنها نوع من الأفاويه يستعمله المصريون مشروباً ساخناً كالشاى ، فكيف استعمل هذا الاستعمال الغريب ؟

رد أحد الحاضرين بأن مصدر هذا الاستعمال حلقات الذكر ؛ وقد جرت العادة أن يوزع فيها مشروب القرفة ، ولكن توزيعها فى هذه الحفلات هرجلة فى غير نظام ولا اتقان ؛ فالقرفة تصنع على عجل وتوزع حيثما اتفق ، فهذا يناله فنجان سكره خفيف ، وهذا سكره كثير ، وهذا قرفته خفيفة ، وهذا قرفته ثقيلة — هذا أصل الاستعمال ، ثم تطور المعنى ، فصاروا يعبرون من كل شىء خفيف الظل بأن قرفته خفيفة ، وكل شىء ثقيل الظل بأن قرفته ثقيلة .

— ولكن هناك ما هو أصعب من السؤال عن اللفظ وأعقد : ما معنى أن الشىء قرفته خفيفة أو ثقيلة ؟ هل هو أمر يعود إلى أسباب طبيعية يمكن تفسيرها وشرحها ، أو أن وراء هذه الأشياء الطبيعية التى نعلمها أشياء روحية نجهلها ؟

تبلبل الحاضرون واختلفت الآراء .

— أما أنا فانى أرى أن الأمر يمكن تفسيره بالقوانين الطبيعية ؛ فالانسان إذا كان معتدل المزاج ، قوى النشاط معدته صحيحة ، ودورته الدموية نشيطة ، وكبده فى حالة جيدة ، والعمل يناسبه ، كانت قرفته خفيفة ؛ وأما إذا ساء مزاجه ، أو اضطربت معدته ، أو ساءت حالة كبده ، أو كان العمل ليس فى مقدوره ، كانت قرفته ثقيلة ؛ وكل ذلك طبيعى ولا شىء غير الطبيعة .

— وأما أنا فانى أرى أن الأمر ليس بهذه البساطة ، وأنه أعقد من أن يحل بهذه السرعة ، فقد أكون معتدل المزاج متوفراً فىَّ كل الشروط التى ذكرتها ، وأحياناً أعرض لعمل فيسهل ، وأعرض لمثله أحياناً فيصعب .

لقد سكنت بيتاً وكانت كل الدلائل تدل على حسنه ؛ مبناه جميل ، وهندسته جميلة ، وحائز لكل الشروط الصحية ، ومع ذلك كانت قرفته ثقيلة ؛ بليت فيه بالمرض ، وابتلى أولادى بالمرض ، وأصبت فيه بالنكد ، وكانت حياتى فيه سلسلة مصائب ، حتى إذا انتقلت منه إلى بيت آخر زالت كل هذه الشرور .

— وتصديقاً لقولك ، هذا رجل يتزوج زوجة قد لا تكون حسناء ، ومع ذلك فهو سعيد موفق فى تجارته ، يأتيه الرزق من كل مكان ، وتنهال عليه الخيرات ، وينعم بضروب السعادة ، ثم تموت هذه الزوجة ، ويتزوج غيرها قد تكون أجمل منها ، ومع هذا يبتدئ يضيق رزقه ويقل مورده ، وتكثر متاعبه ، ولا يزال يتدهور حتى يصل إلى الحضيض ، فكيف تفسر ذلك تفسيراً طبيعياً ؟

— وهذا رجل يلعب نرداً أو شطرنجاً أو ورقاً ، فهو فى أسبوع حسن الحظ جداً ، يلعب فيكسب ، ثم يلعب

فيكسب ، ويلى هذا الأسبوع أسبوع آخر يلعب فيه فيخسر ، ثم يلعب فيخسر ، واللاعبون معه هم هم ، وهو هو ، فكيف تفسر ذلك طبيعياً ؟

— وهذا يوم اصطبحت فيه بشخص . فكان يوماً أسود : ركبت سيارتى فتعطلت فى الطريق ، فاستأجرت أخرى فاصطدمت ، وذهبت إلى عملى فكان غير موفق ، واشتريت شيئاً فكان سيئاً ، وعدت إلى بيتى فوجدت ابنى قد رجع من المدرسة مكسور الذراع ، ودعوت الطبيب فلم أجده ؛ واصطبحت بشخص آخر يوماً آخر ، فكان كله توفيقاً ؛ فكيف تفسر ذلك تفسيراً طبيعياً ؟ لِمَ تجمّع كل هذا الخذلان فى يوم ؟ ولِمَ تجمّع كل هذا التوفيق فى يوم ؟ .

إذ ذاك انقسم الحاضرون إلى معسكرين : معسكر يرى أنه لاشىء فى هذا كله مما يصعب تفسيره تفسيراً طبيعياً ، فلا شأن للبيت المشئوم فى شؤمه ؛ ولو كان من حدثت له هـذه الأحداث فى أى بيت لجرى له ما جرى ، إلا أن يكون فى البيت نفسه شىء طبيعى يخل بالصحة ؛ ودليل ذلك أن البيت الواحد قد يسعد فيه قوم ويشقى آخرون ؛ ولو كانت المسألة مسألة البيت لاتحدت نتائجه من سعادة أو شقاء دائمـا ، بل إن البيت الواحد للأسرة الواحدة قد يكون مكان سعادة لها حيناً وشقاء حيناً لأسباب خارجة عن البيت نفسه . وكذلك الشأن فى حديث الزوجة ، ليس لها دخل فى فقر الزوج وشقائه بعد غناه وسعادته ، إلا أن يكون لها من الأخلاق ما يسبب ذلك ، كإسرافها أوتبديدها أو إهمالها ؛ فإذا لم يكن شىء من ذلك فلا بد أن تكون هناك عوامل اقتصادية أخرى غير المرأة سببت تدهور تجارته ، لو حدثت أيام الزوجة الأولى لحدث الفقر نفسه . ولسنا ننكر المصادفات ، وأن حوادث الشر قد تتجمع فى يوم ، وحوادث الخير تتجمع فى يوم ، ولكن كل مصادفة ترجع إلى قانون السببية .

ووقف المعسكر الآخر يحمل على هذا التفسير ، ويرى أنه لا يحل الاشكال ، وأنه لو كان الأمر دائماً يرجع إلى علل معقولة فما بالنا نرى من تجمعت فيه كل شروط النجاح ثم فشل ، ومن تجمعت فيه كل أسباب الفشل فنجح ؟ ومابالنا نرى الشخص يضع يده فى التراب فيكون ذهباً ، ونرى الآخر يضع يده فى الذهب فيصير تراباً ، ولو حاولنا أن نبين لذلك أسباباً معقولة لعجزنا كل العجز .

ثم تشعب الجدل وطال ، ورأينا أنفسنا قد انتقلنا فى خفة ورشاقة إلى شىء يتصل بذلك أتم الاتصال . فقد كان مدار الحديث حول « القرفة الخفيفة والقرفة الثقيلة » فإذا بنا نتحدث عن الدم الخفيف والروح الخفيف ، والدم الثقيل والروح الثقيل .

— ما هـذا أيضاً ؟ إنا لنرى من استوفى كل شروط الجمال فى لونه وتقاطيعه ، ولو طبقت عليه كل القواعد التى وصل إليها علماء الجمال لا نطبقت عليه ، ومع هـذا نقول إن دمه ثقيل ، وآخر قد اجتمعت عليه كل ضروب القبح فى لونه وكبر أنفه وجحوظ عينيه وانحناء متنه ، وهو مع ذلك خفيف الروح تأنس النفس به وتنجذب إليه ؛ هذا من جنس ذاك ، فما تفسيره ؟ أهو أيضاً خاضع لقوانين طبيعية أو تدخل فيه قوانين روحانية ؟ .

— تفسير ذلك أن الجمال أنواع : فمنه جمال الأعضاء والتقاطيع والألوان ، ومنه جمال الحركة ، وجمال الحديث ، وجمال العقل والتفكير وجمال الروح ، وخفة الدم ترجع إلى جمال الروح . وليس هذا فقط ، بل إن الجمال سواء كان حسياً أو معنوياً لا بد فيه من الانسجام بين الرائى والمرئى والشاعر والمشعور به ، ومن هذا نرى الانسان جميلاً فى عين إنسان وليس جميلاً فى عين آخر ، وخفيف الروح فى

معين وقبيلها في معين . ثم قد يكون الشخص جميلاً جمالاً حسياً ، وليس جميلاً جمالا معنوياً ؛ فإذا رأيته أعجبك شكله ، فإذا تكلم أو عرض عقله تبينت ثقله ، لأن قبح عقله غطى على جمال شكله ؛ فالمسألة كلها ترجع إلى قوانين طبيعية سواء في ذلك جمال الحس وجمال المعنى .

— أما أنا فالأمر عندي أدق من ذلك ، فأعتقد أن هنالك إشعاعاً روحياً أدق وألطف من إشعاع الضوء ، وأن كل إنسان له نوع إشعاع ، فإذا توافق إشعاع الناظر والمنظور على نوع من أنواع الاتفاق أحس بالجمال وعبر بخفة الروح ، وإذا لم يتوافق الشعاعان عبر عن ذلك بثقل الروح ، و « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وكيف ننكر هذا الإشعاع وقد قربنا من إدراكه اكتشاف اللاسلكي ، وأمواج الروح أدق من أمواج السلكي واللاسلكي .

— ولكن إذا كان هذا صحيحاً فلم نستثقل شخصاً ثم نستلطفه أو نستلطفه ثم نستثقله ؟ ولو كان الأمر أمر إشعاع وتوافق لاستمر ذلك أبداً ولم يحدث فيه هذا التغير ؟ .

— الأمر يمكن تفسيره بأن هناك طاقات ينفذ منها الإشعاع ، تفتح فيخرج إشعاعها وتغلق فينعدم ؛ فهذه طاقة إشعاع تتفتح عند الحديث ، وأخرى عند الخطابة ، وثالثة عند تلاقي العيون ، ورابعة عند الحركات ، وهكذا ؛ وقد تكون أشعة طاقة من الطاقات لطيفة جميلة ، وإشعاعات طاقة أخرى ليست لطيفة ولا جميلة ، وقد تكون جميلة بامتزاجها مع إشعاعات شخص ، وليست جميلة إذا امتزجت مع إشعاعات آخر ، ومن أجل ذلك ننظر إلى شكل إنسان فنستجمله فإذا تحدث نستقبحه ، وإشعاعات الأفراد تختلف كية وكيفية ، فتختلف كية كقوة مصابيح الكهرباء ، وتختلف كيفية كالأمواج القصيرة والطويلة والمتوسطة ، ولهذا يختلف الأفراد في قوة التأثير حسب قوة الإشعاع وضعفه وكثرته وقلته .

— هذا كلام شعري لا كلام علمي ، هو كلام يستسيغه الأديب الذي يروعه التشبيه والاستعارة وسائر ضروب الخيال ، ولكن لا يأبه له العالم الذي يحلل ويعلل ولا يقتنع إلا بالسبب والمسبب .

— وما ضرر هذا وليست حقائق الدنيا كلها علماً ، بل فيها العلم والأدب ؟ وطبيعة العالم فيها الصنفان جميعاً ، هذا النهر يتكون من عناصر الماء العلمية ومن جمال مناظره الأدبية ، من أوكسيجينه وهيدروجينه ، ومن بريقه وخريره ؛ وهذه الأشجار تتكون من عناصرها الأولية ومن زهرتها الجميلة وحفيف أوراقها الجميل ولعب النسيم بأغصانها الجميلة ؛ فلماذا تريدنا على العلم الجاف ، ولا تريدنا على الأدب الجميل ، إذا كانت حقائق الدنيا فيها النوعان معاً ؟ ثم ما هذا الغرور العلمي الذي يريد ألا يؤمن إلا بما يقع تحت حسه ولا يقر إلا بما يحلله في معمله ؟ فكم في الدنيا من عوالم : عالم يخضع لقوانين السببية وعالم لا يخضع ، عالم اكتشف وعالم سيكتشف ، وعالم لا كشف ولا سيكتشف ؛ وكلَّ يوم يطلع على العلم بقوانين جديدة واكتشاف في الطبيعة جديد ، وكل يوم تتسع فيه دائرة المعلوم وتضيق دائرة المجهول .

— أما إن وصلنا إلى هذا فالأمر يسير ، فأنا — كعالم — أقف عند حدود العلم ، ولا أومن بالفروض حتى تدخل في باب النظريات ، ومع هذا لا أدعي أن العلم وصل إلى كل شيء ، وحل كل شيء ؛ وإنما الذي أنكره عليك أن تعرض جمال الروح وقضايا الاشعاع على أنها علم لا فرض ، أما إن عرضتها كفرض فلنبحثها بحث الفروض

ودقت الساعة مؤذنة بالانصراف فتفرقنا ، وكانت جلسة روحها خفيفة وفرقتها خفيفة ، أليس كذلك ؟

أحمد أمين

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كانت تدمر (بادية الشام) مدينة عظيمة ، بها من المبانى الفخمة والمدنية المتقدمة ما يجعلها من أعظم مواضع العالم . وذلك بفضل تجارتها العظيمة ، إذ كانت أكبر مرسى للقوافل التى تحمل المتاجر بين الشرق والغرب . وكان أميرها أذينة فارساً باسلاً مغرماً بصيد السباع من الوحش . وأصيب مرة بجرح خطير فى نزال أسد قاتل ، ومرض من أثر ذلك ، وكانت زوجته الوفية زنوبيا سليلة بيت الإمارة فى تدمر وحفيدة كليوبترة ، فارتاعت لمرضه ولم تجد سلوى فى اضطرابها إلا عند وصيفتها المسيحية لبنى ، التى جعلتها تتجه إلى الله فى شدتها ، وتفتح قلبها بعض التفتح للمسيحية . وجعلت لبنى تصلى وتدعو الله من أجل أذينة ، فلما زال الخطر عنه زادت محبة زنوبيا لها . وكانت لبنى تعرف شاباً مسيحياً فارساً من جنود أذينة اسمه حسان ، وكانت تحبه فى حقيقة الأمر ، ولكنها كانت تجهل تلك الحقيقة من نفسها . ولما شفى أذينة جلس مع أصحابه فى مجلس سمر وشراب ، وفى أثناء ذلك أتى حسان يحمل نبأ عظيماً اهتز له العالم كله ، وهو أن سابور ملك الفرس هزم فاريان امبراطور الروم وأخذه أسيراً] .

أفضى الفارس بالنبأ الهائل . نبأ أسر أمبراطور الروم . فهمَّ أذينة يريد القيام وهو يتعثر ويتمايل من أثر الخمر . وأسرعت زنوبيا ولوبجين إليه يسندانه . وأرادت الأميرة أن تقعده على أريكته ، ولكنه قاوم ودافع ، وجعل يصيح بلسانه المتلعثم المعوج :

— جهزوا لى الظليم . جهزوا فرسى الأدهم . سأذهب إلى سابور فى فرسانى لأحطمه ، هاتوا سيفى ودروعى .

ووقف الفارس بعد أن أدى الرسالة ينتظر ما يؤمر به ، فصاح به أذينة وهو يحاول التقدم نحوه قائلا فى لسان متلعثم :

— أيها الأصم ، ألم تسمع ما قلت ؟ اذهب لا أم لك .

ثم اندفع نحوه ، ولكنه ما كاد يخطو خطوتين حتى تعثر وسقط على الأرض قبل أن تستطيع زنوبيا أن تدركه .

وأسرع الفارس ولوبجين إليه ليساعداه على القيام . وما كاد يقف على رجليه مترنحاً حتى رفع يده ولطم الفارس على وجهه قائلا :

— خذ جزاءك . أتعصينى أيها العبد ؟ أسرع إلى الظليم لتجهزه لى .

فوقف الفارس متجهماً كأنه تمثال لا يتحرك ، وأسرعت زنوبيا مرتاعة ، فأدركت زوجها وأعادته إلى مكانه ، وجعلت تهدئ من ثورته ، ثم نظرت إلى الفارس وقالت :

— هبها لى يا حسان .

وكانت رنة صوتها تنم عما فى نفسها من الأسف والألم . فحيا الفارس وهو واجم . ثم خرج تاركا الأمير الثائر يهدد ويتوعد ويصخب .

ورأت (زنوبيا) أنه لا جدوى من مجادلة الأمير وهو فى مثل حالته ، فتركته ينفس عن ثورته ، ولم تمنعه من معاودة الشراب ، فجعل يجرع الكأس بعد الكأس ، وهو يردد صيحاته المضطربة ، حتى فتر وخمد ، ومال على أريكته لا يعى .

فأمرت الأميرة بعض الأتباع أن يحملوه إلى مخدعه ، ولما سوت عليه غطاءه واطمأنت إلى حراسته ، عادت إلى صديقتها لوبجين وقضيا سائر الليلة يتذاكران النبأ الجديد ، وينظران فيما يجب عليهم تدبير الحيلة فيه .

وصحا أذينة فى اليوم التالى بعد أن بلغت الشمس

وسط السماء ، وكان متعباً موجع الأعضاء ، وكانت زنوبيا أول من وقع عليه بصره ، فابتسم لها في فتور ، وقضى مدة خامد القوى ، ثم بدأ يذكر بعض ما كان منه ؛ فأخذت (زنوبيا) تقص عليه ما حمله حسان إليه من الأنباء التي أتى بها الرسل إلى تدمر ؛ ثم أشارت إشارة سريعة إلى ما لقى ذلك الشاب على يديه من إهانة . ولم تطل في وصف ما كان منه في سكره خوف أن تؤلمه ، فأسرعت عائدة بالحديث إلى النبأ العظيم وسألته قائلة :

— هذا الأمر مما لا ينبغي فيه الاسراع ، فرب عجلة أورثت ندماً .

فقام أذينة من سريره صامتاً ، وقد ظهر على وجهه الألم وذهب ليتهيأ للخروج . وساعدته زنوبيا على ملبسه وهي صامتة . ثم خرجا معاً إلى البهو ، وكان أذينة جامد الوجه مطرقاً ، ولكن عينيه كانتا تبرقان كأن الماء يترقرق فيهما ، وكان جبينه مقطبا وشَعثاء واسعة نابتة ولما استقر في مجلسه كان أول من دعاه إليه حسان . ثم جلس صامتاً يعبث في لحيته السوداء القصيرة ، وبعد قليل جاء حسان يسير جاهما نابياً حتى اقترب منه حياء ووقف أمامه جامداً .

فنظر إليه أذينة لحظة ثم قال بصوت مخنوق فيه تهدج :

— اغفر لي زلة الأمس يا حسان أو اقتص مني .

فتحرك وجه الشاب حركة سريعة وأغضى قليلاً ، ثم اقترب منه مسرعاً وأمسك بيده فقبلها قائلا :

— قد وهبتها أمس لمولاي . أنا ابنك يا مولاي ولك حياتي .

ثم بعد عنه خارجاً وهو يخفي وجهه لكيلا يرى الدمعة التي فرت من عينيه .

فنظر أذينـة إلى (زنوبيا) نظرة أودعها كل حركة نفسه ، ثم غير الحديث فجأة فقال :

— والآن يا ابنة الأكرمين . لقـد آليت عندك لا أشرب الخمر بعدها حتى أرى ما يكون بيني وبين سابور .

فجلست زنوبيا إلى جواره هادئة وقالت :

— ذلك أحرى بك أيها الحبيب .

وصمتت لحظة ثم قالت :

— ولكن ما الذي بينك وبين سابور ؟

فالتفت أذينة نحوها في دهشة وقال مسرعاً :

— هو السيف . ليس بيني وبينه إلا حد السيف . أيكون لك رأى آخر ؟

فسكتت لحظة ثم قالت في صوت خافت :

— ليس بمثل هذه العجلة تقضى الأمور . إنك تهم بعداوة ملك قد صار له ملك الأرض من شرقها إلى غربها..

فقال أذينة مقاطعاً :

— وماذا ننتظر بعد أن أسر فاليريان ؟

فقالت زنوبيا هادئة :

— ليس (فاليريان) بأب لك أو نسيب . بل إنه لم يكن لك بالصديق . لقد كنت تخشى الروم وتتوقع غزاتهم كلما طلعت عليك شمس نهار وكلما أقبل عليك ليل . وكنت في مودتك لهم تتلطف لتأمن غائلتهم .

فتحرك أذينة في ضجر وقال متحمساً :

— ولكنه إن بدأ بالروم كنا دونه بعدهم .

فأجابت زنوبيا ولا تزال هادئة :

— فما إسراعك إذاً إليه وهو في فورة نصره وطلعة إقباله ؟ ألا تدعه يقصد إليك وبينك وبينه هـذه الصحارى ؟ لقد كانت الصحراء منذ القدم حصن آبائنا .

فصمت أذينة ، وبدا عليه القلق والتردد ، فاستأنفت زنوبيا قائلة :

— وإنك إن قصدت نحوه اليوم ذهبت إليه محملا في قلة من رجال وعدة ، على حين يكون هو في جنوده الذين زهاهم النصر .

فاتجه أذينة إليها متردداً وقال :

— وإذاً فانك ترين أن نقعد حتى يأتوا إلينا ليغزونا في عقر دارنا ! لا وحق الشمس وبعل والعزى ! ما غُزِيَ قوم في ديارهم إلا ذلوا .

فقالت زنوبيا في ثبات :

— لا أقول نقعد حتى يأتوا إلينا . بل نستعد لهم بالرجال ، فنستفز القبائل التي معنا ، ونجمع السلاح ، ونعد الأزواد ، حتى إذا رأيناه قصد لنا بادرنا إليه .

وأحب ألا تنسى ذلك العدو الرابض عند الحيرة . أنسيت أن امرأ القيس بن عمرو هناك في قومه من لخم ؟ هؤلاء الذين قتلوا جدي عمراً وجدي الزباء .

وسكتت زنوبيا عند ذلك لحظة وأخذ صدرها يضطرب كأنه يضيق بأنفاسه . وبعد قليل استأنفت فقالت :

— إنه إذا رآك تسرع إلى سابور قبل أن تعد عدتك وتحكم أمر حاميتك قطع إلينا البرية وأتم لنا كيده . فينال بذلك بدأ عند سابور .

فسكت أذينة طويلا ، وكانت هذه الحجة آخر ما قضى على تردده ، وبعد حين نظر إلى زنوبيا . وقال وهو ممتلئ من الغيظ :

— امرؤ القيس بن عمرو !

ثم لانت نظرته بعد أن استقرت على وجه الأميرة وقال في إكبار :

— لازلت أيتها الحبيبة ميمونة الرأي . إن الحق ما تقولين ، ولن أبرح عاملا بمشورتك .

فتبسمت زنوبيا لهذه التحية الصادقة وقالت :

— لقد أطلت التفكير في هذا الأمر ليلة الأمس . إنه أولى بنا أن نظهر للناس الفرح بنصر سابور ، والحرص على مودته .

فنظر إليها أذينة مبهوتاً فاستمرت تقول :

— إننا إن تظاهرنا بجمع السلاح والأزودة ، وأظهرنا أننا نستعد للقاء سابور كان ذلك داعياً إلى إسراعه نحونا .

ففهم أذينة ما رمت إليه وكأنه شيء جديد لم يخطر بباله ، ونظر إليها لا يحير جواباً ، فاستمرت تقول :

— بل إني أرى أن نشرع منذ الساعة في تجهيز هدية مما يهدى إلى الملوك لنبعث بها إلى سابور ، حتى إذا بلغت أنباؤها إلى امرئ القيس بن عمرو سكن عنا وخشع .

فقام أذينة في حيرة ظاهرة وقامت زنوبيا نحوه ، فتقدم إليها وأخذ يديها فقبلهما في شيء يشبه الحزن ، ثم ضمها إلى صدره ضمة حب قوي وهو يقول لها :

— مليكتي !

وظهر في هذه الساعة لونجين عند الباب ، فلما رأى أذينة يضم زوجته إلى صدره هم بالرجوع ، فلمحه أذينة وناداه قائلا :

— تقدم ولا تنكص أيها الحكيم البجل . تقدم وقبل يد إلاهتك إيزيس وإلاهتي العزى .

فنظرت زنوبيا إلى معلمها وهو يتقدم نحوها في ارتباك ، وقد علت وجهه حمرة طفيفة حتى إذا ما اقترب منها أحنى رأسه بالتحية ، فمدت يدها إليه فقبلها في خشوع ، ومد أذينة يده إليه مصافحاً وقال له :

— إنك تُمثِّل الأميرة الحكمة أيها السيد البجل .

فنظرت زنوبيا باسمة إلى زوجها وقالت :

— عفواً أيها الأمير . لقد ادعيت لنفسي ما ليس لي . إن الرأي الذي أعجبك ما هو إلا رأي معلمي الحكيم .

فالتفت إليه أذينة وقال جاداً :

— أنت فاقد محنك أيها الحكيم . لقد عرفت معنى قولك لي بالأمس إنك لا تحب الشراب .

فنكس لونجين رأسه وعلا وجهه الاحمرار ، وتبسمت زنوبيا ضاحكة في خفة كأنها تداعب زوجها وقالت :

— هلم أيها الحبيب لنعد هدية صديقنا العظيم .

وأومأت إليه بالسير فتبسم لها أذينة وهو يقول :

— إنها طريق زلقة .

ثم سار وراءها وقد وضع يده على كتف لوجين .

مضى بعد ذلك أسبوع كامل ، والأمير في حركة دائمة ، والأميرة في شغل متصل ، والأحمال تتراكم في فناء القصر يأتي بها العبيد محملة على الابل والخيل من أنحاء تدمر الواسعة ؛ فما بقيت سلعة في الشرق ولا في مصر لم تكن فيما حمل إلى القصر . وكانت زنوبيا تشرف على اختيار الطرف والتحف من الأواني البديعة والملابس الثمينة والحلى الأنيقة ، حتى إذا ما تمت الهدية ، واطمأنت إلى أن قافلة الهدية سوف تكون جديرة بالملوك ، تنفست وعاد إليها بشرها وأملها في المستقبل الباهر .

وجلس الأمير وزوجته على عادتهما في بهو القصر يتحدثان بعد أن فرغا مما كانا فيه ، وكانت صورة الفارس حسان لا تزال تتمثل في ذهن زنوبيا بين حين وحين ، وتود لو أتيحت لها فرصة لاسترضائه واستمالته بعد ما أصابه من زوجها ؛ وكان حديثها مع لبنى في خلواتهما قد أوقفها على أنه الفتى الذي قد ملأ قلب الوصيفة العزيزة ، حتى جعلها تأبى الزواج من خير فتيان العرب وابن أمير من أكبر أمرائهم من سادة سليح ، فأرادت في ذلك اليوم أن تستطلع رأي أذينة ، وأن تحاول أن تحمله على أن يرضى بتزويج لبنى للفارس الشجاع ، فالتفتت إلى صاحبها عندما أنست منه انشراحاً وإقبالاً وقالت له في بساطة :

— أما ترى أن تسترضي حساناً بعد رضاها ؟

فاتجه إليها أذينة وقال بغير اكتراث :

— لقد استرضيته . إنه شاب باسل لا يحمل لي ضغناً .

فقالت مسرعة :

— أعرف أنه كذلك ، ولكني كنت منذ حين أحب أن أفاتحك في أمره بشيء يسره .

فأجاب أذينة :

— هو مقضي إذا شئت .

فقالت مترددة :

— لبنى .

فنظر إليها في دهشة وقال :

— وما يريد من لبنى ؟

فقالت زنوبيا في مداعبة :

— وماذا يريد الرجل من المرأة يا أذينة ؟

ثم ضحكت كما يصدح الهزار إذا غنى ، ووضعت يدها على كتف أذينة ومالت برأسها إلى صدره ، فضمها أذينة إليه بيديه القويتين وهي لاجئة بين ذراعيه ثم حركت رأسها فنظرت إليه بعينيها الساحرتين باسمة وهمست تقول :

— أنسيت يا أذينة أيام جئت إلي ؟ لقد كنت عند ذلك تعرف ما تسأل عنه اليوم . ألا تعرف ماذا يريد من لبنى ؟

فضمها ضمة أخرى حارة وقبلها قبلة تجيبها عما سألت عنه ، وجلسا بعد ذلك ساعة ذكرا فيها تلك الأيام وتلك الليالي الوديعة التي نمتا فيها بحبهما الجديد ، ذلك الحب الذي أعاد إلى تدمر عظمتها بعد أن كادت تتحطم وتهوى . وقال لها أذينة :

— إني ما زلت أذكر ذلك اليوم أيتها الحبيبة كأن لم تمض عليه إلا ساعة . يوم تقدمت إليك حذراً أتوقع أن يطردني أهلك أو يطعنني أحد هؤلاء الأمراء الذين كانوا يتطاولون إلى ملكك الذي ورثته عن جدتك .

ثم طوقها بيمناه وجذبها إليه . فقالت زنوبيا في صوت يهتز من العاطفة :

— بل إني لأذكر ذلك اليوم لا تفارقني صورته . فهو أبداً جديد عندي . كنت وحيدة خائفة ضعيفة . وكان هؤلاء الأمراء من سليح ومن بني عمرو بن عدي

يتطلعون إلى تدمر يريدون أن يذلوا كبرياءهم وينهشوها كما تنهش الذئاب بقايا الأسد الصريع . ثم وجدتك يا أذينة ، فوجدت حبيبي الفارس الذي طالما حلمت به .

ومدت يدها برفق فأمسكت بيسراه وكأنها في حلم ، واستمرت تحدثه :

— لقد كنت أسمع عنك وعن بلائك في الحروب منذ كنت صبية ؛ ثم رأيتك ولست أدرى كيف أصف لك تلك الأحلام التي حلمتها منذ وقع نظرى عليك . لقد كنت كالطير ينظر إلى السماء وهو في قفصه ولا يستطيع إلا أن يرفرف قلقاً حزيناً .

فجمعها أذينة إليه بقوة وقال لها :

— زنوبيا !

فعادت الأميرة إلى حديثها كأنها لا تريد أن تدع ترديد هذه الذكرى وقالت :

— ولم أستطع أن أخفى هزنى عمن كان يحيط بى من أهلى وأتباعى . ولكنى كنت امرأة شابة ، وماذا كان يعنينى من شأنهم ؟ .

ورفعت رأسها عند ذلك من كتفه وقالت باسمة :

— والآن أتذكرت ما يريد حسان ؟

فابتسم أذينة وقال :

— عرفت ذلك ، ولكن ماذا تريد منه ليس ؟ ماذا تريد ليس من رجل مثله ؟

فزادت ابتسامتها اتساعاً وقالت في ارتباك :

— ماذا أقول يا أذينة ؟

فضحك أذينة وقال :

— حسبك إذاً .

فقالت زنوبيا في همس :

— أيغضبك أنها تحبه ؟

فانتفض أذينة مرتاعاً عند سماع هذا النبأ وصاح قائلا :

— ليس ! أتقولين إنها تحبه ؟

ففتحت زنوبيا عينيها في خوف وقالت في تضرع :

— أذينة ! إنها تحبه .

فصمت أذينة طويلا ، ثم تنفس نفساً عميقاً وقال :

— إنى أحبها كأنها ابنتى .

ثم هز رأسه أسيفاً وقال :

— لقد كنت أريد أن أختار لها أميراً تسعد فى قصره . أتريدين أن تساعديها على رأيها ؟

فوضعت زنوبيا يدها على كتفيه ، وجذبته إليها برفق قائلة :

— ولكن ألست تعرف هؤلاء المسيحيين ؟ ألست تجالسهم وتحادثهم وتقدمهم فى جيشك ؟ إنهم لا يعرفون الكبرياء . لقد علمهم ذلك الدين أموراً عجيبة .

فقال أذينة بصوت خافت فيه رنين الأسف :

— إنك تذكرينى بأنها مسيحية .

ثم سكت لحظة وقال فى شيء من الغضب :

— أتخرج من بين جدران قصرى لتتزوج بمثل حسان ؟ إن العرب غداً ليستمعون إلى أعدائى إذ يقولون إنى مسيحى . إنى لست أعبأ بهذه الدعوى التى يعبدها هؤلاء ، ولكنى مع ذلك أعبدها لأنى لا أستطيع حكمهم بغيرها .

ثم ذهب فى الصمت مرة أخرى .

وكأن زنوبيا أحست بخطئها فى ذلك الأمر ، فأمسكت عن الحديث حيناً وهى واجمة ثم قالت له :

— أسألك العفو يا أذينة . إن قلبى قلب امرأة ، ولم أفطن إلى خطئى من قبل .

ثم وضعت رأسها مرة أخرى على كتفه ومدت يدها إلى يده وهى صامتة .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

من طرائف الفن الإسلامي :

شـــــبابيك القلل

الدكتور زكي محمد حسن

زعموا أن المسلمين كانوا ماديين في فنونهم إلى أبعد حد ، وأنهم لم يعرفوا التحف أو الألطاف لذاتها ، وإنما تجلت فنونهم في الأدوات التي كانوا يستعملونها في حياتهم اليومية . واستنبط أصحاب هذا الرأي أن المسلمين لم يعرفوا الفن للفن ، ولم يقدروا الأشياء الجميلة لذاتها ، ولم يعنوا باقتنائها ، فلم تكن لديهم تحف يضعونها في كافة أو خزانة أو فوق حامل ، ويقفون عند حد التمتع بمشاهدتها ، على نحو ما عرف الغربيون منذ العصور الوسطى فيما يسمونه في الفرنسية bibelot [1] .

ولكن هذا الزعم باطل . فالألطاف والتحف كانت معروفة عند المسلمين منذ العصور الوسطى ، كما يظهر من وجودها في الرفوف والخزانات المعدة لها في جدران القاعات التي نرى رسمها في المخطوطات والصور الإيرانية والهندية والتركية . وفضلا من ذلك فقد عرف المسلمون الفن للفن . وإلا فما بال الفنان المسلم يعني في بعض التحف برسوم وزخارف لا تبدو للعين ، ولا حرج عليه إذا ترك المساحة عندها خالية من الوحدات الزخرفية [2] ؟ !

ومن الميادين الطريفة في الفنون الإسلامية ميدان يشهد للفنانين بحسن الذوق ودقة الصنعة وتقدم قوى التخيل والابتكار ، ويتجلى في زخارف شبابيك القلل ، التي تثبت أنهم كانوا يعملون للفن ذاته .

أما القلل فكلنا نعرف أنها آنية من الفخار غير المطلي بالدهان تستخدم لحفظ مياه الشرب وتبريدها في الأقطار الشرقية ولا سيما مصر . كما أننا نعرف أن بين بدن القلة ورقبتها أو في الرقبة نفسها شباكاً ذا فتحات صغيرة ، لعل المقصود بها حفظ الماء من الحشرات والأقذار ، فضلا عن تنظيم تدفقه عند الشرب ، كل ذلك لا يزال باقياً في مصر حتى اليوم ، ولكنا لا نرى اليوم أن لفتحات تلك الشبابيك أشكالا منتظمة أو زخارف متقنة .

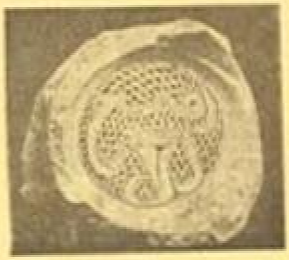
أما في العصور الوسطى فقد أصاب الخزفيون المصريون توفيقاً عظيماً في زخرفتها بالكتابات والرسوم الآدمية ورسوم الحيوان والأسماك والطيور ، فضلاً عن الأشكال الهندسية المختلفة . ومن العجيب أن يعنى بزخرفة شبابيك القلل إلى هذا الحد ، بينما تبقى القلل نفسها بغير طلاء أو رسوم زخرفية . ولكن هذا — كما ذكرنا — مثال طيب من أمثلة العمل للفن فحسب وبدون اعتبار المظهر وما يبدو أول وهلة .

وقد لوحظ مما نعرفه حتى الآن أن زخرفة شبابيك القلل لم تزدهر إلا في مصر ، دون غيرها من الأقطار الإسلامية ؛ وفي القاهرة مجموعتان كبيرتان من هذه التحف : الأولى في دار الآثار العربية ويبلغ عددها نحو

(١) تطلق هذه الكلمة على الألطاف والتحف التي توضع للزينة فوق الرفوف وفي الخزانات وما إلى ذلك . وهي بالإنجليزية trinket ، وبالألمانية Nippes ، وبالإيطالية trastullo .

(٢) من أصدق الأمثلة على ذلك مقلمة وهيرة من النحاس المطعم بالفضة والذهب محفوظة في دار الآثار العربية ، (رقم السجل ٤٤٦١) ، ترجع إلى القرن الثامن الهجري (١٤ م) وعليها زخارف هندسية ونباتية ، وكتابات كثيرة موزعة توزيعاً بديعاً على سطح الساحات في سطحيها الخارجي والداخلي . انظر : The Art of Egypt Through The Ages (edited by Sir Denison Ross) ص ٣٢٥ .

ألف قطعة ، والثانية عند كامل غالب بك .



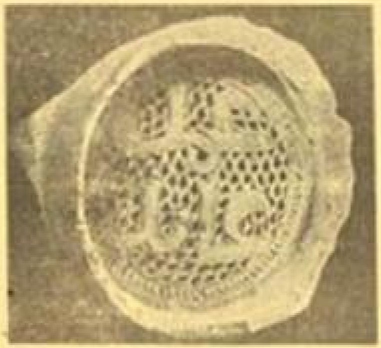
(شكل ١)

وتقوم تلك الزخرفة على استعمال التباين بين الثقوب والأجزاء الباقية ؛ ولهذا فإنها تشبه المخرّمات (الدانتلا) إلى حد كبير ؛ فكلتاهما لا تستعين بالتلوين ولا بالبروز والتجسيم ، وفي المخرمات نرى الفراغ بين الخيوط ، أما في شباك القلة فإن الفراغ ناشىء من الأجزاء المحفورة أو المنزوعة لجر منها الماء ، بينما تبقى أجزاء ، هي التي تقابل الخيوط في رسوم المخرمات .



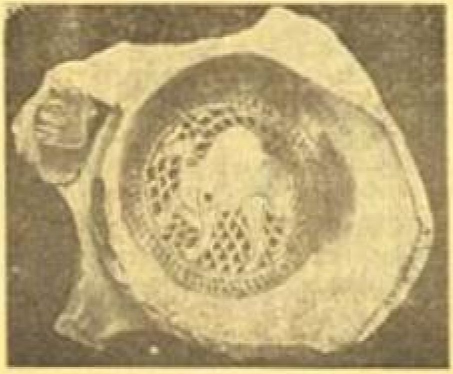
(شكل ٥)

وعلى بعض شبابيك القلل عبارات ، ولكنها ليست عنصراً زخرفياً بمعنى الكلمة ، لأنها بخط لا إتقان فيه . وأكبر الظن أنها عبارات دعائية أو حكم مأثورة . ومن المعروف منها في مجموعة دار الآثار العربية : « من صبر قدر » و « من اتقا فاز » و « من سعيد آبهم » و « عف تعاف » و « اقنع تعز » (شكل ١) و « العز الدائم » (شكل ٢) . وثمة قطعة واحدة عليها إمضاء صانعها في عبارة موجزة : « عمل عابد » (شكل ٣) .



(شكل ٣)

أما الرسوم الآدمية ورسوم الحيوان والطيور والأسماك التي نراها على تلك الشبابيك فيشهد معظمها بأن صانعها كانت تنقصه المهارة ودقة الملاحظة ، حتى إن رسومه تبدو صبيانية وغير دقيقة . ومن الرسوم التي تكررت على هذه التحف رسم الجمل (شكل ٤) والطاووس (شكل ٥) ،

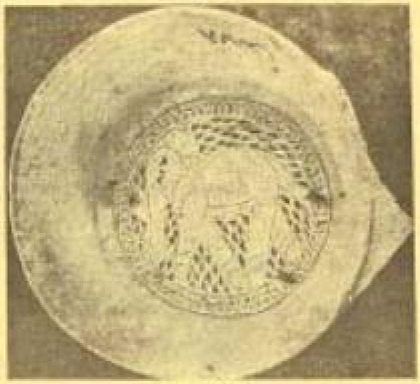


(شكل ٤)

والفيل (شكل ٦) والأسد والطائر ذو الوجه الآدمي (شكل ٧) والسمكة البلطية (شكل ٨) والغزال والأرنب



(شكل ٥)



(شكل ٦)



(شكل ٧)

والكلب . وفي إحدى القطع رسم غزال أو طائر تحت شجرتين (شكل ٩) . والرسوم الآدمية معظمها كاريكاتوري المظهر ؛ فمنها رسم بدائي لشخص ممدود الأنف وجالس القرفصاء (شكل ١٠) . وثمة رسم آخر لرأس آدمي أصلع

(شكل ٨)



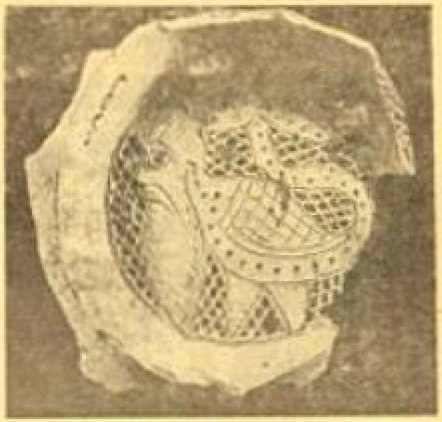
(شكل ٩)





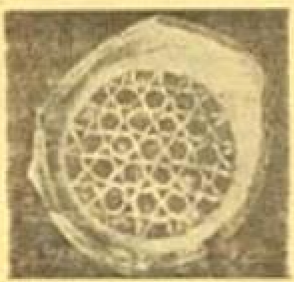
(شكل ١٠)

ولصاحبه شارب ولحية طويلة ، ولكن له جسم طائر يمتد ذيله على شكل حية تنتهي برأس حيوان (شكل ١١) .



(شكل ١١)

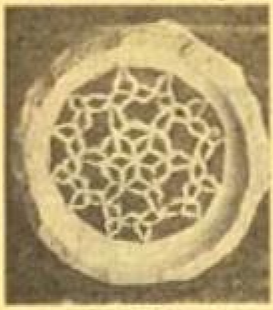
ولكن أبدع الزخارف في شبابيك القلل هي الرسوم الهندسية المؤلفة من وحدات زخرفية مختلفة ، أساسها نقط أو خطوط منحنية أو جدائل أو أشكال هندسية ، من مثلثات ومربعات ومعينات ومستطيلات ودوائر ونجوم . ويتجلى في هذه الأشرطة والعصابات والمناطق الزخرفية مبادىء الزخرفة المعروفة ، كالتكرار والتماثل والتشعع والتنوع ؛ فضلاً عن إحكام تنظيم المساحات الواقعة بين الوحدات الزخرفية . ولا غرو فقد وفق الفنانون المسلمون في الرسوم الهندسية إلى قسط وافر جداً من الإبداع والابتكار اللذين



(شكل ١٢)

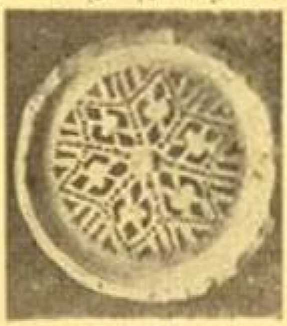
يكسبان الزخرفة جمالاً ورونقاً ، ويخففان ما قد يتطرق إلى النفس من ملل عند رؤية الرسوم الهندسية المجردة .

وأكبر الظن أن صناع الفخار في العصور الوسطى كانوا يصنعون شبابيك القلل بالطرق التي لا يزال زملاؤهم اليوم يتبعونها . وبيان



(شكل ١٣)

ذلك أن الصانع يشكل بدن القلة على دولاب بسيط ويترك جزءها العلوي غير تام ، ثم يشكل ، على نفس الدولاب ، الرقبة وفي أسفلها قرص يثقبه بآلات صغيرة من الصلب أو الخشب مكوناً عليه الرسم المطلوب . ويمر بعد ذلك على أسفل القرص بآلة قاطعة تزيل العجين الناتج من الثقب ؛ ثم يستخدم الصانع دولابه ثانية في وصل الرقبة بالبدن ، ويصبح القرص المزين بالرسوم المثقوبة شباك القلة المطلوب .



(شكل ١٤)

وليس من السهل تأريخ شبابيك القلل المحفوظة في المتاحف والمجموعات الأثرية ، لأنها من منتجات الفن الشعبي الذي لم يتطور كثيراً بمرور الزمن ، ومن المحتمل أنها لم تكن تصنع في الفسطاط فحسب ، بل كانت ترد في المراكب النيلية من الأقاليم المصرية المختلفة . وكان لصانعيها أساليب فنية امتدت عدة قرون ، ولم تكن وثيقة الصلة بسائر

عبـــــد المنعم !

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

أستاذى أحمد أمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أريد أن أكتب فى « الثقافة » ، فأرجو أن تسمح لى بذلك ، وإنى أظن أنك ستسمح لى بذلك تعزية لى وتعويضاً عما أسأت فهمى فى الماضى .

صحيح أن التلميذ إذا سجل على أستاذه أنه أساء فهمه كان تلميذاً وقحاً ؛ ولكنه صحيح أيضاً أن هذه الوقاحة مما يجب أن يحبه الأستاذ ، وأن يتلقاه بصدر رحب ، بل إنهـا شىء يجب أن يبحث عنه الأستاذ بين تلاميذه ليبرزه إذا وجده ، وليبذره إذا لم يجده .

فهذه الوقاحة وحدها الدليل على نشاط العقل عند التلميذ ، وعلى تهيئه للأستاذية فى المستقبل . والأستاذ العاقل لا يغضب من وقاحة تلميذه ، وإنما هو يضحك منها ويسخر ، كما يضحك الأب من ابنه الطفل إذا صارعه وغالبه وأراد أن يوقعه على الأرض . والأستاذ الأكبر عقلا قد يتهازل ويتخاذل أمام تلميذه ، قصداً وعمداً ، ليشجعه على مهاجمة العقول والأفكار ؛ وما دام التلميذ لا يحيد بوقاحته من الحق ، فالذى له على أستاذه هو أن يهذب له الأستاذ هذه الوقاحة ، وأن يغريه بتقليم حدتها ، لا بقتلها ولا بمحوها ، كما أنه يجب على الأب الذى يناوشه ابنه الطفل ويصارعه ويلاطمه ، أن يقول له : إبعدْ يدك من عينى وأنفى ومعدتى ، فهذه مواطن حساسة من البدن قد يؤذيها الضرب أذى بالغاً لا مبرر له ، واضرب بعد ذلك أينما شئت من بدنى ، فبعد هذا يكبر الطفل وقد عرف كيف يدافع عن نفسه من غير أن يؤذى غيره أذى بالغاً لا مبرر له .

وأنت لم تفعل معى شيئاً من هـذا ، بل إنك رأيتنى أتفتح وأتطلع إليك وإلى غيرك من الأساتذة الكبار ،

الأساليب الفنية التى ازدهرت بمدينة الفسطاط فى زخرفة الخزف والخشب والمنسوجات والزجاج وما إلى ذلك من التحف . ومن المحتمل كذلك أن كل مركز من مراكز صناعتها كان له طراز خاص يناسب ميول صناعه ومهارتهم الفنية .

وقد عنى بدراسة شبابيك القلل الأستاذ بيير أولمر Pierre Olmer الذى كان مفتشاً للرسم والفنون الزخرفية فى وزارة المعارف يوماً من الأيام ، فكتب عنها مؤلفاً طبعته دار الآثار العربية سنة ١٩٣٢ . وقد حاول فيه أن يقسمها إلى مجموعات بحسب دقة رسومها ونوع صناعتها . ورأى أن ينسب البسيط وغير المنظم منها إلى العصر الطولونى ، وأن ينسب إلى العصر الفاطمى ما امتاز برسوم الحيوانات والطيور ، ولا سيما إذا لم تكن عليه كتابة بالخط النسخى الأيوبى ، فجعل الأول نسبته إلى عصر الأيوبيين . كما أنه نسب إلى عصر المماليك مجموعة تمتاز برسومها الهندسية الدقيقة ، وبرسوم بعض الشارات أو الرنوك التى نعرفها على سائر التحف المملوكية . وصفوة القول أن الأستاذ أولمر ظن أنه يستطيع الوصول إلى تأريخ بعض شبابيك القلل بواسطة الموازنة بين رسومها ورسوم سائر التحف الممكن معرفة تاريخها ؛ ولكنا نظن أنه بالغ فى تقدير النتائج التى تؤدى إليها هذه الطريقة ؛ لأن شبابيك القلل ميدان قائم بذاته من ميادين الفن الاسلامى ؛ وهو شعبى قبل كل شىء ؛ ولعل الفرق بين زخارف الشبابيك المذكورة راجع إلى مكان صنعها ، وإلى مهارة صانعيها ، وإلى الطبقة المصنوعة لها ، أكثر من رجوعه إلى اختلاف العصور .

ومهما يكن من الأمر فإنها تشهد بحسن ذوق الصناع المسلمين ، وإقبالهم على الزخارف الفنية فى أبسط الأوانى وأرخصها .

زكى محمد حسن

وأم بك ويغيرك مناوشاً بالحق، وبالحق وحده، لأشعركم بوجودى الاشعار الطبيعى الذى تنزع إليه المخلوقات جميعاً، فاذا بك وبغيرك من أساتذتى تمقتوننى، وتقفون فى طريق مشمئزين من مسرين سخطكم علىّ، مسلمين لى توجساً لم أدرك سببه إلا أخيراً.

أنا متفلّ، وأحب منك ومن الناس جميعاً أن يعرفوا منى هذا، حتى لا يظلمونى ولا يتهمونى بالذكاء والفطنة، وحتى لا يعاملونى على أساس هـذا الظلم الذى أخسر من ورائه الشىء الكثير.

أما من أراد أن يستغل غفلتى، فانى أركن إلى الله يحمينى منه، أرشده الله ورشده . . .

ولـكى أثبت لك أنى متفلّ، وأن الغفلة متأصلة فىّ، وأنى راضٍ بها وراضٍ عنها، أروى لك هذه الحادثة التى حدثت لى وأنا فى العاشرة من عمرى، أو أكبر من ذلك بقليل . . .

كنت أهوى السينما، وأتردد على دورها المتواضعة ألتهم ما تعرضـه التهاماً. والأطفال الذين فى هذه السن يهوون السينما حقاً، ولـكنهم لا يلتهمون ما تعرضـه، وإنما يلتهمهم هم أنفسهم مستعرضون يترددون على دور السينما لمآرب مختلفة.

ولهذه المآرب محطات فى دور السينما وحولها، مآرب منها محطته عند البـاب فى الخارج، ومآرب منها محطته عند شـباك التذاكر، ومآرب آخر محطته داخل الدار عند ما تنطفئ الأنوار.

هذا شىء عرفته لما كبرت، وكنت أجهله وأنا صغير — ولله الحمد.

وجهلى إياه دليل شريف على غفلتى الطاهرة.

كان الزحام شديداً على شباك التذاكر، فوقفت على بعد منه وفى يدى القرشان ثمن التذكرة أنتظر حتى ينفض الزحام، لأنى أكره الاندساس بين الناس، لعجزى عن مقاومة العنف اللدى الذى أعتقد أنه آخر ما يصح أن يتخذه الانسان من نواحى حيويته ليهاجم به أو يدافع به أو يتعامل به. وقفت أنتظر فاذا غلام يتقرب منى متلطفاً ويسألنى:

— انت داخل الليلة ؟

— نعم.

— وقطعت التذكرة ؟

— كلا. وأنا منتظر حتى ينفض الزحام.

— وإلى متى الانتظار ؟ لقد بدأت السينما تشتغل . . . خذ، امسك بهذه السيجارة وهات القرشين وأنا أقطع لك.

. . . فرضيت، بل رحبت. وأعطيته القرشين، وأمسكت بالسيجارة.

إنها لم تكن سيجارة كاملة، وإنما كانت «عقباً» حقه الرمى، ولـكنى لم أنتبه إلى شىء من هذا . . . وظللت غير منتبه إلى شىء مطلقاً، حتى انفض الزحام من أمام الشباك، ولم يعد أمامه أحد على الاطلاق.

«العقب» انطفأ فى يدى، لأنى كنت ممسكاً به فقط لا أساعده على الاحتراق بالتدخين . . .

والقرشان طارا، لأن الملاك الطاهر الذى أرسلته لى السماء يتفذنى من ورطة الزحام لم يكن إلا لصاً سقط على وأخذ نصيبه وراح . . .

اغتظت وتألمت، وسخطت، ورحت أدور حول «سينما ليون» التى كانت تواجه محطة مصر القديمة فى الاسكندرية، وأسأل الماشين والواقفين: ألم تروا غلاماً صفته كيت وكيت حافياً بجلابية وطاقية ؟ . . .

لم أجد جواباً عند أحد . . . ولم أرض أن أتزحزح من دار السينما لايمان عجيب استقر فى نفسى، وهو أن الذى فعله هذا الغلام شىء لا يصح ولا يجوز، وأنه لا بد قد حدث له حادث فيه منى، وأنه لا بد سيعود، ولو ليطلب «العقب» ! . . .

ولـكنه لم يعد، وإنما رآنى على هذه الحال غلام آخر له شكل آخر وعطف آخر . . .

تقدم مني هو الآخر وسألني :

— مالك حيران متألماً ؟

— يا أخي ! لقد حدث كيت وكيت . وشكل هذا الولد كيت وكيت ، وهو حاف وبجلابية وطاقية .

— عرفته . . . أليس هو الأسمر الحافي أبو جلابية وطاقية ؟

— نعم .

— هو ... عبد النعم ... الحرامي ليست هذه هي المرة الأولى التي يصنع فيها هذا الصنيع ، لقد سرق ابن حداية باشا في الأسبوع الماضي بالطريقة نفسها وهرب . ولكنه في هذه المرة لن يهرب . فهو يلعب الكرة الآن وراء سور المحطة عند سيدي البيرقي ...

— هل هو هناك الآن ؟ إنني أريد أن أقبض عليه . أين العسكري ؟

— إنه هناك . ولكن لا تناد العسكري الآن فهو إذا رآه مقبلا من بعيد هرب كما هرب من ابن حداية باشا ... وإنما تعال معي . وأنا أشير لك عليه من بعيد ، فتتسلل بين العيال وتمسكه ، وتصيح : الحرامي الحرامي . فأخف إليك وأساعدك عليه ... إنما ... لي من القرشين « تعريفه » .

— بل « صاغ » ... تعال ...

ومشينا ... وفي الطريق قال لي صاحبي الجديد :

— إنك حينما وصفت لي عبد النعم قلت لي إنه حاف بجلابية وطاقية . فذكرت لي ملابسه التي ميزته أنت بها والتي عرفته أنا بها .. وهكذا هو أيضا يعرفك بملابسك ..

— صحيح ...

— ونحن نريد أن نطبق عليه مفاجأة بحيث لا يشعر بك وأنت في الطريق إليه ، وإنما تنقض عليه وهو غافل ...

— صحيح ... وكيف يتم ذلك ؟

— دعني أفكر قليلا ...

فتركته يفكر قليلا ، بل بدأت أفكر معه في حل لهذه المشكلة . حقا أن عبد النعم إذا كان بين العيال يلعب الكرة ورآني من بعيد فإنه سيعرفني ويهرب ، فكيف أتخلص من ملابسي التي هي علامتي عنده ...

سألني صاحبي :

— إذا كان بيتكم قريبا فأنت تستطيع أن تسرع فتستبدل ملابسك ، وتعود ، وأنا منتظرك .

— لا . بيتنا بعيد .

— إذاً فدعني أفكر ...

فتركته يفكر ... وظل هو يفكر ، وأنا أفكر حتى اقتربنا من العيال الذين كانوا يلعبون الكرة ، فاذا بصاحبي ينقض على عقلي يطلق فيه هذه الأوامر مفاجئة متلاحقة مشددة ...

— انظر ... هو الخابك الجين في الفريق البعيد ... هل رأيته ؟ ... اخلع الجاكتة لكيلا يعرفك ... هات الجاكتة واجر إليه واقبض عليه وأنا في ظلك ...

ولست أدري كيف توقف عقلي ، ولا كيف رأيت عبد النعم ، ولا كيف خلعت الجاكتة ، ولا كيف جريت ، ولا كيف أمسكت به ، ولا كيف صرخت أطلب النجدة من صاحبي ...

لست أدري كيف تم هذا كله ، وإنما الذي تنبهت إليه هو أن هذا الذي أمسكت به صرخ فيّ وقال :

— عبد النعم من يا هذا ؟

فقلت له وأنا ألهث :

— حرامي القرشين ...

ثم حلقت في وجهه فتبينت أنه ليس هو الذي سرق مني القرشين ... فنظرت حولي لأحاسب صاحبي على هذه الورطة الجديدة ، فلم أجده ...

لقد طار هو أيضاً بالجاكتة ...

ثقلت عليّ الحسرة . اختنقت . بكيت ... ولكن ماذا ينفع البكاء ...

جريت هنا ، وجريت هناك ، فلم أجد أثراً للناصح

في الإصلاح الاجتماعي :

القهاوى

يجب إلغاء القهاوى إلغاء باتاً في الحال ومن غير تردد

هذه القهاوى هي المسئولة عن تفكك أواصر الأسرة المصرية وما تتعرض له من كوارث :

رب الأسرة يقضى فراغه كله وجزءاً هاماً من وقت راحته الضرورية على القهوة ؛ فالذى يترتب على ذلك :

سآمة الزوجة ومقتها — احتمال فسادها الخلق — إهمالها البيت — سوء حالة الأولاد ، فهم من غير رقابة كافية ، ومن غير عطف كاف ، تسوء صحتهم وتضعف مقدرتهم على الدرس ، ويقعون فريسة الغواية ؛ وبالجملة يتعرضون لفساد محقق . وكثيراً ما يؤدى الأمر إلى مأساة الأسرة الكبرى وهي الطلاق .

هذه القهاوى هي المسئولة عن انتشار المفاسد والآفات الاجتماعية المعروفة ، كالخمور والقمار والتدخين المضخم — الشيشة والجوزة .

هذه القهاوى هي المسئولة عن الضعف المخجل في مستوى ثقافة المصريين العامة الذهنية والفنية .

هذه القهاوى هي المسئولة عن الضعف الجثمانى في الشباب المصرى وعن ضعف الروح الرياضية في البلاد .

هذه القهاوى هي المسئولة عن بث روح الخمول والتكاسل ، ونشر القيم الكاذبة بين أفراد الشعب .

هذه القهاوى هي المسئولة عن ضعف روح التطوع في الخدمة العامة .

هذه القهاوى هي المسئولة عن قتل كل عناصر النشاط الاجتماعى في البلاد .

فاذا ما أغلقت هذه القهاوى صلحت الأسرة وزهت واختفت الآفات الاجتماعية ونهضت حركة الثقافة العامة نهضة تشمل التأليف والقراءة التى نشكو من الشكوى منها بنوع خاص ، فالمواطن سيضطر للقراءة اضطراراً عند ما لا يجد أمامه القهوة . وازدحمت دور الكتب ومعاهد العلم المسائية ، وانتشرت الهوايات الفنية ، كالموسيقى ، وارتفع بذلك مستواها ، وكذلك يرتفع مستوى الثقافة العامة .

إذا ما أغلقت هذه القهاوى ، قويت الأبدان ، وسلمت العقول ، ونشطت الروح الرياضية والخلق الرياضى .

إذا ما أغلقت هذه القهاوى ، اضطر المهندس والطبيب إلى أن يلجأ كل إلى معمله وأبحاثه ، والمدرس إلى مكتبه ؛ فتقوى روح البحث العلمى ، وتظهر الاختراعات ، ويرتفع مستوى هذه المهن .

إذا ما أغلقت هذه القهاوى ، نشطت حركة الأندية الخاصة بالهيئات ، وحركة النقابات ، والحركة التعاونية ، وحركة الجماعات المتطوعة والاصلاحية .

إذا ما أغلقت هذه القهاوى ، دبت روح الحيوية في الشعب ، وسما تفكيره ، وانصرف إلى خدمة القضية العامة ، ونفع الآخرين .

القهوة : هي عدو الوطن . . .

محمد فتحى

الأمين الذى أرسله إلىّ السماء يسترجع لى القرشين . . .

تخاذلت ، وقفلت راجعاً إلى البيت ، وقد أمسكت طربوشى بيدى خشية أن يسألنى سائل عن حاجكتى طمعاً في طربوشى . . .

منذ ذلك اليوم عرفت أنى مغفل تغفيلا مركباً . فروضت نفسى على أن أرضى بأن أكون مغفلا تغفيلا بسيطاً ، إن فقدت شيئاً طلبت العوض من الله ولم أفكر مطلقاً في البحث عن « عبد النعم » !.. والحمد لله على ذلك فأنى أراني في نعمة . . . والسلام عليكم ورحمة الله .

عزيز أحمد فهمى

٢ – فريدريك هورنيمان

مثال آخر للاقدام

للأستاذ محمود الدسوقي

خلاصة المقال الأول :

[كان فريدريك هورنيمان فتياً ألمانياً ابن قسيس ، ومن عائلة أرادته قساً . لكن ميله هذه ورغباته لم يفلحا في صرفه عن تحقيق أمنية جاشت في صدره ، فعكف على درس الجغرافيا ، وعنى عناية خاصة بالكشف وارتياد المجهول ، فأحس في نفسه الاستعداد لأتمام ما بدأه غيره في مجاهل أفريقيا . واتصل بالجمعية الأفريقية اللندنية ، فتوسمت فيه القدرة على النهوض بمهمته ، فزودته بالمال والخبرة . وتزود هو بما يعينه على أداء هذه المهمة ، فأكب على دراسة العربية ، والعادات الاسلامية ، وتلاوة القرآن ، وتزيا بزي المشايخ . وأبحر إلى الإسكندرية في سنة ١٧٩٧ ، وسافر منها إلى القاهرة ، وأقام فيها بضعة أشهر ، ثم خرج منها وقت دخول الفرنسيين فيها بقيادة بونابرت ، فتزود بالجوازات اللازمة ، منضما إلى إحدى القوافل الذاهبة إلى لوبيا ، متخذاً ترجماناً ألمانياً كان قد اعتنق الإسلام وأقام في الشرق اثني عشر عاما ، وتضلع من العربية والتركية].

كان ما يخشاه هورنيمان ويعمل له ألف حساب أن يعلم المسافرون أنه أوربي ، فالتزم من ثم الحيطة ، وحذر غاية الحذر أن تبدر منه بادرة تنم عليه . وكان أحياناً تغلبه نفسه المتطلعة ، فيطرح التحفظ والحذر كاملا على مقربة من سيوه ، حيث اكتشف بعض الخرائب والآثار الشائقة التي اعتقد أنها معبد قديم لأمون . قال : « عند ما نصبنا خيامنا في وادي سيوه كشفت غربي الطريق على بضعة أميال خرائب بناء عظيم . وكان الحذر يقتضيني أن أكتسب ثقة الأهالي قبل معاينة الآثار والمدافن المنشأة في قلب الأرض . وكان هؤلاء السكان يعتبرونني وترجماني نصرانيين ، لما بدا لهم من بياض بشرتنا وهيئتنا ولباسنا التركي . وكنت قد انتهزت فرصة الفوضى التي كانت سائدة في القاهرة وضواحيها أوان سفري ، فانضممت إلى القافلة باعتباري مسلماً من دون أن أنبس بكلمة تركية أو عربية . لكن ما لاح لهم عليّ من سيماء المماليك أتاح لي العذر في الصمت .

« وكنت أعتمد بعد ذلك على ترجماني الألماني الذي حل في الأستانة من اثنتي عشرة سنة مضت على اعتناق الاسلام ، وقد عرفته في القاهرة . وقد كان أسلم لي لو أني ضحيت بالفضول الذي دفعني إلى معاينة آثار سيوه ، في سبيل غرضي الأكبر الذي كنت أعتزم تحقيقه ، وهو إطلاع معاصريّ على دخيلة بلدان لم تكتشف في شمال أفريقيا . أجل كان أسلم لي وأحكم لو أني فعلت هذا ، أو كبتّ على الأقل هذا الفضول واعتصمت بالصبر إلى الوقت المناسب . إذاً لكنت وفرت على نفسي بعض المتاعب التي تعرضت لها أثناء الطريق » .

كانت معاينة هورنيمان للمقابر والخرائب ملحوظة ، فقوّت شبهات أهالي سيوه ، حتى لقد ابتعثوا وفداً منهم في أثر القافلة ليجتمع بشيخ الحجاج وزعيمهم للمداولة . وإن ما أتى به هورنيمان من وصف للظرف العصيب الذي ألمّ به لدليل ناطق بشجاعة لا تهن ، وجأش ربيط ، وبديهة حاضرة .

قال : « لقد لبثت في هذا الظرف عند متاعي هادئاً لا أبرح مكاني ؛ ذلك أن ترجماني كان قد انصرف يستطلع

الخير ؛ فلما رأيته مقبلاً تنم خطواته السريعة ونظراته القلقة عن أمر جلل ، بادرت إلى ملاقاته ، فسمعته يلعن اللحظة التى أقدم فيها على السفر ، ويقول إننا نحن الاثنين من الهالكين ، بعد إذ علم أننا مسيحيون مستطلعون .

قال : وقد اعتزم القوم قتلنا ؛ ثم تولى عنى مهرولا إلى متاعه حيث استبدل ببندقيته المفردة بندقيته المزدوجة ، وتسلح عداها بغدارتين . فأبديت له صغاره ، ونصحت له بالثبات ، وذكرته بأن مسلكه هذا ليقوى ريبة القوم فينا بعد إذ أقام بين المسلمين اثنى عشر عاماً ، ألمّ فى خلالها بدينهم وعاداتهم .

« قلت له إنى وحدى المعرض للخطر لا هو ، وإنى آمل دفعه لو تركنى فلم يتدخل لدفاع عنى إلا حين أدعوه إلى ذلك . فرد على بقوله إنك لا تريد أن تعترف أبداً بأن ثمة ما يتهددنا ؛ لكنى أحسبك هذه المرة ستدفع ثمن استخفافك غالياً . ولما رأيت الخوف يسلبه الرشد ويطيح بلبه تركته وقصدت إلى الجمع الصاخب أعزل ثابت الجنان . ودخلت على القوم فحييتهم بتحية الاسلام ، فلم يردها أحد من السيويين ، بل إن بعضهم صاح على الأثر يقول : إنك نصرانى جديد من القاهرة ، جئت إلينا ، عيناً علينا .

قال : « ولو علمت إذ ذاك تعصب المسلمين وطباع العرب كما عرفتهما بعد ذلك لالتمست الخلاص من تلك الاتهام ، ولزعمت أنى إنما جئت إليهم هرباً من كفار القاهرة . لكنى حاولت أن أخفى ارتباكى ما أمكن ، فلم أرد على اتهام القوم ، بل اقتعدت الأرض ، والتفت إلى سرىّ من سراتهم كنت أعلم نفوذه العظيم ، وكان كثيراً ما يغشى خيمتى ؛ فقلت له : قل لى يا أخى ! أرأيت فى حياتك ثلاثمائة رجل مسلح يسافرون ثلاثة أيام ليطاردوا رجلين اثنين قضيا بينكم عشرة أيام صديقين ، آكلين شاربين ، مفتوحة خيمتهما للجميع ؟ لقد رأيت أنت بعينيك كيف كنا نصلى ، وسمعت بأذنيك كيف كنا نتلو القرآن ؛ أفتتهمنا بعد ذلك بأنا من كفرة القاهرة نحن الذين تتجنبهم ؟ ألا تعلمون أنها جريمة لا تغتفر أن تصموا مؤمناً بأنه كافر ؟ منك أنت أنتظر الادراك والفهم وخشية الله » .

قال : وكنت ألقى كلامى فى جنان ثابت وجد كثير ، فلم ألبث أن استبنت أن الكثيرين قد عادوا إلى حسن الظن بى . ورد على الرجل السرى قائلاً : إنه يعرف جيداً أننا لسنا كفاراً ، وأنه لم يحمل أحداً على مطاردتنا ، وأنه لو كان الأمر بيده لعاد من فوره إلى سيوه . والتفت إلى رجل شرير كان يكيل لى التهم فقلت : صه أيها الرجل ! فوالله لو أنى أجيد العربية لأعجزتك ومئات من أمثالك ، ولأثبت لكم أنى فى الاسلام أمكن منكم ! فقال شيخ من القوم : حقاً أنه لأصغر من هذا ، وأثبت مع ذلك جناناً .

وطولب هورنيمان بابراز أوراق أثارت من قبل شبهتهم . وكان ترجمانه قد عاد بعد أن استبطأه ، فما كان أشد دهشته حين ألفى القوم هادئين وهو الذى قد كان أثارهم قبلاً بأقواله المضطربة الخرقاء .

وعاد هورنيمان بأوراقه وأسلمها إلى كبير من السيويين ، فأدارها على القوم علّ فيهم من يفهم فحواها . وابتسم هورنيمان على الرغم منه ابتسامة مكبوتة ، ثم قال : لقد أعطينا هذه الأوراق على أن نخرج بها من القاهرة أحراراً ؛ أما فحواها فعلمه عند الله . وصاح الترجمان عندئذ وقد تناول القرآن من يد هورنيمان : أما هذا فنفهمه ! فطلب إليهما أن يقرآه ليثبت حقاً أنهما مسلمان . ولم يكن علمهما بكتاب الله مقصوراً لحسن حظهما على التلاوة ؛ فقد كان الترجمان يحفظه كله ، وكان هورنيمان يحسن الكتابة والقراءة بالعربية ، وهو ما يعتبره قوم كهؤلاء فضلاً وعلماً . وجعلا يتلوان القرآن ، فما إن فعلا حتى انضم إليهما رؤوس القافلة متناصرين ، وكانوا إلى ذلك الحين يلازمون الصمت

وتحول الكثيرون من السيويين إلى جانبهما ، وانتهت التجربة لصالحهما ، والسواد الأعظم فى هذا متذمر مع ذلك إذ جاءت التجربة على نقيض ما توقع ، وإذ

تلك فريسة كان يحسبها باردة .

وبلغ هورنيمان مرزوق عاصمة فزّان ، ولم تكن غايته من السفر ، بل كان يريد أن ينفذ منها إلى داخلية البلاد ، لكنه بقى فيها عدة أشهر رجاء إنشاء ما أمّل من علاقات ، على الرغم من أن مناخها لا يلائم الأوربيين ؛ وقد أصيب هورنيمان ورفيقه فيها بالحمى ، وذهب الترجمان ضحيتها .

وأراد هورنيمان أن ينتظر وصول قافلة قادمة من بورنو ليسافر معها إلى السودان ، فأبطأ مقدمها ، واستحثته الجمعية الأفريقية اللندنية أن يوافيها بنتائج كشفه ، فتوجه إلى طرابلس ، سالكاً شهرين فى الطريق . وكان يقصد أن يصنف فيها كتاباً بمشاهداته واكتشافاته ، فلما بلغها ألفى هذه المهمة تتعذر عليه فى الخان التركى الذى نزل فيه ، ووسط ضجيج العرب والأتراك وعجيجهم . على أنه استطاع مع ذلك أن يدون مذكراته ، وإن كان قد دونها لماماً ، وعلى جناح السرعة ، خشية أن يكتشفه أحد . وقد وصلت هذه المذكرات إلى انجلترة ، ولقيت فيها تقدير الجغرافيين وتكملاتهم .

وغادر هورنيمان طرابلس فى ديسمبر سنة ١٧٩٩ بعد أن قضى فيها قرابة أربعة أشهر . وكان التاجر التركى الذى عرفه فى باريس فى طرابلس إذذاك ، فتزود منه بكتاب توصية ؛ ثم عاد إلى فزان ليدرك القافلة القادمة من بورنو . وكان معه جملان يحملان الكثير من الزاد والماء والبضاعة على اختلاف أنواعها ، إذ كان يسافر بوصفه تاجراً . وقد أضاف إلى بضاعته مختلف السلاح والأدوات ، ولم ينس أن يتزود بخير سلاح وهو كتاب الله وقرآنه الكريم .

وبعث هورنيمان إلى الجمعية الأفريقية اللندنية بكتابين من مرزوق ، أوضح فيهما خططه المستقبلة ، وقال فى أحدهما :

« فى هذه المدينة الآن شريف من بورنو ، وهو رجل عاقل ، مقرب إلى سلطان تلك البلاد ، عرفت أن أفوز بصداقته . وسأسافر إلى بورنو برفقته فى ١٥ مارس . ومن هناك آمل أن أصل فى أغسطس أو سبتمبر إلى قشنه التى تبعد من بورنو مسيرة خمسة عشر يوماً » .

وقال فى الآخر : « تتأهب قافلتنا للسفر ، وسأتوجه إليها هذا المساء . ولما كنت فى حالة صحية جيدة ، وبت بمنأى عن مناخ تلك الجهات ، وبت أتكلم العربية وقليلا من البورنية ، ولما كنت تام السلاح ، لا تنقصنى الشجاعة ، وأحتمى فوق ذلك بحمى شريفين ، فلى أن آمل بحق أن تتحقق مشروعاتى .

« وإذ كنت أول أوربى يقوم برحلة واسعة فى هذا الجانب من الدنيا فسأسعى إلى الانتفاع بوقتى على خير وجه ، فلا أقيم فى بورنو إلا إلى شهر سبتمبر حيث ألتحق بالقافلة الكبرى التى تغادر هذه الجهة إلى السودان حوالى هذا الوقت بانتظام .

« ولست أعلم علم اليقين ما أنا مقدم عليه بعد وصولى إلى السودان أو إلى قشنه ، لكنى أؤكد لكم أنه سيكون رائدى دائماً الفوز برضى الجمعية ؛ فاعتبروا هذا الكتاب آخر كتاب من هذه السنة أو آخر كتاب يصل إليكم منى قبل الوصول مرفأ ما من مرافئ الساحل الأفريقى » .

هكذا أمّل هورنيمان ، فشاء القدر غير ما أمل ، فلم يكن كتابه آخر ما كتب قبل بلوغ المرفأ الذى رجا أن يبلغ ، بل آخر نبأ منه على الاطلاق . ذلك أن أحداً لم يسمع عنه بعد ذلك خبراً . ولا بد أن يكون قد بذل حياته ثمناً لشغفه بالبحث والكشف . وقد جاد بهذه الحياة دون أن يعلم أحد إلى اليوم كيف كان جوده بالحياة . ويقول البعض إنه ذهب فريسة الحمى ، وتستفيض الاشاعة بأنه عُرف بعد إدراك غايته وقبيل عودته فلقى فى ذلك حتفه . وقد مات فتى عقد العلم به رجاءه ، ففقد العلم بموته خادما أمينا . وليس كل إنسان بقادر على أن يجمع مع الموهبة العلمية الروح العملى ، والاقدام ، والهمة ، والقدرة على معاشرة الناس .

محمود الدسوقى

شغل حكومة !

للأستاذ أحمد علي

حدثني صديق قال :

ذهبت مع أخي صباح أول يوم لدخوله الكلية الحربية أودعه وأخفف عن نفسه شدة وقع النظام الذي سيؤخذ به الطلبة — ولم يعتادوه — وقد شعروا به قبل دخولهم ، إذ أمروا بأن يحلقوا رؤوسهم إلى آخر درجة تسمح بها أدوات الحلاقة ؛ وقد أعجبني الجندي الواقف بالباب وهو يمنع من حضر مع الطلبة من أقاربهم وخدمهم من الدخول ، ويأمرهم بأن يتركوا ما أحضروه من أحمال ليحملها الطالب بنفسه ، ولم يستثن صغيراً ولا كبيراً من أهليهم ، حتى ضباط الجيش العظام الذين كان يؤدي لهم التحية العسكرية الواجبة ، ثم يأمرهم بالوقوف وترك ما معهم لأبنائهم يحملونه ويدخلون الكلية وحدهم .

أعجب صديق بهذا النظام الذي يبث روح الاعتماد على النفس ، وخصوصاً مع المترفين والمدللين من أولاد الأغنياء الذين اعتادوا أن يحمل عنهم خدمهم حقائب كتبهم الصغيرة وهم ذاهبون إلى المدارس ؛ ولكن راعه أن يقترن هذا النظر الطيب الجميل بمثل سيء ، فيه استهتار ، وفيه خروج على النظم التي سنتها الوزارة للاقتصاد الذي تتطلبه الحالة العامة ؛ ذلك أن كثيراً من هؤلاء الطلبة قد حضروا في سيارات حكومية لم تجعل لمثل هذه « التوصيلات » التي تتحمل الدولة أعباءها .

فقلت له : لا تحزن يا صديق ، هذا شغل حكومة .

نطقت بهذه الجملة ساخراً كما سمعتها في مناسبات مختلفة من كثيرين غيري ، فيهم الكبير والصغير ، المضطلع بقسط من شئون الدولة ، والمحزون على ما يذهب هباء من أموال الدولة ؛ ولعل في ذكر بعض هذه المناسبات ما يؤدي إلى ما أقصد إليه :

كنت مع اثنين من كبار سباحينا ، فقابلنا نائباً محترماً — هو الآن وزير — وقصا عليه شكواهما من البطء والإسراف في إنشاء حوض للسباحة ، أنفق عليه أكثر من خمسة عشر ألف جنيه ولما يتم بعد ، وقد بدىء في إنشائه منذ عامين ، مع أن النيوزيلنديين الذين وصلوا مصر بنوا حوضاً أكبر وأوسع وكلفهم سبعمائة جنيه ، وأعد للسباحة في أول الشهر الثالث من وصولهم مصر ؛ فكان جواب النائب : نعم ذاك شغل نيوزيلنديين ، وهذا شغل حكومة .

وأنشئت منذ سنوات قليلة مدرسة ثانوية جديدة ، وأعلن ناظرها في مناقصة عامة عن الكتب التي رأى هو ومساعدوه من المدرسين أنها ضرورية لمكتبة المدرسة ، ولاحظت المدرسة على أقل عطاء — وفيه كتب كثيرة مما تخرجه لجنة التأليف والترجمة والنشر — أن أثمانها أعلى بكثير مما تبيع به اللجنة لأي مشتر عادي ، فأخرجت هذه الكتب من المناقصة ، واشتراها أحد المدرسين من أعضاء اللجنة مع تخفيض آخر ، فوفر بذلك بضعة جنيهات من مال الدولة ، ولكن ذلك لا يعجب اللوائح الموضوعة ، فأرسلت مخازن الوزارة للمدرسة تؤاخذها على تصرفها ، وتسألها لِمَ لَمْ يدخل فلان (المدرس) في المناقصة ؟ وطال السؤال والجواب ، وزادت المكاتبات عن الحد المعقول للإقناع ، إلى أن عرض ناظر المدرسة الأمر على وكيل الوزارة الذي اقتنع بخطأ اللوائح الإدارية الموضوعة ، فوافق على تصرف المدرسة ، وقال : لا تبتئس ، هذا شغل حكومة .

وراد شراء حديد ضروري للاحتفاظ بعمل هندسي تقوم به كلية الهندسة عند أشتوم الجميل ، فطلبت جهة حكومية ثمناً له أربعة جنيهات ، ولكن لا بد من مناقصة ، والوقت يضيع ، والسعر يرتفع ، فكان أقل عطاء يزيد عن أربعة أضعاف الثمن الأول ، فرفض ، فغرق الأصل ، وثمنه مئات الجنيهات . . . . والآن يصرف كل يوم جنيه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . .

ولقد شاهدت فى إحدى مدن الوجه البحرى مستشفى يبنى للحميات ؛ ولما كانت المدينة تنار بالكهرباء فقد رأى المقاول أن يستمد لمد أنابيب الكهرباء أثناء البناء وأثناء فرش السقف المسلح ، بوضع قطع من الخشب قبل رمى الأسمنت المخلوط ، حتى إذا نزعت بقى مكانها أجوف صالحاً لوضع أسلاك الكهرباء فيه ومع أن هذا العمل تبرع منه كان حقه أن يقابل بالشكر ، إلا أنه لم يكن موجوداً فى الشروط الموضوعة ، فلا يصح عمله !! وتقوم محاورة ومشادة تنتهى بانتصار المواصفات والشروط الموضوعة ! حتى إذا تم البناء وكمل البياض وفى تركيب الأسلاك ! فكان الحفر ، وكان النقر ، وكلف ذلك مئات من الجنيهات ما كان أغنى الحكومة عن صرفها لولا ضيق اللوائح وسوء التصرف .

فإن شئت مثلاً لما يتسبب عنه ضياع الأنفس فضلاً عن ضياع المال ، فهناك فى القرى السيارات التى تؤجر لنقل طبيبات رعاية الطفل ، ويدفع لكل منها أجر شهرى ، لو دفع أقساطاً لسيارة جديدة لأصبحت ملكاً خالصاً بعد أشهر قلائل ، ولا يمكن أن تسعف وتنقذ كما هو المفروض لا كما رأيت ، إذ تبقى السيارة فى مكانها بمن فيها من الحكيمة والمساعدة ، والسائق وحوله من حضر من أهل الخير يتعاونون على دفعها وتحريكها ، وتأبى أن تتحرك إلا لتقفز قفزة ثم تقف ، ويتكرر هذا مرات ومرات ، حتى إذا كانت ليلة من هذه الليالى المزعجة رأيت آخر الأمر رجلاً أقبل مسرعاً باكياً معولاً ، يلعن رعاية الطفل ومن فيها ، وله العذر ، فقد مضت ساعات طويلة بعد أن طلب إسعاف زوجه عند ما جاءها المخاض ، ولما يئست القابلة أرسلت تطلب الإسعاف لنقلها إلى المستشفى ، وهناك ماتت المسكينة لتأخر إنقاذها .

* * *

وأمثال هذه العجائب من النظم البالية واللوائح المعطلة لا يقع تحت حصر ، حتى لا تكاد تحكى واقعة إلا ويخبرك كل سامع بأشد منها ! وأعجب من هذا أن يلمس المسئولون هذه الحقائق فلا يحركوا ساكناً ! وقد تسمع من يقول لو كان الأمر بيدى لغيرت كل ذلك ، وأزلت أسباب الضرر ، فإذا كان الأمر بيده نسى ما كان يقول ، وطالت مدة أمره ثم دالت ، والحال على ما هو عليه لا تغيير ولا تبديل .

والموظف الذى يغار على المصلحة العامة ويحاول أن ينفذ إلى الجوهر أحد رجلين : رجل يداور ويحتال ليهرب من قيود اللوائح وتعطيلها ، وفى ذلك ما فيه مما لا ترضاه كل نفس . ورجل شجاع لا يبالى بهذه النظم ويسير إلى الغرض قدماً فيصلح وينظم بجرأة ، وهو — فضلاً عن أن النظر الفردى عرضة للخطأ فى التقدير — عرضة للاضطهاد والأذى ، وخصوصاً إذا دالت الدولة التى كانت تغض الطرف عن جرأته ، وجاءت أختها تسفه عمل سابقتها ، وتبحث وتنقب لتكشف عما حصل فى عهدها من مخالفات . ولقد شاهدنا أمثلة كثيرة لمن أحيلوا المحاكم التأديبية لأسباب كهذه ، فلم تكتف المحاكم بتبرئتهم لنزاهتهم وشرف مقصدهم ، بل سجلت فى حيثيات الحكم أخطاء اللوائح والنظم التى أحيلوا بسبب مخالفتها إلى المحاكم .

وإذا لمحنا — فى بعض الأوقات — بارقة أمل تبشر بالرغبة فى إصلاح ، وإقدام على تغيير ما رث وبلى من نظم ضارة ولوائح معطلة أو مقيدة ، أو تشعر بالاتجاه نحو التشديد على من يعبثون بالصالح من الأوامر التى جاءت متأخرة ، وجدنا هذا البرق خلباً والسراب خادعاً . فالآن وأنا أكتب أسمع صياحاً عجيباً ، إذ تقف بجوار الباب سيارة حكومية كبيرة تعلو عن سور الحديقة ، وتمتد فى عرض الطريق فتزحمه على سيارة أخرى حكومية كبيرة ، يأبى سائقها إلا أن يمر ليصل بحمله إلى باب منزله الذى لا يبعد إلا خطوات قليلة ، هذه عائدة بموظف صغير إلى منزله ، والأولى واقفة منذ ساعات تنتظر حضرة الموظف الصغير الآخر لتعود به إلى مقر عمله بعد أن يتغدى وينام .

أحمد على

لمــــاذا وكيف

للدكتور أحمد زكي بك

إلى أي حد يستطيع الإنسان مغالبة البرد والحر وسائر الأجواء، وهل في الحيوان من هو أكثر منه مقاومة لها؟

إن كنت تقصد بمغالبة الانسان للأجواء استخدام حيلته واستعمال عقله، فبالطبع ليس في الحيوان من يدانيه في ذلك. وإن كنت تقصد أن يغالبها بمعدات خلقه وطبائع جسمه، فهو من أضعف الخلائق مقاومة للأجواء، ومن أسرعها اختلالا لجائحات الأرض والسماء. وليس في هذا القول ما يتنافى مع مكانة الانسان السامية التي يحتلها على رأس المملكة الحيوانية. بل إن في هذا السمو بذرة الضعف، وفي هذا الترؤس سبب الاختلال. حتى الشيء الجامد كلما علا جرمه قل اتزانه وأوشك أن ينهار. والرأس أثقل من القدم.

ومفصل القول أن الانسان إنما بلغ هذا السمو والترؤس بتعقد الجسم وتعدد أعضائه واختلاف وظائف هذه الأعضاء واشتباك تلك الوظائف وترابطها في نظام دقيق. والنظام كلما زادت دقته وزاد حجمه وتشعبت مسالكه وكثرت مشابكه، سهل الإخلال به. كالآلة الكبيرة الكثيرة الأجزاء المعقدة الصلات، يوقفها خروج مسمار من مكانه. على أن الآلة إذا توقفت تعود سيرتها من الدوران إذا رد المسمار إلى مكانه في الآلة، ولكن الجسم إذا توقف لا يعود إلى الحركة أبداً، وسرعان ما تتألب عليه خلائق أخرى تطلب نصيبها من هذا الطعام السمين المخزون.

وهذه الخلائق المتألبة خلائق صغيرة، وهي في معارض الخلائق تقع في الصفوف الأخيرة التي لا يؤبه بها، ويتخطاها البصر لصغرها ولحقارتها ولبساطة تأليفها. ولكنها بسبب هذا الصغر وهذه الحقارة والبساطة وهبتها الطبيعة مقاومة لم تهبها إنساناً.

ومن أحقر هذه الخلائق الحقيرة، وأصغر هذه الخلائق الصغيرة، البكتريا. وهي لصغرها تحتمل من الحرارة ما لا يكاد يحتمله مخلوق. وتحتمل من البرودة ما لا يكاد يحتمله مخلوق. بل إنك لتجمدها بالثلج فتتجمد وتقف حركتها، وتتعطل حياتها سنين طوالا، ولكنها تعود إلى الحياة إذا خرجت من ثلجها ودفئ الجو حولها. وقصة الفيل الضخم الذي عثروا على جثته في ثلوج سيبريا قصة معروفة: حفروا عن هذا الفيل الثلوج بعد أن ظل فيها دفيناً آلاف السنين، فوجدوا جثته متجمدة سليمة كاملة، أو تكاد تكون كاملة. وجدوها بلحمها وعظمها وشعرها، فكأنما فارقتها الروح من ساعات، وحماها من الفناء أن أسباب الفناء، وهي المخلوقات الدنيا، قد انجمدت هي أيضاً فعجزت عن أداء رسالة الفناء. ولكن هذه الجثة العظيمة ما لبثت أن دفئت وزال عنها انجمادها حتى دب فيها الفساد، لأن البكتريا دفئت هي أيضاً وزال عنها انجمادها، فأخذت تفعل فعلها وتقوم بوظيفتها التي تعطلت منذ آلاف السنين. فهذه البكتريا تحيا الآلاف من السنين، بينا الانسان يحيا العشرات، فإن عدا الثمانين أحوجت سمعه إلى ترجمان.

وهذه البكتريا وجدوها أيضاً في قلب الفحم ببعض مناجمه ببلاد الزور. والفحم عمره يمتد إلى ملايين السنين. فهذه البكتريا عاشت فيه حين كان فيه حياة وكان فيه شمس وماء وهواء. وبقيت فيه لما تقطعت به أسباب الحياة،

وبقيت تلك السنين الطويلة تتربص الفرص للحياة . فلما حانت أخذت في سبيل الحياة ، فتقسمت وتكاثرت كما كانت تتقسم وتتكاثر قديماً .

ومثل البكتريا الحشرات : حبسوا عدداً من الذباب في قنانة من الزجاج ثم بردوا القنانة من خارجها بالهواء السائل فانخفضت درجة حرارتها في الداخل انخفاضاً كبيراً . وتجمدت الذبابات وتجمدت كتلةً واحدة فصارت كقطعة الثلج . ولكن ما لبثت أن أدخل الدفء إليها حتى دبت الحياة فيها فتحركت دبيباً ، ثم طارت تحمد العيش العائد بعد فواته . وما عد إنسانٌ عيشاً عاد بعد فواته أبداً ، على الأقل في هذه الدنيا .

ومن الحيوانات صنوف كثيرة تغالب الأجواء مغالبة كبيرة . فإن قلبتها الأجواء عمدت إلى النوم ، تنامه أشهراً طويلة . وتنامه في الشتاء إذا غلب البرد . وتنامه في الصيف إذا قسا الحر . ونومها فيه الحياة ، ولكنها حياة ضعيفة خفيفة تكاد تفقد كل مظاهر الحياة وتشبه الموت .

قرأت مرة عن رجل عالم أنه عثر على ثعبان تثلّج وتجمد ، واستطال فكان كالعصا . فحمله وتوكأ عليه إلى بيته ، ثم وضعه في ركن البيت كما يضع العصا . ثم لم يمض زمن طويل حتى تثنّت العصا ثم انهدمت وسقطت على الأرض ثم أخذت تدب دبيب الثعابين لما نالها دفء المكان .

لغة الإنسان مطبوعة أم مصنوعة ؟ وهل للحيوان لغة ؟

لغة النحل

ليست اللغات بالشيء الذي يولد مع الإنسان كأنفه ولونه وسلامة عضمه أو فساده ، بل هي من إرث المجتمع يتعلمه المولود في نشأته كما يتعلم أمور الحياة الأخرى بدليل أنك لو أخذت طفلا مصريا فأودعته بيئة فرنسية لشب وهو لا يستطيع أن ينطق الضاد والظاء والعين ، ثم يكون أخنف النطق ، ولو أخذت طفلا فرنسيا فأودعته بيئة مصرية لنطق بكل ذلك وخرج كل منطقه من فمه دون أنفه ، ولو أخذت طفلا مدنيا وأودعته بيئة قرود لشب يصيت كما تصيت القرود . فاللغة من كسب الفرد في الجماعة ، وهي في الجماعات من كسب الأجيال . ويرى العلماء أن الناس جاء عليهم دور في أدوار التطور الأولى لم تكن اللغات المنطوقة فيهم بالشيء المذكور . وقد فحص بعض العلماء جماجم رجال عثروا عليها في حفائر في الأرض لعصور ما قبل التاريخ رجاء أن يجدوا فيها الدليل على أن أهل تلك العصور لم يكونوا يستطيعون الكلام المنطوق ؛ ومهما يكن من أمر هؤلاء ، وما حصلوا عليها من نتائج ، فإن الجماجم هنا نذكره لتوكيد المعنى الذي نريده من أن اللغة الانسانية المنطوقة شيء مصنوع من ميراث الدهر ، يجرى عليها ما يجرى على المواريث من قلة وكثرة ، وضيق واتساع . وقد تتعاون الظروف ، أو في مكنة الفكر أن يتصور ظروفا تنعدم فيها لغات الكلم بالمرة ، أو تتضاءل حتى تكون كالعدم ، دون أن تؤثر على مطالب الحياة الأولى من طعام وشراب ، ومن إنسال يمتد به الوجود ويتسلسل . وبين سكان هذه الأرض آدميون يعيشون في مجتمع لا تزيد أفراده على المئات يتكلمون لغات لا يفهمها مجاوروهم من أهل المجتمعات الصغيرة الأخرى . ولكن أي لغات هذه ؟ لا شك أنها لغات كأبسط ما تكون اللغات ، ضيقة كضيق حاجات هذه المجتمعات من أمور العيش .

إن لفظة اللغة تنصب أكثر انصبابها على لغة الكلام ، وهي لغة قد امتاز بها الانسان وحده ، مازه بها رئة مرنة وعضلات حلق مختلفة متسقة ، وأحبال صوت فيه متقاصرة متطاولة ، ثم شفة ولسان تآلف جميعاً على إخراج أنواع من أصوات عدة لا يكاد الحصر يحصيها . وحسبك من تعددها أن اللغة الواحدة بها ما يقرب من ثلاثين حرفا يحرك كل منها ثلاث حركات أو أكثر ، هذا ما يستطيع الفرد أن يحدثه في

نغماتها من رفع وخفض على درجات شتى ، وترقيق وتغليظ على درجات شتى كذلك ، ثم ما يستطيعه من تأليف بينها وصناعة ما نسميه بالكلمات وهى فى لغة البشر ألوف مؤلفة .

فلغة الكلام لغة أصوات راقية معقدة ، آلتها حناجر راقية معقدة لحيوان راق معقد . حسّها الأذن فهى لغة آذان .

وإلى جانب هذه اللغة توجد لغة أخرى تعتمد على الحركات والاشارات ، وهى تُحَسّ بالعين ، ولهذا نسميها لغة العيون . والانسان فى أدنى دركات الترقى تقلّ لغته الأذنيّة أى لغة الكلام ، وتكثر لغته العينيّة أى لغة الحركات والاشارات ، حتى قيل إن فى القبائل الانسانية قبائل لا تستطيع أن تتفاهم فى الظلام .

على أن الانسان فى أرقى مدنيته وأرفع ثقافته لم يتخلّص بعدُ من لغة العين . راقبْ رجلا يتحدثُ ، لاسيما حديثاً حاراً مفعماً بالمشاعر ، تجد يده لا تفتأ مرفوعةً مخفوضةً مبسوطة مقبوضة ، ترسم فى الهواء المستقيمات والمنحنيات وما يخطر على بالك من أشكال وما لا يخطر ، وانظر لها تندقّ على المنضدة اندقاقاً . وانظر إلى عضلات وجهه كيف تنبسط وكيف تنقبض ، وإلى عينه وحاجبه كيف يضيقان ويتسعان . ومن الناس من لا يكفيه التفاهم بالأيدى فيستعين بالأرجل توكيداً للكلِم المسموع . وقد تتعطل لغة الكلام أصلا عند الانسان ، وتحل مكانها لغة الاشارة لغة العين . تسأل المريض : كيف حالك ؟ فيقطّب من وجهه ويَمُدُّ فى شفتيه ، فتعلم أنه سيّء الحال . وينظر الرجل إلى المرأة نظرة الطلب ، فترد عليه بنظرة هى الرفض ، واللسان لم يتحرك . والمجرمون فى بعض الأمم الحيّة لهم لغات كلها إشاريّة عينيّة ، تعددتْ ألفاظها وكثرتْ معانيها حتى صارت تُرقم وتدوّن . ولبعض قبائل الهند الغربية لغات بالاشارة أكثر اعتمادهم عليها . والجيوش تتفاهم من بعيد بالرايات يحرّكونها حركات مختلفات ، وبالمرايا يعكسون عليها ضوء الشمس أشكالا . وكل هذه لغات عينيّة مدروسة . ولغة الخُرس لغة أشكال يرسمونها فى الهواء ، فهى لغة عين . واللغة الهيروغليفية لغة أشكال فهى لغة عين . بل كل ما كُتب فى الكتب وحبّر فى الأوراق ، إنما هو لغة عين برغم اتصاله الوثيق باللغة المرقومة .

ولا يظنّن أحدٌ أن لغة العين هى دائماً دون لغة الأذن قيمة أو أقلّ منها فى الأداء . فالصورة الزيتيّة البديعة رسمها لك الرسام فتحمل إليك من المعانى ما لا تحمله الكلمات . والنظرة الحبيبة تبعث بها إليك النفس الحبيبة فتعجز عن كامل وصفها عباقرة الشعراء . والنكتة على المسرح تسمعها من المِذياع فلا تقع من نفسك موقعها وأنت حاضرُ المسرح . وكثيراً ما تسمع الضحكات العالية تنطلق فى الحاضرين فلا تفهم لها على الأثر معنى لأنها نكتة إشارة انتقلت إليهم بواسطة العين دونك .

فهذا فى الانسان . أما فى الحيوان فلا شك أن للحيوانات لغة كالانسان ، هى لغة أذنيّة وعينيّة معاً . ولكنها لغة بسيطة بمقدار بساطة تركيب هذه الحيوانات ، أو على مقدار بساطة حاجات هذه الحيوانات فى الوجود . أو على مقدار ما تحتاج إليه هذه الحيوانات من اجتماع . فمن الحيوان ما يعيش عيشة انفراد واعتزال لا يعرف السِّرب والتوْل والقطيع ، فهذا لا لغة له ، أو لا تكاد تكون له لغة . ومنها ما يعيش أسراباً أتوالاً قطعاناً ، فهذا له لغة ، لغة أصوات ولغة حركات . وكلما اتخذت هذه الأسراب والأتوال شكل المجتمعات ، وكان فيها من التعاون نصيب والبر كالذى يكون فى المجتمعات ، زادت لغة أفرادها تصنّعاً واتساعاً . ومن هذه الحيوانات النحل والنمل والزنابير . وأذكر أنى قرأت قديماً بحوثاً فى لغاتها غاب عنى مكانها الآن . فإلى فرصة أخرى .

أحمد زكى

روعة حديث

رأيت كل مقالٍ   يشينه التكرارُ
ويهزل القول لما   يشوبه الإكثار
وكل معنى جديد   مكرر أو معار
وفي حديثكِ دنيا   علوية ونهار
تسبي العقول فتغضي   من حسنها الأبصار

***

ما عاب قولكِ لحنٌ   ولم يَشِنه العثار
نزهتِ قولكِ عما   تنزه الأبرار
معنى بيانك فيه   من المنى أطيار
والغصن فيه تثنى   إذ ماست الأشجار
وراح يصدح وجداً   من الحنين هزار
أما المعاني فيها   من العقول ثمار
والهمس منك شجي   تُشق به الأوطار
يرق طوراً ويقسو   إن الهوى أطوار
ويعذب اللفظ وقعاً   كأنه الأوتار
ويجزل القول حيناً   كأنه الإعصار
فنلت من كل نفس   ما لا تنال العقار
سر البلاغة أمر   حارت به الأفكار

***

أثرت من كل صدر   حشاشة لا تثار
حتى حسبت بصدري   تدفقت أنهار
وأشرقت في سمائي   بعد الدجى الأنوار
فرحت أجمع فكري   كأنني محتار
أطيل صمتي وما بي   تمعن وافتكار
وأين للصب فكر   بل أين منه اصطبار
ملكت رحب سمائي   فأين مني القرار

(دمشق)   هرناد مردم بك

صورة في النفس

صورة أفنيت فيها عمري   راسماً آياتها في حذر
كلما أبصرت حسناً في الورى   في البساتين وبين البشر
نقلته ريشتي مبدعة   نقله من بين شتى الصور
لم أزل أمعن فيها خاطري
وأطيل — الليل — فيها سهري
أقنص الأحلام حتى كملت   وغدت رمز الجمال النضر

***

في خيالي صورة قدسية
أنعشت روحي وأحيت بصري
لم أزل أرهف إحساسي لها   يا لقلبي! ليته لم يشعر
كلما أخطأتها في البشر
قلت يا نفس اصبري وانتظري
ضاع فني حينما صورتها   وهي حلم في الورى لم يخطر
هل تراها عظمت عن أن تعيـ
ش هنا في العالم المندثر؟
ربما أبصرت منها شبهاً   غامض الشبح ضعيف الأثر
رب ثغر يذكر العين بها   يفتن القلب غرير النظر
رب عين هدبها ساحرة   ذكرتني بخيالي العبقري
أو قوام مرع يخطر بي   تائه في حسنه مستكبر
بنت أحلامي أنا مبدعها   خلتني واجدها في البشر
كلما أبصرت منها شرراً   في محيا سرت إثر الشرر
غير أني كالذي يبصر بعـ   ـض جذوع في مكان مقفر
ليس يشبه جمال الشجر   أن يميز الجذع بعض النظر

عبد المجيد بن جلون

شَبابة الأسحار
(الساقية)

أيا شـبابة الأسحا ر ماذكرى لياليكِ ؟
وموسـيق الإله تمو ج فى خفق أغانيك
وخد الحقل يسعى وه و ظمآن إلى فيك
وقلب الشاعر المبا ن قربان بأيديك
ولَغْمُ الحسن زَغْلَزٌ بيوم فى روابيك
وصمت الليل أملاك تسبح عبر واديك
فديتك ، كم ليال كنـ ت تستبين وأسقيك
تغنين بدمع النهـ ر ، والنهر يواتيك
وقلبى بدموع من هوى ليلى يغنيك
سفحت الشعر والدمع لداعيهـا وداعيك
وكم أصغيت للدنيا توشوش فى مجاليك
والأطياف إذا رفت جماعات تحييـك
والنجم الأمين إذا سعى بالنور يعلوك
والشـعر إذا غنا ربه والوحى يحدوك
فما أدت إلى سلوى هوى هذى ولا تيكِ

•••

فديتـك يا مغنيتى وعادت لى لياليك !!
ليـالٍ خصها الله بفيض من تباريك !!
وموسيق الإله تمو ج فى خفق أغانيك
وقلبى بدموع من هوى ليلى يغنيك

أحمد عبد الرحمن عيسى

العلم المصرى

يا خافقاً فى الأعالى فداك أهل ومال
فيك النجوم ثلاثٌ على يمين الهلال
يا أخضر اللون تزهى فأنت رمز الجلال
يا رامزاً للأمانى ورامزاً للكمال
تفديك مصرُ جميعاً بالأهل والأموال
رفرف على مصر إنَّا نمشى لأوج المعالى
فأنت عزةُ مصرٍ وتاج مصرَ الغالى
وأنت فى كل أرضٍ كرامةُ الأجيال
فاخفق على مصر واطلع بالعز والاقبال
فأنت فى كل جيلٍ وكل قرنٍ (عالى)

(اسكندرية) محمد فهمى توفيق

المسابقة الأدبيـة
لجائزة صاحبة العصمة
السيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية

وضعت لجنة المسابقة قرارها فى القصص المقدمة لمجلة الثقافة ، لنيل جائزة صاحبة العصمة السيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية . وسيعلن هذا القرار فى العدد المقبل من الثقافة . فنوجه إليه الأنظار .

أنباء وآراء

الخمر غذاء غريب

١ — قرأت فى العدد ١٠٠ من الثقافة الزاهرة مقالة ممتعة للدكتور أحمد زكى بك عن (الخمر غذاء غريب) وذكر فيها « الكحول » . فأقول إنه قد استبدلت بهذه اللفظة فى المعهد الطبى العربى من الجامعة السورية لفظة « الغَوْل » كمعادلة للكلمة الافرنجية Alcool . وهذا ما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد حمدى الخياط فى هامش الجزء الأول من كتابه « فن الجراثيم » : « الغول لغة الصداع والسكر ، أو كل ما زال به العقل . ولقد وصف الله تعالى فى القرآن الكريم خمر الجنة بقوله : « لا فيها غول » أى لا يزول بها العقل . وهل فى الخمر ما يذهب بالعقل غير تلك المادة التى يسميها الافرنج Alcool ويسميها بعض علمائنا بالكحول ؟ ومن أين للكحل تلك الصفات المعروفة فى الخمر ؟ ولم لا يكون أصل الكلمة Alcool أو Alkohol الأجنبية alghol حرفت أو نقلت فصارت كما ترى ؟ . . . » الخ

وبهذه المناسبة نذكر إلى جانب الجهود العلمية ، الجهود اللغوية التى يبذلها أساتذة المعهد الطبى العربى بدمشق ، وهو المعهد الوحيد الذى تلقى فيه كافة دروس الطب ومحاضراته باللغة العربية ، فى التعبير عن كافة مفردات هذا الفن والعلوم التى تلحق به بلغة عربية فصيحة مسايرة للتطور الذى طرأ على العلم فى العصر الحاضر . جهود مجهولة ولا شك من غالب الناطقين بالضاد ، وهى أجل من أن تجهل .

٢ — كتب العلامة الأب أنستاس الكرملى فى العدد نفسه من الثقافة فى نقد تحقيق كتاب الحيوان أن « التجنيق » لفظ مأخوذ من اليونانية واسمه فيها maggamon . وقد ذكرت بهذه المناسبة بيتاً لأشجع السلمى يذكر فيه التجنيق بلفظ قريب من لفظه اليونانى وهو « التجنون » فى قوله :

كففت عن القاتل بأبيات وقد هيأت صخرة منجنون
ولو أرسلتها دمغت رجالاً
وصالت فى الأخسة والشؤون

والبيتان مذكوران فى نسب أشجع وأخباره فى الجزء السابع عشر من الأغانى .

ع . ر

كتب جديدة :

١ — مكتوب على الجبين

هذا هو الاسم الذى اختاره القصاص البارع الأستاذ محمود تيمور عنواناً لمجموعة قصصه الجديدة ، وهو اسم القصة الثالثة من قصص هذه المجموعة .

ويحوى هذا الكتاب أربع عشرة قصة تختلف موضوعاتها وتنوعها ، فهى بين صور لشخصيات وعرض لأفكار ، وتحليل لبعض نواحى المجتمع ، ولكنها تتفق عند شىء واحد ، هو الأسلوب الرفيع واللغة الصحيحة والحوار الرقيق ، طابع الفنان تيمور فى كل قصصه .

وقد قدم المؤلف لهذه القصص بمقدمة هى بحث فى فن كتابة القصة ضمنه رأيه فى القصة الحديثة ، وفى طريقة كتابة القصة ، والمواد والمؤهلات التى يحتاج إليها القصاص لكى يتمكن من فنه ، وهى مقدمة جدير بكل كاتب قصصى أن يقرأها لما حوت من آراء لقصصى ممتاز ، وقد ختم هذه المقدمة بتقرير حاجة القصصى أولاً وقبل كل شىء إلى « الكتاب الملكة التى يستفيدها من

موفور اطلاعه على الآثار الفنية المعترف بها ، وحسن تفطنه إلى ما فيها من أسرار الجودة والابداع » .

وقد قامت بنشر هذه المجموعة مكتبة المعارف ، وتقع في ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط .

٢ — تشرشل

الأستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف من خيرة الكتاب الملمين بالسياسة العالمية ، وهو إلى جانب ذلك أديب ممتاز . وقد اجتمع له إلى هذين الصفتين في كتابه الجديد من ترجمة حياة تشرشل حرارة الأسلوب في الكتابة عن رجل يحمل اليوم أكبر تبعة في الدفاع عن الديمقراطية أو على حد تعبيره « رجل مفزع في قالب الأبطال » .

وهذا الكتاب من ترجمة تشرشل يسرد نشأة هذا السياسي العظيم منذ مولده إلى أن أقبل إلى تسلم رآسة الوزارة البريطانية في ساعة من أحرج ساعات التاريخ إذ « هولنده مترنحة من قوة الضربة التي أصابتها ، وبلجيكا على السندان تحت المطرقة ، والجيوش الألمانية تنسف طريقها نسفاً في شمال فرنسا ، وإيطاليا تتحفز للوثوب في البحر المتوسط » ، فهو بذلك يكشف عن مواهب ومؤهلات وثقافة واستعداد رجل بريطانيا في كفاحها الحاضر ، فيتناول ونشأة تشرشل الطالب الصغير ، فالطالب بالمدرسة الحربية ، فالضابط النشاط في جنوبي أفريقيا ، فالأسير الهارب ، فالنائب ، فالوزير إلى أن يصل به إلى قمة حياته السياسية ، متخطياً مع القارئ ما مر في حياة هذا الرجل من محن وخطوب وهزائم وانتصارات ، كل ذلك في أسلوب حار جذاب ، تاركاً بين صفحات الكتاب صوراً لمراحل حياة هذا الزعيم في مواقف شتى .

وتبلغ صفحات هذا الكتاب مائة وأربعين صفحة من القطع المتوسط وقد قامت بطبعه ونشره دار المستقبل .

٣ — الوراثة وتحسين النسل

هذا كتاب طريف ينضم إلى المكتبة العلمية العربية ، يعالج موضوعاً طريفاً من مواضيع العلم هو موضوع الوراثة . وقد استطاع مؤلفه الأستاذ حسين الابيارى الاخصائى بوزارة الزراعة أن يتمكن من موضوع بحثه بالاطلاع الوافر ، ذلك الاطلاع الذى يبدو من خلال علاجه لموضوعات كتابه .

وقد قدم الأستاذ الابيارى لكتابه ببيان الغرض من وضعه لهذا الكتاب ، فهو يقول في تقديمه : « هل من الحكمة أن نسابق الأمم في تحسين محصولاتنا الحيوانية والنباتية ، ونقعد عن سباقها في السير بالسلالة المصرية نحو المثل العليا للرجل الكامل عقلا وجسداً ؟ » . ثم يتكلم عن أهمية علم الوراثة فيما يختص بالنسل الوافر من « مشوهى الجسد وناقصى العقول » .

ويحوى هذا الكتاب سبعة فصول تناول فيها المؤلف من الموضوعات تاريخ علم الوراثة وفلسفة تحسين النسل ، ثم الصفات الوراثية في الانسان ، والوراثة والبيئة ، ووراثة النقص العقلى ، والوراثة والأجناس البشرية ؛ ثم ختمها بالبحث في التطبيق الوراثى وتحسين النسل ، وضمن كتابه إلى جانب ثبت المراجع قاموساً بمواضيع الكتاب وما ورد فيه من ألفاظ علمية وأسماء أعلام ؛ ولاشك أن في هذا الكتاب — إلى جانب ناحيته العلمية — متعة لكل قارئ يأخذ نفسه بأسباب الثقافة اللازمة للأديب والعالم ورجل الاجتماع على حد سواء .

وقد طبع هذا الكتاب على نفقة مؤلفه ، وتبلغ عدة صفحاته مائتى صفحة من القطع المتوسط ، ويطلب من المكتبات العامة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ١١٤ — الثلاثاء ٦ من صفر سنة ١٣٦٠ — ٤ من مارس سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الأدب والســـــياسة

للأستاذ على أدهم

يذهب الكثير من النقاد إلى أن الأدب هو صورة العصر ومرآة الحياة ؛ وهذا الوصف برغم ما فيه من صدق يظهر الأدب فى صورة القمر ، ذلك الكوكب المهجور الخالى من الحياة الذى لا يستبين للعيان إلا بما ينعكس عليه من أضواء الشمس . والواقع أن الأدب أجل من ذلك شأناً وأوفر قوة وأبعد أثراً ، وهو بحساسيته الشفافة المرهفة ، وعينه اليقظة الساهرة ، وحرصه على استيعاب كل شيء ، والاحاطة بالحياة من جميع نواحيها ، يحاول أن يتابع الحياة فى إبداعها المستمر ؛ ويلاحقها فى وثباتها المتتابعة ، ويسجل تقلباتها ، ويقيد شواردها ، ويرسم ظلالها المنوعة وألوانها المتجددة ، وهو بهذا الصراع العنيف يضطر الحياة إلى أن تجلو أسرارها وتكشف عن حقائقها ؛ ومن ثم تختلف صور الآداب تبعاً لاختلاف صور الحياة وطبائع العصور .

ويستهدف الأدب فى العصر الحاضر لمؤثرات كثيرة ، أوضحها وأعظمها دلالة السياسة وعلم النفس والاختراعات

العلمية الحديثة . والسياسة فى أشمل معانيها هى علاقة الفرد بالمجتمع من ناحية وعلاقته بالدولة من ناحية أخرى . والأدب كما هو معروف يقوم على المزاج الفردى ، ولذا قد ينكر بعض المفكرين علاقته بالمجتمع وتأثره بالدولة . وقد تتساءل ما شأن الكاتب بقيام الدول وسقوطها وتماسك الجماعات وانحلالها ؟ أليس له من وحيه السامى وشعوره الصوفى ما يجعله بمعزل عن تقلبات الحوادث وغير الدهر ؟ وكيف لا يذوى فنه وتضعف شخصيته إذا غمره المجتمع وجرفه تياره وسال به سيله ؟ ولكن العلاقة بين الأدب والسياسة علاقة قديمة ، وقد طبعت السياسة بطابعها الأدب اليونانى والأدب الرومانى والأدب الاسلامى فى مختلف عصوره ، وزادت فى ثروته وأبعدت صوته ووطدت من مكانة رجاله ، وما زال الكاتب منذ نشأة الأدب وهو لسان قومه الناطق ، وقلبهم الخافق ؛ فعندما يتحلل المجتمع ويشيع فيه الفساد يبدو فى حديثه القلق والتبرم والألم الممض والحزن الموجع . وليس من المستنكر فى العصر الحاضر الذى تضطرب فيه أحوال المجتمعات الانسانية ، وتتقلقل الأوضاع ، أن يجبر الكاتب على أن يفكر تفكيراً سياسياً ويطيل التأمل فى العلاقات الاجتماعية والأحوال المالية ؛ وليس فى وسعه من حيث هو إنسان أن يتخلى فى هذا الموقف عما عليه من تبعات ويضيع ما فى ذمته من ودائع .

وقد طغت السياسة على الأدب فى العصر الحاضر طغياناً شديداً ، وكتاب العصر معنيون بالسياسة إلى حد لم يعهد فى كتاب العصور الحديثة منذ الثورة الفرنسية . ولعل الذى أثار الكتاب ووجههم هذا التوجيه شعورهم القوى بأن المجتمع فى بنائه الحالى غير أهل لمتابعة تطورات الحياة فى صورها الأخيرة ، وأن الثورة القادمة والتغيرات المتطورة لا ينبغى أن ينفرد السياسيون بالاشراف عليها واستغلالها .

وأكثر الكتاب فى العصر الحاضر مضطرون تحت ضغط الحوادث إلى الانضمام إلى أحد المذاهب السياسية الكبيرة التى ذاعت شهرتها ، مثل الفاشية والنازية والشيوعية والديمقراطية ؛ وهذه المذاهب قائمة على الصراع بين مختلف الطبقات الاجتماعية ؛ ويحاول الكتاب جهدهم التوفيق بين مزاجهم الفردى وهذه النظم الاجتماعية الصارمة .

وقد أدى ذلك إلى نشوء تصور جديد لوظيفة الأدب ومكانة الكاتب ؛ وقد كان المعروف أن الكاتب فنان قبل كل شىء ، وهمه الجمال وحفز الشعور والتسلية والمتعة ، وهو ينقلنا إلى عالم مخالف للعالم الذى نعيش فيه ، ويسمو بنا فوق متناقضاته ، وينسينا سخافاته وحماقاته ، ويذهلنا عن حوادثه السياسية العارضة وتقلباته العابرة ، وإننا نسد عليه كوى الالهام ونحجب عنه ضوء الوحى إذا أرغمناه على الخوض فى السياسة ونظمناه فى سلك الدعاة ، وليكن الكاتب سياسياً متحمساً إذا شاء ، ولكن على شريطة ألا يتخذ الأدب ذريعة من ذرائع الدولة ووسيلة من وسائل السياسة ، لأنه إذا فعل ذلك أسف أدبه وقل إحسانه وفقد قيمته ؛ واستخدام الأدب للأغراض السياسية يفسد الأدب ويهبط به عن مستواه الرفيع ، والكاتب الذى يرى نفسه مسوقة إلى وضع قصة تعلن محاسن النازية أو تدافع عن الشيوعية سيجد نفسه مضطراً إلى أن يشوه الحق ويقسر الفن لتدعيم مذهبه وإثبات وجهة نظره ، وستحفل روايته بالشخصيات الزائفة والمواقف المصطنعة التى لا يقتضيها منطق الحوادث ؛ ولكن المذاهب السياسية الحديثة لا تبالى ذلك ، وتطالب الكاتب بأن يأخذ جانباً فى المركة القائمة وينضم إلى صف من الصفوف ، وينحرف عن تلك النظرية المعروفة نظرية « الفن للفن » ، ويصبح مسخراً لأغراض أخرى شاء ذلك أو لم يشأ .

وقد أدرك السياسيون فرط عناية الكتاب بالسياسة

فحاولوا أن يجتذبوهم إلى مشكلاتهم الحزبية وخلافاتهم السياسية ، وعمل أصحاب الأعمال الكبيرة على الاستفادة من أقلامهم واستثمار مواهبهم ، حتى كادت تنقلب الكتابة إلى نوع من الاعلان وضرب من ضروب الدعوة وتفقد الكثير من الصفات الفنية .

ويحسن أن نفرق بين عناية الكاتب بالسياسة فى الأمم الدمقراطية وعنايته بالسياسة فى الأمم الديكتاتورية ؛ فالكاتب السياسى فى الأمم الديكتاتورية بوق من الأبواق وصدى من الأصداء لا أكثر ولا أقل ، وانحطاط مستوى الأدب والفكر فى الأمم الديكتاتورية من المسائل الشاهدة المعروفة ، وتعليلها هين ؛ وذلك أن الكاتب الخالق لا يتيسر له الخلق فى أغلب الأوقات إلا إذا شعر بأنه حر واطمأنت نفسه وتسامى عنه الخوف ، والأدب الحق لا يزدهر إلا حيث يشعر الكاتب بأنه غير مضطر إلى مصانعة الحاكمين ومداهنة الأحزاب .

والعامل الثانى الذى أثر فى الأدب الحديث تأثيراً بعيد المدى هو علم النفس . وفرويد بتوجيهه النظر إلى مسألة العقل الباطن ، فتح فى عالم الأدب فتحاً مبيناً وبدأ حركة لها نتائجها البعيدة ، وقد قرنها بعض المفكرين بالثورة الصناعية واستكشاف أمريكا ؛ وفى الوقت الذى بدأ فيه فرويد رحلته فى عالم العقل الباطن كان كثير من متقدمى الكتاب قد أخذ يشعر بفوضى المجتمع وانحلال روابطه ، ولجأ فريق منهم إلى حمى نفسه يستقرى دوافعها ويراقب هواجسها الخفية ونواحيها الداخلية وما ينشب فيها من الحرب والصراع بين شتى الميول والأهواء ؛ وقد وصف بعضهم هذه الحالات وصفاً دقيقاً مثل بروست الفرنسى وكافكا الألمانى وجويس الارلندى ؛ وقد تأثر بهم الكثيرون من ناشئة الكتاب وناشئة الجيل التالى لجيلهم . وفرويد شديد العناية بالفرد ، فهو من بعض الوجوه من أقوى أنصار الحرية الفردية فى العصر الحديث ؛ وقد حاول فرويد أن يقيم الآداب على أسس مغايرة وقواعد جديدة ؛ والعلم فى رأيه هو المنقذ للإنسانية من الضلال ، وهاديها فى بيداء الحياة ، وحيرة الوجود ؛ والدين فى رأيه هو الخصم اللدود للعلم . وقد جاء فرويد وأنصاره بأفكار عن طبيعة النفس بعيدة التأثير كثيرة النتائج ، وهى تعين على إقامة المجتمع على أسس جديدة واستحداث آداب ملائمة ، والأدب فى حاجة على الدوام إلى مورد عذب يستمد منه الأفكار والتعاليم ويجلوها فى المظهر الأخاذ ، ويخلع عليها الثوب القشيب ، وهو يتردد الآن بين الدفاع عن مختلف المذاهب السياسية التى تتصارع فى العصر الحاضر وبين المناضلة عن الحرية الفرويدية .

والعامل الثالث الذى زيد الموقف تعقيداً ، هو الاختراعات العلمية ، وهى فى العصر الحاضر قد تسربت إلى مناطق الأدب ومجالات الثقافة . وتقدم المخترعات العلمية سيرغم الأدب على مراجعة وظيفته والتفكير فى واجبه ؛ فهل كلمة الراديو المسموعة ستغنى فى المستقبل القريب عن الكلمة المطبوعة ؟ وهل يقلل تقدم فن السينما من الاقبال على قراءة الأقاصيص والروايات ؟

ويرى بعض الباحثين أن الشعر وحده هو الذى سينجو من الخطر ويفلت من المصير المحزن الذى يترقب الأدب ، وذلك بفضل ما فيه من المجاز والاستعارة والايقاع والتنغيم ، وكذلك الأساطير لأنها وسيلة صالحة للتربية ، وهى تتغلغل إلى أعماق النفس لأنها لا تثير جدلاً ولا تعلن حجة . ومصير الأدب موقوف على مصير المجتمع ؛ وقد تنبه إلى الخطر الذى يهدد الأدب فى العصر الحاضر من ناحية تقدم الاختراعات العلمية الكاتب الفرنسى الكبير جورج ديهامل ، واستوفى بيان ذلك فى كتابه القيم « الدفاع عن الأدب » فهو يقول فى الفصل الأول من هذا

مأساة ...!

للأستاذ عبد العزيز البشرى

قال لى صاحبى وهو فى بعض حديثه :

« .... ولم يكن سيد عشيرته فحسب ! بل لقد كان زعيمَ الاقليم كلّه ، وكان رحمه الله ألمعيًّا شديدَ الفِطنة ، بعيدَ النَّظر ، صادقَ الحكم . يظَلّ القوم فى مجلسه يتحاورون ويتناقشون ويتنازعون ، حتى إذا فرَغوا من شأنهم جلاَ موضعَ النزاع فى يُسر ، وحكم فيه أعدل حكم .

على أنه كان عصبيًّا شديد العصبية ، إلاّ أنه كان قادراً على أن يأخذ نفسه بالحلم فلا يستفزه شىء . بل لقد كان يضحك أو يتضاحك مما يَغيظ أحلم الحلماء ، ولعل ذهنه كان يَزخرُ بالمعانى ، فاذا أراد الحديث زاحمت على لسانه ، فجعل يضطرب بينها ويتردد حتى ما يكاد يُبين !

وداره واسعةٌ متعددة الأبنية ، وهى تقع فى حديقةٍ واسعةٍ جداً ، وهـذه الدار لا تخلو مطلقاً من عشرات الناس فى ليل أو فى نهار . فمن طالب رِفْد ، ومن صاحب حاجة تدعو إلى قوة السنَد . ومن متنازعين على مال أو على مَنصِب يختصمان إليه . وجميعهم يأكل أحسنَ الطعام إذا جاء وقت الطعام . ومَن طلب منهم المَنام فله ذلك . فالدار كما قلت ، واسعة ، والفُرُش فيها كثيرة ، وهى ، على الجملة ، كرحبة مالك بن طوق التى ظلّت مضربَ الأمثال من قديم الزمان . وما طالعت هذه الدار ، إلا حضرنى قول مسلم بن الوليد فى بعض ممدوحيه :

لا يرحَلُ النـاسُ إلا نحو حجرته

كالبيت يُفضِى إليه ملتقَى السُّبل

وأما حكمه بين الخصوم فهو أمضى من أىّ حكمٍ نهائى تُصدره أية محكمة . لأن الخصوم فى ذلك قد يعوّقون التنفيذ بشتّى الحِيَل . أما حكمه هو فلا تعويق فيه ولا احتيال ، لأن أحداً فى الاقليم لا يجرُؤ على أن يُسِرّ لهذا الرجل عداوة ، فضلا عن أن يصارح بها ! بل إن أحداً

الكتاب : « كل هذه المخترعات التى ابتكرت لتزيد فى عقل الانسان وتفتح عينيه وأذنيه وتثير ملـكاته وتسمو به ، تتضافر الآن جميعها لتقضى عليه وتخنق أنفاسه ، وتزهق روحه ، وتهبط بمثله العليا ، وتستنفد نشاطه وحيويته . وهل تسـتطيع الحضارة أن تقوم على جهازى النظر والسمع ؟ » ويقول فى مكان آخر من الكتاب نفسه : « يلزم أن يفهم الشعب أن أعز الأغراض وأسماها والمتع الدينوية ومظاهر التقدم جميعها متوقفة على استعمال العقل وتثقيفه وصقله ، وبدون الكتب تصبح حياتنا الاجتماعية والفردية مسـتهدفة لخطر الانحدار إلى الهمجيـة التى لا يُشـتَق من دائها ، ويجب أن يعلم الجميع أن تثقيف العقل أمر جوهرى للحياة الصالحة ، وأن الكتاب هو رمز الدين » .

ويعتقد المتفائلون أن امتزاج الأدب بالسياسة وتأثره بالاختراعات الحديثة وعلم النفس التحليلى ، سيفتح له أبواباً كانت من قبل موصدة ، وينقله إلى آفاق رحبة جديدة ، ويبدأ صفحات طريفة فى حياة العقل ومستقبل الأدب . والزمن وحده هو الذى سيفصل فى هـذه القضية القائمة بين المتشائمين المتوجسين والمتفائلين الآملين .

علي أدهم

لا يرضى لنفسه أن يسوء رأى هذا الرجل العظيم فيه .

وكان يؤثرنى ويحبنى ويعطف علىّ عطفاً عزانى عن فقد الأب أحسن العزاء . ولا يرضى فراقى له إلا مكرها . ولولا أنى رجلٌ موظفٌ فى الحكومة يؤذينى فى رزقى انقطاعى من عملى لأمسكنى ، على الدهر ، ولم يرسلنى أبداً ، فإذا طال إبطائى عنه فى القاهرة بعث من يستدرجنى إليه بشتى الوسائل .

وقد بدا لى أنه لا بد كان يلاحظنى وأنا على طعامه ، لأننى رأيت أنه كلما استطبتُ لوناً من ألوان الطعام فأكثرت الإصابة منه ، قُرّب إلىّ فى اليوم الثانى هذا اللون نفسه ، فإذا هو أطيبُ وأجود . وهكذا حتى يلاحظ إعراضى عنه وإقبالى على غيره .

أحببته أكثرَ مما أحبّنى أو مثلَ ما أحبّنى ، فإنى أشكّ فى أن حبّه لى وعطفه علىّ مما يحتمل المزيد ! . . .

* * *

وفى يوم أسود رجعت من عملى بعد الظهر . وما إن بلغت الدار حتى تقدّمت بإعداد غدائى . وكنت جائعاً متعباً . وفيما أنا فى الانتظار إذ دقّ جرسُ التليفون ، وإذا الأذان بأن الحديث من بلدة كذا ، وإذا المتحدث أكبر أولاده . قال فى سرعة : احضر يا فلان حالاً ، فوالدى فى حال شديدة جداً ، بحيث لا يجرؤ أحدٌ على كلامه أو الدنوّ منه . فلعلك أنت ، لموضعك منه ، الذى يستطيع أن يستدرجه لحديث . وأرجو أن تفرج عنه بعض الفرج .

فقلت له : ما الخبر ويحك ؟ فقال : إن فلانة ، يعنى صغرى إخوته جميعاً ، قد غابت وانقطع الخبر عنها من ثلاثة أيام . ولم يُجد البحث والتفتيش وقلب البلاد ظهراً لبطن فى طلبها فتيلاً . فهتفتُ من فورى بأهل الدار أن يمسكوا عن إعداد الطعام ، ويُعدوا حالاً جبة السفر . وأرسلتُ فى طلب سيارة أبلغتنى المحطة فى آخر لحظة ، وتدليت هناك فإذا سيارة الباشا فى انتظارى ، وبلغت الدار . وما كدت أطّلع على الحديقة حتى تعاظمنى منظر هذه الجماهير من الناس ، شغلت كلّ رقعة ، واحتلّت ظلّ كل شجرة .

وجزت إلى فناء الدار فإذا خلق كثير جداً ، وكلهم جالسٌ مطرقٌ لا ينبس أحد منهم بكلمة ، وقد اغبرت الوجوه جميعاً ، والباشا جالسٌ على طرف دكّة لا يشغلها معه أحد . فلما طلعت على المجلس أومأ إلىّ أن أجلس بجانبه ، فجلست ، وما سلّمت عليه ولا هو حيانى ، وأطرقت كما أطرق سائرُ الناس .

ولقد قلت لك إنه ساكتٌ لا يتكلم ، ولكنه كان فى كل فترة يزفر زفرة حرّى ، لقد كانت ولا شك بخاراً من لهيب يتسعّر فى الأحشاء . وجلسنا على هذا يومين ، وفى الصباح الباكر لليوم الثالث أومأ إلىّ بأن أسافر ، فنزلت على إشارته ، ورجعت إلى القاهرة لألىَ عملى فيها ، ولم أرددِ لحظةً واحدةً فى الفكرة التى اعترتنى من اللحظة الأولى ، هذه الفكرة التى يوحى بها أبسطُ واجبات الحبّ والولاء وعرفانِ الجميل لهذا الرجل العظيم : وتلك أن أطلب إجازةً طويلةً أقضيها فى التقلّب فى البلاد باحثاً مفتشاً منقبا عن بنته العزيزة . ولو دعا الأمرُ إلى التنكّر والاضطرابِ فى مختلفِ الأزياء . ولقد اشتد بى الوجد مما دهى صديقى العزيز ؟ وقد علت به السنّ ، وأشرفَ على نهاية العمر ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلىّ العظيم !

* * *

وقبل أن أسترسل إلى غاية هذا الحديث أصف لك وصفاً موجزاً هذه البنتَ المختفية من بضعة أيام :

لقد كانت سنها بين الرابعة والخامسة . حلوةً جميلة جداً . بيضاءَ الجسم ذهبيةَ الشعر ، بالغةً غاية الاناقة فى ثوبها الثالى الثمين . تراها فتخالها دُميةً قرّت من معرض

نماذج (فترينة) لغالي الثياب . خفيفة الروح . حلوة الحديث ، وخاصة إذا أعادت ما يلقى عليها من كلام خيالي زاد به الاطراف والإضحاك . ولى معها فى هذا مواقف كلها ضحك وإغراب ! وكانت لذلك تتعلق بى كلما هبطت إلى دارهم . وكنت أحبها كحب ولدى الأعزين . وكانت قرة عين لأبيها ، وناهيك بأصغر الأولاد ، وخاصة إذا كانت مثل هذه الدرة فى الحلاوة والنقاء ؟

***

هبطت القاهرة ، وقد جمت النية الصادقة الماضية على ما أسلفت عليك ، وسألت الاجازة لشهر ونصف الشهر . ومضى يومان وأنا فى انتظار الاذن لى فيها ، على أنى أوالى السؤال (بالتليفون) كل ساعة ، فإذا مصير البنية ما يزال فى الغيب المحجوب . وإذا والدها المسكين على حاله ، ولم يزل يعانى ذلك العذاب المضنى الأليم .

وانقلبت إلى الدار فى اليوم الثالث قافلاً من عمل ، وتقدمت باعداد غدائى ، فإذا جرس (التليفون) يرن . وإذا ولد صاحبي يدعونى ، فى فرح ظاهر ، أن أحضر لأعزى أباه الشيخ ، فلقــد عثر على أخته فلانة ، والحمد لله . فقلت مسرعاً : وكيف عثر عليها ، وأنى كان ذلك ؟ قال : لقد أمر وزير الأشغال ، حين انتهى إليه احتمال غرقها ، بتجفيف بحر (كذا) . وكذلك ألفينا جثتها فى الموضع الفلانى (وهو يقع على بضعة أميال من الدار) . وقد أكرمها الله تعالى ، فلم ينل من جثمانها السمك كثيراً ولا قليلاً .

وأسرعت باعداد جبة السفر ، وخففت إلى لقــاء صاحبى ، فإذا جموع كثيرة ، تلغو وتتقاول ، فى مرح واغتباط ، وإذا صاحبى يظهر عليه طيب النفس وانبساط أسارير الوجه . ولم يكد يرانى حتى خف للقائى فى بعض طريقى إليــه . وما إن توافقنا حتى عانقنى وجعل يقهقه ، وجعلت أقبله وأنا أشعر أن الدنيا لا تكاد تسعه من سرور ومراح !.

ثم جعل يحدثنى ، كعادته ، أحاديث هذه الدنيا حتى انصرف الناس عن مجلسه ، قافلين إلى ديارهم ، أو ناوين ، فى داره ، إلى فرشهم ؛ وحينئذ جذبنى إلى حجرة جلوسه الخاصة ، ودنا بالنرد ، ورحنا نتلاعب به إلى ما بعد انتصاف الليل ، وهو كلما انتهى دست يقبل على بحديث طريف . على أنه لا يلم بشيء من حديث بنته الغرق ، لا من قريب ولا من بعيد !.

الله أكبر ! الله أكبر ! إذاً لم يكن هذا الوجد كله ، ولا هذا الوله المرعب المهول من أن البنت قد أدركها الغرق أو أنها ماتت على أى شكل من الأشكال ، وإنما الجزع كله من أن تعيش فى ولاية خاطف مجرم من النساء أو الرجال !.

ترى ماذا عسى أن يكون مصير الفتاة ؟ .

هنا تتطاير أشأم الظنون كل مطار . وهنا يغلى صدر هذا الطود غليان القدر ، حتى لتكاد تتصدع الأضلاع ، لولا ما كان يروح عنها من ذلك الزفير ، تتنفس به نار السعير !

لقد أصابها ميتة . وإذاً لقد سلم الشرف . وحسبه ، فالشرف هو كل شيء فى هذه الحياة !.

أكرمك الله ، يا حبيبي ، ميتاً ، كما أكرمك حياً . وأمتعك بملاعبة ابنتك الحلوة فى دار النعيم ،.

***

وهنا جعل صاحبي يبكي وينشج حتى لم يعد يقوى على كلام . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وإنا لله وإنا إليه راجعون !!!

عبد العزيز البشرى

قصة عربية:

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كانت تدمر (بادية الشام) عاصمة عظيمة لتجارة الشرق، ذات ثروة طائلة ومدنية متقدمة. وكان أميرها أذينة فارساً باسلاً، يحب الصيد، صيد السباع، ويستصحب امرأته زنوبيا في هذه المخاطرات. وكانت زنوبيا من نسل بيت الإمارة في تدمر، وتنتمي بالنسب إلى جدتها كليوبترة ملكة مصر، وتشبهها في ذكائها وجمالها وثقافتها — ومرض أذينة من جراح أصابته في قتال مع أسد، فساور زنوبيا خوف شديد، ولم تجد سلوى إلا عند وصيفتها المسيحية (لبنى)، وذلك لأنها حببت إليها الاتجاه إلى الله في خوفها، حتى كأنها مالت إلى دين المسيح. وكانت لبنى تحب شاباً في جيش أذينة اسمه حسان، وهو مسيحي أيضاً، فعرفت زنوبيا في أحاديثها مع وصيفتها سر حبها له، وإن كانت الفتاة تجهل حقيقة حبها، وتظن أنها إنما تساعده في الإيمان بالمسيح. وشفي أذينة فجلس في مجلس خمر مع أصحابه، وفي أثناء ذلك أتى إليه حسان يحمل نبأ خطيراً جاءت به الرسل إلى تدمر، وهو أن سابور ملك فرس هزم أمبراطور الروم (فاليريان) وأخذه أسيراً. وكان أذينة قد غلبته الخمر، فهاج حتى اعتدى على حسان ولطمه وسبّه. ولما صحا من سكره في اليوم التالي عرف ما كان منه، فأسف واعتذر إلى حسان، وآلى ألا يشرب الخمر حتى يرى ما يكون بينه وبين سابور. ولكن زنوبيا أخذت تجادله في موقفه من ملك الفرس، حتى حملته على أن يرسل إليه هدية كريمة يخطب بها مودته. وبقي أذينة قلقاً في انتظار جواب سابور على هديته، وخرج مع أصحابه للصيد ليفرج عن نفسه ذلك القلق. وفي أثناء ذلك الصيد تجرأ معن ابن أخيه فرمى بقرة وحشية قبله، فغضب أذينة لذلك غضباً شديداً وكاد يوقع به، ثم أمر بسجنه].

لم تستطع زنوبيا بكل ما كان لها من ذكاء وجمال وحماسة أن تزيل من قلب زوجها الثائر أثر ما أحسه من ذلة منذ عاد من صيده، فقد استقر في نفسه أن ابن أخيه قد ألحق به مهانة لا يمكنه أن يمسح معرّتها إلا بسطوة قاسية تذكر الجميع بأنه سيد تدمر وبطل العرب وحاكم الشرق كله من جانب الفرات إلى حدود مصر. وقد حاولت أن تعيد إليه ثقته بنفسه، وأن تذكره بأن إجلال العرب له وخضوع أهل تدمر لحكمه وسلطانه العظيم على الأرض الفسيحة التي كان يحكمها، لا يمكن أن يؤثر فيها حادث تافه كالذي كان بينه وبين فتى من أهله، وأنه قد يسرع إلى أذى الفتى، فإذا هدأت سورته أعقبت له ندماً وألماً، بل إنها مزجت حديثها بكثير من الفكاهة وخلطت الجد بخفة كي تدله على أن مثل ذلك الحادث لن يسمع به أحد، وأنه إن مضى في اغتياظه وبالغ في قسوة عقوبته كان ذلك أدعى إلى ذيوع القصة وسير الركبان بحديثها. ولكن كل ذلك لم يجد مع الأمير شيئاً، وقضى الليلة التالية مضطرب الذهن متقد الغضب.

ولقد هم أن يغرق همه في الشراب، وأمر بتجهيز الخمر، ورغب في أن يرسل يدعو بعض أصحابه لعله يجد في سورة الكأس وحديث الندمان ما ينسيه الحنق، ولكنه عدل عن ذلك عندما ذكرته زوجه أنه قد آلى على نفسه ألا يشرب خمراً حتى يرى ما يكون من أمره مع سابور. فإن زنوبيا خشيت أن يعرف عنه الناس أنه يحنث بقسمه، وما ينبغي لأمير مثله أن تذيع عنه تلك النقيصة. ورأت

أن تتحمل ثورته ، وأن تحاول ما استطاعت أن تهدهد منها ، فإن ذلك خير من أن ينيم غضبته فى نسيان الخمر ثم يجئ من ورائها قالة سوء لا يدرى أحد ما يكون أثرها فى عواطف العرب التى تتحول وتتقلب كما تتحول رمال الصحراء مع العواصف .

ولم تجد بداً بعد كل ما احتالت فيه من إقناع ونصح من أن تدعه لما رآه ، وأن تقره على العقوبة التى اعتزم أن يوقعها بالفتى المسكين الذى أوقفه القضاء عفواً فى سبيله . ولكنها مع ذلك لم ترجع بخيبة تامة ، إذ استطاعت أن تحول بين أذينة وبين أن يسطو بالفتى سطوة لا تداوى ، وحملته على أن يقنع من العقوبة بأن يبقيه فى السجن مدة حتى يرى فيه بعد حين رأياً .

وكان ممن أحب أهل أذينة إلى زنوبيا ، فقد كانت ترى فيه فارساً كاملا ، صادق القول ، أبى النفس ، عفيف اللسان ، وكانت تتمنى فى نفسها أن يكون بعلا لإحدى بناتها إذا ما بلغت إحداهن مبلغ النساء ، حتى تكفل ساعداً قويا لابنها وهب اللات إذا ما آل إليه الأمر من بعد أبيه ومن بعدها .

ولذلك كانت وهى تسعى فى تسكين غضب أذينة عليه تزن كلامها وتفكر فى حججها قبل أن تختار منها ما ترى فيه القوة ، وتتأمل مجرى ثورة زوجها لتنظر من أى جهة تتقدم نحوها ، لكى تعدل بها إلى ما يكفل سلامة الفتى من بطشه ، فلما تحقق لها شئ من الظفر بأن اكتفى أذينة بسجنه ، أحست شيئاً من الارتياح ، ووكلت إلى القادر أن تواتيها حتى تعيده إلى مكانته فيما بعد ، وترد إليه رضاء عمه عنه .

ولما انقضى أكثر الليل ذهب أذينة إلى مخدعه لينام ، وذهبت زنوبيا إلى مخدعها ، وصرفت وصيفاتها وخدمها وبقيت وحدها تحاول النوم ، ولكنها لم تجد إلى النوم سبيلا ، وتزاحمت عليها الهموم وأحست فى نفسها ضعفاً ، أذهب عنها ما اعتادته من قوة الأمل فى المستقبل والثقة بالنفس ، وأرادت أن تتسلى بالقراءة فجلست تقرأ فى إلياذة (هومير) ولكنها لم تقرأ إلا سطوراً قليلة ، ثم رمت بالكتاب متبرمة ، وتناولت كتابا فى فلسفة إفلاطون كان معلمها لونجين يقرؤه لها فتشعر بالاطمئنان والسمو ، ولكنها ما كادت تنظر فيه حتى قذفت به على أريكتها قائلة : ما عرف هؤلاء الفلاسفة الحياة .

ثم زاد بها الضعف حتى رأت نفسها تنتفض وتهتز ، وارتمت على أريكتها تنشج وتبكى بكاءً شديداً .

وقضت فى تلك الحال حينا ، ثم تمالكت نفسها وكان البكاء قد نفس كربها ، فقامت وغسلت وجهها بماء معطر ، وجعلت تتذكر ما مر بها فى ذلك اليوم ، وأخذت تجادل نفسها وتراجعها حتى عاد إليها اطمئنانها ، وتنفست نفسا عميقا ، وأحست بتعب رفيق يسرى جسمها فذهبت إلى فراشها وأسعفها النوم بعد قليل .

وصحت فى غداة اليوم التالى ، فذهبت إلى مخدع زوجها فوجدته قد ذهب إلى إيوانه . فاستعدت للذهاب إليه ثم قصدت مجلسه فوجدته مع معلمها لونجين وحدهما ، وقد أمر الحاجب ألا يدخل عليهما أحدا وهما يتحدثان ، وقد بدا عليهما الجد والحيرة . فأسرعت داخلة إليهما ، وقام زوجها لاستقبالها ، ووقف لونجين فى مكانه وانحنى يحييها ، وقد اكتسى وجهه فجأة بحمرة شديدة . فحيت زوجها وجلست إلى جانبه وتبسمت لمعلمها ، ثم نظرت إلى أذينة كأنها تسأله عن خلوته وحديثه ، فنظر إليها وهو يحاول كتمان ما فى نفسه وقال :

— لقد حمل إلىّ السيد البجل أنباء جليلة .

فالتفتت إلى معلمها لفتة سريعة وقالت :

— خيراً ما أتى به صديق الجليل .

فأخذ لونجين يتكلم وهو مطرق ، وكان حديثه مرتبكا متقطعاً فقال :

— كنت أحدث مولاى الأمير عما بلغنى الساعة من رسول (مقريان) . لقد عرفنا (مقريان) قائد الإمبراطور (فالريان) ونائبه على الجيش فى الشام .

ووقف عن الحديث لحظة نظر فيها إلى أذينة ثم إلى زنوبيا ووقعت عينه على عينيها البراقتين فوجدها متلهفة كأنها تسأله الاسراع ، فأغضى ، وعادت إلى وجهه الحمرة وارتبك قليلا ثم استأنف وهو يمسك نفسه :

— أعلن (مقريان) أنه لا يرضى بالإذعان لحكم ابن الامبراطور الحدث الذى اختاره شيوخ روما ، وقد بايع جيش الشام لمقريان وساعده صديقه (فاليستوس) فأعلنا عزل الامبراطور (جالينوس) ابن سيدهما .

وصمت لحظة ثم هز رأسه وقال كأنه يناجى نفسه :

— هذا المُلك يفتن الناس عن واجبهم ويضلهم عن أعمالهم . إنهما أقسما لولى نعمتهما (فالريان) أن يرعيا ولده جالينوس إذا حدث به حادث الموت فى حرب (سابور) . وها هو ذا سيدهما لا يزال حياً وإن كان أسيراً مع الطاغية المنتصر ، وهاهما هذان يخلعان الطاعة ويشقان العصا ويثيران فتنة عمياء .

وساد المجلس سكون عميق ، وكانت (زنوبيا) شاخصة ببصرها إلى الفضاء من وراء النافذة ، كأنها تستشف حجب الغيب لترى ماذا تأتى به الأيام فى ذلك المعترك المضطرب . ولما طال الصمت رفع (لونجين) رأسه ونظر إلى زنوبيا كأنه يفهمها إلى الحديث فالتفتت إليه وقالت فى بطء وتردد :

— إذاً فالجيش الرومانى معهما ؟

فتنبه أذينة لقولها ، والتفت إليها قائلا :

— الجيش معهما ، ولسنا ندرى ما يكون من أمر سابور ، فقد أبطأ علينا خبره ، ولم تعد إلينا الرسل من عنده .

فتحرك (لونجين) فى قلق ، وظهر عليه شىء من الغيظ ، ولكنه كظمه وقال متأنياً فى كلامه :

— حقاً أن الموقف محفوف بالمخاطر ، فجيش الشام قوى ، ولا أظننا نقوى على معاداته — ولسنا ندرى بعدُ ما استقر عليه عزم سابور ، ولكن . . .

وتوقف لحظة ، فنظر إليه الأميران فى دهشة لا يدريان ما يريد أن يقول ، فاستأنف قائلا :

— ولكن لا ينبغى لك أيها الأمير العظيم وأنت صديق (فالريان) أن تشارك من يخونونه فى ابنه . ولا ينبغى لك وأنت قنصل تدمر من قبل الامبراطور أن تسلم أمانتك لغير حاكم روما الشرعى . فما يليق بك أن تنادى باسم غير اسم جالينوس .

فدخل شىء من الغضب فى قلب أذينة ، إذ رأى قول المعلم الرومى يشبه أن يكون عظة وأمراً ، ولا يُشبه ما يكون من قول أهل السياسة ، وقال مسرعاً :

— دع ذلك الذى تذكر من ولايتى قنصلا للروم ، ومن واجبى نحوهم . فأنا سليل الحيران بن أذينة الذى كان يحمل لقب رأس تدمر فى أيام ملوك العماليق أجداد الأميرة زنوبيا ، وذلك قبل أن تعرف تدمر الروم .

وأرادت (زنوبيا) أن تخفف من وقع كلام بعلها على زوجها المتكبر ، فقالت بصوتها الرخيم :

— لا شك فيما تقوله أيها الأمير الجليل ، ليس للروم

عليك حق ، وإنما يكون النظر فى مصلحتك وخير السبل لك .

فارتاح أذينة لقولها ، وسرى عنه ما أحسه من قول لونجين وقال :

— هذا حسن ، فأى سبيل تسلك وهذه جيوش (مقريان) تحدق بنا من قبل الشام ، وهذه جيوش سابور تنحدر إلينا من الشمال ؟ .

وكان فى قوله متجهاً إلى لونجين كأنه يتحداه ، فسكت الرجل لحظة ، ولكنه لم يتخذل ، بل تغير مظهر وجهه ، فاكتسى عزماً قوياً كأنه مقبل على مصارعة ، ثم قال فى هدوء ينم عن ثورة :

— السبيل واضحة يا مولاى . إن (مقريان) لم يثر على جالينوس لكى يمهد لك ملكك ، أو لكى يتركك هنا آمناً . وليس مقريان بآمن من مكانه حتى تسارع إلى تلبيته ، فإن دونه عدوين عظيمين يكتنفانه من جانبيه ؟ فلن يدعه جالينوس يتمتع بملك الشام فى أمان وسلام ؟ وإن رضى سابور أن يصبح على يساره قائد على رأس جيش رومانى كثيف

وسكت لحظة ليرى أثر قوله فى الأميرين ، ونظر إلى زنوبيا فوجدها تنظر إليه باهتمام كأنها تدرك معنى قوله وتوافقه عليه ، فشجعه ذلك على المضى فى الحديث فقال وهو أكثر حماسة :

— فإذا أنت وافقت (مقريان) على خيانته ....

ثم تردد قليلا . وتدارك كلمته فقال :

— إذا وافقته على ثورته لم تأمن على نفسك بعد حين ، وصرت عدواً لدولة الروم الواسعة التى لا تزال تعترف لامبراطورها جالينوس .

ولما انتهى من قوله ساد الصمت حيناً طويلا حتى سمع صوت أقدام تقترب من باب الايوان . ثم فتح الباب وأعلن الحاجب قدوم القائد (ورد) فى أمر خطير حمله إليه البريد . فقام أذينة متلهفاً وقال للحاجب :

— أدخله سريعاً .

فدخل (ورد) وعلى وجهه آيات الغضب والثورة . فتقدم أذينة نحوه وقامت زنوبيا ولونجين يستمعان إليه فى لهفة . ولم يصبر أذينة حتى يتكلم الرجل بل بادره قائلا فى شبه صيحة :

— ورد ! ما وراءك ؟

فوقف الرجل فى ملابسه الفضفاضة وعلى رأسه البيضة النحاسية ، وعلى صدره الدرع وهو فى سلاحه الكامل ، ورفع رأسه مقطبا جبينه ، وقال :

— هى الحرب لا مناص منها .

فصاح أذينة وقد نفد صبره :

— قل يا ورد ما جاء به البريد .

فقال ورد ناظراً إليه وهو ثابت جامد :

— لقد رمى سابور الشقى مدينتك فى الفرات وأطلق لسانه بالفحش .

فانتفض أذينة انتفاضة كأنه أحس طعنة فى صدره ، ووضع يده على مقبض سيفه وقال فى حنق :

— لتكونن وبالا على دياره . قل ولا تحجب عنى شيئاً . أى رسالة بعث بها إلى سابور ؟

فأطرق الرجل كأنه لا يقوى أن ينظر إلى الأمير وهو ينقل رسالة سابور وقال :

— بعد أن أمر بإلقاء كل ما فى القافلة فى الفرات . قال للرسول :

— من أذينة هذا حتى يطاول الملوك ويهاديهم . أليس هو من بعض لصوص الصحراء وصعاليك العرب ؟

لئن أراد أن يخفف من عقابه فليأت إلينا حافياً وليسجد أمام عرشنا في القيود طالباً منا العفو . وإلا فالويل له ولقومه والويل لتدمر !

وكان أذينة وهو يسمع هذه الرسالة يزفر ويصر بأسنانه وينتفض ويتحرك من مكانه حتى انتهى ورد من قوله ، فصاح كأنه ينادي في ميدان قتال :

– الويل له ولقومه والويل لفارس !

وكانت زنوبيا تسمع هذا القول مضطربة ، ولكنها كانت تحاول أن تتمالك نفسها . وأما (لونجين) فكان يلوح عليه شيء من الهدوء كأنما قد سره أن يسمع تلك الرسالة .

والتفت أذينة إلى زنوبيا فقال هائجاً :

– أسمعت ؟ أما كان أولى بنا أن نبدأ بالعداوة ؟

ثم التفت إلى لونجين قائلا :

– وماذا تقول يا أيها السيد المبجل ؟ أما كان أولى بنا لو بدأناه بالحرب ولم نبذل ثمن هذه المهانة ؟

ولكن لونجين لم يتزعزع بل نظر إليه قائلا :

– لا يا مولاي . أنت الآن أعز وأقوى . الآن لن يخذلك العرب لأنهم يرونك ملاذهم . وقد استطعت أن تستعد في هذه المدة ، فأنت اليوم أقرب إلى النصر .

فلان أذينة وخشع قليلا ثم نظر إلى ورد فقال :

– الليلة نجتمع هنا لندبر أمر الحرب . اجمع القوم هنا الليلة ، فلا يتخلفن أحد من رءوس تدمر . ادعهم جميعاً ولا تنس أحداً منهم : صاحب السقاية أمير العينين ، وصاحب الرفادة ، وصاحب الحجابة ، وسادن بعل ، وأمير العير ، وصاحب السوق . ادعهم جميعاً . فوحق اللات ومجد بعل وشمس بعل وشيعة القوم . وحق كل آلهة تدمر لأضرمنها حرباً هوجاء على سابور .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

صور مجونية (كاريكاتورية) — بقلم لورد ادوارد سيسل[1]

مكاتبات رسمية ...... سنة ١٩١٦

تمهيد:

إن روح الفكاهة الحقة منحة من أندر المنح التي تجود بها الطبيعة على بعض الناس . وذلك على الرغم مما يحاوله الكثيرون من اصطناع هذا الروح وهم عنه جد بعيدين . وقد اشتهر البريطانيون بأنهم أهل جد حتى لا يكاد يصدق الانسان أنهم يتذوقون الفكاهة كما يفعل غيرهم من الناس . ومع ذلك فقد أوتى بعض كتابهم حظاً عظيماً من القدرة على الدعابة . ويجد القارئ مثالا بارزاً من ذلك في كتابات لورد ادوارد سيسيل الذى قضى عدة سنين في خدمة الحكومة المصرية وهو يعمل مستشاراً مالياً لها .

وكان هذا السيد قد اعتاد أن يبعث إلى أسرته في انجلترا رسائل من مصر يضمنها بعض مشاهداته وملاحظاته . وهى رسائل تفيض بالدعابة المرحة الحلوة التى تنطوى على كثير من الحق المر . ولقد جمعت هذه الرسائل أخيراً في كتاب رأى ناشره أن يدل على قدره فصدره بقوله :

« إن هذا الكتاب من حقه أن يشترى — ومن حقه أن يقتنى — ولكن لا يجوز في حقه أبداً أن يعار . فانك إن أعرته لن تستطيع استرداده . وإن استعرته لن تستطيع رده ! »

والصور المصرية الواردة في هذا الكتاب مطبوعة كلها بالطابع (الكاريكاتورى) . ففيها شيء من المبالغة ، وفيها شيء من التفخيم والتجسيم . ولكنك تجد الحقيقة دائماً رابضة تحت كل هذه التلافيف التى تغلف الكاتب في سبكها وفي عرضها .

وليس ينبغى أن ينسى الانسان أن هذه الرسائل كتبت في زمان غير زماننا الراهن ، وظروف غير ظروفنا الحالية . فاذا ما عرضنا في المستقبل لصورة من الصور التى نعتزم نقلها من هذا الكتاب ، فليس يجوز أن يتحرج القارئ لما قد يجده فيها من الاشارات اللاذعة ، وإن هذه الصور لحافلة بهذه الاشارات ، فلنضحك لها ، ولننتفع بها ! ثم لنشكر صاحبها الذى قدمها لنا في هذه الصورة الطيفة ، لكى لا يصدمنا بكل ما فيها من حق مرير .

ولكى نهيئ القارئ لما قد ننشره من فصول هذا الكتاب خاصاً بمصر والمصريين ، رأينا أن نبدأ بهذه الصورة — الدولية — التى ننشرها اليوم . وهى تمثل مقدار ما تحمله المكاتبات الرسمية . . . عادة من صنوف اللبس وألوان الغموض . وما تنتهى إليه في الغالب من الفشل وخيبة الأمل . وسيرى القارئ بعد مطالعتها أنها ، وإن كانت لم تعد لتصور حالة المكاتبات (المصرية) ، إلا أنها لا تزال صادقة بالقياس إلى مصر ، وإلى غير مصر !

* * *

(١) تخرج في إيتون . ثم دخل الجيش الانجليزى . وعمل ياوراً للورد كتشنر . وحضر معه في معركتى عطبرة وأم درمان . واشترك أيضاً في حرب البوير . ثم عين في سنة ١٩٠٥ وكيلا لوزارة المالية المصرية . وأخيراً عين مستشاراً مالياً للحكومة المصرية في سنة ١٩١٢ . واعتزل العمل في سنة ١٩١٨ . ومات في نفس السنة بسويسرا .

وقد افترض الكاتب أن هذه المراسلات تبودلت بين وزارة الخارجية البريطانية ، وبين الجهة المختصة في مدينة القاهرة .

وصورها كما يأتي :

أول يناير — من وزارة الخارجية إلى القاهرة .

١٠١ — رئيس وزارة اليونان يرغب في توريد حبوب . هل يمكنكم ذلك ؟

٤ يناير — من القاهرة إلى و . خ .

٤١٦ برقيتكم رقم ١٠١ غير مفهومة . أين يريد التوريد ؟ هل يريد التوريد لمصر ؟

٨ يناير — من و . خ . إلى القاهرة .

١٠٣ — رئيس وزارة اليونان يرغب توريد الحبوب إلى اليونان . هل يمكنكم ذلك ؟

١١ يناير — من القاهرة إلى و . خ .

٤٢٠ — برقيتكم رقم ١٠٣ — لقد فعلنا ذلك عدة مرات !

١٢ يناير — من و . خ . إلى القاهرة .

١٠٨ — نأسف لأن الصورة (دشتت) . ما هو جوهر برقيتنا رقم ١٠٣ ؟ فيدونا إذا أمكن !

١٤ يناير — من القاهرة إلى و . خ .

نأسف لأن برقيتكم رقم ١٠٣ دشتت هنا . المعتقد أنها خاصة برئيس وزارة اليونان .

١٦ يناير — من و . خ . إلى القاهرة

١٠٨ — رئيس وزارة اليونان يرغب في توريد حبوب إلى اليونان . هل يمكنكم ذلك ؟

١٩ يناير — من القاهرة إلى و . خ .

٤٢٨ — برقيتكم رقم ١٠٨ . سبق أن وردنا حبوباً إلى اليونان عدة مرات . وكان السائد أن الرسالات تحول إلى الجيش الألماني .

٢٢ يناير — من و . خ . إلى القاهرة .

١١٢ — برقيتكم رقم ٤٢٨ . إذا وردتم الحبوب إلى رئيس وزارة اليونان ، فأية احتياطات تقترحون اتخاذها لمنع تسربها إلى الجيش الألماني ؟ وهل يكفي في ذلك ضمانة رئيس الوزارة شخصياً ؟

٢٤ يناير — من القاهرة إلى و . خ .

٤٣٠ — برقيتكم رقم ١١٢ . ضمانة من من رؤساء الوزارات تقترحون ؟ نحن نفضل ضمانة مسيو ريان إن كان لا يزال في منصبه !

٢٧ يناير — من و . خ . إلى القاهرة .

١١٤ — برقيتكم رقم ٤٣٠ . كنا نشير إلى رئيس وزارة اليونان . فالأمل إفادتنا برأيكم في أسرع وقت ، لأن الموضوع مستعجل وينبغي تجنب كل تأخير !

٨ فبراير — من القاهرة إلى و . خ

٤٣٥ — برقيتكم رقم ١١٤ . لتجنب التأخير نقترح ضمانة شخصية كتابية من رئيس وزارة اليونان تحمل توقيع قنصل بريطانيا في بيريه . وتكون مصحوبة بموافقة الحكومة البريطانية . وتصديق الدبر السام لمصلحة الجمارك بالإسكندرية .

١٠ فبراير — من و . خ إلى القاهرة .

١١٨ — برقيتكم رقم ٤٣٥ . نوافق على قبول ضمان وتضامن ملك اليونان . والأرشمندريت . ورئيس وزارة اليونان مصحوباً بتوقيع كبير التجار البريطانيين في بيريه مستر كارل سونتشاين ! ما مقدار ما تستطيعون تصديره ؟

١٣ فبراير — من القاهرة إلى و . خ .

٤٤٠ — برقيتكم رقم ١١٨ . سيصلكم ردنا بأسرع ما يمكن . ولكن لا بد من انتظاره بعض الوقت . لأننا لا نعرف بالضبط أي مصالح الحكومة المصرية مختصة بهذه الشئون . وقد اتصلنا لغاية الآن — ولكن بغير جدوى —

مع مصلحة المجاري العمومية ووزارة المعارف العمومية . ووزارة الحربيـة . والزراعة . والأشغال العمومية . والأوقاف . وسنبرق لكم قريباً .

٢٣ مارس — من القاهرة إلى و . خ .

١٥٠ — نأسف لتأخير رداً على برقيتكم رقم ١١٨ . فالموضوع معقد جداً . لأن السلطات البحرية تعارض في تصدير الحبوب . إذ تبين أن كثيراً منها يشتمل على زيوت مما يستعمل في الغواصات . فهل تستطيعون التفاهم مع الأميرالية بهذا الشأن ؟

٢٦ مارس — من و . خ إلى القاهرة .

٤٩٥ — برقيتكم رقم ١٥٠ . تم الاتفاق مع الأميرالية . وستقوم بحراسة الحبوب في طريقها لسافلتان .

٢٨ مارس — من و . خ . إلى القاهرة .

٤٩٩ — برقيتنا رقم ٤٩٥ . تبين أن موضوع الحبوب أقل شأناً مما قدرناه في بادىء الأمر . فقد كتب رئيس وزارة اليونان أخيراً يقول إن الحبوب إنما طلبت لبيغائه المحبوبة التي طعنت في السن وأصبحت معدتها ضعيفة جداً ، وأن المقدار المطلوب من هذه الحبوب يكفي فيه رطلان . فنرجو منكم إعداد هذا القدر وإرساله والأميرالية قررت عدم ضرورة الحراسة نظراً لهذه الظروف .

٣١ مارس — من القاهرة إلى و . خ .

١٦١ — برقيتكم رقم ٤٩٩ . سنحصل على الحبوب المطلوبة فوراً . هل يمكن إخطارنا بحجم البيغاء على وجه التقريب فقد علمنا من تجاربنا أن هناك علاقة وثيقة بين حجم الطائر وحجم الحبوب التي تليق لتغذيته .

٧ أبريل — من و . خ . إلى القاهرة .

٥٠٦ — برقيتكم رقم ١٦١ . أوقفوا تصـدير الحبوب ! .

٨ أبريل — من القاهرة إلى و . خ .

١٦٥ — برقيتكم رقم ٥٠٦ . أوقفنا التصدير !

— ١٢ أبريل — من و . خ — إلى القاهرة .

٥١٠ — برقيتكم رقم ١٦٥ . نظراً لوصول إخطار لنا من انتقال ببغاء رئيس وزارة اليونان إلى رحمة الله في الأسبوع الماضي بسبب سوء الهضم . فلا ضرورة إلى اتخاذ خطوات جديدة في موضوع الحبوب .

(طبق الأصل) ع . ج

حاشية — إذا أراد القارىء أن يستوعب كل ما في المقال من فكاهة فليعد تلاوته على ضوء هذه النتيجة التي انتهى إليها .

مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى :

مشكلة الطلاق فى مصر

فى عام ١٩٣٩ عقد فى القطر المصرى ١٨٣٨٢٣ زواجاً ، يقابلها ٥٧٩٩٩ طلاقاً . أى أن نسبة الطلاق فى تلك السنة كانت ٣٣٪ على وجه التقريب ، وهى فى الواقع نسبة مرتفعة جداً ومخجلة إذا قيست بنظائرها فى الدول المتمدنة الأخرى ، فقد كانت فى فرنسا ، بلد الاباحية المطلقة ٨٫٦٪ . وكانت فى بريطانيا ١٫٣٪ . وفى كندا ١٫٠٩٪ .

ويبدو جلياً من ذلك أن مصر — ولا فخر — أولى الدول فى الطلاق . وإنى لأعلم أن الكثيرين سيرجعون هذه الحال المحزنة إلى نظام الدين الاسلامى الذى وضع فى يد الرجل وحده ، تقريباً ، مفتاح الطلاق يستعمله وقتما شاء ، وحسبما يشتهى . وهذا الزعم إذا كان صحيحاً إلى حد كبير فإن ذلك من الناحية الشكلية فحسب ، لأن هؤلاء الزاعمين يجهلون ، أو يتجاهلون روح الشريعة الاسلامية السمحة ، وأهدافها الاجتماعية السامية . ذلك لأن كل قانون فى الوجود — سماوى أو وضعى — يحيا بروحه ، ويحاسب بغاية الشرع منه ، وإن كانت دماؤه تجرى فى شرايين نصوصه وحروفه . وكل تقييد لا حق فى تفسيره ، وكل خطأ مقصود أو غير مقصود فى تطبيقه لاشك يقتلان هذه الروح ، ويبعدانه عن تلك الغاية .

والطلاق بوجه عام ليس شراً محضاً ، ولا خيراً محضاً ، بل هو نظام اجتماعى وعمرانى سليم ، لا غبار عليه وتحتمه الطبائع البشرية المفطورة على الاختلاف والتمايز . فهو إذاً ضرورة لا أكثر ولا أقل . وقد يكون أحياناً إجراء عنيفاً ، ولكنه لازم كبضع الطبيب . فنحن إذا ألزمنا بدوام المعاشرة — مثلا — زوجين استحكمت بينهما حلقات النزاع ، واستعصى عليهما الوفاق والهناء الزوجى ، نكون — ولا شك — قد ارتكبنا فى حقهما ، وفى حق الأجيال القادمة من ذريتهما ، بل فى حق المجتمع كله ، جريمة أكبر من جريمة السماح لهما بالفراق !

إلا أنه لما كان الطلاق ضرورة قاسية ، وإجراء عنيفاً فى صميم كيان الأسرة التى يبنى عليها وعلى أمثالها المجتمع ، فإن الله حين اشترع نظام الطلاق جعله فى أضيق نطاق . والكتب الدينية حافلة بتفسير نصوص القرآن فى حدود هذه الغاية . وعلى ذلك تكون فوضى الطلاق الفاشية بين المسلمين اليوم ليست مطعناً فى الدين الاسلامى — كما يريد أن يشيع المبشرون ودعاة الاباحية . وإنما هى دليل قوى غليظ على أن المسلمين قد أساءوا استغلال دينهم السمح ، أو أخطأوا مراميه . فهذه الهمجية الاجتماعية لا يعقل أن يسوغها دين أو منطق أو عقل ! وهى كلها تكاد تكون مترادفات لمعنى واحد .

وقد روى عن رسول الله أنه قال : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وقال المرحوم شوقى بك فى هذا الصدد كلمة بليغة مأثورة : « الطلاق حلال عليه بشاعة الحرام » . وفى أخبار الصحابة أنه جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يبلغه أنه يريد تطليق زوجته لأنه لا يحبها ، فأبى عليه عمر ذلك وصاح فى وجهه : « أو لم تبن البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية وأين التذمم ؟ » نظراً لما يعقب الطلاق من نكد العيش ، وسوء المصير ، واضطراب الحياة ، والتشرد فى الطرقات ، وتكبير الصغار . فالطلاق

يهدم فى لحظات قصار .. قدر ما يستغرقه تحريك الشفتين ... صرحاً سامقاً عامراً أنفق فى بنائه وتعميره الكثير من الجهد والمال والتفكير ، والعواطف الندية الرقيقة المبذولة عن طيب خاطر ، ولذة فاخرة .

ومن المألوف أن الزوج الذى منى بالفشل فى زواجه الأول قلما يثق فى المرأة بعد ذلك ، لأن الصدمة المدمرة التى تكون قد انتابته تبتلع جزءاً كبيراً من عواطفه ، وتميت قسطاً ضخماً من إحساساته الموجهة نحو المرأة ، فتمزق نسيج الحب الرقيق اللاصق بقلبه ، وتقوض الاطار الشعرى الذى رسمه خياله بريشته السحرية غير المنظورة للعائلة ، والسعادة الزوجية ، والبيت النموذجى !

فإذا قلبنا النظر فى الطبقات التى يفشو فيها الطلاق ، استبانت لنا الخطورة التى تنطوى عليها تلك الحقيقة الاجتماعية الموجعة ، لأنها هى الطبقات التى تستطيع أن تخفف من أعبائها الزوجية بسهولة غير عابئة بجرائم الفوضى التى تبثها فى جوانب المجتمع والبيانات التالية تفسر هذا .

أولا — المدن والأسر المتحضرة :

تذكر الاحصاآت أنه فى مدينة القاهرة وحدها بلغت نسبة الطلاق فى العام الماضى ٤٣ ٪ . ولو تركنا العاصمة وجدنا أنها كانت فى الأسكندرية ٣٥ ٪ ، وفى دمياط ٢٤ ٪ ، وفى المنيا ٢١ ٪ ..... الخ .

والشاهد أيضاً أن الأسر المتحضرة أو الأكثر تحضراً صارت تسبق غيرها من الطبقات فى مسائل الطلاق .

والسر فى كل ذلك أنه فى المدن الراقية ، وفى الأسر المتحضرة ، تزداد أخطار الفوضى الاجتماعية الناشئة من كثرة المساكن الضيقة المتقاربة ، والافراط فى ألوان الاباحية وفنون الترف الجنسى ، والملاهى المفسدة للأخلاق ، والمجتمعات المختلطة الصاخبة ، والمحاكاة العمياء ، ووسائل الرفاهة التى تركب فى نفوس الأفراد خلقاً رخواً ، ومرونة مائعة .

ثانياً — الأسر القليلة الأولاد :

ودلت الاحصاآت أيضاً على أن نسبة الطلاق ترتفع بين الأسر التى لم تنجب أطفالاً قط ، ثم تهبط كلما كان هناك أطفال ، وتتدرج بحسب عددهم . وليس ثمة صعوبة فى إرجاع ذلك إلى أن الأطفال رباط روحى ومادى غليظ للآباء ، كما يتبين من الجدول الآتى :

	لا أولاد	ولد واحد	ولدان	ثلاثة	أكثر من ٣
١٩٣٨	٤٠٨٥٠	٩٤٠٣	٣٧١٥	١٢٠٥	١٠٥٤
١٩٣٩	٤٢٧٣٨	٩٩٩٧	٣٩٣٩	١٣٠٣	٢٣٢٢

ولا امتراء فى أن الطفل الذى يعيش فى كنف أمه المطلقة ، أو مع أبيه الأعزب ، أو تحت رحمة زوج أمه أو زوجة أبيه ، لهو أشقى حظاً من اليتيم الهائم على وجهه فى الطرقات تلتقطه القلوب الرحيمة ، أو تحسن إليه الأكف الندية السخية . فلنتصوره بين أبوين متباعدين يتجاذبانه أو يتنصلان منه ، فيحار : أيهما يحب فيقبل عليه ، أو أيهما يبغض فيزور عنه !

ثالثاً — طبقة الرجال

وثبت كذلك أن عدد الرجال الذين يحطمون أعشاشهم الزوجية بأيديهم ضعف عدد النساء اللائى يفعلن ذلك ، لأن الطلاق أسهل على الرجل منه على المرأة فى أغلب الأحوال ، وفى معظم الشرائع .

ثم إن المرأة الشرقية اعتبارات خاصة تدعوها دائماً إلى التريث فى هجر زوجها إلى الأبد . وهذه الاعتبارات

منشؤها التقاليد التي تجعل حصول المرأة المطلقة على زوج جديد أمراً صعباً .

رابعاً — بحسب سن المطلقين :

لوحظ أن أغلب المطلقات بين سن العشرين والثلاثين . أما الرجال فيتراوح أغلبهم بين الخامسة والعشرين والأربعين ، لأن الرجل بعد هذه السن يفكر عادة في الاستقرار . ولذلك يبدأ « بارومتر » الطلاق في الهدوء . ولكن الغريب أن درجة هدوئه ليست واحدة بالنسبة إلى الجنسين ؛ فهي عند الرجال أبطأ منها بكثير عند النساء . فبينما نجد عدد الرجال الذين أوقعوا الطلاق وهم بين سن الأربعين والخامسة والأربعين مثلاً ٦٠٥٧ نجد عدد طالبات الطلاق في هذه السن ٣٠٥٦ امرأة فقط !

وأعجب من ذلك أن يبلغ الفرق أقصاه بعد الستين . فعدد المطلقين بين ٦٠ و ٧٠ كان ١٦١٦ رجلاً بينما كان عدد المطلقات ٣٩١ . أما من ٧٠ فأكثر فقد كان عدد الرجال والنساء على الترتيب : ٧٣٤ و ٨٦ .

ولعل هذا يفسر لنا بعض التفسير كثرة عدد الشيوخ المتصابين الذين أحرقوا ذكرى زوجيات طويلة تحت أقدام عرائس صغيرات السن ، ناعمات الصبا !

خامساً — بحسب مدة الزوجية :

من بين ما سجلته الاحصاءات في هذا الصدد البيانات الآتية :

مدة الحياة الزوجية	١٩٣٧	١٩٣٨	١٩٣٩
أقل من شهر	٢١٦٩	١٩٣٣	٢٠٣٠
من سنة إلى سنتين	١٠٤٥٠	١٠٤٣٥	١٠٩٥٩
من ٥ — ١٠ سنوات	٧٨٩١	٧٦٤٩	٨٠٣٣
من ٢٠ سنة فأكثر	١٥٠٠	١٦١٠	١٦٩١

من هذه البيانات الطريفة يمكننا أن نستنتج بسهولة الحقائق الاجتماعية الآتية :

(أولاً) إن أقل حوادث الطلاق تقع في الحياة الزوجية التي لم تعمر شهراً . ويمكن إرجاع ذلك إلى كثرة المغالطات المؤسفة التي تلابس نظام الزواج في مصر ؛ فمن الغش ، والخداع ، والشره ، وإكراه الآباء ، والجهل بشريك الحياة ، تتغذى سوق الطلاق ، وتمتلئ سجلات الطلاق الشرعية بانفصام هذه الزيجات الواهية القصيرة العمر !

(ثانياً) إن أكثر حوادث الطلاق واقعة في الحياة الزوجية التي مرت بسلام في العام الأول ، ولكنها انهارت في العام الثاني قبل اكتماله . وهي الفترة التي يكون فيها الزوجان على عتبة الأبوة ، فيسهل الفراق قبلها على حين يصعب أو تقسو نتائجه بعدها .

(ثالثاً) لوحظ كثرة حوادث الطلاق في الحياة الزوجية التي تتراوح مدتها بين خمس سنوات وعشر سنوات بدرجة مزعجة نسبياً . وهو الأمر الذي لا يستطاع رده إلا إلى دوافع الانحلال الخلقي ، والطفرة الاجتماعية المجنونة التي طفرناها بعد الحرب الماضية .

* * *

هذه هي فصول صغيرة من التقويم الاجتماعي الخاص بالطلاق ، أوردناها في إيجاز ، حتى يتبين من خلالها كل مصلح اجتماعي ، وكل مشتغل بالمسائل الاجتماعية إلى أي مدى طويل مزعج سارت أقدام هذه المشكلة الاجتماعية التي تنفرد بها مصر ، والتي أخذت فيها صورة شوهاء قضت على جمال التشريع الاسلامي ومتانة أحكامه . فلعل أحد هؤلاء أو أولئك تهزه الأريحية العمرانية والقومية إلى إنقاذ المجتمع المنكوب بهذه الويلات الصارخة . وفي مقال تال سنحاول أن نبين بعض ما يجب اتباعه في هذا الشأن .

محمد عبد الرحيم عنبر
وزارة الشئون الاجتماعية

١ - هنرى برغسون يموت !

لموسى عباد وتلخيص للآراء *

سئمت تكاليف الحيـاة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

ذلكم بلا ريب هو الخاطر الوحيد الذى كان يطيف فى رأس الشيخ هنرى برغسون كلما اختلف إلى داره العادية بعض أصحابه وتلامذته : فقد بلغ الرجل الغاية من العمر ، والغاية من الألم ، والغاية من الوحدة ، ثم لقد بلغ الغاية من التأليف ، والغاية من الشهرة ، والغاية من قلوب الناس . فشبع من الدنيـا وشبعت الدنيا منه ، وأخذ ينتظر يومه الأخير ، على أنه خاتمة المطاف وإليه المصير .

— ١ —

كان من عادة الفيلسوف الأمريكى المعروف « وليام جيمس » أن يقول لأصدقائه كلما تحلقوا من حوله : « أىّ رجل هذا هو هنرى برغسون ؟ إن عجبى ما ينقضى من نبوغ هذا اليهودى الموهوب ، وما أدرى لـماذا يطلقون عليه لقب « الفيلسوف الفرنسى الكبير » فما سمعت هذا مرةً إلا خطرت ببالى عبارة الذين كانوا يقولون فى الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسـة : « لم تكن رومانية ولا جرمانية ولا مقدسة » . وما أرى برغسون رجلاً كبيراً ، فهذه قامته . . . وما أراه فيلسوفاً لأنه ترك الفلسفة للألـمان يعالجونها عن ملكة ولقانة ، ولأنه من أنبه تلاميذى وأحبهم إلى نفسى ! وما أراه كذلك فرنسياً ؛ وإن شئتم فقولوا إن اسمه الغريب خدعنى عن حقيقة فرنسيته زمناً طويلاً ، حتى لقـد حسبته دخيلاً على الجنسية الفرنسية فى أهون تعبير » .

ويختم فيلسوف الذرائع(١) حديثه مع أصحابه بهذه العبارة القوية : « . . . ولـكنكم تعلمون يا سادتى كما أعلم أنا ، أن هذا الرجل الصغير إنما هو فخر الانسانية وعنوان مجدها الخالد » .

وكتب جيمس مرة إلى أحـد أصدقائه يصوّر له أثر « التطور المبدع l'évolution créatrice » فى نفسه ، فيقول : « لقد تراءى كل كتاب فى ناظرى هزيلا من فرط روعة هذا الـكتاب الجديد أو الفجر الالهى المنبثق » .

لقـد يتطور بعض الفلاسفة فى حدود أنفسهم ، ويستكملون مدنّهم العقلية على الزمان ، وتخصب قرائحهم النطقية رويداً رويداً ، ثم لا يرى الذين يعاصرونهم من مظاهر هذا التطور والـكمال والخصب شيئاً يطفر إلى عيونهم ويسترعى خواطرهم . حتى إذا سبر الباحثون غور هؤلاء الفلاسفة المتطورين ، وجدوا أن واحداً منهم لا بد أن يكون مصدر تيار عميق الأثر فى عصره وفى الأعصر التى تليه . ولـكن شأن برغسون لم يكن فى الفلسفة على هذا النحو قط ، فشهرته الداوية لا تعرف جوها الابتدائى البسيط الأول ، واسمه الطائر رن فى آفاق الدنيا منـذ عهد بعيد . ولقـد كان صغير السن أملد العود يوم دعته « كوليج دى فرانس » لتدريس الفلسفة الحديثة فيها ، وإملاء الـكان الشاغر الذى خلا بوفاة العالم النفسانى الـكبير جبرائيل تارد Gobriel Tarde . وماهو يشهد

(*) نقلا عن مجلة « الشهر » الفرنسية ، عدد مارس ١٩٣٢ صفحة ٢٦٠ ، ٢٧٠ وعدد آب ١٩٣٤ صفحة ١٧٢ .

(١) الذرائع هنا تعريب Pragmatisme ، والتسمية للأستاذ أحمد أمين .

الآن من خلال مؤلفاته وفى حياته[1] سيرورة آرائه الفلسفية فى مسارب العقول ومناحى الأرض .

إن حياة برغسون هى حياة آرائه الفلسفية على الضبط ، فمن أحب أن يؤرخ هذه لا بد أن يرجع إلى تاريخ تلك ، يستمد منها الشعاع الكاشف المنير . . .

— ٢ —

كان مجيء الطفل هنرى برغسون إلى هذه الدنيا فى الثامن عشر من تشرين الأول عام ١٨٥٩ ، فدرج فى مهاد الأبوة والأمومة ناعم البال مترف العيش ، ثم تلقف علومه الابتدائية والثانوية والعالية فى كثير من اليسر المادى والتوفيق فى الفحوص ، حتى لقد تقدم إلى إحدى السابقات العامة فى الرياضيات عام ١٨٧٧ ففاز بجائزتها الأولى ، وهذه سابقة ذات مغزى بعيد فى الدلالة على مواهبه الناجحة فى سن مبكرة . . .

وكان برغسون يجيد فهم العلوم كما يجيد تذوق الآداب . فأصابته من جراء هذه الاجادة المزدوجة حيرة الاختيار والاختصاص ، ولكنه دخل دار المعلمين عام ١٨٧٨ ، فقُبل فيها كمستمع أجنبى ، ثم رأى أن ينسلخ من أرومته البولونية ، فاعتنق الجنسية الفرنسية عام ١٨٨٠ ، وأصبح طالباً مواطناً . وتنقل بعد ذلك بين شتى الجامعات الفرنسية ، ثم استقر فى باريز يدرّس فى جامعة رولان Rollin ويهيء أطروحة الدكتوراه فى الآداب ، ولكنه ما لبث أن انتقل إلى جامعة هنرى الرابع ، ومنها إلى دار المعلمين العليا ، فبقى أستاذاً للفلسفة فيها إلى مستهل عام ١٩٠٠ ، إذ عينته كوليج دى فرانس مدرساً للفلسفة اليونانية واللاتينية . وفى هذه الجامعة تجلت مواهب برغسون فى تدريس أعقد نظريات الفلسفة بلغة واضحة سهلة ، فحببها إلى قلوب الشباب ، حتى اجتذبهم إلى متابعة دروسه ، وحتى جنح كثير من طلبة الآداب إلى دراسة الفلسفة . . . !

وكذلك توفق « الأستاذ » هنرى برغسون فى حياته التدريسية فى كوليج دى فرانس إلى ما لم يتوفق إليه المشاهير من رجال الجامعات وأساتذة المعاهد . فما كانت دروس المسيو ليروا بوليو Leray Beaulieu أستاذ الاقتصاد السياسى لتحظى بعشر معشار ما كانت تحظى به دروس برغسون من التلامذة والمستمعين . وكذلك كان شأن المسيو Chuquet أستاذ التاريخ فى كوليج دى فرانس ، فان وقت محاضراته ليسبق وقت محاضرات برغسون ، ومع هذا فان الذين كانوا يجيئون إلى الجامعة لم يستمعوا إليه ، حتى لقد صاح المسيو شوكه يوماً بمن حضر : « سيداتى سادتى : إنكم لدعوون إلى الاستماع إلىّ فى صمت وهدوء قبل أن تستمعوا إلى المسيو برغسون ! » .

أشدّ ما كانت دروس برغسون تستهوى جمهور الطلاب وأصحاب الثقافة ! إن أعظم المدرسين فى جامعات فرنسا كرينان Renan وميشيله Michelet ورومان رولان Romain Rolland لم يشهدوا التوفيق الذى شهده الأستاذ برغسون على صغر سنه . وهل فى باريس كلها إنسان مثقف لم يستطع فى ذهنه خيال برغسون الجليل ؟ معطف أسود شديد السواد ، ينتهى فى طرفيه بأكمام عريضة شديدة العرض ، وبدن صغيرين كأنهما بعض أيدى البط ، ويحمل بين كتفيه رأساً وردى اللون صامراً أصلع من أعلاه وأحمر فى وجنتيه ، يتحرك حركة مستديرة ذات اليمين وذات الشمال ، وتتقدمه عينان غائرتان دقيقتان ، كأنما رُكّبتا من النضار الأبيض ثم وُضعتا فى مكانهما هذا لتكشفا عما وراءهما من عوالم الأحلام والشعور

---

(١) لا يغرب عن بال القارئ أن هذا المقال وما يليه من المقالات إنما كُتب منذ بضع سنوات .

والمجهول . وينبعث صوت ناعم خافت الجرس رن رنين الفضـــة ليقول أشياء وأشياء وأشياء في مثل صمت الكنيسة :

« إن الأمة التي لا يحركها الشعور الموحّد ، ولا ينتظمها الرأي المشترك ، لا تمشي نحو المجد والمثل الأعلى ، كالرجل الفوضوي إذا لم يجمع خواطره كلها حول نقطة ثابتة فإنه لا بد فاقد اتجاهه وغايته » .

ويتهدج الصوت ويدق ويرق حتى لتحسبه قد استحال إلى نثر حلو من أنغام الموسيقى . تصحبه حركة باليد وإعادة باليمين ووضع جبهاني تكشف كلها مجتمعة عما يريد برغسون أن يذيع في النـاس من رأي قائم على شعور أو شعور يرجع إلى حدس أو حدس يقوّم حقيقة أو حقيقة تستند إلى تجربة . وتتسلسل خواطره بعـد ذلك تسلسلا عجيباً يأخذ بلب الحـاضرين على اختـلاف منازعهم وثقافاتهم ثم ينقطع كلامه ويهز صوته اهتزاز النفوس التي تهيه وتتذوقه .

على أن التوفيق الرائع الذي حالف حياة برغسون الحاضر ، لم يكن ليصدف الفيلسوف عمـا هو بسبيله من سرعة الخـاطر وعمق البحث . ألم يقل هو في بعض محاضراته : إن من واجب الفيلسوف أن يعنى بكل شيء ، وأن ينظر إلى الجماهير نظرة خاصة فيها التقـدير وفيها الاجلال ؟ إذاً ما باله ينسى الذين يستمعون إليه عن قرب ، فلا يتحدث إليهم إلا بما يتحدث إلى نفسه من غنمة الجرس وإيجاز الكلام ؟ إن هنري برغسون هو الفكر الذي رد جأشه وهدأت أعصابه ، فـما يتحمس في نفسه إلا ليسكب الحرارة في غيره ، ويخلع القوة على من حوله . حياة مليئة بالنشاط النفسي والعمل الدائب ، وإخلاص شديد للفكر الحر لم يفارقه من لدن أولى مؤلفاته « رسالة في الحقائق المباشرة للشعور Essai sur les données immédiates de la Conscience » حتى « منبعي الأخلاق والدين Les deux saurces de la marale et de la réligion » .

وتكللت هامة برغسون على الزمان بأكاليل زاهية من المجد ، وكلها جاءته طائعة من غير أن يسعى إليها في ذاتها أو يتهالك عليها تهالك الذباب على زجاج المصباح ! جاءه المجد طائعاً ، لأنه الرجل الفيلسوف المتواضع الذي يفنى في حب الحقيقة والعقل فناءً لم يُبق على شيء آخر من نفسه ولا من شخصه . فها هو يدخل المجمع العلمي للأبحـاث الأخلاقية والسـياسية عام ١٩٠١ ، والأكاديمية الفرنسية عام ١٩١٤ ، وها هو ينال الوسام الكبير لجوقة الشرف عام ١٩٢٣ ، وجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٢٨ .

إن هنري برغسون الذي أضاء دياجير الفكر بنور فكره مدى سنوات عديدة ، ليسكن الآن غرفة هادئة منعزلة من ضوضاء باريز ، يجتر فيها آراءه التي سلفت ، وفلسفته التي ذهبت في الناس شعاعاً ، ثم يعاني في جسمه ألماً شديداً من جراء الروماتيزم والتحقن الرئوي ، ترعاه زوجته البارة وابنته الكبيرة بحنانهما القوي الزاخر ، ليخلقا له الجو الرطيب الذي يستطيع معـه أن يفكر ويكتب . وقد احترمت الطبيعة ملكات برغسون العقلية ، فلم تمسها بضعف ولا بهزال ولا بشيخوخة . وهاهم الذين يتصلون به في هـذه الأيام يشهدون جميعاً باتزان قواه ، ويقولون : إن برغسون ما زال يحتفظ بالكلمة التي تضحك ، والفكرة التي تدهش ، والروحانية السامية التي تدل على « قداسته » . . .

تعالوا أيها القراء ، تعالوا بكل بساطة نشد في شخص برغسون شخص الحكيم . . . .

(ص) محمد روحي فيصل

١ - قصة التطور

للدكتور عبد الحليم منتصر

لا تزال دراسة التطور ، تحتل مكاناً رفيعاً ممتازاً ، لدى الذين يدرسون الأحياء ، وما يتصل بها من علوم كثيرة متنوعة ، فهم يفرضون وجود سلسلة متصلة الحلقات ، تربط الكائنات الحيوانية ، تطورت مجموعة بعد أخرى ، وكذلك الكائنات النباتية يربطونها في سلسلة متصلة من المجاميع ، درجت كل واحدة بعد الأخرى ، خلال الأحقاب الطويلة ، التي تتابعت على الأرض مذ كانت الأرض ؛ ففي كل حقب من الأحقاب الجيولوجية ازدهرت مجاميع من الكائنات الحية ، نباتية وحيوانية ، كانت تميز الحقب ؛ وما زالت تعرف به ويعرف بها . وقد تنقرض هذه ، بتأثير كثير من العوامل البيئية التي تكتنفها ، لتظهر مجاميع أخرى ، تكون أقدر على مجالدة الظروف ، ومتابعة النمو والاستمرار والتكاثر فيها . ومنها ما يتميز بمرونة ظاهرة قوية ، فيوائم بين ظروفه الجديدة وبين أسباب عيشه وحاجات نموه ؛ فتتابع العصور والأحقاب ، وأسباب حياته متصلة مطردة . فمن الكائنات ما انقرض انقراضاً تاماً منذ أحقاب سحيقة ؛ وإنما عرفناه ودرسناه من آثاره التي بقيت مطمورة في باطن الأرض ، على صورة حفريات نباتية أو حيوانية . استطاع العلماء أن يدرسوا هذه الحفريات المختلفة ، وأن ينسبوها إلى مجاميع بذاتها ، ازدهرت خلال حقب من الأحقاب ؛ وقد يبقى جنس أو أكثر من أي من هذه المجاميع ، يمكن نسبته إليها لوجود كثير من أوجه الشبه التشريحية بينها ، يبقى مميزاً لهذه المجموعة ، شاهداً على وجودها ، ودالا على ازدهار دولتها يوماً ما .

على أن فكرة التطور ليست حديثة العهد ، كما يظن كثير من الناس ، فلم يبتدعها « دارون » ابتداعاً . ولكنها درجت مع الانسان منذ أكثر من ألفي سنة ؛ وما زالت تنتقل من جيل إلى جيل ، ومن فئة إلى فئة ، تخبو حيناً لتظهر حيناً آخر ، إلى أن ألقتها يد الزمن إلى رجالات القرن التاسع عشر . . . وكان « دارون » أحد الأعلام الذين جاهروا بها وحملوا لواءها ؛ ولعله كان من أبرزهم شأناً وأشدهم إيماناً ، منذ ظهر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩ ، فأصبحت تنسب إليه ، وأصبح هو علماً عليها ، فيقال المذهب الداروني ، أو التطوري .

ثم إن مشاهدات « دارون » وملاحظاته واستنتاجاته البديعة التي ضمنها كتبه ورسائله ، هي التي خلعت على النظرية ثوباً رائعاً من البهجة والبهاء ، بُهر به كثير من المعاصرين ، فآمنوا به ، وانضموا تحت لوائه ، ورضوا بالانتساب إليه ؛ بل إن فيهم من بز « دارون » نفسه في قوة الايمان بهذه الدعوة ، والمبالغة في الحماسة لها ، والاستزادة من أنصارها والداعين لها ، وقد أصبح كثير من هؤلاء ، وأولئك « دارونياً » أكثر من « دارون » نفسه ، فأضافوا إليها ما ليس منها ، وألبسوها من الأثواب ما لم يفكر « دارون » في إلباسها إياها . . .

ويمكن دراسة هذه الفكرة منذ عهد حكماء الاغريق الأقدمين (سنة ٥٤٥ ق . م) ، أمثال أناكسماندر وامبيدوكليس . وقد كان « زينوفينيس » أول من لاحظ وجود حفريات حيوانية ؛ واعتقد أن هذه البقايا والآثار هي لحيوانات عاشت على الأرض في عصر من العصور ، ثم تحجرت على هذه الصورة التي وجدها عليها . وكانت هذه خطوة بارعة جريئة في هذا السبيل ، واعتبرت دراسة

هذه الحفريات من الأدلة المادية التى تفيد الفكرة وتثبتها ، بدلا من النظريات والآراء الكلامية .

ومن الحق أن نقول إن « أرسطو » هو الذى خلق الداروينية قبل أن يوجد «دارون» بنيف وعشرين قرناً . ولعله كان يعتقد بحق أنه مجدد مبتدع ، وأنه ليس مقلداً ولا تابعاً لغيره ، وإنما كان يضع نظاماً جديداً ، ويبنى على أساس مكين . فقد استنتج من دراساته المستفيضة ، ومقارناته الدقيقة ، وملاحظاته المديدة ، على كثير من الحيوانات ، استنتج أن هناك سلسلة وراثية متصلة ، تصل بين «البوليب» البحرى الضعيف الرقيق ، وبين «الانسان» . فلا جرم أن نُسمى « أرسطو » التطورى الأول .

وقد كان « لوكريشس » شاعراً ، ولكنه مع ذلك صاحب فكرة ، يمكن أن تضم إلى هذه الآراء عن الكائنات الحية ، فقد قال إن الحيوانات المفترسة قد مهد لها افتراسها أسباب البقاء ، فعاشت فى مختلف الأجواء والبيئات ؛ أما الحيوانات الأليفة ، فإنما حلاها نفعها للانسان ، فحاول هذا جهده أن يكثرها وأن يستغلها لنفعه أيما استغلال ؛ فعاشت هى الأخرى رغم خلوها من القوة والسرعة والمكر ، وما إليها من صفات الحيوانات المتوحشة عموماً . وكان يعتقد بمبدأ تعاقب وتسلسل الأجناس وبقاء الأقوى ؛ فهى تتتابع واحداً بعد الآخر ، فاذا ما فنى جنس نشأ آخر يكون أقوى على الاحتمال والصراع .

وقد لبثت مثل تلك الآراء والأفكار تسيطر قروناً عدة على الباحثين والمفكرين ، فهى تستهويهم فيؤمنون بها ويتداولونها جيلا من جيل ، ومدرسة بعد مدرسة ، وكانت خلاصة هذه الآراء وزبدتها إنما هى «التطور» .

كذلك نشأت نظرية التطور أو التسلسل منذ فجر التاريخ ، وكانت أساس آراء « دارون » وملاحظاته التى لخصها فى رسالته مع زميله « ولاس » إلى جمعية «لينيس» عن «منشأ السلالات من الأنواع» . وعن « أثر الانتخاب الطبيعى فى تكوين السلالات » . وذلك فى سنة ١٨٥٨ .

وخلاصة هذه النظرية كما سجلها « دارون » أن تنازع البقاء والانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح ، كل هذه تعمل عملها فى تكوين الأنواع والسلالات . وأن السلالات الصالحة القوية هى التى تستطيع أن تلائم بين ظروف بيئتها وأسباب حياتها ونحوها .

وقد بين الأستاذ « باطسن » (Bateson) أن المشكلة لم تحل بهذه النظرية أو تلك ، وأنه مع عدم معارضته لمسألة أصل الأنواع والانتخاب الطبيعى ، فانه يرى أن كثيراً من الآراء والفروض التى بنيت عليها النظرية واهى الأساس متداعى القواعد . وقد لبثت هذه النظرية مدى حين مثاراً لنقاش المؤيدين والمعارضين ؛ ومع ما كان يلقيه المعارضون فى طريقها من أشواك النقد المر والتعريض اللاذع ، فقد ثبتت دعائمها فى كثير من أقطار أوربا وخاصة فى انجلترا وألمانيا ، وسيطرت فكرة التطور على دراسات علوم الحياة جميعاً فى هذه الأقطار ، وظلت تتمتع بهذا المركز الممتاز حتى عام ١٩٠٠ الذى يعتبر عاماً خطيراً بالنسبة لتاريخ النظرية التطورية .

وعلى أى حال فقد كان نجاح « دارون » الفذ إنما هو فى بعث نظرية التطور من جديد ، وإثارة اهتمام العلماء والبحاث بها من جديد ، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ، وذلك بتأييدها بملاحظاته من أصل الأنواع والانتخاب الطبيعى ؛ وكان النصر العظيم الذى فازت به هذه النظرية على يد « دارون » هو نقلها من ميادين الفلسفة والكلام والمنطق إلى ميدان العلم العملى والتجارب والبراهين المنتزعة من حقول التجارب على الحيوانات والنباتات ، فاهتم بها علماء الأحياء ، وأكبوا على استنباط البراهين التشريحية والوصفية من دراساتهم المتتابعة على الكائنات جليلها ودقيقها .

وفى سنة ١٩٠٠ هبت على نظرية التطور ثورة عنيفة كادت تودى بها، وتقذف بها من حالق؛ فمن أين جاءت هذه العاصفة؟! لقد أثار هذه العاصفة القس النمسوى «مندل» ببحوثه على الوراثة والتهجين[1] فى النباتات، وقد كان مندل معاصراً لدارون تقريباً، فقد أجرى تجاربه فى سنة ١٨٦٥، فى حين ظهر أصل الأنواع لدارون فى سنة ١٨٥٩. ولكن نتائج «مندل» لم تثر فى حينها اهتمام العلماء والبحاث، وإن كانت تجاربه التى أجراها بين عام ١٨٥٦ — ١٨٧٣، مما جعل شهرته تذيع فى الأوساط العلمية. ولكنها لم تنشر على الملأ إلا فى سنة ١٩٠٠، أى بعد وفاته بنحو ست عشرة سنة، فقد مات مندل سنة ١٨٨٤ قبل أن يرى آثار تجاربه ونتائجه.

• • •

أجرى «مندل» تجاربه على نبات البسلة المعروف، وكان ينمو فى حديقة الدير الذى يعمل به. وكانت هوايته المزاوجة بين سلالات مختلفة من نوع البسلة (Pisum sativum) فكان منها الطويل الذى يبلغ ارتفاع نباته قرابة ست أقدام، ومنها القصير الذى لا يكاد يجاوز القدم طولاً. فكان يزاوج بين السلالتين، وذلك بأن ينزع من النباتات الطويلة مثلاً أعضاء التذكير من زهورها، ويلقح أعضاء التأنيث فيها بحبوب لقاح ينتزعها من الأعضاء المذكرة فى البسلة القصيرة. كما يجرى عكس ذلك، بأن يلقح أعضاء التأنيث فى البسلة القصيرة بحبوب لقاح من الأعضاء المذكرة فى البسلة الطويلة. وهو يأخذ لإتمام ذلك على الوجه الأكمل كل أسباب الاحتياط، حتى لا يختلط عليه الأمر، كما أنه يكرر تجاربه بضع مرات، حتى يتحقق من توافق النتائج، فيطمئن إليها. وكان ينتظر فى كل مرة حتى يحصل على البذور، ثم يعيد زراعتها ثانية ويلاحظ نتائجه. ولقد كان يتوقع عند ما زاوج بين البسلة القصيرة والطويلة أنه سيحصل على بسلة متوسطة الارتفاع؛ ولكن كم كانت دهشته عظيمة عند ما وجد بسلة الجيل الأول كلها طويلة تكاد تساوى البسلة الطويلة الأصلية التى زاوج بينها وبين القصيرة. وعندما زرع بذور هذا الجيل الأول الذى حصل عليه، وزاوج بين نباتاته ثانية كانت نباتات الجيل الثانى فيها الطويل والقصير، ولكن بنسبة ثلاثة من البسلة الطويلة إلى واحد من القصيرة.

اعتبر «مندل» الطول الصفة السائدة أو الغالبة، أما القصر فقد أسماه الصفة المتنحية. وعندما زاوج بين نباتات الجيل الثانى ظهر أن واحداً فقط (الثلث) من الثلاث الطويلة هو الذى حافظ على هذه الصفة فى كل إنتاجه، أى أنه حافظ على صفة الطول، فكان ينتج كالأصل، أى أن إنتاجه «صريح» أما الثلثان الباقيان، فإن نتيجة المزاوجة بين نباتاتها كانت إعطاء النسبة السابقة ثانية، أى ٣ : ١. أما النباتات القصيرة فى الجيل الثانى، فإنها حافظت على صفة القصر فى كل إنتاجها، أى أن إنتاجها «صريح» أيضا.

استنتج «مندل» أنه إذا وجدت الصفتان المختلفتان فى النباتين المتزاوجين، فإن الصفة السائدة هى التى تسود نباتات الجيل الأول، ولا يمكن التفريق بين الأفراد التى سيكون إنتاجها صريحاً من تلك التى ستعاود إظهار الصفتين فى نتاجها. ولكن عند المزاوجة بين أفراد هذا الجيل الأول نحصل على النسبة ٣ : ١؛ فربع الأفراد يحمل الصفة المتنحية . . وإنتاجها صريح دائماً، وثلاثة أرباع الأفراد تحمل الصفة السائدة، وبالمزاوجة بينها نحصل على نفس النسبة مرة أخرى . . . وهكذا. فالصفة المتنحية تظهر ويكون إنتاجها صريحاً إذا اختفت الصفة السائدة. كما أن ثلث الباقى من نباتات الجيل الأول فقط هى التى يكون إنتاجها صريحاً بالنسبة للصفة السائدة وهى الطول. وعلى ذلك يمكن تحليل النسبة ٣ : ١ إلى ١ : ٢ : ١:

(١) المجين: أبوه عربى وأمه ليست عربية. والمقرف: أبوه غير عربى والأم عربية. والصريح: عربى الأبوين.
(من الأمالى لأبى على القالى)

يعنى أن واحداً سيكون إنتاجه صريحاً بالنسبة للقصر ، وآخر سيكون إنتاجه صريحاً بالنسبة للطول ، واثنين يحملان صفة الطول إلا أنها ليست نقية ، ولكنها تخفى تحتها الصفة المتنحية وهى القصر ؛ ولذلك فإنه بمزاوجة أفرادها ثانية تتكرر النسبة ٣ : ١ . . . وهكذا .

لقد زاوج « مندل » بين سلالات مختلفة من البسلة ، ولاحظ صفات أخرى عدا الطول والقصر ، كشكل البذرة ، ولون القصرة (غطاء البذرة) ، ولون الفلقات بداخل البذرة . . . وفى جميع هذه الحالات حصل « مندل » على نفس النتائج والنسب بين كل زوج من الصفات . فإن إحداها تكون هى السائدة ، على حين تكون الأخرى متنحية . وطبيعى أنه عند ما تتعدد الصفات المتباينة بين النباتين المتزاوجين فإن النتائج تكون أكثر تعقيداً ، وإن أمكن تحليلها وإرجاعها إلى القانون الأساسى الذى ذكرناه فيما تقدم .

ولقد علل « باتيت » نتائج « مندل » بأن اعتبر الخلايا التناسلية أو الأمشاج ذات قدرة على نقل الصفات من جيل لآخر ، ولكنه ظن أن المشيج يستطيع حمل صفة واحدة من الصفتين المتقابلتين أى أن المشيج ، إما أن يحمل صفة الطول أو القصر ، ولكنه لا يحملهما معاً . كما يفترض أن المشيج نقى من أب نقى أى يكون ذا إنتاج صريح لو زاوج مع أفراد نوعه فحسب ، وفرض هذا النقاء أساسى جداً فى نظرية « مندل » . وعلى هذا النهج السليم الذى وضعه « مندل » وضعت أسس علم الوراثة .

ولقد قيل عن نظرية مندل أو « المندلية » إنها خاصة بالوراثة ، وأن ليس ثمة علاقة بينها وبين التطور أو « الدارونية » ، ولكن الذى لا مراء فيه أن المندلية أبلغ الأثر على الدارونية ، بل إنها قد غيرت نظرة الناس إليها ، إن لم تكن قد أثارت حولها عاصفة شديدة زعزعت من أركانها ، وجعلت الناس يرتابون فيها أبلغ الريب ، بعد أن كان إيمانهم بها قوياً . وكان المعول الأول الذى شرعته المندلية على النظرية التطورية هو جعل التجربة أساس البراهين ، بدلاً من مجرد الجدل المنطق والاستقراء المبنى على الملاحظات السطحية ، لبستانيين والزراع ومربى الحيوانات الأليفة وتجارها ، وما قابل هؤلاء وأولئك عند استنبات أصناف أو سلالات جديدة من زهور الحدائق ، أو تكثير ما يظنونه سلالات جديدة لحيوانات أليفة ، تلك الملاحظات التى اعتمد عليها دارون وكانت عمدته فى تدعيم النظرية التطورية ، مع أنها لم تكن نتائج تجارب أجريت على أسس علمية يمكن الاطمئنان إليها . وما كان ليزيد فى قيمتها العلمية ما ألبسها المنطق ، وبراعة الاستقراء من ثوب جميل خلاب .

أما مندل فقد رسم الطريقة العلمية التى ينبغى اتباعها ووصل إلى نتائج لم تكن فى صالح الدارونية أول الأمر . فقد أثبت « مندل » أن هناك من الصفات ما ينتقل من جيل إلى جيل دون أن يعتوره تغيير أو تبديل . وهى نتيجة تعارض الدارونية التى تقول بإجماع الاختلافات اليسيرة بعضها إلى بعض ، بعامل الانتخاب الطبيعى ، إلى أن تتكون السلالات أو الأنواع الجديدة .

وقد ثبت أن هذه الاختلافات ليست كافية بالمرة لتكون أصلا لنوع جديد . وإنما نتجت أغلب الأمر من تأثير البيئة على الفرد ، وهى لم تصل بعد إلى الخلايا التناسلية التى تنقل الصفات الثابتة التى تميز الأنواع بعضها عن بعض . إذ الواقع أن هناك كثيراً من الأنواع (فى النبات والحيوان) تشمل سلالات عديدة تختلف فيما بينها اختلافات بسيطة ، إلا أنها كثيرة ، تحمل على الظن بأنها أنواع ، وما هى كذلك . وقد أسماها « جوردان » (الأنواع الأولية) ليميزها عن الأصناف والسلالات من ناحية ، وعن الأنواع الأصيلة من الناحية الأخرى .

(يتبع) عبد الحليم منتصر

المـــــارد الأنانى

قصة — للكاتب الانجليزى أوسكار وايلد

اعتاد الأطفال الصغار أن يمروا أصيل كل يوم بعد خروجهم من المدرسة بروضة الرجل المارد ، حيث يمرحون ويلعبون بين الزهور والأغصان .

وروضة المارد روضة عظيمة جميلة متسعة الأرجاء ... يغطى أرضها الزرع الأخضر السندسى ، قد انتثرت خلاله الزهور الناعمة ، تبدو جميلة بيضاء كالنجوم اللامعة ... وتنمو فى أنحائها المختلفة اثنتا عشرة شجرة من أشجار الخوخ التى تزهر فى الربيع ، فتبدو أزهارها جميلة تجمع إلى احمرار الورد بياض اللؤلؤ .. حتى إذا حل الخريف تحملت تلك الشجرات بالثمار اليانعة .

واعتاد الأطفال كذلك أن يوقفوا لعبهم ليطربوا بأصوات الطيور تشدو فوق الغصون بألحانها العذبة ... حتى إذا تملكتهم نشوة الطرب صاحوا جميعاً : « كم نحن سعداء فى هذا المكان ! » .

أما المارد فكان فى زيارة لأحد أصدقائه منذ سبع سنوات ... ثم عاد ذات يوم إلى قصره الخاص ، فوجد الأطفال يلعبون ويمرحون فى حديقته ، فصاح فيهم صيحة منكرة : « ماذا تفعلون هنا ... ؟؟ » .

أرعبت الصيحة الأطفال ، فلاذوا بالفرار ... واستمر المارد فى صياحه : « حديقتى لى وحدى ، وكل امرئ يستطيع فهم هذا .. وسوف لا أصرح لأى من الناس باللعب فيها ... » . وبعد أيام بنى حول الحديقة حائطاً مرتفعاً وعلق عليه لوحة كتب فيها :

« من تخطى هذا يحاكم »

فلقد كان المارد أنانياً ....

والآن . لم يعد للأطفال مكان يلعبون فيه سوى الطريق العامة — وهى كثيرة الغفر — كثيرة الحجارة والصخور .. فسئموها — ولكنهم كانوا يطوفون حول الحائط المرتفع بعد انتهاء دروسهم ، فيستعيدون ذكريات لعبهم داخل الحديقة .. ويصيحون صيحتهم القديمة : « كم كنا سعداء فى تلك الحديقة ... ! ! »

أتى الربيع فبدت الزهور فى كل حديقة وشدت الطيور فوق كل غصن .. إلا روضة المارد الأنانى ، فلقد بدت وكأنها ما زالت فى فصل الشتاء ، طيورها لم تغن بالغناء إذ الحديقة خلو من الأطفال .. وكذلك أبت الأشجار أن تزهر ، وحاولت زهرة مرة أن تطل من بين الأوراق .. ولكنها رأت الإعلان المعلق فحزنت لغيب الأطفال واختفت ثانية كى ترقد فى أمن وسلام ..

وهكذا بقيت الروضة مغطاة بالجليد والصقيع اللذين صاحا فى فرح وسرور .. « لقد نسى الربيع هذه الروضة فلنتخذها إذاً مقراً لنا طول العام .. » — ولهذا بدا الحشيش الأخضر الجميل ، وقد علاه الصقيع الأبيض ، كما بدا الشجر وكأنه رسوم من الفضة المنقوشة ، وحلت للجليد مع الصقيع الإقامة فدعوا ريح الشمال لتشاركهما فى تلك الروضة .. وسرعان ما لبت الريح الدعوة .. وخلا لها الجو ، فظلا زئيرها طول اليوم فى جميع أنحاء الحديقة .. حتى كسرت مدخنة القلعة . وأحبت الريح بعد ذلك أن تدعو البَرَد فدعته .. واعتاد البَرَد أن ينهمر فى كثرة ثلاث مرات أو أربعاً فى اليوم على سقف القلعة حتى خر السقف أخيراً .

وفى يوم جلس المارد الأنانى فى نافذة قصره ينظر إلى حديقته البيضاء الباردة يحدث نفسه : « أنا لا أستطيع

أن أفهم لم تأخر الربيع هكذا ؟ . . وإنى لآمل أن يتغير الجو قريباً . . »

ولكن الربيع لم يأت — ولم يأت الصيف . . وكذلك شاء الخريف أن يقبل كل حديقة ثمارها الذهبية ولكنه بخل بواحدة على روضة الأنانى المارد .

وبقيت الروضة لا تعرف إلا فصل الشتاء ، وما سمعت غير زئير الريح الشمالية . . وما عهدت غير ضربات البَرَد المتساقط المؤلمة — كما أن الأشجار ما عادت تذكر غير رقص الجليد والصقيع على أغصانها وأوراقها . . .

وفى فجر يوم جميل . . سمع الأنانى المارد وهو مضطجع فى فراشه نغمات موسيقية محبوبة فطرب لها أيما طرب . . حتى لقد حسبها موسيقى الملك وقد مرت بقصره ! وفى الحق ما كانت هذه النغمات إلا صوت عصفور صغير يغنى على نافذته ، فأحس — وقد مضت عليه مدة طويلة لم يسمع فيها طيراً يشدو فى روضته — أن صوت ذلك العصفور أعذب نغمات موسيقية فى العالم كله . . .

وفى لحظة دخل العصفور يرقص فوق رأسه وولت الريح الشمالية تزئر كالرعد ، وشم المارد رائحة الزهور العطرة تأتيه خلال النافذة المفتوحة . . . فقفز من فراشه وهو يصيح : « يقيناً لقد حل الربيع أخيراً . » ونظر من النافذة ، ترى ماذا رأى ؟ ! لقد رأى منظراً جميلا . . لقد ثقب الأطفال ثقباً فى الحائط . ودخلوا إلى الروضة واعتلوا غصون الأشجار — وفوق كل شجرة كان يرى المارد طفلا صغيراً ، وفرحت الأشجار لرجوع الأطفال إليها فغطت أنفسها بالأزهار والرياحين ، وأخذت تمايل بأوراقها كى تحمى رؤوس الصغار ، وعلت الطيور فى الجو تطير وتشدو فى فرح وسرور ، وظهرت الأزهار تطل من بين الحشيش الأخضر ضاحكة باسمة .

وبدت الروضة فى منظر بديع ، إلا ركناً بعيداً من أركانها — لم يبرحه الشتاء بعد . . ووقف فيه طفل صغير جداً لم يتمكن من الوصول إلى أغصان الشجرة — فأخذ يطوف حولها وهو يصيح ويبكى ، ولكن الشجرة المسكينة كانت ولا تزال مغطاة بالجليد والصقيع ، والريح تهب فوقها وتعصف بها ، وأخيراً انحنت الشجرة بكل ما فيها من قوة وقالت : « تسلقنى أيها الصغير . تسلقنى » ولكن الطفل لم يستطع لصغره .

أسف المارد على ما كان منه وأخذ يخاطب نفسه . . « كم كنت أنانياً . . ! ! الآن عرفت لم أبى الربيع أن يزورنى . . سوف أحمل ذلك الطفل المسكين لأضعه فوق قمة الشجرة . . وسوف أهدم ذلك الحائط . . وستكون روضتى ملعباً للأطفال . . إلى الأبد إلى الأبد . . » وفى بطء وهوادة قصد المارد الحديقة وفتح الباب الأمامى فى خفة ؛ ولكن الأطفال ذعروا لرؤيته ولا ذوا بأذيال الفرار . . وعاد الشتاء للحديقة ثانية . . غير أن الطفل الصغير لم يهرب لأن عينيه كانتا مملوءتين بالدموع فلم ير المارد عند مجيئه . .

ومشى المارد الهوينا نحو الطفل فحمله ووضعه على قمة الشجرة . . وفى الحال بدت الشجرة فى حلة جميلة من الزهور اليانعة . . وأتت الطيور فعلتها تتغنى . وعانق الطفل ذلك المارد وقبله .

ولما رأى الأطفال أن الأنانى لم يعد جباراً كما كان . . كروا راجعين . . ورجع الربيع برجوعهم فصاح المارد : « أيها الأطفال هذه حديقتكم منذ الآن . . » وأخذ فأساً فهدم بها الحائط . . وما إن عاد الناس من أعمالهم ظهراً حتى رأوا المارد يمرح ويلعب مع الأطفال الصغار فى الروضة النضرة . . ! !

لعب الأطفال كما شاءوا طول يومهم حتى إذا حل المساء جاءوا جميعاً ليحيوا المارد تحية المساء . . فسألهم : « أين زميلكم الصغير . ؟ ؟ ذلك الذى حملته إلى قمة الشجرة . . » فلقد أحب المارد ذلك الطفل حباً جماً لأنه

أنس إليه وقبله . . فقال الأطفال : « نحن لا نعرفه . . لقد ذهب ولم نره . . » .

— . . « يجب أن تخبروه بألا يخاف وليأت هنا فى الغد . . »

ولكن الأطفال قالوا إنهم لا يعرفون أين يقيم ، ولم يسبق لهم أن عرفوه من قبل ؛ فحزن المارد لذلك حزناً كثيراً .

ودأب الأطفال أصيل كل يوم (بعد تركهم المدرسة) أن يذهبوا إلى الحديقة حيث يمرحون ويلعبون مع المارد . . . إلا أن الطفل الصغير المحبوب لم يعد ثانية . وكان الجبار رحيماً بالأطفال جميعاً . . .

ولكنه كثيراً ما افتقد الطفل الصغير ، وكثيراً ما كان يتحدث عنه إلى إخوانه قائلاً : « كم أتمنى أن أراه . . ! »

مرت السنون وتلتها الأعوام ، وأصبح المارد هرماً خائر القوى . وما عاد يستطيع اللعب مع الصغار ، فكان ينتحى جانباً من الحديقة ويجلس على كرسى كبير ذى يدين ، يراقب الأطفال ويراقب روضته وهو فرح مسرور قرير العين . وكثيراً ما قال فى نفسه : « عندى أزهار جميلة ، ولكنى أرى الأطفال أكثر جمالاً من الزهور . . » .

وبينا هو يطل من إحدى النوافذ صبيحة يوم من أيام الشتاء إذا به يطيل النظر إلى الحديقة ، ويطيله فى شغف . لقد رأى منظراً يدعو إلى العجب والدهشة — رأى فى أبعد ركن من أركان الحديقة شجرة مغطاة بالزهور البيضاء الناصعة وأغصانها صفراء تلمع كالذهب الوهاج ، وثمارها بيضاء كالفضة تطل من بين تلك الأغصان ، وتحت تلك الشجرة وقف الطفل الصغير المحبوب .

جرى المارد مسرعاً نحو الحديقة بنفس مملوءة بالغبطة والسرور ، واقترب من الطفل قليلاً قليلاً ، حتى إذا حاذاه صاح غاضباً : « من ذا الذى اجترأ على أن يجرحك . . ؟ » — إذ كانت آثار وخزات الشوك على كفى الطفل وقدميه —

وصاح ثانية : « أيها الصغير — من ذا الذى اجترأ على أن يجرحك ؟ خبرنى أقتله بسيفى » فأجاب الطفل فى هدوء : « هذه ليست إلا جراح الحب . . » فتملكت المارد روعة ورهبة وانحنى أمام الطفل قائلاً : « من أنت . . ؟ ! »

فابتسم الطفل وقال : « فلأعب قليلاً فى روضتك . . واتصحبنى اليوم إلى روضتى . إلى روضة الفردوس . . »

وعندما أتى الأطفال أصيل ذلك اليوم وجدوا المارد تحت تلك الشجرة جثة هامدة مغطاة كلها بالأزهار البيضاء الجميلة . . . . . ! !

ترجمها : جمال الدين الشبال

أنه فى يوم الأحد ٦ إبريل سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية فارسكور دقهلية سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك محمد فوزى محمد النجار بفارسكور تنفيذاً الحكم الصادر من محكمة فارسكور الجزئية فى القضية المدنية رقم ٣٦٠ سنة ١٩٤١ وفاء لمبلغ ١٢٩ قرش صاغ قيمة المحكوم به والمصاريف ورسم التنفيذ والدمغة وأجرة النشر بخلاف مايستجد كطلب الشيخ وهيب السيد حرز من ذوى الأملاك بفارسكور

قبل راغب الشراء الحضور

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٣٠	فى مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

جولة فى المعرض السابع للتصوير الشمسى

أقامت جمعية محبي الفنون الجميلة المعرض السابع للتصوير الشمسى بدار المتحف التاريخى المصرى ، وقد جاء هذا المعرض كدليل جديد — بكثرة معروضاته ووفرة زواره — على نمو الروح الفنية وتقدمها ، ويكفى برهاناً على ذلك أن إدارة المعرض قد اضطرت إلى مده أسبوعاً آخر بعد انتهاء الأجل المحدد .

ونحب قبل أن نبدأ الحديث عن محتويات المعرض أن نشير إلى توفيق لجنة تنظيمه فى عملها توفيقاً نحمد عليه ، لولا بضع ملاحظات ، كالخلط بين المحترفين والهواة ، وكمثرة معروضات التصوير الصحافى (الريبورتاج) ، وكان الأجدر تعيين مكان خاص لها ، كما نلاحظ مع الاغتباط مساهمة سلاح الطيران البريطانى فى عرض طائفة من الصور المأخوذة والمعدة بمعرفته ؛ وكم كنا نحب لو ساهم سلاح الطيران المصرى الملكى بنصيب فى هذا المعرض ، لاسيما ونحن نعلم أن لديه مجموعة رائعة من الصور تكونت خلال تدريبه المتواصل . . . .

يبلغ عدد العارضين فى هذا المعرض أربعة وثمانين عارضاً بين هاو ومحترف ، وقد اشترك فيه من الهواة المصريين الموفقين الدكتور عمر خيرت ويحيي بك عارف والدكتور أحمد موسى ، ومن بين صور الدكتور خيرت الثمانى يبدو أثر الشباب الذى يظهر حتى فى صوره المصرية البحتة ، فنى الصورة التى أسماها « خجول من الشمس » ، وهى لسيدة ذات مقام سام بإحدى السفارات ، لم يجذبه إلى هذا الوضع إلا الظل البديع المنتشر على صفحة وجه الحسناء ، من يدها التى تحجب بها الضوء وتنشر الضباب ، وقد نالت مجموعته الدالية الذهبية . كما يبدو المرض فى صور الأستاذ يحيي عارف بك ،



خجول من الشمس — دكتور عمر خيرت

ذلك المرض فى الأخذ بنظريات الضوء الذى يطالعنا فى كل صوره ؛ حتى صورة فلاحه الشيخ المتفائل الذى



فلاح عجوز — يحيي عارف بك

تعلن عن تفاؤله تلك الابتسامة الصبية الحذرة .

وأمام صور الدكتور موسى يخطر المرء جهد الفنان في البحث عن مواضيعه . مثلا صورته « مولد الليل »



مولد الليل — دكتور أحمد موسى

تكشف عن ناحية من الطبيعة رائعة ، ويلحظ القارئ الخط الأبيض الذي يحدد السحب ، وانبثاق الضوء حول الغيوم ، كما نلمح في صورته « نحو الشمس » مظاهر البساطة



نحو الشمس — دكتور أحمد موسى

في التعبير عن شمس الشتاء في مصر .

ويقول الفن الحديث ، أو من ينادون بأن التصوير فن : إن لشكل كان وضعاً صحيحاً يكشف عن طبيعته ونفسيته ، من هذا القبيل صورة « شاعر القطرين » للأستاذ سليم يوسف (محترف) . والذي لم يكن قد رأى الشاعر خليل مطران ، يحكم أول وهلة أن هذه صورة شاعر . ولهذا الفنان غير صورة شاعر القطرين دراسات أخرى في الشخصيات ؛ منها « راهبة » ، وقد استطاع بالضوء المناسب أن يكسو الراهبة جواً دينياً يحيط بها في غير عناء ، كما تبدو دراسته في « الجمال المصري » لصبية في الثانية عشرة موفقة في إبراز الحيوية .



شاعر القطرين



جمال مصري — سليم يوسف

ومن المحترفين البارعين الأستاذ رياض شحاته ، وصورته الرائعة لصاحبي الجلالة الملكين في الفجر أمام خيمة الصيد موفقة إلى أبعد حد . كذلك الأستاذ شرين شحاته ، وخصوصاً دراسته عن « جمال شرقي » التي يطالع المتأمل فيها سمات الشرق وأهمها النور الشائع الذي لم يغفل حتى الشعر فتخلله في بريق خلاب . وقد نال هذا



جمال درق — تصوير شعاع

الفنان الشاب المالية الذهبية المعرض على مجموعة صوره الثلاث .

ومن معروضات الفنانين « ألبان » و « بيلا »



جمال يونان — تصوير بيلا

و « أبكار » (من المحترفين) تبدو ظاهرة الاستعداد الفني الكامل ، فتمتزج مهارة المصور بدقة العدسات ومعدات التصوير ؛ ومن الانصاف أن نقرر أن هذه الجولة ليست إحصاءً لخير ما في المعرض ، وإنما هي لبعض ما فيه من آيات رائعات ؛ فهناك غير من ذكرنا كثير من الهواة البارعين أمثال حسن بك أفلاطون والآنسة ابتسام ممتاز وعلى أبو هيف ومشاكور مارسيل (جائزة فؤاد أباظة باشا)



فكرة . . . تصوير ألبان

ويوسف ابراهيم يوسف ، وغير هؤلاء ؛ وهناك من المحترفين خورشيد وعلى مراد الخ . . ولكل واحد من هؤلاء ميزته واتجاهه وإن اجتمعوا عند غاية واحدة هي إخضاع العدسة وترويضها لكي تكون كريشة الرسام في الافصاح .

صلاح الدين ذهني

أغنية:

زهر الربيع..!

"إلى معهدها الناعم وأناشيد الحب ...
إلى التي أناجيها في «زهر الربيع»"

يا طيورَ الرَّوْضِ، غنِّيهِ النشيدا
وانثُرِي فوقَ الرُّبى زهرَ الربيعِ
واهتفي باللحنِ ريَّانَ جديدا
واسْبَحِي في ذلكَ الأفقِ الوسيعِ

أيقظي الفجرَ نديًّا باسِمًا
يتهادى مِنْ وراءِ الأفقِ ...
يُرسِلُ النورَ عليهِ حالِمًا
ويحيِّيهِ بصُبْحٍ مُشرِقِ

ردِّدِي في الرَّوْضِ ألحانَ الصباحِ
وانهلِي الألحانَ مِنْ زهرِ الربيعِ
واسكبيها بَيْنَ أنفاسِ الأقاحي
قُبلةً تمسحُ أنداءَ الدموعِ

داعَبَ الطلُّ شُعاعَ الجدولِ
وعلى شطيْهِ قامَ الشاعِرُ
ها هُنا دنيا الهوى والغزلِ
صفّقَ الموجُ وهامَ الشاعرُ

إيهِ يا زهرَ الربيعِ الباكرِ
يا متاعَ القلبِ يا أنسَ الأماني
جدّدِ العهدَ لهذا الطائرِ
إنّهُ صدّاحُ هاتيكَ المغاني

أحمد عبد المجيد الغزالي

وحى الخريف

نَسَمَاتُ الخريفِ هبّت فأوحت
أغنيــــــات بها الفؤادُ تَغَنّى

فالجمالُ الندىُّ فاض على الكو
نِ فروّى البقاعَ سهلا وحَزْنا

ما أرقّ النسيمَ إذ هبّ رهواً
فاكتسى الكون منه حُسناً ويُمنا

وحفت أعينُ العبادِ على السِحْـ
ـرِ فأنعِمْ به افتناناً تَسَنّى !

* * *

قف تأمّلْ روائعَ الفِيق الأر
ضِ وشاهدْ من اللاحة فنّا

تتثنى الغصـــون رقصاً على وَقْـ
ـعِ الأغاريد ، والأزاهرُ وَسْنى

وكأنّ الرياضَ سكرى من الطلّ
نشاوى ، يتهن زهواً وحُسْـنا

رُبّ قلبٍ معذّبٍ نسي الهم
بها واستعادَ بشراً وحُسْنى

وتغــــدّت جنانُ الناس سحراً
لم يدع نحـــــــةً ولم يُبقِ حُزْنا

أمسيات بها تطيب الأماني
وبها يسعد الفؤادُ ويَهْنا

(البصرة) ناصر عزيز منصور

إنه في يوم السبت ٨ مارس سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية شبرا هارس البوبة ويوم الخميس ١٣ منه بسوق طوخ سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك صالح محمد صالح تنفيذاً للحكم الصادر في القضية رقم ١٨٢ سنة ١٩٤١ بنها وفاء لمبلغ ٢٣٧ قرش صاغ خلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب عثمان أفندي حسين مصطفى أغا الحاجز بنها

فعلى راغب الشراء الحضور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١١٥ — الثلاثاء ١٣ من صفر سنة ١٣٦٠ — ١١ من مارس سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العــــــدد

تطور الحوادث في البلقان

لمحرر « الثقافة » السياسي

لم يكن انضمام بلغاريا لميثاق المحور الثلاثي ، ثم احتلال ألمانيا لها غداة هذا الانضمام مفاجأة ، بل كان أمراً متوقع الحدوث ، وكانت أعمال الألمان في التمهيد له ظاهرة غير خفية ؛ ولم يك ثمة شك في أن بلغاريا ضالعة ، رغم تردها ، مع دولتي المحور ، وأنها ستلقى نفس المصير الذي لقيته رومانيا عاجلاً أو آجلاً ؛ وبلغاريا تتبع في ذلك سياستها التقليدية القائمة على انتهاز الفرص ؛ ومن المحقق أنها وعدت بالحصول على نصيبها من الغنائم والأسلاب ، سواء من الأراضي اليونانية التي تمكنها من الوصول إلى بحر إيجه ، أو من الأراضي اليوجوسلافية ، متى أتيح لهتلر أن يحرز النصر المنشود ، وأن يرسم خريطة أوربا كيفما شاء .

ولا ريب أن احتلال بلغاريا ، مثل احتلال رومانيا ، إنما هو عمل تمهيدي لما تنوى أن تقوم به ألمانيا في الميدان البلقاني ، أو في شرق البحر الأبيض المتوسط . ولم تتضح بعد مشروعات ألمانيا في هذه الساحة وضوحا

كافياً ، والمعروف حتى الآن أن القوات الألمانية التي ترابط في رومانيا ، والقوات الألمانية التي احتلت بلغاريا ، لا تكفي للقيام بأعمال عسكرية خطيرة ؛ بيد أن الألمان احتلوا جميع النقط العسكرية على نهر الدانوب وجميع المطارات والموانىء الرومانية والبلغارية ، وأصبح الطريق إلى قلب البلقان ، وإلى اليونان وتركيا مفتوحا أمام الجيش الألماني .

ولسنا نعتقد أن الألمان يمهدون بهذه الاستعدادات للقيام بزحف كبير في اتجاه الشرق الأدنى ، فمثل هذا المشروع ليس هينا من الناحية الفنية والعسكرية ، وهو يعرض الألمان لصعاب وأخطار جمة ؛ ولكنا نرجح أن احتلال الألمان لبلغاريا يرمى إلى تحقيق أغراض عملية عاجلة ترتبط بالأخص بتطورات الحرب الايطالية واليونانية ، وموقف تركيا ويوجوسلافيا وسيطرة ألمانيا على البلقان .

فألمانيا اضطرت بعد الذي رأته من توالي الهزائم الشنيعة على شريكتها وحليفتها إيطاليا في ألبانيا وفي أفريقية أن تتقدم لإنجادها ؛ وقد ظهر أثر هذه المعاونة بوجود الطائرات الألمانية في صقلية ورودس وطرابلس ، ومهاجمتها لقوافل السفن البريطانية ، ومواقع الدفاع البريطاني في البحر الأبيض المتوسط ؛ والزحف الألماني في اتجاه اليونان هو الخطوة التالية في هذا البرنامج ؛ وقد تحاول ألمانيا بهذا التهديد ، أن ترغم اليونان على الانسحاب من الميدان ، وعقد صلح منفرد مع إيطاليا ، يعيد الحالة إلى ما كانت عليه . فاذا لم تنجح في تحقيق هذه الغاية بالوعيد ، غزت اليونان بالفعل ، واستولت بسرعة على سلانيك ، لترغم اليونانيين على توزيع قواهم ، وتمهد السبيل بذلك إلى قهر اليونان وانتصار حليفتها ، وتدارك ما تصدع من هيبة المحور في البلقان . كذلك ترى ألمانيا في نفس الوقت إلى الضغط على تركيا ويوجوسلافيا ، وإرغامهما على قبول الأمر الواقع في هذه الساحة ، والتزام موقف سلبي يتفق مع أغراض المحور .

ومن المرجح أن تقبل يوجوسلافيا هذا الموقف ، ولكن من المشكوك فيه أن تبقى تركيا جامدة إذا اجتاح الألمان اليونان ، وخصوصاً إذا تحركت بلغاريا إلى جانبهم . فتركيا ترتبط مع بريطانيا العظمى بمعاهدة تحالف ؛ ولا ريب أن الباحثات التي جرت أخيراً بين مستر ايدن وزير الخارجية البريطانية والسير جون ديل رئيس هيئة أركان الحرب البريطانية ، وبين رجال تركيا المسئولين ، قد تناولت جميع الاحتمالات التي تترتب على تطور الحوادث وعلى تدخل الألمان في هذه الساحة ، كذلك لا ريب أن الفريقين قد تفاهما على جميع الأعمال المشتركة التي تبذل في الوقت المناسب لمقاومة الغزو الألماني . وتدخل تركيا يصبح أرجح إذا تحركت بلغاريا لغزو تراقية الشرقية ، أو إذا تحرك الألمان في اتجاه البواغيز .

ولسنا نعتقد أن الرسالة الشخصية التي وجهها المستشار هتلر إلى الرئيس اينونو في آخر لحظة ، ستغير شيئاً من موقف تركيا الذي تحدد في مباحثات أنقرة . ولم يذع مضمون هذه الرسالة حتى كتابة هذه السطور ، ولكنها قد تحتوي على الأغلب نوعا من التأكيدات المتكررة المعروفة بضمان السلامة وعدم الاعتداء ، أو نوعا من التهديد المصوغ في قالب الصداقة والمودة ؛ وهذا لا يؤثر فيما نعتقد شيئاً في موقف دولة وزنت كل الظروف قبل وضع خططها النهائية .

وفي وسعنا أن نتوقع قيام القوات البريطانية في مثل هذه الحالة بالمحاولات الآتية :

(١) ضرب السلاح الجوي البريطاني لجميع الأهداف العسكرية الألمانية في رومانيا وبلغاريا ، وفي مقدمتها آبار الزيت الرومانية .

(٢) ضرب الأسطول البريطاني لشواطئ بحر إيجه التي يحاول البلغار أو الألمان احتلالها .

(٣) احتلال القوات البريطانية لجزيرة رودس ، أهم القواعد الايطالية في جزر الدوديكانيز ، وربما احتلال هذه الجزر كلها .

وقد بدأت القوات البريطانية هـذه المحاولة بالفعل باحتلال جزيرة كاستلوريزو الواقعة شرق رودس .

(٤) وقد تحاول القوات البريطانية فوق ذلك احتلال سلانيك قبل أن يتمكن الألمان من احتلالها .

وهذا غير المعاونات العسكرية السريعة التي ينتظر أن تقدمها بريطانيا إلى تركيا في هـذه الحالة لتشد أزرها في مقاومة القوات النازية سواء في تراقية الشرقية أو في منطقة البواغيز .

* * *

أما موقف روسيا إزاء تطور الحوادث فلا يزال غامضاً كل الغموض ؛ فقد احتل الألمـان رومانيا فلم تبد اعتراضاً أو ملاحظة ، وهي تلزم مثل هذا الجمود إزاء احتلال الألمان لبلغاريا . وقد أعلن راديو موسكو أن وزارة الخارجية السوفيتية أبلغت وزير بلغاريا المفوض أن حكومة السوفيت تعد دخول الجنود الألمانية في بلغاريا أمراً يترتب عليه توسيع نطاق الحرب في البلقان ، وأنها أي حكومة السوفيت لا تستطيع أن تؤيد خطة الحكومة البلغارية ؛ ومهما كان من قيمة هذه الملاحظة السلبية في التعبير عن عدم موافقة روسيا على حركة الألمـان ، فإنها لا تفيد شيئاً ولا تؤثر في مجرى الحوادث ؛ ومن الواضح أن روسيا لا يسرها توغل الألمان في البلقان ، وأنها تخشى بنوع خاص سيطرة الألمان على البوسفور والدردنيل وهما شريان التجارة الروسية في الجنوب ، وأنها تؤيد من صميم قلبها مقاومة الترك والانكليز لهذه السيطرة ؛ ولـكن روسيا بوقوفها هذا الموقف السلبي منذ البداية إزاء مشروعات الألمان في البلقان تحمل على الاعتقاد بأنها إما على تفاهم في ذلك مع ألمـانيا ، وأنها قد حصلت على وعود معينة بالاستيلاء على منطقة البواغيز ، أو غيرها ممـا تطمح إلى تحقيقه ؛ وإما أنها لا تأنس في نفسها من القوة ما يحملها على معارضة المشروعات الألمانية جهراً ، وما زالت تتربص الفرص ، وروسيا لا تستطيع أن تنسى أو تتجاهل مطامع ألمانيا في سهول اليوكرين ، وفي آبار القوقاز .

ومن الواضح أن ألـمانيا لا تقصد بإنجـاد إيطاليا والعمل في البلقان ، انتشال إيطاليا فقط من المأزق الذي انحدرت إليه ، وكان له أسوأ الأثر في هيبة المحور ، ولـكنها تقصد بالأخص إلى تمكين قبضتهـا من إيطاليا ذاتها ، وإرغامها على السير في الحرب إلى النهاية ، ومنعها من التسليم أو عقد أي صلح منفرد مع بريطانيا العظمى ، وحماية الفاشيستية من الانهيار الداخلي ؛ وقد اعترف موسوليني في خطابه الأخير بأن القيـادة أصبحت في يد هتلر ، وأن إيطاليا ستسير مع ألمانيـا إلى النهاية ، وأنها تؤدي منذ الآن دور التابع للمتبوع ؛ وهذا هو الثمن الذي تقاضته ألمانيا نظير معاونتها لشريكتها في المحور في منطقة كانت تعتبر مجالاً حيوياً لايطاليا ؛ وهي لم تبذل هذه المعاونة إلا بعد أن أصبحت إيطاليـا على وشك الانهيار الداخلي .

* * *

وإذا كانت بوادر العاصفة التي ينتظر اضطرامها في بدء الربيع تنذر الآن بالانقضاض على البلقان ، فلا بد لنا من جهة أخرى أن ننتظر اضطرامها في نفس الوقت في الغرب ؛ وقد قال لنا هتلر في خطابه الأخير : إنه ينتظر الربيع ، وإنه سيبدأ فيه حرب الغواصات ؛ ومن القريب أن يكرر في خطابه ما قاله في خطاب سابق ، وهو أنه على استعداد

تأملات وصور :

عدل هرمز

قصة فارسية

بلاد الأكاسر ساقت لنا مثالا على عدلها أمثلا
فمن مثل هُرْمُزَ في عدله ... ؟
لقد كان في عصره الأعدلا
أقام على العدل مُلكاً له ...
فعمّر دهراً وما زلزلا ...
وفتّح للناس أبوابه ...
فمن كان ذا حاجة هرولا ...
ويسمع منهم شكاياتهم ...
ويمنح ذا الحق ما استأهلا ...
ويحسم بينهم أمرهم ... إذا أبهم الأمر أو أشكلا

وعلّق في داره جُلْجُلا ينبه من رام أن يفعلا ...
وأوثق حبلا به مُرْسَلاً إذا لمسته يدٌ ، جلجلا ...
فمرّ حمارٌ به مرةً ... وحكّ بجسمه الأهزلا ..
وإذ سمع الشاه ناقوسه دعا حاجب القصر أن ينزلا
ليحضر بالباب من يشتكي فيخبره تواً بما أمّلا ...
فقال أعزّ الإله المليك رأيتُ حماراً مضى مجفلا ..
فقال عليّ به ، هاته لأنظر في شأنه أولا ...
فجيء به ناحلا واهياً ... يكاد من الجوع أن يُقتلا
إذا همّ بالعَدْوِ لم يستطع كأنّ على متنه يذبلا[1] ..
وقيّدهُ الأينُ[2] في خطوه فيمشي ظليماً كأن كُبّلا
فَرَقّ لمنظره واقتضى مثولا لصاحبه مُعْجَلا ...
فجيء به راعشاً رعشةً من الخوف يجبن أن يمثلا
فأنّبه هرمزٌ زاجراً وأوصاه بالبر أن يفعلا ...

محمد احسان المحاسني

(١) اسم جبل . (٢) الاعياء .

لملاقاة الانكليز في أي جهة من القارة . ويلاحظ أن الاذاعة الألمانية والصحف الألمانية لم تشر منذ أشهر إلى مشروعات الغزو الألمانية للجزر البريطانية بعد أن لبثت مدى حين تكثر من التحدث عنها . وأغلب الظن أن ألمانيا لن تستطيع إقداماً على هذه المحاولة الخطرة التي يخشى أن تكون مقبرة لمجدها الحربي ، وأنها قد نبذت هذا الحلم نهائياً ، وأنها ستقتنع في الغرب بتشديد حرب الغواصات ؛ وإذا اتسعت الأعمال الحربية في البلقان بصورة تجعل هذه الساحة ميداناً رئيسياً من ميادين الحرب ، فانه يبدو من المشكوك فيه أن تحاول ألمانيا القيام بأية محاولة خطيرة في ساحة أخرى ، وتخالف بذلك الخطة التي جرت عليها منذ بداية الحرب من حصر جهودها الرئيسية في ساحة واحدة .

هذا ، ولا شك أن اليابان من جانبها ترقب سير الحوادث ، وتتربص فرص العمل في الشرق الأقصى ، في الوقت الذي تعتقد فيه أن اشتغال بريطانيا العظمى في الغرب بالنضال مع ألمانيا ، يشل مقدرتها الدفاعية في أية جهة أخرى ؛ بيد أننا لا نعتقد أن اليابان على استعداد لأن تخوض حرباً جديدة في الشرق الأقصى ، وهي تعلم أنها تواجه من بريطانيا واستراليا وأمريكا قوى لا يستهان بها ؛ وأن ألمانيا التي تدفعها إلى مثل هذه المحاولة لا تستطيع أن تعاونها بأية وسيلة ، فاذا لم تكن بتصريحاتها ومحاولاتها الحاضرة تعالج نوعاً من حرب الأعصاب ، وإذا عرض لها أن تخوض مثل هذه الحرب ، فلا ريب أنها ستخوض مغامرة خطيرة لا تؤمن عواقبها . (***)

أدب المقـــالة

للأستاذ زكي نجيب محمود

إن معظم النار من مستصغر الشرر ؛ ذلك ما قرأته في الكتب وما تعلمته من تجربة الحياة ، وهو ما أجرى القلم بهذه الكلمات . . . فليس بعيداً أن ينبه هذا القلم المتواضع — الذي لا يكاد صريره يبلغ سمع صاحبه — أديباً واحداً من أئمة الأدب في هذا البلد فيتجه وجهة جديدة في كتابة المقالة الأدبية .

فالمقالة توشك أن تكون في مصر القالب الأوحد الذي يصب فيه الأديب خواطره ، ومشاعره ، فأديبنا قصير النَّفَس ، تكفيه المقالة الواحدة ليفرغ في أسطرها القليلة كل ما يتأجج به صدره من عاطفة وما يختلج به رأسه من فكرة ؛ فإن غضب أديبنا من نقص يلمحه في بناء الجماعة أو أخلاق الفرد ، فزع إلى المقالة يصب فيها ثورة غضبه ؛ وإن افتتن أديبنا بجمال الطبيعة الخلاب ، لجأ إلى المقالة يبث فيها ما أحس من عجب وإعجاب . . . أما الأديب الذي يريد أن يعالج بؤس البائسين فينشر في الناس القصة تلو القصة حتى يبلغ ما ينشره ألوف الصحائف كما فعل « دكنز » ؛ أما الأديب الذي يعطف على العمال فيكتب في ذلك للمسرح الرواية في إثر الرواية كما فعل « جولزورثي » . أما الأديب الذي يخلق خطاباً من قارئة تستفسره الاشتراكية فيرد على الرسالة بمجلدين ، كما فعل « برنارد شو » . أما الأديب الذي يرى علاج الانسانية في حكومة دولية تمسك زمام العالم كله فيكتب في ذلك كتباً تزيد على الخمسين كما فعل « ولز » . مثل هذا وذاك من الأدباء لم تشهده مصر ، فبؤس البائسين علاجه مقالة ، والعمال تكفي لنصرتهم مقـالة ، وحل المشكلات الدولية حسبه مقالة . . .

فالمقالة إذاً هي عندنا ملاذ الأديب ، الذي ليس له من دونها ملاذ ، ولا بأس بهذا لو كانت المقالة الأدبية في مصر أدباً تعترف به قواعد الأدب الصحيح . ولكن الأديب المصري يكتب المقالة التي لو قيست بمعيار النقد الأدبي لطارت هباءً ، ولأغلقت دولة الأدب من دونها الأبواب ، وإنما قصدت بمعيار النقد ما يكاد يجمع عليه النقاد من أدباء الانجليز .

فهم هناك يقولون إن المقالة يجب أن تصدر عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع ، على شرط أن يجيء السخط في نغمة هادئة خفيفة ، هي أقرب إلى الأنين الخافت منها إلى العويل الصارخ ، أو قل يجب أن يكون سخطاً مما يعبر عنه الساخط بهزة في كتفيه ومط في شفتيه ، مصطبغاً بفكاهة لطيفة ، لا أن يكون سخطاً مما يدفع الساخط إلى تحطيم الأثاث وتمزيق الثياب . . . هذا السخط على الحياة القائمة في هدوء وفكاهة ، هذا السخط الذي لم يبلغ أن يكون ثورة عنيفة ، هو موضوع المقالة الأدبية بمعناها الصحيح ؛ فإن تضرمت في نفس الأديب ثورة كاسحة جامحة ، فلا يجيز له نَقَدَةُ الأدب أن يتخذ المقالة متنفساً لثورته ، وليسلك — إن أراد — سبيله إلى المنابر يلقي ثورته في موعظة ، لأنها تحتمل من الواعظ أعنف ألوان التقريع ، أو ليلتمس سبيلاً إلى القصيدة — إن كان شاعراً — لأن القصائد لا تتنافر بطبعها مع الحماس المشتعل .

شرط المقـالة الأدبية أن يكون الأديب ناقماً ، وأن تكون النقمة خفيفة يشيع فيهـا لون باهت من التفكه الجميل ؛ فإن التمست في مقالة الأديب نقمة على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها ، وإن افتقدت في مقالة الأديب

هذا اللون من الفكاهة الحلوة المستساغة لم تعبه، فاعلم أن المقالة ليست من الأدب الرفيع في كثير أو قليل، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة! وإن شئت فاقرأ لرب المقالة الانجليزية «أديسن» ما كتب، فلن تجده إلا مازجاً سخطه بفكاهته، فكان ذلك أفعل أدوات الإصلاح.

نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه محدثاً لا معلماً، بحيث يجد القارئ نفسه إلى جانب صديق يسامره لا أمام معلم يمقته! نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه زميلاً مخلصاً يحدثه من تجاربه ووجهة نظره، لا أن يقف منه موقف الواعظ فوق منبره يميل صلفاً وتيهاً بورعه وتقواه، أو موقف المؤدب يصطنع الوقار حين يصب في أذن سامعه الحكمة صباً ثقيلاً! نريد للقارئ أن يشعر وهو يقرأ المقالة الأدبية أنه ضيف قد استقبله الكاتب في حديقته ليمتعه بحلو الحديث، لا أن يحس كأنما الكاتب قد دفعه دفعاً عنيفاً إلى مكتبته ليقرأ له فصلاً من كتاب!

لهذا كله يشترط الناقد الانجليزي في المقالة الأدبية شرطاً لا أحسب شيوخ الأدب عندنا يقرونه عليه، يشترط أن تكون المقالة على غير نسق من المنطق، أن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحراش الوحشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة! ويعرّف «جونسون» — ومكانته من الأدب الانجليزي في الذروة العليا — يعرّف المقالة فيقول: «إنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم ولم يتم هضمها في نفس كاتبها، وليس الإنشاء المنظم من المقالة الأدبية في شيء».

أين هذا من المقالة الأدبية في مصر؟ لقد سمعت أديباً كبيراً يسأل أديباً كبيراً مرة فيقول: هل قرأت مقالي في هلال هذا الشهر؟ فأجابه: أن نعم، فسأله: وماذا ترى فيه؟ هل تراني أهملت نقطة من نقط الموضوع؟ فأجابه قائلاً: العفو، وهل مثلك من يهمل في مقالة يكتبها شاردة أو واردة؟! هذه هي المقالة عند قادة الأدب: أن تكون موضوعاً إنشائياً مدرسياً كل فضله أنه جميل اللفظ واسع النظر، فالفرق بين مقالة الأديب وموضوع التلميذ فرق في الكم لا في الكيف... فلله درك يا معلم اللغة العربية في المدارس المصرية! إنك لتتعقب بتأثيرك شيوخ الكتاب بين كتبهم وأوراقهم، كأني بك تضغط على أذن الكاتب بين إبهامك وسبابتك حين يحمل قلمه ليكتب، مذكراً إياه: هل وفيت نقط الموضوع؟ أين نقط الموضوع؟!

كلا، ليس للمقالة الأدبية، ولا ينبغي أن يكون لها، نقط ولا تبويب ولا تنظيم! فإن كانت كذلك، فلا عجب أن ينفر القارئون — يا أيها الأدباء — من قراءة ما تكتبون؛ لا تعجبوا يا قادة الأدب المصري ألا يقرأكم إلا فئة من طبقة القارئين، لأنكم تصرون على أن يقف الكاتب منكم إزاء قارئه موقف المعلم لا الزميل، موقف الكاتب لا المحدث، موقف المؤدب لا الصديق، ويصطنع الوقار فلا يصل نفسه بنفسه! وإلا فحدثني بربك أي فرق يجده القارئ بين الصحيفة الأدبية والكتاب المدرسي؟

أرأيت كيف يتحدث الصديق إلى صديقه عن حادثة شهدها في عربة الترام وهو في طريقه إليه؟ أرأيت كيف يلاحظ الصديق لصديقه إذ هما يسيران ملاحظة من هنا وملاحظة من هناك حول ما يقع عليه البصر؟ انقل هذا ببراعة الأديب وبراعته يكن لك منه مقالة أدبية من الطراز الأول! أما أن تعلم القارئ فصلاً في عوامل سقوط الدولة الأموية أو في أسباب انحلال المجتمع وما إلى ذلك من فصول، فذلك مفيد على أنه درس علمي، ونافع في عرض اطلاعك الواسع، ومثقف للقارئ كما يثقفه فصل من كتاب، ودافع إلى الفضيلة على أنه موعظة منبرية... ولكن لا تطمع أن تكون أديباً بما تكتب من أمثال هذه الفصول والأبواب، فلن تكون بأمثالها في دولة الأدب قزماً ولا عملاقاً... أنت بهذه الفصول عالم ولست بأديب.

أنت بها قارئ ولست بكاتب ، وفضلك أن تنقل إلى القراء ما قرأت . . . وإنه لفضل عظيم ، ولكنه شيء والأدب الخالص شيء آخر .

فكاتب المقالة الأدبية على أصح صورها ، هو الذي تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة ابتداء ، ثم يسلم نفسه إلى أحلام يأخذ بعضها برقاب بعض ، دون أن يكون له أثر قوي في استدعائها عن عمد وتدبير ، حتى إذا ما تكاملت من هذه الخواطر المتقاطرة صورة ، عمد الكاتب إلى إثباتها في رزانة لا تظهر فيها حدة العاطفة ، وفي رفق بالقارئ حتى لا ينفر منه نفور الجواد الجموح ، لأن واجب الأديب الحق أن يخدع القارئ كي يمعن في القراءة كأنما هو يسري عن نفسه المكروبة عناء اليوم أو يزجي فراغه الثقيل ، وهو كلما قرأ تسلل إلى نفسه ما شاع في سطور المقالة من نكتة خفية وسخرية هادئة ، دون شعور منه بأن الكاتب يعمد في كتابته إلى النكتة والسخرية ؛ فإذا بالقارئ آخر الأمر يضحك ، أو يتأثر على أي صورة من الصور ، بهذه الصورة الخيالية التي أثبتها الكاتب في مقالته ، وقد يعجب القارئ : كيف يمكن أن يكون في النفوس البشرية مثل هذه الفلتات واللمحات ؛ ولكنه لن يلبث حتى يتبين أن هذا الذي عجب منه إنما هو جزء من نفسه أو نفوس أصدقائه ، فيضجره أن يكون على هذا النحو السخيف ، فيكون هذا الضجر منه أول خطوات الإصلاح المنشود .

وما دمنا نشترط في المقالة الأدبية أن تكون أقرب إلى الحديث والسمر منها إلى التعليم والتلقين ، وجب أن يكون أسلوبها عذباً سلساً دفاقاً . أما إن أخذت تشذب أطراف اللفظ هنا وتزخرف تركيب العبارة هناك ، كان ذلك متنافراً مع طبيعة السمر المحبب إلى النفوس ؛ هذا من حيث الشكل . وأما من حيث الموضوع فلا يجوز عند الناقد الأدبي أن تبحث المقالة في موضوع مجرد ، كأن تبحث مثلا فضل النظام الديمقراطي أو معنى الجمال أو قاعدة في علم النفس والتربية ؛ لأن ذلك يبعدها عن روح المقالة بمعناها الصحيح ، إذ لا بد — كما ذكرنا — أن تعبر قبل كل شيء عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه . . ومن هنا قيل إن المقالة الأدبية قريبة جداً من القصيدة الغنائية ، لأن كلتيهما تغوص بالقارئ إلى أعمق أعماق نفس الكاتب أو الشاعر ، وتتغلغل في ثنايا روحه حتى تعثر على ضميره المكنون ؛ وكل الفرق بين المقالة والقصيدة الغنائية هو فرق في درجة الحرارة : تعلو وتتناغم فتكون قصيدة ، أو تهبط وتتفاتر فتكون مقالة أدبية .

ولما كانت المقالة إنما تتكئ على ظاهرة مطروقة معهودة في الحياة اليومية تنفذ خلالها إلى نقد الحياة القائمة نقداً خفياً يستره غطاء خفيف من السخرية ، ولما كانت كذلك تسلك في التعبير أسلوباً سلساً مشرقاً ، فقد يظن أحياناً أنها ضرب هين من ضروب الأدب لا يدنو من القصيدة والقصة والرواية . والواقع على عكس ذلك ، لأن أرفع الفن هو ما خفي فنه على النظرة العابرة ، فما أكثر من ينجح في كتابة القصة والقصيدة ! وما أقل من يجيد كتابة المقالة ! وشأن الذي يستخف بما تطلبه المقالة من فن كشأن الذي يظن أن الشعر المرسل أيسر من القصيد المقفى ؛ ولعل عسر المقالة ناشئ من أنها ليس لها حدود مرسومة يحفظها المبتدئ فينسج على منوالها كما يفعل في القصة أو القصيدة .

إن الذي أريد أن أؤكده مرة أخرى هو أن المقالة الأدبية لا بد أن تكون نقداً ساخراً لصورة من صور الحياة أو الأدب ، وهدماً لما يتشبث به الناس على أنه مثل أعلى ، وما هو إلا صنم تخلف في تراث الأقدمين . أما إن كان الفصل المكتوب بحثاً رصيناً متسقاً فسمه ما شئت ، فقد يكون علماً ، وقد يكون فصلا في النقد الأدبي ، وقد يكون تاريخاً أو وصفاً جغرافياً كتبه قلم قدير ، ولكنه ليس مقالة أدبية ، كما أنه ليس بقصيدة ولا قصة .

زكي نجيب محمود

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كانت تدمر (بادية الشام) عاصمة عظيمة لتجارة الشرق ، ذات ثروة طائلة ومدنية عالية . وكان أميرها أذينة فارساً باسلا ، يحب صيد السباع ، ويستصحب امرأته زنوبيا في مخاطراته . وكانت زنوبيا سليلة بيت الإمارة في تدمر ، وتنتمي إلى كليوبترة ملكة مصر ، وتشبهها في جمالها وذكائها وطماحها — ومرض أذينة من جرح أصابه في الصيد ، فساور زنوبيا قلق شديد ، لم تجد فيه سلوى إلا عند وصيفتها المسيحية (لبنى) ، التي وصفت لها المسيحية وحببت إليها الالتجاء إلى الله ، فتفتح قلبها للمسيحية بعض التفتح . وعلمت في مناجاتها للفتاة بأنها تحب شاباً مسيحياً في الجيش اسمه حسان ، فأرادت زنوبيا أن تمهد لها السبيل إلى زواجه . فلما شفي أذينة فاتحته في ذلك ، ولكنه أبى أن يزوجها منه خوفاً أن يتهم بأنه مسيحي . وجاءت إلى تدمر بعد شفاء أذينة أخبار خطيرة تنبئ بانهزام أمبراطور الروم (فاليريان) ، وأنه أصبح أسيراً ذليلا مع الملك الفارسي المنتصر سابور . فثار أذينة وأراد أن يبادر بالذهاب إلى حرب سابور ، ولكن زنوبيا ما زالت به حتى حملته على التأني ، وحسنت إليه أن يرسل هدية إلى سابور يستميل بها قلبه ، فأطاعها في ذلك وأرسل الهدية . وبقي في تدمر قلقاً ينتظر أنباء تلك الهدية ، فأحب أن يخفف عن نفسه ذلك القلق ، فخرج إلى الصيد ، ولكن صدره الحرج دفعه إلى الإيقاع بأحد رفاقه ، وهو معن ابن أخيه ، لهفوة يسيرة بدرت منه . وجاءته الأنباء بعد ذلك أن سابور قد ألقى هديته في الفرات وسبّه سباً قبيحاً ، فعول على أن يتجهز لحرب فارس ، وأرسل يدعو أعيان تدمر ليشاورهم في الأمر] .

اجتمع جمع حافل ممن بعث إليهم أذينة على أثر وصول رسالة سابور إليه . وكان فيه علية تدمر وأشرافها ، وأصحاب الولاية فيها والثراء ؛ فكان فيهم قواد الجند الذين تعقد لهم ألوية الحروب ، ونقباء التجار ، وشيوخ المشائر الذين كانت لهم رياسة قوافل التجارة الواردة إلى تدمر والصادرة عنها ، وأصحاب السقاية الذين يقومون على حياطة الماء النابع من عيني تدمر يقسمونه لري حدائق المدينة أو شرب أهلها والنازلين بها ، وأصحاب الرفادة الذين يعدون للجيوش ما يجب لهـا من سلاح أو مؤونة ، وأصحاب السدانة الذين يخدمون الحرم — معبد الشمس وبعل — اجتمع كل هؤلاء ، وألقى إليهم أذينة ما بلغه من أنباء الحرب ، وبين لهم ما يحيط بهم وبعديتهم من الأخطار ، ثم بين لهم كيف أراد أن يبعد عنهم خطر الغزو باللين والحكمة ، فأهدى ما أهدى إلى سابور ليستلين قلبه ويبعد عنهم كيده ؛ ثم أفضى إليهم بما كان من سابور وإلقائه الهدية في النهر ، وأعاد عليهم تلك الرسالة الشديدة التي كانت جرحاً في عزة العرب جميعاً ، وامتهاناً لكرامتهم . فما انتهى أذينة من مقالته حتى ترددت أصوات الغيظ والسباب في جنبات المنتدى الفسيح الذي اجتمعوا فيه ؛ ولم تهدأ ثائرتها عند ما أشارت زنوبيا إلى القوم أنها تريد الكلام ؛ فقد كانت ثورة نفوسهم أعنف من أن يلينوا ، كعادتهم إذا بدت لهم أميرتهم الحسناء . فقام أذينة ورفع لهم يده مبسوطة كأنه يهم بإلقاء أمر عليهم في ساحة القتال ؛ فخشعت الأصوات شيئاً فشيئاً ؛ حتى استطاع آخر الأمر أن يسمعهم صوته فقال :

— اسمعوا ما تقول الأميرة .

فلم تنس زنوبيا أن تنظر نحوه نظرة سريعة بابتسامة

عابرة كأنها توىء إليه بشكرها ؛ ثم قالت بصوتها الأغن :

— إن الغضب لا يجدينا شيئاً أيها الكرام من أعيان تدمر . فإن حولنا نيراناً متقدة ، لا يطفئها إلا تفكير وحلم وتؤدة ، ولست أحب أن أكون لكم ناصحة ، فأنتم أبصر بأمور الحروب ، وما يجب لها من تبصر وعدة ، ولكني رأيت الغضب قد غلبكم ، وأخشى أن تفشو في الناس غضبتكم ، فيتحرك سر عانهم قبل أن تملكوا أزمة الأمور ، فلا يجدي بعد تدارك ما قد يندفعون إليه من البوادر ، ولذلك أرجو أن تتركوا الغضب وتقبلوا على ما أنتم فيه بالروية والأناة ، وهذا أخلق بكم وأجدى عليكم .

فلقيت كلمة الأميرة إعجاباً واستحساناً حتى أحس الشيوخ أنهم قد أساءوا في دفعتهم ؛ وجعلوا يمسحون لحاهم ويعبثون بها مطرقين كأنهم يستغفرون من تلك الحدة التي لم يفطنوا إليها .

وجرى الحديث بعد ذلك في حماسة وشاركتهم فيه زنوبيا تجادلهم وتراجعهم وإلى جانبها معلمها (لونجين) يميل نحوها بين حين وآخر ويناجيها بأحاديث قصيرة في صوت هامس

وقضى الجمع الحاشد ذلك اليوم كله في جدله ومناقشاته حتى غابت الشمس ، ثم قاموا وقد وكل إلى رجل منهم أمر من الأمور يقوم على إعداده أو إنفاذه . وأخذ أذينة على عاتقه أكبر نصيب من الحمل ، فكان عليه أن يحشد الجيوش ويكاتب شيوخ القبائل ويبعث الرسل إلى المدائن والقرى لجمع المؤونة ، وأن يبذل الأموال في الناس ليصمدوا من لجاجهم إلى تدمر على كل ضامر وكل نجيب . ومضت بعد ذلك أيام بطيئة كان أذينة فيها شديد القلق لا يكاد يفتر من حركة كأنما هو يستحث مرور الزمن . ثم أخذت الجنود تفد إلى تدمر زمراً وفرادى حتى صارت أرباضها معسكراً فسيحاً ، فضربت فيها الخيام مختلفة الألوان والأشكال كل جماعة ملتفة بخيمة زعيم ، تسمو فوقها مشرفة عالية الدعائم بعيدة الأركان .

وأخذت تدمر تموج بالجند إذ يدخلون إلى أسواقها بعضهم يشتري زاداً أو عدة ، وبعضهم يلتمس متعة من خمر أو لهو قبل أن يشمر للحرب المقبلة ، وكانوا يبذلون المال عن سعة مما أغدقه عليهم الأمير الكريم أذينة من نفقته وعطاياه ، وكان تجار تدمر وأهلها يجدون في زحمة هؤلاء الجنود مرتعاً لهم خصيباً ، ففتحوا لهم أبواب حوانيتهم وعرضوا عليهم السلع وتنافسوا في إرضائهم ، بما هدتهم إليه تجربتهم الطويلة في معاملات الأسواق .

وكان هؤلاء الجنود أخلاطاً من أطراف بلاد العرب من نزار ومعد ومن الأوس والخزرج ، ومن أهل اليمن وأهل الشام ، بل لقد كان فيهم جماعات من الأزد وغطفان الذين كانوا يدينون لملك الحيرة عدو تدمر الذي يتربص بها الدوائر امرىء القيس بن عمرو بن عدي . فلقد هب العرب جميعاً لحرب سابور .

ولما تكامل اجتماع الجيش اللجب استعد أذينة للسير إلى الشمال ، واحتفل بالخروج احتفالاً لم تشهد تدمر من قبل مثله ، فمر بكتائبه المزهوة في الطريق الأعظم ، وكان يركب عربته الحربية الرائعة ، تجرها خيول أربعة عربية حمراء ؛ وقد جلست زنوبيا في جانب منها وعليها تاجها المكلل بالجوهر ، وهي في حلة حمراء أرجوانية تنظر في قلق وإعجاب إلى زوجها أذينة وهو واقف إلى جوارها في لباسه الفضفاض الذي يشبه رداء شيوخ الرومان ، ومن تحته دروعه الكاملة وسلاحه التام ، آخذاً بأعنة الخيول بيديه ، وعلى رأسه بيضة الحرب ، ومن تحتها يبدو جانب وجهه الأسمر القوي بأنفه الأقنى وذقنه المتين ، عليه لحية سوداء قصيرة ، لا يراه الرائي إلا صورة من صور إله الحرب (مارس) . وما زال في سيره حتى بلغ قوس النصر ، ثم مر بالحرم في الناس بركة شمس — بعل حتى خرج من باب

الشمس واتجه نحو الصحراء ، وعاد بعد ذلك مع الملكة إلى المدينة ، وبات الجيش تلك الليلة خارج المدينة .

خرج أذينة في اليوم التالي مبكراً في السحر ، فلما طلعت الشمس كان مع جيشه يضرب في الصحراء نحو الشمال بعد أن ترك في تدمر كتيبة من الجيش لحراستها ، وجعل عليها القائد الشجاع (ورد) ومعه حسان المسيحي الباسل يساعده .

وصعدت زنوبيا إلى رأس برج القصر تراقب مشرق الشمس وتنظر في آثار الجيش وهو يتحرك بعيداً ، وكانت موزعة القلب بين الوحشة من فراق زوجها البطل المرزإ ، والأمل في أن يعود بالنصر والمجد يسوق الأسرى ويحمل الغنائم .

وجعلت تمثله وقد غلب سابور وأذله ، وصار ملك الشرق وسيد العرب ؛ وكانت دموعها تجول في عينيها وهي تحاول أن تكتم الهزة المنيفة التي تهز صدرها ، حتى إذا ما غاب الجيش وراء الكثبان الصفراء تنفست نفساً عميقاً ونهانفت بالبكاء ، ثم التفتت وراءها فرأت صديقها ومعلمها لونجين واقفاً يرمقها من بعيد ، فما وقعت عينها عليه حتى اضطربت إذ فاجأها على غرة ، فلم تقدر على مقاومة نفسها ، فأجهشت بالبكاء ، وخارت قواها . فأسرع لونجين إليها وأسندها فسارت متهالكة إلى جانبه ، حتى عادت إلى الإيوان فارتمت على أريكة ، وتركت لنفسها العنان . فرأى لونجين أن يتركها حيناً وحدها ، فذهب إلى مكتبة القصر وجلس يقرأ ؛ وكان في ذلك اليوم مشتت الذهن لا يستقر عقله فيما يقرأ لجمل بعيد ما ظن أنه فرغ منه ، ثم لا يلبث أن يدرك أنه قد مر على السطور بعين غائبة الوعي ، فيبدأ في قراءة ما طواه حتى مل القراءة ، فرمى بالكتاب ومال برأسه إلى ظهر كرسيه ، وغاب في تأمل عميق .

ولم يدر لونجين كم قضى من الزمن في تأمله ، ثم صحا على مس يد رقيقة لكتفه ، فنظر فزعاً كأنه قد كره أن يصحو من عالم الخيال . فرأى الأميرة واقفة عند رأسه محمرة العينين من أثر البكاء ، فأسرع قائماً في شيء من الارتباك ، واكتسى وجهه حمرة شديدة ، ولكنه لم يستطع أن يخفي من عينيه بريقاً ينم عن سروره لهذه المفاجأة ، فسارت زنوبيا على مهل وهي في كآبة بادية ، حتى جلست على كرسي قريب منه وقالت كأنها تحدث نفسها :

— ما أشد وحشتي مما كنت أجد فيه الأنس والبهجة ! إنني أرى الفضاء ضيقاً والهواء ثقيلاً والنور خافتاً . لا أستطيع أن أبقى وحدي ولا أجد الأنس في جماعة .

وهؤلاء الوصيفات ، لا يتحدثن إلا عن الطيب أو الحلي . أواه ! إن قلبي حزين !

فنظر إليها لونجين مرتبكاً وقال :

— لا تستسلمي لخواطر الساعة ، وتطلعي إلى الأمل الباسم .

فلم تلتفت زنوبيا إلى قوله ، ومضت في حديثها :

— إن المرأة لا تستطيع إلا أن تكون امرأة . كنت أحسب أنني قد سموت على النساء ، ولكنني اليوم عرفت نفسي . ما أنا إلا امرأة ، ما أنا إلا امرأة .

فملأ الدم إلى وجه لونجين ولم يقل شيئاً .

فنظرت إليه زنوبيا ، وكأنها كانت تنتظر منه قولا ، فلما رأته صامتاً وجهت إليه الحديث :

— إنك بغير شك تقول في نفسك : « نعم ما أنت إلا امرأة . » . وهؤلاء الوصيفات كذلك كن دائماً يقلن ذلك ؛ ولكنني أنا وحدي كنت أجهل نفسي . لقد كنت مخدوعة عن حقيقتي ، ولم أعرف سوى اليوم أنني إحداهن .

فقال لونجين في ارتباك :

— مولاتي ! هي هزة الساعة . ما هي إلا هزة تمضي بعد قليل .

فأسرعت زنوبيا قائلة :

— وما أدراك أنني أود أن تذهب عني هذه المرة ؟ إنني كنت أظن نفسي قد تحررت من عاطفة المرأة ، وكنت أحسب نفسي بذلك ممتازة . كنت أظن أنني أميرة ، وأن ما عدا ذلك لا يهم في الحياة . كنت أتصور أن جدتي كليوبترة كانت مثلي الأعلى — ملكة قبل كل شيء ، جعلت الملك همها فتوسلت إليه بذكائها وقوتها وعقلها وجمالها ، وضحت من أجله بكل عزيز عند المرأة . استخدمت كل شيء في سبيل ملكها ، حتى الحب نفسه جعلته من أسلحتها لحماية ذلك الملك . ولكني أدركت اليوم أنني لن أستطيع أن أكون مثل جدتي . بل لقد بدأ الشك يدب إلى نفسي من أنني كنت أعرف حقيقتها . أتظن يا لونجين أن كليوبترة كانت كما كنت أحسب ؟ أتظن أنها كانت ملكة ولم تكن امرأة ؟

ثم نظرت إلى الرجل في تلهف واهتمام . فزاد لونجين ارتباكاً وود لو أن تلك الأميرة الحسناء لم تحضر إليه في تلك الساعة لتجره إلى مثل هذا الحديث ، وأعاد النظر إليها فوجدها تنتظر منه أن يجيب فقال في تردد :

— إن الإله الذي خلق النفوس لم يخلق ملوكاً ولا أمراء ، ولكنه خلق رجالاً ونساء .

فأسرعت زنوبيا قائلة وفي صوتها رنة الأسف :

— هذا ما بدا لي اليوم يا صديقي الأجل . كانت نظرتي في الحياة نظرة الجاهل الذي لم يصل إلى قرارة الحكمة . كنت أرى أذينة أميراً كما كنت أرى الناس فأحسب كلا منهم كما تدل عليه ملابسه . كنت أرى الفارس فلا أعرف فيه إلا فارساً ، والحكيم فلا أرى فيه إلا حكيماً ، والوصيفة فلا أرى فيها إلا تابعة ، ولكني اليوم تنبهت إلى أن هؤلاء جميعاً قد يكونون غير ما حسبت ؛ قد تفتحت عيني قليلاً منذ أيام عند ما كنت أحدث لميس . فرأيت في كلامها شيئاً يدل على أن وراء ظاهرها شيئاً آخر . شيئاً حياً له رغبة وله قلب وله نفس . ولكني لم أفطن إلى الحق كله . أما اليوم فقد تفتحت عيني لكل نور الحقيقة ، اليوم فقط عرفت .

وأطرقت عند ذلك لحظة وهي صامتة ، وكان لونجين ينظر إليها وهو مضطرب يعبث بطرف لحيته السوداء ، وهو يتأمل أقوالها ، وفي قلبه شجون لا يقوى على التنفيس عنها .

واستمرت زنوبيا فقالت وهي تنظر إليه :

— وأنت أيضاً يا لونجين . أنت أيضاً بغير شك تحجب وراء هذا المظهر نفساً تجيش . قل لي شيئاً غير الحكمة ، فأني اليوم لا أريد غير أن أعرف الناس .

فنظر إليها مندهشاً مضطرباً وهو لا يدري ما قصدها وزاد ارتباكه فلم يجب فاستمرت تقول :

— إنني لم أعرف منك إلا أنك رجل حكيم علمتني وقرأت لي كتب الأدب والشعر والفلسفة . كنت أعيش معك ساعات في آفاق من الفكر والخيال . ولم أفكر في يوم من الأيام أنك إنسان . كنت لا أراك إلا فكرة وعقلا وذكاء . ولم أحاول أن أفكر في نفسك وفي حقيقتك . حدثني اليوم عن نفسك فإن في ذلك الحديث ما يشبع لشوقي إلى علم جديد ، علم جهلته ولم أتنبه إليه من قبل .

فنظر لونجين إليها مبهوتاً وقال هامساً :

— ما أنا إلا فكرة . ما أنا إلا كتاب !

فنظرت إليه الأميرة عاطفة وقالت في لهجة الاعتذار :

— إنني اليوم عند أول عالم جديد تفتح أمامي . كنت أرى أذينة شريكا وزوجا وفارساً ، ثم بدا لي أنه شيء آخر . هو جانب من وجودي لا علاقة له بالإمارة ولا بالزواج ولا بالحرب . حدثني عما تعرفه عن نفسك ، وقل لي كيف ترى المرأة ، لعلي أعرف كيف يراني أذينة . ألم تعرف المرأة يا لونجين ؟

فقال لونجين في صوت يشبه الأنين وكأنه ينطق بغير وعيه :

— عرفتها . عرفتها يا مولاتي كما عرفت الرجل .

فأسرعت مجيبة فى لهفة :

— قل لى إذاً كيف أنت منها إذا أحببتها .

فأطرق وهو يجيب وقال :

— أهب نفسى لها .

فقالت وكأنها لم تفهم :

— حدثنى عن نفسك ، قل كيف تحس ، وكيف تفكر ، وكيف تعمل . قل لى إن كنت قد أحببت امرأة .

فنظر لوتجين إليها وكأنه قد فك من عقال وذهب ما كان على وجهه من الاحمرار ، وزال عنه ما كان يعقد لسانه من الارتباك وقال فى صوت متهدج :

— قد عرفت امرأة واحدة . عرفتها لأنى أحببتها . وودت لو أن الحياة كانت شيئاً يعطى فأهبها إليها ، فهكذا الرجل أو هكذا أنا . لم يخلق الرجل إلا ليكون عبداً ، وخلقت المرأة لتكون مالكة . الرجل يبيع نفسه من أجل الحب ، يبذل للمرأة كل شىء عنده ، يهب قوته وقدرته وحيلته ويسخر مهارته وقسوته وشجاعته ، ويهدى علمه وفنه وحكمته . يبذل لها كل ذلك ويقنع منها بأن يحبها ولو لم تحس هى بذلك الحب .

وكانت زنوبيا تنظر إليه وهو يتدفق فى قوله متعجبة أن يكون ذلك الرجل الذى ينبعث فى حديثه بمثل هذه الحماسة هو معلمها الحكيم الهادىء الذى لم تظن يوماً أنه يخفى مثل هذه الحياة تحت مظهره الساكن . ولما انتهى من قوله بقيت لحظة فى شىء من الدهشة ثم قالت باسمة :

— ما كان أكبر جهلى بك يا صديقى الأجل ! إذ ظننت أنى كنت أعرفك . وإنى أشكرك على أن أزلت عن نفسى ظلامها الكثيف .

ثم قامت وهى تتنفس وتقول :

— لقد بعثت إلى نفسى سلاماً ما كان لأحد سواك أن يبعثه . سأطمئن فى غيبة أذينة على تكرار حديثك هذا . سأبعث إليه روحى لكى يصاحبه ويؤنسه ، وسأحس وأنا هنا بنفسه كأنه إلى جانبى يسطع على حياته . لقد وصفت الرجل وصفاً جيداً لو صدق . أما أنا فإنى أصف لك المرأة التى تحب يا صديقى . أنت تقول إنها تحب لتملك الرجل . وأما أنا فأقول إنها تحب لأن الحب حياتها . هى تحتاج إلى الحب لكى تكون شيئاً ما فى الحياة . وإذا صح أنها تحب لتملك فما ذلك إلا لأنها تريد أن تملك ما ليس عندها ، تريد أن تملك ما تقوى به على الحياة . لقد بعثت إلى نفسى السلام بحكمتك أيها السيد الأجل ، فلأردد ما قلته الساعة كل يوم ، ولأرقب عودة الجزء الذى بعد عنى وهو منى . وسأجعل هذه الذكرى تؤنسنى حتى يعود .

ثم ذهبت بعد أن ألقت تحية إلى معلمها وهى ذاهلة الفؤاد ، وسارت عائدة نحو مخدعها مطرقة بطيئة الخطوات مضطربة القلب .

وبقى لوتجين لحظة فى مكانه واقفاً ينظر فى أعقابها حتى اختفت عنه ، ثم ارتمى على كرسيه ، ووضع رأسه بين يديه ، وقال يناجى نفسه :

— أيها الحكيم الأبله ، أيها الحكيم الشقى !

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

* * *

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

الرقيب فى الأدب العربى[1]

للدكتور محمد عوض محمد

سادتى :

سأتحدث إليكم اليوم فى موضوع أدبى خطير ، لكيلا أكلف نفسى عبثاً فى بذل مجهود لن يكلل بالنجاح ، بمحاولة حدكم وشكركم . وهو أمر سيبدو فيه عجزى وقصورى ، ويتبين فيه عيى وافتضاحى . وأنتم أجل وأرحم من أن ترتضوا لى موقف العى والافتضاح .

كذلك أخشى — إن أنا حاولت شكركم — أن يخجل تواضعى خجلا شديداً ، وأن تتضرج وجناته بالدماء النزرة ، فلا يبقى لدى تواضع ولا خجل ، وأنا فى أشد الحاجة للاحتفاظ بالبقية الباقية من خجلى وتواضعى .

لهذا لن أحاول شكركم . بل سأحاول أن أحاضركم محاضرة وجيزة ، فى موضوع أدبى جليل : وهو موضوع الرقيب والرقابة فى الأدب العربى .

* * *

الموضوع الذى أعرض له اليوم يشتمل على مأساة . وقد يسميها بعض الساخرين الفارغى القلب ملهاة أو مهزلة ، وهذا خطأ واضح ، لأن البطل فيها ينتهى به الأمر عادة إلى الوفاة .

هذه المأساة ذات أشخاص ثلاثة : المحب أو العاشق ، وهو البطل ، والحبيبة أو المشوقة وهى البطلة ، والشخص الثالث ، وهو شرير الرواية ، ويسمى الرقيب .

وأرجوكم — وأنا بعد فى فاتحة المحاضرة — أن تتذكروا وتحفظوا هذه الأشخاص جيداً لكى يسهل عليكم فهم الرواية ، وتلموا بالموضوع خير إلمام . فاذا وجدتم صعوبة فى حفظها ، فاذكروا أن المجمع اللغوى جعل السندوتش عبارة عن شاطر ومشطور وبينهما طازج[1] وقصتنا عبارة عن عاشق ومعشوق وبينهما رقيب .

* * *

ولا بد لى أن ألفت نظركم إلى أن البحث الذى أدلى إليكم به الآن ، مبنى على شهادة أحد الطرفين ، دون الآخر . وجميع ما بين يدى من القطع الأدبية من وضع البطل نفسه ، وأحياناً من وضع البطلة . لدينا أشعار كثيرة يصف فيها الشاعر العاشق حاله ومآله ، وما جرى له مع الرقيب . . . أما الرقيب فلم يكتب لنا أثراً أدبياً يدافع به عن نفسه ، ويدلى فيه برأيه فى المحبين وأخلاقهم وأعمالهم . وهذا نقص كبير فى الأدب العربى لا بد لشعرائنا من تلافيه بأن ينظموا القصائد العظيمة على لسان الرقيب . حتى يكون هنالك عدل فى عالم الأدب ، إذا تعذر العدل فى بقية نواحى الحياة .

* * *

لقد كان موقف العشاق من الرقباء يتخذ مظاهر شتى ، حسب مزاج المحب وطبعه ، ونزعته للخير أو الشر . وسأسوق هنا طائفة من الأمثلة أدلل بها على المظاهر المختلفة ، لتلك المأساة .

١ — الخضوع والاستسلام :

ومن أهم هذه المظاهر أن يستسلم المحب لحكم القضاء الذى سلط عليه الرقيب ، يتبعه أينما ذهب ، نظراً حاداً وعيناً لا تغفل . فيقول ابن الدمينة :

أحقاً عبادَ الله أن لست صادراً
ولا وارداً إلا علىّ رقيبُ !

(١) أقام رجال الصحافة مأدبة غداء للدكتور محمد عوض بمناسبة اعتزاله العمل فى مراقبة النشر . وقد رغب إليه كثير من الذين شهدوا الحفلة أن ينشر الكلمة التى ألقاها فى حفلها .

(١) (الثقافة) : هذه إشاعة جرت على الألسنة ولا حقيقة لها ، وإنما ذكرها المحاضر على سبيل الدعابة .

ولا زائراً فرداً ولا في جماعة

من الناس إلا قيل : أنت مُريبُ

وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى

إلىّ ، وإن لم آته ، لحبيبُ

فأنتم تحسون في هذه الأبيات نغمة الاستسلام والخضوع ، وكيف اضطر العاشق الولهان لأن يذعن للقضاء ، فيمتنع عن زيارة الكثيب الفرد ، مع أنه لا يزال يحبه حباً شديداً .

ومن الخضوع والاستسلام أيضاً قول الآخر :

ولما رأيت الكاشحين تتبعوا

هوانا وأبدوا دوننا نظراً شزرا

جملت وما بي من صدود ولا قلى

أزوركم يوما وأهجركم شهرا

* * *

ويدخل في باب الخضوع والاستسلام أيضاً ماحدث لأبي الطيب المتنبي مع رقبائه ، حين ظن أنه سيختفي من عيونهم بالظلام الدامس . ولكنه ارتكب غلطة عظيمة ، إذ عشق امرأة كالشمس في رابعة النهار . فكان من المستحيل أن تزوره في الظلام ، لأن نورها ساطع فاضح . وكان من الحمق والطيش أن يعشق امرأة هذا شأنها ؛ وكان أولى به أن يحب زنجية سوداء ، تحيل النهار الواضح ليلا قاتماً .

وأظنه أدرك خطأه بعد ذلك ، فقد حدثنا من نثق بكلامه أنه رآه جالساً في سوق حلب يدق كفاً بكف ، ويبكي ويقول :

أمِنَ ازديارَكِ في الدجى الرقباءُ

إذ حيث كنت من الظلام ضياء

هذا ما كان من أمر أبي الطيب .

وربما دخل في باب الخضوع والاستسلام أيضاً قول ابن المعتز :

وا بلائي من محضري ومغيبي	وحبيب مني بعيدٍ قريب
لم تَرِدْ ماءَ وجهه العينُ إلاَّ	شرقتْ قبل ريها برقيب !

هذه الرواية المشهورة . وفي رواية أخرى شرقت قبل ريها بتوفيق سليب . ولا أظن هذا صحيحاً ، لأن فيه إخلالاً بيناً بالوزن لا يجوز من مثل ابن المعتز . ولو كان الشاعر محمود أبو الفتح أو كريم ثابت ، لكان الموضوع محل نظر .

* * *

أنتهي الآن من باب الخضوع والاستسلام ، وأنتقل إلى باب :

٢ — انتهاز الفرصة واستغفال الرقيب :

فالرقيب كسائر الناس قد يغفل أو يُستغفل ، فينتهز العاشق النبيه هذه الفرصة ، فيمتع بصره بمحاسن محبوبه . فاذا صحا الرقيب وحملق بعينيه ، تظاهر العاشق بأنه رجل بريء ، بعيد كل البعد من الحب والغرام .

وفي هذا يقول ابن المعتز :

أرد الطرف من حذري عليه	وأمنحه التجنُّبَ والصدودا
وأرصد غفلة الرقباء عنه	لتسرق مقلتي نظراً جديدا

وربما دخل في هذا الباب أيضاً قول الشريف الرضي في قصيدته المشهورة :

ياظبية البان ترعى في خمائله	ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه	وليس يرويك إلا مدمع الباكي

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى

من علَّم العينَ أن القلب يهواك

وفيها يقول :

عندي رسائل شوق لست أذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

٣ — سب الرقيب وشتمه

وهنالك شعراء من العشاق ، أو عشاق من الشعراء ، نهجوا منهجاً عنيفاً نحو الرقيب ، فهم يضربونه إذا استطاعوا بأيديهم ، وإلا فبألسنتهم ، طبقاً لما جاء في الخبر المأثور : من رأى منكم رقيباً فليضربه بيده ، فان لم يستطع فبلسانه .

وعلى رأس هذه المدرسة شاعر اشتهر بالبذاءة وطول اللسان ، وهو ابن الرومى ، الذى لم يتورع من هجاء كل شىء ، وكل إنسان ، حتى هجا الورد من غير تحرج ولا مبالاة .

قال المذكور — عفا الله عنه — وما أظنه يفعل — فى هجاء الرقيب :

ما بالُها قد حُسِّنَتْ ورقيبُها
أبداً قبيحٌ ؟ قُبِّح الرقباءُ
ما ذاك إلا أنها شمس الضحى
أبداً يكون رقيبها الحرباءُ

هذا مثال من سفاهة تلك الطائفة ، وأرجو أن تسمحوا لى ألا أطيل الحديث منها ، وأن أنتقل بسرعة إلى طائفة أخرى ، لعلها أسمى وأنبل جماعة فى العشاق ، ألا وهى طائفة العشاق الذين عليهم من أنفسهم أقوى رقيب . فليس بهم حاجة لمن يراقبهم ويلاحظهم ، وما فائدة الرقيب حين يكون البطل شريفاً نبيلا ، والمعشوقة قد لفها ثوب الصيانة والعفاف من الرأس إلى القدم ؟

وخير مثال لهذه الطائفة الشريف الرضى ، ومن أحق من الشريف الرضى بأن يتزعم هذه الجماعة :

عشقت وما لى يعلم الله حاجة
سوى نظرى ، والعاشقون ضروب !
عفافىَ من دون التَّقيَّة زاجرٌ
وصونُك من دون الرقيب رقيب

وكذلك قال شوقى رحمه الله :

وعلينا من العفاف رقيب
تعبت فى مراسه الأهواء

والآن أيها السادة ، إن حديث الرقباء طويل كحديث العفاريت ، لا يكاد ينتهى ، ولذلك فإنى مضطر لأن أقطعه قطعاً . ولكن هنالك طائفة أخرى لا بد لى أن أختم بها هذا البحث ، وهى طائفة عجيبة غريبة . العاشق فيها شاعر ضخم . قد اكتسى جسمه من اللحم والشحم مازنته عدة قناطير . وهم مع هذا يزعمون أنهم من النحول والرقة بحيث صارت أجسامهم شفافة ، لا يراها الرقيب ، ولو استعان بمنظار ، فهم يزورون أحبابهم جهاراً فى رابعة النهار ، فلا يستطيع الرقيب أن يراهم ، لأن الواحد منهم كالخيال المضمر . وعلى رأس هذه المدرسة شاعر مصرى خفيف الروح يدعى كامل الشناوى . وقد أنشد فى هذا الموضوع قصيدة عصماء يقول فيها :

قل للرقيب بدار أهرام الهوى
هل جئت ترتقب الخيال المضمرا ؟
إنى بليت من الصبابة والجوى
حتى خفيت من العيون فلا أرى

* * *

وبعد — أيها السادة — فى هذه المأساة ذات الأشخاص الثلاثة ، قضى على القدر الجائر ألا أمثل دور العاشق ، بل دور الرقيب . وكان علىَّ فى هذه الأشهر الستة أن أراقب العاشق المتيم « رجل الصحافة » ، وهو يجد فى البحث عن معشوقته « الحقيقة » ، فيضنيه هذا الحب ، ويعنيه هذا البحث .

لقد كان من نكد الدنيا على الحر أن يكلف مراقبة الأحرار ولكن كان من حسن حظى أن العشاق الذين كلفت مراقبتهم هم جميعاً من طراز الشريف الرضى ، شعارهم العفة والصدق والاخلاص . ولهذا لم يكن عملى شاقاً ولا مجهداً . والأمر الذى كنت أقدّر أن يكون كريهاً على نفسى مبغَّضاً إلى نفوسهم ، قد أصبح بفضل نبلهم وعفافهم عملا سهلا ميسوراً .

وهكذا تنشأ حالة جديدة فى الرقابة لم يذكرها شعراؤنا من قبل ، وهى الرقيب الذى انتهت به المراقبة إلى أن أحب من يراقبهم ، وبذل جهده فى التقريب بينهم .

وإنى — إذ أودعكم اليوم كرقيب — أود أن تقبلونى كصديق ، فلئن كان هنالك شك فى صلاحيتى للمراقبة ، فإنى لا يتسرب إلى الشك فى صلاحيتى للصداقة .

والسلام عليكم ورحمة الله .

اتحاد العرب

الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

اشتد اعتداد الناس بالعصبيات ، وغلوهم فيها ، وتقاطعهم بها في هذا العصر . وهذه الحرب التي تدمر كل شيء أتت عليه ، ويصلى بها جُناتها وغير جُناتها ، أدت إليها أسباب أولها الغلو في العصبيات .

والغلو في العصبية يغلب على صاحبه عقله ورأيه ، ويصرّفه بالهوى والأثرة ، فلا يعترف بالحق إلا بمقدار ما بينه وبين عصبيته من سبب . الحق والعصبية الغالية لا يجتمعان ، كما قال الشاعر الفارسيّ الصوفي سنائي : « لا تستطيع الاستقامة على طريق التوحيد بقبلتين ، فإما رضا الحق وإما هوى النفس » .

فلست حين أتكلم عن قومنا العرب بمشتطّ أضعهم فوق البشر ، وأضع كل من خالفهم في الدرك الأسفل . لستُ بذاهب مذاهب الذين يدّعون أن أممهم مهد الحضارات ، ولغتهم أصل اللغات ، وجنسهم فوق الأجناس ، ولا مذاهب الذين يدّعون أن كل خير في العالم إليهم مرجعه ، وكل فضل منهم مبدؤه . ولا أن يكون إليهم منتهاه .

لا أريد إلا كلمة حق وإنصاف تنير لناشئتنا السبيل ، وتوضح لهم المنهاج ، ليسيروا على طريق لاحب إلى غاية معروفة .

— ٢ —

عرف التاريخ منذ وعى أحداث الأمم ، وسجّل وقائعها أن موطن الأمم السامية ما بين بحر العرب وجبال طوروس ، من الجنوب إلى الشمال ، وما بين دجلة إلى بحر الروم وبيداء سيناء من الشرق إلى الغرب ، وقد عاش العرب منذ أولية التاريخ في هذا الوطن ، وامتدت بهم الهجرة في كل الأرجاء ، حتى اتسع موطنهم غرباً إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وجنوباً إلى بلاد السودان وسواحل أفريقية الشرقية . وهم اليوم في هذا الوطن الفسيح يحتلون خير بقاع العالم .

وقد خلطهم الإسلام وحوادث التاريخ بجماعات هاجرت إلى بلادهم وهاجروا هم إلى بلادها . وبقيت هذه الأمة القوية الكبيرة بين الجزر والمد في هذا الوطن . ولا ينبغي أن يتلجلج سكان البلاد العربية في أمرهم ، أو يختلفوا في أصولهم ويتنابذوا بالعجمة ، فيقال هذا عربيّ الأصل وهذا غير عربيّ . فكل من اتخذ بلاد العرب داراً ، ولغة العرب لساناً ، ورضي العرب قوماً وشاركهم في آمالهم وآلامهم فهو عربيّ ؛ كما أن العربيّ الذي يذهب إلى بلاد غير عربية ويتكلم بلغتها ويتحضر بحضارتها ، ويلبس عصبيتها ، يعدّ منها . له ما لأهلها من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات .

ولن يمكن أحداث الزمان أن تغلب الأمة العربية في مواطنها ، وتمحو عروبتها ، فهي أمة خالدة خلود الدهر ؛ ذلكم بأن لهذه الأمة الكبيرة منبعاً عربياً خالصاً يمدها بالفيض بعد الفيض ، على مرّ الزمان . جزيرة العرب موطن محتجز من الأمم الأخرى بحدوده الطبيعية : البحار من ثلاث جهات ، والصحارى والجبال من الجهة الأخرى . وقد أرسلت هذه الجزيرة في غيب التاريخ جماعات بعد أخرى تنزل البلاد التي اتخذها العرب موطناً قبلاً أو تحل مواطن جديدة . وما زالت في عصور التاريخ حتى اليوم فيّاضة مدّادة ، تمد العربيّ الحرّ القحّ ، وتنشئه ثم تحفظه في أرجائها أو ترسله مدداً قوياً خالصاً إلى المواطن الأخرى . فإذا ضعفت الأمم بالاختلاط ، أو

فسدت بالحضارة فامّحت ، فستبقى الأمة العربية حافظة خصائصها ومزاياها ما بقى هذا الصنع البشرى يصنع لها الأجيال بعد الأجيال — ما بقيت هذه الجزيرة الخالدة .

— ٣ —

هذه الأمة العظيمة الخالدة التى تنزل هـذه المواطن الفسيحة ، لها على اختلاف الديار أسباب تربط بينها ، وتوحّد جمعها ، وتمهد طريقها وتبين غايتها . للأمة العربية ما بين دجلة والمحيط الأطلسى ، أواصر تجعلها أمة واحدة على اختلاف الأرجاء وتباين الأحوال :

ا — هى أمة ذات لغة واحدة تعرب بها عن أفكارها وعواطفها ، وتقرأ بها ما أدركه آباؤها من علم وأحسوه من عاطفة . وقد اختلفت لهجات اللغات العامية ، ولكن بقيت الفصحى لغة جامعة ، تجعل جرائد بغداد مقروءة مفهومة فى فاس وشنقيط . وقد خابت دعوة الطامعين فى تفريق هـذه الأمة بتبلبل ألسنتها ، وإحلال اللهجات العامية محل اللهجة الفصحى . وليست هذه الفصحى لغة الخاصة من المتعلمين فحسب ، بل هى لغة العامة فى كل بلد ، يسمعونها فيفهمونها . وهل تعرف بلداً عربيا لا تفهم عامته القرآن ؟ والنـاس فى ارتقاء إلى اللغة الفصيحة مستمر ، وسيأتى يوم لا تفترق فيه العامية منها إلا بالاعراب أو أمور أخرى يسيرة .

ب — وللأمم العربية أدب قوى غنىّ يغذو عواطفها ويقوّى آمالها ، ويطمح بها إلى جلائل الأمور ، وتتمها ببهجة الحياة . وهذا الأدب يزخر فى أرجاء بلادها وعصور تاريخها منذ أمد بعيد ، وهو أدب جامع يتناول كبائر أمورها وصغائرها ، ويحفظها أن تتحلل من أواصرها ، أو تزول من مكانتها على كرّ الدهور . وقد جاوز المواطن العربية إلى بلاد أخرى ، اتخذته أدباً لها ، ولا يزال مدروساً معروفاً فى بلاد الفرس والترك والهند . وقد صبغ الآداب الاسلامية كلها بطابعه ، فقربت منه وتقاربت فيما بينها . وحسبك بهذا الأدب القوى حياة وإلهاماً وعزاً وإباءً وسيراً إلى الغايات ، وارتقاءً إلى المعالى . حسبك به جامعاً أشتات الآمال كما تؤلّف السحب من البخار المنتشر ، ثم تهطل فتكون غيثاً محيياً ، وسيلاً جارفاً ، ثم تكون على الأرض حياة ونضرة .

أدب الجاهليـة القوىّ قوة رجل الجزيرة ، الناضج نضج سهوبها ، العالى علاء جبالها ، ما يزال يوحى إلى قلب كل عربىّ فروسـية عنترة ، وفتوّة امرىء القيس ، وحكمة زهير ، ورجولة لبيد ، وجود حاتم ، وغير أولئك من أدب الفطرة القوية ، والاحساس المرهف .

والأدب الإسلامى فى عصوره المتطاولة ، ودياره المترامية ، ما بين بغداد وقرطبة ، أجلّ من أن يحيط به وصف ، وأروع من أشير إلى جماله وجلاله فى هذا المقام .

حـ — ولهذه الأمة الكريمة تاريخ وضاء رائع ، جليل جميل ، مرغوب مرهوب .

ولست أغلو فأبدأ بتاريخ بابل وأشور . ولا أبعد فأذكر تاريخ اليمن القديم وماوعت الرواية ، وكشف البحث من آثار العرب فى الجاهلية . ولكنى أكتفى بما فيه كفاية كل نفس عظيمة طامحة مجاهدة جاهدة . أذكر بتاريخ العرب فى عصور الاسـلام ، التاريخ الذى طوى ما بين الصين وبحر الظلمات فى حقبة قصيرة ، ولفّ الممالك فى راية صغيرة . وجمع فى همة العرب ، وعدل العرب ، أمماً وبلاداً وحوادث لم تجتمع لغيرهم فى أضعاف زمانهم .

تقاربت جنبات الأرض واجتمعت
فى همة العرب أقطـار وأمصار
كأن ما بين بغداد وقرطبة
على الخريطـة أفتـار وأشبار

فما تطمح النفس الطامحة إلى إمام فى الأخلاق ، أو قدوة فى العدل ، أو مثل فى الحرب ، أو بطل فى أمر من أمور الحياة إلا قابلها تاريخ العرب بما يردعها ويدفعها فى سبيل المجد إلى أبعد الغايات .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

خسارة الأرواح والصحة

للدكتور محمد عبد الحميد بك

الطب في أغلب البلدان مشكلات كثيرة . ولعل من أهمها علاقة الأطباء بالجمهور ، أو علاقة الجمهور بالأطباء ، ولقد عنيت بدرس هذه المشكلة منذ ما بدأت حياتي الطبية ، متتبعاً ما ينشر عنها في الكتب والمجلات الانكليزية الطبية ، ومقابلا بين ما في مصر وما في البلاد الأجنبية . وكنت أعمل ذلك وأنا على نشاط من عزمي وارتياح من طبعي ، مما يمكنني أن أعالج هذا الموضوع ، على صفحات هذه المجلة ؛ في سلسلة من الكلمات . وما أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله . ولأبدأ بخسارة الأرواح والصحة من قلة الأطباء ، وعدم كفاية العلاج بنوعيه الوقائي والشفائي فأقول :

في الولايات المتحدة عدد كبير من الأطباء هو ١٦١٣٥٩ مما يجعل لكل ٧٨٠ نفساً من السكان طبيباً . ويقدر عدد القائمين على المرضى من الأطباء والصيادلة والممرضات والممرضين والدجالين بنحو مليون من الأنفس ، أي بنسبة واحد لكل مائة وعشرين . ويدفع الجمهور للخدمة الطبية ولثمن الأدوية والعقاقير وما إليها من الأدوات ٣٫٦٥٦٫٠٠٠٫٠٠٠ من الدولارات ، أي بمعدل ٣٠ دولاراً لكل نفس . وفيها مستشفيات ومصحات ومستوصفات تجعل لكل ١٢٥ نفساً سريراً .

وإن تعجب أيها القارىء الكريم من هذه الأرقام فعجب أن تعرف أن القوم هنالك يقولون إن هذه الخدمة الطبية غير كافية وغير وافية بالغرض . ذلك لأن كل عامل من العمال الذين يصل عددهم إلى ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ، ينقطع من عمله نحو ثمانية أيام في السنة بسبب المرض ، وأن كل التلميذ من التلاميذ الذين يبلغ عددهم ٣٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ينقطع عن مدرسته نحو سبعة أيام في السنة بسبب المرض أيضاً . وهم يعدون أيام الانقطاع هذه خسارة كبيرة .

وهم كذلك يعدون الخدمة الطبية غير وافية بالغرض لأن خمسين في المائة ممن يقل إيرادهم السنوي عن ١٫٢٠٠ دولار لا يعالجون في أثناء مرضهم مع شدة حاجتهم إلى شيء من العناية الطبية . أما المهملون طبياً ممن يتفاوت إيرادهم السنوي بين ٣٫٠٠٠ و٥٫٠٠٠ دولار فيبلغون الثلث ، ولا يقل عدد المهملين طبياً ممن إيرادهم السنوي ١٠٫٠٠٠ دولار عن ١٤ في المائة .

أضف إلى ذلك أن العلاج فيمن يعالجون قد لا يكون كافياً . ولا تنس أن القوم قد حذفوا من هذه الاحصائية حساب السود ، لأن علاجهم أعز من أن يذكر .

هذه هي الخدمة الطبية في الولايات المتحدة التي يصح أن يقال عنها إنها غنية بثروتها غنية بكثرة أطبائها أو بنسبة عددهم إلى عدد السكان .

وهل الخدمة الطبية في غير الولايات المتحدة خير منها فيها ؟ كلا . ذلك لأن أغلب الناس ، في جميع البلاد ، لا يستشيرون الطبيب حين يجب أن يستشيروه خوف الأجور العاجلة أو الآجلة . فأغلب المرضى لا يذهبون إلى الأطباء إلا بعد تجربة الأدوية المجهزة ، التي يعلن عنها في صفحات الجرائد والمجلات ، وإلا بعد استشارة طائفة الدجالين أو الحلاقين ومن إليهم ، وإلا بعد التداوي بالوصفات الشائعة بين العائلات والأصدقاء .

ويقول الأمريكيون إنهم يحتاجون إلى ٥٠٫٠٠٠

من الأطباء علاوة على من عندهم منهم لكي تكون الخدمة الطبية وافية بشكلها الحاضر ، أما إذا أراد الجمهور الأمريكي أن يستفيد من الطب الفائدة التي يستطيع الطب أن يؤديها ، فلابد أن يكون عندهم لكل ٤٠٠ نفس طبيب ، أي يجب أن يكون عندهم من الأطباء ضعف العدد الموجود ، فوقتئذ يقوم الأطباء بالخدمة الطبية بنوعيها من وقاية وشفاء على الوجه الأكمل . ويقول القوم في أمريكا أيضاً : إن صحة أغلب السكان في الولايات المتحدة ليست على ما يرام ، وذلك لأنه قد اتضح من فحص ٢٫٧٥٣٫٩٢٢ للخدمة الحربية في أثناء الحرب العظمى أن ٤٧ في المائة منهم مصابون بأمراض وعاهات ، وأن ٢٥ في المائة لم يجندوا لعدم لياقتهم طبياً ، مع أن المصابين بالأمراض الزهرية لم يرفضوا . ومن الحق أن يقال إن هذه الأمراض أو العاهات لم تكن من الخطورة بحيث تمنعهم من أعمالهم المدنية . وهم يستنتجون من ذلك أن نصف السكان تقريباً في حاجة إلى العناية الطبية ، أو أن نصف السكان مصابون بأمراض وعاهات كان من السهل اتقاؤها لو قام أولو الشأن عندهم بالعناية الطبية الصحية الضرورية ، وزاد عدد الأطباء عندهم الزيادة المطلوبة .

ويدعي بعضهم أن من الممكن تحسين الصحة العامة عندهم بتعيين طبيب لكل مائة وخمسين أسرة ، يكون من عمله أن يتعرف بهذه الأسر وأحوال أفرادها الصحية والاجتماعية وطرق معيشتهم ، وأن ينصرف بكل همته إلى المحافظة على صحتهم الحاضرة . أما مريضهم فليس من شأنه العناية به ، بل يرسله إلى المتوفرين على الأمراض المختلفة لعلاجه . وهم يعتقدون أن مثل هذا الطبيب يؤدي خدمة عظيمة ، لأنه يقي أفراد هذه العائلات من الأمراض التي يمكن اتقاؤها بإرشادهم إلى القواعد الصحية وبتصحيح العيوب الصحية المنزلية ، وباكتشاف الأمراض وهي في أدوارها الأولى ، قبل أن يستفحل أمرها فتتلف صحة المصابين بها ، أو قبل أن تتقدم بهم إلى قبورهم .

وإذا عرف الانسان أن القوم في الولايات المتحدة لا يزالون ينشدون المزيد من المستشفيات والمصحات والمستوصفات على كثرتها عندهم ، وينشدون المزيد من الأطباء وعندهم لكل ٧٨٠ نفساً طبيب كما قدمنا ، وينشدون المدارس الطبية وهي أكثر من أن تعد وتحصى ، لتخرج العدد المطلوب من الأطباء للوقاية الكافية والعلاج الشافي ، وينشدون المزيد من الصحة وهم أصح منا أكلا وشرباً وملبساً ومسكناً ، وليس عندهم من الأمراض المستوطنة ما عندنا مما أوشك أن يقضي على أرواح الفلاحين وصحتهم . ثم عرف الانسان بعد ذلك أن القوم عندنا يضنون علينا بمدرسة طبية ثانية على قلة ما عندنا من مستشفيات ومصحات ومستوصفات ، وعلى قلة نسبة الأسرة لعدد السكان ، وعلى قلة ما عندنا من الأطباء لتأدية الخدمة الطبية الصحية ، الضرورية جداً لانقاذ الأغلبية الساحقة من السكان من الأمراض التي تفتك بأرواحهم وبصحتهم فتكا ذريعاً — أقول إذا عرف الانسان ما هنالك وما هنا ألا يخر صعقاً من هول ما يرى من الفرق العظيم ؟ ولعله باخع نفسه إذا عرف أن كلية الطب لا تقبل إلا عدداً محدوداً ، وأن هذا العدد المحدود كثيراً ما يغربل غربلة شديدة في أول كل سنة من سنوات الدراسة بطريقة لم تعهد في جامعة من الجامعات .

محمد عبد الحميد
وكيل مستشفيات الجامعة

حكم استئنافياً بتغريم أحمد مرسي صفا الجزار بمصر الجديدة بالقضية رقم ٨٨٩١ بجلسة ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٠ جنيها ونصف لبيعه لحماً بأزيد من التسعيرة

٢ – قصــــة التطور

للدكتور عبد الحليم منتصر

يقول الأستاذ باطسن فى رسالتين نشرهما سنة ١٩٢٢ : « إن العلم الحديث لم يحقق آراء الداروينية فى أصل الأنواع ، بل لعله زاد هذا الأصل غموضاً » وما يزال عقم بعض المُهَجَّن مما يحير علماء الوراثة . والواقع أن تقدم علم الوراثة وتجاربه العديدة التى يجريها العلماء فى مختلف بقاع العالم على أنواع عديدة من الحيوانات والنباتات كلها لا تزال بعيدة عن أن توضح مسألة « أصل الأنواع » .

وقد عزا « دى فريز » العالم النباتى الهولندى ، أصل الأنواع ، إلى التغيرات الفجائية التى سماها « الطفرة » ، وقد لاحظ حدوثها فى تجاربه على نبات Oenothera Lamarckiana وقد ميز « دى فريز » بين التغيرات التى يعزوها إلى الطفرة ويرى أنها تنتقل وراثياً من جيل لآخر ، وبين الاختلافات اليسيرة التى تكون نتيجة للتأثيرات البيئية التى تكتنف الكائن الحى .

ولكن نتائج « دى فريز » كانت محل نقد من غير واحد من العلماء الذين قالوا « صحيح أننا شاهدنا صوراً جديدة من نبات « يونوثيرا » ولكننا لم نر أنواعاً جديدة منه ، ثم إننا نشك فى أن الآباء التى استنبتت منها هذه الصور كانت نقية الأصل !

ولتفسير هذه الظاهرة ، ظاهرة الطفرة ، نرجع إلى الصبغيات أو الكروموسومات ، وهى التى تحمل الصفات الوراثية فى الكائن الحى ، وتنقلها من جيل إلى جيل . فى نواة الخلية عدد من هذه الصبغيات ، ويعتبر هذا العدد ثابتاً فى كل نوع من الأنواع النباتية أو الحيوانية . وعند إنتاج الكائن الحى للخلايا التناسلية يختزل هذا العدد إلى النصف ، وعند ما تتحد الخلية الذكرية بالبيضة فى عملية الإخصاب ، يعود عدد الصبغيات إلى الرقم الطبيعى العادى الذى تحويه خلايا النوع .

فى الهجين الطافر « يونثرا لاما » [١] الذى استنبت من أنواع مختلفة من جنس « يونثرا » ، وجد أن عدد الصبغيات فيه قد تحول فجأة إلى خمسة عشر ، على حين كان فى أبويه أربعة عشر من الصبغيات فقط . فكأن صبغياً جديداً قد دخل النواة فغير نظام توزيعها . ولهذا الصنف صفات مغايرة لبنى نوعه ، من أظهرها أنه لا يكاد ينتج حبوب لقاح ، إذ أن أغلب طلعه يكون عقيماً ، ولذا فإنه لا يستطيع مغالبة ظروف الحياة ، ولا يمكنه المنافسة والتكاثر مثل بنى نوعه وجنسه .

وفى بعض الحالات الأخرى ، يتضاعف عدد الصبغيات ، كما فى « يونثرا جيجاس » ، وهو صنف شاذ فى حجوم أعضائه وأجزائه ، فكأن تضاعف الصبغيات قد ضاعف من حجمه . على أن مثل هذه الحالات لم تزد العلماء يقيناً فى قيمة الطفرة ، كعامل من عوامل التطور . بل إن الكثير منهم يتهكم بها تهكماً هيناً حيناً ، ولاذعاً فى أغلب الأحيان . وذلك مع اتفاقهم على أن قيمتها إنما تكون فى إنتاج أصناف أو سلالات ، لا تحتمل الخلود والبقاء والتطور ، وإنما هى صور أو حالات خاصة ؛ إنما هو شذوذ يعترى الكائن ، ما زال الشك فى قيمته التطورية قائماً .

وقد تهكم الأستاذ « لوتسى » مرة بهذه النظرية تهكماً مراً ، حيث قال : إن « دى فريز » كان كمن يستخلص

(١) عالجنا فى هذه القصة أمثلة من النبات ، أما أمثلة الحيوان فهى كثيرة مطروقة .

الفضة من خام الرصاص المحتوى على فضة ، ثم يقول إنه قد حول الرصاص إلى فضة .

ولقد كان « لوتسى » ينكر تأثير هـذه الاختلافات الظاهرية اليسيرة التي تعترى الكائن الحيّ ، ويقلل من قيمتها التطورية ، كما يجحد إمكان إنتاجها لأنواع جديدة ، أو أنها يمكن أن تورث . ولكنه كان يعتقد أن العامل الأهم من عوامل التوريث التطورى إنما هو انفصال الصفات في الخلايا التناسلية ؛ كما شاهدنا في تجارب مندل ، من انفصال لصفات الطول والقصر في نباتات البسلة . فمن الناحية التطورية يمكن أن يقـال إن نتيجة هذا الانفصال هو إيجاد صور نقية بالنسبة لصفة أو عـدد من الصفات . ومن الخير أن نذكر أن هذه المزاوجة التي أجراها مندل ، وما نتج عنها من انفصال للصفات ، لم تنتج أنواعاً جديدة .

ولقد زاوج « لوتسى » بين نباتين زهراتهما التويج المعروف ، ولـكنه أنتج صنفاً ليس لأزهاره تويج ما . وطبيعي أن يُسر العالم بهذه النتيجة ، وأن يبنى عليها آمالاً كباراً ، فيما هو بسبيله من بحث عن أصـل الأنواع وتطورها . ولـكن نتيجة هذه المزاوجة ، كان صنفاً عقيماً ، غير منتج ، كـكثير من الأصناف التي تنتجها الطفرة .

ثم زاوج « لوتسى » بين نوعين من نبات « حنك السبع » ، فحصل على صور جديدة مختلفة في الجيل الثانى . فقد كان الـكأس في بعضها نويجى الشكل واللون . وكان للبعض الآخر كيس عجيب ، تكون في الشفة السفلى للتويج ، واتخذ البعض الآخر صوراً تكاد تغاير نبات حنك السبع الأصلى .

ولعل الذى يطلع على نتائج « لوتسى » ، ويرى صور هذه النباتات التي استنبتها لا يخامره شك في أن هـذه أنواع جديدة ، قد أمكن هذا العالم الحصول عليها ، وكذلك كان رأى « لوتسى » نفسه أول الأمر . فقد

اعتقد أن هذا التهجين الذى أجراه ، هو الوسيلة للحصول على أنواع جديدة .

وقد وقع كثير من العلماء في هذا الخطأ ، فأعطوا هذه الهُجُن الجديدة أسماء أنواع ، بدلا من صور أو سلالات أو أصناف ، واعتقدوا أن الأنواع الجديدة كانت تنتج في الطبيعة على هذا النمط .

وقد اتجه تفكير كثير من العلماء إلى أن التطور إنما يجرى على سنن التخصص . وعلى ذلك فإن العوامل الوراثية تكون في تناقص مستمر . ومنهم من قال إن كل تطورى يجب أن يفترض أن الأجيال الناجحة التي درجت وانحدرت من أصل واحد ، إنمـا تكاثرت وتسلسلت في اتجاهات تطورية مختلفة ، تبعاً لما صادفها من تخصص أو مرونة في ظروفها . وأن العوامل الوراثية المفقودة ، إنما كان فقدها نتيجة طبيعية لهذا التخصص ، وذلك الاتجاه التطورى الذى تنحوه الـكائنات .

ولقد كان لهذه التجارب العديدة ، التي أجراها العلماء في مختلف البلاد ، على العـديد من الـكائنات الحيوانية والنباتية ، كان لهـا أكبر الأثر في توضيح بعض هذه النظريات التي وضعت لشرح التطور . ولـكن العقدة الأصلية ، وهى أصل الأنواع ، مازالت تنتظر الحل . وغنى عن البيان أننا نحمل التجربة أكثر مما تطيقه ، إذا نحن طالبناها أن تثبت بما لا يدع مجالا للشك ظاهرة التطور . فـا كان للتجارب التي تستغرق بضعة شهور أو أعوام ، والتي نجريها في المعمل أو الحديقة أو المربى ، ما كان لها أن توضح ما عملته الطبيعة في الأحقاب البعيدة التي تعاقبت منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، في ملايين الـسنين ، وفي مختلف الظروف والعوامل .

ولا شك أن نظرية واحدة من هـذه ، مهما تكن قيمتها ، ومهما يكن القائلون بها ، لا تكفى لمعرفة أصل الأنواع ، وشرح نظرية التطور ، فلا بد أن الطفرة

والتزاوج وانفصال العوامل وتقصها ... لا بد أن كل أولئك قد عمل عمله. فللتكاثر الجنسي أثره في إنتاج صور وسلالات مختلفة، نتيجة التزاوج والتهجين الذي قد يتم طبيعياً، ولعل البيئة بعض الأثر في هذا الإنتاج، فتتكون الصور التي تلائمها الحياة في البيئة التي تسوقها الظروف إليها. وعلى ذلك فإن «التلقيح» بما صحبها من تجارب وتزاوج، قد تدلنا على التغيرات التي صاحبت الكائنات.

ومع ذلك فقد ألقى «لوتسى» كثيراً من الشك على هذه النتائج، وإن كان قد نشر العديد من المجلدات، بها البحوث القيمة حول أصل النباتات وتطورها، وفيها عرض قوي لمسألة الرجوع إلى الأصل. وكذلك قال إننا نعلم أن التطور مستمر، ولكن في اتجاهات مختلفة، فقد يكون إلى أمام، وقد يكون إلى وراء، وقد يأخذ اتجاهات جانبية أخرى، كأنما يسير في خطوط شبكية متقاطعة، ولكننا لا نستطيع أن نجزم في أي من هذه الخطوط كان التطور. ولقد كان لتجاربه أكبر الأثر على آرائه ومعتقداته، وخاصة تلك التي استنبت فيها صوراً جديدة لنباتات حشيشة الشرج (ليكنس) وحنك السبع، حتى قال إن كل فرض ممكن ما دامت التجربة تدل عليه، وتؤدي إليه.

لقد نادى «دارون» بنظريته من الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء، وبقاء الأصلح، وانقراض ما لا يستطيع الملاءمة بين ظروفه البيئية وتركيبه. وقال إنه بتتابع الانتخاب للأصلح تتكون الأنواع الجديدة، وباستمرار إضعاف غير الصالح فإنه ينقرض على الأيام. واعتبر البيئة أكبر عامل من عوامل التطور.

أما «المندليون» فالصفات أمامهم سواء، تنقلها عوامل وراثية على الصبغيات التي توجد في النواة. وكل ما لم تحفظه هذه الصبغيات، وتنقله من جيل لآخر، فإنما هي تغيرات ظاهرية لا تورث، ولا أثر لها في تكوين الأنواع، ولعلها تزول بزوال مؤثراتها. مع ملاحظة أثر التهجين والطفرة في هذا الصدد، وما قد تنتجه في بعض الحالات من صور جديدة.

ولكن .. كيف يجري الانتخاب طبيعياً؟ وهل يكون دائماً نحو الأصلح؟ ولعلنا نتصور الإجابة على ذلك ما يحدث عندما تذرو الرياح بذوراً ما، فإن بعضها يتساقط على الصخور وبعضها في الماء الجاري، وبعضها وسط الأشواك، ومنها ما يقع في أرض خصبة صالحة، وهذه في الغالب هي التي يكتب لها النماء والإزهار والإثمار. ومن المحقق أن الصدفة وحدها، كانت صاحبة الفضل في هذا الانتخاب، الذي لم يكن لنوع البذور ولا مقدار حيويتها أي أثر في نمو هذه وانقراض تلك. فلا يمكن أن يقال إن مثل هذا الانتخاب ينتج الأصلح، ويبقى عليه. ولقد قال «سكوت» بحق: «إن بقاء الأصلح كثيراً ما يعني خلود هذا الذي أمكنه البقاء» أي أننا نفترض الصلاحية فيما كان حظه البقاء.

ولقد ساعد على إنماء فكرة التطور، وبلوغها هذا الشأو، تقدم علم الجيولوجيا، وما ظهر من حفريات لكائنات كانت تعمر الأرض في الأحقاب الغابرة. ومن الخير أن نلقي نظرة على هذه الأحقاب، وما امتازت به من أحياء، لنرى أثر التطور والتدرج والرقي في هذه الكائنات على مر العصور.

قسم العلماء الزمن الجيولوجي الذي تتابع على الأرض منذ كانت الأرض إلى أحقاب. أولها الحقب الابتدائي ويبلغ نحو ٥٥٪ من الزمن الجيولوجي الذي يقدره البعض بنحو ألف مليون سنة، وتكونت إبان هذا الحقب طبقات رسوبية سميكة من الصخور، ولكن لم يثبت وجود أي أثر لحفريات فيها، مما يدل على أن الحياة لم تكن ظهرت بعد على الأرض، أو أنها كانت موجودة ولكن لكائنات حيوانية أو نباتية دنيئة بسيطة التركيب، كالطحالب والفطريات. وثانيها حقب الحياة القديمة

(الباليوزوى) ، ويمثل نحو ٣٠ ٪ من مجموع الزمن الجيولوجى ؛ وتدل الحفريات التى وجدت بين صخوره على أن سطح الأرض وجوف البحر كانا عامرين بأنواع مختلفة من الكائنات الحية ، منها ما انقرض الآن تماماً ، ومنها ما زال تمثله بعض الأجناس والفصائل ؛ فهناك الحيوانات القشرية والشعاب المرجانية والحيوانات المحارية ، وكذلك ظهرت الأسماك وغالبها غضروفى ، وكذلك ظهرت الحيوانات البرمائية قرب انتهاء ذلك الحقب ، ولم يكن للثدييات أو الطيور أى أثر بين طبقات ذلك الحقب . وظهرت من النباتات بعض الحزازيات والسراخس وغيرها من النباتات اللازهرية ، وكذلك ازدهرت بعض السراخس البذرية وبعض الصنوبريات .

ثم عقبه حقب الحياة الوسطى ويبلغ نحو ١١ ٪ من مجموع الزمن الجيولوجى ، وكثرت فيه الشعاب المرجانية والقنافذ البحرية والحيوانات المحارية الرخوة والحشرات ، ومن الحيوانات الفقارية الأسماك ، ثم نشأت الزواحف وقد بلغت بعضها حجوماً هائلة ضخمة ، كما تدل على ذلك هياكلها العظمية المتحجرة . وكانت هذه الزواحف على أنواع مختلفة : فنها ما عاش فى البحار ، ومنها الأرضى ، ومنها ما كان يطير فى الهواء ؛ وفى أواخر هذا الحقب نشأت أنواع من الطير ذات أسنان . كذلك بدأ ظهور الحيوانات الثديية فى أواخر هذا الحقب .

أما نباتات هـذا الحقب فقد كانت هى الأخرى أرقى من نباتات الحقب السابق ، وفيه انقرض بعض الأنواع السابقة ، وازدهرت المخروطيات من معراة البذور ، كذلك ظهرت النباتات الزهرية الراقية .

وفى حقب الحياة الحديثة ، بدأ ظهور الفصائل والأجناس الحالية من حيوانات ونباتات ، كما بادت بعض الأجناس كالزواحف الكبرى . والطيور ذوات الأسنان ، ومن الحيوانات الفقارية سادت الثدييات وتفوقت على باقى أنواع الحيوانات ، وانتشرت أنواع كثيرة من النباتات الزهرية ، وفيه بدأ ظهور الإنسان . ويبلغ هذا الحقب نحو ٤ ٪ من مجموع الزمن الجيولوجى .

وقد قسمت هذه الأحقاب إلى عصور ، لتسهيل دراستها ، ومعرفة ما كانت تتميز به ؛ فيقال العصر الفحمى والعصر الطباشيرى وغيرهما .

من ذلك يتبين أن الأرض لم تكن عامرة بنفس الأنواع النباتية والحيوانية التى نراها اليوم ؛ ولكن كانت تعمرها فى مبدأ أمرها كائنات أخرى انقرض منها الكثير ؛ كما يلاحظ أن هناك تدرجاً فى الرقى ، مما حدا بالتطوريين أن ينادوا بآرائهم ، فجمعوا بين الكائنات الحية فى سلسلة متصلة ، حاولوا جهدهم إحكام ربط حلقاتها ....

هذه بعض فصول قصة التطور ، أرجو أن أكون قد وفقت فى عرضها . ولعل القارئ يرى معى أن المسألة ليست من البساطة بحيث تلوكها الألسنة فى سهولة ويسر . فقد ظهرت فكرة التطور منذ أكثر من خمسة وعشرين قرناً ، حين نادى بها حكماء الاغريق ، وظهر لتفسيرها العديد من الآراء والنظريات والفروض ، وأجريت بصدد هذه وتلك آلاف التجارب على مئات الأنواع من الحيوانات والنباتات ، وكتب فى ذلك ما لا يحصى من الرسائل والمجلات . وقد تقدم العلم بسبب هذه البحوث تقدما عظيماً جداً . غير مبالٍ بنجاح نظرية أو عدم أخرى . إنما هو يزيد فى ثروتنا العلمية ، فيزيدنا معرفة بحقائق الوجود ، كما يزيدنا إيماناً بمبدع الوجود تباركت أسماؤه .؟

عبد الحليم منتصر

المراجع :

١ — سكوت : الحفريات النباتية

٢ — دارون : أصل الأنواع

٣ — باطسون : التطور والشكوك الحديثة

٤ — لوتسى : التهجين والتطور

نماذج بشرية :

جفروش Gavroche

للكاتب الإيطالي المعروف بيراندللو Pirandello رواية مسرحية هي « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » يبرزها إلى الوجود ، وهذا هو معنى الخلق في الأدب ، ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة ، حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشتاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فإذا هي أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بها تجتاز الأجيال مستقلة الوجود في مأمن من الفناء ، لأنها أعمق في الحياة من كل حي وأصدق دلالة من كل واقع .

ولقد يبدو غريباً أن نترك النماذج المشهورة كأخيل ودون كيشوت وهاملت وفوست مثلا ، لنتحدث عن جفروش، وجفروش طفل في الثالثة عشرة من عمره يظهر ويختفي بعد أن تبدأ رواية البؤساء لهيجو ، وقبل أن تنتهي ، فلا هو بطل الرواية ولا هو مدارها ، ولكني رغم ذلك أحب هذا الطفل وأفضله على الرجال ، حتى لقد أصدقني المرض أياماً فلم أجد جليساً تستريح إليه النفس خيراً منه .

ولقد سئمت منطق البشر وأصبحت أرثي لذلك الفيلسوف الجليل الذي غذا شبابي بما في الخير والحق من جمال . وما أدري أضل وجلنا عند ما زعم أن النفوس لا يمكن إلا أن تعشق الخير والحق إن بصرت بهما ، أم يخادع الناس أنفسهم ويخادعون الغير عند ما يتحدثون عن الخير والحق ! ومن يدرينا ؟ قد لا يكون هذا ولا ذاك ، وإنما هو عبث بالألفاظ وإخراج للغة عما خلقت له من حل مغالق النفوس ونفثات القلوب . ولكم من مرة حدثتني النفس أن اختراع اللغة هو أشد ما نزل بالبشر من كوارث .

فأشد انفعالات النفس وأعمقها غوراً وأصدقها رنيناً هو ما يعقد اللسان ، وأكل الرجال شهامة أقلهم حديثاً عن الخير والشر ، وتلك ألفاظ ما كان جفروش يعرف لها معنى ؛ ولو أنه علم أن للأخلاق قواعد تواضع عليها الناس لفسدت حياته ، لأنه نشأ على السخرية من مواضعاتهم ، والعبث بقوانينهم ، وحتى وخزات الضمير ما كان يعرف لها ألماً ، وما كان قوام حياته إلا معنى عميق للشهامة وفطنة إلى مواضع التهلكة أكسبته إياها تجارب عاجلته بها الحياة صغيراً . نعم لقد كانت تجاربه محدودة ، ولكنها كانت غنية لشدة ما قاسى من آلام حتى ما كان يدهشه شيء ، وهو بعد في العاشرة من عمره .

« وكان جفروش يرتدي بنطلوناً لم يأخذه من أبيه وقميصاً لم يأخذه من أمه ، وإنما كساه بتلك الأسمال قوم محسنون ، ومع ذلك فقد كان له أب وقد كانت له أم ، ولكنه لم يكن موضع تفكير أبيه ولا محبة أمه . لقد كان من أولئك الأطفال الذين لهم أم وأب ومع ذلك فهم أيتام .

« وكان شعوره بالسعادة أتم ما يكون عندما يجد نفسه في الشارع ، إذ أن حجارته كانت عليه أقل صلابة من قلب ذويه ، وقد ألقوه إلى الحياة برفسة قدم ، فطار إليها راضي النفس . لقد كان طفلا صاخباً شاحباً خفيفاً يقظاً ساخراً حي اللامح مريضها . فكنت تراه رائحاً غادياً مغنياً لاعباً ، يحفر القنوات ويسرق أحياناً ولكن في مرح كما تسرق القطط أو العصافير ، وكان يضحك لمن يسميه عفريتاً ، ويغضب ممن يسميه لصاً . لقد حرم المأوى والخبز والنار والحب ، ولكنه كان مرحاً لأنه حر » .

هذا هو طفل باريس وهو منها بمنزلة العصفور من الغابة .

« وبباريس أطفال لا يجدون عشاء كل يوم ، ولكنهم قد يذهبون إلى المسرح كل مساء . لا قميص على جسدهم ولا حذاء بأرجلهم ولا سقف فوق رءوسهم ، فهم كذباب السماء لا يملكون من كل ذلك شيئاً . يعيشون أسراباً . يذرعون الطرقات ، ويسكنون الفضاء ، ويرتدون بنطلوناً قديماً

يخلعه عليهم أبوهم فيتزل إلى ما دون أكعابهم ، وربطة لأب آخر تغطى آذانهم ، وحمالة ذات فرع واحد يعلقونها بأكتافهم . يعدون ويتربصون ، ويضيعون وقتهم ، ويدخنون ويقسمون أغلظ الايمان ، ويغشون الحانات ، ويعرفون اللصوص ، وما فى قلوبهم من الشر أثر لأن بها لؤلؤة هى الطهر واللآلئ لا تذوب فى الوحل .

وهم يصيحون ويسخرون ويصخبون ويتضاربون ، وعليهم خرق كالشحاذين ، وأسمال كالفلاسفة ، يصيدون فى المجارى ويطاردون فى القمامة ، ويستخرجون المرح من الأوحال . يمرون بأضراسهم ويمضون بالألبـــاب . يصفرون ويغنون ، يحيون ويسبون ، يجدون بغير بحث ، ويعرفون ما يجهلون ، هم اسبرطيون إلى حد اللصوصية ، ومجانين إلى حد العقل ، وشعراء إلى حد الإسفاف ، يرقدون فوق الأولب ، ويندسون فى الروث ، ويخرجون منه مرصعين بالنجوم » .

ولنتتبع جفروش قليلا فى أزقة باريس وهو يبحث عن عشائه : ها هى حديقة يتدلى منها التفاح (ولقد أودت بآدم تفاحة فلم لا تنجى أخرى جفروش من الموت جوعا) ودون التفاح سياج يعبره جفروش ، فاذا به على مقربة من صاحب الحديقة ، وصاحبها شيخ فان — يسترق جفروش السمع إلى حواره مع زوجه العجوز ، فاذا بهما فى ضيق شديد ، وإذا بالمالك ينذرهما بالطرد ، وإذا بهذا الحديث يذهب بما يحس جفروش من ألم الجوع فيتفقد إلى جوار السياج مضجعاً يأوى إليه .

ومن خلال ذلك السياج لمح طفلنا شبحين يتبع أحدهما الآخر . أولهما شبح شيخ وقور ، ومن خلفه شبح فتى خليع يتربص به . وما هى إلا أن وثب الفتى بالشيخ فسقط إلى الأرض ، وهم جفروش ليرى ما حدث ، فاذا بالشيخ قد أرغم أنف الفتى ، وانتظر جفروش ليرى بقية المناصرة ، فاذا بالشيخ ينهض الفتى آخذاً بتلابيبه كما يفعل قط بفأر ، وإذا به يعظه وعظاً طويلا ، يفهم منه جفروش أنه لا تستقيم الحياة بغير جد وإلا انتهت بغياهب السجون أو وباء المقاصل ، ثم يدفع الشيخ محفظة نقوده إلى اللص ويخلى سبيله .

لم يرق جفروش ما رأى ، وإذا به يتسلل فى الظلام خلف اللص حتى يأتيه واللص لا يشعر بوجوده ، ثم يضع يده فى الجيب الذى به المحفظة ويعود بها حتى يقترب من موضع مضيفه الشيخ خلف السياج ، فيرمى بالمحفظة إلى الحديقة ويعدو ملء أرجله ، وقد نسى جوعه ونسى مخدعه ، ولكنه فرح مغتبط بتلك البطولة الساذجة لأن مزاجه مزاج فنان ، وما يعنيه من بعد ذلك شىء ، وما يريد أن يعرف عما ارتكب شيئاً من أحكام البشر . هل ما أتاه يعتبر خيراً أم شراً . هذا ما لا يعنيه ، وما أظنه قد ساءل نفسه يوما ما سؤالا كهذا ، لأنه كما قلنا لا يعرف للشر أو الخير معنى ، ولا يأتى أيهما عن حساب أو تقدير ، وإنما هى طبيعته التى تسوقه إلى ما يفعل وفى فعله هذا جمال لا شك فيه .

لقد يلتى فى الطرقات طفلين مشردين أصغر منه سناً وأضعف قوى ، فيبسط عليهما حمايته ، ويقودهما إلى حيث يجد لهما قليلا من الخبز أو يعد لهما مضجعا إلى ساق تمثال نابليون ، مستعينا بما يسرق من أخشاب سياج حديقة النباتات . حتى إذا أويا إلى مضجعيهما خف فى ظلام الليل ليساعد مجرماً على الهرب من السجن ، والمجرم أبوه والطفلان أخواه ، ولكنه لا يعلم عن ذلك شيئاً ، ولو أنه علم لما تغير موقفه ، لأنه يأتى ما يأتى لجمال ما يفعل فى ذاته ، وما للخير أو الشر فى نفسه أى اعتبار .

ويعود طفلنا عند الصباح ليوقظ طفليه اللذين يعتبر نفسه قواماً عليهما ، ويعتزم أن يبصرهما بالحياة ، وأن يقوم على تنشئتهما فيقتادهما معه وسط الطرقات ، ولكنه يفقدهما فى ازدحام بلقاء ، فيأسف أشد الأسف ، ولا يجد عزاء عما فقد إلا أغنية ساذجة يردد مقاطعها خلال الأزقة المظلمة .

كل تلك المناصرات قصيرة الباع ، لا تظهر ما بنفس هذا الطفل الخيرة من غنى . وأما اليوم الذى تجلت فيه

ثورة الروحية فكان يوم ثورة سنة ١٨٣٢ .

في ذلك اليوم كان جفروش عائداً من إحدى ضواحي باريس وبيده غصن مكلل بالأزهار ، وإذا بروح الثورة تهب ، وإذا به من رجالها فيلقى الطفل غصنه من يده ، ويسرع إلى مخزن أسلحة يختطف منه طبنجة واعداً بردها ، ويعدو إلى قلب باريس ؟ ولكنه يلاحظ أن الطبنجة من غير زناد ، فليكن وليعد طفلنا وسط الجموع صاخباً مهللاً ، وليتغن بالرسيتر مع المتغنين ، وليخطب من حوله : « لا عليكم — إن برجلي اليسرى ألماً شديداً ، ولقد قسا بي الروماتزم ، ولكنني مسرور أيها المواطنون . وما على الأعيان إلا أن يستوثقوا من مواضع أقدامهم — من هم أفراد الشعب ؟ كلاب ! ليكن ، ولكن ليحترموا تلك الكلاب . آه ليت هنا زناداً — لقد أتيت من ظاهر المدينة حيث النار تضرم والقلوب تغلي — آه ! لقد حان الحين لتقطف زبد القدر » .

وفيما هو سائر لا يلقى رجلا إلا حثه على السير إلى القتال وإن يكن الحزن قد تسرب إلى نفسه دقيقة عندما نظر إلى سلاحه قائلا : « سأنطلق إلى المركة وإن لم تنطلق منك رصاصة »

وفيما هو كذلك إذا بجموع الطلبة الثائرين يمرون وعلى رأسهم زعيمهم « أنجولرا » Enjolras فينضم إليهم لأنه يعرف أنهم يعلمون إلى أين يسيرون . خف في مقدمتهم وسلاحه الحرب بيده ، والأغاني لا تغادر شفتيه ، حتى وصلوا إلى حانة قرروا أن يتخذوا فيها مقرهم وأن يقيموا أمامها حواجزهم ، ويأخذ جفروش على نفسه إنجاز تلك الحواجز

« ها هو يغدو ويروح خفيفاً مرحا . ها هو يصعد وينزل ويصيح ، ويرغي ويزبد ، حتى لكأنه خلق ليث الشجاعة في نفوس الجميع . عجباً ! أي باعث كان يحفزه ؟ وأي أجنحة كانت تطير به ؟ لقد كان باعثه ما عاناه من بؤس ، وكانت أجنحته ما يفيض به قلبه من فرح .

لقد كنت تراه بغير انقطاع ، وكنت تسمع صوته في كل لحظة . لقد كان وجوده يملأ الفضاء حتى لكأنه في كل مكان . كنت تراه بأعلى الحواجز يدفع المتكمين ، ويحث المتكاسلين ، ويبعث النشاط في المتعبين ويقلق المتأملين . يثير في البعض النشوة ، وفي البعض الغضب ، وفي الآخرين الجهاد ، كما يدعو الجميع إلى النشاط . يحز طالباً ويعض عاملا ، يقف ويسير ، ويستأنف السير متنقلا بين هؤلاء وأولئك ، يتمتم حينا ويعلن أخرى ، ثم لا يقف جهده عند ذلك الحد ، بل يحاول أن يشترك في المركة فيرمي بسلاحه الحرب إلى الأرض ، ويأخذ بندقية أثقل منه وزنا ويقدح الزناد ، فإذا بالبندقية فرقعة . وإذا بوجهه يتقطب امتعاضاً . ولعل هيجو لم يشأ أن يجعل منه سفاكا للدماء . ويرسله أحد الثوار بخطاب إلى فتاة ، فيطيع وينتهزها فرصة سانحة ليحطم بالحجارة ما بقي من مصابيح ، وهو في أثناء ذلك يغني بصوته المرتفع وسط الشوارع المظلمة ، ويعثر في أثناء سيره بعربة يد يدفعها حمال ثمل ، فيأخذها منه ويسوقها أمامه فوق الحجارة في ضجة تسترعي انتباه رجال البوليس ، فيسرعون إليه فيدفعها في أرجلهم ، ويولي الأدبار كدخان تبدد ، ويعود إلى الحواجز ليحضر المركة الحاسمة ، فإذا بالاخوان الثوار قد نفدت ذخائرهم . يرى ذلك فيأخذ لساعته سلة يعبر بها الحواجز إلى حيث تتمدد جثث الموتى من الجند يفرغ جعبهم ، وما زال ينسل من جثة إلى جثة ، والجند يصوبون إليه رصاصهم دون أن يصيبه أذى ، وهو يحاورهم ويداورهم ، مختفياً وراء جثة ، محتمياً بمصراع باب ، وكلما رفت رصاصة بجوار أذنه غايظ من أطلقها بحك أصبعه على أنفه ، والحواجز تهتز ، وصوته لا يسكت عن الغناء ، حتى عم الفضاء ، وأصابته رصاصة أقعدته والدم يسيل فوق وجهه ، فرفع ذراعيه إلى السماء ، وأدار وجهه إلى الجهة التي أتته منها الرصاصة وهو يغني : « لقد سقطت إلى الأرض وتلك غلطة فلتير — لقد سقطت بالقناة وتلك الغلطة . . . »

من القلب :

تهنئة ...

[إلى حضرة صاحب العزة العلامة أستاذنا الجليل «أحمد أمين بك» بمناسبة الإنعام الملكي السامي على عزته برتبة «البكوية»]

كرّموا فيكَ الأدبْ … «يا أميناً» والحسبْ
أنتَ رمزٌ للمعالي … بكَ تزدانُ «الرُّتَبْ»
في سماء العلمِ والآ … دابِ جاوزتَ الشُّهُبْ
كرّمَ «العرشُ» المفدّى … فيكَ «أعلامَ» الأدبْ
«يا أمينَ» الخُلُقِ الـ … ـمحمودِ إنَّ فيكَ حبْ
صُغْتُ مِنْ رُوحي تَهَا … نِيَ وَمِنْ قلبي المُحِبْ
صُغتُها مِنْ وَحْيِ شِعْري … وَشُعُوري المُلْتَهِبْ
وَأنَا شاعِرُكَ الصْـ … ـدّاحُ أرْغولُ الطَّرَبْ
وَإذا ما قُلْتُ شِعْراً … جِئْتُ فِيهِ بالعَجَبْ

***

لَقَبٌ سامٍ وَلكِنْ … أنْتَ أسْمَى مِنْ لَقَبْ
عِشْتَ لِلعِلْمِ وَللآ … دابِ يا فخرَ العَرَبْ

محمد السنوسي مقلد

ولم يتم أغنيته إذ أتته رصاصة أخرى خر منها صريعاً وجهه على الأرض ولا حراك به ؛ وهكذا قضت روح ذلك الطفل الكبير ، وقد اجتمعت بنفسه قوة الثورة على الظلم إلى جوار المرح والسخرية من آلام الحياة .

هذا هو جفروش كما تعرفه باريس في أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ، ولكنهم يصدرون عما هو أسمى من الأخلاق — عن صفاء في النفس وحرارة في القلب ، وإيمان في الحياة ينشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود .

هذا هو جفروش كما يعرفه كل الفرنسيين وكل من يتكلم الفرنسية ، حيث خلدت اللغة هذه الشخصية الأصيلة الجذابة ، بأن أدخلتها بين مفرداتها كاسم ذات وكصفة وهم يدعون الرجل «جفروش C'est un govroche» كما يصفون به تلك الروح التي صورنا «il a l'esprit govroche» — وليس بعد ذلك دليل على خلود هذا الأنموذج البشري بين ما خلق الأدب من نماذج .

ولكم يذكرني جفروش هذا بهيجو خالقه وقد ظل طفلاً حتى آخر عهده بالحياة ، ولكم يذكرني برينان الذي قال عنه أحد النقاد فأصاب القول : « إنه كان يفكر كرجل ويحس كامرأة ويتصرف كطفل » . وهكذا شأن كل من تميز بين البشر ، فما يجوز لنا أن نخضعهم لأحكامنا الوضيعة المتواضعة ، ولحياتهم منطق لا يفهمه إلا من يشاركهم . وأما نحن فلنخضع لما تملي علينا الجماعات التي ننتمي إليها ؛ وإن كان لنا أن نحذر أحداً فليكن ذلك الحذر ممن يتشدقون بكلمات الخير والحق ونفوسهم أصغر من أن تحتوي معاني تلك الألفاظ الجميلة .

محمد مندور

من طرائف الفن الإسلامي :

شبابيك القلل

للدكتور زكي محمد حسن

تحدثنا في عدد سابق من « الثقافة » عن ميدان من ميادين الفنون الاسلامية يشهد للفنانين المسلمين بحسن الذوق ودقة الصنعة وتقدم قوى التخيل والابتكار ، وهو زخرفة شبابيك القلل ، التي تثبت أنهم كانوا يعملون للفن ذاته . وطبيعي أننا لم نعرض لهذه الناحية من الفن الاسلامي إلا بقدر ما يسمح به المجال في عدد من أعداد الثقافة ، كما أننا لم نستطع أن نفي الزخارف الهندسية في شبابيك القلل ما تستحقه من التنبيه إلى تنوعها وإبداع الفنانين فيها .

ولكنا نعود اليوم لتفصيل بعض ما أجلنا الاشارة إليه في مقالنا السابق . وقد فهم بعض القراء مما ذكرناه في المقال المذكور أن أبدان القلل لم تكن تحلى بالزخارف قط . والحق أننا لم نقصد ذلك حين كتبنا « أن من العجيب أن يمتد زخرفة شبابيك القلل إلى هذا الحد بينما تبقى القلل نفسها بغير طلاء أو رسوم زخرفية » . وإنما قصدنا التعجب من وجود قلل زينت شبابيكها بالرسوم الزخرفية ، بينما بقى البدن بغير طلاء أو زخارف . وإلى



(شكل ١)

القراء رسم قلة محفوظة في القسم الاسلامي من متاحف الدولة في برلين (شكل ١) ، شباكها محلى بالرسوم ، أما بدنها فلا زخارف عليه ولا رسوم . والذي عجبنا له في مقالنا السابق واتخذناه مثالا طيباً من أمثلة العمل للفن لحسب هو وجود هذه القلة ومثيلاتها [1] . أما وجود قلل على أبدانها زخارف بارزة فأمر لا ننكره ، ولا وجه للعجب منه . والمعروف أن في دار الآثار العربية بعض قطع من أبدان القلل ، عليها زخارف ، معظمها من الفروع النباتية والخطوط المجدولة والكتابات [2] ، وإلى القراء رسم قطعة منها (شكل ٢) . ولكن القلل ذات الرسوم الزخرفية



(شكل ٢)

(١) انظر أيضاً اللوحة رقم ١ من كتاب أولمر عن شبابيك القلل (مطبوعات دار الآثار العربية) . ففيها رسم قلل أخرى ذات شبابيك مزخرفة وأبدان لا رسوم عليها .

(٢) انظر اللوحتين رقم B و C في مقدمة الكتاب المذكور في الحاشية السابقة .

كانت نادرة . وفى اعتقادنا أن سبب ذلك هو عظم المساحة المطلوب تغطيتها بالرسوم إذا أراد الصانع زخرفة بدن القلة بتمامه ، وقد يكون ذلك سبباً فى رفع نفقة الانتاج وارتفاع ثمن القلة . فالاقتصار على زخرفة شباك القلة يحقق الغاية الاقتصادية ولا يضيع على الصانع فرصة إظهار ما يفخر به من دقة ومهارة وذوق فنى .

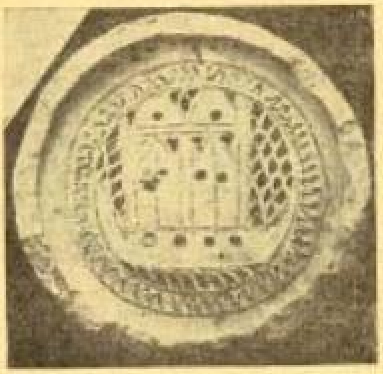
ومهما يكن من الأمر فقد لاحظنا أن معظم العبارات المكتوبة فى شبابيك القلل حكم مأثورة أو عبارات دعائية ، وأنها ليست عنصراً زخرفياً مقصوداً لذاته ، وذلك لأن معظمها بخط لا إناقة فيه . ولكن القليل النادر من شبابيك القلل قد لا يصدق عليه هذا القول . مثال ذلك شباك فى دار الآثار العربية عليه كتابة بخط كوفى زخرفى لم نوفق إلى قراءتها (شكل ٣) ، وربما كانت كلمة « كاملة » .



(شكل ٣)

أما الرسوم الآدمية ورسوم الحيوان والطير والسمك والشجر والمراكب والعمائر ، فقد لاحظنا أن معظمها يشهد بأن صانعها كانت تنقصه المهارة ودقة الملاحظة ، حتى إن رسومه تبدو صبيانية وغير دقيقة . ولكن ذلك لا ينفى أن بعضها أصاب الفنان فيه غاية التوفيق فى الابداع الزخرفى وفى التعبير عن الحركة . ومن أمثلة ذلك شباك قلة مشهور ومحفوظ فى دار الآثار العربية ، وقد أثبتنا رسمه فى مقالتنا السابق ؛ وقوام زخرفته رسم طاووس ملتفت إلى اليمين ،

ويشبه فى أسلوبه الفنى رسوم طواويس أخرى على أقمشة حريرية إسلامية محفوظة فى بعض المتاحف الأوربية ، وترجع إلى القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، الأمر الذى دعا الأستاذ أولير إلى نسبته إلى العصر الأيوبى . ولكنا نعرف أن الفنانين فى العصر الفاطمى كانوا أكثر توفيقاً فى رسوم الحيوانات والطيور ، فليس ثمة ما يمنع من أن ننسب إليه تلك التحفة الفنية الجميلة ، إذا اتخذنا الرسوم أساساً لتأريخ شبابيك القلل .



(شكل ٤)

وإلى القراء بعض رسوم أخرى . ففى (شكل ٤) رسم قارب فوقه مظلة أو سرادق . وفى (شكل ٥) رسم بناء



(شكل ٥)

بجواره فرع نبات . وفى (شكل ٦) رسم طائر . وفى (شكل ٧) رسم رجل جالس القرفصاء وفى يده إناء . وفى (شكل ٨) رسم سمكتين التف ذيلاهما لينتهيا على شكل زهرية .



(شكل ٦)

وقد كان بعض شبابيك القلل مزيناً برسوم قد تكون رنوكا أو أشعرة[1] ، ومما كثر استعماله فى عصر



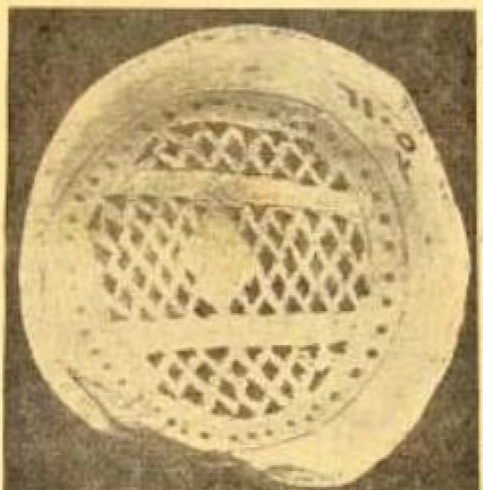
(شكل ٧)

المماليك (شكل ٩ و ١٠) . وإن صح هذا فالراجح نسبتها إلى هذا العصر . ولكن الغريب أن طراز الأرضية التى يقوم عليها رسم « الرنك » بسيط فى زخرفته ، الأمر الذى حمل أولير على التردد فى نسبة بعضها إلى عصر المماليك . ومن الرسوم التى تبدو رنوكا فوق هذه الشبابيك البقجة والوردة والصولجان والسيف والهلال والكأس وزهرة الزنبق .



(شكل ٨)

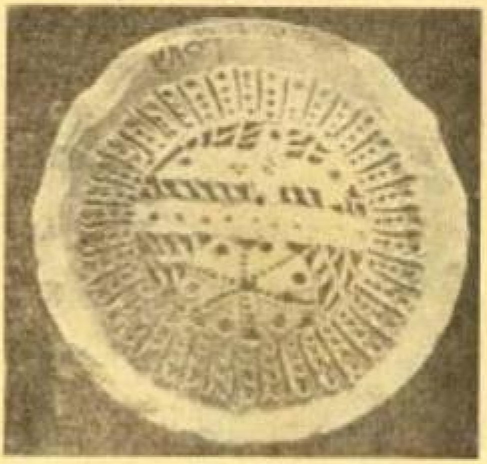
على أن أبدع الزخارف فى شبابيك القلل هى الزخرف



(شكل ٩)

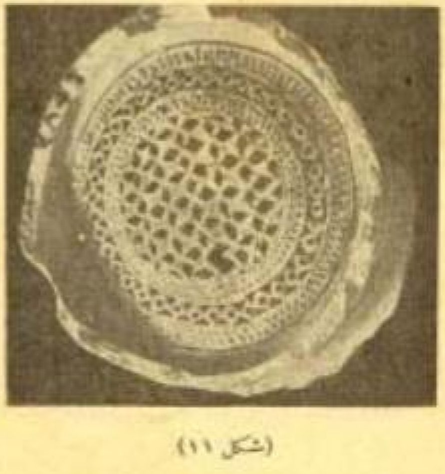
(١) انظر اللوحات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ من كتاب أولير .

الهندسية ، فهي غنية في تنوعها وعجيبة في إتقانها ، إتقاناً تتضاءل أمامه العناصر الزخرفية الأخرى في هــذا النوع من التحف الاسلامية . (انظر الأشكال رقم ١١ و ١٢)

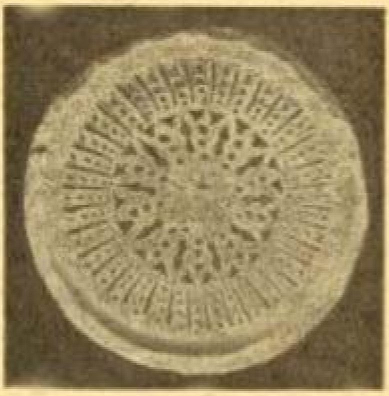


(شكل ١٠)

بق أن نشير إلى أن أحد القراء كتب في مجلة أسبوعية تعليقاً على مقالنا السابق زعم فيه أن قد فاتنا «أن القلل في العصور الوسطى كانت على نوعين أحدهما نسميه — في اصطلاحنا العرفي — «القلل الصيفية» وتستعمل صيفاً وهي من الفخار غير المطلي ، لأن مسامها تساعد على تبريد الماء . والنوع الثاني «القلل الشتوية» وتستعمل شتاءً لأنها مكسوة بطلاء زجاجي يحفظ على الماء درجة حرارته الطبيعية» .



(شكل ١١)



(شكل ١٢)

والحق أن ذلك لم يفتنا قط ، وإنما عجبنا في مقالنا من المنابة بزخرفة شبابيك قلل لا يطلى بدنها . أما أن هنـاك قللاً عليها طلاء فأمر لم ننكره أبداً ، وحسب القارىء الذي بادر بالتعليق على مقالنا ، أن يرجع إلى كتابنا «كنوز الفاطميين» ولا نخاله يجهله ، وقد كان حتى العام المـاضي طالباً في معهد الآثار الاسلامية ؛ فني صفحة ١٧٢ من هذا الكتاب العبارة الآتية :

«فالفخار غير المدهون كانت تصنع منـه أبسط الأواني اللازمة لطبقات الشعب ؛ ولا سيما القلل التي كانت من الفخار غير المطلي ، إلا في النادر جداً ، لأن المقصود منها تبريد الماء ، ولا بد من المسام للوصول إلى هـذا الغرض ؛ ومن ثم فإن الذي وصل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أي دهان زجاجي» .

وكذلك لم يفتنا أن هناك شبابيك في قلل مطلية بالطلاء ذي البريق المعدني ، فقد أشرنا إلى ذلك في كتابنا المذكور (صفحتي ١٧٢ و ١٧٣) فقلنا إن في دار الآثار «قطعتين : كلتاهما من عنق إناء (رقم السجل ١٦٧/٨٥٧٧

و١٦٨/٨٥٧٧) وقد بقى فى كل منهما شباك . ويغطى الجزآن مدهونان بطلاء أزرق عليه زخارف نباتية بحريق مذهب من طراز الزخارف التى نراها على الخزف فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة (١٠ و١١م) » .

والحق أننا لا نعتقد أن من السهل تأريخ شبابيك القلل المحفوظة فى المتاحف والمجموعات الأثرية ، وأننا نرى أن الأستاذ أولير — الذى من حراستها اع فى تقدير النتائج التى تؤدى إليها طريقة الموازنة بين رسومها ورسوم سائر التحف . ولكن مبالغته هذه لا تحملنا على مخالفته فى نسبة بعض شبابيك القلل إلى العصر المملوكى لأن عليها رسوم رنوك ، أو نسبة البعض الآخر إلى العصر الفاطمى لأن رسومها تشبه رسوم الحيوانات والطيور التى نراها على سائر التحف الفاطمية أو لأنها فى قطع عليها طلاء من البريق المعدنى الذى امتاز به العصر الفاطمى . غير أننا لا نرى بعيد الاحتمال أن يعنى الفخاريون فى العصر المملوكى بزخرفة شبابيك القلل الثانية برسوم حيوانات دقيقة تبدو لنا كأنها من العصر الفاطمى . كما نظن أن شبابيك القلل الرخيصة فى العصر المملوكى مثلاً كانت تزخرف برسوم بسيطة حملت الأستاذ أولير على نسبتها إلى القرون الأولى من العصر الاسلامى فى مصر .

زكى محمد حسن

فقد فنان



أصيب الفن ، والمسرح على وجه خاص ، بفقد ركن من أهم أركانه ، وحلقة من حلقات تاريخه فى مصر بوفاة الأستاذ عبد الله عكاشة الممثل والفنى المعروف ، والذى أنشأ عدة مسارح وألف عدة فرق تمثيلية تخرج فيها الكثير من الفنانين وحمل راية الفن فى أوقات حرجة ، وقدر له الفوز مراراً ، واستطاع أن يخلق بيئة فنية صالحة دفعت إلى تقدير الهيئات المشتغلة بالفن والفنانين .

وإنا إذ نعزى فى الفقيد أوساط الفن المسرحى فى مصر لنهيب بهم فى الوقت نفسه أن يعملوا على تخليد ذكراه جزاء لما قدم للفن من خدمات .

مصطفى الفلكى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١١٦ — الثلاثاء ٢٠ من صفر سنة ١٣٦٠ — ١٨ من مارس سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العدد

المساعدة الأمريكية

في شهر آذار تمشي الأرض بخطىً وئيدة نحو الربيع ، وترتفع الشمس فوق الأفق ، مرسلة أشعتها عمودية على خط الاستواء ، ويتعادل الليل والنهار ، ويخضر الزرع ، ويتفتح الورد ، وتبتهج الطير . ذلك أن آذار بشير الربيع ، والربيع هو التجدد والحياة ، والبشر الطافح ، والطبيعة الفتية الضاحكة .

ولكن قضاءً عجيباً ، قد أحال بشير الحياة إلى نذير الموت ، وباعث السعادة إلى جالب الشقاء . وأبت إرادة الطغاة إلا أن يكون الربيع موسم عدوان وبلاء . لذلك كان من حسن حظ الديمقراطية ، التي اضطرت برغمها على خوض غمار هذه الحرب ، ولم تكن قد اتخذت لها عدتها ، أن استقبلت الربيع بقوة جديدة ! فإن أمريكا وهي أكبر من أنجبت الديمقراطية ، قد مدت يدها أخيراً ، وبعد لأي ، لنصرة الدين الذي تدين به ، ولتدرأ عن نفسها ويلا كان لا بد أن يحل بها إذا هي قصرت أو أحجمت .

في الحادي عشر من شهر مارس الجاري استطاع الرئيس روزفلت أن يمضي قانون الإعارة والتأجير . وبهذا القرار الجليل ، تمهد أمريكا السبيل لأن تبذل مواردها الهائلة للدفاع عن الديمقراطية . فلقد أدركت أمريكا بعد انقضاء عام ونصف عام على الحرب أن كيانها في خطر محقق ، وأن انتصار الطغيان في الجانب الشرقي من المحيط

الأطلسي يتلوها هي بالويل والثبور ، ولهــذا بادرت بالاستعداد لتزويد الديمقراطيات بمساعدات هائلة ، هي في الحقيقة أجل وأعظم مما قدمته في الحرب الماضية ؛ فلقد كانت أمريكا في الحرب العالمية الأولى تتقاضى ثمن ما تقدمه . أما اليوم فانها تريد أن تبذله على سبيل الاعارة والتأجير ، بحيث لا تحتاج الديمقراطيات لأن تدبر لنفسها مالا في أمريكا ، وقد نضبت أموال الحلفاء في أمريكا ، أو أوشكت أن تنضب .

ولقد بادر الرئيس روزفلت فطلب من برلمانه أن يخوله الحق في إنفاق سبعة مليارات من الدولارات (أي نحو ألفى مليون من الجنيهات) لتنفيذ مشيئة الشعب الأمريكي في مساعدة الحلفاء . وهذا القدر من المال لا يقل كثيراً عما تنفقه بريطانيا على الحرب في عدة أشهر .

إن هذه الحرب الحديثة العجيبة لا تعتمد على الرجال وحدهم ، بل عمادها قبل كل شيء العدة الحربية والآلات الحربية المدمرة . ويقول الثقات إن كل جندي يحارب في الميدان لا بد أن يكون من ورائه أربعة أشخاص يعملون دائبين لتزويده بما يحتاج من سلاح وذخيرة . فمنذ اليوم يعمل الشعب الأمريكي لتزويد الأمم التي تدافع عن كيانها ، وفي طليعتها بريطانيا العظمى ، بما هي في حاجة إليه من سفن ومدافع وطائرات ودبابات وما إلى ذلك .

ولقد بادر الرئيس روزفلت ، بعد إمضاء ذلك القانون مباشرة ، إلى المطالبة بتلك المليارات ، لكي يثبت أن أمريكا مصممة على أن لا يظل هــذا القانون حبراً على ورق ، وأن لحظة واحدة لن تضيع في إبراز تلك المساعدة في صورة كاملة رائعة . وقد ارتفع إنتاج الطائرات في أمريكا إلى ألف طائرة في الشهر ، وهو رقم يزيد كثيراً على ما كان مُقدراً من قبل .

* * *

في الناس من يظن أن أمريكا قد قضت وقتاً طويلا قبل أن تتخذ هذا القرار الحاسم . ولكن علينا أن نذكر أن كثيراً من قادة الرأي في أمريكا قد جنحوا إلى خطة السلم والتفاؤل والاطمئنان ، حتى بات أكثرهم يتوهم أن أمريكا بنجوة من أي عذاب يحيق بأوربا . وأن المحيط الواسع العريض كفيل بأن يحمل كل شر يجتاح العالم القديم بعيداً كل البعد عن العالم الجديد . وصاح صائحهم : دعوا أوربا وما بينها من أضغان وأحقاد وتنافس المنافسات الاستعمارية ، وقلة الانصاف ، واضطهاد بعضهم لبعض ، ولقد ساعدناهم في حربهم الأولى ، فكان جزاؤنا ضياع المال والأرواح دون أن يكون لهذه التضحيات أثر يذكر ؛ .

وبذلت الدعاية الألمـانية جهوداً جبارة من أجل تعضيد هذه الآراء . حتى استمالت إلى جانبها فريقاً من قادة الرأي في أمريكا ، مثل الطيار لندبرج وزوجه الألمانية الأصل ، وكلاهما كاتب لبق ، وداعية بارع . وفي أمريكا عامة والولايات المتحدة خاصة ، عدد من الألمان يقدرون بالملايين ، هاجروا إليها قديماً وحديثاً واستوطنوها . وأعدت حكومة ألمانيا إدارة خاصة لتنظيم هذه الجماعات ، وبثت رسلها في جميع أنحاء أمريكا ، لتقسيم هــذه الطوائف إلى فرق منظمة ، مهيأة لكل عمل قد يطلب إليها أن تقوم به .

ورأى النازيون أن في الحصانة التي يتمتع بهــا رجال السلك السياسي والقنصلي ، وسيلة بديعة لحماية نشاط الدعاة الذين يعملون لصالحهم ، فزادوا عدد هؤلاء الرجال زيادة هائلة في الأشهر السابقة للحرب ، وبعد بدء الحرب مباشرة . ففي نيويورك ارتفع عدد رجال القنصلية من ٣٨ إلى ١١٦ ، وقد ألحق بالقنصلية « قسم سياسي » وهو أمر لا يعرف له نظير في أي بلد من بلاد العالم .

وفي فيلادلفيا كانت أعمال القنصلية الألمانيــة في بدء عام أمريكي يقوم بها في أوقات الفراغ . أما اليوم فيتولى

أمرها قنصل نازى وله أعوان وحاشية . هذا فى الوقت الذى نقصت فيه الأعمال التجارية بين ألمانيا وأمريكا إلى درجة تقرب من العدم .

ولعل أغرب هذه القنصليات جميعاً ، قنصلية سان فرانسسكو ، فقد ارتفع عدد رجالها من ثمانية إلى ثمانية وعشرين . وعلى رأسهم فرتس ويدمان صديق هتلر الشخصى . ولهذا الرجل الرئاسة الادارية على جميع رجال السلك السياسى والقنصلى فى أمريكا الوسطى والجنوبية . فيدان نشاطه ينصب على الجانب الغربى من الولايات المتحدة ، وجمهوريات أمريكا اللاتينية . وفى شهر أبريل من العام الماضى استطاع شخص يدعى بوش أن يستقيد بالحكم فترة من الزمن فى جمهورية بوليفيا ، فصفقت الصحف الألمانية وهللت ، ونادت بأن هـذه « فاتحة أعمال ويدمان المجيدة فى أمريكا » .

ويبدو نشاط ويدمان فى القصة الآتية نسردها هنا لدلالتها على عمله الذى اضطلع به :

علم قلم المخابرات الأمريكى أن أحد رسل الألمان ويدعى هربرت هوبى يحاول السفر جواً بحقيبة تشتمل على وثائق خطيرة . فداهمه رجال ذلك القلم وهو يحاول ركوب الطائرة فى مطار لوس انجليس . لم يكن ذلك الرسول من رجال السلك السياسى ، ولكن الحقيبة التى معه كانت مختومة بخاتم سياسى لايجوز فضه . فتردد رجال البوليس الأمريكى فى فتح الحقيبة ، واتصلوا بوزارة الخارجية الأمريكية . وهذه لم تستطع أن تبت بسرعة فى فض هذا الخاتم المقدس . وفى أثناء هذا التردد حضر رسول من قبل ويدمان مزوداً بالوثائق الدبلوماسيـة اللازمة ، واستولى على الحقيبة ، وركب طائرة أقلتـه بحقيبته إلى بلاد المكسيك .

وفى وسعنا أن نورد أمثلة عديدة لأعمال رجال السلك القنصلى النـازى فى أمريكا ، ولـكن حسبنا ما أوردناه دلالة على هذا النشاط الهائل ، الذى لم يتورع عن الانتفاع بالحصانة السياسية لبث ما يشاء من دعاية هدامة . وكانت هـذه الدعاية تعمل أول الأمر لعزل أمريكا عن الحرب ، ويرجع إلى نشاطها كثير من الفضل فى قوة أنصار العزلة واتساع نفوذهم . ولـكن هـذه الدعاية لم تقف عند هذا الحد . فليس بمعقول أن حوادث التخريب التى حدثت فى بعض المصانع الخطيرة فى الولايات المتحدة بعيدة عن مجرى نشاط هذه الطائفة[1] .

***

بدأت الحرب إذاً وأمريكا مُخدَّرة تخديراً عميقاً بدعاية السلام والاطمئنان . ولقـد درَّعت نفسها قبل الحرب بزمن بقانون حظر المتاجرة فى المواد الحربيـة مع الدول المشتبكة فى قتال ، لـكى تبعد عنها أقل احتمال لخوض غمار الحرب . وهذا القيد الذى تقيدت به أمريكا طائعة مختارة ، كان أول عقبة فى سبيل بذل المعاونة اللازمة للحلفاء . وكانت الحـكومة الأمريكية أسرع إلى إدراك حقيقة الموقف ، وإلى أن قضية الحلفاء هى قضيتها ، وإلى أن ما يسود أمريكا من سلام واطمئنان يرجع أكثره إلى وقوف الدمقراطيات الغربية فى سبيل الطغاة . هذه حقائق كانت حكومة روزفلت أسرع إلى إدراكها من الشعب الأمريكى ، الذى عشق السلم وهام به ، وبات فى حالة يأبى معها أن يفتح عينيه للخطر الداهم . هنالك أدركت تلك الحـكومة الحـكيمة أنها لابد لهـا أن تسير فى طريقها المنشود ببطء ، وأن تفتح عيون شعبها برفق . فكان أول عمل قامت به السعى فى رفع الحظر عن إصدار المواد الحربية ، وطمأنت الشعب الأمريكى إلى أنه لن يضحى فى هذا بشىء ، وأن هذا لن يقدمه من الحرب خطوة ، بل يبعده عنها .

وحين تم لها هذا ، أنشأت تجارتها فى المواد الحربية وغيرها على قاعدة أن من أراد أن يشترى منها شيئاً فعليه

(١) من شاء الاستزادة من هذا الموضوع فعليه أن يراجع بعض المقالات فى عدد ديسمبر الماضى من المجلات الأمريكية ، Current History و Forum وهى ملخصة فى ريدرز دايجست .

أن يحضر إلى الموانئ الأمريكية ويدفع الثمن ويحمل البضاعة. ثم أعلنت الحكومة أن هنالك بحاراً وأقطاراً لا يجوز للسفن الأمريكية أن تدنو منها. وبهذا عطل كثير من السفن الأمريكية، وأرهقت سفن الحلفاء بنقل البضائع، واستنفد الشراء الشطر الأكبر من الأموال التي يملكها الحلفاء بأمريكا.

وكانت هنالك صعوبة داخلية تواجه الرئيس روزفلت، قد غلّت يده فترة من الزمن عن بذل كل ما يستطيعه من العون لقضية الديمقراطية. ذلك أن موعد الانتخابات لرئاسة الجمهورية العظيمة قد حان. والشعب الأمريكي يعلم أن ليس بين أبنائه من هو أقدر من فرانكلين روزفلت على إدارة هذه السفينة الهائلة، وسط تلك العواصف والصخور التي ليس للعالم بمثلها عهد. ولكن الشعب الأمريكي شديد النفور من أن ينتخب رجلاً لرئاسة الجمهورية ثلاث فترات متتالية؛ وقد أصبح هذا التقليد سنة مقدسة لم تخرج عنها الأمة الأمريكية في أي عهد وفي أي وقت. ولكن الحقائق الألمية، والمآسي البشرية كانت أقوى من كل تقليد وعرف. فمنح الشعب ثقته زعيمه القدير، رغم دعاية الدعاة، وتألب الصحف الأمريكية، التي لم يكن بينها من أنصار روزفلت سوى عدد قليل.

وكانت ألمانيا تعلق أهمية كبرى على حالة الارتباك التي تسود السياسة الأمريكية بسبب هذه الانتخابات؛ فإذا هي تمر بسلام، وإذا الشعب الأمريكي يتحول بالتدريج من سياسة الاطمئنان الخداع، إلى سياسة الادراك لحقيقة الخطر الداهم. فإذا هو يمنح ثقته التامة زعيمه. وإذا هذا الزعيم نفسه ينهض بنفسه ويعلو بها على الاعتبارات الحزبية، فيولي وزارة الحربية والبحرية رجالا من حزب غير حزبه. وإذا هو ينشد معاونة خصمه في الانتخابات، فيمد هذا الخصم إليه يده راغباً مسروراً. فيبدو الشعب الأمريكي في صورة من التضامن والتآزر، واليقظة التامة، والادراك الصحيح للعبء الذي لا بد له أن يضطلع به. وهذه الحالة تريناً انقلاباً هائلا في الرأي العام الأمريكي، إذا قورنت بما كان يسود هذا الرأي من قلة المبالاة في مفتتح هذه الحرب الطاحنة.

والآن وقد تهيأ الرأي العام الأمريكي لبذل أقصى مساعدة يستطيعها لنصرة الديمقراطية تتقدم الحكومة إلى برلمانها بمشروع التأجير والاعارة، فلا يلبث هذا البرلمان أن يوافق على ما تطلبه الحكومة. وبمقتضى هذا القانون الجرئ تستطيع الحكومة أن تمد الدول التي تدافع عن كيانها بجميع ما تتطلبه الحرب الحديثة من سلاح وعتاد، دون أن تطالب بثمن عاجل. ولا تكتفي أمريكا بأن تسخّر مصانعها الضخمة لهذه الأعمال، بل تضمن وصول هذه الأسلحة والذخائر بأن تحرسها قطع من الأسطول الأمريكي عبر المحيط. ذلك لأن هذه القطع ملك لأمريكا وهي إنما تؤجرها أو تعيرها. فليس بمعقول أن تترك ممتلكات أمريكا عرضة للعدوان.

***

ليس من شك في أن كلا الفريقين يتخذ أهبته لمجهود حربي خطير في الربيع المقبل. ومن حسن حظ الديمقراطية وأنصارها أن يحسوا، ونحن في مقتبل الربيع، أن الولايات المتحدة، قد خطت هذه الخطوة الواسعة لشد أزر الدول التي تبذل جهدها في دفع ما يهددها من البغي والعدوان.

محمد عوض محمد

الى الأستاذ أحمد أمين بك
من الأستاذ أحمد الزين

لقد جزتُ أيهما يزدهي … حُبَوْهُ بها أم حَبَوْها به

علىّ، إنْ تقلد ما يَشتهي … وما تخرُ مَن لبس المُشتهي

لقد نلتَ ما تَشتهي من فخارٍ … ونال بك الفخرُ ما يشتهي

فى الطفولة المشردة

للأستاذ عبد العزيز البشرى

من بضع ليال ، خلت سمعت من الراديو صدراً من الأحاديث القيمة والأزجال الطريفة التى أُلقيت فى حفلة (الطفولة المشردة) . وما إن انصرف الراديو إلى إذاعة أخرى ، حتى شغل حديثُ هؤلاء الأطفال المشردين ذهنى ، وملك علىّ نفسى .

هذا بصرى يتعثر فيهم فى كل شارع من شوارع القاهرة ، وكل جادة من جوادّها ، وكل زقاق من أزقتها . لا يخلو منهم مكان ، فى ليل أو فى نهار !

ناحلو الأجسام ، بادو العظام . حتى كأنما شُدّت الجلودُ عليها شداً ، فلم تفسح بينهما لغير العروق مسلكا . وهذه وجوه مُغْبَرّة ، كأنما بعثرت أتربها من جدث . وهذه عيونٌ حيرى ، لا تكاد تقع على شىء حتى تتحول مسرعة ، خشية أن يعتريها المكروه من الناحية الأخرى ، فهى فى فزعٍ دائم وورعٍ مقيم . دائبة الوثب والتوارى خلف الجدران ، تحسب كل صيحة عليها . ولا تحسب عيناً مفتوحة إلا لتصيبها ، ولا رِجلا ماشية إلا لتركلها ، ولا يداً مرسلة إلا لتهيأ للبطش بها !

ولقد تحسب ، فى بعض الحين ، أنها أصابت من هذا العدو (جمهرة الناس) الغِرّة ، وواتتها منه الغفلة ، فسرعان ما تنقض انقضاض العقاب على عُقبة سيجارة . فإذا هى التقطتها ولّت مسرعة تضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فراراً من الطلب الدرّاك ليس له انتهاء ! ولقد تراها فى تلك اللحظة ، لحظة الأمن ، وهى تنبش الزبل فى وعائه القائم فى بعض الطريق ، لعلها تصيب كسرة أو فُضالة من طعام !

هى أشباحٌ تغدو وتروح ، كأنها أضغاث حلم ثقيل ! وكثيراً ما تسمع منها سُعالا ينبيك عما يمزق الرئة ويطلع منها إلى الضلوع !

جرمٌ يحمل أخبث الأمراض ، عليه خرقة تحمل بذور أفتك الأمراض . فشأنه شأن شيء من الهشيم قد اشتعلت فيه النار ، والرياح ترمى بشرره هنا وهناك ، فلا تأتى عليه النار إلا وقد تسعّرت فى كل ما حولها من الأشياء .

مخلوقات معذَّبة . وهى فى الوقت نفسه حشرات سامّة ، تفشى العلل والأوباء فى جماعات الأحياء .

***

والآن يحسن بنا أن نُلم إلمامة يسيرة بالناحية الخلقية من هؤلاء الأطفال المشردين . فليس الخطبُ فى الصحة بأشد من الخطب فى الأخلاق . وأنت خبيرٌ بأن هؤلاء لا يخرجون إلا من أحط البيئات ، وأشدها جهلاً ، وأعظمها إمعاناً فى الفقر والإعواز . وهل يمسهم على عيش التشرد إلا أن كافليهم قد ثقلوا بهم ، وصفرت أيديهم عما يرزقهم ويجمع شملهم ؟ ولقد يكون هؤلاء الكافلون ، من الآباء أو الأعمام أو الأخوال أو الإخوة الكبار أو أزواج الأمهات — قد يكونون ممن يؤثرون الدعة ، ولا يجشمون النفس سعيا ، فلا يرون إلا أن يتركوا هؤلاء الأطفال فى الطرق ليشحذوا ويجمعوا أعقاب السجاير ، ويسلّوا من جيوب الغافلين ما تطوله أيديهم ، ليظلوا هم فى أكسار الأكواخ ناجعين هانئين !

لم تفتح قط عين مخلوق من هؤلاء على دين أو على

خلق أو قانون أو أى شىء من آداب السلوك فى هذا العالم؛ فهو إنسان، إن صدق هذا التعبير، مفقود الضمير.

هو مخلوق لا يفرق بين الخير والشر، ولا بين الفضيلة والرذيلة. ولا يميز الحرام من الحلال، ولا يعرف ما يسوغ فى العرف وما لا يسوغ. وإذا كان مسوقاً، بحكم الغريزة الحيوانية، إلى ما يسد الجوع، فإنه يلتمس القوت بكل ما يتهيأ له من الوسائل، من تكفف، وجمع ما يعود على شحه من أعقاب السجاير، والتفحص عن فضلات الطعام ولو فى المزابل، والسرقة ما وجد إليها السبيل. فإذا رأيته مكفوفاً عن السرقة والتلصص، فى وقت ما، فما كان ذلك لأن له ضميراً يزجره، ويخوفه عاقبة السرقة عند الله وعند الناس. بل لأنه رى بعينه أن من يؤخذ فى سرقة، يعاقب بالحبس المرهق أو بالجلد الموجع الأليم!.

ولقد ترى هذا المخلوق، إذا خلا بأمثاله، يكاثر بما اكتسب فى يومه من الرذائل من سرقة أو غش أو إيقاع أذى بمن لم يلحقه منه أذى، أو بتضليل من استهداه السبيل. يفعل هذا فى زهو يشبه الافتتان!.

فإذا رأيت هذا منه فاعذره، فهو لا يدرى البتة أنه يجرم، بل إنه لا يدرى البتة ما الإجرام!.

وبعد، فإذا جاشت فى صدر هذا المخلوق عاطفة، فالحقد الشديد على هذا المجتمع (الأثيم) الذى لا ينفك يؤذيه أو يحاول أذاه أنى وجده، ويجتهد فى الحيلولة بينه وبين الكسرة يمسك بها الرمق، ولو التمسها فى وعاء السرجين، ويتفس عليه حتى بالضجعة فى ظل جدار على عذار الطريق!

هو مملوء حقداً واضطغاناً على هذا المجتمع. ولو وجد السبيل لحرقه بنار السعير. فإذا كتبت السلامة من العلل لهذا الشقى الصغير، وقدر له أن يشب ويكبر، فانظر أى صائل فاتك من هذا الغلام يكون؟ فإنك حاشا له أن يزجره عن أعظم الاجرام زاجر من ضمير أو من دين أو من رحمة أو من قانون!

* * *

وبعد، فإن هذا الصنف من الأطفال يشغلون، مع الأسف العظيم، نسبة غير يسيرة من مجموع الأمة. فلا ينبغى أن تزهينا اطراد الزيادة فى العدد، إذا كان قدر عظيم من الزائدين من هذا الطراز!

على أنه لو تيسر لنا أن نسقط جميع هؤلاء من التعداد، لأنه لا جدوى منهم على الأمة، بل لأنهم غير أكفاء للحياة. لو تيسر لنا أن نسقطهم من الحساب لهان الخطب، ولكنهم فى جسم الأمة عضو منآكل، لا يلبث أن يمتد بالفساد وأسباب العطب إلى ما حوله من الأعضاء. فهم أداة متنقلة جوالة لنشر الأوبئة فى الصحة وفى الأخلاق. إلى ما يؤذون به غيرهم من السرقة والعدوان.

إذاً فكيف الحيلة فى دفع هذا البلاء الكبير عن البلاد؟

الحق إنى لا أظن أن العلاج النافذ فى أن تبث الجميات وتجمع الأموال لتلتقط هؤلاء الفئة من الطرق والأزقة، وتحشرهم فى الملاجئ والمصحات.

نعم، ليس يجدينا هذا كثيراً فى دفع هذا البلاء، ما دامت هذه البيئات قائمة على هذه الصورة، وما دامت الأرحام فيها تدفع الأطفال من غير حساب!

إن الداء لا يحسم بتلقط هؤلاء المشردين وحشرهم ذلك الحشر، مهما تهيأ لنا الملاجئ وتحصل فى أيدينا من جلائل الأموال.

لست أزعم أن إنقاذ هؤلاء الأطفال بإيوائهم إلى الملاجئ، وتعليمهم ما يفتح عقولهم، ويثير بصائرهم، ويوقظ ضمائرهم. وتمرينهم فى ألوان من الحرف تجديهم إذا انحدروا إلى ميدان الحياة — لست أزعم أن هذا القدر لا يجدى ولا يفيد. بل أزعم أنه يفيد بعض الفائدة. على أن هذه الفائدة لا تعدو تلطيف المرض، ولكنها

مآسى شكسبير

للأستاذ محمود محمود

كان شكسبير فى شبابه يستوحى كتب التاريخ ، يخرج من بطونها مادة يبنى عليها مسرحياته ، وكان فى أيامه الأولى مرحاً طروباً تتوفر فيه صفات الشباب ، لا يشعر بعبء الحياة ثقيلاً على كاهله كما يحس به الشيوخ المسنّون . كان خالى البال ، لا يبيت على همّ ، فأنشأ « ملاهيه » الشهيرة ، التى ستبقى على وجه الدهر ما بقى الزمان .

وما إن تقدمت به السن قليلاً ، حتى تأججت فى نفسه ثورة عنيفة على الحياة ، وتملكه روح التشاؤم ، وأصبح ينظر إلى الحياة نظرة قاتمة معتمة ، فقد خانه الحبيب ، وغدر به الصديق ، ومات أبوه فامتلأت نفسه عليه هماً وحزناً . أو لعلها سحابة سوداء خيمت على ذهنه ، ورانت على صدره ، لأن الشاعر — كغيره من الناس ، بل وأكثر من غيره من الناس — قد يستولى عليه اليأس والقنوط لداع أو لغير داع ، فينضب معين المرح فى نفسه ، وينظر إلى العالم بمنظار قاتم أسود ، لا يرى فيما حوله بهجة ولا يرى سروراً ، وإنما الدنيا كلها أمام ناظريه شر وبؤس وموت وفناء .

فى هذه الفترة القاسية من حياته أخذ شكسبير يخرج المأساة تلو المأساة ، فكانت مسرحياته : يوليس قيصر ، وهاملت ، وعطيل ، والملك لير ، وماكبث ، وأنطونى وكليوبتره ، وليدات هذه النفس الثائرة ، وذلك الحزن العميق .

وفى « المأساة » يعرض لك شكسبير كثيراً من الشخصيات ، ولكنه لا يقصد فى الواقع إلا إلى شخصية واحدة فذة ، وتلك هى شخصية البطل . فهى شخصية بارزة لا تدانيها فى المأساة غيرها . ولا يشترك فى هذا المقام الرفيع — مقام البطل — اثنان ، اللهم إلا فى قصة (أنطونى وكليوباتره) حيث تكاد كليوباتره أن تنافس أنطونى فى مكانته .

والمأساة فى جلها مجموعة من الحوادث تتضافر على الوقيعة بالبطل حتى يموت . فالمسرحية التى لا يموت فيها البطل ليست من المآسى عند شكسبير . وتعرض عليك المأساة كذلك ما يعانى البطل من صنوف المتاعب والمشاق ، لأن البطل عند شكسبير لا يموت مصادفة أو فجاءة وهو يتربع على عرش العز والسلطان . إنما المأساة قصة كارثة وآلام تؤدى فى نهايتها إلى الموت .

لا تحسم العلة ولا تجتث جرثومة الداء .

إن من تدفع الأرحام كلّ يوم من هذه البيئات هم أضعافُ أضعاف من يستطيع الخيّرون السعى إلى إنقاذهم على هذا الوجه ، بحيث يرى المصلحون أن سيلهم سيظل متدفقاً على المدن لا ينقطع له مدد .

والرأى الذى أرى ، أن يبدأ المصلحون العاملون ببحث هذه المعضلة الخطيرة من عند أولها ، لا من عند آخرها ، بالنظر فى رفع المستوى العقلى والصحى فى تلك البيئات الوخيمة ، وتقييد الزواج بالقدرة على كفالة الولد ، أو السعى إلى منع تسرب الولد إلى هذه الحياة ، ما دامت هذه سبيله فى الحياة . على أن يجيز ذلك أئمةُ الشرع الكريم . ولا ضير ، بل من الخير أن يظل هذا الإنقاذ قائماً حتى يكتب لجسم الأمة البرء والشفاء ، من هذه العلل والأدواء .

عبد العزيز البشرى

ولا بد أن تكون الكارثة عظيمة ، والصريع عظيماً ، شهد في حياته أياما نضرة يانعة ، وعهداً رخياً سعيداً . وليس من المأساة في شيء عند شكسبير أن يتحدر الرجل إلى قبره شيئاً فشيئاً من جراء الفقر أو المرض أو تافه الأخطاء .

الكارثة العظمى عند شكسبير هي التي تستحق منا الاشفاق ، وهي عنصر أساسي للمأساة . والبطل عنده لا بد أن يكون رفيع المقام ، فهو ملك ، أو أمير ، أو زعيم ، أو على الأقل من أسرة كريمة مصيرها مما تهتم له عامة الناس .

ثم إن الحب المقطوع ، والضمير المعذب ، وغدر الصديق ، وما إليها ، هي في وقعها وآلامها عند الحقير والأمير سواء . ولكن شكسبير لا يرى هذا الرأي ، لأن قصة الأمير أو الزعيم لها روعة وجلال لا يتوافران في قصة الرجل الساذج ، الذي لم يكن يوماً من الأيام في مكانة يغبطه عليها الناس ، أو تشخص إليها الأبصار . ومصير الأمير — فوق ذلك — قد يكون له أثره في رفاهية أمة بأسرها وشعب بأجمعه . وفي سقوط الرجل العظيم من شاهق العظمة إلى سحيق القبر ، ومن الذهب والرياش إلى التراب والطين ، مشهد رائع من مشاهد التباين الشديد بين عجز الانسان وقدرة الله . وهي صورة لاتعدلها حياة الرجل من عامة الناس مهما جلت مصيبته .

المأساة عند شكسبير إذاً هي قصة كارثة مفجعة تؤدي إلى موت رجل ذي جاه عريض ؛ ولكنها لا تقف عند هذا الحد . فالكارثة التي تحل بالرجل دون أن تكون لها علاقة بما قدمت يداه ، أو بما اقترف من إثم ، لا تكفي وحدها أن تكون مادة للمأساة ، لأن كوارث المأساة لا تقع مصادفة واتفاقاً ، إنما تحل بالفرد جزاءً له وفاقاً على ما قام به من فعال .

هذا عمل تقوم به يؤدي بك إلى عمل آخر ، ثم إلى آخر ، وهكذا ، حتى تقع الواقعة كحلقة أخيرة من سلسلة متصلة الحلقات . فبطل المسرحية إذاً عند شكسبير هو نفسه سبب من أسباب ما يحل به .

ولكن شكسبير — مع هذا — لا يرى أن التبعة كلها تقع على كاهل البطل وحده ، بل إن هناك عوامل أخرى لها أثرها ، ولا تخضع لارادة الانسان ؛ فالبطل كثيراً ما يكون مصاباً بضعف في عقله ، أو بلون من ألوان الجنون ؛ ومن العسير أن نحمّل المجنون تبعة ما يفعل . ولكن الفعال التي تنجم من الجنون ليست وحدها في مأساة شكسبير سبباً في المصيبة ، بل لقد تكون المصيبة سبباً فيها ، كما نرى في قصة الملك لير ، حيث تنكر البنات على أبيهن الجميل ، فيصعق الرجل ، ويجن جنونه ، ويطير صوابه ، ويقترف بعد هذا من الأخطاء ما يبعث في نفوسنا الشفقة عليه . وكذلك هاملت يعرضه لنا شكسبير متزن العقل في أول الرواية ، ولكنه يصاب بالخبل والهوس فيما بعد .

ويُدخل شكسبير كذلك في مأساته عنصراً فعالا يعمل مع القضاء على حياة البطل دون أن يكون للبطل فيه يد ، وهو عنصر خارق للطبيعة ، كالأشباح ، والسحرة الذين يعلمون ما لا يعلم الناس . ويقول بعض الناقدين إن هذا العنصر إنما هو إخراج ملموس لما يدور في خلد البطل من أوهام مستترة ؛ فهو على هذا دليل على أن البطل مسئول عما يحل به . ولكن (برادلي) لا يرى هذا الرأي ، ويزعم أن هذه الأشباح ، وذلك السحر ، إن هي إلا تمثيل لعوامل خفية لها أثرها في حياة الناس ، ولا حيلة لهم بها . ولكنه يزعم كذلك أن هذه العوامل الخفية عند شكسبير تؤيد نزعة باطنة عند الانسان .

وكذلك يفسح شكسبير في مسرحيته في المجال لأثر

« الصــدفة » . فمن المصادفة أن روميو لم يتسلم رسالة الكاهن ، وأن جوليت لم تبكر دقيقة واحدة فى يقظتها بعد سباتها الطويل ، وأن (أدجر) فى رواية « الملك لير » وصل بعد موت (كرديا) بدقائق معدودات ، فلم يستطع إنقاذها . ومن المصادفات أن يهاجم القرصان سفينة هاملت فيعود إلى الدنمارك . وليس من شك أن من المأساة أن تكون حياة الانسان معلقة بحادث مصادف غير متوقع ولا منظور :

ولكن هذه العوامل الثلاثة — الجنون ، وقوى السحر ، والمصادفة — عوامل ثانوية فى المأساة ، لا تقاس فى أهميتها إلى العامل الأول ، وهو شخصية البطل ، وما ينجم عنها من عمل .

ومأساة شكسبير تمثل دائماً صراعاً بين جماعتين ، يكون البطل زعيم واحدة منهما ، أو قل — إن أردت — إن المأساة تمثل صراعاً بين عاطفتين ، أو فكرتين ، أو نزعتين ، صراعاً يدفع بجماعتين مختلفتين إلى السير فى طريقين متباينتين . وينتمى البطل إلى إحدى هاتين الجماعتين . فحب روميو وجوليت لا يتفق وما بين أسرتيهما من عداء . وقضية بروتس وزمرته تعارض قضية قيصر وأتباعه . وما كبث وزوجه يخالفان دنكان . وفى كل مأساة لشكسبير تستطيع أن تقسم الأشخاص إلى فريقين متعارضين ، تنتهى المصاولة بينهما دائماً بهزيمة البطل .

وكثيراً ما يكون هذا الصراع فى نفس البطل ذاته ، فيبيت ضحية لفكرتين مختلفتين تملكان عليه نفسه . بل إن خير ما يصوره لنا شكسبير فى مأساته هو هــذا الصراع الباطن فى نفس البطل . ولا يكفى عند شكسبير أن يكون البطل رجلاً عظيماً بين شعبه ولداته ، وإنما هو كذلك عظيم فى طباعه وخصاله وهو فى هذا يرتفع عن مستوى العامة . وليس معنى هذا أنه رجل شاذ فى تصرفه ، أو كامل فى خلاله . إنما البطل يمثل فى صفاته صفات القارئ وصفات من يحيط به من رجال ، ولكنها صفات مجسمة إلى درجة قد لا تتوفر فى رجل من غمار الناس . ومن الأبطال من تبلغ عنده هذه الصفات حدود العبقرية كهاملت وكليوبترة . ومنهم من تبلغ عنده الرغبة أو الإرادة قوة عظيمة . ولكنهم جميعاً يتميزون بالهوى ، وبالتحيز ، وبالميل فى الحياة إلى جانب واحد دون الجوانب الأخرى . والبطل دائماً عاجز كل العجز عن مقاومة هذه النزعة أو ذلك الميـل . وهى خلة تدعو إلى التأسى والاشفاق . وأنت تلمس هذه النزعة مثلا عند روميو العاشق المفتون ، الذى لا يتميز عن عامة الناس فى شىء غير حدة العشق وحرارته . وفى هذه العاطفة من غير شك مظهر من مظاهر العظمة ، رغم أنها قد أودت بصاحبها إلى الموت .

ولما كانت المأساة عند شكسبير تمثل صراعاً ينتهى بكارثة ، فهو يقسمها خمسة فصول : يعرض فى أولها الظروف التى ينشأ عنها الصراع ؛ ويقدم لنا الشاعر فى هذه المرحلة شخصيات المسرحية ، ويبين لنا ما بينها من علاقة ، ويخلق فى النظارة تشوقاً إلى ما عساه أن يقع لهؤلاء الأشخاص . ويمثل فى الفصل الثانى جانب الشر فى الصراع متغلباً على جانب الخير . وتتعقد الأمور حتى تبلغ شدتها فى الفصل الثالث . ثم تأخذ فى الحل ، وتنقلب الأوضاع ، وينهزم فى الفصل الرابع جانب الشر أمام جانب الخير . ولكن هذا النصر للخير له ثمنه ، وله ضحاياه ، فتعرض لنا المسرحية فى الفصل الخامس موت البطل ، وهو أفدح الكوارث عند الكاتب كما رأينا .

ولشكسبير فى مسرحياته حيل فنيــة كثيرة ، لا يتسع مقال واحد لبسطها ، ولكنا نكتفى بالإشارة إلى بعضها .

ومن بين هذه الحيل أنه كثيراً ما يجعل من بين شخصيات الرواية (نديماً) يرسل النكتة بين الحين والحين. وهو يرى من وراء هذا إلى أن لا يكون وقع المأساة على النفوس ثقيلا شاقاً، تضيق به أنفس السامعين، وإلى أن يدخل على قلوبهم شيئاً من السرور بين الفينة والفينة، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل دوام الأسى ساعات متواصلات.

ومن حيله كذلك أنه يروى إلى جانب القصة الكبرى قصة صغرى، تسير حوادثها جنباً إلى جنب إلى جوار القصة الأولى، وتشابهها في نموها وتطورها. وغرض المؤلف من هذا أن يؤكد للسامع بطريقة فنية ما تنطوى عليه المأساة الكبرى من أهداف وأغراض.

***

وبعدما ينتهي دور المآسي العنيفة عند شكسبير يعود ثانية إلى كتابة الملاهي، ومسرحيات الحب والخيال. وفي مسرحيات هذا العصر نرى الشاعر أكثر من ذي قبل تفاؤلاً. ففي هذا الدور من أدوار الرواية المسرحية يحب الناس بعضهم بعضاً، ويؤوب الحبيب الراحل، ويعفو العدو عن العدو، ويتوب الجاني، ويأتلف الزوج والزوج، والآباء والأبناء، والصديق والصديق. ولكن شكسبير لم يكن — رغم هذا — مرحاً كما كان أيام شبابه؛ فبعد أن كان يقهقه بقلب فارغ نراه الآن يبتسم مفكراً بل ومكتئباً. فهل كلّت روح شكسبير من شدة المآسي؟ أم هل تقدمت به السن فشعر بشيء من هدوء النفس؟ أم هل هي حاجة الجمهور إلى شيء من اللهو بعد تلك المآسي المفجعة، أم هل كان شكسبير يقلد أديبين شابين أصابا حينذاك نجاحا؟ إنا لا نظن ذلك، فقد كانا من تلاميذه، ولم يتعلم شكسبير منهما شيئاً. وربما كان نجاحهما راجعاً إلى تفاؤلها، وإلى أن المأساة لم تعدلها سوق نافقة. ومهما يكن من شيء، فقد تحول شاعرنا من المأساة إلى الملهاة؛ ومما كتب في هذه المرحلة «العاصفة» و «هنرى الثامن».

***

ونحن بعد هذا كله نقف متسائلين: هل تنم مآسي شكسبير عن فلسفة له في الحياة، أو عن رأى خاص فيها؟ إن شكسبير ينثر في مسرحياته كثيراً من الحكم مما يغرى القارئ إلى أن يعتقد أنه فيلسوف مفكر، له طريقة خاصة. وفي الحق أن شكسبير لم يكن بالفيلسوف، ولا ترتبط أفكاره برباط واحد، ولا تنخرط تحت كلٍّ متسق متحد. بل لقد يناقض بعضها بعضاً. ولكل من شخصياته، من الملك إلى النديم، فلسفته الخاصة. وكل منهم يحكم على الحياة حكمه الخاص. ويتعدد النظر إلى الحياة بتعدد الناس في هذه الدنيا. ومن ثم يرى رجال الدين في شكسبير مؤيداً لهم في عقيدتهم، كما يلمس الكفرة الملحدون في بعض ما ورد على ألسنة أشخاص المسرحيات ما يعزز إلحادهم وخروجهم على الدين.

ولكنا نستطيع أن نقول — رغم هذا — إن آراء شكسبير ترتبط بالأرض، ولا ترتفع إلى السماء. ولا نقصد أن الشاعر كان مارقاً على الدين، وإنما نعني أنه يجعل للحياة الدنيا المكانة الأولى في الوجود.

ولعل مسرحيات هذا الأديب لم تتسم بميسم الخلود إلا لأنها تقدم لنا شخصيات حية، نستطيع كل يوم أن نجد لها بين الناس أشباهاً ونظائر. ولا غرابة بعد هذا أن تنقل مسرحيات هذا الكاتب العظيم إلى اللغات الحية جميعاً. وإنا لنرجو أن ينقل إلى قراء العربية كل ما لم ينقل منها بعد.

محمود محمود

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة الباسل أمير تدمر عاصمة الصحراء الغنية بتجارة القوافل ، وكان يحب صيد السباع ويستصحب فى رحلاته امرأته الجميلة زنوبيا سليلة كليوبترة ملكة مصر ، وكانت فوق جمالها عظيمة الذكاء والثقافة ، ويعلمها الفيلسوف لونجين . وأصيب أذينة فى صراع أسد ، ومرض فجزعت لذلك امرأته ، ولم تجد فى شدتها سلوى إلا عند وصيفتها المسيحية لبنى التى حببت إليها دين المسيح . ولما شفى أذينة جاءت إليه أنباء بهزيمة امبراطور الروم فاليريان وأخذه أسيراً عند عدوه سابور ملك الفرس ، فثار لذلك وهم بالاندفاع إلى الحرب ، ولكن امرأته نصحته بالتريث ، وحسنت إليه إرسال هدية إلى سابور ليستميله ، ففعل ذلك ولبث فى تدمر ينتظر أنباء لقاء سابور لهديته وهو فى قلق . ولما تأخرت عنه أنباء الهدية اشتد قلقه وضاقت نفسه ، فدفعه ذلك إلى الإيقاع بابن أخيه معن لهفوة صغيرة بدرت منه وهو يصاحبه فى الصيد ، ثم جاءته الأنباء أن سابور ألقى هديته فى الفرات وسبه سباً قبيحاً ، فغضب غضباً شديداً وعول على الانتقام من سابور ، وتجهز لحربه ، وخرج إليه فى جيش عظيم من العرب ، وبقيت زنوبيا وحدها فى تدمر تحس وحشة شديدة وتثور فى قلبها الشجون لفراق زوجها الباسل الحبيب] .

ذهب أذينة إلى ريف فارس فى جيشه العظيم يترقب حركة سابور فى شوق إلى لقائه ، ولكن سابور كان لا يزال يضرب فى دروب الروم يسطو على مدينة بعد مدينة ، ويوقع بجيش بعد جيش ، والأمبراطور الأسير (فالريان) يسير معه فى ثوبه الأرجوانى الكريم ، وقد أذله الأسر وأخزاه . وكانت أنباء سابور وأسيره تسير فى الأرض يحملها الركبان إلى أذينة كلما مروا به فى طريقهم قافلين إلى مدنهم ؛ فكانوا يقولون إن العاهل المنتصر يستصحبه فى موكب ساخر ، ويعرضه على جنده فى مظهر الملك ليتفكهوا بما صار إليه من هوان ؛ فإذا أراد الركوب جعله موطئاً لقدمه يعلو بها فوق عنقه المنحنى حتى يعتلى جواده . فإذا ما سمع أذينة هذه الأنباء تحرق وثارت حفيظته ، وانتظر يوم اللقاء لعله يشفى غليله من ذلك الطاغية القاسى الذى أهانه وأهان صديقه الكبير ، وتمنى لو حملته الريح إليه ليفرغ فيه غيظه ، ولو واقاه بعد ذلك أجله فى قتاله . ولكن سابور قضى فى حربه شهراً بعد شهر وهو يسير قدماً فى سبيله نحو المغرب تاركا وراءه مواطئ للخراب والهدم والقتل . فتلك أنطاكية تخر أطلالا مدكوكة ، وتلك وديان كليكيا تغرق قراها فى الدم المسفوح ، وهذه جبالها تهتز تحت جيشه العرمرم ، وهذا هو قد بلغ قيصرية وأفرغ فيها حقده وحطمها حتى كاد يزيل معالمها .

فلم يجد أذينة دونه غير ريف العراق يجوس خلاله حتى يعود إليه غريمه المتغطرس فيحتكم معه إلى السيف والقضاء .

ولم يكن فى ريف فارس ما يطلب من قتال ، فإن حاميات القرى كانت كالقصبات الجوفاء يخبطها إذا اصطدمت به ، ويفنم فيئها إذا هربت منه ، فامتلأت يداه من الغنائم حتى أثقلت رجاله وغمرتهم بالغنى .

ولكنه لم يذهب إلى فارس ليعود بالوقر من الذهب والفضة والطرف ؛ فكان كلما رأى أصحابه وقد أثقلتهم الغنيمة فزع وامتلأ قلقاً ، خشية أن يزهدوا فى الحرب بعد أن ينالوا ما يزيد على آمالهم مما يجتنيه الأعراب فى غاراتهم ؛

وكذلك عول على أن يقسم وقته بين الريف والصحراء ، حتى لا يألف جيشه الدعة ، ولا تبطره كثرة الغنى .

وكان كلما عاد إلى الصحراء سرى عن نفسه القلقة بالصيد ، تاركاً على قيادة الجيش من يثق فيهم من شجعان تدمر أو شيوخ القبائل ، وكان أكرمهم عنده زبدة بن دعبل من قبيلة (مجدة) وزّباع بن مالك من بنى قارة .

ومر عام طويل ولم يعد سابور من حربه ، حتى أخذ القلق مأخذه من أذينة ، ولم يستطع بعدُ صبراً ، وعول على أن يخترق فارس بجيشه فى غيبة عاهلها ، ويخاطر مخاطرة لم يسبق لأحد سواه أن أقدم عليها ، وعزم على القصد إلى العاصمة طيسفون .

وكانت ليلة من ليالى آخر شهر القمر عندما جمع أصحابه من شيوخ الجيش ليعرض عليهم ما عزم عليه من الرأى . فدعاهم إلى خيمته الفسيحة بعد أن هجع الجنود ، ولم يبق من صوت إلا وطء أقدام الربيئة من خارج المعسكر . ونباح الكلاب من القرى البعيدة ، وقد أزعجها ما أحست من قرب قوم أغراب .

ثم حدثهم بما يريد أن يهم به من قصد طيسفون ، وأفضى إليهم بما فى نفسه من قلق إلى قتال سابور ، وأنه إن طعن تحت ملكه خر ذلك الملك الأجوف وانداك . وأخذ أصحابه يجادلونه ويراجعونه ، وقد أكبروا أن يخاطر بنفسه وبأصحابه مثل تلك المخاطرة فى بلاد لا تزال سطوتها تخيف كل الأرض ، ولا تزال جيوشها تهز آفاقها .

وقام زبدة ، وكان أكثر قواده جراءة عليه فقال :

— لقد علمت أيها الأمير أننا أطعناك فى كل موطن ، لم يتخلف عنك أحدنا فى رأى . ونشهد أننا رأينا من توفيقك وسداد رأيك ما زادنا رغبة فى دوام نصرك ، وتجنب عثرات الرأى عندك .

فقال أذينة وهو يجمع أطراف ثوبه :

— قل ما بدا لك يا أبا دعبل فإنك ميمون الرأى ، وحق شيمه القوم ما خالفتنى فى رأى إلا ورأيت خلافك أحكم رأياً .

فخفض الشيخ بصره قليلا وتردد ، ثم استأنف قائلا فى حياء :

— إن مسيرنا إلى ذلك الريف قد يحملنا على مركب وعر ، فإن خيولنا أسرع وثباً على الرمال ، ورجالنا أكثر اطمئناناً إلى البراح .

فساد الصمت حيناً على الجميع ، كأنهم يوافقون (زبدة) ونظر أذينة فى وجوههم فتوسم ذلك فيها ، وأحس بنفسه تثور وبشىء يشبه الغناء يملأ صدره . وقال بعد صمت قصير :

— لقد خرجنا للقتال يا أبا دعبل ، ولم نخرج لكى نختطف الغنائم .

فأحس زبدة بما فى قول أذينة من سخرية ، وتحفز يريد الرد ، فأسرع أحد الشيوخ فاشرأب بعنقه من آخر الجمع يريد الكلام ، وأحب أذينة أن يحول الحديث عن زبدة خوف أن تبدر منه بادرة تعكر ما بينهما من الصفاء ، فقال مسرعاً يوجه الكلام إلى الشيخ :

— هلم يا أبا مالك ورأيك السديد .

فقام زبّاع بن مالك وضم عليه أثوابه . وكان شيخاً ضخم الرأس أصلعه قد اختلط البياض فى لحيته بالسواد ، وكان وجهه الأبيض يلمع فى حمرة وتتخلله أسارير عميقة تلوح كأنها خطوط سوداء إذا ما وقعت عليها الأشعة الضئيلة المنبعثة من الشموع المتراقصة فى جوانب الخيمة . وقال فى صوت عميق :

— قد علمنا يا ابن الأكرمين أنك لا ترى رأياً إلا إذا أوردته وأصدرته ، وقد بدا لى أنك قد طال عليك الانتظار

وتقد منك الصبر . وأنك تريد أن تجس ما هنالك ، فإذا رأيت الطريق وعرة أقدمت . فإذا كان هذا ما أردت فلا تغرر بالجيش كله ودع ذلك القوم منا يسبقونك . فإذا هلكوا كانوا فداء لك وللجيش ، وإذا نجحوا مهدوا لك طريق النصر ، وكان لك أن تلحق بهم في عافية وأمن .

فعاد الصمت إلى الجميع مرة أخرى ، ونظر القوم إلى وجه أذينة ليتبينوا وقع قول الشيخ عليه ؛ فأطرق الأمير حيناً ، ولكن لم تخف عليهم بسطة لمت به في عبسته ، دلتهم على أن قول الشيخ قد لقي عنده قبولاً ، وإن قطع عليه أملا أثيراً كان يتمثل به تحرقاً إلى القتال . ثم رفع رأسه بعد قليل وقال :

— إذا أبيتم إلا ذلك كنت أمام السرية القاتلة .

فرفع زباع يده وقال في شبه غضبة :

— ولكنك أيها الأمير منا في مكان الرأس من الجسم ، فإن هلكت تشتت الجيش كله وتمزق . فإذا شئت فليذهب أحدنا لذلك ، وتبقى أنت لتكون لنا ردءاً .

ثم ركز رمحه في أرض الخيمة ، ووقف رافعاً رأسه جامداً كأنه تمثال . فصاح الجميع في حماسة يوافقونه على رأيه ، واضطر أذينة إلى الإذعان .

وفي تلك الليلة تحركت الكتيبة نحو النهر لتعبر إلى الجانب الشرقي من الفرات ، وذهب على إمرتها القائدان زباع وزبدة ليتعاونا في الرأي إذا اشتد الخطر في مغامرة مثلها جريئة . ومضى بعد ذلك أسبوع بعد أسبوع وأذينة في قلق ينتظر أخبار أصحابه من الشرق وأنباء غريمه سابور من الغرب ، والأيام تمر به بطيئة وهو يقاسي أشد ما يقاسيه المتحرق إلى الانتقام .

ولكن أخبار أصحابه انقطعت عنه حتى كاد يجهل أي وجه ساروا إليه ؛ ولم تأت إليه إلا أنباء من أنطاكية وحمص وطرسوس أن سابور قد انكفأ راجعاً نحو الشرق بعد أن أصاب قيصرية بما أصاب به مدن الشام من قبل ، فدك حصونها واستباح أموالها وأهلها وأذل كبرياءها .

وكان أذينة قد فك من عقال عند ما بلغته تلك الأنباء ، فثار يستعد للقتال لا يهجع في ليل ولا يفتر في نهار ، وقلبه يهتز كأنه يترقب إقبال حبيب . ثم ثار بالجيش حتى اقترب من مخاضة الفرات التي لا بد لجيش سابور أن يعبر منها ، وكمن بجيشه متربصاً كما تنتظر الأسود الفرائس .

وسار أذينة على فرسه الغاليم في أصيل يوم ، يتطلع إلى الأفق ، وهو غارق في هواجسه وهمومه يتذكر ما مر به في ماضيه ، ويتأمل ما يلقاه في مستقبله . وكانت صورة زنوبيا تتخلل تلك الذكريات جميعاً . فهي التي قد ملأت قلبه ، وجعلت له الحياة نابضة ، وهي التي قد عقدت لها أمل الفداء إذا انتصر وصارت له الزعامة في ملك الشرق .

وفيما هو في هذه الهواجس الصاخبة لاح له عند الأفق غبار ثائر كأنه سحابة صعدت هنالك تنذر بريح عاصفة ، فوقف متلهفاً واضطرب قلبه ، ثم ركض فرسه ، فعاد إلى جيشه ليتخذ العدة للقتال .

وما أتى نصف الليل حتى كانت مياه الفرات تلمع تحت القمر الموفي على التمام ، وجنود الفرس يملأون جوانب الشاطئ ، ويمتد جمعهم قطعاً مبعثرة على الأرض السوداء ، وقد أخذ بعضهم في الهبوط يطلبون العبور في السفن والقوارب والأرماث .

فلم يضيع أذينة وقتاً ، بل ضم صفوفه وأوصى أصحابه أن يكتموا أصواتهم ، حتى إذا ما اقتربوا من النهر أشار إليهم إشارة معلومة ، فصاحوا صيحة واحدة ، وأهووا على الجنود المتفرقين وهم في غرتهم ، فاندفعت الخيول كأن

عليها جيشاً من الجان خرج من الظلام ، والتحموا بسواد الجيش الفارسي الكثيف ، فلم يجد جنوده من الروع سبيلا إلى سلاح أو فرس ؛ وتدافعوا وتشتتوا يطلبون النجاة . وصور لهم ضوء القمر وهم في ذعرهم أنهم قد أحيط بهم من كل جانب ، فاندفعوا في كل وجه ؛ ومن لم يجد مخرجاً ذهب إلى الماء فألقى بنفسه فيه ، وأصبح الجيش كله كالقطيع أذهله الذعر ؛ فكانت مذبحة هائلة .

وسار جيش أذينة وراء الفلول في أطراف البر ، ومضت ساعة وجد فيها أذينة برد قلبه وتنفس ارتياحاً كأنه في النشوة التي يحسها فيما اعتاده من صيد السباع .

ولما فرغ من مطاردة الفلول عاد إلى الخاصة فرأى جنوده يجمعون الغنائم ويقيمون منها أكداساً كأنها كثبان الصحراء ، فتبسم ارتياحاً ، وقلب وجهه فيما حوله ، فحانت منه لفتة إلى النهر ، فرأى كتلة عظيمة من خيل الفرس تقطع الفرات ذاهبة نحو الشرق في نظام واطمئنان كأنها لم تكن بقية جيش منكوب .

فأخذته هزة من الدهشة ونظر إلى أصحابه إذ يجمعون كنوز العدو ، وعادت إلى ذهنه ذكرى إخوانه الذين ذهبوا إلى الشرق وانقطعت أخبارهم عنه وأيقن أن هؤلاء يوشكون أن يذهبوا في أسنة هذه الكتيبة الباسلة التي تجاهد مياه النهر بعد تلك الهزيمة الطاحنة .

وأحس عند ذلك بشيء يعصر قلبه عصراً . فهمز فرسه واندفع نحو جموع أصحابه صائحاً في جماعة :

— هذه الغنائم لم تغن عن عدوكم شيئاً .

ثم تابع سيره محنقاً إلى جماعة بعدها صائحاً :

— هذه الغنائم تنتظركم إذا نصرتم ، وتسلب منكم إذا كانت الأخرى

ثم عطف فرسه إلى فئة بعدها صائحا مذمراً معنفاً ، ثم اندفع نحو النهر ولم ينتظر مراجعة وصاح قائلاً :

— من شاء فليتبعني فإني مقاتل .

وانحاز قليلا إلى الجنوب ، وخاض في النهر وراء الكتيبة الفارسية ، فما رأى جنوده ذلك حتى تدافعوا وراءه وكان سباقاً مجيداً ، وأخذ الرماة يرسلون السهام إلى الفرس وهم في وسط اللجة حتى أحسوا وقعها واضطرب أمرهم وفشا فيهم القتل ، وعرقل الرمي حركتهم حتى استطاع أذينة أن يصل إلى عدوة النهر قبلهم ، ووقف الجمعان مرة أخرى وجهاً لوجه على الشاطئ الشرقي وكل منهما يستمد ويستروح عازماً على الاستماتة في الموقعة التي لا مفر منها .

وبدأ النهار يتنفس وأخذت الأشباح تبدو واضحة في ضوئه الرفيق ، وظهرت مروج فارس اليانعة وبساتينها الناضرة كأنها قطعة من الفردوس ، فتأملها أذينة ملياً وهو يصف جنده ، وذهبت آماله إلى ذلك اليوم الذي تمتد فيه دولتــه إلى تلك الأرض الخضراء الجديرة بملكه وملك امرأته الباسلة الحكيمة زنوبيا ، وما إن ذكر زنوبيا حتى خيل إليه أنها حاضرة إلى جنبه تدعوه إلى القتال وتعده النصر ؛ فصحا من تأمله والتفت إلى جنده الذين كانوا يحاولون تجفيف ثيابهم ، وصاح فيهم صيحته التي واعدهم عليها من قبل ، فاندفعت الكتلة العظيمة في أثره ودوى الفضاء بصرختها وثارت وراءها سحابة من الغبار حتى اصطدمت بالكتلة الفارسية الرابضة على نحو ميل منها على شاطئ النهر .

وتجاول الفرسان ، ووجد العرب من عدوهم صبراً واستبسالاً ، واختلط الجمعان وتشابكا ؛ حتى ما كان الرجل يعرف صاحبه إلا من صيحته أو ملبسه ، وكثرت في الجانبين القتلى والصرعى ، وترجح ميزان القضاء بين الطائفتين ، ونظر أذينة حوله فلم يرَ صفوفه المنتظمة ؛ ورأى ميداناً فسيحاً تتطارد فيه الفرسان ركوباً ، ويتناضل فيه من صرعت الأفراس من تحتهم ، فداخله الجزع ، ولم يدر كيف يستطيع أن يخرج بجيشه من ذلك الصراع العنيف الذي ما كان يحسب في الفرس طاقة عليه بعدما

العرض والطلب

للدكتور محمد عبد الحميد بك

من القوانين الشائعة فى علم الاقتصاد السياسى القانون المعروف بقانون العرض والطلب . وهو الميزان الذى تقدر به أثمان الأشياء ، وذلك بوضع كمية الأشياء المعروضة — أو السلع كما تسمى فى عرف علم الاقتصاد — فى كفة والمطلوب منها فى الكفة الأخرى ، ثم الموازنة بين الكفتين . فإن كانت الرغبة فى السلع شديدة ، والتهافت عليها عظيما زادت قيمتها وارتفعت أسعارها . وإذا كانت الكمية المعروضة كبيرة والرغبة فيها قليلة قلت قيمتها وانخفضت أسعارها ، ولو كانت عظيمة الفائدة فى ذاتها أو لو كانت تكاليف عملها باهظة . وأقرب مثال لذلك القطن المصرى ، فإن زاد المعروض منه على حاجة الأسواق إليه انخفض سعره ، على غير ما هى الحال إذا قل المعروض منه واشتدت الحاجة إليه ؛ حتى لقد روى بعضهم أن العبيد من العمال فى أسبارطة لما زاد عددهم ورخص ثمنهم رُخص للأغنياء من الشبان أو للشبان من الأغنياء أن يقتلوا العزل منهم فى لهوهم ورياضتهم ، حتى نقص عددهم فارتفعت أسعارهم . وما إتلاف محصول البن فى البرازيل أو إحراق القطن فى أمريكا إلا مجاراة لهذه القاعدة ؛ ومن هذا النوع شراء حكومتنا قطننا منذ بضع سنوات وخزنه ، لتقليل المعروض منه لزيادة سعره .

ومما وصل إليه العلم الحديث خزن بعض الفواكه والخضراوات والبقول بحفظها فى علب محكمة لحين الحاجة

أصابهم من الهزيمة . وفيما هو يقلب الرأى سريعاً فى حزن كاد يغلب عليه ، سمع صرخة من ناحية الجنوب ، فالتفت نحوها فرأى جمعاً مقبلا ؛ فكاد يملكه اليأس ، إذ أيقن أن الفرس لا بد أن يكونوا قد حشدوا حشداً أقبل لنصرة إخوانهم ؛ وثارت فى قلبه غضبة عظيمة على نفسه ، إذ قد زج بقومه فى مثل هذا المأزق ، وعول على الموت حيث هو ، تكفيراً عن تهوره ، فاستقبل الجمع المسرع نحوه عازماً على أن يختم حياته فى مصرع عنيف .

واقترب القوم فهمز الظليم واستقبلهم حانقاً ، وأشرع رمحه يريد القتال ، لا يلتفت وراءه ولا يدرى إن كان وحده أم قد تبعه بعض جيشه ، حتى إذا ما كاد يطعن أول المقبلين عليه سمع صيحة عربية علت فوق ضجة المعركة الثائرة ، فتنبه فإذا به يرى أن تلك الكتيبة المقبلة ما هى إلا السرية التى انقطعت أخبارها عنه ، وأراد لها القضاء أن تعود فى تلك الساعة التى فيها الفصل بين الفئتين . فصرخ صرخة فرح وهو يهز رمحه فى الفضاء ، وعاد مع إخوانه سراعاً نحو ميدان المعركة الثائرة ، وهم يصيحون صيحة تجاوبت أصداؤها ، وسمع المتحاربون الصيحة ونظروا إلى المدد الجديد ، فاشتدت عزيمة العرب وتضعضعت قوة الفرس وأخذوا فى طلب النجاة . وما هى إلا ساعة حتى خلا جانب النهر إلا من فرسان العرب يتنادون من أطراف الميدان .

وكانت شمس الظهيرة تسطع فى كبد السماء عندما اجتمع جيش العرب المتبدد ، وقد زهاه النصر وأثقلته أحمال الغنائم الثمينة ، وعسكر به أذينة ليستريح حيناً ، قبل أن يستأنف السير إلى الجنوب قاصداً طيسفون .

ولم ينس أذينة أن يبعث بالبشرى رسولا إلى زنوبيا فى تدمر لتشاركه فى هزة نصره العظيم .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

إليها ، وخزن اللحم والسمك بالتبريد ونقلهما من بلاد إلى بلاد ؛ وطريقة الحفظ هذه وإن عادت بفوائد عظيمة كحفظها لحين الحاجة إليها في غير أوقاتها أو لنقلها من بلاد تكثر فيها هذه الأشياء عن حاجة أهلها إليها لبلاد أخرى بعيدة تحتاج إليها لقلتها فيها ، فقد يستغلها بعضهم استغلالاً غير مشروع بخزنها وتقليل المعروض منها بطريقة الاحتكار لرفع أثمانها .

ومن الغريب أن الهيئات الطبية في أغلب البلاد التي كثر فيها عدد الأطباء ترى تمشياً مع قانون العرض والطلب أن تتخذ الوسائل لتقليل عدد المتخرجين من المدارس الطبية التي في تلك البلاد . وكأنهم — سامحهم الله — جعلوا الأطباء كالسلع التي تعرض في الأسواق المختلفة ، إذا زاد المعروض منها عن المطلوب قلت قيمته . فالقوم يزعمون أن الأطباء إذا زاد عددهم قلت قيمتهم . ولو أن هذه الهيآت الطبية فطنت للأمر ورأت بنفسها أن تنحط بالأطباء إلى هذا الدرك لكان خيراً لها ؛ ذلك لأن هذه الهيئات بمحاولتها تطبيق هذه القاعدة الاقتصادية على أفرادها تحرم البلاد من العدد الكافي من الأطباء لتحسين الصحة العامة ، وتحرم المرضى من العدد الكافي من الأطباء للقيام بشؤون العلاج الشاق ، وتحرم الأطباء أنفسهم أن يعيشوا عيشة راضية بالحصول على الأرزاق الكافية لسد حاجاتهم الاجتماعية . وقد مر بك في الكلمة الفائتة كيف أن الولايات المتحدة تحتاج إلى ضعف عدد من فيها من الأطباء ، على كثرتهم هناك .

هذا إلى أن صناعة الطب تختلف عن سائر الصناعات . ففي كثير من المصانع استخدمت الآلات الحديثة ، البخارية منها والكهربائية ، وقد استغنى بها القوم عن كثير من العقول البشرية والأيدي العاملة ؛ مع أنهم في الوقت نفسه قد زادوا بها في مصانعهم « الانتاج » ، وقلت حاجتهم إلى العمال . ولا كذلك الطب لأن شتى الأجهزة الحديثة المستعملة في الأعمال الطبية لا تغني عن الأطباء ؛ بل هي على النقيض تقتضي كثرتهم للتوفر على استعمالها . فأجهزة الأشعة المجهولة ، وهي أشعة رنتجن لا بد من طبيب متوفر (إخصائي) عليها ، والأجهزة الكهربائية المختلفة كالتي ترسم بها ضربات القلب لا بد لها من طبيب متوفر عليها أيضاً .

قد يكون لهيئات الطبية في مثل الولايات المتحدة بعض الحق أو بعض العذر إذا هم أولو الشأن عندهم أن يقللوا عدد الأطباء ، وأن يضيقوا دائرة التعليم الطبي على طالبيه لكثرة الأطباء في البلاد ، ولكثرة المستشفيات والمصحات والمستوصفات ، وارتفاع المستوى الصحي ارتفاعاً يغبطون عليه ؛ ولكن ما عذرنا نحن المصريين إذا حذونا حذوهم ، ولم نبلغ شأوهم في أي شيء ؟ فالأطباء عندنا قليلون ، والمستشفيات والمصحات والمستوصفات عندنا قليلة بالنسبة للمرضى ؛ والأمراض منتشرة عندنا انتشاراً عظيماً ، وبعضها مستوطن يكاد يقضي على الصحة العامة قضاءً مبرماً . فهذه البلهارسية والانكلستوما والملاريا والرمد قد طاب لها لسوء الحظ المقام في مصر ، وقلما ينجو منها إلا القليل من الفلاحين ، وهم الأغلبية الساحقة من المصريين الذين عليهم مدار الرخاء والرفاهية في مصر ؛ فهم عماد ثروتها ، لأنهم الأيدي العاملة المنتجة الجديرة بكل عطف وعناية ، حفظاً للصحة العامة وحرصاً على الثروة العامة .

وما أدري كيف يصح بعد ذلك أن تطبق عندنا على الأطباء مبدأ العرض والطلب ، بل كيف يصح أن نجاري الهيئات الطبية في الخارج في العمل على التقليل من الأطباء ، وتضييق دائرة التعليم الطبي على راغبيه ، ومصر أحوج البلاد إلى كثرة الأطباء ، وكثرة المستشفيات

وكثرة المصحات والمستوصفات .

ولقد والله أوشك الشيطان أن يستدرجني للترحم على سالف عهدي بالتلمذة يوم كان يتنافس كل من الدكتور كيتنج ناظر مدرسة الطب ، والمستر اليوت ناظر القسم العالي في جذبي أنا وبعض زملائي إلى مدرسته ، إذ كان يجرنا الدكتور كيتنج إلى مدرسته بالسعي إلى إدخالنا مجاناً ، وقد كنا أول فرقة دفعت المصروفات في مدرسة الطب ؛ بينما كان يجرنا المستر اليوت بالمكافأة الشهرية التي كانت تدفع للطلبة في ذلك الوقت ، وبالسعي لارسالنا في بعثة إلى انكلترا بعد إتمام الدراسة ، وبغير ذلك .

وما كانت مصر يوم كان يسعى كلا الناظرين إلى الاكثار من طلبة مدرسته بأحوج إلى الأطباء منها الآن ؛ ذلك لأن الطبيب في ذلك الوقت كان يعرف شيئاً من كل شيء في الطب ، ويقوم بعلاج مختلف العلل والأمراض .

أما الآن فقد انتشر التوفر (الاختصاص) في الطب ، وأصبح الطبيب في أكثر أحواله يعرف كل شيء عن شيء ؛ وكلما مرت الأيام وتقدم الطب زادت فروعه ؛ فهناك طبيب الأمراض الباطنية ، وطبيب الأمراض الجراحية ، وطبيب الأمراض الزهرية ، وطبيب الأمراض الجلدية ، وطبيب أمراض العيون ، وطبيب أمراض النساء ، والطبيب المولد ، وطبيب التخدير ، وطبيب الأشعة ، وطبيب الأبحاث البكتريولوجية والباثولوجية . بل أصبح الفرع الواحد ينقسم إلى فروع أخرى ؛ فالأمراض الباطنية تنقسم إلى الأمراض العصبية ، وأمراض الصدر ، وأمراض القلب ، وأمراض المناطق الحارة ، إلى غير ذلك ؛ وكذلك الأمراض الجراحية أصبحت تنقسم إلى فروع كثيرة ، كجراحة العظام ، وجراحة المجاري البولية ، وجراحة الصدر ، وجراحة البطن ، وجراحة الأمراض العصبية ؛ وأصبح للأمراض العقلية متوفرون عليها ، ولمسائل الصحة العامة كذلك متوفرون عليها .

أضف إلى ذلك أن الجمهور في العهد السالف كان لا يلجأ إلى العلاج إلا نادراً ومتأخراً ، وكان كثيراً ما يكتفي باستشارة الدجالين والحلاقين ، على غير ما هي الحال الآن ، إذ أصبح الجمهور يدرك فائدة المبادرة بالعلاج ، فاشتد الاقبال على الأطباء ، فمن الخير لمصر أن يفتح أولو الشأن باب كلية الطب على مصراعيه ويعملوا على جعل المستشفيات الكبيرة تعليمية ، ثم تأسيس كلية طب أخرى . أما ما يخشاه أولو الأمر من ازدحام الأطباء بعد التخرج على الوظائف الحكومية — إن شجعوا التعليم الطبي كما أرى — فمن الأوهام التي سأشرحها في كلامي الآتية إن شاء الله .

محمد عبد الحميد
وكيل مستشفيات الجامعة

جمال الدين ومحمد عبده

للأستاذ عبد المنعم حمادة

توفى جمال الدين الأفغانى فى ٩ مارس من عام ١٨٩٧م . ويسرنا بمناسبة الذكرى الرابعة والأربعين أن نكشف عن العلاقة الأدبية التى كانت قائمة بينه وبين محمد عبده إلى أن نفى من مصر فى سبتمبر من عام ١٨٧٩ م

كان جمال الدين الأفغانى فيلسوف الشرق والإسلام قد سافر إلى الهند عام ١٨٦٩ م ، ثم رحلته الحكومة الانجليزية على باخرة ماضية فى طريقها إلى السويس ، فلما وصل إلى مصر لم يمكث بها أكثر من أربعين يوماً . غير أنه عاد إليها مرة ثانية عام ١٨٧١ م حيث تلقى من المصريين ما حبب إليه الاقامة والعيش فى ربوع النيل

وعلم محمد عبده بوصول حكيم الشرق وفيلسوفه العظيم إلى مصر لأول مرة من أحد المجاورين برواق الشوام . ولما ذهب بصحبه الشيخ « حسن الطويل » لزيارته والتعرف به وجداه يتناول طعام العشاء . وقد حدثهما بعد فراغه من الطعام فى تفسير القرآن ، ثم تدرج الحديث إلى التصوف ورجاله وأثره فى التفاسير . . وكان جمال الدين صوفياً من كبار الصوفيين ، ملماً بكثير من أحوالهم ومعارفهم ، مدركاً لكثير من خفايا تعاليمهم . وكان جمال الدين إلى جانب ذلك نافذ البصر ، قوى الملاحظة ، لا تخفى عليه خافية ، ولذلك لم تغب عنه ما كانت تنم عليه نظرات محمد عبده وحيرته عند التحدث عن التصوف وأهله ، كما أدرك بفطنته النزعة القوية التى كانت تتصارع فى نفس ذلك الشاب الجالس أمامه ، والذى كان يتشوق إلى المعرفة الصحيحة . . لم يخف على جمال الدين شىء من هذا كله ، ولذلك حدثه بأسلوبه الساق الجميل الشبع بالثقة والإيمان حتى اطمأن إليه ، ووثق به ، وتعلق بأوصاله . . ولما عاد إلى مصر للمرة الثانية عام ١٨٧١ م أسرع إليه تلميذه الأول ليشبع رغبته فى طلب العلم ومعرفة كنوز الفلسفة . ولازمه محمد عبده منذ ذلك الوقت لا يفارقه ، بل أخذ يدعو أصدقاءه ومعارفه إلى غشيان مجلسه والحضور عليه وتفهم أحاديثه والإصغاء لصوته العذب .

ونهج جمال الدين فى إلقاء دروسه منهاجاً جديداً لا عهد للمصريين به ، واستطاع بطريقته الأخاذة الساحرة أن يدرب تلاميذه على إنشاء المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية ، وأن يمرنهم على الخطابة ، وأن يخرج منهم بعد ذلك زعماء الأمة وقادتها والعاملين على رقيها والنهوض بها إلى حيث تحتل مكانها اللائق بين الأمم ، ويكفى أن نعرف أن محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وحسن باشا عاصم وحسن باشا عبد الرازق وغيرهم كانوا من تلاميذه ، حتى ندرك ما كانت عليه نفس هذا الفيلسوف من حب السمو الخلق وجهاده فى سبيل تكوين خلفاء له ينقذون مصر الاسلامية بل الشرق كله من ظلم المستعمرين واضطهادهم . .

ولو أردنا أن نحصر الخدمات التى قدمها جمال الدين لتلميذه محمد عبده لوجدناها كثيرة قيمة نذكر بعضها فيما يأتى :

أولا — كان أول ما قدمه جمال الدين لمحمد عبده انتشاله التلميذ الناشئ من الاستغراق فى التصوف .

ثانيا — ترغيبه فى الاطلاع على ما فى الكتب الحديثة التى ترجمت إلى مختلف اللغات . وقد استطاع محمد عبده أن يجد فى هذه الكتب لذة أخرى جديدة لم يكن يجدها أو يحسها فيما كان يقرأ من الكتب القديمة . . واستطاع أن يجد عالماً جديداً أطال التحديق فى آفاقه ؛ ذلك هو عالم

الفكر الغربي وما وصل إليه من علم حديث .

ثالثاً — مهد جمال الدين لمحمد عبده طريق الصحافة منذ دربه على الكتابة والانشاء ؛ وكان لهذا التمهيد أثر قوى فى حياته ، بل كان لاشتغاله بالصحافة والتحرير فيما بعد أثر قوى ظاهر فى حياة الأمة كلها . . واستطاع محمد عبده بما بذله له أستاذه أن يكون خطيباً بليغاً قوى الحجة طلق اللسان ، بل واستطاع أن يبز أستاذه فى هذا المضمار ، لخلو لهجته من العجمة التى لازمت جمال الدين طوال حياته .(١)

* * *

وكتب محمد عبده فى هذا الوقت عدة مقالات نشرت بجريدة الأهرام . من هذه المقالات اثنتان أخذهما عن أستاذه جمال الدين : الأولى فى فلسفة التربية ، وازن فيها بين سلامة الحياة الخلقية وصحة التركيب الجسمانى فى حياة النبات والحيوان ؛ وقد بين فيها أن صحة التركيب البدنى إنما تأتى من تجمع أصول متضاربة ، إن تغلب أحدها كان فى هذه الغلبة فساد التركيب . . وكذلك الكمال الإنسانى لا يأتى إلا حيث توجد أخلاق متضادة وملكات متخالفة يكون من وراء تضادها واختلافها حقيقة الفضيلة المتدلة . . وقد جاء فيه :

« وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية إنما هى واسطة لطرفين متضادين ، لابد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة ، وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ، ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية . »

* * *

وأما المقال الثانى الذى نقله عن أستاذه وصديقه جمال الدين فيبحث فى فلسفة الصناعة ، وهو يتناول الأدوار العقلية التى مرت بالانسان كما يتناول تطوره الاجتماعى وقيمة الصناعات المختلفة بالنسبة للجماعة ثم ضرورتها للأفراد ومقدار ما تؤديه للجماعة من نفع .

وقد جاء فيه : « الصناعة قوة فاعلة راسخة فى موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات . فالقوة منشأ الأثر مطلقاً فعلا كان أو انفعالا . فالعلم مثلاً ذو قوة الفعل ، والتعلم ذو قوة الانفعال ، إلا أن قوة التأثر والقبول لا تعد صناعة . ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة ، وليست كل قوة فاعلة صناعية ما لم تكن تلك القوة راسخة فى موضوعها تصدر منها أعمال مستمرة على وجه منتظم » .

وأما المقالات الأخرى وعددها خمس فهى تقريظ الأهرام ، الكتابة والقلم ، والمدبر الانسانى والمدبر العقل الروحانى ، والعلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية ، والتحفة الأدبية . . وقد دعا فى هذه المقالات إلى إنهاض الشباب . . كما دعا الأمة إلى الحذر من تدخل الأجانب فى شئون البلاد ، وطرح أنظمة التعليم العتيقة ، والأخذ بالنظم الجديدة ، ودراسة العلوم ؛ وفى هذا يقول : « فعلينا أن ننظر فى أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذى نقلهم من حالهم الأول ، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء ، فاذا حققنا السبب ، وجب علينا أن نسارع إليه حتى نتدارك ما فات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت . وها نحن بعد النظر لا نجد سبباً لترقيهم فى الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم . فاذاً أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا »

وإذا نحن أمعنا النظر فى تلك المقالات التى كتبها أثناء التحاقه بالأزهر استطعنا أن ندرك أنها كانت السبب الأول فى أن يعرفه الناس زعيماً مجدداً ، وأنه بدأ يشتغل بالاصلاح منذ بكورة شبابه ، وأنه كان مهتديا فى ذلك بهدى جمال الدين . ونستطيع أن ندرك كذلك كيف تقدم تفكيره عما كان عليه فى تلك السنوات التى كان غارقاً فيها

(١) الاسلام والتجديد فى مصر للدكتور تشارلز آدمس صفحة ٣٢ .

فى تأملات التصوف وخيالاته . .

يقول المرحوم الشيخ رشيد رضا عن تلك المقالات الخمس : « هذا آخر ما رأينا للأستاذ الإمام من المقالات فى السنة الأولى من جريدة الأهرام ، وكان لا يزال مجاوراً فى الأزهر لم يصر مدرساً رسمياً ، وهى تدل على أنه أوتى كمال العقل وسداد الرأى فى بدايته » الخ الخ .

واستمرت صلة الإمام بالأزهر على ما عرفنـاه من قبل ، من حضور الدروس التى يرغب فى حضورها والاستماع إلى الأساتذة الذين يثق فى مقدرتهم العلميـة ، والاطلاع خارج الأزهر على ما يرى نفسه تواقة إليه من العلوم والمعارف ، ثم الاختلاف إلى جمال الدين والأخذ عنه ، فلما كان عام ١٨٧٧م تقدم لامتحان العالمية ، ولكنه رأى وجوه الممتحنين عابسة ، وأحس قلوبهم منه نافرة ، ورأى فى الأسئلة الموجهة إليه صعوبة وشدة ، رغبة فى إحراجه ، وتشوقاً إلى تعجيزه . ولم يكن من الصعب على محمد عبده معرفة أسباب ذلك كله ، فقد كان مكروهاً من شيوخ الأزهر الذين اشتدت حفيظتهم عليه لأسباب كثيرة . يقول الدكتور تشارلز آدمس : « وبعض هذه الموجدة يرجع إلى كراهيتهم لدروس الفلسفة التى كان جمال الدين يبثها من جديد ، وبعضها إلى نزعته التجديدية على وجه عام . على أنه يبدو أنه كان للغيرة أيضاً شأن كبير ، فإن محمد عبده وغيره من الطلاب كانوا على الأرجح يهملون دروسهم فى الأزهر ويتغيبون عنهـا ليقرأوا على جمال الدين » .

ومما يدل على كره الشيوخ للشيخ محمد عبده ، وعلى أن الصعوبة التى وجدها أثناء تأدية امتحان العالمية إنمـا كانت لتعجيزه انتقاماً منه ، تلك الحادثة التى وقعت بينه وبين الشيخ « عليش » رأس المتحرجين القاضيين فى ذلك الوقت ، وذلك الخلاف الذى نشب بين الطالب الأزهرى وذلك الشيخ ، وترجع أسباب ذلك الخلاف إلى ترجيح الطالب لمذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية ، وهو ما لا يرضى عنه أستاذ يعتقد فى نفسه عدم صلاحية تلميذه ، بل وعجزه ، عن مثل هذا البحث والترجيح ، والذى يرى عدم جواز إثارة تلك المنـاقشات ، التى لا يشتغل بهـا الأساتذة أنفسهم .

كان محمد عبده تلميذ جمال الدين ، وهو على ما علمناه أستاذ الفلسفة الاسلامية الحديثة ، وكان محمد عبده يكره الشيوخ المتزمتين ، وكان يسخر من تلك العقول التى لا تحاول الفكاك من قيود فرضتها عصور الجهالة والاستبداد ، وكان محمد عبده يعتز بعلمه وثقافته ، ويغار على كرامته وشرفه ، ولذلك دبرت حوله الدسائس ، ومكر به أساتذته ، وحاولوا تعجيزه فى الامتحان ؛ ولكنه استطاع بكثرة اطلاعه وسـداد رأيه وحسن إجابته ، ومساعدة الشيخ العباسى شيخ الجامع الأزهر يوم ذاك ، أن يظفر بشهادة العالمية من الدرجة الثانية . وفى هذا يقول :

« عرضت نفسى على مجلس الامتحان فى ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية ، وابتليت فى الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش ، وكان يعاديني على الغيب اتباعاً لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ألا يمنحونى درجة ما فى العلم ، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها ، ولـكن كان أمر الله أغلب ، فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية ، وصرت مدرساً من مدرسى الجامع الأزهر ، وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية » .

فرح الامام بنيله هذه الدرجة لا لشىء إلا لأنهـا ساعدته على أن يخطو الخطوة الأولى فى سبيل غاياته الواسعة ، وإصلاحاته التى كان يحلم بتحقيقها منذ زمن بعيد ، وظل الامام بعـد تخرجه فى الأزهر متصلا بأستاذه جمال الدين الأفغانى يستقى من بحر علمه الفياض ، حتى فرقت بينهما الحوادث لتجمعهما مرة ثانية فى ساحة الجهاد .

عبد المنعم حماده
المحرر بمجلة التعاون

من تاريخ ايران :

زروان وولداه

أهورا مزدا وأهرمن

نريد في هذا المقال أن نذكر شيئاً عن آلهة الايرانيين القدماء ومعتقداتهم . ولعل أول ما يلفت النظر هو أن الايرانيين منذ كونوا دولتهم الأولى أيام كيرس Cyrus عرفوا إلهاً أعلى يسكن السماء هو أهورا مزدا ، الذي نسميه إله الخير . على أن هذا الإله كان معروفاً قبل قيام هذه الدولة .

قالوا : إن زروان اكرانا Zarvân Akrana — الزمان المطلق — تاق إلى ولد من نسله يسهر عليه ويرعاه ، وإنه بذل في سبيل ذلك كثيرا من التضحيات ، مدة ألف سنة ، ولكنه في وقت ما شك في قيمة ما يسعى إليه ، فكان أن أنجب ولدين ، أحدهما نتيجة التضحيات الخالصة الصادرة عن القلب السليم ، وهو اهورا مزدا (اهورا : القوة . مزدا : الذكاء) ، والثاني نتيجة للريبة ، وهو آنرو ماينُش Anro Maynush (اهرمن : أمير الشياطين) ، وهو المعروف بإله الشر .

قالوا : وقد وعد زروان مُلك العالم لمن يسبق منهما في المثول أمامه ، فلم يكن من أهرمن إلا أن بقر بطن أبيه (أو أمه) ومثل أمامه . فسأله زروان : من أنت ؟ قال اهرمن : أنا ابنك . قال زوران : إن ابني ذكي الرائحة يشع منه النور . أما أنت فظلم ونتن ! وفي هذه الأثناء مثل أهورا مزدا أمام أبيه فعرفه وقال له : كثيراً ما ضحيت من أجلك ، والآن أستريح وتضحي بنى من أجلى .

قالوا : فذكّر اهرمن أباه بأنه وعد الملك للسابق منهما في المثول أمامه ، فوعده ملك تسعة آلاف سنة على أن ينفرد أخوه بالملك بعد ذلك .

قالوا : ولم يكن في الوجود غير زروان اكرانا — الزمان المطلق — فترك لأهورا مزدا خلق السموات والأرض وما بينهما . ثم إنه خلق ستة آلهة : الإرادة الطيبة ، والصدق ، والحكم الصالح ، ومدبر الحكمة ، وميسر الثراء ، ومفيض السرور . ثم أراد أن يخلق أربعة وعشرين إلها آخرين ، فوضع جواهرها في بيضة ، وفي البيضة نفسها وضع اهرمن نواة لآلهة على شاكلته ، فاختلط الخبيث بالطيب ، والشر والخير ، والظلمة والنور . ورأى اهورا مزدا أن يشرف على ما خلق ، فكبّر نفسه ثلاثة أضعاف ، وابتعد من الشمس بعدها عن الأرض ، ونثر في السماء نجوما رقيبة على الكون !

قالوا : وبدأ اهورا مزدا (هرمزد) في خلق الحيوان والنبات . فخلق الثور ، وخلق الرجل الأول Gayomard الذي هو أصل البشر (جايا مرتان : الحياة الفانية) . فنهض اهرمن لما كسبه أخيه ، فخلق الزواحف والحشرات المؤذية . فتحصن أهورا مزدا بثوره ورجله عند السماء حيث هاجمه أهرمن فقتل الثور والرجل ، ومن «جواهر» هذا الأخير التي بقيت في الأرض أربعين سنة ، نبتت شجرة ، ظهر منها الانسان بجنسيه ، الرجل والمرأة ، (ماشياغ — وماشياناغ) . ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوان !

قالوا : بل كان لزروان زوجة اسمها خواشى زاغ (تصغير خواش بمعنى الطيبة) . وفى نص آخر تسمى «أم الأحياء» زوجة «ملك النور» زروان ، « وأم الرجل الأول » أهورا مزدا ، رامشا توخ Ramrātikh (أى باعثة السرور) وقد أنجب الزوجان توأمين هما : أهورا مزدا ، من النور الخالص والخير المحض ، واهرمن من الظلمة والشر المطلق .

***

أما زروان نفسه فتشير النصوص إليه تارة باسم زروان اكنارغ Zurvan Aknāragh أى الزمان الأبدى اللا محدود ، وتارة أخرى باسم زروان دیرنگ خوداى Zurvan Dyrang Khudāy ، أى الزمان ذو السيادة الطويلة . أى صاحب الملك الدنيوى فى الفترة التى يبقاها العالم ، وهى اثنا عشر ألف سنة أو تسعة آلاف سنة .

***

ومهما يكن فقد قامت الحرب بين الأخوين ، وظلت تسعة آلاف سنة . قالوا : وفى الثلاثة الآلاف الأولى كانت الغلبة لأهرمن ، وفى الثلاثة الآلاف الثانية تعادلت قوتا الأخوين ، وبدأت الثلاثة الآلاف الأخيرة بظهور زرادشت وباندحار أهرمن ، فهزم هزيمة أبدية لا يقوى بعدها أبداً :

قالوا : وقد خير أهورا مزدا الناس وهم أرواح مجردة بين أن يرفعهم من مواضع أهرمن وبين أن تلبسهم الأجساد ليحاربوا الشر ، فاختاروا التجسد والنضال .

***

ولكن الناس لم يتحدوا جميعاً مع إله الخير ، بل انقسموا شيعتين ، مناصر لأهورا مزدا ، وتابع لأهرمن ، فمن اتبع الهدى وناصر الخير فإنه يسير على صراط مستقيم إلى الجنة ، ومن ضل واتبع أهرمن ، يدق الصراط أثناء سيره عليه ، بحيث يسقط فى جهنم ، وهناك يعذب بقدر ما جنى . أما من تعادلت موازينه فإنه يبقى فى مكان وسط بين الجنة والنار (همشتقان Hameshtaghān)

***

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم الدنيوى ظهر زرادشت ليهدى الناس الطريق السوى ، ويبقى العالم بعده ثلاثة آلاف سنة . وفى نهاية كل ألف يظهر مخلص (سوشيانس Soshyāns) ، يولد من « جواهر » زرادشت التى تكون مخبأة فى بحيرة .

وفى عهد المخلص الثالث ، يبعث الأبطال والشياطين وتقوم الحرب . ثم يبعث الأموات جميعاً ، ويسقط النجم مذنب على الأرض (جتچهر Gotchihr) ، فيذيب معادنها التى تلتهب التهاباً ، والخلق جميعاً مجبرون على عبور هذه الأرض المشتعلة ؛ فمن آمن فإن النار عليه برد وسلام ، كاللبن الساخن ، تطهره وتذكيه ، ويدخل منها إلى الجنة . وبعد المعركة الأخيرة بين الخير والشر يهلك الأخير ويختفى فى عالم الظلمات ، ويبقى الناس فى أمن وسلام أبديين ، وهذا هو البعث الجديد ؟

دكتور يحيى الخشاب

من غرائب الأشياء :

نبات يأكل حيوانا

للأستاذ محمد أحمد بدوي

المعروف عن النبات أنه يستمد غذاءه من طريقين : طريق الأرض ، وفيه يمتص النبات محاليل الأملاح بواسطة جذوره أو غيرها ، وطريق الجو ، وفيه يمتص النبات بواسطة أجزائه الخضراء غاز الكربونيك ليكون مع الماء مواد سكرية . ومن هذه السكريات وتلك المحاليل الملحية يكون النبات من الغذاء ما هو أكثر تعقيداً ، وبذا يضمن لنفسه الغذاء الذي يعينه على أداء وظائفه ، سواء منها ما كان لازماً لبقائه كفرد ، أو لبقاء نوعه . هذه قاعدة النبات في غذائه عند ما توجد مادة الكلوروفيل (أي المادة الخضراء) في أنسجته .

لكن هناك أنواعاً كثيرة من النباتات تشذ من هذه القاعدة ، وتسلك طرقاً أخرى للتغذية ، كأن تعتمد مثلا على غيرها من النباتات في امتصاص ماء الأرض وما به من أملاح ، ثم تستقل عن غيرها فيما عدا ذلك .

ومثال هذا النوع الزانو[1] (وهو معروف في انجلترا وفرنسا) . ومثال آخر نبات الأوروبش الذي يلتصق بالسنط فيمتص منه المحاليل التي كان يقوم بامتصاصها الجذر لو كان له وجود فيه ، ثم يقوم بالتمثيل كأي نبات آخر .

وقد يعتمد النبات اعتماداً كلياً على غيره ، فيصير عالة عليه يمتص منه كل ما يلزمه من المواد ، بسيطة كانت أو معقدة ، فلا يمتص بنفسه من الأرض محلولا ، ولا يقوم بنفسه بتمثيل الكربون أو غيره ، وإنما يرسل إلى عائله من الممصات ما يكفل أن يوصل إليه كل ما يلزمه من الغذاء عن طريق هذه الممصات . وربما يكون القارئ قد سمع عن نبات الهالوك الذي ينمو مع الفول ، فيمتص غذاءه منه . ولا نجد للهالوك غير شماريخ يحمل أزهاراً تكون ثماراً تنتثر منها بذور تبقى النوع للعام المقبل . ولا نجد لهذا الهالوك جذوراً ولا أوراقاً ، فليست به حاجة لها ما دام الغذاء يجهز له بواسطة نبات آخر .

وهناك نباتات تتوسط بين المعيشة المستقلة وبين التطفل . فهي تقوم بصنع غذائها وتنمو ، ولكنه نمو ليس بالقوي ، إذ أنها تحتاج إلى مورد أوفى لتزيد من أزهارها وأثمارها ، وهذه النباتات هي التي نسميها آكلة الحشرات ، فهي تمتص وتمثل وتنمو ، ولكنها تحتاج إلى غذاء آخر ، يعينها على مقابلة ظروفها ، ذلك لأنها تعيش حيث تكثر الغابات التي يترسب في تربتها كثير من المواد العضوية ، وتكون المواد الأزوتية نادرة أو قليلة ، ولذلك تراها تستكمل هذا النقص في غذائها من جسم الحيوان ، ولكي يتم لها ذلك نجد الطبيعة قد ساعدتها بأن جعلت لها من تركيبها ومن شكلها ما يساعدها على اقتناص الفريسة الحيوانية وتحويلها إلى مادة يسهل امتصاصها والانتفاع بها كغذاء .

فهذا نبات الجرة (Nepenthes) وطنه بلاد الملايا ، ولا نجده في مصر إلا في البيوت الزجاجية (فهو محتاج إلى جو حار) . وفي حديقة الزهرية بالجزيرة عينة منه

(١) ينمو الزانو متطفلا على شجر التفاح ، إذ تتعمق ممصاته في أنسجة الأخير ، فتمتص الماء والأملاح الذائبة فيه .

(شكل ١) . أوراقه طويلة قد تبلغ القدم . وقد تحور جزء من الورقة إلى ما يشبه الجرة ، ويقرب طول هذا الجزء من عشرة سنتيمترات ، وتتصل الجرة ببقية الورقة من أسفل ، وقد تحور هذا الجزء إلى شكل لولبى ، يسمى بالمحلاق[1] ، ويلتف قدر لفتين أو أقل ، ليتخذ مما حوله دعامة تحفظ الجرة فى وضعها . وفى نهاية الاناء جزء من بقية الورقة ، يعمل كغطاء ، ولكنه غير متحرك ،



إلى اليسار : نبات النبتش "The petshes" وقد تدلت جراته . وإلى اليمين إحدى الجرات مكبرة

وهو يظلل فتحة الاناء فيقلل من تبخر ما تحتويه ، كما أنه يظل دائماً فى وضعه هذا لاستقبال أية فريسة . وللجرة ألوان زاهية تميل إلى الاحمرار . وتبقى فوهة الجرة مفتوحة على الدوام ، إذ تحيطها حلقة من نسيج متخشب . وما أشبه هذه الوظيفة بوظيفة الغضاريف فى القصبة الهوائية للانسان . وللفوهة ألوان جذابة يليها من الداخل إلى أسفل ألوان زاهية ، ويتوسط هذه المنطقة غدد تفرز رحيقاً يعمل على جذب الحشرات ، فاذا ما اقتربت الحشرة من هذه

الغدد ، وحاولت أن تنال منها بغيتها فلا تلبث أن تنزلق إلى قاع الجرة ، وذلك لنعومة تلك المنطقة الداخلية إلى حد كبير ، كما يساعد على ذلك كون هذا السطح رأسياً إن لم يكن مائلاً باتساع إلى أسفل . على أن بعض الحشرات قد يكون لها من مخالبها ما يساعدها على الالتصاق بجدران الجرة . وهذه أيضاً لا سبيل لنجاتها ، إذ أن محاولتها الالتصاق تدفع بها إلى القاع ، وذلك لأن هناك بعض قشور من الشمع تلتصق بالمخالب فتجعلها تنزلق . وتفسير ذلك أن جدران الجرة من الداخل بها نتوءات عليها تلك القشور من الشمع . وهذه القشور لا تلبث أن تنفصل بمجرد لمسها . وهكذا نجد أشراكاً بلغت حد الكمال قد نصبت لتلك الحشرات ، فلا تنجو منها إلا الحشرة الطائرة إذا أفلتت من لمس الماء الذى بالجرة .

وهذا الماء الذى يملأ نصف الجرة أو أكثر منه بقليل عبارة عن سائل تفرزه الغدد الموجودة فى هذا الجزء من النبات ، وهذا السائل يعمل المطر على زيادة مقداره أضعافاً . أما تأثيره فمتعادل ، ولكنه لا يلبث أن يصبح حمضياً إذا ما استقبل الفريسة . ثم إن السائل يحتوى كذلك على خمائر لا تلبث فى هذه الحالة أن تحدث أثرها فى الحيوان فيهضم ، ثم يمتص النبات ما يمكن امتصاصه منه ، وقد وجد أنه لا يحدث تعفن فيما احتوته الجرة . وتفسير ذلك أن السائل يمنع كذلك نمو البكتريا التى تسبب التعفن .

وعندنا فى مصر نبات يأكل الحيوان ، لا ينمو على الأرض بل يكون مغموراً فى الماء ويسمى حامول الماء ، (Utricularia) وتراه فى شكل (٢) ، وهو يوجد فى الواحات الخارجة ، وله وريقات رفيعة مشرحة أو مشققة فى اتجاه طولها (وهذه طبيعة أوراق النبات المائى ، والحكمة فيها زيادة السطح الذى يمتص الغذاء من جهة ، وتقليل المقاومة لحركة الماء من جهة أخرى .) ونجد بين الوريقات فى هذا

(١) المحلاق جزء نباتى دقيق كالخيط يلتف حول أية دعامة ليساعد على تثبيت النبات وتسلقه كما فى العنب والبازلاء .

النبات مثانات صغيرة (تراها فى أسفل الشكل جهة اليسار) فى حجم العدسة . ضاقت من جهة وتفلطحت من الجهة الأخرى . ولو فحصنا إحدى هذه المثانات لوجدنا لها فى أسفلها فتحة يغطيها صمام قد ظهر فى القطاع الطولى للمثانة (وهو الجزء العلوى) إذ نجده فى نهاية الشعيرات ، ويلاحظ أن الصمام ينفتح إلى الداخل لا الخارج ، وقد استند طرفه الخالص بجزء متسمك من المثانة . وترى شعيرات تحيط بالصمام ؛ وقد يظن فى بادىء الأمر أن الحشرة تدفع بنفسها



أسفل إلى اليمين : نبات حامول الماء وقد ظهرت المثانات بين الأوراق . وإلى اليسار جزء مكبر يظهر المثانة . وفى أعلى الشكل إلى اليسار قطاع فى المثانة يبين الشعيرات والصمام . وإلى اليمين تظهر الغدد ذات الفروع الأربعة

من بين جدران المثانة دافعة ذلك الصمام إلى الداخل ، وتبقى حبيسة بعد ذلك ، ولكن اتضح من بحث العلامة بروخر سنة ١٩١١ وتحقيق زايا سنة ١٩٢٢ أن جدران المثانة لا تنفذ الماء تقريباً ، وأن على سطحها الداخلى توجد زوائد ذات أربعة فروع ، وهذه الزوائد (شكل ٢ إلى أقصى اليمين) تمتص الماء الموجود داخل المثانة وتطرده للخارج ، عند ذلك تندفع بعض أجزاء المثانة ، وينثنى سطحها بعد ما كان منتفخاً ، ونظراً لمرونة الجدران فإنها تميل إلى الرجوع إلى حالتها الأولى ، فإذا مس حيوان بالشعيرات التى تحيط الصمام ولمسها ، انفتح الصمام قليلاً ، إذ أن هذه الشعيرات حساسة ، وعند انفتاح الصمام ترجع جدران المثانة إلى انتفاخها الأصلى ، فيتسبب عن ذلك تيار يندفع به الماء إلى الداخل حاملاً معه الفريسة ولا يلبث أن ينغلق الصمام بعد ذلك .

وقد وجد أنه لو ثقبنا المثانة بدبوس فإنها لا تقوم بوظيفتها ، وذلك لأن الماء ينتشر من المثانة وإليها ، فلا يحدث فرق بين ضغط الماء داخل المثانة وخارجها ، فتتعطل الوظيفة التى تجذب الماء وما معه من حيوان صغير إلى الداخل .

ولم يثبت حتى الآن وجود خمائر أو مواد تساعد على هضم الفريسة ، وربما كان ذلك لصغر المثانات وضآلة المواد التى تفرزها . على أن المفهوم هو أن الفريسة بعد اقتناصها لا تلبث أن تعييها محاولاتها للإفلات ، فتموت من هذا الإعياء ، ثم تتحلل بفعل البكتريا الموجودة بالماء فتمتص هذه المواد المتحللة . وتستعد المثانة لاستقبال فريسة أخرى ، وهكذا .

محمد أحمد بنونه

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

قصة للأطفال :

العبد الرومانى والأسد

للأستاذ محمد خلف الله

كان الرومان فى قديم الزمان يقسمون الناس إلى أحرار وعبيد ، وكانوا يَسْتخدمون العبيد فى كل شىء ، ويضربونهم ويُعَذّبونهم ، ويرسلونهم من « روما » إلى شمال « أفريقية » ليقوموا بخدمة الأسياد الرومان هناك .

وكان « أندرو » واحداً من هؤلاء العبيد ، أخذه سيده إلى « أفريقية » وعذّبه عذاباً شديداً حتى لم يَعُد يستطيع الصبر على هذه الحالة ، فعزم على الفرار إلى شاطئ البحر لعلّه يعثر على سفينة أو قارب صغير ، فيعبر البحر ويعود إلى بلده « روما » .

انتظر « أندرو » إلى فصل الشتاء ، حيث الليل طويل والظلام شديد ، وفى ليلة من تلك الليالى الحالكة خرج من بيت سَيِّدِهِ خِفْيَة ، وتسلّل إلى خارج المدينة ، وظلّ طول الليل سائراً على رجليه ، يمشى مرة ، ويجرى أخرى ، وهو يظن نفسه متجهاً إلى شاطئ البحر . فلما أصبح الصباح وجد نفسه فى جوف الصحراء ، لا يعلم أَيْنَ هو ، ولا يَجِدُ صاحباً ولا رفيقاً . ولمّا أدركه التعب ، وحلّ به الجوع والعطش ، نظر فرأى على بُعْد مغارةً فى الجبل فقصد إليها ودخل فيها ليستريح ؛ ثم اضطجع على الأرض وغلبه النوم فنام طويلا ، وحلم أحلاماً مزعجة مختلطة : رأى كأنّه على قمة جبل وقد زلقت رجله فهوى فى الفضاء وسقط على قارب صغير فى وسط بحر عظيم هائج الأمواج ليس له ساحل ، ثم تحطم القارب ووقع هو فى الماء ، وأخذت الأمواج تلعب به ، صاعدة ونازلة ، وصاخبة ومصفقة ، حتى ألقت به على سطح جزيرة قاحلة فأحاطت به الأسود والحيات والوحوش المفترسة ، تنظر إليه نظرات الوعيد والتهديد .

وبينما هو فى هذه الأحلام أيقظه صوتٌ هائل مخيف دوى فملأ الفضاء ، فنهض « أندرو » واقفاً ونظر فرأى أسداً عظيماً على باب المغارة كأنه قطعة من الجبل وقعت فسدّت الباب . غلب الخوف على « أندرو » وشلّ حركاته فلم يستطع أن يعمل شيئاً ، فوقف مُسَمَّراً فى مكانه ينتظر أن يهجم عليه الأسد ويقضى على حياته بخبطة واحدة من مخلبه الفظيع ، ولكن الأسد لم يتحرك ، بل وقف ، يئنّ كما يئن الشخص المريض ، ويلحس أحد مخالبه ، والدم يسيل من ذلك المخلب . عند ذلك هدأ « أندرو » قليلا ، وأدرك أن الأسد المسكين فى غاية الألم ، فنسى هو ما عنده من خوف ، وتقدم نحو الأسد فرفع إليه الأسد مخلبه ، كأنه يطلب منه المساعدة .

ونظر العبد فرأى شوكة كبيرة فى مخلب الأسد قد غاصت فيه وتمكنت منه ، فجذبها بقوة ، ومسح الدم ، وأخذ يدلك الجرح برفق حتى شعر الأسد بشىء من الراحة ، فنظر إلى « أندرو » نظرة الشكر والامتنان ، ثم خرج من المغارة يمرح ، وعاد بعد قليل يحمل فى فمه أرنباً بَرّياً ميتاً ، ووضعه أمام العبد ، فأخذه هذا وشواه وأكله ، وبعد أن فرغ من الأكل قاده الأسد إلى مكان تحت الصخور فيه ماء يندفع من الرمل كأنه نافورة ، فشرب منه وروى عطشه .

عاش العبد والأسد على ذلك ثلاث سنين ، يخرجان

معاً للصيد أثناء النهار ، حتى إذا جاء الليل رجعا إلى المغارة فناما فيها ، وكان الأسد كل ليلة يأخذ مكانه تحت أقدام « أندرو » ، ويبقى ساهراً مدة يحرك ذيله أحياناً كما تفعل القطة الهادئة الراضية تحت أقدام صاحبها .

ولكن « أندرو » بدأ يسأم حياة الصحراء ، ويحن إلى رؤية الناس ومعاشرتهم ، فترك المغارة وسار يتلمس طريقاً يوصله إلى شاطئ البحر ، ولم يسر طويلا حتى عثر عليه الجنود وساقوه إلى « روما » ليلقى جزاءه على هروبه من سيده .

وكان الرومان شديدى القسوة على العبيد الهاربين ، فكانوا يأخذون الواحد منهم إلى ميدان المدينة فى يوم عطلة عامة ، وهناك يطلقون عليه الوحوش المفترسة ، فتمزق جسمه وتقتله شر قتلة . وهكذا أخذ « أندرو » المسكين إلى الملعب ، واجتمع الناس ليتفرجوا ويشهدوا ذلك المنظر المؤلم ، وحضر امبراطور « روما » فى موكبه الحافل ، وجلس على كرسى عال يشرف على الميدان ، وجلس من حوله شيوخ المدينة ، وقاد الجنود العبد إلى الساحة ، وأعطوه حربة طويلة ليدافع بها عن نفسه — إن قدر — ضد أسد عظيم قد جوعوه أياماً حتى أصبح شديد الفتك والافتراس ، ثم أطلقوا ذلك الأسد المخيف من قفصه ، فاندفع نحو العبد يريد أن ينقض عليه فيجهز على حياته فى أقل من طرفة عين ، وزأر زئيراً هائلا كأنه صوت الرعد هز أركان المكان ، فارتعشت أقدام العبد واضطربت الحربة فى يده من الخوف ، واعتقد أنه لا بد هالك . ولكن الأسد — بدل أن ينقض على فريسته — توقف لحظة ، ونظر إلى العبد نظرة دهش واستغراب ، ثم مشى نحوه ببطء ، وأخذ يحرك ذيله حتى وصل إليه ، فشرع يلحس يديه ورجليه فى رفق وحنان . ونظر « أندرو » إلى الأسد فإذا هو رفيقه القديم الذى عاش معه فى الصحراء ثلاث سنين ، فانحنى العبد عليه ، ومسح على رأسه بيديه ، وأخذ يبكى بكاء طويلا .

دهش المتفرجون لهذا المنظر وتملكهم العجب ، وأرسل الإمبراطور فى طلب العبد ليسأله عن شرح هذا الفصل العجيب ، فأخبره العبد بقصته وبكل ما جرى له ، فسر الامبراطور وأعتق العبد ، وأصبح « أندرو » حراً مالكاً لنفسه ، وكان الناس بعد ذلك يرونه ماشياً فى شوارع « روما » ومن خلفه الأسد المخلص يتبعه كما يتبع الكلب الأليف صاحبه فى غدواته وروحاته .

محمد خلف الله

أنه فى يوم الخميس ٢٠ مارس سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا لما بعدها بناحية القنيبة مركز فارسكور وفى يوم الأحد ٢٣ منه من الساعة ٨ أفرنكى صباحا لما بعدها بسوق بندر فارسكور سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك السيد محمد الطرابيسى من القنيبة مركز فارسكور نفاذاً للحكم الصادر نمرة ٢٣٦٥ سنة ١٩٤٠ مدنى فارسكور وفاء لمبلغ ٣٦٠ قرش صاغ قيمة المحكوم به والمصاريف ورسم التنفيذ والنفقة بخلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب محمد السيد بحيرى التاجر بفارسكور

فطى راغب الشراء الحضور

إنه فى يوم الأحد ٢٣ مارس سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بناحية الباط وسوقها سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك محمد على البحيرى من الباط نفاذاً للحكم رقم ٣٦٦ سنة ١٩٣٨ وفاء لمبلغ ٣ جنيه و ٢٦٠ مليم خلاف رسم هذا ومايستجد . وهذا البيع كطلب جرجس ابراهيم التاجر بالواسطى

فعلى راغب الشراء الحضور

إنه فى يوم الخميس ٢٧ مارس سنة ١٩٤١ الساعة ٨ صباحا بزمام جرجا والأيام التالية إذا لزم الحال بمحل الحجز سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك عبد الرسول محمد عبد الرسول نفاذاً للحكم الصادر من محكمة جرجا الأهلية فى القضية المدنية رقم ١٤٣ سنة ١٩٤٠ جرجا وفاء لمبلغ ١٨١ قرش صاغ بخلاف رسم هذا وما يستجد من المصاريف لغاية تمام السداد كطلب الشيخ عبد الله محمود شلبى

فعلى راغب الشراء الحضور

تحيـــة لبنان

من أستاذ مصرى

قالوا : الرحيل إلى « لبنانَ » بعد غد
قلت : يا حبذا أفياء « لبنان »

وحبذا شعب هذا الحى من نفر
شم العرانين من شيب وشبان

دعائمٌ لمعـــالى العُرب ألوية
على الهدى « لمعد » أو « لقحطان »

وحبذا الروض يكسوه الحيا حللا
من البـــدائع زُهراً ذات أفنان

يفصـــل النَّور فيها حوجم نضر
كما يفصـــل فيروز بمرجان

وحبـذا « الأرز » والأرواح خافقة
والطير تسـجع فيه سجع نشوان

إذا تغنى هَزار الأيك خفّ له
من عندليب الربا صـواغ ألحان

طوراً على الآس يثنى عطفه مرِحاً
وتارة فى ذرا الشربين والبان

•••

بالله يا نسمات الأرز إن عطرت
بك المحاريب فى أرجاء « حُلوان »(١)

فصافحى علم الاسلام خاشـعة
وأبلغيه تحيـــاتى وتحنانى

وبلغى للملك « الفاروق » ما زخرت
به الجامع من حمـــد ورضوان

وبلغى « النيل » إخلاصاً وتكرمة
من نبع « رَشْعِين » هذا الكوثر الهانى(١)

وبلغى أهل ودى أن مخلصهم
باق على العهـد ، لا سال ولا وان

وزعت قلبى فى الأحباب فالتمسوا
نصفاً « بمصر » ونصفاً بين لبنان

•••

سلمت يا « مصر » من كيد العدا أبداً
ولا مُنيت مدى الدنيا بعـدوان

أنت الرجاء لأهل الشرق إن سلفوا
وإن تقنى فى إعنـــاتهم جان

ودمت يا « مصر » للحسنى موفقة
فيك النزيل ورب الدار سـيان

ودام « أزهرك » المعمور مزدهراً
يفيض بالرشـــد فى جد وإمعان

ودام للنيل مولاه وسيده
يرعى حماه بطرف غير وسنان

•••

لا تعجبوا لفؤادى كيف أقسـمه
بين الأحبة من قومى وجيرانى

إنى وجدت « بأطرابلس » لا عجب
داراً كدارى وإخواناً كاخوانى

مهذبين أتم الله نعمته
فيهم عا شئت من علم وإيمان

لقيت منهم على التقصـير مغفرة
ورغبـة الخير منى كل إحسان

وإن حننت إلى مصر وفتيتها
مدّ السرور بهم أسـباب سلوانى

فإن سكت فإن الفضـل يشكرهم
وإن شكرت فدون الحق شكرانى

(١) حلوان : إحدى ضواحى القاهرة يسكنها الامام المراغى شيخ الأزهر

(١) نبع رشعين : الذى تسق منه طرابلس وضاحيتها .

لبنان ، يا جنة الأحلام لِمْ عطلت
ربوعُك الخضرُ من حورى وولدانى ؟

أرى الملاعب ملأى بالبنين كما
أبصرت يوم الرضى أطلاء غزلان

وأبتغى بينهم وُلدى فأفتقدم
يا رحمتى لفؤادى المخلص الحانى ! !

متى أرى الدار للأحباب جامعة
وأسمع الولد المحبـــوب ناجانى ؟

إذاً تم لنفسى كل مأملهـــــا
وقلت إن زمان القوم صافانى

« زُهَير » يا قرة العينين ما سفهت
نُهى أبيك ولا بدلت وجــدانى

لكن أمراً كريماً رحت أنشـده
لم أملك الصــبر عنه حين نادانى

إخوانك الغر فى لبنان يعجبنى
منهم رجاحة ألبـــاب وأذهان

رجوت أنى أزيد النشء معرفة
بشرعة الله من هَدْى وقرآن

يا ربما كان منهم بعــــد آونة
كف، « الغزالى » أو نِدُّ « ابن كيسان »

ما كنت أرضى على الأرض من ذهب
لو لم يكن فى سبيل الله هجرانى

فاغفر فكم تعلم الغفران من شيمى
واصفح فإن جميل الصفح من شانى

لأوســــعنك لثماً يا بنى إذا
ما قدر الله يوماً أن ستلقانى

طرابلس الشام

صبحى الدين أبو على

مندوب الأزهر إلى الكلية الاسلامية

من الشعر الرمزى :

إلى طليـــق

ابسط جناحك فى الفضا   وتزوَّد من متع الضياء
واسمع أغاريد الحـــدا   ئق حين أسكرها اللقاء
وتغـــن أنى شئت إن   فى الرَّوض أو صاف السَّماء
لا تخش فالصــياد فى   قفص ، فشكراً للقضاء

* * *

الجوُّ طلق لم يعـــد   يلقى صُراداً أو سَهام[1]
ولعــل نيروز الصفا   « أماط أطراف اللثــام
فانجابت الســحب التى   ملأ البــلادَ بها الظلام
لا تخش فالصــياد فى   قفصٍ فشكراً للقضـاء

* * *

الشمس تضحك للطيو   رِ وهن آمال تدور
والأفق قد بسـط الذرا   عين ابتهاجاً بالبشــير
ومسارب[2] الأنسام فى   شغفٍ إلى شعر الطيور
لا تخش فالصــياد فى   قفصٍ فشكراً للقضـاء

* * *

الأيك أضــناها الفرا   قُ وهاجها طرب الرجوع
ســئمت حياة لا ترى   طيراً تغــرّدُ للجموع
وينالهـــــا قفص به   من بعد آفاق خنوع
لا تخش فالصــياد فى   قفص فشكراً للقضـاء

* * *

النهر حنَّ إلى المــا   جاة التى عـــــودته
حتى إذا عاد النجى (م) مغرِّدا   ألفيتـــــه
متضاحكاً ومصــفقاً   يا من أردت حياته
لا تخش فالصــياد فى   قفصٍ فشكراً للقضـاء

(العراق — أربل)   أحمد مظهر العظمة

(١) الصراد : الريح الباردة مع ندى . السهام كالسموم : الريح الحارة . (٢) المسربة : المرعى .

٣ – كتاب الحيوان للجاحظ

جواب رسالة المحقق الكبير

الأب أنستاس ماري الكرملي

بقلم عبد السلام محمد هارون

٦ — مقابلة الألفاظ العربية بالكلم الأجنبية

فاتني حقاً أن أنسب بعض الكلم الأجنبية إلى لغاتها، وأشكرك على استدراكك لما فاتني من ذلك حقَّ الشكر. وليس ينقضي عجب الناس وعجبي من صدق غيرتك، وواسع علمك.

وجدتك تنكر عليّ في ش ص ١٠٧ مقابلتي الجندب بكلمة: grasshopper الانجليزية، وقلتَ: إنها تعني الجرادة. والحق أن الكلمة لا يقصد بها إلا (الجندب) ذلك النوع الصغير من الجراد، الذي يتميز بالقفزان والصرير(١). ففي مادة grasshopper من دائرة المعارف البريطانية ص ٦٥٨ من المجلد العاشر(٢).

(They are especially remarkable for their leaping powers, due to the great development of the hind legs and also for their stridulation Which is generally, but not always, a function of the male only).

وعلى ذلك الوجه الصحيح تُرجمت الكلمة في معجم الملوف والقاموس العصرى ومعجم Wartabet وسائر المعاجم الانجليزية العربية المتداولة. فقولك (أما الجندب فلا مقابل له بالانكليزية ...) الخ — ليس صحيحاً كما رأيت.

أما الجرادة فالتي يقابلها بالانجليزية locust كما يتضح من دائرة المعارف البريطانية (١٤ : ٢٩١ — ٢٩٢) حيث ترى وصفها وشكلها الناطق. والجراد نادر الوجود في بلادهم، وهم يؤرخون رحلاته النادرة إليهم، كما في ص ٢٩٢(٣).

ومما هو جدير بالذكر أن كلمة locusts كثيراً ما يراد بها (الجنادب) ولكن في الاستعمال العامي أو غير الدقيق، ففي دائرة المعارف البريطانية grasshopper ما يأتي:

(.. the name locust is often applied to any member of this family, in its strict usage the term only refers to certain destructive species).

وفي ش ص ٣٧٤ (خارطيس) اليونانية. قلتَ صوابها: (خارتيس) إذ ليس في لسان اليونانيين طاء. وهذه عبارة ظاهرية بحتة؛ فالحقّ أن الطاء حرف مشترك بين اللغات جميعاً، ولو لم يفرد لها حرف خاص. وليست الطاء إلا تاءً ثقيلة. فالتاء في نحو كلمتي: tall الانجليزية، و monotone الفرنسية — هي طاء في الحقيقة، بل هي أشد من الطاء العربية التي في نحو: إطار، وسطر. فالقول بأن الطاء لا وجود لها في اليونانية أو الانجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات — غير منضبط على الواقع.

ومثل الطاء في ذلك الصاد، فالصاد لم يفرد لها حرف خاص في اللغات الأوربية، بل يعبر عنها بحرف السين (S) أو (Ç) في نحو كلمة Façon الفرنسية.

وفي ش ص ٣٦٧ بيت علقمة في نعت الظليم:

وضّاعة كعصى الشرع جؤجؤه
كأنه بتناهي الروض علجوم

وفسرتَ (العلجوم) بأنه البعير الطويل المطلي بالقطران، فاعترضتَ باعتراضين. أما أحدهما فقولك: إن المراد بكلمة (العلجوم) هنا (طائر عظيم أبيض). وأما الآخر فقولك:

(١) القاموس واللسان والمخصص (٨ : ١٧٦).
(٢) الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩.
(٣) انظر أيضاً: Universal Children's Dictionary ص ١٨٩٨.

« من أين لك هذه الزيادة : المطلى بالقار[1] »

أما الاعتراض الثانى فانك تجد جوابه فى شرح المفضليات لابن الأنبارى ص ٨٠٤ س ١٠ — ١١ طبع بيروت ١٩٢٠ وفيه هذا النص : « والملجوم : البعير الطويل المطلى بالقطران » .

وأما تفسيرك للماجوم فصحيح ، ونطق به بعض العلماء بالشعر ، كما فى شرح المفضليات ٨٠٥ س ٥ ، وفيه أيضاً : « ويقال هو الليل ، فشبه سواد الظليم بسواد الليل » . لكن الرأى المقدم فى تفسير الكلمة أن تؤول بالبعير . وتجده أول الأقوال عند ابن الأنبارى . ويؤيد هذا الشرح أن كلة (وضاعة) فى أول البيت مأخوذة من صفة البعير الذى يضع فى سيره . ومنه قول دريد بن الصمة[2]

يا ليتنى فيها جذع   أخب فيها وأضع

والشعر العربى أقوى درجات تفسيره أن يؤول بالنظائر والأشباه . ولذلك يخطىء كثير من الذين يعمدون إلى المعاجم ونحوها ، ليفسروا بها الشعر العربى ، دون أن يلتفتوا إلى أجواء المعانى العربية ، وهى متقاربة متناوحة ، يأخذ بعضها من بعض وينظر إليه . فما ورد شبيهاً بالبيت السالف ، قول طرفة[3] :

ومكان زعل ظلمانه

كالمخاض الجرب فى اليوم الخصر

فانظر كيف شبه الظلمان بالمخاض من الابل ، وقيد المخاض بأنها (الجرب) لما أنها تكون سوداً بما طليت به وهنئت من القطران . وهو قد اختار اليوم (الخصر) لما أن البرد يكشف الهناء ، فيظهر سواده وبحلك ، كما أنه يظهر حمرة التقشر فيما يرى من مواضع الجسد . وهو تصوير دقيق رائع فى تشبيه الظلمان بالإبل ، إذا لحظنا تجرد عنق الظليم وفخذيه من الريش وحمرتهما .

والعرب أبداً يشبهون الإبل بالنعام ، ويشبهون النعام بالابل ، لما هو واضح من اشتراكهما فى كثير من الخلق والخلق . والأول كثير . ومن الثانى قول لبيد[1] :

وخيطاً من خواضب مؤلفات

كأن رئالها ورق الافال

إذ شبه صغار النعام بصغار الابل الورق .

٧ — ملاحظات شتى

فى حديثك عن ش ص ٣٧٠ نقلت نص ابن سيده فى المخصص (٨: ١٧٣) : « والتأشير أيضاً : الأثناء ، وهى عقدة فى رأس الذنب (ذنب الجرادة) ، كالمخلبين ، ويقال لها الأشرتان » وبنيت على كلة (الأثناء) ما بنيت .

والحق أن كلة (الأثناء) محرفة من (الأشرة) بالضم ، وهى بمعنى (التأشير)[2] . وكيف يجعل ابن سيده (الأثناء) المجموعة ، تفسيراً للكلمة المفردة ، أعنى (التأشير) ثم ينتكس مرة ثانية فيفسر هذه الكلمة الدالة على الجمع بما يفسر به المفرد المؤنث ؟ ! إن ذا لدليل قطعى على التحريف .

وقد عقب ابن سيده بقوله : « ويقال لها الأشرتان » يشير بذلك إلى أن تلك العقدة التى تشبه المخلبين المنضمين يفرد لها اللفظ حيناً فيقال (الأشرة) ، ويثنى حيناً فيقال (الأشرتان) . فهل لحضرة الأب أن يرى معى أن ماذهب إليه قد بعد به عن الصواب ؟ ! فقول أبى النجم فى نعت الأفعى :

تأسيرها يحتك فى تأسيرها

صحيح لا تحريف فيه ، ويراد بكلمة (التأسير) الجلد

(١) سها حضرة الأب فى النقل . فان اللفظ الذى أثبته فى حواشى الحيوان هو (المطلى بالقطران) .

(٢) السيرة ٨٤١ جوتنجن ، وإمتاع الأسماع للمقريزى (١ : ٤٠٢) .

(٣) مختارات ابن الشجرى ٤٣ طبع ١٣٠٦ .

(١) الحيوان (٤ : ٣٦٠) .

(٢) القاموس وتاج العروس واللسان .

وأصل معنى التأسير ، السَّيْر ، كما أثبت في شرح الحيوان . وقد قال الراجز بعده :

مرّ الرحى تجرى على شعيرها

فليس يكون هذا الصوت الشديد للأثناء التي ظننتَ . والجاحظ يحدثنا أن تلك الحزوز والأثناء التي في بطن الحيّة (لم توجد بعين ولا لمس[1]) وليس لها خاصيّة في إحداث الصوت . وإنما يكون الصوت من عامة الجلد ، وخاصة إذا كانت الحية في دور السلخ ، فانه يسمع لجلدها — إذا قارب الانفصال وتلوّت الحية — كَشِيشٌ واضح عالٍ . وفي ذلك يقول الراجز في صفة شَخْب الناقة حين تحتلب[2] :

كأن صوت شخبها المرفضّ كشيش أفعى أجمعت لعض

فهي تحك بعضها ببعض

وفي ص ١٥٥ تحدثتَ عن (الأجدهاني) حديثاً ممتعاً قيماً ، فبهرتَ الناس بما أنك محقق قادر ، وبما أنك خطير .

وقد وجدتك تقول : « وأما أن الجاحظ يرى أن هذا القول من أحاديث الباعة والمجاز — فليس صحيحاً ؛ لأنه يُرَى مدوّناً في أسفار متقفيهم الأقدمين » فهل هناك تنافٍ بين قول الجاحظ وما ذكرت ؟ ! أو ليس الباعة والمجاز عندنا يتكلمون بما في أسفار الأقدمين ، مما يجرى على مذهبهم من حب الإغراب والتعجيب ؟ ! وقد سمعنا المجاز يحدّثنا بأخبار وأقاصيص مسطورة في كتب الأولين ، وكنّ يزيدن فيها حيناً وينقصن آناً ، فيخلعن بذلك عليها مسحة من جمال .

وظننتَ أن (الباعة) محرفة من (الباقية) وجعلتَ تؤيد مذهبك تأييداً . ولست أدرى ما عدا بك عن (الباعة) أو ليس الباعة يتحدثون ويكثرون من الحديث ؟ !

(١) الحيوان (٤ : ٢٢٥ س ١ — ٢) .

(٢) المخصص (٨ : ١١٥) والخزانة (٤ : ٥٢١ بولاق) . والحيوان (٤ : ٢٢٣) . وفيه بقية الصادر .

أو ليس قد جَبَل الله كثيراً منهم على الكذب والتزيد ، والبالغة في الاختلاق والبهرجة ؟ ! وكم من قد رأيت كثرةَ حلفٍ ، وقوة تصنّع ، ولَباقةَ حديث . وكأيّن من بائع طلّق زوجه مثاثاً ليحتال على عميله بما يحتال ! وقد عرف الجاحظ ذلك منهم ، فأضاف إليهم خبراً غريباً في موضع آخر من الكتاب[1] : « ولم أجد أهل سكة اسطقانوس ، وباب جاريةً وباعةَ مربعة بنى منقرٍ ينكرون . . . » الخ . فليس في الكلام تحريف كما رأيت .

وفي ص ٣١٤ س ٣ (ولا تستمرى) قلتَ : « والأفصح همز الآخر . وقد تكرر هذا الخطأ مراراً » .

أما أن الهمز هو الأفصح فإنه صحيح لا جدال فيه . وأما قولك إن ترك الهمز خطأ فلا وجه له من الصحة ؛ إذ أن تخفيف الهمزة في مثل هــذا جائز جوازاً مشهوراً ، فكيف خفى عليك ؟ ! وأنا لم أسقط الهمزة من الكلمة ، بل ذلك من صنع الجاحظ ، وله الخِيَرَة فيما يقول .

فهذه الهمزة المضمومة ، المتحركُ ما قبلها بالكسر ، يجوز تخفيفها بلا جدال . ولكن تخفيفها على ضربين : فمذهب سيبويه أن تخفف على طريقة (بينَ بينَ[2]) . ومذهب الأخفش قلبها ياءً[3] وقد وجدتُ كثيراً أن الجاحظ يميل إلى تسهيل الهمزات في مواضع شتى من كتابه . وهذا أحدُها . وإن أحببت أن تعرف بعض الشواهد على ذلك فانظر (١ : ١٢٠ س ٤ ، ٢ : ١٠٨ س ٧ ، ٣١٢ س ٢ ، ٣٣٣ س ٥ ، ٣ : ٣٦ س ٤ ، ١٣٠ س ٦ ، ٤ : ٣٠٣ س ٧ ، ٣٨٨ س ٢) ؟

(له بقية) عبد السلام محمد هارون

(١) الحيوان ٢ : ١٢١ س ٦

(٢) انظر توضيح هذه الطريقة شرح ابن يعيش ٩ : ١١٢ س ١ والإنصاف لابن الأنبارى ٣٠٦

(٣) ابن يعيش ٩ : ١١٢ س ٢٤ وشرح الشافية ٣ : ٤٦ وهمع الهوامع ٢ : ٢٢١

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١١٨ — الثلاثاء ٤ من ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — ١ من أبريل سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

يوغوســـــلافيا

في الأسبوع الماضي تعثرت يوغوسلافيا ، ثم نهضت . وذلت خاضعة ، ثم لم تلبث أن عزّت ورفعت رأسها عالياً . . . في يوم الثلاثاء الماضي أمضى وزراؤها وثيقة الانضمام إلى المحور . وفي الساعات الأولى من صباح الخميس قبض على هؤلاء الوزراء ، وهرب الوصي على العرش وزوجه ، وتسلم الملك الشاب زمام الأمور ، واختار للحكم وزارة قوامها رجال الجيش والوزراء الذين أبوا أن يشتركوا في إمضاء الميثاق . وانضم إليها زعيم الكروات والسلوفين . وقد تم هذا كله بسرعة هائلة ، وكأنما كل شيء كان معداً إعداداً دقيقاً ، ومنظما تنظيما كاملا . ولئن انتهى هذا « الانقلاب » — وهو حقيق بأن يسمى « اعتدالا » لا انقلاباً — دون أن تراق فيه قطرة من الدم ، فما ذلك إلا لأن هذا التحول الجديد يستند إلى إرادة أمة يقظة ساهرة ، وأن سياسة الخضوع لم يكن لها أنصار سوى فريق من رجال الحكومة ، وأعوان دوائر المحور ، وهم قليلو العدد والخطر برغم عناية المحور بهم ورعايته لهم .

أرادت ألمانيا أن تتوغل في شبه جزيرة البلقان ، بعد أن تم لها التوغل في غرب أوربا . وقد سبق لها أن جعلت من سلوفاكيا والمجر دولا تابعة ، تخدم سياستها وأغراضها . ثم أرادت أن تخضع دول البلقان لما خضعت له سلوفاكيا والمجر . فبدأت رومانيا ، فاحتلتها احتلالا

عسكريا سياسياً ، واقتطعت جزءاً منها فوهبته لدولة المجر ، وشطراً آخر صغيراً وهبته لبلغاريا . وظلت أشهر الشتاء تمد المدة لإخضاع ما تبقى من دول البلقان . ومنيت إيطاليا بهزائم مذلة في ألبانيا على يدى دولة كانت إيطاليا تحسبها لقمة سهلة الازدراد ، فإذا هي تلفيها شجى في الحلق ، وحرجا في الصدر ، وقوة تستنزف دمها وتكسر شكيمتها . ولم يكن بد من أن تستعجل ألمانيا في تنفيذ خطتها لإخضاع البلقان . فان إذلال إيطاليا لا يخلو من إذلال لحليفتها . وإذا ذل مولى المرء فهو ذليل . فأصبح من الراجح أن ألمانيا ستثير حربا في البلقان من أجل المحافظة على « السلم » في البلقان — وليست هذه بالمرة الأولى التي تسمى فيها دول المحور الأشياء بغير أسمائها — فبدأت توغلها في بلغاريا ، واخترقت جنودها نهر الطونه ، وتقدمت إلى حدود تركيا واليونان . واحتلت المطارات ، وأخذت تبني الطرق التي تصلح لسير القوات المصفحة التي هي قوام الحرب الألمانية .

وتم لألمانيا ما أرادته من الاستيلاء التام على مرافق بلغاريا ، دون أن يبدى الشعب أو الحكومة مقاومة تستحق الذكر . ولا شك أن ألمانيا قد بذلت الوعود السخية لتلك الحكومة ، ومنتها بمنفذ عظيم إلى بحر اليونان ، وبضم شطر غير قليل من إقليم صربيا الشرق ، حيث يعيش كثير من البلغار . وماذا يضير ألمانيا من هذا كله ؟ أليست بلغاريا كلها خاضعة لسياستها ؟ فمن المستحب أن تكون كبيرة عظيمة . وكان من الجائز أن يتساءل رجال الحكومة البلغارية : ما فائدة تكوين دولة بلغارية عظيمة ضخمة ، ما دامت خاضعة للأجنبي مسخرة لإرادته ؟ أليست بلغاريا الصغيرة المستقلة أنبل قدراً وأعلى شأناً من بلغاريا العظيمة الحجم الذليلة النفس ؟

على أن ساسة بلغاريا فضلوا الضخامة الموعودة مع الذلة الواقعة على الاستقلال التام من غير منفذ إلى بحر اليونان ، ومقاطعة صغيرة في شرق صربيا . وسواء أكان ساسة بلغاريا مسوقين بعامل الرغبة أو الرهبة ، فقد أخضعوا بلادهم ومرافقهم لألمانيا . وأصبح في وسع الجيش الألماني أن يتقدم من أرض بلغاريا « المحايدة » لغزو أرض الترك أو اليونان . بيد أن الحكومة النازية لم تعجل بغزو اليونان ، قبل أن تنضم يوغوسلافيا أيضاً إلى سياسة المحور .

كان في وسع ألمانيا أن تكتفي من يوغوسلافيا بسياسة الحياد الدقيق ، وأن تجعل من بلغاريا وحدها قاعدة للهجوم على اليونان ، إذا كان غرضها الهجوم على اليونان . بل كان في وسعها أن ترسل جنودها إلى ألبانيا مباشرة كما تفعل إيطاليا ، وتشارك حليفتها الحرب بطريقة واضحة صريحة .

ولكن غرض ألمانيا ليس مقصوراً على محاربة اليونان ، وليس غرضها مجرد بذل المعونة لحليفتها المنهزمة ، وإنقاذها مما تورطت فيه . كذلك ليس غرضها أن تقتحم البلقان وتركيا ، لكي تتوسل بهذا للاغارة على مصر ، كما يتوهم كثير من الناس ذوى الخيال الواسع . إن ألمانيا دخلت البلقان من أجل السيطرة على البلقان ، ومن أجل الانتفاع بمرافق البلقان ، ومن أجل إكمال السياسة المرسومة للتوسع النازي الذي اتجه منذ الخريف الماضي نحو أوربا الشرقية ، بعد أن تم له ما أراد في أوربا الغربية . لهذا لم يكن بد — بعد السيطرة على رومانيا وبلغاريا — من محاولة السيطرة على يوغوسلافيا . ولكن المشكلة هنا كانت أصعب تحقيقاً ، والمطلب أبعد منالاً .

تتألف المملكة اليوغوسلافية من ثلاثة عناصر سلافية رئيسية ، وهي الصرب والكروات والسلوفين . فأما الصرب فيحتلون الشطر الأكبر من المملكة ، ومواطنهم تمتد من نهر الطونة شمالا ، إلى حدود اليونان جنوباً ، ومن حدود بلغاريا شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً ، ويلحق ببلاد الصرب إقليم البوسنه والهرسك ، حيث يعيش كثير من المسلمين ، والاقليم الذى كان يعرف

فيما يعني باسم الجبل الأسود ، وهو متاخم لحدود ألبانيا الشمالية .

أما الكروات فيعيشون بين البحر الأدرياتي ونهر الساف الأعلى ، وتمتد أوطانهم إلى الحدود الايطالية ، بل إن طائفة كبيرة منهم تعيش داخل إيطاليا ما بين

أن في هذا القول شيئاً غير قليل من الاسراف ، فإن زعيمهم قد دخل الحكومة الجديدة ، وتولى منصب نائب رئيس الوزارة فيها .

وفي المملكة اليوغوسلافية أقليات لها خطرها ، من المجر والبلغار والألمان . ولكن عددها ليس بكبير



فيوم وتريستا ، ويسكن السلوفين الاقليم المتاخم لحدود النمسا والمجر ، وهم يعدون أرقى ثقافة — على قلة عددهم — من سائر العناصر التي تتألف منها المملكة . كما يمتاز الصرب بالصفات الحربية ، وحب الحرية . ويروى في بسالتهم وجرأتهم قصص كثيرة لا يتسع لها هذا المقال . وقد قيل عن الكروات إنهم يميلون لألمانيا ، والأرجح

ومجموع سكان البلاد يزيد في الوقت الحاضر على خمسة عشر مليوناً من الأنفس . ويحتل قطراً مساحته نحو ربع مليون من الكيلومترات المربعة ، أو نحو نصف مساحة فرنسا . ولكن الجزء الأكبر من هذه المساحة جبلي وعر ؛ والاقليم الوحيد الذي يمتاز بالسهولة هو الربع الشمالي المتاخم لنهر الطونة . والمملكة على كل حال غنية

تزرعها وفاكهتها وماشيتها ؟ وفي هذا وحده ما يرغب النازي فيها . ولها فوق هذا خطر عظيم بأنها يجتازها الطريق الحديدي السريع إلى البلقان . وهو ذلك الطريق الشهير الذي تجري فيه القطارات السريعة إلى سلانيك واستامبول . وكان يطلق عليه فيما مضى اسم « إكسبريس الشرق » ؛ ويجري هذا الطريق وسط الجبال متبعاً نهر الوراقا ، أحد روافد الطونة ، فيصعد الطريق الحديدي محاذياً لهذا النهر ، حتى يصل إلى منابعه ، بالقرب من بلدة أسكوب . ثم ينحدر من هناك جنوباً محاذياً لنهر وردار إلى خليج سلانيك . وهذا الطريق الشهير طريق الوراقا والوردار ، هو خير وسيلة ، بل يوشك أن يكون الطريق الوحيد الذي يصل نهر الطونة الأوسط ببحر اليونان ، ويخترق الكتلة الجبلية الوعرة ، التي تحتل النصف الغربي من شبه جزيرة البلقان .

لهذه الأسباب جميعاً كانت السيطرة على يوغوسلافيا أهم في نظر النازي من التوغل في بلغاريا . ولكن الأولى كانت من غير شك أصعب مراساً ، وليس بمعروف تماماً ما الذي تستطيع ألمانيا أن تبذله من وسائل الترغيب ليوغوسلافيا ، فإن ما تحتاجه هذه بوجه خاص هو احتلال جزء من أراضي إيطاليا المتاخمة لها حيث يعيش كثير من الكروات . ولا تستطيع ألمانيا أن تمدها بها . ولقد وعدت بلغاريا بالجزء الشرقي من صربيا ، حيث تعيش طائفة كبيرة من البلغار . ومن الجائز أن تكون يوغوسلافيا أيضاً قد وعدت بمنفذ إلى بحر اليونان في مقابل ما تفقده من استقلال وكرامة ، وتعديل في حدودها الشرقية .

ومهما يكن من شيء فإن يوغوسلافيا ترددت في قبول الانضمام إلى « النظام النازي » وحق لها أن تتردد ، فيوغوسلافيا مدينة بوجودها الحالي إلى الجهاد الذي قامت به في الحرب الماضية ، وإلى المعاهدات التي وقعت بعدها ، وهي معاهدات لا ينفك زعيم ألمانيا يجرحها وينقدها أمرّ النقد . ولقد كانت سياسة الملك المرحوم إسكندر ترمي إلى توثيق الروابط بين دولته وبين فرنسا ، وكان ماضياً في تنفيذ هذه السياسة حين تعرض له في مرسيليا شقي مجهول في أكتوبر سنة ١٩٣٤ واعتدى عليه ، فقضى نحبه هو ووزير خارجية فرنسا بارتو . وزعم كثير من الناس أن هذا الشقي المجهول ، الذي كان يحمل جواز سفر مزور يدل على أنه أقام عدة أيام في مونيخ قبل ارتكاب جريمته ، هو من الأشخاص الذين تحركهم أصابع أعداء فرنسا .

وسواء أصح هذا الزعم أم لم يصح ، فقد حرمت يوغوسلافيا قيادة ملك حازم . ووضع ولي العهد تحت وصاية رئيسها البرنس بولس المعروف بميوله الألمانية ؛ ولم يلبث أن تولى الحكومة الدكتور ميلان ستويا دينوفتش ، الذي ظل يدير دفة البلاد أربعة أعوام كاملة من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٣٩ .

ليس من السهل اتهام رجل من كبار الدولة بالخيانة . وربما كانت سياسة « ستويا » — كما يدعوه أصدقاؤه — صادرة عن عقيدة واقتناع . ولكنه على كل حال قد جعل المصالح الألمانية في بلاده المكان الأول ، مبتدئاً بالناحية الاقتصادية ، فكان يبيع غلات بلاده إلى ألمانيا في مقابل آلات ومصنوعات ، ليست البلاد في حاجة إلى الكثير منها . ولقد يعطي غلات بلاده لألمانيا مقابل اعتمادات قد لا تستطيع البلاد تحصيلها . ولابد من الإشارة إلى أن الدوافع التي كانت تدفع هذا الوزير — على فرض أنها دوافع وطنية نبيلة — لم تمنعه أن يحرز لشخصه منافع شتى ؛ فقد كان مساهماً عظيماً في شركة كروب الألمانية . وكذلك استطاع أن يستولي على الجزء الأكبر من سهوم جريدة « فريمي » الشبيهة بالرسمية ، وأن يولي أخاه رياسة تحريرها ، وأن يضع تحت تصرفها جميع الأنباء ،

(البقية على صفحة ٣٣)

الرفق في حرب الإســـلام

للأستاذ عبد العزيز البشرى

سبق لكاتب هذا المقال أن تحدث ، في بعض المقامات ، عن (الحرب في الاسلام) ، وأبان أنها ، في مجموعها ، حربٌ دفاعية لا بغيَ فيها ولا عُدوان . ولا محل لإعادة شيء من هذا الآن . على أن هنالك قصةً صغيرة وقعت في ذلك الحديث لا أرى بداً من الاشارة إليها هنا لاتصالها اتصالاً وثيقاً بما يُساق له هذا المقال :

وهذه القصةُ الصغيرةُ أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، حين خرج يُشيِّع أسامةَ بن زيد ، قائدَ أحد جيوشه في بعض المغازى ، جعل يوصيه وصحبَه بما يأخذون وما يدعون في حربهم للأعداء ، فكان مما أوصاهم به ألاَّ يُمثِّلوا ، ولا يخربوا عامراً ، ولا يَعقروا شاةً ولا بعيراً ، ولا يحرقوا شجرة مثمرة ، ولا ينبشوا موتياً ، ولا ينالوا بالأذى طفلا ولا امرأة ولا شيخاً ولا مترهباً تجرَّد في عبادة الله . ولا يَستصفُوا من المال إلا ما هيأ العدوُّ لحربهم !

وما كان خليفةُ رسولِ الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليوصى أمراءَ جنده ، وهم على شرَف الحرب ، إلا بحكم الاسلام ، وما كان ليأخذهم ، وهم مقبلون على الحرب ، إلا بأدب الاسلام .

واليومَ لقد أوفى لى القدرُ الكريمُ أن أرسل النظر في بعض كتب الأدب ، حتى أعثرنى على كتابٍ من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنهما ، وقد ولاَّه إمارةَ الجيش في حرب فارس .

ولقد يكون هذا الكتاب قد وقع لى من قبل ؛ ولكنه لم يبلغ منى ما بلغ اليوم . وليس عجباً أن يقع المرء ذلك في الشيء الواحد ، فان اختلاف الظروف والملابسات وجِدَّة الأحداث ، مما يغيِّر النظر إلى الأشياء ، ويبدل الحكم عليها ، وقد يُعلى من قدرها ، ويقدر لها من القيمة ما لم يكن يخطر المرء من قبلُ على بال !

ولست أورد هذا الكتاب كله ، فهو طويل لا يتسع له هذا المقال . ولكنى أورد منه ما هو بموضوعنا ألصق ، وبالغرض منه أشكل .

وقد جاء في صدر الكتاب : « أما بعد ، فانى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضلُ العُدَّة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما يُنصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عُدَّتنا كعدتهم ، فان استوينا في المعصية ، كان لهم الفضلُ علينا في القوة ، وإلاَّ ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا » .

هكذا يَبدأ أمير المؤمنين وصاته لعسكره المقاتلين ، بالأمر بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته . ولا ريب في أن من طاعة الله اجتناب ما نهى عنه من التمثيل بالعدو ، وتخريب دورهم ، وعدم الرفق بأطفالهم ونسائهم وشيوخهم ، وتقتيل دوابهم ، وطلب هاربهم لقتله أو لأسره ، وغير ذلك مما مر عليك من وصاة الصدِّيق عليه السلام .

أليس من أعجب العجب ، وخاصة في زماننا هذا ، أن تصدُر هذه الوصايا إلى جيش لا شك في أنه يلقى عدواً

يؤمن أشدّ الايمان بأن من أبلغ العوامل فى نصره وقهر عدوه ، هو اجتهاده فى كلّ هذا الذى نهى عنه خليفة الاسلام ؟ !

أليست الحرب ناراً تصلى ، ودماء تسفح ، وأموالاً تغنم ، وبلاداً تدوّخ ، وأرضاً تملك ، وأوطاناً إما أن يجلو عنها أبناؤها أو يعيشوا فى ظل الاستكانة والهوان ؟ إذاً فلتغلظ الكبود ، ولتقس القلوب ، فلن تجد الرحمة إليها السبيل ، ولو لإضعاف الروح المعنوى فى الشعوب كما يظنون !.

على أن الاسلام ، مع هذا ، يأبى إلا الأخذ بالرحمة ، والمبالغة فى الرقة لغير المحاربين المناجزين . فإن تسألنى عن العاقبة ، عاقبة تلك الحرب التى تلقّى فيها جند المسلمين هذا الكتاب ، أو على التعبير الأدق هذه الأوامر من أمير المؤمنين ، فإن موقعة القادسية تنبئك بأصدق الجواب . فإن انتصار الجيش الاسلامى فيها كان حاسماً . وكان من آثاره أن دخلت فى ملك الاسلام تلك الامبراطورية التى ظلت مبسوطة السلطان على شرق الأرض آلاف السنين . والعاقبة للمتقين . صدق الله العظيم !

وبعد ، فلا يتعاظمنك أن يكون من أبلغ أسباب ذلك الفتح المبين ، هو ما ينضح به الاسلام من الرحمة قلوب المؤمنين !.

ثم انظر ، ياسيدى القارئ ، كيف يقول أمير المؤمنين فى هذا الكتاب . وإن ما يقول لحقيق بأن تجرّد له أقصى ما عندك من تدبّر وتفكير !

يقول بعد كلام فى مكايد الحرب وما إلى ذلك :

« وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولّوهم خيراً » .

اسمعوا . اسمعوا كيف يقول أمير المؤمنين أيضاً :

« ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح »

وتالله ، ما سمع بأعدل من هذا ولا أحكم ، ولا أرفق ولا أرحم ! . يأمر خليفة الاسلام جنده فى مسيرهم للقاء العدو بأن تكون منازلهم بمعزل من القرى التى ليس لأهلها شأن بالحرب ، حتى لا ينالهم ضيق ولا رهق بنزلهم فيهم وحلولهم بينهم . بل إنه ليأمر بألا يؤذن لأحد من العسكر بدخول هذه القرى إلا لمن يكون موثوقاً بدينه ، فلا تمتد يده إلى ما ليس له بحق ، ولا ينحدر بصره إلى ما ليس له بحل . وهذه هى الذمّة التى عُقدت فى عنق المسلم لا يحلّه منها إلا الوفاء ، والتجافى عن البغى والاعتداء ، مهما يكن جنس القوم ومِلّتهم ، ومهما يكن دينهم ونحلتهم . وكذلك يؤمر المسلم بالعفّة والرفق ، ولو كان فى طريقه إلى هدم البنية وسفك الدم .

وأما الأخرى فأنق وأورع ، وأعظم وأروع :

« ولا تستنصروا على أهل الحرب ، بظلم أهل الصلح » .

لست أظن ، ياسيدى القارئ ، أنك شهدت فيما شهدت ، أو سمعت فيما سمعت ، أو قرأت فيما قرأت ، أن عفّة وصلت إلى هذا الحد ، وأن نزاهة بلغت هذا المدى ، وأن كرماً طاول هذا الكرم . أما التضحية فى هذا الذى يأمر به خليفة المسلمين جنده المحاربين ، فلم يسمع بمثله الأولون ولا الآخرون !

الحرب للأمم مسألة حياة أو موت ، وغنى أو فقر ، وعزّ وفخار ، أو ذل وعار . واستمكان من السلطان ، أو خروج من الأوطان ، وإلا ضربت المسكنة وحق الهوان .

٢ - الثـــورة الروسية

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

ولم يكن كيرينسكي رجل الموقف . ولم تكن اللباقة لتطفىء الجمر المتضرم . كان نفور الشعب الروسي من الحرب قد بلغ به حد مقتها . وكان فقر الزراع — وهم أكثرية الروس — قد زين لهم المطالبة بنزع الأرض من يد ملاكها الأغنياء وتوزيعها عليهم توزيعاً عادلاً . واتجه كيرينسكي إلى حليفتيه الغربيتين ينتصحهما في أمر هذين المطلبين . فلم تريا إجابته إليهما . ولم تحسنا الظن بنظام حكومته . ولم تهتما بتمتينه وتدعيم سلطانه . ولم يقو على مقابلة إهمالهما بنظيره . ولم يجرؤ على الخروج من طوقهما ، ومخالفة رأيهما ، والتصرف وفق مصلحة بلاده ، وظل يتزلف إليهما وهما تنفران منه ، وأخذ يكثر من بذل الوعود لشعبه المتململ . ولكنه لم يستطع تحقيق وعد واحد منها ، حتى شعر بكرسي الحكم يتزلزل تحته . وبأن ثورة جديدة أعمق أثراً وأشد تفانياً من ثورته توشك أن تقذف به خارج الحكم وتحل محله .

لم يرض رعيته ولا أرضى حلفاءه . وطمع الألمان أعداؤه في ضعفه . فسددوا إليه ضربتين قاصمتين . أولاهما مكشوفة والثانية مستورة . تعاون أسطول ألمانيا وجيشها المستشري على مهاجمة ريغا . فتباريا في تدمير بلاد البلطيق الروسية وخلفاها رماداً . وانهزم أمامهما الجيش الروسي الزاهد في الحرب وولى الأدبار ، واستغاث كيرينسكي بأساطيل حليفتيه فمنعتهما موانع حربية من إغاثته ، ودان البلطيق لألمانيا . وخاب آخر رجاء لروسيا في أصدقائها . هذه هي اللطمة الظاهرة التي رمت بها ألمانيا إلى التعجيل بنهاية كيرينسكي ، وعزل روسيا من حلفائها والقضاء عليها . ولكن لطمتها الخفية الأخرى كانت هي القاضية .

وقفت عربة مقفلة مسدلة الستائر في أرض روسية على مقربة من خط القتال . ونزل منها رجل قصير نحيل ثائر الخدين عريض الجبهة تتري الطلعة يحرسه ضابطان ألمانيان اقتربا به من المخفر الروسي وتخليا عنه هناك ورجعا أدراجهما . وواصل هو سيره إلى المخفر متوارياً في جنح الليل الحالك . فنادى الحراس بالروسية حتى يأمن عدوانهم ، وهكذا دخلت أرض روسيا بدخوله جرثومة ثورتها الحديثة العجيبة التي لم تنشأ كأمها ثورة أخرى في التاريخ .

كان لينين سجيناً في ألمانيا منذ نشوب الحرب الكبرى . إذ خشيت حكومة الريخ شره على بلادها ، فوارته بين جدران السجون . ثم خطر لها أن تنقل هذا

ألا إن الحربَ هي كلُّ أولئك ، وهي أكثرُ من كلِّ أولئك . ومع ذلك يأبَى الإسلامُ أن يَظفَر فيها إذا كان من وسائل هذا الظَّفَر ظلمُ مَن لم يكونوا من جُناتها ، والبغيُ على من لا يبدون بأهله شراً ، ولا يُضمرون لهم العدوان :

إذاً فالحربُ في حكم الإسلام ، ككلِّ شيء ، لا تُحقق إلاّ بأشرفِ الوسائل ، ولا يُطلب بها إلاّ أنبلُ الغايات .

* * *

هذا هو أدب الإسلام في حروبه ، وهذه هي قوانينه وتقاليده . فهل اطلع أحد في العالم على مثل هذه الآداب ؟ أو جازت بسمعه في رواية أو بنظره في كتاب ؟ إن في ذلك لعبرةً لأولي الألباب .

عبد العزيز البشري

الشر إلى أعدائها الروس ، فتسلم من ناحيتين . ولم يخيب لينين ظنها . ولم يهدأ منذ عبر الحدود إلى بلاده . فألف حزبه ، وأعلن خطته ، ووعد روسيا بالسلام والرخاء . وبثّ الدعوة الاشتراكية في جماهير الصناع والعمال العاطلين والفلول الهاربة من ميدان القتال ، وحرضهم على المطالبة بعقد مؤتمر دولي في استوكهلم . فارتفعت الأصوات بهذا المطلب من كل ناحية من روسيا . ولم يأنف كيرينسكي من الالتجاء إلى حلفائه مرة أخرى . ووصل حبل المفاوضات العقيمة ، وسؤالهم عن رأيهم في هذا الاقتراح الجديد . فجاء الرد سلبياً خشية تشجيع الحركة الاشتراكية ، وعجز السياسي المتردد من الثبات في مهب الأهواء المتباينة .

وأعان هـذا الفشل الجديد أشياع لينين على نشر دعوتهم . فنفخوا في النار المشبوبة ، وتوغلوا في القرى النائية . وأغروا الفلاحين الوادعين بالخروج على الحكومة القائمة . وبثوا الدعاية للحكومة القادمة . وأبانوا مباهجها وأطنبوا . وبذلوا الوعود في سخاء . وعرجوا على ساحة القتـال وحرضوا الجيش على العصيان . وتذرعوا بشتى الذرائع لتعميم الثورة . واستمالوا إلى مذهبهم بعض ضباط الطيران . فأمطر هؤلاء قذائفهم . وملأوا طائراتهم بمنشورات ثورية تحض الجند على إلقاء سلاحهم والعودة إلى بلادهم لتنصيب حكومة شعبية . وبدل مهاجمة المعاقل الألمانية . داروا بطائراتهم إلى معاقلهم . وأمطروها وابلا من هـذه المنشورات . وأساغ الجيش تحريضه . وقفلت كتائب منه عائدة إلى العاصمة والمدن الكبيرة . ولم يستطع كيرينسكي الثبات في وجه هذا الطوفان من العصاة . ولم يكن يجهل ما وراء اعتزاله الحكم من نوائب وويلات . ولكن كيف المفر من الخاتمة المحتومة ؟ طأطأ للثائرين وأفسح المجال للينين . وتولى الزعيم الاشتراكي السلطان في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ . واحتلّ قصر الإمبراطور العظام . وتربع في أرائكهم . وسعى حتى أبرم صلحاً منفرداً مع ألمانيا . ووقع معاهدته في ٣ مارس سنة ١٩١٨ في مدينة برست ليتوفسك .

ولم تسفح دماء الأبرياء في عصر من العصور مثلما سفحت على أثر تولي السوفييت أمر روسيا . ولم تعم الفوضى بلداً مثلما عمت البلاد الروسية . لم تبق الثورة على موظفين أو تجار أو مهندسين أو أطباء أو مزارعين . فأقفلت مصالح الحكومة أبوابها . وخلت المتاجر بعد نهبها ، وتعطلت الأعمال العامة ، واضطربت المواصلات ، وتعدد التصادم بين القطارات ، وانتشرت الأمراض ، وتلف الزرع ، وأقفرت الأرض ، وتحول الجوع إلى مجاعة مروعة قضت على الملايين من البشر ، ولم تستطع حكومة السوفييت تلافي الكارثة ، واضطرت إلى ملء الوظائف الخالية بموظفين لا خبرة لهم بالأعمال التي دعوا إليها ، فازداد الاضطراب تأصلا ، وثار الوزراء الجدد غضباً ، فهاموا في البلاد ، وأخذوا يجازون الموظفين على أخطائهم بالقتل المرتجل .

وصدر أمر لينين باعتقال القيصر وأسرته ، ونقلوا إلى موئل أمين ، وحاول الأمراء وسراة القوم الهجرة من وطنهم ، والنجاة من مذابحه . فأقفلت في وجوههم الحدود ، ولم يسمح لأحد باجتيازها إلا من كان خشن اليدين مما يقطع بأنه من العمال ، ولكن الدم المسفوح لم يُطفِر أكثرية الشعب الوديع الذي تعددت مظاهر عطفه على كبرائه . وامتدت أيدٍ خفية فتحت لهم أبواب سجونهم . ومهدت لهم سبل الهرب . ولجأ أكثرهم إلى باريس .

ولم تلبث حليفتا روسيا الغربيتان أن أدركتا نوع هذه الحكومة الجديدة ومبلغ خطرها على روسيا ، بل على أوربا بأسرها ؛ ووضح لها قدر ما ارتكبتا من خطأ ، إذ خذلتا حكومة كيرينسكي المعتدلة ، بدل تأييدها وتثبيتها .

وما صالح لينين ألمانيا ، وخان عهد حليفتي بلاده ، وتخلى عنهما وقت الشدة ، حتى ثارت ثائرتهما ، وعولتا على مقاومة حكومته بقوة السلاح ، ولجأتا ، كعادة

الحكومات ، إلى الصحافة لشرح سياستها الجديدة للجماهير ، وتبرير مقتضياتها ، والدعاية لها . وما أحدثت هـذه الحملات القلمية تأثيرها ، حتى أعقبتها حملات الجيوش المغيرة .

بدأ الزحف إلى روسـيا عام ١٩١٩ ، فاتجهت الحملة الانجليزية إلى أركنجال ، وتقدمت جيوش فرنسـا ورومانيا واليونان فى الجنوب . وأغارت اليـابان — إذ لم تشأ أن تفقد فرصـة حرج عدوتها — على سيبيريا الشرقية ؛ وأعلن الأميرال كولتشاك العصيان فى سيبيريا ، وانشق الجنرال دينيكين فى القرم ، واحتمى فى كنف الأسطول الفرنسى هناك . وبالرغم من متاعب روسيا الداخلية ، ومن خورها وتضعضعها من ويلات الحرب الكبرى ، ومن خروجها منها جائعة عارية ، ومن قضاء الثورة الحمراء على ما بقى فيها من دماء ، فقد انتصبت واقفة على قدميها لغزاتها الجدد ، واستطاعت أن تشـد أعصابها ، وأن تهيب بعزمتها ، وتستعيد قوتها الخائرة .

ولم يكن أحد أشد رغبة فى معرفة ما يحدث فى روسيا من القيصر المعتقل . كانت حياته وحياة زوجه وولده وبناته الـكواعب رهينة بعاقبة ما يجرى فى خفية عنه . وكان لا يغفل عن ذكر فرنسا وانجلترا . ولم يكن يخاف شيئاً مثل تخلى روسيا عنهما فى أيام محنتهما . ومثل حكمهما القاسى عليها فيما إذا أقدمت على هذه الخيانة . وخفف عنه مضض هذه الخواطر القاتمة ما كان يظهره له حراسه من عطف وإجلال . لقد عاد يرى فيهم روح الولاء الذى كان يشيع فى شـعبه كلما اتصل به . وما كره الشعب الروسى يوما قيصره . وإنمـا كره تهاونه وكره عنف حكومته . كان يقدر فيه خلاله السامية ، من صدق إيمان ، إلى دماثة خلق ، إلى رغبة صادقة فى الخير . وما كاد السجين يطمئن إلى حراسه حتى وقعت الـكارثة التى زلزلت أوربا .

نمى إلى الحراس أن فرقة من جيش الأعداء تتقدم إلى معسكرهم بقصد انقاذ القيصر من أسره . والواقع أن فرقة معادية كانت تتقدم إليهم . ولكنها كانت ضالة فى مجاهل روسيا . ولا تعلم عن معتقل القيصر شيئاً . فخاف الروس أن يقع قيصرهم فى يد أعدائهم . وأن يسخروه فى بث بذور التفرقة بين شيع شعبه ، فلم يجدوا مناصاً من القضاء عليـه بأيديهم . ولكنهم حرصوا على أن يوفروا عليه فزع الخاتمة وهولها بقدر إمكانهم . فأقاموا له حفلة دينية أخذ الـكهان يرتلون فيها أناشيدهم . وبينا هو سابح فى تأملات علوية ، تسددت إليه وإلى أسرته فوهات البنادق من وراء ستار . وأطلقت عليهم دفعة واحدة . فاستراحوا من متاعب هذا العالم فى ثوان معدودات .

وما هل عام ١٩٢٠ حتى قضى الجوع والصقيع على ملايين أخرى من الروس . واشتد البلاء حتى أيقن أعداء لينين أن نهايته معلقة بخيط . وأن ضغطاً عليه قليلاً جداً ينتهى بتقويض حكومته القائمة . فهبت بولندا وهب معها الروس البيض بقيادة الجنرال فرانجل ، واصطدموا بالجيش الأحمر ، فدحرهم تروتسكى وردهم على أعقابهم . وفى عام ١٩٢١ تمرد بحارة الأسطول الروسى فى كرونستاد . ولو أن الغرب ترك حكومة لنين وشأنها لسئم النـاس ما أصابهم على يديها من بؤس وضنك ، ولأسقطها الشعب المأخوذ بسورة الغضب على الحكومات ، ولجاءت حكومة أخرى قد يكون مصيرها كمصير سابقتها . وهكذا دواليك حتى يسأم الشعب الثورة ، ويتوق إلى الهدوء ، فيسلم قياده زعيماً حازماً عاقلا يجد لداء بلاده ناجع الدواء .

ولا شىء يعين الحكومة الثورية على تثبيت أقدامهـا مثل ما تبـذله الدول الأجنبية من محاولات فى سبيل خلعها ، فإن الشعب الثائر لا يفكر عندئذ إلا فى درء الخطر الخارجى فينحسم كل نزاع داخلى . ويسلس زمام الحكم لمنتصبيه .

وهكذا وجد الشعب الروسى فى كفاحه ضد غزاة بلاده ما يشغله عن مناوأة حكومة لنين . فنجحت فى توطيد أركانها ؟

محمد مفيد الشوباشى

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة الباسل أميراً لتدمر عاصمة الصحراء — ذات التجارة الواسعة والغنى والمدنية ، وكان يحب صيد السباع ويستصحب امرأته الجميلة زنوبيا سليلة كليوبطره ملكة مصر وشبيهتها فى الحسن والذكاء والثقافة . وأصيب أذينة فى صراع أسد ، ومرض ، فجزعت زنوبيا لذلك ، ولم تجد سلوى إلا عند وصيفتها السبحية ليس التى حببت إليها دين المسيح . ولما شفى أذينة جاءت الأنباء بهزيمة امبراطور الروم (فالريان) امام سابور ملك الفرس ، وأخذه أسيراً . فغضب أذينة وهم بالاندفاع إلى حرب الفرس ، ولكن زنوبيا نصحته بالتريث ، وحسنت إليه أن يبعث إلى سابور هدية يستميله بها ، ففعل وبقى فى تدمر قلقاً فى انتظار أنباء الهدية التى أبطأت عليه . وضاقت نفسه فى ذلك حتى أوقع بابن أخيه معن الشجاع من أجل خطأ ناله فى رحلة من رحلات الصيد . ثم جاءت الأنباء بأن سابور ألقى هدية أذينة فى الفرات وسبه سباً قبيحاً ، وأهان كرامة العرب . فثار للانتقام ، وأعد جيشاً عظيماً وذهب إلى حرب فارس . وبقيت زنوبيا فى تدمر وحدها تحس وحشة شديدة لفراق زوجها . وشغلتها شجونها عن أمور الحكم ، وأقبلت على النسك بالقراءة ، حتى استخف بها أكابر أهل تدمر ومالوا إلى دعاية عدو زنوبيا عمرو بن أسيد أمير سليح فى بلاد الأردن ، الذى كان يطمع فى زواج ليس ، وآثرت عليه الأميرة فتى مسيحياً من جيش تدمر كان يهوى ليس ، اسمه حسان . فتآمر الأمير السليحى مع بعض سراة تدمر على غزو تدمر مفاجأة . ولكن زنوبيا علمت بالمؤامرة ، فثارت همتها وأسرعت بالاستعداد ، وأخذت الأمور فى يدها بمساعدة حسان . وأتت الأنباء عند ذلك بنصر أذينة . وكان الجيش السليحى حول أسوار تدمر يحاصرها] .

لم تبق جيوش الأمير السليحى حول تدمر إلا يسيراً ثم انجلت عنها كما تنقشع السحب السوداء فجأة عن الأفق العاصف ، وتترك وراءها السماء الزرقاء صافية ، والشمس الزاهية مشرقة ، والهواء الصافى بليلاً . لم تلبث أنباء انتصار أذينة على سابور أن ذاعت فى تدمر وتلقفها الجنود فى فرح وكبرياء ، وتناقلها الشعب فى حماسة وارتياح ، وقذف بها الجنود على عدوهم من فوق الأسوار ، فاهتز وسرت فيه حركة من الهلع ، حتى بلغت الأنباء عمرو بن أسيد وهو مطمئن إلى حصاره يحدث نفسه بقرب إذلال المرأة التى طمحت عزته وهى عاجزة وحدها عن الدفاع فى غيبة زوجها الباسل . فلما سمع ابن أسيد تلك الأنباء ضحك وسخر وكذب . فما كان عجيباً من زنوبيا أن تذيع مثلها لكى تشد من عزائم أصحابها وتخدع عدوها بأكذوبة ترسلها من وراء أسوار مدينتها . وهل يبعد على تلك الأميرة فى ذكائها وحيلتها أن تتفنن فى المكر وتدبير الخدعة ؟ .

ولكن أنباء انتصار أذينة سارت فى أقطار الأرض ، وترددت أصداؤها فى وديان الصحارى ، وترادفت الرسل إلى الأمير السليحى تحمل إليه ما كان من أذينة عند الفرات وما آل إليه جيش سابور من بعد فى ريف العراق ، حتى تحطم وتحصنت بقيته المخذولة وراء أسوار طيسفون . فلما عرف ابن أسيد ما عرف بادر بقومه فتسلل بهم تحت ستار الليل ، وعاد إلى أرضه وراء نهر الأردن وهو يزدرد غيظه .

وتطلع جيش تدمر ذات صباح من فوق الأسوار إلى عدوه الذى كان رابضاً فى الفضاء الفسيح ، فلم يجد منه إلا بقايا نيرانه وآثار خيامه فى الرمال .

وتنفست المدينة ، ودبت فيها الحياة ، وطربت زنوبيا وعاد إليها السلام ، وأرخى أهل تدمر لأنفسهم العنان ، فعرسوا وأولموا وقضوا ليالى فى مرح ولهو وغناء .

ولما أحست زنوبيا نسيم السلام غادرتها تلك الوثبة

التي كانت المخاوف استفزتها إليها ، وخلا ما بينها وبين نفسها مرة أخرى ، وعاد إليها ذلك الحنين الذي اعتراها في أول أيام وحشتها بعد فراق زوجها ، فكانت كلما أشرقت الشمس أرسلت تتقسم الأخبار عن أذينة ، وكلما جاء الليل جلست وحدها أو مع وصيفتها لبس تناجي أشجانها الثائرة وآمالها الباسمة . وعادت امرأة كما كانت وهي في كنف صاحبها الفارس الباسل ، لا تفكر إلا في أحاديث قلبها ، وارتدت حوادث العالم الصاخب إلى ثنايا الذكرى ، فكانت لا تلتفت إليها إلا لفتة سريعة ، ثم تبعدها في نفس عميق قائلة في نفسها :

— لقد آن لأذينة أن يعود ويحمل عني هذا العبء الذي لا يستطيع حمله إلا هو .

وكان يحلو لها في تلك الحال أن تتحدث إلى لبس ، وكان الحديث كلما جرى بينهما تحدر بطبعه إلى ذكر أذينة وحسان ، فكانتا في نجواها امرأتين زالت بينهما فوارق الحياة . وكانت لبس إذا حدثتها الأميرة تحس أن نسيم الخريف أودع هبوباً ، وأنه يحمل في هبابه نبضات من الأشجان العذبة وخفقات من الأحلام السعيدة . وكانت ترى إشراق الشمس أزهى جمالا ، وأن زرقة السماء أعمق صفاءً ، وأن أكمام الزهر المخضلة بالندى أحلى شذى وأبهى منظراً ، وأن نجوم الليل المتلألئة أفصح حديثاً ، وأن همس أنوار البدر أوضح معنى ! وكانت كلما تصورت حسان في تلك الأحاديث ثارت إلى جانب صورته صورة أخرى ، فتحاول أن تتجاهلها أو تجحدها ، ولكنها تعود إليها ملحة مشرقة فاتنة : تلك هي صورة الأمل الغامض أن تعيش يوماً إلى جانب حسان .

لم تكن لبس تخادع نفسها عن حبها ، فإنها لم تستطع أن تدرك أن ذلك الذي تحسه نحو حسان هو ما يسميه الناس حباً ، لأن قوة إيمانها وسمو المعاني التي كانت تربط بين حسان وبينها قد غطيا على كل هزات نفسها ، فلم تتبين في علاقتها به إلا أنها صداقة في حب المسيح ومشاركة في حرارة الإيمان .

وكانت زنوبيا كلما تحدر الحديث مع وصيفتها تصورت أذينة ، فإذا ما فرغت منه جلست وحدها تناجي ذكرياتها وأمانيها الحلوة ، وتستمع إلى خفقات قلبها .

ونسيت الكتاب في تلك الأيام الصاخبة المضطربة ، وقضت أسابيع وهي لا تستقر في مجلسها الهادئ إلى جانب لونجين ، حتى كأنها نسيت ذلك الصديق العابد الذي كان إذا جلس في حضرتها تطلع إليها كما يتطلع الكاهن إلى صورة إلهه .

وجلست يوماً في شرفة قصرها بعد أن قضت لبانتها من الحديث إلى لبس ، وكان أصيلاً من آصال الخريف الوديعة التي يلفها السلام الشامل ، ونظرت إلى الشمس تميل نحو الغرب في موكب باهر من السحب ، فأذكرها المنظر بهومير ، فأخذت الالياذة وجعلت تقرأ في حديث أندروماك لزوجها هكطور :

« أنت زوجي ومأربي في الحياة ، أنت أهلي ، وأنت لي كل ما لي . فترفق بي وبطفلي ، ولا ترم بنفسك إلى المهالك . لا أقول لك اجبن فهذا ليس من طبعك ، ولكن أقول لك اتق المهالك من أجلي ومن أجل فلذة قلبك » .

ووقفت بصرها عند ذلك وتنفست ملء صدرها ، ونظرت في أنحاء الحديقة الزاهرة الممتدة تحتها فرأت صديقها الشيخ الفيلسوف ، وكان يسير مطرقاً ويداه وراء ظهره كأنه يفكر مهموماً .

فوضعت الكتاب وجعلت تتأمله ، وكأنها رأته عند ذلك أول مرة في حياتها ، وأحست وهي تتأمله وخزة ألم شديدة لما رأت عليه من آثار الألم والهم . لشد ما تغير في هذه الأسابيع القليلة التي لم تجلس فيها إليه في قراءة ولم تناقشه في حديث . كان محمر العينين شارد النظرة ، تكسو وجهه

سحابة من الكآبة والاضطراب . فاذا غشى أصابه ودخل إلى نفسه السكينة فى هذه الأيام ؟

كان عهدها به إذا جالسته أن يكون باسماً طلق الوجه هادئ النظرات ، وما كان أقساها إذ لم تقف لحظة فى تلك الأسابيع لتسائل نفسها عنه أو لتدعوه إلى مجلسها فى بهو القصر أو شرفته ، وهى تعلم أن أحاديثها غذاء نفسه وأن قرائتها معه سلوته فى الحياة . إن المسكين لا يعرف فى هذا العالم قلباً يعطف عليه ، وإن قلبه الذى أحس يوماً ما لدعة الحب لا يزال ينبض ويفيض وإن كانت نبضاته حزينة يائسة .

وامتلأ عند ذلك قلبها إشفاقاً عليه ، كما امتلأ حنقاً على نفسها وإنكاراً لقسوتها وأثرتها ، واندفعت نحوه كما يندفع الطفل عند ما يرى من اعتاد أن يأنس إليه بعد طول غيبة . وما هى إلا لحظة حتى كانت تعترض طريقه فى الحديقة وقالت له تحييه باسمة :

— عفوك أيها الصديق الأجل إذا أنا عكرت عليك صفاء تأملك .

فاعترت الرجل هزة تشبه أن تكون إجفالا من تلك المفاجأة ، ورفع بصره إلى الأميرة الواقفة أمامه فى مظهر الضراعة ، واحمر وجهه ، وترددت على وجهه ابتسامة حزينة وقال :

— مولاتى . . .

ثم أراد المضى فى الكلام ، ولكنه تردد وأطرق مرتبكاً . فتقدمت زنوبيا نحوه ، ووضعت يدها على ذراعه وقالت :

— لقد أوحش مجلسى منك يا لونجين .

فنظر إليها الرجل فى كآبة وقال :

— كنت رهن أمرك يا مولاتى .

فأدركت الأميرة من رنة صوته أنه عاتب ، فقالت فى لهجة الاعتذار :

— أحس أيها الصديق أننى أسأت . ولكنك لا شك تغفر لى إساءتى .

فرقت سحابة الكآبة التى على وجهه وقال :

— وكيف تسيئين إلى يا مولاتى ؟ إننى فى غمرة من نعمتك .

فقالت الأميرة جادة وفى صوتها هزة التأثر :

— لقد ألهتنى شواغل الحياة المضطربة عن كل ما كنت أوثره وأرتاح إليه . شغلتنى عن كل شىء كنت أحسب له فى الحياة قدراً ؛ حتى لقد شغلتنى عن نفسى وعن عقلى وعن قلبى . وكنت أنت أيها الصديق فيمن شغلتنى عنه تلك الهموم .

ثم تركت ذراعه وتنفست نفساً عميقاً وقالت :

— سيعود أذينة بعد قليل ، وسأستطيع أن أخلو إلى نفسى وأعود إلى السمو معك فوق تلك الآفاق الظلمة .

ونظرت إلى الرجل باسمة تبحث عن نظرته لتتبين فيها قبول اعتذارها ، ولكن راعها منه أن رأته قد عاد إلى إطراقه واضطرابه وارتباكه . ففتحت عينيها فى دهشة وقالت :

— أفى نفسك شىء يؤلمك أيها الصديق ؟

فرفع الرجل نحوها بصره الحائر ، وقد ذهبت من وجهه الابتسامة الوديعة التى غشيته منذ حين ، ووقف لحظة ينظر إليها صامتاً . فقالت له فى صيحة مكتومة :

— أرجو أن تحدثنى أيها الصديق المبجل ، كلمنى أيها المعلم الحكيم ، تحدث إلى صديقتك وتلميذتك ، فلن تغضب من قولك وإن كان قاسياً .

فذهبت الحمرة من وجهه وأجاب بصوت جاف :

— ما أنا يا مولاتى إلا رجل أعيش فى كنفك وأتقلب فى نعمتك . ما أنا إلا خادم ، ما أنا إلا كتاب ، ما أنا إلا صدى ؛ لست فى هذه الحياة حقيقة ، ما أنا إلا صدى ؛ وهل يغضب الصدى ؟

فأسرعت زنوبيا فأمسكت بذراعه ، وضغطت عليها وقالت وفى صوتها رنة الاشفاق :

— لقد أسأت إليك أيها الصديق ، فاعف عنى .

ثم رفعت نظرها إلى وجهه المضطرب ، فاذا بالدموع تسيل من عينيه المحمرتين . وكأنه لم يسمع قولها ، فاستمر قائلا بصوت مختنق :

— لقد تقاذفتنى الأقدار فى أركان العالم ، وكنت كلما هبطت أرضاً لم ألبث إلا قليلا حتى تضيق بى وأضيق بها . كنت دائماً أريد الحياة ؛ ولكنى كنت دائماً أصحو بعد قليل ، فاذا بى أرى نفسى حلماً وخيالاً . لا يرانى الناس إلا كتاباً وصدًى أردد أقوال الحكماء والشعراء . ولكم شعرت بالسعادة عندما كنت أراك تشركيننى فى رأيك وفى تدبيرك ، وظننت أنى قد وجدت عندك ما عجزت أن أجده فى أركان الأرض . ولكن . . .

وسكت لحظة وأخرج من صدره منديلاً ، وجعل يمسح الدموع التى بلت وجهه ولحيته . ووقفت زنوبيا تنظر إليه صامتة وقلبها مفعم بالألم . ثم استمر قائلا :

— ولكنى وجدت هنا ما وجدته فى كل مكان . ما أنا إلا كتاب . ما أنا إلا صدًى . لست حقيقة فى هذه الحياة .

فقالت زنوبيا متأثرة :

— أيها الصديق الحكيم ، إن مرتبة هذه الحياة المادية الكثيفة أقل المراتب وأبعدها عن الكمال . وإن أعلى الآفاق ما تشغله حياة الفكر والتسامى . فاذا كنت قد شغلت عنك فى غمرة تلك الحوادث التى تعرفها ، فما ذلك إلا لأنى أدخرك لحياة أعلى وآفاق أسمى . ولقد آن لى أن أعود إليك وأصعد إلى آفاقك . فلنمد إلى العقل والروح معاً ، ولندع هذه المادة لمن يقدرون عليها ولا يستطيعون العلو فوقها .

ثم وضعت يدها تحت ذراعه وجذبته برفق وسارت به فى طرق الحديقة وهى تبتسم له ، وجعلت تدخل به فى شعاب الحديث وتمزج الجد بالدعابة ، حتى أسفر وجهه وعاد إليه هدوؤه ، وكانت الشمس قد اختفت وراء رؤوس الأشجار الملتفة ، وبدا قرصها العسجدى يتواثب بين أغصانها التى يحركها نسيم المساء . فقالت زنوبيا وهى تشير إلى ذلك المنظر :

— ألم تلهنى الحياة عن مثل هذا الجمال حيناً ؟ لقد مرت على أسابيع لم أفرغ فيها لأملأ عينى من الشمس فى الغروب .

ثم أشارت تومئ برغبتها فى العودة إلى القصر وقالت باسمة :

— لقد كنت أقرأ فى حديث أندروماك وزوجها . ألا تعود معى لتقرأ لى حديث زوجها هكطور ؟ إن هومير يبدو لى أبهى لوناً وأكثر تلألؤاً إذا سمعتك ترتل آياته .

ثم مدت يدها إليه لتعود به إلى القصر ، فأخذ الحكيم يدها الصغيرة بين كفيه حيناً ، ثم نظر إلى عينيها نظرة مريبة ، ولكنه أسرع فترك يدها وعلت وجهه حمرة شديدة ، وقال وهو متهلل الوجه فى شىء من اللهفة :

— إذاً أعود إلى الحياة يا مولاتى .

فتبسمت زنوبيا ودخلت إلى القصر وهو يسير وراءها ، وكأنه يثب خفيفاً إذ يسير وقلبه ممتلئ بالغناء .

وقضيا من الليل شطراً يقرآن فى إلياذة هومير ، حتى أقبلت ليس تحمل رسالة جاءت إلى القصر مع رسول الأمير أذينة ، تنبئ بأنه مقبل إلى تدمر بعد أن أصاب ما أقر عينه من حرب سابور ، وكان آخر تلك الرسالة :

« ولم تستطع أسوار طيسفون أن تحمى الجبار الذليل ، فاستبحت حرمه واستبقيت ثلاثاً من نسائه سأجعلهن من جواريك يا أميرتى . حرستك الآلهة وأمتعنى بلقائك وشيكاً » .

ولما مضى لونجين إلى منزله فى القصر ، وبقيت الأميرة وحدها لم يطاوعها النوم ، تتمثل صورة أذينة وهو عائد فى جيشه المنصور ، ولكنها كانت تراه ومن حوله نساء سابور .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

الشعر عند أرسطو

للأستاذ أحمد خاكى

كان أفلاطون لا يؤمن بالشعر ولا بالشعراء ، فلم يفرد لهم مكاناً خاصاً فى جمهوريته الفاضلة . وكأنما أراد أن يجعل للفلسفة المقام الأول وللفلاسفة مكان الامامة ، وأن يطرد الشعراء من بين طبقات « المدينة الفاضلة » التى صورها . ذلك بأنه كان يرى أن الشعر خداع مطلق ليس فيه حق ولا أثارة من الحق ، وأنه غث لا قيمة له ؛ على أنه قد اعترف بأن للشعر نشوة فى النفس تملؤها هوى وطرباً يبلغ بها حد الوجد والجنون .

كان يرى أن الشعر خيال زائف لخيال زائف آخر وقد كانت تقوم فلسفته على أن وراء هذا العالم الظاهرى الذى يتنظر أمامنا عالماً آخر غير مادى تشرق فيه حقائق الحياة العليا وتصدق فيه المعانى . وليس هذا العالم الظاهرى إلا ظلالا للحقائق التى تطالعنا فى أحيان من عالمها اللامادى ؛ فاذا حاول الشعراء أن يطبعوا هذه الظلال بطابع الخيال ، كان ذلك إمعاناً فى الزيف ، ومجافاة للحق ، وإغراقاً فى تخيل الخيال .

كان يرى أفلاطون ذلك حينما فصل طبقات جمهوريته . ولذلك فقد أخرج الشعراء من زمرة الأئمة ، هذا على الرغم من أن فلسفة المثل أو المعانى — وهى فلسفته — قد أثرت فى النقد الأدبى فى أوربا ، وأن مدارس بأسرها من مدارس الشعر قد اقتفت فى ضروبه لكى تبلغ أمثلتها العليا فى الحب والجمال ؛ لكن أفلاطون نفسه كما أسلفنا لم يكن يطمئن للشعر ؛ بل لقد كان يسكن إلى ذلك التفكير الدقيق الذى يقتحم الخيال نحو الحقيقة ؛ فيزرى بالشعر والشعراء ، ويتحدى الكتاب غير الشعراء أن يكتبوا عن الشعر شيئاً من النثر يبررون به مقام ذلك الشىء الذى يخلو من المعنى .

●●●

وكأنما قد تلقى أرسطو ذلك التحدى من أفلاطون ، فآلى على نفسه أن يبرر وجود الشعر بكتابه عن « فن الشعر » الذى أملاه فى سنة ٣٣٠ قبل الميلاد . والحق أنه كان عجباً أن يدافع أرسطو عن الشعر وهو من نعلم مكانه من تقدير الحقائق ، ومع ما نعرف عنه من حرص على التفكير المنطقى الخالص . لكن أرسطو لم يعالج الشعر إلا كما عالج على الأخلاق والسياسة . فليس أسلوب البحث فى كتابه عن الشعر إلا كأسلوب البحث فى كتبه الأخرى . فهو يحاول أن يجمع أكبر عدد ممكن من الأجزاء والمفردات ليحكم حكما كلياً . وكما أنه قد عالج فى كتاب « السياسة » أشكال الحكومات التى ظهرت فى الدويلات الاغريقية ، فهو قد أراد أن يعالج فى كتابه عن الشعر كل أنواع القصائد والمسرحيات والملاحم التى ظهرت فى بلاده إلى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، على الرغم من أن عصر المأساة الاغريقية كان قد انقضى ، ومن أن العصر الذى عاش فيه كان عصر التدلى فى الشعر وفى الرواية المسرحية على السواء .

ولا نحسبن أن كتاب « الشعر » كتاب منسق كامل من أمثال هذه الكتب التى ورثناها من الفكر الاغريقى . فليس هو كتاباً ذا وحدة خاصة تتساوق أجزاؤه ؛ والظاهر أن مؤلفه لم يتأت له بالتحقيق والتدقيق والمراجعة ، بل الراجح أنه مذكرات تقيد من تلامذة أرسطو ، وأنه

مذكرات ناقصة لم تتم فصولها . وقد كان أرسطو يلقى فصولا فى «معهد المشائين» هى فى نفسها شبيهة بالمحاضرات التى تلقى على الطلبة فى جامعات اليوم . فلعل طالباً من هؤلاء هو الذى تلقى تلك الفصول المبتورة فسجلها ، ولعله لم يتمها لأمر ما . يشهد على ذلك أن الكتاب نفسه قد بدأ بدءاً حسناً ، وقسم الشعر إلى شعر المأساة ، وشعر الملحمة ، وشعر الغناء ، لكنه لم يتم الكلام إلا عن شعر المأساة ، ولم يكد يتحدث عن الملاحم حتى انتهى .

ثم مالبثت المدنية الاغريقية أن اخترمها الفناء فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد . واندثر «معهد المشائين» ونسى الناس أرسطو وأضرابه من فلاسفة اليونان . وخفق اسمه مرة أخرى فى عصر الرومان ، لكنها كانت خفقة الزوال . ومشت العصور الوسطى على اسم «المعلم الأول» فلم يذكره إلا بعض الكتاب العرب . ولخص ابن رشد كتابه عن الشعر ، لكن ملخصه لم يؤثر فى تاريخ النقد العربى إلا قليلا . واستكشف أرسطو أيام النهضة فيمن استكشف من كتاب الاغريق وفلاسفتهم ، وترجم كتابه عن الشعر إلى اللاتينية فى سنة ١٤٩٨ ؛ وكانت آراؤه فى السياسة والأخلاق والمنطق كشوفاً لقواعد الفكر الحديث . فكان لا بد أن يصيب الشعر أثر عميق من آراء أرسطو . وقد كان ذلك لأن أعلام النهضة فى أوربا كانوا يميلون إلى اتخاذ الأحكام المنطقية التى تسمو من قيود العرف والعادة . لذلك كانت ترجمة كتاب الشعر فتحاً جديداً فى تاريخ الأدب الأوربى . فقد فرضت نتائجه فرضاً على شعراء القرن السابع عشر فى فرنسا ، وترحت آراؤه إلى انجلترة ملففة فى أثوابها الفرنسية ؛ وليس بين النقدة المحدثين من يجهل أثر أرسطو فى تاريخ الأدب مهما ازور من آرائه وأحكامه فى نقد الشعر .

***

كان «كتاب الشعر» إذاً رداً على ما كتبه إفلاطون عن الشعر والشعراء فى الجزء العاشر من الجمهورية . وجدير بنا أن نقدر أسلوب البحث الذى انتهجه حينما عالج الشعر . ذلك لأن أسلوب البحث هو الذى أثر فى وسائل النقد الأدبى ، ولأن فى دراسته خيراً كثيراً للناقد العربى .

كان أرسطو أول من حاول أن يعالج الشعر كما يعالج صاحب علم الأحياء فصائل النبات والحيوان ؛ فهو قد جمع فى صعيد واحد مؤلفات هوميروس ، وسوفوكليز ، وإسخلوس ، وغيرهم من رجال الأدب الإغريقى ؛ وأدرك أن وراء كل هذه المؤلفات تاريخاً مستمراً متسقاً ينتقل بها من جيل إلى جيل . فالأدب عنده ينمو كما ينمو النبات ، وكل فصيلة من فصائله تشبه الكائن الحى ، فهى تنتقل من يد صانع إلى يد أخرى صانع ، حتى تدرك مقوماتها وتصبح شكلا من أشكال الأدب . عالج أرسطو الشعر ، لكنه اتخذ منه تاريخاً لنشأة الفكر ، وعالج الأدب ، لكنه طبق عليه أصول العلم ، وتعمق البحث فى الرواية المسرحية ، لكنه علل ما فيها بأصول نفسية ما زال النفسيون فى الزمن الحاضر يؤمنون عليها .

ألم يكن الاستنباط رائد أرسطو فى بحوثه فى السياسة والمنطق والأخلاق وعلم الكلام ؟ وقد كان الاستنباط أيضاً رائده فيما أملاه عن الشعر . فهو يحاول أن يتفحص كل مثل من أمثلته ، وأن يضع كل هذه الأمثلة فى فصائل خاصة محدودة . وهو أول ناقد نجم الأمثلة والفروقات ، واستخرج أحكاماً عامة من تآلفها أو تخالفها ؛ وكان بذلك قدوة صالحة لمن خلفه من جبابرة الفكر . فكثير من الفلاسفة والنقاد بعده قد أسلموا أصول النقد الأدبى حتى أوشك أن يجارى علم الرياضة فى أحكامه ومعاييره ونتائجه ؛ وكذلك ترى أن فلسفة أرسطو بأكملها قد أثرت

فى النقد الأدبى فى أوربا ، وأننا فى الحق قد عدمنا مثل هذه الفلسفة فى تاريخنا الأدبى .

وكان لابد له أن يقسّم الشعر ، فقسّمه إلى شعر الملاحم وشعر التمثيل وشعر الغناء . وقد صحب هذا التفصيل تاريخ النقد الأدبى فى أوربا حتى العصر الحديث . فقد تطورت كل فصيلة من هذه الفصائل الثلاث بعد النهضة الأوربية ، وكان لها شأن كبير فى كل بلاد أوربا الغربية . وإذا أنت حاولت أن تقسم الشعر فلن ترى أدق من تقسيم أرسطو : فشعر الملاحم هو الذى ينتظم أخبار الأسلاف فى عصور البطولة وأدوار البداوة ، ويأتلف صنائعهم وأعمالهم فى كفاحهم مع الأقوام الآخرين . أما الشعر التمثيلى فهو ذلك الذى يحاول أن يبرز « أفعال » الناس — أو قل تصرفاتهم — فى نطاق ضيق نسميه المسرح ، وهو إما شعر حزين يبث الرحمة ويقذف بالذعر فى القلوب ، وإما شعر فكه مرح يبعث على البهجة والتسلى . وأما شعر الغناء فالأصل فيه أن يصحبه الأرغول والقيثارة ، ويتخذ وزنه ولحنه من نسق الطبيعة وأصواتها . لكن أرسطو — كما أسلفنا — لم يبسط الحديث فى كل هذه الفصائل الثلاث . فهو لم يتكلم عن شعر الملاحم إلا بمقدار ، وقد أسهب فى حديثه عن الشعر التمثيلى ، ولم يتحدث عن الشعر الغنائى . ولعل جزءاً ثانياً من الكتاب كان قد عالج كل ذلك لكنه اندثر ولم يستكشف .

ولعلك ترى معى أن موجزاً كالذى استخلصه ابن رشد من كتاب الشعر لأرسطو ، لم يكن له إلا أثر ضئيل فى نقد الشعر عند العرب . ذلك بأن أرسطو قد تكلم عن الشعر التمثيلى أكثر ما تكلم ، وتحدث حديث العجلان عن شعر الملاحم . وكلا النوعين لم يعرفه الأدب العربى . وإنما يمتاز الشعر العربى بأنه شعر غنائى يتفجر من مستقر النفس ويعالج ذات الشاعر . وهذا الشعر الغنائى نفسه هو الذى لم تظفر برأى أرسطو فيه ؛ لذلك تخال أن موجز ابن رشد عن أرسطو لم يصب إلا أثراً ضئيلا عند الشعراء العرب . لقد أقامت نظريات أرسطو فى الأدب الأوربى دولة وأقعدت دولة أخرى ، لكنها لم تفد النقد العربى إلا قليلا . وما كان ذلك إلا لأن العرب لم يكابدوا الشعر المسرحى ، ولم يعرفوا شعر الملاحم إلا عن طريق الفرس .

لقد وجه أرسطو أنظار النقاد الغربيين منذ عصر النهضة حتى اليوم إلى أن للأدب نشأة تشبه نشأة الكائنات الحية . واستغل بعض النقاد هذا الرأى فنشأوه واتخذوا منه فلسفة هى التى أطلقوا عليها « تطور الأدب » . ولعلنا حينما نقرأ شيئاً من آراء برونتيير الفرنسى فى القرن التاسع عشر لا ننسى مطلقاً أن الذى بذر البذرة الأولى إنما هو فيلسوف عاش فى أثينا فى القرن الرابع قبل الميلاد .

* * *

ذلك أسلوب البحث فى كتاب الشعر ، وهو أسلوب ذو أثر عميق فى تاريخ النقد الأوربى . أما عن الشعر نفسه فيرى أرسطو أنه بأنواعه يتصل اتصالا وثيقاً بطبيعة النفس ؛ فالنفس الإنسانية تميل إلى المحاكاة . والإنسان من بين مخلوقات الله أكثرها عناية بالتقليد . ألا ترى أن الطفل يشغل بالتقليد وهو فى المهد ؟ وأننا جميعاً مأخوذون بالتقليد حتى نندمج فى الوسط الذى نشأ فيه ؟

وبعد فإن الإنسان ليرى فى المحاكاة والتقليد سروراً وبهجة يملكان عليه الجنان ؛ وهو يبتهج حينما يقلد ، وهو يشعر بالنشوة تشيع فى أنحاء نفسه حينما يسمع أو يرى أو يحس حكاية تُلقى أو مسرحية تُمثل . وعلى أساس التقليد أو المحاكاة أو التصوير تقوم الفنون الجميلة بضروبها . فالمثال أو المصور يحاول أن يقلد الطبيعة حينما يستخدم الأشكال والألوان . وكذلك قل عن الفنان ، فهو يحاول أن يعبر عن الطبيعة مستعيناً إلى ذلك بالنغم المتفق والنغمة والوزن . فإذا استقل النغم كان من ذلك فن الرقص ؛

وإذا اتحد النغم والوزن خرج من ذلك فن الموسيقى ؛ وإذا أضيفت إليهما اللغة كان الشعر . وفى الشعر يقلد الشاعر ما يفعله الناس ويعبر عما يحسونه ؛ وذلك واضح الوضوح كله فى شعر الملاحم وفى الشعر المسرحى ؛ وهو واضح أيضاً فى شعر الغناء إذا قدرنا أنه يعبر عما يختلج فى نفوس الناس من الحب والبغض والعطف والبأساء .

فالأس فى الفن إذاً يتصل بالتقليد أو المحاكاة . ونحن نبتهج لآيات الفن لأننا نعلم أنها تقليد لأفعال خاصة . بل لقد ذهب أرسطو إلى أبعد من ذلك فقال : « إنه على الرغم من أن الواقع نفسه قد يكون مؤلماً للناظر إليه إلا أننا نبتهج إذ نرى أكثر الأشياء اتصالا بالواقع ممثلة بوسيلة من وسائل الفن ؛ فنحن نبتهج مثلا إذا رأينا صوراً لأحط أنواع الحيوان ، أو مناظر تمثل جثث الموتى » .

وعلى أساس التقليد والبهجة قد استطاع أرسطو أن يصل بين الفنون جميعاً ، فربط بين الموسيقى والرقص والشعر ، بل واستطاع أن يُرجع الشعور الفنى عند المثّال والمصور والشاعر إلى نبع واحد يتفجر منه الخيال عند كل هؤلاء .

مثل هذا الرأى كان تبريراً لوجود الشعر وتحديداً للعلاقة التى تصل كل فن وآخر . وقد أثرت هذه النظرية فى الأدب المسرحى تأثيراً اتضح فى الاختلاف الذى حدث بين مدارس الرومانتيك ومدارس الكلاسيك . فالأولون حاولوا أن يجعلوا التقليد بعيداً كل البعد عن الواقع ، والآخرون حاولوا أن يتبعوا الواقع اتباع المتحرج الحريص . الأولون أرادوا أن يجعلوا للخيال السلطان الأول ، لكن الآخرين حاولوا أن يجعلوا للواقع أسمى مكان .

وبعد فماذا عسى أن يقول المحدّثون من علماء النفس فى كل الذى قيل من التقليد والبهجة التى تصحب التقليد ؟ لقد ذهب أكثر النفسيين إلى أن التقليد عامل اجتماعى ، وإلى أن اللعب فى حياة الإنسان ينضح عن طاقة مدّخرة . فنحن نقلد لأن التقليد يكاد يكون ميلا غريزياً . ونحن نبتهج للتقليد لأنه نوع من أنواع اللعب . ألست ترى معى أن الفن يكاد يكون لوناً من ألوان اللعب ؟ فالجماعة تنتج الفن لأنها تحس بأنه فيض من النشاط الذى يتدفع فيها . هى تنتج الفن كما ينشط الطفل إلى اللعب حينما تفيض الطاقة عنده . وإذاً فقد أمّن علم النفس الحديث على أكثر ما ذهب إليه أرسطو .

● ● ●

تلك لمحة فى كتاب « فن الشعر » لأرسطو ، أردنا أن نسوقها إليك لأنها عندنا أساس النقد الأوربى العام . ولعلنا نستطيع أن نبسط القول فى بعض آرائه الأخرى من الفن المسرحى . فإلى اللقاء

(البحث بقية) أحمد خاكى

إلى المجمع اللغوى :

المصريون من لهجاتهم

كان من أثر الفتوح الإسلامية التى شملت العالم القديم شرقاً وغرباً أن انبثت القبائل العربية فى كثير من ممالكه، ثم امتزجت هذه القبائل بشعوبها واتصلت بينهم أواصر النسب ووشائج الولاء والتحالف، فنشأ بعدهم جيل ملقح بالدم العربى، لسانه لسانهم ولهجته لهجتهم، إما لتفرعه منهم، وإما لتأثره بهم نزولا على القاعدة الاجتماعية، أن يقلد المغلوب غالبه ويتعلم لسانه، تقربا إليه وزلفى؛ هذا إلى أن دين الفاتحين الجديد قد خلص إلى أعماق قلوبهم واستحوذ على مكمن العقيدة منهم، فسلكهم فى عداده، ومنحهم من الحقوق ما أقر عيونهم وأثلج صدورهم.

والذى يعنينا من بحثنا هذا أن نعرف القبائل التى كان لها أثر فى الشعب المصرى والتى نشأت عن امتزاجها تلك اللهجات التى لا يزال الكثير منها باقياً، على طول العهد به وتناوح الوافدين عليه، يجرى على ألسنتهم مع اختلاف يسير أو كثير بين بعض الأقاليم وبعضها الآخر؛ وإنا لنعلم أن هناك فروقاً بين لهجات القبائل تظهر إما فى الحروف، وإما فى الألفاظ، وإما فى طريقة الأداء. فإذا استطعنا أن نستخلص بعض المظاهر ونطبق مواد الاختلاف الشائعة فى اللغات العامية على ما يماثلها من لغات العرب الصحيحة ولهجاتها، أمكننا أن ننتهى إلى من ينتسب أكثر هذا الوجه أو ذاك، ومن ترتبط هذه الذرية أو تلك، سواء أكان ذلك ارتباط نسب أم ولاء أم محالفة. وقد يبدو هذا لأول وهلة أمراً يسيراً، إلا أن الواقع بخلاف ما يبدو، فالباحث فيه محتاج إلى أن يعرف ما يدور على ألسنة العامة، ثم يقارب بينه وبين ما يعرفه من لهجات، فإذا ما أسفرت أمامه البراهين وتعددت له الأمثلة كان عليه بعدئذ أن يلقى نظرة فى التاريخ لعله يظفر منه بسند قوى يعاضد حجته ويشد أزرها، فلا يكون فى حكمه مجافيا الصواب، أو متبعاً طريقاً يوغل به فى الخطأ ويبعده عن مظان الحق. ومن المتعذر على من يريد الدخول فى هذا البحث أن يطبق ما اختلفت فيه القبائل من جهة الإعراب رفعاً ونصباً وجراً، وما اختلفت فيه إعراباً وبناءً؛ فالعامية المنحدرة من اختلاط العرب بغيرهم مع طول الزمن محت هذه الفروق وقضت عليها؛ فليس فى مقدورنا أن نلمح ولو شعاعا ضئيلا منها يؤدى بنا إلى ما نريد. فما كان فى الاستطاعة مثلا أن نطبق الاختلاف بين الحجازيين والتميميين فى نحو «ما هذا بشراً» بإعمال «ما» عمل «ليس» عند الحجازيين، أو ما هذا بشرٌ بالرفع بإهمالها عند التميميين، مع أن هذا الاختلاف بينهما فى هذا الإعمال والإهمال من الشهرة بحيث تظرف فيه أحد الشعراء — النحويين على ما يبدو — فقال:

ومهفهف الأعطاف قلت له: انتسب
فأجاب: ما قتلُ المحب حرام

البرهان على أن الحبيب وهو مهفهف الأعطاف تميمى لا حجازى، لأنه لم ينصب لفظة «حرام» بل أهمل إعمال «ما». وما كان فى الاستطاعة أيضاً أن نطبق الاختلاف بينهما فى نحو «كم عبداً ملكت» بنصب تمييز (كم) الخبرية وإفراده وجوباً كما يفعل التميميون، أو كم عبيدٍ أو عبدٍ بوجوب الجر مع جواز الإفراد والجمع كما يفعل الحجازيون. وليس فى مقدورنا كذلك أن نلاحظ الفرق بين المصريين

فى مثل قولنا : « كنت فى مكان كذا أمسِ » ببناء أمس على الكسر فى لغة الحجازيين الذين جرى بيت الشاعر على لغتهم وهو :

اليومُ أجهل ما يجيء به ... ومضى بفصل قضائه أمسِ

أو « كنت فى مكان كذا أمسَ » بإعراب أمسَ إعراب ما لا ينصرف على لغة التميميين الذين حُمل قول الشاعر على طريقتهم وهو :

لقد رأيت عجباً مذ أمسَا ... عجائزاً مثل السعالى خمسا

فهذا الذى تقدم وأمثاله مما لا سبيل إلى الظفر به الآن ووضوح الفرق فيه ؛ فليس ثمة والحالة هذه إلا أن نتجه وجهة أخرى قد يكون الأمل من ورائها مرجواً والسبيل فيها واضحاً ؛ ذلك أن ننظر إلى ما اختلفت فيه العامة من الحروف أو الألفاظ أو طريقة الأداء ، فنجعلها عماد بحثنا ومحور دوراننا .

إن أظهر اختلاف فى الحروف بين المصريين يتجلى فى حرفين اثنين : أولهما الجيم وثانيهما القاف ؛ فعامة أهل الصعيد ، وكثير من مديريتى الشرقية والبحيرة وبعض المديريات الأخرى ينطقون الجيم صريحة من غير تغيير فيها ولا تبديل ، وإلى جانب هذا يتلفظون بالقاف مشابهين الحرف الانجليزى « g » ، ولكن ليس على إطلاقه فى النطق ؛ وإنما وجه الشبه من ناحية نطقه فى مثل الكلمة الانجليزية « go » . أما القاهريون وباقى المديريات فإنهم ينطقون الجيم كما ينطق أهل الصعيد القاف ، ويجعلون القاف فى جميع أوضاعها همزة . وجلى أن الجيم الصريحة لا إبهام فيها ، ولا تحتاج إلى تحقيق لأنها عربية خالصة ؛ لكن الجيم القاهرية ما شأنها ، أعربية هى أم غير عربية ؟ وإذا كانت عربية فأى القبائل تنطق بها ؟

لا مرية فى أن الجيم القاهرية عربية قطعاً ؛ فقد ذكر أحمد بن فارس فى كتابه « الصاحبى » أن الحرف الذى بين القاف والكاف والجيم لغة سائرة فى اليمن ، فيقولون فى جمل « كمل »(١) كما ذكر الاسترابادى فى شرحه على شافية ابن الحاجب أنها سائرة فى البحرين ؛ ولما كانت الجيم القاهرية متفقة كما نعلم مع القاف الصعيدية فى النطق ، وليس لها فى الحروف العربية رسم ، كتبها السابقون تارة كافاً وتارة جيماً ، ومنهم من كتبها قافاً ، والعلماء وصفوها بأنها تظهر فى التلفظ دون الكتابة ؛ وهذا هو السبب على ما أعتقد الذى جعل صاحب الأغانى يذكر أبا كلدة اليشكرى بالكاف ، ويورده صاحب اللسان فى مادة « كلد » ؛ بينما صاحب الشعر والشعراء والطبرى يذكرانه باسم أبى جلدة اليشكرى بالجيم ؛ وهذا هو السبب أيضاً الذى جعل أقرب الموارد يذكر أن السنبوسج(٢) ورد بالكاف والقاف والجيم ؛ فظاهر بعد الذى قدمنا أن أبا جلدة أصل نطقها بالجيم القاهرية المتفقة مع القاف الصعيدية ؛ وفقدان حرف الهجاء الذى يصوره هو الذى جعل اللسان والأغانى يكتبانه كافاً ، وهو أقرب الحروف تعبيراً عنه ، وجعل الشعر والشعراء والطبرى يكتبانه جيماً لمعرفتهما أن أهل اليمن يقلبون الجيم كما يفعل القاهريون الآن . وظاهر أيضاً أن السنبوسج أصل نطقها بالجيم القاهرية أو القاف الصعيدية المتحدتين فى التلفظ كما قدمنا ، فكتبها بعضهم كافاً لقربه فى التعبير ، وكتبها بعضهم جيماً لمعرفته بلهجة أهل اليمن ، وكتبها بعضهم قافاً لمعرفته بلهجة كثير من القبائل العربية التى تقلب القاف كما يفعل عامة أهل الصعيد . ولا أدرى كيف لم ينتبه إلى هذا كثير من باحثينا خصوصاً اللغويين منهم ، وكيف غفلوا عن تحقيق هذه الأوضاع ؛ والآن نتساءل عن القاف الصعيدية : أعربية هى ؟ والجواب على هذا قد سبق ضمناً ، وهى أنها عربية صرفة . فهى لغة سائرة فى العرب ما عدا الحجازيين بوجه عام ، وهى فى سكان نجد

(١) أذكر أنى قرأت منذ بضع سنين بحثاً فى الأهرام يقول إنها تكتب كافاً فوقها علامة هكذا « ک » .

(٢) السنبوسج ما يحشى بقطع اللحم والجوز من الرقاق المبلول بالسمن أو الشيرج .

المصريين من قبائل تميم وقيس عيلان وأسد بن مدركة أكثر استعمالاً ووضوحاً . بقيت القاف التي يجعلها القاهريون وبعض المديريات همزة ، وتلك ليست من العربية في شيء ، لجميع المصادر التي بين أيدينا ، بل إن كل الكتب التي بحثت في لهجات القبائل العربية لم تشر إلى هذا ولم تنسبه إلى واحدة منها . ولقد بحثت عن ألفاظ كثيرة في المعاجم لعلي أجد كلة فضلا عن كمات وردت بالقاف بمعنى ، ثم وردت بالهمزة موضع القاف بنفس ذلك المعنى ، فلم أظفر بما أردت ؛ وإذاً فما أصل هذه اللهجة ؟ لنبحث في اللغات التي يمكن أن تكون اتصلت بالشعب المصري قديماً ، فإذا وجدنا أن القاف الصريحة ضمن حروفها قطعنا بأن هذه اللغة ليست هي ذات الأثر في اللهجة المصرية ، وإذاً فهي ليست من السريانية ولا العبرية ، كما أنها ليست من الفارسية ولا التركية ولا الحبشية ، لجميع هذه اللغات توجد فيها القاف الصريحة ؛ وليس هذا الأثر ناشئاً عن اليونانية ولا الرومانية ولا القبطية ، فالأولى لم تتصل بالمصريين إلا في القديم السحيق . والثانية وإن كانت قد اتصلت بعد الأولى بمصر اتصال استعمار قبل الفتح العربي ، تنطق القاف كافاً كالإنجليزية . أما الثالثة وهي القبطية فلو كانت هي صاحبة الأثر في القاف لكانت تلك اللهجة التي تقلبها همزة عامة في أنحاء القطر المصري ، بحكم أنها لغة المصريين قبل الفتح العربي ، زد على هذا أن القاف الصريحة موجودة فيها ؛ وغني عن البيان أنها ليست من أثر اللغة المصرية القديمة التي توجد فيها القاف الصريحة أيضاً . وفي استطاعتنا بعد هذا الاستقصاء أن نحكم أنها من عمل العامية المتحضرة في مصر ، ترقيقاً للفظ وتظرفاً به ، وأنها لم تحدث إلا من منذ حوالي خمسة قرون على الأكثر . وهناك من العامة من لا ينطقون الجيم خالصة ، بل يجعلونها حرفاً بين الجيم والشين والياء ، فيكون مشاربها إلى حد كبير الحرف (١) . وهذا النطق موجود في اللهجات العربية ، إلا أن المراجع التي بحثتها لم تنسبه إلى من يتكلمون به ، بل اكتفت بوصفه دون ذكر مورده . والقاف الصريحة التي ينطق بها نفر قليل من سكان القطر المصري في مديريتي بني سويف والفيوم وبعض البلاد الأخرى إن هي إلا لهجة قريش من العرب خاصة . هذا من حيث الفروق بين المصريين في الحروف وصلتها بالعرب . وفي مقال آخر إن شاء الله سيكون بحثنا في الفروق بين لهجات العرب في الألفاظ وطريقة الأداء وصلة ذلك بالمصريين ، ثم نتبعه بنظرة في التاريخ حتى نعرف من سكن مصر من القبائل ، ليتسنى لنا الحكم على مقدار الصلة ومدى الارتباط ، ولنعرف القبائل التي سكنت مصر ، أتتأثر ما سنستخلصه أم تكون معنا في تأييد رأينا . على أن الوراثة اللغوية هي أقوى برهان وأثبت حجة على وجود الصلة ، من السياقات التاريخية التي لا يؤيدها مظهر قوي من مظاهر الوراثة التقليدية أو اللغوية .

عبد الستار أحمد فراج

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ٦ مليم

رسالة الطب

عود على بدء

للدكتور محمد عبد الحميد بك

شرحت في كلمتي الفائتة الشطر الأول من شطري رسالة الطب ، وهي الوقاية أو حفظ الصحة حاصلة . أما الشطر الثاني فهو العلاج أو مداواة المرضى لاسترداد الصحة زائلة . وأساس العلاج هو التشخيص . وهو عند الأطباء تعيين المرض وتمييزه مما سواه ، ومعرفة موضعه في الجسم ، وهو ما يتم على نحو ما يأتي :

يحضر المريض إلى الطبيب ، أو يذهب الطبيب إلى المريض ، فيبث إليه شكواه . والأغلب أن يكونا غريبين من طبقتين مختلفتين اختلافاً اجتماعياً ؛ وبالرغم من ذلك فهما يتسايران تساياراً يكون فيه الطبيب هادياً والمريض مهتدياً ، ولشدّ ما يشعر كلاهما بالغربة عند أول محادثة . فيتغلب المريض على هذه الغربة بثقته في الطبيب ، تلك الثقة التي دفعته إليه مستشفياً من دائه ؛ فتراه يكشف له عن بدنه لفحصه ، ويطلعه على ذات نفسه ، فهو يتعرى من ثيابه ، ويبوح بأسراره مما كان يخفيه على أقرب الناس إليه . وهذا مما يحمل الطبيب عند حسن ظنه به ، مما يكون بالاصغاء إليه والعناية بأمره والاهتمام بمرضه ، وبمخاطبة الطبيب مرضاه على قدر عقولهم . فاذا أخذ المريض في بيان شكواه أطال ، لأنه يجد في الاطالة شيئاً من التفريج من همه ونوعاً من التنفيس عن كربه . ففي إلقاء المخاوف على الطبيب يشعر المريض أنه قد وقع على الخبير الذي يشاطره آلامه ويعرف كيف يخففها عنه . فهو يشعر بالراحة التي يشعر بها المعترف بذنوبه للكاهن إرادة التوبة . وما على المريض بعد ذلك إلا أن ينقاد لأوامر الطبيب ونواهيه انقياداً تاماً ، ولا يكون مثله كمثل المريض المتخلع في الشراب ، الذي زاره طبيبه في مرضه فوصف له حبوباً يأخذ منها حبة ثلاث مرات في اليوم ، وأمره أن يتناول قليلا من الوسكي قبيل النوم . وحينما زاره دفعة ثانية ووجده لم يتحسن سأله : أهو يتناول الدواء كما وصف ؟ فأجابه المريض بأنه قد أفرط في الوسكي متجاوزاً الحد ، وفرّط في الحبوب مقصراً في عددها !

والمحادثة الأولية بين المريض وطبيبه غاية في الأهمية ، فنها يعرف الطبيب سوابق المريض المَرَضية كما يعرف المحقق سوابق المتهم . ومنها يعرف الطبيب كيف ابتدأ المرض وكيف سار ، وهل المرض علاقة بأي أمر من أمور المريض . ومنها يعرف عمر المريض وصناعته وطريقة حياته ونظامه في معيشته ، وهل كان بصحة جيدة إلى أن ألم به المرض ؟ بل يعرف منها تاريخ الأسرة ، وهل الأبوان على قيد الحياة ، وإلا فما كان عمرهما عند الوفاة ، وما سبب الوفاة ؟ وهل له إخوة أو أخوات ، وكيف صحتهم ؟ والميت منهم ما سبب وفاته ؟ وكل ذلك ضروري لمعرفة الأثر الوراثي . ومنها يعرف أيضاً هل المريض متزوج ، وما سنه عند الزواج ، وهل له أولاد ، وما هي صحة شريكته في الحياة ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

وقلما يستطيع المريض أن يبدي كل ذلك كما يريد الطبيب ، لأنه لا يعلم تماماً إلى أي شيء يقصد الطبيب ، فجدير بالمريض أن يتحرى في الرد على ما يوجه إليه من الأسئلة نحو موسى عليه السلام في الرد ، وقد سأله الله

سبحانه وتعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » فقد قال عليه السلام : « هى عصاى أتوكأ عليها وأهُش بها على غنمى ، ولىَ فيها مآربُ أخرى » ، وأقصد بذلك إلى أن أجوبة المريض على أسئلة الطبيب يجب أن تكون شافية كافية ، لكى يحصل الطبيب على غرضه من الأسئلة . ولا بأس من التطويل فى الجواب كما حدث فى جواب سيدنا موسى عليه السلام ، فإنه قد قال : « هى عصاى » ، وبذلك قد تم الجواب . ولكنه على رأى بعض المفسرين ذكر الوجوه الأخرى ، لأنه كان يحب المكالمة مع ربه ، لجعل ذلك كالوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض ، فزاد : « أتوكأ عليها ، وأهُش بها على غنمى ، ولىَ فيها مآربُ أخرى » .

فأحرى بالمريض أن يجيب عن أسئلة الطبيب بالتفصيل ، ولا يحسبن أن فى إطالته مضيعة لوقت الطبيب .

فإن كان المريض صغيراً لا يستطيع أن يعبر عما به ، فلتوجه الأسئلة إلى والديه ، وإن كان المريض فاقد الإدراك ، فلتؤخذ المعلومات الضرورية من أقاربه وذويه .

وقد يخدع المريض طبيبه ، إما عفواً بسبب جهله ، وإما عمداً إرادة اكتساب عطف الطبيب ، وحباً فى زيادة الاهتمام بأمره .

ولا يتوهمن الإنسان أن وقت هذه المحادثة الأولية ضائع سدى ، فإنها كثيراً ما تسهل على الطبيب ما يتخذه من الخطوات بعد ذلك ، بل كثيراً ما يهتدى الطبيب إلى التشخيص . لأن من الأمراض ما يسير سيراً مميزاً ، كحمى الغب ، وهى التى تأخذ يوماً وتدع يوماً .

ومن طريف ما يقال تشنيعاً على الأطباء ، والمشنعون عليهم من الأحياء كثيرون ، ومن الأموات أكثر وأكثر ! ! أقول ومن طريف ما يقال عنهم أنهم كثيراً ما يسألون مرضاهم : هل يملكون سيارات ؟ وذلك ليعرفوا أهم أغنياء من ذوى اليسر والرخاء ، أم هم أصحاء لا يحتاجون إلى دواء ! ولكن فات أولئك الظرفاء من المشنعين ، أو المشنعين من الظرفاء ، أن من الحكمة لتشخيص المرض ، ثم لعلاج المريض ، أن يعرف الطبيب حالته . بل فاتهم أن من الضرورى أن يعرف الطبيب مركز مريضه بالدقة لتقدير أجره تقديراً يتناسب ورقة حالته .

ولزيادة الإيضاح أقول إن القوم فى الولايات المتحدة قد وجدوا أن نسبة الأمراض ونسبة الوفيات بين طبقات العمال أكبر منها بين الأغنياء وذوى اليسار ، حتى لقد تصل إلى الضعف ! وكذلك وجدوا أن نسبة الوفيات فى الأطفال تقل كلما ازدادت أجور الآباء . فوفيات الأطفال من الفقراء ثلاثة أضعاف الوفيات بين أطفال الأغنياء . والسبب لا شك ظاهر لا يحتاج إلى دليل . فالازدحام فى المساكن وسوء التغذية والتعب وجهل الآباء والأمهات للقواعد الصحية ، واضطرار الأمهات إلى العمل لمساعدة أزواجهن ، وعدم استكمال الشروط الصحية ، وعدم توفر وسائل العلاج والتمريض فى أثناء العلاج ، كل أولئك من دواعى الأمراض وزيادة الوفيات .

وهم كذلك يعدون التعب مرضاً ، فما التعب الجثمانى إلا تأثر بالسموم الناشئة عن المجهود العضلى . فالمضنى تعباً كثيراً ما يخطئ فى عمله ، وكثيراً ما يصاب بالأمراض والحوادث فى أثناء العمل . ألا يكون الفقير مكدوداً دائب العمل للسعى على رزقه منهوك القوى للجرى على هذا الرزق لا يذوق للدعة طعماً ، ولا يتفيأ للراحة ظلا ؟ وهو مهما أنصب نفسه فى العمل غير مطمئن جنبه إلى مضجع ، لا يحصل إلا على القوت الضرورى ، ولا يعيش إلا على الكفاف ، ولا يسكن إلا فى مسكن قلما تتوافر فيه الشروط الصحية ، ولا يلبس إلا لباساً لا يقيه البرد ؛ ولئن انقطع عن العمل كما يحدث للعاطلين أو المرضى لقد حرم الكفاف

وزادت حاله شدة ، وقد يدعوه فقره لارتكاب الجرائم والجنايات مضطراً ، مؤكداً للمجتمع البشرى صدق قوله صلى الله عليه وسلم «كاد الفقر أن يكون كفراً» مبيناً للناس حكمة الزكاة بجميع أنواعها للترفيه عن الفقراء والمساكين اتقاءً لهذا الخطر .

وقد حثت الأديان كلها على مساعدة الفقراء والمساكين لاتقاء ما عسى أن يحدث من جراء الفقر . من ذلك ما جاء فى الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «الساعى على المسكين كالمجاهد فى سبيل الله» وقوله أيضاً : «من شكا قسوة قلبه فليطعم المسكين» .

فالفقر مرض اجتماعى شديد الخطر ، وهو من ظلم الناس بعضهم بعضاً ، وهو فى أغلب أحواله مأوى الأمراض ومنشأ الجرائم والجنايات وسبب الدعارة .

فالفقر كالمرض لا بد من علاجه . ولتحسين الصحة العامة فى بلد من البلاد لا بد من العناية بالأوليات الضرورية لكل طفل وامرأة ورجل ، لأن أساس تحسين الصحة العناية بالمسكن والمأكل والمشرب والملبس وتنظيم أوقات العمل والراحة ، وتوفير وسائل العلاج للمرضى بأوسع معانى العلاج وأنفعه . فمن العبث رعاية الأطفال وتركهم يشربون الألبان الملوثة ، ومن العبث العناية بأمراض الفلاحين وتركهم يشربون المياه غير الصالحة للشرب ، ويعيشون فى أكواخ غير صحية يزاحمهم فيها البهائم والدواجن .

ومن طريف ما يحكى أن طبيباً زار مريضاً من زبائنه كان يشكو من أرق ، فوصف له دواءً ونصح له بألا يتناول شيئاً من الطعام فى العشاء . فقال له المريض : غريب يا دكتور ! لقد نصحتنى فى العام الفائت حينما اعترتنى نوبة أرق كهذه أن أتناول غذاءً خفيفاً فى العشاء ! فرفع الطبيب رأسه كبراً ، وشمخ بأنفه وقال فى شىء من الخيلاء : «إن الطب يخطو سريعاً ، وما أسرع تقدمه فى عام !» .

والواقع أن الطب يتقدم بخطوات سريعة . فقد كثرت وسائل التشخيص وتعددت ، وكذلك تعددت أساليب العلاج وتنوعت ، ولذلك كان من ألزم ما يلزم الطبيب لتأدية رسالته ، أن يدأب على الدرس ، ويحرص على الاطلاع على كل ما يجد ، بقراءة الحديث من الكتب والمجلات الطبية .

محمد عبد المجيد
وكيل مستشفيات الجامعة

التليفـــــون

للأستاذ محمد أحمد أمين

التليفون — كما هو معروف — آلة تستعمل لنقل الأصوات إلى نقطة معينة بواسطة تيارات متغيرة . ولكى تكون تلك الآلة ذات فائدة ، فإنها تتصل بأخرى مشابهة لها بواسطة أسلاك هوائية أو أرضية ، حيث تسرى فيها التيارات على شكل أمواج مختلفة السعة والتردد .

ولنفرض الآن أن مشتركاً طلب أن يكون بمنزله أو بمحل تجارته تليفون . وكان هذا المشترك بمنطقة على بعد قليل من القاهرة ، ولتكن امبابة مثلا . فإن إجراءات تركيب آلة التليفون هناك تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(أولا) قسم الخطوط الهوائية ، حيث تمد أسلاك هوائية من أقرب « بكس »[1] المشترك إلى منزله أو محل تجارته

(ثانياً) قسم الخطوط الأرضية وهو يشمل « كابل »[2] تحت سطح الأرض من البكس المذكور إلى مصلحة التليفونات .

(ثالثا) قسم العدد الذى يقوم بتركيب آلة التليفون فى المكان المطلوب .

ولنتكلم الآن على أهم هذه الأقسام الثلاثة ، ألا وهو القسم الأول .

(١) صندوق صغير يتلقى مجموعة الأسلاك القادمة من السنترال (فى مصلحة التليفونات) على صورة ما نسميه كابل وهو المفروغ منه ، وعند هذا البكس تتصل الأسلاك الهوائية بالأسلاك الأرضية فهو إذاً الحد الفاصل بينهما .

(٢) الكابل مجموعة من الأسلاك الأرضية المزدوجة تشتمل فى العادة على نحو ٢٨ أو ٥٦ زوجا (وقد يصل عددها إلى ٢٠٦) يسير تحت الأرض فيصل المصلحة بالبوكسات ، وذلك الترتيب يمنع خروج أسلاك هوائية لا عداد لها من السنترال أو المصلحة .

قسم الخطوط الهوائية

الأعمدة Poles : تصل الأعمدة إلى القطر المصرى من البلاد التى تكثر فيها زراعة الأشجار ، مثل السويد والنرويج وفنلندا وروسيا . وتستعمل لحمل الأسلاك على اختلاف أنواعها ، ويختار نوع الخشب الصالح للأعمدة بكل دقة ، إذ يجب أن يكون ذا رنين خاص ، قائما وليس معوجاً ، كما أنه يجب أن يكون خاليا من البزور .

تقطع الأشجار بين أول يوم من شهر نوفبر وآخر شهر فبراير ، حيث تكون العصارة متوفرة فى الجذور .

يحقن[1] العمود قبل إقامته على الطبيعة بمادة سوداء تسمى كريوزوت ، وذلك لسببين فى غاية الأهمية :

(أولا) يوجد نوع من الحشرات الميكروسكوبية يلذ له أن يعيش داخل الخشب (وهو نوع من الأنواع المعروفة بالسوس) ، وبمضى الوقت تأكل هذه الحشرات الألياف الداخلية ، وبذلك يحول الخشب إلى مادة دقيقية ، فيصبح العمود غير قابل لحمل ثقله وثقل الأسلاك .

ويمكن معرفة صلاحيته من عدمها بضربة (بشاكوش) فإذا أعطى رنيناً كان بحالة طيبة .

(ثانياً) تتأثر ألياف الخشب باختلاف درجات الحرارة تأثراً كبيراً . فإذا حقن العمود بالمادة السالفة الذكر حفظته فى درجة واحدة ، ومنعت أليافه من الانفجار والتلف ، إذ أنها تمتزج بالعصارة وتكون مادة مركبة غير قابلة للتحلل أو التأثر بالهواء أو الماء ، علاوة على أنها

(١) لهذا الحقن أجهزة خاصة تضمن تسرب الكريوزوت إلى جميع الألياف وتشبعها به .

غذاء سام جداً للحشرات .

وقد عملت فى القرن الماضى عدة تجارب على أعمدة من أنواع مختلفة من الخشب ، فوجد أنه إذا حقن العمود بمادة الكريوزوت عاش أكثر من ثلاثين عاماً ، فى حين أنه إذا ترك على حالته الطبيعية لا يمكث أكثر من خمس سنوات بأية حال .

الأذرع Arms : يوجد أحسن أنواع خشب الأذرع فى انجلترا وروسيا واستراليا . وبعد قطعها حسب الأطوال المطلوبة توضع فى محلول من الزفت وسلفات النحاس وكلوريد الزنك فى درجة حرارة لا تزيد عن ٢٠٠ فهرنهايت

أما طول الذراع فيختلف بحسب اختلاف طول العمود وثقل السلك المستعمل . مثلا : تستعمل ذراع ٤٨ × ٣ ½ × ٢ ½ بوصة للأسلاك التى تزن ٤٠٠ رطل فى الميل أو أقل ، وللأعمدة التى لا يزيد طولها عن ثلاثين قدماً .

والشكل نمرة ١ يبين ذراعاً ذات أربعة أخرام — أى أنها تحمل دائرتين — وطولها ٤٨ بوصة .



ذراع طوله ٤٨ بوصة

(شكل ١)

وتثبت إلى العمود بواسطة مسمار يعرف « بالجاويط » وهو من حديد به صامولة ووردتان يختلف طوله بحسب سمك الذراع .

العوازل Insulators (وتسمى أيضاً بالمعازل) : تثبت العوازل على الأذرع بواسطة مسامير Spindles ، وهى مصنوعة غالباً من صينى وأحياناً من زجاج .

يمد السلك على الأذرع ويربط فى تلك العوازل بواسطة أشرطة وأربطة ، وسيأتى الكلام عليها فيما بعد .

أما طول المعازل فيختلف باختلاف نوع وثقل السلك المستعمل .

الأسلاك Wire : أهم أنواع الأسلاك المستعملة للخطوط الهوائية مصنوعة من النحاس أو البرنز أو خليط من النحاس والكادميوم . وتستعمل أسلاك من حديد فى بعض الأحيان إذا كانت المسافات قصيرة .

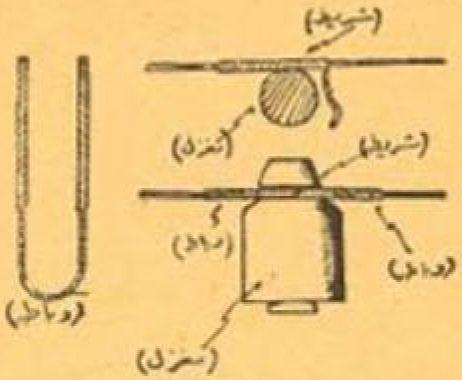
وفيما يلى جدول به يمكن مقارنة الأنواع المختلفة من حيث العاملين المهمين وهما المتانة (التى يدل عليها الشد اللازم لقطع السلك) وسهولة توصيل الكهرباء (التى تدل عليها قيمة المقاومة) ، ويلاحظ مثلاً فى الجدول أن مقاومة قطعة من سلك الحديد تعادل نحو سبعة أمثال مقاومة نظيرتها من سلك النحاس .

المادة	الوزن بالرطل فى الميل	نمرة السلك فى السوق	المقاومة بالأوم	الشد اللازم لقطع السلك بالأرطال
النحاس	٦٠٠	٦	١٫٤٦	١٨٠٠
	٤٠٠	٨	٢٫٢٠	١٢٥٠
	٣٠٠	٩ ½	٢٫٩٣	٩٥٠
	٢٠٠	١١ ½	٤٫٣٩	٦٥٠
	١٥٠	١٣	٥٫٨٦	٤٥٠
	١٠٠	١٤	٨٫٧٩	٣٣٠
البرنز	٧٠	١٦	٣٦	٣٤٥
	٤٠	١٨	٤٥٫٥	٢٠٠
كادميوم — نحاس	٧٠	١٦	١٥	٣٤٥
	٤٠	١٨	٣٦	٢٠٠
الحديد	٤٠٠	٧ ½	١٣٫٣٢	١٢٠٠
	٢٠٠	١٠ ½	٢٦٫٦٤	٦٠٠

يثبت السلك على العازل بواسطة شريط ورباط كما هو مبين فى شكل (٢) . أما الشريط فيلف حول السلك باليد . وفائدته أنه يمنع احتكاك السلك بالعازل تحت تأثير الرياح .

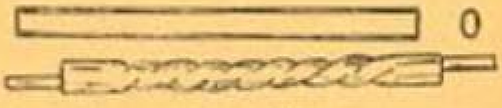
أما إذا أهمل وضعه فإن السلك يحتك كل بمضى الزمن ، فينكسر أو يحدث خدشاً فى العازل .

وأما الرباط فإنه — كما يفهم من نفس الاسم — يربط السلك فى العازل فيمنع وقوعه على الأرض إذا انقطع لسبب ما .



(شكل ٢)

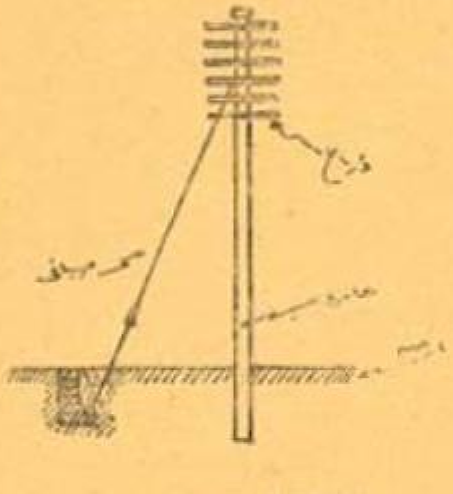
المواسير Sleeves : تستعمل المواسير لوصل جزأين من سلك مقطوع ، فيلف الطرفان ثم يوضعان بداخل الماسورة التى تلف بواسطة كماشتين إحداهما تقبض على الماسورة والأخرى تلفها عدداً من اللفات تختلف باختلاف سمك السلك المستعمل .



(شكل ٣)

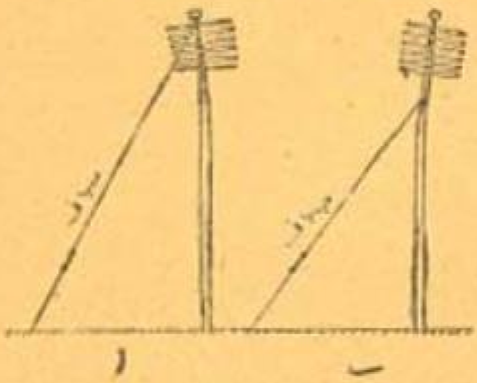
اتبع المهندسون تلك الطريقة حديثاً بعد أن كانوا يستعملون اللحام لوصل الجزئين المقطوعين ، وقد كانوا يتكبدون فيه العناء . ويبين شكل (٣) مقطعاً الماسورة ، كما يبين جزءى السلك الواصلين بتلك الطريقة .

الصبانيات Stays : تستعمل الصبانيات لمنع الأعمدة من السقوط ، سواء أكان الطريق به منحنيات أم كان مستقيماً . وتربط فى العمود فى منتصف المسافة المشغولة بالأذرع ، وتثبت فى الأرض على بعد مترين تقريباً من قاعدة العمود .



(شكل ٤)

والشكل (٤) يبين عموداً مستقيماً مثبتاً بواسطة صباق ، بينما شكل (٥) يبين الأضرار الناتجة من ربط الصباق أعلى أو أسفل النقطة المنصفة لسافة الأذرع ؟



(شكل ٥)

محمد أحمد أمين

عند ما وصلتنى صورة والدتى من نورفولك

لوليم كوبر (١٧٣١ — ١٨٠٠)

فقد كوبر والدته سنة ١٧٣٦ وفى سنة ١٧٩٠ أهدت إليه بنت عمه « آن بودهام » صورة تلك الوالدة العزيزة فكتب إليها :

« لم يكن باستطاعة القضاء أن يتحنى على يديك أعز مما تكرمت بإهدائه إلىّ . وصلتنى الصورة مساء أول أمس فتلقيتها بحس ملتهب وقلب خفاق ، كما كنت أتمنى لو أن العزيزة المفقودة أتت بنفسها إلى أحضانى — قبلتها ثم وضعتها حيث أغمض عينى كل مساء ، وأفتحهما كل صباح ، فتكون آخر وأول ما أرى — ماتت وأنا فى السادسة من عمرى ، ولكنى أذكرها أوضح الذكرى ، وقد وجدت فى الصورة أقوى شبه لها . . . . »

وكان كوبر مرهف الأعصاب رقيق المزاج ، فنال منه فقد والدته وشق بالدراسة وتعثر فى حب خائب ، فهم بالانتحار ، ثم انتهى إلى ملجأ شق به بعد ثمانية عشر شهراً ، وهو عندئذ فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وخرج من الملجأ إلى الريف حيث أنفق حياته مع عائلة القسيس « أونون » . وتوفى القسيس فاصطحب كوبر زوجته إلى أولنى على ضفاف الأوز ، وهناك تحت تأثير قسيس أولنى « جون نيوتن » قوى إيمان كوبر ، فالتمس فيه ما يقيم به اتزان نفسه المحطمة . وكوبر مثل كولنس وسمارت وبليك وغيرهم من تلك المجموعة الغريبة من شعراء القرن الثامن عشر الذين التمسوا من فيض الخيال الذى نسميه جنوناً مخلصاً من طغيان العقل ؛ وهو القائل فى أحد خطاباته (١٧٨٨) :

« إن ما نسميهم مجانين هم فى الواقع أعقل الناس » .

واضطربت حياة كوبر بين مرض وصحة ، وقلمه بيده رقيب على نفسه يحد من إسراف شاعر هائج الحس . ومن عجب أن يصدر شعر فى صفاء شعر كوبر من مزاج كمزاجه وحياة ملؤها الآلام والأمراض كحياته ؛ وفى شعره من اليسر ما نعجب منه ، إلى اجتماع تلك الرقة خلف ما غشى حياته من جنون . ونحن قد نتساءل عما إذا كان الجنون فى عرفنا معنى غير الخروج عما تواضع عليه عامة الناس ؟ ومن قديم عاشت قلوب وعقول فى أغشية تنسجها من حياتها لتأوى إليها ، آملة أن تفلت من كل عذر مُسف ، وهى بعدُ على عزلتها أثبت فى الحياة قدماً ممن يطفون فوق الحياة . وفى « موسى فنى » و « الأستور شيلى » أجل تصوير لتلك العزلة التى يساق إليها السابقون لعصورهم .

وضع كوبر صورة والدته أمام عينيه ثم كتب تلك القصيدة التى ننقلها اليوم إلى لغتنا ، آملين من القارئ لا أن يحاول فهمها وما فى القصيدة من معنى عميق فحسب ، ولكن أن يحس بما فيها وما يجرى تحت ألفاظها السهلة المألوفة من عاطفة لا حد لنبلها ولا أبلغ من حرارتها ؛ وسيرى عندئذ كيف تنفذ إلى القلب لا لأنها صدرت عن نفس قوية فقط ، بل لأنها توحى إلينا من مواقف حياة كل منا ما يجعلنا نجد من أنفسنا مثل ما وجد ، ونحن لا نعرف قيمةً للأدب إلا بما فيه من قوة إيحاء . .

وإنما يكون ذلك الإيحاء بتفاصيل الحياة ، وتفاصيلها رموز تحمل ألواناً من النفس لا يمكن أن يعبرها أحد لغيره ، وإنما يستطيع الغير أن يهيئنا على أن نجدها فى أنفسنا ، ولن يصل ذلك الغير إلى ما يريد أو يصدق حسه وقوله . ولقد كان لكوبر فضل الصدور عن نفسه فى كل ما كتب ، وإنك لتقرؤه فتؤمن بما تقرأ ، وتحس ما يحس ، ونحن بعدُ لا نبغى من الأديب أن يطلعنا على مهارة تفكيره أو قدرة خياله ، ولقد سود أدباء آلاف الصفحات فى هذا العبث الباطل ؛ وإنما نبغى منهم أن يعبروا عن حق يؤمنون

به كما يؤمنون بجراح تألم لها نفوسهم ، أو أن يطلعونا على جمال تتلقاه حواسهم غفلا وتحس وقعه نفوسهم ، وهذا ما فعل كوبر .

ثم ليس كوبر نسيج وحده ، وفي ليسيداس ملتون و أدونيس شيلي و « ذكرى » دون وفتاة تذرانت اشيفيه ورثاء كاتيلوس لأخيه ، وذكرى تنسون وموتيين اصديقيهما ، وإتشيل لبتروكل ، أمثلة جيدة للوفاء والمحبة ، ولكني والحق يقال أكاد أفضل قصيدة كوبر على كل ما ذكرت ؛ ولربما كان ذلك لعمق إحساس كوبر وبعده عن كل صنعة ، وأنا بعد ممن يؤمنون أن الإحساس القوى يعقد اللسان ؛ فما بالك بمن يجدون في نفوسهم ، وقد استحوذتها عاطفة قوية من الصبر ، ما يمكنهم من الجرى وراء ألفاظ لا تحمل من نفوسهم شيئاً .

وكوبر بعيد عن كل محاولة للفهم أو التحليل ، وهذا نوع من الأدب أومن بصدقه ، وذلك لأن كل فهم أو تحليل لا يمكن إلا أن يشير حقائق الحياة . ومن الخير عندى أن يكتفى كوبر بذكر ما كان عند وفاة والدته — وهو طفل في السادسة من عمره — من وعد الوصيفات له بعودتها وانتظاره تلك العودة يوماً بعد يوم . ولا شك أن القارئ يرى معى أنه لا يمكن أن نصل إلى تحليل أو فهم ألم طفل أكثر مما نحس به عندما يخبرنا كوبر بهذا الوعد الذى ما كان له أن يتحقق .

هذا الوعد رمز لحالة نفسية وهو بعد جزئية من حياة آلامه تحمل من المعانى ما تحمل الرموز ؛ والأدب الجيد لا يمكن أن يكون إلا رمزاً . وقصيدة كوبر كلها على هذا النحو ، لم يحاول وصف حالات نفسه ولا بعث ذكرياته بأسلوب مجرد عار ، بل اختار لكل حالة أمراً حسياً نعرفه جميعاً في حياتنا ؛ ومن منا لم تخف إليه أمه في ظلام الليل يحدوها عطفها على ولدها أن يصيبه برد أو أذى كما كانت تفعل أم كوبر .

أدب كوبر أدب حسى ، أدب رموز ، أدب وقائع مادية تحمل من فيض النفس ما لا يمكن لأى لفظ أن يؤديه ، وهذا هو الأدب إن كان للأدب معنى .

قال كوبر وصورة والدته أمامه :

« من لى بحديث هذه الشفاه ، وقد انصرمت الحياة قاسية منذ آخر عهدى به — والشفاه شفاهك ، وتلك ابتساماتك كما ألفتها يوم كانت ترفه من طفولتى — لم يسكن إلا الصوت ، وإلا فما أوضح ما تبين : « ولدى لا تحزن ودع عنك مخاوفك » ، وها هى عيناك ما تزال تشع فتغمر فى روحك الرقيقة . ألا تبارك آيات الفنون إن سخرت من طغيان الزمن فأبقت لى ما أحب .

« على بركة الله تزلت أيها الضيف العزيز وقد أتيت بعد انقطاع أمل ، فبعثت ذكرى أمينة ، وما أعز من ذكرتنى به — وها أنت ترغب إلى فى أن أحيى بمناجاة الشعر من طال فقدانى لها ، وأن أحلل القول ما فى النفس من فيض الحب ؛ وها أنا أخف إلى إجابة ما رغبت إلى فيه ، فأطاوع النفس إلى التماس النشوة التى تجد فى الاستماع إلى رغبة كأنها منك صدرت ؛ وها هو محياك الجميل يحرك من ولدك الأشجان ، فلا يجد مرفهاً فى غير أنسجة الخيال ، وإنها لأحلام الرعة تهيئ له برهة من الزمن أن الرسم شخصك .

« أماه ! حدثينى — أتلقيت ما ذرفت من دموع يوم نعاك الناعى ؟ أماه ! أرفرفت روحك فوق ولدك الحزين وقد عاجلته المحنة وهو بعد فى مستهل شوط الحياة ؟ أماه — ما أحسب إلا أنك وإن غادرت الحياة قد منحتنى قبلة أو دمعة — إن كان للأرواح أن تدمع وقد آوت إلى كنف الله ؛ وها هى ابتسامة الأمومة تجيبنى : أن نعم ! أماه — دق الناقوس ينعى الرحيل ، وفى بطء حملوك فى حقل الموت ، وسمعت الدق ورأيت الحفل ، وعدت من النافذة إلى غرفة الطفولة حيث أرسلت زفرة مالها من قرار ، وأسلت الدموع وداعاً لك الوداع الأخير . وقضى الأمر ، فسرت إلى حيث لا تسمع تحية ولا وداع ،

أنى لى بلقائك حيث اطمأنت منك الروح بضفاف السلام ، وحيث لن يكون بيننا وداع ! وحزنت الوصائف لوداك وقلن إنك مائدة عماقيل ، ونزلت منى رغبات النفس اللاهية منزلة الحقائق الثابتة ؛ وكلما تساقط منى أمل جدّ لى غيره من خوادع الآمال . وكرت الأيام وفى كل خيبة إغراء بأمل جديد ، حتى نقضت حياتى على نحو ما قدر لى منذ الطفولة ، جريا وراء سراب المستقبل ، وتتابعت الأيام حزانى حتى نقد كل ما يملك طفل من ألم ، فلم يبق لى إلا أن أستقيم ، ولكنى — أماه — ما نسيتك وإن خففت من أحزانى .

« لم يعد اسمنا يتردد حيث درجت طفولتى وبالدار ولد غير ولدك ، وإلى ذمة التاريخ سار ما كان لنا من منزل بالريف — ما أسرع ما فقدناه . ولكم سرت فيه بصحبتى البستانى « روبين » خلال ما يؤدى إلى المدرسة من طرق ، وقلبى يبتسم امرىء الصغيرة ألهو بها ، وقد تدثرت بمعطفى الأحمر ، وغطيت رأسى بقبعتى الحريرية . وأما ما خلف حنوك بولدك من جميل الذكرى ، فذلك ما لا زال مستقراً بنفسه ، وإن عصفت بها زوابع الحياة فذهبت بما هو أخف منها أثراً . مازلت أذكر — أماه — وسأذكر حتى أسلم آخر أنفاس الحياة ، ما كان من سيرك إلى مهدى فى ظلام الليل بحنوك الرفق بولدك أن يصيبه برد أو أذى — ما اعتدت فى كل صباح من لطف به تحملين له الفطائر والحلوى ، وبيدك الطاهرة تمسحين المطر على خدوده حتى تنضر وتشرق ؛ وفوق كل ذلك وأعز منه ما كان من فيض حبك الذى ما نضب له معين وما اعترض له من سبيل ما تقذف به النفس من عوارض الغضب . أذكر كل ذلك فيستحيل الواجب سروراً أؤدى لك به ما على من واجب ما والانى الشعر ، أقيم لك منه تمثالا وفيا على شاكلته ، تمثالا ترمقه عناية الله وإن صدف عنه البشر .

* * *

« هل للزمان أن يعيد الكرة فيحيى أوقاتاً كنت أتناول فيها خياطاً أتخذ به ما يحلى ثوبك من بنفسج وقرنفل وياسمين ، فتبسمين راضية مترفقة فى القول ضاربة رأسى فى دعابة ، وقد أشرقت أساريرك سعادة — لو كان لنا أن نعيد تلك الساعات ورغبت فى عودتها — أتراك فاعلاً ذلك ؟ لست أدرى بم ستحدثنى النفس والنفس ضعيفة ما استحوذتها رغبة قوية ، وفى النشوة ما يغرى — ولكن كلا — وما فى حياتنا الدنيا ما يحب ، وفيك — أماه — كل ما يحب ، حتى ليعز على أن أطلب إليك العودة إلى سجنك الحسى بعد أن أفلتت منه روحك الطليقة .

* * *

« وقد سرت من هذه الحياة كما ينطلق زورق جرى من سواحلنا إلى مرفأ أمين ، وقد ناهض العواصف ، وعبر المياه إلى حيث تنبت التوابل وتبتسم الفصول المشرقة ، إلى حيث يستقر إلى صفحة المياه الهادئة ، فينعكس شبحه الجميل صافياً بأعماق المياه ، والنسيم العطر يرقص من حوله ، وقد أخذت أنفاسه تموج منه الأعلام الباسمة . سرت حثيثة الأقلاع ، وأرسيت حيث لا تعصف ريح ولا يهدر موج ، وغادر شريك حياتك النبيل صخب دنيانا إلى اللحاق بك .

« وأما أنا فقد عزت على الراحة وكلما دنوت من المرفأ أقصيت منه ، وكلما أقصيت تزايدت آلامى — تحملنى الرياح من السبيل ، وتتقاذفنى العواصف وقد تمزقت قلاعى ، والسمع منها الخرق وعمى القصد ، حتى لتقصينى الأيام يوما بعد يوم عن مستوى الخلاص ، ولكنى أتعزى عن بلواى بما أعرفه عنك وعنه من طيب المقام ، وفى ذلك من النشوة ما يجعلنى أتلقى راضياً كل ما يأتى به القضاء . وما أباهى بأنى ولدت لآباء طوقتهم العروش وتحكموا فى رقاب العباد ، وإلى ما دون ذلك ، تسمو كبريائى — تسمو إلى ما رقى إليه آبائى من الحظوة لدى الله .

« والآن الوداع — فقد سار الزمن ما ألف من سيرة ، ولكنى قد بلغت ما أريد من بعث أيام الطفولة بما والتنى

صوتها !

للآنسة الزهرة

ما هو الشيء الأول الذي اجتذبك إلى زوجك ورفيقة حياتك ؟

في الرجال من يعجزون عن مجاوبة هذا السؤال لو وجه إليهم ، لأن خواطرهم لم تتحرك بمعناه من قبل ؛ على أن كثيرين يسارعون في هذا الموقف إلى الاجابة قائلين : « لقد كان صوتها أول ما جعل لها موضعاً في نفسي » .

وكأني قد سمعت مرة ، أو قرأت — لا أذكر — قصة رجل سمع في (التليفون) صوتاً نسوياً ، فخلب لبه ذلك الصوت ، وترك في نفسه أثراً جميلا طرب له ولم يقو على نسيانه ، بل أغراه بالبحث عن صاحبته وقتاً طويلا ؛ ولم يلبث أن كوفئ على صبره ، إذ كان يوماً في أحد المتاجر فسمع ذلك الصوت مرة أخرى ، وقد كانت صاحبته تطلب من البائع بعض السلع ، وكان وجهها جميلاً فتاناً كصوتها ، يشعر برقتها التي تحتضن فرائد العواطف وورد الأخلاق . وما كادت تخرج حتى اقتفى أثرها من بعد في تهيب واحترام ، واهتدى إلى مسكنها ، ثم عكف على التعرف إلى ذويها ، وطالعهم أخيراً بإعجابه بابنتهم ؛ وما هي إلا أشهر قلائل حتى تم زواجهما .

وليس ثمة ما يدعو إلى العجب في كل ذلك ، فإن كثيرين من الرجال يولعون بالصوت الجميل ؛ ولعل الصوت من أقوى الخصائص النسوية التي يعجز الرجل عن مقاومة سحرها ؛ وقد قرأنا في كتب الأدب العربي أن بشار بن برد الشاعر الكفيف قد مر يوماً بحي الفتاة التي كانت تغني وتذكر في شدوها « عميد القلب سكرانا » ، ففاجأه صوتها ، ورفع حجاب أذنه ، وتغلغل إلى صميم نفسه ، فبهره وأشجاه ، وأثار عاطفته ، وهز جوارحه ، حتى صدح قائلا :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
أحسنت إنك أنت الشمس طالعة
أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً
يزيد حباً محباً فيك أشجانا

هذا ولئن كان المران والتدريب يعملان عملاً غير قليل في تهذيب الصوت وصقله من التنافر ، فإن الفطرة

الذكريات من عون ، فتجددت مسراتي دون أن أنال من نعيمك . وما دامت أجنحة الخيال طليقة ، وما دامت ملامحك رهن بصري ، فما للزمن أن يتم استلاب ما حرمني منه ؛ فلئن ذهبت بشخصك فقد بقي لي ما ينبعث عنك من عزاء » .

قال كوبر هذه القصيدة البالغة التأثير سنة ١٧٩٠ ، وفي سنة ١٧٩٧ قيل إن مسز أنون طلبت إليه أن يصحبها إلى رياضة تحت ضوء الشمس ، وكان ذلك يوماً من الأيام القليلة التي عادت فيه مسز أنون إلى وعيها ، فقبل كوبر راضياً ما طلبت ، ولكنهما لم يعودا من تلك الرياضة حتى ولى كل منهما عن الحياة — ماتت مسز أنون ، وما استطاع كوبر لها وداعا غير صيحة مخيفة ذهب معها عقله الذي لم يعاوده إلا لماماً ، حتى قضى إلى جوار والدته كما طال أن تمنى سنة ١٨٠٠ . وهكذا استطاع أن يصل إلى الرضا الذي أسف غير مرة لعجزه عن إدراكه . أتراه قد وجد من الراحة ما توقع إعانه ؟ ؟

محمد مندور

وحدها هي التي تلقن الفتاة فن إجادة الكلام بصوت حلو واضح متمهل تكرير الجدول في الأرض المنبسطة ، بطيء ساحر كبعض نغمات المساء في ليالي الصيف المقمرة ، صريح الاشارة عما تفيض به نفسها من الأحاسيس العالية الصادقة .

وليس من الضروري أن يكون ذلك الصوت موسيقياً غنائياً ، فان الفتاة التي تخلب الألباب شادية قد يكون صوتها خلواً من كل عذوبة حين تتكلم . . وإذا كنت أسلم مع القائلين بأن كثيرات من ذوات الصوت الجميل قل أن يمتزن بالوسامة وجمال القسمات ، فإني أجاهر بأنهن يباهين بمحاسن أخلاقهن وملاحة نفوسهن . والأصوات الجميلة التي أعنيها هي التي تكون قبل كل شيء عناوين القلب ، وشواهد النفس ، ودلائل السجايا ، وفهارس الصفات ، علاها الحب والرحمة ، وتفيض منها نغمة حلوة تكاد تكون قبلات وملاطفات ومؤاساة ، وتوحي بما يجبر الكسر ، إذ تمتد إلى شفاه الأشجان فتسكتها حين تصيح ، وتطلع على الحائر الشريد أنواراً من الطمأنينة تدعوه إلى اللياذ بما فيها من عطف وأمن ، وتثير في نفسه الصبر والثبات ، وتلهمه النشاط والقدرة على احتمال المكاره والخطوب ، ومواجهة المشكلات والأخطار .

ولبعض النساء العاديات أصوات مدهشة يرهف المرء أذنه لالتقاط نغمتها والإقبال على سمعها بكل جوارحه ، كي لا تفوته منها صغيرة ولا كبيرة ، لأنها تبرز اللفظ العادي والمعنى الساذج في أشرف نغمة وأعذب مغزى .

أما الممثلات العظيمات فلهن أصوات عجيبة خلابة في الدرجة القصوى من المرونة ، تعلو وتهبط فتمتزج بها شتى العواطف والأهواء التي تتنازع قلوب البشر ، متراوحة بين الشجو والأنين ، والأنس والطرب ، والمرح والشكوى ، والهف والوجد ، والجوى والوحشة ، والحنين والحماسة ، والمناجاة والتوسل ، والابتهال والخشوع ، يؤديها دون تعمل ، كالموسيقي البارع يجري قوسه على أوتار القيثارة ، فيأتيك بالطرب والعجب لا يتكلف لها جهداً ؛ ويتلاعبن بعواطف السامعين كما تشاء لهن عواطفهن ومعانيهن ؛ وهذا هو الذي يجعلنا نقدر القوة الكامنة في تلك الأصوات العجيبة . وإذا كانت الموسيقى فتنة الألباب كما يقولون ، فليس في العالم كله ما يماثل صوت الممثلات القادرات الذي ينطق الموسيقى لو أن الموسيقى تعقل . . .

والكثيرات من النساء الريفيات في مصر وأوربا صوت مطرب عذب ، كما أن لبعض نساء المدن صوتاً غليظاً أجوف مرتفعاً يحز الأذن ، ويمثل التصنع والغطرسة . ولنساء إيقوسيا صوت قوي يميل بالسامع إلى حيث تريد صاحبته ، على أنه يخلو من الرخامة التي تمتاز بها أصوات الايرلنديات والأمريكيات . أما صوت الفرنسيات فرنان منسجم ، بعكس صوت الألمانيات اللواتي يرسلنه من حناجرهن متمهلاً ذا دوي . ولعل الايطاليات يشاركن أخواتنا التركيات في رقة أصواتهن التي تحاكي أغاريد العصافير في صباح مشرق الجبين .

بيد أن العواطف الصادقة تغير الصوت العادي ، وتكسبه روعة ، فان الأم حين تناغي طفلها في مهده ، أو الفتاة وهي تكشف سر قلبها لأمها متى تحقق لها حلم حياتها ، تهدي إلى السمع صوتاً مؤثراً في حنان عميق ، تتصل نبراته بفؤادها وفؤاد من يحيط بها .

وهناك أصوات قاسية توسع سامعيها أذى بفظاظتها . هناك أصوات حادة صحجة تهيج الأعصاب وتربك الخواطر — أصوات بليدة متشابهة تبعث على النفور والملل . وهناك أصوات غليظة خشنة تشبه رنين النحاس أو فحيح الأفاعي . وهناك أصوات متكتمة ترسل في همس خفي كأنها موئل القلق ووكر الدسائس .

وللصوت تأثير فعال في غالبية الناس ، وبنبراته نذكر أعزاءنا الذين حجبتهم عنا يد الردى ، كما تزداد بنغماته الحلوة اتصالاً بالألى نحبهم فوق الحياة نفسها ، لأننا نجد حياتنا في حياتهم ، ونحس في وجودهم بسعادتنا ونعيمنا ؟

(الزهرة)

نجوى !

للشاعر المبدع الأستاذ عبد المجيد بن جلون

في طريق الظلم المضطرب
وأنا أقطعـــه في تعب
بجهد الأنفاس أخفى تعبي
وقفت رجلي . . . ودارت مقلتي
ورنت في لهفـــة نحو الوراء

بادرتني صـــورة قدسية
طوقتها هالة ســحرية
وبدت لي بَسـمة نُورية
رقصت في الأفق وسط الظلمة
إنها الذكرى . . . بها قلبي استضاء

أدن مني أيها النور البعيد
اقترب مني ومن قلبي العميد
وتعالَ اغمر فؤادي من جديد
وحدتي طالت فآنس وَحــدتي
بدّد الظلمـــة حولي في الفضاء

لك سرّ في فؤادي مغلق
ثائر في صمتـــه يختنق
كلما لحت له تأتلق
هاج في القلب شـــديد القوة
وهو ظمآن إلى هذا الضياء

اقترب وانظر إلى هذا الشبح
وهو يمشي متعباً لم يسترح
دائب الخطو عنيداً منترح
كيف يمضي همـــه في قسوة
هالك البنية . . . جبـــار الوفاء

فلقد كنا كأنا زهرتان
فوق غصن واحد يانعتان
عاشتا عمراً قصيراً في أمان
ثم — أوّاه — أزيلت زهرتي
ورمى الدهر بها نحو الخلاء

أنا — ياطيف — البعيد النازح
كلُّ ما حولي غريب كالح
ليس لي حتى مكان سانح
أذكر الماضي به في وحدتي
وأغني فيه مثـــل الشعراء

ملتقانا تحت نور القمر
أو على الشط الظليل المزهر
مدخل الروض الذكي النضر
عطفـــة الوادي وظل الدوحة
كل هـــذا عاد حلماً وهباء

اقترب.. ماذا ؟ أتمضي وتزول
كشعاع تائه بعد الأصيل
قف قليلا .. لا تعجل بالرحيل
غير أن الطيف مثل النجمة غاب عني في دياجير المساء

* * *

ثم تابعت طريقي في الظلَم
في أناة وعنـــاد وألم
هكذا الماضي خيال وحلم
والغد المجهول خلف الظلمة ليت شعري أظلام أم ضياء !

عبد المجيد بن جلون

أنباء وآراء

فقد شاعر

توفى إلى رحمة الله الأستاذ فؤاد بليبل ، الأديب الشاب ، والشاعر الموهوب ، الذى طالما نشرت له الثقافة قصائد رائعة ، تكشف عن نفس شاعرية حساسة واطلاع موفور .



ولئن كان لنا أن نعدد مناقب هذا الفقيد الكريم ، فإن أجدر مناقبه بالذكر هو ذلك الوفاء النادر ، وتلك النفس السمحة وذلك التواضع والوداعة ، مما كان يكشف بجلاء عن ثقته بنفسه ، وعن قدرته ومواهبه ! ولعل مما يزيد النفس أسى أن اسم فؤاد لم يلتمع إلا منذ سنوات قلائل ، فقد ظهر مرة واحدة ، ونم شعره عن مكانته ، حتى نشرت له عدة قصائد ، قل أن يخطئ المطلع عليها فى حكمه بأنها لشاعر بارع وليست لشاب ناشىء . فالخسارة فيه إنما هى فى نبت ناضج ريان العود طيب الثمر ، والفجيعة فيه عند أصدقائه وقرائه سواء ، فقد كان شاعراً وفياً بقدر ما كان صديقاً وفياً . وقد كان أكثر من هذا وذاك من مدرسة فى الشعر ، تأخذ بالأسلوب العربى الرصين ، رصانة تقرب إلى القديم مع حداثة التفكير وطرافته .

ولعل قراء الثقافة واجدون فيما نشر من شعر المرحوم فؤاد بليبل خلال الأعوام الماضية صدى نفسه وصدق إحساسه ! ولعلنا أن نوفق إلى نشر بعض ما ألف من

يوغوسلافيا

(بقية المنشور على صفحة ١)

وأن يستخدم الرقابة لصالحها ، وأن يسخر لها وسائل النقل بالطائرات والسيارات ، حتى أصبحت الجريدة الممتازة فى يوغوسلافيا ، والتى كانت عضده الأكبر فى نشر سياسته الجديدة الموالية لألمانيا .

وبفضل هذه المشروعات المالية المختلفة أصبح ستويا دينوفتش أغنى رجل فى يوغوسلافيا ، وفى ظله وتحت رعايته استطاع الدعاة الألمان أن يشتغلوا بحرية وبنظام لنشر الدعاية النازية بين الأقلية الألمانية وبين العناصر السلافية ، التى استطاعوا استمالتها واجتذابها . واستطاعوا أن يؤلفوا بينها جماعات « نازية » لم تكن كبيرة العدد ، ولكنها تبدو عظيمة الخطر حين يجىء اليوم المنشود .

ولو أن هذا الرجل ظل يصرف أمور وطنه لسقطت يوغوسلافيا لقمة سائغة للمحور ، ولكنه نُحّى عن الحكم عام ١٩٣٩ ، ثم قبض عليه وأخيه فى شهر إبريل من العام الماضى ، واعتقل فى دار صغيرة فى بلاد الصرب الوسطى . ولم يُفرج عنه إلا فى الأسبوع الماضى ، حين أرسل إلى بلاد اليونان وسلم إلى السلطات البريطانية .

ولا يعرف تماماً السبب الذى دعا حكومةً تريد أن تذعن لمطالب الألمان إلى إقصاء أكبر أنصارهم ودعاتهم وتسليمه لأعداء ألمانيا . ومهما يكن من شىء فإن الحكومة اليوغوسلافية لم تكن كلها راضية بأن تخضع لإرادة الحكومة النازية . فاستقال ثلاثة من وزرائها ، كما استقال سفيرها فى موسكو . ومع أن الميثاق الذى قبلت أن تخضع له كان ملطفاً خاليا من « البند الخامس » الذى ينص على حرية مرور الجنود والمواد الحربية الألمانية ، فإن هذا الميثاق الملطف أثار حفيظة الشعب اليوغوسلافى . فانتشر الفزع ، وعم الهياج أطراف البلاد . وتدخل الملك الشاب فرفع عن عنقه ربقة « الوصاية » وعن أمته ربقة الميثاق النازى .

محمد عوض محمد

شعر لم ينشر بعد، مما اختص به الثقافة .

رحم الله فؤاداً رحبة واسعة ، وعزى عنه أصدقاءه وقراءه والأدب ، وألهم أهله الصبر الجميل .

تعليق على مقال

لفت نظرى وأنا أقرأ مقال الأستاذ على أدهم القيم عن « الدعوة فى العصر الحاضر » فى العدد ١١٢ من الثقافة قوله : « ولم تصل الدعوة حتى اليوم إلى أن تكون علماً من العلوم له أصوله وقواعده » . بينما الاعلان قد أصبح علماً ذا أصول وقواعد ، ومن أهم المواد التى يدرسها طلاب التجارة العالية فى معظم البلاد المتمدنة ؛ وقد أوفدت الحكومة المصرية إلى انجلترا بعض المصريين لدراسة هذا الفن بها .

وأحب أن ألفت نظر الأستاذ على أدهم إلى ما جاء بالعدد ٥٧ من الثقافة تحت عنوان (فن الاعلان) للأستاذ السيد الصادق ، فقد قال الكاتب: « ... كان من حظى أن أوفد فى بعثة علمية عملية لدراسة الاعلان فى انجلترا ... فرأيت مايضع له البريطان من أصول فنية دقاق » ... « أصبح علماً يرتكز على أصول ثابتة ويقرر قواعد لم يعد بد من التسليم بصحتها » .

أحمد حسين الصارى

كنوز الفاطميين

للدكتور زكي محمد حسن

[من مطبوعات دار الآثار العربية ، في ٢٩٢ صفحة من القطع الكبير و ٦٤ لوحة فنية ؛ تصديره بقلم المستشرق الفرنسي الأستاذ فييت]

نقد كتبه بالألمانية المستشرق الدكتور كالى Kahle

الأستاذ بجامعة بون بألمانيا

[كتب أحد القراء في العدد ٤٠٢ من "مجلة الرسالة" تعليقاً على مقال الثاني من شكايات الفضل ، ذكر فيه أنه حين كان يعلم اللغة العربية في جامعة بون "كان له شرف مساعدة الأستاذ كالا في كتابة بحث واف عنوانه : كنوز الفاطميين" . وأن هذا البحث كان له الفضل في وضع كتابي الذي طبع سنة ١٩٣٧ باللغة العربية في نفس هذا الموضوع وبنفس هذا العنوان ! وعلامة التعجب التي وضعها القارئ الدكتور تنم عن الثورة الجياشة التي يحسها . ولما قد كتبت إلى "الرسالة" كلمة لأضع الأمور في نصابها ، ولكنها لم تنشر(١) ، فلم أر بداً من أن ألجأ إلى صفحات "الثقافة" ، لأذكر فيها أن الأستاذ كالا ترجم إلى الألمانية النصوص التي كتبها المقريزي في "الخطط" عن "كنوز الفاطميين" ونشرها بهذا العنوان مع بعض الحواشي في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ZDMG سنة ١٩٣٥ ، (ص ٣٢٩ – ٣٦٣) ، وأشار في نهاية حاشية بصفحة ٣٢٩ إلى أنه تحدث (!!) من هذه النصوص مع بعض الفرقاء الذين كانوا يعلمون أو يتعلمون في معهد اللغات الشرقية بجامعة بون ، وذكر أسماءهم ومن بينهم صاحب التعليق في "الرسالة" !! وحدث أني في مناسبة الاستعداد للعيد الألفي للقاهرة كتبت مؤلفاً من "كنوز الفاطميين" ظهر سنة ١٩٣٧ ، فكان الأستاذ كالا ممن رحبوا به ، بل هو الذي قدمه إلى الدوائر العلمية الأوربية بكلمة لم يمن علي فيها بالفضل الذي يدعيه له ، أو يدعيه لنفسه صاحب التعليق في "الرسالة" !! .... وحسبه بعد أن ظل يدرس الآثار الإسلامية علي في الجامعة ثلاث سنوات ، آخرها العام الماضي !! وإلى القراء "كلمة" الدكتور كالا منقولة إلى العربية بقلم الدكتور مراد كامل] . زكي محمد حسن

مؤلف هذا الكتاب أمين دار الآثار العربية في القاهرة ، درس في فرنسا ثم كان مدة من الزمن مساعداً علمياً في القسم الإسلامي من متاحف الدولة في برلين . وقصد المؤلف بكتابه هذا أن يمهد إلى تفهم الفن الفاطمي الذي توجد منه في دار الآثار العربية بالقاهرة تحف ثمينة للغاية . وللمؤلف دراية واسعة بسائر التحف الفاطمية عامة ، وهو يستشهد — إذا اقتضى الحال — بتحف محفوظة في المجموعات الفنية الأخرى .

يبدأ الكتاب بمقدمة في تاريخ التاحف في الشرق والغرب ، تتلوها نظرة عامة في تاريخ كنوز الفاطميين كما ورد ذكرها في المصادر التاريخية والأدبية ، ابتداء من رحلة ناصر خسرو . ولهذه الرحلة أهمية قصوى لأن ناصر خسرو رأى حكم الفاطميين في عصره الذهبي ، وقبل الشدة العظمى التي وقعت بسبب الأوبئة ومطالب الجند الترك ، والتي أدت إلى تبديد جزء كبير من الكنوز . وأهم ما وصل إلينا عن تلك الكنوز عامة هو ما جاء ذكره في بيان ما نهب ، وضاع في ذلك العصر ، والمصادر الرئيسية في هذا الصدد هي ابن ميسر ، ثم البيانات التي حفظها لنا القلقشندي والمقريزي من مصادر أصلية .

ثم يتحدث المؤلف عما كان في كل خزانة من خزائن

(١) وإنما نشرت الرسالة نقداً لكتابي "الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي" بقلم القارئ نفسه ، قدمه بكلمة أترفع عن الرد على ما جاء فيها من كذب وافتراء ، وقفته إليها أسباب معاشية .

التحف مستنبطاً من النصوص التاريخية البيانات والمميزات . ثم يخلص من هذا إلى أن هذه النصوص التاريخية عن كنوز الفاطميين العظيمة قد تبدو عجيبة ، ومبالغاً فيها ، ولكنها في الواقع تقوم على أساس صحيح . وفي رأينا أن هذا محتمل إلى مدى واسع .

أما القسم الثاني من الكتاب[1] فيشمل بحثاً من ناحية تاريخ الفن في كل ميدان من الميادين الفنية التي لا تزال باقياً منها بعض الكنوز الفاطمية . فيتحدث المؤلف على الترتيب من التصوير والنحت فالتجليد ، ثم من المنسوجات التي حصلت دار الآثار العربية على تحف ثمينة منها في السنوات الأخيرة ، كما يتحدث بعد ذلك من الخزف وصناعة الزجاج والفسيفساء ، والنقش على الخشب والعاج والمعادن . ويتحدث في النهاية عن العنصر الخطي في الزخارف الفاطمية .

ويعرض المؤلف في أربع وستين لوحة فنية نخبة طيبة ناعمة من أعظم التحف الفاطمية شأناً . وفي نهاية الكتاب بيان بالمراجع العربية والأوروبية وكشاف أبجدي . والمعروف أن كثيراً جداً من الكنوز الفنية الفاطمية قد كشف عنه في الحفائر بالفسطاط .

ومما استرعى اهتمامي بنوع خاص ست تحف صغيرة من الذهب المزخرف بالمينا . وبعض هذه القطع لم يسبق نشره في غير الكتاب الذي نحن بصدده الآن . ومثل هذه التحف نادر جداً مع أنها كانت في وقت من الأوقات ذائعة تماماً ، فكثيراً ما جاء ذكرها في البيانات التي نقلها إلينا المقريزي (راجع مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ج ٨٩ سنة ١٩٣٥ ص ٣٣٨ وما بعدها) . وهذه التحف الست التي أتى المؤلف برسومها في كتابه لم تحصل دار الآثار العربية على معظمها إلا في السنوات الأخيرة .

والمينا في تلك التحف مصبوبة في حواجز دقيقة من الذهب . وقد ازدهرت هذه الصناعة الفنية في بيزنطة على الخصوص ؛ ولكن هذه التحف المنشورة هنا — ولا سيما ما كان منها محلى بكتابة عربية — تثبت أنها كانت معروفة في مصر إبان العصر الفاطمي وبعده . ومما يؤسف له أن صور هذه التحف قد وضعت في متن الكتاب ولم تطبع بين اللوحات على ورق « الكوشيه » فجاءت لامعة غير واضحة إلى حد يصعب معه تكوين فكرة صحيحة عنها إذا لم تكن لدينا إلا هذه الرسوم التي جاءت في صفحة ٢٤٥ . وفضلا عن ذلك فإن شكل رقم ٥ منها (صفحة ٢٤٦) كان يجب أن يلتفت إلى اليسار نحو ٩٠ درجة ليمكن أن نتبين تماماً صورة الطائرين المرسومين على هذه التحفة .

والواقع أن مجال الكلام واسع جداً في هذا الميدان الكبير من ميادين الفن . ولكن لن يفوتني أن أشير إلى العدد ٩٠ من مجلة الجمعية الشرقية الألمانية (ص ٣٣٢) ، ففي الحاشية رقم ٣ رأي للدكتور كونل بشأن ما ذكره البيروني من الأواني المصنوعة من البلور الصخري .

على أن علينا أن نقول بوجه عام إن المؤلف عالم واسع الاطلاع على المؤلفات الأوروبية أيضاً ، وإن في هذا الكتاب الذي أخرجته دار الآثار العربية دراسة ممتازة للفن الذي ازدهر في عصر ذهبي من تاريخ مصر في العصور الوسطى .

(من مجلة الجمعية الشرقية الألمانية سنة ١٩٣٥ ص ٢٩٩ — ٣٠٠)

---

(١) من صفحة ٨٣ إلى صفحة ٢٩١ .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١١٩ — الثلاثاء ١١ من ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — ٨ من أبريل سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العدد

بعد الانقلاب اليوجوسلافي

لمحرر الثقافة السياسي

لا تزال صدى الانقلاب اليوجوسلافي يشغل كل شيء في الميدان السياسي ، ولا تزال آثاره المحتملة موضع التكهن والبحث . هل يحفز الألمان إلى مهاجمة يوجوسلافيا في القريب العاجل ؟ أم هل يحملها على أن ترجئ مشروعاتها العسكرية في البلقان وقتاً آخر ؟ لقد كان انفجار القنبلة اليوجوسلافية غداة توقيع حكومة بلغراد السابقة صك انضمامها للمحور الثلاثي مفاجأة مؤلمة لألمانيا ، وضربة أصابت هيبتها في الصميم ؛ وقد ظن العالم حينما تم هذا التوقيع أن يوجوسلافيا قد قضي عليها ، وأنها ستصبح عما قريب مسرحاً سهلاً لحركات الحرب الألمانية مثل رومانيا وبلغاريا ؛ ولم يكن يتوقع أحد أن تجوز يوجوسلافيا بين عشية وضحاها هذا الانقلاب العنيف الشامل ، فتحطم النظام الذي تم الخضوع في ظله ، وترفع إلى عرشها ملكها الفتى ، ومن

(*) تناول الأستاذ الدكتور عوض في مقاله في عدد الثقافة الماضي ظروف هذا الانقلاب وتفاصيله .

ورائه الجيش يشد أزر النظام الجديد ، وتعلن حكومة بلغراد الجديدة أنها تبغى المحافظة على حياد يوجوسلافيا وسلامها ؛ ولكنها لا تنوى الخضوع لأية محاولة يمكن أن تمس شرف يوجوسلافيا أو استقلالها .

والحقيقة أن هذا الانقلاب – بالرغم من عنفه وسرعته – يتفق تمام الاتفاق مع تقاليد يوجوسلافيا وميولها الطبيعية والتاريخية ؛ فيوجوسلافيا هي مملكة الصرب السلافية القديمة التي عملت السياسة النمسوية دائماً على إذلالها وسحقها بمؤازرة ألمانيا وتحريضها حتى لا تنمو وتغدو عقبة في سبيل الزحف الجرماني في اتجاه الجنوب الشرقي ، والتي غزتها الجيوش النمسوية والألمانية في الحرب الكبرى ، ودمرتها بمنتهى القسوة بالرغم من استبسالها في الدفاع عن نفسها ؛ ولكنها خرجت من غمار المحنة عقب انتصار الحلفاء أقوى وأعظم مما كانت عليه ؛ فلو أن يوجوسلافيا استسلمت إلى تصرف وزرائها الخائنين الذين وقعوا صك خضوعها في فينا ، لأنكرت بذلك ماضيها ، ومحت صفحة باسلة مجيدة من تاريخها ؛ ولكن يوجوسلافيا الحقيقية التي لم تبهرها قوى الجرمانية النازية ، استطاعت لحسن الحظ أن تمحو في ساعات قلائل هذه الوصمة الزرية من تاريخها .

والآن تقف يوجوسلافيا وجهاً لوجه أمام العاصفة ؛ ومن المحقق أن ألمانيا الناشبة الموتورة قد شعرت بخطورة هذه الضربة التي وجهت إلى هيبتها من دولة لاح لها أنها أصبحت في قبضتها ، ثم انقلبت فجأة إلى معارضتها والوقوف في طريقها ؛ ومع أن برلين لم تصرح بعد بموقفها إزاء هذا الانقلاب ، فإن الاحتجاجات والوسائل التي بدأت تلجأ إليها تدل على أنها لن تصبر طويلا على ذلك ؛ فقد أخذت ألسنة الدعاية الألمانية من إذاعة وصحف وغيرها تتهم يوجوسلافيا بأنها تسيء معاملة الأقليات الألمانية ، وأن الاعتداء مستمر على أشخاص الألمانيين وأملاكهم ، وأنهم يفرون إلى رومانيا والمجر ؛ هذا بينما أخذ الرعايا الألمانيون والإيطاليون يغادرون يوجوسلافيا على عجل ، وأخذت الدعاية الألمانية فوق ذلك تذيع من يوجوسلافيا مختلف الأنباء المزعجة المثيرة ؛ وهذه الاجراآت هي التمهيدات التي تتذرع بها الدعاية الألمانية عادة لمهاجمة بلد تنوى ألمانيا به شراً ، وهي تذكرنا بما وقع قبيل غزو تشيكوسلوفاكيا وبولونيا . وقد رأت يوجوسلافيا مع احتفاظها بهدوئها وسكينتها أن تتخذ من جانبها بعض الاجراآت الدفاعية ، فدعت للتعبئة طبقات جديدة من الجند ، وأخذت في إخلاء مناطق الحدود وتحصينها ، وهي تعلم حق العلم بفداحة الخطر الذي يهددها .

والواقع أن القوات الألمانية الغازية تحيط بيوجوسلافيا من الشمال الغربي حيث تتاخمها النمسا ، ومن الشرق من رومانيا وبلغاريا ؛ هذا إذا صرفنا النظر عن القوات الإيطالية التي تجاورها من الغرب ، ومن الجنوب الغربي في ألبانيا ؛ فهي تغدو في مركز دقيق إذا اختارت دولتا المحور مهاجمتها .

على أنه يلوح لنا أن غزو يوجوسلافيا قد لا يكون هو الخطة المفضلة في نظر القيادة الألمانية في الوقت الحاضر على الأقل . أجل أبدت ألمانيا رغبتها في السيطرة على يوجوسلافيا ، واستطاعت بما بذلت من ضغط أن تحمل حكومة بلغراد السابقة على الانضمام إلى ميثاق المحور ؛ ونحن نعرف ما ينطوى عليه هذا الانضمام عادة ، من وضع الحليفة الجديدة ومواردها تحت تصرف القيادة الألمانية ، على نحو ما حدث في المجر ورومانيا وبلغاريا ؛ وقد كان هذا هو المصير المتوقع ليوجوسلافيا مهما قيل من التحفظات التي قرن بها انضمامها ؛ فألمانيا كانت على وشك أن تضع يدها عليها ، وأن تتخذها طريقاً سهلا

الزحف إلى الجنوب ، وذلك دون أن تدفع لذلك ثمناً غير الوعيد والوعود .

أما خطة الغزو المباشر فإنها قد تكلف ألمانيا غالياً ؛ فالجيش اليوجوسلافي بالرغم من تأخره في مضمار التسليحات الحديثة معروف بشجاعته وقوة بأسه ؛ وطبيعة الأراضي اليوجوسلافية صالحة للأعمال الدفاعية ، وليست ممهدة للزحف الميكانيكي السريع . هذا عدا ما سوف تلقاه يوجوسلافيا من المعونة البريطانية بمختلف صورها إذا هوجمت ؛ وعندئذ يستطيع سلاح الطيران البريطاني أن يتخذ من القواعد اليوجوسلافية ، نقطا لضرب آبار الزيت الرومانية ومصانع السلاح النمسوية ، ولا سيما في « فينرنويشتات » حيث توجد مصانع طائرات « مسر شميت » الشهيرة ، وعواصم ألمانيا الجنوبية مثل فينا وجراتز وغيرهما . فإقدام ألمانيا على غزو يوجوسلافيا قد يكلفها بهذه الصورة غالياً ، وقد لا يكون النصر مكفولا على الأقل بالسرعة التي اعتادتها القيادة الألمانية ؛ وإضاعة الوقت في غزوات صعبة قد تعرض مشروعاتها الأخرى إلى الفشل ، ولا سيما في الوقت الذي حل فيه الربيع ، وهو الوقت الذي يدخره هتلر دائماً لتحقيق مشروعاته .

ولهذا كله يلوح لنا أن ألمانيا قد تؤثر اتخاذ خطة أخرى غير الغزو المباشر ليوجوسلافيا ؛ فهي قد تعمد إلى إثارة القلاقل العنصرية في يوجوسلافيا على يد دعاتها — وفي يوجوسلافيا أقليات من الألمان والمجر والسلوفين والكروات — وتسعى بوسائلها المعروفة إلى تدبير الاضطرابات الداخلية في البلاد ، وتقرن ذلك بنوع من حرب الأعصاب المثيرة ، وتحاول بهذه الوسيلة أن تحطم عزائم الشعب اليوجوسلافي ، وتمهد بذلك إلى خضوعه واستسلامه ؛ وهي خطة ليست محققة النجاح ، بعد الذي أبداه الشعب اليوجوسلافي من صدق العزيمة ، والتمسك بوحدته واستقلاله .

وقد تؤثر ألمانيا في هذه الحالة أن تنتظر قليلا ، وأن تتقى مدى حين من الضربة التي أصابت هيبتها ؛ حتى تجد في تطور الحوادث البلقانية ما يحملها على التحرك . فإذا هي رأت أن تعجل بمهاجمة اليونان ، إنجاداً لحليفتها المهزومة ، فسوف تقنع — بعد الفشل الذي لقيته في إخضاع يوجوسلافيا — بالزحف على اليونان من بلغاريا في اتجاه سلانيك ، وبذلك ترغم على أن تسلك طريقاً بطيئاً لإرسال عتادها وإمداداتها إلى هذه الجبهة ؛ وقد كانت تطمح إلى أن تتخذ لذلك طريق يوجوسلافيا الحديدي (خط الشرق) الممتد مباشرة إلى وادي الوردار وثغر سلانيك .

* * *

ومهما كان الاتجاه الذي تتخذه المشروعات الألمانية في البلقان ، وسواء أقدمت ألمانيا على مهاجمة يوجوسلافيا ، أم قنعت بمهاجمة اليونان ، فإن انكلترا ساهرة ترقب الموقف بمنتهى العناية ؛ وقد أكد مستر تشرشل في تصريحاته أن بريطانيا على أتم استعداد لمعاونة يوجوسلافيا بجهد استطاعتها إذا اعتدى عليها ؛ وقدمت الحكومة البريطانية على يد سفيرها في بلغراد إلى الحكومة اليوجوسلافية عهودها المكتوبة بذلك ، كما قدمت إليها حكومة الولايات المتحدة نفس التأكيدات على يد سفيرها . ولا ريب أن بريطانيا على أتم استعداد لمواجهة جميع الاحتمالات التي قد يسفر عنها تطور الحوادث في البلقان ؛ وتنقلات مستر إيدن وزير الخارجية والسير جون ديل رئيس أركان الحرب البريطاني بين القاهرة وأثينا لا تدع سبيلا إلى الشك في أهمية هذه الاستعدادات .

هذا وبريطانيا تواجه الآن حوادث البلقان في كثير

من الاطمئنان والثقة بعد أن تطورت الحوادث في افريقية وفي شرق البحر الأبيض المتوسط على هذا النحو لصالحها ؛ فالامبراطورية الايطالية في أفريقية أضحت على وشك الانهيار النهائي بعد الضربات المتوالية التي نزلت بها في أرتريا والحبشة ؛ فقد سقطت كرن وأسمرة وهرر ودردادوه ؛ وقد لا يمضي أسبوع آخر أو اثنان حتى تسقط أديس أبابا في يد القوات البريطانية ، وتقتصر الحرب في شرق أفريقية بعد ذلك على أعمال التطهير النهائية ، وبذلك تتمكن بريطانيا من أن توجه كثيراً من قواتها هنالك للعمل في ميادين أخرى .

أما في شرق البحر الأبيض المتوسط فقد تأكدت سيطرة بريطانيا على هذه المياه مرة أخرى بصورة حاسمة ، في الوقعة البحرية الكبرى التي نشبت على مقربة من كريت بين الوحدات البحرية البريطانية والايطالية ، والتي فقد فيها الأسطول الايطالي بفقد خمس قطع من أفضل سفنه وأحدثها ؛ فإذا أضفنا هذه الخسارة الفادحة إلى الخسائر العديدة التي لحقته من قبل على يد الأسطول البريطاني والطائرات البريطانية ، استطعنا أن نقدر مدى الضربة التي أصابت قوى إيطاليا البحرية . ولا ريب أن بريطانيا قد أصبحت بعد تحطيم قوى إيطاليا البحرية على هذا النحو ، وتحطيم قواها الجوية أيضاً ، سيدة البحر الأبيض المتوسط من شرقه إلى غربه ، وخصوصاً بعد أن فشلت محاولات الطائرات الألمانية في عرقلة حركات الأسطول البريطاني أو قوافل السفن البريطانية .

إن حوادث يوجوسلافيا ليست حوادث مستقلة منقطعة الصلة بغيرها من تطورات السياسة والحرب ؛ فهي دليل على خطورة الحالة النفسية التي انتهت إليها الشعوب الأوربية في ظل الإرهاب المتلري ، أو ما يسمونه بالنظام الأوربي الجديد ، ودليل على أن القوى المعنوية الكامنة قد أخذت تتحرك في الشعوب التي ما زالت تنعم بحريتها لمقاومة هذا النظام البربري — نظام الاستعباد المطلق — وتقف في سبيله ، وسوف تكون هـذه الصدمة الحقيقية الأولى مقدمة لصدمات أخرى ، وقد تغدو نذير تحول حقيقي في مصاير الحرب .

(***)

قصـــــة !

للأستاذ أحمد أمين بك

زعموا أن رجلاً عرف بصحة الرأى وصدق النظر ، فكان مقصد أمته فى الأزمات ، ورجاءها فى حل المشكلات . يقول الرأى فكأنما ينطق بلسان الغيب ، ويظن الظن فكأنما يرى ويسمع ، ويتنبأ فكأنما يتلو المستقبل من كتاب .

كان أعجوبة الأعاجيب فى أمته ، وأحدوثة قومه فى زمنه ؛ وما لبث أن طارت شهرته فعمت العالم ، وطبقت الآفاق . وشاء القدر أن يرحل من بلده إلى بلد سحيق ، فسبقته شهرته ، وعرف بمقدمه أهله ، فاحتفوا به ، وأنزلوه منزلاً كريماً ، وأزمع أكابر رجاله أن يستفتوه فى مشاكلهم ، ويستنصحوه فيما صعب من أمورهم .

فأوفدت وزارة الشؤون الاجتماعية وفداً من رجالها يسأله : ماذا تعمل لتقضى على الفقر ، وتمحو الإجرام ، وتضع حداً لكل الشرور ، وتنهض بالفلاح فيرقى عقله ، وترقى معيشته ؟ وكيف تتغلب على مشكلة البطالة ، وكيف تحل مشكلة الزواج والطلاق ، وتبرج النساء ، واستهتار الرجال ؟ إلى غير ذلك من مشكلات تدخل فى اختصاصها .

وأوفدت إليه الوزارات كلها وفوداً تسأله عن حل لمشكلاتها ؛ فوفد وزارة المال يشكون من قلة الدخل وكثرة المطلوب ، وإسراف المصالح الحكومية ، وأن كل وزارة تطلب كأن مال الدولة قد رصد لها وحدها ؛ ويشكون من الموظفين وكثرتهم ومطالبهم وإلحاحهم ، ومن الجمهور ونظره إلى مال الدولة كأنه غنيمة يحل نهبها . والوزارات كلها تشكو من وزارة المالية ، إذ تسيطر عليها ، وتقدر كل المسائل بالأوراق المالية ، ولا تقدر المسائل الأدبيـة ولا المنافع العلمية ولا الاعتبارات المعنوية ؛ وأنها تعامل المصالح على أساس تجارى لا على أساس مصلحى . والكل يشكو من سوء ظن بعضه ببعض ، ومن عدم التعاون . ووزارة العدل تشكو من ضياع العدل فى الأمة ؛ فالمحسوبية ، والوساطة ، والرجاء ، كل هذا وأمثاله أضاع معنى العدل ، وأن هناك وسائل تعمل فى الخفاء فتخنق العدالة ؛ فلا يزال هناك نظام الطبقات يفسد العدل ؛ فالفقير لا يصل إلى حقه من الغنى ؛ وإذا اتهم غنى بالرشوة فليس كما يتهم الفقير ؛ وإذا ضرب أحد « الذوات » جندياً أو نحوه حفظت القضية ؛ أما إذا ضربه أحد السوقة فالعدل يجرى مجراه ، وشكت وزارة العدل أيضاً — أكثر من ذلك — من حال العدل الاجتماعى ، فليس مال الدولة يوزع بالعدل ، ولا مناصب الدولة توزع بالعدل ، ولا معاملة الحكومة للناس توزع بالعدل .

وهكذا لم تبق وزارة من وزارات الدولة إلا رفعت صوتها بالشكوى ، وأسرفت فى وصف سوء الحال ، وطلبت رأيه فى العلاج .

وليت الأمر اقتصر على الوزارات ، فكل طائفة شكت : فلاحون يشكون الفقر والبؤس ، ويشكون الحكومة وملاك الأراضى ، ويسألون السبيل إلى الإنصاف ، وموظفون يشكون الكادر الجديد ، وتجار يشكون مزاحمة الأجنبى ، وكل حزب يتهم الأحزاب الأخرى بالتقصير ، والكل يتهمون الحكومة ، والحكومة تشكو الأحزاب وتشكو الأمة لأنها تلقى كل أعبائها عليها .

وجاء رجل فقال : لست أمثل وزارة ولا أمثل حزباً ، ولا أمثل نقابة ولا أي جماعة ، ولكني أشكو من شكوى الناس ، فقد تصدع رأسي من الشكوى ، فكلما جلست إلى قوم في أي مجلس ، في فرح أو حزن ، في طبقة المثقفين أو الجاهلين ، ملئوا مجلسهم بالشكوى من فساد الأخلاق وسوء الأحوال ؛ ثم لم يزد الأمر بعدُ على أن ينفض المجلس والمتكلم معجب بفصاحته وبلاغته في حسن الوصف ، والسامعون مسرورون بقضاء الوقت في حديث لطيف ، وكلهم يختم الجلسة بقليل جداً من الموضوع ولا اكتفاء بالدعاء إلى الله أن يصلح الحال .

وهكذا تتابعت الوفود على هذا الرجل تبع بالشكوى حتى خيل إليه أن ليس في هذه الأمة إلا شاكون ، وأن ليس لهم وظيفة إلا الشكوى .

ومع هذا طيّب خاطرهم ، ووعدهم أن يجد حلاً لهذه المشكلات كلها في أسبوع ، وحدد لهم موعداً في مثل هذا الوقت من الأسبوع الآتي ، ثم أتبع ذلك بقوله : ولكن لا بأس أن يزورني مصلحوكم فيدلوا إليّ بآرائهم حتى أستعين بها على إبداء رأيي ؛ فتتابعت عليه طوائف المصلحين والزعماء ، كلٌّ ينظر إلى المسألة بعينه .

جاء رجال الدين يقولون : إن سبب الفساد كله عدم التمسك بالدين ، فلو نصحت بأن يتبع الناس الدين لذهب كل ما تسمعت من شكوى ، ولا ستقامت الأمور ، وصلحت الأحوال ؛ ففساد الحال لا سبب له إلا غضب الله على الناس من عصيان أوامره ، وارتكاب نواهيه .

وقال رجال المال : إن العلة كلها في المال ، فلو أصلحت موارد البلاد ، واستثمرت منابع الثروة خير استثمار ، ووزعت الغلة خير توزيع لكان في هذا العلاجُ من كل داء ، لو تم هذا لانعدم الفقر ، وانعدمت الجرائم ، وقلّ الطمع ، وارتقت الأخلاق ؛ وما أكثر فساد الأخلاق منشؤه الفقر ، فالفقر داع إلى الإجرام ، وداع إلى الجهل ، وداع إلى الذل والعبودية ؛ فإذا زال زالت معه شروره ؛ وليس من فرق بين أسرة مهذبة راقية سعيدة ، وأسرة بائسة شقية إلا المال . فالمال يعلِّم ، والمال يهذب الذوق ، والمال يبصر بطرق المعيشة ، والمال يسعد .

وقال رجال السياسة : ادع إلى إصلاح سياسة البلد يصلح فيه كل شيء . فصلاح السياسة معناه صلاح الحكم ، فإذا صلحت الحكومة في رعيتها ، وساست الناس كما يقود القائد المحنك جنده ، لا كما يصيد الصائد صيده ، ونشرت العدل بين الناس ، فهناك الطمأنينة ، والرخاء والأمن ، والسعادة والتقدم ، وإلا فلا إصلاح .

وهكذا ظل طول الأسبوع يسمع من القادة آراءهم في الإصلاح ، ولم يفته أن يسمع من رجال الأحزاب ، ولا من رجال الصحف ، ولا من الديمقراطيين والدكتاتوريين ، ولا من الفلاسفة والشعراء ، والنساء والفنانين ، فقد قضى الأسبوع في معرض متنوع بديع .

وحان وقت إبداء الرأي ، وحضرت الوفود ممثلة لكل الطوائف ، واشرأبت الأعناق ، وأرهفت الأسماع ، فقام بينهم خطيباً وقال :

سيداتي ! سادتي !

لقد سمعت كل وجوه الإصلاح التي اقترحها قادتكم ، ورأيت أن في كل منها خيراً كثيراً ، ولكن فيها عيباً كبيراً .

إن كل ضروب الإصلاح التي سمعتها موجهة إلى الجيل الحاضر ، وليس فيه كبير أمل ، إنه جيل فسد ، قد أفسدته السياسة بألاعيبها ، وأفسده الجو الذي عاش فيه ، والخلاف الذي دب فيه ، والعقلية التي حلت فيه ، والذل الذي قدمت له . كل خطأ الآراء التي سمعتها أنها

علقت الأمل على شيء مهدم ، وعلى قصبة مرضوضة ، وعلى بناء متداع .

لقد فقد كل منكم الثقة بأخيه ، ولا حياة إلا بالثقة ، ولا مودة للثقة إذا زالت . لقد نمت من القراح كل منكم أنانية بغيضة ، وتعصباً للرأى ذميماً ، واحتقاراً لرأى الغير معيباً ، فتفرقت بكم السبل ، وزال بينكم الحب ، وساد فيكم ضيق النظر ، وهذا عنوان الانحلال .

سيداتي وسادتي :

نصيحتي لكم ألا ألتفت إليكم ، وألا تلتفتوا إلى أنفسكم ، ولا أعلق الرجاء عليكم ، ولا تعلقوا الرجاء على أشخاصكم ، وأن تساعدوني على إهمالكم أنفسكم ، وأن تلتفتوا معي إلى صغاركم ، ولا شأن لي بكم إلا شأن الوزير الذي حين يدخل مكتبه فيجد الدفاتر مكدسة ، والملفات مبعثرة ، والأوراق مغبرة ، وحاول أن يدرس مسألة فلم يفهم ، وأن يتتبع تاريخ أمر فلم يستطع ؛ فأمر بإحراقها جميعاً ، وأنشأ دفاتر جديدة على نمط جديد .

ثم ماذا تعملون لصغاركم ؟

أنشئوا لهم المدارس التي تتسع لهم جميعاً ، واطلبوا الحكومة أن تخصص أكبر ما تستطيع من ميزانية لهذه المدارس ، واجعلوا لسن الصبي حداً إذا تجاوزه ذهب إلى هذه المدارس .

ثم لا أمل في هذه المدارس أيضاً إذا علمتم تلاميذها ليكونوا مثلكم في عقلكم وأخلاقكم . فعلموهم أول ما تعلمونهم فن الحياة الذي فشلتم فيه ، واستعملوا مهارة العقل ليحقق لكم أن تعلموهم وسائل النجاح ، وحددوا غرض الأمة الذي تنشده ، ووجهوا التعليم والتهذيب نحوه ، وارسموا في وضوح حاجات الأمة ومرافقها المختلفة وشكلوا التعليم كمية وكيفية حسب هذه الرذائل . علموا أطفالكم حب الأمانة والرجولة ، ونظافة اليد ، ونظافة الخلق ، وقيمة الحق ، والشجاعة في قول الحق ، والحياة الحق .

ولا تقولوا إن فاقد الشيء لا يعطيه ، فإن هذا قول سخيف من آثار القرون البالية ؛ فإنا نرى كل يوم الصابون تنظف القاذورات ، والرذيلة تعلم الفضيلة ، وسخافة السخيف تُرى حكمة الحكيم . فعلموهم ضد ما تعلمتم في السياسة لينجحوا في السياسة ، وعلموهم من صغرهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ليصلحوا إذا أسند الحكم إليهم ، وعلموهم الحرية التي لم تعرفوا أنتم أن تنتفعوا بها ليعرفوا هم كيف ينتفعون بها ، وعلموهم الإيثار والتضحية في ضوء ما ألمتم من الأثرة والأنانية .

وجهوا كل همكم إلى الصغار ، إلى الجيل القادم ، إلى قادة المستقبل ، واجتهدوا أن تحموهم من تقليد جيلكم ، فضعوا أمامهم أمثلة نبيلة غير أمثلتكم ، وأخفوا من أعينهم شروركم ، فإنكم إن نجحتم في إنشاء جيل واحد على هذا النمط ضمنتم الخير لأجيال متعاقبة . أما أنتم فيغفر الله لكم .

* * *

قال الراوي : فهاج السامعون وماجوا ، وسخط عليه قوم لسماجته وقلة حيائه ، ووقاحته وسبابه ، وازدراه آخرون لسخفه وسوء منطقه ، إذ لم يحل مشكلاً ، ولم يصلح فاسداً ، واحتقر الكبير ، واستعظم الصغير ، وهزأ بالرجال ، وعنى بالأطفال ، ولأن مآل نصحه ترك الفساد ينخر في عظامهم حتى يأتي على آخرهم ، فأتمر به هؤلاء وهؤلاء ، وأجمعوا رأيهم على أن يودعوه مستشفى المجاذيب . . ؟

أحمد أمين

من أسباب الجرائم فى مصر

للأستاذ ع. ج

من أنباء الأقاليم ما روته إحدى صحف الصباح أخيراً بعنوان: «رجل يقتل حماته لأنها أخفت عنه أكلاً طيباً». وقد لخص المراسل تفصيلات الحادث بقوله:

«إن رجلاً اسمه (...) تزوج امرأة اسمها (...) بناحية الزيتون مركز الواسطى، وعاشا معاً مدة هنيئة راضية؛ إلى أن كان أمس الأول، حيث عاد الزوج إلى منزله فلم يجد زوجته؛ فطلب إلى والدتها أن تهيئ له الطعام، فقدمت له خبزاً وقليلاً من (المش)؛ وبعد أن أكل الرجل حضرت زوجته، فقدمت إليها والدتها طعاماً من البطاطس، فاغتاظ الزوج واستل سكيناً وطعن بها حماته طعنات أدت إلى وفاتها. وقد اعترف الجانى بجريمته، وعلل ارتكابه إياها بما فعلته المجنى عليها من إخفاء البطاطس عنه».

***

وقد أذكرت فى ذهنى تفاهة السبب الذى من أجله وقعت هذه الجناية ذكريات حوادث أخرى مما مر بى فى عملى، وكان السبب فيها جميعاً أتفه من أن يؤدى إلى نظرة عتاب، بله الضرب والطعن والقتل.

فمن ذلك أن رجلاً كان يجلس وسط جماعة من زملائه، فعطس؛ فشمته أحدهم بقوله: «خير!»، فضحكت الجماعة، وأسرّها العاطس فى نفسه، حتى كان يوم اختلى فيه بمن شمته، فانتهز هذه الفرصة وأطلق عليه عياراً نارياً فأرداه قتيلاً!

***

ولعل أعجب من ذلك ما حدث فى واقعة أخرى تقدم فيها فريقان من المتهمين إلى المحاكمة، كل فريق قوامه أربعة أشخاص، والتهمة المسندة إلى كل منهم أنه أحدث بأفراد الفريق الآخر إصابات تخلفت عنها عاهات مستديمة، وهى فقد أجزاء من عظام الرأس. وظهر من التحقيق أن الفريقين كانا يستعملان الفؤوس والمناجل والعصىّ الغليظة. كما ظهر من الكشف الطبى أنه أجريت لأفراد الفريقين جميعاً عمليات جراحية لرفع بعض عظام الجمجمة بعد أن تفتتت من أثر الضرب. وبذلك أصبحوا أحياء فى حكم أموات. لأن من يُعمل له مثل هذه العملية ينكشف مخه فى موضع العملية، ويظل هذا الموضع عرضة للمؤثرات الجوية وغيرها، فيتعرض صاحبه لخطر الموت فى كل وقت، وعند بذل أى مجهود.

فما ظنك بالسبب الذى أدى إلى هذه الكارثة؟

ستقول لا بد أن تكون أعراض كريمة قد انتهكت، فهذا دفاع عن الشرف الرفيع! أو أن تكون دماء عزيزة قد أريقت، فهذا أخذ بالثأر، واندفاع فى تيار الانتقام!

ولكن الواقع كان أبعد ما يكون عن هذا الجد! وكان السبب من أسخف الأسباب وأوضعها! وذلك أن أفراد الفريق الأول كانوا فى طريقهم إلى حقلهم ومعهم أدواتهم، ومن خلفهم كلب صغير لهم «فى القباء» صغير الجسم، أقرع الرأس اسمه «عاشور». وكان أفراد الفريق الثانى تحت شجرة يتناولون فى ظلها طعامهم، فأراد أحدهم أن يتفكه، فدعا الكلب إلى الطعام متهكماً بقوله:

— باسم الله يا سيد عاشور!

وكان الكلام مؤدباً ، فأجابه بقوله : هنيئاً لكم !

ولكن صاحبنا رد عليه بتلك الكلمة الصغيرة السخيفة التي اعتاد السفهاء أن يترنموا باسم عاشور كما ذكروه ، والتي اعتاد السخفاء أيضاً أن يضحكوا منها كلما سمعوها ، مع أنها لا تنطوي على دعابة ، ولا تحمل أي معنى من معاني الفكاهة

وضحك فريق الشامتين ، وتأذى أفراد الفريق الآخر من أن يروا أنهم يتخذه هؤلاء الناس هزواً ، فزحفوا إليهم ، وانهالوا عليهم ضرباً بما يحملون من فؤوس ومناجل ، واشتبك معهم هؤلاء بما معهم من عصى وآلات أخرى . وأسفر الحادث عن إصابة الجميع ، ولم يسلم من الأذى إلا بطلنا الصغير — عاشور !

* * *

وإني لأذكر بمناسبة هذا الحادث واقعة أخرى ، لعلها في سخافة سببها أغرب ما وقع لي من هذا النوع . وذلك أن جماعة من أهل الريف كانوا يجلسون على عادتهم في جرن من الأجران . وكان أحدهم يدخن لفافة ، فأخرج جاره علبة دخانه ، ولف لنفسه لفافة ، ولكنه — على عادة قومه أيضاً — لم يكن يحمل كبريتاً ليشعل به لفافته . ولست أدري كيف يكون هذا الكبريت التافه مشكلة مستعصية من مشكلات الريف عندنا . ويخيل إليّ أن القوم — لهوان أمر هذا الكبريت عليهم — لا يهتمون بشرائه ، ظناً منهم أنهم واجدوه كلما التمسوه . وتكون النتيجة دائماً أنهم يلتمسونه أبداً فلا يجدونه . فالبيت يبقى في الظلام وربما تدور ربته على كل جاراتها تسألهن عوداً من الثقاب توقد به مصباحها ؛ والفرن يبقى بغير إيقاد ، حتى توفق صاحبته إلى الحصول على ما توقده به من عند إحدى الجارات . وينطلق الصباح من الهواء فتتكرر مأساة البحث عن الثقاب من جديد . ويثور عند الرجل ميله إلى التدخين فيعد اللفافة ، ويظل يقلبها بين أصابعه ، أو يغرسها في جانب فمه ، أو يحملها فوق أذنه حتى يفتح الله عليه بمدخن آخر فيستجديه نار لفافته ، وهكذا . . .

وفي حالتنا هذه مد الرجل يده يستجدي لفافة جاره ليوقد منها لفافته . ولعل صاحبنا كان ضيق الصدر بهذه العادة الذميمة ، فرده رداً جافاً . وأبى عليه أن يسعفه بما يطلب . فلم يغضب صاحبنا ولم يثر ، ولكنه أودع لفافته بكل رزانة واستسلام فوق أذنه ، وانتظر حتى فرغ جاره من لفافته ، وألقى بها عقباً صغيراً على الأرض ، فأقبل عليه ، واحتال على مسكه وأشعل لفافته منه . وكأن هذا أيضاً لم يعجب صاحب العقب فنهره وعنفه ، وقام إلى عقبه فأطفأه ، ثم انتزع لفافة جاره فأطفأها هي الأخرى . ونشبت بين الرجلين معركة انتهت بأن ضرب صاحب العقب صاحب اللفافة ضربة خر على أثرها فاقد الحياة ! .

* * *

ويصعب على المستقصي أن يلم بكل ما مر به من أمثال هذه الحوادث ، ولكن حسب القارىء هذه الصور التي تمثل له نفسية بعض الناس في هذه البلاد .

ويخيل إلي أننا قد نكون أمة مسرفة في انفعالاتها . فإن أتفه الأسباب عندنا يثير بأوخم النتائج ، وأحقر البواعث يثير أشد الاضطرابات .

انظر إلينا كيف نضحك ! .

إن الواحد منا لا يرضيه أن يشيع السرور في نفسه . ولكنه لا يرتاح حتى يطلق ضحكة داوية عاصفة مجلجلة مزلزلة ! .

لقد كنت منذ أيام في قطار « الترو » ، وكان القطار يجتاز بنا نفق القبة . وكل من ركب هذا الترو يعلم ما يحدثه حديد العجل والقضبان من جلجلة يضاعفها الصدى الذي

ينبعث من جدران النفق في هذا المكان ، بحيث يتعذر الكلام بين الجارين المتلاصقين ، ومع ذلك فقد سمعت أحد الركاب يطلق ضحكة أزرت بكل هذا الحديد و « الأسمنت المسلح » ولفتت إلينا أنظار كل الراكبين !

ثم انظر إلى نسائنا كيف تحزن !

إن الدموع لاتكفي . وليس يقنعهن في الحزن إلا الصياح والعويل ، وشق الجيوب ولطم الخدود .

وإني لأذكر في خجل وأسف أني كنت في وقت من الأوقات أسكن في منزل يملكه أجنبي ، وكان لهذا الرجل ابنتان توأمان كانتا مضرب المثل في روائهما وحسنهما . وشاء القدر أن تموت إحداهما ، فأقسم ما عرفت بوفاتها — وأنا المقيم في نفس المنزل — إلا صدفة ، إذ شاهدت عربة الموتى تقف أمام الدار ، وعليها أكاليلها البيضاء ، فبعثت رسولي يأتيني بخبرها ، فجاء يبلغني أنها ابنة صاحب المنزل . ولو أن هذه الفاجعة وقعت لغير تلك الأسرة لما كفاها أقل من أربعين ليلة تحييها النادبات ، وتتبارى فيها نساء الحي في الصراخ والعويل ! .

بل انظر إلينا كيف نطرب ! .

إن مقياس الطرب عندنا أن لا نمكن المطرب من إتمام نغمته ! فنحن نقطع عليه غناءه بصياحنا في وجهه . ومنا من يلقي طربوشه في الهواء . ومنا من يرمي به إلى الأرض . ومنا من يكب على وجهه . ومنا من يستلقي على قفاه . بل إني لأعرف من كان يتفادى زملاؤه من أن يجلسوا بجواره في حفلات الطرب لأنه اعتاد أن يعض جاره كلما هزته نغمة حلوة فاستخفه الطرب وغلب على أعصابه !

وأغلب الظن عندي أننا أفسدنا بطريقتنا هذه أمزجة المطربين أنفسهم . فإن منهم من أصبح لا يجيد الغناء والتنغيم إلا في وسط هذا الضجيج والعجيج . ولست أريد أن أذكر أسماء ، ولكن كل قارىء يستطيع أن يستعرض مطربينا ومطرباتنا ومقرئينا ومقرئاتنا ، فسيرى أن معظمهم يجيد كل الاجادة في الحفلات العامة التي يشوشه فيها المستمعون بصياحهم وحركات استحسانهم ، وسيرى أيضاً أن بعضهم فشل كل الفشل عندما وضعوه في قاعات الاذاعة اللاسلكية أمام الميكروفون ، فلم يسمع فيها إلا صوت نفسه . ولم يجد من حوله من يحفزه إلى الاجادة والاتقان .

* * *

والخلاصة أننا في حاجة شديدة إلى ضبط أعصابنا . فإن من أكبر مظاهر الكرامة الشخصية أن يحتفظ الانسان لنفسه بانفعالاتها ، وأن لا يكشفها للناس مهتوكة الأستار مفضوحة المعالم . ويا حبذا لو جعلنا ضحكنا ابتساماً ، وحزننا تقطيباً ، وطربنا نشوة ورضا . إذاً لأعددنا أنفسنا إعداداً صالحاً لاجتياز أزماتنا النفسية الأخرى التي قد تنتهي بمن يستسلم لها منا إلى الخلط . . والشطط . . . وأحياناً إلى الجريمة !

ع . ج

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ قرشاً في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ٦ مليم

العاطفة والفكرة

للأستاذ علي أدهم

في مستطاع المؤرخين بدراسة السلائق النفسية ، والأنماط المختلفة من الأخلاق والأمزجة والملكات العقلية ، أن يجدوا في تراجم الحاكمين بأمرهم مجالاً للدرس ، ومتسعاً للبحث ؛ وقد أدخلهم بعض الباحثين في عداد العظماء صناع التاريخ ، ومحاور حركاته ، واستدلوا على ذلك بنجاحهم في تحقيق أغراضهم ، واستجابة أممهم لهم ، وسيرها خلفهم . وإني أستريب بهذا القياس العملي « البراجماتيكي » للعظمة ؛ وفي اعتقادي أن مجرد النجاح لا يكفي ليضفي على أي إنسان بُرد العظمة ويضعه في مصاف الأبطال ، وأرجح أن محاولة بعض المفكرين قصر العظمة على أمثال هؤلاء الطواغيت من مثيري الزوابع والأعاصير ، وسفاكي الدماء ، وهازمي الدول ، وسالبي حرية الأمم ، هو الذي جعل المؤرخ الانجليزي الكبير اللورد أكتون يقول كلمته السائرة : « عظماء الرجال جميعهم أشرار » . وقد تمقت أساليب هؤلاء القوم القاسية الملتوية ، وخططهم النكراء ، ولا تقر مبادئهم الهادمة القائمة على نكث العهود ، وانتهاز سوانح الفرص ، واستغلال مواطن الضعف في الطبيعة الانسانية ؛ ولكننا مع ذلك لا نجاريهم في تعصبهم الضيق الممقوت ، واجترائهم على الحقائق ، فلا نستطيع أن ننكر عليهم صلابة العزم ، والحيوية الجمة ، والهمة الوثابة ، والثابرة الدائبة ؛ وإذا كان أساس العظمة هو الارادة القوية المصممة ، والهمة القعساء الماضية ، بغض النظر عن الاعتبارات الأخلاقية ، فان نصيبهم من العظمة موفور ، وحظهم منها كبير . وقد كان كارلايل يقدر عظمة بعض أبطاله بما يبذلون من جهد ، وما يظهرون من تصميم وعزيمة ، وقد عرضه ذلك

لنقدات لاذعة ، وجعل تقديراته موضع الشك . ولا خلاف في أن الرجل الممتاز يحمل في نفسه ذخيرة من النشاط وقدراً ضخماً من الطاقة ، وتتملكه في بعض الأوقات أرواح أبعد همة وأكثر حركة من الروح الانسانية العادية ، فلا يقوى إنسان على مجاراته ، وقد تكون هذه الأرواح الغالبة شريرة مؤذية مخربة هادمة ، وقد تكون خيرة صالحة ، عاملة على رفع مستوى الانسانية وتقدم الحضارة ؛ ولكن وجه الامتياز وأساس التفوق ، هو أن هذه الأرواح تفوق القوى الانسانية المألوفة ، وتسمو على قدرة الأشخاص العاديين ؛ وهذه القوة الخارقة العجيبة هي سر تفوق هؤلاء الرجال ، سواء غلونا في ذمهم أو أسرفنا في مدحهم . ومثل موسوليني وهتلر وستالين هم من الرجال الذين تتملكهم أمثال هذه الأرواح ، أو تهفو بنفوسهم تلك الشياطين ؛ وقد توحي إليهم بأعمال لا نرضاها ، ولكنها مع ذلك لها قيمتها من الناحية التاريخية ، ومن ناحية الدراسة النفسية .

وقد فطن هؤلاء الرجال لمسألة نفسية مهمة ، كان لها تأثير كبير في نجاحهم ، وتهيئة الجو الذي أرادوا خلقه ، فقد أدركوا بالبداهة أو بالتفكير أن الشجاعة والاقدام وإنكار الذات والتضحية مصدرها جميعاً « الفكرة » لأن الفكرة هي التي تمدنا بالتصميم ، وتذكي الارادة وتبعث عوامد العزيمة ، والفكرة هي التي تحفز إلى العمل وتجعله متصل الحلقات مترابط الأجزاء موحد الغاية . وليس هناك شك في أن ما يختلج بنفوسنا من الأفكار هي في أصلها وصميمها عواطف وأحاسيس قد ارتدت ثوب العقل وأفرغت في قوالب الفكر ، ولكن ليس معنى ذلك أن الشاعر

والعواطف والأهواء أقوى أثراً من الأفكار ؛ فالشعور يمدنا بالطاقة ويحبونا الهمة التي لا تعرف الكلال، ولكن هذا المدد سرعان ما ينقطع تياره الزاخر ويغيض نبعه الفياض إذا لم تلبس مشاعرنا مسوح العقل، ولم تشع عليها ضوء الفكر، لأن إضافة الصبغة العقلية على المشاعر تنفي عنها في أكثر الأوقات، وتكون بديلا منها، وقد تثيرها عند ما تهدأ، وتورث نيرانها عند ما تخبو ؛ وليس في طاقة إنسان أن يظل في متعاقب الحالات ومختلف الظروف متقد العاطفة مستوفز المشاعر، والفكرة تبقى طوال الحياة ماثلة الخاطر مستقرة في الضمير. وإذا أقنعنا أنفسنا بصدق الفكرة ومطابقتها للحق فإن الفكرة نفسها تثير العاطفة، وتحدونا إلى أعمال لا تمليها علينا العاطفة أو تدفعنا إلى القيام بها إلا في حمى اللحظة، ودرجة الغليان ؛ وإذا قبل الانسان فكرة على أنها حقيقة فلا محدى له عن التأثر بها والسير في ظلالها ؛ والذي يسوقه حينذاك هو ما يسمى المبدأ الثابت الباقي لا العاطفة المتقلبة الزائلة ؛ وسيفرض عليه المبدأ نفسه إحياء الاحساس السابق الذي كان باعث الفكرة وموحيها ؛ ولكن الاحساس الجديد الذي تحركه الفكرة سيكون أكرم نشأة وأسمى محتداً، لأنه شعور طريف قد هذبته الفكرة وصقله العقل وطهره من شوائب المادة.

وفي تعزيز ذلك الرأي يقول برتراند رسل في مقال له قيم عن الحقائق والأحلام: « إن تأثير رغباتنا في معتقداتنا من المسائل الشاهدة المعروفة، ولكن طبيعة ذلك التأثير في الأغلب الأعم تفهم فهماً خاطئاً، وقد تعودنا أن نحسب أكثر معتقداتنا مستمدة من العقل، وعكس ذلك أقرب إلى الحق، لأن المعتقدات التي تسيرنا في حياتنا اليومية إن هي إلا تجسيم لرغباتنا ».

ورأي رسل صحيح في أن أفكارنا أو ما يسميه « معتقداتنا » مصدرها « الرغبة » أو « العاطفة »، ولكن الرغبة في أكثر الأحيان إذا أثرت تأثيرها وأجرت مجراها تختفي بعد ذلك خلف المعتقد وتتنكر في ثياب العقل ؛ فرغبة الناس مثلا في انتهاب أموال من يحسدونه على ماله الجم وثروته الواسعة، أو في إيذاء من يمقتونه لانتصاراته المتوالية في ميادين الحب، تأخذ في الغالب صورة سياسية أو قالب مبدأ أخلاقي أو قاعدة اقتصادية، فيصبح الغني المحسود مبعث كراهة، لأنه يمثل نظاماً سيئاً جديراً بالهدم، ويصبح المنتصر في ميادين الحب خارجاً على الآداب التي يجب صيانتها وإقامة حدودها. وإذا تم للناس إقناع أنفسهم بضرورة مقاومة هؤلاء الذين هم موضع الحسد لثروتهم أو لتفوقهم في الحب، فإن عاطفة الحسد ترتفع إلى مستوى « الفكرة » وتستحيل عقيدة من العقائد.

وإسباغ ثوب العقل على العواطف قد يأخذ صورة العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية والاجتماعية والنحل السياسية ؛ ولكن الفكرة على توالي الأيام يدركها البلى فتفقد قوة الحركة والقدرة على الايحاء ؛ وهنا تحدث الحيرة ويقع الاضطراب، لأن الانسان لا يستطيع أن يعيش على الأهواء والميول والعواطف وحدها، ولا مفر له من أن يضعها مذهباً من المذاهب ويصوغها في قالب فكري جديد.

وقد أجاد الحاكون بأمرهم فهم هذه العملية النفسية، لأنهم مارسوا هذه التجربة، فهم أنفسهم قد أضفوا على شهواتهم المادية ومطامعهم الترامية ثوب العقل، وأقنعوا أنفسهم قبل أن يحاولوا إقناع غيرهم من الناس بأنهم موفدون من قبل العناية، وأن آراءهم وحي منزل لا يأتيه الباطل، ثم لا يرغمون غيرهم على سلوك هذا الطريق ليثبتوا مكانتهم ويرضوا بغيابهم ؟ وهم يضعون الخطط ويحكمون التدبير، ويوهمون أنفسهم وغيرهم أنهم يعملون لصالح بلادهم ورفعة قومهم. وكثير من دعاة السياسة والدين والأخلاق يعملون للشهرة والمجد الشخصي،

ولكنهم يخفون ذلك ويمعنون في تجاهله، حتى يقع في روعهم أنهم إنما يعملون لنصرة المبدأ وتأييد العقيدة.

وقد أعانت الظروف الحديثة الحاكمين بأمرهم على تحقيق أغراضهم، لأن التفكير الفلسفي الحديث والتقدم العلمي والأحداث السياسية الكبيرة قد فرضت على الناس الشك فرضاً، سواء في السياسة أو الأخلاق أو الدين. وقد كانت أكثر الأفكار السائدة من قبل تستلزم الإيمان بالغيبيات، في حين أن الظروف الحديثة تغرى بالشك في الغيبيات والتعويل على المشاهد والملموس؛ ولعل ذلك نوبة من النوبات العابرة تتبعها موجة من الإيمان؛ ومن أجل ذلك أصبح إسباغ حلل الفكرة على العواطف والنوازع النفسية يبدو في صور أقرب إلى المشاهد والملموس.

وقد قدم هتلر لشباب النازي «فكرة» ملائمة ونظرة للحياة والكون تثير حماستهم وتتطلب ولاءهم. وكل حركة سياسية مهمة في حاجة ماسة إلى عنصر اليقين وقوة الإيمان، ولا يأتي ذلك إلا بعد خلق فكرة ملائمة لها. وقد كانت أكثر الحركات السياسية المألوفة لا تستلزم من الفرد الولاء الكامل والإخلاص المحض؛ ولكن النازية والفاشية والشيوعية لا تقنع إلا بذلك ولا يرضيها أن يسير الفرد تحت لوائين أو أن يعبد إلهين. ولسنا نستطيع أن نفهم شيئاً من أسرار هذه الحركات السياسية الحديثة إن لم ننظر إليها من حيث هي أديان وعقائد، فهي لا تحتمل مناظراً ولا تطيق معارضاً. والنازية عند الألمان دين رسوله هتلر، بل هو عندهم نصف إله لا مجرد رسول. ونجاح هتلر في ألمانيا يرجع بوجه خاص مرده إلى هذا العنصر الديني والعامل الصوفي، لأن النكبة التي حلت بالألمان من جراء هزيمتهم في الحرب الكبرى السابقة تركت الكثيرين منهم ينتظرون الخلاص، ويترقبون الطوالع؛ والطبيعة الألمانية تربة خصبة للأحاسيس الصوفية، والأفكار المثالية؛ وقد كان الشبان الألمان يتطلعون إلى شيء، خيال غامض يحدوه عنهم اليأس، وينقذهم من جحيم القلق والشك، ويقودهم إلى المجد، ويشعرهم بكونهم، ويرد عليهم ثقتهم بأنفسهم، ويدفع عنهم مخاوف العزلة والانعزال تلقاء الهزيمة والخيبة، ونضوب الآمال؛ وقد أدرك ذلك هذا الدرويش الجديد «هتلر» فطلب إليهم الطاعة العمياء، والتسليم التام، ليمحضهم النصح ويلتمس لهم البركات. والألمان يفرطون في كل شيء، فإذا أصابهم اليأس انحدروا إلى أعمق هاويته وأقصى قراراته؛ وقد رفعهم هتلر إلى مستوى عال من الثقة بالنفس، والإيمان بالقوة، والرغبة في التحدي والعدوان، وإنما فعل هتلر ذلك لأنه شاطرهم شعورهم، وعرف ماذا يفعل، وكانت غريزته موفقة وإدراكه صحيحاً؛ وقد فطن إلى أن القوة المادية وحدها لا تكفي لبلوغ غرضه وتحقيق رسالته، وإلى أن الفكرة هي التي تضم شتيت الأهواء، وتجمع مختلف الصفوف.

والعقيدة الأساسية عند النازيين هي قداسة الشعب الألماني الذي اختارته العناية لحكم العالم، وكل قوة تعترضه إنما هي قوة شريرة ويجب سحقها بلا رحمة، لأنها تعوق رسالته العالية، وأغراضه المقدسة السامية.

وقد حاول موسوليني أن يقوم بمثل ذلك، فجعل من الفاشية عقيدة في الحياة وموقفاً تجاه الكون، واستخلص من تعاليمها تفسيراً للتاريخ؛ وإيمان الفاشية بالدولة، وإيمان النازية بالشعوبية، وإيمان الشيوعية بالقيم المادية، هو ضرب من الدين، ولون ممتاز من ألوان إظهار الشهوات والعواطف والأهواء والمطامع في الغلائل المسجدية، والأوشحة المصبوغة، وهو يشبه من بعض الوجوه ما يسميه فرويد بالتسامي، وهو أسلوب ألفته النفس الانسانية لتخدع به نفسها، وتغالطها في الحقائق، ولتسمو بها طلب الخال، ولتؤمن حيث ينقصها الإيمان، ولتعمل حيث يعوزها الحافز إلى العمل؟

علي أدهم

هينريش بارت

رحالة جريء موفق

للأستاذ محمود الدسوقي

في الناس أفراد تجارم الأقدار المهام الجسام ، فيمضون لا يلوون ، ويندفعون إلى الغاية غير متلفتين ، وقد أوردنا في بعض أعداد الثقافة مثلاً آخر من الناس ، ونورد اليوم هذا المثال . إنه ليس من الذين يخفقون مع الحيطة والحذر ، أو ينجحون مع الصراحة وقصر النظر ، فرجلنا هذه المرة رزين رصين ، مقدام جسور . والرسالة البشرية التي تتحقق بالغريزة وتزجيها النواميس الطبيعية والدوافع الخفية ، تتحقق أيضاً بالمغامرة والاقدام . والغاية تكون آناً في صندوق مقفل فتدرك بالحيلة ، وتكون حيناً نصب العين فتكون دونها أهوال .

وقد خرج رحالتنا هذه المرة مغامراً مقداماً ، متعرضاً للمخاطر ، يترصده الموت في خطاه . فكيف كان ذلك ؟ كان أن لقي الصدفة والحظ في بعض غدواته ، فاستمسك بهما وحالفاه . الحظ الذي خان هورنيمان وبوركارت ، ففاجأهما الموت ولما يدركا غرضهما كله ، والحظ الذي والى غيرهما فأنجاه من الأخطار ، ووضع في يمينه الفوز الذي كان ينشده أحياناً لكنه كان في كل حال يرجيه .

ذلك هينريش بارت Heinrich Barth أول مرتاد حقيق للصحراء الأفريقية الكبرى Sahara ، وأول متوغل فيها إلى السودان . ولم تكن كل عدة هينريش بارت « حظاً » ولم تكن كل بضاعته « صدفة » ، فقد كان استعداده للبحث كبيراً ، وكانت موهبته في الارتياد غير عادية ، ثم لم يقطع النهاية إلى بورنو Bornu فحسب ، ولم يحقق الغرض الذي وضعته الجمعية الأفريقية اللندنية منذ تأسيسها نصب عينيها وحده ، بل وفق أيضاً إلى ارتياد المنطقة المحيطة ببحيرة « تشاد » في مواضع عدة ، وكان أول أوربي عاد حياً من زيارة تمبوكتو مدينة الصحراء المحفوفة بالأسرار .

والفضل يذكر لأصحابه . وبعض الفضل فيما أحرز هينريش بارت يرجع إلى رجل لم يكن نفسه مكتشفاً ، ولا خرج يوماً للارتياد ، بل كان عالماً ومشجعاً ؛ يرجع إلى الدكتور بيترمان Petermann الجغرافي واضع الخرائط الذي ساهم بقسط كبير في نهضة الاستكشاف في القرن التاسع عشر . وقد كان همه منصباً على المناطق القطبية والأفريقية الداخلية ، فلم يسافر أحد من الأوربيين إلى أفريقيا في عصره ، إلا اتصل به (بيترمان) ، وأثبت معالم رحلته في خريطة متقنة إذا كانت مما تفيد علم تقويم البلدان .

وكان بيترمان غاية بحسن اختيار من يخدمون أغراضه العلمية ، فلم تسافر بعثة إلى القطب الشمالي أو إلى أفريقيا في أواسط القرن الماضي إلا كانت له يد في تأليفها وتوجيهها . ولعل الفضل في أن تاريخ الاكتشاف قد خلد في القرن التاسع عشر من أسماء الألمان أكثر مما خلد في سالف الزمان — لعل هذا الفضل يرجع إلى بيترمان نفسه .

فقد كان وثيق الصلات بإنجلترا ، راعية الكشف والارتياد في ذلك الأوان ، فأقام فيها طويلاً ، ونجح في إشراك عالم ألماني في البعثة الانجليزية التي تألفت في سنة ١٨٤٩ برئاسة الانجليزي ريتشاردسون Richardson للعمل على إلغاء الرقيق ، وإنشاء علاقات تجارية بأواسط أفريقيا . والعلاقات التجارية هي الباب الذي يدخل منه الاستعمار ولا يخرج ؛ وقد لا يدرك فاعلوه الغاية التي لها يعملون ؛ وقد تكون عقيدتهم أنهم يعملون لوجه الله والانسانية والعلم ، فلا يمنع هذا الاعتقاد ألا يكون عملهم خالصاً لوجه الله والانسانية والعلم .

ونعود إلى هينريش بارت فنقول : إنه ألماني درس الفلسفة في الأصل ، لكنه ولع بعلم تقويم البلدان ، فاستمع إلى محاضرات العالم الألماني والجغرافي الشهير كارل ريتر Karl Ritter ، وجال حول البحر الأبيض المتوسط ثلاث سنوات ، مر في خلالها بفرنسا وأسبانيا وشمال أفريقيا ومصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ؛ فلا عجب أن يختاره ريتشاردسون للاشتراك في بعثة ريتشاردسون ؛ وقد ابتهج بارت بانضمامه إلى تلك البعثة ، ولم يخفه المصير المحزن الذي لقيه غيره ممن تقدموه ، ومنهم من ذكرنا في أعداد الثقافة ، ومنهم من لم نذكر . ابتهج بارت بهذا الانضمام إلى البعثة والاشتراك في مهمتها ؛ ولو علم أنه سيقضي فيها خمس سنوات مليئة بالمتاعب الجسام لفكر — على قول الغربيين — مرتين قبل أن ينضم . وقد تعاقب الموت على رفاقه فاختطفهم واحداً واحداً ، وكان هو الوحيد الذي بقي ليعود إلى وطن الانجليز ثم إلى وطنه بنصيب الأسد .

فقد قضى ريتشاردسون نحبه الجهد ، وقضى الدكتور أوفرويج — وهو ألماني آخر — فريسة الحمى ، وذهب كذلك هو الدكتور فوجل يفتش عن بارت فوجده ، ثم افترق هو ولم يستعد وطنه بعد ذلك ، إذ قتله بعض الأهالي في « واداي » . وقد حمل بارت على كاهله عبء البعثة بعد موت رئيسها ، فاصطبغت البعثة بالصبغة الألمانية بعد الانجليزية ، لكن « بارت » كان يمشي ، صلاته بأسباب الروح باسم انجلترة ، فظلت آثارها انجليزية . وقد ساهمت الجمعية الجغرافية البريطانية ، وساهم ملك بروسيا آنئذ في إعانة بارت وبعثته ، فكان لألمانيا نصيبها فيما أصيب البعثة من فضل .

بقيت تلك الصورة الغريبة المليئة بالأهوال ، التي تمثل من حياة هينريش بارت خمس سنين طوالا . فقد كانت المتاعب التي تعرض لها الرحالة في أسفاره — وهو بعد لا يتجاوز التاسعة والعشرين — متعددة الجوانب والوجوه . وإن نسى لا ننسى المناخ ، ذلك الهول الأكبر الذي أوردنا صورة منه في بعض فصولنا السابقة ، من حرارة الشمس المحرقة والعطش في فصل الجفاف ، ومن الرطوبة وخطر الحمى في فصل الأمطار . أضف إلى هذه المخاطر تجهم الأهالي الدائم ، وحبهم الدينية ، وكراهيتهم للسياح الأوربيين يدخول بلادهم ، والاطلاع على الخافي من أحوالهم ؛ وقد كانت هناك قبائل ومشايخ قبائل رحبوا بالغريب وأكرموا مثواه ، لكن السواد الأعظم في تلك الأصقاع كان يحس بسليقته أنه ليس من وراء هذا الاكرام خير .

وقد كانت البعثة تحمل من الهدايا والبضاعة والأموال الشيء الكثير ؛ وكانت تلقى في الطريق من هنا وهناك ما يعينها على أغراضها ، لكن كثيرها كان يقل تباعاً ، وكانت تتعرض من هذا الشق الأخطار . ومن يبسط يده مرة يصعب عليه قبضها بعد ذلك ، ومن يأخذ مرة لا ينفك من طلب المزيد .

على هذه الحالة المعقدة خرجت البعثة ، فكانت في مرحلتها الأولى مؤلفة من ثلاثة من الأوربيين هم ريتشاردسون ، وأوفرويج ، وبارت ، يقفون معاً ، ويتحدون الأخطار معاً . وقد خرجوا من طرابلس في سنة ١٨٥٠ قاصدين إلى مرزوق عاصمة فزان المذكورة في فصلنا السابق ، ليتوجهوا إلى الصحراء الكبرى . فانظر كيف كانت فاتحة الأخطار ؛ فقد كاد بارت يذهب ضحية الصحراء وهو في مستهل رحلته ، إذ حمله حب الكشف والاستقراء على معاينة أثر بعيد من الطريق كما فعل هورنيمان من قبل في سيوه ، فقصد إليه ومعه زق ماء ، ثم لم يلبث مع خداع الطريق ووعورته وبعد شقته من القافلة أن أدرك أنه لن تسعه العودة وهو على حاله من الجهد والعطش :

« لقد تلفّتُ من حولي وجلاً ، منهوكاً ، ساخطاً ، فلم أقع للقافلة على أثر . وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة ما يقيني أشعة الشمس فقد اضطررت إلى الاستلقاء في

موضع المرتفع ، لكن الراحة في غير ظل يتفيأ ومن غير زاد يتبلغ به كانت عزيزة ، وعلى ما بي من ضعف لم يكن في متناولي ولا قطعة خبز جاف أقضمها أو تمرة أزدردها . وكان ما معي من الماء قليلا يثير قلقي ، فلم يسمح إلا أن أرطب حلقي بجرعة يسيرة منه .

« وهالني ما خطر لي من أن تنتقد جماعتي الصغيرة أني سبقتها فتستأنف السير عند الظهر ، فاعتزمت على شدة ما ألقى أن أبلغ الخيم . وكان الحر شديداً ، والعطش قد نال مني ، فأفرغت ما تبقى في الزق في جوفي دفعة واحدة ، وكان الأوان ظهراً ، ثم أيت أن استبنت أن الماء وحده لا يجديني نفعاً » .

وحاول بارث أن يدل القافلة على مكانه بأطلاق مسدسه ، لكن أحداً لم يستجب لطلقاته لأن أحداً لم يسمعها . قال :

« تخاذلت قواي جميعاً ، وارتميت على الأرض أنتظر القافلة ، ثم نهضت أتلفت تخذلني قدماي ، ومالت الشمس إلى المغيب . وكان لا بد لي من مأوى أبيت فيه ، فترددت بين كوخ وشجرة كانت تداعبني من كثب ، وتلوح كنازحة البئر لجبابل الصادية . فاخترت الشجرة لأنها كانت فوق مرتفع من الأرض ، وجعلت أجر نفسي إليها جراً . وكان في عزمي أن أوقد ناراً لعلها تنفع في إرشاد القوم إليّ ، لكنه حتى القدرة على جمع شيء من الحطب كانت تنقصني ، فتناميت ، وأحسست بالحمى تستحوذ عليّ ، فارتميت فاقد الوعي تقريباً » .

ولع الرحالة في الوادي ناراً عظيمة ، فحاول أن يستغيث بإطلاق مسدسه .

«وأنصتّ وأصخت بسمعي طويلاً ، لكن السكون ظل مخيماً . ولم يكن سوى الهيب المتدلع يدلني على الغوث البعيد ، وانتظرت طويلا ، وأطلت الانتظار ، وأطلقت مسدسي كرة أخرى . لا جواب ! فارتميت ثانية واستسلمت لمصيري . ولم يكن النوم مما يفكر فيه ، فقد كنت

مرهقاً ترمي جوانبي الحمى ، فرقدت أنتظر اليوم التالي نصف متلهف ، نصف وجل .

« وأشرقت الغزالة وكنت أتلهف على شروقها ، فلما طلعت ملئت من طلوعها رعباً . ذلك أن حرارتها المتزايدة كانت تزيد حالي سوءاً . وقد لبثت أزحف تارة هنا وكرة هناك ، لأستبدل بموضعي الذي انحسر عنه الظل موضعاً ظليلا . وعند الظهيرة اختفى الظل الباقي ، ولم يرحم رأسي الذي أحرقته الحمى . وكان ألمي من العطش لا يوصف ، مع أني كنت أمتص دمي ، وأخيراً فقدت رشدي في بحر من الأحلام والهذيان ، فلما عاودني كانت الشمس قد توارت خلف الجبـال ، فاستجمعت قواي ، وزحفت مبتعداً عن ظل الشجرة العارية الأغصان ، وألقيت على السهل نظرة واهنة كدرة ، فسمع سمعي بغتة هدير بعير ، فنهضت عن الأرض قليلا ، فرأيت أحد مرافقينا يمر بي من قريب ، وهو يتلفت حائراً يبحث يمنة ويسرة ، وكان قد رأى آثار قدمي في الرمل ، فلما انقطعت هذه الآثار فوق الأرض الحجرية حار في أمري لا يعلم أين متجهي . وفتحت شفتيّ الجافتين ، وصحت بصوتي الضعيف : أطلب ماءً ، وكم أبهجني أن سمعت الجواب الموموق . وما هي إلا لحظات حتى كان منقذي بجانبي يغسل رأسي ويرشه بالماء ، وبعد أن أمشي على هذه الصورة محاذراً ، قدم إليّ جرعة ماء ، ثم احتملني إلى بعيره ومضى بي إلى الخيام . . . . . »

وتوغلت البعثة في الصحراء ، ودخلت مناطق جديدة لم تطأها من قبل قدم غريب ، وكلما توغلت زاد الخطر عليها من عداء الأهالي . وفي ذات يوم انضم إلى القافلة أناس أنكروا شبهها وتوجست منهم شراً . وسرعان ما أعلن هؤلاء الضيفان أنهم ينوون قتل المسيحيين الثلاثة . قال بارث :

« وقد لبثت أنا وأوفروج Overweg على رغم مسيرنا

التي لم ينقطع طوال النهار ساهرين على الحراسة طيلة الليل. وعلى ما كان يتهدد مركزنا من خطر لم أحجم عن التجوال فيما حولنا أنعم بالمناظر المحيطة. وبينا أنا على هذه الحال إذا «جبدى» أحد الرفاق الشقيه فيهم يباغتني من الخلف يريد أن يطرحني أرضاً. فلما لم يقو من مباغتته بطائل قبض من الخلف على مسدسيّ ليحميني بهذا من استعمالها، فدرت دورة أفلتني من ذراعيه، وتبين أن ليس ما يطلبه عندى:

«وما كان أعظم فزعنا حين لم نجد جمالنا في الصباح الباكر، فلما طلع النهار رأينا ضيوف الليلة الثالثة رابضين فوق ربوة صخرية إلى الجنوب، وقد انسلوا إليها قبل منتصف الليل، فهبطوا فوق دوابهم العالية الضامرة إلى السهل ودعوا رؤوس القافلة إلى التشاور».

واستعدت البعثة لدفع الأذى وأشرعت الأسنة فوق البنادق وانتظرت نتيجة المفاوضة. وانتهى الأمر بأن أخذ العدو مبلغاً من المال، وأكد للبعثة بعد هذا كلها أنه لن يصيبها أذى حتى تبلغ «تِنْتِيغُلُوست». واستأنفت القافلة المسير تحاذر ما قد يكون وراء الصخور والآكام من خطر جديد. وكان الأفق ينذر بالشر، وبأن العاصفة قد تهب في كل وقت.

ووافت موضعاً يمكن أن تحط عنده، وأملت أن ترتاح فيه من وعثاء السفر؛ لكن دليل القافلة يتحرف بثلة من السكان المشدود، وتتبعه القافلة في صمت مريب، وكأنها عدمت كلَّ إرادة وشعور. فتبين للبعثة أنها بإزاء محنة جديدة تختلف عن سابقتها، ولاحظت أن القوم يخفون أمراً يطوه.

لقد كان للموت منهم قاب قوسين أو أدنى؛ فهم يطالبون بالدخول في الإسلام أو يقتلون، وهم مصممون على الدفاع عن أنفسهم حتى آخر رمق. على أنه سرعان ما سوى الأمر ودفع الفدية، ونجا الثلاثة وتابعت القافلة السير.

ولم تكن هذه المحنة آخر متاعب الطريق، فإن الطبيعة تأبى إلا أن يكون لها أيضاً دورها. وقد كان هذه المرة سيلا عرماً، تفتحت به قِرَبُ السماء، فعم السهل والحزن، وأغرق المتاع، ومرغ الخيام في الوحل، واضطرت القافلة إلى الارتحال من الموضع المنكوب. وإذ كانت النجاة من الشيطان كما الجلالان اللذان كان يعطيهما بارت وأوفروج، وألقياهما في الماء. وكان التيار جارفاً فلقيا منه الأمرّين، وخرج بارت من سقطته حافي القدمين مقتدياً نفسه بالحذاء.

وبلغ المسافرون آخر الأمر «تنتلوست»؛ وفي سنة ١٨٥١ وصلا إلى «دامرجو». وهنا افترقوا، وتواعدوا على اللقاء في «كوكو» عاصمة بورنو ليدخلوها من طرق متفرقة، استجلاءً للمجهول واستزادة من العلم. «إلى اللقاء في «كوكو».

محمود الدسوقي

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة الباسل أمير تدمر عاصمة الصحراء الغنية ، وكانت زوجته الجميلة زنوبيا سليلة كليوباترة ملكة مصر ، وشبيهتها في الثقافة والذكاء والجمال . وعلمها لونجين الفيلسوف الرومي ، يقرأ لها كتب الشعر والفلسفة ، ويحدثها ووصيفتها السبحية نجس من دين المسيح ، حتى مالت إلى دينها . وجاءت الأنباء إلى تدمر بأن سابور ملك الفرس غلب امبراطور الروم فاليريان وأسره ، فغضب أذينـــة وهم بالاندفاع إلى حرب الفرس ، ولكن امرأته نصحته بالتمهل ، وعاونه على إرسال هدية إلى سابور ليستميله . وبقى أذينة في انتظار أنباء تلك الهدية في قلق عظيم . وخرج يشغل نفسه بالصيد السابح على عادته ، فأوقع وهو في اضطراب نفسه بابن أخيه معن وأمر بسجنه . ثم أتت الأخبار بأن سابور ألقى هديته في الفرات وسبه ، وأعلن الحرب . فثار الانتقام وذهب بجيش عظيم إلى حرب فارس . وهناك أوقع به هزيمة فاصلة عند الفرات ، وانتهى إلى طيسفون . وحدث في أثناء غياب أذينة عن تدمر أن أغار عليها أحد أمراء العرب ، ولكن زنوبيا قاومته ، حتى أتت أنباء انتصار زوجها فضعفت نفوس العدو عند سماعها ، ورفع الحصار . ولبثت زنوبيا زمناً بعد ذلك تنتظر عودة زوجها في لهف أنساها كل من حولها حتى وصيفتها السبحية ومعلمها الفيلسوف] .

مضت الأيام البطيئة ، وأقبلت الرسل تنبيء باقتراب أذينة مع جيشه من تدمر ، واستعدت زنوبيا ليكون استقبال الأمير الباسل متسقاً مع مجده وإعجابها وحبها .

وكانت المدينة قد ازدحمت بالأمراء وشيوخ القبـائل ورسل الملوك ، وقد جاءوا للاشتراك في لقاء الأمير المنتصر العظيم .

وكان يوماً آخر صافياً من أيام الخريف عندما خرجت زنوبيا في موكبها الحافل من الباب الأعظم لكي تنتقص من ساعات الانتظار قطعة ، وخفت معها تدمر كلها تلتقي أميرها الباسل العزيز .

وأقبل أذينة في صدر جيشه ، فكانت زنوبيا أول من حياه . ولم يحل جلال الموكب ولا ضجيج الجموع المحتشدة دون دفعة الشوق بين الزوجين الحبيبين .

ولبثت تدمر أياماً بعـد عودة أذينة في أعياد متصلة ومواكب متلاحقة . فأدى البطل بعد عودته فرائض الصلاة في الحرم الأكبر معبد شمس بعل ، ولم ينس أن يقدم القرابين في المعابد الأخرى كمعبد القمر مجلى بعل ، ومعابد اللات والعزى وشيعة القوم ودسار . ثم عرض جيوشه المنتصرة في أعلامها الخافقة ، وعرض غنائم فارس التي تبهر الأبصار بلألائها ونفاستها . وكانت الأسرى تسير صفوفاً بين تلك الغنائم ، بعضهم من الأمراء في قيود من الذهب ، وبعضهم من أبطال الفرسان في أغلال من الحديد . وسارت السبايا من بنات الأمراء والقواد وهن يتعثرن خجلاً في ملابسهن الممزقة لا يرفعن رؤوسهن للأعين المتطلعة ، وقد بدا ألم نفوسهن على صفحات وجوههن القلقة الربدة . وكان فيهن نساء سابور ، إلا إحداهن شيناز فقد ضن بها أذينة على الأنظار .

ولما فرغ أذينة من مواكبه أعلن في اليوم السابع من عودته أنه محتفل بنصره في منتدى تدمر الكبير .

وكان ذلك المنتدى فضاء فسيحاً على مقربة من قبة النصر الثلاثة الأبواب ، تحيط به المقاعد في نصف دائرة من الدرج الحجري يعلو بعضها بعضاً على هيئة مسارح الألعاب الاغريقية والرومانية .

واحتشد أهل تدمر منذ الصباح الباكر في ذلك

المتدى ، والتأمت صفوفهم على المقاعد الواسعة وتطالت عيونهم إلى الباب الأكبر ينتظرون إقبال الأمير فى موكبه. ولما علت الشمس فى تلك السماء سمعت ضجة الموكب فتعالى لها صدى من هتاف الألوف فى صفوفهم المتراصة ، وأقبل أذينة فى مركبته الذهبية المكشوفة يجرها أربعة جياد عربية بيضاء ، وقد أخذ هو بأعنتها واقفاً ، على حين جلست إلى جانبه امرأته الحسناء وعلى رأسها التاج الذى اعتادت أن تلبسه ، وفى مقدمته رأس الأفعى الملكية المصرية ؛ فتحرك الجمع فى مقاعده ، وعلا صياحه يردد اسم الأمير والأميرة مرحباً بهما فى حماسة ثائرة . ثم أقبلت بعد ذلك عربات أخرى فيها الأمراء والحاشية والوصيفات ؛ وكان فى طليعتها عربة يسوقها قائد حامية المدينة حسان ، وقد جلس بها الأميران هيرود بن أذينة الأكبر ووهب اللات أكبر بنيه من زنوبيا ، فتعالى الصياح مرة أخرى وتردد الهتاف باسمى الأميرين ، وكانت تحية وهب اللات أعلى حماسة وأصدق رنيناً . ثم أقبلت بعد ذلك عربتان فيهما سائر أبناء الأمير وبناته ، وترادفت بعدهما عربات العظماء ، ثم ركب رائع من القواد ورسل الملوك وفرسان الجيش ، على جياد عربية تملؤها الخيلاء وتفور فيها الحياة .

وتقدمت مركبة الأمير حتى بلغت المقصورة الذهبية فى طرف الفضاء المواجه لمقاعد الشعب ، فأوقف أذينة الخيل وألقى أعنتها على جانب المركبة ومد يده إلى زنوبيا ، وهو رافع رأسه مزهواً يبسم لها فى إعجاب ، ثم نزل وساعدها على النزول ، وصعدا معاً درجات المقصورة حتى بلغا مجلسيهما ، فاستقبلا الشعب الهاتف وألقيا إليه التحية ، فبسط أذينة ذراعه ممدودة وأحنت زنوبيا له رأسها بابتسامة ، ثم جلسا فى صدر المقصورة ، حتى إذا أقبل الأميران الصغيران أومأ أذينة إليهما بالجلوس ، فجلس هيرود عن يمينه ، وجلس وهب اللات عن يسار أمه ، وكانت ترمقه بعينيها وقد سال فيهما حنان الأم وإعجابها ، وأتى سائر بنى الأمير وبناته فجلسوا وراءهما ، وأقبل الأتباع فوقفوا على بعد ، وأقبلت الوصيفات فوقفن وراء الأميرة ، وكانت لبنى أقربهن إليها مكاناً . ثم أقبل الأكابر والأمراء فاتخذ كل منهم مجلسه فى مكانه ، ووقف الحراس حول المقصورة من تحتها ومن جوانبها ، واستقر الناس فى مجالسهم ينتظرون ابتداء الاحتفال .

ودبت الحياة فى الميدان الفسيح ، فاصطف فيه الفرسان صفوفاً ، كل صف منهم ينتظر أن يأتى الوقت المرسوم له لكى يعرض ما عنده من فنون الفروسية وحيل الحروب ، فتسابق جماعة من الفرسان ركضاً وهم قعود على الخيل ، ثم تسابق بعدهم آخرون وقوفاً على ظهورها يتحركون كأنهم قطع منها ، ثم تراكضوا يتطاردون ، ورموا على الأهداف بالسهام مرة وبالحراب أخرى ، ومثلوا اصطدام الحرب ، فرأى الناس كيف تعلو أصداء الحديد ، ومثلوا الكر وراء المنهزم ، والفرار أمام المطارد ، وعطفوا الخيل بعد الفرار ، فإذا بها تقف فجأة كأن قطعاً من الفولاذ قد أمسكتها ، ثم تستدير سريعة وتكر على الطاردين كأنها تشارك فرسانها فى تدبير الحيلة وإنفاذ الإرادة .

وكان الشعب كلما أعجبته حركة هتف وعلا ضجيجه ونادى باسم الفارس المبرز ، مظهراً إعجابه وتكريمه ، فكان حسان فى ذلك اليوم أعلى الفرسان ذكراً ، وأكثرهم تبرزاً ، وكان كلما أتى بحركة بارعة وعلا له الهتاف أسرع راكضاً ليؤدى إلى الأمير وزوجته تحية الولاء ؛ ولكنه كان فى كل مرة يلقى إلى لبنى نظرة سريعة ، ولا تفوته الابتسامة الخفية التى تبرق على وجه الفتاة . ولما انتهى الفرسان من عرضهم أذن المؤذنون فى الجموع المحتشدة أن وفد امبراطور الروم يقدم تحيته إلى الأمير .

وأقبل عند ذلك رسول جالينوس يحمل كتاب مولاه

في يديه حتى اقترب من مجلس الأمير ، فانحنى وثنى ركبته راكعاً ومد يديه بالكتاب في طومارة الذهب ، فتناوله أذينة ووقف إجلالاً ، ووقف من كانوا حوله جميعاً ، ثم ناوله إلى لونجين ، وكان منه قريباً ، وأمره أن يقرأه ، فوقف سمع الملكة وقرأ الكتاب بلغة الروم ، ثم أعاد معناه بالعربية ، وفيه يشكر الامبراطور أذينة على أن هب للانتقام لأبيه الأمير ، وهزم عدو الروم وكسر سيف الطاغية ، ولما أتى لونجين إلى آخر الكتاب رفع صوته قارئاً :

« أيها الأخ الباسل . إن دولة الروم الشريفة تفتح ذراعيها للملك الصديق حاكم تدمر وقائد جيوش الشرق وأغسطس العظيم أذينة »

فردد المؤذنون تلك الكلمات حتى بلغت مسامع الشعب ، وعلت صيحة طويلة ارتجت لها الأرض « أذينة أغسطس ملك المشارق وصديق الامبراطور ! » .

ولما انتهى لونجين من قراءته ، جلس أذينة وجلس الجميع ، ولا تزال قلوبهم خافقة ، وبقي الشعب حيناً يردد هتافه حتى أخذت أنظاره هدايا الامبراطور ، والجنود يحملونها من مواضعها في أقبية المنتدى ويرصونها تحت المقصورة الملكية . فقد كانت هدايا جديرة بدولة الروم وصديقها الباسل . ثم تتابعت الوفود واحداً بعد واحد تحمل كتبها إلى الملك الجديد وهو يتناول رسائلها في قراطيسها ذات الأربطة الذهبية ، ولكنه كان يتناولها جالساً ، ويعهد بها إلى لونجين كي يحفظها ، وكان كل وفد يتقدم مع كتابه هدية يتسلمها خازن الملك ، ويأمر الحراس برصها والاحتفاظ بها ، حتى علت الأكداس وملأت الفضاء الذي تحت المقصورة ! وكان من هذه الوفود وفد من مصر ، بعثه الأمير المصري ابيلياوس الذي هزم جيوش الروم واستقل بمصر من دولة القياصرة . فلما تقدم الرسول بكتاب أمير مصر ، لم يبال أذينة بما ظهر على وجه رسول أمبراطور الروم من الامتعاض والكراهة ، بل تحرك في مكانه وقال للرسول المصري :

« تحية كريمة إلى صديقي الأمير ابيلياوس الباسل » .

ولما فرغ أذينة من تلقي رسائل الملوك وقف مؤذناً بالانصراف . فوقف من حوله جميعاً ، وتحرك الشعب من مقاعده مبادراً إلى الطريق الأعظم ليقف على جانبيه ، ويشهد ملكه البطل الذي اكتسى في ذلك اليوم بمجد الملك الجديد .

ولما سار أذينة بين صفيه عائداً إلى قصره في موكبه الباهر تعالى له الهتاف بتحية صادقة ، اجتمعت فيها الحماسة للنصر المجيد ، والاعتزاز بمكان تدمر الجديد ، والإعجاب بالملكة الحسناء ذات الرأي والشجاعة التي رأوها من قبل تحل محل زوجها الباسل ، وتعرف كيف تقبض على السيف ، ثم رأوها بعد عودته تزين موكبه ، وتزيده رونقاً . ولما عاد أذينة إلى القصر دخل إلى إيوانه مع زوجته وبنيه وبناته ، وكأنه قد حن إلى أن يتم ذلك اليوم ليحوز ما لم يحزه من قبل ملك في تدمر ، بأن يجمع بين زهو النصر في ملأ شعبه ونعيم المحبة في ظل أهله ، ووزع فيهم الهدايا والطرف مما اختاره لهم من غنائم حروبه ! وكان أشد الأبناء فرحاً بما أهدى إليه أكبرهم الأمير هيرود ابن أذينة من زوجة كانت له قبل زنوبيا ! وكان في إظهار سروره بهداياه يصيح ويضحك في نبرات ناعمة وخفة ظاهرة كانت زنوبيا ترقبها بنظرة ساخرة فيها لون من الاغتباط ! ونظر إليه أبوه ملياً وتأمل مظهره ، ثم تنفس نفساً عميقاً وهو يرد عنه طرفه حزيناً . ولم يخف ذلك عن زنوبيا ، فسنحت على وجهها ابتسامة سريعة ، ولكنها كتمتها خوف أن يفطن زوجها إليها . فقد كانت تعرف أن هيرود المدلل الناعم لن يقف بين عرش تدمر وبين ابنها وهب اللات .

وبعد ساعة قام الأبناء إلى مخادعهم ، وبقى أذينة مع زوجته جالسين وحدهما يتناجيان ، وهزة اليوم الجيد لا تزال تملأهما زهواً ، وجرى الحديث بينهما فى مسارب ، وجعل أذينة يصف لها ما لم يجد من قبل فراغاً لإتمام وصفه من قصص حروبه ومخاطراته ، ومن آماله وخططه ، ومن صنوف ما أعده لأصدقائه من الثواب ، وما يبيته لأعدائه من العقوبة .

فالتفتت إليه زنوبيا ، وقد أحست أنه قد أمسك وقالت باسمة :

— وماذا أعددت لى يا أذينة ؟ إنك قد ذكرت كل من فى تدمر ولم تنس أحداً سواى !

فقال بصوته المريض ، وقد جذبها إليه :

— لم أذكرك لأنك بعضى ، بل لأنى أنا بعضك .

فقالت له مترددة :

— ولكنى كنت أنتظر . ولا أزال أنتظر .

فأجاب مسرعاً وهو يقبلها :

— سرينى يا مليكة تدمر .

فعادت تبتسم وقالت فى تدلل :

— أمليكة تدمر أنا ؟

فقال أذينة باسماً :

— بل مليكتى !

ثم ضمها إلى نفسه عاطفاً . فقالت زنوبيا بعد صمت قصير :

— أيكون لى أن أطلب العفو عن معن ؟

وكان ذلك الطلب مفاجأة لأذينة ، فوضع يده على جبينه كأنه يذكر شيئاً نسيه ، ثم عبس وقال فى كثير من الأسف :

— معن ! ويل امه . لقد كنت نسيته .

ثم نظر إليها جاداً وقال :

— وحق اللات لو ذكرته قبل خروجى للحرب لحملته معى . إنه فتى باسل ، ليكونن معنا فى مأدبة الليلة .

فقامت زنوبيا وقد استخفها السرور وقالت :

— أتبعث فى طلبه ؟

فقام أذينة وقال مبادراً :

— الساعة .

ثم اقترب من آنية صفراء من النحاس وضرب عليها بعود دقيق ، فتجاوب البهو بأصداء صوتها ، وأسرع خادم فدخل ينتظر أمر مولاه . فقال له أذينة :

— أسرع إلى حسان فادعه إلى .

وأسرع الخادم خارجاً .

فاقتربت زنوبيا من زوجها ، ووضعت ذراعيها حول عنقه ، ثم نظرت فى عينيه فضمها إلى صدره قائلاً :

— مليكتى ؟

ولكنها بقيت تنظر فى عينيه وقالت بصوت هامس :

— وطلبة أخرى يا أذينة .

فضمها مرة أخرى وقال وهو يقبلها :

— اطلبى ما شئت يا مليكتى — اطلبى شيئاً أحس فى تلبيته أنى أبذل . إنك تذكرينى بما كان يجب على ألا أنساه . فهل لك أن تطلبى ما يشعرنى بأنى أبذل ؟

فقالت ولا تزال فى موقفها :

— حسان !

فتبسم أذينة وهو يقول :

— بل قولى ليس .

فقالت له زنوبيا :

— إذاً قد عرفت ما أريد .

فقال أذينة :

— هى له ، وإن كلفنى ذلك حرباً جديدة .

وفى هذه اللحظة سمع صوت أقدام وفتح الباب ، ودخل حسان ووقف بعد التحية ينتظر ما يؤمر به ، فنظر إليه أذينة وقال :

اليـــــد (١)

لمؤنس الرزاز

إن عضو اللمس الممثل فى اليد يعد بحق من أعجب الحواس ؛ وذلك لأسباب شتى ، فإن أعضاء سائر الحواس مستكنة غير عاملة . أما عضو اللمس وحده فنشيط فعال ، فالعين والأذن والخياشيم من طبيعتها أن تكون مستكنة ينفذ إليها النور والصوت والرائحة . ونحن نرى ونسمع ونشم مضطرين غير مختارين ؛ ولكن اليد تختار الشىء الذى تلمسه ، وتلمس الشىء الذى ترغب فيه ، وتبعد عنها الأشياء التى تكرهها ، وتشير إلى الأشياء التى تريدها ؛ بعكس العين التى كثيراً ما تجبر على الرنو والاسفاف إلى مناظر مخيفة لا تستطيع التحول عنها ؛ ومثلها الأذن التى لا تجد مهرباً من سماع أصوات متنافرة ، والأنف الذى لا يقوى على اتقاء الروائح الكريهة .

وفوق ذلك فإن اليد لا تعنى بسد مطالبها واحتياجاتها فقط ، ولكنها تأخذ على عاتقها واجبات أعضاء الحواس الأخرى حين يلحقها عطل أو عطب . فيد الأعمى تسير أمامه وترشده فى الطرقات وتجوس به خلال المنعطفات ، وتتلمس له الطريق السوى ، وتجنبه مواطن التيه والضلال ، وتتفحص له وجوه أصدقائه ، وتخبره عمن رمقوه بنظرات العطف والحنان ، وتتلو الكتب فتقطع الساعات الطوال بظلمتها الصامتة الخرساء .

وكذلك تقوم بخدمة المرء حين يكم اللسان وتعم

(١) مترجمة عن الانجليزية .

— اذهب الساعة إلى معن فأطلقه من سجنه ثم ادعه إلى وليمة الليلة نائباً عنى .

فحيا حسان وهم بالخروج ، وقد بدا على وجهه سرور تخالطه الدهشة ، ولكن أذينة استوقفه وقال له ناظراً إلى زنوبيا :

— والمليكة أمر عندك فانتظر ما تأمر به .

فوقف حسان وانحنى إلى زنوبيا ، ونظرت زنوبيا إلى زوجها وتبسمت بسمة سريعة ، ثم التفتت نحو حسان وقالت له فى حماسة :

— أيسرك أن تكون ليس لك زوجة ؟ .

ففتح الشاب عينيه فى دهشة ، ثم ارتد خطوة إلى الوراء ورفع يده إلى وجهه كأنه يريد أن يلمس عينيه ليتحقق أنه فى غير حلم ، وقال بعد أن تمالك نفسه :

— مولاى ! .

فتبسمت زنوبيا وقالت :

— هذا ما أراده الملك رغبة فى إسعادك .

فأفاق الشاب قليلاً ، وأسرع نحو المليكة فجثا على ركبته ، وأخذ طرف ثوبها فقبله ، ثم ذهب إلى أذينة وحياه باسطاً عينيه وقال له :

— الأمير حياتى .

فتبسم له أذينة والمليكة وهما يومئان إليه بالتحية .

وما كاد يذهب حتى ذهبت زنوبيا نحو زوجها ووضعت يديها مرة أخرى حول عنقه ، ومالت برأسها على صدره الواسع ، وقالت وكأنها هامسة فى حلم :

— أيتها الآلهة . احرسيه واحفظى على سعادتى .

فجذبها أذينة برفق وذهب بها إلى مجلس أنيق فى ركن من البهو ، وعادا إلى حديث وديع .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

الأذن ؛ فإن أصابع اليد تتحدث ببلاغة إلى العين وتمكنها من القيام بوظيفة السمع ؛ وأعضاء الحواس الأخرى كلها في أكمل حالاتها ترتكن على اليد في تنظيم قواها وتعزيز وظائفها ، فهي تصوغ للعين صورة من ذاتها ، وتمنحها مرقباً تحصى به النجوم وترصدها ، وصورة أخرى تمدها بمجهر تستعين به على ولوج عالم جديد من العجائب .

واليد هي التي تحمل للأذن الآلات التي تهذبها وتنفذها في مسامعها حتى تتهذب قواها على أكمل ما يكون التهذيب ، وهي التي تقتطف للأنف الزهرة التي يتوق إلى استنشاق عطرها وتستقطر له نفح الطيب من كل عرق ندى يحبه ويؤثره .

أما اللسان فإنه لو لم يجد اليد لتخدمه لتخلى عن عرشه كرب الذوق ؛ وبالجملة فإن عضو اللمس هو خادم سائر الحواس .

وإذا كانت اليد تخدم الجسم بمثل هذه الأريحية فإنها لا تني عن إظهار عبقرية الإنسان وما أودع من نبوغ وذكاء وشجاعة ووجدانات وإرادة وقوة . ضع فيها سيفاً تحارب من أجله ، وضع تحت سيطرتها محراثاً تشق له أحشاء الأرض لتجود بغلاتها ، ضع فيها قيثارة توقع عليها أعذب الألحان ، وأعطها ريشة ترسم بها أعجب الصور ، وكونها قلماً تجود بالدرر الغوالي وتعرب عن أدق الميول .

أي شيء لا تعمله اليد ؟ بل أي شيء لم تعمله ؟ إن القاطرة ليست سوى يد مكبرة صنعت لتضاعف قواها بواسطة يد الإنسان الصغيرة ، وآلة الإشارة البرقية ليست إلا قلماً طويلاً تحركه اليد الصغيرة لتنقل به رسائلنا على جناح السرعة ؛ وكل مدافعنا الضخمة وسائر معداتنا الحربية التي تدرع بها إخوتنا في البشرية تمثل يد قابيل قاتل أخيه ، في شكل أكبر منها حجماً وأشد فتكاً . أما الباخرة ، أما خطوط السكك الحديدية . أما القطار . أما الصرح الباذخ . أما معالم المعمورة بل القارة التي تشمل الدائن ، لا بل كل ما تعمر به الكرة الأرضية ، فإنما هي صنيعة تلك اليد الجبارة التي تغذ الجنس البشري بوساطتها وتحقق رغائبه جميعاً ، وكلما فكرت في جلائل الأعمال التي قامت بها اليد البشرية منذ اليوم الذي مدت فيه حواء يدها الضالة لتقتطف الثمرة من الشجرة المنهي عنها إلى الآن ، وكلما تأملت ما فعلته الأيدي البشرية من الشر والخير منذ ذلك الحين ، أرتع بين الواهمة وأرنو إليها بين التعجب والرهبة ؛ فإنها من أدوات الخير ؛ وإنها من أدوات الشر ؛ وإ تصرفها العظيمة ؛ فأية آلة لا تجيد استعمالها ؟ بل أية آلة تكون بعيدة عنها في ساعات كدها وكدحها ؟ بيد أننا بجهلنا نقصر لفظة الصانع والعامل على أرباب الحرف الوضيعة ، مع أنها ينبغي أن تطلق على الناس المجدين المستقيمين النبلاء المجتهدين ، ويجب أن تكون الشعار الذي يتوق كل منا إلى اتخاذه .

إن الصولجان قد جعل ليد الملك ، والحسام ليد الجندي ، والمنشار ليد النجار ، والمطرقة ليد الحداد ، والمحراث ليد الزارع ، والنول ليد الحائك ، والمجذاف ليد النوتي ، والريشة ليد الرسام ، والأزميل ليد النحات .

وإذا لم تكن إحدى هذه الأدوات موافقة ليدك فإن سلسلة المجرم خليقة بأن تطوق معاصمنا ، وأغلال السجين لها أن تصفد أيدينا ؛ على أن لكل رجل مجد ، ولكل امرأة مجتهدة أداة يجب أن يحترم استعمالها ، والوصية الإلهية تهيب بنا قائلة :

« كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بكل قوتك » .

(مترجمة)

ذات المليمين

للأستاذ زكي نجيب محمود

لست أدري متى وكيف تسللت هذه القطعة من ذوات المليمين إلى نقودي، ولكن الذي أدريه في يقين هو أنها عمرت هنالك شهراً كاملاً، تنتقل من حيث أنتقل وتسير حيث أسير، تحاول جاهدة أن تجد سبيلها إلى الانفاق، وأنا أغالب طبيعة البشر فأعاونها في ذلك، فما أجد لها السبيل! ولست تدري شيئاً من هذا الصراع الدائم القائم بين المال وصاحبه، هذا يشد المال إلى جيبه شداً لا يريد له أن يشهد النور، والمال يحن لنفسه أن يتنفس الهواء الحر الطليق، فيجري دافقاً سيالاً بين أصابع المتعاملين! تارة تمسه أيد ناعمة لكنها تستخف به وتزدريه، وطوراً تظفر به أيد خشنة لكنها تتقبله قبولا حسنا وتكرم له المثوى! وإن ذلك لمن عجب الحياة الذي لا ينقضي، فإن طاب لك المأوى ألقيت به الشوك والحسك مما يستثقل النفوس ويزعج الصدور، وإن التمست لنفسك العزة وجدت مأواك خشناً غليظاً . . . ومهما يكن من أمر، فقد ألحت هذه القطعة تشد لنفسها الفكاك، وغالبت نفسي وعاونتها على الانفاق، ولكن كان لها القدر بالمرصاد.

فها أنا عند دار السينما أضرب بمنكبي مع الضاربين، لعلي أجد السبيل إلى شباك التذاكر، وقد ضربت حوله زحمة الناس نطاقاً يخنق الأنفاس، وأين من هؤلاء القوم من يواتيه حظه السعيد فيبلغ عتبة الشباك! إن عيون المزاحمين لتكاد تفتك به من حسدها له على توفيقه هكذا . . . وحان الحين وكنت أنا المرموق بهاتيك العيون الفواتك، ووقفت أمام الشباك أملأ عارضته برفق، ولكني أسرعت الحركة والكلام لتطمئن نفوس المنتظرين الناظرين فلا يحقدوا، وضربت يدي في جيبي وأخرجتها فقذفت بما أخرجت لبائعة التذاكر، فإذا بها ذات المليمين تتحرك على رخامة الشباك في رعونة الإيقاع . . .

وجلست في مقعدي مع طائفة من الأصدقاء، لا تزال بيني وبينهم حواجز الكلفة قائمة، يحاول كل منا أن يستر من نفسه الفقر والجهل والضعة، ليظهر الثراء والعلم ورفعة المكانة بين الناس، وجاء الخادم يتقاضانا ثمن ما شربنا، فسابقت الأيدي مخلصة إلى الجيوب — إنها تحرك أصحاب النخبة بشر معشار هذا الوفاء لأصحاب اليسار! — فهذا موقف من المواقف النادرة التي يتم فيها من يثبت للآخرين غناه، وأخرجت كل يد ما فيها على المنضدة في سرعة متلهفة! فقذف واحد بريال تحوي المضلات صحائح الربع، ونثر آخر جنيها من الورق بين أصبعيه، وقذفت على المنضدة بما حملت يدي مع القاذفين، فإذا بنصف ريال يأخذ مكانة لا بأس بها بين القذائف، ولكن دارت إلى جانبه ذات المليمين تحط من قدره وقيمته. وشاء الحظ العاثر أن تتعثر هذه القطعة المنكودة في دورانها حتى هوت إلى الأرض في رنين منثال، فانحنى أحد الأصدقاء إليها وردها إلي، فأخذتها والجبين يتندى من الخجل، فليس يشرف المرء في مثل هذه المواقف أن يضم جيبه شيئاً من ذوات الملاليم!!

وكنت أجالس فئة من رفاقي، وأرادت المصادفة أن يدور بيننا حديث أخذ يشتد فيه الجدال ويشتد حتى اضطرم واشتعل، فجاء زميل يجمع منا قدراً من المال نحسن به على خادم طاحت يد المنون بزوجه، وعجزت دراهمه أن تنقل الجثة من سريرها إلى القبر، فجاءنا يطلب الاحسان — والموت يقسو على الفقير كما تقسو عليه الحياة، فلا هو إن عاش حي بين الأحياء، ولا هو إن مات واجد سبيلاً ميسورة إلى مرقده الوثير! — ودار الزميل الكريم يلتقف من الأصابع ما امتدت به، وامتدت أصبعي فاعلاً مشتغلاً بما أنا فيه من الجدل،

وقد كنت أتصبر ، وإذا بالزميل يبتسم لى قائلاً : لا بأس فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وضحك الحاضرون جميعاً ، ونظرتُ فإذا بذات الليمين بين إصبعيه ، يجذبها فى حركة عصبية سريعة ، وفى بضع ألفاظ الأسف ، وأخرجت ضعف ما أحسن به الآخرون لأعوض هذه السقطة ، فإن أمثال هذه السقطات ترسم شخصية الرجل فى أذهان الناس !

حقاً أن العِرْقَ دسَّاسٌ ، ومن تجرى فى عروقه دماء النذالة والضعة هيهات أن يُخفى من الناس طويته ، فالنفس لابد يوماً مفضوحة بسلوكها ، ولو حاولت أن تسدل على مكنونها ألف ستار وستار . . . فهذه القطعة ذات الليمين — فيما يظهر — قد استغلت شبهها بذات القرشين استغلالاً دنيئاً خسيساً ، وأشهد الله أنى من إجرامها برىء ! فقد عَنَّ لى يوماً أن أسلك نفسى فى زمرة الوجهاء — ولست منهم فى عير ولا نفير — فركبت الترام فى الدرجة الأولى ، وجاء الكمسارى يجبى من الراكبين الأجور ، وكنت منه فى أقصى المقصورة ، فمددت له يدى بذات قرشين ، وأراد أحد الراكبين أن يعفينى على ما قصرت عنه ذراعى ، فأخذ منى قطعة النقد ليعطيها للعامل ، ورأيته ينظر إلى القطعة فى يده ثم إلىّ ، ولكن أدبه قد شاء له ألا يتدخل فى أمر لا يعنيه ، وناولها إلى بائع التذاكر ، فنظر إليها الرجل وقال : ما هذا ؟ فقلت : خذ قرشاً وهات قرشاً ، فقال : عشنا ورأينا ذات الليمين تخذ من جوفها القروش ! فأدخلت يدى إلى نقودى فى رعشة الخجل ، وأصلحت الخطأ ، وقصمت للرجل المعذرة بالابتسام والكلام . . . وأردت أن أثبت للجالسين براءتى — ووجاهتى — فأحسنت بذات الليمين إلى فقير قفز إلى سلم العربة يطلب الاحسان . . وانتهى بذلك كربح مؤلم طويل .

• • •

لكن الله الذى يضمر الخير فى الشر ، قد أراد لهذه القطعة الخبيثة ألا يذهب منى بلاؤها بغير درس مفيد ، بَصَّرَنى بناحية من طبائع الناس لذيذة ومضحكة معاً . . .

فقد جلست بين جماعة ذات مساء ، وكان فى الحاضرين أديب شابٌ ، لم يتجاوز العشرين ! هو الذى حشر نفسه فى زمرة الأدباء حشراً بغير دعوة منهم ولا قبول . ولست أعلم من ماضيه الأدبى إلا مقالة نشرتها له مجلة أسبوعية ، ولو اكتفى بهذا الحد من الأحلام لكان جميلاً ، لأن الأحلام الحلوة التى تنفع صاحبها ولا تؤذى الآخرين ليس بها بأس ولا ضرر ! ولكن الغرور أخذ من هذا السخيف مأخذاً شديداً ، فإذا به لا يكتفى أن يكون أديباً من الأدباء ، ولكنه — لو أنصف الزمان وعرف للناس أقدارهم — فى الطليعة منهم ، وشيوخ الأدب يقفون له بالمرصاد لا يخلون بينه وبين النشر ، لأنهم ينفسون عليه ما وهبه الله من عبقرية ونبوغ ! ! . فقلت لنفسى : أليس هذا بين الناس قطعة من ذوات الليمين تستغل شبهها بذات القرشين ، فتدس نفسها بين الريالات وأنصافها دساً دنيئاً قد يخدع الغافلين ؟ !

وحدثنى صديق أراد لنفسه الصدارة فالتحق بجمعية أعضاؤها طائفة ممتازة من علية القوم ، فخالطهم ، ولكنهم لما يخالطوه ، وهش لهم وابتسم ، ولكنهم تولوا عنه وعبسوا ، فجاءنى شاكياً باكياً من لؤم الطباع الذى يؤلم ويُشقى ! فقلت له وقد تلقيت العبرة من ذات الليمين : اعلم أن فى النقود ريالات ومليمات ، فإن وُجِدَتْ واحدةٌ من ذوات الليمين نفسها بين الريالات فظنت نفسها « عضواً » فى هذه « الجماعة » فأصابها ما أساء إليها وأشقاها ، فليس الذنب ذنب الريالات المتكبرة ، لكنه ذنب ذات الليمين ، لأنها أرادت أن تتكلف الأشياء ضد طباعها ، إذ أرادت — خطأ — أن تكون ريالاً .

زكى نجيب محمود

قصة للأطفال :

صندوق العجوز الساحرة

للأستاذ محمد خلف الله

كان الجندي راجعاً إلى بلده ، وليس معه من متاع الدنيا إلا سيفه وكيس صغير من الجلد يحمل فيه بعض ملابسه . وبينا هو يسير مرّ بساحرة عجوز واقفة على جانب الطريق ، فلما دنا منها حيّته قائلة : « صباح الخير ! إن الغنى والثروة شيء عظيم جداً ! أليس كذلك ؟ » فأجابها : « هذا شيء لا أعرفه ، فإن جيبي خال وليس عندي ثروة ولا مال » . فابتسمت الساحرة ابتسامة ماكرة وقالت : « إني أستطيع أن أجعلك غنياً . وإذا أردتَ الغنى فما عليك إلاّ أن تسمع لما أقول وتعمل به ؛ أترى تلك الشجرة القريبة منا ؟ اذهب إليها وانظر ، فستجد في جذعها ثقباً ، فادخل منه وانزل في سرداب يوصلك إلى مغارة مملوءة بالكنوز والذخائر ، وستجد هناك ثلاثة أبواب ، فافتح الأول منها فإنه يوصلك إلى حجرة في وسطها صندوق مملوء بقطع من النقود النحاسية ، وفوق الصندوق يجلس كلب كبير العينين كأن كل واحدة من عينيه طبق فنجان ، فإذا رأيت هذا الكلب فلا تخف ، ولكن احمله بين ذراعيك ، وضعه على هذا الكساء الأزرق المخطط ، ثم خذ ما تشاء من النقود .

أما إذا أردت نقود الفضة ، فافتح الباب الثاني ، فإنه سيوصلك إلى حجرة أخرى صغيرة في وسطها صندوق مملوء بالقطع الفضية ، يجلس فوقه كلب كبير العينين كأن كل واحدة من عينيه شباك مُدَوَّر ، فإذا رأيته فلا تخف ، ولكن احمله بين ذراعيك ، وضعه على الكساء الأزرق ، ثم خذ من النقود الفضية ما تُريد .

وإذا كنت تفضل الذهب ، فاذهب إلى الباب الثالث وافتحه ، تجد نفسك في حجرة أخرى في وسطها صندوق مملوء بالعملة الذهبية ، يجلس فوقه كلب كأن كل واحدة من عينيه قُبَّة كبيرة ، فلا تخف منه ، ولكن ارفعه بين ذراعيك ، ثم ضعه على الكساء ، وخذ من نقود الذهب ما تشاء » .

فلما سمع الجندي منها كل هذا تهلل وفرح ، وكاد من الفرح يقع على الأرض ، ثم قال لها : « إنك يا سيدتي طيبة وذات قلب رحيم ، ولكنك بالضرورة تنتظرين مقداراً كبيراً لنفسك » ! فأجابته الساحرة : « لا أريد نقوداً مطلقاً ، وكل ما أريده هو صندوق قديم كانت جدتي قد نسيت أن تحضره معها عند ما كانت هناك آخر مرة » .

قال الجندي : « هذا شيء بسيط جداً ، ولكني أحب أن أعرف كيف أنزل من ثقب الشجرة » . فأجابته : « اربط هذا الحبل حول وسطك واترك الموضوع لي » .

●●●

عمل الجندي بما أخبرته الساحرة ؛ فطلع الشجرة ، ودخل من الثقب الكبير في جذعها ، وظل ينزل وينزل وينزل ، حتى وصل سالماً إلى مغارة كبيرة قد أشعلت فيها أنوار كثيرة ، ونظر فرأى باباً ففتحه فإذا هو في الحجرة الأولى التي وصفتها له الساحرة ، فهنا هو الصندوق في وسطها ، وهنا هو الكلب الكبير العينين يجلس فوقه وكأن كل واحدة من عينيه طبق فنجان ، فتقدم الجندي ورفع الكلب ووضعه على الكساء الأزرق ، وفتح الصندوق وملأ جيوبه بالنقود النحاسية ، ثم غطى

الصندوق مرة ثانية ، ووضع الكلب كما كان ، وأراد أن ينصرف .

وفي هذه اللحظة لمح باباً آخر ففتحه ودخل فوجد صندوقاً كبيراً يجلس فوقه كلب كأن كل واحدة من عينيه شباك مُدَوَّر كما أخبرته الساحرة ، فرفع الكلب ووضعه على الكساء الأزرق المخطط ، ورفع الغطاء فرأى كنزاً كبيراً من النقود الفضية ، فأفرغ ما في جيبه وملأه إلى آخره بالفضة ، ثم وضع الكلب وهمّ بالانصراف ، ولكن عينه وقعت على باب ثالث ، ففتحه فإذا صندوق كبير في وسط الحجرة ، وعليه كلب كبير العينين كأن كل واحدة من عينيه قبة كبيرة ، وقد كاد الجندي يخاف من هذا المنظر ، ولكنه تذكر ما أخبرته به الساحرة ، فاستجمع شجاعته ، وحمل الكلب ووضعه على الكساء ، ثم كشف غطاء الصندوق فلم يكد يصدق نفسه لما رأى النقود الذهبية البراقة ، وبغاية السرعة ملأ يديه وحشا جيوبه ، ولكنها كانت مملوءة بالنقود الفضية من قبل ، فقال في نفسه : لماذا أحتفظ بالفضة وقد وجدت الذهب ؟ وخلع كسوته وأفرغ كل ما فيها من نقود ، ثم ملأ جيوبها بالذهب ، وغطى الصندوق كما كان ووضع عليه الكلب ، وسار في طريقه صاعداً إلى جذع الشجرة ، ولكنه سمع الساحرة تناديه من أعلى : « لا تنس صندوق القديم » . فرد عليها : « لقد نسيت » ثم رجع وبحث عن الصندوق حتى وجده ، ثم سحبته الساحرة من جوف الشجرة ، وعاد إلى سطح الأرض ، فسأل الساحرة قائلاً : « وماذا تصنعين بهذا الصندوق القديم ؟ لا بد أن تكون له قيمة عظيمة ؟ » ولكن الساحرة لم تجبه ، بل ظل نظرها محدقاً في الصندوق . فقال لها الجندي : « أخبريني من سرّ هذا الصندوق ، فإني موقن أنّ له سراً ، وإن لم تخبريني قطعت رأسك » . فصاحت المرأة العجوز : « أعطني صندوقي فإن معك ذهباً كفاية ، أريد أن تنتصب مني صندوق ؟ » فأجابها الجندي بكل خشونة : « نعم » ثم سحب سيفه وقطع رأسها ، وحمل كيسه على ظهره وذهب إلى مدينة قريبة .

* * *

عاش الجندي في تلك المدينة عيشة الأغنياء ، فاتخذ له قصراً عظيماً وخدماً وحجاباً ، واجتمع حوله أصدقاء كثيرون . ولم يزل على ذلك حتى صرف كل نقوده ، فاضطر إلى مغادرة القصر والبحث عن حجرة صغيرة يسكنها في الحي الفقير من المدينة .

وبينما هو جالس وحده في مساء ليلة مظلمة لا مصباح عنده ولا نور ، تذكّر الصندوق القديم ، فأخرجه من مكانه المنسيّ المهجور ، وفتحه فوجد في أسفله بعض قطع من الصوان ، فقدح واحدة منها فطارت منها شرارة ، ثم انفتح باب الحجرة فجأة ، ودخل منه كلب كأن كل واحدة من عينيه طبق فنجان ، وقال : « ماذا يأمر السيد خادمه ؟ » فتعجب الجندي وقال في نفسه : « هذا هو سرّ الصندوق ، وإنه سيحضر لي كل ما أريد » ، ثم قال للكلب بصوت الآمر الناهي : « هات لي بعض نقود » فاختفى الكلب ثم عاد بعد دقائق يحمل في فمه كيساً كبيراً مملوءاً بالنقود .

عرف الجندي بعد هذا أنه كلما قدح الصوانة مرةً حضر الكلب الذي يجلس على صندوق النحاس ، فإذا قدحها مرتين حضر كلب الفضة ، فإذا قدحها ثلاث مرات حضر الكلب الذي يحرس كنز الذهب . وفي ذلك اليوم لم يكن في المدينة أحد أسعد من ذلك الجندي ، فإنه رجع إلى قصره العظيم ، وعاد إلى حياة العز والعظمة .

وكان في تلك المدينة أميرة جميلة أخبرها المنجمون في صغرها أنها ستتزوج من جندي من العامة ، وقد غضب أبوها السلطان لهذه النبوءة ، فحبسها في قصر من

النحاس ، وغلق عليها الأبواب ، ولم يسمح لأحد أن يزورها إلا هو والسلطانة . فلما سمع الجندى بقصة هذه الأميرة الجميلة صمم على رؤيتها مهما كلفه ذلك من الأخطار ؛ فقدح الصوانة مرة ، واستدعى كلب النحاس وأمره بإحضار الأميرة من غير تأخير . أطاع الكلب الأمر وذهب ، ثم عاد بعد قليل يحمل الأميرة وهى نائمة مستغرقة فى النوم ، فلما رآها الجندى اخذ يحملها ، ومال عليها فقبل جبينها ، وأمر الكلب بأن يأخذها ثانية إلى قصرها فى سلام وأمان .

وفى اليوم التالى أخبرت الأميرة أمها السلطانة أنها رأت رؤيا غريبة ؛ رأت كأنها ركبت على ظهر كلب كبير ، وأنه سار بها حتى وصل إلى بيت فيه جندى وأن الجندى قبَّلها .

فقالت السلطانة فى نفسها : « هذا حلم عجيب ؛ لا بد أن أبحث هذا الأمر ، وأعرف أين تذهب الأميرة ؛ وفى تلك الليلة ربطت كيساً صغيراً من الدقيق على وسط الأميرة ، وقبل أن تذهب جاءت بمقص من ذهب وثقبت به خروقاً صغيرة فى الكيس ، وكان قصدها من ذلك أن تعرف المكان الذى تذهب إليه الأميرة ، فإنها — بالطبع — إن خرجت تساقط الدقيق من الكيس على طول الطريق ؛ وهذا هو الذى حصل . فإن الجندى قد وقع فى حب الأميرة الجميلة لما رآها ، وقد أرسل إليها الكلب ليحضرها مرة ثانية ، فذهب وحملها وسار مسرعاً من قصرها إلى بيت الجندى ، وتساقط الدقيق على طول الطريق .

وفى الصباح التالى أخبرت أمها أنها رأت الرؤيا نفسها مرة ثانية ، فأسرعت السلطانة إلى الشباك ونظرت فرأت الطريق معلماً بالدقيق ، فنادت الحراس والخدم والحجاب وأمرتهم بأن يتبعوا علامات الدقيق حتى يصلوا إلى البيت الذى تنتهى عنده فيقبضوا على صاحب البيت . وفى الحال ذهب الحراس وقبضوا على الجندى وألقوه فى غيابة السجن لينتظر تنفيذ الاعدام فيه فى اليوم التالى . وقد بقى الجندى فى سجنه يفكر ويتحسر على أنه لم يحضر معه الصندوق ، ثم نظر من نافذة السجن فرأى غلاماً صغيراً مارّاً قريباً منه ، فناداه ووصف له النزل والصندوق وقال له : « إن أنت أحضرت لى الصندوق أعطيتك قطعة من الذهب جزاء تعبك » . ففرح الغلام بهذا الوعد وجرى ثم عاد بعد لحظة ومعه الصندوق ، فانشرح صدر الجندى وعرف أن همومه ومتاعبه قد زالت . ولكنه سمع الحراس بأن يأخذوه إلى المشنقة حيث السلطان والسلطانة ورجال الحاشية وجمهور كبير من الناس ينتظرون ليشهدوا تنفيذ الإعدام فيه .

وقد تم كل شىء ، وبدأ الجلاد يستعد لأداء مهمته ، وعندئذ التفت الجندى إلى السلطان وقال : « أتسمح لى يا مولاى أن أدخن سيجارة ؟ » وفى أقل من لمح البصر أخرج الجندى صندوقه وقدح مرة ومرتين وثلاثاً ، فحضرت الكلاب الثلاثة ووقفت أمامه . وعندئذ صاح الجندى قائلاً للكلاب : « احمونى ، احمونى ، لا تتركوهم يشنقوننى » . فانطلقت الكلاب بين جماهير الناس تدفعهم هنا وهناك ، وساد الهرج والمرج فى المدينة ، وهجم كلب الذهب على السلطان والسلطانة يدفعهما ويقذف بهما فى الهواء حتى قتلهما .

وعند ذلك صاح الناس جميعاً : « نريد الجندى سلطاناً علينا ، هيّا أجلسوه على العرش ، وضعوا التاج الذهبى على رأسه ، وزوجوه الأميرة ، واجعلوه حاكماً علينا » . واندفعوا جميعاً نحو المشنقة فأطلقوا الجندى . وذهب جماعة من الحراس إلى قصر النحاس فأطلقوا الأميرة ، وساروا بها إلى ميدان المدينة حيث وقف الناس جميعاً فى انتظارها يصفقون ويهتفون ، وبعد ما هدأت أصواتهم وقف وزير السلطان ، وأعلن أن الأميرة قد قبلت زواجها بالجندى .

وفى اليوم التالى أقيمت الأفراح ، ولبست المدينة حلة من الزينات والأعلام ، وتم زواج الجندى والأميرة ، وعاشا معاً طول الأيام فى أمان وسلام .

محمد خلف الله

زيد المريض

للدكتور محمد عبد الحميد بك

طغت الأسماء التاريخية الحديثة ، أسماء هتلر وموسوليني وتشرشل وستالين وإيدن ومن إليهم ، وعمت الأسماء النحوية القديمة ، أسماء عمرو وزيد وبكر وخالد . وهم الذين إذا اختصموا وضرب بعضهم بعضاً كانت خصومتهم شريفة نافعة تعلمنا القواعد النحوية من رفع الذي وقع منه الفعل ونصب الذي وقع عليه مثلا . ولقد رأيت أن أبعث أحدهم من مرقده ، وهو زيد ، وأتكلم عليه مريضاً لأبين ، فيا بعد ، كيف يمكن تبليغ رسالة الطب إليه في مرضه .

وما مرضه إلا مسألة اجتماعية ، ذلك لأنه فرد من المجموع . ويمكن اعتبار جسمه مؤلفاً من أنواع مختلفة من الخلايا الصغيرة ؛ ولكل نوع من هذه الخلايا التي يعد الجسم ملايين الملايين منها ، عمل خاص تتوفر عليه ، وتنصرف إليه بكل حذق ومهارة .

ومن الغريب أن هذه الأنواع من الخلايا تقوم بعملها بغير تنافس بينها ، فلا يحاول نوع منها الاعتداء على نوع آخر ، كأن مجموعة خلايا الجسم ديمقراطية تعاونية !

وأغرب من ذلك أن كل نوع من الخلايا يحقق عملا خاصاً يؤلف غاية معينة ، وتقوم بعملها لخير نفسها ولخير خلايا الجسم عامة .

فجسم الانسان نظام اجتماعي لا يدانيه أي نظام سياسي في ترتيبه وكفايته ، لأنه مبني على الأصول العلمية . فقدرة الجسم على الحركة ، وقوته على هضم الأغذية ، وأجهزة الدورة الدموية ، وأجهزة المجاري البولية وغيرها ، وطريقة التناسل ، كل أولئك يتم على أبدع ما يمكن من الدقة والوفاق والنظام . ولا يحدث خلل أو اضطراب إلا بمؤثر خارجي أو داخلي .

والخلية بقيامها بواجبها تخدم نفسها أولاً ، وتخدم مجموع الخلايا ثانياً . فكأنها تحب ذاتها ، وتحب غيرها في الوقت نفسه .

ولزيادة الايضاح أضرب للقارىء الكريم مثلاً الخلايا الكبدية . فهي تحقق عمل الصفراء التي تصنع في مصنع مركزي هو الكبد . ولا تصنع الصفراء في أي جزء آخر من الجسم . فإذا قامت خلايا الكبد بعمل الصفراء أرسلت إلى المعى الدقيق لتختلط فيه بعصارات أخرى . وهذا عمل لخير المجموع وهو الجسم كله . وفي مقابل ذلك تحظى الخلايا الكبدية بحرية العمل ، وحرية نقل منتوجها ، وبالحرارة ، وبالغذاء . وهذه وظائف تقوم بها طوائف من الخلايا الأخرى ، التي لا تساهم في عمل الصفراء ، وإن كانت تحظى بنصيبها من مزايا الصفراء .

ولننظر الآن ماذا يكون الأمر إذا سعى المرض إلى إنسان كزيد أو سعى هو نفسه إلى المرض . لقد كان زيد شاباً قوي البنية ، متملع الأعضاء ، مفتول الساعدين ، حسن الشكل ، ظريف الهيئة . ولقد حدث أن ذهب زيد ذات ليلة إلى أحد المراقص العامة فقتن فيه فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماء . فقد حانت منه إلى إحدى غانيات الرقص الفاتنات نظرة كالتي ذكرها المرحوم شوقي بك في قوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقد لا يدرك غير الطبيب ما في هذا البيت من حسن التنسيق من الترتيب الفسيولوجي ، إذ تنبه بعض أعضاء الجسم بمؤثر خارجي كرؤية امرأة فتانة المحاسن ، جميلة المجرد ، حسنة المحاسر ، ممشوقة القد ، هيفاء القوام ، فاترة اللحظ ، لا يقع الطرف على أجمل منها صورة .

وقتئذ تنبه بعض أعضاء الجسم فتدفع في الدم أنواعاً معينة من الهرمون، فتحدث الاستجابة فالسلام فالكلام فالموعد فاللقاء:

ولقد تم لزيد هذا اللقاء. وكان فيه ما كان مما لست أذكره.

وما أصدق شوقي في قوله بعد البيت الثالث:

ففراق يكون فيه دواء   أو فراق يكون منه الداء

ولقد غادر زيد فتاته بفراق كان منه لسوء حظه الداء، إذ حل معه ميكروب السفلس (الزهري).

وقد أهمل زيد الأمر، فلم يخضع للعلاج الناجع، فتغلغل المرض في جسمه، وتأثرت كبده فيما تأثر من الأعضاء، فتولدت فيها خلايا من النسيج الضام بفعل الميكروب، وزاحمت الخلايا الكبدية فعطلتها من إفراز الصفراء. وهي من أهم العصارات الضرورية لهضم ما يتناوله الانسان من الغذاء. فإذا عطل الهضم من قلة الصفراء، تأثرت خلايا الجسم كلها.

وهي حالة قريبة الشبه بالأزمة المالية التي تحدث في بلد من البلاد، إذ يتعطل الانتاج والتوزيع والتبادل في أنحاء البلد. ويتقدم المرض في الكبد يزداد العطل في سائر الأعضاء، وقد ينتهي بالموت، ولا ذنب للكبد أو لخلاياها، لأن المؤثر خارجي.

ومن ذلك يتضح أن نظام الخلايا في جسم الانسان نظام بديع يفوق في دقته وإبداعه كل الأنظمة السياسية، فليس فيه برلمان، ولا أغلبية، ولا أقلية، ولا انتخاب، ولا تحكم حزب في المجموع، ولا دكتاتورية، ولا طغيان ولا استبداد. فتبارك الله أحسن الخالقين. هو نظام اقتصادي جدير بالدرس والنظر فيه. فنوع من الخلايا كالخبازين لا تحذق إلا صناعة الخبز ولا تعمل إلا الخبز، ونوع من الخلايا كصانعي الأحذية لا تحذق إلا صناعة الأحذية ولا تعمل إلا الأحذية. ونوع من الخلايا كالكهربائيين تحذق صناعة الوصلات الكهربائية.

والخلايا التي كالخبازين تتناول كل ما يلزمها من الأحذية، والخلايا التي كصانعي الأحذية تتناول كل ما تحتاج إليه من الخبز. أما الخلايا التي كالكهربائيين فتتناول كل ما يلزمها من الخبز والأحذية في مقابل ما تقوم به من خدمة الوصلات الكهربائية. وكل أولئك يتم بإبداع مشبع بروح التعاون. فلا يأخذ نوع من الخلايا أكثر مما يحتاج إليه أو أقل. فإذا حاول نوع من الخلايا أن يتناول أكثر من حاجته أو أكثر من غيره بغير ما سبب يقتضي ذلك — كما يفعل بعض الناس جمعاً للثروة وحرصاً عليها — اختل التوازن في الجسم، كما يختل في المجتمع الانساني في بلد من البلاد تنحصر ثروته في أقلية من سكانه. فإذا حدث ذلك في المجتمع الانساني انتشر الفقر بين أغلبية السكان في البلد. ويعالج الدين الاسلامي هذا المرض الاجتماعي بفرض الزكاة بأنواعها المختلفة اتقاء لما عسى أن ينجم منه من الخطر الذي يهدد المجتمع بالتدهور! وهذا ما يحدث في جسم الانسان.

ولأضرب للقارئ الكريم مثلاً السرطان — وقانا الله شره — ففي هذا المرض تطغى بعض أنواع من الخلايا ولا تقوم بواجبها وتؤثر نفسها بزيادة من الغذاء، فيضطرب أمرها وتتدهور وتكون وبالاً على الجسم كله. ويعالج الطب السرطان باستئصاله في أول أمره.

وياحبذا لو أفهمت المدنية الحديثة على نظام الجسم الانساني البديع الذي هو المثل الأعلى للدقة والوفاق والاخاء والمساواة. فخلايا الجسم كلها تتمتع بهذه المزايا على السواء. فالخلايا الكلوية مثلاً تقوم بفرز بعض نفايات الجسم وإخراجها في البول. وهي تقوم بعملها هذا ليل نهار، صباح مساء، بغير انقطاع وبغير اعتداء على غيرها وبغير إفراط أو تفريط. وتقوم بهذا العمل متعاونة في وفاق ووفقة مع سائر خلايا الجسم. والغرض الأساسي لهذا الوفاق هو حفظ الجسم بصحة جيدة.

محمد عبد المجيد

الثروة المعدنية والحرب الحاضرة

[مترجمة عن مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية]

للثروة المعدنية أثر كبير في التقدم في وقت السلم أما في الحرب فتكاد تكون الثروة المعدنية هي العامل الأكبر في الفوز، لأنها هي التي تنتج المدافع والقنابل والدبابات والطيارات والسيارات والسفن الحربية على اختلاف أنواعها. فهي بوجه عام آلة الحرب وعدتها وسلاحها، وكذلك الوقود عامل مهم في إدارة المصانع ودفع عجلات النقل في الجو والبر والبحر.

وليست المناجم معيناً لا ينضب، لأنها تنقص بقدر ما نأخذ منها، ولذلك كانت عرضة للنفاد، وإذا نفد معينها مرة فقلما تجود عليك بشيء مرة أخرى.

وقضية الثروة المعدنية وتوزيعها والنزاع عليها قضية حديثة في الواقع، لأن حاجة الأمم الصناعية في هذا العصر للمعادن حاجة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم.

ويقول العلماء إن الأرض فيها مئات من المناجم لم يستغلها الإنسان بعدُ، غير أن الحقول التي يستمد منها العالم الآن ثروته المعدنية حقول محدودة في بقاع معينة. وهذه الحقول المعروفة أيسر إنتاجاً وأضمن ثروة.

ثم قد تكون الأرض غنية بالمعادن، ولكننا قلما نجد أمة فيها كل حاجتها من أنواع المعادن المختلفة بحيث تستطيع أن تسد مطالبها في الصناعة أو مطالبها في الحرب.

وهناك عامل مهم يجب أن يتوفر في سبيل الحصول على المعادن، ذلك هو طريق المواصلات. ففي السلم يمكن نقل المعادن إلى المراكز الصناعية. أما في الحرب فتتعرض المواصلات للتعطيل؛ وفي الحرب العظمى كان نقص المعادن الأساسية عاملاً قوياً من عوامل هزيمة ألمانيا.

لذلك رأينا في هذه الحرب أن ألمانيا وجهت اهتمامها للاستيلاء على مصادر الثروة المعدنية حتى لا تقع فيما وقعت فيه من تجاربها السابقة، وكذلك انجلترا عنيت بالمحافظة على مصادر الثروة المعدنية، كما عنيت بالسيطرة على طرق المواصلات، وبخاصة البحرية، لتضمن وصول المعادن إليها.

وتحاول بعض الدول الصناعية أن تنمي ثروتها المعدنية الداخلية، بحيث تكفي حاجتها وتسد مطالبها؛ وأصبح هذا الغرض من أهم أمانيها القومية والاقتصادية. أما إذا لم تسعفها بلادها بجميع ما تحتاج إليه من معادن فهي تعمد إلى القوة الغاشمة للاستيلاء على حقول الثروة المعدنية في البلاد القريبة منها، كما فعلت ألمانيا في بولندة والنرويج وبلجيكا ورومانيا وغيرها.

ولكننا نريد أن نعرف الباعث الحقيق للاستيلاء على هذه المنابع؛ أهو مجرد التقدم الصناعي والتنافس التجاري، والوصول إلى مستوى راق في المعيشة، أم هي الرغبة الجامحة للتفوق الحربي والطغيان العسكري على الدول الأخرى؟

إننا نجد الجواب على ذلك صريحاً في استيلاء ألمانيا على الدول التي حظها من الثروة المعدنية قليل كهولندة، والدنيمرك وبلغاريا. فألمانيا إذاً تترعم هذه الحركة العنيفة والحرب الجامحة لا للاستيلاء على الميادين الصناعية فحسب بل للتوسع الحربي المطلق، ويتبعها في ذلك إيطاليا واليابان. ويقف في وجه هذه الحركة انجلترا والولايات المتحدة.

والولايات المتحدة هي أكبر دولة في العالم تملك الثروة المعدنية، وأكثرها تصديراً لها وبيعاً واستهلاكاً. ويليها

فى ذلك بريطانيا العظمى . وهاتان الدولتان تملكان معاً ثلاثة أرباع معادن الدنيا . وفضلا عن ذلك فهما تسيطران على البحار التى تنقل فيها هذه الثروة .

ولما رأت ألمانيا أنها لا تستطيع الحصول على حاجتها من المعادن فيما وراء البحار ، حاولت أن تستعيض من المعادن الطبيعية بالمعادن الصناعية ، وحاولت أن تخضع المواد الطبيعية للعلم ، وتخلق مواد جديدة لها صفات المعادن الأصلية . ولما كان العلم يستطيع فى الواقع أن يخلق كل شىء عجيب ، فقد نجحت فعلا فى تكوين معادن جديدة مصنوعة ، كما نجحت فى عمل الأغذية الصناعية لتحل محل الأغذية الطبيعية .

على أن نجاح ألمانيا فى الصناعات القائمة على المعادن المحلية لا يعد فى الواقع نجاحاً موفقاً ؛ ذلك لأن تكاليف الانتاج الصناعى من تلك المعادن يعادل ضعف التكاليف العادية . هذا فضلا عن أن المواد التقل فيها — وبخاصة الحديد — أقل جودة من المعادن التى كانت تأتى إليها من الخارج .

وكانت ألمانيا قبل الحرب تعمل على توسيع نطاق الانتاج المحلى من البترول باستخراجه من الفحم ، إلا أن تكاليفه كانت باهظة حيث بلغ ثمنه أربعة أمثال الثمن فى الأسواق التجارية العالمية ، ولما لجأت فى الحرب إلى الحصول عليه من روسيا ورومانيا .

أما النحاس فألمانيا تنتج منه ١٤٪ مما تستهلكه ، وتستخرج هذا المقدار من إقليم النحاس بمانسفلد ، وهى تعمل جهدها لتوسيع إنتاجه ، وتتوقع أن تصل إلى استخراج ٢٥٪ مما تستهلكه . ومع ذلك فلا يمكنها أن تستغنى عما كان يرد إليها من الخارج . وإزاء هذه الصعوبة حاولت أن تستخدم الألومنيوم والمنيسيوم ليحل محل النحاس ، وتقدمت الآن فى استخراج هذين المعدنين تقدماً جعلها فى مقدمة الدول التى تنتجهما .

وليس فى ألمانيا مناجم للمنجنيز ، ولكنها تستخرجه من الحديد التقل ، وتستطيع الآن أن تنتج منه نحو ٤٠٪ مما تستهلكه . وكانت تنتج من الزنك نحو ٦٥٪ ، ولكنها كشفت حديثاً منجماً من الزنك فى إقليم الروهر رفع إنتاجها إلى ١٠٠٪ .

وتنتج ألمانيا من الرصاص نحو ٣٥٪ ، ولكنها تعمل على زيادة إنتاجه رغم سوء نوعه . وقد أخذ إنتاجه فى الزيادة حتى بلغ الآن نحو ٥٠٪ مما تستهلكه . ولم تكن ألمانيا تملك شيئاً من الزئبق ، فأخذت تبحث عنه حتى عثرت على نوع ردىء منه فى منجم قديم ، وبلغ إنتاجها منه نحو ١٠٪ . أما النيكل فلا يكاد يوجد منه شىء يذكر ، ولذلك تستعيض عنه بمواد أخرى ، ومهما فعلت فإنها تحتاج على الأقل لنحو ٩٠٪ من النيكل من الخارج

والنتيجة الواضحة أن ألمانيا رغم جهودها لا تستطيع أن تستغنى عن المعادن التى كانت تأتى إليها من الخارج . وإذا علمنا أن الاستهلاك الحربى يستنفد مقادير هائلة من المعادن ، أدركنا مقدار حاجتها إليها لسد مطالبها التى تزيد على الأيام ، وإذا طالت الحرب كانت حاجتها موجبة إلى القلق داعية إلى التفكير الطويل ؟

محمد عمران

الربيع والحرب

يا ربيعاً ما كان أسنى وأبهى
من ليـــاليه بيننا ونهاره
طالما صغت للــبرية روضاً
يقصر الوصف عن جميل ازدهاره
يبسم الورد للبهار ويزهى فيه نسرينه على جلناره
ويهب النسيم يمشي رخاء فيكف الشتاء من إعصاره
وتغنى الطيور أعذب لحن من أهازيجها على قيثاره
من حمام مشوق بحمام أو هزار مشوق بهزاره
ويتيه السرور في البر والبحـ ـر وفي الجو مسبلاً لإزاره
يملأ الكون قوة وحياة وصفاء بحسنه ويساره
يمسح البرد باليمين ويلقي لافح الحر مشفقاً بيساره
يا نعاماه من مليك مفدى كل فصل متوج بفخاره

•••

كنت بالأمس يا ربيع سلاماً
للبرايا ووارفاً لشــــعاره
تجمع الناس في المحبـــة شخصاً
واحــــداً في ميوله واختياره
يتهادون فيك أطيب ود ويطلون من شهي ثماره
في نوادٍ بأهلها حافلات كل ناد يعج من سماره
بينما أنت هكذا . أذن الله . فثار العجيج تحت غباره
وسرى الليل فيك أســود غربيـ
ـب ودم النهـــار داجي ستاره
وجرى النحس في الوجود شمالاً
ومضى الشــؤم مؤذناً بانهياره
أرسل الجو وابلاً من شواظٍ وتحلى وجد صوب انهماره
وعلى البحر كالجحيم قنابـ ـلُ إلا دخانه بعد ناره
وعلى الــبر ثورة تتلظى
جحفل إثر جحفل في انتظاره
جثث ترتمي بغير رءوس ورءوس عفت عليها المكاره
وجريح مضرج في دماه وأسير مكبل في إساره
واستبد الشقاء فيمن تبقى من بني آدم ينادي بثاره
يترك الناس في زعازع همٍ
ويُذيل البصــــير من إبصاره
يأكل الناس بعضهم لحم بعض
وترى الجــار شارباً دم جاره

•••

جــــددوا يا ربيع فيك دماراً
طغى تمشي على الورى ودماره
فكأني بآدم وهو يبكي وبحــواء ولوّلت بجواره
يندبان البنين ، بين قتيل وأسير ، ونازح عن دياره
فالذي عاش لم يطب بحياةٍ والذي مات قبره لم يواره

•••

يا بني آدم إلام تـــــرو
ن . وكلٌّ يريش سهم انتحاره ؟
أذهب الله عنكمُ ظلمة الحقـ ـد وجلى لكم سنا أنواره

(سانومة) شوقي أحمد كيوان

خلود الشاعر...

(مهداة إلى روح فوزي المعلوف)

أشقى الهزارُ إلى صدى نغماته
فمضى يُرَدِّدُها على عَذَباته
مَنْ لقَّنَ الغرِّيدَ عَذْبَ بيانه
أو مَنْ أفاضَ السحرَ في صدحاته !!
كم عَبَّ هذا الزهرُ من دُفّاته
وأقلَّه ثغرُ الفجرِ عن بَسَماته
وشدا الغديرُ مُرَجِّعاً ألحانه
هَزِجاً يفيضُ السحرُ من قطراته
أتَراهُ ذَوْبُ الصَّبابة صاغها
من قلبه العاني ومن خفقاته
فَسَلِ النسيمَ بما رَوَى عنهُ وما
نَشَرَتْ أغانيه على صفحاته
وروعةُ أطيارُ السماء طلاقة
وحواهُ عِطرُ الفجرِ في نفحاته
وَلّى وفي الدنيا روائعُ لحنه
وقضى فكانَ الموتُ بدءَ حياته
فبكلِّ وادٍ منه شادٍ مُلهَمٌ
يتلو على الدنيا صدى آياته
وبكلِّ رَوْضٍ نفحةٌ من شعره
الصبحُ يحملها على نسماته
وأريجهُ الفوّاحُ يُنشِدُ سحرَهُ
في مسمعِ الوادي وفي ناياته

فؤاد كامل

القرية

على جانبيها يسجد الحسن والسحرُ
وفوق رُباها غرَّد الشعرُ والطيرُ
وفي ليلها الداجي يسامرني السُّها
وفي صبحها الضاحي ينادمني الزَّهر
فيشرب ما يرويه من حَبَبِ الندى
وأشرب من دمعي ، وفي مهجتي جمر
وهبتُ لِدُنْياها الوديعة خافقي
وقلت لِدُنْيا مترفيها : الهوى حرٌّ
ومالي ودنيا المترفين ! أنا الذي
يؤثر في وجداني الكوخ لا القصر
تذوقت قبلا جرمهم ووصالهم
فما سرني وصل ولا ضرني هجر
وما دام مثلي قد كفاه كفافه
فهجرانه المترفين هو الخير
تجهم غرام ثم نادت لم يقل
لها أحمدُ لبيك إني ابنك البر
لها روعةُ الحسناء عندي ، بينما
لها لوعةُ الثكلى وأبناؤها كُثْر
لقد أنبتت خلقاً يُغنّي به التُّقى
وما أنبتت خلقاً يغنى به الشعر

شاكر البرادى

أنباء وآراء

تصويبات فى مقال «مجنون ليلى»

فى نظرة عجلى لمقال «مجنون ليلى» المنشور بعدد الثقافة رقم ١١٧ المؤرخ ٢٥ مارس لفت نظرى بعض هنات ما كنت أحب وقوعها من صديقنا ومواطننا الأستاذ توفيق أحمد البكرى كأديب من أدباء السودان النازلين فى مصر ! فهو يقول بعد ما تحدث من الفتح التمهيدى للمسرحية الشعرية الذى اضطلع به المغفور له شوقى بك: «والركب أن يسير ذُلُلا ، والمستفسر أن يبلغ المنتهى والقصد» وهذا تعبير غير مستقيم ولا وجه له ، فكلمة «ذُلُل» ليست مصدراً يمكن أن يوصف به السير ، ومصادر «ذَلّ» هى الذُّلّ والذِّلَّة والذلالة والمَذَلّة ، وإنما «ذُلُل» جمع ذَلُول ومرادفه أذِلّة ، ولا شىء غير ذلك . فانظر كيف يكون معنى عبارة الأديب ، قال فى اللسان : «ذَلّ يَذِلّ ذُلاً فهو ذَلول ، يكون فى الإنسان والدابة . . . والجمع ذُلُل وأذِلّة» وعلى هذا قول الطغرائى وهو مشهور جداً :

رضا الذليل بخفض العيش مسكنة
والعزّ عند رسيم الأينق الذُّلُل

وتستقيم العبارة إذا قال : «والركب أن يقطع ذللا» أى طُرُقاً مذللة .

ويستشهد لكلمة «شخوص» ببيت لعمر بن أبى ربيعة ، فيرويه هكذا :

وكان مجنّى دون من كنت أتقى
ثلاث شخوص كاعبان «ومُعصر»

وصوابه «ومُعْصِر» وهى الصبية التى عاصرت البلوغ .

ويتكلم عن «عراف اليمامة» كلاماً ينقصه التحقيق ، ويروى بيت عروة بن حزام هكذا :

جعلت لعراف اليمامة «نائلى»
وعراف نجد إن هما شفيانى

وهذه رواية ضعيفة مضحكة . والرواية الجيدة رواية الأمالى ج ٣ ص ١٥٧ ، ١٥٩ :

جعلت لعراف اليمامة «حُكْمَه»
وعراف نجد إن هما شفيانى

ورجائى من صديقى الأديب أن يتريث ويحقق ليقطع الأسباب لأمثال هذه الاستدراكات .

حسين منصور
بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

نطق حرفين فرنسيين

فى ردّ الأستاذ عبد السلام محمد هارون على الأب الجليل العالم أنستاس مارى الكرملى (الثقافة ، العدد ١١٦) أن حرف T الذى فى الكلمة الفرنسية monotone هو «طاء فى الحقيقة بل هو أشد من الطاء العربية التى فى نحو : إطار وسطر» . وفى هذا الرد أيضاً : «أن الصاد لم يُنفرد لها حرف خاص فى اللغات الأوربية ، بل يعبر عنها بحرف السين S أو C فى نحو كلمة façon الفرنسية»

ولولا علمى بأن صاحب الرد من أهل التحقيق ما عجبت اليوم أعجب مما سطر . والذى يقرّ فى أذنى أن حرف T فى monotone ينظر إلى التاء فى لغتنا لا إلى الطاء ، وأن حرف C فى façon مثلاً ينظر إلى السين لا إلى الصاد . ولا

أذكر أن هذين الحرفين في تينك الكلمتين إنما هما همس في روع فرنسة ولا في مساعدها العلمية بغير الصفة التي وصفت. ثم لا أدري أين الثاء والسين في الفرنسية تخرجان في حالة «إطباق». وبودي أن أقف على نص من نصوص علم مخارج الحروف الفرنسية يكون للأستاذ هارون سنداً فيما ذهب إليه.

ب . ف

هل تختفي فكرة الربح

هذا هو عنوان المقال الذي نشرته مجلة البكتشر بوست للكاتب شارلس جاي المحرر الاقتصادي للدايلي هرالد، يشرح به وجهة نظره في الصناعة البريطانية الآن ...

يبدأ الكاتب مقاله متسائلا عن سر الانتصارات الألمانية الخاطفة في السنة الأولى من سنوات الحرب: «لم حدث ذلك؟ السبب فيما أعتقد هو أن موارد ألمانيا الاقتصادية كانت أتم تعبئة من مواردنا لفكرة الحرب، بل ولا زالت كذلك، وكفة النصر لا يمكن أن تكون في جانبنا ما لم نلق الأمبراطورية بكل موادها ورجالها وقواها ورؤوس أموالها إلى ميدان الصناعة لإنتاج طائرات ومدرعات وقنابل وكل ما يلزم للقتال».

ويستطرد المستر شارلس فيقول: «منذ أخذت الحكومة الحاضرة على عاتقها عبء العمل في مايو من العام الماضي تركزت جهودنا وزاد إنتاجنا في ميدان الطيران، وقفز جيشنا إلى أضعافه مزوداً بالمعدات، وكان ذلك بفضل الجهود الجبارة للعمال البريطانيين الذين عملوا الساعات الإضافية غير مبالين بهجمات الطائرات المغيرة، ولكن مع ذلك لا زال لدينا ما نعمله، فنحن قد بدأنا فقط بعمل التغييرات اللازمة في هيكل الصناعة البريطانية والحياة البريطانية، تلك التغييرات التي أتم هتلر القيام بها منذ زمن، ولكن بغير وسائلنا. إن صناعاتنا، حتى بعض الصناعات الحربية، لا زالت تسير في تنظيمها وفق قواعد الأرباح التي تحتمل وحدها عبء أضرار التأخير في الاقتصاد الدولي خلال السنوات الأخيرة؛ كذلك وسائل الصرف والاستهلاك لا زالت تعمل وفق ذلك النظام الرديء الذي لا يكفل المساواة بين مستوى الأغنياء وطبقة الفقراء الناشئة من نفس النظام».

ويرى المستر شارلس جاي في ختام مقاله أن ما يجب عمله الآن هو «أن نبحث عما هي المواد الضرورية الواجب إنتاجها لظروفنا الحاضرة، فنمضي في انتاجها بكل قوانا دون النظر إلى فكرة الربح أو الخسارة، ودون الاصغاء إلى هؤلاء الذين ينادون بضرورة تقدير الربح في الانتاج. وفي نفس الوقت يجب أن نتيقن أن كلا من العمل ورأس المال غير مضيع في إنتاج الكماليات ومواد الترف؛ ولضمان ذلك يجب أن نفرض رقابة قوية على إنتاجها كمراقبة مصانع الألبسة والأحذية وغير ذلك. والخطوة الأخرى الجريئة أن نمنع إنتاج وتصدير السلع غير الضرورية

من معجزات العلم

من أعظم معجزات هذا العصر العلمية المرقب الضخم الذي يصنع الآن في أمريكا ليوضع في مرصد بالومار Palomar في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية؛ وهذا المرقب سيقرب القمر حتى يراه الراصد وكأنه على بعد ٢٥ ميلا من الأرض. وقد بدئ العمل التمهيدي لهذا المرقب في عام ١٩٢٨؛ وتصنع الآن أجزاؤه في جهات متفرقة من الولايات المتحدة، اختصت كل منها بصنع جزء خاص. وقطر مرآة المرقب ١٧ قدما، وسمكها أكثر من عشرين بوصة، ووزنها نحو عشرين طنا.

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٢٠ — الثلاثاء ١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — ١٥ من أبريل سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الحرب والمبادئ الانسانية

للدكتور محمد عوض محمد

لئن كانت الحرب من بقايا الوحشية البشرية القديمة ، التي لم يستطع التهذيب والحضارة أن يطهرا منها العلاقات الدولية ، فإن مما يعزى النفس بعض العزاء ، أن ترى وسط المناظر البشعة ، وحوادث الدمار والتخريب ، آيات قليلة تدل على أن دروس الحضارة لم تذهب كلها عبثاً ، وأن في النفس البشرية بقية من الخير .

وفي العهود السابقة لعصر المدنية الحديثة ، وقبل أن تبتكر أدوات التخريب الجديدة ، التي لم يعرف لها العالم نظيراً ، كان رجال الحرب يفخرون بما تنطوى عليه نفوسهم من النبل والرأفة بالعاجزين والضعفاء . وكنا نسمعهم يشيدون بالشرف العسكري ، وهو عندهم أعز وأجل قسم . ولقد ظهرت في العصور الوسطى جماعات من الفرسان لم يكن لهم عمل سوى إغاثة الملهوف ، ومعاونة الضعيف ، ونصرة العاجز ؛ فكأن النفس البشرية قد أحست أن صناعة الحرب — وهي المنطوية على القتل وإزهاق الروح — ستنزل بصاحبها إلى مرتبة الضوارى ، إذا لم يقترن أظفارها عناصر من الكرم والنبل ، فاستطاع الانسان أن يجعل منها مزيجاً من الخير والشر ، ومن القسوة والرحمة .

كان هذا شائعاً في العصور السابقة لعهد المخترعات الحديثة ، ثم جاءت هذه المخترعات ، وهي تغرى أصحابها بأن يفتكوا بالبرئ والمذنب ، وبالمحارب والمسالم ،

والجندي في ميدان القتال ، والطفل النائم في مهده ، والصحيح الجسم ، والمريض العليل . لأن في وسع هذه المبتكرات العجيبة أن تفتك بهؤلاء جميعاً من غير تمييز ولا تفريق . وكان لا بد لتكبح جماح هذه الآلات المقطعة من أن تزداد حرفة الحرب نبلا وشرفاً ، وأن تسمو النفس البشرية إلى مرتبة التحليق العالي ؛ ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، والذين ابتكروا أدوات التخريب والتدمير لم يستطيعوا أن يبتكروا وسيلة يطفئون بها من شهوة التخريب والتدمير ، بحيث لا تتجاوز المحارب إلى المسالم ، والمقاتل إلى الوادع ، ووحدات الجيش إلى خدور النساء ومهود الأطفال . وقد ظهر فريق من المحاربين يرى أن الشرف والنبل مظهر من مظاهر الضعف ، وأن الحنث بالأيمان والمواثيق والعهود مظهر من مظاهر القوة والسيادة .

لهذا يحق لنا اليوم أن نغتبط إذا رأينا مظهراً من مظاهر الرحمة والعطف ، بعد أن بذل طغاة هذا الزمان كل ما في وسعهم لاستئصال الرحمة والعطف من النفس التي لا تزال تسمى « البشرية » .

***

لقد أخطر هذا الموضوع بخاطرنا حادث من حوادث الأسبوع الماضي ، فإن الدوق داوسطا ، نائب ملك إيطاليا في الامبراطورية الشرقية ، قد أرسل إلى قائد القوات البريطانية ، قبيل تسليم أديس أبابا عاصمة الحبشة ، رسولاً لكي « يعرب عن تقديره للخطوة التي اتخذها كل من الجنرال ويفل والجنرال كننجهام – من تلقاء أنفسهما – لحماية النساء والأطفال في أديس أبابا ، وأن هذا خير دليل على أن الروابط الانسانية القوية لا تزال قائمة بين الأمم » .

لقد أدركت الحكومة البريطانية ، قبل أن يبدأ الهجوم الواسع الشامل على الأمبراطورية الإيطالية في أفريقية الشرقية ، أن أرواح الرعايا الإيطاليين من غير المحاربين ستتعرض لخطر محقق ، لا بسبب شدة الحرب الحزنة وحدها ، بل لاشتراك الأحباش في هذه الحرب ، وهم الذين أذاقهم الإيطاليون مر العذاب ، ولم يكن منتظراً منهم أن يعاملوا بالرأفة والرحمة عدواً نكل بهم أشد التنكيل ، واستخدم في إخضاعهم أبشع وسائل الهلاك والدمار .

أعلنت الحكومة البريطانية استعدادها لأن تساعد في نقل النساء والأطفال والرعايا غير المحاربين إلى مكان آمن ، وأعادت هذا الإعلان مراراً ؛ ولكن الحكومة الإيطالية لم تعر هذا النداء اهتماماً ، ولم تقم بعمل تساعد به على تنفيذ هذا الإجراء الإنساني الحكيم ؛ ولعل حكومة إيطاليا لم تكن تتوقع أن يكون الزحف البريطاني بهذه السرعة ، وأن ينجح هذا النجاح . ولهذا لم تبادر باتخاذ الخطوات اللازمة لحماية أبنائها وبناتها وأطفالها في الحبشة . والذي نخشاه أن يكون السبب الأكبر الذي حمل روما على هذا الاهمال ، هو قلة اكتراثها لأرواح المدنيين والأطفال والنساء . ومهما يكن من شيء ، فقد بدأ الزحف البريطاني على الأمبراطورية الإيطالية العظيمة ، من أربع جهات رئيسية ، ومن عدة جهات فرعية ، واشترك في هذا الزحف قوات من الأحباش ، دربوا أحسن تدريب ، وجعلوا تحت قيادة ضباط من أنفسهم ومرشدين من حلفائهم ، وعهد إليهم بالاستيلاء على جوجام في قلب البلاد الحبشية . فمضوا في زحفهم من نصر إلى نصر ، حتى وقفوا على أبواب دبرا مرقص ، وأخذوا يحاصرونها .

وفي أثناء هذا كله أخذت قوات إفريقية الجنوبية تزحف من الجنوب ، فاستولت بسرعة هائلة على الصومال الإيطالي والبريطاني ، وبلاد الحبشة الجنوبية ، ثم سقطت أمامها هرر ودبرداوه وأديس أبابا بسرعة منقطعة النظير . وبعد سقوط العاصمة أخذ الأحباش دبرا مرقص عنوة واستولوا عليها . وقد يكون هذا مجرد صدفة ، وقد يكون من باب الاحتياط أن تسقط أديس أبابا في أيدي البريطانيين قبل أن تسقط في أيدي الأحباش ، فاستطاع

القائمون أن يتخذوا الإجراء اللازم لصيانة أرواح المدنيين والنساء والأطفال ، قبل أن تسلم العاصمة الأحباش . وقد كان هذا كله من باب الاحتياط ؛ لأن عاهل الحبش نفسه هيلاسلاسي الأول ، قد أهاب بأتباعه ألا يجازوا الطليان بأعمالهم ، وأن يحرصوا على أرواح الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ . ولو أن الدوق داوستا كان منصفا لخص ببعض شكره الزعيم الحبشي كاملا مع القائد البريطاني .

ولقد كان من سخرية المقادير العجيبة ، أن يكون ممثل الحكومة الايطالية هو الذى يعلن إلى القائد البريطاني أن الروابط الانسانية لا تزال قائمة بين الأمم ! فهل ذكر الدوق العظيم وهو يبعث بهذه الرسالة أن الحكومة التي يمثلها قد بذلت جهوداً جبارة في تمزيق هذه الروابط البشرية ؟ أليست حكومته هي التي اختارت لزعيم ليبي كبير ، وهو عمر المختار الشيخ الفاني ، أسلوباً في القتل ينطوى على التناهي في القسوة والضغينة ؟ ألم تكن حكومته هي التي سلطت على الحبش الغازات السامة برغم المواثيق الدولية التي تقضى بألا يستخدم هذا السلاح في الحرب ؟ واليوم ونحن في الأسبوع المقدس لعيد الفصح ، نذكر مع الأسف الشديد أن إيطاليا اختارت يوم الجمعة المقدس منذ عامين للاغارة على ألبانيا التي لم تقترف إثماً ، ولم تجترح خطيئة ؛ ولم تكتف إيطاليا بسياسة العدوان ، بل أرادت أن تنطوى خطتها على الاستهتار بالدين والشعائر المقدسة . وهى البلاد التي يعيش فيها البابا زعيم المسيحية الأكبر .

فليت دوق داوستا يذكر هذا كله ، ويذكر أيضاً أن نساءنا وأطفالنا في مصر قد ذاقوا هم أيضاً القنابل الطائشة التي تقذف بها أبناء وطنه ، وقطعوا من أجل هذا العمل المجيد مئات من الأميال بين الجبئة والذهاب .

ومن الغريب أن هذه الوحشية القاسية تنطوى على فكرة خاطئة اعتنقها زعيم إيطاليا منذ زمن ، وهى أن الوحشية تعلم الشجاعة والبسالة للشعوب التي لم ترزق بطبعها منية الشجاعة والبسالة . وقد استطاع الدوتشي أن يعلم أبناء إيطاليا الوحشية ، ولكنه لم يستطع أن يعلمهم الشجاعة والاقدام ، حتى اضطر في النهاية لأن يتخلى عن قيادة أمته وجيوشه ، وأن يسلم زمام قواته وموارده لزعيم ألمانيا ، يصرفها كيف شاء . وقد بقى على الدوتشي أن يتعلم أن الوحشية هي في الحقيقة ضرب من الجبن ، وبعيدة كل البعد من الشجاعة والبسالة ، وأننا كثيراً ما شهدنا وما نشهد اليوم أن خطة الوحشية لا تنطوى على شيء من الشجاعة والشهامة .

وإذا انتقلنا من الزعيم الطلياني إلى شريكه الأكبر الذى سلمه زمام أمره ، وألقى إليه بمقاليد دولته وأمته ، نرى مثلا أقوى وأظهر للوحشية التي لا تنطوى على شيء من الشجاعة أو مراعاة « الروابط الانسانية » . فلقد أعلنت حكومة يوغوسلافيا في الوقت المناسب أن بلغراد مدينة مكشوفة عزلاء خالية من الحصون . وفى صباح الأحد أى الخامس من هذا الشهر — ولم تكن يوغوسلافيا بعد في حالة حرب مع ألمانيا — احتشد سكان المدينة في الكنائس للصلاة والعبادة ، وأقبلت الطائرات الألمانية ، وقد اتخذت من بلاد المجر « المحايدة » قاعدة للهجوم ، فأخذت تلقى وابلا مدراراً من القنابل المحرقة والمتفجرة على المدينة حتى حولتها — كما يقول البلاغ اليوغوسلافي الموجه للشعوب المتمدنة — إلى أكوام من الأنقاض والحرائق ، وقد غطيت شوارع بلغراد كلها بجثث النساء والأطفال والشيوخ . . . وقد قام باجتياح مدينة مكشوفة غير محصنة طائرات أمة تطالب لنفسها المكان الأول بين الشعوب المثقفة ، غير حافلة بالقانون الدولي ولا بالاعتبارات الانسانية ، فهدمت في وضح النهار جميع المستشفيات والكنائس والمؤسسات الثقافية ببلغراد . وألقت على القصر الملكي ثلاثين قنبلة فهدمته ؛ ولم يسلم من فتكها حتى المنازل المنعزلة ، فقتل الزعيم السلوفيني كولوشز ، وهو في عقر داره .

وإذا تساءلنا عن السبب الذى من أجله أغير على بلغراد وسلطت عليها ألوان التخريب والتدمير ، وما

الترض المرق الخطير الذى ساعد هذا التخريب على إحرازه ، لما استطعنا أن نجد سبباً يجيله العقل . صحيح أن يوغوسلافيا قد أحدثت انقلاباً على أثر توقيع الحكومة ميثاقاً بالانضمام إلى المحور ، وأن ألمانيا لم تسر لهذا الانقلاب ؛ ولكن الذى يصعب فهمه أن الاستياء من حادث داخلى فى دولة من الدول يؤدى حتماً إلى تخريب عاصمتها وإزهاق الآلاف من الأرواح البريئة .

إن الانقلاب اليوغوسلافى كان تغييراً فى الحكومة ، ومن السهل أن ينظر إليه بأنه إجراء داخلى محض . وقد كانت الحكومة حريصة على ألا تغضب ألمانيا لهذا التغيير ، فأعلنت أنها تنشد صداقة جيرانها ، ولا تبغى سوى الحياة السلمية الهادئة لشعبها ، وأن ليس فى تغيير الحكومة مظهر من مظاهر العداوة لألمانيا . فذهبت كل هذه البيانات أدراج الرياح ، وأولتها ألمانيا أذناً صماء ، وقد صممت حكومتها على أن تعد الانقلاب اليوغوسلافى بمثابة جناية ارتكبت نحو النازيين ، ولابد أن يعاقب عليها الشعب وأن يقتص من أجلها بأرواح النساء والأطفال والشيوخ القابعين فى دورهم ، ولابد أن يحدث هذا فى يوم الأحد والناس محتشدون فى كنائسهم للعبادة والصلاة .

كانت ألمانيا تتوقع من يوغوسلافيا أن تسلم المحور بكل ما يريد ، ولهذا حشدت قواتها البلقانية فى بلغاريا ، على حدود يوغوسلافيا الشرقية . أما الحدود الشمالية ، فيما وراء بلغراد ، فلم يكن بد من أن يمضى وقت قبل أن يحشد النازى جيشهم فيها ؛ ولهذا لم يكن هنالك هجوم للجيش فى الميدان الشمالى ، حتى يقال إن ضرب بلغراد كان تمهيداً للاستيلاء عليها ، فلا يخرج هذا الحادث الكريه من أن يكون عدواناً صريحاً لا تشوبه أقل شائبة تبرره . . .

وإذا نظرنا إلى إعلان النازيين الحرب على اليونان ، فإن من الصعب أن نرى فى هذا العمل أقل ذرة مما يدعى شجاعة أو بسالة . ولو أن النازيين ممن يقدرون البسالة والإقدام لراعهم منظر أمة صغيرة استطاعت أن تدوخ حلفاءهم فى المحور ، وأن تطاردهم فى ألبانيا شهوراً طوالاً ، ولأ كبروا هذا المظهر الرائع ، ولم يسمحوا لجيوشهم الجرارة أن تنقض على أمة صغيرة باسلة !

إن الذين يبحثون عن دروس الشجاعة والبسالة لن يجدوها عند الجيوش الجرارة المسلحة بالطائرات والدبابات ، بل لدى هذا الشعب اليونانى واليوغوسلافى ، الذى يدافع عن حريته أمام قوات لم يعرف التعرف لها نظيراً فى عنفها ووحشيتها وعددها وعددها .

ومن الغريب أن ألمانيا النازية التى لم تزل منذ الربيع الماضى توغل فى العدوان على الشعوب الصغيرة ، فتوقع بها أشد الأذى ، ليست فى حاجة إلى اتخاذ السبل الوحشية ، فإن لديها من القوة الحربية المنظمة ما يمكنها من الانتصار على حرب الميادين وملاقاة الجيوش فى معارك بعيدة عن أن تمس الأبرياء وغير المحاربين . كذلك لا ينكر أحد أن النازيين لا تنقصهم الشجاعة ؛ ولكن الذى ينقصهم هى تلك المبادئ الإنسانية ، التى يتحدث عنها الدوق داوسطا . الذى لو شاء لاعترف بأن العصبة التى ينتمى إليها قد بذلت كل ما فى وسعها لزعزعة تلك المبادئ ، والقضاء عليها .

محمد عوض محمد

صور مجوبة (كاريكاتورية) — بقلم لورد ادوارد سيسل :

من الفراش إلى المكتب

كنت قد نشرت في مجلة سابقة تحت عنوان : « مكاتبات رسمية » صورة من تلك الصور التي عني لورد إدوارد سيسل بتسجيلها ، وأشرت إلى أن هذا السيد كان وكيلاً لوزارة المالية المصرية ، ثم مستشاراً مالياً للحكومة المصرية ، وأنه قد سجل عدة صور في كتاباته من الحياة المصرية . ووعدت بالعودة إلى نشر بعض هذه الصور لنرى أنفسنا بالعين التي رآنا بها غيرنا . ولكني لما آنسته في هذه الصور من مبالغات — هي في الواقع من مقومات الصور المجونية — كتبت في كلمتي السابقة أنه ينبغي أن لا ننسى أن هذه الصور إنما وضعت في زمان غير زماننا الراهن ، وظروف غير ظروفنا الحالية ، وأنه ليس يجوز أن يتحرج القارئ لما قد يجده فيها من الإشارات اللاذعة . . .

وها أنا أعود اليوم لنشر صورة جديدة من تلك الصور ، وصف فيها الكاتب يومية من يومياته منذ قيامه من النوم في الصباح لغاية وصوله إلى مكتبه ، وهي فترة قصيرة عادية ليس يتوقع المرء فيها من الأحداث الجسام ما يستحق التسجيل أو التعليق . ولكن القارئ سوف يرى فيما دونه الكاتب أن العين البصيرة أوسع آفاقاً من العين المبصرة . . .

قال لورد سيسل :

إن أول ما أحس به في الصباح هو إحساس غامض بضوضاء تحيط بي ، وإن هذا الاحساس ليختلط أحياناً بأحلامي ، فأتخيل في رؤياي أن هناك زلزالاً ، وأن منزلي (يتطربق)(1) ويتداعى ، أو أن هناك موقعة حربية ، وأن العدو يضرب داري بالقنابل . ولكني لا أثوب إلى رشدي وأدخل في عالم اليقظة شيئاً فشيئاً حتى أرى تأويل أحلامي في شخص خادمي الأمين . . . سليمان !

إن قامته لا تزيد على أربع أقدام ، ووزنه لا يربو كثيراً على وزن كلب من كلاب الصيد ، ولكن الضوضاء التي يحدثها هذا القزم يعجز من إحداثها مارد جبار ، فلست أذكر أنه دخل مرة واحدة إلى غرفتي في الصباح من غير أن يشتبك في شيء من أثاثها فيحطمه ، فهو أحياناً يشتبك بالمائدة ، وأحياناً بالكرسي ، ولكنه أحياناً يأتي فعلته الكبرى . . . وهي أن تزل قدمه فيصطدم بالمائدة ، ويقلب الشاي و (يرزع) الباب — كل ذلك في حركة واحدة . ولقد توصل هذا الجني بعد ممارسة السنين الطويلة إلى طريقة يلقي بها ثوباً من الصوف الناعم على الطنفسة الوثيرة فيستحدث من ذلك صوتاً كصوت لوح من الخشب يلقى على حزن من الأرض ! .

إنه ينتمي إلى قوم لا تخلو أخلاقهم من فضيلة تحليها إذا هم لم يتطرق إليهم شيء من الفساد . ولكن الواقع أن أحداً منهم لا يسلم من تطرق هذا الفساد إليه ، وخادمي يقف في رأس (القائمة) فوق خدم الأغلبية من أصدقائي . وإني كلما فكرت في إخواني جونس وسميث وروبنسن ، وفي أنهم احتملوا طول مدة إقامتهم في هذه الديار أولئك البرابرة الذين يخدمونهم في منازلهم ، أجد نفسي أمام لغز من الألغاز . . . حقاً أني سمعت جونس منذ أيام وهو يتحدث من خادمه في لغة لم تكن تنقصها عناصر التحقير والزراية . ولكني عند مقارنة خادمي بخادمه أجد أن

---

(1) ليسمح لي القارئ أن أستعين باللفظة العامية أحياناً ، لأقرب ما استطعت من تصوير المعنى الذي قصده المؤلف .

« سليان » بالقياس إلى « أحمد » ملاك يرفرف بجناحين من نور !

* * *

ولا يكاد ينسحب هذا (الملاك) من غرفتي بعد تنظيفها حتى (يهبد) الباب من جديد . فأسلم أمرى إلى الله وأرى أن ساعة قيامي قد حانت ، وأنه لم يبق من ترك الفراش بد . فأتسلل من سريري وأذهب إلى شرفتي كما هي عادتي كل صباح . وإنه لما يسترعي الانتباه أن الانسان الذي يعيش بمفرده يتتبع في حياته خطوات محدودة معينة يظل يكررها يوماً بعد يوم دون أن يحيد من طريقها قيد شعرة . وإني لأعتقد أنه لا يعدل من عادات الإنسان إلا تدخل الآخرين في شئون حياته .

* * *

أما المنظر الذي تطل عليه شرفتي في الصباح الباكر ، فهو ولا شك باعث من البواعث الشرعية على الزهو والاعتداد بالنفس . وذلك على الرغم من أني لا أدرى لماذا هو كذلك ، وقد يكون الأمر كذلك لأن رؤية أى شيء في الصباح الباكر — أو لعل مجرد الاستيقاظ في ذلك الوقت — هو من الأمور التي يسلم الجميع بأنها شيء جميل يستحق الانسان من أجله أن يتلقى تهاني الناس . وقد يكون السبب أيضاً أنه من دلائل براعتي وحسن تفطني أن أهتدي إلى مثل هذا السكن الذي يطل على مثل هذا المنظر عندما كنت أبحث لى عن مسكن ، وهو أمر أشهد الله على أني لم أنتبه إليه قط .

ومع ذلك فإني إذا ما ألقيت نظرتي الأولى على ما أمامي لا أكاد أرى شيئاً إلا أكداس الضباب التي يحركها في رفق نسيم الصباح . فإذا ما انقضت على ذلك دقيقة أو دقيقتان ، وسطعت أشعة الشمس الأولى من فوق التلال التي تقع خلف مسكني ، تورد هذا الضباب ، وبدت في الأفق الغربي أشباح التلال الزرقاء . وبهدت الأهرام على صدر الأفق بعد أن تكون قد شقت من نفسها غلائل تلك السحابات الوردية الرقيقة . وتظل تتعاقب الصور أمامي ، واحدة بعد واحدة في سرعة لا يكاد يصدقها العقل ، فتستحيل النهائم إلى شفوف ذهبية تبدو من خلالها أشباح النخيل الباسقة ، وأشرعة السفن الرشيقة التي توشى صفحة النيل ؛ ولا تكاد تمر لحظة أخرى حتى يكون النسيم قد اختطف على جناحيه ما بقي من سحب ، وفر بها في أطباق الفضاء ، وحتى تكون قد أسفرت من حولى وجوه البيوت المجاورة ، تلك الوجوه التي طالت ألفتي لها ، وطال صبرى على قبح منظرها . . . وهكذا ينقشع سحر الصباح . . . وعلى الرغم من أني شاهدت هذه الصور تمر تترى أمام ناظرى مرات يخطئها عدى فإنها لا تولى مرة إلا وتترك في نفسى حسرة على أن مثل هذا الجمال ينقضى بمثل هذه السرعة !

* * *

وترتفع من الطريق نحوى ضوضاء مألوفة هي حركة « ترام الصباح » — فإني أقيم فوق خط من خطوط الترام ، وينحنى هذا الخط أمام منزلي في دوران لا بد أن يكون قد وضع تصميمه أحد زعماء المتفائلين في العالم ، فإن السائق ما لم يهدئ سرعته إلى مستوى السلحفاة فوق هذا المنحنى ، فلا مفر للقاطرة من الخروج من خطها . ولما كان المصرى لا ينتفع قط من التجارب ، وكان إذا أدركه برد الشتاء يتجمد تفكيره تجمداً ، فإن ترام الصباح هذا اعتاد أن يخرج من بد سائقه خمس مرات في كل سبعة أيام !

وإني لأرقب مقدم الترام من بعيد ، وأنا واثق من النتيجة المحتومة . فإذا ما اقترب خرج من الخط ولم يخيب أملي فيه . وهنا يقف السائق ويمد ذراعيه أمامه على نحو ما يفعل قومه عند شكوى الزمان ، ويستشهد السماء على أنه رجل سيئ الطالع وأن (الكبانية) — شركة الترام — تعامله معاملة الكلاب . . . .

وعند ذلك يكون (الكمسارى) قد نزل وانضم إليه. ولا يزال الرجلان يتبادلان سوء حظهما حتى يلاحظ (الكمسارى) أن الخطأ كان فى جانب السائق. وهنا ينفعل عليه السائق مؤكداً أنه لم يخطىء، وأن مثل هذه الملاحظة لا يوحيها إلى ذهن (الكمسارى) إلا وضاعة فى أصله وانحطاط فى تفكيره....

ويكون الركاب قد نزلوا بدورهم، وتحلقوا حول الرجلين، ووقفوا يستمعون إلى النبذة التاريخية التى شرع (الكمسارى) يلقيها من أسلاف السائق. والقذائف الأخرى التى يرد بها هذا على (الكمسارى). ثم يتدأون فى التشيع للفريقين. وهنا تتم النكبة ويشترك الجميع فى المشاحنة. ثم يحتد الجدل، ويعلو الصخب، ويتطور النزاع إلى درجة يتوهم معها الانسان أنها ستؤدى حتماً إلى إراقة الدماء. ومع ذلك فان كل هذا الحماس يستقر دائماً من عاقبة سليمة. ولم يحدث قط أن لكمة واحدة دارت بخلد واحد من المتشاحنين، أو أن ركلة قد مرت بخاطره. وفى النهاية يقبل شرطى لا يزال النوم يرنق جفنيه. فيتوجه إليه الجميع بشكواهم. ويقف هو فى وسطهم حيث توحى إليه روح الحياد المطلق أن يصب شتائمه فوق رءوس الجميع أيضاً بالقسطاس المستقيم....

على أنه لا يفوته على كل حال أن يلاحظ أن هذا الترام ينبغى له أن يسير. ويسلم السائق والكمسارى بأهمية هذه الملاحظة وهما لا يزالان فى جدلهما ونقاشهما. ويستعينان بالجمهور المحتشد على أن يرجعوا بالترام مرة أخرى إلى مجراه. متبعين فى ذلك تلك الخطة المحسنة البعيدة من كل أصول الفن، والتى تنجح على الرغم من ذلك نجاحاً باهراً فى أيدى المصريين كلما من لهم حمل ثقيل أرادوا أن يرفعوه... ويعود السائق والكمسارى كل إلى مكانه. ويبادر الركاب إلى مقاعدهم فيتراصون فيها. و(يرطع) بهم الترام من جديد

* * *

وأرى أنى قد تأخرت فى الوقت. وأذكر أنى فى هذا اليوم بالذات كنت أود أن أبكر إلى مكتبى لأعد تلك المذكرة التى طلبها (المستشار) من بيع الأراضى العامة على أساس التقسيط. ولأنظر فى طلب تسوية معاش ح. ى. باشا الذى تكرر سؤال دار الوكالة عنه. وأعود إلى نفسى لآخذ حمامى ولألبس ثيابى...

ولا أكاد أدخل الحمام حتى أجد الماء بارداً. فأجأر فى طلب سليمان... ولكنه يصر على أن الماء ساخن وليس ببارد. فأذهب معه إلى المطبخ، وأضع يدى على (الغلاية) نفسها؛ فلا أكاد أحس سخونتها. فيقول إنها غلاية من صنف ردىء جداً. لأن النار كانت تتأجج تحتها طوال ساعتين. ولأن كمية الفحم التى أستعملها أنا على كل حال فى بيتى كمية تافهة لا تصلح لشىء. فلا أرى مندوحة من موافقته على ذلك. ولكنى أفسر له هذه الحقيقة بأنى لا أورد الفحم لسكنى وحده، ولكنى أورده أيضاً لأسرته، ولأصحابه الذين يديرون على حسابى ولا شك فرناً مسعوراً فى جهة ما من أرض الله واسعة.

وأمد يدى إلى الفرن فأفتح بابه، وأشير إلى الأحطاب التى فى جوفه، والتى لم يتم احتراقها بعد. فيصعق الرجل لهذه المفاجأة. ويأخذ فى إلقاء مسئولية هذا العمل على عاتق الخادم الآخر. ولكنى لا أرى مفراً من اختصار الطريق، ووضع حد لهذا الجدل العقيم. فأعود إلى حمامى، وقد وطنت نفسى على الاكتفاء بحمام فاتر فى هذا الصباح.

* * *

وإذا ما انتهيت من وضع ملابسى، أرسلت فى طلب عربة أذهب بها إلى النادى. لأنى لا أتناول الفطور فى منزلى. فان سليمان يعتبر نفسه طاهياً بارعاً، ولكنه جد مخطىء فى هذا الاعتبار. فانه — مهما تكن مواهبه

فى هذا الميدان — جشع إلى حد لا يدع سبيلا لظهور شىء من هذه المواهب .

وماذا يستطيع الفن أن يصنع فى لحم أو بيض يرجع عهدهما إلى الأسرة السادسة من أسر أجداده الفراعنة ، حتى ولو دفعت ثمنهما أضعاف ما يحاسبنى عليه أغلى الطاعم ؟

وتقف العربة التى استحضرها لى سليمان أمام الباب ، فأنزل إليها فاذا هى عربة عتيقة تنتسب إلى عصور ما قبل التاريخ . وقد جلس من فوقها حوذى يلف رأسه شال عظيم يقيه لفحات البرد . فلا أكاد أستقر فى جوفها حتى ينطلق الرجل فى اتجاه خاطىء دون أن يعنى بسؤالى إلى أين أريد الذهاب . فاذا ما نفذ صياحى بعد ذلك فى أطباق شاله وبلغ مسمعيه شرع يدير الجوادين نحو الاتجاه الآخر ، وهو ينهال عليهما بسوطه كما لو كان يرجع إليهما أمر هذا الخطأ فى التوجيه . ثم نأخذ فى طريقنا صوب النادى . . .

ويلوح لى أن عربتى — كما هى العادة — لا بد أن تكون أسوأ عربة يمكن الحصول عليها . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنى كلفت سليمان باستحضارها . وإلى أن « العمولة » التى يتقاضاها سيدنا سليمان هذا باهظة فاحشة .

أما نظام « العمولة » فيخيل إلى أنه نظام اكتسب صفة العرف المحترم فى هذه البلاد ، وأنه متأصل فى كل المصالح وتعرفه جميع الطبقات . . . . (فى الأصل إشارة إلى بعض طوائف الموظفين وأصحاب الأراضى الزراعية لا نرى حاجة إلى التزام الدقة فى نقلها حتى لا يساء فهمها ، على الرغم من كل ما أسلفنا من تلطيف وتبرير لمثل هذه الاشارات) . . . . وسليمان — على عادة قومه — يتبع هذا النظام فى إصرار يشبه التعصب الدينى ، ويتقاضى هذه العمولة عن كل ما يشتريه لحسابى . بل إنه ليتقاضاها حتى من الحوذى الذى يستحضره بناء على طلبى . ونظراً لارتفاع سعر عمولته فانه لا يقبل

التعامل معه بهذا السعر إلا من لا يجد عميلا آخر أفضل منه . وتكون النتيجة أن أقع أنا فى مثل هذه العربة التى ظفرت بها فى هذا الصباح . . . . . .

فالخيول (هياكل) تمشى . والسائق أغبى وأقذر من كل أفراد طائفته . و (طقم) الخيل أشتات من النسج والرق . وكسوة المقعد كلها ثقوب . و « ياياته » مثنية على قواعدها ، وحتى دواليب العربة نفسها لا تخلو من نقص فى بعض (رامقها) !

ويظل الحوذى يخضخض فى عربته إلى أن تعترضنا مركبة أخرى . فيجذب العنان فى يديه فتتقطع أوصاله ، فينزل ليصلحه بما يستخرجه من جرابه من قطع من الخيط الواهى ، وبما يلوح بين أصابعه كأنه رباط رقبة قديم . فإذا ما تمت عملية الترقيع عاد يهدهدنى فى أرجوحته ، ولا يطول بنا ذلك حتى تقع الواقعة الكبرى ، وهى أن ينطلق محور العربة من مكانه فينهار كل شىء . . وأجد نفسى لحسن الحظ على بعد مائة متر من النادى ، فأسعى إليه راجلا ، وأترك الحوذى وفى يده « رباط حذاء » يصلح به ما فسد من أمر مركبته الأثرية !

وإنى لأحمد الله على سلامتى كلما حدث لى مثل ذلك . فإن هذه المركبات قد تخون راكبها فى أى مكان . ومن حسن حظ الراكب أن يقع له ذلك فى شارع جانبى بعيد عن طريق السيارات التى يتولى قيادتها « فتيان العصر » من أفندية هذا الزمان . وليس شىء تستكثر على حوذية هذه المركبات . فقد وقع لى مرة أن شد الحوذى عنان جواديه شدة قوية انقطعت على أثرها خيوطهما فجأة فى يديه ، فلم ألبث أن رأيت الرجل — فى حركة عكسية واحدة — يهوى من مقعده بظهره ، ثم يستوى جالساً فوق أكتافى . . . . وفى مرة أخرى انحل رباط الجوادين معاً فانطلقا من عقالهما يعدوان ، وخلفانا من ورائهما نجلس فى مقاعدنا الثابتة ، وعلينا كل مظاهر الوقار والاعتبار !

(الحديث صلة)

ع . ج

قصة عربية :

زنوبيـــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة الباسل أمير تدمر عاصمة الصحراء الغنية بتجارتها ، وكانت زوجته الجميلة زنوبيا ، سليلة كليوبترة ملكة مصر وشبيهتها في الثقافة والذكاء والجمال . وصفها لونجين الفيلسوف الرومي ، يقرأ لها كتب الشعر والفلسفة . ولها وصيفة مسيحية (لبنى) تحدثها عن دين المسيح ، حتى مالت إليه بعض الميل . وجاءت الأنباء إلى تدمر بأن سابور ملك الفرس هزم فاليريان أمبراطور الروم وأخذه أسيراً ، فغضب أذينة وهم بالاندفاع إلى حرب الفرس . ولكن امرأته نصحته بالتمهل ، وحملته على إرسال هدية إلى سابور يستميله . وبقي أذينة في انتظار أنباء تلك الهدية في قلق عظيم . وخرج يشغل بصيد السباع على عادته ، فأوقع بابن أخيه معن وأمر بسجنه وهو في سبيل صدر من قلقه . ثم أتت إليه الأنباء بأن سابور ألقى هديته في الفرات وسبه وأهان قومه العرب ، فثار للانتقام وذهب بجيش عظيم إلى حرب فارس . وهناك أوقع بسابور هزيمة حاسمة عند الفرات ، وتبعه إلى طيسفون . وحدث في أثناء غيابه عن تدمر أن أغار عليها أحد أمراء العرب ، ولكن زنوبيا قاومته ، حتى أتت الأخبار بانتصار زوجها فضعفت نفوس العدو عند حصارها ، ورفع الحصار . وبقيت زنوبيا تنتظر زوجها في تلهف أنساها كل من حولها حتى سكنها لونجين ووصيفتها لبنى . ثم جاء أذينة وخفت تدمر لاستقباله والابتهاج بقدومه واحتفل هو بنصره الباهر ، وأتت إليه الوفود تتقرب إليه بالهدايا والتحية ، وخلع عليه امبراطور الروم لقب الملك وجعله خليفته على حكم الشرق كله . وتمكنت زنوبيا وهو في عزة نصره أن تشفع عنده لكي يطلق معناً من سجنه ولكي يزوج وصيفتها لبنى من الفارس الباسل حسان المسيحي] .

مضى عام على تدمر بعد عودة أذينة واتخاذه لقب الملك ، وتبدلت المدينة من عاصمة تجارة إلى تخت مملكة ، وتبدل أذينة فأصبح عاهل الشرق ، يتقرب إليه جاليينوس ويدعوه أخاه (أغسطس) ، وتتطلع إليه عيون العرب زهو وإعجاب ، ويتزاحمون على أبوابه يطلبون أن يكونوا في جيشه المظفر ويلتمسون النصر الرائع معه .

وكانت فارس وحدها تتربص به الدوائر ، ولم تنس ما أوقعه بها من الهزائم ، ولكنها لم تجد في جيوشها قوة تعينها على الانتقام منه ، ولم تجد في حليفها امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة ما يساعدها على إزالة المرة التي لحقت بها .

وبقي قصر الملك في تدمر مهبطاً لشعراء العرب الذين جعلوا انتصاره يوماً من أيامهم المجيدة يتغنون بذكره ، وأذينة يستمع إلى غنائهم مع موسيقى سبايا الفرس اللاتي ازدحم بهن قصره بعد نصره العظيم .

أصبحت تدمر كلها مزهوة بمجدها ، سعيدة بما جلبه لها النصر من حركة وغنى ، وما أشاعه فيها من سلام وطمأنينة ، إلا قلباً واحداً لم يحمل إليه ذلك المجد كله إلا أملاً خائباً تركه يتعطش ويجدب ويتوجع ، ذلك قلب زنوبيا .

أحست زنوبيا منذ أول عودة زوجها بأن سعادتها تفيض في قلبها ، ولكنها أحست مع هذه السعادة شعوراً غامضاً من الخوف والقلق يدب في نفسها .

لقد كانت تعرف أن الآلهة لم يقدروا للبشر سعادة صافية ، وأنهم يبعثون إليهم إذا ما فاضت الكأس الحلوة بما يعكر الصفاء ، ويبدل الحلاوة مرارة . فهم ينفسون على الإنسان أن يشاركهم في النعيم الخالص ، ويأبون إلا أن تكون الأقدار البشرية أدواراً متداولة وحظوظاً ممتزجة

كانت تحس هذا وتحدث نفسها أحياناً به ، ولكنها كانت تسرع إلى إسكات ذلك الحديث ، ولم ترد أن تقف لتتبين كنه ذلك الشعور الغامض . وكأنها كانت تخشى

أن تعكر بهذا التفكير صفو السعادة الفياضة التي شملتها .

ولكن مرت الأيام والشهور ، فإذا بها بعد حين تقف مرغمة لتنظر فيما سارت إليه حياتها . فقد بدا لها أن الحياة تتغير ، أو هي قد تغيرت ، وأن السعادة تتحول أو هي قد تحولت . وتمثلت لها صورة عكرت عليها حياتها كما تصورتها ، صورة امرأة أقبلت إلى تدمر من أقطار بعيدة لتسلبها زوجها ، صورة شهناز الأسيرة التي سباها أذينة بين نساء سابور ، وضن بها على السير في موكب النصر ، وجعل لها قصراً في طرف من أطراف تدمر ، يأوي إليها فيه ، ويقضي معها بعض لياليه .

تبدل أذينة ، وكان تبدله غير مفاجئ ، بل تسرب إليه التغير ، وتدسس إلى نفسه في خفاء وهينة ، فلم تلحظه عينها في أوله ، ثم بدا لها فجأة ، وبقي ماثلا لها كأنه شبح مخيف طلع بغتة في طريقها .

وعللت نفسها في أول الأمر بأن ذلك التحول طارئ من أثر الدعة بعد الحروب ، ولا يلبث أن يزول ، فيعود زوجها البطل كما كان منذ عرفته ، رجلا عنيفاً في وداعة قاسياً في رحمة ، مندفعاً في رفق ، يسطو ويبطش ، ويخاطر ويناضل ، ولكنه يعفو وينصف ، ويرق ويعطف ، وهو في كل أحواله يحبها ويثق فيها ، ويجد في صدره وبين ذراعيه استقراراً ودعة . ولكنها كانت تراه كلما مرت به الأيام يزداد صلابة في تبدله ، وعنفاً في تحوله ، وبعداً عنها ، وانصرافاً إلى شهناز .

ما كان أقسى هذا الفكر عليها ، وأدماه لقلبها ! إنه كان يبعد عنها ، وتراه في ارتياعها كأنما يحمله تيار قوي لا يقدر على المناضلة فيه للعودة إليها .

كان قبل حربه قد آلى على نفسه ألا يذوق الخمر حتى يشتفي بالانتقام من سابور ، فلما بلغ من انتصاره ما بلغ تحلل من أليته وأقبل على الخمر في مجالسه ، وأطلق لنفسه العنان في حلقات السمر ، واندفع مع ندمائه في الشراب وفي مجامع الغناء ؛ حتى رأت زنوبيا أن مجالس سمره تأباها عليها كرامتها وغيرتها ؛ وكان يعربد أحياناً في سكره فيندفع إلى أذى أصحابه الذين معه والعبث بهم ، أو الإيقاع بمن تبدر منه بادرة تثير حفيظته ، حتى كره العقلاء والأمراء أن يحضروا مجالسه ، ورأوا في تخلف زنوبيا عنها مثلا يحتذونه ، وتقرب إليه الأصاغر وأحاطوا به ، وزينوا له ما يحلو لأنفسهم ، حتى أصبحت مجالس سمره حلقات مجون ودسائس بعد أن كانت مجامع حكمة وفن وفكر .

واندفع في زهوه وكبرياء نصره ، وصار لا يطيع امرأته الحبيبة إذا أشارت عليه بما لا يرضي كبرياءه الدموية ؛ فبدأ بعد عودته بمعاقبة من كانت زنوبيا أغضت عن خياناتهم من الشيوخ ، عندما حاصر الأمير السليحي تدمر في مدة غيابه ، فلم يدع منهم أحداً بغير عقوبة ، وكان أكثر عقابه بالقتل والتعذيب .

وشملت المدينة كآبة مظلمة ، وخيم عليها هدوء وخشوع ، وصار كل من فيها من العظماء يتوجس خيفة أن يصيبه أذينة يوماً بتهمة من أثر وشاية فيأخذه بجريرة لم يجترمها . وكانت زنوبيا تلاحظ ذلك إذا ركبت مع زوجها في المدينة ، فقد كانت الطرق تخلو ويسرع من فيها إلى الاختفاء منها خوف أن ينالهم شر من نظرة تقع عليهم من أذينة لا تنال منه الرضا .

وكانت كلما أرادت أن تكشف له من نفسها توزع قلبها بين حبها الكامن وبين خوفها أن تقطع ما بينها وبينه ، فكانت تحاول أن تشير إلى آلامها ، ولكنه كان لا يعبأ أن يقف عند إشاراتها الدقيقة ليدرك ما ترمي إليه فيها ، حتى آل أمرها بعد حين إلى حال تشبه أن تكون قطيعة كامنة بينها وبين زوجها . وما كان أقسى الساعة التي كانت تراه يخرج فيها من القصر بعد أن يفرغ من مجلس سمره ليذهب إلى الطرف البعيد من تدمر حيث تأوي شهناز .

كانت تلك الساعة تخلف لها ليلة مسهدة ودمعاً سخيناً

وقتاً كبيراً، ولكنها كانت مع ذلك تجلس كل ليلة تترقبه لكى تراه، ثم تذهب إلى مخدعها باكية حانقة شقية.

ومضت الأيام والشهور، وكانت تحس أن أشباح الهموم والآلام تمد أعناقها فى أفق حياتها الجديدة، وتمتد فى بطء قاس منتشرة على السماء الصافية التى يتألق فيها مجدها الذهبى. وماذا ينفعها أن أصبحت تدمر عاصمة دولة عظيمة تمتد من حدود الفرات إلى حدود مصر، وأن جعل جالينوس أذينة صديقه وخليفته على قيادة جيوش الشرق، وأن وكل إليه حكم بلاد الشام التى نال منها أمر (مقربان)؟ ماجدوى هذا كله عليها، وهذه الدولة الفسيحة لم تحمل إلى قلبها ما كانت تحلم به من السعادة؟ كانت تحسب أن ذلك المجد الموموق هو أمنية حياتها، وخيل إليها أن صورته الذهبية البعيدة عند آفاق آمالها هى علالة نفسها التى إذا بلغتها ملأت قلبها سلاما وغبطة، حتى لقد جعلتها مناط إيمانها، وفتحت قلبها لدين المسيح إذا هو ساعدها على الفوز بها. فلما بلغتها وجدت لونها الذهبى يفارقها، ورأت أنها ليست إلا عبثاً من يد القدر الساخر، وأنها لم تكن غير خطوط زائفة، وأن بريقها الخادع لم يكن إلا من سحر شياطين الأطماع. ووجدت أفقاً جديداً يطلع من بعيد، وينفتح أمام عينيها، ليس فيه إلا أشباح سوداء تتراقص فى بشاعة، وتثب نحوها مهددة مخيفة.

هذا أذينة قد دار رأسه من المجد فصار عابثاً سفاكا! وهذه مجالسه قد تبدلت، فأمست مجالس سكر ومعابثة وفجور، وزال منها رونق الشعر والفلسفة والفكر! وهذه هى تراه قد بعد عنها، وآثر عليها تلك السبية الأعجمية شهناز. شهناز الجميلة التى كانت صورة من المرأة الوديعة المطيعة التى خلقت لكى تكون أمة. ليتها هى كانت تقدر على أن تكون أمة لكى تسترجع هذا الزوج الحبيب! ولكنها لا تستطيع، لأنها لم تولد إلا لتكون ملكة. لقد وهبته قلبها وهى أميرة، ولا تستطيع إلا أن تكون زوجها سيدة تدمر التى تتربع على عرشها فى قلب أذينة.

أف لهذه الحياة التى تكبلها بالقيود! ليتها كانت تستطيع أن تفضى بآلامها إلى صديق، لكى تنفس من غلها وتنق السموم من جرحه! ولكنها كانت لا تستطيع الشكوى إلى أحد، فأصبح الجرح عميقاً داوياً. حتى لبيس ولونجين لم تجرؤ على الإفضاء إلى أحدهما بشىء مما تنغص عليها حياتها، إذ كانت كبرياؤها تمنعها من الكشف عن الثلة التى أحنت جبهتها. فلم يبق لها إلا أن تناجى نفسها الحانقة الثائرة، وأن تذهب معها فى الثورة أنى تتجه بها! فثارت على كل ما كانت تعرفه وتطمئن إليه، وتغيرت نظرتها إلى الحياة، فصارت تشك وتسخر، ولا تستطيع أن تؤمن! وبم تؤمن؟ وما الذى يدعوها إلى الإيمان؟

لقد كانت تريد الإيمان ليكون دعامة لقلبها المثقل، حاسة وعاطفة، ولكن ماذا يجديها الإيمان وقد ذهبت حاستها فتبدلت يأساً، ومسخت عاطفتها فأصبحت حقداً وثورة؟ ثم ما هى السعادة؟ لقد رأتها أملا سخيفاً يتعلق به الحمق ليملأوا أنفسهم بالمجهول فى المستقبل، كلما أيأسهم وقتهم الحاضر.

وما هى الحقيقة؟ أهناك حقيقة فى هذا العالم الأجوف؟ إن الإنسان كلما ظن أنه قبض بيده على شىء فيه وعرف كنهه فتح يده فإذا به يقبض على الريح.

وما حقيقة المجد؟ ما حقيقة الغنى؟ ما حقيقة الملك؟ بل ما حقيقة الحب نفسه؟

قد ذهب أذينة للحرب، وانتصر وأحرز أكاليل المجد، ثم هاهو ذا عاد منها ذلك السكير الماجن الذى حنث بكل شىء حتى بحبها. أكان يحبها؟ أم تحبه؟ إنها كانت حقاً تحس النعيم فى قربه وحنانه وحديثه وقبلته. ولكن أليس هذا سر الطبع الذى أودع فى سائر الحيوان؟ إنها امرأة وهو رجل. كانت تريد رجلا تعيش فى كنفه، ويكون لها منه نسل كما يريد من الزواج أقل نساء تدمر شأناً.

وها هو ذا يلهو عنها ويتناساها فى مجونه وعبثه.

ما أحمق النساء ! وما أحمقها هي ! هذه لبنى لا تزال تحلق بالخيال الذهبي الذي نسجته العواطف العطاش ، وهذا حسان يتعلق بها كأنها إلهته ، وقد غمرهما ما يغشاه سعادة منذ عرفا أن الملك قد أذن بزواجهما .

لقد كانت زنوبيا تضحك ساخرة كلما ذكرت لبنى وحسان ، فإنهما لن يلبثا إذا ما رويا تلك العاطفة المحرومة أن يصيرا إلى ما صارت إليه هي وزوجها أذينة . إنهما يخدعان نفسيهما ويظنان سعادة الحب حقيقة ، وما هي إلا صورة خيال ! فما الحب إلا حادث من حوادث الطبيعة التي تتكرر كل يوم آلاف المرات بغير أن يأبه لها أحد . أليس هذا الخداع من حمق الإنسان ، إذ يخادع نفسه بتلك الصور التي يخيلها إليه الوهم ؟

كانت زنوبيا كلما خلت إلى نفسها جعلت تكرر هذه المعاني ، تجادل فيها نفسها حيناً ، ثم تعود مذعنة لها بابتسامة حزينة ، فإذا أرادت الهرب من مجادلة نفسها ، دعت إليها لبنى وحاولت أن تتلمس من بساطة نفسها وسذاجتها وإيمانها ، لعلها تجد في تلك الأنفاس شفاء لأشجانها ، ولكنها كانت بعد قليل تحس أن تلك الفتاة الغريرة لا تستطيع أن تهزها الهزة التي تنتشلها من همومها فتصرفها لكي تعود إلى وحدتها الموحشة العميقة .

أما لونجين فقد كان هو الصديق الذي تجد في عمق فكره وجلاء نظراته ما يخفف من لواعج همها ! وكانت فوق ذلك تحس إذا حدثها شيئاً آخر غامضاً ، تحس في حديثه تجاذباً إلى نفسها . كان المسكين يفنى إذا جالسها ، ولا تجد منه إلا صدى لنفسها وآرائها ومشاعرها ، وكان ذلك يدخل شيئاً من الدفء إلى صدرها ، ولكنه لم يكن يبعث فيها السعادة ولا السلام . فأقبلت عليه وجعلت سلوتها في دروسه وقراآته ومناقشاته . وتعجبت بعد حين إذ وجدت أنها قد أخذت تسمو وتنهاً وتتطلع إلى قرار ، غير أنها عندما أحست بذلك وجدت كذلك أنها إنما استقرت بعقلها لا بقلبها . لقد أقبلت على دروس لونجين إقبالاً تمازجه الرغبة الحارة في التماس السلام لنفسها . أقبلت عليها بكل حاسة قلبها ، بعد أن وجهت مجرى تلك الحاسة من شواغل القلب إلى مسائل الفكر . فلما انجلت لها الحقائق وحكمت في كل شيء عقلها ، صارت لا تطمئن إلى شيء غير عقلها . لقد يئست من القلب بعد أن أوشكت أن تجعله هاديها في الحياة ، وجعلت كل إيمانها في العقل والفكر ، وأصبحت بعد حين تنظر إلى العالم كله نظرة مجردة تحلق في الحقائق وتحلل وتعلل . فبعد نضال وجهاد قضت فيهما تلك الشهور القاسية ، تحولت وتبدلت حتى صارت كأنها قد خلقت خلقاً جديداً ! فلا الربيع يحمل إليها شذى ساحراً ، ولا لون الشروق يبعث في قلبها خفقاناً رفيقاً ، ولا نسيم الأصائل يرسل إليها سلاماً شاملاً . ولا القطر يثير فيها البشر ، ولا ألوان قوس السماء تذكرها بأساطير الشعر ، ولا منظر الألم يثير فيها الرحمة ، ولا أحاديث السعادة تبعث إليها الحنين ! بل صار كل حدث في حياتها علة أو نتيجة ، وكل شيء في الوجود صورة المادة معقدة أو بسيطة .

وفيما كانت زنوبيا تعالج نفسها وتكتنفها ذلك التحول الذي اعتراها أتت الأنباء إلى تدمر من جاليوس أن نيران الثورة اندلعت في الشام من القائد (بالستا) الذي بايع له الجيش بعد أن قتل مقريان . فكان على أذينة قائد جيوش الشرق كلها أن يفارق تدمر مرة أخرى ، وأن يدع الخمر ومجالس اللهو حتى يعيد الشام إلى صديقه الامبراطور .

وودعت زنوبيا زوجها هذه المرة قبل سفره ، ولكنها عندما وقفت تنظر من أعلى قصرها في أعقاب جيشه الذاهب لم تبح لقلبها أن يتمادى في خفقانه

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى

أسباب كثرة الطلاق فى مصر

استعرضنا فى مقال سابق مشكلة الطلاق فى مصر ، وصورنا هيكلها الرئيسى . ولما كان الواجب على كل باحث اجتماعى يتصدى لدراسة مشكلة من المشكلات أن يحاول اكتشاف جراثيمها ، ويتتبع حياتها من منشئها ، إلى سيرها إلى تطورها ، أرى لزاماً على أن أرد هذه المشكلة الاجتماعية الكبيرة إلى أسبابها المختلفة .

الطلاق نوعان من الأسباب : أسباب « رسمية » يثبتها أصحابها فى السجلات الحكومية . وهذه — فى الأغلب — لا تعدو أن تكون ملتاً للخلافات ، أو تغطية للمكشوف من الفضائح و « العورات » ، أو صوناً لسمعة العائلات الكريمات . وهيهات للأرقام الخرساء أن تفصح عما يختفى وراءها من أكاذيب محبكة ، أو مآس موجعة !

ولا بأس فى هذا المقام من إيراد ما أثبتته تلك السجلات الرسمية .

السبب	عدد الاشهادات
نفور الزوج	١٥٧٧٣
نفور الزوجة	٩١١٦
نفور الطرفين معاً	٧٢٧٣
الفقر	٥٩٩٩
تعدد الزوجات	٥٣٨٤
النزاع العائلى	٣١٣٨
عقم الزوجة	١٦٨٧
مقامرة الزوج	٧٠١
سوء أخلاق الزوجة	٥٣٧
...... الخ .	

ويتبين من مجرد النظر إلى هذه الأرقام خطأ إرجاع كثرة الطلاق إلى الحالة الاقتصادية والنزعات الدينية وحدها وإغفال الدوافع الاجتماعية والأمراض الخلقية والتربوية .

وهاك إلى الأسباب التى أراها أقرب إلى الصواب ، وهى أبعد غوراً من تلك التى ترد فى السجلات .

أولاً — ارتفاع مستوى المعيشة

إن الحياة فى وقتنا هذا أعلى ثمناً مما كانت عليه الحال قبل الحرب الماضية ، أى فى عهد آبائنا وأجدادنا ؛ فلم ترخص تكاليف الطعام ، ولم تهبط أثمان الحاجيات ، ولم تنخفض نفقات المعيشة بنسبة ما وقع من نقصان فى الأجور والمرتبات ، وفرص الكسب المتنوعة ؛ بل المشاهد أن مطالب الحياة قد ازدادت وتعقدت ، وتكاليفها قد ارتفعت بالتالى فى الوقت الذى انخفضت الأجور تبعاً لقانون العرض والطلب ، بسبب ازدياد عدد الراغبين فى العمل عن وحدات العمل نفسه . وقد أصبح من أجل أن يحتفظ رب الأسرة بكرامته ومستواه الاجتماعى ، عليه أن يسد ثلاثمائة باب وباب من أوجه الصرف العائلى والاجتماعى .

ورغم هذه الاعتبارات فإن أغلب الأسر باتت لا تقنع بضروريات المعيشة وحدها ، بل ولا تقتصر على توفير مستلزمات الراحة فحسب ، وإنما تطمع فى الحصول على كثير من الكماليات وألوان الترف والرفاهية . والترف مرض تبدو أعراضه على الأغنياء والأدعياء ، ثم يفشو وينهمر ويخترق كل الطبقات ، فيتمخض عن انحلالات خلقية تجرف فى طريقها ، فيما تجرف ، كيان الأسرة وتزلزل قواعدها ، وتفكك عراها .

ويحدث أن يضاف إلى ذلك جهل الزوجة بشئون بيتها ، وتدبير « ميزانية » مملكتها الصغيرة ، فيضطرب حبل سلطانها فى يدها اضطراباً مبيناً . وقد يكون الرجل لا يستطيع أن يضيف إلى همه حمل زوجته التى يرى نفسه مضطراً إلى « سحب اختصاصها » !

فى هذه الفترات القلقة فى حياة الأسرة ، أو من إحداها ، يتسلل شيطان الطلاق إلى كثير من الحياة الزوجية ، فلا يعود يقنعها أو يجمعها الحب ، أو الدموع ، أو المجاملات .

ثانياً — الحركات الاستقلالية الرائعة !

يرغب بعض الأزواج والزوجات في الاستقلال بأمور يتحتم فيها الرأي والمشورة ، فإن هناك مسائل عائلية يقع عبئها على كاهل الزوجين معاً ، وتعتبر « كالنظام العام » في أمور الدولة . فالزوج مثلاً قدوة زوجته . وهذه أمينة على عرضه وكرامته ، لا لنفسها فقط ، وإنما لحق زوجها عليها.

وهذه الحركة النسائية التي تسربت من الصحف ، والأرصفة ، والنوادي ، إلى البيوت قد أمسى ، فيهما كما أمسى استقلالها . وبسببها صارت الزوجة توسع من اختصاصاتها ، وتضيف إلى حقوقها ما ليس لها كله أو بعضه . والنساء المثقفات ، أو القادرات على إسماع صوتهن الرقيق المؤثر ، دائبات الثورة ، وإعلان « حركة العصيان المدني » ؛ وإني لأشك في أنهن سيرفعن « الراية البيضاء » قبل « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ! . فليسارع الأزواج إلى بناء الملاجئ في بيوتهم لاستعمالها عند « اللزوم » وإلى مطالبة الحكومة بتكوين « لجنة لوقاية الأزواج المدنيين من غارات الأعداء » !

وقد عودتنا الصحف والأفواه أن تنقل إلينا ، أولا فأولاً ، أنباء هذه الثورة الناعمة البيضاء ، وأسماء آخر ضحاياها المدنيين . فهؤلاء فتيات مراهقات ، وزوجات غافلات طائشات يغشين المجتمعات المختلطة ، ويرتكبن نفس أوزار الرجال ، ويأتين إثمهم ! وشعار الجميع هو عين الشعار المذهبي الذي ارتفع فوق جثث ضحايا الثورة الفرنسية : الحرية ، والإخاء ، والمساواة ! ولو كانوا صرحاء مع أنفسهم ومع الناس لقالوا إن شعارهم : الفوضى ، والإباحية ، والنفاق ! . وفي وسع كل منا الآن ، وبلا تفكير طويل ، أن يذكر عشرات الأعشاش الزوجية التي أصبحت والبوم ينعق على حافتها !

والرجل الأوربي ، والمفكر الأوربي هما خالقا هذه الحركة وأستاذاها . وهما الآن يحصدان ثمارها شقاءً ودموعاً وتشريداً ، وحرباً مشكلة للأمهات ؛ ومحنة للزوجات !

فإن هذه الحرب التي تدور في جنبات العالم كله ما هي في اعتقادي إلا امتداد واتساع وفيضان للشرارة المندلعة في أحشاء الأسرة .

فقلما أتيح لأحدنا الكلام مع سيدة عصرية إلا وزكمت أنفه رائحة الأخطاء التي طوحت بها الحرية الزائفة التي حصل النساء عليها ، والأساليب التربوية التي نهجتها .

ومع بقاء الغيرة في صدور الرجال الأماثل فإن المدنية قد ركبت في نفوسهم خلقاً رخواً ممجوجاً بالطراوة والمرونة . فلا يتردد — مثلاً — الزوج الذي امتص مقله هذه المبادئ (الحديثة) في ترك الحبل على الغارب لزوجته التي تقابله بالمثل .

ومن هذا المورد الكدر تعكرت الحياة الزوجية ، ووهنت قداستها ، وتفككت العقدة السماوية التي كانت في الماضي تشد الرجل والمرأة : كليهما إلى الآخر !

ثالثاً — قصور برامج التعليم

ومما يؤسف له حقاً أن برامج التعليم المصري لا تهتم كثيراً بالأسرة وأحوالها الاجتماعية والجنسية . فهي لذلك تفسد الحياة الزوجية وتكشف عوراتها . فالتعليم الذي يتلقاه شبابنا ، وترتشفه فتياتنا ، آباء وأمهات المستقبل ، لا يعينهم على تفهم روح وظائفهم العائلية ، وأسرارهم الجنسية والاجتماعية ؛ وعلى ذلك لا يدرك الأزواج أن الحياة الزوجية هي نوع من أنواع الفنون الجميلة ، بل هي أكثرها سحراً ، وأعزها وأشدها أسراراً ، وأرفعها قدراً . وإذا كانت غريزة الجنس التي تدفع إلى الزواج تورث وتنتقل في الدم ، فإن العقل المدبر الحكيم الذي يجتث الأشواك من طريق الحياة ، ويبذر في مكانها الزهور ، يكتسب بالتجربة والمران على الذوق المصقول والمنطق السليم .

فالأزواج الذين لا يتشربون هذه الروح لا منجاة لهم من شر الطلاق والفشل الزواجي ، مهما تحدثوا في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأدب والفلسفة . وكم من أزواج وزوجات اكتسبوا هذه الناحية بالفطرة السليمة ، والنظرة الرصينة إلى حقائق الوجود وأغواره .

رابعاً – هذا الهوس الاجتماعي !

ألفت الآذان أخيراً أن تسمع عن نوع غريب من الزيجات يتم بين شباب تلك الطبقة التي تحمل اسم « الطبقة الراقية » . أي التي تحتل – إن صدقاً وإن كذباً – قمة الهرم الطبقي في المجتمع . وهي زيجات لا يدفع إليها الحنين الغريزي في الإنسان إلى تكوين أسرة ، ولا الرغبة الطبيعية في تحقيق نظرة حالمة مثالية ! وإنما تدفع إليها روح المقامرة والمغامرة السائدة في تلك الطبقة . وأغلب ما تنشأ هذه الزيجات الشيطانية في المصيف ، على شواطيء البحار ، أو حول موائد الميسر ، أو في جوف حلبات الرقص . تلك الأجواء التي تنضح برائحة النزق الجنسي الأرستقراطي ، والشهوة الحيوانية المستورة بلفائف من حرير .

وأمثال هذا الزواج ينتهي كما بدأ ! .

خامساً – ضغط الكفاح !

إن الكفاح الحديث في بدء الحياة العملية ، وعلى بعد قصير منها ، صار يتطلب كثيراً من التضحيات ، ويلتهم سنوات مضاعفة من العمر عما كان يأخذ من الأجيال السابقة . فهناك المزيد المطرد من المؤهلات العلمية ، والمران العملي . والزواج بعد وقت معقول من هذه الفترة هو الشائع الآن لتحقيق زواج أرقى ، ومستوى من الحياة أرفع وأهنأ ، وفي نفس الوقت أصبح هذا الزواج مع هذا الثمن الباهظ ، لا يعطي – في الأغلب – ما يوازي تكاليفه من السعادة والهناء الزوجي . فمثلاً الرجل الذي شارف الأربعين قلما يرضى بزوجة تناسب عمره ، فيعمد إلى تفضيل البناء بأخرى أنضر شباباً ، وأحدث سناً ، الأمر الذي وسع مسافات التفكير بين الأزواج ، وباعد بين النظر إلى مشكلات الحياة ، وفقد التوافق بين الآراء !

ويقاس على اختلاف السن التباين الثاني ، من الطفرة الاجتماعية التي طفرناها دون أن نشعر ، والتي أشاعت الاضطراب المزمن بين أفراد الجيل الحاضر . فالزوج الراقي لا يصبر على الحياة مع زوجة متأخرة عن مستواه . وكذلك الحال مع الزوجة الحديثة التي صارت لا ترضى بغير حياة الترف والمدنية ، ولا تتخلى عن السبيل إلى كل ذلك فيه شعرة !

سادساً – التقاليد ! التقاليد !

لا تزال تعيش وتفرخ في كثير من البيوت ، حتى الحديثة منها ، الأوهام القديمة ، والتقاليد البالية كالتشدد في طلب المهور المرهقة كأن في الأمر سلعة ، وتحكم الآباء والأمهات في اختيار زوجات أبنائهم أو أزواج بناتهم . وذلك يؤدي دائماً إلى مغالطات قاسية تصبح في الداء كالمضاعفات ، وينتهي إلى عقد زيجات غير موفقة تحمل جراثيم الطلاق في ثياب العرس ، والطلاق كالسل يبدأ في حجم سن الدبوس ، ثم يسري في دم الحياة الزوجية حتى يستفيض . وكثيراً ما تكشف هذه التقاليد عن مآس موجعة ، ومخازٍ طويلة الجذور ، ومع ذلك فإن الناس ما فتئوا على ضلالهم لا يتعظون ، حتى كثرت بين ظهرانينا فضائح مختمرة تسير على قدمين : فهل نسي كل هؤلاء أن الزواج شركة روحية بين رجل وامرأة ، إن استطاعت المغالطات أن توفر لها شكلياتها فهذا التحايل لن يسقط أبداً « التزوير الروحي » الواقع في إنشائها .

سابعاً – زواج المصلحة

ما نعنيه هنا هو الزواج الذي لا تمليه إلا المنفعة المادية ، بمعنى أن أحد الزوجين يأخذ أكثر مما يعطي من ذات نفسه وماله وقلبه . ومن ثم يقوم النزاع بين المغبون والغابن ، كما برز الفرق بين الأخذ والعطاء ! والطلاق هو غالباً خاتمة المطاف في مثل هذا الزواج .

ثامناً – ضعف نخوة الرجال

كان الرجال فيما مضى يشعرون بالمروءة نحو المرأة الضعيفة ، ويتقون الله كثيراً في زوجاتهم ، بل كانوا يتهيبون الطلاق ، ويخشون عواقبه ، ويخافون لومة لائم ، ويتجنبون الدخول في المحاكم ، وذلك بسبب ما كان

إلى المجمع اللغوى :

٢ - المصريون من لهجاتهم

للأستاذ عبد الستار أحمد فريج

تكلمنا فى المقال السابق[١] من الاختلاف بين المصريين فى الحروف وارتباطه بلهجات العرب بوجه عام . ونريد أن نبين هنا الألفاظ التى اختلفت فيها القبائل العربية ، وصلة ذلك بما يجرى على ألسنة الكثير من المصريين ، حتى نستطيع أن نضيق الدائرة ونلم شعث الموضوع ؛ وذلك هو ما نبغيه ، ونريد أن نصل إليه . فإذا نحن رجعنا إلى بعض كتب اللغة وجدنا أن بنى تميم يقولون اسأل ربك الخير ، وأكدت هذا الأمر تأكيداً ، وأنا أقلى الحمص ، وفلان برىء من فلان وبرئت منك ، ويرجعون الضمير مذكراً على التمر والبر والشعير والذهب ؛ لكن الحجازيين يقولون سل ربك الخير ووكدت هذا الأمر توكيداً ، وأنا أقلو الحمص ، وفلان براء من فلان وبرأت منك ، ويرجعون الضمير مؤنثاً على التمر والبر والشعير والذهب ، بعكس التميميين ؛ ونحن نلحظ أن أكثر المصريين يشبهون بنى تميم فى جميع ما تقدم ، ولا نكاد نجد منهم من يتبع طريقة الحجازيين ، فهم يقولون اسأله عن كذا ولا يقولون سله ؛ وأنا أكدت عليه أن يفعل كذا وكذا تأكيداً تأكيد سأفعله ولا يقولون وكدت عليه ولا بالتوكيد ؛ وأنا أقلى الفول والحمص ولا يقولون أنا أقلوه ، وأنا برىء منك وبرئت منك ولا يقولون أنا براء منك وبرأت منك ؛ ويعبرون عن الذهب والتمر والشعير بألفاظ التذكير لا التأنيث ، فيقولون الذهب الذى أملكه والشعير الذى باعه فلان والتمر الذى تأكله ، ولا يقولون الذهب التى أملكها والشعير التى باعها والتمر التى تأكلها . ونجد كذلك أن فريقاً من بنى تميم يقولون الحمد لله بكسر الدال ، وعندنا من العامة فى الأرياف والقرى كثيرون يكسرون الدال كالتميميين . هذا وإن هناك من الظواهر الأخرى فى الألفاظ أو فى طريقة الأداء التى تقربنا إلى ما نريد من ناحية — فتبين لنا صلة المصريين بقبائل عربية بعينها بعد أن كان الأمر مختلطاً وكانت الصلة تكون مفقودة حلقاتها المهمة — ما نوردها فيما يلى :

١ — بنو تميم لا يفكون المثلين المدغمين فى الفعل المضارع المضعف المجزوم ، ولا فى أمره ، فيقولون شدّ وجرّ وعدّ وهو لم يشدّ ولم يعدّ ولم يجرّ . أما الحجازيون فإنهم يفكون المدغمين ، فيقولون اشدد ولم يجرر ولم يعدد ؛ وحتى أن المصريين يخالفون الحجازيين فى طريقتهم هذه ،

(١) انظر العدد ١١٨ ص ١٨ من مجلة الثقافة .

للوازعين الدينى والخلقى من أثر فى نفوسهم . أما الآن فإن الأمر بالضد ، وصار الطلاق وتسريح الزوجات منظراً مألوفاً .

• • •

هذه أغلب الدوافع الحقيقية فى حوادث الطلاق ، ويبدو أنها كلها ترجع إلى الانحلال الخلقى السائد فى حياتنا الاجتماعية . فالتقاوم هذه الجراثيم التى تسبح فى أخلاق الأفراد ، توفر للأسرة أمناً ، وهدوءاً ، واستقراراً . وسنرى بعد ذلك أن المجتمع قد اكتسب من الأسرة هذه الصفات .

محمد عبد الرحيم عنبر
بوزارة الشئون الاجتماعية

فلا يفكون ، بل يفعلون كما يفعل بنو تميم فيقولون : مدّ وشدّ وهكذا .

٢ — اللغة العربية المشهورة فى المثنى أن يقال فى الرفع اثنان ويدان وفيما عداه اثنين ويدين ، وتلك طريقة الحجازيين ؛ غير أن بنى تميم وقيس عيلان وأسد من مدركة يميلون الفتحة والألف فى حالة الرفع إلى جهة الكسرة والياء ، ويكون النطق مشابهاً لنطق الحرف «a» فى مثل النطق الانجليزى «table» فيقولون : اثنَين ويدَين ، وقد توسع العامة عندنا فى هذا ، فجرى المرفوع وغيره على هذا النحو ، ما عدا البلاد التى تنطق فى مصر بالقاف الصريحة ، فإنها تخلص الحركة من غير إمالة فيما ليس بمرفوع ، فيقولون حسنَين ويدَين كالنطق المشهور سواء بسواء .

٣ — الكثرة الغالبة فى المصريين تقول فلان مديون ومعيوب ، وهذا ما يجرى به طريقة بنى تميم ، فلا يحصل إعلال فى اللفظ . أما الحجازيون فإنهم يقولون فلان مدين ومعيب بالإعلال بالحذف .

٤ — ينطق المصريون العدد من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر على طريقتين : فمنهم من يقول أربعتاشَر ، خمستاشَر بفتح الشين ، ومنهم من يقول أربعتاشِر ، خمستاشِر بكسرها ؛ وفتح الشين وكسرها من عشر المركبة مع الثلاثة إلى التسعة لغة بنى تميم . أما الحجازيون فهم يسكنون الشين ؛ غير أن حذف العين من عشر أو تسهيلها تسهيلاً يكاد يخفيها إنما هو من عمل العامة لكثرة الاستعمال وثقلها فى النطق ، وليس من تخفيف القبائل التى ذكرناها آنفاً .

٥ — قبائل تميم وقيس وعامة العرب ما عدا الحجازيين يكسرون حرف المضارعة فيقولون فلان يِكتب ونحن نِنجح وأنت تِفتح بكسر الياء والنون والتاء ، وذلك الكسر هو الغالب على نطق المصريين .

٦ — يلاحظ أن نطق كثير من المصريين بكلمة «لا» يكون هكذا «لأ» بالهمز بدل الألف . وقلب الألف المتطرفة همزة طريقة بنى تميم .

٧ — يظهر أن ما يجرى على ألسنة بعض العامة فى القرى والأرياف وبوادى مصر من قولهم فى «لأ» «لع» وفى «سأل» «سعل» وفى «قرآن» «قرعان» بقلب الهمزة عينا إنما هو توسع سرى إليهم من بنى تميم وقيس عيلان الذين يقلبون الهمزة الواقعة فى أول الكلمة عينا .

٨ — كثير المصريين يسكنون الجيم فى قولهم عند تثنية رُجل «رِجْلَين» . ويبدو أن هذا التسكين من بقايا بعض بنى تميم الذين يسكنون المتحرك تخفيفاً اطراداً فى الثلاثى المتحرك الوسط .

٩ — لغة ربيعة ومضر زيادة بعد كاف الخطاب المؤنثة شيناً فى حالة الوقف للفرق بينها وبين المذكر ، سواء أكان قبلها نون أم لم يكن ، فيقولون رأيتكش وما سمعتكش ، وقد توسع العامة فى زيادة الشين فجعلوها عند النفى بعد كاف الخطاب المذكر ، ثم توسعوا أكثر من ذلك مثل وقوعها فى حالة النفى مطلقاً أو فى حالة الاستفهام التقريرى ، سواء أكانت هناك كاف أم لم تكن ، فيقولون يا فلان ما تجيش وما قابلتكش ، ويا فلانة ما رأيتكش ، وسافرش فلان ؟ وهكذا . ونستطيع أن نرجع هذا التوسع إلى أحد عاملين : الأول أن تكون كل شين جاءت بعد نفى أصلها «شىء» على شريطة ألا تكون عقب كاف الخطاب مذكراً أو مؤنثاً . فجملة «ما رأيتش» مثلاً كانت ما رأيت شيئاً ، ثم خففت الهمزة فصارت ما رأيت شيا ، ثم ضاعت الحركة الإعرابية مع التنوين بسبب العامية ، فانتهت الكلمة أخيراً إلى ما رأيتيش أو ما رأيتش ؛ أما ما كانت الشين فيه عقب كاف الخطاب فى النفى مثل ما رأيتكش وما سمعتكش فهذه لا يمكن أن يكون أصلها لفظة شىء ، إذ لا يؤدى المعنى

المقصود من ما ضحكتش قولك ما ضحكت شيئاً إلا بتجوز بعيد وتكلف ظاهر ؛ وهكذا نرجح الشين التي تجيء عقب الكاف إلى توسع العامة في لغة ربيعة ومضر التي قلنا إنها تزيد بعد كاف المخاطب المؤنثة شيناً للفرق بينها وبين المذكر في حالة الوقف ؛ وقد زاد هذا التوسع فشمل ما جاء على طريقة الاستفهام التقريري كما تقدم ، مثل قولك ساقرش فلان ؟ وما جاش أحد ؟ ونحن إذا قلنا إن هذه لغة ربيعة ومضر فإنما ندخل ضمناً قبيلتي بني تميم وقيس عيلان . لأننا إذا نسبنا تميماً نجدها تنتهي إلى تميم بن مر بن[1] أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، ونجد أن قيساً تتفرع من قيس عيلان بن مضر .

تلك تسعة من الأمثلة المختلفة نجد قبيلة بني تميم مشتركة فيها جميعاً ، كما أن بني قيس عيلان مشتركون في بعضها على وجه التحقيق ، وفي أكثرها على وجه التغليب ؛ أضف إلى هذه التسعة المثلين السابقين وهما : « اسأل وأ كنت الخ ... والحمد لله » مضافاً إليها ما سبق لنا أن بيناه في الحروف من أن تميماً وقيساً وعامة العرب ما عدا القرشيين ينطقون القاف مشابهين القاف المصرية الآن ، ومضافاً إليها أيضاً ما يجري على ألسنة بعض المصريين من تحريك ياء المتكلم بحركة الكسر ، فيقولون في رجلي ويدي وفي : رجليِّه ويديِّه وفيِّه وهكذا ، وهذه الطريقة لبعض بني تميم ، وقد قرئ على طريقتهم قول الله تعالى « بمصرخيِّ » . أما القراءة المشهورة والطريقة المتبعة فهي « بمصرخيَّ » بالفتح ، غير أن الهاء في « رجليِّه ... » الخ ، هي هاء السكت اجتلبها العامة أنفسهم ؛ وبهذا تبلغ الأمثلة ثلاثة عشر دليلاً نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون اعتماداً عليها : إن الأكثرية في القطر المصري تتصل ببني تميم أو قيس اتصال نسب أو ولاء أو محالفة . على أن المراجع التاريخية — والحمد لله — لم تكن ضدنا ولم تخذلنا فيما ذهبنا إليه من رأي ؛ فإننا لو بحثنا في تفرق القبائل لوجدنا أن قبائل بني هلال بن عامر بن صعصعة من هوازن من قيس عيلان بن مضر كان لها صعيد مصر كله ؛ كما أن المصادر تذكر لنا أن تميماً توزعت على بكرة أبيها في الفتوح الإسلامية ؛ وما دامت قيس عيلان التي تجاورها في السكن في أرض نجد قد وردت إلى مصر ، وما دامت الظواهر الكثيرة في لهجات أغلب المصريين تتفق إلى حد كبير جداً مع بني تميم — وذلك الاتفاق أعظم برهان على الصلة — إذاً فكثير من المصريين من بني تميم أو اتصلوا بهم . وإذا أردنا أن نكون أدق في حكمنا نقول : إن أغلب المصريين هم من بني مضر الذين سكنوا نجداً وأكثرية هؤلاء من بني تميم وقيس عيلان . وهناك من المضريين الذين سكنوا نجداً قبيلة أسد من مدركة من مضر ، وتشترك في قليل من المظاهر التي قدمناها ؛ ولكنا لم نجد من المصادر التاريخية ما يذكر لنا أن بني أسد قد وردوا إلى مصر ، ولم تقل إنهم توزعوا في الفتوح كما توزعت تميم . ومن القبائل المشهورة التي تنتمي إلى مضر قبيلة هذيل ، ولا نجد من مظاهر لهجتها في مصر شيئاً ذا أثر ؛ فهذيل وبعض القبائل تقلب العين الواقعة قبل طاء نوناً ، فتقول في أعطى أنطى ، وتقلب الحاء عيناً ، فتقول في حسن « عسن » ، وتستعمل « متى » استعمال « من » لفظاً ومعنى .

قال شاعرهم :

شربن بماء البحر ثم ترفعت
« متى » لجج خضر لهن نئيج

هذا وفي مقالنا الأخير إن شاء الله سنتكلم على القاهريين ومن شابههم لنرجعهم إلى من ينتمون أو بمن يرتبطون .

عبد الستار أحمد فراج

(١) في صبح الأعشى : ابن مرة بن طابخة ، ولكن كتب الأنساب الأخرى تذكره ابن مر بن أد كما كتبنا .

كتاب من هنالك

لرسامة

نقله إلى العربية الدكتور بشر فارس

من قرية محتلة فى فرنسة

الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٤٠ .

صديقى العزيز . . .

آه من اللمس الخشن ، قد فاتك بالرقة المفروضة فى الأنامل ! فاستقر اليد إن خانها القلب . منذ يونيه المنصرم أراقب جلاءً يذكرنى بحوادث كنت أظنها طُويت بانطواء أخبار التوراة . والريب الذى كان يداخلنى فى صحة تلك الأخبار قد رقّ ، قد فنى . . . الإيمان مرهون ببلاء النفس .

أنا باقية هنا ، وأختى معى : شمعتان لا تجدان من يستصبح بهما للظلمة الظالمة حتى على هزيل النور . نحن هنا حيث نجسّم الماضى ، جسّمه شبابنا وانبساطه أيام كنا نفرّ من باريس إلى الريف ، فرار العاشق المتعَب ، لا فرار العاشق المتطوع . مضى الماضى ، وأما المستقبل فجملة مبهمة ، وتنبئنا البصيرة المفجوعة بأن مدة السأم مما يكتنفنا فى تثبت وتزايد .

لا أقول إنى أشكو الملل بمعناه المتعارَف . لا أشكوه بهذا المعنى الخاوى . فى مقدرتى أن أتألم ، وإن بى الألم ، وفى مقدرتى فوق هذا : أستطيع أن أعبر اليوم المتطاول بفضل ما اختبر من الذكر ثمر القلب والفكر ، ومواكبَ من المعانى وحركات النفس تناهض الخواء الذى هيّأه « الشكل » من حولى . والحق أن هذا الخواء أثقل ألوان التركان والجفاء : تركَنا الذى كان ثَمّ ، ثم جفانا ما كنا نملك وهما .

حتى فى هذا السكون المتصبب تبرز طبيعتنا قوةً حيويةً محاكيةً أبداً : قد التوى الرسم على الأنامل ، وطاشت الخطوط ، وتداخلت الألوان ، كأنما السكون رقعة بللتها دموع ، فلا إنجاز محل . غير أنه لجميل أن أفكر فى « الصعود إلى الصورة التامة » بحسب ما تمثلها أرسطو : صعود لا يُعنته أن يتظلّم السيرُ المستقدم ، بل يطمع أن ينبسط على أجنحة القرون حتى مستقبل غير منظور بعدُ لنا وبنا . إنه لجميل أن لا يخفّ رقودُ الطبيعة من نشاط الرؤى .

إنى أحن إلى معمل فى باريس ، فى حى مونبارناس ، حى الجِدّ العابث . غادرت هنالك ألواحاً كنت خططت عليها أشكالا وصوراً ، ولى نية أن أعود إليها أتمها . . . أنت أدرى بعاودات الفنان ! ولو بعد معملى الآن ، ولو رجعت إليه ، فهل أقوى على معالجة الألواح ؟ إن حديث النفس كان هادئاً عذباً ، وأما اليوم فالنفس تهيج عراك كله ضجة : الأصوات تعلت ، واللوامع انقلبت وساوس تطنّ ، والإلهام مضرج باستصراخ الضحايا . . . لتلحق تلك الألواح بالضحايا ! هذه رؤى أطرحها لأنى أحب الآن أن أضرب فى عالم الفن ، وبصرى قد صدأه الشقاء وحدّده الندم .

وعهدنا الذى فُرض علينا ، عهد هجيتنا ، هذا الضغط الباطنى الذى يجمّد عروقنا ألا ينفضّ فى الزمن الآتى ؟ هذا الضغط يهيج شهوة قد تجد متفرجاً على التدرج ، إلا أنه كثيراً ما يخطر لى هل تُحكم الصنع بعد البلاء ؟ وما أدرى لم أشكّ الحين بعد الحين فى خصب تلك العجيبة ، فى قوة إثمارها ، فأعدّ نفسى للتسليم بأن الذى ترك لى من العمر إن هو إلا فناء تصدّر الأجل المضروب .

بشر فارس

قصة للأطفال:

المارد ذو الشعرات الذهبية

كان في أحد البلاد في الأزمنة القديمة رجل فقير، يحبه الناس كثيراً لصلاحه وأمانته، ولم يكن له من الأطفال إلا ولد واحد، وكان هذا الولد جميل الصورة سعيد الطالع، كل من رآه أعجب به واستبشر؛ وكان قراء الكف والمنجمون يقولون إن نجمه سعيد وإنه عندما يبلغ الرشد سيتزوج بنت السلطان.

واتفق أن خرج السلطان ذات يوم كعادته مستخفياً متجولاً في أنحاء المملكة، ومرَّ بذلك البلد، فسمع الناس يتحدثون عن الولد السعيد، وعن نبوءة المنجمين له، فغضب لما سمع، وأخذ يفكر في حيلة يتخلص بها من هذا الولد؛ وأخيراً ذهب مستخفياً في صورة أحد السائحين إلى والد الطفل وقال له: «إني رجل غني، وأنا وزوجتي نحب الأطفال كثيراً، وقد وهب الله لنا نعم الدنيا وخيراتها، ولكنه لم ينعم علينا بولد، فهل لك أن تعطينا ابنك هذا لنتبناه، ونربيه تربية حسنة، ونحن نعطيك ما تطلب من المال؟». فتردد الرجل الفقير طويلاً، ولكنه قبل في النهاية بعد طول الإلحاح، ودعا الله أن يحفظ ابنه من الأذى والضرر.

أخذ السلطان الولد وسار حتى غاب عن الأنظار، ثم وضعه في صندوق، واستمر في السير إلى أن وصل إلى ترعة جارية فرماه فيها؛ وقد عام الصندوق مع التيار، وسبح بجواره روح من الأرواح الطيبة يحرس الولد من السوء، ويمنع الماء من الوصول إليه. ولم يزل الصندوق يسير على الماء حتى وصل إلى مكان يبعد عن عاصمة السلطنة بنحو ميلين، ورسا هناك بجوار ساقية لأحد الفلاحين؛ ولما رآه الفلاح أخرجه من الماء، وفتحه، فوجد فيه طفلا صغيراً مليح الصورة، ففرح به فرحاً شديداً، وذهب إلى أهله مسرعاً، فكادت زوجته ترقص من شدة الفرح، وقالت إن هذا الولد كنز من السعادة أرسلته إلينا السماء.

ترعرع الولد في هذا المكان وكبر، وأحبه جميع الناس، لحسن صورته، وسعادة طالعه، ولأنه كان لا يقول إلا الخير، ولا يعمل إلا الصالح. يعامل الكبار بالطاعة والاحترام، ويعامل الصغار بالشفقة والإحسان، ويلتزم الصدق والأمانة في اللعب وفي العمل. وتصادف أن مر السلطان بجوار الساقية فلمح هذا الشاب الصغير وأعجب به وقال للفلاح: «أهذا ولدك؟» فأجابه: «لا يا مولاي، ولكني وجدته في صندوق في الترعة منذ أربع عشرة سنة وقد اتخذناه ابناً لنا، وأحببناه حباً عظيماً». فأدرك السلطان أن هذا هو الطفل السعيد الذي وضعه في الصندوق وألقاه في الترعة وهو صغير، وتعجب من نجاته من الغرق، ولكنه كتم غيظه، وأخذ يفكر في حيلة أخرى، وأخيراً قال للرجل: «إن هذا الولد لطيف حقاً، وإني أريد أن أبعثه بخطاب إلى السلطانة، فهل يمكن أن تستغني عنه لحظة قصيرة؟» فأجاب الرجل: «بكل سرور يا مولاي».

كتب السلطان الخطاب، وأرسله مع الولد إلى السلطانة يقول فيه: «إذا وصل إليك حامل هذا الخطاب فأمري بقتله ودفنه سريعاً، وتخلصي منه قبل أن أرجع». وقد بدأ الطفل مسيره إلى بيت السلطان، ولكنه ضل الطريق، وأدركه الليل وهو أمام كوخ صغير، فطرق

(*) هذه القصة واحدة من مجموعة قصص عالمية مشهورة، يقرؤها الأطفال في معظم اللغات الراقية. وقد روعي في نقلها إلى العربية قرب لغتها من متناول الأطفال، حتى لا يعوق فهمهم عائق أثناء القراءة. وإذا تفضل الأساتذة المدرسون في المدارس الابتدائية فأقرأوا التلاميذ هذه القصة ومثيلاتها، ولاحظوا ما فيها من صعوبة أو سهولة، وأرسلوا هذه الملاحظات إلى مجلة «الثقافة» كنا لهم شاكرين.

الباب خرجت إليه امرأة عجوز ، وقالت له : « أى شىء جاء بك هنا يا بنى ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ » فأجابها : « إنى ذاهب إلى السلطانة ، أحمل إليها خطاباً من السلطان ، ولكنى ضللت الطريق ، فإذا سمحت لى بالمبيت هنا كنت شاكراً ؟ » فقالت له : « إن هذا الكوخ يسكنه لص فظيع ، وإنى أخشى عليك منه إذا رجع ووجدك هنا » .

ولكن الولد المسكين كان قد حل به التعب وغلبه النوم ، فوضع الخطاب بجواره ، واستلقى على الفراش ونام نوماً عميقاً . وبعد لحظة رجع اللص وأصحابه ، فلما أبصروا الولد نائماً استغربوا وسألوا العجوز عنه ، فقالت : « إنه ضيف الليلة ، وقد كان ذاهباً بخطاب إلى بيت السلطان فضل الطريق » . ولما رأى اللص الخطاب بجوار الولد أخذه وفتحه ، وأعطاه لواحد من أصحابه — وكان يعرف القراءة — ليقرأه له ، فلما عرفوا ما فيه سخطوا على السلطان ومزقوا الخطاب ، وكتبوا خطاباً آخر على لسان السلطان صيغته : « إذا جاءك حامل هذه الرسالة فزوجيه بنت السلطان » . ثم تركوا الولد ينام إلى أن أصبح الصباح ؛ فأيقظوه وأعطوه شيئاً من الفطور ودلوه على الطريق الموصل إلى بيت السلطان . فلما وصل وقرأت السلطانة الخطاب فرحت وشرعت فى الاستعداد لزواج الأميرة

بعد أيام قليلة رجع السلطان فوجد الأفراح والزينات وأدرك أن النبوءة قد تحققت ، وأن الولد السعيد الحظ قد تزوج من بنته ، فغضب وقال : « أنا لا أسمح لرجل أن يتزوج بنتى إلا إذا ذهب إلى المغارة المسحورة وأحضر لى ثلاث شعرات ذهبية من رأس المارد الذى يحكم تلك النواحى » . فقال الولد : « إنى سأقوم بهذا » . وفى الحال ودع زوجته الأميرة ، وخرج فى رحلته الطويلة وسار حتى بلغ أول مدينة فى الطريق ، فقابله الحراس على باب المدينة واستوقفوه وسألوه : « ما نوع عملك ، وماذا تعرف من الأشياء ؟ » فأجابهم : « إنى أعرف كل شىء » فقالوا له : « إذاً فأنت الرجل الذى نريده ، إن عندنا عين ماء فى

سوق المدينة ، وقد جف ماؤها ، فهل تستطيع أن تخبرنا عن السر فى جفافها ؟ إنك إن فعلت هذا أعطيناك حمارين محملين بالذهب » . فقال الولد : « نعم سأخبركم عن سر هذا الموضوع ، ولكن بعد رجوعى » .

ثم سار الولد وسار ، حتى وصل إلى المدينة الثانية ، فقابله الحراس على بابها ، فسألوه — كما سأله حراس المدينة الأولى — عن نوع عمله وما عنده من المعرفة ، فأجابهم : « أعرف كل شىء » . فقالوا له : « إن عندنا شجرة كانت تنتج تفاحاً من الذهب ، والآن قد جفت وسقطت أوراقها ، فهل تعمل معنا معروفاً فتخبرنا عن السر فى هذا ؟ » فأجابهم : « نعم ، بكل سرور ، ولكن بعد أن أرجع » .

ثم سار وسار حتى وصل إلى بحيرة عظيمة لا بد له من عبورها ، فنادى صاحب المعدية وركب فى قاربه ، وأخذ الرجل يجدف . وبعد قليل سأله عن عمله وما عنده من المعرفة ، فأجاب : « أنا أعرف كل شىء » . فقال صاحب المعدية : « أرجو منك — إذاً — أن تخبرنى عن سر ما أنا فيه من الحبس ، فقد مضت على عدة سنين وأنا أجدف على هذه البحيرة ، ولا أستطيع الخروج منها » . فقال له الولد : « نعم سأخبرك ولكن بعد أن أرجع » .

ولما خرج الولد من البحيرة وجد نفسه أمام المغارة المسحورة فدخلها ، ولكنه لم يجد المارد الذى يحكمها ، بل وجد جدته العجوز ، فسألته قائلة : « ماذا تريد يا بنى ؟ » فأجابها : « أريد ثلاث شعرات ذهبية من رأس المارد » فقالت له العجوز : « هذه مجازفة من جانبك ، ولكنى سأحاول أن أساعدك » وفى الحال غيرته إلى صورة نملة ، وخبأته بين ثيابها . فقال لها : « وأريد أن أعرف أيضاً أجوبة الأسئلة التالية : لماذا جفت عين الماء فى المدينة الأولى ؟ ولماذا ذبلت الشجرة التى كانت تنتج تفاحاً من الذهب فى المدينة الثانية ؟ وما الذى يحبس صاحب المعدية ويمنعه من ترك البحيرة ؟ » . فقالت العجوز : « هذه أسئلة صعبة ، ولكن الزم مكانك هادئاً واستمع لما يقوله

المارد عند ما أجذب الشعرات الذهبية من رأسه » .

ولما حل الظلام رجع المارد إلى منزله ، وفي الحال وجد ريح آدمي في المنزل فزمجر وأخذ يبحث هنا وهناك . ويقلب كل شيء ، ولكن جدته العجوز شتمته وقالت له : « لماذا تقلب كل شيء ؟ لقد تعبت في ترتيب المنزل وتنظيفه » فلما سمع منها هـذا التوبيخ أقبل ووضع رأسه في حجرها ونام . وحين ابتدأ يغط في نومه أمسكت واحدة من شعراته الذهبية وجذبتها ، فقام منزعجاً وصاح : « ارحميني ، لماذا تجذبين شعري ؟ » فأجابته : « لقد حلمت حلماً مزعجاً ، ومن شدة انزعاجي جذبت شعرك : حلمت أن نافورة الماء الموجودة في ميدان السوق بالمدينة قد جفت ولم تعد تفيض بالماء . فهل تدري ما السبب ؟ » ، فقال المارد : « آه . . . لو كشف أهل المدينة هذا السر لفرحوا وهللوا : إن هناك حجراً في النافورة يقطن تحته ضفدع ذكر ، ولو أنهم قتلوه لفاض الماء » .

وما انتهى المارد من قوله هذا حتى كان قد نعس ، وأخذ يغط في نومه ، فجذبت العجوز شعرة ثانية ، فصاح المارد غاضباً : « ما هذا ؟ وماذا تصنعين ؟ » فقالت العجوز : « لا تغضب ، لقد حصل هذا في نومي ، فقد رأيت في النوم أن هناك مملكة كبيرة ، وفيها شجرة جميلة ، كانت تنتج تفاحاً ذهبياً ، والآن قد ذوت الشجرة ، وسقطت أوراقها ، فما السبب في ذلك ؟ » فقال المارد : « آه . . إنهم يحبون أن يعرفوا هذا السر ! إن هناك تحت جذع الشجرة فأراً دائم القرض لها ، فلو أنهم قتلوه لعادت الشجرة كما كانت ، وأنتجت تفاحاً ذهبياً » .

انتهى المارد من هذا القول وغلبه النعاس ثانياً فنام ، وأخذ يغط في نومه ، فجذبت العجوز شعرة ذهبية ثالثة من رأسه ، فقفز المارد وهددها ؛ ولكنها طيبت خاطره ، وقالت : « لقد كان حلماً غريباً ؛ حلمت كأني أنظر إلى صاحب معدية كتب عليه أن يجدف على سطح البحيرة جيئة وذهاباً دون أن يستطيع الخروج من هذا الأمر ؛ فما هو السحر الذي ربطه على هذه الحال ؟ » فقال المارد : « هذا شخص أبله إنه يستطيع أن يفك نفسه من هذا الأمر ، وما عليه إلا أن يعطي المدفة لأي مسافر ، فإن ذلك المسافر يأخذ مكانه ويبقى سجيناً على ظهر القارب » .

وفي الصباح صحا المارد وخرج كعادته . أما العجوز فإنها أرجعت الولد كما كان إلى صورته الإنسانية ، وأعطته الشعرات الثلاث الذهبية ، وذكرته بالأجوبة التي سمعها من المارد على الأسئلة الثلاثة . ثم ودعته ومضى راجعاً إلى بلده . فبعد أن سار مدة قصيرة وصل إلى البحيرة ووجد صاحب المعدية الذي عرفه في الحال وذكره بوعده في الإجابة على سؤاله ، فقال الولد : « عدني أولا ، وأنا أخبرك بجواب سؤالك » ، ولما وصل القارب إلى الشاطىء الآخر من البحيرة أخبره أن يضع المدفة في يد أي مسافر يمر به ثم ينطلق مسرعاً .

وكان المكان الثاني الذي وصل إليه هو المدينة ذات الشجرة التي ذبلت فلم تعد تحمل تفاحاً ذهبياً ؛ فنصح لأهلها قائلا : « اقتلوا الفأر الذي يقرض جذور الشجرة ، وإذاً تعود شجرتكم إلى حمل الثمار الذهبية » . وقد فرح أهل المدينة بنصيحته وأعطوه هدايا فاخرة وودعوه . ثم سار حتى وصل إلى المدينة الثانية التي جفت نافورتها ، فأخبر أهلها بالطريقة النافعة ، فشكروه وأعطوه — كما وعدوا — حمارين محملين بالذهب .

وأخيراً وصل إلى المنزل ففرحت زوجته فرحاً عظيماً بعودته سالماً غانماً . وقد أعطى الشعرات الذهبية الثلاث للسلطان ؛ ولم يستطع السلطان بعد ذلك أن يعترض على الزواج ؛ وعاش الولد وزوجته معيشة سعيدة راضية إلى أن أصبحا ملكاً وملكة .

أما السلطان القديم فقد نال جزاءه ، فإنه كان أول مسافر يعبر المعدية بعد ذلك ، فأعطاه الملاح المدفة ؛ فما وضع يده عليها حتى أصبح أسيراً على ظهر القارب ، ولا يزال إلى اليوم يجدف على سطح البحيرة .

محمد خلف الله

السردين

للدكتور كامل العصبي

تشغل المحيطات والبحار ما يقرب من ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ؛ ويبلغ مجموع أحجام المياه المالحة التي تملؤها أربعة عشر ضعفاً لحجوم الأراضي اليابسة التي فوق مستوى سطح البحر . والتاريخ يحدثنا أن الانسان الاول منذ درج على الأرض وشعر بحاجته إلى غذاء حيواني عمد إلى الصيد ؛ ومما لا شك فيه أنه بدأ بصيد الأسماك لسهولته قبل أن يتجه فكره إلى أغلب أنواع الصيد البرى ومجابهة الأخطار فيها ، ولما لجأ إلى البحر وصاد منه الأسماك ، ثم استخرج اللؤلؤ والمرجان . ولقد زادت في نظره أهمية بعض الأحياء البحرية ، حتى إن بعض القبائل من سكان أمريكا الشمالية الأصليين كانوا يتعاملون فيما بينهم بعقود من القواقع أحلوها محل النقود .

لذلك يعتبر صيد الأسماك من أقدم الصناعات التي باشرها الانسان على الأرض ، وهو الحافز الأول الذى دفع به إلى ركوب متون الأخطار على سطوح البحار ؛ كذلك تعتبر المصايد البحرية النواة الأساسية والدعامة القوية التي تكونت منها وقامت عليها وتطورت إليها الأساطيل التجارية والحربية في الأمم البحرية القديمة ، كالفينيقيين والاغريقيين . وقد تطلع الانسان منذ أقدم العصور إلى البحار وطرقها في أسفاره ، ونقل تجارته ، والبحث عن أرزاقه ، وإشباع الاستطلاع الكامن في نفسه ، حتى انتهى به الأمر في عصرنا الحاضر إلى ربط أطراف المعمورة بطرق ملاحية آمنة تكاد تكون خطوطها مرسومة فوق سطوح البحار . هذا إلى ما أفاده الانسان من بعض مظاهر الثروة المعدنية والعضوية الكامنتين في أعماق البحار . ومن أمثلة الثروة المعدنية — تلك الأملاح الذائبة في المياه المالحة ، وكلنا يعرف ما هو ملح الطعام وفوائده . ومن أمثلة الثروة العضوية أصناف الأسماك والقشريات والمحاريات وغيرها من المواد الغذائية البحرية . كذلك اللؤلؤ والمرجان وأمثالها من أدوات الزينة

أما رجل العلم فان نظرته إلى البحار وما تحويه أشمل وأوسع ، إذ يرى الصورة على حقيقتها ؛ وتلك الصورة يمكنه التعبير عنها في قوله : « كما أن أمواه البحار تشغل ما يقرب من ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ، فانها أيضاً تحوى بين طياتها نحو ثلاثة أرباع عدد الكائنات الحية الموجودة على سطح الأرض . وتتدرج تلك الأحياء من أدق الكائنات جرماً المعروفة للعلم وهى البكتريا ، إلى أضخم الحيوانات التي يعرفها الانسان وهى الحيتان ، وقد يبلغ طول بعضها حوالى أربعين متراً ، وبين هذين الجرمين تمثل جميع الفصائل الحيوانية المعروفة .

ونصيب مصر من البحار شواطئ تمتد إلى ما لا يقل عن ١٢٠٠ ميل بحرى بين رفح والسلوم على بحر الروم ، وبين السويس وحدود مصر الجنوبية ، بما في ذلك خليج العقبة على شواطئ البحر الأحمر . لكن إنتاج مصايدنا البحرية بالنسبة إلى طول شواطئنا يبدو هزيلا ضعيفاً إذا قورن بما تفيده الدول الأخرى من استغلال شواطئها .

ويقدر محصولنا السنوى من المصايد البحرية بنحو ١٢٠٠٠ طن من الأسماك التي يفوق عددها أكثر من مائة نوع . غير أن الأصناف ذات الأهمية الاقتصادية منها لا تتعدى العشرين ، أهمها السردين الذى يبلغ محصوله وحده ما يقرب من خمسة آلاف طن سنوياً ، أى ما يعادل أكثر من ٤٠٪ من إنتاج مصايدنا البحرية كلها .

والسردين من الأسماك الرحالة التي تجوب أنحاء البحر الأبيض المتوسط متنقلة بين بقاعه في فصول السنة المختلفة ؛ وذلك بدافع الغريزة الطبيعية وما وهبها الله فيها من حساسية كامنة تنير لها طرائق هجرتها في البحث عن البيئات التي تلائمها لتبقى على حياتها حفظاً لنوعها

وقد يكون الدافع لزيارة الأسماك الرحالة لبقعة معينة في البحر وفي أوقات معلومة من السنة ، إما وفرة الغذاء في تلك البقعة ، أو صلاحيتها لإلقاء البويضات فيها وإفراخها ، أو كونها مكاناً تلتمس فيه الدفء هرباً من برد الشتاء القارس . ومن عادة السردين وأشباهه من الأسماك الرحالة أن ينتقل على سطح الماء في جماعات قد يربو عدد أفراد كل جماعة منها على ملايين عديدة .

وإذا كانت مصر هبة النيل السعيد ، فإن السردين جزء من تلك الهبة الغالية الثمينة التي يقدمها النيل إلى شعب مصر المجهد ؛ ذلك لأن موسم السردين يبدأ عادة في غضون مدة لا تزيد عن شهر واحد من وقت وصول ماء الفيضان إلى البحر الأبيض المتوسط . وتلك علاقة أبدية وثيقة تربط السردين بفيضان النيل ، وترجع أسبابها إلى ما يحويه ماء الفيضان من كميات هائلة من المواد الخصبة ؛ فحينما تتدفق مياهه من فرعي رشيد ودمياط ، وتشق طريقها وسط الماء المالحة ، وتنتشر على طول شواطئ البلاد ، تكسب ماء البحر خصوبة نادرة ينشأ عنها نمو نباتات دقيقة الجرم ميكروسكوبية الحجم ، تطفو فوق سطح البحر بكميات هائلة وبكثرة وافرة ؛ وتلك النباتات هي المغناطيسية القوية التي تجذب السردين إليها بدافع غريزته الطبيعية في كل عام ، إذ يجد فيها غذاء طيباً دسماً شهياً ، فيأكل منها بشراهة وينمو ، وسرعان ما يمتلئ جسمه لحماً وشحماً .

وعند بدء الموسم يكون السردين عادة ضعيفاً هزيلاً ، لأنه — في مدى الفترة التي سبقت ظهوره في مياهنا ، ومدتها المقررة حوالي ثلاثة أشهر — يتكاثر السردين ويتناسل ، وذلك بأن تلقي الإناث بويضاتها الناضجة التي يربو عددها على مليون بويضة في كل أنثى . كذلك يلقي كل ذكر ملايينه العديدة من مواد التذكير ، وتتم بعد ذلك عملية تلقيح البويضات في الماء . وتنتهي عملية التكاثر في أغلب الأسماك عادة بإنهاك قواها إلى درجات متفاوتة من الضعف والهزال . وفي بعض أسماك معينة تنتهي العملية بموت الذكور والإناث على السواء .

لما كانت زيارة السردين لشواطئنا ضرورية لحياته من أجل الغذاء الباني الدسم الذي يقدمه إليه ماء النيل بطريق غير مباشر ليعوض عليه ما فقده في عملية التكاثر . ويسترد نشاطه ليواصل نموه وليختزن حول أمعائه وفي خلايا جسمه من المواد الشحمية ما يكفيه مع الاستهلاك البطيء (لمواصلة نشاطه ومظاهر حياته الضرورية حتى يزورنا ثانية في موسم الغذاء من العام التالي) ، لأن الأدلة العلمية تثبت أن السردين بعد رحيله عنا يكاد يتوقف عن الغذاء إلا في القليل النادر ، ويظل كذلك حتى يظهر في مياهنا مرة أخرى .

ويبدأ موسم صيد السردين عادة في أوائل سبتمبر ، وينتهي غالباً في أواخر ديسمبر ، عندما يحل برد الشتاء القارس ، وتختفي النباتات التي يتغذى عليها ، فيرحل عنا إلى حيث الراحة والدفء في عرض البحر ؛ والترجيح أن يتجه شرقاً لهذا الغرض مع التيار الذي يجري على سواحلنا الشمالية من الغرب إلى الشرق في أغلب أوقات السنة .

* * *

والبلاد التي تشتغل بصيد السردين هي على الترتيب من الغرب إلى الشرق : أبو قير ورشيد والبرلس ودمياط وبور سعيد . ويبلغ عدد مراكب أسطول السردين كله في موسم الصيد نحو ألف مركب . لرشيد وحدها

ما يقرب من أربعمائة مركب. والسبب الذى جعل رشيد الثغر الأول فى صناعة السردين ونسبة كل جيد منه إليها (السردين الرشيدى السمين) هو أن تاريخ هذه الصناعة يثبت على مدى سنين طويلة — أن الصيادين كانوا يحصلون على الجزء الأكبر من السردين فى كل عام أمام فرع النيل الغربى ؛ وكان طبيعياً أن تكون رشيد مركزاً مهماً لصيده وصناعته.

إلا أنه منذ سنة ١٩٣٢ بدأت ظاهرة غريبة بتحول ذلك الجزء الأكبر من محصول السردين من الغرب إلى الشرق. وأصبح أغلب السردين يصاد أمام فرع دمياط، بدلاً من فرع رشيد من قبل. أما أسباب هذا التحول فغير واضحة، ويحتاج إلى دراسات مستفيضة لمعرفة كنهها.

ومحصول السردين كله كما قدمنا يربو على خمسة آلاف طن سنوياً، يقدر ثمنها الاجمالى عند أول عرض لها فى أسواقنا المحلية بما يقرب من سبعين ألفاً من الجنيهات، أى بواقع متوسط ثمن الكيلو الواحد أربعة عشر مليماً. وبالرغم من تطور الزمن ومسايرة الأمم المتمدنة هذا التطور باستغلال جميع موارد ثروتها الطبيعية وطرق أبواب ممكناتها الاقتصادية لتنميتها على دعائم قوية من التجارب العلمية، فإن مصر ظلت تنظر إلى ثروتها من الأحياء المائية على العموم، ومحصولها الضخم من السردين على الخصوص، بنفس العين التى نظرت بها إليها منذ قرون وقرون. ولا تزال طرق استغلال مصر للسردين — كما كانت فى عهود الأقدمين — تنحصر فى استعمال جزء ضئيل منه طازجاً، وتمليح الجزء الأكبر منه فى البراميل بتلك الطرق العتيقة التى تتنافى مع قواعد الصحة العامة والاقتصاد الحديث والذوق السليم.

ونتيجة لهذا الاهمال من جانبنا غزت أسواقنا أصناف السردين الأجنبى المحفوظ فى العلب على أحدث الطرق وأصحها؛ ويقدر ما نستورده منها سنوياً بنحو مائتى طن يبلغ ثمنها حوالى عشرة آلاف جنيه مصرى. وبذلك وجد سردين العلب الأجنبى طريقه إلى دور الطبقة المتوسطة وقصور الأغنياء، فانسحت له موائدهم. أما الزميل المصرى فقنع بأكواخ الفقراء، وغزاها طعاماً رخيصاً نيئاً مملحاً أو مشوياً. تلك حالة أقلقت الباحثين فى شئون المصايد من رجال معهد فؤاد الأول للأحياء المائية، وأحدثت فى نفوسهم أثراً عميقاً هو فى الواقع مزيج من الأسف والألم على الماضى والحاضر يحدوهما أمل عظيم فى المستقبل.

أما الأسف فمبعثه غمر أسواقنا بسردين العلب الأجنبى، وتسرب عشرة آلاف جنيه من الأموال الوطنية كل عام ثمناً له، فى حين أن محصولنا يربو على عشرين ضعفاً للكميات التى نستوردها، بحيث إذا استغل هذا المحصول على الوجه الأكمل، لسدّ حاجة أسواقنا المحلية من السردين الطازج والمملح والمحفوظ فى العلب، ولقد نزيد كميات هذا الأخير ونصدر إلى الأسواق الشرقية القريبة. وأما الشعور بالألم فهو نتيجة ما ألقته المقادير علينا من مسئوليات جسام فى العمل دائماً لتحسين حالة الصيادين عامة، ومنهم آلاف يشتغلون فى صيد السردين معرضين حياتهم لأخطار البحر الجسيمة، ومع ذلك فحظهم للآن من العيش ضئيل نظراً لخروج السردين من أيديهم بثمن قليل.

وأما الأمل فى المستقبل فيقوم فى نفوسنا لا على مجرد الخيال، وإنما على دعائم من التجارب والمشاهدات العملية والعلمية. فمنذ عام ١٩٢٩ ومعهد الأحياء المائية والمصائد القائم بجوار طابية قايد باى بالاسكندرية يواصل تجاربه فى حفظ السردين وممكناته الاقتصادية. ونحن نذكر ما وصلت إليه تجاربنا فى صدد هذه العملية الاقتصادية العظيمة:

١ — تدخين السردين بنجاح على غرار سمك الرنجة المعروف فى السوق، وهى طريقة سهلة جداً قليلة التكاليف بحيث يمكن تعميمها فى دور صغار الصيادين. ويفضل السردين المدخن السردين المملح فى البراميل من

وجوه متعددة فى قوام جسمه وشكله وطعمه ورائحته وطاقة أكله .

٢ — نجح حفظ السردين المصرى فى العلب نجاحاً باهراً دل على أنه لا يقل صلاحية للحفظ ولا جودة فى الطعم عما نستورده من السردين الأجنبى إن لم يفقه فى بعض الأحيان . وتدل تقديراتنا المبدئية على أن جملة تكاليف العلبة الواحدة من السردين المصرى لا تتعدى عشر مليمات ، فى حين أن نظيرتها فى الحجم من السردين الأجنبى تباع فى أسواقنا المحلية بما لا يقل عن عشرين مليماً .

٣ — الفضلات المتخلفة من عمليات الحفظ فى العلب — وتقدر كميتها بنحو ثلث وزن السردين الطازج الذى تحتاج إليه الصناعة — لا تضيع هباء ، وإنما يستفاد منها بعصرها واستخراج زيوتها ، لأنها تكون عادة غنية بالمواد الدهنية والشحمية ، والزيوت المشابهة لها فى البلاد الأجنبية تستعمل بنجاح فى صناعات دبغ الجلود والبويات والصابون ومواد التشحيم .

أما المواد البروتينية المتخلفة من العصر فإنها تجفف وتصحن لتقدم غذاء صحياً للدواجن .

● ● ●

أما القيمة الغذائية للسردين فعظيمة جداً . ويحوى الطازج منه حوالى ٣٠٪ من وزنه مواد زلالية وبروتينية ، هى غذاء مفيد للجسم سهل الهضم . وتتفاوت كميات المواد الدهنية والشحمية فى السردين ؛ فعند بدء الموسم — حينما يكون هزيلاً — لا تتعدى نسبة تلك المواد فى جسم السردين أكثر من ٥٪ من وزنه . ولكن وفرة الغذاء النباتى وشراهة السردين فى أكله ترفع نسبة المواد الدهنية فيه بسرعة مدهشة فى غضون فترة لا تزيد عن شهرين إلى ما يقرب من ٣٣٪ من وزنه الطازج ، وعندئذ يسجل السردين المصرى رقماً قياسياً بين أسماك العالم المشابهة له بالتفوق عليها فى محتواه ، وما يحويه من دهن وشحم

وإذا كان جسم الانسان يستهلك الجزء الأكبر من الغذاء كوقود لحركته والنشاط فى عمله ، كما يحتاج سير الآلة البخارية للوقود ، فإن طعاماً كالسردين غنياً بالمواد الدهنية لهو أثمن الأطعمة من حيث القدرة على توفير الوقود اللازم للجسم فى حركته وتجديد نشاطه . يضاف إلى ذلك ما أثبته العلم الحديث من أن المواد الدهنية والشحمية فى الأسماك تحوى ما لا يقل من ثلاثة فيتامينات ، لا يستطيع جسم الانسان أن ينمو نمواً طبيعياً بدونها . فما كان (زيت السمك) دواء شائع الانتشار لمقاومة بعض أمراض معينة والشفاء منها ، ولتجديد القوى وإمداد الجسم بما ينقصه من تلك الفيتامينات .

من ذلك كله نرى أن كل مصرى يغتبط أشد الاغتباط لقيام مصانع محترمة لهذا الغرض فى مصر ، وهو ما نأمل أن يتحقق فى القريب العاجل .

كامل الغمى

الربيع

جاء يسعى وهو الحبيب لخلق لقاه فأنت من أحبابه
جاء يسعى وأدمعى نداه ودماقى وورده فى ركابه
جاء يضفى على الخمائل حسناً وشباباً من حسنه وشبابه
جاء يملى على الطيور حديثاً فى تناجى الهوى وفى آدابه
جاء يعطى الغصون درساً جديداً
فى تثنى القـــدود حتى تُشابه
جاء موحى الهوى ومحيى الأمانى
يا إلهى بارك لنا فى اصطحابه

شاعر البرارى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر
قرش
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ الطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجية عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ مليم

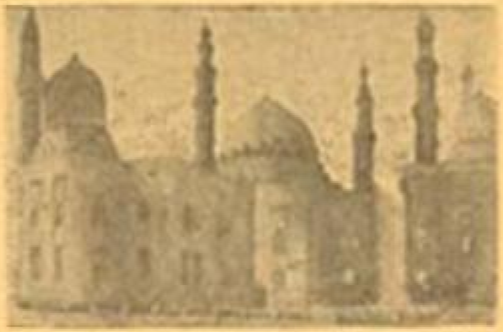
في دور الفنانين :

١ – مع الرسام زكي

الرسام زكي ، كما اشتهر في أوساط الفن في مصر والخارج ، شاب من شباب مصر الناهض ؛ فقد كان موظفاً بالحكومة المصرية ثم ضحى بوظيفته في سبيل الفن ، وخرج إلى الحياة الفنية الطلقة ؛ فأخذ يصنع لوحاته الرائعة مستوحياً جو مصر الهادئ "الشرق" ؛ ولم يكتف بما أحرز من نجاح محلي ، بل ذهب إلى بلاد الغرب يقيم المعارض في عواصمها ؛ فقدرت الأوساط الغربية فنه ، ونقلت لنا البرقيات أنباء هذا التقدير .



شخصية عرفتها



مساجد في ساعة الغروب

ويطبع فن الأستاذ زكي طابع مستمد من شخصيته هو البساطة والهدوء ، ففي مواضيعه وفي ألوانه تبدو البساطة والهدوء ، وهو يرسم بالألوان المائية Aquarelle ولونه الغالب في كل صوره اللون الأزرق المتشابه مع



هدوء النيل
ألوان زرقاء هادئة



شروق الشمس
مساحة النخيل في إبهار الشروق

سماء مصر ، ولعله لم يستطع التخلص من هذا اللون حتى حينما أراد تصوير ذكرياته الجميلة التي يحملها من أوربا . .



قرية قرنة — بجوار طيبة

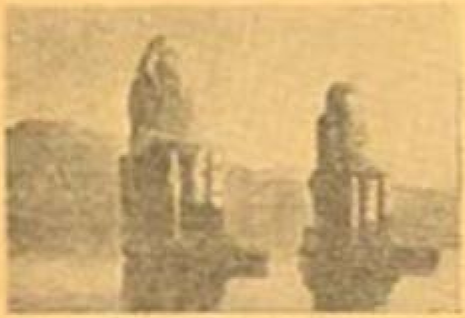


سوق الزرع



ساقي القرية

وإن كانت عدسة الفوتوغرافية لا تملك تسجيل ما في اللوحات الملونة من جمال، فأغلب الظن أنها قد وفقت في الصور التي ننشرها مع هذا الكلام، في الكشف عن جمال الموضوع، ودقة التعبير عنه، والطابع الذي يجمع صور الفنان، وهو الهدوء.



فيضان النيل عند تمثال ممنون

وقد يأخذ بعض النقاد على الرسام زكي قلة عنايته بالألوان الزاهية، التي قد تكون أصدق تعبيراً عن جو مصر وطبيعتها، ولكن مما يشفع له في ذلك أن مواضيعه نفسها تمت لمصر القديمة أو مصر الإسلامية حيث تستطيع بألوانها الباهتة الهادئة أن تؤدي مهمتها في التعبير عن الجلال والروعة.



شريد الصحراء

وفي صورة شريد الصحراء تبدو المهارة في التعبير عن الحيرة والجهد والإعياء. وقد استخدم فيها الرسام إلى حد ما، الألوان الزاهية لرمال الصحراء الصفراء، وجوها الشرقي الصافي اللامع.

صلاح الدين ذهني

أدباء الطليعة

١ — محمود تيمور القاص

للأستاذ محمود المحوري

ليست العوامل التي ألهمت محمود تيمور الكتابة هي عوامل الوراثة والبيئة وحوادثه الخاصة التي اعترضت حياته — ليس هذا هو كل شيء ، وإنما « الحافز الشخصي » الذي يشعر الكاتب بدافعه الفطري نحو إدراك الحقائق ، والقدرة على تصويرها وإبرازها في صور وأوضاع صحيحة ؛ هذا الحافز هو منبع إلهامه ، ومسير خياله في كتابة القصة .

على أن هذه العوامل — الوراثة والبيئة والحوادث الشخصية — لا تكاد تكون أسباباً بقدر ما قد تكون مقومات لإظهار أثر الأديب والفنان ؛ فلو وضعنا شخصاً من سلالة العلماء أو الأدباء أو الفنانين وسط مكتبة أو متحف ، وهيأنا له البيئة العلمية أو الأدبية أو الفنية ، وقدر لهذا الشخص أن تصادفه في الحياة أحداث تثير عوامل الإنتاج الأدبي أو الفني ، لو استطعنا أن نهيئ هذا الشخص محروم من الحافز الشخصي لكان عمله عبثاً ومضيعة .

ولكن محمود تيمور قد وجد من نفسه الحافز الشخصي والذوق الأدبي لفن القصة ، ووجد إلى جوار هذا وراثة علمية وبيئة أدبية وحوادث زاخرة أمدّت أخيلته بصور الحياة المختلفة التي ادخرها لمادة القصة .

وحياة محمود تيمور تكاد تكون قصة زاخرة بالصور ؛ فوالده أحمد تيمور باشا شيخ من شيوخ الأدب والعروبة والفقه اللغوي ، وعمته السيدة عائشة هانم التيمورية الشاعرة التي برزت في حريم الأدب المصري في القرن الماضي ، وشقيقه محمد تيمور كان كاتباً فناناً ومسرحياً مجدداً ، ثار على تقاليد عصره ، اختطفه الموت في شباب مبكر ولما يؤد رسالته .

بين هذه الصور وهذه العوامل المتجاذبة سار محمود تيمور كالمسحور ، لا يعرف أية خطة يسلك في حياته الأدبية كفنان له رسالة في الحياة يريد أداءها وبثها . أيتخذ من صور المرحوم والده سبيل الأدب القديم ، أم يسلك طريق أخيه الشاب الثائر على تقاليد عصره ، أم يتخذ من صور الحوادث وما يقرأ من أدب غربي ما يلهمه لبث رسالته .

في الحق أن محمود تيمور هو صورة من هذا المزاج الأدبي ، فهو يصور عمته الشاعرة في نظرتها الزاخرة بالخيال عند ما تحتاج القصة إلى لون من ألوان الخيال ، وهو يصور والده الشيخ الأديب المحافظ في رأيه وأمانته لفنه عند ما يعالج صور هذا العصر القديم ، وهو يصور أخاه مجدداً في ثورته وفنه وتجديده عند ما يسخر بالقيود التي تعترض تفكيره ، فينتزع من المجتمع صوراً لأشخاص قصصه في أسلوب مرسل يبرز به ما في جوف مجتمعنا من عيوب وأضداد .

ولا يستطيع محمود تيمور أن يُجرِّدَ نفسه من هذه الصور التي تلاحق حياته ، وتلازم وعيَه عندما يفكر في أنه ولد في « درب سعادة » أحد أحياء مدينة القاهرة الوطنية ، ومضى بطفولته في منزل يشبه القلعة الهرمة ، وما في هذه القلعة الهرمة من أغوات وجوار لهم لونهم ووجوههم وأصواتهم وتقاليدهم التي توحي رائعَ الخيال وساحرَ التفكير ؛ بل لا يستطيع محمود تيمور أن يتجرد من نظام « الحريم » الذي كان سائداً في البيوت الأرستقراطية مبدأ هذا القرن ، هذه الطفولة الدالة التي حفها هذا الجو الزاخر بالأخيلة هي قصة بديعة يستمد منها خيالُ محمود تيمور الأديب القاص صوراً شتى للمجتمع المصري في العصر الماضي . وأنت تستطيع أن تلمح هذا الجو الفني وتحسه في أقاصيصه

الأولى التي كتبها في مستهل حياته الأدبية ، عندما يدخل بك إلى قصر من القصور ويصف لك « الحمام » تحدث « الأغا » ، وعندما يجثم مجلس الأسرة المصرية في حشمة ووقار حول موقد نحاسي كبير ، تسلوه أدوات القهوة ، وتحف بجنباته المساند والحشيات[1] (الشلت) . تستطيع أن تحس هذا الجو الذي كان يسود الحياة المصرية عندما يصور محمود تيمور نظام « الحريم » في صور جذابة ويخترع لقصصه أشخاصاً أصبحوا الآن كالأخيلة والأطياف .

ولقد أوحت إليه صورة عمته السيدة عائشة التيمورية الشاعرة التي أدركها في أخريات حياتها ، صورَ العصر الذي كانت تعيش فيه المرأة المصرية محاطة بنظام كامل من الحريم ، من الخدم والستائر والحُجب ، والأغوات والعربات المغلقة ، والخيول المطهمة . لقد تخيل محمود تيمور عمته في جلستها على مقعد فسيح محاط بالهالة ، كأنها الملكة « فيكتوريا » متربعة على عرشها ، يحيط بها سربٌ من القطط جاوز الشبابَ إلى سن الكهولة ، ولتتخيل قطة حَبشيّة تجلس عليها . هذه الصور تكاد تلمسها في القصص الأولى التي كتبها محمود تيمور — البيتُ المصري القديم الذي تسوده روح السيادة التركية ونظام الحريم ، هو مثار الخيال لقصة محمود تيمور في عهده الأول ، وما زال يلاحق خياله إلى الآن .

وكان محمود تيمور فتى مدللاً في بيته محاطاً بالكثير من الدلال والعناية كلما أصاب عمته مرض أو ضعف . وكان طبيب المنزل إحدى الصور التي أثرت خيال قصته ، وأثمت لوناً حبيباً من ألوان هذا الجو الذي كان يعيش فيه محمود تيمور ؛ لم يكن هذا الطبيب إلا صورة من صور هذا العصر ؛ فقد كان رجلا نحيفاً ذا طربوش أطلس ، ووجه أسمر مهزول — وقد نسي محمود تيمور أن يلصق له لحية مدببة بعض الشيء في ذُؤابة ذقنه — كان يحضر هذا الطبيب إلى البيت كصديق معالج ، لا كطبيب مداوٍ ، ويمكث مع محمود وأفراد أسرته الساعات الطوال ، كما يقول هو : « يجرعنا الدواء ، ويتجرعه معنا ، وهو يروى لنا القصص والنوادر » . فبكل شيء كان يحيط محمود تيمور يوحي إليه الخيال والقصة ، حتى طبيبه كان يشترك معهم في شرب الدواء ، ويروى لهم القصص والنوادر ، ويلعب أمامهم كالبهلوان .

وعندما كان يبرح محمود تيمور مدينة القاهرة إلى عزبة والده في الريف كان يلتفت كثيراً إلى صور الريف وجماله وأدانيه ؛ فلفتت نظرَه حقيرُ الوسيّة ، وقبه القرية ، والصور الأخرى التي يزخر بها الريف المصري ، فأخرج كل هذا في قصصه الأولى « الشيخ جمعه وقصص أخرى » .

والنواحي الأدبية والفنية والاجتماعية في محمود تيمور تُصوّر حقاً عصرَ النهضة التي عاصرناها ، فنشأته شأن شبابنا الذي عاصر في طفولته أو صِباه الحربَ الماضية ؛ وكانت فكرة الخلافة تملأ رءوسنا ، وكنا نرضى بتحطيمنا لمنار الخلافة ، لأننا كنا نفهم الوطنية على أنها اندماج في الخلافة مع الأمم الشرقية ؛ هذا التفكير الاجتماعي أفقدنا الاعتداد بالنفس فافتقدَ أدبنا الصورَ الحية التي توحيها الحياةُ الحرة الخالصة ، فلم نلق من كُتّاب الأدباء المعاصرين إلا الصورَ المنتزعة من الأدب العربي القديم في عصوره الضعيفة المتأخرة . في هذا الجو تلقانا السيد المنفلوطي بأدبه ذي النزعة الرومانسية المهذبة ، وقرأنا الأدب العربي المتأمرك فيما كانت مدرسة جبران تجود به من شعر ونثر منثور وأخيلة موسيقية ؛ ثم سمعنا صوتَ سعد زغلول وتلاميذ لطفي السيد يتحدثون عن القومية ، ويعيدون نفحات الإمام محمد عبده وصرخات قاسم أمين ، « لخرج أدبنا من ظلمات ألف ليلة حيث يعبق البخور إلى ميدان النور والحياة » . وهنا بدأت المرأة تلعب بأحلامها النارية تارة والنادرة أخرى في قصة محمود تيمور ، وشعرنا بانضمام عنصر مهم من عناصر الفن القصصي لم يكن

(١) حشيات : جمع حشية وهى المسندة المربوعة المحشوة .

ليجرؤ على إدخاله كاتب من قبل ، وأصبحت المرأة محور القصة كما هي محور الحياة والمجتمع والبيت ؛ وبهذا الانقلاب الاجتماعي اتجه محمود تيمور بالقصة نحو الكمال .

وهنا اتجهت المدرسة الحديثة إلى إخراج أدب جديد ، وذكرت ما كان يدعو إليه محمد تيمور وما كان يتحدث به عندما عاد من أوربا يحمل بين جنبيه ثورة قوية جريئة على تقاليدنا القديمة ، وأصبح الأمر الذي يشغل بال الأدباء هو إنشاء أدب مصري يشتمل وحيه من وحي نفوسنا وصميم بيئتنا ، وينتزع من صلب الحياة المصرية صوراً شتى ، ويصوّرها أصدق تصوير .

هذه الدعوة لا يمكن أن تحقق في سهولة ويسر إلا في الصور التي يستثمرها الأديبُ والفنان في قصة يكتبها أو قصيدة ينظمها ، ومكّنَ لهذه الدعوة قبولُنا التجديد والاستقراء والسفر إلى أوربا . وأخذ محمود تيمور يبحث في الأجواء المصرية فيدخل البيتَ المصري الجديد ويُخرج لنا منه صوراً ؛ وهو يعاني دور الانتقال من القديم إلى الجديد ، ويخالط الأسرة في تطورها الجديد ، ويبرز لنا صوراً للزوابع الاجتماعية وهي تعصف بالبيوت والأسر في مبدأ الانتقال والتطور ، وأخرى للضحايا الذين يستشهدون في هذه الحرب حتى تستقر النظم وتسير الأمورُ سيراً عادياً .

فدراسة محمود تيمور هي في الحق دراسة صفحة من صفحات النهضة الأدبية لفن القصة في مصر . وإذا كان الأدب المصري لم يفز بعدُ بالقصة المصرية الكاملة الفن والأوضاع ، فإن محمود تيمور استطاع غير مرة أن يشق هذا الطريق ، وأن يوفق فيه توفيقاً ملحوظاً .

وليس من شك في أن محاولات أدبائنا وكتابنا وجهودهم في هذا السبيل لن تظفر بالقصة الكاملة — وأقصد بها الرواية «Roman» — إلا عندما تتم لمجتمعنا المصري الحصانة الخلقية والثقافية التي يستطيع بها أن يقابل الحقائق والآراء الجديدة والنقد الحر والانقلابات الفكرية في قبول واطمئنان ؛ عندئذ يستطيع محمود تيمور وغيره من الكتاب أن يخرجوا الأدواء من جسد مجتمعنا المريض ، وأن يبتروا منه الفاسد من أعضائه ، وأن يصوّروا هذا في رواية «Roman» تعالج حياتنا ومقومات خلقنا ، وتنقد خرافاتنا وأساليبنا في الحياة نقداً حراً لا التواء فيه ولا إبهام .

فالمجتمع المصري لا يقوى الآن على قبول القصة كما يجب أن تكون عليه ، لأنه لا يقوى على قبول الآراء الجديدة إلا بقدر . والقصة «Roman» لا يمكن أن تكون كالمقال تعالج المجتمع في مواربة أو حذر أو تحفظ ، ولكنها تعالجه صريحة جريئة ، وتبرز صوره كما هي لوناً ومذاقاً ؛ فهل يقوى مجتمعنا المصري على قبول القصة الكاملة التي تصور نواحيه المتداعية في البيت والأسرة والشارع والمكتب والسوق والريف ؟ ! هناك عيوب خلقية وثغرات عميقة وأخطاء خطرة في نظمنا وخلقنا ، وأساليب تفكيرنا وعاداتنا ، ومقومات حياتنا الاقتصادية ، تريد الرواية أن تعالجها ، فهل لمجتمعنا المصري من الحصانة الخلقية والثقافية ما يستطيع أن يقابل به الحقائق على مرارتها وقسوتها من جلد ورضى ؟

وهل يرحب المجتمع بهذا الكاتب الجريء الذي يخرج القصة مصوّرةً لهازل حياتنا الاجتماعية ؟ أم يصرخ في وجهه قائلاً : إنه آثم فألقوا به إلى السجون

محمود التجوري

إنه في يوم السبت ٣ مايو سنة ١٩٤١ من الساعة ٩ أفرنكي صباحاً لما بعدها بمحل الحجز بناحية مصيرة مركز إطسا ويوم وفي يوم الخميس ٨ مايو سنة ١٩٤١ من الساعة ٩ أفرنكي صباحاً لما بعدها بسوق إطسا العام سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك مطر جودة نفاذاً للحكم الصادر في القضية المدنية رقم ٢٢٦ إطسا سنة ١٩٤١ وفاء لمبلغ وقدره ٢٤٥ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر لطلب زكية مرسي سيد احمد

قلم راقب العذراء الحضور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

والآن يجيء الطور الثاني لمركة البحر الأبيض المتوسط نتيجة لهذا الانقلاب في خطط المحور ؛ فقد رأت ألمانيا نفسها مرغمة على أن تتقدم لإنجاد حليفتها المهزومة ، وأن تتم ما بدأته من فرض سيطرتها على البلقان ؛ وكانت تظن أنها تستطيع أن ترغم يوجوسلافيا على قبول هذه السيطرة راضية كما فعلت في رومانيا وبلغاريا ؛ ولكن يوجوسلافيا آثرت بعد لحظة ضعف أن تدافع عن استقلالها كما فعلت اليونان ؛ فكان ذلك نذيراً باعتداء ألماني وحشي جديد على الدولتين الصغيرتين اللتين اجترأتا أن تقفا في وجه المحور .

وقد أشرنا في مقالنا منذ أسبوعين إلى أن غزو يوجوسلافيا لم يكن هو الخطة المثلى للقيادة الألمانية العليا ، وأنها كانت تؤثر أن تتفاداه لو أن يوجوسلافيا قبلت من تلقاء نفسها أن تنضوي تحت لواء المحور . أما الآن فإن ألمانيا ترى نفسها مرغمة على أن تخوض حرباً كبيرة في البلقان ، وأن تستخدم قوات عظيمة لاقتحام يوجوسلافيا من الشمال والشرق والجنوب الشرقي ؛ وقد استطاعت القوات الألمانية أن تتوغل في يوجوسلافيا من عدة نواح ، واضطر الجيش اليوجوسلافي تحت الضغط الألماني الهائل أن يتراجع إلى الجبال الداخلية ، وانشطرت قواته إلى وحدات عديدة تقاوم في جهات متفرقة ؛ وقد تستغرق هذه الحرب غير النظامية وقتاً قبل أن يسيطر الألمان تمام السيطرة على يوجوسلافيا . وسوف يرغمون على أي حال على أن يحتفظوا فيها بقوات كبيرة .

ويحاول الألمان من جهة أخرى العمل على تمزيق يوجوسلافيا بتقسيمها إلى وحداتها العنصرية القديمة ، وقد أنشأوا في زغرب عاصمة ولاية كرواتيا دولة مستقلة على يد بعض الخونة تمهيداً لتحقيق هذه الخطة .

كذلك ترى ألمانيا نفسها مضطرة إلى استخدام قوات كبيرة لمهاجمة اليونان وإخضاعها ؛ وقد أحرزت نجاحاً في الطور الأول من الهجوم ، فقطعت تراقية الشرقية عن باقي اليونان ، واجتاحت مقدونية واستولت على سلانيك ؛ وكان هذا متوقعاً إزاء عنف الهجوم وضخامة القوى المصفحة التي يستخدمها الألمان ؛ ولكن الظاهر أن هذا التقدم أخذ يصطدم بعقبات خطيرة ؛ فالمعروف أن القوات البريطانية التي أرسلتها انكلترا لنجدة اليونان ، ترابط مع الجيش اليوناني في خط منيع جداً ، يمتد في شعب الجبال من جبل أوليوس الواقع غربي خليج سالونيك ، وإنه من الصعب على القوات المصفحة أن تعمل في مثل هذه الطبيعة الوعرة ؛ هذا إلى أن القوات البريطانية من جانبها لا تقل استعداداً من الناحية الفنية من القوات النازية ، وتؤازرها وحدات قوية من سلاح الطيران ترعج القوات الألمانية بلا انقطاع .

وقد مضت أيام عدة منذ أحرز الألمان نجاحهم الأول بالاستيلاء على سالونيك ، ولم نسمع أنهم تقدموا كثيراً بعد ذلك ؛ وقد تمضي أيام وربما أسابيع أخرى قبل أن يحرز الألمان في اتجاه الجنوب تقدماً يذكر ؛ وهكذا تفقد الحرب الصاعقة عنفها وسرعتها شيئاً فشيئاً ، وتستحيل إلى معارك طويلة شاقة ، وتتمكن انكلترا في تلك الأثناء من العمل على زيادة إمداداتها لليونان .

* * *

هذا هو الشق الأول من معركة البحر الأبيض المتوسط ، وهو شق لا يزال في بدايته ؛ ومن سبق القول أن نحاول الآن أن نتنبأ بشيء عن تطوراته المستقبلة .

وأما الشق الثاني من هذه المركة فهو الهجوم الجديد الذي نظمته القوات الألمانية والايطالية في اتجاه مصر ، في نفس الوقت الذي وقع فيه الهجوم الألماني في البلقان .

وإنه لمن بواعث الأسف حقاً أن تضطر القوات

البريطانية إلى إخلاء برقة ، بعد أن أتمت الاستيلاء عليها ، بالاستيلاء على عاصمتها بنغازى ؛ ولكن مما لا ريب فيه أن الضرورات العسكرية وحدها هي التي أملت بهذه الخطة ؛ فقد لبثت القوات الألمانية المصفحة مدى حين تتسرب من البحر عن طريق المياه الإقليمية التونسية إلى طرابلس ؛ وفي تلك الأثناء كان الشطر الأعظم من القوات البريطانية ، قد نقل إلى شرق أفريقية ، لتحطيم جيوش الدوتشي في الصومال والحبشة وارتريا ؛ والظاهر أن المعارك في تلك الجبهة قد طالت عما كان مقدراً لها نظراً لشدة المقاومة الايطالية في كيرن وغيرها ؛ ففي الوقت الذي شغلت فيه قوات الإمبراطورية بهذه المهمة وقع الهجوم الألماني الإيطالي الجديد على برقة ؛ واضطرت القوات الإنكليزية القليلة إلى التراجع أمام قوات تفوقها أضعافاً مضاعفة ، واستمر هذا التراجع حتى الحدود المصرية ، مع استثناء ثغر طبرق . فقد آثرت القيادة البريطانية أن تحتفظ به نظراً لأهميته البحرية ؛ على أنه يوجد في الأنباء الأخيرة ما يدل على تحسن الموقف ، وعلى أن القوات الإمبراطورية أخذت تحتشد بسرعة ، وأنها أصبحت كافية لوقف التقدم الألماني في هذا الاتجاه .

كذلك أبدى الأسطول البريطاني مرة أخرى أهميته كعامل قوى في تحطيم الهجوم على مصر من الغرب ، إذ وفق إلى إغراق قافلة بحرية كبيرة للأعداء في مضيق صقلية هي والسافات التي تحرسها ، وقام بضرب خطوط الألمان فيما وراء طبرق ضرباً شديداً .

ويلاحظ فيما يتعلق بمعركة الصحراء الغربية بنوع خاص طول خطوط المواصلات التي يتركها الجيش المتقدم وراءه ؛ فبين الحدود المصرية وبنغازى نحو خمسمائة كيلو متر ، وبين بنغازى وطرابلس نحو ثمانمائة كيلو متر ؛ وهذه المسافات الشاسعة تجعل من المتعذر تموين الجيش الزاحف وإمداده بالسرعة اللازمة ؛ وقد كان المعروف حسبما ذكر لنا مستر تشرشل في خطابه الأخير أن القيادة البريطانية لا تنوى أن تتوغل كثيراً في برقة بعيداً عن قواعد تموينها ؛ ولكنها رأت أنها تستطيع تحطيم القوات الإيطالية الزاحفة بسلسلة من الانتصارات السهلة ، فاستمرت في تقدمها إلى ما بعد بنغازى .

على أن تقدم الألمان إلى الحدود المصرية شيء ، وغزو مصر ذاتها شيء آخر ؛ وقد يكون من خطة القيادة الألمانية أن تغزو مصر حقاً ، فالاستيلاء على مصر وقناة السويس أمنية من أعظم أماني المحور ، وهو يعتبر ضربة من أشد الضربات التي يمكن أن توجه إلى الامبراطورية البريطانية ؛ وهذا هو بالذات ما يحمل بريطانيا العظمى على أن تعتبر الدفاع عن مصر مسألة حيوية بالنسبة إليها ، وأن تستعد له بكل ما وسعت من قوة ؛ وعلى ذلك فانه يلوح لنا أن القصد الأول الذي يرمى إليه الزحف الألماني في اتجاه مصر ، هو إرغام القيادة البريطانية على الاحتفاظ بقوات كبيرة في هذه الجبهة ، وعدم تمكينها من إرسال إمدادات أخرى إلى اليونان ؛ على أنه يلاحظ أن القوات الامبراطورية كادت تنتهى من مهمتها في شرق أفريقية ، وبذلك يتسنى للقيادة البريطانية أن توجه هذه القوات حيث يتطلب الموقف توجيهها .

* * *

وليست معركة البحر الأبيض في الواقع إلا ناحية من نواحي المعركة الكبرى التي تضطرم بين دولتي المحور وبين بريطانيا العظمى ؛ وتضطرم في هذه الآونة بالذات معركة الأطلنطيق التي تشهرها ألمانيا بواسطة غواصاتها وطائراتها لتدمير مواصلات بريطانيا الامبراطورية ، ومنع الامدادات الأمريكية من الوصول إليها ؛ ومن سبق القول أن نتحدث الآن من نتائج هذا النضال البحرى المروع الذي لم تعرف

تفاصيله حتى الآن ؛ بيد أنه يلوح أنه لم يحقق حتى اليوم كثيراً من النتائج التي ينشدها الألمان ؛ فالامدادات الأمريكية والامبراطورية تتدفق على بريطانيا ؛ ويبدو من جهة أخرى أن أمريكا تعتزم أن تبذل كل جهد ممكن لتأمين وصول إمداداتها إلى مقصدها ؛ وقد استعانت في إعداد السفن اللازمة لهـذا الغرض بالاستيلاء على سفن دول المحور وسفن الدول التي تحتلها ألمانيا الموجودة في المياه الأمريكية ؛ وقد لا يمضي بعيد حتى تقرر أمريكا حراسة القوافل المرسلة بواسطة سفنها الحربية وطائراتها. وقد قرر الرئيس روزفلت أخيراً إخراج منطقة البحر الأحمر من ثبت المناطق المحرمة على السفن الأمريكية، بعد أن طهرت هذه المنطقة من السفن الحربية الايطالية وأصبحت الطريق مأمونة ؛ ولهذا القرار أهمية خاصة بالنسبة لمعركة البحر الأبيض المتوسط وأعمال الدفاع عن مصر. ذلك لأن الامدادات الأمريكية من الذخائر والطائرات وغيرها يمكن أن تصل إلى الشرق الأدنى عن طريق المحيط الهادى أو طريق «الكاب». والمفهوم أن شحنات كبيرة من هذه الامدادات وجهت من عرض البحر إلى هذا الطريق بحيث لا يتأخر وصولها طويلاً إلى مقصدها.

وعلى أي حال فان معركة البحر الأبيض المتوسط تدور اليوم بالنسبة لبريطانيا العظمى في ظروف أفضل بكثير مما كانت عليه في الخريف الماضي ؛ فقد انهارت قوات الفاشيستية في شرق أفريقية، وزال كل خطر على مصر والسودان من هذه الناحية، وحطمت قواتها في لوبية، وإذا كان الألمان يستأنفون اليوم الزحف على مصر، فلا بد لهم لتحقيق خطتهم من الاعتماد على قوات ضخمة للتغلب على القوات البريطانية التي تحتشد بسرعة لقتالهم. ونحسب أنه من المتعذر أن يجلب الألمان قوات جديدة ضخمة إلى لوبية بمهماتها وعتادها من وراء البحر ؛ ونحسب أنهم لا يمتلكون الآن في لوبية على قوات تكفي للقيام بهجوم حقيق على مصر. ومهما كان من سير الحوادث في البلقان فانه لا بد أن يمضي وقت غير قليل قبل أن ينجلي الموقف هنالك، ويحصل الألمان على نتائج حاسمة، إذا أتيح لهم أن يحصلوا عليها ؛ وسنرى في تلك الأثناء ما يمكن أن تسفر عنه معركة الأطلنطيق، وماذا يكون من آثار المعاونة الأمريكية التي تتزايد يوماً بعد يوم.

(٭٭٭)

إنه في يوم الاثنين ٢٨ أبريل سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية الحريدية القبلية مركز طهطا وفي يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٤١ بسوق بندر طهطا سيباع علنا الغلال المحجوز عليها تنفيذياً بتاريخ ١٠ / ٣ / ١٩٤١ ملك الشيخ محمد حسن هريدي من الحريدية القبلية نفاذاً للحكم رقم ٩٢٧ سنة ١٩٤١ طهطا وفاء لمبلغ ١ جنيه و ٨١٥ مليم لغاية هـذا النشر كطلب الخواجة فايز نخلة بس بطهطا فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم الاثنين ٢٨ أبريل سـنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسوق ناحية ديرمواس مركز ديروط والأيام التالية إذا دعت الحالة سيباع علنا حمارة وعجلة سوده ملك أحمد علي عاشي وآخر نفاذاً للحكم رقم ٣٩٨٢ سنة ١٩٤٠ وفاء لمبلغ ١٢٩ قرش صاغ قيمة المحكوم به والمصاريف وأتعاب المحاماة ورسم التنفيذ بخلاف أجر نشر هذا النشر كطلب حضرة نصر عبد النور من ديرمواس فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم الاثنين ٢٨ أبريل سنة ١٩٤١ من الساعة ٧ أفرنكي صباحاً وما بعدها بناحية أبو عباد والأيام التالية إذا دعت الحالة وإن لم يتم فيكون الأربعاء ٣٠ منه بسوق منفط الخار سيصير الشروع في بيع الأشياء الموضحة بمحضر الحجز التنفيذي المؤرخ ١٢ مارس سنة ١٩٤١ ملك احمد عبد القادر وآخر نفاذاً للحكم رقم ٤٠١٦ سنة ١٩٤١ جزئي الليا وفاء لمبلغ ٣ جنيه و ٦٥٠ مليم بخلاف رسم هذا النشر ومايستجد كطلب الشيخ عثمان حسين التاجر فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم الثلاثاء ٢٩ أبريل سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً والأيام التالية إذا دعت الحالة بناحية تفتيش مركز الليا سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك حسين حباب وآخر نفاذاً للحكم رقم ٤١٨٨ سنة ١٩٤٠ وفاء لمبلغ ٣٣٧ قرش صاغ بخلاف رسم هذا النشر كطلب جبرة سرجيوس من الكشح فعلى راغب الشراء الحضور

مع ذبابة . . . !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

قال لى صاحبى فى مستهل حديثه ، ولقد رويت لقراء (الثقافة) أحاديث من صاحبى هـذا . ولكننى لم أقل لهم من هو؟ ولا ما صفته؟ ولم أكشف لهم من أية خَـلْق فيه ، ولم أشر إلى أى شيء يعطى القارئ ولو فكرة ضئيلة عنه ، حتى يُحل أحاديثه من نفسه فى الزاوية التى تكافئها من التقدير . وفى الحق أنى ، فى هذا ، معذور ، فالرجل صديق من عهد طويل . وما نكاد نفترق إلا على نية لقاء . فليس من اليسير أن أعتف من صفته عما عسى أن يكره . وكيفما كان الأمر ، فإنى أكتفى فى تقديمه اليوم ، بأنه رجل حادّ الذكاء وحادّ المزاج ، مرهف الحسّ ، دقيق الملاحظة ، سريع الخاطر ، حاضر الحكم على كل ما يَستمع له من الأشياء ؛ وكثيراً ما يكون حكمه نقداً لاذعاً تدفعه ثورة النفس . وإنه بهذه الخلال ليَشقى الشقاءَ كلَّه ، ويُتعب صاحبَه التعب أجمعه !

يُغضبه ويثيره أتفه شيء يلحظه من النـاس مما لا يمت انتباهى ولا انتباهك ، ولو كان هـذا الشيء مما لا يعنيه ولا يتصل به بأى حال . فإذا رأى مثلاً بائعاً من هؤلاء الباعة الجوّالين يحلف لمساومه بأنه باعه بأقلّ مما اشترى ، ثار ثائره ، وجعل يرغى ويزبد ؛ ويَرثى لحال الزمان من لؤم أبناء الزمان ! وإذا أصاب ثلاثة يقفون ، فى غير حاجة ، على الطُّـوار (الرصيف) ، فيسوقون السابلة ، وقد يُلجئون بعضهم إلى التدلى فى الشـارع ، ليمضوا لطياتهم ، فيتعرضون بذلك لتلك القواتك العابرة التى أصبح لا ينقطع لها فى طرق القـاهرة عدو ؛ رأيته يقف بهم فيلومهم ويبكتهم ، ويضرب لهم أبلغ الأمثال على سوء محملهم ، وقلة ذوقهم ، وفداحة جنايتهم ، فى وقفتهم السمجة ، على من لا جناية لهم من الناس ، غير مبال بما يلقى من مثل أولئك الأرذال !

على أنه ، مع هذا ، طيب القلب ، صافى النفس ، لا يحتاج فى ردّه إلى الرضا ، إلا إلى أيسر قدر من الاعتذار ، مهما يقع على شخصه هو من أسباب الإعنات والإغضاب ، وإن ليلة واحدة لكفيلة بأن تغسل صدره من كل ما أجن لامرئ من الحقد والاضطغان !

هذا صاحبى ، ويحسبك اليوم معرفة هذا القدر من خلاله . فلنمض فى حديثه على اسم الله :

زارنى ذات يوم من أيام هذا الأسبوع ، فكان أول ما لحظت منه اطمئنان الوجه ، ووداعة النفس ، ورفق الحديث ؛ وهذه أشياء عهدى بها منه أقل من القليل .

وسألته عن حاله كما يسأل الصـديقُ عن حال الصديق . فقال بعد أن حمد الله وأثنى على جليل فضله : لقد خُضتُ عشيةَ أمس ساعاتٍ ثقالاً جداً ، لقد غاظتنى وأرمضتنى ، وفرقت نفسى ، وأطارت لبى ، حتى جازت بى أقصى حدود الصبر ، وعصفت بكل ما يُقَدَّرُ المرء من الاحتمال . فقلت له : « شنشنة أعرفها من أخزَم » ، ولكن قل لى : كيف كان ذلك ؟

قال : استويت للعشاء ، وكنت شديد الجوع ، وبى من الشهوة للطعام ما لا أجده فى أكثر الأيام ، وطعامى ، كما تعلم ، قل أو كثر ، إنما يوضع بين يدى جملة لأصيب من أى ألوانه ما أشاء فى أية لحظة أشاء . وما كدت أسمى الله وأحدر يدى إلى الصحفة بأول لقمة ، حتى رأيت ذباباً قد هَوى إلى مهوى أصابعى من الصحفة ، فذببته ، فعاد لتوه إلى موضعه ، وجعل يلغ كما كان يلغ ، فعمدت إلى زجره ، فعاد كذلك . فأدرت الصحفة لأصيبَ مما

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٢١ — الثلاثاء ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — ٢٢ من أبريل سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

معركة البحر الأبيض المتوسط

لمحرر الثقافة السياسي

حينما بدأت معركة البحر الأبيض المتوسط في شهر سبتمبر الماضي ، بزحف الجيوش الإيطالية على مصر وتقدمها حتى سيدي براني ، كانت إيطاليا لا تزال عاملا هاماً يحسب حسابه في الموقف ؛ وكانت بريطانيا العظمى تواجه يومئذ ألمانيا الظافرة في الغرب ، وتترقب وقوع الغزو الألماني بين آونة وأخرى ، وقد ظهرت طلائع هذا الغزو بالفعل في الغارات الجوية الهائلة التي نظمها الألمان يومئذ على انكلترا ؛ وكانت المعاونة الأمريكية لبريطانيا لا تزال بعيدة عن التحقيق ؛ وكان الموقف كله قاتماً يدعو إلى كثير من التوجس والتشاؤم . ولكن معركة البحر الأبيض تطورت فجأة عقب الاعتداء الإيطالي على اليونان في أواخر أكتوبر الماضي حينما ظهر عجز الفاشستية الفاضح في قهر هذه الأمة الصغيرة الباسلة ؛ ثم كانت معركة الامبراطورية في الصحراء الغربية ، فاكتسحت القوات البريطانية ولاية برقة ، ومزقت جيش جراسياني الفاتح ، وقضت على امبراطورية موسوليني في شرق أفريقية ، ومكن الأسطول البريطاني لسيطرته على البحر الأبيض بسلسلة من الضربات القوية التي أنزلها بالأسطول الايطالي .

لم يُصب ، فسرعان ما وثب إلى حيث أرسل يدي ، وأقبل من فوره على شأنه ، ما دُفع إلا رجع ، ولا زُجر إلا عاد ؛ فلم يسعني إلا أن أرفع هذه الصحفة الملوثة الموبوءة ، وأنحيها بعيداً وأقرب غيرها ، وعوضي على الله . على أنه لم يُعفها ولم يعفني ؛ فلقد هبط منها مهبطه من أختها ، فأدرت الطبق كذلك ، فدار معه حتى استقر منه في منحدر يدي . وكان الغيظ قد بلغ مني قصارى قصاراه ، فأهويت بكفي عليه لأقتله وأخلص من لؤمه وأذاه ، فتكسر الطبق شظايا ، وتناثر الطعام على الخوان ، وأصاب وجهي وثوبي منه رشاش ؛ أما الذباب فلم يكفه الإفلات من هذه الضربة الساحقة ؛ بل لقد راح يمرح في هذا الذي تطاير على الخوان ! فقمت من المائدة وأنا أحلف بكل مؤثمة من الأيمان أن لا أذوق في ليلتي أي طعام !

* * *

أويت إلى فراشي ، أرجو بهجمة خفيفة أن أستريح ولو من بعض ما أجد . ولكن كيف لي بالنوم وقد قيل : « لا نوم لجائع » . ولو دار الأمر على الجوع وحده لهان الخطب ، فإن وراء الجوع نار الغيظ وثورة الغضب ، وهذان وحدهما زعيمان بنفي المنام الليالي الطوال .

وأفكر ، وفيم لعمري أفكر إلا في الذباب ، ولؤم الذباب ، وتهافت الذباب ، وأذى الذباب ، وخطر الذباب . وما يجلبه الذباب من علل وأسقام ، وأرزاء جسام !

وجعلت ، في مطرحي ، أسائل نفسي ، وقبل كل شيء أنبهك يا صديقي إلى ما تعلم من أنني عظيم الإيمان بالله تعالى ، وثيق الاعتقاد ، بظهر الغيب ، في بالغ حكمته في كل جليل ودقيق من خلقه .

رحت أسائل نفسي : ترى ما حكمة الله الحكيم في بث هذا الذباب ، وهو على ما ترى لا يحمل إلا قذراً ، ولا يولي إلا أذى وضرراً ؟ ولكم يهدم ، بفرط تهافته ، الأعصاب ، ويشيع مالا يحصى من العلل والأوصاب ، ويبلغ وحده ما لا تبلغ الحروب من أسباب الدمار والخراب . ومع هذا لم يظهر العلم له أية ثمرة ولو دقت ، ولم يجل طول الزمان له منفعة ولو هانت . بل إنه لشر كله ، وأذى مستمر في أوله وآخره ، وبلاء عظيم في ظاهره وباطنه . لا يدع الإنسان في لحظة من نهار ، في اطمئنان ولا قرار . وكلما ذاده عن وجهه أو يده ، أو عن طعامه أو شرابه ، عاد من فوره ، فأثبت رجله حيث كانت ، ما تنحرف قيد شعرة ، لا من وراء ولا من قدام ، ولا ذات اليمين ولا ذات الشمال . بحيث لو استعان المرء بأدق الآلات الهندسية والفلكية ما بلغ هذا المدى في تحرير المكان . ولقد يبلغ من شدة تهافته أن يقع في الطعام أو الشراب ، فإذا تُرك وشأنه مات من الاختناق ؛ بل إنه ، على حدة حسه ، ليقع في فنجانة القهوة ، وهي لما تزل تتنفس بالحار الشديد من البخار . وما أرى أنه خرج من هذه الميتة الشنيعة بشيء ، إلا أنه أفتى نفسك ونغص عليك مزاجك !

وبعد ، فأنت خبير بما يحمل هذا الطائر اللئيم من ملايين الميكروبات ، لا تفتأ تفرخ أشد العلل وأفتك الأوباء ، في حين تمني السلامة منه ، ويعجز الأمن من أذاه . فإذا زعمت أن من القوانك ما يقتله ، فذاك بقدر ما تظل الأبواب والنوافذ محكمة الإغلاق ، حيث يغمر الغرفة الظلام ، ويدعو التنفس في جوها إلى الاختناق . حتى إذا فتحت النوافذ والأبواب لتجديد الهواء ، دخل من الذبان أكثر مما خرج ، وتطاير منها في الغرفة أعظم مما هلك !

اللهم إن هذا بعض ما ابتلي الإنسان من الذباب من قديم الزمان أو من أول الزمان . فترى أيكشف العلم فيه مزية ، ويقع منه على منفعة تكافئ هذا القدر الهائل من الضر والفساد ؟

وجعل الذهن ، برغمي ، يدور في هذا متلمساً موطن الحكمة في هذا الخلق الضار الشرير . وكلما طلبت التفرج بالفكر في شيء آخر ، رأيت الأمر يتعاصى على ، فقد استغرق حديث الذباب كل تفكير ، وملك على الذهن جميع مذاهب التصور والتقدير !

وفيما أنا في ذلك ، إذ قرع مسمعي طنين ذباب ، ولكنه أشبه ما يكون ، في عنفه وقوته ، بهمهمة فهد أو زئير أسد . فحولت وجهي وأرسلت بصري ، فإذا ذباب في جرم الغراب . ثم لم يرعني إلا أن جعل ينتفخ وينتفش حتى صار مثل الديك الرومي . ثم ما زال ينتفخ وينتفش حتى صار في حجم النعامة ، لولا أن جسمه كله كاسٍ بالريش لا يعرى منه شيء ، ولولا أن رأسه موصول بما بين كتفيه لا يفصل بينهما عنق . فإذا حرك رأسه فمن أعلى إلى أسفل ثم من أسفل إلى أعلى ، كأنما وصل بين رأسه وكتفه بمفصلة ، ولولا أنه مزود في مقدم صدره بخراطيم على حين ليست للنعام خراطيم .

ويقبل هذا الذباب الضخم علىّ وهو يرفع رأسه ويخفضه ، فتداخلني من الذعر ما أزاغ البصر ، وكاد يخلع شعبة من شعب القلب . فبادرني بقوله ، في لسان عربي صحيح : لن تراع ! لن تراع ! فإن الشيطان إذا كان قد أزاق فكرك إلى هذا ، فإنه مازالت تعصمك قوة إيمانك . فقلت : الحمد لله رب العالمين . قال : فلو عملت بقول الله في كتابه الكريم : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » ! فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال : والآن فاسمع يا هذا : ما أشد ذهابكم ، يا بني آدم ، بأنفسكم وافتتانكم بعقولكم ، وتتايهكم بهذا القدر الضئيل الذي تعلمون من ظاهر الحياة الدنيا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

تتساءل ياهذا في حكمة الله ، جل مجده ، في خلق الذباب وبثه . وتنكر ما يلون للناس من الأذى في صحتهم وفي حياتهم ، وقد ذهب عنك ، أيها الأبله ، أن هذا الذي تنكر من فعل الذبان ، هو بعض حكمة الحكيم في خلق الذبان . فلقد تعلم أنه لولا شيوع الأمراض والعلل ، لما مات أكثر من يموت من الناس في كل يوم وفي كل ساعة ، وإذاً لاطردت الزيادة في عدتكم ، يابني آدم ، حتى تضيق بكم مساحة الأرض ، ويعجز بطنها وساقها عن مواتاتكم بما يكفي لبعض طعامكم وكسوتكم . فلا مفر لكم من التناحر والتقاتل في التماس أسباب العيش ، حتى ليقتل الوالد ولده ، وتأكل الأم طفلها ، طوعاً لغريزة استبقاء الحياة . وكذلك لا يلبث العالم كله أن تسوده الفوضى ، وهي أهم عوامل الفناء . فالموت إذاً ، أيها الأبله ، هو أبلغ أسباب الحياة ![1]

ثم إذا كنتم تنكرون ، أيها الأغفال ، ما ينشر الذباب فيكم من أسباب الأمراض والعلل ، وتتمنون على الحياة لو تعيشون الدهر في صحة وعافية ؛ فمن أين ، لعمري ، تعيش هذه الجيوش الجرارة من الأطباء والمرضين ، والممرضات ، وخدم العيادات والمستشفيات ، والصيدليين وعمال الصيدليات ، وأصحاب مصانع الأدوية والعاملين فيها ، ومنتجي المواد الأولية للعقاقير الطبية . ومن وراء كل هؤلاء ، ممن يعولونهم ، ويعودون بهذا السعي على نحاهم !

ثم لا تنس العاملين في أسباب الموت من (الحانوتية) واللحادين (التربية) وباعة الأكفان ، وسواق عربات الموتى ، وغير أولئك ممن لا يصيبون الأرزاق والأقوات ، إلا بفضل الموت والأموات !

(١) رحم الله المتنبي إذ يقول :

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سليب

وسكت برهة، ثم قال: أفآمنت الآن أن ذباباً واحداً أجدى على العالم وأعود بالخير على نظامه منك ومن عشرة من أمثالك؟.

فقلت: آمنت بالله.

ثم لم يرعنى إلا أن أرى هذا الخلق الكبير جعل يصغر ويضمر، حتى عاد ذباباً فى جرم سائر الذباب، ثم طار فوقع على يمين عينى، وجعل يفحصه برجله فحصاً غير رفيق. وما كدت أتهيأ للقيام، حتى أدركت أنى كنت فى أحكم الأحلام!

* * *

وفرغ صاحبى من حديثه، فقلت له: إذاً فقد آمنت بأنك، فى هذه الحياة، لا تساوى ذباباً؟ قال: ولا عشر ذباب. وكذلك يكفينى الله شرور الغرور والافتتان، وهما أشد مهالك الانسان. فقلت: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه.

عبد العزيز البشرى

٢ – اتحاد العرب

الدكتور عبد الوهاب عزام

تحدثنا من قبل عن الأمة العربية ومواطنها والأواصر التى تجمع بينها. وذكرنا من هذه الأواصر اللغة والأدب والتاريخ. والآن نزيد على هذه الأواصر الدين. الدين من أقوى روابط الأمم، وأمتن أواصرها، وأعظم أسباب اتحادها. يمدّها بعقائد تقرّب بين عقولها، ويلهمها فضائل تؤلف بين عواطفها، ويواخى بين مناهجها فى العيش، وأساليبها فى الحضارة. وبرهان ذلك بيّن فى الماضى، ماثل فى الحاضر. والاسلام خاصة آصرة وثيقة وعروة لا تنفصم، بما يدخل فى أمور الأمة كلها جليلها ودقيقها، ويصحب الفرد فى أحواله جميعها. وبأنه الدين الذى خلق تاريخاً، وأقام دولاً ونشأ حضارة. فهو من روابط الأمة العربية، بل أعظم روابطها، ولكن كيف يعد الاسلام من روابط العرب وفى العرب غير المسلم؟ أتعدّه رابطة بين العرب، لأنه دين الأكثرين؟ نعم! ولأنه، كما أسلفت، تاريخ ودول وحضارة يفخر بها العرب كلهم، مسلمهم وغير مسلمهم. وقد أحسّ هذا غير المسلمين من العرب، فأشادوا بمجد الاسلام، واجتهدوا فى تبيين تاريخه وتاريخ حضارته.

وبعد فهذه الأمة الكريمة قد اجتمع لها من المزايا والخصائص وواتاها من الأسباب والأواصر ما هو خليق أن يجلوها للتاريخ، وللعمل، وللجهاد فى الحياة، أمة قوية مجيدة تنتحى غاياتها على سبل روحية، وسنن واضحة؛ ولكن هذه المزايا وهذه الأواصر، على قوتها ومتانتها ووضوحها، تحتاج إلى ما يزيدها قوة ووضوحاً، ويمكن لها فى العقول والقلوب، وينهج لها فى أعمال الحياة.

فلا بدّ من الدعوة إليها، والابانة عنها، وتوجيه الناس إليها، ولا بدّ من التوسّل إليها بوسائل كثيرة.

لسنا فى حاجة إلى خلق روابط، واصطناع أسباب تجمع بيننا؛ فلنا روابط مشتقة من أصلنا ووطننا ولغتنا وديننا وتاريخنا وحضارتنا؛ وإنما يعوزنا أن نجلو هذه الروابط، ونبين جوانبها المختلفة، ونمهّد لها بأقوالنا وأفعالنا. لا بدّ من الانتفاع بها، والاستفادة منها، وتحويلها من الفكر إلى العمل، من العاطفة إلى الفعل.

إن فى بلاد العرب أنهاراً كبيرة وصغيرة: النيل ودجلة والفرات والأردنّ وبردى والعاصى وغيرها؛ وهى أنهار طبيعية، صبّتها السماء على الأرض فى غياهب التاريخ ومجاهل الغيب، ولكنها لا تروى الأرض وتسقى الناس والأنعام إلا بالاستقاء، وإلا ببناء السدود وشق الترع

والجداول. وكذلكم خصائص العرب، وأواصر العرب، لا بد لها من عقول العرب وأيديهم ليكون لها في حياتهم آثارها، وعلى الأرض ثمارها، وبين الأمم أعمالها وبنها. وتبقى على التاريخ أخبارها، وعلى كر الدهور وتقلب الشهور تماثيلها.

على العلماء والأدباء والكتاب والشعراء أن يتوسلوا بآرائهم وأقوالهم وأعمالهم إلى ما يقرب بين العرب في تعليمهم وتربيتهم، ويؤكد بينهم التعاون على الخير، والتظاهر على ما يرجون لأنفسهم من نظم وأعمال تكفل سعادتهم وعزتهم على هذه الأرض.

تبادل الصحف والكتب، والتزاور، والائتمار في الحين بعد الحين والبلد بعد البلد، فيما يحزب العرب من مشاكل التربية والتعليم والاقتصاد والسياسة والحرب والسلم — كل أولئك يمهد السبيل إلى الغاية المرجوة، ويؤدينا نحو الأمل المنشود. وويل للعرب إن لم تجدهم هذه النذر، وتوقظهم هذه الصواعق، المتساقطة حولهم، وتعظهم هذه المثلات المحيطة بهم؛ فيسارعوا إلى العمل، ويبادروا إلى لم الشعث وإصلاح الفاسد وانتهاز الفرص، وخلق الوسائل الشاقة واليسيرة، والبعيدة والقريبة، في غير توان ولا تواكل.

وبعد فإنما نبغي من اتحاد العرب أن يتبوءوا بين الأمم المكان الجدير بهم، وأن يشاركوا في أمور العالم بآرائهم وأعمالهم، يرجى خيرهم، ويخشى شرهم، فإن مذلة وهواناً وعاراً أن تسيّر أمور الأمم ويقضى فيها بالرشد والغي، وهم لا يشاورون في كثير ولا قليل، ولا يرجعون لحقير ولا خطير. وقد قال أحد شعرائنا:

أليس عظيماً أن تلم ملمة
وليس علينا في الحقوق معول؟

وقال آخر:

وأقضي على غيري إذا الأمر نابني
وفي الناس من يُقضى عليه ولا يَقضي

ونريد من اتحاد العرب أن يعملوا لسعادتهم وسعادة البشر، وأن يطبوا لأدواء العالم بما في طباعهم ودينهم وتاريخهم من الحرية والإخاء والمساواة بين الناس؛ وهم كانوا أول من رفع راية الحرية والأخوة بين البشر، ثم لم يرفعها أحد بعدهم.

اتحاد العرب خير لهم وللناس كافة، وليس شراً على أحد. ليس في اتحاد العرب ما يخشاه غيرهم من بغي أو ظلم أو حرب أو سيطرة. فليعلم ذلك جيراننا من الأمم التي تربطنا بها أمتن الروابط، فإنما نبغي الخير لأنفسنا ولهم وللبشر.

إن اتحاد العرب وصل لا قطع، وجمع لا تفريق. ليس في إحكام الروابط العربية قطع أو توهين لروابط أخرى.

وقد قلت في مقالات عدة، ومحافل كثيرة: إن اتحاد العرب لا يفرق بينهم وبين غيرهم ممن تربطهم بهم أواصر الدين والتاريخ والجوار. ليس في عطف العربي على العربي توهين لعطف العربي المسلم على المسلمين وإحكام الأواصر بينه وبينهم.

ألا فليسر العرب إلى مقاصدهم غير هيابين ولا مترددين، وليعدوا عدتهم لبناء مجدهم، وتشييد حضارتهم على قواعد من الحق والعدل والخلق الكريم، والبر والرحمة والوفاء والصدق، عسى أن يجد العالم المتردي في طغيانه وتنافسه وقسوته وغدره، في مدنية العرب نجاة من هذه المهالك، وشفاء من هذه الأدواء، وليس هذا بعيداً من همة العرب وأخلاق العرب، وتاريخ العرب.

عبد الوهاب عزام

قصة عربية :

زنوبيـــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة الباسل أمير تدمر عاصمة الصحراء الغنية بتجارتها ، وكانت زوجته الجميلة زنوبيا ، سليلة كليوبترة ملكة مصر وشبيهتها في الثقافة والذكاء والجمال . ومعلمها لونجين الفيلسوف الرومي ، يقرأ لها كتب الشعر والفلسفة . ولها وصيفة مسيحية (ليس) تحدثها عن دين المسيح ، حتى مالت إليه بعض الميل . وجاءت الأنباء إلى تدمر بأن سابور ملك الفرس هزم فاليريان أمبراطور الروم وأخذه أسيرا ، فغضب أذينة وهم بالاندفاع إلى حرب الفرس . ولكن امرأته نصحته بالتمهل ، وحملته على إرسال هدية إلى سابور ليستميله . وبقي أذينة في انتظار أنباء تلك الهدية في قلق عظيم . وخرج يتسلى بصيد السباع على عادته ، فأوقع بابن أخيه معن وأمر بسجنه وهو في ضيق صدر من قلقه . ثم أتت إليه الأنباء بأن سابور ألقى هديته في الفرات وسبه وأهان قومه العرب ، فثار للانتقام وذهب بجيش عظيم إلى حرب فارس . وهناك أوقع بسابور هزيمة طاحنة عند الفرات ، وتبعه إلى طيسفون . وحدث في أثناء غيابه عن تدمر أن أغار عليها أحد أمراء العرب ، ولكن زنوبيا قاومته ، حتى أتت الأخبار بانتصار زوجها فضعفت نفوس العدو عند سماعها ، ورفع الحصار . وبقيت زنوبيا تنتظر زوجها في تلهف أنساها كل من حولها حتى معلمها لونجين ووصيفتها ليس . ثم جاء أذينة وخفت تدمر لاستقباله والابتهاج بقدمه ، واحتفل هو بنصره الباهر ، وأتت إليه الوفود تتقرب إليه بالهدايا والتحية ، وخلع عليه امبراطور الروم لقب الملك وجعله خليفته على حكم الشرق كله . وتمكنت زنوبيا وهو في هزة نصره أن تشفع عنده لكي يطلق معناً من سجنه ولكي يزوج وصيفتها ليس من الفارس الباسل حسان التميمي .

ولكن أذينة تغير بعد عودته من القتال وانصرف إلى الخمر واللهو ، وقسا قلبه في عقوبة من خرجوا في أيام غيبته ، وكان أشد الأمور وقعاً على زنوبيا غرامه بالسبية الأعجمية شهناز . وأثر ذلك في الملكة فأغلقت قلبها دونه ، وأخذت تجحد حبه وتتنكر له . ولما خرج أذينة من تدمر إلى حرب (بالستا) الثائر بالشام ملكت نفسها ولم تطعها في التألم لفراقه] .

لم تحس الملكة في أول غيبة زوجها هذه المرة مثل إحساسها الأول أيام فارقها أول مرة في ذهابه لحرب سابور . لقد كانت عند ما فارقها من قبل تعاني وحشة قلب لم يتعود من قبل الفراق ، وكان قلبها مليئاً بما تفيض به عاطفة المرأة المحبة التي وثقت من محبه كل الثقة وجعلته مناط آمالها ومبعث سعادتها وظل سلامها وأمنها . كانت عند ذلك ترى في أذينة الصدر الذي تستدفئ بالانضمام إليه ، والساعد الذي تثق بالاحتماء وراءه ، والصديق الذي تأنس بمودته ، والبعل الذي تنعم في عبادته .

كان لها إلهاً وإن كانت تعرف فيه هوج الغضب وعبث السكر وقسوة السطوة ، بل إن هذه الخصال التي عرفتها فيه وأنكرتها أحياناً عليه كانت من بواعث القوة في إعجابها به وفنائها فيه . أليس هو في ذلك كبعض تلك الآلهة التي طالما قرأت عنها في إلياذة هومير ، إذ هي تجمع بين جلال القوة وشدة البطش وسمو الرحمة وصفاء المودة ؟ كانت عند ذلك لا تتصور الحياة إلا كان أذينة عالمها ، ولا تتطلع إلى أمل إلا كان شخص أذينة ماثلاً بين جناحيه الشفافين المتلألئين . كانت حياتها كلها حلماً تتخلله صورة أذينة على اختلاف مناظره وتنقل حالاته وتعدد ألوانه . صورة تبدو أحياناً في إطار زاهٍ من الحسن الوديع ، وأحياناً في لجة من القوة الجامحة ، وأحياناً في معركة من النضال العنيف ؛ ولكنها في كل الحالات صورة محبوبة لا تزال عينها متعلقة بها في إعجاب يشبه العبادة .

ذلك ما كانت زنوبيا تحسه عند ما فارقها أذينة أول مرة في ذهابه إلى حرب سابور . ولكنها عند ما وقفت تنظر إليه من أعلى القصر وهو يختفي مع جيشه وراء الكثبان الصفراء ، ذاهباً نحو الشام لحرب القائد (بالستا) لم تحس إلا مزيجاً عجيباً من الحزن والحنق

والقسوة ؛ وكانت كلما نازعتها ذاكرتها إلى تذكر أيام حبها وإيمانها به جرت وعصت ومانعت وأبعدت كل ذكرى غير ما تنص عليها حياتها في تلك السنة الماضية . إنه أذينة القاسي السفاك الماجن السكير . إنه الزوج الذي أوى إلى شهناز الأعجمية ووجد فيها ما أنساه حبها وصداقتها ، وطعن قلبها في صميمه ، وأذل عزتها وكبرياءها . إنه الرجل الذي تركها تجادل نفسها وتجاذبها أشد مجاذبة وأعنفها حتى استطاعت أن تحلق إلى الحياة الجافة الباردة ، وأذهب عنها كل ما كان يملأ قلبها رقة وخيالاً ، وتركها للعقل المجرد وحده يحركها في تجهم ، حتى أصبحت حياتها خالية من تلك الألوان الزاهية التي كانت تهزها وتكسبها جلالاً وتفعمها شعراً ورقة .

ولما صارت في تدمر وحدها لم تجد في وحدتها جديداً ؛ فلقد قذف بها أذينة إلى تلك الوحدة من قبل وهو معها في ذلك العام الأخير ، حتى ألفتها واستقرت عليها وأنست إليها .

ولهذا لم تشعر في حالها الجديدة وحشة ، ولم تقف لحظة لتفكر في سير الأيام والشهور ، ولم تعبأ إذا كانت تمر بها مبطئة أو مسرعة ؛ فقد كانت لا تلتفت إلى ماض ولا تتطلع إلى أمل . وعلى ذلك مضى عليها شهر بعد شهر وهي في تدمر تستقبل الوفود وتدبر أمور القوافل وتسير في المواكب ، وتصرف أمور القوم ، وتبذل حيناً وتجمع حيناً ، وتسوس الأمور على هدى عقلها ونصائح معلمها لونجين ، حتى كادت لا تذكر زوجها الباسل إلا بين حين وحين إذا هي استقبلت منه رسولا ينبئها عن نصر جديد أو سير إلى حرب أخرى بعد فراغه من حرب قبلها .

وكان قلبها ينازعها في بعض الأوقات فتحس حنيناً إلى ذكرى الزوج الحبيب ، ثم لا تلبث أن تصرف ذلك الحنين وتغلب قلبها المتمرد فترده إلى جموده ، كما ترد الأم القاسية طفلها العاصي إذا جمح لحظة عما عودته من طاعتها .

وكانت في هذه الأيام التي مرت بها تقف بين حين وحين لتتأمل نفسها وما اعتراها من تغير ؛ ولكنها كانت كلما تبينت تغيرها ازدادت فيه صلابة وشدة . حتى لقد خيل إليها أنها قد تحولت شخصاً آخر غير المرأة التي كانت تعرفها في نفسها ؛ ولهذا كانت تتحدث إلى الرجال وتجالسهم وتسامرهم وتجادلهم ؛ وترشف معهم الخمر في مجامعهم ، وتقسو أحياناً وتطرب أحياناً ، وهي في كل حين تظهر عليهم بإرادتها وتحملهم على رأيها ، ولم تتردد في أحاديثها أن تصارحهم ويصارحوها في كل أمر من أمور الحياة وفي كل مسألة من مسائلها ، حتى كانت تكاشفهم بما ترى في علاقات الذكور بالإناث وما فيها من حماقة أو حكمة ؛ وكانت تكسو أحاديثها أحياناً بسخرية لاذعة فيها ما يشبه الحقد والحنق ، وأحياناً فتكسوها صراحة مكشوفة فيها ما يشبه المجون والتبذل ؛ ولكنها كانت مع كل ذلك مالكة زمام نفسها متنبهة إلى كل ما تنم عليه وجوه أصحابها من خلجات خفية في طوايا نفوسهم .

وكانت لبس في هذه المدة لاهية في سعادتها لا تكاد تذكر الملكة إلا إذا ذهبت إلى خدمتها ، فقد كانت في شغل عنها بما تجده في حياتها الجديدة من محبة حسان ؛ وكانت زنوبيا لا تلتفت إليها كما كانت تلتفت من قبل أيام كانت كلما ضاقت بهمومها تلجأ إليها لتحدثها وتملأ صدرها من إيمانها وبساطتها . فقد بعدت زنوبيا عن الإيمان ووضعت بينها وبين القلب حجاباً جامداً صارماً .

ولكن أيستطيع الانسان أن يكون إلهاً ؟ جحدت زنوبيا قلبها وظنت أنها ملكت زمامه وخلصت من ثوراته العنيفة التي كانت تزلزل ثباتها وتقذف بها إلى الهموم السوداء ، ولكنها لم تلبث أن تبينت الحقيقة المنطوية في أعماقها عندما انكشفت لها .

كانت جالسة في يوم من أيام مطالع الربيع المتفتحة بالحياة تنظر إلى حديقة القصر من فوق شرفتها ، ولونجين يقرأ لها في كتاب أفلاطون ، ويصف لها المدينة الفاضلة

التي صورها ذلك الفيلسوف . وكانت تجادل معلمها في حماسة وإعجاب ، وتسمع وصفه ، غارقة في تأمل ما تكون عليه تدمر إذا استطاعت أن تجعل منها مدينة مثل مدينة أفلاطون . وقال لها لونجين : إن الامبراطور جالينوس قد عهد إلى صديقه الفيلسوف أفلوطين أن يقيم له في دولته مدينة فاضلة وفوض إليه أن يصورها كما أراد . ولم تكن زنوبيا أقل من جالينوس بصراً ومالاً ومجداً . ولم يكن لونجين إلا صديق أفلوطين وقرينه في العلم بفلسفة القدماء .

وأفاقت الملكة بعد حين من تأملها وقالت لمعلمها :

— ولكن أفلاطون لم يجرب . إن الأحلام السعيدة دائماً أزهى لوناً من الحياة يا أيها السيد النبيل .

فقال لونجين في حماسة :

— إن تلك الألوان الزاهية التي تخلع على الأحلام جمالها مستمدة مما تقع عليه الأبصار . وما براعة الآلهة إلا في مزجها في الأحلام .

فقالت زنوبيا :

— يريد الفلاسفة تصفية الحياة مما أودعته الآلهة فيها . إنها لم تودع هذه الغرائز السفلى في قلوب الناس إلا لتتم لهم الحياة على مشيئتها . وأنى يقدر الانسان على أن يكون كاملا ؟

فقال لونجين :

— ولكنا نتقدم ونتهذب ونخطو مع الزمان دائماً . ألم يكن القدماء يلبسون الجلود ويقتلون الضحايا عند مذابح آلهتهم ؟ أليس الفلاسفة طلائع الانسانية في التقدم ؟

فسكتت زنوبيا حيناً ، ونظرت إلى البستان المبتسم تحت قدميها ، وجعلت تملأ صدرها من الهواء المعطر بريح زهر الليمون والبرتقال . وكانت براعم المشمش تكسو أغصانه بثوب ناصع كأنه من قطع الثلج الأشهب ؛ وكانت أشجار الرمان والزيتون والأعناب تتفتح وتمتلئ بالحياة الجديدة في دفء الربيع الأول . فاهتزت نفسها ، وجاشت شجونها الكامنة التي أطالت كبتها ، ثم نظرت إلى معلمها وقالت في حماسة :

— أيها السيد النبيل ، إن هذا الربيع يهز نفسي . لقد أسلمت قيادي إلى العقل ، ولكني أجده لا يقوى على حكم نفسي . ما أبعد خيال الفلاسفة عن العقل ! إن خيال أفلاطون ينبض بقوة تحرك النفوس ، وما أحسب أفلاطون إلا شاعراً ، وإن كان لا يعبأ بالشعراء . لقد حرك نفسي بعد أن ظننت أنها قد نسيت الحركة .

ثم قامت وقالت لمعلمها :

— تعال أيها السيد النبيل لنجول جولة في هذه الوديان المزدهرة التي أحياها الربيع .

وخرجت مع معلمها فركبا إلى الصحراء ، وسرحت زنوبيا طرفها في المروج الخضراء الباسمة تشقها جداول الماء الصافي ، وهي تتعرج في الوديان تلمع في ضوء الشمس الرقيقة ؛ ويتألق في قاعها الحصى كأنه فتات من الجوهر الثمين . وكانت أسراب الظباء تسنح لها وإذ هي تثب خفيفة من خميلة وتسرع إلى خميلة بعدها ، فلا تلمح منها إلا بياضاً يبرق ثم يختفي . ولم تملك عند ذلك أن تعاودها الذكرى القديمة التي ظنت أنها نسيتها . لقد كانت تخرج إلى هذه الوديان مع أذينة إذا أراد الصيد . وما كان أسعدها في تلك الأيام ! إنها لم تجد في قلبها من حل في مكان زوجها الحبيب ، وبقي قلبها الموحش مظلماً بارداً وحيداً .

إنها تحاول أن تجد في الفلسفة ما يبعدها عن تذكر هزات قلبها ، ولكنها لم تجد الفلسفة نفسها خالية مما يهز القلب . وجرفتها الذكرى فإذا بها تغرق فيها وتغيب عن إبصار العالم الحسي الذي يحيط بها . أذينة ! ما الذي يجعل كل شيء يذكرها به ؟ ألم تخلعه من قلبها وتمحق آثار حبه القديم ؟ ما بال صورته تعود إليها كأنه لم يغب عنها إلا في رحلة من رحلات صيده ؟ وما بالها تحس قلبها يخفق كأنها تترقب يوم عودته إلى تدمر لترتمي على صدره وتبكي ،

وتطلب منه العفو من جحودها ؟ أى لهذه الزعازع التى تثور بها على غير انتظار !

وعادت إلى نفسها فجعلت تجاهدها ، ولم ترد أن تسترسل فى هذه الهواجس ، وهزت هذه الذكريات فى عنف حتى أبعدتها وأسكتت ثورتها ؛ وعادت مع معلميها إلى تدمر ، ولكنها لم تعد خفيفة نشيطة كما كانت تؤمل أن تعود ؛ ولما صارت فى القصر وجدت رسولاً من أذينة ينبئها أن حربه فى الشام قد انتهت إلى نهايتها ، وأن (بالستا) قد أسلم له بعد انهزامه ، وأنه أمر بقتله وأصبح بذلك عند جالينوس حامى حمى دولة الروم وعضدها الأيمن ، وأنه ذهب بعد ذلك إلى جزيرة آسيا الصغرى لمساعدة الامبراطور فى حربه مع همج القوط ، فقد وهبه الامبراطور إقليم بثنيا ثمناً لمساعدته إذا هو لبى النداء .

ما هذه المصادفات العجيبة التى تجتمع لها بين حين وحين لكى تزعزعها وتعيد إليها شجونها ؟ ما بال أذينة يتمثل لها كلما طلع أمام ناظرها مشهد من الحسن ؟ وما بال اسمه يرن فى أذنيها ويسلك برغمها إلى مداخل قلبها الحائر ؟

وعند ما أمرت زنوبيا بأن تعلن البشائر فى تدمر وأن يقيم لها الناس فى مدينتهم العظيمة ما هى جديرة به من الاحتفال ومظاهر البهجة ، نسيت حنقها وقسوتها وعادت صورة زوجها تهز نياط قلبها

ومضى أسبوع كامل والمدينة متلألئة فى طربها راقصة فى غنائها مسرفة فى لهوها وتبرجها .

وشاركت زنوبيا فى ذلك العيد الشامل ، فأقامت لأهل تدمر احتفالاً فى المنتدى الأعظم فى أيام الأسبوع المرح كلها ، واجتمع فيه الفرسان والمصارعون والممثلون والمضحكون ، فعرضوا ما عندهم من فنون على ألوف وألوف من أهل المدينة ، وقد أرخوا لأنفسهم العنان وانبعثوا يضجون ويتماشون فى مقاعدهم الحجرية المزدحمة حول ميدان المنتدى الفسيح . ثم سارت فى اليوم السابع بموكبها الرائع إلى حرم تدمر الأعظم فى معبد شمس — بعل ، فأقامت فيه الصلاة فى زحمة من الحجاج الذين أتوا من فجاج الصحراء ليشاركوا المدينة فى عيدها .

وكان قصر الملك آية الإبداع فى زينته وأضوائه وولائمه وأسماره ، وأعدت الملكة فيه احتفالاً بعد أن مضى الأسبوع ، جعلته لخاصتها وأكابر قومها وضيوفها ، ولما أقبل الليل جلست فى مجلس شامل للسمر والشراب ، وقامت هى على إعداد الإيوان وتجميله ، فلم تترك فيه ركناً لم تخلع عليه البهجة ، ولم تبق فيه تمثالاً من تماثيل الآلهة لم تنفث فيه الحياة ، وكان أكبر احتفالها بتجميل تمثال جدتها كليوبترة ، فجعلته فى صدر الإيوان فى حلة أرجوانية ، وزينتها بحلى من الذهب والجوهر ، حتى كان القادم على الإيوان يحسب أنه مقبل على الملكة العظيمة وهى فى ثوب الحياة لكى يؤدى لها ولاءه وإعجابه وإجلاله .

وكانت زنوبيا فى تلك الليلة فاتنة الحسن بادية الحماسة ، حتى لقد عجبت من نفسها كيف امتلأت بذلك الطرب الشائع بعد أن ظنت أنها قد نسيته ، وعجبت من قلبها كيف خف وخفق بعد أن حسبت أنها قد ملكته ! لقد لمحت من نفسها أنها لم تزل تنطوى على المرأة وإن خيل إليها أن المرأة قد فارقتها .

ولما كمل عقد المجلس وازدانت أرائكه بكل حلة رائقة وكل حلية ذهبية مجوهرة ، دارت فيه الكؤوس على الجمع بين بلورية وفضية وعسجدية ، ودار الحديث وبث فيه الحياة بين فكاهة حلوة وقصة طريفة مختارة ومناقشة هادئة مهذبة .

وكان الأب بولس السمسطانى يجلس عن يمين الملكة ، وكان لونجين الحكيم عن يسار الملكة لا تفوته لفتة من لفتاتها ولا لفظة من ألفاظها ، ولاسيما إذا اتجهت بالحديث إلى الأسقف المسيحى . وكان القلق يعتريه كلما سمعه يتحدث عن مذهبه فى الدين . أيريد هذا الأسقف أن يفتن الملكة ويحولها عن دين هومير ؟

وجرى الحديث فى شجونه ، من دعابة إلى قصص ، ومن شعر إلى حكمة ، ومن بحث فى الدين المسيحى إلى

٢ - الشعر عند أرسطو

للأستاذ أحمد غاكى

حدثناك فى مقال سابق عن رأى إفلاطون فى الشعر والشعراء ، وسقنا لك بعض الآراء التى ضمّنها أرسطو كتابه عن « فن الشعر » . وقد حاولنا أن نقدّر رأيه فى نشأة الأدب ، ورأيه فى أصل الشعر . وقلنا إنه كان يرى أن الشعر ، كسائر الفنون الجميلة ، يرتكن على التقليد . ونحن مقبلون فى مقالنا هذا على فئة أخرى من آراء أرسطو يتصل أغلبها بأدب المسرح .

* * *

وقد وازن أرسطو بين التاريخ وبين الشعر ، فذهب إلى أن المؤرخ يصف الحوادث التى حدثت فعلاً ، لكن الشاعر يصف نوعاً من الحوادث يمكن أن يحدث . ولذلك كان الشعر أكثر مجالاً للتفلسف من التاريخ . والشاعر يستطيع أن يثبت من الأحكام ما يكون عاماً يألف العالم بأجمعه ؛ أما المؤرخ فهو محدود بالمفردات والأمثلة التى يعالج . وظيفة الشاعر أن يعبر عما هو محتمل الحدوث ، لكن وظيفة المؤرخ أن يعبر عما حدث . المؤرخ يقص عليك ما حدث بالفعل ، لكن الشاعر (وبخاصة الشاعر المسرحى) يتخيل سلسلة من الأحوال يصنع فيها شخصيته الروائية ثم يظهرك على ما تفعل . الفرق بين التاريخ والشعر إذاً هو الفرق بين الحقيقة الضيقة وبين الخيال الحر الطليق .

على أن أرسطو كان أبعد النقاد عن مجافاة الحقيقة مهما تخيلها الخيال ؛ فهو يعلم أن الشعر فى نفسه هبة ، وأن الموهوبين من الشعراء يهتاجهم مسٌّ من الجنون . لذلك فهو ينصح لهم بأن يروا الرواية المسرحية رأى الخيال قبل أن يقدموا على تأليفها ، وألا يدعوا فيها أجزاء

طرف من أدب الوثنية . وانساب عذباً هادئاً حتى كاد يمضى الليل . ثم قامت زنوبيا مؤذنة بالانصراف وحيت أصحابها وضيوفها ، وخرجت ذاهبة إلى مخدعها ، وخرج لونجين وراءها ذاهباً إلى منزله فى القصر .

ولما أرادت أن تلقى إليه تحية الوداع قالت له :

— ألم تر أيها السيد المبجل كيف لم يأت معن ؟ إنه لم يشهد حفلة من حفلات هذا القصر .

فأطرق الفيلسوف وهو يجيب :

— إنه ليس فى تدمر يا مولاتى .

وكأن الملكة قد مست جمرة عند ذلك ، فانتفضت قائلة :

— ومن أعلمك بهذا يا لونجين ؟

فعجب لونجين من فزع الملكة وقال فى صوت خافت :

— سمعته فى السوق منذ أيام من صديق .

فنظرت إليه الملكة فى شىء من الغيظ ثم ملكت نفسها وألقت إليه تحية قصيرة ، ودخلت إلى مخدعها وأسلمت نفسها للموج من المخاوف .

أين مضى معن ؟ وما الذى حمله على الخروج من تدمر خفية ؟ إنه لم يذهب مع أذينة إلى الحرب ، إذ كان يعانى ألم المرض الذى ألم به وهو فى سجنه . ولما أبل من مرضه لم يسرع إلى اللحاق بعمه ليشاركه فى حربه . أيكون قد ذهب إليه ليقطع عن نفسه لوم التخلف عن القتال ؟ ولكنه لم يأت إليها ليستأذنها ويودعها ، وهو يعرف أنها كانت تحبه كأحد أبنائها .

ولم تستطع صورة معن أن تفارق ذهنها تلك الليلة ، وكانت تراه فى الرؤى المتقطعة يتخلل أحلامها حتى رأته فى أحدها يحمل على أذينة صائحاً مهدداً . فهبت مذعورة ولم تستطع بعد أن تجد إلى النوم سبيلا .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

لا تستوى ووحدتها ، بل لقد نصح لهم أيضاً أن يحسوا عما فى شعرهم وما فى لغتهم من عواطف وإحساسات . بكل ذلك حاول أرسطو ألا يخرج بالرواية المسرحية عن دائرة الإمكان . والحق لقد أثرت كل هذه الآراء فى التأليف المسرحى ، وبخاصة فى تاريخ المأساة .

والمأساة قد استهلكت كثيراً من جهد أرسطو لأنها أصابت من عنايته أكثر ما نقل إلينا من كتابه من « فن الشعر » . وقد هلهل البحث فيها فذكر أصلها وتكوينها وموضوعاتها . وقد اتخذت آراؤه جميعاً معايير طبقت على أدب المسرح . وضرب أرسطو المأساة مثلا لنظرية التقليد فى الفن ، فقال : إنها محاكاة لعمل جدى من أعمال الانسان ، وينبغى أن تكون عملا موحداً كاملا ، وأن تكون لغتها شائقة تمتاز بالنغم المتسق والوزن الراتب . والأجزاء التى تتكون منها المأساة ستة هى : القصة والأشخاص ، ثم اللغة والفكر ، ثم المنظر والتنسيق ؛ وينبغى أن تأتلف هذه الأجزاء جميعاً حتى ينتج منها كلٌّ واحد هو الذى نسميه « رواية مسرحية » .

وجدير بنا أن نقف وقفة عند تعريفه المأساة حين يقول : « إنها محاكاة لعمل جدى من أعمال الانسان » . فلقد اهتم أرسطو بالقصة ، أو الخرافة التى تنطوى عليها المأساة ، أكثر من اهتمامه بسائر أجزائها . لقد اهتم بالعمل واتخذه غرضاً من تأليف الرواية ، وجعل للقصة المكان الأول فى تقديره ، لأنه كان يرى أن المأساة فى صميمها ليست تآلفاً للشخصيات الروائية ؛ بل هى تآلف للأعمال التى تبدر من هذه الشخصيات . وينتج الألم واللذة من تصرفات هؤلاء ، ويتعاورهم النعيم والشقاء تبعاً لأعمالهم . فأنت تستطيع أن تأتى بسلسلة من الأحاديث ، وأن تبدع بعض المناظر الأخاذة ، وتوقع بعض النغم الشائق ، لكن كل ذلك لن يكون رواية مسرحية حتى تكون هناك قصة محبوكة تعالج عملا إنسانياً موحداً وتأخذ بأطراف الأحاديث وتؤلف بين الأنغام والألحان والأخيلة .

وكذلك كانت المأساة الأغريقية فى عصرها الذهبى ؛ لقد كانت تنطوى على ألوان من العمل تستثير الشفقة وتهتاج الخوف . كانت أعمالا تتسلسل الواحدة منها بعد الأخرى ، كل واحدة نتيجة لسابقتها ومقدمة للاحقتها ، أو قل إنها كانت أحداثاً يأخذ بعضها بتلابيب بعض . وهى إذ تحدث تحدث فجأة ، لا يتوقعها بطل المأساة ولا الناظر إليها . فهى تبدو عجيبة رائعة على الرغم من أن وراءها قصة تتألفها . هذه الأعمال المزعجة المروعة والأحداث الفاجئة الرائعة كانت من المأساة الاغريقية لحمتها وسداها . ولكن أى أعمال تلك التى كان يتحدث عنها أرسطو ؟ لقد رأى أن المأساة يجب أن تدور حول شقاء الانسان فوق ظهر الأرض . فحياة الإنسان غرض للفجائع والنكبات ، تعطف به من يمين ومن شمال ، لا يدرى أن هلاكه فى الخطوة التى يخطو . وليست هذه المصائب بالرائعة ولا هى بمصائب الفجاءة إلا إذا قتل عدوٌّ عدواً أو إذا كاد خصم لخصم ؛ بل هى تستدرّ الرحمة حقاً ، وتستثير الفزع حقاً إذا وقعت بين ذوى الأصلاب والأرحام . فأنت لا ترى شيئاً فى كيد الأعداء للأعداء ، لكنك تحس العطف الأليم إذا رأيت ولداً يكيد لأبيه ، أو أخاً يعذب أخاه ، أو ابناً يقتل أمه ؛ وكل هذه حالات فاجعة مُثلت على المسرح الاغريقى ، وعالجها سوفوكليز فى مسرحياته الخالدة . فقد كانت مآسى الاغريق تتناول الأسرة من إخوة وأبناء وآباء ، وكان للحزازات بينهم ولحوادث القتل والانتقام التى تسوقهم إليها الآلهة وقع فاجع فى النفس . وهذا الاحساس نفسه هو ما قصد إليه أرسطو حينما تحدث عن ذلك الخليط من الرحمة والفزع الذى تهيجه

المأساة ، وحينما نصح أصحاب المآسي أن يلتزموا مثل هذا الأسلوب في تصوير الفجائع .

* * *

وإذا كان أرسطو قد تأثر بسوفوكليز وغيره من مؤلفي الفجائع ، فانه لم يعدم أن ينتحل سبباً يعلل به اللذة التي نحس بها حينما نشهد تلك المصائب . ولقد ذكرت لك أنه قال في موضع من كتابه في فن الشعر : « إنه على الرغم من أن الواقع نفسه قد يكون مؤلماً للناظر إليه ، إلا أننا نبتهج إذ نرى أكثر الأشياء اتصالاً بالواقع ممثلة بوسيلة من وسائل الفن ؛ فنحن نبتهج مثلا إذا رأينا صوراً لأحط أنواع الحيوان ، أو مناظر تمثل جثث الموتى » . ولقد برر مشاهدة الفجائع المنكرة بسبب مثل هذا . فقد ذهب إلى أن هذه المآسي تحدث في نفس الناظر نوعاً من التنفيس (Catharsis) . فالناظر إلى المأساة يحس بأن شعوره قد تنقى ، وأن عقله قد تجلى . فالتفجيع عنده كالدواء الذي يتعاطاه المريض ليطرد الأوضار من أحشائه . وهذا في نفسه صحيح ، فلقد ذهب النفسيون المحدثون إلى أن في خافية النفس أنواعاً من العقد ما تزال تتشابك حتى يُهيأ لها أن تنحل ؛ وهي تنحل إما بعمل عنيف يصدر عنها أو باستعلاء تسمو إليه ، أو بذلك الاحساس الهادئ الرزين الذي يدب في أغوار النفس بعد أن يعصف بها حزن ممض أو يحز فيها ألم دفين ؛ فان النفس لتصفو بعد ذلك فتبدو مجلوة باسمة كنفس الطفل الوليد .

ذلك رأى أرسطو وهو رأى تأثر فيه بالفلاسفة اليونان الذين عالجوا « النفس » . وقد كان « أبولو » عند الاغريق الأقدمين إله الغناء والشعر وإله الطب في وقت معاً . وقد ربط الفلاسفة الأقدمون بين الشعر وبين الطب ، واستكشفوا في نفس الانسان ألواناً من الميول حاولوا دائماً أن يوازنوا بينها . وقد رأوا أن الموسيقى والغناء والشعر من بين العوامل التي تحدث هذا الاتزان . لذلك كانت الفاجعة مظهراً من مظاهر الفن نقبل عليها ونبتهج لمشاهدتها ، ونتمم بالنظر إلى ما تنطوى عليه ، من الطمع العاصف والظلم الجائر والحزن العميق ، ونلهو فيها عند مشاهدة العظماء والقادة وهم يترددون في تلك الهوة السحيقة التي لم تُستكشف بعد . مثل هذه المشاهد مصحوبةً بالأغاني والألحان تعدل من ميولنا وتوازن بين أمزجتنا ، وتحصننا التفكير فيما هو خارج عن النفس ، فتستل السخائم التي تكمن في أعماق النفس .

* * *

ثم إن أرسطو تحدث عن التشخيص الروائي ، فعالج بطل المأساة . لكنه ربط بين وظيفة البطل وبين وظيفة القصة الروائية ، فعدّ كلا منهما جزءاً يكمل الآخر . والبطل عنده مسيّر بقوة تكاد تحق ، وهو رجل يمتاز دائماً بالفضيلة والقوة وحب المجد — هو يمتاز بنواح من العظمة ، لكن بين نواحيه خللا واحداً هو الذي يسلمه لحتفه . إنه خلل في تقدير الأشياء ، وفي الحكم على كنه الأمور ، وفي وضع الثقة في الرجال ، وهو خلل يكوّن ناحية الضعف فيه ويسبّب له الفاجعة . والبطل بعد ذلك يجهل المصير الذي ينساق إليه ، فإن أحواله نفسها لتدفع به إلى أن يقترف الجريمة وهو جاهل ، كما دفعت بأوديب . وهو كأوديب أيضاً يكتشف أيّ خطأ ارتكب ، ويكون قد قتل أباه وتزوّج من أمه ، فتكون ساعة من ساعات الندم اللاذع تنتهي به إلى الفناء !

كان هذا أسلوب المسرحية عند كتاب الفجائع في عصر أثينا الذهبي ؛ وهو الأسلوب الذي علق عليه أرسطو في كتابه عن « فن الشعر » . وما زال لهذه الفكرة أكبر سلطان على منتجات الأدب المسرحي . أنت تستطيع أن تراها واضحة في مآسي شكسبير ، وأنت تستطيع

أن تلمح اكتشاف الخطأ فى كثير من فجائع العصر الحديث . ثم إن التحول الفاجئ ، من اليسر إلى العسر ، ومن النعمة إلى النقمة ، ومن السراء إلى الضراء ، كان دائماً أساساً من أسس المآسى ؛ وإنك لتراه فى مخلفات الأدب الأوربى ، وتراه أيضاً فيما يعرض علينا من أفلام السينما ، وفيما ينقل إلينا من الأدب المسرحى الحديث .

***

لكن أرسطو كنا قد لم يكتف بما ذكرت لك من آراء تتصل فى صميمها بالمسرح . فانه لم يعالج المأساة إلا لأنها كانت لوناً من ألوان الشعر . لذلك اصطحبت آراؤه عن النقد المسرحى بآراء أخرى لها قيمتها فى النقد الأدبى العام .

لقد ذهب أرسطو إلى أن الشيء أو الكائن الحى لا يكون جميلاً إلا إذا امتاز بوحدة خاصة تنسق بين أجزائه . فينبغى لكل ما هو جميل أن يكون له مبدأ ووسط ونهاية ، وينبغى كذلك ألا يكون دقيق الحجم بحيث يبلغ حداً كبيراً من التفاهة ، ولا عظيم الحجم بحيث لا تستطيع العين أن تأخذ بمبدئه ونهايته . وعلى ذلك فالرواية المسرحية يجب أن تكون طويلة لحد ما ، لكنها يجب ألا تكون بالغة الطول حتى تنساها الذاكرة . كذلك ينبغى أن يكون للعمل المسرحى وحدة خاصة مهما تعددت أحداث الرواية وأشخاصها .

نقول إن هذه الفكرة التى طبقها أرسطو على الرواية المسرحية أثرت فى أساليب النقد العام عند الفرنج ؛ ولعلها قد أثرت أيضاً فى تاريخ النقد عند العرب . ذلك بأن نقاداً من الجانبين قد قاموا يتكلمون عن علم الجمال بلغة تشبه لغة أرسطو . فقال منهم قوم : إن القصيدة يجب أن تمتاز بوحدة خاصة ، وإن الخطبة أيضاً يجب أن ترى فيها عناصر واحدة تأخذ بمبدئها ومنتهاها . فمهما اختلفت أبيات القصيدة الواحدة ، ومهما تباينت أجزاء الخطبة الواحدة فيجب أن يشعر القارئ أو السامع أن كل بيت يقال أو كل فقرة تُلقى إنما هى جزء متمم لهذه الوحدة التى يحاولها الشاعر أو الخطيب . كل بيت فى القصيدة يجب أن يكون كاللبنة فى البناء الشامخ ، إذا انتزع منها أدى ذلك إلى انهيار القصيدة بأسرها .

ويؤمن علماء الجمال فى العصر الحديث على ذلك الذى ذهب إليه أرسطو . فإن جمهرتهم على أن الشيء الجميل يجب أن يتوفر فيه عنصران : أولهما عنصر الوحدة والائتلاف ، وثانيهما عنصر التباين والاختلاف . وإذا أنت نظرت للشيء الجميل راعك منه أن له أجزاء متباينة ، لكنك تحس مع ذلك أن هذا التباين يؤدى إلى نسق خاص . خذ الحديقة الغناء وامش فى أرجائها ، أفلست تحس باختلاف الزهر بعد الزهر وبتباين الروائح والمناظر والأشجار ؟ ثم انظر إليها بعد ذلك نظرة عاجلة من بناء عال ، أفلا تحس بأن كل هذه الاختلافات قد توحدت فى هذه الصورة الماثلة الموحدة ؟ كذلك قل عن قصيدة الشعر أو الرواية المسرحية أو الخطبة العصماء أو أى إنتاج من آيات الفن .

***

وبعد فهذه جملة من آراء أرسطو ، حاولنا أن نزجيها إليك . وقد رأيت أننا لم ننتخب منها إلا ما رأينا أنه يمت بصلات نحو الأدب العربى . ولعل أصول النقد عندنا فى حاجة إلى التنشئة ، وليس أجدى علينا من مراجعة الآراء التى ذهب إليها بعض جبابرة الفكر من أمثال أرسطو . نحن فى حاجة إلى اتخاذ هذه الآراء فى فن الشعر ، كما اتخذنا آراءه فى علم المنطق وفى الفلسفة وفى علم الخطابة .

(بنى سويف) **أحمد خاكى**

عيد الفصح وشم النسيم

للأستاذ عبد المجيد الفقي

عيد الربيع :

درجت الأمم القديمة على إحياء عيد الربيع ، فخرج القوم إلى المزارع والحدائق ، ليتمتعوا بمباهج الطبيعة التي يضفيها على الكون هذا العيد ؛ واحتفل به المصريون والرومانيون والجرمانيون في يوم الاعتدال الربيعي أو حواليه ، واحتفل به البابليون والأشوريون واليهود في يوم البدر الذي يحل في الاعتدال الربيعي أو يعقبه مباشرة ؛ وكان لهذا العيد عند المصريين شأوه وقيمته ، إذ يستنشقون فيه النسيم العليل ، الذي يحلو ويطيب في هذا الوقت من السنة ، حيث يعقب عواصف الشتاء ، ويسبق هبوب الخماسين ؛ ولا عجب إذا ما أطلقوا عليه فيما بعد اسم عيد شم النسيم .

ويكون عيد الربيع هو عيد شم النسيم عند المصريين ، وعيد القمر عند الرومانيين ، وعيد إستر إلاهة الربيع عند الجرمانيين ، وعيد ذبح الخروف عند البابليين والأشوريين ، وعيد الفصح عند اليهود ؛ وتكون أعياد شم النسيم والقمر وإستر تسبق أعياد ذبح الخروف والفصح .

ولما اعتنق القوم المسيحية احتفل المصريون والرومانيون والجرمانيون بعيد القيامة ، الذي يتفق مع عيد الفصح أو يعقبه ، واستمروا في الاحتفال بعيدهم القديم ؛ ولما كان الاحتفال بهذا العيد يمت بصلة الوثنية ، ويتنافى مع المسيحية ، فقد بحثوا في مراجعهم الدينية ، حتى عثروا على ما يمكنهم من صبغ هذا العيد بالصبغة المسيحية ، فاعتبروه اليوم الذي بدأت فيه الخليقة ، واليوم الذي بشر فيه جبريل العذراء بحملها المسيح ، واليوم الذي تقوم فيه القيامة ويحشر الخلق ، وبذلك استمروا في الاحتفال به ، قومياً باعتباره عيد الربيع ، ودينياً باعتباره عيد البشارة ، ومزجوا بين التقاليد القومية والأدعية الدينية ؛ ولما نقل ديمتريوس (١٨٨ — ٢٣٤ م) الصوم الكبير من عقب الغطاس مباشرة ، إلى ما قبل عيد القيامة مباشرة ، وأدمج في هذا الصوم صوم أسبوع الآلام ، وتم ذلك أيام مجمع نيقية (٣٢٥ م) ، أصبح عيد الربيع يقع في أيام الصوم ، إن لم يكن في أسبوع الآلام ؛ وبذلك حرم على القوم أن يحتفلوا بهذا العيد كما كانوا يحتفلون به ، فلا تكون لهم الحرية في الأكل والشرب ، ولا الحرية في الابتهاج والمرح ، وعز عليهم أن يتركوا ما درجوا عليه ، ولذلك جعلوا هذا العيد عيدين : عيد البشارة حيث يحتفل به دينياً في موضعه ، وعيد الربيع حيث ينقل بعد عيد القيامة ، ليكونوا أحراراً في الاحتفال به ، كما كان يحتفل به قديماً ؛ وبذلك نقل الأقباط عيد شم النسيم من موضعه ، ليحل بعد عيد القيامة مباشرة ، ونقل الجرمانيون عيد الربيع ليحل في أول شهر مايو .

عيد الفصح :

خرج اليهود من مصر ، وكرهوا المصريين لهذا الخروج ؛ فأهملوا الاحتفال بعيد الربيع المصري ، وامتنعوا من اتباع التقويم المصري ، وتركوا الشهور المصرية ، واحتفلوا بعيد الربيع البابلي ، واتبعوا التقويم البابلي ، وأخذوا الشهور البابلية ، ولما كان خروجهم من مصر في عيد الربيع ، فقد احتفلوا به على الطريقة البابلية شكراً لله الذي نجاهم من فرعون وجنوده ؛ وأطلقوا عليه اسم عيد بساح ، ونقل إلى العربية باسم عيد الفصح[1] ،

(١) بساح معناها رقصة الحمل ، ونقلت إلى الآرمية والعبرية باسم بصخة ، وإلى الألمانية باسم Passah ، وإلى اللاتينية باسم Pascha ، وإلى الإيطالية باسم Pasqua ، وإلى الفرنسية باسم Pâques ، وإلى الإنجليزية باسم Passover .

واستمروا يحتفلون به في يوم البدر الذي يحل في الاعتدال الربيعي ، أو يعقبه مباشرة ؛ ولما ظهر المسيح احتفل وقومه بعيد الفصح ، وتآمر اليهود على صلبه في يوم الجمعة ٧ أبريل سنة ٣٠م ، وهو اليوم الذي يعقب عيد الفصح مباشرة ، واعتقد المسيحيون أنه صلب في هذا اليوم ، وأنه قام من بين الأموات بعد الصلب في يوم الأحد التالي . ولما كان من عادة القوم ألا يعنوا بعيد الميلاد ، وإنما يعنون بذكرى الوفاة ، فقد رأت بعض طوائفهم أن تحتفل بذكرى الصلب في يوم الفصح[1] ، ورأت طوائف أخرى أن الأولى أن يحتفل باليوم الذي قام فيه المسيح من بين الأموات بعد الصلب ، أي يحتفل بيوم الأحد الذي يعقب عيد الفصح مباشرة ، وسارت كل من هذه الطوائف وفق رأيها ؛ وبذلك أصبحت الطوائف الأولى تبتهج وتفرح في عيد الفصح ، بينما تكون الطوائف الأخرى ما زالت حزينة وصائمة صوم أسبوع الآلام ، سواء كان هذا الصوم مستقلاً عن الصوم الكبير ، أو مندمجاً فيه ؛ وظل الحال على هذا المنوال ، حتى رأى قسطنطين الأكبر أن ينهي هذا الخلاف ، فدعا الأساقفة إلى الاجتماع في نيقية من أعمال الأناضول في سنة ٣٢٥م ، وعرض عليهم الأمر ، فقرروا توحيد هذا العيد ، ليحتفل به المسيحيون في جميع أنحاء المعمورة في نفس الميعاد ، وأن يكون في أول أحد بعد أول بدر يقع في الاعتدال الربيعي أو يعقبه مباشرة ؛ وحسب الاعتدال الربيعي وقتذاك ، فكان بناءً على حسابهم في ٢١ مارس (٢٥ برمهات) ، وأصبح عيد القيامة في أول أحد بعد أول بدر بعد ٢٠ مارس (٢٤ برمهات) ، وأطلق عليه اسم عيد الفصح المسيحي تمييزاً له من عيد الفصح اليهودي ؛ أما

(١) لذلك اشتق من لفظ الفصح Pascha الفعل Paschein يعني يكابد ويتألم .

الجرمانيون فما لبثوا أن أطلقوا عليه اسم عيد استر[1] ، كما كان يطلق على عيد الربيع قبل المسيحية .

التأريخ الميلادي :

احتفل القوم بعيد الفصح كما قرره مجمع نيقية ، ولكنهم اختلفوا في طريقة حساب هذا العيد ، وكان الاختلاف منصبّاً على الدورة القمرية ، التي اختلفت باختلاف الطوائف ، حتى تغلبت في النهاية دورة ميتن Meton التي تنص على أن كل ٢٣٥ شهراً قمرياً تساوي ١٩ سنة شمسية ، وقام المسيحيون بحساب يوم البدر تبعاً لهذه الدورة ، وفي القرن الثالث للشهداء (القرن السادس الميلادي) رأى ديونيسيوس Dionysius Exiguus أن يعمم دورة ميتن ، فلا تكون مقصورة على تعيين يوم الشهر الشمسي الذي يوافق يوم البدر ، بل تعين أيضاً يوم الأسبوع ؛ ولذلك قرر الدورة الديونيسيوسية وقدرها ٥٣٢ سنة شمسية[2] ، ورأى أن تبدأ هذه الدورة من سنة ميلاد المسيح ، وسعى إلى تعيين هذه السنة ؛ فوجد أن المسيح ولد في السنة الثامنة والعشرين من حكم أغسطس ، وظن أن أغسطس بدأ حكمه سنة ٧٢٧ رومانية ؛ ولذلك اعتبر سنة ٧٥٤ رومانية السنة الأولى للمسيح (A. D. = Anno Domini) ، وبدأ دورته من هذه

(١) في الانجليزية Easter وفي الألمانية Ostern ، Osterfest

(٢) الدورة الشمسية في التقويم اليولياني ٢٨ سنة ، فإذا وافق ٢٧ مارس يوم الأربعاء مثلا ، فإنه يوافق يوم الأربعاء أيضاً بعد ٢٨ سنة . ودورة ميتن القمرية ١٩ سنة شمسية ، فإذا وافق ٢٧ مارس يوم البدر ، فإنه يوافق يوم البدر أيضاً بعد ١٩ سنة ، وعلى ذلك إذا وافق ٢٧ مارس يوم البدر ويوم الأربعاء فإنه يوافق يوم البدر ويوم الأربعاء أيضاً بعد ٢٨ × ١٩ سنة أي بعد ٥٣٢ سنة ؛ وهذه هي الدورة التي اقترحها فكتوريوس Victorius في القرن الخامس الميلادي ، واعتمدها البابا هيلاريوس Hilarius (٤٦٣م) ، وقررها ديونيسيوس في القرن السادس الميلادي .

السنة ؛ واستمر القوم فى الاحتفال بعيد الفصح تبعاً لهذه الدورة ، حتى التعديل الجريجورى ، واتبعوا التأريخ الذى اقترحه ، فيا يختص بالشئون الكنسية ، وأطلق عليه التأريخ الميلادى ، ولم يستعمل فى غير الشئون الكنسية إلا فى القرن الثامن[١]

عيد الفصح بعد التعديل الجريجورى :

لحظ فى القرن السادس عشر الميلادى أن الاعتدال الربيعى بكّر عشرة أيام ، ولذلك قام جريجورى بإصلاح هذا الخطأ ، ونفذ إصلاحه فى سنة ١٥٨٢ م ، ووُجد أيضاً أن دورة ميتن ليست صحيحة ، لأن ٢٣٥ شهراً قمرياً لا تساوى ١٩ سنة شمسية ، وقام الجريجوريون بتعديل هذه الدورة ، وعدل عيد الفصح تبعاً لذلك ؛ وتمسكت بعض الطوائف بالتقويم اليوليانى وبدورة ميتن ، ورفضت الإصلاح من جهتيه ، وأصبح عيد الفصح عند الجريجوريين مختلفاً عنه عند اليوليانيين ؛ وقد تغلب التعديل الجريجورى وثبت أقدامه ، واتبعه الجميع ما عدا أقباط مصر ؛ فما زالوا متمسكين بالقديم ؛ وما زالوا يعتبرون الاعتدال الربيعى فى ٢٥ برمهات ، الذى يوافق فى القرن الحالى ٣ أبريل ، وما زالوا يحسبون يوم البدر من دورة ميتن . وإن قلت لهم : إن الاعتدال الربيعى يحل فى ٢١ مارس وليس فى ٣ أبريل ، وإن البدر الذى يُحصل عليه من دورة ميتن ليس هو البدر الحقيق ، ولا قريباً من البدر الحقيق ؛ قال بعض كتابهم بتنزيه الديانة المسيحية من الأمور الفلكية ، وبذلك اختلف عيد الفصح عند الغربيين عنه عند الأقباط .

وأصبح عيد الفصح عند الغربيين هو أول أحد بعد البدر الفصحى ، والبدر الفصحى هو أول بدر حسابى يقع بعد ٢٠ مارس ، وقد يتفق مع البدر الحقيق ، وقد يختلف عنه بيوم أو يومين .

وأصبح عيد الفصح عند الأقباط هو أول أحد بعد البدر القبطى ، والبدر القبطى فى القرن الحالى يحل بعد البدر الفصحى بأربعة وثلاثين يوماً إن حل البدر الفصحى قبل ٣٠ مارس ، ويحل بعد البدر الفصحى بأربعة أيام إن حل البدر الفصحى بعد ٢٩ مارس .

ولا يتفق عيد الفصح الغربى والقبطى فى القرن الحالى إلا إذا تحقق الشرطان الآتيان معاً :

(١) إذا حل البدر الفصحى بعد ٢٩ مارس .

(٢) إذا وافق البدر الفصحى يوم الاثنين أو يوم الثلاثاء .

فمن الشرط الأول يحل البدر القبطى بعد ٢ أبريل ، أى يحل فى الاعتدال الربيعى القبطى أو يعقبه مباشرة ؛ ومن الشرط الثانى يوافق البدر القبطى يوم الجمعة أو يوم السبت ؛ ويكون أول أحد بعد البدر الفصحى هو أول أحد بعد البدر القبطى ؛ وبذلك يتفق العيدان كما حدث فى سنة ١٩٣٩ .

حساب عيد الفصح وشم النسيم فى القرن الحالى :

(١) اقسم السنة بالتأريخ الميلادى على ١٩ ، وليكن باقى القسمة ا .

(٢) اقسم (١٩ ا + ٢٤) على ٣٠ ، وليكن باقى القسمة ب .

(٣) فيكون البدر الفصحى فى (٢١ + ب) من مارس

(٤) ويكون عيد الفصح الغربى هو أول أحد بعد هذا البدر[١] .

---

(١) أخطأ ديونيسيوس فى ٤ سنوات إذ اعتبر مبدأ حكم أغسطس فى سنة ٧٢٧ بدلا من سنة ٧٢٣ ، ولولم يخطئ لكانت السنة الميلادية الحالية ١٩٤٥ وليست ١٩٤١ ، ولما قيل إن المسيح ولد سنة ٤ ق . م .

(١) يستثنى من ذلك القرن الحالى سنة ١٩٥٤ ، ١٩٨١ ، ففيهما يقع عيد الفصح الغربى فى يوم البدر الفصحى ، وذلك لعلة رآها منظمو التقويم ، ولا يتسع المقام هنا لذكرها وشرحها .

(٥) وإن حل البدر الفصحى قبل ٣٠ مارس ، حل البدر القبطى بعد ٣٤ يوماً ؛ وإن حل البدر الفصحى بعد ٢٩ مارس ، حل البدر القبطى بعد ٤ أيام .

(٦) ويكون عيد الفصح القبطى هو أول أحد بعد البدر القبطى ، وشم النسيم فى يوم الاثنين التالى .

مثال ٢ — سنة ١٩٤٠ :

(١) باقى قسمة ١٩٤٠ على ١٩ هو ٢ .

(٢) باقى قسمة (١٩ × ٢ + ٢٤) على ٣٠ هو ٢ .

(٣) ∴ يوم البدر الفصحى فى (٢١ + ٢) مارس أى ٢٣ مارس ، وهو يوم السبت

(٤) ∴ عيد الفصح الغربى فى يوم الأحد ٢٤ مارس .

(٥) ∴ يوم البدر القبطى فى (٢٣ + ٣٤) مارس ، أى ٢٦ أبريل ، وهو يوم الجمعة .

(٦) ∴ عيد الفصح القبطى فى يوم الأحد ٢٨ أبريل ، وشم النسيم فى يوم الاثنين ٢٩ منه .

مثال ٣ — سنة ١٩٤١ :

(١) باقى قسمة ١٩٤١ على ١٩ هو ٣ .

(٢) باقى قسمة (١٩ × ٣ + ٢٤) على ٣٠ هو ٢١ .

(٣) ∴ يوم البدر الفصحى فى (٢١ + ٢١) مارس أى ١١ أبريل ، وهو يوم الجمعة .

(٤) ∴ عيد الفصح الغربى فى يوم الأحد ١٣ أبريل .

(٥) ∴ يوم البدر القبطى فى (١١ + ٤) أبريل ، أى ١٥ أبريل ، وهو يوم الثلاثاء .

(٦) ∴ عيد الفصح القبطى فى يوم الأحد ٢٠ أبريل وشم النسيم فى يوم الاثنين ٢١ منه .

ونرى مما تقدم أن المصريين القدماء احتفلوا بعيد شم النسيم فى الاعتدال الربيعى ، عقب عواصف الشتاء ، وقبل هبوب الخماسين ، ونقله الأقباط إلى اليوم التالى لعيد الفصح ، وتمسكوا بالسنة اليوليانية ؛ وبذلك يتأخر الاعتدال الربيعى القبطى عن الاعتدال الربيعى الحقيقى على مر القرون ؛ وقد بلغ تأخره فى القرن الحالى ١٣ يوما ، فأصبح فى ٣ أبريل ؛ وتمسكوا أيضاً بدورة ميتن مع السنة اليوليانية ، وبذلك يتأخر البدر القبطى عن البدر الفصحى على مر القرون ؛ وقد بلغ تأخره فى القرن الحالى ٤ أيام أو ٣٤ يوما . فالاعتدال الربيعى القبطى يتأخر ، والبدر القبطى يتأخر ، وشم النسيم تبعاً لذلك يتأخر ؛ وما لم يتداركه المصلحون ، فسوف يحتفل بشم النسيم على مر الأجيال الطويلة فى الصيف اللاذع .

ونرى أيضاً أن مجمع نيقية قرر ألا يحتفل بعيد الفصح فى يوم البدر ، بل يحتفل به فى أول أحد بعد هذا البدر ؛ واعتمد المسيحيون فى تعيين البدر على الحساب والحساب فقط ، ولم يكن للرؤية والرصد قيمة فى هذا الموضوع ؛ وكان من نتيجة ذلك أن احتفلوا بعيد الفصح فى يوم البدر الحقيقى فى بعض السنين مثل سنة ١٩٢٣ و سنة ١٩٢٧ ؛ وإن لم يتغير هذا النظام فسوف يحتفلون بعيد الفصح فى يوم البدر فى بعض السنين مثل سنة ١٩٨١ ؛ وذلك لأن أول أحد بعد البدر الفصحى فى السنين المذكورة وافق يوم البدر الحقيقى ؛ ومن هنا يمكننا أن نفهم الحكمة التى حدت بعلماء الاسلام إلى النص على ضرورة رؤية الهلال لإثبات شهر رمضان ، لأنه لو اكتفى المسلمون فى صدر الاسلام بالحساب والحساب فقط ، لأهملت الرؤية ، ولصمنا شهر رمضان فى بعض السنين فى غير موضعه المقرر ، كما حدث ويحدث فى عيد الفصح عند المسيحيين ، فضلا عن أن رؤية الهلال من أبسط الأمور وأسهلها عند البدوى فى جوف الصحراء .

عبد الحميد لطفى

العلاج قديما وحديثا

للدكتور محمد عبد الحميد بك

ما أكبر الفرق بين العلاج القديم والعلاج الحديث ! فالعلاج قديماً يوم كان يقوم به الطبيب متنقلا من بيت إلى بيت على حمار أو بغلة أو جواد أو مركبة ، كان في غاية من البساطة . ذلك لأن الطبيب كان يحاول تشخيص المرض بفحص المريض مستعيناً بحواسه الخمس . فاذا ما اهتدى إلى المرض صرف له الدواء كله أو بعضه من خرجه ، وهو وعاء بعدلين كان يوضع على ظهر الدابة التي كان يركبها ، أو من حقيبته التي كان يحملها . أما الآن فتشخيص المرض من أعقد الأمور في الطب ، وأصبحت الحواس التي كان عليها المعول للاستدلال على المرض لا تكفي مطلقاً حتى مع طول التمرين . وصار لزاماً على الطبيب أن يستعين بالأشعة المجهولة لمعرفة آفات العظام والمفاصل والكسور والخلوع ، ولمعرفة الحصوات البولية والكبدية ، والأجسام الغريبة ، من رصاص وإبر ودبابيس ونقود وعظام بلعت عفواً أو عمداً ، أو لمعرفة حالة الرئتين والقلب وحركات الحجاب الحاجز ؛ بل كثيراً ما تقتضي الأشعة المجهولة استعمال مركبات يتناولها المريض ، إما بطريق الفم وإما بطريق الحقن بأشكال مختلفة ؛ وذلك لتوضيح المعدة والأمعاء والمرارة والرئتين والأنابيب الشعبية والجهاز البولي ، والتحقق من كفاية بعض الأعضاء ، مما يطول بي شرحه وليس هذا مقامه .

وقد لا تكفي الأشعة المجهولة — أو الحاسة السادسة كما يسميها طبيب انكليزي مشهور — للوصول إلى كنه المرض ، فيضطر الطبيب للاستعانة بالمعمل لتحليل البول أو البراز أو تحليل مشمول المعدة وفحص الدم فحصاً يختلف الأشكال والأغراض وفحص البصاق .

وهذه الوسائل كلها قد لا تكفي . ووقتئذ يلجأ الطبيب إلى المناظير الكهربائية المختلفة لفحص المثانة أو المستقيم مثلا ، أو إلى جهاز كهربائي معقد أشد التعقيد لفحص القلب إلى غير ذلك . فاذا اهتدى الطبيب إلى المرض أخيراً وأخذ بعلاج المريض وجد أن العلاج العصري لا يقل تعقيداً واختلاطاً عن التشخيص ، مما يضطره إلى الاستعانة بطائفة كبيرة من المتوفرين على فروع الطب المختلفة .

مما تقدم يتضح للقارئ الكريم أن العلاج كان يقوم به منذ أربعين سنة أو خمسين طائفة من الأطباء ساعدهم بعض الممرضين والممرضات . أما الآن فالعلاج أصبح لا يتأدى إلا بجيش عرمرم من الأطباء والممرضين والممرضات والجراحين وأطباء الأشعة وأطباء المعامل وأطباء التدليك وسائر المتوفرين على الفروع الأخرى ، ومن المخدرين والصيادلة ، ومن سائقي السيارات والطيارات التي تستعمل للاسعاف .

فالعلاج في الولايات المتحدة مثلا كان يقوم به في سنة ١٨٩٠ نحو ١٥٥٫٠٠٠ من الأطباء . أما الآن فجيش العلاج فيها يتألف من ١٫٢٥٠٫٠٠٠ .

وكانت العمليات الجراحية قديماً لا تتجاوز فتح خراج ، أو الشق على الحصاة في المثانة ، أو استئصال ورم صغير على سطح الجسم ، أو بتر يد أو قدم ، مما كان يعمل في بيت المريض أو في عيادة طبيبه . وكان يعملها الطبيب وهو بملابسه الاعتيادية بغير تطهير أو تعقيم . أما الآن فقد امتدت يد الجراحة إلى كل عضو وإلى كل جزء من الجسم . وأصبحت لا تعمل العمليات إلا في صالات خاصة مجهزة بالأدوات والآلات والأجهزة التي لا تعد ولا تحصى ، وإلا بعد أن يخلع الجراح ملابسه ويلبس ملابس خاصة يعلوها ما كنتوش وإزار معقم ، وإلا بعد أن يلبس فوق

حذاءيه حذاءين للعمليات . وقد يلبس فوقهما كالجورب الواسع ، ولا يقرب الجراح المريض لاجراء العملية إلا بعد أن يتقنع بقناع معقم يغطي رأسه ووجهه ، حتى اليدين لا يمكن أن يعمل بهما إلا بعد غسلهما غسلا جيداً ولبس قفازات بهما .

وكانت ذوات الحمل يضعن حملهن في بيوتهن على أيدي القابلات ، فأصبح الطب أو تقدمه ينصح كل والدة بالولادة في المستشفى .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التغيير العظيم في مسائل العلاج زيادة نفقاته زيادة لا يستطيع أن يتحملها إلى من زاده الله بسطة في الثروة .

ومن زادهم الله بسطة في الثروة وكانوا قادرين على تحمل نفقات العلاج على حسابهم عند الأطباء ، لا يصح أن تعمل لهم العمليات الكبيرة في بيوتهم أو قصورهم أو في عيادات أطبائهم ، إذ لا يوجد فيها الاستعداد الكافي لكل الطوارئ والحوادث ؛ وخير لهم أن تعمل لهم العمليات في المستشفيات الخصوصية الكبيرة أو في مستشفيات الحكومة التي فيها درجات للعلاج بمصروفات .

أما العمليات الصغيرة مما سمى عند الجراحين بالجراحة الصغرى فيجوز عملها لهم في بيوتهم أو في عيادات الجراحين .

ومن الخطأ تقسيم الجراحة إلى كبرى وصغرى كما كان يعتقد السلف . فالجراحة الصغرى إذا عملت بشيء من التقصير أو الاهمال لأنها صغرى فقد ينشأ عنها من الطوارئ والمضاعفات ما قد يجعلها أشد خطراً من الجراحة الكبرى فيصدق فيها المثل السائر « معظم النار من مستصغر الشرر » . وما أحسن ما يحضرني من كلام أمين الدولة بن التلميذ إذ يقول : « متى رأيت شوكة في البدن ونصفها ظاهر فلا تشترط أنك تقلعها فانها ربما انكسرت » .

هـذا وكنا نحن الأطباء منذ أربعين سنة نمتى أول ما نمتى بعد أن نخرج من مدرسة الطب ونبدأ حياتنا العملية باتخاذ عيادات تستقبل فيها المرضى تعلق عليها لوحة كبيرة يكتب عليها بالخط الطويل العريض « للفقراء مجاناً » . ولعل إعلان الأطباء في ذلك العهد استعدادهم لعلاج الفقراء مجاناً كان ضرورياً لأسباب كثيرة : منها قلة عدد المستشفيات وصغرها وسوء سمعتها ، حتى لقد قيل عنها : « الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود » ووقتئذ كان يرى الأطباء لزاماً عليهم أن يعالجوا الفقراء مجاناً عن طيب خاطر . وكانوا يعتقدون أن علاج الفقراء مجاناً فريضة يجب تأديتها زكاة عن علمهم وفنهم ، كما يجب أن يؤدي الأغنياء الزكاة عن أموالهم . والزكاة ما أخرجته من مالك لتطهره به . وسميت الزكاة بهذا الاسم لأنها تزيد المال الذي تخرج منه وتوفره وتقيه الآفات .

وكذلك زكاة العلم أو الفن . فزكاة الطب ما داوى به الطبيب الفقير ابتغاء مرضاة الله وبراً بالانسانية المعذبة . ومن ذا الذي ينكر أن زكاة الطب تزيد في تجارب الطبيب وخبرته ومهارته مما يكون سبباً في إذاعة صيته ونشر شهرته . وقديماً كان يصل الطبيب إلى أعلى درجات الشهرة فالثروة محمولاً على ظهور الفقراء من المرضى .

ومن الضروري ألا يعبس الطبيب في وجوههم ، وألا يتوانى في علاجهم ، وألا يضن عليهم بما هو جدير به من الشفقة والرحمة والرأفة والحنان والعطف ، لكي يتقبل الله منه عمله . ولئن سمي الطبيب قيامه بما يفرضه عليه الواجب نحو الفقراء جميلا فلا يضيع جميله أينما زرع على حد قول القائل :

ازرع جميلا ولو في غير موضعه
فلا يضيع جميل أينما زرعا

بل كان منا من إذا دعي إلى مريض فقير وشعر

بحاجته إلى المساعدة تورّع عن تناول القدمية (القرينة) إذا قدمت له، وجادت نفسه عليه بشيء من المال ليستعين به المريض على ابتياع الدواء الموصوف والغذاء المطلوب. وذلك مما عرف عن المرحوم الدكتور محمد دري باشا والمرحوم الدكتور ظيفل حسن باشا.

وليس من الصواب ماجرت به عادة الأطباء في الأرياف من معالجة جميع الموظفين مجاناً بغير ما نظر إلى حالتهم الاجتماعية. وذلك لأسباب كثيرة: منها أن الجمهور لا يعتقد في العلاج إذا كان مجاناً، ولا يثق في الطبيب إلا إذا كان أجره عالياً، ولا يعتقد في الدواء إلا إذا كان ثمنه غالياً. ولا تحسبن أيها القارئ الكريم أني أقول ذلك جزافاً لمصلحة الطبيب، لأن لهذا الاعتقاد تأثيراً نفسانياً يجب أن يحسب له الطبيب حساباً. وما أدري كيف لا يقيم الطبيب وزناً لهذا الاعتقاد وقد جرت على الألسنة العبارة العامية المشهورة: «ماقيش بلاش إلا العمى والطراش». ومنها أن الطبيب بهذه العادة يظلم نفسه وأسرته، لأنه يكون كالتاجر الذي يوزع بضاعته على الناس بغير ثمن. فإن كان الطبيب فقيراً فقد جاد بنفسه على غيره غير مدخر ما تقتضيه لوازم المعيشة. وإن كان غنيا لا يحتاج الى ما يكسبه من صناعته فقد حرم غيره من الأطباء ممن هم في حاجة إلى التكسب من عملهم. ولأضرب لك مثلاً في ذلك، ما يروى في هذا الموضوع من أن جراحاً كبيراً من الجراحين المشهورين بلندن قد سافر إلى بقعة جبلية في اسكوتلندة للاستراحة من عناء الأعمال وتغيير الهواء؛ وقد حدث أن دُعي هذا الجراح إلى قصر كبير مجاور للبقعة التي أقام فيها لعلاج صاحبه، وكان مصاباً بحصاة في المثانة، فأجرى له العملية الضرورية. ولما قدم له الأجر رفضه بدعوى أنه مقيم في هذا المكان للاستراحة لا للاشتغال بفنه. فانتقدت (اللانست) وهي مجلة طبية انكليزية مشهورة هذا التصرف

قائلة ما معناه إن المريض غني قادر على دفع الأجر كاملاً، وليس من الصواب أن يرفض الجراح الأجر الذي قدم له بدعوى أنه في الاستراحة ولا يريد أن يعكر ما هو فيه من الصفاء بالعمل. ولئن أصرّ على رأيه هذا لقد كان في اسكوتلاندة غيره من الجراحين ممن يستطيعون أن يعالجوا هذا المريض بمثل كفايته ومهارته. ولقد كان من الحق أن يتنحى لهم عن العلاج لكي يحصلوا على الأجر الذي أبى تناوله. ولئن كان هذا الجراح لم يهتم بالأجر ولم يكترث له لسعة يده وعظم ثروته لاغتبط كثيرون غيره ممن هم في كفايته لكنهم أقل شهرة بهذا الأجر وأعجبهم وعظم عندهم.

أما الآن فقد تغيرت الحال غير الحال، فكثرت المستشفيات بأنواعها المختلفة، وكبر حجمها وحسنت سمعتها، فزاد الإقبال عليها، فصار يقصد إليها الفقراء المساكين ويأتون إليها من كل حدب ينسلون، بل صار يقصد إليها كثير من الأغنياء والمتوسطين مزاحمين الفقراء مضايقين الأطباء.

ومعاذ الله أن يكون سبب تأذي الأطباء من الأغنياء والمتوسطين ممن يقصدون إلى المستشفيات المعالجة مجاناً هو حرمانهم من الأجور التي كان يتقاضاها الأطباء فيما لو عولجوا في عياداتهم الخصوصية. فالأطباء والحمد لله أعف نفوساً وأوسع صدوراً من أن يضيقوا ذرعاً بذلك، ولكن نفوسهم تذهب حسرات على الفقراء من المرضى إذا حضروا إلى المستشفيات فلم يجدوا أسرة خالية تأويهم.

وهم إذا دخلوا المستشفيات الخاصة بعلاج الفقراء، والتي ليس فيها أماكن لعلاجهم بمصروفات تنضبوا من أشياء كثيرة، وكانوا سبباً في تشويه سمعتها بغير حق؛ ذلك لأن نظام المستشفى يضطرهم إلى لبس ملابس معينة، وهم لا يريدون أن يلبسوها، بل يفضلون أن يلبسوا ثيابهم كأنهم

فى بيوتهم . ومنها أن عنابر المرضى كبيرة فى كل عنبر عشرة أسرّة أو أكثر ، وهم لا يقبلون إلا أن يكونوا فى حجرات صغيرة خاصة بهم . ومنها أن الغذاء المسموح به لا يوافقهم ، وهم يريدون أن يأكلوا ما تشتهى نفوسهم كأنهم فى فنادق أو مستشفيات خاصة . ومنها أن الأوانى التى توزع فيها الأغذية لا تعجبهم لأنهم يريدون أن يتناولوا غذاءهم فى صحون وأطباق صينية مثلاً . ومنها أن زيارة المرضى فى هذه المستشفيات لا تزيد على مرتين فى الأسبوع على الأكثر ، وهم يريدون أن يسمح لذويهم وأقاربهم صباح مساء ليل نهار كل يوم . ومنها أنهم يحالون إلى تمريض خاص وهو غير ميسور ، إلى غير ذلك مما يطول فى شرحه ومما يجعلهم آفة هذه المستشفيات ، فيخرجون متذمرين ولو تفانى الأطباء فى علاجهم وإرضائهم .

وإذا عرفت أن علاج الأفراد من الفقراء فرض على الأطباء ، فعلاج الجماعات من الفقراء من واجبات الحكومة ؛ وهى لهذا الفرض تشيد المستشفيات المجانية . وكما أن الزكاة لا تعطى إلا لطوائف معينة ذكرت فى الآية الكريمة الآتية تحقيقاً لأغراض الزكاة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . كذلك يصح تحقيقاً للأغراض التى من أجلها أنشئت هذه المستشفيات أن تعين الطوائف التى تدخلها .

وما أبلغ هذه الآية الحكيمة ! فإنها تشير إلى نظام قريب الشابهة بنظام الحكومة ، إذ تجمع الصدقات ، وهى الزكوات المكتوبة أو الضرائب بلغة هذه الأيام ، يجمعها العاملون عليها ، وهم الذين يعينهم الإمام لجبايتها ويستحقون على عملهم نصيباً منها ، ثم توزع على الفقراء والمساكين ، والمؤلفة قلوبهم وهم الذين كان يؤلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا أو ليقوى إسلامهم أو ليدفع شرهم عن المؤمنين ، وكذلك يصرف من الصدقات لفك الرقاب ولإعانة الذين عليهم دين استدانوه من غير معصية كالخمر والاسراف فيما لا يعنيهم ؛ وكذلك يصرف منها فى سبيل الله ، كالتعليم وإقامة العدل ، والدفاع عن البلاد ، وعلاج الفقراء ، وغير ذلك من مختلف الشؤون ؛ وكذلك يصرف منها على ابن السبيل ، وهو المسافر المنقطع عن ماله . وأما قوله تعالى : « فريضة من الله » فدليل على أن هذه الصدقات من الزكوات التى يتحتم دفعها . ولو كانت الديون العقارية صرفت فى غير معصية واستدانها أصحابها بغير ربا لكان حقاً على الحكومة إعانة المدينين إعانة مادية بنص هذه الآية الكريمة .

وليعلم الأغنياء أن فى أموالهم غير الزكوات المفروضة نصيباً للسائل والمحروم من نعمة الصحة .

محمد عبد الحميد
وكيل مستشفيات الجامعة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١ صاغ

من سير الرحلات :

بين عمان وجَرَش* في شرق الأردن

للأستاذ الدمرداش محمد

يوم الأربعاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٧ :

غادرنا عمان مع شروق الشمس ، قاصدين جَرَش ، فعرجت بنا السيارة في طريق معبدة صاعدة في الجبل ، حتى وصلنا القمة ؛ فانبسطت الهضبة ، وانكشف النظر عن جمال رائع ! فعمان من تحتنا في أعماق الوادي غارقة في الضباب ، ونهرها الصغير ينساب صافياً بين الثنيات ، يلمع ماؤه تحت أشعة الشمس الفاترة ، وقصور الأمراء والأعيان منثورة على جوانب الجبال ، تظللها أشجار السرو الباسقة ، وهامات الجبال من فوقنا شامخة يطوقها السحاب ، ومروج خضراء من أمامنا تمتد حتى الأفق . وقد سرنا هكذا ساعة حتى اجتزنا الهضبة ووصلنا أطراف بادية الشام ؛ فتركنا الجبال ، وهبطنا إلى السهول ، فتغير المنظر ، وتجردت الوديان ، وساءت حالة الطريق ، بسبب هطول الأمطار ؛ فعانينا كثيراً من السير في الوحل ، والانزلاق في المنحدرات ، والارتطام في الحفر ، واللف والدوران حول التلال . طال بنا الحال على هذا المنوال ساعات ، حتى ضاق صدرنا ونفد صبرنا ، ولم نبلغ معسكر المفراق إلا في الأصيل . وسألنا عن جرش فقالوا إنها لا تزال أمامنا على بعد ساعات ، فانقسمنا إلى فريقين : فريق يقول بالبيت بالمعسكر في انتظار الصباح ، حتى لا نتعرض لأخطار الطريق في الظلام ، وفريق يقول بمواصلة السير على بركة الله حتى لا نتعرض لبرد الصحراء . وتغلب رأي الفريق الثاني ، فاندفعت السيارة إلى الأمام تشق طريقها في الوديان ، وعلى السفوح ، وفوق الربى ، وعلى القمم ؛ وأقبل المساء واشتد البرد ؛ وخامرنا الشك من وصولنا جرش في تلك الليلة سالمين ؛ فقد ابتلينا في هذه الرحلة بسائق لا يحترس ولا يكترث ، يسرع حيث يجب الحذر ، ويتئد حيث لا خوف من الاسراع ، وينساب في الكلام حيث يجب السكوت ، ويصمت حيث يحسن الكلام ، ولا تحلو له الثرثرة إلا حيث يسابق الريح على شفا جرف ، أو فوق حافة هاوية ! أما حيث يستوى الطريق ويستقيم ، فهو خامل هامد لا ينبس بكلمة ، تستهويه الخاطر ، فيهوى بالسيارة من ذرا الجبال إلى حضيض الوديان ، مسافة ألف متر أو يزيد ، بسرعة مروعة ، لا يحفل بما قد يعترضه في الطريق من عراقيل أو منحنيات . وكان كلما أقبل على مأزق هب من مقعده كالمجنون وارتمى بكل جسمه على عجلة القيادة يحركها ذات اليمين وذات اليسار كالملسوع وهو يصيح : « براقو حسن » ! حتى إذا ما تخطى العقبة ، انحط في مجلسه ، غير مكترث لما نصبه عليه من شتائم ولعنات ، وتلهى عنا باشعال سيجارة ، أو بترديد أغنية مطلعها :

الشاطر الشاطر — من ركب الخاطر
واقتحم الذرا — وروع المساكر

حتى إذا ما فاض بنا الحال ، وبلغ منا الاضطراب مبلغ الغليان ، وامتدت إلى رأسه القبضات بالـلكمات ، التفت إلينا بكل برود وهو يقول :

(*) تقع جرش على بعد ٦٠ كيلومتراً من عمان صوب الشمال ، ويؤدى إليها طريقان — طريق معسكر الطيران بالمفراق ، وطريق سويلة — والطريق الأول طويل يسير على حدود بادية الشام — والثاني قصير يخترق سلاسل الجبال ويعترضه نهر الزرقاء ، وقد كان معطلا بسبب فيضانات السيول .

« بس هو جرى إيه ؟ : خليكم بق يا اسيادنا اسبور »

سألته : أليس لك ولد ؟ فقال : ولا زوجة

— أليس لك بلد ؟ فقال : ولا بيت

— كيف ذلك ؟ فقال : لماذا ؟ إنى أصبح وكل يوم فى بلد ، وأمسى وكل ليلة فى بيت — والرزق على الله . والحياة آخرها الموت . . .

أخذت الشمس تغيب رويداً وراء سلاسل الجبال ، واصطبغت جوانب الوديان بشتى الألوان ، وانعقد الطل على العشب وأوراق الأشجار ، وتجمع الفلاحون على مناقذ القرى يتحدثون ويتمازحون ، وأخذت الماشية تعود من المراعى نازلة من رءوس الجبال أو صاعدة إلى سفوح التلال منتفخة البطون ، تسير الهوينا ، يتبعها فتيان وفتيات ، ثم هدأت الطبيعة وخيم الظلام ، وشملنا سكون رهيب ، فانكمشنا فى المقاعد ، وسحبنا على الأكتاف المعاطف ، واستسلمنا للقدر ، فليس لنا مع السائق من حيلة .

وصلنا جرش فى عتمة الغروب ، منهوكى الأعصاب ، خائرى القوى ، فألقينا على المعبد نظرة عاجلة مرجئين زيارته إلى الغد ، ولم نشأ أن ينقضى هذا اليوم مع السائق بسلام ، فعولنا على الانتقام ، وهجمنا عليه نريد ضربه ، فأفلت منا وهو يرقص ويغنى كالبهلوان ، فأضحكنا ، ثم عفونا عنه بعد أن تعهد لنا بالإذعان والتزام جانب الاعتدال ، فيما بقى من الطريق ، ثم آوينا جميعاً إلى قهوة « بلدى » فى مدخل القرية ؛ وتناولنا القهوة والشاى ، الأقداح تلو الأقداح حتى وقت العشاء ؛ وتجمع حولنا بعض رواد القهوة من سكان جرش يستطلعون شأننا فى أدب واحتشام .

لم نجد فى جرش « لوكاندة » نأوى إليها ، ولا مطعما نأكل فيه ، وليس فيها غير هذه القهوة التى نجلس عليها ، وبينا نحن نفاوض القهوجى فى أمر عشائنا ونومنا ، إذ أقبل من يدعونا لزيارة القائمقام حاكم الناحية ، فكانت مفاجأة طربنا لها ، واستقبلنا الحاكم فى داره استقبالا حسناً ودعانا للطعام ، فالتهمنا ما أعده لنا من الأرز واللحم التهاماً .

ثم توزعنا على منازل الأعيان ؛ فكنت وابنى من نصيب موظف البريد ، فذهبنا وإياه إلى منزله ، نصعد فى أزقة ضيقة مبلطة ، ثم دخلنا داراً رحبة من طابق واحد ، بسيطة العمارة ، استكملت على بساطتها جميع أسباب الراحة ، فنزلنا فى حجرة بها سريران نظيفان عليهما غطاء مزركش ، وفى ركن منهما موقد تصعد منه رائحة العود والصندل ، وعلى نضد وضع المصباح والفرشة والمشط وزجاجة « الكلونيا » . وعلى الأرض السجادة و« الشلتة » .

طابت نفوسنا لهذا الاستعداد الحسن غير المنتظر ، وقضينا الليلة على أحسن حال ؛ وفى الصباح قدم لنا فطور فاخر من جبنة وسمن وزيتون وزيت و« دقة » كلها من صنع المنزل ، فأكلنا كثيراً . وحمدنا وشكرنا طويلا . ثم خرجت إلى ظاهر جرش للفرجة على المعبد ، وهو من أبدع ما خلفه الرومان من الآثار فى سوريا وفلسطين . ويدل ما بقى منه من أبهاء وعمد وفسيفساء ، على ما كان عليه من عظمة وجلال وجمال ؛ ثم جلست هناك على جذع زيتونة عتيقة على حافة الطريق ، أسرح الطرف فى الأرض والسماء ، وأمامى وادى جرش كالروض فسيح أخضر تمتد أطرافه حتى تتلاقى على مدى النظر بسفوح الجبال ، وجداول الماء تتلاحق على طوله تتلوى بين الجانبين ، تلتمسهما تارة ، وتحيد عنهما طوراً . ومياه العيون تتدفق من شاهق ، فيدوى صوت خريرها فى الفضاء ، ورشاش الماء يطير فى الهواء راسماً هالات من أنوار صفراء وحمراء وخضراء ؛ والسماء زرقاء صافية ، والشمس ساطعة دافئة ، والطبيعة ندية هادئة ، تشع فى الكون البهجة والحبور ، طابت الطبيعة ، وطابت النفس ، وطابت الدنيا . ونسيت نفسى ، وتمنيت لو أبقى جالساً هكذا فى هذا الجمال وهذه الوحدة حتى آخر الدهر . ثم أقبل حسن بسيارته وهو يغنى :

دعينى أركب الخطرا   علىّ أبلغ الوطرا

ثم قال : بنا هيا . فقلنا : إلى أين ؟ فقال : إلى البحر الميت .

الدمرداش محمد

وفــــاء

للأستاذ عبد المنعم شلبي

. . . وتمهل محدثي ريثما يشمل دخيلته ، ثم استأنف نجواه ، وكانت همساً خافتاً ، أشبه شيء بترتيلة دينية يبثها ناسك في محرابه :

كنت أمقت الحياة وأحتقرها ، ولا أعرف لها غاية ولا جدوى ، وكنت قلق النفس ، ثائر الحس ، يعصف الشك بكل ما أومن وأعتقد . . .

وأحببتها ! ! فأحببت الحياة وأقبلت عليها ، وقرّت نفسي ، وصارت أهدأ من صفحة الغدير ، وأعمق من غوره ، وأصفى من غمره . . وحل الشك العاصف الجارف إيماناً قارّاً عميقاً ، وأصبحت أجد في التملي بحسنها عبادة صامتة للخالق المبدع . . .

وعشت في جو سحري — من حبها — لا يتراءى في سمائه غير أطياف المنى المتراقصة ، وأحلام السعادة المنبثة . . .

من العبث — يا صديق ! — أن أصور لك تلك الفترة من حياتي ، فلقد كانت لمحة بارقة ، وومضة خاطفة ، مرّت وكأن لم تكن ، كانت غفوة من غفوات السّحر ، نعمت فيها بالأحلام اللذة الممتعة ، وكانت نشوة غارقة ، نسيت فيها كل شيء سواها هي . . .

إني لأتمثلها الآن ! . . في عينيها سحر وصفاء ، وفي جبينها ألق وضياء ، ومن شفتيها ينبعث لهيب ونداء . . .

. ثم أنّ محدثي أنّة عميقة وزفر زفرة حرّى ، واعتدل في جلسته ، ثم قال :

. . ويأبى الله القدير ، إلا أن يزيد هـذه الصورة الفنية الرائعة ، جمالاً وروعة وسحراً ووضوحا ، فيفتنّ في تشويه شقيقتها . . ثم لقد كانت أختها آية فنية رائعة في القبح والدمامة . . .

* * *

واستيقظت من تلك الغفوة ، وصحوت من هـذه النشوة . . . . فإذا الأحلام تتبدد ، وإذا الأماني تندك وتتقوض . . . . وإذا الحبيبة طريحة الفراش ، فريسة للحمى . . . .

وهل نالت الحمى من جمالها ؟ ؟ كلا ! ! فقد — والله — زادتها فتنة وسحراً وروعة . . وازددت لها حباً وهوى وهياماً ، وتعلقت بها كما يتشبث الغريق بالنبتة الواهية ، ووددت لو استطعت تفديتها بكل ما أملك ، أو مشاطرتها آلامها ومحنتها . .

* * *

. . وكانت تُحتضَر ، وبجوارها أمها وشقيقتها ، ووقفنا خاشعين صامتين في حضرة الموت ورهبته وجلاله ، تتلاقى عيوننا في لوعة وأسى ، ثم نرفعها مبتهلين إلى الله أن يعجل بقضائه .

. . وحركت رأسها ، وفتحت عينيها ، وأدارتهما ، حتى استقرتا عليّ ، ورنت إليّ رنوة ، فيها كل معاني الاستعطاف والاسترحام . . وانفرجت شفتاها عن صوت هامس متقطع ، صادر من أعماقها ، وكأنه منبعث من هوة سحيقة . . وهتفت باسمي .

فما تمالكت أن جثوت بجانبها وقلت : لبيك ! همست : أتحبني ؟ ! فاغرورقت عيناي بالدموع ، ثم جاهدت نفسها — وعيناها تفيض بأبلغ عبارات الرجاء — وقالت : أتجيب رجائي ؟ ؟

فقلت لها في حماسة وثورة مكتّمة : ما ندمت على ضعف تَدَنّي في مثل هذا الموقف ، فما أملك غير روحي

ليالى القاهرة

للدكتور ابراهيم ناجى

قالت تعال . فقلت لبيك هيهات أعصى أمرَ عينيك
أنا يا حبيبةُ طائرُ الأيكِ لم لا أغنى فى ذراعيك
أنا يا حبيبة جئت أنتظر إنى امرؤ بهواك مؤتمن
مهما يكن فى حبك القدر مهما يطل فى وعدك الزمن
ظلمٌ على ظلمٍ على ظلمٍ وفتى غريب القلب منفرد
غشى السكون فليس من قدم
وخلا المكان فما هنـــــا أحد
وطغى الهوى فى صـــــدر مختنق
فى ليـــــلة صيفية الريح

يرنو بناظره إلى طرق عمياء زرقاء المصـــابيح
أصغى لصـــوت خطاك فى وهمى
مستيقناً حيناً ومفـــــترضا
مستغرقاً فى نشوة الحُلْم فيرد صوتَ القلب معترضا
يا عين : هذا مدلج سارى من الظُّلَم كأنه شبح
الليل غلفـــه بأسرار يا ليتـــه يدنو فيتضح
يا أذن تلك خطى . أتقترب ؟
لا بل خطى تنأى وتبتعـــد
إنى على الحالين مرتقب لو يصدق الميعاد من بعد
وإذا بقبلـــة على جزع بسطت إلىَّ يمين مرتجف
وإذا ارتعاشة طائر فزع أحسستها إذ لامست كتفى
وكأن ألســـنة السماء لها لغة إذا اقتربت كواشفها
همست : تأمل ! فالتفتُّ لها فإذا بها شحبت مراشفها
شحبت كلون المغرب البــاكى
وتألقت كالنجم عينـــــاها
وتلفتت كحـــــبيس أشراك
وحكا اضطراب الموج نهداها
راجعت نبلى واتهمت دمى وسألت قلبى أين حجته
فوجدته خلواً من التهم وتحدت الشبهات عفته
قلت اهتدىْ لم سورة الندم كفاكِ تحجفان يا أملى
وأخذت أدفئُ بردها بفمى لو تنفعنْ حرارة القبل
وجـــذبتها بذراعها نمشى نمشى وما ندرى لنا غرضا
إلفان قد فرا من العش يتبادلان سعادة ورضا
وحديقة نامت بلا شجن وغفت على أمن أزاهرها
لم لا وقـــد سكنت إلى غصن
وغداً لها طــــلٌ يباكرها

أقدمها رخيصة لك ، تتصرفين فيها كيف شئت ! ! وبللت الفراش بدموعى المتحدرة .

قالت : أستحلفك بحبنا المقدس الطاهر ، إلاّ ما تزوجت شقيقتى ! !

وما أتمت عبارتها . . . حتى لفظت نَفَسها ! !

* * *

قلت لمحدثى :

— وهل وفيت بعهدك ؟

— وهل فى ذلك شك ؟

— ؟ ؟

— إنى لأقبّل زوجى وأعانقها ، فأقبل فيها الحبيبة وأعانقها ! !

فما تمالكت أن شددت على يده وقلت : إنك من وفى سعيد ! !

(الفتيات — عربية) **عبد المنعم شلبى**

كم أبصرت قبلى ومرّ بها   مثلى ومثل حبيبتى اثنان
وهنيهة ما كان أعذبها   إذ يلتقى فى الحب قلبان
يا لحظة ما كان أسعدها   وهناءة ما كان أعظمها
مر القريب فباعدت يدها   وخلا الطريق فقرّبت فمها
مرت بنا سيارة ومضت   خطافة فضاحة النور
كشفت لعينينا وقد ومضت   ظلين معتنقين فى السور
ضحكت لظلينا وقد مجت   مما يصوّر قلب مذعور
وكأن ضحكتها وقد طربت   قطرات ماء فوق بلور
لم تدر هاتيك الحبيبة ما
كان الهوى فى خاطرى يوحى
ما نقّلت فى جانبى قدماً   إلا خطت تمشى على روحى
عوّدتها من شر أمسية   نعيا بها وتضل أبصار
وكواكب ليست بمجدية   ظلم مكدسة وأحجار
عثرت بها فرفعتها بيدى   حسناً يكاد يشف فى الظلم
ويرف مثل الزهر وهو ندى   ويخف مثل عرائس الحلم
وكأننى مما يسوء خلى   وحيالى انجابت حوالكها
أرمى الطريق بناظرىْ رجل   ملكتها الدنيا بما وسعت
وأنا لها طفل أضاحكها   وأنا أهامسها بأسرارى
وأسرّها بحكاية وقعت   ورواية من نسج أفكارى
وإذا الطريق يسير منعطفا   وإذا رياح تضرب الشُّدُفا
وكأن منها منذر هتفا: بلغ المسير نهاية فقِفا
يا توأماً من صدرى انتُزعا   يا من دعا قلبى له فسعى
لم أيها الداعى هواك دعا   والدهر يأبى أن نكون معا
انظر ذراعىّ اللذين هُما   قد طوّقاك مخافة البين
أقسم بأنك عائدٌ لهما   إنى لممدود الذراعين

ابراهيم ناجى

إلى أسرة الشعر

بكلية الآداب

تألفت بكلية الآداب فى هذا العام أسرة للشعر قوامها الشعراء ومحبو الشعر من طلبة الكلية وأساتذتها . وقد أقامت الأسرة ليلة للشعر قدمت فيها نماذج من جهودها ، وكان من برنامجها إلى جانب قصائد الطلبة ، إلقاء قطع من أشعار الأساتذة ، وتوقيع بعض القصائد على نغمات الموسيقا ، وعرض نماذج من طرق الإلقاء الأوربى .

هذا وقد أرسل إلينا الأستاذ محمد عبد اللطيف النشار الأبيات الآتية بمناسبة الدعوة التى وصلته من أسرة الشعر .

للشعر فى مصر إذاً أسرة؟   أظنها كذبة إبريل !
هل عندكم من لا يرى فى الهوى
وفى المنى بعض الأباطيل
يا نغر يا قيدنى سحره   أما ترينى شاطئ النيل
لم أرتحل عنك ولم أبتعد   عن منزلى أكثر من ميل
لولا خيال لم يزل سانحاً   فى الدهر من جيل إلى جيل
وفى بلاد لا يرى حسّه   منها سوى رسم وتمثيل
أوّاه لو يصدق مأمولى   أوّاه لو يصدق مأمولى
كنت إذاً عندكمو شاهداً   أصغى لألحان العنادل
شبابَ مصر أنتمو أهلها   ما مسكن الشيب بمأهول
همو ضيوف عندكم فابذلوا   أنتم لمصرٍ كل مبذول
شبابُ فاروق لكم قدوة   فلتنظروا مَن عاهل النيل
عاش وعشتم مبعثاً للمنى   ليس يقاس العمر بالطول
صفوة تجريبى لكم فاسمعوا: لا تفسدوا أمراً بتأجيل
غنوا وغنوا واهتفوا بالعلا   ومجد آباء بهاليل
وحاضر أنتم له زينة   ومقبل فى الغيب مأمول

(الاسكندرية)   **عبد اللطيف النشار**

أنباء وآراء

ليلة الشعر

دعت أسرة الشعر بكلية الآداب إلى ليلة تحييها بقاعة الاحتفالات بالجامعة ، تبارى فيها شعراء كلية الآداب من الطلاب والخريجين والأساتذة فى إلقاء مقطوعات من شعرهم ، وساهم فيها الغناء والموسيقى بنصيب كبير ، فغنى طالب من طلاب الكلية مقطوعة من شعر الأستاذ عمر أبو ريشة ، وغنت الآنسة ابتسام حافظ من طالبات الكلية مقطوعة بديعة من تلحينها .

وقد افتتحت بكلمة للأستاذ خلف الله مراقب الأسرة تحدث فيها عن أسرة الشعر ، ثم قدم الأستاذ أحمد أمين بك عميد الكلية فألقى كلمة عن الشعر . ثم تعاقب الشعراء من طلبة الكلية وخريجيها . وكان مما يلفت النظر أن ساهمت فى الالقاء طالبتان من طالبات الكلية هما الآنسة ملسكة عبد العزيز ، وقد كانت قصيدتها من خير ما قيل فى الحفلة نظماً وإلقاءً ، والآنسة روحية القلينى وكانت قصيدتها (شاعرة) تصويراً بديعاً يدل على موهبة طيبة .

كذلك كانت قصائد الطلاب جميعاً مقياساً دقيقاً لاستعدادهم ومواهبهم ، لولا ما بدا فى شعر بعضهم من الولع بالغريب من الخيال والجرى وراء التصوير الأوربى ، الذى قد يستساغ حين يقرأ لشاعر غربى ، ويبدو غريباً إذا جاء على لسان شاعر مصرى ، يحس إحساساً صادقاً ببيئته وطبيعتها ومناخها . وفيما عدا تلك الملاحظة فقد كشفت هذه الليلة من شعراء ناشئين يخطون فى عزم وقوة نحو الكمال الأدبى والفنى .

وثمة ظاهرة جديرة بالتقدير فى هذه الليلة . تلك هى وفرة من أقبلوا على الاستمتاع بهذه الليلة الشعرية الخالصة للشعر والفن . فهى ظاهرة جميلة تدل على أن الشعر والأدب ما زالت لهما مكانتهما وما زال لهما عشاقهما .

وحبذا لو مضت كلية الآداب ، فى تنمية مظاهر نشاطها على هذا الوجه الناجح من أوجه نشر الثقافة وتنمية المواهب الأدبية ، فليست تختلف ليلة الشعر عن امتحان للشعراء يقدمون فيه خير ما أنتجوه أمام هيئة امتحان هى الرأى العام لجمهور الأدباء وعشاق الأدب .

المرأة المصرية والمسرح

أقامت جمعية مساعدة الضريرات ، وهى تضم طائفة كبيرة من المشتغلات بالتربية ، حفلتها السنوية — التى تخصص إيرادها لمساعدة الجمعية على إدارة مصنعها وملجئها — على مسرح دار الأوبرا الملكية فى الأسبوع الماضى ، حيث قامت فرقة تمثيلية تضم بعض مدرسات وطالبات المدارس الثانوية ، بتقديم رواية « تمسكنت فتمكنت » ، للكاتب الانجليزى المعروف « أوليفر جولد سمث » .

ولقد يبدو طريفاً أن يقوم الطلاب أو الطالبات بتقديم رواية مسرحية ، ولقد يصح التجاوز عن كثير من الهنات ، بحيث يكون أقل الاجادة مدعاة للتقدير والمديح ؛ ولكن الذين شاهدوا هذه الرواية وهى من الروايات المعروفة ، ورأوا الفتيات المصريات ينهضن بكل أدوارها ، فيقمن بأدوار الرجال وأدوار النساء ، فلا يملك المشاهد نفسه من أن يحكم بأنه يرى فرقة تمثيلية قد مارست التمثيل زمناً طويلا .

والذين شاهدوا الفتاة المصرية المثقفة على خشبة المسرح فى تلك الرواية تمثل فى إجادة المحترف وجده ، وتؤدى أداء ينم من فهم دقيق وموهبة ممتازة ، لا شك يحسون مدى استعداد الفتاة المصرية للمسرح ومواهبها النامية ، ويتمنون اليوم الذى تسمو فيه مكانة المسرح المصرى ، بحيث يستطيع أن يجذب إليه ذلك العنصر القوى المثقف الذى يمهد طريق رسالته فى مصر .

وقد قام بإخراج هذه الرواية الأستاذ أحمد علام الممثل المعروف ، فكان موفقاً فى إظهار المسرحية وفى توزيع أدوارها إلى حد بعيد .

ذكرى وفاة شكسبير

يحتفل العالم فى الثامن والعشرين من هذا الشهر بذكرى وفاة شكسبير ، فيحج الانجليز على كافة طبقاتهم إلى بلدة ستراتفورد ، مسقط رأس الشاعر العظيم ، وتقام الحفلات لذكراه فى كل مكان .

وتدل الأنباء على أن ظروف الحرب الحالية لم تثن الانجليز عن القيام بواجب الوفاء لذكرى رجالهم العظيم ؛ فالجامعات تستعد لاحياء ذكراه ، وستقوم المسارح بتقديم مسرحياته فى ذلك اليوم .

ولا يقتصر تقدير شكسبير على انجلترا فحسب ، فقد ذكرت التلغرافات أن مكتبة لنين الحكومية فى روسيا قد نظمت معرضاً لشكسبير بمناسبة ذكرى وفاته يشتمل على عدد كبير من تراجم أعمال شكسبير إلى اللغة الروسية وغيرها من لغات الاتحاد السوفياتى ، ونماذج من خطبه ، مما كتبه أدباء الروس وشعراؤهم فيه .

مباراة القصة

قررت وزارة المعارف العمومية إقامة مباراة للقصة ، جعلت لها ثلاث جوائز مالية تشجيعاً لهذا الفن من فنون الأدب ، وقد أعدت شروط هذه المباراة ، وستعلن فى الصحف ، وقدرت المدة اللازمة لتقديم القصص للمباراة بستة أشهر .

ولا شك أن هذه المباراة فرصة طيبة تتيحها الوزارة لكتاب القصة الطويلة الذين تصدهم عن الكتابة الظروف الحالية ؛ فهى تشير إلى أن الحياة الأدبية تستطيع أن تسير فى طريقها رغم كل الظروف ، وأنها يجب ألا تتأثر بالأحوال السياسية ، مستمدة كل التشجيع من المهيمنين على شئون الفكر والثقافة .

تأبين شاعر

اعتزم فريق من الأدباء والشعراء إقامة حفلة تأبينية للشاعر الشاب المرحوم فؤاد بليبل .

وقد وقع الاختيار على نادى لبنان لإقامة هذه الحفلة فيه ، وحدد لها يوم الأحد ٤ مايو الموافق ذكرى الأربعين لوفاة الفقيد ، وتألفت لجنة لتنظيم هذا الاحتفال اتخذت لها مقراً دار الأهرام .

وقد جاءنا من اللجنة أنها ترجو من حضرات من يودون المساهمة فى هذه الحفلة بإلقاء خطب أو قصائد أن يبادروا بإرسال كلماتهم قبل موعد الحفلة بأسبوع كامل إلى اللجنة بدار الأهرام .

رجاء مكرر
لأصحاب الاعلانات القضائية

نرجو من حضرات أصحاب الإعلانات القضائية مراعاة كتابتها بخط واضح منعاً من الوقوع فى خطأ يضر بمصلحتهم .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٩٩٢ – ٥٦٧٦٩

العدد ١٢٢ — الثلاثاء ٢ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٠ — ٢٩ من أبريل سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

أمريكا وسط المحيطين

أعاب فريق من كبار الكتاب في أمريكا الأسبوع الماضي بحكومتهم ، يستحثونها على الاسراع في بذل المعاونة الفعالة لبريطانيا وحلفائها . وبلغ من تحمسهم أن اتهموا الرئيس روزفلت بالبطء والتردد في تنفيذ قانون الإعارة والتأجير . وهذه الظاهرة ترينا كيف سار الرأي العام الأمريكي شوطاً بعيداً في موقفه من هذه الحرب ، منذ بدايتها إلى اليوم . وبعد أن كان رئيسه يبذل كل جهد جبار لقيادته وإرشاده ، ويلقى من جراء ذلك عنتاً شديداً وخصومة قوية ، بات الكثير من أفراد الشعب الأمريكي يجرين أشد الضجر من أن الرئيس يمشي بتؤدة وبطء ، حين يجب الجرأة والاقدام والسرعة .

لقد كان الشعب الأمريكي في أوائل هذه الحرب مُخَدَّراً بحب السلم والدعة . وباحساس غامض بالطمأنينة ، البعيدة كل البعد عن أسباب القلق والفزع . وأبى الناس أن يروا أن هذا الاحساس إنما هو ناشئ من حلم لذيذ ، وثقل عليهم أن يوقظهم من هذا الحلم العذب حادثة أو كارثة . ولماذا يتسرب إلى قلوبهم الفزع ، ومن حولهم محيطان عظيمان يفصل الأول بينهم وبين أوربا وما اشتملت عليه من ويلات وشرور ، والآخر — وهو المحيط الأعظم — كفيل بأن يدرأ عنهم خطر اليابان ، وما قد تضمره لهم من بغي وعدوان ؟ فلم يكن بد من أن يظل الشعب الأمريكي زمناً مستمتعاً بهذا الحلم الجميل .

ولم يكن إيقاظ الشعب من هذا الحلم بالأمر السهل اليسير . ولكن صيحة المخطوب كانت من الشدة بحيث تخترق السمع الأصم ، وبريق الحقيقة كان باهراً بحيث لم يكن بد من أن يزول الحلم اللذيذ ، وأن يفتح الراقد عينيه ،

ليرى أن هذه الجنة التى ينعم فيها ، قد بنيت على أسس واهية ، وأن نار الجحيم ليست بعيدة عنه كل البعد .

أفاقت أمريكا إذاً بفضل جهود طويلة عنيفة بذلها رؤساؤها وقادة الرأى فيها . واستنفدت هذه الجهود وقتاً طويلا ، ما كان ينبغى أن تستنفده . والحوادث وحدها سترينا إذا كانت أمريكا قد استيقظت قبل الأوان أو بعد الأوان . ولكنها انتبهت على كل حال ، فرأت نفسها بعيدة كل البعد عن بواعث الطمأنينة ، وأن هنالك أخطاراً ثلاثة تهددها : أولها خطر يأتى من داخل البلاد الأمريكية نفسها ، والآخران من أطراف المحيطين .

ولقد يقال فى الدفاع عن بطء الرأى العام الأمريكى فى إدراك هذه الأخطار ، أنه كان مشغولا باختيار الزعيم الذى يتولى قيادته فى هذا الوقت العصيب . ومن الصعب أن يطلب إلى الحوادث أن تمهل شعباً حتى يختار زعيمه ، وتستتب أموره .

لقد أعلنت دول المحور مراراً أنها لا تريد بأمريكا شراً ، وأن من الحمق أن يتوهم إنسان أن ألمانيا ترمى إلى غزو القارة الجديدة . وليس من شك فى أن كثيراً من الأمريكيين تمنوا صدق هذا الزعم ، وبذلوا جهداً عنيفاً لكى يستطيعوا تصديقه ؛ ولكنهم اضطروا بعد لأى إلى التسليم بأن تلك الأخطار حقيقية لا وهمية ، وأن الشر حائق بهم لا محالة ، إذا لم يبذلوا أعظم الجهود لدرئه ودفعه .

أما الخطر الأول ، وهو الكامن فى جوف القارة الأمريكية نفسها ، فمثله كمثل الداء الكامن الذى يحاول أن ينال من الجسم الذى احتواه وآواه . ويشبه هذا الخطر جرثومة الداء فى أنه يدخل الجسم وينتشر فيه بعض الانتشار دون أن يحس به الجسم أو ينتبه لوجوده .

وهذا التهديد لكيان القارة الأمريكية يعتمد على العدد الهائل من الألمان فى المكان الأول — والطليان فى المكان الثانى — الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة ، من جهة ، وإلى أمريكا اللاتينية من جهة أخرى .

كثير من هؤلاء المهاجرين قد نزحوا إلى القارة الجديدة منذ زمن بعيد ، قبل أن تتكون دولة إيطاليا وألمانيا . وفى أثناء الحرب الكبرى التى اشتركت فيها الولايات المتحدة ، كان الأمريكان الذين من أصل ألمانى مخلصين أشد الاخلاص فى ولائهم لأمريكا ، ولم يحاولوا إثارة شغب أو اضطراب فيها . ولكن هنالك المهاجرون الجديدون ، الذين تدفقوا إلى القارة الأمريكية شمالها وجنوبها ووسطها ، فى الأزمنة الحديثة ، وهؤلاء حديثو العهد بالوطن الذى نزحوا منه ، وليس يبدع أن يكونوا شديدى العطف عليه ، حريصين على منفعته وخدمته ؛ كذلك تدفق إلى أمريكا فى أثناء العهد النازى عدد كبير من « اللاجئين » . وقد سرت إشاعات قوية بأن حكومة ألمانيا استطاعت أن ترسل بين هؤلاء « اللاجئين » عدداً من أكبر دعاة النازية ، وأشدهم إخلاصاً لمبادئها ورعاية لمصالحها ، ورغبة فى تنفيذ أوامرها بالغة هذه الأوامر ما بلغت من الشدة والعنف .

تدفق هؤلاء اللاجئون والمهاجرون قديمهم وحديثهم لا إلى الولايات المتحدة وحدها — وهى دولة ذات حول وطول وسلطان ، وسكان يزيدون على المائة والثلاثين مليوناً — بل نزحوا كذلك إلى الجمهوريات اللاتينية ؛ كبلاد المكسيك ، والبرازيل والأرجنتين وما إليها . وهم يؤلفون فى كل من هذه الجمهوريات جاليات قوية نشيطة . تعيش فى بلاد سكانها قليلون ، ونظامها السياسى ليس على جانب عظيم من القوة والاستقرار ، وحالتها الحربية لا تبعث إلى الارتياح ؛ فليس لها أساطيل تستحق الذكر ، وجيوشها قليلة العدد ضعيفة العدة ، وحكوماتها ليست بعيدة عن أن يؤثر فيها بمختلف الطرق والمؤثرات .

ولقد أحست الولايات المتحدة منذ زمن طويل أن ضعف هذه الدول يجعلها طعمة للمعتدى ، وأن فى هذا خطراً على كيان الولايات المتحدة نفسها ؛ فسنت لذلك مبدأ منرو تحذر به دول أوروبا من أن تمد يدها بالعدوان

على قارة أمريكا ، وتعلن به أنها لن تسمح بأقل تغيير فى الحالة السياسية لتلك القارة .

واستطاعت أمريكا مثلاً أن ترغم الدول الأوربية على احترام مبدأ منرو ، وسلمت القارة الأمريكية من الغزو والعدوان .

وقد سلكت ألمانيا الحديثة مسلكاً جديداً نحو أمريكا ، لم تنتبه له ألمانيا القديمة . فأخذت فى تنظيم الجاليات الألمانية فى جميع الجمهوريات ، وانتدبت لإدارة فروعها وأقسامها رجالاً مدربين على المبادئ النازية أحسن تدريب ، ولم تحجم حتى عن استخدام رجال السلك السياسي والقنصلي لهذا الغرض ، ولهذا زادت فى عددهم زيادة هائلة . وكان من الطبيعى أن يرحب كثير من الألمان بهذا التنظيم ، وأن ينضووا تحت لواء الجماعات النازية فى أمريكا من رغبة ، وأن يدفعوا ما يطلب إليهم من مال من رضى وارتياح ؛ وكانت هنالك وسائل كثيرة لإكراه المحجمين والمترددين .

هذه الفرق النازية تستطيع أن تقوم بأعمال عديدة متنوعة . وفى الولايات المتحدة نفسها قد يكون المجال أقل اتساعاً منه فى أمريكا اللاتينية . ومع هذا فإن أقوالاً كثيرة قد قيلت حول نشاط هذه الجماعات فى حصولها على معلومات ثمينة ، وإرسالها عبر المحيط ، وفى إتلاف بعض المصانع وتدميرها . ولا تزال ذاكرتنا تعي حوادث من هذا الطراز قريبة العهد جداً .

غير أن مطمح أنظار ألمانيا الحديثة هو أمريكا اللاتينية عامة ، والجنوبية خاصة . ففى هذه الجمهوريات جاليات ألمانية قوية العدد ، جمة النشاط ؛ وفى حسن تنظيمها وتنسيقها ما يجعل لها قوة أكبر بكثير من مجرد العدد ، وفى إقليم واحد من أمريكا الجنوبية ، وهو بلاد الأرجنتين وأوروجواى والبرازيل الجنوبية ، بضعة ملايين من الألمان المهاجرين . وإذا جد الجد استطاعوا أن يقوموا بعمل حاسم فى هذه الأقاليم يزيد به نفوذ ألمانيا ، التى ترى فى هذه الأقطار موارد ثروة عظيمة لا ينضب معينها .

والولايات المتحدة بمقتضى مبدأ مونرو ، مضطرة لأن تدفع كل خطر عن هذه الجمهوريات العديدة والمساحات الواسعة ، التى تفصلها عنها آلاف الأميال . وهى تدرك من غير شك أن عدداً غير قليل من زعماء الجمهوريات اللاتينية بات متشبعاً بالمبادئ النازية ، لأنها وحدها تضمن له الحكم والزعامة . ولهذا نرى الولايات المتحدة بادرت بتأليف جيش قوى فى أرضها ، لا لأنها ستضطر لأن تحارب فى أرض الولايات نفسها ، بل لأن الحاجة قد تلجئها لإرساله إلى تلك الجهات النائية التى يضطرها مبدأ منرو إلى الدفاع عنها .

أما الخطر الذى يأتى الولايات المتحدة من المحيط الأطلسى فإنه لا يصبح خطراً داهماً إلا إذا انتهت المقاومة البريطانية ، وبسط النازيون نفوذهم على العالم القديم . هنالك تصبح جزر الأزور فى يد ألمانيا ، وتصبح أفريقية الغربية خاضعة لنفوذها ؛ وليس بين هذه وبين البرازيل سوى بضع ساعات تقطعها الطائرات الحديثة . فقد انقضى الزمن الذى كان فيه عبور المحيط الأطلسى بالطائرات أعجوبة من الأعاجيب ، وليس بين أفريقية الغربية وأمريكا الجنوبية سوى ألف وسبعمائة ميل ، وفى الطريق جزر تقرب هذه المسافة إلى أقل من النصف . فإذا أضيف إلى هذا الاعتبار احتمال استخدام حاملات الطائرات ، اتضح لنا أن غزو أمريكا من الجو ليس بالشيء العسير .

وقد تنبهت الولايات المتحدة بعد لأى إلى أن جزيرة جرينلاندة قد تتخذ قاعدة للغارات الجوية والبحرية عليها ، وهى بحكم موقعها أدنى إلى أن تكون من صميم القارة الأمريكية رغم تبعيتها للدانمارك . فبادرت بالاتفاق مع وزير الدانمارك فى واشنطن على أن تحتل القوات الأمريكية هذه الجزيرة .

على أن ألمانيا لو تم لها النصر التام فى العالم القديم ، لما كانت فى حاجة إلى غزو الولايات المتحدة . فإن لجنة

البحرية في مجلس الشيوخ الأمريكي رفعت في شهر مايو سنة ١٩٤٠ تقريراً تقول فيه : « إن جميع الشواهد التي بين أيدينا تدل على أن من الممكن التغلب على الولايات المتحدة من غير فتح ولا غزو ، وذلك بمحاصرتها محاصرة بحرية في نقط تمتد بنحو ألف ميل عن السواحل الأمريكية في مأمن من إغارة الطائرات .. ولن يكون هنالك صعوبة كبرى في أن ينشىء العدو قواعد حربية — ولو بالقوة — في نصف الكرة الشرقي ، يستطيع أن يصيبنا منها بضرر كبير . وكذلك يتمكن العدو من الاستيلاء على ممتلكاتنا البعيدة ، ويستخدمها في مضايقتنا والاغارة علينا . ويفقد هذه الممتلكات ، وضياع تجارتنا الخارجية ، وتعرض جهاتنا الساحلية للاغارات المستمرة ، تصبح هزيمتنا أمراً لا يمكن تجنبه ، خصوصاً إذا ذكرنا أننا في أثناء هذا كله نكون عاجزين تماماً من أن نلحق بالعدو ضرراً أو نشتبك معه في حرب صريحة » .

إلى جانب هذا كله لا بد من الإشارة إلى الخطر الثالث ، المرتبط أشد الارتباط بالنشاط النازي ، وهو دولة اليابان التي تريد أن تهيمن على آسيا ، وأن تنفرد بالتصرف في شئونها . وقد أثارت في الصين حرباً شعواء ظلت نارها تستعر خمس سنين ، وليس هنالك ما يدل على أن نهايتها قريبة . ولليابان أسطول قوي يجيء في المرتبة الثالثة بعد أسطول بريطانيا والولايات المتحدة مباشرة . ولها ممتلكات وجزر عديدة في المحيط الهادي . وقد اتسع نفوذها نحو الجنوب حتى شمل الهند الصينية وسيام ، برغم أن الأولى لا تزال اسمياً تابعة لفرنسا ، والثانية « مستقلة » . وهكذا أدخلت اليابان في نطاق نفوذها أمكاناً قريبة كل القرب من الممتلكات الأمريكية والبريطانية في المحيط الهادي وفي جزر الهند الشرقية . ولقد استطاعت اليابان أن تزيد مركزها منعة وقوة لا بالانضمام للمحور بميثاق خاص فحسب ، بل أيضاً بمعاهدة « عدم اعتداء » عقدتها مع روسيا ، فأصبحت في مأمن من أن تناصبها دولة السوفيات العداء ، إذا هي حدثت نفسها بالخروج من حيادها والسير في خطة عدوان جديدة .

فليس من الاسراف إذاً في شيء أن يقال إن الخطر محدق بأمريكا من كل جانب . وإن القوة الوحيدة التي تقيها هذا الخطر في أوسع صوره هي المقاومة البريطانية . ولو زالت هذه المقاومة ، لكان مصير أمريكا معلقاً بإرادة دول المحور وحليفتهم الآسيوية .

وقد بات الشعب الأمريكي مدركاً لهذه الحقيقة ، أو على الأقل قادة الرأي ورجال الحكم فيه . فقد أذاع وزير البحرية الأمريكية في يوم الجمعة الماضي حديثاً قال فيه : « لم نعد الآن في ذلك المركز الوضيع الشنيع بالجبن الذي يسمح لنا بأن نطلب من الآخرين أن يبذلوا جميع التضحيات اللازمة لتحقيق النصر الذي ندرك أنه ضروري لنا . . . إن أمريكا تطوق تدريجياً بقوات عسكرية تختلف مبادئها ونظمها عن المبادئ والنظم الأمريكية ... قوات أعلنت مراراً أنها عدوتنا . وقد أفصحت بميثاق لا يتردد واضعوه في التصريح بأنه موجه إلينا . . . وآخر حلقة في سلسلة تطويق أمريكا هو الميثاق الذي أبرم أخيراً بين السوفيات واليابان ، والذي شد أزر دعاة الحرب في اليابان . وحينما ترى دول المحور أن وقت إعلان العداء قد حان بصورة تحقق مصالحها ، تبدأ أعمالها العدائية في الحال ، دون أن تملك لها شيئاً سوى أن نجثو مستسلمين مستكينين » .

إن الأمور التي ذكرها الوزير لم تتغير اليوم كثيراً عما كانت عليه منذ عام وبعض عام ؛ ولكن الرأي العام الأمريكي قد تحول كثيراً ، بحيث بات من الممكن لبعض وزرائه أن يصارحه الحديث من غير أدنى مواربة ، وأن يطلعه على الأخطار التي تهدده ، برغم وجود محيطين عظيمين يفصلان بينه وبين العالم القديم .

محمد عوض محمد

القانون الطبيعي

للأستاذ أحمد أمين بك

كل ما عرفنا من قوانين الطبيعة والكيمياء وقوانين الفلك ، وما اكتشفنا من قوانين العلوم على اختلاف أنواعها قوانين طبيعية ، أو هي سنة الله في خلقه لا تقبل تبديلا ولا تحويلا .

لقد تمت الطبيعة وتمت قوانينها ، فكل ما في الطبيعة خاضع لقوانينها لا يستطيع الخروج منها مهما حاول .

وليست قوانين الطبيعة كقوانيننا الوضعية تعتذر بالجهل ولا تعاقب إلا بعد إعلانها ، بل هي توقع عقوبتها علم الناس أو جهلوا ، قصدوا أو لم يقصدوا ، فمن تعاطى سماً على أنه سكر عوقب بالموت ، ولو جهل ولو حسنت نيته .

والطبيعة قاسية كل القسوة في تطبيق قوانينها ، لا ترحم من خالفها ، ولا تغفر — مرة — ذنب من يتجرأ على نظامها ، سواء عندها الصغير والكبير ، والطفل الرضيع والشيخ الهرم ، لا ترحم طفلا لأنه وحيد أمه ، ولا كبيراً لأنه عائل أسرته . من تعرض للنار احترق مهما كان شأنه ، ومن سقط من أعلى خضع لقانون الجاذبية من غير نظر إلى أي ظرف من ظروف السقوط .

وهي في قسوتها ديمقراطية كل الديمقراطية سواء عندها الغني والفقير ، والملك والسوقة ، وصاحب الحول والطول ، ومن لا حول له ولا طول ، كلهم يخضع لقوانينها كما يخضع الجماد ، وتجري عليه أحكامها كما تجري على الريشة في الهواء .

وقوانينها أشكال وألوان منها ما ينفذ سريعاً كسرعة البرق ، حاسماً كحد السيف ، ومنها ما ينفذ بطيئاً بطء السلحفاة ، هذا يكسر قوانين الطبيعة بسقوطه من نافذة ، أو احتراقه بنار ، أو اصطدامه بقطار ، فيلقى عليه القضاء العاجل ؛ وهذا يكسر قوانين الطبيعة بالإتخام أو بكثرة التدخين أو بإدمان السكر أو بتعاطي المخدرات ، فتنفذ فيه الطبيعة قوانينها بهدوء حتى لا يشعر بها ، وتهدمه في بطء كأنها لا تهدمه . هي تغضب حيناً فتضرب الضربة القاضية في سرعة وعجلة ، وتهدأ حيناً فتطحن طحناً بطيئاً ولكن تاماً ، وهي في الحالين بالمرصاد لا تنسى ولا ترحم ، ولا تصدر حكماً مع وقف التنفيذ ، إنما تجعل بعض أحكامها مشمولا بالنفاذ العاجل ، وبعض أحكامها مشمولا بصيغة التنفيذ العادي ، ولكنه تنفيذ على كل حال ، وتنفيذ من غير إخلال .

وهذه القوانين الطبيعية تختلف وضوحاً وخفاء ، وبساطة وتعقداً ؛ فقد تبلغ من الوضوح والبساطة ما يدركه كل الناس كقوانين الطبيعة والكيمياء وظواهر الطبيعة ، وقد تغمض وتتعقد حتى لا يدركها إلا الخاصة ، وحتى لا يدركها الخاصة . وتاريخ الانسان ليس إلا سلسلة لمحاولة فهم القوانين الطبيعية ، وتضييق دائرة المجهول منها ، وتوسيع دائرة المعلوم ؛ ولا يزال الذي أمامه فسيحاً لمعرفة ما جهل وتوضيح ما غمض ، وسواء من قوانينها ما عرفنا وما لم نعرف ، فهي تجري علينا حكمها وتنفذ فينا إرادتها .

وكلما كان المخلوق ساذجاً منحطاً كانت قوانينه الطبيعية سهلة يسيرة واضحة ؛ وكلما رقى تعقدت قوانينه وكثرت واشتبكت ، ومن سوء حظ الانسان ، أو حسن حظه ، كما تشاء ، أنه أرقى المخلوقات الأرضية ، فقوانينه الطبيعية أعقد القوانين وأغمضها ، وأكثرها تركباً واشتباكاً .

هذا جسمه يخضع لقوانين طبيعية كالتي يخضع لها الجماد والنبات والحيوان ؛ وهذا نفسه تخضع لقوانين

أشد غموضاً وتعقداً لم يبلغ اكتشافها مبلغ اكتشاف قوانين الجماد ؛ وهذه علاقته بالبيئة الجغرافية جعلته خاضعاً لقوانينها ، فشكلت شكلاً خاصاً جسمه وعقله ، وحددت نشاطه ، وحكمت حكمها في طبيعة عمله ومنهجه في العمل ، ورسمت خطاه في مدنيته ؛ وهذه أخلاقه خاضعة في تكونها لقوانين الوراثة وقوانين الكسب ، فما كان وراثياً منها فله قوانينه ، وما كان مكتسباً فله قوانينه ؛ وكان من أثر هذه القوانين للوراثة والاكتساب اختلاف الأفراد فيما بينهم قوة وضعفاً ، وذكاء وغباء ، وصلاحاً وفساداً .

فإذا نحن نظرنا إلى مجموعة من الناس — كأمة — وجدنا هذه الجمعية خاضعة لقوانين طبيعية من حيث شؤونها الاقتصادية ونظمها الاجتماعية والسياسية ، وهي خاضعة في كل خطوة من خطوات تقدمها أو تدهورها إلى هذه القوانين الطبيعية ؛ ومن أجل الاختلاف في هذه القوانين الطبيعية اختلفت الأمم كما اختلفت الأفراد قوة وضعفاً وتماسكاً وانحلالا ، وصلاحية للبقاء وعدم صلاحية . وشأن قوانين الجماعات كشأن قوانين الأفراد في قوتها ومضائها وعدم تخلفها ، وإن اختلفت عنها في أن الأولى أصعب إدراكاً وأشد اشتباكاً .

أما بعد ، فما السعادة والشقاء ، وما النجاح والفشل ؟ ليست هذه الألفاظ إلا تعبيراً آخر مرادفاً للسير على قوانين الطبيعة أو الخروج عليها .

إن للطبيعة إرادة لا تقهر ، فما كسر قوانينها سبب الشقاء وسبب الفشل ، وإطاعتها سبب السعادة وسبب النجاح .

قد يغتر ضيق النظر فيرى أمثلة من مخالفة قوانين الطبيعة ومعها سعادة ، قد يرى قوانين الصحة تخالف ومع ذلك يبقى الجسم صحيحاً ، ويرى قوانين الأخلاق — وهي فرع من فروع القوانين الطبيعية — تخالف ثم يصحبها نجاح ، وقوانين الاقتصاد تخالف ومع هذا يكون الغنى ، ثم تطاع ويكون مع الطاعة الفقر ، وهكذا . قد يكون هذا منظراً شائعاً في الحياة اليومية ، ولكن استتبع كل مثال تجد هذا الحكم نتيجة قصر في النظر وخطأ في التقدير .

هذا الذي استغفل قوانين الصحة فأفرط في الأكل أو في السكر أو نحو ذلك ينفذ فيه القانون الطبيعي أمره ولكن في هوادة على النحو الذي وصفت ، حتى ينتهي أمره بالتنفيذ التام ، فإذا هو صريع المخالفة ؛ وهذا الخائن أو الكاذب قد ينجح ، ولكن نجاحه إلى حين ، وحتى لو نجح طويلاً فقد عاقبته الطبيعة بأن استلبت منه احترامه لنفسه وضميره وحبه للحقيقة ، ومنحته شعوره بالضعة والدناءة ، فكانت النتيجة أن زعمه نجاحه . إن الطبيعة لا تهتم كثيراً أن يغتني الخائن أو الكاذب أو يفتقر ، ولكنها تهتم كثيراً أن تنزل العقوبة بنفسه وأن تسلبها أحسن صفاتها ، ولا تقصر في ذلك أبداً .

• • •

أهم ما تفضل به أمة أمة إيمانها بالقوانين الطبيعية ، وإيمانها بأنها لا تتخلف ، وجدها في أن تعرفها وتكتشفها وأن تبني حياتها على وفقها ؛ فالفرق بين أمة راقية وأمة منحطة أن الأولى تسير في كل شأن من شؤونها على الكثير مما عرفته من قوانين الطبيعة ؛ فهي تربي أطفالها حسب قوانين الطبيعة ، وتزرع أرضها حسب قوانين الزراعة ، وتنظم ماليتها حسبما وصل إليه علم المال ، وتقيم حكومتها حسب قوانين العدالة ؛ وهكذا هي في حياتها مقدمات ونتائج ، وقياس أحد أركانه دائماً قوانين الطبيعة . وأما الثانية فتسير حيثما اتفق ، تزرع حسب التقاليد ، والتقاليد ليست قانوناً طبيعياً ، إنما القانون الطبيعي علم الزراعة ، وتربي أطفالها كما اتفق ، وتنفق ميزانيتها حسب الشهوة ، وتمشي يمنة أو يسرة اعتباطاً ، فتكون النتيجة دائماً فشلا ، لأن السير الغامض غير المؤسس على علم عرضة دائماً لمعارضة القوانين الطبيعية .

الأمة المنحطة تتسع عندها جداً دائرة الأوهام ، وتضيق فيها جداً دائرة الإيمان بالعلم والقوانين الطبيعية ؛ فالزرع ينمو أو يهلك لغير سبب ، والطفل يصح أو يمرض للجن ، والتاجر ينجح أو يفشل للحظ ، والزوجان يسعدان أو يشقيان للقسمة ، والسماء تمطر أو لا تمطر للغضب ، والعمل يسهل أو لا يسهل بالاستخارة ، والانسان يرزق أو لا يرزق بمجرد التوكل ؛ ونتيجة هذا من غير شك أن الأمة التي تسير على هذا النهج تنهار أمام الأمة تسير حسب قوانين الطبيعة ، وأن الأمتين إذا تزاحمتا كان الفوز لمن يسير على قوانين الطبيعة .

إن مزرعة تزرع بالعلم خير لا محالة من مزرعة تزرع بالتقاليد ، وإلا كان علم الزراعة غير صحيح . وإن تاجراً يسير على قوانين الاقتصاد ينجح لا محالة أكثر من تاجر يسير بالبركة وإلا كان علم الاقتصاد خطأ ؛ وهذا هو وحده السر في نجاح الأجنبي حيث يفشل المواطن ؛ إنه يسير في تجارته ومعيشته وجده ولهوه حسب قوانين الطبيعة فينجح ، ويسير المواطن حيثما اتفق فيفشل . لو تكشفت قوانين الطبيعة لانسان لقرأ المستقبل قراءة لا تخطىء ، لأن خالق العالم خلقه على قاعدة السبب والمسبب والمقدمات والنتائج ؛ فلو أدركنا كل المقدمات والأسباب لجزمنا جزماً قاطعاً بالنتائج والمسببات .

وأهم عمل المصلحين — في كل أمة — على اختلاف أنواعهم ليس إلا اكتشاف قوانين الطبيعة وحمل الناس على السير على وفقها ؛ فالعالم ليس إلا مكتشفاً لهذه القوانين مسجلاً لها راصداً لنتائجها ؛ والمصلح الاجتماعي ليس إلا رجلاً عرف بعض هذه القوانين ، ورأى أمته تسير على عكسها فدعاها للسير على وفقها . وماذا يفعل المصلح الديني ؟ إنه يرى أن قومه غلبت عليهم الأوهام ، وأضلتهم عقائد فاسدة أعمت أبصارهم وأصمت آذانهم ، فأخذ يفتحها لتدرك الكون وقوانينه . خير ما يعمله رجال الدين لأمتهم أن يؤسسوا حياة الناس على قوانين الطبيعة ، ويدعوا الناس للسير على قوانينها المعقولة ، وفي الحق أن قوانين الطبيعة هي في لغة الدين سنن الله ، وإرادة الطبيعة هي إرادة الله ، وأن السير على وفقها تقديس لأوامر الله .

ولقد بلغ من تقديس الدين لها أن عدّ خرقها معجزة الأنبياء . أما وقد ختم الأنبياء فقد ختمت المعجزات ، واطردت قوانين الطبيعة فلا تتخلف ، وقد قال تعالى : « وتمت كلمت ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته » ومن كلماته تعالى قوانينه التي بثها في كونه . ويعجبني ما روى عن عمر بن الخطاب أنه ذُكر عنده الغيلان وأنها تتحول من خلق إلى خلق فقال عمر : « ليس أحد يتحول من خَلْقه الذي خُلِق له » .

وعمل السحر ونحوه ليس قلباً للقوانين الطبيعية وكسراً لها ، وإنما هو تخييل ، كما عبر الله عن ذلك أصدق تعبير إذ قال : « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

ومما يؤسف له أن مرت على الناس عصور مظلمة دعا فيها بعض عامة المتدينين إلى زلزلة العقائد في هذه القوانين الطبيعية ؛ فالماء يسار عليه ، والأرض تطوى للمشي عليها من أقصاها إلى أقصاها في لحظة ، والفاكهة تحضر بتحريك يد في الهواء ، ونحو ذلك — مع أن خاصة الصوفية كانوا يتبرءون من ذلك وينهون عنه ؛ فكان «سهل التستري» يقول : « أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك » وجاء رجل فقال له : إن الناس يقولون إنك تمشي على الماء ! فقال : سل مؤذن المحلة فإنه رجل صالح لا يكذب . قال فسألته ، فقال المؤذن : « لا أدري هذا ، ولكني أعلم أنه نزل الحوض في بعض الأيام فوقع فيه فلو لم أخرجه لبقي فيه أبداً » .

فلما اعتقد العامة في تخلف القوانين الطبيعية بنوا حياتهم اليومية حيثما اتفق ؛ فليزرع الزارع كما شاء ، فقد

تتغلب القوانين الطبيعية فينجح المهمل ويفشل الدقيق؛ ويسرف التاجر كما يهوى ويسير سبهللا ، فقد يرزق الأخرق ويحرم الحذر؛ ومثل ذلك الصانع في صناعته ، والعامل في عمله ، والموظف في وظيفته ، والأم في تربية الولد ، والأب في الإنفاق على الأسرة . ليست هناك غاية محدودة يسعى إليها بخطوات محدودة ، إذ ليس هناك إيمان بقانون السببية ولا بالقوانين الطبيعية .

وهكذا أصبح هذا الشأن مرضاً من أمراض المجتمع الخطيرة ، لا بد أن يتكاتف رجال الدين والمصلحون الاجتماعيون على القضاء عليه ، حتى يؤمن الناس أن لا تبديل لسنن الله ، ولا تبديل لقانون الطبيعة ، ولا نجاح لأمة أو فرد إلا بإطاعة هذه القوانين وتمديل الحياة على وفقها .

يجب أن يفهم الناس أن الموت والحياة قانون طبيعي ، وأن الغنى والفقر قانون طبيعي ، وأن الصحة والمرض قانون طبيعي ، وأن صلاح الناشئين وفسادهم بالوراثة والتربية قانون طبيعي ، وأن الهزيمة والنصر قانون طبيعي ، وأن موقف الأمم في سلم العالم قانون طبيعي ، وأن من أراد من الأمم أن يرقى لا بد أن يعمل مقدمات الرقي الطبيعية ليصل إلى النتيجة الطبيعية ، وأن الله ربط الأسباب بالمسببات ربطاً محكماً ، وجعل بين المقدمات والنتائج عروة وثقى لا انفصام لها ، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وأن من زرع الحنظل جنى الحنظل .

أحمد أمين

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة الباسل أمير تدمر عاصمة الصحراء ومركز تجارتها الذهبية . وكان يحب صيد السباع ويصطحب في رحلاته زوجته زنوبيا سليلة كليوبترة وشبيهتها في الثقافة والذكاء والجمال . وحدث عند ذلك أن انهزم سابور ملك الفرس الامبراطور فاليريان عاهل الروم وأسره ، فأشارت زنوبيا على أذينة أن يستميل سابور المنتصر بهدية عظيمة فأطاعها أذينة كارها . ولكن سابور أبى هديته في غطرسة وسبه وأهان العرب . فثار أذينة للحرب وبقيت زنوبيا في تدمر تقاسي وحشة الوحدة وتتسلى بالقراءة مع معلمها لونجين ، والتحدث إلى وصيفتها المسيحية لبيس . وقاست في أثناء غياب زوجها شدائد من إغارة الأعداء ، ولكنها قاومت حتى أتت الأخبار بأن أذينة انتصر انتصاراً باهراً مجيداً على سابور ، فانصرف الأعداء عن تدمر . وعاد أذينة واحتفل بنصره الباهر احتفالا عظيما ، وتقربت إليه الملوك ، وخلع عليه امبراطور الروم لقب (ملك تدمر) وقائد جيوش الشرق الروماني . ولكن أذينة تغير بعد عودته ، فأكثر من شرب الخمر ومال إلى الظلم ، وانصرف إلى سبية أجنبية اسمها شهناز ، فأثر ذلك في نفس زنوبيا وصرفها عنه ، حتى ظنت أنها تبغضه وتكرهه . فلما خرج من تدمر إلى حرب جديدة في الشام لم تسمح لنفسها أن تحزن لفراقه . وبقيت وحدها مرة أخرى تجادل نفسها وتقاوم ميولها ، حتى استقرت على الاطمئنان إلى العقل وحده . ولكنها كانت مع ذلك ترى قلبها ينازعها إلى أذينة كلما مر بها ما ذكرها به ، وكلما أحست خطراً مبهماً يتهدده ثار في نفسها الجزع من أجله] .

ذهبت زنوبيا في أصيل يوم من أيام ذلك الربيع الساحر لترى حلبة الرهان في منتدى تدمر . وكان الشعب يحيي موكبها تحيته التي اعتادها — تلك التحية التي كانت الملكة تجد فيها سلام روحها . أليس ذلك الولاء جزية ما قدمت لتدمر من برها وحكمتها .

وخرجت خيول الملكة لتبارى الجياد المختارة يركبها فتيان الفرسان الذين اختارهم حسان ليرفعوا لواء زنوبيا في ذلك اليوم المنتظر . وركب حسان في أول شوط على الشهباء ابنة الظليم التي كانت تشبهه في جماله ورشاقته وسرعته . وجلست زنوبيا وإلى جانبها وصيفتها لبيس تنظر إلى الميدان في اهتمام وقلق ، وقالت تحدث لبيس :

— هذه أول مرة تجرب فيها الشهباء ، إنها مهرة لم تبلغ الثالثة يا لبيس ، وما كان أحراها أن تدرب قبل سيرها للرهان .

فقالت لها لبيس باسمة :

— ولكنك يامولاتي تقلقين من أجل هذا السباق .

فقالت زنوبيا وهي تتنفس :

— الجبي ما شئت يا ابنتي . ما أشق من يحكم الناس يا لبيس ! حياته أبداً قلقة .

وصمتت لحظة ثم قالت في جد :

— ماينبغي لأحد في تدمر أن يسبق بجواده جيادي .

وكان السباق عند ذلك قد بدأ وانطلقت الشهباء في صدر الجياد كأنها غزالة جافلة ؛ وما توسطت دائرة المنتدى حتى خلفت وراءها جميع الخيل ، وعدت وحيدة حتى بلغت مدى السباق ، ولا تزال الجياد تتدافع بعيدة عنها في أقصى الحلبة يتنافس بعضها بعضاً على مكان الفضل .

فارتفعت في الميدان ضجة عالية تحيي الملكة وتهتف باسم حسان ؛ وأقبل حسان محمر الوجه ، فركع تحت مقصورة الملكة وقلبه يخفق زهواً وسعادة ، ونظر إلى لبيس وهي إلى جانب مولاتها ، فتبسم لها وأحنى رأسه وعاد إلى الحلبة ليتلقى تحية الفرسان .

وجلست الملكة تحدث وصيفتها في صفات الخيل ،

وتجاوزها في حماسة عما تتوقع سبقه منها ؛ وجرت الخيول دورة بعد دورة ، وخرجت منها خيول الملكة سابقة ، لم يتخلف واحد منها إلى مكان المصلى . وكانت زنوبيا كلما سمعت هتاف شعبها تحس الدماء تتدفق في قلبها فتملؤه بنشوة السعادة ؛ ولكنها كانت بين حين وحين تتلفت حولها كأنها تبحث عن وجه بين الوجوه ، ثم لا تلبث أن تعود فتتجه بعينها إلى الميدان ساهمة ، وتتيه حيناً في صمتها . فقد كانت تسنح في ذهنها لمحات سريعة تبدو أحياناً في ثناياها صورة أذينة كأنه مقبل إلى صدر الحلبة ؛ وتبدو فيها أحياناً صورة ممن الذى خرج من تدمر غاضبة بغير علمها . وكانت عند ذلك تتحرك حركة قلق ، ثم تتلفت مسرعة ، وترسل عينيها إلى الخيول تتتبع حركتها وتتأمل في محاسن أعضائها ، لتصرف ذهنها عن هذه الصور التى تثب إلى خيالها فتفسد عليها سعادة ذلك اليوم الأغر .

ولكن ذلك اليوم لم ينته بغير أن تعكر صفوه هنة . فإن حساناً أراد أن يجعل ختام السباق من نصيبه ، كما كانت له بدايته ، فاختار الجواد الأدهم الذى كانت الملكة تحبه وتتيمن به ، وأمل أن يجعل من سبقه آية جديدة على سعد الملكة العظيمة ، فساقه إلى صف الخيول المنتظرة وهو يمسح عنقه ويمر بيده متحبباً على ظهره ؛ وكأن الجواد قد أحس بتحية صاحبه فعطف عليه برأسه ، وجعل يتمسح بكتفه وهو يضرب بذنبه ويصهل صهيلا مرحاً . ولما أذن بالسابق اندفع الأدهم كأنه سهم لا تكاد أقدامه تمس حصباء الأرض ؛ ولكنه ما كاد يبلغ ربع الدائرة حتى كبا وكاد حسان يقع عنه ، لولا خفة حركته وثبات نفسه . وتدارك الجواد كبوته وقام سريعاً وصاح به حسان فنفض عرفه واندفع كأنه يريد ألا يضيع شوطه على فارسه ، ولكن الخيول كانت قد لحقت به وخلفته وراء ظهرها ، فما زال يجاهد حتى دخل بينها وجعل ينافسها لكى يصل سابقاً ؛ وفيما هو كذلك زاحم الجواد السابق الذى كان إلى جواره فاضطرب فارسه وترعزع حتى لم يصل إلى الغاية إلا ثانياً في أعقاب الأدهم ؛ فغضب الفارس لذلك وأقبل على حسان فصاح في وجهه ، وجعل ينازعه في حنق ؛ ولم يملك حسان نفسه ، فلطمه ، وتعالى بينهما الخصام والسباب حتى تدخل بينهما رفقاء الحلبة فحجزوا بينهما ؛ ولكن أصوات الجدال بلغت مسمع الملكة وهى في مقصورتها ، فانقبض قلبها ، وتشاءمت مما كان .

وكان أقسى ما سمعته وقعاً على مسمعها سباب الفتى لحسان بأنه مسيحى . فمن ذا الذى منع فتيان تدمر أن يجعلوا من سبابهم وصف الدين ؟ لقد كانت رومة تعرف ذلك والاسكندرية وأنطاكية ، ولكن تدمر لم تعرف من قبلُ ذلك السباب .

ولم تترك الملكة لنفسها العنان لتذهب مع الأوهام من أجل مشاحنة أثارها الحرص على السبق . ولم تلف لترمع نفسها بتوكيد خطورة السباب الذى سمعته ، فإنها لم تكن سوى لفظة تافهة هتف بها الفتى الحنق وهو في غيظه . وإن الشباب ليس من طبعه أن يحجب الغل في أعماق القلوب لكى تنم عنه فلتات اللسان . ولما عادت إلى القصر لم تكن بادية النشاط وإن كانت تحاول أن تتكلف مظاهر المرح والحماسة . وفاضت على من حولها من مالها ومن عطفها ، ولكنها لم تجد في قلبها طرباً تنفق منه ، ثم ودعت أصحابها ودخلت إلى مخدعها بعد أن أذنت للميس أن تذهب إلى دارها لتمهد مأوى زوجها الحبيب إذا عاد إليها بعد فراغه من أداء واجبه .

وقالت لها نادمها بقلب ثقيل :

— أحسن العناية بحسان يا لميس . فحب الرجل لا يبقى للمرأة إلا بدوام مودتها .

ثم تنفست وقالت :

— الرجال كالخيل بالبس لا فرق بينهما . كلاهما يسبق مع حسن الرعاية .

وعادت ليس إلى دارها ولكنها كانت تحس حزناً غامضاً شديداً ؛ فما ذلك الذي تم بين زوجها وبين ذلك الفتى الوثنى ؟ لقد قضت تدمر أعواما كانت فيها موئل من يخاف الاضطهاد من أتباع المسيح . ألم يحملها أذينة إلى تدمر ليظلها تحت جناحه ؟ ألم يأت حسان خائفاً طريداً ليلتمس الحياة بها فى جيش أذينة ؟ أليس يجلس القصر يجمع الراهب فليس ويفسح صدره للأسقف بولس ؟ فما الذى علم التدمرى أن يتشاحن بوصف الدين ؟

لقد حمل إليها حسان منذ أيام أن الناس يتحدثون فى مجالسهم من الملكة ويقولون همساً إنها قد صبأت ، وإنها قد آثرت دين المسيح على دين الآدباء . ألم تظلل ليس المسيحية فى قصرها وتهبها المسيحى حسان ؟ ألم تؤثر حساناً على أكبر أمراء العرب عمرو بن أسهد السليحى ؟ ألم تجعله بعد ذلك قائداً لحامية المدينة وأقرب أمراء الجند إليها ؟ . وقالوا إنها تدعو بولس السمسطانى من أنطاكية وتفسح له صدر مجالسها لتتخذه داعية لدينها الجديد ، وهى تتهز غيبة زوجها فى حروبه لكى تحمل الناس على عقيدتها الغريبة وتقهرهم على ترك الآلهة القديمة . أتكون مشاحنة اليوم تنفيساً من هذه الهمسات الخفية ؟ وماذا يكون شأن حسان المسيحى وهو قائد الحامية فى مدينة ليس فيها من أتباع المسيح إلا قليل يسير . ألا يكون فى تدمر من يتدسس بين الناس ليحملهم على الوثوب ؟ لقد أخبرها حسان فى بعض ما أفضى إليها به أن جماعة من الحيرة قدموا يتظاهرون بالتجارة وأنه قد سمع أن الضحيان كاهن تدمر الهارب قد عاد إليها فى خفية يتنقل فى الأحياء ولا يعلم أحد سر مكامنه .

جلست ليس فى دارها المشرفة على الصحراء فى الليل المقمر تنتظر عودة حسان وهى تردد هذه الأسئلة والحزن الغامض يزيد فى ذهنها وضوحا ويشتد قوة . ليت حسانا يسرع بالعودة ليهدئ خفقان قلبها المضطرب . إنه قال لها فى الصباح بعد الصلاة : « أى ليس : إن حب الأرض يزول ، ولكن حب الروح باق مع الأزل » .

فما الذى أنطقه بهذا القول وهو يناجيها بحديث الهوى ؟ وكان جسمه يختلج وهو يضمها قائلاً : « قد تتم الحياة بعد حين قصير أو بعد حين طويل ، ولكن محبة الأرواح تبقى خالدة آخر الدهر » أيكون قلبه المؤمن قد تعلق بما خبأه القدر ؟ . إنه قد أبطأ فى العودة والليل يكاد ينتصف !

ونظرت إلى أشباح الليل تتراقص عند الأفق فى ضوء البدر الغامض ، وظهرت أمام عينيها الأبراج العالية المزخرفة التى اعتاد أعيان تدمر أن يقيموها فى ظاهر المدينة ، لتكون لهم مقابر خالدة ، وسطع القمر على تمثالى سوادة بن تيم شمس ، وهما قائمان فى أعلى البرج ، فظهرا كأنهما حارسان يرقبان مدخل المدينة ؟ وسبحت فى خيالها تتأمل تلك الصور الماضية ، التى تخلفت منها هذه المقابر السامقة . وأخذت تسائل نفسها من كنه هذه الحياة؟

لقد عاش سوادة الذى لا يزال اسمه باقياً فى تمثاليه ، وكان مثل حسان بطلا باسلا أبلى فى الحروب ، وخدم قومه فى السلام . ثم مضى ولم يبق منه إلا اسمه ، وهذان التمثالان القائمان وحدهما يشرفان على فدافد الصحراء . أكان قديساً مثل حسان ؟ وهل كانت له زوجة تحبه ، وتجلس فى انتظاره ، وقلبها يختلج كما ذكرته ؟ إن التمثال لا يتحرك ، ولا يستطيع أن يتحدث إليها عن سوادة الذى كان يشبهه . لا بل إن التمثال يتحرك تحت ضوء القمر الخافت ، وكان يتحدث قائلا : « لقد عاش سوادة ثم

قتل وكان مجيداً . » إنه لم يقتل فى حب المسيح كما يقتل الشهداء ، ولكن أى فرق بين أن يقتل شهيداً ، وأن يقتل فى بعض تلك الحروب التى تدور ؟ ما أفقر الحياة إذا هى خلت من الزوج الحبيب ! ولا عزاء للقلب إذا كان الزوج يقتل فى حب المسيح !

ولكن حساناً أبطأ فى العودة وطالت غيبته :

أتكون زنوبيا قد أمرته أن يذهب فى وجه من الوجوه ؟ أم هل أمرته أن يبعث رسولا إلى أذينة ، أو أن يستقبل وفداً أتى إلى تدمر من بعض الملوك ؟ أو لعله ذهب للقاء قافلة جاءت تحمل ثمين الطرف ، ويفسح لها فى الفندق مكاناً ، ويعد لأموالها حراساً .

ولكن الليل قد انتصف ومال القمر إلى الغروب ولم يعد حسان . فقامت لبنى فى قلق تسير فى حجر البيت وهى ثائرة الأشجان . لم كان حسان فى كل الأمور فى وجه الأخطار يتعرض لها على حين يبقى ذلك الوثنى لونجين إلى جانب الملكة يحدثها فى أمن ودعة ؟

وتعالت عند ذلك أصوات مبهمة أو خيل إلى لبنى أنها تسمعها ، فزادت قلقاً وأرهفت أذنيها لكى تتبينها . فكانت الأصوات تعلو فى حين ثم تخبو بعد حين ، آتية من بعيد يحملها الهواء إذا ركد ويحجبها إذا هب . فزاد قلقها حتى لم تستطع صبراً ، فقامت مسرعة ونزلت من بيتها إلى الطريق الخالية ذاهبة إلى القصر لعلها تجد هناك خبراً عن حسان .

ودخلت إلى القصر مسرعة تقول فى نفسها إن الملكة لا بد أن تكون قد أوت إلى مخدعها قريرة العين فى حين تبقى هى تتقلب فى انتظاره ، وزوجها لم يعد وقد مضى نصف الليل .

ودخلت إلى البهو تتلفت ، ثم وقفت فجأة ورفعت يديها إلى خديها وكادت تصرخ . إن الملكة لا تزال جالسة إلى جانب لونجين وعليها علائم الوجوم والتحير .

فنظرت الملكة إليها وهى داخلة وكأنها قد كرهت مقدمها ، فتحركت فى قلق وقالت لها :

— لم يعد حسان إليك يا لبنى ؟

فتمالكت الفتاة نفسها بعض شىء ، وحاولت أن تجيب ، ولكنها لم تجد قولا . لا شك أن الملكة تعلم أنها قد جاءت تستخبر عن حسان .

فقالت الملكة لها :

— تعالى يا لبنى . لا بأس عليه إنه فى بعض شأنه ولا يلبث أن يعود .

ولكن نظرتها وحركة أناملها فى منديلها ورنة صوتها كانت تنم عن جزع وارتباك .

فاقتربت لبنى إلى الملكة مترددة تهم أن تسأل ، ويذهلها ما تعودته من طاعة وإجلال ! فنظرت نحوها زنوبيا لحظة ترقب حركتها وتتأمل ما بدا على وجهها ، وأحست عند ذلك عطفاً عليها يشبه ما كانت تحسه نحوها إذ تناجيها فى وحشتها ، وقالت لها بصوت رخيم وهى تتكلف المرح :

— مالى أراك مضطربة يا فتاتى ؟ أمن أجل تأخر حسان عنك ساعة تهرعين كذلك وتبتئسين ؟

وكأنها أرادت أن تهون الأمر على الفتاة بتهكمها .

فأغضت الفتاة فى خجل ، ووقفت مرتبكة لا تدرى ما تصنع ولا بأى شىء تجيب ، فاستمرت الملكة قائلة :

— لقد جئت يا لبنى إذ احتجت إلى وجودك إلى جانبى . ثم نهضت ووضعت يدها على كتف الفتاة وسارت نحو مخدعها تحدثها قائلة :

— إننى الليلة أحس فى صدرى وحشة ، ولم يستطع لونجين أن يذهبها عنى بحديثه — تعالى معى فحدثينى كما كنت تفعلين ، وأعيدى إلى قلبى الهدء من إيمانك .

٢ – مجنون ليلى

للأستاذ توفيق أحمد البكرى

لعل المنظر الأول فى الفصل الرابع من مجنون ليلى – على ما أعلم – لم يسبق شوقى إلى تصويره كاتب من كتاب المسرحيات ، وإن لم يكن جديداً فى الأدب العربى ، فهذه قرية من قرى الجن الضاربين فى جماح الصحراء ، اتخذوا من كثبانها قصوراً ، ومن صُبارها ، وحسكها ، وحنظلها ، وسعدانها ، حدائق وارفة الظلال والأفياء الزهرات . والجن مجتمعون ينشدون ويغنون ويرقصون ، وإذا عابر من الانس يطرق حيهم ويتضوع أريجه ، وإذا قائل يهتف بالقول :

بى الجن فى أرضكم عابرٌ
من الانس ، يُسفُ فى عُمرِه

فنالوا به ، واعلموا أنه
فتى ، نبه الشعر من قدره

فيجتمع شملهم ، وترتهف أسماعهم ، ويتذاكرون فيما بينهم شأن هذا العاشق الولهان العابر ، وإذا الجنىّ الأموى وعبيد يحددان علاقته بالجن فيقول الأموى :

ألم تعلموا أن لى صاحباً
من الانس ، أحكمُ فى شعره

فيقول عبيد :

أجل ! أنت توحى له ما يقولُ
وتقذف ما شئت فى فكره

ويصوره لهم الأموى أجل تصوير تمهيداً لحفاوة به ، وتوطئة لهذا الوصف العبقرى الرائع بين شاعر من الانس عاشق ، وبين زمرة من الجن تتركز فى تفانيهم تقاليد الميثالوجيا العربية ، المتقلقلة بين الوهم والخيال ، وبين التصديق والشك .

إذاً فاعلموا أنه عاشق
تملأت البيد من ذكره

فيقول عاصف :

وأعلم أن الهوى واحد
هوى المتهامين فى أمره

ودخلت إلى مخدعها والفتاة فى أثرها مرتبكة مطرقة تسير بقلب ثقيل وهى تعيد قول الشكلة : « أعيدى إلى قلبى الصفو من إيمانك » . إن الشكلة لا تلجأ إلى الإيمان إلا فى كربها .

وما كادت الشكلة تستقر على أريكتها حتى سمعت صوتاً يتعالى فى فناء القصر تقطعه صيحات مكتومة . فأصاخت إليه برهة ، ثم قامت وفتحت عينيها وهى تقول فى ذعر :

– أما تسمعين يا لميس ؟

وكانت الفتاة عند ذلك قد أسرعت إلى نافذة المخدع ، وجالت بعينيها فى أنحاء البستان على ضوء القمر المائل إلى الغروب ، وما لبثت أن ارتدت إلى الوراء ، ورفعت يديها إلى عينيها وقالت بصوت مختنق :

– إنهم يحملون رجلا .

وأسرعت خارجة وهى تقول :

– إلهى من ذا يكون ؟

وذهبت زنوبيا إلى النافذة فى هلع ، ولما وقع بصرها على الصريع المحمول ، قالت فى همس وهى يائسة :

– ويلاه لو يكون هو ! وويل المسكينة لو يكون .

وكأن الفزع قيدها ، فلم تتحرك من موضعها حتى علا من فناء القصر فى سكون الليل صوت لميس :

– واحسناه !

فارتدت زنوبيا إلى الوراء ، ووضعت يدها على جبينها وأغمضت عينيها ، ثم سارت تتطوح حتى ارتمت على أريكة وأسلمت نفسها للخيال المذعور .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

وأن التى سحرت قلبه   مدلهةُ القلب من سحره

ثم ينبرى صاحب قيس الأموى ، ليحيط السامعين بتحديد علاقته بقيس وأنه هو وحيه وإلهامه ، وأنه هو الذى أحاطه برعايته ومين عنايته ، فألهمه الشعر وسحر لبّه من التطلع لثغر ليلى ، وأجرى على لسانه السحر الحلال من النسيب العذب ، وبهر ليلى بهواه ، حتى تكون الصورة والقصة أروع ما جاء فى قصص المحبين ، وأعظم ما عرف من الروائع الشعرية الرائعة ، فيقول :

وإنى ، لأ كفل ليلى له   وأصرفها عن هوى غيره
سهرت على طهر ليلى الزمانَ   ولم أغمض العين من طهره
صرفت من الحب حتى الزواج   وما قدّس الله من سره
ولو أن عينى تشقّ القبو   ر سهرت على الحب فى قبره

هنا تبتدئ الرحلة الثانية ، من علاقة الجن بالانس ، ومن فكرة الالهام والوحى الفنى بل الشعرى خاصة ، ومن الاعتقاد العام الذى ساد هذه الناحية فى الأدب العربى والتقاليد العربية فيما يتصل بالسر والحب والالهام . ويقبل شوقى يوضح اعتقادات العرب فى وحى الشعر ، وينضم فى مجنون ليلى إلى المدرسة القديمة الكلاسيكية القائلة بأن الشعر وحى من إلهام الجن ، حيث لا يستطيع العقل البشرى المجرد وحده أن يبدع روائع الفن الشعرى ، وأن قوى خارجة عنه تتحكم فيه ، وتنفث فيه الشعر الرقيق الحواشى ، والغزل البديع . ثم أجرى ذلك الحوار الطريف بين بنى الجن وبين قيس ، وبين بعضهم والبعض الآخر . فاذا جو من الخيال والوهم . وإذا الدنيا المحجبة المستورة تتجسد أمام النظارة . وإذا مسألة من مسائل الأدب والفن تكون مثار الحوار والحديث .

ومضى شوقى مأخوذاً بعبقريته فينسى أن أسماء الميثالوجيا التى تعددت فى الخرافات ، وفى ميثالوجيا أى أمة من الأمم يجب أن تبقى كما هى عليه دون أن يدخل المؤلفون عليها أسماء جديدة من عندياتهم ، لأنها اكتسبت « سوابق » التقاليد الأدبية التى لها فى ظواهر الأدب ما للسوابق فى تقاليد القانون والأحكام ؛ فهى لا تمس ولا تنقض . ولكن شوقى أعظم عبقرية ، وأمضى ذكاءً وإبداعاً وخلقاً من أن يتقيد بالسوابق ، وما درجت عليه التقاليد الأدبية . وهل كان العبقرى المبدع مقيداً بما يتقيد به العرف وتجرى به السوابق وتنزل عند حده الأحكام ؟

جاء شوقى بأسماء من عنده ، فقدم للنظارة هبيد وعفرفوت ، وعسر ، والأموى ، وعاصف فى المسرحية ؛ وهؤلاء الجن سوى هبيد دخلاء على الميثالوجيا العربية حيث تكاد الأسماء التى وردت فى الأدب العربى محصورة كما ذكرها صاحب « جمهرة شعراء العرب » ص ٢٠ — ٣٠ طبعة المطبعة الرحمانية ، وما جاء فى رسالة الغفران ص ٧٥ — ٨٥ طبعة أمين هندية ، وما جمعه المرزُبانىّ ، ولم تكن للجن الملهمين فى الميثالوجيا العربية قرى خاصة ولا جماعة خاصة ، ولو قلنا إن كثبان الصحراء قبابهم المضروبة وقصورهم الشامخة ، وأنهم يتواجدون فى العراء والأطلال الدارسة ، وأن أسماءهم هى كما يبدعها العقل دون تقييد ، أو أنها كما ذكرت فى علم البازرجة ، لتركنا إذاً الحبل على الغارب ، وأفسحنا المجال إلى تدفق فى الميثالوجيا يخرجها من غرضها وما وضعت له ، وهى لم توضع إلا لتكون محدودة منظمة حتى يكون الأخذ منها للمسرحيات ولغيرها محصوراً مشتركاً ، وإلا وصل الأمر بنا إلى خضم غير محدود من الأسماء والأعلام .

كان شوقى قدس الله سره حضرياً مترفاً . عاش فى المدن الزاهرة العامرة ، ورأى باريس وأوربا ، ولكنه لم يرحل إلى البادية ، ولم يتصل بأعرابها ، فلم يعرف من عاداتهم إلا ما تسرب إلى الحاضرة ، وإلا ما قرأه فى كتب الأدب القديم ، وقد كان فيها — كما أعلم — دائم النظر

والتأمل . متصل القراءة والتجويد . وقد ذكر كثيراً من العادات العربية على قاعدة السماع والقراءة ، وقد التبس عليه أمر بعضها ، وقاته التدقيق في تحديدها ، وليس في هذا مأخذ على المسرحية ذاتها ، ولكن التدقيق كان أولى وأخلق .

كانت العرب حين تخدر رجل الرجل أو المرأة منهم ، يدعو باسم الحبيب ، فإن لم يكن فباسم الأخ أو الأخت ، فإن لم تكن فباسم أي عزيز ، وهكذا دواليك مع الاحتشام والتحفظ ؛ ولكنهم لم يكونوا يهتفون في صراخ وعويل وترديد للأسماء مرتين أو ثلاثاً كما ذكرها شوقي في ص ٦ ، والعربي يقول :

إذا خدرت رجلي ، وقيل شفاؤها

دعاء حبيب ، كنت أنت دعائيا

وذكر أيضاً في ص ١٧ أن قيساً ذهب يطلب ناراً :

وأرسلني أهلي ، وقالوا امض فالتمس

لنا قبساً من أهل ليلى ، وما شبّوا

ثم تقول ليلى في ص ١٦ مبالغة في الإكرام :

خذي وعاءً واملئيـــه لابن عمي حطبا

وقد جرت عادتهم أن يسأل الجار جاره أو قريبه قطعة من الجمر ليشب بها ناراً ، وكانوا يرسلون في ذلك الإماء أو الأطفال الصغار ، فيأخذونها في لحاء أو في خف أو شيء من هذا ، وليست هذه المحاولة المسرحية هنا إلا طمساً أو تشويهاً لعادات قديمة قد يتخذها الناس يوماً ما أساساً لبحث كما أوردها شوقي ، وبذلك تتبدل معالم العادات وتتحور .

وفي ص ٥٠ يقول شوقي على لسان ابن عوف ، وهو يخاطب زياداً في شأن المجنون :

لقـــد تضاءل قيس واصفرّ مثل الجراده

فاصفر مثل الجرادة قالته العرب في حالة الخوف والفزع الشديد ، وليس في حالات الشوق المبرح والوجد القاتل ، والغيبوبة القريبة من الموت . ولعل شوقي تداخل عليه المعنى الدارج المتعارف ، فخلط بين الأمرين ، ونسي أن المعروف من المجنون أنه كان باسلاً مقداماً . فقد روى أبو سلمة الكلابي أن أخاه وابن عمه قد قنصا ظبية ، وطلب منهما أن يحلاها في بيتين من الشعر أحدهما على ما أذكر :

أيا شبه ليلى ، لا تراعي فإنني

لك اليوم من دون الوحوش صديق

« فامتنعا ، فهمّ بهما ، وكان نجداً ، فخافاه فدفعا إليه القنيصة[1] » .

وفي ص ٦٤ يقول شوقي على لسان المهدي :

قيس لا بأس عليه كبروا في أذنيه

ثم صوت يكبر الخ . ولم تكن عادة التكبير معروفة إلا لمن يغمى عليه مصروعاً . فقد كانوا يحسبون الشيطان هو الذي نفث فيه الصرع وحل به ، فيكبرون في أذنه ليخرج ، ولكنهم لم يعملوها لمن يغمى عليه شوقاً أو جهداً ، بل كانوا ينضحون الماء على وجهه حتى يفيق . كما يقول القائل :

وجاءوا إليـه بالتعاويذ والرقى

«وصبوا عليه الماء من شدة النكس»

وفي ص ٧٩ ، يقول شوقي : « وجئنا بقاضي نجد اليوم بكتب » .

فلم يكن حينذاك تسجيل عقود الزواج متبعاً في ذلك العصر كما هو في وقتنا الحاضر ، بل كانوا يكتفون بشهادة الشهود وبإعلان ذلك كهاتف يهتف أو منفردة ترفع صوتها . هذا قليل من كثير .

***

لقد تأثر شوقي وهو يغوص في المراجع العربية

(١) الكامل ص ٦٤ ج ٢ الطبعة الأميرية .

والأدب القديم ليستخلص عناصر روايته ، ويحكم لحنها وسداها ، بما ذكره الرواة على لسان المجنون ، أو ما سرده الساردون من أشعار الحب والغزل . وفي شعر شوقي عامة لمحات تدل على عظيم وقوفه وتمكنه وتأثره بالشعر العربي القديم ، وكيف يكون غير ذلك وديباجته التي امتاز بها كلها قبسات متلألئات من عبقرى الشعر القديم ؟ وقد كان رحمه الله رشيق انتقاء الكلمات ، قديراً على وضعها في مكانها الجدير بها ، فلا تجد قلقاً لكلمة ولا نشازاً لنغمة ، فجاءت كلماته المنتقاة كالحلى الدقيق الاختيار ، الذي تزين به غادة ذات جمال وبهرج ، وقدرة على انتقاء الألوان والأضواء التي تبين مواضع الفتنة في جمالها الظاهر ، وتجلو محاسن الفتنة المستترة ، التي تحتاج إلى إضاءة خفية للتجلى والتبيان .

وإنك حين تقرأه شاعراً أو في مسرحية مجنون ليلى تتجاوب في نفسك « أصداء » كثيرة ، إذا رددتها إلى أصولها أدركت تمكنه ووقوفه على العربية شعراً ونثراً ، فزخرت منها كنوزه وامتلأت كفاه ، شأنه شأن الفنان المبدع الذي توافرت لديه أدوات الخلق ومواد الابتكار ، فراح يصوغها ويخلقها نفحات عبقرية فريدة . وهذه الأصداء في شعر شوقي قد يحسبها من يحسبها القطات مأخوذة عدا عليها شوقي والزمها لنفسه ، وكساها من ديباجته لوناً غيّر سماتها وملامحها ، فهي عند غير أهل الذكر ثمرة عقل عبقرى ، وعند أهل الذكر تجاوب أصداء ، وقديم حفظ ، مشت الأيام إليه فأضعفت الحافظة واختزنت من حيث يدرى ولا يدرى في عقله الباطن ، ثم أثارها عند الرغبة في التأليف والتوقيع والنظم تداعى المعانى والأخيلة ، فجاءت كأنها ذلك الصدى البعيد ، وما هي منه في شيء .

ولست إذاً من القائلين بالسرقات بعد ما ذكرت ، إلا إذا كانت نصاً بأصله ؛ وقل من الشعراء والكتاب من عدا يده إلى ما متع به غيره من فتح وإلهام . وسأسرد عليك بعضاً من ذلك في هذه المسرحية ، ولكن أمرها عندى شهادة حق لثقافة شوقي العربية وهضمه ، ومدى عقله للتخيل ، والباطن ، وتداعى معانيه . وهي عندى ليست بالسرقات ، فما كان شوقي بحاجة إلى ذلك ، وقد أوتى من الفطنة والذكاء والإلهام حظاً عظيماً . ولعل خير ما يشار إليه في توضيح هذه الفكرة ، ما ذكره أوسكار وايلد في كتابه « القاصد The Inventions » ، ومقال لاى هنت « من الخيال » المنشور في كتاب النقد الانجليزى للقرن التاسع عشر .

أما هذه المشابهات فهي هذه على سبيل المثال ، كما جاء في ص ٣٢ :

كم جئت ليلى ، بأسباب ملفقة
ما كان أكثر أسبابي وعلاتى

يشبه قول القائل :

وكنت إذا ما جئت ، جئت بعلة
فأفنيت علاتى ، فكيف أقول ؟
فما كل يوم لى ببابك وقفة
ولا كل يوم لى إليك رسول

وفي ص ٤١ :

وإن كان هو السحر فلا تبطل لها سحرا

يماثل :

فإن كنت مطبوباً ، فلا زلت هكذا
وإن كنت مسحوراً ، فلا برئ السحر

وفي ص ٤٣ :

منادٍ دعا ، ليــــلى !! فخف له
نشوانُ ، في جنبات الصدر عربيد

كأنه من يقول :

دعا باسم ليلى غيــرها ، فكأنما
أطار بليلى طائراً كان في صدرى

وقوله :

ليلى ! نداء بليل رنّ فى أذنى
سحرٌ ، لعمرى له فى السمع ترديد

أشبه بالقائل :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى
فهيج أشجان الفؤاد وما يدرى

وفى ص ٤٧ :

وبعثت النصيح إلىّ ليلى   وصدٌّ ساءنى عنه هواها

مثل القائل :

وقد لامنى فيها قريب وصاحب
فردّ بغيظ ، صاحب وحميم

وفى ص ١٨ :

عفا الله من ليلى ، لقد نوّت بالذى
تحمل من ليلى ، ومن ذكرها القلب

كأنه البيت :

عفا الله عن ليلى الغداة فإنها   إذا وليت حكما علىّ تجور

وفى ص ٤٨ :

فأحسست من فرحى لساقى هِزّةً
كأن عياناً منك لاقى عيانيا

يقارب البيت المشهور لابن أبى الجهم :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة   كما انتفض العصفور بلله القطر

وفى الصفحة ذاتها قول شوقى :

مشى الحب فى ليلى وفىّ ، من الصبا
ودب الهوى فى شاء ليلى وشائيا

كالقائل :

وأحبها وتحبنى   وتحب ناقتها بعيرى

وفى ص ٩٧ يقول قيس :

حنانيك ليلى ! ما لحل وحلة   من الأرض إلا حيث يلتقيان
فكل بلاد قربت منك منزل   وكل مكان أنت فيه ، مكانى

كأنهما صدى مترددا لهذين البيتين :

أحب الأرض تسكنها سليمى
وإن كانت توارثها الجدوب
وما وجدى بحب تراب أرض
ولكن من يحلّ بها حبيب

أو : وكل بلاد أنت فيها حبيبة
إلىّ ، وإن لم تصف منك الخلائق

أو : وحلت بهذى حلة ، ثم أصبحت
بأخرى ، فطاب الواديان كلاهما

وفى ص ١٢٦ :

لو أن الليل فى النعيم معى   أو فى الجحيم تساويا عندى

مثل من يقول :

فيا ليت سلمى فى التراب ضجيعى
هنالك ، أو فى جنة أو جهنم

* * *

على أن فصلا بأكمله مماثل — فى تماثل حواره ، وأحداث وقائعه ، واختلاف الخطباء على الخطابة ، واقتناع الدهماء وهرجهم — الفصل فى رواية يوليوس قيصر ، بل حتى الفقرة المشهورة لأنطونيو : أعيرونى آذانكم «Lend me your ears» حيث يقول شوقى فى ص ٥٤ وما يليها : « أصغوا إلىّ إذن » .

وفى المسرحية تشبيهات رائعة ، ومواقف ساحرة ، وقطع جيدة ترتفع به إلى مراتب الزجالين المجيدين ، ولا غرو فقد كان شوقى وصافاً مبدعاً ، ومشبباً رقيقاً . وإليك لواحد بعض ذلك فى ص ١٧ — ٢٤ — ٤٤ — ٦٥ — ١١٢ — ١١٨ — ١١٩ — ١٢١ — ١٢٢ — ١٢٤ فارجع إليها لتستمع إلى جمال المعنى ، وجرس الموسيقى ، وحلاوة التعبير . فإن كنت عاشقاً مستهاماً ، فقد ترجم شوقى لك برحه الحب ، وعصفت به الصبابة والهيام .

(بق)   توفيق أحمد البكرى

٢ – هيـــنريش بارت

رحالة جرىء موفق

للأستاذ محمود الدسوقى

خلاصة ما تقدم :

[كان هينريش بارت شاباً ألمانياً فى الثالثة والعشرين ، درس الفلسفة ، وشغف بالجغرافيا ، وولع بالأسفار ، فلم يلبث أن اختير عضواً فى بعثة انجليزية لارتياد الصحراء الأفريقية الكبرى والتوغل فيها جنوباً إلى بلاد وعرة خطرة . وقد زامله فى رحلته إلى تلك الأصقاع أوربيان ، هما رئيس البعثة ريتشاردصن الانجليزى وعضوها الدكتور أوفرويج الألمانى ، خرجوا جميعاً من طرابلس فى سنة ١٨٥٠ ورافقهم بعض أهالى البلاد العارفين بمسالكها . وحلوا من القدائح والمجاعة الشىء الكثير ، فأغرى بهم هذا بعض الرافقين وبعض المتربصين ، فتعرضوا فى الطريق للأخطار ولقوا الأهوال ، وانتابهم المرض كرة بعد أخرى ، وقضى بارت يومين فى الصحراء وحده بلا زاد ولا ماء ، بعد إذ انفصل من القافلة وضل الطريق . ثم اهتدى رفاقه إليه ، واستأنفوا التوغل فى الصحراء ، وأصابهم من بعض الأهالى شر لم يلبث أن انكشف ، وخيروا فى بعض مراحل الطريق بين الإسلام والموت ، ثم افتدوا أنفسهم بالمال . ووصلوا آخر الأمر إلى تنظوت ثم إلى دامرجو ، ثم تواعدوا على اللقاء فى كوكا عاصمة بورنو ليدخلوها من مسالك متفرقة]

واتجه بارت جنوباً بغرب إلى أرض « حوصا » ، وزار موضعى كاتسينا ، وكانوا فى « سكوتو » . وإذ هو فى طريقه إلى كوكا أبلغه بعض الأهالى أن ريتشاردصن رئيس بعثته قضى — فى الطريق إلى كوكا — نحبه ، فلم يصدق الخبر بادئ الرأى ، لكنه لم يلبث أن أكده له آخرون ، فتابع السير ، وقد نالت منه الوعثاء وفجيعته فى رفيقه كثيراً . ولاحت له كوكا فأكرم مثواه فيها الشيخ عمر أمير بورنو ، وبالغ فى إكرامه ، على الرغم مما بدا من رثاثته ، وحقارة مظهره .

واتخذ كوكا مكاناً مختاراً يخرج منه الحين بعد الحين ليستطلع أحوال البلاد ، واستصحب بعض رجال الأمير فى بعض غدواته حول بحيرة تشاد بأمر الأمير . وقبل أن يقدم على ارتياد المجهول وصل زميله « أوفرويج » إلى كوكا ، فقوى هذا من عزمه . وكان أحد الأهالى قد حمل إليه نبأ اقترابه من كوكا ، فخرج فى الحال إلى لقائه . خرج ممتطياً جواده عارى الرأس ، وقد غفل عن ستره فى هذا الأوان من القيظ الصاخد ، من فرط سروره بمقدم رفيقه . وكثيراً ما تعرضت الرؤوس للأخطار فى هذه الأجواء والأصقاع .

وألفى صديقه فى ظل شجرة ، ووجده عندها مرهقاً متخاذلاً ، وليس كما رآه حين فارقه من أربعة أشهر مضت . وقص عليه الصديق ما لقى ، وأنه يخشى أن يلحق قريباً بزميلهما ريتشاردصن . وقد يكون موت الرئيس قد هزه ، وقد يكون تعب الطريق وما لقيه من الضيق قد نالا منه ؛ لكنه لم يلبث أن استرد نشاطه وجعل يجوب أنحاء بحيرة تشاد ، ويجول بزورقه فى أرجائها . ثم فارقه بارت وتابع الاستطلاع وحده ؛ فقصد فى بعض « رحلاته » إلى « أدماوه » الواقعة جنوبى بورنو ، وكان الطريق إليها محفوفاً بالمصاعب ، والعقبات فيه تعترض الانسان والحيوان : « فكانت الغابة فى بعض مسالكها تزخر بآجام البوص حتى ليختفى من طوله أو تطاوله الجواد وراكبه على السواء ، فيشقان لنفسيهما الطريق

بشق الأنفس . وكانت الأرض مستنقعة ، مليئة بالحفر ، تجعل المرور فى النصف الأخير من فصل الأمطار أمراً متعسراً إن لم يكن مستحيلا » .

وكثيراً ما تهب العاصفة فتنقق الراحة التى طالما اشتاق إليها بعد هذه المتاعب ، وينهمر المطر مدراراً ، ويفيض السيل جارفاً ، ويتسرب الماء إلى الخيام ، ويبلل المتاع . لكن أمثال هذه المتاعب لم تكن لتوهن من عزيمة رجل كبارت ، تشربت روحه حب الكشف ، وانطوت نفسه على المثابرة مهما يكن من أمر . وقد كان توغل إذ ذاك فى الجنوب ، واقترب من « بنيوه » فرع النيجر ونهيره العظيم . قال :

« كان الصباح باهراً ، والطبيعة بأسرها ندية ، منتعشة من إعصار الليل المطير . وكان ذهنى أحضر مما هو عادة ، وحواسى يقظة متحمسة الظفر الذى أصبت ، أفأبلغ اليوم النهر الذى لبثت أفتش عنه بمختلف الوسائل والطرق ، والذى سمعت عنه الكثير واشتهيت أن أراه ؟ وغمرنى السرور ، واستغرقتنى مشاعرى ، حتى لم أفطن إلى ما كان يتبادله رفاقى من سخف القول ، وقد نالت منهم السغبة ، وجعلوا يتشاجرون .

« ومن أسلم نفسه مرة للتصورات الطليقة فى حلم من أحلام الشباب ، وتوخى يوماً غرضاً عظيماً ، أدرك ما كانت تفيض به نفسى من الإحساسات حين ألقيت من ضفة النهر نظرة على مناظر النهر . فقد تولتنى غبطة صامتة ، وجعلت أتأمل الأرض الغنية كيف جادتها الطبيعة وسخت ، ولم تبخل ، وكيف أعدتها للأجيال المقبلة لتكون مجالا لنشاطها . فقد كانت الطريق هنا مفتوحة ، والمنفذ هنا ممهداً لقوى جبارة مكتسحة هى قوى الشمال .

« فى هذه الغبطة الصامتة كنت أتأمل النهر وأتأمله طويلا . فقد كانت هذه اللحظة من أسعد ما مر بى فى حياتى . وقد ولدت على ضفاف نهر عظيم يجوبه الملاحون ، وشغفت نفسى منذ الصغر بمناظر الأنهار ؛ وعلى كثرة ما أنفقت من سنين فى دراسة العاديات والآثار لم أفقد هذا الباعث الفطرى ؛ فكنت أجمع بين السفر والدرس ، وكنت أدرس فى خلال الأسفار ، فلم يكن أندى على نفسى ، ولا أشرح لصدرى من متابعة المياه الجارية من منابعها ، والانحدار معها لأرى كيف تحول جداول وغدراناً ، ثم متابعة الجداول والجمائر لأرى كيف تحول أنهاراً تجرى لتنيب آخر الأمر فى المحيط .

« فالآن أستطيع أن أقف « بينوه » ، ذلك الفرع العظيم ، لأتحدث من اتجاهه وطبيعته وأراه رأى العين . إن هنهنا ما يبرر الأمل الثابت فى أن تنفذ تجارة أوربا ، وينفذ نفوذها إلى قلب هذه القارة على امتداد هذا الطريق الطبيعى ، وأن تنق عنه تجارة الرقيق التى تقضى على بذور الهناء فى النفس البشرية ، وتنشر الخراب واليباب من حولها . »

وقد نفذت تجارة أوربا ، ونفذ نفوذها إلى قلب أفريقيا ، واستعمرت كل جارحة فيها ، وتولى الواقع الرد على تلك البواعث الانسانية الأولى ، وأمكن التجارب أن تشهد كم سخّرت الفرزة العلم ، وكم سخرت منه !

وبلغ بارت بعد هذه الرحلة الموفقة عاصمة « عضماوه » وأمل بوصوله أن يلقى حفاوة تعينه على غرضه ، وأن يتابع توغله جنوباً ليتمكن على الأقل من فحص جانب من حوض النهر ، فقد سمع عن غنى هذه الجهات شيئاً كثيراً ، ورجا أن يرى منها ما يمكن رؤيته .

ولقى بارت الحفاوة التى أمل ، لكنه سرعان ما انقلب القوم فى « يولا » عاصمة « عضماوه » عليه ، إذ خشوا أن يكون عيناً لسلطان بورنو عليهم ، فأخرجوه من

«بولا» ، ولما يبرأ بعد من حمّى أصابته عند دخولها .

وبينا كان القوم يتداولون فى أمره كان الضعف قد أوهنه أيما إيهان ، ورماه الانفعال بنوبة شديدة ، فساءت حاله إلى حد أن بات عاجزاً من امتطاء جواده ، وتحمل حرارة الشمس ، وسقط من فرط الاعياء على الأرض ، لكنه تحامل على نفسه وامتطى جواده ، وارتمى بكل ثقله فى الركاب ، وأحكم قبضتيه على السرج ، ومضى على هذه الحال من الاعياء تارة ، والاغماء تارة أخرى ، وقد حبطت كل مشروعاته الأخرى .

وعاد بارث إلى كوكا عوداً أسيفاً محزناً ، لكن حرارة اللقاء فى كوكا أذهبت عنه بعض الحزن ، ونشطت أعضاءه المنهوكة .

ولقى أوفروج فى كوكا بعد عودته من تجوال فى الجنوب الغربى من مناطق بورنو الجبلية ، وقيامه فيها برحلة ممتعة . لكنه على الرغم من هذا كان يزداد ضعفاً ويعاوده المرض كرة بعد أخرى . ولم ينفع معه مقامه على شفاف بحيرة تشاد ، فظل يذوى حتى فاضت روحه ، وخلف بارث وحده فى تلك القارة الغريبة .

وكان المعقول والمنتظر أن يهن بارث بعد أن قضى زميلاه ورفيقاه الأوربيان ، وبات وحده فى هذه الديار ؛ لكنه من عجب أن يقدم فى تلك الحال على أجرأ جانب من مغامرته وأخطره . فقد سافر إلى «تمبوكتو» مدينة الصحراء المحفوفة بالأسرار التى لم يعد منها أوربى قبله حياً .

وكان سفر بارث نهراً فى أغلب الأحوال ، وسر الرحالة أن يسافر فى نهر النيجر ، وهو الشغوف بتعقب مجارى الأنهار . ولم يكن على غرار هورنمان وبوركارت اللذين ألفا فى الحيطة فتزيا بزى المسلمين ، بل كان شخصاً آخر لم يرد أن يخلع رداء أوربيته أو مسيحيته فى أية مرحلة من مراحل سفره . على أنه اضطر فى آخر مرحلة إلى تمبوكتو أن يخرج من عادته ، ويلبس لهذا الظرف لبوسه ، وإلا لما وسعه أن يدخل تلك المدينة حياً .

ووقع بارث شيخ تمبوكتو فى أمره ، وأطلعه على دخيلته ، فكان به جد حفىّ ، وأكرمه وأضافه ، لكن أمره ذاع لحنقت لوجوده الدهماء ، وثار وجوه المدينة ، وطالب أمراء من الزنوج الأجانب من تمبوكتو بنفيه من البلاد ؛ فوجد الشيخ أن ليس من المروءة أن يدفعه إلى أنياب الأسد ، وأنه لينالنّ من هيبته إن فعل ، فاستبقاه .

ولبث بارث فى المدينة المشبوهة ثمانية أشهر عانى فيها المرض والقلق وساورته المخاوف ، وتسرب التشاؤم إلى نفسه الكئيبة ، فأوهنها بعض الشىء ، وجعلها تفقد الأمل لحظة . لكن كل ظرف إلى ختام ، فجاء أخيراً أوان الخلاص ، وصحبه شيخ تمبوكتو قطعة من الطريق ، وعاد إلى كوكا ليلاقى فى الطريق إليها بين «كانو» وبينها الدكتور فوجل يفتش عليه بعد إذ استُبْطِئ وخيف عليه الموت . قال :

«رأيت بغتة شخصاً غريب المظهر يقبل علىّ ؛ وكان شاباً ، أبيض البشرة ناصعها ، لا تنم قلنسوته على أنه من أصحابها . وسرعان ما استبنت فى مُرافقه الأسود الراكب إلى جانبه خادمى الذى كنت تركته فى كوكا ليشرف على منزلى فيها . وهُرع فوجل إلىّ ، وكان لقاءً حميداً ، لم يكن فى الحساب» .

وإذ يبلغ بارث كوكا عاوده الحنين إلى وطنه ، والرجاء فى أن يصل إليه سالماً ليقضى بنتائج رحلته ، ويُبرئ منها ذمته . وماطله شيخ بورنو وسلطانها ، وسوّف ، وأراد أن يستبقيه عنده ما أمكن الاستبقاء ، ثم أفرج عنه آخر الأمر وزوده بتمنياته الحسنة . وانحدر بارث

يداها !

لمؤنسة الزهرة

إن المرأة التي لها يدان جميلتان لا يمكن أن تكون عاطلة من الحسن ! ولطالما تغنى الشعراء وتغزل الروائيون بسائر ملامحها ومعارف وجهها ، فأكثروا من اللهج بفتنة عينيها وثغرها وشفتيها ! ولكنهم لم يؤدوا فروض المديح الواجب لليد البضة الناعمة والأنامل الجميلة التي أشغف بها لأنها ذات شمائل ولغة تدل على معان من الأخلاق والعواطف العديدة ، حتى كأنها تقاطيع واضحة كتقاطيع الوجه وملامحه . ومن ذكريات الطفولة المتلألئة في سماء الوجود تلك الجارة الكهلة التي كانت تجيد العزف على العود ، وكان شغفي بمراقبة يديها وهما تحركان أوتاره أضعاف سروري بسماع عزفها . وحسبي أن تينك اليدين كانتا من الفتنة بحيث يتمثل فيهما الجمال بأتم معانيه ولا تقع منهما العيون إلا على ما استكملت فيه صاحبتهما من معاني الشغف بكل معالم الحسن والبهاء . وقد كانتا ممتلئتين طويلتين بضتين دقيقتين رشيقتين رائقتين تلوح عليهما بهجة الحياة ، بل كانتا أشد بياضاً من أنصع زنابق الحقل . فهذه الأنامل الساحرة الحساسة الزاهرة بالمعاني ، الناطقة ببلاغة التوسل والحنين والعطف والكآبة ، قد تركت في ذهني ذكرى زاهرة مصحوبة بنموذج خاص للخلق . إني كلما رأيت يدين نحا كيهما استحضرت أمام باصرتي رؤيا سيدة حسناء رقيقة حلوة لطيفة موفورة الحنان كريمة السجايا ، تمتاز كل خاطرة من خواطرها ، وكل عمل من أعمالها بالوداعة والدماثة ، وتفيض لساناها بالمؤازرة والرأفة والحنو ؛ كأن ضغطة من كفها تمنح الشفاء والرجاء والعزاء . لله ما أبلغ لغة الأيدي ! وما أصدق تعبيراتها ! وما أحلاها ! وما أبعدها عن المواربة وتزييف اللفظ وتلفيق الكلام وتزوير الظاهر ! وما أقدرها على النطق عما يجيش في نفس الإنسان من مختلف الشعور ! ومعلوم أنه يلزمنا أن نكون من علماء الفراسة لنفهم لغة اليدين وما تتعلق به من العواطف المتباينة ؛ ولكن تلك الأنامل الصفراء النحيلة الذابلة الممتدة باستسلام وجهم ماذا عساها أن تمثل غير التألم ومقاساة العذاب ؟ وفي هذا الوجود الذي لم يخلق

إلى الشمال ، ومر ثانية بمرزوق وطرابلس ، وبلغ في آخر المطاف مرسيليا في سنة ١٨٥٥ بعد خمس سنوات قضاها في البرية الموحشة ، تتقاذفه المصائر ، مصير بعد مصير .

وكرمته انجلترة وفرنسا ، وكرمت بلاده ألمانيا رحالة موفقاً . لكن حظه بعد رحلته لم يكن كله تكريماً ، فسرعان ما تحول الرأي العام من تقريظه إلى نقده ، ورفعت المقالات بأنه لم يفد العلوم الطبيعية بشيء من كشوفه ، ولم يكن على أي علم بهذه العلوم .

ولم يزعم بارت بأنه بهذه العلوم عليم ، ولم يقل من نتائج رحلته أنه كذلك ، فقسرت الضجة بعد حين بعد إذ طغت زمناً ، وهددت باكتساح ما أداه لعلم تقويم البلدان في سبيل ما لم يؤده للعلوم الطبيعية .

ولم يصرف بارت هذا الانتقاد عما خلق له ، ولم تتلف نفسه مرارته ، فعاد إلى أسفاره من جديد . وطاف بآسيا الصغرى ، وظل يتنقل بين إيطاليا وأسبانيا وتركيا . وحتى بعد أن عين في سنة ١٨٦٣ أستاذاً للجغرافيا بجامعة برلين كان لا يقوى على مغالبة هذه النزعة إلى السفر ، فكان يخرج كل عام . وفي سنة ١٨٦٥ ودع الحياة وهي أزهر ما تكون في نفسه وأفقه .

ودعها في الخامسة والأربعين .

محمود الدسوقي

لشديد الحساسية وقد قلّت في رحابه أسباب العزاء والسرور التي تذهب عن النفس بعض ما تلقاه في الحياة اليومية من ممض الوحشة والمرارة ، نجد أن أصحاب تلك الأنامل من ذوي النفوس الشعرية يتأثرون ويتألمون كلما تطايرت نحوهم رشاشة من الفم ولو كانت تافهة .

وفي الحياة الأيدي الخيّرة من العذوبة والصلاح ، المحدثة عن الموسيقى والشعر والفن . في الحياة تلك الأيدي الجذابة ، حتى لكأنها المغنطيس بقوتها الروحانية ، فما تمسه من الحديد يتأثر بعواطفها العالية ، وقواها الجليلة السامية ؛ بل كأنها الموجب الكهربائي ، تبعث الأمل ، وتمنح اليقين ، وتجعل الآخرين أقوياء ناهضين ؛ وفي الحياة تلك الأيدي السمحة التي تغتبط بالعطاء دون الأخذ . في الحياة الأيدي المحبة المشفقة ، الودود ، الطافحة عبراتها وحنانها ، الطامحة إلى ما هو أسمى من الطبيعة ، وكأن كل إشاراتها مشبعة بالنور والخير . وفي الحياة — لسوء الحظ — تلك الأيدي الشرهة السفاكة السفاحة .

حقاً أن الانسان يستطيع أن يضلل الغير بسائر ملامحه ، ويكظم ما تدل عليه معارف وجهه ، بمسحة من النفاق ، ويمكنه بقليل من المران إخفاء عواطفه ، وما تنطق به عيناه ، بقناع من الابتسامات المزيفة ؛ ولكن اليدين تخرجان عن طاعتنا ، وتفضحان ما ينتاب نفوسنا من الخوالج المتباينة ، ولا يمكن أن يخطئ أحد فهم رسالتهما ؛ فاشارة الإبهام المجبر لا تخاتل أو تداور ؛ وكذلك تقوم السبابة الآمرة في مواطن التوكيد والارشاد بقفع (1) يؤدي الغرض أكمل أداء .

وفي الأيدي وأوضاعها المختلفة تتمثل الخسة والدناءة ، ويبدو الشح والتقتير والطمع والشراهة والبخل .

(1) القفع هو أن يدير الانسان سبابته وحدها وهو يقبض على أصابعه .

وهنالك الأيدي القاسية الساعية إلى الشر القادرة على اقتراف أنواع المعاصي والمآثم . وهنالك الأيدي التي يبدو في وضعها وتقلص أصابعها معنى الغضب والحنق والكراهة والحقد .

وكثيراً ما رأيت لرجال الدين الوعاظ وللخطباء يدين رائعتي الجمال ؛ فمنهم من يسرك أن تلاحظهم وهم على المنبر أو على منصة الخطابة ، لأنهم قد تعلموا كيف يعبرون بحركات أيديهم عما تعجز الألفاظ عن أدائه ، فتجيء أبلغ من الجمل محكمة التسبيح ، وتأخذنا إشاراتها إلى حيث تريد من عواطف حية قوية ، بين سارة تفرحنا ، وحزينة تؤلمنا ، وثائرة تهتاجنا ، وواعظة تهدينا ، ومتوعدة ترعبنا وتملأ نفوسنا أسى ، ومبشرة تطمئننا ، وراجية مؤملة تلهمنا الثقة والسلوان ، وتبدد عنا غيوم الكآبة والاستعبار .

الزهرة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـــدد ١ صاغ

قصر النظر

للدكتور عباس جوهر

البصر هو عماد الحياة والمرآة التي يرى فيها الناظر بدائع الكون وجماله ، والدليل الذي يقود السائر في الحياة ومجاهلها . والعامل الذي يسرى عن النفس همومها وآلامها . فالاحتفاظ به والذود عنه احتفاظ بالنفس وذود عن الحياة . وإني لأعجب كيف أن الناس لا يقدرونه حق قدره ، خصوصاً في هذه البلاد . وسأتناول في هذا المقال ناحية واحدة من نواحي ضعف البصر ، وهي قصر النظر ، وأبين أسبابه وعلاجه .

وقصير النظر هو الشخص الذي يمكنه رؤية القريب بوضوح ولا يرى البعيد ؛ ومن الثابت أننا لو كشفنا على جماعة من الشعوب الفطرية ، أو على الأطفال الرضع السليمي البنية ، لما وجدنا إلا فيما ندر من بينهم واحداً قصير النظر ؛ بعكس الأطفال الكبار والبالغين ، فإن قصر النظر منتشر بينهم بدرجات متفاوتة تتزايد مع تقدم العمر . وقد أجرى بحث على عشرة آلاف تلميذ ، فوجد أن نسبة قصيري النظر في روضة الأطفال هي ٤/١٪ ، وفي التعليم الابتدائي ١٠٪ ، وفي التعليم الثانوي ٢٦٪ ، ثم أجرى البحث على ٧٥٠٠ شخص من مختلف المهن والصناعات ، تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٥ سنة ، فوجد أن النسبة بين التلاميذ هي ٣٢٪ وبين الكتبة ١٦٪ وبين العمال ٥٪ وبين المزارعين ٢٪ ؛ ويتضح من هذا أن تأثير العمل القريب هو السبب المباشر في انتشار قصر النظر ، وفضلا عن ذلك فإن الوراثة لها أثرها الفعال أيضاً .

والعين الطبيعية هي التي تقع فيها نقطة تقابل الأشعة المتوازية من المرئيات البعيدة على الشبكية ، وطويلة النظر تقع خلفها ، وقصيرة النظر (ميوبي) تقع أمامها أي أن هذه العين ترى المرئيات الموضوعة على بعد بكيفية غير واضحة ، وتتضح شيئاً فشيئاً كل ما قرب المرئي . ويرجع قصر النظر إلى عاملين : أولهما وهو الأكثر حدوثاً طول المحور الأمامي الخلفي ، وثانيهما زيادة تقوس الأسطحة الشفافة كالقرنية والعدسة ، فتكون قوة انكسار العين شديدة جداً ، وهذا السبب نادر . وأما الميوبي المختلط فإنه ينتج من اشتراك السبب الأول والثاني .

ولا ننسى أن نذكر هنا أن بعض التغييرات سواء أكانت طبيعية أم مرضية تسبب ميوبي ، فالأولى (الطبيعية) كازدياد حجم البلورية (ابتداء الكاتاركتا وهو ما تسميه العامة الميه البيضه) . والثانية (المرضية) كالميوبي الناشيء عن مرض السكر والتحدب القرني وهو نادر . والميوبي على أنواع تختلف باختلاف مسبباتها ؛ وعند ما تكون خفيفة لا يشعر بها الانسان ، فإذا صارت متوسطة احتاج المريض إلى نظارة للمسافات البعيدة على الأرجح ، فإذا صارت شديدة فإن المريض يحتاج إلى نظارة للقراءة عن قرب وأخرى للابصار بالأشياء عن بعد ، فإذا اشتدت عن ذلك استفحل أمرها واحتاجت إلى عناية شديدة .

أعراض الميوبي :

تظهر المقلة كبيرة الحجم وبارزة ، وحركاتها الجانبية صعبة بسبب طول القطر الأمامي الخلفي ، ثم تقارب الأجفان بكيفية واضحة عند النظر من بعيد ؛ وذلك لأن الأجفان المتقاربة لا يمر منها إلا جزء صغير من الأشعة الضوئية التي تصل إلى الشبكية ، وقد تقل كفاءة العضلات فينتج عن ذلك بعض الحول . فإذا ما اشتد المرض فإن المريض يقرب المرئيات كثيراً إلى عينيه ؛ ثم يميل رأسه ليتمكن من إجادة النظر ؛ والميوبيون يفضلون الحروف المطبعية الصغيرة لأنها تمكنهم من حصر أكبر

عدد من النظارات فى حيز واحد ليتجنبوا حركات الرأس والعين . فإذا أراد المريض أن ينظر عن بعد يكون نظره غير أكيد . والميوبيون يميزون بسهولة فى الضوء الضعيف ؛ بل ويفضلونه على الضوء الشديد ، ويتعلق هذا بسعة الحدقة التى تمر منها كمية كبيرة من الأشعة الضوئية .

والعين الميوبية تكون عرضة أكثر من غيرها لمضاعفات طبيعية مختلفة ، يجب على المريض استشارة الطبيب بصددها . وهذه المضاعفات تتلخص فى تعب العين (استنوبى) ؛ وأعراضه احمرارها وقت العمل خصوصاً فى المساء ، وكثرة حساسيتها ، وثقل الأجفان ، والاحساس بتوتر فى العين ، ويصبح الضوء الساطع غير محتمل ، ثم حدوث التعتم البللورى قبل أوانه ، وذلك راجع إلى ازدياد طول المحور بسبب تقدم قصر النظر . كذلك من المضاعفات ميوعة الجسم الزجاجى — الذباب الطائر يمكن أن يكون فسيولوجيا أو مرضياً ؛ فالأول يكون فى الغالب متعباً جداً للمريض ، وقد يؤدى إلى حدوث الهوس ؛ وأما الثانى فيشاهد غالباً فى الجسم الزجاجى على شكل بقع سوداء سابحة فيه ، وناتجة من التمدد الطولى للعين الذى ينشأ عنه تقطع وتهدم فى نسيج الجسم الزجاجى .

وأخيراً قد تحدث تغييرات فى قاع العين وانفصال شبكى يحدث غالباً عند الميوبيين بنسبة ٣٧ ٪ ويكون جزئياً أو كلياً .

وهنا يجب أن أقول إن نتيجة العلاج تتوقف على اكتشاف المرض فى بكورته ؛ فكلما عولج فى ابتدائه كانت نسبة النجاح أكبر . ومما يؤسف له أن المرضى فى مصر يهملون أنفسهم ويتأخرون كثيراً فى العلاج ، وقد أودى هذا بأبصار الكثيرين منهم .

الأسباب :

الميوبى يكون فى معظم الأحوال وراثياً ، ويرجع الاستعداد إلى رقة قليلة أو كثيرة فى تركيب أجزاء المقلة . والتأثير الوراثى ينتقل من الأبوين مباشرة أو من الجدود إلى الذرية . ومع أنه وراثى إلا أن العمل المستمر وكثرة إمعان النظر فى المرئيات الصغيرة يكون له تأثير فى ازدياد المرض .

ومن الثابت أن الأطفال الذكور يصابون بالميوبى أكثر من البنات . وأنه عند الأشخاص المتعلمين أكثر منه عند سكان الأرياف (كما دلت الاحصاآت المذكورة فى صدر هذا الموضوع) ويزداد مع زيادة الدراسة .

وكذلك سوء الاستعدادات فى المحلات العامة ورداءة الأدوات المدرسية والمطبوعات وعدم كفاية الاضاءة ونحوها (وسيأتى الكلام على هذا بإسهاب فيما بعد) يكون لها دخل عظيم فى أسباب الميوبى . وعلى العموم جميع الأعمال المنظورة عن قرب لا يكون تأثيرها واحداً بالنسبة للميوبى . فالأشخاص الذين يركزون النظر دائماً فى نقطة ثابتة كالساعاتية والخياطات يكونون أقل استعداداً لهذا المرض من الأشخاص المثابرين على القراءة والكتابة ، حيث تحدث التنوعات المستمرة للتكييف والتقارب تعباً واحتقاناً فى المقلة العينية تساعد على تقدم الميوبى .

علاجها :

يكون العلاج إما فسيولوجياً ؛ وهو الذى يراعى فيه تأثير العوامل الخارجية ، أو طبياً ، وتدخل تحته الأدوية والنظارات ونحوها .

أما الأول فيجب أن تبدأ العناية به منذ ولادة الطفل ، ثم تستمر بلا انقطاع مدى العمر . وقد تأتى أسوأ العواقب من إهمال أية وسيلة من وسائل الاحتياط فى هذا الصدد ، كجودة الإضاءة وإحسان التهوية وتغيير المناظر وتنويع الملاهى للأطفال ، مما لا يحتاج إلى النظر القريب .

ولا ينبغي أن تعطى لهم كتب مصورة على سبيل التلهي والتسلية . فإذا كان لابد من هذا فلتقصر مدة الاستعمال بقدر ما يمكن .

أهمية الضوء :

يتأثر النظر بتأثير الضوء ؛ فالطالب في المدرسة والعامل في المصنع والكاتب في المكتب كثيراً ما يضطرون إلى مباشرة أعمالهم اليومية على ضوء خافت وسط ظروف لا تتفق مع قانون الصحة ، فيجب الالتفات إلى إصلاحها . ولا يمكن أن نأتي هنا على تفاصيل كافة الأضرار السيئة التي تنشأ من ذلك ، ولا أن نعدد المضار التي تحدث في المنازل وغيرها ؛ ولكنا نستطيع على وجه الإجمال تحذير الناس من القراءة في الضوء القليل في أي وقت من الأوقات ؛ وكذلك ينبغي اجتناب الأضواء الشديدة (ماعدا نور الشمس المباشر) والأضواء المنعكسة على مياه الأنهار والبحار والرمال . ويجب بوجه خاص منعها من الوقوع مباشرة على العين لأنها تكون مهيجة ومتعبة لها . والنور الكهربائي أنقى الأضواء وأشدها بياضاً وأصلحها للعين وللجسم بوجه عام ، لأنه يمنع فساد هواء الغرف الذي كان يحدث من الوسائل القديمة للإضاءة .

ويجب على القارئ أن يجلس معتدلاً مرفوع الرأس ، وأن يحمل الكتاب على بعد ٣٠ سم من مستوى عينه على الأقل ، وأن لا يفرط في إجهاد البصر بكثرة القراءة . ويجب أن يكون مصدر الضوء من الجهة اليسرى من فوق الكتف . وعلى القارئ أن يتجنب النور الموضوع في الأمام والقراءة مستلقياً على الظهر . ولا يحسن مزاولة القراءة عند ما يكون الإنسان متعباً .

ويجب العناية بجودة المطبوعات المقروءة ، بأن يكون الورق جيداً غير مصقول صقلاً يعكس النور على العين فيبهرها ، وأن يكون سمكه كافياً لإخفاء أسطر الوجه الآخر من الورقة . كما يجب أن تكون حروف الطباعة متوسطة الحجم وسطورها غير كثيرة في العرض وغير مكتظة بالحروف .

العلاج الطبي :

يتم ذلك بعمل نظارة للمريض ، وهي آلة بصرية تصلح قوة النظر وتحفظه وتدفع الآلام التي تنشأ من ضعفه ؛ وأهم جزء فيها زجاجها وعدساتها التي قد يضاف لها في بعض الحالات ألوان تقي العين من الضوء الشديد أو الحرارة .

ويحسن عند انتخاب النظارة مراعاة اللون الموافق لتغييرات قاع العين . ولما كان للنظارات مزايا نافعة ، وفوائد جليلة في إصلاح النظر وتخفيف أمراضه ، فالواجب يقضي بأن نولي أمرها عناية كاملة ؛ فلا يسمح بعمل نظارة إلا بتذكرة من طبيب ، ولا يجوز الأخذ برأي نظاراتي ، كما هو للأسف متبع عندنا كثيراً . ولقد تنبهت بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة إلى ذلك ، فسنت تشريعاً تحرم به على غير الأطباء الرمديين وصف أو عمل نظارة ، وخاصة للأطفال في مبدأ حياتهم .

فالتلميذ مثلاً الذي عنده قصر النظر فترى العلامات واضحة بكل من نظارات ثلاث . والقاعدة تقضي بأنه يجب في مثل هذه الحالة انتخاب أضعفها ، وهي التي ينظر بواسطتها أحسن من بعد ، وذلك لتجنب الإجهاد للتكييف والتقارب . ولكن النظاراتي رغبة منه في إرضاء التلميذ — وولي أمره بنوع خاص — يعمل له النظارة الأقوى ليرى بها على أحسن ما يمكن متجاهلا ما في ذلك من الضرر العلمى ، لعدم درايته ، ولقصر معلوماته . كذلك التلميذ الذي يرى بالعين اليمنى $\frac{1}{2}$ وباليسرى $\frac{1}{4}$ ، يحاول الطبيب إما بالعلاج أولاً ، أو بعمل النظارة ثانياً ، أو بالاثنين معاً ، أن تحصل العينان على قوة إبصار متكافئة ، حفظاً للعين الضعيفة من أن يزداد ضعفها بمضي السنين ،

فلا يمكن إصلاحها . وأما النظاراتي فإنه يعمل النظارة لإعطاء كل عين على حدة أحسن قوة إبصار لها بصرف النظر عن الفرق بين قوة إبصارهما . وفي هذا ضرر كبير للنشء لا يمكن إصلاحه في المستقبل بعد فوات الوقت .

الوقاية :

لقد حملتنا الطبيعة هموماً وأحزاناً إلى جانب ما أعطتنا من جمال وبهجة ، فلا أقل من أن نحارب مضارها بمحاسنها . وحيث إنه لا يمكن أن نقف أمام تقدم الحضارة ، أو نرجع القهقرى إلى عصور الهمجية ، فلا ينبغي إذاً أن نقف مكتوفي الأيدي غير عابئين بصحة العين من مبدأ الأمر ، وما للطبيعة من تأثير عليها .

في روضة الأطفال يجب اجتناب الشغل القريب الدقيق ، وإجهاد النظر ، ويجب العمل على الرياضة في الخلاء مع بساطة التمرينات ، والتمتع بضوء الشمس والهواء . وقد دلت الإحصائيات على أن قصر النظر يقف عند انتهاء نمو الجسم في الخامسة والعشرين ، إلا في أحوال قليلة فإنه يستمر في الازدياد ؛ ولذا يحسن عدم إرسال الأطفال قصيري النظر إلى المدرسة في سن مبكرة ، ولا ضرر مطلقاً في تأخير إرسالهم سنة أو سنتين ، ومزاولة منهج خاص في المنزل مع مداومة الرياضة البسيطة . ويوجد في انجلترا وألمانيا والولايات المتحدة مدارس كثيرة خاصة بقصيري النظر أو ضعفائه من التلاميذ .

وكذلك تجب العناية ببناء المدرسة وطرق التهوية وكيفية دخول الضوء إلى الفصول والأثاث والأدوات المدرسية من كتب وغيرها كما بينا سابقاً .

ويجب أن توجه عناية خاصة إلى نظارات الأطفال ، فلا تكون إلا من طبيب رمدي . وقد أجرى فحص ٤٥٠ طفلا قصيري النظر (من سن ٧ إلى ٩) يحملون نظارات طبية فوجد أن نسبة وقف تقدم قصر النظر بينهم هي ٢/٣٤٣ ٪ . وأجرى فحص ١٦١٩ تلميذاً آخرين يحملون نظارات غير طبية ، فوجد أن النسبة هي ٥/٢٣٪ فقط .

ويستحسن أن يدقق في البحث على قدر الامكان عند الزواج ، لأن قصر النظر كامن في الأسر ، وخصوصاً تلك التي تحصر الزواج في الأقارب ، فإن هذا يجعل أعين النسل على استعداد كبير للإصابة بمرض قصر النظر .

أما العلاج بالأدوية فيحسن تركه للطبيب ، ولكن لا بأس من ذكر بعض العناصر الهمة في العلاج كالحقن الملحية ومركبات الكلسيوم ومركبات اليود . وقد أضيف إليها حديثاً مركبات وحقن فيتامين (د) .

عباس جوهر

إلى محرر المرأة

قصيدة من شعر حافظ ابراهيم لم تنشر في ديوانه

لحاظك والأيام جيش أحاربه
فهذى مواضيه وهذى كتائبه

وهمين ضاق القلب والصدر عنهما
غرام أعانيه وعيش أغالبه

وليل كظل القوم كابدت طوله
وأيقنت أن لا محالة صاحبه

كأن دياجيه صحيفة ملحد
تخط بها أعماله ومثالبه

تربت به جيش الصبابة والأسى
وأنزله صدراً تداعت جوانبه

وعلّمت نفسى كظم غيظى ولم أبُح
بما فعلت بين الضلوع قواضبه

رجائى فى قومى ضعيف كأنه
جنان وزير سودته مناصبه

ودائى هكذا، الدين عن دوائه
وحظى كحظ الشرق نحسٌ كواكبه

فياليت لى وجدان قومى فأرتقى
جبانى ولا أشقى بما أنا طالبه

ينامون تحت الضيم والأرض رحبة
لمن بات يأبى جانبَ الذل جانبه

يضيق على السورىّ رحبُ بلاده
فيركب للأهوال ما هو راكبه

فما هى إلا أن تجشمه النوى
وما هو إلا أن تشد ركائبه

ويعرج بالروى مذهب رزقه
فتُفرّجُ فى عرض البلاد مذاهبه

أقاسمُ إن القوم ماتت قلوبهم
ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبه

إلى اليوم لم يُرفع حجابُ ضلالهم
فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه ؟

فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم
لوضع نقاب لاستقامت رغائبه

ولو خطرت فى مصر حواء أمّنا
يلوح محيّاها لنا ونراقبه

وفى يدها العذراء يسفر وجهها
تصافح منا من ترى وتخاطبه

وخلفهما موسى وعيسى وأحمد
وجيش من الأملاك ماجت كواكبه

وقالوا لنا رفع النقاب محلل
لقلنا لهم حق ولكن نجانبه

الذكرى

للأستاذ صبحي شرف

أتت وهذا ربيع جديد
فأين الحبيب ؟ ولمْ لا يعود ؟

ألم يك يعشق عهد الربيع
ولحن الشوادى وفتح الورود؟

وهذى الخمائل ترنو إليه
وقد برزت فى جلابيب عيد

• • •

ويا للأسى ! قد طواه الردى
وبات رهين الثرى واللحود

وغيّب فى الترب هذا القوام
وذاك الجبين وتلك الخدود

وعينان قد صفتا زرقة
وثغر تحلّى بدرّ نضيد

أهذى المحاسن يارب تفنى   أم بك أولى بهن الخلود ؟

***

يقولون في الذكريات العزاء
فما بال حزني منهــا يزيد ؟
أحن لذكرى ليالٍ صفت   وولت سراعاً كحلمٍ سعيد
إذ النجم يرمقنا في اغتباطٍ   ونحن لعش المنى نشيد
أتذكر يا قلب كم قد مرحنا
ألم تكُ أسعدَ مَن في الوجود ؟
ولم تكُ تخشى مقال العذول   ولم تلق بالأسى الحسود

***

حبيبي هلاّ شئتَ البقاء   بوادي الظلام، وأنت فريد؟
ترى هل هناك لنــا ملتقى
تُرى هل قريبٌ ترى هل بعيد ؟

تحيـــة مصر

[لضيف لبنان الأستاذ صلاح الدين أبي علي]

يا نازلاً بين سرح الأرز والبانِ
هزَّ القريضَ بسحر الشدو وجداني
أرسلتَ شجوك شجو الطير روّعه
فحُّ الحنينِ فلم يهنأ بِبُستانِ
أبدتْ له قسماتُ الروض ما ابتَسَمتْ
عنه الملاحة من روحٍ وريحانِ
أمسى له الأرز حقاً بسرحتــه
ولاحظته عيونُ الآس والبانِ
وباسمٌ من نضير النَّوْر مزدهر
يفترُّ عن بردى الثغر ريّان
لكنه وجمال الروض محتفـــلٌ
قد شاقه (العشّ) مهوى الخافق العاني
فلو (زهير) بدا، ما قال: «ربّ عطلت
ربوعك الخضرُ من حوري وولداني»؟
وما الجمالُ إذا غاب الحبيبُ وما
حُسْن الرياض إذا ما بان خلاني ؟

***

(صلاح) لولا (ضياء) رحت تنشره
لتاب صحبك في تيّار أشجان
تسرى بأحشائهم ذكراك مضرمةً
ناراً تؤرّثُ من وجد وتحنان
أنت الحديث على أفواههم عبقاً
أنت الغرامُ سرى في كل وجدان
إذا النسيم سرى هشّوا لعل به
من عَرْف نفحك ترويحاً للهفان
لواعجُ الحب يا (رشعين) كم عصفت
بواقفٍ فوق شط (النيل) ظمآن !
متى (الفرات) شفى قلباً له أملٌ
في عالم الحب ممنيًّا بحرمان ؟
لولا الأخوة يا (رشعين) لاختلفت
فيك البداءة من (قاصٍ) ومن (دانٍ)
لكننا من نجار الشرق في نسبٍ
لبنانُ مصرٌ ومصر نفس لبنان

***

يا أيها (النازحُ) الموموق ما غفلت
عنك القلوب ولا همّت بسلوان
وناظر (الأزهر) المعمور منتبـــهٌ
يرعى (فتاه) بسرح الأرز والبان
و(شـــيخه) الألمعيُّ الفذ مبلغكم
روْحَ التحية من روضات (حلوان)

أنباء وآراء

و (النيل) بين (نخيل) الشط منطلق
كأنه ملك من بين فرسان
يوصي أخاه (رشيداً) بسائله
(أبي زهير) عظيم القدر والشان
منا إليك تحايا الحب عابقةً
يهدي الهوى بشذاها كل (ولهان)
أبلغ (بنيك) هواة (النور) أن بنا
حباً (للبنان) حب الدنف العاني
(الشرق) آخى ، فحين حبنا نظرت
قالت : هنا الأهل في أكناف أوطاني
أهدى التحية (أطرابلس) إن بها
نورَ (الثقافة) يهدي كل (حيران)
(أبا زهير) رعاك الله مزدهراً
دوح السعادة في أثواب جزلان

سيد سليمان النخيلي
(كلية اللغة العربية)

حول كتاب الغوري

جاءتني رسالة من أديب فاضل من قراء الثقافة يسأل أسئلة عرضت له أثناء قراءة القسم الأول من مجالس السلطان الغوري ، وهو الذي يتضمنه كتاب « نفائس المجالس السلطانية » . وقد طلب مني أن أنشر الإجابة في مجلة الثقافة . وإني أشكره على الثناء الذي قدمه قبل أسئلته ، وأنشر هذه الأسئلة وأجوبتها :

١ — الجملة التي في ص ١ من كتاب النفائس تشكل هكذا « ناظرُ أربُع حَرم رب العالمين » بمعنى أن السلطان قيّم على أربُع الحرم ، جمع رَبع . وقد ذكرت في المقدمة أن المؤلف لم يكن مكيناً في العربية .

٢ — (ص ٣) عبارة « نفائس النكات القرآنية » لا بأس بها ؛ فالنكات معناها الدقائق ، وليس فيها معنى الفكاهة أو النادرة .

٣ — وأما الكلمة التي يصدر بها الكلام على كل مجلس فضبطها طلبتُ بتاء المتكلم .

وكلمة الدرجة التي تذكر هي درجة زمانية وهي أربع دقائق ، وفي هذا دليل على تقديرهم الوقت بالدرجات .

٤ — وأما قول المؤلف في نهاية كل مجلس « المناسب لهذا المجلس » الخ ، فهي نادرة يختم بها المجلس يأتي بها من عنده أثناء تأليف الكتاب فيما يظهر .

٥ — (ص ٩) وكذلك قوله : « نختم هذا المجلس بظرافة » الخ .

٦ — وأما الامام الذي يذكر في مقدمات المجالس فهو الامام الذي يصلي بالسلطان في الليلة التي يكون فيها المجلس .

٧ — (ص ١٢) الظاهر أن الصواب « ثم أسلمت الأم واشترت ابنها » .

٨ — (ص ١٨) الصواب الروضة الثانية لا الثامنة .

٩ — وأما عبارة « من المجلس الأول ومن المجلس السابع » الخ ، فليست من كلام المؤلف ، ولكني حذفت كثيراً مما ذكره وا كتفيت ببعضه .

١٠ — (ص ٩٦) « والشريف ما كان حاضراً » المراد الشريف نور الله ، وهو أحد الأشراف ، وكان يحضر مجلس السلطان ويذكر اسمه في الكوكب الدري .

١١ — (ص ٩٩) « هذه الفاكهة اللطيفة لا تخرج إلا من العصا » المراد أنها تخرج من غصن الشجرة ، وكذلك آداب الأمير تمر كانت من عصا مسلّه .

١٢ — (ص ١١٦) المراد بقماش السلطان ملابسه ، أعنى أنه حضر المجلس بالملابس التى كان يلبسها فى يومه .

١٣ — (ص ١١٩) « ما يعنى لفظ الحين فى آخر هذه الآية ؟ » لم تذكر الآية فى الكتاب ، فهى إحدى الآيات التى تنتهى بحين مثل « فتمتعوا حتى حين » .

١٤ — القاصد يراد به الرسول أو السفير . وقد فسر فى ص ١٨ من المقدمة .

مؤلفـات جديدة

لا شك فى أن حركة التأليف فى مصر تسير سيراً يوشك أن يكون طبيعياً ، رغم ظروف الحرب الحاضرة ؛ فالأدباء والكتاب ما زالوا ينتجون وينشرون إنتاجهم ، بالرغم من غلاء الورق والطباعة ، وهـذه ظاهرة جديرة بالتقدير والحمد . ونحن نشير هنا إلى بعض المؤلفات الجديدة ، واعدين بالعودة إلى الباقى فى الأعداد التالية :

١ — الحرب الحرية

وما تلقيه على مصر والشرق العربى من دروس

وضع هذا الكتاب الأستاذ رياض محمود مفتاح المحامى صدى للحركة التى قامت منذ عام على صفحات الجرائد والمجلات ، ودعا فيها الكتاب والمفكرون إلى النظر فى موقف الشرق من هذه الحرب . وقد قدم له المؤلف بمقدمة شرح فيها الأسباب التى دعته إلى وضع هذا الكتاب . ثم أخذ بعد ذلك يبين العلاقة بين النظم السياسية وأسباب الحرب الحاضرة ، كاشفاً الستار عن مساوئ الحكم الدكتاتورى وأخطاره على الانسانية ؛ ثم أشار بعد ذلك إلى الدروس التى تلقيها الظروف الراهنة على الشرق وما يجب أن يفهمها منها ، ثم تحدث عما يجب أن يأخذ به الشرق من الاستعداد السياسى والحربى والاقتصادى . فالكتاب على هذا الوضع مشروع للاصلاح الداخلى لكل قطر من أقطار الشرق وبيان للخطوات التى يجب أن يتخذها هذا الإصلاح .

وقد طبع هذا المؤلف القيم بمطبعة الرسالة ، ويبلغ عدد صفحاته ٢٣٣ صفحة من القطع المتوسط .

٢ — رسالة المعلم

الأستاذ أحمد بك فهمى العمروسى كما يقول الأستاذ على الجارم بك : « كتاب مفتوح كل سطر فيه رسالة المعلم » ، فهو بذلك أجدر من يكتب عن المعلم ويشرح رسالته ويفهم مهمته أتم الفهم وأدقه .

لذلك كانت من خير محاضرات الموسم محاضرته عن « رسالة المعلم » التى ألقاها بمعهد التربية ، والتى حفزه إلى إلقائها ما أثاره فى نفسه مقال الأستاذ أحمد أمين بك عن المعلم ، فشاء — على حد تعبيره — أن يصوغ « التمثال الذهبى الذى صاغته يد الأستاذ العميد للمعلم الأمثل ، قاعدة تليق به وترفعه من المستوى العادى إلى حيث يتجلى إبداع الفن وجمال الصنع » . ولكنه بدلا من ذلك أفاض فى محاضرة قيمة عن رسالة المعلم ، إفاضة الأستاذ الخبير العارف ، فكانت محاضرته وثيقة للتعليم يجدر بكل المشتغلين به أن يحرصوا عليها كل الحرص .

وقد أضاف الأستاذ فضلا إلى أفضاله ، فقام بطبع هذه المحاضرة القيمة فى كتاب ، وقدم لها بأقوال بعض كبار رجال التعليم من أصدقائه وتلاميذه . وتطلب هذه المحاضرة من المؤلف بمصر الجديدة . وثمن النسخة خمسة قروش وأجرة البريد قرش واحد .

٣ — الفصول الأربعة

نشرت دار المكشوف أخيراً المؤلف الثانى للأستاذ عمر فاخورى وهو « الفصول الأربعة » . وقد يخطر للذهن أن الكتاب يتناول موضوعاً جغرافياً ، ولكن الواقع أنه

أشواق

ديوان للشاعر محمود أبو الوفا

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

يقول تولستوى فى خطاب كتبه إلى الأديب الفرنسى الكبير رومان رولان : إن الفنّ لا يصحّ أن يكون مهنة ، ولكنه إلهام وموهبة ، ولا يكون الالهام إلا حيث تتمثل التضحية ، فان العازف « لولى » الذى ترك الخدمة فى المطبخ ، وخرج يعزف على قيثارته ، قد أثبت بالتضحية أنه ملهم . أمّا طلبة معهد الوسيقى الذين يقومون بدراسة ما يعطون من دروس فلا يقال عنهم إنهم من الملهمين ، لأنهم أناس يستفيدون من وضع معين قائم ويعملون فى وضع معين قائم ، ولا يعرف الالهام ويثبت بغير تضحية ؛ بل إن الفنان الحق ليضحى على حساب راحته جرياً وراء إلهامه وغيرة على فنه .

وهذا كلام قد يقبله بعض الناس ، وقد يرده آخرون . ولكنك على أى حال تستطيع أن تتمثله تماماً فى شخصية الشاعر محمود أبو الوفا صاحب « أشواق » ، فهو شاعر ملهم لا شك فى ذلك ؛ وهبته الطبيعة أكثر مما أعطاه العلم ، وخدمته الفطرة أكبر مما منحته الكتب ؛ فهو يزجى الشعر من صميم قلبه وأعماق وجدانه ، نغماً خالصاً مفعماً بالحب والعطف والحنان ، يرتفع به عن الامتهان ، ويضن به على التبذل ؛ حتى لتجده من هذه الناحية يلتمس يحوى أربعة فصول أدبية « ليس بينها من صلة إلا بقدر ما تتواصل الفصول ، إذ يتولد أحدها من آخر ، أو يتلاشى بعضها فى بعض ، والشتاء هنا صيف هناك . وهى — بعد — كليالى أبى الطيب « شكول » .

تلك الفكرة فى تسمية الكتاب بالفصول الأربعة ؛ فهو دراسات أدبية ، يتناول الفصل الأول منها أصول الانشاء ، والثانى أساليب فى درس الأدب ، والثالث عود إلى الشعر ، ويعرض فى الفصل الرابع إلى الجمال بين الحركة والسكون ؛ ويبدو أثر الدراسة والاطلاع فى كل رأى من الآراء التى يسوقها المؤلف ، كما تبدو سعة الفهم واتساع أفق التفكير من الخواطر التى يعلق بها على ما يسوق من آراء لكتاب الشرق والغرب ، فمن ذلك تعليقه على كتاب العالم الفرنسى بلا شير على المتنبي وتعليقه على رأى مونتسكيو فى مهمة القاضى إزاء المعضل من القضايا ، ثم استطراده من ذلك إلى الأحكام فى الأدب وضرورة الحذر فى إبداء الحكم على الأدب والفن ، فيقول : « إن تجارب نقاد الأدب ومؤرخيه تحذرنا من مغبة هوس الحكم ألا نطيعه ولا نستسلم إليه » . إلى غير ذلك من التعليقات والخواطر التى يفيض بها الكتاب .

وتبلغ عدة صفحات هذا الكتاب ١١٦ صفحة من القطع المتوسط .

إنه فى يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بجزيرة الطوابية مركز قنا سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك عبد الله على عبد الله من جزيرة الطوابية كطلب محمد محمود جودة نفاذاً للحكم الصادر من محكمة قنا الجزئية الأهلية فى القضية المدنية رقم ٥٤٩٠ سنة ١٩٤٠ وفاء لمبلغ ٩٣١ قرش صاغ بما فيه أجرة النشر

قلم راغب العمراء المشهور

إنه فى يوم السبت ٣ مايو سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً فما بعدها بناحية قصر الجبال مركز ابشواى فيوم سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك السيد منصور المرجاوى من قصر الجبال نفاذاً لحكم محكمة ابشواى الأهلية الصادر فى القضية المدنية رقم ٤٦٢ سنة ١٩٤١ مدنى ابشواى وفاء لمبلغ ٢ جنيه و ٥٩٠ مليم بخلاف ما يستجد لغاية السداد كطلب نفيسة بنت عيسى أحمد من قصر الجبال . قلم راغب العمراء المشهور

فنه ، ويدوس أمانيه ؛ وليس هناك ما يطلب إلا الحرص على كرامة فنه ، أعنى كرامة مواهبه ونفسه .

ولقد أصدر أبو الوفا فى هذه الأيام — وهى ما هى — ديواناً سماه « أشواق » كما أخرج من قبل « الأعشاب » و « أنفاس محترقة » . ولقد ضمن « الأشواق » جملة طيبة من القصائد والمقطوعات التى فاض بها شعوره ، وتدفقت من إحساسه — ولا أقول من قريحته — فى فترات متباينة ؛ وهو قد قسمها إلى أقسام تتوزعها ثلاثة عناوين : غنائيات ، وتأملات ، وقوميات ؛ ولكنها فى الواقع تتلاقى كلها عند وضع واحد وطابع واحد ، وهو الطابع الذى يرتضيه ذوق أبى الوفا دائماً ، فى تنغيم الأداء ، وصدق الاحساس ، والوضوح والصراحة ، لا تتبين ذلك فى بعض قصائده أو مقطوعاته ، بل تلمسه فى كل شطر وفى كل قافية له ، ومن ثم كان شعر أبى الوفا جميعه مما يصح أن يتغنى به ؛ ولا عجب فقد جرى كثير منه فى أفواه الأفذاذ من المغنين ألحاناً مشجية تشبع الروح ، وتغمر العواطف ، وترتفع بالنفس . .

وأنت إذا بدالك أن تتبين شخصية أبى الوفا وروحه فى شعره ، فاقرأ قصيدته « قلب فنان » ص ٧٠ من الأشواق — إذ يقول فيها :

أنت الطبيعة بل أنت الحياة إذا
ما صوّرت فتنة فى شكل إنسان
أهواك أهواك فيم اخترت مظهره
ما لى اختيار وما لى فيك عينان
من أنت ؟ من أنت ؟ قولى لا معاذرة
فقد وهبتك إسرارى وإعلانى
فتحت صدرى لحب الناس قاطبة
من أجل حبك يا روحى ووجدانى
أمشى وكفى على قلبى أقول : ألا
من راغب فى فؤاد صادق حانى
يحب حتى كأن الأرض ليس بها
إلا زنابق من آس وسوسان
بل ليس فى الأرض من بغض ولا إحن
وليس فى الأرض من ظلم وطغيان
فلا وربك هذا القلب ما التفتت
عين إليه ! فيا للبائس العانى
قد عاد ينكرنى قلبى وأنكره
حيران فى التيه يمشى خلف حيران
كلاهما وهو منقاد لصاحبه
حرب له فهما إلفان ضدان
يا طير لا تخش منى الآن عادية
لا تخش يا طير منى أى عدوان
فى الروض لى صاحب من أجل خاطره
كل الطيور أحبائى وخلانى
لبلبل ولهيهـــــه وطهرها
وهبت للطير تحنانى وغفرانى
فديتها من صقور فى مخالبها
لون الدماء ومن بوم وغربان
هيهات يلقى زمانى الآن فى خلق
ما يستحل به لوى . . . كانسان

فن ذلك الذى يكون من العطف حتى يرى الأرض وليس بها إلا الزنابق والسوسان ؟! ومن ذلك الذى يكون من الإباء حتى لا يحتمل على نفسه لوم الزمان ؟ ! إنه من غير شك لا يكون إلا الشاعر الملهم ، والفنان الموهوب .

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٩ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٢٣ | الثلاثاء ٩ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٠ — ٦ من مايو سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

بعـــــد معركة البلقان

لمحرر الثقافة السياسي

انتهت المأساة اليونانية إلى النتيجة المحتومة ، وسقطت اليونان صريعى أمام الغزاة بعد أن سقطت يوجوسلافيا بقليل ، وبعد أن صمدت بمعاونة الحملة البريطانية نحو ثلاثة أسابيع ، وهي بالنسبة لأهوال الحرب الصاعقة مدة كافية إذا ذكرنا ما يحشده الألمان عادة من القوى السريعة الضخمة لإحراز النصر في جهة واحدة ؛ ولم تكن هذه النتيجة المؤلمة مفاجأة لأحد ، فلم يكن من المنظور أن تقاوم اليونان على صغرها وضآلة مواردها إلى ما لا نهاية ، أو أن تستطيع الحملة البريطانية ، وهي لم تتجاوز ستين ألفا وتواجه قوات تفوقها أضعافا مضاعفة ، أن ترد سيل الغزو العنيف المضطرم إلا بقدر محدود ، ولم يكن إرسال الحملة البريطانية مع ذلك إلى اليونان عبثاً ؛ فقد أوضح لنا مستر تشرشل في خطابه الأخير أن إرسالها كان ضرورة لا مفر منها صوناً لشرف بريطانيا ووفاء بعهودها لدولة آثرت أن تقف إلى جانبها وقت الشدة ، ولو ترددت بريطانيا في تلبية نداء اليونان لأصيبت هيبتها في الصميم ، وفقدت كثيراً من عطف أصدقائها وثقتهم ، ولا سيما في أمريكا ، حيث تبذل المعاونة الأمريكية باسم الديمقراطية كلها ولجميع الدول الديمقراطية ، وحيث تعتبر بريطانيا خط الدفاع الأول عن الديمقراطية ، ومن واجبها أن ترد عدوان النازية حيثما استطاعت . ومن جهة أخرى فقد حقق إرسال الحملة البريطانية إلى اليونان بعض نتائج

عسكرية لها قيمتها ؛ ذلك أنها كبدت الغزاة بمقاومتها خسائر فادحة في الرجال والعتاد والموارد ، وأرغمت هتلر على أن يشترى نصره في البلقان غالياً ، بعد أن حاول أن يبسط سلطانه على يوجوسلافيا واليونان بطريق الضغط والوعيد على نحو ما فعل في رومانيا وبلغاريا ، وكاد بالفعل ينجح في محاولته على أثر انضمام يوجوسلافيا إلى الميثاق الثلاثى . هذا إلى ما تتطلبه السيطرة على البلقان من الاحتفاظ بقوات كبيرة ، وما يترتب على ذلك من إطالة خطوط المواصلات الألمانية مرحلة كبيرة أخرى .

ولقد بقيت جزيرة كريت في أيدى البريطانيين كقاعدة مهمة للأسطول البريطانى وسلاح الطيران الملكى ؛ وفى استبقائها تدعيم لسيطرة الأسطول البريطانى على شرق البحر الأبيض المتوسط .

وإذا كان استيلاء هتلر على يوجوسلافيا واليونان يعتبر متمماً لمشروعه في الاستيلاء على أوربا كلها ، وإخضاعها لنظامه الجديد ، فإنه لا ريب أن هذا الاستيلاء لا يقصد لذاته ؛ فاستيلاء هتلر على اليونان يقربه من الشرق الأدنى ، ويسمح له باتخاذ قواعد جديدة للطيران يستطيع أن يهدد منها خطوط المواصلات البريطانية في شرق البحر الأبيض المتوسط ومصر . ومن المنتظر أيضاً أن يتجه الضغط الألمانى بعد إخضاع اليونان شرقاً نحو تركيا ؛ وقد مهد الألمان لهذه الحركة بالفعل ، فاحتلوا جزيرتى (ساموتراكى) ولمنوس الواقعتين تجاه غاليبولى والدردنيل ، وجزيرة طشيوز الواقعة تجاه أزمير ؛ فإذا ذكرنا أن إيطاليا تحتل جزر الدودكانيز حتى رودس ، فإن دولتى المحور تطوقان بذلك شاطىء الأناضول الغربى كله ؛ وظاهر أنهما تقصدان بذلك إلى أن تحولا دون تلقى تركيا أية معاونة بحرية أو عسكرية محتملة من هذه الناحية .

والحقيقة أن موقف تركيا إزاء التهديد الهتلرى ، لا يزال غامضاً كل الغموض ؛ فتركيا كما هو معروف ترتبط مع بريطانيا بميثاق تحالف ، وقد عاونتها إنكلترا بناءً على ذلك بالمال والسلاح ، وجرت مفاوضات عسكرية عديدة بين الفريقين ، حول تنسيق جهودهما لمواجهة الخطر المشترك ؛ ومنذ احتل الألمان بلغاريا ، والأنظار متجهة نحو تركيا ؛ ولكن تركيا احتفظت بسكونها وغموض موقفها حتى انتهى الألمان من افتراس يوجوسلافيا واليونان ، وأصبحوا يطوقون حدودها الأوربية وشواطئها الغربية ؛ ومن الواضح أن الخطر النازى أصبح يهدد تركيا الآن تهديداً مباشراً ، ومن الواضح أيضاً أن الزحف الألمانى لا يمكن أن يقف في البلقان ؛ وإذا صدق تكهن مستر تشرشل في خطابه الأخير ، فقد تمتد الحرب في القريب العاجل شرقاً إلى تركيا ؛ وقد يجد هتلر ما يغريه في الزحف شرقاً إلى سهول الجزيرة حيث منابع الزيت العراقى ؛ ولم تنس السياسة الألمانية مشروعها القديم في الزحف إلى بغداد والخليج الفارسى ؛ وإذا استطاعت القوات النازية الوصول إلى هذه المنطقة فإنها تهدد موارد الزيت الامبراطورية ، كما تهدد طريق الهند البرى بذلك تهديداً خطيراً ؛ بيد أنه يجب عليها قبل الوصول إلى هذه الغاية أن تقتحم هضاب الأناضول ؛ فماذا عسى أن يكون موقف تركيا إزاء هذه المحاولة ؟ هل تدافع عن استقلالها ، وسلامة أراضيها إزاء الاعتداء النازى ؛ وفى تلك الحالة تخف بريطانيا إلى إنجادها بكل ما وسعت وفقاً لمعاهدة التحالف المعقودة بينهما ؟ أم تنزل عند الوعيد الهتلرى وتؤثر أن تبحث عن سلامتها بالتسليم والخضوع ، على نحو ما فعلت رومانيا وبلغاريا ؟ لقد عقدت تركيا بالأمس معاهدة تجارية جديدة مع ألمانيا ، وقد يفسر ذلك بأنه اتجاه منها نحو مصانعة المحور ومداراته ، وربما نحو التفاهم معه .

بيد أن مثل هـذا التفسير لا يمكن أن ينهض دليلا على اتجاه تركيا الحقيق ؛ فما زالت تركيا تؤكد حتى هذه اللحظة على لسان زعمائها وصحافتها أنها سوف تدفع الاعتداء عليها بكل ما وسعت ؛ ولا ريب أن هـذا هو الموقف الوحيد الذى يمكن أن تقفه دولة تحرص على استقلالها وكرامتها ؛ وقد لا تمضى أيام قلائل أخرى حتى يستبين الموقف ، وتتضح نيات الألمان نحو تركيا ، ويتضح موقف تركيا إزاءها .

وعلى أى حال فان بريطانيا العظمى ترقب تطورات الحوادث فى هذا الاتجاه بمنتهى اليقظة . ومن الواضح أن سلامة العراق وسوريا وفلسطين تهم بريطانيا إلى أقصى حد ؛ ولم يخف مستر تشرشل فى خطابه ما قد يهدد هذه الساحة من الأخطار ؛ وقد اتخذت القوات الامبراطورية بالفعل مراكزها الدفاعية فى البصرة والموصل ، وهى ترابط فى فلسطين منذ بعيد ؛ ولا ريب أن انكلترا لن تقف جامدة إزاء أى تغيير يصيب الحالة الراهنة فى سوريا ويترتب عليه تمهيد الطريق لنزول قوات المحور فيها أو اقترابها منها ، وتصريح الحكومة البريطانية فى ذلك معروف لا يدع مجالا لأى شك ؛ ثم إن أى تطور يقع فى هذه الساحة يرتبط أشد الارتباط بمصير مصر وقناة السويس ، وانكلترا تحرص أشد الحرص على حماية مواصلاتها الحيوية من هذه الناحية ، خصوصاً بعد أن غدت بعد تطهير البحر الأحمر من الايطاليين ، وقرار الرئيس روزفلت ، طريقاً مهماً لوصول الامدادات الأمريكية إلى الشرق الأدنى .

وإذا كان شرق البحر الأبيض المتوسط لا يزال مسرح الاحتمالات القريبة ، فان غربى هذا البحر قد يغدو أيضاً ساحة جديدة للنضال ؛ وقد أشار مستر تشرشل فى خطابه إلى أن الحرب قد تتحول بعد البلقان إلى جبل طارق ومراكش الأسبانية ؛ وتهديد الألمان لجبل طارق يتفق تمام الاتفاق مع محاولة الايطاليين والألمان تهديد مصر وقناة السويس ، فهتلر يريد أن يضرب المواصلات البحرية البريطانية أينما استطاع ؛ ولا يخفى أن سيطرة الأسطول البريطانى ضرورية على مدخل البحر الأبيض المتوسط ليستطيع الاحتفاظ بسيطرته وتفوقه فى هذا البحر ؛ ولهذا لا يبعد أن يحاول الألمان الضغط من جديد على أسبانيا ، كى تسمح لهم باختراقها إلى جبل طارق وإلى مراكش الأسبانية ، حيث يحاولون من الضفتين محاصرة هذه القلعة المنيعة ، وقطع الطريق على الأسطول البريطانى ؛ وهناك احتمال آخر ، هو أن الألمان قد يحاولون باختراق أسبانيا غزو البرتغال ، لكى يجعلوا من شواطئها قواعد للطيارات والغواصات المغيرة على طريق الأطلنطيق الوسطى ، وهى طريق مازالت بعيدة عن منطقة الخطر الشمالية نوعاً .

تلك هى الاحتمالات التى يمكن أن تعقب غزو البلقان ، سواء فى شرق البحر الأبيض المتوسط أو فى غربيه ؛ وقد يقع إحداها وقد تقع معاً ، وقد تتجه الحرب شرقاً ، وقد تتجه غرباً ، وقد تنشب فى المسرحين معاً ، فيغدو البحر الأبيض كله أتون حرب مستعر .

ولا ريب أن مصر وقناة السويس ستكونان فى تلك الحالة مركزاً من أشد مراكز النضال فى هذه الساحة . وقد بدأ الزحف الثانى على مصر بالفعل منذ بضعة أسابيع ، حينما كانت معظم القوات الامبراطورية مشغولة بحرب الحبشة ؛ ولكن هذا الزحف الألمانى المفاجئ قد انتهى عند الحدود المصرية ، وفى اعتقادنا أنه سيمضى وقت طويل قبل أن يتجدد بصورة خطيرة ، خصوصاً وقد انتهت الأعمال الحربية فى الحبشة تقريباً ، ولم يبق للقضاء نهائياً على فلول الفاشستية فيها سوى مرحلة يسيرة ؛ وعندئذ يمكن حشد القوات الامبراطورية فى الصحراء الغربية مرة أخرى ،

هذا عدا جنود الحملة البريطانية الذين ارتدوا من اليونان ؛ ومن جهة أخرى فان الأسطول البريطانى الذى شغل فى الأسابيع الأخيرة بنقل هذه الحملة إلى اليونان ، ثم نقلها بعد الارتداد منها ، سيكون فى وسعه أن يشدد المراقبة على مضيق صقلية حيث تتسرب الامداد الألمانية إلى طرابلس .

* * *

وفى تلك الأثناء تضطرم معركة الاطلنطيق بأقصى شدتها ؛ وما زالت أنباء هذه المعركة البحرية الهائلة التى قد يترتب على نتائجها فصل الخطاب فى هذه الحرب ، غامضة كل الغموض ؛ وقد تناولها مستر تشرشل فيما تناول من خطابه ، فوصف المحيط بأنه وريد الحياة الذى يربط بريطانيا بالولايات المتحدة ، وأشار إلى أن معركة الاطلنطيق بالرغم من هولها وروعتها تدخل اليوم فى مرحلة أدعى إلى التفاؤل ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن فتوحات هتلر فى أوربا الغربية ، واستيلاءه على شاطئ أوربا الغربى من النرويج الى خليج بسكونية كانت بالأخص تمهيداً لمعركة الاطلنطيق والتمكن من قطع سبل البحار على بريطانيا ؛ ويحاول الألمان اليوم بحرب الغواصات والطائرات البعيدة المدى تحطيم مواصلات بريطانيا البحرية مع امبراطوريتها ، ومنع الامدادات الأمريكية من الوصول إليها ؛ وتبذل بريطانيا من جانبها جهود الجبابرة لإحباط هذه المحاولة ؛ ولا تنكر المقامات البريطانية عظم الخسائر التى تنزل بسفنها ، ولكن الظاهر مما صرح به مستر تشرشل أن عنف المرحلة الأولى قد خف نوعاً . ومن جهة أخرى فقد أصدر الرئيس روزفلت أمره بأن يتولى الأسطول الأمريكى والطائرات المائية الأمريكية حراسة القوافل فى نصف الكرة الغربى حتى منتصف المحيط الأطلنطيق ، وسيكون من أثر ذلك الاسراع فى إرسال الامدادات الأمريكية ، وتمكين الأسطول البريطانى من حصر جهوده فى حماية المياه القريبة من الجزر البريطانية ، ومضاعفة مقدرته بذلك على مطاردة الغواصات وتحطيمها .

والخلاصة أن حوادث هذا الصراع الهائل تجتمع اليوم ، وتتجه إلى مسرح الفصل والحسم ؛ فلننتظر قليلا ، فستكشف لنا الأسابيع القلائل المقبلة عن كثير مما نتوق إلى الوقوف عليه . (***)

الإسلام والإصلاح الاجتماعى (١)

للأستاذ أحمد أمين بك

بعض الأديان اقتصرت على تنظيم العلاقات بين العبد وربه ، فشرعت شعائر العبادة واكتفت بذلك ، ولم تمس شؤون الدنيا فى قليل ولا كثير ، بل منها ما دعا إلى الابتعاد عنها والتجرد منها .

ولم يكن الإسلام من هذا الطراز ، بل نحا منحى آخر ، فقد نظم العلاقة بين العبد وربه بما شرع من أنواع العبادات ؛ ومن ناحية أخرى واجه الحياة الدنيوية ، ووقف منها موقف المصلح الاجتماعى والشارع القانونى ؛ فقد نظم الأسرة ، ووضع نظاماً للزواج والطلاق والميراث وما إلى ذلك ، ونظم المعاملات المالية بما وضع من أحكام للبيع والشراء والاجارة وتحريم الربا ، ووضع أسس القوانين الجنائية من بيان للجرائم والعقوبات ، وبيّن العلاقات فى السلم والحرب ، وقرّر أصول نظام الحكم من وظائف الخلافة ونظام الشورى وما إلى ذلك . وعلى الجملة واجه كل مرافق الحياة الدنيوية أيضاً ، وتعرض لأسسها ، وأصلح ما كان عليه الناس فى جاهليتهم ، ووضع القواعد التى تنير للناس السبيل فى الحياة .

ولكن كل دين يسير على هذا النهج من تنظيم لشؤون المجتمع ، يجب لنجاحه أن يشتمل على عنصر هامّ من عناصر الحياة ، وهو (عنصر المرونة) ، وإلا تخلف وأصبح فى عداد التاريخ ، ولم يصلح لكل زمان ومكان ، إنما يصلح لقوم معينين فى زمان معين .

ذلك أن الشؤون الاجتماعية فى تغير دائم ورقى مستمر ، تتغير بتغير المدنية ورقى العقل ، وبما يستكشف من مخترعات ، وبأحداث الزمان التى تغير الأوضاع تغيراً كبيراً .

اعتبر فى ذلك بما حدث فى العصور الحديثة فى قرن واحد ؛ فالمخترعات الحديثة غيرت أوضاع الحياة وقلبتها رأساً على عقب ، والثورة الصناعية غيرت نظام العالم الاقتصادى والاجتماعى ، وأخلاقُ النـاس ومعاملاتهم بعد الحرب الكبرى تغيرت كل التغير عما كانت قبلها ؛ وستغير هذه الحرب أخلاق النـاس ومعاملاتهم ونظم الحكم ونظم الاقتصاد إلى حد كبير ؛ فإن حدث هذا فى قرن واحد ، فما بالكم بقرون عديدة ، وما بالكم بعمر العالم ؟

من أجل هذا كله كان لا بد لكل دين يواجه الشؤون الاجتماعية أن يحمل فى ثناياه روح المرونة يواجه بها هذه التغيرات ، وأن يفصل فصلا تاماً بين قواعد أساسية لا تتغير بتغير الزمان ، كقواعد العدالة ، ولا ضرر ولا ضرار ، ولكم فى القصاص حياة ، وأن تعدلوا أقرب للتقوى ، وإن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وبين مسائل جزئية تفصيلية هى وليدة البيئة والظروف ، إذا تغيرت تغيرت .

والإسلام جاء ليكون ديناً عاماً ، لا لأمة خاصة ، ولا لزمن خاص ؛ فلا بد له أن يقرر عنصر المرونة ، وكذلك فعل ؛ وعنصر المرونة فيه هو « الاجتهاد » . وأصل هذا ما جاء فى الحديث المشهور أن رسول الله بعث معاذ بن جبل ليقضى بين الناس فى اليمن ، فسأله : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى .

(١) وهى كلة ألقاها فى « مؤتمر الإصلاح الاجتماعى » .

هذا الأصل وهو الاجتهاد يتضمن أن يكون المجتهد عالماً بمقاصد الشريعة وأغراضها ومراميها ، دقيق النظر في معرفة أسرارها وأصولها ، ثم يواجه المسائل الجديدة والأحداث العارضة ، فيقضي فيهـا برأيه مستنداً إلى كليات الشريعة وأغراضها ، مقدراً ظروف الأحداث وما يترتب عليها من منافع ومضار .

هذا الأصل المرن يمكّن الشريعة من أن تساير الزمان والمكان ، فلكل ظرف تقديره ، ولكل حادثة حكمها .

وكان من نعم الله على الاسلام أن حدثت الفتوح الأولى في أيام عمر بن الخطاب ، وهو من أكثر الناس مرونة ، وأشدهم اجتهاداً في حدود مقاصد الشريعة الكلية .

لقد واجه المسلمون في الفتوح الأولى آلاف المسائل التي لم تكن معروفة في جزيرة العرب ؛ فهـذه نظم الري في مصر والعراق المعقدة المتشبكة ؛ وهذه ضروب المعاملات المختلفة التي لم تكن معروفة من قبل ؛ وهـذه نظم الحرب الجديدة ، وقواعد الحرب والسلم ، ونظام الأراضي والخارجين ؛ وهذه أشكال المدنية الفارسية والرومانية المتعددة الألوان ؛ وهذه الجرائم التي تخلقهـا المدنيـات ولم تكن معروفة للعرب ، ونحو ذلك من مسائل لا عداد لها ، كل هذه أمور واجهت الدولة الاسلامية وعلى رأسها عمر بن الخطاب ؛ فبم حلها هو وصحبه ؟ — بالاجتهاد ، بمرونة الاجتهاد ، بعينين تفتح إحداهما على مقاصد الشريعة وأغراضها ومراميها ، وتفتح الثانية على الظروف الجديدة ، والعوامل الجديدة ؛ ويستخرج من بين هذين النظرين أحكام اجتهادية عدت نبراساً لمن جاء بعد من الفقهاء والشارعين ؛ ولو لم يحصل هذا الظرف السعيد ، لوقف المسلمون حيـارى أمام الحوادث الغريبة والتصرفات العجيبة ؛ ولـكن الاسلام رباهم هذه التربية المرنة ، فسلحهم بالأصول ، وأسلس لهم في تطبيقها على الفروع ، فحلوا المشكلات ، واتقوا الأزمات ، وضربوا بأعمالهم خير مثال يحتذى .

ومثل هـذا ما حدث فعلاً طوال العصر الأموي ، والعصر العباسي الأول ، نقرأ التاريخ فتأخذنا الروعة من كثرة المجتهدين ومرونة الشارعين ، حتى أربوا على خمسمائة ، يواجهون الأحداث ، ويضعون لها الأحكام ، كل حسب اجتهاده ، وحسبما فهم من كليات الدين وأصول القواعد ؛ فلم تحدث حادثة إلا لها حكمها ، بل أحكامها ، مقدرين الظروف ، والمنافع والمضار ، دارسين عادات البلاد وعرفها وتقاليدها ، عالمين الحدود التي يتسامحون فيهـا لأنها لا تتعارض مع كليات الدين ، وعارفين الحدود التي لا يتسامحون فيها لمعارضتها لهذه الكليات .

ولم يَشْكُ الناس قط في تلك الأزمنة من عدم الاجتهاد وقلته ، ومواجهة الأحداث الجديدة ؛ فلئن كانت شكوى فقد كانت من كثرة الاجتهاد وكثرة الأحكام ، حتى اضطرت الممالك الاسلامية أن تعالج هذه الحرية في الاجتهاد بأشكال مختلفة ؛ ففي الشرق حوول معالجتها باختيار مجموعة للأحكام يعرفها الناس قبل التقاضي ، كما روي من حديث أبي جعفر المنصور مع مالك في شأن الموطأ ؛ وفي الأندلس ألفت رسمياً جماعة تسمى جماعة الشورى ، جعلت هي المرجع في الاجتهاد .

ثم كان — مع الأسف الشديد — أن جهل الناس هذا العنصر الأساسي في الاسلام ، وهو الاجتهاد ، فأغلقوا بابه فأغلقوا عليهم باب الرحمة ، وإذا عدم الناسُ الاجتهاد أصابهم الركود ، وتصلب العود . والزمان لا يقف أبداً ، والحوادث تتجدد دائماً ؛ فإذا لم تواجه بالاجتهاد المرن ، ولم ينتفع بتجددها ، تخلف النـاس عن زمانهم ، وجمدت عقولهم ، وسكنت حركتهم ، وأصيبوا بالفقر العقلي ، وهذا ما حدث للمسلمين فعلاً .

وقد تدرج هذا التصلب من اجتهاد مطلق إلى اجتهاد في المذهب ، إلى اجتهاد في الفتيا ، إلى لا شيء .

وكان لهذا الركود أسباب تاريخية عدة ، لا مجال لتفصيلها ، أهمها القضاء على حرية الفكر التي كان يقوم بها المعتزلة ، وغلبة بعض المحدثين في عهد المتوكل ، ثم غلبة نوع من التصوف ينشر القول بالجبر ، لا بالمعنى الفلسفي الذي هو ربط الأسباب بالمسببات ، ولكن بمعنى التسليم المطلق لحوادث الدهر ، من غير تدخل في شؤونها ، مطالبين أن يكون العبد كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

وقد أحس بعض كبار المسلمين بهذا الخطر الناشيء من ضياع الاجتهاد ، فحاولوا محاولات عنيفة في هذا الباب ، كما فعل عبد المؤمن بن علي في المغرب حول سنة ٥٥٠ ، إذ وجد العلماء انهمكوا في الفروع ، ورضوا بالتقليد ، فأحرق كتب الفروع ، وألزم العلماء بالاجتهاد وترك التقليد .

وكما فعل ابن تيمية عقب سقوط بغداد ، إذ نادى بالاجتهاد ودعا إليه ، ولقى في ذلك من العناء ما لا يوصف ، ولكن مع الأسف ذهبت دعوتهم هباء .

إن وقوف الاجتهاد معناه الركود ، معناه الحكم بالإعدام على العقل ، معناه عدم الإصلاح الاجتماعي ، معناه وقوف الناس حيث هم ، وكذلك كان تاريخ المسلمين منذ القرن الخامس ، حياتهم متكررة ، ولا جديد ولا قائد ولا مجتهد يبعث على حركة ، أو يحول الحركة إلى جهة صالحة .

ولم يكن إغلاق باب الاجتهاد مؤثراً على التشريع وحده ، ولا على الإصلاح الاجتماعي وحده ، بل شمل كل مرافق الحياة ؛ فالأمة واقفة حيث وقف المتقدمون ، والمعاجم كما كتب الأولون ، والصناعات كما صنع السابقون ، وهكذا . وظللنا كذلك حتى صفعتنا المدنية الحديثة فانتبهنا مذعورين .

كانت المدنية الحديثة مشكلة كبرى أمامنا ، كيف نحدد موقفنا إزاءها ؟ وقد عرضت هذه المشكلة لكل أمة مسلمة ، في الهند ، في الشام ، في فارس ، في العراق ، في تركيا ، في مصر . وقد رأينا أنه في كل قطر تقريباً ، وجد مذهبان مختلفان لحل هذه المشكلة ، وطريقة الإصلاح التي يدخلونها على الأمة . فأما طائفة فرأت حصر الدين في دائرة ضيقة جداً لأنه فقد مرونته ، وفقد أهله مرونتهم ؛ ولتكن هذه الدائرة دائرة العبادات والأحوال الشخصية ؛ وأما ما عدا ذلك من نظم الحكم وقوانين البلاد وما إلى ذلك من مرافق الحياة ، فيجب أن يتجه فيها إلى أوربا ونظمها وقوانينها ، فهذه باب الاجتهاد فيها مفتوح والمرونة فيها على أتمها ؛ فلندرس ما وصلت إليه أوربا في السياسة ، وفي الإصلاح الاجتماعي ، ولنجتهد فيه ولنأخذ منه ما يصلح للأمم الشرقية ؛ وليبق باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه ، كلما جد في أوربا جديد اقتبسنا منه ، وكلما تغير الزمن عندنا غيرنا ما يتفق والعقل والمصلحة . قالوا : لقد فصلت أوربا بين الدين والدولة فلنفصل نحن أيضاً ، ولنجعل للدين حدوده ، وللدولة حدودها ، ولنجعل حدود الدين في العبادات وما يتصل بها ، ولنجعل حدود الدولة واسعة كل السعة ؛ وليكن شارعونا في الدولة ممن علموا على النمط الغربي ، وممن يحكمون العقل المطلق ، ويجتهدون الاجتهاد المطلق . وبدل أن كان يشترط في المجتهد المطلق العلم بكليات الشريعة ومقاصدها ومراميها نشترط نحن أن يكون عالماً بمقاصد المدنية الغربية وكلياتها ومراميها ؛ ذلك لأننا أمام مدنية تشبه التي واجهتها جزيرة العرب أيام عمر بن الخطاب ، بل هي أشد تعقداً وتركباً : معاملات جديدة أشكال وألوان ، ومخترعات جديدة ، ونظم سياسية جديدة ، وكل شيء جديد ؛ فما لم نواجهها باجتهاد مطلق قوي واسع المدارك وقفنا مشلولين ، ولا أمل — في مرونة

كالمرونة الأولى أيام عمر — فى العصور الحاضرة على الأقل ، فوجب أن نجتهد اجتهاداً آخر ، أساسه العقل المطلق ، وقياس المنفعة والمضرة من غير قيد ؛ ولنؤسس القومية والوطنية كما أسستها أوربا ، ولينظر كل وطن وكل قوم فى مصالحهم حسبما ترشدهم إلى ذلك عقول مجتهديهم .

وبجانب هؤلاء دعاة آخرون يرون أن الاسلام فى أساسه عنصر صالح كل الصلاحية ، يحمل فى ثناياه المرونة الكافية كما أسلفنا ، وجمود أهله عارض ، وقشرة ظاهرية إذا أزلناها بقى على صلاحيته ؛ والأمم الاسلامية قد تألفت بالإسلام أجيالاً طوالاً حتى صار فى لحمها ودمها ، فإذا جئتها بمبادىء جديدة بعيدة عنها اضطربت أمزجتها وحياتها بين الموروث والمكتسب ؛ وهذه المدنية الغربية إنما تنفع بحذافيرها فى البيئة الغربية . وأساس تعاليم الاسلام عدم التفرقة بين شؤون الدين وشؤون الدنيا ، فالعمل شىء واحد له وجهان دائماً : وجه دنيوى ظاهرى ، ووجه دينى يتعلق بالنية ؛ والمدنية الغربية قد فصلت بين الدين والدولة لأن الدين المسيحى لم يتعرض لشؤون الدنيا ، فيمكن أن يوضع فى دائرته ، وتؤسس بجانبه دائرة أخرى للدولة وشؤونها ؛ وقال هؤلاء للطائفة الأولى : ربما كان يكون قولكم صحيحاً أو حجتكم قوية لو أن المدنية الغربية برهنت على صلاحيتها للحياة ؛ أما وكل يوم دليل جديد على فسادها ، من حرب تهلك الحرث والنسل ، ونحو ذلك من شرور ، فأولى ألا نندمج هذا الاندماج ، وألا ندعو إلى وطنيات وقوميات ، وإنما إلى عالم إسلامى يطمح أن تعم مبادئه الانسانية كلها ، ثم أن نؤسس إصلاحاتنا الاجتماعية على أساس نظريات الاسلام ؛ فذلك أقرب إلى قلب الأمة وأدعى إلى الإصغاء للدعوة وتلبيتها . ثم إن ذلك لا يكون إلا بإزالة القشرة الظاهرية التى غلفت الاسلام ، والرجوع إلى عناصره الأولى ، ومنها الاجتهاد المطلق ، والمرونة الكافية ، وهذا مطلب عسير ، ولكنه ممكن .

إذاً فكل فرقة من الفرقتين تدعو إلى الاجتهاد المطلق ، وإن اختلف منبع كل .

والعالم الاسلامى الآن حائر بين النزعتين والدعوتين ، ويخيل إلىّ أن الدعوة الأولى غالبة والاتجاه إليها أقوى ، والأمم الاسلامية تختلف فى مدى تطبيقها والعمل بها ، وربما عدت تركيا فى طليعة الآخذين بها .

وعلى قادة العالم الاسلامى واجب قوى الآن ، وهو إنقاذه من هذه الحيرة ، ورسم الخطة المحكمة الحازمة التى يجب السير عليها ، وتنظيم الاصلاح الاجتماعى حسب الفصل فى هذا الأساس ؛ ويجب ألا يكون هذا الإصلاح ارتجالاً فليست تقبل إحدى هاتين الطائفتين هذا الإصلاح المرتجل ، لأن الارتجال سير على غير هدى ، وبناء من غير تصميم . وحبذا لو أمكن السير على الرأى الثانى ، ولكنه — كما أسلفت — لا يمكن حتى يثبت أهله صلاحيتهم للمرونة ، للاجتهاد المطلق ، والله الموفق .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
***
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	فى مصر والسودان
٢٥	الطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

قصة مصرية :

زنوبيـــــا

[كان أذينة أمير تدمر عاصمة الصحراء ، ومركز تجارتها الغنية . وكان فتى من فتيان العرب البواسل ، يحب صيد السباع ويستصحب في رحلاته زوجته الحبيبة زنوبيا سليلة البطالسة ملوك مصر . وكانت تشبه كليوبترة جدتها في ثقافتها وذكائها وحسنها .

وحدثت في الشام عند ذلك حوادث جسام بين الروم والفرس ، أدت إلى هزيمة أمبراطور الروم فالريان ، وأخذه أسيراً عند ملك الفرس المنتصر سابور . وحاول أذينة أن يستميل سابور بهدية عظيمة ، ولكنه رماها في الفرات ، وأهانه وسب العرب . فثارت ثائرته ، وسار إلى حربه بجيش كبير ، وهزمه هزائم ماحقة . وكانت زنوبيا في أثناء غيبة زوجها تقاسي مرارة الوحشة والخوف . وانتهز الأعداء تلك الفرصة فأغاروا على تدمر ، ولكن الأميرة قاومت ببسالة حتى عاد زوجها منتصراً .

ولكن أذينة تغير بعد عودته ، وأقبل على سبية فارسية جلبها معه ، وأعرض عن زوجته الحبيبة ، فأثر ذلك في نفسها أثراً عظيماً ، حتى عالجت نفسها بترويضها على حكم العقل وأنكرت كل العواطف . وكانت تتعلم الفلسفة على معلم فيلسوف اسمه لونجين .

ودعت الحوادث أذينة إلى الخروج للحرب مرة أخرى ، فبقيت زنوبيا وحدها تظن أنها نسيت حب أذينة . إلا أن قلبها كان ينازعها إليه برغمها . ولكنها انصرفت إلى خدمة تدمر ، وجعلت كل وقتها منصرفاً إلى النظر في مصالحها . ولكن حدث في حين غفلة حادث تافه ، أدى إلى حركة في المدينة قتل فيها قائد حاميتها المسيحي الباسل حسان ، زوج وصيفتها المسيحية لبنى ، التي كانت تحبها كابنة لها ... ...]

استمعت زنوبيا إلى رسلها وهم يحدثونها حديث ما جرى في تدمر في المساء : ثورة مندلعة وفتنة جامحة ، تدمّر وتفتك ، والضحيان الكاهن يقود الجموع ويهدم الكنائس ومعه جمع كثيف من جنود الحيرة يصول في الطرق ، وقد اختلط به أعوان من أهل المدينة . والحامية لا تقدر على شيء من الدفاع .

وكانت وهي تسمع ذلك الحديث مأخوذة كأنها تشهد منظراً في حلم أو تسمع قصة من خلق الخيال . أهكذا تتغير تدمر بين صباح ومساء ؟

أهؤلاء هم أهل تدمر الذين كانوا في الأصيل يحيونها ويظهرون لها الولاء ؟ .

أيدعونها الملكة الصابئة وينادون لها بالويل والهلاك ؟

لقد كانت إذاً تسير على الجمر ، وتطأ فوق شفير جرف لا قرار له . ثم حملت جثة حسان إلى البهو ، وأقبلت لبنى باكية تئن مع أنفاسها في صمت ويأس . وأكبت على حبيبها القتيل تسوي عليه غطاءه في رفق وحنان وهي تنشج في البكاء ، فلم تملك الملكة عينيها ، وأرسلت دمعها مُنسجمة .

وكان لونجين واقفاً في ركن البهو واضعاً يده مقبوضة تحت لحيته ينظر إلى ما حوله من ظاهر ومن داخل ، وهو كئيب ، ورأى الملكة قد غرقت في جزعها فلم تتحرك لتدبر الأمر الذي طلع عليها فجأة فأذهلها . فتقدم نحوها وناداها في صوت حزين :

— مولاتي !

فنظرت إليه الملكة فاترة حائرة ولم تجب . فقال لها :

— رفقي بنفسك فالأمر في حاجة إلى تدبيرك .

فقالت زنوبيا وهي تحرك رأسها في يأس :

— وماذا بقي للتدبير يا لونجين ؟

فقال لونجين في هدوء :

— لقد وقفت يا مولاتي من قبل في مواقف أشد خطراً ثم انتصرت .

فقالت الملكة في فتور :

— كان ذلك يا لونجين ، ولم أجرب بعدُ الحياة . إن قلبي يا لونجين ثقيل .

ثم سارت خارجة من البهو ، وقصدت نحو فناء

القصر ولوبجين يسير فى أثرها خاشعاً . ومشت حيناً فى تؤدة فى منافذ الحديقة وقالت بعد صمت طويل وهى تملأ صدرها من الهواء :

— أحس الأرض ضيقة يا صديقى . وأشعر ببرد اليأس يدب إلى قلبى . وسمعت عند ذلك ضجة حملها الهواء من أطراف المدينة مع هبابه ، وهى تقترب وتعلو وتزيد وضوحاً . ورأت عند ذلك حركة فى حراس القصر ، وسمعت نداءهم إذ يتنادون ، فأسرعت ذاهبة نحو الباب الأعظم ، وما كادت تبلغه حتى رأت جفلا مسرعة تقبل نحوه ، وتدخل منه مندفعة ، ومن ورائها ضجة مفزعة من صليل السلاح ، ووقع حوافر الخيول . فانحازت إلى جانب خوف أن يحطمها التيار القوى المتزاحم عند الباب . ووقفت تنظر فى هلع إلى حامية المدينة ، وهى تتدفق إلى القصر محطمة تدخل فلولا فى جماعات متفرقة لم تخل إحداها من جريح أو صريع محمول . لقد مزقت تدمر مكيدة بارعة دكت أساسها فجأة بتدبير محكم جرى فى ستر الخفاء . وعرف سابور أخيراً كيف يهتدى إلى مقاتل عدوه الذى أذله . وترادفت الرسل على القصر تحمل إليه أن جنود ملك الحيرة تجوس خلال المدينة تقتفى أثر الحامية المهزومة ، وتفتك بالناس فى قسوة العدو الحنق الذى جاء للانتقام . فأقفلت أبواب القصر قبل أن تدخل إليه الفلول الأخيرة من الحامية المندحرة ، خوف أن يقتحمها العدو ويقضى على البقية التى بقيت فيه من كرامة تدمر .

لم تكن تدمر ثائرة ، ولكنها كانت تعانى مكيدة حرب طاحنة ، وكان الكاهن الضحيان فيها طليعة الخيانة يمهد لجيوش الأعداء ، وعادت زنوبيا فى يأس ذاهبة نحو القصر لا تدرى من هول المفاجأة فى أى وجه تسير .

ونظر لوبجين إليها وهى مطرقة فى سيرها ، ورأى اليأس المرتسم على وجهها ، وأحس أول مرة أن ملكة تدمر قد أذهلها الذعر ، وملك عليها عقلها . وكأنه أراد أن يزيل ذلك اليأس عنها فقال لها فى هدوء :

— تشجعى يا مليكة تدمر . تشجعى يا ابنة كليوباتره . لقد وقفت فى مواقف أشد من هذا خطراً وهولا .

فنظرت إليه وقد امتزج على وجهها الحنق واليأس وقالت :

— ابنة كليوبترة ! إنك تذكرنى بالخاتم الذى أعددته لمثل هذا اليوم .

ونظرت عند ذلك إلى خاتم ذهبى فى إصبعها ، ثم هزت رأسها فى جزع وقالت وهى تصعد درج القصر ثائرة :

— ولكنى لا أقوى . أواه ! إنى لا أقوى . كانت كليوبترة إلهة يا لوبجين . أما أنا فإنى لا أقوى أن أصافح الموت وأستقبله باسمة .

ودخلت إلى البهو فارتمت على أريكة وهى خائرة ، وقالت تخاطب لوبجين :

— لم يبق إلا أن نصبر على الدفاع يا لوبجين ، نصبر أياماً أو أسابيع ، ثم نسلم أنفسنا لنكون عبيداً لعبد سابور . أواه ، ليتنى أستطيع أن أصافح الموت يا لوبجين .

ونظرت عند ذلك إلى خاتمها فى فتور ، وهزت رأسها ، ثم وضعت رأسها بين كفيها .

فقال لوبجين فى عطف حزين :

— سندافع حتى يعود الملك يا مولاتى . لن يطىء أذينة من تدمر متى بلغته الأنباء .

فرفعت الملكة رأسها وقالت وهى تنفض ريقها :

— من مبلغ أذينة ما نحن فيه ؟

وهزت رأسها ثانية ، وعادت إلى إطراقها وهى تقول :

— سوف تحمل إليه أخبارنا بعد أن يكون العدو قد مزقنا وحطمنا .

ثم رفعت رأسها فجأة وقالت تخاطب لوبجين فى لهفة :

— لوبجين ! إنى لا أستطيع أن أبقى ههنا ساكنة ، ومدت يدها إليه كأنها تتوسل .

فاقترب لوبجين منها وقال :

— وإلى أين يا مولاتى ؟

فقالت وهى تهتز فى عنف :

— أذهب من هنا ، أهيم على وجهى فى الصحراء ، أقصد إليه حيث يكون ، أذهب إلى أذينة لألتجئ إليه ، فانى أشعر بالخوف يغمرنى ، أشعر بالخوف يجتاحنى .

وقامت عند ذلك فى ذعر وهى تمد يدها نحو معلمها فى توسل .

فأسرع الفيلسوف تخطف يدها فى لهفة وقبلها ، ثم أرسلها ونظر إليها كأنه يستغفر من جرأته وقال :

— إن دمى فداك يا مولاتى .

فقالت وهى تشير إلى ظهر القصر :

— من هنا نستطيع أن نخرج من المدينة . ولن يشعر أحد بغيابنا إذا خرجنا الساعة .

فنظر إليها الرجل مبهوتاً وقال فى تردد :

— ولكن . . .

فقالت وكأنها لم تسمع مراجعته :

— تستطيع الهجان أن تحملنا إلى حمص فى مساء الغد . إنها هجان مختارة ، تقيم هناك فى آخر السرب المنحوت فى الصخور ، قد أعدت لمثل هذا اليوم يالونجين . أتستطيع الركوب ؟

فقال لونجين فى حماسة :

— مربى بما شئت يا مولاتى . سأجد معك القوة والقدرة . ولكن .

فأشارت إليه بالصمت ، ثم أخذت بيده وخرجت من البهو مسرعة حتى بلغت ظهر القصر ، وعمدت إلى ركن مهجور هناك به كومة من الحجارة ، فأقبلت عليها وجعلت تزحزحها ؛ وأقبل معها لونجين يساعدها ، حتى زالت وظهر وراءها باب من الحجر الثقيل فى جانب منه يد طويلة من الحديد ، فحركت زنوبيا اليد ، فدار الباب على نفسه وانفتح ، وبدا من ورائه مدخل سرب خفى ، فدخلت فيه الملكة وأخذت بيد معلمها تقوده ، وسارت تتحسس الطريق حتى بلغت نهاية السرب ، فلاح ضوء القمر الخافت .

وخرجا بعد قليل فإذا بهما على ربوة عالية والفضاء الفسيح يمتد تحتهما يخيم عليه السكون .

فسارت زنوبيا تهبط من الصخر فى حذر ، وتبعها الفيلسوف فى دهشة من أن تكون هذه الربوة الوعرة مدخلا إلى القصر المنيف . وبعد جهد جهيد نزلا إلى الوادى المجاور ، فسارت فيه الملكة حتى دخلت فى شعب ضيق منه ، وعرجت على بناء طالع عليهما كأنه من مساكن الجان فى عالم مجهول .

وكان لونجين غارقاً فى عجبه يسائل نفسه أهو فى حلم أم أنه حقاً يشارك الملكة فى سر غريب .

وطرقت زنوبيا باب البناء ، فأجاب بعد حين من داخله صوت . فنطقت بلفظين فانفتح الباب ووقف فيه شيخ بدوى فى سلاحه ، فحيته الملكة ساكنة وقالت له :

— أعد يا سعدان ثلاث هجائن ، وكن ثالثنا إلى سفر قريب

فحيا الشيخ فى خشوع ، وذهب بغير أن ينطق كلمة .

ودخلت الملكة مع لونجين إلى مجلس خشن ، فجلست صامتة حتى عاد الشيخ يقود هجائنه ، ثم سار الركب الضئيل .

وكانت الملكة صامتة وهواء الليل البليل يهب على جبينها فيخمد فيه الحر الذى ألهبه الجهد واضطراب الشجون . وانطلقت الهجان فوق الفدافد كأنها تسبح فوق الهواء ، وكان القمر قد غاب ولف الليل ظلمة لا تتنفس فيها إلا أشعة النجوم الخافتة ، وأقبلت الهواجس تزدحم على زنوبيا وتضطرب فى صدرها الكسيف ؛ فهؤلاء بنوها وبناتها قد غادرتهم فى القصر لا تدرى كيف يطلع عليهم الصباح . لقد أذهلها الفزع فانطلقت مع دفعته ولم تقف لتفكر فى شىء . أتكون قد زلت فى الاسراع وأهملت ما كان ينبغى لها أن تحرص عليه من البقاء إلى جانب الصبية تواسيهم إذا اشتد عليهم الكرب ، وتقاسمهم

القضاء إذا ما حم القضاء ؟

ولكن ذلك الملك الذى كان يعنى حبها ودينة ، أكان ينبغى لها أن تبقى فيه لتراه ينهار من تحت أقدامها ؟ لا بل لقد أحسنت ، فلن يمضى إلا صباح ومساء حتى تقبل على زوجها وتفضى إليه بما كان ثم تعود معه منصورة لتنكل بهؤلاء الذين روعوها وكادوا لها فى غيبته . إنها بلا شك راجعة إلى القصر قبل أن يقدر هؤلاء الخونة على أن ينالوا شيئاً من أبوابه وأرابيه .

وسيعود أذينة معها ولن يبقى فى تدمر خوف إذا عاد .

ثم سيعود أذينة معها . فهو زوجها الذى لا يزال يملأ قلبها ، وإن خيل إليها أنها قد نسيته وطوت ذكراه فى أعماق الأمس الثائر . هو أذينة صاحبها وبطلها الذى أحبته وعبدته كما يعبد الناس الإله . أفى هذه الغيرة التى تفسد قلب المرأة وتنسيها كل حبها وتزيغ حكمها ! أمن أجل هذه الأسيرة التى عاد بها أذينة من حرب فارس تكون وتقتل ، غيظاً وحنقاً ؟ أفى هذه الذكرى ! أتفقد أذينة من أجل شهناز ؟ ما أقبح ذلك الاسم ! وما كان أشأم طلعة هذه الجارية ! إنه أخرجها معه عندما خرج إلى حربه فى الشام لتخدمه وتؤنسه ، وتركها هى فى تدمر لتكون ربة الملك وسيدة القصر . ما كان أشد ظلمه فى هذه القسمة إذ لم يترك لها إلا القصر والملك ! ولكنها ستعود إليه وتطلب عفوه وحمايته . وحسبها عقاباً أنها تضرب فى كبد الصحراء فى الليل هاربة إليه بعد أن تركها فى تدمر عزيزة قوية . لقد عرفت أنها لا تقدر على شىء بغير أذينة ، وأن يدها الضعيفة لم تقدر على أن تمسك ذلك الملك ، فانفرط من بين أصابعها الناعمة وتسرب كما تتسرب الرمال .

بقيت زنوبيا فى هذه الهواجس الخانقة حتى طلع الصباح ، وعلت الشمس فى كبد السماء وأفاضت على الأرض حرورها .

قالت بصاحبيها إلى ظل صخرة فى أحد الشعاب ، وقاسمتهما زاداً حمله سعدان معه فى سفره معلقاً على رحله .

ثم بلت شفتيها من ركوة ماء ، وناولت لونجين منها جرعة ، واستأنفت السير ، وعادت إلى نجوى هواجسها . ومضى النهار ومالت الشمس للغروب ، وبدت السحب على الأفق مزبرجة فى إطار زاهى اللون عبقرى ، ولاحت من دونها رؤوس أبنية شاهقة فخلع الغروب عليها ظلالاً ساحرة ، فأشارت زنوبيا إلى معلمها قائلة فى فتور :

— تأمل حمص أيها السيد الحكيم . هكذا تبدو الآمال الخالبة من بعيد . لو أنصف الناس ما التمسوا الحقيقة ، واقتنعوا بالخيال الخادع .

فالتفت لونجين إلى المنظر الباهر الذى طلع أمام عينيه وتمتم قائلاً :

— عفواً يا مولاتى . ما غرر بهذا العالم سوى الخيال . لقد وجدت الحقيقة دائماً أبهى منه وأروع !

ثم نظر إلى وجه الملكة الشاحب ، وبقى صامتاً يناجى صورتها التى ظلت ماثلة فى خياله فى أثناء ذلك السفر الطويل !

وأقبل الليل قبل أن يبلغ الركب أسوار حمص ! فكان لا بد لهم أن يقضوا الليلة فى فضاء الصحراء . وأقبل سعدان ولونجين يقيمان للملكة خباء ! ثم سار الشيخ البدوى بالهجان حتى بعد ، وأناخها عند سفح كثيب ، ورقد إلى جوارها ، وذهب فى سبات عميق .

وكانت زنوبيا متعبة من أثر السفر ، وما عانته فيه من جهد واضطراب ! ولكن الهموم لم تدع لها إقبالاً على النوم ، ولا تفكيراً فى الطعام ! فجلست تحدث لونجين وتفضى إليه بهواجسها التى لم تجد فرصة فى أثناء السير للإفضاء بها .

وحاول لونجين أن يسرى عنها ويبعث فيها الأمل من ترقب لقاء زوجها ، فقال باسماً :

— ليس بينك وبين الملك إلا أن يطلع الصباح . سيقبل إليك إذا علم بمكانك كما يقبل النسر المتلهف إلى وكره فى رؤوس الصخور الوعرة .

فقالت زنوبيا فى زفرة حارة :

— أذينة ! أذينة ! تحدث عن أذينة وإن كان فى حديثك ما يدمى قلبى الجاحد الثائر .

وانتفض لونجين عند سماع قول الملكة ، وعلا وجهه احمرار شديد وفتح عينيه ناظراً نظرة اعتذار وأسف

فتبسمت الملكة ابتسامة مرة وقالت ناظرة إليه عاطفة :

— لا بأس عليك فيما تقول يا لونجين ، حدثنى عن أذينة وإن تألمت من وقع حديثك ، فلست أجد فى ألمى إلا راحة وسلاماً . حدثنى عن أذينة فقد ظلمته وأنكرته ، وأغلقت قلبى دونه فى غيبته ، وكنت فى كل ذلك جاحدة ظالمة . لم أفض إليك بشىء مما كان فى نفسى ، فقد كانت الثورة تهز قلبى فى أعمق أغواره ، وكانت كبريائى تقف دون الكشف عنها . لم أكشف عن ثورة ذلك القلب الظالم لأحد ، حتى إليك أنت أيها الصديق الكريم .

ثم أطرقت ووضعت يديها على عينيها ، وتركت دموعها تسيل .

فقال لونجين فى صوت خافت :

— مولاتى ! ترفقى بنفسك من هذا الوهم الكئيب .

فقالت زنوبيا وهى تجفف عينيها :

— بل هو الحق يطالعنى الساعة بعد أن غاب عنى دهراً .

— إنك لا تعلم يا لونجين بسر هذا القلب الثائر الذى لا يزال يشرد بى . أف من ذلك القلب ثم أف .

فقال لونجين عاطفاً :

— إنك تحملين على نفسك يا مولاتى .

فقالت زنوبيا مسرعة :

— ما كان أشد غرارتى يا لونجين . قد وهبنى أذينة كل ما يستطيع أن يهب الرجل إلى امرأة . أتذكر يا لونجين إذ قلت إن الرجل إذا أحب وهب لمن يحب قلبه وسخر له قسوته وبذل له نفسه ؟ . قد وهبنى أذينة قلبه الباسل وسيفه البتار وكرمه الغمر ، وسخر لى قسوته ودفعته وعنف سطوته . وهبنى كل ما يملك فى الحياة ومن الحياة ؛ ولكنى لم أفكر إلا فى نفسى ، وداخلتنى غيرة المرأة العمياء فى غيبة من غيباته فنسيت كل إحسانه ، وكل حبه ، وكل كرمه . نسيت حمايته وبسالته ووفاءه ، ولم أكن إلا امرأة كسائر هؤلاء النساء . لم تحدثنى هذه النفس الجاحدة بالعفو ، وذهبت مع الكبرياء حتى أنكرته ، ولم أدر أنى أفرط فى أغلى ما أملك فى الحياة . وعادت عند ذلك فوضعت رأسها على يديها واستغرقت فى البكاء . فقال لونجين وفى صوته رنة اللوم :

— حسبك يا مولاتى ، وكفكفى هذه الدموع . سيطلع الصباح وستلقين زوجك الباسل ، وستعودين معه إلى تدمر منصورة . وتجدين كل من تحبين فى عافية .

وكأن كلمات لونجين أدخلت بعض السلام إلى قلب الملكة المضطرب ، فتنفست وجففت عينيها وقامت خارجة من خبائها وقد وضعت عباءة فوق كتفيها وسارت فى الصحراء تملأ صدرها من هواء الليل ، وتتأمل النجوم اللامعة تتحدث حديث الأبد ، وسار لونجين إلى جانبها صامتاً فالتفتت الملكة إليه وقالت :

— إنك لا تعرف الوحشة يا صديق الأجل . إنك تشبه الآلهة .

فابتسم لونجين وقال وهو يتنفس :

— ليس بإله من له نفس يتردد .

فقالت الملكة :

— الآلهة وحدها لا تعرف هموم الانسانية .

فقال لونجين فى حزن :

— لا يحس رهبة الظلام من ولد أعمى .

فالتفتت إليه الملكة مبتهجة وقالت :

— كلمات حزينة يا صديق .

وكان القمر قد أطل محمراً فوق الأفق الشرقى ، يملأ الجو بنور حزين ، فومضت لمة على بعد فى ضوئه الثائر ،

التعليم الأولى

بين وزارة المعارف ومجالس المديريات

للأستاذ محمد عبد البارى

مقياس عزيمتنا :

تظهر أهمية التعليم الأولى بظهوره بارزاً فى قانون البلاد الأساسى منذ سنة ١٨٨٣ . ولكن تطبيق هذا القانون النظامى على نطاق عملى واسع لم يظهر إلا بعد تعديل القانون النظامى ، المرة الثانية ، سنة ١٩١٣ . فمنذ ذلك الحين أخذت مجالس المديريات تتوسع فى إنشاء المدارس الأوليـة ، وفى إعانة المكاتب الأهلية ، وكان مورد المجالس الرئيسى — وهو رسوم تفرض بنسب أقلها عشرة فى المائة وأكثرها ١٦ ٪ من ضريبة الأراضى الزراعيـة — مخصصاً فى الأصل للتعليم الأولى . وأجاز القانون إنفاق ٣٠ ٪ على ما عدا هذه المرحلة من مراحل التعليم .

ولكن بعد مضى نحو أربع سنين على تعديل القانون النظامى ، لاحظ وزير المعارف سنة ١٩١٧ أننا لم نخط بعدُ خطوات تذكر فى سبيل تعميم التعليم . فأعد مذكرة مشروع يقضى على أمية الذكور فى عشر سنين ، كما يقضى عليها فى نصف عدد الاناث . ولا أدرى لهذه التفرقة سبباً ؛ لكن من الأدلة التى ساقها الوزير حينذاك لدعم رأيه أن كل إصلاح اجتماعى يتعذر مع بقاء الأمية فاشية فى البلاد .

ثم صدر القانون الأساسى الحالى أو القانون الدستورى سنة ١٩٢٣ ، وفيـه نص صريح على أن التعليم الأولى إلزامى بالمجان للذكور والاناث على السواء .

وفى سنة ١٩٢٥ لم يكن صـدر قانون بتنظيم التعليم الأولى العام وترتيب أمر تنفيذ القانون الدستورى . فشكل وزير المعارف وقتئذ لجنـة لوضع القانون ، على أن تعمم هذه المرحلة الضرورية من مراحل الثقافة القومية ، فتقضى على أمية الناشئين فى عشر سنين أيضاً . ولم تنتظر وزارة المعارف حتى يتم وضع القانون ، بل شرعت فى نفس العام تنفذ الفكرة مشركة معها مجالس المديريات فى النفقة وفى الادارة ، على أساس أن تكون الادارة محلية ، وأن يكون التعليم على نظام نصف اليوم ، لكل من الذكور والاناث فترة من النهار .

ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل شملت العجلة إعداد المدرسين . فقد كان عدد المعلمين أقل من أن يماشى سرعة تعميم التعليم العام فى الفترة المحدودة . فأنشئت أقسـام خاصة لإعداد المعلمين . وزيد عدد مدارس المعلمين والمعلمات . وتحمست وزارة المعارف وشاطرتها مجالس المديريات هذه الحماسة .

لكن وزير المعارف ، صاحب الحركة ، ترك الوزارة ، ففترت دون علة ظاهرة . واستمرت مدارس المعلمين تخرج المعلمين والمعلمات حتى زادوا ، وبلغ المتعطلون منهم

فوقفت فى مكانها تخترق الفضاء الأغبش بعينيها الصافيتين ، ثم قالت وهى تمسك بيد لونجين :

— أما ترى ؟

فقال لونجين متردداً :

— هى جماعة مقبلة من حمص . أترين أن نميل عن طريقهم ؟

فقالت الملكة :

— هذه حمص ، وما نحن إلا فى الطريق إلى تدمر . لن يكونوا إلا أصدقاء .

وسارت نحو الركب القادم مسرعة وهى تقول :

— وأى خوف نخشى بعد ما نحن فيه ؟

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

آلافاً ، ونقص عدد المكاتب التي كان مقرراً إنشاؤها في كل عام ، بل لم يصل قط حده الأدنى السنوى وهو ٨٢١ مكتباً .

وبلغ بنا التاريخ سنة ١٩٣٥ ، ولكن لم يحقق ما قيل سنة ١٩٢٥ بل لم يبدأ بتنفيذ قانون التعليم الذى صدر سنة ١٩٣٣ . وظل هذا القانون بغير تنفيذ كامل حتى خريف سنة ١٩٣٦ ، مع أنه نص على إلزام وزير المعارف بتنفيذه بمجرد نشره بالجريدة الرسمية . وقد نشر بها فى يونيو سنة ١٩٣٣ .

وتكلم قانون التعليم من اختصاص كل من مجالس المديريات ووزارة المعارف فى المادتين ١٨ و ٢٤ منه .

والنص فى صدر أولى المادتين ، وتعريف اختصاص وزارة المعارف فى ثانيتهما ، يشعران بأن مجالس المديريات هى التى تدير التعليم الأولى بالأقاليم مسترشدة بتوجيه وزارة المعارف الفنى . وبأن هذه الوزارة لا تغفل عن هذا التوجيه ولو لم تطلبه إليها المجالس . لكن النص فى المادة (١٨) على أن تكون إدارة مجالس المديريات مقيدة بتعليمات وزارة المعارف ، دون أن تقيد مدى هذه التعليمات ، أدى إلى تنازع وزارتى الداخلية والمعارف عند التطبيق ، وإلى تغلب وزارة المعارف بسبب حاجة مجالس المديريات إلى المال للقيام بالتزاماتها ، وهذا المال لا يأتيها إلا من طريق وزارة المعارف . وهكذا انقلب العمل اللامركزى بطبيعته إلى عمل مركزى بنصوص القانون ، مضافاً إلى النزعة المركزية التى نشكو منها جميعاً ، وأصبحت مجالس المديريات المطالبة بكفالة التعليم الأولى وإدارته مغلولة الأيدى نتيجة تغيير الفريق الأقوى تفسيراً مشرباً بالروح المركزية . وكان هذا من أسباب تأخرنا بدلا من تقدمنا فى مرحلة التعليم العام .

هل درست المسألة المالية عند وضع القانون :

نص القانون على أن ينفق على التعليم الأولى بالأقاليم من موردين رئيسيين : الأول ٦٦ ٪ من قيمة الرسوم الاضافية التى تقررها مجالس المديريات على الضرائب الحلية ، والثانى ١ ٪ من إيرادات المجالس المحلية والقروية .

ولكن لاشىء يدل على أن هذه الموارد حسبت ، بل يظهر أنها لم تقدر تقديراً صحيحاً أو قريباً من الصحيح ، بدليل أن الشارع افترض زيادة هذه الموارد عن نفقات التعليم الأولى بالأقاليم ، بعد أن تتولى وزارة المعارف ما عداه . وأنه قد يبقى بعد ذلك وفر يستخدم فى إنشاء مبانى المكاتب العامة . ولكن الواقع أن الموردين المذكورين لا يكفيان لتغطية نفقات خمسين فى المائة من المدارس الأولية والمكاتب العامة التى كانت قائمة بالفعل وقت صدور القانون سنة ١٩٣٣ .

ونجم عن هذا أن وزارتى المعارف والداخلية اتفقتا على أن تدفع الأولى لمجالس المديريات مقدار عجز الموارد المخصصة للتعليم عن نفقاته . وقامت بهذا فترة من الزمن . فلما عظم الفرق رأت اللجنة المالية بوزارة المالية أن لدى المجالس أموالا احتياطية تقرب من ستمائة ألف جنيه ، وأن الخزانة العامة لا تدفع الفرق إلا عندما ينفد مال المجالس الاحتياطى ، وأقرها مجلس الوزراء على هذا سنة ١٩٣٧ .

وفات القوم أن قانون التعليم لسنة ١٩٣٣ وقانون مجالس المديريات لسنة ١٩٣٤ قسما موارد المجالس بين التعليم وغير التعليم . فالأخذ برأى اللجنة المالية مخالفة للقانون . ونتيجته غل أيدى المجالس من أعمال الاصلاح الأخرى . ولا مندوحة من علاج هذا الأمر .

نظام نصف اليوم :

نص القانون على تناوب الذكور والاناث اليوم المدرسى . ونشأ من تطبيق هذا النص أن قل عدد أفراد أحد الجنسين فى فترته وزاد فى الأخرى ؛ فكان عدد التلاميذ أ كثر مما ينبغى أحياناً وأقل مما ينبغى أحياناً أخرى . وترتب عليه أن يكون عدد التلاميذ بالفصل الواحد أحياناً

أربعة تلاميذ ، وأحياناً أقل . ولتلافي مضار هذا العيب أشارت وزارة المعارف بأن تخصص مدارس للبنين وأخرى للبنات في كل بلدة يتعدد فيها عدد المكاتب ، وأن يشغل الجنس الواحد الفترتين . واستقام الأمر بمخالفة القانون !

وفي سنة ١٩٣٥ أزعج وزير المعارف ضعف الإقبال وقلة التحصيل بالمكاتب العامة ، فأشار على مجالس المديريات بتحويل بعض المكاتب إلى نظام اليوم الكامل مع تحصيل رسوم مدرسية لتجربة ما إذا كان هذا يعالج النقص أو لا يعالجه . وأخذت المجالس بالمشورة ، وزاد الاقبال وزاد التحصيل بطبيعة الحال . واستقام أمر هذه المدارس بمخالفة القانون أيضاً !

الوضع الحالي لمسألة التعليم الأولى :

تقرأ في مناسبات مختلفة إحصاء عن الشوط الذي قطعناه في مرحلة التعليم الأولى . ويؤخذ من الإحصاء الرسمي أن المقيدين بالمكاتب العامة كاد يستغرق من هم في سن التعليم الالزامي من ٧ سنين إلى ١٢ سنة . ولكن الواقع المؤلم أن هذه مجرد أرقام ، وأن جل من اقتصروا على التعليم في المكاتب العامة يتركونها بعد تمام الثانية عشرة من عمرهم شبه أميين ، وأنهم بعد تركهم المكاتب لا يلبثون أن ينسوا القليل الذي تعلموه ! هذا ما يعرفه كل القائمين على أمر التعليم بوزارة المعارف وبمجالس المديريات .

تبذير وتقتير :

ولقد كان من أسباب هذا الوضع الغريب أن المال المخصص للتعليم الأولى أقل مما يكفي لتعميمه على نظام اليوم الكامل . وأننا نحوم حول المشكلة ولا نستطيع حلها ، لأن أهم وسائل هذا الحل في توافر المال المخصص للتعليم وهو غير متوافر .

وهناك حقيقة عجيبة ! وهي أننا نسرف ونقتر في آن واحد ، ومن الممكن اجتناب الأمرين لحد كبير بانتهاج سبيل القصد التي سأشير إليها .

فمن الاسراف أننا أكثرنا من تعديد المكاتب بالبلدة أو القرية الواحدة ، ومن الممكن اجتناب هذا ؛ ففي بعض المدن التي يبلغ عدد سكانها ثلاثين ألفاً أنشأنا أحد عشر مكتباً ؛ وفي بعض القرى التي لا يتجاوز عدد سكانها خمسة آلاف يقوم مكتبان أو ثلاثة ؛ ويرجع هذا إلى أننا لا نبني مكاتب فسيحة تتسع لمن هم في سن التعليم . ولا نجد مكاناً واحداً في القرى ولا مكانين أو ثلاثة في المدن الكبرى تتسع لمن هم في سن التعليم . فنضطر إلى تعديد المكاتب وتعديد فصول الفرقة الواحدة ، لضيق المباني ولضيق حجرات الدراسة ، وفي مجلس واحد من مجالس المديريات نحو مائة بلدة في كل منها مكاتب متعددة تتراوح بين أحد عشر مكتباً ومكتبين اثنين . وفي كثير من هذه المكاتب تتعدد فصول الفرقة الواحدة بسبب ضيق الحجرات . ومن الممكن توفير خمسين رئيساً ومثلهم من المدرسين ، واقتصاد مرتباتهم ، وهي لا تقل عن ستة آلاف جنيه في العام ، إذا نحن أعددنا نظاماً دقيقاً لانشاء هذه المدارس . ومن الممكن في كثير من الحالات الاستعاضة عن المكاتب العامة بتشجيع إنشاء مكاتب أهلية تقدم إليها الجهة المختصة المعونة المالية والارشاد الفني . وبهذا تهبط نفقة المكتب الواحد من نحو ٣٠٠ جنيه إلى نحو ٥٠ جنيهاً في العام .

ومن المستطاع تخفيض كثير من أثمان الكتب والأدوات ونفقات التأثيث بمراعاة البساطة والقصد . هذا كله مستطاع إذا لم نضن بالمال على الإنشاء ، وتركنا المجالس تتصرف بما تمليه حاجاتها وظروفها المحلية ، مع تقييدها بمبلغ إجمالي لا تتعداه . وليكن المال المخصص للبناء داخلاً في هذا المبلغ المحدد . فاذا ما تحقق هذا أمكن زيادة عدد المعلمين ، وجعل التفتيش الصحي فعالاً لا صورياً كما هو الآن ، بسبب قلة عدد الأطباء . وإن الطبيب الواحد مكلف رعاية نحو مائتين وخمسين مكتباً ومدرسة تفصلها ، في أكثر الحالات ، مسافات شاسعة ، فتكون النتيجة أنه يضطر إلى أن يمر بأكثرها ، مراً خاطفاً ، مرة أو مرتين في العام .

أما أجور الكتاب فإنها تستدعى أعظم الاهتمام ، فإن هناك مجلساً واحداً ينفق فى العام الواحد أكثر من عشرة آلاف جنيه فى أجور الكتاب التى يستأجرها ، وبذلك يكون قد أنفق من سنة ١٩٢٥ للآن نحو ١٥٠ ألف جنيه فى هذا الباب . وهذا المبلغ كان كفيلاً بسد حاجته ببناء دور الكتاب الفسيحة والاستفادة من سعتها ، والاستفادة بما ينشأ من ذلك من نقص نفقاته .

رأى جدير بالنظر :

من نحو عام لفت نظر رئيس مجلس الوزراء حينئذ ، وكان وزيراً للداخلية ، قصور النظام الحالى . فكتب إلى المجالس يدعوها إلى بحث الأمر على ضوء التجربة والظروف المحلية ، والادلاء بآرائها . وبحث أحد المجالس الموضوع ، وهداه بحثه إلى لمس الحقائق الآتية :

أولاً — أن برنامج التعليم خال من العنصر العملى ، وأن هذا من شأنه إعداد الناشئين إعداداً ناقصاً .

ثانياً — أن نظام نصف اليوم لا يدع التلميذ بعد انقضاء خمس سنين إلا أقل من سنتين فى الواقع لاستيعاب المقرر دراسته فى أربع سنين على الأقل فى نظام اليوم الكامل . ونتيجة هذا أنه لا يحصّل إلا القليل الذى يذهب أثره بعد عام أو عامين ، وأن الزمن المخصص للقراءة والكتابة لا يكفى لتثبيتها لدى الناشئين ، وأن كثيراً من الزمن ينفق عبثاً فى تحصيل معارف عامة عسيرة الادراك على الناشئين ، وهم شبه أميين .

واقترح علاجاً لهذا ، أن يكون التعليم على نظام اليوم الكامل فى الفرق الثلاث الأولى مع إعداد كتب المطالعة تحوى المعارف العامة ، وإضافة الزمن المخصص لهذه المعارف العامة إلى الزمن المخصص للقراءة والكتابة ؛ وهذا يتيح للطفل المنقول إلى السنة الرابعة تفهم ما يلقى عليه . وفى الفرقتين الرابعة والخامسة يطبق نظام نصف اليوم ، على أن يكون النصف الآخر فى تعليم الحرف ، زراعية أو صناعية ، بصورة منظمة لا تترك لهوى الطفل .

وفى الفرقتين الرابعة والخامسة يستطيع الطفل أن يدرك ما يلقى إليه من المعارف العامة ، ويحسن القراءة والكتابة والفهم ، فيرسخ فى ذهنه ما يلقى إليه . كما يستطيع أن يقرأ وأن يكتب فلا يتعرض لنسيان ما يلقن بالمكتب العام . ولكن وزارة المعارف لم تشجع ذلك الرأى .

خطأ شائع :

من الأخطاء الشائعة أن الناس لا يقبلون على الكتاب العامة بل يتفننون فى الهرب منها ، وذلك لبغضهم التعليم أو لاضطرار فقرائهم إلى تأجير أولادهم وبناتهم للإفتيات من أجورهم .

والدليل الملموس على هذا الخطأ أن الناس يرسلون بأبنائهم وبناتهم إلى الكتاب الأهلية مختارين فرحين ويؤجرون أصحاب الكتاب عن تعليم أبنائهم . فليس زهدهم فى الكتاب زهداً فى تعليم الولد ، ولكنه ضن به من العبث . أما من يرسلون بأولادهم إلى الخدمة مقابل أجر معلوم فقليل عددهم . وقد لا يبلغ خمسة فى المائة فى كل قرية . وهم إن صدوا أبناءهم عن التعليم بالكتاب العامة فلأنهم يعتقدون أن وقتاً يقضى بها إنما يذهب ضياعاً . وإذا كنا قد طاردنا الكتاب الأهلية وأغلقنا نحو خمسة وتسعين فى المائة منها فكيف نتهم الناس بأنهم راغبون عن العلم المنتج ، على ما به من عيوب ولم نعوضهم عنه شيئاً ؟

والعلاج هنا طريقان : الأول تطبيق قانون العمل على الأعمال الزراعية ، فلا يشتغل بها إلا من جاوزوا التاسعة . وحينئذ لا يجد الولى إلا إرسال ولده إلى المكتب . والثانى الافراج عن الكتاب الأولية الحرة ، فلا تقيد إلا بما يحفظ الصحة العامة ويكفل القدرة على التعليم .

محمد عبد البارى

قصة صينية واقعية :

يا سعادة الحياة ، عليك السلام

مترجمة بقلم نور محمد شاهين

(أنا عازم على خدمة الوطن إلى آخر رمق من حياتي ، وإذا قدر لي أن أموت شهيداً في ميدان القتال ، فلا ينبغي لزوجي أن تضيع شبابها لأجلي) .

هذه هي مريم ، قرينة اليوزباشي (لون ينغ) التابع لسلاح الجوى في القوات الصينية ، وقد بلغت من عمرها الآن عشرين عاماً . إنها لهي امرأة جميلة خلقاً ، وعصرية حياة . لها عينان سوداوان ، وأهداب طويلة ، وأنف أشم ، وأسنان رائقة مصفوفة في فمها الباسم الضحوك ؛ فشكل هذه ، بل كل جزء من هذه الأجزاء ، ينفرد بقوة لسحر الأعين ، وتأثيرها يكون أشد وأسحر عند ما تترسع حول خديها الورديين .

قد تزوجت مريم من اليوزباشي (لون ينغ) بدون أن يقضيا مدة مناسبة في حياة الحب ، فاقترنت هي به عند ما ظهرت قوة السلاح الجوية المرة الأولى في سماء الصين ، تحارب القوات اليابانية المغيرة وتقاتل رجالها . ولأنها قد أعجبت ببسالة اليوزباشي (لون ينغ) في المعارك الجوية ، سلمت قلبها إلى هذا المحارب الباسل ، فاقتنع كل طرف بما عند الطرف الآخر من الشروط والعهود ، فإذا هما زوجان محبوبان سعيدان .

تعيش مريم حياة راضية سعيدة ، مع أن الحرب قائمة ونارها تضطرم في طول الصين وعرضها . إن السعادة التي ترضى مريم عنها وتشعر بها ، ليست من الزواج نفسه ، بل من زواجها بطيار باسل نادر الوجود بشجاعته وظرافته وملاحته . لقد وجدت فيه زوجاً مثالياً تسر به ، مرورها بالفراشة الوديعة التي قد وقعت في يدها ؛ وتفتخر به أمام أصدقائه وغير أصدقائه من الرجال والسيدات ، معتقدة أنها أصبحت الآن ملكاً لها أجنحة تطير بها إلى ما تتمنى من جمال الحياة وسعادتها .

إنها ماهرة فيما يتعلق بفن التزيين والتجميل ، لا تحب الأزياء الصينية الحديثة بتاتاً ، ومع هذا فإنها تكره الملابس الأوربية أيضاً . والحقيقة أنها كانت تنظر منذ أمد بعيد إلى بذلة الطيارين بعين الإعجاب والاستحسان ، لكنها لم تجربها لبسة حتى الآن ، وذلك لأن عامة الناس لا يزالون يحسبونها من الأزياء العجيبة التي تستنكرها التقاليد والعادات . وأما الآن فلا خوف عليها أن تلبسها ، لأنها أصبحت زوجة لطيار . فلا مجال لغيرها من الناس أن ينتقدوها أو يعترضوا عليها ؛ غير أن هناك شيئاً يسترعي أنظار الناس ويجعلهم يضحكون منها رغم إرادتهم ، وهو أن نعليها ذواتا كعبين عاليين ، تستخفيان تحت ساقي البنطلون الطويلتين .

إنهما يترددان إلى الأمكنة العامة ويختلفان إليها ، فيريان في كل حفلة أو اجتماع ؛ يظهران في المراقص والمقاهي ، ويظهران أيضاً في المطاعم الفخمة الفاخرة والحفلات الليلية الساهرة . ومن عادة الزوج أن يحضر كل حفلة مهما يكن نوعها في زي الطيار بدون اعتبار للموسم أو المحل ؛ وقد يظهر في بذلة رتبته في قوة السلاح الجوية أيضاً . أما مريم فهي بالطبع تلبس زي الطيارة ، الذي قد أحرز إعجابها من زمان ، وظهورها في هذا الزي قد يكون باعثاً لانتقاد أو اعتراض عليها من جانب رؤساء الحفلات ، وفي بعض الأحيان يشترك زوجها في الانتقاد أيضاً .

قال لون ينغ : « يا مريم ، ينبغي لنا أن نلبس لباس السهرة في المرة التالية ، لعلك تأذنين لي بذلك » .

فأغمضت عينيها قليلا ، ثم قالت : « أنت حر ،

ولكن ألست تدرى أنى تزوجت منك ليس لإعجابى ببدلة السهرة التى عندك ؟

. . . إنها قد هددت الطيار الباسل بهذا الكلام غير مرة ، فخضع الطيار لتهديدها فى كل مرة . وكان (لون ينغ) يعزم على عدم إظهار أى ضعف أمام زوجته المستبدة برأيها المتهدة فى موقفها ؛ غير أنه شعر أن الانتصار على أعدائه فى المعارك الجوية أسهل من الانتصار على زوجته فى المعركة الكلامية .

وأما مريم فتحب زوجها بقلب حار ، سواء كان يخضع لإرادتها أو ينتصر على الأعداء . لذلك كانت تقدم إلى الطيار الباسل دائماً كأساً من الشانبانيون ، مصحوبة مع فمها الصغير الذى كان يظهر فى لون الشانبانيون أيضاً ، كلما عاد من مهمته الجوية فى مطاردة الأعداء ، وكان يطير أحياناً إلى الميدان الشرق ، أو فى الدفاع عن العاصمة ، ثم تستند برأسها إلى صدره فى هيئة تثير العواطف والشعور أيما إثارة ، ثم تقول له بصوت رخيم : « إنى أقدم أخلص تهيانى إلى عزيزى زوجى ، وأهتف له ثلاثاً : « فليحيى الجنرال لون ينغ » .

. . . « أشكرك ياعزيزتى مريم » .

وعندئذ يمد لون ينغ يديه إلى خصرها ويضمها إلى صدره بين ذراعيه فيقبلها تقبيلا طويلا ينسى معه تلك الوجوه المخيفة والأشباح المشؤومة التى قد رآها منتشرة فى جو السماء .

كانت مريم دائماً متهللة فرحاً وسروراً ؛ لكنها انقلبت فجأة من حالة المرح والبشاشة إلى حالة الكآبة والتفكير ، بعد ما عادت مع زوجها من زيارة عائلة المرحوم (لوجيا تقوى) الملازم الأول فى قوة السلاح الجوى ، الذى قد مات فى معركة جوية مع الأعداء ، بعد تقديم واجب التعزية إلى قرينة المرحوم وأهله ؛ فلم يكن شىء بعد ذلك اليوم ليستطيع أن يسليها أو يذهب قلقها وتبلبل بالها . وأصبحت المراقص والمقاهى والمطاعم الفاخرة والحفلات الساهرة عاجزة عن أن تبعث إليها التسلية أو أسباب المرح . ويظهر أن مريم قد أصابها نوع من الأمراض العقلية التى تبلبل خواطرها فى كل وقت . كانت طائرة مغردة تطير فى سمة الجو ، وتغنى بما تشاء من الأغاريد الشجية . وأما الآن فقد وقعت فى قيد الحزن المخيم على سعادة حياتها .

ذات مساء أراد اليوزباشى لون أن يشترك فى حفلة ساهرة فخمة ، وأظهر رغبته فى أن ترافقه زوجته مريم ، وكانت فى ذلك المساء لا تميل إلى الخروج . وكان قد استعد لأن يلبس بدلة جديدة من بدلات الطيارين ، وقد قدمها إليه هدية أصدقاؤه من هونغ كونغ . وقد قيل إن هذه البدلة هى من (مودات) سنة ١٩٣٧ صنعت فى إنكلترا خاصة للطيارين ، وقيمتها تبلغ ٢٥٠ ج — أراد أن يلبسها لكى تفرح بها عزيزته مريم ، غير أنه وجد منها خلاف ما يتوقع .

قالت : « لا أسمح لك أن تلبسها ، لا أسمح فى أى حال من الأحوال ، ما دمت أنا حية وعيناى لم تغمضا تغميضهما الأخير » .

. . . . . « ألا تعجبك هذه البدلة ، يا مريم ؟ » .

. . . . « أبعدها عنى لأنى خائفة ، وأراها كأنها كفن الأموات » .

دهش (لون ينغ) من قولها هذا ولم يعرف ما تعنى ؛ فسألها فى لهجة شديدة : « كفن ؟ لم تفوهين بهذا الكلام يا مريم ؟ هل أصابك جنون ؟ » .

. . . . . « لون — ينغ ، أنت لا تفهمنى بتاتاً . ألا تعرف أن قلبى متقطع ، وتحيط به الأحزان الشديدة من كل جانب ؟

.... « لم ، يا مريم ؟ قولى ، يا نور عينى » .

.... « نعم أقول ، لكن ما فائدة كلامى ؟ اسمع ، يا لون — ينغ ، إن قلبى متقطع إلى أعشار ، ولا حيلة لك فى جمعها فى محل واحد » .

سرى أثر كآبة مريم وحزنها إلى مشاعر لون — ينغ ، سريان تيار الكهرباء إلى بدنه . فشعر هو بالكآبة والحزن أيضاً . فوقف حائراً أمام مريم ، ينظر نحوها وقد بدت له لغزاً من الألغاز لا يعرف كيف يحله . ولبث فى هذه الحال مدة غير قصيرة ، ثم سأل مريم أن تخبره بما أصابها فقال : « عزيزتى مريم ، قولى بالصراحة ولا تكتمى عنى شيئاً . وأنا بما فىّ من البسالة والشجاعة كفيل بإزالة أسباب حزنك وبواعث قلقك . . أقسم لك أنى لن أدخر وسعاً فى إسعادك ، ولو كان فى ذلك تضحية حياتى » .

فقالت مريم : « أنت ليست فيك تلك الشجاعة » .

وأرادت بهذا الكلام تهييج عواطف زوجها أولاً ، ثم أرادت أن تصرح له بما تطلب منه . لأنها رأت أن الفرصة سانحة لا ينبغى أن تفوتها . فقالت : « نعم أنت شجاع ، ولكن هل تستطيع أن تستقيل من منصبك ؟ » .

. . . « يا مريم ، لا أفهم مرادك مطلقاً ، لعلك قد نسيت شرطنا الوحيد لعقد الزواج بيننا » .

ودار البحث والجدال بينهما . ومن طبيعة الحال أن مريم كانت غير معقولة فى رأيها فأصبحت مغلوبة هذه المرة . غير أن هذا الجدال الكلامى ، ترك فى نفس (لون — ينغ) أثراً سيئاً ، كأنه شبح أسود مشؤوم ، صار يلازمه ملازمة الظل للجسم ، لا يفارقه أبداً . وكان هذا الشبح الأسود يتحدى الطيار الباسل مرة بعد أخرى ، يدعوه إلى مصارعته فى الميدان ، حتى كاد يقع أسيراً فى يده . بيد أنه كان من الرجال الذين قلما يخضعون لسلطان غير الواجب . تخرج من الخطر سالماً بعقله ، بفضل ما كان فيه من القوة والشجاعة .

لم يكن (لون — ينغ) يحب أن يطيل الكتابة فى تصوير ما جاش فى صدره من عاصفة العواطف وتلاطم الخواطر . فبعد تفكير بالغ إلى القصد والغاية ، كتب بيده هذه الوصية المختصرة التى ليس وراء اختصارها اختصار : « إنى عازم على خدمة الوطن إلى آخر الرمق من حياتى . وإذا قدر لى أن أموت شهيداً فى ميدان القتال فلا ينبغى لزوجتى مريم أن تضيع شبابها لأجلى » .

هذه هى وصية الطيار (لون — ينغ) يودع بها سعادة الحياة وما فيها من لذة الآمال وحلاوة الأحلام . لقد نقل نسختين منها بدون علم زوجته على ورقتين من أوراق الخطابات الأفرنجية الفاخرة ؛ فوضع نسخة منهما فى جيب قميصه ، والأخرى تحت الصورة التى التقطت فى مناسبة قرانهما السعيد ، وتعمد أن يخفيها بين لوحة الصورة وبين الورقة الصلبة اللاصقة لها خلف الإطار ؛ وقال فى نفسه إنه إذا سقطت طائرته يوماً ومات فيها حتى احترقت جثته ، استطاعت مريم أن تقرأ هذه النسخة فى وقت من الأوقات . وبعد ذلك رد الصورة إلى محلها على الحائط ، ثم ألقى نظرة إلى مريم وأخرى إلى نفسه ، فشعر فى أعماق قلبه ألماً ينشب مخالبه فى أحشائه ، وكان ألماً يفوق الوصف والبيان . وخيل إليه أن ألمه هذا ، قد يخف إذا اندفع باكياً بكاءً مراً حتى يتسلى من تلقاء نفسه .

لم تمض على (لون — ينغ) ساعة كاملة من كتابة وصيته ، حتى وصل إليه أمر من القيادة العليا ، يأمره بأن يرتفع إلى الجو مقاتلاً . وقال الخبر : إن هناك طيارات جاءت من قبل العدو وعددها يتراوح بين ٤٠ و ٥٠

طيارة قد أخذت اتجاهها نحو العاصمة . وعند ما سمعت مريم هذا الخبر المروع شعرت بأن هناك بازياً قد نزل من الجو وخطف منهـا قلبها ، فارتد خداها الموردان إلى اللون الأصفر ، الذابل الميتة ، فاجتهدت أن تتكلم لكنها لم تستطع ذلك ، كأن هنـاك شيئاً من العظام يعترض وسط حلقها ، ويمنع صوتها من الخروج .

أما اليوزباشى فقـد نسى فى هذه الحالة الطارئة المستعجلة أن يودع زوجته المحبوبة ، ويقبلها تقبيلاً حاراً كما كان ذلك دأبه فى المرات السابقة ، بل ألقى نفسه على جوالته الخاصة ، فغاب عن النظر فى لمح البصر نحو المطار الحربى .

ظهر ذلك الشبح الأسود اللعين أمام عينيه بكل وضوح ، وفى هيئة أخوف مما رآه فى المرات السابقة . وعند ما ارتفع إلى الجو كان يخيل إليه أن شبيهاً للمرحوم (لوجيانغوى) قدحضر أمامه ، يعترض بصره ، وفى الوقت نفسه كان كأنه يسمع صوت البكاء آتياً من زوجته ، يلومه ويعاتبه بدون انقطاع ؛ فوجد أن أذنيه قد امتلأتا من الملامة والعتاب . لقد حاول أن ينسى كل هذا ، ولكنه لم يستطع ، بل تعب من المحاولة وشعر بالتعب فى جسمه والدوار فى رأسه . وعند ما حان الوقت لأخذ موقف صارم فى مقابلة طيارات الأعداء ، طفق هيجان خواطره يهدأ قليلاً قليلا ، حتى سكن عند حد ما . وفى هذا الحين خيل إليه أنه يسمع صوتاً آتياً من أعماق ضميره يكرر ويعلن تلك الكلمات التى كتبها فى الوصية ، وهى : « إنى عازم على خدمة الوطن إلى آخر الرمق من حياتى . وإذا قدر لى أن أموت شهيداً فى ميدان القتال ، فلا ينبغى لزوجتى أن تضيع شبابها لأجلى » .

فى اعتقاد (لونـ — ينغ) أن غارة هذه المرة كانت أشد أنواع الغارات فتكاً . وكان رأى مريم أن المعركة الجوية كانت هذه المرة أقسى نوع من المعارك الجوية .

وبعـد مرور ساعتين عاد اليوزباشى (لون — ينغ) سالماً بطيارته إلى المطار ، فأسرع إلى جوالته الخاصة وركبها مسرعا إلى منزله كالبرق الخاطف ، معتقداً أنه سيجد صدر مريم الناعم مفتوحاً لمعانقته وضمه ، وفمها العذب منتظراً لاستقبال قبلاته . لقد تولى النهار وأقبل الليل ، فغاب ذلك الشبح الأسود اللعين . وكان قلبه يرقص فى صدره طرباً وخواطره تثب بين ضلوعه ، كوثبات الشعل التى تثارت نحو السماء ، من عمارة شاهقة قد أصابتها قنبلة محرقة متفجرة .

قد تغيرت حالة (لون — ينغ) النفسية فجأة ، فأسرع نحو عمارة مهدمة . ثم رأى ، وياهول مارأى ! رأى رجال الإسعاف قد أخرجوا من بين أنقاضها جثة — جثة امرأة ، عليها قميص النوم الأزرق . وعرف أنها هى محبوبته مريم ، فترك جوالته ساعياً إلى الجثة وجثا أمامها صائحاً : « يا عزيزتى مريم ! » .

قال له أحد رجال الإسعاف فى لهجة حزينة : « إنها تنفست تنفسها الأخير منذ دقيقة فقط . »

. . . « ألم تفه بكلمة واحدة عند موتها ؟ » .

. . . « لا ياسيدى ، نعم ، بل قالت (قد ضاع أملى) ثم . . . . . »

أما (لون — ينغ) فـكأنه قد أصابه عند ذلك مرض نفسى ، لا أمل له فى الشفاء . فضغط بيديه على صدره ضغطاً شديداً يائساً مما صنع الدهر بحياته أو بسعادته . وخيل إليه أن قلبه قد أصبح بارداً جامداً ، كقبر فى أرض قفراء ، لا حياة فيه ولا حرارة . ومع ذلك شعر أن أنيناً كان يصعد من ناحيـة القلب يتجه إلى وصيته التى ودع بها سعادة الحياة فى سبيل خدمة الوطن .

لوفوه

نظرات فى الأدب القديم

ونقده

موازنة بين كتب الأدب الأربعة

البيان ، والكامل ، والأمالى ، وأدب الكاتب

— ٢ —

وعدت فى الرسالة التى مضت بأن أجمل هذه الرسالة فى كشف ما فى هذه الكتب من أغراض وما تضمنته من بحوث ، ولكنى وجدت هذا العمل لا يجدى ، فإن تلخيص كتب ضخمة فى رسالة أو اثنتين لا يزيد على ذكر شذرات من هذه الكتب مما لا يجعل لها ناحية واضحة تجعل القارىء شريكاً فى الحكومة عليها . والكتب بعد ذلك قائمة معروفة من جمهرة الأدباء ، يتخيلونها أو أكثرها ، فلا حاجة إلى بذل جهد فى تصويرها لهم . وقد ساعد على اطراح التلخيص ما أبدته مجلة الثقافة من بطء فى النشر حتى إنى لأتخيل أن هذا الموضوع (وقد ينتظم عشر رسائل أو تزيد) لا يتم إلا فى سنوات ، بينما هنالك أغراض أخرى أريد التعجيل بنشرها وأعقل من تأخيرها تعقلا قوياً ! وقد يقوم لها من المعاذير ضيق الصفحات وغلاء الورق وكثرة الكتاب ؛ ولكنى لا أقيم عذر من يعتذر بهذا ، فإن المجلة قد قامت على التضحية رغبة منها فى نشر ما انطوى من الثقافة قديمها وجديدها ؛ فعليها أن تتم رسالتها ، فتوجد الورق وتفسح الصفحات وترضى العلماء والباحثين .

وبعد فالجاحظ وأصحابه قد رضعوا من لبان غير متشابه فتفاوتت تربيتهم وبيئاتهم وإن ضمهم العراق جميعاً . فإن الجاحظ قد أثر فيه أستاذه النظام أثراً بالغاً ظهر فى حياته وتفكيره مما سنراه بعد ؛ وقد تعاصر ثلاثة منهم فى المائة الثانية للهجرة (الجاحظ والمبرد وابن قتيبة) وكان الجاحظ أسنهم وفى مرتبة الأستاذ منهم وروى المبرد عنه . وقد عرفت مصر من أبنائهم قاضياً هو أبو جعفر بن قتيبة ، وتوفى بها على القضاء سنة ٣٢٢ . أما صاحب الأمالى فقد جاء به القرن الرابع للهجرة ، وأملى كتابه فى المغرب بعقله فى المشرق ، وروى كثيراً منه عن الأخفش الأصغر تلميذ المبرد ؛ وأعجب ما فيه أنه لم يمله شيئاً من الكامل ، وليس هذا ناشئاً من شك الأخفش فى علم أستاذه ، وإنما نشأ من سعة اطلاع الرجل ، ومن المصادفة أيضاً وإن كان هذا لا يخلو من غرابة .

وهذه الكتب الأربعة تتفق فى القليل النادر ، وتفترق فى الكثير البالغ ؛ وقد نشأ اتفاقها من البيئة والعرف والموضوع ، وافتراقها من اختلاف الفطن وتباين المواهب ؛ فهى تصور أزمانها بقدر ما تصور أقلامها ؛ وهى قائمة بعدُ على أنها للحفظ والمذاكرة . وكان لزاماً على مؤلفيها فيما تصدروا له أن يجلبوا شوق القارىء ، ويدفعوا عنه الملل والسأم ، فسلكوا به طريقاً ننكرها اليوم أشد إنكار ؛ فتنقلوا به من خبر إلى مثل ، ومن خطبة إلى نادرة ، ومن زهد إلى ملحة ، ومن جد إلى هزل ، ومن سهل إلى وعر ، ويستطردون ثم يعودون ، وهكذا ، مما يحمل إلى العقل راحته ، وإلى الفكر هدوءه ، ويجعل الأدب للتسلية أكثر منه للعلم والتقويم ؛ وعذرهم فى ذلك ما قدمنا من تنويع التشويق وتلوين الترغيب .

قال الجاحظ : وليس هذا الباب مما يدخل فى باب البيان والتبيين ، ولكن قد يجرى السبب فنجرى معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارىء الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه وأزيد فى نشاطه .

ولما أنهم انحدروا فى الموضوع فقدم كل منهم طائفة من النثر والشعر والأخبار والأمثال ، جاءت مادة للنظر والدراسة ، ووسيلة لفهم العربية وسرها وحلية التزين بين

الأهل والعشير ، وعونا على الوقوف بين السلاطين وفى الجامع ، وقوة على الحياة وألوانها ؛ وهى بعد تعين على السمر وحسن الحديث وهناءة العيش ورفاهيته .

والرابعة من موافقاتهم أنهم اختاروا مادتهم من كلام المتقدمين ، فلم يأخذوا من المعاصرين إلا قليلا ؛ وحجة الجاحظ فى ذلك أن الفضل للمتقدم ، فقوله أبلغ ، ولفظه أسلم ، وطريقه أقوم ، وخياله أبدع ؛ وهو يمثل الصفاء والطبيعة فلا تكلف ولا التواء ؛ وقد خالف فى ذلك المبرد فأنصف المتأخرين وأخذ قسطاً من كلامهم ، ولكن جمهرة كتابه قد جاءت من منهل الجاحظ فى المائة الأولى من الاسلام .

واتفقوا فى مصدر التأليف فقد كان جميعهم يملى من محصوله ، وينفق من بضاعته ، ويثبت من حفظه ، إلا القليل النادر ؛ فقد أخذ الجاحظ بعض أخبار رسول الله من أفواه أصحاب الأخبار ورواة الحديث .

والسادسة اتفاقهم فى النظر إلى الأدب ، فهو عندهم حفظ الجيد من المنثور والمنظوم والأخذ من كل فن بطرف .

وقد اتفقوا فى أن جميعهم زلت قدمه فى رواية بعض الأخبار ، وفى اللغة وتفسير الشعر مما سيجىء فى موضع تقدمهم . واتفقوا فى أنهم قد أغفلوا نقد مايوردون إلا نادراً فى البيان وقليلاً فى الكامل ؛ فاذا جاء شىء من هذا فذوق الجاحظ أحسن ؛ وسنتوسع القول فى ذلك فى مكان آخر . وقد رفعوا الخبر وهى شيمة أهل زمانهم ليكون الأمر أيمن والثقة به أوثق . أما ابن قتيبة فلا خبر عنده ، وجاء كتابه خطبة بلا كتاب كما كان يرى علماء زمانه .

وهم وإن اتحدوا فى الموضوع فانهم اختلفوا فيما اختاروه ؛ فالجاحظ قد اختار ما يدل على بلاغة ، وكان يسوق الشعر شاهداً على ذلك ، ودار فى هذا المعنى كثيراً وبسط آراء الناس فيه ، وساق فى ذلك صحيفة بشر بن المعتمر ، وفى رأيه موافقاً ومخالفاً ، وبين حدود ذلك بياناً كافياً ، وقد جعل البلاغة فى اللفظ والمعنى بمكان يفهمه

العامة ، ويرضاه الخاصة ، وأراد بالعامة أنصاف العلماء ؛ وهذا شأن الجاحظ فى جميع كتبه ، فانك تحس شخصه ظاهراً قوياً فى كل ما يكتب .

واتجه المبرد جهة نحوية ، فكان يختار ما فيه غريب من النحو فيشرحه ويعرض ذلك عرضاً كاملاً ، ويبينه بياناً مستفيضاً ؛ وكان أحياناً يضطره تلمس الأسباب والعلل إلى أن يأتى بما يضحك ، وماذا فى علل النحو لا يضحك ؛ وسأوضح ذلك عند نقده .

واختار القالى غريب اللغة وعويصها ، وجعل عمله شرح المفردات منها ، وعقد لأسماء الأشياء أبواباً ، ومثلها فى شرح بعض المواد ، وفيما يقال فى معنى من المعانى ، وما يعاقب فيه حرف حرفاً ؛ ويخلص من ذلك بدون أن تحس له وجوداً .

وجاء أدب الكاتب مقدمة فى اللغة والصرف ، فهو أداة من أدوات الأدب ، أو الأديب ، وليس بكتاب يجمع أدباً وخبراً .

واختار الجاحظ كثيراً من الشعر السهل ، وخالف فى ذلك القالى ، فإن اختياره ينحدر معظمه من الجاهلية مشحوناً بكل غريب حوشى .

أما الكامل فقد ابتغى بين ذلك قواماً ، وساق معظم شواهده من شعراء بنى أمية كما قدمنا . وأدب الكاتب لا شعر فيه بالمعنى الذى نقصده .

واختلف المؤلفون فى المذهب ، وقد مسوا خلافهم فى هذه الكتب مساً رفيقاً ؛ فالجاحظ رأس فى الاعتزال ، وكان يتشيع لعلى ، ويحمل على خصومه ، ويبالغ فى حلمه ، ويتعصب لكل ما هو عربى ، ووسع فى كتابه الدفاع عن المعتزلة . وكان الكامل جبرياً معتدلاً فى تشيعه ، فهو عفت من يذم علياً ؛ ولكنه يثبت لبنى أمية الشرف والسيادة فى الجاهلية . وقد علق على شعر الوليد بن عقبة فقال : هـذا باطل . وذكر خالد بن عبد الله القسرى بقوله : لعنه الله لأنه كان يلعن علياً على المنابر . وفى الجملة

كان يتنحى من تنقص الناس ناحية بعيدة . وابن قتيبة موقفه من العرب معروف ، ولم يورد شيئاً من ذلك فى كتابه . أما القالى فإنه لم يعرفنا شيئاً عنه فى كتابه ، وإن كنا نعلم أنه جيرى المذهب ؛ وطبعى أنه كان لهذه الفروق أثرها فى النظر إلى الأشياء ، وحرية الرأى والتخلص من القيود ؛ فإنا نرى الجاحظ يشك كثيراً فى بعض الأخبار والروايات ، ويناقشها ويظهر رأيه فيها ، ويرد على أصحابها ، كما فعل فى وصف عبد الملك بن عمير للأحنف بن قيس ؛ بخلاف أصحابه فإنهم يسوقون ما يجدون أمامهم ، وإن حمل كثيراً من الخرافات .

ويفترقون فى الأسلوب ؛ فقد كان الجاحظ واضحاً جزلا رقيق الحاشية قوى الحجة ، يبسط القول بسطاً يتجلى منه معناه ، ويرد أطرافه رداً يبهرك منه مبناه ، فترضه يملأ نفسك ، وحججه تقع منك ؛ وقد قلده فى ذلك علم من أدبائنا ولكنه يدور فى اللفظ كثيراً . والجاحظ بعدُ يحفل بالبلاغة والفصاحة ، ويشبع حاجتك منهما ، ويصور موضوعاته تصويراً فنياً موفقاً فى لفظه معجباً فى غرضه ؛ فتخرج منها وقد أخذتك روعة الرجل من نواحيه جميعاً . وجاء المبرد فى بعض مواقفه يسيل رقة وطلاوة ، حتى إنك تعجب من اتهامه نفسه بالعجز عن القول والتخلف فى البيان ؛ ولكنه فى جمهرة ما فى الكامل وقف دون سحره ، غريب نحوه ، واتجه إلى ذلك اتجاهاً ملك منه جميع رأيه ؛ وطبعى أن التشريح والتفصيل يقفان فى طريق البلاغة وجمالها . وصاحب الأمالى لم يبين لنا من قلمه غير خطبة كتابه إلا حدثنا فلان وأخبرنا فلان . وهذا شأن ابن قتيبة ، ولكن خطبة أدب الكاتب هى ما هى ، فإنها قد دلت على قدر الرجل من الفصاحة والبيان وعلو كعبه فى العلم والمعرفة ، ومكانه من الأدب وفنونه ، ومحله من الخلق وأدب النفس . فإذا كانت رسالة عبد الحميد دستوراً للكتاب ، فإن خطبة أدب الكاتب دستور المتأدبين .

ومن دقائق الفروق فى الأسلوب أن الجاحظ إذا ذكر ضروباً للشيء فصلها « بمن » والكامل « بما » . فيقول الأول من بين منثور ومنظوم مثلا . والثانى ما بين كذا وكذا . ومن الغريب حقاً أن كلا من الرجلين قد اطرد على سنته ، فلم نجد فى البيان تفصيلا بما ، ولا فى الكامل تفصيلا بمن ، وهذا من المصادفات الغريبة المدهشة ؛ وصورة الجاحظ تبرز واضحة فى كتاباته ؛ وجاءت أوضح ما تكون فى مواقفه من البلاغة والفصاحة ، وعند تقديم الصمت على الكلام ، وفى قضية المغنين (والمغنين قضية) وفى دفاعه الشعوبية عن العرب ، وأن السخيف من كلامهم كان يقتضيه المقام ، يرد بذلك على بشر بن المعتمر ، وفى محاولاته إثبات عربية اسماعيل ، وغير ذلك من موضوعات كتابه .

أما الكامل فيبدو مرة ويختفى مرات .

وصاحب الأمالى حجر ينبجس منه الماء ، أو قل إنه مذياع ينقل ما التقطه فلا يزيد فيه ولا ينقص ، وفى الحق أنى لفى حيرة من أمر هذا الرجل الذى يحمل من الكنوز ما يعجز العصبة أولى القوة ، ولم تعمل فى نفسه فعلها ، ولم ترزقه الوصول إلى سر اللغة وحسن القيام عليها ، حتى إنه كثيراً ما يُسأل عن الشيء يرويه فيقول إن علمنا علم رواية ، لا علم دراية ، وهذا من العجائب حقاً ؛ ودليل على أن الحفظ وحده بلا فهم صحيح لا ينفع ولا يفيد .

وإذا أراد الجاحظ أن يذكر ما لا يحتج بشعره يقول : المولدون البلديون ، والكامل يقول : المحدثون ، وتجد فى أسلوب الكامل دائماً : هذا يأتى كذا يأتى إلى آخر يأتى .

ومن الفروق فى الأسلوب أن المبرد يأتى بالحديث أو الشعر الذى فيه غريب ليفسر غريبه النحوى ، والقالى يفسر غريبه اللغوى . أما الجاحظ فيأتى به مثالاً لأشياء يذكرها . وإذا ساق الجاحظ قصة أكملها . أما الأمالى والكامل فقد يعرض للأول كلة لغوية ، فيطير بها

ويترك ما هو فيه ، وقد يترك الشرط بلا جواب . وقد يعرض للثانى غريبة نحوية فيتتبعها ، ويترك موضوعه قاعاً ينتظر من يكمله . والجاحظ لا يرى فى التكرار عيباً ويحتج له بقوله : « وقد رأينا الله عز وجل ردّد ذكر قصة موسى وهارون وهود وشعيب وابراهيم ولوط وعاد وثمود وذكر الجنة والنار . . . » ويبين ما يجب أن يكون عليه الكلام من التوسط والقصد بقوله : « فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى ، ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصار بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه . . . وما رأينا أحداً عاب على الخطباء تكرارهم المعنى واللفظ » إلى آخره .

وآثر أكثرهم الجد وشاع التدين فيما كتبوا ، فلم يثبت الجاحظ المجان والخلعاء إلا إذا اتصل كلامهم بالجد وابتعد من الهزل ؛ فقد روى لابراهيم بن هانى ، وكان ماجناً خليعاً ، فقال : « ولولا أن كلامه هذا الذى أراد به الهزل يدخل فى باب الجد لما أثبتناه » . واستشهد بأبيات لأبى نواس (وهو يقدره) فى مقام ميل الشعراء إلى التظرف بإدخال بعض المصطلحات العلمية فى شعرهم ، ولم يشذ عن ذلك إلا قليلا كحكاية أبى القاسم التمار ، فقد ساقها أبو عثمان مكشوفة عارية مما استغربناه من فضله ووقاره . وكذلك فعل المبرد من غلبة الجد عليه ، ولم يختر الرجلان المحبين إلا نادراً . وانفرد بذلك صاحب الأمالى ، فقد ساق منها طائفة كبيرة لجميل وكثير وعروة وقيس وابن أبى ربيعة وغيرهم ، وقد أرانى أخالف الجاحظ وصاحبه فيما ذهبا إليه ، فان مثل أخبار المحبين جد لا هزل فيه ، وأخبار الخلعاء تقوم للفن لا للتدين ، فهى صورة من صور الأدب ، لا نحلة من نحل العقيدة ؛ ولهذا أنكرت أن يفعل أستاذنا الخضرى رحمه الله ما فعل بكتاب الأغانى ؛ ولو أخذ الناس بهذا المذهب فى رواية الأدب لضاع على الناس شىء كثير . ويمتاز الجاحظ بمده

من الخرافات غير هيات أزلق إليها كقوله : صاح رجل فسقط الحوامل ، أو ألقى المزبر مما فى فمه ، أو إن أهل جميع الخلق الملائكة ثم الإنس ثم الجن ؛ وهذه أشياء يسوقها أبو عثمان على سبيل الرواية ، وكان حرياً به أن ينزه قلمه عنها . أما صاحباه فقد فرقا فيها إلى الأذقان ، خصوصاً الكامل فى باب الأدواء ، وباب من كان بينه وبين الملائكة سبب . ويعتقد المبرد أشياء تتصل بالدين لا يصح لمثله أن يعتقدها .

وافترقوا فى تفسير ما يوردون ؛ فإن الكامل والأمالى يشبعان القول فى ذلك إشباعاً ، والجاحظ لا يفعل إلا قليلا . على أن لتفسيرهم سوءاته الكثيرة مما سنفرد له رسائل متعددة ، ونقدم هنا هذا البيت البديع ، وقد تعثر فيه الجاحظ وهو لذى الرمة :

حوراء فى دعج صفراء فى نعج
كأنها فضـــة قد مسها ذهب

فقال إن المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحمرة ، وبالعشىّ يضرب إلى الصفرة ، ولذلك قال الأعشى :

بيضاء ضحوتها وصفـ ـراء العشية كالعرارة

وقال الآخر :

قد علمت بيضاء صفراء الأصل
لأغنين اليوم ما أغنى رجل

وإنى لأذهب إلى غير ما ذهب إليه الجاحظ ، وإن كان الأمر يتطلب رأى الأطباء فيه ، فان صفرة اللون أليق بالبكرة والضحوة للنومتين فيهما ، وإنما صفرة العشى تأتى من كثرة الطيب على الغانية ، فهى منعمة ، ولهذا يقصد الشعراء دائماً . ولن يدفع ذلك أن الطيب قد يؤخذ فى البكرة ، خصوصاً إذا كانت المحبوبة منعمة لا تعمل ، فإن الشعراء دائماً يجرون أحكامهم على الأغلب الأعم ، والأغلب أن البكرة للعمل ، والعشى للتجمل ، وحسبنا اليوم هذا .

محمد ناصف

الصحة أساس العمران

للدكتور محمد عبد الحميد بك

يخفى على كثير من الناس أن العلوم الطبية الصحية بجميع فروعها من عوامل رقى الأمم وعمرانها وحضارتها ، بل هى من أهم العوامل ؛ فالعلوم الطبية الصحية هى لا ريب أكبر أثراً فى عمران الأمم وحضارتها من العلوم الاقتصادية أو العلوم الاجتماعية . ولا تغيب هذه الحقيقة عن رجل الشارع فحسب ، بل قد يستوى فيها هو وغيره من رجال العلم والفضل والأدب . فهذه كتب التاريخ حافلة بأخبار الأمم والشعوب ، تشرح لقرائها أسباب الرقى وعوامل الانحطاط والتدهور ، وتبين لهم مدى تأثير الحروب وما تجره من مغنم ومغرم . وتبين لهم أيضاً تأثير الاضطرابات والثورات والانقلابات ، وتفصل لهم الأحوال السياسية وأساليب الدهاء فى حل المشكلات ، وتفهمهم على ما للأديان والآداب والمسائل الاقتصادية من الشأن فى ارتفاع الدول وسقوطها . وقلما يجد الانسان فيها شيئاً عما للمسائل الطبية الصحية من الأثر .

وهل تدرى ما هو السر فى أن أكثر الناس لا يفطن إلى تأثير العلوم الطبية الصحية فى تقدم الأمم ؟ ذلك لأن تأثيرها سلبي على غير ما هى الحال فى تأثير العلوم الطبيعية والاجتماعية مثلاً ، فهو إيجابى . فمن ذا الذى لا يدرك مزايا السيارات والطيارات والتلغراف والتليفون وأعاجيب اللاسلكى ؟ ومن ذا الذى لا يشعر بصفاء السلام ونمائه وأهوال الحروب وبأسائها ؟ أما العلوم الطبية الصحية فمدار نفعها سلبي وهو اتقاء الأمراض .

ولتوضيح شأن العلوم الطبية الصحية يصح أن أقول : هب أن أغلب الناس فى مدينة راقية كالقاهرة أو الاسكندرية عندهم سيارات يتمتعون بمزاياها العظيمة التى لا يستهان بها فى هذا العصر . وهب أن هذه المدينة كانت — لا قدر الله — موطناً لمرض من الأمراض المعدية شديد الفتك بالناس كالكوليرا أو التيفوس أو الطاعون — وقاك الله شرها — وهب أن من الممكن تخيير الناس بين أن يحافظوا على سياراتهم مع بقائهم عرضة المرض المنتشر ، وبين أن يأمنوا على أنفسهم من هذا المرض مع استغنائهم عن السيارات ، أفلا يختارون السلامة نازلين عن السيارات . بل لم أذهب بك بعيداً فى عالم الخيال لأن هذه الأمراض قد قطع دابرها أو كاد . وقد ذكر قريباً عن أحد أغنياء أمريكا ممن تقدر ثروته بملايين الدولارات أنه أصيب بسرطان فى المعدة فأخذ فيه مأخذاً عطلها ونَدّ عن الجراحة ، وأصبح الرجل لا يستمرىء الطعام ولا يستقر فى جوفه . ولقد قيل عنه وقتئذ إنه كان يود لو استطاع أن يسترد صحته ويشتريها بثروته التى أقام بها تحت ظلال العز والرفاهية .

ألا يدرك المؤرخون مدى تأثير العلوم الطبية الصحية وفى وسعهم أن يعرفوا كيف كانت الأمراض المعدية تفتك بالجيوش فى أثناء الحروب فتكاً يغير الأمور من حال إلى حال ؟

ولأضرب لك مثلاً : وباء الجدرى الذى حل بجيش أبرهة الأشرم ، وقد توجه لهدم الكعبة فى عام الفيل وهو عام ٥٧٠ ميلادية . وتتلخص قصته فى أنه لما استتب له الأمر فى اليمن بنى فى صنعاء كنيسة لم يُرَ مثلها فى زمانها ، وكان يريد أن يصرف إليها حج العرب . ولما صحت عزيمته على ذلك توجه بجيش جرار إلى مكة واستصحب معه فيلا . وكان يغلب كل من لقيه من القبائل فى طريقه إليها . ولما تحفز الجيش للوصول إلى الكعبة لهدمها فشا الجدرى فيه ، فصاروا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك

على كل مسهل . وهكذا جعل الله كيدهم فى تضليل ومنع بقيه من هذا الجيش الذى يسمى فى التاريخ بأصحاب الفيل . وكان العامل الأكبر فى فناء الجيش هو الجدرى الذى انتشر فيه .

بل فى وسع المؤرخين أن يعرفوا كيف تحول الأمراض المعدية دون إتمام المشروعات الكبيرة التى قد تكون من أسباب عمران العالم ورفاهيته مما جرى فى حكاية قناة بناما . فقد فكر القوم منذ عهد بعيد يرجع إلى القرن السادس عشر فى حفر قناة فى بناما لتوصيل المحيط الأطلسى بالمحيط الهادى ، وحاولوا ذلك مراراً ، لكن المشروع لم ينتقل من حيز الفكر إلى حيز العمل إلا بعد أن باع أولو الشأن امتياز القناة إلى شركة فرنسية تألفت لهذا الغرض فى سنة ١٨٨١ . لكن هذه الشركة أفلست فى أثناء العمل . والسبب الأكبر فى إفلاسها على ما يقول العارفون هو انتشار الأمراض بين العمال فى تلك المنطقة لأنها كانت موبوءة بالحمى الصفراء ، وهى حمى شديدة الفتك شديدة الخطر ، فتمادى العمال وتمادوا وصار بعضهم يموت فى إثر بعض وأصبحوا لا يكادون يتدافنون .

ولما أفلست الشركة باعت امتيازها وما حفرته من القناة إلى الولايات المتحدة التى أتمت المشروع . وكان السر فى نجاحها أن أولى الشأن فيها أدركوا تماماً السبب الجوهرى لفشل الشركة الفرنسوية ، وعرفوا ألا سبيل إلى النجاح إلا بتطهير منطقة القناة من الأمراض الفتاكة وقد تم بإرسال بعثة طبية إلى تلك المنطقة من عدد عظيم من الأطباء ، وفى مقدمتهم جورجاس . وجهزوها بكل ما يلزمها من الأدوات والأدوية والعمال . وقام جورجاس بتوفير جميع الشروط الصحية فى هذه المنطقة من تدبير الماء الصالح للشرب وتصريف الفضلات وتوفير النظافة التامة وإبادة البعوض الذى ينشر الحمى الصفراء .

وبالاختصار حول منطقة القناة التى كانت تسمى بمقبرة الرجل الأبيض إلى منطقة صحية جداً تضارع أجود بقاع العالم صحة

وتلاشت منها الحمى الصفراء والملاريا ؛ وبعد عشر سنوات أى فى سنة ١٩١٤ تمكن جورجاس من خفض نسبة الوفيات بين سكان هذه المنطقة إلى ٦ فى الألف . وكانت فى هذا التاريخ نسبة الوفيات فى الولايات المتحدة نحو ١٤ فى الألف .

والأمثلة على فضل العلوم الطبية الصحية على العالم أكثر من أن تحصى ، لكنه فضل سلبى كما بينت ؛ ولذلك لا يفطن إليه الناس إلا فى ندور ، ولا تبلغ إليه مداركهم إلا إذا أحاطهم الأطباء بجملته وتفاصيله ، وعرفوهم ظاهره وباطنه وباديه وخافيه ، وأوقفوهم على جلائله ودقائقه .

وجدير بى أن أقول إن هذا الرأى — الصحة أساس العمران — ليس حديثاً ، بل هو قديم جداً ؛ فما أدرك الناس من المأثور عن بزرجمهر قوله : « إن كان شىء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شىء مثلها فالغنى ، وإن كان شىء فوق الموت فالمرض ، وإن كان شىء مثله فالفقر » .

وقريب من هذا المعنى ما قاله المتنبى :

ولذيذ الحياة أنفس فى النفـ ... ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مـ ... ـل حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب ... فإذا وليا عن المرء ولى

ولقد نبه روزفلت الرأى العام أخيراً إلى ما للصحة من الأثر الكبير فى رقى الأمم وحضارتها بقوله :

« تقاس كفاية الحكومات فى أى بلد بما تقوم به من المشروعات الصحية تحسيناً للصحة العامة وحفظاً للأرواح فالصحة أغلى شىء » .

محمد عبد الحميد
وكيل مستشفيات الجامعة

في الحديد

للدكتور أحمد زكي بك

في بقعة من بقاع الأرض على خط الاستواء ، أو قريباً من خط الاستواء ، في أدغال إفريقية ، تقوم قرية «باجو» في قبيلة الباڤول . وهي قبيلة تعيش على ما يجنى الشجر الوحشي وبعض ما تخرجه الأرض بعد تأنيسها . وكذلك تعيش على الصيد ، وتحمى حياتها من غوائل الانسان والحيوان بالحراب . من أجل هذا كان «حدّاد» القرية من أجلّ رجال القبيلة وأخطرهم شأناً . وهو ليس سلاحها فحسب ، بل هو سلاحها وعدّادها في آن . وندخل حانوته ، إن صح أن نُسمّي مصنعه المفتوح إلى السماء حانوتاً ، فنجد الرجل وولده وأهله في شغل شاغل يجهزون لربّ الصناعة الخطيرة كل ما تحتاجه صناعته من مؤونة . وهو يستعين بالرجال والنساء من غير أهله وولده في تحضير ما يلزمه من حوائج كثيرة .

فطائفة تنزل إلى الجبل القريب فتحمل منه «البُنجا» وتعود بمقدار لا بأس به يقضى حاجة المصنع أسبوعاً أو أسبوعين . وعلى قلة هذا المقدار — فهو لا يبلغ غير حمل أربعة رجال أو خمسة — فقد قضى هؤلاء الرجال في حمله بضعة أيام . وسبب هذا أن حجر «البنجا» في تلك الأنحاء ليس كله مما يقبله شيخ المصنع ، فقد علم بالوراثة من أبيه ، وعلم أبوه من جدّه ، أن خيره يكون ذا لون أحمر خاص له ظل لا تميّزه إلا العين الخبيرة . وكثيراً ما كان يعمد الشيخ إلى طحن هذا الحجر ليميّز طيّبه من خبيثه ، ثم هو يمزج طحينه بشيء من الدهن الساخن ، ثم يرسم من الدهان الناتج خطّاً على ذراعه ، ثم هو يوجّهه في الشمس ، ومما يتراءى له من ضيائه في الشمس ، يقضى بكفايته أو بقصوره . على أن الذي يقصّر منه عن أغراض الصناعة لا يُطرح أبداً ، وإنما يحوّل إلى أغراض الصبغ في الأدهان ، فهذه كانت مما تحتاجه القبيلة أيضاً .

وتقوم طائفة أخرى من رجال المصنع ، أو التي تلتحق بالمصنع ، بجمع الخشب الأخضر من فروع الشجر وسيقانه في الغاب ، ثم بتجفيفه ، ثم بتكسير الغليظ منه ، ثم بتكويمه وحثو التراب عليه ، ثم بإحراقه من إحدى جنباته ، ثم بتركه أياماً لتسرى الحرارة بطيئةً فيه ، ثم بهدم الكومة بعد بردها وإخراج الفحم منها .

وتقوم طائفة ثالثة على حجر البنجا فتكسره قطعاً صغيرة تقف به بعيداً عن نعومة الطحين .

ثم يأتي دور العمل الأكبر والأخطر ، دور إخراج الحديد . وهذا لا يقوم به أحد غير الشيخ نفسه . فيأخذ يخلط الحجر بالفحم بنسب لا يعرفها سواه ، وهي نسب عرف بالخبرة وبالوراثة كيف يزيد فيها أو ينقص فيها ، تبعاً لما قد يطرأ على جَودة الحجر من زيادة أو نقصان . وهو يؤلف بين الحجر والفحم توليفة خاصة في نظام خاص ، يحمل الفحم عند اشتعاله على إخراج أعنف ما فيه من حرارة ، ويحمل اللهب عند اندلاعه على الاتجاه بألسنته إلى بؤرة الكومة والتخلّل فيها . وهو لا يقيم على تشغيل النافخ — وهي من جلد حيوان ذي ظلف صغير كالماعز — غير المختار من أولاده ، فهو عمل لا يمكن أن يتقنه غير أولاد الشيخ . وهو هذا عمل يؤهل إلى ما بعده ، إلى تقلد أمور الصناعة واكتناه أسرارها .

ويظل أولاده على النار يحيونها ساعات تقل وتكثر تبعاً لصغر الكومة وكبرها . وكان الشيخ يميل دائماً إلى تصغير الكومة حتى يتسع له اليوم لتكميل استخراج الحديد منها . فهو يعلم أن لا بد له بعد احتراق الفحم مباشرة ، أو وهو في مرحلة احتراقه الأخيرة ، حيث لا يبقى منه على الكثير الأكثر غير الرماد ، لا بد له من التعجيل في جمع تلك القطع الصغيرة الكثيرة من

الحديد المتقد الأحمر ثم طرقها وهي حمراء ، ويحمي بعضها ببعض لتلتحم وهي ساخنة ، وتتكون منها كُتَل كبيرة هي محصول ذلك اليوم السعيد .

ثم ينجم الليل وينصرم وتشرق الشمس في الصباح التالي على خِصاص القرية ، فيقوم صاحبنا يتم عمله الذي قطعه بالأمس . فقِطعُ الحديد التي استخرجها بالأمس لابد من إحمائها من جديد وطرقها وتشكيلها ، لتكون سناً لرمح أو نصلاً لسكين . لابد من إشعال نار الفحم مرة أخرى ودسّ الحديد فيها وإعادة طرقه . وقد كان في غنى عن كل هذا لو أنه صنع كل هذا بالأمس ، والنار مستعرة والحديد لين طرىّ . حقاً لقد كان في غنى عن هذا ، ولكنه لم يفعل ، ولأمر ما لم يفعل . بل لأمرين لم يفعل : أولهما أن الميراث علمه ، وعلم آباءه ، أن طرق الحديد يخرج منه شيئاً سائلاً كالماء ، أو هو كالزجاج المصهور ، يطيبُ مزاج الحديد بخروجه . فكلما زاد الطرق وتمدد وتكرر زاد الحديد جودة . وثاني الأمرين أن التجربة علّمته ، والتجارب الطويلة القديمة علّمت أجداده ، أن الحديد لا يشتد عوده عند السقي ولا يتصلب حده إلا إذا كان قد مس النار طويلاً ومراراً ، وإلا إذا كثر فحم ناره .

بقي بعد هذا إخراج ما في جوهر الحديد من الصلابة حتى ينفذ الرمح كالسهم ، وحتى يقطع النصل كالبرق . فهذا يحصل عليه شيخنا بغمس الأسنة والنصال في الماء عند خروجها من النار وهي حمراء ، فكأنما يسقيها .

هكذا يُصنع اليوم الحديدُ من أحجاره بأرض السود . وهكذا كان يصنع في القرون الخوالي — ما خلا قروناً أربعة سلفت — في أرض البيض والصفر والحمر في بلاد الله جميعاً . وهكذا كانت الخبرة البدائية غير المسببة هي عمـاد صناعة الحديد في القرون الخوالي ، ما خلا القرن الماضي وحده .

ونستثني القرن الماضي ، أي القرن التاسع عشر ، لأنه القرن الذي هل وعظام « لافوازيه » Lavoisier لم تكن بعدُ قد أنست إلى قبرها أنساً طويلاً مقيماً . فأبو الكيمياء الحديثة ، مُبدع الأكسجين ومستخرجُ الأزوت ، ومفسر ظواهر الاحتراق جميعها ، قبض عليه رجال الثورة في عام ١٨٩٤ ، وحاكمته محكمة الثورة ، ولم يمض على محاكمتها إياه أسبوع حتى صعد لافوازيه إلى المقصلة في ميدان الثورة بباريس في نفس ذلك العام . ولم يكن بدٌّ من لافوازيه لفهم ظواهر الكيمياء . ولم يكن منه بد لفهم ما يجري عند استخراج الحديد على شدة بساطة هذا الذي يجري .

فبعد لافوازيه عرفنا أن حجر « البُنجا » الأحمر الذي استخدمه سلاح قرية إيجو في قبيلة اليافول ، والأحجارَ الحمر أو الصفر الأخرى التي استخدمتها القرون من قبله ، وتستخدمها القرون من بعده لاستخراج الحديد ، ليست سوى أكاسيد من الحديد ، وعرفنا أن الفحم إنما كان ليأخذ من الحديد أكسجينه ، ويذهب به صُعُداً في الجوّ كما تذهب غازات كل احتراق . ويتخلف الحديد في النار وقد تحرّر من قيد تقيّد به دهوراً جيولوجية طويلة لا يدريها غير علام الغيوب وظنون العلماء .

وتقدم الزمن فعرفنا أيضاً أن الزجاج السائل الذي كان الحديد ينضح به عند الطرق والحديدُ ساخن ، إنما كان زجاجاً حقاً نتج مما كان بخامة الحديد من رمل وحجر جيري . فالخامة من الجبل ، والجبال ما أكثر رمالها وأحجارها . وعرفنا كذلك أن لهذا الزجاج المصنوع بغير قصد فعلاً جميلاً بالحديد ، فبه تَسهُل تطرية الحديد بالنار ، وبه يسهل مزجه عند صهره . وهو فوق ذلك يحميه عند الطرق الساخن من الهواء بغلاف رقيق منه يلفّه عليه فيشمله به من جميع جهاته فلا يمسه الهواء بسوء أبداً .

وإبراز ما في جوهر الحديد من الصلابة بإعادته إلى نار الفحم مرة ومراراً عرفنا سرّه أيضاً . فتعلمنا أنه بذلك

إنما يشرب من الفحم نسبة يسيرة تدخل فى تركيبه فتُسبِّب له تلك الصلابة . فصلابة الحديد سببها هذا المركب الجديد من الفحم والحديد ، إذ تتحد ذرات ثلاث من هذا الأخير بذرة واحدة من ذاك الأول فيتكون منها مركب نُسمّيه كربور الحديد .

حتى السقى فضحنا أمره . فالحديد الساخن ، وهو قبيل انصهاره ، يتوزع فيه كربور الحديد كما يتوزع الملح الكثير فى الماء إذا ذاب فيه ، أى توزعاً متنقلاً عادلاً . فإذا نحن تركناه يبرد ، انفصل الكربور كتلاً كبيرة يباعد بينها الحديد . والكربور صلب ، والحديد طرى . فكأنما وضعت حجراً فى وسادة من قطن ، لا تُنتج منها صُلْبَ الحجر ، غير مجموعة لينة ضعيفة . والتشبيه بالطبع مع الفارق الكبير بين ليونة القطن والحديد . أما إذا نحن لم نترك هذا الحديد الساخن يبرد من نفسه ، بل هبطنا به من حرارته العالية إلى حرارة الجوّ الواطئة فى لحات بغطسه فى الماء ، لم يجد كربورُه الصلبُ المتوزِّعُ فيه فرصة يتبلور فيها تلك البلورات الكبيرة غير النافعة فيما نقصد إليه ، وإنما يتبلور بلورات غاية فى الصغر تنتشر بانتظام فى كل الحديد وتماسك فيه ، فيكون أدق نجيباً وأصلب مسّاً .

فالحديد إذاً لا يشرب الماء ، ولا يُسقاه ، إن هو إلا واسطة للتبريد السريع . وقد يُستخدم الزيت ، وقد يستخدم غير الزيت من السوائل . ولكن الماء أسرع فعلا ، فهو لتقبّل الحرارة أوسع صدراً وأرحب جناباً . فالسنتيمتر منه يحتاج إلى سُعر كامل لترتفع درجة حرارته درجة واحدة ، وسائر السوائل تكتفى بكسر من السعر لترتفع درجة واحدة . والماء إذا بلغت درجته الغاية غلى فطار ، وطار مع السنتيمتر منه ٥٣٧ سعراً من الحرارة .

والماء عمل كهذا فى سن النّصال . فسنّان السكاكين يضع نصل السكين على عجلة دوّارة من الحجر الصلد لنا كل من حرفها فيبرق و يُرعف . فهو إن فعل هذا على الجفاف سخن الحجر والنصل ، واشتد ما بينهما بالاحتكاك وتطاير الشرر منهما . ومعنى هذا ارتفاع درجة الحرارة فى الحديد . ومعنى هذا تغيّر قليل أو كثير فى تركيبه وتوزع جزيئاته . ومعنى هذا أنه بعد السن يبرد على غير الحال التى كان عليها قبل السّن ، فعلى غير الصلابة التى كان عليها قبل السّن . ومن أجل هذا يلجأ السانّون إلى الماء دائماً يسقطونه قطرات على إطار السّن ليبرّده ويبرّد الحديد المسنون فيجعل حرارته كحرارة الجو العادى ، أو أقرب ما تكون منها .

فتلك هى صناعة الحديد على فطرتها الأولى ، هدت إليها التجربة قبل أن يهدى العلم ، ووصل الانسان فيها على نور البداءة الانسانية البسيطة إلى حدّ غير بسيط .

ومع هذا نجد فيما سجله تاريخ الانسان المكتوب ، وفيما قبل المكتوب ، أن تلك البداءة الانسانية لابد وجدت فى استكشاف الحديد من المشاقّ والجهد والإخفاق الأول ، ما لم تجده فى استكشاف النحاس . ودليل هذا أن النحاس وجده علماء الآثار فى مخلّفات أقدم العصور الانسانية ، بينما الحديد لم يوجد على التحقيق قبل القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، على الأقل فى مصر . فالنحاس وأوانى النحاس وجدوها فى العصر البداوىّ ، عصر ما قبل الأسر . والحديد وجدوه فى الأسرة الثامنة عشرة أول ما وجدوه .

ولصفة واحدة هيّنة بسيطة ، وأ كاد أقول سخيفة ، استخفى الحديد عن بصر الانسان وسمعه وحسه تلك القرون البعيدة الطويلة . تلك هى أن الحديد إذا دُقّ وهو بارد لم يلن ولم يتطرق . فهو لابد خرج من خاماته مرة ومراراً فى نيران الانسان الأول ، ولكنه لم يفطن إليه لأنه تراءى له كالحجر الأسود لا نفع منه ، ولا خير فيه . وخرج النحاس على عكس ذلك ، شيئاً ذا لون إذا طرقه وهو بارد لان وتمدّد . إذاً فنه صفائح .

أنباء وآراء

معرض القاهرة

أقامت جمعية محبي الفنون الجميلة ، المعرض الحادى والعشرين للتصوير والنحت والزخرفة ، بدار المتحف الشمسي بشارع القصر العيني ، وقد دعت إلى حفلة تمهيدية في مساء الخميس الماضي ، طاف فيها أعضاء الجمعية مع المدعوين من رجال الصحافة والفن بأنحاء المعرض وقاعاته .

ويمتاز معرض هذا العام ، بإضافة قسم جديد من أقسام الفن إلى معروضاته ، هو قسم الفن المسرحي ، وقد ذكرنا من قبل نبأ استعداد الأستاذ صالح الشيتي مبعوث الفرقة القومية للفن المسرحي بفرنسا لإقامة معرض قائم بذاته ، خاص بهذا الفن . وقد رأت جمعية محبي الفنون الجميلة أن يكون هذا المعرض جزءاً من معرضها ، فأفردت له صالة المدخل الرئيسي لدار المتحف . وسوف نعود إلى الكلام عن هذا القسم مع باقي الأقسام في عدد قادم إن شاء الله .

ويهمنا الآن أن نسجل جهد القائمين بأمر هذا المعرض ، فنذكر أن تنسيق اللوحات والرسوم والتماثيل قد روعيت فيه الدقة والانسجام ، وأمكن إلى حد ما وضع مجموعات العارضين كل فنان على حدة ، رغم الصعوبات الناشئة من اختلاف أحجام اللوحات . وحبذا لو عني الفنانون عامة في المستقبل بمراعاة التناسب فيما يقدمون من لوحات ، ليسهلوا على لجنة التنظيم مهمتها في تنسيق مجموعات كل فنان على حدة . فإن مما لاحظناه في بعض الحالات تفرق لوحات الفنان الواحد في عدة مجموعات مما يصعب معه تكوين فكرة كاملة من اتجاه الفنان ومميزاته .

وقد أفردت إدارة المعرض إحدى الردهات لعرض لوحات لتماثيل المثال المرحوم محمود مختار ، ألحقت بمعروضات النحت . ويجدر بنا ألا نختم هذه الكلمة قبل الإشارة إلى المجهود الضخم الذى قام به المشرفون على أمر هذا المعرض ، والتقدم المحسوس في زيادة عدد العارضين من المصريين والمصريات .

ليالي الملاح التائه

صدرت الطبعة الثانية لهذا الديوان من شعر الأستاذ على محمود طه المهندس . ولعله من التوفيق أن يعاد طبع ديوان من الشعر في عامين متواليين ، ولعل في ذلك الدليل على ما يلاقيه شعر الأستاذ المهندس من تقدير واحتفال جدير بهما فنه وشاعريته .

ورغما من غلاء الورق وندرته فقد جاءت الطبعة الثانية في إناقة الطبعة الأولى وجمالها .

وإذاً فنه أوعية . وإذاً فنه سلاح . ومزجوا النحاس بقليل من معدن آخر أبيض ، يخرج من الأرض بنفس الطريقة ، فزاد النحاس صلابة . فكان من ذلك العصر الذى أسموه عصر البرنز ، وهو أول عصور المعادن . فالعصر الذى سبقه مباشرة هو العصر الحجرى . وبقى لبزوغ عصر الحديد بخيره وشره أن يهتدى الانسان إلى حقيقة واحدة : أن تلك القطع السوداء الصغيرة الخشنة التى كانت تبقى أحياناً في النيران بعد انطفائها ، إذا هي طرقت قبل أن تبرد ، تمددت وتصفحت كما يتمدد ويتصفح النحاس .

أحمد زكى

أمثلة من هدايا كتب اللجنة

	مليم		مليم
مبادىء الكيمياء جزء أول	١٠٠	ابراهيم باشا	٢٠٠
مبادىء الكيمياء جزء ثان	١٠٠	كتاب الحرب والدولة	١٠٠
الكيمياء الحربية	١٣٠	الكون والفساد	٤٠٠
بسائط الطيران	١٦٠	علم الطبيعة لأرسطو	٥٠٠
موجز التاريخ الطبيعي	١٠٠	حياة نابليون	٢٠٠
سمط اللآلي في شرح أمالي القالي	٧٠٠	سكان هذا الكوكب	٩٦
تاريخ اللغات السامية	٢٠٠	التعاون	١٢٠
الحاج شلبي وأقاصيص أخرى	٥٠	نسب عدنان وقحطان للمبرد	٣٠
الامتيازات الأجنبية	١٠٠	الريف المرح	٨٠
فلسفة الذرائع : البرجماتزم :	٩٦	علم النفس في الحياة	٨٠

إنه في يوم السبت ١٧ مايو سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا والأيام التالية إذا لزم الحال بناحية الصوامع شرق مركز أخميم سيباع هذه الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك سليمان عبد الباقي نفاذاً للحكم الصادر من محكمة أخميم رقم ٢٢٥ سنة ١٩٤١ وفاء لمبلغ ٩١ قرش صاغ بخلاف أجرة هذا النشر كطلب موسى سعد وفاء

فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم السبت ١٧ مايو سنة ١٩٤١ الساعة ٨ صباحا بناحية أبو طشت والأيام التالية بعده إذا لزم الحال سيباع هذه الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك احمد محمد محمود موسى وآخر نفاذاً للحكم رقم ٤٠٠٠ سنة ١٩٤١ أبو حمادى وفاء لمبلغ ٢٣١٥ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر كطلب منصور محمد ابراهيم من أبو طشت

فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم الأحد ١٨ مايو سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية كفر أبشيش مركز قويسنا وفي يوم الأربعاء ٢١ منه بسوق قويسنا سيباع هذه الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك عبد الحميد علي عيسو نفاذاً للحكم المدنى رقم ٥٦٢ سنة ١٩٤١ شبين الكوم وفاء لمبلغ ١٣٦ قرش صاغ بما فيه أجرة النشر كطلب الحاج عبد الغني محمد الجمس التاجر بالباجور

فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم الأربعاء ١٤ مايو سنة ١٩٤١ بناحية الباجور وسوقها إذا لزم الحال من الساعة ٨ صباحا سيباع هذه الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك السيدة حسن المغاوري من الباجور نفاذاً للحكمين الصادرين من محكمة شبين الكوم الجزئية في القضيتين رقم ١٣١٦ و ١٣١٢ سنة ١٩٤٠ وفاء لمبلغ ٤٢٣ قرش قيمة المحكوم به والمصاريف بخلاف رسم هذا كطلب حنا أفندي عطا الله

فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية شطورة مركز طهطا والأيام التالية إذا لزم الحال سيباع هذه الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك محمد أحمد علي محمد وآخر نفاذاً للحكم رقم ٥١ سنة ١٩٤٠ مدني طهطا وفاء لمبلغ ٩٦ قرش صاغ ونصف قيمة المحكوم به والمصاريف لغاية النشر كطلب الشيخ محمود يوسف حسن درويش

فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم الخميس ٢٩ مايو سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية جزى مركز منوف أو بسوق الخميس بناحية جزى سيباع هذه الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك حواش محمد جاد الله نفاذاً للحكم في القضية المدنية رقم ٧٤٠ سنة ١٩٣٩ منوف وفاء لمبلغ ٢٦ جنيه و ٧١٥ مليم بخلاف رسم هذا وأجرة النشر كطلب شاهين مصطفى الابابي

فعلى راغب الشراء الحضور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٢٤ — الثلاثاء ١٦ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٠ — ١٣ من مايو سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

البـــترول والحرب

زعم العلماء ذوو الخيال الخصب الواسع أن القنبلة التي تزن عشرة قناطير من المواد الحربية المدمرة ، والتي تفتك بالسفينة الضخمة ، وبالصرح المشيد ، والقصر المنيف ، تلك القنبلة — في زعمهم — ما هي إلا وليدة الكرة من الصوان التي كان يتراى بها الناس « المتوحشون » في العصر الحجري القديم . ونستطيع أن نصدق هؤلاء الكتاب أو لا نصدقهم ؛ ولكننا لا نملك إلا التسليم بأن الحرب قد ازدادت على مر القرون فتكاً وتخريباً وتدميراً . ومن أهم العناصر في هذا الفتك والتخريب تلك المادة الطاهرة البريئة : البترول . ولقد كان العرب يعرفون هذه المادة ، ويسمونها النفط (بفتح النون المشددة وكسرها) ، وأحسبهم أخذوا هذا الاسم من اليونان ، وقد نقله عنهم الأوربيون ؛ ثم غلبت التسمية الحديثة (البترول) ، أي زيت الصخر . وكانت العرب تعرف ما لهذه المادة من فائدة علاجية ؛ فكانوا يطلون به جلد الأجرب من الدواب ، ويستخدمونه في السُّرُج يستصبح بها ؛ ولقد يطلقون على المكان الذي يكثر فيه النفط اسم « النفاطة » ، كما يطلقون هذا الاسم على السراج نفسه ، أو على وعاء ضخم من النحاس يرى فيه بالنفط .

هذه المادة الطاهرة البريئة تتكون تحت أطباق الثرى ، وهي تتألف على وجه الخصوص من عنصرين : الكربون

والايدروجين ، يتحدان معاً فى باطن الأرض تحت ضغط شديد ، وعمق عظيم ؛ ثم لاتلبث القشرة الأرضية أن تلتوى وتتكسر ، فيتسرب هذا السائل الثمين ، إلى مستودعات باطنية ، تقربه من سطح الأرض ، بحيث ينفجر عند الحفر ، أو يسيل فوق الثرى من غير حاجة إلى حفر .

* * *

كان البترول إذاً معروفاً منذ الزمن القديم . ولكنه لم يكن سلعة تجارية ذات خطر ، ولم يكن المستخرج منه إلا مقداراً زهيداً . وفى منتصف القرن الماضى كان لا يستخرج منه فى العالم كله سوى مقدار يعادل عشرين ألفاً من هذه الصفائح التى نعرفها جميعاً . وكان الفحم وحده مادة الوقود التى تسيطر على الصناعة ، وتولد القوة ، وتدفع السفن ، وتسيِّر القاطرات . ثم أخذ إنتاج البترول يتزايد بسرعة مطردة ، وللولايات المتحدة فضل السبق فى هذا الميدان ؛ حتى بات اليوم من أعظم السلع خطراً ، ومن المواد التى تتناحر الدول على إنتاجها والسيطرة على مواردها .

لسنا بحاجة لأن نفصل الكلام من الأغراض العديدة التى يستخدم فيها البترول . وحسبنا أن نشير إلى أن هنالك طريقتين لاستخدامه : الأولى أن يستخدم كمادة وقود لتوليد البخار ، وبذلك يحل محل الفحم فى تسيير السفن أو القاطرات ؛ وفى هذه الحالة تظل القوة الدافعة هى البخار ، وفى هذه الحالة ينحصر الأمر فى إحلال مادة محرقة بدلا من مادة أخرى . ولكن حتى فى هذه الحالة يكون للبترول مزايا كثيرة على الفحم ؛ ذلك أنه يحتل من السفينة حيزاً أقل مما يحتله الفحم ، وهو أيسر فى التعبئة من الفحم ، وتستطيع السفينة أن تقطع مسافة أطول وتحمل بضاعة أكثر مما لو كانت تحرق فحماً .

على أن الوسيلة الثانية لاستخدام البترول هى أجل خطراً وأكبر أثراً ؛ ذلك أن اختراع الآلات ذات الاحتراق الداخلى أدى إلى استخدام البترول فى صوره العديدة كوسيلة للدفع والتحريك بدلا من البخار . وقد تعددت الآلات والمخترعات التى يستخدم فيها البترول ؛ فمنها ما يحرق بترولا ثقيلا ، ومنها آلات دقيقة لا بد لها من البترول المكرر السريع التبخر . ويعلم القارئ من غير شك أن الطائرات هى أهم المخترعات التى لا بد لتسييرها من البترول المكرر .

وبديهى أن منافع البترول فى وقت السلم أجل وأعظم منها فى وقت الحرب ؛ ولكننا الآن سنقصر الحديث على الحرب وما للبترول فيها من أثر بعيد ، وما له أيضاً من أثر فى السياسة الدولية ، التى تتجه نحو الحرب ، أو تحاول الابتعاد عنها .

لقد أحدث استخدام البترول ثورة هائلة فى حرب البحار ؛ فجميع السفن الحربية على اختلاف ضروبها وأشكالها وأحجامها لا تستطيع أن تقوم اليوم بأى عمل حربى ذى شأن ما لم تكن مسيرة بالبترول . ولو أن السفن الحربية اليوم كانت تكتفى باستخدام الفحم لكان فى دخانه الأسود الكثيف ما يدل على مكانها ، فتسعى إليها القطع المعادية ، فلا تستطيع الإفلات منها . ولكن الميزة الكبرى لاستخدام البترول فى السفن الحربية أنه مكنها من أن تقطع مسافات بعيدة ، وأن تعبر المحيطات الواسعة ، دون أن تحتاج إلى التزود بمقدار آخر فوق ما أخذته من قاعدتها . والبترول خفيف الوزن ، ولذلك استطاعت السفن الحربية أن تحمل مدافع أكثر عدداً ، وأضخم حجماً مما كانت تحمله فيما مضى . وقوة الاحتراق الداخلى أشد دفعاً من قوة البخار ؛ ولهذا اكتسبت سفن الحرب سرعة تفوق سرعتها القديمة ، واستخدمت فيها آلات ومحركات أقوى مما كان يستخدم فى الأزمنة السابقة .

ولئن كان البترول استحدث ثورة فى حرب البحار ، فإنه قد خلق حرباً جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، ألا وهى حرب الجو ؛ ولقد ظهرت الطائرات فى الحرب الماضية سنة ١٩١٤ ؛ ولكن الحرب الجوية فى ذلك الزمن لا تقاس إلى ما هى عليه اليوم . فاليوم بات

سلاح الطيران سلاحاً شديد الخطر ، ويوشك أن يكون أهم أسلحة الحرب جميعاً ، وهو يمتاز بالمرونة والسرعة الهائلة ؛ ومن الممكن استخدامه في البحر وفي الجو ، وفي الحروب البرية أيضاً ؛ هذا عدا استخدامه في نقل الجنود ومهاجمة المدنيين ، وخلف خطوط العدو ، وفي تدمير المصانع وطرق المواصلات ، وقواعد السفن . والذين ينادون أحياناً بأن سلاح الطيران لا يكسب حرباً ، يريدون بذلك أن استخدامه ضد المدنيين وفي تدمير المنازل لا يأتي بفائدة حربية ؛ ولكن علينا أن نذكر أن لهذا السلاح وظيفة رئيسية في ميدان الحرب نفسه ، وفي الحروب البرية والبحرية . وليس من الممكن أن نتصور الحرب الحديثة من غير سلاح الطيران ؛ كما أننا لا نستطيع أن نتصور سلاح الطيران من غير التحكم في موارد بترول ضخمة . فلقد ازدادت الأساطيل الجوية عدداً ، وازدادت قوة وسرعة وضخامة ، وتضاعف استهلاكها للبترول ، بل لأجود مستخرجات البترول . والطائرة التي تكتفي بنوع من البترول متوسط الجودة ، لا تستطيع أن تبلغ السرعة أو القوة التي تضمن لها الفوز في القتال الجوي .

ومن أجل السلاح الجوي وحده لا تستطيع دولة اليوم أن تغامر بالاشتباك في حرب ، دون أن تضمن حاجتها من البترول ؛ وإلا كانت هزيمتها محققة . ولقد كانت قلة البترول الصالح للطائرات في إفريقية الشرقية والحبشة ، من أكبر الأسباب في سرعة انهيار الامبراطورية الإيطالية . ولم تغن الجيوش الجرارة ، ولا الحصون المنيعة ، بعد أن نفد المخزون من البترول ، وانقطع الوارد من هذا السائل الثمين .

كذلك استحدث البترول في الحرب البرية ثورة لا تقل خطراً ولا عنفاً عما استحدثه في الحرب البحرية . ولقد كان الناس من قبل يقولون إن الجيش يزحف على معدته ، أي أن نجاح الحروب البرية متوقف على حسن إمداد الجيوش بالزاد . أما اليوم فإن الجيش يزحف على البترول ، ولولاه لاستحال إمداد الجيش ، لا بالطعام والشراب وحدهما ، بل وبالذخيرة والعتاد الحربي . ولقد سمعنا في هذه الحرب عن جنود تتقاتل بالأسنة في بعض الجهات ؛ فظن البعض أن الحرب الحديثة في النهاية لا تختلف كثيراً عن الحروب القديمة ؛ ولكن حرب الأسنة هذه لا يلجأ إليها إلا في حالات فردية ، وفي المراحل الأخيرة من القتال ؛ ومن المسلم به أن المدار في الحرب لا يزال إلى اليوم قائماً على الجنود البرية عامة وعلى المشاة خاصة ؛ فهي التي تستولي في النهاية على المواقع ، وتحتلها ، وتحيط بالعدو وتأسره ، ولكن حرب المشاة قد تطورت تطوراً هائلا ؛ وأصبحت ظاهرة « المشي » التي هي أساس هذه التسمية ، خاصة بالمراحل الأخيرة من القتال ؛ فلقد كان يعاب على المشاة دائماً بطء الحركة ، وصعوبة نقل الجيش من جزء من الميدان إلى جزء آخر ، وبطء حشد الجنود في المكان الملائم ؛ وقد زال هذا كله من الحرب الحديثة . فأصبح المشاة لا « يمشون » إلى الميدان ولا وراء الخطوط ؛ بل تحملهم السيارات المصفحة وتنقل إليهم الزاد والذخيرة والسلاح ؛ فمع كل جيش قطارات من السيارات تلازمه أينما ذهب ، ومن ورائه قطارات من السيارات تمونه وتخدمه ، وهي في حركة دائمة ما بين الميدان وبين جهات الامداد .

ولقد ظهر في الحرب الماضية أن سلاح الفرسان ليس بذي خطر عظيم ، وابتكرت الدبابات للمرة الأولى ، وكانت أول الأمر بطيئة الحركة ؛ ولكنها اليوم ازدادت سرعة وقوة ؛ وهكذا حلت الدبابات محل الخيل ؛ وهي من أضخم أدوات الحرب وأثقلها وزناً ، ومن أشدها استهلاكاً للبترول . ولا بد لها من سيارات تمدها به ، إذا أرادت أن تقطع مسافات بعيدة .

وفي الحروب الماضية كان استطلاع أنباء العدو وحركاته موكولاً إلى وحدات صغيرة من المشاة ، تسير بسرعة متسترة بالظلام أو بالشجر أو بالصخور ، ثم ترجع

عدواً إلى قواعدها . أما اليوم فان هذا العمل تقوم به السيارات الخفيفة والموتوسيكلات ، ولا بد لهذه جميعاً من البترول .

وهكذا نرى أن الجيش حقيقة يزحف اليوم على البترول . ولابد للدولة التي تريد أن تفوز — بل تشتبك — في حرب حديثة أن تضمن مواردها منه .

وفي العالم أقاليم كثيرة تنتج البترول ، ولكن هنالك أقطاراً شاسعة خالية منه تماماً . فأمريكا غنية بالبترول غنى مفرطاً . ومن أكبر العوامل في فوز الحلفاء في الحرب الماضية وفرة البترول عندهم ، وقلته عند أعدائهم . ولا تزال أمريكا إلى اليوم تنتج ما يزيد على ثلاثة أرباع الانتاج العالمي كله . وبريطانيا اليوم تعتمد الاعتماد كله على ما تستورده من أمريكا ؛ لأنها برغم مواردها الكثيرة في آسيا ، فان أمريكا أقرب إليها ، وطريق المحيط الأطلسي أقل تعرضاً للخطر من طريق البحر المتوسط ؛ والجزر البريطانية نفسها خالية من البترول ، اللهم إلا ما قد تستخرجه من الفحم ، وهو مقدار قليل على كل حال .

وقارة أفريقية لا تكاد تنتج بترولا ؛ والجهة الوحيدة التي لا تخلو من البترول هي مصر ، وإنتاجها وإن لم يكن كبيراً فانه يفي بكثير من الحاجات المحلية وقت السلم . أما سائر قارة إفريقية فخال تماماً من البترول . ولا بد أن يكون لهذا أثره في الحرب الدائرة في صحراء ليبية ، لأن الجنود الإيطالية والألمانية لا بد لها أن تستورد كل قطرة تحتاجها من هذا السائل العزيز الذي لا غنى عنه .

وللجيوش البريطانية في الشرق الأوسط موارد أخرى من البترول ، تفوق المورد المصري عشرات المرات . ذلك أن إنتاج مصر يبلغ نحو مائتي ألف طن ، وإنتاج حقول إيران والعراق يزيد على خمسة عشر مليوناً من الأطنان . وإذا امتنع الوارد من العراق بسبب الحالة هناك ، فان حقول إيران أكبر إنتاجاً من حقول العراق ، وهنالك موارد عظيمة للبترول في البحرين ، وكذلك في الهند وجزر الهند الشرقية ؛ وهذه الأخيرة من أكبر حقول البترول في العالم وأوفرها إنتاجاً .

فليس على الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط أن تخشى فقراً في البترول . أما الدول الأخرى فان اليابان وإيطاليا لا تملكان من هذه المادة شيئاً ، ولا بد لهما أن تحصلا عليها من بعض الأقطار الأخرى ، وكانت اليابان تعتمد على الولايات المتحدة للحصول على حاجتها من البترول ، وهي اليوم تحاول شراءه من جزر الهند الهولندية ، وقد نجحت في هذا بعض النجاح .

أما إيطاليا فلا بد لها أن تعتمد على حليفتها القوية لتزود بما تحتاجه من البترول ، وقد استطاعت ألمانيا أن تنمي مواردها من البترول الصناعي المستخرج من الفحم ، وكذلك استولت على كثير من البترول المدخر في البلاد التي احتلتها . ولكن أكبر مورد لها اليوم هو من غير شك حقول رومانيا ، وهي رابع أو خامس أقطار العالم في إنتاج البترول ، ويزيد ما يستخرج منه هناك على ثمانية ملايين طن ، ولكن يقول كثير من الخبراء إن هذا المقدار لا يكفي حاجات الحرب ، وإن ألمانيا قد تضطر إلى مغامرة جديدة للحصول على مورد بترول جديد . فان استطاعت أن تحصل من روسيا على ما تحتاجه بطريق البيع والشراء أو السلفة ، وإلا فقد تضطر إلى الالتجاء لوسيلة أخرى . وروسيا أغنى دول أوربا جميعاً في البترول ، ويزيد إنتاجها السنوي على سبعة وعشرين مليوناً من الأطنان . ومن السهل اليوم نقله إلى ألمانيا بطريق البحر الأسود .

ولا بد للدول المحرومة من البترول مثل اليابان أن تفكر طويلا قبل الاقدام على مغامرة حربية جديدة ، وهي لا تزال بعد مشتبكة في حرب طاحنة في الصين .

وهكذا نرى البترول عاملا كبيراً لا في تسيير الحرب وحدها ، بل في تسيير دفة السياسة الدولية . وفي توجيه الخطط الحربية .

محمد عوض محمد

صور قضائية :

عنـــــد ما ترمى الأقدار

ويحاسب الانسان

للأستاذ ج . ج

(يونيه سنة ١٩٣٥)

من الأمور المحرجة التي تصادف القاضي في عمله ، أن يجد نفسه أمام حالة يتعين عليه فيها محاسبة المتهم من عمل بدأه هذا المتهم حقاً ، ولكنه لم يقصد أن ينتهي منه إلى النهاية التي أرادتها الأقدار بحال من الأحوال . ومن ذلك ما وقع لي في الأسبوع الماضي . . .

فقد تقدم إليَّ غلام لا يكاد يبلغ السادسة عشرة من عمره ، وتهمته أنه فقأ عين غلام آخر في نحو الرابعة عشرة .

أما الغلام الأول — المتهم — فهو خادم في منزل يجاور منزل الغلام الثاني .

وأما هذا الغلام الثاني — المجني عليه — فهو تلميذ في إحدى المدارس الثانوية .

وأما الواقعة فهي أن هذا التلميذ كان يلعب الكرة مع بعض زملائه في الطريق . وكان الخادم يقف إلى جانب الطريق يشاهد اللعب مع المشاهدين . ولكنه كان إذا جاءت الكرة على مقربة منه ضربها بقدمه فأفسد بذلك مجرى اللعب على اللاعبين ؛ فنبهه التلميذ إلى وجوب الكف عن ضرب الكرة ؛ ولكنه لم يأبه له ولم يستمع لقوله ، وعاد إلى ما كان يصنع كلما اقتربت الكرة منه . فأغلظ له التلميذ في القول ، وحذره تحذيراً خشناً . وكانت في يد الخادم عصا قصيرة من الخيزران المرن ، فخطر بباله أن يهدد بها التلميذ . ولكنه لم يجرؤ على أن يضربه بها مباشرة . وكل الذي استباحه لنفسه أنه ألقاها عليه فلم تصبه ، ويا للأسف — كما يقول صديقنا الدكتور محمد عوض — والأسف هنا على كونها لم تقع مباشرة على جسم التلميذ ، لأن الإصابة التي كانت تحدثها العصا في مثل هذه الحالة لم تكن تعدو أن تكون كدماً خفيفاً هيناً ، لا يمكن أن يترتب عليه أي أثر من الآثار ؛ هذا فضلا عن أنه كان من الممكن في مثل هذا الوضع أيضاً أن ينحرف الفتى بجسمه عن مرمى العصا ، فلا تصيبه إطلاقاً . ولكن الذي حدث هو أن العصا وقعت على الأرض تحت أقدام التلميذ ، فأصابت حجراً ، فارتدت إلى أعلى بسبب مرونتها ، فأصاب طرفها عينه ، فأدماها . . . فأفرغها . . .

والنكبة في شأن التلميذ نكبة هائلة ، فإنه لم يصب في عينه فحسب ، ولكنه أصيب في مستقبله كذلك . وليست عاهة العين من العاهات الخفية التي تنتهي آلامها بانتهاء علاجها ، ولكنها من العاهات الظاهرة التي يتألم لها صاحبها عند وقع كل نظرة عليه . فلو أن القاضي أراد أن يقيس العقوبة بهذا القياس لنكل بالمتهم تنكيلاً . ولكن نظرة أخرى إلى هذا المتهم تقلب الأمور رأساً على عقب . إذ من الواضح أن النتيجة التي انتهى إليها الحادث لم تكن تخطر له ببال . بل إنه لم يكن ليفكر في إلحاق أي أذى صغيراً كان أو كبيراً بهذا الفتى المسكين ، ولم يكن كل ما وقع بينه وبينه ليثير في نفسه أي معنى من معاني الانتقام ، بل إنه ليحس في أعماق نفسه أنه كان مخطئاً حين لم ينزل على حكمه إذ نهاه عن لمس الكرة . وإنه ليحس إحساساً مضاعفاً بالأسف على أنه رفع عصاه في وجه شاب إن لم تكن تربطه به صلة مباشرة ، فإنه ما زال في حكم سيده . فكيف يمكن بعد ذلك أن يسأل هذا المنكود عن أمر لم يقصده ، وعن نتيجة لم يفكر فيها ؟ وهل من العدل في شيء أن يسوى بينه وبين من أقبل على غريمه عامداً متعمداً يريد أن يوقع به ويشوه

وجهه ويمكر عليه صفو أيامه ، ويشكيه في مستقبله ، فيضربه ضرباً يفضي إلى مثل هذه النتيجة النكراء ؟

القانون يقول نعم ! لأن الضارب في الحالتين تعمد الضرب ، وكل من ضرب وهو عامد وجب عليه أن يتحمل مسئولية عمله . و « البواعث » لا ينظر إليها القانون عند « تكييف » التهمة ، ولكنه ينظر إليها فقط عند « تقدير » العقوبة .

***

ولقد أثار هذا الحادث في ذهني ذكرى حادث آخر مماثل له . ولكنه كان أبعد آثاراً وأغرب ظروفاً ، وكان له في حينه دوى في دوائر الطب ودوائر القضاء معاً . لأن المتهم كان طبيباً مشهوراً ، ولأن الحادث انتهى بوفاة المجنى عليه .

وتفصيلات هذا الحادث تتلخص في أن شاباً في مقتبل العمر قصد مع والده إلى أحد أطباء الأسنان لأن الفتى كان يشكو ألماً في بعض أضراسه . ولكنه كان فتى عصبياً هلوعاً جزوعاً ، فهو على الرغم من ألم ضرسه لم يكن يطيق فكرة أن يخلعه له الطبيب أو أن تمسه يد . ولذلك صحبه والده على كره منه وقصد به إلى ذلك الطبيب ، لعله يبلغ في إقناعه ما لم يوفق هو إلى بلوغه .

وأجلسه الطبيب على مقعده الوثير ، وجعل يتلطف إليه بالكلام اللين ، ويوحي إليه الثقة في خفة يده وسهولة عمله . ولكن الحالة العصبية التي كان عليها صاحبنا أغلقت آذانه دون كل نداء ، وزادته إصراراً على إصراره أن لا يمس أسنانه أحد . . .

وبدأ يحس الطبيب أن وقته يضيع سدى ، وأن في مرضاه المنتظرين من قد يكون أحوج إلى عنايته من هذا المريض العنيد ، فغير مسلكه معه وجرب شيئاً من الشدة في الحديث ، لعله يبلغ بالعنف ما لم يبلغه باللين . فبدا على الشاب كأنه أخذ في الاستسلام تحت تأثير هذا الضغط ، فتشجع الطبيب واسترسل في خطته وانتقل من الكلام الشديد إلى الحركة العنيفة . وهمّ بفم الشاب يريد أن يدفع فيه آلاته الصغيرة ، فعاد الشاب إلى المقاومة . وخيل إلى الطبيب أنه لو خطا خطوة أخرى في سياسة القوة فلعله أن يفلح في كسب المعركة ، فلطم الشاب لطمة خفيفة على أسفل وجهه وهو يدعوه إلى ضرورة السكون والتزام الهدوء .

وكأنما نجحت دعوته هذه المرة فإن الفتى أسبل عينيه وأرخى يديه . وكف عن كل مقاومة . . ولكن الانقلاب كان سريعاً مريباً ، فاقترب الطبيب من مريضه يقلبه . . فإذا هو بين يديه جثة هامدة .

وقامت قيامة الوالد . وجاء البوليس . وانتقلت النيابة وفحص الطبيب الشرعي جثة الشاب . وانتهى إلى القول بأن الوفاة جاءت نتيجة للصدمة العصبية التي أصابت الفتى عقب اللطمة التي لطمه الطبيب إياها . . . فلم يكن للنيابة بد من تقديم الطبيب المحاكمة بتهمة أنه ضرب الفتى ضرباً أفضى إلى موته .

ولم يترك الدفاع باباً من أبواب التشكيك في سبب الوفاة إلا طالعه . فقال المحامون : وما شأن الطبيب إذا كان المصاب إنساناً تشهد الناس جميعاً بأنه كان في حالة عصبية شاذة ؟

وما شأنه أيضاً إذا مست المصاب هذه الصدمة العصبية وهي من تكوين جسمه لا من صنع الطبيب ؟

وقالوا : ومن يدرينا ؟ لعل المصاب قد انتهى أجله مصادفة في تلك اللحظة التي لطمه فيها الطبيب ؟

وأين هي آثار تلك الصدمة العصبية وقد ثبت من تشريح الجثة أنها سليمة ليس بها أي أثر لأية إصابة ؟

ولولا اعتراف الطبيب نفسه بأمر تلك اللطمة الخفيفة لما قام على حصولها أي دليل آخر ؟

وجيء بالطبيب الشرعي ليدلي أمام المحكمة وعلى مسمع من الدفاع بحججه العلمية على صحة ما انتهى إليه في

تقريره . وأسفرت مناقشته عن الحقائق الآتية :

وهي أن « الموت الفجائي » يحدث في حالات محدودة معينة ترجع إلى خلل يطرأ على : (١) جهاز الجسم الدموي ، أو (٢) جهاز التنفس ، أو (٣) الجهاز البولي ، أو (٤) الجهاز العصبي .

فمن آثار الحمى مثلا في بعض الأحيان ما يصيب القلب — وهو مركز الجهاز الدموي — فيجعله عرضة لهبوط الفجائي عند بذل أي مجهود شاق ، وتكون النتيجة « الموت الفجائي » .

وقد يحدث إدمان الشراب التهاباً شعبياً في الرئتين — وهما مركز جهاز التنفس — فيكون ذلك سبباً في مثل هذا الهبوط . وينتهي الأمر أيضاً « بالموت الفجائي » .

وقد تقصر الكليتان — وهما مركز الجهاز البولي — لسبب ما في إفراز مادة « البولينا » . فتبقى في الدم وتتراكم فيه حتى إذا بلغت حدها القاتل أصيب المريض بغيبوبة مفاجئة تعقبها الوفاة .

وأخيراً توجد في الجسم مجموعة من الأعصاب اسمها « المجموعة السمبثاوية » تنتشر أعصابها الدقيقة على الأحشاء ذات العضلات غير الارادية . ومهمتها تنبيه هذه الأحشاء لتتحرك كي تقوم بعملها العادي . فالمعدة والأمعاء مثلا من بين هذه الأعضاء الحشوية التي تنقبض وتنبسط وتتقلص ؛ ولا شأن للارادة بتحريك عضلاتها ، لأن الذي يحركها هو هذا الجهاز السمبثاوي ، وأعصاب هذا الجهاز حساسة بحيث أن أية صدمة لها قد تحدث تنبيهاً متعكساً للمراكز العصبية الأخرى المتصلة بها . فتنتهي بوقوف القلب أو التنفس ، ثم بالوفاة ؛ وفي مثل هذه الحالات لا يمكن للتشريح أن يكشف من وجود أي أثر في الجسم إذا كانت الإصابة خفيفة .

ومن المناطق الأكثر حساسية في جسم الانسان لأمثال هذه الصدمات ، منطقة المعدة ، ومنطقة القلب ، والخصية ، والعنق ، والقفا ، وأسفل الوجه .

فأيما إصابة خفيفة تقع على واحدة من هذه الجهات عند من تكون له حساسية خاصة في « جهازه السمبثاوي » تحدث له الوفاة المفاجئة .

ولم يبق أمام الدفاع بعد هذا البيان مجال لإنكار التهمة ، وصدر الحكم فعلا على الطبيب بالادانة .

وكانت رمية أخرى عبثت بها يد الأقدار . فأصابت القاتل والقتيل في آن واحد .

* * *

ومما يتصل بهذا المعنى ما حدث أيضاً في العام الماضي بإحدى القرى القريبة من مدينة الزقازيق . فقد ذهب أحد تجار الحبوب مع أمه إلى السوق لشراء ما يتسنى لهما شراؤه من الغلال ؛ وسنحت للرجل صفقة رابحة مارس فيها ، فإذا بتاجر آخر يريد أن يغلبه عليها أو يشاركه فيها ، فأبى عليه ذلك ، وصرفه بالحسنى فلم ينصرف ، ووقعت المشاحنة التي لا بد أن تقع في مثل هذا المقام . وأقبلت الأم من أقصى السوق تجري نحو ابنها وهي تصيح وتستغيث ليدخل الناس بين المتشاحنين ، ويدفعوا عن بعضهما أذى بعض ؛ وهمت هي بالتاجر الدخيل تريد أن تحول بينه وبين ابنها ؛ فبسط الرجل إليها قدمه يريد أن يركلها ، فنالت أطراف قدمه أسفل بطنها ، فكأنما صعقتها الكهرباء ! وخرت على الأرض فاقدة الحراك ؛ وحاول الموجودون عبثاً أن يعملوا على إسعافها فتركوها ، ونثروا الماء على وجهها ، وروحوا لها ؛ ولكنها كانت قد فارقت الحياة منذ لمستها قدم ذلك الشخص الذي أصبح بين طرفة عين وانتباهتها « قاتلا » موسوماً في نظر الناس والقانون بأنه . . . . « أزهق روحاً » .

* * *

ولعل أعجب حالة وقعت لي من أمثال هذه الحالات تلك التي راح ضحيتها رجل صالح قصد إلى المسجد ليؤدي فريضة العشاء على عادته كل ليلة . وكان من عجيب أمر

صاحبنا هذا أنه لا يرضى إذا ذهب إلى المسجد إلا أن يجلس في الصف الأول خلف الامام ، كأنما ينثر الله سبحانه شآبيب رضاه على المصلين بقدر قربهم أو بعدهم من هذا الامام . ولذلك روى الشهود عن هذا المسكين أنه كان يترك حانوته المجاور للمسجد قبل حلول موعد الصلاة بزمن طويل يكفل له الحصول على مقعده المنشود . . . فذهب في تلك الليلة على عادته ، واتخذ مجلسه في المكان الذي ارتضاه لنفسه ، وجلس يسبح حتى قام المؤذن فأذن للعشاء ، وأوشك الامام أن يقيم الصلاة ، وكان المسجد قد احتشد بالمصلين ، وعند ذلك فوجئ بحركة من خلفه ، يريد بها صاحبها أن يفسح له الرجل مكاناً إلى جواره ، فلم يأبه لهذه الحركة ، وتجاهل صاحبها . ولكن أخانا هذا اندفع يدس نفسه دساً بين الرجل وبين جاره ، وهنا خان الرجل صبره ، وهاجته سماجة هذا الدخيل ، فنسى المسجد وحرمته ، والامام وهيبته . وانبرى له يرده ويشرح له حاله ، وأنه يترك عمله ويذر البيع والشراء ، ويقصد إلى المسجد قبل غيره من الناس ليصيب المكان الذي يشاء ، وليستمتع بجلسة مريحة وبصلاة خاشعة ! فليس يجوز بعد ذلك أن يأتي في اللحظة الأخيرة من يزحمه في مجلسه فيحرجه ، ويتسبب في تشتيت ذهنه ، ويقلب صلاته من عبادة ونجوى ، يود لو تدوم أبداً ، إلى حركات ثقيلة عسيرة يتمنى لو انتهت وشيكاً ، كي يتحرر من عنتها وضيقها . . .

ودهش صاحبنا لهذه الثورة التي لم يهيئه فهمه لإدراك حقيقتها . ومضى فيما كان بسبيله من تهيئة مجلسه إلى جوار الشيخ الأول وهو يقول في هدوء :

« نحن هنا في بيت الله — والمسلمون يسع بعضهم بعضاً ! »

ولكن الشيخ لم يمكنه من ذلك ، ونهض من مجلسه حنقاً ، وفهم الرجل أن الشيخ قد يهم بضربه ! فبادر إلى تلابيبه يريد أن يمسك بها ، ولكنه ما كاد يضع يده على ثيابه ، ويشد عليها حتى سقط الرجل بين يديه ، وقد فاضت روحه ! فلم ينفع فيه هو الآخر إسعاف ولا علاج ، وتبين أن السبب في وفاته كان تلك الصدمة العصبية التي أصابته في حالة هياجه ، من ضغط الرجل على عنقه ، ذلك الضغط الخفيف الذي لم يكن ليؤثر في الظروف العادية أدنى تأثير على أشد الناس ضعفاً ، وأهزلهم بنية ! وهكذا انتظمت في سلك « الفتنة » ضحية جديدة ، وفقدت حياة كاملة بسبب رعونة لحظة واحدة !

* * *

فإلى إخواننا المصريين أسوق هذا الحديث ليتعظ به منهم من يشاء . والذي أراه أن من كمال أخلاق المرء أن يغل يده من أذى الناس مهما يكن سلطانه عليهم . . . ويقول بعض الخبراء في هذا الشأن : إن النظرة الشزراء عند من يعرف كيف يلقيها تفعل في النفس ما لا يفعله الصفع واللكم ! فان صح هذا كان لدينا سلاح فعال وأنيق في وقت واحد . ثم هو فوق ذلك لا يحتاج إلى « رخصة » ولا يعاقب القانون على حمله ولا على استعماله . ومن الخير أن نعود أنفسنا على تقلده وأن نروض أعيننا على إحكام الرماية به عند الاقتضاء ، لنأمن عواقب اللطمة الهوجاء ، ونسلم من شرور الركلة الشوهاء !

ع . ج

ديكارت والتجديد الفلسفي

للأستاذ عثمان أمين

لو صح أن يرسم الباحثون لتاريخ الفلسفة الحديثة بدايةً معينة فالأرجح أن تكون تلك البداية هي فلسفة ديكارت ، التي جاءت حقاً فاتحة لعصر جديد له طابعه الخاص .

قد يُقال إننا رأينا من الفلاسفة والمفكرين في عصر « النهضة » الأوربية من قام مطالباً بحقوق الفكر ، نازعاً إلى البحث الحر ، مناوئاً لتقاليد القرون الوسطى ، ناعياً على أهلها ضيقَ أفقهم العقلي ، وخضوعَهم لنير السلطات المختلفة : ففي فرنسا مثلا قام « راموس » سنة ١٥٤٣ ، ونشر كتاباً ألحى فيه باللوم على منطق أرسطو وسلطة « المدرسيين » . ثم إننا قبل عصر ديكارت بزمن قليل رأينا « فرنسيس بيكون »[١] ينهض ناقداً مافي العلم القديم الاستنباطي من عقم وجدب ، مُشيداً بفكرة العلم التجريبي وما فيها من خصوبة ، وما يُرجى لها من ثمرة . ولا شك أن تلك القوى المتفرقة التي حُشِدت في جهات عديدة قد استطاعت أن تهزّ قواعد الفلسفة التقليدية قبل مجيء ديكارت .

* * *

لكنا نستطيع أن نقول إن الذي عرفه عصر « النهضة » من الأنظار الفلسفية إنما يرجع في صميمه إلى المذاهب القديمة عند اليونان والرومان ، وما كان في مذاهب « الرنيسانس » مبشراً بعالم جديد إنما لبث خاضعاً لضرب من الخيال الفني أو الديني ، دون أن يظفر بالقيام على مبادئ فلسفية صحيحة راسخة . ثم إن « بيكون » وإن كان قد بذل حقاً جهوداً قيمة لبيان أنواع العلوم الجزئية التي يتعين على المشتغلين بالمنهج أن يدرسوها ، وأدرك أن العلم يتوقف على الذهن وقوانينه ، فإنه مع ذلك لم يتحرر كل التحرر من تصورات أهل القرون الوسطى وأوهامهم وظنونهم العقلية . ألسنا نراه أحياناً يسلّم لمن قبله بوجود « الكائنات المجردة » وبوجود « الصور » المختلفة (كالساخن والبارد والكثيف والخفيف) التي يمكن نقلها من جسم إلى جسم ؟ ثم إن « بيكون » لم يعالج المسائل التي تتصل بأسس العلم ، ولا بالشروط الواجب توفرها فيه ، ولا علاقة العلم بالحقيقة ، ولا علاقته بالذهن البشري ، وما إلى ذلك من المسائل التي عني بها الفكر الحديث[١] .

* * *

أما ديكارت فقد قصد إلى التجديد في الفلسفة : التمس الحق الذي لا ريب فيه ، فلم يقنع بما في الكتب ولا بما عند القدماء ، وأراد أن يرفض حكم السلطات أيًّا كانت ، وحاول أن يتفلسف بنفسه كأنما لم يسبقه في ذلك السبيل أحد . وديكارت يشعر بما لمحاولته تلك من خطر ، وهو يعتزّ أشد الاعتزاز بما أدخل من إصلاح في الآراء[٢] ويلفت نظر قرائه إلى مبلغ الفرق بين مبادئه ومبادئ غيره من السابقين . فتراه مثلاً حين يذكّره « أرنو » بأن القضية المشهورة ، قضية الكوجيتو « أنا أفكر فأنا

(١) نشر « بيكون » كتابه « الأرغانون الجديد » سنة ١٦٢٠ ، أي قبل أن ينشر ديكارت كتاب « المقال عن المنهج » بسبع عشرة سنة .

(١) راجع دلبوس ص ١٦ — ١٧ « الفلسفة الفرنساوية » باريس ١٩١٩ .

(٢) مؤلفات ديكارت : (طبع آدام وتانري م ٩ الجزء الثاني ص ١٠ — ١١)

إذاً موجود » قضية قد سبقه إلى ذكرها القديس « اغسطينوس » ، يجيب جواب من يشعر بما تنطوى عليه قضية « الكوجيتو » من طرافة وجدة فيقول : لئن كانت جميع الحقائق التى أضمها قد عرفها الناس فى سائر الأزمان ، لكن لم يوجد بعد — فيما أعلم — من صرح بها كمبادىء للفلسفة ، أعنى كأصول تستنبط منها سائر الأشياء الأخرى التى فى العالم »[١] .

***

حق أن ديكارت لا يخلو من أن يكون قد وجد من تعاليم الماضى قضايا حفظها أثناء تعلمه ، ونظريات وعاها خلال مطالعته ، والواقع أن الفيلسوف الفرنسى قد نشأ فى وسط فكرى يمت إليه بأسباب وثيقة وإن تكن أحياناً غير مشهودة . ولا بد أن يكون ذلك الوسط قد أثر على الفيلسوف حتى حين أراد الانفكاك من قيوده . ومن المحقق أيضاً أن جزءاً كبيراً من الفلسفة الديكارتية مشتق من مذاهب القرون الوسطى ، سواء أكان ذلك بالنقل المباشر أم بطريق « رد الفعل » المقصود[٢] .

وحق كذلك أن الناس فى عصر ديكارت كانوا يحسون بحاجة ماسة إلى المطالبة بما للعقل من حقوق طبيعية فى البحث عن الحقيقة والارشاد إليها ؛ يشهد بذلك فقرة من « رسالة فى الفراغ » كتبها « بسكال » بعد « المقال عن المنهج » بنحو عشر سنوات ، جاء فى مطلعها : « إن الاحترام الذى يدين به الناس للقدماء قد بلغ اليوم ، فى الأمور التى ينبغى أن يكون له فيها سطوة أقل ، مبلغاً جعل الناس ينظرون إلى آراء القدماء وكأنها وحى منزل ، ويجعلون من غوامضها أسراراً ، حتى ليتعذر على المرء أن يتقدم بشىء جديد دون أن يستهدف للخطر ، وحتى إن نصاً من أقوال مؤلف يكفى فى هدم أقوى الحجج والأسباب » .

ولا بد لنا أن نعترف أن ديكارت لم يكن أول من احتج على سلطة القدماء وسلطة أهل القرون الوسطى ، وأن عبارته إنما امتازت بإيضاحها معنى ذلك الصراع الذى خاض غماره من قبل رجال النهضة (الرينسانس) . وديكارت وإن كان ممن ساعدوا على توسيع نطاق العلم الجديد وتنظيم مباحثه ، لم ينشىء ذلك العلم الذى رأينا له أنصاراً وأعواناً حتى بين رجال القرون الوسطى . ثم جاء علماء أمثال « ليونارد دى فنشى » و « كبلر » و « غاليليو » فأخذ العلم الحديث يتبين مبادئه ويتنبه إلى نزعاته ، حين فسر الطبيعة المادية تفسيراً تغلب عليه الصبغة الميكانيكية الرياضية .

***

لكن هذه الاعتبارات جميعاً ، مهما بلغ من وجاهتها ، ليست تقدح فى حقيقة الابتكار الديكارتى فى الفلسفة . وينبغى ألا ننسى أن أكثر المكتشفات الفكرية — كغيرها من المكتشفات — ليست كلية ولا مطلقة ، وإنما هى دائماً جزئية ونسبية . وهى فى الأغلب الأعم عبارة عن إتمام عمل كانت الأذهان مستعدة لقبوله ، بعد اختمار فكرته فيها بزمن طويل أو قصير .

على أن ديكارت نفسه لم يخطر له قط أن يعرض العلم كشىء خلق من العدم ؛ بل لقد مارسه القدماء وبعض المحدثين . وديكارت لا يستغرب حين يدله قراؤه على وجود موافقات بين فكره وفكر من سبقوه . وديكارت منذ تصدى للبحث لم يرض أن يطلع على الناس داعياً إلى ثورة . والشك الذى يفترضه المنهج الديكارتى لا يجعل من الذهن « صفحة بيضاء » كما يقولون . بل

(١) مؤلفات ديكارت : (طبع آ . و ت . ، م ٩ الجزء الثانى ص ٢٠) .

(٢) راجع جلسون « مباحث فى الدور (الذى قام به) فكر القرون الوسطى فى تكوين مذهب ديكارت » باريس ١٩٣٠ .

الشك عنده إنما يحترم الفطرة والطبيعة . وهو على كل حال مفيد في عملية الانتخاب والغربلة بين الأفكار المخلوطة والمعاني المشتتة التي أرهقت بها القرونُ الذهنَ البشري. وديكارت يكتب إلى الأب « ميلان » بهذا الصدد : « إذا كان لديك سلة من التفاح بعضه جيد وبعضه فاسد مفسد للباقي ؛ فماذا أنت فاعل إلا أن تفرغ السلة من آخرها ، وتتناول التفاح واحدة واحدة ، لكي تعيد الجيدة منها إلى السلة وتلق بالفاسدة في مكان القاذورات ؟ »

والحق أن هذا بالضبط ما صنعه ديكارت . والفلسفة الديكارتية قد مارست بهذا الصـدد شيئاً شبيهاً بفن الجراحة ؛ فهي مع حرصها على بعض القديم الصالح ، جعلت أقصى أملها أن تجتث العناصر الفاسدة ، وأن تقتلع البذور ذات العطب ؛ وبالجملة أن تهدم كل ما لا يستحق البقاء من العلم التقليدي الموروث[١] .

***

وربما استطعنا أن نقف على مدى عبقرية ديكارت إذا عرفنا أن فيلسوفنا كان علماً من أقطاب العلم ، ومن أنداد « غاليليو » و « نيوتن » و « بسكال » . ولقد نبغ في العلوم الرياضية ، فاشتغل بالهندسة والجبر قبل أن يشتغل بالميتافزيقا . واشتغل كذلك بالعلوم الطبيعية ، فكانت طبيعياته آلية (ميكانيكية) صرفة ، تتناول ظواهر الطبيعة المادية ، وتفسر كل شيء فيها بالمقدار والشكل والحركة . ولئن كانت مباحث ديكارت في العلوم تبدو أول وهلة مكملةً لمباحث من سبقوه من العلماء الرياضيين والطبيعيين ، فإن جدة موقفه وطرافة مذهبه ترجع إلى النظرة الفلسفية العميقة التي نظر بها إلى العلم .

اشتغل الفلاسفة في العصر القديم وفي القرون الوسطى بمسألة المعاني والكليات . فكانوا يتصورون العلم كنظام من أنظمة التقسيم ، وكوسيلة من وسائل الوقوف في جريان الظواهر الحسية ، يرمون منه إلى إيجاد موضوع ثابت الفكر والسمو به إلى اللامتغير ، إلى الله . فلما تقدم العلم في القرن السادس عشر ، وامتد سلطانه تغيّر وضع المسألة ؛ فأصبح همُّ الفيلسوف أن يتبيّن في الظواهر المعقدة العناصرَ البسيطة ، وأن يلتمس قوانين التئامها وائتلافها ليتسنى للناس استخدامها ؛ ومن أجل ذلك وضع « بيكون » نظرية الاستقراء ، ودأب مشتغلاً بفكرة العلوم الطبيعية .

وساقت الجرأة ديكارت فطمع في إتمام العلم ، محاولاً أن يعطيه ، منذ البداية ، صورةَ الاستنباط التي يطمح إليه . فهو يحاول أن يرد الكون كما يبدو لنا إلى شيء مؤلف من عناصر معقولة أو يمكن تعقلها ؛ وهو يرى في الرياضيات نموذجاً للعلم الصحيح ؛ إذ الرياضيات موسوعة كبيرة يتبين ربط أجزائها بعضها ببعض وبمبدأ واحد . وديكارت يريد للفلسفة إصلاحاً ينسج على منوال « تلك السلاسل الطويلة من الحجج التي هي غاية في البساطة والسهولة ، والتي جرى أصحاب الهندسة على استخدامها للوصول إلى أصعب ما لديهم من براهين . . »[١]

***

واكتسب ديكارت بممارسة العلوم البحتة دقةً في الذهن ، وثقـةً مطلقةً بالعقل ، وحاجةً ملحّةً إلى الإبانة والوضوح . وما سمي بعد « بالثورة الديكارتية » إنما يتلخص في تلك القاعدة الأولى ، قاعدة « البداهة » التي وردت في « المقال عن المنهج » ، والتي هي يقيناً أم المبادئ التي يقوم عليها إصلاحه الفلسفي . ويعارض ديكارت روح

(١) راجع : ألبير ريفو : « خواطر عن المنهج » مجلة « الميتافزيقا والأخلاق » ، باريس ، يناير سنة ١٩٣٧ (عدد خاص عن ديكارت) .

(١) « المقال عن المنهج » ، القسم الثاني (مؤلفات ديكارت طبع آ . وت ، ج ٦ ص ١٩) .

« الرنيسانس » المتطلعة قبل كل شيء إلى التفاصيل العجيبة والحقائق المخفية ، والتي كثيراً ما ترزح تحت عبء التنقيب والتحصيل (أوربسيون) ويستهويها الابهام والغموض ويجذبها النقد اللامعقول : « ومن العيوب الشائعة عند الناس أنهم يرون أصعب الأشياء في الظاهر أجلها ؛ وكثيرون يحكمون بأنهم لا يعلمون شيئاً حين يدركون بجلاء وبساطة علة واقعة من الواقعات . . . أنهم يقيناً حتى يؤثرون الظلام على النور »[١] .

ولعل أظهر مواضع الطرافة في الفلسفة الديكارتية هو سعيها إلى اكتشاف منهج جديد وتدعيم الشك اليقيني . ثم رفضها كل سلطة تحاول أن تفرض على الفكر فرضاً ، واطراحها منطق أرسطو والقرون الوسطى ، ذلك المنطق الذي قد يصلح لبيان حقيقة معلومة من قبلُ ، ولكنه يعجز عن إرشادنا إلى اكتشاف حقائق جديدة أخرى . والفلسفة الديكارتية تريدنا على أن نفكر وأن نستدل عما فينا من منطق سليم وعقل صريح ؛ وهذا العقل هو « أعدل الأشياء قسمة بين البشر »[٢] ولكننا نستعمله أقل استعمال ، إذ يعوزنا المنهج المؤدي إلى الحق الصراح .

والخلاصة أن ديكارت مجدّد مبتكر لعدة أمور : لأن فلسفته وما تفرع عنها تقوم بأسرها على أصول معينة ، وتسير في بسط المسائل الفلسفية على نمط خاص به دون سواه . ثم هو مجدّد لاتخاذه الشك منهجاً : فلم يرد أن يسلم بشيء ما لم تتبين له صحته بداهةً ومن غير التباس . ولأنه لم يذعن قط لقضايا الماضي وأوهامه ، ولم يقف منها موقفاً سلبياً ، بل أخضع لنقده كل ما وصل إليه ، وأسبغ على قضايا الماضي معنى جديداً . وهو مجدّد لأنه أراد أن يرفع الفلسفة — بواسطة المنهج — إلى مرتبة العلم ذي القواعد المضبوطة والحدود المرسومة . والتجديد الديكارتي ، آخر الأمر ، إنما يمثل العقل البشري منتبهاً إلى ذاته ، مناهضاً سطوة التقاليد وسلطان القدماء والسابقين ، ومشيّداً على أنقاض الفلسفة الموروثة فلسفةً جديدةً ، دون استعانة بشيء إلا بمحض قوته الحرة وأنواره الفطرية .

فديكارت هو حقاً مؤسس الفلسفة الحديثة ، كما قال الفيلسوف الألماني هجل[١] ، وديكارت هو واضع رسوم المذهب العقلي الحديث ، وهو باعث حركة الفكر الأوروبية التي سار في نطاقها تابعوه من أعلام الفلاسفة ، أمثال « مالبرانش » و « لَيْبنِتْس » و « سبينوزا » ، حتى « كانْت » و « فِيشته » و « هجِل » و « شِلِنْج » .

عثمان أمين

(١) « قواعد لهداية العقل » ق ٩ (طبع آدام وتانري م ١٠ ص ٤٠١) .

(٢) « المقال عن المنهج » القسم الأول (مطلع المقال) .

(١) راجع : هجل : « دروس في تاريخ الفلسفة » (مطلع فصله عن ديكارت) .

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة أمير تدمر عاصمة الصحراء ، ومركز تجارتها الغنية . وكان فتى من فتيان العرب البواسل ، يحب صيد السباع ويستصحب في رحلاته زوجته الحبيبة زنوبيا سليلة البطالسة ملوك مصر . وكانت تشبه كليوبترة جدتها في ثقافتها وذكائها وحسنها .

وحدثت في العالم عند ذلك حروب بين الروم والفرس ، انتهت بهزيمة الروم وأسر ملكهم فالريان . وحاول أذينة أن يتقرب إلى ملك الفرس المنتصر سابور ، فأرسل إليه هدية عظيمة ، ولكن سابور رماها في الفرات ، وأهانه وسب العرب . فثار أذينة إلى حربه وهزمه في عدة مواطن . وكانت زنوبيا في أثناء غياب زوجها تعاني شدة عظيمة من الوحشة والخوف ، ومعاداة جيرانها أعداء العرب بالشام . ولكنها استطاعت أن تقاوم كل ذلك حتى عاد زوجها منتصراً .

ثم إن أذينة تغير بعد عودته ، وأقبل على سبية فارسية جلبها معه ، وأعرض عن زوجته المحبوبة ، فأثر ذلك في نفسها أثراً شديداً ، وعالجت نفسها بترويضها على حكم العقل وأنكرت عواطفها وكبتتها . وكانت تكثر من القراءة مع معلمها الفيلسوف لونجين .

ودعت حوادث الحرب إلى خروج أذينة مرة أخرى إلى الحرب ، فبقيت زنوبيا وحدها تظن أنها اطمأنت إلى نسيان حب زوجها ، ولكن قلبها كان ينازعها إليه برغمها ، وتعود ذكراه إليها ملحة . وانتهز أعداء تدمر فرصة غيبة أذينة الجديدة ، فدبروا مكيدة لها وأثاروا فتنة قتل فيها حسان المسيحي الباسل ، قائد الحامية ، وهو زوج لبنى المسيحية الجميلة ، وصيفة زنوبيا العزيزة . فذعرت زنوبيا من هذه الثورة ، ولم تجد فيها حيلة إلا أن تخرج من تدمر لتلحق زوجها تطلب منه الحماية . وخرجت سراً من القصر من سرب خفي مع معلمها لونجين ، قاصدة إلى حمص ، حيث كان أذينة]

كان الربيع الهادئ يكسو مدينة حمص بجو وسنان صامت ، وتجري نسائمه الوديعة بين الغصون المتمايلة كأنها توشوش لها بقصص ما انقضى من ليالي الشتاء الطويلة الباردة ، وتفضي إليها بفلسفة الكون الخالد المتجدد وما يحتال به على البشرية من زخرف الحياة .

ووجد أذينة في جمال ذلك الربيع مراحاً يسكن فيه إلى نفسه ، ويمتعها بما حرمه منه النضال المر في تلك السنوات ؛ فتلك رياض حمص اليانعة ، وهذه سماؤها المزوجة . لكم تغنى الشعر بخمرها ، وكم تحدث المجان عن لهوها . وهذه شهناز امرأة سابور التي سباها ليذل عدوه المتكبر ، وأراد لها القضاء العجيب أن تكون مالكة قلبه ، قد شغلته عنها شواغل الحرب ؛ ولكن صورتها كانت تملأ نفسه فتنة كلما تمثلها ، وها هو ذا قد فرغ من حربه وما أودع هذا الربيع في قربها !

كانت هادئة مستسلمة . وهل للأسيرة إلا أن تستسلم وتخضع ؟ ولكنها مع ذلك كانت تستسلم له في رغبة راضية . كانت ترى نفسها جارية قذف بها القضاء إلى حيث لا تقدر على الاختيار . ولكن ذلك القضاء قد اختار لها فكان بها رحيماً . كان لأذينة إذا شاء هواتها أن يهديها إلى أحد جنوده ليذهب بها إلى واديه في نجد أو الحمامة لترعى له شياهه ، وتحلب له نياقه . ولكنه حفظها لنفسه ، واختارها لصحبته ؛ فلهذا كانت في أسرها ناعمة شاكرة وإن كان الحزن يسري في هدوئها ، ويشع من نظراتها ، ويفيض في حديثها . وهل للأسيرة غير أن تحس أنها أسيرة ؟

ولكن أذينة العنيف وجد لها رقة منذ رآها ، ونسي حقده على سابور في وداعتها ، وملأته رحمة وعطفاً ، وصار همه أن يذهب عنها حزنها ويتوسل إلى مودتها .

كان كلما رآها ذكر إلى جانبها زنوبيا التي باعدته وأنكرته. لم تكن شهناز مثلها، فإنها لا تستطيع أن تخرج معه لصيد الأسود، ولا أن تصاحبه في معامع الحروب. كانت زنوبيا تريد وتغضب، وترضى وتسخط، وتحب وتكره، ولها في كل شيء رأي وإرادة. وكانت إذا حدثته أحس بالعجز من فهم حديثها، وإذا سمعها تقرأ مع لونجين في سفر هومير وفلسفة أفلاطون، أحس بالشقة البعيدة التي تفصل بينها وبينه؛ حتى في خلواته بها كانت تقبل عليه أحياناً، وتتأبى عليه في أحيان. كان يعرف أنها تحبه، ويرى من عينيها أنها تجله؛ ولكنها لم تكن مع ذلك كله مثل شهناز، فإن تلك الجارية الفارسية تستسلم وتخضع وتعبد، ولم تكن تبتسم متنازلة مثل زنوبيا إذا وجدته لم يدرك أو لم يعرف، بل إنها لم تكن تفكر فيما إذا كان قد أدرك أو عرف. كانت زنوبيا صديقة وناصحة ومرشدة، وكانت في كل الأحوال له سيدة؛ ولكن شهناز لا تستطيع شيئاً من ذلك كله، بل كانت في كل الأحوال تراه لها سيداً.

فكانت ليالي ذلك الربيع التي قضاها في حمص أحلى متعة لأذينة بعد حربه الضروس.

وكأنه أراد أن ينهب اللذة بعد طول حرمانه، فكان له في كل ليلة مجلس أنس وشراب، يجتمع إليه فيه من قواده وأصحابه كل من أراد متعة من خمر أو غناء. ولم يخش شيئاً من لوم أصحابه، فقد خلف وراءه من كان يخشى رأيهم مثل زباع وزبدة، تركهما في بيئتيهما ليدبرا أمر دفاعها ويقيا حاميتها ومسالحها. وبقي هو وحده مع شبان القواد والأمراء الذين كانوا يستبقون إلى اللذة إذا شاء. وأهدت حمص إلى تلك المجالس أروع ما كان فيها من ترف، فكان يقضي فيها صدراً من الليل، ثم يأوي بعد ذلك إلى القصر الذي اختاره في أرباض حمص ليتم التنعم في صحبة شهناز. وكانت حمص تموج مجيجاً زحمة من فيها من جنود ووفود؛ وجاء إليها فوق ذلك جماعات وفدت إليها من الأقطار، بعضها نزل فيها من أجل تجارة، وبعضها جاء يمر بها في سيره إلى سواحل البحر أو مدن الشام، ليقيم بها حيناً قبل أن يتابع السير في سفره الطويل؛ فامتلأت بالقادمين الفنادق وازدحمت بالسائرين الطرق، وتدفقت على التاجر أحمال القوافل الآتية من (الحيرة) ومن (دورة)، فيها الخمور المعتقة والفاكهة والحرير والعطور وسائر ما يعين على حياة النعيم.

وعزم أذينة يوماً على أن يولم لأصحابه وليمة شاملة يحتفل فيها بنصره الباهر؛ فعد في قصره الموائد الرومانية وزين الأبهاء بتحف الذهب والفضة والتماثيل البديعة والطنافس الثمينة، فكانت الوليمة جديرة بسيد الشرق ومجده الشامخ.

واجتمع ضيوف الملك من فتيان القواد والأمراء، ومن وجوه التجار والأعيان، بعضهم من أهل حمص وبعضهم من (دورة) و (الحيرة) ومدائن الفرات؛ وجاء فيمن جاء إلى تلك الوليمة ابن أخيه معن الذي أسرع إلى حمص بعد أن استعاد قوته من بعد مرضه الذي ألم به في سجنه لكي يشارك في الحرب ويعتذر من طول التخلف عنها. ولما التأم العقد الرائع في المجلس الأنيق أقبل أذينة ليجلس في الصدر، وجاء يسير واسع الخطى يبسط ذراعيه بالتحية في حركة تبدو فيها فتوة الفارس اجتمعت بعزة الملك، وجلس في الصدر، وبدأ القوم في اللهو والشراب. وجاءت طوائف من الفتيات تغني وترقص، ثم جاءت بعدها طوائف أخرى من الرجال، بعضها يتصارع وبعضها يتواثب، وبعضها يضحك بحركاته أو غرابة ملبسه أو يعرض قصة أو ينشد شعراً، وجاء فيمن جاء فتاة دقيقة العود حسنة القوام مليحة الوجه فرقصت، وهي تدور على الموائد تعرض خلاعتها على المخمورين وتجمع منهم ثمن عبثاتهم وغشاتهم، وهي تثب من ذراعي نشوان إلى ذراعي ماجن، حتى ملأت حقيبتها من قطع الذهب والفضة؛ ثم اقتربت من معن وكان جالساً على مائدة أذينة وقد أخذ منه الشراب واستخفه الطرب، فاتجهت

إليه وتحكت تحكاً خليعة ووثبت فى خفة حتى جلست على ركبتيه تداعبه وأقبل عليها الفتى فى سكره فأفلتت الكأس من يده وسقطت إلى الأرض فتحطمت ، فوثبت الفتاة عنه تمثل الفزع ، واتجهت إليه بحركة ساخرة خفيفة ، فضج المكان بالضحك وتعالت فيه صرخات السكارى بعبارات التندر والفكاهة .

وكان الشراب قد أخذ مأخذه من أذينة فملأ كأسه وصاح قائلاً :

— دعها يا معن فإنك لا تحسن الغزل .

ثم مد يده إليها فأسرعت إليه وهى تنظر إلى الفتى معابثة .

فاحمر وجه الفتى ونظر إلى عمه غاضباً وقال وهو يخطو نحوه مترنحاً :

— دعها . أما تكفيك شهناز ؟

وكأن سهماً عند ذلك أصاب قلب أذينة ، فهم من مكانه ودفع الفتاة فى عنف وأقبل نحو الفتى هائجاً حتى تكفأت الأقداح واندلقت خمرها وتصادمت أطباق الفاكهة وأوانى الزهر ، واتجه نحو ابن أخيه مجرداً سيفه وهو يصيح :

— أيها العبد لن أعفو عنك هذا اليوم .

واضطرب المكان وتواثب الجالسون يتزحمون من كل مكان ، وتصايحت جماعة من جوانب البهو ، فإذا الوليمة قد صارت معمعة صاخبة وتحطمت القناديل والشموع حتى لم يبق منها إلا بقية ضئيلة فى أطراف البهو تلقى ضوءها الخافت على المنظر المخيف ، وخرج من البهو من استطاع النجاة ، وسرى الذعر إلى المدينة ، ومضت ساعة هائلة حتى سكنت الضجة ، فإذا أذينة طريح بين الموائد وابنه هيرود إلى جانبه تسيل منه الدماء ومن حولها أشلاء الصرعى بين قتيل وجريح .

واجتمع إلى معن بعد ذلك كل من كان له صديقاً وكل من كان له عند أذينة عداء ، وبلغ خبر الحادث ساحة الجيش ، فانحازت إلى معن قبائل الأزد وغطفان وأعراب سواحل الفرات الذين حاربوا مع أذينة وعوام مع عدوه ملك الحيرة امرىء القيس بن عمرو ، وقضى معن سائر الليلة مع أصحابه يدبرون كيف يملكون الجيش فى الصباح ، وباتت حمص ليلة واجمة بعد الوليمة التى اهتزت لها كأنها فى عيد .

* * *

وبكر معن ذاهباً إلى المعسكر فى أعوانه لينتزع من جنود أذينة بيعتهم ويأخذ ملك عمه الملطخ بالدماء ، وسبقته الهدايا إلى شيوخ القبائل ووزعت الأموال فى الرجال ، وحمل كل ذلك من فندق المدينة من أموال تجار الحيرة ودورة الذين كانوا من رسل سابور . فإن معناً لم يجئ إلى حمص إلا على موعد مع الماهل الذى لم ينس الانتقام .

ولما بلغ معن معسكر الجيش ألقى فى جمعه مقالة أعدها لوقته ، وترعرع الجنود وتردد قوادهم . فمن كان لتدمر بعد بطلها القتيل ؟ ولمن يلقون تاجه إذا لم يخضعوا لمعن ويسيروا وراءه ؟

أليس معن ابن أخيه وسليل الحيران السميدع ؟ أليس هو الأمير الفتى الذى عرفوه فى الحروب ؟ إن أذينة لم يخلف سوى صبية صغار ، وهذا ولده الأمير هيرود الناعم قد هوى إلى جانبه صريعاً . أيخالفون معناً من أجل صبية لم يبلغوا بعد شأو الرجال ؟

لقد كان جيش تدمر فى بلاد غريبة لا يأمن فيها وثبة الناس إذا رأوا منه ضعفاً ، ولو كانوا فى تدمر لاستطاعوا أن يجدوا فراغاً للنظر وتقليب وجوه الرأى ؛ ولكنهم فى حمص ولا يدرون ما يكون مصيرهم إذا انشق الجيش نصفين وحارب العربى أخاه فى طرقها وحصونها وبيوتها .

وهل كان الجيش العربى ليأبى على معن ولايته ؟ ثم يلقى قياده إلى زنوبيا ؟ أكان هؤلاء البواسل ليتقاتلوا ، ويتفانوا فى أرض غريبة لكى يحفظوا تاج تدمر لامرأة ؟ لم تكن زنوبيا إلا امرأة لا تستطيع أن تقودهم فى الحروب ، ولا أن تشاطرهم حر الجلاد ، ولا أن تعود بينهم منصورة

من قتال سابور أو القوط!

كانت هــذه الخواطر تجول فى قلوب الجنود ، وهم يسمعون مقالة ممن؛ فلما فرغ منها لم ينبسوا ، ولم ينطقوا ، واستطاع شركاء الجريمة أن يصافحوا صاحبهم ، ويبايعوه بالملك ، وأبصار جنود تدمر المترددة تتطلع إليهم فى سكون ووجوم .

ثم فرغ ممن من مقالته فى الجنود ، واتجه منصرفاً فى حلقة المتآمرين ذاهباً إلى قصر الأمير القتيل ، ليحل فى مكانه ويستولى على تراثه ؛ فهناك أثمن غنائم فارس والقوط ، وهناك طرف المشارق والمغارب ، وهناك سبايا سابور ، وفيهن شهناز ، شهناز التى كانت حديث القصص العجيب فى حلقات المجالس كلما اجتمع قوم فى سمر ، ستكون له بعد حين ، ويتم له الانتقام من عمه الذى أذله وظلمه .

وسيكون انتقـامه من عمه مكافئاً لانتقام سابور من أذينة .

* * *

فى مساء الليلة السابقة تسللت جماعة من جيش أذينة خارجة فى الليــل من حمص تريد أن تحمل إلى تدمر نبأ الجريمة الرائعة .

خرجت تلك الجماعة مع مالك ابن القائد زباع صديق أذينة ، وسار الركب فى ظلمة الليل ، وخلف وراءه حمص النامية ، وكانوا يتناجون فى سيرهم مناجاة خافتة ثائرة . سيذهبون إلى تدمر لكى يطلعوا الملكة على خيانة ممن ، ولكى يثيروا أهل تدمر معها حتى يستقبلوا الخائن ، وينزعوا منه ملكه الملوث بالدماء ، وستثب زنوبيا إلى الانتقام ، وسيساعدها جالينوس صديق أذينة بجيش يسد الآفاق .

ولكنهم ما كادوا يستقبلون الصحراء حتى لقيهم اثنان على الطريق يعترضان سبيلهم . ثم اقتربوا منهما فتبينوا وجهيهما فى ضوء القمر الخافت ؛ ويا عجبا للأقدار! إنها الملكة زنوبيا ومعها معلمها لونجين يضربان وحدهما فى تلك الصحراء كأنهما طريدان .

وأسرعت الملكة بعد اللقاء فسألت الركب فى لهفة من زوجها الذى خرجت إليه . وما علمت بما كان حتى شرد لبُّها ، واندفعت لا تدرى أين تتجه ، وهى تصيح :

— أذينة ! أين أذينة ؟ ماذا أصابه ؟ من أصابه ؟ أتقولون قتل؟ ممن؟ النذل! أذينة! الأسد! الرمح!

ورفعت يديها إلى رأسها ، وصرخت صرخة تجاوبت بها جوانب الصحراء فى سكون الليل قائلة :

— وا أذينتاه !

ثم ترنحت فى سيرها وخرت صعقة بعد خطوات ، وأقبل عليهـا لونجين ومن حوله ، يدلكون جسمها بأعشاب الشيح ، وينشـقونها ريحه ، حتى عادت إلى نفسها وتحركت ثائرة ، وسألت من حولها : أين تكون؟ ثم عاد إليها وعيها فأخذت تذكر ما كان . وعاد إليها الحزن واليأس فى عنف ! ونظرت حولها إلى الصحراء المظلمة الموحشة ، وهى تحس فى قلبها صحراء أشد وحشة وظلمة .

وسكتت لحظة ، شمل الجمع فيها صمت واجم ، ثم تحركت قائمة ، وسارت تترنح نحو خيمتها . فسار القوم وراءها ، وأسرع لونجين فوضع يده على ذراعها قائلا بصوت حزين :

— إلى أين ؟

فقـالت يائسة :

— لقد دنت الخاتمة يا لونجين . فدعنى إن شئت ، فأنت أولى بهذه البلاد . ورومة أولى بك أو حمص .

فشد الرجل بقبضة يده على ذراعها وقال فى حماسة هادئة :

— لو كان هذا أوان عتاب لعاتبت .

ثم قال بعد صمت قصير :

— لسرعان ما يئست يا ابنة البواسل !

فنظرت إليه زنوبيا قائلة بصوت خائر :

— وأين يطلع علىّ الأمل يا لونجين ؟ لقد تحطمت الآمال من كل سبيل .

فأسرع لونجين قائلا :

— بل لا يزال الأمل فسيحاً .

فنظرت إليه الملكة نظرة كأنها تأبى أن تخدع . واستمر لونجين فقال :

— هناك جالينوس الأمبراطور صديق الملك لا يزال في عزة . وهناك جيشك في حمص ، إن ذعر اليوم استجمع جنانه في الغد . ثم هناك الحيلة والمكيدة ، وليس معن بأعرق في العرب من أذينة .

فوقفت زنوبيا تنظر إليه حيناً وهي صامتة ، ومرت في ذهنها الهموم صور تتعاقب سريعة مع خواطرها الجائعة ، ثم أمسكت بذراع معلمها وقالت وفي صوتها رنة الغريق المتلهف إلى النجاة :

— لم يبق لي إلا المرأة التي بين جوانحي ، لم يبق فيّ إلا المرأة . ليس أمامي إلا أن أذهب لأستسلم إلى معن وأدع له ملكه . لم يبق لي إلا أن أسلم يا صديق الأجل . أوّاه من نفسي الجامحة ! إنني لا أقدر أن أستقر . ليت شعري ما حال بناتي وصبيتي في تدمر ؟

فنظر إليها لونجين يائساً ، وقال بصوت خافت :

— مولاتي !

فنظرت إليه زنوبيا في ضجر وقالت :

— دعني إن شئت يا صديقي ، ولكن ترفق بجراحي .

وأسرعت داخلة إلى خيمتها ، وارتمت على الأرض تنشج في البكاء . وبقي لونجين مع القوم يحدثهم عما كان في تدمر من أحداث .

وما كاد الصباح يلوح حتى دخلت زنوبيا مع أصحابها إلى حمص ، وكانت طرقها مقفرة يخيم عليها سكون الموت ؛ وأسرعت إلى قصر الأمير ، فلم تجد فيه غير أشلاء منثورة على جوانبه . ودخلت إلى البهو فوجدت زوجها مسجى وحده ، ورأت عنده شهناز تبكي أحر البكاء . لم يبق من يبكيه إلا ذلك الفؤاد الحزين الذي سلبها محبة أذينة في الحياة . هذه هي المرأة التي دخلت في حياتها ، فسخرتها الآلهة لكي تفسد عليها سعادتها الصافية ؛ ولكنها هي الأخرى كانت من ضحايا القضاء ؛ إنها جاثية إلى جوار جثمان أذينة تبكي فيه سعادتها المفجوعة . فوقفت حيناً تنظر مرة إلى الجثمان الطريح ، وتنظر أخرى إلى الجارية الحزينة ؛ ثم اندفعت إليه ، وأكبت عليه إلى جانب الأسيرة المسكينة تشاركها البكاء ؛ ورفعت رأسها بعد حين ، وجعلت تناجيه بما رثت به أندروماك زوجها هكطور :

« لقد ولدنا في طروادة معاً ، ويا ليتني لم أولد ، ويا ليتني لم أرك . فها أنت ذا تمضي وتبقى زوجك بعدك أيّماً ، وهذا طفلك لن تجديه نفعاً ، ولن تقف دونه درعاً إذا ما دهاه بلاء الدهر . يا ويلتاه لابنك اليتيم بعدك ، فأنّى له أن يجد الصديق ، سيذهب المسكين إلى رفاق والده يستعينهم على نوب الدهر . أوّاه ! لقد ربي ذلك اليتيم في حجر النعمة والعز ، فماذا يلاقي يا هكطور بعدك من هوان . أنت هذا أراك عارياً ، وكانت حللك لا تشرى بالأثمان ، فمن ذا يلبسها بعدك أيها العزيز ؟ لأجعلنها طعمة للنار بعد أن حرمت مصاحبة هذا البدن الكريم » .

ثم قامت تجفف عينيها ، ولم تمد نظرها إلى المرأة الجاثية إلى جانب زوجها ؛ مسكينة هي الأخرى ، قد جمعهما القضاء في النكبة . وسارت خارجة ، فرأت لونجين مع أصحابه يتحدثون ، فاتجهت إلى معلمها قائلة :

— أعلمت أين مضى معن ؟

فقال لونجين في حزن :

— إلى معسكر الجنود .

فسارت رافعة رأسها لا تلتفت إلى أحد ، كأنها تحس ضيقاً من تلاقي العيون .

وقرب لها مالك فرسها ، فركبت صامتة وقالت :

— إلى معسكر الجيش نسير .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

دراســـة المحيطات

[هذا المقال ملخص من رسالة قيمة للدكتور كامل الصيرفي تفضل فأعارنا إياها] (المحرر)

يجمع هذا العلم شتات الدراسات المختلفة المتصلة بالأقيانوسات ، وهي متشعبة ومتصلة بمختلف العلوم الأخرى ؛ فشعبتها الأساسية الأولى الهيدروغرافيا تبحث في خواص المياه ، وثروتها المعدنية ، وتياراتها ، وآثارها في حركة المياه ، وفي الأحوال الجوية ، وكذلك دراسة هجرة الأحياء المائية وارتباط هذه الأحياء بطبيعة المياه التي تعيش فيها . وهناك الشعبة الأساسية الثانية ، وهي الهيدروبيولوجي التي تقوم على دراسة أنواع الكائنات المختلفة في المياه الموزعة على الأرض . وهناك تطبيق المعلومات تطبيقاً عملياً في الحياة العملية ، كخدمة المصايد البحرية الخ . وقد قامت كل دراسات هذا العلم على أسس النتائج التي وصلت إليها البعثات العلمية العديدة التي سنورد طرفاً من تاريخها فيما يلي :

فهناك أولاً بعثة الكابتن كوك سنة ١٧٦٨ على السفينة « إندفر » تلك البعثة التي اكتشفت استراليا ونيوزيلندا وكثيراً من جزر المحيط الهادى الجنوبية . وقد قامت البعثة في خلال رحلتها بقياس درجات حرارة المياه وسبر غور الأعماق ، كما قامت بدراسات بيولوجية عامة .

ثم جاءت بعثة السير جون روس سنة ١٨١٨ على السفينتين « إزابلا » و« الاسكندر » التي اتجهت نحو القطب الشمالي ، وقامت (بشيء من الدقة) بسبر بعض الأعماق السحيقة التي بلغ أقصاها ١٠٥٠ قامة تحت سطح الماء . وقد اخترع رئيسها جهازاً يسمى « الكبّاش » استعمله في الحصول على عينات من القيعان السحيقة ؛ وقد امتحن الطين الذي حصل عليه به ، واتضح له احتواؤه على ديدان وكائنات حية صغيرة . وقد كان المظنون أن الحياة تنعدم في تلك الأعماق السحيقة نظراً إلى الضغط الهائل الواقع عليها ، والظلام الدامس الذي يغمرها .

وتلت ذلك عدة بعثات كان من أغراضها البحث عن مكان القطبين ، والقيام بدراسات طبيعية وبيولوجية وفلكية الخ . وكان من أهم المباحث التي استرعت نظر علماء البيولوجي ، الذين يصحبون تلك البعثات ، هو الوصول إلى قرار حاسم بشأن ما كان قد قرره بعضهم من أن هناك عمقاً محدداً يصح اعتباره « صفر الحياة » ، أي أن الحياة أسفل منه معدومة . والرأي السائد الآن أن هذا الاعتقاد لا نصيب له من الصحة ؛ وذلك لأن الكائنات الحية موجودة في جميع الأعماق التي توصل إليها العلماء إلى الآن .

ثم شُغل الباحثون الراحلون في تلك البعثات بشيء آخر ، هو وضع الأسلاك التلغرافية تحت الماء عبر المحيط بين انجلترا وأمريكا ، مما يحتاج إلى سبر أعماق كثيرة .

ومن الطريف في هذا الصدد أنه حدث عام ١٨٦٠ أن تهشم السلك التلغرافي الثاوي في قاع البحر الأبيض المتوسط ، والذي يصل بين سردينيا وبونا (الواقعة على الساحل الأفريقي) ، وكانت بعض أجزاء هذا السلك تصل إلى عمق ١٢٠٠ قامة تحت سطح البحر ، وقد تهشم بعد تركيبه بثلاث سنوات ، ولما قذفت التيارات والأمواج ببعض أجزاء هذا السلك المهشم على الشواطئ ، وعُثر عليها وامتحنت ، تبيّن أن الجزء المهشم ويبلغ طوله نحو ٤٠ ميلا قد تغيرت معالمه ؛ وامتحن كثير من أنواع الأحياء المائية المختلفة التي علقت به وتمت عليه ، فوجد على الأجزاء التي كانت قد وصلت إلى أعماق سحيقة أنواع من الفصائل الرجانية ، كما وجد على الأجزاء التي كانت في أعماق أقل خليط من الأحياء المختلفة لحيوانات من الصدفيات أو الحلزونيات ، وكذلك الديدان والفصائل الرجانية الرخوة الخ . .

. . .

بعد ذلك ، وعلى أثر ما رآه الباحثون في مختلف الرحلات والبعثات ، ارتفع صوت هؤلاء العلماء عالياً يحث على ضرورة

بجهيز بعثة علمية كبيرة ، تقوم برحلة طويلة الذى تجوب فى خلالها بحار العالم ومحيطاته كلها لاستقصائها . واستحث السير طومسون وزميله الدكتور كاربنتر الحكومة البريطانية على إخراج هذه الفكرة إلى حيز العمل . وأخيراً تم للعلماء ما أرادوا ، وأعدت البعثة الأقيانوغرافية الخالدة التى أبحرت على ظهر الباخرة تشالنجر — أو التحدية — (التى عرفت باسمها تلك البعثة) من ميناء بورتموث فى ديسمبر سنة ١٨٧٢ بقيادة الكابتن نيرز ، وكان من بين أعضائها طائفة مختارة من علماء الحياة والطبيعة والكيمياء الخ . . . وعلى رأسهم السير ويفل طومسون . وقد أمدت البعثة بأحدث أجهزة البحث والفحص والشباك الخ . .

ظلت التحدية ثلاث سنوات تمخر عباب المحيطات والبحار باحثة مستكشفة ، قطعت فى خلالها ٧٠ ألف ميل بحرى ، وقامت بأبحاث هيدروغرافية وبيولوجية واسعة النطاق فى جميع المناطق البحرية التى مرّت بها ؛ ولما عادت فى مايو سنة ١٨٧٦ كانت تحمل لعلم الأقيانوغرافيا الحديث أثمن الكنوز ، من المشاهدات العلمية المدونة فى مختلف النواحى ، ومن عينات المياه ، ومن رواسب القيعان ، ومن نماذج الأحياء التى تعج بها البحار والمحيطات .

وقد شغلت هذه الذخيرة الثمينة والمجموعة النادرة عدداً كبيراً من الاخصائيين فى مختلف فروع العلوم مدة كبيرة أنفقوا فيها بحوثهم ودراساتهم ، وأخرجوا للعالم منها ثمرات طيبات مدونة فى تقارير تشالنجر الضافية التى يبلغ عددها ٥٠ مجلداً من الحجم الكبير ، والتى تعتبر أهم الأسس التى بنى عليها علم الأوقيانوغرافيا الحديث . وسيظل التاريخ يذكر هذه البعثة كما يذكر بعثات كولمبس وفاسكودوجاما ، فهى لا تقل عنهما شهرة وأهمية بالنسبة للعلم والمعرفة .

وبعد أن فتحت بعثة تشالنجر أبواب البحث العلمى وأنارت الطريق أمام الباحثين ، قامت عدة بعثات تمكنت كل منها من رسم الخطط التى تسير عليها ، والبرنامج الذى تتبعه ، لتحقيق الغرض من قيامها قبل الشروع فيه ، وذلك على ضوء نتائج تشالنجر التى لا تزال تعتبر أهم مرجع للبعثات الأقيانوغرافية والرحلات العلمية ، على الرغم من تقدم أدوات البحث وأجهزة الفحص وتطورها وتوخى الدقة المتناهية فيها . ومن أهم التطورات التى شهدتها الأبحاث البحرية بعد بعثة التحدية هو استعمال السلك بدلاً من الحبال الضخمة القديمة ؛ وأول من استخدمها هو العلامة اسكندر أجازيز فى رحلة بين ١٨٧٧ و ١٨٨٠ على ظهر السفينة الأمريكية بليك .

بعد ذلك زاد النشاط الأقيانوغرافى ، وأبحرت بعثات متعددة من مختلف الممالك : من بلجيكا وألمانيا وهولندا والنرويج وانجلترا الخ . . . ومن أحدث الرحلات وأهمها رحلتان تمتا بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٧ : الأولى على ظهر السفينة ديسكفرى — أو الاكتشاف — الانجليزية لدراسة جنوب الاطلانطيق من حيث العوامل الهيدروغرافية التى تؤثر فى تلك المناطق ، وكذلك دراسة الحيتان التى تعيش فيها ؛ والثانية على ظهر السفينة متيور الألمانية ، وكان غرضها الأول تخطيط قاع الاطلانطيق الجنوبى تخطيطاً دقيقاً بواسطة أحدث آلات سبر الأعماق وأسهلها وأدقها ، وهى تقوم فى عملها على صدى الصوت وسرعته ، والفترة اللازمة لمرور الصوت المنبعث من مطرقتها عند قاع السفينة فى الماء حتى يصل إلى قاع البحر ، وينعكس منه فيعود من حيث ذهب ، فتلتقطه الآلة وتكبره . وكان لهذه البعثة الثانية غرض آخر هو دراسة التيارات البحرية واتجاهاتها .

. . .

وفى أواخر القرن التاسع عشر اتجهت النية فى بعض دول أوربا الغربية والشمالية الغربية ، إلى الإفادة اقتصادياً من الأبحاث الأقيانوغرافية ؛ وسرعان ما تحقق هذا الاتجاه بقيام هيئة دولية تشرف على تنظيم الأبحاث البحرية ، وتطبيقها فى خدمة المصائد البحرية ، والعمل على إنتاجها وربحها ، وخصوصاً مصائد بحر الشمال والمياه المجاورة له ، التى تعتبر أغنى مناطق الصيد الدولية . وتكونت هذه الهيئة

في عام ١٩٠٨ ، وسميت المجمع الدولي لاستكشاف البحار .

وقد اشتركت فيه حكومات السويد والنرويج والدانيمارك وفنلندا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وإرلندا وهولندا والبلجيك ؛ واتخذ المجمع مكتباً دائماً له في مدينة كوبنهاجن ، واتفقت الحكومات الممثلة فيه على إعداد وتجهيز سفن علمية تخصص للأبحاث البحرية بحيث تشتغل سفينة كل دولة في المناطق المخصصة لها ، وفي مواضع محددة معينة .

وتقوم هذه الهيئة منذ إنشائها إلى الآن بخدمات جليلة لا تنقطع لعلوم الأقيانوغرافيا ، كما تصدر مجلة ربع سنوية "Journal bu Conseil" تفيض صفحاتها بغزير المادة في المواضيع البيولوجية والهيدروغرافية والمصائد الاقتصادية .

وفي أثناء الاجتماع لافتتاح معهد «موناكو» في مارس سنة ١٩١٠ نشأت فكرة قيام هيئة دولية تشترك فيها الدول المتاخمة لحوض البحر الأبيض المتوسط ، (تكون على غرار المجمع الدولي السابق في أغراضها) ، لدراسة البحر المتوسط والبحار المتصلة به دراسة علمية لخدمة مصائدها .

وأول اجتماع عقد للنظر في تكوين هذه الهيئة كان في فبراير سنة ١٩١٣ بمدينة روما ، واتفق المجتمعون فيه على دعوة دول البحر الأبيض المتوسط لإيفاد مندوبيها في العام التالي للاتفاق على قانون المجمع النهائي ؛ غير أن نشوب الحرب العظمى أوقف المشروع وحال دون ذلك .

وعقب الحرب عادت ثانية فكرة إنشاء المجمع ، وأصبحت حقيقة واقعة عندما وجهت الحكومة الملكية الأسبانية دعوة عامة لدول البحر الأبيض المتوسط لإرسال مندوبيها لتمثيلها في اجتماع عام يعقد للنظر في تأسيس تلك الهيئة الدولية . فلبى الدعوة سبع دول عدا أسبانيا وهي فرنسا وإيطاليا ومصر واليونان وموناكو وتركيا وتونس ؛ وبذلك تم انعقاد أول اجتماع بين ١٧ و ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٩ بمدينة مدريد تحت رئاسة أمير موناكو ، وكان ممثل مصر فيه هو الأستاذ سانزو (Sanzo) الأسباني

وأطلق على هذه الهيئة « القومسيون الدولي للكشف العلمي في البحر الأبيض المتوسط » . واتخذ القومسيون مكتباً دائماً بمدينة باريس بسكرتيريته التي تشرف على تحضير جدول أعمال دورات انعقاده السنوية وعلى ميزانيته ونشر تقاريره السنوية .

وبهذا ظهرت مصر لأول مرة في ميدان النشاط الدولي للكشف العلمي في البحار ، ومرجع هذا الفضل إلى عاهلها العظيم المغفور له الملك فؤاد الأول الذي أولى رعايته وتشجيعه الفنون والعلوم عامة وعلم الأقيانوغرافيا منها خاصة ، لما بذله من جهد ومال في إقامة مؤسسته « المعهد الملكي للأحياء المائية » بجهة الشاطبي بالاسكندرية .

وكان من ثمار هذه النهضة التي وضع أول بذورها جلالة المليك الراحل أن اقتنت الحكومة المصرية سفينة خاصة للبحث العلمي مجهزة بأحدث العدد والآلات لهذا الغرض .

ولما اجتمع منفذو وصية العلامة المرحوم السير جون موري للنظر في صرف ما يربو على العشرين ألفاً من الجنيهات التي تجمعت لديهم من أرباح الأموال التي أوقف ريعها المرحوم السير موري على الأبحاث البحرية ، استقر رأيهم على صرفها في تجهيز بعثة أقيانوغرافية لدراسة المحيط الهندي ، ووقع اختيارهم على السفينة الملكية المصرية «مباحث» ، ففاوضوا الحكومة المصرية وأظهروا رغبتهم في استعارة السفينة ، فقبلت الحكومة المصرية ، واتفق الطرفان على شروط ، أهمها سفر الباخرة بطاقمها من البحريين المصريين تحمل العلم المصري بجانب العلم البريطاني ، وانتداب اثنين من الاخصائيين في العلوم البحرية للاشتراك في أعمال البعثة العلمية ؛ وبذلك أبحرت مباحث في أول سبتمبر سنة ١٩٣٣ تحمل بعثة السير جون موري لدراسة المحيط الهندي تحت رئاسة الكولونيل سيويل ، وعادت إلى الأسكندرية ثانية في ٢٥ مايو سنة ١٩٣٤ . وسيفرد الكلام عن هذه البعثة مقال خاص قام بكتابته أحد أعضائها وأحد الاخصائيين المصريين المشار إليهما .

دار الظرفاء

للكاتب الروائي إيفان تورجنيف

تلخيص الأستاذ محمد مفيد الشوباشي

صاحبة الدار سيدة روسية موسرة في الخمسين من عمرها تدعى ماريا دمتريفنا حذقت اللغة الفرنسية . وحسبت من دواعي الفخار أن تنسّق قاعة استقبالها على النمط الباريسي . وأن تنتقي زوّارها من المتأنقين المتحذلقين البارعين في محاكاة علية القوم من الباريسيين ، وأن يدور الحديث بينها وبينهم بلغة باريس . وأن تتشبه في جلستها ومشيتها وابتسامها وإعانها بنساء تلك المدينة الشهيرة بأناقة أهلها وكياستهم .

وتقطن معها في نفس الدار عمّة لها تدعى مارفا تيموفيفنا جاوزت السبعين من عمرها ، ولكنها استبقت شيئاً من حدتها ونشاطها . كانت عصبيّة الحركة سريعة الخطوة . لا تتردد في مصارحة أي إنسان برأيها فيه . وقد ظلّت على فطرتها تحب بلادها ومواطنيها الباقين على فطرتهم . وتزدري المترددين على الدار ممن يزدرون بلادهم ويأنفون من تقاليدهم ، ويمجّدون التقاليد الغربية ويعتنقونها .

ولماريا دمتريفنا ابنة في التاسعة عشرة من عمرها جميلة رقيقة حييّة تدعى ليز ، لم تتأثر بميول والدتها وحذلقة زوّارها ، لأن هؤلاء كانوا في شغل عنها ، فلم تندمج في حفلهم ، وظلّت على بساطة الطفولة طاهرة النفس نقيّة الطبع . وشبّت في كنف مارفا . ونمت برعايتها . واقتبست شمائلها وصفاتها .

وكان يتردد على الدار في بدء حوادث هذه القصة فتى في ريعان الشباب ، جميل الصورة أنيق الهندام ، يدعى فلاديمير بونشين ، هام بحب ليز . ولم يلبث أن ذاع سرّ جنانه ، وانتظر أهل الدار ومرتادوها أن يخطبها ، وتحيّن هو الفرصة ليتقدّم بطلبه .

وكانت ماريا شديدة الإعجاب به . تتمنى أن يتم زواجه من ابنتها بلا ريث ، وقد مهّدت لتحقيق هذه الأمنية بموالاة التحدّث إليهما عن مزاياه ، وبالغلوّ في إطرائه ، حتى هيأتها لقبول عرضه ، على الرغم من أنه كان أكثر زوّار الدار تصنّعاً وتشبهاً بفتيان العصر في باريس .

لم يكن يهنأ له بال إلا إذا تحدث عن نفسه حتى يدور حديث المجلس حول شخصه . كان دائم الزهو بوظيفته السامية في الحكومة ، وبالمستقبل الزاهر المدخر له . وكان يلمّ بالنزر اليسير من كل فن . كان يغترف من كل نبع قطرة بقصد التظاهر بالفهم والمعرفة ؛ فنظم الشعر ، ولحّن الأغاني ، ومارس الغناء ، وتحدث عن السياسة والأدب والاجتماع ، حتى صار بهجة مجالس الظرف والكياسة .

وفي عصر أحد الأيام زار الدار رجل في منتصف العقد الرابع من عمره ، غريب عن البلد ، تنم سيماؤه عن ألم مبرح وحزن دفين ؛ فما ظهر في الميدان حتى تغير مجرى الأقدار المقدّرة لمضيفيه . كان يمتّ إلى أهل الدار بصلة قرابة وثيقة ؛ تزوج إبان صباه فتاة روسية نادرة الجمال ، ولكنها كانت مريضة هي أيضاً بعدوى الأناقة والتهتّك الباريسي ، واستطاعت أن تغرى زوجها بالسفر إلى باريس والإقامة بها ، وكان وافر الغنى ، فعاش الزوجان هناك عيشة بذخ وإسراف . واحتفل الزوج المدينة الجديدة على نفوره منها نزولاً على رغبة زوجه التي كان متدلّهاً في حبها .

وأغرى جمالها الفتّان فتيان باريس بالتحبب إليها . وجهد دهاتهم في التغرير بها وإيقاعها في حبائل الهوى . وأطربها أن تشعر بالقدرة على إصباء شباب باريس وملأ نفسها زهواً . وتمادت في لهوها وعبثها بقلوبهم إصباءً ؛ حتى زلّت قدمها ، ولانت لأحد عشاقها ، وتوثّقت بينهما علاقة حب آثم . ومهما أحيطت مثل هذه العلاقة بالتكتم ، فلا بدّ لها من أن تُعلم ؛ ولم يلبث نبؤها أن وصل إلى الزوج ، ووقعت في يده رسالة من

العاشق إلى عشيقته تقطع عليه سبل الشك فى خيانتهما . وتكشفت له الحقيقة الأليمة فضاق صدره بها ، وكاد وهو فى سورة غضبه أن يفتك بزوجه ؛ ولكنّ عاطفة احتقارها وإهمالها حلّت محل حقده وغضبه ، فهجرها وقضى أزماناً يطوف فى أوربا ليهوّن الكارثة على نفسه ، ويخفّف عنها وطأة الخزى والعار . وعاد بعد طول المطاف إلى حيث تقيم ماريا دمتريفنا ليستقبل عهداً جديداً من حياته المليئة بالأحداث الصنيعة . ورأى القوم عندها يحاولون محاكاة مُجّان باريس بلد العبث والمجون ؛ فنفض قلبه عنهم ، وكاد يقطع صلته بالدار .

ولكنه عرف ليز الطاهرة ، وعلم بالنيّة المعقودة على تزويجها بونشين . فأشفق على قريبته ، وتولاه عطف عليها عميق الأثر ، وزاده عطفه وإشفاقه نفوراً من خطيبها المتأنق .

وبادله جماعةُ المتحذلقين نفوراً بنفور ، وتهكموا عليه فيما بينهم ، واتخذوا الكارثة التى حلّت به حديث سمرهم ، ووصموه بالغفلة والغباء ؛ ولم يجد له نصيراً بين معارفه الجدد وأقربائه إلا ماريا العجوز السليمة الطويّة ، وليز الرقيقة القلب .

وكانت له مزرعة على بعد أميال من البلد فأقام بها ، وأخذ يتردد على دار ماريا بين حين وحين ، وتوثّقت وشائج ألفة نقيـة بين القريبين ؛ وشعرت الفتاة بعاطفة حنان وإشفاق على ذلك الرجل الطيّب القلب الذى نكب فى حياته الزوجية ، وأصيب فى شرفه وكرامته . ولم تخف عليها دلائلُ اهتمامه بهـا واستمانته من بونشين ، وتمنيه أن تثبتْ صلته بها .

وعرف لفريتسكى (وهو الرجل الذى نتحدث عنـه) شخصيّة جديدة تؤمّ الدار شعر بميل إليها ؛ عرف شيخاً فى سن الستين ألمانى الجنس والمولد ، قضى شطراً من عمره فى روسيا ، وامتهن تدريس الموسيقى ، وتردد على الدار لتعليم ليز هذا الفن الجميل .

وفطن لفريتسكى إلى امتعاض الأستاذ الألمانى من بونشين ، وإلى دلائل شغفه بتلميذته ليز ، فأيقن أنه عثر فيه على صديق جديد ، واطمأن الألمانى إلى قريب ليز ، واغتبط الاثنان بصلة المودة التى وصلت بينهما .

وفى إحدى الليالى الساجية ، خرج لفريتسكى من دار « ماريا » فى صحبة الأستاذ الألمانى ، وسار الاثنان إلى منزل الأخير . وبالرغم من انتصاف الليل ، قبل لفريتسكى دعوة رفيقه ، ودخل معه داره ، وبقى بها ثلاث ساعات سمع خلالها ألحاناً من وضع مضيفه . وكان هذا الأخير يختلج من شدة التأثر ، لأنه قضى سنوات عديدة من غير أن يبدى له أى إنسان بعض هذا الاهتمام الذى أحاطه به ضيفه . وودعه هذا الأخير وهو يودّعه إلى زيارة مزرعته وقضاء أسبوع بها ، فلم يتردد فى قبول الدعوة .

وبعد بضعة أيام أقلّتهما عربة إلى المزرعة ، وسارت بهما تحت جنح ليلة عليلة النسيم ، تتألق فى غياهبها أضواء النجوم . وشعر المسافران بالحرية والطلاقة ، وهما يخترقان بفضاء الليل الرحيب . وتحدّثا عن التلحين ، ورقّ الحديث ، فجرى فى غير حذر وتدبّر . واعترف الألمانىّ وهو فى شبه نشوة بأنه يتوق إلى تلحين أنشودة ينظمها له أحد الشعراء ، ويضمّنها هذه المعانى :

« أنت أيتها النجوم — أيتها النجوم النقيّة — أنت تشملين الأبرياء بالنظرة التى تشملين بها المذنبين . ولكن أصحاب القلوب الصافية وحدهم يقدرونك » .

وصمت الشيخ ثم أعقب : « بل يحبونك » .

واستطاع لفريتسكى أن يلحظ اكفهرار وجه الشيخ رغم الظلام ؛ ورآه ينكمش فى مقعده ، ويُسبل جفنيه كأنما يستسلم للنوم ، ثم سمعه يردد همساً : « أيتها النجوم النقية ! آه . أيها الحبّ » وتعلقت ذاكرة الشيخ بليز . وظل يردد : « أيتها الغادة النقية ... أيتها النجوم النقية » . وتوقع أن ينفجر لحن عذب مرنان من ينابيع قلبه ؛ ولكنه شعر بعجزه ، فتمتم مستسلماً : « لا شاعر ولا موسيقى » .

وفي الصباح التالي عاد فريتسكي يتكأ قلب الشيخ ويسبر غوره ، فسأله :

— يبدو لي أن ليز راضية عن زواجها ببونشين

— إن زواجها به لن يكون .

— ولمَ ؟ .

— لأنه مستحيل .

— وما وجه اعتراضك عليه ؟ .

— هو صفقة خاسرة ، لأن ليز عاقلة ورزينة سامية النفس . أما هو . . . هو من الهواة ليس إلا

— ولكنها تحبه .

فهب الأستاذ واقفاً وقال :

— لا . لا . إنها لا تحبه . إنها أطهر قلباً من أن تفهم معنى الحب .

واستطاب فريتسكي الحديث عن ليز ، وانكشف له سر الشيخ ، وبدأ يتأثر بعاطفته ، وشعر بدبيب الهوى بين أوصاله ، وقارن برغمه بين زوجه الماجنة ، وبين ليز الطاهرة ، فازداد شغفاً بحسن ليز النقي الطاهر ، وخطر له أن يدعوها إلى قضاء يوم بين مزارعه ، وعرض خاطره على الأستاذ فأقره ، ورحل إلى البلد ، ودعا أقاربه إلى زيارته . فلبّت ماريا وليز الدعوة ، وحضرتا إليه في صباح يوم زاهر واستمتعتا بصفاء الريف ونضرته ، وأتيحت له فرصة الانفراد بليز ، وأراد أن يحدثها عن بونشين ؟ ولكنه أحجم عن تناول مثل هذا الحديث الخاص ، وعاد يغالب نفسه حتى عاودتها شجاعتها ، فسأل قريبته :

— أهو رجل خيِّر ؟ .

فتطلعت إليه متسائلة :

— ما أغرب سؤالك ! .

— أي غرابة فيه ؟ إني أسألك بصفتي أحد أقربائك .

— بونشين رجل طيب القلب . ذكي الفؤاد . ووالدتي مغرمة به .

— ولكني أسألك عن نفسك . أمغرمة به أنت ؟ .

— إنه رجل أديب ومجاملة . فلِمَ لا أحبه ؟ .

وأشاح فريتسكي بوجهه ، وصبغ الحياء وجنتي ليز . وسألته :

— أهو لا يعجبك ؟ .

— إنه لا يعجبني .

— ما السبب ؟ .

— أعتقد أنه لا قلب له .

فصمتت طويلا وقالت :

— أراك تعودت أن تقسو في حكمك على الناس .

وناجى فريتسكي نفسه :

— ها أنا أحادثها كأني ما زلت متعلقاً بالحياة .

وغرقت ليز في تفكير عميق . وأحس رفيقها بدافع يدفعه إلى محادثتها عن شعوره وخوالجه ، وعن آماله وأحلامه .

وآن أوان إياب الضيفين . وركبتا عربة تعود بهما إلى البلد ، ورافقهما في الطريق فريتسكي ممتطياً ظهر جواده ، وساروا بين الحقول الزهراء ، وسطع البدر وهبّ النسيم العليل . وتراخت أعصاب ماريا بعد أن أجهدها فرطُ النعيم ، واستسلمت لنعاس عميق . وسار جواد فريتسكي إلى جانب العربة من الناحية التي جلست فيها ليز ، ورأى وجهها المشرق البهيج تداعبه هبّات النسيم وأضواء القمر ، ووضع يده بجانب يدها على حافة العربة ، وبادلها نظرات العطف بين حين وحين . ولم يفطن لنفسه إلا بعد أن اجتاز نصف الطريق ؟ فأمسك بيد صاحبته وضغط عليها ، ثم شد زمام جواده ، وسارت العربة أمامه ، وعاد أدراجه بين المروج . وحرّك النسيم العليل لوعته ، وأنار ضوء البدر جنّته ، وشعر في سكون الليل بخفق ضلوعه ، فعاد إلى مناجاة نفسه :

— ها أنا على قيد الحياة . إني لم أتحطم من آخرى .

عاد إلى داره ، وأوى إلى فراشه ، فأبت عليه عيناه الشاخصتان ، وقلبه الخافق ، وخياله الجامح وراء الأوهام ،

أن يستسلم للمنام ؛ فغادر الفراش ، وقصد إلى مقعد عليه رزمة من صحف أجنبية ، فأخذ يتلهى بمراجعتها ، فإذا بلحظه يقف عند خبر كان أهول الأخبار وقعاً في نفسه . فاعتدل في جلسته وأعاد تلاوته :

« السيدة الروسية لفريشكي التي اشتهرت بالدماثة والرقة والأناقة ، والتي كانت بهجة المحافل الباريسية لقيت منيتها على حين فجأة . . . . »

وقام مضطرب الأعصاب ، ونزل الحديقة . ولبث يقطعها طولاً وعرضاً حتى طلع عليه الفجر .

قصد بعد الظهر مع الوسيق الألماني إلى البلد ، وصحبه إلى داره ، ولم ينبس أحدهما أثناء الطريق بكلمة . وودع كل منهما الآخر بمصافحة صامتة . وأسرع لفريشكي إلى دار ليز فوجد قاعة الاستقبال مليئة بالزوار . فدخلها ضيق الصدر ، وانزوى في أحد أركانها ، ورافقته ليز فلم يخف عليها قلقه . وخرجت إلى الطرقة لتتيح له الانفراد بها . فخرج وراءها ووقفت تسائله :

— ماذا دهاك ؟

— ألاحظت عليّ أمراً غير عادي ؟

— نعم أراك على غير عهدي بك !

— عندي نبأ أود نقله إليك ، ولا أجد الآن متسوحة من الوقت للمداولة في أمره ، وسأعود إليك غداً صباحاً .

وقدم إليها الصحيفة التي تضمنت ذلك النبأ الذي أفزعه وأسعده . فتناولتها بيد مرتجفة ، وقبل أن يصل أحدهما الحديث ظهر لهما بوشين بحجة سؤال ليز :

— هل قرأت أورمان ؟

وأجابت على سؤاله بكلمة سريعة وهي تصعد إلى غرفتها مضطربة .

ورجع لفريشكي إلى زاويته في قاعة الاستقبال ، وأطرق صامتاً . وعادت ليز إلى القاعة بعد قليل ، وتلاقى لحظاهما ، وقرأ لفريشكي في عيني رفيقته دلائل الحيرة ، ومعاني العتب والتأنيب ؛ وإذ سلم عليها منصرفاً همست في أذنه : « سأنتظرك » .

وقضى لفريشكي ليلة سهد أخرى . واندفع وراء آماله حيناً . ثم ساورته الهواجس حيناً آخر ، ووتر القلق أعصابه ، وأرهق طول التأمل ذهنه ، ولم يلبث أن صاح ثائراً :

— لا . كل هذا غير صحيح . إن هو إلا جنون محض .

وقابلها في الصباح وفي اليهاد فبادرته بقولها :

— ما أشنع النبأ !

وبقي على صمته فاستطردت :

— ولكن لعله غير صحيح . . . ألم تحزن له ؟ ألم تشعر بأقل حزن ؟

— أراني عاجزاً عن إيضاح شعوري .

— ألم تحبها فيما مضى ؟

— نعم أحببتها .

— ثم لا يحزنك موتها ؟

— لقد ماتت منذ مدة في نظري .

— هذا الذي تقول إثم .

وابتسم لفريشكي ابتسامة مريرة :

— لقد صرت على الأقل حراً .

فارتجفت ليز . وقالت بعد صمت :

— لو وصل إلى النبأ منذ أسبوعين لأحزنني .

— لماذا ؟

وصمت لفريشكي . وصبغ الاحمرار وجه ليز . وقالت بعد صمت وجيز :

— تلقيت منه اليوم خطاباً .

— من بوشين ؟

— نعم . ومن أين لك هذا العلم ؟

— أيطلب التزوج بك ؟

— نعم .

— وعلام عزمت ؟

— لا أدري .

وأقبل عليها مكفهر الوجه وقال :

— لي رجاء عندك يا ليز . لا تبتي في هـذا الأمر

الخطير إلا بعد إدمان التفكير .

وفى المساء اجتمع شملهما كالعادة فى قاعة الاستقبال . وأخذ بونشين يتحدث كعادته عن نفسه . ثم تطرّق إلى الكلام عن روسيا ؛ فأخذ يعدّد مؤهلات الشعب الروسىّ ويعدّد معايبه ، ويشيد بالحضارة الغربية ، وافترّ ثغر ماريا سروراً وزهواً ؛ فتصدّى له لفريتسكى ، وطفق يدافع عن تقاليد بلاده ، ويشيد بالأدب الروسى والخلق الروسى ، ويتهم المستمسكين بتقاليد الحضارات الزائفة . واحتدّ بونشين ، إذ أخذته حمية الجدل ، وتهدج صوته ، ونسى وقاره ، وكال لمجادله أقبح النعوت ، وظل لفريتسكى على هدوئه . واستطاع أن يصرعه فى كل موضوع دار نضال الجدل حوله ، وشعرت ليز بأن قريبها يعبر فى كل كلمة يقولها عن آرائها ، ويفسّر خفىّ إحساسها . وبدا لها أن اتحاد خواطرهما وإحساسهما ، ألّف بينهما ألفة لا انفصام لها ، وأسدل بينها وبين بونشين ستراً كثيفاً لا انكشاف له

وبعد الهزيع الأول من الليل التقيا فى الحديقة ، وكان قلبه مفعماً بأرق خوالج الحب ، وجثا أمامها وناداها :

— ليز . ليز .

فارتجفت من فرعها إلى القدم وصاحت :

— قم . قم . ما الذى تفعله هنا ؟

وقام وجلس إلى جانبها ، ورأى الدمع يتألق فى عينيها ، وشجاه اضطراب صوتها :

— إنى خائفة . — كم أحبك .

ونما بينهما حب نقىّ عنيف ، وقطعت ليز صلتها ببونشين . ولكن الأقدار أبت أن ينعما بحبهما ، وهيأت لفريتسكى أسباب كارثة يهون إلى جانبها هول زلة زوجته .

فوجئ وهو يدخل فى منزله فى أحد الأيام بزوجته جالسة فى غرفة الاستقبال . فغادر المنزل بعد أن انهارت أجمل آماله ، وسار فى غير وعى إلى منزل الموسيقى الألمانى ، وارتمى على أول مقعد صادفه ، وفزع الموسيقى من مرأى وجهه الممتقع ، وما علم بما حدث حتى وجم وتجهّم ،

وجلس الاثنان لا ينبسان ساعات طويلة .

وذهب فى المساء إلى دار حبيبته ، فسمع صوت زوجته ينبعث من غرفة الاستقبال ، فتوارى قبل أن يراه أحد ، ودار حول الحديقة ، وصعد من سلم خلفى إلى غرفة ماريا العجوز . وكانت مطّلعة على سره ، مشفقة عليه ، حاقدة على بونشين ؛ فاستقدمت ليز وتركتهما فى غرفتها منفردين بضع دقائق . وما كان أهول هذه الدقائق ! ! . أتاحت لهما كل حلاوة الحب ممزوجة بكل مرارته ، قالت ليز وهى تتجلد :

— أرجو أن تنسى ما مرّ بنا . . . . . ولكن لا . بل تذكرنى من آن إلى آن .

— أنا أنساك ؟ . وهم بالاقتراب منها .

— كفى . وداعاً . — مدى إلىّ يدك لأودعك وهمت بمد يدها . ولكنها عادت فأزاحتها .

— وما فائدة هذا ؟ . اذهب . إنى أحبك وكفى .

ودخلت ماريا فصمتا ، وأطرق لفريتسكى ؛ ثم غادر الغرفة مطأطئاً مكفهراً .

محمد مفيد الشوباشى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

احمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	فى مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

جرائم الريف ومجرموه

للنائب المحترم الأستاذ عبد الرزاق وهبة القاضي

الجرائم فى أمة من الأمم بعض أخلاقها . فهى رذائل خلقية لا تقف بصاحبها عند حد الوهيئة ، وإنما تدفعه إلى إلحاق الأذى بغيره ، فتوقعه تحت طائلة العقاب . ويترتب على ذلك أن جرائم الأمة تدلّ على طباعها العامة وصفاتها الأصيلة ، وأنها وليدة تلك الطباع والصفات .

فالشعب المتّصف بالشجاعة تحمل جرائمه طابع تلك الصفة ، والشعب المثقف يرتكب مجرموه من فنون الجرائم ما ينمّ عن سعة الحيلة وأصالة الرأى ؛ وهكذا تتمشى الجريمة وفق مستوى الشعب الفكرىّ والخلقىّ .

وقد تطور تاريخ الجرائم فى مصر مع مختلف العصور ، وعزا الناس ذلك التطور إلى جهود رجال الأمن فى سبيل القضاء على النزعة الإجرامية ؛ ولكن الواقع أن الاجرام فى مصر لم يشذّ عن القاعدة العامة ؛ فهو صورة لصفات الشعب النفسية والخلقية .

وقد بلغ من تدهور الصفات النفسية والخلقية لدى العامة فى الريف المصرى أن صارت جنايات القتل فيه اغتيالاً ، وجنحُ الضرب غدراً ، والسرقةُ خطفاً . . . . جرائم تنضح بحقيقة ما انحدرت إليه الطباع .

فالموتور الحانق لا يجابه واتره ، وإنما يتربص به فى حقل نائى الزرع حيث يكمن متدثراً بستار الليل . حتى إذا مر به خصمه أطلق عليه قذيفته القاتلة وولّى الأدبار وهو يرتجف رعباً ، وتدور بعينيه هلعاً ، وتتقطع أنفاسه جزعاً . أما إذا أراد بخصمه شراً أهون من الموت ، جمع عصبته ، وحمل معهم العصى ، وهاجموا ذلك الخصم بينما هو منفرد أعزل ، وبرحوا به ضرباً ولكزاً . أما السارق فلا يجرؤ على مداهمة منزل المسروق منه أو حقله ، وإنما ينتهز فرصة غياب صاحبهما عنهما فيملأ أحضانه ما وسعت من المسروقات ويولّى هارباً .

ولدى مقارنة هذه الجرائم بما يرتكبه المجرمون فى بعض البلاد الأخرى المتحضّرة تزداد خسّتها وضوحاً . فالقاتل فى تلك البلاد يركب ضروب المجازفة والمخاطرة غير هيّاب ليفتك بغريمه ، أو يرسم خطّة محكمة لارتكاب جريمة . وكم من غاضب حانق تأبى عليه نخوته أن يغتال خصمه ، فيبادر — إذا ما التقى به — إلى تجهيزه بسلاح مماثل لسلاحه ويطلب إليه أن يدافع به عن نفسه قبل أن ينقضّ عليه ، ويشفى منه أوامه . وكم لجأ المجرمون إلى الوسائل العلمية فتوسلوا بها إلى تحقيق غاياتهم السيّئة . .

ولسنا نعنى بما نقول تمجيد أولئك المجرمين . فالجريمة جديرة بالتقزز منها والازدراء بها مهما امتاز مرتكبوها بالجرأة أو الفهم أو بعد النظر . ولكنا نقصد إلى أنها تكشف — كما سبق أن أبنّا — عن المرتبة التى وصل إليها البلد الذى ارتكبت فيه من فهم ومن علم . ولا شىء يحزّ فى نفوسنا مثل ما سجلناه من أن جرائم الريف عندنا تنطق بما آل إليه الروح المعنوى من انحلال مشين ؛ فهى مرآة تعكس حقيقة الخلق العام ، ولا يجوز لنا التستر على الحقيقة المؤلمة ، وإنما علينا واجبُ التنقيب عنها ومواجهتها والتماس أسباب علاجها .

ومما يزيد فى ألمنا ، ويستثير إشفاقنا على هذا البلد من مغبّة هذه الحال ، أن للمجرمين فى الريف شأناً لدى الجماهير لا يتمتع بنظيره ذوو الأمر والجاه من سَراة القوم أو حكامهم . فالمجرم الذى سبق أن أظهرنا مبلغ لؤم طباعه وإسفاف أخلاقه ، يختال فى طرقات بلده — على ما يتصف به من جبن — اختيال البطل المغوار الفاتك القهار ، ولا يكتفى القوم بتهيّبه والتخوف من بطشه ، ولكنهم

يكبرون شأنه ، ويستعظمون تسلله الليلى وفتكاته الغادرة تحت ستار الظلام ، غافلين عما تنطوى عليه جرائمه من ضعة نفس وانحلال خلق .

ويرجع السر فى تمتع المجرمين عندنا بتقدير العامة إلى سببين :

الأول — هدوء الحياة فى الريف وإقفارها من أى حادث طريف عنيف يحرك الشاعر ، ويرضى الغريزة الطبيعية النزاعة دائماً إلى البطولة ، والتواقة إلى تبجيل الأبطال وتقديسهم ؛ فلا شىء يشغل الريفيين غير خدمة الأرض التى تجرى على وتيرة متسقة مألوفة مملة . والزرع ينمو فى حقولهم بطيئاً على نظام طبيعى لا تبديل فيه ؛ ولا غرض يصيبونه من وراء كدهم المضنى طوال النهار ، وفى وهج الشمس اللاذعة ، غير حصد حبوبهم للتبلغ بها ؛ وهم يسمعون مع ذلك فى بعض أمسياتهم الساكنة من شعرائهم الجوالين قصص البطولة العربية القديمة ، فيتقد الدم فى عروقهم ، ويصحو روحهم من غفوته ، ويصبو إلى ذلك العهد القديم ، ويحن إلى أبطاله الذين خرجوا على المألوف ، وأتوا بكبريات الأمور ، وخلدوا ذكرهم بالأعمال الخطيرة الباهرة .

وإذا أدخلنا فى حسابنا درجة فهم أولئك القوم وتقديرهم . . لم ندهش لما نراه من خلطهم بين أبطال الحروب الأقدمين وبين مجرمى اليوم السفاكين . فالفريقان عندهم متشابهان فى المخاطرة والتعرض للهلاك فى سبيل التبرز على قرنائهم فى ميدان الفتك والقهر . فالمجرمون فى نظرهم يتحدون سلطان الحكومة ، ويستهينون بصولة رجال الأمن ؛ ولذلك توهموا — على حسب فهمهم السقيم — أن أولئك الخارجين على النظام يحققون خوارق الأمور ، إذ يجابهون — وهم أفراد — قوى الحكومة محشودة مخوفة .

فالآفة عندهم الجهل الفاضح الذى أدى إلى هذا الخطل فى التفكير والاختلال الخطير فى التقدير ، مما يستدعى بذل أقوى الجهد فى سبيل إرشادهم إلى وضح الحق ، وهتك غيابة الحمق والضلال عن أبصارهم .

والسبب الثانى — أنهم يعدون رجال الأمن خصوماً لهم ؛ فهم لا يزالون يسيئون الظن بهم ، ويتوجسون خيفة منهم ، ولا يدركون كنه المهمة التى يقوم بها الشرط ؛ فهم لا يؤمنون بأن هؤلاء منوط بهم المحافظة على سلامة أرواحهم وسلامة أموالهم ؛ وانقلبت عندهم الآية ، فانحازوا إلى الذين يستبيحون ذمارهم ويسلبون متاعهم ، بدل الانحياز إلى حماتهم ونصرائهم ، وقابلوا عصيان العصاة بالتحبيذ والتمجيد ؛ ولم يكتفوا بالسكوت عن جرائرهم ، وإنما بالغوا فى التستر عليهم ، مما ضاعف صعوبة المهمة الملقاة على عاتق القائمين بأمر البلاد ، لأن هؤلاء يعجزون عن أداء واجبهم ، ما لم يساعدهم الشعب على كشف ما يلابس كل جريمة من غموض ، وفضح مسببيها ، واقتفاء أثر المجرمين وهتك الأقنعة التى ستروا وراءها حقيقتهم . وبقدر ما يبدى الشعب للخارجين على نظمه من آيات الإعجاب والإكبار ، يتمادى أولئك الأشرار فى غيهم ، ويتكاثر عددهم بمن يدخل فى زمرتهم من كل دنىء النفس طامع فى كسب المال والتمتع بالجاه من أهون سبيل . وكيف لا يتسابق مرضى الدم فى مضمار لا يلبث أن ينتهى بهم من غير كبير عناء إلى مرتبة لا يدركها أولو الفضل والاستقامة ، ويصيبوا من الشبع كفايتهم بعد السغب ، ومن نباهة الذكر غايتهم بعد الخمول ؟ كيف يرفض مثل هؤلاء أن يرفعهم الشعب إلى مقام أبطاله من غير أن يكلفهم الأمر غير غارة بعد غارة فى الليالى القاتمة ، يتخذون ظلامها ستاراً واقياً ، ويعتمدون عند الهرب على سيقانهم العداءة ، ويبيتون بعد ذلك فى هدوء واطمئنان بال ، لا يخشون أن

يشى بهم واش ، أو يفضح سرهم نمّام ؟

وهكذا تفشّت الجرائم تفشى الوباء الذى يربى فى البيئات الرجسة أخطر إرباء ، ويتنقل بين واهى النفوس بالعدوى . ولا يحسبن من يريد الوقوف على مبلغ انتشار الجرائم فى مصر أنه يحقق بغيته بمجرد مراجعة إحصائها الرسمى ، لأن ذلك الاحصاء لا يتضمن غير الجرائم التى وصل علمها إلى جهات الاختصاص بها . والواقع أن أكثر حوادث الاجرام تبقى مجهولة لدى أولى الأمر محوطة بسياج من التكتم ، لأن المجنى عليهم يخشون فى أغلب الأحيان انتقام الجناة من كل من يحاول منهم أن يحتمى فى كنف الحكومة من بطشهم . وهم كذلك لا يفقدون الأمل فى تعويض الضرر الحيق بهم من طريق الاستنجاد بفريق من الأشرار يقتص من الفريق المتعدى ، أو من طريق دفع (الحلوان) لاسترداد المتاع المسروق .

وهكذا اطمأن الجناة فى الريف إلى حصانة يجهل أمرها الحكام ، وظل العدد الأكبر من أوزارهم فى حرز الكتمان . وإذا كان العدد الأكبر من الجنايات يصعب إخفاء معالمه ، فما لا شك فيه أن بعض جنايات القتل والشروع فيه والضرب المفضى إلى تخلّف عاهات مزمنة والحريق والسطو ، يحدث على مرأى من الشهود الجبناء ، ولا يبلغ خبره مسامع الحكام ؛ ولا أدل على ذلك من تعدد الأفراد التائهين من غير أن يعلم أحد بسر اختفائهم ، ومن ظهور جثث مضت على وفاتها حقب من غير أن يكشفها كاشف ، حتى شاهت فاستحالت معرفة أصحابها ، ومن استخراج بعض الرمم من قبورها على أثر بلاغ مرسل من مجهول يزعم فيه أن موت أصحابها كان جنائياً ، فتثبت صحة البلاغ بعد الفحص والتحقيق ، ولولا ذلك المجهول لبقيت الجريمة مستورة . ومن يجُلْ جولة فى الريف يسمعْ أخبار أروع الجرائم التى ارتكبت وبقى سرها مكتوماً ، ولا يجد مشقة فى التحقق من صحة ما يقال فيها .

على أن انتشار السرقات من غير أن يلقى مرتكبوها جزاءهم هو أدعى إلى قلق البال وأولى باهتمام رجال الحفظ من جرائم القتل والضرب ، لأن رخاء البلاد يتوقف قبل كل شىء على اطمئنان الأهالى على سلامة أموالهم ؛ فما من شىء يشغل بال الجاهدين المنتجين ويثبط هممهم مثل تعرض نتاجهم فى آخر الأمر للضياع . وقد رأينا الزارع فى الريف يعانى من صنوف النصب المنهك ألواناً وهو يبذر حبه ويتعهده حتى يزهر ويثمر ، فلا يأمن فى النهاية جانب الطامعين فيه ، ولا يستطيع رد غائلة سارقيه .

وللجرائم فى الريف مواسم يتفق ميعادها ومواسم المحصولات ، وأكثر ما يسرق محصول الأذرة الذى هو قوام أود الزراع ؛ فلا يكاد صاحب الحقل يفرح بقرب نضج أذرته حتى يبدأ سارقوه بخلع الكيزان من أعوادها . ولما كان ضياع ذلك المحصول معناه لدى صاحبه المنكود الجوع والعرى ، فإنه لا يجد بدأ من تعويض خسارته بالتعريج على غيط جاره وسرقته بدوره ؛ ويجنح ذلك الجار إلى الأرض التى تليه فيبيت فيها هو أيضاً ، وهكذا ، حتى تضطرب الحال ، ولا يفوز وسط هذه الفوضى إلا من كان أجرأ على النهب وهضم الحقوق . وتجرى هذه السرقات الليلية على الخفاء ، ولا يفكر واحد من المجنى عليهم فى الالتجاء إلى رجال الأمن لإنصافه ؛ ذلك لأنه يعلم علم اليقين أن أحداً لن ينصفه ، وأن شكواه لا تجدى إذا كان لا يتهم بالسرقة فرداً معيناً ، ولا يأتى بشهود عدول يؤيدون اتهامه . وأنى له معرفة سارقه الليلى ؟ ومن أين له الشهود فى مثل هذه الحال ؟ .

فإذا أراد رجال الحفظ أداء واجبهم على الوجه الأكمل وجب ألا يجعلوا مهمتهم منحصرة فى تمحيص الشكاوى المقدمة إليهم وتحقيقها . وإنما عليهم أن يقوموا بعمل أبعد مرمى وأنأى غاية . عليهم بثّ العيون والأرصاد للتثبت من حقيقة حال الأمن ، والتنقيب عن كل جرم محوط

بسياج الكتمان . عليهم توطيد النفس على محاربة الاجرام ، واستئصال شأفة المجرمين . عليهم أن يفهموا موقفهم على حقيقته ، فهم لم يتولوا وظائفهم إلا للقضاء على كل إخلال بالأمن والنظام . فاذا حققوا هذا الغرض أصابوا الغاية المنشودة ، وإذا لم يحققوه خانوا أجل أمانة طوقت عنق إنسان . إنهم خصوم أولئك الجناة الأشرار . ولا أظن أحداً ممن نيط به شرف حماية الحقوق الانسانية يقبل على نفسه الهزيمة في ميدان مثل هذا الكفاح . ولن يتاح لهم النجاح في جهادهم إلا إذا قضوا على الوهم المتسلط على عقول الأهلين فيما يتعلق بمكانة المجرمين وعلو شأنهم . وعليهم كذلك أن يشعروهم باهتمام أولى الأمر بمصالحهم وحرصهم على حماية كل مجنى عليه من أذى الجناة . ولا بد كذلك من إفهامهم أن واجب كل رجل شريف يقضى عليه ببذل جهده في سبيل التعاون على صيانة الحقوق والضرب على أيدى العابثين بها . فاذا فازوا بعون الأهلين سهل عليهم تدبير حملة منظمة يشنونها على الجناة ويطهرون البلاد من شرورهم . ويستطيع خطباء المساجد والوعاظ أن يقوموا بدعاية جدية واسعة النطاق لتحقيق الغرض الذى ينشده .

أما مهمة تطهير البلاد من أشرارها فلن تكون عسيرة بقدر ما يبدو للنظرة العاجلة . ومن رأينا البدء بمكافحة سراق المحصولات ؛ إذ بين هؤلاء يندس سائر المجرمين الذين لا يحجمون من ارتكاب أية موبقة . هذا إلى أنه يسهل ضبط أولئك السارقين ، لأن المحصول المسروق يباع في حوانيت البدالين المنتشرة في الكفور . ويجتمع السراق عندها في كل مساء بعد العشاء لاستبدال مسروقاتهم بالتبغ والقهوة والشاى . ويجلسون هنالك علانية يدخنون لفائفهم مطمئنين ، ويشربون سوائلهم متفاخرين بما جنت أيديهم . ولا يهتم أصحاب الحوانيت بإخفاء المسروقات المكدسة لديهم . لأن أحداً منهم لم ينله أذى من جراء اتجاره مع المجرمين . . . . فى هذه البيئات يجد الشرط الوجوه المشبوهة . فاذا راقبوا أصحابها سراً استطاعوا أن يباغتوهم أثناء ارتكاب جرائمهم .

ويقع جزء كبير من مسئولية انتشار الجرائم في الريف على عاتق خفراء الكفور ؛ لأن السراق يعودون بمسروقاتهم إلى تلك الكفور ليلاً ، فلا يتعرضون لهم ، ولا يعنون حتى بسؤالهم من سبب حمل ما يحملون في مثل ذلك الوقت المريب .

فاذا خطا رجال الأمن خطوة في سبيل تضييق الخناق على المجرمين ، وشعر الشعب بأنهم أخذوا يخضدون شوكة المعتدين ، وبدأ يعاونهم في جهادهم ، توطد لهم سبيل النجاح ، وحق لهم لدى نجاحهم أن يفخروا بأداء أجل خدمة للبلاد . . . .

عبد الرزاق وهبه القاضى

للذكرى والتاريخ

[ألقيت فى حفلة تأبين فقيد العلم والأدب
والصحافة المرحوم محمد بك مسعود ...]

يُبكيكما الحزن حتى متى؟ عزاؤكما غير هذا البكا
تجولان فى وارفات الظلال رطابِ الغصون دوانى الجنى
حدائق من صحف مُونِقات لسمح البيان كريم الحجى
عليم بما تلد الكائنات وما ولدت منذ أولى الدُّنى
يجوب مدى خافيات النجوم فيبلغهن إلى المُنتهى
ويكشف عن مُنْتآهن حتى يُراهنَّ بالعلم من لا يرى
وغاص إلى ما تكنُّ البحار فأصبح سر البحار نثا
يحث أعاد سواد المداد بياناً له روعة وسَنَى
وجدد ما ترك الأولون لمن بعدهم فمراه البلى
وأكل ما أبدع الآخرون من المحدثات بشتى النُّهى
وكم ذا له من صحائف غرّ كما رُصِّعت بالفصوص الحلى
وهل كصحائف مسعود لو تلات لمن يجتلى مُجتلَى
وأسفاره كالحدائق نضر هنّ الحيا فى رحاب الرُّبى
تجولاً بهن تجن متاع يُنحيكما عن مثار الأسى
وفيهن يحيا حياة الخلود فلا تبكياه ولا تجزعا
ثم حجبته سجوف المنون ولكنه معنا ههنا
ألا فانظرا ترياه على يد ظلة يتدانى كطيف الكرى
وألقى السلام فقولا سلام عليك حبيباً قريب اللُّقى
أمسعود هات تحدث إلينا فإن لك السَّمَر المشتهى
تحدث إلينا عن العادلين من المالكين وعمن بغى
فعندك أخبارهم كيف كانوا ومن للضلال ومن للهدى
تحدث إلينا بهم فى العصور وعد فى الحديث بنا القهقرى

إلى عهد «مينا» الذى كان أو
ل من عرف الناسُ ممن علا
وهل كان أول ذى صولجان وتاج من الحاكمين الملا
أرى الناس من قبل «مينا» توالت
عليهم دهور وطال المدى
وما جهلُنا بقُدامَى الأناسىّ جاعلهم يذهبون سُدَى
وما خلق الله تلك الشعوب
من البهم فى الأرض ترعى الكلا
أما كان فى الأرض مُلكٌ كبير
يدين لملك شديد القُوى
تُلى كان فيها ممالك بادت وباد الذى ملكت وانمحى
فزالت مساكنهم والقصور وآثارهم كزوال الرُّؤى
فليس لهم خبر يعرفون به فى كتاب ولا مُنتدى
وما الدهر إلا سحاب تمر فعهد يجىء وعهد مضى
ومن تلد الأرض تأكله إمّا شواء وَنَيّا أو قديد ضَنَى
أما فى ظلال السلام الردى كما هو تحت قتام الوغى؟
رويد الجحافل ثم القتال وفى اللهو قتل لهذا الورى؟
فما الحبيب وما للعدو من الموت حرز إذا ما أتى
وهذا الغرور إذا ران يوما على مبصر فالنهار دُجى
وليس بعينيه ما يُشتكى
ولكن عمى القلب شر العمى
ومن يغترر يحسب الناس عبدا
نه وقديماً «أتيلا» طغى
وكان «هلاكو» ظلوماً جهولا
و «نيرون» كان يُبيد القُرى
وكانت جيوشٌ تلاقى جيوشاً
بضرب يذيب غلاظ الكُلى

فلان الكمىّ وشُقّ السلاح ... وجاء الفناء على ذا وذا

وذل الزمان عروش الطغاة ... ودك الحصون فهنّ ثرى

فلم يبق مستضعف مستكين ... يخال المضيض له مُرْتَقى

ولم يبق ذو مِرّة مستبد ... يدوس بنعليه هام العُلى

ولولا الردى فى صروف الحروب

لكان الردى فى صنوف المنى

وما مات من مات عمّا وعى ... إذا مات من مات عما حوى

فما المُقْتنى بعد أن يتردى ... أبو غير من يرثُ المُقْتَنَى

ومن يُورثُ الناس علماً فهذا ... أبو الناس ممن دنا أو نأى

وميراث مسعود العلم فاتن ... يخلدوه أباً ، وَرِثوا ما وعى

ألا ليت لى موتة مثلها ... ففيها الحياة وفيها الغنى

حسين شفيق المصري

أنباء وآراء

زائر كبير

قدم القاهرة يوم الثلاثاء الماضي السير سيمور هكس كبير ممثلي انجلترا، بعد أن طاف ببلدان الشرق في رحلة تفتيشية على الفرق الملحقة بالقوات البريطانية للترفيه عن الجنود.

ويعد السير سيمور أعظم من أنجب المسرح الكوميدي في بريطانيا، وقد تطوع منذ ابتداء الحرب للاشراف على مشروع الترفيه عن الجنود المتحاربة، وهو صاحب هذا المشروع منذ الحرب الماضية حيث قام بنفسه بتأليف فرقة ذهبت إلى الجبهة في عام ١٩١٤ وطافت بأفريقيا واستراليا وكندا.

وقد بدأ السير سيمور حياته الفنية عام ١٨٨٧ في الوقت الذي كان يطمع له أبوه في أن يسلك سبيل الجندية؛ بدأ هذه الحياة كملقن بإحدى الفرق، وعرفه الجمهور منذ أول يوم، لأن صوته كان مرتفعاً عن أصوات الممثلين!! . ولكن الفشل الأول لم يثنه عن عزمه، فمضى في سبيله، حتى وصل إلى مجده الفني قبيل الحرب الماضية . ومما يذكر له أنه ساهم في إنشاء بعض دور الفن الكبيرة في انجلترا كمسرح الملكة ومسرح جلوب .

وسيقيم السير سيمور بالقطر المصري فترة من الزمن، وهو ينتهز فرصة مهمته بالقطر المصري لدراسة الحياة الفنية فيه؛ وقد بدأ هذه الدراسات بمشاهدة إحدى حفلات الفرقة القومية بدار الأوبرا الملكية مساء السبت . وقد أتيحت لمحرر هذه الصفحة فرصة لقائه والتحدث إليه في شئون المسرح، وربما استطعنا نشر بعض آرائه عنه في عدد قادم .

كتاب جديد — تاريخ القوقاز

هذا كتاب من نوع جديد في المكتبة العربية يبحث في تاريخ الأمم القوقازية، وقد قام بوضعه باللغة التركية المرحوم عزت باشا الجركسي أمير اللواء بالجيش التركي.

وقد عهدت جمعية الإخاء الجركسي المؤلفة بمصر إلى المرحوم عبد الحميد بك غالب بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، فأتم هذه الترجمة على أحسن وجه، ولكن لسوء الحظ عاجلته المنية قبل أن يطبع الكتاب فنشرته الجمعية بعد وفاته .

والحق أن هذا الكتاب فريد في نوعه، ملىء بالمعلومات المفيدة لكل من يرغب في الاطلاع على أحوال الأمم وأخلاقها وتاريخها؛ ففيه تتبع لأثر القوقاز منذ نشأتهم الأولى إلى أن توزعت أراضيهم بين تركيا وروسيا، في أسلوب سهل تفاوته الخرائط والرسوم .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٩ ، ٥٦٧٦٩

العدد ١٢٥ — الثلاثاء ٢٣ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٠ — ٢٠ من مايو سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــــدد

الحديد بين الأمم

للدكتور أحمد زكي بك

إن المدنية الحاضرة ، وكل مدنية لاحقة أو غابرة ، لا بد لها في سلمها وحربها من شيئين : القوة ، وما تتجسد فيه هذه القوة من المواد . أما القوة فقد وجدها الانسان الأول في عضله ، وفيما يُخرج الفرع الأخضر إذا هو تيبّس من نار . ثم تدرج فوجدها فيما اختزنت الأرض على الحِقب الطويلة من الفحم الحجري ، ومن الزيت الصخري ؛ ومردّ هذه القُوى والطاقات جميعاً آخرَ الأمر إلى الشمس أمّ الكون وراعيته . وقد يتدرج العلم والفنّ بالإنسان ، عند ما تَنفَد هذه الصُّوَر الحاضرة من مخازن القوى ، بل قبل أن تنفد ، إلى استدرار هذه الطاقات من أصلها الأول ومعدنها الأوحد ، دون حاجة إلى زرع الزارع أو خزن الصخور — أعني من الشمس مباشرة .

ولكنّ الطاقات والقوى لا تنفع إلا بوعاء ماديّ يحملها . وقد وجد الانسان هذا الوعاء أول الأمر في أحجار الجبال ، وفي الخشب البَتّ من أخشاب الأشجار . ولكن هذه تُعوزها الصلابةُ الكافية ، ويعوزها التشكّل إلا أن يكون نحتاً . فاهتدى الانسان بالمصادفة ، أو بالسليقة ، أو وَفْقَ خططٍ مرسومة من الأزل ينحدر في شعابها بنو آدم إلى غاية معلومة — اهتدى إلى استخراج معادن في الأرض أكثر انصياعاً في يد الرجال عند تشكيلها ، وأصلب مسّاً وأكثر تماسكاً إذا هم حمّلوها بالقوى والطاقات ، أو إذا هم صدموها بالقوى والضغوط ، وتبلغ

من ذلك النابة فلا تكسّت دونها كما يتفتت الحجر أو تتشقق كما تتشقق الأخشاب . فكان من هذا استخراج النحاس ، واستخراج الحديد ، واستخراج القصدير والذهب والفضة وسائر تلك المواد التي يسميها الكيميائيون الفِلِزّات ويسميها العامة بالمعادن . وحُكْمُ الأدهار الطويلة وخبرة الإنسان العديدة المتواصلة بهذه المعادن قضيا بتفوق الحديد . وقد تأيد هذا الحكم استشادة وزاد ثبوتاً في عصرنا هذا . ونظرة عابرة إلى بعض الجداول التي تتضمن مقادير الصلابة في هذه المعادن تكشف لنا جهة واحدة من جهات هذا الحكم وهي كثيرة عديدة :

المعدن	صلابته النسبية بالتقريب وفي المتوسط
الرصاص	٦
القصدير	٢٠
الألومنيوم	٢٥
الزنك	٣٢
النحاس	٤٥
الفضة	٥٥
الحديد الخالص	٧٧

وتزيد صلابة الحديد بالخلط والمعالجة ، فتبلغ صلابة الفولاذ ما بين ٩٠ و ٧٠٠ .

وتتضمن هذه الجهات أموراً أخرى تتعلق بالمتانة ، وهي غير الصلابة ، وبالمرونة ، وبالتطرق صفائح والتمطط أسلاكاً ، وبصفات طبيعية أخرى لها خطرها جميعاً في شتيت ما يُستخدم فيه الحديد . وبعض هذه الصفات طبيعية في الحديد ، وبعضها مستحدَث فيه ، استحدثه فنونٌ راقية وعلم نظم جيد .

فعصرنا الحاضر لا شك عصر الحديد ، ومدينتنا الحاضرة مدنية حديد : حديدٌ في الحقل ، في حرثه وحصاده ، وحفر ترعه وضبط مياهه . حديد في الثاني البيّار . حديد في الشوارع ، فكل ترام من حديد ، وما يجرى عليه الترام من حديد ، وكل سيارة تمرّ من حديد . والماء في أرض الشوارع تُحمَل إلى المنازل ، وتُحمَل منها بالحديد . والمواصلات جميعها بين بلد وبلد ، وقُطر وقطر ، على يَبَس الأرض ، وفي لجة الماء ، وعلى متن الهواء من حديد . فعلى الأرض كانت السكك الحديدية في أوائل هذه السنوات من القرن الماضي لا تكاد تُذكر طولاً ، فبلغت في هذا القرن أرقاماً لا تناسب بينها وبين أرقامها الماضية . ففي انجلترا ، موطن البخار والطرق البخارية ، بلغ طول السكك الحديدية في عام ١٨٢٥ نحواً من ٢٦ ميلاً ! فبلغ طولها في عام ١٩٢٦ فوق الـ ٢٠٠٠٠ من الأميال ، وبلغ في أوربا ٢٣٧٦٦٤ من الأميال ، وبلغ في أمريكا الشمالية ٣١٦٦٥٢ من الأميال ، وفي آسيا ٨١٢٩٣ من الأميال ، وفي أفريقيا ٣٦٤٥٧ من الأميال . فهذه السكك جميعها من حديد ، وما يتصل بها من القناطر والكبارى من حديد ، وما يجرى عليها من قاطرات وعربات من حديد .

وفي البحار كانت السفن من عهد غير بعيد ، تُصنع من الخشب وتساق بالشراع . ثم سار الشراع بخاراً والخشب حديداً ؛ فتضاعفت أحجامها وأوزانها وسرعتها وأعدادها أضعافاً مضاعفة . كانت أوزانها مئات الأطنان ، أو إن هي زادت فتفوق الألف الواحدة ، فصارت بفضل الحديد خمسين ألفاً . بل ليس بعد الحديد لنائها على الماء من حد لحجمها ووزنها ، إلا أنْ تضيق الموانئ بها في خروجها ودخولها . وكانت حمولة سفن العالم عام ١٨٢٠ نحواً من أربعة ملايين من الأطنان ، فصارت في عام ١٩٢٧ نحواً من ٦٥ مليوناً ، لبريطانيا منها نحو من ٢٠ مليوناً ، وللولايات المتحدة نحو من ١٤ مليوناً ؛ ثم يلي ذلك اليابان وفرنسا ، وإيطاليا وألمانيا ، وحمولة ما لدى الواحدة منها شيء يتراوح بين الثلاثة الملايين والأربعة .

وما يقال في مواصلات الأرض والماء ، يقال في مواصلات السماء . ولكن من السير المفصول على

إحصاآت تدل على ما فقدت الأمم منها ، ومع هذا تستطيع أن نقول إن الطائرة التي انسلخت منها الحرب الماضية ، وهي تصنع من خشب خالص ، أو من مزيج من الخشب والحديد ، قد طواها الزمن طياً لا نشر بعده ، وإن كل الصعوبات الفنية التي كانت تحول دون بناء الطائرات من الفولاذ قد ذُللت جميعها ، وكذلك الصعوبات الاقتصادية في سبيل بنائها ، قد انمحت ، أو كادت بعد أن تحفّزت الأمم جميعاً لبناء الطائرات بهذه الألوف العديدة في هذه الحرب الحاضرة . ويظهر بعد انقضاء هذه الحرب أن هذه الطائرات ستحتل في مواصلات الناس مثل المكان الذي احتلته السيارات بعد الحرب الماضية ، فتصبح أيسر وسائل الانتقال ، وأكثرها شيوعاً بين بلدة وبلدة ، وبين قُطر وأقطار ، إن لم نقل بين أجزاء المدينة الواحدة في المواسم الكبرى .

وبعد المواصلات في تعديد فتوحات الحديد تأتي الصناعات . فهذه كانت تقوم بها أصابع الناس فصارت تقوم بها أصابع من حديد ، وكانت تدور فيها أذرع الرجال فصارت تدور فيهـا أذرع من حديد . حتى عقل الانسان في هذه الصناعات استبدلوا به عقلا من حديد يسيطر على أجزاء الآلات أضبط مما تسيطر عليها عقول الرجال . ونحن إذا قلنا الصناعات فقد أجملنا المدنية الحاضرة في لفظة ، وهذه اللفظة مبناها ومعناها من حديد . فمدنية الأمم تقاس بالحديد ، ورفاهة الأمم ورفاهيتها تقاس بالحديد ، واستقلال الأمم وعزّها يقاسان بالحديد ، والحرب الحاضرة ستُكسب أو تخسر بالحديد .

والآن فإلى ذكر ما لدى الأمم من المدنية ، من الرفه ، من العز والجبروت — من الحديد .

فأول أمم الأرض حظاً من الحديد الولايات المتحدة ، ففي الشمال الشرقي للولايات توجد بحيرة تسمى بحيرة سوبريور Lake Superior . ففي طبقات الأرض حول هذه البحيرة ، ما بين الولايات المتحدة وبين كندا ، توجد أكثر بقاع الأرض إنتاجاً لخامات الحديد . وتوجد بعض هذه الخامات هناك في طبقات قريبة من سطح الأرض ، يكفي للوصول إليها شق هذا السطح ثم إعمال المجرف البخاري فيها . ولكن من تلك الطبقات طبقات تسوخ في الأرض حتى يبلغ عمقها ألف متر ، وفي هـذا العمق تُستخرج الخامة . وأكثر هذه الخامة هيماتيت ، وهو أكسيد الحديد الأحمر ، ونسبة ما تحتويه من الحديد الخالص تتراوح بين ٥١ و ٥٥ في المائة . والولايات المتحدة تستخرج من الخامة ثلث ما تستخرجه الأمم جميعاً . وهي تنتج في المتوسط — أو كانت من نحو عشر سنوات تنتج في المتوسط — ٣٧ مليون طن من الحديد الزهر ، و ٤٦ مليوناً من الفولاذ . وفي عام ١٩٣٠ بلغ ما أنتجته من الحديد الزهر ٤٠ ٪ مما أنتجه العالم كله ، و ٦٠ ٪ مما أنتجه من الفولاذ .

ويلي منطقة البحيرة في الولايات في إنتاج خامات الحديد منطقة اللورين بفرنسا ، أو بألمانيا ، أو بهما معاً . وهذه منطقة على خطورتها حديثة الاستغلال . فلقد عهد قريب ، في عام ١٨٩٧ ، لم تكن تنتج في العام من الخامة غير ٨٣٠٠٠٠ طن ، ولكنها في عام ١٩٢٩ أنتجت ٤٨ مليون طن ، وقد بلغ ما أنتجته في عام ١٩٣٣ ثلث الخامة التي استخرجتها الأمم كلها ، وطبقات الأرض التي تحمل هذه الخامة تمتد على حدود فرنسا وألمانيا ، أو ما كان حدود فرنسا وألمانيا قبل سبتمبر عام ١٩٣٩ . وهي تمتد شمالا إلى لكسمبرج وبلجيكا ، وعلى هذه الخـامة تعتمد صناعة الحديد في كل من هـذه الأمم الأربع : فرنسا وألمانيا ولكسمبرج وبلجيكا .

وشاءت الطبيعة الخيرة أن تجعل الفحم في المنطقة المجاورة ، منطقة السار Saar ، والحديد لا يُستخرج من خامته بدون الفحم . وكل طن من الخامة يحتاج إلى نصف طن من فحم الكوك ؛ لذلك ازدهرت صناعة الحديد بفرنسا أي ازدهار ما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٣٤ . ففي

عام ١٩٢٥ احتلت فرنسا أرض السار من ألمانيا لتضمن وفاء ألمانيا بالتزاماتها المالية التي نشأت من الحرب الماضية، أو هي بهذا احتجت. وكان لفرنسا في هذا الوقت مقاطعة اللورين فجمعت بذلك بين الفحم والحديد. وفي عام ١٩٣٤ استردت ألمانيا منطقة السار عنوة ففرّقت ما بين الحديد والفحم إلى حين. فهذا مثل رائع للتعاون والتآلف والإخاء في بطن الأرض يصحبه اختلاف وتنافر على سطحها. فالطبيعة ربطت ما بين الحديد والفحم، فربطت ما بين اللورين والسار رباطاً لا ينقطع أبداً. فنزولا على حكم الطبيعة — وحكم الطبيعة من حكم الله — يجب أن يمتزج اللورين بالسار، وأن يظهر على أرضهما من التناسق مثل ما اتسق في بطنها، مهما اختلفت الألسن وتعددت الشعوب.

أما بريطانيا فقد كان لها سبق قديم في استخراج الحديد وتجارته بسبب أن مناجم حديدها القديمة كانت تختلط بمناطق فحمها اختلاطاً. ومعنى هذا من الوجهة الاقتصادية رخص كبير في الأسعار. أما الآن فهي تستنجم حديدها من مناطقها الوسطى، وهي تمتد من مقاطعة يورك York في الشمال الشرقي عند بحر الشمال إلى مقاطعة دُرست Dorset عند بحر المانش في جنوبها الشرقي. والخامة التي تستخرجها من هذه البقاع قليلة الحديد. فحديدها يبلغ ٢٧٪ من الخامة، وهي بهذا ليست من أخلص الخامات. ولكن بها من الأخلاط الشائعة ما يتيسّر به استخلاص الحديد منها. وأرض هذه الخامة ليست من الوجهة الجيولوجية غير امتداد لأرض اللورين، فطبقاتهما واحدة متواصلة، أو كانت متواصلة، ومن خلق عصور قديمة واحدة. ويوجد عدا هذا في انجلترا خامة ذات نقاء كبير، من الهيماتيت، في المقاطعات الساحلية الغربية ما بين ليفربول واسكتلندا، إلا أنها قليلة.

ومع عظم ما تستخرجه بريطانيا من الخامة في أرضها فهو لا يكفي صناعة الحديد فيها. فهذه الصناعة تحتاج إلى عشرين مليون طن من الخامة، يُستخرج ثلثاها محلياً، والثلث الآخر يُستورد أكثره من أسبانيا والجزائر، وأقله من أسوج. وخامة أسوج من أنقى خامات العالم، وهي من أوكسيد الحديد المناطيسي، ولهذا تختصها انجلترا بصناعة فولاذ السكاكين والأسلحة الشهيرة بمدينة شفيلد Sheffield.

وقد بلغ ما صنعته بريطانيا من الحديد الزهر في عام ١٩٣٤ نحواً من ستة ملايين من الأطنان، ومن الفولاذ نحواً من تسعة ملايين.

في أسبانيا وأسوج (السويد). أما أسبانيا فلديها خامة كثيرة من الحديد توجد في مناطق ساحليّة ضيقة في الشمال على خليج بسكاى Biscay، أقرب ما تكون من الشاطئ الفرنسي. وقد بلغ ما استخرجته من الخامة عام ١٩٢٩ نحواً من سبعة ملايين من الأطنان، استخدمت منها في صناعاتها المحلية مليوناً ونصف المليون، وما بقي صدّرته إلى انجلترا وألمانيا. أما أسوج فخامتها في مناطقها الشمالية، وهي كتل خالصة، أو تكاد تكون خالصة، من أوكسيد الحديد المناطيسي. ومع وجود هذه الخامة في أسوج، فإن مخرجها الطبيعي إلى البحر مرفأ نارفيك Narvik، ببلاد النرويج. وذلك لأن مرافئ أسوج على بحر البلطيق تسدها الثلوج شتاءً. وقد بلغ ما استخرجته أسوج من الخامة في عام ١٩٢٩ نحواً من ١٢ مليون طن

أما الأمم الأخرى فيما عدا ما ذكرنا فخاماتها إما قليلة، وإما كثيرة ولكن لا يستغلها أحد لبعدها من العمران، ولما يتبع ذلك من فداحة النفقات. ومن هذه البرازيل، وفيها خامات هائلة لم يُضرب فيها معول حتى الساعة. ومن الأمم أمم أخذت تُعنى بخاماتها وتخلق من هذه الخامات في بلادها صناعات ناشئة للحديد والفولاذ. ومن هذه الأمم الهند وأوستراليا.

أما مصر فتستخرج من حديدها بمقدار ما في رجالاتها من هم وما في قادتها من وهم.

أحمد زكي

صور قضائية تاريخية

للأستاذ أحمد أمين بك

هذا قصر عبد الرحمن الناصر بقرطبة، يعمل في بنائه آلاف العمال، ويستجلب له من كل مدينة أحسن ما فيها؛ فالرخام الأبيض من المَرِيَّة، والرخام المجزع من رَيَّة، والوردي والأخضر من تونس، والحوض المنقوش المذهب من القسطنطينية؛ وهذه نقوش تنقش، وتماثيل وصور على صور الإنسان تنصب في أماكنها؛ وهذه هي الأبواب تصنع من العاج والأبنوس المرصع بالذهب؛ وهذه هي الأعمدة تقام من الرخام الملون والبلور الصافي؛ وهذا هو مجلس الخليفة يحلى بقراميد الذهب والفضة ملونة ألواناً بديعة، وينشأ في وسطه حوض عظيم يملأ بالزئبق، فإذا دخلت الشمس سطعت على تلك الأبواب وهذا الحوض وهذه الأعمدة، فيكون من ذلك أشعة تخطف الأبصار وتأخذ القلوب؛ وهذه الحدائق تنسق، ويؤتى لها بأغرب الأشجار وأجمل الأزهار.

وهذه القناة الغريبة الصنعة يُجْرَى فيها الماء من جبل قرطبة إلى القصر فيلعب فيه لعبه البديعة؛ فهذه بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة مطلي بالذهب، وعيناه جوهرتان براقتان، يجوز الماء في مؤخره فيمجه في البركة من فيه، ثم تسقى بين مجاجه جنان هذا القصر، وما فضل منه صب في النهر.

وامتلأ القصر بالطيور تغرد، والأزهار تتفتح، والفتيات تمرح، وصبيان الصقالبة يروحون ويجيئون، وتم فيه كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ويأتي أمير المؤمنين الناصر فيزور القصر ويعجب به، ويمتلئ فرحاً وسروراً، ويلهج لسانه بالشكر لله على ما أولى وأنعم، ويصعد إلى السطح الممرد فيشرف منه على الرياض الزاهية والمياه المتدفقة، والمجالس وقبابها المذهبة، ويعجب مما تضمنته من إتقان الصنعة وحسن المنظر، بين مرمر مسنون، وذهب مصفى، وعمد كأنما أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة، وحياض وتماثيل عجيبة؛ ويعجب من قدرة الإنسان الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض التحتة، ومادتها الهاملة؛ وهو أشد عجباً من صنع الله المادة، وصنع الله للإنسان.

ولكن [وداعاً تأتي «لكن»، فهي نذير الشؤم والنقص، ولم يخل شيء في الدنيا من نقص فلم يخل شيء من «لكن»].

ولكن أبعد «الناصر» النظر فرأى على مداه مستشفى المرضى يزدحم فيه أصحاب العاهات: هذا قد عميت عينه، وهذا قد ربطت ذراعه، وهذا قد كسرت رجله، وهذه محفة تحمل طريحاً، وهذا طبيب يداوي والعليل يتلوى، إلى آخر هذا المنظر.

ألِمَ «الناصر» من هذا القبح وسط هذا الجمال، ومن مظهر الضعف بجانب مظهر القوة؛ وعدّ هذا نشازاً في الأغنية الجميلة، وبيتاً مرذولاً في القصيدة الرائعة، وشجرة يابسة في الحديقة الناضرة، وعموداً مرضوضاً في البناء الفخم، وعوداً ذابلاً في طاقة من الزهور.

لا. لا. لا يكون ذلك. إني أحب الانسجام في كل شيء، والمواءمة في كل نغمة؛ والانسجام في جلائل الأمور وصغائرها. إن هذا المنظر يذكرني بالضعف وأنا أحب القوة، ويشعرني بالفناء وأنا أحب البقاء، ويصور الحياة في أبشع صورها وأنا أحبها في أزهى صورها.

ولكن المرضى عضو من أعضائنا يجب العناية بهم، والحنو عليهم، والإحسان إليهم؛ والتوفيق ممكن بين ما أطلبه من الانسجام في المنظر والمواءمة في النغم، وبين

ما أشعر به من واجب المرضى وحسن رعايتهم ؛ فلينقلوا إلى مكان آخر بعيد عن قصرنا ، حيث يجدون فيه راحتهم ، وحيث نجد في بعدهم راحتنا .

يبدو الأمر بسيطاً سهلاً ، ولكن [تظهر «الكن» مرة ثانية] .

فهذا المستشفى وقف ، ولا بد أن يؤخذ في استبدال الأوقاف رأى رجال الشرع .

وكانت الأندلس قد شعرت بنقص نظام القضاء في الشرق ، إذ لم يكن هناك قانون رسمي يعمل على وفقه القضاة ، ويعرفه المتخاصمون والقضاة قبل الحكم ، بل كان القاضي يقضي حسب اجتهاده في حدود مذهبه ؛ وقد أدى هذا إلى إصدار أحكام مختلفة في قضايا متشابهة ؛ فتداركاً لهذا ألفوا جماعة سموها « جماعة الشورى » ، يعين أعضاؤها بمرسوم من أمير المؤمنين ، ومن اختصاصها النظر في مشكلات المسائل ، ومسائل الأوقاف ، والإشراف على أعمال القضاة وتوليتهم وعزلهم ، والإشراف على أعمال رجال الدولة فيما يتصل بالشؤون الدينية .

إذاً ، كان لا بد في أمر المستشفى أن يعرض على جماعة الشورى ؛ فبعث الناصر بأحد وزرائه إلى رئيسها ، وهو قاضي قرطبة ابن بقيّ ، وشكا إليه أمر المستشفى ، وأنه يؤذى أمير المؤمنين الناصر ، رؤية المرضى إذا أطل من ملال القصر ، وأنه على أتم استعداد أن يعوضهم عنه ما يساوي أضعاف ثمنه ، أرضاً فسيحة عالية من أملاكه في ضاحية قرطبة هي « مُنْيَة عجب » .

قال « ابن بقي » : الرأى عندى أن هذا لا يجوز ، وأن ليس لى فيه حيلة ؛ فالوقف يجب أن تكون له حرمته ، وأولى من يحترمه السلطان .

الوزير — يحسن إذاً أن تعقد مجلس الشورى وتعرض عليهم الأمر ورغبة السلطان ، فلعلهم أن يجدوا في ذلك رخصة .

* * *

هذا المجلس مجتمع ، وها هم العلماء يقلبون الأمر على وجوهه ، فلا يرون في فقه الإمام مالك الذى يتقلدونه مخرجاً ، فيقررون رفض الطلب ، وها هو ابن بقي يعرض على القصر رأى المجلس بالرفض .

يغضب السلطان أشد غضب وأعنفه ، ويأمر بإحضار مجلس الشورى في القصر ، ومواجهة الوزراء لهم بالتعنيف والزجر ؛ فينطلق أحد الوزراء معنفاً قائلا : إنكم تستحلون أموال الناس ، وتأخذون الرشا ، وتحسنون الروايات الضعيفة تبعاً لشهواتكم ؛ وقد أمرنى أمير المؤمنين أن أطلعكم على عيوبكم ، وأسفه أحلامكم في موقفكم ؛ فهو مطلع على شروركم وخباثتكم ، قد احتاج إليكم مرة في دهره ، في أمر من أموره ، فلم يتسع نظركم لإجابته ، فليكشفن ستركم ، وليناصحن الإسلام فيكم — وأطال في مثل هذا .

قال أحد الأعضاء : عفواً عفواً — أيها الوزير — لقد أخطأنا في رأينا ، وتُبنا مما جنينا .

فانبرى له شيخ شديد اللهجة قوى العارضة ، يسمى « ابن حيونة » ، وقال : مم تتوب يا شيخ السوء ؟ نحن بُرآء إلى الله من مقالتك ؛ والتفت إلى الوزير وقال : بئس ما بلّغت ، ولست فينا وصف مما ذكرت . إنّا أعلام الهدى وسُرُج الظلام ، وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق ، وتنفذ الأحكام ؛ فإن كان من يتصف بما وصفت فأنتم . إن كان قد نطق أمير المؤمنين حقاً بما نطقت فكان أولى أن تنصحه في قوله وألا تفشي سره ؛ فإن كنت ولا بد مبلغاً فأبلغنا ، ولا تقابلنا بما استقبلتنا . نحن على يقين أن أمير المؤمنين سيراجع بصيرته ويعاود رأيه . ولو كان الأمر ما قال فينا لبطل كل ما صنعه ؛ فهو لم يثبت له كتاب حرب ولا سلم ، ولا بيع ولا شراء ، ولا صدقة ولا حبس (وقف) ولا هبة ولا عتق

إلا بنا وبشهادتنا ؟ هذا ما عندنا والسلام .

ووقف وتبعه الأعضاء ، وخرجوا جميعاً من القصر غاضبين . وشاع الخبر في الناس ، فغضبوا لهم وأسفوا لإهانتهم ، وأصبحت الحادثة حديث الناس ومجال التعليق .

وعاود الناصر فكره ، ورأى فيما حدث خطورة ، فاعتذر إليهم وترضاهم وأكرمهم ، واعتذر عما فعل الوزير معهم .

ولكن بقي « المستنفق » قصة له . وزاد الأمر سوءاً أن لم تصبح المسألة مسألة مستنفق فحسب ، بل أكبر من ذلك هزيمته وهزء الناس بها ، وهو المحارب الذي لم يعتد الهزيمة في الحروب .

ظهر في الميدان « أبو لبابة » رجل واسع العلم واسع الذمة ، قوي العقل ضعيف الخلق ، ماهر في التأليف ، ماهر في التأويل ، يؤلف كتاب « المنتخبة » في الفقه فيقول المالكية إنه قل أن يكون له نظير ؛ وهو مع هذا شره في المال ، ضعيف الإيمان بالعدل ، ولي قضاء « البيرة » فأساء السيرة حتى ضج الناس منه فعزل ؛ وكان عضواً في مجلس الشورى ، فأخذ عليه أنه يفتي بالمال ، ويحاول المطمع ، فعزله الناصر منه وألزمه بيته ، ومنعه أن يفتي أحداً .

وجد « أبو لبابة » الفرصة سانحة ، فكتب إلى الناصر يذكر له أنه محق في وجهة نظره ، وأن مجلس الشورى متزمت متعنت ، ولو كان هو عضواً من أعضائه لاستطاع إقناعهم واستخراج الرأي الموافق منهم .

أعاده « الناصر » لمجلس الشورى ، وجمع المجلس ثانية منه ومنهم . فأما الأعضاء فأصروا ، وأما هو فعارضهم ، وكان مما قال : إني أعلم أن قول مالك كما تقولون ، ولكن ما الذي يمنعنا أن نأخذ في هذا الأمر بقول أبي حنيفة ، وهو يرى عدم لزوم الوقف ، وحاجة أمير المؤمنين إلى ذلك ماسة ؟ نشدتكم الله : ألم تنزل بأحدكم ملمة تركتم فيها قول مالك وأخذتم بقول غيره ؟ فلم ترخصون لأنفسكم ولا ترخصون لأمير المؤمنين ، ولا ضرر في هذا إذ يعرض مكاناً أنفع وأرضاً أغل ؟ فسكتوا .

ثم طلب من رئيس المجلس أن يرفع الأمر إلى أمير المؤمنين ، ويذكر له رأيه ورأيهم ، وحجته وحججهم ؛ فجاء الأمر بالأخذ برأي أبي لبابة ، وأزيل المستنفق ؛ وكان بعد قليل في « منية عجب » ؛ وكان أبو لبابة موضع الحظوة إلى أن مات .

ثم ذهب القصر بزينته وزخرفه ونعيمه ، وذهب المستنفق ومرضاه ، وبقي حديث أبي لبابة في أفواه العلماء : هذا يصب عليه سخطه لأنه قضى بالغرض ، ورأى رأيه لشخصه ، وهذا يرى أنه واسع الأفق مرن الرأي ، وهذا يؤرخ بحادثته القضاء ، وكيف كان ، وإلى أين صار .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
١٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ [illegible]

قصة عربية :

زنوبيا

[كان أذينة أمير تدمر عاصمة الصحراء ، ومركز تجارتها الغنية . وكان فتى من فتيان العرب البواسل ، يحب صيد السباع ويستصحب في رحلاته زوجته الجميلة زنوبيا سليلة البطالسة ملوك مصر . وكانت تشبه كليوبطره جدتها في ذكائها وحسنها .

وحدث في الشام عند ذلك حروب بين الروم والفرس ، انتهت بهزيمة الروم وأسر ملكهم فالريان . وحاول أذينة أن يتقرب إلى ملك الفرس المنتصر سابور ، فأرسل إليه هدية عظيمة ، ولكن سابور رماها في الفرات ، وأهانه وسب العرب . فثار أذينة إلى حربه وهزمه في عدة مواطن . وكانت زنوبيا في أثناء غياب زوجها تقاسي شدة عظيمة من الوحشة والخوف ، ومصاورة ... أنباء الحرب بالشام . ولكنها استطاعت أن تقاوم كل ذلك حتى عاد زوجها منتصراً .

ثم إن أذينة لم يلبث بعد عودته ، وأقبل على سبية فارسية جلبها معه ، وأعرض عن زوجته المحبوبة ، فأثر ذلك في نفسها أثراً شديداً ، وجاهدت نفسها بترويضها على حكم العقل وأنكرت عواطفها وكبتتها . وكانت تكثر من القراءة مع معلمها الفيلسوف لونجين .

ودعت حوادث الحرب إلى خروج أذينة مرة أخرى إلى الحرب ، فبقيت زنوبيا وحدها تظن أنها اطمأنت إلى سلوان حب زوجها ، ولكن قلبها كان ينازعها إليه برغمها ، وتعود ذكراه إليها ملحة . وانتهز أعداء تدمر فرصة غيبة أذينة المخدوعة ، فدبروا مكيدة لها وأثاروا فتنة قتل فيها حسان السيخي الباسل ، قائد الحامية ، وهو زوج أخت السيخية الجميلة ، وصديقة زنوبيا العزيزة . فانتصرت زنوبيا من هذه الثورة ، ولم تجد فيها حيلة إلا أن تخرج من تدمر لتلحق بزوجها تطلب منه الحماية . وخرجت سراً من القصر من سرب خفي مع معلمها لونجين ، قاصدة إلى حمص ، حيث كان أذينة .

ولكن أذينة كان قد قتل في أثناء رحلتها ، وكان قتله على يد ابن أخيه معن ، الذي لم يرض بما ناله منه من الأذى .

ولما سمعت زنوبيا بمقتله اشتد حزنها وجازت عزلتها وعولت على التسليم للقاتل]

ذهبت زنوبيا نحو معسكر الجيش الذي معن بن الجيران ، وقد أعدت في نفسها قولاً تستلين به قلبه . وكانت وهي تسير تفكر فيما آل إليه أمرها من هوان وشقاء .

وكانت كلما لمست الخاتم الذهبي الذي في إصبعها تذكرت كليوبطره الباسلة التي استقبلت الموت باسمة في أبهى حللها وأثمن حليها ، وأحست القصور الذي يقعد بها عن الخروج بطولتها .

كانت تستطيع — لو شاءت أن تخلو إلى الأمن فيه تجدها — أن تنتزع ماء ذلك الفص اللامع من السم ، وتقع من فرسها جثة قبل أن تستقبل القاتل الغاصب الذي غدر زوجها ، ذلك الخائن الذي كان في استطاعة أذينة أن يقضي عليه ويسفك دمه ؛ ولكنها كانت تريد شعوراً غير كالطالت التفكير والنظر . أين هذه الأفكار ! لقد أرادت لذلك الفتى معن أن يبقى لكي يخون عمه الباسل ويغتصب ملكه . بل لقد أرادت لها هي أن تكون آلة في يد القضاء لانفاذ مشيئتها ، فسخرتها لكي تتوسل إلى أذينة حتى يطلقه من سجنه لتمهد لها سبيلها . ليتها كانت تستطيع أن تحملق في وجه الموت الكالح . ولكن ماذا يفعل بنوها وبناتها من بعدها في تدمر ؟ .

ألا تتحمل من أجلهم ذل الحياة وعذاب العز لكي تقف إلى جانبهم وتحميهم من الذلة والموت ؟ لقد كانت تقشعر كلما تخللت برد الموت يدب في أوصالها .

وأفاقت زنوبيا من هواجسها وقد طلع عليها ركب من مقبلا من المعسكر بعد أن ألقى مقالته في الجيش والحان إلى مبايعته ، وكان متهلل الوجه خافق الفؤاد إذ يداعب أمله المريض .

وما كاد معن يراها مع أصحابها حتى وقف وفتح عينيه كأنما ينظر إلى ركب من الجان يقبل عليه . كيف أتت هذه المرأة العجيبة إلى حمص ؟ إن السفر من تدمر طويل ؛ فكيف طوت هذه الفيافي لكي تبلغ حمص في هذه الساعة التي يترجح فيها ميزان القضاء ؟ أجاءتها الريح إليه أم هو يحلم ولا يرى دونه سوى خيال صورته له

المخاوف الثائرة في جنبات نفسه ؟

ووقع في قلبه عند ذلك شعور من الخذلان وتضاءل وهو يراها تقترب منه ، ولم يستطع أن يفكر فيما ينبغي له أن يفعل ولا كيف يكون بينهما الحديث .

وتقدمت زنوبيا نحوه ، آبنة تحاول أن تهدئ من خفقان قلبها وأن تخفي اضطراب صدرها ، ووقفت أمامه لحظة وهي صامتة ، ثم بدأت الحديث في صوت متهدج فقالت :

— أيها الملك !

فانتفض ممن عند ما سمع هذا النداء ، وهدأ روعه ، وعلم أن المرأة جاءت إليه مستشفعة .

وتجهز للقول والكلمات تتردد بين شفتيه يريد أن يختار أكرمها وألينها ، ومد يده نحوها بالتحية ، ولكنه ما كاد ينطق حرفاً حتى سمع من ورائه صيحة تملأ الجو وتشق الفضاء من ناحية الجيش . فنظر إلى ورائه مذعوراً وهز فرسه يريد أن يرتد به إلى المعسكر ، ثم التفت التفاتة سريعة خائفة إلى زنوبيا قائلاً : « تباً لك ! » ولكنه ما كاد يتحرك من مكانه حتى رأى كتلة عنيفة من الجيش تتحرك نحوه مسرعة وهي تنادي بتحية الملكة ، وتتدفق تدفق السيل الطاغي .

وذهل ممن ومن حوله فوقفوا ينظرون إلى التيار القوي المندفع نحوهم وهم جامدون كأنهم يشهدون منظراً في ملعب ! ووقفت الملكة تفتح عينيها ولا تصدق ما ترى . وما هي إلا لحظات حتى كان الجيش الصاخب يحيط بممن حانقاً ، وفي طليعته مالك بن زراع يركض جواده والسيف في يمينه وهو يصيح صيحة يملؤها الحقد : « عليكم بالغاصب الخائن ! »

ثم اقترب من ممن فأهوى عليه بالسيف قبل أن يستطيع أن يميل من مكانه فخر من الضربة صريعاً . وعم الاضطراب بعد ذلك ، وأحاط الجنود بشركاء ممن يضربونهم في غيظ . وما هي إلا لحظة قصيرة حتى كانوا قد ذهبوا جميعاً في أسنة الجيش الحانق وظبا سيوفه ، إلا من استطاع منهم الهرب على فرسه والنجاء لسبيل منه ، فانطلق لا يلوي على شيء نحو الصحراء .

ووقفت زنوبيا تنظر إلى ما حولها ذاهلة في دهشتها ، ثم أحست رأسها يدور بها ، ورفعت يدها تمسح العرق الذي بلل جبينها ، ومالت خائرة على فرسها ، وكادت تسقط لولا أن تداركها لونجين فأسندها ، ولم تحس شيئاً بعد ذلك حتى أفاقت ورأت نفسها في قصر زوجها أذينة ولونجين إلى جانبها ينظر إلى وجهها في لهفة وحزن . فتلفتت حولها تعرف أين تكون ؟ ثم عاد إليها الوعي بطيئاً ، وأعاد عليها لونجين قصة القضاء العجيب .

إن الأحلام الخادعة أقرب إلى الحقيقة من هذا الذي قصه عليها لونجين . ألا تكون في غمرة من الخيال العابث الذي يصوره لها ذهنها المكدود ؟ أين ذلك الطفل الذي جعلته هاديها وآمنت بوحيه منذ حين ؟ أين لها قلب مثل قلب لبنس لكي تؤمن ولكي ترى في أحداث الحياة آيات تعزز الإيمان ؟ لقد أكد القضاء إصراراً أهوج في ليلة حتى خيل إليها أن الأمر كله قد انتهى وأن الملك والمجد والشرف والحب وأذينة والحياة ، كل ذلك قد مضى ، ولم يبق منه بقية تؤنس بقية الأيام التي لم تستطع أن تتخلص منها . فإذا بها ترى الإعصار قد هدأ فجأة ، وتكشفت السماء بعده فلم يخلف وراءه إلا أشلاء الصرعى الذين خبطهم في عبوره .

لقد سكن ذلك القضاء الغاضب . قد سكن بعد أن أنفذ ما أراد !

وقامت الملكة من سريرها فاترة ، وأصلحت من شأنها وقلبها متوزع بين حزنها وأملها ، تفكر حيناً في زوجها الذي جاءت هاربة إليه ، فلم تجد منه إلا جثة قد أكبت عليها المرأة الحزينة تبهاء التي شاركتها في قلبه ، تبهاء الأعجمية الكريمة المسكينة . ويل لها من الليالي الموحشة التي بقيت لها في الحياة ! لقد ظنت أنها تستطيع أن تعيش بغير أذينة ، وها هي ذي تحس مرارة اليأس عند ما تحققت أنها سوف تحيا بغيره . ماذا بقي لها في الحياة بعد أذينة ؟

لم يبق لها إلا سيئنها الذين تركتهم فى تدمر بين يدى العدو الثائر المخيف . وما كادت تذكر ذلك حتى اعترت من القلق ، وتمنت لو أن لها جناحين تطير بهما إلى القصر المحصور لتنظر كيف أصبح من بين جدرانه من الأحياء . أيهلك زوجها أذينة ويتبعه أبناؤها الذين كانت تحرص من أجلهم على الأمل فى الحياة ؟

أيهلك وهب اللات وتيم اللات والحيران بنو أذينة ؟ وهذه الفتيات اللائى كن يملأن عليها القصر بابتساماتهن أيذهبن جميعاً فى ظبا السيوف الحانقة الوحشية ؟

وذهبت إلى البهو لتودع أذينة قبل الرحيل ، فوجدته قد حمل إلى مخدع منعزل ، والكهنة والأطباء يطلون جثته بالقطران والمر والنطرون ، ويعدونها للمقام الطويل الأبدى ، فلم تستطع أن تتزود منه بالنظرة الأخيرة ، ووقفت لدى بابه متحركة الأشجان ، وأسندت ذراعها على الجدار ، ومالت برأسها فوقه ، وقالت فى حزن عميق :

— سوف تبدو الحياة بعدك قفراً يا أذينة . كنت مؤنسى وصاحبى ، وكنت موئلى فى الخطوب . فزعت أرجو الأمان عندك لما أن أحاطت بى المخاوف ، ولم أدر أن القضاء أسرع إليك قبلى . وعلىّ أن أقضى سائر أيام الحياة الموحشة وحيدة لا ألجأ إلا إلى نفسى . كنت وأنت بعيد تبعث فىّ الاطمئنان . كان قلبى يحدثك وهو ممتلئ بك ، ويكابر فيك وهو منصرف كله إليك . استمع يا أذينة إلى حزنى وانظر إلى دمعى ، استمع إلى زنوبيا لتفضى إليك بحديث قلبها ، لعلك تعفو ولعلك ترضى . إنى أتوجع يا أذينة ! إنى أتعذب !

وجعلت تنشج حتى خارت قواها .

فتقدم إليها لونجين ، وكان واقفاً وراءها يشاركها فى البكاء ، فوضع يده تحت ذراعها وجذبها برفق ، وسار بها إلى البهو ، فأقعدها على أريكة ، فاتكأت عليها وأغمضت عينيها والدموع تتساقط على خديها فى صمت لولا شهقات متقطعة كانت تهز صدرها .

وأقبل مالك بن زياع بعد حين ، فوقف إلى جانب لونجين ونظر إلى الثكلى فى حزن ، ففتحت عينيها عند ما أحست به ، واعتدلت فى جلستها ، وجففت دموعها ، ونظرت إليه قائلة وهى تمالك نفسها :

— ألم يحن الرحيل ؟

فنظر لونجين إلى مالك ينتظر ما يجيب به ، فقال مالك متردداً :

— متى شئت يا مولاتى .

فقامت تتحامل على نفسها ، وقالت فى اضطراب :

— الآن ! الآن نسير إلى تدمر .

ثم التفتت إلى لونجين فوجدته ينظر إليها فى شىء من الهلع لما رأى من ضعفها ، فاستمرت تقول وهى تسير خارجة من البهو مترنحة :

— مالك تنظر إلى كذلك يا لونجين ؟ الآن يسير الجيش إلى تدمر . يا مالك جهز الجيش للسير غداً ، غداً إذا بزغ الفجر . ولكن ، كيف لى أن أصبر إلى غد ؟ اليوم نسير إلى تدمر يا مالك . أوّاه !

ثم تعثرت فى خطواتها ، ورفعت يديها إلى رأسها ووقفت تهتز لحظة ، وكادت تسقط لولا أن أسرع إليها لونجين ومالك وحملاها ؛ وقضت أياماً بعد ذلك طريحة فى وقدة الحمى ، وهى تهذى فى بحرانها ، تنادى أذينة ووهب اللات ، وتذكر شهناز وليس ، وتصرخ فزعة باسم معن .

واضطر مالك أن ينتظر بالجيش فى حمص حتى تستطيع الثكلى أن تصاحبه ، وكانت الأيام تمر بطيئة ، والأخبار تتوارد بما يحدث فى تدمر وفى الإسكندرية وفى رومة . لقد كان العالم كله يضطرب ويفور بالحوادث : فتدمر تموج بجموع العدو ، والحامية لا تزال تدافع فى القصر . والإسكندرية تمور بالروم وتطارد جيوشهم فيها ، وتخرجهم فتقذف بهم إلى البحر ، وقواد الجيش الرومانى يثورون فى إيطاليا على أمير الطورم جالينوس ، ويقتلونه وهو فى معمعة القتال مع العدو . لكأن الآلهة قد تخلت من حول هذا العالم ،

فتزلزل واضطرب وتداعى لكى ينهار ، فليس يستقر فيه ركن من الأركان .

ومضى أسبوع ، ثم أبلت الملكة من مرضها ، واستطاعت أن تركب مع الجيش وتسير معه ، وهى تستحثه لعلها تبلغ تدمر قبل أن يجيز من فى القصر من النضال .

ثم اقترب الجيش من تدمر فى أول الليل ، وكان الهلال الجديد قد غاب فى أفق الغرب ، وكان الهواء البارد يعصف فى أنين حزين ، ويثير رمال الصحراء بعد يوم صائف ثقيل ؛ فأمرت الملكة بالنزول حتى يستريح القوم تلك الليلة قبل أن يبدأ النضال المر فى الصباح . وجلست إلى جانب لونجين فى خيمة تئن بها عصف الرياح ، وجعل لونجين يقرأ لها فى الإلياذة وهى تستمع إليه فى فتور ، وتذوق طعاماً يسيراً من مرق لحم الإبل ومن لبنها بعد مشقة السير الطويل ، حتى بلغ لونجين فى قراءته إلى خدعة أوذيس ، إذ نصح قومه بصنع الفرس الخشبى المظلم ، ودس أبطال الإغريق فى جوفه . فقالت الملكة لمعلمها :

— حيلة بارعة يا لونجين !

فاستمر لونجين فى قراءته متحمساً ، موسيقى النبرات ، يصور بصوته لوحات هومير :

— ونزل أهل طروادة إلى ذلك الفرس الخشبى ، وفرحوا بالاستيلاء عليه غنيمة من عدوهم المهزوم ، حتى إذا نام الحراس وسكنت (إليون) ، خرج الأبطال من جوف الفرس وقتلوا حراس الأبواب .

فرفعت زنوبيا عند ذلك يدها ووضعتها على صفحة الكتاب صامتة وعيناها تحملقان فى الفراغ .

وكان الليل قد مضى نصفه ، واشتد البرد ، ورعد الهواء ؛ فتدثرت زنوبيا بعباءتها وقامت تسير فى الصحراء ، وسار لونجين وراءها فى صمت ، وجعلت تنظر إلى النجوم اللامعة ، كأنها تناجيها وتستوحى نصحها .

ثم مالت إلى كثيب فاضطجعت عليه ، وذهبت فى صمتها حيناً تحملق فى النجوم . فقال لها لونجين مشفقاً :

— ألا تصيبين من النوم شيئاً قبل الصباح ؟ إن البرد يشتد ، وفى قد جهد شديد .

وسمعت زنوبيا قوله ، وكأنها لم تسمع شيئاً ، وبقيت تفكر ناظرة فى الفضاء ، ثم قالت بعد حين بصوت حالم :

— لقد كان أوذيس داهية يا لونجين .

فنظر إليها لونجين متعجباً ولم يجب . فقامت من نجعتها وقالت له فى حماسة :

— لكأنى بالآلهة توحى إلىّ يا لونجين . ألا تفهم ما أريد ؟

فقال لونجين :

— هى قصة من نسج الخيال ، إنى أحب هومير من أجلك يا مولاتى . ولكن الآلهة لا توحى بخيال الشعراء .

فقامت الملكة وقالت فى حماسة :

— بل هى الآلهة توحى إلىّ يا أيها السيد المبجل ؟ سأدخل القصر من حيث خرجت يا لونجين ، فلعله لا يزال سالماً من ذلك العدو . وسأكون فى تدمر مثل خدعة أوذيس فى إليون .

ففتح لونجين عينيه وقال مسرعاً :

— ولكن . . . .

فقالت له الملكة وهى تحاوره :

— لا تخذلنى يا صديق بالشكوك . لئن كان العدو قد اقتحم القصر فما لى فى الحياة أرب من بعد من فيه . أرسل إلىّ مالك يا لونجين ، فلأصبحن تدمر ، أو لألحقن بصحبتى إلى الهلاك . إنى لا أطيق الصبر على طول الحصار .

فأطرق لونجين حيناً ، ثم نظر إليها فرآها لا تزال تنظر إليه تنتظر إنفاذ أمرها ، فلم يستطع المخالفة ، وقام يسير إلى خيمة مالك بن زناع .

وعادت زنوبيا إلى خيمتها تتصور فى نفسها كيف تتم مخاطرتها العظمى .

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

نماذج بشرية :

فيجارو Figaro

للأستاذ محمد مندور

لست أدرى إلى أى حد يصح ذلك الرأى السائد عند المفكرين ، من اعتبار السخرية قذرات من الذكاء لا تمت إلى القلب بصلة ، ومنها ما يقطر دما ؛ ولكم من مرة لا يجد المرء سبيلاً إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك ؛ ولكم من مرة اعترت نفسى انفعالاً من حركة لـ « تشبلن » أو قهقهة منه ؛ ومن عجب أن يضحك المرء ويُحزن ! ومن عجب أن يفتر الفم وينقبض القلب ! وفيجارو كتشبلن من أولئك الذين تحمل ضحكاتهم فيضاً من الأسى يكاد يلهب منا القلوب .

فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، وقد خلقه مؤلفه فى زمن كان الفلاسفة قد أيقظوا فى الشعب ذلك الاحساس بالبؤس الذى حرمهم من كل ظلم ، وأخذت الثورة تضطرم فى قلوب الرجال ، وكان لابد لها من متنفس . وكيف السبيل والبستيل لهم بالمرصاد ، والفرنسى رجل حاد الطبع لا يطيق صبراً على ضيم ، وهو من يقظة النفس بحيث لا يستطيع أن يمسك لسانه عن الحكم على ما يرى من فساد ، ويرجو من خير ؛ وإذاً فلتكن السخرية سبيله ينفث فيها مكنون نفسه ، فينال ما يريد دون أن يتعرض لهلاك محقق .

سخرية فيجارو إذاً ليست دليل جفاف فى نفسه ، وإنما هى انتقام ص من نظام بلغ من فساده أن كان الشعب يسعى إلى هدمه دون أن يفكر فيما يريد أن يقيم على أنقاضه من نظام ؛ وعندما يلجم الظلم ألسنة الرجال لا يجد ذوو الإباء منهم سبيلاً غير تلك السخرية التى لا نعرف سلاحاً أمضى منها بين أيدى الشخصيات القوية .

وفيجارو شخصية نادرة المثال فى إبائها . ولنستمع له وهو الخادم يخاطب سيده :

السيد — أيها الكسول المخبول .

فيجارو — سيدى . وهنا تحصى الفضائل التى تُطلب من خادم ولننظر بعد ذلك . ألا يعرف سيدى أسياداً كثيرين جديرين بأن يكونوا خدما .

هذا هو فيجارو يرتدى ملابس الخدم ونفسه أعز من نفس الأسياد . ومات فيجارو خادماً ، ولقد تقلبت به أحداث الحياة ، ولو أنه أراد لوصل إلى ما وصل إليه جيل بلاس « Gil Blas »[1] من قبل ، ولكنه أبى النفس رفض أن يميل مع الرياح تجر على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم ، أو رفعهم عن البشر فوق ما كان يجب أن يقيهم اتضاع نفوسهم .

ولد فيجارو ابناً طبيعياً لطبيب وخادمته ، وتخلى عنه آباؤه وسط أمواج الحياة ، فزاول الطفل كل المهن احتيالاً على الحياة النشوم ، وبخاصة مهنة الحلاقة ؛ وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاق الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم . ولقيه المؤلف بومارشيه (Beaumarchais) ، وقد سئم مهنته ، ومنذ ذلك اليوم أحبه فصاحب خطاه فى الحياة وقص علينا نبأه فى روايات مسرحية ثلاث : « حلاق أشبيلية » و « زواج فيجارو » و « الأم الجانية » . وقد مثلت الروايات الثلاث تباعاً فى سنى ١٧٧٥ و ١٧٨٤ و ١٧٩٠ . ومرت السنون وفيجارو يجالد الحياة وهو هو ذلك المرح الصاخب الذى يلتمس من كل ألم جوابه الضحك .

وانصرمت الأيام وكل ما فيها من ألم لا يستطيع أن يخلف فى نفسه غير ابتسامة عابرة . وأما النقد فما كان يعى بأمره ، وما له من سلاح غير تلك السخرية يرسلها سهاماً لن يمسه بسوء فيبلغ ما يريد من خصمه دون أن يترك جراحاً ظاهرة .

(١) بطل رواية من تأليف Le Sage لساج وصل إلى السلطة بروته بل وضحه مبتعداً من الخدم .

ها هو « حلاق أشبيلية » يقفز إلى المسرح وكأنما يطير مبتهراً ! وها نحن نراه أول ما يبدو لنا في أحد شوارع أشبيلية ، وقد علق في ظهره قيثارته بشريط عريض من الحرير ! وها هو يغني في مرح ويقلبه قلم وورقة ، وها هو يوهم نفسه أنه قادر على كتابة أغنية يشيد فيها بالخمر والكسل اللذين يقتسمان قلبه ! وها هو يعثر مصادفة بالكونت الماقيفا أحد زبائنه القدماء ، فيقص عليه ما كان له من أحداث كمسي بسيطة ، وكمثل مسرحي ، فيسأله الكونت : لماذا تركت مدريد ؟

فيجارو : هو طالعي السعيد — يا مولاي — قادني إلى حيث ألقاك . لقد رأيت في مدريد جمهورية الأدباء ، وقد أصبح بعضهم لبعض ذئباً ضارياً فمقت الكتابة ، وملت نفسي وضقت ذرعاً بالآخرين ، وقد ثقلت ديوني وخف جيبي ، فاستقر رأيي على أن « خلل » الموسى » أجدى على من مجد باطل أصيبه بقلمي . وتركت مدريد لأجوب متأملاً قشتالة والمانش والأندلس ، يرحب بي قوم ويزج بي في السجن آخرون ، ونفسي أينما حلت تحلق فوق أحداث الحياة ، يلومني قوم ويمتدحني قوم ، أنعم بما أصيب من خير ، وأصبر على ما ينزل بي من محن ، ساخراً من الحمقى ساخطاً على الأشرار ، أضحك من بؤسي وأقص ذقن كل من ألقى ، حتى استقر بي المسير بأشبيلية ، حيث أنا الآن على أتم أهبة لأن أخدم مولاي فيما يسره أن يأمرني به .

الكونت — ومن أين لك بتلك الفلسفة الباسمة ؟

فيجارو — من مصاحبة البؤس يا مولاي . تراني أسارع إلى الضحك من كل شيء خشية أن تتساقط مني الدموع .

واستعان الكونت بمواهب فيجارو ليصل إلى ما يريد من الزواج بروزين ؛ وكانت روزين بنتاً جميلة تبناها شيخ فان ؛ وكان الشيخ يغار عليها كما يغار من ملابسه ؛ وفيجارو « حلاق صحة » أشبيلية ، فالسبيل أمامه ممهدة ليحمل إلى روزين رسائل الكونت . وفيجارو واسع الحيلة يستطيع أن يسخر من الشيخ ومن الخدم ، وأن يحضر المأذون ويعقد الزواج ؛ وقد أصبح الشكل أمورة في يده يسخر منهم ويضحك الحاضرين ما السمت أشداقهم للضحك ، وهو في كل ذلك كنسمات الربيع نحس بها ولكن لا نستطيع لها لمساً . وإنه لأهون على من يريد أن يمسك بنغمة من قيثارة فيجارو من أن يمسك بالرجل وما لشخصه من وجود حسي أكثر مما للأغاني التي تشيع في الفضاء ، تراه في المنزل وما تدري من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة — تحسبه بالداخل بينما هو في الخارج . أليس هو فيجارو مضرب المثل في اللغة والمهارة ؟ أليس هو فيجارو الذي يعرف كيف يستفيد لا من أغلاطه هو فحسب بل ومن أغلاط الآخرين ؟ وهل يضعف من نفوسنا غير الألم ، وهل نجد من حياتنا غير الهموم التي لا نعرف كيف نسخر منها .

وجازى الكونت فيجارو على ما أسدى إليه من يد ، فاتخذه خادماً له ؛ ويعود بطلنا إلى الظهور على المسرح في « زواج فيجارو » ، وقد صمم على الزواج من « سوزان » خادمة الكونت ، وكانت الرقاعة في ذلك الحين قد بلغت بالأشراف مبلغاً ما كان فيجارو ليستطيع معه صبراً . كانوا يدعون لأنفسهم حق قضاء أول ليلة مع عرائس أتباعهم ، ومن يعدون من خدمهم ؛ وكانت سوزان من الجمال بحيث أغرت الكونت باستعمال هذا الحق . وجن جنون فيجارو ، فلاقى وقاحة الكونت بوقاحة ، وثار كل ما في نفسه من حرارة ، وأحس بالطعنة توجه إلى صميم قلبه وقد اكتملت قواه بمرور الأيام ، فما له لا يستخدم السخرية التي لم تخنه يوماً ما ؟

وتحركت بنفس زوجة الكونت تلك القوة الهائلة ، قوة الغيرة التي تكسب النساء جرأة ما لها من دافع ؛ واتفقت الزوجة مع خادمتها على أن تتنكرا ، كل في زي الأخرى ، وأن تذهب الزوجة في زي سوزان للقاء الكونت في المكان والزمن المتفق عليهما ؛ وفيجارو في

أثناء ذلك لا ينى من السخرية والضحك وتدبير الخطط ، حتى يوقظ شكوك الكونت .

الكونت — لماذا يلوح على كل ما تعمل شيء من الالتواء ؟

فيجارو — لأن من يلتمس عيوباً عند الغير يستطيع دائماً أن يجد ما يريد .

الكونت — وسمعتك التي لا تساوي شيئاً ؟

فيجارو — ولكني أساوي أكثر من سمعتي ؟ وهل يعرف مولاي كثيرين من الأشراف ممن يستطيعون أن يدعوا ما أدعي الآن ؟

الكونت — كثيراً ما رأيتك تسير نحو النجاح في الحياة ، ولكنك لا تسير أبداً في طريق مستقيم !

فيجارو — وما ذنبي ، والطرق دائماً مكتظة ؟ هذا يعدو ، وذاك يدفع ، يسقط من يسقط ويصل من يصل ، إنني لن أفي من هذا الزحام .

الكونت — بشيء من الذكاء والحذق تستطيع أن « تترقى في الدواوين » .

فيجارو — شيء من الذكاء لأرقى ؟ لا شك يا مولاي أنك تسخر بكلامك هذا من ذكائي . إنما الترقي الغباوة والزحف .

وهكذا يظل فيجارو يحاور الكونت ويداوره ، كما يحاور ويداور كل من يلقى حتى يكون يوم زواجه ، ويخيل إليه وقتاً ما أن عروسه قد ذهبت للقاء الكونت ، فتختفي الابتسامة من شفتيه ويقطب جبينه ، وقلوب الحاضرين تحوطه حباً بمرارتها وعطفها .

ها نحن تحت أشجار القسطل في ظلام الليل ؟ وها هو فيجارو وحيداً مجهداً ، يقص علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة بعد أن نفد صبره ، وأصابت السهام شغاف قلبه !

ها هو فيجارو يصيح غيرة على عروسه التي يحب .

لا . لا يا سيدي الكونت ، ألأنك سيد كبير تحسب أنك عبقرية فذة ؟ المولد والثراء والوجاهة الاجتماعية — كل هذا يغري بالكبرياء . ولكن ماذا فعلت لتنال كل تلك الخيرات ؟ لقد قاسيت آلام الولادة . أليس ذلك كل ما فعلت ؟ وأما أنا فيا ويل القضاء فيا فعل بي ! ولدت لأب لا أعرفه ، واختطفني اللصوص فنشأت على ما ألفوا من خلق حتى سئمت الحياة معهم ، وحاولت أن أجد لي مهنة شريفة ، وطرقت كل باب وكل الأبواب موصدة أمامي . لم يستطع الناس احتقار الذكاء ، فاكتفوا بالجزم بالإساءة إلى من وهب ذلك الذكاء . . . . وزج بي في السجن حتى ملوا إطعام رجل مشهور مثلي ، فألقوا بي إلى الشارع ، وكاد اليأس يأتي علي . ثم وجدت مركزاً خالياً ، كان المطلوب كاتب حسابات فتقدمت إليه ، ولكنهم أعطوه رقاصاً . فلم يبق لي إلا أن أسرق ، ولكن كيف السبيل وكل من حولي يسرق ما استطاع ؟ ولكنهم يطلبون إلي أن أكون أميناً ، وإذاً فليس لي إلا أن أموت جوعاً ... وأخيراً أخذت حقيبتي وموسي ، وخلفت الدخان ورائي يختنق به الحمقى ، وأما الخجل فقد طرحته في منتصف الطريق ، لأنه أثقل من أن يحمله من يمشي على أقدامه . وسرت أحلق من بلد إلى بلد ، وقد استطعت أخيراً أن أتخلص من هموم الحياة القاسية .

لقد وفدت إلى الحياة بغير علم مني ، وسأغادرها دون أن أريد ، ولكني نثرت على جوانب ما سلكت من سبلها الوعرة كل ما استطاع مرحي من أزهار .

وحزن الحاضرون لحزن فيجارو ، ولكن الموقف لا يلبث أن ينجلي ، فإذا زوجة الكونت هي التي ذهبت للقاء زوجها . وأما سوزان عروس فيجارو فتخف إلى زوجها ، والكل مغتبط بانتقام ذكاء فيجارو من وقاحة الكونت .

وتصفو النفوس ، ويظل فيجارو في خدمة الكونت هو وسوزان ، ويتقدم بفيجارو السن ، ويخلص لعائلة سيده في « الأم الجانية » وينجي تلك العائلة من العار ؟ ولكنه لم يعد فيجارو كما عهدناه ، لم يعد رمز ذلك الشعب

الشعور بالجمال

عنـد برجسن

بقلم الدكتور بشر فارس

كتب الكتّاب فى حياة برجسن وموته ، وعرضوا طرفاً من تواليفه ، وشرحوا شطراً من آرائه . وعندى أن القارئ العربى أحق بأن يُنقل إليه شىء مما ابتدعه ذلك الفيلسوف الذى استطاع أن يستحدث فى فن ، قد قيل فيه ما شاءت الألسنة وسُطّر ما حلا للأقلام . وبقراءة الأصول منقولةً ، يقبض القارئ العربى المهذّب على ناحية من نواحى الفكر عند برجسن ، ويتصل بفنه الفريد فى تصريف الكلام .

وإنى أدرى ، ويدرى من نظر فى كتب برجسن ، أن أسلوبه مما يكلف القارئ مشقة ، وذلك لإمعانه فى الروية واسترساله فى توليد المعانى ، إلى جانب الافتنان فى الأداء طلباً للرشاقة والأناقة ، وأذكر أنى كنت أنفق يوماً أو بعض يوم فى تدبّر صفحتين اثنتين ، وأنا أطلب الفلسفة فى السُّربون عاجاً على مؤلّف من مؤلفات هنرى برجسن . واليوم أقبل على نقل فصل ، قد حول النظر إلى الفن عموماً من زاوية إلى زاوية ؛ وأنا أعلم بأنى أحاول أمراً غير قريب ، يزيد فى إبعاده ما يعوز الإنشاء العلمى عندنا من الجريان وثبات المصطلح . وإنما ينبغى لنا أن نحاول حتى نقرب الإحكام ! وقد ابتغيت النقل حرفاً لحرف — بقدر ما تأذن لغتنا العزيزة فى ذلك — كى يلمس القارئ العربى خصائص برجسن فى التفكير والتعبير .

***

يقول برجسن فى كتابه : « محاولة فى مبذولات الوعى المباشرة » Essai sur les données

---

الأبى الذى ثار على ظلم وأبى أن يستسلم لوقاحة أولئك الأشراف المجرمين ؛ لم يعد ذلك الشجاع الساخر الذى يجالد الألم ويصمد لشكل بؤس ؛ لم يعد نذّ مونتسكو وروسو وديدرو وفولتير وغيرهم ، ممن قوضوا بالسخرية اللاذعة نظاماً كان لا بد من زواله ، ليستطيع من وهبهم الله حرارة فى قلوبهم ، وذكاءً فى رؤوسهم من أبناء الشعب ، أن يعيشوا فى جو حر أبى لا تستقيم الحياة بدونه .

ولهذا نقف من تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه فى ذهن القارئ ، مثلاً حياً لمبلغ ما يستطيع أن يسمو إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حالات الهيئة الاجتماعية الفاسدة التى حكم القضاء أن يعيش فيها .

فيجارو أنموذج بشرى خالد لأبناء الشعب الذين لا يطأطئون من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح ؛ فإن لم يكن السيف فلتكن السخرية .

فيجارو رمز ثورة مجيدة ، حررت البشر من قيودهم ، وفتحت أمامهم آفاقاً من الحرية واحترام الانسان لأخيه الانسان ، لا تزال إلى اليوم تلمع فى جوانبها أجمل الأحلام .

لقد فعل فيجارو فى الثورة الفرنسية ما لم يفعله الحديد والنار ، وتلك أسلحة الأيدى . وأما فيجارو فكان ولا يزال سلاح النفوس .

فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التى لا تُدفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذى لا يريد أن يستجدى أحداً ، وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوماً ما ، ذلك الشعب الذى يشكو من نظام فاسد لا بد أن يقيم على أنقاضه نظاماً أصلح .

محمد مندور

immédiates da le conscience ، الخـارج سنة ١٨٨٩ ، الباب الأول : « فى شدة الأحوال النفسية » ، القسم الثانى من الفصل الثانى : « فى ألوان الشعور العميق »(١)

لعل الشعور بالجميل يتعذر على التحديد ، لأننا نعدّ ألوان جمال الطبيعة ، كأنها سابقة لألوان جمال الفن ؛ فلا تكون أساليب ألوان الفن إذاً سوى وسائل يعبر بها الفنان من الجميل ؛ وأما جوهر الجمال فيظل سراً مكنوناً . على أنه لنا أن نسأل : هل الطبيعة جميلة بغير موطأة بين طائفة من أساليبنا فى الفن ، أوليس الفن من بعض الجهات سابقاً للطبيعة ؟ ولكن لِمَ التعاب حتى ذلك السؤال ؟ فإنه لأ كثر مطابقة للقواعد منهج سليم أن نتفحص الجميل فى المصنوعات التى سُوِّى فيها بنشاط واع ، وأن ننحدر بعد ذلك بنقلات غير محسوسة من الفن حتى الطبيعة ، الطبيعة الفنانة على طريقتها . فإن نحن وقفنا ذلك الموقف أدركنا ، فيما يلوح لى ، أن الفن وُضع ليُخْضِع القوى الفعالة من شخصيتنا — أو على الأصح — قواها المقاومة ؛ فينزلنا على طاعة تامة تحقق بها الفكرة التى يوحى بها إلينا ، ونأنس بالشعور المعبر عنه .

وفى أساليب الفن نتعرف الطرق التى بها تحدث حالة التنويم ؛ غير أن أساليب الفن ألطف شكلاً وأبلغ صقلاً ، وكلٌّ : أقرب إلى الروحانى . وتجرى الموسيقى هذا المجرى ، إذ يُمسك الإيقاع والتزان — إلى أجل — بالدوران الطبيعى لإحساساتنا وأفكارنا ، وهما يطوحان انتباهنا بين نقط ثابتة ؛ ويملكاننا بقوة ، حتى إن محاكاةً تامة فى اللطف لصوت يئنّ كافية لتغمرنا حزناً بالغاً . فإن أثرت فينا الأنغام الموسيقية فوق ما تؤثر فينا أنغام الطبيعة فذلك لأن الطبيعة لا تتجاوز التعبير عن ألوان الشعور ، على حين الموسيقى توحى بها .

ثم من أين يأتى سحر الشعر ؟ إن الشاعر هو من تتفرش لديه ألوان الشعور صوراً حينية ، وتلك كانت تخضع للإيقاع لتؤدى هذه الصور . فإن نحن تصفحناها جاء دورنا فى الإحساس بشعور يكون كالمعادل الاضطرارى لها . ولكن تلك الصور لا تتحقق لنا بقوة من غير حركات الإيقاع المنتظمة ؛ والإيقاع يهدهد الروح فتغفو فيفلت أمرها من قبضتها كأنها حالمة ، فتفكر وترى مع الشاعر .

والفنون التصويرية تؤثر على نحو تأثير الشعر ، بفضل الثبات الذى تفرضه على الحياة فجأة ، وينتهى الثبات إلى انتباه الناظر بعدوى جسمانية ، فإن عبّر النحت القديم التماثيل عن اضطرابات هينة تكاد تمس تلك التماثيل مسّ النسيم ، فما يقابل هذا أن الجمود الشاحب فى الحجر يضفى على الشعور المعبر ، أى على الحركة المستأنفة ، شيئاً مبهماً داخلاً فى النهائى والأزلى ، شيئاً يغيب فيه فكرنا وتضل إرادتنا . ثم إنا نصيب فى فن العمارة بعضاً من التأثير المماثل لتأثير الإيقاع : فإن اتساق الأشكال والترديد الدائم لرسم معمارى معين يحملان ملكة الإدراك فينا تتأرجح بين الشىء ومثله ، وتفلت من اعتياد التبدلات المستمرة التى تعود بنا من غير انقطاع فى الحياة الجارية إلى الشعور بالشخصية . فالإشارة إلى فكرة ، مهما دقت الإشارة ، كفيلة أن تملأ جنبات روحنا بتلك الفكرة . وعلى هذا النحو يقصد الفن إلى أن يركز فينا ألواناً من الشعور فوق تعبيره عنها : إنه يوحى بها إلينا ، ويُعرض إعراضاً عن محاكاة الطبيعة متى وجد وسائل أنجع . والطبيعة مثل الفن ، أداتها الإيحاء ؛ إلا أنها يعوزها الإيقاع . فإذا بها تتدارك النقص بتلك المرافقة الطويلة التى تحدثها بيننا وبينها الشركة فى

(١) النقل هنا من طبعة ١٩٢٩ (باريس) ، ص ١٠ ، ص ٤٢ — ص ١٤ ، ص ٩ .

الانفعالات ، فتجذبنا إلى الطبيعة عند أخف إشارة إلى لون من ألوان الشعور على نحو ما ينجذب النوَّم الرَّيض إلى إيحاء النوِّم ؛ ويقع هذا الانجذاب خاصة ساعة تعرض الطبيعة لنا موجودات صحيحة النسب ، بحيث يتوزع انتباهنا بالسوية بين أجزاء الشكل جميعا غير مستقر فى إحداها . فتهز ملكة إدراكنا بفضل هذا الضرب من التلاؤم ، فلا يهبّ شىء دون انطلاق الحساسية التى لا ترقب سوى زوال العائق حتى تضطرب منجذبة .

ومما يستخلص من هـذا التحليل أن الشعور بالجليل ليس بشعور خاص ، وأن كل ما نشعر به كائناً ما كان يتخذ خاصية الشعور بالجمال ، على شريطة أن يكون من الموحىّ به لا من المسبَّب ، وبذلك ندرك لِمَ يحتمل الاضطراب المتعلق بالشعور بالجمال درجات فى الشدة وفى الارتفاع أيضا . فالتحقيق أن الشعور الموحى به تارة يكاد يقطع النسيج المحبوك الذى يلأم الأحوال النفسية المكوّنة لتاريخنا . وتارةً يلى منها انتباهنا دون أن يخيّبها عنا ، ثم أخرى يحلّ محلها فيشغلنا ويستأثر بروحنا كلها .

وعلى ذلك فإن لارتقاء الشعور بالجمال أطواراً متميزة ، كما هو الأمر فى التنويم . وهذه الأطوار أكثر مطابقة لتباين فى الحال والطبيعة منها لتفاوت فى الرتبة . ولكن قيمة العمل الفنى تقدّر بحسب فيضان الشعور الموحىّ به فوق ما تقدّر بحسب شدة استيلاء هذا الشعور علينا ؛ ومُفاد هذا أننا نتبين بالغريزة درجات عمق وارتفاع إلى درجات شدة . وإذا نحن حللنا هذا وضح لنا أن الأفكار وألوان الشعور التى يوحى الفنان بها إلينا تعبر من جانب كبير أو صغير من حياته وتجمله .

وإذا كان الفن الذى لا يثير إلا الاحساسات فناً وضيعاً ، فعلّة ذلك أن التحليل لا يستبين من الاحساسة فى غالب الأمر ، سوى الاحساسة نفسها ، ولكن أكثر الاضطرابات تزخر بالعدد الجم من الاحساسات إذ تخالطها معان أو ألوان من الشعور : فكل منها حال فريدة فى نوعها ، تلتوى على التحديد . وأكبر الظن أنه لا بد لك من أن تحيا من جديد حياة الذى أحس بها حتى تدركها بطرائقها المعقدة ؛ غير أن الفنان يقصد إلى أن يدفع بنا فى هذا الاضطراب الزاخر جداً ، الشخصى جداً ، الطريف جداً ، وإلى أن يجعلنا نحسّ ما لا يقوى على شرحه لنا . فلذلك يُعنى بأن يدوّن من بين مظاهر شعوره الخارجية تلك المظاهر التى إن لمح إليها جسمنا حاكاها من غير روية ولو محاكاة ضئيلة ، بحيث يردّنا دفعةً واحدةً فى الحال النفسانية التى أثارت تلك المظاهر ، وهى حال تستعصى على التبيين . وكذا يتقوّض الحاجز الذى أقامه الزمان والمكان بين واعيتنا وواعية الفنان . وعلى قدر ما يزخر الشعور الذى أدخلنا الفنان فى محيطه ، بالمعانى والاحساسات والاضطرابات ، يزيد الجمال المعبَّر عمقاً وارتفاعاً .

فالشعور بالجمال درجات شدة متلاحقة توافق إذاً تبدلات أحوال حدثت فينا ؛ على حين درجات العمق توافق عدداً يكبر ويصغر من الأحوال النفسانية البدائية التى تكشف لنا على غير توضح فى الاضطرابة الأساسية[1] .

بشر فارس

(1) وفى ص ١٥٢ — ١٢٤ (ط ١٩٣٠ ، باريس) من كتابه « الضحك » يتناول برجسن مسألة الفن : الفن هو البحث عن حقائق الأشياء فى صفتها الأصيل : فالرسام والنحات يستهديان الحياة الباطنة فى الأشياء خلال الأشكال والألوان ، والشاعر يوحى إلينا بحال نفسانية خاصة تبرز التعبير اللفظى ، والموسيقار ينقل إلى آذاننا بعض إيقاعات الحياة والنفس ، موقظة فى صدر الانسان ، غريبة عن الحروف . والفن سواء فى النحت أو الرسم أو الشعر أو الموسيقى غايته طرح الرموز التى اصطلح أن تكون عملية ، واطّراح العموميات المقبولة عرفاً . ويؤدى هذا أن الفن يعرض عن كل ما يحجب الحقيقة لإظهارها من الغطاء . . . . وهنا ينتقل برجسن إلى الفن المسرحى ويقول به على بعضه ....

امرأة غامضة

أشعلوا النار ، ودقوا الطبول .

ومضوا شبه عراة يرقصون .

يدورون حولها ويهتفون .

وكأنما استحالت هذه الضاحية إلى نطاق بالنار عجيب غريب .

وخيل إليّ وأنا أشهد هؤلاء الزنوج يترنحون ، كأنما أشهد سقماً في مجاهل أفريقيا يستيقظ على ديجور المساء .. طبل كدوي غابة تقيم طقوس ساكنيها ، ونار كنار الحارس إذ يخشى وثبة الوحش في غفلة منه ومن رفاقه النائمين . كل شيء هاتف راقص ، وكل شيء صاخب صاخب ، وكأنما الدنيا أجمعها ترقص على فوهة بركان ثائر .

قلت لصاحبتي أحاورها :

— أترين ؟ لقد جن الزنوج .

قالت وهي مطرقة تفكر :

— بل عادوا إلى بيئتهم ينعمون ، وما تلك إلا يقظة الدغل بعد تثاؤب ونوم طويل .

قلت :

— ما كنت أظن أن زنوجنا يستيقظون ، إنهم ليل نهار يهوّمون ، وكأنما ولدوا لينامو ، ويا ليتهم ما ولدوا ، ويا ليتهم ما . . .

— ما نموا ؟ إني أدرك أفكارك !! إن النوم جلاء كلال اليقظة ، إنه إرهاص لها وإعداد .

قلت :

— إننا هنا في الشرق نحلم . . .

قالت :

— إنه حلم الحقيقة ، وهل كانت الحقيقة إلا خيالا قبل أن تحيا وتتنفس .

ثم نظرت إليّ طويلا واستطردت قائلة :

— إننا في الغرب نعمل ولا نحلم ، فماذا كنا بأعمالنا فاعلين ؟ إننا نصنع الموت بأيدينا ، ونزفه إلى الناس سموماً من الفوضى والخراب . . يا ليت للغرب أحلاماً كأحلام الشرق .

ثم سكتت صاحبتي وصمت دوي الطبول ، وتفرق الزنوج إلى مواضعهم ينعمون بليلة حلوة استهلوها بالإنشاد والضجيج ، فانطلقنا في آثارنا عائدين . ولما أشرفنا على فندق الميدو قالت :

— أرأيتهم كيف ينصرفون . . أرأيت نارهم كيف تخمد ؟ هكذا الدنيا كل صوت فيها مصيره إلى سكون ، وكل نار مصيرها إلى رماد ، وكل حي مصيره إلى فناء . . . فناء قاس رهيب ، لا حس فيه ولا حركة . . أحجار كهذه الأحجار ، ورمال كهذه الرمال ، وموات كموات هذه الصحراء .

ثم سكتت ثانية ومدت لي يدها تصافحني :

عدت إلى داري أتأمل وأحلم . واستيقظت النفس على بابها وروحي تصيح :

— دائماً تحلم ؟ دائماً تشرد ؟ تباً لك وأف منك !

قلت لها وأنا أعتلي درج السلم :

— إن الشرق دائماً ينام بين أحضان بنيه . . إنه يجثم في نفوسنا بيده ووديانه ، وبحاره وأنهاره . . إن كل ما فيه يغري بالتأمل والخيال .

ثم انتهت النفس ، وقهقهت ضاحكا ، وأنا أمضي لفراشي . . .

وفي الصباح لقيتها تسير وحدها تجاه حمامات كليوباترا على الساحل الشرقي لمطروح ، فقلت لها وأنا أمرح :

— أهي يقظة الأمس . . . أترينني سأشهد كليوباترا تبعث من جديد لتنعم بين حمامها العتيق ؟

فابتسمت في عبوس ولم تجب .

ومضت تعدو ، ومضيت في أثرها ، ومضى وراءنا كلبها الصغير . . .

واعتلت الصخرة ، وجلست فوق ناصيتها تتأمل البحر ، وجلست إلى جوارها أتأملها ، ودار الكلب حولنا يبصبص بذنبه .

قالت وهي ساهمة :

— غداً سأرحل .

ففزعت ، ولعلها ظنت أني فزعت على رحيلها ، لكني فزعت على نفسي ، فلم أكن قد سبرت غور هذه المرأة بعد .

قلت :

— إلى أين ؟!

قالت في غموض :

— وهل يدري الإنسان له وجهة قط ؟ . . إننا نهيم في طرق وسبل لم نكن نعرفها من قبل .

قلت لنفسي :

— إنها تخفي عني أمراً !

ثم ضحكت وعدت أقول :

— بل إنها تخفي عني أموراً !

فانتبهت لضحكي وصاحت بي :

— ما يضحكك ؟!

قلت في حيرة :

— لا شيء . . . إنما كنت أفكر في كليوباترا ، وغرامها بالاستحمام في النار التي تضمه هذه الصخرة . . . لقد صدق برنارد شو حينما صورها فتاة صغيرة طائشة .

قالت :

— لكم تمنيت أن أنعم بما كانت تنعم به ، وأكون هناك بين أحضان الموج المقبل إلى النار من هذه الفجوة والطاعن منها من الفجوة الأخرى ، كراهب يدور حول محرابه .

قلت مستغرقاً معها في صورتها التي خطتها في خيالي :

— تلوح على هامته شعرات بيض ، كزبد هذا الموج المضطرب حولنا .

ونظرت إليها ، فإذا بها شاردة تفكر ، فقلت أوقظها من أحلامها :

— أين ؟ ومتى سألقاك ثانية ؟!

قالت :

— أين . . . ومتى . . . وهنا نفكر ؟!

ثم رنت إليّ بطرف عينها وهي تهمس بي :

— ترى أفي الجنة ، أم في الجحيم ؟!

قلت لنفسي :

— لشد ما تحيط حياتها بالظلام والإبهام !

وصحت بها :

— إلى أتون الجحيم ؟!

فنظرت إلي ضاحكة وهي تتساءل :

— ولم ؟

قلت :

— لألقاك هناك !

قالت في رنة غريبة :

— أتراني لا أحيا إلا في النار ؟!

قلت في مزاح :

— هناك في الجحيم ، بين أحضان إبليس ، سألقاك كما عرفتك . . . مخلوق قوامه الخير والشر ، كالأحياء التي ألقاها على هذه الأرض . لكن الجنة ستجتث الشر فيك ، وتحيلك مخلوقة أخرى ، وما أظنني سأعرفك هناك !

قالت ضاحكة :

— إذاً فأنت تريد لي الجحيم لتلقاني ؟!

ثم عادت إلى ضحكها وصمتها .

وعدنا أدراجنا إلى الفندق .

وهناك تركتني ومضت تعد حقائبها ، ورأيت فيما رأيت صوراً مختلفة للطروح تضمها في غلاف كبير ، وتخفيها في حقيبة مستديرة .

اليقظة من حلم الحياة

لمؤنس الرهدة

«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»

«الدنيا نوم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن أضغاث أحلام»

ليس هناك أموات. أجل هذه هي حقيقة الحقائق التي ينبغي أن نغرسها في أبعد أغوار نفوسنا، ونركزها في أدق تلافيف أدمغتنا، لأن هذا العالم الوسيع الذي لا يحد، هذا العالم الترابي العظيم، بكل ما كان عليه في الأمس البعيد، وبكل ما وصل إليه اليوم، وبكل ما سيصير إليه في الغد، لم يوجد من العدم ليؤلف مشهداً تتخطفه العين لحظة ثم يختفي من أمامها؛ كما أن كل تعب ابن آدم وكده وشقائه، وانتصاره وانكساره، ونجاحه وخذلانه، وطموحه وسعيه — ليس بخاراً يظهر قليلاً ثم يضمحل، أو ريحاً تذهب ولا تعود.

والله من وراء الكون، وهو تعالى من فوقه. والحياة التي سقطت كما تسقط الحبة من يد الزارع، تحث خطاها إلى مصيرها المحتوم وغايتها النبيلة، وتبلغهما حين تستوق أجل أكلها وتنفض مدتها ويحين يومها..

وأنت وأنا، وجميع الخلق الذين تقلهم هذه الغبراء، ممثلون في رواية الكون. ويالها من رواية!

ولن يعرف أحد إلى أية نهاية نحن سائرون، كما لا يعرف أحد من أين ابتدائه، ولا إلى أين انتهائه، فإن هذا هو لغز حياتنا السرمدي. وقد أجاد بروفسر جلبرت ميرري أحد كبار المفكرين الأفذاذ في هذا العصر حين قال: «ليس في تلك المغامرة الكبرى — مغامرة حياتنا — شيء أعظم من كوننا لا نعلم كيف تكون خاتمة قصتها، وهل هي أرض متجمدة وشمس خامدة واضمحلال بطيء للعقل والوجود، وهل نحن ممثلون في ملهاة انتصار أو مأساة انكسار!»

ونحن قد نتناول كتاباً ساعة العشاء، فننحني على صفحاته وتسحرنا مضامينه وتذهلنا عن دورة الزمن ومرور الوقت، فلا نكاد ندري أننا قد شارفنا الساعة الثالثة من الصباح. ولكن هل يوجد ما هو أشد سحراً من هذه المغامرة الجليلة، مغامرة الحياة الانسانية، التي تبزغ من بكرة الخفاء الذي لا يفضي إليه كاشف، لتقرب في لجة الغموض الذي لا يماط حجابه، بل تخرج من ماض سحيق لا يناله متسقط ولا يصيبه حس، تمضي إلى مستقبل مبهم مجهول لا علم لانسان به.

بل إنها قد ابتدأت بأناس متوحشين، كانوا يأوون إلى الكهوف، ويعششون في فروع الأشجار الباسقة المورقة، ثم تدرجت في تصاعدها، فاجتازت أودية الظلام، واقتحمت عصور الجهل، وطوت مراحل الأحقاب، متهالكة في فلوات التضحية، متبدعة في مجاهل البطولة؛ وظلت في سراها حتى أفضت بنا إلى هذا العصر الذي علت فيه قيمة الفكر، وجرى الانسان إلى أبعد غايات القدرة والصولة، وصار إليه الأمر والنهي في هذه الكرة الأرضية. ولكننا مع ذلك نراه — بعد أن بلغ نهاية مطافه الطويل البعيد — يرتعد حيال تلك القوة والأهوال التي ابتدعها، كما كان يرتعد قبلاً أمام الأسد

وفي الصباح صحبتها إلى القطار لأودعها.

وحملت لها حقيبتها لأعاونها.

ثم همست بها وقد أوشك القطار أن يتحرك:

— إلى اللقاء... في الجحيم!

فضحكت، وضحكت وأنا أقودها بعيداً من القطار، إلى قلم المخابرات....

إنها جاسوسة......!

بورسعيد

فؤاد البهي السيد

والعجب ! . حقاً أن تصورات الانسان عجيبة ، ولكن أعجب من جميع التصورات والأفكار .. الانسان نفسه .

وبعد ، فما هي الظاهرة التي تعتكر اتباعنا ، في هذا الدور العنيف ، الذي يمثله الانسان اليوم في رواية حياته الحاضرة ؟! أليست هي تلك الظاهرة التي تلح علينا أن نفكر ونذكر أن عشرين مليون رجل يرقدون الآن تحت أطباق الثرى في حومات القتال المنتشرة في أنحاء العالم بعد أن بذلوا حياتهم وجادوا بأرواحهم .. في الكفاح المجيد المتواصل من أجل الحرية والاستقلال . وهاهو الصيف قد عاد إلينا مرة أخرى ، وها هي البراعم تنوّر على الغصون المائدة ، والأطيار تغرد في الغابات ، والريح تسري فوق حقول الحنطة . ولكن ، في مكان ما ، بل في كل مكان ، تجلس تلك الأم الثكلى ، وتفكر في وليدها الذي احتضنه الرمس ، فيتضاءل بهاء الوجود لدى التفكير في هؤلاء الذين غادروه وانتقلوا منه ! ومع ذلك فهل يوجد انتصار أعظم من انتصار أولئك الفدائيين الذين قدموا كل شيء لينقذوا الجنس البشري ؟

إنهم ليسوا أمواتاً وليسوا نائمين الآن .

بل إنهم قد استيقظوا من حلم الحياة .

وقد انفتح لهم الباب وارتفع من أمامهم الحجاب ، وأصبحوا يعرفون الغاية التي تتجه إليها الخليقة كلها . ولئن بادت أجسامهم ، فإن أسماءهم باقية التاريخ ومشكاة الساري وكتاباً يقص حوادث الماضي فيجعله جليلاً حافلاً .

وإننا لنذكر أن « دارون » قد أبى أن يفكر في أن الانسان الموهوب لا بدّ أن يرتحل من هذه الدار الفانية بعد توالي التقصير فيها ..

والمزعة العقل وصورة الجهل ! لو حسبنا أن الانسان وحيّ يتقشع ، وأن أحاسيس قلبه الباسل ومبتدعات يده الصناع ، أوصال تسمها حفرة من رمسه ، وأن مواهب عقله الجبار ، وكانت تطوى مراحل السنين المديدة ، وتنشر معالمه المديدة ، انقبر بعد أن كانت الأرض تضيق من نفسه .

بيد أن الحياة الانسانية ليست كذلك ، لأنها ترتقي من جيل إلى جيل ، وتسير إلى الأمام على الولاء ، وتتدرج على الدوام إلى العلاء ، وتجري أعمالها بأساليب لا نعرفها ، وفي عوالم لا نستطيع أن نبصرها .. والنوم الذي ندعوه موتاً ، هو مرور من باب قائم بين عالمين ، ونحن لا نفهمه ! وهـذا كل ما في الأمر .

على أننا نعرف شيئاً واحداً على الأقل ، وهو أنه لا يوجد في الحياة اليوم ، ما هو مؤكد ، وباقٍ ، وحاضر في كل مكان ، مثل تلك القوة الصامتة المنبعثة من رفات الصناديد الأماجد الذين انتقلوا إلى حيث يوجد الأمن والسلام ، وتسود الطمأنينة ، وهم يشحذون عزيمتنا يوماً بعد يوم ، ويدفعوننا إلى الأمام ويشددون إيماننا ، ويزيدوننا استمساكاً به . ونحن من أجل هذا كله نفكر فيهم ، ولا نعتقد أنهم قد فقدوا منا ، أو أن حياتهم قد انتزعت منهم انتزاعاً ، بل نرى فيهم أولئك الأبطال البواسل ، الذين توّجوا بأكاليل الظفر ، ونالوا أجرهم بعد أن جاهدوا الجهاد الحسن .

حقاً ليس هناك موت ، فإن هذا التراب الذي تطأه أقدامنا سيتحول بفعل غيوث الصيف ، إلى حصيد ذهبي مفعم بالثمار اليانعة والأزهار الشذية التي تختال في أبراد زاهية ، وستسير قربنا على الدوام تلك الأرواح العزيزة الخالدة بعظمتها ، وإن كنا لا نراها رأي العين .

لأن هذا العالم الوسيع الذي لا يحدّ ، يعجّ بلوام الحياة وسناء العيش ، أو هو الحياة عينها والعيش بجملته ، ولذلك نقول :

« ليس هنـاك موت »

[مترجمة من الكاتب الإنجليزي المعروف (ر. ت. ي)]

الزهرة

الأبحاث العلميـــة

فى المحيط الهندى والبحر الأحمر

المحيط الهندى ، البحر الأحمر ، مباحث جون مرى ! تلك أسماء ترددت منذ سبع سنين فى صحفنا المصرية ؛ وكثر ترددها حينئذ فى الأوساط العلمية ، ولهذه الأسماء قصة ولها تاريخ .

أما قصتها فتبدأ فى القرن الماضى فى عام ١٨٧٢ ، حين أقلعت « المتحدية » إحدى سفن البحرية البريطانية ، حاملة على ظهرها أول بعثة علمية لدراسة البحار . وكان بين أعضائها شاب يسمى جون مرى ، ففتنته دراسة الرواسب التى كانت تجمعها البعثة من قيعان البحار ، وظلت هذه الفتنة غراماً مقيماً فى نفسه ، حتى عادت « المتحدية » فى عام ١٨٧٦ إلى الجزائر البريطانية من رحلتها الطويلة .

وفى مدينة أدنبرة من أعمال اسكوتلندة عكف جون مرى على دراسة الرواسب البحرية وفحصها وتحليلها ، وذاع عنه ذلك ، وعرفه رجال البحرية البريطانية ؛ فكانوا يرسلون إليه عينات من قاع البحر كلما حصلوا عليها ، وعينات من تربة الجزائر التى يقفون عليها .

ومن العينات التى وصلت جون مرى عينة استحضرها أحد الربابنة من جزيرة نائية فى شرق المحيط الهندى تعرف بجزيرة الكريسماس ، وبفحص هذه العينة وتحليلها وجد جون مرى أنها تحتوى على نحو ثمانين فى المائة من فوسفات الكالسيوم ، فأدرك بفكره الناضج أهمية هذه الرواسب فى صناعة السماد ، ثم أسرع فاتصل بالحكومة البريطانية ملحاً عليها فى ضم جزيرة الكريسماس إلى الممتلكات البريطانية ، فتم ذلك فى عام ١٨٨٩ .

أوفد جون مرى عقب ذلك نفراً من العلماء الشبان لدراسة هذه الجزيرة ، والوقوف على مدى غناها بتلك الرواسب ؛ وفى ضوء تقارير هؤلاء العلماء أسس جون مرى شركة لاستخراج الفوسفات واستغلالها من جزيرة الكريسماس . ومن هذا المصدر تجمعت لدى السير جون مرى ثروة طائلة أنفق منها بسخاء أثناء حياته على البحوث العلمية فى البحار ، وأوصى قبل مماته فى عام ١٩١٤ بإنفاق ربع جزء منها على تلك البحوث .



السير جون مرى ١٨٤١ — ١٩١٤

وفى عام ١٩٣٢ رأى ورثة السير جون مرى أن الوقت قد حان لتنفيذ وصيته ، وأن مقدار ما تجمع من المال يسمح بتجهيز بعثة علمية لدراسة البحار ؛ وتحقيقاً لهذا الغرض تألفت لجنة من كبار العلماء البريطانيين ، ومن رجالات البحرية البريطانية ، استقر رأيها على إرسال بعثة علمية لدراسة المحيط الهندى ؛ والمحيط الهندى من البحار التى تخلت « المتحدية » عن دراستها فى القرن الماضى ، وكان المفهوم حينئذ أن حكومة الهند ستقوم بدراسته ، ولأمر ما لم تف حكومة الهند بعهدها .

بدأت اللجنة بعد ذلك في البحث عن سفينة ملائمة تقل بعثة جون مري إلى المحيط الهندي ، وبينا هي جادة في بحثها نمي إلى علمها أن سفينة الأبحاث المصرية «مباحث» خيرُ سفينة تفي بمثالها ؛ فسعت لدى الحكومة المصرية كي تعيرَها السفينة «مباحث» تسعة أشهر ؛ وصادف سعيها نجاحاً وقبولاً من حكومتنا التي أعارت السفينة بشروط عديدة ؛ لكن اللجنة تمسكت من جانبها — حرصاً على ازدهار العلم والمعرفة — برغبتها في أن تتعهد الحكومة المصرية بدراسة البحر الأحمر — بعد عودة السفينة «مباحث» — دراسة مماثلة لدراسة المحيط الهندي ، حتى تتم كل دراسة الأخرى .

هذه هي القصة التي ترددت بسببها تلك الأسماء في صحفنا المصرية منذ سبع سنين .

* * *

وأما تاريخها فيبدأ في يوم ٣ سبتمبر من عام ١٩٣٣ ، حين أقلعت السفينة «مباحث» من ميناء الإسكندرية ماخرة عباب البحر في طريقها إلى المحيط الهندي ، وعلى ظهرها بعثة جون مري تضم خمسة من العلماء البريطانيين ، واثنين من العلماء المصريين ؛ وتضمن البرنامج الموضوع لبعثة جون مري القيامَ بالدراسات الآتية :

أولاً : دراسة طبوغرافيا قاع المحيط . والغرض من هذه الدراسة الوقوف على الشكل العام لقاع المحيط ، وما به من مرتفعات ومنخفضات ؛ واعتمدت البعثة في هذه الدراسة على جهاز سبر الأعماق الذي يرسل في البحر صوتاً ضخماً ، حتى إذا صادف القاع فرتد صداه أدركه الجهاز ، ويسجل اللحظة الزمنية التي تمضي بين إرسال الصوت وعودة الصدى مع اعتبار سرعة الصوت في ماء البحر ، كان يسجل الجهاز أعماق المحيط وأغواره .

ثم دراسة رواسب القاع : والغرض من هذه الدراسة الوقوف على طبيعة قاع المحيط ، وأصل رواسبه ، وكيفية توزيعها ، بفحصها وتحليلها ؛ واعتمدت البعثة في جمع عينات القاع على كباشات مختلفة الأشكال والأحجام ، وعلى أنابيب معدنية متفاوتة في الأطوال والأقطار ، كانت تقذف فارغة في اليم أميالاً ، ثم تخرجها الآلات الروافع ملأى برواسب القاع .

ثم دراسة الأحياء البحرية : والغرض من هذه الدراسة التعرف على أنواع الحيوان والنبات التي تعيش في المحيط ؛ واستخدمت البعثة في جمع تلك الأحياء من قاع البحر ، ومن سطحه ، ومما بينهما ، شباكاً متعددة الأشكال ، متفاوتة العيون .

ثم دراسة خواص ماء المحيط : والغرض من هذه الدراسة فهم البيئة الأوقيانوسية ؛ وقد تناولت قياس درجة حرارة الماء عند الأعماق المختلفة ، ومعرفة مدى اختراق ضوء الشمس لماء البحر ، وجمع عينات من ماء البحر من أعماق عديدة ، ثم تحليل هذه العينات تحليلاً كيميائياً ؛ واستخدمت البعثة في هذه الدراسة ترمومترات ترصد درجة حرارة الماء إلى جزء من مائة ، وقنينات معدنية تجمع ماء البحر من كل عمق قريب أو بعيد ، واتبعت في تحليلاتها أحدث الطرق وأوثقها .

ثم دراسة التيارات البحرية : والغرض من هذه الدراسة فهم حركة الماء في البحر بمعرفة التيارات البحرية : اتجاهها وسرعتها ، مصدرها ونوعها ، أهي وليدة الريح ، أم هي ترجمان لحركة البحر حين يَمُدّ ويجزر ، أم هي نتيجة لاختلاف في توزيع الثقل النوعي للماء من مكان إلى مكان .

وأخيراً دراسة الأحوال الجوية في المحيط : والغرض من هذه الدراسة معرفة التأثير المتبادل بين الهواء والبحر ؛ وقد تناولت قياس درجة حرارة سطح المحيط ، ودرجة حرارة الهواء الملامس له ، وتقدير درجة رطوبة الهواء ، وقياس الضغط الجوي ، وتعيين قوة الريح واتجاهها . وكانت البعثة تقوم بهذه الأرصاد كل أربع ساعات ليلاً ونهاراً طوال تسعة أشهر كاملة .

هذا هو البرنامج الذي أنيط تنفيذه ببعثة جون مري ،

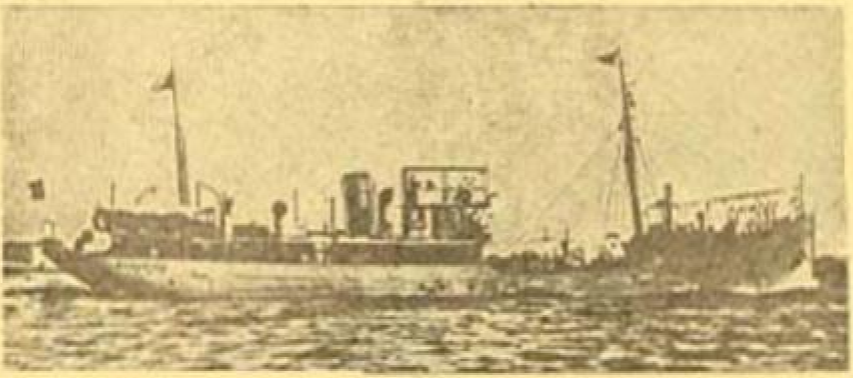
وهو بيانٌ المهمة الخطيرة التي ألقاها القدر على السفينة المصرية « مباحث » في عام ١٩٣٣ .

وفي سبيل أداء هذه المهمة قامت « مباحث » بعشر سفرات بين ربوع المحيط الهندي ، استغرقت كل سفرة منها حوالي عشرين يوماً ؛ وفي هذه السفرات زارت « مباحث » بلاد العرب والصومال ، وجزر خوريا موريا ، وعُمّان وحضرموت ، والسند والهند ، وشرق إفريقية وزنجبار ؛ وسيشل وسيلان ؛ ثم انطلقت كالسهم بين جزر الملديف ، متخذة سبيلها في البحر عجباً ، حتى وصلت إلى ميناء الإسكندرية في آخر مايو من عام ١٩٣٤ مخضوبةَ الحواجب ، متوجةَ المفارق ، يرفرف عليها العلم المصري مختالاً فخوراً بالضباط والبحارة المصريين الذين رفعوا اسم « مباحث » إلى ذروة العلم والتاريخ .

السند وشاطئ عُمّان ، كما كشفت عن هضبة مغرقة مترامية الأطراف بالقرب من جزر الملديف ، أطلقت البعثة عليها اسم « هضبة الملك فؤاد » ، اعترافاً بفضل المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول على البحث العلمي في البحار .

ولقد قرعت هذه الاكتشافات أسماع العالم ، وسيكون لها أثر كبير في تفهمنا للتغيرات التي طرأت على الأرض ، حين أوحى الله فيها الأمر فاقامت ، وبسطها مهاداً ونجاداً ، وأرسى عليها الجبال وجعلها أوتاداً .

واستطاعت البعثة أن تحصل على مجموعة غنية من أحياء المحيط الهندي ، تشمل أسماكاً نادرة . وأنواعاً من الحيوان والنبات لا عهد للعلم بهما ؛ واشترك في دراسة هذه المجموعة ثلاثون عالماً من مختلف الأجناس ، لا يزالون يصدرون مجلداً تلو مجلد في وصف هذه الكائنات .



السفينة « مباحث »

وفي سبيل ذلك الجد سارت « مباحث » اثنين وعشرين ألف ميل ، تستغوي البحر فيصرح لها بمكنونه ، وتستشف حجبه ، فيظهرها على ما أودع الله في طياته من عناصر وحركة وحيوان ونبات شتى .

ولقد كشفت « مباحث » فيما كشفت عن سلسلة جبلية هائلة مغمورة تحت الماء تقسم المحيط الهندي إلى حوضين عظيمين ، وعن عشر سلاسل جبلية مغرقة في خليج عدن . وعن سلسلة جبال مغمورة بين شاطئ

ومن المناطق العجيبة التي كشفت « مباحث » عنها عند مدخل خليج عُمّان صحراءُ بحرية ممتدة لا تدب فيها حياة ، ولا ينبض بها قلب ؛ واستطاعت البعثة بعد بحث متواصل ، ومجهود دائب ، اقتفاء ذلك الجدب إلى انبعاث غاز كبريتيد الايدروجين ، ذلك الغاز السام ، من قاع المناطق المجاورة ؛ أما أصل هذا الغاز فلا يزال سراً من الأسرار .

ولقد دلت نتائج المشاهدة والتحليل الكيميائي على أن الماء في المحيط الهندي يتكون من أربع طبقات يجري

بعضها فوق بعض ، وتختلف كل طبقة من الأخرى في خواصها الطبيعية والكيميائية ، في سرعتها واتجاهها ، وفي أصلها وتركيبها . وفي بوغاز باب المندب — حيث يسترسل البحر الأحمر إلى خليج عدن — حققت البعثة وجود حاجز جبلي مغمور بين البحرين ، ترتفع أكمته إلى نحو ثمانين متراً تحت سطح البحر ؛ كما وجدت الماء في البحر الأحمر يختلف في خواصه من الماء في خليج عدن اختلافاً واضحاً ، لا يختلط معه أحدهما بالآخر ، يلتقيان ولا يبغيان كأنهما المقصودان في قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » .

* * *

وفي اليوم الثامن عشر من ديسمبر عام ١٩٣٤ عاود « مباحث » الحنين إلى الكشف والاستقصاء ، فأقلعت مرة أخرى من ميناء الإسكندرية . وعلى ظهرها أول بعثة مصرية علمية شهدها التاريخ ، أوفدتها الحكومة المصرية لدراسة البحر الأحمر ؛ فقضت فيه شهرين ، مخرت فيهما عباب خليجي السويس والعقبة ، والجزء الشمالي من البحر الأحمر . وأتمت خلالهما أربع سفرات استغرقت كل منها نحو عشرة أيام . وكان البرنامج الموضوع للبعثة المصرية مماثلا لبرنامج بعثة جون مري .

ولقد أسفرت دراسة طبوغرافيا قاع البحر الأحمر عن عدة نتائج : منها الاستدلال على أعماق مساحات واسعة لم تسبر أغوارها من قبل . مما يساعد السفن على الملاحة في أمن وسلامة . وفي غرب جزيرة شدوان الواقعة عند فرع خليج السويس ، اكتشفت البعثة المصرية جبلا مغموراً يبلغ ارتفاعه من قاع البحر ثلاثمائة وستين متراً ، وتبعد أكمته من سطح البحر سبعين متراً . وعلى مقربة من جزيرتي الأخوين اكتشفت البعثة عدة جبال مغمورة يبلغ ارتفاع أعلاها ألفاً ومائة متر . وفي الشمال الشرقي من شعب أبي الكيزان حققت البعثة وجود غور عريض سحيق ، يبلغ بعد أعمق بقعة فيه ألفين ومائتي متر من سطح البحر . ولقد قضت « مباحث » أربعة أيام بلياليها في تبين حدود هذا الغور ، وتبين الشكل العام لجوانبه . ولما كانت « مباحث » أول سفينة قامت بدراسة هذا الغور ، أطلقت البعثة عليه اسم « غور مباحث » . ولقد اقتنعت البعثة من خبرتها بأن خرائط الأعماق الحالية للمناطق التي بحثت فيها لا تتوافر فيها الدقة اللازمة التي تلائم روح العصر .

ودلت دراسة الرواسب التي جمعتها البعثة المصرية على أن عوامل الترسيب في البحر الأحمر تختلف اختلافاً واضحاً عنها في خليج السويس أو في خليج العقبة . وتبين لنا من تحليل الرواسب الموجودة عند فرع خليج السويس احتمال وجود علاقة بين كمية المواد العضوية التي تحتوي عليها هذه الرواسب ، وبين وجود آبار البترول في منطقة الغردقة ؛ وأمكننا أن نستنتج بالقياس أي المناطق الساحلية أكثر احتمالا بأن تكون مصدراً لمنابع البترول في المستقبل .

ولقد دحضت البعثة المصرية الزعم القائل بأن المناطق العميقة في البحر الأحمر عبارة عن صحراء مقفرة ، إذ أثبتت أن معالم الحياة بادية قائمة في تلك البقاع العميقة ، واستخرجت بشباكها أسماكاً وأحياء أخرى كانت تعيش على عمق ألف وألفين من الأمتار .

ولأول مرة في التاريخ أماطت البعثة المصرية اللثام عن الطريقة التي يتبادل بها البحر الأحمر وخليج العقبة الماء من فوق حاجز مغمور بينهما . ولأول مرة في التاريخ اكتشفت البعثة المصرية زيادة مطردة بازدياد العمق في درجة حرارة الماء الموجود في الأعماق الكبيرة بخليج العقبة . ولأول مرة قدرت البعثة المصرية كمية الفوسفات الذائبة في مياه البحر الأحمر ، وغيرها من الأملاح الأخرى التي تعتمد عليها بعض الأحياء البحرية اعتماداً مباشراً في غذائها . وإلى جانب ذلك توفرت لدينا مشاهدات وافية عن خواص مياه البحر الأحمر وحركة تياراته ، تعتبر ذات فائدة قصوى في دراسة المصايد البحرية وحفظها وتنميتها ، وفي تذليل سبل الملاحة وتأمينها .

دكتور عبد الفتاح محمد

المراحل

١ – حيرة الوحيد

مفردٌ ماضٍ إلى غير سبيلْ ضل فى دنياه قصدَ المهتدى
شاعر هيمانُ من غير دليلْ جعلَ الأفلاكَ بعضَ المقصدِ
ضل حتى سئم العيشَ الثقيلْ ليته حط بأعلى فرقد !
غير أن الشعر هيهات يقيل بعض ما يرجوه مغلولَ اليد!
فبكى العمرَ بدمع لا يسيل غير أنات بقلب مجهَدِ !

وهو تاهيك بقلب زاخر
حار فى دنياه — من المحائر
غير قلب يهواه شاعرٍ ؟

٢ – ضلال السبل

هاتف صاح به فى وحدته أنت يا شاعر روح وجسد
كل روح شاعر فى عزلته لاصقٌ بالأرض أيان انفرد
إن سما روحك حتى ذروته حط للأرض ذليلا فى كمد
صارخاً ترمى به فى جذوته لذعةُ الحرمان أرقى فاتقد
باحثاً عن إلهه فى غربته أين إلهٌ راح عنه وشرد

فازعْ من تهواه لا بالخاطر
أنت جسم فى إهاب عاثر
فمَ الحيرة — قل يا شاعرى ؟

٣ – طريق الغاية

كلُّ ما ترجوه من هذا الخيالْ
محضُ وهمٍ وخـــــداعٍ بالخل
أترى الدنيا سـوى محض محالْ
أم تراها غير حـــــلم زائل ؟
فامضِ للغـــــاية فى خطو الرجال
وانشد السلـــوان عند الساحل
وارسُ يا تائه إن السير طال فى قفارٍ إثرَ قفر قاحل
وأرى الأحياء يا شاعر تال منك فانظر المحيا الحائل

إن تكن تغنيك رؤيا العابر
فهى وهم وضلال الخاطر
فمَ الحيرة — قل يا شاعرى؟

٤ – الشعاب

وصحا الشاعر من أحلامه ومضى يبحث عما يرتجى
حطم الناى سوى أنغامه لم تزل تؤنس سير المدلج
لم يكن يحفل من أيامه غير من يرجو بقلب مبهج
هازئ بالصعب فى إيلامه فارقصى يا نفس أو فلتهزجى
غرق الشاعر فى أحلامه ومضى فيها مضىّ الأهوج

فإذا الدنيا بثوب الغادر
تتلقاه — وإثم الماكر !
لم تكن يوما لقلب الشاعر !

٥ – إلى الميناء

بعد أعوام قضى فوق الصعابْ جاهداً يرنو إلى شط الرجاءْ
لمحت فى الأفق من خلفِ السحابْ
فُرضةُ البحر كما لاح الضــــياءْ
ليس بعـــدَ اليوم يا نفس صعابْ
وتولت عنك أيام الشـــقاء
فارقصى يا نفس ما شاء الشـــباب
وتغنى كيفما شاء الغنــــاء
سكر الشاعر من غير شراب نشوةُ الروح مخيط من رجاء
سكر الشاعر يا قماكر

أطرب الدنيا بلحن ساحر
فهى أحلى ما بعث الشاعر

٦ — شهر العسل

«أيها الشهر الذى كان ربيعاً   لم أزل أذكر حلو القبل
أنت شهر تقتل العمر جميعاً   آه لو كنت ختام الأجل
كنت كالحلم تقدرحت سريعاً   ماضياً بالحب بل بالأمل
أسفاً أبكيك إذ يتسرعا   وأنى أبكيك شهر العسل
إذ تركت القلب سلو أ صديا
آه كم حلو الليالى الأول»

ذاك ما غنى لسان الشاعر
مرة تذكو بقلب ساهر
شد ما ريع كقلب الطائر

٧ — الشهور التالية

ومضى الحلم فضاعت أغنياته
فى رحاب الكون لم تلق صدى
أيها الصادح مات صدحاته   لم تعش يوماً ولم تشهد غدا
كان نشوان فراحت نشواته   إنها قبض من الريح سدى
أعقبتها بعد حين زفراته   من صميم القلب يأبى صعدا
وإذا يأس وآلام حياته   وإذا بالعمر يمضى بددا
هكذا الحب كطيف عابر
هكذا الآمال رؤيا ناظر
هكذا الدنيا كقلب الكافر

٨ — فى المعترك

أيها الحب لقد أسلفته   لعجيب من ليالى قاسيه
لم تهدهده وما أطلقته   أن دنيا الحلم دنيا فانيه
آه يا حب لقد حطمته   بحياة لم يقرن ما هيه
كان ظن العيش ما أحكمته   من أمانى ملاح زاهيه
كنت تهويه لما راكته   من صحاب خيال الثانيه
وتقاها بقلب كابر !!
وتحداها بكل الظافر
وهو ناهيك بقلب شاعر !!

٩ — النهاية

كبر الشاعر واجتاح السدود
كاجتياح الشمس أسراب الغمام
بلغ الذروة والشأو البعيد   بلغ المقصد واجتاب الظلام
فإذا القحل والفذ الوحيد   وإذا لبى الدنيا إمام ؟
كل ما يكتب أو يلق سديد   كل ما يسمع منه لا يلام
أين ما يطمع — هل بعد الخلود
مطمح العاق وهل بعد السلام
أرب تصبو له يا شاعرى ؟
كل ماقى الخلد وهم الحائر
وحديث من خيال ساحر !
إنما الخلد ضلال وخرافة   من خرافات الأساطير الأول
كلما طاف بالعيش مطافه   سوى يمضى كتابع مستقل
كم وددت الخلد لم تقصد خلافة
وخلود الناس من كاذب الأمل
لا أرى العيش — وإن أدق قطافه
مستساغاً مثل شهد وعسل !
غير عرس وأرى الموت زفافه   والعروس القبر مرتقب لا تمل
إنه الموت كترس دائر
يجمع الرابح جنب الخاسر

٤ – كتاب الحيوان للجاحظ

جواب رسالة المحقق الكبير

الأب أنستاس ماري الكرملي

بقلم عبد السلام محمد هارون

وفي ص ٣١٥ س ٩ : (وهو في ذلك عبقر نضير) قلتَ : صوابه (عنقر) وأن المراد بالعنقر (البَرْدِيّ) .

فأوّل ذلك أنك جعلت (الحلفاء) هو (البردى) بعينه ، مع أنهما نوعان مختلفان ، وإن تدانيا في الفصيلة ، كما يتضح من مراجعة كتب النبات ومعاجم اللغة .

والآخر أن كلمة (عبقر) صحيحة ، في معناها وفي وضعها ؛ فإن العبقر (أول ما ينبت من أصول القصب ونحوه وهو غضٌّ رخص قبل أن يظهر من الأرض[(١)]) . ومثل ذلك معنى (العنقر) كما في اللسان ، والنبات والشجر للأصمعي[(٢)] . ولكن ماذا يدفعنا إلى تبديل النصّ ما دام اللفظان متعادلين متساويين في أداء المعنى ؟ !

(١) اللسان (٦ : ٢١٠) . وانظر جمهرة الأمثال للعسكري ٦٦ س ٤ طبع بمباى ١٣٠٦ .

(٢) اللسان (٦ : ٢٨٩) والنبات والشجر ٥٢ طبع ١٩٠٨ .

والجبانَ القدمَ جنبَ الشاعر !

***

لحّنَ القيثار أخذ القادرِ

واشدُ للموت كشدو الطائرِ

غنّنا لحن الزمانِ الغابرِ

ثم ورِّدْه بلحنٍ صاغرِ

كلُّنا يهفو لهذا العابرِ

ليس للآتي ولا للحاضرِ !

(اسكندرية) حسين المهدي غنام

ولعل ما حدا بك إلى إثبات (العنقر) أنك تريد تأويلها بالبَرْدِيّ ، الذي هو أحد معنيي (العنقر) . وما معنى أن يقول الجاحظ : إن الحلفاء يثقب الآجرّ وهو في ذلك رديّ نضير ؟ ! إنما يريد الجاحظ التعجيب بأن يتمكن هذا الأصل الغضّ الرَّخْص ذو النضرة أن يثقب ذلك الجسم الجاسي الصلب .

وفي الصفحة نفسها س ١٠ — ١١ قال الجاحظ : « وزعم لي ناسٌ من أهل الأردن أنهم وجدوا الحلفاء قد خرق جوف القار » . وفسرتُ (القار) بأنه الزفت ، فقلتَ معترضاً : « ليس في الأردن قار أو قير بمعنى الزفت ليصحّ الكلام » . وليت شعرى أتقصّيتَ أرض الأردنّ ، وهي عريضة واسعة ، فكان منك ألاّ تجد القار ؟ ! ولنفترض أن القار ليس يوجد بالأردنّ ، أفعجز أهله أن يجتلبوا القار إلى بلادهم ليستعملوه فيما يصلح من شأنهم ، ويقيّروا به ما يشاءون من الحياض والتوضّآت ؟ ! وقديماً كان يفعل ذلك العربُ وغيرهم ، في كل جهة وفي كل صُقع ليمنعوا تسرُّب الماء إلى باطن الأرضين[(١)] . وهل يرتضى حضرة الأب أن أقول له : ليس في بغداد ذَهَبٌ ؛ لأنه ليس يخرج من أرضها ؟ ! واستشهاد الجاحظ بقول أهل الأردن ليس يلزم منه وجود تلك المادّة في فلاتِ بلادهم أو عدم وجودها . وإنما يريد الجاحظ ذكر الخبر له بهذا الخبر ؛ ليطمئنّ القارئ إلى صدق روايته .

وفي ص ٣٣٠ « فإذا عاد كالجر . . . كما يقتلع الجر » قلت : صحة العبارة « فإذا عاد كالجر ... كما يقتلع الحجَر » وتصحيح الكلمة الأولى بديهي ؛ لأن كلمة (الجر) تكررت في الصفحة كثيراً ، فهو خطأ مطبعي ظاهر . وأما تصحيحك (الجر) بكلمة (الحجر) فلا يسعفك فيه أن تقرأ باقي النصّ ، وفيه : « وكنت قلت له : إن الجَرْ سخيف سريع الانطفاء إذا لقي الرُّطوبات . . . » الخ .

وفي ص ٤٧٢ قول الجاحظ : « واللحم شيئان ، أحدهما

(١) انظر لذلك الحيوان (٤ : ٣١٦ س ١١ — ١٣) .

(الرَّقة) فقلت: صوابه (الدِّقة) المرادفة لكلمة (الملح).

ولو أنى صوّبته بما قلتَ لكنتُ متحكماً فى توجيه النصّ. وأنا قد أثبتُّ فى شرح الحيوان قولين للعلماء فى تفسير كلمة (الملح) الواردة فى قول شُتَيم:

لا يُبعد اللهُ ربُّ العبادِ والملحُ ما ولدَتْ خالدَهْ

أما الأول فهو (الحرْمة) بمعنى الذّمام. وأما الآخر فهو (البركة). فيصح أن تكون كلمة (الرقة) محرفة عن إحدى الكلمتين، ولا سيما الكلمة الأولى، فهى أقربُ إليها فى الصورة.

وتجد حضرتك أنى بدأت الكلام على البيت بأن كتبتُ لفظ (كذا). وهذه إشارة منّى إلى ارتيابى فى صحتها.

وأما توجيهك لها بأنها (الدِّقة) فقد رأيته قريباً وأراه بعيداً، وفيه شىءٌ من العجب؛ فإن أحداً من العلماء لم يفسّر به البيت، وإن الجاحظ لا يكون منه أن يلجأ فى تفسير الكلمة الواضحة — بالمعنى الذى أردتَ — إلى كلمة منكرة مثل هذه. ولو أراد هذا المعنى لعبّر عنه بقوله: (أحدهما ذلك المعروف) أو نحو ذلك.

وأخيراً، إن إطلاق (الدِّقة) على (الملح) قولٌ ضعيف. وفى اللسان: «الدِّقة: التوابل، وما خلط به من الأبزار نحو القِزْح وشبهه. والدِّقة: الملح وما خالط به من الأبزار. وقيل: الدِّقة: الملح المدقوق».

وفى ص ٤١١ س ٦ (على كُنْس) وهو خطأ مطبعى، لا يرتاب قارئ فى ذلك. وتجد حضرتك فى الشرح قولى: «والكُنس بضمتين». وهذا تنبيه صريح.

وفى ص ٢٩٦ (كيشتاسب) الذى ظهر (زرادشت) فى عصره. فقلت أولاً: «صوابه كيستاسب، أو كيستاسف، كما فى تاريخ ابن خلدون ٢ : ١٦١». وقلت ثانياً: «وأما كيستاسب فهو ابن لهراسب. وكان قبل ظهور زرادشت المرتد الشهير».

أما ما قلت ثانياً، من أن (كيستاسب) كان قبل ظهور زرادشت، فزعمٌ لا يصلح، واستشهادك بما جاء فى الآثار الباقية للبيرونى ص ١٠٥، استشهادٌ غير موافق. فإن نص البيرونى حين راح يعدّ ملوك الفرس الكيانية، هو: «وبعد ذلك كيشتاسب بن لهراسب إلى أن ظهر زرادشت، وبعد ذلك كى أردشير بهمن بن اسفنديار بن بشتاسف» فكيف يفهم من هذا النصّ أن (كيشتاسب) كان قبل ظهور زرادشت؟! وهو نصٌّ صريحٌ كل الصراحة فى أن ظهور زرادشت كان فى زمن كيشتاسب، وأن مُلْك هذا امتد به حتى شاهد زرادشت.

وإن أحببت دليلاً آخر على أن (كيشتاسب) بن لهراسب هو الذى ظهر زرادشت فى زمنه، فارجع إلى فهرس ابن النديم[1]، حيث يطالعك هذا النص الصريح الآخر، نقلا من كتاب الوزراء للجهشيارى[2]: «كانت الكتب والرسائل قبل ملك كشتاسب بن لهراسب قليلة . . . . فلما ملك كشتاسب واتسعت الكتابة، وظهر زرادشت بن اسفيمان صاحب شريعة المجوس وأظهر كتابه العجيب بجميع اللغات أخذ الناس نفوسهم بتعلم الخط والكتابة فزادوا ومهروا . .»

فأنت ترى أن (كشتاسب) تناوله المؤرخون الذين كتبوا بالعربية، على وجوه شتى. فهو (أشتاسب)[3] عند الطبرى و (كشتاسب) عند ابن النديم، و (كيشتاسب) عند البيرونى[4]، و (كيستاسب) عند ابن خلدون[5] و (كيستاسف) عند ابن خلدون أيضاً[6] و (بشتاسف) عند البيرونى أيضاً[7]، و (بشتاسب[8]). وذلك

(١) ابن النديم ص ١٢ ليبسك.
(٢) لا نجد هذا النص فى القطعة المطبوعة من كتاب الوزراء.
(٣) تاريخ الطبرى ٦١٢ القسم الأول طبع ليدن.
(٤) الآثار الباقية ١٠٥ س ٩ طبع سخاو ١٨٧٨.
(٥) ابن خلدون ٢ : ١٦١ س ٨ طبع بولاق.
(٦) ابن خلدون س ١٢، ١٤، ١٨.
(٧) الآثار الباقية ١٠٥ س ٤
(٨) الطبرى ٤١٦، ٦٤٥ — ٦٤٩، ٦٧٥ — ٦٨٧ ومواضع أخر من القسم الأول.

راجع إلى اختلاف سبل التعريب.

ومهما يكن من الأمر فهو ابن (لهراسب)[1] أو (كيلهراسب[2]) أو (كيلهراسف[3]) أو (كهراسف[4]) أو (كي لهراسف[5]) أو (لهراسف[6]) فانظر كيف تعددت الصور والمسمى واحد!

ومما يحسن الإشارة إليه، ويعرفه حضرة الأب الجليل جد المعرفة، أن لفظ (كي) تصدّر به أسماء كثير من ملوك الفرس، ومعناه (الملك الكبير)، فهو ليس من صلب الاسم، ولقد أهمله بعض المؤرخين، كما قد أهمل بعض المؤرخين إثبات ياء، مكتفين بكسرة الكاف.

وأما حديثك عن (تشين أطاكية) ومن (الأمة) و(المسامي) ومن (القراريق)، وتذكيرك إياي بما كتبتَ في مجلة المشرق — فهو إشارة قيمة مفيدة حقاً.

وإني لأتمنى كما يتمنى معي كل معجب بتحقيق حضرة الأب، وبأبحاثه التي لا يضارع فيها ولا يبارى — إنا لنتمنى أن نلقى هذه الأبحاث مجموعةً مطبوعةً في كتاب؛ لتكون ذخيرة سهلة التناول، عامة الفائدة؛ فإن في كل ما كتب حضرة الأب ما يعجز فطاحل العلماء المحققين. ولو أن الدهر كان قد تقدم به، لكفانا مؤونة هذا التضارب والتخالف في تأصيل الكلم العربي، ورد الكلم الأجنبي منه إلى أمه، فهو به جِدُّ عالم، وجِدُّ خبير.

٨ — حسنات الكتاب

وجدتُك تخلع عليَّ حلة من الثناء مضاعفة، وتعبر عن رضاك بما حققتُ من كتاب الحيوان، وبما سارعت من تعريفاته وتصحيحاته، تعبيراً خشيتُ أن أقوله ملياً، كما خشيتُ أن يحملني على الزهو. ولست من الزهو والتخيل، ولا مما يمنّى! وإني لأجد ما قلتَ في هذا تشجيعاً كريماً، وعطفاً حسناً. وليس يسعني إلا أن أشكرك أعظم الشكر على ما أنفقتَ من بر طيب، وتقدير بارع، وما أشدت به وأطلقته، وتهديتَ إليه ألطافَ الهدي، من مكنونات جواهر الشوامخ، في هذه الهالة العبقرية، المترامية الأطراف، الشاكلة الناصع!

وإن كنتَ قد أعجبتَ بما رزقتُ من صبر على تحقيق هذا الكتاب، ومثابرة تصحيحاته وتعريفاته، فإني أزجي إليك إعجابي وإعجاب أسرة العروبة جمعاء، بما منحك الله من إنصاف بارع، أدهش كلَّ من نظر في رسائلك التاريخية إليَّ، على صفحات (الثقافة)[1].

سألتني عن الغرابة في جمع (خشف) بتثليث الخاء، على (خشفان) فأقول: إن الغرابة في عدم وروده في المعاجم، فإن المعاجم المعروفة جمعته على (خِشَفة) بكسر ففتح و(خشوف) كما تعلم من الصحاح.

٩ — خاتمة الرسالة

لقد استرعى نظري في هذا الفصل قولك: «وعسى أن تراجعني فيما لا توافق عليه من تصحيحاتي الخ». فهذه هي الغاية التي يصل إليها تواضع العالم القدير! وإني ما نهضت بكتابة هذا الجواب إلا طوعاً لكريم طلبك، وتلبيةً لجميل رغبتك.

---

(١) الآثار الباقية ١٠٥ س ٢٢.
(٢) ابن خلدون ٢: ١٦١ س ٦
(٣) ابن خلدون ٢: ١٦٢ س ٩.
(٤) الطبري ٦١٧ من القسم الأول.
(٥) الطبري ٦١٥، ٦٢٩ من القسم الأول.
(٦) الآثار الباقية ١٠٥ س ٢.

(١) الأعداد ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣.
وجوابي على رسالة حضرة الأب في الأعداد ١٠٤، ١١٠، ١١٦، وهذا العدد.

وقد أتاحت للعالم العربيّ فرصةً في أن يشهد محاورة طيّبة بين أستاذ وتلميذه . وإنا لنرجو أن نعيد أمثالها فيما نستقبل من أجزاء الكتاب .

وقلت : إنك «قد أنفذت إليّ بملاحظات شتّى على الجزء الثالث من كتاب الحيوان » . فلو أنها وقعت إليّ لاحتفظت بها احتفاظ الشحيح ، ولحرصت عليها أشدّ الحرص ، ولأخبرتك بوصولها في حينه شاكراً . وإنه ليؤسفني أن أحرَم من وصول هذه الملاحظات إليّ ، بما صنع البريد ، فيما أرى .

ومهما يكن فإن موضع نشر الملاحظات التي تتعلّق بما تمّ نشرُه من أجزاء الكتاب ، إنما هو نهاية الجزء السابع ، كما أشرت إلى ذلك في تذييل الحيوان(١) .

وإني لأرحب ترحيباً صادقاً بملاحظاتك ، وبما يرسل إليّ كرامُ الأدباء وكبارهم ، أو يحتفظون به إلى ذلك الحين . وآخر رسالةٍ وصلت إليّ هي رسالة الأخ الجليل الأستاذ عبد الرزاق الحصان ، من كرام أدباء بغداد ، الذي أعلن له إعجابي بملاحظاته الدقيقة .

وأما بعد فإني أتقدم بجزيل شكري إلى حضرة الأب المحترم ، ثم أثنّي له الشكر ، راجياً أن يتقبّل من تلميذه المعجب بفضله وعلمه أصدق آيات الإجلال والاحترام .

(مكتبة البكري) عبد السلام محمد هارون

(١) الحيوان (٢ : ١٠٣) .



أنباء وآراء

مبرة آل صيدناوى

كان حديث المجالس والنوادى فى الأسبوع الماضى هو مبرة آل صيدناوى ، وبالأخص ذلك المستشفى العظيم ، الذى تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بافتتاحه ، وأعلن من رضائه السامى بالإنعام على سعادة يوسف صيدناوى باشا برتبة الباشوية ، وبالبكوية على بعض أفراد الأسرة ومدير محلات صيدناوى .

والواقع أن هذا العمل العظيم من آل صيدناوى جدير بالذكر والتقدير ، فلم يقتصر الأمر على بناء المستشفى وتأثيثه ، بل تعدى ذلك إلى تزويده بمختلف المعدات والآلات ؛ بحيث أصبح يضارع أكبر وأحدث مستشفيات العالم فى استيفائه لكل وسائل العلاج والراحة

وقد بلغت تكاليف هذا المستشفى أكثر من خمسة وأربعين ألفاً من الجنيهات قام بدفعها كلها آل صيدناوى .

ولعل فى هذا العمل خير قدوة لأثرياء مصر ورجال الأعمال فيها .

الإيمان بالحضارة

نشرت إحدى المجلات الأمريكية مقالاً للمستر إدوارد جوردان بالعنوان المتقدم رد فيه على موجة التبرم بالحضارة الحديثة ، التى تطغى على الكثيرين من الكتاب والمفكرين .

ويرى المستر جوردان أن الحضارة الحديثة ليست كسباً هيناً ، بحيث يبت فى أمرها بهذه السرعة ، وبحيث يتزعزع الإيمان فيها بمجرد صدمة ما ، مهما تكن من العنف ؛ فالحضارة فى نظره ليست مسئولة من مشكلات العالم الحديث ، بقدر ما يسأل من هذه المشكلات الانسان المكون من فكر وتصرفات . وهو يمثل هذه النقطة الغامضة مثلاً : « إن السيارة الفخمة الأنيقة لا يمكن أن تلقى عليها التبعة إذا ما اصطدمت بشجرة لجهل السائق » فالحضارة الحديثة التى قامت على خلاصة تفكير عباقرة سبقوا عصورهم مثل هذه السيارة . والانسان الحاضر بتفكيره وتصرفاته التى لم يجد عليها شىء منذ منتصف القرن الثامن عشر هو هذا السائق الجاهل الذى يقود السيارة .

ويخلص المستر جوردان من هذا الحديث ليثير حرباً ضد المشتغلين بالتربية والنفس فيقول : « إن رجال العلم ، قد خطوا بالمادة خطوات جبارة ؛ على حين أن المشتغلين بالانسان قد قصروا عن اللحاق بهم ؛ فهم لم يصنعوا بعد الانسان — أو السائق — الذى يقود هذه السيارة الفخمة الأنيقة ، ونتج من ذلك تلك الصدمات المدمرة التى يعانيها ذلك المبتكر العجيب الرائع .

ولعل القراء يذكرون أننا لخصنا يوماً فكرة تشابه هذه الفكرة ، هى التى عرضها هـ . ج . ويلز فى كتابه من مصير الانسانية (The Fate of Homo-Sapiens) ، وعاد إلى إيضاحها فى كتابه New World's Order ، نظام العالم الجديد ؛ فقد نادى ويلز فى هذا الكتاب بما أسماه إعادة التوجيه البشرية[1] . وأشار إلى ما أسماه عدم التلاؤم بين الانسان والمدنية الحديثة ؛ وقد كانت دعوته هذه سبباً فى عاصفة قوية من النقد على لواءها بعض الكتاب الانجليز الذين أصروا على أن الانسان ليس هو المسئول من المشكلات الحاضرة ، وإنما المسئول الوحيد هو الآلة أو « العصر الآلى » .

فما أشبه الدعويين لولا فرق واحد هو أن ويلز متشائم . أما صاحبنا هذا فيعتقد أنه حتى لو ظل الانسان كما هو فإن الحضارة الحديثة ستستطيع أن تكيفه على هواها بعد عدة صدمات ، كما يستطيع الجاهل أن يسير بالسيارة الفخمة بعد أن تنبهه الصدمات إلى أخطائه .

(١) Re-Orientation .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٣٦ — الثلاثاء ٣٠ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٠ — ٢٧ من مايو سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

معركة البحـــار

للأستاذ محمد عبد الله عنان

معركة البحار أعظم معارك هذه الحرب وأشدها هولا؛ وهي تجري منذ بداية الحرب بلا انقطاع، وتدخل اليوم في دورها الحاسم؛ وهي لا تجري في ميدان معين، ولكنها تشمل جميع البحار بلا استثناء؛ بيد أنها تتركز بالأخص في شمال المحيط الأطلنطي، حيث تجتمع مواصلات بريطانيا الحيوية مع أمريكا ومع الأمبراطورية البريطانية، وحيث تتدفق موارد الأمبراطورية وقوافل الاعانة الأمريكية تحمل السلاح والعتاد والذخائر إلى بريطانيا العظمى.

وقد أدركت ألمانيا منذ الحرب الكبرى أن العمل على تقطيع شرايين الأمبراطورية البريطانية بقطع مواصلاتها الحيوية هو أنجع السبل للتغلب على بريطانيا العظمى؛ ومع أنها دخلت الحرب الكبرى بأسطول ضخم اشتبك مع الأسطول البريطاني في عدة معارك بحرية كبيرة، فانها اتخذت من حرب الغواصات عمادها الأول لتحقيق هذه الغاية؛ ودلت تجارب الحرب الكبرى على أن حرب الغواصات خطر على حياة بريطانيا يهددها بمنع وصول المؤن والأقوات إليها؛ ولكنها استطاعت في النهاية

أن تتغلب على هذا الخطر بمعاونة حلفائها ، ولاسيما أمريكا .

أما في الحرب الحـاضرة فقد زادت معركة البحار هولاً وخطورة ؛ ذلك أن الأمر لم يعد يقتصر على شر الغواصات ، ولكن الطائرات أصبحت إلى جانب الغواصات سلاحاً خطراً على السفن لا يقل فتكاً بها عن الغواصات ؛ فهي تتعرف أمكنتها وترشد إليها الغواصات ، وهي تمطرها وابلاً من القنابل والطوربيد ، وتنثر الألغام المدمرة في طريقها ؛ وقد خلق تعاون الطائرات البعيدة المدى والغواصات في مهاجمة طرق البحار على هذا النحو لبريطانيا العظمى مشكلة من أعظم المشكلات وأخطرها ؛ وزاد في تفاقم هـذا الخطر سيطرة ألمـانيا على جميع شواطيء أوربا الغربية من شمـالي النرويج حتى خليج بسكونية ، واتخاذها قواعد للغواصات والطائرات المغيرة في ثغور النرويج وهولندة ، ثم في الثغور الفرنسية القريبة من المياه الانكليزية ، مثل برست ولوريان وسان نزير ولاروشيل وغيرها .

وتعتمد بريطانيا من جانبها في مقاومة هذا الخطر الداهم على سفنها ومواصلاتها البحرية على نظام القوافل المسلحة . ويشترك في حراسة هذه القوافل عدد كبير من الطرادات والمدمرات وسفن الدوريات المسلحة والطائرات ؛ وتعتمد على الطـائرات بالأخص في معرفة أماكن الغواصات ومطاردتها والإرشاد عنها ، ثم في مهاجمة قواعد الغواصات والطائرات المغيرة وتدميرها بلا انقطاع ؛ غير أن هذه الحراسة ليست إلا ضماناً نسبياً لسلامة القوافل البحرية ، نظراً لمـا يقترن بعدوان الغواصات من الأخطار الخفية الفاجئة ، وتعذر إعداد الحراسة دائماً بصورة تتفق مع فداحة الخطر الذي تتعرض له السفن . ومن جهة أخرى فإن بريطانيا العظمى تعتمد في مقاومة حرب الغواصات في الحرب الحاضرة على الأسطول الانكليزي دون سواه ، فاذا ذكرنا المهـام الخطيرة التي يضطلع بها هـذا الأسطول في مختلف البحار ومراكز المواصلات الامبراطورية الهامة أدركنا فداحة التبعة الملقاة على عاتقه ، خصوصاً لمـا تتطلبه مطاردة الغواصات من تجريد قوات كبيرة من المدمرات بلا انقطاع .

ولهذا كله كانت معركة البحار أعظم معارك هـذه الحرب ؛ ومع أننا لا نستطيع أن نتتبع أنباءها بوضوح كما نتتبع أنبـاء المعارك البرية والجوية ، ولا نعرف من هذه الأنباء إلا ما يذاع عن مجموع الخسائر البحرية البريطانية ، كل أسبوع أو كل شهر مجملاً دون تفصيل ، فاننا نستطيع أن نشعر بخطورتها ، وأن نقدر ما سيكون لها من آثار بعيدة في تطورات الحرب ومصاير الفريقين المتحاربين .

— ٢ —

وقد قلنا إن معركة البحار تتركز بالأخص في شمالي المحيط الاطلنطي حيث تجتمع مواصلات بريطانيا الحيوية مع أمريكا ومع الامبراطورية البريطانية ؛ ولمـا كانت بريطانيا تعتمد في الحصول على طعامها مما تتلقاه من وراء البحار ، وتعتمد في جهودها لمواصلة الحرب بالأخص على الامدادات والموارد التي تتلقاها من أمريكا ومن مختلف أنحاء الامبراطورية ، فان حماية هذه المواصلات تعتبر بالنسبة لها مسألة حياة أو موت .

وترتبط بريطانيا مع أمريكا الشمالية بعدة طرق رئيسية تخترق النصف الشمالي من المحيط الأطلنطي ؛ أولها الطريق الشمالي الممتد من مونتريال إلى جلاسكو وليفربول ؛ وثانيها الطريق المتوسط ، وهو الممتد من هاليفاكس ونيويورك وبوسطن إلى ليفربول وسوثهامبتون ؛ وثالثها الطريق الجنوبي الممتد من جزر الهند الغربية — من كنجستون وبربادوس إلى برستول وسوثهامبتون ولندن ؛ ويتراوح طول هذه الطرق بين ثلاثة آلاف وبين أربعة آلاف ميل ،

وتقطعها السفن عادة في خمسة أيام أو ستة ؛ وترتبط انكلترا بأمريكا الجنوبية بطرق أخرى تمتد رأساً بين ثغور البرازيل والأرجنتين وبين لندن وليفربول ؛ وأما المواصلات الامبراطورية فانها تجرى الآن من زيلنده الجديدة واستراليا والهند بطريق مدينة الرأس (الكاب)، هذا عدا ما يجرى منها بطريق البحر الأحمر إلى السويس .

وتجمع هذه الطرق الحيوية الخطيرة في شمال الأطلنطيق وعلى مقربة من المياه الانكليزية والارلندية الغربية هو اليوم أعظم مسرح لحرب الغواصات المدمرة ؛ وترمى ألمانيا بالأخص من وراء ذلك إلى أن تفرض نوعاً من الحصار على الجزر البريطانية يحول أولاً دون تلقيها الأقوات والمؤن التي تقوم عليها حياة الشعب الانكليزي ، وثانياً دون تلقيها ما ترسله إليها أمريكا من الامدادات الضخمة من السلاح والعتاد لمعاونتها على مواصلة مجهودها الحربي .

ويعتبر هذا الحصار الذي تحاول ألمانيا فرضه على الجزر البريطانية بواسطة الغواصات والطائرات البعيدة المدى من جهة أخرى رداً على الحصار الذي فرضته بريطانيا العظمى على ألمانيا منذ بداية الحرب ، واستطاعت بواسطته أن تقضي على مواصلات ألمانيا البحرية مع الخارج قضاء تاماً ، وأن تجعلها سجينة في القارة الأوربية ، تعتمد على مواردها الخاصة وعلى ما تنتزعه من موارد الدول المغلوبة ، وأن تحرمها من أن تتلقى شيئاً من الموارد أو المواد الأولية من وراء البحار ، إلا ما تستطيع تهريبه منها بواسطة بعض الدول المحايدة ، أو المالئة لها ، وهو قليل لا يسد كل حاجتها .

وقد علمنا من تصريحات مستر تشرشل أن معركة الأطلنطيق قد وصلت في الشهرين الأخيرين ذروتها من الشدة والهول ، وإن كانت قد دخلت في دور أدعى إلى التفاؤل ؛ ولم تخف البحرية الانكليزية فداحة خسائرها في هذه الفترة ، وقد بلغت في شهر أبريل وحده من السفن البريطانية والمتحالفة ما قيمته ٤٨٠ ألف طن يدخل فيها ما فقد في الحملة اليونانية ؛ وبلغت في شهور سابقة قرابة هذا الرقم ؛ وهي خسائر فادحة بلا ريب ؛ بيد أنه يلاحظ أولا أن أسطول انكلترا التجاري كان في بداية الحرب زهاء أربعة وعشرين مليون طن ؛ وقد انضمت إليه عدة ملايين أخرى من الأطنان من أساطيل النرويج والدانمارك وهولندا والبلجيك ؛ هذا عدا ما استطاعت انكلترا وبلاد الأمبراطورية انشاءه من السفن الجديدة في هذه الفترة ، وعدا ما أحرزته انكلترا بطريق الشراء من السفن الأمريكية ، وما ينتظر أن يتحول إليها من السفن الأمريكية وفقاً لقانون الإعارة والتأجير ؛ وعلى ذلك فقد استطاع أسطول بريطانيا التجاري ، نظراً لضخامته ونموه المطرد حتى اليوم ، أن يتلافى الثغرات التي أحدثها فتك الغواصات والطائرات المغيرة ؛ وقد ذكر لنا مستر تشرشل أن لانكلترا دائماً نحو ألفي سفينة تمخر البحار بلا انقطاع ، وأنه لا يوجد في منطقة الخطر منها في وقت واحد أكثر من ثلاثمائة سفينة ؛ وإذا كانت انكلترا قد استطاعت حتى اليوم بعد عشرين شهراً من حرب الغواصات أن تحافظ بمفردها على مواصلاتها البحرية ، واستطاع أسطولها التجاري أن يؤدي جميع المهام العسكرية والتجارية التي وكلت إليه ، فإنه ينتظر أن تغدو انكلترا أقدر على حماية مواصلاتها ، ويغدو أسطولها التجاري أقدر على تأدية المهام المطلوبة منه بفضل المعاونة الأمريكية ، وما ينتظر من اشتراك السفن الحربية والطائرات الأمريكية في حراسة القوافل في مياه الأطلنطيق في نصف الكرة الغربي .

وما زالت انكلترا رغم ما تعانيه من فتك الغواصات تتلقى الأطعمة بانتظام ، وما زالت تتدفق عليها السفن القادمة من أنحاء الأمبراطورية ، والسفن القادمة من

أمريكا حاملة إليها العتاد والذخائر والمواد الأولية .

ومن جهة أخرى فإن الجهود التي تبذلها انكلترا لمكافحة الغواصات تتقدم يوماً عن يوم ؛ ونحن لا نعلم الكثير من نتائج هذه الجهود ، لأن البحرية البريطانية لا تريد أن تذيع منها أنباء مفصلة قد تفيد العدو ؛ بيد أننا نعلم مما ذكره مستر الكسندر لورد البحرية الأول ، أن هذه الجهود تبشر بنتائج حسنة ، وأنه قد دمر عدد كبير من الغواصات الألمانية ، وخصوصاً بعض الغواصات التي امتازت بشدة فتكها ؛ وأهمية تدمير الغواصات هي قبل كل شيء في القضاء على بحارتها من الرجال الفنيين الذين يصعب استبدالهم بسهولة .

* * *

يقول المؤرخ الانكليزي فرود في حديثه عن سيادة انكلترا البحرية : « خذ أسطولها التجاري ، وخذ الأسطول الذي يحرسه ، تنتهي امبراطوريتها ، وتتساقط مستعمراتها كأوراق شجرة ذابلة ، وتغدو مرة أخرى جزيرة لا أهمية لها في بحر الشمال »

وقد تطورت أساليب الحرب تطوراً مدهشاً ، وظهرت الأساطيل الجوية المدمرة ؛ ولكن نظرية المؤرخ الانكليزي ما زالت حقيقة ثابتة ؛ فما زالت الأساطيل البحرية تحتفظ بكل قيمتها الدفاعية ، وما زالت سيادة انكلترا البحرية التي يدعمها أسطولها الحربي أعظم سياج دفاعي يقيها شر الغزاة ، ومازال أسطولها التجاري المنبث في أرجاء البحار السبعة شريان حياتها يمدها بكل ما تحتاج إليه .

وسوف تجوز انكلترا مراحل عصيبة أخرى من جراء فتك الغواصات ؛ وقد تطول معركة الأطلنطيق أشهراً أخرى تذهب فيها إلى قاع البحار مئات أخرى من السفن ؛ على أن حرب الغواصات التي تبلغ اليوم ذروتها ، لا يمكن أن تستمر بهذه الشدة إلى ما لا نهاية ؛ وما زالت انكلترا التي استطاعت أن تقاوم حتى اليوم هذا الخطر ، تؤمل أن تتغلب عليه في النهاية ، كما تغلبت عليه في الحرب الكبرى ، خصوصاً بعد أن تقدمت وسائل الكفاح والمقاومة ، وبعد أن هبت أمريكا لتعاونها بكل ما وسعت من مواردها العظيمة . وقد تشهد في القريب العاجل مرحلة أتم وأخطر من هذه المعاونة ، فتدخل أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا العظمى .

محمد عبد الله عنان

الشيخ الدسوقي

ومستر « لين » Lane

للأستاذ أحمد أمين بك

إبراهيم الدسوقي الشهير بعبد الغفار من نسل سيدي موسى الدسوقي ، أخي سيدي إبراهيم الدسوقي ، صاحب المقام بدسوق ، من أسرة تنتهي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ ولذلك كان يعد هو وأسرته من الأشراف ؛ ولد ببلدته دسوق سنة ١٢٢٦ هـ — ١٨١١ م .

ونشأ يتيماً ، فقد مات أبوه وهو صغير فأرسل إلى الكُتّاب وحفظ القرآن ؛ وكان بدسوق معهد صغير ، هو صورة مصغرة جداً للأزهر ، فحضر فيه بعض الدروس ، فلما نما جسمه وعقله حضر الأزهر مع طائفة من قومه .

وكان بالأزهر علماء كبار أصلهم من دسوق ، أمثال الشيخ محمد عرفه الدسوقي والشيخ مصطفى البولاقي ، كما كان فيه — ولا يزال — عصبية بلدية وعصبية منطقية . وساعد على هـذه العصبيات وجود الأروقة ، فرواق الصعايدة ، ورواق الفشنية ، ورواق البحاروة ؛ وهكذا كانت العصبية ، فعصبية أهل كل بلدة بعضهم لبعض ، وعصبية لأهل المنطقة جميعها ؛ وكثيراً ما أدت هذه العصبية — حتى في أيامنا بالأزهر — إلى منازعات ؛ فإذا كانت بين صعيدي وبحيري انتظم معسكران : معسكر الصعايدة ومعسكر البحاروة ، ودار الضرب بجميع الأسلحة الممكنة ، إلا الحديد والنار ؛ والحق يقال أن الصعايدة كانوا أشد بأساً وأكثر انتصاراً ، فكانوا أعز جانباً وأعظم هيبة ، وكثيراً ما يُحَقّق قتالهم بإجابة مطالبهم .

على كل حال اتصل إبراهيم الدسوقي بعلماء بلده وغيرهم من علماء عصره ، كالشيخ محمد عليش شيخ المالكية ، والشيخ محمد الشبيني ، والشيخ عبد الرحمن الدمياطي .

وحضر على حد تعبيرهم علوم المعقول والمنقول ، فنحو وصرف ، وبلاغة وتفسير ، وحديث وفقه ، ومنطق وتوحيد ، كما يحضر كل طلبة الأزهر .

ولكن يظهر أنه تأثر تأثراً خاصاً برجلين من شيوخه كانت لهما نزعتان خاصتان نادرتان في علوم الأزهر في ذلك العصر .

أولهما شيخه وقريبه وبلديه الشيخ مصطفى البولاقي ، فقد كان هذا الشيخ مع تبحره في العلوم الأزهرية ميالاً إلى العلوم الرياضية ، كالحساب والهندسة والفلك ، وأداه شغفه بهذه العلوم إلى مصادقة مشهوري الرياضيين ، مثل محمود باشا الفلكي ، وأساتذة مدرسة المهندسخانة ؛ ومهر في هذه العلوم حتى ألف رسائل كثيرة في الجبر والمقابلة وحساب المثلثات .

والثاني الشيخ أحمد المرصفي — والد الشيخ حسين المرصفي صاحب الوسيلة الأدبية — فقد كانت له نزعة أدبية إلى نزعته الفقهية ، واسع الاطلاع ، وكان سميراً لطيفاً ، ومحدثاً ممتعاً ، صحب أحد مماليك محمد علي باشا وسافر معه إلى الصعيد ، وأقام معه سنتين ، فكان خبيراً بالدنيا وشؤونها ، وكان مهيباً في درسه ، إذا عرض لطالب سؤال ابتعد حتى لا يؤذي الشيخ بصوته .

اقتبس شيخنا الدسوقي قبسة رياضية من شيخه الأول ، وقبسة أدبية من شيخه الثاني أفادتاه في عمله بعدُ ، كما اقتبس العلوم الشرعية واللسانية والنحو والصرف والبلاغة من شيوخه الآخرين .

* * *

عاش الدسوقي في الأزهر مجاوراً فقيراً ، يأتيه الزاد من بلده من حين إلى حين ، خبز جاف وقليل من السمن وشيء من الفريك ، ونحو ذلك مما يرسله الأهل الفقراء إلى أبنائهم في الأزهر ، وسكن مع رفقة من أهل بلده في حجرة قريبة من الأزهر ، إذا دخلتها رأيت حصيراً

بالياً ، ومسامير كبيرة سمرت فى الحائط يعلق فيها الطلبة ملابسهم ، وفى الركن صندوق يحتفظ فيه الشيخ بكتبه وملابسه ، وفَرْشة يفرشها إذا نام ويطويها إذا قام ، وهذا كل ما فى الغرفة — أستغفر الله — ففى الغرفة أيضاً « حَلّة » وصحن ، قد يشتهى هو وصحبه اللحم فيشتركون فى شراء رطل ، ويتعاونون جميعاً على شرائه وطبخه ، وتقوم فى الغرفة حركات عنيفة ، وبدا آت وأواس وتواء ، وتمتلىء الغرفة بالدخان ، وقد يعوزهم الخشب فيتممون الطبخ بالورق ، ثم يتحلقون لأكله فى لذة ونهم ، وتكون هذه الأكلة الفخمة حديث الأسبوع أو حديث الشهر .

وتتفرج الأزمة بعض الشىء بالجراية ترتب له ، ثلاثة أرغفة كل يوم ، فيكون فيها سداد من عوز ، ويدخر منها أحياناً ، ويبيع ما يدخره ليشترى بثمنه إداماً لبعضه الباقى .

ويجاهد فى الحياة ، وينسى البؤس بلذة العلم والتحصيل ، حتى يتم دراسته فى الأزهر ويبدأ فى التدريس ؛ وليس المدرس مرتب يتقاضاه ، فهو فى فقره مدرساً — كما كان فى فقره طالباً .

ثم يسعده الحظ ، فيعين « مساعد مصحح » للكتب الطبية فى مدرسة أبى زعبل سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٣٢ م فكان أطباء هذه المدرسة يؤلفون ويترجمون ويطبعون ، ويساعد هو فى تصحيح اللغة وتصحيح الطبع .

ثم ينقل إلى مدرسة المهندسخانة ، ويترقى إلى وظيفة مصحح . وكان يدرس بهذه المدرسة علوم شتى ، فيكانيكا وديناميكا ، وتركيب الآلات ، والجبر ، وحساب التفاضل ، والطبوغرافيا ، والكيمياء والطبيعة ، والمعادن ، والجيولوجيا ، والهندســة الوصفية ، وقطع الأحجار والأخشاب ، والظل والنظر ، ولم تكن هناك كتب فى هذه المواد ، فكان التلاميذ يكتبون عن المدرسين ما يسمعون فى كراريسهم ، ويفوتهم منها أشياء كثيرة ، ثم تقدمت المدرسة فأنشأت مطبعة حجر يطبع عليها الأساتذة بعض كتبهم بأشكالها ورسومها ؛ ثم أنشئت فى المدرسة مطبعة حروف بجانب مطبعة الحجر ، وتعين الشيخ الدسوقى لتصحيح هذه الكتب .

وانتقلت هذه المدرسة بعدُ إلى بولاق ، فعهد إليه أمران : أن يعلم فرقتين من طلبة المهندسخانة اللغة العربية ليحسنوا الترجمة من الفرنسية إلى العربية ، وأن يصحح ما تطبعه هذه المدرسة من كتب الرياضة .

وظل الشيخ يسكن فى حىّ الأزهر ، ولكنه اشترى حماراً يذهب به كل يوم إلى المدرسة ببولاق .

ثم أغلقت مدرسة المهندسخانة فى عهد سعيد باشا ، فحول الشيخ الدسوقى إلى المطبعة الأميرية ببولاق أيضاً ليصحح فيها الكتب ويشارك فى تحرير الوقائع المصرية .

خرجت كتب كثيرة من المطبعة الأميرية تحمل اسمه ، فهو فى آخر كل كتاب يصححه يضع له خاتمة بأسلوبه المسجوع حسب مألوف عصره ؛ ولما كان لقبه « الدسوقى » — وهى كلمة صعبة فى المزاوجة — فهو يجهد نفسه فى البحث عن سجعة تناسب هذا اللقب ، وأحياناً يفر منها إلى سجعة أسهل منها تناسب عبد الغفار ؛ فيقول — مثلاً — فى آخر تاريخ ابن الأثير : « يقول المتوسل إلى مولاه بالنبى المختار ، إبراهيم الدسوقى الملقب بعبد الغفار ، خادم تصحيح كتب العلوم والفنون ، بدار الطباعة ذات الطبع السليم المصون » .

وفى آخر كتاب « تزيين الأسواق » : « يقول المتوسل إلى مولاه بالقطب المحقق ، إبراهيم عبد الغفار الدسوقى » .

وفى آخر كتاب « الانسان الكامل » : « يقول المتوسل إلى الله بالجاه الصّدّيق ، إبراهيم عبد الغفار الدسوقى » ، وفى آخر شرح العكبرى : « يقول المتوسل إلى الله بالجاه الفاروق ، إبراهيم عبد الغفار الدسوقى » .

وفي كل ذلك يدعو للخديو إسماعيل وأنجاله الكرام، كما يدعو لذي المهارة والفطانة، مدير المطبعة والكاغدخانة، وملاحظ المطبعة ذي القدر المجيد، أبي العينين أفندي أحمد.

وقد خرجت كتب كثيرة مختتمة بكلمته الدالة على تصحيحه غير ما ذكرنا، ككتاب «منار الهدى في الوقف والابتدا» وصحيح مسلم، وصحيح الترمذي، وقانون ابن سينا في الطب، والتنوير على سقط الزند، إلى غير ذلك

وقد وضع خاتمة لكتاب الكشاف المطبوع في بولاق ذكر فيها ترجمة الزمخشري وقيمة تفسيره.

ثم رقي في عهد الخديو إسماعيل إلى وظيفة باشمصحح المطبعة، ولم أعرف مرتبه بالضبط إلا أن أمثاله في ذلك الوقت كانوا يتقاضون خمسمائة قرش، وقد ظل فيها إلى أن أحيل إلى المعاش؛ ثم توفي سنة ١٣٠٠ هـ — ١٨٨٢ م عن نيف وسبعين سنة.

والحق أن طائفة من العلماء غبنوا حقهم، ولم يؤرخوا التاريخ الواجب لهم، وهم هؤلاء المصححون، فقد كانوا يمتازون في عصرهم بثقافة أوسع من أمثالهم، واقتضاهم عملهم أن يطلعوا على كثير من الكتب في التاريخ والأدب واللغة والفلسفة وغير ذلك؛ فاتسعت مداركهم وآفاقهم، واضطرهم عملهم أن يكتبوا خاتمة الكتب، أو شرحاً لغامض، أو أن ينشئوا تقريظاً لكتاب، أو تعليقاً عليه، أو قصيدة في مثل هذه الأغراض؛ فجرت أقلامهم، ومرنوا على الانشاء والكتابة في زمن عز فيه الأديب، وندر فيه الكاتب، وإن كان إنشاؤهم وكتابتهم مقيدة بنمط العصر، من التزام السجع المتكلف، والاستعارة المشدودة، وما إلى ذلك.

اشتهر من هذه الطبقة الشيخ نصر الهوريني، ثم الشيخ محمد قطة العدوي، ثم الشيخ إبراهيم الدسوقي؛ ويظهر أنهم كانوا في درجة علمهم وأدبهم كما كانوا حسب ترتيب زمانهم.

نشروا كثيراً من الكتب القيمة، ولاقوا في تصحيحها العناء، وأذهبوا في مسوداتها سواد عيونهم، وهم وإن لم تبلغ كتبهم منتهى الجودة من حيث الاخراج والضبط، فقد بذلوا غاية جهدهم، وجعلوها صالحة للاستفادة منها، واستخرجوها من أصول سقيمة، وخطوط عليلة.

* * *

حدث للشيخ الدسوقي حادث كان له في حياته أثر، وفي قصصه متعة: ففي سنة ١٢٥٨ هـ — ١٨٤٢ م، كتب المستشرق «لين» من لندن إلى صديق له فرنسي مستشرق أيضاً في القاهرة يسمى «فرِسْنِل» (Fresnel) (كان يتملح باسمه أمام العلماء، ويقول إن اسمي فرسنل على وزن فرزدق) يخبره بعزمه على المجيء لعمل هام، ويطلب إليه أن يبحث له عن شيخ مصري له ذوق في الأدب ومعرفة باللغة، وأن يكون لطيف الحديث حسن العشرة دمث الأخلاق؛ فاختار له «فرِسْنِل» جملة أشخاص وصفهم له، منهم الدسوقي، وكان «فرسنل» يعرفه ويتصل به، ويعمل معه في شرح شواهد كتاب «الصحاح» في اللغة، وكتب إلى «لين» يوصفهم، فوقع اختياره على الدسوقي، وبعث يطلب إلى فرسنل أن يبلغه سلامه ويخبره بمقدمه.

في يوم من تلك السنة اعتزم الشيخ الدسوقي الذهاب صباحاً إلى حمام السوق، وكانت عادة أوساط الناس وفقرائهم أن يترددوا على الحمام، إذ لم تكن بيوتهم صالحة للاستحمام فيها، فكان لكل حي حمامه، كما أن لكل حي مسجده ومرافقه، وكان الشيخ الدسوقي إذا أراد الحمام يخرج من بيته فيخترق خان الخليلي ثم ينحرف إلى حمامه.

مرّ كعادته بخان الخليلي حتى وصل إلى دكان يتاجر في العاديات القديمة والسبح وما إلى ذلك، كان صاحبه صالح أفندي كامل صديقاً له، فوجد الشيخ في الدكان جمعاً سلم عليهم، وسمع صاحب الدكان يقول: هذا هو الشيخ الدسوقي كفانا مؤنة البحث عنه؛ فسلم الشيخ عليهم،

وسلم على رجل غريب معهم بلبس زى الأتراك ، ويتكلم العربية الفصحى كأهلها . عجب الشيخ من حسن استقبال هذا التركى ، واستغرب إذ يقبل عليه بالسلام كأنه يعرفه ، والشيخ لا يعرفه . ثم عرفه بنفسه وأنه « لين » الانجليزى فذهبت حيرته ، وجلسا جنباً إلى جنب ، وتعارفا وتآلفا ، ودعاه « لين » إلى زيارته فى بيته فى هذا المساء ، فلبى دعوته ، وكانت عشرة لطيفة عجيبة دامت سبع سنوات ؛ سأحدثك من طرائفها فى الأسبوع القادم إن شاء الله .

أحمد أمين

التضامن الاجتماعى

صخرة النجاة

للأستاذ عبده حسن الزيات

أسمع هاتفاً قوياً يدعونى إلى الكتابة فى هذا الموضوع ، وأراه يلاحقنى بين حين وحين ، كلما نسيت مناسبة ظهرت أخرى فاستحيت ما قبلها وأضافت نفسها إليه

الكلام قد يكون فى بعض أجزائه معاداً ، والفكرة قد تكون من محفوظاتنا العتيقة ، وحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان » قل من لم يسمعه أو يقرأه فى مسجد أو حوار أو كتاب أو غير ذلك . ولكن سيرتنا فى الحياة كمجتمع تظهر قلة انتفاعنا بهذا الوعظ ، وضعف تطبيقنا لهذا المبدأ . وإن الأمثلة لتتتابع بين فعل وقول مثبتةً شدة الحاجة إلى إحياء تلك الفكرة وإقامتها ، هادياً لأخلاقنا وسلوكنا ، وقاعدة تنتظم أفكارنا وتشريعنا وأعمالنا .

* * *

أليس من العجيب أن يثور فى صحفنا حوار حول الفقراء والأغنياء ، يخال من يتتبعه أن فى البلد طبقتين لا يجوز التفاهم والتعاون بينهما ، وأن على كل منهما أن تقف من صاحبتها — أو عدوتها — موقف المناجزة المقاتلة ، لأن ميدان الحياة لا يتسع للاثنتين معاً ، فوجب أن تفنى الواحدة لتعيش الأخرى ؟

إن هذا التفكير ليس تفكيراً خطراً هداماً فحسب ، ولكنه قبل ذلك تفكير ابتدائى ؛ ومن عجب أن نفطن إلى وجوب ائتلاف الأحزاب ثم ندعو إلى حرب الطبقات ! . . . بل لعلى أظلم « الابتدائية » حين أنسب هذا التفكير إليها ؛ فقد وقع فى يدى مقال قديم نشرته منذ سبعة عشر عاماً مجلة المدرسة الخديوية لتلميذ من تلامذتها ، أغلب الظن أن سنه لم تعد وقت كتابته السادسة عشرة ؛ وفى ذلك المقال المعنون : « الجمعة اليتيمة » رأيت الكاتب الصغير يقول :

« كلكم من عجينة واحدة يامعشر الآدميين ، ومحال أن يستقيم الرغيف المصنوع منها قوام إذا لم تتعاون طبقتاه العليا والسفلى ، وتأخذ إحداهما بتلابيب الأخرى ؛ فهل تؤمنون ؟ » ، فأعجبنى هذا التفكير الصادق ، ولم يضعف من إعجابى اتخاذ هذه الصورة الطفلية لتأدية المعنى السامى الدقيق .

ليس لمصرى صادق الوطنية صادق النظر أن يدعو إلى إهمال طبقة العمال أو طبقة الزراع أو غيرهم أو ترك الفقراء لفقرهم .

وكذلك ليس لمصرى صادق الوطنية صادق النظر أن يكتم عن هذه الطبقات عيوبها ، فلا يحدثها عن واجباتها ولا ينصفها على ما يظهر بين صفوفها من إهمال وخيانة وغدر وفوضى ، حين يحدثها فى حقوقها المعقولة أو مطالبها المثالية .

والذى ينادى بأن الفقراء هم المسئولون وحدهم عن فقرهم مسرف فى القول إسرافَ الذى ينادى بأنهم أبرياء من كل مسئولية ، نقاةٌ نقاةً لاوزر عليهم من تقصير أو عمد . ولئن كانا فى الإسراف سيئين فإنى لا أتردد فى

النص على أن الإسراف الأول أقل ضرراً من الإسراف الثاني ، لأنك حين تشق على المقصر بالتعنيف وتتلظ له باللوم ، لا تمرّسه لمثل الأذى الذي يتعرض له حين تُحق عنه عيوبه وتتركها تتخرّم كيانه ، ثم تخلق فيه بأسلوبك شراً أفتك ، هو الحقد الاجتماعي ، وهو شر مستطير في ذاته من الناحية الخلقية البحتة ، وشر من الناحية العملية الذاتية ، لأنه يصد صاحبه عن العمل ، ويلهيه باجترار أسباب حقده ، وشر من الناحية العملية الاجتماعية ، بما يُفيت الجماعة من عمل الأفراد ، وبما ينالها من وبال أكبر حين يخرج الحقد شطأه فتقع الواقعة .

***

بين المذاهب التي أريدَ اعتمادها أساساً للقاعدة القانونية ، مذهب التضامن الذي اتخذه بعض رجال الدين وبعض رجال الاقتصاد فلسفة سلوكية وقاعدة يجب أن تتحقق ؛ فالتضامن فضيلة اجتماعية ينبغي أن تسود ؛ والقاعدة القانونية يجب أن تكون متأثرة ومقيدة بهذا الاعتبار ؛ « لقد تضامن الناس في تحمل آثار خطيئة واحد ، وإنهم ليتضامنون في الانتفاع ببركات واحد » ؛ وكما أن تضامن أعضاء الجسم هو الذي يكفل حياته ، وما الموت إلا تفكك هذا التضامن ، فكذلك البنيان الاجتماعي في نظر أولئك التضامنيين .

ولقد تعلق الأستاذ « ديجي » بفكرة التضامن الاجتماعي ، ولكنه لم يتعلق بها كهدف يسعى إليه باعتباره مثلاً أعلى ، وإنما كحقيقة واقعة ، كأمر كائن لا كأمر يجب أن يكون . وكما أن المجتمع حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها ، فكذلك التضامن في نظر ديجي . إنه قوام المجتمع الثابت ، فعلى القانون أن يكون في خدمته وحراسته ، يفعل كل ما يؤكد هذا التضامن ويحميه ، ويكف عن كل ما يضعفه . وليست الدولة في هذا بأكثر حقوقاً أو أقل واجبات من الفرد . وليس الفرد بصاحب حق في شيء إلا أن يُمكّن من القيام بقسطه في التضامن ، أي أن حقه هو أن يؤدي واجبه ، وحقه هذا ليس مطلقاً حتى حين وجوده . فإذا كانت الملكية الفردية تخدم التضامن الاجتماعي في وقت ما فلتحترم الملكية الفردية ، ولكن لتقيدها بفرضها الاجتماعي ، فلا تسمح للمالك بأن يتعسف في استعمال حقه إيجاباً أو سلباً . . وليس الفرد إلا عاملاً في مصنع التضامن ، فعليه أن يقوم بقسطه من العمل دون أن يعترض ، وهذا القسط قد تقضي الظروف على مدير المصنع أي الدولة بتغييره ، ولكن هذا المدير ليس حاكما بأمره ، وإنما هو حاكم بأمر التضامن الاجتماعي(١)

ولقد أخذت على هذا المذهب أمور ؛ فقيل إنه جحد حق الفرد باعتباره فرداً ، واتخذ التضامن حقيقة بدلاً من اتخاذه هدفاً يسعى إليه ؛ ولكنها انتقادات نظرية لا تقلل من شأن المذهب ، ولا تضعف وجاهة الفكرة ، وهي بديهية واقعة قبل أن تُفلسف .

فإذا استهدى المشرع هذه الفكرة ، واستهداها المنفذ ، واستهداها الصانع والمستصنع والموظف لدى الحكومة والموظف لدى الأهلين ، تحقق الخير لكل أولئك ومن يتصل بهم ، وتحقق الكتلة القومية أي الجماعة .

***

إننا محتاجون إلى توكيد الاحساس الاجتماعي في نفوسنا ، فالواقع أنه ضعيف ؛ ومثل ذلك الحديث الشريف ، حديث « المؤمن للمؤمن » ، ومثل تلك الوصية العتيقة العريقة : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » التي يعود عهدها إلى قرون وقرون قبل الاسلام على ، والتي بشر بها الكهنة قبل أن يعرف الانسان قانوناً مسنوناً ؛ ومثل هذا البيت المألوف : « الناس للناس » الخ — كل هذا وغيره خليق أن يكون لدرسنا ووعاظنا نقطة ابتداء لبث هذا الروح وتوطيد أركان التضامن الاجتماعي ، لأن الأمر الواحد قد يفسَّر تفسيراً ضيقاً يتركه مجرد وصية خلقية

(١) تلخيص للمذهب من كتاب الأستاذ Charmont المسمى إحياء القانون الطبيعي La Renaissance du Droit Naturel

محصورة ، وقد يُفسر تفسيراً واسعاً متفقاً بجعله فى نفس الموظف مهما تكن سنه وثقافته ، فلسفة خليقة أن تكوّن سلوكه فى المستقبل ، حتى إذا لم يستطع فى حاضره أن يفهمها كل الفهم ، وذلك بما يستقر من آثارها فى عقله الباطن .

إن أحدنا ليجلس فى القطار فينسى كلّ السّفر إلا نفسه ، فيفتح النافذة لأنه هو يريد الهواء أو النهار ، غير مُلق بالاً إلى جاره الشيخ الذى يزلزله السعال ، ورمده الشديد .

وإن أحدنا ليظل فى المحطة يترقب طلعة السيارة العامة وهو يحرق الأرم ، ويسخط على الشركة والعمال ، فإذا أقبلت أخذ مكانه منها متضجراً ، ولكنه ما يكاد يطمئن إلى مقعده حتى يدعو السائق إلى إهمال المنتظرين فى المحطات الأخرى ، ويحرضه على الإعجال فى السير ، وعدم التلبث ، ولو كان بالسيارة فراغ للراكبين ، فيقع رجاؤه من نفس العامل موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، ويبدى له سخطه على هؤلاء الشاغبين الذين يتقدمون إلى الشركة بالشكوى من مثل ما يدعوه إليه ! . .

أنانية فى التفكير ، وانطواء على النفس ، وانعدام للاحساس الاجتماعى من ناحية ، وللاحساس بالواجب من ناحية أخرى .

* * *

وقعت فى يدى أوراق جنحة قتل خطأ اتهم به سائق سيارة : يهمنى أن أقرأ فيها أن مربية انجليزية كانت تروض الطفل على مقربة من الحادث ، تقدمت من تلقاء نفسها تدلى بشهادتها ، وتكونها فأحسست فيها الحياد والنزاهة والخلوص ، إلا من أمر لا حيلة لها فيه ، هو التأثر الوقتى بمنظر الدم ، وما يبعثه الموت من عطف على القتيل . ولم تكد تدور فى خاطرى الموازنة بين هذا الاحساس بالواجب والغيرة للحق ، وبين ما يعانيه رجال العدالة فى مصر من عزوف الشهود عن الصدق ، وكتمان الشهادة رغم ما يهددهم به القرآن الكريم ، حتى قدمت إلىّ الأوراقُ ذاتها عزاءً طيباً . فهذه المربية لا تعرف الضحية ، والمحقق يثبت فى ختام شهادتها أن التى تطوع بترجمة أقوالها عامل مصرى من القاطنين بنفس العمارة التى تقيم بها(١) .

أكبرت الصنع والصانع ، وتعزيت ولكن إلى حين ! فليس لنا أن نقنع بحادث فردى فى حياة فرد ، ولا بطبع متأصل فى نفوس قلة لأفراد مميزين ! وإنما نبغى أخلاقاً اجتماعية وفلسفة عملية تضامنية تنتظم تفكيرنا كلنا وتصرفاتنا جميعاً .

* * *

وإن من النكران أن أفرغ من حديثى دون أن أشير إلى الحادث الذى قصه على اليوم صديق ، فكان هو الباعث المباشر لكتابة هذا المقال .

كان صديق فى طريق منزله منتصف ليل الأمس ، فإذا صوت يستوقفه ، فاستراب أمره وسط هذا الظلام ، وفى تلك الضاحية المنعزلة ، وهمّ بالاسراع ! ولكن صاحب الصوت لاحقه قائلاً : إن ثمة سلكاً كهربياً مقطوعاً ، ولقد خفت أن يلم بالمارة منه سوء ، فظلت منذ رأيته أنبه الغادين والرائحين ليجتنبوه .

وكان صديق معجباً بإيثار الرجل ، فشاطرته إعجابه وسألته : ماذا صنع ؟ فأجابنى إنه ذهب إلى منزله ونام .

صارحت صديقى بأسفى لاهماله القيام على واجبين : الأول تنبيه الشرطة إلى مراقبة السلك والاستيثاق من صلاح حاله ، والثانى السؤال عن اسم الرجل وعنوانه وإبلاغه إلى الشرطة والصحف لتروى حديثه بين ما تروى من نافع وضار ، إعلاناً للفضل ، وليرى الفاضل أن العمل الطيب لا يذهب بغير كلمة طيبة ، وليكون منه للناس أسوة .

فإلى هذا المحسن المجهول أهدى هذا المقال .

عبده حسن الزيات
المحامى

(١) هو الأستاذ سابا بك حبشى

قصة عربية :

زنوبيـــــا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة أمير تدمر عاصمة الصحراء ، ومركز تجارتها الغنية . وكان فتى من فتيان العرب البواسل ، يحب صيد السباع ويستصحب في رحلاته زوجته الحبيبة زنوبيا سليلة البطالسة ملوك مصر . وكانت تشبه كليوبترة جدتها في ثقافتها وذكائها وحسنها .

وحدث في الشام عند ذلك حروب بين الروم والفرس ، انتهت بهزيمة الروم وأسر ملكهم فاليريان . وحاول أذينة أن يتقرب إلى ملك الفرس المنتصر سابور ، فأرسل إليه هدية عظيمة ، ولكن سابور رماها في الفرات ، وأهانه وسب العرب . فثار أذينة إلى حربه وهزمه في عدة مواطن . وكانت زنوبيا في أثناء غياب زوجها تقاسي شدة عظيمة من الوحشة والخوف ، وعداوة جيرانها أعداء العرب بالشام . ولكنها استطاعت أن تقاوم كل ذلك حتى عاد زوجها منتصراً .

ثم إن أذينة تغير بعد عودته ، وأقبل على سبية فارسية جلبها معه ، وأعرض عن زوجته المحبوبة ، فأثر ذلك في نفسها أثراً شديداً ، وعالجت نفسها بترويضها على حكم العقل وأنكرت عواطفها وكبتها . وكانت تكثر من القراءة مع معلمها الفيلسوف لونجين .

ودعت حوادث الحرب إلى خروج أذينة مرة أخرى من تدمر ، فبقيت زنوبيا وحدها تظن أنها اطمأنت إلى نسيان حب زوجها ، ولكن قلبها كان ينازعها إليه برغمها . وانتهز أعداء تدمر فرصة غيبة أذينة الجديدة ، فدبروا مكيدة لها وأثاروا فتنة قتل فيها حسان الشيخ الباسل ، قائد الحامية ، وهو زوج لبنى الشيخة الحكيمة ، وصيفة زنوبيا العزيزة . فذعرت زنوبيا من هذه الثورة ، ولم تجد فيها حيلة إلا أن تخرج من تدمر لتلحق بزوجها تطلب منه الحماية . وخرجت سراً من القصر من سرب خفي مع معلمها لونجين ، قاصدة إلى حمص ، حيث كان أذينة .

ولكن أذينة كان قد قتل في أثناء رحلة ، وكان قتله على يد ابن أخيه معن ، الذي لم ينس ما ناله منه من الأذى . ولما سمعت زنوبيا بذلك اشتد حزنها وخارت عزيمتها وعولت على التسليم للقاتل ، وذهبت إلى لقائه . وفيما كانت تهم بإعلان تسليمها ثار الجيش بمكانها ، فثار وهاج وقتل معناً وأصحابه ، وعادت زنوبيا بجيشها إلى تدمر تتعجب من تقلب الأقدار !]

كانت حامية القصر تعاني ضيق الحصار ومشقة الحرب المتصلة وهي تجاهد جموع العدو المحيط بها . لقد كان ذلك العدو يزداد عدداً وجرأة كلما مضى عليه يوم ، في حين كانت هي تزداد جراحاً وإعياءً وهماً . وازدحمت مخادع القصر بالذين أعجزتهم الطعنات ، وشغل النساء وفيهن بنات أذينة بتضميد الجراح والعناية بالمرضى ، فما بقي لهن فراغ للنظر في إعداد طعام أو تهيئة ملبس ، وكان الجنود يتساقطون صرعى وقد أصابتهم السهام ، حتى تنزف دماؤهم ويخمدوا تحت أبصار رفقائهم ، فلا يجدون من يلتفت إليهم ، إذ كان من حولهم في شغل من معاناة كرب النضال الوعر مع العدو الذي لا يمهلهم ولا يوادعهم .

واجتمع قواد الحامية في ليلة يتجادلون فيما عساهم يفعلون بعد أن رأوا أن الضيق قد ازداد شدة من حولهم حتى أحسوا العجز عن تحمله ، وجعلوا يتحاورون في حيرة : أينتظرون حتى تنفد منهم الأقوات فيتساقطوا من الجوع والتعب ، أم يخرجون على العدو في بأسهم حتى يقتلوا عن آخرهم والسيوف في أيديهم ؟ وهل بقيت لهم حيلة يحتالون بها على ذلك العدو المدل بقوته فيحملونه على مصالحتهم أو تخلية سبيلهم ، ليلحقوا بأرض أخرى من بلاد أذينة ، تاركين له القصر وما فيه من كنوز غنيمة طيبة ، أم لقد سدت عليهم أبواب الحيلة في ذلك الصلح ، والعدو يمني نفسه باقتحام القصر في كل صباح وفي كل مساء ؟

وكان وهب اللات بن أذينة واقفاً مع القواد يستمع محاورتهم المضطربة صامتاً مطرقاً ، وكان فتى في الثامنة عشرة ، ولكنه كان مثل أبيه مديد القامة واسع الصدر أقنى الأنف له عينان مثل عيني أمه تأتلقان .

ولما لم ير الفؤاد من جماعتهم مخرجاً نظروا إليه يستطلعون رأيه كأنهم كانوا يذكرون فى مرآة بطائهم أذينة . فأحس الفتى أن الأرض تميد به ، وشعر كأن النار تتقد ما بين عينيه . ثم ثارت فى رأسه الخواطر سراعاً تتواثب ، وهو صامت فى حيرة وقلق يحس النظرات كأنها تصدع جسمه وتخز وجهه . أتترك الحامية القصر لكى تهلك فى القتال اليائس ، وتترك من ورائها نساء القصر وضعفاءه من المرضى والشيوخ ؟

أيتركون إخوته لذلك العدو الوحشى الذى يموج تحت الأسوار ؟ أيتحدث العرب بأن امرأ القيس بن عمرو قد سبى بنات أذينة وعاد بهن إلى الحيرة ، لكى يتخذهن إماء لزوجاته وبناته ؟ إن الموت لنعمة ما كان ينبغى له أن يستأثر بها دون من فى حوزته من النساء والضعفاء .

فوقف حيناً ينظر إلى الجمع فى صمت ثم قال مندفعاً ، وقد احمر وجهه من الحماسة :

— أيها الرفاق البواسل . ليس منكم من يخشى الموت ، وليس الاقدام على الموت ما يفخر به الشجاع . أليست هى طعنة أو ضربة ثم تذهب الآلام ؟ ولكن ما حديث الذكر الذى يبقى ويسير به سير الزمان ؟ وما مصير الحُرُم التى تخلفون وراء ظهوركم ؟ لخير لدىّ أن أموت قطعاً ، وأن تتساقط نفسى ذرة بعد ذرة وأنا أعانى الآلام دهراً ، لخير لدىّ ذلك من أن تبقى من ورائى ذات خدر تتعرض للهوان . ولن أبرح هٰهنا مقيماً فى القصر حتى لا أجد به موضعاً أقف فيه لعدوى . فإذا عجزت ولم يبق إلا الهلاك ارتددت إلى من خلق من هؤلاء الضعاف وسفكت بسيفى دماءهم ثم استقبلت بعدهم الموت راضياً .

وسمع الفؤاد قوله حتى انتهى منه ، وبقى الصمت مرتفقاً فوقهم حيناً ثم انطلقت منهم صيحة عالية ، ومدوا أذرعهم بالتحية وقالوا فى حماسة :

— مرحى أيها الأمير الباسل ! مرحى يا ابن أذينة ! سنبقى معك يا ابن أذينة العظيم !

وبقيت الضجة حيناً ، وقد أقبل كل قائد على صاحبه يصافحه ويشد من عزمه ، ويعلن أنه لن يبرح القصر حتى يسير تحت لواء وهب اللات إلى الموت .

ثم هدأت الأصوات شيئاً فشيئاً حتى عاد السكون ونظر الجمع إلى وهب اللات ينتظرون أمره .

وعند ذلك علا صوت من خلفهم يقول : مرحى أيها البواسل ! .

فالتفتوا جميعاً إلى الوراء وفتحوا أفواههم من الدهشة وتراجعوا وهم يصيحون صيحة مكتومة :

— الملكة ! .

واندفع وهب اللات نحو أمه وارتمى بين ذراعيها الممدودتين .

وقضت زنوبيا حيناً حانية على ولدها تضمه بعطف ، وتمرغ وجهها على صدره ؛ ثم رفعت رأسها وأرسلته من ذراعيها ، ونظرت إلى الجمع بعينيها الدامعتين ، وقالت بصوت متهدج :

— يا شجعان تدمر !

وكان الفؤاد مطرقين ، وقد حركهم منظر الحنين ، فلما سمعوا صوت الملكة رفعوا رؤوسهم نحوها فى عطف وإجلال ، فاستمرت تقول :

— لقد تركت القصر خفية لما رأيت الخطر محدقاً به ، ولم أعلم أحداً منكم بما عزمت عليه خوفاً على عزيمتكم أن يداخلها وهن أو تردد . وكانت الأقدار وحدها تحركنى وتسدد خطاى . خرجت أقصد قصداً ، ولكنى وجدت الأقدار تدفع بى فى سبيلها تقصد بى قصداً .

خرجت أطلب ملككم أذينة الباسل لأستجير به وأدعوه لنجدتكم كما كنت أفعل دائماً كلما أحسست المخاوف تساورنى .

ثم اختنق صوتها ووقفت من الكلام ، ورفعت يدها إلى عينيها وأجهشت بالبكاء .

فنظر القوم إليها فى دهشة ، واقترب ولدها وهب

اللات نحوها فى فزع وعطف ، وأمسك يديها وقال فى توسل :

— أماه !

فكفكفت زنوبيا دمعها بعد جهد ، ثم قالت بصوت يشبه الأنين :

— كيف أعزيكم فى بطلكم الباسل ، وكيف أعزى نفسى فى زوجى الحبيب ؟

وعادت فاستخرطت فى البكاء ، وخيم على الجمع وجوم كثيف ، وصاح وهب اللات وهو يمسك بقبض سيفه :

— أقتل أذينة ؟

فرفعت زنوبيا رأسها ، وفتحت عينيها الواسعتين الحراوين من أثر البكاء ، وقالت بصوت يشبه رنين النحاس :

— نعم قتل يا ولدى . ولكن كن قرير العين ، فلقد اشتفت نفسى من القاتل الخائن .

وأخذت تقص على الجمع قصة المأساة ، حتى بلغت نبأ الجيش الواقف عند أبواب تدمر ينتظر إتمام المكيدة التى اتفقت عليها مع مالك بن زباع . ثم قالت :

— هى الأقدار العجيبة التى أخرجتنى ، وهى الأقدار العجيبة التى عادت بى فى هذه الساعة ، لأسمع ابن أذينة يحدثكم كأنه ينطق بلسان أبيه . تقدموا أيها البواسل فحيوا ملككم الكريم .

فمد القواد أيديهم إلى وهب اللات ، وحلوه على دروعهم وصاحوا :

— وهب اللات ملك تدمر ، أغسطس حامى المشارق !

* * *

وكان جنود الحيرة لا يزالون حول أسوار القصر آمنين فى نومهم ، لا يسمع لهم حس إلا وقع أقدام الربيئة ، وهم يجمعون الأحطاب ، يوقدون النيران ليستدفئوا من برد الفجر الذى يسبق مطلع صباح الربيع .

وفتحت أبواب القصر فى حذر وسكون ، وكان ظلام الليل لا يزال يلف الفضاء ، إلا أنفاساً وسنى ضئيلة تنبعث فى السماء عند الأفق الشرق ، يرمقها ديدبان جيش الحيرة ، مرتاحاً بعينيه الواثيتين ، اللتين ترقبان طلوع الصباح لكى تغفيا بعد سهر الليل الطويل .

ثم انطلق من باب القصر ركب من الفرسان يركض جياده فى دفعة سريعة ، وترددت أصوات وقع سنابكها على صخر الأرض ، كأنها وابل من الحجارة قد سقط من السماء فقمقع وطقطق ، وملأ الجو ضجيجاً على حين فجأة . فصحا عسكر الحيرة فى ذعر ، وتنادى جنده من جوانب الفضاء : واصباحاه !

وأخذوا يستعدون للركوب سراعاً ، وقد طار النوم من أجفانهم ليلحقوا بهؤلاء الذين حسبوهم خرجوا إليهم يناجزونهم القتال ، بعد أن أيسوا من مقاومة الحصار . غير أن فرسان تدمر لم يقفوا لقتال ، ولم يلتفتوا وراءهم إلى مطارد ؛ بل انطلقوا فى سبيلهم حتى عجب منهم عدوهم ، وسخر من أنهم لن يجدوا دونهم مخلصاً إلا إن استطاعوا الوثوب فوق الأسوار العالية .

وكان فى صدر فرسان تدمر وهب اللات بن أذينة فى سلاح مثل سلاح أبيه راكباً على فرس أدهم محجل ، وقد رفع سيفه يشير به إلى جنوده نحو باب القصر الذى كان يلوح فى غبش الفجر بعيداً فى طرف الطريق الأعظم . وكانت الطريق خالية تظهر فيها الأعمدة القائمة فى صفين على جانبيها كأنها ممتدة إلى نهاية الأرض ، وكانت الحوانيت حول الطريق تبدو كالحة ، وقد حطمت أبوابها ، وخلت من كنوزها الثمينة ، التى طالما حلتها إليها القوافل من الشرق والغرب ، فقد ذهبت كلها غنيمة لجنود امرىء القيس بن عمرو .

ولما بلغ وهب اللات باب القصر وقف ، وجعل يشير إلى أصحابه ، ويقسمهم فى كتائب يجعل لكل منها موقفها ، وهم يطيعون فى مسارعة وسكون ؛ فأسرعت طائفة إلى

الباب ووقفت كتيبة أخرى تعترض الطريق الأعظم، وتسد المسالك المؤدية إلى السور.

واندفع وهب اللات مع جماعة من فتيان تدمر إلى البرجين القائمين على جانبي الباب، فقتلوا من هناك من جند الحيرة، ونادوا أصحابهم من وراء الأسوار يؤذنونهم أن يثوروا على ميعادهم مع الملكة. فارتفعت ضجة من الجيش المتدفق نحو الأسـوار. وأخذ القوم من داخل المدينة ينزعون قضبان مصراعي البـاب، ويحطمون دعاماتهما، ويجاهدون في فتحهما، على حين كان إخوانهم من ظاهر السـور يعاونونهم بالدفع والتحطيم.

وكان جنود الحيرة في أثناء ذلك، قد هبوا سراعاً وركبوا وراء عدوهم الجرى، فلما اقتربوا من الباب وجدوا كتيبة تعترض مسالك الطريق المؤدية إليه، وثارت هناك معركة الحياة والموت بين الفئتين.

ولـكن الطريق الضيقة لم تتح لجموع جيش الحيرة أن تحيط بحامية تدمر الضئيلة، فاستطاعت أن تدافع، وأن ترتد خطوة بعد خطوة، وأمواج الجموع المتكاثرة عليها تصدمها وتدفعها في سبيلها حتى ضاقت الحلقة حول الباب، وأوشكت أن تنطبق على الذين يعالجون فتحه. وعند ذلك انفرج المصراعان وهما يئزان ويصوتان، وتدفق منهما فرسان جيش تدمر من خارج المدينة، ومالك بن زباع في صدرهم، وهم يصيحون صيحة ارتجت لها جوانب الفضاء. فلما أحس جنود الحيرة بذلك ترددوا ثم تزعزع جمعهم واضطرب؛ ثم أخذوا يرتدون عن الباب يلتمسـون البراح في الميدان الأوسط من المدينة، وتدفقت وراءهم جنود تدمر، ومالك بن زباع في صـدرهم، واختلط الجمعان في نضال حانق مضطرب لا يتعارف فيه المتقاتلون إلا من شعارهم في النداء.

وكان ضوء الصباح قد جلا المنظر البشع، فإذا بتدمر الأنيقة معممة قتال تتنـاثر في أنحائها جثث القتلى من الفرسان والجياد، وصبغت الدماء جوانب الأبنية البديعة القائمة على حافتي الطريق، وانعقدت منها برك تلطخ أرض الطرق والميادين.

وكانت زنوبيا عند ذلك واقفة فوق سور القصر مع لونجين في برج من الأبراج ترقب حركة القتال البعيد، وهي تهتز مع تردد أمواجه بين المد والجزر؛ وقد حصرت روحها ومشاعرها في نظراتها المتلهفة. وفيما هي كذلك إذ سمعت وقع حوافر خيل مقبلة نحو القصر من جانب من الميدان الفسيح؛ فالتفتت تقلب نظراتها قلقة في الفضاء الذي في أسفله، فرأت فارسين يتطاردان، وقد أوشك أحدهما أن يضع رمحه بين كتفي صاحبه. ولـكن الفارس السابق مال على سرجه في حركة سريعة، ولوى عنان فرسه فحاد عن طريق قرينه؛ فاندفع الطـارد، وذهبت طعنته في الهواء، وتزحزح من ظهر فرسه، حتى كاد يسقط من شدة الدفعة، وما كاد يعطف فرسه ليعاود النضال حتى كان عدوه قد اعتدل، وأقبل نحوه رافعاً سيفه، وابتدأت بينهما مبارزة عنيفة سريعة.

ولم تستطع زنوبيا من سرعة الحركة أن تتبين من يكون الفارسـان، حتى اقتربا في تجوالهما، وبدت حركات تناضلهما، ورأت ملبسهما وسلاحهما، فصاحت صيحة هلع عالية تقول:

— ولداه!.

ثم أسرعت من موضعها فهبطت من البرج وهي تردد صيحتها حتى بلغت الفناء وقصدت نحو باب القصر.

ولم تقف لتسأل أحداً أو تطلب عوناً، بل أسرعت إلى فرس فركبته، وأمرت بفتح الباب وخرجت إلى الميدان، وركضت فرسها نحو المتقاتلين. ولم يقدر لونجين أن يحدثها أو يبدى لها رأياً، ولم يجد بداً من أن يسرع خلفها راكباً وهو يتمايل على سرجه، ويحاول أن يحفظ مقعده عليه.

ولما صارت الملكة على مقربة من الفارسين أسرعت شاهرة سيفها تريد أن تنقض به على ذلك الذي يوشك أن يطعن قلب ولدها . ولما رآها الفارسان مقبلة عليهما تباعدا وجعلا ينظران إليها في دهشة ، ثم صاح وهب اللات في يأس عند ما عرفها :

— أماه !

فأسرع العدو تاركاً وهب اللات ، واندفع نحو الملكة في خفة وهو يصيح :

— هلم إلى أيتها الهاة ، فأنت أولى بصيدى ! .

وكان وهب اللات قد بهت من هذه المفاجأة ، فوقف حيناً متردداً حتى رأى الفارس ينطلق نحو أمه كالصخرة المتحدرة . فصاح صيحة ذعر وحنق ، وأقبل على الفارس يرى عليه نفسه في يأس ، وكان لونجين في ذلك الوقت قد بلغ موضع القتال ، فلما رأى الفارس قاصداً نحو الملكة امتلأ قلبه خوفاً عليها ، ودفع فرسه نحوها في اضطراب ، وهو يصرخ في غير وعي ، فاصطدم في طريقه بالفارس وهو لم يجرد سيفاً ولم يشهر رمحاً .

فضربه الفارس الحانق بسيفه ضربة أسقطته من فرسه وتركه واندفع يقصد إلى الملكة التي عول على أن يفوز بقتلها أو أسرها . ولم يلتفت إلى شيء سوى صيده الثمين .

وكانت اللحظة التي وقف فيها الفارس عند اصطدامه بلونجين فرصة أمكنت وهب اللات من عدوه ، فركض نحوه فرسه صائحاً من أعماق صدره صيحة عالية ، واندفع لا يفكر في شيء إلا أن ينجي أمه من ذلك الفارس المخيف ، فأدركه وهو يستعد للطعنة ورمى الرمح من خلفه بين كتفيه ، في حين كانت الملكة الباسلة تدفع رمحها بيدها المضطربة فوقع في عنق فرسه من الأمام ، فهوى الفارس وفرسه معاً يتخبطان في الدماء .

وقفت الملكة ووهب اللات حيناً ينظران في دهشة نحو المنظر الدموى الذى دونهما ، ثم أسرعا إلى لونجين المسكين فحملاه وهو لا يعى ، وعادا به إلى القصر .

ولم يبق وهب اللات في القصر إلا قليلاً ، ثم ترك أمه إلى جوار سرير لونجين وعاد إلى قومه ليشاركهم بقية القتال ؛ فلما بلغ الميدان الأوسط الذى ترك فيه المعركة ثائرة منذ حين ، وجد فيه جماعة من جيش تدمر تدقق على الجرحى في غل وحقد ، فاستقبله فرسانها هاتفين باسمه هتاف فرح عند ما رأوه يقبل عليهم سليما ، بعد أن حسبوا أن العدو قد أصابه فيمن أصاب ، وسار معهم نحو باب القصر وهو ينظر حوله إلى ما خلفته الحرب الضروس . ولم يمنع أصحابه من التمثيل بقتلى العدو ، فكانوا يطأونهم بخيولهم ويقطعون أوصالهم عابثين ، إذ كان غل القلوب أعنف من أن تلينها رحمة على العدو الكريه .

ولما بلغ باب القصر ألفاه مفتوحاً ، ولم يجد عنده إلا كوكبة تحرسه بعد أن خرج منه جنود الحيرة فولوا وتشتتوا في الصحراء واتبعهم فرسان تدمر يتعقبونهم بالقتل والأسر ، أنى وجدوا آثارهم على الرمال .

لقد كان قتالاً عنيفاً ، ولكنه كان مثل خيال الأحلام . كانت تدمر منذ ليلة يائسة في يد العدو ، وكان العدو نائماً حول قصرها يطل النفس بقرب القضاء على ما بقى فيه من مقاومة لا تلبث أن تبوخ وتخمد ، فاذا بالصباح يطلع عليها وقد خلت من عدوها المهزوم ، ولم يتخلف منه إلا تلك الجثث الطريحة ، وتلك الدماء المنعقدة على وجه أرضها الفسيحة . وعاد وهب اللات إلى أمه ، ليحمل إليها أنباء ذلك النصر العجيب ، فتنفست وهى تستمع إليه في لهفة ؛ ولكنها لم تفض معه في الحديث ، وعادت إلى سرير لونجين وهى تناجى نفسها بما تحدثه الأقدار في تقلبها الغامض العجيب .

ما هذه القيم التى جعلها الانسان لنفسه وما يحيط به في هذه الحياة ؟ إنها لا تزيد على أن تكون من صنع خياله أو من صنع أطماعه الجائعة ؛ ولكن تلك الأشياء إذا ما قبض عليها المرء بيده وجدها خاوية أو لم يجدها ،

ليلة سعيدة . . .

وذكرى حزينة !

للأستاذ صالح جودت

فى ليلة ساهرة باهرة ، مشرقة كليالى الرشيد ، ماجنة كأمسيات باريس فى ظلال حريتها الشهيدة . . . هى ليلة « مبرة محمد على » منذ عامين ، بالسراى الكبرى بالجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة العامرة . . . فى إيوان فتان ، بركن من المهرجان ، عشنا كما عاش أسماء « ألف ليلة » ليلة واحدة .

كانت على باب الايوان سيدتان من عيون الفئة الرفيعة ، فى ثياب السهرة الفضفاضة الفضفاضة ، فى يد كل منهما طبق من النحاس المنمق ، تمده إلى الداخل إلى الايوان والخارج منه ، تقتضيهما شيئاً من الفضة فى سبيل الخير ، والداخل والخارج علاّنه لوجه السنا والجمال !

وكانت الطنافس الشرقية الوثيرة الناعمة ممدودة حول الايوان ، والثريات الشرقية المتلألئة البلور تملأ الجو بهاءً ورواءً ، وعطور « السوار دى بارى » و « السكندال » و « البورجوا » و « الفلور دامور » تمتزج بأريج بخور الشرق المحترق فى الأباريق ، فتنشر فى جو الايوان نفحة من عبير الفردوس .

وغوانى القاهرة وربات مجتمعاتها وصالوناتها ، ووجوه القوم من شيب وشبان ، مستغرقون فى الطنافس استغراق الناسك فى عبادة الله ، والشيطان فى عصيانه .

وكانت فئة من زهرات المجتمع الحسناوات ، من ذوات العيون السود والعسلية والزرق والشهب ، والفروع السوداء والكستنائية والذهبية ، فى ثياب الجوارى فى عصر الرشيد ، يدرن بأقداح القهوة فى رشاقة وفتنة على الحاضرات والحاضرين .

وكانت الحلقة التى تتوسط الايوان حافلة بأهل

بل رأى نفسه يقبض على الريح ! وهو مع كل ذلك يناضل ويجاهد ، ويقسو ويخدع ، ويخون ويذل ، فى سبيل بلوغ مأربه منها .

لقد عرفت زنوبيا الملك والمجد ، وذاقت الحب والغيرة والبغض ، وقاست المخاوف ، وخاضت المخاطر ، وكشفت كل ما يمكن أن يكشفه الانسان من الحياة . فماذا وجدت بعد ذلك كله ؟ إنها لم تجد فى الحب إلا ألماً واضطراباً وخيبة ، ولم تجد فى المجد إلا خداعاً وغروراً ، ولم تعرف فى قلب الانسان إلا الغموض ، ولم تجد فى عقله إلا القصور وقلة الادراك ، ولم تحس السلام إلا عند سرير معلمها المسكين لونجين ، وهى تحاول أن تخفف من آلامه وتعيد إليه الحياة .

مسكين لونجين ! كانت زنوبيا تحس فى قربه معنى غامضاً لا تستطيع أن تدرك كنهه . كانت تحس أنه يفنى ويبذل ولا ينتظر الجزاء . أيكون ذلك الذى يبذله حباً ؟ لئن كان ذلك حباً فهو غير ما عرفت من الحب ، وغير ما فهمت من الحب . إنه حب لا يشبه حب هذه الأرض المضطربة الملوثة بالدماء .

جلست إلى جانب سريره وقد امتلأ قلبها رقة وعطفاً . لقد كان المسكين لا يبخل أن يجود لها بنفسه قبل أن تطلب منه أن يجود ، ولم تسمعه يوماً يقول لها كلمة تنم من أنه يطمع فى عرفانها أو الوفاء بدينها .

ليت لبس كانت تأتى إليها فى تلك الساعة لتحدثها ، فقد استطاعت أن تتناسى إلى شىء يشبه ما كانت تتم به تلك القديسة فى حياتها من خدمة الضعفاء والأشقياء .

[تمت الحلقة الأولى] محمد فريد أبو حديد

الموسيقا والطرب ، وقد افتتنوا بصورهم فى الزىّ بأزياء الشرق المختلفة ، بين طارف وتليد ، وبين عراقى وعربى ، وسورى ولبنانى ، ومصرى صعيدى ومصرى بلدى ؛ فكانت العيون فى أحلام ، والأحلام فى غيبوبة من غفوات الجنة الموعودة .

وغنى من غنى ، ورقص من رقص ، وعزف من عزف ؛ فما أخذ بألباب القوم غير شاب وسيم المحيا ، زكى السمات ، مشرق الوجه ، حلو الابتسامة ، فيه شباب ورقة وجمال ، وفيه أمارات الأصل الكريم والدم العريق ؛ وهو لم يزل بعد فى نحو ربيعه العشرين . غنّى ... فكان فى صوته سحر وعذوبة وإبداع وحنان ، وكانت فى صوته بُحة حلوة استلبت أفئدة الرجال والنساء ؛ فراح الجمع يتهامس : من يكون هذا الشاب المشرق الوضىء ذو الصوت البلبلى الساحر ؟!

وكان الجالس إلى جانبى رجل عظيم ، له باع طويل فى العلم والأدب والسياسة والفن ، هو حضرة صاحب المعالى حسن صادق باشا وزير الدفاع ، وكان يومئذ وكيلا لوزارة المالية . فسألنى : من يكون هذا الشاب ، فانه لا يبدو عليه مظهر أهل الفن كما نعرفهم ؟ فقلت لمعاليه : إنه « أحمد الهمشرى » الطالب بمدرسة المنصورة الثانوية ، وهو ابن المرحوم عثمان بك الهمشرى من وجوه القوم فى السنبلاوين .

فسألنى معاليه : ترى أيكون ذا قرابة من شاعر الشباب الفقيد ، المرحوم م . ع . الهمشرى ؟

قلت : إنه أخوه الشقيق !

فأثار معاليه كامن الشجن بما أثار من حديث عن شعر صديق الحبيب ، م . ع . الهمشرى ، فقد كان رحمه الله رفيق طفولتى وصباى وشبابى على ضفاف المنصورة الحسناء ، وهو الذى قلت فى رثائه :

يا رفيق الصِّبا ، وهيهات أنسى
الليالى المخــــلدات الصفاءِ
يوم كان الزمان كالزهر فى الفَجْـ
ـرِ ، وكنا عليـــه كالأنداء
يوم كنا نُمرّح الماء ضِحْكاً
فى ضفاف المنصـورة الحسناء
لم نكن نعرف التوارخ إلا   من وعود الحسان عند الوفاء

ومنها :

كنتَ ألقاك والحياة تجافيـ   ـنى ، وإعصارها يهد بنائى
فإذا ما سمعتُ ضحكتك العذ   بة أحييتُ بعدها أعضائى
وتَمشّى السـلامُ فى جو نفسى
وتطهرتُ من طويل عنائى
وقرأتُ الحياة فيك كتاباً   شاعرىّ الآمال والآلاء
وشباباً هو الربيع الموشى   رقيق المنى وعذب الرجاء
حين تبدو وعُروة الصدر فى ثو
بك تزهو بالوردة الحمـــراء
واحمرار الحياة يشعل خديـ   ـك ونور الشباب فى لألاء
تطأ اليأس باعتداد الأمانى   وتذل الزمان بالكبرياء
وتغنى وتنهب العيش نهباً   شأن من ألهمَ اقتراب الفناء

وكانت نهايتها :

ها أنا عدتُ للجزيرة وحدى
أتمــلاك خلف تلك الرابى
ومضتْ فيضتى تصافح نُعما
كَ ، فصافحتُ قبضة من هواء
وتَلَفّتُّ باحثاً من أمامى
لك ، فلم تَهدنى سوى الأشلاء
غير أنى أراك فى شعرك الخا   لد روحاً يهيم بالاسراء
وأرى طيفك المغرد بين الـ   زهر والطير والرُّبى والماء
فأقول : الخلود لله ، والله   ـه يريد الخلودَ للشعراء !

* * *

كان أحمد « الممشرى » ، شقيق شاعرنا ، أنموذجاً بارعاً من نماذج جمال الرجولة ووسامة الشباب ؛ ميزه الله بفتنة أخاذة ، فكانت قلوب الفتيات فى « رأس البر » تخفق له فى كل صيف . وكان فى صوته حنان يجتذب فؤاد الفنان محمد عبد الوهاب ، الذى طالما دعاه وأولم له ليسعد بسماع غنائه .

وكان فوق ذلك رياضياً فذاً ، دائم الفوز فى مباريات السباحة الصيفية بين رأس البر وفارسكور .

وكان فوق ذلك متأدباً ذكياً فطناً ، يحفظ الشعر ويرويه .

***

ما رأيت « أحمد الممشرى » منذ تلك الليلة ، حتى طوح بى القدر إلى تلك المصحة الجافية النائية التى يحتضنها الجبل الأحمر بأطراف العباسية لأقضى هناك أكثر العام ، والتى قلت فيها :

أواه من عزلة كالسجن ، مغلقة
على جراح وآلام وأرزاء
ما هذه الجثث الملقاة فى سُرُر
أنصاف موتى على أنصاف أحياء
صُفر الوجوه ، كأن السُّقم عفّرهم
بحفنة من تراب القبر صفراء
للآه فيهم تراتيـــل منغمة
تنساب من قصبات نصف خرساء
وما لهم من نهار فيه مرحمة
وما لهم ليـــلة ليست بليلاء
مَن يا ممرضتى الحسناء قدر لى
أن ألتقيك بأرض غير حسناء ؟
ماذا أتى بى هنا ؟ ما خطب عافيتى ؟
وكيف غال شبابى غائل الداء ؟
قد كان لى موعد فى الصيف مرتقب
على الشواطئ بين « الرمل » والماء
فما لذا الصيف يمضى بى على جبل
جهنمى اللظى فى جوف صحراء ؟
وأنت ؟ هل عطفك الباقى على رمق
عطف المحبين ، أم عطف الأطباء ؟
إن كان ذاك ، فيا سعدى ويا فرحى
أو كان هذا ، فإنى فى الأذلاء !

كانت « ممرضتى الحسناء » عزاء جميلا فى هذه العزلة الجافية ، كأنها زهرة « الكامليا » النائية ، عثر بها تائه فى صحراء جرداء .

وكانت لها ابتسامة حلوة لا تبرح شفتيها ، حتى كأنها مطبوعة عليهما .

بيد أنها طالعتنى ذات صباح ، ومحياها خلو من ابتسامته ، وقد تساقطت من عينيها على وجنتيها قطرات كقطرات الندى على أوراق الورد .

وعبرت أمامى متعجلة ، ثم اتجهت إلى النافذة تطل منها ؛ فتحاملت على نفسى وتبعتها ، وأطللت أتأمل ما تتأمل ؛ فاذا جثة مسجاة فى ملاءة بيضاء ، محمولة إلى غرفة الموتى .

سألتها : من يكون ؟ فأجابت فى صوت حزين خفيض :

— أحمد الممشرى . . . !

***

يا رحمتاه لهذه النجيبة التعسة الثاوية فى صومعة حزنها بالسنبلاوين . لقد فقدت فلذتَى كبدها فى عام وبعض العام .

وأى فلذتين . . . ؟

صالح جودت

قصة صينية تاريخية

ضيف الأمير

ترجمة الأديب الصيني موسى ماجين دو

كانت بلاد الصين منقسمة إلى سبع دول ، تسمى إحداها « كى » . وكان فى هذه الدولة رجل اسمه « فونغ » من أسرة فقيرة ، ليس له مال ولا نشب ، ولا يجد الضرورى من الطعام لغدائه أو عشائه . وكان لهذا الرجل صديق مقرب عند الأمير « مون تشان » رئيس وزراء « كى » ، والمعروف بسخائه وإيوائه الضيفان . ففاتح الصديق الأمير فى شأن « فونغ » وسأله أن يسمح له بالإقامة فى قصره ، وقبل الأمير ذلك الرجاء . فلما ذهب فونغ إلى القصر سأله الأمير : « أيها الضيف الكريم ، هل لك من حاجة تذكرها ؟ » فأجاب : « لا ، لست راغباً فى شيء ما » . فسأله الأمير ثانية : « ياضيفى الكريم ، هل تجيد أى فن من الفنون ؟ » فأجاب : « يا أميرى الجليل ، إن ضيفك ليس بذى علم ولا فن » . فضحك الأمير لحظة ثم تركه يقيم فى القصر . ورأى رجال القصر هذا المنظر فأحسوا أن الأمير يستهزئ بفونغ ، فلما جاء وقت الغداء لم يقدموا لهذا الضيف إلا الخضر قناعة ، فتناول منها قليلا غير راض ولا مسرور . وفى يوم من الأيام وقف فى ساحة القصر مستنداً على أحد عمده ، وأخرج سيفه من غمده ، وهزه يميناً وشمالاً ، واندفع ينشد : « ياسيفى الأبيض عد إلى غمدك ، فإنى لا آكل شيئاً من السمك » . وسمع رجال القصر هذا النشيد الحماسى ، وأخبروا به الأمير فقال لهم : « قدموا إليه السمك كما تقدمونه لضيوف الدرجة الوسطى » . وبعد أيام عاد « فونغ » إلى موقفه وهز سيفه وأنشد : « ياسيفى الطويل ارجع إلى غمدك ، فإنى كلما خرجت من القصر خرجت من غير عربة » . فقال الأمير : « أعطوه عربة حسنة مثل ضيوف القصر » .

ركب « فونغ » العربة ، واتشح بالسيف ، وزار بيوت الأصدقاء ، وقال : الآن أكرمنى الأمير منقطعا يكرم ضيوفه . وظل على ذلك أياماً ، ثم عاد إلى موقفه وهز سيفه وغنى : « عد أيها السيف فليس لى بيت » . وعند ما قال هذا غضب عليه رجال القصر ورموا بطمعه وعدم قنوعه . ولكن الأمير سأله : « ألك زوجة وأسرة ؟ » فقال : « ليس لى إلا أمى العجوز » . فأنعم الأمير عليه وعلى والدته ، وكلف رجال القصر أن يعطوه بيتاً ويقدموا له الطعام على الدوام . فقرت عينه بذلك واطمأن قلبه ، ولم يعد يهز سيفه أو ينشد أناشيده .

وبعد شهور أراد الأمير مراجعة دفاتر الديون ، فسأل ضيوف القصر : « من منكم يجيد الحساب فأنيبه عنى فى الذهاب إلى مدينة (سن) وجمع الدين من الناس ؟ » فصمت الجميع إلا « فونغ » فإنه أجاب : « أنا أستطيع ذلك » . عجب الأمير لهذا ، وسأل حاشيته عن هذا الرجل وما يعرفونه عنه فقالوا : « إنه ذلك الرجل الذى كان يهز سيفه وينشد النشيد » . فضحك الأمير لحظة ثم قال : « لو كنت أعلم أن ضيفنا هذا عنده مثل هذه القدرة لقابلته بخير مما فعلت . وإنى لآسف على ما كان منى » . ثم أرسل فى طلبه ، فلما جاء قال له الأمير فى اعتذار ولطف : « إنى منذ توليت منصب رئيس الوزراء لم أزل مضطرب القلب ، شارد النفس ، كثير الهموم والتفكير ، فالسياسة الدولية معقدة النواحى ، والتنافس يزداد يوماً فيوماً . لذلك لم تسنح لى الفرصة لمقابلة الأستاذ « فونغ » من قبل ، فاعذرنى ولا تؤاخذنى ، ولتسمح الآن بالسير إلى مدينة (سن) لجميع الديون من أهلها » . فقال فونغ : « بكل سرور ، وأنا خادم الأمير » .

أمر الأمير رجال القصر أن يأخذوا العدة لتهيئة الموكب، ومهمات السفر وأوراق الدين . ولما حانت ساعة الرحيل قال فونغ للأمير : « أترى أن أشترى أى شىء بعد جمع الدين ؟ » فأجاب الأمير مبتسماً : « اشتر ما تراه ضرورياً مما ليس عندنا فى القصر » .

سار الموكب حتى وصل مدينة (سن) وأرسل « فونغ » رسله إلى المدينين يطلبون منهم أوراق الدين لمراجعتها ومعرفة صحتها، وأخبرهم أنه بالنيابة عن الأمير سيسامحهم فلا يدفعون ديونهم، وبعد جمع الورق أحرقه، فابتهجت الجماهير، وأخذوا يهتفون بحياة الأمير العادل فى حماسة وولاء .

وبعد أن قضى « فونغ » مهمته قفل عائداً إلى القصر، وفى اليوم التالى لوصوله التمس من الأمير أن يقابله فى موعد حدده له، فعجب الأمير كل العجب لسرعة رجوعه . ولبس حلته الرسمية ثم قابله وقال له : « هل جمعت الدين يا حضرة الفاضل ؟ » فأجاب فونغ : « لقد فرغت من المهمة » . فقال الأمير : « إذاً فلتشتر لنا الأشياء البديعة » فقال فونغ : « لقد كنت نصحت لى بأن أشترى ما هو ضرورى للقصر، ولقد نظرت فإذا فى القصر النساء الحسان، والتحف النادرة، واللؤلؤ الثمين، وفى الاصطبل كثير من الخيول الكريمة، وعندكم العدد الوفير من الكلاب الثمينة ؛ ولكن شيئاً واحداً مع الأسف ليس عندكم وهو المروءة ؛ لهذا سأذهب الآن لأشترى لكم المروءة وأعود » . فقال الأمير : « ما هذا ؟ وما معنى شراء المروءة ؟ » فأجابه فونغ : « إن مدينة (سن) ميراث لكم ولأجدادكم، ولكنكم لا تحسنون العطف على الرعايا المساكين، بل تعاملونهم معاملة التجار، يستغلون الجماهير لفائدتهم ؛ وهذه خطة خاطئة . لهذا خالفتُ أمركم، ولم أطلب من الناس دفع شىء، بل أحرقت ورق الدين كله، وتركت الجماهير هناك تهتف بحياة الأمير العادل » .

فقال الأمير : « الآن قد انتهت مهمتك فاسترح يا حضرة الأستاذ » .

وبعد سنة قال ملك « ك » للأمير « مون تشان » : أنا لا يمكننى أن أستعمل وزيراً من وزراء الملوك الأولين فى هذا العصر، فاستقل من منصبك لتتولى مدينة (سن) . فأطاع الأمير أمر الملك واستقال من منصب رئيس الوزراء وعاد إلى مدينة (سن)، ولم تكد أخبار قدومه تصل المدينة حتى خرجت الجماهير للقائه كباراً وصغاراً، وأقبلوا إليه من الضواحى البعيدة حتى غصت بهم الطرقات . وهنا التفت الأمير إلى « فونغ »، ونظر إليه نظرة كلها رضا وسرور، وقال : « يا أستاذى العاقل، لقد كنت تقول إنك تريد أن تشترى لى المروءة، وكنت لا أفهم معنى ما تقول . فالآن آمنت كل الإيمان وأدركت فضل المروءة ومبلغ أسرها للقلوب » .

موسى ماجين ورو

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	فى مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	فى الممالك الخارجية عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

الحياة بلا شعر

للأستاذ عبد الحليم عباس

الشاعر هو الماطل في نظر من يقيسون الحياة بمقياس المادة المحسوس ، ومن يبنون حكمهم على الأحياء بقدر ما يفيدون ويستفيدون ، في عالم خلت من حسابه مطالب الروح ؛ وعلى هذا الحساب الساذج ، غير الربك ولا المعقد ، فالحياة بلا شعر ، الحياة المليئة بالجد والعمل .. ويصح هذا إذا أضفنا الهمّ والتقزز من الحياة ، إلى قائمة الأعمال ، ويكون هذا عند من لا تطالعهم الدنيا بهمّ ، وهم قليل ، أو عند من يعيشون ولا تسمو بهم همة ، ولا يرتفع بهم مطلب ، فوق مطلب العيش الرخيص ، وهم كثرة ، وهم — إن أردنا الصدق — سواد هؤلاء الناس .

تمرُّ الحيـاة ، في بلادٍ — وقد تكون بلادى — فيلابسها النـاس كما يشاؤون ، وكما يحلو لهم . وتختلف الشكول ، وتتعاقب المنـاظر ، ولـكنها تبقى عند من لا يغترُّون بالظاهر ومن يطلبون زاداً لغير الفم ، وريّاً لغير الحس ، فارغة كفراغ الأبد ، كريهة كالموت .

وتبقى هى هى على اختلاف المناظر ، وتغاير الصور ، منظراً متكرراً ، يوحى الملل ، ولا يجود بغير السأم . . . الدهر على طوله « يوم واحد » . الصبح يطلع على مثله . والليل ، الليل العجيب لا تنفد أسراره ، ظلمة حلولكا ، يتصل السواد فيها بالسواد . ولم كل هذا ؟ لأنها خلت من عنصر الشعر . . . والحياة إذا خلت منه يبقى فيها أشياء كثيرة : يبقى فيها الطعم الشهى ، والشرب الهنى ، والفراش الوطىء . . . ولـكنها مع هذا تبقى تافهة ، ثقيلة على كثير من النفوس . . . ولا يبقى فيها إلا المعنى المبتذل الرخيص .

فى الشعر حبٌّ يسمو بالروح ، وجمالٌ يرتفع عن مطالب البدن ، وفيه سموٌّ فى العاطفة ، وفيه نبالةٌ ، وفيه خلود ؛ فاذا أقفرت الحياة من هذه العناصر التى يتكون منها الشعر ، فاذا عسى أن تكون ؟ وماذا عسى أن يبقى فيها ؟ كيفما كانت فهى حياتنا التى نحياها ، وأيامنا التى نعيشها . فوا رحمة الله ، أ إذا عُدَّ المجاهدون ، واحتسب الناسُ أعمالهم ، فهل لنا أن نحلم باحتساب وجودنا ؟ . . وكيف ؟ ولم نرابط ، ولم ننفق فى سبيل الله درهما . . .

الشعر يرحب الآفاق ، ويصل المعلوم بالمجهول ، فترتمى العين ، تغرق فى اللانهاية . ويسبح الفكر طليقاً حراً ، لا يقيده مقيد ، ولا يحد من نشاطه محدود . . . ثم تحملك القصيدة المجنحة إلى أين ؟ لا ندرى ، ولـكن يقول الذين ذاقوا لذة الحياة فى الشعر : إلى دنيا حالمة ، كوعد الحبيب ، تحرزه من حركة الشفة أكثر مما تتبينه من تمتمة الكلمة السكرى بخمرة الريق . . .

فاذا لم يوسّع فى الحيـاة الشعر ، ولم يعد فى أكنافها ، انكمشت على نفسها ، وانطوت على ذاتها ؛ فهى فى رأى الدين بيت تحده جدران أربعة ، وهى فى رأى الفكر المكدود ، ديوان عمل ، يبقى فيه بقية الصبا ، ويذيل على أعتابه أطايب ما فى الشباب . . . وإذا كانت مطالب الحياة السخيفة تقسرنا على التافهة ، لا على مبدأ حق نرتفع به ، ولا على إزاحة ظلم نسمو بسحقه . . . وإذا كان هنالك من يصر على أن هذه هى الحياة ، فله ذلك ، على أن يقر أن مهارشتنا قصيدة أروع ما فيها صفارة الجندى ، وبيتها القذ عصاه . . . إننا نرقى ولـكن إلى تحت ، ونعيش ولـكن العيشة التى يشاطرنا إياها كل من دب وعاش لغير الجمال والحق . . .

والذى يعيش فى عالم الشعر فحسب ، يدرك السمو فى قول الحق ، ويحرك أى قلب بدى ، وأى جناح يهاض

فى سبيله ؛ فمن دمه تنبت البذرة ، وعلى جناحه المهيض يعلو ويشمخر بناء الحق . . . ، فإذا كنا يقعدنا الخور ، ويعجزنا الاقتار ، فتمر بنا مشاهد الظلم ، وصور الذل والضيم ، فلا نرفع رأساً ، ولا نحرك ساكناً ، بله أن ننطق بكلمة ؛ فما عسى أن نسمى هذه الحياة ؟ أهى حياة ؟

حياةٌ على رغم منا ، ولكن . . . بلا شعر .

وإذا كانت الحياة لا ترينا من الجمال إلا أتفهه ، الزهرة تحلم ، والفجر يطل على الخليقة كالأمل مستسراً ثم يتفتح قليلا قليلا . . . ثم نحن أولاء لا نرى فى هذه إلا مناظر متكررة ، وصوراً معادة ، لا يليق أن يأبه لها خيال الرجل ذو الأيد . وإذا كان الربيع يزحمنا إلى بيوتنا ، ثم نحن لا نرى فيه إلا أقواتاً لدوابنا ومواشينا ، فأى معنى سام بقى فى الحياة الخالية من الشعر ؟ .

مرَّ على هذه الدنيا أناسٌ كثيرون ، تبرموا بها ، وسخطوا عليها ، ولا إخال الساخطين والمتبرمين نقموا عليها ، على الحياة التى استأهلت تبرمهم ، واستحقت سخطهم ، إلا لخلوها من الشعر والحياة به . . طلبوا العدل ، وهل العدل إلا عند من يتفهمون الشعر ، ويحيون له ؟ . إن الذين يرون أن حياتهم يومٌ وتنتهى ، لهم أحرصُ على يومهم من أن يفقد رونقه ، ويخسر بهجته ، بإعطاء الحق من أنفسهم للناس . . طلبوا الرحمة ، وأين الرحمة عند من لا يحسون الحياة إلى بحواسهم ؟ وكيف يرون ، ودبيب الأسى يُرى بغير الباصرة ؟ وكيف يسمعون ، وأنات الشجى تسمع بغير الآذان ؟ . . نقموا عليها أشياء وأشياء ، وإذا رحت تجمعها ، فليست إلا الشعر ، وما ينطوى تحته ، وما ينبعث منه .

يقولون إن المرء يطالع فى الحياة صورة نفسه ؛ فإذا صح هذا وهو صحيح ، فمعنى هذا أن نفوسنا هى المقفرة من دواعى الجمال ، ومستوحيات النفوس الشاعرة ؛ ولكن بقى مع هذا شىء ، وهو أن النفوس التى ترى الجمال وتعشقه ، لا تُسرُّ به ، ولا تهنأ بعشقه ، إلا إذا وجدت من يشاطرها المتعة . . . ، وشىءٌ آخر : أليس من المؤلم — على كل حال — أن فى هذا الركن من الدنيا نفوساً تعرف لذة الحياة فى الشعر ، ولا تستطيع أن تحيا هذه الحياة ؟ . إخال أن هذا أشد ما يحزُّ على النفس من ضروب الإيلام . . .

ربَّ إذا كان التبرم بالحياة بداية التحول إلى ما هو أسمى وأمثل . . . فهل يكون تبرمنا من الواقع ، وتأففنا منه « قصيدة » . . . عسى وعسى أن نسلك بها فى عداد الخالدين .

(شرق الأردن) عبد الحليم عباس

أدباء الطليعة

٢ – حسين عفيف

للأستاذ محمود المنجوري

عرفت حسيناً مذ كنا نطلب العلم في المدرسة الخديوية ، ونتصدر معاً مجلتها في عامها الأول ، وعرفته تلميذاً محبباً إلى المرحوم محمود مراد في جمعية التمثيل والموسيقى ، تلك البيئة التي كانت أول مدرسة نمت فيها مواهبه . ثم عرفته محامياً فأديباً ، عرفته في جميع مراحل حياته ، حلوها ومرها ، فكان دائماً الشاعر الذي ينظر إلى الدنيا كأغنية مثالية ، يوقع ألحانها على أوتار قلبه ، فتخرج بهيجة تارة وحزينة أخرى ، ولكنها تخرج منغومة . وهكذا يتحول كل شيء في قلب عفيف إلى نغم . فهو يحب أحزانه ، ويُدنيها إلى قلبه ، ويبالغ في الترنم بها ، ويقول في هذا : « مزيجٌ من الحزن والفرح الحياةُ ، فلتكن مزيجاً من الدموع والابتسام حياتُنا . وأنتِ ياعين انطلقي في إثر الجمال ، بسناه اكتحلي وبأساه ادمعي . » . كما يقول في موضع آخر : « ما وفَى لأسيه مَن ضنّ عليه بالألم ، ولا برّ بذكرياته من لم يسترخص في سبيلها الدموع » .

ولعل معرفتي لحسين هي السبب في تأخري عن الكتابة عنه ، لأني خشيت أن يقال لقد قرّظ الصديق صديقه . غير أني عدت فتساءلت : ألا يمكن للصديق أن يكتب عن صديقه دون ميل ؟ بل إني ذهبت في التساؤل إلى أبعد من هذا ، فقلت : منذا أولى من الصديق بالكتابة عن صديقه ، والصداقة من مقومات فهم الكاتب فهماً صحيحاً ؟ وعندئذ عزمت على أن أكتب ، وحفزني أن أحداً من الأدباء لم يقم بهذا الواجب نحو أدبه الذي يتهافت الآن عليه القراء .

لقد استطاع عفيف أن (يُغنّن) الأدب – إن جاز هذا التعبير ، ويُخرج لنا في نثره كلاماً موزوناً ملحّناً تلحيناً موسيقياً ، ويرسم لنا صوراً تكاد ترى فيها الألوان ناطقة ، والعواطف متلاحقة ، هادئة حيناً وثائرة آخر . وإنك لتحس وأنت تقرأ كتبه أن روحاً ملهمة تهبط عليك وتتمشى في جوانب نفسك ، وتشع فيها الكثير من معاني الحياة التي يريد حسين أن يصورها لك . فهذه الظلال التي تسبق معانيه ، وهذه الأنغام التي تنبعث من أسلوبه ، هي ومضات من روح هذا الشاعر يعكسها في رفق على نفسك حين تقرأ كتاباً من كتبه ، وهي كثيرة . « مناجاة » و « الأغنية » و « الزنبقة » و « البلبل » و « سهير » و « وحيد » و « العبير » ، كل هذه أسماء كتبه التي ساق فيها الكثير من الصور النفسية ، وأضفى عليها من الفن الجميل ما جعلها تبدو كأنها تماثيل شاخصة في متحف الجمال . فكتب عفيف هي متاحف مثالية للفن والأدب يشخّص لنا فيها المعاني والأحاسيس المختلفة ، بعد أن يغرقها في حشد من الألوان والأنغام .

وإن رسالته في الأدب ، لهي رسالة الشاعر المثالي الذي حمل قيثارته منشداً عواطف البشرية وآلامها ، مستلهماً غرائز الحياة وطبائع الأشياء ، متخذاً الدنيا وطناً له ، ناظراً إلى المدنية كتراث للجميع . وهو لهذا يرى في نفسه صورة عالية تصور المحبة والإخاء أحياناً ، وتصور الأضداد أخرى ، لكنها في الحالتين لا تنشد إلا الحق والجمال .

وأظهر ما في أدب عفيف حبه للجمال . فهو موكول به يتيمه كما تيمه « عمر بن أبي ربيعة » و « بيرون » و « موسيه » من قبل ! وفي ذلك يقول : « في فؤادي متسَّعٌ من الحب على قدر ما في هذه الحياة من حسان » . ولكنه كمجنون ليلى ، هام به في أفق سماوي ، كما يدل على ذلك قوله : « أواه يا حبيبتي ! إنك لتأتين إليَّ في

وكأن كل شيء جميل . في السنا ، في الشذا ، في النغم الحنون أحس دبيبك » . فالمرأة بجمالها وغدرها ، ودلها ونفورها ، وسلطانها واستسلامها ، عنصر حي في أدب عفيف.

وهو يمعن في الطهر فيقول : « أنا وأنت إلفان ، ما نفرد إلا معاً . أنا وأنت غصنان ، إنْ ملْنا فلنعتنق . إن دنا منا فـان فلكي يعطبقا . أو رنا لحظان فلكي يلتقيا . لا نغنّي غيراً . لا نخون حبنا . إنا في هوانا لا نشرك . إنا لا نعدد آلهتنا ، وما ينبغي . ما لنا والقبل الحرام ؟ تلك خمر لا نكهة فيها . حسْبنا أكؤسنا . وكفانا ما نشرب . إننا لم نأتِ على الكأس لنطمع في غيرها ، ولن نأتي عليها ولو عشنا مخلدين » .

ولكنه بعد هذا الاستقرار ما يلبث أن يعود إلى حيرته فيقول : « بفؤادي على كثرة من عرفتُ من الغيد ظمأ . فيا ويحك يا من ضيعتَ عمرك في العشق وما اهتديت لمحبوبك ! » . ثم يقول في موضع آخر : « فيا من أتيتُ الدنيا لأشدو بأنغامك ، لقد حانت ساعة الرحيل ولما أقض الوطر . ويا أيها الأنغام الشجية ! يا أشجى من كل ما غنّيت ، ارقدي معي بسلام ، فلقد قدِّر عليك ألا تخرجي للوجود ، وأن تظلي سجينة قلبي إلى الأبد » .

ويتخيل أنه اهتدى لحبيبته المثالية في ختام حياته ، فيخاطبها في لوعة قائلاً : « حتى إذا ما وصلتُ وشمسي تنحدر للمغيب ، وقد تهلهلت ثيابي وتخضبت قدماي بالجراح من طول السفر ، ألقيتُ بنفسي فوق صدرك الحنون ، وسألتك أن تدعيني أطبق على فمك ظمأ العمر بقبلة واحدة ، أودعها ما تبقّى من رمق ، ثم أسلم بين يديك أنفاسي وأموت » .

هذا الخيال المتجرد ، وهذه الحيرة ، تسمو أبداً بأسلوب عفيف إلى التصوف في كثير مما كتب . ومن أبرز أمثلة تصوفه قوله : « إيه يا نايي المبحوح ! إن بحتك لتنبع من جرح عميق انبثق مع فجر الخليقة ، جرح الألم من فراقها للروح السرمد . ما أنا إلا متمتم على فمك ، ننفخ الأغاني التي شدا بها جدودنا الأولون ، والتي سيتمها أحفادنا من بعد . »

وهو منذ كنا بالمدرسة ، نقرأ « الخيام » و « تاجور » لم يكن إلا مالكاً هذا القلب المتجرد الذي ينحو به نحو المثل العليا من التصوف والسمو عقومات شبابه أن تدنق إلى الاستهتار والامتزاج بالحياة على أنها متعة وعبث ليس غير .

وهو منذ صباه يعشق آلامه ويرى فيها النار المقدسة التي تصهر نفسه وتذكي قلبه وتخرج جواهره نقية .

فتراه يقول : « أنت يا قلبي يا بلبلي المغرّد ، أنت سواء أفي ظلال الأيك حلّقتَ أم على تلال حططت ، أنت سواء أعلى شفاه الورد غنّيت أم تحت وحدك — شهد الله ما ترسل الأنغام إلا شجية » .

وهو كثير الاعتزاز برسالته . انظره حين تستيقظ في وجدانه سورة الشاعر فيستنهض نفسه ويقول : « حان وقت الغناء فهيا ، أيها الشاعر وانفض وسنك . هيا ويمم مع الصباح صوب المروج ، وعصا سحرك في يسراك وفي يمينك نايك » .

وانظره حين يصف الشاعر في شخصه فيقول : « أنا إن تناولت اليراعة ناديت قلبي . أنا أسكب فيما أدبج روحي . من تهاويل الجمال نضدت شعري ، ومن أهواله بالشجي أترعته . أنا من إن شدا انتشت القلوب ، ومن إن بكى أذاب المهج . أنا خفقة كل قلب ، أنا دمعة كل عين ، أنا عاشق ، أنا شاعر . إما حللت فثم غرام ، وإما ارتحلت فثم شجى ، وفي كل روض لي زهرة ، وكل غدير لي فيه دمعة » .

وإنه ليصور لك الوفاء أبدع تصوير حين جاءته الدنيا تراوده عن أن ينسى أحزانه فأجابها : « إني أعرف كيف تتحايلين على سرقة نفائسنا . إنك تأتيننا وفي يدك تلك القلادة التي خلفتها الآن يداي . ولكنني سأفر من وجه حسناتك تلك . سأسكن صومعة بالجبل ، وعندئذ آمن مكر شيطانتك . لأن الشياطين ترهب صوامع النساك ، ولا تطأ الأمكنة المقدسة . وهنالك في ذلك المعبد المنعزل ، حيث

زورق فى الهواء

أسرَجوا الجوَّ واستطَوْه رِكابا
ثم مَرّوا فوقَ السّحاب سحابا

زاحموا النّونَ فى البحار وطاروا
يتحدّوْن فى الهواء العُقابا

ضيّقوا رقعةَ البسيطة حتى   لم يَعُدْ يشتكى بنوها اغترابا

●●●

راكبى الجوِّ قد ركبتم ذَلولاً   لا وِهاداً خشيتمو أو هِضابا

الطلقتمْ وسار يجبُر فيكمو   من حدا الفُلْكَ والمهارَ العرابا

ليت شعرى ، متى أراكم نقلتم
قدَمَيْكم إلى السُّها أسرابا ؟

وركبتم متْنَ الأثير براقاً   وكشفتم عن النجوم الحجابا ؟

ليس من ينعتُ الكواكب رجماً
مثلَ راءٍ رأى فقال صوابا

●●●

لا أصنامٌ إلا أحزانى ، ساكرس أيامى لتلك الآلهة » .

والمثل كثير على أن عفيفاً حين يكتب يستقطع من نفسه وكأنه يعصر روحه عصراً . ومن مميزات أدبه أنه ذو لون جديد ونكهة خاصة ينفرد بها . وأكاد أرى « تاجور » شاعر الهند العظيم فى حسين عفيف ، فشعره المنثور يحتاج فى تلاوته إلى ترتيل ومعرفة بمفاتيح النغم وأسراره . وإنى لأشهد أن من حق عفيف على الأدب أن يبحثه الأدباء ويسبروا غور هذه النفس الشاعرة الملهمة التى أخلصت لرسالتها الإخلاص كله ، وشقت طريقها إلى قلوب قرائها بنفسها ، دون أن تستعين عن يقدمها إليهم ، فأثبتت بذلك إيمانها بقدرتها وصانت كرامتها من الزلفى . وأدت رسالتها أداءً كريماً .

محمود المتبورى

زورقٌ شقَّ فى الهواء طريقاً   فكأنَّ الهواء صار عُبابا

طائرٌ ليس كالطيور . صقيلٌ
مستقيمُ الجناح صُلْبُ الذُّنابى

مُشرِقٌ . أمُّه الحضارةُ والعلـ   ـمُ أبوه إذا أراد انتسابا

نفخوا الرُّوحَ فيه وهو جمادٌ   وكسوْهُ من الحديد إهابا

تنحنى الرّيحُ إذ تراه وتمشى   زُمَرُ الطير خلفه أسرابا

مَلَكٌ فى السلام حتى إذا ما   خاض نار الحروب كان شهابا

إنْ أراد السلامَ كان حماماً   أو أراد الدمار كان غرابا

كم سقى الناسَ فى السلام سلاماً
وسقاهم فى الحرب سمّاً مُذابا

كم رمى الغازَ فاستحال شُجاعاً
تستعيرُ الحيّاتُ منه اللُّعابا

قذف الأرضَ باللظى وتولّى   فى حمى الجوِّ آمناً أن يُصابا

رُبَّ سهمٍ فى الجو أصمى ، وسهمٍ
فى الثرى عَىَّ أن يَصيدَ الذُّبابا

●●●

أيها الطائرُ المحلّقُ نجماً   أنتَ أحدثتَ فى الحياة انقلابا

كم مَقَتْنا الأجداثَ الثورَ مقتاً   وكرهنا المُناخَ إن هو طابا

واستطبنا الرياحَ إن هى ثارت
وطلبنا الدُّجى وَرُمنا الضّبابا

قد بلوناك عادياً فوجدنا   كَ أحدَّ الطيورِ ظُفراً ونابا

لكَ عَدْوُ الظباء سارت خِفافاً
وزئيرُ الأسودِ ثارت غِضابا

●●●

هتف الخلقُ للعلوم زماناً   واجتلى برقَها فكان سرابا

خَشيتها تَعْمُرُ الوجودَ ، فكانت
معْوَلاً يتركُ الوجودَ خرابا

محمود غنيم

بحيرة الأسفلت بترينيداد

للأسفلت فضل كبير على المدنية لما أداه من خدمة ساعدت على تمهيد الطرق التى لا غنى للسيارات عنها ، حتى تستطيع العدو بأقصى سرعة فى سهولة ورفق يحميها من الهشم ويقيها من الأتربة الشنيعة .

ولعل أول مكان عرف فيه الأسفلت واستخرج منه هو بحيرة الأسفلت بترينيداد الواقعة فى الجزيرة المسماة بهذا الاسم فى الشمال الشرقى من أمريكا الجنوبية ؛ تلك الجزيرة التى حط رحاله عليهـا خريستوف كلومبس فى صيف سنة ١٤٩٨ . وزارها بعد ذلك بنحو مائة عام العالم والرحالة الانجليزى الشهير السير والتر رالى ، ونزل فى الميناء الذى يسمى هناك « لابرو » (La Brea) وهى كلمة أسبانية معناها القطران أو الزفت .

وعلى مقربة من هذا الميناء الصغير (قرية لابرو) تقع البحيرة ويصلهما طريق متدرج يرتفع بالتدريج من سطح البحر حتى يصل إلى ارتفاع يبلغ نحو ١٣٠ قدما عند ما ينتهى إلى هذه البحيرة الأسفلتية . وقد قدرت مساحتها تقديرات مختلفة تتراوح بين ١٠٠ و ١٤٨ فداناً .

والقادم على هـذه المنطقة من ناحية البحر يراها كأنها صخور سوداء لامعة ، فاذا ما اقترب منها الانسان شم رائحة قوية منفرة أساسها الكبريت ومركباته . وتنتشر هذه الرائحة فى خلال مسافات واسعة تمتد إلى محيط دائرة يبلغ نصف قطرها نحو عشرة أميال .

وفى عام ١٨١٦ زار البحيرة الدكتور ناجت ، وكتب عنها عقب زيارته يقول : « صعدنا إلى التل واستخدمنا دليلاً من السود فادنا خلال غابة سرنا فيها نحو ثلاثة أرباع الميل ، وعندها شممنا رائحة الكبريت القوية الممتزجة برائحة الفحم المحترق ، وبعد قليل ظهرت أمامنا البحيرة كأنها متسع من الماء الراكد تتخلله بقع من شجيرات قصيرة أو جذور من الأعشاب . ولما ازددنا قرباً منها تجلت لنا حقيقتها ، فاذا بها سهل متسع مترامى الأطراف ممتلىء بالزفت المعدنى تتخلله شقوق ووهاد غمرها الماء ، وفى البحيرة تظهر بقع تنمو عليها الأعشاب والحشائش الطويلة » .

ومما قيل عن هذه البحيرة أنه مهما كثرت كمية الأسفلت المستخرجة منها ، فانه لا يظهر أى تغير فى مستواها . وهذا القول له نصيب من الصحة ، كما أن فيه بعض الخطأ كذلك ؛ فهو صحيح لأن جوانب البحيرة تهبط ببطء نحو الداخل كلما ازداد السحب من الأسفلت . وهذا العامل يجعل مستواها يبدو كما لو كان قد ارتفع ولو نسبياً وظاهرياً . أما وجه الخطأ فهو أن القياس الدقيق قد أثبت بصفة قاطعة هبوط مستوى البحيرة بمقدار قدم واحد سنوياً . وكذلك تدلنا الاحصاآت التى عملت بين عام ١٨٩٣ وعام ١٩٠٢ أن مقدار الأسفلت الذى استخرج من البحيرة قد بلغ حوالى مليون طن ، وبلغ الهبوط فى مستواها على أثر ذلك نحو ٤½ من الأقدام . أما النقص فى مساحتها فقد قدّر بنحو ١٣ فداناً .

وقوام المادة التى تملأ البحيرة من التماسك بحيث يسمح بمرور الانسان على سطحها بكل اطمئنان ؛ ولكن الأقدام تغوص بضع بوصات بمجرد محاولة الشخص الذى عر فوقها الوقوف بعد المشى . أما الجزء الأوسط منهـا (المسمى بأم البحيرة) فهو على جانب عظيم من الليونة ، بحيث يستحيل المشى عليه .

ومن خصائص هذه البحيرة أن بها حركة دائرية مستديمة يدل عليها ظهور قطع من الخشب على السطح قريباً من الوسط ، ثم تحركها ببطء عظيم لكن باستمرار نحو الجوانب ، حتى إذا ما بلغتها أو اقتربت

منها غاصت إلى الأعماق مختفية .

ولعل من المسائل المحيرة بشأن هذه البحيرة ، والتى لاتكاد تصدق ، نمو النبات على الأسفلت الذى لا يستطيع أن يمد النبات بأى غذاء ما . ومع ذلك فإن جذور هذه النباتات تمتد إلى عمق شديد ، وتنفذ إلى طبقات سحيقة ، حتى إن بعضها ويبلغ ارتفاعه نحو ٥ أمتار يظل قائماً ثابتاً على الرغم من شدة الرياح التى تهب هناك . والظاهر أن بعض الحبوب تنبت حيث تتجمع رقع من المادة السطح ؛ وهذا يؤيد نمو النبات داخل البحيرة واستمرار الحركة الفائرية التى ذكرناها من قبل .

وقد قام عدد من كبار أساتذة علم النبات بفحص خشب تلك الشجرة ، وانتهوا إلى أنها من فصيلة تشبه الأشجار التى تنمو بتلك المنطقة ؛ وأما ما ظهر عليها من بوادر التفكك أو علامات الانحلال فى الأنسجة ، فقد عللوه بالتعرض مدة طويلة للحرارة التى فى باطن البحيرة ، وكذلك بطول الزمن الذى ظلت فيه مغمورة تحت السطح



منظر بحيرة الأسفلت بترينيداد كما تظهر من طائرة فوقها

النباتية فى الوهاد المنخفضة فى البحيرة التى أشرنا إليها سابقاً ؛ وإلى هذه البقع تنفذ بعض الأملاح التى تذوب فى مياهها وتعين على نمو النباتات .

وفى فبراير سنة ١٩٢٨ ظهرت على سطح البحيرة شجرة كاملة ارتفعت إلى علو بلغ نحو ١٠ أقدام فوق السطح ، وبعد ستة أسابيع عادت فاختفت بالتدريج ، على الرغم من قلة كثافتها التى كانت تقضى بأن تظل عائمة فوق

وقد حدث أن أنبوبة طولها ١٦٠ قدماً دقت لكى تصل إلى قاع البحيرة ، لكنها محاولة فشلت تماماً ؛ فما كاد يمضى سنتان على اختفائها تحت السطح حتى ظهرت على بعد ٨٠٠ قدم من المكان الذى دقت فيه ، ظهرت مهشمة الأجزاء بها كثير من الاعوجاج ؛ وهذا يؤيد بالتالى الحركة الدورانية التى أشرنا إليها فيما سبق ، والتى لم نعثر بعد على تفسير مقنع لوجودها .

جولة فى معرض القاهرة الحادى والعشرين

أشرنا فى عدد ماض إلى معرض القاهرة الحادى والعشرين . ونحن ننشر هنا بعض الصور التى اخترناها مراعين فيها أن تمثل نواحى هذا المعرض المختلفة .

فى صورة المسيو ربعون للأستاذ الفنان محمد حسن تبدو القدرة على إظهار الشخصية وتركيزها فى الوجه بمختلف أجزائه . .



« ذات الرداء الأصفر » — للأستاذ أحمد صبرى



« مسيو ربعون » — للأستاذ محمد حسن



« صورة سيدة » — للأستاذ حسنى محمد البنانى

وفى لوحات الأساتذة أحمد صبرى ، وسند بسطا ، وحسنى محمد البنانى ، يستطيع القارئ أن يتبين مدى جهد الفنان فى اختيار الوضع المناسب لموضوع لوحته .

وما دمنا نتكلم عن الوضع فلا بد أن نشير إلى لوحة الفنان محمود سعيد التي يتعاون فيها الوضع مع اختيار الألوان لإبراز فكرة الفنان في طابع فنه الذي لا يحيد عنه ، وهو الاعتماد على إبراز أجزاء الجسم في وضع يعاون الفكرة .



« صورة » — للأستاذ محمود سعيد

ولقد خصصت إدارة المعرض هذا العام حجرة للوحات الأستاذ حسين محمد فوزي . ونحن ننشر هنا صورتين



« الدلالة » — للأستاذ حسين محمد فوزي



« السقاء » — للأستاذ حسين محمد فوزي

للوحتين من لوحاته ، فقد اختار موضوعيهما من الحياة المصرية القريبة ؛ وفي هاتين اللوحتين تبدو مقدرة الفنان على تصوير المجموعات ، كما تبدو دقته في تحري جميع تفاصيل اللوحة .

صلاح الدين ذهني

إنه في يوم السبت ٧ يونيه سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية القيسة والأيام التالية إذا دعت الحالة سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك تمام سيد عبد العال من القيسة نفاذاً لحكم نمرة ٩٠٦٢ سنة ١٩٣٧ مجمع عابدين وفاء لمبلغ ٦٨٩٥ قرش صاغ بما فيه رسم التنفيذ وأجرة النشر ورسم إعادة الإجراءات كطلب فرج السيد تادرس من قرشوط

قبل راقب القراء الحضور

إنه في يوم ١٥ يونيه سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية طود وإن لم يتم يكون يوم الخميس ١٩ منه بسوق الوابورات سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك الشيخ محمد محمد أحمد سليم محمدة طود نفاذاً للحكم رقم ٩٣٤ سنة ١٩٢٩ الأقصر وفاء لمبلغ ٦٢ جنيه و ٦٨٥ مليم بما في ذلك جميع المصاريف كطلب حضرة حسن بك أحمد المديني .

قبل راقب القراء الحضور .

إنه في يوم الثلاثاء ٣ يونيه سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية شبرا زنجي مركز منوف واليوم التالي سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك سيد حسان جلال وآخرين نفاذاً لحكم محكمة منوف الأهلية في القضية المدنية رقم ١٠٣٣ سنة ١٩٤٠ وفاء لمبلغ ٣٥٧ قرش صاغ لغاية رسم النشر كطلب إبراهيم حسن حنيش

قبل راقب القراء الحضور

البياض الأسود

من ديوان حسن بك صبري

وَسَائِلٍ أَجَبْتُهُ   وَالنَّارُ تَرْعَى كَبِدِي :
يَوْمِي كَأَمْسِي أَبَدًا   فَلَا تَسَلْنِي فِي غَدِي
إِنْ لَمْ تَعُدْ شَبِيبَتِي   فَلَنْ يَزُولَ كَمَدِي
وَلَنْ تَعُودَ مُهْجَتِي   رَاغِبَةً فِي جَسَدِي
وَمَا زَوَالُ الثَّغْرِ مِنْ   عَوْدِ الصِّبَا بِأَبْعَدِ
فَلَا مُجِيرَ لِي إِذَنْ   سِوَى الكَرَى المُخَلَّدِ
يَا لَيْتَهُ أَدْرَكَنِي   قَبْلَ البَيَاضِ الأَسْوَدِ

محكمة شبين القناطر الجزئية الأهلية

إعلان بيع في القضية رقم ١٨٩ سنة ١٩٣٧

إنه في يوم الاثنين ٣٠ يونيو سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسراي المحكمة سيباع بالمزاد العلني العقار الآتي بيانه بعد ملك محمود السيد رمضان الفقي ورمضان السيد رمضان الفقي وأحمد السيد رمضان الفقي ومحمد السيد رمضان الفقي ومؤمنة السيد رمضان الفقي وهنا السيد رمضان الفقي وهانم السيد رمضان الفقي الجميع ورثة المرحوم السيد رمضان الفقي ومقيمون بناحية نوب طحا مركز شبين القناطر نفاذاً للحكم الصادر في قضية نزع الملكية رقم ١٨٩ سنة ١٩٣٧ بتاريخ ١٢ أبريل سنة ١٩٣٧ ومسجل بمحكمة مصر المختلطة بتاريخ ١٩٣٧/٤/١٧ رقم ٦٦٨ وفاء لمبلغ ٤٠ جنيه و٨٧٥ مليم والثمن الأساسي قدره ١٠ جنيه و٩٦٠ مليم بعد تنقيص الخمس بجلسة ١٢ مايو سنة ١٩٤١ بخلاف المصاريف والفوائد .

بيان العقار

س ط فدان

١ فدان واحد أطيان زراعية شائعة في ٣ فدان و٧ط و١٢س كائنة بناحية نوب طحا مركز شبين القناطر القليوبية بالقطعة نمرة ١ بحوض العلوة نمرة ٧ ومحدودة بحدود أربع البحري سكة خصوصية بجسريها نوع ثالث فاصل حوضين ماسكة والشرقي بعضه نمرة ٢ ورثة رضوان حسن علي صابر وبعضه نمرة ٣ الحرمه شلباية بنت إبراهيم وبعضه نمرة ٤ ورثة سالم وورثة علية بنتها والقبلي والغربي طريق خصوصي نوع ثالث فاصل حوضين وشروط البيع مرفقة بالأوراق بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها وهذا البيع بناء على طلب حضرة اسكندر أفندي يوسف إبراهيم المقيم بشارع روض الفرج بشبرا بمصر ومحله المختار مكتب حضرة الأستاذ علي أفندي محمد سلامه المحامي بشارع فؤاد الأول رقم ١٤٥ بمصر فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان المذكورين أعلاه ومن يرسى عليه المزاد يدفع الثمن فوراً وإن تأخر يعاد البيع على ذمته ويلزم بالفرق   كاتب البيوع

إنه في يوم الأربعاء ١١ يونيه سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية ميت رومي وسوق دكرنس سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك منصور الشبراوي من الناحية تنفيذاً لأمر التقدير الصادر بتاريخ ١٩٤١/٤/٢٤ وعلى محضر الحجز المؤرخ ٢٨ ابريل سنة ١٩٤١ وفاء لمبلغ ٥٧٨ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر وما يستجد كطلب الأستاذ عبد العزيز اسماعيل المحامي بدكرنس   فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم ٢٥ يونيه سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية كفر دقاق مركز شبين الكوم وفي اليوم التالي بسوق شبين الكوم إن لم يتم البيع في اليوم الأول سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك أم ابراهيم بدر الوصية على أولادها وفاء لمبلغ ٢ جنيه و٧٦٠ مليم بخلاف أجرة النشر وذلك قيمة المطلوب لقلم الكتاب في القضية المدنية رقم ٣١٣٩ سنة ١٩٤٠ شبين الكوم   فعلى راغب الشراء الحضور

إنه في يوم الخميس ٥ يونيه سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية الشوارنية مركز أخميم والأيام التالية إذا لزم الحال سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك فهمي أحمد بلال وفاء لمبلغ ١٣٧٢ قرشاً صاغاً بخلاف أجرة هذا النشر نفاذاً للحكم رقم ٢٠٤٨ سنة ١٩٤٠ أخميم كطلب هاشم إبراهيم عبد الهادي من الشوارنية   فعلى راغب الشراء الحضور

رجاء مكرر

لأصحاب الاعلانات القضائية

نرجو من حضرات أصحاب الإعلانات القضائية مراعاة كتابتها بخط واضح منعاً من الوقوع في خطأ يضر بمصلحتهم .

ضحكات ابليس ...

دراسة ونقد

الأستاذ صلاح الدين ذهني قصصي لاذع فكه . لا يمكن أن أقرأ اسمه في فهرس الثقافة أمام عنوان قصة إلا وثب إلى ذهني . . استنتاج بأني سأجد قصة لا تخلو من أسطر من الفكاهة الخفيفة اللاذعة في غير عنف . . ولا أذكر أن استنتاجي خاب مرة .

ومع أني لم أتشرف بلقاء الأستاذ ذهني بعد ، حتى يمكن أن أعطى صورة له ، إلا أني أستطيع أن أتصوره رجلاً لطيف الشاعر ، ولطف الشاعر معناه عندي أنه دقيقها في غير عنف ؛ إذا رأى شيئاً أو صادف ما يؤثر على نفسه ، لم يكن لهذا التأثير انفعالاته العكسية العنيفة كما يعبر علماء النفس . فلا هو عنيف الغضب مما يغضب ، ولا هو عنيف المرح أو الطرب مما يفرح أو يطرب . وإنما غاية الأمر تأثر انجليزي متزن ، لا يمت كثيراً إلى عنف انفعالات سكان البحر الأبيض . .

وهدوء تأثره قد أكسبه قدرة خفيفة على التهكم المرير ، والسخرية المهذبة ؛ تلمس ذلك في الأسلوب الذي يصف به أبطاله ، وفي النهايات التي يختم بها قصصه ؛ فهو « غاوى خيبة » لا يمكن أن يترك بطلاً من أبطاله ممن يتمتعون بعطف القراء دون أن يخيب عطف القراء وأملهم في أن يتمتع ذلك البطل بقليل من مكافأة الحياة . . وهذا شيء يبعث بالغيظ إلى النفوس . ففي مجموعته الأخيرة « ضحكات إبليس » لا توجد قصة واحدة تنتهي دون خيبة أمل البطل ، اللهم إلا « التوبة » ، ونهايتها لا تعدو أن تكون « توبة » . .

بل إن هدوء طبعه قد أتاح له فرصة صرف بعض الطاقة الوجدانية عنده إلى التفكير في المسائل الاجتماعية العامة ؛ وهي ظاهرة جديرة بالالتفات ، لأننا نحن الشرقيين لا يمكن أن نفكر في الشؤون الاجتماعية ، إلا من خلال آلامنا الخاصة . فالغنى عندنا يبغض الفقير لا لشيء إلا لأن منظره يؤلم عينه الترفة ، والفقير يحقد على الغنى لأنه محروم مما عنده . أما أن نفكر في الإصلاح لمجرد الرغبة العامة والنظرة الجامعة في الاصلاح فليس هذا من شأننا . نحن أمة تغلب عليها « الفردية » التي تقف عقبة كأداء في سبيل تحول آرائنا وانفعالاتنا إلى آراء ومبادىء اجتماعية شاملة . والأستاذ ذهني ليس من هذا الطراز ؛ فهو ينظر وينتقد ، ثم يصور نقده في قصة تبين الخطأ الذي التفت إليه ، ويعطى من خلال ذلك بعض الكلمات التي تنم عن رغبته وتفكيره المتصل في الاصلاح لمجرد الاصلاح لا لكي يوفر على نفسه عناء النظر إلى الأخطاء التي تملأ حياتنا في مصر .

وهذه الرغبة فيه تدل على أنه « طيب القلب حسن القصد » ، وهو فعلاً كذلك ؛ فإنه حتى في الصور التي يبين فيها بعض أخطاء المجتمع ، لا يقسو على أبطاله المخطئين ، بل هو معهم رفيق شفيق . . ليس « كسومرست موهام » الكاتب الانجليزي الكبير يخرج عن أبطاله أغطيتهم في عنف وحقد وتشف . . ولا « زولا » الكاتب الفرنسي يجرح البشرية بالبحث والغوص وراء أقذارها .

غير أني أريد أن أقول إنه يقتضب قصصه اقتضاباً دون أن يوفيها حقها . إن الأفكار التي تنطوي عليها قصصه جميلة . . وهو يشق طريقه إلى فكرة القصة بعد أن يمهده تماماً . . ولكن آه يا سيدي ! لو أنك تلكأت قليلاً وزرعت بعضاً من الورد على جانبي هذا الطريق الممهد . إذاً لبدا أكثر جمالاً وأعمق أثراً . .

وأريد أن أقول يا سيدي إنك متواضع أكثر مما يجب . إنك لست مغروراً بنفسك ولا أنت معتد بها . . وهذا عندي نقص — إذا سمحت وتغاضيت عن جفاف هذا التعبير — كن معتداً يا سيدي . كن مغروراً تكن لك شخصية قصصية أكثر جلاء . . وأشد قوة . . إني أراك لا تسير على شخصية قصصية واحدة في كتابك . .

فأنت تارة تلميذ « توفيق الحكيم » ، وتارة تلميذ « طه حسين » .

ويبدو هذا الاختلاف واضحاً حين نقارن بين قصة « ضيف أفندى » (وهذا الاسم — على فكرة — لم يعجبنى أبداً) ، وقصة « عم محمود » . ولكن على كل حال شخصيتك اتضحت فى هذه المجموعة أكثر مما سبقها .

* * *

والآن لنقف عند بعض القصص . .

هناك مثلاً قصة « مانكان » ، وهى من أبدع قصص الكتاب . . ومقياس الابداع عندى ثبوتها الراسخ فى ذهنى . فقد قرأتها يوم نشرت لأول مرة فى « الثقافة » ثم قرأت بعدها كثيراً لمختلف الكتاب ، وهذه القصة لم يذهب شبحها من رأسى .

كما أن قصة التوبة قصة رائعة ، ليس فيها تلك المبالغات والاعترافات التى يسبغها الروائيون على تبكيت الضمير مما يخالف واقع الأمر فى الحياة . وإنما فيها وصف ذلك التطور النفسى واستجابتها الذى يبدأ أولاً بالمقاومة والعناد والاصرار على الخطأ ، والذى يسميه علماء النفس « امتداد الذات » ثم ينتهى إلى تلك الحقيقة المدركة ، متقلبة فى أدوارها الهادئة ظاهراً ، المتلاطمة فى داخل صدر « التائب » .

وفى قصة « أنتم السابقون » تصوير موفق للمل العمل الحكومى ، وعدم جاذبيته . . وقصة « نداء الفناء » ولو أنى أفضل اسم نداء الهاوية عليه ، إلا أن فيها لفتة نفسية قوية . رغم غضبك فى المقدمة على من يتخذون علم النفس أساساً لقصصهم ، وكذلك « ضحكات إبليس » . هى تأييد لتعليل « فرويد » للأحلام من أنها تنفيس عن رغبات العقل الباطن .

ثم قصة « مشكلة النماج » ، هذه القصة وإن كانت ذات معان قوية ، ومغزى متين ، إلا أنى — أصدقك القول — لا أعجب بالقصص التى تعالج شؤون الانسان ، على لسان أفراد من الحيوان ، على نمط « كليلة ودمنة » .

إنى أقرأ القصة وأنا واثق أنها لم تقع ولن تقع ، وهذا يقلل من قيمة الآراء التى لها عندى .

وقصة « قريتنا النموذجية » مثل جيل للغيرة الظاهرة التى فى صدرك ، والتى تساور كثيراً من شباب هذا الجيل فى الإصلاح ، ولكنها انتهت — كما هو دأبك — بالخيبة

وهناك بعد ذلك قصص كنت أمامها فاتراً غاية الفتور مثل « زاوية السقوط » و « ضحكات إبليس » و « فى الطريق » ! فزاوية السقوط ثقيلة الدم والظل ، وضحكات إبليس لا ينطبق عليها الاسم ، وفى الطريق قصة مبتورة فاترة .

* * *

وقد أعجبتنى بعض تشبيهات أستدل منها على أنك تعالج القصة عن موهبة وليس عن صناعة . فإن صناعة القصص هى التشبيهات والاستعارات التى لا تغرق فى البعد عن الحقيقة ، ولكنها تقدمها إلى العقل من خلال باقات من الزهور يختلف أريجها باختلاف قوتها . .

خذ مثلاً قولك : « . . . ولا زالت عقولهم تغلى ، وحياتهم تختزل فى سبيل الوصول . . » ، واختزال الحياة تشبيه موفق جيل (ص ٥٥ من قصة « أنتم السابقون ») .

وقولك فى قصة « التوبة » ص ٧٢ : « . . وحتى هذا الخان — حيث يأوى الهاربون من اليقظة والنوم معاً — كان قد أغلق أبوابه ، وكساء الليل مهابة . . . » .

هؤلاء « الهاربون من اليقظة والنوم » لا يمكن أن نجد ما ينطبق عليهم أكثر من قولك هذا فأهنئك . وغير ذلك كثير .

* * *

بعد ذلك أقول إن الكتاب فى مجموعه قفزة إلى الأمام موفقة أرجو أن تتلوها قفزات . حتى تصل إلى المكان الذى ترجوه ، والذى ألمح موقعه من خلال المقدمة التى قدمت بها الكتاب .

(كلية الحقوق) عبد المنعم حلمى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ — ٥٦٢٦٩

العدد ١٢٧ | الثلاثاء ٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — ٣ من يونيه سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــــدد

المطـــــاط

للدكتور أحمد زكي بك

في هذا المكان من « الثقافة » جرى الحديث عن البترول والحديد باعتبارهما أداتين من أدوات هذه المدنية الحاضرة في سلمها وحربها . واليوم يجري الحديث عن المطاط باعتباره أداة من أدوات هذه المدنية الحاضرة في سلمها وحربها أيضاً .

والبترول والحديد من طيبات هذه الأرض الصلدة الميتة الصامتة ، استبطنتهما صخورها من عصور طويلة تضرب بعيداً في الأزل ، فهما على أي صورة كانا ، وعلى أي طبع تطبّعا ، ليس للانسان على صورهما وطباعهما من سلطان . وهما إن زادا أو نقصا فليس للانسان حيلة فيما هما عليه من زيادة أو نقصان . أما المطاط فمن طيبات الأرض الرخوة الحيّة الناطقة ، استظهرته الأرض أشجاراً باسقة طويلة في عهود حديثة ، إن اتجهت بسنيها نحو التقدّم ، فما هو إلا قِدَم قريب لا يوغل في الماضي بعيداً . وهو من الطيبات التي دخلت في مقدور الإنسان يستنبط منها على هواه ، فله على صوره وطباعه سلطان أي سلطان ، وله عليه القدرة كل القدرة في زيادة أو نقصان ، فهو اليوم لو شاء للأ بشجره الأرض حيثما تطيب له البيئة وتتفق الأجواء .

والحديد دخل في خدمة الإنسان من عهد بعيد ، والبترول دخل في خدمته من عهد قريب . وكذلك المطاط ، ولو أنه أحدث منه سناً — فالمطاط يكن احتسابه

من مواليد القرن الماضي ، ولكنه لم يبلغ الحلم ويصبح قادراً نافعاً واسع الحيلة حسن الخدمة خطير الواجبات منشور النفوذ إلا في هذه السنوات الأربعين التي تصرَّمت من هذا القرن الحاضر .

في القرن الماضي كان المطاط لاشك موجوداً ، وكانت له منافع ، إلا أنها كانت منافع قليلة لا تتطلب منه غير مقادير يسيرة . وعدا هذا فالقرن الماضي كان عهد دراسة المطاط ، وعهد استنباط لشجره ، فهو عهد تنشئة ، وعهد طفولة ، وعهد ترعرع ونمو . وقبل القرن الماضي لم يكن المطاط إلا غريبة من غرائب الوجود ، وتحفة من تحف المواد ، قيل عنها إنها « تنط كما ينط الأحياء » .



شجر مطاط في سنه الخامسة ، مزروع في الملايو

وموطن المطاط الأول أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى . وأول من وقعت عليه من عيون أهل الدنيا القديمة عين مكتشف أمريكا ، كريستوفر كولمبس ، رآه في زيارته الثانية للقارة الجديدة في عام ١٤٩٣ ، إذ رأى أبناء تلك البلاد يلعبون « بكرات ثقيلة سوداء تنط على الأرض » يصنعونها من صمغ بعض النباتات . وأعقب كولمبس رجالٌ آخرون رأوا هنالك ما رآه ، وحملوا منه إلى أوربا ما حملوه ، ولكن مع هذا بقي المطاط نحواً من قرنين أو ثلاثة لا وجود له إلا في المتاحف .

حتى إذا جاء عام ١٧٧٠ ، أو حول هذا ، اكتشف له عالم انجليزي خاصة جديدة تخرج به من ملاهي الأطفال إلى مشاغل الرجال ، ومن هذه الخاصة أخذ المطاط اسمه لدى الانجليز . أما الرجل العالم فالكيميائي الشهير بريستلي Priestly ، أول من حضّر الأكسجين من أكاسيده وهو لا يدري أنه يحضّره . هذا حضّر أكبر الغازات خطراً ؛ وأما الخاصة التي وجدها للمطاط فهي أنه يزيل الخط المكتوب على الورق بالرصاص ، أي هو يمسحه . وأما الاسم الانجليزي للمطاط فهو rubber ، ومعناه الماسح ، ومنه جئنا بالمفظة العربية « المساحة » ، والاسم الانجليزي الكامل للمطاط هو India rubber ، أي المسّاح الهندي ، نسبة إلى الهند ، وعنَوا بها جزائر الهند الغربية الأمريكية ، ومنها أو من طريقها جاء المطاطُ أوربا أول الأمر .

ثم يمر الزمن وينصرم القرن الثامن عشر ، ويبدأ القرن التاسع عشر ، ويأخذ يمضي منه العقد فالعقد ، والمطاط حيث هو ، يطرق باب الصناعة ولا يؤذن له بالدخول . وما كان هذا لنضوب الفكر عند الصناع أو لعقم الخيال عند المخترعين ، وكيف ينضب فكرهم أو يَعقُم خيالهم ، وقد رأوا بأعينهم أهل أمريكا الأصليين يصنعون منه حتى القنينات يصبّون فيها الماء وغير الماء . إنما كان ذلك لطبع سيئ في المطاط : أنه إذا برد الجو وزادت برودته تهشش ، وإذا دفئ الجو وزاد دفئه تلزّج . وبقي هذا حاله إلى قبيل منتصف ذلك القرن . وفي العقد الرابع والعقد الخامس منه كان العلماء يبحثون خواصه ، من حيث إذابته في المذيبات ، وتأثير خلطه بالمواد ، فاكتشفوا أنهم إذا سخنوه بشيء من كبريت العمود نتج منهما مطاط جديد أقوى من المطاط الأول ، وأكثر مرونة ، وأصبر على الحر والبرد . فهو لا يتفتت بانخفاض في درجة الحرارة ولا يتسيّل بارتفاع فيها . اكتشف هذا الكشف رجلان : أحدهما انجليزي ، واسمه هنكوك

Hancock ، وذلك في عام ١٨٤٠ ، ولا تزال في لندن شركة باسمه . والآخر أمريكي ، واسمه جوديير Goodyear وذلك في عام ١٨٤٦ ، وتحمل اسمه شركة عالمية في غير حاجة إلى تعريف . ولولا هذا الكشف ما كان خرج المطاط من عزلته ، ولا اتسع نطاق استخدامه ، ولا كان له هذا الخطر الكبير في حياة الناس .

وأسموا خلطه بالكبريت وأشباه الكبريت ، ثم معالجته بالنار ، « بَرْكنة » Vulcanisation ، وهي كلمة اشتقوها من اسم إله النار عند الرومان واسمه بركان Vulcan . ومن هذا اللفظ جاءت لفظتنا العربية بركان وبراكين وهي جبال النار .

وقبيل كشف البركنة ، أو عنده ، كانت بدأت صناعات جديدة يُستخدم فيها المطاط ، لم تلبث أن تأزّم بها الحال حتى كاد يُقضى عليها ، فلما جاءها هذا الكشف أخذ بيدها إلى حيث السعة والرخاء . ومن تلك الصناعات الناشئة البادئة صناعة الأقمشة الممطّطة ، أي التي أُشربت بالمطاط . وكان بدأها رجل اسكتلندي يدعى ماكنتوش Mackintosh . كان يذيب المطاط في البنزين ، ثم يسقي الأقمشة من محلوله فيتبخر البنزين ويخلف على القماش طبقة رقيقة من المطاط تحمي لابسه من البلل والأمطار . ولكنها أقمشة كانت لا تدوم طويلا ، وكان التلف يأتيها وشيكاً ، تلف في صقيع الشتاء ، وتلف في قيظة الصيف . ومرجع هذا فالمطاط قبل بَرْكنته يقي من الماء حقاً ، ولكنه يتبلل هو نفسه بامتصاصه بعض الماء . وزالت هذه العيوب جميعاً بعد اتصال وقع بين ماكنتوش صاحب هذه الصناعة ، وهنكوك صاحب البركنة . وقُدّر لهذه الصناعة أن تستأنف الحياة ، وتتمدّد وتتعدّد شركاتها ، وبقي اسم ماكنتوش إلى اليوم علماً على كل دثار يقي الجسم بلل الأمطار .

قالوا قديماً إن النجاح يورث النجاح . وقد نجحت صناعة الأقمشة الممططة باستخدام البركنة فنجحت البركنة بإنجاحها هذه الصناعة ، فطلب أهل الصناعات البركنة المزيد من التشجيع والإنجاح . ولم تمض سنوات على هذا الطلب حتى تحقق بخلق صناعة جديدة قدّر لها على مرّ السنين أن تتضخم ثم تتضخم حتى تستوعب المقدار الأكبر ، والأكبر كثيراً ، مما ينتجه العالم من المطاط ، مقداراً يزيد على ثلاثة أرباع نتاجه . وكان خلق هذه الصناعة في عام ١٨٩٠ . وكانت هذه الصناعة صناعة الأطارات من المطاط ، إطارات العجلات المنفوخة بالهواء ، سواء منها ما رُكّب على عجلة يد (بيسكلت) أو سيارة أو طائرة . وما زال فينا أحياء حضروا خلق هذه الأشياء وتتبعوا نموها من ختام القرن الماضي إلى انتصاف هذا القرن الحالي ، أو وشك انتصافه . والمتتبّع لهذا النمو يجد تناسباً مطرداً بين نموّ هذه المركوبات الثلاثة ، وبين ما استهلكه العالم من المطاط . فنتاج العالم اليوم من خامته يبلغ نحو ٢ مليون من الأطنان ، بلغها في زيادات



عامل يشق لحاء الشجر خطوطاً متوازية ويعلق لبنه في وعاء مربوط يحيط حول جذع الشجرة . وهذا اللبن إذا تجبن صار مطاطاً

مطردة متصاعدة على مرّ السنين . فبين عام ١٩٠٠ إلى ١٩١١ كان متوسط الزيادة السنوية من عام لعام نحواً من ٣٠٠٠ طن . وبين عام ١٩١١ وعام ١٩٣٦ كان متوسط الزيادة السنوية من عام لعام ٣٤٠٠٠ طن .

ومنذ دخل المطاط في صناعة هذه الإطارات ، في صناعة أقدام السيارات والطائرات التي بها تسير وعليها تدرج ، والتي لولاها لم تكن سيارة أو طائرة ، دخل المطاط في حظيرة المواد التي يعتز بها في السلم ، وتتكالب عليها الأمم في الحروب .

وسار نمو المطاط في شجره حاجة الناس إليه في مصانعه . وكان مصدره الطبيعي البرازيل ، في وادي نهر الأمزون وعلى جوانبه ، وهي مناطق نابت بها العدد الكثير من شجر المطاط ، نشأ هناك وحشيًّا . وظلت البرازيل مصدره الوحيد إلى عهد غير بعيد ، فلما اشتدت الحاجة إليه في أواخر القرن الماضي حاولوا استنباته . ولاستنباته لا بد من بذور . وعارضت البرازيل في إخراج البذور . وزاد في الحرج أن بذور المطاط رقيقة الزاج سريعة العطب . ولكن أملاً عريضاً كهذا تناصره أمة عريضة الجاه في أمم القرن الماضي لا يمكن أن يخيب . فما كان عام ١٨٧٦ حتى كانت ٧٠٠٠٠ بذرة في طريقها من البرازيل إلى انجلترا . وفي الحديقة النباتية اللندنية الشهيرة كيو Kew استنبتت هذه البذور . وكان لا بد من زراعته في بلدة تشبه البرازيل ، متوسط حرارة أرضها ٢٥° مئوية ، وتكاد تثبت على هذا طول العام ، ومتوسط ما تسقطه سماؤها من الأمطار في السنة ٨٠ إلى ١٣٠ بوصة . والامبراطورية البريطانية واسعة الأرجاء ، وبها كل الطقوس والأجواء . فاختاروا النبات الناشيء جزيرة سيلان ، حملوا إليها الفتيّ من هذا النبات عبر البحار في صناديق أجواؤها من أجواء وطن النبات الأول . ولم يمض على هذه التجربة الناجحة عامان حتى حملوا النبات إلى بُرما والملايو والهند الصينية وجاوه وسومطرا ، أعني تلك المجموعة من الجزر وأشباه الجزر في الركن الجنوبيّ الشرقيّ من آسيا . وهي متوزعة الملكية بين بريطانيا وهولندا وفرنسا . وكان محصول تلك المناطق ١١٠٠٠ طن من المطاط في عام ١٩١٠ . ثم ٣١٧٠٠٠ طن في عام ١٩٢٠ . ثم ٥٦٧٠٠٠ طن في عام ١٩٢٧ . ثم زاد نتاج هذا المطاط المستأنس الأسيوي كثيراً حتى طغى طغياناً كبيراً على ذلك المطاط الوحشي البرازيلي فكثّره عشرين ضعفاً . فمحصول البرازيل لا يبلغ اليوم غير نحو ٥٪ من المحصول المستنبت المزروع .

وإلى جانب المطاط الوحشيّ والمطاط المستأنس يوجد المطاط الكيميائي ، وهو لا يستخرج من النبات ، وإنما يركب تركيباً في المعمل الكيميائي من عناصره ، أو من أجسام كربونية غاية في البساطة تُركّب بدورها من عناصرها ، أو تستخرج مما ينتج النبات كالنشا . وأسبق الأمم إلى تركيب المطاط أحوج الأمم إليه ، وأصفر الأمم الصناعية يداً منه ، تلك ألمانيا . وقد دُفعت إلى تركيبه دفعاً في الحرب الماضية لما فرغ ما لديها من المطاط ، وكان لا بد منه لعجلة الحرب الدائرة . والحاجة تفتق الحيلة ، عند قدر . فاستخرجت من هذا المطاط بضعة آلاف من الأطنان . ولكنه كان سيء الخواص قليل المرونة ، وكانت مرونته وصفاته تزداد سوءاً بالقدم . وكان فوق ذلك غالي الثمن كبير التكاليف . فاحتمل الألمان سوء طعمه وغلوّ ثمنه ما بقيت الحرب . فلما استقر السلام ، وانفتحت البحار إلى تلك السوق الأسيوية الهندية العظيمة صار المطاط الصناعيّ أثراً بعد عين . ولكن أكاد أتخيل القوم ، وقد حبستهم هذه الحرب الحاضرة كما حبستهم الماضية ، قد عادوا إلى المطاط يستنبطونه بمعاملهم الكيميائية وما أوسعها . فقد كانوا قبل هذه الحرب يجدّوا في استخراج وحدانه التركيبية الأولى من البطاطس إذا لم تخمّروه سكرياً خاصة توجد على البطاطس إذا تعطّن . وهذه الوحدات تستحيل إلى مطاط إذا بقيت راقدة في أوعية مقفلة أربعة أشهر أو سنة .

أحمد زكي

٢ - الشيخ الدسوقى

ومستر «لين» Lane

للأستاذ أحمد أمين بك

أما صاحبنا إدوارد وليم «لين» فكان أكبر من صديقه الدسوقى بنحو عشر سنوات ، إذ ولد فى «هيرفورد» بإنجلترا سنة ١٨٠١ ؛ وكانت أمه متينة الخلق لطيفة الطبع ، فورث منها — كما كان يقول — كثيراً من حسن استعداده واستقامة تفكيره . تعلم فى مدرسة بلده ، ثم أريد أن يكون رجل دين ، فأبى ذلك وتخصص للاستشراق ، لجد فى التعلم والبحث حتى ساءت صحته ؛ فنُصح أن يذهب إلى مصر ، فجاءها لأول مرة شاباً سنة ١٨٢٥ ، وجعل همه أن يَدْرُس اللغة العربية فى أم أماكنها ، وأن يدرس حالة الشعب المصرى وأخلاقه وعاداته وثقافته وكل ما يتصل به ، فمكث فى ذلك ثلاث سنين ، متزيياً بزى الأتراك ، متسمياً منصور «أفندى زاده» ساكناً فى الأحياء الوطنية ، متنقلاً بين القاهرة والنوبة ؛ فكتب فى ذلك ما شاء من التعليقات واليوميات والملاحظات ، وعرضها على جمعية فى إنجلترا بعد عودته ، فاستحسنتها وأشارت بطبعها ؛ ولكنه رأى أنها ناقصة تحتاج إلى إكمال ، فعاد ثانية إلى مصر سنة ١٨٣٣ ، ومكث فيها نحو سنتين ، قضى أكثرها فى القاهرة وأقلها فى الصعيد ، باحثاً منقباً عن العادات والأخلاق ، مصححاً ما دَوَّن من قبل .

وضع الوصول إلى هذا الغرض برنامجاً دقيقاً ، فقد تعلم العربية حتى استطاع أن يتفاهم مع الشعب ويفهم منه ، والتزم أن يعيش كما يعيش المسلمون ، ويشهد عاداتهم ؛ وحتى لا يجرح شعورهم كان يصوِّب آراءهم ويمدح عاداتهم ما طاوعته نفسه ، ويتجنب مخالفتهم وما يستوجب كراهيتهم ، ويمتنع من أكل ما لا يأكلون أو شرب ما يحرِّمون ، فلا يأكل خنزيراً ولا يشرب نبيذاً ، بل يجتنب حتى ما لا يعتادون ولو أباحه الدين ، فلا يستعمل فى أكله أمامهم شوكة ولا سكيناً ؛ ومكنه ملبسه وكلامه وعاداته ومظهره بمظهر الإسلام أن يدخل المساجد ، ويشهد الموالد ، ويرى الشعائر ، ويشترك فى شهود الأعياد والحفلات ، وكان يشجع تحفظ المصريين من الكلام فى الجن وكرامات الأولياء والسحر وما إلى ذلك أمام من لا يعتقدها ، فكان يسقط من بعضهم كلامهم فى هذا الموضوع ، ويتظاهر بالاعتقاد فيها والإيمان بها ، ويحدث مستمعيه ببعض ما سمع ، زائداً عليها من خياله ، حتى يأمن محدثه جانبه فيفيض عليه من أحاديث الجن والكرامات ، والسحر والغيبيات ، ما يملأ رغبته ويحقق مطلبه ، ويقفه على كل ما يدور برءوس عامة المصريين من هذا الباب . فكان يحدِّث عن أحداث رأى فيها الجن ، وكان يقول إنه يعتقد فى الشيخ أحمد الليثى الذى كان يمشى خلفاً فى ركاب الشيخ العروسى أنه من أهل الكرامات ، لأنه يحدثه بأخبار الندرة فى مواعيدها قبل أن يأتيه البريد بها ؛ يستجلب بذلك كله أحاديث الناس فى مثل هذه الموضوعات وتوسعهم فيها . كما كان يحدث خاصته من المسلمين بأنه يعتقد فى عيسى عليه السلام أنه رسول لا إله ، وفى محمد أنه رسول الله سيد ولد عدنان . واختار شيخين مسلمين بأجرهما ليزيدا فى تعليمه العربية ، وليستقصى منهما الأخبار والآراء ، وليستفسر منهما عما يتوقف فيه ، وليعرض عليهما ما وصل إليه ليصححا خطأه إن كان ؛ وصادق بعض الكبراء والعلماء والأغنياء ، وكثيراً ما كان يتردد على الشيخ العروسى والشيخ العطار ، ويفتح بيته للزائرين والمترددين ، ويغدق عليهم من كرمه ، يقدم لهم القهوة والدخان ، ويدعوهم للغداء والعشاء ،

وتتردد أخته على قصور الأمراء فتعرف عاداتها وتقاليدها . وهكذا عمل كل ما يستطيع للوقوف على كل شيء في مصر .

وقد كان ماهراً في فن التصوير ، فصور بيده كل ما يعنيه من الصور : الرجل في صلاته ، والمرأة في بيتها ، والسقاء بقربته ، وحفلات الذكر ، وأدوات الزينة ، وآلات الغناء وأنواع الحلى ، إلى أن أتم ١٣١ صورة أودعها كلها في كتابه الذي نشره سنة ١٨٣٦ .

كما عكف على ترجمة « ألف ليلة وليلة » ، ولعل ذلك لأنها تم حلقة عمله في العادات والأخلاق ؛ فألف ليلة تمثل الحياة الاجتماعية الإسلامية في القرون الوسطى ، وكتابه الذي أسلفنا يمثل الحياة الاجتماعية في مصر الحديثة ، نشره سنة ١٨٣٨ — ١٨٤٠ .

هذا هو « لين » قبل أن يتعرف بصديقه « الدسوقي » .

ثم عمل « لين » تصميماً لعمل خطير ؛ هو أن يضع معجماً للغة العربية باللغة الانجليزية ، أساسه ترجمة القاموس مع شرحه تاج العروس ، وهذا يتطلب أن يفهم القاموس المحيط فهماً جيداً ، وهو صعب الفهم حتى على أهل العربية ، وهو أيضاً يقتضي نسخة صحيحة ما أمكن من القاموس ، ثم تراجع على سائر النسخ ليتثبت من صحتها ، ثم إذا وصل إلى نبات أو حيوان — وما أكثرها في القاموس — وجب أن يعرف مقابلها بالانجليزية ، وإذا اعترضته عبارة غامضة حل غموضها ، وهكذا ، عمل شاق لا يستطيعه إلا رجل جبار ، وليس يمكن ذلك إلا في مصر بلد العلم العربي ، وهي — أيضاً — حارة الجو جافته تناسب الصدورين أمثال « لين » .

وضع خطته للسفر وبعث إلى صديقه « فرسنل » ليتخير له معيناً ، فكان هو الشيخ الدسوقي — كما أسلفنا .

حضر إلى مصر ثالث مرة سنة ١٨٤٢ ، وكان عمره إذذاك ٤١ سنة ؛ ولكن الشيخ الدسوقي قال : « وقد علينا في عقد الخمسين من البلاد الشاسعة ، ذات المعارف الواسعة ، والصنائع البارعة ، والتحف الرائعة . . . . إنسان قد وخطه الشيب ، وليس في لسانه لكنة ولا عيب ، طويل القامة ، كبير الهامة ، تلوح عليه الأمارة ، فصيح العبارة ، كأنه عدناني أو قحطاني ، إلا أنه ذو زي عثماني ؛ لا يتكلم إلا بفصيح الكلام ، وله بفنون الأدب إلمام »

اختار « لين » أن يسكن في الأحياء « البلدية » فكان يسكن في « حارة السقايين ثم في حارة قوالوس » ودعا الشيخ الدسوقي أن يزوره في بيته ، وعند أول لقاء عرّفه بغرضه ، وعرض عليه منهج العمل في القاموس ، وطلب أن يحضر إليه كل يوم عصراً ، ورتب له كل شهر مبلغاً من المال فوق ما كان يؤمل الشيخ الدسوقي ، وشرعا — على بركة الله — في العمل .

أعدّ « لين » مكتبة يستعين بها على عمله ، فعنده نسختان خطيتان من القاموس ، ونسختان من الصحاح ، ونسخة من تاج العروس شرح القاموس ، وبعض نسخ أخرى ، ونسخة من لسان العرب ، يظن الدسوقي أنها بخط المؤلف ، وأجزاء من المحكم لابن سيده ، وكثير من دواوين الشعراء ، والمزهر للسيوطي .

واقترح « لين » أن يبدأا بمطالعة المزهر حتى يتذوق اللغة وحدودها ، ثم يقرأا كل يوم نصف كراسة من تاج العروس شرح القاموس يفهمها ويستفسر عما صعب منها ويراجعها على ما عنده من كتب اللغة حتى يستوثق من صحتها ، وعلى هذا تم الاتفاق .

في حجرة في بيت « لين » في القاهرة كان يجتمع شيخان تباينا في النشأ والتربية والعقلية ، والنظر إلى الحياة : هذا انجليزي تربى على آخر طراز ، وعرف الدنيا وشؤونها ودقائقها ، وجاب البلاد شرقها وغربها ، وبرها وبحرها ، وخالط ساستها وعظماءها ، ووصل من ذلك كله إلى غاية ما يستطيع مثقف أوربي في القرن التاسع عشر أن يصل إليه ، وهذا شيخ مصري قضت طبيعة تعلمه

ومنشئه وظروفه أن يعيش في دنيا محدودة الأفق؛ وكان الشعب المصري لا يزال محتفظاً في عيشته وتقاليده وعاداته بما ورثه من القرون الوسطى، لم تغزه المدنية الغربية كما غزته بعد، ولم تتكسر الحدود والفواصل بينه وبين الغرب كما تكسرت بعد؛ وكانت مصر تتخذ قبلتها بغداد الرشيد وقاهرة المعز قبل أن تتحول فتتخذ قبلتها باريس أو لندن؛ فكان الشرقي يدهشه الغربي بغرابته وأناقته؛ وكان الغربي يعجبه منظر الشرقي كما تعجبه العاديات القديمة، وكما يعجبه متحف الآثار.

على هذا التقى «المسوق» و«لين»، ولكن ألف بينهما الغرض العلمي والشأن الغربي، ورغبة «لين» أن يعرف كل ما عند المسوق من أفكار وعادات وعقائد ليدرسها لا ليحياها، وليشرحها لا لينتقدها، وأن يعرف ما عنده من علم ليستعين به على أداء غرضه، والوصول إلى غايته. ومهما كان من فوارق، فالماء الحار والبارد إذا تلامسا وامتزجا تعادلا، ونزل الحار عن شيء من حرارته، والبارد عن شيء من برودته؛ فهذا «لين» يعتاد أن يقول: «باسم الله» في مبدأ عمله، ويلتزم ذلك في حياته حتى بعد عودته إلى انجلترا، وهذا المسوق يدخن «البيبة» في شكل «شبك».

كان يذهب المسوق عصر كل يوم إلى بيت «لين» فإذا جلس قليلاً حضرت صينية الشاي، عليها أربعة فناجين كبار مملوءة شاياً وقهوة محلاة بالسكر، لكل منهما اثنان، وملعقتان لكل منهما ملعقة، ورغيفان مستطيلان لكل منهما رغيف، فيشربان ويأكلان ويتحدثان، فإذا تم ذلك أحضر شبكان مكسوان بالحرير المقصب لكل منهما شبك، فيدخنان ويقرآن، فإذا بدأ القراءة فلكل منهما نسخة من الكتاب، وضعت على سطح مائل، يقرآن ويراجعان ويتفهمان، إلى أن يتم نصف الكراسة فينصرف الشيخ، ثم يأخذ «لين» في ترجمة ما فهم إلى الانجليزية، فتسير الترجمة مع القراءة.

ويستمران على هذا سبعة أعوام لا يكلان ولا يملان، والشيخ «لين» جاد في عمله، قد يمكث في بيته الشهر أو الشهرين أو الثلاثة لا يخرج فيها مرة، يعمل من الصباح بعد الفطور إلى نحو نصف الليل، لا يستريح فيها إلا أوقات الأكل، ونحو نصف ساعة يتروض فيه بين مشي وصعود الدرج وهبوطه، حتى تم تسعة أعشار الكتاب.

ولندع الآن حديث ما بينهما من عمل علمي رسمي، لنتحدث حديث ما بينهما من عواطف، فقد تأكدت بينهما الصداقة وتوثق التآلف.

هذا الشيخ المسوق يظل طول عمره كادّاً يحصّل قوته وقوت عياله، ويدخر القليل حتى يبلغ ما يدخره أربعة عشر كيساً[1]، فيعتزم أن يشتري بها بُيَيْتاً يؤويه وذريته، وهو يحتفظ بها في صندوق البيت، ويوصي السمسار أن يبحث له عن منزل مناسب، فيريه هذا فيراه قديماً، وهذا فيراه كبيراً. وسرعان ما يشيع الحديث أن الشيخ الفقي، وأنه يبحث عن بيت يشتريه، وتصعد الرائحة إلى أنف اللص، فيتربص خروج الشيخ وغفلة أهل البيت، ويتسلل إلى الصندوق ويختلس المال، فيعود الشيخ وقد ضاع المال، فيضرب كفاً على كف، ثم يتمم إيمانه فيردد: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم «الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» ويذهب إلى صديقه، فيراه «لين» مرتبكاً؛ فيقص عليه قصته، فتدمع عين «لين» ويبكي رحمة بالشيخ، ويحلف أن لو كان له مال لعوضه مما فقده في الحال.

كذلك يصاب الشيخ «لين» بمثل هذه المصيبة، فيكون له مال مودع في بنك في انجلترا يسحب منه كل شهر ما يلزمه، فيفلس البنك ويقع «لين» في الضنك؛ وكان أخشى ما يخشاه أن يعلم عنه المسوق، ويتخلى

[1] الكيس خمة جنيهات.

منه إلا لم يأجره ، فما كان من صديقه الدسوقي — وقد علم بهذا الأمر — إلا أن يصرف عنه هذا الخاطر — وأن يساعده أن يستمر في تدريسه بل يزيد في اجتهاده . قال الشيخ : « وما زلت أواظبه على العادة ، التي كانت بيننا معتادة ، بل زدت على ما كان ، فشكرني على هذا الإحسان ، حتى قيض الله له ناساً من أهل لوندرة ، ذوي ثروة معتبرة ، فوضعوا له في البنك ما يَرِدُ منه ما يكفيه ، فأجرى إليّ ثانياً ما كان يجريه » ، وهكذا كان الشيخان يتبادلان العطف والوفاء طوال السبعة الأعوام .

كان الشيخ « لين » يعيش في أسرته وهي مكونة من زوجة له رومية وأخته وابني أخته ، وكانت زوجته وأخته تلبسان لباس المصريات ، فلا تخرجان إلا مؤزرتين مبرقعتين ، فلم ير الشيخ الدسوقي لهما وجهاً مع كثرة تردده وتودده ، ومع هذا كان إذا مرضت زوجه أو أحد أولاده ، ذهبت أخت « لين » إلى بيت الدسوقي فعالجت ومرّضت ، وأعطت من الدواء ما عرفت ، حتى يتم الشفاء ويشكر الشيخ .

ويعجب الدسوقي من هذه الأسرة ، فيرتها مدرسة عجيبة : هذا الشيخ عاكف على ترجمة القاموس ، وهذان الابنان تعلمهما أمهما اللغتين الطليانية والفرنسية ، ويقرأ لهما خالهما النبيل ، شرح ألفية النحو لابن عقيل ، وأصغرهما وسنه ١٥ سنة يجيد معرفة الهيروغليفية .

ويعجبني قول الشيخ : « فانظر إذاً الكسل الذي هو أحلى مذاقاً من العسل ، إلى هذا الاستعداد العجيب والجد الغريب » .

واختلطت الحياة على الشيخ الدسوقي ، فكان يعتقد أن « لين » يؤمن بالجن وكرامة الأولياء ، ونبوة محمد ، ونبوة عيسى ! ويعجب أنه بعد ذلك كله لا يُسلم ، ولم يجر بخاطره أن ذلك منه كان سياسة وتقية .

فإن أردت أن تعرف رأي أحدهما في الآخر ، فرأيُ الدسوقي في « لين » أنه « لبيب ماهر » ، « ذو غيرة إنسانية » ، « كريم مُواس » ، « رقيق القلب ، خالص الود » ، « لا يؤثر في حسن معاملته للناس اختلاف الدين » .

ورأي « لين » في الدسوقي أنه يُرضي كل الرضا من ناحيته العلمية في العمل الذي يعمله معه ، ولكن يؤخذ عليه من الناحية الخلقية أنه « حاد المزاج ، ضيق الصدر ، طماع بخيل » . وهو رأي قاس ونقد لاذع ، ولا شك أنه عبر عن عقيدته فيه ؛ ولكن أخشى أنه لم يرحمه في الحكم عليه ، فلم يقدر ظروفه وأحواله ، ونشأته الفقيرة وأسرته الكبيرة ، وموارده الصغيرة .

***

بعد مضي سبع سنين تدخل الزمن الذي لم يُبق شيئاً على حال ، فدعت الدواعي الملحة أن يعود « لين » إلى بلاده ولما يتم العمل . قال الشيخ : « وقضينا معاً حقبة من الدهر ناضرة ، في عيشة زاهية زاهرة :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحـــــــلام »

وقبل الرحيل أهدى « لين » الشيخ الدسوقي سجادة عظيمة ونسخة من القاموس وساعة جيب ، وقاس نظره وبعث فأحضر له من لندن « نظارة » لائقة بعينيه ، وأهداه ابنا أخته « خرجاً عجيباً شغل الإبرة » .

وكلفه أن يتم المُسْتَر الباقي من نسخ العروس ، يقابله على النسخ الأخرى ، ويصحح خطأه ، ويفسر غامضه ، فكان يعمل ذلك كل شهر ويسلمه إلى مستر ليدر[1] ، ليرسله إليه في انجلترا حتى تم الكتاب .

عاد « لين » إلى انجلترا سنة ١٨٤٩ فعكف على العمل بمثل الجد الذي كان منه في مصر ، حتى أنفق فيه عشرين عاماً أخرى ، ثم بدأ في طبعه سنة ١٨٦٣ ، وظل يعمل في تصحيح التجارب والطبع إلى أن وصل

(١) ليدر كان قنصلا انجليزياً في مصر وصديقاً للين .

نماذج بشرية

دون كيشوت

للأستاذ محمد مندور

يحكى أنه كان ببلاد اليونان عملاق جبار اسمه «أنتيه» لم يستطع بطل من الأبطال أن يثبت له فى نزال، حتى ضجت الإنسانية من بطشه، وحتى ضرع البطل المشهور هرقل إلى أبيه زيس كبير الآلهة أن يدله على وسيلة يقهر بها ذلك المارد المخيف؛ واستجاب زيس لضراعة ولده، فكشف له عن مصدر قوة «أنتيه» قال: «أى ولدى هرقل! إن أنتيه ابن الجيه (الأرض)، فما دامت قدماه مستوثقتين منها، فلن يقهره أحد، لأنها تمده بقوتها؛ فما عليك إن أردت قتله إلا أن ترفعه عن الأرض ثم تجهز عليه». ورفع هرقل «أنتيه» بيد، وطاح برأسه باليد الأخرى، فتخلصت الانسانية من شروره. وهكذا نحن فى الحياة، لا بد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جمهرة البشر نجاحاً وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم، وأن يلابس الواقع من قرب. وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم، فمثلهم لنكد الطالع كمثل أنتيه وقد رفع إلى الفضاء، ما تلبث السيوف أن تذهب برؤوسهم.

من مغزى تلك الأسطورة القاسية تمخضت حياة سرفنتيس الكاتب الأسبانى النابغ العبث، وخالق دون كيشوت (١٥٤٦ — ١٦١٦). فقد امتلأ خياله منذ طفولته، كما امتلأ خيال دون كيشوت بكل ما قرأ فى قصص الفروسية، حتى لم تعد أحلامه إلا سحراً ومعارك، وتحدياً وقتالاً، وجروحاً وصيحات غرام وعذاب، وما إلى ذلك من خوارق الأمور، وتمكنت تلك الأحلام من نفسه حتى نزلت منها منزلة الحقائق الثابتة، وحتى لم يعد تاريخ العالم فى نظره سوى سلسلة من تلك المغامرات. ولكم ضعضعت أسلحة «رولان» مخاوز الجبال، ولكم نشرت قلاع «بربروس» الرعب على صفحات المياه! فما له لا يغامر كما غامروا، وما له لا يلتمس المجد بحد السيف كما التمسه من قبل أبطال؟

وشاءت الأقدار أن يفشل سرفنتيس فى كل مراحل حياته: حارب فى البر والبحر من أجل أسبانيا ومن أجل المسيحية. حارب بإيطاليا وتونس والبرتغال.

إلى نصف الجزء السادس سنة ١٨٧٦.

يعمل ليل نهار فى حياة رتيبة بين ملازمة تحضر، وملازمة تصحح، وجزء يتم ثم ينشر، لا ينقطع من عمله إلا يوم الأحد إذ يصرفه فى الدين، فيصلى مع المصلين، ثم يعكف على قراءة الكتاب المقدس لا ناقداً علمياً، ولا ناقداً لغوياً، ولكن مستخرجاً معنى خلقياً، أو مبدأ روحياً. لقد كان يصلى فى مصر فى المسجد مع المسلمين، وكان يصلى فى انجلترا فى الكنائس مع المسيحيين، والدين كله لله.

وفى يوم من أيام أغسطس سنة ١٨٧٦ أصيب ببرد لم يعبأ به، ثم اشتد شدة لم تكن تتوقع، ثم انطفأت شعلته على غير انتظار.

مات عن خمسة وسبعين عاماً قبل أن يموت صديقه الدسوقى بستة أعوام.

ولعل هذه الصلاقة بين الدسوقى الأزهرى و «لين» الانجليزى كانت السبب فى أن يضع «على باشا مبارك» بمعونة صديقه «عبد الله باشا فكرى» قصة طويلة ممتعة نسيها الأدباء — من غير حق — فى تأريخهم القصة المصرية الحديثة، أتحدث عنها فى الأسبوع القادم إن شاء الله.

أحمد أمين

وفي سنة ١٥٧١ شهد تلك المعركة البحرية التي شنها المسيحيون ضد الأتراك في ليبانت بمضيق كورنثا بأرض اليونان . وخرج من القتال وبصدره طعنتان داميتان ، وذراعه اليسرى مشدودة إلى عنقه ؛ وأقعدته الحمى سبعة أشهر بصقلية ، حتى إذا أبل من مرضه ، واستقل سفينة ليعود إلى وطنه ، سقط بين أيدي قراصنة البحر يقودونه إلى الجزائر حيث يظل أسيراً أربعة أعوام . وأخيراً ساقت إليه الأقدار من بني وطنه من افتداه بثمن غال ، وعاد إلى أسبانيا . ولكن البؤس لم يفارقه . فكم من محاكمة ! وكم من أيام قضاها بالسجن لذنب ولغير ذنب ! وحتى مجد القلم لم يستطع أن يناله ، فرواياته التمثيلية لم تصب ما أمل من نجاح ، وشعره الغنائي لم يلق آذاناً مصغية .

لقد كان من حق سرفنتيس أن يتنكر للحياة ، وأن يعود من أحلام صباه ليستوثق من الأرض بقدم ، وقد ألقت محن الأيام في نفسه بذور الشك ، فاستحالت آلامه سخرية من آماله التي طوحت به في كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومن منا لا يحس في نفسه بتلك الحقيقة الإنسانية اللاذعة ، وهي أننا مهما تنكرنا لأحلام شبابنا ، ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ، ونرفق بها ، كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا .

دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأي سحر أملك في النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك الآمال العذاب التي يقوم عليها صبانا كما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة يمسكن ضرامها من أن يخمد . ولقد تنقطع أوتار القيثارة ، فلا تعود تملأ نفوسنا بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلفة رماداً مقدساً ، ولا بد للألحان من رجع في النفس نحن إليه كلما عادت بها الذكرى من ثنايا الماضي الجميل .

وهل أدل على نبل أحلام الشباب وسحر جمالها من أن تحتطم في نفس صاحبها فيسخر منها ، وإذا بتلك السخرية الرقيقة الحزينة تأتي بأروع تحقيق لتلك الأحلام ؟ لقد كان سرفنتيس يبغي المجد بحد السيف أو بسنان القلم ، فخانته الأقدار ، وخيل إليه أن تلك الآمال لم تكن إلا نزقاً مضحكاً ، فاتخذ من دون كيشوت رمزاً لشبابه ، وقص ما كان له من مغامرات جنونية ، فأصاب دون كيشوت الخلود ، وأصبح اسم سرفنتيس على ألسنة الإنسانية أنى ذهبت : يقرأه الأطفال فيلهون بما فيه من قصص ممتع ، ويقرأه الرجال فتفتر شفاههم وتنقبض قلوبهم لما خلف هذا العبث الظاهر من مآس ، وحتى الشيوخ تراهم يجمعون الأطفال من حولهم ليقصوا عليهم نبأ ذلك الفارس الجوال الذي لن يفرغ البشر من فهمه وتخريج أعماله وأقواله كل مخرج ! وقد بلغ من غنى تلك الشخصية أن أصبح دون كيشوت رمزاً لكل معنى : فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خباله أنه موكل بآلام البشر يحاول لها إصلاحاً ، فترتد إليه ضرباته إذ لم يضرب في غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالي عنيد لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون بنبض من الحياة أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه ، لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها ، ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ وأما سرفنتيس فيكفيه مجداً ألا يرى اليوم طفل أو شاب أو شيخ حصاناً هزيلاً نحيلاً إلا صاح : آه ! روسنانت . وروسنانت حصان دون كيشوت الذي رفعه بطلنا من مرتبة خيل الفلاحة إلى درجة جياد الفرسان عندما انعقد عزمه — أو جنونه إن أردت — على أن يجوب بقاع الأرض ليصلح ما بها من شرور .

وذلك أن دون كيشوت لم يكن في بادئ حياته ذلك

الفارس الجوال الذي خلقه سرفنتيس في عقولنا . لقد نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفنتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا . نشأ فلاحاً متواضعاً إلى أن حفزته قراءة قصص الفروسية إلى أن يحيي عهد هؤلاء الأبطال . ولقد كانت للفروسية إذذاك مواضعاتها ، فلابد للفارس من أسلحة ، ولا بد له من جواد كريم ، حتى إذا اجتمعا له طلب إلى أحد الفرسان القدماء أن يقيمه فارساً في حفل ستقص مراحله عما قريب . والفارس لا يحيا لنفسه ، ولا يجد ما يحفزه إلى البطولة خيراً من فتاة يجعلها مستقر حماسته ومعبد أفكاره ؛ فكيف السبيل إلى كل ذلك ؟ الأمر هين : بحث كون كيشوت في زوايا منزله المتواضع ، فعثر لحسن الطالع على أسلحة قديمة يعلوها الصدأ ، فاستلها منه ، وأصلح ما فيها من عيوب ، وأزال ما علاها من صدأ . وأما الجواد فأمره أهون ؛ وقد بلغت حكمة هـذا الفارس المجنون أن فطنت إلى أن حقيقة الأشياء كثيراً ما تقف عند مسمياتها ، وإذاً فليمنح حصانه الهزيل اسماً جميلاً نبيلاً ، فإذا به « روسنانت » الجواد الكريم ، وأي جواد حمل اسماً أجمل من هذا ؟ وهب أن الاسم لا يلائم المسمى ، فما على دون كيشوت من ذلك وأغلب قيم الحياة مواضعات لا نفهم من حقائقها شيئاً ؟ وأما الفتاة وما يجب أن يتوفر لها من نبل في المحتد وسحر في الجمال فالأمر عنده لا يعدو مجرد إيمان من يحب بما تخيل إليه نفسه العطوف من قيم محبوبته ، وإذاً فليتخذ دون كيشوت له فتاة ريفية ساذجة لم يرها في حياته قط ، وليمنحها اسماً من أسماء الأميرات ، وليشد بجمالها ونبلها أيما حمد . لتكن فتاته « دولسينيه دي توبوزو » ، ولاح له أن في هذا الاسم من جمال الجرس وندرة الوقع وجلال المعنى ما يتفق مع اسمه هو « دون كيشوت فارس المانش » .

ها هو دون كيشوت مسلحاً على ظهر روسنانت جواده الكريم ، وها هو يستأنف شوطه في الحياة ، ولتكن أولى مغامراته حفل تنصيبه فارساً : سار في يومه الأول إلى أن انتهى إلى فندق بالريف ، خيل إليه أنه قصر منيف ؛ فاتجه إلى صاحبه ، وأخذ يخاطبه كشريف يخاطب شريفاً ؛ وكان صاحب الفندق من الخبث — رغم بلادة حسه — بحيث قبل منه أن يقيمه فارساً ، وأدخله إلى فناء فندقه ، حيث مضى المسكين دون كيشوت ليله قائماً إلى جوار أسلحته التي وضعها في حزمة إلى حافة بئر هنالك . حتى إذا أتى الصباح أتاه صاحب الفندق ، وبيده دفتر حساباته ، وتظاهر بأنه يقرأ فيه صيغة الفروسية ، ثم ضربه بمسطح سيفه ، وصاح به أن اذهب فأنت فارس .

وخرج دون كيشوت من الفندق فارساً أصيلاً ، وبقلبه إيمان ثابت بما خلقته من أجله الأقدار ، وهو إصلاح ما في العالم من شرور ، ولم يكد يخطو عدة خطوات حتى رأى فلاحاً قد شد خادمه إلى جذع شجرة ، وأخذ يوجعه ضرباً لأنه طالب بأجره . أثار هذا المنظر شهامة دون كيشوت ، فخف إلى الرجل وأرغمه على أن يفك وثاق الخادم ، وأخذ عليه عهداً ألا يعود إلى ما ارتكب من ظلم . ولكنه لم يكد يعتلي روسنانت ، ويواصل سيره حتى عاد الفلاح فشد وثاق الخادم وعاد الظلم إلى مجراه . وهذا مثل مما أوهم به دون كيشوت نفسه من إمكان رفع الظلم عن المظلومين .

وياليت الأمر قد وقف عند هـذا الحد ، ولم يمتد الأذى إلى شخص دون كيشوت نفسه ؛ فلكم جرت عليه أحلامه شراً مستطيراً . لقد كان من واجبه — على الأقل في نظره هو — أن يدافع عن فتاته ، وأن يحمل كل من يلقى من فرسان على الإقرار بأنها أجمل وأنبل من على الأرض ، وإلا فكيف يقبل أن يكون في الوجود فتاة خير من فتاته ؟ وهكذا لم يلبث أن لقي جماعة من التجار في طريقه ومن خلفهم خدمهم ، فحسبهم لجنونه فرساناً جوالين مثله ، فاستوقفهم ، وتحداهم أن يدلوا على

فتاة أجمل من « دولسينيه » فقال أحدهم : « أيها الفارس الكريم . إننا نعرف دولسينيه هاتيك تلك ، أرنا إياها ، فإن وجدناها على ما تزعم من جمال حكمنا لك بما تريد » . فأجاب دون كيشوت : « وأي فضل يكون لكم ، وكل ما ستفعلون عندئذ سيكون الاعتراف بالحقيقة الواضحة ؟ إنما المهم هو أن تشهدوا بهذه الحقيقة دون رؤيتها ، وأن تعلنوا تلك الحقيقة ، وأن تقسموا بأيمانكم بها ، وأن تدافعوا عنها ضد كل إنسان » . هكذا أراد دون كيشوت ، ولكنه لم يستطع حمل هؤلاء الرجال على ما أراد ؛ فهجم عليهم روسينانت ، وزلت قدم الجواد فسقط الفارس على الأرض ، وأشبعه أحد الخدم ضرباً ، وبقي دون كيشوت على الأرض متعثراً بأسلحته لا يقوى على النهوض ، حتى خف إليه أحد الفلاحين من معارفه ، فأنهضه وعاده في حالة رثى لها إلى منزله ، حيث لزم الفراش أياماً يداوي جراحه .

رأته صديقته وبنت أخته وأصدقاؤه القسيس والحلاق على هذه الحالة ، فقرروا لساعتهم أنه لا بد من إحراق قصص الفروسية الموجودة بمكتبة دون كيشوت ، لأنها هي التي أتلفت عقله وأصابته بهذا المرض العضال ؛ وهم يظنون أنهم بعملهم هذا سيشفون دون كيشوت من هذا الداء شفاءً لا نكسة بعده ؛ ولكن أنّى لهم بأن يلزموا هذا الفارس الجامح حياة مغلقة الآفاق مبتذلة الأحداث ؟ لا . لا بد لدون كيشوت من الرحيل من جديد ؛ ولكنه سيحتاط للأمر هذه المرة ، فسيأخذ معه مالاً وتابعاً يسير وراءه أينما ذهب . واختار دون كيشوت تابعاً له فلاحاً من جيرانه لا يقل عن البطل شهرة . ومن يجهل « سانكو بانثا » ؟ وقبل سانكو أن يصاحب فارسنا لصداقته له ، ولأنه كان رجلاً طمّاعاً بطبعه ، ثم لأن دون كيشوت وعده بأن يعطيه جزيرة ليحكمها بمجرد أن يكون البطل للأمبراطورية التي يأمل أن يخضعها لسلطانه .

واستأنف دون كيشوت السير ومن خلفه سانكو ، وبين الرجلين من التناقض ما بين الجنون والعقل في فرقنا . فعند ما يغرق دون كيشوت في أحلامه ، نرى سانكو يملأ بطنه أو يرطب حلقه . وبينما يسهر دون كيشوت الليل الطويل يناجي دولسينيه ، نسمع سانكو يغط ما استطاع غطيطاً ؛ ولكن لا يخلو الأمر إذا سقط دون كيشوت من ظهر روسينانت وأشبع ضرباً أن تصيب سانكو بعض لكزات ، إذ أن محاولاته الفرار لم تكن دائماً منتجة ، فكثيراً ما كان يلحق به ، وربما تخلف عن سيده قليلا فسقط بين أيدي من لا يرحم له موجعة .

ولكم كان بودي لو استطعت أن أقص على القارئ شيئاً من حوارهما ، ليستبين موضع الحكمة من كلام هذا المجنون ، وموضع الجنون من كلام هذا العاقل ، أو العكس ؟ ولكن أنّى لي بذلك ؟ وأي جدوى من سرد مآسٍ تضحك منها شفاهنا وفي القلوب منها أسى عميق ؟ ثم من منا لا يذكر طواحين الهواء التي حسبها دون كيشوت عمالق فانقض عليها بجواده فألقته أذرعها إلى الأرض محطم الأضلاع . ألا يرى معي القارئ كيف بلغ من بؤس هذه النفس الخيرة أن أخذت تضرب في غير مضرب ؟ وكم يكون أسف القارئ لو أخبرته أنه اتفق يوماً لدون كيشوت أن قابل دون مسجونين حتى أطلق أيديهم من الأغلال ، ثم طلب إليهم أن يذهبوا اعترافاً بفضله إلى « دولسينيه » ليقدموا إليها « واجبات الاحترام » ، فرفضوا ، بل وضربوا دون كيشوت ضرباً مبرحاً .

حدث كل ذلك لدون كيشوت وأمرُّ منه ؛ فكم عجز عن دفع ظلم لفساد نفوس البشر ، وكم لاقى من شهامته أسوأ الجزاء ، بل وكم أضاع الفضاء مرارة فضاعت عبثاً — حدث كل هذا مما لا أريد أن أحزن القارئ من أجله ؛ ولكني لا أملك أن أمسك القلم عن ذكر ما كان من نزول دون كيشوت وسانكو بأحد الأشراف الحقيقيين ، وكيف أن هذا الشريف أعطى

سانكو بالفعل ضيعة من ضياعه ليحكمها عوضاً إياه أيها الجزيرة التي وعده بها سيده ! وبودى لو أمعن القارئ في النصائح القيمة التي زود بها دون كيشوت إذ ذاك سانكو ، إذ أوصاه قائلا :

« أي بني : أوصيك بتقوى الله ، فتقواه رأس الحكمة ، وما دمت حكيما يصحبك التوفيق في كل أمر ، ثم اذكر دائماً نشأتك الأولى ، لكي تفهم نفسك على حقيقتها ، وهذا الفهم هو أشق وأنبل ما يجب أن تتطلع إليه . ثم احقر ثروات نفسك ، ولتحرك دموع الضعفاء في نفسك رحمة لا تقل عما تحرك شكوى الأقوياء من عدل . ثم حاول أن تعثر على الحقيقة في ثنايا ما يعدك به الأغنياء من وعود وما يقدمون لك من عطايا ، قدر حرصك على التماسها في زفرات الفقراء ، وإلحاحهم الممل .

« ثم اذكر دائماً أن طبيعة البشر فاسدة ، وأن الكثير من آثامهم إنما مرده لهذا الفساد الأصيل ، فعندئذ لن تقسو على مجرم » .

فيالله من جنون ذلك العقل الذي يجود بتلك الحكم ! وأما « سانكو » فلم يطل حكمه . وكيف له — وهو الرجل الواقعي العاقل — أن يزج بنفسه فيما لم تهيئه له الأقدار ؟ لطالما طلب إلى دون كيشوت أن يحد من طموحه ، وأن يتخلى من أوهامه ؛ فكيف له الآن أن يقيم نفسه — وهو الفلاح البسيط — حاكما على العباد ؟ أليس من الخير أن يقنع بما خلق له . أليس من العقل أن يتخلى من جزيرة الوهومة ليعود إلى جوار سيده ؟ أليس سانكو على النقيض من دون كيشوت ؟ أليس هو العقل نفسه إن صح أن دون كيشوت هو الجنون المطلق ؟ وبالفعل تخلى سانكو من جزيرة الوهومة ليعود إلى مصاحبة دون كيشوت ، ومن عجب أن يحرص العقل على مصاحبة الجنون كل هذا الحرص !

واستمر دون كيشوت في مغامراته ، وكل فشل يغريه بمغامرة جديدة ، وعزمه ثابت لا ينال منه شيء ، حتى كان يوم انهزم فيه بمعركة دارت بينه وبين فارس آخر ، وعز عليه أن ينهزم كرجل ضد رجل ، وملأت الأحزان من نفسه تغر مريضاً ، ولازمته الحمى عاماً كاملا ، خرج منه وقد عاد إليه عقله . وبودنا لو امتدت به الحياة ليقص علينا ما عاد إليه جنونه من دروس ، ولكن الموت لم يلبث أن وافاه ، وكأنه قد كان يحمل عقله ، أو كأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسي : « نحن أمواج إن نسترح نمت » .

مات دون كيشوت بعد كفاح مرير طويل عانيه من كل الناس ، وكأن به لم يستطع عزاء من تلك الأحلام الجميلة التي تهدمت بهدمها حياته . مات فتلقى الموت كما يتلقى محب الجسام حبيبته أو شهيد وجه ربه . مات بعد أن علم أن القتال من أجل خير البشر قتال مع طواحين هواء . مات بعد أن فشلت جهوده ، ولم تعد لديه القدرة على استئناف حياة بليدة راتبة كالتي يحياها ملايين البشر من الخاملين .

مات هذا الجنون . ومن يدرينا ؟ لعله « كالسست » موليير و« مغفل » دوستيوسكي من أولئك الذين لا نضحك منهم ولا نرميهم بالجنون إلا لقصور في عقلنا وفساد في طبائعنا . وهذا العالم الجميل الذي صبت إليه تلك النفوس النادرة ، من يدرينا ؟ لعله العالم الحقيقي ، العالم الذي يجب أن يحيا فيه البشر إن أرادوا رفع نفوسهم إلى المثل الأعلى .

مات دون كيشوت في كتاب سرفنتيس ، ولكنه بقي في عقول كل الأجيال التي عبرت الحياة ، أو التي ستعبرها ، رمزاً لنا في نفوس الشباب الخيرة من الحماس للخير والفناء في سبيله ، ورمزاً لنا قد تقود عامة القلوب إليه ، مما يسميه الحمق جنوناً . مات وظلت حياته درساً خالداً لنا في الجهاد في سبيل المثل الأعلى من نبل يكفل به من كل النقائص .

محمد مندور

صور مجوبة — بقلم لورد ادوارد سيسل :

من النادى . . .
إلى المكتب . . .

[أبنا فى الكلمة السابقة على ذكر ما كتبه المؤلف من خادمه سليمان ، ومن عربات الترام التى تخرج من خطها تحت شرفته ، وما يفعله الجمهور المصرى فى مثل هذه المواقف ، ومن عربات الركوب التى تستعمل فى القاهرة ، وما يعانيه راكبوها من مشقة ، وما يتعرضون له من خطر . وفى هذه الكلمة نحاول أن ننقل للقارئ صورة أخرى من الصور الجميلة التى سجلها المؤلف فى كتابه « ساعات الفراغ عند موظف الحكومة المصرية » . وهو يصف فى هذه الصورة ما يلقاه منذ خروجه من منزله ليتناول فطوره فى النادى لغاية وصوله إلى مكتبه فى وزارة المالية .]

لا أكاد أدخل النادى وأنظر فى الساعة حتى أرى أننا صرنا فى الثامنة ، وهى الساعة التى فيها كنت أعتزم أن أبدأ عملى ، فأندفع نحو غرفة الطعام ، وأطلب إلى الخدم أن يقوموا بإعداد فطورى على عجل ، والصيغة التى أستعملها هى : « الفطور حالاً » ، لأن النذل معظمهم من الروم أو من البرابرة الذين لهم إلمام يسير باللغة الانجليزية ، والذين يخطئون فى فهم الأوامر ذات التفصيلات والكلام الكثير ، ويؤدى سوء فهمهم لها إلى أغرب « المفارقات » . فقد حدث منذ أيام أن أقبل شيخ من أعضاء النادى المحترمين ، وكان يريد أن يتناول فطوره بسرعة من أى نوع من أنواع الأطعمة التى يسهل تهيئتها فى أقرب وقت . فطلب « بيضاً أو أى شىء هناك ! » . فجاءوه بسائل مختلط تتقى رؤيته النفوس ، تبين فيما بعد أنه « بيض مخفوق فى قدح من الكنياك » !

أما فطورى فقد ظل طيلة السنوات العشر الأخيرة لا يخرج من أن يكون لحماً بارداً وقرصاً من البيض وقدحاً من القهوة ؛ ولذلك لم أعد أجد صعوبة فى الحصول عليه .

• • •

وتبدو غرفة الطعام فى نادينا كأنها مطعم فى إحدى محطات السكك الحديدية . فالناس لا يزالون يتقاطرون إليها فى طلب الطعام ، والخدم لا يسيرون فيها إلا خبباً ، فتراهم ينقضون بين يديك فيلقون إليك الطعام الذى طلبه شخص غيرك ، وينصرفون عنك قبل أن تتهيأ لك الفرصة للاعتراض على ما صنعوا . والضجيج والعجيج فوق ما تطيقه الأعصاب . ولكنها على الرغم من كل ذلك لا تزال المحل الوحيد الذى تستطيع أن تحصل فيه على الطعام المقبول دون أن تدفع عنه مثل الثمن الذى يتقاضونه منك وأنت فى مطاعم مونت كارلو !

وليس نادينا مطعماً فحسب . ولكنه فوق ذلك محل عمل — مع الأسف — والموظف القديم منا يجد فيه دارة من دارات العذاب ، لأن الموظفين الجدد يطاردونه أبداً فى كل خطوة من خطواته . . . يلقاك المهذب منهم بقوله : « هل تسمح لى بكلمة عن العمل ؟ » . أما الآخرون فيدخلون رأساً فى الموضوع الذى يريدون الاستعلام عنه ، وعليهم كل علائم السرور بأنهم ظفروا بك ليرهقوك مسألة واستفهاماً . ولطالما كنت هدفاً لهذه الهجمات أثناء الطعام ، وبعد الطعام ، وفى وقت اطلاعى على الصحف ، بل وفى أثناء لعب « البردج » ، مما يعود على خصمى فى اللعب بأطيب الثمرات . وإنى لأستحى أن أقول إن أحد هؤلاء « الصيادين » اقتحم على مرة « محل الغسيل » ، وظفر بى وأنا واضع رأسى تحت الصنبور !

• • •

وتنتهى بحمد الله وجبة الصباح ، وأقوم إلى مكتب الصراف لأدفع له « حسابى » ، فأجدنى — كالمعتاد — لا أملك من النقود الصغيرة ما يفى بالمطلوب ، فأضطر إلى صرف ورقة من ذات الثلاثة قروش . ومعنى ذلك أنى سأحصل على ما أسميه « نقود النادى الاصطلاحية » ذلك لأن الأعضاء الذين وقع لهم شىء من تلك الزيوف

التي يشتغل بإخراجها من لا فن عنده من « أبناء الأكروبول » ومن لا حنكة له من « أبناء النيل » يضطرون إلى تقديمها لعمراب النادي الذي لا يهمّه قط — فيما يظهر — نوع السلعة التي يقدمها . ولا تلبث هذه النقود أن تخرج من عند العمراب لتعود إلى جيوب الأعضاء المحترمين من جديد . وما دام هؤلاء الأعضاء لا يستطيعون التخلص منها إلا إذا تصدقوا بها أو إذا قدموها لعمرابنا مرة أخرى ، فإنها تظل تتداول وتتداول بين هذا العمراب وبين أعضاء النادي ، وتصبح كما أسميها : « نقود النادي الاصطلاحية » !

* * *

وأخرج من النادي فأرى أنه لا بد لي من عربة صالحة أذهب بها إلى عملي . فقد أصبحت الساعة الثامنة وخمسا وعشرين دقيقة ، وقد تأخرت عن هذا العمل فعلاً حوالي نصف ساعة . وإلى أعتبر الحوذي الذي اعتاد أن « يسوقني » كل صباح إلى الوزارة بمثابة صديق قديم ، فإن عربته نظيفة نوعاً ، ويبدو على جواديه أثر النعمة ! ولكن طريقته في القيادة طريقة تلفت النظر ، فإنه يلهب بعربته قبل أن أتمكن من الجلوس ، فأرتمي في مقعدي ارتماء مؤلماً . ولكني — ولله الحمد — تعودته . ونحور حول أول ركن فنصادف شيخاً كبيراً يتسكع في عرض الطريق ، وهو لم يخرج من منزله — والله أعلم — إلا وفي نيته أن ينتحر . ولكنا كما تعادية بقدرة الله وعطفه وليس بيننا وبينه إلا قيد شعرات . وينفجر الحوذي طول الطريق بأعجب المشادات . فهو لا يفتأ يحذر المارة ممن يعترضون طريقه ، أو ممن يظنهم هو أنهم سوف يعترضونه بقوله :

« يا جوا وجلك ! . . . . رجلك يا خويا ! . . . . يمينك يا حبيبي ! . . . . راجع على قفين يا ابن الستين . . . . ! »

ولست أرى من الجائز أن أردد هنا عبارات السباب التي تتدفق شآبيبه في مثل هذا المقام . ولولا أن الله قد وهب لحيوان هذه البلاد حاسة اليقظة التامة لتوقى كل شر في حينه ، لحدث ما لا تحمد عقباه ، فإن المشاة لا يسيرون قط إلا في عرض الطريق ، وأغلب ما يكون ذلك في الجانب الخطأ . وهم دائماً أبداً في شغل عما يحيط بهم بالتحدث إلى غيرهم . ولا قيمة لصيحات الحوذي وتحذيراته على الرغم من ارتفاع صوته ، فإن جميع من في الطريق من السائقين يصيحون في نفس واحد !

ولما كانت طريقة السائق في القيادة أن يرخي العنان في سيره ، فإنه في الواقع لا يملك توجيه خيله إلى حيث يريد ، فإذا ما اعتزم أن يغير اتجاهه فإنه يجذب أحد العنانين إلى أقصى ما يستطيع . ولكن هذه الحركة تستغرق وقتاً ، وهو لا يقوم بحركته هذه إلا في اللحظة الأخيرة أو ما بعدها ؛ وتكون النتيجة دائماً أن العربة تستهدف في كل دوران إلى الانقلاب . على أننا نصل بفضل الله آخر الأمر سالمين ، وندخل أبواب الوزارة كما يدخل الجواد الجلي في آخر الشوط الطويل !

* * *

أما وزارتنا فهي بنيان لا هو بالجميل ولا هو المريح . وهي سراي ترجع ملكيتها أصلاً إلى أحد الباشوات من عهد إسماعيل ؛ وتروي الأساطير من هذا الباشا أنه انتقل فجأة إلى رحمة الله على نحو ما ، فعادت السراي إلى ملكية التاج . والجناح الذي نشغله الآن كان فيما مضى « جناح الحريم » . وأستطيع أن أقرر — وإن كنت غير خبير في هذه الشئون — أنه لم يكن لائقاً باعتباره مقصورات معدة للحريم . أما على اعتبار كونه ديواناً عاماً فإنه ولا شك ينقصه الشيء الكثير ؛ إذ هو عبارة من مجموعة لا عدد لها من الغرف الصغيرة التي لا ينفذ الضوء إلى معظمها إلا بمقدار ، وتصل بين أطرافها « دهاليز » ضيقة طويلة مما يعرفه الناس باسم (سكة حجا) !

ويقوم بنيان القصر — كغيره من مباني ذلك العصر — على أساس من الخشب والجص . وهو دائم

الهدد لن يحتويه بأنه يريد أن ينقض عليه ؛ ولكنا نغالي ترممه سنة بعد سنة على أمل أن نصبح يوماً ما من الذين بحيث نستطيع أن نبني وزارة جديدة . وزخارف البناء الداخلية لا تمت إلى الفن بصلة ، وأهم مظاهر الزينة فيها تلك السقوف المفروشة التي تستوي في وسطها بعض الريات المرآتية ، وتلك الستائر الحمراء ذات الأطر الذهبية ، ثم تلك الزوايا الباهتة التي تثب منها ، ووشي صفحتها بعض الثياب .

* * *

وإذا تقدمت نحو السلم لأصعده أحاط بي اثنان من الحجاب وواحد من رجال البوليس . وعمل الحجاب هو أن يذودوا عن طريق من يصادفهم من الناس الذين يعترضون طريق . أما رجل البوليس فمهمته أن يسير أقرب ما يكون من أعقابي دون أن يطأ فوق قدمي . وأعترف أني لم أوفق قط إلى معرفة ما إذا كان السبب في ذلك هو الحيلولة بيني وبين من تحدثه نفسه بأن يطعنني من الخلف ، أو الحيلولة بيني وبين ما تحدثني نفسي بسرقته وأنا أسير في طريق إلى غرفتي .

وأصل إلى مكتبي أخيراً بعد الوعد الذي قدرته لنفسي بنصف ساعة ، فلا أبلغ كرسي حتى أهوي فوقه ، ثم أقلب طرفي فيما أمامي من كومة هائلة من الأوراق في عملي اليومي . . . . .

وأنا — كغيري من عقلاء الناس — أكره العمل ، وتبعاً لذلك أكره « البدء » في العمل . ولكني أحس أني أحتوي في كياني عنصراً من عناصر التفاؤل يحمل من الحيب إلى نفسي أن أقوم بفض خطاباتي . وإني لعلى يقين أني لن أصيب فيها خيراً ؛ وأعلم كذلك حق العلم أن بعضها قد ينطوي على ما يسوء بل على ما يؤلم ، ولكني لا أزال أتطلع إلى ذلك اليوم الذي يحمل فيه البريد إليّ خطاباً يدخل على نفسي شيئاً من السرور .

وأذكر أني في حداثة سني كنت إذا تلقيت دعوة ترقبها من قبل ، أو إذا وصلتني كلمات ثناء من أحد رؤسائي ، كان يكتسي العالم أمام عيني بلون وردي جميل . أما اليوم فلست أرى مثل هذه الومضة الوردية تبرق دنياي مرة أخرى ، أرى أنه ينبغي أن يكون لي معين لا ينضب من الصحة والثروة والسعادة . ثم يلح لي أن أظل متقلباً في هذا النعيم لمدة لا تقل عن عشر سنوات .

وهنا أنا الآن أرى أن اتجاه تفكيري نحو هذه الناحية لا يمكن تفسيره إلا على أنه عرض من أعراض اضطراب الكبد . فهانت أني ثالثت نفسي أمس عن « البب » « أستيكة البروج » الأخيرة التي كبدتني كل هذه الخسارة من الناحيتين المالية والصحية ! .

* * *

ولأعد الآن إلى خطاباتي . . . وإلى النظر ما من منظر لا يدعو إلى الاطمئنان !

[الخطاب الأول : الشكلام صفا]

ع . ج

الشيخ محمد عبده وتعدد الزوجات

بقلم الأستاذ عثمان أمين
المدرس بكلية الآداب

لعل من أنظمة الاسلام التي عنى بها كتاب الغرب عناية خاصة نظام الزواج . فقد تصدى الكثيرون من مفكريهم ، منذ زمان طويل ، لدراسة هذا النظام بحسب ما فى الشريعة الإسلامية . وانتهى البحث ببعضهم إلى القول بأن الدين الإسلامى حين أباح تعدد الزوجات ، قد قوّض الأساس الصحيح الذى يجب أن تقوم الأسرة عليه ، وقضى فى الوقت نفسه على قيمة الزواج من ناحية الأخلاق .

ولم يقصّر الناهبون من علماء المسلمين فى دفع المطاعن ، وتفنيد الشبه التى أثيرت حول الإسلام من أجل تعدد الزوجات ؛ بل لقد حاول بعضهم أن يبرروا نظرية التعدد هذه ، وساقوا لذلك حججاً ترجع فى صميمها إلى وجهة النظر الاجتماعية ، وهى وجهة بدت لها وجاهتها وطرافتها ، فكان لها من أجل ذلك بريق خاص .

وليس من قصدنا أن نخوض مع الخائضين فى لجة ذلك الخلاف بين أنصار التعدد وخصومه . وحسبنا اليوم أن نبين رأى عَلَمٍ من أعلام السلفيين ، وزعيم من زعماء التجديد الدينى والاجتماعى فى مصر الحديثة ، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ فلعل أولى الأمر فى وزارة الشئون الاجتماعية يتلمسون رأيه فيما يرسمون من مشروعات ، وما يسنون من قوانين .

كانت حركة الإصلاح التى قام بها الشيخ محمد عبده ترمى إلى تقويم الفساد الذى طرأ على الأخلاق فى العالم الإسلامى عموماً ، وفى المجتمع المصرى خصوصاً . وإذ كانت الأسرة عماد المجتمع ، فقد اتجه — رحمه الله — إلى إصلاح نظام الأسرة المصرية . فكانت مشكلة تعدد الزوجات من المشكلات التى حاول حلها حلاً يلائم الإصلاح المنشود مع مطابقته لروح الشرع الاسلامى . وهاك بيان ذلك :

من المعلوم للناس أن الاسلام أباح تعدد الزوجات ، وأن القرآن حدد عددهن بأربع إذ قال : « وإنْ خفتم ألاّ تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مَثنى وثُلاث ورُباع . فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألاّ تعولوا »[١] . — فالقرآن إذا أُخذ على ظاهره ربما فهم منه ما يخالف اتجاهه نحو الوحدة فى الزوجية . وهذا ما صرح به جمهور المفسّرين ، وغيرُ واحد من الباحثين من أهل الأديان الأخرى . لكنا سنرى أن الأستاذ الإمام يفسّر هذه الآية تفسيراً لا يخلو من طرافة ، وهو على كل حال يدل على نزعة راسخة فى التجديد الدينى ، وميل قوى إلى مطاوعة الشعور الأخلاقى . قال رحمه الله فى دروس التفسير :

إن القرآن إنما نص على تعدد الزوجات فى معرض الكلام على حقوق اليتامى ، والنهى عن اغتصاب أموالهم ولو بواسطة الزوجية . فنبه القرآنُ المسلمَ إلى أنه إذا خاف من نفسه أن يأكل أموال الزوجة اليتيمة ، وجبَ عليه حينئذ ألاّ يتزوج بها ، إذ أن الله أحلّ له أن يتزوج بغيرها من واحدة إلى أربع . ثم علم القرآن تقرر أنه إذا خاف المسلم ألاّ يعدل بين الزوجتين ، أو بين الزوجات ، فقد حق عليه أن يلتزم زوجة واحدة . وصرح الأستاذ الإمام بعد ذلك بأن الذى يُباح له أن يتزوج أكثر من واحدة ،

(١) القرآن الكريم سورة النساء آية ٣ .

إذا هو الرجل الذي وثق من نفسه أن يقوم بالعدل الذي أوجبه الله ، بحيث لا يشك ولا يتردد ، ولا يظن عدم القدرة عليه .

ثم أشار الإمام إلى أن القرآن يقرر في آية أخرى من السورة نفسها حكماً آخر إذ يقول : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . ورجح أن يكون المقصود هنا هو النص على أن ميل القلب إلى واحدة من النساء ، وإيثارها على غيرها ، أمر يعسر فيه توخي العدل ، إذ لو لم يكن ذلك هو المقصود لكان مجموع الآيتين منتجاً منع التعدد إطلاقاً .

ثم قال الأستاذ الإمام مجملاً رأيه في تلك المسألة بما لا وضوح بعده : إن من تأمل الآيتين — يعني آية « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وآية « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » — علم أن « إباحة تعدد الزوجات في الاسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق ، كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور »(١) .

أضف إلى هذا أن قانون الميراث الذي شرعه الاسلام يدل — في نظر محمد عبده وتلاميذه — على أن الأصل هو الزواج بامرأة واحدة . فالاسلام جعل حظ الذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث . ومع أن الرجل لا ينقص نصيبه من إرث امرأته بحال من الأحوال ، فإن من ترك زوجين ، أو ثلاثاً أو أربعاً ، كان لهن جميعاً نصيب الزوج الواحدة . فلا تطرد فيهن قاعدة « وللذكر مثل حظ الأنثيين » . فلعل حكمة الشرع في ذلك أن ينفق الرجل على نفسه ، وعلى امرأة يتزوجها . فلو كان من مقاصد الشريعة الاسلامية أن يتزوج الرجل أكثر من امرأة ، لجعلت للذكر من الأولاد أكثر من حظ الأنثيين ،

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

ولجعلت للزوجين أو الزوجات أكثر من حظ الزوج الواحدة . فهذا أيضاً دليل — في نظر محمد عبده ومدرسته — على أن التعدد غير مقصود في الاسلام . وإذا كان الشرع أباحه للضرورة تسوق إليه ، وبشروط تقيده ، وتجعله من الأمور المحظورة التي لا تدخل تحت الأحكام العامة(١) .

إذا كان الأمر كذلك فكيف تفسر إباحة الاسلام مثل هذا التعدد ، وما المصلحة منه ؟

يجيب الأستاذ الإمام في دروس التفسير بقوله : « كان للتعدد في صدر الإسلام فوائد ، أهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبية ، ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن ؛ لأن الدين كان متمكناً في نفوس النساء والرجال ، وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها . أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها ، إلى والده ، إلى سائر أقربائه ؛ فهي تغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو بجهالته يطيع أحب نسائه إليه ، فيدب الفساد في العائلة كلها »(٢) .

وقبل دروس التفسير بنيف وعشرين سنة كتب الشيخ محمد عبده نفسه في « الوقائع المصرية » مقالاً تحت عنوان « حكم الشريعة في تعدد الزوجات » قال فيه : « أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة ، إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن . وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة »(٣) . ثم قال في المقال نفسه : « إن هذا الإلزام بالعدل أمر حتمي لا يحتمل تأويلاً . فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية ،

(١) راجع تفسير المنار ج ٤ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .
(٢) تفسير المنار ج ٤ ص ٣٤٩ .
(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ، الطبعة الأولى ص ١٠٥ .

غير مبالين بما ينشأ من ذلك من المفاسد ، ومخالفة الشرع الشريف ! »[1]

وبعد أن قص الشيخ شيئاً مما هو مشهور من المآسي المزعجة والمفاسد الأثيمة التي تحيق بالمجتمع المصري نتيجة تعدد الزوجات قال : « فهذه معاملة غالب الناس عندنا ، من أغنياء وفقراء في حالة التزوج بالمتعددات ، كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعيته ، بل اتخذوه طريقاً لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير ، وغفلوا عن القصد الحقيق منه ! وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل . فاللازم عليهم حينئذ ، إما الاقتصار على واحدة ، إذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد ، عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . . . وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من العـدل ، وحفظ الألفة بين الأولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة ! ولا يحملونهن على الاضرار بهم وبأولادهم . ولا يطلقونهن إلا لداع ومقتض شرعي ، شأن الرجال الذين يخافون الله ويؤثرون شريعة العدل ، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ، ويفارقونهن عند الحاجة »[2] .

ولقد صرح الأستاذ الامام أخيراً في دروس التفسير بتصريحات بلهجة خطيرة ، ولها دلالتها على نزعته في الاصلاح .

قال رحمه الله : إن من تأمل ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المفاسد « جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات »[3] ، وسبب ذلك بيّن عند العقل وعند التجربة ؛ فان مفسدة التعدد تنتقل — كما هو المشاهد — من الأفراد إلى البيوت ، ومن البيوت إلى الأمة بأسرها .

والأستاذ الامام يهيب أخيراً بعلماء المسلمين — خصوصاً الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر — أن ينظروا إلى هذه المسألة بعين الاعتبار . فهم لا ينكرون أن الدين إنما جاء لمصلحة الناس ، وأن من أصوله منع الضرر والضرار . فاذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه في زمن قبله ، فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على مقتضيات الحال الحاضرة ، جرياً على قاعدة : « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح »[1] .

وجملة القول أن الأستاذ الامام كان ينكر أشد الانكار تعدد الزوجات . إذ كان يعلم ما ينتج عنه من فساد في العلاقات الزوجية التي تقوم على نظام يمحو الثقة بين الرجل أو المرأة ، ويوغر صدور الضرائر بالأحقاد ، وينقل جراثيم العداوة منهن إلى أبنائهن وبناتهن وعشيرتهن . . . ولم يكن يخفى على الأستاذ الامام مبلغ الأضرار التي تلحق بمجتمع يسود التباغض أفراده وبيوته وأسراته ! وكان يشفق على أمته من ضعة المكانة التي تؤول إليها التربية إذا بنيت على ذلك الأساس . فلم يكن بدعاً أن يرى ذلك المصلح في الاكثار من الزوجات خروجاً عن جوهر الشريعة الخالصة ، على ما فيه من مطاوعة الهوى ، واستفراغ شهوات البدن[2] ، والميل مع النزوات الحيوانية ، التي تنكرها الأخلاق الانسانية العليا ، وينبو عنها الضمير الحي السليم .

عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ٢ ص ١٢٧ .
(٢) تاريخ الأستاذ الامام ج ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ .
(٣) تفسير المنار ج ٤ ص ٣٤٩ .

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ٣٥٠ .
(٢) راجع تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٩٣٥ .

أعظم لحظة فى حياتى

للروائية الأمريكية الفاضلة السيدة « فانى هرست »

كانت أعظم لحظة فى حياتى تلك اللحظة التى عرضت لى فى مســقط رأسى « سنت لويس » وأنا طالبة صغيرة لا أتجاوز الخامسة عشرة من عمرى .

وكان ذلك فى غضون الموسم العظيم الذى أقيم للاحتفــال بذكرى شراء ولاية « لوزيانا » الواقعة فى الاقليم الغربى ، الذى لا تقلّ مساحته عن سبّمائة وأربعين مليون فدان بسعر سنتين ونصف سنت[1] للفدان الواحد .

ولست أنسى الرؤى المجيدة التى نزلت على فى ذلك المرض ، فقد اكتشفتُ أعظم حقيقة فى حيــاتى ؛ ذلك لأنى وجدت أن أثمن مناجم الذهب فى العالم لا توجد فى ذلك الاقليم الغربى الوسيع ، ولا فى أى قسم من أقسام العالم ، بل إنها مستترة فيك وفىّ .

ولقد جىء بكنوز الفن من مختلف أنحاء العالم إلى هذا المعرض ؛ فكان من حسن حظى ، وحظ رفيقــاتى الطالبات فى المدرسة ، مؤاتاة الأيام لنا بهذه الفرصة النادرة ، إذ كنا نؤمه زرافات كل يوم ، فنجد فيه ذلك الكنز الذى تكتشف لنا ثروته الموفورة بغير حساب !

وقد استحوذ على اهتمامى بنوع خاص فى قسم الفنون الجميلة صورة فريدة كانت من أهمّ ما رأيته فى ذلك المعرض الفخم ، وكانت من ريشة فنى هنغارى غاب اسمه عن ذاكرتى منذ ذلك العهد البعيد .

واعتدت التخلف عن سائر رفيقاتى لأخلو إلى تلك اللوحة المحببة ، وكان عنوانها « النجاح » ، وقد عُلّقتْ على حائط مكسوّ بالمخمل الأحمر ، وقد رسمت فوقها كرة ذهبية يسطع عليها ضوء الشمس الذى أكسبها بريقاً خاطفاً للأبصار .

وكانت هــذه الكرة الذهبية اللامعة تتدلى فى وسط الفضاء .

وكان فى الطرف الأدنى من اللوحة مئات من الأيدى التى امتدت إلى تلك الكرة الذهبية ، بل الأيدى التى سمت إليها ، بل الأيدى التى جاهدت لإدراكها ، بل الأيدى الضارعة إليهــا المتوسلة أمامها ، بل الأيدى التى كدّتْ رجاء مداناتها والاقتراب منها ، بل الأيدى المندفعة نحوها المسارعة إلى التقاطها ، بل الأيدى التى حاولت القبض عليهــا مئات الأيدى امتدت نحوها !

الأيدى الناطقة بفصاحة عن إجادة عملها !

الأيدى المتحمسة فى تفكيرها !

الأيدى كثيرة العقد !

الأيدى الفتية !

الأيدى الشيخة !

الأيدى الصندِيدة !

الأيدى الجشمة ! !

الأيدى المحتالة ! !

الأيدى القاسية !

الأيدى الحاذقة !

الأيدى الثائرة !

الأيدى المترفة !

الأيدى الأنيقة !

الأيدى الحساسة !

الأيدى الغليظة !

الأيدى الصلبة !

ولكم وقفتُ أمام تلك اللوحة مأخوذة بسحر معانيها .

النجاح ؟ ! !

لقد تمثل النجاح لنا فى تلك اللوحة ، ورأيناه هناك خداعاً براقاً ، بعيداً عن متناول اليد . . . .

ترى ما هو سر الحصول عليه ؟ !

لقد تجاوب حولى صدى جميع ما قيل عن نجاح

---

(١) عملة أمريكية تساوى مليمين (المترجم) .

فريق من الأفراد الموفقين الناجحين ، وكثيراً ما قيل لي إن سبب نجاح « فلان » هو ثروة والده الطائلة ورأس المال الذي أمده به . وكثيراً ما عزى أمامي نجاح السيدة « فلانة » إلى حسن طالعها . ولقد قال لي قائل : لو كنت أنا في مثل ظروف السيد . . . وأتيح لي ما أتيح له من المناصرة والمساعدة لبلغتُ ذرى الفلاح ، وأدركتُ ما أدرك من التوفيق والفوز ، بفضل المصادفة العمياء التي طالما أحسنتْ إليه .

هذا لقد قيل لي كل ذلك ، وكنت أتساءل عن مغزاه ، فكانت تأخذني هزة الدهشة والحيرة ، وكم قلتُ لنفسي : أية مناصرة ، بل أي حظ سعيد قد مكن الشاعر « جراي » من نظم مرثاته الرائعة التي كنا نؤديها عن ظهر قلوبنا كلة كلة لا نخرم منها حرفاً إذ ذاك في المدرسة ؟ بل أية مصادفة تلك التي منحت الرسام موريللي القدرة على إبداع لوحاته ورسومه ، التي كانت تجري الحياة فيها ، وكنا نرى أروقة هذا المعرض مزدانة بها ؟ !

وهل كان نابليون . . . نابليون لو لم توجده المصادفة امرئساً وقت أن اشتدت حاجتها إلى شاب يقوم بعمله ، وكما أسداه إليها من الخدمات ؟ أو هل كان نابليون يلبث هو هو نابليون في غير تلك البلاد ، وفي غير تلك البيئة والأحوال ؟

شدَّ ما ساءلتُ نفسي وناجيتها بكل هذه الأحاديث حين وقفت طويلاً أمام تلك اللوحة - وفي أحد الأيام رافقتني إليها أستاذة تاريخ الفنون ، ووقفنا معاً صامتتين ، ونحن نحدق النظر إلى لمعان الكرة الذهبية والأيدي الممتدة نحوها المتضية إليها ؟ وبعد سكوت ازدحمت فيه المعاني التفتتْ إلى أستاذتي الحكيمة وسألتني قائلة : « ما الذي يسترعي انتباهك إلى هذه الصورة ؟ » .

قلت : « تلك الأيدي الممتدة نحو الكرة الذهبية ، والعجب الذي تثيرينه ، والاستفهام الذي تغرسه في عقلي ، فأسأل نفسي : كم يبلغ عدد الأفراد المحظوظين الذين يتيح لهم حسن حظهم على لمس تلك الكرة ؟ » .

فأجابت مستنكرة ، وقالت في لهجة رصينة : « المحظوظين ؟ حذار ، وماذا تعنين بالمحظوظين ؟ ذوي الحظ الحسن ؟ ليس النجاح يا بنتي وليد الحظ أو لعبة من ألاعيب البخت ، بل النجاح علم من العلوم المحكمة الرتيبة . فالأيدي الثابتة الراسخة ، الحازمة الملحة في إصرارها على السعي والكدح ، هي الزعيمة أن تمس تلك الكرة ، وتستحوذ عليها . والنجاح محور في تلك الأيدي منها »

ولقد كان قولها لي من أثمن ما سمعت ، وقد لقنتني به حكمة جليلة وأضفت علي منه نعمة جزيلة ، إذ ألهمتني أن الساعة التي تسعفني بالنجاح هي في الغالب ضمن دائرة اختصاصي ، بل هي حق من حقوقي ؛ وليس مرجعها الوزارة أو ثروة الأب أو الحظ والسعد أو المصادفة العمياء . لأن السعد أو الحظ لا يتيح لتلك الأيدي الاستيلاء على كرة النجاح ، بل إن النجاح يكمن في قوام تلك الأيدي ، وفي القوة التي تحركها وتحفزها على العمل ، وفي دقات القلب الكبير المنتظمة الجبارة ، وفي الشجاعة وسمو المبدأ وصدق النية ونبل القصد ، وفي العزيمة التي لا تغلب ولا تقهر . وفي إقدام أصحاب تلك الأيدي وثبات عزمهم ، بل إن مرجع نجاح تلك الأيدي هو الاخلاص للغرض المنشود .

ترى أية يد من تلك الأيدي المرتسمة في اللوحة هي التي كانت تبز غيرها في شدة البأس والاقدام والجلد والتأني والثبات والسعي إلى الخير والمكرمات ؟

لله در أستاذتي ! لقد فتحت عيني وأماطت الحجب عن تلك الحقيقة الجليلة حين وقفت في ذلك اليوم البعيد أمام اللوحة التي تدعى « لوحة النجاح » — الحقيقة التي استوعبتها بجميعة فكري ، وادخرتها لتطالب الملازمني في حجرة الدراسة ، وترافقني في ساحة اللعب ، وتهجع في سريري حين آوي إلى عالم النوم والأحلام ، وترافقني في كل حالة من حالات الحياة اليومية ، وتوحي إلى النجاح الذي يمكن أن أحرزه . . .

أدباء الطليعـــة

٣ – الدكتور ابراهيم ناجي

للأستاذ محمود المنجوري

[ليس في نشر أدباء الطليعة بهذا التسلسل أي معنى ، ولكنه أتى حسب توفر البحث]

تساءل ذات مرة الدكتور ابراهيم ناجي الأستاذ توفيق الحكيم بنقد على قال فيه : « يكفي حين نتناول أديباً بالتحليل أن نعرف مدى التفاعل بين عالمه الداخلي وعالمه الخارجي ، أو على ما يطال تأثره بالوسط ؟ ثم نقلب ذلك العالم الداخلي على النفس عنده لنعرف الارتباطات بين ظاهره وباطنه ، وبين كفاياته وموروثاته ؟ ثم نحلل خط حبه من أول طفولته إلى أن يكبر ، هل بقي خط حبه سليماً ، هل تهدم ، هل بتر ، هل شوهته الدنيا ؟ هل تناولته يد بالحذف أو الاضافة ؟ ماذا لقي في السنوات الأولى ؟ ماذا أصاب في المراهقة حين تتفتح النفس ، وتزدهر ، ويأخذ الجنس في النضج والتمام .

هذا التشريح الذي قام به الطبيب ابراهيم ناجي العبقري بزغ نجمه في سماء الأدب المصري طفرة ، نهيأ له في براعة لأنه مبلغ بحياة توفيق الحكيم الخاصة إلماماً ، يجعل مشرطه لا يرتعش في يده ، ويجعل أنامله واثقة مما تتناوله من دقيق الأوصال .

أما أنا فلست أجد أمامي إلا ما كتب ابراهيم ناجي ، ولست أجد غير ديوانه الذي أرهقني البحث عنه ، لأن ابراهيم نكر يوماً – لأمرها – جميع ديوانه وألقى به في النار ! وشاء أن يهب شعره للنسيان !

وليس ناجي بشاعر فقط ، ولكنه دائرة معارف حية متنقلة ، فإذا تحدثت من ثقة يستطيع أن يحدثك عن شعراء الانجليز والألمان والفرنسيين والعرب والروس ، لكان ناجي في طليعة العلماء الذين لهم أن يتحدثوا ، وأن يدلوا برأيهم في سرعة وعمق وثقة وتواضع . بل إن ناجي على الإلمام الكامل بالنظريات العلمية والفلسفية ، قديمها وجديدها ! فيما تراه يحاضر في فرويد ونيتشه وهيجل

ولقد ناجيت نفسي في ذلك اليوم البعيد القريب قائلة : ترى ماذا يكون أثر هذه الحقيقة الرائعة في نفسي وفي نفس غيري ؟ هل أستسلم للترهات لحظة يتضاءل فيها نور تلك الحقيقة ، أم أزيد بهره بحسن السعي والاستضاءة بهداه ؟ وقد يكون الحظ والبخت والفرص السانحة وجاه الأب حجباً لموع بحالي ، فهل أستخدمها للفرض المنشود ؟ وهل أذكر على الدوام أن مرجع كل نجاح هو أنا : يا للسلطان الجديد الذي نلته ! ويا للمسئولية الجديدة التي شعرت بها ! ويا للشجاعة الجديدة التي خامرتني حين عرفت – بفضل هذه الحقيقة – أن كثيراً من الجمال الذي يترقرق في المؤلفات القيمة والمنظومات الرائعة والصور النفيسة والخدم الجليلة والسير العظيمة ، هو المرآة الصافية التي يتجلى فيها مثال قوى النفس العظيمة الخلاقة وممكناتها .

وما الطرفة الغالية والحكمة السامية تجود بها الأقلام الناضجة إلا فكرة فرد جعلها مقصده الأسمى ، وحلم بها وكد من أجلها ، وعمل على تحقيقها ، فأخرجها من حيز الخيال إلى عالم الحقيقة . .

وما المشروعات العظيمة أو الأعمال الخيرية إلا ثمرة تمنات فرد يقال أنى ! ! حقاً إن صاح أنك تحصل على منجم الذهب الأبرز إذا اعتقدت أن مرجع قدرتك على نيل النجاح هو – أنت

أنت ! أجل أنت هو منجم الذهب !

فاستخرج من كنوزه جهداً وعقلاً .

ترجمة (الزهرة)

وأينشتين وبرجسون وكانت ، يكتب بحثاً في دانتي ، وآخر في وايلد ، وثالثاً في شكسبير أو المعري أو قاسم أمين ، ويترجم من الانجليزية والفرنسية والألمانية ؛ ثم هو يكتب قصة مصرية محضة وراء النظريات الحديثة في علم النفس وعلوم التطور والاجتماع ، وهو مع هذا كله مخلص لطبه يبحث فيه ولا يترك « سياحته » ، فهو يحملها ويطوف بها على مرضاه ، متسمعاً الداء ، واصفاً الدواء .

فناجي حركة غير عادية وقدرة جوالة في آفاق العلوم والآداب والفنون ، إذا شئنا أن نتتبع بحثه حقاً وجب علينا أن نحدّ من قراءاته واطلاعه الدائم ، وأن نحجر على تفكيره بعض الحجر ، وأن نكلفه بأن يهدأ قليلاً ليستجرّ ما اختزن من معلومات ، ثم ليعيدها إلينا أبحاثاً منظمة مرتبة . ولكن هيهات لنا أن نحدّ من حركة دائبة تستبق السرعة والزمن .

وأما الشاعر ابراهيم ناجي فلا بد لي أن أتأثره في ديوانه ، فهو متندى الخط الذي يبين معالم حبه وهواه ، ويرسم لنا قصيدته الكبرى في إطار من الحيرة والحنين والألم ، ويسجل حوادثه وخطرات أفكاره ، لأن ديوان الشعر « ليس إلا بصمات لأصابع الفكر » وإشعاعات لطابع الشاعر وخلجاته .

وليس عسيراً أن نتأثر الصور النفسية التي دارت في ديوان الشاعر ابراهيم ناجي ، والأسلوب الذي أراده للتعبير عن صوره ، والألوان التي اتخذها لتصوير أطيافه . فقد تجد الدقة والحنين والعمق في التفكير مع سهولة الأداء ، وقد يضفي علينا ابراهيم ناجي في شعره حيوية لا مثيل لها ، كما يضفي في أحاديثه الناطقة عند ما تقابله مقابلة عارضة في الطريق . فشعر إبراهيم ناجي هو إبراهيم ناجي الذي نعرفه ، فهو يصوّر صاحبه صورة صادقة ترى فيها البديهة وسرعة الخاطر ، وتلمس الانطواء النفسي ممزوجاً بأن سريعاً في القصيدة الواحدة — بل في البيت الواحد — في فورة جياشة بالعاطفة زاخرة بالألوان والأطياف ، حتى تثقل تصوير الشاعر بالمعاني الكثيرة المتسابقة فتتركك في حيرة بين أطيافه وألوانه .

وناجي بار بشعره مخلص في أدائه ، فهو شعوره المرهف وحبه الهدم ، وهو انفعالاته المتكررة الدافقة المتسلسلة ، وهو أغنيته وإيقاعه يتغنى به في عالم مجهول ، ناشداً أملاً قد يكون ضائعاً ، وقد يكون ضالاً هو وراءه ، لا يعرف كيف يتأثره .

هو دائماً ينشد شيئاً مجهولا ، لست أدرى ما هو ! أهو الحبيب الذي تركه أيام الصبا فعاد إليها شاعراً حائراً مهدم الأمل ؟ لست أدرى أي مجهول يبحث عنه ناجي في بيداء الزمن ! لست أدرى عمن يبحث حين يقول :

كم بتُّ مُفتقِباً أصغى لخُطوتِهِ
أراهُ في الوهمِ أحياناً وأسمعُه
وأنتَ في أفقِ الأوهامِ طيفُ صِبا
تَمنّا ودَقَّ على الأفهامِ مَوضِعُه
كأنك النسم النشـوان منطلقاً
أظلُّ كالنَّفَسِ الحيران أتبعُه
تعالَ ! وادْنُ يوم لا نُحِس به
أجسادَنا ، في صفاء لا نُضيِّعه
لكن أحسك تجرى في صَميمِ دَمى
أنتَ الحياة ، وأنتَ الكونُ أجمعه

واستمع إليه وقد جلس تحت أقدام تمثاله :

يا أيها الملَكُ الجليلُ أفي غد
مضناكَ بينَ العائدين عليلا
يوم اللقاء ! كم انتظرتك باكيا
وبعثتُ أحلامي إليك رسولا
خاطبتُ منك فما تركتُ مُخاطِباً
وسألتُ حتى لم أدَع مسئولا
أغرقتُ في الأمل الجميل فلم أدع
مُتَخيَّلاً عذباً ولا مأمولا

وبكيتُ من يأسى عليك فلم أذرْ
عنــــد الهاجر مدمعاً مبذولا

وأسائل الزمن الملحّ لعلــــه
يشفيق أواناً أو يميل قليلا

مرّ الظلامُ وأنت ملء خواطرى
ودنا الصباحُ ولم أزل مشغولا

وأتى النهارُ على فتى أمسى بما
حلّ النهارُ من الشئون ملولا

وكذا الحياة تملّ إن هى أقفرت
ممن يهون عبأها المحمولا

كدٌّ على كدرٍ ولستُ ببالغ
إلا ضنًى متتابعاً ونحـــــولا

صدأ الحوادث بدّل الاشراق فى
فكرى وكدّرَ خاطرى المصقولا

وتتابعُ الأنواء فى أفق الصّبا
لم يبق لى صحواً أراه جميلا

ذهبَ الصّبا الغالى وزالت دوحةٌ
مدت لنا ظلّ الوفاء ظليلا

أيامَ يجذبنى أمامك منطق
فاذا سكتُ فكل شىء قيلا

ويثور بى حسّى فان لفظٌ جرى
بفمى تعثّر بالشفاه خجولا

ما رامنى ما ذقته ، وخشيتُ أن
ألقاك بالداء الدفين جهولا

فأشدُّ ما عانى الفؤادُ صبابةٌ
خبئتْ ، وظلّ دفينها مجهولا

فهو يعود بشعره إلى مواطن الذكريات ، فيرجع إلى صباه ينشده حنين الذكر وعزيز الرؤيا ، ويحن إلى الماضى حنين اللهفة والحسرة ، مخاطباً العاطفة والانفعالات ، محدثاً العقل الباطن مناجياً الشعور المستكن فى وهيه الخاثر .

ولهذا كان شعر ناجى ميلاً بالذاكرة الواعية حين يستثير ما اختزنت من ماض وحاضر وميلاً بالعقل الباطن حين يخاطب الأحلام المستقرة فيه ، فشعره من هذه الناحية شعور حقيق متعمق إلى أعمق الأغوار . ولهذا كان شعره متجدداً حياً متغيراً متنوعاً لتجدد حالات النفس والعواطف . ولهذا كان شعر ابراهيم ناجى شعراً جديداً لأنه شعور بالأحلام ، ولا بد للأحلام من رموز وصور ، فهو فى ديوانه متحف فنى ومعرض لصور شتى ذات ألوان وأضواء رمزية .

ولهذا كان ناجى شاعراً رمزياً ، ولكنه يضفى على تماثيله وصوره حيوية خاصة مستمدة من الحقيقة والحياة ، وهو مطرب ، ولكن فى لين ، يثير دون عنف ! هو يبعث فيك الانتباه ويحرك الشعور دون انفعال ، كأنه تيار الكهرباء المتقطع ، يثير النشاط والشعور فى غير عنف أو إيذاء .

وأنت حين تقرأ قصيدة « الوداع » ترى فيها موقفاً بارزاً لوداع الأمانى والآمال ، وصوراً للحرمان تترى متلاحقة فى يقظات تطيح الأحلام ، وتريك الدنيا كما تعرفها غدراً ونسياناً ؛ وإذا بحلاوة الآمال المعسولة تتفاعل فتنقلب إلى مرارة قاسية :

كل شىء صار مُراً فى فمى بعدما أصبحتُ بالدنيا عليماً

وهو فى الوداع يقول :

هانَ حرمانى وناداني القدر
ما الذى أعددتَ لى قبل السفرْ
زمنى ضاع وما أنصفتنى زادى الأول كالزاد الأخيرْ
رىّ عمرى من أكاذيب المنى
وطعامى من عفافٍ وضميرْ
وعلى كفك قلبٌ ودمٌ وعلى بابك قيدٌ وأسيرْ

* * *

حان حرماني فدعني يا حبيبي

هذه الجنة ليست من نصيبي

آه من دار نعيم كل

جنتها أجتاز جسراً من لهيب

وأنا ألمحك في ظل الصبا

والشباب الغض والعمر القشيب

أول الربوة تمشيها نافراً

ثم أمضي عنك كالطير الغريب

وانظر إلى الوصف البريء في قوله :

هل رأى الحب سكارى مثلنا ؟

كم بنينا من خيالٍ حولنا

ومشينا في طريقٍ مقمرٍ   تثب الفرحة فيه قبلنا

وتطلعنا إلى أنجمه   فتهاوين وأصبحن لنا :

وضحكنا ضحك طفلين معاً   وعدونا فسبقنا ظلنا

ثم يتلفت الشاعر في يقظة ودهش إذا يرى الحقيقة سافرة والخيال مطرق الرأس فيقول :

وانتبهنا بعدما زال الرحيق   وأفقنا . ليت أنا لا نفيق

يقظة طاحت بأحلام الكرى   وتولى الليل والليل صديق

وإذا النور نذير طالع   وإذا الفجر مطل كالحريق

وإذا الدنيا كما نعرفها   وإذا الأحباب كلٌّ في طريق

وهو يبكي الحياة إذا عاد إليها فوجدها على غير ما عهد :

هذه الكعبة كنا طائفيها   والمصلين صباحاً ومساءً

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها

كيف بالله رجعنا غرباء

* * *

دار أحلامي وحبي لقيتنا   في جمود مثلنا تلقى الجديد

أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا   يضحك النور إلينا من بعيد

ثم يهوله أن يرى الدار قد عشش في جنباتها البلى ، فيصرخ ناجي مصوراً ما يرى :

والبلى أبصرته رأي العيان   ويداه تنسجان العنكبوت

صحت : يا ويحك تبدو في مكان

كل شيء فيه حيٌّ لا يموت !

حتى إذا مضينا مع شاعرنا وجدناه واقفاً بالدار يقول :

وعلى بابك ألقى جعبتي   كغريبٍ آب من وادي المحن

فيك كف الله عني غربتي   ورسا رحلي على أرض الوطن

وطني أنت ولكني طريدٌ   أبدي النفي في عالم بؤسي

فإذا عدت فللنجوى أعود   ثم أمضي بعدما أفرغ كأسي

* * *

ويمتاز شعر ناجي بأنه مستقيم في بيانه ومعانيه إلا ما ترجم إلى أية لغة من اللغات الأجنبية . وهذه ميزة من ميزات الشعر الإنساني الذي لا يعرف الشعوبية والوطن .

* * *

بالأمس حرق الشاعر ديوانه لأنه غضب من جحود الناس وإنكارهم ، وظن الطبيب أن الفكر قد تلاشى ، وأن القمر قد غاب ، وأن الخيال قد انهزم ، وأن الروح قد تحطم ، وأن الشعر قد باد . وخرج الطبيب إلى الدنيا يمر بالناس فيراهم صوراً متشابهة وآلات تحدها الرزق وتحركها الجشع والشهوة والجوع ، مودعاً الشعر والفن والفكر ، مذرفاً دمعة حارة ، ومبتسماً ابتسامة مرة !

وفي الغد سيستمع الطبيب إلى الناس ينشدون أغاني الشاعر ، ويرددون موسيقاه . وسيقف الطبيب على حافة الأبدية يستمع هو الآخر إلى عرس الأشعار ، منتشياً بسلاف الشاعر .

فعد أيها الشاعر إلى نايك المحترق ، وابعث فيه الألحان والشدو ، فإن الدنيا مصغية إليك . ولا تخش مما يقولون .

محمود الشهوري

سلامة القَسّ

للأستاذ علي أحمد باكثير

[ننشر ابتداء من هذا العدد ، القصة التي فازت بالجائزة الأولى في المباراة التي نظمتها لجنة نيل جائزة صاحبة العصمة السيدة قوت القلوب الدمرداشية ، وهي قصة عربية اختار المؤلف موضوعها من التاريخ الإسلامي ، واستوحى فكرتها مما جاء بكتاب الأغاني لأبي الفرج وحديث الأربعاء للدكتور طه حسين بك ، من قصة سلامة جارية ابن سهيل ، وعبد الرحمن ابن عبد الله بن أبي عمار . وسيرى القارئ من طرافة موضوع القصة وبراعة أسلوب الكاتب وحسن توليه — فضلا من الناحية التاريخية — ما يدفعه إلى الإعجاب بالقصة وإلى الاعتراف بما نالت من تقدير]

الفصل الأول

استيقظ عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار في الهزيع الأخير من الليل على صوت الأذان الأول لصلاة الصبح فنهض من فراشه ، وفتح كوة من كوى غرفته فأطل منها على الفضاء المنبسط أمامه ، وقد اشتملت أقاصيه بالظلام السابغ ، وبقيت تختلج في أدانيه ، وعلى رءوس التلال البعيدة من الجانب الآخر ، وعلى أعالي قصور مكة البيضاء عن يمينه وشماله ، أطياف من ضياء القمر الغارب في الأفق .

وشعر عبد الرحمن بتيار من ريح الشتاء البليلة يتسرب إلى الغرفة ، فأصلح جيب قميصه وتناول رداءه فلفه حول عنقه وأرخى طرفيه على صدره ، فأحس بدفء لذيذ أغراه بالعودة إلى فراشه ريثما يطلع الفجر الأول ؛ ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى أحس بالنعاس يداعب جفنيه ، وأيقن أنه سيتعى به إلى سبات عميق قد يفوت عليه صلاة الجماعة في المسجد ، وتذكر أيضاً أنه لم يكمل تلك الليلة حزبه من القرآن ، فاستعاذ بالله من الشيطان ورمى لحافه عنه بقوة ، وقام إلى الميضأة فتطهر وتوضأ ، ورجع إلى الغرفة ينتفض من البرد ، فأماط فراشه عن الحصير فوقف عليه وصلى ركعتي الوضوء ، فلما أتم صلاته كان أول خاطر هجم عليه أن تذكر أمه العجوز البرة التي كانت تعنى بأمر صلاته وقيامه ، فكان ينام كما يشاء مطمئناً إلى إيقاظها إياه في الوقت المطلوب .

وكانت أم عبد الرحمن امرأة صالحة ، ربته منذ صغره على التقوى والعبادة ، وزرعت في قلبه حب الفقه في الدين ؛ وكانت تكفيه هموم عيشه ، وتقوم بتدبير المال الذي تركه أبوه لهما ، إذ مات ولما يبلغ عبد الرحمن الثانية من عمره ، فتولت تربيته ، وسلمته لأحد أقاربها فحفظ عنه القرآن قبل العاشرة ، وحببت إليه المسجد الحرام ، فكان يعتكف فيه أغلب الأيام يروي عن علماء الحديث ، ويتلقى منهم الفقه ، ولا يرجع إلى بيته في أطراف مكة إلا آخر النهار ، فيجلس إلى أمه يدارسها القرآن ، ويذاكرها الحديث

كان همها منذ توفي زوجها أن ينشأ ابنها الوحيد عالماً فقيهاً كسعيد بن المسيب ، أو كعطاء بن أبي رباح ؛ وكانت تدعو الله في صلاتها أن يحقق لها هذا الأمل ، فاستجاب الله دعوتها ، فلم تمت حتى رأت ابنها الشاب مضرب المثل بمكة في فقهه وعبادته ، حتى لقبه أهل مكة « القَسّ » ، وغلب عليه هذا اللقب حتى كاد لا يعرف إلا به . وكان اسم عبد الرحمن القس عنواناً للشاب الطاهر العفيف الفاني في عبادة الله ، الملازم للمسجد ، الفقيه في الدين ، وكان الشيوخ والكهول يروون عنه الحديث ولا يجدون حرجاً

فى استغفاره ، وتلقى العلم عنه . واشتهر أمره ، فلم يكن من بيت عكة لم يسمع به ، حتى كانت المرأة من نسائها تمالى ابنها الرضيع بأن ينشأ نشأة القس ، وكان الرجل يتمنى على الله لو رزقه ولداً مثله .

تذكر عبد الرحمن أمه الصالحة ، وتذكر حسن تربيتها له وقيامها عليه ، وكفايتها إياه هموم العيش ليتفرغ للعبادة والعلم ؛ فعاوده الحنين إليها واشتد به الحزن عليها ، وكان قد خف عنه ذلك بعد ما انصرم على وفاتها عام قضاه عبد الرحمن فى أشد الحزن وأمض الذكرى ، حتى اعتلت صحته وساء حاله ، ولكنه كان يأخذ نفسه بالصبر والرضا بقضاء الله ، ويلجأ إلى الصلاة والعبادة كلما طاف به طائف من اللوعة والبث ، مكتفياً بالدعاء لها والترحم عليها . وكان فى ذلك يعمل جهده بوصيتها له ، وهى تحتضر إذ قالت له فى سكرات الموت :

— أستودعك الله يا عبد الرحمن . لا أراك تجزع لموتى ، وتنسى الأنس بالله .

ولكن عبد الرحمن كان رقيق القلب دقيق الحس ، فلم يفلح فى اجتثاث الأسى واقتلاع الحزن على أمه من قلبه ، فظل يعاوده الفينة بعد الأخرى ؛ على أنه كان لا يفتأ يجاهد نفسه على العمل بوصية أمه ، وكان يجد فى العبادة أكبر عون له على تناسى آلامه ، لولا أن هذه العبادة كانت كثيراً ما تثير شجونه لاقتران أسبابها بذكريات أمه التى كانت توقظه فى الساعة الطاوية من الليل ، وتقرب له الوضوء وتتهجد معه ، حتى إذا دنا وقت الصلاة نبهته للخروج إلى المسجد ، وشيعته إلى الباب بعد ما زودته بشىء من التمر والقديد ، يتبلغ به فى المسجد إذا هو نوى الاعتكاف فيه ، أو يفطر عليه إذا كان صائماً .

استرسل عبد الرحمن كذلك فى ذكريات أمه ، ولكنه ذكر مرة أخرى ما لم يكمله تلك الليلة من حزبه القرآنى ، وكان عليه أن يكمله قبل خروجه إلى المسجد ، فانتزع نفسه من تلك الذكريات العارضة ، بعد أن دعا لأمه وترحم عليها ، ومسح بردائه عبرة كانت تترقرق فى عينيه ؛ ثم طفق يقرأ القرآن بصوته الحنون الحزين . وكان إذا قرأ القرآن استغرق فيه ونسى ما حوله ، حتى إنه كان لا ينتبه لمرور الوقت إلا بما يأتى عليه من أجزاء القرآن ، أو يتمه من سوره ، فيعرف الوقت بذلك . ولكن استرساله فى ذكرياته تلك الليلة قد أخذ جزءاً غير قليل من وقته ، فأخطأ فى تقديره ، فما نبهه إلى ذلك إلا خفق النعال فى الشارع ، فعرف من ذلك أن جيرانه فى تلك الحلة قد أخذوا يتوجهون إلى المسجد لشهود صلاة الصبح . وكان من عادته أن يخرج قبل هؤلاء ، فنهض قبل أن يتم حزبه من القرآن ، وفتح الكوة مرة أخرى ، فرأى نور الفجر قد انتشر فى الأفق ، فارتدى ثيابه ولبس خفيه وألقى على كتفيه عباءته البيضاء ، وتناول رداءه من الكتان الأبيض فأداره ثم كوّره على رأسه ، وخرج مسرعاً يقرع الدرج بخفيه ، حتى انتهى إلى الباب ففتحه فخرج ، ثم أغلقه وانتزع إقليده من الفتحة الصغيرة التى على جانب الباب فغرزه فى وسطه ، ومضى منطلقاً فى طريقه إلى المسجد وهو يقرأ ما بقى عليه من حزبه .

سار عبد الرحمن يهب الأرض بخطواته الواسعة السريعة لا يلوى على شىء ، فسبق كثيراً من الرجال الذاهبين إلى الصلاة من شباب وكهول يمشون بقوة ، وشيوخ كبار يخطون الأرض خطا ، فخلفهم جميعاً وراءه ، فقد كان — على ما ألم به من الحزن لوفاة أمه واعتلال صحته لذلك — قوى البنية ، شديد الأسر ، نشيط الحركة ، فلما دنا من المسجد رأى الناس يدخلون إليه أفواجا من أبوابه المختلفة ، فدخل هو من أحدها ؛ وبينا هو فى طريقه قاصداً جهة الكعبة ، إذ لمح على مقربة منه شيخاً

عمرياً قد قارب الثمانين من عمره ، يدب دبيباً إلى جهة الكعبة ، وقد تقوس ظهره ، وتهدل جفناه على عينيه ، فدنا منه عبد الرحمن وحياه قائلا :

— السلام عليك يا أبا الوفاء .

فرد الشيخ السلام ، ورفع رأسه في شيء من الجهد ، فظهر واضحاً وجهه ذو التجاعيد وحاجباه الأبيضان ولحيته البيضاء الضاربة في صدره وجمته المرسلة إلى شحمتي أذنيه تطل أطرافها من تحت عمامته الخضراء كأنها الناعية ؛ فلما رأى عبد الرحمن لمعت عيناه ببريق الفرح ، حتى كأن شبابه الماضي كله قد عاد إليه متجمعاً في عينيه ، وقال :

— مرحباً يا ابن أبي عمار . . . أهلاً بك يا بني . . . أين كنت أمس فقد بحثت عنك فلم أجدك ؟ . . إني أريدك في أمر جلل !

فأجابه عبد الرحمن قائلا :

— خيراً يا عم .

قال الشيخ :

— سأحدثك به بعد الصلاة ، فلا تنصرف حتى أراك .

فقال عبد الرحمن :

— نعماً يا أبا الوفاء .

ونظر إلى وجه الشيخ كي يحاول أن يعرف ما ذلك الأمر الجلل الذي يريد الشيخ أن يتحدث إليه فيه ، ولكن الشيخ لم يمهله أن قال له :

— انتظرني عند حلقة الدرس .

ومضى في سبيله إلى حيث يأخذ مكانه في الصلاة ، وكذلك فعل عبد الرحمن .

الفصل الثاني

في ذلك الحين كانت عجوز شمطاء في نحو السادسة والخمسين من عمرها تمشي في دهليز ضيق في بيتها الصغير الواقع في طرف من أطراف مكة مما يلي الحجون . وكانت تحمل في يدها شمعة تضيء ، فلما الدهليز حتى وقفت عند باب غرفة صغيرة ، فأخذت تقرعه وتصيح منادية :

— سلامة ! سلامة ! سلامة ! قومي يا بنت ! اصحي يا جارية ، قد طلعت الشمس وأنت نائمة ! .

وقرعت الباب قرعاً أشد من الأول فلم يجبها أحد ، ففتحته فإذا غرفة ضيقة قد ظهر في جانب منها على ضوء الشمعة سرير رث تنام عليه فتاة متدثرة بلحاف قديم . اقتربت العجوز من السرير وهي تقول :

— سلامة ! قومي يا شقية !

وسحبت اللحاف من الفتاة فأخذت تتمطى وتتثاءب وتتقلب من جنب إلى جنب وهي تقول :

— آه . . دعيني يامولاتي نائمة . لا يزال الوقت مبكراً .

قالت ذلك وأعادت اللحاف على جسمها . فجذبته العجوز منها بشدة قائلة :

— لا يزال الوقت مبكراً ؟ الشمس طلعت ، ومولاك في طريقه إلينا من المسجد . قومي صلي واحلبي لنا اللبن .

فجلست الفتاة على سريرها قائلة في لهجة ساخرة :

— الشمس طلعت والشمعة في يدك ! .

فطنت العجوز لسخرية الجارية ، فضحكت في امتعاض تحاول ستره ، وأطفأت الشمعة وولت إلى النافذة ففتحتها وهي تقول :

— هاأنذا أطفأت الشمعة . انظري . . . الدنيا كلها مضيئة : لو علم مولاك أنك لا تصلين الصبح إلا بعد شروق الشمس لضربك .

فأجابت الجارية وهي تفرك عينيها وتتثاءب :

— لكني أصلي الصبح كل يوم قبل طلوع الشمس ، بل قبل أن تصلي أنت !

فابتسمت العجوز وقالت :

— فما الذي جعلك اليوم كسلانة هكذا ؟

صمتت الجارية عنيهة كأنها تتردد في جواب

قد يغضب مولاتها ثم قالت :

— آه ما نمت البارحة إلا بعد منتصف الليل . . إن صوت المغنية التي زرت عند آل سهيل أطار مني النوم . أتعلمين يا مولاتي من « جبلة » مطربة المدينة المشهورة .

فتنهدت العجوز وقالت في لهجة يشوبها الاستنكار والشماتة :

— نعم . . أي شيء يأتينا من أهل المدينة إلا هذا ؟ . . أواه من فساد الزمان !

— آه يا مولاتي ما أعذب صوتها وأجمل غناءها ! .

— هل كنت تستمعين إليها ؟ ويل لك ! لماذا لم تسدي أذنيك وتناءي ؟ .

فانفجرت الجارية ضاحكة ضحكات متقطعة ، كأنها تستغرب هذا القول من سيدتها وقالت :

— أسد أذني وأنام ؟ هي هي هي هي . . . وهل كان في وسعي ذلك ؟ . . إن صوتها يا مولاتي ليتسرب إلى أذني كما يتسرب الأمل الحلو — كما يهب النسيم العذب — كما يداعب النعاس الأجفان ! .

وأخذت الجارية تغني وتترنم ، وتميل رأسها يمنة ويسرة ، ثم نهضت من سريرها في نشوة وهي تترنم : تن تن تن تن تن تن ! تن تن تن تن تن تن ! .

فقاطعتها العجوز وهي في حالة وسط بين الغضب والضحك قائلة :

— صه ، اسكتي يا فاجرة ! .

ولكن الجارية لم تشأ أن تسمع لمولاتها ، واستمرت مترنمة : « تن تن تن تن تن تن تن ! » وطفقت ترقص في الفناء وتغني وهي تقول :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة . . . .

ورأت أم الوفاء أنها قد صبرت لسلامة أكثر مما ينبغي لها أن تصبر عليه ، فنهرتها ووضعت يدها على فيها قائلة :

— صه . . اسكتي ! لم يبق إلا أن ترقصي وتغني هنا . . . هيا اذهبي فصلي واحلبي اللبن ، ثم اخرجي بالعنيزات إلى المرعى لتعودي إلينا قبل الظهر .

وعرفت سلامة الجد في مولاتها ، فما وسعها إلا أن تطيع أمرها قائلة :

— سمعاً يا مولاتي ، ها أنذا نازلة .

وأخذت عباءتها فألقتها على كتفها متأهبة للخروج ، ولكنها عز عليها أن لا تتمكن من إتمام رقصها وأغنيتها ، فخرجت من الباب وهي ترقص وتغني :

إنما العاجز من لا يستبد !

ومشت أم الوفاء وراءها تتبعها وهي تقول :

— حسبك الله يا جبلة . . . ستفسدين علينا جوارينا .

(يتبع)   علي أحمد باكثير

من غرفة الترويح :

أشـــــواق ...

شعر عبد الرحمن الخميسي

يا حبيبي طمحت روحي إلى رشفةِ النور وراء الأفقِ

أطلقوني ، إنني في جسدي بلبلٌ ضاقَ بسجنٍ مُغلقِ

طالَ حبسي وأنا ما عشقتُ مهجتي غيرَ الفضاء المُطلقِ

آه يا حريقي !! حريقي من وراء الغيمِ ! حلِّ مُوثقي

أنقذيني من كبالِ الضيقِ !

هذه أمّي تناديني وقد نصلتْ من حلقاتِ الزمنِ

يتخطى السحبَ وتأصوتُها ما كأن أصداءه في أذُني

يا ركيني ! حلِّقْ بي خُذيني خلّصيني من قيودِ البدنِ

وأنيري لي سبيلي ... إنما أنا في الدنيا غريبُ الوطنِ

نهشت قلبي نيوبُ الشجنِ

نام في المقابرْ فانثال الأسى

ذوبَ نفسي وهشّــــاً أضلعي

وتهاوتْ أنجمُ الـــــماضي على

صفحة الذكرى فهاجتْ أدمعي

أينَ أمّي ؟ أين وارتْ أمي ؟

كيف نأيا وقد كانا معي !

أقفرتْ دنيايَ من أترابها وأنا أرهبُ عيشَ البلقعِ !

ويلي كمْ يحتويني هلعي !!

أنا — مثلُ الماء في الجدول — قد

كنتُ نبعاً سائحاً عبر الفضا

وتناولني ســـيالُ الشمسِ إذ

أضرمتْ في عنصري نارَ الغضى

فتســـاقطتُ على الأرضِ وكم

شربَ العطشــانُ مني ومضى !

تتحفّى في أنـــواهي إلى

أصلها شوقاً !! ولكن ما مضى

لهبُ الشوقِ مُرادي ، ماقضى !

يا حبيبي طمحت روحي إلى رشفةِ النور وراء الأفقِ

أطلقوني إنني في جسدي بلبلٌ ضاقَ بسجنٍ مُغلقِ

طالَ حبسي وأنا ما عشقتُ مهجتي غيرَ الفضاء المطلقِ

آه يا حريقي !! حريقي من وراء الغيم ! حل موثقي

أنقذيني من كبالِ الضيقِ !

عبد الرحمن الخميسي

إنه في يوم السبت ٧ يونيه سنة ١٩٤١ من الساعة ٩ افرنكي صباحاً بناحية عزبة البقري ايتاي البارود سيباع علناً الأشياء المبينة بمحضر الحجز نفاذاً للحكم رقم ٩٦٥ سنة ١٩٤١ ضد يوسف يوسف جوهر وآخر وفاء لمبلغ ٢٠٦ قرش صاغ بما فيه أجرة النشر كطلب عبد القادر أحمد الحسيني

عن راغب الإجراء المنشور

إنه في يوم الاثنين ٩ يونيه سنة ١٩٤١ من الساعة ٧ افرنكي صباحاً بالشيخية وكذا إن لم يكون بسوق قوص يوم الاثنين ١٦ منه سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك احمد علي موسى وآخرين نفاذاً للحكم رقم ٩٦٨ سنة ١٩٤٠ مدني قوص وفاء لمبلغ ٥٥٥ قرش صاغ بما فيه أجرة النشر كطلب الست مريم محمد الصادق من نفسها وبوصية على ابنها القاصر محمد الشريف من الشيخية عن راغب الإجراء المنشور

أنباء وآراء

فن المرأة

ضاق نطاق صفحة معرض القاهرة في العدد الماضي من الاشارة إلى إحدى نواحي المعرض الهامة ، وهي ناحية فن المرأة . وإنا ننشر مع هذا الكلام صورتي لوحتين : إحداهما للسيدة زينب عبده ، والثانية للآنسة اعتماد الطرابلسي . وتمثل الأولى صورة فتاة مصرية « زازا »



« زازا » — للسيدة زينب عبده

والثانية تمثل سيدة مصرية متوسطة العمر في ملابس الحزن . ويستطيع القارئ أن يلحظ اعتماد الرسامتين



« عزيزة هانم في ملابس الحزن » — للآنسة اعتماد الطرابلسي

في إبراز الشخصية على العينين مما تكاد تنطق به الصورة الثانية على الأخص .

سلطان الظلام

هذا هو اسم الكتاب الجديد للأستاذ توفيق الحكيم ، وقد جمع فيه ثلاث قطع من تأليفه سبق نشرها ، وإذاعتها من محطة الإذاعة البريطانية ، وكلها من النوع الذي يكشف عن نزعة الأستاذ الحكيم نحو الديمقراطية ودفاعه عنها .

والجديد في هذا الكتاب هو التمهيد الذي قدم به المؤلف لكتابه ؛ فهو يقع في ستين صفحة ، عرض فيها

خواطره من المدنية الحاضرة ، وخطأ اتجاهها ، وعلق على آراء الفلاسفة والكتاب فيها ، فمر بآراء المتشائمين من أمثال كسرلنج وجورج روبنسون وهكسلى من مصير الإنسانية ، ثم بآراء المتفائلين من أمثال ويلز وريناردفو متأملاً أن تفوق الآلة ، وما أدى إليه ذلك من صبغ العصر الحاضر بالصبغة المادية ، وهو يبسط أمنيته فى ختام هذا التمهيد قائلا : « هل آن الأوان للإنسانية التى عرفت كيف تنفق ملايين الملايين فى التدمير والاستعباد ، أن تعرف بعد الآن كيف تنفقها فى التعمير والإسعاد ؟

وقد أهدى الأستاذ الحكيم كتابه إلى أولئك الذين يداعبهم الأمل مثله بأمانى مستقبل أسعد للإنسانية .

ويقع هـذا الكتاب فى ١٦٥ صفحة من القطع المتوسط . وقد قامت بنشره مكتبة الآداب .

باريس المحتلة

فى خطاب أرسله أحد الأجانب المقيمين فى باريس بعد الاحتلال إلى صديق له ، ونشرته إحدى الصحف الأمريكية ، يصف به يوماً من أيام باريس بعد أن احتلها الألمان . يقول الكاتب : « من الإسراف أن أقرر لك أن الحياة فى باريس قد أضحت لا تحتمل ، ذلك أن الحياة تحتمل فعلا ، ولدى الألمان من الوسائل ما يجبر المرء على احتمالها ، تصـور مثلا الاحتجاج على بطاقات توزيع الأغذية ، كان لى احتجاج فى هذا الموضوع ، فقدمته كتابة ، ولم تمانع السلطات فى الاحتجاج ، وأفهمنى المختصون بأنهم سيفحصون احتجاجى ويحققون شكايتى ، وتسلموا بطاقتى الشخصية وأوراقى لإتمام فحص شكواى ، وما حدث بعد ذلك أنى ظللت أربعة أيام بدون طعام ، لأنى لا أملك بطاقة ، وتستطيع أن تتصور مقدار غبطتى حينما دعيت لأبلغ إلى قرار السلطات بأن شكواى غير جدية ، فقد تسلمت بطاقتى واستطعت فى اليوم التالى أن أحصل على الطعام .

« وأرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أن الحياة غير عادية ، إن كل شيء يجرى فى مجراه المعتاد ، من حيث سير المواصلات والملاهى وغير ذلك ، غير أنه ينقص كل شيء عنصر واحد ، هو روح الاطمئنان ؛ فالحركة التجارية فى المحلات تسـير فى بطء وقلق ، وقد يفلس التجر بسبب بسيط هو كثرة أوامر الصرف المتوحة من السلطات ، والتى لا يستطيع أن يستبقها ببضائع . والملاهى غاصة بغير الفرنسيين ، والفرنسيون الذين يذهبون إليها يبدو عليهم شيء فظيع لا أجرؤ أن أسميه كآبة » .

وقد أفاض مرسل الخطاب بعد ذلك فى وصف الحياة فى باريس ، وعلقت الصحيفة الأمريكية على هذه الرسالة قائلة : إنه من الممكن تصور مآل فرنسا المحتلة إذا قدرنا أن هذه الرسالة قد استغرقت شهرين ونصف شهر للوصول إلى الجريدة ، أى أنها قد كتبت منذ ستة أشهر .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
- ٣٠ قرشاً فى مصر والسودان
- ٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
- ٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
- ٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ٦ مليمات

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٢٩ — الثلاثاء ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — ١٧ من يونيه سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العــــــدد

صفحة من التاريخ

[كتب هذا البحث الأستاذ جاستون فييت ، مدير دار الآثار الإسلامية ، ونشره في مجلة القاهرة التي تصدر بالفرنسية . وقد نقله إلى العربية ، لقراء الثقافة ، الدكتور طه حسين بك ، وهو يطلع القراء على حادثين من أعظم الحوادث التي وقعت في السنة الماضية ، هما إمضاء الهدنة بين فرنسا والمحور ، وإلغاء الجمهورية الثالثة] .

في الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم الخامس عشر من يونيو سنة ١٩٤٠ ، قدم مسيو بول رينو استقالة وزارته إلى الرئيس لبران ؛ وتقدم الرئيس إلى الماريشال بيتان في تأليف وزارة جديدة . ومن غد تلك الليلة طلبت الهدنة إلى الألمان ، ووقعت في الثاني والعشرين من ذلك الشهر . وفي الليلة الواقعة بين الرابع والعشرين والخامس والعشرين وقفت الحرب . وفي يوم الأربعاء العاشر من شهر يوليو وافقت الجمعية الوطنية المنعقدة في فيشي على قرار يلغي دستور سنة ١٨٧٥ ، ويكل إلى الماريشال بيتان أن يضع لفرنسا دستوراً آخر . فسيقول التاريخ — والتاريخ الذي يحصي الحوادث على الأقل — حين يتحدث من فرنسا سنة ١٩٤٠ : إن الحكومة الفرنسية رأت بعد الهزيمة أن المضي في الحرب مستحيل ، فقررت إلقاء السلاح ، ثم رأت أن نظم الحكم كانت من أسباب الهزيمة ، فقررت إلغاء القوانين التي كان يتألف منها نظام الحكم الذي ارتضته الأمة . ونحن حين نحاول عرض الحوادث التاريخية التي تتابعت على فرنسا في ذلك الوقت لا نريد أن نثير جدلا أو نزاعا ، وبعبارة أخرى : لا نزعم لأنفسنا الحق في أن نتساءل : أكان من حق حكومة فرنسية أن تمضي عقد الهدنة الذي تم في الثاني والعشرين من يونيو ؟ . ولا نفصل رأيا من هذه الآراء التي تزعم أنه قد كان من الخير أن تؤلف حكومة في أفريقيا الشمالية

وأن تمضي فرنسا في القتال ، وأن ذلك كان أنفع لفرنسا من قبول الهدنة . وحين نعرض للأمر من ناحية الحياة الداخلية لفرنسا ، لا نريد أن ندافع عن دستور سنة ١٨٧٥ ، كما أننا لا نريد أن ننقص من هذا النظام الديمقراطي القديم ، ولن نمضي آخر الأمر مع بعض الكتاب الذين يشتغلون بدقائق التشريع ، وينكرون أن تكون سلطة الماريشال بيتان قائمة على أساس من القانون ، مهما يكن حظهم من الصواب . فالحكومة الفرنسية القائمة حقيقة واقعة ، ونحن نريد أن ندرسها بهذا الاعتبار . فقد وقعت مأساة ، ومن الممكن أن نحللها دون أن نعرض لنقدها ، فلن يكون النقد الآن بريئاً من التحيز ؛ ومن أجل هذا لا نريد أن نصدر حكماً ما على واحد من هذين الحادثين العظيمين : وهما وقف الحرب وإلغاء الجمهورية . ونحن نعلم أن عرضاً بسيطاً للحوادث قد يمكن أن يساق بطريقة لا تخلو من الحكم والنقد . ولهذا احتطنا الحذر ، ولذلك لا نعتمد على مصادر مختلفة ، وإنما تأتي مصادرنا من ينبوع واحد . وقد تحفظنا من كل المعلومات التي تصدر عن بعض منظمي الدول الجديدة في فرنسا . بل على عكس ذلك قد استقينا معلوماتنا من سجل رسمي للحوادث ، ومن مدافع عن النظام الجديد مؤمن به قد كلف بحكم منصبه أن يبين الحقائق للرأي العام . فقد صدرت في شهر نوفمبر الماضي رسالة خطيرة ، عنوانها «الحقيقة الكاملة حول شهر خطير من تاريخنا» . وقد كتبها مسيو جان مونتيني نائب مقاطعة السارت ، الذي كان في ذلك الوقت سكرتيراً عاماً لإدارة الاستعلامات . ولسنا نجهل أن مسيو مونتيني قد شارك المسيو لافال فيما أصابه من الإعراض عنه ، ولكنا لم نسمع أن رسالته صودرت ، فنحن نستطيع أن نرى في هذه الرسالة عرضاً رسمياً لتطور الحوادث ومواقف الأشخاص .

* * *

وأول ما نعرض له من ذلك هاتان السياستان والشخصان اللذان لعبا أخطر أدوارهما . «فقد كان مسيو بول رينو ومسيو ماندل قررا أن تترك أرض فرنسا كلها للمغيرين ، الذين لم تكن قوتنا تستطيع أن تصدهم ، وأن تسافر السلطات إلى ما وراء البحار ، حيث تستطيع الحكومة المستقرة في الجزائر أو في أفريقيا الفرنسية أن تمضي في الجهاد إلى جانب بريطانيا العظمى . ألم يقل مسيو بول رينو في حديث أذيع في الراديو : سنجاهد أمام باريس ، سنجاهد وراء باريس ، سنحبس أنفسنا في أحد أقاليمنا ، فإذا طردنا منه فسنعبر البحر إلى أفريقيا الشمالية ، وإذا اضطررنا فسنذهب إلى مستعمراتنا في أمريكا» .

وقبل أن يتنزل الأمر قدم هذان السياسيان إلى مجلس الوزراء في السادس عشر من شهر يونيو اقتراحاً من المستر تشرشل «تدعى فيه الحكومة الفرنسية إلى أن تترك أرض الوطن ، على أن يعلن إنشاء اتحاد فرنسي بريطاني يقوم على جنسية مشتركة» .

ولم يظفر هذا الاقتراح بالأغلبية ، فاضطر مسيو بول رينو في مساء اليوم نفسه إلى أن يستقيل ، وقامت في مجلس الوزراء أغلبية جديدة تخالف الرئيس السابق ، وتتبع رجلين قد أزمعا تأييد رأي يناقض رأيه ، وهما الماريشال بيتان والجنرال ويجان . ولم نعرف آراء الماريشال للجمهور إلا في تصريحاته المتأخرة . فقد تحدث إلى الأمة في الحادي والعشرين من شهر يونيو فقال : «إن طلب الهدنة كان شيئاً محتوماً منذ الثالث عشر من يونيو» . وقال في رسالة أصدرها في الخامس والعشرين من يونيو : «لقد كانت ألمانيا في حكم المنتصرة حين أعلنت إيطاليا الحرب» .

وكذلك كان رأي الحكومة الجديدة قد استقر على طلب الهدنة ، ومعنى ذلك منع الماريشال المسئول من الذهاب إلى أفريقيا وإقامة سلطة تواصل الحرب . والواقع أن الماريشال أعلن في الحديث الذي أذاعه حين تولى الحكم ما يأتي :

« إنما أطلب إليكم وقلبي يتفطر أن تكفوا عن القتال ، فقد اتجهت الليلة إلى العدو أسأله أنستعد هو لنبحث معاً كجنديين بعد الصراع ، عن طريق تلائم الشرف وتضع حداً للقتال » .

ويقول المسيو مونزيى : « إنه كان يظهر أن مسألة سفر الحكومة من فرنسا قد عدل عنها نهائياً ، مادام المارشال قد قرر البقاء في الأرض الفرنسية مهما تكن الظروف » .

ولكن يؤكد لنا أن رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب ، الذين كانوا متفقين على تكليف مسيو بول رينو أمور الحكم وعلى إبقائه رئيساً للحكومة ، كانوا متفقين معه على ترك فرنسا لمحاولة المضى في الحرب من وراء البحار . ويصف مسيو مونزيى سعى الرؤساء الثلاثة بأنه كان مؤامرة قد دبرت كيداً للمارشال . ونعتقد نحن أن في هذا غلواً ، فما دام دستور سنة ١٨٧٥ قائماً ، فمن حق رئيس الدولة ورئيسى البرلمان أن يقدموا إلى رئيس الحكومة ما يريدون تقديمه من الاقتراحات . وإذا كانت هناك مؤامرة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، فقد صدرت عن مسيو لافال ، وقد كان في ذلك الوقت رجلا من رجال السياسة ليست له صفة رسمية . ونسجل عرضاً ملاحظات مسيو مونزيى عن بودوان كان في فرنسا ، وهو بالطبع يحتمل تبعة ما قال ، وإنما نريد أن نلاحظ أنه يلقى ضوءاً على الدور الذى لعبه مسيو لافال في تلك الظروف ؛ فقد جمع حوله في غير مشقة مائة من الشيوخ والنواب وأقنعهم برأيه ، فقد كان كثير منهم يرون أنه في حالة اليأس من الحرب قد تكون الهدنة فرصة سانحة للتخلص من أحزاب الوسط والشمال ، وأخذ السلطة في غير عناء ولا خوف .

ويقول مسيو مونزيى : « إن مسيو لافال كان يستقبل في غير انقطاع وفى غير تعب أعضاء البرلمان الذين كانوا يفدون على بوردو ، ويعيد عليهم أدلته وحججه ليقنعهم بأن الواجب يقضى بالبقاء في فرنسا ومشاركة الشعب في محنته » .

ولم يجتمع البرلمان قط اجتماعاً رسمياً في بوردو ، وإنما كان الشيوخ والنواب يلتقى بعضهم ببعض في إحدى الحجرات ، وكذلك تكوّن بالتدريج شيء يشبه الكومون[1] — كما يقول مسيو مونزيى — وكان له أثر حاسم في الحوادث . وليس هناك خطر لما اتخذ من المواقف أثناء الطريق مادمنا نعرف النتائج التى انتهت إليها . على أننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نتحقق من صحة المعلومات الآتية : فقد لوحظ أن أعضاء البرلمان من أحزاب اليمين والشمال — أولئك الذين كانوا يدفعون إلى الحرب — كانوا يرغبون في ترك فرنسا ، وأن الذين كانوا يقاومون الحرب ويدافعون عن السلم كانوا يؤثرون البقاء . وربما استطعنا أن نأخذ على مسيو مونزيى شيئا من الاسراف حين احتكر لأنصار المسيو لافال خصلة الهدوء ، وأنهم وضعوا قوتهم كاملة تحت تصرف الوطن في أوقات الخطر .

فنحن مضطرون — مع أننا لم نعتمد إلا على رسالة مسيو مونزيى — إلى أن نسجل أن مسيو لافال كان هو المؤتمر الثائر على أعلى سلطات الدولة . ونحن لا نعنى بهذه الألفاظ أى غض منه أو ازدراء له ، وليست مؤامرته أول مؤامرة أتيح لها النجاح ، وقد اعتمد المؤتمرون في واقع الأمر على المراوغة ، بل على الكذب ، ليحملوا مسيو لوبران على تأجيل سفره ، فكسبوا بذلك بعض الوقت . ألم يذهب مسيو اليبير وكيل الوزارة في رياسة مجلس الوزراء إلى حد أنه أكد لمسيو لوبران في اليوم الثامن عشر من يونيو أن ألمانياً واحداً لم يصل إلى الشاطئ الشمالى لنهر اللوار . وهذا هو الذى يسميه مسيو مونزيى في دعابة طريفة « غلوا في التفاؤل » . وقد علم من حديث صدر فيما بعد عن المارشال بيتان أن العدو كان قد عبر النهر ، وأخذ

(١) الحكومة الثائرة التى ألفت في باريس سنة ١٨٧١ .

ينتشر فى فرنسا منذ الخامس عشر من هذا الشهر ، أى قبل اليوم المذكور آنفا بثلاثة أيام . وعلى كل حال فقد جعلت الجيوش الألمانية تقرب من بوردو منذ اليوم العشرين من شهر يونيو ! وفى هذا اليوم أبلغ مسيو لوران قراره إلى مسيو البيير تليفونيا قائلا : « ليس من الممكن أن أنتظر أكثر مما انتظرت ، فالألمانيون يقتربون وعربتى تنتظر ، فسأركبها إلى بورفندر ، ومن هناك تحملنى مدمرة إلى الجزائر » . وواضح أننا لا نضمن دقة الألفاظ التى يرويها مسيو مونتيني ، ولكن إليك نصاً رسمياً أبلغ إلى النواب بواسطة مسيو بارت أحد المراقبين فى مجلس النواب : « إن الرؤساء مسافرون إلى الجزائر ، وسيبقى المارشال بيتان ، ولكنه سيعطى مسيو شوتان التفويض اللازم الذى يمكنه من تدبير أمور الحكم فى الجزائر . وهناك سفينة راسية فى فيردون — وهى ماسيليا — لتحمل إلى مراكش النواب والشيوخ الذين يريدون مرافقة الحكومة ، ولمن شاء منهم أن يبقى فى فرنساه ، ولا ينبغى أن ننسى أن مسيو شوتان كان وكيلا لرئيس الوزراء .

ومن هذا النص يظهر أن المارشال كان يأمر بأن يقال — أو يترك الناس يقولون — إنه لن يترك أرض فرنسا ، ولكنه سيعطى تفويضا للجنة وزارية ضيقة لتحكم فى أفريقيا الشمالية . ونحن مضطرون إلى أن نسجل هذا الموقف المؤقت الذى وقفه المارشال ، لأننا سنرى الأطوار المختلفة التى مر بها . هذا التصريح الذى ألقاه أحد المراقبين فى مجلس النواب أقلق النواب ، فاجتمعوا فى دار البلدية فى بوردو ، واتخذوا القرار الآتى : « يجب أن يذهب وفد منهم للقاء المارشال بيتان ليبلغه بأنه على الرغم من الأنباء التى نقلت إليه ستبقى الأغلبية الكبرى لأعضاء البرلمان الموجودين فى بوردو إلى جانبه فى أرض الوطن ، وتعاونه إلى النهاية » .

وقد استقبل المارشال هذا الوفد ، وأظهر له رضاه بهذا القرار . وفى مساء اليوم نفسه يوم الخميس ٢٠ يونيو بينما كان المسيو لوران يلح فى السفر فوراً ، أصدر المارشال أمره إلى الوزراء ألا يبرحوا بوردو قبل الساعة الثامنة من صباح الغد . وفى الوقت نفسه أبرق إلى هتلر يطلب إليه أن يأمر جنوده باحترام مدينة بوردو إلى الثلاثين من شهر يونيو ، لتستطيع الحكومة أن تناقش فى حرية شروط الهدنة .

فاذا فهمنا الجزء الأخير من هذا النص على وجهه ، فان الأمر الذى صدر إلى الوزراء بألا يسافروا قبل الغد لم يكن إلا مداورة بارعة . كما أن الطلب الذى قدم إلى ألمانيا إنما قصد به إلى إسقاط الحجة الأساسية التى كان يحتج بها أنصار السفر إلى الجزائر . فقد كانوا يقولون : « إن قرب الجنود الألمانيين من بوردو لا يسمح للحكومة بالمناقشة الحرة لشروط الهدنة ، فيجب أن تسافر الحكومة إلى ما وراء البحار ، فهناك ليس غيرُ تستطيع أن تجد الأمن الذى يمكنها من أن تعطى إمضاءها مختارة .

وعلى كل حال فقد أبحر بعض أعضاء البرلمان فى الليلة نفسها على الباخرة ماسيليا . فلنلاحظ قبل كل شىء أن هذه المحاولة قد كان مقضيا عليها بالاخفاق إن صحت أخبار مسيو مونتيني ، والظاهر أنها صحيحة أو راجحة على أقل تقدير . وقد ركب الباخرة مع المسيو دلاديه ومندل ثمانية عشر من أعضاء البرلمان ليس غيرُ . وقد عدل مسيو هريو من السفر فى آخر لحظة ، بعد أن حملت أمتعته إلى السفينة ، كما عاد مسيو جانينى رئيس مجلس الشيوخ إلى بوردو بعد أن كان ماضيا فى طريقه بالسيارة إلى بورفندر . ومن المرجح أن بعض الأعضاء الذين كانوا قد ركبوا السفينة تركوها متأثرين بعدول الرئيسين عن السفر . وربما كانت قصة الباخرة ماسيليا طريفة فى نفسها ، ولكن ركابها لا أثر لهم فى الحوادث التى تتابعت ، فلنتركهم إذاً .

* * *

منذ ذلك الوقت ، ومنذ هذه الليلة نفسها ، يشغل

مسيو لافال المكان الأول فى المسرح إلى أن يتم تعديل الدستور ، وذلك شىء يجب أن يسجل ؛ ذلك أن مسيو لافال منذ ذلك الوقت هو الشخص الوحيد الذى يسعى إلى غاية محدودة دقيقة ، وهى التعاون مع ألمانيا ، وهذه الغاية قد تكون السبب فيما نأمل لاقصاء الماريشال إياه عن الحكم . فمنذ اليوم العشرين من يونيو إلى اليوم الخامس عشر من يوليو لا يكاد الماريشال يظهر فى شىء ما ، وإنما يكتفى بامضاء الأوراق الرسمية .

وقد كان هناك خطر لا يزال باقيا أمام المسيو لافال ، وهو اقتناع الرؤساء الثلاثة بوجوب المضى فى الحرب . وفى ليلة ٢٠ يونيو بدأ وفد رياسته الهجوم على مقاومة المسيو لوبران ، ومن المرجح أن أقوال مسيو لافال لم تسجل بالاختزال ؛ ولكن مسيو مونتيني كان يعمل معه أثناء كتابته لهذه الرسالة ؛ ونستطيع أن نعتقد أنه أطلعه على تجاربها . وإليك أهم أجزاء الحديث الذى وجهه إلى رئيس الجمهورية : « ليس يمكنك أن تسافر ولا ينبغى أن تسافر ، ولن نقبل بحال من الأحوال أن تسلك الحكومة هذه الطريقة الملتوية ، فتذهب إلى أفريقيا لتمضى فى حرب قد ثبت أنها غير مجدية . ألست تفهم أنه إذا سافر رئيس الدولة ورئيسا البرلمان والوزراء فان الذين سيبقون هنا من الوزراء لن يكون لهم من الثقة والسلطة ما يمكنهم من أن يتكلموا باسم البلاد ؟

« بل هناك أكثر من ذلك ، فان رئيس الجمهورية إذا حمل معه أختام الدولة فهو يحمل معه حكومة فرنسا ، ويصبح وحده صاحب الكلمة فى السياسة . وإذاً فهناك سياسة قد رفضتها الحكومة وهى سياسة رينو وتشرشل ، أفتريد أن تستأنف هذه السياسة منتهزاً فرصة السفر إلى أفريقيا ؟ . ولست أعرف لك الحق فى هذا مهما تكن النضالات ومهما تكن المحاولات . إن رجلين اثنين هما الجنرال ويجان والماريشال بيتان يملكان وحدهما الحق فى أن يقولا أيمكن أن تستمر الحرب . إنك إذا تركت هذه الأرض — أرض فرنسا — فلن تضع قدمك فيها آخر الدهر . ثم حين يعرف أنك اخترت هذه الساعة الخطيرة التى تلقى فيها فرنسا أقسى ما عرفت من الآلام لتترك أرض الوطن ، فستنطلق الألسنة بكلمة واحدة وهى كلمة الفرار . . . بل ربما انطلقت بكلمة أقسى من هذه وهى كلمة الخيانة . . . إن واجبك يا سيدى الرئيس هو أن تقفو أثر الماريشال . إنى أعلن ذلك إليك — وأقبل كل نتائج هذا الاعلان التى قد تتصل بشخصى — لن أذعن لك إذاً . إنما سأحتفظ مع زملائى بحريتنا ، وسنصرفها فى خدمة وطننا ، إذا أردت أن تسافر فهذا حقك ، ولكن لا ينبغى أن تسافر إلا بصفة شخصية ، يجب أن تستقيل » .

وبعد دقائق أراد مسيو لافال أن يظهر بعض أعضاء البرلمان على مسعاه هذا فقال : « مهما يكن من شىء فإننا سنعتبر الرحيل عن فرنسا أشد أنواع الفرار خطراً ، فلنجتمع متعاونين حول الماريشال المدافع عن الوطن . » وكذلك ربح مسيو لافال الوقعة ، واعتقد الماريشال أنه يستطيع أن يختاره وزيراً للدولة ، وقد وقع الذئب فى الغنم . وإذا كان مسيو لوبران قد قبل العدول عن ترك فرنسا فانه فى الوقت نفسه قد استطاع أن يحكم على شخصية لافال . فلنسمع مايقوله مسيو مونتيني : « لقد رفض رئيس الجمهورية امضاءه لأول مرة منذ نهض بأعباء الرياسة . ولم يكن بد من أن يجدد الماريشال سعيه ويلح فيه إلحاحاً شديداً ليظفر بهذا الامضاء . » وسنرى مسيو لافال نفسه يتدخل بنشاط شديد أثناء تعديل الدستور بل هو الذى سيفكر فى هذا التعديل ويعده . يقول مسيو مونتيني : إن بين الذين كانوا يظهرون القلق على المستقبل يحق كان مسيو بيير لافال . يرى أنه لا إنقاذ ما كان يمكن انقاذه — وهى جملة كان يرددها كثيراً — ولتخرج فرنسا ببعض الخير من كل هذه الكوارث ، يجب عليها أن تغير نظمها السياسية تغييراً أساسياً .

(يتبع) جاستون فييت

غاية العالم

للأستاذ أحمد أمين بك

هل للعالم غاية يجدّ للوصول إليها؟ وهل له خطة مرسومة يسير إلى نهايتها، ويتجه نحوها دائماً مهما عاقته العوائق؟

أسئلة دارت وتدور في ذهن المفكرين قديماً وحديثاً.

أما ابن التسبيل البغدادي فحار في الأمر، ولم يستطع الجواب، وقال في حيرته قصيدته الرائعة:

ويك أيها الفلك المدار … أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء … ففي أفهامنا منك انبهار

إلى آخر هذه القصيدة؛ القيمة حيرة وارتباكاً، وشكاً وامتعاضاً.

وحار حيرته كذلك أبو العلاء المعري، فقال:

تفارق العيش لم نظفر بمعرفة
أي المعاني بأهل الأرض مقصود؟
لم تُعطنا العلم أخبار يجيء بها
نقل ولا كوكب في الأرض مرصود

وقال:

سألتموني فأعيتني إجابتكم … من ادّعى أنه دارٍ فقد كذبا

وقال:

أما اليقين فلا يقين وإنما
أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

إلى آخر ما قال في الحيرة، وما أكثر ما قال!

ولندع الشعراء المتفلسفين، ولننظر في آراء الفلاسفة المتعمقين؛ فنرى أنهم تساءلوا من قديم هذه الأسئلة، وأجابوا عنها إجابات متناقضة؛ فأما أرسطو فآمن بأن العالم يسير إلى غاية، وأن الغاية هي تحقيق العقل، هذا العقل ظهر ضعيفاً أو كالمعدوم في النبات، وظهر أرقى من ذلك في الحيوان، وظهر أرقى من الحيوان في الإنسان؛ وهذا العقل لم يكن شأنه كبيراً في الإنسان البدائي، ثم نما شيئاً فشيئاً. وكلما تقدم الزمان ظهر سلطان العقل، واحتكم الإنسان إلى العقل، وسيظل يرقى ويرقى متجهاً إلى العقل الكامل، ولن يبلغ هذه الغاية، ولكنه سيسير دائماً إليها، ويتجه دائماً نحوها. وإنما عد الإنسان أرقى من الحيوان لأنه أعقل، وعدت أمة أرقى من أمة لأنها أعقل؛ والعالم يسير دائماً إلى تحقيق العقل رغم ما يحوطه من عوائق.

وكفر آخرون برأي أرسطو، فرأوا أن العالم ليس إلا مخلوقاً أخرق، وأنه يخبط خبط عشواء، وأنه يسير مرة إلى الأمام ومرة إلى الخلف، ومرة إلى اليمين، ومرة إلى اليسار، وليس له هدف يرمي إليه، بل هو يسير كما شاءت المصادفة، وكما شاء له الهوى، وهو مجنون لا تعقل أعماله. انظر إلى الإنسان سيد العالم — كما يزعمون — في حروبه، وانظره في ملاجئ عجزته، وانظره في فقر فقرائه، وبؤس بؤسائه، ومستشفى مرضاه، وسجون مجرميه. وانظر ما يحدث في العالم كل لحظة من الكوارث، وفظائع الحوادث؛ وحتى السعادة التي فيه قد ربطت بالجهل، وحربت بالعقل. وحياة الناس مهازل تنتهي بالموت كما تنتهي الرواية بإسدال الستار. فليس صحيحاً أن «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، وإنما الصحيح أن ليس في الإمكان أسوأ مما كان. ولو أطلقت ثوراً في مستودع خزف، أو مجنوناً يحمل مشعلاً في مخزن تبن، ما صنعا ما يصنع العالم.

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا … وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منـــه وإن سر بعضهم أحيانا

وليست مظاهر التقدم إلا خداعاً، وليس الفرق بين

ما نسميه أمة متمدنة وغير متمدنة إلا كالفرق بين المرأة في طبيعتها والمرأة في زينتها ، وسيترك كل جيل من الناس الدنيا كما دخلوها بشرورها وبؤسها وشقائها ، وليست الحضارة والبداوة إلا طلاءً ظاهراً لغرائز متشابهة .

ولكن هؤلاء المتشائمين قد أصيبوا بعمى اللون ، فلم يروا في العالم إلا لوناً واحداً هو لون السواد ، ولم يروا مادة لأدبهم إلا نعيق البوم ، وسواد التراب ، وحلكة الظلام ؛ ولم يقوّموا في الحياة إلا المآسي ، ولم يسمعوا من النغمات إلا الحزن ، ولم ينظروا في الحياة إلا إلى سطحها ، لا إلى عمقها ، وشغلوا بالأحداث الجزئية ، لا النظريات الكلية .

إن نظرة شاملة لحركات العالم واتجاهاته تدل على أنه سائر لغاية ، وأن له روحاً وإرادة وعقلا لا يقاس بها ما للفرد ، وأنه يعمل في دأب وجد واستمرار لبلوغ غايته ، وأنه كالفرد له أعمال لا شعورية يدعو إليها العقل الباطن ، وأعمال شعورية يدعو إليها الفكر ؛ وله أعمال تدعو إليها الفطرة والغريزة ، وأعمال تأملية ؛ وله أعمال ظاهرة وأعمال خفية ، وكلها تقرب إلى الغرض . والعالم يسير إلى الأمام في ثبات واستمرار ، قد تتخلف بعض أجزائه ، وقد تتعطل بعض خلاياه ، ولكنه في جملته يسير قُدُماً ، لا يعبأ بما تخلف من جزئياته ، كالجيش الظافر لا يعوقه موت بعض جنوده ، ولا عطل في بعض آلاته ، ولا تخلف من يصيبه الإعياء ، بل هو بالغ غايته على الرغم من كل ذلك . هكذا كان تاريخ الإنسانية ، فقد ترقى أمة ثم تتخلف ثم تموت ، ولكن لا تموت حتى يتسلم منها مجدها قوم آخرون يخطون بالعالم خطوة جديدة ، ويحققون روح العالم العامة التي تدفع إلى الأمام ولا تريد إلا الأمام ، والتي تُعد الوسائل لذلك دائماً من أخلاق قوية ، وأبطال أقوياء ، ونوابغ أفذاذ . وتاريخ الانسانية

من مبدئها إلى الآن ليس إلا مراحل للتقدم إلى الأمام في نواحي الحياة المختلفة من شعور وحرية وتفكير ؛ ولا يمنع الناس من إدراك هذا إلا قِصَر نظرهم على جزئيات العالم كأمة بعينها أو قطر بعينه . أما إن نظر إلى العالم من حيث هو وحدة ، فهناك تتجلى ملامح التقدم بأجلى مظاهرها ؛ فالعالم بناء شامخ شيدت طبقاته في أجيال ، أو قصيدة واحدة نظمت أبياتها على تعاقب الأزمان ، أو رواية محكمة يؤلف كل جيل منها فصلا ، ثم لم تتم فصولها ، ولم توضع خاتمتها . هو سائر إلى الأمام في كل مظهر من مظاهره ، في فنه الدال على شعوره ، وفي دينه الدال على روحه ، وفي علمه الدال على عقله .

بُني العالم على ثلاث قواعد : حفظ الذات وحفظ النوع وتحسين النوع ، هذه هي الأوراق الثلاث التي يلعب بهما العالم لعباته المختلفة في كل تصرفاته التي لا نهاية لها . وكل شيء في العالم من الحشرة الدنيئة إلى أرقى أنواع الانسان يسعى إلى تحقيق وجوده الذاتي ووجوده النوعي ، والعالم كله في جملته يتسامى لتحقيق غايته ؛ وقد اتخذت الطبيعة لتحقيق ذلك كل الوسائل الممكنة من تحريك الغرائز المختلفة ، والانفعالات المتباينة ، والعواطف المتناقضة . ونحن لو بحثناها على شدة ما بينهما من اختلاف لوجدناها كلها ترجع إلى هذه العناصر الثلاثة : تلعب الغرائز والانفعالات والعواطف كل ألاعيبها في النبات والحيوان والانسان لحفظ الذات وحفظ النوع ، وتلعب في الانسان ألاعيبها كذلك للسمو به ، فسعى النبات وراء قوته وتجهيزه بالآلات العجيبة للحصول على غذائه ، وتكثير بذوره ، وسلوك الحيوان في شهواته وعواطفه ، والانسان في كل تصرفاته وعواطف حبه وغزله ، وعواطف أبوته وأمومته وأنانيته — كل ذلك يفسر في النهاية حفظ الذات وحفظ النوع . فقانون الطبيعة في ذلك

قانون ثابت لا يتخلف ، ولا يمكن أن يصدر ذلك إذا لم يكن للعالم غاية . ولا تتورع الطبيعة أن تخدع المخلوقات بكل صور الخداع لتصل وفق ما ترسم ؛ فهذا الانسان – وهو أرقى أنواع المخلوقات – يخدع بكل أنواع الخداع لتحقيق غرض الطبيعة . إن شئت مثلا واحداً فطالع فصول غرامه وغزله وهيامه ، وكل فصول حياته الزوجية ، وكل أدب وفن نسائي ، لترى كيف تلعب الطبيعة بالانسان لحفظ النوع . وكل ما وضع من مبادئ أخلاقية ، وقواعد قانونية ، إنما دفعت إليه الطبيعة لخدمة هذه العناصر الثلاثة والمحافظة عليها .

وشأن العالم شأن شجرة الورد . فكما أن آلاف الأعمال تعملها بذرة الورد من تغذ ونمو واستنشاق ، وتعرض للضوء ونحو ذلك لغرض واحد هو انتاج زهرة الورد ، فكذلك العالم يعمل كله – كوحدة – ملايين الأعمال من محافظة على الأفراد والنوع للوصول إلى غاية ، وهي السمو وتحسين النوع .

والطبيعة لا تعبأ بالتضحيات الكثيرة للوصول إلى هذا الغرض ، فكم من بذور النبات يهلك ليحيا أحسنه ، وكم من ملايين الحيوان والانسان تصادفه العقبات في سبيل حياته وبقائه ، ولا يبقى إلا أصلحه ؟ وهذه الأحياء كلها تتمخض عن عدد قليل من النوابغ الأفذاذ ، هم قادة العالم في سباقه المختلفة يقودونه إلى الأمام دائماً .

قد يحدث في العالم كوارث في منتهى الفظاعة ، كما تثور البراكين ، وكما تزلزل الأرض ، وكما تقوم الحروب الهائلة بين بني الانسان ، فيفنى في ذلك العدد الكثير ، ولكن سرعان ما يسترد العالم كيانه ، ويبدأ سيره وتقدمه ، ويتجلى له أن هذه الكوارث ليست إلا إرهاصاً ببناء جديد على أنقاض قديم ، وأن هذه الكوارث الانسانية ليست إلا نتيجة لتعفن النظم الحاضرة ، وبناء نظم أرقى لانتاج إنسان أسمى . وما الدول والنظم والحكومات إلا أدوات لرقي الانسان ومظاهر لحالته الاجتماعية ؛ يرقى فيرقيها ، وترقى فترقيه . ومذهب الطبيعة أنه لا بأس بهلاك الكثير لتحسين القليل ، شأنها في ذلك شأنها في تدفق ماء الرجل يحمل ملايين من الأحياء لا يعيش إلا واحد منها هو أصلحها للبقاء . وكل يوم يكتشف الانسان وسائل للسمو به ، ولكن قد يجرّبها فتفنى العدد العديد منه ، حتى يضبط نفعها ، ويستطيع التغلب على ضررها . وكما يحدث في تاريخ الانسانية عوائق تعوق سيره ، يحدث كذلك ما يعوّضها من وثبات وقفزات يطفر بها إلى الأمام . كم ألوف من الناس قد ذهبوا ضحية العلم والمخترعات الحديثة ، ولكن ما كسبته الانسانية – ككل – وما أفاده العالم – كوحدة – أعظم جداً مما خسره . قد يتخلف الجنود الضعفاء في سير الجيش ، وقد يموت كثير من أفراد الجيش الزاحف ، وقد يموت بعض الوحدات القوية الصالحة ، ولكن إذا فتح الجيش المدينة المنشودة فلا بأس عن فقد . كم فقد العالم من مستكشفين ! وكم فقد العالم من رواد البر والبحر ! وكم فقد من طائرين وطيارات ! وكم فقد من المجربين في الكهرباء ؛ ولكن ما كانت نتيجة ذلك كله ؟ كانت نتيجته أن العالم تقارب نوعاً ما وأصبح وحدة ما ، وحقق غايته نوعاً ما ، وسيسير في سبيله للتغلب على العقبات غير عابئ بالضحايا حتى يقرب من الغرض ؛ بل هو كذلك يضحي بالعدد الكثير من عامة الأفراد ليصل إلى إنتاج العدد القليل من النوابغ الأفذاذ .

ربما صعب على المفكر أن يرى تقدم العالم إذا نظر إلى أمة واحدة ، أو قارن بين العالم اليوم والعالم منذ سنة أو سنتين أو عشر ؛ ولكن ليطل الزمن قليلاً ، ولينظر إليه نظرة شاملة ، وليقارن بين العالم في قرن والعالم في قرن قبله والعالم في قرون سابقة ، ير أنه يسير إلى الأمام دائماً وأنه على حد تعبير أرسطو يسير نحو تحقيق العقل ، فللعلم الآن مكانته العظمى ، وسيطرته القوية ، والعلم هو مظهر

الطفل؛ وأعنى بالعلم معناه الواسع، وهو العلم بقوانين العالم والإيمان بها، والسير على مقتضاها. ونحن إذا نظرنا إلى الماضي البعيد السحيق في البعد اغتبطنا لتقدم العالم هذا التقدم، ولكن إذا نظرنا إلى المستقبل البعيد السحيق في البعد أدركنا أن العالم لا يزال في طفولته، ولكنه سائر حثاً إلى شبابه.

إن العالم له قلب ينبض، وله عقل مفكر، وله شعور بذاتيته، وله شعور بوحدته، وليست أجزاؤه إلا خلايا كخلايا الشجرة الضخمة، وللخلايا وظائف متنوعة تعمل لغاية هي الثمرة، وكل ضروب أعماله منسجمة متعاونة متوافقة؛ كان كذلك في القديم، وهو كذلك في الحديث، وسيكون كذلك في المستقبل. لم يسر يوماً وفقاً لغرائز حفظ الذات وحفظ النوع، ويوماً على عكس ذلك؛ ولم يتقهقر الإنسان يوماً فيرجع إلى حالته الأولى بعد ما خطا خطوات في تقدمه، ولم يكن في أمسه أعقل منه في غده.

أفبعد هذا ينكر منكر أن له غاية، ويدعي مدع أنه يخبط خبط عشواء؟!

قد علمنا التاريخ أن العالم حين يقدم على خطوة جديدة، وحين يتمخض لولادة جديدة، تقوم زوابع كثيرة تقلب الأوضاع وتكسر ما يعترضها، ثم ينزل الغيث ويهدأ الزوابع ويلطف الجو. وأظن أن الحرب الحاضرة شأنها شأن الزوابع الماضية، ليست إلا علامة على أن العالم يتمخض للولادة، وأنه يريد أن يتخلص من بعض شرور الماضي، ليضع أسساً جديدة لمستقبل أصلح. ومما يؤسف له أن العالم في الحاضر والماضي ليس لديه إلا هذه الوسيلة للإصلاح، لا يستطيع أن يبني بناء جديداً إلا بعد هدم القديم، وإلا كان العمل ترميماً لا تجديداً.

أحمد أمين

من إدارة «الثقافة»

إلى حضرات المشتركين

قررت إدارة الثقافة جعل قيمة الاشتراك في المجلة عن النصف الثاني لسنة ١٩٤١ مطابقة لقيمة النصف الأول.

وترجو الإدارة من حضرات المشتركين الذين يرغبون في استمرار اشتراكهم التفضل بإرسال قيمة الاشتراك عن النصف الثاني لهذه السنة إلى الإدارة قبل نهاية يونيه سنة ١٩٤١.

ملحوظة — يراجع جدول الاشتراك الذي ينشر باستمرار في المجلة

فرزنل Fulgence Fresnel

للأستاذ عبد المحسن الحسيني

ولد فرزنل فى مدينة Mathieu من أعمال Calvados فى ١٥ أبريل عام ١٧٩٥ ، ولكنه لم يلبث طويلا بعد هذا التاريخ حتى اضطر إلى الرحيل إلى باريس مع والدته بعد وفاة أبيه . وفى باريس تلقى دراسته الأولى التى اتجه فيها إلى العلوم البحتة ، متأسياً بأخويه ، وكانا أكبر منه سناً . ولم يكد فرزنل يبرح المدرسة حتى نشر ترجمة الجزء الأول من كتاب Berzelius فى الكيمياء .

إن فرزنل لم يخلق ليكون عالماً كيميائياً ، ولئن كان نشاطه قد حدا به إلى أن يبدأ حياته بترجمة مؤلف فى الكيمياء . فقد عدل به عن متابعة هذا النوع من الدراسة اتساع خياله ، وما فطر عليه من ذوق فنى ، وما حظى به من الاستعداد الأدبى ، بعد بعد ذلك ما كان يجيش فى صدره دائماً من رغبة حارة فى البحث والتنقيب .

حاول فرزنل بعد ذلك بعض محاولات أدبية لم يظهر منها إلا ترجمة جزء من قصص Tieck ، ولكن هذه الناحية لم تكن لتشبع جميع رغباته ، فاتجه إلى دراسة اللغة الصينية لاعجابه بالأستاذ Rémusat الذى كان يعنى بتدريسها فى ذلك الوقت . أخذت هذه الناحية حظاً من عناية فرزنل ، ولم تمض عليه فترة طويلة حتى وصل فيها إلى مستوى عال استطاع معه أن ينشر فى Jour. Asia عام ١٨٢٢ — ١٨٢٣ ترجمة لقصة صينية كبيرة ، ولكنه رغم كل هذا ما كان يجد الصلة بين هذه الدراسة وبين استعداداته الخاصة ، فاضطر إلى أن يعود إلى دراسة اللغات السامية التى كان قد بدأها قبل ذلك ، والتى استطاع أن يظل لها وفياً بقية أيام حياته .

وجد فرزنل طريقه أخيراً ، وبدأ فى دراسة العربية على De Sacy فى باريس ، ثم انتقل بعد ذلك إلى روما عام ١٨٢٦ ، ليستطيع أن يتابع دروس المارونيين ، ولكن كل ذلك لم يقنعه ، فرأى طلب العربية فى القاهرة نفسها ، فسافر إليها فى عام ١٨٣١ ، حيث تلمذ بها على أحد علمائها الشيخ محمد الطنطاوى .

بدأ فرزنل دراسة الشعر الجاهلى ، ووجد فى ذلك ضالته المنشودة التى عمى عنها سنين طوالا أنفقها فى دراسات أخرى شد ما ندم على ما بذل فيها من وقت جعله لا يهتدى إلى طريقه إلا بعد أن شارف الشيخوخة .

ولكن دراساته كانت لحسن الحظ على غاية من التوفيق ، فلقد استطاع أن يحيى أمام أعيننا صورة ذلك العصر الجاهلى البعيد ، فاستطاع أن يكشف عما كان فيه من حياة وعادات ، وما كان يغشاه من عواطف وأخيلة وأحاسيس . ولقد استطاع رغم ما يفصله عن ذلك العصر أن يحيى فيه بروحه ، وأن يغشاه بخياله هذا النجاح الذى لم يصادفه أحد قبله . ولكنه رغم كل هذا لم يستطع أن يناصر بأبحاثه إلا بعد عشر سنوات ، إذ نشر أول مؤلف له فى هذه الناحية وهو عن الشنفرى . كتب كذلك وهو فى مصر الرسائل الثلاث الأولى من رسائله عن تاريخ العرب قبل الاسلام Lettres sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme ، والتى اعتمد فيها على «العقد الفريد» لابن عبد ربه الذى عثر عليه يومئذ فى القاهرة . ومن سوء الحظ أن نذكر أنه لم يستمر فى عمله هذا حتى النهاية .

رغب فرزنل بعد ذلك فى أن يترك القاهرة إلى طنجة ، أملاً فى أن يكون هناك أكثر توفيقاً فى دراسته ، ولكنه ما نزل طنجة حتى أرسل أحد أهلها إلى فاس لينسخ له بعض المخطوطات العربية المحفوظة بمكتبتها التى

كان يحرم على غير المسلمين دخولها . وهكذا مضى الشيخ محمد إلى فاس فى هذه المهمة ، ولكن أصيب فرزنل فى ذلك الوقت بأزمة مالية شديدة حالت بينه وبين رغباته ، كما جعلته بعض الشيء يشعر بالندم على ما بذله من العمل على أن يظفر برعاية الحكومة قبل ذلك .

عين فرزنل بعد ذلك قنصلاً بالنيابة فى جدة فى عام ١٨٣٧ ، ولم يلبث قليلاً بعد ذلك حتى حول هذا المنصب إلى قنصلية ثابتة . ولقد شغل فرزنل منذ وطئت قدمه جزيرة العرب بالعناية بدراسة جغرافيتها القديمة والحديثة ، كما عنى بدراسة لهجات أواسط الجزيرة . وظن أنه يستطيع بدراسته لهجة الأخيلية (عامية حضرموت) معرفة اللغة الحميرية التى انقرضت والتى لم يبق منها سوى بعض كلمات يذكرها الفيروزابادى وغيره من أصحاب القواميس . فأخذ لذلك فى دراسة اللهجة الأخيلية ، وبدأ فى نشر نحوها وقواعدها التى استطاع أن يكشف عنها خلال دراسته لبعض المعلومات والملاحظات التى استطاع أن يجريها على شخص يدعى محسن أحد قطاع الطرق من حضرموت ، إذ كانت هـذه هى لهجته الأصلية التى يتكلم بها .

حدث بعد ذلك أن جدت بعض ظروف أعطت أهمية خاصة لهذا النوع من الدراسة ، ذلك أن Wellstedt و Cruttenden وصلا إلى اكتشاف بعض النقوش الحميرية فى صنعاء ، فاستطاع فرزنل فى ذلك الوقت أن يقارن بعض هذه المكتشفات بما وصل إليه من قواعد الأخيلية . ولكن حدث أن اتصل به فى ذلك الوقت أحد الفرنسيين المشتغلين فى الخدمة الطبية لملك سبأ ، وكان يقال له Arnaud فاستطاع أن يمده على مئات من النقوش الحميرية الموجودة فى صنعاء ، وفى خرائب مدينة خريبة . استطاع فرزنل أن يحمل Arnaud على أن يقوم برحلة إلى سد مأرب وإلى هذه البلاد ليقف على ما فيها من نقوش . ولقد قام Arnaud بهذه الرحلة ، ولكنه اضطر أن يعود منها بعد أن نقل ٥٦ صورة من المخطوطات الحميرية ، وذلك لمرض أصاب عينيه . استطاع فرزنل بعد ذلك أن يسعى فى باريس ليوجه Arnaud فى رحلة أخرى إلى هذه الأماكن ؛ ولقد وفق فى ذلك وعاد Arnaud فى رحلة جديدة إلى اليمن لمدة ثلاث سنوات ، ولكن الصعوبات التى كانت تجابه مثل هذه الدراسة ، حالت دون نجاحها تماماً .

وبينما كان فرزنل فى انتظار مبعوثه إلى اليمن أتاحت له المصادفات نوعاً آخر من الدراسة ؛ ذلك أنه اتصل ببعض الحجاج الزنوج الذين كانوا يزورون القنصلية الفرنسية أثناء مرورهم بجدة ، وعلم من محادثاته معهم أن وحيد القرن الذى يذكر فى الانجيل وفى خرافات الأقدمين موجود فى بقعة من بلادهم يقال لها بورجو .

أرسل فرزنل على نفقته أحد الزنوج ليحضر له رأس وحيد القرن هذا وأحد حوافره ، ولكنه ما علم بعد ذلك بوجود هذا الحيوان فى الحبشة على ساحل البحر الأحمر ، حتى أرسل فى طلبه فأرسل إليه أحد أشراف الحبشة مركباً يحمل سبعة عشر عدداً منها ؛ وعند وصول المركب إلى جدة ذهب أحد زنوج بورجو الذى كان فى خدمة القنصلية لمعاينة هـذا الحيوان ، فأكد أنه هو الذى يعرف فى بلادهم ، ولكن كان هذا الحيوان لسوء الحظ هو الكركدن المعروف . ولكن فرزنل لم يتح له فى هذه الأثناء أن يقف على مثل هذه النتائج السيئة ، إذ كان وقتئذ فى باريس مشغولاً بمشروع سياسى اقتصادى أكرهه على ترك دراسته عن بورجو .

كان فرزنل أثناء إقامته فى جدة يحلم بأن يسير قافلة من الحجاج الجزائريين يحميها العلم الفرنسى كما كانت تسير

القافلة المصرية والفارسية والتركية . وكان كذلك يسمع كثيراً من المحاولات التي كان يقوم بها سلاطين بورجو للبحث عن طريق يصل بلادهم بالبحر الأبيض المتوسط بين غازى ، فأراد فرزنل أن يحقق هاتين الرغبتين بمشروع ينطوى على أن تقوم قافلة فرنسية من جنوب الجزائر فتخترق الصحراء الكبرى إلى بورجو ، ثم تسير على حدود السودان ، ثم تخترق بعد ذلك سنار حيث تعبر البحر الأحمر عند القصير . وكان لا يرى صعوبة لإنفاذ مثل هذا المشروع — الذى يجعل من فرنسا حامية الاسلام بين هذه الشعوب ، والذى يكشف عن طريق تجارى له أهميته السياسية والاقتصادية ، إذ تتحول إليه جميع الطرق الداخلية — سوى شيء واحد ، ذلك هو اختراق الصحراء ؛ وقد كان يرى إمكان التغلب على ذلك بإنشاء بعض الآبار الارتوازية فى الطريق . واضطر فرزنل إلى الذهاب إلى بنى غازى ليتمم بقية دراساته حول المشروع حيث صادف بقايا قافلة نفقت جمالها جميعاً فى الصحراء أثناء محاولتها اختراقها آتية من السودان . ولئن كانت هذه الحادثة قد أكدت له تماماً إصرار أهل بورجو على هذه المحاولة للاتصال بالبحر ، إلا أنها أكدت له كذلك أن مثل هذا المشروع لا يستطاع إخراجه إلى حيز العمل ، ولكن أتت بعد ذلك حوادث عام ١٨٤٨ فقضى هذا المشروع .

عاد فرزنل بعد ذلك إلى جدة ، ولكن صحته لم تعد تحتمل بعد ذلك حر بلاد العرب وجوها ، فرغب عن الاقامة فيها ، فنقل قنصلا إلى الموصل ، ولكنه رفض الذهاب إلى مقره الجديد وعاد إلى باريس . وفى عام ١٨٥٢ أسندت إليه رئاسة البعثة العلمية التى أوفدتها الحكومة إلى العراق ، فذهب إلى حلب ومنها إلى ديار بكر ؛ وهنا أخطأ طريقه فذهب إلى بغداد حيث أفضى الطريق به بعد ذلك إلى خرائب بابلون ؛ ولو أنه عدل عن دخول المدينة ، وذهب إلى مضارب العرب لأفضى به ذلك إلى حوض الدجلة الأسفل الذى كان مقصد البعثة الحقيقى ؛ ولكنه وجد نفسه بدخوله المدينة مفصولا من حوض الدجلة بصحراء واسعة أفضت به إلى بابلون . هذا ولقد وفقت هذه البعثة إلى نتائج جليلة ، ولكنها حين استدعتها الحكومة رفض فرزنل العودة معها أملاً فى أن يلقى أول بذور لانشاء مدرسة لدراسة الآثار فى بغداد . ورغم جميع الظروف التى أحاطت به يومئذ أصر على البقاء هناك لدراسة الآثار ، ولكنه أصيب يومئذ بفاجعة عظيمة ، ذلك أن الآثار التى جمعها ونقلها إلى البصرة تمهيداً لنقلها إلى فرنسا قد ذهبت ضحية لبعض أعمال المغيرين هناك ؛ ولكن صحة فرزنل التى كانت قد تحطمت من طول الاقامة فى الشرق ومن تعاطيه الأفيون الذى أقدم عليه أول الأمر دواء ، لم تستطيع أن تحتمل مثل هذه الصدمة ، فتوفى فى بغداد فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٥ ، بعد حياة استمرت إحدى وستين سنة كانت مثال الحيوية والنشاط والمثابرة .

عبد المحسن الحسينى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر (قرش صاغ)
٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ الطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ صاغ

٢ – التأليف المسرحى

فى فرنسة(١)

بقلم الدكتور بشر فارس

إذا قلت المسرح الفرنسى عنيت الباريسى ، وباريس قلب فرنسة ورأسها . والمسرح الباريسى على أنواع ، والنوع الذى ينصرف إليه ذهنى ههنا إنما هو الموقوف على الفن الخالص أو المقارب إليه .

وهذه ثلاث سنوات يخرج علىَّ المسرح الفرنسى فى كسوة آخذة فى الشحوب . ومما لا شك فيه أن فى فرنسة ممثلين مهرة ، ومخرجين على دراية واسعة واثقة ، ومسارح فائقة ومفلحة . وليس فى نيتى أن أبين كيف أفلت التمثيل من القيود الاتباعية (كتكلف جمود الإلقاء) ، وكيف اتصل الاخراج بألوان الحياة : الواقع والموهوم ، بفضل رجال مثل أنطوان Antoine ، وبول فور Paul Fort ، ولينيى بو Lugné-Poe وكوبو Copeau وتلاميذه ، وبفضل ارتقاء المسرح الأوربى ، ولا سيما المسرح الروسى والانجليزى والألمانى . فإنما مثل هذا الحين يلحق بخارج فن المسرح ، وحديثى عن التأليف المسرحى لهذا العهد .

* * *

إنما المسرح الفرنسى يعوزه التأليف الجارى على أسلوب منزه عن الاصطلاح والاختلاق والتقليد ، ومرتفع عن مسايرة أهواء العامة ، والتأثير القريب الغور . وإن أنت سرحت نظرك فيما يؤدى على خشب المسارح أصبت مسرحيات معدودة لها شأنها ، وفى طليعتها مسرحيات لبول كلوديل P. Claudel ، وموريس ميترلنك M. Maeterlinck ، وجبريل مارسيل G. Marcel وجان جيرودو J. Giraudoux . والغريب أن طائفة من هذه المسرحيات غير مستحسنة ، لأن أصحابها ينظرون إلى الفن من حيث إنه فن ، فيأبون أن يعدوه تسلية أو مدرجة لذيوع الصيت .

أما كلوديل فسِمته الاستغلاق والتصوف ؛ وأما ميترلنك — وقد غادر المسرح منذ سنين — فرمزى بإيثار الحديث الباطن وتغليب الرمز على الايضاح . وأما جبريل مارسيل فالمتعارف عنه أنه مشغول بما وراء الطبيعة . وأما جيرودو فحظه عالٍ ، وأظنه أقرب المؤلفين إلى قلوب النظارة وأجلهم مكانةً فى أنفسهم ؛ غير أن علو قدره يرجع إلى صفاء أدبه بقدر ما يرجع إلى ولع الفرنسيين بشخصه ، لأنه أديب الساعة أو أديب «الموضة» auteur à la mode كما يقولون هنالك . ومهما يكن من أمر جيرودو فإنه لا ينحرف كثيراً من الأدب الفرنسى الشيع ، بالرغم من رمزيته وفنطاسيته fantaisie (كما قالت العرب بعد اليونان) ، ذلك بأنه يغترف من الأدب الأغريقى ، ويعمد إلى الظرف ، ويستعين بالحذق الذهنى ، وينمق الأسلوب .

وهنالك غير هؤلاء المؤلفين ، أذكر منهم كوكتو

(١) فى العدد العاشر من الثقافة (٧ مارس سنة ١٩٣٩) ، نشرت توطئة مبحث فى «التأليف المسرحى» . ثم اتفق لى أن فقدت البحث . واليوم عثرت عليه ، وها أنا أنشر الفصل الأول منه . وليأذن لى القارئ أن أذكره بأن التوطئة جرت إلى شرح حال المسرح المصرى لهذا العهد ، ولا سيما حال «الفرقة القومية» . وكان الغرض من تلك التوطئة أن أبين كيف ينبغى الاقتناع بأن المسرح المصرى ينبغى له أن يخرج على المسرح الأوربى أولاً وآخراً ، وأن المؤلفين يحسن بهم أن يدرسوا خطط أصحابهم الغربية وما كان . ووجهى فى التخلف أن المسرح عندنا يحق له أن ينتقل بحوله ... ، أو يحاول هذا ، وأنه من السخف أن نقلد كل ما يجرى فى أوربة ، (ولا سيما فرنسة وهى قبلتنا فى فن المسرح) على جانب من جلالة الخطر وعظم الشأن .

Cocteau ولنورمان Lenormand وموريس ماركث دي جار M. M. du Gard وسالاكرو Salacrou وباسور S. Passeur ، فضلاً من المؤلفين الأجانب الذين ظفروا بالنجاح في باريس .

* * *

وإذا نحن عرضنا المسرح في الخريف الماضي ١٩٣٨ وجدنا المسرحيات قد خرجت من جانب التأثر الدفين والايحاء ، والفكر المكتوم والرؤيا الساحرة ، إلى جانب التصوير الواقعي ووصف الأخلاق الرذولة وإبراز الحياة المضطربة في مظهرها لا في مخبرها ، والاشارة إلى شواغل اليوم من سياسية واجتماعية .

وأكبر دليل على أن الطريقة الواقعية الغالبة أن فرقة الممثل الروسي بيتويف Pitoëff [1] — وهي المنصرفة إلى المسرحيات الناهضة على ما دون الواقع من الحياة الباطنة وما وراء الواقع من الحياة المتخيلة — أخرجت مسرحية لبرنارد شو B. Shaw ، منقولة إلى الفرنسية بهذا العنوان « المال لا رائحة له » . وهي « مهزلة » comédie لها غاية معينة ، قائمة على القدح ابتغاء التهذيب . وإليك دليلاً آخر ، فصته أن كوكتو — وهو المؤلف الذي طالما حير العقول بشعره وقصصه ومسرحياته ، ثم بشذوذ خلقه وتطرف عاداته واشتهر بأنه مؤلف مكعبي cubiste — وضع مسرحية Les Parents Terribles تعود بنا إلى المأساة المفرطة Mélodrame ، أسلوبها مباشر هزاز للأعصاب المخدرة ، أعصاب طبقة البرجوازي (طبقة أهل الثراء)

وأما وصف الأخلاق الرذولة لأجلها لا لأجل التمحص من الطبيعة البشرية فيبدو في مسرحية كوكتو هذه حيث الأم مغرمة بابنها ؛ وفي مسرحية أخرى عنوانها « آدم » لمارسيل آشار حيث الرجل ينجذب من المرأة إلى رجل آخر ؛ ومسرحية ثالثة عنوانها « فرلين » لموريس روستان ، تقص قصة الشاعرين المتحابين فرلين ورامبو . وقد كان في ظننا أن هذا اللون من التأليف ذهب بذهاب هنري باتاي H. Bataille ، وإن حاول أميل بوردي E. Bourdet أن يبعثه بعد الحرب العظمى ، ولنورمان أن يشده بنتائج فرويد المتصلة بالعقل الباطن .

وأما إبراز الحياة المضطربة في مظهرها لا في مخبرها على طريقة الابتداعيين (الرومانتيك) فملموس في المسرحية التي جرؤت الكوميدي — فرانسيز على إخراجها ، وعنوانها « الألوان الثلاثة » Tricolore (رمزاً إلى العلم الفرنسي) من تأليف لسترنجيز Lestringuez . ففيها ما تشاء من صراخ وخطابة ومشاهد متنفضة ونقاضة ، وأحوال مستعجلة ، على رأسها جميعاً فكرة لا محصول وراءها .

وأما الاشارة إلى الشواغل السياسية والاجتماعية (كما صنع أرسطفان قديماً في مسرحيتيه « السلام » و « الزنابير ») فظاهرة في المسرحيتين اللتين أداهما الممثل دولان Ch. Dullin في مسرح « الأتيليه » : الأولى « بلوطوس » لأرسطفان مع كثير من التصرف على يد القتبسة الآنسة جوليفيه Jolivet ؛ والثانية « الأرض مستديرة » لأرمان سالاكرو ، وهي تروى قصة سافونارول Savonarole القس الحاكم بأمره في مدينة فلورنسة . أما هذه فتشير إلى مساوئ الحكم المطلق (ضمنها تعريض بموسوليني وهتلر) ، وأما تلك فتشير إلى فداحة الضرائب ولؤم الذهب وجلالة الكد ، وضرورة الفقر

(١) توفي بيتويف من سنة وبعض سنة . انظر قولي فيه (الرسالة ، ديسمبر ١٩٣٩)

(هيهنا تعريض بمشكلات الأمة الفرنسية)[1]

أضف إلى كل ذلك أن المؤلفين ما خلا جيرودو وبركروشو أداروا على شفاه أشخاصهم ألفاظاً ساقطة مبتذلة (كما صنع ارسطفان قديماً في «مُجْتَمَع النساء» L' Assemblée des Femmes ، وموليير أحياناً) رغبةً في تقريب لغة المسرح من لغة الطريق، بل قل رغبةً في استمالة الجمهور الخشِن . وكَمِغْشٌ قلبي من إيراد الأمثال . وحسبك تلك اللفظة التي تجرى على ألسنة الفرنسيين ساعة يغضبون .... m ، وتلك اللفظة التي يعبر بها القوم من الملامسة .... b ، ثم تلك اللفظة التي تدل على ناحية من نواحي الجسم .... c . ومن المسرحيات التي كثرت فيها تلك الألفاظ حتى إنها أثارت اشمئزاز النظارة «الأسرة الأولى» للشاعر جول سوبرفييل ، و «بلوطوس» لارسطفان و «أردن أوف فيفرشام» المنسوبة لشكسبير ومقتبسها لنورمان .

* * *

بيد أن المؤلفين — سوى الذين ذكرتهم في مستهل هذا المقال ، وسوى غيرهم ممن هجر التأليف على ما يبدو ، مثل جانتيون Gantillon صاحب مسرحية «مايا» المشهورة ، وروما Romains صاحب «كنوك أو انتصار الطب» — عاجزون من الابتكار ، حتى إنك تحس في مجرى المسرحية أو في مطوىً من مطاويها أثر هذا أو ذاك .

ومن الأمثلة أن مسرحية كوكتو المتقدم ذكرها ومسرحية آشار («آدم») ترجمان إلى طريقة هنرى باتى ، وأن «الألوان الثلاثة» تدخل في المأساة المفرطة الشعبيّة ، وأن الجزء الثاني للفصل الأول من «الأرض مستديرة» مسيَّر على أسلوب شكسبير ، وأن «هنالك» Là-Bas (وهي مأساة بين الاجتماعية والواقعية) من تأليف مدام تاتيانا Titayna (على مسرح جيوييت) تُذكِّر بفيكتور هوجو وأسكَر وَيْلد وشمرودلير ، وأن «ليلة اللصوص الراقصة» (وهي مهزلة تهريجية) من تأليف أنوِيّ Anouilh (على «مسرح الفنون») تَرِدُ إلى موليير وسكريب Scribe ، وأن في «القرصان» لمارسيل آشار (على مسرح لويس جوفيه Jouvet) بعض أساليب بيرندللو Pirandello ، وأن «أسموديه» Asmodée من تأليف فرانسوا مورياك F. Mauriac (على مسرح الكوميدى فرانسيز) تجرى على طريقة تشيكوف Tchekow من حيث تقديم الأشخاص من الجنب لا من الوجه ، ثم تستوحى راسين Racine في المرض النفساني .

هذا على أن نهمل المسارح الموسومة بمسارح البولفار Théâtres des Boulevards فالمؤلفون هناك — أمثال بورديه وبرنشتين Bernstein وساشا جيترى S. Guitry لا يخرجون من المراسم المتواضع عليها للمهزلة ، وللمأساة المفرطة ، وما يسمونه «المأساة البرجوازية» le drame, bourgeois . فالحل الأول فيها جميعاً المشكلات الطريفة وألوان المشق الربيب les mots d'auteur وحيل الصناعة les ficelles du médier . فأولئك المؤلفون يخلفون دوماس الابن وساردو وباتى ، وروبير دى فلير ، وكاتابيه وفيدو ، وأضرابهم الذين استخفوا بجلال الفن المسرحى وصدقه وبعد غوره .

* * *

والدليل على أن مسرحيات اليوم ليست بشيء عظيم ، وأن الجمهور لا يروى بها ظمأ ، وإن صفق وضحك أو

---

(١) لشد ما دهشت لما قرأت اسم هتلر مقروناً بقصة عنه اليهود واستعداده لصب الحرب ، في المسرحية التي نشرها جبريل مارسيل ثلاثة أشهر خلت وعنوانها «الظمأ» La Soif (ص ١٦٦ و ١٧٠) .

انفض وبكى ، أن طائفة من المسارح لا تنفك تؤدّي كل سنة مسرحية لفحول المؤلفين من قدماء ومحدثين ، على رأسهم أرسطفان وبن جونسن ، وشكسبير ، وموليير ، وجوته ، وموسيه ، ثم إبسن أو بيرنديللو أو تاجور أو كلوديل أو أحد من الروس .

أما أرسطفان وبن جونسن فعلى مسرح دولان . وأما شكسبير وموليير فتارةً هنا وتارة هناك . وأما جوته فعلى مسرح باتى . وأما موسيه فعلى مسرح الكوميدى فرانسيز . وأما إبسن وتاجور فعلى مسرح بيتويف . وأما بيرنديللو فبين مسرح دولان ومسرح باتى ومسرح بيتويف والكوميدى فرانسيز . وأما كلوديل فبين هذين الأخيرين .

كل ذلك فضلاً عن مسرحيات الاتباعيين الفرنسيين وفى مقدمتهم راسين وكورنى . فتؤدى على أسلوبين ، أحدهما اتباعى على نحو ما تؤدى فى الأوديون ، والآخر مستحدث على ما جرى لمسرحية موليير le Misanthrope (النافر من الناس) على مسرح الامباسادور Ambassadeurs .

وربما أخرجت هذه المسارح مسرحيات جديدة لغير الفرنسيين : فقد أدى مسرح الـ Vieux Colombier مسرحية لمؤلف أمريكى (إيت لا فيرى) عنوانها « الجيش الأول » ، ثم أدى « مسرح الفصول الأربعة » ، مسرحية لمؤلف تشيكوسلوفاكى (كارل تشابك) عنوانها « أولادنا » .

• • •

ومجمل القول أن التأليف المسرحى لهذا العهد فى فرنسة على جانب عظيم من الاضطراب فى جملته ، ذلك بأنه يقصر من أن ينمو نمواً طريفاً ، وبأنه ينزل إلى أهواء سواد الجمهور الراغب عن اللذة المعنوية المحضة .

وقد قيل إن السبب فى ذلك يرجع إلى سلطان الصور المتحركة ، وإلى غلاء تذاكر المسرح بسبب الضرائب ، وإلى رواج مسارح البولفار التى لا تعمل للفن الخالص ، وإلى طغيان الإخراج على النص ، وإلى استرخاء عزم أصحاب المسارح الذين دأبوا فى إحياء فن التمثيل ثم قضوا بالوصول ، وإلى . . . وإلى . . .

وكيفما كانت الحال فان التأليف المسرحى هنالك غير مرضى على وجه العموم . وفى الفصل الآتى سأبسط آراء النقاد فى ذلك ، وأذكر مسعى فرق التمثيل الجديدة فى سدّ الخلل .

بشر فارس

«تطلب المفاجأة»

كثيراً ما نسمع الناس يشكون الحياة ويعيبون ما فيها من جمود وتجهم وخمول وملال .

وكثيراً ما تكون هذه الشكوى حقة لأنها وليدة تبرّم من استمراء المسرات المألوفة لأن ذوقهم قد دَاخَله الاهتياج لالتماس التناع بالحياة فسئم كل متاع ، وتضعضع من أن يطمئن لما اعتاده الناس لونا للحياة ، كالسقيم يؤتى له بالطعام ، ولا يكاد يذوقه إلا على كره ومضض ، لأنه قدم له في حالته الطبيعية ، فينصرف عنه كارها ، ويشترط على الذين يقدمونه له أن يغمروه بالتوابل والأفاويه ، إغراءً له بتناوله ، وهو بذلك يخسر كمية كبيرة من قيمته الغذائية النافعة لبنيان جسمه .

فوارحمتاه لنا ! إن البطر الانسانى يفسد علينا من ملذات الحياة الخالصة الصافية ما لا ينبغى أن يفسد .

وارحمتاه لنا ! إننا نتبرم بالمتع والأغراض والأعراض التى تمنحها من فرص حياتنا اليومية ، ونجدها عادية جداً تافهة لا تبعث فينا نشوة قوية أو تثير أريحية جائشة ، فنأبى إلا أن نجدّ فى طلابهما ، ونحن كلما ازددنا حرصاً على التماسهما جمحَ بنا البطر إلى الاستزادة منهما ، وأراد ما بين أيدينا يسيراً ضئيلاً مبتذلاً مملاً ، وهوى بنا إلى أودية من دركات الاهتياج والعياء والتعس والضجر ، فلا نطمئن إلا إذا باغتنا الجديد الطريف من أسباب تلك النشوة والأريحية .

وارحمتاه لنا من ذلك البطر المستبد بل الجشع الطاغى الذى يلح علينا بالتماس السعادة من طريق المفاجآت التى لا تشبع ولا تروى :

وارحمتاه لنا ! إننا لو علمنا أن السعادة الحقة لا تدرك بالتمحل واصطناع الحبور وتكلف البهجة ، لتقبلنا الحياة كما هى ، ولاستخرجنا ما فيها من هناء وبهجة ، وما فيهما من جمال وصلاح يثيران فينا حب الخير والايثار ، ولوجدنا فى استجابات الطبيعة الزاخرة بالجود والروعة ما يغنينا عن التماس الأغراض المثيرة ، ويملأ نفوسنا رضى وصفواً ودعة ونعيماً .

(الزهرة)

الأســـبوع

للأستاذ عبد الحميد لطفي

الشمس والقمر والنجوم :

عرف الإنسان الشمس ، وعرف منها مصدر حيويته ، ومنبع طاقته وحرارته ، فعبدها ، واعتبرها ملك السماء ، لما تتميز به أشعتها من احمرار ونورة وقدرة . وعرف القمر ، يتلمس به طريقه وقت سراه ، وعرفه ينقص عن الشمس درجة ، فليس لضوئه حرارتها ، كما لا يتميز به الليل بطوله ، إذ يختفي إذا ما بكر في الغروب ، أو تأخر في الشروق ، ولذلك اعتبره ملكة السماء ، لما تتميز به أشعته من زرقة وهدوء وصفاء . وعرف النجوم مصابيح سماوية ، تتلألأ وتتألق ، وأحب أن يجعل منها علامات يتلمس بها السبيل ، فأعوزه ذلك ، واختلط عليه الأمر ، لكثرتها وتعددها ، ولكنه داوم النظر إليها ، فتكشفت له من نظام هندسي بديع ، ففصل بين بعضها والبعض بخطوط وهمية صورها له خياله ، وجعل منها أشكالا مما يقع تحت حسه وبصره ، في بيئته التي يعيش فيها ، وهل في بيئته غير الرعي والصيد ؟ أليست أمامه أنعام يرعاها ، وسباع يخشاها ، وكهوف يغشاها ، ودواب يسخرها ، ونباتات يقتحمها ، وحيوانات يصيدها ، وهوام يخشى بأسها ، وأمتعة يستعملها ؟ ألا يبحث في السماء عما رآه في الأرض ؟ فليس غريباً إذا ما صور له خياله في نجوم السماء ، ثوراً وحملا ، وجدياً وأرنباً ، ودباً وأسداً ، وسرطاناً وعقرباً ، وحوتاً وتنيناً ، وكلباً وفرساً ، وسياجاً وقوساً ، وميزاناً ودلواً ، وغير ذلك . وليس غريباً أن يوفق بين هـذه الأشكال المختلفة ، ليبرر مواضعها ، وشأنها في هذه المواضع ، فيؤلف — تحت تأثير معتقداته — قصة أو جملة قصص ، يتكلم فيها ما تخيله ، ويحبك أطرافها ، بحيث تشبع رغبته ، فيستمتع بلذة روحية لما شأوها وقيمتها .

عرف الشمس ملكاً ، والقمر ملكة ، والنجوم أشياعاً وأتباعاً ، فما تكاد تظهر الشمس ، حتى تختفي الملكة والأشياع والأتباع ، وتسيطر على الكون منفردة ، حتى إذا ما لجأت إلى الراحة آلت منها القمر والنجوم .

البروج :

استيقظ الإنسان قبيل شروق الشمس ، فوجد نجوم السماء ما زالت تتلألأ وتتألق ، ثم ما لبث أن خفت ضوؤها ، نتيجة لأشعة الشمس التي أرسلتها من تحت الأفق ، حتى إذا ما برزت الشمس من خدرها ، وعم ضياؤها ، اختفت هذه النجوم . ولحظ أن الشمس أشرقت من أحد مواضع الأفق الشرقي ، حيث كانت تحتل هذا الموضع بعض نجوم مجموعة نجمية معينة ، فلابد أن تكون الشمس قد اصطفت هذه النجوم لتحل محلها في موضعها طول الليل ، وراقب الإنسان هذه النجوم المصطفاة ، يوماً بعد يوم ، فإذا به يرى الشمس تتزحزح ، فتترك بعض هذه النجوم ، وتختص نجوماً أخرى من نفس المجموعة ، حتى إذا ما مر شهر ، تركت الشمس هذه المجموعة ، واصطفت مجموعة أخرى ، تتنقل بين أعضائها في شهر آخر ، ثم تصطفي مجموعة ثالثة ، وهكذا ، حتى إذا ما أتمت الشمس دورتها السنوية ، إذا بها تعود إلى المجموعة الأولى ، وبذلك تكون الشمس قد اصطفت اثنتي عشرة مجموعة من بين المجموعات النجمية ؛ وهـذه المجموعات الاثنتا عشرة تقع في منطقة معينة ، تسمى منطقة البروج Zodiac ، وقد جمع الشاعر أسماءها في البيتين :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

الأجرام السبعة :

عرف الإنسان الشمس تتنقل في منطقة البروج ، وراقب القمر فوجده أيضاً يتنقل في هذه المنطقة ، ثم رأى في أحد البروج جرماً لامعاً لا يتألق ولا يتلألأ ، فحسبه عضواً جديداً استقر في هذا البرج ؛ ولكن لم يلبث هذا الجرم أن انتقل من برج إلى برج ، بحيث لم يعد منطقة البروج ، ويكون قد اتبع في مسيره مسير الشمس والقمر ، ولابد أن يكون له شرف الشمس والقمر ؛ ولذلك عد الإنسان أمثال هذا الجرم اللامع السيّار ، فوجدها خمسة أجرام ، واعتبرها عروشاً لآلهة خمسة ، وسماها ، واختلفت التسمية باختلاف الأمم ، كما اختلفت في الأمة الواحدة باختلاف الأزمنة والملابسات ، فضلاً عما اعتور هذه التسمية من التطور على مر العصور ، وما أخذته أمة من أخرى من طريق التبادل اللغوي الناجم من اتصال الثقافات من طريق التجارة والغزو والتبشير والرحلات وغير ذلك . وقد أطلق العرب على هذه الأجرام الخمسة أسماء زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد . وقد قارن الإنسان بين حركات هذه الأجرام الخمسة في منطقة البروج ، ورتبها تبعاً لبطء الحركة ، فكان أبطؤها وهو زحل الجرم الأول ، ويليه المشتري ، فالمريخ ، فالزهرة ، فعطارد وهو أسرعها ؛ ثم قارن بين درجات لمعانها ، فوجد ألمعها الجرم الرابع الزهرة ، ويليه الجرم الثاني المشتري ، فالجرم الثالث المريخ ، فالجرم الأول زحل ، فالجرم الخامس عطارد ، واعتبر زُحلَ عرشاً لأبي الآلهة ، وجعله مختصاً بالشئون الزراعية ، ولما كانت درجة لمعان عرش هذا الإله تقع في المرتبة الرابعة ، سلب منه زعامة الآلهة ، وأعطاها لإله الجرم الثاني المشتري ، إذ أنه الثاني في بطء الحركة والثاني في درجة اللمعان ، وجعل إلهه مختصاً بالشئون الجوية . أما الجرم الثالث وهو المريخ ، فهو الثالث في بطء الحركة ، والثالث في درجة اللمعان ، ويتوسط هذه الأجرام الخمسة ، ويتميز باحمرار لونه ، ولذلك جعل إلهه مختصاً بالشئون الحربية . وأما الجرم الرابع وهو الزهرة ، فهو ألمع هذه الأجرام الخمسة ، ولذلك جعل إلهه مختصاً بالشئون النسائية واعتبر إلاهة ؛ وأما الجرم الخامس وهو عطارد ، فهو أسرع هذه الأجرام وأخفتها ضوءاً ، ولذلك اعتبر إلهه رسول الآلهة وكاتم أسرارها ، واختص بالشئون التجارية والصحفية . وقد ضم الإنسان الشمس والقمر إلى هذه الأجرام الخمسة ، فأصبحت سبعة أجرام ، ثم رتب الشمس والقمر مع هذه الأجرام الخمسة ، تبعاً لبطء الحركة أيضاً ؛ فظل زحل الأول ، والمشتري الثاني ، والمريخ الثالث ، وأصبحت الشمس الجرم الرابع ، والزهرة الخامس ، وعطارد السادس ، والقمر السابع ؛ وقد جمعها الشاعر العربي في قوله :

زحل شَرَى مريخه من شمسه
فتزاهرت لعطارد الأقمـــار

الأجرام السبعة والساعات والأيام :

عرف الإنسان الأجرام السبعة ، واعتقدها عروشاً لآلهة سبعة ، قسمت العمل فيما بينها ، طبقاً لنظام منسق مقرر لا تتعداه ، واختص كل منها بأمر من أمور هذا الكون المنظم ، واشتركت هذه الآلهة السبعة في رعاية الأرض وما عليها ، على أن يكون هذا الاشتراك بتفرد كل منها برعايتها لمدة معينة ، وأن تكون هذه المدة المعينة أصغر وحدة زمنية يمكن أن يؤدى فيها عمل ذو بال ، وهي الساعة ؛ وبذلك قسموا الزمن إلى دورات سباعية

من الساعات ، يختص كل إله منها بساعة من كل دورة ، طبقاً لترتيب هذه الآلهة ؛ وبذلك اختصت الشمس بالساعة الأولى من بدء الخليقة ، واختصت الزهرة بالساعة الثانية ، وعطارد بالثالثة ، والقمر بالرابعة ، وزحل بالخامسة ، والمشترى بالسادسة ، والمريخ بالسابعة ، وبذلك أصبح ترتيب الأسبوع الساعي (دورة الساعات السباعية) بالنسبة للأجرام السبعة كما يأتى :

١ — الشمس . ٢ — الزهرة . ٣ — عطارد .
٤ — القمر . ٥ — زحل . ٦ — المشترى . ٧ — المريخ .

وإذا أريد معرفة الإله المختص بساعة ما من بدء وجود الكون ، تسقط السبعات من العدد الدال على ترتيب الساعة (أى تقسم العدد على ٧) ، فإن كان الباقى ١ كان الإله المختص هو الشمس ، وإن كان الباقى ٢ كان الزهرة ، وهكذا ؛ فمثلا الساعة ١٧ يختص بها عطارد لأن الباقى ٣ ، والساعة ٩٦ يختص بها زحل لأن الباقى ٥ .

ولما كان اليوم هو أساس الساعات ، فلنرجع إلى اليوم ، فنجده ٢٤ ساعة ، و ٢٤ ليس مضاعفاً للعدد ٧ ، وإنما يزيد عن هذا المضاعف بثلاث ساعات ، وتبعاً لذلك تكون الساعة الأولى من اليوم الثانى تناظر الساعة الرابعة من اليوم الأول ، وتكون الساعة الأولى من اليوم الثالث تناظر الساعة الرابعة من اليوم الثانى ، وتناظر الساعة السابعة من اليوم الأول ، وهكذا . ولما كانت الساعة الأولى من اليوم الأول قد اختصت بها الشمس ، فتكون الساعة الأولى من اليوم الثانى تناظر الساعة الرابعة من اليوم الأول ويختص بها القمر ، وتكون الساعة الأولى من اليوم الثالث تناظر الساعة السابعة ويختص بها المريخ ، وتكون الساعة الأولى من اليوم الرابع تناظر الساعة العاشرة أو الساعة الثالثة ويختص بها عطارد ، وتكون الساعة الأولى من اليوم الخامس تناظر الساعة السادسة ويختص بها المشترى ، وتكون الساعة الأولى من اليوم السادس تناظر الساعة التاسعة أو الساعة الثانية ويختص بها الزهرة ، وتكون الساعة الأولى من اليوم السابع تناظر الساعة الخامسة ويختص بها زحل . ولما كان اليوم يتعقد لواؤه من ساعته الأولى ، فيمكن تسمية اليوم باسم الإله الذى يسيطر على ساعته الأولى ، وبذلك تكون أسماء أيام الأسبوع النجمى كما يأتى :

١ — الشمس . ٢ — القمر . ٣ — المريخ .
٤ — عطارد . ٥ — المشترى . ٦ — الزهرة .
٧ — زحل .

الأسبوع :

الجمعة (بإسكان الميم) دورة من الأيام تتكرر ، وتنتهى بيوم ينقطع فيه القوم عن القيام بأعمال معاشهم العادية ، إما للاستجمام ، وإما لتأدية فروض معبوداتهم ، وإما للقيام بالمبادلات التجارية ، فيكون هذا اليوم ، يوم راحة ، أو يوم عبادة ، أو يوم سوق . وقد اختلفت مدة الجمعة باختلاف الأمم ، كما اختلفت فى الأمة الواحدة باختلاف المناسبات ؛ وهى ثلاثة أيام عند قبائل مويسكا Muysca فى أمريكا الجنوبية ، وأربعة أيام عند قبائل غرب أفريقية ، وخمسة أيام عند قبائل أمريكا الوسطى والصين القديمة ، وستة أيام عند قبائل توجو Togo ، وثمانية أيام عند قدماء الرومان ، وعشرة أيام عند قدماء المصريين والاغريق وفى تقويم الجمهورية الفرنسية . وكانت الجمعة عند قدماء البابليين مرتبطة بالشهر القمرى ، فكانت أيام الراحة هى الأيام ٧ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٨ من كل شهر ، ويسمونها الأيام المحزنة ويصومونها . وإنما استبعدنا يوم ١٩ ، لأنه كان فى الأصل عيداً لراعى السماء الأمين (انو) ، وهو المجموعة النجمية المسماة بالجبار Orion ، كانت أيام الراحة

العادية هي ٧ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٨ من كل شهر ، وكان في الشهر أربع جمع ، كل من ثلاث منها سبعة أيام ، أي أسبوع ، والجمعة الباقية ثمانية أيام في الشهر الناقص ، وتسعة أيام في الشهر الزائد ؛ وفي أواخر القرن السابع قبل الميلاد جعل البابليون الجمعة مستقلة عن الشهور ، وجعلوها أسبوعاً ، ويكون البابليون هم أول من استعمل الجمعة أسبوعاً ، وأخذه عنهم اليهود ، وربط اليهود الأسبوع بالعقيدة الدينية التي تنص على أن الله خلق الدنيا في ستة أيام ؛ ولذلك جعلوا اليوم السابع يوم راحة وعبادة وانقطاع عن القيام بالأمور المعاشية ، وأطلقوا عليه اللفظ البابلي سبَّاتو ، بعد أن صقلوه إلى سبَّات أو شبَّات . وقد كان لليهودية فضل عظيم في تثبيت أقدام الأسبوع ، إذ ورثته المسيحية ، وساعدت بذلك على نشره بين الأمم المختلفة ؛ ولم يكن انتشار الأسبوع بين هذه الأمم ناجماً عن اعتقادها في اليهودية أو المسيحية ؛ بل لأن للسبعة غراماً ، صادف قبولاً عند هذه الأمم ، خصوصاً وأن كثيراً منها كان يعرف الأسبوع النجمي ، ولذلك احتفظ بأسماء أيام الأسبوع النجمي المذكور .

أسماء أيام الأسبوع :

أسماء أيام الجمعة إما مرقومة باسم اليوم الأول واليوم الثاني واليوم الثالث وهكذا ، كما كان عند قدماء المصريين والإغريق ؛ وإما مرقومة ما عدا يوم الراحة ، إذ أعطى اسماً خاصاً به ، كما كان عند البابليين واليهود والعرب الأواخر ، وفي تقويم الجمهورية الفرنسية ، وإما مسماة كما كان عند الصينيين والعرب الأوائل ، وكما كان في الأسبوع النجمي . وقد احتفظ الرومانيون والهنود والجرمانيون بأسماء أيام الأسبوع النجمي ، عند ما استعملوا الأسبوع في معاملاتهم العادية .

وسأعرض لأسماء أيام الأسبوع في اللغات العربية ، والجرمانية ممثلة في الانجليزية ، والرومانية ممثلة في الفرنسية :

اليوم الأول في العربية يوم الأحد ، وفي الانجليزية يوم الشمس Sunday ، وفي الفرنسية يوم الرب Dimanche . واليوم الثاني في العربية يوم الاثنين ، وفي الانجليزية والفرنسية يوم القمر Lundi و Monday . واليوم الثالث في العربية يوم الثلاثاء ، وفي الانجليزية والفرنسية يوم المريخ ، ففي الفرنسية Mardi نسبة إلى المريخ Mars ، وفي الانجليزية Tuesday نسبة إلى Tiw اللفظ الجرماني القديم لإله المريخ . واليوم الرابع في العربية يوم الأربعاء ، وفي الانجليزية والفرنسية يوم عطارد ، ففي الفرنسية Mercredi نسبة إلى عطارد Mercure ، وفي الانجليزية Wednesday نسبة إلى Woden اللفظ الجرماني القديم لإله عطارد . واليوم الخامس في العربية يوم الخميس ، وفي الانجليزية والفرنسية يوم المشترى ، ففي الفرنسية Jeudi نسبة إلى Jove اللفظ الروماني القديم لإله المشترى ، وفي الانجليزية Thursday نسبة إلى Thor اللفظ الجرماني القديم لنفس الإله . واليوم السادس في العربية يوم الجمعة (بضم الميم أو فتحها) لأنه كان يوماً يجتمعون فيه ، وفي الانجليزية والفرنسية يوم الزهرة ، ففي الفرنسية Vendredi نسبة إلى الزهرة Venus ، وفي الانجليزية Friday ، نسبة إلى Frige اللفظ الجرماني القديم لآلهة الزهرة . واليوم السابع في العربية يوم السبت ، وهو اللفظ العبري سبات بعد صقله ، وفي الفرنسية يوم السبت أيضاً بعد أن تطور إلى Samedi ، وفي الانجليزية يوم زحل Saturday نسبة إلى زحل Saturn .

عبد الحميد لطفي

سلامة القس

للأستاذ علي أحمد باكثير

[كان عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار شاباً تقياً طاهراً عفيفاً ، كفلته أمه بعد وفاة أبيه وهو في الثانية من عمره ، فأسلمته إلى أحد أقاربها ليحفظ القرآن ، وحببت إليه الاعتكاف بالمسجد الحرام ، يروي عن علماء الحديث حتى تفقه في دينه ، وأصبح مضرب الأمثال ، حتى لقبه أهل مكة بالقس . وقد خرج في فجر أحد الأيام للصلاة في المسجد ، فلقيه أبو الوفاء ، ودعاه إلى لقائه بعد الصلاة عند حلقة الدرس ليحدثه في أمر هام . حتى إذا انتهت الصلاة ، اجتمع عبد الرحمن بأبي الوفاء وصديقين من أصدقائه ، فقص عليه أبو الوفاء نبأ قدوم حبابة ، إحدى القيان ، ونزولها بدار آل سهيل ، حيث أحيت ليالي بهيجة تغنت فيها بشعر ابن أبي ربيعة ، وهو كما عرف عنه مستهتر ، يشبب بالمحصنات ، وطلب أبو الوفاء آخر الأمر من ابن أبي عمار أن يتوسط لدى الوالي في إخراج حبابة من مكة ، حتى لا تفسد على الناس أمور دينهم .

وفي نفس الوقت كانت سلامة جارية أبي الوفاء تنهض من نومها متثاقلة إطاعة لأمر مولاتها ، وهي تترنم بغناء سمعته من حبابة الليلة ، التي كانت تغني في الغناء السابق عند آل سهيل ، وما لبثت بعد ذلك أن صلت الصبح ، ثم مضت ترعى شويهاتها ، وفيما هي ترعى وتتغنى بشعر ابن أبي ربيعة ، التقت بغلام يرعى غنمه يدعى حكيماً ، كان حسن الصوت ، فأسمعها شيئاً مما كانت تغنيه] .

وبرمت سلامة بهذه المطاولة من حكيم فقالت في شيء من الحدة :

— يا لله ! ما لنا ولهذا ؟ أسمعني من أصوات حبابة أقول لك .

رأى حكيم برمها فآثر أن يرضيها وقال لها :

— سأسمعك لحناً صنعته حبابة في شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، فهلمي بنا نقعد على ذلك التل ونرسل غنمنا في أسفله .

وأشار إلى تل صغير إلى يسارهما على أسفله قليل من العشب ، فوافقته سلامة على ما اقترح ، ومشيا يهشان غنمهما وأسندا في التل حتى قعدا على منتصف السفح ، وانتشر الغنم يرعى في أسفله ، واختلط بعضه ببعض .

بدأ حكيم يتمتم بالغناء ، وما زال صوته يرتفع شيئاً فشيئاً حتى رن صداه في ذلك الخلاء :

بنفسي من لو مرّ برد بنانه
على كبدي كانت شفاءً أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته
فلا هو معطيني ولا أنا سائله

فطربت سلامة طرباً شديداً ، وما منعها أن تقوم فترقص إلا اجتهادها في محاولة حفظ اللحن ، وقالت :

— أحسنت يا حكيم . . . ويلك إلا ما أعدته عليّ .

فأعاد عليها اللحن مرة بعد مرة حتى قالت له :

— حسبك يا حكيم . . . اسمعني ، سأعيد اللحن عليك ، فاردد علي إن أخطأت .

قال لها :

— افعلي ونعيم عيني !

فغنت سلامة :

بنفسي من لو مرّ برد بنانه
على كبدي كانت شفاءً أنامله

ثم وقفت عن الغناء وقالت :

— تباً لي ! لم أحسن اللحن .

فأعاد حكيم الشطر الثاني وطفق يكرره وهي تكرره معه ، حتى قال لها :

— ما أنت فيَّ أجده الآن . فكان جندلا عظيماً .

ونهضا فنزلا من السفح يتفقدان غنمهما ، ويعيدان ما ند منها وابتعد من تلك البقعة ، ثم عادا يستبقان إلى مكانهما في السفح ، فارتمت سلامة على مقعدها ، وارتمى حكيم قريباً منها ، وأرسلا نهداً طويلا من تعب الجرى تخالطه ضحكات بريئة كل البراءة من جانب سلامة — وبسمات من قبل حكيم لا تخلو من معاني الغزل .

وما كاد تَنَفُّسُ سلامة يهدأ حتى طفقت تعيد اللحن وقد ارتفعت عنها محاولة التقليد ، وأرسلت نفسها على سجيتها ، ومدت من صوتها ما شاءت أن تمد ، ورجَّعت فيه ما طاب لها الترجيع . فطرب حكيم طرباً شديداً ، ولم يصدق أنه يسمع اللحن الذي لقنها إياه منذ الساعة . ونظر إلى الشياه السائمة في أسفل التل ، فخيل له أنها قد كفت عن الرعي ، واشرأبت بأعناقها إلى مصدر ذلك اللحن العُلوي البديع . فما لبث أن صاح في دهش :

— ويل لك ! ما هذا ؟

واشتبهت سلامة لاختلاف لحنها من الأصل فقالت :

— تبا لي ، مددتُ إلى خطأي .

قال لها :

— كلا والله ، ما هذا بخطأ . . . لقد زدت اللحن بهذا مقوية ليست في الأصل . . . والله لقد خُلقت للغناء يا سلامة ، وليكونن لك فيه شأن — وإنما أنت في حاجة إلى معلم تأخذين الغناء عنه .

رَنَّت هذه الكلمات كالطل البارد على قلب سلامة ، لأنها عبرت تعبيراً واضحاً عما لديها من الرغبة الغنائية التي كانت تحس بها إحساساً مبهماً ؛ فلم يبق لديها شك حينئذ في أنها ستصير مغنية عظيمة إذا وجدت من يأخذ بيدها في هذا السبيل ؛ ونظرت إلى حكيم نظرة ملؤها الشكر وقالت :

— لكن من لي بذلك المعلم يا حكيم ؟

أطرق حكيم لحظة ، ثم قال لها في شيء من التردد :

— قلت لك إني أعرف شيئاً من ألحان جميلة ، وأزيدك أني أعرف جملة من ألحان غيرها ، فهل لك أن تأخذيها مني ؟

لم تتردد سلامة أن قالت :

— افعل يا حكيم ، ولك المنة والفضل .

رفع حكيم بصره إليها قائلا :

— ما جزائي عندك إن علمتك إياها يا سلامة ؟

فضحكت سلامة وأجابته قائلة :

— جزاؤك . . . لا أدري . إني لا أملك شيئاً يا حكيم .

فقال لها :

— بل تملكين كل شيء يا سلامة !

وفطنت سلامة لبعض ما يريد ، وقالت متجاهلة :

— والله رب هذا البيت لا أملك شيئاً .

قال لها :

— لا تقولي هذا وعندك هذا الفم الأرجواني ، والثنايا اللؤلؤية !

فاصطبغ خدها بحمرة الخجل ، وقالت في لهجة العاتب :

— تباً لك . . . أتريد . . .

فابتدرها حكيم قائلا :

— قبلة يا سلامة . . . قبلة أو قبلتين !

قالت وقد قطبت وجهها :

— ويل لك . . . بئس ما ربتك أمك يا حكيم !

فأجابها مبتسماً :

— أجل بئس ما ربتني أمي . . . كانت — رحمها الله — كثيراً ما تقبلني !

فأغربت سلامة في الضحك ، ثم كفكفت منه لحظة وقالت :

— دعنا من هذا . . . ألا تمنحني يا حكيم ؟

قال لها :

— وتمنحينني القبلة يا سلامة ؟

فسكتت . . . ثم نظرت إليه ضاحكة وقالت :

— أمنحك إياها .

فاقترب منها حكيم قائلا :

— هاتي فوالله إن المكان لخال .

فارتدت سلامة قليلا إلى الوراء قائلة :

— لا . . . ليس الآن . . . حتى تعلمني .

قال حكيم وقد عاد إلى مكانه الأول :

— حسناً . . . سأعلمك كل يوم لحناً أو لحنين ، على أن تعطيني قبلة على كل لحن .

فأجابته ضاحكة :

— قبلت شرطك يا ماكر .

فابتسم حكيم ابتسامة الظافر وقال :

— إذاً فهاتي القبلة التي استحققتها عندك باللحن الذي علمتك إياه الآن .

ولكن سلامة لم تعدم الرد المقنع ، إذ قالت

— إنك علمتنيه قبل أن نبرم بيننا هــذا الاتفاق ، فليس لك أن تطالبني بشيء بعد .

قال لها وقد شعر بأنه المغلوب :

— ويل لك ! ما أذكاك ! غداً أستحق لديك قبلا كثيرة !

فابتسمت وأجابته قائلة :

— غداً يأتي الله بالفرج

الفصل الخامس

مرت الأيام تترى على حكيم وسلامة وهما يلتقيان كل يوم في المرعى فتأخذ منه لحناً من الألحان التي كان يعرفها حتى استنفدت ما عنده منها ، وظلا بعــد ذلك يتطارحان الأغاني السالفة ويعيدانها حتى إذا استقلّت الشمس في كبد السماء رجعت سلامة إلى البيت فقامت بما عليها من شؤونه .

وكانت في خلال ذلك كثيراً ما تتأخر عن موعد مجيئها إلى البيت فتعاتبها مولاتها ، فتتنصل من تبعتها بعذر من الأعذار تختلقه اختلاقاً ، وكانت أم الوفاء تتسامح معها في ذلك لشدة حبها لها وتعلقها بها .

وزاد ولوع سلامة بالغناء حتى كانت لا تكاد تكف عنه وهي تطبخ الطعام أو تكنس المنزل . وطالما نصحتها أم الوفاء بالكف عن ذلك وشددت عليها فيه فلم تكن لتنتصح . وفاجأها أبو الوفاء غير مرة وهي تغني فزجرها أشد الزجر وتوعدها بالضرب ، فكانت تكف عن الغناء يوماً أو يومين ، ولكنها لا تلبث أن تعود إليه . وكان من جراء ذلك أنه قلما كان يمضي يوم لا يشتد فيه التلاحي بين أبي الوفاء وأم الوفاء ، إذ كان يتهمها بالهوادة والتسامح مع الجارية ، وأنها لو قست عليها وأخذت بجانب الحزم في تأديبها لكفت من هذا الباطل .

والحق أن أم الوفاء كانت تدافع عنها في أول الأمر وتنتحل لها الأعذار ، وتعِدُ زوجها بأن سلامة ستكف عن باطلها ، حتى ضاقت نفسها آخر الأمر حين رأت أن لا فائدة من نصح سلامة ، فأعلمت زوجها بأنها عجزت عن تأديبها ، وأنها تترك له الحق في أن يتصرف في أمرها كما يشاء . فشاورها أبو الوفاء في أمر بيعها للتخلص منها ، وكان ذلك شديداً على أم الوفاء لحبها سلامة ، ولكنها لم تجد عذراً تعترض به على هذا الرأي فرضيت به على كره .

(يتبع) علي أحمد باكثير

تصحيح خطأ مطبعي

في اللسان والمختار

الأسمران الماء والرمح :

جاء في لسان العرب[1] : (أبو عبيدة : الأسمران الماء والحنطة ، وقيل الماء والرمح) ، وفي بعض طبعات مختار الصحاح[2] : (الأسمران الماء والبُر ، وقيل الماء والرمح) ، وذكرت كلمة (الرمح) فيهما بالياء المثناة التحتية ، وصوابها (الماء والرمح) بالميم بدلاً من الياء . ذلك أن العرب تصف الرمح بالسمرة ، كما تصف الحنطة ، وتضيف إلى كل منهما الماء ، وتطلق لفظ (الأسمرين) عليهما تغليباً . ولا يوجد فيما رأيناه من كتب اللغة وصف الرمح بالسمرة ، أو تسمية الماء والرمح بالأسمرين ، ولم يشر إلى هذه الغلطة المرحوم أحمد تيمور باشا في جزءي كتابه تصحيح لسان العرب . وهاك النصوص :

١ — في القاموس المحيط : (الأسمران : الماء والبر ، أو الماء والرمح) .

٢ — في تاج العروس : (الأسمران الماء والبُر ، قاله أبو عبيدة ، أو الماء والرمح ، وكلاهما على التغليب .

٣ — في أساس البلاغة في مادة (س م ر) : (قناة سمراء ، وقنى سُمْر)[3] .

٤ — في جمهرة اللغة لابن دريد : (السمرة بين البياض والأُدْمة ، ورجل أسمر من قوم سُمْر ، وامرأة سمراء ، وقَناة سمراء) .

٥ — في المخصص[1] : (أبو عبيد : من الرماح الأظمى وهو الأسمر) .

٦ — في فقه اللغة للثعالبي[2] : (إذا كان الرمح أسمر فهو أظمى) .

٧ — في كفاية التحفظ للأجدابي[3] : (من صفات الرماح : الرمح الخطّيّ ، والسمهريّ ، واليَزَنيّ ، والرُّدَيْنيّ والزَّاعبيّ ، والأسمر) .

٨ — في صحاح الجوهري[4] : (الأسمران الماء والبر ، ويقال الماء والرمح) .

٩ — في مختار الصحاح في غير الطبعات السابقة[5] : (الأسمران الماء والبر ، وقيل الماء والرمح) .

١٠ — في كتاب الجمل في اللغة لأحمد بن فارس[6] : (الأسمران الماء والبر ، وقيل الماء والرمح) .

١١ — في جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين للمحبي : (الأسمران الماء والبر ، ويقال الماء والرمح) .

(دمشق) محمد الكامل القصار

---

(١) في الطبعة الوحيدة المطبوعة ببولاق مصر ، وفي نسخة خطية غير تامة في المكتبة الظاهرية بدمشق (رقم ١٤ لغة) .

(٢) في الطبعة التي رتبها الأستاذ محمود خاطر بك على أوائل الكلمات ، المطبوعة غير مرة بالمطبعة الأميرية ، ومطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٧ ومطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٥ .

(٣) القناة الرمح ، وتجمع على قنى ، مثل حصاة وحصى . الصباح المنير .

---

(١) الجزء السادس صفحة (٣١) .

(٢) في الباب الثالث والعشرين في اللباس والسلاح .

(٣) في الطبعة الحلبية بحلب صفحة (٣٦) .

(٤) في الطبعة الوحيدة المطبوعة ببولاق مصر ، وفي نسختين خطيتين بالمكتبة الظاهرية (رقم ٢١٢ عام) و (رقم ٨ لغة) ونسخة خطية نفيسة لدى أصحاب المكتبة العربية بدمشق .

(٥) في مطبعة روضة الشام بدمشق سنة ١٣١٦ ، ومطبعة مكتبة العصيان بدمشق سنة ١٣٠٨ ، ومطبعة بولاق سنة ١٣٠٢ ومطبعة الحلبي في سنى ١٣٢٠ و١٣٤٤ و١٣٥٥ ، والطبعة الحسينية سنة ١٣٤٣ ، والطبعة العثمانية سنة ١٣١١ وكلها بمصر ، وطبعة استانبول سنة ١٢١٨ ، ونسختين خطيتين في مكتبة العصيان ، ونسختين خطيتين أخريين في المكتبة الظاهرية (رقم ٩ و١٠ لغة) ونسخة خطية أخرى في المكتبة العربية .

(٦) مخطوط غير تام في المكتبة الظاهرية (رقم ٢٣ لغة) .

قوانين الحرب

الحرب في ذاتها جريمة من أفظع الجرائم وأبشعها ، وليس في وسع الشرائع البشرية أن تبررها . غير أن ثمة قيوداً يخضع لها المتحاربون في أثناء القتل والتدمير ، ويرجع خضوعهم هذا إلى أقدم العهود ، وقد كان له بعض الأثر في تخفيف ويلات الحرب قديمها وحديثها ؛ والعالم المتمدن حتى في هذه الحرب الضروس يقر بسلطان هذه القوانين ، وإن حاول التملص منها في كثير من الأحيان . وآية ذلك أن الذين يخرقونها يحاولون أن يبرروا مسلكهم بأن يلقوا عليه ستاراً من القانون ، وإن يكن في كثير من الأحوال ستاراً شفافاً لا يخفي حقيقة ما وراءه من المجون . وفي هذا المقال يشرح أستاذ القانون الدولي في جامعة أكسفورد قوانين الحرب وما كان لها من أثر في الحروب الحديثة ، ويوازن بين رأي الألمان ورأي أعدائهم فيها ، ويخص بالذكر حرب الهواء والحصار البحري ، ولا يغفل مسائل القصاص ، وحقوق أهل البلاد المحتلة والمحايدين ، وإلى القارئ آراءه موجزة غاية الإيجاز :

يقول الإنجليز إن الألمان في الحرب الماضية قد أغرقوا سفن المحاربين والمحايدين من غير أن ينذروا هذه السفن قبل ذلك التدمير ، وأنهم بثوا الألغام العائمة في البحار ، وأطلقوا المدافع على المدن المكشوفة الآهلة بالسكان ، واستخدموا الغازات السامة ، وصبوا النار من طائراتهم على السكان المدنيين ، وقتلوا الرهائن البلجيكيين ، وقالوا وهم يفعلون ذلك إنهم لم يخرقوا قوانين الحرب ، ولم يعتدوا على قواعد الأخلاق العامة .

ويقول الألمان إن الإنجليز في الحرب الماضية نفسها قد ضربوا الحصار على ألمانيا فأماتوا الأطفال والنساء جوعاً ، وذلك عمل لا يقل في قسوته وفظاعته من القتل بالمدافع والطائرات .

وفي هذه الحرب تتكرر هذه الأعمال نفسها بشكل أفظع وأشد قسوة ؛ فالمدن العامرة مثل روتردام تدمر في ساعات ، والحصار البحري شديد ضيق الحلقات . فهل ثمة ما يبرر هذه الأعمال ؟ إن الجواب من هذا السؤال موقوف على الجواب من سؤال آخر هو : هل هناك قوانين يتقيد بها المحاربون ؟ وما هي هذه القوانين وما نشأتها عندهم ؟

يقول المتشائمون : إن « قوانين الحرب » كلمتان متناقضتان لا معنى لها ، ولكن الحروب الماضية قد أثبتت خطأ هذا الرأي ، لأن المتحاربين كانوا يتقيدون بهذه القوانين إلى حد ما . لا ننكر أن بعضهم قد خرقها كما يخرق بعض الأفراد الشرائع العادية العامة ، ولكن ما من دولة قد أنكرت وجودها ، أو لم تعترف بسلطانها ، ومن ثم فقد كان لهذه القوانين أثر عملي لا شك فيه ، ويرجع تاريخ قوانين الحرب إلى العصور الوسطى حين كان للدين ونظام الفروسية سلطان قوي على النفوس قلل من فظاعة الحروب ووحشيتها[1] .

لكن الناس قد عادوا إلى التحلل من قيود القوانين الحربية في أثناء الحروب الدينية التي دارت رحاها في أوربة في العصور الوسطى نفسها ، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى صوابهم في القرن الثامن عشر ، فخلت حروب الجيوش من كثير من فظائع الحرب ووحشيتها .

غير أن قواعد الحرب في تلك الأيام كان مرجعها إلى ضمائر المتحاربين وعددهم ، ولم ينص عليها في معاهدات أو مواثيق دولية إلا بعد عام ١٨٥٠ . ومنذ ذلك الحين أصبحت أصول القوانين الحربية جزءاً هاماً من القانون

(١) وذلك لما وضعه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون لقواده وجيوشهم من قواعد ما لو جمع لشكل نظماً حربية تستطيع أن تعرفها الدول المتحضرة .

الدولى العام ، واعترفت بها الدول فى مؤتمرات عامة أهمها كلها مؤتمر لاهاى الذى عقد فى عام ١٩٠٧ ، وقد أقر هـذا المؤتمر عدداً من المواد تنص على ما يجب مراعاته فى الحروب البرية ، واتفق فوق ذلك على أن ما لم تشمله القوانين المسنونة يكون مرجعه « إلى المبادئ المستمدة من العادات المرعية بين الشعوب المتمدنة ، وإلى المبادئ الانسانية ومبادئ الضمير العام » .

فالحرب إذاً قوانين تقوم على العرف والعادات المرعية وأوامر الدين والأخلاق والمدنية والمروءة الانسانية . وقد يقول البعض إن قوانين الحرب تخضع للضرورات الحربية ، أى أن من حق المتحاربين ألا يتقيدوا بها إذا كان فى خرقها نجاة لهم من خطر الهزيمة ، أو كان التقيد بها يمنعهم من بلوغ الغاية التى يحاربون من أجلها . ولكن هذا القول يهدم قوانين الحرب من أساسها ، ويجعلها أشراكاً يقع فيها العدو الشريف غير الحذر ، ومن حسن الحظ أن معظم الدول لا تأخذ بهذه النظرية .

ما الذى تنص عليه قوانين الحرب ؟

يمكن تقسيم قوانين الحرب إلى أقسام ثلاثة رئيسية : فالقسم الأول يشمل أعمال المتحاربين ضد أعدائهم المدنيين ، ويشمل الثانى أعمالهم ضد القوات المسلحة ، ويختص القسم الثالث على أعمالهم ضد المحايدين من الدول والأفراد ، وكان القسم الأول مثاراً للجدل فى الحرب الحاضرة ؛ أما فى الحرب الماضية فكان القسمان الثانى والثالث موضع نزاع شديد ، وكان ثالثهما بنوع خاص هو الذى أدى إلى دخول أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء .

أعمال المحاربين ضد السكان المدنيين

لم يحدد الفرق بين المدنيين والمحاربين تحديداً واضحاً إلا فى أثناء القرن التاسع عشر . وقد ذهب الكتاب فى أرض القارة الأوربية وقتئذ مذهباً بعيداً فى هذا التحديد ، فقالوا إنه لما كانت الحرب علاقة بين الدول لا بين الأفراد ، فإن العداء القائم بين هذه الدول بعضها وبعض يجب ألا يتعدى الجنود إلى السكان المدنيين . ولكن علماء القانون الدولى من الانجليز والأمريكيين لم يأخذوا بهذا الرأى ، وإن اعترفوا كلهم بأن المبادئ الأساسية للقانون الدولى تحرم تعريض المدنيين لهجوم مباشر من قبل المتحاربين ، وتوجب تأمين هؤلاء المدنيين على أنفسهم وحرماتهم وصيانة أموالهم الخاصة إلا فى حالات استثنائية قليلة ، ما داموا مسالمين خاضعين للنظام والقانون .

لكن الفرق بين المدنيين والمحاربين لم يعد له فى الحرب الكبرى الماضية ما كان له فى القرن التاسع عشر من وضوح ، وسبب ذلك أن جميع الذكور القادرين على حمل السلاح قد أصبحوا فى تلك الحرب عرضة للتجنيد ، أو أنهم قد جندوا بالفعل للقيام بأعمال تتصل بسير الحرب من قريب أو بعيد .

يضاف إلى هذا أن أدوات الحرب الحديثة تجعل التمييز بين المحاربين والمدنيين أمراً عسيراً من الوجهة العملية ، فمهما حرص الطيار على أن يقصر هجماته على الأهداف العسكرية فإنه لا يستطيع أن يثق بأن ضرباته لن تصيب المدنيين إلا إذا واتاه الحظ ولازمه حسن التوفيق . ولذلك يذهب بعض المتطرفين إلى أن من العبث أن تحاول التفرقة بين المدنيين والعسكريين ، وأن كل ما وضع على أساس هذه التفرقة من قواعد وقوانين قد انهار . ولكن هذا الرأى المفرط فى اليأس لم يقبله معظم علماء القانون الدولى ، بل يقولون إن الأحوال الجديدة — وإن قللت من الفروق بين المحاربين والمدنيين من وجوه عدة ، وأدت إلى تعديل بعض القواعد القائمة فى هذا الوقت — لم تؤثر مطلقاً فى القاعدة الأولى الأساسية وهى أن هناك محاربين وغير محاربين ، وأن غير المحاربين

يجب ألا يكونوا عرضة للهجوم المباشر من جانب قوات أعدائهم المسلحة .

كذلك لا يقر قانون الحرب أعمال التدمير والقتل التي توجه إلى السكان المدنيين مباشرة . بقصد إرهابهم أو إضعاف روحهم المعنوية رغم ما قد يكون في هذه الأعمال من فائدة للمحاربين . أما ما يصيبهم من أذى عفواً لم يكونوا هم المقصودين به بالذات ، بل كان نتيجة للأعمال الحربية العامة ، فهو مبرر في نظر القانون . فإذا حوصرت إحدى المدن مثلاً ، وضربت بالقنابل فقتل بسبب ذلك عدد من أهلها المدنيين لم يكن في قتلهم مخالفة لقوانين الحرب ، ولكن هذه القوانين نفسها لا تجيز ضرب مدينة مكشوفة ، وإن كان هذا الضرب سيؤدى لا محالة إلى قتل عدد من الجنود المحاربين . ولو أن الأمر كان غير هذا لما كان هناك حد للتخريب والتدمير لأن كل مدينة لا تخلو من جنود أو من رجال سيدعون في الغد القريب إلى التجنيد .

الحرب الجوية

في عام ١٩٠٧ بحث مؤتمر لاهاى الثاني موضوع الحرب الجوية ، وكان الشأن الأكبر في ذلك الوقت للمناطيد لا للطائرات . واتفق المؤتمرون وقتئذ على أن من الواجب تقييد الحرب الجوية . ولذلك نصت المادة الخامسة عشرة من القواعد التي وافق عليها المؤتمر « على أن ضرب المدن والقرى والمساكن والأبنية المكشوفة الخالية من وسائل الدفاع أو مهاجمتها بأى طريقة كانت عمل غير جائز » ولكن هذه القاعدة كانت مع الأسف الشديد عديمة الأثر في الحرب الماضية ، فقد كان الألمان والحلفاء يضربون المدن الآهلة بالسكان ، وكان الطرفان يقولان إنهما لا يضربان إلا الأماكن المحصنة والأهداف العسكرية . فكأنهما بذلك يقران ضمناً بأن إلقاء القنابل على السكان المدنيين لإرهابهم عمل مخالف للقانون .

ولما وضعت الحرب أوزارها واجتمع في واشنجطن مؤتمر تحديد السلاح في عام ١٩٢٢ عين المؤتمر لجنة من كبار المشترعين الدوليين لوضع القواعد الخاصة بالحرب الجوية ، وأخرجت هذه اللجنة في عام ١٩٢٣ مجموعة من القواعد ذات خطر كبير ، وأعلنت معظم الدول أنها ترعاها وتتقيد بها . وأهم ما فيها المادتان الثانية والعشرون والرابعة والعشرون . وتنص أولى المادتين على أنه « لا يجوز ضرب المدن من الجو بقصد إرهاب السكان المدنيين أو تدمير الأملاك الخاصة غير ذات الصفة الحربية أو إتلافها أو إيذاء غير المحاربين » . وتقول المادة الأخرى : « إن إلقاء القنابل من الجو لا يكون مشروعاً إلا إذا وجه الضرب إلى الأهداف العسكرية أى الأهداف التي يكون في تدميرها أو إلحاق الضرر بها فائدة عسكرية ترجح هذا التدمير » . وكان المفهوم أيضاً أن إلقاء القنابل من الجو حيثما اتفق بحجة أن هدفاً عسكرياً قد يصاب بطريق المصادفة مخالف لنص المادتين وروحهما ، وأن الذي تبررانه هو أن يوجه الضرب إلى الأهداف العسكرية دون غيرها ، وأن يكون ضربها ذا فائدة عسكرية حقيقية ، وألا يتخذ هذا الضرب ذريعة للهجوم على السكان المدنيين .

الحصار البحرى وتجويع المدنيين

ومما له صلة قوية بالحرب الجوية مسألة الحصار البحرى ، وكان الألمان في أثناء الحرب الماضية يقولون إنهم يضربون السكان المدنيين في بريطانيا لأن الحلفاء بحصارهم البحرى يميتون نساء الألمان وأطفالهم جوعاً .

وقد يبدو هذا القول وجيهاً ، ولكن الانجليز والأمريكيين لم يأخذوا به ، ولم يوافقوا الألمان والروس على رأيهم فيه ، وذلك لسببين وجيهين :

- أولهما : أن الحصار ليس هجوماً على النساء والأطفال لا من قريب ولا من بعيد وإن أصابهم منه بعض الأذى

كما قد يصاب الناس بالأذى من كل عمل حربى مشروع ، ومن أجل هذا فرق القانون الدولى بين العمل ذى الغرض الحربى المشروع ، وإن أوذى به المدنيون ، وبين العمل الذى يقصد به أذى المدنيين ، وبغير هذه التفرقة يكون كل عمل حربى غير مشروع ، لأنه قد يضر بالسكان المدنيين .

والسبب الثانى هو أن مشكلة الطعام تتصل بالأعمال الحربية اتصالاً وثيقاً ، ذلك أن كثيراً من المواد الغذائية والمواد التى تساعد على إعداد الطعام تدخل أيضاً فى صناعة المواد الحربية . فالمواد الدهنية مثلاً لا غنى عنها فى صنع المفرقعات ، وإذا سمح بدخولها فى البلاد المحصورة فإنها سوف تستعمل من غير شك فى صنع القنابل لتقتل بها النساء والأطفال .

أهل البلاد المحتلة

لا تكتفى قوانين الحرب بحماية غير المحاربين من هجمات قوات أعدائهم المحاربة ، بل هى تحميهم أيضاً من أعدائهم حين يحتلون بلادهم . ولقد رفضت الدول قولاً وفعلاً منذ القرن الثامن عشر أن تأخذ بالمبدأ القائل إن من حق الغالب أن يستعبد وينهب المغلوب ، ونصت على ذلك المادة السادسة والأربعون من القواعد التى أقرها مؤتمر لاهاى . فقالت : « يجب أن يصان شرف الأسرة وحقوقها وحياة الأفراد وأملاكهم الخاصة ومعتقداتهم وعباداتهم » .

الأعمال الحربية ضد القوات المقاتلة

وتشتمل قوانين الحرب كذلك على عدة مواد تبين الوسائل التى يحق للمحارب أن يلجأ إليها ضد عدوه المحارب . فمنها مواد تحرم قتل العدو إذا سلم ، وأخرى خاصة باستعمال رايات الهدنة والجاسوسية وغيرها . وكان من أهم ما كثر حوله الجدل فى الحرب الماضية نوع الأسلحة التى يحق للمتحاربين أن يستخدموها . والقانون الدولى العام والقواعد التى أقرتها الدول فى مؤتمر لاهاى وفى غيره من المؤتمرات تحرم على المحاربين استعمال أنواع خاصة من القذائف المفرقعة والرصاص المتمدد والقذائف التى لا يقصد بها إلا نشر الغازات السامة والخانقة ، وبالجملة كل الأسلحة والمفرقعات والمواد التى تسبب آلاماً غير ضرورية . وقد يختلف المحاربون فى تفسير عبارة « آلام غير ضرورية » . فالألمان يقولون إنه يجوز استخدام كل وسيلة يؤدى استخدامها إلى بلوغ الغاية المقصودة من الحرب . ومن أقوال الجنرال هندنبرج فى فى ذلك : « كلما زادت الحرب قسوة زادت فى الحقيقة رحمة ، لأن قسوتها تسرع بها إلى غايتها » .

وقد دعت عصبة الأمم فى عام ١٩٢٥ إلى مؤتمر تعهد فيه الحاضرون من مندوبى الدول بألا يستعملوا فى حروبهم « الغازات السامة والخانقة وغيرها من الغازات وما يعمل عملها من السوائل والمواد والوسائل الأخرى » .

وأعلنت ألمانيا فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ أنها لن تخرق هذا العهد إلا إذا أخرقها أعداؤها قبل ، وقد برت بوعدها حتى الآن .

القصاص

إذا خالف أحد المتحاربين قواعد الحرب المعترف بها فمن حق خصمه أن يلجأ فى الدفاع عن نفسه إلى وسائل تعد فى ذاتها غير مشروعة ، وهذا هو المقصود بالقصاص فى الحروب ؛ وبناء على هذا فإن الجندى الذى يطلق الرصاص على عدوه فى أثناء المعركة لا يعد عمله قصاصاً . أما تدمير قرية من القرى لأن أهلها قتلوا جندياً ، فهو عين القصاص لأن تدمير القرى فى غير هذه الحال غير جائز .

وقد قيل أحياناً إن القصاص أمر غير جائز مهما تكن الظروف ، لأن خطأين متعمدين لا ينتجان صواباً ،

ولكن رد على هذا بأن عملاً خاطئاً قد يجعل عملاً آخر صواباً ، وهذا لم يقبل ، القانون الدولى حين أجاز القصاص . وقد سار المتحاربون جميعهم على هذا السنن فى كل الحروب تقريباً ، ولم تتردد الحكومة الانجليزية فى الحرب الماضية فى أن تقتص لنفسها من أعدائها فى ثلاث حالات هامة : الأولى عندما أعلنت فى سنة ١٩١٥ أنها تستخدم الغازات السامة كما استخدمها الألمان . وقد كتب رئيس أساقفة كنتربرى فى ذلك الوقت إلى رئيس الوزراء يرجوه « ألا يسلك مسلكاً ينزل بالأمة الانجليزية إلى مستوى الأعداء » . ولكن المستر أسكوث لم يقبل رجاءه . وكانت المرة الثانية عندما أعلنت ألمانيا أنها ستغرق كل سفينة تجارية فى البحار المحيطة بالجزائر البريطانية ، فأعلنت الحكومة البريطانية على الأثر أنها ستصادر كل البضائع المملوكة للأعداء والذاهبة إليهم أو الصادرة من بلادهم . وكانت الحادثة الثالثة هى إغارة الأنجليز على مدينة فريبرج عندما أغرق الألمان سفينتين من سفن المستشفيات . ويمكن أن يعد العملان الأولان من الأعمال الضرورية لكسب الحرب ، أما العمل الثالث فمشكوك فيه من هذه الوجهة .

ومن هذه الأمثلة وغيرها يمكننا أن نستخلص الأسباب التى يستند إليها واضعو القانون الدولى لتبرير القصاص : فأولها أن القصاص قد يمنع العدو من مواصلة سىء أعماله . وثانيها أنه لا يمكنه من أن يحتاز على عدوه ميزة غير مشروعة . وثالثها أن القصاص تعبير فعلى إيجابى عن غضب الشعب من عمل غير مشروع .

ولا شك فى أن غضب المحارب من شر يقع عليه مخالف للقانون وتعبيره عن هذا الغضب بالعمل أو بالقول عمل يجيزه القانون الدولى . ولكى يكون القصاص ما يبرره يجب أن يتوافر فيه شرطان : الأول — أن يثبت بالدليل القاطع أن العدو قد سلك حقاً مسلكاً غير مشروع . والثانى — ألا يكون العمل الذى تثأر به الدولة المعتدى عليها غير متناسب فى شدته مع العمل الثثور له .

ويصعب فى كثير من الأحوال أن يحكم الانسان هل كان هذا القصاص أو ذاك جائزاً أو غير جائز . وحتى إذا لم يكن هناك شك فى جوازه ، فان الحكومات كثيراً ما تتردد فى الاقدام عليه ، لأنه قد يؤدى إلى تنافس فى الانتقام والوحشية وخيم العاقبة على الطرفين المتحاربين ولذلك يحسن ألا تلجأ إليه الدول إلا إذا أعيتها الوسائل الأخرى ولم تجد منه بداً .

أعمال المحاربين ضد المحايدين

وكانت المشكلة الخاصة بحقوق المحايدين على المحاربين من المشكلات الصعبة ، لأنها تؤدى دائماً إلى نزاع شديد ذلك أن من القواعد المقررة أنه لا يجوز للمحاربين أن يعملوا عملاً يمس الحقوق التى يتمتع بها المحايدون فى الأحوال العادية . لكن المحاربين يقولون إن من حقهم أن يقضوا على تجارة أعدائهم ، وإن أضر ذلك بتجارة المحايدين . ولذلك حاول القانون الدولى أن يوفق بين مطالب هؤلاء وأولئك ، فوضع عدة قواعد للحصار البحرى والتهريب والخدمات التى تخترق قانون الحياد .

وفى الحرب الماضية احتجت الولايات المتحدة على انجلترا وألمانيا لأنهما اعتدتا على حقوقها من حيث هى دولة محايدة : فانجلترا قد توسعت فى تطبيق قوانين الحصار والمصادرة إلى حد أضر بتجارة الولايات المتحدة ، وألمانيا أطلقت العنان لغواصاتها تغرق السفن بلا قيد .

وقد حاولت الدول بعد الحرب الماضية أن تتحقق من أن حرب الغواصات الطليقة لن تعود إلى الظهور مرة أخرى ، فعقدت فى سنة ١٩٣٠ معاهدة لندن البحرية ، وقد جاء فى إحدى موادها « إنه لا يحق لسفينة حربية أو غواصة أن تغرق أو تعطل سفينة تجارية قبل أن تنقل ركابها وبحارتها وأوراقها إلى مكان أمين » . ووقعت ألمانيا

فى الجد والفكاهة :

عجوز تتصابى !

ليس أدهى لفؤادى من عجوز تتصابى !
«العقاد»

يا عجوزاً تتصا بى رحم الله الشبابا !!
إنما الحسن أضحى فى محياك سرابا !
وخبا البدر بهالا تٍ من الغيم وغابا
وبدت روضة خدّا كِ لعينٍ يبابا
فانطوى الحسن وولى وغدا الثغر ترابا !
وتبدّى شعر فوديـ ـك سحاباً وضبابا !!
وبدا وجهك للنا س وهاداً وهضابا
قد مشى الدهر عليه بالمقادير صعابا
ابتغى ناصية الشـ ـمس دهاناً وخضابا !
واصبغى ما شئت هذا وجهه ألواناً كذابا
فالتجاعيد عليه لن يغطين الحسابا

* * *

سائلى قلبك كم كا نت أمانيه عذابا
وسلى طرفك كم با تت لياليه عذابا
وسلى ثغرك كم ذا ق من الحب وذابا
وسلى ألحاظ عينيـ ـك فقد كانت حرابا
وهى الآن حطام تجبه الدهر عتابا
وطلول من نضال أضحكت منها الروابا !!

* * *

يا لها وهى عجوز !! شعرها الفاحم شابا
تتمنى حين شابت ليتها كانت غرابا
وجهها الشاحب لا يُـ رى ، وقد كان يحابى
يا عجوزاً تتصا بى رحم الله الشبابا !!
كم شربت الكأس شهداً
(فاشربيها) اليوم صابا !!
واصبرى للدهر مهما حكم الدهر وثابا
إنه إن مر يوماً عاد للصفو وطابا !

(كوم النور) أحمد أحمد العجمى

هذه المعاهدة فى عام ١٩٣٦ ، ولكن حدث فى اليوم الرابع من سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، أى بعد يوم واحد من بدء الحرب الحاضرة أن أغرقت غواصة لها سفينة الركاب «أثينا» من غير إنذار ، وهلك من ركابها أربعمائة .

خاتمة :

يستخلص من هذا أن الأمم تعترف بوجود قوانين الحرب ، وأن لهذه القوانين بعض الأثر فى الحروب ، وأن أهم ما فيها أن غير المحاربين يجب ألا يكونوا غرضاً للهجوم المباشر . وقد يكون تقسيم الناس إلى صنفين متفصلين : جيوش محاربة ، وسكان مسالمين ، أعظم ما ظفر به القانون الدولى من انتصار كان له أعظم الفضل فى تخفيف مصائب الحرب وآلامها . ثم إن المحاربين لم يراعوا هذا التقسيم ، فأهلكوا بطائراتهم غير المحاربين ، وخالفوا ما تعهدوا به فى حرب الغواصات ؛ ولكن هذا لا يدعو إلى اليأس من المستقبل ؛ فإذا خالفت دولة واحدة ، أو طائفة من الدول ، مبادئ القانون الدولى التى أقرها العالم المتمدن ، فليس معنى هذا أن القانون الدولى لم يعد له وجود .

[ملخصة من الإنجليزية] محمد بدران

أنباء وآراء

من كتب الحرب

صدرت عدة كتب تتناول شرح مأساة فرنسا ، وقد أثار الكثير من هذه الكتب احتجاج النقاد وسخطهم ، فقد رأى بعضهم في أغلبها ما لا يعدو أن يكون « غسل اللابس القذرة ، بينما العدو على الأبواب » ، ورأى الآخرون أنها تنطوي على شيء من القسوة ، إذ أنها تعرض لأناس مكانهم الآن في غياهب سجون فيشي ، فلا يملكون الدفاع عن أنفسهم .

ويرى هؤلاء النقاد أنه فضلا عما تنطق به هذه الكتب من المهارة والبراعة في الدراسة والاستنتاج ، فإنها تحول دون اندمال جروح خطيرة في جسد فرنسا .

ولكن ، كما يقول ناقد التيمس ، إن الحقائق يجب أن تواجه ، فقد كانت مأساة فرنسا فاجعة غير متوقعة للدرجة التي تجعل من العسف والتجني أن يطلب إلى العالم أن ينتظر حتى يقص التاريخ المقبل قصة هذه المأساة . ومن ثم فكتاب المسيو لويس ليفي الجديد « الحقيقة في مأساة فرنسا » — على ما فيه من إثارة لجروح فرنسا — كتاب لا بد منه لإلقاء بعض الضوء على هذه المأساة .

أما هذا الكتاب الجديد فهو دراسة لحالة فرنسا قبل الحرب وخلالها ، وعرض للأحزاب السياسية والتيارات المختلفة التي أثرت في تطور الحالة ، ومؤلفه كعضو هام من أعضاء الحزب الاشتراكي ، ومراسل حربي من الذين رافقوا الجيوش الفرنسية ، سواء في تقدمها وانسحابها ، يمكن أن تعد أقواله كحقائق لشاهد عيان ، لا يشوبها إلا لينه في بعض المواضع ، حيث لا يبدو اللين مستساغاً ، وقسوته في مواضع أخرى قسوة توجب عليه أن يتناول بالحزم كل ما يعالج من موضوعات .

وعلى أي حال ، فإن الكتاب يتناول بمنتهى القسوة نقد سياسة الحزب الاشتراكي الفرنسي ، تلك السياسة التي قامت على أساس التضحية بمبادئه ورغباته في سبيل الحصول على أصوات ، وهي نفس السياسة التي ترتبت عليها أخطاء حكومة مسيو بلوم الأولى من تردد وضعف عن مواجهة الحقائق .

تحت شمس الفكر

أصدرت مكتبة الآداب الطبعة الثانية لكتاب الأستاذ توفيق الحكيم « تحت شمس الفكر » ، وهو مجموعة دراسات ورسائل ومقالات في شئون مختلفة كالدين ، والأدب العربي ، والنقد ، والاجتماع ، وشئون المرأة .

وقد أضاف الأستاذ توفيق الحكيم إلى الطبعة الثانية كثيراً من دراساته الجديدة والمقالات والردود في المساجلات الأدبية التي دارت بينه وبين فريق من المفكرين والكتاب .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٣٠ | الثلاثاء ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — ٢٤ من يونيه سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العدد

٢ - صفحة من التاريخ

بقلم الأستاذ جاستون ڤييت

في مجلة القاهرة التي تصدر بالفرنسية

ترجمة الدكتور طه حسين بك

وكان يدفعه إلى الاقتناع بهذا الرأى دوافع :

الأول أن قادة الرأى فى فرنسا أخطأوا فى الأعوام الأخيرة ، فحولوا ما كان فى فرنسا من اختلاف ، بل حولوا الحرب نفسها إلى جهاد حول الرأى لا حول المنافع ، ووصلوا قضية الديمقراطية الدولية بما كانوا ينتظرون من انتصار فرنسا وانجلترا . وقد وقعت الهزيمة وخسرت الديمقراطية ، فيجب أن تدفع ثمن هذا كله ، ويجب أن ترفض فرنسا هذه العقائد التى قادتها إلى التهلكة ، ويجب أن تذهب الجمهورية القائمة على تضليل الشعب ، ليحل محلها نظام يقوم على السلطان القوى ويحمى تقاليد فرنسا التى تتصل بالحرية الشخصية ، ولكنه يعتمد على المبادئ التى تستطيع وحدها أن تقيل فرنسا من عثرتها ، وهى مبادئ العمل والأسرة والوطن .

« وأول مرة رفع فيها المسيو بيير لاڤال النقاب عن مشروع السلطات المطلقة الذى عرض على الجمعية الوطنية كانت فى بوردو ، حيث كان الوزراء يجتمعون فى الصباح

والسماء تقريباً . فقد تحدث عن هذا المشروع على أنه طبيعي لا بد منه ، يعرفه الناس جميعاً ، ويتحدثون عنه ، ويقرونه . على أنه لم يقل شيئاً دقيقاً ، ولم يطلب إليه أحد ذلك » .

فلما تم وضع المشروع في فيشي تدخل الماريشال ليعرض الأمر على مسيو لوران ، فكان ما أراد . ولكن لننظر كيف استشير مجلس الوزراء في شيء من الاهمال والازدراء ، إن صح هذا التعبير ، فقد قدم مسيو لاقال نص المشروع في آخر الجلسة وقال :

« إني أعتذر لأني لا أستطيع أن آذن بالمناقشة في هذا الموضوع ، فهناك ستون من أعضاء مجلس الشيوخ ينتظرونني لأقدم إليهم بعض المعلومات وبعض الايضاح » .

« فلم يقل أحد شيئاً » ، فيما روى مسيو مونتيني ، ولكن لاحظ مسيو لوران من الغد أن مناقشة ما لم تثر حول هذا الموضوع ، وسأل أحد الوزراء : هل هذا مسيو لا قال المحاربين القدماء الذين كانوا يشعرون بشيء من القلق ، ويطلبون شيئاً من الاطمئنان ؟ فلما أجيب على هذا السؤال بنعم وافق المجلس على المشروع .

« وكذلك أخذ دستور سنة ١٨٧٥ في الاحتضار ، كأي مرسوم من المراسيم في طريقه إلى الالغاء » .

وقد كان البادئ بهذا الالغاء إذاً هو مسيو لاقال ، ولكنه احتاج إلى جهد متصل ليصبح الالغاء حقيقة واقعة ، كما قال مسيو مونتيني . وقد استمر يطعن على النظام القديم فيما يتصل بالسياسة الداخلية « فما دامت الدمقراطية البرلمانية قد أعلنت الحرب على النازية والفاشية ، وخسرت هذه الحرب ، فيجب أن تزول ، ويجب أن يقوم مقامها نظام جديد جرئ ، اجتماعي قوي » .

هذه هي الغاية التي كان يسعى إليها مسيو لاقال ، فلننظر في الوسائل . ومن المعروف أن الدستور الجديد الذي كان يراد وضعه لفرنسا لم يكن يجب أن تقره الجمعية الوطنية ، وإنما كان يجب على هذه الجمعية أن تمنح الحكومة سلطات مطلقة تتم في حرية كاملة ما يراد من الاصلاح . وكان مشروع القانون الذي يتألف من مادة واحدة قد صيغ في هذا النص :

« تخول الجمعية الوطنية حكومة الجمهورية الفرنسية التي تعمل باشراف الماريشال بيتان رئيس الوزراء وإمضائه السلطة الكاملة لتصدر في قانون واحد أو في قوانين متعددة الدستور الجديد للدولة الفرنسية . ويجب أن يضمن هذا الدستور حقوق العمل والأسرة والوطن . ويجب أن تقره المجالس التي تنشأ بمقتضاه » .

وكانت الصعوبة في طريق ذلك هائلة ، فان هذا المشروع لم يكن يطلب إلى الجمعية الوطنية أقل من أن تنتحر . ومن السهل أن نقدر المقاومة التي لم يكن بد من مواجهتها والانتصار عليها . وكان هذا المشروع أيضا يطلب إلى البرلمان أن يحتمل جهرة بهذه التضحية الهائلة تبعة الهزيمة والانهيار ، مع أن من المحقق أن بعض التبعات في هذا إنما كانت تقع على هيئات أخرى غيره ؛ وكان مسيو لاقال في كل هذه المدة يطلع الماريشال على محادثاته ومفاوضاته مع من كان يحادثهم ويفاوضهم من أعضاء البرلمان .

ويلح مسيو مونتيني في شيء كنا نحب ألا نعرفه ، وهو الاحتفاظ بالبرلمان القائم حتى يتم إنشاء المجالس التي تقوم مقامه بمقتضى الدستور الجديد ، والانتظار بانشاء المجالس الجديدة حتى يأتي اليوم الذي يستطيع الفرنسيون فيه أن يصوتوا أحراراً بعد أن تمضى معاهدة الصلح .

وكذلك استطاع مسيو لاقال صاحب المشروع أن يقنع الماريشال بمشروعه ، وقد أصبح ممثلا له أمام البرلمان ، ثم هو استطاع بواسطة مفاوضاته أن يصبح

عمثل البرلمان أمام الماريشال . ولم يذهب الماريشال قط إلى البرلمان ، وإنما كتب إلى المسيو لافال هذه الرسالة ليقرأها على الجمعية الوطنية :

« لما كان من العسير على أن أشارك في جلسات الجمعية فإني أرجو منك أن تمثلني فيها . ويظهر لي أن إقرار المشروع ضروري لسلامة البلاد » .

وقد تكلم المقرر في الجمعية الوطنية مسيو بوفان شاتيو بكلمات حكيمة يحسن تسجيلها . وكانت هذه الكلمات في الراجح مظاهرة إفلاطونية ولكن لها دلالتها . قال : « لن نودع دستور سنة ١٨٧٥ في غير حزن . فقد جعل من فرنسا بلداً حراً ، بلداً كان الناس يستطيعون أن يتنفسوا فيه مرتاحين ، وأن يجدوا لأنفسهم فيه القوة والدعة في وقت واحد . وهذا الدستور يموت الآن ؛ ولا يأتيه الموت من نقص فيه بمقدار ما يأتيه من نقص الكفاية عند الذين قاموا على تنفيذه (تصفيق حاد) بل من الممكن أن نتساءل : أليس يأتيه الموت لأنه لم ينفذ ؟ » (تصفيق) .

وقد ألقى مسيو لافال أمام الجمعية خطبة طويلة نجتزئ منها ببعض العبارات المهمة :

« إن أعظم الجرائم التي اقترفت في بلادنا منذ وقت طويل هي من غير شك إعلان الحرب ، وإعلانها من غير أن نستعد لها من الناحية العسكرية ومن ناحية السياسة الخارجية . . . وأخص ما أفسد النفس الفرنسية إنما هو المذهب الأجنبي . . . ويقول بعض الناس إن المشروع الذي تقدمه الحكومة ليس إلا استمراراً للنظام البرلماني . وأنا أعلن أن هذا ليس من الحق في شيء ، لأن هذا المشروع قضاء لا على النظام البرلماني وحده بل على عالم بأسره قد كان من قبل ولن يكون منذ اليوم » .

ويجب كذلك أن نسجل تدخل مسيو فلندان لأن النص الذي صدر عنه والذي سنثبته إنما هو تفصيل لكلمة من كلمات مسيو لافال . قال مسيو فلندان : « في هذه الأيام — ولا سيما منذ إمضاء الصلح الأخير — انتشر على هذه البلاد — وعلى بلاد أخرى أيضاً — ظل جديد هو ظل المال ، المال الذي أفسد كل شيء » .

هنالك اشتد النزاع بين الحكومة والمحاربين القدماء الذين كانوا قد قدموا مشروعاً مماثلاً لمشروع الحكومة . وقد أعلن مسيو لافال أنه لا يقبل هذا المشروع ، ولكنه غير الجملة الأخيرة من مشروعه فأصبحت كما يأتي : « تقر الأمة الدستور الجديد وتنفذه المجالس التي تنشأ بمقتضاه » . ثم أقر المشروع بأغلبية ٥٦٩ ضد ثمانين وكان مجموع الأعضاء ٦٤٩ .

وكذلك يقرر مسيو مونتيني في عباراته الخطيرة أن الماريشال بيتان قد عاش مستخفياً أو كالمستخفي في كل الأطوار التي مر بها هذا الانقلاب . وكسب مسيو بيير لافال — على رغم ما كان يشعر به بعض الناس من الخوف ، وعلى عكس ما كان يشعر به بعض الناس من الأمل — قضية كان هو وحده الذي أثارها ، على رغم ما قدم له من النصح بالاحتياط ، وعلى رغم ما كان عند كثير من الناس من الشك وعند كثيرين آخرين من العداء .

وكذلك لا ندهش حين نرى أن القانون الدستوري الأول الذي يجعل الماريشال بيتان رئيس الدولة لم يكد يصدر حتى تبعه من الغد القانون الرابع الذي ينص على ما يأتي : « إذا حيل بيننا وبين النهوض بأعباء رئيس الدولة لأي سبب من الأسباب قبل أن تقر الأمة الدستور الجديد ، نهض مسيو لافال وكيل مجلس الوزراء بهذه الأعباء بحكم القانون » . وهذا الاختيار الاستثنائي الذي خص به مسيو لافال يجد ما يعلله في الدور الذي لعبه حين جعل نفسه في أوقات متتابعة وفي وقت

واحد أحياناً رسول الماريشال إلى البرلمان ورسول البرلمان إلى الماريشال ، كذلك يقول مسيو مونتيني .

بعد ذلك الوقت أقصى مسيو لافال من الحكم ، وكان معنى هذا الإقصاء كما يقول « الجورنال دى جنيف » أن الماريشال بيتان قد أنبأ العالم بأن مبدأ التعاون مع ألمانيا قد عدل عنه ، لأن مسيو لافال كان المثل لهذا المبدأ ، فإقصاؤه دليل على العدول من مبدئه .

وقد أثيرت مسائل قليلة أثناء المناقشات فى الجمعية الوطنية ، فقد كان يراد أن يقضى الأمر ، وأن يقضى سريعاً . وسنرى بواسطة مسألتين أثيرتا أن الصمت المطلق قد كان أنفع وأجدى . فى الحق أن نظاماً ما من نظم الحكم لا يثبت ثباتاً حسناً أمام الهزيمة . ولكن بعض الناس قدروا أن أغلاطاً قد ارتكبت ، ويجب أن يعاقب أصحابها ، وفى تنفيذ هذه الخطة التى لا تخلو من حرج يخشى مع الأسف أن يجد الانتقام السياسى سبيله إلى النفوس . وقد دافع مسيو تيكسييه فينيا كور فى التاسع من شهر يوليو فى مجلس النواب من اقتراح يقضى بأن تحقق التبعات العسكرية والادارية والسياسية التى أدت إلى الـكارثة ويعاقب أصحابها . ولم تطل مناقشات المجلس فى هذا الاقتراح يومئذ ، ولكنا نجد فى تصريح المسيو رجريه أمام الجمعية الوطنية — سنعرض له فيما بعد — الجملة الآتيـة : « ربما كان من الخير أن نؤجل البحث الرسمى من التبعات إلى أن يأتى اليوم الذى يوجد فيه سلطان قوى لا يخيفه عدد المسئولين ومكانتهم ، فهؤلاء المسئولون لا يوجدون بين أعضاء البرلمان وحدهم ، ولكنهم يوجدون فى كل الادارات العامة ، وفى الجيش نفسـه ؛ ولكن البحث من التبعات لا يصح أن يؤجل إلى أمد بعيد » .

فمنذ اليوم يجب أن نظهر الخطط التى نشأت عنها هذه التبعات فى الناحية التى تعنينا ، وهى ناحية السياسة ، وأن نظهر ذلك فى انتظار البحث من أصحاب هذه الخطط . ومعروف أن حكومة الماريشال بيتان قد أنشأت فيما بعد محكمة عليا لتكشف من التبعات التى نشأت من إعداد الحرب وإدارتها ، ولتعاقب أصحاب هذه التبعات . وفى الحق أن الوضوع خطير يستحق التساؤل ، فقد يظهر أن هنالك تسابقاً فى نسيان الحقائق ، وتهالكاً على إرضاء الأحقاد المختلفة . ومع ذلك فالأمر لا يتصل بالسياسة ، بل هو لا يتصل بالأفكار المجردة ؛ فقد وقعت كارثة ويجب أن يسأل عنها العسكريون . وقد أثير كثير من الجدل حول انتصار المارن بين أنصار جوفر وجليينى ، ولم يفكر أحد ما فى أن يضيف فضل هذا الانتصار إلى البرلمان . ويجب على ربان السفينة أن يقدم إلى المحكمة البحرية حساباً من سفينته إذا فقدت مهما تكن الظروف . فنحن نعتقد إذاً فى غير تحيز أن على القائدين العامين أن يتكلما ، وأن عليهما وحدهما أن يبرئا أنفسهما من التبعات ، وأن يلقيا هذه التبعات على أصحابها ، ولعلهما يستطيعان أن يعينا هؤلاء المقصرين . ونود أن نثبت هنا وثيقتين تتصلان بنقطة خطيرة من هذا الجدال ، فقد أعلن الماريشال بيتان فى أحاديثه التى أذاعها الراديو : لقد كان ضعفنا فى أدوات الحرب أشد خطراً من قلة رجالنا المحاربين . وأعلن فى مكان آخر : إن فرقنا حاولت المقاومة على نهر الأين وعلى نهر السوم ، دون أن يكون عندها شىء من الدبابات تقريباً .

وقد نشر الجنرال ويجان فى مجلة العالمين فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٦ مقالا عنوانه « الموقف العسكرى فى فرنسا » . ولا بد من ملاحظة هذا التاريخ ، فقد كان ليون بلوم رئيسا للحكومة منذ أربعة أشهر . وهذا المقال لا يظهر الجيش فى حال تدعو إلى التفاؤل الشديد ، ولكنه بعيد كل البعد من أن يصور حالة القلق والقنوط . فليس

هناك شيء يجب إنشاؤه لأن كل شيء موجود بالفعل . «قد نهضت القيادة بواجبها فاستعدت ، ولم تنتظر أوقات الخطر . وقد أعدت الخطط منذ وقت طويل . وقد أنفقت هيئة أركان الحرب كل ما كانت تملك من براعة ومهارة لدرس هذه الخطط ، وعملت في ذلك عملا صامتا طويلا مضنياً . ولكن إذا كان كل شيء موجوداً بالفعل فقد كان كل شيء في حاجة إلى التكملة ليتم التنظيم والاستعداد .

ثم يقول الجنرال ويجان مشيراً إلى الشيوعيين : « إن أحزاباً يشمل أحزابا كانت إلى اليوم تأبى الموافقة على نفقات الحرب قد تم الآن ، ووافق على اعتمادات ضخمة للنفقات الحربية . وهذا شيء خليق بأن نغتبط به أشد الاغتباط . فهناك مهمة خطيرة سيمكن إتمامها ، وقد أظهرت الحكومة رغبتها في أن تقوى متانتها بالتوصية ، وتجدد التوصيات القديمة . . . أما أدوات الحرب فقد قدمت الحكومة مشروع قانون يقضي بتقوية الدفاع الوطني ، وذلك بتحسين أدوات الحرب في البر والبحر والجو والاستكثار منها ، وأول جزء من الاعتمادات المخصصة لهذا الغرض سيبلغ في ميزانية سنة ١٩٣٧ أربعة مليارات .

ثم يقول الجنرال ويجان : إن من الخير أن يعلم الناس في داخل فرنسا وخارجها أن جيشنا قوى منظم مدرب ، يشرف عليه في جميع طبقاته جماعة من خيرة الضباط والقواد . وأن لهذا الجيش من القادة على اختلاف طبقاتهم جماعة يمتازون بتجاربهم في الحرب ، كما يمتازون بهذا العمل المتصل الذي تدعوهم إليه الحاجة إلى الاطلاع على ما يقتضيه العلم والفن في كل يوم من تطور أمور الحرب .

فالجيش الفرنسي هو الآن كأحسن ما يمكن أن يكون بالقوانين التي تنظمه ، والأموال التي ترصد للإنفاق عليه .

(يتبع) جاستون فييت

من إدارة «الثقـــافة»

إلى حضرات المشتركين

قررت إدارة الثقافة جعل فئات الاشتراك في المجلة عن النصف الثاني لسنة ١٩٤١ مطابقة لفئات النصف الأول .

وترجو الإدارة من حضرات المشتركين الذين يرغبون في استمرار اشتراكهم التفضل بإرسال قيمة الاشتراك عن النصف الثاني لهذه السنة إلى الإدارة قبل نهاية يونيه سنة ١٩٤١ .

ملحوظة — يراجع جدول الاشتراك الذي ينشر باستمرار في المجلة

صورة جميلة في دِمْنَة [1]

للأستاذ أحمد أمين بك

الشيخ يوسف الشربيني أديب مغمور ، لم أر من ترجم له ، احتقاراً لشأنه ، وازدراءً بتآليفه ، لأنها تآليف شعبية ، وليست تآليف أرستقراطية — وقديماً تَجَنَّبَ العلماء الأدب الشعبي — ولأنه كذلك ماجن إلى أقصى حدود المجانة ، لا يتحرج من استعمال كلمات الفحش عارية صريحة في غير كناية ولا إيحاء ، ولا يخضع لمواضعات الناس في الوقار والاحتشام ، وإذا تزاحم في فكره كلمتان إحداهما مؤدبة والأخرى داعرة ، اختار الثانية وهجر الأولى عن قصد وتعمد ؛ فالقارئ المهذب يشمئز من قراءتها ويكره عرى كلماتها وفحش تعبيراتها ، ولكنها مع ذلك تحوى صوراً جميلة ، وترسم أشكالاً بديعة قد تعجز الكتب الأرستقراطية عن رسمها وتصويرها .

بين أيدينا من كتبه كتاب اسمه « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ، وقد ذكر في أثناء الكتاب أنه ألف كتباً أخرى ، ولكني لم أرها .

ويدل هذا الكتاب على أن المؤلف من بلدة « الشربين » قرب « المنصورة » ، وأنه طلب العلم بالأزهر ، وحضر على أستاذه الشيخ القليوبي الذي كان عالماً جليلاً كثير التأليف ، ومات سنة ١٠٦٩ هـ ، وأنه ألف هذا الكتاب بإشارة من الشيخ السندوبي ، وكان من أكابر علماء الأزهر وأدبائه ومؤلفيه ، ومات سنة ١٠٩٧ هـ .

فصاحبنا إذاً عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، وقد حدثنا أنه حج سنة ١٠٧٤ هـ — ولم يتحرج من أن يذكر عن نفسه أنه كان منهمكاً يحب الغلمان وتتبعهم ؛ ولست أدرى أكان ذلك حقيقة يذكرها أم مزاحاً يمزحه .

أما الصورة الحسناء التي يستطيع القارئ أن يخرج بها من هذه الدِّمَن ، فهي وصف الفلاحين وبؤسهم في القرن الحادي عشر .

قصيدة أبي شادوف هذه قصيدة عامية ، لست أدرى من نظمها ، ولعله هو ناظمها ؛ وموضوعها فقر الفلاح وتعاسته ، فجاء الشربيني هذا وشرحها في جزء كبير يقع في نحو ٢٣٠ صفحة كبيرة شرحاً هزلياً جدياً استطرادياً ، فلا تأتي كلمة حتى يتلاعب بها ، ويهزئ نحوها وصرفها واشتقاقها ، وفي أثناء ذلك يذكر معلومات تاريخية طريفة تصور في جملتها الصورة التي أشرنا إليها .

يصف الفلاح وبؤسه ، وطول معاشرته للبهائم ، وحمله للطين والسباخ ، وملازمته المحراث والجَرّافة ، ودورانه حول الزرع والجُرْن ، وجهله إلا بما يتصل بزراعته ، كالساقية والليف والحزام والنَّبُّوت ، وقد نشأ من هذا كله غلظ في ذوقه ، فأفراحه وأعراسه ليست إلا صراخاً وصياحاً ، ووروده عند الأسحار ليس إلا التفكر في النَّم والأبقار ، و « حط الملف وهات الكلف » ، وأسماؤهم دالة على ذوقهم ، فجيجل وجليجل ، وزعيط ومعيط ، وأسماء نسائهم شيارة وشرارة ، وعليوة وحليوة ، وخطيطه ومويطه ، وأولادهم مكشوفو الرأس ، غارقون في الأدناس ، وفقهاؤهم جهل مركب وخلط في الدين ، وقلة عقل ، وأدبهم وأشعارهم وقصصهم من نوع سخيف ، ونظم خسيس ، ولشاية باردة ، وخرافات باطلة .

وقد أطال في كل باب من هذه الأبواب ، وذكر الشواهد والقصص والأمثال بإسهاب . والكتاب خصب جداً من الناحية الاجتماعية في هذا العصر ، فهو يصور

---

(١) الدمنة : مستودع الأقذار في البيت ، وفي الحديث : « إياكم وخضراء الدمن ، وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء » .

لنا الفلاحين السذج ، وكيف يُستقلون إذا دخلوا القاهرة ، وكيف ينظرون إلى مشاهدها ومرافقها نظرة بُلهاء ، وكيف يفسرونها تفسيراً مضحكا ، ويقارن بين حياة المدن وحياة الريف ، وعلم المدن وجهل الريف ، وذوق المدن وذوق الريف ، فى المأكل والمشرب والملبس وما إلى ذلك .

ويصور لنا تصويراً رائعاً بؤس الفلاح عند تحصيل الأموال الأميرية ، فهـذه مشكلة المشاكل ومصيبة المصائب ؛ فيقول إنه — دائماً — معرض للهلاك من ضرب وحبس وفقدان لذة الأكل والشرب ، وهو دائم التفكير فى المال الذى عليه آناء الليل وأطراف النهار . والمؤلف يحمد الله على أنه ليس له أرض ، ولا يشتغل بالفلاحة ، ويتمثل بقول البهلول :

إذا ركب الملوك على الجياد
وقد شدوا البنود على القصاد
ركبت قُصيبتى ولبست مسحى
وسرت كسيرهم فى كل واد
فلا الأجناد تطلبنى بمال ولا الديوان يغلط فى عدادى

ويقص علينا أن النصرانى (وهو الصراف) إذا حضر القرية أو الكَفْر لأخذ المال ، كثر الخوف والحبس والضرب لمن لم يقدر على الدفع ؛ فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بالربا أو يبيع زرعه أوان طلوعه بما ينقص عن بيعه فى ذلك الزمن ، أو يبيع بهيمته التى يحلبها لعياله ، أو يرهن مصاغ زوجته أو يبيعه كرهاً ، وإن لم يجد شيئاً أعطى ابنه رهينة حتى يدفع ، وقد يُحبس ويعذب حتى يدفع ؛ وقد يهرب ليلاً فلا يعود إلى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه وعياله من هم المال وضيق المعيشة . وروى لنا فى ذلك أمثالاً مشهورة عندهم وهو : « مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم » و « يوم السداد عيد » الخ ، ويصف لنا « السُّخْرة والعونة » وصفاً دقيقاً ؛ فالملتزم يأخذ القرية أو الكفر يزرعه على حسابه ويسمى هذا « زرع الوسية » فإذا احتاج الأمر لتطهير الترع ، أو حفر القنوات ، أو نقل الطين ، أو ضم الزرع ، نادى الخفير : « يافلاحين العونة يابطالين » فيخرجون فى صبيحة اليوم جميعهم ويعملون ما يؤمرون به من غير أجر . وثم نظام آخر ، وهو أن يفرض على كل بيت عدد معين للعمل فى العونة . فيقولون : يخرج من بيت فلان شخص ، وبيت فلان شخصان ، وهكذا ؛ وفى كلتا الحالتين من تأخر أو تكاسل أخذه « الشد » وعاقبه وضربه وغرمه دراهم معلومة ؛ ومن الناس من يختبىء فى الفرن إذا نودى على العونة أو نحو ذلك .

وإذا نزل النصرانى والشد والملتزم بلدة فأكلهم وشربهم على الفلاحين يقسمونه عليهم ، ويسمى « وجبة » ، كل على حسب أرضه وقراريطه وأفدنته ، وربما رهنت المرأة شيئاً من « مصاغها » أو ملبوسها على دراهم ، واشترت بها الدجاج لطعامهم ، وربما حرمت أولادها الدجاج والسمن والدقيق وقدمته إلى هؤلاء . و « النصرانى إذا نزل قرية لقبض مالها يحضر إليه الفلاحون ، ويكرمونه ويرسلون له الوجبة ، ويتذللون بين يديه ، ويطيعون أمره ونهيه ، بل يكون غالبهم فى خدمته ؛ وبعض الملتزمين يولى النصرانى أمر القرية فيحكم فيها بالضرب والحبس وغير ذلك ، فلا يأتيه الفلاح إلا وهو يرتعد من شدة الخوف » .

وأما « الكاشف » فهو رئيس الاقليم ، وإذا أقبل على بلدة يقرع له الطبل ، فيخاف منه أهل البدع وأرباب المفاسد ، ويأتى إليه مشايخها ، ويقفون بين يديه فى أشد ما يكون من الرعب والخوف ، ويستخبرهم عن أحوالهم . ثم بعد ذلك يسرعون له فى الأكل والشرب والتقادم

على ما جرت به العادة ، وإذا وقع فى قرية فتنة أو خرج أهلها من طاعة « أستاذهم » أو « قائم مقام القرية » هجم الكاشف عليهم بما كره وأخرب القرية ، وقتل منهم من قتل ، وقد يحصل منه ومن أتباعه نهب القرية ، وتكليفهم فى الأكل والشرب فوق طاقتهم ! وفى ذلك يقول أبو شادوف من قصيدته :

« ومن ْ نزلة الكُشَّاف شابت عوارضى
وصار لقلبى لوعـــةٌ ورجيفُ »

ويصور لنا أن أهل إقليمه ينقسمون قسمين : منهم من يتعصب لقبيلة سعد ، ومنهم من يتعصب لقبيلة حرام[1] فإذا ثار الشر نادى قوم : « يالسعد » وآخرون : « ياحرام » فيهجم سعد وحرام على البلد ، ويقع بينهم الحرب والعناد ، وتخرب بسببهم البلاد ، وتقطع الطريق على العدو والصديق ! وفى ذلك يقول المؤلف فى أرجوزته التى لخص فيها كتابه :

فذا يصيح يالسعد أسعدوا وآخرٌ ياحرام أنجدوا
فذاك الفطان دون لبس عندهمُ أمرٌ بقتل النفس
فيُخربون الأرض بالغارات
ويصدون القتل فى الطُّرُقات
وإن أتيهم للقتال عسكر فروا إلى جبالهم واستتروا

وفى الكتاب صورة لنظر الفلاحين والمصريين للماليك والأمراء الأتراك وأتباعهم ، فهى نظرة تعظيم وتبجيل وإعظام يبلغ حد التقديس ، فهم يتطلعون إلى معيشتهم ، وقصارى أملهم أن يقلدوهم فى شىء من تصرفاتهم ! فهذا فلاح ذهب يؤدى المال إلى الملتزم التركى ، فرأى كيف يعيش وكيف يعامل زوجته ، فلما عاد إلى بلده أراد أن يسلك مع زوجته أم معيكة سلوك الأمير مع زوجته الأميرة ، فانتهت بكارثة ! وهؤلاء ثلاثة من الفلاحين يريدون أن يزوروا مصر فقالوا : « إن مدينة مصر كلها جنادى وعسكر يقطعون الروس ، ونحن فلاحون إن لم نعمل مثلهم ونرطن معهم بالتركى وإلا قطعوا روسنا » ، وتعاقدوا فيما تعاقدوا عليه أن يتعلموا بعض الألفاظ التركية ، ثم يدخلوا الحمام ، فإذا طالبهم صاحبه بالأجر صاحوا فى وجهه بالكلمات التركية فأخلى سبيلهم ، وإذا رجعوا إلى بلدهم رطنوا بالتركى فخافهم مشايخ الكفر وأجلوهم وأعظموهم — إلى كثير من أمثال ذلك من الصور البديعة .

والكتاب بعد ذلك معجم غير مرتب فى بيان مصطلحات الفلاحين فى ملابسهم وأنواع مأكولاتهم ، ومرافقهم ومواويلهم ، وكل ما يتصل بهم .

* * *

إن أخذ عليه شىء ، فهو هـذا الفحش المنتشر فيه ، والبذاءة فى كل نواحيه ، وأنه عرض لأمر الفلاح وبؤسه ، عرض الزارى الناقم ، لا عرض العاطف الراحم ، وكان أولى — وقد رأى هذا البؤس الذى هو فيه ، والظلم الواقع عليه — أن يصرخ فى وجه من ظلمه ، وأن يستغيث لانقاذه مما هو فيه ، وألا يزيد تعاسته بالزراية به ، وألا يعيبه على ما وصل إليه اضطراراً ، بل يعيب من أنزله هذه المنزلة الوضيعة اختياراً . فان لم يستطع أن يفعل ذلك لقسوة الزمان وظلم الحكام ، فلا أقل من أن يلوّن صوره بالعطف الجميل على حاله ، والرثاء الباكى لبؤسه وشقائه .

وأخشى أن تكون الخطوط التى رسمها « الشربينى » ليبين الفواصل بين حياة المدن فى نعيمها ورخائها ، وحياة الريف فى بؤسه وشقائه ، لا تزال حافظة لنسبتها إلى اليوم ، وقد مضى منذ تصورها ثلاثة قرون ! بل أخشى أن تكون الفروق قد زادت ، والفواصل قد تباعدت ! فالمدنية الحديثة غزت المدن كثيراً ولم تغز الريف إلا

(١) من هؤلاء استعملت كلمة حرامى بمعنى لص .

قليلاً ؛ هذه الكهرباء تفتق أنابيبها في المدن ، والريف لمّا ينعم بماء نظيف ؛ وهذه القصور الشامخة في المدن ، والحدائق الغناء ، والشوارع النظيفة ، والسيارات السافرات ، والكاسيات العاريات ، ودور التمثيل المختلفة الألوان ، ودور الملاهي المتعددة الأشكال ، إلى ما لا يحصى من ضروب الترف والنعيم ، والفلاح في مأكله ومشربه ومسكنه ونظام حياته ونوع أحاديثه ومجال عقله وعلاقته بأرضه وأدوات زرعه ، لم تختلف كثيراً عما كانت أيام الشربيني ، بل أيام عمرو بن العاص ، بل أيام رمسيس ، بل أيام منا أومنيس ؛ والأجيال المتعاقبة ، وميزانيات الدول المتعاقبة ، والحكومات المتعاقبة ، أعجبتها المدن فزادت في الانفاق عليها ، ولم يعجبها الريف فضيقت عليه ؛ وعيب « الشربيني » أنه رأى بؤس الفلاح تقع تبعته عليه ، ولم يدرك أن بؤسه نتيجة عوامل اجتماعية كثيرة ليس هو مسئولاً عن أكثرها ؛ لقد رأى الصب ولم ير المنبع ، ورأى النار تشتعل في البيت ولم ير من أشعلها ، ورأى النتيجة ولم ير مقدماتها .

فأما ناحيته الفنية فالشربيني إذا جد فهو أديب واسع الاطلاع في الأدب ، حافظ الشعر الكثير مستحضر له في مناسباته المختلفة ، قارئ الكثير من الكتب الأدبية والتاريخية المجهولة كانت في زمانه ، عارف بكتب المحاضرات والمسامرات ، مقتبس منها ، محكم لوضعها في مواضعها ، دارس لحالة الناس في عصره دراسة تفصيلية ، لا يستحي أن يضرب مثلا بنفسه وبما حدث له ، كما لا يستحي أن يروى عن أمه لتزأ في البرغوث ، ولا عن الحشاشين أحاديثهم في مجالسهم على الطريقة التي سلكها الجاحظ في كتبه ؛ وإذا هزل فقته في الهزل غريب حقاً ، قيم حقاً ، لولا فحشه وعربه ؛ له خيال واسع في المجون ، وقد هزأ النحو والصرف والاشتقاق بأسلوب جديد ، ولأسق لك مثلاً في هذا عند تصريفه لكلمة « أبو » ، فهو يقول إنه « مشتق من آب إذا رجع ، قال ابن زريق :

ما آب من سفر إلا وأزعجه رأى إلى سفر بالعزم يزمعه

وكذلك الأب لأنه في كل ساعة يرجع إلى ولده ويفتقده وينظر إليه . . . وقيل إن « أبو » فعل ماض ناقص ، وأصله « أبوس » ، ويدل على ذلك قول الشاعر :

قالوا حبيبُك وارى ثغره صَلَفاً
ماذا تحاول إن أبداه قال أبو

أي أبوس ، وإنما حذفت السين لقصد حصول اللبس على السامع ، إذ هو اللائق بهذا عند الأدباء ، والأقرب إلى السلامة من الواشين والرقباء ، وقيل لأن السين في الجمل بستين ، والسنوت في البوس إسراف عند البعض » الخ .

ويقول في « مَتْرَد » : « وهو إناء من فخار أحمر ، وهو غالب أواني الريف ، وأصله مركب من فعلين مات ورد ، لأنه لما عمل أولاً وكسر عملوا بدله فقالوا مات ثم رد ، ثم حذفوا الألف وجعلوها علماً ، وقيل إنه في الأصل عمل بمدينة تسمى ماترد التي ينسب إليها الشيخ الماتريدي نفعنا الله به » وهكذا .

فهو في هزله ، ولعبه بالنحو والاشتقاق ، واستطراده الغريب ، وخياله الماجن البعيد ، من أوائل الكتاب الهزليين في الأدب المصري الحديث إن لم يكن رأسهم . ثم تُفتقَد بعض الحلقات ، ويظهر بعدُ « أبو نضارة » في صحيفته ، والشيخ حسن الآلاتي في كتابه « ترويح النفوس ومضحك العبوس » . ثم عبد الله النديم في صحيفة « الأستاذ » ثم « حمارة منيتي » ، ثم الكشكول ، ثم آخر ساعة ، فهي كلها مدرسة واحدة فكاهية متتابعة ، خليقة بالدرس اللطيف ، والبحث الطريف .

أحمد أمين

صور قضائية :

جريمة النصب

للأستاذ ع . ج

من أمتع القضايا التي تعرض على المحاكم الجنائية قضايا النصب . ذلك بما تنطوى عليه هذه القضايا عادة من الحيل التي تبهر العقول وتحير الألباب ، فإن «النصّاب» الذي يستولى على نقود فريسته لا يتسلل في جنح الظلام فيختلس من متاع غريمه ما تصل إليه يده ، ولا هو يتحكك به في الطريق فينشل من جيبه ما عسى أن يكون فيه ، ولا هو يسطو عليه بقوته وبطشه فيكرهه على أداء ما يريد أن يأخذه منه . ولكنه دائماً على العكس من كل ذلك ، يحصل من فريسته على ما يبغى من المال جهاراً نهاراً . ويقدم «المجنى عليه» نقوده إلى «النصاب» طائعاً مختاراً . بل إنه في الأغلب الأعم يفعل ذلك وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه «يستغفل» صاحبه ، وأنه بأداء هذا المال إليه إنما يلقى «طُعماً» حقيراً سيجلب له — فيما بعد — غُنماً كبيراً .

* * *

خذ المثل الآتي الذي يعطيك صورة نموذجية لما يفعله «النصاب» إذ يستولى على حس غريمه ، فيوهمه أنه مقبل على صفقة رابحة ، ويهيج في نفسه عاطفة الطمع ، فيعميه عن حقيقة الفخ الذي أعده له . وتنقلب الأوضاع بين الطرفين ، فإذا صاحب المال يلح في عرض ماله إلحاحاً ، وإذا المحتال يتدلل ويتعفف ، ويتظاهر بأنه لا يقبل هذا المال إلا كارهاً . . .

* * *

شاب كان يسير مع خطيبته في جهة «الجزيرة» عصر يوم من الأيام ، فأبصر في جانب الطريق الآخر رجلا يلبس ملابس أهل الريف ، وتسير بجواره امرأة عليها ثياب الفلاحات ، وتحمل فوق رأسها مكتلا ركبت عليه حمامتان صغيرتان . فما إن حاذاه حتى رآه يُسِرُّ إلى المرأة بكلمات ، ثم يتناول زجاجة مما في مكتلها ويتقدم بها إليه وهو يمشى على استحياء قائلا : تسمح يا أفندى ! . . .

ولأترك لهذا الأفندى أن يروى قصته كما سمعتها منه في الجلسة .

قال : فوقفت وقلت له : نعم ! .

قال ببساطة : حضرتك تعرف أفرنجي ؟

قلت : نعم !

قال : تسمح تخبرني إن كان هذا الدواء فيه خمر أم لا ؟

وقدم إلىّ زجاجة ملفوفة في ورق منقوش مما يستعمل عادة في الصيدليات ، ففتحت الورقة فإذا فيها زجاجة من «الكينا بسليرى» التي يصفها الأطباء حقيقة للمرضى في دور نقاهتهم ، والتي تحتوى فعلا على خليط من النبيذ والكينا والمركبات الحديدية . فقلت له :

— إن هذا الدواء مقو للبنية ، ولكنه يشتمل على مقدار من النبيذ !

فقال : هل يعتبر ذلك خمراً ؟

قلت : نعم ! إنه خمر ، ولكن حين يصفه الطبيب للعلاج يصبح دواءً !

قال : يعنى إذا تعاطيت منه يكون ذلك حراماً !

قلت : هذا يتوقف على سبب تعاطيك له ، فإن كنت تشربه بأمر الطبيب لمعالجة جسمك لم يكن في الأمر حرمة ، أما إن كنت تتعاطاه على أنه خمر ، وأنت في غير حاجة إلى عقاقيره ، كان ذلك حراماً ! فكيف — أولا — وصلت إليك هذه الزجاجة ؟

فسألني هو بدوره قائلا :

— وكم تساوى هي في نظرك ؟

قلت : إنها كانت تباع قبل الحرب بنحو ثلاثين قرشاً ، وما أظن ثمنها الآن إلا قد تضاعف !

قال : حقيقة الأمر أني أنا رجل من الريف ، ولي قريب هنا يعمل في إحدى الصيدليات ، وكنت كلما حضرت إلى القاهرة لأتداوى أو لأعرض نفسي على الطبيب ، حملت له معي مقداراً من البيض على سبيل الهدية إلى أن بلغ ما قدمته له حوالي ستين بيضة . فرأى اليوم أن يكافئني عليها بأن يقدم لي هذه الزجاجة ؛ وهو ينصح بأن أتناول منها كل يوم مقدار ملعقة كبيرة مع كل وجبة من وجبات الطعام لكي تفتح شهيتي وتقويني . ولكني سمعت من بعض الناس أن بها خمراً ، وأنا رجل لم أذق الخمر في حياتي . فقلت أسترشد بمن يعرف الكتابة الأفرنجية لعله يقرأ ما كتب عليها ويهديني إلى حقيقتها . وما دام الأمر كما ذكرت ، فإني سوف أتحرج من شربها . وحبذا لو وجدت من يأخذها مني ، لا بثمنها الحالي المضاعف ، ولا بثمنها الذي كانت تباع به قبل الحرب ، ولكن بثمن البيض الذي كنت أقدمه إلى صاحبي .

قال الشاب : فانتحيت بخطيبتي ناحية ، وتشاورت معها في أمر شرائها منه بواقع قرش لكل ست بيضات . وما دام يقول إنه قدم لصاحبه ستين بيضة فنحن ندفع له عشرة قروش . ونحصل على زجاجة لا يقل ثمنها عن خمسين قرشاً . ورفضت خطيبتي في أول الأمر قائلة : وما لنا ولهذه الزجاجة ما دمنا لا نحتاج إلى ما فيها لا على أنه خمر ولا على أنه دواء ؟ .

فقلت : إنها صفقة رابحة على كل حال . ولسنا نعدم في المستقبل من يكون في حاجة إليها من الأهل أو الأصدقاء، فنعطيها له على أقل تقدير بثمنها المألوف فيكون ربحنا فيها ضعفي ما دفعناه ثمناً لها .

وأحس الرجل بمداولاتنا . فتظاهر بأنه يريد أن يستردها ليبيعها لأية صيدلية أخرى ما دام ثمنها مقدراً ومعروفاً . فنظرت إلى خطيبتي نظرة عتاب أريد أن أقول لها : هلا وافقت من أول الأمر قبل أن يفطن هذا الساذج إلى حقيقة الهدية التي بين يديه ؟ فأشارت لي بيديها إشارة التسليم بما أريد .

فعدت إلى الرجل أقول له إني سأكفيه مؤونة ما قد يحمل له هذه الزجاجة من إثم بتعاطي ما فيها ، وعرضت عليه قطعة من ذات العشرة القروش في مقابل البيض الذي قدمه لقريبه . فقال : إن البيض يباع كل أربعة بقرش فيكون الثمن خمسة عشر قرشاً . ولكني ساومته على أساس سعر البيض في الريف ، فقبل أن يحاسبني بواقع كل خمس بيضات بقرش ، وعند ذلك نقدته اثني عشر قرشاً ، وانقلبت إلى خطيبتي مسروراً أفرك يدي من الرضا ، وأنا مغرور بهذه الصفقة التي أوشكت بوسوستها أن تضيعها مني ، والتي غلب فيها حزمي وعزمي على تلكئها وترددها .

ولكنها عادت تقول لي : وما يدريك ؟ لعل الزجاجة مزيفة أو قديمة أو فاسدة . فكشفت لها عن سدادتها المحكمة ، وأطلعتها على توقيع صاحب المصنع يتوج هذه السدادة ليفصح بأجلى بيان أن التعبئة تعبئة أصيلة — وأما عن القدم والفساد فقد أفهمتها أن النبيذ كلما طال عليه العهد تعتق وازدادت قيمته دون أن يطرأ عليه ما قد يطرأ على غيره من الفساد . ثم لم تشأ أن تنهزم في هذا الميدان — شأن كل بنات جنسها المكابرات ! — على الرغم من كل هذه الردود المفحمة التي أسعفني بها خاطري الحاضر . وقالت : إنك على كل حال لم ترد على أنك اشتريت مالاً مسروقاً . فإن خادم الصيدلية الذي أخذ البيض لنفسه كان يتعين عليه أن يدفع ثمنه من ماله الخاص لا من مال الصيدلي الذي يخدمه ! .

وظللنا على هذا الحال نتساجل الاعتراضات والردود إلى أن انتهت نزهتنا وعدنا — بخير سلام . وكان أول شيء صنعته عقب عودتي إلى منزلي أني عمدت إلى الزجاجة ففتحتها . فإذا فيها — ولعنة الله على ذلك الفلاح الخبيث ! — ماء ملون لا طعم له ولا رائحة ! وإذا بي قد دفعت اثني عشر قرشاً لأشتري زجاجة ثمنها نصف قرش ! وإذا بهذا الريفي الكاذب محتال بارع ! وإذا بي أنا الرجل

المعز – الذي يقرأ الخط الأفرنجي ! – يقع فريسة لمن لا يعرف كيف يقرأ الخط العربي ! وكان أقسى ما أحسست به إزاء هذه النتيجة أن خطيبي هي التي فازت في وجهة النظر التي اتخذتها بشأن هذه الصفقة ! وأني كنت أنا الخاسر فيها من كل النواحي ! .

* * *

فهذه الصورة التي قدمتها بين يدي القارىء تريه أن جريمة النصب لا تتم – عادة – إلا إذا توفر لها عنصران :

الأول – هو تلك القصة الملفقة المسبوكة التي يصدقها المجني عليه فيخطو بذلك خطوته الأولى نحو الشرك الذي نصب له ؛ وهـذا العنصر من عناصر الجريمة هو أمتعها وأروعها ، لأن لكل « نصاب » قصة ، ولكل واقعة ظروفها التي توحي إلى المحتال فكرته . انظر إلى المثل الذي سقناه ، تر أن هـذه الجريمة لم تكن تتم إلا في مكان مثل « الجزيرة » . ولم يكن يمكن أن يكون ضحيتها إلا مثل هذا الشاب الذي وقع عليه اختيار المحتال . فإن الزجاجة التي اتخذها النصاب أداة لنصبه مفروض فيها أنها زجاجة خمر وأصلح ما تكون البيئة لعرض مثل هذه السلعة حين يجتمع رجل وامرأة في مكان مثل الجزيرة ومغانيها ؛ فهناك الهوى والشباب . . . . والشيطان أيضاً في بعض الأحايين !

ولم يكتف المحتال بهيأته وبلهجته ليقنع ضحيته بصدق روايته ، ولكنه جاء بالقرائن الخارجية التي تؤيد دعواه وتعزز صدقه . فهناك زوجته الريفية أيضاً ، وهناك مكتلها الذي يطبعها بطابع أهل الريف ، وفوق هذا المكتل الحمامتان الصغيرتان اللتان تقعان من رأسها موقع العنوان من الكتاب ، وتعملان بوجودهما على تداعي المعاني بين بيض الريف وبين الزجاجة التي يحملها الرجل في يده . ويقف الضحية أمام كل هـذه المشاهد كما يقف المتفرج في قاعة التمثيل حين يرى الممثلين ، ومن خلفهم الستائر التي تواءم الحوادث المعروضة ، ليتم بذلك تأثير المرض في نفسه ، ويبلغ انفعاله بالتمثيل وبأقوال الممثلين أقصى حدوده !

فهذا هو العنصر الأول الذي لا تتم جريمة النصب إلا به . وهناك العنصر الثاني وهو العمل على شل تفكير المجني عليه ، وتوجيه وجهة تصرفه من التفطن إلى حقيقة ما يراد به . وذلك بلمس نقطة الضعف فيه ، وبإثارة عاطفة الطمع عنده ؛ فيكون العنصر الأول بمثابة (الغماء) الذي يوضع على أعين الثور قبل ربطه إلى الساقية . ويكون العنصر الثاني بمثابة (السوط) الذي يفرقع فوق ظهره ؛ ومتى توفر هـذان العنصران لم يبق أمام الثور إلا أن يدور ويدور حتى يشبع رغبة سائقه من الماء الذي يلقيه تحت قدميه !

* * *

ولقد عرضت عليّ مئات من قضايا النصب ، واطلعت في كل قضية على حيلها التي ألجمت عقل المجني عليه ، وسيطرت على تفكيره . وأعجبت بكل قصة من هـذه القصص ، وراعني في كل قضية مبلغ ما ينطوي عليه عمل المحتال من فطنة وسلامة تدبير ، أكثر مما كان يروعني مبلغ ما ينطوي عليه عمل المجني عليه من غفلة وتفريط . ولكني ما زلت أحتفظ لإحدى هذه القضايا بمنزلتها على أنها الأولى بين أخواتها . ذلك بأن المتهم فيها كان شخصية وقورة لها قيمتها ، واعتبارها في هذه البلاد . ولأن المجني عليه كان موظفاً كبيراً ، ومن أسرة شهيرة ؛ وأخيراً لأن المبلغ الذي استولى عليه « المتهم » كان عدة آلاف من الجنيهات أخذها على عدة دفع ، وفي مدى عدة شهور . ولأن الصدمة التي أصابت « المجني عليه » بعد أن تفتحت عيناه آخر الأمر على حقيقة الواقع ، كانت من الشدة بحيث أصيب على أثرها بذبحة صدرية قضت على حياته !

وأرجو أن أتحدث قريباً عن تفاصيل هـذه القضية في كلمة أخرى إن شاء الله .

ع . ج

صور من تاريخ الفلسفة :

ديكارت وتأويلات فلسفته

للأستاذ عثمان أمين

ما المبدأ الذي قامت عليه فلسفة ديكارت ؟ وما عسى أن يكون مقصده منها ؟

اختلف الفلاسفة والشراح في تحديد ذلك ، وكان اختلافهم مثاراً لتفسيرات كثيرة حيكت عليها الفلسفة الديكارتية ، منذ أيام ديكارت نفسه حتى عصرنا هذا ؛ فنحن نعلم أن معاصري الفيلسوف ، وتلاميذه المباشرين ، وأنصار مدرسته وخصومها على السواء ، لم يكونوا دائماً متفقين في فهمهم لمذهب الأستاذ . وحسبنا الاشارة هنا إلى ما هو مشهور من اختلاف في تأويل تلك الفلسفة ، سواء عند كبار الديكارتيين أمثال « مالبرانش » و « سبينوزا » و « ليبنتز » ، أو عند صغارهم أمثال « جولنكس » و « كلوبرج » و « دولافورج » و « رجيس » . والمذهب الديكارتي على نحو ما تأوله « الكردينال دوبيرول » و « بوسويه » اللذان يلتمسان عند ديكارت دعائم عقلية للعقيدة المسيحية ، هو مذهب لا يشارك في شيء المذهب الديكارتي ، على نحو ما فهمه مفكرو القرن الثامن عشر ، الذين لم يقرأوا مؤلفات ديكارت ، ولم يعيدوا طبع « المقال عن المنهج » مرة واحدة ، ولكنهم طلبوا إلى ديكارت — على حد قول « فونتنل » — « منهجاً جديداً في الاستدلال هو أعظم قيمة من فلسفته التي لو (طبقنا عليها) القواعد التي علمنا هو إياها ، لوجدنا شطراً كبيراً منها أخطاء لا يقين فيها »[١] .

وفي أيامنا هذه نجد من الباحثين ، حتى ممن لا يرتابون في صدق إيمان ديكارت ، من يرون أن في فكر ذلك الفيلسوف جزءين منفصلين انفصالا مقصوداً ، وأنهما ناشئان عنده من إلهامين متباينين ؛ فإذا كان لا بد من التوفيق بينهما فلن يتيسر ذلك في نظر الكثيرين ، إلا إذا جعلنا الميتافيزيقا في فلسفة ديكارت تابعة للطبيعيات (الفيزيقا) ، وضرورة ذلك أن الله عند ديكارت هو الضامن لحقيقة العلم ، والوسيلة التي تكفل للانسان الانتصار على الطبيعة والسيطرة على العالم المادي .

* * *

ولا بد على كل حال من الاقرار بأن مذهب ديكارت وشخصيته ليسا من الأمور البسيطة التي تسهل الاحاطة بها في فصل أو فصول ، فإن ذلك المذهب — خلافاً لما ظن البعض زمناً طويلا — لم يخلقه صاحبه من العدم ؛ بل يكاد لا يوجد شيء مما قال به ديكارت في الميتافيزيقا ، بل وفي العلم ، إلا وقد قال به قائل قبله . ولقد أصبح من المقرر أن ديكارت استخدم في تشييد مذهبه عناصر ومواد مختلفة . ومن المؤكد أيضاً أن مشاغل الفيلسوف العقلية وأغراضه لم تكن دائماً واحدة متفقة ، وإنما اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، والظروف التي أحاطت به ، والأشخاص الذين اتصل بهم . وهذا هو الذي جعل بعض تلك المشاغل والمقاصد تبدو تارة وسائل ، وتارة غايات ، وطوراً أموراً فرعية ، وأخرى أموراً هامة تحتل مكان الصدارة ، وهو الذي جعل الكثيرين يرون في فكر ديكارت ثنائية تميزه مما عداه . .

وبعد هذا كله يجد الباحثون في شخصية ديكارت الأخلاقية تعقيداً يبدو من العسير رده إلى الوحدة ، ويجعل من « الفيلسوف المقنع » — كما وصفه أحد الباحثين المعاصرين — شخصاً غريباً ، وكأن حقيقته لغز من الألغاز . صورت لنا الأساطير ديكارت في صورة

(١) « فونتنل » : (استطراد عن القدماء والمحدثين) . .

فيلسوف رياضي ، مقنع بقناع العقل ، مترفع عن مخالطة الناس ، متباعد عن التأثر بما يساور حياتهم . . . ولكن هذه الصورة التي يكاد يفرضها العرف والتقاليد الموروثة عن الفيلسوف الفرنسي ، ليست مع ذلك مطابقة لصورة أخرى يعرفها الباحثون عن صاحب كتابي « الخطرات الخاصة » و « انفعالات النفس » وصاحب الرسائل إلى الأميرة « اليزابث » وصديق « كارسليه » و « مرسن » و « شانو » ، ولا هي مطابقة لصورة الرجل الذي ترك لنا عنه « بابيه » و « فيليبخ » صوراً صادقة حية رائعة .

* * *

ولعل من الطريف النافع — قبل أن نبسط نظريات الفلسفة الديكارتية — أن ننظر في مختلف الصور التي تبدت لمؤرخي الفلسفة الحديثة ممثلة لحياة ديكارت العقلية .

من مؤرخي فلسفة ديكارت الأستاذ « شارل أدام » الذي ذهب إلى تصوير أبي الفلسفة الحديثة في صورة ممثل المذهب العقلي في الفلسفة (راسيو نالزم) ، والمفكر المتحرر من قيود الدين المسيحي[1] . ولقد كان « فرانسك بوييه » قد نحا هذا المنحى حين جعل من ديكارت أباً للثورة الفرنسية ، وفيلسوفاً انتصرت بفلسفته « قضية البحث الحر وتأيد بها سلطان العقل »[2] . ويظهر أن هذه الصورة عن ديكارت زعيم النزعة العقلية هي التي عرفها عنه القرن الثامن عشر[3] ؛ ولكن الفلسفة الديكارتية امتدت أثناء ذلك — بفضل « فونتنل » — إلى ميدان السياسة والدين ، وكان ديكارت قد حرص على أن يستبعدهما من فلسفته استبعاداً صريحاً .

* * *

(١) شارل أدام : « حياة ديكارت ومصنفاته » . م ١٢ ص ٥٢ ، ٦٤ ، ٣٣٦ ، ٥٥٢ .

(٢) ف . بوييه : « تاريخ الثورة الديكارتية ونقدها » . باريس سنة ١٨٤٢ ص ٩٢ .

(٣) ومن الباحثين في فلسفة ديكارت « الأب لابرتونيير » ورأيه أن المذهب الديكارتي قد خرجه ديكارت نفسه ، وكأنما تتأتى ذهنه من مطالب عقلية خالصة . ومن أجل هذا احتاط ديكارت من أن يتسرب إلى فلسفته أي عنصر ليس مصدره الحدس العقلي الخالص .

ونشأت من صورة ديكارت صاحب المذهب العقلي صورة أخرى : رأى بعض الباحثين أن ديكارت في الحقيقة عالم طبيعي ، وأن اشتغاله بالميتافيزيقا لم يجيء إلا عرضاً . ومن الذاهبين هذا المذهب « ليار »[1] الذي قرر في كتابه عن ديكارت أن الميتافيزيقا في الفلسفة الديكارتية تابعة للطبيعيات ناشئة عنها . وكتاب « ليار » هذا واضح في الدلالة على ما قلنا ، فإنه يبوبه هكذا : (١) المنهج (٢) العلم (٣) الميتافيزيقا .

ولقد نال هذا التأويل قسطاً كبيراً من النجاح : فإن مصنفات « شارل أدام »[2] ومحاضرات « الني برول »[3] ودراسات « لابرتونيير »[4] ومباحث « ج . ماريتان »[5] تذهب كلها إلى أن ديكارت إنما استخدم الميتافيزيقا من أجل العلم الطبيعي ، وأن العلم الطبيعي هو أعز الموضوعات لديه .

* * *

لكن كثيرين من الباحثين قد صوروا ديكارت في صورة أخرى : يرى « اسبيناس »[6] أن ديكارت العالم

(١) ل . ليار : « ديكارت » . باريس سنة ١٨٨٢ . الطبعة الثالثة سنة ١٩١١ ص ٩٢ — ١٠٦ .

(٢) شارل أدام : نفس الكتاب . م ١٢ ص ٣٢٠ .

(٣) محاضرات « لني برول » . عن ديكارت بالسربون سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ولم تنشر . وقد أشار إليها الأستاذ « جلسون » . في رسالته « الحرية عند ديكارت وعلم اللاهوت » باريس ١٩١٣ ص ٩٥ هامش (١) .

(٤) لابرتونيير : « دراسات عن ديكارت » . مجلدان . باريس ١٩٣٥ م ١ ص ١٢٦ — ١٣٣ . ويرى « لابرتونيير » أن أهم ما في الطبيعيات الديكارتية ليس هو اعتمادها على المنهج ، وإنما هو كونها علماً ذا أثر فعال يستطيع أن يجعل الإنسان سيداً للطبيعة ، وأن يحقق ما كان يحلم به « روجر بيكون » والمشتغلون بصنعة الكيمياء (التي كان يبحث فيها عن الحجر الفلسفي الذي يطيل الحياة) . فكان ديكارت يريد أن يصل إلى أن يتم ، عن طريق العلم ، ما زعم من قبله أن يتموه عن طريق السحر .

(٥) ج . ماريتان : « روح ديكارت » . في مجلة « الرسائل » . عدد أول أبريل وأول مارس سنة ١٩٢٢ .

(٦) أ . اسبيناس . « الفكرة الأصلية في فلسفة ديكارت » في مجلة « الميتافيزيقا والأخلاق » . سنة ١٩١٣ .

الطبيعي لا يخلو من أن يكون هو أيضاً ديكارت نصير الدين ، الذي تتلمذ أولاً على اليسوعيين واعتنق مبادئهم ، والذي كان يحلم بالدود من دين الله ، والذي اتصل بالكردينال « دوبيرول » ، وتأثر بالآراء الأفلاطونية الحديثة التي اعتنقها الكردينال وجماعة « الأراتوار » ، والذي نراه بعد ذلك يلتمس عند هيأة علماء السربون تأييداً لكتابه « التأملات » . ويذهب إلى هذا الرأي من ديكارت « بلانشيه »[1] ، ولكن مع شيء التلطيف . أما « جوهييه » فينسب إلى ديكارت شعوراً واضحاً عما لفلسفته من رسالة دينية[2] ، في حين أن « ماكسيم لروا » ينكر أن يكون ديكارت من المؤمنين الخالصين[3] .

ومن مؤرخي الفلسفة الديكارتية من حاول أن يوفق بين الرأيين : الرأي الذاهب إلى أن ديكارت عالم طبيعي قبل كل شيء ، والرأي القائل بأن الأصل في فلسفته هو الذود من الدين . يقرر « لوى دعبيه » بأن فيلسوفنا قد أراد الأمرين جميعاً : أراد أن يقيم العلم على أساس متين ، كما أراد أن يخدم الدين . ويورد « لوى دعبيه » من حياة الفيلسوف الشواهد التي تؤيد صدق إيمانه بالدين الكاثوليكي ، ثم هو يقابل بين ميتافيزيقا ديكارت وبين مذهب وحدة الوجود عند الإيطاليين ، وبين تشكك الملحدين[4] .

ومن مؤرخي ديكارت أيضاً الأستاذ « جاك شفالييه » الذي أبان خير إبانة عن مكان الفكر الديني من فلسفة ديكارت ، وبين أن الشك المنهجي إنما يقصر من أن يتناول العقيدة[5] . ومن أجل هذا استطاع ديكارت — دون أن يناقض نفسه — أن يستبقى اعتقاده في الحقائق الدينية مع طرح معارفه الأخرى . وكذلك رأى « شفالييه » أن الله هو مركز التفلسف في الفكر الديكارتي ، فقد قال ديكارت : « من جهل الله فقد عجز من أن يكون له معرفة يقينية بأي شيء آخر »[1] .

* * *

ولقد وصف بعض الكتاب المحدثين ما لاحظه من ازدواج الشخصية في حياة ديكارت العقلية[2] ؛ فبينما نجد فيه مفكراً ذا عبقرية رياضية ظاهرة ، مع شغف بالآراء الواضحة المتميزة ، نجد فيه من جهة أخرى رجلاً كاثوليكياً مخلصاً ، متمسكاً بالعقائد الدينية التقليدية . ويرى هذا الكاتب أن ديكارت ما دام بإزاء مشكلات ذات صبغة علمية خالصة — لا سيما مشكلات الرياضيات المحضة أو التطبيقية — فهو كمن يسير في مكان أنيس مألوف لديه ، ولكنه ما يكاد يعرض لمسائل ذات اتجاه فلسفي عام حتى نجده قد أقبل عليها إقبال عالم اللاهوت التقليدي لا إقبال الفيلسوف المجدد أو المفكر الثائر . وبينا نجده يصرح بأننا ينبغي أن لا نقبل منهجاً غير الحدس والاستنباط ، نجده يعلن بأن « هذا لا يمنعنا من أن نؤمن بالأشياء التي جاءتنا من طريق الوحي الالهي ، وأن نعتقد أنها أشد معارفنا وثوقاً وأوفرها يقيناً ، ما دام الإيمان بهذه الأمور . . . فعلاً لا من أفعال الذهن ، بل من أفعال الارادة » . فديكارت إذاً يجمد هنا من مجال الفلسفة العقلية ، ويرجع إلى لاهوت القرون الوسطى .

* * *

لكن قامت في ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر شيعة الحركة « الابتداعية » . (الرومانتزم) في الفلسفة ،

(١) ل . بلانشيه : « المقدمات التاريخية لمبدأ : أفكر ، فأنا إذاً موجود » باريس سنة ١٩٢٠ ص ٧٢ بع .
(٢) هـ . جوهييه : « الفكر الديني لديكارت » . باريس ١٩٢٤ .
(٣) ماكسيم لروا : « ديكارت الفيلسوف المقنع » . باريس سنة ١٩٢٩ .
(٤) ل . دعبيه : « ديكارت » . باريس سنة ١٩١٧ . الفصل الأول .
(٥) ج . شفالييه : « ديكارت » . باريس سنة ١٩٢١ . ص ٢٠١ بع .

(١) ديكارت « مبادئ » ك ١ ف ١٣ .
(٢) راجع « دائرة المعارف البريطانية » . مقال من « ديكارت » .

دراسات أيوبية :

شاعر من البيت الأيوبى

يموت فى سن الشباب

مات نجم الدين أيوب ليلة الثلاثاء سابع عشرى ذى الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وترك من الإناث ثنتين ، هما : ست الشام وربيعة خاتون ، ومن الذكور ستة ، هم : الملك الناصر يوسف صلاح الدين ، وهو البطل المعروف مؤسس الدولة الأيوبيــة ، والملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وشمس الدولة توران شاه — وهو أكبرهم — وشاهن شاه ، وسيف الإسلام طغتكين ، وتاج الملوك بورى وهو أصغرهم .

وقد كان لكل واحد من هؤلاء الذكور شأن أى شأن فى التاريخ ، فأسس صلاح الدين دولة حكمت مصر والشام والنوبة والمغرب واليمن ، وخلف العادلُ أولاد صلاح الدين وحكم هذه الامبراطورية (٥٩٦ — ٦١٥) ، وفتح ثالثهم توران شاه اليمن وحكمها (٥٦٩ — ٥٧٧) ، وخلفه فى ولاية اليمن — بعــد موته — أخوه طغتكين (٥٧٧ — ٥٩٣) . أما شاهن شاه فكان من قواد نور الدين ، وقتله الفرنج سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة « لما كانوا منازلين دمشق »[1] .

وحديثنا اليوم عن أصغر هؤلاء الاخوة الأمجاد تاج الملوك بورى بن أيوب .

ولد بورى فى ذى الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، ونشأ فى كنف الدولة النورية ، وفى رعاية أب وإخوة كلهم رجال حرب ونضال ؛ فلا عجب أن ترعرع شابا موفور الصحة ، كامل النشاط ، شجاعاً ، مقداما ، طموحاً المجد ، وكان إلى هذا « مليح الأعطاف ، عذب العبارة ، حلو الفكاهة ، مليح الرمى بالقوس ، والطعن بالرمح ، شجاعاً ، باسلا ، مقداماً على الأهوال ، وكان قد جمع إلى ذلك الكرم ، واليقين فى الأدب »[2] .

(١) شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ١١ ا ، وهو مخطوط مجهول المؤلف ومنه صور شمسية بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٤٠٣١ .

(٢) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .

وعلى رأسها « شيلنج » و « هيجل » . فكانت ترى فى ديكارت فيلسوفاً ميتافيزيقياً محضاً . أما « فكتور كوزان » وشيعة مذهب التخير (الاكلكتيكيين) . فكانوا يرون فى « أبى الفلسفة الحديثــة » . شيخ « الروحانية » الأصيلة ، غير أنهم كانوا يأسفون لأن « شيطان الرياضيات قد أغواه » — كما يقولون !

وفى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، أخــذ الباحثون يرجعون إلى نصوص المؤلفــات الديكارتية وعمدوا إلى تأويلها : فرأى « سكرتان » فى ديكارت نصيراً للحرية المطلقة[1] ، ورأى فيه « ناتورب » مشيداً لبناء « المثالية » (الايديالزم) الحديثة[1] . وأخيراً جاء « هاملان » فأجاد فى تصور الميتافيزيقا ومكانها فى الفلسفة الديكارتية ، وبين أن النظر الميتافيزيقى عند ديكارت إنما يسبق النظر الطبيعى وأن ذلك السبق عقلى وزمنى معاً[2] .

عثمان أمين

(١) سكرتان : « فلسفة الحرية » . باريس سنة ١٨٤٠ .

(١) ناترب : «نظرية ديكارت فى المعرفة . دراسة فى التاريخ السابق على نظرية النقد» . ماربرج سنة ١٨٨٢ — ناترب : (تطور فكر ديكارت منــذ « القواعد » . حتى « التأملات » . فى مجلة « الميتافيزيقا والأخلاق) باريس ١٨٩٦ ص ٤١٦ .

(٢) هاملان : « مذهب ديكارت » . الطبعة الثانية . باريس سنة ١٩٢١ .

ويتفق مؤرخو الدولة الأيوبية جميعاً على مدح تاج الملوك ، ونعته بهذه السجايا الجميلة وكثير غيرها . والحقيقة أنه كان أحد أرباب السيف والقلم ، ولو قدر له أن يمتد به العمر لبذ إخوته وأبناء عمومته ؛ فقد كان بطلا صنديداً وشاعراً ممتازاً ؛ ولكنه لقى حتفه ولما يتم الثالثة والعشرين من عمره ، بعد أن أصيب في حومة الوغى ، وبعد أن ترك لقراء العربية ديواناً يضم ما قاله من شعر تغلب عليه العاطفة الجامحة الحالمة ؛ ولا غرو فقد نظم شعره هذا وهو في ميعة الصبا وريعان الشباب .

حدث نزاع بين صلاح الدين وعماد الدين زنكي — ابن سيده نور الدين — وتحصن عماد الدين بقلاع حلب ، وأكثر من الجند ، ورام مقاتلة صلاح الدين ؛ ولكن السلطان الأيوبي كان حافظاً للجميل ، فدبر في نفسه أنه يستطيع الاستيلاء على حلب دون قتال ، « ولكن الشباب وجهال الأصحاب راموا القتال ، وأحبوا النزال ، وتقدموا وأقدموا ، والسلطان ينهاهم فلا ينتهون ، وكان فيهم تاج الملوك بورى أخو السلطان فطعن في ركبته »[1] .

فمن هذا يتبين أن تاج الملوك كانت تدفعه حماسة الشباب وفورته إلى الاقدام والمخاطرة ؛ بل لقد كان دائماً في مقدمة الجيش إذا حارب ؛ وإلى القارئ وصف القاضي الفاضل لبورى وشجاعته من كتاب له :

« نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرم ، وكان قد تقدمنا الأجل تاج الملوك إليها وأناخ عليها ، وقابلها وقاتلها ، وعاجلها ولو شاء لناجزها »[2] .

وبعد الاستيلاء على تل خالد تقدمت الجنود الأيوبية وفي مقدمتها تاج الملوك نحو حلب ، ونزلوا خارجها في سادس عشرى المحرم سنة ٥٧٩ ، وفي نفس اليوم أصيب في ركبته إصابة خطرة .

ولما أحاطت جند صلاح الدين بحلب تحقق عماد الدين أنه ليس له قبل بها ، وسفر بينه وبين صلاح الدين الأمير حسام الدين طمان ، فاتفقا على أن تسلم حلب السلطان على أن يعطى عماد الدين سنجار . وأعد صلاح الدين وليمة لابن زنكي ، ويتناولا في سرور والجند حولهما يأكلون ما لذ وطاب ، ويتبادلون الشهى من الحديث ، إذ حضر أحد الحجاب فأسر إلى صلاح الدين خبر وفاة أخيه تاج الملوك متأثراً بالجرح الذى أصابه ، فلم يزد صلاح الدين على أن قطب وجهه ، ثم بش ثانية وعاد إلى ما كان عليه . ولم « يتغير لذلك ولا اضطرب ، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح ، وجلل الاحسان وأمر بستر ذلك ، وتوعد عليه إن ظهر ، وكظم حزنه ، وأخفى رزيته ، وصبر على مصيبته ، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر »[1] . فانفض الجمع وتفرق الجند ، وانفرد صلاح الدين بخاصته ، واسترجع الحادث ، وبكى حزناً على أخيه ؛ فكان كما كان دائماً عند ملاقاة الخطوب ، ومقابلة الأرزاء ، جلداً صبوراً بطلا كظيما لآلامه وحزنه ليسر الغير ويسعدهم .

هذا هو صلاح الدين تزينه أخلاق الملوك ، وهذا هو أخوه بورى الجندى والقائد . أما بورى الشاعر فقد ترك لقراء العربية ديواناً فياضاً بالعواطف (هذا الديوان مفقود الآن) تقتبس كتب التاريخ التى ترجمت له بعض أبياته ؛ ومن دراستها نستطيع أن نحكم أنه كان شاعراً فذاً ، موفور الذكاء ، فياض الشعور ، خفاق القلب ، عذب اللفظ ، حلو الحديث ، محباً يجيد وصف ما يحس من ألم البعد ولوعة الصد ؛ وكان بورى أيضاً يحب مصر وخيرات مصر ، ويفضل نيلها وماءه على الفرات ومائه ، إذ يقول :

شربت من الفرات ونيل مصر
أحب إلى من ماء الفرات

(1) الروضتين ج ٢ ص ٤٢ .
(2) نفس المرجع والصفحة .

(1) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ ، والشفاء ص ١٤ ا .

ولى فى مصر من أصبو إليه ومن فى قربه أبداً حياتى
فقلت وقد ذكرت زمان وصل تعاوى بعده روح الحياة
أرى ما أشتهيه يفر منى وما لا أشتهيه إلىّ يأتى[(١)]

وأكثر ما يقول بورى فى الغزل ، فمن قوله :

يا هذه وأمانى النفس قربكم يا ليتها بلغت منكم أمانيها
إن كانت العين مذ فارقتكم نظرت
إلى سواكم فخانتها أماقيها[(٢)]

وينقل عنه صاحب الشفاء هذين البيتين ، ويعلق عليهما بقوله : « وإنه عليه سامحه الله » :

يا غزالا يميت طوراً ويحيى وهو برؤ السقام سقم الصحيح
هذه المعجزات ليست لظبي إنما هذه فعال عيسى المسيح[(٣)]

وقريب من هذا المعنى ويزيد عليه وصفه لحبيب قوله :

يا حياتى حين يرضى ومماتى حين يسخط
آه من ورد على خدّ يك بالمسك منقط
بين أجفانك سلطا نٌ على ضعفى مسلط
قد تصبرت وإن برّ حَ بى الشوق وأفرط
فلعل الدهر يوماً بالتلاقى منك يغلط[(٤)]

وقد كان لحياة الجندية التى عاشها بورى أثر بالغ فى شعره ، فهو يكثر من استعمال ألفاظ الحرب كالسيف والعضب والرمح والطعن والضرب ، ومن ذلك قوله :

أيا حامل الرمح الشبيه بقده
ويا شاهراً سيفاً حكى لحظه عضبا
ضع الرمح واغمد ما سللت فربما
قتلتَ وما حاولت طعناً ولا ضربا[(٥)]

وقوله :

(١) الشفاء ص ١٢ أ .
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .
(٣) الشفاء ص ١٢ أ .
(٤) ابن خلكان ، الوفيات ، طبعة رفاعى ج ٣ ص ٨٩ .
(٥) الشفاء ص ١٣ أ ، وابن خلكان المرجع السابق نفس الصفحة .

بُليت بمن لا يعرف العطف قلبه
ولا يسمع الشكوى لمن كان شاكيا
من الترك ميّاس القوام كأنه
يجرد لى لحظاً من السيف ماضيا
يماذقنى فيه الزمان تعمداً
فيا عجبا ما للزمان وما ليا
يخالفنى فى كل شىء أريده
فلا القلب مسروراً ولا العيش صافيا
فلولا شقــائى ما بليت بخائن
عهودى ولا صافيت من لا صفا ليا
وإنى لأستشفى من الموت بالردى
وحسبك داء أن ترى الموت شافيا[(١)]

ويبدو أنه قال هذه الأبيات قبيل موته ، فإن صاحب الشفاء يعقب عليها بقوله : « وكان فألاً عليه »

كذلك ملك ركوب الخيل على تاج الملوك لبه وقلبه فى ميدانى الحرب والحب . رأى أحد مماليكه مقبلاً من ناحية الغرب وهو يركب فرساً أشهب فقال :

أقبل من أعشقه راكباً من جانب الغرب على أشهب
فقلت : سبحانك يا ذا العلا !
أشرقت الشمس من المغرب[(٢)]

ومات بورى كما ذكرنا ثالث عشرى صفر سنة ٥٧٩ هـ عن اثنتين وعشرين سنة وأيام . وبكاه صلاح الدين بعد انتهاء الحفل وهو يقول : « ما وفت حلب بشعرة من أخى تاج الملوك بورى » وكان يقول أيضاً : « ما أخذنا حلب رخيصة »[(٣)] ، وأمر به فغسل ودفن بمقام إبراهيم بظاهر حلب . ثم حمله بعد ذلك إلى دمشق ودفنه بها .

جمال الدين الشيال

(١) الشفاء ص ١٣ ب .
(٢) ابن خلكان ، المرجع السابق ص ٨٨ .
(٣) الشفاء ص ١٤ أ وابن خلكان ص ٩١ وأبو المحاسن النجوم ج ٦ ص ٩٥ .

لوم التاريخ :

عبد القادر حمزة باشا

بقلم الأستاذ محمد السوادى

لفقيد مصر والشرق ، والصحافة والأدب ، والمروءة والاسلام ، عبد القادر حمزة باشا ، جوانب وضاءة ، من حق بعضها أن نظهر الكتابة عليه .

و « الثقافة » إحدى مجلتين ترفعان لواء الثقافة ، فمن حقها أن نخصها ببعض ما نقدر عليه من هذه الدراسات .

عناصر التفوق فيه

وليس بالكشف الجديد تفوق الفقيد فى رعاية المنطق فى كل ما كتب ، وليست هذه الرعاية هى كل ما أعنيه حين أتحدث عنه من ناحية الأدب . فعبد القادر المنطق عرفه قراء مصر والشرق ، من خلال حياته الصحفية ونضاله السياسى ، بحيث يصبح من تحصيل الحاصل التدليل على وجود موجود ، كشف وعرف ، ثم ذاع واشتهر .

أما الذى أعنيه فإظهار عناصر التفوق المنطقى فى نشأة الفقيد ، واستخدامه هذه العناصر فى دراساته التاريخية والأدبية ، ونتائج هذا الاستخدام من حيث التوفيق الذى أحله محله الرفيع بين رجال الفكر ، والتدليل على هذا كله بالنهج التطبيقى مما كتب ولم يشأ القدر أن يمد له فى الأجل حتى ينشره على الناس .

فما عناصر التفوق فى الرجل من حيث المنطق وقضاياه التى طبقها فساقتك إلى الاقتناع بالنتائج التى كان يحصل عليها ، ولو خالفت رأياً لك ، أو ميلا منك ، أو عاطفة فيك .

عندى أن هذه العناصر يمكن ذكرها فيما يلى ، أو يمكن ردها إلى ما يأتى :

أولا — تكوينه الأصلى وما امتاز به من السلامة فى الأعصاب ، ومن التفكير قبل التعبير .

ثانياً — تبكيره بالتفكير العام ، وكان لما يزل طالباً فى القسم الثانوى ، واقتناعه يومئذ بأن بلاده فى حاجة إلى جهود شبابها ، وإقدامه على هدى هذا التفكير للقاء الزعيم الشاب مصطفى كامل ، وإعلانه بعد هذا اللقاء بأن الشباب لا يحول دون الجهاد ، واهتداؤه بالتجارب إلى التوفيق فى النتائج ، كلما اتجه إليها على مهل وعلى ضوء مقدمات بريئة من الأخطاء .

ثالثاً — نشأته وأخذه فيها بأسباب الأناقة والنظام .

رابعاً — اشتغاله بالمحاماة عن رغبة فيها مما مكن له من كسب القضايا بسلاح الترتيب المنطقى .

خامساً — نجاحه — بسلاح المنطق وحده — فى معارك ما كان يقوى على كسبها حزب كامل ، ونجاحه — بسلاح المنطق والعناصر الأربعة الفائتة — فى وضع كتابه التاريخى الأخير .

هذه هى العناصر الخمسة التى ارتفعت بالفقيد إلى مرتبة الحارس لدولة المنطق ، والتى أحلته فى الأذهان محلاً أتاح لاسمه أن يقترن — متى ذكر — بفكرة هذه الحراسة أو الزعامة فى الجدل الهادئ الذى يشبع العقل ويرغم العاطفة .

فلنتناول هذه العناصر بالبسط ، لنلمس أثرها فى تكوين الفقيد ، غير ضنينين ببعض الطرائف التى يجب القراء أن يلموا بها فى دراسات العظماء ، والتى أعتبرها أدلة حاسمة فى إثبات هذا الأثر .

العنصر الأول

رجعت فى بحثى موضوع الأعصاب وسلامتها ، والتفكير وهدوئه ، إلى نشأة الفقيد الأولى ، فقمت من أمره وزنه الوراثى ؛ ذلك أن الفقيد كان كثير الحلم ، هادئ الأعصاب سليم التفكير ، حريصاً على مظهر الوقار ، متمالياً من المرح الذى يخشى أن يرادف الصغار ، من بداية النشأة ، وفى خلال الفتوة ، وفى أيام التلمذة ؛ فلما تثبت

من هذه الصفات فى تلك السن ، خيل إلى أن للوراثة دوراً لا بد أن تكون قد لعبته ، فعدت بالبحث إلى ما قبل مولد الفقيد ، فلم يخب ظنى ، وتثبت من أن والده — محمد بك عبد القادر حمزة ، وكان باشكاتباً لمديرية البحيرة — كان له نفس الصفات ، وكان يضرب بحلمه المثل ؛ ولكنه كان يختلف عن الفقيد فى النقيض ، أى فى حالة الغضب إذا غضب ؛ فالفقيد كان إذا غضب غضبة كبرى ، لم يبد لها أثر على صفحة وجهه إلا إذا اعتبرت تلاشى ابتسامته أثراً . أما والده فكان إذا غضب ثار ثورة هائلة . ولما كانت مقتضيات الغضبات لم تجد مجالا للظهور إلا بعد اشتغال الفقيد بالنضال السياسى الذى سبقه التفكير فى الصالح العام فيبدو أن كثرة التجارب التى خصته بامتحانها الشق وحرج المهمة التى ألقتها الأقدار على عاتقه هى التى راضته على ألا يظهر ما يطوى عليه الضلوع من غضبه إلا فى الوقت الملائم ؛ لأن رجلاً مثله اختار السياسة مجالا له فى بلد محتل ، تتعارض فيه التيارات ، ولا يباح للمواطن فيه غير قدر محدود من الحرية ، لا بد لبلوغ الأهداف من براعة خاصة ، ولا سلاح لهذه البراعة غير إخفاء ما يجدر بالسياسى إخفاؤه . . ويبدو أيضاً أن الفقيد لا بد أن يكون قد جرب إظهار الغضب فى غير أوانه فلم يوفق ، وجرب إظهاره فى أوانه فوفق ؛ فكان الـ ١ + ١ = ٢ على التحقيق والـ ١ — ١ لا يساوى شيئاً على التحقيق ؛ فكان هذا التفكير فيه بداية لتشبثه بالقضايا المنطقية .

العنصر الثانى

وقد قلت إن التفكير عنده بدأ فى وقت مبكر ، وأحسب أن قراء « الأهرام » القراء لا بد أن يكونوا قد طالعوا الكلمة السريعة التى رثى بها الأستاذ أحمد حافظ عوض بك فقيدنا ، فعرفوا منها كيف ذهب معه — وكانا تلميذين — إلى مصطفى كامل ، ومن هذه الزيارة بدأ الفقيد يزاول النوع من الصالح العام .

فى هذه الناحية كان القراء يرقبون المزيد من الصحفى الكبير حافظ بك ، بل من مؤرخ « فتح مصر الحديث » ، ولا يزال القراء يأملون أن يحدثهم الأستاذ الجليل — أطال الله حياته — حديث عبد القادر حمزة الطالب الذى كان لا يطيب له غير أن يقاسم بعض زملائه كل ما يسخو به والده عليه من نفقات غير قليلة ومن غير النفقات ، وأن يحدثهم الأستاذ الجليل حديث عبد القادر حمزة الوطنى الصغير فى ذلك الحين ، وكيف كان يفكر فى هدوء ويحسن التفكير ، ثم ينفذ فى جرأة الرجل الجسور ، شأن العظيم أو الكبير ، وأن يحدثهم الأستاذ الجليل حديث عبد القادر حمزة فى يسره وفى عسره ، وفى مختلف أدوار حياته السياسية والصحفية ، ليرى الناس حقائق الرجل الذى فقدوه ، وكيف نشأ منطقياً سليم التفكير ، ورجلا يواجه الصعاب بسلامة الأعصاب .

العنصر الثالث

وفى حديث العنصر الثالث — حديث الأناقة والنظام — لا نزال أيضاً فى حاجة إلى المزيد من ذكريات حافظ عوض بك ؛ فالذى عرفته من عوض أن الفقيد كان فى صدر شبابه كما ظل طوال حياته أنيقاً تشاعت أناقته ، ونظامياً محباً للنظام والنظافة ، وشهد الخلق معتدل القامة جميل الطلعة وقور الحركة ، كان كذلك فتى وشاباً ، وكان كذلك طالباً ومحامياً ، وصحفياً وسياسياً . وكان معنياً بوضع كتبه فى أماكنها نظيفة سليمة ، وباختيار ملابسه فى توفيق بين الأناقة والاحتشام ، وبإعطاء الدرس وقته ، والتفكير فى صالح بلاده وقته ، بغير خلط بين هذا وهذا ؛ حتى ليذكر زملاؤه — وخاصة الطالبين اللذين لازماه زمالة وصداقة وإقامة ، إزبى أبو العز (باشا الآن) وأحمد حافظ عوض (بك الآن) — أن الفقيد كان فى الترتيب أول مدرسته فى جميع مراحل دراسته . لحدث مرة أن أعلنت النتيجة فى إحدى سنى دراسة الحقوق فكان الثانى ،

فبكى بحرقة ، وكان بكاؤه لأول مرة فيما يذكر إخوانه .

فلماذا بكى ؟

فى الجواب عن هـذا السؤال دليل حاسم على سلامة النطق عند الفقيد من أيام المدرسة . بكى لأنه بذل جهداً يؤهله لأن يكون — كما كان دائماً — أول الطلاب ، وأجاب إجابات تؤهله لأن يكون « الأول » أيضاً ، فإعلانه بأنه الثانى نتيجة ظالمة وغير مستقيمة مع مقدمات استذكاره ومقدمات جهوده .

هكذا قال الطالب عبد القادر حمزة ، فكان منطقياً . . حتى فى بكائه وفى ساعة غضبه ، ولعله أن يكون قد عاد ففكر فى أن البكاء لا يجعل من « الثانى » « أول » ، ولم يصلح وسيلة لرفع ظلم وقع . . فلم يعد إلى دفع المظالم أو المتاعب بالبكاء أبداً .

وقد أفاده تشبثه بالنظام وبالأناقة فى كل أطوار حياته . وسترى فى فصل آخر من أدبه وسياسته ونتاجه ، كيف أفاد من هذا النظام فى البحث من المراجع ، والاحتفاظ بالقديم منها نظيفاً يرجع إليه فى بهجة ويسر ، وأخيراً فى إدراك النتائج بريئة من الأخطاء .

العنصر الرابع

أما فترة اشتغاله بالمحاماة فقد هيأتها له الأقدار تمهيداً للرسالة وتمكيناً لمن أدائها . فالمحاماة تقوم على استخلاص النتائج الواضحة من المقدمات الغامضة ، وبين غموض هذه ووضوح تلك ميدان فسيح يصول فيه المحامى النابه ويجول ، لإثبات البراعة ولإظهار المواهب فى كل ما يكتب أو يقول ، وقد صال عبد القادر حمزة وجال ، وهاك بعض البيان :

كان للفقيد ثلاثة مكاتب : أولها فى الأسكندرية بشارع محطة مصر ، وثانيها فى دمنهور بشارع المديرية ، وثالثها فى إيتاى البارود بشارع المحطة ؛ ولم يكد يمضى عليه فى المحاماة زمن قصير حتى عرف القضاء فى عبد القادر الشاب محامياً متزناً هادئ الصوت قوى الحجة ، لا يعرف فى دفاعه لغواً ، ولا فى حركاته تهريجاً ؛ وعرفوا أن الاصغاء إلى المقدمات التى يبسطها ، والتحليل الذى يأخذ به ، والنتائج التى يخرج بها ، تدع القضية المعقدة وقد انحلت عقدها ، والمشكلة المظلمة وقد غمرها نور . . ونور كثير !

ومن هنا جاءت أرباحه القضائية فأرباحه المالية ، حتى قال أقرباؤه : إن دخله كان يحسب بالمئات ولا يعرف العشرات من الجنيهات فى كل شهر .

بيد أن الفقيد أحاز فى المحاماة ميزة كبرى لها أثرها فى بحثنا وراء قوة منطقه . . تلك هى ما يسمونه فى عالم القضايا بـ « المذكرات » . فكان القضاء إذا أمر بتقديم « مذكرات » فى قضية من القضايا التى وكل فيها الفقيد ، أجمع المحامون وكل ذى صلة بأصحاب القضية أنها « مكسوبة » . . وكان الحكم يحقق دائماً ما توقعوه .

وهذه الملاحظة هى دليلنا الحاسم الثانى ، فالفقيد إذا ما خلا إلى نفسه وكتب . . فلا لغو ولا زهو . . ولا تهريج ولا تجهيج . . وإنما هو النطق يأخذ بعضه برقاب بعض ، فى تماسك وسلاسة وإشراق . . وينتهى إلى الغاية فى سهولة وبساطة ووضوح . . ولعل هذا الحادث فى تاريخه يلقى عليك كل الضوء ، وأنت تدرس منطقه بعد أن أصبح كاتباً ، وواجه النضال السياسى والخصومة الحزبية .

العنصر الخامس

أما العنصر الخامس وهو نجاحه — بسلاح النطق وحده — فى المعارك التى خاضها ، ونجاحه — بسلاح النطق ، والعناصر الأربعة التى أشرنا إليها — فى وضع كتابه التاريخى الأخير « على هامش تاريخ مصر القديم » ، فأدعه لحلقات بحوثى الآتية :

فإلى لقاء قريب فى ساحة الخلود الفكرى حيث أواصل الحديث عن الفقيد الحبيب .

محمد السوادى

من مآسي الحياة :

اليتيمة

رآها تسير بقوامها الممشوق ووجهها الصبوح ، فجذبه حسنها ، وتعقبها من مسلك إلى مسلك ، حتى رآها وقد عرجت على متجر فابتاعت ما أرادت ، وقفلت راجعة لا تلوى على شيء ، حتى دخلت باب دار يبدو على ساكنيها اليسار .

فدفعته إحساسات خفية إلى استطلاع أمرها ، فتقدم إلى البواب محيياً ، ونفحه ببعض المال لقاء ما وقف عليه من معلومات عن الفتاة التي عرف ضمن ما عرف عنها أنها ابنة أحد السكان ، وأنها فتاة نقية السمعة ، جمة الأدب ، موفورة الاحترام ، فهام بحسنها ، وأكثر من المرور أمام تلك الدار ، علّه يظفر برؤيتها مطلة من نافذة ، أو خارجة من دارها ، ولكنه لم يفز بطائل .

وطالت محاولاته حتى يئس من رؤيتها ، فانقلب حبه إلى رغبة أكيدة في الزواج منها ، وهو الذي كان ألد أعداء الزواج الراغبين عنه .

وبعث من أقاربه رسلا مهدوا طريق التعارف ، ثم اتصل برب العائلة ووفق إلى أن يكون خاطباً ، وقدم في جلسة خاصة عربون الخطبة ، وتمكن في هذه الجلسة من رؤية فتاة في ثياب منزلية أخرى تملأ العين بما أفاض الله عليها من جمال وقسامة واحتشام .

شغل صاحبنا بفتاته ، وتشعبت في نفسه مسالك التفكير فيها ، فأراد أن يكون على صلة بها ، متخذاً من الخطبة مؤيداً لرغبته ووسيلة لطلبته . فذهب في أمسية اليوم التالي إلى دار الفتاة وطرق باب مسكنها ؛ فاستقبله خادم السكن ليرى ما يريد . لكنه أراد الاندفاع داخله قبل أن يجيب على تساؤل الخادم ، فمنعه هذا ووثبت وراء الباب ، ثم حصلت مناقشة مسموعة ، انزعج لها أهل الفتاة ، فخرج رب الدار ليرى ما هنالك ، وكانت نظرة كلها دهشة واستغراب !

استجمع رب الدار شعوره واقتاد الشاب إلى حيث يجلس الزائرون ، فوجده زائغ البصر إلى ناحية داخل السكن كأنه يترقب دخول أحد إليه على غير طائل . ولما استدرجه صاحب السكن عرف أنه حضر ليستصحب خطيبته إلى إحدى دور السينما ليقطع بعض الليل في صحبتها !

وازدادت دهشة رب الدار ، وكادت تعلو وجهه علائم الانزعاج ؛ لكنه كتم ما بنفسه مرة أخرى ، وامتلك زمام شعوره ، ورآها فرصة سانحة لإيقاف الشاب على أمور لم يكن يعرفها ، أو هو يعرفها ولكنه يستهين بها قائلاً :

— إننا كمصريين مسلمين نشأنا على أساليب تغاير ما نشأ عليه الكثيرون . ولقد قضيت من العمر ما ترى وسمعت من كثير ممن جالستهم ، كما عرفت من اطلاعي ، أن كل اختلاط قبل عقد الزواج كثيراً ما يؤدى إلى خسائر أدبية ومادية ، وأظنك يا بني توافقني على ما ذكرت .

ثم هناك شيء آخر أحب أن أذكره لك صراحة . ذلك أن الخطبة و « الشبكة » لا تبيح رؤية الآنسات أو السيدات حتى يتم الارتباط . وإذا كان الناس قد اتخذوها وسيلة للاختلاط والتزاور ، فان تشأمي وإعافي وحرصي ، كل أولئك يدفعني إلى عدم مجاراتهم ، لأني أشد تمسكاً بالتقاليد ما دام فيها حفظ الكرامة والشرف .

فإلى أن يتم العقد ، أرجو أن تكون زياراتك باتفاق سابق من جهة ، ومن جهة أخرى تكون غير طامع في رؤية أحد غيري ، ثم لا أكتمك أني أنام مبكراً لأصحو مبكراً .

فما رأيك في قولي ؟ .

أصغى الشاب باهتمام إلى قول رب البيت وأجاب أخيراً عن تساؤله بالموافقة على ما أدلى به ، ثم استأذن وانصرف .

مضت شهور ثلاثة ، تمت أثناءها مقدمات الزواج ، وفي الليلة التي حددت للعقد أقام آل العروس وليمة دعوا إليها محبيهم وأقاربهم ، كما دعا إليها الزوج أصدقاءه وزملاءه . واحتوى هذا الجمع سرادق فسيح ، علقت في أجوائه الثريات ، وبسطت أرضه بالبسط ، وصففت فيه المقاعد الذهبية الوثيرة ، وصدحت الموسيقى بالألحان .

وكان آل العروسين يغدون ويروحون بين جموع الحاضرين محيين مرحبين ، تبين عليهم دلائل الاغتباط والسرور والأمل الحلو بالمستقبل المنشود .

وفيما كان الشاب يجالس أحد الحاضرين أشار إليه بعضهم ، ووضع في يده ورقة . فلما قرأها تجهم وجهه ، وارتعشت يداه ، حتى خيل لمن كانوا ينظرون إليه أنه قد فوجىء بمصاب ، أو نزلت به كارثة .

وقد دفع هذا المشهد الشاذ إلى التهامس والتخمين ، حتى نبه بعضهم أخاه إلى هذه الحالة ، فذهب إليه متسائلاً : ما أصابه ؟ ولكن الشاب لم يجب ، بل ألقى إلى أخيه تلك الورقة ، فكان شأنه شأن أخيه ، فزاد تهامس الناس ، وكثرت ظنونهم ، واندفع إلى الأخوين بعض الأقربين لهم يتساءلون عن هذا النبأ العظيم !

تنوقل هذا الخبر ، وانتحى الشاب ناحية مع أقربائه وأصدقائه ، واتخذوا في السرادق مكاناً قصياً يتحدثون ويتناقشون . فتساءل رب الفتاة : ما الخبر ؟ . فأدفع إليه الشاب في شبه ثورة ودفع إليه ذلك الخطاب ، وعيناه يكاد الدم يتفجر منهما قائلاً : اقرأ . فأخرج الرجل منظاره من جيبه وألقى نظرة ناجحة على الورقة المذكورة ، ووقف على سر ذلك الانزعاج ، ولكنه بدلاً من أن يشاركهم في انزعاجهم ألقى على مجموعهم نظرة ساخرة وقال :

— أهذا كل ما في الأمر ؟

فأجاب الشاب :

— وأي شيء يفوق هذا ؟ .

فقال الرجل بهدوء :

— ليس هذا شيئاً يا بني ، ومع ذلك فاتبعني أنت ومن يهمهم أمرك إلى حجرة أخرى

فلما استقر بهم المكان قال رب البيت للشاب :

— أتعلق أهمية كبيرة على نتيجة هذا الخطاب إن كانت حقاً ؟

أجاب الشاب : كل الأهمية ، بل كل مركز الفتاة في عيني .

قال رب الدار : إذاً فاسمعوا .

كنت أظن أن هذا الفتى يريد الفتاة لما هي عليه لا لما عليه أبوها أو أمها . وأنه كان يريد زوجة تقوم على إسعاد نفسه ، ويرى فيها مؤنساً ومشاركاً ، وأنه يكون رجلاً يحمي ذمارها ويعمل على توفير سعادتها ، وأن يكون غير طامع في الزوجة أو أقاربها بما قد يكون لهم من جاه أو مال أو ما قد يكون في يدها هي منه . تم ذلك ما كنت أفهمه حتى هذا المساء .

غير أن هذا الحادث الذي تسامع به الناس وأفرطوا في تفصيله ، وغلوا في نقله ، وضخموا في شأنه ، غير من تقديري ، وخيب ظني .

وقبل أن أحدثكم كلكم أحب أن أخبركم بشيء له أهميته . بل هو الحقيقة في الموضوع .

ذلك أن فتاتنا كان أبوها عليه رحمة الله هو فلان . . . ووالدها هو فلان . . . وهم على ما يعرف منهم من أعيان بلدهم وأشراف قومهم ، وبعد أن مات والدها اقترنت

بوالدتها الفاضلة ، وكانت فتاتنا هذه طفلة صغيرة ، فنشأت في بيتي لا تعرف لها أباً غيري ، وكنت قبل ذلك لم أعقب ولا أزال ، فحمدت الله على أن جعل لنا هذه الفتاة مكان ما قد يكون لنا من أولاد . فنشأتها تنشئة أحمد الله عليها ، وكافأتني برها وعطفها ، وهي عندي كل ما أعتز به بعد والدتها .

ولقد رأيت حينما أشرفت على الزواج أن أرضي ضميري ، فكتبت باسمها ما أملك وسجلت ذلك رسمياً مكافأة لها على برها بي وحبها لي ، وكان أسعد يوم عندي هو أول هذا الشهر ، لأني كنت أتخيلها ربة دار وزوجة رجل وأم أولاد ، فكانت تسعدني هذه الخيالات .

أما الآن ، والآن فقط ، فقد تهدم بعض أملي ، وإن كنت سررت بما تكشف لي من هذا الشاب .

وفجأة تقلص وجه الرجل ، وانقبضت أساريره ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وانتصب في جلسته وقال بصوت حاد :

— ما الذي ينقص من قدر الفتاة إذا كانت حسناء عفيفة كاملة مؤدبة ، تعرف شئون بيتها وتحافظ على كرامتها وكرامة أهلها ؟

وهل قضت مدنية هذا الزمن على اليتيمات أن يحرمن من الزواج ؟

وهل إذا عدمت الفتاة الأب أو الجاه قضى عليها مهما كانت مؤدبة عفيفة ؟

إن هذا منطق غريب ، وفهم معكوس للواقع ! والحقيقة هي أن هذا الشاب غره مظهري وجمع من أشياء أطمعته في ، وكان يعرف أني والدها الوحيد كما هي وارثتي الوحيدة . فلما تسرب إليه خبر وفاة والدها من حاقد أو عدو ، هاله ذهاب ما أمل فيه منه ، واعتقد خطأ أنه أصيب بنكبة . هذه هي الحقيقة ، وهـذا هو موضوع السر فيما ذهب إليه .

والآن ها هو كل ما دفعته ، ولم يبق لك عندي ما تطالب به ، ولم يعد بيني وبينك علاقة .

عند ذلك حاول بعض أقارب الشاب تهدئة الرجل أو تحويله عن عزمه ، ولكنه صمم في حزم وأبى في شدة ، فخرجوا جميعاً يتعثرون في سيرهم مطأطئي الرءوس .

وظلت الموسيقى تصدح دون أن يحس إنسان أن هناك صرحاً قد تهدم ، وزوجية قد انهارت . .

البلاد العربية

ماضيها القريب وأمانيها

ملخص عن مقال بقلم الأستاذ جب

أستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد

تمتد البلاد العربية التي يتكلم عليها المؤلف في هذا المقال من الطرف الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب إلى ساحل شمال أفريقية الغربية المجاور للمحيط الأطلنطي، ويبلغ امتدادها بين هذين الطرفين نحو خمسة آلاف ميل، وتشمل في آسيه: جزيرة العرب، والعراق، والشام، وفلسطين، وشرق الأردن؛ وفي أفريقية: مصر، وطرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش. ومساحتها كلها نحو ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ ميل مربع، أي أكبر من مساحة الولايات المتحدة، ويزيد سكانها على ٥٠ مليوناً.

وفي هذا المقال يصف الكاتب أثر الصلة الحديثة التي نشأت بين الغرب وهذه البلاد العربية، ويقظة الشعور العربي والقومية العربية. والكاتب من كبار المستشرقين، وصاحب مؤلفات عدة في تاريخ العرب وثقافتهم وآدابهم.

نفسية العرب:

يجمع الشعوب العربية كلها ذكريات تاريخية مجيدة، أهمها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم سكان جزيرة العرب بدوها وحضرها إلى دين جديد، هو دين التوحيد. وقد أنشأ النبي في عام ٦٢٢ دولة صغيرة لم يكد يمضي على إنشائها ثمانون عاماً حتى اكتسحت جيوشها كل البلاد الممتدة من سفوح جبال الأفغان إلى ساحل المحيط الأطلنطي. وكان العرب أينما ذهبوا صهروا الشعوب المغلوبة ونشروا بينها لغتهم ودينهم إلا قليلا منها، ومن هذا المزيج نشأت أمة عربية كبرى جديدة؛ فإذا سأل سائل: إذاً من هم العرب؟ لم يكن لسؤاله إلا جواب واحد صحيح أو قريب من الصحة من الوجهة التاريخية. وذلك الجواب هو: «إن العرب هم كل أولئك الذين يدور تاريخهم حول رسالة النبي وذكريات الدولة العربية، والذين يعتزون فوق ذلك باللسان العربي وتراثه الثقافي المشترك بينهم جميعاً». أولئك هم العرب وإن خالف ذلك رأي علماء الأجناس البشرية.

وقد ظل العرب بعد زوال مجدهم القديم إلى أوائل القرن التاسع عشر يعيشون على هذا التراث الثقافي الإسلامي، لا يعرفون إلا قليلا عن تطور أوربة السياسي والاقتصادي، ويظنون «الفرنجة» أقواماً من الكفرة نزل السلطان لهم عن مزايا تجارية في بعض مدائنهم. ثم تفتحت عيونهم فإذا بهم يرون أوربة تتدخل في أمورهم تدخلا أذهلهم وألحق بالهم، ورأوا هؤلاء الفرنجة يحيطون بالبلاد العربية من الشرق ومن الغرب، ويملون إرادتهم على سلاطينهم وأمرائهم وزعمائهم، ووجدوا جيوش الفرنجة تتدخل في حروبهم، وقناصلهم وتجارهم ومستعمريهم يتدخلون في شئونهم العامة وحياتهم الاقتصادية.

ولم يشهد القرن التاسع عشر من وجهة نظر العرب إلا تدخلا متزايداً من جانب الأوربيين في شئون العرب، وتقلقلا متزايداً في نظامهم القديم وجهوداً يبذلها المثقفون منهم في الكشف عن سر نجاح أوربة وأسباب ضعف العرب؛ وكان أشد ما آلمهم في أثناء ذلك أن يروا أولئك الأوربيين يحتقرونهم ويحتقرون كل ما يتصل بهم، وهم أولئك الذين يرون في الإسلام خير ما أوحى إلى العالم وأصدقه، ويرون أنفسهم خير أمة أخرجت للناس.

وكانت هذه النظرة المؤلمة التي تجرح عواطفهم وتؤذي كرامتهم هي التي أثارت النزاع فيما بين العرب والأوربيين أكثر مما أثارته الانقلابات السياسية والاقتصادية في بلادهم.

ولاح أول الأمر أن سيل الغرب الجارف سوف يكتسح كل ما أمامه . وكانت كثرة العرب لاتشعر إلا قليلا بالانقلابات التي كانت تحدث من حولها ، ولكن أجيالا جديدة تخرجت في المدارس التي تديرها الهيئات الغربية أو التي نظمت على الغرار الأوربي ، وخرجت إلى حياة عامة نظمها ومثلها العليا مستعارة كلها أو جلها من الغرب . وأكثر من هـذا وذلك أن صحافة جديدة قد نشأت في البلاد العربية . وبثت هذه الأفكار الجديدة في طول البلاد وعرضها ؛ فنشأت من ذلك ومن الاتصال المستمر بالغرب عقلية جديدة لا تأتلف مع النظام الاجتماعي والديني القديم . ولم تخل سير هذه النظم الجديدة من عيوب . ومع أن هذه النظم كانت بعيدة كل البعد عن الكمال المرجو ، وخاصة في البلاد التي كانت تحكمها استانبول ، فإن الرجوع إلى النظم القديمة في الأمور السياسية على الأقل أصبح غير مستطاع .

لكن هذا الغزو الأوربي لبلاد الإسلام كان في الشئون الروحية العميقة مثاراً لنزاع من نوع آخر أخذ يتزايد جيلا بعد جيل . ذلك أن الغرب قد فتح ميادين جديدة أمام الشبان وأولى النشاط والطموح ، وكل من يعتد بنفسه أو يعمل للاصلاح والتجديد . غير أن نزق الشبان وقلة خبرتهم ، وما كان يظهره بعضهم من عداء أو احتقار للنظم القديمة ، قد أغضبت طائفة أخرى كبيرة سرى في نفوسها خوف حقيق مما عسى أن تنتجه النظم والأفكار الغربية من آثار اجتماعية وعقلية لا تلائم البلاد العربية . وقد نجح هذا الخوف حتى الآن في منع تيار الغرب الجارف من أن يكتسح كل النظم العربية القديمة اكتساحا تاما . غير أن النزاع لا يزال قائما بين النزعتين العقليتين : النزعة الغربية الحديثة ، والنزعة الاسلامية العربية القديمة . وهذا النزاع يؤثر تأثيراً قويا في حياة الشعوب العربية . وليس ثمة ما يدل على أنه قد خبت ناره . ولكن مهما يكن من أمر هذا النزاع فإن شيئا واحداً لاتنكره كلتا الطائفتين ، ذلك أن الاتصال بالغرب أيقظ العرب من سباتهم الذي لازمهم طوال العصور الوسطى ، فعاد إليهم شعورهم بقوميتهم واعتدادهم بأنفسهم ، ونما هذا الشعور نمواً بطيئا أول الأمر ثم أخذ يقوى ويتسع مداه ، ويوحى إليهم بما يبذلونه من جهود ، لكيلا يستسلموا إلى قوى الغرب الروحية والمادية .

البدو والحضر :

كان العرب ولا يزالون منقسمين إلى قسمين : بدو وحضر ، وإلى طائفة ثالثة تشتغل بالزراعة بين البداوة والاستقرار . وكان أهل المدن في كل الأوقات هم الذين يصرفون أقدار العرب السياسية ويحملون لواء الثقافة العربية .

لكن البدو كانوا على الدوام معيناً لاينضب ، يستمد منه ذوو المهارة والفطنة من الزعماء قوى جديدة يستعينون بها كلما ضعفت قوى أهل الحواضر وخارت عزائمهم . لكنهم إذا تركوا وشأنهم كانوا عنصراً من عناصر الدمار ، يهددون أهل الحواضر في أمنهم وثقافتهم ؛ فكانت الجماعات المستقرة والحالة هذه أشبه بواحة من المدنية لا تنفك تقاوم ضغط البدو عليها وتسربهم في داخلها ، فتفلح في ردهم أحياناً ، ويطغون عليها أحيانا أخرى .

وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن البدو ظلوا إلى أوائل القرن التاسع عشر هم الغالبين ، يغيرون على الحواضر ، ويفلحون أحياناً في تدمير ما فيها من آثار الحضارة خارج المدن المسوّرة ، فيضعفون قواها الاقتصادية وينفرون حياتها الزراعية .

ثم تبدلت الحال في القرن التاسع عشر حين أنشأ محمد علي في مصر حكومة مركزية قوية ، قطعت أوصال جماعات البدو شبه المستقلة في حوض النيل ، وقضت على دولة

الوهابيين ؛ واضطلعت الدولة العثمانية بهذا العبء فيما بعد حين نظمت جيوشها على النمط الأوربي . وكان في الحقيقة عبئاً ثقيلا يستطيع الانسان أن يدرك ثقله إذا عرف مقدار الجهود والضحايا التي بذلتها فرنسا — وهي أكثر من تركيا قوة وأحسن نظاماً — في تهدئة إقليم الجزائر والاستيطان فيه بعد أن احتلته في عام ١٨٣٠ .

على أن خطر البداوة على الحضر لم تؤمن عقبته إلا بعد الحرب الكبرى الثانية .

وقبل أن ننتقل إلى الكلام على كل صقع من الأصقاع العربية بمفرده ، نقول إنها كلها تشترك في بعض الأمور العامة : أولها ذلك الأمر الغريب الذي يبدو في حقيقته من المتناقضات ، وهو أنها كلها وارثة لمدنية راقية غنية بتقاليدها الروحية وثقافتها العقلية ، ولكنها كلها لم يمض على خروجها مما كانت فيه من ضعف سياسي واقتصادي بل وخلقي إلا وقت قصير ، وكلها تواجه مشكلة من أصعب المشكلات وهي : كيف ننشيء من جديد مجتمعاً ثابتاً قوى الدعائم ؟ .

وثمة ظاهرة أخرى تشترك فيها البلاد العربية كلها ، وقد كانت لها آثار اجتماعية وسياسية هامة ، ومنشؤها سياسة التسامح التي جرى عليها المسلمون في أثناء فتوحهم الأولى ، وقد أدى ذلك التسامح إلى بقاء أقليات جنسية ودينية في البلاد العربية . وزاد الأمور تعقيداً ما نشأ في البلاد العربية نفسها على مر الزمن من انقسامات تتصل أسبابها اتصالاً وثيقاً بالأسس التاريخية التي قامت عليها الحركة العربية ، وهي من أجل هذا عقبة في سبيل الجهود التي تبذل في سبيل لم شعث العرب وإزالة الشحناء من بينهم . ولا يتسع المقام لتفصيل أسباب هذه الانقسامات ؛ وحسبنا أن نذكرها ليعرف القارىء أهميتها . ففي العراق شيعة وسنيون وأكراد وعرب ، وفي الشام دروز وإسماعيلية ؛ ولكل طائفة من هؤلاء خصائصها وتقاليدها . وفي جزيرة العرب نفسها بقية من الخوارج ، وفيها الوهابيون ، وفي بعض البلاد الاسلامية أقليات أخرى مسيحية ويهودية . ولهذه الفروق الدينية والمذهبية والجنسية أثرها في المشكلات السياسية والاجتماعية التي تواجه البلاد العربية في الوقت الحاضر . نعم إن في هذه البلاد شعوراً حقيقياً موحداً نحو المسائل السياسية الخارجية ، ولكن هذا الشعور الموحد لا يكون له إلا أثر ثانوي غير قوي في المسائل الداخلية . وقد تكون الاختلافات الدينية في هذه الحال أقل شأناً من التقاليد الموروثة ، والعادات التي تمتاز بها كل فئة من هذه الفئات المختلفة ؛ وحسبنا هذا من البلاد العربية بوجه عام . ولننقل بعد ذلك كلمة عن كل بلد من هذه البلاد على حدة :

مصر:

لمصر في أسرة البلاد العربية مكانة الأخ الأكبر . وأهلها لا يقلون كثيراً من حيث عددهم عن سكان البلاد الأخرى مجتمعين . وقد فاقت سائر أخواتها في رقيها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، مع أنها لم تكن في أول القرن التاسع عشر إلا بلداً مضطرباً فقيراً لا يزيد سكانه على ثلاثة ملايين . وأهم العوامل التي ساعدت على هذا الرقي سبقها إلى الاستقلال في شئونها الداخلية من الدولة العثمانية ، واستعانتها برءوس الأموال الأوربية والنشاط الأوربي في استثمار مواردها . ولم تعن مصر — إلا أخيراً — باستثمار مواردها المعدنية والزراعية في الصناعة . وسيكون هذا المورد الجديد من موارد الثروة أكبر ما تعتمد عليه في المستقبل لحل مشكلة سكانها المتزايدين . وهنا لابد أن نشير إلى مشكلة أخرى سيكون لها شأن أيما شأن في المستقبل ؛ تلك هي مشكلة رءوس الأموال الأجنبية . لقد كانت

هذه الأموال عماد رقى مصر الاقتصادى فى العهد الأخير، ولكنها قد اقترن بها فى عقول المصريين وغيرهم من أهل البلاد العربية معنى مشئوم، ولذلك صاروا ينتظرون من الحكومة أن تدبر هى رءوس الأموال اللازمة للمضى فى هذا الرقى الصناعى. وقد تطلع الحكومة فى ذلك إلى حد ما، وقد تجد الصناعة بعض حاجتها فى رءوس الأموال المصرية كما وجدته فى العهد الأخير، لكن رقى البلاد فى المستقبل لا بد أن يتأثر بوجود التعاون الدولى أو عدم وجوده فى المسائل الاقتصادية الكبرى.

ولم يكن رقى مصر العلمى بأقل من رقيها المادى؛ وقد سار هذا الرقى أيضاً على نفس الخطة السالفة الذكر؛ فلم تقطع مصر صلتها بماضيها الثقافى، بل بنت على أساسه وعدلته بما أدخلت عليه من الآراء والنظم الأوربية. وسرعان ما أصبحت مصر زعيمة العالم العربى غير منازعة فيه، سواء كان ذلك فى الثقافة الاسلامية القديمة، أو فى الثقافة الأدبية والعلمية الحديثة. وقد احتفظت بهذه الزعامة وزاد استمساكها بها بعد عام ١٩١٨، وكان من أكبر دعائمها صحافتها العربية الواسعة الانتشار فى جميع البلاد العربية والاسلامية.

وقد كان من آثار هذا الرقى المستمر واطراده المتزايد على نفسها أن قويت فيها الروح القومية بين المصريين، وتوحدت صفوفهم أمام كل ضغط خارجى، وإن اختلفوا فيما بينهم فى الشئون الداخلية.

وقد بدأت حركتهم الوطنية منذ عام ١٨٧٨، وما زالت تقوى حتى تغلبت على المقاومة البريطانية فى عام ١٩٢٢، وانتهى الأمر بتسوية النزاع القائم بين الدولتين بمعاهدة التحالف التى عقدت فى عام ١٩٣٦.

ويجمل القول أن رقى مصر قد قام على عوامل ثلاثة هى: تجديد قواها الاقتصادية تجديداً مستمراً بمساعدة رءوس الأموال الأجنبية، وتساعها الكبير فى شئون التربية والثقافة الذهنية تساعاً كان من آثاره أن نشأت طبقة وسطى مستنيرة متعلمة. والعامل الثالث هو نمو الروح الوطنية فى جميع أهلها على اختلاف طبقاتها. ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن مصر كانت تمتاز من هذه الناحية على غيرها من البلاد العربية؛ فقد بدأت تقدمها وهى وحدة متجانسة من النواحى الطبيعية والثقافية والاقتصادية. نعم إن فيها أقلية صغيرة من الأقباط المسيحيين، ولكن لا شك فى أن الأقباط والمسلمين متحدون فى المصالح والأغراض، وأن الاحتكاك بينهم ضئيل لا يستحق الذكر، وأن وحدة الأمة فى الحقيقة لا تقبل الانفصام.

على أن هذه الميزات التى تتمتع بها مصر، وهى وحدتها وكفايتها الذاتية، ونهضتها الأدبية والمادية، كل هذه قد أوجدت فيها نزعة تختلف كثيراً عن نزعة غيرها من البلاد العربية.

ذلك أن أكبر ما يهتم به المصريون هو شئون مصر نفسها؛ فهم ينظرون إليها على أنها وحدة مستقلة منفصلة من سائر البلاد العربية، وإن كانوا لا ينكرون ما بينها وبين هذه البلاد من صلات القرابة التى تبعث فيهم الاهتمام بما يصيب هذه البلاد من خير أو شر؛ وفى المصريين طائفة كبيرة تهتم بإحياء مصر وإعادة مجدها أكثر مما تهتم بذكريات الدولة العربية، وترى مجد رمسيس لا يقل شأناً عن مجد العرب القديم؛ فهما فى نظرهم عنصران متساويان على الأقل فى تراث مصر القديم.

وقد تُعدل هذه النزعة تعديلاً كبيراً فى أثناء الصراع العالمى القائم فى هذا الوقت. ومهما تكن نتيجة هذا التعديل فإن العلاقة التى ستنشأ بين القومية المصرية والقومية العربية ستكون من العوامل الحاسمة فى مستقبل الشرق الأدنى والشرق الأوسط.

(له بقية) محمد بدران

حبي . . .

طيفَ أحلامي ودنيا ذكرياتي
وشقائي كلما امتدت حياتي
بلغَ اليأسُ من النفس مُنى
أحرقَتْ فيضَ مَعين العَبرَات
كنتُ أستنشق بها في لوعتي
ثم جفّتْ فتلظّتْ حسراتي
صرتِ معنى في فؤادي خافقًا
حائراً يقظان بين الجنبات
يهدأ الكونُ ولا يَدرى له
طَرْفُ عين أىَّ شط الثّبات
وتحيرْتُ : أتبقِين من دمى
أم جرى معناكِ فيه نبضاتٍ ؟
ها هو الليل أناجي نجمَه
واسمي النجوى خلال الومضات
وبودى لا أرى في فجره
لمحةَ الصبح وضوء القسمات
قد نسيت الحبَّ إلا لمحةً
من سنا معناك حلوِ اللمحات
هي صبحي وهي أنوار الضحا
وهي شمسي في الدجا والظلمات
وإذا اعترتْ أزاهير الرُّبا
خِلتُ معناكِ حَبَاها نسمات
وبأذُنىَّ نداء هاتف
دائم الصرخة عالى النبرات
يملأ الدنيا هتافاً صارخا
وأنا السامع صوت الصرخات
مثلَ صوت الرعد في جلجلة
لم تكن من نسج أنماط اللغات
وأنا المصغى له أفهمه
هو وحي في رواحي وغداتي
وهو شيطاني الذي ضلّلني
وهو في التوبة محراب صلاتي

* * *

أىُّ أيامك يُمرُّ ذكره ؟
كان عمرُ الحب حلوَ اللحظات
أنا مشتاق إلى ساعاته
وإلى آهاته والزفرات
بل إلى هجرك ما أعذبه !
بل إلى الغدر وأقوال الوشاة
قَدَّسَ حبي صار عندى مثلا
قَدَّسَتْ نفسي جميع الكائنات

عبد العزيز سيد الأهل

النـــدى

أدموع العاشق في الأسحار
يشتكين «الأزهار» للأزهار !
أم دموع الآفاق يضرعن للفجـ
ـر لئلا يخفى ابتسام الدراري ؟
يا ندى أنت والزهور حباب
وكئوس ، جل البديع الباري

يا ندى إن ظلمة الليل حولى
كذنوبى ، وأنت كاستغفارى

يا ندى ما الذى يروعك حتى
تتلاشى أمام وجـــــه النهار ؟

ما رأينا « الجمان » قبلك يوماً
يتلاشى على وميض « النضار »

يا ندى جف مدمعى فى جفونى
فتريث أنظمك فى أشــــعارى

وتماسك أنثرك فوق روابى !!
حب حبــــا أغرى به أطيارى

كل در فى النظم يبــــدو جميلا
وجمال النـــدى لدى الانتثار

شاعر البرارى

إلى شاعرة الفرس

إلى حامة الفن نابغة الشرق وشاعرة الفرس
المأسوف على شبابها پروين اعتصامى

رفرفى فى الخـــــلود بين طيوره
واشربى من ندى الجمـــال ونوره

وأعيـــدى على الكواكب شعراً
طرب الكون من رقيق شعوره

واقرئى دفتر العواطف للأملا   ك فالسحر كامن فى سطوره
ريشـــة الفن دبجته بلون   فتن الناظرين فى تحبيره
وتجلت آياته بينـــات   آمن العارفون فى دستوره
آية المرأة الأديبة فى الشـ   ـرق ورمز الشرق فى تفكيره
أظهرت فتنة الأنوثة فى سحـ   ـر بحار الرجال فى تفسيره
حرت فى فكرك الخصيب وما   جاء به للعقول فى تصـــويره
أمعانى الحياة وهى محيط   غرق الكل غائصاً فى نميره
كيف صورت كنهها بقصيد   ساحر فى بيانه وبحوره ؟
وقفت دون ذاك فلسفة اليو   نان حيرى تصغى إلى تقريره

* * *

زهرة الفرس ليت شـــعرى أيبكى   روض إيران فقد أذكى زهوره ؟ !
قد تمشى الذبول فيك وإيا   طرى فى حســنه وعبيره

* * *

ربة الفن عز أن يفقد الفن   لباباً قد لاح بين قشوره
جذبتنا أنغام عودك حتى   ما شكرنا على سوى تدميره
وبقينا فى عالم الأمل الساحر   نلهو فى روضـــه وغديره
وصحونا على نعيك يستمطر   أجفاننا بشـــؤم نذيره
فوداعاً قيثارة الشعر فالأنـ   ـغام تبقى فى الدهر طى عصوره

(النجف الأشرف)   محمد جمال الهاشمى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠	فى مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ صاغ

أنباء وآراء

كتب جديدة

١ – قانون الحرب

للدكتور محمود سامي جنينة
أستاذ القانون الدولي العام بكلية الحقوق

مجموعة البحوث التي ألقاها الأستاذ على طلبة قسم الدكتوراه بكلية الحقوق، وتتضمن البحث في مشروعية الحرب، والقيود الواردة عليها، والقواعد المنظمة لها، وأثرها في حقوق الدول المحاربة قبل الأشخاص وقبل الأملاك، وباقي الآثار المترتبة عليها.

والكتاب بحث واف في هذه الموضوعات الحية التي تشغل الأذهان الآن، قد كتب بعبارة طلية واضحة؛ وقد استشهد فيه مؤلفه بأحداث التاريخ وقرارات المؤتمرات وما وضع بين الدول من معاهدات.

ويقع في ٣٤٠ ص وطبع بمطبعة نوري.

٢ – اشبنجلر

للأستاذ عبد الرحمن بدوي
المدرس بكلية الآداب

عنى الأستاذ عبد الرحمن بدوي، بوضع سلسلة في خلاصة الفكر الأوربي، أخرج منها جملة أجزاء، وهذا الجزء في فلسفة اشبنجلر الفيلسوف الألماني، الذي عاش من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٩٣٦ والذي هاجم المدنية الغربية، وأبان عيوبها، وتوقع انحلالها. وقد لخص الأستاذ بدوي في هذا الجزء آراء الفيلسوف في ثورة كوبرنيكس، والوضع الروحي – وروح الحضارة، وقوى التاريخ – وقد مزج فيه آراءه بآراء اشبنجلر. وكنا نفضل أن يبدأ بتلخيص آراء اشبنجلر ثم يعلق عليها بما شاء، بل كنا نفضل أن ينقل آراءه كاملة فيما يعرض له، ثم ينقده، فذلك أدل على قيمة المؤلف؛ كما كنا نرجو أن يقدم الكتاب بالتعريف باشبنجلر وحياته وفلسفته ونزعاته.

وأياً ما كان فالأستاذ عبد الرحمن بدوي بدأ حياته العلمية في نشاط يدعو إلى الإعجاب ويبشر بمستقبل علمي خصب.

والكتاب يقع في ٣٢٠ صفحة، وقد نشرته مكتبة النهضة المصرية.

٣ – وحي الأحاديث المحمدية

للأستاذ محمود علي قراعة

اختار فيه المؤلف بعض الأحاديث النبوية من الكتب الصحيحة، وراعى في اختيارها «الأحاديث التي تجمع المعاني الإسلامية النبيلة، الواجب على المسلم الحق معرفتها، وتلخص مناحي السمو الروحي النبوي التي يجب أن يقف المسلم عليها». وإذا اختلفت رواية الحديث اختار أوضحها وأتمها، واختار من موضوعات الحديث خمسة أبواب: نبينا محمد والأنبياء السابقون – العبادات – الاجتماعيات والمعاملات – الجهاد – الموت وما بعده. وقد كون فكرة عن الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد وشرحها، واستخرج العظة منها، ودعا إلى التمسك بفضائلها.

والكتاب مكتوب بروح دينى مؤمن، متحمس للفضيلة داع إليها في حرارة وقوة، متأثر بالغزالي في مناحيه ووعظه. وهو يطلب من «مكتبة الجامعة» ويقع في ٥٥٠ صفحة.

ذكريات ملك

صدر فى انجلترا أخيراً كتاب عن « الملك جورج الخامس » بقلم المستر جون جور ، يحوى دراسة تاريخية عن عهد ملك انجلترا السابق .

والجديد فى هذه الدراسة الطريقة التى كتبت بها ، فلم يستعن المؤلف بشىء قدر استعانته بيوميات الملك جورج الخامس الخاصة ، ذلك أنه ثبت أن الملك الراحل كان يدون يومياته بنفسه يوماً بعد يوم منذ الثانية عشرة من عمره . وكان يدونها بطريقة واضحة وأسلوب رائع ، وفى صراحة قلما تدون بها المذكرات ؛ فهو يبدى رأيه فى كل ما حوله ، ويعرض آراء الغير فى المشكلات الهامة التى عرضت إبان حكمه .

ويقول المستر جور عن هذه اليوميات إنها « مكتوبة بإيجاز واضح ، وبدون أى تنميق ، وبمنتهى الرزانة » ، ويشير إلى ما فعله فى هذه الدراسة بقوله : « لقد حاولت أن أبعد عن دراستى الاعتماد على التراجم الملكية وأحاديث البلاط ، وتلك القصص التى ينسجها حب التقرب من الملوك ، واجتهدت أن أظهر الملك السابق بثوبه الحقيق ، الرجل الصريح ، البسيط ، الأمين ؛ وتركت له وحده أن يتكلم ، سواء بلسانه ، أو بأعماله » .

وقد عاونت الملكة مارى فى إخراج هذا الكتاب ، فراجعت أصوله ، وحققت بنفسها صحة بعض الوقائع التى وردت فيه .

الكتاب فى الحرب

بين الظاهر الواضحة فى هذه الحرب أن الكتاب يقومون فيها بنصيب كبير ، فمن الساسة والقواد كثير من الكتاب الذين ساهموا فى التأليف ، وغير هؤلاء توجد أعمال أدبية بحتة لا تقل شأناً فى إدارة أداة الحرب من الساسة والقواد . .

فأول هؤلاء الكتاب المستر تشرشل رئيس وزراء انجلترا ، فهو معدود كمؤرخ وكاتب تراجم من الطراز الأول ، ثم المستر ج . ب . بريستلى الكاتب المعروف ، والسر روبرت فينستارت المستشار الدبلوماسى الأول فى انجلترا ، وكلاهما يقوم بالدعاية لبريطانيا ولقضيتها فى الحرب .

ويأتى بعد هؤلاء الكتاب الذين يديرون دفة السياسة المحاربون من المؤلفين ، وعلى رأس هؤلاء يوضع الجنرال وايفيل قائد جيش الشرق ، فعلاوة على كتابه فى ترجمة اللورد اللنبى ، الذى لاقى من الترحيب بين النقاد أكبر قسط ، والذى قال عنه جون بروق الناقد المعروف : « إنه نموذج رائع لما يجب أن تكون عليه التراجم فى الدقة والأسلوب » — علاوة على هذا الكتاب فالجنرال وايفيل كاتب ممن ترددت أسماؤهم على صفحات التيمس كثيراً ، فقد نشر له أكثر من بحث ، وقد جمعت بعض هذه البحوث والمحاضرات فى كتاب نشر منذ حين . وهو صاحب الرأى القائل : إن التراجم والقصص والدراسات التاريخية قد تكون أكثر نفعاً للقائد من الكتب الحربية التى تشرح خطط الحرب وطرائقها .

وبين الذين يحاربون فى مختلف الميادين اليوم مئات من الشعراء والقصصيين المعروفين ، يصعب على الكاتب أن يحصيهم ، ولن يكشف عنهم الستار إلا حين تنتهى الحرب وتبدو أصداؤها فيما يكتبون .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٣٨ — الثلاثاء ٢٦ من رجب سنة ١٣٦٠ — ١٩ من أغسطس سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــــدد

الصراع بين ألمانيا وانجلترا في الجو

لمن تكون الغلبة فيه ؟

[مقتبسة من النشرة ٤٤ (التي عنوانها « الطيارة الحربية ») من سلسلة نشرات أكسفورد عن الشئون العالمية ، وكاتبها خبير بشئون الطيران ، ومعروف في جميع الدوائر العالمية ، وهو المستر شيود رئيس تحرير مجلة « الطيارة » الانجليزية]

لا شك في أن الطيارة عامل على جانب عظيم من الأهمية في تقرير مصير الحرب ، ومن ثم كانت جديرة بكل عناية ودرس . والطيّارات الحربية على أنواع مختلفة ، ولكل نوع منها خصائصه .

فهناك أولاً قاذفات القنابل التي عليها تقع مهمة تحطيم قوى العدو ، سواء في الميدان أو في القواعد البرية أو البحرية ؛ فهي تنقض على الجيوش فتوقع في صفوفها الذعر والخلل ، وتقصد إلى مواضع الذخيرة فتصوب قذائفها نحوها لتنسفها نسفاً ؛ ثم نراها تغير على بلاد العدو فتتلمس مصانعه الكبرى للذخائر وغيرها من أدوات الحرب ، ومراكزه الصناعية المهمة الأخرى ، فتنقض عليها محاولة هدمها وتخريبها ، أو على الأقل تعطيلها وجعلها غير صالحة للمضي في تأدية وظيفتها .

وكذلك تقوم أنواع من قاذفات القنابل بالبحث عن فريستها في البحار على صورة بارجة حربية أو باخرة ضخمة ، تحمل المؤن والذخائر ، أو تنقل الجنود والمهمات ،

فتصوب الطوربيد نحوها لتغرقها في اليم وتلحق بالعدو خسارة فادحة[1].

وهناك ثانياً الطيارات المحاربة أو المقاتلة أو المطاردة، وهى التى عليها يقع عبء التصدى لقاذفات القنابل التى يرسلها العدو، فتحول دون تمكنها من مهاجمة أهدافها، كما أنها تقوم بحماية قاذفات القنابل التابعة لبلادها من كل اعتداء يقوم به العدو، ولا سيما من مثيلاتها طائرات المحاربة أو المطاردة التى يرسلها العدو لتفتك بقاذفات القنابل المغيرة على بلاده.

فهذا النوع إذاً يقوم بحماية قاذفات القنابل وتمهيد الطريق أمامها لتتمكن من تحقيق أغراضها؛ وذلك بالحيلولة بينهـا وبين ما يرسله إليها العدو من طائرات تطاردها، كما أنها تنبرى كما قدمنا لقاذفات القنابل المغيرة على بلادها فتصدها عما تريد أن توقعه بها من تحطيم وتدمير وتخريب.

وهناك ثالثاً طيارات الاستكشاف، وعليهـا يقع العبء الأكبر فى إرشاد النوعين السابقين؛ فهى تقوم بتعيين مواقع العدو، وأخذ صور فتغرافية تكشف عن تلك المواقع بالدقة، كما أنها تكشف كذلك عن حركات العدو وخططه الحربية، وأمكنة حشد جنوده، وتوزيع طائراته، وتخزين مؤنه ووقوده وذخائره، وتمد القيادة العليا بجميع هذه البيانات وأمثالها، لتبنى القرارات التى تتخذها هذه القيادة بشأن الخطط الحربيـة على أسس صحيحة ولأغراض معينة؛ فكأن هذا النوع من الطيارات بمثابة عين تخترق الحجب وتبصر ما أخفاه العدو، وتعود فتقص أخبار مشاهدتها على رؤسائها، وتمد أركان الحرب بتلك المعلومات القيمة التى جمعتها.

ولكل نوع من هـذه الطيارات خصائص يمتاز بها تتفق مع الأغراض التى وضعت من أجلها، وإن كان على كل منهـا أن يقوم أيضاً إذا اضطرته الظروف بما هو من صميم عمل نوع آخر غير نوعه؛ فقاذفة القنابل مثلا قد تضطر أحياناً إلى المحاربة دفاعاً عن نفسها، كما أنه قد يعهد أحياناً إلى الطائرة المحاربة أو طائرة الاستكشاف بإلقاء بعض القنابل إذا دعت الحال.

***

والصراع الهائل القائم الآن فى ميادين القتال يتوقف النجاح فيه على تفوق طيارات فريق على نظيراتها من طيارات الفريق الآخر؛ وهذا التفوق يتوقف على تصميم الطيارة، وما يؤهلها له هذا التصميم من القيام بجليل الأعمال؛ وذلك من صميم عمل المصانع التى تقوم بإنشاء الطيارات والمحركات.

وفى كل بلد من البلاد قد وقف جمهور كبير من العلماء وكبار المهندسين أنفسهم على التجريب والبحث بغية الوصول إلى التحسين فى خصائص طيارات ذلك البلد حتى تتفوق على نظيراتها فى البلاد الأخرى. ومن أهم عوامل التفوق: الزيادة فى السرعة والقدرة على المناورة بحيث يسهل انحراف الطيارة يميناً أو يساراً، وصعوداً أو هبوطاً، وتقلباً على الجانبين. فمن الأهمية بمكان عظيم أن يقل بقدر الامكان نصف قطر الدوائر التى تدور فيها الطائرة لتصير أسرع وأكثر مقدرة على الانقضاض على مؤخرة الطيارة التى تحاربها، فتكون أسبق إلى الفتك بها؛ وكذلك من عوامل التفوق ازدياد عدد المدافع فى الطيارة وتحسين مواقع وضعها وإحكام إطلاقها لتسديد مرماها، وهكذا.

وهاك مثلا يوضح الصراع فى سبيل التفوق: فحين نشبت الحرب وأخذت الطيارات المحاربة الانجليزية تنافس الطيارات المحاربة الألمانية توصلت البحوث الانكليزية إلى مخلوط من الوقود زادت بواسطته النهاية العليا لسرعة طياراتها المحـاربة بمقدار يتراوح بين ٥٪ و ٧٪، فارتفعت مثلا هذه النهاية العليا لسرعة سبت فير (قاذفة

(١) نشرت جريدة الأهرام فى عدد الخميس ٢٤ يوليه الماضى خلاصة لما ورد فى نشرة السفر شبرد هذه عن قاذفات القنابل ترجمة حضرة الطيار الثانى حسن ابراهيم السيد أفندى.

النار) من ٣٦٢ إلى ٣٨٧ ميلا فى الساعة ، وبذلك تغلبت كثيراً على نظيرتها الألمانية «سر شميت ١١٠» التى ظلت سرعتها النهائية نحو ٣٦٥ ميلا فى الساعة .

أما الحاربة الانجليزية هريكين فارتفعت نهايتها العليا للسرعة من ٣٣٠ إلى ٣٤٥ ميلا فى الساعة ، وبذلك اقتربت كثيراً من نظيرتها «سر شميت ١٠٩» ، التى ظلت سرعتها النهائية نحو ٣٥٤ ميلا فى الساعة . وتحسينات كهذه وإن كانت ضئيلة المقدار لها أثر كبير فى سير الحرب وكسب المواقع الحربية . ولو أن الألمان استطاعوا أن يغزوا انجلترا بعدد كبير من طياراتهم الجديدة «فايتكيل ١١٣» لتغير وجه الحرب على الأرجح ، وذلك لأن هـذه الحاربة الجديدة وصلت أقصى سرعة لها إلى ٤٠٠ ميل فى الساعة ، ومن حسن حظ انجلترا أن لم يتدفق هذا النوع مغيراً على أجوائها . ولا شك فى أنه عند ما يأتى اليوم الذى يحدث فيه هذا التدفق ، فإن انجلترا سيكون عندها ما تقاومه به من الأنواع الجديدة التى لا تزال خصائصها سراً من الأسرار الحربية .

* * *

ولما انهارت فرنسا ووطدت ألمانيا أقدامها تجاه انجلترا ، تبين لهذه أن موقفها من الحرب قد تغير ، وأن مثل هذه الطيارات الحاربة الصغيرة لن تنفعها فى أكثر من الدفاع عن البلاد ضد الغارات الألمانية . أما الدفاع عن قاذفات القنابل الانجليزية التى تروم الإغارة على ألمانيا ، وحراسة تلك القاذفات فى رحلاتها الطويلة ، فيحتاج إلى نوع آخر من الطيارات الحاربة ، وذلك لأن القيام بهذه المهمة يحتاج إلى قطع مسافات بعيدة المدى فى الذهاب والاياب ، وإلى محاربة الطيارات الألمانية التى ستنقض بغير شك على قاذفات القنابل الانجليزية محاربة قد يطول مداها وتشتد وطأتها .

وتلك العمليات كلها تستغرق زمنا طويلا ، وتستهلك قدراً كبيراً من الوقود ، وتستنفد مقداراً هائلا من الذخائر . فالطيارات التى ستقوم بها يجب أن تكون أقوى وأكبر بكثير من الطيارات الحاربة الصغيرة المشار إليها سابقاً ، حتى تستطيع حمل مثل تلك المقادير العظيمة اللازمة من الوقود والذخيرة ؛ ويستتبع تضخم الحجم وازدياد مساحة الأجنحة تعدد المحركات للحصول على القوة الحصانية الضرورية ؛ هذا كله علاوة على الاحتفاظ بقدر الامكان بأكبر قسط من مزايا الحاربات الصغيرة ، من حيث السرعة والقدرة على إحسان المناورة الخ .

لما تبين لانجلترا ذلك شمرت عن ساعدها ، وأخذ رجال العلم والصناعة فيها يعصرون قرائحهم ، ويجهدون عقولهم ، حتى توصلوا إلى هذا النوع المطلوب من الطيارة الحاربة البعيدة المدى . ولا تزال خصائص بعض هـذه الطيارات الجـديدة التى أعدت لتلك الأغراض سراً من الأسرار الحربية ، وإن عرف بعضها معرفة سطحية .

* * *

ولقد دفعت الحرب تقدم الطيارة الحربية بقوة فى اتجاهين عاجلين نتيجة لحاجات ملحة : أما الاتجاه الأول فهو التلهف على زيادة السرعة زيادة لا تقف عند حد ؛ فالواقع أنه لا يكاد أحد المتصارعين يخطو بسرعة طائراته خطوة إلى الأمام حتى يظهر أن خصمه قد خطا مثله فى نفس الطريق خطوة مشابهة ؛ ولذلك يجد نفسه مضطراً إلى أن يعيد الكرة باحثاً عن وسيلة تحقق له غرضه ، وتبلغه مشتهاه من رفع النهايات العليا لسرعة طائراته مرة أخرى ؛ وهكذا دواليك .

وأما الاتجاه الثانى فهو البحث عن الوسائل التى بها يمكن الاستدلال على الطائرات المغيرة فى أثناء الليل ، والحيلولة بينها وبين تحقيق أغراضها . ومما يؤسف له أن الخطوات التى اتخذت فى هذا الاتجاه الثانى لا يمكن إذاعتها ، وهى خطوات على جانب عظيم من الدقة العلمية .

وأما التنافس فى رفع سرعة الطيارات فهو على أشده ؛ وذلك لأن تحقيق الهجوم النهارى لقاذفات القنابل على

بلاد الأعداء لا يمكن أن يتم إلا بواسطة قاذفات القنابل السريعة؛ فالغارات الجوية لا يمكن أن يزداد حدتها وتطول مدتها وتدق رمايتها لكي تصبح خطراً حقيقياً، ولكي تلعب دوراً حاسماً، إلا إذا وقعت في رائعة النهار، بدلا من التسلل في ظلام الليل، والتخبط على غير هدى خبط عشواء. وكل الدلائل تشير إلى أن ألمانيا قد اعتنقت هذا المبدأ وآمنت به، وإلى أن بريطانيا قد أقنعتها الحوادث والتجارب بصحته.

إذا تقرر هذا تبين أيضاً أن أقصى العلو الذي يتسنى للطائرات أن ترتفع إليه له أهمية عظمى؛ وقد أعار الألمان هذا الأمر ما هو جدير به من اهتمام، وأعانهم على تحقيق أغراضهم من هذه الناحية ما درجوا عليه منذ زمن بعيد ومضوا فيه بعزم وتصميم أكيد، وهو العمل بكل الوسائل على تقدم أجهزة حقن البترول إلى المحركات حقناً مباشراً، والوصول بهذه العملية إلى درجة الكمال بدلا من الاعتماد على مد المحركات بالمخلوط العادي من البنزين والهواء عن طريق الكربراتور.

أما انجلترا فإنها تواجه المعضلة من زاوية أخرى، وتتوقع نتائج لا تقل في جودتها وعظمها عما وصل إليه الألمان من طريقهم. على أن الأمر الذي يجب أن نسلم به نحن جميعاً هو أن سلاح الطيران الذي يستطيع أن يضمن لطياراته الوصول إلى أقصى علو (أو سقف هوائي) يزيد في الارتفاع على السقف الهوائي الذي وصلت إليه طيارات خصومه بمقدار نحو ألفي قدم، هذا السلاح الذي يتميز على خصمه هذا التميز يكون قد فاز فوزاً فنياً له آثار قد تكون حاسمة.

وأهم عامل في تحديد هذا السقف الهوائي (أو أقصى علو يمكن أن تصل إليه الطيارات) هو قوة المحرك. ونحن نعلم أننا كلما توغلنا في الطبقات الهوائية العليا ألفينا الهواء قد صار متخلخلا، وكلما ازددنا ارتفاعاً ازداد الهواء تخلخلا، ومن ثم يتناقص مقدار الرفع الذي تستمده الطائرة من الهواء[1] وبذلك تصير قيمة الرفع عند أية سرعة من السرع في العلو الذي وصلنا إليه أقل من مقدار الرفع المناظر لهذه السرعة عند سطح البحر.

كذلك يحدث في نفس الوقت أن هذا الهواء المتخلخل لا يسعف عملية الاحتراق في المحرك كما ينبغي، وينتج عن ذلك أنه في الوقت الذي نحتاج فيه إلى زيادة السرعة لتحسين قوة الرفع المستمدة من الهواء تقل القوة التي يمدنا بها المحرك، تلك القوة التي لا غنى لنا من زيادتها لتحقيق الزيادة في السرعة. ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بإيجاد وسيلة رخيصة، إلى حد معقول، نستطيع بها دفع مقادير كبيرة من الهواء المتخلخل إلى محركاتنا.

* * *

وإذا تيممنا النواحي التي لها أعظم الأهمية في تحديد خصائص الطيارات تبين لنا أن الطيارة البريطانية قد استطاعت إلى الآن أن تتفوق تفوقاً قليلاً على الطيارة الألمانية بحيث أمكن رجحان كفة البريطانيين (مما يدل عليه عدم نجاح الحملة الجوية الألمانية على انجلترا)، وكانت إحدى النتائج الهامة لذلك أن لم تتعرض الروح المعنوية للطيارين البريطانيين إلى أية هزة تضعفها من تلك الهزات التي كانت تحدث لو أن هؤلاء الطيارين شعروا بأنهم مضطرون إلى استخدام أجهزة دون التي يستخدمها العدو.

وعما قريب سينزل إلى ميدان الحرب الجوية أنواع جديدة من الطيارات في الجانبين المتحاربين، وهذه الطيارات الجديدة يحتفظ كل فريق تمام الاحتفاظ بأسرارها وتفاصيلها. ولا شك أن هذه التفاصيل للأجهزة الجديدة لن تتسرب إلى الجمهور وتنشر بينه إلا ببطء شديد، على الرغم من أن أسماء بعض هذه الطيارات الجديدة وقليلاً من خصائصها قد عرفت بالفعل. فطيارة الطاربيد والطيارة

(١) هذا الرفع هو المركبة الرأسية لضغط الهواء على جناح الطيارة أثناء اندفاعها فيه، وهذا الرفع يزداد تبعاً للسرعة، وهو الذي يقوم برفع الطائرة إلى أعلى ضد جذب الأرض لها إلى أسفل.

تاجور والموت

للأستاذ عبد الرحمن صدقي



رابندرانات تاجور

«الحب والموت» هما القوتان الرهيبتان على مسرح هذا الوجود. وهما العنصر الأول والأخير للمأساة. ومهما يكن اختلاف المظاهر وتشعب النواحي وخفاء المعالم، فهما في صميم الواقع محول كل حدث، ومؤدى كل خبر، وموضوع كل شعور وتفكير.

والحب هو الدافع لمجرى الحياة، والموت هو المحدّد للحياة والمعيّن لمجراها. والحب هوّن على الأحياء التضحية من أجل النوع، حتى قيل الحبّ أقوى من الموت؛ كما أن الموت فتح للانسان — منذ كان الانسان — باب التفكير فيما بعد الحياة. ولما كان «رابندرانات تاجور» — كشأن كل شاعر حكيم — تغنى بالحنين على قيثارته، فنحن نؤثر — وقد قضى اليوم نحبه — أن نبدأ الكلام ونحن في مقام النعى والعبرة من «تاجور والموت».

التقى «تاجور» أول ما التقى بالموت في صغره، ووصف لنا هذا اللقاء الأول في «ذكرياته» في كلمات بسيطة معبرة:

«كنت حين أدركت أمى الوفاة لا أزال صبياً في غرارة الحداثة. وكانت أمى مريضة منذ زمن، ولا نعلم متى اشتدت عليها العلة. وكانت من قبل تنام دائماً معنا في الغرفة نفسها، ثم أخذوها في مرضها لرحلة في النهر. وعند الاياب أعدوا لها مخدعاً من المخادع الداخلية في الطابق الثالث. وكنا ليلة وفاتها نياماً في غرفتنا المخصصة للأطفال، وإذا بالخادم العجوز — في ساعة من الليل لا أحققها — تقتحم علينا الغرفة باكية مولولة: «آه! يا أولادى الصغار، لقد فقدتم ذخركم كله!». فأسكتتها زوجة أخى الأكبر، وأبعدتها عنا، رغبة منها في

محركها الجديد فالمنتظر لابد وأن تزيد سرعتها على ٤٠٠ ميل في الساعة؛ ولن تقصر عنها بكثير من هذه الناحية سبت فاير رقم ٣ المعدّلة، وقاذفة القنابل سترلنج الكبيرة ذات المحركات الأربعة هي وطيارة الاستكشاف بوتا، وقاذفة الطربيد المعروفة بنفس الاسم (بوتا) تمثل نواحي أخرى من جهود بريطانيا في سبيل الحصول على التفوق في الناورات. وهناك طيارات أحدث من هذه يجب أن يظل أمرها مكتوماً في الوقت الحاضر.

والخلاصة أن الجانبين المتحاربين يبذلان أقصى جهد للتفوق في السرعة قبل كل شيء؛ فقد أظهرت المعارك الجوية أن الذى يستطيع الانسياب بسرعة أكبر من سرعة منافسه نهاراً يتمتع بأحسن الفرص للوصول إلى أهدافه، بل إنه في الليل أيضاً يتمتع الجانب السريع بفرصة الافلات من مدافع خصمه، ومن طياراته المطاردة التي تعترضه. ولما كانت قاذفة القنابل، لا المطاردة، هي التي تستطيع أن تكسب الحرب الجوية، فمل تقدمها يتوقف إحراز قصب السبق. والفوز — لاشك — في هذا الصراع العنيف سيكون من نصيب من تفوقت قاذفة قنابله على قاذفة قنابل عدوه.

أحمد عبد السلام الكرداني

كفايتنا شر الصدمة فى جوف الليل . فأحسست — وأنا نصف مستيقظ — بقلبي يخور بين جنبيّ ، دون أن أعى ما جرى حتى الوعى ، فلما أصبح الصباح ، لم أدرك ما هو الموت الذى نموا خبره إلى . فلما خرجنا إلى الشرفة الواسعة المسقوفة ، رأينا أمى مسجاة على سريرها فى الفناء الداخلى . ولم يكن يدل مظهرها على أن الموت فاجع فظيع ، إذ كان محياها مؤنساً وادعاً كمحياها وهى نائمة ، ولم يكن ثمة ما يشعرنا بالهاوية الفاصلة بين الحياة والموت .

« إلا أنهم لما حملوا الجسد ، وساروا به فى الطريق العام المحفوف بالشجر ، ومشينا فى الجنازة وراء النعش حتى بلغنا المدفن ، جاش بنفسى لاعجٌ من الألم حين ذكرت أن أمى لن تعود من هذا الباب إلى مكانها فى البيت ، وفى آخر اليوم ، وقد عدنا من المدفن وآوينا إلى البيت ، رفعتُ بصرى فى ظلام الليل إلى حيث مخدع أبى فى الطابق الثالث فآنست أنه هناك ، ما برح فى الشرفة الواسعة المسقوفة جالساً فى مكانه يصلى .

« وتكفلت الصغرى من زوجات إخوتى بالأيتام الصغار ، فكانت تتعهد طعامنا ، وتقوم على حاجاتنا ، حتى لا يفدحنا الشعور برزئنا .

« والواقع أن كل حى رُزق القدرة على جبر ما لا يجبر ، والسلوان عن الذاهب بلا رجعى ذهاب الأبد . وهذه القدرة أقوى ما تكون عند الانسان فى حداثة السن ، فليس تبلغ إلى صميمه طعنة ، ولا يبقى له جرح بغير اندمال . كذلك كان الوقع الأول لشبح الموت فى حداثتنا الأولى ، فانه لم يترك وراءه ظلمة ، بل انجاب عنا مثلما أظلّنا فى خفة الطيف » .

ولم يكن كذلك لقاؤه الموت بعد ذلك ، بل كان الموت تجربة قاسية وضربة فى ناحية القلب ، والشاعر وقتئذ فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكان فى ضياع أبيه يتولاها ، وقد عبرت به سنون وسنون ، وهو أطيب ما يكون نفساً فى أحضان الطبيعة ، وأقر ما يكون عيناً بين زوجه وولده ، فاذا غيمة كبيرة تعترض فى سمائه الصافية ، وينزل القضاء بساحته ، فيعاجل بسهمه فى شهور معدودات قلائل زوجته وابنته وأصغر أبنائه . وللشاعر الحكيم فى وصف هذه الفترة بضع صفحات مطبوعة بالألم المكبوت والتأمل الروحى ، وبها ختم ذكرياته :

« وأما فى هذه المرة ، فكان لقائى للموت لجيمة باقية امتدت واتصلت بالنواحى التالية على أثرها ، فانعقدت أطرافها جميعاً كسلسلة واحدة من الألم .

« ولم يكن يدور قط فى خلدى أن انقطاع صلة من الصلات قد يقطع سياق الحياة بأفراحها وأتراحها ؛ وكنت أنظر إلى هذى الحياة على أنها كلٌ فى ذاته ، ولا آنس شيئاً وراءها . فلما حُمّ القضاء ، وانفتق فى التو واللحظة فتقٌ رغيبٌ فى هذا النسج المستوى المحبوك ، ضلّ صوابى وحار لبى ؛ وكنت أرى من حولى الأشجار والأرض والماء والشمس والقمر والكواكب حقيقةً واقعةً ، وهى بعينها باقية على حالها كما كانت . على حين أن المخلوق الحى الذى كان فى وسطها أبلغ منها حقيقةً ، وأوكد واقعية ، بما ربطه بنفسى من صلات وأسباب ، قد اختفى كالحلم فى لحظة . فكيف التوفيق بين ما بقى وما زال ؟

« هذا الغموض الرهيب الذى تمثل لى فى هذا الصدع البائن لم يزل مستولياً علىّ ليلَ نهار . فكنت أعاود الجلوس أمامه على الدوام ، وأسائل نفسى عما بقى بديلاً مما ذهب ؛ فالمرء لا تطوّع له نفسه الايمان بالفراغ والخلاء المطلق ، فما لا وجود له باطلٌ عنده ، والباطل لا وجود له ؛ ومن ثمة كان ما نبذله من جهود لا يعتورها كلل ولا تعرف الملل ، لنكشف سراً مستوراً فى حيث لا نرى أعيننا ظاهراً منظوراً

« وكما أن النبت المطروح فى الموضع المظلم يشرئب ويتطاول ليجد طريقاً إلى النور ؛ فكذلك روحنا إذ تقذف بها الفجيعة فى غيابة الظلمة ، تجاهد وتستنفد الوسع والطاقة فى التماس مخرج إيجابى . وأى لهف يعدل لهفة المرء فى الظلمة التى تحتويه وتحول بينه وبين رؤية المخرج له منها ؟

« إلا أنه فى وسط هذا الجوى القيم واللوعة المبرحة، أخذت تلتمع من حين إلى حين، وبصات من النور فى قرارة نفسى، وتخترق أرجاءها من طرف إلى طرف فتدهشنى. وإذا الفكرة التى كانت تحز فى نفسى، فكرة الموت الراصد للانسان وحياته الوشيكة الزوال، هذه الفكرة نفسها سنح لى فيها معنى التسرية والتعزية. وقد تمثل لى أننا فى هذا الوجود لم توصد علينا الأبواب كالسجناء بين جدران محبس لا انطلاق لهم منه، فتهللت لهذا المعنى نفسى، وشاعت فيها بارقة من السرور. لقد انتزع القضاء ذخراً كان فى حوزتى، فكان لى من هذا الغم والكرب؛ ولكننى حين آنست فى هذا الذهاب معنى الحرية، اقتربت السكينة من نفسى، ولم تعد الحياة تثقل على إذ الموت رافع عبئها فى يوم من الأيام. فالمرء قد رزق الهرب مما يساوره فى الحياة من القوى المادية — التى لا طاقة له بها — هذه الحقيقة البسيطة بدت لى ذات يوم، وكأنها الوحى هبط من غير انتظار على وأحسن إلى »

ولم يذهب تاجور إلى أبعد من ذلك فى « ذكرياته ». ولكننا لا نعدم مصدراً يصدقنا الرواية عن حاله، والترجمة عن نجاوى نفسه، وهذا المصدر هو أشعاره، أشعاره التى نظمها فى السنوات اللاحقة لمحنة حياته وثكله. وهذه مقطوعة من ديوانه « قربان الشعر »:

هو ذا الموت — خادمك — ببابى.

لقد عبر البحر المجهول، وأتى حاملا إلىّ — يارب! — نداءك.

والليل داج، وقلبى متوجس واجف —

ولكننى ممسك مصباحى، وفاتح له المصاريع.

مرحباً ومقبلا الأرض بين يديه.

ذلك أنه رسولك — هذا الواقف ببابى.

إنى لأحييه وأعظمه، وعلى صدرى يداى، والدمع ينهمل من عينىّ.

أحييه وأعظمه واضعاً عند قدميه كنوز قلبى.

وسيعود قافلا وقد أدى بلاغه، وأنجز ما جاء من أجله، تاركا غيمة حالكة على صفحة نهارى.

فلا يبقى فى بيتى الوحش — يارب! — أحد إلاى، يتقدم لك قرباناً مبذولا

* * *

وهذه أخرى من ديوانه « قطاف الثمار »:

أدخلى الجمال والانسجام فى حياتى الموحشة — يامرأة! كما أدخلتهما فى بيتى وأنت حية.

أنفضى الكسارة المقفرة المقبّرة من الساعات الناهبة الثائرة.

واملئى الجرار المترفة الفارغة.

واجيرى كل تالف مهمل.

ثم افتحى باب الحرم الأقدس،

وأوقدى المصباح.

وليكنْ هناك بين يدى الله لقاؤنا الصامت.

* * *

ولو طاوعتنا أنفسنا لنقلنا إلى القارىء فى هذا المقام نفسه عشرات القطعات، يتجاور فيها المعنيان الحقيقى والمجازى، ويتصل عالم الشهادة وعالم الغيب، ويلمس عالم الفناء عالم البقاء.

ويخطىء من يظن أن أنس شاعرنا بالموت صرفه عما حوله من جمال الطبيعة، بل الحال على خلاف ذلك؛ فقد ابتسمت له الطبيعة حلة أروع، وشفت له عن معان أبلغ وأعمق. وصارت له وجهة نظر جديدة فى مطالعة الخليقة والتأمل فيها، ووجد للسكون الماثل المتجسم ومن ورائه ساحة الردى جمالا لم يكن يحلم به، حتى لقد هتف فى بعض أشعاره:

« إذا ارتحلت من هذه الدنيا، فلتكن كلمتى الأخيرة: إن الذى رأيته فيها فائق لا يسامى ».

ولكى تتقرر فى نفس القارىء حقيقة إحساس تاجور بالموت، نقول إن الموت عنده صنو الحياة، وإن

من يحب الحياة مثله فانه لا شك سيحب الموت كذلك ، وإذا كنا بعد أن فتحنا أعيننا على نور الدنيا ، واستيقظ لها وعينا لم نعد نحس أننا غرباء عنها ، فكذلك حالنا في الموت ، فإن مجهوله سيصير لنا معلوما . والطفل — على حد قول تاجور — يبكي حين تفصله أمه عن ثديها الأيمن ، ولكنه يجد التزاحين تلقمه ثديها الأيسر ، وهكذا الموت والحياة في رأى حكيم الشرق .

وهنا يبطل العجب حين نسمعه يتغنى في أشعاره ، ويدعو الحمام دعاء محبياً :

« يا ثمرة الحياة الأخيرة ، يا موت ، ياموتي ، تعال وناجني !

« مازلت اليوم بعد اليوم أرقب قدومك ، فمن أجلك احتملت أفراح الحياة وأوجاعها .

« كل كياني ، وما أملك ، وما أرجو ، وكل حي ما برح في قرارة الخفاء ينبض نحوك . لحظ واحد من عينيك إن دعاني كانت حياتي لك آخر الأبد .

« الأزهار أصبحت مضفورة ، والأكاليل مهيأ للعريس . وهذه العروس ستغادر على أثر الزفاف دارها ، وتلتقى بسيدها وحدها في خلوة الليل » .

***

ونحن وقد ظفرت نفس الشاعر عناها وبلغت سؤلها ، نوافقه كل الموافقة على وصفه الصادق — في غير إدلال ولا تواضع مكذوب — لمحصول حياته وحصاد أيامه ، وذلك في حديثه عن يومه المنتظر ، إذ يقول في مقطوعة بديعة الحوار :

« في اليوم الذى يطرق فيه الموت بابك ، ماذا أنت باذل له ؟

« أجل ، سأقدم بين يدى ضيفي وعاء حياتي فائضاً دهاقاً ، ولن أدعه يمضي صفر اليدين .

« أشهى قطاف عمرى طوال أيام الخريف وليالي الصيف ، وجملة ما كسبت وجمعت في حياتي العاملة الدائبة ، كل هذا سأضعه بين يديه في آخر أيامي ، حين يطرق الموت بابي » .

***

وفي الحق كان وعاء شاعرنا حين زاره الموت فائضاً دهاقاً ، اعتصر رحيقه من عاطفة غزيرة سخية ، وتفكير رفيع عميق ، ونزعة تجريد تصوفية . وإن القارىء لتاجور ليجد عصير نفسه وزبدة فكره وعطر روحه أولاً في مجاميع شعره ، ثم في مقالاته ، وتأتى في آخر الأمر رواياته .

وليس مثله أحد في فهمه لنفس الطفل وتصويره لها ، ولعل أصدق وصف لذلك أنه « كان يرى الطفل بعيني الأم ، ويرى الأم بعيني الطفل » .

ومع سعة اطلاع تاجور في أدب الغرب ، وسياحاته في أوربا وأمريكا ، وما أفاده ولا شك من ذلك ، فانه ما برح ابن الهند الضاربة عروقه في تربتها السحيقة ، الموصولة نفسه بنفسها القديمة . ومن ثمة كان المثل الفكرى الأول للشرق ، لا تعرض في حياة العالم الحاضر مسألة في معنى الحضارة ومقوماتها ، والروح القومية وحدودها ، وتربية النشء وأصولها ، وأمثالها من المسائل ، إلا وصدع فيها برأى جليل عليه طابعه ، وهذا بالاضافة إلى ما أشرنا إليه من أنغامه الشعرية ذات الأصداء المجهولة ، والمعانى اللطاف ، والأحاسيس المرهفة ، والسحر الروحي .

وبعد ، فلعلنا نكون قد قلنا في تاجور الراحل ما يرضى الحق ويرضيه في جدثه ؛ فاننا لنحب أشد الحب أن نكون من إخوانه الذين خاطبهم في بعض مقطوعاته قائلا :

« لقد أذن لى صاحب الاذن بالذهاب .

فودعوني يا إخواني !

إني محييكم جميعاً ، ثم ماض في سبيل من سبق .

هذا مفتاح بابي أرده .

وداري نزلت عن كل حق فيها .

ولا أسألكم إلا كلمة وداع طيبة » .

عبد الرحمن صدقي

العـــــدالة

للأستاذ أحمد أمين بك

ينقص الشرق الآن في «العدالة» شيئان: الأول عقليّ، وهو الفهم الصحيح لمعناها، والثاني شعوري وهو إجلالها وتقديسها.

ولست أقصد هنا العدل الفردي، كأن يكون عليك دين فالعدل يقضي أن تؤديه والظلم أن تنكره، ونحو ذلك؛ فهذا شيء ساذج وصل الناس إلى فهمه من قديم، وقدسوه من الأزل، وإن غمض منه شيء فتقدُّم القانون حل أكثر غموضه، وأوضح أكثر تعقيده.

وإنما أريد العدل الاجتماعي والتصرفات التي لها أثر مباشر في حياتنا الاجتماعية. وأهم خطأ نرتكبه في هذا الباب أننا لا ننظر إلى أثر العمل في الأمة، حيث يجب أن ننظر إليها، وننظر إلى الأفراد حيث يجب ألا ننظر إليهم؛ ولأضرب لذلك أمثلة قليلة مما يحدث كل يوم:

١ — هذا شخص يعيَّن في عمل لأنه قريب لعظيم، ويترك من هو أكفأ منه لأنه لا قريب له، أو لأنه من حزب الحكومة والأكفأ من الحزب المعارض.

٢ — وهذا شخص يستبقى في عمله مع عدم صلاحيته لمرضه، ولا يستغنى عنه ويحل محله الصالح للعمل، لأن هذا المريض خدم المصلحة مدة طويلة، أو لأن له أسرة كبيرة ولا عائل لها غيره.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة، والخطأ فيها ناشئ من النظر للأفراد والواجب أن ينظر للأمة؛ فهذا الذي عيّن لقرابته أو لحزبيته أساء إلى الأمة أكثر مما أفادها؛ فقد حرمها عمل من هو أكفأ منه من جهة، ومن جهة أخرى كان في تعيينه إفساد لمعنى العدالة في عقول الناس، وإشعار للأكفاء بأن كفاياتهم ونبوغهم وتفوقهم كل هذا لا يساوي شيئاً بجانب القرابة أو النسب أو الحزبية؛ وضرر هذا على الأمة كبير، إذ يجعلها تقوّم ما لا يستحق التقويم، وتهدر ما يستحق الإعزاز، تهدر الكفاية وتعزز المحسوبية، وفي ذلك قلب للعدالة وإفساد لصحة التقويم، وحمل الأكفاء على العدول من إثبات كفاياتهم بعملهم — وهو الطريق المشروع — إلى البحث عن وجيه أو قريب أو حزب، يتقربون إليه من طريق الملق لا من طريق العمل؛ وحسبك هذا من إفساد للخلق.

وهذا الذي استُبقي مع مرضه لخدمته السابقة أو لأسرته الكبيرة، لو نظر فيه إلى الأمة لم يستبق؛ إذ كيف يعهد إليه بالتدريس — مثلاً — وهو مريض، أو بالقضاء بين الناس وهو غير قادر، أو نحو ذلك من الأعمال؟ وكيف ينظر إلى شخصه أو أسرته، ولا ينظر إلى من يتعدى إليهم عمله من التلاميذ أو المتقاضين؟ وكيف يخلط بين أجر يتقاضاه في مقابل عمل، وبين صدقة يراد أن تُجرَى عليه في معهد عمل لا في مكان إحسان؟

إن الأمة إذا عقلت أنشأت معاهد الاحسان بجانب معاهد العمل ولم تخلط بينهما، فلم تُبق في العمل إلا من صلح للعمل، فإذا لم يصلح فمكانه معاهد الاحسان؛ وبذلك توفق بين مصالح الناس ومصالح المرضى والمستضعفين؛ فإذا لم تستطع فلتضح الأفراد لمصلحة المجموع.

فالتفرقة يجب أن تكون تامة بين إحسان يعطى لنوع من أنواع الضعف كالفقر والمرض، وبين أجرة تعطى في مقابل نوع من أنواع القوة كعمل أو تفكير أو إدارة؛ أما الخلط بينهما في السلوك فخلط في التفكير.

* * *

وخطأ آخر غريب في فهم معنى العدالة يكثر الوقوع فيه، وله أمثلة أخرى:

(١) تكون رئيس مصلحة أو مشرفاً على عمل ، فيقدم إليك أحد الموظفين فى « مصلحتك » خدمة شخصية لك فى إصلاح أرضك أو الاشراف على بناء بيتك أو نحو ذلك ، فتكون مكافأته منك الترقية فى «المصلحة» قبل أقرانه ، أو علاوة استثنائية قبل أوانها .

(٢) لك صلة شخصية برجل يجالسك ويلاعبك أو يضحكك أو يتولى لك بعض شؤونك ، أو يهاديك أو يقرظك ويشيد بذكرك ، فتبذل جاهك فى تعيينه أو ترقيته من غير نظر إلى كفايته أو أحقيته .

هذا الخطأ فى فهم العدالة منشؤه الخلط بين النظر الشخصى والنظر للأمة ، وملك الشخص وملك الأمة .

معروف يسدى إلى شخصك فتبخل أن تكافئه مما تملك ، ثم تكافئه مما تملك الأمة ، فيكون الغُنم لك والغرم على الأمة ، هو ضرب مستور من الرشوة ، إذ لا فرق بين هـذا وبين قاض يأخذ الرشوة ويحكم حكماً ظالماً على حساب الأمة ، فينتفع هو ويتضرر الناس ، بل هذا فى نظرى أخطر من رشوة القاضى ، لأن الرأى العام فى الشرق تكوّن على احتقار القاضى المرتشى وعد الرشوة جريمة منكرة — ولما يتكوّنْ بعدُ لاحتقار الرشوة من هذا الضرب الذى ذكرت ، وكل يوم نرى منه صنوفاً وألواناً من غير أن يظهر استياؤه ظهوراً كافياً .

إذاً — نحن فى حاجة قصوى إلى التفرقة أيضاً تفرقة تامة بين ما يعمل لشخصك وما يعمل للأمة ؛ فما يعمل لشخصك يجب أن تكون المكافأة عليه من مالك ، وما يعمل للأمة يكافأ عليـه من الأمة من غير خلط ولا اشتباك .

وهذا الضرب يحتاج من ذى الضمير الحى إلى عناية شديدة ومراقبـة للنفس دقيقة ، فانه يُلَبِّس فيه على النفس ، ويدخل فيه الوهم ، فيخيل للشخص أن فلاناً أكفأ وأحق وذو صفات ممتازة ؛ ولو حاسب نفسه حساباً شـديداً لرأى أن حكمه هذا راجع إلى منفعة شخصية كسبها منه أو ملق تملقه به ، أو نحو ذلك من مسارب النفس الخفية التى لا ينجو من شـباكها إلا الراسخون فى العلم ، وقليل ما هم .

قرأت مرة أن وزير مالية فى دولة أوربية عرف بالنزاهة التامة وتحرى العدالة ، عرض عليه أمر يتصل بشركة ولها من ورائه ربح ، فتردد فى إمضائه ، إذ لم يتبين فيه النفع لأمته ؛ ولـكنه كان مغرماً بلعب الورق فدست إليه الشركة من يلاعبه ، فلاعبه وخسر له مبلغاً كبيراً ، ثم بعثت إليه الشركة هذا اللاعب الخاسر يوضح له مسألة الشركة ويبين له فيها وجه النفع للأمة ، فدعا بالورق وأمضاه وهو يكذب نفسه ويظن أنه اقتنع بعدالة الطلب ، وإنما الذى أقنعه فى الحقيقة مكسبه فى اللعب .

***

وخطأ ثالث يتجلى أكثر ما يكون فى وظائف الحكومة وأمثالها ، وهو إهدار الكفاية وحسن الانتاج لمراعاة الأقدمية أو نحوها .

ويتجلى هذا الخطأ إذا راعيت أن الآلة الحكومية ليست إلا صورة مكبرة لمصنع أو شركة ؛ فواضح أن المصنع أو الشركة إنما تضع أجور عمالها أو موظفيها على حسب مقدرة كل على الانتاج وقيمة العمل الذى يقوم به المصنع أو الشركة ؛ وبعبارة أخرى غرم الشركة أو المصنع يتناسب تمام التناسب مع غنمها من العامل ؛ فمن لم يعمل لا يأكل ، ومن عمل أكل بمقدار ما عمل ، سواء كان هذا الموظف جديداً أو قديماً ، وشاباً أو مسناً ؛ فلا بأس أن يكون الجديد والشاب رئيس القديم السن ، لأن الأجرة غير الصدقة ؛ قد يراعى فى الصدقة السن والقدم وكبر الأسرة والعجز ونحو ذلك . أما الأجرة فهى نظير

عمل وتطير كفاية ؛ مثلها مثل أجرة البيت وأجرة كل شيء ، تتناسب مع الشيء المؤجر في جودته أو رداءته ، وصلاحيته وعدم صلاحيته ، وجماله وقبحه ، ثم لا يرعى بعد ذلك أي اعتبار آخر خارج عن الانتفاع بالشيء المؤجر .

فأي نظام لحكومة أو بنك أو شركة راعى فيه أي اعتبار غير الكفاية والقدرة وخدمة المصلحة المكلف بها نظام فاسد ، ونظام ظالم ، ونظام خلط فيه بين الرحمة والعدل ، وبين الصدقة والأجر ، وبين معهد الانتاج ومأوى المساكين .

وهذا النظام الذي أدعو إليه وحده هو الذي يفسح الطريق أمام القادرين على العمل ، ويخلق التنافس في الاجادة ، ويبعث على التسابق إلى الجد ؛ أما نظام الأقدمية وأشباهها فدعاة للكسل ، وانتظار الزمن في جمود لاثبات الأحقية بالأقدمية ، وانتشار الخمول الذي نشاهده ونشعر به ونلمسه في كل تصرف ، ثم قتل الكفايات ، والقضاء على الزهرة الجميلة قبل أن تتفتح ، والمكافأة على الضعف وعدم الاكتراث ، بحكم الأقدمية .

هناك نظام عادل ونظام ظالم في كلمة ؛ أما النظام العادل فالمكافأة بمقدار الصلاحية والانتاج ؛ وأما النظام الظالم فالمكافأة بالأقدمية أو المحسوبية أو القرابة أو الحزبية ؛ أما النظام العادل فتقدير الشيء من حيث هو ومن غير خلط بين الرحمة والاستحقاق ؛ وأما النظام الظالم فتقدير الشيء لاعتبارات لا ترجع إلى العمل ، والخلط الفاسد بين الرحمة والاستحقاق . أما النظام العادل فكتربية الأولاد على أساس المصلحة فقط ؛ وأما النظام الظالم فكإضاعة المصلحة لداعي الشفقة .

وجه الحق في هذا الكلام واضح جلي ، ولكن تنفيذه في منتهى الصعوبة ؛ وكثير من الناس يؤمن بهذا المبدأ ، ولكن يحمله على العدول عنه فساد الميزان في يد أولي الأمر وعدم قدرتهم على الحكم الصحيح ؛ فاذا قرر مبدأ المكافأة للكفاية وحدها فكم يرتكب من الجرائم المحسوبية والحزبية تحت ستار اسم الكفاية .

فهذا الميزان الذي أدعو إليه إنما يصلح في يد القدير الحازم النزيه ، وإلا انقلب إلى ضده وساد الفساد وعمت الفوضى . فهيئ الرجال القادرين على استعمال الميزان الصحيح ، ثم ضعه في أيديهم ، وإلا كان أسوأ من الميزان الفاسد .

* * *

هذه هي بعض النواحي العقلية في فهم « العدالة » ؛ أما الناحية الشعورية فهي تعليم الشعب إرهاف الشعور نحوها ، والغيرة عليها غيرة أهل « الصعيد » على أعراضهم ، والصرخة تخرج من أعماق القلب لظلم يحدث وعدالة تنتهك ، والثورة على الظالمين حتى لا يعودوا إلى مثل ظلمهم ، وتكوّن رأي عام يحمي العدالة ويقدسها تقديس عبادة في كل مكان : في القرية ، فلا يستطيع عمدة أن يظلم ، لأن الرأي العام للفلاحين يحتقره لظلمه ويهينه لجوره ، ويصرخ في وجهه لانحرافه عن العدالة ؛ وفي المركز ، فلا يستطيع مأمور أن يظلم ، لأنه لا يستطيع بعد ظلمه أن يبقى في مركزه لقوة الرأي العام في دائرته ؛ وفي الأمة كلها ، فالحكومة تحسب ألف حساب للرأي العام ، فيسقطها إذا ظلمت ، ويؤيدها إذا عدلت ، ويقوّم الأحزاب فيها بمقدار حبهم للعدالة .

إذ ذاك — وإذ ذاك فقط — تسير الآلة الحكومية في إدارتها وفي قضائها وفي كل مرفق من مرافقها نحو العدل ، والعدل دائماً ، لخوفها من الرأي العام ، وشعورها التام بأن كل عضو من أعضائها ، وأنها في جملتها مرتكزة في بنائها على « العدالة » ، والعدالة وحدها .

أحمد أمين

صور قضائية — من محكمة الأحداث :

أغنـــام ضـالة

للقاضي الفاضل صاحب الإمضاء

جاءتني يوماً سيدة تشكو خادمة جيرانها وتقول إن هذه الخادمة اعتادت أن تتسلل إلى مطبخها أثناء غيابها فتأكل ما فيه من الطعام بحيث لا تبقى فيه على شيء . فراجعت أقوالها التي كانت قررتها في محضر تحقيق البوليس ، فإذا هي كما يأتي — وإني لأحرص على إثبات أقوالها بنصها ، محافظة على صدق الصورة التي رسمتها هي . . . قالت :

« أنا سكنت في شقة بالدور الأول من هـذا المنزل منذ سبعة أشهر . ولاحظت من مدة شهرين أني عند خروجي من سكني وعودتي إليه أجد الباب مقفلا بالقفل كما هو ، وأجد بعض المأكولات مسروقة من المطبخ . وفي بعض الأحيان أجد نقصاً في السكر أو الخبز أو العسل . وقد تكرر ذلك في جميع المرات التي كنت أخرج فيها في بحر الشهرين ، وتبلغ حوالي ثلاثين مرة ، وفي كل مرة من هذه المرات كنت أقفل القفل عند خروجي ، وعند عودتي أجده سليما كما هو . فأنا اعتقدت أن بالمنزل عفريتاً ، وصممت على أن أنتقل منـه إلى منزل آخر خلافه . وتصادف أن زارتني إحدى صديقاتي صباح يوم من الأيام ، فأخبرتها بما يحصل في منزلي ، وكاشفتها برغبتي في تركه ، وكانت هي سيدة طيبة من الصالحات العابدات ، فطمأنتني واستبعدت فكرة العفريت ، وأشارت على بأن نتعاون في عمل فخ لـكي نمسك الشخص الذي يدخل سكني أثناء غيابي ويأكل طعامي وطعام زوجي ، إذ أني في إحدى المرات تركت قطعة لحم من الرقبة في الحلة ، وكان وزنها رطلاً ونصف رطل ، وبعد عودتي من الخارج لم أجدها هي ولا عظامها . واتفقت مع صاحبتي على أن تبقى هي في المنزل عند خروجي لترى ما يجرى فيه أثناء غيابي ، وفعلا تركتها وأقفلت عليها ، وخرجت حوالي الساعة الثالثة مساء اليوم ، ورجعت بعد قليل وفتحت باب الشقة ، فوجدت صاحبتي قد أمسكت الخادمة الموجودة بالشـقة المقابلة لشقتي ، وقالت لي صاحبتي إنها بعد خروجي بقليل قامت تصلي العصر ، فشعرت بحركة في دورة المياه ، فاتجهت نحوها فوجـدت البنت المضبوطة واقفة في المطبخ ، ووجدت أنها دخلت من شباك المرحاض المجاور لدورة مياه الشقة المقابلة ، فذهبت بنفسي إلى المطبخ ، فلم أجد الـكوارع التي كانت في الحلة ، واتضح أن هذه الخادمة أكلتها قبل أن تتنبه لها صاحبتي . وقد سألناها عنها فاعترفت بكل شيء ، فأخذتها وحضرت بها إلى القسم » .

وقد سألت المتهمة بعد ذلك عن صحـة هذه الوقائع ، فاعترفت بها أمامي مرة أخرى ، فقلت لها :

— وكيف كنت تعرفين أن جارتكم خرجت من شقتها ؟

فقالت :

— هي كلما تخرج تمر علينا وتقول : خلي بالـكم من الشقة ، فأنا أعرف أنه لا يوجد بها أحد ، وأدخلها من الشباك ، وآكل الشيء الموجود ، لأني أكون جائعة ، وأنا لم أسرق شيئاً ، لأني كنت آكل فقط ولا آخذ معي شيئاً أبداً !

وقد رأيت بعد سماع هذه القصـة أن حالة المتهمة تستدعي عناية خاصة ، فأحلتها على (مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث) لفحص حالتهـا وتقديم تقرير شامل عنها .

* * *

ومكتب الخدمة الاجتماعية هذا مكتب تقوم عليه

هيئة من الاخصائيين الاجتماعيين ؛ وإذا ما أحيلت عليهم حالة أحد الأحداث المتهمين تولوا فحصه من ثلاث نواح :

. فهناك — أولا — الطبيب الذى يفحص جسمه ويكشف عن كل ما قد يكون فيه من الأمراض ، لعل الجريمة التى ارتكبت لم تكن إلا عرضاً لمرض من هذه الأمراض .

وهناك — أيضاً — الاخصائى النفسانى الذى يعقد مع الحدث عدة اجتماعات ، يحاول خلالها أن يكشف عما قد يكون عنده من « العقد النفسية » التى قد يرجع إليها السبب فى ارتكابه لجريمته .

وهنـاك — أخيراً — الاخصائى الاجتماعى الذى يتولى دراسة البيئة التى نشأ فيها الحدث ، لعله يصل من وراء ذلك إلى المؤثرات التى انحرفت بالحدث عن الطريق القويم واندفعت به إلى طريق الاجرام .

***

وقد قام المكتب بدراسة هذه الحالة من نواحيها الثلاث ، وقدم تقريره ، فكانت نتيجة البحث مدهشة ؛ ذلك أن الطبيب الذى تولى فحص هذه الفتاة اهتدى إلى أنها مصابة بديدان « الأسكارس » ، وهى المعروفة عند العامة (بثعابين البطن) ، ومن شأن هذه الديدان أنها إن استقرت فى جوف ضحيتها شاركته فى طعامه ، بل إنها فى بعض الأحيان لا تكتفى بمشاركته فيه ، ولكنها تتخطفه منه فتمتصه ولا تترك له منه الا النزر اليسير الذى لا يفى بحقوق جسمه . ولذلك لا يكاد المريض بهذه الديدان يأكل وجبته ، ويمتلىء بطنه بالطعام ، حتى يعود فيحس بآلام الجوع تنوشه من جديد ، وتدفع به دفعاً إلى طلب المزيد .

***

وقد تولى الطبيب بعد ذلك علاج الفتـاة . وخلصها من هـذا الشريك الجائر ؛ فاستقام حالها ، وانتظمت معيشتها ، وانقبضت يدها . ولم تعد تفكر فى طعام الناس ما دام طعامها الخاص أصبح يكفيها ، ويزيد عن حاجتها . ولم تبق بالمحكمة من حاجة بعد ظهور هذه الحقيقة إلى التفكير فى القوانين وتطبيقها ، لأنها لم تكن بإزاء مجرم يريد أن يحرم الناس من أرزاقهم وأقواتهم ، ولكنها بإزاء طفلة جائعة تريد أن تدفع عن نفسها غائلة الجوع ، فلم تفكر إلا فى أقرب الأشياء إلى يدها ، ولم تكن تخامرها فكرة العدوان على الغير بقدر ما كانت تملؤها فكرة الدفاع عن النفس .

فهذه حالة مجسمة تبرز لنا أن جريمة السرقة التى اتهمت بها هـذه الفتاة لم تكن فى الواقع إلا عرضاً من أعراض مرض دفين فيها . فإن صح أن يتهم الانسان بأنه مريض بديدان الأسكارس ، ويقدَّم من أجل ذلك إلى المحاكمة ، فإنه يكون من الممكن عندئذ أن يُنظر إلى هذه الفتاة على أنها مجرمة !

***

وفى مرة أخرى تقدم إلىَّ غلام تهمته أنه احتال على شخص آخر فاستولى منه على مبلغ من المـال . وكانت تتلخص ظروف هذا الحادث فى أن والد هذا الغلام يشتغل ببيع البترول ، فقصد الغلام إلى بعض عملائه الذين يأخذون بترولهم من والده وطلب إليه ثمن صفيحة تعهد بإحضارها إليه ، ولكنه استولى على المبلغ لنفسه وهرب .

وبدا لى عند نظر هذه القضية أيضا أنه لابد أن يكون وراء عمل هذا الغلام أسباب يجب الوقوف عليها قبل البت فى أمره ، وبعثت به هو الآخر إلى مكتب الخدمة الاجتماعية . وقام الاخصائيون الثلاثة بفحص حالته ؛ فإذا المفقدة تقع هذه المرة لا فى يد الطبيب ، ولكن فى يد الاخصائى الاجتماعى ، إذ جاء فى تقريره عن أسرة الصبى أن والده كان جندياً فى الجيش المصرى ، فلما انتهت مدة خدمته قبض مكافأته واشتغل ببيع البترول ؛ وكانت

تغلب على الرجل نزعة صوفية تجنح به إلى الزهد في الدنيا وملاهيها ، وإلى قضاء أوقات فراغه في العبادة والنسك ؛ فكان إذا انتهى من عمله في آخر النهار انصرف إلى حلقات الذكر والاتصال بأرباب الطرق ، وأرخى لحيته وحف شاربه على طريقة السُّنيين . وكان كل همه في تربية ولده — المتهم — أن يعلمه القرآن ويُحفظه كلام الله . ولكن الصبي لم يوفق في ذلك . ونفر من المكتب الذي ألحقه فيه أبوه . وعالجه والده بمختلف الوسائل ، ليروضه على تلقى العلم وحفظ كتاب الله ؛ ولكن جهوده في ذلك ذهبت كلها مع الريح . فلما يئس منه استصحبه معه في غدواته وروحاته ، وأشركه معه في تجارته ، يحمل البترول إلى بيوت العملاء ويحصل منهم أثمانه . وكان الصبي مولعا بالسينما — وهى اليوم ملهاة الصغير والكبير والجاهل والعالم — ولكن أباه كان لا يطيق فكرة تردد ولده على هذا النوع من اللهو . ولعله تأثر في ذلك ببعض ما رآه معلقاً على الجدران من صور «ماى وست» أو المأسوف عليها «جين هارلو» ، فكان يقتر عليه حتى لا يتيح له فرصة الذهاب إلى دور السينما ، ما دام لا يراها إلا مفسدة مخبثة ، تؤذى الخلق ، وتضعف النفس ؛ وكان كلما علم من ابنه أنه عصاه وذهب إلى السينما ينهال عليه بالضرب المبرح ، حتى لقد أثبت الكشف الطبي على جسد الغلام وجود آثار مستطيلة فوق ظهره تدل على أنه كان يُجلد بقسوة من حين إلى حين . ولكن هذا العنف لم يكن يزيد الصبي إلا شرودا ونشوزا ، حتى لقد ركن أخيراً إلى الفرار من منزل والده . وإلى الحصول على المال اللازم لطعامه ولهوه ، بتلك الطريقة التي تقدم من أجلها إلى المحاكمة

* * *

وقد أمكن للإخصائي الاجتماعي — بعد زيارة الوالد وعقد عدة جلسات معه — أن يتفاهم وإياه على ضرورة تغيير مسلكه نحو ولده ، وأن يجعله يدرك أن الأبناء مخلوقون لزمان غير زمان آبائهم ؛ فمن الحكمة مسايرة روح العصر والجرى مع التيار ، إذ ليس في مقاومته والوقوف في وجهه إلا الدمار .

وبعد اقتناع الوالد بنصائح الخبير الاجتماعي لم يبق للولد مايشكو منه ؛ لأنه أحس برغباته المكبوتة وقد نُفس عنها ، ونزعاته المحبوسة وقد أُخلى الطريق أمامها ؛ فاستقام حاله هو الآخر ورضى عنه أبوه ؛ وهو الآن يفخر به إذ يراه إلى جانبه يقوم بمعاونته في عمله على خير حال .

* * *

وما دام الحديث قد استطرد بنا إلى ذكر مثالين كانت الجريمة في أحدهما عرضاً من أعراض علة جسمانية ، وكانت في الثاني عرضاً لعلة اجتماعية ، فلنعززهما بمثال ثالث نبين فيه كيف تكون الجريمة عرضاً من أعراض العلل النفسية — وهى أقسى العلل وأشدها غموضاً واستعصاءً في الوقت نفسه . وموعدنا بذكر هذا المثال العدد المقبل إن شاء الله .

* * *

العبرة في كل ما ذكرناه في هذا الفصل — وما سنذكره في الفصل التالي أيضاً — هي أن أشخاصاً كثيرين قد يساقون إلى المحاكم لتوقع العقوبات عليهم ، وهم أجدر الناس بأن يقدموا إلى الطبيب لعلاجهم ، فإن حالة الواحد منهم لا تخرج عن أن تكون حالة مريض يحتاج إلى الفحص الدقيق والعلاج الرفيق ، ولم يقل أحد إن المريض يشفى بواسطة رجمه بالحجارة ، أو بإلقائه في غياهب السجون — و «الأغنام الضالة» لا تعود إلى قطيعها إذا نحن جرينا خلفها بالعصا ، فإن ذلك أدنى أن يجعلها تمعن في ضلالها ، ولكنها قد تعود إذا نحن ناديناها برفق ومهدنا أمامها الطريق .

ح . ج

حضارة أو حضارات (١)

للأستاذ علي أدهم

في يوليو سنة ١٩١٨ ظهر في ألمانيا كتاب يحمل هذا الاسم المنذر العجيب «تدهور الغرب»، وقد أثار هذا الكتاب ضجة، ولفت الأنظار وشغل الأذهان؛ وكان مما يثير العجب والدهشة أنه لم يكن قصة مسلية أو رواية شائقة الحوادث؛ وإنما كان مؤلفاً فلسفياً ضخماً عميقاً ينم على معرفة غزيرة، وخيال جنح، ومقدرة على التفكير ليست كثيرة الأشباه والنظائر؛ وكانت هناك ظروف قد ساعدت على رواج هذا الكتاب، أخصها أن ألمانيا كانت قد باءت بالفشل والخسران، وخرجت تجرر أذيال الهزيمة من تلك الحرب الشعواء التي أثارتها في وجه العالم وتحدت فيها أمم الأرض، وتطلعت إلى السيادة العالمية لنشر ما كانت تسميه في تلك الحرب السالفة «الكالتور الألماني». وكان من الطبيعي أن يحز ألم الهزيمة في نفوس الألمان، ويخيم عليهم اليأس؛ ولكن الألمان شعب قوي الحيوية نزاع إلى التأمل والاستغراق في التفكير؛ فهو لا يفني نفسه حسرات في أعقاب الهزيمة، ولا يطيل التراشق بتهم الخيانة، ولا يفرط في لوم القدر والإنحاء على الجدود العواثر؛ وإنما يحاول أن يفكر كيف حدثت تلك الهزيمة، ويدقق في تعليلها وتحري مصادرها؛ وقد مهدت هذه النوبة من التشاؤم وما تلاها من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السبيل إلى إذاعة هذا المؤلف الذي يحوي فلسفة جديدة من فلسفات التاريخ، أتحف بها أزوالد اشبنجلر الشعب الألماني، وزاد في ثروته الفكرية.

وقد كشف هذا الكتاب لألمانيا المصدوعة الفؤاد المجروحة الإباء، أن آمال أوربا الوثابة مقدر لها أن تخيب، وأن الحضارة الأوربية مقبلة على عهد انحطاط وتهافت، وأنها تعاني أعراض الشيخوخة وانحلال الفناء؛ وفي هذا الإيمان بالقدرية ضرب من السلوان يسكب العزاء على النفس المحزونة، لأنه يرفع عن كاهلنا الشعور بالتبعة، ويبين لنا أن سير الحوادث من وراء طاقة الناس، وأن غايات الأقدار لا حيلة لنا فيها، ولا يد لنا بدفعها.

ولم يكن ظهور فلسفة تاريخ جديدة في بلاد هجل وكانت وشلنج وفخته بالأمر الغريب، لأن التعميمات الفلسفية العريضة، والأبنية الفكرية الرائعة، والنظريات الكونية الشاملة تعد في ألمانيا غاية الحكمة وآية العبقرية؛ وقد ألف الألمان أن يصب لهم المفكرون أحداث التاريخ في الصيغ المناسبة، ويضبطوا لهم حوادث الحياة وتجاربها في القوالب التي تعين على تنظيمها وتنسيقها؛ ولا مانع في بعض الأحيان من أن يجار على الحوادث، وتقطع أوصالها، وأن تلوى الحقائق أو تنتقص أطرافها من أجل انتظام المذهب، والتدليل على صحة النظرية.

وموجز رأي اشبنجلر أن ما نسميه «تاريخاً» إن هو في الحقيقة إلا سيرة حياة أنواع عضوية متشابهة البناء متماثلة المصير، لكل منها حياته المعينة، وفرديته المستقلة، وخصائصه الممتازة. وقد اكتشف اشبنجلر وجود ثماني حضارات رئيسية، وهي: الحضارة المصرية القديمة، والحضارة الصينية، والحضارة البابلية الأشورية، والحضارة الهندية، والحضارة المكسيكية، والحضارة الدورسية (اليونانية الرومانية) أو الأبولونية، والحضارة العربية — ويسميها اشبنجلر الحضارة الماجية — والحضارة الغربية أو الفاوستية؛ وهذه الحضارات تتشابه في بنائها العام ومصيرها النهائي؛ وكل حضارة منها تحمل طابعها وتنطوي على أسرارها ودخائلها، وكل منها يخضع لأسلوب

(١) كتبت هذا المقال بمناسبة اطلاعي على كتاب «اشبنجلر» للأستاذ عبد الرحمن بدوي.

خاص في التفكير والشعور والنظرة إلى الحياة ؛ وكل حضارة من هذه الحضارات مغلقة مقفلة لا تستمد من غيرها ولا تتأثر به ولا تعتمد عليه ؛ وإنما تنسج خيوطها من بين جنبيها وتستغرق منابعها الداخلية ؛ وهي من ثم لا تفهم غيرها من الحضارات ولا تدرك كنهه ، لأنها مستغرقة في ذاتهـا . واشبنجلر وحده يزعم أنه قد عرف كلمة السر التي يستطيع أن يتغلغل بها إلى صميم كل حضارة ، ويتعرف أسرارها ، ويكشف له الغطاء عن خصائصهـا ويرفع الحجب عن مزاياها الكامنة ؛ ولاشبنجلر مريدون يكثرون من وصفه بقوة البصيرة وسلامة « الذوق » . واشبنجلر لا يدرك أسرار الحضارات بالعقل المفكر الواعي ، وإنما بالبداهة الملهمة ؛ وعنده أنه ليس هناك صلة ولا رابطة ولا وحدة بين الحضارات ، وليس هنـاك « إنسانية » فإن ذلك في رأيه محض تجريد ووهم من الاوهام . وما دام ليس هناك « إنسانية » فيقتضي ذلك أنه ليس هناك رياضيات عامة أو علوم طبيعية أو فنون أو ثقافات مطلقة ؛ فإنما هذه ألسنة مختلفة ولهجات متباينة ؛ واشبنجلر وحده قد أوتي فهمها وحل رموزها وتفسير غوامضها ، وعلى قارىء اشبنجلر أن يسلم له بذلك ولو مؤقتاً ! .

وبالرغم من استقلال كل حضارة عن الأخرى ، فإنها من الوجهة العضوية الطبيعية خاضعة جميعها لقانون لا يتغير ، هو قانون الميلاد والنضج ، والتدهور والفناء ؛ فالحضارة تنهض في ناحية من النواحي ، وتنمو نمو النبات ، وتمر بأدوار الانسان السبعة ؛ فلها عهد الطفولة ، ولها دور الشباب والنضج والشيخوخة ، ولا يستتبع موتها فنـاء أهلها ، وإنما معناه نفاد حيويتها وانطفاء شعلتها ، وأنها فقدت ميزتها من حيث هي قوة تاريخية محركة منتجة . والحضارة تذبل وتفنى بعد أن تكشف عن خصائصها وممكناتها الموهوبة لها مثل القوميات والديانات والآداب والفنون والعلوم وصور الحكم .

ولـما كانت كل مرحلة من مراحل الثقافة يمكن استنتاجها من المرحلة التي تسبقها ، فنحن نستطيع إذاً — ما دمنا نهتدي بهدى اشبنجلر — أن يكون عندنا معرفة فلكية اليقين مطردة السوابق والأشباه لما سيحدث . وأنصار اشبنجلر على ما يظهر يقدرون له هذه اليد ، ويحفظون له هذا الجميل ؛ فإن الرجل يحاول أن يخلع على نفسه وعلى أنصاره برد النبوة ، أو يحاول على الأقل أن يرتفع إلى مرتبة كاهنة دلفي .

والحضارة الغربية — أو الفاوستية كما يجب أن يسميها اشبنجلر — مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفنـاء ؛ وليس معنى ذلك فناء أهلها ، فإن الصين لا تزال موجودة ، ومصر لا تزال على قيد الحياة ؛ ولكن الحضارة الصينية قد ماتت ، والحضارة المصرية قد زالت ، ومصر منذ العهد الروماني لا يسكنها — كما يرى اشبنجلر — قوم لهم ثقافة ، وإنما يقطنها ما يسميهم اشبنجلر « بالفلاحين » ، وحالة الفلاحين هي نهاية ثقافة الأقوام ، وفيها ترتد الأمم إلى الحالة البدائية أو حالة الأمم قبل دخولها مسرح التاريخ .

وينكر اشبنجلر وجود وحدة إنسانية تاريخية ، ولا يعترف بفكرة التقدم البشري أو فكرة وجود تاريخ مستمر متتابع الأدوار متسلسل الحلقات ؛ وإنما يوجد تاريخ ثقافات مستقلة منعزلة قائمة بذاتها ، لا يؤثر بعضها في البعض إلا إذا اعترضت إحداها نمو الأخرى ، وقضت عليه كما فعل الأسبانيون بالحضارة المكسيكية .

وأكثر المؤرخين يسلمون بانفصال الحضارة الهندية والحضارة الصينية إلى حد كبير عن الحضارة الغربية ؛ ولكنهم يرون أن الحضارة الرومانية كانت الجسر الذي انتقلت به تأثيرات حضارة بابل ومصر والحضارة الأبولونية إلى الحضارة الغربية ، واشبنجلر ينكر ذلك ، ويحمل نفسه

عنتاً فى هذا السبيل لتدعيم نظريته وإثبات مذهبه ؛ وهو يفصل الحضارات عن بعضها ، ويضع بين الحضارة الأبولونية والحضارة الفاوستية الحضارة العربيــة ، وكل ثقافة من هذه الثقافات تمر فى أدوار متشابهة خلال مدة من الزمن متقاربة ؛ وكل حادث مهم فى حيـاة ثقافة من الثقافات له نظيره فى الثقافة الأخرى ؛ فالعهد الاقطاعى والاصلاح الدينى والبيوريتانيــة والنزعة المثالية الروحية والاتجاه المـادى الواقعى والقيصرية التى يصحبها إحياء دينى يتبع بعضها بعضا ، وتتوالى على التعاقب فى حياة الحضارات ؛ فالاسلام مثلا هو دور البيوريتانزم فى الحضارة العربية ، ونابليون هو اسكندر الحضارة الغربية ، وسيسيل رودس هو طليعة قيصرية الحضارة الغربية . والحضارة فى رأى اشبنجلر هى المرحلة النهائية للثقافة ؛ وقد دخلت الثقافة الغربية فى دور الحضارة منذ سنة ١٨٠٠ ؛ وحوالى سنة ٢٢٠٠ ستكون الحضارة الغربيــة قد أدركها البلى ، وأبادتها صروف الليـالى ، ولحقت بالحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة الهنــدية والحضارة العربية ، وعمر الثقافة يبلغ نحو ألف سنة .

ولكل حضارة خصائصها وسماتها وأسلوبها وطرازها ؛ ففن البناء القوطى وحساب التفاضل والتكامل وحروب الأسر والتصوير بالزيت وإنشاء السكك الحديدية والنظام الآلى الحديث ، وما إلى ذلك من مظاهر الحضارة الغربية ، تعبير جميعا عن الروح « الفاوستية » . ولم يكن من قبيل المصادفة — فى رأى اشبنجلر — أن الحضارة الأبولونية وجدت أسمى تعبير عنها فى النحت ، فى حين أن الثقافة الفاوستية كشفت عن نفسها فى الموسيقى .

وهناك فروق ملحوظة بين مختلف الثقافات ؛ فالفرد فى الحضارة الفاوستية مطبوع على حب السيطرة والنفوذ والاستعلاء ، وهو يحاول أن يبسط سلطانه على المكان والزمان ؛ وفى الحضارة الأبولونيــة يقف الفرد أوحديا معتصما بإبائه وكبريائه ، يساير غيره من الناس ويحتملهم ، ولـكنه ينأى بجانبــه ويلوذ بفرديته ، ونفسية الفرد فى الحضارة العربيــة ملتقى الخير والشر ، والظلمة والنور ؛ والحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة الفاوستية تاريخية النزعة ؛ والحضارة الأبولونية والحضارة الهندية لا تكلفان بالتاريخ ولا تعبآن به كثيراً .

والاعتقاد السائد هو أن الحضارة الغربية — أو الفاوستية — قد ورثت عناصر كثيرة من الحضارات السابقة ؛ ولـكن اشبنجلر ينكر ذلك ؛ فالديانة المسيحية مثلا من مخلفات الحضارة العربية ، وأرسطو مثلا من مخلفات الحضارة الأبولونية ، فكيف تنكر تأثيرهما فى الحضارة الغربية ؟ الأمر هين لأن الواقع فى زعم اشبنجلر أنه يوجد ثلاثة أنواع من المسيحية : المسيحية العربيــة وهى مسيحية المسيح ، ومسيحية الغرب وهى مسيحية هلدراند ولوثر ولويولا ، ومسيحية روسيا وهى مسيحية دستوفسكى التى ستسودهم فى الألف سنة القادمة ، لأن الحضارة الروسية فى العصر الحاضر فى دور الطفولة . والبوذية الهندية مختلفة عن البوذية الصينية ؛ وهنـاك ثلاثة أنواع من أرسطو : أرسطو الأبولونى ، وأرسطو العربى ، وأرسطو الفاوستى . وكذلك توجد أنواع مختلفة من الرياضيات والطبيعيات والـكيمياء والنحت والتصوير والآداب والثقافات . ويرى اشبنجلر أنه ليس فى قدرة حضارة من الحضارات أن تزيد فى ثروة الحضارة الأخرى أو تصلح منها ، وإنما قد تعترض نموها وتقضى عليها ؛ وفى رأيه أن الحضارة الروسية تنتظر اليوم الذى تنطلق فيه من تأثير الحضارة الغربية التى أرغمها على قبولهـا بطرس الأكبر ، لتكشف عن ممكناتها وتظهر شخصيتها.

والواقع أن مخالفة اشبنجلر لإجماع المؤرخين على أن

الحضارة القديمة قد أثرت في الحضارة الأوربية الحديثة ، تكشف عن بعض نواحي الضعف في فلسفته ؛ وقد لاحظ ذلك أحد نقاده ، وهو الأستاذ ريشارد جروتماخر فقال : « وصف اشبنجلر لعصر إحياء العلوم من أضعف فصول كتابه ، لأنه رفض أن يعترف بأن هذا المظهر كان إحياءً صادقاً للروح القديمة » .

وفكرة أن لكل حضارة عمرها المحدود ، وأنها تمر بأدوار الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة ، قائمة على تشبيه حياة الحضارة بحياة الفرد ، وهي فكرة كثيراً ما تفتح الباب على مصراعيه للمغالطة والسفسطة ؛ والذي يتأمل الكثير من حوادث التاريخ يدرك أن بعض الأسباب التي أدت إلى سقوط الحضارات وانهيار بناء الأمم لم تكن جميعها داخلية ؛ فالدولة الرومانية مثلا هوجمت من الشمال ومن الشرق ، وقد دق ناقوس الخراب عندما هزمت جموع القوط الجيوش الرومانية في أدريانوبل سنة ٣٧٨ ، وقتلوا الامبراطور فالنز . وحضارة الشرق الأدنى أغرقتها وقضت عليها جموع التتار التي أقبلت من آسيا الوسطى . وحضارة المكسيك الأصلية حطمها الأسبانيون . وتغيير طرق التجارة رفع أمما وأسقط أمما أخرى . والظروف الخارجية لها تأثير كبير في حياة الأمم ومصائرها واتجاه الحضارات وحياتها . وليس يكفي في تعليل فناء الحضارات وتدهور الأمم الإشارة إلى نفاد الحيوية وإحصاء العلل الداخلية .

هذه لمحة موجزة عن فلسفة اشبنجلر التاريخية التي حاول الأستاذ بدوي أن يعرضها على قرائه في كتابه القيم الحديث عن اشبنجلر ، وهو الكتاب الثاني من السلسلة النافعة التي ينتوي الأستاذ إصدارها ؛ وأرجو أن يعان على ذلك ، فإن الحياة الفكرية عندنا في حاجة ماسة إلى أمثال هذه الدراسات الجدية ؛ وكتاب الأستاذ بدوي ليس من الكتب السهلة اليسيرة ، فهو يضطر قارئه إلى أن يستجمع فكره ، ويحشد انتباهه ؛ وقد عرض في المقدمة لفلسفة برجسون ، وآراء ماكس بلانك ، وآراء درايش في المذهب الحيوي ، وآراء دلتاي في التفريق بين العلوم التاريخية والعلوم الطبيعية .

وكتابه الجديد على طراز كتابه السابق عن فلسفة نيتشه ؛ فهو يمضي فيه قدما إلى موضوعه دون أن يمهد له بحديث عن المؤلف ونشأته ومصادر ثقافته ، والعوامل التي أثرت في تكوينه ؛ وربما كان هذا العيب في كتابه عن نيتشه أكثر ظهوراً منه في كتابه عن اشبنجلر ، لأن اشبنجلر كان « شخصية بغير شخصية » كما قال عنه صاحبه جروتماخر ، وحياته الخاصة ليست بذات قيمة كبيرة على ما يظهر في توجيه أفكاره ؛ وحالة نيتشه تختلف عن ذلك ، ودراسة حياته تعيننا على فهم أفكاره وإدراك مراميه ؛ ويخيل إلى أن الأستاذ بدوي ينحو نحو زرادشت في كتابته عن نيتشه وغيره من الكتاب . ولعل الأستاذ بدوي أكثر إسرافا من زرادشت في إحراق البخور أمام أبطال مؤلفاته ، فهو يكتب عن نيتشه كتابة المتحمس المأخوذ ، ويتحدث عن اشبنجلر ونظرياته تحدث المريد عن القطب ؛ وكأنه يزف إلى قارئه رسالة سماوية أو موسيقى علوية . وإني أرجح أن الأستاذ بدوي لو اطلع على آراء المفكر الأمريكي سوروكين ، والمفكر الروسي تيمنيف ، لطامن من حماسته لآراء اشبنجلر .

وقد كنت أود أن يشير الأستاذ بدوي إلى المراجع التي اعتمد عليها ونقل منها ، فهو في صفحة ٦٣ مثلا ينقل رأيا من هجل دون أن يذكر المرجع . وأحسب أن إغفال ذكر المراجع يخالف التقاليد الجامعية .

وكتاب الأستاذ بدوي من حيث هو مقدمة لفلسفة اشبنجلر التاريخية صالح إلى حد كبير ، ومجهوده جدير بالثناء والتشجيع .

علي أدهم

بين ابن المعتز وابن المعز

للدكتور عبد الوهاب عزام

أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، علَم من أعلام الأدب العربي ، وأديب من أولى القرائح النافذة المخترعة ، ومؤلف من السابقين إلى التأليف في البيان والشعر وأخبار الشعراء والغناء ، وشعره وأخباره من النباهة بالمكانة التي لا تحوج إلى البيان في هذا المقال ، وهو شاعر بني العباس : أشاد بمآثرهم ، وجادل عن خلافتهم ، وتصدى للطالبيِّين يرد عليهم حججهم في الخلافة ، ويعاتبهم مرة ويهجو أخرى .

ولد سنة ٢٤٩ هـ وتوفى سنة ٢٩٤ هـ مقتولا في فتنة بويع فيها بالخلافة ، فلم تدم له إلا يوما واحداً .

— ٢ —

وتميم بن المعز لدين الله الفاطمي ولد في المغرب سنة ٣٣٧ ، وقدم إلى مصر مع أبيه سنة ٣٦٢ ، وتوفى في خلافة أخيه العزيز بالله سنة ٣٧٤ .

وكان شاعراً مكثراً مفتناً في شعره ، صوّر فيه كثيراً من مناظر الطبيعة ، وبدائع الصناعة في مصر . واجتمع له ما اجتمع لابن المعتز من أسباب العزة والفخر ووسائل النعيم واللهو ، وحرم كلاهما الخلافة ، ولكن ابن المعز لم يجد في مصر أمراً مضطرباً يؤمل فيه الثورة على أخيه ، ولا يخلو شعره من أبيات تنمّ عن هُمم ووشايات خفيّة بينه وبين أخيه .

وكان تميم شاعر بني فاطمة ، كما كان ابن المعتز شاعر بني العباس . وقد حفزه هذا التشابه والتناظر إلى أن يتشبه بابن المعتز في شعره ، على قدر ما واتاه طبعه وأدبه .

ولست أريد الموازنة بين الرجلين في هذا المقال ، ولا المقايسة بين ما قاله ابن المعتز عصبية لبني العباس ، وما قاله ابن المعز عصبية لبني عليّ ؛ ولكني أعرض على القارىء قصيدتين نقيضتين يظهر فيهما مجادلة ابن المعز لابن المعتز في مآثر بيتيهما صريحة شديدة .

ولا ينسى القارىء أن تميما ولد بعد وفاة عبد الله بإحدى وأربعين سنة .

قصيدة ابن المعتز مطلعها :

ألا من لعينٍ وتسكابها   تشكّى القذى وبكاها بها

ويقول بعد مقدمة يخلط فيها الغزل ووصف الخيل والإبل ، بالإشارة إلى مقصده :

نصحت بني رحمي لو وعوا   نصيحة برّ بأنسابها
وقد ركبوا بغيهم وارتقوا   زلالاً توذي بركّابها
وراموا فرائس أسد الشرى   وقد نشبت بين أنيابها
دعوا الأسد تفرس ثم اشبعوا   بما تدع الأسدُ في غابها
قتلنا أميــة في دارها   ونحن أحق بأسلابها
وكم عصبةٍ قد سقت منكم   خلافةُ صاباً بأكوابها
إذا ما دنوتم تلقتكم   زبوناً وقرّبت بحلّابها
ولما أبى الله أن تملكوا   نهضنا إليها وقمنا بها
وما ردّ حجّابُها وافدا   لنا إذ وقفنا بأبوابها
كقطب الرحى وافقت أختها   دعونا بها وغلبنا بها
ونحن ورثنا ثياب النبيّ   فلِمْ تجذبون بأهدابها ؟
لكم رحم يا بني بنته   ولكن بنو العم أولى بها
به غسل الله محْل الحجاز   وأبرأها بعد أوصابها
ويوم حنين تداعيتم   وقد أبدت الحرب عن نابها

———

فهلا بني عمنا إنها   عطية ربّ حبانا بها
وكانت تزلزل في العالمين   فشدّت إلينا بأطنابها
وأقسم أنكمُ تعلمون   بأنا لها خير أربابها

احتجاج ابن المعتز في هذه الأبيات يقوم على ما فعل العباسيون لأخذ الخلافة من بني أمية ، وأنهم حازوها قسراً ، ودافعوا عنها وحافظوا عليها ، وأنهم أولى بميراث

الرسول إذ كان العباس عم الرسول أولى بميراثه من بنى بنته ، وهى حجة طالما احتج بها العباسيون وأنصارهم ، وأشاد بها الشعراء، منذ قال مروان بن أبى حفصة قصيدته التى يقول فيها :

أنى يكون ، وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

فتلقفها عنه أبان اللاحق ورددها فى شعره .

ثم ننظر كيف رد ابن المعز حجج ابن المعتز فى قصيدة على الوزن والقافية .

بدأ قصيدته بهذه الأبيات :

إذا قرع الشوق حب القلوب   كواها بشدة تلهابها
أرقت لبرق أضاء الدجون   وأذهب حلكة أطنابها
سرى والدجنة منشورة   فرق أعلام أثوابها

ويصف السحاب والبرق والمطر والروض ومجلس الشراب ، ثم يقول :

دعانى فلست بمستحسن   لطرق المجون وآدابها
ألا قل لمن ضل من هاشم   ورام اللحوق بأربابها :
أأوساطها مثل أطرافها   أأرؤسها مثل أذنابها
أعباسها كأبى حربها   على وقاتل نصابها
وأولها مؤمنا بالإله   وأول هادم أنصابها
بنى هاشم قد تعاميتم   تخلوا المعالى لأصحابها
أعباسكم كان سيف النبى   إذا أبدت الحرب عن نابها ؟
أعباسكم كان فى بدره   يذود الكتائب عن غابها ؟
أعباسكم قاتل المشركين   جهاراً ومالك أسلابها ؟
أعباسكم كوصى النبى   ومعطى الرغاب لطلابها ؟
أعباسكم شرح المشكلات   وفتح مغلق أبوابها ؟
عجبت لمرتكب بتيه   غوى الفعالة كذابها
يقول فينظم زور الكلام   ويحكم تنميق إذهابها :
« لكم حرمة يا بنى بنته   ولكن بنو العم أولى بها »
وكيف يحوز سهام البنين   بنو العم ؟ أف لغصابها !
بذا أنزل الله آى القران   أتعمون عن نص إعرابها ؟
لقد جار فى القول عبد الإله(١)   وقاس المطايا بركابها
ونحن لبسنا ثياب النبى   وأنتم جذبتم بهدابها
ونحن بنوه ووراثه   وأهل الوراثة أولى بها
وفينا الإمامة لا فيكم   ونحن أحق بجلبابها
ومن لكم يا بنى عمه   بمثل البتول وإنجابها
وما لكم كوصى النبى   أب ، فتراموا(٢) بخشابها
ألسنا لباب بنى هاشم   وساداتكم عند نسابها
ألسنا سبقنا لغاياتها   ألسنا ذهبنا بأحسابها
بنا صلتم وبنا طلتم   وليس الولاة ككتابها
ولا تسفهوا آنفاً بالكتاب   فذلك أشد لأتعابها(٣)
فأنتم كلحن فواق الفخار   ونحن غدونا كإعرابها

ويتبين أن ابن المعز ينقض كلام ابن المعتز بتفضيل على على عمه العباس ، فى سبقه إلى الإسلام ، وشهوده الغزوات مع الرسول ، وبأنه الوصى ، والوصاية من قواعد مذهب الشيعة الإمامية ، وعندهم أن الرسول صلوات الله عليه قد أوصى لعلى بالإمامة ، وأوصى على للحسن وهلم جراً ، على اختلاف شيعهم فى سوق هذه الوصاية . وكذلك يفضل تميم علياً بأنه فقه مشكلات الدين وشرحها على رأى الشيعة فى علم الأئمة . ثم ينتقل ابن المعز إلى دعوى الإرث ، فيبين أن العلويين بنو الرسول ، فهم أولى بميراثه من عمه . وفى كلتا الدعويين بعض المغالطة . فالعلويون ليسوا بنى البنات فقط كما ادعى العباسيون ، بل هم بنو الأعمام أيضاً ، وإن كان العباس وهو العم يحجب علياً وهو ابن العم . ودعوى العلويين أنهم بنو الرسول فى دعوى الإرث فيها ما فيها . على أن قياس الخلافة بميراث المال أصل الغلط كله .

ثم رد حجة ابن المعز فى جهاد العباسيين لأخذ

(١) يعنى عبد الله بن المعتز .
(٢) مضارع رامى .
(٣) لعل الصواب :
ولا تسفهوا آنا بالكتاب   فذاك أشد لإتعابها

نماذج بشرية :

هاملت – Hamlet

للأستاذ محمد مندور

« قتل عم هملت أباه ، وكان على هملت أن ينتقم لأبيه ، وعلى ذلك انعقد عزمه ، ولكنه أخذ فى التردد . وهاك تحليل عوامله النفسية » .

لقد كان على هملت المهذب النفس النبيل الخلق الواسع الادراك ، أن يرتكب جريمة كانت ترتكب فى عهود الجهالة الأولى ، ولقد ترتكب اليوم ، ولكن من نفس غير نفسه . ولكم تحدث إليه عمه القاتل المجرم عن قواعد الأخلاق وما يطلب إليها من أن تكون لحمة الحياة الاجتماعية تمسكها من التفكك والانهيار ، وإنه ليعلم نفاق ذلك العم الذى داس تلك الأخلاق تحت أقدامه عند ما كان فى ذلك نفعه وهوى نفسه ؛ ولكنه رغم ذلك لا يستطيع الإفلات من تلك القيود التى درجت عليها طفولته وشبابه ، فهو ثائر خاضع لا يدرى أى سبيل يسلك . وقد ألقت تربيته الأولى ، وتفكيره المتصل ، والكتب الكثيرة التى قرأها فى سنى دراسته الجامعية الطويلة ، معانى العدل والحرص على التمكن من الحقيقة ؛ ولكن كيف له أن يصل إلى ذلك والجرائم من حوله تحاك خيوطها قدراً ، وقد تلفت النفوس بما يصطخب فيها من كذب ومكر وخداع ، حتى أصبح العدل حلماً ، وأضحت الحقيقة وهماً ؟ ولكنه رغم ذلك متسائل : ترى أصدق الشبح ؟ وهل من العدل أن تقتل نفساً بشرية لما سمعناه من ذلك الشبح الذى لم نره إلا وسط غياهب الظلام ؟ لهذا تردد هملت وأرجأ الانتقام إلى أن يستوثق من جريمة المجرم فى حفلة التمثيل التى حمل الممثلين فيها على أن يمثلوا جريمة قتل أبيه أمام أعين الملك والملكة الداعرة المضطربة . وكان هذا إرجاءً لتنفيذ ما اعتزم ، وما جريمته فى ذلك وقد خلق كألسست Alceste يأبى الإيذاء كله أن يصدر عن غير الحق والإيمان ، فاذا أعوزه اليقين فلينتظر وليكن ما يكون . وما إن ظفر بما يبقى من ثقة حتى خف إلى والدته يعنفها بأمر القول . وما إن أحس بحركة خلف الستار حتى انقض على من خلفه يقتله ، فاذا به لسوء الطالع بولونيوس Polonius كبير أمناء الملك لا الملك نفسه . ومن عجب أن تمل تلك النفس النبيلة بنشوة الثقة فتخف إلى العمل ؛ وتأبى عبقرية شكسبير أن يقتل هملت وجهاً لوجه ، بل من خلف ستار ، حتى لكأن تلك النفس المهذبة تسمو من أن تريق الدماء مكشوفة الوجه .

ولقد تتعقد الأمور فيتوقف هملت عن إنفاذ عزمه ، لا لوحى من ضمير ، ولا لحرص على الحق والعدل ، بل لإحساس دينى عميق ، إحساس الرجل الذى يعلم أن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وقت الصلاة ؛ وقد رأى هملت قاتل أبيه ساعة منفرداً وقد انهمك فى الصلاة ، وكانت فرصة سانحة للاجهاز عليه ، ومع ذلك لم يفعل . وهاك حجته :

الخلافة ، بأنهم أخذوها باسم العلويين ، وكانت الدعوة إلى الرضا من آل محمد ، وكان بنو علىّ أقرب إلى ظن الناس ، لأنهم طالبوا بالخلافة من قبل ، وقُتلوا فى سبيلها أيام الأمويين .

وبعد ، فتلك أمة قد خلت ، وليست تعنينا هذه الحجج فى قليل ولا كثير ؛ ولكنها طرفة أدبية أن تتمثل هذين الأديبين ، يجادل لاحقهما السابق ، ويفند آراءه ، وفى ديوانى الشاعرين قصائد أخرى تشتمل على ضروب من هذه الحجج .

عبد الوهاب عزام

« ها هو يصلي . إن باستطاعتي الآن أن أرسله إلى العالم الآخر . وإني لفاعل ذلك . . آه ! إذاً لذهب إلى الجنة ، ولكان انتقاماً عجيباً ! لنفكر في الأمر : يقتل مجرم أبي ، ثم آتي أنا ، ولده الوحيد ، فأرسل هذا المجرم إلى الجنة ؟ ! يالله ! ! إن هذا ليس انتقاما ، بل مكافأة طيبة على جرم فظيع ، لقد قتل أبي بقسوة وحشية ؛ وقد أتخله الهضم فنام ، وتناثرت من حوله خطاياه كما تتناثر ورود الربيع ؛ وأما عن حسابه كيف قدمه بين يدي ربه ، فذلك ما لا يعلمه إلى الله ، وإن كان أكبر الظن أن حسابه جاء عسيراً ؛ ثم آتي أنا فأعتقد أني قد انتقمت له بقتل هذا الرجل وهو في سبيل تطهير نفسه ، وقد أخذ يعدها لرحلتها الأخيرة أحسن إعداد ؟ ! لا . إلى الغمد أيها السيف حتى تحين لك ضربة أشد من هذه هولا ، عند ما يكون سكران أو نائما أو مقامراً أو ساخطاً على خالقه ، أو معنياً بأي أمر لا يحمل ذرة من الفضيلة التي تنجو بصاحبها ؛ عندئذ يحق لك أيها السيف أن تضرب ضربة تجعله يصعد إلى السماء بأعقاب أرجله ، فتهوى نفسه وقد تكاثف بها من الظلمات قدر ما يتكاثف في جهنم » .

وفي الحق أنها لحجج غريبة معقدة ، فيها رقة الإيمان ، وفيها قسوة الرغبة في انتقام مر ؛ وكان هذا إحجاما آخر عن تنفيذ ما اعتزم .

كل هؤلاء مشاعر نفسية تعوق هملت عن العمل ، وفي بصيرته من الوضوح ما ينير كل جوانب نفسه ، ولكنه ضوء يكاد يعشي الأبصار ، هو ضوء الهذيان ، ضوء نفس قد تفتحت أمامها أبواب العالم الآخر فرأت أشباحه فاستحالت حياتها حلماً مستمراً لا يراه أحد غيرها ، لأن أحداً لا يشاركها تلك الحياة ، فهي فريدة في بابها . وهل أدل على ذلك من حديث أوفيليا Ophilia عنه وقد لاقاها بهو القصر : « لقد أخذني من معصمي وضغطه ضغطا قويا ، ثم ارتد عني إلى الخلف طول ذراع ، ورفع يده الأخرى مفتوحة فوق حاجبيه فيما يشبه حافة القبعة ، وأخذ يحدق في وجهي بإمعان حتى لكأنه يريد أن يصورني ، ومكث وقتاً طويلا في هذا الوضع ، ثم هز ذراعي قليلا ، ورفع رأسه وخفضه ثلاث مرات متتابعات هكذا ، ثم أرسل زفرة حزينة عميقة خلتها قد هزت كيانه وذهبت بروحه ، ثم خلى سبيلي وسار عني ورأسه ملتفت إلي ، واستمر في السير بغير حاجة إلى عينين تنيران له الطريق ، وبصره معلق بي ضياؤه حتى اختفى » .

وظنت أوفيليا به الجنون ، ولكنا لا نعلم بعد أكان مجنونا حقاً أم هو هذيان نفس محمومة ؛ بل من يدرينا ؟ لعل موقفه هذا من أوفيليا كان إسرافا في شعور حقيق أراد منه إلى إقناعها بما يتصنع من جنون يتخذ منه وسيلة إلى الإفلات من رقابة تلك العيون التي بثها من حوله عمه الملك والتي كانت أوفيليا إحداها ، إذ أوهمها أبوها والملك أن هملت قد جن بسببها ، وأن من واجبها أن تقوم عليه ، وأن تخبر عما تلاحظه من أعراض شاذة يجب أن يسارع الكل إلى علاجها .

وفي الحق أن هملت قد وجد في تصنع الجنون شهوة عجيبة ! لقد خيل إليه أنه يحيا حلماً مستمرا ، أو يلعب دوراً أخاذاً ، وأن روحه روح فنان تعشق الفن وتفنى فيه ؛ وأي متعة أجل من أن تصنع الجنون لتقول كل حق وتحطم كل مواضعة ، وتملأ الوجود بكل قول لاذع يكشف عما في الأشياء والناس من قبح لا شك فيه ؟ وإن في قول هذا الجنون لحكمة تعلق الأبله بولونيوس هذه الكلمات : « عجيب ما في إجاباته أحياناً من عمق ! ولكم جرى الجنون بحكم يعجز العقل والعافية عن مثلها » . وأي نشوة تعدل نشوة هملت ، وقد أخذ يهذي حتى لاح هذيانه حكمة ؟ ترى أيكفينا إذاً أن نسمو فوق

منطق البشر المبتذل وعقلهم الوقور وحقائقهم الزائفة لألوح مجانين ؟

إن فى تصنع هملت للجنون لعجبا ؛ حتى ليحسب الحق محاكاته تكشير مجنون عن أنيابه ، وهى بعدُ سخرية رجل ممتاز من حماقاتهم . أولا ترى إلى أحد رجال البلاط وقد أخذ يحتال عليه ليعرف سر نفسه فلم يحظ منه بجواب غير هذا

هملت — أتعرف كيف تلعب على الزمار ؟

رجل البلاط — لا يا سيدى ، فما عهدت اللعب على هذه الآلة .

— ولم لا واللعب عليها أسهل من الكذب ؟ ما عليك إلا أن تضع بإحكام أصابعك وإبهامك فوق تلك الخروق ، وأن تنفخ فى الناب ثم تستمع إلى موسيقى عذبة . انظر ! ها هى المفاتيح !

— ولكنى يا سيدى لا أستطيع استخدامها بحيث تعطى صوتاً منسجماً ، وذلك ما لم أوهبه .

— إذاً أى رأى تظن بى ؟ تريد أن تتخذنى ألعوبة لك وقد لاحت عليك رغبة فى معرفة مفاتيح نفسى ، تحاول أن تصل بها إلى سرى الدفين ، وأن تحمل أوتار روحى على أن تعطى نغماتها على طول السلم ، ثم تعجزك هذه الآلة الصغيرة ، فلا تملك أن تحملها على أن تجود عما فيها من نغمات عذاب ؟ أتظن إذاً أنه من الأسهل أن تلعب بى من أن تلعب بالزمار ؟ .

وأحس هملت فى مثل هذا الحوار — وما أكثر ما حاور — بضرب من التفوق على الغير ، أحسب أنه وجد فيه من الرضى ما طامن من سخطه على نفسه وضيقه بتقاعده عن العمل . وكيف لا يطرب المحب بالأفكار والتغلب على الرجال وقد نمت ثقافته نمواً حمله على التحمس لكل فكرة يرسلها سافرة أو يطويها مستترة خلف ما ينشر فوقها عامداً من أغشية الجنون . هملت من رجال الفكر ، وهملت فنان يلعب دوراً ، وقد انغمس فى الأفكار كما انغمس فى الدور الذى يلعب ، فألهاه ذلك عن واجب العمل .

أو ما ترى عند ما يطول عهدنا بالدرس فنستمر فى تقليب الأفكار بعد أن يكون عهد العمل قد حان ، كيف أننا نفقد كل قدرة على العمل السريع الحاسم ، وننفق أوقاتنا فى التفكير فيما نعمل ، أو ما نريد أن نعمل ، نتناوله بالتحليل وتحديد ما بينه وبين أنفسنا من علاقات أدبية ، وبين قواعد الأخلاق ومواضعات الجماعة ؟ وكذلك كان هملت ، فقد اتخذ من التفكير فى كل ما يعرض له عيداً من أعياد العقل ؛ وإنه ليحلو له أن يقيم من كل جزئية حكماً عاماً أو مبدأ شاملا ، وإنه ليمر عند عودته من انجلترا بإحدى المقابر ، فيتمهل ليبادل الحفارين حواراً عن مصائر البشر ، فيه من العمق ما يفزع ويملأ النفوس مرارة ! أو ما تسمع إليه يتحدث عن الاسكندر الأكبر ، وقد ذكره به ما يرى من جماجم ؟

« مات الاسكندر ، ودفن الاسكندر ، وارتد الاسكندر تراباً . والتراب من الأرض ، ومن التراب يصنع اللاط ؛ ولكن لم إذاً لم يستخدم ذلك التراب فى سد برميل بيرة بدلا من خلق الاسكندر » .

وطال بهملت هذا التحليل والبحث وراء الممكنات — مقدمات ونتائج — حتى شقيت حياته وتفككت ، وحتى لم يعد يعلم ماذا يأتى وماذا يدع ، بل ما سر وجوده فى هذه الحياة أو حرصه على البقاء بها ؛ وتلك حالة نفسية يستحيل أن نعمل معها شيئاً . ومن منا لا يذكر نجواه الرائعة :

« كيف السبيل ؟ أموت أم حياة ؟ ! ذلك موضع النظر ، وماندرى بعدُ أيهما أنبل : أن نتلقى صابرين سهام

القضاء الجارحة ، أم أن ننهض لأمواج المحن نتدافعها فندفعها ؟ وهل الموت إلا نوم يضع حداً لآلام القلب وجراح الجسم التي لا عداد لها ؟ أليس في ذلك ما يغرى ؟ الموت نوم قد تتخلله الأحلام ؛ ولكن آه ! ترى أى أحلام تكون وقد طرحنا عناء الحياة ؟ ذلك ما يدعونا إلى التردد ، وإن يكن فيه ما يمد من أجل محنتنا ، إذ من هذا الذى يستطيع أن يحتمل سياط الزمن وازدراءه وظلم الظالمين وصلف الكبرياء ، ووخزات حب عاثر ، وبطء تحقق العدل ، ووقاحة ذوى الأمر ، وإعراض من دوننا قدرة ، وهو يعلم أن باستطاعته أن يضع حداً لكل ذلك بضربة سيف ؟ ! ! من هذا الذى يقبل أن يحنى ظهره للأثقال وهو يئن ويتصبب عرقاً من عبء الحياة لولا خوف ما بعد الحياة ؟ ومن بعدها بقاع مجهولة لم يعد منها مسافر قط ، خوف يشل منا الارادة ، فنفضل راضين آلاماً نعرفها على آلام نجهلها . . . . »

وهكذا ما يزال هملت يتمم النظر فى الحياة ويستوضح كنهها ، بل وما بعد الحياة ، حتى تتساقط من نفسه كل القيم ، ويدلف إلى الايمان بالعدم المطلق إن كانت نفسه لا تزال تستطيع إيماناً . ألا تراه وقد تنكر لذلك الحب الساذج الذى خيل إليه يوماً ما أنه مؤمن به راض عنه مطمئن إليه ، وقد أصبحت حياته كلها سراباً ؟ استمع إليه يخاطب أوفيليا التى طالما سألها أن تدعو الله فى صلواتها أن يغفر له ما أخطأ فيه :

« إلى الدير ! . . . فيم حرصك على أن تصيرى أماً لآثمين ؟ ! ها أنا ذا فيما أظن رجل شريف ، ومع ذلك فباستطاعتى أن أتهم نفسى بآثام يخيل إلىّ معها أنه ربما كان من الخير أن لم تلدنى أمى . وأنا رجل مسرف الكبرياء ، مأخوذ بشهوة الانتقام ونزعات الطموح ، رجل قد أخذت بتلابيبه مغريات بالشر أكبر من أن يحتويها فكر أو يتصورها خيال أو يتسع لتحقيقها زمن . . . . أى نفع يرتجى من رجل مثلى يزحف بين الأرض والسماء ؟ ! إننا جميعاً أوغاد جبناء . حذار حذار أن تثق بأحد منا ! هلمى ! حتى الحطمى ! إلى الدير ! إلى الدير » .

أى مرارة أقسى من تلك ؟ ! وماذا يستطيع رجل نفذت بصيرته إلى أعماق الحياة فلم ير فيها إلا ظلاماً ؟ ماذا يستطيع رجل حطم عقله حياته ؟ ! ماذا يستطيع رجل فقد الثقة فى كل شىء حتى فى قلب المرأة الذى لا نعرف أحفظ منه لود ولا أحنى على ضعف ؟ !

هنا بلغت مأساة هملت أقصاها ، وقد آمن أن لا خير فى الحياة ، ولا خير فى وجوده بها . أما تراه متنكراً لكل شىء ولكل أحد ؟ وإنا لنلتمسون له المغفرة ، فإن تشاؤمه له ما يبرره ، وإنه لتشاؤم نفس كبيرة !

هذه مأساة هملت ؛ ولكم كثرت من حولها الأقاويل : فمن قائل إنها مأساة جنون ، ومن قائل إن هى إلا شهوة انتقام ، ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفى الحق أنهم جميعاً لمخطئون ،

ليست مأساة هملت شيئاً من كل هذا ، وإنما هى مأساة رجال الفكر ، أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شىء ، فنفذت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، فتشعبت بهم أوجه الرأى ، وتحطمت بين أيديهم حياتهم التى اتخذوا موضعاً للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانباً واحداً ، فيخفون إلى تنفيذ ما اعتزموا ، بينما العقول الكبيرة تلمح فى كل أمر ألف جانب وجانب ، فما تزال حائرة مترددة حتى تقف فى مكانها لا تريم إلا أن يكون قضاء محتوم ؟ !

محمد مندور

مدرس بكلية الآداب

هل مات طلعت حرب ؟

بقلم الأستاذ صالح جودت

في الساعة السادسة من صبيحة الأربعاء الفائت ، في عزلة هادئة نائية قريبة من شاطئ البحر ، صحا طلعت حرب من مخدعه ، ومشى إلى مقعده ، فما كاد يستقر عليه ، حتى قال لخادمه :

— إنني متعب . . .

وكانت الكلمة كبيرة منه ، غريبة عليه ، فإن طلعت حرب لم يقلها في حياته ، وهو الذي حمل الأمانة التي لم يحملها رجل قبله ، فما شكا منكباه ، ولا تأود ساعداه .

قالها ، وإذا بسبابته ترتفع شاهدة بأن لا إله إلا الله ، وأغفى فلم يصح ثانية ، وصعدت روحه إلى ربها راضية مرضية .

وترامى إليّ النبأ ، فسرتُ إلى بيته ؛ وقال لي صاحبي ونحن داخلان :

— هذه آخر مرة تدخل فيها هذا البيت !

فنظرتُ إلى البناء الحزين ، الحافل بالتواريخ والذكريات . نظرت إليه أودعه بعينين غاصتين بالدموع ، وأسأله : أين ربه ، وأين سامره في كل مساء ؟

ونظرت إلى الشرفة الحزينة ، فكأن لكل حجر منها لساناً يروى ، وقلباً يدمى ، وعيناً تنفجر !

في هذه الشرفة ، قضيتُ الشهور الخمسة الأخيرة مع طلعت حرب ، ألقاه في الصباح الباكر هناك ، فنقضي أكثر اليوم حتى العصر ، ثم أودعه لألقاه في الصباح التالي .

ولم يكن معنا ثالث في أكثر الأيام . وكان طلعت حرب يطمئن إليّ ، ويقول لي ما لا يقول لغيري ؛ فمرت الشهور الخمسة وأنا أسمع منه وأصغي إليه ، وقلما أتكلم .

حدثني عن كل شيء .

حدثني عن حياته ، وليست حياته بالأمر الهين ، فإنها حقبة الانتقال في تاريخ مصر ، تدخل فيها الكثيرون من ملوك الشرق وأمرائه ، ومن زعمائه ورواد نهضته .

حدثني عن قضية العرب وقضية الاسلام ، وعن قضية الاستقلال وقضية الدستور ، وعن قضية الأدب والاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وحدثني عن مصطفى كامل ومحمد فريد ، والأستاذ الامام ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وعمر لطفي ، وأحمد شوقي .

وأطلعني على خبيئة نفسه ، وعلى أوراق وخطابات ووثائق وأنباء ، لم يعرفها أحد ، ولم يسمع بها أحد ، وهي للتاريخ ، لم يئن الأوان للحديث عنها بعد ؛ ولكنها جرت بأقدار كبيرة وأحداث جليلة في تاريخ مصر والشرق .

وسيأتي يوم قريب أو بعيد ، تتاح فيه فرصة لكشف الحجاب من هذه الأقدار والأحداث ؛ ويومئذ يعرف الناس أن الرجل الذي تنعاه اليوم إلى الشرقين ، ليس بالرجل الذي بنى بنك مصر ومؤسساته الخالدات فحسب . بل إنه الرجل الذي لعب أكبر دور وأكرم دور في الحياة الاستقلالية لمصر والشرق .

إن الرجل الذي فقدته مصر يوم الاربعاء الفائت ، رجل متعدد الشخصيات ؛ وإذا كانت الظروف غير

الواتية قد حالت دون أن أحدث الناس عنه كزعيم سياسي ، فإني لتارك هذا إلى يوم أحسن من هذه الأيام ، وإني لمحدثهم اليوم عن شخصياته الأخر في إيجاز ، غير زعيم بإنصافه الانصاف الذي هو أهل له :

الزعيم الأدبي :

بدأ طلعت حرب حياته أديباً يؤلف الكتب ويكتب للصحف ، ويحفظ الشعر ويرويه ، وكان جميل الأسلوب ، حلو الفكرة ، وقد عثرتُ بين مخطوطات المرحوم حفني ناصف على مخطوطة عنوانها « ترجمة حياة حفني ناصف بقلمه — كتبها بناءً على رغبة السلطان حسين كامل ، ورفعها إلى عظمته في مناسبة خاصة .

وفي هذه المخطوطة يقول حفني ناصف : « واشتغلتُ بتدريس الانشاء القضائي والإنشاء العام بمدرسة الحقوق ، فنبغ على يدي من تلاميذها الكثيرون ، ومنهم طلعت حرب و و و . . . . وغيرهم ممن لم تنجب مدرسة الحقوق أنبغ منهم في الانشاء والتحرير » .

وشُغل طلعت حرب بالصحافة حينا ، فكانت له آثار صحفية وأدبية بارزة بجريدة « الجريدة » — إذ كان مراقباً لها — وبغيرها من صحف ذلك العصر ، ثم شغلته عن الأدب شواغل الاقتصاد . ولكنه بقي خلال حياته كلها شديد التأثر بحياة القلم الأولى ؛ وإنك لتلمح هذا جليا في أسلوب تقارير بنك مصر ، وفي أحاديثه وبحوثه ومحاضراته الاقتصادية جميعاً .

كنتُ أعرف منه هذا وأنا في ظله وهو في بنك مصر ، فكنتُ إذا قدمتُ له مذكرة في شأن من الشئون تأنقت في اختيار عباراتها ، حتى إذا قدمتها إليه نظر إليها وجعل يقرؤها ، فإذا راقته عبارة راح يستعيدها مثنى وثلاث وهو يبتسم ويقول : « العبارة دي حلوة يا اخويا » والنداء الأخير مأثور عنه .

ومن ثم كان حبه للأدباء والشعراء لا يقف عند حد ، ومن ثم كانت الصداقة بينه وبين المغفور له أمير الشعراء من الصداقات النادرة في هذا الزمان .

وقد شاء أن تكون نهاية حياته عوداً على بدء ، فكانت هوايته منذ اعتزاله ميدان الاقتصاد ، مكتبته الفذة التي جمعت نفائس كل علم وفن ، وكانت لكتب الأدب فيها الغلبة والسيادة .

وقال لي قبل وفاته بأسابيع قليلة :

— يا فلان ، اتصل بالدكتور منصور فهمي بك ، وبأولاد حفني ناصف ، واجمع ما يتيسر العثور عليه من مخطوطات حفني ، لأن الرجل لم يقدر حق قدره في هذا البلد ، وإني لطابع أدبه وناشره على الناس .

وفعلتُ ، وبدأتُ بجمع شتات شعر حفني ناصف ، ونسقته وقدمته إليه ، فكتب له مقدمة رائعة هي آخر ما كتب في حياته ، ثم اختطفته يد الموت ، فعادت مخطوطات حفني ناصف — مرة أخرى — إلى عالم الإهمال والنسيان .

الزعيم الاجتماعي :

أما زعامته الاجتماعية ، فقد عرف الناس الكثير من أمرها منذ قيام المرحوم قاسم أمين بحركته المعروفة لتحرير المرأة ونزع الحجاب .

وكان طلعت حرب لا يرى رأى قاسم أمين ، ولا يقره عليه ، فأخرج كتابين في الرد عليه ، هما : « تربية المرأة والحجاب » و « فصل الخطاب في تحرير المرأة والحجاب » .

وقد أخطأ الكثيرون في فهم دعوة طلعت حرب ،

فظنوا أنه إنما يخالف قاسما فى كل شىء من أمر المرأة ، على حين أن طلعت حرب قد أيد قاسما فى نصف دعواه ، وخالفه فى النصف الآخر . أما الأول فهو تربية المرأة وتعليمها وتثقيفها ، وأما الثانى فهو تحررها ، ونزع حجابها ، وخروجها إلى مجتمعات الرجال .

ولعل الأيام التى نجتازها قد جاءت بالحكم الصادق على دعوة كل من الرجلين ، بعد أن أصبح ينبوع موجة الانحلال فى الأسرة المصرية خارجا من خروج المرأة من خدرها .

الزعيم الاقتصادى :

وأما زعامته الاقتصادية ، فما يجوز لى أن أحدث الناس منها ، وقد رأوا بأعينهم ولمسوا بأيديهم آثارها فى مصر وما وراء مصر من شعوب تربطنا بها صلات الرحم أو اللغة أو الدين أو التجارة .

غير أن الذى أحب أن أنبه إليه ، أنه كان يسير فى إنشائه على سياسة ظاهرها إعزاز للاقتصاد القومى ، وباطنها إعزاز للعروبة والاسلام ، بتقريبه بين أمم الشرق ، ومحاولته استخلاص مرافقها لأبنائها دون الأجانب .

وقد جاءت فى هذا السبيل على يديه ثمرات طيبة ، واستحدث فى أثناء هذا السعى أحداثاً خاطرة ، منها جهده الكريم الذى كلله الله بالنجاح ، فى إعادة العلاقات الطيبة بين المملكة المصرية والمملكة العربية السعودية ، بعد أن سادها فتور سياسى طال وأمل .

فحديثنا عن طلعت حرب كزعيم اقتصادى ، يكون مكرراً مستعاداً ، قل أن نأتى فيه بجديد ؛ ولكن الأمة التى شكرت صنيعه فى هذا الميدان أيام السلام ، ينبغى لها أن يكون تخليدها له كراء أضعافاً مضاعفة من ذلك الشكر ، بعد أن أظهرت أيام الحرب روعة صنيع هذا الرجل العبقرى .

• • •

وبعد ، فقد كنت أريد أن أحدث القراء عنه كرجل ، وكانسان ، وكصديق ، إذا أحب أحداً لم يشعره بأن بينهما فارقاً ، على عظم الفارق !

كنت أحب أن أفعل هذا ، لولا أنه حديث طويل ، قد تسنح له فرصة أخرى .

هذا هو طلعت حرب ، الذى سرنا وراءه بالأمس إلى مستقره الأخير ، ليستريح طويلا كما يستريح القائد المنتصر عند نهاية المعركة .

فهل مات حقاً ؟ هل لنا أن نحسبه فى عداد الأموات ؟

معاذ الله ، فلنتأمل ما صنعت يداه ، وما صنعت أيدى الأحياء . ولنقل أيهم الحى ، وأيهم الميت !

صالح جودت

حول الحلف العربي

جاءنا هذا الخطاب من صاحب الامضاء :

قرأت وإخواني مقالاتكم الأخيرة بعنوان « الحلف العربي » عدد ١٣٦ ، فسررنا لكم بادئ الأمر ولمن بحثكم في طرق الموضوع ، ولكن — لسوء حظ الوحدة — ألفيناكم قد أهملتم قطراً شقيقاً متيماً بأخبار الحلف ، ومغرماً بأحاديث الوحدة ، قطراً هو من العربية في الصميم ، لا زال محافظاً على تراثها ومجدها رغم الأعاصير العاتية التي هبت عليه ، ولو أصابت غيره لما تماسكت أجزاؤه ، ذلك لأنه أوتي كهولا وشباناً مدججين بأخلاق وعادات عربية إسلامية ، دافع بها عن كيانه ، وروى الثرى من أجلها بدمائه ، وحاول أكثر من مرة أن يتصل بالعالم الشرقي ، ولكن سوء الحظ وسياسة الاستعمار التي منى بها لم يمكناه مما أراد . وأخيراً يرى أبناؤه رجالاً من خيرة رجالات العلم والأدب في مصر زعيمة الشرق يتكلمون عن الاسلام والحلف العربي وأقطاره ، ثم يمرون بهذا القطر الشقيق مر الكرام على لغو الكلام .

هذا القطر هو طرابلس — برقة « ليبيا » يؤسفنا كثيراً أن تتكلم شخصية مثل الأستاذ أحمد أمين عن حاضر الشرق ومستقبله ، فيتكلم عن الجزيرة وما جاورها ومصر وتونس الخ . ثم يتناسى أو ينسى جار مصر القريب ، بدون علة ولا ضرورة تملها ، إن هذا لشيء عجاب ! . . .

وفقني الله وإياكم لما فيه الصالح العام .

(ليبي)

وجاءتنا كتب أخرى بهذا المعنى من الأديب مصطفى بعيو الطرابلسي وغيره .

كما كتب إلينا بعض شبان المغرب يعترضون على تأخير ذكرهم في الوحدة العربية ، وجعلهم لا يدخلونها إلا بعد تكونها ، مع أن أهل تونس والجزائر ومراكش أقرب إلى أن يكونوا أعضاء في الوحدة من تركيا وإيران وأفغانستان .

واعترض فريق ثالث على إهمال ذكر السودان من الحلف العربي ، مع أنه أقرب إلى الحلف من غيره .

ونحن نشكر لهؤلاء المعترضين على اعتراضهم ، فأقل ما يدل عليه غيرتهم وتنبههم وتفتح آمالهم وحياة أمانيهم .

فأما عن طرابلس فقد فاتني ذكرها ، وليس نسيانها من قلة شأنها ، فقد برهنت بأعمالها وجهادها على أنها أمة لا يمكن أن يقضى الاستعمار عليها ! ولكن كم مرة عثر الكاتب على المعنى البعيد ولم يفطن للمعنى القريب ، وهو أقوم من البعيد ، وكم مرة بحثت الأم عن ابنها وهو على كتفها ! فإليهم أقدم المعذرة .

وأما الاعتراض الثاني من أهل تونس والجزائر ومراكش فلست في هذه المرة ناسياً ! ووجهة نظرى أن هذه البلاد في وضع شائك جداً ، تقوم في وجه تحالفها مع البلاد العربية الأخرى صعوبات لا يتغلب عليها إلا بالقوة والعنف ! فرأيت من الخير أن يتكون الحلف العربي القريب السهل ، والذى لا يقف في وجهه إلا اعتبارات تافهة ، يمكن التغلب عليها متى صدقت النية ، ثم إذا تكون كان انضمام غيره إليه ، وتذليل ما يعترضه من صعوبات أيسر وأهون .

وأما السودان فرأيي فيه أن قسمه الشمالي بحكم لغته وعنصره ودينه وبيئته يكون جزءاً من وحدة مصر ، له ما لها وعليه ما عليها ! وأما قسمه الجنوبي فنتركه خارج الحلف العربي ، وندعه للسياسات الأخرى تقرر مصيره .

هذا رأيي والله الموفق .

أحمد أمين

مع الكتب الجديدة :

١ – محمد فريد

هذا الكتاب الجديد للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك ، يشبع ظهوره حدثاً لما طال ترداده على ألسنة من يذكرون جهاد فريد في سبيل مصر .

وإذا كان الانتظار الطويل لتخليد ذكرى محمد فريد ، ينتهي بإصدار ذلك العمل الجليل من ترجمة حياته ، فهو بلا شك انتظار لم يذهب عبثاً . ذلك أن هذه الترجمة المدعمة بالمستندات والوثائق تكشف – إلى جانب ما تظهره من نواحي التاريخ المصري الحديث – عن بطولة نادرة لرجل كان في مكنته أن يعيش مرتاح البال موفور الصحة ، ولكنه آثر على ذلك أن يضحي بالراحة والصحة ، ورغد العيش ، في سبيل فكرة آمن بها وهي حق مصر في الحرية . بطولة فدائية ما أحوجنا إلى ذكرها وتقديرها وترسم خطاها .

ولقد تناول الرافعي بك في كتابه ، محمد فريد منذ نشأته إلى وفاته ، فعرض صورة لكفاح الحزب الوطني في سبيل الدستور والاستقلال في مصر والخارج ، ووضحت في الكتاب شخصية مؤلفه ، رجل القانون الذي لا يخطو خطوة إلا وفي يمينه وثائقه ، وفي يساره الوقائع ، يسردها ويحللها ويكشف عن مقدماتها ثم يسوق نتائجها . ووثائق هذا الكتاب عبارة عن رسائل من المرحوم محمد فريد بك وإليه ، ومقالات دبجها قلمه ، وخطب ألقى بعضها في مصر وبعضها في برلين وبروكسل وباريس . ويزيد من روعة العرض التاريخي أن كثيرا ممن وردت أسماؤهم فيه أحياء أو قريبو العهد بالحياة ، مما يسبغ على هذه الترجمة حياة الواقع وحرارته ، فهي إن لم تترق في التحليل الذي تقتضاه أساليب التراجم الحديثة ، فقد زخرت بمواد التحليل من أعمال وتصرفات وأقوال ورسائل . ولا يملك القارئ بإزاء ذلك الفيض الزاخر من الوثائق ذات القيمة في تاريخنا الحديث إلا أن يعجب بذلك المجهود ،



محمد فريد

وإلا أن يرى فيه مواد لأكثر من كتاب يوضح من شخصية ذلك الزعيم العظيم ، الذي لم تقتصر روح الوطنية والتفاني عليه وحده ، بل امتدت إلى أهل بيته ، فجعلت ابنته تكتب له وهو في أوربا والحكومة في مصر متربصة عودته ، لتدفع به إلى محاكمة لا تجهل نتيجتها ، قائلة : « ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش ، فذلك أشرف من أن يقال إنكم هربتم وما تحملتم الهوان في سبيل وطنكم » ، ثم تتوسل إليه « باسم الوطنية والحرية التي تضحون كل عزيز في سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن » ! !

وتلك صورة من شتى الصور الرائعة للوطنية الصادقة التي تكشف عنها صفحات الكتاب . وكم في الكتاب من صور وذكريات لفترة مجيدة من تاريخ الوطنية المصرية .

٢ – أرواح شاردة

« هذه الأرواح الشاردة في تيه الروح والعذاب والحب » . . ما أشبهها بالطيور الضالة التي تهبط طوراً

حتى تتلوث من أوحال الأرض ، وتسمو حيناً حتى لتكاد تسمع حفيف أجنحة الملائكة ، وحتى تطالع الانسانية بومضات من النور تبدو خلال الأوحال العالقة بأجنحتها . والناس بعد ذلك محيرون في الحكم على هذه الطيور أو تلك الأرواح . ولا زالت الحيرة تسود التفكير كلما عرضت روح منها لشئون الفكر .



بودلير

أجل . فما زال الأمر في « بودلير » أمر اجتهاد في التحليل والحكم حتى اليوم . فمن النقاد من لا يرى إلا النور المنعكس على صفحات شعره ، ومنهم من يرى تلك الأوحال العالقة به والتي تزكم الأنوف لكثرة ما تحمل من الخطايا والأدران . وما زال فيرلين يعاني بين الحين والحين ناقداً يثير جرح نفسه الدفين ، فينبش مأساته دون رحمة ، متوهماً أنه لا بد ملق على تلك المأساة ضوءاً جديداً يبدو من خلاله الشاعر أقل خطيئة وأنقى صفحة مما تركه غيره . وهؤلاء وأولئك لا يعمدون في نظرتهم إلى الشاعر اختلاف الوضع ، فكل منهم يراه من زاوية ، والشاعر هو هو ، هالروح الضال الشارد الذي يهبط حيناً ويعلو آخر .

وبودلير وفيرلين هما الروحان اللذان اختارهما صديقنا الشاعر على طه لكي يقدم بهما كتابه الجديد « أرواح شاردة » وما أجمل أن يكتب شاعر عن شاعر ؟ وما أحوج هذين بالذات ، فيرلين وبودلير ، إلى ريشة الشاعر ! إنها لأرفق بهما من أقلام النقاد التي لا تتورع أن تنقلب مشرطاً إذا دعا الأمر . وأين من ذلك ريشة الشاعر التي تكسو الخطايا ألواناً زاهية فتخطئها العيون حتى لتسميها جمالا ؟

أنظر إلى الشاعر يلتمس الأعذار للشاعر فيقول : « إن هذا الشاعر المسكين (بودلير) كان يحب المرأة ، ولكنها لم تكن تحبه ، وإنه كان ينشد الحلاوة عند النساء ، ولكنه كان سيء الحظ لديهن ، وهذا ما دفع به إلى تحديهن بالشر والكنود ، حتى أصبح يرى في الشيطان المثل الأعلى للجمال . . . »

ثم انظر بعد ذلك إلى نفس الشاعر حين يحاول أن يكون ناقداً يكتب بالقلم ويلجأ للمشرط : « وأرى من العبث الدفاع عن بودلير ، كما أن من السخرية القول أنه لم يكن واقعاً في الخطيئة أو متصلا بها اتصال هؤلاء الذين لا تشعرهم الطبيعة بفضيلة الايمان » .



فيرلين

ثم يمضي في سبيل النقاد ، فيسرد لك آراء ارثر سيمونس والكوك في بودلير ، وإذ يتحدث عن فيرلين

لا يكف عن إثارة ذلك الجو اللذيذ الذى يرتاح إليه من يدافعون عن الشاعر ويخففون من وقع مأساته ، فاذا ما خلف المأساة الاخلاقية محاطة بالغبار الذى يحلو لرمزية أن تحيطه به ، فقد مضى فى دراسته عنه كما كان عند بودلير متأرجحا بين حزم الناقد وحنان الشاعر .



شلى

وليت الأستاذ على طه مضى فى هذه الدراسات حتى نهاية كتابه ، فعرض بعض دراسات أخرى . وما نشك بهذا الرجاء فى قيمة ما ترجمه من شعر بعد ذلك ، وخصوصاً ترجمته لقصيدة شلى الخالدة « القبرة » ، وما نغمط حتى ذكرياته الأوربية عليه ! فالكتاب بأقسامه الثلاثة : الدراسات ، والشعر المترجم ، والذكريات الأوربية ، جدير بالاحتفال والعناية ، تكاد وحدة المصدر فيه كله ، وهى الثقافة الأوربيـة ، تلهى القارىء عما يفوته من وحدة الموضوع .

٣ – ويك عنتر

لما احتدم الطعن والنزال بين أتباع عنتر وأعدائه فى مكان ما بالبـادية ، وأحس الأولون برجحان كفة أعدائهم ، أهابوا بعنترة الفوارس أن يقبل ، فلم يبق لها إلا هو . ولقد أقبل عنترة وحل المشكل ، وفر الأعداء ، أو قتلوا ، وسجل عنترة فى شعره ذلك الحادث ، فقال :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها
قيل الفوارس ويك عنتر ! أقدم

وذهبت مثلا ، كما جد الجد افتقد ابن بجدتها بتلك الصيحة : « ويك عنتر » ، حتى جاء الشاب الأديب الأستاذ عادل كامل الحامى ، فاختارها عنواناً لمسرحيته ، وذهب الناس فى قراءة هذا العنوان وفى تفسيره شتى المذاهب ، فمنهم من قرأه كما تقرأ اللفظة الأجنبية « ويك إند » ، فاذا بها معنى « عنتر الضعيف » ، ومنهم من فهمها حين قرأها فى الاعلانات على أنها اسم لمستحضر طبى ! وتلك لعمرى أولى مفربات القصة .

أما عنترة الذى يبحث عنه المؤلف فى قصته ، فهو الرجل عموماً ، الرجل الكامل الرجولة ، الذى شح مثاله فى هذه الأيام بين الشباب ، على ما يرى المؤلف ذلك الشباب الذى يرى فيه أنه أصبح خاملا ، حتى ليرى « فى مسح ذقنه عناء الكولونيا بعد الحلاقة مجهوداً شاقاً » ! . .

وبذلك يعرض المؤلف طائفة من الناس تمثل نواحى الضعف فى المجتمع الذى تفتقد فيه الرجولة ؛ فذلك رب الأسرة الكسول يبلغ من تراخيه أن يشفق على نفسه من أى مجهود حتى مجرد السيطرة على أسرته ؛ وهؤلاء ثلاثة شبان من أصدقاء الأسرة ، كل منهم يمثل طائفة من شباب هذا الجيل المتراخى الضعيف الذى يفزع حتى من مجرد الجهد الذى يبذله فى مجرد التفكير فى مسألة ما ، يتحركون فى القصة إجابة لرغبة المؤلف ، حتى يخيل للقارىء أنهم دمى ، لولا الحركة المسرحية لأمكن التعبير عنهم بصورة لبعض واجهات المحال التى تعرض أزياء الرجال عرضاً جميلا .

وعلى عكس هـذه الشخصيات تبدو الشخصيات النسائية فى القصة ، فهذه أم ذات سلطان يخشاها الجميع ،

تبحث بكل الوسائل عن أزواج لفتياتها الأربع ، وهؤلاء فتياتها يلمحن « بأبطال » القصة من الرجال ، ويتصيدن لهم الأشراك التي تخيب ، لا بدافع فطنة الرجال أو ذكائهم ، وإنما لمجرد .. الكسل .. الإعياء الذي يمنع هذه الأشراك من أن تطبق عليهم .

ولأن القصة تأخذ صورة النقد الاجتماعي ، فقد طغى عليها طابع الاصلاح الاجتماعي ، وهو الاغراق في تصوير المساوىء ، وفاتها طابع الاصلاح الاجتماعي أيضاً ، وهو إيضاح سبيل الاصلاح ، فالأمل قد اختفى من هذه القصة رغم صيحته البادية في العنوان .

وبعد .. فلقد يخرج القارىء من هذه القصة بمتعة يثيرها في نفسه الحوار اللبق الرشيق في أغلب مواضع القصة ؛ ولقد يخرج منها متأملا بعض ما غمض من تعبيرات المؤلف وآرائه على لسان شخصياته ، قد يخرج منها بذلك أو ما يشابهه ، ولكنه لن يخرج بما يخالف صيحة المؤلف في إهابته بعنترة ، فمن الحق أن عنترة مطلوب ، وأن صوت الفوارس وأشباه الفوارس قد بح في النداء عليه .

ولا شك ، وهذا أول عمل للأستاذ عادل كامل ، أن هناك توفيقاً ينتظر هذا الأديب ، إن أخذ نفسه بأساليب الاعداد المسرح من دراسة وتأمل ؛ ولقد تبدو آثار هذه الدراسة على صورة واضحة في الصفحات الأولى من الحوار في مسرحيته .

صلاح الدين ذهني

المهرجان الأدبي الثالث

يحتفل السودانيون كعادتهم في كل عام بالمهرجان الأدبي الذي سيقام هذه السنة بنادي الخريجين بأم درمان ، في أيام عيد الفطر المبارك ، حيث يعرض ما تنتجه العقلية السودانية في ميادين الآداب والعلوم والفنون .

والسودانيون الذين تربطهم بمصر روابط لا تنفصم عراها ، والذين يستمدون ثقافتهم منها كم يسرهم أن يلبي رجال الفكر وقادة الرأي وحملة الأقلام دعوتهم ، ليسعدوا برؤية من يستطيع زيارة السودان في ذلك الحين ، وليتذوقوا ما تخطه تلك الأقلام القوية في مختلف الأبحاث

وليت أبناء الكنانة عاملون على تحقيق تلك الرغبة التي سيكون لها أثرها الخالد في تدعيم الصلات بين القطرين الشقيقين ..

الأمين التوم
سكرتير المهرجان

محكمة قوص الجزئية الأهلية

إعلان بيع عقار نشرة أولى في القضية رقم ٢٠١٦ سنة ١٩٤١ قوص

إنه في يوم الأحد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسراي المحكمة بأودة المزايدات سيباع بطريق المزاد العلني الجبري العقار الآتي بيانه بعد المملوك إلى علي حسن عبد الرحمن من قوص وممثل في مواجهة النيابة بناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٩٤١/٦/٢٤ ومسجل بمحكمة قنا الكلية الأهلية بتاريخ   ١٩٤١ بالصفحتين

وهذا بيان العقار وهو كائن بندر قوص مديرية قنا

١ ط بحوض خرابي القوبا رقم ١٩ ص ١٩ الحد البحري يوسف احمد يوسف وطوله ٨ قصبة والشرقي طريق خصوصي ضمن القطعة وطوله ١ قصبة والقبلي بين محمد حسن وإخوته وطوله ٨ قصبة من القطعة والغربي محمود سليمان إلى القطعة ملك الشيخ جامع وآخرين وطوله ١ قصبة بما عليه من المشتملات

فقط ١ قيراط بما عليه من المشتملات

وهذا البيع بناء على طلب الشيخ مصطفى حسن محمد بصفته رئيساً لجمعية التعاون بقوص وفاء لمبلغ ١٣٠ جنيه و ٨٤٠ مليم بخلاف ما يستجد من الفوائد والمصاريف والثمن الأساسي الذي بني عليه المزايدة هو مبلغ ٩٠ جنيهاً

فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان الموضحين أعلاه وشروط وأوراق البيع مودعة بقلم الكتاب لمن يريد الاطلاع عليها .

كاتب البيوع

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ١٣٩ — الثلاثاء ٣ من شعبان سنة ١٣٦٠ — ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الزعماء الثلاثة

في هذا الشهر من هذا العام مات زعيمان جليلان : زعيم هندي روحاني هو تاغور ، وزعيم مصري مالي هو طلعت حرب . وفي هذا الشهر منذ أربعة عشر عاماً مات زعيم مصري سياسي هو سعد زغلول ، فكان لأغسطس حق الفخر في احتوائه هؤلاء العظماء . إن حق لشهر أن يفخر باحتدائه واحتوائه ، أو له حق الخجل من عمله ، إذ حرم أممهم وعالمهم الفخر بقيادتهم ، والانتفاع بمواهبهم ، أو هو لا يفخر ولا يخجل ، لأن الدهر له مقاييس غير مقاييسنا ، ونظرات غير نظراتنا ؛ وله عذره في أن الموت لا يعدو أشخاص الزعماء وأجسادهم ، أما أفكارهم ومبادئهم فحية أبداً ، خالدة أبداً ؛ إن عدا الدهر عليهم يوماً فلا يضن يوماً آخر أن يبعث من يأخذ رايتهم ، ويسير قُدُماً إلى غايتهم ، وينقل التقدم من ميدان إلى ميدان ؛ فإن أساء فقد كفّر ، وإن أمات فقد أحيا .

كان كل زعيم من هؤلاء عظيما ، وكان كل ينظر إلى الحياة من زاوية آمن بها ، وضحى لها ، وفنى فيها ، ووصل إلى أعماقها ، فاستخرج مكنونها ، وأضاء ظلامها ، وشوق إليها ، واستحث أتباعه أن يؤمنوا إيمانه ، وينظروا نظرته ، ويسيروا سيرته ؛ وقد أوتوا جميعاً من حرارة العقيدة وجمال البيان وصفاء الإيمان ما أنجح دعوتهم ، ونصر مبادئهم ، فماتوا وقد لوّنوا عالمهم بلونهم ، ورفعوا أتباعهم إلى قريب من منزلتهم ، ونشروا الإيمان بالفكرة والكفر بالعقبات ،

وبثوا الاعتزاز بالمبدأ والاستهزاء بالصعوبات ؛ فكان لهم بعض ما أرادوا ، والزمن كفيل أن يحقق كل ما أرادوا .

* * *

فأما « طاغور » فرجل روحاني ، هو خلاصة أفكار الهند ، وعصارة نزعاتها الروحية والحلولية ، عبر عنها بأساليب العصر الحديث ولغته وروحه ، لافرق عنده بين الحق والخلق ، ولا بين الله والعالم ؛ فالعالم مظهر الله ، والطبيعة شعاره ، وهو — تعالى — حالٌ في كل ذرة من ذرات العالم ، تراه في رمال الصحراء ، وفي صفاء الماء ، وفي أوراق الأشجار ، وفي تفتح الأزهار ، وفي البعوضة فما فوقها ، وفي النجوم فما دونها ، يتجلى في كل شيء حسب استعداده ؛ ولا شيء سوى الله ؛ والكائنات أجزاء منه وأبعاض له وكلها كله ، فهي وهو كأمواج البحر في البحر : فما البحر إلا الموج لا شيء غيره

وإن فرَّقتهُ كثرةُ التعدّدِ

فمن مزامير طاغور : « هو الله في كل شيء : في الماء وفي النار ، وفي العشب والشجر ، هذا إلهنا ، الذي تعنو له وجوهنا » .

أداه هذا النظر إلى أن يألف الطبيعة ويهيم بها ، ويتذوقها بحواسه كلها وبروحه كلها ، وينفق الساعات ذوات العدد في الاستمتاع بجمالها والإصغاء إليها وعبادة الله فيها .

كما أداه ذلك إلى أن يكره من المدنية الحديثة عنفها في محاربة الطبيعة ، ومحاولتها إخضاعها وإذلالها ، كأن نزعة الحرب فيها عمت كل شيء ؛ فالإنسان يحارب الطبيعة ، والانسان يحارب الانسان ، والطبقات تحارب الطبقات ؛ وروحانية طاغور تدعو إلى الحب لا الحرب ، لحب الطبيعة وحب الانسان ، وحب العالم ، لأنه يحب الله فيحب مظهره ، ويرى الله في كل شيء فيحبه فيه .

وهو روحاني ، يرى أن المادة ليست كل شيء ، وأن لنا روحاً غير مادتنا ، وأن ليست علاقة فكرنا بمخنا علاقة معلول بعلة ، وأن لنا صلة بالأرض وصلة بالسماء ؛ ومن أجل هذا نعى على المدنية الغربية أنها تعنى بالمادة ولا تعنى بالروح ؛ فهي تعبد المادة وتفكر في المادة ، وينقصها التأمل الشرقي ، كما ينقص الشرق العمل الغربي وقوة الارادة الغربية ، حتى تتعادل الكفتان ، ويكمل العنصران .

كانت هذه عناصر دينه ، ثم هو منح قوة فنية رائعة ، وثقافة عصرية واسعة ، واطلاعاً على العالم برحلاته العديدة إلى أوربا وأمريكا واليابان ، ونظراً نافذاً إلى بواطن الأمور ، وملكا لناصية اللغة الانجليزية كملكه لناصية لغته الأصلية ؛ فصب فيها آراءه وفنونه ، ونشر تعاليمه بشعره ونثره وقصصه وموسيقاه ، فسمعها العالم ، ووجد فيها نوعاً من الغذاء الصالح الجديد يخالف في عناصره عناصر الغذاء الغربي القديم . لقد جلجل صوته بكل النغمات ، في جمال الطبيعة ، وحب الأطفال ، وحب البساطة وحب الله ، وترك من كل ذلك ثروة للعالم سوف تنقضي السنون ولما يهضموها .

وكان ينظر إلى السياسة كما ينظر إلى الفلسفة ، إنما يهمه من النظم السياسية آثارها في الحياة الاجتماعية ، ويُقوّم أنواع الاستقلال بقدر ما تستتبع من إصلاح .

* * *

ولئن كان طاغور رجلا « مثالياً » يغوص تارة إلى أعماق الماء ، ويجوز مرة أجواز الفضاء ، ويرى في كل شيء من نبات وحيوان وجماد شيئاً وراء ظاهره ، وروحاً وراء مادته ، وإلهاً وراء شكله ، فسعد رجل واقعي يفهم الحياة كما تبدو للعين ، وكما يدل عليها الحس والعقل ، لا الشعر ولا الخيال .

فان كان كل إنسان كما يقولون إما أفلاطونياً أو أرسططاليسيا ، فطاغور أفلاطوني ، وسعد أرسططاليسي .

نشأ محامياً يرى دنيا الوقائع ، ويدرُس قانون

الحوادث ، ويوكَّل من الخصم فيدرس قضيته ، ويكيف موقفه ؛ فما زال يكبر في حرفته بتقدمه في سنه ونضجه في عقله ، حتى صار وكيل الأمة ، يدرس قضيتها ، ويكيف موقفها ؛ ولكن قضية الفرد مهما عظمت سهل أمرها يسير حلها ، وخصمه مهما عظم في مثل منزلته أو قريب منها . أما قضية الأمة فمعقدة أشد تعقيد ، والخصم فيها قوى عنيد ، يلجأ في المحاربة إلى كل الوسائل : إلى الاغراء والتهديد ، وإلى المال والحديد . وما ظنك بخصم في يده كل قوى الاستعمار ، من علم ومال ، وقوة ودهاء ، وحيل وأفانين ، وجنة ونار ، وإغداق من نعيم ، وإلقاء في جحيم ، وموكله أعزل ، قريب عهد بحيل الاستعمار ودهائه ، وألاعيب السياسة وتلونها ؟ لابد لمن يقف للدفاع في مثل هذه القضية من مواهب نادرة ، وقدرة فادرة ؛ فهو — من ناحية — عليه أن يقدم السلاح لقومه ، ومن ناحية — عليه أن يجرد السلاح من خصمه ؛ وعليه أن يكوّن فيهم رأياً عاماً يعقل ويشعر ، ويتحمس ويطيع ، ويضحى ويصبر ؛ وعليه أن يكوّن من الأمة كتلة متجمعة ترهب المنافقين فلا تسمع لهم ركزاً ، وتحيّر المستعمرين فلا يجد دهاؤهم منفذاً ، وعليه أن يتقدم الصفوف فيحدو السير يميناً ويساراً ، وهجوماً وانتظاراً . ثم هو — إذ يحمل اللواء — يتعرض لكثرة السهام ، فلا تزيده ذلك إلا قوة ، وينفى ويحبس ويشرد ، فيكسبه ذلك صفاءً في نفسه وقوة في يقينه ، وتزيد الأمة إيماناً به والتفافاً حوله ، فتضحى من تضحيته ، وتقتبس من شعلته ، وتلتهب من حرارته ، وتأخذها حالة أشبه بنوبة عصبية ، أو غيبوبة صوفية ، تؤمن به إيمان المجاذيب ، وتطيعه طاعة المريد للشيخ ، وتصم أذنيها عن دسيسة الدساسين ، ومؤامرات المنافقين ، ولا يزالون هو وهم في جهادهم حتى يصلوا إلى الغاية أو يقربوا منها .

كذلك كان سعد ، وكذلك كانت أمته ؛ بصر بقومه فعرف مواضع ضعفهم وقوتهم ، وعرف كيف يعالج الضعف ويزيد القوة ؛ وبصر بأساليب الاستعمار فعرف كيف يصارعها ويجابهها ، وأوتى من فن الخطابة معجزته ، ومن القَصَص سحره ، فما خطب إلا ألهب ، ولا جادل إلا غلب . ولو كانت قضية الاستقلال يقضى فيها بالمنطق والحق لكسبها في يومه ؛ ولكن الاستعمار لا يسمع المنطق ، وإنما يسمع القوة ، فلتكن قوة الأمة في وحدتها وفي إجماعها ، وفي حماستها ، وفي شل حركة خصمها ، وفي التشهير به ، وفي الاحتجاج عليه ، وفي تغذية هذه الحركات في كل حين ، وفي كل مناسبة ، وفي خلق المناسبة . فكان كذلك ، يغذى الصحف بآرائه ، ويغذى الأسماع بخطبه ، ويلهب النفوس ببيانه ، وينقض تدبير الخصم بإحكام تدبيره ، ويطلع كل حين بجديد . ولولا منافذ ضيقة خفية دخل منها الخصم فأفسد بعض الحركة ، وشوه منظر الاجماع ، لكان له في حياته ما أراد لقومه . ولو استعرضت حال الأمة حين تسلمها وحين سلمها لرأيت كيف كان عظيماً في نفسه ، عظيماً في أثره .

لقد غنّى طاغور وغنى سعد ، فكان لكلٍّ صوته ولكل نغمته ؛ فأما صوت طاغور فهادئ وديع ، يسمعه الرحيم فيذرف من العين دمعة ، ويسمعه العاشق فيقبل الطفل في مهده ، ويبتسم للبستان لزهره ، ويقبل الجمال حيث كان ، ويسمعه المتدين فيسجد للطبيعة وبهائها وسحرها وفتنتها ، ويسمعه الظلمة فيسخرون ، والقساة فيستهزئون . وأما صوت سعد ، فيدوّى كالرعد ، يسمعه المظلوم فيثور ، والظالم فيغضب ، ويهيج وينقم ، فاذا صراع عنيف بين المظلوم والظالم ، ومعركة حامية بين المسلوب والسالب . صوت طاغور يؤثر ولكن كالماء في الصخر ، وصوت سعد يؤثر ولكن كالريح العاتية في الأشجار الخاوية ، ولكلٍّ فضل .

* * *

وأما طلعت حرب فغض نظره عن السماء ونجومها ، والبحار وأمواجها ، والأزهار وجمالها ، كما لوى وجهه عن السياسة ونارها . وحدّق فى الذهب والفضة والأوراق المالية ، وسال لعابه لها حتى كاد يلتهمها ، ولكن لم ينظر إليهما لنفسه كما فعل غيره ، وإلا ما كان عظيما ولا زعيما ؛ إنما أدرك قيمتها لقومه ، فسعى لها سعيه ، وأنفق فى ذلك عمره ؛ رأى المال عصب الحياة ، فأيقن أنه إذا قويت الأعصاب قويت الحياة .

قد كان سعد يرى الاستقلال كل شىء ، فاذا كان كانت الحرية وكان العلم وكان الخلق وكان المال . وكان « طلعت » يرى المال كل شىء ، فاذا كان كانت الحرية وكان العلم وكان الخلق وكان الاستقلال ، فكان لكلٍّ سيرته ، ولكل وجهة هو موليها . رأى طلعت أن كل مرض اجتماعى علاجه المال ؛ فعلاج الفقر المال ، وعلاج الجريمة المال ، وعلاج البطالة المال ، وعلاج الجهل المال ، وعلاج الاستعباد المال ؛ فكأن المال هو السحر الحلال ، ما عس من مرض إلا كان فيه الشفاء . إن الفلاح بائس لفقره ، ومريض لفقره ، وجاهل لفقره ، ومجرم لفقره ؛ والعاطل عاطل لفقره أو فقر بلده . فلا مشروعات ولا جميات ولا نقابات ولا شركات ؛ ومن كان فى يده المال ولم يعرف كيف يستخدمه كان ماله والفقر سواء ؛ والأجانب يحتلوننا بالمال والعمل أكثر مما يحتلوننا بالسيف والسياسة ؛ وأمة واحدة تحتلنا سياسياً ، وكل الأمم تحتلنا مالياً ؛ ولا ينفع استقلال من غير مال ، كما لا ينفع السيف ولا قتال . فلتستقل مصر أول كل شىء عالما ، بانشاء بنكها ؛ وليعمل المصريون فى كل أنواع النتاج المصرية حتى السمك والأصداف ؛ ولتمتد اليد المصرية حتى تقلب الأرض وتستخرج خيرها من بطونها ، ولتنقب فى الصحراء حتى تستخرج كنوزها من أحضانها ؛ فاذا كان ذلك فلا عاطل ولا فقير ، بل إن كان كذلك فلا استعمار ، فانما أساس الاستعمار الاستغلال ؛ ثم لنعبُر ماءنا بسفننا ، وهواءنا بطياراتنا ، ولنلهو فى مسارحنا ، ولنلبس من مزارعنا ، ولا بأس أن نستجلب اليوم بعض الشىء من الخارج فسيكون لنا كل شىء غداً من الداخل ، ولنتوسع فى كل جهة ، ولنمتد فى كل اتجاه ، وليكن ذلك كله عرضة للخطأ ، ولا بأس ، فالاقدام مع احتمال الخطأ خير من الاحجام مع الصواب . وسنتعلم من خطئنا أكثر مما نتعلم من صوابنا .

هكذا فكر وقدر ، ثم فكر وقدر ، ثم أراد وعمل ، فكان له بعض ما أراد . ولولا أنه سمح لطوقة أن تدخل باب أعماله اسمها « المجاملة » ، ولولا أنه لم يُحكم التجريد بين نفسه وعمله ، ولولا أن بعضهم استباح لنفسه من الأموال المصرية ما لم يستبحه من الأموال الأجنبية ، لكان له أكثر ما أراد — ومع هذا فأى عظيم لم تكن له هنات ؟ !

لقد ترك مصر ولها مؤسسات مصرية تعتز بها ، ولها آمال اقتصادية مرسومة محدودة تسعى لاستكمالها ، وترك الشرق العربى كله له أمل كأمل مصر ، وسعى فى سبيل الاستقلال الاقتصادى كسعى مصر ، وخلق عند هؤلاء وهؤلاء شعوراً حساساً بالوطنية المالية ، وفكراً مفتوحاً للحالة الاقتصادية ، وإدراكاً صحيحاً للأهمية التجارية والصناعية .

* * *

رحمهم الله جميعاً ، فقد كان كلٌّ عظيما فى ناحيته ، نافذ النظر إلى زاويته ، وأكثر الله من أمثالهم ، فالزمان شحيح فى السماح بهم ، وصدق الشاعر :

بُغاث الطير أكثرها فراخاً
وأم الصقر مِقلاتٌ نزورُ

أحمد أمين

ذكرى سعد

— وجوب دراسة بطولة سعد —

للأستاذ محمد صبري أبو علم



. . . ودار الفلك دورته ، فاذا بنا أمام الذكرى الرابعة عشرة لوفاة سعد ، وإذا المصرى قائم على تمجيد الذكرى ، وتحية الزعيم الخالد فى مضجعه تحية الاخلاص والوفاء والتقدير . وكأن أربعة عشر عاما لم تفصل بيننا وبين ذلك اليوم العصيب الذى ارتحل فيه سعد إلى عالم الخلد ودار الاقامة . على أن الفاصل الزمنى إن كان قد جفف الدموع التى سكبناها يوم منعاه ، وأنضب ماء الشئون التى سالت عقب الوفاة ، وأزال معالم الأحزان ومظاهرها ، إلا أنه قد أنضج فى الأمة شعوراً قوياً أساسه عرفان الجميل ، وقوامه الوفاء ، وآيته حسن التقدير .

وقد جرت الأمة المصرية على أن تصوغ من كل ذلك فى مثل هذا اليوم باقة تهديها إلى زعيمها الخالد حين تحج إلى ضريحه مبايعة له على أن تترسم خطواته ، وتقتفى آثاره ، وتمشى فى سبيله إلى النهاية ، حتى تتم ما بدأه وتكمله .

وكأن فى طيات هذا اليوم شرارة إذا لامست شعور الشعب المصرى تفجرت منه ينابيع فياضة من الحزن الصامت العميق ، الحزن الذى يحرك العقل أكثر مما يحرك العاطفة ، الحزن الذى يبعث النفوس إلى استذكار عظمة الزعيم وتضحية الزعيم وجهاد الزعيم ، الحزن الذى يثير فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها روح الوفاء للذى كرس حياته لمصر ، الحزن الذى يصقل النفوس ويصفيها ، حتى تستشف مجد هذه العظمة التى أضاءت لمصر فى الحياة ، وحركتها بعد الممات ، وبقيت لها شعلة دائمة الاتقاد ، منها تقتبس وبنورها تستضىء ، وتجد على نارها الهدى كلما أظلم الجو .

ولعل الحياة التى يبعثها الزعيم العظيم بعد وفاته فى نفوس الشعب أقوى أثراً وأبعد غوراً من تلك التى كان يستمدها الشعب منه حياً :

وكانت فى حياتك لى عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فكلما امتد بنا الزمن ، وقدم العهد ، تهيأت لنا الأسباب لمواجهة مجد سعد والتحديق فى النور الذى كان يشع منه حياً . أوليس العظيم شمساً مضيئة ، ترسل نورها وتسلط شعاعها على جميع الأرجاء ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يحدق فى الشمس وهى طالعة ، أو أن يواجهها وهى فى كبد السماء بازغة ؟ إنما نستطيع النظر إليها ومواجهتها إذا تحولت عنا ، وقامت الحوائل بين أعيننا وبين أشعتها .

كذلك الموت ينزل بالعظيم فتتحول شمسه ولا تأفل ، ويلقى الموت دون نوره وناره ستاراً شفافاً يطل منه الأحياء ، على الكوكب الذى كان يلمع ويضىء ، فينشر النور ، ويوزع الضوء ويبعث الحرارة .

وكذلك كان سعد بيننا — قريباً بعيداً — كنا بقربه نحس بجذوة البطولة والمجد والعظمة تتقد وتلمع ، فنلتمس من حرارتها ، ونقتبس من سناها ، ونمشى فى هداها ، دون أن نستطيع تحديقاً فى مبعث النور والضوء . أما اليوم فقد غطته ملاءة الموت البيضاء ، فحجبت الهيولى ولكنها نشرت الضياء ، ووزعت النور ، وأصبحنا نستطيع أن نراه دون أن نلقاه ، وأن نتصوره دون أن نبصره ، وأن ندرس عظمته ونحللها ، وأن نتتبع خطوات الأزهرى الثائر فى صحن الأزهر فى الثلث الأخير من

القرن الماضي ، والسياسي الثائر لحق بلاده في بيت الأمة في الثلث الأول من القرن الحاضر . نعم نستطيع العين اليوم أن ترى بأشعتها إلى مدى يتسع لأن يجمع بين أطراف حياة سعد طالباً فمحامياً فقاضياً فوزيراً فنائباً فزعيماً خضع الكل لزعامته ، وسلم الجميع له القياد .

نستطيع اليوم أن ننتقل بين مختلف درجات هذا السلم الذي رقاه سعد من بدايته حتى وصل إلى نهايته ليرى الشباب كيف صعد درجاته ووصل إلى القمة ، ويستعرضوا العقبات التي واجهته ، وكيف نازلها وتغلب عليها . بل ليفهم الشباب والشيوخ الزعامة التي عقد لسعد لواؤها ، ويقفوا على أسرار تلك البطولة الملهمة ، ويحللوا تلك الشخصية الساحرة الأخاذة ، ويحيطوا بطرف من سيرة المجاهد الأول في سبيل استقلال البلاد ، كيف وضع للجهاد حجر الأساس ، وكيف أقامه ورفع بناءه ودعمه ، ويستحضروا أسرار تلك الروح التي جمعت إلى فتوة الشباب حكمة الشيوخ ، تلك الروح التي استبقت شعلة الشباب وجذوته متقدة مشتعلة حتى الممات ، تلك الروح التي أملت عليه الصلابة في الحق ، وإباء الضيم ، وإنكار الذات ، تلك الروح التي كانت ترتفع وتسمو به دائماً إلى مستوى الخطر ، فيعلو عليه ، ويغالبه ويغلبه ، ويخرج من ميدان الجهاد منصوراً .

تلك الروح التي استوقفت التاريخ ، فأملت عليه كثيراً من المشاهد الخالدة ، فكانت حياته جزءاً من التاريخ .

ولعل أكثر ما يساعد على دراسة شخصية سعد دراسة علمية تاريخية — أن الشهوات والأحقاد التي ثارت حوله قد خمدت جذوتها وأصبحت رماداً . وأن كثيراً من الذين نازلهم ونازلوه ، وساجلهم وساجلوه ، قد مضوا إلى جوار ربهم ، فأصبحوا معه ملكاً للتاريخ . وأن قضية الاستقلال التي أقامته الأمة محامياً فيها ، قد اجتازت بمعاهدة التحالف مرحلة كبيرة من مراحلها .

وليست دراسة حياة سعد دراسة لحياة زعيم اختص به حزب من الأحزاب . بل هي حياة رجل وهب نفسه للأمة قاطبة ، وعاش ومات لها وفي سبيلها .

وكلما انقضى الزمن أحسسنا بالحاجة الماسة إلى هذه الدراسة ؛ فكثير من أبنائنا في المدارس اليوم لم يشهدوا سعداً ، ولم تعمهم الشعلة التي مست إخوانهم الذين استمعوا لسحر بيانه . وحياة العظيم حياة كلها وحي وإلهام وتوجيه ؛ فمن حق أبناء الجيل الحاضر علينا أن نأخذ بأسباب هذه الدراسة من الآن ، وأن نجمع لها المواد التي تعين على ذلك .

هذا بعض ما يجب علينا نحو ذكراه ، بل هذا بعض ما يجب علينا نحو أنفسنا وأبنائنا ، وإذا كنا نبحث في التراب والرمال عن كنوز مصر القديمة التي غطتها الرمال فضاعت في ثناياها ، فها هو كنز من كنوز مصر الحديثة لا يزال مشهوداً ، وعلم من أعلامها لا يزال منشوراً ؛ فلنبادر إلى القيام عليه والإفادة منه ، فهو جزء من تراثنا القومي ؛ فلنكن له حافظين ، ولنعكف عليه دارسين . وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

محمد صبري أبو علم

سعد المصرى الصميم

ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن الحركة التى بعثها سعد فى الأمة المصرية كانت أعظم حادث فى تاريخ مصر الحديث منذ أيام السيد عمر مكرم فى مطلع القرن التاسع عشر. فقد تحرك فيها الشعب المصرى بجميع طبقاته أعلاها وأسفلها، وبجميع أطرافه، أقصاها من الشمال، وأقصاها من الجنوب؛ وكانت حركته طبيعية، تبعثها حماسة فياضة تهز القلوب هزاً، وتفعم النفوس إيماناً وقوة وثباتاً.

لم تكن حركة الشعب حول سعد من تلك الحركات التى يسوق فيها القائد جنوده، ويحاول تحريكهم، أو يبهرهم بنصره أو يستميلهم بما يغدق عليهم من ثمار مجده، بل كانت حركة قائمة على التضحية القصوى، لا يقدم فيها سعد لأمته إلا المثل الكريم الذى يضربه لها فى إقدامه وتضحيته، وثباته فى عقيدته؛ ولم يكن سعد يتكلف شيئاً، بل كان يمضى على سجيته غير ناظر إلى ذلك الشعب الذى يموج حوله؛ ولكنه كان دائماً موفقاً فى خططه، معززاً فى وسائله فأينما اتجه وجد الشعب وراءه وحوله مندفعاً، كأنما ليس فى الفضاء كله إلا ذلك الاتجاه الذى اتخذه له فى تقرير مصيره.

لم يكن ذلك النجاح الذى لقيه سعد نجاحاً وفق إليه عفواً، أو تعمل فى تدبيره وإحكام خططه، بل كان له سر آخر يمكن أن نتبينه على ضوء الاستقراء، إذا ما درسنا شخصيته العظيمة ذات الجوانب المختلفة.

حقاً أن الشخص العظيم يستطيع أن يتجه بأمته حيث شاء فى الأحداث الجليلة؛ وذلك بأن يحملها بجبروت عقله على المضى وراءه حيث شاء. ولكن السر الذى يكمن وراء شخصيات العظماء دائماً هو نفس السر الذى كان يكمن وراء شخصية سعد العظيم.

ذلك السر هو تناسق الطبع، وتجانس العواطف بين الزعيم وبين شعبه. فلابد للقائد العظيم أن يكون بفطرته من صميم طباع شعبه يتحرك بما يحرك له شعبه، وإذا أحس شيئاً كان مزيجاً من كل عواطف قومه فى الظرف الذى بعث إليه ذلك الاحساس. غير أن العظيم بطبيعة سمو ذكائه وصفاء طبعه يكون أكثر إرهافاً فى إحساسه، وأدق تحليلا فى نظره، وأشد ثباتاً فى قلبه، وأجلى تصويراً لخطته فى سبيله. وسنكتفى فى هذه الكلمة بأن نبين كيف أثر ذلك التناسق وذلك التجانس بين سعد والشعب المصرى فى توجيه الحوادث التى أدت إلى حركة مصر العظمى فى سنة ١٩١٩.

أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى أوائل الحرب الماضية والمصريون لا يزالون فى دهشتهم الأولى عقب اندلاع نيران الحرب العالمية الهائلة؛ وأمسك القوم فى مصر أنفاسهم وهم يتساءلون همساً فيما بينهم عن معنى تلك الحماية وعن غاياتها وعما دعا الانجليز لاعلانها، وكانت نفوسهم ملأى بالخوف والأسف عندذلك؛ فأما الخوف فلأنهم كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم بأن مصر لم تخلق لكى تكون تحت حماية أمة من أمم الغرب، وأن الحماية التى أعلنتها عليهم بريطانيا وإن كانت تؤول على أنها ضرورة حربية مؤقتة، قد تؤدى بهم إلى مواقف معقدة أو تسير بهم فى طريق غير التى كانوا يأملونها فى مستقبلهم. وأما الأسف فلأنهم كانوا يرون حركتهم الوطنية قد أوشكت قبل تلك الحرب أن تنتهى بهم إلى تقرير الحكم الدمقراطى الداخلى وإلى تقوية حركة الجهاد القوى نحو الاستقلال التام تحت راية الحزب الوطنى الذى كان ينضوى تحته كل أهل مصر أو الكثرة السائدة منهم. فاذا بهذه الحماية المفروضة تدك كل آمالهم من أساسها.

ولكن هذا الشعور بالخوف والأسف لم يجد فى الخارج تعبيراً إذ كانت أداة التعبير كلها عند ذلك تحت سيطرة الأحكام العرفية، فلم يكن من المباح أن يسمع لأحد بأن

ينطق بكلمة تخالف الخطة الحربية أو تؤدى بأى وسيلة إلى تحويل الانتباه عن القصد الأول فى الحرب وهو انتصار بريطانيا .

ولكن شعب مصر كان فى سمته ذاك يطيع طبيعة أصيلة فى نفسه ؛ فهو شعب قديم له اناة عميقة فيما تقتضيه ظروف الحياة ؛ وكان يدرك بتلك الاناة أن وقت تلك الحرب لم يكن الوقت المناسب لمحاسبة بريطانيا ومطالبتها بالحقوق التى يعتقد أنها مقدسة لا يستطيع أن يحيد عنها أو ينساها . فساد السكون أرجاء مصر مدة الحرب كلها ، بل لقد انصرف الشعب إلى أعماله مرحا كعادته طيباً كعادته مسالماً كعادته ، حتى كان يخيل إلى من لا يعرفه أنه قد نسى جهاده القديم أو غفل عنه ، أو نزل عن تلك الحقوق التى كان يجهر بالمطالبة بها فى قوة وعزم فى أيام السلم . ولكن صمته ومرحه وطيبته كانت فى الحقيقة مظاهر تخفى تحتها روحا مضطربا ، وإن كانت الحكمة تكبح جماحها ، وتكبت خلجاتها ، وكانت لذلك الشعب همسات متواصلة يتبادلها الأصدقاء إذا ما تلاقوا فى مجالسهم ، والأهل إذا اجتمعوا فى ظلال جدران منازلهم ، وعامة الشعب من الفلاحين إذا انتشروا فى فضاء الحقول البعيدة عن الرقباء .

وكان سعد كسائر أبناء مصر يحس بلقانته ما يحسه الشعب ، ويكتم فى نفسه من المعانى مثل ما يكتمه قومه ، ويتحدث مع صحبه الأخصاء فيما بينهم عن سير الحوادث ، ناظراً إلى وجهاتها ، مفكراً فى المآل الذى تخبئه الاقدار لمصر من وراء سير الحوادث الجليلة التى كانت تهزهز أنحاء العالم .

وكان شعب مصر كلما امتدت مدة الحرب أحس قلقاً مظلماً على مصير البلاد ، وتمنى خروج بريطانيا من الحرب ظافرة حتى يستطيع أن يواجهها رافعاً صوته بالمطالبة بحقوقه المقدسة التى لم يغفل عنها ولم ينس شيئاً منها ، رغم ما كان يبدو عليه من هدوء وانصراف إلى عمله ، وطرب إلى السرور فى مرح وفكاهة .

وكان سعد العظيم كذلك يحس أعمق الاحساس بمثل ما كان يشعر به شعب مصر ، ويصبر كما يصبر قومه فى هدوء وطيبة قلب ومرح وفكاهة . ولكنه كان يحس قلقاً شديداً كلما تطاول عليه الصبر ؛ فقد كان صريحاً مستقيما لا يحب أن يظهر بغير ما فى نفسه ، ولا أن يخادعها بالأوهام أو الأغراض الملتوية ، وإذا كان قد سكن مدة الحرب ؛ فما ذلك إلا انتظاراً لليوم الذى تضع فيه الحرب أوزارها ، لكى يجهر برأيه ويطالب بآمال أمته وحقوقها .

فما كادت الهدنة تعلن فى ١١ نوفمبر من عام ١٩١٨ حتى بادر سعد إلى النطق ، فتقدم إلى دار الحماية بعد يومين اثنين من إعلان الهدنة لينطق عما كان يجول فى قلبه مدة سنوات أربع طوال ، وليطالب بالحقوق المقدسة التى لم ينسها هو ولا شعبه ، وإن تطاول الأمد على السكون ، وأخفت مظاهر المرح ما يجيش فى النفوس من العواطف .

فما كاد سعد ينطق بكلمته حتى تحركت وراءه القلوب مرددة أصداء كلمته فى توافق طبيعى نشأ من ذلك التجانس بين طبع الزعيم وطبع شعبه . إذ كان سعد بغير شك مصرياً صميما فى قلبه وفى غرائزه ، وفى اللقانة التى أكسبته إياها القرون ، مع فارق واحد ، وهو أن إحساسه كان يستند إلى إرادة صلبة ، وإلى شجاعة لا مثيل لها ، وإلى ذكاء عبقرى جعل الاحساس واضحاً فى نفسه فى صور ناطقة مبينة ، يترجم عنها لسان فصيح من ورائه جنان ثابت لا يتزعزع .

فاذا أراد مؤرخ أن يصف نفسية شعب مصر فى مطلع القرن العشرين لم يجد خيراً من أن يدرس نفسية سعد العظيم ، وإذا أراد كاتب أن يترجم لسعد العظيم ، ويحلل شخصيته ، فلن يجد خيراً من أن يصوره المثل الأسمى لما فى الطبع المصرى من صفات .

محمد فريد أبو حديد

سعد الخطيب

بقلم حضرة صاحب العزة فخري بك عبد النور



لعل من الصعب على أي كاتب مهما أوتي من مقدرة ومهما كان ما منحه الله من مواهب، أن يحصي الصفات التي أهلت الزعيم الأكبر المغفور له سعد زغلول باشا لزعامة الأمة، وملكته زمام رأيها، وجعلتها تسير وراءه في سعيه لنيل حريتها واستقلالها. وقد كان — رحمه الله — يجد في دنياه خصوماً ينكرون عليه هذه الزعامة، أو بالأحرى ينكرون على الأمة أنها أولته قيادة سفينتها؛ وكان فيهم من يجرؤ على أن ينكر ما حباه الله به من صفات الزعامة والقيادة. ولكن واحداً منهم لم يجرؤ على إنكار الميزة العظمى التي منحه الله إياها، وهي قدرته الباهرة في خلب ألباب الجماهير بجميل خطابه، وحسن بيانه، وعذوبة ألفاظه، وجليل إلقائه؛ فكل أنصاره وكل خصومه يجمعون على أنه الخطيب الذي يسحر الألباب ويسبي العقول، ويلعب بالأفئدة ويستهوي النفوس. بل أنا لا أغلو إذا قلت إنهم جميعاً آمنوا بأنه — أسكنه الله الجنة — كان أخطب خطباء العالم جميعاً؛ وكيف لا وقد كان يبدأ خطبته وهو على جانب كبير من التعب أو اعتلال الصحة، فلا يلبث حتى يملك أعنة القول، يوجهه أنى شاء وكيف شاء، وحتى يملك زمام صوته رفعاً وخفضاً، فيذكي في قلوب سامعيه شعلة الوطنية، ويلهب في نفوسهم الحماسة للوطن ولحقوقه. كل هذا، ولا يزيده طول الكلام إلا قوة، تزيل عنه المرض، وترفع عنه التعب، فإذا هو السليم الناقه، الممتلئ صحة ونشاطاً.

وكان — رحمه الله — أحسن ما يكون إذا ارتجل، فإذا اضطرته الظروف لإعداد خطبته، غلب عليه الارتجال، فترك الورق جانباً واندفع كالسيل، يصب الكلام صباً ويرسل العبارات إرسالا، والسامعون مأخوذة قلوبهم بما يسمعون، لاهية عقولهم عن كل شيء، إلا عن الخطيب البارع الذي ملك زمامهم، وجعلهم أسرى إبداعه وبراعته

كانت أول كلمة ألقاها في الحركة الوطنية هي التي ألقاها في الاجتماع الذي عقد في دار المغفور له حمد الباسل باشا في ١٣ يناير سنة ١٩١٩، وقد هيأ بها النفوس للحادث الجلل الذي سجل في تاريخ مصر الحديث، وهو ثورتها في سبيل حريتها واستقلالها. وكانت الكلمة الثانية هي التي ألقاها في دار جمعية الاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع في يوم ٧ فبراير، بعد سماع محاضرة مستر برسيفال، فوقف بين جمع كبير من خيرة المثقفين المصريين والأجانب وزأر زأرته المشهورة، وهي أن الحماية باطلة.

وتلا ذلك أن نفي — رحمه الله — إلى مالطة، ثم أفرج عنه وذهب للذود عن بلاده في مؤتمر السلام بباريس. فلما عاد إلى مصر ووصل إليها في ٤ أبريل سنة ١٩٢١ كادت حياته تكون سلسلة من الخطب يلقيها على الجموع التي تحتشد لسماعه، فيلقي في اليوم الخطبة والخطبتين والثلاث، لا يكل ولا يمل، ولا يكل السامعون ولا يملون، بل كان يرتجل الخطبة فيمضي في ارتجالها ساعتين وثلاث ساعات، لا يكرر لفظاً، ولا يتلعثم له لسان، ولا يلحن في قول.

وكنا معه في رحلة الصعيد المشهورة بالباخرة نوبيا، وقد عاد منها رحمه الله متعبا، في حاجة إلى الراحة التامة، فأشار عليه المغفور لهما الدكتور حسن كامل بك والدكتور علي رامز بك بالتزام الدور العلوي من بيت الأمة، وعدم استقبال أحد، حفظا على صحته، فلما حل موعد الاحتفال بذكرى عيد الجهاد القومي في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢١ ألح في أن يحضر الاحتفال، فسمح له الطبيبان، ولكن على

أن لا يخطب فيه . فقبل ذلك ، وعهد إلى بعض إخوانه أن يرووا للحاضرين شيئا مما حدث فى هــذه الرحلة من عسف الحكومة إذ ذاك ، فقام أحد محامى أسيوط إذ ذاك ليشرح ما حدث فى هذه المدينة ، ولكن كلامه لم يرق سعداً ، فاندفع إلى المنبر وارتجل خطبة تاريخية استغرق فى إلقائها أكثر من ثلاث ساعات ، حتى لقد خيل إلى وأنا أسمعه أنه الشاب ابن العشرين لا الشيخ المتعب الربقى ابن الستين .

وقد أقيم هذا الاحتفال فى مدرسة وادى النيل فى حى المنيرة ، وكان منبر الخطابة قد وضع فى نهاية الفنـاء الذى أقيم فيه الاحتفال ، وكنا قد تلقينا نبأ بأن خصوم سعد يتربصون للفتك به ، وأنهم استأجروا أرمنيا ليغدر به وهو يلقى خطابه ، وكان وضع المنبر يساعد المجرم على أن يأخذه على غرة . فلما صعد رحمه الله أسرعت أنا والمغفور لهما فتح الله باشا بركات وعاطف بركات باشا والأستاذ محمد نجيب الغرابلى «باشا» ، وأحطنا به حتى إذا نفذ المتآمرون تدبيرهم تلقى أحدنا الرصاصة بدلا منه . وأقسم والله لقد مضى هذا الوقت الطويل يرتجل خطابه ، فما تعب وما ضعف صوته وما استراح ، فى حين أننا ونحن فى السن كأولاده تعبنا وضعفت أقدامنا عن حملنا . فكان لا يلهينا عن تعبنا إلا أننا كنا مأخوذين بسحر بيانه .

وقد اشتهرت عنه رحمه الله عبارات كثيرة ذهبت أمثالا جمة يحتذيها الكتاب ، كقوله : « أخجلتم تواضعى » ، وكقوله فى وصف بعض خصوم الوفد : « النكرات الشائعة والامعات الطائعة » وما إلى ذلك .

هذا هو سـعد الخطيب ، وما أحسبنى وفيته بعض حقه من الوصف والتقدير .

فخرى عبد النور

مؤتمر لبحث تدريس العلوم

ستعقد الشعبة المصرية لرابطة التربية الحديثة فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ مؤتمراً تبحث فيه نخبة من رجال التعليم جميع المسائل المتصلة بتدريس العلوم بالمدارس المصرية من حيث الأغراض العامة لها والمناهج ومختلف الطرق والكتب الدراسية وإعداد الدروس وبعض الوسائل الحديثة التى يمكن الاعتماد عليها فى هذه الدراسة وصلتها بالحياة العامة وهوايات الطالب ، إلى غير ذلك من الموضوعات .

ويسر الرابطة أن يشترك فى هذه البحوث أكبر عدد ممكن من المدرسين ورجال التعليم ، سواء بإعداد بحوث أو بالحضور والاشتراك فى المناقشات .

وتنظيما للعمل ترجو الرابطة حضرات الراغبين فى الاشتراك فى المؤتمر أن يخطروا بذلك رئيس الرابطة (حضرة صاحب العزة عميد معهد التربية للمعلمين بالجيزة) على أن تقـدم له البحوث بصيغتها النهائية فى ميعاد غايته آخر أكتوبر سنة ١٩٤١ .

هـذا وستقوم الرابطة بعمل التسهيلات اللازمة لحضور المشتركين فى المؤتمر من خارج القاهرة ولإقامتهم فيها .

ســـعد زغلول

من أقضيته

للأستاذ عبده حسن الزيات

عنوان ارتحت إلى ما يتضمن من ازدواج وما يؤدي إليه من لبس: فالقارئ طموح أن يفهم الموضوع على أنه محاولة لتحليل هذا البطل على ضوء الأحكام القضائية التي أصدرها أو اشترك في إصدارها، والقارئ أقل طماحاً أن ينتظر مجرد سرد لبعض هذه الأحكام؛ فالعنوان خليق أن يكون عند الأول «سعد زغلول: تبيين النسبة بين شخصيته وأقضيته ومحاولة تصويره منها»، وخليق أن يكون عند الثاني «من أقضية سعد زغلول».

وإنما كان ارتياحي إلى العنوان بحالته لأنه توفيق بين الأمل الرحب والواقع الضيق، وإرضاء لغاية طماحة لم تسعفها الظروف.

لقد أردت الأمر الأول، واستقر في نفسي أن الموضوع على هذا الوجه طريف وخليق بدرس على دقيق، بل سمت همة آمالي إلى فوق هذا، فتمنيت لو ينهض بهذا الدرس من يتقدم به رسالة إلى بعض كليات جامعة فؤاد الأول التي لا يجحد خصم ولا صديق فضل سعد عليها في منشأ أمرها.

ذلك ما أردته، ولكن أين ما نستطيع مما نريد؟

إنما كان التفكير قبل يوم الذكرى بنحو شهر، فقرأت المنشور من الأحكام التي اشترك سعد في الهيئات المصدرة لها، ولكن بحثاً جديراً بهذا الوصف لا يجوز أن يجتزئ بالمنشور من غيره، لاعتبارات: من أهمها أن مجموعات الأحكام إنما تحفل بما يتضمن مبدأ قانونياً؛ وهكذا تغيب عنا صفحة «القاضي الموضوعي» قاضي الظروف والوقائع والنفسيات والتقديرات؛ هذا إلى أن سعداً في هذه الأحكام لم يكن إلا واحداً من ثلاثة في دائرة الاستئناف، أو واحداً من خمسة (ومن سبعة ذات مرة) في هيئة النقض الجنائي. رأس سعد بك زغلول هيئة النقض حين أصدرت هذا الحكم، ورأس سعد بك زغلول دائرة الاستئناف التي أصدرت ذلك الحكم، وجلس سعد بك زغلول عضواً ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً أو خامساً أو سابعاً في أحكام أخرى صدرت من هذه الهيئة وتلك؛ وجلس سعد أفندي زغلول «نائب القاضي» عضواً أخيراً في هيئة النقض قبل أن يكون قاضياً وقبل أن يكون مستشاراً؛ ولكني لم أجد حكماً واحداً أو قراراً واحداً أصدره سعد زغلول بوصفه قاضياً فرداً، فبأي حق وبأي دقة نحمل هذه الأحكام المشتركة على سعد؟ علينا إذاً أن نلتمس في أضابير العدل ومحفوظات المحاكم أصول تلك القضايا لنرى بخط من كتبت تلك الأحكام بالقلم الرصاص؛ ولن نقنع أن نظفر بذلك، فإن تحرير الحكم قد يقوم به عضو كان قبل المداولة يتجه اتجاهاً آخر، أو كان يتجه عين الاتجاه؛ ولكنه سمع من زملائه فكرة أضافها إلى فكره وسجلها في أسباب حكمه؛ بل لعله أن يحشر في الحكم بعد الفراغ من تحريره عبارات جديدة بطلب زملاؤه إضافتها إلى ما أسمعهم؛ وهكذا يظل الشك قائماً لا يخول باحثاً محققاً أن يقول: هذا من عند صاحبي وهذا من عند غيره. فأين يلتمس مواده الخامة؟

ولكن سعداً لم يكن مجرد قاض، بل رجلاً عمل قبل ولاية القضاء، وعمل بعد تركه في ميادين متعددة النواحي، وهو قد درس ألواناً من الدرس معروفة لنا، وهو صاحب دعوات ملأت آذان أجيال، وهو شخصية جبارة ماثلة من عناصرها قوة الحجة، وبراعة الاقناع، ومن صفاتها الشغف بالانتصار، والحرص على أن يأخذ

الغير بما ارتأت من رأى ونهجت من طريق ؟ ثم هو فى عمالته وفى زعامته قد كتب مذكرات وبيانات وبحوثاً لا شك فى ثبوتها له ، فهى « أوراق رسمية للمضاهاة » ، نستطيع أن نعرض عليها هذه الأحكام .

أليست هذه أضواء كافية تُطوِّع لنا أن نقول : رجح ؟

لا أدرى . فلنرجىء الحكم ريثما نستعرض هذه الأحكام :

١ — ثورة المصلح وغيرة العادل

للقاضى فى يقينى مهمة اجتماعية سامية يستطيع أن يؤديها فى حدود وظيفته القضائية ، دون افتيات على سلطة التشريع ، ودون خروج عن دوره الذى نيط به . والقاضى المصرى ليس بمجبورٍ عليه فى أن يطبق قواعد العدل والانصاف حين لا يجد النص أو يجده غامضاً أو غير كافٍ ؛ ولكنه قد يجد ضيقاً فى النصوص المفروضة عليه ، ويراها من الوضوح والاستقرار بحيث لا يستطيع أن يجمع بين إرضائها وإرضاء العدالة والمصلحة الاجتماعية ؛ فى مثل هذه الحالة لا نطمع من القاضى إلا فى شىء واحد ؛ لا نريده على أن يهمل القانون ليرضى العدل والمصالح المرسلة ، ولكنا نسأله أن يكتب على الورق ما يختلج فى ضميره ، ويلخص فى « حيثياته » هذا الحوار الذى دار ، أو اشتجر فى نفسه ، قبل أن ينتهى إلى قضائه . نسأله — أو قل نستأديه — أن يفصّل الموضوع ويعرضه على حكم النص ؛ ثم يصارحنا بأن هذا النص قد خُلق عاجزاً — أو أصبح بتغير الظروف عاجزاً — عن أن يواجه مشكلات الناس ، فيفصل فيها فصلاً ينطوى على العدل ويوفر المصلحة الاجتماعية ؛ ولكن القانون هو القانون ، والقاضى هو القاضى ، فعليه إذاً أن يُعمل النص ليرضى ذمته القضائية ؛ ثم يُسجل رأيه فيه ، ويدعو المشرع إلى تعديله ؛ فيبرىء بهذا ذمته الاجتماعية .

وفى أحوال أخرى لا يكون على القاضى ليؤدى دوره الاجتماعى الارشادى إلا أن يتوجه فى أسبابه بملاحظة أو نصيحة ؛ إن النص معه وفيه غناء العدل ، وفيه رضاء المصلحة الاجتماعية ؛ ولكن الحكم الجاف ، أو البارد ، يذهب غير مسموع كصوت أجش ليس فيه معنى من غلظة مؤدِّبة ، أو رحمة راشدة موجهة ، وليس فيه دوى رحيب الأفق لهذا الأمر الذى أثارته قضية سويلم بن سالم ، وهو مع ذلك أمر هذه الأمة أو هذه الطائفة أو هذه الجماعة ، أو هذا الخلق وهذه الظاهرة .

ترى أ كلُّ قاضٍ صالحٌ لأن يفعل هذا ؟ كلا ، من أسف .

إذاً فهل يفعله كل قاض صالحٍ لفعله ؟ كلا ، مع الأسف الشديد .

فى القضاة جنود مجهولون ، وفى أحكامهم مفاخر معلومة ومجهولة ، وقضاتنا فى مجموعهم مفخرة قومية ، ولكن القاضى — فيما يظهر على الأقل — شديد التضييق على نفسه فى هذه الناحية كأنما يحسبها متعارضة مع طبيعة عمله ؛ ومن يدرى ؟ لعل وراءه من الرؤساء من يقيد عليه هذه « الأوابد » ، ولعلّ الاحصاآت الحسابية التى تدور حول نسبة الفصل فى القضايا أو « الخلاص » منها واقفة بالمرصاد . فعلينا إذاً أن نترك القاضى الجزئى وأن نترك المحاكم الكلية فى « رولاتها » المضفاضة لنلتمس بعض ما نريد فى أحكام قليلة نادرة كهذه التى أصدرها الأستاذ عبد العزيز باشا فهمى ، تخاطب فيها المشرع حيناً ، وتخاطب فيها النقدَ حيناً ، وتفزع فيها حيناً ثالثاً إلى المعايير الخلقية العامة .

● ● ●

إن تكن هذه شكوانا اليوم ، وقد ودَّعنا فى الثلث الثانى لهذا القرن وأوشكنا أن نودع من ثلثه ثلثه ،

فكيف كانت حالنا فى أواخر القرن الماضى ومطلع هذا القرن الحاضر ، فى الفترة القضائية من حياة سعد زغلول بين عامى ١٨٩٢ و ١٩٠٦ ؟

ليس لنا أن نزعم أنا فتشنا فى أحكام ذلك العهد فلم نجد وضاءتها ، بل ليس لنا أن نرجح اعتباطاً أن الموازنة الدقيقة بين ذلك العهد وعهدنا تخرج هذا الأخير أدنى إلى ما نبغى ؛ ولكنا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن طبيعة سعد زغلول ما كانت لتسمح له أن يلتمس السلامة ، فيتجنب فى أحكامه مثل ما ندعو إليه . فاذا صادفنا حكماً أو اثنين صدرا عن هيئة يرأسها ، وزامله فيها رجلان لم يعرفا بنزعة ثورية ، ولم يشغلا نفسيهما بدعوة عامة إلى إصلاح اجتماعى أو تشريعى ، فهل نكون مغالين كثيرا لو قلنا : « هذه إصبع سعد زغلول » ، حتى قبل أن نقرأ خط يمينه بالقلم الرصاص على مسودة الحكم !

لننظر إلى هذه الحيثية :

« من حيث إن الدفع بكون ورثة الناظر على وقف لا يلزمون بتقديم حساب عن مدة نظارته إذا مات مجهلا ، لا يمكن قبوله لأن إجهال المورث تقصير لا يمكن أن يتحمل تبعته غير تركته ، وإذا صح هذا المبدأ يكون حلا للخونة من النظار على الغدر بالأوقاف التى تكون تحت نظارتهم ، وإرشاداً لهم للتخلص من عواقب غدرهم بواسطة الاجهال ، ولا يصح لشريعة تحترم الوقف وتحافظ عليه أن تقرر مبدأ مثل ذلك » . (محكمة استئناف مصر العليا فى ١٦ مايو ١٩٠٥ — دائرة سعد بك زغلول وأحمد بك زيور وأحمد بك طلعت — مجلة الحقوق س ٢٠ ص ٢٨١) .

حيثية قصيرة بدت فيها ثورة عارمة ، بدت فيها شخصية المصلح الاجتماعى الذى لا يخاطب خصمين فى قضية ، وإنما يخاطب كتلة النظار ومجموع القضاة وهيئات التشريع ؛ وهذا المصلح « الشامل » يرعى مصلحة المستحقين ، ولكنه لا ينسى مصلحة النظار أنفسهم حتى إبان سخطه عليهم ؛ فهو ينبههم إلى أن « الإجهال » تقصير يؤذى ورثتهم أنفسهم ، فيتحملون تبعته ؛ وهكذا يفهمهم إلى أن يضبطوا حساباتهم ، وألا يعرضوا أنفسهم وذريتهم والمستحقين لأن يموتوا مجهلين ، أى غير مبينين ما أنفقوا على الوقف ، وما قبضوا من غلته ، وما أدوا إلى المستحقين وما فضل لهم .



ولكن . . . ما القول فى هذه القاعدة الشرعية التى تضمنها « قانون العدل والانصاف » ؟ ما بال الحكم لا يعارضها بقول فقهى آخر ؟ أتراه يئس من أن يجد فى « أرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة » ما يدفعها به ؟ أم تراها كبرياء الرجل وشدة اقتناعه بالرأى ، وغيرته على الحق ، وشعوره بإساءة استغلال النظار لقواعد كانت لها مسوغاتها العادلة فى مجتمع أدنى إلى طهر النسمة من هذا المجتمع؟

لو غير سعد لأخذ القاعدة الشرعية بشىء من الملاينة والتحليل ، ولكن سعداً ثار بها كما يثور بظلم صارخ ، وخاطبها بأسلوب الخطيب المتحمس كما يخاطب ظالماً فى قول غليظ ، وكأنه يقرر فى لهجة عصبية : « لن أطبق هذه القاعدة ولو لم أجد عند الفقهاء غيرها ، لأن الشريعة

لا يمكن أن تكون قد أرادتها » ، وإلا فما باله وقف عند هذه الغاية وهو الذي سنرى في أحكامه نشاط الباحث الدائب ومراجعة الأزهري المتفقه في مثل ابن عابدين[1].

ولننتقل إلى حكم آخر أصدرته عين الهيئة مشكلة عين التشكيل في عين الجلسة.

كان الخصم الذي أدانته دائرة سعد زغلول جهة حكومية « تفتيش ري الاسكندرية » لأن أحد مهندسيه هدم « ربخا » لأحد الأفراد بغير أن يسلك إلى ذلك الاجراآت الادارية المبينة في اللائحة (لم تتكلم اللائحة عن حالة هدم البربخ وإنما تكلمت عن تضييقه فقط). دفعت الحكومة دعوى التعويض بالمادة ٧ من الأمر العالي الصادر في ٢٢ فبراير سنة ١٨٩٤ التي تقضي بعدم مسئولية الحكومة عن أي ضرر ينشأ بسبب أعمال مصلحة الري. فماذا قالت المحكمة؟ لنسمع:

« وحيث أن المادة السابعة منها قضت حقيقة بعدم مسئولية الحكومة عن الضرر الذي ينشأ عن أعمال تفتيش الري، غير أنه لا يمكن أن يكون المراد بهذه الأعمال الاجراءات الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون، والمضرة بحقوق الأفراد، وليست فيها مصلحة عامة للناس، لأن ذلك لا ينطبق بوجه من الوجوه على مبدأ الحكومات العادلة، ولا يصح أن تتضمنه شرائعها. » (المجموعة الرسمية السنة السادسة ص ٢٤٦).

إننا نقابل هنا القاضي الذي يُحسن تفسير القانون وتطبيقه، ويحكم القياس فلا يختل في يده: يرى قيوداً مفروضاً اتخاذها إذا شاءت الحكومة « تضييق » برنج، ويرى الشرع قد أغفل الكلام عما يكون حين لا يراد التضييق فحسب، وإنما تراد « الازالة » التامة، فلا يتردد القاضي في الأخذ بقياس الأولوية ويقرر — مصيباً بغير شك وفي حدود ولايته — أن ما قرره الشارع ضمانة للناس في حالة التضييق مطلوب من باب أولى في حالة الازالة.

ولكنا لا نقابل في هذا الحكم قاضياً يحسن التطبيق والقياس فقط، وإنما يقابلنا الثائر والمصلح والمفكر التشريعي ذو النظرة الشاملة، الذي لا ينسى في ثورته قواعد الضبط والاعتدال، فيرد بين عباراته هذا التحفظ: « وليست فيها مصلحة عامة للناس »، كأنما يريد أن يقيد الصالحة الفردية بالمصلحة الاجتماعية.

وفي هذا الحكم نرى الأسلوب العصبي الذي رأيناه في الحكم السابق؛ فهو ينزه الحكومات العادلة عن أن تتضمن شرائعها مثل هذه المادة مفسَّرة التفسير الحكومي. ولعله يقول دون أن يفصح: لئن كان هذا التفسير الذي تريده مصلحة الري خطأ فلا محل له، ولئن يكن صواباً فإن المحكمة لتتحلل من ذلك النص وتأبى إعماله.

عبده حسن الزيات المحامي

من كلمات سعد المأثورة

يجب أن ننقاد للقانون وألا نعتبر الانقياد له مهانة ومذلة بل عزاً وشرفاً.

أتقبّل والسرور يملأ جوانحي أن أكون على رأس أمة لا تساق سوق الأنعام، ولكنها تسير خلف البادي لا الأشخاص.

---

(١) جاء في كتاب مباحث الوقف للمرحوم الشيخ محمد بك زيد الابياني الطبعة الثالثة ص ٩٥ ما يأتي في بحث هذه القاعدة:

« ولعل صاحب هذا القول نظر إلى أن التعدي لم يعلم فيحمل على أن الناظر صرفها فيما يعود على الوقف بالمنفعة أو ضاعت منه بدون تقصير. والنظر مع هذا لقولهم الناظر أمين، والمودع الأمين يضمن بموته مجهلا الأمانة ... ...

ولما كانت هذه الشبهة وجيهة لم يتفق العلماء على هذا الحكم، إذ بعضهم يجد الموت بما إذا مات الناظر فجأة. أما إذا مات بعد المرض مع تمكنه من بيانها فيكون مانعا لها فلا يضمن. وبعضهم يفصل في الغلة التي مات الناظر مجهلا لها فلا يضمنه إذا كانت غلة الوقف للمسجد ونحوه، ويضمنه إذا كانت غلة الوقف مستحقة لقوم بنص الواقف »

رابندرانات تاغور

بعض آرائه فى الحياة والفن

للأستاذ على أدهم

مضى تاجور شاعر الهند العظيم وحكيمها النادر المثال بعد أن تعقبه المرض فى الأشهر الأخيرة ، واشتدت به وطأة العلة . ومثل تاجور لا يجمل أن يغيب شخصه عن عالم الثقافة ومسرح الحياة ، دون أن يشيع بكلمات الوداع ، ويذكر بكبير التقدير وعميق الاعجاب . ولم يكن تاجور حجة الهند وحدها ، وعلما من أعلام الشرق فحسب ؛ وإنما كان مفخرة من مفاخر الانسانية فى كل العصور ؛ وقد مات بعد عمر مديد ، وحياة حافلة ، ولكن اختفاءه فى هذه الأيام الحالكة الناصبة ، والحاجة ماسة إلى أمثاله ، مما يثير الأسف ويضاعف الحسارة .

وقد اجتذب تاجور الأنظار بمثاليته العالية وعبقريته السامية ، ورحابة أفقه وإخلاص سريرته . وأشعاره التى ترجمها عن البنغالية إلى الانجليزية ، تعد من آيات الأدب الانجليزى وروائع الشعر العصرى ، وقد منح من أجلها جائزة نوبل ؛ وقد رفع هـذا الرجل مكانة أمته ، وأبعد صوتها ، وأكسبها عطف الكثيرين .

ولتاجور جوانبه المتعددة التى يصعب الاحاطة بها وإيفاؤها حقها ؛ فهو شاعر الغناء ، وشاعر الطبيعة ، وشاعر القومية والتضحية ؛ وهو روائى ممتاز ، وقاص بارع ، وناقد نافذ النظرات ، وفيلسوف بعيد التأملات ؛ وأدبه فى تنوعه وكثرته يقدم لنا نقداً شاملا للحياة العصرية واتجاهات الفكر الحديث ، تضيئه لمعات من تعاليم الاوبانيشاد ، وتشرق فيه أضواء الرؤى المقدسة .

وقد كان تاجور موسيقياً مجيداً ، وعالج فى السنوات الأخيرة التصوير ، فاسترعت صوره الأنظار ، وحازت التقدير ؛ ولم يترفع عن الانغماس فى تيار الحياة العملية ، فجاهد فى حركة بلاده القومية ، واضطره ولاؤه لوطنه إلى أن يرد اللقب الذى منحه إياه الانجليز ؛ ومجهوده فى رفع مستوى التربية والأخلاق معروف ؛ وطالما نعى تاجور على الحضارة الراهنة نزعتها المادية ، واستعبادها للآلة ، واندفاعها فى سبيل القومية الطائشة ؛ وكان فى طليعة الداعين إلى السلام والروحية ، والعاملين على إيجاد « العقلية الدولية » التى تستطيع أن تجنب العالم ويلات الحرب وفواجع الخراب والتدمير .

والانسان فى رأى تاجور كائن خالد يجمع فى نفسه بين الروح والطبيعة ؛ فهو ابن الأرض ووارث السماء . والانسان من حيث هو حلقة من الحلقات فى سلسلة الحوادث الطبيعية ، خاضع لقانون الضرورة ، ولكنه حر من حيث هو متصل بعالم اللانهائى ؛ وهـذا هو مصدر التناقض الذى يصادفنا فى الحياة والفن والأخلاق ؛ فالفرد ينزع إلى الحق الكامل والجمال التام ، والخير جميعه ؛ ولكنه لا يستطيع فى هذه الدنيا الفانية إلا أن يدانيه ويقاربه . والعقل يتطلب المثل الأعلى للحق ويود أن يشمله ويستوعبه ، ولكن العقل بنزعته الانفصالية وميله إلى التحليل يجد نفسه عاجزا عن الاستيلاء على « الكل » . وفى الناحية الأخلاقية نشعر بتقصير الحقائق الواقعة عن النوازع السامية والمطالب المثالية . وهناك نزاع محتدم الأوار ، مشبوب اللهيب فى نفوسنا بين الجانب اللانهائى وبين الحدود فينا الذى ورثناه من بقايا التطور القديم . وقد تهولنا ضخامة القوى السفلية وروعنا انتصارها وعجزنا عن مقاومتها ورد غائلتها ، فنتساءل : هل شعورنا بالكمال وهم ؟ وهل انتصارنا لجانبه واستبسالنا تحت علمه جنون وحماقة ؟ وهل هنـاك أمل للفوز فى المعركة ؟ أم هى معركة مقضى علينا بالفشل ؟

والتشاؤمون في كل عصر يريدون استئصال المطامع ، وإخماد الشهوات ونيل الحرية الداخلية ؛ ولكنهم يرون الحياة ملأى بالمتناقضات ، ويرون الطبيعة عابسة الوجه ، فيلوذ فريق منهم بلون من ألوان الصوفية التي تحتقر الطبيعة وتزدرى الانسان ، ويرددون أن المطلق يختلف عما نعهده في عالمنا ، وأنه نقيض المحدود ، وأنه وحده الحقيق ، وأن الدنيا وهم لا وجود له ولا حقيقة ؛ ولكن مثل هذه الفلسفة تجعل المطلق تجريداً بعيداً عن الدنيا ، وتقول بأن إخماد الروح هو غاية الانسان ؛ ولكنها بهذا الصنيع تقطع العلاقة بيننا وبين المطلق ، ولا تجيب مطالب الروح وتخذل الانسان في صراعه ، وتغريه بأن يأخذ جانب الشر أو يعبد القوة كما فعل نيتشه .

ويرى تاجور أن مفكرى الغرب يفخرون بأنهم عاملون على إخضاع الطبيعة ، كأننا نعيش في دنيا تضمر لنا السوء ، وعلينا أن نشهر عليها حرباً عواناً لإخضاع عصيِّها وانتزاع خيراتها ؛ ويعلل ذلك بنشوء الحضارة الغربية في المدن ، على نقيض الحضارة الهندية التي نشأت بين أحضان الغابات الفيحاء ، محتمية بها مترعرعة في ظلالها ؛ ولم يضعف ذلك العقلية الهندية ، وإنما وجهها توجيهاً خاصاً ؛ وهـذه الصلة الوثيقة بالطبيعة لم تجعل وكد الهندى أن يبسط سلطانه على الأشياء ، ويخضعها لارادته ، وإنما أوسعت نظره ، وأفاضت عطفه ، وأكدت العلاقة بينه وبين ما حوله ، ونفت عنه وحشة العزلة والشعور بالفردية ، وعلمته أن السبيل الوحيد لادراك الحق هو في تغلغلنا إلى صميم الأشياء ، وتبادلنا وإياها الحب والعطف . وكان هدف حكماء الهند على الدوام هو الملاءمة بين روح الانسان وروح الدنيا . ولما تولى عهد الغابات ، ونشأت المدن العامرة المزدهرة والدول العظيمة النفوذ ، ظلت الهند تستوحى مثلها العليا القديمة ، وتستمسك بأفكارها السالفة ، وتعتز بحكمتها ومدخر كنوزها . فالدنيا والانسان في نظر الفلسفة الهندية حقيقة واحدة عظيمة خالدة والانسان يستطيع التفكير لأن أفكاره منسجمة مع الأشياء ، ويستطيع استعمال قوى الطبيعة وتسخيرها لأداء أغراضه ، لأن قواه منسجمة مع القوى العامة ؛ ومن ثم لا تتناقض أغراضه مع أغراض الطبيعة في المدى الواسع والأهداف القصوى .

ويغلب على الغربيين الشعور بالحواجز والفواصل بين الانسان والطبيعة ؛ فكل ما كان عليه طابع الكمال فهو في نظرهم إنسانى ، وكل ما هبط مستواه وقلت قيمته فهو محسوب على الطبيعة ؛ ولكن العقل الهندى لا يتردد في الاعتراف بالأواصر القوية بين الانسان والطبيعة ، ولا يعتبر ذلك فكرة فلسفية ، وإنما يعتبره غاية عملية يتوخاها ويجهد لتحقيقها .

والعالم يعرف أن الدنيا ليست مجرد ما يبدو للحواس ، وكذلك الحكيم ينفذ ببصيرته إلى الحق الكامن وراء الظاهر ؛ وهذا الضرب من المعرفة لا يزيده قوة ، وإنما يمنح نفسه الصفاء ويهبها السرور ؛ وعندما يتعرف الروح الخالدة في الأشياء تتكشف له الدنيا في أروع معانيها وأوفى دلالاتها .

والحضارة الغربية قائمة على مجاهدة الطبيعة والتغلب عليها ، واستثارة قوى الانسان وتنظيم جهوده وحشد كتائبه وجموعه ، وهى تفتن في ابتكار الوسائل الطريفة وخلق الأسلحة المستحدثة ؛ وهذا في ذاته عمل باهر ومظهر رائع من مظاهر فرض سيادة الانسان وعرض قدرته . وقد أهملت الحضارة الهندية هذا الجانب ، فلم يكن غرضها إحراز القوة ونيل السيادة ، وعنيت بحياة التأمل والاستغراق في كشف غوامض الحقيقة وخفايا الكون ؛ وقد كلفها ذلك ثمناً غالياً ، وجعلها تخفق في عالم المنافسة المالية ، وتتخلف في طريق النجاح ؛ ولكن هذه النزعة ذاتها كانت مظهراً رائعاً من مظاهر الطموح الانسانى الذى

لا يعرف حداً ولا ينتهي عند غاية ، والذي لا يطمح إلى أقل من تحقيق اللانهائي .

ويبدو الفرق بين العقلية الأوربية والعقلية الأسيوية واضحاً كل الوضوح في هذا النظر إلى البيئة والمحيط . والأوربي عندما يستصعب قوى الطبيعة يستمد قوة من الله ، ويستنجد به لمغالبتها ؛ فالله في زعمه يقود البشر ضد الطبيعة .

ويرى تاجور أننا لو أنعمنا النظر رأينا شوابك القرابة بين الانسان والطبيعة ، وبين النفس واللانفس ؛ وهو يقول في كتابه العظيم (سمدهانا) : « لا يمكن أن يكون لنا أي اتصال بما حولنا إذا كان غريباً عنا منقطع الصلة بنا ، وليست النفس واللانفس نظيرين متنافسين ، وإنما هما وجهان لنفس المطلق وحالتان مختلفتان من أحوال وجوده ، وليست الروح منافرة للطبيعة ، ولا الطبيعة مناقضة للروح ، وإنما هي وقود لهيب الروح ؛ والارادة البشرية تستمد قوتها مما يحيط بها ؛ والطبيعة قابلة للتكييف حسب إرادة الانسان . وغير النفس إنما هو وسيلة لاظهار القوى الروحية ، والروح لا تحقق نفسها وتدرك جوهرها إلا عن طريق الطبيعة » .

ويرى تاجور آثار الروحية في كل شيء ؛ فكل مظهر يحرك في نفسه العبادة ويثير التقوى ، ويطلق من شفتيه الانغام والتهاليل .

والفن الصادق عند تاجور هو الذي يسمو بنا فوق آلية الحياة ، وينسينا نقصها وصغائرها ، ويخرجنا من قيود التكاليف ومصطلحات العرف ؛ ونسيان النفس هو مصدر السرور الفني ؛ والشاعر الفنان هو الذي يطلق في نفوسنا الشاعر الفنان ، وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا كان شعره وليد نسيان النفس . والشاعر الحق يحلق فوق المطامع والشهوات ؛ ويرتفع إلى المستوى الروحي ، حيث ينتظر الضوء ويتلق الوحي ، وهو يتصل اتصالاً مباشراً بالشيء الذي يود تفسيره ، ويغرق فيه شعوره ويشمله بعطفه

ويتلاشى فيه ؛ وعند ما يتهيأ له ذلك ، ويفنى الشاعر في الشيء الخارج عن نفسه يبدأ « الفن » . وعندما نقول إن غاية الفن هي السرور والمتعة ، ليس معنى ذلك أن الفنان يقصد إلى ذلك ويتعمده تعمداً ، لأن الخلق الفني خلق تلقائي ، والفنان لا يتحرى الخلق لأنه يريد الامتاع وإشاعة السرور ، وإنما هو يعبر عما يستفيض في نفسه ويجيش به شعوره . والفن يعين الروح على صدع قيودها وكسر أغلالها ، ويعقد السلام بينها وبين الدنيا ؛ وهو يرد غربة الروح ، ويدخلها عالم الحرية المطلقة وعالم الجمال ؛ وهو يستنزل اللانهائي إلى الحياة ؛ ومن ثم يجمل الحياة ويشيع السرور في جنباتها .

وليس غرض الفن تعليمياً ، فانما غرضه السرور والامتاع ، لا العلم والتحصيل ، وليستحث إلى الغايات النبيلة ، لا ليلقن الدروس وينثر المواعظ . والفلسفة تجادل وتعارض ، والدين يأمر وينهى ؛ وإنما الفن يسر ويمتع ؛ وقد يكون التعلم نتيجة الفن ولكن غرضه هو المتعة .

وليس من أرب الشعر أن يحدثنا عن الفلسفة ، ولكنه لا يستطيع أن يؤدي رسالته إلا إذا تضمن رؤية فلسفية ؛ وخير الشعر هو ما فسر لنا الحياة ، ووافانا بآراء أنضج وأكمل من حقيقتها ؛ والشعر لا يمتع إلا إذا أبان لنا الأبدي الخالد خلال صوره وخيالاته . والشاعر الحق يلمح « الكلي » خلال « الجزئي » . والشعر والفلسفة ليسا نقيضين ، وصاحب العقل المكدود والنفس المهتاجة الثائرة لا يكون شاعراً حقاً ، لأن النغمات التي تجري على اللسان صدى النغمات التي يفيض بها القلب ؛ ولا يتزن العقل ويستقيم إلا إذا تحرر من أسر الشكوك . ولكي تسمو الروح إلى مستوى الشاعرية لابد لها أن تنسجم مع أرواح الأشياء وزوال الخلاف بين الداخلي والخارجي .

والمتشائم لا يكون شاعراً من الطراز الأول ، وكذلك الزاهد الذي يثور على الحياة ويناصب الدنيا العداء ؛ وشعر التشاؤم قائم على التناقض ، لأن الذي لا يرى

فى الحياة شيئاً قيماً محال أن يكون شاعراً ؛ والشاعر الباحث عن الجمال فى الأشياء لابد أن يحب الأرض ، ويرضى عن الحياة ، وتكون روحه هادئة مطمئنة راضية مرضية ، غير شاعرة بالغربة والوحشة ؛ وهو يلمح الاتساق والتوافق فى « بابل » الفوضى ويستخرج الخير من خلال الشر ، ويلمح الأبد من ثنايا الزمن ، ولا يسوء ظنه بالحياة إذا صدمته متناقضاتها ، ولا يراها هدفاً للفوضى . وقد يلم الشاعر بمتناقضات الحياة ، ويصف فواجعها ، ولكن مع اعتقاده أن النهاية هى الخير والسلام ، لا اليأس والشر ؛ وليس معنى ذلك أن يرى الدنيا جنة دانية القطوف خالية مما يسوء ، فان عليه أن يواجه الحياة بكل ما فيها من فواجع وآلام ونقص وقبح ؛ ولكن ليشعر فى النهاية أنها دنيا صالحة ؛ فهو يصف معارك الروح وأزماتها ليرينا السلام وراء ذلك النزاع ، والاتساق وراء الفوضى والاختلاط . ورسالة الشاعر والفيلسوف هى أن يظهرا لنا أن النزاع والفوضى ليسا هما نهاية الأشياء وخاتمة المطاف ؛ فالفيلسوف يقول بأن كل تناقض نراه هو فى صميمه انسجام واتساق قد غاب عنا سره ، والشاعر يبصرنا روح الأشياء الصالحة .

والشاعر يفسر الحقائق ويميط اللثام عن سرها ، ولا يكتفى بملاحظتها وتسجيلها . والفيلسوف يكشف عن المعنى الكامن فى الأشياء ، وينفذ إلى ما وراء الظواهر ، والشاعر يستخرج من مظاهر الأشياء الناقصة الزائلة الجمال الروحى الباطن ؛ وهو لا يقلد الحياة ، وإنما يكشف عن الحياة فى داخل الأشياء . والشعر والفلسفة كلاهما مرآة لحقيقة الحياة لا للحياة كما تتراءى لنا . والفن هو المجهود الذى يبذله العقل البشرى فى تفهم الروح الداخلية للأشياء . وليست مظاهر الحياة جميلة فى ذاتها ، وإنما هى تشير وترمز إلى جمال محجوب خلفها ؛ فالشعر ينزع إلى صميم الأشياء ويخلص لدخائلها ، ولا يقف عند حدود الطبيعة البادية . ومصير الطبيعة النهائى هو أن تسمو وتهذب وتصير روحاً . ووظيفة الفنان هى أن يسمو بالطبيعى إلى الكمال المقسوم . والشاعر يطلق الروح المحبوسة فى الأشياء ، وعندما يلمس الشاعر المادة تفقد ماديتها ويغدو نقصانها كمالا وفناؤها بقاءً . والفلسفة عند تاجور هى معبد الحق ، والشعر فى رأيه هو حرم الجمال

على أدهم

شاعر الهند الأكبر

رابندرانات طاغور

للأستاذ محمود محمود



رابندرانات طاغور

في مدينة كلكتا بالهند ولد شاعر الهند الأكبر رابندرانات طاغور عام ١٨٦١ م، وفي المدينة عينها مات الرجل في اليوم السابع من شهر أغسطس عام ١٩٤١ م، بعد ما عاش ثمانين حولا قضى أكثرها في خدمة العلم والفن والأدب، وذاع اسمه في أرجاء العالم طراً، حتى ظفر بجائزة نوبل للآداب، وهو شرف عظيم لا يناله إلا من كان له في خدمة الانسانية باع طويل. وقد نقلت مؤلفات هذا الرجل إلى أكثر اللغات، وانتفع بها عدد من الناس عديد؛ فبات من حقه على أمم العالم أجمعين أن تذكره بعد موته، وأن تورث أدبه أبناءها جيلا بعد جيل. وسنحاول في هذه العجالة القصيرة أن نقدمه إلى القارئ، وأن نبسط حياته في كلمة موجزة، ولعل في هذا حافزاً للناشئة أن تتزود من أدبه، والمتأدبين أن ينهلوا من نبعه وفيضه.

ماتت أم الشاعر وهو ما زال في المهد صبياً، وكان أبوه كثير التغيب عن داره، فحرم طاغور منذ نعومة أظفاره عطف الوالدين وحنان الأبوين، وعاش أكثر أيام طفولته وحيداً منعزلا، لا يجد لنفسه عزاء ولا سلوى إلا في الطبيعة يتدبرها، وفي خلق الله يتأمله. كتب مرة إلى صديق له يقول: «إن أهم ما يميز طفولتي هو العزلة، فلقد كان أبي كثير التغيب، ولم أره إلا لماماً، ولكنه حين يحضر يملأ الدار بوجوده، فترك في حياتي أثراً عميقاً لا تقوى الأيام على محوه. وماتت أمي وخلفتني في رعاية خدمها، فكنت كثيراً ما آوي سحابة نهاري، من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس، إلى نافذتي، وأرسم في مخيلتي ما كان يجري في العالم الخارجي، فأغرمت بالطبيعة من عهد لا أكاد أذكره. آه! لقد كان صوابي يطير جنوناً حينما كنت أتأمل كسف السحاب يتلو في السماء بعضها بعضاً. فأحسست — حتى في تلك الأيام الباكرة من حياتي — أن معي رفيقاً يلازمني وزميلا لا يفارقني؛ ولقد كان لي أبداً زميلا عطوفاً مخلصاً، وإن كنت لم أعرف ماذا أسميه، وبماذا أدعوه. لقد همت بالطبيعة هياماً شديداً لا أستطيع أن أعبر لك عنه في كلمات، وكانت الطبيعة لي دائماً صديقاً محباً، لا تفتأ كل يوم تكشف لي في هذه الدنيا عن لون من الجمال جديد».

ولعل في العبارة الآتية التي ننقلها عن كتابه «ذكريات» ما يتمم صورة عزلته أيام الطفولة التي رسم جانباً منها في خطابه إلى صديقه، قال: «كنت كلما أشرق على يوم جديد من أيام الخريف أخف إلى الحديقة في اللحظة التي أنهض فيها من سباتي، فيبدو لي كأن عبق الأوراق والحشائش وقد بللها الندى بقطره، يعانقني بشغف شديد، وكأن الفجر — وقد جللت حواشيه بالذهب النضار أشعة الشمس المتيقظة — يطالعني بوجهه ويحييني من خلف أوراق النخيل المرتعشة، كانت الطبيعة لي كالطفل يقابلني بيد مقبوضة، ويسألني كل يوم بثغر باسم: ما الذي تظنني قد جمعت يدي عليه؟ ولم يكن من المستحيل أن تضم

قبضته كل عجيب فى الدنيا وغريب » .

ويحدثنا طاغور أن أباه أرسله إلى المدرسة وهو صبي يافع ، فكرهها أشد الكره ، لأن أحد أساتذته كان شديد القسوة عليه ، كثيرا ما يأمره أن يقف فى الشمس المحرقة ساعات متواصلات إذا هو أهمل فى الدرس أو قصر فى أدائه . وهكذا زهد فى المعرفة غلام هو أشد ما يكون بطبعه هياما بها . فلما نمى إلى أبيه أنه باق فى المدرسة عنتا وقسوة ، أخرجه منها ووضعه تحت إشراف أساتذة خاصين به وحده ، فمهد الأب بذلك لابنه أن يظهر مواهبه وملكاته ؛ فأقبل الصبي على الدرس يكاد يلتهمه التهاما ، وزرات الكلمات والآراء المختلفة والموسيقى والأغانى من قلبه خير منزل ، وتلقاها قبولا حسنا . وشرع وهو ما يزال فى حداثته ينظم الشعر والأناشيد ، ويكتب القصص والروايات ، معبراً بكل ما استطاع من وسائل عن حبه للحياة . وليس عجيبا أن يبدأ حياته الأدبية بمحاكاة شعراء (بنغال) ، حتى تم نضجه الأدبي وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، فاتسمت كتاباته بالأصالة ، وطبعت بطابع الابتكار . وفى هذه السن استولى حب الطبيعة على قلبه أكثر من ذى قبل ، وأخرج لنا « أناشيد المساء » و « أناشيد الصباح » ، والمجموعة الأولى تدل من عنوانها على أن الشاعر فيها مكتئب حزين ، فهو ينظم قصيدة عن « اليأس » وأخرى عن « سقوط النجم » وثالثة عن « مناجاة الأحزان » ورابعة عن « امرأة بغير قلب » ، وهكذا . ولكنك تراه فى المجموعة الثانية أكثر بالحياة ابتهاجا وأشد بها سرورا . فهناك قصيدته عن « حلم العالم » و « الحياة الأبدية » و « عودة الاتحاد بالطبيعة » وهو هنا حتى حين يكتب عن « الموت » يذكرنا أن الحياة لا يُدرك معناها إلا بالانتقال منها إلى عالم آخر هو عالم الفناء .

وقد كان طاغور فى هـذه الأغانى ثائراً على القديم ، داعية إلى التجديد فى اللفظ وأوزان الشعر ، وبهاتين المجموعتين وغيرهما من القصائد الخيالية ينتهى الدور الأول من حياة الشاعر ، حياته فى كلكتا . وقد انتقل فى الدور الثانى من المدينة إلى الريف ، وتزوج وهو فى الثالثة والعشرين من عمره . وفى هذه المرحلة من مراحل حياته يواجه الشاعر الحياة الحقيقية ، فقد أراد له أبوه أن يتفرغ للعناية بمزارع العائلة على ضفاف (الكنج) ، فصدع طاغور بما أمر ، وهو غير راض عن هذه الطريق التى دفعه أبوه إليها دفعاً ، لأنها لا تتفق وما كان يميل إليه من متابعة الدرس والتحصيل . ولكن حياة الريف مهدت له السبيل إلى جمع الكثير من تجارب الحياة ؛ ففى القرية أتيح له أن يتصل بحياة العامة اتصالاً مباشرا ، وأن ينقل عن الحياة رأساً الأقاصيص والأمثال التى تعالج ما يضطرب فيه الناس من شئون كل يوم . وفى القرية كتب بعضاً من خير مسرحياته . وإنك لتلمس أثر هذه الحياة الهادئة التى كان يحيا فى أناشيد « البستانى » وفى غيرها من قصص هذا العهد .

وقد قضى الشاعر فى هذا الدور الثانى من أدوار حياته سبعة عشر عاماً ، انتقل بعدها إلى دور جديد ، كان كما يسميه « خريف حياته » لأنه جاء بعد ربيع الحياة الزاهر ؛ وفى هذا الدور هبط الموت داره يحصد بمنجله أحباءه وأعزاءه ، ففقد زوجه الأولى ، وأصيبت كبرى بناته بالدرن الذى أودى بحياتها ، ثم فجع فى أصغر أبنائه ، وكان ذلك والشاعر فى سن الأربعين ، وهى السن التى يكون فيها الرجل فى أشد الحاجة إلى الزوج والبنين ، يجتمعون حوله ، ويسكنون إليه ، ويسكن إليهم .

وبعد هذه الفجيعة الكبرى استولى على طاغور قلق شديد ، فهجر قريته ، واعتزم أن ينكب على العمل ، لعله به ينسى رزءه الفادح ، ولعله يقدم للجيل الجديد خدمة

نافعة ، فنظم من القصائد طوالها وقصارها . وهو يقول : « إن عاصفة الموت التي هبت على داري ، وعصفت بزهرة أبنائي ، كانت عليّ بركة ورحمة . فقد أشعرتني بنقصي ، ودفعتني إلى أن أنشد الكمال ، وصورت لي في جلاء كيف أن العالم لا يفقد حقيقةً ما يضيع منه ظاهراً ... وعرفت الموت . إنه الكمال ، وليس شيء في هذه الدنيا بضائع » . ومن آثار هذا العهد كتابه المعروف « جيتا نجالي » .

ثم رحل الشاعر بعد هذا إلى الغرب ، وقد أدرك أن رحلته إلى انجلترا وأمريكا سوف يكون لهما أثر بالغ في تغيير نظرته إلى الحياة . وقد جاء في كتاب له دبّجه في ذلك الحين : « إني عندما عبرت الأطلانطيق ، وقضيت على ظهر السفينة غرة العام الجديد ، أدركت أن مرحلة جديدة من حياتي قد حلّت ، وهي مرحلة الرّحالة السافر » .

وقد أثرت هذه الرحلة بالفعل في نفس الشاعر ، فال إلى الاصلاح الاجتماعي ، وأنشأ مدرسته الشهيرة في (شانتي نكتان) التي كان يرمي بها إلى إنشاء عصر ذهبي في حياة البنغال ، وإلى تحقيق آمال الهند الحديثة .

وإن أكثرنا ليبحث عن الحقيقة حتى الأربعين من عمره ، فاذا ما دخل في العقد الخامس من حياته انتهى به البحث إلى رأي معين وعقيدة خاصة ، يصوغ عليهما حياته على صورة من الصور تتكرر يوماً بعد يوم . إن الرجل بعد هذه السن ليأوي عادة إلى حياة عائلية هادئة ، يقضيها بين أبنائه ، لا يفكر في جديد حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . ولكن ما هكذا عظماء الرجال ، فانهم لا ينفكون يجددون شبابهم ، ويطمعون في سلطان جديد . لا يرضون لعقولهم أن تخبو شعلتها ، ولا يقبلون أن يفكر لهم أحد غيرهم . وكذلك كان طاغور ، فقد خرج من محنته بعزيمة جديدة لا تعرف الخور ، وأمل قوي لا يتطرق إليه يأس . وأخذ ينادي بضرورة توحيد العالم في أمة واحدة ، وبإزالة ما تسببه فوارق الطبقات والأديان واختلاف الأجناس ، من إحن وبغضاء . وكان يسمي هذا الغرض « خلق الانسان » ، وذلك هو — في عبارته — « الأمر الوحيد الذي يهم الجيل الحاضر . وعلى أبناء اليوم أن يتحملوا كل مشقة ويقاسوا كل ألم حتى ينتصر جانب الخير في الانسان على جانب الشر » .

وشغف طاغور في شيخوخته بفن الرسم ، فعرض كثيراً من لوحاته في لندن ، وظفر من رجال الفن بإعجاب شديد ، وبقي الرجل يخدم الفن والأدب حتى وافاه الأجل المحتوم ، فانتقل إلى جوار ربه بعد ما خلف لنا كنوزاً ذهبية لا تفنى ولا تبيد .

* * *

كان طاغور إذاً أديباً فناناً متنوع المواهب ، يقرض الشعر ، ويكتب القصة القصيرة والقصة الطويلة ، ويؤلف المسرحية ، ويعزف الموسيقى ، ويصور اللوحات الفنية الرائعة . وهو في كل ما يخرج من عمل أدبي يستوحي البيئة ، كما يستوحي من سبقه من الشعراء الهنود ، ويشجعه شعب يميل بطبعه إلى الغناء ، ولسان قوي من قوى التعبير .

ولعل من خير ما كتبه شعراً تلك الملحمة الطويلة (البستاني) . وفي هذه القصيدة الرائعة يدرك طاغور أن الناس كثيرا ما يحسبون الشاعر رجلا نائياً عن الجماعة ، يسبح في الخيال ، ولا يضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، فيجيبهم بضرورة الشاعر ، وفي هذا المعنى يقول :

« أيها الشاعر ! لقد أقبل المساء ، وابيضّ فوداك ، فهل أنت في خيالك وعزلتك تستمع إلى رسالة من عالم غير عالمنا ؟ » .

فيجيب الشاعر : « أجل . لقد أقبل المساء . وإني لأرهف الأذن لعل صوتاً يناديني من القرية ، وإن كان

الظلام قد حل . وإنى لأرقب قلوب العاشقين من الشباب حين تلتقى ، وأعين المحبين حين تتبادل النظر وتتطلع إلى الموسيقى تعبر عن مشاعرهم وتخرجهم من صمت رهيب . من لهؤلاء ينشد لهم أناشيد الحب والعطف ، إذا كان الشاعر — كما تزعمون — يجلس على شاطئ الحياة ، ويتأمل الموت والحياة الآخرة ؟ » .

وفى حلو النغم يتابع الشاعر القصيدة ، ويغنى أناشيد الحب والحياة ، ولا يبرح ذهنه فى كل ما كتب ، أنه لا يخاطب مواطنيه وحدهم ، وإنما يخاطب أبناء العالم أجمعين .

ومن قراء طاغور ونقاده من يرى أن عبقرية هذا الأديب لم تبلغ ذروتها فى أناشيده ومسرحياته ، وإنما فى قصصه القصار . ولا عجب أن يكون طاغور قصاصاً ماهراً ، فقدرة الهنود على اختراع القصة مشهورة معروفة ، وحكاياتهم ذائعة بين الأمم والشعوب من زمان قديم .

يروى طاغور فى إحدى هذه القصص أنه فى يوم من أيام الشتاء الباكر ، وقد هبت نسمات لطيفة رقيقة ، بعثت فى الناس حياة جديدة ، وفى الأشجار خضرة ونضرة ، ومياه النهر فى غمر من الفيض يكاد يطغى على تلول « الثات » ، والصيادون يسبحون فى زوارقهم ، والأمواج ترتطم فوق الصخور ، والشمس مشرقة واضحة الجبين . فى هذا اليوم الجميل يقبل رجل براهمى ليستحم ، ويقبل فى أثره جماعة من النسوة يحملن الجرار يملأنها بالماء . ويشاء خيال الشاعر هنا أن يوقع صخور « الثات » الصماء فى حب (كوسوم) إحدى هؤلاء الفتيات . وتتواعد « الثات » على لقاء الفتاة كل صباح عندما تغرد طيور الفجر . ويقول التل العاشق : « رأيت مرة ظل الفتاة منعكساً على صفحة الماء ، فودت صخورى لو تقلقلت من مكانها وعانقته . فلقد كانت فاتنة حقاً فى ذلك الصباح ، وقد أحب الفتاة النهر والعشب . وذات يوم غابت (كوسوم) ولم تحضر كعادتها ، وعلم « الثات » من صاحباتها أنها خُطبت — وهى ما تزال طفلة — إلى فتى من فتيان بلد غريب موحش لا يتدفق فيه « الكنج » ولا يؤنسه ، وأنها انتقلت إلى بيت حميها ، وكأنها زهرة من زهور الماء نقلت من مكان رطيب إلى أرض جافة ، لا قطر فيها ولا ماء ! ثم تصرم العام ، وعادت (كوسوم) إلى وطنها بعد ما مات زوجها وترملت ، ورجعت إلى صخور « الثات » تندب حظها وتبكى أيامها . ثم انقضت السنون تلو السنين ، وتم للفتاة نضجها ، واكتمل شبابها . وأقبل ذات يوم كاهن من كهان الهنود ، ودخل معبده ، ورأته « كوسوم » ، وتعلمت منه معنى الحب ومعنى الموت ، واعتادت أن تقصد المعبد كل يوم ، تلمس موطئ قدمى الكاهن ، وتنثر الزهر فى أرجاء المكان ، وتغسل أوعيته بماء النهر . وبعد مدة من الزمن تهجر الفتاة هذه الحياة الدينية ثم تختفى ، ولكنها تعود ثانية ، ويعتب عليها الكاهن ، فتضطرب فى جوابها ؛ ولكنك تدرك من وراء الكلمات أنها عشقت الكاهن وهامت به ، وطاردتها صورته فى الحلم واليقظة ؛ فيرد عليها الكاهن قائلاً : « إنى مغادر مكانى هذا اليوم ، فأبعدينى من ذاكرتك ، وعدينى بهذا » فتعده الفتاة ثم ينصرف .

وأخيراً ترنو الفتاة بنظرها إلى نهر (الكنج) صديقها الأوحد ، ويقول (الثات) : « إذا لم يضمها النهر الآن — وهى فى آلامها وأحزانها — بين أمواجه ، فمن ذا عساه أن يفعل هذا ؟ » ، ثم يقول : « . . وغرب القمر ، وأقبل الظلام ، وسمعت خرير الماء ، ولم أر شيئاً غير هذا . ولكن الريح عصفت بشدة كأنها تريد أن تطفئ ضياء النجوم فى السماء ، خشية أن يفضح نورها ما يحدث على الأرض . ثم

اختفت رفيقتي ، التي كثيراً ما لعبت في جنبات صخري ، وغابت عن عيني ، ولكني لم أدر إلى أين سارت » .

وهكذا فإن طاغور كثيراً ما يورد ذكر المرأة في قصصه ، ويصف البيئة التي يعيش فيها . وهو — فوق هذا — يكسب المكان الذي يعرض له سحراً وفتنة . فللمنازل عند طاغور أرواح ، وللأطلال قوى السحر ، والجبال تنبئ عن عمر الزمان ، والبيت يذكر من مات فيه . ومن الناس من يتلبس بأشباح الخير أو الشر .

وما أقرب خيال طاغور إلى خيال الأطفال وما أشبهه به ! فكما أن الأطفال لا تملك إلا أن تنظر إلى المستقبل بعين الأمل ، فكذلك كان شاعرنا يعتقد أن « الجنة قريبة من سكان هذه الأرض » وإذا كان هربرت سبنسر يرى في نهم الأطفال وجوعهم الذي لا يشبع دليلا على توحش الانسان وهمجيته ، فقد كان طاغور — على نقيض ذلك — يرى فيهما العلامة الأولى على حب الانسان للاستطلاع والمعرفة ، ورغبته في الوصول إلى مملكة السماء .

وقد أظهر طاغور وهو ما يزال في الرابعة عشرة من عمره استعداداً للكتابة المسرحية ، فألف رواية اشترك في تمثيلها بنفسه . ثم تابع الكتابة في هذا الفن حتى أربى ما أخرجه من المسرحيات على العشرين ؛ وقد ترجم إلى الانجليزية الكثير منها ، ومثلته مسارح لندن ، ومنها رواية (شترا) ورواية (ملك الغرفة الظلماء) ورواية (مكتب البريد) و (انتقام الطبيعة) .

و (شترا) مسرحية غنائية ، وموجزها أن أبا الفتاة (شترا) لم يرزقه الله ابناً ذكراً ، فنشأ ابنته نشأة البنين وجعلها وريثة له من بعده . وفي الفصل الأول نشاهد الفتاة وهي تتشاور مع إله الحب وإله الشباب ، وتسر إليهما كيف أنها كانت تسير ذات يوم على شاطئ نهر في أرز غزال ، فوقعت عيناها على رجل قد استلقى تحت شجرة ظليلة وافترش أوراق الأشجار الجافة ، فحدقت فيه وأدركت أنه (أرجونا) بطل قبيلته العظيمة ، الذي طالما حلمت به ، وأعجبت ببطولته . وكانت تعلم أنه قد أقسم أن يعيش عيش النساك اثني عشر عاماً ، ولطالما تمنت أن تلقاه وهي في زي الذكور متنكرة ، ثم تنازله القتال وجهاً لوجه . وها هو ذا الآن تحت بصرها ، ولكنها لم تجد في نفسها الشجاعة على مقاتلته ، بل إن « عاصفة من العواصف الملتهبة » تلعب برأسها ، وتقلب عليها الرأي ، فتقف جامدة لا حراك بها ، ولا تستطيع حتى أن تبدأه بالتحية أو بكلمة طيبة وقد نهض على قدميه وانطلق ! وفي صبيحة اليوم التالي تنزع الفتاة عنها زي الرجال ، وترتدي الحلي والحرير ، وبقلب المرأة النابض تنطلق إلى معبد الغابة تبحث عن (أرجونا) البطل . وما إن تلقاها حتى ذكرها بقسمه . ولما استشعرت اليأس من ظفرها بقلبه توجهت إلى إله الحب ، فوعدها أن يأتي لها (بأرجونا) جاثياً عند قدميها ، مهزوماً لديها ، وهو الرجل الذي هزم كل من لاقاه . ثم تتوجه إلى إله الشباب وتتوسل إليه أن يهبها يوماً واحداً في حياتها يتوفر لها فيه جمال الأنوثة ورقتها ، وتفتقد فيه خشونة الرجولة وغلظتها . . . وهكذا يمازج طاغور بين الحب والدين ، ويحلل عواطف الرجال والنساء تحليل الخبير الموهوب .

هذه بعض نواحي طاغور الأدبية ، عرضناها في هذا المقال عرضاً سريعاً . وسنحاول في مقال آخر — إن شاء الله — أن نعرض لبعض نواحيه الأخرى .

محمود محمود

مدرسة طاغور

أسس « طاغور » مدرسة لفتيان الهند يأخذون فيها عنه تعاليمه ، وينشأون على مذهبه ودينه . وكان قدماء الهنود ينشئون مدارسهم بعيداً عن المدينة وضجيجها ، ويسمونها (أسرم) أو مدارس الغابات ، وهي مدارس أشبه بدور النسك والرهبنة منها بالمدارس الحديثة . وكان الطفل يوضع تحت رعاية (جورو) أو الرجل الحكيم . يأخذ عنه العلم والحكمة ، ويعيش في أحضان أمه الطبيعة ؛ وهذا هو نظام التربية الذي مال إليه طاغور وشغف به ، فقد جاء في مقال له : « إننا لسنا اليوم في حاجة إلى معابد للصلاة ، ولسنا بحاجة إلى هذه الطقوس والشعائر الدينية نقيمها . إن ما نحتاج إليه حقاً هو مدارس الغابات ، نريد مكاناً يأتلف فيه جمال الطبيعة ومجهود الانسان . هناك يكون معبداً حيث تلتقي الطبيعة الظاهرة بالروح الباطن » .

ولم يكتف طاغور بتقليد هذا النظام بغير تحوير ، بل نصح كذلك باقتباس كثير من النظم الحديثة في البلدان الغربية ، وأهمها تقوية الارادة ، لأن الارادة عند طاغور تكمل الوحي وتتممه . وهذه هي الروح التي سرت في مدرسة (شانتي نكتان) ، ومعناها موطن الأمن في مدينة « بلبور » والمدرسة في الأصل بناء أنشأه أبوه ، وجعل منه مسكناً وحديقة ومعبداً ومكتبة ، وغيرها من المرافق التي تيسر له الراحة والدرس .

وقد قاسى طاغور في أيام طفولته كثيرا من ألوان العقوبات المدرسية ، فأراد بمدرسته هذه أن يعالج القسوة الشديدة التي كان يعامل بها أبناء الهند وهم في دور التربية والتكوين ، والتي ردّها طاغور إلى جهل القائمين بالتعليم بطبيعة الأطفال . وكان يرى في الطبيعة خير معوان للمعلم على أداء واجبه ، فان لها تأثيراً لطيفاً هادئاً في النفوس ؛ فأقام مدرسته في العراء تحت ضوء الشمس وفي أحضان الحقول . وقد نشأت أول الأمر نواة صغيرة ، ثم أخذت تنمو وتنجح باطراد حتى أخرجت خير الثمار . كانت أول أمرها داراً يتنسك فيها أبوه ويدعو إليها الناس لعبادة الله ؛ وقد عاش طاغور في هذه الدار فترة من الزمن فنبتت في ذهنه فكرة إحياء المدرسة القديمة «أسرم» أو مدرسة الغابة . وبدأ التجربة عام ١٩٠١ مع تلميذين أو ثلاثة ، ثم زاد العدد إلى ثمانية عشر بعد عامين ، وإلى ستين بعد أربعة أعوام ، وإلى مائتين بعد بضعة أعوام أخرى . أما نظام الدراسة فيصفه أحد تلامذة طاغور في هذه العبارة :

« في الساعة الرابعة والنصف من كل صباح ينهض جماعة من التلاميذ ويدورون في أرجاء المدرسة مرتلين الأناشيد يوقظون بها الأطفال النائمين كي يهبوا من سباتهم يستمتعون بجمال الفجر وهدوئه البالغ . وما يكاد الأطفال ينهضون حتى يأخذوا في تنظيف غرفهم بأنفسهم ، فهم يتعلمون من البداية أن لا يغضوا من شأن العمل اليدوي ، وأن يعملوا كل شيء لأنفسهم لا يعينهم في ذلك خدم . ثم يقومون بعد هذا بتمرينات رياضية بدنية في الهواء الطلق ، يتبعونها بحمام بارد ، ثم يأوي كل منهم إلى مكان منعزل لا يخالط أحداً ولا يكلم أحداً زهاء ربع ساعة يقضيها في التأمل والتفكير . ثم يصلون جماعة بعد طعام الافطار . وقبل أن تبدأ الدراسة يجتمع الأطفال ويرتلون نشيداً من كتابهم المقدس . وبعدئذ يتلقون دروسهم من الثامنة إلى منتصف الثانية عشرة . وتنعقد الفصول في الهواء الطلق ، بل إن الحياة المدرسية كلها تجرى في العراء ما دام الطقس معتدلاً جميلاً . فالمدرسة روضة ، يجتمع أبناؤها فِرَقاً تحت الأشجار ، ويحمل كل منهم حصيراً يفترشه ، وقرطاساً وقلماً ومداداً يستعملها حين يريد الكتابة .

وفى تمام الثانية عشرة يتناولون الغداء ، وتنتهى الدراسة كلها فى الصباح ، لأن جو الهند الحار لا يسمح بالعمل بعد منتصف النهار . ويقضى الأطفـال ما بعد ساعات الظهيرة فى إعداد دروسهم ، وفى الألعاب الرياضية وفلاحة البساتين . ويتوجه بعض كبار التلاميذ إلى إحدى القرى المجاورة حيث يعلمون الصبية ويرشدونهم إلى فعل الخير . وبعد ما تنقضى هـذه الفترة من النهار ، يستحم التلاميذ ، ثم يثوبون إلى فترة التأمل والتفكير ، التى تعقبها الأناشيد السانسيكريتية قبل تناول العشاء . وبعد وجبة المساء يتبادل التلاميذ تلاوة القصص لمدة ساعة ، ويصرفون الوقت فى التمثيل والغناء وما إليهما ، ولا يشترك كبار التلاميذ فى هذا اللهو ؛ إذ أن كثرتهم تعد لامتحان القبول فى الجامعة ، فهم بحاجة إلى زيادة ساعات العمل والاستذكار . أما من دونهم فيحظر عليهم الاستذكار فى ساعات المساء . وبعدئذ يأوى الطلبة إلى الفراش حيث تكون الساعة فى منتصف العاشرة ، ويطوف بعضهم ثانية فى أرجاء المدرسة يرتلون الأناشيد ، وهكذا ؛ فهم يبدأون النهار بالأغانى ويختمونه بالأغانى .

ويبث طاغور فى تلاميذه روح القومية وحب الوطن ، بحيث لا يتعارض ذلك والعمل على خدمة الانسانية عامة ، إذ أن اختلاف الجنس والدين ينبغى أن لا يعوق الانسان من حب أخيه الانسان .

والأطفال فى مدرسة طـاغور يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وينتخب التلاميذ من بينهم رئيساً لهم كل أسبوع ، يعمل على حفظ النظام ، وعلى الجميع طاعته ؛ ويعاون الرئيس مساعدون يختارون كذلك بالانتخاب ، ويشرف كل منهم على ستة أو سبعة تلاميذ ؛ وتنعقد كل مساء محكمة من الطلبة تقضى فى المخـالفات التى وقعت خلال النهار ، ولا يشترك فيها الأساتذة إلا إذا كان الجرم خطيراً ، وقل أن يكون كذلك .

وتسود المدرسة روح دينية ، ولا يتحكم المعلمون فى الطلبة ؛ بل إن المعلمين كثيراً ما يخضعون لإرادة تلاميذهم ويلبون مطالبهم . والعقوبة البدنية بكل صنوفها ممنوعة منعاً باتاً ، ولعل أشد عقوبة توقع على المذنب أن يقاطعه زملاؤه ومعلموه . فاذا أقر المخطىء بخطيئته عادوا إلى مخالطته وحشروه فى زمرتهم من جديد .

وتعنى المدرسة بصحة التلاميذ وبنـاء جسومهم ، ويدربون على شىء من الخشونة والاعتماد على النفس ، ويمرنون على الألعاب المختلفة ، وكثيراً ما ظفرت مدرسة (شانتى نكتان) فى المباريات مع المدارس الأخرى ، وأحرزت كأس الانتصار . ويدربون فوق ذلك على إطفاء الحرائق وتلافى أخطارها .

ولعل هذه الصورة التى رسمنا لمدرسة طاغور لا تتم إلا إذا ذكرنا كلمة عن الدور الذى يلعبه بنفسه فى إدارة المدرسة . كان طاغور يحب تلاميذه حب الأب لأبنائه ، وهو يقول : « إننى مع هؤلاء الأطفال أسعد منى فى أى مكان آخر » . ويسميه الأطفال (جوردو) أو « سيدنا » . ويقوم بتدريس الأدب والغناء ، ويشجع الأطفال على الابتكار فى الرسم والتصوير والشعر ، وهو أشد ما يكون سروراً حين يعرض عليه طالب من طلبته أولى ثمـار إنتاجه الأدبى . ويقوم التلاميذ كل شهر أو شهرين بإخراج مسرحية من مسرحياته وتمثيلها ، ويشترك بنفسه معهم فى الأداء ؛ فقد مثل معهم دور الملك فى رواية « ملك الغرفة المظلمة » .

فى مثل هذا الجو ينشأ أطفال (شـانتى نكتان) متأثرين بتلك الشخصية العظيمة ، شخصية طاغور ، وبمثل هذه الروح فى التربية يكون لنا من أبنـائنا رجال صحاح الجسوم والعقول ، أشداء العزمة ، أقوياء الايمان .

إن طاغور فى عالم التربية لا يقل عن « فروبل » الذى جمع حوله أول الأمر نفراً من الأطفال ، يغنى لهم الأغانى وينشد الأناشيد ، وانتهى به الأمر إلى قلب نظريات التربية فى مدارس الدنيا بأجمعها ؛ وليس طاغور كذلك

المـــرأة
فى نظر الدكتور رابندرانات طاغور

فى حديث إلى إحدى الصحف الانجليزية أفضى الشاعر الخالد الدكتور رابندرانات طاغور بآرائه فى المرأة وعلاقتها بالرجل ورسالتها فى الحياة ، وهى آراء فلسفية قيمة رأينا أن ننقلها إلى قراء الثقافة الغراء .

قال طاغور : إن المرأة ليست منافسة للرجل بطبيعتها بل هى متممة له ، فلا يفيدها إذاً أن تخرج إلى ميادين الأعمال لمزاحمة الرجل على اكتساب ما يقوم بأودها ، فإن تلك المزاحمة ليست من متممات الجمال . إن المرأة فى هذا العالم مهمة تختلف عن مهمة الرجل ، فهى معينة له ، وليست منافسة . ولو أن مهمة المرأة كانت كمهمة الرجل لكان العالم قراعا مملا ، ولاستولى الضجر والسآمة على الانسان .

فى عالم الروحانيات يتلقى الرجل الوحى من المرأة — سواء أكان فى حالة وجدان تام أم وجدان غير تام — وذلك الوحى يفتح له منافذ الروح فتتدفق منها العواطف والمشاعر . والواقع أن المرأة لازمة للرجل كل اللزوم ، فهو لا غنى له عنها على الاطلاق ، لأنها هى الموحية إلى روحه ، المستفزة لعواطفه ، الباعثة على نشاطه ، بل هى التى تولد فى نفسه كل شعور وإحساس . وإذا كان أثرها لا يظهر فى أعماله دائما ، فلأنها تعمل من وراء الستار ، حيث لا تقع عليها الأبصار .

وليس الرجل غنية عن الحرية بأوسع حدودها ، فهو ينشدها على الدوام ؛ وهو أحوج إليها من المرأة ، كما أن المرأة أحوج منه إلى ما يشبع عواطفها ، ذلك لأن المرأة — أو قل الأنوثة — لا تكمل إلا بالحب والعواطف .

ومن صفات الرجل الغريزية أنه يطلب اللانهاية فى كل شىء ، ولكن الطبيعة تجاهلته ، وولت وجهها شطر المرأة ، فأظهرت لها من العناية ما لم تظهره للرجل ؛ فما كان من الرجل إلا أن تحدى الطبيعة ، وأخذ يسعى للتغلب عليها فى كل مكان ، ثم للتغلب على عواطفه أيضا ؛ ولقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ، فأصبح أقدر على التحكم فى عواطفه من المرأة .

إن الرجل أشبه بشجرة تحتاج جذورها إلى مجال واسع ، وتحتاج هى إلى الماء والهواء ، فاذا استؤصلت جذورها يبست وماتت . وأما المرأة فأشبه شىء بنبات معرش ، يزحف على الأرض ويمتد إلى أن يلتقى بشجرة فيحتضنها ويلتف حولها ، ولا يورق ويزهر إلا وهو محتضن تلك الشجرة .

فإذا حاول الرجل أن يكون هو ذلك النبات المعرش ، والمرأة هى الشجرة التى يحتضنها ، فانه بذلك يخالف الطبيعة . وهذا هو السبب فى أن الكثيرين من الرجال يضيعون حياتهم سدى فى هذا العالم ، وينطفئون كما ينطفىء السراج فى حلكة الظلام .

شوقى رياض غربال

فى هذا الميدان بأدنى مرتبة من « مدام منتسورى » التى تولت فى روما إدارة مدرسة من ضعاف العقول ، فأخرجت من أطفالها « المعتوهين » جيلا أحد ذكاء من أبناء المدارس الأخرى .

إن عماد طاغور فى التربية تنمية الاعتماد على النفس ، وترك الأطفال وشأنهم فى تحصيل العلوم والمعارف . وليس هذا بالأمر اليسير ، وقد جربت إحدى المدارس الغربية أن تسمح لتلاميذها فى يوم واحد فقط من أيام الاسبوع باختيار ما يشاءون من دروس ، فكان الطلبة يشغفون بهذا اليوم ، ويتطلعون إليه طوال أيام الاسبوع الأخرى .

وقد تعود طاغور أن يجمع تلاميذه فى المعبد مرتين كل أسبوع ، ويتحدث إليهم فى الشئون الدينية وأغراض الحياة حديثا مبسطا جذابا . وكان الأولاد يغرمون بهذه الاجتماعات الدورية ، وبغيرها من الاجتماعات التى كانت تعقدها المدرسة كل عام ، احتفالا بتأسيس المعهد ، أو برأس السنة ، أو تكريما وذكرى لكل رجل عظيم أدى للانسانية خدمة جليلة . وكان طاغور يرأس بنفسه هذه المحافل .

(م)

من شعر طاغور :

أطيار هائمـــة !

ترجمة الأستاذ أحمد فتحي

تترنم أمواه الشلال في تساقطها ، مرددة أنشودتها المأثورة : « إنني أجد أنغامي ، حيث أجد حريتي » .

يصمت السمك في البحر ، ويصخب الحيوان على وجه الأرض ، ويتفنى الطير في الجو .

ولكن الانسان يجمع في ذات نفسه صمت البحر ، وصخب الأرض ، وأغاريد السماء . !

قالت القوة للحياة : « أنت لي » ، ومن ثم احتفظت بها الحياة سجينة فوق تاجها . . .

وقال الحب للحياة : « أنا إياك » ومن ثم أطلقت له الحرية في مُلكها . . !

إن من ينشد العمل الصالح ، يقرع بابه . أما ذلك الذي يحب ، فانه يجد الباب مفتوحاً على الدوام . !

أيتها الثمرة : ما أبعدني عنك ، أما أنت أيتها الزهرة ، فأنا مختبئ في قلبك . !

تهيم الأنسام الشاعرة ، فتجوس خلال أمواج البحر ، وأشجار الغابة ، باحثة عن صوتها . . .

فلتكن الحياة جميلة كأزهار الربيع ، وليكن الموت كأوراق الشجر المتساقطة في الخريف . . !

إن الانسان ليضع الحواجز بينه وبين نفسه .

تستعين الأرض بالعشب ، لتجعل من نفسها مكاناً صالحاً يستضيفه الانسان .

إن العقل الحاد ، غير الأفاق ، يقف بكل نقطة ، ولكنه لا يتحرك . !

يهتف فم الينبوع في جذل : إنني أمنح كل أمواهي الظمآن ، ولو أن قطرات قليلة قد تكفيه !

إنني أفكر في تلك الأجيال التي تعاقبت تنهل من جدول الحياة ، والحب ، والموت ، ثم انتهى أمرها إلى النسيان . . . وأحس بحريتي في الانطلاق بعيداً . !

إن الطين يتلقى إهاناتنا ، ليمنحنا في مقابلها الأزاهير !

قد يطغى الصدى على الصوت الأصيل ، ليثبت أنه هو الأصل !

إن الطريق لتحس الوحدة في أشد حالات الزحام ، لأنها غير محبوبة . !

يلثم الليل جبين النهار المحتضر ، ويهمس في أذنه : « إنني أبوك ، الموت ، أهب لك ميلاداً جديداً » .

إذا أوصدت بابك في وجه الأخطاء جميعاً ، فلن يستطيع الصواب أن ينفذ إليك . !

إن الصدق يجد نفسه في ثوب ضيق من الحقائق ، ولكنه يتحرك بكل طلاقته في الخيال

لقد فتحت الدنيا قلبها المضيء في الصباح . . . فلتهرع لملاقاتها بحبك . . . يا قلبي !

إن النباتات تملأ أقداح النهر ، وتخبأ نفسها في الظلال القريبة .

أيتها المرأة ، لقد أحاطت بقلب الدنيا أغوار من دموع عينيك ، كما أحاطت البحار باليابسة من كل جانب .

ما أشبه حالي بطريق مظلمة ، تصغى إلى وقع أقدام ذكرياتها في صمت عميق . !

إن العقل الذي يكون كله منطقاً ، أشبه بالسكين التي تكون كلها نصلا ، فتدمى يد من يمسك بها .

إنني أخجل من الثناء ، لأنني أستجديه في سري . !

أحمد فتحي

طلعت حرب كما عرفته

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

ألف الناس أن يحيطوا العظماء بهالة من الخيال، ترتفع بهم إلى آفاق يراها الكثيرون بعيدة المنال، وأن يسبغوا عليهم من المزايا الخارقة المعتاد ما لا يتاح إلا للقلائل من الموهوبين، ويصورونهم فلتات من فلتات الطبيعة، لا يجود بها الزمان إلا على فترات من السنين. ولكن طلعت حرب — كما أعرفه — رجل عادى، لا يختلف اختلافاً ظاهراً عن أوساط المصريين فى أكثر نواحيه؛ وهو مع هذا رجل عظيم لا يختلف فى عظمته اثنان. وسيسجل التاريخ اسمه فى عداد العظماء من بناة الأمم وقادة النهضات، بل هو لهذا عظيم من طراز فريد لأنه يسر سبيل العظمة للراغبين، وهتك حجب الوهم التى تحيط بها والتى تذود الكثيرين عن طلابها.

كيف إذاً كتب لهذا الرجل العظيم أن يدرك بهذه الصفات العادية هذا النجاح المنقطع النظير، وأن يشق بها طريقاً كان موصداً فى أوجه المصريين، وأن يقود أمته إلى أبواب من النشاط لم يسبقه إليها سابق، وأن يسير بها من نجاح إلى نجاح فى دائرة الأعمال الاقتصادية، حتى صدق فيه قول البحترى:

ما زال يسبق حتى قال حاسده
له طريق إلى العلياء مختصر

أى سر وقع عليه هذا العامل المجدود ذلل له الصعاب وفتح له الأبواب؟

جهدت طويلا فى تعرف هذا السر، وحاولت خلال السنين الطوال التى سعدت فيها بالعمل معه أن أدرك حقيقته، فلم أجده بعد طول البحث إلا فى توازن



قوى هذا الرجل ومقدرته على تنسيق جهودها، والتوفيق بين وجهاتها، والحد من طغيان بعضها على بعض، وانتهاز أفضل الفرص لاستخدامها.

أما توازن قواه فلن تجد رجلا جمع بين الصفات المتباعدة والنزعات المتباينة، وألف بينها فى تناسق عجيب مثله.

هو خيالى عملى، محافظ مجدد، شديد لين، جاد مرح، روحى مادى؛ ولكنك لن تجد فيه تنافراً بين تلك النزعات، ولن يعوزك أن تجد فى حالة من الحالات الطمأنينة والاستقرار الدالين على انسجام طبيعته واتساق القوى المتعددة فيها.

هو خيالى عملى. وهل كان الرجل حين فكر فى إنشاء بنك مصر إلا رجلا خيالياً حالماً؟ ومن كان يظن أن تلك الفكرة التى كانت تجيش فى صدور المفكرين المصريين من قبل ممكنة التحقيق، وقد كانت كل العوامل تقعد بالمفكرين عن السير لإخراجها إلى الوجود؟ ولكن هذا الرجل ظل متعلقاً بهذا الحلم، جارياً وراء هذا الخيال، حتى استطاع تحقيقه؛ وهنا ظهرت كفايته العملية فيما

اصطنعه من أناة فى تنفيذه ، وما اتخذه من حيطة لتدعيمه وتوسيعه ، وما وضعه من نظم دقيقة لتسييره .

وهو محافظ مجدد . فأما نزعته المحافظة فتتجلى فى احتفاظه بمقومات بلاده فى كل مظاهرها ، والتزامه الصبغة الشرقية فى المظاهر الفنية لمؤسساته ، وحرصه على المحافظة على كل ما امتازت به المدنية العربية ؛ ولكنه مجدد كل التجديد ، لا يتحرج من اقتباس أحدث النظم فيما امتازت به المدنية الغربية ؛ وهو ماهر فى إحداث التزاوج بين المدنيتين ، تزاوجاً نافعاً يبدى أفضل ما فى كل منهما ؛ فلن تجد على مائدته إلا الألوان الشرقية ، ولكن خدمة المائدة وأدواتها وتنظيمها غربى . وتدخل مبانى بنك مصر وشركاته ، فتجد الفن الاسلامى يماشى وسائل العمل الأوربية جنباً لجنب !

وهو رحيم القلب سمح هين لين ، ولكنه مع هذا شديد صارم عند الحاجة ، وهو لا يغلبه ضعفه حين تدعو الحال إلى الشدة ، ولا يندفع مع الشدة حين يقتضى الأمر ملاينة .

وهو رجل مرح ، سريع النكتة ، لاذع النقد . ولكن هذه النزعة قد امتزجت بجد العمل ، فصارت بشراً وتفاؤلا يعينه على ملاقاة شدائد العمل واجتياز أزماته . وما أعجب ما كنت ترى فى هذا الرجل من امتزاج البشر بالعبوس ، والجد القائم بالبشر الباسم !

وهو رجل تستهويه الناحية الروحية ، وتطربه الموسيقى ، ويهزه الأدب ، وتعمل فيه المؤثرات الوجدانية ؛ ولكنه لا يستسلم لتلك النزعات تمام الاستسلام ، ولا يدعها تنسيه شئون الحياة العملية ومقتضياتها ؛ ويرى أن القوة المادية دعامة قوية للحياة الروحية ، فيعمل لها معاً ، ويؤلف بينهما فى تحالف عجيب !

وهو نهاز للفرص ، سريع إلى الانتفاع بما تواتيه ، يقظ فى تتبع الظروف . ولو لم يرزق تلك الهبة ، ويؤت هذه الخاصة ما تسنى له تحقيق أكثر مشروعاته .

ثم هو بعد هذا كله رجل عاش لغيره ، وشغل بالعمل للناس ؛ ولم يكن فى حياته ساعيا لجاه شخصى ، بل كان همه تحقيق برنامج نهضة اقتصادية شاملة ، يعم البلاد نفعها ؛ وهذا الانكار للذات والارتفاع بالنفس عن مشاغلها الخاصة من الشرائط الأساسية للعظمة ؛ فليس بعظيم لدى الناس من عاش لنفسه وعمل لحسابه الخاص .

ولقد سمت به تلك النزعة العامة عن السفاسف ، فكان أزهد الناس فى المظاهر الكاذبة ، وأحرصهم على العمل المادى الصامت ، وأبغضهم للثرثارين المتفيهقين .

ولقد كان — رحمه الله — جلداً صبوراً ، لا يكل من العمل ولا يسأم تكاليفه ، نشطاً يبث فيمن حوله النشاط والهمة . ثم أدركه المرض فجأة ، فأبعده — على كره منه — عن ميدان نشاطه ، ثم تركه بعد أن هد من قواه ، وأعده لراحته الأخيرة .

ثم انتقل من عداد الفانين إلى زمرة الأحياء الخالدين . رحمه الله .

محمد عبد الواحد خلاف

إن الأمة التى تريد استقلالها الاقتصادى يجب عليها أن تشترى هذا الاستقلال بقليل من التضحية .

إن القوة إذا كان من شأنها أن تقصف أقلام الناقدين وتسد أفواه الشاكين ، فليس من شأنها أن تكسب قلوب المظلومين .

النجاح معلق قبل كل شيء على الصفات التى تتحلى بها نفوس الأشخاص ؛ فإذا كانت هذه الصفات من شأنها تكوين شخصيات مستقلة معتمدة على ذاتها قوية فى إرادتها كان النجاح مضموناً . واستقلال الشعوب لا يكون حقيقياً إلا يوم يكثر فيها استقلال الأفراد . أما إن كانت هذه الصفات قائمة على التبعية فى التصور والارادة لتصور الغير وإرادته كان النجاح فى الحياة غير مضمون .

طلعت حرب

طلعت حرب باشا

والبلاد العربية والسودان

بقلم الأستاذ توفيق أحمد البكرى

« الرجال ضربان : الحالمون المتـــأملون الأنبياء ، والمدمون المنشئون الفلون . وقلما تمازجت الحلتان فى إنسان ، ولـكنهما تمازجتا فى طلعت حرب » .
السير ادوارد كوك محافظ البنك الأهلى سابقاً

بل !! كان طلعت حرب — قدس الله سره ، وطيب الله ثراه — نفحة من تلك النفحات النادرة التى تجود بها الأيام على الأمم والشعوب ، فتخلق فيها فكرة ، وتوجد بها حركة ، وتواتيها فى النهاية ثماراً وجنياً .

ولئن كان تاريخ وادى النيل الحديث موسوماً برجالات أفذاذ ، حركوه بعد جمود ، وأيقظوه بعد هجود ، وأطلقوه من إسار ركود الزمن . فمضى سارباً ينتزع حقه تارة ، ويتلمس سبل المجد تارة أخرى . فإن طلعت حرب من تلك الصفوة المختارة التى كان لها شأن وأى شأن عظيم ، فى تاريخ البلاد ونهضتها الحديثة .

كان حالماً بحق ، تسبح روحه فى عوالم ما وراء السدود والحجب ، وتتأمل فى صور مستورة يستعصى على عيون الآدميين المجردة أن تحوطها إدراكاً وفهماً ؛ وكان بين أحلامه العابرة وتأملاته العميقة ، صاحب رسالة بشر بها ودعا إليها ، فلما احتلت منه محل اليقين والإيمان ، أبدعها خلقاً ، وأنشأها صورة ، وجسدها فى الوجود تنفيذاً ، فإذا الاقتصاد المصرى والصناعة المصرية ومايتصل بذلك جميعاً حيوات لها وجودها الملموس وصورتها الماثلة . لقد عانى ما عانى ، وصبر وصابر ، حتى كتب لتلك النية الكبرى السداد والتوفيق .

كان رحمه الله فوق مصريته الصميمة ، ووطنيته المخلصة ، وإيمانه بمجد مصر وحقها فى الوجود ، شرقياً عربياً مسلماً . كان شرقياً فى تقاليده ورجولته ، عربياً فى نزعاته وميوله ، مسلماً فى قلبه وإيمانه ؛ وكان من ذلك الجيل الذى يؤمن بعلاقات مصر بالأمم العربية ، ووجوب توطيدها على أساس عملى يربط أواصرها ، ويقرب ما بين رغباتها ، ويساعدها فى النهـاية على إقرار تفاهم يقوم على صلات عملية ، يجعل منها حينا تتقوَّر تلك الروابط وتتبلور على مرور الأيام ، حلفاً يتكلم بالذهب ، وينطق بالمـال ، ويدافع مجتمعاً على ردّ العاديات ودفعها من أن تسلبه حقوقه ، وتسرقه أسواقه ، وتجعله عالة على الغرب ، وتبيعاً له فى قوام الحياة .



بنك مصر

ربط مصر بالحجاز ، فنظم ماليته ونقده ، واعتمد على الجانب الاسلامى من الحج الذى يقوم على إيراد موسمه كيان مالية الحجاز . فأجرى سفنه فى البحر تحمل الحجاج بما لا يتسع المجال لبسطه ، وتعاون مع المسئولين على أن يكون الحج تيسيراً وراحة واطمئناناً ، فأفلح ونجح ، وأطلق

بين جدة والمدينة طائراته ، فأخذت تروح وتغدو بينهما ، يهون للموسرين والراغبين سبل الفروض والتبريك .

ونظر أخرى إلى الشام ، فأنشأ فيها فرعاً لبنك مصر ، وحثّ أهلها على التفكير فى اقتصادهم القوى وصناعتهم ، وربط بينهم وبين مصر برباط من التعاون المالى القائم على المودة والمساعدة ، وأخذ كلٌّ بناصر أخيه .

ثم مضى إلى العراق ، فأثارها دعوة من رسالته الكبرى ، يبشر بين أهل الرافدين باليقظة الاقتصادية ، والوثبة المالية ، والعمل على أن يكون اقتصادُ العراق عراقياً صميماً ؛ فاقترح وعاون ، ووصل بين مصر والعراق بطريق جوى يقرب المسافات ، ويدنى النجاح .

كان ذلك نصيب الحجاز والشام والعراق ؛ ولم ينس فى مجال الدعوة برسالته ، أن يمتد صوته إلى اليمن بالارشاد الصناعى والتبشير الاقتصادى .

أفينسى حين يذكر كل هذه الأمم العربية ، أن يرى بمصره مع النيل صُعداً إلى الجنوب ، فيربط بين مصر والسودان كما ربط بين مصر وبينها ؟ أليس السودان سوقاً من أسواق مصر التى لا تحتاج فيها إلى دعاية أو مجهود ؟ أليست بقاعه مليئة بالمواد الأولية التى قد تحتاج إليها مصر فتجد فيها الكفاية وسد الحاجة والعوز ؟ أليس أهله أحق بمواصلة الرحم ، وتقريب وجهات النظر ، والرباط بوثاق من الذهب كرباط النيل الأزلى الخالد ؟

رأى طلعت حرب ذلك كله ، فمضى فى صفوة من لداته إلى السودان على متن الطائرة « الفسطاط » ، فحلقت مصريةٌ فوق أديم مياه مصرى ، وهبط مصريون بين مصريين ، وتكلموا بلغة واحدة ، وتفاهموا بشعور واحد ، وانتقل وصحبه هنا وهنالك ؛ فاذا كل شئ متشابه متماثل . ورحل إلى أسواق غربى السودان وعرج على شرقيه ؛ ثم عاد إلى مصر وفى مخيلته الحالة المتأملة والعملية المتقدة خير مُجزِل لوادى النيل .

ومن قبل سبقته إلى ميناء « بورت سودان » بواخره تنقل السلع فى البحر الأحمر ، يرفرف فوقها وفوق أبنية الدار المصرية علم مصر وحدها ، أخضر خفّاقاً وحيداً ، ينظر بالعين العملية إلى قول حافظ ابراهيم مكذباً ساخراً .

رويدك ! ! حتى تخفق « المثان »
وننظر ما يجرى به الفتيان



المغفور له طلعت حرب باشا عند زيارته لبغداد

ولو مُدّ له فى فسحة العمل والعمر لقام وحده بواجب أمة ، وطنى وحده بأعماله الاقتصادية والمالية والتجارية العظيمة ، فوق جميع السدود والجنادل السياسية ، ولأخضعها فى النهاية إلى عُقد المال التى لا يسهل حل أواصرها وتسريح جيوشها وقطع علائقها ، ولأثبت لمصر فى السودان قدماً برة ، غير محتلة ولا مستغلة ولا مستنزفة ، ولسلم وأرشد ، ودعا برسالة الوحدة العظيمة التى قلما دعا بها أحد مخلص فى الأيام الأخيرة .

* * *

سعدت بالعمل معه فترة من الزمن ، ولمست جلال تلك العبقرية عن قرب ، واستمعت إليه مملياً وملهماً فيما يتصل بشؤون العمل والدعاية والبحث . فكانت تأملات ذلك الحلم العميق والذكاء الطريف ، تتجلى فيما يمليه ويأمر بالكتابة فيه . وكانت شرقيته ومصريته وإسلاميته تبدو حينما يرتبط العمل بالبلاد العربية والسودان .

قال لي يوماً : « يا بني لسنا نبغي من وراء أعمالنا في الحجاز كسباً ، ولكننا نود تحقيق دعوة إبراهيم عليه السلام : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . أما السودان فلسنا نفرق بين زعمائه ورجاله ، فالكل لدينا سواء ، وأقصى أمانينا أن يسعد السودان حالا ، ويرف رخاءً » .

وكان ذلك فيما علمت وشاهدت حقاً لا مرية فيه ولا رياء .

كانت العلاقات بين مصر والأمم العربية وبينها وبين السودان ، حديث محافل وتنميق خطب وكانت المقاصد الحسنة تجول في كل قلب وعقل ، ولكنها لم تتخذ خطوة عملية تجسدها وتجعلها حقيقة ماثلة . والأمم العربية لها في مصر رجاء عريض ، ولها زعامتها رضى وتسليم . وهي دوماً تتطلع إلى مصر ليلمع من جانبها برق غير خلب ، فتتباحث وتتفاهم ، ثم ترتبط وتتعاون على أساس ذلك التفاهم أياً كانت أنواعه .

والسودان شأنه من ذلك أبعد مدى ، لأنه بمصر أوثق صلة وأحكم عقداً . وبينه وبين مصر ما بين مصر والأمم العربية من أواصر الدم واللغة والدين ، وهو يزيد عليها « بالنيل » والروابط الاقتصادية المتفسحة ، والصلات الحربية والعسكرية الوثيقة . فالتفكير فيه ، والتدبر في أمره ، والعمل على وضع سياسة ثابتة قومية أو رسمية حيال صلته بمصر ، أبدى في مجال العمل من تلك الصلات العربية . وقد كان لمصر عذرها إزاء السودان بما كانت فيه من حيا الجهاد الوطني ، وما يتصل به من عوامل سياسية كثيرة ، وإن كان عذر مصر مقبولاً على العلات ، وإن كان ثمة مجال للعتاب عريض .

غير أن طلعت حرب سما وحده فوق جميع الاعتبارات السياسية ، والنضال الحزبي ، وترك غفلة مصر بأمر السودان جانباً ، وعمل وحده بما كان يجب أن تتضافر فيه الحكومات المتعاقبة ، والأحزاب المتعددة ، والهيئات الكثيرة ؛ فلم ينتظر حتى تحل عقد السياسة ، أو يتنبه الزعماء من الناحية العملية ، أو تدع الهيئات حديث التأدب جانبا ؛ ولكنه مضى لطيّته ووضع الفرض ، وفكر في المزيد ، وأعد العدة لكل شيء .

وإني مما علمت وشاهدت ، أقول : لو أنه كتبت له — رحمه الله — فسحة العمل والعمر ، لحقق وحده بذلك العقل الحالم المتأمل ، والمبدع المتقد ، الشيء الكثير ، ولوضع السياسة بمكرها والتوائها أمام الأمر الواقع ، ولكانت الحال بين مصر والسودان غير ما هي عليه الآن .

ولكن قضي الأمر ، واندس في طيات الفناء رجل كان ملء الدنيا ذكراً وصيتاً ، وخلف بعده لمن يريدون العمل المنتج لخير هذا الوادي ، ولخير ما بينه وبين الأمم العربية ، طريقاً ممهداً ربط أواصره بحلقات من رباط المال الوثيق الذي طالما أعيا السياسة قطعه ، فمن أراد السير فالطريق ممهد . وعند الله وحده جزاء طلعت حرب ؛ فانه تعالى يجزل مثوبة العاملين ؛ وفي طيات التاريخ المنصف الثناء الخالد على ما أبدع وأنشأ طلعت حرب من أعمال جسام .

توفيق أحمد البكري

نريد إذاً عقلية مصرية متشابهة في سموها مع أسمى الأمم ثقافة ، ونريدها عقلية مصرية مستقلة ، عقلية هي وليدة ماضينا الذي لا مفر من الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرنا ، تسعى إلى أن نربطه بماضينا ، كما تسعى أن تقوده ونسيره إلى مستقبل حسن . والمستقبل وإن يكن بيد الله إلا أنه إلى درجة ما بيد القوم . ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

طلعت حرب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٤٠ — الثلاثاء ١٠ من شعبان سنة ١٣٦٠ — ٢ من سبتمبر سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الجستابو

نشأته وتنظيمه وطبيعـــة رجاله (١)

إن ما يتمتع به الأفراد من حرية شخصية ومن نظم مدنية تهيئ لهم سبل مراقبة الحكام وإسماع أصواتهم الهيئات التنفيذية ، كل هذه الأنواع من الحرية لا يمكن أن تعيش وتنمو وتترعرع إلا في أوقات السلم ؛ فإذا ما وقعت الحرب ، أو تحرجت الأمور ، أو حدثت أزمات من أي نوع ، فإن هذه الحريات وتلك النظم ينالها الكثير من الانتقاص أو الحد أو التعطيل ، مما ينزل عنه الفرد مختاراً ، ويتقبله الجمهور عن طيب خاطر بصفة مؤقتة ، بحيث يسترده كله ويعود للاستمتاع بحقوقه كاملة غير منقوصة بمجرد انفراج الأزمة أو الشعور بأن الذين نزل لهم من حرياته ومنحهم سلطة واسعة في إدارة الشئون ، بدون أن يعرقل أعمالهم بالمحاسبة الدقيقة المستمرة ، قد لجأوا إلى القسوة أو أساءوا استعمال تلك السلطة التي منحهم إياها . ولذلك نرى رجال الحكومات الذين منحوا سلطات استثنائية في البلاد الديمقراطية (لاسيما في انجلترا وأمريكا) يصدرون من آن لآخر تصريحات وتأكيدات تطمئن الشعب على حرياته ، وتعده بأن الحكومة التي أولاها ثقته سترد إليه كل حقوقه وكامل حرياته ،

(١) مترجمة من النشرة ٣٦ من سلسلة نشرات أكسفورد من الشئون العالمية ، وكاتبها السير جيلز من رجال القانون الذين درسوا النازية وأحاطوا ببرامجها وحققوا إجراءاتها .

بمجرد انتهاء الحرب وزوال الخطر المحيق به في هذه الظروف العصيبة .

أما في البلاد التي تسودها دكتاتوريات حقيقية فإن الرقابة البرلمانية والتشريعية قد أصبحت أثراً بعد عين . والسلطات الاستثنائية ، التي أشرنا إلى منحها للحكومات بالبلاد الدمقراطية في الظروف غير العادية ، تلك السلطات الاستثنائية تتمتع بها الحكومات الدكتاتورية بصفة دائمة ، أي كإجراء طبيعي لا استثناء فيه ؛ ومثل هذه الحكومات بطبيعة الحال (ومدلول اسمها) لا بد من أن تدعي العصمة الدائمة وتنفر من كل محاسبة ، وتعد كل نقد لتصرفاتها خروجاً على القوانين بل وخيانة للدولة .

ومن ثم كان من الطبيعي أن يصير مركز البوليس والدور الذي يلعبه على يد دكتاتور أو أية حكومة استبدادية على جانب عظيم من الأهمية والخطورة . والتاريخ شاهد على ذلك بما سجله عن عصور مترنخ وفوشيه ، ونظام القيصرية (حكم الزار) . ولذلك طالما ترد على ألسنة الذين يرقبون الحالة في ألمانيا مراقبة سطحية السؤال الآتي : « هل هناك حقاً ما هو جديد في أساليب حكومتها لقمع الحريات الشخصية ؟ » بل قيل فعلا بالنسبة لنظام بوليسها القوي الصارم إلى حد كبير إن ألمانيا لم تفعل أكثر من رد عقارب الساعة إلى الوراء . وقد يكون هذا حقاً فيما يتعلق بوسائل القمع الشنيعة التي ارتكبتها السلطات النازية وسجلتها الحكومة البريطانية في كتابها الأبيض عن « معاملة المواطنين الألمان في ألمانيا » ؛ ولكنه ليس صحيحاً فيما يتعلق بنظام البوليس نفسه ، فإن هذا النظام ليس وليد الرجوع إلى الوراء ، وإنما هو ثمرة فكرة جديدة ابتدعها الخيال النازي .

الوضع السياسي الجديد للجماعة بألمانيا :

ولا يغيبن عن البال أن النازية قد جعلت الدولة والأمة في المقام الأول ، أي فوق كل اعتبار آخر عند كل فرد من الأفراد ، ولا يقتصر واجب المواطن على أن يقوم بقسطه نحو الدولة والأمة ، بما يزيدهما عزة ورفعة وسعادة ؛ وإنما يتحتم عليه أن يكرس حياته كلها لهذا الغرض .

فالمبادئ النازية تجعل للألماني ديناً جديداً تفرض عليه فيه أن يعبد أمته من دون الله ، وأن يهب جسمه وروحه لهذا الدين الجديد . وقد صرح زعماء النازية في عدة مناسبات أن المواطن الألماني لا يصح أن يعتبر أي ناحية من نواحي حياته خاصة به ، بل عليه أن يسقط من اعتباره أثناء قيامه بعمله وتأديته لوظيفته كل شيء عدا الجهود القومية ، وأن ينظم حياته الخاصة غير ناظر إلا لصالح الجماعة ؛ وبالجملة فالألماني مطالب بألا ينسى أنه نازي إلا في ساعات نومه .

وعلى كل ألماني سواء أكان رجلا أو امرأة أو طفلا ، جندياً أو عاملا أو فناناً ، موظفاً في الحكومة أو طالباً ، من رجال الفنون أو رجال الأعمال — على كل واحد من هؤلاء أن يؤدي أكثر من مرة في حياته قسم الطاعة والولاء لزعامة الفوهرر ؛ وبهذا القسم ينعقد بين كل فرد من أفراد الأمة الألمانية وبين رئيس دولتها رباط روحي شبيه بذلك الذي كان يربط في العصور الأولى السيد بعمال مزارعه ومستغلي إقطاعياته لحسابه ، لكن بفارق واحد هو أنه في العصور الماضية ، كان الذين يقدمون فروض الطاعة هم عدد قليل من الملاك ورؤساء العشائر وكبار الزراع أو الأعيان ؛ أما في النظام النازي فيؤدي القسم جميع أفراد الشعب بلا استثناء ؛ هذا علاوة على ما يلتزمه كل فرد بأن يضحي راحته ومصلحته الشخصية في سبيل سعادة المجتمع الألماني . فإذا أضفت إلى هذا الالتزام وذلك القسم التنظيمات الاقتصادية الواسعة النطاق ، والسيطرة التامة ، التي تشبه التجنيد ، على جميع الأعمال التجارية والمباحث العلمية والتعليم والفن الخ ، أخذت

فكرة قريبة من الحقيقة عن الوضع السياسي الجديد للجماعة النازية بألمانيا .

المعارضة في ألمانيا وحاجتها الى بوليس من نوع جديد :

لكن العصمة لله وحده . وكما أن رجال الدين أنفسهم كثيراً ما يخالفون أوامر دينهم ، فكذلك النازيون بشر كبقية البشر ، وهم معرضون للخطأ . وإنك لن تستطيع أن تقتلع من نفس الانسان نزعاته ولا أنانيته ولا حرصه على أن تكون شئونه الخاصة سراً لا يطلع عليه سواه ؛ ومن ثم كان لا بد للمعارضة أن تظهر في ألمانيا وأن تنمو يوماً بعد يوم استجابة للقانون الطبيعي ، الذي يقضي بأن لكل فعل رد فعل يساويه . على أن المعارضة كانت بطبيعة الحال ولا تزال في ألمانيا معارضة غير منظمة ، ولكنها على كل تستدعي إجراآت خاصة . فإذا كانت قوة البوليس العادية كافية في معظم الدول لمعالجة حالات الخروج على قواعد السلام والنظام وكذلك حالات الاجرام ، وكافية لاتخاذ جميع الوسائل الضرورية للمحافظة على الأمن العام ، فإنه في بلد كألمانيا حيث تغلغلت السياسة في كل شيء ، ودخل في نطاقها ما هو في العادة من صميم خصوصيات الناس — في مثل هذه الدولة لا مناص من توسيع الفكرة القديمة عن السلام والنظام وحسن الاداة الحكومية . كذلك لا بد لتوطيد النظام القائم في ألمانيا ، والذي يضيف إلى أمور الدولة العادية أوجهاً متعددة من النشاط الواسع المدى — لا بد من إنشاء نوع جديد من البوليس ، وهذا ما أقامته ألمانيا تحت اسم الجستابو ، أو البوليس السري للدولة الألمانية .

التطور أو الثورة :

وهنا تذبذبت الأفكار بين التطور والثورة . فقد قال قوم بأنه ما دام ظهور الدولة الألمانية الجديدة قد انطوى في ذاته على خروج متعمد على التقاليد ، فإنه إذا أريد لهذه الدولة أن تعمر فلامناص من خروج آخر على التقاليد بشأن البوليس الذي اتخذ وصياً على الدولة الجديدة وحامياً لها .

والآن نتساءل عما كان عليه نظام البوليس الألماني في ذلك اليوم التاريخي المشهود (٣٠ يناير سنة ١٩٣٣) الذي صار فيه هتلر رئيس الدولة وزعيمها . على الرغم من أن الولايات التي يتألف منها الاتحاد الألماني كانت قبل ذلك التاريخ قد نزلت للريخ عن حق التشريع في المسائل المتصلة بالدفاع والضرائب ؛ فإن كل واحدة منها كانت لا تزال تحتفظ بقوة من البوليس خاصة بها ، ولم يكن لدى الريخ بوليس قانوني إلا للضرورة القصوى . ومما يدل على حيوية تلك الولايات أن قانوناً مر في الرشستاغ عام ١٩٢٢ لتنظيم البوليس الجنائي ، ولم ينفذ قط في عهد الجمهورية . وكان الريخ إذا شاء أن يؤثر في عمل البوليس لأية ولاية من تلك الولايات اتخذ له سبيلا ملتوياً ؛ ومثال ذلك ما لجأ إليه وزير الداخلية من حبس الاعتمادات المالية لبوليس إحدى تلك الولايات المعارضة ، ارتكاناً منه على أن التشريعات المالية من حق الريخ وحده ، وأن الولايات تعتمد اعتماداً كلياً في إقامة بوليسها على الاعانات المالية التي يصرفها الريخ لها . على أن مثل هذه الاجراآت الضعيفة المحدودة لم تكن بطبيعة الحال لترضي الزعيم هتلر .

فقوات البوليس كانت إذاً تحت تصرف الولايات ، ولم يكن للريخ بوليس خاص به ، وإنما كانت هناك عدا القوات المشار إليها قوة خاصة لتحقيق القضايا الجنائية ، وأخرى تدعى قوة البوليس السياسي محدودة الأثر جداً . وكان المتبع عند ذاك بألمانيا أن من يُقبض عليه يقدم لقاضي التحقيق في خلال أربع وعشرين ساعة من وقت القبض عليه ؛ هذا كل ما وجدته الدولة الجديدة تحت تصرفها من نظام بوليسي عديم الفائدة ؛ وعندئذ شعرت بأنه لا بد لها من نظام آخر يكفل تحقيق أغراضها ويؤيد إجراآتها .

وكانت نواة النظام الجديد قد وضعت بالفعل عندما كان الحزب لا يزال يعمل هادئاً متحيناً الفرصة لانتهازها والقبض على أزمة الأمور ؛ فقد كون له في تلك الأيام الخالية تشكيلات أطلقت عليها أسماء مختلفة أهمها (S. S) كانت تجمع المعلومات وتقوم بتأييد الزعماء ؛ وهـذه التشكيلات أدمجت في البوليس العادي بمجرد تبوؤ هتلر الزعامة . ثم أجريت بعد ذلك حركات فصل فيها من الخدمة الكثير من رجال البوليس الأصلي بحجة عدم الكفاية ، وذلك لترجيح كفة هؤلاء ، أي البوليس الحزبي الخاص الذي أدمج في البوليس الرسمي ، وسرعان ما صارت له الكلمة العليا فيه .

انشاء الجستابو بالفعل :

أنشيء الجستابو (أو البوليس السري للدولة) في أبريل سنة ١٩٣٣ على يد جورنج ، واقتصر في مبدأ الأمر على مقاطعة بروسيا ، التي كان جورنج في ذلك الوقت رئيس وزارتها (علاوة على وظائفه الأخرى) . أما الولايات الأخرى فقد عهد للبوليس السياسي الموجود في كل منها بالقيام مؤقتاً بواجبات البوليس السري النازي . ويدل الاسم الذي اختير لهـذا البوليس على أن أهم صفة لطبيعة العمل الذي أنشيء للقيام به هو «السرية» (١) ، فهو يراقب فريسته ، وينزل بهـا العقاب سراً دون أن يشعر به أحد ؛ ومن ثم أحيط بجو مهيب مرهب ، وأعفى من تقديم الحساب إلا إلى سلطة واحـدة لا سبيل إلى محاسبتها .

ولم يستمر الجستابو مدة طويلة مقتصراً على بروسيا ؛ فقد كان النازيون يحسون بأن بقاء البوليس مسألة خاصة بالولايات له عيوب كثيرة من وجهة نظرهم ؛ ولذا كان لابد لهم من قلب هذا النظام . حقيقة صدرت عدة قوانين تقوى مركز النازيين ، وتثبت سلطانهم (ومنها ما ينص على تعيين حكام في جميع الولايات مسئولين قبل الفوهرر مباشرة) مما استبعد كل خطر لاستخدام قوة البوليس في أي ولاية في أي حركة ضد النازية ؛ لكن هذا لم يكف السلطة المركزية للحزب ، فكانت تطـالب بإنشاء قوة جديدة داخلية فعالة تحت سلطانها . وفي سنة ١٩٣٤ (أي في ذكرى زعم هتلر) تبع البوليس لحكم الريخ مباشرة إلا فيما يتعلق بالاجراآت الادارية وحدها ، فقد تركت للولايات التي كانت قد أصبحت مجرد فروع إدارية للريخ .

هملر :

وكان هذا البوليس الألمـانى الرسمي الجديد ينقصه قائد أعلى (وإن كان تابعاً لوزير الداخلية مباشرة) وعلى الرغم من أن هذا النقص ظل ماثلا مدة عامين ، فإن الشخص الذي قدر له أن يتولى هذه القيادة ، ويعالج هذا النقص ، كان في ذلك الوقت يشق طريقه في المراكز العليا النازية . ففي أبريل سنة ١٩٣٤ عين «هاينرخ هملر» رئيساً لأهم فرع من فروع البوليس ، وهو الجستابو ، وكانت سنه إذ ذاك لم تتجاوز الثالثة والثلاثين ، على أنه لم يكن قليل الخبرة بالشئون البوليسية .

وهملر بافارى كاثوليكي من ميونخ ، كان أبوه ناظر مدرسة ، وتلقى دراسة ثانوية إلى سن السابعة عشرة ، ثم تطوع في الجيش الألماني ؛ ولمـا انتهت الحرب قضى ثلاث سنوات في كلية الهندسة بميونخ ، ومنها خرج يزاول الأعمال الحرة ، وانضم إلى هتلر في تاريخ مبكر ، فأحبه وقربه إليه ، حتى صار من معاونيه المتمتعين بعظيم ثقته ؛ وسرعان ما لعب هملر دوراً رئيسياً في التشكيلات الحزبية التي أشرنا إليها سابقاً ، والتي ذكرنا أنها أدمجت في البوليس القديم ، كما أنه اشترك في تأسيس نظام محكم

(١) Gestapo اختصار الاسم Geheime Staats polizie ، والكلمة الأولى منه Geheime معناها «سر» . والثانية معناها بوليس الدولة . والكلمة الأولى تدل (علاوة على معنى السرية) معنى آخر يبعث على المهابة والاكبار ، ولعله قصد لذلك عند اختيارها .

واسع الذى لجمع المعلومات والتجسس داخل ألمانيا وخارجها . وسرعان ما رؤى أن يستفاد من خبرته ، فعهد إليه فى سنة ١٩٣٣ بالاشراف على البوليس السياسى فى عدة مدن كبيرة ، إلى أن عينه جورنج (الذى كان مشرفا على البوليس السرى فى بروسيا) رئيسا لهذا البوليس ، وأخيراً عين رئيسا للبوليس السرى فى الريخ كله فى أبريل سنة ١٩٣٤ كما قدمنا ، أى أنه كان رئيسا للجستابو فى ذلك المساء التاريخى المشهود مساء ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ .

وهناك خلاف على حقيقة شخصية هملر ، لكننا إذا حكمنا عليه بأعماله تجلت لنا كفايته النادرة وإدراكه التام وإحاطته الشاملة عشا كل البوليس والواجبات العملية الفعالة للريخ الجديد . ولا تعوقه فى أعماله أى اعتبارات إنسانية ، وقد نجح فى أن يبث فى أتباعه والمرءوسين له روح التشكيلات الحزبية القديمة القائمة على « عدم المبالاة وعلى المخاطرة من أجل الدولة » .

الأساس التشريعى لسلطة الجستابو :

ظل رجال الجستابو يعملون ثلاث سنوات كاملة دون أن يصدر قانون يحدد وظيفة الجستابو ؛ وكل ما حدث أن صدرت قرارات بحمايته وأحكام تقضى بأنه ليس هناك رقابة تشريعية على البوليس السرى . وفى فبراير سنة ١٩٣٦ صدر قانون بروسى ينص البند السابع منه على أن أوامر البوليس السرى وأعماله لا يجوز أن تكون محل مناقشة أو أن تعرض فى المحاكم الادارية . وهكذا ظلت أعمال الجستابو فوق كل نقد أو اعتراض ، وأخذ كل أفراد الدولة — لا بحكم القانون الوضعى بل استجابة لما يسمونه القانون غير المكتوب — أخذوا جميعاً يؤيدون استقلال الجستابو وازدياد نفوذه ؛ وأخذت الأحكام التى تصدرها المحاكم فى صفه تتزايد وتتراكم حتى أصبح قوة لا معارض لها ولا منازع ، على الرغم من أنها غير مؤيدة بأى قانون صريح صادر من الريخ .

وفى يونيه سنة ١٩٣٦ صدر قرار بأن يعين البوليس كله رئيس عام ، لينسق أعمال البوليس المختلفة ويديرها بانتظام . وأسند هذا المركز السامى إلى هملر ، وجعل مسئولا أمام وزير الداخلية وحده ، وعين أيضاً نائباً لهذا الوزير ليحل محله فى غيابه ، ومنح حق الجلوس فى مجلس الوزراء كلما نظر هذا المجلس فى أى شأن من شئون البوليس .

نظام البوليس السرى :

ينقسم البوليس الألمانى إلى ثلاث شعب رئيسية ، وهى : البوليس العادى ، والبوليس السرى ، ومصلحة الأمن العام ، وهى كلها — كما قدمنا — تحت رياسة رئيس التشكيلات الحزبية الذى يعمل تحت إشراف وزير الداخلية .

أما البوليس العادى فيتبع نظاما إداريا بحتاً ، وهو تحت إشراف الولايات ، ويضم مخبرين لاجراء المباحث الجنائية ؛ وهو يقوم بمعاونة البوليس السرى كلما دعت الحال ، وحين يقوم بهذا الواجب يتمتع بنفس الحصانة التى للبوليس السرى الأصلى . أما هذا البوليس السرى فمركزه الرئيسى برلين ، ويتبع هذه الرياسة ضباط يرأسون أقسامه فى الولايات وفى الأقاليم ، ويعمل تحتهم ضباط دونهم فى الرتبة لا عداد لهم .

وللبوليس السرى نفوذ كبير على رجال الحكومة المحليين ، لاسيما فى الأقاليم ؛ ولكبار ضباطه أن يصدروا الأوامر لرؤسائها ، ولهم نفوذ سياسى أيضاً ؛ وبذلك تتم الصلة بين البوليس السياسى والادارة العامة ، ويصح أن يوصف البوليس السرى بأنه الأداة التى تخيف بها ألمانيا أعداء الدولة وتتخذ إجراءاتها ضدهم .

وأما الشعبة الثالثة ، وهى إدارة الأمن فمحفوفة بالغموض ، وأعضاؤها بمثابة مخبرين سياسيين موزعين فى الدوائر الحكومية ودوائر الأعمال التجارية ، والمصانع والسفن والبواخر والعمارات الكبيرة الخ ، كما أنهم يرسلون

إلى الخارج . وبالجملة فهم ألصق أعوان رئيس بوليس الرخ به ، وإليهم قد يعهـد أيضاً بمراقبة حركات ضباط الجستابو أنفسهم ونشاطهم . ويصح أن تسمى هذه القوة البوليسية « أذن هتلر » .

ولا تكاد تفلت أية صـغيرة من ملاحظة هذه الأداة المركزية الواسعة التي تعم جميع مرافق الحيـاة السياسية والتجارية للأمة ؛ ومع ذلك فإن هذه الأداة لم تقنع سادة النازية ، فأضافوا إليها أن جعلوا حتماً على كل ألمـانى أن يبلغ البوليس السرى كل الحركات المعادية للدولة . وعلينا الآن أن نتسـاءل عن نوع الرجال الذين يقومون بهذه المهمة العظيمة ؟

أهم فرق الجستابو :

لهذا السؤال أهمية عظمى بالنسبة لأى نوع من أنواع الحكومات ، لأنه عنوان كفاءتها وصلاحيتها . وقد سبق أن ذكرنا أن رجال البوليس السرى النازى يختارون من بين تلك التشكيلات الحزبية التي ذكرنا عنها بعض الشىء ، فهم إذاً « صفوة » الأخوان بالحزب ، وإلى الضباط منهم تعهد أعمال مكاتب الجستابو ، لكن تنفيذ الأوامر التي تقتضى مباغتة المشتبه فيهم والقبض عليهم ، لا تترك لرجال قوة البوليس العادية ، فهذا ما لا يطمئن له زعماء النازية ؛ ولذلك أنشأوا فرقتين خاصتين : أولاهما فرقة « المفاجأة » يعد أفرادها في معسكرات خاصة يتدربون فيهـا أربع سنوات . وثانيتهما فرقة « الموت » التي يتحتم على أفرادها أن يخدموا فيها اثنى عشر عاما . وهـذه القوى الرعبة يمكن جمعها واستخدامها في المسافات الكبرى في لمح البصر كلما صدرت أوامر بذلك . وإلى رجال الفرقة الثانية يعهد بإدارة « معسكرات الاعتقال » والاشراف عليها ، وأما الفرقة الأولى فتحل محل الجيش أثناء الحرب في المحافظة على النظام داخل حدود الدولة ؛ والباعث على ذلك تشبع النازيين بفكرة أن ألمـانيا خسرت الحرب الماضية لا بسبب هزيمة حربية ، وإنما بسبب الطعنة الخلفية التي طعنتها بها الاشتراكية ؛ ومهمة هذه التشكيلات الحزبية القوية منع تكرار تلك المأساة . والدليل على ما يعلقه هتلر من الأهمية على تلك الفرق ، أنه عقب احتلال ألمـانيا لهولاندا لم يعرب هتلر عن امتنانه للقوات المحاربة وحدها ، وإنما خص بجزء كبير منه أيضا فرق المفاجأة للدور الذى لعبته ، فقد كان أفرادها يسيرون في المؤخرة في أثر الجيش المحارب ليحملوا عنه عبء عمليات التشطيب ، وليقوموا بوظيفة البوليس في المناطق المحتلة .

مميزات رجال هتلر :

عرفنا مما سبق كيف كانت التشكيلات الحزبية في مبدأ الأمر قوة صغيرة ، يقتصر عملها على تنظيم اجتماعات الحزب ، وحراسة هتلر وغيره من الخطباء ، والتصدى للمعترضين ، والاقتصاص من المقاطعين ، وكيف أن هتلر لما عين قائداً لأولئك الرجال جعل منهم صفوة جنود الحزب (S. S.) ، وحرص على أن يضمن لهم النقاء الجنسى بجميع الوسائل ، ومنهـا إجراء اختبارات طبية وجنسية قبل الزواج . وكذلك رسم لهم خطة للحصول على تدريب واف شامل سياسى وحربى . أما شعورهم بروح الجماعة فقد بثه وقواه ما وضعه لهم من قواعد خاصة للاعتداد على الشرف . وقد كان عددهم عنـد ما قبض هتلر على زمام الحكم نحو ٥٢٠٠٠ رجل ، لكن هذا العـدد وصل في سنة ١٩٣٩ إلى خمسة أضعاف ، وكلهم رجال قد جمعوا إلى التقاليد العسكرية ضميراً سياسياً في صفاء البلور ، وقلباً ثائراً عامراً بالاخلاص .

تلك هى الهيأة التي عهد إليها بحماية الدولة ، وقد وضع هتلر لأفرادها شعاراً هو : « هكذا تبوأنا أماكننا وسرنا إلى الأمام طبقا لقوانين لا تبديل لها . إننا جنود النـازية وعلينا الطابع النورديكى . نحن جماعة السيف من رجال

الحلف العربي

للدكتور عبد الوهاب عزام

سرني أن تناول الأستاذ أحمد أمين بك الحلف العربي في مقال نشرته «الثقافة» ، وأن تلى هذا المقال الأستاذ محمد فريد أبو حديد . فإن أمراً كهذا حريٌّ أن تتناوله الأفكار والأقلام ، وأن ينال حقه من النظر والتبيين والدعوة ، لا سيما في هذه الأيام التي يضطرم فيها العالم بالنيران والدماء ، ويموج بالدمار والخراب ، وتعترك فيه الآراء والدعوات ، وتحاول الأمم الكبيرة أن تلعب بكرة الأرض كما تهوى ، وأن تخط للعالم من القوانين ما تشاء كبرياؤها ومصلحتها . وما سكوت الأمم العربية من القول فيما يعنيها ، وقعودها عن السعي فيما تبتغي لحاضرها ومستقبلها إلا العجز والاستسلام ، والرضى بالهوان ، والنزول على حكم السادة ، والتنظر لما يقضي به السادة من خير أو شر ، ونفع أو ضر ، وما هكذا تختار الأمم الكريمة لأنفسها ، ولا كذلك أورثنا آباؤنا ، وأوحى إلينا تاريخنا ، وعلّمنا زماننا . إن الزمان يطالب الأمم الأخرى بدمائها وأموالها ، وما ادّخرت أيديها وأفكارها . ولا يطالبنا اليوم إلا باجتماع الكلمة ، والقول الفصل فيما يجزينا من الخطوب وما يحيط بنا من الحادثات . فإن استمرت بنا الفرقة والتهاون والتخاذل والاستسلام ، فأهون بنا على ظهر الأرض ، وأجدر بنا أن يُقضى علينا بخطة خسف تكافئ أعمالنا جزاءً وفاقاً .

كتبت في «الثقافة» هذا العام مقالين في اتحاد العرب ، فأبنت أن اتحاد الأمم العربية حقيقة واقعة لا ريب فيها ، لا ينقصها إلا أن نعترف بها ونستفيد منها ، وأننا لسنا نعالج أمراً مصطنعاً نلفق له الوسائل ، ولكن حقائق تملأ عقولنا وعواطفنا وأبصارنا وأسماعنا . ولست في حاجة إلى أن أعيد اليوم ما قلت من قبل في صلات الأمم العربية وأواصرها .

لابد أن نبين مقاصدنا تبييناً ، ونحدد دعوتنا تحديداً ، فلا يلتبس الأمر على الباحثين ، ولا تتفرق السبل بالساعين . ماذا نريد بالحلف العربي ؟ ما الأمم العربية وكيف يكون تحالفها ؟ تكلمت في بيروت منذ خمس سنين ، فذكرت

القبائل ، نسير إلى الأمام نحو مستقبل بعيد عامر بالأمل واليقين ، لا بأننا سنحارب خيراً مما حارب آباؤنا فحسب ، وإنما بأننا سنكون أجداداً لأجيال تأتي من بعدنا تكون هي الضمان لتخليد حياة الأمة الألمانية التيوتونية » .

هذه الأشياء التي عرفناها من صفوة رجال تلك التشكيلات من الأهمية بمكان ، لأنها تدلنا على الروح التي بها يقومون بأعمالهم ؛ فسلطانهم لا حد له ، ونفوذهم في منتهى القوة ، وكل منهم يباشر سلطته بالحرارة والحماسة التي لا يولدها إلا التعصب الدينى الشديد ، ويزيدها خطراً الكفاءة والقدرة وعدم المبالاة التي تعلم كل فرد من أفرادها أن يحقق بها أغراضه وينال مآربه .

استدراك والرد عليه

من النوادر التي أوردها الأستاذ خلف الله في مقاله الأول من «أدب الفكاهة في التأليف العربي» (عدد ١٣٧ من الثقافة) نادرة نسبها إلى «أبي العيناء» خلاصتها أن قينة قالت له : هب لي خاتمك وأذكرك به ، فقال لها أبو العيناء : اذكري أنك طلبته مني ومنعتك .

وقد أرسل الأديب محمد أحمد الحبيبي يستدرك على نسبة هذه النادرة لأبي العيناء ، ويقول إنه قرأها في كتاب الطالبة الوجيهية لسنة ١٩١٠ (ص ١٢١) منسوبة لأشعب بن جبير . وصاحب المقال يشكر الأديب الفاضل ويخبره أن «معجم الأدباء» (ج ١٨ مطبوعات دار المأمون) ينسب هذه النادرة وطرفاً أخرى كثيرة إلى محمد بن القاسم الهاشمي «المعروف بأبي العيناء الأخباري» . وهي كذلك منسوبة إلى أبي العيناء في البحث الذي نشره المستشرق «مرجليوث» باللغة الانجليزية وأشير إليه في المقال .

البلاد العربية ونهوضها وسعيها إلى التعارف والتعاون ؛ وكنت كلما ذكرت الأمم العربية ذكرت الأمم التي تعيش في الأقطار الواسعة بين بحر الظلمات وهضب إيران ؛ فلما انتهى الاجتماع تقدم إلى أحد الطرابلسيين شاكراً لي ، شاكياً إغفال الكتاب والخطباء بلاد العرب التي تمتد ما بين مصر إلى المحيط الأطلسي . وفي هذا العام دعت « جماعة الطلبة العرب » في كلية الآداب الأستاذ الكبير مصطفى عامر بك ، فتكلم في الاتحاد العربي ، وقصر الكلام على العراق والشام والجزيرة العربية ؛ فسخط الطلاب الذين لم تذكر بلادهم ، وعجبوا كيف أغفل الأستاذ مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، حتى بينت لهم أن الموضوع واسع ، وأن الأستاذ تناول الصلات التي بين البلاد العربية الشرقية ليجعلها مثلا للبحث في روابط الأمم العربية كلها .

ولما كتب أستاذنا أحمد أمين بك مقاله عن الحلف العربي جاءني كتاب من بعض الأدباء يسألني : لماذا أغفل الأستاذ البلاد العربية الأخرى ؟ لست أرى أن البلاد العربية الغربية أقل اهتماماً بمستقبل العرب ، ولا أضعف إيماناً بما بينهم من أواصر ، ولا أدنى طموحاً إلى المشاركة في جامعة العرب ، والمساهمة في تكاليف المجد العربي ؛ وما أحسب الكتاب يرتابون في هذه الحقائق ، ولكنهم يتناولون الجانب الذي نال الاستقلال أو كاد ، عالمين أنهم إذا أسسوا الجامعة العربية في بعض الأقطار فإنما يضعون قواعد الجامعة الشاملة العامة ويتربصون لها الفرص المواتية .

ولست أبرئ الكتاب من الذنب في إغفالهم بعض الأقطار العربية ، فإن عليهم أن يعرفوا القصد ويدعوا إليه ، ويخطوا الحدود الجامعة ، ويبينوا هدفهم الأقصى ومثلهم الأعلى ، ثم يدعوا إلى ابتداء العمل في بعض الجوانب ، إلى أن يتيسر العمل في الجوانب الأخرى ، فيجعلوا الجامعة الخاصة عملا ، والجامعة العامة أملا يطمحون إليه ويعملون له ، وينتظرون له الفرص أو يخلقونها . إن أمور الأمم لا تعالج إلا بالصراحة ، ولا يجدي فيها المداهنة والنفاق ؛ فليعلم الناس كلهم أن الأمم العربية طامحة إلى الاتحاد ساعية إليه ، وأن اتحادهم لا يكون إلا خيراً وسلاماً لأنفسهم وللناس كافة ، وأن من شاء مودتهم ونصرتهم فعليه أن يعترف بحقهم ، ولا يعترض طريقهم ، ويعرف أنهم أهل لشكر الصنيعة ، وعرفان الجميل إن عاونهم في محنهم الحاضرة بكلمة طيبة أو عمل نافع ، وكف عنهم شره ومنحهم مودته .

تلكم كلمات تبين عن مقاصدنا وآمالنا في اتحاد الأمم العربية في غير مداهنة ولا مداراة . وأما قواعد الحلف العربي ووسائله فيبينها العمل وتحددها التجربة ؛ فعلينا أن نبدأ به في أيسر أشكاله وأقربها ، ثم نتوسع فيه على قدر ما تواتي الأحوال ، وتستجيب الحادثات . يرى الأستاذ أحمد أمين أن يؤلف الحلف العربي من أربعة أقطار : مصر والشام والعراق وجزيرة العرب ، وأن تربط ما بين هذه الأقطار روابط ثقافية واقتصادية وسياسية ، ثم يبين وسائل هذه الروابط ، وهو رأي يجمع عليه كتاب العرب وزعماؤهم في جملته ، تاركين التفصيل إلى حين العمل ، فربما يكون على هذه الصورة أو غيرها . فما ذكره الأستاذ ليس إلا تمثيلا ووضعاً للنظريات في بعض صورها الممكنة ، وتدليلا على أن الأمر يسير قريب إذا صدقت له النيات وصحت العزائم .

وأما الأستاذ فريد فقد غلبت في مقاله فكرة الدولة العربية الواحدة ؛ وليس هذا الذي يعنيه دعاة الحلف العربي أو الجامعة العربية ؛ فإن خيراً لتعاون العرب وتآلفهم أن يستقل كل قطر بأموره الخاصة ، ويدبر أحواله الداخلية كما يشاء وكما تقتضي طبيعته وبيئته ، وأن يكون بين الأمم العربية بعد هذا قدر من المشاركة في الأمور العامة والأحوال التي لا تخص إقليما منها . وقد قال الأستاذ :

« الطبيعي أن يكون تفكير الشعوب العربية في التحالف بينها مستمداً من فكرة اتحاد الشعوب التي كانت متفرقة في وقت من الأوقات » وذكر الشعوب الايطالية والألمانية والأمريكية ، واليوجوسلاف واليونان . وليس يهمنا أن يكون بعض العرب استمد فكرته من حوادث الشعوب أولا ؛ فإن الحق من مواقع بلاد العرب وتاريخها وأواصرها ما يوحي إليه التحالف والتآلف والتوحد ، دون حاجة إلى تقبل الشعوب الأخرى . وقد شغلت بأمور العرب كثيراً وكتبت فيها وتكلمت ، وما خطر لي قط التشبه بشعب من هذه الشعوب . وربما يكون اتحاد العرب الذي يدعون إليه على شاكلة لم يسبقوا إليها ، وأسلوب لا تعرفه شعوب الأرض الحاضرة ؛ فإنما ينبغي أن نستمد تاريخنا ونستجيب لحاجاتنا ، ليكون اتحاداً طبيعياً لا شية فيه من التقليد والصنعة .

ولا أتعرض لقول الأستاذ : « هناك طريقان لإيجاد مثل هذه الروابط : الطريق الأول هو أن تسعى الشعوب العربية بنفسها للاتحاد بغير تدخل دولة أخرى . . . والطريق الآخر لإحداث الاجتماع بين الشعوب المتجانسة هو أن يتم توحيدها تحت ظل دولة قوية تعمل على ذلك التوحيد » . ولكني أدعو العرب إلى أن يأتمروا فيما بينهم ، ويسلكوا أقرب الطرق إلى مقاصدهم ، متعاونين مع غيرهم أو غير متعاونين . وأن يسيروا إلى غايتهم ، غير مبالين عن كره أو رضى ، باسطين أيديهم بالسلم والمودة لكل مسالم مواد . فإن الأمم التي يقف بها التردد ، وتنتظر أن يمهد لها الطريق حتى تسير في سبيل ممهدة مطروقة آمنة لا تستحق الجد الذي نصبو إليه ، ولا تبلغ الغاية التي ترجوها ؛ وإنما السبيل أن تشق الأمة بآرائها ومعارفها وأخلاقها وعزائمها طريقها بين المطلوب ، ماضية قدماً إلى مقاصدها .

وبعد ، فالذي ندعو إليه دعوة عاجلة أن يجتمع أولو الرأي من العرب ، ويجمعوا على أمر جامع يجعلونه منهاجاً قوميا وميثاقاً عربيا ، ويعلنونه إلى الناس أجمعين ، ثم يعرفون الوسائل ويبينون الطريق ، ويدعون إلى العمل على مر الزمان ، لتتلق الأمة العربية هذا المنهاج وذلك الميثاق ميراثاً تحرص عليه وتعمل به ، وتنتهز الفرص لبلوغه ، حتى يوفوا على الغاية المرجوة . وليس تحالف العرب أو توحدهم مبتدأ أولا بدعاً ، فقد اجتمعت البلاد العربية كلها حقبة طويلة في عهد الأمويين والعباسيين مع امتداد سلطان الدولتين على بلاد أخرى واسعة شغلتها عن العناية بالبلاد العربية كل العناية . وقد اجتمعت البلاد العربية وحدها إلا العراق في سلطان الدولة الفاطمية . وإن العرب لأقدر في هذا العصر وأجدر أن يتعاونوا ويتحالفوا ويتوحدوا بما خلق الزمان من معارف ووسائل لم يظفر بها سلفهم .

وما أهون كل صعب وأقرب كل بعيد ، إذا توسل إليه العرب بعزتهم ، وحريتهم ، وهممهم ، وتاريخهم ، ومجدهم ! والله يهدينا إلى التي هي أقوم ، ويهيئ لنا من أمرنا رشداً .

عبد الوهاب عزام

مصدر تاريخي مهمل

للأستاذ أحمد أمين بك

هناك مصدر هام من مصادر التاريخ الاسلامي لم أر إلى الآن من اتجه إليه واستفاد منه مع ما فيه من غنى وثروة ، وتظهر أهميته إذا عرفنا أنه يلقي ضوءاً قوياً على الحياة الاجتماعية في العصر الذي يعرض له ، وهذا هو الجانب الضعيف في كتب التاريخ عندنا ؛ فأهم نقطة ترتكز عليها هذه الكتب هي الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء ؛ أما الشعب نفسه فلسنا نعرف حالته إلا من ثنايا الكلام ومما يذكر عرضاً لا قصداً ؛ فاذا كان هذا المصدر الذي أشير إليه يعنى بشرح الحالة الاجتماعية للعصر ، فلا شك أنه يكون مصدراً لا يصح إغفاله ، وتجب العناية به .

تلك هي كتب الفتاوى في الفقه ، وما أكثرها ؛ ووجه أهميتها أن مؤلفها — عادة — يكون من أكبر رجال عصره علماً وفقهاً ومركزاً ، حتى تتجه إليه الأنظار بحكم مركزه العلمي أو منصبه الرسمي ؛ فاذا حدثت أحداث تنازع فيها الناس — وخاصة الأحداث العظام — هرع الناس إليه يستفتونه ؛ وليسوا يقتصرون في مسائل الاستفتاء على المسائل الفقهية بأضيق معانيها ، بل على المسائل الاجتماعية بأوسع معانيها ، فيكون لنا من هذه الأحداث وشرحها وبيان أسبابها ورأى العلماء فيها صورة بديعة لعقلية الناس في ذلك العصر . ولأسق لذلك مثلا يوضح الفكرة :

فثلا بين يدى الآن « الفتاوى الحديثية » لابن حجر الهيتمى ، وهو إمام مشهور مصرى الأصل والنشأ ، وعاش بعض زمنه الأخير في مكة ، وكان في القرن العاشر الهجرى ، فقد ولد في محلة أبي الهيتم من أعمال الغربية سنة ٩٠٩ هـ ، ودرس في الأزهر ، ورجع الناس إليه في الفتوى ، ومنذ سنة ٩٤٠ استقر في مكة وأقام بها إلى أن توفى سنة ٩٧٤ ، واشتهر اسمه في العالم الاسلامى ، واستفتى من جميع الأقطار .

تقرأ هذه الفتاوى فتجد فيها صوراً مختلفة تتبين منها جانباً من الحياة العقلية للمسلمين في هذا القرن .

فهذه صورة ترينا أن العالم الاسلامى إذذاك كان مضطرباً بين حركتين متناقضتين في شأن التصوف وما إليه : إحداهما الحركة التي قام بها ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ يطعن فيها على ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين والغزالي وغيرهم من المتصوفة ، ويدعو إلى الرجوع للكتاب والسنة ، وترك البدع كالتوسل بالأولياء وزيارة القبور وغير ذلك . والأخرى حركة تؤمن بالصوفية وكراماتهم وشطحاتهم إلى أقصى حد .

وقد كانت هاتان الحركتان عنيفتين في عهد ابن تيمية ، وكان من جرائهما اضطهاده وسجنه إلى أن مات ، فالتف حوله علماء يؤيدونه وعلماء يكفرونه ويناهضونه ؛ وانتقلت هاتان الحركتان إلى القرن العاشر الذي تصوره هذه الفتاوى .

وإذ كان ابن حجر هذا فقيهاً شافعياً محدثاً متصوفاً فقد أيد الصوفية وآمن بكل شيء يدعون إليه ، وهاجم ابن تيمية في عنف ، وادعى أنه لا يقام لكلامه وزن ، وأنه مبتدع ضال مضل جاهل غال ؛ وأفاض في مدح الصوفية الذين هاجمهم ابن تيمية ، كابن عربي وابن الفارض والغزالي .

وليس يدل هذا القول على رأى ابن حجر وحده ، بل يدل على اتجاه العقلية نحو الحركة التي تؤيد الصوفية وخفوت صوت المعارضين ، لأن كثيراً من أهل هذا

العصر ناصر ابن حجر كما حكى هو ، وانضموا إلى الشعب فى الانتصار للصوفية بجميع مظاهرها . وقد قص علينا ابن حجر نفسه فى هذه الفتاوى أن العالم من العلماء — فى زمنه — إذا اعتقد فى التصوف والمتصوفة أقبل الناس عليه وعلى كتبه وتبركوا به ، كالشيخ زكريا الأنصارى ؛ أما إن أنكر على الصوفية شيئاً من أقوالهم ، صد الناس عنه ولم ينتفعوا بعلمه ، كالشيخ البِقَاعى ؛ فقد كان عالماً جليلا ، وكان نابغة فى حسن العبارة وقوة الذكاء وسعة العلم ، وخاصة التفسير والحديث ، وألف فى تفسير القرآن وفى مناسباته كتباً — قال ابن حجر عنها إنها لو كانت للشيخ زكريا لكتبت بماء الذهب — ولكن البقاعى كان يعترض على ابن عربى وينقد بعض أقواله ، ويؤلف الكتب فى نقده ، ويرى فى ابن الفارض أنه شاعر جيد ، ولكنه متصوف غير جيد ، وأنكر على الغزالى قوله : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » فهاج عليه العامة ، ثم حكم بتكفيره وإهدار دمه ، وكاد يتم ذلك لولا تدخل بعض الأمراء ، فاستتيب وجدد إسلامه ؛ ودخل عليه بعض أهل العلم فوجده وحده ، فما زال يضربه بنعله على رأسه حتى أشرف على التلف ، وقام العلماء يؤلفون الكتب فى الرد عليه والثلب من الغزالى ، وأصيب بضيق التنفس فاعتقدوا أن هذا سر ابن الفارض .

ويرسم الكتاب صورة الاندفاع وراء الاعتقاد بالمغيبات والكرامات والشطحات والجن ، وهى صورة تبعث على الشفقة والأسى على ما وصلت إليه العقلية فى هذا العصر .

* * *

ويصور لنا ابن حجر الجدال حول تعليم البنت الكتابة والقراءة ، فيستفتى فى ذلك ، فيفتى بأنها تعلم العلم ، ولكن لا تعلم الكتابة . ويروى حديثاً أن لقمان مر على جارية تُعلَّم فقال : « لمن يُصقَل هذا السيف ؟ » ، أى أنها تُعلَّم الكتابة لتَذبح بها . ويقول إن المرأة إذا تعلمتها توصلت بها إلى أغراض فاسدة ، لأنها تبلغ بها فى أغراضها ما لم تبلغه برسولها ؛ فلأجل ذلك صارت المرأة بعد الكتابة كالسيف الصقيل الذى لا يمر على شىء إلا قطعه ، ثم قال : « واعلم أن النهى عن تعليم النساء الكتابة لا ينافى طلب تعليمهن القرآن والعلوم والآداب ، لأن فى هذه مصالح عامة من غير خشية مفاسد تتولد منها ، بخلاف الكتابة .

ويستفتى فى كلمة الأشراف : من هم ؟ وما تاريخ عمامتهم الخضراء ؟ فيذكر أن اسم الشريف كان يطلق فى الصدر الأول على من كان من أهل البيت ولو كان عباسيا أو عقيليا[1] ، ومنه قول المؤرخين الشريف العباسى والشريف الزينبى[2] ، فلما ولى الفاطميون مصر قصروا الشرف على ذرية الحسن والحسين فقط ، واستمر هذا إلى الآن ؛ وأما العلامة الخضراء فلا أصل لها ، وإنما حدثت سنة ٧٧٣ هجرية بأمر الملك شعبان بن حسن ، وفى ذلك يقول ابن جابر :

جعلوا لأبناء الرسول علامة
إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى وسيم وجوههم
يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

فإذا كانت هذه العلامة الخضراء حادثة ، فلا يؤمر بها الشريف ولا ينهى عنها غيره .

* * *

والفتاوى تدل على انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين الشعب ، وكثرتها كثرة مفرطة ، وتناولها أدق الأشياء فى المأكل والملبس والزواج والطب وما إلى ذلك ، وسيطرتها على عقول الناس وسلوكهم ؛ والخاصة يهرعون إلى المفتين يستفتونهم فى شأنها ، فبدلا من أن يهجموا

(١) نسبة إلى عقيل بن أبى طالب .
(٢) نسبة إلى زينب بنت فاطمة ، وقد تزوجت بابن عمها عبد الله بن جعفر ، ولها منه أولاد كثيرون .

عليها ويعيدوها ، يجتهدون فى الكثير منها أن يجدوا لها مخرجاً ، فيقولون رواها فلان فى كتابه وفلان فى مسنده ، ولا يقرون بضعف الضعيف ووضع الموضوع إلا فى القليل النادر ، ويتركونها تأكل عقول الناس وتشعوذ سلوكهم .

* * *

ثم من غريب أمر هؤلاء المفتين من الفقهاء والمحدثين فى ذلك العصر أنهم لا يؤمنون بأن هناك علوماً وراء علومهم ، ولا تخصصاً وراء تخصصهم ، ويؤمنون بأن الفقه والحديث كافيان وحدهما للاجابة عن كل سؤال ، سواء اتصل بالتاريخ القديم أو بالطب أو بالفلك أو طبقات الأرض أو ما شئت من العلوم ؛ فاذا سئل المفتى عن شىء من ذلك فما عليه إلا أن يقلب كتبه ليعثر على حديث ضعيف أو قول شيخ قديم ، فيكون هو الجواب ، وهو الصواب ، وهو كل الحق ، فالشيخ ابن حجر يُسأل عن السواد الذى فى القمر ، فيجيب بأن علياً كرم الله وجهه سئل عن ذلك فقال : هو أثر مسح جناح جبريل ، لأن الله خلق نور القمر سبعين جزءاً كنور الشمس ، فمسحه جبريل بجناحه فمحا منه تسعة وستين جزءاً حوّلها إلى الشمس ، فأذهب منه الضوء وأبقى فيه النور ، فذلك قوله تعالى : « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبْصِرة » .

ويفتى بأن القمر يقطع الفلك فى شهر ، والشمس لا تقطعه إلا فى اثنى عشر شهراً . ويفتى فى المطعومات وما يناسب منها وما لا يناسب . ويفتى فى مقدار المدة بين الأنبياء ، وفى عدد زوجات سليمان وسراريه الخ ، مما يدل على أن هؤلاء المفتين لا يحترمون العلم اختصاصه .

* * *

ثم كان الناس فارغين يبحثون فى أوهام . ويتساءلون عما لا يمكن العلم أن يصل إليه ، ويتجادلون فى فروض ، ويضيعون أوقاتهم فيما لا ينبنى عليه فى الحياة عمل ؛ ثم يتساءلون : هل يجوز زواج الجن ؟ وهل يروى منهم الحديث ؟ وهل خلقت الملائكة دفعة واحدة أو على دفعات ؟ وهل الجن تتشكل كالملائكة ؟ وهل الجن يموتون ؟ وهل كان إبليس عارفاً بالله ثم سلب منه ذلك ؟ وهل يدخل مؤمنو الجن الجنة ؟ وهل الأفضل الشرق أو الغرب ؟ وهل تصح الصلاة خلف الجن ؟ وهل أذن للأنبياء أن يخرجوا من قبورهم ويتصرفوا فى الملكوت ؟ الخ

هذه عقليات فاشية بين المفتين فى القرن العاشر ؛ لم يجدوا فى الحياة جداً فهزلوا ، ولم يجدوا من يثير عقولهم فسخفوا ، وما زلنا إلى الآن نرث تركتهم المثقلة بالديون ، ويعانى المصلحون أشد العناء فى محو هذه الأوزار وإزالة هذه الآثار .

* * *

هذه بعض صور لما عثرت عليه فى هذه الفتاوى ؛ وقبل ذلك قرأت فى « فتاوى ابن تيمية » فوجدت فيها من الفوائد التاريخية ما لم أجده فى كتب التاريخ نفسها .

أفلست ترى — بعد ذلك — أن هذه الفتاوى مصدر تاريخى هام لتاريخ الحياة الاجتماعية فى العصور المختلفة ، وأن المؤرخين لم ينصفوا فى إهمالها ؟

أحمد أمين

صور قضائية — من محكمة الأحداث :

الأغنـــام الضالة

للقاضي الفاضل صاحب الإمضاء

أتينا في كلة الأسبوع الماضي التي نشرناها تحت هذا العنوان على مثالين من أمثلة المتهمين الذين يُقدَّمون إلى المحكمة لتوقيع العقوبات عليهم ، في حين أنهم أحوج ما يكونون إلى الطبيب الذي يكشف عن عللهم ليضع بعلاجه حداً لمتاعبهم وانحرافاتهم .

وكنا قد وعدنا في نهاية الحديث السابق أننا سنعود إلى إيراد مثال ثالث يوضح كيف تكون الجريمة ثمرة لعلة من العلل النفسية بعد أن أوردنا في المثالين السابقين ما يبين كيف أن الجريمة في بعض الأحيان تأتي بسبب علة من علل الجسد . وفي أحيان أخرى تكون نتيجة لعلة من العلل الاجتماعية ؛ وقلنا إن أمثال هؤلاء المتهمين ليسوا إلا (أغناما ضالة) قد يعود بهم إلى القطيع نداء رفيق ، ولكن لا يعود بهم إليه أبداً رفع العصا

فالآن نسوق حديث « المرة الثالثة » . . .

***

كانت التهمة هذه المرة أن فتاة اعتادت أن تسرق كل ما تصل إليه يدها من متاع زميلاتها في المدرسة . فهي لا تكاد تحس أنها انفردت وحدها بمتاع زميلة لها حتى تعثي فيه مفسدة وتختار لنفسها منه ما يحلو لها . . . تارة تسرق منديلا جميلا ، وتارة تسرق شريطاً من الحرير . وطوراً تسرق كتاباً مصوراً ، وطوراً تسرق كيساً من أكياس النقود .

وقد كشف البحث في أمر هذه الفتاة عن أن أمها كانت تفضل عليها إخوتها في المنزل قبل أن تبعث بها إلى المدرسة ، وإلى أنها كانت تحرمها مما تعطي منه إخوتها وإلى أن هذا السلوك كان يؤلمها ويحز في نفسها ، ويثيرها على إخوتها ، ويجعلها تود لو انتقمت منهم على استئثارهم بعطف أمها . . .

وعلى قدر نفور والدتها منها كان حنو والدها عليها . وعلى قدر اشمئزازها هي من كل ما كان يحيط بها في المنزل كان حبها لأبيها وتعلقها به وطاعتها إياه .

وحدث بعد ذلك أن توفي هذا الوالد الحنون ، لأنه كان مريضاً بالسل ، فضاقت الدنيا في وجه الفتاة ، وكانت تعتريها بعد هذه النكبة نوبات عصبية تشبه الصرع ، ثم توفيت أمها بنفس المرض ، فتولى عم لها كفالتها هي وإخوتها ، وبعث بها إلى المدرسة . وهناك ظهرت عليها أعراض هذا الداء الوبيل .

وليسمح لي القارئ هنا أن أستطرد إلى بحث قصير لا بد منه قبل متابعة هذه الحالة . . .

***

يقول بعض علماء النفس إن الجريمة ترجع في أصلها إلى عجز المجرم عن تنسيق غرائزه ؛ ويوضحون ذلك بقولهم : إن هناك ثلاث غرائز تقع في المرتبة الأولى بين غرائز الانسان وهي :

« غريزة البقاء » — التي تدفعه إلى طلب الطعام .

و « غريزة التناسل » — التي تبعثه في طلب الجنس الآخر .

ثم « غريزة الاجتماع » — التي جعلت الأوائل يقولون إن الانسان مدني بالطبع ، لأن هذه الغريزة هي التي تجعل الانسان يسعى في طلب الناس ليندمج فيهم ويعيش بينهم ، ويتخذ عاداتهم ويتخلق بأخلاقهم .

فاذا اصطدمت « غريزة البقاء » مثلا « بالغريزة الاجتماعية » وعجز الانسان عن التوفيق بينهما ، فانه عادة

لا يبالى هذه الغريزة الأخيرة . ويندفع وراء تحقيق غريزته الأولى — وهى « غريزة البقاء » ، فيتعدى على مال الغير إيثاراً لنفسه . . .

وهذه هى الجريمة !

فالجريمة — كما يقولون — لا تعنى شيئاً آخر سوى عجز الفرد من التوفيق بين « غريزة الاجتماعية » وبين غريزتى « البقاء » و « التناسل » .

ومن شاء أن يعالج الجريمة من أساسها فعليه أن يحول دون وقوع التصادم بين « الغريزة الاجتماعية » وغريزتى « البقاء » و « التناسل » .

ولا يكون ذلك إلا بتنظيم المجتمع بحيث تتاح لكل أفراده فرص مناسبة للحصول على العيش ، وللزواج فى سن ملائمة ، ويبقى بعد ذلك أن ينشأ الناس على التعاون لكى يعيشوا فى انسجام ووفاق . .

وما دام الجنون هو اختلاط العقل وسوء التفكير وضياع الاتزان بين الغرائز المختلفة ، فهو ولا شك أصل من أصول الجريمة . وليس الجنون المقصود هنا هو الجنون الذى يذهب بعقل الانسان جملة واحدة ؛ ولكن المقصود هو أنواع الجنون الخفيفة — والجنون أنواع أو فنون — كما لا بد أن يعرف العقلاء أيها القارىء الحكيم . وأخف أنواع الجنون هو « النيوروز » أى « جنون العواطف » ، وقل أن يخلو إنسان من أن تصيبه لوثة من هذا « النيوروز » فى وقت ما . . . . .

والانسان فى هذه الحالة يعرف أنه مريض وأنه فى حاجة إلى علاج ، ويشعر أنه غير راض من أعماله التى يأتيها ، وهو تحت تأثير هذه النوبة . ويود لو استطاع أن يكبح جماح نفسه ، ويردها من المضى فى هذا الطريق الذى يعلم هو أنه غير مستقيم ؛ كما يعلم أن الناس يحتقرون من يسلكه ويعاقبونه ، ولكنه مع ذلك تراه فى معظم الحالات لا يُطيق أن يقلع عن مزاولة هذه الأعمال الرذولة

ولعل أوضح أمثلة هذه الحالة الخفيفة من حالات الجنون ما يسمونه « كليبتومانيا » — أى جنون السرقة — وليس ببعيداً عن أذهان القراء ذلك الحادث الذى اتهمت فيه فتاتان تنتميان إلى أسرة محترمة بأنهما دخلتا محلا لبيع الجواهر ، وسرقتا منه حلية ثمينة ، وقيل يومئذ إن تلك الحادثة لم تكن أولى حوادثهما ؛ وليست الجواهر وحدها هى التى تثير هذا الجنون فى نفس مرضاه ، فان أرقى السيدات وأغناهن قد يصيبهن مس من هذا الجنون ، فتراهن يسرقن من المحلات التجارية أتفه السلع مما قد لا يكون لهن به حاجة ، منديل أو جورب أو مشط أو نحوها . ونوادر هذه السرقات لا يمكن أن تقع تحت حصر ، وهى تقع كل يوم بين أيدى رجال البوليس ، ولكن يمتنع من وصول هذه القضايا إلى المحاكم عادة أن مشاكلها تسوى قبل أن ينتهي تحقيقها ، وأن الظروف تقتضى حفظها والتستر على أصحابها !

* * *

ولنعد الآن إلى تلك الفتاة المسكينة التى فقدت أبويها وبيتها الأولى ، ولكنها بقيت محتفظة بعيوب معيشتها فيها ، ذلك الميل الذى لايقاوم إلى سلب زميلاتها أشياءهن ونقودهن ، كأنما تثأر لنفسها فى أشخاصهن من ذلك الحرمان الذى كانت تلقاه من والدتها ، وإيثارها لإخوتها عليها . وقد عولجت هذه الفتاة أول الأمر بإخراجها من مدرستها ، وإيداعها فى مدرسة أخرى بعد أن وضعت عليها رقابة خاصة ، لا تتيح لها هذا الانفراد الذى كان يغريها بالسرقة . ولكنها مع ذلك لم تكن تعدم الفرص التى تهيء لها ممارسة سرقاتها . وفشل أولياء أمرها فى إصلاح حالتها ، على الرغم مما كان يبدو عليها فى كل مرة من أعراض الندم والظهور بمظهر التائب الذى لا ينوى أن

ينهزم مرة أخرى . فنقلت إلى مؤسسة أعدت لإيواء أمثالها ممن استعصت حالاتهن . وهناك أعلنت توبتها وأقسمت بروح والدها أنها سوف لاتمد يدها إلى مال غيرها . واستقام لها الحال على ذلك فعلا بضعة أشهر كانت فى خلالها هى التى تقوم بعملية استلام بريد المؤسسة وتوزيعه على أصحابه ؛ ولكن لوحظ أخيراً أن بعض الخطابات التى كانت تحتوى على نقود مما يرسله الآباء إلى أبنائهم فى تلك المؤسسة لم تكن تصل إلى أصحابها . فسئلت الفتاة فى هذا الشأن فأنكرت إنكاراً باتاً . وقالت إنها لا علم لها بشىء مما يسألونها فيه ؛ ولكن أحد اللاحظين وفق بعد ذلك إلى ضبطها متلبسة بجريمتها ، إذ كانت تتحص الخطابات فى مكان منعزل عقب استلامها لها ، وتخفى منها ما كانت توحى إليها به مواهبها أنه يحتوى على نقود . فسلمها إلى الاخصائى النفسانى الذى جعل يحادثها ويناقشها حتى عرف منها أن الذى جعلها تمسك عن السرقة طيلة تلك الشهور الأولى التى قضتها فى المؤسسة ، أنها كانت رأت ذات ليلة فى منامها كأن روح أبيها نهاها عن هذه السرقات ، وتقول لها إنها غاضبة عليها غير راضية عنها ، إلا أن تكف عن هذا المسلك الشائن الذى جعلها مضغة فى أفواه زميلاتها فى كل مكان تحل فيه . . .

وهنا لمح الاخصائى فرصته السانحة ، واعتزم فى نفسه أمراً . . . وصرف الفتاة بعد أن تعاهد معها على أن تبذل ما فى وسعها من جهد مرة أخرى لتتخلص من هذه العادة الذميمة .

وفى الليلة التالية تقمع الخبير بملاءة بيضاء غطى بها نفسه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه — وهى الصورة التى كانت الفتاة قد ذكرت له أن روح والدها قد ظهرت لها فيها — ثم دخل عليها فى غرفة نومها . وافتعل صوتاً نبهها من غفوتها ؛ فإذا هى وجهاً لوجه أمام هذا الشبح الذى بدأ يكلمها بصوت أبيها محتجاً عندها على ما فرطت فى نصحه ، وعدم إطاعتها لأمره ، ثم أعلنها بأنه سينسحب على أن يتخلى عنها ولا يعود أبداً إلى التفكير فيها ، إلا أن تقسم بين يديه بأنها هذه المرة سوف لا تعود إلى مقارفة هذه الصغائر التى ترتكبها . . .

وكان فيما ألهم الله به هذا الخبير فصل الخطاب . . .

فإن الفتاة آمنت برؤياها وصدقتها . وبرئت بعد ذلك من تلك اللوثة التى كادت تفسد عليها حياتها ؛ كأنما غسلت عنها تلك اللمسة العصبية التى أصابتها وهى بين يدى الشبح كل ما كان عالقاً بنفسها من آثار الماضى وآثامه .

وتقرر المؤسسة فى سجلاتها أن هذه الفتاة أصبحت الآن قدوة حسنة تقتدى بها زميلاتها فى كل الشئون ، وأنه يوكل إليها بالذات إصلاح شأن من تكون قد ألحقت بالمؤسسة لاختلال غرائزها ، إذ كانت هى أبصر الناس بأمثال هذه الحالات .

* * *

ويرى القارىء فى هذه الحالة مثالاً للجريمة فى صورة علة من علل النفس التى أمكن أن يثمر فيها التحليل النفسى ، والعلاج الروحانى ، والتى لم تكن تجدى فيها العقوبة قطعاً ولا الصرامة . ولعل هذا يفسر لنا ما لوحظ أخيراً على حالة المجرمين فى مصر من أن معظم الصبية الذين يبدأون عهدهم « بإصلاحية الأحداث » ينتهون فى شيخوختهم عادة إلى « إصلاحية الرجال » ، ويقضون حياتهم فيما بين ذلك متنقلين من سجن إلى سجن ، ولو أنهم كانوا عولجوا فى مستهل حياتهم على النحو الذى بسطناه فى هذين الفصلين ، لكان أغلب الظن أن ينصلح حالهم ، ويستقيم أمرهم ، ويهتدوا بعد ضلال ، ويعودوا إلى قطيعهم بعد شرود .

ع . ج

٢ – أدب الفكاهة

فى التأليف العربى

للأستاذ محمد خلف الله

من المعروف أن العرب لما بدأوا فى ترجمة التراث الإغريقى لم يقصروا جهودهم على الفلسفة ، بل تناولوا الأدب ونظرياته ، فترجموا — فيما ترجموا — الخطابة والشعر لأرسطو . وقد انتفع مترجمو أرسطو من محدثى الأوربيين بترجمات العرب ونقلوا عنها . وإذاً فقد عرف العرب نظرية أرسطو فى الشعر وكلامه فى الملحمة والتراجيديا والكوميديا ؛ وكان من المنظور أن يظهر لهذه الأنواع أثر فى الأدب العربى فى العصر العباسى وما بعده ؛ ولكن ذلك لم يكن ، ولا يزال تعليله مجال بحث بين العلماء . وفى رأى « مرجليوث » أنه لما كانت الدراما غير معروفة للعرب ، أو لم يكن لها مقابل عندهم ، فقد صرفوا أنواعها إلى ما وجدوه من فنونهم الأدبية قريباً منها ؛ فخلطوا التراجيديا بالمديح ، والكوميديا بالهجاء ؛ وساعدهم على هذا الخلط لغة أرسطو فى تفريقه بين هذين النوعين ، فهو يقول : إن الشعر يبدأ إما شعراً حماسياً أو هجائياً ، ومن الحماسى (أى شعر الملاحم) ، تنشأ المأساة ، ومن الهجائى تنشأ المهزلة . ويقول فى موطن آخر : إن التراجيديا تقليد لما هو جدى وأحسن من الواقع ، والمهزلة تقليد لما هو وضيع وأسوأ من الواقع . وقد ترتب على هذا الفهم الذى اتجه إليه العرب أن كادت الكوميديا الإغريقية تفقد عند العرب خاصيتها فى إثارة الضحك ، وأصبحت هجاء وإقذاعاً ، ولم يعد تأثيرها يتوقف على ما قد تثيره من مرح وإمتاع .

وأشعر أن هذا التعليل الذى يفترضه « مرجليوث » لا تطمئن إليه النفس تماماً ؛ فالهجاء فن قديم عند العرب ، وقد كان منه الحنق والضحك ؛ وفى الكتابات النثرية العربية ما يقرب كثيراً من طبيعة المهزلة الإغريقية . ولم يقم لدينا دليل على أن العرب قصدوا إلى إدخال هذه الأنواع فى أدبهم ، وخلطوا بينها وبين فنونهم المعروفة . فمسألة الهجاء والمهزلة إذاً ليست إلا جزءاً من ظاهرة أوسع لا تزال تحتاج إلى البحث والتحليل ، وهى صلة الأدب العربى بالأدب اليونانى ، وما كان لكل منهما من خصائص ، ثم ما كان لكل منهما من أثر على الآخر .

يستشهد « مرجليوث » لفرضه السابق بشواهد : منها أن « بنى حزم » جردوا من ضياعهم فى أيام الوليد لبيتين قالهما الأحوص فى هجائهم (ولم ترد إليهم أملاكهم إلا فى عهد الخليفة المنصور) والبيتان هما :

لا تأوينّ لحزمى رأيت به
ضراً ولو أُلقى الحزمى فى النار
الناخسين لمروان بذى خُشُب
والمقحمين على عثمان فى الدار

وسواء أكانت هناك فى الأصل علاقة بين الهجاء والسحر أم لا ، فإن تأثير الهجاء الناجح كان شديداً ، وكان ضحاياه ينوءون تحت الذلة والعار . ولقد اتخذ الخلفاء والولاة نحو الهجائين مواقف مختلفة ، فمن ذلك ما يرويه الأغانى عن حماد الراوية ، قال : سأل أعشى همدان شجرة ابن سليمان العبسى حاجة فرده عنها فقال يهجوه :

لقد كنتَ خياطاً فأصبحت فارساً
تُعد إذا عد الفوارس من مضر
فإن كنت قد أنكرت هذا فقل كذا
وبيِّن لى الجرح الذى كان قد دبر
وإصبعك الوسطى عليه شهيدة
وما ذاك إلا وخزها الثوب بالإبر

قال : وكان يقال إن شجرة كان خياطاً ، وقد كان

ولى للحجاج بعض أعمال السواد ، فلما قدم على الحجاج قال له : يا شجرة أرنى إصبعك أنظر إليها . قال : أصلح الله الأمير ، وما تصنع بها ؟ قال : أنظر إلى صفة الأعشى . فخجل شجرة . فقال الحجاج . . . إذا أتاك امرؤ ذو حسب ولسان فاشتر عرضك منه .

ومن ذلك أن معاوية أمر مروان أن يرد على النابغة الجعدى ما كان قد أخذ منه من أهل ومال قائلا : « ما أهون والله عليك أن ينجحر هذا فى غار ، ثم يقطع عرضى على ، ثم تأخذه العرب فترويه ، أما والله إن كنتَ لمن يرويه ، أردد عليه كل شىء أخذته منه » .

وقد اضطر صلاح الدين الأيوبى أن ينفى من دمشق أبا المحاسن شرف الدين الأنصارى ، لأنه كان مولعا بالهجاء ، وثلب أعراض الناس ، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء دمشق سماها « مقراض الأعراض » . فلما خرج من دمشق قال :

فعلام أبعدتم أخا ثقة ... لم يقترف ذنباً ولا سرقة
انفوا المؤذن من بلادكمُ ... إن كان ينفى كل من صدقة

وفى بعض الأحيان كان النقد يقصد به إثارة الضحك لا الإغاظة ؛ فمن ذلك أبيات قالتها عائدة الجهنية تهجو بها أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخى لما ولى الوزارة ، وتعيبه بقصر قامته :

شاورنى الكرخى لما بدا النيـ ... ـروز والسن له ضاحكة
فقال : ما نهدى لسلطاننا ... من خير ما الكف له مالكة
قلت له كل الهدايا — سوى ... مشورتى — ضائعة هالكة
أهد له نفسك حتى إذا ... أشعل ناراً كنت دوبارِكَهْ

(تشير بذلك إلى العادة التى كانت متبعة عند أهل بغداد ، حيث كانوا يحتفلون بعيد رأس السنة الفارسية ، فيلبسون الدمى لباس الزواج ويجلسونها على سطح المنزل ، ويلعبون بها ، ويخرجونها فى زى حسن ، ويخفق بين يديها بالطبول والزمور ، وتشعل النيران ، والدوباركة

كلمة أعجمية ، ومعناها الدمية ، أو العروس الصغيرة) .

* * *

وهناك مجال أوسع للتندر والفكاهة فى الأعمال الفنية التى لا تتألف من أشخاص بل من أنواع ؛ ومن أحسن الأمثلة على ذلك مقامات بديع الزمان الهمذانى ، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وهذه المقامات أقرب الأنواع الأدبية العربية للكوميديا ؛ وفى رأى « مرجليوث » أن أصح ما يطلق على هذه المقامات هو الكلمة الاغريقية الأصل Mimes (ومعناها الهزليات التى تصور فيها مناظر من الحياة تصويراً تقليديا) .

ومع أن الغرض الأصلى من المقامات هو الترويح والامتاع فليست كلها من هذا النوع ، بل إن منها ما يعتبر أدبا تثقيفيا رفيعاً ، ويتجلى هذا على الخصوص فى مقامات الحريرى . وربما كانت أطرف مقامات البديع مقامتاه المضيرية والحلوانية . وهو فى الأولى يقلد أسلوب شخصية ليست مجهولة فى أيامنا هذه ، أسلوب الشخص الذى يعتز بكل ما عنده وما يتصل به ، ويعتبر كل إوزة إوزاً عراقيا (كما يقول الانجليز) . وفى الثانية يقدم إلينا عيسى بن هشام ، وقد قفل من الحج ونزل حلوان ووجد شعره طويلا ، وبدنه قد اتسخ قليلا ، فطلب من غلامه أن يختار لهما حماماً وحجاماً ، ووصف له ما يجب أن يكون عليه الحمام والحجام ، ثم أخذا طريقهما إلى الحمام ، فما دخلاه حتى دخل على أثرهما رجل وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبين عيسى بن هشام ووضعها على رأسه ثم خرج ، ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ، ويغمزه غمزاً يهد الأوصال ، وما لبث أن دخل الأول فحيا أخدع الثانى بمضمومة قعقعت أنيابه ، وقال : يا لكع ! مالك ولهذا الرأس وهو لى ! ثم عطف الثانى على الأول بمجموعة هتكت حجابه وقال : بل هذا الرأس حقى وملكى وفى

بدى ، ثم تلا كما حتى عيا ، وجاء صاحب الحمام ليفصل فى القضية ، وقال لعيسى : يارجل لاتشهد بغير الحق وقل لى : هذا الرأس لأيهما ؟ فقال عيسى : ياعافاك الله ! هذا رأسى قد صحبنى فى الطريق ، وطاف معى بالبيت العتيق ، وما شككت أنه لى . فقال له صاحب الحمام : اسكت يا فضولى ...... » .

وبعض هذه المقامات تصور حيل اللصوص تصويراً بارعاً . ولكن الجانب الفكاهى من حيل اللصوص لا يتجلى هنا كما يتجلى فى كتاب (نشوار المحاضرة) لمؤلف معاصر للبديع هو القاضى التنوخى[1] . كان التنوخى معتزليا صميما ، وكان لذلك يشك فى الأرواح خيرها وشرها . لهذا تراه يتخيل مواقف طريفة يظهر فيها اللصوص فى ثياب الملائكة أو الشياطين بين جماعات الناس . ومن هذه حكاية يقول فيها الراوى : « كان فى بلدنا عجوز صالحة كثيرة الصيام والقيام ، وكان لها ابن صيرفى منهمك على الشرب واللعب ، وكان يتشاغل بدكانه أكثر نهاره ، ثم يعود عشيا إلى منزله فيخبى كيسه عند والدته ، ويمضى فيقضى الليل فى مواضع شربه ولهوه . وذات ليلة تقفاه لص وهو لا يعلم ، ودخل وراءه الدار ، وراقبه حتى سلم الكيس وخرج ، وكان للعجوز فى دارها بيت مؤزر بالساج إلى أكثر حيطانه عليه باب حديد ، يحمل قماشها وكل ما تملكه والكيس فيه — فخبأت الكيس وجلست تفطر ، وظن اللص أنها ستأكل فتكسل فتنام ، وينزل هو فيفتح الباب ويأخذ الكيس والقماش ، فلما أفطرت قامت إلى الصلاة وأطالت تهجدها وقيامها حتى نفد صبر اللص ، وخاف أن يدركه الصبح ولا يظفر بشىء ، فطاف فى الدار فوجد إزاراً جديداً وجراً ، ووقع فى يده شىء له دخنة طيبة ، فلبس الإزار ، وأشعل ذلك البخور وأقبل ينزل على الدرج ، ويصيح بصوت غليظ ، وتعمد أن يجمله جهورياً لتفزع العجوز ، وكانت معتزلية جلدة ، ففطنت لحركته وأنه لص ؛ فلم تبره أنها فطنت ، وقالت : من هذا ؟ بارتعاد وفزع شديدين . فقال لها أنا رسول الله رب العالمين . أرسلنى إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه ، وأعامله بما يمنعه من ارتكاب المعاصى . فأظهرت أنها قد ضعفت ، وغشى عليها من الجزع ، وأقبلت تقول : ياجبريل سألتك بالله إلا رفقت به ، فإنه واحدى . فقال اللص : ما أرسلت لقتله ، بل لآخذ كيسه وأولم قلبه بذلك ، فإذا تاب رددته إليه . وعندئذ تنحت العجوز عن الباب ، وما هو إلا أن دخل اللص حتى أقفلت الباب عليه من الخارج . فأخذ يدور فى الحجرة لا يجد منفذاً ؛ وأخيراً طلب إليها أن تفتح له الباب ليخرج ، فقالت : ياجبريل أخاف أن أفتح الباب فتذهب عينى من ملاحظتى لنورك ! فقال : إنى أطفىء نورى حتى لا تذهب عينك ؛ فقالت : يا جبريل إنك رسول رب العالمين ، لا يعوزك أن تخرج من السقف ، أو تخرق الحائط بريشة من جناحك وتخرج فلا تكلفنى أنا التغرير ببصرى . . . وبقى حتى طلعت الشمس ، وجىء بصاحب الشرطة فقبض عليه . »

ويروى أن لصاً دخل بيت معتزلى ؛ فلما رآه صاحب البيت اندفع وراءه ليمسك به ، فجرى اللص حتى نزل فى بئر فى المنزل ، فأمسك المعتزلى بحجر وهم بالقائه عليه ، فصاح اللص : الليل لنا والنهار لكم (يشير بذلك إلى أنه من الجن) فأجابه المعتزلى : « إذاً فعليكم نصف الأجرة » .

ومن الموضوعات المستملحة فى القصص الفكاهية موضوع البخيل ، وقد قام مؤلفون مشهورون بجمع مجموعات من قصص البخلاء ؛ ومن أشهر المؤلفين فى هذا الموضوع الجاحظ ، وحكاياته مشهورة ، وقد أشرنا إلى بعضها من قبل ، ونضيف هنا واحدة قصيرة ، وذلك أن

(١) نشر مرجليوث الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٩٣١ تحت عنوان Table-Talk of a Mesopotamian judge أو «نشوار المحاضرة» .

بخيلا افتقد بعض لحم كان عنده ، فسأل زوجته فأخبرته أن القطة قد أكلته ، فأخذ القطة ووزنها ثم قال : هذا هو اللحم فأين القطة ؟

ومن الأنواع الطريفة كذلك ما يسمونه (Parody) ، وهو تقليد القصيدة المشهورة في أفكارها وعباراتها تقليداً ساخراً من نوع ما تنشره الجرائد الهزلية عندنا أحياناً من تقليد المعلقات ، أو تقليد قصيدة معروفة مثل (فتكات لحظك أم سيوف أبيك) ، وهذا النوع منبع فياض من منابع التندر والتملح عند كثير من الأمم ، ولكن « مرجليوث » يرى أنه لم يلعب دوراً كبيراً في الأدب العربي .

هذه أهم نواحي الفكاهة في التأليف العربي . والواقع أن كل واحدة منها جديرة بالبحث والتفصيل .

محمد خلف الله

الاحتفال بوفاء النيل
في مصر الإسلامية

كان المصريون منذ أقدم العصور يحتفلون بوفاء النيل ، ويفتنون في هذا الاحتفال الذي كان يتخذ أشكالا متباينة وصوراً مختلفة ، تبعاً لاختلاف العصور والحكومات والأديان .

أما المصريون القدماء فقد ألهوا النيل وعبدوه ، لأنه مصدر الخير والبركة ، يشربون من مائه العذب السلسبيل ، وإذا فاض سقى أراضيهم ورواها ، وبعث فيها الحياة ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وعلى صفحته تسير قواربهم تصيد الأسماك ، وسفنهم الشراعية تحمل التجارة من حب وفاكهة إلى أهالي الشمال من الجنوب ، وإلى أهالي الجنوب من الشمال .

وتقول الرواية العربية التي تنقلها جمهرة المؤرخين المسلمين عن ابن عبد الحكم : إن المصريين كانوا يزينون للنيل فتاة بكراً جميلة ، فيطيبونها ويعطرونها ، ويحملونها أجمل حليها ولآلئها وجواهرها ، ثم يلقونها إلى النيل قرباناً ، فلا يلبث أن يزيد ماؤه ويفيض ويغطي الأرضين ! غير أن معظم المؤرخين المحدثين يشكون في صحة هذه الرواية ، وبرهان شكهم أن العرب دخلوا مصر وهي مسيحية حكومة وشعبا ، فلو فرض أن مصر الفرعونية الوثنية كانت تقترف هذا الإثم ، فليس من المعقول أن تستمر على إباحة اقترافه المسيحية وهي دين سماوي يمنع قتل النفس دون جريرة .

غير أن الأمر الذي لا شك فيه أن الحكومات المختلفة التي توالت على مصر كانت تهتم الاهتمام كله بمقاييس النيل لتترقب وفاءه ، ولتحتفل بهذا الوفاء ، لأن فيه صلاح الأرضين وخصبها ، وحياة النباتات وإزهارها وإثمارها ؛ وكيف يستطيع المصري الحياة إذا قصر النيل ولم تنبت الأرض ؟ !

وقد تغير مكان المقياس في العصور المختلفة ، وإن كان المتفق عليه بين مؤرخي العرب أنه قد كان بمصر قبيل الفتح مقاييس كثيرة في بلدان مختلفة ، غير أننا لا نستطيع تحقيق أماكنها أو أسماء الملوك الذين أنشأوها ، فالمسعودي يقول مثلا : « ووضعت دلوكة العجوز ملكة مصر بعد فرعون مقياساً بأنصنا صغير الأذرع ، ووضعت مقياساً آخر بأخميم ، ووضعت الروم مقياساً بقصر الشمع » ، ويقول القضاعي : « ثم جاء الإسلام ، وفتحت مصر والمقياس بمنف » .

ويذكر القلقشندي أن مكان المقياس كان بمنف معروفا حتى عهده (القرن التاسع الهجري — الخامس عشر الميلادي) فيقول : « وموضع المقياس بمنف إلى الآن

معروف على القرب من الأهرام اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبدرشين » .

وبقى النيل بعد دخول العرب بمدة يقاس بمنف ، ويدخل القيّاس إلى الفسطاط فينادى به ، ثم بنى عمرو ابن العاص مقياساً بأسوان ، وآخر بدندرة ، وفى أيام معاوية بُنى مقياس ثالث بأنصنا ؛ ولما ولى عبد العزيز بن مروان حكم مصر ، واتخذ مدينة حلوان مقراً لحكمه ، بنى بها مقياساً صغير الأذرع ، كذلك بنى أسامة بن زيد التنوخى سنة سبع وتسعين من الهجرة (٧١٥م) فى عهد ولايته لمصر مقياساً فى جزيرة الروضة (أو جزيرة الصناعة كما كانت تسمى) وذلك بأمر سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى . ويقول صاحب صبح الأعشى : « ثم بنى المتوكل مقياساً أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة (جزيرة الروضة) فى سنة سبع وأربعين ومائتين (٨٦١م) فى ولاية يزيد بن عبد الله على مصر ، وهو المعمول به إلى زماننا هذا (القرن التاسع الهجرى) . ونضيف نحن أيضاً أن هذا المقياس هو المعمول به إلى سنتنا هذه (١٣٦٠ م) أى أن عمر هذا المقياس هذا العام ألف ومائتان وثلاث عشرة سنة هجرية .

وكان المتفق عليه فى تاريخ مصر الاسلامية أن يحتفل بوفاء النيل إذا بلغ ستة عشر أو سبعة عشر ذراعاً ، ويعتبر النيل مقصراً إذا قل عن الرقم الأول ، ويعتبر الفيضان خطراً إذا زاد عن الرقم الثانى ، وفى هذا المعنى يقول الصلاح الصفدى :

قالوا علا نيل مصر فى زيادته
حتى لقد بلغ الاهرام حين طما
فقلت هـــذا عجيب فى بلادكم
أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما !

وكانت النصارى تتولى قياس النيل منذ الفتح العربى إلى زمن المتوكل ، فعزلهم واختار له رجلا مسلماً صالحاً يسمى عبد الله بن عبد السلام بن أبى الرداد المؤدب ، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر ، وبقيت هذه الوظيفة فى نسل هذا الرجل حتى القرن التاسع الهجرى ، كما يقرر ذلك السيوطى فى حسن المحاضرة ، والمقريزى فى الخطط ، والقلقشندى فى صبح الأعشى .

وكان النيل إذا بلغ ستة عشر ذراعاً (وهو المعبر عنه بماء السلطان) كسر خليج القاهرة . ولكسر الخليج كما يقول المقريزى : « يوم ممدود ومقام مشهود ومجتمع خاص بحضره العام والخاص » ، ويقول عنه القلقشندى هو : « يوم مشهود وموسم ممدود ليس له نظير فى الدنيا ، وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطاب المملكة ، وتسير بها البُرُد » . ويقول السيوطى : « جرت العادة كل سنة إذا وفى النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئن قلوب العباد ، وهذه عادة قديمة ، ولم يزل كتاب الانشاء ينشئون فى ذلك الرسائل البليغة ... » ويورد السيوطى بعد ذلك أربع رسالات فى هذا المعنى : إحداها من إنشاء القاضى الفاضل ، والثانية من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، والثالثة كتبها الصلاح الصفدى ، والرابعة كتبها الأديب تقى الدين أبو بكر ابن حجة .

مقاييس الوفاء : حافظ المصريون بعد إسلامهم على تقاليدهم القديمة ، فعنوا بمقاييس النيل والاحتفال بوفائه ، وإن كانوا قد أدخلوا على هذا الاحتفال بعض التعديل الذى يتفق والدين الجديد ، وأقدم وصف عثرت عليه لهذا الاحتفال هو لابن رسته (جغرافى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى) فى كتابه « الأعلاق النفيسة » . وهذا الوصف يبين جمال الاحتفال وبساطته فى أول العهد ، فقد كان الموكلون بقياس النيل يترقبون الزيادة إصبعاً إصبعاً ، وذراعاً ذراعاً ، فاذا وفى

ساروا في موكب جليل إلى المسجد الجامع (جامع عمرو)، يحملون الزهور والرياحين، ويقفون هناك حلقات حلقات، يهللون وفاء النيل، ويشكرون الله، ويتراشقون بالأزهار. ولا شك عندي أنهم كانوا يهللون هذا كله في أهازيج وأناشيد خاصة.

ويبدو أن المتولين أمر المقياس كانوا ينادون في الناس معلنين الزيادة إصبعاً إصبعاً، وذراعاً ذراعاً، حتى أتى المعز لدين الله الفاطمي، فمنع من النداء بزيادة النيل، وأن لا يكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر، فإذا بلغت الزيادة ستة عشر ذراعا أباح النداء، وكسر الخليج، ويقول المقريزي في الخطط معلقا على هذا التعديل: «فتأمل ما أبدع هذه السياسة، فإن الناس دائما إذا توقف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلا، يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل، فيقبضون أيديهم على الغلال، ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر، ويجتهد من عنده مال في خزن الغلة، إما لطلب السعر، أو لطلب ادخار قوت عياله، فيحدث بهذا الغلاء، فإن زاد الماء انحل السعر، وإلا كان الجدب والقحط، ففي كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة».

وكانت الحفلات التي تقام، والمهرجانات التي تعقد ابتهاجا وسرورا بوفاء النيل في عهد الفاطميين بالغة الحد الأقصى من الجمال والبهجة والروعة والأناقة، وأهم هذه المواكب موكبان: أحدهما لتخليق المقياس عند وفاء النيل، والثاني لكسر الخليج، وبينهما ٣ أو ٤ أيام، وكانت الدولة كلها، خليفتها ووزراؤها وقضاتها وقوادها وفقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها وفنانوها وموسيقيوها وشعبها أخيراً، كان هؤلاء جميعا يشتركون في هذه المواكب الحافلة، فلا غرو إذاً أن قامت للآداب والفنون دولة عظيمة الشأن في هذا العصر، ولا غرو إذاً أن سعد الشعب المصري ونعم، وأحس السرور يفيض في جنبات حياته تحت حكم الفاطميين.

وفي كتب المؤرخين صور واضحة لهذه المواكب نحاول هنا نقل صورة لها بجمالها وروعتها:

موكب التخليق: كان الموكلون بالمقياس يرفعون إلى ديوان الإنشاء كل يوم رقعة بها مقدار الزيادة، فلا يطلع عليها إلا الخليفة والوزير، فإذا بلغت الزيادة ستة عشر ذراعاً أمر بأن يبيت في جامع المقياس ليلة الوفاء قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر لختم القرآن الكريم، وتمد لهم الأسمطة وتوقد الشموع الكثيرة؛ وفي الصباح يلبس الخليفة الحلل الفاخرة والتاج الذي فيه اليتيمة، ويخرج من القصر في موكب زاخر، وفي ركابه الوزير والأمراء والجند، فيشق القاهرة ويمر من باب زويلة إلى الصليبة، ثم يعرج على جامع ابن طولون، إلى أن ينتهي به السير إلى دار الصناعة، ويشق الفسطاط حتى يصل إلى شاطئ النيل، وتكون سفينته الخاصة (الحراقة) معدة في النيل «وقد حمل إليها من القصر بيت مثمن من العاج والأبنوس، كل جانب منه ثلاثة أذرع، وطوله قامة رجل تام، فيركب في السفينة وعليه قبة من خشب محكم الصنعة، وهو وقبته ملبس صفائح الفضة الذهبية ...»، ثم يخرج الخليفة ومعه الوزير وبعض خاصته إلى هذه السفينة، ويجلسون في هذا البيت المثمن، وتسير بهم إلى المقياس فينزلون ويدخلون إلى الفسقية التي فيها المقياس، ويصلي كل منهم ركعتين وحده، ثم يتناول الخليفة إناءً بيده ويذيب فيه الزعفران، ويتناوله صاحب بيت المال فيعطيه لابن أبي الرداد متولي المقياس، فيلقي هذا بنفسه وهو بثيابه في الفسقية، ويمسك بالعمود برجليه وبيده اليسرى ويخلق المقياس بيده اليمنى، وبعد التخليق يعود الخليفة إلى حراقته التي تقله إلى البر حيث يعود إلى القاهرة «ويكون في البحر ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونة بالناس للتفرج وإظهار الفرح ...».

موكب كسر الخليج : وبعد ٣ أو ٤ أيام تقام في بيت المال موائد من « التماثيل المختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزرازيف وغيرها ، منها ما هو ملبس بالعنبر ، ومنها ما هو ملبس بالصندل . . مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب ، وكذلك تعمل أشكال التفاح والأترج وغير ذلك . . » وتخرج خيمة الخليفة الكبيرة فتنصب على البر الشرقي للخليج عند منظرة السكرة ، وتنصب بجوارها خيام أخرى للأمراء والخاصة حسب مراتبهم .

وفي الصباح يلبس الخليفة ثوباً يسمى البدنة ، وهو حرير مرقوم بذهب لا يلبسه غير ذلك اليوم ، ويخرج في مثل موكبه السابق في أجمل هيئة وأكمل أبهة ؛ ويسير الخليفة في موكبه من القصر وحوله الوزير والأستاذون المحنكون في الطريق السالف الذكر إلى أن يصل جامع ابن طولون ، حيث يجد قاضي القضاة والشهود في انتظاره على بابه ، فيسلم عليهم ، وينضمون إلى موكبه الذي يستأنف السير إلى أن يصل إلى الخيمة ، فيترجلون ويجلسون على نظام خاص مقرر ؛ وقراء الحضرة هناك يتلون القرآن الكريم لمدة ساعة ؛ فاذا انتهوا استأذن صاحب الباب للشعراء ، فيدخلون حسب مراتبهم ، وينشد كل واحد فيما يناسب الحفل ، والحضور ينتقدون ما يسمعون ، فيقرظون شعر البعض ، ويجرحون شعر البعض الآخر . وفي المقريزي (الخطط ج ٢ ص ٣٦٥ ، طبعة النيل) صورة طريفة لهذا المهرجان الأدبي وآراء الحاضرين في نقد ما قيل فيه من شعر .

وبعد ، فهذه هي مواكب الفاطميين ومهرجاناتهم للاحتفال بوفاء النيل ، وتخليق المقياس ، وكسر الخليج ؛ سار على نهجهم فيها الأيوبيون من بعدهم ، ثم أتى المماليك فزادوها بهاءً فوق بهاء ، وأبهة فوق أبهة ، حتى غدت أروع وأجمل وآنق من احتفالات سابقيهم من الملوك ؛

جمال الدين الشيال

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

. . .

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

٢- تلميذ تارتيني Tartini

للكاتب الألماني أ. ت. أ. هوفمان

خلاصة ما تقدم:

[البارون فون ب . شخصية شهيرة في المجتمع البرليني، وحجة في فن الموسيقى، وعلامة معترف به. كان يجري في داره حفلات موسيقية يحضرها ملك روسيا بشخصه حيناً بعد حين. وكان كاتب القصة يعمل في جوقة من الفنانين المعروفين برياسة الأستاذ «هاك» فتاقه ما سمعه عن البارون، فرجا أستاذه أن يستصحبه مرة إليه، فاصطحبه في ذات مساء مع بقية أفراد الجوقة. وكان البارون يحنو على الموسيقيين، ويمدهم بإرشاده. لكنه لم يكن يعترف لهم بفضل، ولا لآلاتهم بقيمة. فكمانه «الجرانيلو» هي في نظره كل شيء، وما عداها آلات مزيفة حقيرة مقعقعة مزعجة!! ولكمان البارون قوس يضن بها البارون كل مضنة. وكانت في شدة تقوسها يخيل للرائي أنها أقرب إلى رمي السهام منها إلى إحداث الأنغام. ويفعل كاتب القصة ما يطيقه أساتذة الجوقة من البارون من لاذع النقد وتسفيه العزف، وكلهم رجل معروف، لا نكرة ولا مغمور. وأخيراً:]

جاء دوري، فوضع لي «هاك» بضعة تقاسيم لأعزفها.

فجلس البارون ملاصقاً لي، وجعل ينظر في المجسدة (النوتة)، ولمن شاء أن يتصور بأي ضيق بدأت العزف، وهذا النقادة القاسي إلى جانبي، لكني ما لبثت أن وصلت في حركة بارعة في الألجرو Allegro . فنسيت البارون وانطلقت أعزف بكل قواي لا يضايقني شيء.

ولما انتهيت ربت البارون على كتفي وقال مبتسماً: تستطيع أن تستمر على الكمان يا بني. لكني أراك لا تفهم بعدُ شيئاً في تحريك القوس وأداء الألحان على الوجه الأمثل. إنه لينقصك المعلم الماهر.

وقمنا إلى المائدة، وكان الطعام معداً في غرفة أخرى، فتناول منه الأساتذة هنيئاً، وشربوا من أجود الأنبذة مريئاً، وكانت في الحق وليمة فاخرة. وقد كان الحديث يدور حول الموسيقى وحدها، وكان الانهماك فيه يتزايد، والبارون يفيض على الأسماع كنز معلوماته الغزيرة. وكان حكمه شديداً سديداً، لاينم عن سعة اطلاعه فحسب، بل يكشف كذلك في صاحبه عن الفنان الكامل اللبيب ذي الذوق. وقد استرعى انتباهي على الأخص قاعة العازفين على الكمان الذين كان يصورهم لنا واحداً واحداً.

وجاء ذكر جارديني Giardini في القاعة، فقال البارون:

«سامحه الله وأنجاه من عقاب الآخرة. فقد كان هو أول من أكل التفاحة من شجرة المعرفة، فجعل من كل العازفين بعده خطاة. إنه أول من حلق ودار كاللولب. لقد صب همه على اليد اليسرى وعلى أصابعه الوثابة، لا يعلم أن روح الأنغام إنما هي في اليد اليمنى، وأن في نبضاتها تتدفق كل الأحاسيس على نحو ما تستيقظ في الصدر، وتنطلق دقات القلب. إني لأتمنى لكل لولبي كهذا فناناً شجاعاً كجوميلي Gomelli يكون إلى جانبه ليصفعه الصفعة الواجبة ويوقظه من جنونه، كما فعل جوميلي مرة مع جارديني حين أفسد في حضرته لحناً مجيداً بقفزاته وعدواته وهزاته وتهريجاته. إني أقول لكم أيها السادة إن فن الكمان الحقيقي سيموت بموتنا أنا وجارديني ...

قال البارون: وجارنوفتشي Giarnovichi يهزء بتارتيني أستاذ الأساتذة ويترفع عن دروسي. على أن الذي يهمني هو مصير القلام «روده» إنه يستمتع بهذه الدروس وإنه ليرجى منه. وليس ببعيد أن يخرق العزف بقوسي في مقتبل الأيام.

إنه (وهنا التفت البارون إلي) في مثل عمرك يا بني، لكنه أكثر منك جداً وأعمق نفساً؛ فأنت — ولا تؤاخذني عما أقول — شاب أرعن فيما يبدو لي. لكن هذا يزول. أما أنت يا عزيزي هاك فأؤمل فيك الكثير؛ فقد زودتك بدروسي وأنت تحول شخصاً آخر؛ فامض في جدك واجتهادك اللذين لاعذر كهذا كلال، ولا يفتنك درس من دروسي.

كان هذا الذى سمعت عجيباً أذهلنى ، فلم أك أتوقع فى حياتى أن أسأل أستاذى : أحقاً أن البارون يعلم أمهر العازفين على الكمان فى عصره وأنه يدرس له هو ، للأستاذ؟

وقد أجابنى هالك بأنه لايفوته حقا أن ينتفع بدروس البارون ، وأنى أحسن صنعاً لو رجوته فى صباح يوم سعيد أن يولينى شرف هذه الدروس .

وحين عمدت إلى استفسار أستاذى عن مواهب البارون الفنية لم يرد الدخول معى فى تفاصيل ؛ بل كرّر علىّ أن أفعل ماياًمرنى به البارون . أما الباقى فسوف أخبُره بنفسى فى حينه .

وابتسم ابتسامة خفية تهلل بها وجهه فأثار بذلك فضولى إلى أقصى حد .

وعرضت رغبتى على البارون فى خضوع ، وأ كدت له أن عمتى تتب بى وثباً ، وأن حماسى لفنى لا يعرف حداً ، فتأملنى ذاهلا ، ثم لم تلبث نظرته الجدية أن اكتسبت طيبة الأخيار ، فقال : يابنى ! إن توجهك إلىّ ، إلى عازف الكمان الوحيد الذى لا يزال يجود به الدهر ، لدليل على مايحركك من باعث صميم لا يكون إلا فى الفنان ، وشاهد على أن المثل الأعلى الذى ينشده العازفون الحقيقيون قد بزغ فى نفسك ؛ لكم وددت يا بنى أن أسعفك ، ولكن أين الوقت ؟ أين الوقت ؛ فهناك يشغلنى ، وذلك الفتى دوران يريد أن يعزف أمام الجمهور ، فلا معدى له عن دروسى . ولكن ! — انتظر ، انتظر — بين الإفطار والغداء ، أو فى أثناء الافطار — ولكن لا ، فمندى ساعة أستطيع أن أهبك إياها . تعال يا بنى فى الساعة الثانية عشرة تماما من كل يوم ، فأعزف معك إلى الساعة الواحدة ، إذ يأتى دوران .

ولكم أن تتصوروتى آتياً إلى البارون فى الساعة الثانية عشرة تماماً وقلبى يدق .

وتناولت كمانى ، وكنت قد أحضرتها معى ، فلم يطق البارون أن أمرّ القوس على أوتارها بنغمة واحدة ، بل دفع إلىّ بآلة عتيقة من طراز « أنطونيو أماتى » ولم يكن لى بمثلها عهد . على أنى لم ألبث أن عشّقت النغم السماوى الذى كان يتفجر من أوتارها ، فغرقت فى تقاسيم عامرة بالفن ، وتركت تيار النغم يزخر تارة ويهبط أخرى ، يزخر فى موجات هدّارة ، ثم يهبط فى خرير خافت ؛ وأعتقد أنى أجدت العزف ، وكنت فيه موفقا كل التوفيق ، لكن البارون كان يهز رأسه برماً به . فلما أمسكت أخيرا قال : يا بنى ! يجب أن تنسى هذا كله . فإنك أولاً لا تجيد إمساك القوس بحال من الأحوال . وأرانى عملياً كيف يمسك بالقوس على طريقة تارتينى ، فما شككت فى أنى لن أخرج بهذه الطريقة نغمة تذكر . لكنه ما كان أشد عجبى حين استبنت فى بضع ثوان مزية الأخذ برأى البارون .

وقال البارون : لنبدأ الدرس إذاً ! اعزف حرف . . ومد النغمة ما أمكن ، واقصد فى استخدام القوس ! اقصد فى استخدام القوس ! فالقوس لعازف الكمان كالنفس المغنى .

ففعلت كما أمرنى ، وسرنى أن وفقت إلى مد النغمة بقوة ، والصعود بها من البيانيسيمو Pianissimo إلى الفورتيسيمو Fortissimo ، ثم الهبوط بها إلى حيث كانت بسحبة طويلة من القوس . فصاح البارون : أرأيت يا بنى ؟ أرأيت ؟ لقد وسعك أن تؤدى تقاسيم جميلة . ويسعك أيضاً أن تعدو ، وتقفز ، وتهتز وتأتى بتلك الزوقات الحديثة المنطوية على البلاهة . لكنك لا تستطيع أن ترسل النغمة إرسالاً . سأريك الآن معنى إرسال النغمة على الكمان . وتناول منى الكمان ، ووضع القوس عند رأسها — رأس القوس — ولكن ما هذا ؟ إنه ليعيينى الكلام أعبر به عما حدث !

لقد دفع البارون القوس المرتعشة فى ملاصقة « المشط » إلى أعلى ، فإذا هى تتقعقع ، وتصفر ، وتوقوق ، وتموء —

فكأنها عجوز تضع النظار على أنفها وتجهد نفسها فى أداء لحن لأغنية .

والبارون فى هذا يرنو بعينيه إلى السماء مغتبطاً . فلما كف آخر الأمر من تحريك القوس صاعداً فوق الأوتار هابطاً ، ونحى الآلة مكانها كانت عيناه تشعان ، وكان يقول فى تأثر عميق : « هذا هو النغم ! هذا هو النغم لا سواه ! »

وغالبنى الضحك فغلبته من هيبة البارون المتهلل الوجه من فرط الحماس ، وأحسست كما لو كنت فى جو مسحور ، فضاق صدرى وأعوز لسانى النطق .

وهتك البارون حجاب الصمت بقوله : « أليس كذلك يا بنى ؟ لقد هزك عزفى فى الصميم ! أكنت تتصور أن تنبعث هذه القوة الساحرة من هذا الشىء الضئيل بأوتاره الضعيفة الأربعة ؟ اشرب يا بنى ، اشرب ! »

وملأ لى البارون كأساً من « الندرا » ، وكان لابد أن أشرب ، وأن أتناول من الخبز الذى كان على المائدة . . . فى تلك اللحظة دقت الساعة الواحدة ، فصاح البارون : حسبنا هذا اليوم ، انصرف يا بنى وعد إلى قريباً . ودونك هذا ! خذ !

ودس لى البارون ورقة صغيرة وجدت فيها « دوكاتا » هولندياً لامعاً لم تبر حافته .

فجريت إلى أستاذى مرتبكاً ، وقصصت عليه ماحدث ، فقهقه عالياً وصاح : أرأيت الآن من أمر البارون ودروسه ما كنت تجهل ! لقد اعتبرك مبتدئاً ، فأعطاك عن الدرس دوكاتا . وبقدر ارتفاع الأستاذية يرتفع الأجر ، فأنا آخذ لويسا (جنيهاً) ، ودوران يتناول دوكاتين .

لكنى لم أتمالك نفسى من القول : إنه من شأنهم أن يضحكوا على ذقن البارون على هذا المنوال . وأن يبتزوا دوكاته بهذه الطريقة .

فرد الأستاذ على بقوله : يجب أن تعلم أن غناء البارون كل الغناء ، هو فى أن يعطى دروساً على هذا النحو الذى اطلعت عليه . أفتريد البارون أن يسمّع بنا فى المحافل بأسرها وهو فيها الفيصل والحكم والمرجع المختص بالفن ، ويجرحنا إذا نحن توقفنا عن مثل هذه الدروس ، فيقول عنى وعن الأساتذة إننا أدعياء جهلة ترثى لحالنا ؟ والبارون بغض النظر عن لوثته هذه ، رجل يستنير حتى الأساتذة بحكمه ، ويسترشدون بمعرفته الفنية ، ويفيدون منه فائدة جمة . زره ، ولا تنى عن زيارته ، ولا تصغ إلى لوثة الجنون فيه ، بل استمع إلى المعقول من كلام رجل حذق الفن بحواسه وإن جهله بيده .

فكنت بعد ذلك إذا أفرغت قصاراى فى حفلة من حفلات البارون ، ووفقت إلى أداء هذا أو ذاك أداءً حسناً ، أدار البارون بصره فى الحاضرين مبتسماً مزهواً وقال : الفضل فيما أجاد الفتى لى أنا ، أنا تلميذ تارتينى .

وهكذا أفدت من دروسه نفعاً ومسرة ، واكتفيت إلى ذلك بدوكاته الهولندية .

محمود الدسوقى

الإذاعة المدرسية (١)

أتيحت لى الفرصة أثناء دراستى بلندن أن أدرس تنظيم الاذاعة المدرسية الانجليزية وسياستها . ولقد كان المدرسون الذين اتصلت بهم فريقين من حيث الاذاعة : فريق المتشائمين وفريق المتفائلين .

فأما الفريق الأول فكان يرى أن التلاميذ لا يصلحون مطلقاً لنظام المحاضرات ، إذ من الواجب أن يعمل التلميذ بنفسه تحت إشراف مدرسه ومراقبته ومساعدته وتشجيعه . وإن من أخطر ما يعاب على طريقة الاذاعة اللاسلكية فى التعليم أنها تقوم على عدم اتصال المذيع بالتلاميذ اتصالا شخصياً ، وعدم وجود الفرصة للرد على ما يوجهونه من الأسئلة فى أثناء إصغائهم ، مما يثير فى نفوسهم الملل ويبعث فيهم الكراهية والبغضاء .

وأما فريق المتفائلين فقد ذهب إلى أن روح الديمقراطية قد هبطت إلى التعليم عن طريق المذياع ، فنداؤه يشمل الصغير والكبير ، والعظيم والحقير ، وهو لا يتحيز لثقافة دون ثقافة ، ولا لجماعة دون جماعة ، ولا لرأى من الآراء الاجتماعية أو السياسية أو الدينية دون رأى آخر ؛ بل عليه أن يسوى بين الجميع ، وأن يرمى إلى هدف واحد ، هو تعليم الشعب كله على اختلاف طبقاته وألوانه .

غير أنى — بصرف النظر عن آراء الفريقين — كنت شديد الحرص على أن أرى بنفسى مدى نجاح المذياع فى الفصل ، وكنت أول أمرى أميل إلى الشك ، ثم سرعان ما بدأت شكوكى تزول على أثر استماعى للاذاعة المدرسية عدة مرات ، وآمنت منذ ذلك الحين بنجاح دروس الاذاعة ، فقد رأيت بنفسى تلبية الأطفال لما يستمعون إليه من كلمات المذياع ؛ ثم إن الاذاعة الموسيقية والحركات التوقيعية والتمثيل التاريخى والأحاديث الشائقة ، كالحديث عن فيضان نهر بالصين أو إلقاء روايات من أشهر الممثلين البارعين ، كل ذلك كان من الأمثلة لنوع الاذاعات التى تؤدى إلى نجاح الاذاعة المدرسية واستهواء التلاميذ لسماعها وانتظارها بفارغ الصبر .

هذا وقد بلغ من حسن استماع الأطفال أو التلاميذ لتلك الكلمات أنه كان يحدث أحياناً أن يلقى المذيع سؤالا ما ، فسرعان ما يجيبه التلاميذ فى فصولهم : « نعم ياسيدى هو ذاك » أو : « لا ياسيدى ليس الأمر كذلك » .

أهمية الاذاعة المدرسية :

والحق أنه لم يكن من الخير أن تجمد طرق التربية والتعليم ، وألا ينالها التغيير ، بل كان لابد لها من أن تخضع للتطور ، ذلك التطور الذى خضعت له الحياة بأسرها . فالمدرسة اليوم تتراجع حواجزها إلى الوراء ، وبهذا التراجع تزداد مسئولية المدرس . ولما كان واجب المدرس هو إعداد تلاميذ اليوم للحياة فى المستقبل ، كان من أوجب الواجبات أن تكون المدرسة جزءاً من الحياة ، وكان لزاماً على المدرس ألا يقنع بأن يدرس لتلاميذه المواد التقليدية فقط ، بل كان عليه أن يعمل على ربط ما يدرسه فى الفصل بما يقابله فى الحياة الاجتماعية .

والاذاعة المدرسية لا يمكن أن تحدث ثورة فى عالم التربية ، ولكنها تساعد على سرعة التطور والتقدم . والمدرس الذى يلجأ إليها ويستخدمها لأغراضه التربوية فى المدرسة هو فى الواقع دائب على أن يستغل داخل جدران المدرسة خبرة التلاميذ أو الأطفال التى يكتسبونها خارج المدرسة ؛ وهو فى الواقع يعمل على ربط المواد المدرسية بالحياة الخارجية ، أى أنه يعمل على تقوية الروح

(١) ملخص محاضرة ألقاها الأستاذ على أعضاء رابطة التربية الحديثة

الاجتماعية في الأطفال ، ويصل بينهم وبين العالم الخارجي ؛ وبذلك تكون الاذاعة المدرسية وسيلة ناجحة من وسائل التربية الاجتماعية التي ننشدها في الوقت الحاضر . والواقع أننا نرى للاذاعة المدرسية طائفة كبيرة من المزايا التي قل أن تتيسر في غيرها من الطرق نستطيع أن نلخصها فيما يأتي :

أولا — أن الاذاعة المدرسية عامل من عوامل توسيع الأفق العقلي للتلاميذ أو الأطفال .

فنحن لا ننتظر من دروس الاذاعة أن تكون دروساً شكلية خاصة ، ولكننا نستعين بها على توضيح الحقائق العلمية التي يتلقاها التلاميذ بالمدارس وأن تكسو الاذاعة عظام هذه الحقائق لحماً وتجرى في عروقها دماً .

ثانيا — ثم إن الاذاعة المدرسية تعمل على خلق عادات التركيز العقلي والتمييز والتفكير الاختياري ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنها تساعد على وضع أسس حسن الاستماع أو الاصغاء الناجح في حياة الرجولة المستقبلة .

ثالثا — أن من مزايا هـذه الاذاعة أن دروسها قد تهيئ الفرصة لتلاميذ المدارس ومدرسيها كي يستفيدوا من خبرة الأكفاء ، ومن معلومات الاخصائيين الغزيرة ؛ فالاذاعة تقرب إلى أبواب المدرسة كل إخصائي في علمه أو في فنه ؛ وقد يعترض البعض بأن هؤلاء الاخصائيين ليسوا بمدرسين ؛ ولكن من منا ينكر مقدار الفائدة التي يستفيدها كل مستمع إليهم ، لاسيما إذا كان المذيع قادراً على أن يبث في مادته الجديدة الحيوية ؟

رابعاً — أن الإذاعة المدرسية تدرب الطفل على حسن استخدام أوقات الفراغ ؛ وإعداد الطفل لاستغلال أوقات الفراغ لا تقل أهميتـه عن إعداده لوقت العمل . فالطفل في مستقبل حياته معرض لأن يقضي ساعات طويلة مستمعا للمذياع ، والاذاعة المدرسية هي الفرصة الذهبية التي تهيئها المدرسة لتدريب التلاميذ على حسن الاختيار وعلى حسن الاستماع .

خامساً — ثم إن الاذاعة المدرسية تساعد المدرس المجتهد بما تمده به من مادة جديدة ووجهات نظر جديدة ، وطرق مختلفة للتدريس وتناول الموضوعات ، وهي تبعث في المدرسة من روح الحياة بما تدخل في الدرس من وسائل إيضاح لا تتيسر للمدرس في الفصل ، كأن يستمع الطفل عن طريق المذياع إلى صوت اندفاع الماء فوق شلالات نياجرا ، وإلى أحاديث الملوك والعظماء في مواقفهم الخاصة ، وكأن يصغى إلى أمثال «فراداى» وهم يتحدثون من الكهرباء ، أو يصغى إلى وصف السياح الباكر في قرية متمدنة أو لنزهة ريفية . وفي التاريخ والجغرافيا وعلوم الاجتماع وغيرها يستطيع المذياع في المدرسة أن يمثل لنا أعظم المشاكل العلمية مبسطة لو أذاعها البارزون فيها .

سادساً — لا يمكن أن ننكر فضل الاذاعة المدرسية على المدارس النائية في أطراف القطر وجهاته البعيدة ؛ فبها يستطيع تلاميذ القرى أن يستمعوا إلى هذه الدروس ، وأن يتساووا فيها مع تلاميذ مدارس العاصمة ونحوها ؛ وأطفال القرى والأطراف النائية بحكم عزلتهم قد فقدوا الكثير من المزايا التي يتمتع بها زملاؤهم في مدارس المدن ، ففقدوا معرفة حوادث الحياة اليومية ومشهورات قلب المدينة ؛ والإذاعة تعوضهم عن ذلك ، فهي تهيئ للمدرسة الريفيـة فرصة إيجاد أفكار جديدة تدور عليها جهود المدرس وأحاديثه مع الأطفال ، كما أنها تمد تلاميذ الريف بأصوات جديدة يسمع إليها .

وأخيرا بعد هذا وذاك تتيح الإذاعة المدرسية للتلاميذ أحسن الفرص للاستماع إلى بلغاء الذيعين وفصحائهم ، بحيث إذا ألفوا سماع هؤلاء الفصحاء ، واعتادوا الاصغاء إلى طريقة نطقهم ، فانهم لا يلبثون أن يشعروا بميل

عظيم فى نفوسهم إلى تقليد هؤلاء المذيعين الفصحاء وإلى محاكاتهم فى طريقة نطق الكلمات ؛ ولا شك أن هذه من أنجح الطرق لتحسين نطق الأطفال ، وتحبيبهم فى اللغة القومية فى أعلى مراتبها ، وهى عندنا اللغة العربية الصحيحة لغة البلاد ولغة القرآن .

والخلاصة أنه إذا نجحت الاذاعة المدرسية أحدثت تغييراً ظاهراً فى الاتجاهات العقلية للتلاميذ ، وأحدثت تغييراً ملموساً فى العادات وفى الميول وفى أنواع المهارات المختلفة التى يقوم بها الأطفال فى أوقات عملهم وفى أوقات فراغهم .

ماذا يذاع :

والآن نتساءل عن الأساس الذى يمكن أن نتخذه لتنظيم الاذاعة المدرسية ؟ الواقع أنه من الصعب أن نحدد أساساً خاصا للاذاعة ، فنحن لا زلنا فى طور المحاولة والخطأ والاصلاح وإعادة التنظيم . على أنه يمكن أن نلخص نوعين من أنواع التنظيم شائعين فى معظم البلاد الغربية . فموضوعات الاذاعة إما أن تدور حول محور مركزى ، أو تدور حول المواد المختلفة .

ولنبدأ بالمحور المركزى : استخدم هذا التنظيم فى نيوزيلندا حيث أجرت إحدى المدارس تجربة فى الاذاعة ، متخذة موضوعاً رئيسياً كمحور تدور حوله الموضوعات المذاعة طيلة العام الدراسى ، وكان أحد تلك الموضوعات المختارة هو « قصة بلادنا » .

إذا اتخذنا مثل هذا الموضوع محوراً للدراسة ، فاننا نأخذ من كل نبع قطرة ، وتشمل أحاديثنا موضوعات فى التاريخ الاجتماعى والجغرافيا والعلوم والتاريخ الطبيعى ، لا كموضوعات دراسية منفصلة بعضها عن بعض ، بل كموضوعات متصلة مركزة حول محور يفسر حياتنا الحالية .

لقد أثبتت التجربة نجاح مثل هذا التركيز ، إذ أنه خلق فى الذين استمعوا إليه شغفاً وحباً للسمع وتتبع الاذاعة من مرحلة إلى أخرى حتى يصل إلى نهاية القصة .

والطريقة الثانية : هى تنظيم الموضوعات حول المواد المختلفة ، فتشتمل الاذاعة على دروس فى اللغات ومختارات من الأدب القوى ، وقطع موسيقية ، وأحاديث وقصص تاريخية ، ورحلات جغرافية ، وموضوعات علمية تبسط نتائج أحدث الأبحاث . . . الخ .

أبحاث علمية على الاذاعة المدرسية :

والآن ألخص بعض نتائج الأبحاث العلمية فى موضوع الاذاعة المدرسية :

أولا — ميول الأطفال للموضوعات المذاعة : قد أجريت تجارب عدة بانجلترا وأمريكا قورنت فيها ميول الأطفال بخصوص أنواع الموضوعات المذاعة ، فكانت نتيجة البحث كالآتى :

ا — البنون : يميل البنون إلى الاستماع إلى الموضوعات الآتية ، رتبتها حسب درجة الاهتمام بها ، وهى : المتنوعات ، التعليقات ، الرياضة ، الأخبار ، الموسيقى والرقص ، التمثيل القصير ، الأحاديث .

ب — البنات : تميل البنات إلى سماع موسيقى الرقص ، فالمتنوعات ، فالقصص التمثيلية ، فالأحاديث ، فالأخبار ، فالألعاب الرياضية .

ويهتم الأطفال — بوجه عام — بالنواحى الموسيقية والمتنوعات ، وبالقطع التمثيلية القصيرة تاريخية كانت أو حيوية ، وبالموضوعات العلمية المبسطة ، وبالهوايات ، ومظاهر النشاط المنزلى .

إن العنصر الهام فى الاذاعة المدرسية هو ضرورة

العمل على إشباع الناحية الوجدانية لدى الطفل . إن مناهجنا الدراسية تئن تحت عبء سيطرة الناحية العلمية على غيرها من النواحي ؛ من هنا نرى أن الاذاعة المدرسية متممة لعمل المدرسة .

ثانياً — طبيعة المادة المذاعة : أما من حيث طبيعة المادة المذاعة ، فقد أثبتت التجارب أنه كلما كانت المادة المذاعة واضحة بسيطة سائغة منطقية الأساس ، مرتبطة حلقاتها بعضها ببعض ، كان ذلك أدعى إلى أن يحتفظ الأطفال بإنتباههم مما لو كان الموضوع المذاع مجرد حديث . وقد نصح أحد كبار رجال الاذاعة المدرسية بإنجلترا بأن تكون المادة المقدمة للطفل عن طريق المذياع مطبوعة بالعنصرين الانسانى والفردى ، لأنه إذا غلب على المادة المسامة العلمية ، وإذا ارتفع مستواها فأصبحت معنوية ، فشلت فى جذب انتباه الأطفال .

زد على ذلك أنه وجد أن المادة التى تثير فى التلميذ الخيال البصرى يميل إليها الأطفال ، وكثيراً ما يتذكرونها .

ثالثاً — خطة السير فى دروس الاذاعة : أثبتت تجارب شوتل ضرورة وجود مراحل ثلاث فى دروس الاذاعة هى : (١) مرحلة الاعداد أو المقدمة ؛ فينبغى أن يصرف المدرس قبل الاذاعة بضع دقائق يقدم فيها الموضوع للتلاميذ ويثير شوقهم إليه . (٢) مرحلة الاصغاء . (٣) مرحلة التعليق ، إذ يجب على المدرس بعد الانتهاء من الاذاعة أن يقوم بمناقشة التلاميذ فيما أذيع ويساعدهم على هضم المادة التى تلقوها ، ويوجههم إلى وضع النقط التى علقت بأذهانهم فى عبارات من تركيبهم .

وقد أثبتت تجاربه أيضاً أن أخذ مذكرات أثناء المحاضرة المذاعة ليس من الفائدة بمكان عظيم ؛ وقد ندهش إذا علمنا أن التجربة أثبتت أن من يستمع فقط ولا يأخذ مذكرات لما يستمع إليه يستفيد أكثر من الذى يدون ما يسمع .

كذلك ثبت أن وسائل الايضاح والكراسات المطبوعة (ملازم الاذاعة) شىء حيوى جداً ، ويجب أن تستغل إلى أبعد حد .

ويجب أن تكون تعليمات المذيع الخاصة باستخدام وسائل الايضاح واضحة وبسيطة ، ويجب أن يعطى التلاميذ فرصة التنفيذ إذا ما طلب منهم القيام بشىء فى أثناء الاذاعة .

وثبت أن دروس الاذاعة العلمية مفيدة للأطفال الأقل من المستوى العادى فى ذكائهم ، كما هى مفيدة للأطفال العاديين . وهذه الدروس تثير فى أغبياء التلاميذ ميلا نحو النواحى العملية للعمل المدرسى قلما تثيره أى ظروف أخرى .

أما فترة الاذاعة المدرسية المناسبة لأطفال تتراوح سنهم بين ١١ سنة و١٦ سنة فيجب ألا تزيد على عشرين دقيقة .

(البقية) صالح عبد العزيز شحاتة
المدرس بمعهد التربية

إعلان بيع

إنه فى يوم السبت ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤١ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بناحية المنصورية بجمع الفيران وفى يوم الخميس ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤١ بسوق كوم امبو إذا لزم الحال سيباع علناً الأشياء الموضحة بمحضر الحجز ملك خليفة ابراهيم النجار نفاذاً لحكم القضية المدنية رقم ١١٢٧ سنة ١٩٤١ كوم امبو وفاء لمبلغ ٢ جنيه و ٤٩٠ مليم قيمة المحكوم به والمصاريف لطلب الحاج عبد الله حامد الفارس التاجر بكوم امبو

فنى رافب الصراف المحضور

سـلامة القَسّ

للأستاذ علي أحمد باكثير

[كان عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار شابا تقياً طاهراً عفيفاً . وفي يوم من الأيام رأى في المنام أنه دخل الجنة ، وأوشك أن يخرج منها إجابة لاقراء امرأة ذات صوت جميل ، ولقد قص عبد الرحمن هذا الحلم الذي أزعجه على صديقه أبي الوفاء ، فهمأ من روعه . وإنه لمنصرف إلى داره إذ سمع صوتاً جميلا يغني شعرا هو صوت سلامة جارية ابن سهيل التي اشتراها من أبي الوفاء ، فتبين مصدر الصوت فإذا به دار ابن سهيل . وفيما هو يمر بالدار بعد ذلك بأيام سمع نفس الصوت ثانيا ، ولمحه ابن سهيل فنزل إليه ودعاه ملحا في زيارته . وبعد رفض وتمنع دخل عبد الرحمن إلى الدار وأكرم ابن سهيل وفادته وأمر جاريته بالغناء فغنت ، ثم دعاها أن تدخل على عبد الرحمن فما رآها عبد الرحمن حتى راعه جمالها ، وأحبها ، ونقل بعض الناس نبأ ذلك إلى أبي الوفاء فآلمه ذلك وأحزنه . ولكن عبد الرحمن كشف له عن دخيلة نفسه ، وأنه يحب هذه الجارية أصدق الحب ، وأنها تبادله عاطفته . ولقد عرف ابن سهيل أمر هذا الحب ، فحاول أن يهب سلامة لعبد الرحمن ، ولكنه رفض ذلك ومضى يشتغل بالتجارة ، وقد عزم على أمر أخفاه عن الناس . وبينا ابن سهيل وعبد الرحمن وسلامة يتسامرون ذات يوم بدار الأول ، إذ أقبل رسول يطلب ابن سهيل للقاء صاحبه لدى القاضي ، فاستأذن من عبد الرحمن وسلامة ، وتركهما يتطارحان الهوى] .

فقامت سلامة ودنت منه ، وأخذت بيده قائلة :

— إذاً فما يمنعك ؟ فوالله إن الوضع لخال .

فذهل عبد الرحمن ، وخيل إليه أنه يرى طيفاً في حلم ، وبقي صامتاً يدير طرفه في أنحاء الشرية !

فقالت سلامة : ليس عندنا من أحد غيري وغيرك !

فانتفض عبدالرحمن فجأة ، ونظر إليها نظرة هائلة وقال :

— أنسيتِ الله يا سلامة ؟

فاضطربت سلامة ، ورفعت يدها من يده ، وكأن ناراً لذعتها ، فتراجعت إلى الوراء وعيناها الزائغتان لا تفارقانه ، كأنما ترى أمامها هولاً تتقيه .

واستمر عبد الرحمن يقول :

— لا يا حبيبتي لا . . . إني أحبك يا سلامة ، وإني قرأت قول الله عز وجل : « الأخلاءُ يومئذ بعضهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين » ، وأنا أكره أن تصير الخلة التي بيننا عداوةً يوم القيامة !

وغامت عيناه بالدموع ، وعادت سلامة إلى مقعدها ، ومالت بوجهها على المتكأ وطفقت تبكي ، ثم رفعت رأسها وقالت والدموع تتساقط على خديها :

— معذرةً يا عبد الرحمن ، عسى أن لا تكون ساخطاً عليّ .

فقال عبد الرحمن بصوت يخنقه البكاء :

— كلا والله يا حبيبتي ، أنا راضٍ عنك . . . ولكن اصبري حتى يجعل الله لنا مخرجاً .

فصمتت سلامة هنيهة ثم قالت :

— وكيف المخرج يا عبد الرحمن ؟

فقال لها : لا أدري والله يا سلامة !

فعادت إلى صمتها ثم قالت :

— ولكني أدري يا عبد الرحمن . . . ألا تستوهبني من مولاي ابن سهيل ، فإنه والله ليحبك ، وإنه لكريم ، وما أحسبه يضن بي عليك .

قال عبد الرحمن :

— صدقت يا سلامة . لقد فعل ابن سهيل ذلك . . . لقد عرض عليّ منذ أيام أن يهبك لي .

فبادرته سلامة قائلة :

— أحقاً فعل ذلك يا ابن أبي عمـار ؟

فقال لها :

— إيْ والله ، لقد فعل . . . ولكنني لم أقبل .

فقالت بلهجة العـاتب :

— ولماذا لم تقبل ؟

— لأني لم أشأ أن أرزأ هذا الرجل الكريم في ماله ، فقد بلغني أنه في ضيق ، وأن قد ركبته ديون كبيرة .

— وكيف علمت ذلك يا عبد الرحمن ؟

— سمعت الناس يتحدثون بذلك يا سلامة :

فتنهدت سلامة وقالت :

— أجل ، هذا حق . . . مسكين مولاى ، لقد جنى جوده وإسرافه عليه !

فقال عبد الرحمن :

— أشهد إنه لجواد كريم . . . حتى في أيامه هذه الحرجة لم يشأ إلا أن يفتح بابه لضيوفه وزواره .

قالت سلامة :

— ولاخوانه الشعراء العابثين ، والمغنين الماجنين ، ينفق عليهم بغير حساب .

فسكت عبد الرحمن ملياً ثم قال :

— أجل ، كنت ألوم هؤلاء القوم وأحمل عليهم بقسوة حتى انتقم الله لهم مني ، فجعلني مثلهم أو قريباً منهم .

— كلا ، لست مثلهم يا ابن أبي عمار . . . إنك لا تعبث عبثهم ولا تأخذ إخذهم .

— أستغفر الله ياسلامة . . . بل لعلهم أحسن حالاً مني . . . إنهم لم يجالسوا عطاء بن أبي رباح ، ولم يتفقهوا في الدين مثلي ، ولعلهم لو علموا ما وقعوا فيما وقعت فيه .

ثم أخذ يقول :

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها

فاعجب لمـا تأتي به الأيام

فاليوم أعذرهم وأعلم أنمـا

سُبُل الغواية والهدى أقسام

وسكتت سلامة برهة ، كأنها تجيل فكرها في أمور شتى ، ثم قالت :

— قد علمت يا عبد الرحمن ما وقع فيه مولاى من الضيق ، وأنه لا محالة بائعي ، وأخشى أن لا أراك بعد ذلك ولا تراني .

فقال عبد الرحمن :

— لقد حدثتني نفسي أن أبيع مالاً لي بالوادى ، ورثته عن أبي ، فأشتريك بثمنه فأعتقك فأتزوجك . . . أترضين بهذا يا سلامة ؟

فأجابت قائلة :

— كيف لا أرضى بهذا يا عبد الرحمن وأنا راضية بما دونه ؟ يحسبي أن أكون جاريتك أقوم بخدمتك ، وأعمل على راحتك . . . . ولكن إذا بعت مالك فمن أين تعيش ؟

فابتسم عبد الرحمن وقال :

— سأخرج إلى السـوق وأشتغل عمـاراً ، وقد جربت ذلك يا سلامة فنجحت فيه .

فضحكت سلامة وقالت :

— والمسجد يا عبد الرحمن ؟

قال لها :

— للمسـجد وقت ، وللسوق وقت ، ولك أنت يا سلامة وقت . . . ولستُ بأفضل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وقد كان أولهما تاجراً وثانيهمـا دلالاً . . . وإنهما لأفضل من أبي هريرة وسائر أهل الصُّفة الذين لزموا المسجد ولم يشتغلوا بالكسب .

وارتاحت نفس سلامة لهذا القول ، وكأنما أرادت أن تستزيد منه ، فقالت :

— عجباً يا عبد الرحمن ، من أين جاءك هذا الرأى ؟ أما سمعت بهذا من قبل ؟

فقال لها :

— بلى ، قد سمعت به من قبل ، ولكننى لم أفقهه ، فلم أحفل به . . . وإنما فقهته بعد إذ عرفتك يا سلامة وفكرت فيك .

فقالت سلامة فى دلال وقد ملكها الزهو :

— إذاً فلا حق لك أن تفرق بأنى صرفتك من الخير .

فنظر إليها عبد الرحمن فى وداعة وصفاء ، وقال لها فى تؤدة وهدوء :

— إنى والله لأحار . . وإنى والله لا أدرى أشغلتنى يا سلامة من الخير أم هديتنى إليه ؟ ولله فىّ وفيك إرادةٌ هو بالغها . . . إنى ما كنت أفكر فى الزواج ، حتى عرفتك ففكرت فيه . وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « النكاح سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » ؛ وإنى كنت أتلو القرآن وأقرأ فيه آيات السماوات والأرض والنجوم ، فما أهتز لها كما أهتز لآيات الوعد والوعيد ، حتى عرفتك يا سلامة ، فصرت أخرج فى السحر وأصلى فى العراء ، لأتمتع بجمال النجوم ، وأنظر فى ملكوت الله ! وإنى كنت أرى المُجّان فأبغضهم وأقسو عليهم ، وأقول لنفسى : كيف يترك الله هؤلاء ؟ حتى عرفتك فصرت أرق لحالهم وأعطف عليهم ، وأستغفر الله لهم ، وأعلم أن لله حكمةً فيهم كما قال فى كتابه : « ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً » .

وكانت سلامة ساكتة تستمع إليه فى خشوع ، كأنها تصغى لقارئٍ يرتل آيات الله . وسكت عبد الرحمن قليلا ، ثم تنهد وقال :

— ولكن الناس يقولون ويقولون . . . يقولون فسق القَسُّ وشغفته جارية ابن سهيل حباً .

فقالت سلامة :

— دعهم يقولوا ما يشاؤون ، فوالله يا ابن أبى عمار إنك لطاهر الذيل ، شديد المخافة لله .

فقال عبد الرحمن بصوت حزين :

— أجل يا سلامة ، وهذا سر شقائى !

وصمت عبد الرحمن برهة طويلة ، ثم أخذ يحرك شفتيه كأنه يُعِدُّ حديثاً ، فقالت له سلامة :

— ماذا تجمجم يا عبد الرحمن ؟

قال : إنها أبيات هجمت على خاطرى .

قالت : أسمعنيها .

فوضع يده على جبينه ، كأنه يستعين بذلك على استرجاع شىء نسيه ، وأنشأ يقول :

هواكِ بقارع التقوى بقلبى فأشهد فيه حربهما سجالا
وهل فى الأرض أشقى من محب يذوب جوًى ولا يرجو نوالا ؟
ألا ياليت ربى إذ هدانى إلى تقواه جنبنى الضلالا !
وإلا فليرحنى من صلاحى فإنى قد لقيت به النكالا !
ستأتيني المنية حين تأتى وتُسلمنى إلى ربى تعالى
وما فى القلب يا سلامُ رجوى سواك وأن تكونى لى حلالا !

فطربت سلامة وهبت قائلة :

— قيدها . . . سآتيك بالدواة والقلم .

وناولته العود الذى فى يدها قائلة : امسك هذا .

وخرجت من المشربة منطلقة فى خفة الغزال ، فشيعها عبد الرحمن ببصره وهو يقول :

— تبارك الله أحسن الخالقين .

وأخذ ينظر إلى العود ويقلبه فى يده ويقول :

— ويل لك يا مزمار الشيطان ! لربما تهدى إلى عبادة الرحمن !

(يتبع) على أحمد باكثير

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكردانى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ١٤١ | الثلاثاء ١٧ من شعبان سنة ١٣٦٠ — ٩ من سبتمبر سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الديمقراطية الأرستقراطية

أليس عجيباً هذا الوصف ؟

إنه كما تصف الحلو بالمر ، والأبيض بالأسود ، والطويل بالقصير ، والكبير بالصغير — وإن هذا لا يجوز إلا في عرف المجانين .

ولكن تمهل قليلا ، فستعلم أن دنيا الواقع غير دنيا النظريات ، وأن مثل هذا يحدث تحت سمعنا وبصرنا وذوقنا كل يوم .

أفليس الليل الواحد طويلا قصيراً ؟ طويلا في الهجر ، قصيراً في الوصل ، طويلا في الشقاء ، قصيراً في الرخاء ؟

أوليس ألف دينار عند الغني الواسع الثراء شيئاً تافهاً حقيراً صغيراً ، وفي نظر الفقير البائس شيئاً عظيما كبيراً ؟

أولم يقل الله تعالى : « إنهم يَرَوْنَه بعيداً ونراه قريباً » ؟

أولم يقل الشاعر :

حجبتْ تحيتها فقلتُ لصاحبي

ما كان أكثرَها لنا وأقلَّها

إن أمثال ذلك كثير ، فلا عجب — إذاً — أن نرى أرستقراطية ديمقراطية ، وديمقراطية أرستقراطية .

فأما الأولى فنشاهدها كل يوم ، في الفتاة من « بنات الذوات » ، تُصوَّر في زي فلاحة ، تلبس لباسها ، وتحمل ماعونها ، وتتحلى بحُلِيِّها ، وتتظاهر بوشمها .

ونراها في السيارة الضخمة تعطب في الطريق فيجرها إلى « مقرها » حمار هزيل . ونراها في السيد العظيم والغني الكبير يتواضع فيؤاكل الفلاحين من

جيبهم وبصلهم وفولهم وعدسهم . وتراها فى الأسر العريقة فى المجد ، أو ورثة بيت الخلافة والمُلك ، يعدو عليهم الزمن الغادر فيضيع ملكهم ، ويبدد مالهم وثروتهم ، فيعيشون فى بيت صغير وباحسان قليل ، ويحتفظون بحسن مظاهرهم ولامع طلائهم ، وتراها وتراها ، فى كثير من أمثال ذلك .

وأما النوع الثانى ، وهو « موضوع العنوان » ، فمثله قوم يتغنون بالديمقراطيـة ومزاياها وخيراتها ، فيقول الناس آمنّا ، فاذا جاء دور التطبيق رأيت بعض الساسة الجامدين يزعمون إلى أن مبادئ الديمقراطية إنما تطبق على أمم خاصة وأجناس خاصة ، وليست هى لكل شعب ولا كل جنس ؛ فأما فى أوربا وأمريكا فديمقراطية حقة ، وأما على غيرهم من الشعوب فشىء يصعب وصفه ويدق بيانه ؛ ولعل أصدق وصف له أنه ديمقراطية أرستقراطية ، لأنهـا ذات لونين متباينين فى مظهرها ومخبرها ، واسمها ومسماها .

أذكرنى ذلك قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤدِّه إليك ؛ ومنهم مَنْ إن تأمنه بدينار لا يؤدِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمّيين سبيل » ، فهو يحدثنا أن من أهل الكتاب من إن تأمنه على عظيم من المال يؤده إليك ولا يخنك فيه ، ولا يفرق بين من له المال من أى جنس ومن أى دين ، لأن الأمانة واجبة لأىٍّ كان ، والفضيلة واجبة فى أى زمان ومكان ، ومع أى إنسان . فليس أكل مال الغير حراما إن كان الغير من دينه وجنسه ، وحلالا إن كان من غير دينه وجنسه . ويحدثنا عن قوم آخرين زعموا غير هذا المنزع الحق ، فكان « من اليهود من قالوا : لا حرج علينا فيا أصبنا من أموال العرب ولا إثم ، لأنهم على غير الحق وأنهم مشركون[1] » . ولقد زعم

(١) هذه العبارة للطبرى .

قوم من المسلمين أن يعاملوا أهل الكتاب هذه المعاملة ، فقال رسول الله : « ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى ، إلا الأمانة ، فانها مؤداة إلى البَر والفاجر » . وجاء رجل إلى ابن عباس ، فقال له : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، فقال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس . قال : هذا كما قال أهل الكتاب ، ليس علينا فى الأميين سبيل . لا تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم .

إن المعاملة على أساس الديمقراطية كالصدق والعدل ، والوفاء بالعهد ، حق لكل إنسان على كل إنسان ، وواجب على كل إنسان لكل إنسان . وليست كالعملة ، إنما تروج فى بلدها ، ولا كالعرف والمواضعات لكل أمة عرفها ومواضعاتها .

ما معنى الديمقراطية ؟ إنها حكم الشعب بالشعب لخير الشعب ، إنها القضاء على تحكم طبقة ممتازة — فى الشعب بأجمعه ، إنها نشر التعليم ونشر المساواة والحرية والاخاء بين أفراد الشعب ، إنها هدم العوائق فى سبيل رقى الشعب ، إنها حد للغنى الواسع وقضاء على الفقر المدقع ، إنها حرب على الامتيازات السياسية والاقتصادية ، إنها إفساح للفرد أن ينمى ملكاته وقواه حسب استعداده ، إنها تربيـة الرأى العام وتعويده الرقابة على الحكومة وعلى توجيه الحكام للخير العـام ، إنها روح عامة تسيطر على الشعب فتوجهه لخير الجميع ، إنها قضاء على رق الأفراد ورق الأمم ، وما يستعبد الأفراد من جهل وشهوات ، وما يستعبد الأمم من استغلال واستعمار ، إنها ثورة على استعباد الأقليات للأكثريات ، والأفراد للأمم ، والأمم للأمم .

إن كانت كذلك وهى خير للغرب ، فهى خير للشرق . فأى معنى من هـذه المعانى محلّىٌ لا يصلح إلا فى مكان خاص وزمان خاص ؟ هى نظام يمتحن كما يمتحن الذهب ، فان كان ذهباً حقاً فهو ذهب فى مصر والشام وأمريكا

واليابان والسند والهند وفرنسا وانجلترا ، وإن كان ذهباً مزيفاً لم يصلح في أي مكان ، ولم تكن له قيمة في أي قطر ، قد تختلف أعراضه في الأقاليم بحسب اختلاف بيئتها ، ولكن الجوهر في كل البيئات واحد .

إن كان هذا معنى الديمقراطية فهو يتنافى مع الانتداب والاحتلال ومع سائر هذه المترادفات . ولماذا يظهر ظهوراً بيناً أن الديمقراطية لا توافق أن تحكم فرنسا انجلترا أو انجلترا فرنسا ، ولا يكون مثل هذا الظهور في حكم الغرب الشرق ؟ إن الديمقراطية عدو للاستبداد في كل شكل من أشكاله وتحت أي اسم من أسمائه .

لقد وصلت الديمقراطية في الأيام الأخيرة بعد الأجيال المتعاقبة إلى مبادئ قويمة ظهرت على لساني زعيميها روزفلت وتشرشل ، فقررا مبدأ احترام رغبة الشعوب في اختيار نظام حكومتها وحكمها كما تشاء ، ومبدأ حرية الحصول على المواد الأولية اللازمة لها وتصريف محصولها كما تشاء ، ومبدأ التعاون الاقتصادي بين جميع الأمم ، ومبدأ حرية البحار وحرية التجارة ، وهي مبادئ في غاية الأهمية لخير الانسانية .

ولكن هل يحق للشرقيين أن يفهموا أن هذه المبادئ تنطبق على الشرق كما تنطبق على الغرب ، وأن سيكون لبلاد المغرب وفلسطين وسوريا والعراق ومصر والسودان رأيها في حكوماتها ونظام حكمها وحريتها السياسية والاقتصادية ؟

إني ألمح شبه تناقض بين هذه المبادئ السامية وبين الخطابات المتبادلة بين القائدين «ويلتون» و «دیجول» في امتيازات الدول الأوربية وحقوق الدول الأوربية في سوريا ، كما ألمح شبه تناقض بين هذه المبادئ السامية والاعتراف القريب بأن موقف الحكومة البريطانية نحو اليهود في فلسطين لم يتغير .

وإني آمل ويأمل الشرق معي أن تكون هناك التزامات صريحة من قادة الديمقراطية أمثال روزفلت وتشرشل بأن هذه المبادئ إنسانية عامة لا محلية خاصة ، وأنها وضعت لخير الشرق كما وضعت لخير الغرب .

إن الديمقراطية في نظام الحكم كالعلم في نظام العقل ، كلاهما صالح كل الصلاحية ، بل واجب كل الوجوب ، للانسان من حيث هو إنسان ، لا فرق بين بدوي وحضري ، وشرقي وغربي ؛ وليس هناك قواعد من العلم صحيحة بالنسبة للحضري غير صحيحة بالنسبة للبدوي ، وصحيحة بالنسبة للشرقي غير صحيحة بالنسبة للغربي ؛ فقاعدة العلم إما أن تكون صحيحة للشرق والغرب أو فاسدة للشرق والغرب . قد يحدث الاختلاف في مناهج التعليم ، وفي طرق البيداجوجيا بين أمة وأمة . أما العلم ذاته فلا خلاف فيه ؛ كذلك الشأن في الديمقراطية ، أن تحكم أمة نفسها بنفسها ، وأن تكون الأمة مصدر حكمها بمنزلة قواعد العلم ، فإن كان خلاف بين أمة وأمة ففي الشكل دون الجوهر .

بل إن الشرق عرف الديمقراطية قبل أن تعرفها أوربا ، وطبق نظمها قبل أن تطبقها أوربا ، وحاربت دياناته الشرقية الاستبداد ، ودعت إلى أن الناس سواسية لا تفاضل بينهم إلا بالأعمال ، وحاربت الجهل ودعت للعلم ، وألزمت الخضوع للقانون العادل ، وطالبت بالثورة على الظالم ، قبل أن تدعو إلى ذلك كله الثورة الفرنسية . نعم إنها لم تسم ذلك كله ديمقراطية ، بل سمته أسماء مختلفة ؛ ولكن ما قيمة الألفاظ بجانب المعاني ؟ ولو لا عوادٍ عدت على الشرق فأفسدت عليه سيره وحرمته نظمه العادلة لكان هو القائد وهو المشرع ، وهو رافع لواء الحضارة ؛ فمن الظلم أن يقال له إنك لا تصلح للديمقراطية ، وإن تاريخك سلسلة استعباد .

إني أربأ بدعاة الديمقراطية أن يكونوا يدعون باسمها ومعناها ومبادئها السامية في الغرب ، وباسمها فقط في الشرق ؛ كما أربأ بالشرق أن ينخدع بالألفاظ ويتعلل

الاصـــلاح
بين اليأس والرجاء

يتجدد الحديث في كل عام من الريف والريفيين، ونقرأ لأعضاء البرلمان الموقرين خطباً وأحاديث ونقاشاً ينم على شعورهم العميق بوجوب الاصلاح السريع لحالة الفلاح. ويتجدد مع هذا أملنا، فننتظر النتيجة المحتومة لهذا الحديث، ثم تمر الميزانية في البرلمان، وتصرف الأموال التي أقرها البرلمان في وجوهها أو في غير وجوهها، وينصرم العام، ونعود إلى الحديث والانتظار، والأمل والخيبة.

للفلاح المصري مشكلة، هذا أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى بحث أو كلام؛ فما سمعنا أحداً يقول إن الفلاح بخير وإن حياته هنيئة، وإن صحته على ما يرام، وإن ثقافته الاجتماعية ومعرفته بشئون الحياة من يوم إلى يوم شيء يحسد عليه، أو إن حظه من هذه الثقافة يستقيم للحياة والعيش؟ لم يقل أحد — فيما نعلم — بهذا؛ بل الكل مجمعون على أنه ينقصه الشيء الكثير فيما يتصل بأصول العيش من جميع نواحيه.

وإنما الخلاف يقوم على وسائل الصلاح وطرق الاصلاح، وهل هذا الاصلاح يأتي من طريق الاقتصاد أو التثقيف؟ وهل يقوم بالتثقيف المصلح الاجتماعي أم إمام الدين؟ وهل يناط توفر المياه الصالحة لشربه بالمهندس أم بالطبيب؟ وهل ينتج من ثقافته خطر على الطبقات الأخرى؟ وهل يمكن أن تتسرب الآراء الخطرة إلى رأس الفلاح أثناء عملية التثقيف هذه؟ وبعبارة أخرى: يختلف الناس على وسائل الاصلاح، وليس على وجوبه، كيف نبدأ به، ومن يبدأه ويتعهده ويواليه؟ وهل نبدأ بالمسائل الاقتصادية أم الثقافية أم الصحية؟ أم نأخذ بهذه الأسباب جميعاً في وقت واحد، وننهض بها دفعة واحدة؟ وهل في طاقتنا أن نضطلع بهذا المشروع، أم من الخير أن نقدر طاقتنا حق قدرها ونعرف حدود الامكانيات، فنتواضع ونختار لأنفسنا غاية قريبة نستطيع الوصول إليها في جهد قليل أو كثير، ولكننا نصل إليها على أي حال.

لقد قيل في مشكلة الفلاح الشيء الكثير، فلا تخلو جريدة أو مجلة من ذكرها، ولكل من الكتاب والمفكرين رأي خاص في طريقة الصلاح، بحيث تعددت الطرق والآراء، فأصبحنا حائرين في أيها يؤدي الغرض المقصود، وأيها ينفع فيما نرى إليه من وجوه الفائدة؟ وتملكنا شيء من الاضطراب طال به الزمن فانقلب إلى لون من اليأس، نرجو أن لا يتأصل في نفوس هذا الجيل أو الجيل المقبل فيقعدنا عن العمل.

ولا يريد كاتب هذه السطور أن يقترح حلاً أو علاجاً، ذلك لأنه ليس إخصائياً في مثل هذه الشئون، ثم هو لا يريد أن يزيد في بلبلة الأفكار أكثر مما هي مبلبلة

بالظاهر؛ فمن الحق أن الديمقراطية خير للشرق كما هي خير للغرب، ولكنها الديمقراطية التي في ذهن الانجليزي أو الأمريكي لبلاده، وعلى أساس وحدة المعنى ووحدة التطبيق، وإلا كانت ديمقراطية أرستقراطية.

كما أرجو أن تسفر هذه الحرب عن انتصار الديمقراطية الصادقة، ويكون من نتائجها أن يتعمق الشرق في معناها، وأن يوسع الغرب مداها، وأن تكون حقاً مشاعاً للشرق والغرب على السواء، وأن يطبق الجميع ما تدعو إليه من إخاء.

بل أن يتخذ كل من اليوم عدته، ويرسم للغد خطته، وأن نتصارح، فالصراحة خير للجميع.

أحمد أمين

الآن ، وإنما يريد أن يدون بعض مشاهداته في جولة بالريف في بعض مديريات الصعيد ، وقد أتاحت له الظروف فرصة التجوال في بعض القرى والحواضر ، ورأى وسمع ما يجعل النفس تثور في داخل الانسان ، وما يجعل الحياة ثقيلة بغيضة إلى تلك النفس ، ويود لو ثارت نفوس المفكرين والأدباء والحكام وذوى النفوذ في هذا البلد ، ففعلوا شيئاً قويا حاسماً يقلب هذه الأوضاع رأساً على عقب ، ويغير معالم الحياة في الريف ، فلا تظن أن تغييراً مهما كان نوعه يغير هذه الحياة أكثر مما هي عليه الآن .

كانت رحلتنا في سيارة خاصة ، وكنا صديقين متفقين في المزاج والأهواء ، فقصدنا إلى الريف والحواضر على غير هدى وبغير برنامج موضوع ، نبيت حيث يمسى علينا المساء ، ونأكل حين نجوع ، ونصرف الوقت حيث يحلو لنا ، فنقيم أياما في بعض البلدان ، وساعات في بعض البلدان الأخرى ، ثم نشاهد ما يحيط بنا من مظاهر الحياة والأحياء ، ونتناقش ، فنختلف أو نتفق حيث يستدعى الأمر الاختلاف أو الاتفاق .

كنا جالسين في مقهى بأحد بنادر المديرية ، وإذا رجل يبتاع واحدة من فاكهة النبجة ويأكلها حيث ابتاعها ، وإذا بطفل في ثياب رثة مهلهلة لا تستر عورة ، ولا تحمى من برد أو من شمس ، يقف أمامه يحدق فيه لا علك أن يسترد نظرته كأنه مسحور منوم ، أو كأن حياته مرتبطة بفم الرجل ، ثم يقذف الرجل القشرة بعد أن يكون قد اعتصر منها كل ما يستطيع اعتصاره ، فيسارع الطفل إليها ويلتقطها ويمرر لسانه عليها ، فيلحسها كما يلحس الكلب يد صاحبه ، ويظل يلحسها ويدير فيها لسانه ذات اليمين وذات اليسار ، كل هذا وهو محدق بالرجل ينتظر ما يتلو هذا .

ليس في هذا شيء غريب ، إذ يستطيع الانسان أن يشاهد مثله في القاهرة مئات المرات . وإنما الغرابة فيه أن هذا الطفل يشبه ابن صديق الجالس معي شبهاً كبيراً ، ولا يقوم الفرق بينهما إلا على الفرص الكثيرة التي أتيحت لابنه ، والحرمان الشديد الذي انتاب هذا الطفل حتى أصبح لا يجد ما يتبلغ به أو يستر به عورته .

قلت لصديقي : ما الفرق بين هذا الطفل وولدك ؟

قال : لا فرق على الاطلاق سوى أني لظرف من الظروف تركت قريتي التي ولدت فيها واستوطنت القاهرة وأعطيت لي فرصة التعلم فتعلمت وأصبحت أتكسب ما يسد جميع احتياجات ابني المعقولة ، فأستطيع أن أطعمه وأكسوه ، وأدخله ما أشاء من دور التعليم في القاهرة . وأغلب الظن أني لو بقيت في قريتي للآن لأصبح ابني يهيم على وجهه في الشوارع والطرقات يلتقط فضلات الأكل مما يرميه الناس في الشارع .

ثم ذهبنا إلى عاصمة المديرية ، وإذا بها من أجمل عواصم الصعيد ، شوارعها متسعة نظيفة مرصوفة ، يتوافر فيها النور والماء ، تظللها الأشجار المبثوثة فيها ، فأعجبنا بها واسترحنا إليها ، وطاب لنا العيش فيها . فيها نزل جميل تتوافر فيه جميع وسائل الراحة لأمثالنا ، يكاد الانسان لفرط المتعة والراحة أن ينسى مشاكل الحياة والعيش ! ولكن بالله كيف ينسى هذه المشاكل ، وفي كل دقيقة تمر به من يذكره بها ؟ فما يكاد الانسان يجلس إلى مقهى لتناول قدح من القهوة حتى يمر عليه طابور من الناس أطفالا ونساء ورجالا ، صغاراً وكباراً ، يستجدونه وهو لا يدرى ما يفعل بهم ، فالعطاء لا يغنى ولا يحل مشكلة واحدة من مشاكلهم الكثيرة .

وبالبلدة نادٍ كبير دعينا لتناول الشاى فيه فذهبنا ، يقع هذا النادى على النيل ، وبه حديقة فسيحة الأرجاء ، صففت فيه الموائد عليها أغطية نظيفة جميلة تدل على الذوق

الحسن ، وحولها مقاعد مريحة يجلس فيها الانسان ، ويكره أن يتحرك لفرط الراحة التي يستشعرها من الجلوس عليها ، تحيط بهذه الحديقة وتتخللها الأشجار الكبيرة الوارفة ، وينفجر من أرضها ماء قراح يسيل على جوانب الحوض ، فيروى النبات والأزهار والأشجار ، له مبنى كبير مؤثث بخير الأثاث ، تقوم على خدمته طائفة كبيرة من العمال والموظفين ، ويشترك فيه كبار الموظفين وأعيان البلدة ، يدفع كل منهم ثلاثين قرشاً في الشهر ، ثم يستمتع بكل هذا .

ومجموع المحصل من الأعيان وكبار الموظفين لا يكفي بطبيعة الحال لادارة هذه المنشأة العظيمة ، فسألت : من أين لهم المال اللازم لادارة هذا النادي ؟

فقيل لي : يدفع مجلس المديرية لهذا النادي إعانة سنوية .

قلت : وهذه بالطبع تجبى من الفلاح ؟

قال : ويدفع المجلس البلدي إعانة أيضاً ، ويقدم لنا النور والماء مجاناً .

قلت : وهذه يدفعها العامل المسكين في المدينة .

قال : وتدفع لنا اللجنة الأهلية مبلغا سنويا .

قلت : وهذا أيضا يؤخذ من أولئك الذين هم في أشد الحاجة إلى المعاونة .

وبعبارة أخرى يلجأ أعيان المديرية وكبار الموظفين فيها إلى العامل الذي لا يتكسب أكثر من خمسة قروش في اليوم ، والفلاح الذي لا يكسب هذا المبلغ أو نصفه — حتى ينشئوا لهم ناديا ويؤثثوه بخير الأثاث ، ويعدوه أحسن إعداد ، فيستمتعون بكل هذا ، أليس من العدل والرحمة أيضاً أن تترك هذه الطبقات تقارع العيش ، ويتكفل الأعيان والموظفون بما يصرفونه على راحتهم واستمتاعهم ، أليس هذا هو الوضع الصحيح للأشياء ؟

قال : هل أنت شيوعي ؟

قلت : حاشا ! أشكرك على الشاي ، والسلام عليكم .

ثم ذهبنا إلى قرية تشبه الغالبية العظمى من القرى في مصر ، ودخلنا بعض بيوتها ، وتسميها بيوتاً تجاوزاً منا ، إذ أن كلا منها لا يزيد على حجرة واحدة لا تزيد مساحتها على أربعة أمتار مربعة ، فيها كل ما يملك الفلاح من زاد وماء وملبس ، ينام فيها ويأوى ما يملكه من حي وجماد .

قال لي صديق : هل سمعت ما أذيع في الراديو ؟

قلت : وما هذا ؟

قال : سمعت أن أحد الناس يقترح حلاً يدعوه وافياً لمشكلة المهاجرة ، وهو أن كل فلاح يخلي حجرة من منزله لعائلة من المدينة ، ويعدها لإيواء تلك العائلة عند ما يتطلب الأمر المهاجرة .

فدعوت فلاحاً وقلت له : ياصديقي ! يقترحون عليك أن تخلي حجرة من منزلك لإيواء المهاجرين من القاهرة والمدن الكبيرة التي تنكب في هذه الحرب .

فقال : أهلاً وسهلاً ! يتفضلوا وأنا آخذ زوجتي وأنام في الأخرة .

الفلاحون راضون بهذه الهجرة ، فعلى مذيع هذا الحديث أن يذهب إلى القرى لاعداد الأمكنة اللازمة . وأغلب الظن أنه سيضطر لإعداد الأمكنة للمهاجرين والفلاحين على السواء ، إذ أن الطائفتين في أشد الحاجة إلى أمكنة لإيوائهم .

من الظواهر الغريبة التي شاهدناها في هذه الرحلة أن معظم الأبنية المهمة الفخمة في البنادر والعواصم هي ملك للحكومة ؛ فانك تستطيع أن تحكم لأول نظرة أيها تملكه الحكومة وأيها يملكه الأهالي ، فالفرق بينهما شاسع ، ويدل على أنه لا تناسب بين غنى الحكومة وفقر الشعب ، ونظن أن هذه ظاهرة لا تدل بحال على أن النظام الاقتصادي عندنا سليم ؛ وإنك لتدهش إذ ترى قصور وزارات الصحة والعدل والداخلية والمالية إلى آخره ،

على هامش الحوادث :

مشاهد من الهند الصينية (١)

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

حسبنا مَثَلٌ من الأمثال القديمة عند أهل تلك البلاد يجمل للقارئ به صفة الهند الصينية من ناحية الجغرافية الطبيعية . يقول المثل : (هي عصا كبيرة معلقٌ في كل طرف من طرفيها عذقٌ من الموز) . وهم يشيرون بذلك إلى أرض أنام الوسطى الجبلية الصخرية ، والاقليمين الزراعيين ، حيث دلتا نهر مكنج في الجنوب ، ودلتا نهر سنج كاى في الشمال . وبعبارة أخرى إقليم كوشن صين وإقليم تنكين ، وكلاهما عظيم الخصب . وما برح المثل القديم هو هو في جوهره ، مع جعل العذق عذقين في كل طرف ، إذ قرنت القرونُ الأخيرة كمبوديا إلى كوشن صين ، وقرنت لاوس إلى تنكين ، وكلاهما من بقاع التربة الحمراء ذات الخصب العجيب .

(١) اعتمدنا في هذا المقال على كاتروفاريز ، وبيير لوتي ، وجورجليس .



مصور جغرافي الهند الصينية

أجناس شتى وألوان عدة :

هذا عن السكان . وإلى القارئ كلمة كسابقتها موجزة عن السكان .

فهي جيماً في أحسن المواقع ومبنية على أحدث طراز ، مما يجعل التناسب معدوماً بينها وبين ما تملكه الأهالي من المباني .

الحكومة في المراكز والعواصم بعيدة عن الشعب ، فهي في متسع من العيش ، وهو في ضنك شديد ؛ هي تبني القصور وتؤثثها بخير الرياش ، وهو لا يستطيع أن يجاريها في هذا ، وإنما يدفع لها الضرائب وفيرة غزيرة حتى تزيد في الفروق بينها وبينه .

أذكر أني رأيت مستشفى في قرية من القرى لا أظن أني رأيت أجمل منه أو أروع ، وقد كان ما صرف عليه يكفي لعشرة مستشفيات تتناسب في بنائها وأثاثها مع حياة الفلاحين وأهل البنادر . لا أدري ما الحكمة في هذا البناء الذي كان يصح أن يكون مبنى صالحاً لإحدى الكليات في أمريكا أو انكلترا أو ألمانيا ! ولكن ما قدر قد كان ، وقدر أن يكون هذا القصر مستشفى لطائفة من الناس تحتاج إلى التدقيق في صرف كل قرش ، لأنها فقيرة معدمة لا تحتمل مواردها مثل هذا البذخ .

إني أكره أن أعود لمثل هذه الرحلة ، إني أكره أن أرى ما رأيت ، فمثل هذه المشاهد والمظاهر تكاد تولد اليأس في نفس كل من يدعو إلى إصلاح أو يؤمن به .

يعقوب فام

ليس سكان هذه البقاع جنساً واحداً ، وحسبنا فى ذلك أن نرجع إلى اسم البقاع نفسها «الهند الصينية» ، فهو جامع بين الهند والصين ، أو — على زعم دعاة الأجناس — بين الغرب ممثلا فى الهندى الآرى ، والشرق ممثلا فى الصينى . ولا نحب أن نعرض هنا إلى الأبحاث الخاصة بالأصول الأولى للسلالات البشرية ، ونكتفى بالاشارة إلى أن أول من سكنوا فى شبه الجزيرة هذه على قول المؤرخين من الصينيين الأقدمين كانوا «جعد الشعور سود الجلود» . ولا نطيل الوقوف عند هؤلاء الزنج الذين يردهم السادة العلماء إلى بداية العصر الحجرى الحديث ؛ وننتقل إلى من تلقوهم من الجنس الأندونيسى الذى يضرب لون إهابهم إلى الحمرة . ولكن هؤلاء دافعهم إلى داخل البلاد قومٌ أغاروا من الجنوب ، وآخرون أغاروا من الشمال . والمغيرون من الجنوب هم بنو خمير ، وقدومهم يتفق وعهد ظهور المسيحية ؛ وقد أتوا بحراً من الهند ، وحملوا معهم من وراء الكنج المدنية الهندية بعقائدها وفن معابدها وأوضاعها فى المعاش واللباس غير الملفوق ؛ وقد انقرضت دولتهم ، ولم يبق من إخوانهم «بنى شام» إلا فلول فى الجبال . والمغيرون من الشمال هم جنس أنامى يمتّ إلى الصين أو التبت الشرق ، وكان أمرهم فى القرن الثانى قبل المسيح إلى الأمير الصينى المتولى على كانتون فى عهد أسرة هان الصينية المالكة ، وهم متأثرون بالمدنية الصينية ولباسهم القفطان الصينى . وقد اندس فيما بعد بين أصحاب هاتين المدنيتين أقوام من أصل منغولى هم بنو طاى ، إلا أنهم كانوا إذ ذاك متطبعين بالروح الهندية ؛ وغير خاف أن الكثرة من هؤلاء النازحين من أبناء طاى اتخذوا سيام موطناً وأقاموا منهم فيها أمة متجانسة .

القردة والنمورة الرهيبة وثعبان البحر :

والسائح فى الهند الصينية قلما يبعد عن مواطن زحمة الناس ، سواء بين أطلال المعابد أو تحت ظلال الغابات ، حتى تطالعه القردة من فوق مطلة عليه ، ولا ينصرف قرد حتى يفد آخر كأنها موكولة بإيناسه . وكذلك تكثر النمورة حتى ليسمعها المرء أحياناً تموى فى الليل كالكلاب ، والنمورة فى هذه البقاع أعظم جرماً منها فى غيرها ، وهى تزيد على الأسد طولاً وارتفاعاً وتفوقه قوة ، وحكاياتها الروعة المفزعة شائعة على الأفواه . وهى تخرج من وجارها فى الهزيع الأول من الليل تطلب الفريسة ، وتعود فى العادة بعد إشباع نهمتها فى منتصفه ؛ وهجومها دائماً من الخلف . وهم يروون هنا وقائع تقع لحارس الليل فى المراكز المنعزلة ، إذ يقفز النمر عليه السور الخشبى ويقتله ، ويحتمله قافزاً به السور ثانية إلى بعيد حيث يفترسه . والسير فى الغابات هنا من المهالك ، إذ تتصاعد فيها هبوة ضباب أخضر معتم يحول دون الرؤية ، على حين يهتدى السبع على الأقل بحاسة الشم فيباغت السالك على غرة . والنمورة هنا قد توجد فى كل مكان فى الأرض المنبطحة ، كدلالات الأنهار حيث المزارع وأحواض الأرز ، وفى الأرض المرتفعة بين الجبال ، كما توجد فى الأجمات ، وبالأخص فى الغابات .

وأما ثعبان البحر فأمره عجيب ، ولعله من بقايا الحيوان من عهد ما قبل التاريخ . ومن الأهالى من زعموا أنهم رأوه ، وكذلك زعم بعض الأوربيين ، ويبلغ طوله ثلاثين أو أربعين أو ستين متراً . والمَسْبح الذى يغشاه هذا الثعبان فى «خليج ألونج» على اللفظ الموجز ، ويسمى فى الصينية «مخالب التنين» . والبحر هنا أخضر مستوى الصفحة ، وغوره واحد لا يتفاوت : ستة أمتار فى كل المواضع ؛ ثم بين البحر والسماء نحو ألفى جزيرة قائمة منتفشة فى الفضاء ، وهى صخور شاهقة تزيد ارتفاعها على اتساعها ، ويبلغ علو بعضها مائة متر فوق سطح الماء كالأنياب الكالحة السود ، إلا أنه على قممها خضرة ونبات

متسلق ؛ وكذلك بعض القردة تجرى على عادتها هنا وهناك ، وبعض الوعول تلوّح بقرونها الملتوية وتهز لحاها المتدلية ، ثم كثير من الحمورة . بيد أن جوانب هذه الصخور متشققة فى أكثر من موضع ؛ وهذه الشقوق من السعة والعمق بحيث يلجها المرء فى زورقه الصغير ، ويمضى فى شبه الأنفاق المتعرجة مئات الأمتار ؛ وأحياناً لا يكاد المرء يجتاز فتحة الشق حتى يجد نفسه فى بهرة عظيمة مكشوفة ، ويتضح له أن الصخرة منخوبة مفتوحة كفوهة البركان ، ولكن سفوحها فى الداخل كسفوحها من الخارج وعرة المرتقى والمنحدر . وفى بعض الأحيان تكون هذه الساحة فى جوف الصخرة مغطاة تتدلى فيها حبال من الرواشح المتجمدة . وفى هذا الخليج العجيب ، الساكن الريح والماء سكينة الأبد ، يعيش الحيوان الأعجب الذى سمع عنه الكثيرون ، ولكن لم يتح إلا للأقلين رؤيته .

ميناء سايجون :

والقادم إلى الهند الصينية ينزل فى ميناء سايجون ، عند مصب نهر عظيم رحيب ، وهو ميناء عامر بالسفن الصادرة والواردة ، جم النشاط دائب الحركة . ويقابل المرسى على الضفة الأخرى من النهر غابة رائعة الجمال ، وهى طبقات ثلاث : أولها أعواد الخيزران والقصب ، ومن فوقها أنواع النباتات النوامى ، شديدة الخضرة ، مرصعة بالرياحين والأزهار ؛ ومن فوقها أيضاً ذوائب أشجار الفوفل العظام . . . . ويغادر السائح الميناء فى سيارة أوفى عجلة يدفعها أجير على عادة أهل تلك البلاد ، فلا يكاد يرى إلا أشجاراً ؛ فالمدينة ظليلة وارفة الظلال ، وبخاصة ظلال الأشجار المعروفة عندنا بالجهنمية ، بورقها المشرق الأطراف الرائق الخضرة ، وزهرها العجيب الحمرة على شيات تتفاوت بتغير النهار . والمنازل فى سايجون صغيرة ، منخفضة على العموم ، ذات شرفات خارجة مسقوفة .

ومن تدبيرهم الملحوظ أن حيطان الغرف لا تبلغ حتى السقف ، وذلك كى يسرى النسيم فيها مهما كان واهن النفحات ضعيفاً . والحرارة فى سايجون ليست شديدة جداً ، فهى لا تتجاوز الدرجة الثامنة والعشرين ، أو التاسعة والعشرين ، ولكنها أيضاً لا تكاد تهبط دون ذلك ؛ فالحرارة عنيدة صالبة ، فهى فى أول يناير مثلها فى أول أغسطس ، وهى فى منتصف النهار مثلها فى منتصف الليل ، الجميع عندها سواء .

على أن المظهر الطبيعى الأول للمدينة لا يجب أن يخدعنا عنها ؛ فهى أبعد ما تكون شبهاً بالبلدان فى المستعمرات الأخرى التى يجدها القادمون أقرب إلى الفطرة جامدة وازحة متهالكة مملة ، أو خليطاً من الفطارة والمدنية المتأخرة التى لا يتهيأ لها مسايرة الأوضاع والأزياء فى حينها — بل الشأن على العكس من ذلك فى سايجون . فسرعان ما يجد فيها السائح « باريس » أخرى فى الشرق الأقصى ، متقززة الحرارة ، صاخبة بالعمل واللهو ، يأتلف الناس فيها على عجل ، ويقضون أوقاتهم فيها على أحسن حال . فترى الأفواج من الجالية — وعدتهم بضعة ألوف — يخرجون إلى لعب التنس فى الخامسة صباحاً — وذلك قبل أن يشتد القيظ ابتداءً من الثامنة . وهم يعملون من الثامنة إلى العاشرة ثم يتناولون الطعام ، وبعده القيلولة ، وهى هنا أمر لا مرد له ولا مندوحة لهم عنه ، سواء غشيهم النوم ، أو لم يغمض لهم جفن من شدة الحر ؛ ثم فى الساعة الخامسة يخرجون للعمل بعض الوقت ، وبعدها النزهة اليومية التقليدية ، أو بعبارة أصح « المعاينة » حيث يتصفح الرجال والنساء بعضهم وجوه بعض ، فى طريق مونق بديع المنظر ، يقوم فى هذا البلد النائى مقام غاب بولونيا فى باريس . وأخيراً العشاء والرقص . ولا بد من الرقص فى سايجون حتى يحس السائح أنه فى سايجون حقاً .

مقابلة بين الأناميين والصينيين :

وينبغى أن نجتزئ بهذا القدر من الأوربيين ؛ لنتحدث عن غيرهم من أهل البلاد . فنقول إن السحنة الوطنية التى تتكرر عليك فى سايجون مئات المرات كل ساعة هى سحنة الأناميين . وهؤلاء وجوههم سمراء مدوّرة ، وشعرهم مرجل أحكم الترجيل ، وتتدلى لهم عقيصة معقدة ، وأكفهم طويلة معروقة ،



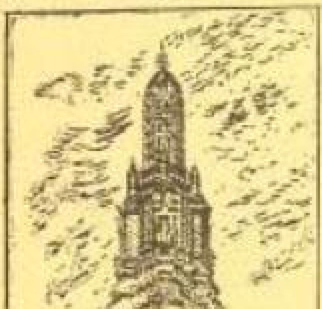
رجل من الجنس الأنامى

ورجالهم جرد من اللحية والشارب إلا الشيوخ الطاعنين ، ونساؤهم يتخذن حلياً من الذهب أو المرجان يزين بشرتهن الناعمة ؛ ولولا ذلك لاختلط الأمر على الغرباء ، فلم يميزوا بين ذكورهم وإناثهم . ولباس الأناميين — عادة — القفطان من حرير أسود أو غير أسود ، ساذج لا وشى فيه أو ذو وشى ، وينضم على الصدر بزرين صغيرين من عينه ، وجانباه مشقوقان حتى الفخذين ، ومن تحته سروال أبيض ؛ وهم حفاة الأقدام ، وقد يحتذون خفافاً من لبد ، ويعتمون على رؤوسهم بلاثة من الحرير الأسود أو الأزرق ؛ وقد يضعون أحياناً قبعات على شكل المخروط . والأنامى ضعيف البنية مسلوب المقاومة ، ولكنه نسول كثير الولد .

وفى الهند الصينية — كما أسلفنا — غير الأناميين أقوام شتى آخرون ، ولكنه كلما ظهرت حاجة إلى من ينهضون بعمل من الأعمال يقتضى الدأب والكدح المتصل ظهر الصينيون . والواقع أن العامل الصينى أجلد من عرفهم أصحاب الأعمال . وثلاثة أرباع المهن فى سايجون نفسها انتقلت إلى أيدى الصينيين ؛ فقلّ أن يوجد فيها مثلاً حائك ، أو حذاء من الأناميين ، بل جميعهم صينيون ؛ وقد يجمع الواحد منهم بين مهنتين أو أكثر . وحسب السائح أن يخطو من سايجون إلى جارتها اللاصقة (شولون) وهى مدينة كبيرة قوامها الصينيون ، وهنا لا تقع عينه على هذه الجموع السمراء المتواكلة ، القانعة ، القاعدة المهمة ، اللاهية العابثة ، الشاردة الفكر الحالمة — بل على خلق صفر الألوان ، أشداء الشكيمة أقوياء الجنان ، فى هرج ومرج ، يسمون طوال الوقت ، ويضجون دون كلل ، ويعملون فى دأب وتكالب ولجاج ، بحال لا تخطر على بال ، ولا يتصورها وهم .

معبد أنجكور ومعبد جبل الرخام :

وهنا ندع الحاضر ومعتركه ، ونودع مطالب الحياة وتكاليفها ، ونمضى إلى حيث ننسى أنفسنا فى الماضى السحيق . ومن ذا الذى لا ينسى نفسه أمام هذا الحطام المظلم لدولة خمير القديمة ؟ هذا الأثر الدينى الهائل الذى لا يكاد يضارعه أثر فى العالمين ، لا جسامة جرم والساع



مدخل معبد انجكور

أقطار فحسب ، بل إحكام صنعة وإعجاز فن . وحسب المرء أن يلقي نظرة إلى معبد أنجكور ولو في مثال مصطنع أو صورة شمسية ، ليتمثل روعته في طبقاته العظيمة المتراكبة طبقاً فوق طبق ، تعلوها قباب شاهقة متطاولة كتيجان القياصرة ؛ وهذا جميعه في أجمل نقش وحفر وتفصيل وتخريم ، ومن غير أن تغض هذه الدقائق اللطاف من عظمة التكوين العام وجلال خطوطه . وإنها لعبرة العبر أن نرى معابد الأرباب القديمة تطل على مقامها القدسي الآجام ، وقد أقفرت من العابدين والكهان ، واختفت منها الراقصات الكمبوديات من قديم ليظهرن بعدها في العواصم الأوروبية يمثلن رقصهن الديني في المسارح ودور اللهو . ويجدر بنا وقد عرضنا في وصفنا لمعابد أنجكور للجانب الروحي المتبدي في بلاد الهند الصينية ، أن نستكمل العرض بوصف ما يمثل الشطر الآخر ، ونعني به الجانب الروحي الصيني .



راقصتان كمبوديتان

وأجدر الآثار بالكشف عن هذه الروح « معبد جبل الرخام » في ناحية مدينة هوى . فالسارح إليه إذا هبط في مغاوره فقد ولج العوالم السفلية ، ورأى الشياطين والجان رأى العيان ؛ فثمة عالم من الطواغيت والأصنام على هيئة الإنسان ، ولكنها مرعبة مخيفة وعيونها عظيمة جواحظ للغاية وحشية النظرة ، وبعضها جاثم على الأرض كالكابوس وأجفانه نصف مغمضة ، وعلى طلعته النكراء ابتسامة الخلد ، والبعض متراصون في حلقة رهيبة كأنه مجلس معقود للقضاء في مصائر البشر الفانين الساكين ؛ وهنا وهنا أصنام فرادى يطالعونك على غير انتظار في الزوايا والأركان المظلمة . وهم يلبسون القفاطين الصينية وأكثرها زاهية الألوان مزركشة بالذهب ، وعلى وجوههم الأقنعة . وهذا الجبل الرخامي المسكون بالشياطين كما رأينا مغاور عدة ، نخص بالذكر منها مغارة سامقة غائرة جوانبها من الرخام الأخضر ، ويترقرق في سقفها ضياء خفيف شفاف فيتراءى كماء البحر ، وهذا الضياء ينصب من فجوة في أعلى المغارة ، فيجعل لخضرة رخامها لألاء عجيباً ، حتى ليخيل للداخل إليها أنه يدخل جوف زمردة عظيمة يتخللها شعاع القمر . . . . وفي هذا اللألاء الشمشماني الخضر تبدو الأرباب والأنصاب والتماثيل العجيبة كالأطياف ، صوراً حية ماثلة بغير مادة ، فنستحضر في حضرتها إحساس القوم في عبادتهم القديمة للأسلاف والأرواح . . . فإذا هبطنا دون هذا درجات أخر ، بلغنا قاع المغارة ، وهو فناء من دقاق الرمل يخيم عليه الظلام ، ونحس فيه البرد والسلام ، ولا شيء غير ذلك . ثم لا نلبث أن ننسى عالم الأجسام ، وعالم الصور ، وشعور الشقاء والسعادة ، وفكرة البداية والنهاية . فنحن هنا في ساحة الأبد وراحة العدم .

ثروة الهند الصينية :

ولعل القارئ بعد أن يقضي عجبه من هذا ، يعجب من طمع الطامعين في بلاد المعابد وبيوت الأصنام هذه . ونحن نرى رأي القارئ ، فما كانت نفاسة الآثار قط من دواعي الاستعمار . ولكن العجب يبطل إذا علمنا أن هذه الأرض المسماة ببلاد المعابد وبيوت الأصنام وافرة الغنى في الموارد الطبيعية والمواد الأولية .

الأدب العربى فى أمريكا

١ – أسباب الهجرة العربية

قد توفرت منذ سنوات على قراءة الأدب الحديث ، فدعتنى الدواعى إلى أن أعنى عناية خاصة بالنهضة العربية وبأدباء العرب فى الأمريكتين الجنوبية والشمالية . وعالقت نظرى أخيراً أن الصحافة السياسية أكثرت — أثناء هذه الحرب — من أنباء هؤلاء المهاجرين ، وأن وزارة المعارف قررت هذه السنة ، جبران خليل جبران ، أحد أدباء العرب فى أمريكا ، فى مسابقة الأدب للسنة التوجيهية . لهذا وذاك رأيت من الفائدة نشر شىء عن هؤلاء المهاجرين والنهضة الأدبية العربية بين ظهرانيهم ؛ فضلا عن ذلك فإنه من العدل والانصاف أن نهتم بأدب هؤلاء الاخوان المهاجرين من العرب ، وقد كان لهم على النهضة الأدبية الحديثة يد بيضاء وأثر بعيد جداً لما نرى من التجديد . وفى هذه المقالة عرض مجمل للنهضة الأدبية فى العالم الجديد ، أشبه بمقدمة عامة لبحث كنت آمل النفس باستكماله قريباً ، فاذا الحرب تأتى فتقطع الصلة بيننا وبين القارة الأميركية .

***

حقاً أن مما يملأ الصدر سروراً وغبطة أن نرى لغة الضاد تنشر ألويتها عالية وراء الأوقيانوس الفسيح ، وأن نجد فى العالم الجديد أدباً عربياً مزدهراً .

يعود ذلك إلى فئة من المهاجرين العرب رحلوا عن أوطانهم يحملون حباً عميقاً لبلادهم وأمتهم ، وحرصاً شديداً على لغتهم وقوميتهم ، فكانوا فى مهاجرهم للعروبة خير رسل ، وللشرق العزيز خير دعاة .

العدد والوطن مما أول ما يتجه إليه نظر الباحث عند ما يعرض للكلام على عنصر غريب فى بلاد ما ؛ فما عدد المهاجرين العرب فى الأمريكتين ؟ وما الوطن الأصلى الذى منه خرجوا إلى هاتين القارتين ؟ ؟ أما العدد فمن الصعب إعطاء إحصاء مضبوط عنه ، ولكنه يزيد على المليون ونصف المليون ، ذلك على وجه التقريب . وموطن هؤلاء يمكن أن يقال إنه جميع الأقطار العربية ، إذ أنك تجد بين هؤلاء العرب المهاجرين المصرى الأصل والحجازى

فالهند الصينية مزرعة من أعظم مزارع الأرز ، وأول ما يسترعى نظر زائرها أحواض الأرز الخضراء الشاسعة ممتدة فى دالات الأنهار لا يدرك الطرف آخرها ؛ والفلاحون وراء المحاريث التى تجرها الجواميس ، يحرثون الأحواض المغمورة وقد بلغ الماء إلى بطونهم .

ولما كان بعض هذه الأراضى الحمراء يؤودها أن تنبت الأرز ثلاث سنين متتاليات ، فقد عالج القوم زرعها قطناً فى السنة الثالثة ، فجاءت على الفور بأحسن المحصول .

ثم إن منابت الصمغ المرن (المطاط) تبلغ مساحتها هكتارات عدة ؛ وهى فوق ما بلغته من شأو فى زيادة مطردة ، وكذلك زراعة سائر نباتات المنطقة الحارة ، فانها تزكو هنا وتؤتى أجود الثمرات وأوفر الغلات .

والثروة المعدنية ليست دون ذلك كثيراً ، فالمناجم تخرج كل عام مليون طن من الفحم الكز (انثراسيت) ، وألوف الأطنان من الزنك والفوسفات والقصدير ؛ وقد نشأ من وجود الفحم فيها نهوض الصناعة وقيام المصانع ، وهى تتكاثر وتتسع عاماً بعد عام .

فالآلهة الحديثة من حديد ومطاط كما نرى ، وأما الآلهة القديمة فى تلك البلاد فقد غلبت على أمرها ، وقضت منذ طويل نحبها .

عبد الرحمن صدقى

الوافد المصري والسوري واللبناني ؛ بيد أن الأكثرية هم من اللبنانيين والسوريين ، أو بعبارة واحدة هم السوريون . وفي المهاجرين العرب فئات من جميع المذاهب والأديان التي لها أصل في البلاد العربية ؛ ففيهم المسلم والنصراني ، والدرزي والنصيري ، على اختلاف ما في الديانتين الأوليين من مذاهب ، أما الأكثرية فهم من المسيحيين .

أرى سؤالا يوجه إليّ عن أسباب هجرة هؤلاء العرب إلى بلاد بعيدة غريبة عنهم أهلا ولسانا ! ! .

الأسباب كثيرة ، وبعبارة أصح أن هناك أسبابا ظاهرة لهجرتهم ، وهناك مشوقات عملت على تدفق الهجرة ؛ فأعرض للأسباب الظاهرة فقط ، وأهمها سببان : الأول اقتصادي . بارت الأرض وكسدت الصناعة ، وضاقت الأرض بأهلها ، فكان لا بد لهم من الافلات من مواطنهم ، يسعون إلى أسباب المعيشة في أرض أوسع ، ويطلبون مجالا أرحب لنشاطهم ؛ فلبنان — مثلا — أرضه من التلال والجبال ، فالثروة الزراعية قليلة ، وأرض جبلية كهذه لا تتكوّن فيها الأسواق التجارية التي توفر للسكان رخاء العيش والاطمئنان ؛ فخرج هؤلاء القوم من جبالهم يتغنون بقول الشاعر :

إذا ماضاق صدرك في بلاد ترحل طالبا أرضا سواها
فإنك واجد أرضا بأرض ونفسك لم تجد نفسا عداها

وسوريا الداخلية وإن اتسعت سهولها ، فالزراعة كانت على الفطرة ، قليلة الانتاج . أما الصناعة فكانت من نوع الصناعات المحلية الأولية ، كالصياغة والنسج والزخرف ، فلم تكن والحالة هذه صناعة قوية . والذي أثر في انكماش الأسواق التجارية صعوبة المواصلات بين المدن السورية ، فجعل بينها شيئا من التقاطع ؛ وهذا التقاطع كان ذا أثر أخلاقي واجتماعي أيضا في أهل سوريا . فبينا كنت تجد حلب وثيقة الصلة بأسطنبول ، فتأخذ عنها وتتأثر بها ، كنت تجد دمشق أكثر حفاظا على التراث العربي الخلقي والاجتماعي والثقافي ؛ وكانت بيروت تبدأ تتأثر بالمدنية الغربية بجميع نواحيها ، فتوغل في الأخذ عنها اجتماعيا وثقافيا .

أما أكثر المدن السورية مهاجرة فهي حلب وحمص وحماة ، تأتي بعد هذه دمشق وأريافها . إنما هجرة اللبنانيين كانت أقوى من هجرة السوريين تبعا لطبيعة البلاد وموارد الخصب في البلادين .

هناك سبب آخر لهذه الهجرة كان له أثر كبير في صبغ أدب المهاجرين صبغة خاصة ، وهو سبب اجتماعي وسياسي معا . بدأت النهضة في لبنان وسوريا منذ قرنين تقريبا — إذ يرجع ظهور طلائعها إلى الربع الأول من القرن الثامن عشر — وقد بدأت بانتشار المدارس ومعاهد العلم النظامية من أجنبية ووطنية . فأخذ اللبنانيون والسوريون يتهافتون عليها تهافتا ويقبلون إليها إقبالا شديدا ، إذ وجدوا أن العلم يفتح أمامهم آفاقا جديدة من التفكير ، ومجالا أرحب لأسباب العيش . مالبثت هذه المدارس أن كوّنت جيلا جديدا من الناس يختلف عن الجيل السابق له نزعة وتفكيرا .

من ناحية أخرى كانت الحالة الاجتماعية أثناء تلك الحقبة على أشد ماتكون من الاضطراب . فالحاكم السياسي في حيدة عن الحق ، فيظلم الرعية . وفي الزعماء رياء فيستغلون الشعب لمآربهم الخاصة ، وفي رجل الدين اعوجاج فيضطرب أمر الدين ، وتختلط أمور الدين بأمور الدنيا . كان الناس مع ذلك يحتملون شر الحاكم ساكتين ، وينقادون للزعيم صاغرين ، ويقدسون رجل الدين على عوجه . ولكن الجيل الجديد المثقف قد نما عدده وكثر ، مع تقدم التعليم وانتشاره ؛ فغدا يتشوق إلى الحرية في العمل والتفكير . فلما أراد أن ينفض عن منكبيه ظلم الحاكم وجوره ، ويناقش الزعيم رأيه ، ويجهر بعوج رجل الدين ، حصل

ذلك الاصطدام الذي يحصل في مثل هذه الحالات من الاجتماع ، حالة النقلة من طور إلى طور ، فكان اصطداما بين قديم وحديث ، وبين الخمول واليقظة . وأصاب من جراء ذلك هذا الجيل الجديد الأذى الكبير من الحاكم ومن الزعيم ومن رجل الدين ، حتى من الآباء والأمهات ؛ وكم من الآباء اتهموا أبناءهم بالخروج والمروق ، والتدخل فيما لا شأن لهم فيه . هذه الفئة الجديدة كان الصبر يحرجها إن سكتت ، وكان الأذى يقتلها إن جهرت ، فلم تجد حيلة إلا الرحيل فرحلت ، وقد كان سبق هؤلاء إلى الأمريكتين قافلة أولى بدافع العامل الاقتصادي ، ولهم فيهما الأعمام والأخوال ، وكان قد وصل إلى الأوطان ما يسود تينك القارتين من الحرية والاطمئنان ، فشدوا إلى الأمريكتين رحالهم لحاقاً بمن سبقهم . وقد قال أحد مؤرخي الهجرة العربية إلى أمريكا الدكتور فيلب حتى في مؤلفه الانجليزي « السوريون في أمريكا » : إنه كان يجتمع في وقت من الأوقات في مدينة نيويورك وحدها لا أقل من عشرين شخصا من الذين حكمت عليهم الحكومة بالاعدام ، فتمكنوا من الهرب خلاصاً من الموت .

على ضوء هذه الحالة الاجتماعية التي كانت من دوافع الهجرة العربية ، يمكننا أن نفهم إحدى مميزات أدب المهاجرين العرب في أمريكا ، وهي تلك الثورة وذلك التمرد على بعض الأوضاع الاجتماعية والسياسية — حتى الدينية — القائمة في بلادهم ؛ وهي ثورة تتجلى في معظم الانتاج الأدبي للمهجر الأمريكي إن نثراً وإن شعراً .

إذا أضفنا إلى العاملين السابقين عامل النزعة الوراثية في العربي إلى الرحلة والانتقال ، كما تهيأت له الأحوال ، كما يدل تاريخه الطويل — وما هؤلاء إلا أحفاد أولئك — عند ذلك تتكون لدينا فكرة واضحة عن عوامل وأسباب الهجرة العربية إلى تلك الأصقاع النائية .

وفي الآتي سأعرض إلى مظاهر النهضة الأدبية التي أوجدها هؤلاء المهاجرون في مطارح اغترابهم . والله الموفق والمعين .

لويس الريس

الرئيس ولسون والرئيس روزفلت

موازنة بين عهدين

نشبت الحرب الكبرى الماضية ، فقابلت الشعوب الأوربية المشتركة فيها نبأ شبوبها بعاصفة من الطرب الهاتف الراقص ، وتعددت أساليب التعبير عن الحماسة الوطنية ، فجرت أنهر الصحف والمجلات بفصول تستثير النعرة القومية ، وتفيض زهواً بالمجد القوى الطارف والتليد . وأدى الخطباء حناجرهم بصيحات التوعد والتهديد . وغصت شوارع باريس بالجند الذين لم يكفوا من ترديد صياحهم : « إلى برلين » . وجاوبتهم الكتائب الألمانية من ناحيتها بذلك الهتاف الذى رددت أصداؤه فى طرقات برلين : « إلى باريس » . وعبرت النجدات الانجليزية مضيق المانش ، واندفعت إلى العاصمة الفرنسية تشارك أهاليها فى الهتاف ، وتنتشى بما تسمع من عبارات الترحيب ، وكأنما مست أوربا جنة الحرب ، ولم يبق بها عقلاء يستهجنون مثل هذا الجنون .

وعجز المحيط الأطلسى — على رحبه — عن الحيلولة بين حمّى تلك الحماسة الضارية وبين عبورها إلى الشاطئ الأمريكى . ودب دبيب الفتوة فى شباب القارة الجديدة ، وانطلقت حناجره بصيحات مماثلة لصيحات الشباب الأورفى ، واشتط شعب الولايات المتحدة فى فورته السياسية ، فطالب رئيسه ملحاً بإعلان الحرب على ألمانيا ، والمبادرة إلى نجدة الحلفاء . وكان عهد هذه الشعوب بالحروب بعيداً . ولم تكن تلك الحروب البعيدة العهد القسوة التى انفردت بها الحرب الكبرى . فلا غرو إذا لم يفهم الشباب فى تلك الآونة معنى الحرب يخرج من كونها محك البطولة وسبيل المجد .

ولكن « وودرو ولسون » رئيس الولايات المتحدة فى ذلك العهد لم يصب بالحمى التى أصابت شعبه ، ولم يستمع نزعته إلى الحرب ، لأنه كان حكيماً عليماً ، يُطل من عليا، حكمته وعلمه على الشعوب المتناحرة فى سبيل متاع الدنيا الفانى ؛ فيربأ بأمته من الاشتباك فى مثل هذا الصراع ؛ وقضى ثلاثة أعوام يقاوم بمفرده نزوة تلك الأمة الفتية الجبارة ، ويقابل قيامها وقعودها فى سبيل تحقيق رغبتها بحزم وعناد ، فلا يتزحزح عن موقفه قيد شعرة .

ولكن أحداثاً جدّت لبلاده فجعلت تحاشى الحرب مستحيلا . فقد انبثت الغواصات الألمانية إزاء ساحل أمريكا الشرقى . وقطعت خطوط الملاحة بين القارتين القديمة والجديدة ، وجرؤت على اللواء المنمم بالنجوم ، فأرسلت السفن التى تحمله إلى قاع المحيط ، وكبرت خسارة أرباب المصانع والمتاجر الأمريكية بعد ابتلاع اليم سفنهم وبضائعهم ، وهاج هياجهم لتلك الكوارث التى أخذت تستفحل ، وقد تنفض الدول الطرف عن غنم يفوتها أو غرم يصيبها . إلا ما يمس منهما تجارتها وصناعتها بسوء .

ولم يعد فى الإمكان السكوت على هذا العدوان ، ووصلت إلى مسامع ولسون ضجة غضب شعبه ؛ ولكن دوياً آخر كان يدوى فى آذانه فيقض مضجعه . كانت جاليات الدول التى اجتاحتها الجيوش الألمانية وأذلتها ، وجاليات الدول التى ضمتها إليها الدولة الألمانية منذ أجيال واستعبدتها ، تهيب بضمير الشعب الأمريكى الحر متضرعة مستنجدة ، معلقة أملها فى استرجاع حريتها على معونته .

ولما وجد الرئيس ولسون ألا مناص من الحرب لحماية تجارة بلاده وصناعتها ، حمله ضميره الانسانى ، وتعلقه

بالمثل الأعلى ، على انتحال أسباب لامتشاق الحسام ، أشرف وأسمى من أسباب الكسب والخسران . فزعم أنه مقبل على الحرب لنصرة أماني الانسانية العانية ، وتحقيق ما تصبو إليه من حرية وعدل .

وأعلن الحرب ، وأرسل كتائبه إلى ميدانها ، واغتبط الحلفاء بالنصير المؤيد ، واغتم الألمان لظهور خصم جديد ، وقبل أن يبلى جيشه فى ساحة القتال بلاءه ، حضر إلى أوربا وأعلن شروطه الشهيرة التى اشترطها لعقد الصلح .

جعل « الحرية » من هذه الشروط حجر زواياها ، فلم يعن بالتجارة والملاحة من ناحية المغانم والمغارم المادية ؛ ولكنه انتصر لحرية التجارة وحرية البحار ، وأبى أن يعين — بدخوله الحرب — أمة على أمة . فانتصر لحرية الأمم وأيد حق كل منها فى تقرير مصيرها ، وخلبت شروطه لب أصدقائه وأعدائه على السواء ، وانحسم بينهما النزاع وزال العداء .

لم يجىء إنسان قبل ولسون برسالة كان لها هذا الذيوع السريع ، وهذا التأثير فى الجماهير ؛ فقد خفق لها قلب الانسانية بأسرها ، لأن صاحبها لم يأت بدين جديد أراد أن يبث تعاليمه فى قلوب الكافرين به ؛ ولكنه نادى بالمبادىء التى تنبض لها كل عرق ، وصبت إليها كل نفس . ووثقت الدنيا بإخلاصه ، وآمنت بقدرته على تحقيق ما وعد به . فناطت به رجاءها ، وأولته مطلق ثقتها ، ونادت به منقذاً لها ونصيراً .

وغمرت الأفراح — بعد أن وضعت الحرب أوزارها — نجاد الأرض ووهادها . وكما طافت بذهن الانسانية هموم الحرب وويلاتها ، واطمأنت إلى نجاتها منها ، وطالعها المستقبل من خلال شروط ولسون مشرقاً سعيداً ، نهلت من الطرب حتى انتشت .

زعم ولسون أنه لم يجىء إلى أوربا ليضع حداً للحرب الكبرى ، ولكن ليضع حداً للحرب على الاطلاق ، ومتى امتنعت الحرب امتنعت وسائل الغلبة والقهر ؛ فلن تعرف الأمم غالباً ومغلوباً ، ولن تبلو مذلة وعبودية ؛ فما أسعد الحياة التى يبشر بها ولسون ، وما أشبهها بجنة الخلد !

* * *

وكانت لشروط ولسون لذاذة الأحلام ، فما تناولها المفاوضون فى مؤتمر فرساي بالبحث والتمحيص ، حتى وضح أنها كذلك من معدن الأحلام ، ومن نسج الأوهام ؛ وأفاقت أوربا من غفوتها ، فما آبت إلى عالم الحقيقة حتى عاودها إحساسها بأوجاع الجراح المتخلفة من الحرب ، وعكفت على تلك الجراح تأسوها ، وأذعنت لحكم القدر جريحة قانطة ، بعد أن سما بها ولسون فترة من الزمن فوق متناول الأرزاء الأرضية .

فى ذلك العهد عرف أكثر من عشرة ملايين طفل شقاء اليتم ، وعانى أكثر من أربعة ملايين زوجة رزيئة الثكل . واحتمل العاملون عبء عَيْلة العاطلين من ذوى العاهات ، وضاقت سبل الرزق ، فانتشرت بين العمال البطالة ، واجتاحت الأزمة الاقتصادية المالية بلاد الأرض ، فأرهقت الفقراء والأغنياء على السواء ؛ ولم يبق على وجه الأرض فرد لم ينكر الحرب ، ولم تشمئز نفسه من خطوب الحرب ؛ ووجدت الانسانية عزاءها الوحيد فى اعتقادها أن الأمم التى بليت بتلك المحن ، لن تجرؤ على إضرام نار الحرب من جديد ، وبأن العالم سوف ينعم بفترة سلام مديد .

ولكن ما مضى على الحرب الكبرى خمسة عشر عاماً حتى زعزع الزمن هذه العقيدة ، وأدرك البصراء بعواقب الأمور أن حرباً جديدة أشد خطباً من سابقتها موشكة على الانفجار ؛ وتوالت بعد ذلك الأيام ، فزادت هذه الحقيقة وضوحاً ، وتسربت من ألمانيا الأنباء عما صار

عليه جيشها من استعداد حربي خطير . ولكن أكثرية الناس حملت أنباء ألمانيا على أنها دعاية سياسية ، ولم تأخذها مأخذ الجد .

واحتشد الجيش الألماني على حدود النمسا ، ثم اكتسحها من غير أن يفكر أحد في مقاومته بالسلاح وتكرار مأساة الحرب الكبرى ؛ ثم احتشد على حدود تشكوسلوفاكيا ، ولكن اقتحام هذه الدولة لم يكن في سهولة اقتحام النمسا ، لأن الحلفاء ضمنوا استقلالها في معاهدة فرساي ، ولم يتوقع الناس تخليهم عن ضمانها ، ولم تخيب انجلترا الرجاء فيها . فاعترضت لألمانيا ، ووقفت في صف الفريسة السائغة ، ودق الموقف وكاد حبل السلام ينقطع ؛ ولكن نفور أوربا من الاشتباك في حرب ثانية مع ألمانيا غلب على كل اعتبار آخر ، وتأثر تشمبرلين — رئيس الحكومة الانجليزية إذ ذاك — بالروح السائد الجانح إلى السلام النافر من الخصام ؛ وطار إلى ميونخ مدفوعا بإرادة الجيل ، وقابل زعيم الريخ ، وتتبعت أوربا كل خطوة من خطوات رحلته بأعناق مشرئبة وقلوب خافقة ؛ وأحس بالرجاء العالمي المعقود على مسعاه ، فلم يعر المصلحة والعزة والكرامة أي اعتبار ؛ وكأنما كان يسمع تضرع الأمهات والآباء والزوجات والأطفال ، فاشترى الصلح غير عابئ بفداحة الثمن .

ولكن ذلك الصلح لم يدم ، وتتابعت الحوادث التي زجت بأوربا إلى الحرب الناشبة الآن ، ولا أُلزم نفسي ما لا يلزم ، فأفصل تلك الحوادث المعروفة اليوم لكل إنسان ؛ وأول ظاهرة استرعت النظر في هذه الحرب أن الأمم المحاربة استقبلت نبأ بدء القتال بفتور . فلم تتأجج حماستها ، ولم يدو هتافها . إلا ألمانيا التي انطوت منذ هزيمتها في الحرب الكبرى على حقد مكظوم ، فسنحت لها الفرصة للتفريج عنه ، وانقضت على أعدائها انقضاض الموتور الطالب بوتره ، وفاجأتهم بما أعدته لهم من أدوات الفتك الذريع ، مما تضاءلت بجانبه عدة الحرب الكبرى ؛ وازداد نفور الشعوب من هذه المجازر الجديدة فلم يصمدوا لها طويلا .

سلمت الدول المحاربة لأعدائها بعد مقاومة من كل منها متفاوتة في الشدة ، إلا الامبراطورية البريطانية التي أبى عليها مقامها وجاهها ونبلها أن تستسلم ؛ وقد صرح قادتها بأن هذه الحرب في نظرها حرب بقاء أو فناء .

* * *

كان موقف الولايات المتحدة في أول هذه الحرب يخالف موقفها في أول الحرب الكبرى . فقد سرى بين شعبها الروح الذي كان ساريا بين شعوب الحلفاء في أوربا ، روح النفور من الحرب والرغبة في تحاشيها ؛ ومن المصادفات أن يكون رأي رئيس جمهوريتها مخالفاً لرأي رعيته في هذه المرة أيضاً .

كان الرأي السائد في القارة الجديدة أن اشتراكها في الحرب الماضية لم يجد فتيلا ، وأن استمساكها بمبدأ منرو — مبدأ العزلة — وتحصنها وراء محيطها أولى بها وأسلم ؛ ولكن الرئيس روزفلت فطن إلى خطورة هذه الحرب الجديدة ، وما يتهدد العالم أجمع من شرورها ، ورأى أن سياسة الإقدام أسلم من سياسة الإحجام . رأى أن الخروج للشر ومجابهته أجدى من انتظاره وراء الحيطان في عقر الدار ؛ ولو ترك له الخيار لآثر إرسال جيشه إلى أوربا والاشتراك في إطفاء حمم الحرب المتقدة قبل أن يستفحل البلاء، ويستعصي على ملتمس الدواء .

ولكنه لم يصارح أمته برأيه ، ولو فعل ذلك لفقد سلطانه عليها ؛ لأن مرارة الفشل الذي منى به الرئيس ولسون كانت لا تزال عالقة بحلوقها . كانت الفكرة السائدة بين أفرادها أن الدم الأمريكي سفح في الحرب الماضية هدراً على بطاح أوربا ، وأن ولسون كان ألعوبة في أيدي ساستها ، وأضحوكة في نظر العالم ، وأن فشل

عصبة الأمم — مؤسسة السلم الكبرى — قضى على كل أمل في هدوء البركان الأوربي. فخير للولايات المتحدة أن تترك الأوربيين منطوين على حزازاتهم التي لا تهدأ، وتدعهم يصلون بجمرها وحدهم.

خواطر وخوالج من غرس مبادىء ولسون، ومن نتاج الفشل الذي منيت به؛ ولكن الرئيس روزفلت نظر للأمر من وجهة أخرى؛ إنه لم يعن به لمحض رغبته في السلام الأوربي، وحقن الدماء، والتبشير بدين المحبة والاخاء، والتنديد بداء الضغينة والبغضاء؛ ولكنه نظر له من وجهة المصلحة الأميركية، والخطر الذي يتهدده من تضاعف المطامع النازية بعد توالي انتصاراتها.

وبرهن روزفلت على كفايته العملية الفريدة بالخطوات الخفية الوئيدة التي خطاها صوب غايته. وكان من حسن حظه وحظ أمته أن مجلت الأيام بإثبات صواب حدسه، فأخذ الرأي العام يميل إلى جانبه، حتى رجحت الكفة المنحازة إلى رأيه.

بدأ روزفلت مشروعه السياسي الضخم بأن ألغى حظر بيع الأسلحة للبلاد المحاربة، وأراد الظهور بمظهر الحيدة فأباح لكافة الدول شراء ما تحتاج إليه منها في حدود ذلك المبدأ الذي قرره (ادفع الثمن وانقل البضاعة). ودخل في حسابه أن تستفيد انجلترا وحدها من هذا المبدأ، لأنها صاحبة السيادة على البحار، ومالكة أكبر رصيد من الذهب، فمن يستطيع غيرها أن يدفع وينقل؟!

وأدرك أن بلاده تؤيد هذه السياسة الجديدة. بل فهم أنها تؤيد كل سياسة ترمي إلى مساعدة الحلفاء وعونهم على النصر، بشرط تجنب الحرب. فخطا ببرنامجه السياسي خطوة إلى الأمام. وقرر هذا المبدأ الجديد (تحاشي الحرب مع العطف على الدول المعتدى عليها، وتزويدها بما تحتاج إليه من ميرة وذخيرة)

وتوقع الناس أن يقابل هذا المبدأ الجديد بمعارضة شديدة من خصوم الرئيس السياسيين. ولكن تظاهر الرئيس بإصراره على تجنب الحرب، شد أزر مؤيديه، وأسقط في يد معارضيه، وكان لموقف ألمانيا أثر أكبر في انتصار سياسته، لأن حكومة الريخ لم تبادل حكومة وشنطن خطتها الهادئة بعداء جدي صريح، وقضلت التظاهر باللامبالاة على المصارحة بالشر.

ولم يقف توغل الجيوش الألمانية عند حد، فبعد اكتساح الأمم الشمالية والشرقية والغربية، صوبت زحفها إلى الجنوب، فغزت ممالك البلقان، وثلت عروش ملوكها. ونشطت القوات الألمانية الجوية والبحرية في ميداني الجو والبحر، وعرضت للسفن التجارية الميممة صوب انجلترا، فطاحت بها غير عابئة بلون العلم المعقود عليها. وأيقن العالم أن ألمانيا لن تقنع بتحقيق مطامع استعماري محدود، وأن ضراوتها لن تنصب على الأمم المحاربة وحدها. وتعلق رجاؤه بانضمام الولايات المتحدة إلى الأمم الديموقراطية المحاربة، وتوقع أن يخطو الرئيس روزفلت الخطوة الجريئة المحتومة في سبيل الحرب، وهو ما زال ينتظرها قلقاً ويعقد أحلام السلام عليها.

وتبدل اتجاه الرأي العام في الولايات المتحدة، فأصبح يرى الحرب شراً لا بد من مجابهته، بعد أن كان مصمماً يوم نشوبها على تحاشيها بأي ثمن. وأخذ يرتقب خطب رئيسه، ويتوقع في كل خطبة أن يشتم من عباراتها رائحة الحرب. ولكن روزفلت الذي لم يعبأ بمعارضة بلاده لرأيه إبان الحرب، ظل اليوم على حزمه الأول، فلم يندفع — بعد تغير شعور شعبه — وراء أهواء ذلك الشعب الجامحة، ولم يتبع غير أساليبه السياسية الماهرة؛ فزاد معارضيه السياسيين إرهاقاً، وحرمهم تهيئة جو يتنسمون فيه أنفاسهم، ويستردون الروح والحياة.

وأخذ يضيق على ألمانيا الخناق، فتوسع في تطبيق قانون الإعارة والتأجير، وجهز انجلترا وسمه بأدوات

نحن واللغات السامية

نحن نعلم أن أقدم المدنيات التي عرفتهـا الانسانية وتدين لها بالشيء الكثير ، هي المصرية القـديمة على شفاف النيل ، والبـابلية الأشورية في وادى دجلة والفرات ، والهندية في حوضى السند والكنج ، والصينية في سهول هوانج هو وينج تسى كينج . ونحن نعلم إلى جانب ذلك أيضاً ، أن المدنيات الغربية حديثة عهد بالنسبة للشرقية ، وأن هناك أثراً عظيماً تركته القديمة في الحديثة متى وجدت عوامل الاتصال وتوفرت الظروف الاجتماعية . ففي الألف الثاني قبل الميلاد ، شعت المدنيتان الشرقيتان المصرية والبابلية الأشورية ، أشعتهما على أوربا : الأولى عن طريق كريت والثانية عن طريق آسيا الصغرى . وفي الألف الأول قبل الميلاد أيضاً ، نجـد أن هذا الاختلاط بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان أخذ ينمو ويزداد ، فكانت ثمرته الأولى أن استعار اليونانيون من الفينيقيين ، الذين تربطهم والعرب رابطة العنصر والعقائد واللغة ، الأبجدية الفينيقية التي أخذت في الانتشار بعد ذلك في كثير من البلاد المتمدنة ؛ واهتم فيثاغورس بالحكمة الشرقية ، وهيرودوت بالشرق شعوباً وبلاداً . ولما ظهر الاسكندر وقام بفتوحاته ، تزاوجت العقليتان تزاوجاً ترك أعمق الأثر وأبعده في حياة العـالمين الشرقي والغربي . ثم جاءت المسيحية تحمل طابع العقلية الشرقية في ذلك الحين ، ووفقت فغزت أوربا ؛ واستعمرت العقلية الأوربية استعماراً أصبح من العسير عليها التخلص منه .

ولم يقف أمر العلاقات عند هذا الحد ، بل نجد أن لغات تلك الشعوب الشرقية التي ذكرناها ، والتي تعرف عند علماء اللغات بالأسرة السامية الحامية ، تشق طريقها إلى الغرب فتعرض نفسها على اللغات الغربيـة قديمها وحديثها ، فهذه الصلات ، وتلك العلاقات ، إلى جانب العوامل السياسية ، دفعت بعض الأوربيين إلى الاهتمام باللغات السامية الحامية اهتماماً عظيماً ؛ وذلك لأن العالم

الحرب ، فآوى بلاد الرخ أدبة الهارب من غير أن يدخل الحرب ، وظل يسير صوب الغاية التي وضعها نصب عينيه سير السلحفاة ، يمشي على هينته ، ولكنه لا يتردد ولا يتوقف .

* * *

وإذا كانت الظروف التي لابست حكم ولسون تختلف عن ظروف حكم روزفلت ، فإن عقليتي الرجلين وسجيتيهما تختلفان كذلك ؛ فالأول رجل مثالي يؤمن بالمبادئ السامية لذاتها ، ويتوزع عطفه بين البشرية على اختلاف أجناسها ، ويريد الخير والعدل والحرية لكل الأمم على السواء . أما روزفلت فرجل عملي يؤمن بالمبادئ السامية لفائدتها ، ويحب من أمم البشر الأمة المنتجة النافعة ، ويريد الخير والعدل والحرية للأمم التي اعتدت عليها ألمـانيا ، عدوة الديمقراطية ؛ ولم يدافع ولسون عن حرية التجارة وحرية البحار إلا تعلقاً بالحرية على الاطلاق . أما روزفلت فيريد الحرية للتجارة والملاحة حتى يزداد ازدهارها ، ولا يعوق نماء الحضـارة عائق . ولم يكره ولسون اعتداء ألمانيا على الحلفاء إلا كراهية منه للاستبداد والاعتداء . أما روزفلت فيهتم أولاً بالتوازن الدولي وسلامة أمته ، ويكره الطغيان خوفاً من مغبة الطغيان . والفرق بين مبادئ الرجلين كالفرق بين عذوبة الأحلام ومرارة الحقائق .

وإذا كانت مبـادئ ولسون منيت بالفشل لأنها لا تلائم طبيعة البشر النزاعة إلى الكفاح ، المجاهدة في سبيل الغلبة والسيادة . فالعالم ينتظر كيف تنتهي مبادئ روزفلت العملية .

محمد منير الشوباشي

الحديث أدرك أنه لن يستقيم له بحث علمي يتصل بتدرج التفكير البشري وتطور الحضارة الانسانية ، إلا إذا عني باللغات السامية الحامية عناية خاصة ، تمكنه من دراسة تراثنا العقلي المكتوب منه والمنقوش ؛ ففي مصر ظهر الضمير ، وطلع الفجر ، وفي أرض بابل وأشور عثرنا على أقدم وثيقة قانونية في تاريخ البشرية ، أعني شريعة حمورابي ؛ وقد نهض الغرب بهذا النوع من الدراسة نهضة مباركة مكنته من أن يخطو بالعلوم العقلية خاصة خطوات موفقة ، فعلوم اللغات تقدمت تقدماً تغبط عليه ، حتى أصبح من اليسير علينا الآن ، لا أن نقارن بين اللغات السامية الحامية فحسب ، بل بينها وبين اللغات الهندية الأوربية أيضاً ؛ وهذا يساعد عالم اللغات على تتبع الظواهر الصوتية وتخرجها وتاريخ الألفاظ وتطورها ؛ كذلك الحال مع التاريخ والأدب والفلسفة والديانات وتاريخ سائر العلوم والفنون ، والتي مهدت للغرب أن يتبوأ مكانته العلمية الحاضرة .

وإذا أردنا نحن أن ننهض نهضة علمية حقة قائمة على أساس متين ، وجب علينا أن نعنى باللغات السامية الحامية عناية الغرب باللغتين اليونانية واللاتينية . فكما أن الاوربيين ترجع لغاتهم وآدابهم — لحد ما — إلى هاتين اللغتين وآدابهما ، كذلك الشعوب السامية الحامية ، أعني سكان الجزيرة العربية ، ومعظم وادي النيل ، بما في ذلك البلاد الحبشية ، والكثرة المطلقة من الشعوب الأفريقية النازلة فيما بين خط عرض ١٦ شمالا والبحر الأبيض المتوسط ، لأن لغاتنا وآدابنا ، تاريخنا وديانتنا ، وحدة لا تتجزأ ، يجب الاهتمام بها جميعا إذا أردنا درس ظاهرة منها ؛ فاللغة المصرية القديمة مثلا ما كانت لتفهم على وجه التمام لو درسها علماء المصريات على غير ضوء بقية السامية الحامية كالبابلية الاشورية والكنعانية والارامية والعربية والحبشية . كذلك الحال مع دياناتنا الحالية ، سواء كانت اليهودية أو المسيحية أو الاسلام ، فجميعها لها علاقة بالله البابلية الاشورية ، أو المصرية القديمة ، أو الكنعانية ، أو بها جميعا ؛ والسبب سهل يسير ، وهو أن اختلاط هذه الشعوب وامتزاجها جعل تراثها العقلي ملكا مشاعا لهذه الأسرة البشرية ، وأصبح من البديهي أن نجد هذا التشابه وهذا التناسق بين الديانات السامية الحية الظاهرة من ناحية ، وبينها وبين السامية الباطنة من ناحية أخرى ؛ والقرآن الكريم مثلا مملوء بالآيات والاقتباسات التي تشير إلى موسى وشريعته ، وإبراهيم وملته ، وداود وزبوره ؛ كذلك الحال مع لغتنا العربية ، فلن نستطيع تاريخ ألفاظها ، وتذوق معانيها ، ودراسة تطور نحوها وصرفها ، والكشف عن سر نظمها ونثرها ، إلا إذا درسنا سائر لغات هذه الأسرة التي تنتمي إليها ؛ ففي النثر العبري مثلا يجب أن نتلمس تاريخ النثر العربي ، وفي الشعر العبري أيضا يجب أن نرى صورة من أقدم صور الشعر العربي والعروض العربي ، وتعليل ذلك أن الادب العبري هو تراث عقلية أمة سامية لازمت وما زالت تلازم العربية في سائر عصورها التاريخية قبل الميلاد ، وقبل الاسلام ، بعد الميلاد وبعد الاسلام ؛ فالامة العبرية عاشت في الجزيرة قبل أن تنزل فلسطين حوالي ١٤٠٠ ق م ؛ وكان العبريون يتكلمون لهجة آرامية أقرب إلى العربية منها إلى أي لغة أخرى ؛ فهم إذاً لما هاجروا إلى فلسطين واستوطنوها ، وتركوا لسانهم القديم ، وتعلموا لغة سكان البلاد التي نزحوا إليها أعني الكنعانية ، حملوها خيالهم الاصلي وأسلوبهم القوي ، فنثرهم وشعرهم الذي حفظ لنا العهد القديم بعضه ، والذي فيه ما يرجع إلى عام ١٢٠٠ ق م ، يجب أن نعتبره أقدم مظهر من مظاهر النثر السامي العربي الذي وصلنا ، ولا سيما إذا علمنا أن النتيجة التي وصل إليها علماء الساميات أخيراً ، هي أن قواعد هذا الأدب ونحوه لا تختلف كثيرا عن قواعد لغتنا ونحوها .

ففي العهد القديم إذاً يجب أن نرى أقدم مصدر

من مصـادر الأدب العبرى واللغة العبرية ، وذلك لأن ما وصلنا إلى اليوم من آثار الأمم السـامية الأخرى ، لا يعادل ما لدينا فى اللغـة العبرية من ناحية ، ولأنه ليس تراث بيئة خاصة ، أو نتيجة قريحة عقلية سامية خاصة ، حتى نقول عنه إنه أدب مركزى من ناحيـة أخرى . فالأدب العبرى أدب نكاد نقول عنه إنه مزيج من آداب الشعوب السامية الحامية . ففيه أثر مصرى ، وأثر بابلى وأشورى ، وفيه أثر صحارى الجزيرة وصفاوة سمائها ؛ وعلاوة على ذلك فهو خير مرآة للعقلية السامية والتاريخ السامى فى العصور المختلفة التى سجل فيها هذا الأدب ودون ؛ وهو بالرغم من قدمه مازال يوحى إلينا كثيراً من صور الحيـاة وحالات النفس المختلفة ، كما يتبين لنا ذلك عنـد ما نعرض لكل سفر من أسفاره على حدة . ولا يمنعنا ذلك من أن نعجل ونقول إن شاعر ألمانيا الخالد (جوته) وجد فى أيوب مثاله فى (فاوست) ، وتأثر (دانتى) بهذا الأدب فى كوميديته الآلهية ، واستمد (راسين) منه (استير) . وبينا نجد هذا الأدب يلعب دوره الهام فى سائر الآداب العالمية ، إذا بنا نحن الساميين نهمل هذا الكنز الثمين ، بل هذا النبع الذى لاينضب ، ونترامى فى أحضان الآداب الأوربية ولغاتها ، رغماً من الفوارق العظيمة بين مزاج الأوربيين ومزاجنا ، وبيئتهم وبيئتنا ، ونظرهم إلى الحياة ونظرنا ؛ وقد ذهبنا بعيداً ففرضنا معرفة اللاتينية واليونانية على كل طالب يريد أن يتفرغ للعربية ، كما لو أن آلهة الشعر لم تلهم عربياً . ويؤلمنى أيضاً أن أقول هنا إن الفكرة السائدة فى مصر أن طالب الآداب العربية يجب عليه أن يعنى بالفارسية والتركية ، كما لو أن أدبنا العربى ينتمى إلى هضـاب إيران وبلاد المغول . والواقع أن الفارسية والتركية لغتان آريتان من نتاج عقلية تخالف العقلية العربية السـاميـة مخالفة تامة ، تخالفها فى العقائد والعادات ، فلا قرابة فى اللغة ولا صلة فى التفكير ، وكل الذى حدث أن غزت العربية وغزا الاسلام هاتين اللغتين ، فأصبح الأثران العربى والاسلامى فيهما من القوة بمكان ، بحيث أفهم أن طالب الآداب الفـارسية والتركية هو الذى يجب أن تفرض عليه العربيـة كما تفرض على طالب اللغة الاسبانية والأدب الاسبانى فرضاً .

وإن كنا فى مقال اليوم أوجزنا فى عرض الأسباب التى تحتم علينا وجوب العناية بدراسـة اللغات السامية ، فذلك الايجاز لا يمنع من أن نختم كلمتنا بالاعتراف أنه لن نوفق فى خلق أمة صحيحة قوية تصمد لحوادث الدهر وطغيان الطغاة إلا إذا ربطنا ماضينا بحاضرنا وكشفنا القناع عن تراث آبائنا وأجدادنا ، ليسهل علينا أن نوارى هذه الاختلافات السطحية التافهة فيتم التلاق ، وهذا لن يتم إلا إذا عنينا بلغاتنا الأصلية .

الدكتور فؤاد حسنين
المدرس بكلية الآداب

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ مليم فى مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـدد ١ صاغ

نماذج بشرية :

جوليان سوريل

Julien Sorel

جوليان سوريل بطل رواية « الأحمر والأسود » لكاتب الفرنسى ستاندال Stendhal سنة ١٧٨٣ — ١٨٤٢ . نموذج لارستقراطية العقل التى تشاء الأقدار أن تشب بين طبقات الشعب المتواضعة ، ثم تنظر فاذا بوقاحة المال وعزة المركز وصلف المحتد تتنكر لما وهبت وتود أن لو درجتها أكفاناً من الاحتقار ، وإذا بكبرياء العقل تحرق الأكفان وتقطع الأيدى .

نادت الثورة الفرنسية بالمساواة بين الرجال ، كما حطمت الامتيازات لتجعل الحقوق وفق المواهب ، وسرى هذا المبدأ الجميل حتى لكأن الأطفال يرضعونه مع ألبان أمهاتهم ، فيكبر صغيرهم وقد استقر فى نفسه أن ملكاته سبيل مجده ، وأن الوجاهة الاجتماعية لا بد آتية فى آثار التفوق العقلى . ولكن ما يكاد الرجل منهم يدلف إلى الحياة فى العشرين من عمره حتى تنهض أمام طموحه وإعانه بملكاته أشد العقبات ؛ فكم من نفوس صغيرة ومواهب واهية قد دفعتها فى سبيله القرابة وحماية ذوى السلطان وقوة المال ودس النفوس الملتوية فسدت أمامه المنافذ ، وسبقته إلى غايات المجد ! وهكذا تتضور النفوس الممتازة جوعاً ، وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الادارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز مقتنعة بأتفه كسب ، وما تزال تحنى أصلابها وتتصبب عرقاً حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق . وأما ملكاتها فاذا تجدى فى هيئة اجتماعية لا تقيم لها وزناً ؟ وهكذا تعلن الجماعة إفلاسها ، إذ لا تمكن خيرة أبنائها من حقوقهم ، فيحتمى رجال الفن ورجال العقل بعالم الأحلام ، بينما الطبائع السائلة الخيرة يتناولها اليأس فترضى بحياة وضيعة متئدة الخطى ثقيلة التقدم ، راضية بما يتخلى لها الغير عنه من كسب حقير ، وقد أضناها الجهد وهدها الظلم . وأما الارادات القوية — ومن بينها سوريل Sorel — ممن لا يعتمدون على حام ولا قريب عهد لها السبيل فماذا تفعل ؟



جوليان سوريل

أما القناعة بالقليل والرضا بالظلم فلا ، بل تأهب للنزال ، وقد تجهمت لهم أوجه الجماعة التى يحيون بينها ، وحرمتهم عدل ما تواضعت عليه من قواعد الأخلاق ؛ فليطرحوا تلك القواعد التى كبلوا بها منذ الطفولة ، وليسكتوا كل ما تستشعر نفوسهم من رحمة أو يختلج فى ضمائرهم من ندم ، وليخفوا إلى الحياة مرفوعى الرءوس ، حديدى القبضات ، وليشقوا سبيلهم فى جسارة وعنف عندما تسنح الفرصة ، وليصطنعوا — إلى أن تسنح — كل قسوة ونفاق ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، فاما الصدر أو القبر ، وما تستطيع نفوسهم أن تركن إلى وضيع . وهكذا

تحمل الجماعة منهم كما جعلت من « سوريل » ، طيوراً جوارح ، وإن تكن — لسوء الحظ — بيد الأداة الحكومية لهم بالمرصاد ، تقودهم إلى المشانق كما قادت سوريل الذى لولا عبوس القضاء لجثت تحت قدميه تلك الجماعة التى أنزلت بنفسه الخراب .

لم يكد سوريل يبلغ العشرين من عمره (سنة ١٨٢٨) حتى كان مجد نابليون قد زال ، وقد عادت الملكية ، وعاد رجال الدين إلى نفوذهم القديم ، ولكنه ما زال يذكر ما رآه غير مرة أيام طفولته من فرسان نابليون فوق جيادهم الأصيلة ، وقد انتفت من حولهم معاطفهم الضافية البيضاء ، وغطت رءوسهم قلانس تحليها شعور الخيل السوداء ، مارة بقريته إلى جوار جرينوبل ، وهى عائدة من غزواتها بإيطاليا . ولكم من مرة نظر من نافذة غرفته فإذا الخيل واقفة فى الساحة أمام المنزل أو مشدودة أعنتها إلى قضبان نافذته ! ولكم استمع إلى أنباء البطولة التى ترددها كل الألسنة عن معارك « لودى » و « أركول » و « ريفولى » ، فتتوق نفسه إلى مهنة الحرب ! ولكنه نظر فوجد أن زمن البطولة قد ولى ، وأن نابليون قد أصبح فى نظر ذوى السلطان غاصباً ، يورد النطق باسمه موارد التهلكة ، بينما انقلب الأمر كله لرجال الدين يرفعون من تشاء رغباتهم ، ويخفضون من يستهدف لسخطهم ؛ فانعقد عزمه على أن يتخلى من آماله فى الجيش وأن يصبح من رجال الكنيسة ، وإذاً فليستبدل الرداء « الأحمر » بالرداء « الأسود » .

ولد جوليان لأب نجار فى قرية صغيرة ، وكان أبوه أمياً فظاً غليظ القلب . ولقد اتفق يوماً أن أتى الأب إلى « ورشته » ، وقد ناط بجوليان أن يقوم على ملاحظة العمل ، وإذا به يجده ممتطياً كتلة من الخشب ممدودة قرب السقف وبيده كتاب يقرأه . فناداه الأب فلم يسمع لشدة ضوضاء المناشير ؛ فصعد إليه ، وبضربة قوية على رأسه أوشك أن يسقطه على الأرض ؛ ولو أنه سقط لتقطعت أوصاله فوق الآلات المنتشرة هنالك ؛ ولكنه أمسكه بيديه الغليظتين صائحاً : « أيها الكسول ! أو ما تستطيع أن تقرأ كتبك اللعينة فى الليل عندما تذهب إلى القسيس لتضيع وقتك ، بدلاً من أن تلهو بها الآن عن ملاحظة المناشير ؟ » ولزم جوليان الصمت والدموع تترقرق فى عينيه ، لا لما أصابه من ألم ، بل حزناً على كتابه الذى طاحت به ضربة أبيه إلى نهر مجاور .

— انزل يا حيوان لأكلمك !

ولكن جوليان لم يسمع أيضاً لشدة الضوضاء من حوله ، فأتى الأب سوريل بقطعة طويلة من الخشب وضربه بها على كتفه ، ذلك لأنه لم يشأ أن يعود فيصعد إليه ، ونزل جوليان ، وطرده أبوه يعنف أمامه إلى المنزل ؛ وكم كانت حسرة الغلام عندما نظر إلى النهر وهو يبتلع « ذكريات سنت هيلانه » أعز ما يملك .

ولو أنك رأيته يومئذ لرأيت خدوداً محمرة وأعيناً ساجية ؛ وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، غلام ضعيف فى مظهره غير منتظم مقاطع الوجه ، وإن يكن دقيقها ، ذا أنف منحن قليلاً إلى جانب ؛ وأما عيناه فكانتا كبيرتين سوداوين شديدتى البريق — ما هدأت نفسه — بريقاً ينم عن حرارة وعمق فى التفكير ؛ وأما فى ذلك اليوم فما كنت ترى فيهما إلا بغضاً مخيفاً ؛ ولقد كان شعره الكستنائى القاتم يكسو أعلى جبهته ، فتبدو صغيرة ، مما يبالغ فى مسحة الشر التى تلوح عليه عندما يأخذه الغضب . وفى الحق أن جوليان كان أصيلاً فى خلقه ، وفى ضمور خصره ما ينبئ بالخفة أكثر مما يدل على القوة . ولقد رأى أبوه منذ الطفولة فى ميله إلى التفكير وفى شحوب لونه ما حمله على الاعتقاد بأنه لن يعيش ،

وإن عاش فسيكون عبئاً على أسرته .

وقد كان جوليان موضع احتقار أهل المنزل جميعاً ، فكره إخوته كما كره أباه ؛ ولكم ضُرب بالساحة في أيام الأعياد .

لم يكد جوليان يدخل المنزل حتى أحس بيد أبيه القوية تمسك بكتفه ، فارتعدت فرائصه وتوقع الضرب ، ولكن لحسن حظه لم يكن شيء من ذلك ، وإنما كان حوار بين الأب وابنه ، إذ أن عمدة القرية قد طلب إلى القسيس أن يأتيه بمرب لأولاده ، فلم يجد القسيس خيراً من تلميذه جوليان ، وقد توسم فيه كل نجابة ، فكرس على تثقيفه الكثير من وقته ؛ وأروع ما كان في ذلك الحوار الفقرات الآتية :

الابن : وأي أجر سأنال على ذلك ؟

الأب : الغذاء والملبس وثلثمائة فرنك .

الابن : ولكني لا أريد أن أكون خادماً .

الأب : ومن قال لك إنك ستكون خادماً أيها الحيوان ؟ أتظن أني أقبل أن يكون ولدي خادماً ؟

الابن : ولكن مع من سآكل ؟

وكان في هذا السؤال الأخير ما أحرج الأب سوريل ، وخشي أن يكون في جوابه ما لا يقتضيه الموقف ، فثار ضد جوليان وأشبعه سباباً ، متهماً إياه بالنهم ، ثم تركه ليستشير أبناءه الآخرين .

وذهب جوليان إلى منزل المسيو دي رينال de Rênal عمدة القرية ، فوجده رجلا غنياً من رجال الصناعة ، نظر إليه فاذا به قد وخط الشيب عارضيه ، فلاح رأسه من لون بدلته الرمادية ، وأحس فيه برضا عن النفس واعتزاز بالشخص لا تجده إلا عند ذوي العقول الضيقة والخيال المحدود : رجل تلخصت مواهبه في أن يعرف كيف يحصل على حقه في أسرع وقت ، وكيف يرجئ ما عليه إلى أبعد حين ؛ ومع ذلك فقد كان المعروف عن المسيو دي رينال أنه ابن نكتة حاضر البديهة ، والفضل في ذلك راجع كله إلى دستة نكات ورثها عن خال له . وأما مدام دي رينال فكانت امرأة طيبة النفس ، في الثلاثين من عمرها ، وكان جمالها ما يزال يبهج الأبصار . وهال جوليان ما رأى من بذخ هؤلاء الناس ، وخشي احتقارهم له أو إدراجه في عداد الخدم ، فعقد عزمه على أن يرغمهم على احترامه ، بأن يقنعهم كما يقنع نفسه بأن النزاع إنما يقوم بين غناهم وفقره ، وأما قلبه فأسمى من أن تناله وقاحتهم ، وقد وضعه حيث لا تستطيع أن تصل إليه أمارات رضاهم أو إعراضهم ، وتلك هنات هينات .

ذلك موقف جوليان من العمدة وزوجه . وأما الأطفال فقد كان يعلم أنه لا ذنب لهم في جراح نفسه ، فأخلص في القيام على تربيتهم ، يأخذهم بالعدل دون إسراف في العطف ، وأنى له مثل هذا الاسراف وأقوى سلاح اعتزم أن يلتجئ إليه ضبط النفس والسيطرة على المشاعر ، بل والتظاهر بغير ما يضمر ؟ ولقد كانت له في ذلك الأعاجيب ، فلقد تسوقه الحماسة يوماً في معرض الحديث عن نابليون إلى إعلان فرط إعجابه بهذا القائد العظيم ، ثم يفطن إلى ما في ذلك من حمق قد يودي بمستقبله ، فيعاقب نفسه بأن يشد ذراعه إلى عنقه شهرين كاملين ، مدعيا أنه قد كسر وهو يحرك قطعة من الخشب . ولقد يخلص القسيس قريبه الود ، ويعترف له بالفضل ، ولا يغيظه منه إلا انتفاذه لكنون نفسه ، فما كان جوليان عميق الايمان ، ولا كان ميله إلى الاشتغال بالدين صادقاً ؛ وإلى هذا فطن القسيس ، فاتخذ شاباً هدفاً له أن يخدع هذا الرجل الصادق النظر عما فطن إليه من أمره . ولقد تحس مدام رينال في جوليان أصالة في الرأي ، وقوة في الارادة ، واعتزازاً بالذات ، تدهش له فتعجب به ، ثم ينشرح لذلك صدرها ، وتساورها الشكوك عن حقيقة شعورها نحوه ،

وإذا بالشك ينجلي عن يقين ، وإذا بمدام رينال تحب جوليان ، وجوليان عنها لاه ، وما إلى هذا تتطلع نفسه الجريحة ، وقد اتجهت بكل عنف إلى الثأر من تلك الجماعة التي تحتقره لغير ذنب جناه ! ويكون في موقفه من تلك السيدة العطوف ما يدهش .

كان من عادة مدام دى رينال أن تصطحب جوليان وصديقة لها إلى حديقة المنزل وقت العشية ! وفيما هم جالسون ذات ليلة مست يد الريفي يد السيدة عفواً ، فسارعت السيدة إلى سحبها ، وحسب جوليان في ذلك احتقاراً له ، وتنغصت بذلك حياته طوال الليل والنهار التالي ، حتى أتى الليل من جديد ، وعاد الثلاثة إلى مجلسهم من الحديقة ، ووطد الشاب عزمه على أن يمسك باليد التي تراجعت عنه بالأمس ! وكان صراع بينه وبين نفسه لم يجد منه مخرجا إلا بتحديد موعد لتنفيذ عزمه ، وكان ذلك الموعد دق الساعة العاشرة ، ودقت الساعة فأمسك بيد مدام دى رينال ، وتراجعت اليد فعاد للامساك بها ، واستسلمت السيدة لجرأته ، فتركت يدها في يده ، بل عادت هي إلى أخذ يده عندما رجعت من قضاء أمر نهضت إليه ، وكان ذلك المساء فاتحة سقوط تلك المرأة المسكينة ! ووجد جوليان في استسلام السيدة نشوة لا حد لها ، لا نشوة الحب ، ولا نشوة اللذة البهيمية ، بل نشوة الانتصار المتعطشة إليه نفسه .

وذاع الأمر حتى لم يعد هناك معدل عن أن يغادر جوليان هذا المنزل الذي دنسه ، ليذهب إلى مدرسة القسس بإحدى المدن المجاورة يتم بها دراسته ! وقبل بالمدرسة لتفوقه الظاهر ، وهنالك زادت خبرته بالرجال وزاد ظنه بهم سوءاً . نعم إنه قد وجد في الأب المشرف على المدرسة عقلا راجحا ، وقلباً كبيراً ، قدر مواهبه حق قدرها ، بل وأحس نحوه رغما عنه بحب لا ينبغي لرجل دين أن يخص به فرداً دون آخر ، وحبه كله لله وحده ! ومع ذلك ألم يقل له هذا الأب يوماً ما : « نعم يا بني إني أستشعر نحوك العطف ، والله يعلم إن ذلك رغماً عني ، وما أجهل أنه ما ينبغي لي أن أخص أحداً من البشر بحب أو بغض ، وأن أكون بينهم عادلا فحسب . أي بني ، إن مستقبلك شاق ، وفيك ما ينفر النفوس المبتذلة ، سيطاردك الحسد والنميمة ، وحيثما اتجهت أو ساقتك الأقدار ستشقى دائما بحقد زملائك الذين لن يتظاهروا بحبك إلا ليمعنوا في الكيد لك . وما أرى لهذا علاجا غير الركون إلى رحمة الله الذي شاء أن يجعل في كره الناس لك عقابا عادلا لغرورك ، ليكن سلوكك نقيا ! وسوف ترى أن أعداءك سيبوءون بالهزيمة ما تعلقت بالحقيقة الخالدة تعلق الغريق بأسباب النجاة » .

وشاءت شهوات الحقد ودس النفوس الوضيعة أن يتخلى الأب المشرف على المدرسة عن مركزه ، وخشى الأب على جوليان غيرة إخوانه وحقدهم ، فأخذه معه إلى باريس حيث وجد له عملا كسكرتير للمسيو دى لامول de la mole أحد الأشراف الوزراء ، بل أقوى الوزراء نفوذاً في ذلك العهد ! ومع ذلك قد نتساءل : أكانت مخاوف الأب من أجل جوليان على أساس ؟ ألم يتفق لهذا الشاب الموهوب أن لاقى يوماً المطران فأعجب به ، وأهداه كتاباً قيماً عاد به إلى المدرسة ، فسكنت الأحقاد من حوله وأخذ إخوانه يسلمون له بالتفوق ؟ ثم ألم يحدث يوما أن رفعه الأب المشرف نفسه إلى رتبة قارىء الكتب المقدسة أيام القداس ، فأخذ إخوانه في تملقه بدلا من الكره والحقد على مواهبه ؟ ولكن من يدرينا وكل ما أصاب من توفيق لم يستطع أن يسكت غل القلوب جميعها ، وقد استمر الكثير منها على عدائه الظاهر أو الخفي .

وكانت إقامة جوليان عند المركيز دى لامول بباريس

أشق من إقامته عند المسيو دى رينال عمدة قريته ، ولكم قاسى من احتقار المركيزة بنوع خاص ، هى وزائراتهـا ! ولكم ضاقت نفسه بأحاديث المركيز وإخوانه بالصالون كل مساء ، وحديثهم لايعدو أتفه الأشياء ، حتى أصبحت حياته جحيما ! وكان إحساسه من الارهاف بحيث أصبح يشعر بجرح من كل نظرة ، وتولدت فى نفسه من العُقد ماجعله يخشى اعتداءً فى كل لحظة ، ولكنه رغم ذلك صمد لما حوله من ضغط بعزم قوى ، وبادل الكل احتقاراً باحتقار ، وتعاليا بتعال ، حتى دانت له كل النفوس ، وبلغ الأمر ببنت المركيز نفسها أن أعرضت عن كل من يدعى إليها من أشراف لتتعلق به ! وكان يوم همت الفتاة بالسقوط فيه بين يديه ، فساورته طبيعته الخيرة ، وأخذ يناقش نفسه الحساب ! ولكنه عاد فذكر ما كان من اضطهاد تلك الفتاة له فى أول الأمر ، ورأى فيها رمزا لتلك الجماعة التى أذاقته مر الكلام .

« إلى من أحق — أنا ابن الشعب تأخذنى رحمة بماثلة كهذه — أنا الذى دعانى دوق شون بخادم ! ثم كيف يبنى المركيز ثروته ؟ أليس ببيعه أوراقا مالية عندما يعلم من القصر أنه سيحدث فى اليوم التالى مايشبه انقلابا فى الحكم ؟ ثم آنى أنا الذى ألقاه القضاء الظالم خلف الصفوف ، أنا الذى أملك قلباً نبيلا ، ولا أملك ألف فرنك دخلا ، أنا الذى حرمت الخبز — نعم الخبز الضرورى ، فأرفع عن لذة تسقط بين يدى ! لا — لنترك هذا الحق — ليعمل كل لنفسه وسط هذه الأثرة القاسية التى يسميها الناس الحياة » .

وتذكر جوليان نظرات المركيزة وصديقاتها فاشتعلت نفسه وجرت شهوة الاجرام فى دمه ، وكأنه عندئذ رجل يحارب الإنسانية جمعاً ، وسقطت الفتاة وحملت من جوليان ، وعلم بذلك الأب ، فهم بأن يعمل لمنح جوليان لقباً يدخله فى عداد الأشراف فيزوجه من ابنته ، وقد خيل إليه غروره أن جوليان لا يمكن أن يكون ابن نجار ، وأنه لابد ولد طبيعى لأحد الاشراف تخلى عنه أبوه بين يدى ذلك النجار الذى ينسب إليه ، وإلا فمن أين لجوليان بتلك الشخصية القوية ؟ وود أن يستوثق من الأمر بالكتابة إلى أحد أهل قرية جوليان ! فهداه هذا إلى مدام دى رينال ، وأملى القسيس الذى يتلقى اعترافات تلك السيدة الرد قاسياً ، فثار غضب المركيز وعدل عن مشروع الزواج .

وركب جوليان رأسه إلى قريته حيث شرع فى قتل مدام دى رينال وهى تصلى بالكنيسة ، وكان يوم المحاكمة حيث تضافرت جهود بنت المركيز ومدام دى رينال لإنقاذه بعد أن عجز الكل عن حمله على الفرار . ونهض جوليـان موجهاً الخطاب إلى المحلفين بهذه الألفاظ :

« أيها السادة المحلفون : إن شناعة الاحتقار التى أردت أن أكابره وقت الموت هو الذى يدفعنى إلى الكلام . أيها السادة : ليس لى شرف الانتماء إلى طبقتكم الاجتماعية ، وما أنا إلا فلاح بسيط ثار على ما أنزلته الأقدار من منزلة وضيعة . ثم إنى لا أطلب منكم رحمة ، وما أخادع نفسى فى أن الموت ينتظرنى ، وإنى لستحقه . لقد اعتديت على سيدة جديرة بكل احترام وكل تقدير . لقد كانت مدام دى رينال لى أماً ، ولقد ارتكبت جريمة شنيعة أضمرت عليها من قبل ، وبذا وجب إعدامى أيها السادة . ولو أننى كنت أقل إجراماً لما منع ذلك نفراً من الناس من القسوة على دون رعاية لما يستحقه شبابى من رحمة ، ولا هم لهم إلا أن يعاقبوا فى شخصى أولئك الشبان الذين ينشأون من أصـل متواضع تقعد به الفاقة ، ثم تشاء الأقدار أن يصيبوا من التربية الحسنة وأن يستشعروا من الجسارة ما يدفعهم إلى الاختلاط بما تسميه كبرياء الأغنياء « الطبقات الراقيـة » . هذه أيها السادة جريمتى ، وإنى لعلى ثقة من أنها ستعاقب أشد عقاب ، وبخاصة لأن قضاتى ليسوا من أندادى . وما أرى على مقاعد المحلفين فلاحا

الفتى ، بل كلهم أعيان متزمتون ؟ » .

وواصل جوليان حديثه هذا عشرين دقيقة ، والنائب العام يتقزز فوق مقعده ، وهو أحرص ما يكون على رضا ذوى السلطان . وبالرغم مما كان فى حديثه هذا من عمق ، فقد تساقطت الدموع من أعين كل السيدات الحاضرات ، وما كان أكثرهن فى ذلك اليوم !

وسيق جوليـان إلى الجيلوتين بعد أن رفض توقيع استئناف الحكم .

هذا هو جوليان سوريل كما خلقه ستاندال ، لحقق فى شخصه ما عجز عن تحقيقه فى حياته ، فهو رمز لأحلامه . ولقد كان ستاندال من أشد المعجبين بنابليون ، ولقد قص حياته فى كتاب رائع ! ولقد كان ستاندال ممن يدينون بمبدأ القوة الذى تنم عنه كل رواياته . وفى الحق أنه لأب روحى لنيتشه وأحد منابع ذلك التيار الجارف الذى اجتاح القرن التاسع عشر ، تيار العنف واستنكار قواعد الأخلاق ، ذلك التيار الذى لو لم يصمد أمامه تولوستوى لاجتاح الانسانية قاطبة .

جوليان سوريل هو ستاندال نفسه إلى حد بعيد ، ستاندال الذى حرم من عطف والدته صغيراً وشقى بقسوة أبيه ، وحاول مجد الحرب مع نابليون بإيطاليا وبالروسيا ، ثم عاد بغير مجد ، فاندرج فى السلك السياسى ، وعاش بإيطاليا زمناً طويلا ، حيث رأى فى ذلك الشعب من حدة الطبع وتوثب الحركة ما كان يعجب به دائماً .

والآن ترى بم نحكم على جوليان ؟ والذى لا شك فيه أنه يتمتع بعطف ستاندال ، وأن البون بينه وبين جرزلو Grèslou « تلميذ » بول بورجيه لبعيد . فإن جوليان لم يولد خبيثاً ولا شرير الطبع ولا مجولا على الاجرام بالفطرة ، وفى تاريخ حياته ما يؤيد ذلك ؛ ولقد أخلص الود لصديقه الريفى فوكيه ، وأعزه حتى أسلم آخر أنفاس الحياة . ولقد صفت نفسه وسلس طبعه بين يدى قسيس قريته والأب الذى كان يشرف على مدرسة القسس التى تعلم بها ، وود لها الخير من كل قلبه ، ولقد كان جوليان بطبعه حيياً خجولا متواضعاً . ولو أن الجماعة التى عاش بينها لم تشعره باحتقارها له ، أو لو أنه كان بليد الطبع صفيق الاحساس لما انقلبت حياته مأساة ؛ ولكنه ضاع ضحية تلك الأثرة البغيضة المستأصلة فى معظم النفوس ، وبخاصة الحقيرة منها ، وما أكثرها ! وإذاً فهو جدير بالعطف . وإنه لخير للبشر أن يحطموا أغلالا لا تصنع لغير الضعفاء منهم . وإنه لمن حق النفوس الأبية — بل من واجبها — أن تثور على كل ظلم ، لأنه لا جرم أشنع من الظلم . وهيهات أن يدفع الشر غير الشر . وأما الحياة فما أهون أمرها إذا خلت من عزة النفس وكرامة المعنى الانسانى الذى نحن له حفاظ .

محمد مندور

مدرس بكلية الآداب

الورد

يا ورد — أوراقٌ وشو كٌ ، أم مواصلة وَصَدٌّ ؟

أم شوكك القاسى وعيـ ـد الدهر ، والأوراق وَعْد

أم هـذه الأوراق إغـ ـذاء ، وهذا الشوك مُهد ؟

يا سـيد الأزهار قو لٌ وسيد الأزهار بَعدُ

ابسط بنـودك فى الريا ض فشوكك اليقظان جُند

يا جذوة فوق الغصو ن لها بقلب الصب وَقْدُ

أهواكَ يا شـبه الخدو د فللخـدود لدىّ عهد

ولها لديك — كما علمـ ـت — ودائعٌ لا تُسترَدّ

دم الرياض فأنت فى الـ أغصان معنًى مستجدّ

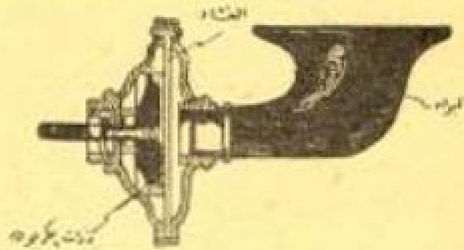
يُلقِي النسيم سؤاله وأريجك الواق يَرُدّ

شاهر البرازى

آلة التـــليفون

سبق لنا أن تناولنا في مقال سابق (الثقافة عدد ١١٨) الخطوط الهوائية التي تصل الأجهزة التليفونية المركبة عند المشتركين بنهاية أحد الكوابل الأرضية. وسنتكلم في هذا المقال عن آلة التليفون (العدة)، وهي تتركب بصفة عامة من أربعة أجزاء رئيسية وهي: المرسل والمستقبل والجرس وملف التأثير. ثم أجزاء أخرى يتوقف وجود كل منها على الغرض الذي تستعمل له الآلة.

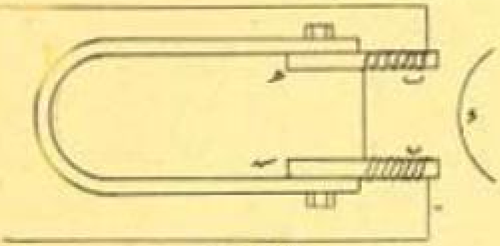
المرسل أو الميكروفون: هو الجزء الذي يستقبل الذبذبات الصوتية الخارجة من فم المتكلم، فيحولها إلى تيارات كهربائية مختلفة الشدة تبعاً لتغيرات ذبذبات الصوت. وهو مكون كما في شكل (١) من قرص رقيق



(شكل ١)

متصل بغرفة ملأى بحبيبات الكربون، وتتصل الغرفة ببطارية، بحيث تكون الحبيبات ضمن دائرتها الكهربائية. فإذا تذبذب القرص تبعاً للموجات الصوتية تغيرت مقاومة الحبيبات، وبذلك تتغير شدة التيار الناتج من البطارية.

المستقبل: وظيفته عكس وظيفة المرسل تماما، أي أنه يستقبل التيارات الكهربائية المتغيرة الناشئة من كلام المشترك البعيد، ويحولها بدوره إلى ذبذبات صوتية مرادفة لها تلج أذن المستمع. ويتركب كما في شكل (٢) من مغناطيس ا على شكل حذاء الفرس ينتهي بساقين ب، ب من الحديد المطاوع قد التف حول كل منهما سلك نحاسي دقيق معزول ومثبت على مسافة صغيرة من الساقين القرص المعدني الرقيق د، وينشأ من هذا الوضع أن ينجذب القرص إلى المغناطيس، ويتكون به الانحناء البسيط الظاهر في الشكل. فعند ما تمر التيارات الكلامية

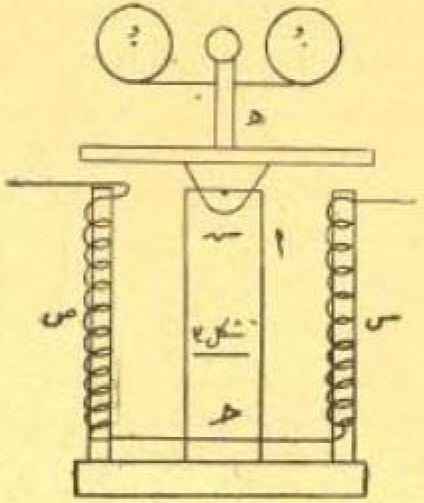


(شكل ٢)

المتغيرة الآتية من المستقبل في الملف تضعف مغناطيسية الساقين ب أو تقويهما تبعاً لاتجاه سريانها، وينشأ من هذا أن يقل انحناء القرص د أو يزداد، منتجاً بذلك ذبذبات مرادفة لذبذبات الكلام الواقعة على قرص المرسل في جهاز الشخص المتكلم. وهذه الذبذبات تنتقل من قرص المستقبل إلى الهواء، محدثة أصواتاً هي كلمات المتكلم.

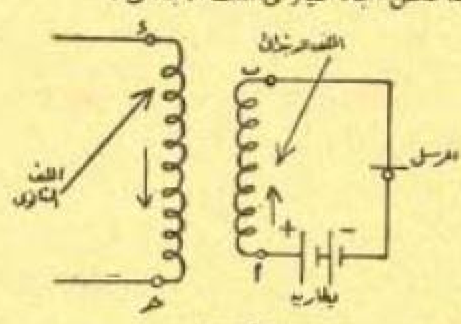
وفي الأجهزة الحديثة يكون تركيب المرسل مطابقاً تمام المطابقة لما ذكر؛ غير أن المغناطيس الأصلي يكون صغيراً في الحجم ويلف عليه السلك النحاسي المعزول مباشرة؛ وعلى هذا يمكن الجمع بين المرسل والمستقبل في قطعة واحدة هي ما يسمى عادة « بالسماعة ».

الجرس: يتركب كما في شكل (٣) من مغناطيس ا قطبه الشمال إلى أعلى، والجنوبي إلى أسفل. يتفرع في الساقين الأخريين س، ص وعلى كل منهما ملف من سلك نحاسي دقيق معزول. ويلاحظ أن اتجاه اللف في أحدهما مخالف له في الآخر. فعند مرور التيار في الملفين في اتجاهين مختلفين تتلاشى مغناطيسية إحدى الساقين، بينما تقوى مغناطيسية الساق الأخرى مما ينشأ عنه انجذاب الرافعة نحو الساق الأخرى، فاذا تغير اتجاه التيار حصل العكس، وهكذا؛ وبذا يدق الذراع هـ كلا من الناقوسين (الطاستين و، و).



(شكل ٣)

ملف التأثير : يتركب كما فى شكل (٤) من ملفين : ابتدائى وثانوى عدد لفاته أكثر بكثير من عدد لفات الابتدائى . فاذا مر تيار كهربائى فى اللف الابتدائى ثم حدث له تغيير فجائى فى شدته أو اتجاهه نشأ عن ذلك مرور تيار كهربائى فى اللف الثانوى يكون اتجاهه دائما عكس اتجاه التيار فى اللف الابتدائى .



(شكل ٤)

فاذا تأملنا الدائرة الكهربائية المبينة فى شكل (٤) نجد أن البطارية ترسل تيارا مستمرا ثابت الشدة والاتجاه فى دائرة اللف الابتدائى ، حتى إذا ما تكلم شخص فى المرسل تغيرت مقاومته تبعاً لذبذبات الصوت فتتغير شدة التيار المار فى اللف الابتدائى . وفى الحال تتولد تيارات متغيرة فى اللف الثانوى اتجاهها يضاد اتجاه التيارات الناشئة فى اللف الابتدائى . ونظراً لزيادة عدد لفات اللف الثانوى منها فى اللف الابتدائى فان تيارات اللف الثانوى تكون أكبر جهدا من مثيلاتها فى الابتدائى .

نرى مما تقدم أنه لوجود ملف التأثير فى آلة التليفون فوائد مهمة : منها أنه يرفع جهد التيارات المارة فى الخط مما يجعل تأثيرها كبيرا على سماعة الشخص المخاطب ، فيسمع الكلام واضحا قوياً . كما أن التيار المستمر المار فى المرسل لا يتأثر بطول الخط أو قصره ، حيث أنه يسرى فى دائرة مستقلة تمام الاستقلال عن دائرة الخط .

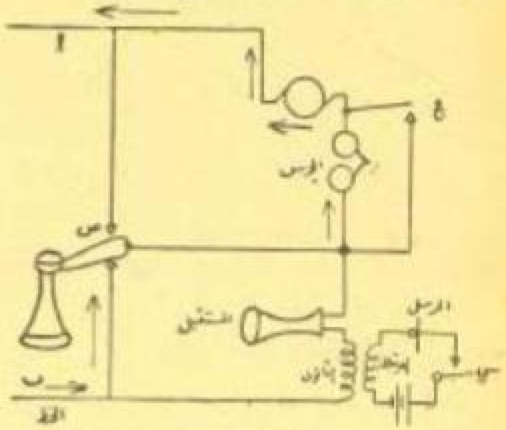
وتستعمل الدائرة المبينة فى شكل (٤) مع تعديل طفيف فى الآلات ذات الطراز المغناطيسى (الماجنيتو) .

أنواع الآلات : تنقسم الآلات إلى أنواع ثلاثة بحسب الطريقة التى يتم بها توصيل المشتركين بعضهم ببعض عن طريق مركز التليفون « السنترال » : (١) آلات ذات طراز مغناطيسى (ماجنيتو) . و (٢) آلات البطارية المشتركة . و (٣) آلات تلقائية (أوتوماتيكى) .

١ — ذات الطراز المغناطيسى (ماجنيتو) :

تحتوى هذه الآلة — علاوة على الأربعة الأجزاء الرئيسية السابق شرحها — على مولد صغير للتيار الكهربائى المتغير يدار باليد فيخرج منه تيار الدق على الخط المتصل بالمشترك ، فيعطى إشارة للعامل المختص فى مركز التليفون بأن مشتركاً يطالب توصيله بآخر . وفى حالة اتصال مشتركين بعضهما ببعض بخط مباشر يدق الجرس فى آلة المشترك المطلوب بمجرد إدارة المولد فى آلة المشترك الطالب . ويبين شكل (٥) توصيل آلة (الماجنيتو) . ويلاحظ فيه ثلاث ريش س ، ص ، ع . أما س ، ص فتتبعان حركة السماعة وتتخذان الوضع المبين فى الشكل حينما تكون السماعة فى وضعها الطبيعى فوق حاملها ، وعند رفعها تقفل س دائرة المرسل وتترك ص

التلمس Contact الأسفل وتلمس الأعلى . أما الريشة ع فتتبع حركة يد المولد ، ففي حالة السكون تكون مفتوحة كما ترى ، وفي حالة إدارة اليد تتصل بتلمسها .



(شكل ٥)

ولنفرض الآن أن هـذه الآلة تلقت إشارة بواسطة تيار دق يأتيها من مشترك آخر بينما تكون سماعتها في وضعها الطبيعي ومولدها في حالة السكون ، فإن تيار الدق يأتي على الفرع ب إلى الريشة ص ثم إلى الجرس فالمولد ، ثم يتخذ طريقه عائداً على الفرع ا . وعندئذ يسمع المشترك دق الجرس فيرفع السماعة فتنتقل الريشة ص دائرة المرسل كما تلمس الريشة ص التلمس الآخر . وعندما يتكلم الشخص في المرسل يحدث ماسبق شرحه ، وتنتقل تيارات الكلام من الملف الثانوي إلى المستقبل إلى الريشة ص ثم إلى الفرع ا مباشرة وتعود على الفرع ب إلى الملف الثانوي .

وفي حالة ما إذا أراد شخص أن يطلب شخصاً آخر فإنه يدير يد المولد بينما تكون السماعة في وضعها الطبيعي على الحامل ، وفي هذه الحالة تتصل الريشة ع بمجرد إدارة يد المولد ، وبذا يخرج تيار الدق على الفرع ا إلى المشترك البعيد ويعود على الفرع ب إلى ريشة الحامل ص ، ثم يختار طريق الريشة ع إلى المولد ثانية حيث إنه الطريق الأسهل . ولا يمر في الجرس ، وبذا لا يدق جرس المشترك الطالب بإدارته يد الآلة .

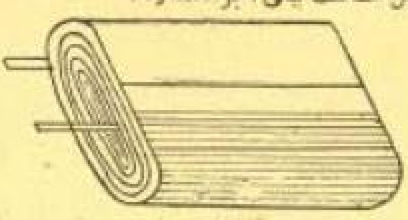
مما تقدم نرى أن الآلة « ذات الطراز المغناطيسي » تستلزم وجود بطارية لدى كل مشترك ، كما أنها يجب أن تحتوي على مولد مما يستدعي كبر حجمها . ولا بد من تعهد البطارية بالتنظيف وإضافة مايلزم لها من المواد بين آن وآخر ، وإلا أصابها التلف . كما أنه يجب على المشترك الطالب أن يدير « الماجنيتو » عند النداء ، مما سيستغنى عنه في الأنواع الأخرى . ولهذا فإن استعمال هذا النوع من الآلات مقصور الآن على بعض المدن والقرى حيث يقل عدد المشتركين ، كما أنها شائعة الاستعمال في تجربة الخطوط الهوائية والأرضية وفي توصيل مشتركين بعضهما ببعض بخطوط مباشرة بلا حاجة للالتجاء لعامل التليفون .

٢ – آلة البطارية المشتركة :

رأينا مما تقدم أن آلة (الماجنيتو) لا تصلح ، حيث يكثر عدد المشتركين وتكثر تبعاً لذلك البطاريات التي يلزم العناية بها ؛ ومن هنا نشأت الحاجة إلى نوع آخر من الآلات يأتيه التيار اللازم المرسل من بطارية كبيرة تغذي جميع المشتركين ، وتحفظ في مركز التليفون ، فتسهل صيانتها بتخصيص عمال فنيين لها ؛ كما أننا نستطيع بإجراء بعض التعديل في تركيب الآلة وفي أجهزة مركز التليفون أن نستغني عن المولد كلية ، وإنما تعطى إشارة النداء إلى عامل التليفون بمجرد رفع السماعة من فوق حاملها ، حيث يضاء مصباح كهربائي صغير أمام العامل فيلفت نظره إلى أن المشترك رقم كذا يطلبه ؛ وبذلك نحصل على آلات أبسط في التركيب من آلات (الماجنيتو) وأسهل في الصيانة ، وآلة البطارية المشتركة تمتاز بتفوقها عن آلة (الماجنيتو) في نقل الأصوات بوضوح .

ويدخل في تركيب آلة البطارية المشتركة ، علاوة على ما تقدم ذكره من الأجزاء الرئيسية ، جزء آخر مهم ، هو المكثف الكهربائي المسمى « بالمكثف الورقي » . ويتركب من شريطين من ورق القصدير ، يفصلهما شريط من الورق فصلا تاماً . وتطوى هذه الأشرطة الثلاثة حتى

تكوّن كتلة يختلف حجمها باختلاف سعة المكثف المطلوب ، كما هو مبين فى شكل (٦) ثم توضع هذه الكتلة فى صندوق من الصفيح مناسب لها فى الحجم . ويفصل بين شريطى القصدير قطعة معدنية تستعمل بدورها فى توصيل المكثف بباقى أجزاء الدائرة .



(شكل ٦)

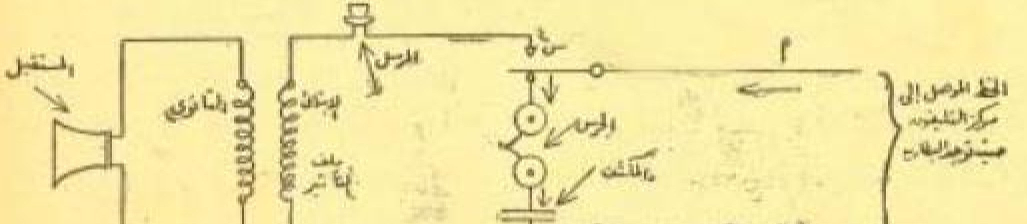
ولما كان شريطا القصدير معزولاً أحدهما عن الآخر بشريط الورق فانهما لا يسمحان بمرور التيار الكهربائى المستمر بينهما كالتيار الخارج من البطارية مثلا ، بينما التيارات المتغيرة مثل تيارات الكلام أو تيارات الدق عكنها المرور بين شريطى القصدير بسهولة تبعاً لنظرية التأثير الكهربائى . ولنتكلم عن توصيل آلة البطارية المشتركة :

يبين شكل (٧) دائرة بسيطة لآلة من آلات البطارية المشتركة . ولا يوجد هنا سوى ريشة واحدة س تتبع فى حركتها وضع السماعة أو رفعها من فوق الحامل . والرسم يبين وضع الريشة عندما تكون السماعة فى حالتها الطبيعية فوق حاملها . وعندما يأتى تيار الدق من مركز التليفون لتنبيه المشترك يمر هذا التيار من الفرع ا إلى الريشة س ، ومنها إلى الجرس ثم إلى المكثف الذى يسمح له بالمرور ، ومنه يعود على الفرع ب . وعندئذ يتنبه المشترك المطلوب ويرفع السماعة ، فيتغير وضع الريشة ويمر التيار المستمر من بطارية السنترال على الفرع ا إلى الميكروفون ماراً بالريشة س ، ثم بالملف الابتدائى ويعود ثانية على الفرع ب إلى البطارية ؛ فاذا تكلم هذا الشخص فى الميكروفون أحدث كلامه ذبذبات كهربائية فى تيار البطارية تنقل إلى المشترك المخاطب ، كما أن ذبذبات التيار الآتية من الطرف الآخر ، والحاملة لكلام المتكلم البعيد تمر بالملف الابتدائى متخذة نفس الطريق التى يسلكها تيار البطارية — وتنتقل بالتأثير إلى الملف الثانوى والمستقبل الذى يحولها إلى كلمات مسموعة .

وللمكثف وظيفة فى غاية الأهمية فى هذه الدائرة إذ يجعلها مفتوحة بالنسبة للبطارية فى حالة الوضع الطبيعى للسماعة بحيث يمنع التيار المستمر أن يمر من البطارية إلى الجرس بلا فائدة ، وفى الوقت نفسه يسمح بمرور تيارات الدق الآتية من مركز التليفون إلى الجرس .

ولنفرض الآن أن المشترك أراد أن يطلب رقماً معيناً ، فما عليه إلا أن يرفع السماعة ، فيمر تيار البطارية بالمرسل والابتدائى ، ويتخذ من هذا وسيلة لاضاءة مصباح معين فى مركز التليفون ينبه العامل فيبادر بالرد .

وهناك تحسينات كثيرة قد أدخلت على تركيب آلة البطارية المشتركة مما وصل بها إلى درجة كبيرة من الكفاءة والجودة . ولكن يجب ألا يتبادر إلى ذهننا أنها تفضل آلة « الماجنيتو » فى جميع الأحوال ؛ فهى تصلح خاصة فى المدن الكبيرة حيث يكون عدد المشتركين



(شكل ٧)

كبيراً . أما في المراكز والقرى ، حيث تمتد الخطوط إلى مسافات بعيدة ويقل عدد المشتركين ، وحيث يندر وجود العمال الأكفاء اللازمين لصيانة البطارية الكبيرة ، فيكون الأفضل استعمال آلات « الماجنيتو » .

٣ — الآلات التلقائية (الأوتوماتيكية) :

يشبه هذا النوع من الآلات آلة البطارية المشتركة شبهاً تاماً ، ولا يختلف عنه في شيء سوى أنه يحتوى على القرص الذى يديره المشترك الطالب تبعاً لأرقام معينة توصله بالمشترك المطلوب . ويقوم هذا القرص في الآلة بوظيفة أساسية ، هى أنه عند إدارته ابتداءً من رقم معين ، فإنه يقوم بتقطيع التيـار الوارد من مركز التليفون إلى الميكروفون عدداً من المرات مساوياً لمقدار هذا الرقم ؛ فمثلا إذا أدرنا القرص عنـد الرقم (٥) فإنه عند رجوعه إلى وضعه الطبيعى يقطع التيار خمس مرات ، وهلم جراً . وعلى هذا فإنه يحدث فى التيار ما يشبه النبضات ، وتكون هـذه النبضات بمثابة إشارات تتلقاها آلات تلقائية موجودة فى مركز التليفون ، وتستعين بها على التوجيه نحو المشترك المطلوب ؛ ولكن لا نسمع هـذه النبضات فى السماعة — على شكل طقطقة — فإن القرص يزود عادة بأداة تمنع مرور التيار المتقطع فى السماعة فى أثناء رجوع القرص إلى وضعه الطبيعى ؛ كما أن هناك أداة أخرى تمنع المكثف — الذى يشحن ويفرغ على التوالى بتأثير التيار المتقطع — من أن يتسبب فى دق الجرس .

ومما يجدر ذكره فى هـذا المقام أنه لكى تتم المكالمة يجب أن تعطى للمشترك الطالب — بعد أن يرفع سماعته — إشارة تخطره بأن آلات مركز التليفون مستعدة لتلقى أرقامه ، وإلا ذهبت سدى . وتأتى هذه الإشارة فى شكل « ور » أو Dialling Tone يسمعه المشترك فى السماعة . وحينئذ فقط يكون لنبضات قرصه التأثير المطلوب .

محمد أحمد أمين

سلوان

كم زفرةٍ كاللهيبِ تشب ملء القلوب
ولوعــة ما تقضى على فراق الحبيب
أسعدتها حين شبت بمــدمع مسكوب
والدمع يسعد صدر الـ ـمتيم المــكروب

لى مثلك لحنٌ فى الصدر جدُّ عجيب
أثار فيكِ الأمانى كشعلة من لهيب
والأمنيات جراح فى أضلع المحروب
فكان قلبك نهباً لكل حلم مريب !!

ذكرتِ عهد التصابى بزفــرة ونحيب
وللفؤاد حنين الـ ـشكلى ووجد الغريب
تهـــزه ذكريات فيرتمى من لغوب
والشمس تجنح عند الـ أصيل نحو المغيب

نظرتِ والليل ساجٍ إلى الظلام الرهيب
فراع قلبك صمتٌ طا كبحر رحيب
تطيش فيه الأمانى بحــيرة المغلوب
كم هيج الشوق لحنٌ فى الصدر عند الغروب

لا تعجبى لمشيب فالشيب غير عجيب
كم الجديدين أعيا دواء كل طبيب
وإن جفاكِ حبيب أو رثَّ حبل القريب
فالدمع يسعد صدر الـ ـمتيم المــكروب

(دمشق) عدنان مردم بك

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٢٦٩

العدد ١٤٣ — الثلاثاء ٢ من رمضان سنة ١٣٦٠ — ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العدد

الدعاية

لم يكن للدعاية شأن ما في السياسة الدولية منذ ثلاثين عاما ، بل إن اسمها لم يكن من الألفاظ التي تجري على ألسنة الساسة في ذلك الوقت . أما الآن فكلمة الدعاية أوسع الكلمات انتشاراً في الصحف والكتب والأحاديث التي تبحث في الشئون الدولية ، والناس كلهم يقرون بعظم شأنها ، سواء رضوا عنها أو كرهوها ، وقد أخذت كل حكومات العالم تهتم بها اهتماماً آخذاً في الازدياد على مر الأيام .

والدعاية هي الأداة الحديثة للسيطرة على الآراء ، وهذه السيطرة من ضرورات الحكم لازمة له لزوم السيطرة على القوة الحربية والقوة الاقتصادية . وكان عدد الذين يهتم رجال الحكم والزعماء السياسيون في الماضي القريب بالسيطرة على آرائهم أو التأثير فيها قليلا ، وكانوا في الغالب طائفة بلغت من الثقافة والعلم درجة كبيرة ، وكانت تربطهم برجال الحكم والزعماء روابط المصلحة ، وكذلك كانت وسائل إقناعهم أو السيطرة على آرائهم قليلة محدودة .

أما الآن فللرأي العام شأن عظيم في جميع الحكومات وقد اتسعت دائرة هذا الرأي العام في البلاد المتمدنة حتى صار يشمل معظم السكان ؛ ومن هنا كان اهتمام الحكومات بإقناعه وتوجيهه والسيطرة عليه ؛ والحكومات الديمقراطية والدكتاتورية كلها في ذلك سواء .

لكن موقف الحكومات الديمقراطية من الرأي العام ، وموقف الحكومات الدكتاتورية منه يختلفان من الوجهة النظرية على الأقل كل الاختلاف . فالديمقراطيات من الوجهة النظرية تسير وراء الرأي العام ، فهو مرشدها

وهاديها . أما الدكتاتوريات فتضع له ما تشاء من عقائد وآراء ، ثم تلزمه باعتناقها . على أن الفرق ليس واضحاً هذا الوضوح كله من الوجهة العملية ؛ فالديمقراطيات أو الجماعات التي تسيطر على الحكم فيها ليست مبرأة من الوسائل التي تصوغ بها آراء الجماهير وتوجهها ، ولذلك ترى الدعاة والاشتراكيين — سواء منهم الشيوعيون والفاشيون — يسخرون على الدوام من ذلك المظهر الخادع ، مظهر حرية الرأي المزعومة في البلاد الديمقراطية ؛ ومهما يكن من صحة هذا الادعاء أو كذبه فإن ثمة فرقاً أساسياً بين موقف الحكومات الديمقراطية وموقف الحكومات الدكتاتورية من الرأي العام ؛ وقد يكون هذا الفارق الأساسي عاملا عظيم الخطر في أوقات الأزمات . على أن النوعين متفقان فيما للرأي العام من أهمية عظمى وأثر كبير .

وكانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي رفعت من خطر الرأي العام هي نفسها التي أوجدت الوسائل الحديثة ذات الأثر البالغ الواسع المدى التي تمكن الحكومات من تشكيله وتوجيهه ؛ والتعليم العام أقدم هذه الوسائل كلها ، وقد يكون أقواها حتى الآن ، رغم هذا القدم ؛ ذلك أن الحكومات التي تعلم الشعب هي التي تبين له بطبيعة الحال ما يجب أن يتعلمه ؛ وما من دولة تسمح لأبنائها أن يتلقوا على يدها تعليما يناقض المبادىء التي يقوم عليها كيانها ؛ فالطفل في الديمقراطيات يتعلم كيف يقدر الحريات الديمقراطية ، وهو في الدول الدكتاتورية يتعلم كيف يعجب بقوة الدكتاتوريات وحسن نظامها ، وهو في كلتيهما يلقن احترام تقاليد بلاده وعقائدها ونظمها ، والإيمان بأن هذه البلاد خير بلاد العالم على الإطلاق ؛ ولهذا التعليم الأول أثر بالغ في تشكيل نفوس أبناء الأمة ؛ وكل بلد في العالم يدرك الآن ماله من خطر عظيم في إدماج طوائف الأمة بعضها ببعض وجعلها كلها جماعة واحدة متجانسة .

ذلك هو شأن التعليم . ولكننا إذا ذكرنا الدعاية في هذه الأيام ذكرنا معها أولاً تلك الوسائل الأخرى التي يقف وجودها على التعليم ، ونعني بها الاذاعة والخيالة والصحافة ، وهي الوسائل التي أوجدت الدعاية في شكلها الحاضر .

الدعاية سلاح من أسلحة الحرب :

لم تتخذ الدعاية سلاحاً من أسلحة الحرب والسياسة الخارجية ، ولم تستخدم في هذين الغرضين استخداما منظما إلا في الثلاثة العقود الأخيرة . وإن كان في وسعنا مع ذلك أن نجد قبل عام ١٩١٤ حالات فردية استخدمت فيها الحكومات الدعاية في العلاقات الدولية .

فلما قامت الحرب الكبرى في عام ١٩١٤ أدرك المتحاربون من فورهم أن الحرب النفسية يجب أن تسير إلى جانب الحرب الاقتصادية والعسكرية ، وأن من أراد الانتصار في الميدان العسكري والميدان الاقتصادي وجب عليه أن يحتفظ بقوة شعبه المعنوية ، وأن يقضي على القوة المعنوية لخصومه ؛ وكانت الدعاية هي الوسيلة التي استعين بها على تحقيق هذين الغرضين ، فكانت النشرات تكتب وتلقى فوق صفوف الجند تحرضهم على التمرد ؛ وقد عد هذا العمل أول الأمر مخالفاً للقانون الدولي ، كما يعد كل سلاح جديد يستخدم في الحرب لأول مرة .

ولكن الطرفين المتحاربين لم يلبثا أن استخدما الدعاية استخداماً واسع المدى . وكانت الدعاية التي قام بها الحلفاء في أواخر أيام الحرب من أقوى العوامل في هزيمة الألمان ، حتى ليقال إن الحلفاء قد كسبوا الحرب في سنة ١٩١٨ لأنهم أحسنوا التوفيق بين قوة الدعاية والقوتين الحربية والاقتصادية .

ولكن على الرغم من اعتراف الدول كلها بما كان للدعاية من شأن في الحرب الماضية ، فإنها دون استثناء كانت تعدها سلاحاً لا يليق استخدامه إلا في أوقات الحروب ؛

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى ألغيت وزارات الدعاية وسرح رجالها؛ ولكنها لم تلبث أن عادت بعدئذ إلى أقوى مما كانت عليه، وأنشئت في كل دولة هيئة رسمية أو شبه رسمية للتأثير في الرأي العام في داخل البلاد وخارجها.

الاتفاقات الدولية الخاصة بالدعاية:

لما عظم شأن الدعاية ورأت الدول ما لها من أثر فعال في السياسة القومية والدولية، وجدت الحكومات أنه لابد من تقييدها، والنص على هذه القيود فيما يعقد بينهن من اتفاقات. وكان أول الاتفاقات التي نص فيها على هذه القيود هو الاتفاق التجاري الذي عقد بين الحكومة البريطانية وحكومة السفييت الروسية في عام ١٩٢١، وتعهد فيه كل من الطرفين أن يمتنع عن القيام بكل دعاية رسمية ظاهرة أو مقنعة خارج حدود بلاده ضد الطرف الآخر. وتعددت بعد ذلك الاتفاقات بين الدول الأوربية المختلفة لتقييد الإذاعة ووقف الدعاية المعادية ونحو ذلك؛ وكان من المحاولات التي بذلت في هذا السبيل الاقتراح الذي تقدمت به حكومة بولندا إلى مؤتمر نزع السلاح، تطلب إليه أن يضع ميثاقاً لنزع السلاح الأدبي؛ ولكن الاقتراح لم يصب من النجاح أكثر مما أصاب اقتراح نزع السلاح الحربي، وإن يكن الأعضاء الباقون في عصبة الأمم في عام ١٩٣٦ قد وقعوا اتفاقاً تعهدوا فيه بألا يستخدموا الاذاعة في «التحريض على الحرب».

والاتفاقات التي تبرم لتقييد الدعاية تخلق أمام الديمقراطيات مشكلة صعبة الحل. فالحكومات الديمقراطية لا تعنى في وقت السلم بتقييد حرية الآراء في الشئون الدولية والتعبير عنها بكافة الطرق المشروعة؛ وهي لذلك لا تستطيع أن تمنع نشر الدعاية من بلادها ضد البلاد الأخرى؛ فاذا ما احتجت إحدى الدول لدى حكومة من الحكومات الديمقراطية على ما تنشره صحافتها أو إذاعتها من الأقوال غير الودية، فان هذه الحكومة تجيب على الدوام بأن لا شأن لها بما تنشره صحفها أو تذيعه محطات إذاعتها، ولكنها في أغلب الأحيان تبلغ هذه الاحتجاجات لمن يقصد تبليغها إليهم، ويؤدي هذا التبليغ دائماً إلى النتيجة المرغوبة.

تنظيم الدعاية:

من أغرب الأشياء أن تكون روسيا السفييتية الدولة الوحيدة من دول الدرجة الأولى الأوربيـة التي لا توجد فيها مصلحة حكومية للدعاية. وقد يكون سبب هـذا التناقض الغريب أن الروس — وهم أول من اتخذوا الدعاية أداة من أدوات السياسة الخارجية — قد تملكتهم روحها وسرت في جميع إداراتهم الحكومية، حتى أصبحوا في غير حاجة إلى هيئة مستقلة تختص بأداء هـذا الغرض، وقد يكون سببه أن الحزب الشيوعي الروسي و «الدولية الشيوعية» يمكن أن يعدا أداتي الدعاية في روسيا السفييتية: أولاهما في داخل البلاد، وثانيتهما في خارجها.

أما ألمانيا ففيها وزارة «لتنوير أذهان الشعب والدعاية» تسيطر على الصحف والاذاعة والخيالة والمسرح والنشر بكافة أنواعه والموسيقى والفنون الجميلة؛ وتشتمل على قسم «لمقاومة الأكاذيب السياسية الخارجية».

ولايطاليا وزارة للدعاية استبدل باسمها القديم في هذه الأيام اسم «وزارة الثقافة الشعبية» ولا تختلف وظيفتها عن وظيفة أختها الألمانية.

وكان أول ما أنشيء من هيئات الدعاية في بريطانيا العظمى أيام السلم (المجلس البريطاني) The British Council الذي أسس في عام ١٩٣٤، وهو هيئة شبه رسمية ينفق عليها من أموال الدولة «لزيادة معلومات الناس خارج بريطانيا عن حياة الشعوب الامبراطورية وأفكارها»، ولكن نشاط هذه الهيئة ظل إلى وقت قريب ضيق المجال لقلة ما كان مخصصاً لها من المال. وفي يونيه من عام ١٩٣٩

أنشئت في وزارة الخارجية البريطانية إدارة جديدة للنشر لم تلبث أن ضمت إلى وزارة الاستعلامات عند ما أنشئت هذه الوزارة عقب إعلان الحرب مباشرة .

وأنشئت في غير انجلترا من البلاد الدمقراطيـة مثل هـذه الادارات الحكومية والوزارات . أما الولايات المتحدة فان لها على الآراء إشرافا غير رسمي لا يقل من إشرافها على المسائل الاقتصادية ، ولكنها لا تزال قوية من الوجهة الحربيـة وبعيدة بعداً كافياً عن مراكز الاضطراب العالمي ، ولهذا كله كان ما احتفظت به من تقاليـد مذهب الحريات الاقتصادية والفكرية الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر أكثر مما احتفظت به الدول الأوربية . على أن من الخطأ مع ذلك أن نقول إن الدوائر الرسمية في واشنجطن ليس لها مع ذلك أثر في أدوات التعبير عن الآراء العامة الأمريكية في المسائل الدولية .

بقي أن نقول إن ثمة فرقاً بين الدعاية الثقـافية والدعاية السياسية ، وإن كان يصعب على الدوام فصل إحدى الدعايتين عن الأخرى في كثير من البلاد . على أننا نستطيع أن نقول إجمالا : إن من النوع الأول المدارس التي أنشأتها الحكومات الفرنسية والألمانية والايطالية في البلاد التي يوجد فيها جاليات من أهل هذه الدول ، أو التي لها فيها مصالح سياسـية هامة . وأنشأت الحكومة الايطالية في عام ١٩٢٧ مصلحة حكومية في رومه لتكون أداة الاتصال بين الايطاليين في الخارج وبين بلادهم ، ولاستخدامهم في تقوية المصالح السياسية الايطالية . وكانت الحكومة الألمانية بعد الحرب الماضية تساعد المساهد الثقافية القائمة في البلاد التي تسكنها أقليات ألمانيـة ، ثم أنشئت لهذه الغاية في عام ١٩٣٣ هيئة كبيرة تابعة للحزب الاشتراكي الوطني الذي يهيمن على نشاط الألمان المقيمين في خارج بلادهم ، والذي ينظر إليـه كثير من البلاد الأجنبية نظرة الريبة والحذر .

وقد ذكرنا من قبل المجلس البريطاني ومهمته الثقافية الخالصة ؛ ولكن جميع أنواع الدعاية دون استثناء توجه في وقت الحرب إلى غاية واحدة وتسير كلها على سنة واحدة . والاذاعة الآن أوسع أدوات الدعاية انتشاراً ، وأسهلها استخداماً لبث الدعاية في البلاد الأجنبية .

وكانت روسيا السوفيتية أولى الدول التي استخدمت المذياع لهذا الغرض ، فقد استخدمته محطة موسكو لاذاعة أحاديث بلغات العالم المهمة ؛ وكان الغرض منهـا أولا الدعوة إلى الثورة العالمية ؛ ثم استخدمته بعد ذلك لكسب الأنصار في الدول الأجنبية لسياسة السوفيت الخارجية . ولم تحذ الدول الأخرى حذو روسـيا وتستخدم المذياع لهذا الغرض إلا بعـد ذلك بزمن طويل ؛ ففي عام ١٩٣٦ أساء الحكومة الايطـالية موقف بريطانيا منها في المسألة الحبشية ، فأخذت تذيع من محطة باري سلسلة أحاديث باللغة العربية ، كان غرضها الصريح من إذاعتها بث روح العداء لبريطانيا العظمى في البلاد العربية ، وظلت نقابة الاذاعة البريطانية العـامة لا ترد على هذه الهجمات بإذاعة عربية من لندن حتى عام ١٩٣٨ ؛ ومنذ ذلك الحين تعددت الاذاعات باللغات الأجنبية من جميع بلاد العالم ، حتى إذا كان شهر سبتمبر من عام ١٩٣٨ أذاعت نقابة الاذاعة البريطانية لأول مرة أخبار العـالم باللغات الفرنسـية والألمانية والايطالية ؛ وأصبحت هذه الاذاعة بعدئذ جزءاً أساسياً من منهجها ؛ ويقال إن الناس يصغون إليها في كثير من الأقطار ، ولا سيما في ألمـانيا ؛ وتبذل كل دولة في هذه الأيام جهوداً جنونية للاتصال بالرأي العام في بلاد أعدائها ، وفي البلاد المحايدة من طريق الاذاعة . وأكبر الظن أن هذه « الحرب الأثيرية » سيعظم شأنها في مستقبل الأيام .

الصدق والكذب في الدعاية :

أمران تقف عليهما قوة الدعاية ، أي السـيطرة على الآراء : أولهما مقدار ما في الدعاية من مطابقة للحقائق ،

وإذا انعدم هذا الشرط كانت الدعاية ضعيفة قليلة الأثر . ويعيب هتلر نفسه على الدعاية الألمانية فى الحرب الماضية أنها كانت منصرفة إلى السخرية من أعداء ألمانيا وتصويرهم بأنهم قوم سخفاء وحقيرون . والواقع أن الدعاية الألمانية فى الحرب الماضية فشلت لأنها كانت مسرفة فى الكذب ، كما تبين الجند الألمان فى خنادقهم بعد قليل . ذلك أنه مهما بذلت هيئات الدعاية من جهد ، ومهما بلغت من حذق ، فانها لا تستطيع أن تريك الأسود أبيض ؛ وثمة دائماً خطر شديد فى أن الحقيقة سوف تتسرب إلى الخارج ، وبخاصة فى هذا العصر الذى بلغت فيه المنافسة بين الدعايات المتعارضة غايتها ، وهذا الخطر نفسه يضعف السيطرة على الأفكار ؛ والتعليم أيضاً وهو من أقوى وسائل السيطرة على الآراء يبعث فى النفس الميل إلى البحث المستقل ؛ وهذا الميل فى ذاته من أقوى الأسباب التى تمنع النفوس من قبول هذه السيطرة ؛ ولذلك فان الدعاية التى تلوى الوقائع لياً وتفسرها بما يلائم غرضاً خاصاً دعاية ضعيفة بطبيعتها .

وأما ثانى الأمرين اللذين يحدان من قوة السيطرة على الآراء ، فهو ما فى الطبيعة البشرية من نزعة إلى المثل العليا الروحية ؛ ومن أجل هذا فان الدعاية المسخرة لخدمة القوة الحربية والاقتصادية تحفز العقل إلى التمرد على تلك القوة ، وإن الطبيعة البشرية فى آخر الأمر لترفض المبدأ القائل بأن الحق هو القوة ، وكثيراً ما تكون القوة الغاشمة سبباً فى تقوية إرادة ضحاياها وشحذ قوة ذكائهم .

وليس من الحقائق العامة المقررة إذاً أن صاحب السلطة القوية يستطيع على الدوام أن يصوغ آراء الناس ويخضعها لمصلحته بضروب الدعاية الماهرة ؛ وفى ذلك يقول الهر هتلر فى كفاحى : « كل اضطهاد لا يستند إلى أساس روحى يولد فى الناس شعوراً يدفعهم إلى أن يقاوموا بالعنف كل محاولة ترمى إلى القضاء على الرأى بالقوة الغاشمة ؛ ولذلك فان كل اضطهاد لا يستند إلى أساس روحى عند المضطهدين سوف يثير فيهم هذا الشعور الكامن » . ولهذا فاننا لا نقدر الدعاية حق قدرها إذا اعتبرناها أداة من أدوات السياسة ، وعوناً من أعوان القوة الحربية والاقتصادية ، ثم اكتفينا بذلك وأهملنا شأن محتوياتها وأساسها الروحى .

وجمل القول أن الدعاية كلما اقتربت من الحقيقة كان ذلك خيراً لها وأجدى لأصحابها . ونقول « كلما اقتربت من الحقيقة » لأن هذا الاقتراب هو أقصى ما تستطيع أن تصبو الدعاية إليه . فليست هى بحثاً علمياً عن الحقيقة ، ولسنا نستطيع أن نتطلب من الداعية أن يعرض علينا موضوعاً متزناً ، فيه كل الحجج التى تؤيده والحجج التى تفنده ، كما لا نتوقع من صاحب متجر أن يعلن مزايا بضاعة له وإلى جانبها مزايا بضاعة أخرى من نوعها ؛ لكن قلب الحقائق شر أنواع الدعاية ، ما فى ذلك شك .

ولقد كانت أسوأ دعاية قام بها الحلفاء فى الحرب الماضية وأفشلها ما أذاعوه وكرروا إذاعته فى فترة من الزمن ، وهو أن الألمان كانوا يغلون أجسام الموتى ليستخرجوا منها الدهن اللازم للمفرقعات لما اشتدت حاجتهم إليه بسبب الحصار . كذلك كان من أكبر الأضرار التى حاقت بالدعاية الألمانية فى السنين الأخيرة إنكار الحكومة النازية فى أوائل الحرب الأهلية الاسبانية أنها كانت تقدم المعونة إلى الجنرال فرانكو ، وإصرارها على هذا الانكار ، ثم جهر هتلر بعد ذلك بمقدار ما أسداه إلى الجنرال فرانكو من مساعدة ، وإعجابه بما أظهره الجنود الألمان من ضروب البسالة ، وما قاموا به من أعمال مجيدة فى أسبانيا .

وليس صدق الدعاية مقصوراً على قربها من الواقع فيما يختص بالحقائق الماضية والحاضرة وحدها ، بل إنه يتعدى الماضى والحاضر إلى الوعود التى تبذل المستقبل . ذلك أن الدول التى تبذل الوعود ثم لا تفى بها تقضى بنفسها على قوة دعايتها المستقبلة وتستنفد ما يمكن أن نسميه « رأس مال الأمة الروحى » .

ومما يساعد على نجاح الدعاية أيضاً التجاؤها إلى

التقليم والتطعيم

للأستاذ أحمد أمين بك

جرني التفكير في « الأغاني المصرية » إلى توسيع النظر في الفنون والآداب المصرية والعربيـة ، فوجدتها كلها تحتاج إلى عمليتين هامتين خطيرتين : أولاهما عملية التقليم ، والثانية عملية التطعيم . ولأقتصر في حديثي اليوم على التمثيل بالأدب العربي ، فهو أخطر الفنون وأكثرها أثراً في حياة الشعوب .

* * *

واضح أن آداب الأمم تختلف باختلاف شخصياتها ومميزاتها وميولها ، كما تختلف باختلاف أمزجة أدبائها ، وكما تختلف باختلاف بيئتها ، سواء كانت بيئة طبيعية من جو ووضع جغرافي ، أو بيئة اجتماعية من سياسة ودين وأوضاع وتقاليد ونحو ذلك .

والأدب عامة يتطور بتطور الأمة ، ويتفاعل معها ، فيؤثر فيهـا ويتأثر بها . وإنك لتستطيع — بالنظر العميق — إذا درست أدب أي أمة في أي عصر أن تستنتج منه حالة الأمة الاجتماعية ، وظروفها السياسية ، ونظم حكمها ، وحالة شعبها .

إن كان كذلك فمن المحال أن تعيش أمة على الأدب القديم وحده ، أو على أدب العصور الوسطى فقط ، وإلا كانت كالتاجر يعيش على تصفح دفاتره القديمة فحسب ، وهذا علامة الإفلاس .

إن أدب كل أمة يرسم المثل الأعلى لها . والمثل الأعلى ليس صورة ثابتة متحجرة ، بل هو مرن ، ويجب أن يكون مرناً ، يختلف بتقدم الانسان وتغير ظروفه وملابساته ، ويتقدم كلما خطا الانسان خطوة إلى الأمام .

وهذا هو الشأن في الأدب العربي ، فهو ليس أدب

مبادئ الأخلاق العامة والضمير العام التي يعترف الناس جميعاً بنبلها وقيمتها ؛ ومن أجل هذا نرى الدعاية القومية تستتر على الدوام بستار المبادىء العامة . فكانت الدعاية الألمانية تهاجم معاهدة فرسـاي باظهار ما فيها من مخالفة لمبادىء العدالة والانصاف ؛ ولهذا السبب عينه تعلن كل أمة أن سياستها قائمة على أسس من الفضيلة والخير العام ، مع أنها لا تجد أحياناً أساساً للفضائل أو للخير العام أصدق من قولها : « إن رسالتها التاريخية تحتم عليها أن تحكم الشعوب الضعيفة لخير هذه الشعوب نفسها » ! ومهما تكن حقيقة المبادىء التي تسترشد بها الدول في سياستها الخارجية فانها بوجه عام تشعر بحاجتها إلى أن تستتر وراء المبادئ الانسانية العامة .

لـكن هذا الفعل يسم الدعاية على الدوام بسمة الرياء ؛ وليس أدل على هذا من أن دول الأرض كلها في هذه الأيام تعلن أنها تؤدي رسالة أخلاقية ملهمة بعثت لتنشرها بين أمم الأرض قاطبة ، وأن ساستها لا ينفكون ينشرون بين الناس ما في سياسـة بلادهم من خير ، وما في سياسة غيرهم من شر وأنانية ، مع أنه لا توجد بين الدول كلها دولة واحدة ذات سياسة خارجية منزهة عن الهوى والغرض والمصلحة الخاصة ؛ وليس منهن واحدة تستطيع أن تدعي بحق أنها تعمل لخير العالم كله أو بعضه . وكل ما في الأمر أن بعضها حين تسعى لإدراك أغراضها الخـاصة تظهر من العناية بمصالح غيرها من دول العـالم وحقوقها أكثر مما يظهره غيرها ؛ وكلما قربت دولة من هذا المبدأ أكثر من دولة أخرى حق لها أن تدعي أن سياستها أكثر انطباقاً من سياسة غيرها على الخلق الطيب والفضيلة ، وإذا قامت دعايتها على هذا الأساس كانت أقوى أثراً من دعاية الدول المنافسة لها .

(ملخصة عن الانجليزية) محمد بدران

أمة واحدة ، بل هو أدب أمم مختلفة في عناصرها ، وتنوع ثقافتها ، ودرجة عقليتها ، وموقع إقليمها ، كما هو أدب أمم مختلفة العصور والأزمنة ، والوضع السياسي ، والحالة الاقتصادية ، والمعيشة الاجتماعية — وهو في عصوره المختلفة قد صور المثل الأعلى أشكالا وألواناً ؛ فالمثل الأعلى الجاهلي غيره في العصر الأموي ، وغيره في العصر العباسي ، وهو في العراق غيره في مصر .

وأمم الشرق في العصر الحاضر من حيث موقفها من المدنية الغربية ، ومن حيث آمالها السياسية ، ومن حيث عواطفها القومية ، ومن حيث نظمها الاجتماعية ، لا بد لها من مثل عليا جديدة تحض الجيل الجديد على الطموح إليه والسعي وراءه وإلهاب العواطف نحوه ؛ وهذه وظيفة الأدب في كل أمة ، ومنها الأدب العربي .

في الأدب العربي القديم لا نجد كل غذائنا ، وفي الأغاني القديمة لا نجد ما يغذي كل عواطفنا ، وفي كل فنوننا القديمة لا نجد ما يرسم كل مثلنا الأعلى الذي ننشده

لقد قامت مناظرة مرة في أن الأدب العربي القديم يصلح غذاءً للجيل الحاضر أو لا يصلح ، فاخترت الشق الثاني . ولست أعني أنه قليل القيمة أو عديم المنفعة ، ولكن أعني أنه وحده لا يكفي في الغذاء ، وأنه ينقصه كثير من أنواع « الفيتامين » ليصلح به العقل وترقى به العواطف .

وللوصول إلى هذا الغرض لا بد من العمليتين اللتين أشرت إليهما ، وهما التقليم والتطعيم .

أما « التقليم » فأعني به أن الأدب العربي مثله مثل تل كبير من قمح ، بعضه طين اختلط بالقمح فيجب أن ينقى منه ، وبعضه حب مسوس يجب أن يستبعد ، وبعضه صالح يجب أن يفرز وحده لنستعين به على الغذاء الصالح . لقد كان كله صالحاً أو على الأقل نتاجاً طبيعياً لعصره ، ولكن ما كان صالحاً لعصر قد لا يصلح لعصر آخر .

إن الأوضاع السياسية للأمم — مثلا — غيرت نظرة العصور الماضية إلى الحكام ، فيجب أن نغربل الأدب القديم ، فلا نقر منه ما يضع من شأن الأمة كأمة ويقدس الحاكم كحاكم . والعلم بالأحوال الاقتصادية غيّر من نظرتنا إلى الفقر ، فلم يجعله قضاءً وقدراً فقط ، بل جعله نتيجة طبيعية لحالة الأمة ووجوه دخلها وخرجها ، ونظام ميزانيتها ومواردها ومصادرها . فالأدب العربي الذي يبعث على الرضا بالفقر كنتيجة محتومة لا دخل للأمة ونظامها فيه يجب أن يستبعد ، وأحوال الأمم كلها الآن تستدعي نفوساً قوية ، قوية في إيمانها ، قوية في عقيدتها ، قوية في عواطفها . فلنقس الأدب العربي بهذا القياس ؛ فما كان منه يبعث على الميوعة ، وعلى الانهماك في الشهوات ، وعلى الخذلان وضعف الثقة بالنفس والثقة بالأمة والثقة بالله يجب أن يهدم .

إن الأمم الآن تتطلب التضحية ، وتتطلب مثلا أعلى أساسه خير المجتمع لا خير الفرد وحده ، وتتطلب إعداد الأفراد للكفاح ؛ فما كان من الأدب العربي يدعو الفرد أن يبحث عن لذته مهما كانت نتائجها على المجتمع يجب أن ينحى ؛ والأدب الذي عماده أن فلاناً أعطاه من مال الأمة لقصيدة أشاد فيها بذكره فجعله ملَكاً فوق البشر ، ليس صالحاً لجيلنا بحال من الأحوال . بل إن مدح الملوك والأمراء والحكام يجب أن يكون أساسه العدل وخدمة الرعية ، وأداء ما عهد إليهم بذمة وصدق ، سواء أعطوا من مالهم الخاص أو منعوا ، كرموا أو بخلوا . وإن الأدب الذي يخيف من الموت ، ويجعل الحياة كلها توقعاً للموت وخوفاً من الموت ، يجب أن يموت ، ويحل محله تقديس الحياة والعمل للحياة ، حياة الأمة وحياة الفرد ، ولا بأس بالموت إذا الموت نزل .

* * *

امتحنت هذه النظرية فقرأت كتاباً من كتب الأدب العربية ، فوجدتني في كل صفحة من صفحات الكتاب قد علقت — في ذهني — على بعض الجمل

بأنها غير صالحة لأنها تبعث الضعف ، وبعضها غير صالح لأن العلم الحديث أثبت كذبه ، وبعضها غير صالح لأنه كان مثلا أعلى قديماً وليس مثلا أعلى حديثاً ، وبعضها صالح كل الصلاحية لأنه يناسب زمننا كما كان مناسبا لزمنه ، فهو مستحق للبقاء .

قرأت مثلا قول المغيرة بن شعبة : « أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث : أحبها لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء ، واسترخاص الأشياء . وأكرهها لروعة البريد ، وفوت العزل ، وشماتة العدو » . فقلت إن هذا نظر غير صائب ، وشعور غير نبيل ؛ إنما تحب الامارة لتحقيق العدالة ، وإيصال الحقوق لأصحابها ، وتحقيق ما أمكن من إصلاح ؛ أما حبها لنفع الصديق وضر العدو ونحو ذلك فنظر سطحي سخيف ، لا يصح أن يعرض على النشء .

وقرأت قول القائل :

« كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكا لا ورق فيه » .

فقلت هذا غير صحيح وإنْ حسن لفظه ، لأنه في كل أمة ، وفي كل عصر ، وفي كل جماعة ، ورق وشوك ، فلا يخدعنك حسن التعبير عن فساد المعنى .

وقرأت خطبة لسعيد بن سويد : « لا يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ، ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاءً بالحق ، وأخذاً بالعدل » . فقلت هذا قول حق ، يصلح لكل زمان ومكان ، ويصح أن يعلَّم لكل ناشيء ، ويردده كل متأدب .

وقرأت قول الشاعر :

أشرقْتَ حتى تركْتَ الشمسَ ساجيةً
كأنما ألبسَتْ دُكْناً من الحلل
وراح نقعك في أجفانها كحلا
وما عهدنا بجفن الشمس من كَحل

لقد حققْتَ دمَ العليا بجود يد
مخضوبة بدماء المَحْل والبَخَل
أظما إلى رشفها يوماً فيصدقني
عنها تعرض سيل العارض الهطل

فقلت إن هذا الضرب لا يعجبني ، رجل أعطى الشاعر قبضة من مال ، فجعله أكثر إشراقاً من الشمس ، وجعل يده مخضوبة بالدم من قتل البخل الخ . وهي معان مبتذلة ، وموقف استجداء وضيع ، وعاطفة شخصية جزئية حقيرة ؛ فهذا الضرب لا أشجع عليه ، ولا أقدمه مثالا يحتذى ؛ وخير منه قول المتنبي في المدح :

إذا الدولة استكفت به في ملمة
كفاها ، فكان السيفَ والكفَّ والقلبا . الخ

وقرأت من الأمثال قولهم : « الوقت كالسيف ، إن لم تقطعه قطعك » . فقلت قول مبهرج ، ولا معنى له ، فليس بصحيح أن السيف إن لم تقطعه قطعك .

وقرأت قول الشاعر :

تطامَنْ للزمان يَجُزْكَ عفواً
وإن قالوا ذليل قل ذليل

فقلت هذا شعر يجب أن يضرب به وجه ناظمه الحقير .

وقرأت نصيحة عمرو بن عتبة لمعلم ولده : « روِّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه » فقلت قول شريف صحيح ؛ ثم قرأت قوله : « ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يُحْكموه ، فان ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم » . فقلت هذا غير صحيح فيما أثبت علم التربية الحديث .

وبجانب ذلك قرأت أدباً جيداً كل الجودة ، حقاً كل الحق ، نافعاً لأن يكون جزءاً من مثلنا الذي ننشده لا أطيل بذكره لكثرته .

وهكذا وجدت فيما استعرضت خيراً كثيراً ، وشراً كثيراً ، فلا بد من التقليم والتطهير ، واستبقاء الأصلح .

خرجت من فكرة « التقليم » هذه بأن

أولى الرأى فى الأمة يجب أن يكون لهم غرض واضح معين فى تربية النشء ، ووضع أسس ثابتة فى التربيـة ، ورسم مثل أعلى واضح جلى ؛ فإذا تم ذلك وجب على كل طائفة أن تسعى لتحقيق هذا الغرض ؛ والأدباء والفنانون فى طليعة هذه الطوائف ، يجب أن يعيدوا النظر فى الأدب والفن ، فلا يضعوا فى يد النشء من الأدب العربى والغناء والأناشيد والتصوير ، إلا ما ينسجم مع هذا المثل ، وإلا كنا كطائفة تغزل غزلا ، وتأتى طائفـة أخرى فتنقض غزلها .

إن عملية التقليم هذه تكسبنا عينا ناقدة نفرز بها الجيد من الردىء ، ونميز بهـا الصالح من الطالح ، فى الشعر والخطب والأمثال والحكم والقصص والأغانى والروايات ، وكل ضرب من ضروب الأدب وكل نوع من أنواع الفن .

إن الأدب العربى فى جملته نوعان : نوع غير صالح لحياتنا الواقعية التى نحياها الآن ، ولا يتفق مع مثلنا الأعلى الذى ننشده فى هذا الزمان ؛ وهذا يجب أن يوضع فى متحف ، كالآثار القديمة يعنى به الخاصة وحدهم ومؤرخو الأدب فقط . ونوع صالح لزماننا ومثلنا ، وهذا وحده هو الذى نسلمه لنشئنا ، ونصوغ منه أمانينا ، ويستشهد به أبناؤنا ، ويحفظ منه جيلنا .

إنا بعرضنا كل الأدب العربى على الناشئين بغثـه وسمينه وصحيحه وفاسده — من غير « تقليم » — نضع فى أذهانهم صوراً مختلفة متناقضة لمثل مختلفة يضرب بعضها وجه بعض ، ولا نكوّن لهم مثلا أعلى منسجما ، فتكون النتيجة بلبلة الأفكار ، وحيرة الأذهان ، واضطراب الناشئ يميناً ويساراً ، وأماما وخلفاً ؛ وفى هذا ضرر بيّن على عقله وعواطفه .

ما بالنا فى فروع العلم المختلفة نعلمه ما أثبت العلم صحته فى الطبيعة والكيمياء والرياضـة والجغرافية وعلم الأحياء ، ولا نعلمه بجانبـه ما أثبت العلم فساده من سطحية الأرض ، ودوران الشمس حولها ، وخلق الحى من غير الحى ونحوها ، ثم لا نفعل ذلك فى الأدب ، فنعلمه ما صح وما فسد ، وما يبعث عواطف مريضة بجانب ما يبعث عواطف صحيحة ؟

لا بد أن يكون لنـا منهج واحد وأسلوب واحد فى هذا وذاك ، وإلا كنا نزن بميزانين ونكيل بكيلين .

* * *

هذه هى العملية الأولى . وأما العملية الثانيـة ، وهى « التطعيم » فأعنى بها أننا ندرس وجوه النقص فى أدبنا وفننا ، فيعكف أدباؤنا على ملافاته ، وندرس مثلنا الأعلى فنرى ما يدعمه ويقويه مما ليس فى أدبنا فنخلقه ، ونجعل هذا النوع وما استصفيناه من الأدب القديم غذاءنا .

لشـد ما نحتاج فى أدبنا إلى الإكثار من تحليل الشخصيات العظيمة لتخلق فينا عظماءَ جدداً ، ولشد ما نحتاج إلى الكتب الجذابة لنشئنا لتغذيهم بالمبادئ القويمة . ولشد ما نحتـاج إلى شعر فى الطبيعة وجمالها ، وإلى شعر يتغنى بالحرية والإخاء والمساواة وتَرْعاتها ، والمظالم وكراهيتها ، وإلى شعر جادّ قوىّ أخلاقى روحى نابع من خيال رفيع . ولشد ما نحتاج إلى القصص تشرح العيوب الاجتماعية ، وتستغفل القارئ فتضع له الدواء القوى المر أثناء تلذذه بمحادثة أو منظر ؛ إلى نحو ذلك .

عملية « التقليم والتطعيم » هى قانون الحياة ، نشذب الشجر لينبت العود الصالح ، ونقطع العضو الفاسد فى الجسم حتى لا يسرى فساده إلى السليم ، ونطعم الشجرة لتنتج خير الثمار وأحسن الأزهار ، ونضحى فى كل شىء بالقليل لنغنم الكثير ، وندفن الميت لنستقبل الحى . فما لنا لا نفعل ذلك فى الأدب والفن ؟

لقد مر على العالم الإسلامى عصور حيـة زاهرة أنتجت أدباً حياً زاهراً . ومر عليـه عصور ميتة جامدة أنبتت أدباً ميتاً جامداً ، ولا بد لنا من التنقية والاختيار .

وعلى الجملة لا يمكن أن يصلح أدبنا وفننا إلا بعمليتى التقليم والتطعيم ، ولو كره الكافرون .

أحمد أمين

أوضاع اقتصادية

للأستاذ يعقوب فام

مسألة القطن اليوم مسألة شائكة ، فالثمن كما يقولون قليل ، ومصاريف زرعه وخدمته زادت بنسبة الزيادة العامة في الأثمان ، والبلد ينتظر المورد من القطن حتى يستطيع أن يتعامل ، يأخذ ويعطى ، ويجيء ويروح ، ويزداد نشاطه الاجتماعي ، فتدب فيه الحياة بعد ركود والحركة بعد جمود . ويزعمون الآن لحل مشكلة القطن أن يزيدوا ثمنه بطريقة مفتعلة ، يسطون على بعض الجيوب ليعمروا قليلاً أو كثيراً بعض الجيوب الأخرى ، يأخذون من زيد ليعطوا عمراً ؛ وهذا في نفسه شيء مشروع ، فكل ما في جيب جماعة من الناس تسرب إليها من جيب جماعة أخرى ، ذلك لأن الحياة الاجتماعية عبارة عن تداول السلع والنقود والآراء .

ولكن ما نريد أن نعرفه على وجه التحقيق — وما فشلنا في معرفته للآن — هو شخصية عمرو هذا الذي سيزاد ثمن القطن مرضاة له ورأفة به ، هذا ما لم يشرحه لنا أحد بطريقة جدية واضحة لا لبس فيها ولا إبهام ، نريد أن نعرف من سيأخذ الريالين اللذين سيزيدونهما على ثمن القطن . لقد عرفنا المورد الذي سنلجأ إليه في شأنهما ، ولكننا لم نعرف مصيرهما . نريد أن نعرف من يملك القطن الآن ، وكيف يعود شيء من فرق الثمن على الفلاح ، وماهي كرهذا الفلاح الاقتصادي ، هل هو الفلاح الأجير ، أم الفلاح الذي يملك فداناً من الأرض ، أو أقل من الفدان ، أم هو الفلاح السمين المليء بالشحم المكتظ باللحم ؟ وكم فرداً يفيدون من هذه الزيادة ؟ وما مقدار الفائدة التي تعود على كل فرد ؟ حقاً لقد سمعنا كلاماً كثيراً في شأن القطن ، فقد تحدثوا عن الحكومة الانكليزية ، وعن الحالفة ، وعن الحرب ، وعن النقل البحري والبري ، وعن الحكومة وعن البرلمان ، وعن الانتخابات ؛ سمعنا بكل هذا وقرأنا الشيء الكثير فيه ، فقد أطال فيه المتكلمون في داخل البرلمان وفي خارجه .
أما عن توزيع الريالين ، ومن سيصيبه شيء منهما ، ومن لا يصيبه شيء ، وما مقدار ما يعود على الفلاح بالقرش والمليم ، ومن يقصدون بالفلاح ، هل هو هذه اللايين الكثيرة من الناس الجياع ، أم يقصدون بالفلاح بعض مئات معينة من الناس — أما في هذا فلم نسمع كلاماً يحسن السكوت عليه .

الحق أن البحث في المسائل الاقتصادية شائك ، لأنها تتصل بمعايش الناس ، والناس حريصون إلى درجة الموت على ما يمس حياتهم الاقتصادية ؛ ولكن الباحث الاجتماعي لا يملك إلا أن يصطدم بها في كل ما يتناول من بحوث وما يبغى من إصلاح ؛ ففي كل منفرج في الطريق يعثر بعقبة اقتصادية تكاد تجعل بحثه خيالياً غير منتج ؛ ولذلك فهو مضطر في جميع الحالات أن يعيرها الكثير من تفكيره ، وبحثه ؛ فتفكير الناس وعاداتهم ومثلهم العليا وآمالهم وأمانيهم مرتبطة أشد الارتباط بما يأكلون ويشربون ، أو بعبارة أخرى مرتبطة بطرق معايشهم وكسبهم .

ومسألة القطن ليست مسألة قائمة بذاتها منفصلة عن غيرها ، وإنما هي جزء من كل وفرع من أصل ، والأصل فيها هو النظام الاقتصادي المصري ، مقدار الانتاج وأنواعه وكفايته وطرق توزيعه ، والسرعة في هذا التوزيع : هل يكفي إنتاجنا لسد جميع حاجاتنا ، وهل يوزع هذا الانتاج بحيث يحصل الناس على ما يحتاجون ؟ هذا على ما نظن هو لب المسألة الاقتصادية ، وما عداها عوارض قد تظهر وقد تزول تبعاً للأحوال والظروف .

يزعم مريت بطرس غالي بك في كتابه القيم — ولا أذكر

عنوانه الآن — أن المشكلة في بلادنا مشكلة الانتاج ، وليست مشكلة التوزيع ، وأن تحسين حال طبقات الشعب لا تتوقف على إعادة توزيع الثروات أو السلع المنتجة ؛ هذا حق وصواب إلى حد كبير ، ولكن ليس معنى هذا الكلام في رأينا أن التوزيع بلغ عندنا درجة كبيرة من العدل والكمال .

يقوم التكسب في كل أمة من الأمم على إحدى طريقتين : فاما أن يكون التكسب من الانتاج ، أو يكون عن سبيل الخدمة ؛ وبعبارة أخرى : ينقسم الشعب في أي أمة إلى طائفتين : طائفة تنتج السلع ، تصنع الأشياء ، وتزرع النبات وتحيله إلى مأكل وملبس ومسكن ، وتتناول المعادن فتحيلها إلى آلات تساعد على تيسير الانتاج وتكثيره ، وتعين الانسان على الحياة بضروب شتى من الخدمات التي تؤديها له في المنزل وفي الشارع ، في أوقات العمل وأوقات الراحة ؛ من هذه الطبقة العمال والصناع والفلاحون والميكانيكيون ، وعلى هؤلاء يتوقف مركز البلد الاقتصادي ومقدرته الشرائية ، وبمجهودهم تكثر السلع التي يتداولها الناس في حياتهم العادية ويستبدلونها بالنقود التي هي وحدات التعامل المصطلح عليها في النظام الاقتصادي المالي .

والطبقة الأخرى تقوم على خدمة الشعب دون أن يكون لها دخل مباشر في الانتاج ودون أن تزيد في مقدرة الأمة على الشراء إلا بطريق غير مباشر . لا ننكر أن هذه الطبقة تيسر الحياة للطبقات الأخرى ، تزيد في راحتها وفي استمتاعها وفي جعل الحياة هينة لينة إلى حد كبير ؛ ولكن مركزها في النظام الاقتصادي هو مركز المستهلك الذي لا ينتج ، مركز من يستنفد الثروة وليس من يزيد عليها أو ينميها ؛ من هذه الطبقة الموظفون والأطباء والأساتذة والتجار والباعة الجوالون بكافة أنواعهم ، وخدمة المنازل والمكاتب ، وسائقو العربات والسيارات والقطارات ، وأمثال هؤلاء كثير .

ليس من ينكر أن وجود هذه الطبقة ضروري للحياة من جميع الوجوه ، وأنه يساعد الطبقة الأخرى على الانتاج بطرق شتى ؛ ولكنها طبقة لا يصح بحال أن تطغى في العدد أو في المركز على الطبقة الأخرى ، إذ يجب أن يكون هنالك توازن بينهما ، وإلا كانت حياة الشعب الاقتصادية غير سليمة بحال من الأحوال . فأمة تروج حال الخدام فيها وتسوء حال المنتجين ، أمة مريضة ، يشتد فيها الداء ويستعصي بنسبة ميل الميزان لصالح الطبقة القائمة بالخدمة .

هذه الظاهرة الأخيرة هي الشيء الغالب في مصر ، وهي الداء الدفين الذي أعيانا علاجه . نحن أمة موظفين وكتبة وخدام ، ولسنا أمة إنتاج زراعي أو صناعي . نحن أمة يهرب فيها الأفراد من التكسب عن طريق الانتاج إلى التكسب عن طريق الخدمة ؛ وذلك لأن هذا السبيل الأخير أهون علينا أولاً ، وأعود علينا من الوجهة الاقتصادية ثانياً . وثروتنا مقسمة إلى شطرين : الشطر الأكبر منها يذهب إلى جيوب الخدام ، والشطر الضئيل القليل يذهب إلى جيوب المنتجين .

ولهذا الداء نتائج كثيرة تترتب عليه : منها ازدحام المدن ، وإقفار الريف ؛ ذلك لأن المدن هي مراكز الخدمة وفيها دواوين الحكومة والبنوك والبيوت التجارية ؛ ووسائل الانتقال لهؤلاء الموظفين كثيرة متباينة ، وفيها المطابع والمدارس ، وجميع هذه المنشآت تحتاج إلى خدمة وموظفين ؛ فيهرع الشعب إلى هذه المراكز ، علّه يخدم أحداً فيأكل ويشرب ؛ ثم أقبل الناس على هذا السبيل من التكسب إقبالاً شديداً ، ولا لوم عليهم في ذلك على الاطلاق ؛ فالفرد منا يسعى في الحياة ليأكل ويشرب ، لا ليجوع ويضحى ، فالتضحية للأبطال الأفذاذ ، ولسنا أمة أبطال ، ولن توجد في العالم أمة أبطال .

أقبل الناس على هذا الضرب من التكسب أيما إقبال ،

وتفننوا فيه واستنبطوا أنواعاً جديدة من الخدمات لا يكاد المرء يحصيها ؛ فمنهم ماسح الأحذية وبائع الجرائد وأوراق المراهنات بجميع أنواعها ؛ وقد رأيت رجلا يبيع حماراً صغيراً على ناصية عماد الدين وفؤاد الأول ، وغيره يبيع الكلاب ، وآخر يجوب الشوارع بقرد ومعزى ، حتى أصبحت الشوارع تغص بهؤلاء ، إلى أن طغوا على بقية الأفراد ، ناهيك عن يفتح لك باب سيارتك ويغلقها ، ومن يقف لك حين تدخل منزلك ويقف لك حين تخرج .

تدخل إلى دكان المزين فيقص لك شعرك ، وإذا غلام يطرد عن وجهك الذباب ويروح عنك بمروحته ، وعندما يفرغ المزين من عمله تقبل عليك طائفة من الغلمان ، هذا ينفض الغبار عن السترة ، وذاك يناولك الجريدة ، وآخر يتناول منك الأجر ، حتى لتكاد تشعر أن العالم وقف على خدمتك .

اعتدت أن أجلس إلى مقهى لأقرأ أو أكتب ، وكان بالمقهى خادم واحد لطائفة محدودة من الناضد ، فكان يحضر لى القهوة وأقداح الماء كلما طلبتها ؛ وما كان على إلا أن أصفق بيدى حتى يحضر هـذا الخادم ويجيبنى إلى ما أطلب ، وكنت أحبه ببعض النقود فى نظير هـذه الخدمة ؛ ثم ذهبت يوما ما إلى هذا المقهى ، وإذا بخادم آخر انضم إلى الخادم السـابق ، كان الأول يلبس البذلة الأفرنجية ، وأما هذا فيلبس القفطان الأبيض ويتمنطق بحزام أخضر عريض ؛ وتبين من معاملتى لهؤلاء أن هذا الشخص الجديد عبارة عن خادم للخادم الأول ، يحضر لى ما أشاء من أقداح الماء ، ولكنه يترك قبض الثمن للخادم الأول ، إلا أنه مع ذلك يظل يحوم حولى عند دفع الثمن والبقشيش . ويظل يحدق فى ، ويرتب فى المنضدة التى لا تحتاج إلى ترتيب بحال من الأحوال ، ولا يفارقنى إلا إذا نال نصيبه من الحبـة أو أيقن أنى لا أقصد أن أدفع ؛ ثم مرت الأيام ، وإذا بخادم ثالث يضاف إليهما ، وعلمت من تصرفاته أنه خادم لخادم الخادم ، وهو منوط به استدعاء البـاعة وإحضار الجرائد للزبائن ، ولا أعلم مركز الخادم الرابع متى حضر ، وأظن أنهم سوف يجدون له عملا متى حان الوقت .

هنالك ضروب من الكسب تجعل الانسان منا يعجب للحياة كيف يقضيها هؤلاء النـاس ، فقد رأيت رجلا أمامه أربع برتقالات لا غير ، يقلب فيها وينضدها تارة بشكل وتارة بشكل آخر ، وهو جالس على قارعة الطريق ، وآخر يجوب القـاهى يحمل قلماً واحداً لا غير من الرصاص ، ويريد أن يبيعه للجمهور ، وهكذا إلى آخر هذه المشاهد التى تجعل الانسان يحزن ويكتئب لهذه الحال !

لقـد قيل الشىء الكثير فى حياتنا الاقتصادية ؛ ولكننا نظن أن المسألة كلها تتوقف على سؤال واحد ، متى استطعنا أن نجيب عليه أمكننا أن نحل الكثير من المشاكل ؛ هذا السؤال هو : هل فى الإمكان زيادة وسائل الانتاج فى هذا البلد ، أم ليس هذا الامكان ؟ وإن كان الجواب على هذا السؤال بالايجاب يحضرنا سؤال آخر : هل يمكن أن يسد إنتاجنا حاجات الشعب كلها بحيث تصبح ملائمة لحياة الآدميين ، أم أن لزيادة الانتاج حداً محدوداً لا تستطيع بحكم الحالة الطبيعية لبلادنا أن نتعداه ؟ وما هى السلع التى تستطيع إنتاجها فى هذا البلد ؟ وهل نستطيع أن نحمل الشعب على الاقبال على إنتاج هذه السلع ؟

لقد سمعنا الشىء الكثير عن مشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان ، ومقدار السماد الذى ينتج من هذه الكهرباء ، وأنواع الحديد الذى نستطيع استغلاله منه ؛ سمعنا بكل هذا وبكلام كثير مثله ، ولكننا لم نسمع على التحقيق كم قنطاراً من السماد يمكن إنتاجه ، وكم من الأدوات نستطيع أن ننتج من هـذا الحديد ؟ وكم عاملا وصانعاً يستطيعون أن يشتغلوا فيما لو تم هذا المشروع ؟

فتنة القارة السوداء

قرأنا جميعاً عن أولئك الأفراد من الجنس الأبيض ، نشأوا فى حجر المدنية ، وتقلبوا فى أعطافها عمراً طويلا ، ثم تركوا حواضرهم الغربية وطرقوا قلب أفريقية لكشف مجاهلها أو صيد سباعها

وقد قرأنا جميعاً عما لقوه هنا وهناك فى صحاريها الجرداء المترامية ، وآجامها الشجراء المتوشجة ، وغياضها الآسنة الوخيمة ، وما تعرضوا له من لسعات الهوام ، وإبر البعوض المتوّمة ، ونهش الحشرات المسمّمة ، وتفشى الحيات والأمراض الفاتكة ، وما عانوه إلى هذا وذاك كله من جو موبق وحر خانق .

ولكننا لم نقرأ قط عن واحد من هؤلاء فارقها

وماذا يصنعون : هل يقومون بخدمة أو ينتجون ؟ وكم يكون أجر العامل ؟ وما هى أنواع المنتجات التى يستطاع إنتاجها ؟ وكم هى الميزانية السنوية لهذا المشروع ؟ وما مقدار إيراده بالقرش والجنيه ؟ وماذا سيدخل إلى جيوب الشعب من هذا الايراد ؟ وكم منه يدخل للشركة التى ستضطلع به ؟ وما مقدار دخل الحكومة منه ؟ كل هذه أسئلة تخطر ببال الانسان ، ولكنه لا يجد لها جواباً معقولا ، وإنما كل ما يسمعه عن هذا المشروع كلام عائم لا ضابط له ؛ فهم يقولون لك إنه سوف ينتج كذا وسوف يعمل ذاك ، وسوف يرفع مستوى المعيشة درجات .

أما إذا كان من غير المستطاع إكثار الإنتاج فى هذا البلد بدرجة تكفى سكانه ، فقد أصبحت مشاكلنا الاقتصادية مشاكل لا يرجى حلها ، وأصبح الحديث فى الاصلاح الاجتماعى لغواً لا يعتد به .

ماذا يستطيع هذا البلد أن ينتج ؟ وما مقدار هذا الانتاج بالجنيه والقرش ؟

يعقوب فام

عازفاً مختاراً . ومن فارقها لم يملك الصبر عنها ، ولم يلبث أن يلبى نداءها ويعود مضاعف الشوق مجذوباً إليها . وفى أحضانها الحارة الموصولة بالطبيعة الأولى تنتظرهم إحدى ميتتين : الحمى بحرواتها الناهضة وحجيمها الصالب ، أو القتلة الشنعاء ، مقرونة بالتمثيل والتعذيب ، على أيدى القبائل الوحشية العادية .

فالقارة السوداء كالحبيبة الطائلة المتجنية ، تضنى من يعشقونها وتذيقهم ألوان العذاب ، ثم هم واحداً بعد الآخر يلقون مصرعهم عند قدميها ، فعشقها كالذى يتحدث عنه الشاعر (أوله سقم وآخره قتل) . والعشاق مع ذلك لا يفتأون يخطبون ودها ؛ وما منهم إلا المستعذب عنتها وصعب مرامها ، المشغوف الفؤاد بغدرها ومكرها ، الشوق إلى ضمّها القاتلة .

ولكى نلمس السر ، ونقف على جلية هذا السحر ، دون أن نلقى ما لقيه هؤلاء الأفراد الأفذاذ وجهاً لوجه ، لا نجد إلا أن نمد إلى الصورة التى عرضوها لهذه التى فتنتهم وأذهلتهم عن سلامتهم .

جاء فى « رحلات » دافيد لفنجستون :

« كانت الآجام تزداد تكاثفاً كلما مضينا شمالا ، فكان مسيرنا فى ظلمة الغابة المخيمة أكثر منه فى وضح الشمس الضاحية . ولم يكن ثمة مسالك غير الممر الضيق الذى كنا نشقه لمجازنا بالفؤوس ، وكانت بعض النباتات العريضة المتسلقة تلتف على سوامق الدوح جذوعه وفروعه ، كالأفاعى من ذوات العضل القابضة ؛ وهى فى واقع الأمر كثيراً ما تطبق على الدوح الذى تتسنمه وتشد عليه فتقتله وتبقى هى قائمة متطاولة . وكانت هنالك أشجار أخرى لم يسبق لزملائى عهدٌ بها حتى الساعة ، ومعظمها يذهب فى الارتفاع إلى خمسين قدماً ، وساق الشجرة كلها بثخانة واحدة ولا فروع لها البتة . . .

« وقد كان اغتباطنا بالغابة الشجراء — على الرغم من

المطر والحمى – عطبا ، وذلك المباينة الشديدة بين ظلمتها المخيمة وبين الوهج فى صحراء كلهارى الشاسعة التى لا ظل فى صحصحانها يُفاء إليه » .



الرحالة دافيد لفنجستون

ولقد سمع لفنجستون قبيلة ما كولو يتحدثون عن الدخان المجلجل ، وقد سأله ملكهم المظفر فيما سأله إن كان فى بلاده النائية دخان يجلجل ، والأحجى بنا أن نترك للرحالة وصف ما شاهده قال :

« غادرت بلدة كلاى فى زورق على مياه نهر زمبيزى ، ولم تمض عشرون دقيقة حتى طالعتنا للمرة الأولى أعمدة من البخار متصاعدة ، يصدق عليها قولهم إنها « دخان » على مسافة خمسة أميال أو ستة ، وهى أشبه ما تكون بالدخان المتصاعد من احتراق مساحات كبيرة من الحشيش الجاف فى الأصقاع الاستوائية فى أفريقية . وكانت الأعمدة المتصاعدة حيال وقتئذ خمسة ، وهى تميل منحرفة إلى جهة الريح ، وكانت ذوائبها تلوح فى هذا البعد كأنها ممتزجة بالسحاب ، والأعمدة بيضاء فى أسفلها ، ثم يربد لونها فى ارتفاعها ، ومن ثمة كانت وثيقة الشبه بالدخان . منظر رائع الجمال جملة وتفصيلا ! ! وكانت ضفاف النهر والجزائر الصغيرة المتناثرة فى مجراه تكسوها أفانين من نبات هذه البقاع شتى الأشكال والألوان . وكانت أشجار عدة فى هذا الأوان مرصعة بالنوار والأزهار ، وكل شجرة لها طابعها وملامحها ؛ وتقوم فى وسط الأشجار منيفة عليها شامخة ، شجرة البوباب الضخمة الشلباء ، وكل فرع من فروعها الضخام حرىٌّ بأن يكون جذعاً لشجرة عظيمة . وإلى جانبها لفيف من النخيل المشوقة ، وسعفها المرتسم على صفحة السماء كريش النعام ، يزيد المنظر العام حسنا على حسن ؛ والنخيل كرمز اللغة الهيروغلوفية ، معناه عند الرجل الغربى كما رآه أنه « بعيد عن الوطن » ، فمرآه لا يبرح قريب الوقع فى نفسه ، سواء أكان ذلك فى الصور أو فى الطبيعة . وثمة أشجار فضية اللون على هيئة أرز لبنان ، تتراءى إلى جانب أشجار قاتمة على هيئة السرو ، تلتمع بين أوراقها ثمار بهيجة قرمزية ، وبعض الشجر شبيه بالبلوط الجسيم الفينان ، وبعضه يظهر بمظهر الدرداء والشاهبلوط ، ولكنه من غير المستطاع أن نتمثل منظراً فى بلادنا يدانى هذا المنظر سحراً وروعة .... » .



« الدخان المجلجل » أو شلالات فكتوريا
صورة تخطيطية منقولة عن « رحلات » لفنجستون

ومضى الرحالة فى زورق أخف من زورقه الأول فى مياه

النهر ، وقد اعترضتها الدوامات والصخور الناتئة ، ولكنها لم تزده سرعة انحدار وشدة تيار ؛ وما لبث أن ألفى الرحالة نفسه بحضرة ذلك المجهول الرهيب — أو كما يدعوه القوم الدخان الجلجل ، وهو — كما لا يخفى — شلالات فكتوريا كما دعاها كاشفها ؛ ويقول لفنجستون إن هذه الشلالات تحوطها جروف شاهقة تكسوها الآجام ، وتستبين للناظر حمرة تربتها من خلل الأشجار ، ويرى الرحالة الزمبيزى الذى يتغنى القوم فى زوارقهم على مياهه مرددين : « هو النهر ، لا يدرى أحد من أين يجىء ولا أين يذهب » . رآه الرحالة يثب على الفجاءة دفعة واحدة — من ارتفاع اربعمائة قدم ، وعلى اتساع يزيد على ألف وثمانمائة ذراع ، إلى فج ضيق من الأرض فى صخر بركانى لا يزيد اتساعه على عشرين ذراعاً . والناظر إلى هذا الفج عن يمين الجزيرة الصغيرة الواقعة فى وسط المجرى لا يشهد إلا سحابة كثيفة بيضاء ، رأى المستكشف عليها وفتئذ قوسى قزح متلألئين . ومن هذه السحابة يندفع علواً فى الفضاء فواراً عظيماً من هبوة الماء كأنه البخار ، ويرتفع مائتين أو ثلثمائة قدم ، وثمة يتكثف فيتبدل لونه إلى دخان أسود ، ثم ينهمر فى فيض متصل الشآبيب ؛ فإذا رمى الناظر ببصره من شمال الجزيرة رأى الماء فى قاع الفج لجة بيضاء متدافعة ، وقد تناثرت عن مائها التمزق شطف من الرغوة متألقة براقة ، فكأنما ألوف من الشهب ذوات الذنب مندفعة فى وجهة واحدة ، مخلفة وراءها أذيالا من الزبد .

وبينما كان لفنجستون يتطلع كالمأخوذ إلى هذه المشاهد ، وورد فى خاطره : « يا لها مناظر لم تقع العين على أجمل منها ! ما إخال إلا أن الملائكة تتطلع إليها وهى سابحة فى السموات العلى » — كان فى هذه الأثناء رءوس القوم يصلون ويقربون القرابين لهذه الذات المجهولة ، وهم على مسمع من هدير الشلال ، ومرأى من أقواس قزح المتلألئة فى السحاب .

وبعد ، فهذه أفريقية السوداء فى مجالى الطبيعة . ولعلها ليست دون ذلك روعة وفتنة فى أبنائها وبناتها من صنوف البشر على الفطرة الأولى . ولئا كان المستوحش لا يرى فى الغريب إلا أنه عدو — وقد زاد الأسف بعض البيض فى بعض الأزمنة هذه العقيدة رسوخاً فى طبعه — إلا أنه حين يحس العطف الصادق ويأنس إليه ، لا يدانيه مدان فى المروءة وعلو النفس . وحسبنا أن نقرأ عن رجال لفنجستون الأفريقيين — وبخاصة سوزى وشوما — ونذكر من مواقفهما فى هذا المقام الصفحة الأخيرة ، بعد أن مات « السيد الأكبر » كما كانوا يدعون ، وانقطعت الأسباب بينه وبينهم . فقد أبى سوزى وشوما أن تنقطع الوشيجة القلبية الوثيقة بين لفنجستون وأفريقية ، وشعرا بأنه لها ، قبل أن يكون لغيرها ، فأخرجا قلبه من جسده الهامد ، ودفناه فى البقعة التى قضى نحبه فيها نضو السقام والمرض ، وأخذا بعد ذلك فى إحصاء كل ما مات عنه ، فلم يأخذا لأنفسهما شيئاً مما خلفه ، ثم حنطا جثته ، وارتحلا بها مسيرة خمسة عشر ألف ميل بين القبائل المتاحزة المتقاتلة إلى زنجبار ، وقد رفضا أن يسلما حاملهما العزيز إلى الضابط البريطانى الذى كان قادماً على رأس بعثة لإنقاذ المستكشف العظيم ، وتوليا هما حمل الفقيد إلى الساحل ، ومن ثمة نقله مواطنوه إلى مدافن وستمنستر فى لندن .

ولا أحسبنا بعد هذا جميعه فى حاجة إلى سوق أمثال أخرى على فتنة القارة السوداء ، وقد سمعنا شهادة رائد عظيم من روادها يعتبره كل من أتى بعده القدوة والمثال .

عبد الرحمن صدقى

إنه فى يوم الثلاثاء ٧ أكتوبر سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً وما بعدها والأيام التالية إذا لزم الحال بالمعارضة مركز فارسكور سيباع علناً بجرة موضحة بمحضر الحجز التنفيذى ملك عبد العزيز محمد قللة كطلب الشيخ مصطفى مصطفى جميل من الناحية تنفيذاً للحكم رقم ٨٣٦ سنة ١٩٤١ مدنى دمياط وفاء لمبلغ ٦ جنيه و ١٤٠ مليم خلاف أجرة النشر وما يستجد من المصاريف   فعلى راغب الشراء الحضور

من أحاديث المخابئ

- ٢ -

التفاؤل والتشاؤم خَلَّتان في النفس ، تذكيهما الحوادث وتضع صاحبهما في موضعه منهما قوة وضعفا ؛ وإذا جارينا علماء النفس الوضعيين رجعنا بسببهما إلى فساد الأخلاط واعتدال الأمزجة اللذين ينشأ عنهما غلظ الحس أو دقته . ولا نظن هذا تفسيراً مطلقاً ، فكم من غليظ الشعور في الحياة تنخلع مهجته هلعاً لدى بادرة خطر طفيف ، فلا يرى إلا شراً آتياً . وغيره من ذوى الاحساس المرهف تشتد نفسه ويشجع فؤاده لدى واقعة عارمة ، ولا يرى إلا خيراً آتياً .

وقديماً قالوا إن الأزمات تشحذ العزمات ؛ ولعل هذا المثل لا يصدق إلا عن المتفائلين ، لأنه بينما يرى المتشائم الدنيا بمنظاره الأسود ويعبس لها عبوس القنوط ، يراها المتفائل بمنظاره الأزرق ، ويبسم لها ابتسام الأمل .

ولقد كانت الحروب الماضية تبعث على التشاؤم أو التفاؤل المحاربين فقط ، فيشعر هذا أو ذاك بأن النصر أو الهزيمة لهؤلاء أو أولئك . أما هذه الحرب الضروس التي تكتوى الانسانية بنارها اليوم فميادينها متنوعة ، وكل بلد قريب من مطار معادٍ يعدُّ جبهة حربية نسبياً . وكل حي من الطفل في مهده إلى الشيخ على عتبة لحده يعد محارباً نسبياً .

وقد أعدت كل البلاد مخابئ وملاجئ للناس يأمنون فيها شر العاديات المقذوفة من السماء . وأنفقت الحكومات المبالغ الطائلة لحماية الأهلين ، وتركت على ذوى اليسار حماية أنفسهم ومن يعولون .

وتعد الاسكندرية في مقدمة المدن التي أنشئت فيها المخابئ ، لأنها أقرب هدف تهيل عليه الطائرات مقذوفاتها ،

وقد أصبحت هذه المخابئ اليوم دريئة يفزع إليها المرء بعمره ، ومِجَنّاً يتقى الأقدار بظهره ، بل هي مباءة الغنى والفقير ، وملاذ الكبير والصغير ، ومعتصم القوى والضعيف ، وكِنُّ الطمئن ومستَقَرُّ الخيف ؛ وما دام هذا خطرها وتلك أهميتها وجبت لها عناية خاصة حتى في الكلام عليها .

وإذا نظرنا إليها نظرة سريعة أمكننا أن نقسمها إلى عمومية وخصوصية : فالأولى هي التي أنشأتها الحكومة للجماهير ، والثانية هي التي أنشأها الناس لأنفسهم ؛ ولكن هذا التقسيم لا يجلو حقيقتها ، ولا يدل على خصائصها . وأحسن منه تقسيمها إلى أنواع ثلاثة نهتدى إليها بمواقعها ، هي :

علوية ترتفع عن سطح الأرض .
وأرضية تقوم على سطح الأرض .
وسفلية تغور تحت سطح الأرض .

أما المخابئ العلوية فهي منازل الطبقات الأولى في العمارات الحديثة ، أخليت من سكانها وتركت لسكان الطبقات العليا يهبطون إليها كلما أطلقت صفارة الانذار بالخطر . فهي إذاً بيوت خالية قائمة فوق البيوت الأرضية ، زعم أصحاب الملك ممن لا حياء ولا ذمة لهم أنها مخابئ . . فيستهينون بأرواح عباد الله المستأجرين الذين لا يملكون الرحيل عن بيوت ألفوها ، ولا يعرفون إلى أين يذهبون ، وتسكت الحكومة عن ملاكها كأنما هم لم يأتوا أمراً إدّاً .

وأما المخابئ الأرضية فهي المخازن القديمة وحظائر السيارات (جاراجات) والطبقات الأرضية من العمارات ، وتراهم قد دعموا سقوفها بأعمدة من الخشب الغليظ تقوى على حمل ما ينهار من الطبقات العليا إذا تهدمت العمارة على رءوس سكانها . وقد تأنق الكثيرون من أصحاب الملك في إنشاء هذه المخابئ ، فبنوا أبوابها بالطوب ، وحرصوا على

أن يكون لها مخرجان ، وكدسوا أكياس الرمل حول منافذها المنخفضة ، ومتنوا جدرانها بالأسمنت المسلح ، ورفعوا فى وسطها الأخشاب الغليظة ، أو أعمدة من الطوب مبنية سوارى أو عقوداً .

وأما المخابىء السفلية فمنها العادية وفوق العادية .

فالعادية هى أقبية البيوت القديمة أو مستودعات البيوت الحديثة سدت نوافذها ودعمت سقوفها على غرار المخابىء الأرضية . ومنها المخابىء الحكومية التى أنشئت فى الميادين العامة والأراضى الفضاء حيث حفرت فى الأرض أخاديد متعرجة أثبتت جدرانها بالطوب ، ومدت عليها سقوف رقيقة من الأسمنت وتركت بين السقوف والجدران نوافذ ضيقة يتنفس منها المختبئون .

أما المخابىء السفلية فوق العادية ، فهذه هى النفائس والروائع التى يتحسر كل سامع بها أن له مثيلاً لها . وهى التى أنشأها كبار القوم وأغنياؤهم الذين يساوى اليوم الواحد من عمرهم سنوات وسنوات من أعمار غيرهم ، فاحتفروها فى الحدائق الملحقة بقصورهم وأنفقوا ألوف الجنيهات على رصف أرضها وتغليظ جدرانها وتسميك سقوفها بالأسمنت النقى والحديد القوى والرمل الناعم طبقات وطبقات . ثم تأنقوا فى فرشها وتنسيقها وتكييف هوائها وإنارتها ، وشحنوا فيها ألوان الطعوم والمشروب والمشموم . وأصناف الأدوية والسعفات الطبية والجراحية . وغالوا فى عمقها عن سطح الأرض دركات بعيدة الغور ، حتى لا تصل إليها « الاصابة المباشرة » . وكلما ذهبت ثروة صاحبها صعداً فى عالم المال ، ذهب مخبؤه صبباً فى عالم المخابىء ، كأنما يرى هذا الغانى أن الحرب خالدة ، وأنه يبنى للأجيال المقبلة .

ولقد نزلت أربع عشرة درجة إلى أحد هذه المخابىء فعيل صبرى ، ورأيت أن أكون على سطح الأرض تحت الخطر أسمع وأرى أفضل من أن أكون قابعاً كالأرنب فى هذا الجحر السحيق .

تلكم المخابىء ، وأقسامها الصحيحة . أما اللاجئون إليها ففريقان : متشائم ومتفائل .

يظل الأول ساهر الطرف يتوقع الغارة ويسأل عنها ، كأنما أعطى المسئولون علم الغيب . فاذا وقعت هرع إلى المخبأ ولبث فيه مضطرباً ، يتبرم بكل من حوله ، ويزفر طويلا ، ويغشى جيئة وذهوباً قلقاً حذراً ، يدعو إلى الصمت والسكينة ، وإلى إطفاء كل مصباح يدوى ، ويتأفف من كل حركة أو بادرة أو نكتة أو حديث ، ويقعد لاهثاً متنصتاً ؛ وفى هذا كله تقوم قيامته وتسرى منه عدوى الخوف إلى الكثيرين .

ويظل الثانى سادراً مستهتراً ، يتلكأ فى ذهابه إلى المخبأ ، وينير مصباحه اليدوى ، ويشعل على باب المخبأ لفافة التبغ ، ويضحك ضحكا عالياً ، ويتحدث إلى كل سامع ، ولا يصغى إلى من يدعوه إلى الصمت والسكينة . وقد يسخر من الخائفين ، ويستخف بالحادثين ، ويعلن فى زهو وكبرياء أن الحذر لا يدفع القدر ، وأن القنبلة إما أن تقع على رأسه فتخمد أنفاسه لساعته ، وإما أن تقع بعيداً فلا خطر عليه ، لذلك هو لا يهتم كثيراً لما يجرى حوله .

والناس — رجالا كانوا أو نساء — منهم من يغالى فى تشاؤمه ومنهم من يغالى فى تفاؤله ، ومنهم من يسلك سبيلا وسطاً بين هذين ، وقد تختلف السبيل بالبعد أو بالقرب منهما . وقد تفعل الحوادث فعلها فى النفوس ، فاذا وقعت واقعة لمن كان أميل إلى التشاؤم زادت فى تشاؤمه ، وإذا لم تقع واقعة لمن كان أميل إلى التفاؤل زاد ذلك فى تفاؤله .

قال لى أحدهم : أعرفت كيف مات فلان ؟ . . . إنه أطل من النافذة لينظر إلى الطائرات فوقعت شظية على أم رأسه أسالت مخه على وجهه . . . وفلان تلكأ فى الهبوط إلى المخبأ فانهار به السلم الداخلى فاختنق تحت الهدم . . . وفلان ضغطه دفع الهواء فبات لاصقاً بالجدار . . . وازدحم

اتجاهات الأدب الحديث

فى نظر أستاذ هندى

الشعر :

إن ظهور أنواع حديثة من الشعر العربى فى العصر الحاضر يرجع فى الغالب إلى المؤثرات الفرنسية ، فان بعض المثقفين المصريين مثل « عثمان جلال » ممن اتصلوا بالشعر الفرنسى ترجموا قطعا من شعر « موليير » ، «ولافونتين» إلى أزجال وأغان شعبية . ومع أن الزجل وما شابهه من الأدب الشعبى قد انتشر بعد ظهور المسرح المصرى وشركات «الأفلام» و «الراديو» ، فانه لم يتجاوز بعد ، ولم تبلغ قيمته الأدبية مبلغاً كبيراً ، وإن نظام الوزن والقافية لا يزال اليوم كما كان فى العصر العباسى ، إلا أن عبقرية « شوقى » البدعة أحدثت — فيما أحدثت — وزناً جديداً رقيقاً يتمثل فى القصيدة المشهورة :

مال واحتجب وادعى الغضب

والشاعر الحديث « إبراهيم ناجى » وزن جديد يقارب هذا فى قصيدته « عاصفة روح »

أين شط الرجا يا عباب الهموم

وهذه الأوزان على طرافتها لا تخرج فى الواقع عن كونها أوزانا كلاسيكية معدلة بعض التعديل .

أما من ناحية الألفاظ والأساليب ، فان الشعراء المتقدمين من أمثال « البارودى » و « حافظ » جروا على سنن الشعراء العباسيين . وقد يجد القارىء هنا وهناك فى قصائد «البارودى» أبياتاً وطنية تنم عن تأثره باتجاهات عصره من مثل قوله :

يا روضة النيل لا مستك بائقة
ولا عدتك سماء ذات إغداق
أصبو إليها على بعد ويعجبنى
أنى أعيش بها فى ثوب إملاق
وكيف أنسى دياراً قد تركت بها
أهلا كراماً لهم ودى وإشفاق

هذه الروح الوطنية ترتفع إلى مستوى أعلى فى مراثى « حافظ » ومدائحه ، وقد فاضت عباراته وأساليبه بروح من العطف والاشفاق على البائسين والفقراء من أبناء مصر حتى أصبح حقاً شاعر الشعب .

وقد غنى « حافظ » و « شوقى » مما أغانى الوطنية المصرية ، وذكّرا العرب بمجد الاسلام وعظمة المدنية المصرية . ولكن إلى «شوقى» وحده يرجع الفضل فى استحداث أنواع وأغراض جديدة فى الشعر العربى ، فقد كان شاعر القصر حينا ، وقد نزع إلى استعمال كثير من الكلمات المألوفة ، واستثمار كثيرا من الأسماء من تاريخ مصر القديم ، وأدخل أنواعا من المسرحيات الغنائية فى الشعر العربى .

وبالرغم مما لحافظ وشوقى من آثار فانهما لا يعتبران مجددين بالمعنى الكامل الذى يفهمه الأوربيون من التجديد .

أحد الخابىء بالناس فات الكثيرون اختناقا ..

وقال لى غيره : إن فى الاسكندرية مائة ألف بيت على وجه التقريب . وإنى أسكن واحداً من هذا العدد المديد . والمسألة إنما هى مسألة حظ وقسمة . فقد سلف لى أن اشتريت كثيراً من أوراق النصيب فما ربحت قط الورقة الأولى . ومن تختار القنبلة بيته لتسقط عليه يكون محموم الخالفة كمن يربح الورقة الأولى ، فماذا يجرى لى فى هذه ما لم يجر لى فى تلك ؟

والواقع أن أعقل الناس من تدبر أمر نفسه واحتاط لها وتوكل على الله .

خليل شيبوب

ويذهب الدكتور «هيكل» إلى أن «شوقي» مزيج حسن من الفلسفتين الاسلامية والغربية . ولكن الدكتور «طه حسين» لا يوافق «الدكتور هيكل» في هذا ، ويحاول أن يضع «حافظا» و «شوقي» في مكانهما بين الشعراء الكلاسيكيين ، ويرفض أن يعترف بوجود نزعة فكرية أو مذهب شعري في قصائد شوقي ، ويرى أن شعراء العرب الحديثين ليسوا بصادق التمثيل لروح العصور الكلاسيكية ، وليسوا مجددين تمام التجديد ، لأنهم لا يمثلون روح العصر الذي يعيشون فيه ؛ وهو ينسب الجمود الحاضر في الشعر العربي إلى الخمول الذهني عند الشعراء وقلة حظهم بالتزود من المعرفة .

على أننا نجد «لحافظ وشوقي» كثيرا من القصائد السياسية والاجتماعية التي بثت في الشعب كله روح الحماسة الوطنية ؛ فهما إذاً قد ترجما عن جزء — على الأقل — من أحاسيس الشعب . ولكنهما يختلفان عن شعراء الغرب في أنهما لم تكن لهما رسالة شعرية خاصة يؤديانها إلى العالم كله ، أو إلى الجزء العربي منه .

والحق أن «حافظا» و «شوقي» قد وضعا الأساس للنهضة الحديثة للشعر العربي ، وقد جاءت جهودهما بثمرات مباركة ، فأصبحنا نجد شعراء اليوم ينظمون القصائد القصصية والوصفية من مثل : العراق في مصر (للزهاوي) وهرم خوفو (لشكري) وأوبة الطيار (لرامي) وعاصفة روح (لناجي) وغريب في باريس (لمبارك) والباز والقبرة (لكيلاني) وفي قريتي (لمكاشف) . وعلى ما في هذه القصائد من بعض النقص فإن لها وحدة في الغرض واتصالا في التفكير . وإن أحسن فأل لمستقبل الأدب العربي لهو الشعور التام بنواحي النقص ، واتخاذ الخطط العملية لتكميلها ؛ ويبدو هذا واضحا الآن في الجمعيات والمؤتمرات التي تعمل على تجديد الشعر العربي وإحيائه ، وفي المحاضرات التي تتناول هذا الموضوع من جميع نواحيه .

ومع أن كثيرا من أبناء المدرسة الحديثة يدعون إلى نظم الشعر المرسل blank verse والتحرر من قيود الوزن والقافية ، فإن الاتجاه سائر في طريق إدخال بعض الأنواع الأدبية الأوربية في الأدب العربي مع الاحتفاظ بالخصائص الأساسية لهذا الأدب . ومما يظهر فيه التأثير الأوربي واضحاً اتجاه الشعراء الآن نحو الموضوعات الطبيعية والفلسفية والاجتماعية والسياسية ، وما إليها مما يحس به المجموع لا الفرد وحده . وقد كان لترجمة الالياذة وغيرها من روائع الأدب الاغريقي أثر في توجيه الشعراء العرب إلى الشعر القصصي . ولكننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن التأثير الأوربي أظهر في نهضة النثر منه في نهضة الشعر .

النثر القصصي :

إن فن كتابة القصة لم يوجد في الأدب العربي إلا في المرحلة الحديثة . وقد اتخذ في أول ظهوره شكل الروايات التاريخية التي لم تكن ناجحة من الوجهة الفنية ، والتي قصد بها إلى تهذيب تلاميذ المدارس وتعليمهم . وقد أخرج «جورجي زيدان» روايات من هذا النوع ، ولكن أسلوبه فيها كان صحفياً أكبر منه أدبياً ، ذلك لأنه قصد من هذه الروايات إلى تربية الشعب . ولما كانت القصة هي الجسر الموصل بين الصحافة والأدب ، فقد أخذ كثير من الصحافيين أنفسهم بكتابة القصص ، ليوسعوا دائرة صحفهم ومجلاتهم بين القراء ؛ وإذا كانت هذه الناحية غير موجودة في الأدب العربي الكلاسيكي ، فقد اضطر هؤلاء أن يلجأوا إلى القصة الغربية يترجمونها ، وهب من من الناحية الأخرى رجال الأدب ممن حذقوا بعض اللغات الأجنبية ، فأخذوا يضيفون إلى ثروة المعارف العربية مما يترجمون من نفائس الآداب الفرنسية والانجليزية والألمانية والطليانية . غير أن القصة العربية لم تتطور تطوراً ظاهراً

إلا حين مهد بعض المثقفين الطريق للفن القصصي ، من أمثال « المنفلوطي » في العبرات ، و « الزيات » في آلام فرتر ورفائيل ، و « المازني » في ابن الطبيعة ، فقد أنشأ هؤلاء مُثُلاً يسير على غرارها المترجمون من القصص الأوربي ؛ وقامت على أثر ذلك مجموعة يقودها أمثال « هيكل » و « توفيق الحكيم » و « المازني » وجهت همها إلى إنتاج رواية مصرية محضة في موضوعها وأسلوبها ، فظهر كتاب الأيام (للدكتور طه حسين) وإبراهيم الكاتب (المازني) والأطلال (لتيمور) وابنة المملوك (لأبي حديد) ولكن هذا الميدان لا يزال فيه متسع للتقدم والكمال .

وبالرغم مما فيه من نواحي النقص فقد ساعد مساعدة ظاهرة على تحسين أسلوب النثر العربي ، وأصبح الآن ممكنا لنا أن نطبق القول المعروف « الأسلوب هو الرجل » على كثيرين من كتاب العرب . فلم يعد الأسلوب العربي مجرد تقليد « لابن المقفع » أو « الجاحظ » أو « ابن العميد » ، ولكنه أصبح تعبيرا عن شخصيات الكتاب . فليس هناك مثلا من يخطيء أسلوب شخصية « الدكتور طه حسين » في قدرته الفائقة على تصريف اللغة وامتلاك ناصيتها ، وفي طريقته الجذابة في عرض الفكرة الواحدة من طرائق متعددة حتى يصل بها إلى ما يريد من التقرير والوضوح ، وفي صوغه المعاني والتصورات الأوربية في قالب عربي مبين ، حتى تصبح جزءاً لا ينفك من ثروة اللغة العربية . كذلك لا يستطيع أحد أن يخطيء طبيعة الأستاذ « أحمد أمين » في جدها وعمقها ومنطقيتها ، حين تتمثل للقارئ فيما يصوغ الأستاذ من عبارات كل لفظة فيها وكل جملة بقدر . أما أسلوب الأستاذ « المازني » فانه يمتاز بنوع من روح الفكاهة ، ويمتاز أسلوب « هيكل » و « توفيق الحكيم » باتجاه ذهني فلسفي .

دراسات الموازنة والتحليل :

إن النظرية التي نادى بها الدكتور « طه حسين » ورفاقه من ضرورة بناء دراسة الأدب العربي على القواعد العلمية والفنية ، قد كسبت قوة وتأييداً ، إذ قام من بين رجال الأدب المصريين من بدءوا دراسات عربية عمادها التحليل والموازنة . وإن ما قاموا به من تحليل نواحي نشاط الأدب العربي ، في ضوء الاتجاهات الفكرية في الغرب ، ومن موازنة الشعراء والكتاب العرب بأشباههم من الفرنسيين والانجليز ، قد فتح أبواباً من البحث ووجوهاً من النشاط لم تكن معروفة من قبل .

فالدكتور « طه » في كتابه (من حديث الشعر والنثر) يوازن بين بعض الشعراء العرب وبعض ، ويضع الأدب العربي في مكانه بين الآداب الكلاسيكية العالمية . وكتابه (في الأدب الجاهلي) بحث على منهج آخر لمنهج تاريخ الأدب والعقلية العربية قبل الاسلام . والعالم المشهور الأستاذ « أحمد أمين » قام — في كتبه (فجر الاسلام ، وضحى الاسلام) — بتحليل نواحي نشاط العقلية العربية منذ بدء تاريخها إلى العصر العباسي . وهناك بحوث كثيرة في الأدب الحديث تنمو هذا النحو ، ولكن من بينها ناحية تستحق التنويه ، وهي الكتب التي ألفت عن حياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كانت كتب السيرة في الزمان الأول تتألف من مجرد سرد الحوادث المتصلة بحياة الرسول في تتابعها الزمني . أما النظر إلى النواحي المختلفة لشخصية ما من زوايا مختلفة فلم يكن معروفا في التأليف العربي ، حتى جاءت هذه النهضة الحديثة في النثر فأدخلت التحليل السيكولوجي لزعماء الفكر ؛ وكان السابق في هذا الميدان الدكتور « هيكل » فقد جاء كتابه (حياة محمد) لا ترجمة حياة فقط ، ولكن بيانا لوجهة نظر فلسفية للمؤلف . وحاول « توفيق الحكيم » أن يعرض حياة الرسول بريشة المؤلف المسرحي . واتجه « عبد الرحمن عزام » في كتابه (بطل الأبطال) إلى تصوير صفات العظمة في الرسول في ضوء ما لابس حياته من ظروف

«ومن هـذا الاتجاه إلى التحليل والموازنة تلك الجهود التي رمى فيها أصحابها إلى القيـام ببحوث مبتكرة — من مثل الأستاذ « عباس العقاد » في (رجعـة أبي العلاء) و(ابن الرومي وحياته من شعره)، أو إلى الوصول إلى نتائج تخالف ما يذهب إليـه جمهرة الباحثين — من مثل « محمود شاكر » في بحثه عن المتنبي .

مثل هذه البحوث أحيت حركة النقد وشجعت النقاد على أن ينتجوا ثروة حافلة من الكتب في نقد الشعراء وشعرهم ، مما يخيل إلى الباحث أن الشعب قد ركز معظم جهوده في حركة الاحيـاء الأدبي ؛ فالجهود الأدبية التي كانت ناحية فقط من نواحي حركة « الشيخ محمد عبده » أصبحت الآن تحتل المكان الأول . ولقد قامت الحكومة والجامعات معا بتأسيس الأندية والجمعيات لتشجيع الكتاب من ناحية ، ولإشباع حاجة الجمهور إلى المعرفة من ناحية أخرى ؛ فهناك لجنـة أساتذة الجامعة وصحابتهم من رجال العلم والأدب (لجنـة التأليف والترجمة والنشر) التي تقوم بنشر الكتب الأدبيـة الثمينة ، وبتأليف سلاسل من الكتب في العلم والفلسفة والتاريخ وما إليـه ، شأنها في تربية الشعب وتثقيفه شأن (Penguin) و (Home University Library) في انجلترا . وتجريبي الجامعـة كذلك اتحاد لنشر العلم والثقافة العربية .

وقد زاد هذه الجهود اتساعا ونموا قيام وزارة المعارف المصرية ، وشركة « أفلام بنك مصر » بتقرير الجوائز لتشجيع الكتاب والمؤلفين . على أن جهود الحكومة المصرية في هـذا الشأن نمت حتى كانت ثمرة نجاحها إنشاء « المجمع اللغوي » في سنة ١٩٣٢».

اصلاح اللغة والنحو العربي :

وضع « مجمع اللغـة العربية الملكي » أمام عينيه أغراضاً ثلاثة :

(١) أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافيـة بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر ؛ وذلك بأن يحدد في معاجم ، أو تفاسير خاصة ، أو بغير ذلك من الطرق ، ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب .

(٢) أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية . وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات ، وتغير مدلولاتها .

(٣) أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

وعندما ظهرت بوادر جهود المجمع في مجلته سنة ١٩٣٥ قوبلت بكثير من النقد من جانب الجمهور وبعض الباحثين ؛ وكان أهم ما عيب عليها هو أن أعضاء المجمع لجأوا إلى إحياء كلمات ميتة غير مألوفة ، لا تلائم الذوق الحديث للبيئة المصرية . وقد سكت الجمهور عن مصطلحات العلوم والفنون ، ولكنهم وجهوا نقدهم الشديد لما اقترح المجمع من مصطلحات في شئون الاجتماع العامة ، ورفضت الدوائر الاجتماعية المصرية أن تحل هذه الألفاظ محل الألفاظ السائرة الشائعة .

والحق أن هذا النزاع بين لغة التخاطب ولغة الأدب قديم العهد ؛ فمنذ أن ضعفت الدولة والمدنية العربية بدأت الهوة تتسع بين لهجات التخاطب في الأقاليم ، واللغة الفصحى التي كان يستعملها رجال الأدب في الحواضر والمدن . وعلى مضي الزمن قويت شوكة اللهجات وأوشكت أن تكون لها اليد العليا على اللغة الفصحى . ولكن عند ما قوي الشعور بالقومية العربية أحست الشعوب الناطقة بالضاد أن السماح للهجات بأن تقوى وتطغى على الفصحى إنما يكون أشبه بسهم قاتل موجه إلى وحدة الشعب العربي ، وقد يجر في النهاية إلى قطع الصلة بين

هذه الشعوب والماضى الأدبى المجيد الذى خلفه لها أسلافها.

هذا العامل — مضافاً إليه إدخال علوم الغرب وماجلبه من مصطلحات غير مألوفة — نبه من هم الباحثين وأثار فيهم النزعة لاصلاح اللغة العربية . وأول محاولة منظمة من هذا النوع قام بها « المجمع العربى » بدمشق تحت القيادة الحصيفة من العالم الجليل كرد على بك سنة ١٩١٩ ؛ فقد كان هذا المجمع يجتمع كل أسبوع لاختيار الكلمات الصالحة وتصحيح الأخطاء الشائعة . ولكن لما كان مجال هذا المجمع محدوداً فقد نبتت فى مصر فكرة تأسيس مجمع أوسع ، وبعد سنوات برز مجمع اللغة العربية الملكى فى مصر إلى حيز الوجود .

انقسم الرأى العام فى مصر إزاء جهود المجمع فريقين : فريق يرى أن وظيفة المجمع ليست اختراع الكلمات وفرضها على الجمهور ، وليست تصحيح لسان التخاطب وإحياء الكلمات الميتة المهجورة ، وإنما الغرض الأهم للمجمع — فى رأيهم — هو أن يسجل ما عرّبه الشعب من قبل ، وأن يبحث عن ألفاظ ومقابلات للحدود والتصورات الأجنبية التى لم تعرفها اللغة العربية إلى الآن . وفريق آخر — وهم أنصار المجمع ومؤيدوه — يرون أنه إذا لم يوقف استعمال الألفاظ الأجنبية عند حده ، فان هذه الألفاظ لوشكة أن تزحم اللغة العربية وتهدم خصائصها الأساسية . وهم إلى جانب ذلك يرون أن اللسان العامى ليس عامياً ولا معرباً ، وأنه لذلك يجب أن يُخضع لنماذج الكلاسيكية والقواعد النحوية . وعلى حين يشتد هذا النزاع ويحتدم ، يمضى المجمع فى طريقه منصرفاً إلى تحقيق الأغراض الثلاثة التى أشرنا إليها .

وإلى جانب حركة إصلاح اللغة قامت حركة قوية ترمى إلى إصلاح النحو والبلاغة العربية . فقد لاحظ بعض المعاصرين نقصاً ظاهراً فى طريقة تعليم النحو فى المدارس والمعاهد ، كما لاحظوا أن الطالب قد يقضى أكثر من عشر سنوات فى دراسة النحو فى معهده ، ثم يخرج لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب صحيحاً . لذلك نادى هؤلاء بضرورة الحرية فى بحث قواعد النحو ولهجات العرب ، وفى فهمها على أساس علمى عملى جديد . ومثل ذلك يقال فى إحياء البلاغة العربية ، وضرورة إعادة النظر فيها على ضوء النتائج التى وصلت إليها الدراسات الانسانية الحديثة .

ترجمة وتلخيص محمد خلف الله

الاذاعة المدرســــية في مصر

للأستاذ صالح عبد العزيز شحاتة

نستطيع في ضوء ما قدمناه عن الاذاعة المدرسية في الأمم الأخرى وفي ضوء تجاربنا الخاصة أن نلاحظ على الاذاعة المدرسية في مصر الملاحظات الآتية :

موضوعات الاذاعة :

إن من يدرس موضوعاتها يرى أنها مجموعة من المقالات المتناثرة ، لا يربطها محور ولا يحددها هدف تبغى الوصول إليه . ونسوق على سبيل المثال الموضوعات التي أذيعت على طلبة مدارسنا الابتدائية (في السنتين الثالثة والرابعة) في الفترة ما بين ٢٥ يناير ونهاية فبراير سنة ١٩٤١ .

١ — محمد على الكبير (٣ ، ٤) .
٢ — مصر في القرآن الكريم (٤) .
٣ — الكتابة الفنية ، معناها ومنشؤها (٣ ، ٤) .
٤ — الفائدة الصغيرة (٤) .
٥ — فراداى وعلم الكهرباء (٣ ، ٤) .
٦ — الحياة وسط الثلوج في أوربا (٣ ، ٤) .
٧ — فتاة تنقذ قريتها (٤) .
٨ — جولة في شمال أفريقيا (٣ ، ٤) .
٩ — قصة في أهمية التمثيل (٤) .

وبأخذ آراء الكثيرين من مدرسي المدارس ، رأيت أنه يعاب على الموضوعات المذاعة الأمور الآتية :

١ — صعوبة موضوعاتها ولغتها بوجه عام .
٢ — كونها مشحونة بالكثير من التفاصيل فهي في معظمها تتعرض لنقط كثيرة .
٣ — إنها تتجاهل ميول التلاميذ في مختلف الأعمار .
٤ — طريقة عرضها خالية من العرض الفني للاذاعة لصغار التلاميذ .
٥ — لم تراع فيها حاجات المدارس المختلفة في مراحل التعليم المتباينة .

ويمكن أن نقول بوجه عام — وقد لا نكون مغالين في هذا الرأي — إن أصحاب هذه المحاضرات كثيراً ما يتناسون أموراً يجب أن تتوفر في دروس الاذاعة المدرسية ، كتحديد سن التلاميذ ، ومعرفة مقدار تحصيلهم ، وعلاقة الموضوع بمنهاج الدراسة ، ومدى اهتمام التلاميذ وشوقهم إلى الموضوع المذاع .

ومن المؤسف أن إذاعتنا المدرسية لا تتناول أحاديث الأطفال في المراحل الأولى من المدارس الابتدائية ، أو رياض الأطفال ، مع أن الواجب أن تخصهم بنصيب وافر من الاذاعة المدرسية .

وأعجب الأمور أن الوزارة — حتى يومنا هذا — لم تفكر في الاذاعة الريفية لتلاميذ المدارس الالزامية ، على الرغم من كثرة عددهم وانقطاعهم في أقاليم نائية هي في أشد الحاجة إلى هذا الغذاء الثقافي الجديد . وتشمل الموضوعات التي يجب أن تذاع على تلاميذ هذه المدارس كل ما له علاقة بالحياة الريفية (كمواسم الزراعة وطرق التسميد ومكافحة الآفات وفلاحة البساتين والطرق الصحية للحياة في القرية) ، وكل ما من شأنه أن ينشيء أطفال التعليم الالزامي تنشئة سليمة تمكنهم من أن يكونوا سليمي الأجسام أصحاء العقول .

ننتقل بكم الآن إلى موقف رجال التعليم والمدارس ، وموقف التلاميذ بإزاء الاذاعة المدرسية .

موقف المدارس من الاذاعة :

إن دروس الاذاعة في مصر ليست محط العناية أو الاهتمام في جدول الدراسة ؛ فهي إما في فترات ما بين

الدروس أو فى فترة الغداء ، وكانت فى يوم من الأيام فى نهاية اليوم المدرسى ؛ وما من شك فى أن الاذاعة مهما كان موضوعها شائقاً ، ومهما كان المذيع خبيراً له شخصية ممتازة وطريقة جذابة ، فانها تتطلب تركيزاً عقلياً وانتباهاً ؛ والذوق السليم والمنطق يذكران لنا أن أى عمل ذهنى يحتمل الوقت المخصص لراحة التلاميذ ولهوهم وغذائهم لا بد أن يكون نصيبه الفشل .

هذا وقد تنبهت الأمم التى نهضت فيها الاذاعة المدرسية إلى مثل ذلك من عيوب ، فعملت على تلافيها ؛ وجعلت مواعيد الاذاعة فى أوقات يستطيع جميع التلاميذ فيها استقبال الأحاديث بنشاط وشوق ، وفى وضع يستطيعون فيه تدوين ما يرونه صالحاً لتوسيع دائرة أفكارهم حافزاً إياهم على إجراء الأبحاث والقيام بالتجارب .

إن زيارة بسيطة لإحدى مدارسنا الابتدائية أو الثانوية ومراقبة التلاميذ وقت الاذاعة كفيلة بأن تترك الزائر وهو على يقين تام بأن مصر تعانى نفس المتاعب التى كانت تعانيها كثير من الدول الغربية قبل أن تؤسس إذاعاتها المدرسية على أسس حقيقية . ليس هناك من شك فى أن معظم تلاميذ المدارس المصرية لا يشتاقون لسماعها ولا يرقبون وقتها بشغف ، بل إن الأغلبية العظمى تنصرف عنها لقلة اهتمامهم بها .

وفى الحق أن الاذاعة إذا جاءت بشىء جديد أو آراء جديدة ، أو كانت تبعث حياة فى دروس التلاميذ العادية ، أو كانت سبباً فى إفساح الطريق أمام خيالهم ، أو عاملا فى توسيع أفق أفكارهم ، أو كان من شأنها أن تدفعهم إلى البحث الشخصى فى الكتب وفى مطالعة صفحات الطبيعة ، لو أن هذا شأن الاذاعة المدرسية فى مصر لما كانت عبئاً ثقيلا على تلاميذ المدارس ، وبخاصة إذا توفر وجود المذيع الجيد الذى لا يحاضر ، وإنما يتكلم بطريقة تبعث فى النفس التلبية . إن خير المذيعين من كان بعيداً عن صناعة التدريس ، متخصصا فى مادة ما يستطيع أن يتحدث فيما اختص فيه بشغف واهتمام .

وفيما يلى بعض المقترحات أقدمها لأولى الرأى من رجال التربية والتعليم فى مصر .

اقتراحات خاصة بالإذاعة :

أولا — تكوين لجنة مركزية للإشراف على الاذاعة .

أقترح تأليف مثل هذه اللجنة التى تضم ممثلين للهيئات التعليمية الكبرى من أساتذة المدارس ومفتشيها ونظارها ورجال التربية والتعليم وأساتذة الكليات ؛ ويجب أن تكون وظيفة هذه اللجنة مباشرة مظاهر نشاط الاذاعة المدرسية كمراقبة تنفيذ المناهج وتنظيم الرسائل وإصدارها ، والاجراءات الهندسية ، وتعيين الوظفين ، وتنظيم الأبحاث ، وعمل التجارب ، وضبط الأجهزة فى المدارس واختبارها ، والاتصال بمعاهد التربية والتعليم ولجان المعلمين والهيئات المشرفة عليه داخل القطر وخارجه .

ثانياً — تكوين لجان فرعية

ويجب أن تعهد اللجنة المركزية المشرفة على الاذاعة بكل عمل من تلك الأعمال إلى لجان فرعية ، وتتألف عادة اللجنة الفرعية من عضو يمثل اللجنة المركزية ، وواحد أو أكثر من الاخصائيين ، ومفتش من مفتشى المادة ، وعدد من المدرسين يمثلون أنواعاً مختلفة من المدارس ، وبهذا نضمن أن تصبح الاذاعة مناسبة ، فموضوعاتها تفحص قبل إقرارها على يد فئة من رجال التعليم لهم اتصال وثيق بالمناهج وبالمدرسين وبالتلاميذ . ويجب أن يكون من اختصاص هذه اللجان الفرعية العمل على إرشاد المدرسين فى كيفية استغلال المذياع بالفصل ، ويكون ذلك من طريق دروس نموذجية تعرض عليهم .

ثالثاً — يجب تحديد الأغراض القريبة أو المباشرة التى يجب أن تؤديها الاذاعة المدرسية المصرية .

رابعاً — يجب أن تساير برامج الاذاعة المدرسية مراحل التعليم ومراحل النمو . فمثلا :

(أ) فى رياض الأطفال التى يتراوح أعمار تلاميذها بين الخامسة والثامنة ، يجب أن يكون ما يذاع سهلا مباشراً ، وأن يتضمن الحركة والعمل فى الفصل تلبية لأوامر المذيع ، وأن يشمل الخطوات الأولى لتعليم الكلام ، كما يجب أن يشمل البرنامج الكثير من الأناشيد والموسيقى . ولما كان الطفل بفطرته يميل إلى الجمع بين الإيقاع واللعب ، لهذا وجب أن يحوى البرنامج الشيء الكثير من أغانى اللهو البرىء واللعب ، وشيئاً آخر من أغانى الأعمال التى يشاهدها الطفل فى بيئته .

(ب) إذاعة المدارس الابتدائية . وهنا تتراوح سن التلاميذ بين ٧ و ١٢ سنة ، ويجب أن يشتمل برنامجهم على موسيقى وحركات للصغار منهم ، وعلى لغة عربية مبسطة ، وأحاديث عن رحلات ، وتاريخ بعض أجزاء العالم مبسطاً ، ودراسة مشاهد الطبيعة ، وبعض دروس التربية البدنية .

(ج) إذاعة المدارس الثانوية حيث تتراوح السن ما بين ١١ و ١٨ سنة ؛ ويجب أن تعتمد الموضوعات التى تلقى على تلاميذ هذه المرحلة على حقائق الحياة خارج المدرسة . وطلبة هذه المدارس — لاسيما الفصول النهائية — فى حاجة خاصة إلى موضوعات كثيرة متنوعة ؛ نخص بالذكر منها موضوعات اللغات الحديثة التى من شأنها إحياء ما يستمع إليه التلاميذ فى المدرســة ، ويكون هذا بإذاعة يقوم بها رجال وسيدات من أهل اللغة ؛ كما يجب أن يتناول ما يلقى على الفصول النهائية من هذه المدارس بعض ما يشغل المجتمع من مســائل اقتصادية أو علوم اجتماعية ؛ وقد وجد أن من الميسور تدريب طلبة هذه المرحلة على البحث ، وذلك بتشجيعهم جماعات وأفراداً على مناقشة ما يسمعونه عن طريق الاذاعة .

(د) إذاعة المدارس الريفية : وفى بلاد زراعية كمصر تستحق المدارس الريفية عناية خاصة ، لأن التلاميذ فى هذه المدارس أقل اتصالاً بمظاهر الحياة الخارجية من تلاميذ المدن ؛ وعلى ذلك يجب أن تذاع عليهم موضوعات خاصة .

وفى تدريس المواد الريفية نرمى إلى إذاعة عامة سوف تعم فائدتها عدداً عظيما من أبناء القطر ، غرضنا من إذاعتها حث التلاميذ على تطبيق ما يكسبونه من معلومات فى هذا الصدد ، لا فى مزارعهم الخاصة فحسب ، بل فى بيئتهم الريفية عامة ؛ والموضوعات التى تذاع من هذا النوع تشمل فلاحة البساتين علماً وعملا ، وتشمل التربة وكيف تخصب ، وزرع الأشجار والشجيرات والحبوب والأبنات ، وتصميم الحدائق وتنسيقها ، ومحتويات القرية ، وطرق تكاثر النبات ، وكيف يحصل النبات على الغذاء والماء والهواء الخ .

خامساً — التشجيع المادى

إن السبب الرئيسى الذى قد يقف حجر عثرة فى سبيل تشجيع الاذاعة المدرسية فى مدارسنا هو العامل المادى ؛ فوزارة المعارف لا تزال مكتوفة الأيدى أمام عجزها عن تدبير المال اللازم لتنفيذ المشروع على خير وجه ، والمال ضرورى لنجاح الاذاعة ؛ فمكافأة المذيع ، ومكافآت أعضاء اللجنة المركزية ، ومكافآت أعضاء اللجان الفرعية ، وتكاليف تحضير النشرات وطبعها ، ومصاريف تركيب أجهزة الاستقبال وصيانتها ، ومرتبات مهندسين للتفتيش على أجهزة الاستقبال ، ومصاريف انتقال المفتشين على الاذاعة فى المناطق التعليمية المختلفة — كل هذه الأشياء فى حاجة إلى نفقات ؛ ونحن نقترح أن يساهم كل طالب فى بداية العام بما لا يزيد على عشرة قروش من أجل الاذاعة .

سادساً — مواعيد الاذاعة .

يجب جعل مواعيــد إذاعة الموضوعات المختلفة فى الوقت المخصص لتلقى الدروس ، فيصغى التلاميذ إلى حديث فى حصة التاريخ ، وتحت إشراف مدرسهم ، ليمهد لهم قبل سماعه ، ويقوم بمناقشتهم ، وحل ما غمض عليهم فهمه بعد انتهائه .

هذا ويجب أن تكون بأيدى التلاميذ نشرات الاذاعة ،

٣ – ميزات أدب المهجر الأمريكى

والآن لا أرى بداً من الاشارة السريعة إلى أهمّ ميزات الأدب العربى فى العالم الجديد .

من حيث اللغة ، فان فى لغة المهاجرين وأسلوبهم دماثة وعروبة جعلت لأدبهم طابعاً خاصاً . لكنهم تساهلوا فى اللغة أحياناً حتى أخذت على بعضهم بعض الأخطاء ، وأخذ على بعضهم شىء من الركاكة . يعود هذا التساهل إلى رأى تكوّن عند أدباء المهاجرين ، بأن اللغة واسطة لا غاية ، إنما الغاية هى الفكرة ، وهى المعنى المقصود . يكفى فى نظرهم أن تؤدى الكلمة أو التعبير إلى المعنى إيماءً ، وقد تكون اكتسبت هذا الايماء من الشائع العامى ، فطالما هى قاموسية الأصل فهى صالحة . ولبعضهم مباحث فى هذا ، كما أن لبعضهم ثورات وتمرّداً على من أراد باللغة وقوفاً وجموداً . أشهر هؤلاء الباحثين المتمردين جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمه ، وكلاهما من قادة الحركة الأدبية فى المهجر الأمريكى .

أما من حيث المعنى أو الروح ، فأدب المهاجرين — والشعر خصوصاً — من النوع الوجدانى الرومنطيقى العميق ؛ فتسوده أكثره أو كله كآبة أشبه بتلك الكآبة تتشح بها الطبيعة فى أمسية الخريف الناعمة . والكآبة من أخص ميزات المدرسة الرومنطيقية .

ومن نزعتهم الرومنطيقية هذه تشخيص الطبيعة . «La personnification de la nature» ، حتى غدت الطبيعة أشباحاً يأنسون بها وتأنس بهم ، يخاطبونها فتفهم عنهم وتخاطبهم فيفهمون عنها .

بمثل هذه الروح وهذه النزعة خاطب ميخائيل نعيمه نهراً متجمداً (قصيدته النهر المتجمد) :

« يا نهر هل نضبت مياهك ، فانقطعتَ عن الخرير »؟!
« بالأمس كنت إذا أتيتك باكياً سليتنى »
« واليوم صرت إذا أتيتك ضاحكا أبكيتنى »
« بالأمس كنت إذا سمعت تنهدى وتوجعى »
« تبكى ، وها أبكى أنا وحدى ولا تبكى معى »

وهذه الروح والنزعة نجدها فى قصيدته (الرياح) :

« هللى هللى يا رياح والنجى حول نوحى وشاح »
« من خرير الغدير واهتزاز الأثير »
« واختلاج العبير فى دموع الصباح »
« هللى هللى يا رياح »

وأن يقوموا بالاجابة من الأسئلة فى نهاية تلك النشرات ، وأن يقوم مدرس الفرقة بتصحيحها .

سابعا — النقد .

ضماناً لنجاح الاذاعة المدرسية نقترح اتباع طريقة النقد المتبعة فى البلاد الأجنبية — وبخاصة انجلترا — وهذه الطريقة تقتضى تعيين رجل من رجال التعليم فى كل منطقة من المناطق ، وظيفته زيارة المدارس ، ودخول حجرات الدراسة فى أثناء الاذاعة ، ومراقبة التلاميذ ، وملاحظة ما تتركه الأحاديث المذاعة فيهم من أثر .

ويمكن اتباع طريقة أخرى لتسجيل ذلك النقد ، وذلك بأن يدون التلاميذ والمدرسون وناظر المدرسة ملاحظاتهم على الاذاعات ؛ وهذه الملاحظات المدونة تحفظ فى المدرسة ليطلع عليها مفتش الاذاعة عند زيارته . ويجب على هيئة التدريس والادارة أن يشتركوا معاً فى أداء هذا الواجب ، ثم يدونون ملاحظاتهم ويرسلونها إلى إدارة الاذاعة لتعمل على تحقيق رغبات المدارس بما يكفل نجاح الاذاعة .

صالح عبد العزيز شحاته

لكنها من الرومنطيقية الناقصة إذا وقف الحال عند هذا الحد من الطبيعة ؛ إنما هم يرون بالمظاهر الطبيعية رموزاً وصوراً لحالات النفس المختلفة وبعبارة الرومنطيقيين الفرنجة ، états d'âme ، فكآبة الخريف صورة لكآبة نفوسهم ، وتناثر أوراق الشجر رمز لتبدد أحلامهم وأمانيهم ، فخائيل نعيمه رأى في « النهر المتجمد » وقد كبله الجليد ، رمزاً لقلبه وقد ماتت فيه الأماني ، وغدا في أشد حالات القنوط والحيرة .

« يا نهر ذا قلبي ، أراه كما أراك مكبلاً »

« والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو لا . . »

وفوزي المعلوف من شعراء أمريكا الجنوبية صوّر روح الشاعر في أحد أناشيده ؛ فإذا الشاعر في نظره من امتزجت نفسه بالطبيعة ، فأصبح يرى في كل مظهر من مظاهرها إحدى خلجات نفسه :

« ما احرار الأصيل غير لهيب

شع من قلبه على مقلتيه »

« وركام السحاب غير دخان نفثته الهموم من شفتيه »

« ما أنين الرياح غير زفير نزعته الرياح من رئتيه »

« ما ندى الفجر غير لؤلؤ دمع

رشفته الأزهار من محجريه »

« وبريق النجوم غير شظايا

كأس حب تحطمت في يديه »

مظهر آخر من أخص مظاهر المدرسة الرومنطيقية ، هو الحزن والنوح والبكاء وتمجيد الألم . وكل شعر تعرّى من هذا العنصر فليس هو في نظر الرومنطيقيين من الشعر الحقيق في شيء . وقد قال دي موسه وهو أكبر من مثل هذه الناحية في المدرسة الرومنطيقية .

Les plus des espérés sant les chant les plus beaux

« إن أبدع الأغاني ما تسربل بالأسى » .

وهذه السمة ظاهرة الوضوح في شعر المهجر ، قال فوزي يصف الشاعر :

وجبين ألقت عليه شجون النا س ظلا من العبوس ظليلا
فهو لا يعرف التبسم إلا عند ما يستعيد حلما جميلا
ألف اليأس قلبه فهو واليأ س يحاكي بثينة وجميلا
وإذا ما النسيم مرّ عليه فعليل أتى يعود عليلا

والدمع والألم ، عند دي موسه ، خطورة في حياة النفس الانسانية ، فهو القائل :

Rien me nous rend plus grands qu'une grand dauleur.

« لا شيء يجعلنا عظاماً إلا ألم عظيم » .

وهو القائل أيضاً :

Le seul bien qui me reste au mande est d'avoir quelque fois pleuré.

« كل ما بقي لي من نعم الحياة أني قد بكيت مراراً » .

وفوزي يرى أن الألم والدمع يطهران النفس من أدرانها ، فقد قال يصف كفارة الشاعر وتطهره من أوحال الحياة :

والتظى قلبه ، فطهّر بالآ لام ما دنسته شهوة حسّه
عسلت عينه ، بما سكبته من ندى الدمع ، كلّ أدران نفسه

قد أخذت هذه الأمثلة من شعر فوزي ، لأنه يمثل خير تمثيل عنصر الكآبة في رومنطيقية أدب المهاجرين ، ولكنها روح تطغو على إنتاج الأدباء الآخرين من أدباء المهجر .

إنما الشيء الذي يدعو إلى العجب أن تكون الرومنطيقية العميقة أخص وأظهر ميزات أدب المهاجرين ، إذ ليس هذا اللون هو الغالب على الأدب الأمريكي حتى نقول إنهم تأثروا به ؛ ومن ناحية أخرى فالبيئة الأمريكية بيئة تقوم فيها الدنيا على البزكار والدولار ، فهي بيئة مادية ، وليس من شأن البيئات المادية أن تكوّن عنصر الرومنطيقية !

إذا أردنا أن نرجع المسبّبات إلى أسبابها ، قلت إن اغتراب هؤلاء الشعراء عن أوطانهم كان مما أوجد

الرومنطيقية فى شعرهم ؟ هؤلاء أغراب فى تلك البلاد يكدحون النهار بطوله ، فإذا عادوا فى المساء ، فلا جار لهم من أبناء جنسهم يهش لهم ، ولا الزوجة تحنو عليهم ، ولا الأم ، ولا الأب ، حتى عظامهم سترقد فى مدينة الأموات ، من تلك البلاد ، غريبة بين العظام ؟ حرمانهم هذا من العطف الخالص ، وإحساسهم بوحشة الاغتراب ، ولّد فى نفوسهم وحشة واغترابا ، نفسوا عنهما فى شعرهم ونثرهم ، فجاء أدبهم صورة لنفوسهم المكدودة ، وإذا الرومنطيقيـة هى النزعة الغالبة فى أدبهم بكل ما تحمل من عناصر خاصة بها .

وكان للاغتراب أثر آخر فى العاطفة الوطنية من أدب المهاجرين ، خرجوا فى هذه العاطفة من مخرجين : عاطفة وطنية سلبية ، وعاطفة إيجابية . أما الأولى ، أى السلبية ، فظهرت فيما يحمل أدبهم من ثورة وتمرد على بعض تقاليد بلادهم الاجتماعية والدينية والأدبية ، وعلى ما فى بلادهم من أوضـاع سياسية . وقد أشرت إلى ما كان دافعاً إلى هـذا التمرد والثورة ؛ ومن آثار ثورتهم الأدبية أن خلا أدبهم أو كاد يخلو من شـعر المدح ، وشعر المناسبات ، وقد شنوا غارة شعواء على هذا النوع من الأدب ، مع ذلك لم يخل أدبهم من الهجاء لأنه من أداة التمرد والثورة .

أما العاطفة الوطنية الايجابية فقد تجلت فى استمداد هؤلاء الأدباء الصور والتشابيه من بيئة بلادهم ، وروح بلادهم ، على الرغم مما يباعد بينهم وبينها من بحار .

وتجلت مرة أخرى فيما يسود أدبهم من الحنين إلى مرابع طفولتهم ، والتشوق إليها ، والتغنى بجمال بلادهم ، بما فيها من سهول وجبال وأنهار وينابيع وغابات وبساتين . إننا نجد الواحد منهم يتغنى بجبلى « جلّق وصنّين » كأن الشواهق من جبال الأنْد لا تهزّ نفسه ، ونرى الآخر يتشوق إلى جلسة سمر على ضفـاف « بردى » والبردونى » كأن « الهدسون وشلالات نياجرا » لا تفتن نفسه . وظل المهاجر العربى يتلفت فى مهجره إلى صوت شبابة الراعى فى مراعى بلاده ، من سفوح الكرمل ، إلى تلال لبنان إلى سهول سوريا ، كأن ما فى تلك البلاد من موسيق لا ترنّح عطفيه .

وددت أن أوضح هذه النزات بالشواهد من أدب المهاجرين ، وأن أكشف عن عوامل أخرى من ثقافية ونفسية كانت كلها عاملة على تكوين ما امتاز به أدب المهاجرين من خصائص ، ولكنى قصدت إلى عرض أشبه بمقدمة ، ولم أرد الاستفاضة والاسهاب .

لويس الريس

من شعر تاجور :

أطيـــار هائمة !

إنى أعيش فى دنياى الصغيرة هذه ، وأخشى أن أجعلها متناهية فى ضآلتها ! فلترفعنى إليك يا ربى ، ولتهيىء لى الحرية فى أن أفقد كل شىء ، غير آسف !

يخامر قلبى حنين إلى النهار ، عبر محيط الحياة . !

أليس هذا الجبل يحاكى الزهرة ، بهذه الحواشى من التلال ، التى تشرب ضوء الشمس ؟ ! .

إن السحب الداكنة تصبح أزاهير السماء ، حين يقبّل النور جبينها . . .

لقد هدّيتنى فى زحام رحاتى بالنهار ، إلى وحدة مسائى . . . وهأنذا أرقب معناها فى هدأة الليل . . !

همست قطرة الندى فى أذن الياسمينة : « احفظينى فى قلبك إلى الأبد . . . »

ولكن هذه أجابتها بقولها : « وا أسفاه ! » . . .
ثم سقطت على الأرض . !

لقد أسلم قلبى شراعه إلى الرياح الهوج ، لعلها تدفعه إلى ظل ظليل ، فى أية جزيرة . . !

إن الرجال وحوش ، ولكن الرجل الواحد مُشفِق رحيم . . . !

فلتتخذ منى كأساً ، ولأمتلىء من أجلك ، ومن أجل نفسى .

إن العاصفة لتشبه صرخة ألم يرسلها إله ، رفض الأرض أن تحبه . !

الموت يحرك سكون الحياة . !

ما أعجب يدى القدر ، فيُمناه رفيقة رحيمة ، واليسرى قاسية غشوم . !

أقبل المساء متشحاً بأعناق الشجر ، وتحدث بعبارات لم تفهمها نجوم الفجر . !

إن رغباتنا تضفى على بخار الحياة ألوان قوس قزح .

يظن الزنبور أن خلية النحل التى تجاوره صغيرة جداً . ولكن النحل يود لو ابتنى الزنبور لنفسه خلية أصغر . . . !

قال الصرف للنهر : إنى لا أستطيع أن أحفظ لك أمواجك .

فأجابه النهر بقوله : دعنى أحفظ وقع أقدامك فى قلبى . . !

إن النهار يُغرقُ صمت الأكوان جيماً ، فى ضجيج هذه الأرض الصغيرة . !

يود الله لو يستضىء الانسان بنور من قلبه ، أكثر مما يستضىء بالنجوم . !

هذه دنيا أعاصير هوج ، مختبئة فى موسيقا الجمال !

تبدو لى سماء الليل كنافذة ، ومصباح متوقّد ، وإنسان يرتقب . !

أنا سحابة خريف ، خالية من المطر ، ولكنك ترى أثر امتلائى فى حقول الأرز حين تنضج . . !

يسعى الظلام إلى النور ، كما يسعى العمى إلى الموت . !

تملأ القامات أقداح الزهر ، وتخبأ نفسها في الظلال القريبة . . . !

إني أودع ورائي تلك الأشياء الصغيرة لمن أحبهم ، والأشياء العظيمة للجميع . . !

يحييني شروق الشمس بابتسامة ؛ ولكن الأمطار شقيقته الحزينة ، تتحدث إلى قلبي . . . !

في غشاوة الأمسية ، يُقبل عليّ طائر مبكر ، ويغني وكري الساكن .

قالت شرارة متطايرة :

— يزعم العلماء أن أصواتك ستخبو يوماً ما ، أيتها النجوم ! . .

ولكن النجوم لم تجب . . !

إن السكون يحمل صوتك إليّ ، مثلما يحمل الوكر طائراً وسنان .

سألت الشمس الغاربة : إني أزمع الرحيل ، فمن تُرى يقوم بعملي ؟

وقال مصباح على الأرض : سأبذل جهدي ! .

حين كنت أرتحل من هنا إلى هناك ، كنت أضيق بك ، يا طريق . . .

ولكن . . . بعد إذ بلغتَ بي كلّ مكان ، أراني أصبحت أسير هواكِ . !

الوقت هو ثروة التغير ، ولكن « الساعة » تجرد منه الثروة ، وتجعله تغيراً فقط . !

فلأظن أن بين هذه النجوم التي تمضي ، طريق حياتي في الظلام ، نجماً غير معروف . !

أوى صوت حزين إلى وكر في أطلال السنين ، وهمس في أذني مترنماً : « لقد أحببتك . . . »

قالت الكلمة للعمل : شد ما أخجل من فراغي ،

فأجابها بقوله : إني أعرف كم أبتئس حين أراك .

إن الجذور المتخفية في باطن الأرض ، لا تريد أجراً على أنها ملأت الغصون بالثمرات .

من اليسير أن تجعل الناس يتحدثون عنك ، إذا لم تنتظر حتى تقول الحق كله ! .

العظمة طفولة بطبيعة الميلاد . وحين يموت الرجل العظيم ، يترك للدنيا طفولته العظيمة

ترجمة أحمد فتحي

ســـــلامة القَس

للأستاذ علي أحمد باكثير

[كان عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار شابا تقيا طاهراً عفيفاً . وفي يوم من الأيام رأى في المنام أنه دخل الجنة ، وأوشك أن يخرج منها إجابة لإغراء امرأة ذات صوت جميل ، ولقد قص عبد الرحمن هذا الحلم الذي أزعجه على صديقه أبي الوفاء ، ليهدأ من روعه . وإذ انصرف إلى داره إذ سمع صوتاً جميلا يغني شعرا هو صوت سلامة جارية ابن سهيل التي اشتراها من أبي الوفاء ، فتبين مصدر الصوت فإذا به دار ابن سهيل . وفيما هو يمر بالدار بعد ذلك بأيام سمع نفس الصوت ثانيا ، ولمحه ابن سهيل فنزل إليه ودعاه وأكرم وفادته ، وأمر جاريته بالغناء فغنت ، ثم دعاها أن تدخل على عبد الرحمن ، فما رآها عبد الرحمن حتى راعه جمالها ، وأحبها ، ونقل بعض الناس نبأ ذلك إلى أبي الوفاء فآلمه ذلك . ولكن عبد الرحمن كشف له عن دخيلة نفسه . ولقد عرف ابن سهيل أمر هذا الحب ، فحاول أن يهب سلامة لعبد الرحمن ، ولكنه رفض ذلك . وبينا ابن سهيل وعبد الرحمن وسلامة يتسامرون ذات يوم جمادى الأول ، إذ أقبل رسول يطلب ابن سهيل لملاقاة دائنيه لدى القاضي ، فاستأذن من عبد الرحمن وسلامة ، ولما انصرف عنهما أخذا يتحدثان عن حاله وأنه وشيك الإفلاس ، وعرض عبد الرحمن على سلامة أن يجمع مالا له ليشتريها ثم يتزوجها ويشتغل بالتجارة ، وأنشد عبد الرحمن شعراً أعجب سلامة فأعطته العود وقامت لحاجة إلى داخل الدار] .

الفصل العاشر

لم يهدأ عبد الرحمن بقية يومه ذاك ، فقد خرج من دار ابن سهيل فقصد المسجد ، فصلى الظهر ورجع إلى بيته لينام القيلولة كعادته يستعين بها على القيام ليلا للصلاة والتهجد ؛ فاضطجع على فراشه ، وتقلب من جنب إلى جنب ، وستر وجهه بطرف ردائه يحجب عن عينيه الضوء لعلهما تغفوان ، ولكنهما ظلتا حيتين قلقتين ما تكادان تفلتان من سيطرة الاغماض حتى يرتفع جفناها ، فإذا هما مفتوحتان ، فكأن جفنيهما قد شدا بخيوط وثيقة إلى قلبه الخافق المضطرب ، وفكره الهائم في أودية الأحلام .

فكر عبد الرحمن فيما حدث له صبيحة يومه ، وفي موقفه من سلاّمة ، فحمد الله على أن نجا من فتنة الشيطان وكيده ، ولولا عصمة الله له ولطفه به لوقع في الاثم ، فما كان بينه وبين أن يزل إلا أن يلين قلبه قليلا فتطغى عليه شهوته فإذا هو من الهالكين .

وتمثلت له سلاّمة وهي تقول له وقد احمر وجهها وفترت عيناها : يا عبد الرحمن إني أحبك .

فيقول لها هو : وأنا والله يا سلاّمة أحبك .

فتقول له : وأشتهي أن أضع فمي على فمك .

فيقول لها هو : وأنا أيضاً أشتهي ذلك .

فثاب عبد الرحمن إلى نفسه ، وجعل يكرر هذه الكلمة : « وأنا أيضاً أشتهي ذلك » ، ويقول : ويل لي ! أشتهيت أن أضع فمي على فمها ؟ أشتهيت الحرام ؟ أشتهيت الفجور والاثم ؟ أهذا أنت يا عبد الرحمن ؟ أو قد بلغ الشيطان منك هذا المبلغ ، حتى تقول لجارية لا حق لك فيها إنك تشتهي أن تضع فمك على فمها ؟ ماذا تركت للشيطان بعد هذا ؟ وماذا تخشى من الاثم والفسوق بعده ؟

سبحان الله ! كيف وقع هذا منه ولم ينفطر قلبه ندما على ما فرط في جنب الله ، ولم تبك عيناه دما ؟ لقد كان حسبه أن يمر ما دون هذا بخاطره ليقشعرّ جسمه من خوف الله ، ويخجل من الوقوف أمامه للصلاة ، فكيف به وقد نطق به بلسانه ، وذهب عقب ذلك إلى المسجد الحرام ليمثل أمام ربه عند بيته المحرم ، كأن لم يأت أمراً إدّاً ؟

ورجع عبد الرحمن إلى ماضيه ، فحن إلى تلك الأيام الصافية إذ كان فيها خالى البال راضى النفس مستريح الفكر ، ينام مطمئناً ، ويقوم من نومه مطمئناً ، ويقضى نهاره فى المسجد يذكر الله أو يتلو القرآن أو يشهد مجالس العلم ، معرضاً عن الدنيا ، ساخراً من باطلها وغرورها ، سالياً همومها ، مبتعداً من مدارج الذلل ومسالك الغواية ، تاركا بعض ما يحل له من الطيبات خشية أن يقع فيما لا يحل له ، يجالس العلماء والصالحين ، ولا يعرف أرباب النعمة والثراء ولا محبي اللهو والغناء ؛ وما كان يعرف من العود إلا اسمه ، ومن الغناء إلا أنه لهو يشغل عن ذكر الله ، ومن الشعر إلا أنه لغو من القول لا يليق بالمتقين !

فما عدا مما بدا ؟ وما باله اليوم يقعد على الزرابيّ الوثيرة ويطأ على الطنافس الثمينة ، وينادم ابن سهيل على الغناء والشعر ، ويجلس عنده إلى قينة جميلة فاتنة ، يرى محاسنها ، ويستمع لحديثها ، ويستمتع بغنائها وتطريبها ، حتى سلبت لبه وشغفته حباً ، فأبدلته بأنسه هماً ، وبفراغه شغلا ، وبالسلامة خطراً وفتنة ؟ يا ليته كان استمع لنصح صاحبه الشيخ أبي الوفاء ، وعمل برأيه ، فقد كان أعرف منه بمكامن الخطر ومزالق الغي ، ومداخل الشيطان ومخارجه ، إذ نصحه أن لا يعرض تقواه للتجارب متكلا على صمودها لهجمات الهوى ، وثباتها فى معارك الفتون ، لعلمه أن النفس أمارة بالسوء ، وأن ملاك التقوى الابتعاد عن مواطن الشر والفرار من أماكن الريبة ، وأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

ولكنه خالف هذا الشيخ الصالح الذى اجتهد بكل ما أوتى من قوة أن يصرفه عن هذا السبيل المحفوف بالخطر ، لا يبتغى بذلك إلا الخير له ، فلم يصغ إليه ، وآثر جانب الهوى على جانب التقوى ، متعللا بأنه يجد من دينه وفقهه ما يعصمه عن ارتكاب الزلة ، وينأى به عن الريبة ، ومن رأيه وحسن تصرفه ما يصلح من أمره ، ويخرج به من ورطته ، ويجعل من ذلك الحب العارض سبباً إلى الزواج الثابت ؛ كأن الزواج لا يحسن إلا بالقينات ، أو كأن القينات أصلح لذلك من الحرائر ، أو كأن الزوجة لا تكمل إلا إذا أحسنت منادمة الرجال ، وحذقت فنون الغناء ، وأجادت الضرب على المعازف ! أجل لقد ظلم هو أبا الوفاء إذ جزاه على نصحه القطيعة والهجران ، وهو يعلم حبه له وأنسه به ، وافتقاره إليه فى حاله تلك من العجز والكبر والمرض ، مهما انتحل لنفسه فى ذلك من المعاذير ، وتكلف تبرير موقفه منه بأنه إنما فعل ذلك ليريح الشيخ من جدال لا غناء فيه ، ويكفيه مشقة الالحاح عليه بالكف عما لا يستطيع الكف عنه .

وانتقل فكر عبد الرحمن إلى سلامة ، وتمثلها مرة أخرى ، وهى تدنو منه وتراوده عن نفسه فى أول خلوة جمعتهما فى غيبة مولاها الكريم ، الذى أحسن إليها ، وأنزلها من نفسه منزلة الحب المكرم ، فثار ثائره عليها ، وأخذ يسائل نفسه : هل تصلح جارية كهذه تخون مولاها الذى أحسن إليها هذا الاحسان كله ، أن تكون زوجة له ، يأتمنها على شرفه فى مشهده ومغيبه ؟ نعم إنه لم يزلّ بها ، ولم يجبها إلى ما دعته إليه ، فسلم بذلك عرضها ، ونجت من الاثم الكبير ؟ ولكن ما فضلها فى هذا ؟ إنها قد دعته ، ولو أجابها لزلت ، فكأنها بهذا قد زلت . أم يغفر لها هذا لأنها ارتكبته معه هو ولم تأته مع غيره ، وهو من دينه وتقواه فى منعة من الاثم وعصمة من المنكر ؟ كلا . إن هذا لا يغير من سلوكها شيئا ، ولا يجعل من منكرها معروفا . فحسبه أنه أجنبي عنها ، وأنها دعت هذا الأجنبي إلى ما لا يحل لها أن تدعوه إليه ، وحسبه أنها جارية لرجل ، وأنها خانت ذلك الرجل . ويل له ! أفى سبيل هذه الجارية باع راحته وطمأنينته ، وعرض نفسه للتهم والأقاويل ، وقطع أسباب الصلة بينه وبين أصحابه الصالحين ؟

(يتبع) علي أحمد باكثير

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٤٤ | الثلاثاء ٩ من رمضان سنة ١٣٦٠ — ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

تكاليف الحـــرب

عرف الناس من قديم الزمان أن المال قوة عظيمة ، عليه تقوم حياة الشعوب ، وبه تستطيع الأمم أن تنشئ الحضارات وتهيئ وسائل العمران .

والمعروف أن الدول الغنية وقت السلم هي صاحبة الحول والطول ، وربة النفوذ والسلطان . بيد أن المال — مهما تكاثر وتوفر — لا يعمل وحده على كسب الحروب ، إنما تظفر الأمة في نضالها مع غيرها بما لديها من رجال وعتاد ، وتكون لها الغلبة في حربها إذا كثر أفرادها ، وصحت أبدانهم ونفوسهم ، وأدى كل منهم عمله خير الأداء . أما إذا قل عدد الرجال ، وشحت الموارد ، أو إذا لم تهيئ الأمة أبناءها وعتادها لخدمة الحرب ، فإن الدولة لا تستطيع بمالها أن تخلق الرجال المقاتلين ، أو أن توجد المادة من العدم . إنما يجب لأن تخرج الدولة المقاتلة من حربها منتصرة مظفرة أن يكون لها جيش قوي حسن التدريب ، يتفوق على عدوه عدداً وعدة ، وأن يكون لديها من المواد الخام ما تسد به حاجة مصانعها ، ومن الطعام ما تملأ به بطون أبنائها . إن أمة هذا شأنها — مهما تدهورت حالتها المالية — لا بد غانمة في الحرب ظافرة .

فالمال إذاً قد يكون عصب الحياة المدنية ، ولكنه

ليس كذلك فى أوقات الحروب ؛ وهو يأتى فى أهميته بعد الرجال والمواد . إلا أن المال — وإن لم يكن له القول الفصل فى الحرب — يتوقف عليه إلى حد كبير ما يعقب الحرب من اضطراب عام فى الشئون الاجتماعية ، ومن بؤس الأفراد فى الأمم المنتصرة والأمم المنكسرة على حد سواء . وهو من أهم ما تخلفه الحرب من مشا كل يواجهها أبناء الجيل الذى يلى زمن الحرب . ومن لغو القول أن نذكر هنا أن الانقلاب الاجتماعى ، الذى حل بألمانيا بعد حرب سنة ١٩١٤ ، والذى انتهى بظهور هتلر زعيما على البلاد ، لا يرجع إلى هزيمة ألمانيا فى تلك الحرب بمقدار ما يرجع إلى تضخم العملة فى سنتى ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ . ومن ثم كان من واجب الأمة المحاربة أن تعمل جهدها على الظفر فى القتال دون أن تخلف بعد نضالها ضيقاً مالياً واضطراباً فى العملة ، ودون أن توقع أبناء الجيل القادم فى ضنك مضن وعوز شديد .

فالقتال — كما قدمنا — يدور على رحى الرجال والعتاد مما يتوفر للأمة المحاربة زمن الحرب ؛ والمال لا يخلق هذا ولا ذاك . وليس التردد بين زيادة الضرائب أو عقد القروض المالية سوى التذبذب بين وضع العبء على كاهل أبناء الجيل الحاضر أو أبناء الجيل القادم الذين يتحتم عليهم أن يدفعوا ما استدان آباؤهم من أموال . ولكن القروض والضرائب لا تزيد عدد الرجال ، ولا تخرج الفحم والحديد من بطن الأرض ، ولا تصنع آلة لم يحن بعدُ الوقت لاختراعها ؛ فإن انجلترا أو ألمانيا تقاتل فى سنة ١٩٤١ — مثلا — بما لديها من أبناء وما عندها من موارد فى هذا العام ، لا بما تستطيع أن تحصل عليه فى الأعوام المقبلة . وعلى أبناء هذا العام وحدهم أن يحملوا عبء العمل ، لأن تحصيل المال قد يؤجل إلى ما يستقبل من الزمان ، ولكن العمل لا بد أن يتم فى حينه .

ونحن حين نقول إن الأمة تكسب الحرب بما لديها من رجال وعتاد ، ينبغى أن لا ننسى أن ما تقترضه الأمة المحاربة من أمة أخرى (لا من أبنائها) يعمل على زيادة الموارد ، كما ينبغى أن لا ننسى أن ما تربحه الأمة مؤقتاً من جراء التقصير فى الاحتفاظ بما لديها من منازل وطرق عامة ومصانع وما إليها ؛ مما خلفته الأجيال السالفة ، يساعدها على زيادة معدات القتال ، لأنها تنفق عليها ما كانت تبذله فى سبيل ترميم هذه المنشآت وإصلاحها .

ولكن الحكومة — مهما يكن من شىء — لا بد أن توفر المال الذى يعينها على دفع أجور الرجال العاملين ، وعلى شراء مواد القتال ؛ فكيف يتيسر لها ذلك ، وبخاصة إذا علمنا أن تكاليف الحرب باهظة إلى حد كبير ، فقد بلغت فى حرب سنة ١٩١٤ فى بريطانيا نصف دخل الأمة بأسره ؛ وقد تزيد على ذلك كثيراً فى هذه الحرب القائمة ، لأن إعداد الجندى اليوم أكثر تعقيداً من إعداده فى الحرب السابقة ، ولأن الأمم — من ناحية أخرى — زادت كثيراً بعد الحرب العظمى مما تنفقه على الخدمات الاجتماعية العامة من شئون الصحة والتعليم وغير ذلك ، مما لا يبقى لها الكثير لشئون الحرب . فإذا أرادت أمة من الأمم أن تسد نفقات الحرب تحتم على أبنائها أن ينزلوا كثيراً عن مستوى معيشتهم ، وأن يدفعوا للحكومة ما تحتاج إليه من مال ، ويكون ذلك بطرق ثلاث :

١ — تضخم العملة : لتضخم العملة تعاريف عدة . ومعناه هنا فى معرض الكلام من سد تكاليف الحرب تخفيض استهلاك الجمهور بزيادة أسعار السلع المختلفة ، ويمكن الوصول إلى هذا الغرض بفرض الضرائب وعقد القروض ، لأن الحكومة بذلك تستخرج من جيوب الناس المال قبل أن ينفقوه على شئونهم الخاصة ، وليس تضخم العملة سوى وسيلة غير مباشرة لابتزاز أموال

الناس واستخدامها فى شئون الحرب ، فهو يسمح للناس أن يبذلوا من المال مثلما كانوا يبذلون قبل الحرب دون أن يحصلوا من السلع على مقدار ما كانوا يحصلون .

ويعمل تضخم العملة على ارتفاع الأسعار ، ويكون ذلك بإصدار عملة ورقية بغير رصيد تدفع منها الحكومة تكاليف الحرب ، وتتحاشى بذلك فرض الضرائب أو استدانة القروض ؛ وهـذه العملة الورقية الجديدة تدفعها الحكومة رواتب للجنود وثمناً للصلب والبترول والقمح وغير ذلك من ألوف الأشياء التى تحتاج إليها الحكومة فى زمن الحرب . ولما كانت الموارد محدودة ، والمال المتداول وفيراً ، فإن الأسعار ترتفع ، وتقل مقدرة الجمهور على الشراء ، ومن ثم تتمكن الحكومة من الحصول على السلع التى تساعدها على إدارة الحرب ، وتظل الحكومة تصدر العملة الورقية فيتضخم النقد وترتفع الأسعار أحياناً إلى حد يكف معه الجمهور عن الشراء بتاتاً .

وقد ينجح العمال أحياناً فى إرغام أصحاب المصانع على زيادة الأجور كى يستطيعوا العيش مع الغلاء ، فتقابل الحكومة هذا العمل بزيادة النقد ، فترتفع الأثمان من جديد وهكذا . . . . وإنه ليستحيل على جمهور الناس أن يساير زيادة تكاليف العيش ، لأن هذه الزيادة غرض من أغراض الحكومات المحاربة .

هذه هى القاعدة العامة التى يسير عليها تضخم العملة ؛ بيد أن هذه السياسة الاقتصادية حين تخرج إلى حيز التنفيذ لا تكون بكل هذه البساطة ، ولكنا لا نحب هنا أن نسترسل فى تفصيل معقد .

ولهذه السياسة عدة مثالب منها :

(أولا) أنها لا تعدل بين الغنى والفقير . لأن الأسعار حين ترتفع ، يقل معها استهلاك الفقير ، بينما يبقى استهلاك الغنى كما هو على وجه الجملة لا يتأثر ولا يتغير ، وهى سياسة تتنافى فى روحها المبدأ العام الذى تسير عليه الحكومة عند فرض الضرائب ، لأن الضريبة (فى بريطانيا) تزيد نسبتها كلما زاد رأس المال ، بحيث يتحمل العبء من يستطيع النهوض به .

و(ثانياً) لا تعدل هذه السياسة — سياسة تضخم النقد — بين الأنواع المختلفة من ضروب الدخل ، فالفرد الذى يتكون دخله من « المعاش » أو من ربح معين على أموال مودعة يتحمل عبء الأسعار كله بغير هوادة . أما أصحاب الأجور فقد يفلحون فى رفع أجورهم فيتخففون من أعباء الغلاء ، وإن كانوا — كما ذكرنا من قبل — لا يستطيعون أن يتجنبوها كل التجنب . بل إن أصحاب الأجور هؤلاء حين ترتفع رواتبهم يعملون على زيادة أثمان السلع ، مما يثقل من العبء على كاهل أصحاب الإيراد المحدود .

و(ثالثاً) أن تضخم النقد يجب أن يؤدى إلى نقص الاستهلاك عند جميع الطبقات ، وهو لا يعمل على ذلك عند أولئك الذين تزيد دخولهم أثناء الحرب ، من أمثال التجار الذين يحبسون السلع مدة ، ثم يعرضونها فى السوق فيبيعونها بأثمان باهظة ، ويحصلون على مبالغ من الأموال طائلة تمكنهم من شراء ما يريدون . فتضخم العملة يشجع الجشعين من التجار على الطمع فى زيادة ثرواتهم زيادة غير معقولة على حساب الجمهور .

و(رابعاً) لتضخم العملة نتائج اجتماعية خطيرة أثناء الحرب وبعد الحرب . فحين ترتفع الأسعار ينتشر وباء الاضراب بين العمال مطالبين برفع الأجور ، وبعد أن تضع الحرب أوزارها تصبح الطوائف التى أحست بالغبن أيام الشدة خطراً على الأمة ، ومن أمثلة هؤلاء الطبقة الوسطى فى ألمانيا التى عانت كثيراً أيام الحرب العظمى من جراء تضخم النقد ، فلما ألقت ألمانيا السلاح تولدت من بينهم الحركة النازية .

ويقابل هذه المثالب تضخم العملة مرة واحدة ، وهي سهولة فرضه من جانب الحكومة ، وعدم وقوع التبعة على فرد بعينه .

٢ — فرض الضرائب : تلجأ الحكومات أحياناً إلى زيادة الضرائب وقت السلم لتسد ما تحتاج إليه من نفقات ، فتلاقي معارضة من بعض الناقدين ، كما حدث في انجلترا حينما زادت الحكومة من ضريبة استهلاك السكر ، فعارض في ذلك حزب العمال على اعتبار أن السكر من المواد التي لا يستغنى عنها الفقير ، وهو لا يتحمل زيادة الضرائب ، وكان أعضاء هذا الحزب يرون أن الحكومة ينبغي أن تزيد الضريبة على المواد التي يستهلكها الأغنياء وحدهم .

وأرادت الحكومة الانجليزية أن تزيد من ضريبة الدخل ، فعارضها جماعة من الأغنياء ، على زعم أن هذه الزيادة لا تشجع على مضاعفة العمل المنتج ، لأن الضريبة قد ترتفع إلى حد يكاد يساوي الأرباح المكتسبة .

ولكن إن جاز للعمال أو الأغنياء أن يعارضوا فيما تفرضه الحكومة من ضرائب وقت السلم ، فينبغي لهم أن لا يفعلوا ذلك والبلد في حرب مع دولة معادية ، إنما ينبغي حين ينشب القتال وتزداد مطالب الحكومة أن تفرض الضريبة على الغني والفقير على حد سواء ، لأن الغني وحده لا يستطيع أن يقوم بكل تكاليف القتال .

وتستطيع الحكومة وقت الحرب — إلى جانب ذلك — أن تفرض ما يسمى « بالضرائب الوهمية » وهي الضرائب التي لا يحس بها دافعها ولا يكاد يتأثر بها ، كضريبة الأرباح الاستثنائية ، أو ضريبة الدخل الاستثنائي ؛ ومن هذا الضرب كذلك « ضريبة الترف » وهي لا تغل كثيراً ، لأن أسباب الترف تكاد تنعدم أثناء الحرب .

ولما كان الأغنياء لا يستطيعون وحدهم أن يدفعوا تكاليف الحرب كلها ، والضرائب الوهمية لا تأتي بالمال الكثير ، فإن أهم مورد للمال أثناء الحرب هو ضريبة الدخل على كل فرد من أبناء الأمة غنياً كان أم فقيراً . وحيث إن أكثر السكان من أصحاب الأجور فإن خير طريقة لجمع الضرائب هي الطريقة غير المباشرة التي يدفعها الفرد على ما يستهلك من نبيذ وسكر وشاي وما إلى ذلك من الأشياء .

ومهما يكن من شيء فإن حكومة ما لا تستطيع أن تسد كل تكاليف الحرب من الضرائب .

٣ — عقد القروض : فإذا أرادت الحكومة أن تتحاشى تضخم العملة ، وأن لا تجمع تكاليف الحرب جميعها من الضرائب ، فإن الوسيلة الوحيدة الممكنة بعد ذلك هي عقد القروض . والقرض اقتصادياً كالضريبة من حيث إنه عبارة عن تسرب المال من جيوب أصحابه إلى خزائن الدولة ، ولكنه يختلف عن الضريبة من الوجهة النفسية ، لأن الضريبة إجبارية ، والقرض اختياري . وحتى حين يكون القرض إجبارياً فإن الفرد عادة لا ينفر منه ، لأنه يعلم أنه مال سيرد له بعد حين ، ولأنه يتناول عنه أرباحاً مادية . ولما كان القرض من الوجهة النفسية (أو السياسية بعبارة أخرى) أيسر في الحصول عليه من الضريبة . ولكن وراء القرض خطر وقوع الدولة في « دين أهلي » على الحكومة أن تسده وتسد أرباحه بعد الحرب . وليس دفع أرباح الدين في واقع الأمر سوى أخذ المال من طائفة من أبناء الأمة وإعطائه إلى طائفة أخرى ؛ وليس من سبيل إلى ذلك سوى زيادة الضرائب وإيقاف كثير من مشروعات الاصلاح في البلاد .

ومن ثم نرى أن الضرائب من الناحية النظرية البحتة خير من القروض . ولكن من الناحية السياسية العملية

يجب على الحكومة أن تحصل على المال بكلتا الوسيلتين .

وهناك طريقة أخرى وسط بين الضريبة والقرض ، وهى « التوفير الاجبارى » . وقد قدم المستر كينز Keones مشروعا خاصاً به ، وبموجب هذا المشروع تخصم الحكومة من كل فرد نسبة معينة من المال . ثم تجمع هذا المال وتدفع منه الضرائب المفروضة وتودع الباقى فى صناديق توفير البريد ، أو ما يماثلها ، بأسماء أصحابها حتى إذا ما انتهت الحرب أعيدت الودائع إلى أربابها . ومن مزايا هذا المشروع أن هذه الودائع كثيراً ما تنفع أصحاب الأجور فى الأزمة الاقتصادية التى تخلفها الحرب فى أكثر الأحيان .

ولكن هذه الطريقة — طريقة التوفير الاجبارى — تجمع عيوب الطريقتين السالفتين : الضرائب والقروض . فهى تقوم على الاجبار ، وهو ما تمقته النفوس ، كما أن القائمين بالأمر لا يستطيعون أن يعدلوا فى تقديرها . وهى — فوق هذا — تضع على كاهل الدولة ديناً أهلياً يجب أداؤه فى نهاية الحرب .

ويجب على الحكومة حين تلجأ إلى الاستدانة من أفراد الشعب ألا تبالغ فى الأرباح التى تدفعها لهم ، وذلك لثلاثة أسباب : (١) كى لا يتضخم الدين الأهلى و (٢) كى لا تتفاقم الأزمة الاقتصادية بعد الحرب و (٣) كى لا يفيد أصحاب رءوس الأموال من نشوب الحرب ، وأن يقوموا بشىء من التضحية ، كما يقوم الجندى وكما يقوم دافعو الضرائب .

* * *

مما سبق يتبين أن الدولة ليست مضطرة إلى قرض إحدى الوسائل الثلاث السالفة دون الوسيلتين الأخريين كى توفر المال تسد به نفقات الحرب . ولما كانت الدولة فى حاجة إلى إنفاق نحو نصف دخل الأمة كان من الضرورى أن تضع يدها على جل مصادر الثروة بها ، وأن تجمع المال بكل وسيلة ممكنة ، فتزيد الضريبة وتعقد القروض وتعمد إلى تضخيم النقد .

ويهدينا التحليل السابق إلى أن الضريبة يجب أن تزاد على الغنى والفقير على حد سواء ، وإلى أن الدولة تستطيع أن تستعيض بالتوفير الاجبارى عن الاستدانة ، وإلى أن أسوأ الطرق لتوفير المال هو تضخم النقد .

وبعد هذا كله ينبغى لكل فرد من أفراد الأمة أن يدرك أن حكومته لا تستطيع أن تكسب الحرب إلا إذا قدم لها كل ما تطلب إليه من تضحية ، وأن هذه التضحيات كثيراً ما تكون لمصلحة الانسانية والخير العام .

(ملخصة عن الانجليزية) **محمود محمود**

في الأدب العربي :

لغة الأزهار والثمار

للأستاذ أحمد أمين بك

مما التفتت إليه الحضارة الاسلامية وتفننت فيه لغة الأزهار والثمار والتخاطب بهما ، وخاصة في مجال الحب والغرام .

لقد عنوا بالأزهار والثمار ، فجلبوا أنواع الأشجار من أطراف الدنيا ، وتفننوا في المغارس وطعموها ، وولدوا منها أنواعاً جديدة ، وبحثوا وجربوا ، وألفوا ووضعوا التقاويم لما يعمل في كل شهر من شهور السنة لأنواع النبات المختلفة ، ثم أنشأوا البساتين حول البيوت وعلى شواطئ الأنهار وفي ضواحي المدن ؛ وبلغت بغداد في ذلك مبلغاً لم يبلغه سواها ، فخصصوا بعض البساتين لبعض الأزهار أو الثمار ، فنرى — فيما يرد من الأخبار — « بستان النارنج » و « بستان التفاح » و « حديقة النرجس » و « حديقة الورد » و « حديقة البنفسج » . وقال ابن وحشية : « إنهم لشدة غرامهم بالنرجس أكثروا من زرعه ، وأقاموا له حدائق بذاتها » . وقال المقدسي : « إنهم اعتنوا شدة الاعتناء بالبنفسج ، فكان من أحسن ما يمكن ، جيد الرائحة ، لا يشبهه بنفسج ، وغرسوه في حدائق خاصة » ، وأحاطوا البساتين بشجر السرو ، قال أحمد بن سليمان بن وهب :

حفت بسرو كالقيان تلحفت
خضر الحرير على قوام معتدل
فكأنها والريح حين تميلها
تبغي التعانق ثم يمنعها الخجل

كما أحاطوها بشجر الخيطمي ، لأنه يتشابك ويعلو نحو القامة وله شوك ، ومن أجل ذلك صلح سياجاً ، وحرسوها بالكلاب الكبيرة القوية الجارحة . جاء في الأغاني أنه قيل لعثمان بن دراج الطفيلي (وكان في أيام المأمون) : أتعرف بستان فلان ؟ قال : إي والله ، إنه للجنة الحاضرة في الدنيا . قيل : فلم لا تدخل إليه فتأكل من ثماره ، وتجلس تحت أشجاره ، وتسبح في أنهاره ؟ قال : « لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال » .

وتردد عليها الناس ينعمون بمناظرها وهوائها ، ويأكلون من ثمارها ، ويشربون تحت ظلالها ؛ وكانت نعمة على الأدب بما أوحت وما ألهمت ، ومصداق ذلك شعر أبي نواس وغيره من الشعراء .

وأكثروا من زراعة الأزهار ، وأبدعوا في تلوينها وتوليدها ؛ فهذا الخيري (المنثور) كانوا يعرفون منه سبعة ألوان . قالوا : « وقد يركب بعضه على بعض ، فيقبل التركيب ويخرج زهره مركباً في اللون والطبع والريح ، ولكن في تركيبه صعوبة ، لأنه يحتاج إلى لطافة في العمل وصبر وحذق » .

وهذا البنفسج يحتفلون به كل الاحتفال ، وباكورته لا تهدى إلا لخليفة أو وزير أو أمير ، وتحمل منه طاقات تدور بها فتيات جميلات في الشوارع والأسواق ، فيأخذ المشتري من الفتاة زهرة ، ويمنحها ما شاء من دراهم ، وعنوا به عناية فائقة في غرسه وسقيه واختيار منبته ، لرقة طبعه ولطف مزاجه .

وهذا الورد أصنافه لا تعد ولا تحصى : منها الأبيض الخالص البياض ، والأبيض المنقط بصفرة ، والأصفر الذهبي ، والأحمر القاني ، والأحمر الفاتح ، والأحمر القريب من السواد ، والورد الأتى سمي بذلك لكثرة ورقه ، حتى

ظنوا أنها تبلغ الألف مبالغة ، ومنه نوع نصفه أحمر ونصفه أبيض ، أو نصفه أحمر ونصفه أصفر ، وورد خارجه أحمر وداخله أصفر ، وسموه الورد المُوَجَّه ، وفيه يقول بعضهم :

وورد جمعت لونين خلتهما
خدّى حبيب وخدّى هائم عشقا
تعانقا فبدا واش فراعهما
فاحمرّ ذا خجلا واصفرّ ذا فرقا

وكان بعض باعة الورد يدخنون الورد الأحمر بالكبريت على أشكال مهندسة ، فيبيض مكان دخان الكبريت ، ويكون له نقش عجيب ، ويدعون أن ذلك طبيعي ، فيبيعونه المغرمين بالورد بأثمان عالية .

وهذا النرجس أحبوه وفتنوا به ، وحسنوا نوعه ، وقالوا إن خير أنواعه النرجس المضاعف والنرجس الدمشق .

وتأمل فيما ذكره المسعودى فى وصف « بستان النارنج » قال : « وكان للخليفة القاهر بستان من ريحان وغرس من نارنج قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره ، من أحمر وأصفر وأزرق وغيرها ، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر ، وقد جعل مع ذلك فى الصحن أنواع الأطيار من القمارى والشحارير والببغاء ، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار ، وكان « القاهر » أكثر جلوسه فيه ، وكل شربه عليه » .

* * *

ثم بلغ من ولوعهم بالأزهار والثمار أن كان لها بين الظرفاء والمحبين والمتيمين لغة متعارفة تدل على الهجر والوصل ، والدعوة والتحذير ، والتفاؤل والتشاؤم ، وما إلى ذلك .

فأحياناً يتخذون هذه المعانى مما يرمز إليه اسم الزهرة أو الثمرة ، فكرهوا التهادى بالسفرجل لأن أوله سفر ، قال الشاعر :

أهدت إليه سفرجلاً فتطيرا ... منه وظل متيماً مستعبرا
خاف الفراق لأن أول اسمه ... سفر فحق له بأن يتطيرا

وكرهوا كذلك التهادى بشقائق النعمان ، لأن أوله شقاء ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لا يحب الشقائقا ... كل من كان عاشقا
إن نصف اسمه شقا ... ء إذا فهت ناطقا

ويكرهون التهادى بالذهب حتى لا يعترى العشق ذهاب ، ومن ذلك كراهيتهم للتهادى بالسوسن لأن أول اسمه سوء ، والياسمين لأن أوله يأس ، والخِلاف لدلالته على الخلاف ، والبان لدلالته على البين وهكذا ، وقد وردت فى ذلك أشعار كثيرة .

وكثيراً ما كانت تخرج الجارية ومعها حارس فتصطحب طاقة من أزهار ورياحين ، ثم تسير لصديقها خلسة بما تريد مما يدل عليه نوع هذا الزهر أو هذا الريحان ، فتشير — مثلا — بالنمام إلى أن حارسها نمام ، وهكذا .

ويتفاءلون بالتهادى بالعود لأن فى اسمه معنى العودة ، والنبق كما قال الشاعر :

أيا أحسننا خلقا ... ومن فات الورى سبقا
تفاءلت بأن تبقى ... فأهديت لنا النبقا
فأبقاك إله النا ... س ما ضرك أن تبقى

وأحياناً يرمزون بالزهر أو الثمر ، لا من حيث ما يدل عليه لفظه ، ولكن من حيث ما يدل عليه معناه أو ترمز إليه صفاته ، فكرهوا التهادى بالأترج لأن ظاهره غير باطنه ، فهو حسن الظاهر حامض الباطن ، طيب الرائحة مختلف الطعم ، قال الشاعر :

أهدى له أحبابه أترجة
فبكى وأشفق من عيافة زاجر
خاف التلوّن إذ أتته لأنها
لونان باطنها خلاف الظاهر

ورمزوا بالبنفسج للوفاء والمحافظة على العهد ، قال الشاعر :

أهدت إليه بنفسجاً يسليه تنبيه أن بنفسها تفديه

وإلى قريب من هذا المعنى رمز بعض الافرنج ، فمن إهدائه معنى اذكرني ولا تنسني ؛ ولا أدري من أي صفات البنفسج اشتقوا هذا المعنى ، إلا أن يكون مجرد مواضعة .

وأما الورد فاستعملوه كثيراً أداة للتحية ، قال الشاعر :

عشية حيّاني بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وتطيّر منه بعضهم لأنه قليل اللبث سريع الفناء ؛ وفي ذلك يقول القائل :

أنت ورد وبقاء الـ ورد شهر لا شهور
يذهب الورد ويبقى وإلى الآس تصير

ورمزوا بالورد الموجّه للتهتك والحب المال ، فيشير به المحب للقينة المتنبة بأنها لا تحب ، إنما تحب المال .

ويرمزون بالطرفاء إلى أن صاحبها عشق فذبل فاصفرّ ، فهو يحملها استعطافاً يشكو الألم ويستجدي الرحمة .

* * *

ومما يتصل بهذا الباب ما شاع عندهم من صنع تماثيل من العنبر يمثلون فيها أشخاصاً أو طيوراً أو أزهاراً أو حيوانات ، ويكسون بعضها بالذهب ، ويضعون فيها فصوص الأحجار الكريمة ، يتهاداها الناس للتهادي ، ويرمزون بها لغرض يرمون إليه .

وقريب من هـذا — وإن لم يكن رمزاً — ما حكى بعضهم أنه رأى بين يدي بعض الكُتّاب طبق ورد أحمر قد كتب فيه بورد أبيض ، وما حكى آخر أنه رأى طبق ريحان كتب فيه بياسمين ونسرين .

أما التفاح فقد تفننوا فيه أكبر تفنن ، وحمّلوه أنواع الرسائل ، وجعلوه يمثل أعظم دور في الحب والغرام ، وساعدت حمرته وصفرته أن يتلاعبوا به ، حتى بلغ من حب بعض الظرفاء له أنه حرّم على نفسه أكله لأنه تمثل فيه حبه ، وحتى بلغ من تفنن الهواة أن كان بعضهم يتندر التفاح وهو على شجره ، فيشير فيه إشارة ، أو يكتب عليه شعراً حتى إذا نضجت التفاحة كانت صفراء والاشارة أو الكتابة عليها حمراء أو العكس ، فيتهادون بها أو يبيعها البستاني بالثمن الكبير ، وقد قال الشاعر في تفاحة صفراء كتب عليها بالأحمر :

تفاحة صيغت كفا بدعة صفراء في لون المحبينا
زينها ذو كمد مدنف بدمعه إذ ظل محزونا

وتصوف فيها بعض العشاق ، فقرأ فيها رمز الجمال ، واتخذها أنيساً في خلوته ، جليساً في وحدته ، نديماً على الشراب إذا عدم الندمان ، وأهداها المحب رسولَ الغرام ، وشفيع الهوى ، وأهدتها الحبيبة دليل الرضا وانتهاء الجفا .

لما نأى عن مجلسي وجهه ودارت الكأس بمجراها
صيرتُ تفاحة بيننا إذا ذكرناه شممناها
واهاً لها تفاحة أشبهت خديه في بهجته واها

ذكرتك بالتفاح لما شممته
وبالراح لما قابلت أوجه الشُّرب
تذكرت بالتفاح منك سوالفاً
وبالراح طعماً من مُقبّلك العذب

هذا قليل من كثير مما ورد في الأدب العربي ، وحبذا لو كتب لنا كاتب نظيره في الأدب الغربي .

أحمد أمين

العدل الاجتماعي

عمرت النزعة الاشتراكية الدول جميعاً ، فأدت بها إلى التدخل في مجالات النشاط الفردي الاقتصادية والاجتماعية بغية إقرار التوازن المنشود بين أعضاء المجتمع ، وبالتالي تحقيق العدل الاجتماعي في ربوعه . وهذا التدخل يتخذ صوراً متباينة ، ذهب بعضها إلى حد إدماج أفراد الشعب في طبقة واحدة ، أعضاؤها سواسية كأسنان المشط على حد التعبير المأثور . واقتصر بعضها الآخر على التقريب بين الأفراد حتى تنتظمهم طبقة واحدة ذات درجات بعضها فوق بعض . ولا تزال بعض الدول تسعى إلى مثل هذه المساواة سعياً حثيثاً ؛ ولقد ترجم شعورها المستر تشرشل إذ قال : « حينما نفوز في الحرب سنوجه اهتمامنا إلى إنشاء حالة اجتماعية تصبح فيها الامتيازات التي تحظى بها الآن طائفة محدودة من المجتمع حقاً لسائر أفراد الشعب » .

ولقد يصدر بعض الداعين إلى المساواة عن مثل عليا أو فكرة إنسانية — ولعل الدعوة كانت هكذا في منشئها . أما رجل الدولة فلا يحدو به إلى إقامة المساواة مثل عالية ، بل حرصه على كيان وطنه في المجتمع الدولي كدولة ذات حرية واستقلال ... ويغريه بها توثبه إلى النهوض بالوطن ، وتوطيد أمنه واستقراره الداخلي ، إذ لا يعزب عن ذهنه أن المجتمع الذي يشيع فيه انتهاك العدالة الاجتماعية وتوأد في دياجيره المساواة لهو مجتمع مزلزل القواعد مصدع الجوانب ، ينخر فيه داء الطبقات ، وما يجره من شرور وأخطار . فالأفراد متنابذون متنافرون . الغني يصعِّر خده للفقير ، وينظر إليه شزراً . والفقير يرنو إلى الغني مشبعاً حنقاً وحقداً . . . أصحاب الأعمال ينظرون إلى العمال نظرتهم إلى الآلة أو الفريسة ، لا الزميل أو المواطن . . . والعمال ينظرون إليهم نظرتهم إلى الصائد لا النظير أو القائد . . . وهكذا يستحيل الوطن الواحد معسكرات متعادية ، يتربص أحدها بالآخر ليرديه أو إن استطاع ليفنيه . . . ويستحر النضال بينها فتتآكل جميعاً وتمنى الحياة الاقتصادية — وهي عصب الدولة في السلم والحرب — بشلل وخسران . فيتضاءل الانتاج ، ويضطرب التداول ويسوء التوزيع . . . وقد ينضج البلد للثورة فتجتاحه عاصفة هدامة مدمرة لا تبق ولا تذر .

ومصر في حالها الحاضرة مجتمع يجب البدار إلى القيام بثورة إصلاحية فيه صوناً لكيانه ، وحفظاً لسلامه الداخلي والخارجي ؛ ذلك أنه مصاب بمظالم اجتماعية جائرة ويرزح تحت أوزار أخطاء اجتماعية فاقرة ، نفت المساواة ، وأزهقت العدالة ... فالنفوس تتأذى من شيوع النزعات الارستقراطية ، وتأصل الاتجاهات الرأسمالية ، والأنظار تتقذى من رؤية أقلية في الذروة ، تسيطر على الثروات وتتحكم في الموارد والأرزاق . . . وأغلبية في الحضيض ، تعاني الفقر والبؤس والحرمان .

منذ قرن ونصف أكد مستر جودوين أن في العالم من الثروة ما يكفي كل الأحياء ، إلا أنها ليست موزعة عليهم جميعاً ، فالمشكلة في التوزيع وليست في الانتاج ؛ وهذا التقدير مسلم به في أيامنا هذه بالنسبة إلى المجتمع الدولي ، وهو كذلك يصدق على المجتمع المصري . لا مراء في أن إنتاجنا القومي لم يبلغ بعد أشده ، ولكن ليس هذا علة تقهقر الحالة الاجتماعية ، بل علته سوء التوزيع ، وسوء التوزيع هذا هو التجسيد المادي لانهيار العدالة الاجتماعية ، وهو واضح في مجالين : مجال يقف فيه المصريون قبل الأجانب . . . ومجال يبدو فيه المصريون وحدهم .

فالأجانب يمتلكون حوالي عشر الثروة العقارية

الزراعية ، وتكاد تكون الشركات المؤسسة فى مصر احتكاراً لم تدر عليهم أرباحاً موفورة ، ومع ذلك يضنون على المصريين بالعمل فيها . . . وأدهى من ذلك وأمر أن اليونانيين وحدهم يتملكون ثلث الأسهم والسندات المتداولة فى مصر ! فأى مجتمع أكثر تهاوناً فى حقوقه من مجتمعنا ؟ وأى أوضاع أكثر شذوذاً من هذه الأوضاع ؟ ولئن كانت الدولة تستطيع فى الماضى الاحتجاج بنظام الامتيازات الذى يغل يدها ، فها قد سنحت الظروف اللائقة لاجتثاث أخطاء الماضى واستئصال مظالمه .

أما فى المجال الثانى فمظاهر عدم المساواة كثيرة ، وليس للدولة أى تبرير لتقصيرها فى قطع دابرها حتى الساعة ، وحسبى أن أشير إلى أن ٤ر١ من الملاك الزراعيين يمتلكون ملكية نصف الأراضى . وأن مرتبات الموظفين ومعاشاتهم تستنفد ٣٥ ٪ من ميزانية الدولة ، وأن النسبة بين أعلى مرتب وأدناه هى نسبة واحد إلى ثلاثمائة ، على حين أنها فى فرنسا واحد إلى أربعين . وأن مالك الفدان يدفع ذات النسبة من الضريبة التى يخضع لها مالك عشرات الألوف من الأفدنة ، وأن أقل من أربعة ملايين هم الذين ينعمون بالماء الصالح للشرب ، أما الاثنا عشر مليونا أو يزيد فيشربون طينا وحمليتنا يعجل بهم إلى غياهب القبور !

كل هذا وكثير غيره من الأنظمة الرأسمالية الفاسدة شائعة عندنا ، ومازالت تزيد الغنى غنى والفقير فقراً ، حتى قضت على التوازن بين طبقات الأمة ، وأردت التناسق بين الثروات الفردية .

ولقد يعجب الانسان لرضا المصريين بمثل هذه الحال المدهورة ؛ والحق أنهم لم يأبهوا بها لما وجدوا حريتهم مسلوبة ، ورضخوا لها راغمين تحت ضغط الحكم الاستبدادى الذى خضعوا له طويلا ؛ هذا إلى أن الجهل الذى كان يغشى أبصار المصريين صرفهم عن التفكير فى إصلاح شئونهم ، كما أن التقاليد العتيقة والآراء الضعيفة التى صبغها بالصبغة الدينية من لهم مصلحة فى ذلك كانت تستخدم كقود يوجه به المصريون الوجهة التى يشاؤها الحاكمون . والزراعة حرفة السواد الأعظم من المصريين ، وهى تكوّن نفسية من طراز خاص تتميز بالصبر والدعة والايمان بالقدر والرغبة عن المنافسة . ولا جدال فى أن هذه النفسية تقبل الحال الاجتماعية على علاتها ، وهكذا ما كان ، فانتفت كل خطورة يحتمل أن تنجم عن الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، وقد قامت الطبقة المتوسطة بدور الموازنة بين الطبقتين الغنية والفقيرة ، فدعمت المجتمع وصانته من التداعى .

أما فى الوقت الحاضر فالظروف قد تطورت تطوراً يصوره بدقة قول سعادة الشيخ المحترم محمد بدير فى مجلس الشيوخ : « إن من الاخلاص لكم أن أصرح بأن بعض المذاهب الاجتماعية النائية عنا قد وجدت لها سبيلا فى نفوس الفلاحين ، فأصبحوا ناضبين فى غير جلبة ، ثائرين بدون عنف ، وإنى أخشى ساعة تجلس فيها الأمة إلى شيوخها ونوابها تسألهم ماذا فعلوا لها وقد أجزلت لهم العطاء ، ساعة يجلس فيها الشعب ليحاسب أولى الأمر وسيكون الحساب عسيرا »

وسر هذا التطور الجسيم أن المصريين ، وقد سوى وضع وطنهم فى المجتمع الدولى ، حدقوا بأبصارهم فى الحال الاجتماعية ، فراعتهم البشاعة التى هى فيها ، وأدركوا أنه لكفر بالديموقراطية التى نزعم اعتناقها ، وإهدار لقيمها الروحية والمادية ، أن نبقى على ما فى المجتمع من جور وفساد . والديموقراطية أشعرتهم بأن لهم حق توجيه سياسة الدولة وغير ذلك من الحقوق

فى مقابل الالتزامات التى يتحملون بها ويؤدونها طوعاً أو كرهاً . . . وبدهى أن يضموا تعب أيديهم حقهم فى الحياة الكريمة كأناس لهم كرامة واعتبار ، وهو لون من الحياة مقطوع الصلة بتاتاً بحياتهم الحاضرة . ولئن كان الجهل لا يزال جاثماً على صدور الأغلبية ، فإن سهولة تنقل الأفراد ونقل الأخبار قد بعثت العقول من مقابرها ، فغدت تبحث وتناقش حقوقها وواجباتها ، ونشرت النفوس من غيابها ، فطفقت تشعر بأن ثمة شرعة مقدسة هى التضامن الاجتماعى « يقتضى من السعداء بعض التضحية فى سبيل البؤساء » على حد تعبير دولة اسماعيل صدقى باشا ؟ وكنتيجة منطقية حتمية لذلك البحث وهذا النشور ، انكمش سلطان التقاليد البالية ، وبخاصة ما اتصل منها بالدين ، فبدأ الأفراد يشعرون بأن الرضا بالأمر الواقع ، والاطمئنان إلى القسمة المزعومة ليس من الدين فى شىء ، بل هو مناقض للروح الدينية الحافزة إلى الطموح واقتضاء الحقوق ، الحاثة على التسوية بين الناس ، والتى تجعل أمر الرعية شورى بينهم ، وتبيح لهم تقويم ما يبدو من الحاكم من انحراف عن الجادة أو يصدر منه جور عن سواء السبيل . وإلى جانب هذا ازدهرت الصناعة فى مصر ، وتجمع العمال الصناعيون وهم يزيدون من الملايين . . . والصناعة تخلق نفسية مغايرة كلية لنفسية الزارع ، فهى تثير فكره وتقوى روحه ، وتنفث فيه حب المثابرة والكفاح الجرىء . ولعله لا يغرب عن بالنا أن الحركات الاجتماعية تنبع دائماً من البيئات الصناعية . ولم تمن الدولة بتدعيم المجتمع بأى وسيلة كانت ، فتركت الطبقة المتوسطة نتاً كل ، فهوى أكثر أفرادها إلى حيث اندمجوا بالطبقة الفقيرة ، وارتفع قليل منهم إلى طبقة الأغنياء ، وبذلك تقوضت الدعامة الكبرى ، وأصبحنا نرى الآن طبقتين متقابلتين يتأجج بينهما الصراع روداً رويداً ، وكل منها تتشبث بالحياة وتكافح فى سبيل البقاء ، لأن الطبقة لا تنتحر كما يقول كارل ماركس .

وسبيل الاصلاح لحفظ كيان الجماعة هو الارتقاء بالطبقة العامة إلى درجة متوسطة فى السلم الاجتماعى ، والهبوط بالطبقة الثرية إلى هذه الدرجة بالذات ، حيث يتوحد الشعب جميعاً فى كتلة عاملة مجاهدة فى سبيل الوطن ؟ هذه الخطوة ضرورة حيوية يجب أن نعجل بالقيام بها حتى لا يسبقنا الزمن ، ويجىء الوقت الذى نعمل فيه على تنفيذها . ويومئذ نأسو على ما فات ولات حين مناص !

فلننشط إلى هذا ، مكتسحين كل عقبة تعترض طريقنا ، فما خلقت العقبات إلا لكى تكتسح . . ولنؤمن أن الحياة إرادة . . إرادة وقوة ومجد وخلود .

محمد زكى هاشم

أمثال سليمان

في ٢٦ يونيه سنة ١٩٣٧ اختفى علم المصريات الخفاق وهوى نجمها الثاقب، الذي يرجع إليه وإلى تلاميذه الفضل الأكبر في كشف القناع من صفحات تاريخنا وسجل تراثنا العقلي، أعني «أدولف أرمان» الذي تقدم في ١٢ يونيه سنة ١٢٩٤ إلى المجمع العلمي البروسي ببحثه القيم (مصدر مصري لأمثال سليمان)[1] فسجل حسنة جديدة من حسنات العقلية المصرية القديمة على الكتاب المقدس، وقد وجه هذا البحث الكثيرين من العلماء إلى تتبع نتاج عقلية قدماء المصريين، ومدى تغلغله في تراث الشعوب الأخرى؛ ففاضت القرائح بالأبحاث الكثيرة التي تناولت الكتاب المقدس نقداً وتحليلا، حتى وفق الكثيرون من أصحاب هذه البحوث إلى إرجاع كل فطرة إلى نبعها الذي أخذت منه. ولعل أحدث وأنضج كتاب ظهر في هـذا الموضوع هو كتاب تلميذ (أرمان) أعني (جيمس هنري برستد) «فجر الضمير»[2].

أما بحث (أرمان) فهو يدور حول كتاب (تعاليم امين — أم — أوبه) الذي يرجح أنه عاش حوالي أوائل الألف الأولى ق م. وقد اكتشفت هذه التعاليم المحفوظة في بعض أوراق البردي الهيراطيقي بالمتحف البريطاني السير (والزبدج) ونشرها عام ١٩٢٣[3]، ومن الغريب أن هذا الحكيم المصري سلك في وضع نصائحه التي ضمنها ثلاثين باباً نفس الطريق الذي سلكه حكماء الشرق منذ القدم، فساقها على صورة نصائح والد لولده، كما هو الحال في هذه الحكم التي ينصح بها لقمان ابنه حسبما ورد في القرآن الكريم. وليس المصدر المصري هو الوحيد الذي نجده في سفر الأمثال، بل هناك مصادر أخرى أظهرها البابلي الأشوري. والآن وقد اتفق رجال المصريات مع نقاد الكتاب المقدس على أن هذا السفر ليس كله تراثاً عبرياً، سقطت الحجة القائلة إن سليمان هو مؤلفه، وإن كنا لسنا في حاجة إلى عناء كبير لسرد كثير من الأدلة المقتبسة من السفر نفسه والتي تنفي نسبته إلى ابن داود؛ فكتاب الأمثال عبارة عن مجموعة متفرقة من الحكم والأمثال التي لا تربط بينها رابطة، ولا تلمس في أسلوبها وحدة أو تناسقاً في الأفكار؛ فهو لن يمكن أن يكون من وضع فرد بعينه، أو نتاج قريحة عصر بمفرده؛ ومتى كانت أمثال أمة من الأمم من وضع فرد أو عصارة عصر من عصور تاريخها المختلفة؟ أليست الأمثال أدباً شعبياً تتناقله الألسنة، وتتوارثه الأجيال، فتغيره العصور، وتبدله الأذواق، حتى يأتي عصر التدوين فيقدر لها من يثبتها؟ وهذا ما حدث فعلا لسفر الأمثال، فهو مجموعة من المجاميع التي لكل واحدة منها لونها الخاص، ومذهبها الخاص؛ فهي إما دينية، وإما دنيوية، ومنها الخاص بالنصح، والخاص بالتحذير والانذار، ومنها الألغاز، ومنها الهجاء، ومنها ما سيق في أسلوب قصصي لطيف، ومنها ما عبر عنه باللفظ الوجيز. ومن حسن الحظ أن هذه المجموعات وردت مسندة إلى شخص بعينه أو هيئة بعينها، كما أننا إذا قرناها بالترجمة اليونانية لوجدنا فرقاً كبيراً؛ ومرجع هـذا أن الترجمة اليونانية اعتمدت على نسخة تغاير هذه التي بأيدينا، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من قبل.

وينقسم سفر الأمثال الى الأقسام الآتية :

أولا — أمثال سليمان، وهي تقع في الاصحاحات ١ — ٩ عبارة عن نصائح والد لولده لا تلبث أن تعرض

(1) Adolf Erman, Eine ägyptische Quelle der "Sprüche Salomos" (Sitzungsberichte der preussischen Akademie der Wissenschaften-Sitzung der philosophisch-historischen Klasse vom 1. Mai 1924.)

(2) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience.

(3) Sir Wallis Budge, Egyptian Hieratic Papyri in the British Museum. Second Series (London 1923.)

لله فتلخص رأيها فيه في الحكمة المأثورة (رأس الحكمة مخافة الله) ، ونجد فيها علاوة على ذلك الشيء الكثير من النصح والتحذير ، وفي الأصحاحين الثامن والتاسع نقرأ شيئاً من الحكم القصصية كالوليمة التي أعدتها الحكمة بعد أن بنت بيتها ، ونحتت أعمدتها السبعة ، وذبحت ذبحها ومزجت خمرها ، وأعدت مائدتها ، وأرسلت جواريها إلى ساحات المدينة العالية ينادين الجاهل والغبي ليأكل ويشرب فتنصرف عنه الجهالة وتدبر الغباوة .

ثانياً — أمثال أخرى لسليمان من أصحاح ١٠ إلى أصحاح ٢٢ آية ١٦ ، وهي تبلغ نحو ٣٧٥ مثلا من الأمثال البسيطة التي تناولت شتى المواضيع مثل (فم الصديق ينبوع حياة ، وفم الأشرار يغشاه ظلم) و (القليل مع العدل خير من الجزيل مع الظلم) و (محتكر الحنطة يلعنه الشعب والبركة على رأس البائع) و (لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام)

ثالثاً — أمثال حكماء من أصحاح ٢٢ آية ١٧ إلى أصحاح ٢٤ آية ٢٢ ، وهي عبارة عن نصائح والد لولده مثل (لا تسلب الفقير لكونه فقيراً ولا تسحق المسكين في الباب) أو تحذيره خاصة من شرب الخمر مثل (لمن الويل ؟ لمن الشقاوة ؟ لمن المخاصمات ؟ لمن الكرب ؟ لمن الجروح بلا سبب ؟ . . . للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب المزوج . لا تنظر إلى الخمر إذا احمرت حين تظهر حبابها في الكأس وساغت مرقرقة ، في الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان)

رابعاً — أمثال أخرى لحكماء أصحاح ٢٤ آيات ٢٣ — ٣٤ ، وهي تخالف السابقة في أسلوبها ؟ ومنها (محاباة الوجوه في الحكم ليست صالحة) و (من يقول للشرير أنت صديق تسبه العامة . تلعنه الشعوب) . . .

خامساً — أمثال لسليمان جمعها رجال الملك حزقيا من أصحاح ٢٥ إلى ٢٩ ، وهي تشبه تلك التي جاءت في القسم الثاني ، ويبلغ عددها نحو ١٢٧ مثلا ، تناولت مختلف الموضوعات مثل (اجعل رجلك عزيزة في بيت قريبك لئلا يمل منك فيبغضك) و (لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلده اليوم) و (لا تترك صديقك وصديق أبيك ...) و (قال الكسلان : الأسد في الطريق ، الشبل في الشوارع) و (الباب يدور على صائره ، والكسلان على فراشه) و (الكسلان يخفي يده في الصحفة ، ويشق عليه أن يردها إلى فمه) .

سادساً — كلام أجور بن ياقة أصحاح ٣٠ ، ومعظم آياته عبارة عن ألغاز وهجاء ، مثل (ثلاثة عجيبة فوق وأربعة لا أعرفها : طريق نسر في السماء ، وطريق حية على صخر ، وطريق سفينة في قلب البحر ، وطريق رجل بفتاة ، كذلك طريق المرأة الزانية أكلت ومسحت فمها وقالت ما عملت إثماً) ، ومن أمثلة الهجاء (جيل يلعن أباه ، ولا يبارك أمه ، جيل طاهر في عيني نفسه ، وهو لم يغتسل من قذره ، جيل ما أرفع عينيه وحواجبه مرتفعة ، جيل أسنانه سيوف ، وأضراسه سكاكين ، لأكل المساكين عن الأرض والفقراء من بين الناس) .

سابعاً — كلمات الملك لموئيل أصحاح ٣١ آيات ١ — ٩ وهي عبارة عن نصائح أمه له لما صار ملكا (ماذا يابني ؟ ماذا يا ابن رحمي ؟ ماذا يا ابن نذوري ؟ لا تعط حيلك للنساء ، ولا تتبع مهلكات الملوك ، ليس للملوك يالموئيل ، ليس للملوك أن يشربوا خمراً وللأمراء أن يسكروا ، لأن الشرب قد ينسيهم الفرض فيغير حق الفقير ، أعطوا المسكر لهالك ، والخمر لمرى النفس ، يشرب وينسى فقره ولا يذكر تعبه بعد ، افتح فمك للأخرس في دعوى اليتيم ، افتح فمك ، اقض بالعدل وحام عن الفقير والمسكين) .

ثامناً — مدح مرتب ترتيباً أبجدياً في ربة الدار أصحاح ٣١ آيات ١٠ — ٣١ جاء فيه (امرأة فاضلة ، من يجدها ؟ لأن ثمنها يفوق اللآلئ ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ، تطلب

صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين ، هي كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد وتقوم إذ الليل بعد ، وتعطي أكلا لأهل بيتها وفريضة لفتياتها ، تتأمل حقلا فتأخذه وبثمر يديها تغرس كرما . . .)

هذا عرض موجز لهذا السفر ، تبين منه نوع محتوياته والشخصيات التي أسندت إليها هذه المحتويات . والآن نتساءل : لماذا نسب هذا السفر إذاً إلى سليمان ؟

نحن نعلم أن ابن داود تولى الملك بعد وفاة أبيه في حوالي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، وحكم مايقرب من أربعين عاما انصرف فيها إلى الاصلاحات الداخليـة ، وتوثيق العلاقات الخارجية بينه وبين جيرانه ؛ تخط المدن وأمن الطرق ، فازدهرت التجارة وارتقى مستوى المعيشة . بنى المعبد وزوده بمختلف الأواني التي تدل على روعة الفن وجمال الذوق ؛ هذا إلى جانب الأبنية العظيمة التي شيدها في مختلف المدن . وكما يفيض سفر الملوك الأول بأعمال سليمان كذلك القرآن الكريم حيث يقول الله سبحانه وتعالى : «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر . ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكراً . وقليل من عبادى الشكور» .

وكانت النتيجة المحتومة للانصراف إلى الاصلاحات الداخلية وارتقاء مستوى المعيشة أن توجه الشعب إلى ضروب الفنون ، وشعب الأدب المختلفة ، خاصة الشعر . وكانت للشعب أسوة حسنة في ملكه الشاعر الحكيم الذي يقول فيه الأصحاح الثالث من سفر الملوك الأول إنه في أول عهده بالملك ذهب إلى مدينة (جبعون) وقدم قرابين لله ، فتراءى له حلم ليلا أن الله سأله حاجته ، فقال سليمان (إلهى لقد ملكت عبدك مكان داود أبي ، وأنا ما زلت فتى صغيراً لا أعلم الخروج والدخول . . . فأعط عبـدك قلباً فهما لأحكم على شعبك وأميز بين الخـير والشر) . ويحدثنا السفر نفسه أن الله أعطى سليمان حكمة وفهماً كثيرا جداً ، ورحبة صدره (قلبه) كالرمل الذي على شاطىء البحر ، وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع أبناء الشرق وكل حكمة مصر ، وكان أحكم من جميع الناس من إيثان الازراحي وهيمان وكلكول ودردع بنى ماحول ، وبلغ صيته جميع الأمم التي حوله ، وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت قصائده ألفاً وخمساً ، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط ، وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك . . .) وفيما يقرب من هذا المعنى يقول القرآن الكريم : « وورث سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناس عُلّمنا منطقَ الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين»

هذا هو رأي الكتب المقدسة في سليمان ؛ فهل يستبعد بعد هـذا أن ينسب إليه المتأخرون من اليهود معظم ما يتصل بالفلسفة والحكمة في كتابهم المقدس كالأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد ؟

فؤاد حسنين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ صاغ

أثر الإبـــل
فى الحياة العقلية للعرب

إن للابل أثراً بليغاً فى حياة العرب العقلية ؛ فقد كانت منبعاً فياضاً لفنهم ، ومعيناً لا ينضب لخيالهم ، ومصدراً خصباً لأمثالهم ، وبحراً زاخراً فى شعرهم ، وثروة واسعة لأساطيرهم ومعتقداتهم .

وليس هذا بعجيب من حيوان عليه عماد حياتهم ، وألصق إليهم من ظلهم ، وهو المثل الأعلى لثروتهم ، والصديق الدائم فى حلهم وترحالهم ، والحيوان الشعبى لفقيرهم وغنيهم .

فالابل لم يكن سلطانها قصراً على حياتهم العقلية بل تعداها إلى حياتهم الخلقية والنفسية .

ذكر الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » عند تعداده لمطاعن الشعوبية على العرب قولهم — وهو لم يفند هذا الطعن كعادته :

« ولطول اعتيادكم لمخاطبة الابل ، جفا كلامكم ، وغلظت مخارج أصواتكم ، حتى كأنكم إنما تخاطبون الصُّمَّان إذا كلمتم الجلساء » .

وهذا قول فيه شبه كبير من الحق ، فانا نشاهد فى عصرنا طبقة ممن يسكنون بعض الأحياء الوطنية البلدية ، وتضطرهم حياتهم إلى معاشرة الخيل والبغال والحمير ، ويلجئهم أسلوب حديثهم وطبيعة أعمالهم إلى الصخب والعويل ، والشجار الدائم والسباب المتواصل ، فيرفعون الأصوات إلى أعلى طبقاتها ، ويفتحون الحناجر إلى أقصى درجاتها — نشاهدهم وقد تكيفت أصواتهم بكيفية خاصة ؛ واستقرت حلوقهم على نغمات معروفة امتازوا بها . فاذا سمعتهم يتحدثون أو يتجادلون كانت أصواتهم أشبه شىء بشجيج البغل ، أو شخير الخيل ، أو نشيج الحمار . وذلك لقدم عهدهم بزجرها ، وطول ألفتهم لمناغاتها ومسامرتها .

أما مظاهر الحياة العقلية التى سنتحدث عنها فهى : اللغة ، والشعر ، والأمثال ، والأساطير ، والمعتقدات ، والعادات ؛ فان للابل لوناً فى كل هذه المظاهر ، ودوراً لعبته فى كل هذه المناحى .

فى كل لغة تتمثل البيئة التى عاشت فيها ، وتتصور المشاهد التى شاهدها أهلوها . فاللغة تكون جافة الألفاظ خشنة الأصوات غليظة الجرس إذا نشأت فى بيئة جافة خشنة غليظة ؛ وتكون رقيقة الجرس حلوة النغم عذبة الصدى إذا درجت فى بيئة رقيقة حلوة عذبة .

دخل حاجب بن زرارة التميمى فيمن وفد على كسرى من خطباء العرب ، فلما أتم خطبته ، وكانت صخرية الألفاظ عنجهية الكلمات ، قال له كسرى : « يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها ! » . قال حاجب : « بل زئير الأسد بصولتها » . قال كسرى : « وذاك » .

واللغة إنما سبيل وجودها الوضع — وهو تخصيص اللفظ بالمعنى ابتداءً بحيث يدل عليه من غير قرينة — ثم قد تنحرف دلالة اللفظ عن المعنى الأصلى ، فينتقل اللفظ من معناه إلى معنى آخر بينه وبين المعنى الأصلى مناسبة ، تبعاً لقانون التوسع فى الاستعمال . وأكثر ما يقع ذلك بنقل اللفظ الدال على معنى حسى إلى معنى عقلى ؛ ويسمى علماء البيان هذا التوسع فى المعنى أو التأول فيه بالتجوز ، ويسمون اللفظ المستعمل فى معناه الوضعى الأصلى حقيقة لغوية ، واللفظ المستعمل فى المعنى الجديد مجازاً ؛ وقد يشتهر هذا الوضع الجديد المجازى فى الاستعمال حتى تكاد الحقيقة تنسى بجانبه ، أو تكون بالاضافة إليه كالمجاز ، ويكون هو كالحقيقة .

كل ذلك وقع فى اللغة قبل تدوينها وبعده ، فما اشتهر قبل التدوين من الوضع المجازى تشابه أمره على كثير

من جامعي اللغة وعلمائها ، فعدوه من قبيل الحقيقة اللغوية ، وهو في الواقع لم يكن إلا مجازاً اشتهر ، ومن هنا كان يقول ابن جني : « إن أكثر اللغة مجاز مشهور » .

ونحن على ضوء هذه الأسس نبني بحثنا للابل وأثرها في اللغة . لقد كان ثراء اللغة في مفرداتها التي تتصل بالابل أكثر من ثرائها في المفردات التي تتصل بالخيل ، وهما أكثر الحيوانات التي عرفها العرب ودرسوا خصائصها وألموا بكل شيء فيها ؛ والسر في ذلك هو أن الابل أقدم الحيوانات وجوداً في الجزيرة العربية . يقول هيوار (في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ص ٣) : « إن هذا الجمل هو الحيوان الوحيد الذي ذكر في التوراة وفي الآداب القديمة » ؛ هذا ولأن الخيل متاع المترفين ، أما الابل فمتاع العرب جميعاً . لذا كان ما ورد من اللغة في الخيل أقل مما ورد منها في الابل . ولذا كان ما ورد في كتاب المخصص خاصاً بالابل تبلغ صفحاته ١٧٢ صفحة ، وهو ملء الجزء السابع تقريباً ، أما ما ورد منها خاصاً بالخيل فتبلغ صفحاته (٧٢) . فالابل تزيد على الخيل مائة صفحة ، ونرى أنه لا داعي للأمثلة من هذا النوع ، وإنما الذي يهمنا هي الألفاظ التي أخذت أخذاً مجازياً ، والتي استخدمت في معان جديدة بعد وضعها على الابل وما يتصل بالابل . من ذلك :

(الخليّة) هي الناقة التي عطفت على واحدها . ثم سميت السفينة العظيمة التي يتبعها زورق بذلك .

(الرءوم) المعطوف من الابل ، ثم وصفت المرأة بذلك فقيل لها أم رءوم .

(الأفْن) قلة لبن الناقة . ثم قالوا أفن الرجل إذا كان ناقص العقل .

(تفوّقتُ اللبن) حسوته جرعة بعد أخرى في مهلة . وفي حديث أبي موسى الأشعري ، وقد تذاكر هو ومعاذ قراءة القرآن ، فقال : أما أنا فأتفوقه تفوق اللقوح — يقول لا أقرأ جزئي بمرة ولكن أقرأ منه شيئاً بعد شيء في آناء الليل والنهار ، مأخوذ من فُواق الناقة وهو ما بين الحلبتين .

(العُجالة) ما يَعجَله الراعي إلى أهله من اللبن قبل أن يصدر الابل ، وفي حديث عمر (الثيب عُجالة الراكب تمر وسويق) ، أي أنه لا يحتاج أن يتكلف لها ما يتكلف للبكر .

(ناقة ثَرّة) غزيرة اللبن ثم قيل عين ثرة كثيرة الدموع وطعنة ثرة كثيرة الدم .

(ناقة بكيئة) قليلة اللبن . ثم أطلق ذلك على قلة الكلام ، ومنه الحديث (نحن معاشر الأنبياء فينا بكاء) . أي قلة الكلام إلا فيما يحتاج إليه .

(الشقشقة) لهاة البعير ، ولا يكون ذلك إلا للعربي ، وبه سمي الخطباء شقاشق .

(الجران) مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، ومنه حديث عائشة : « حتى ضرب الحق بجرانه » أي قرّ قراره واستقام ، كما أن البعير إذا برك واستراح مد عنقه على الأرض .

(القَرْم) الفحل من الابل ، ثم أطلق على السيد الشريف ، فيقال هو قرم من القروم أي سيد .

قال الله تعالى : « لقد جئتم شيئاً إدّاً » ، أي أمراً منكراً يقع فيه جلبة ، مأخوذ من قولهم : أدّت الناقة تئد أي رجّعت حنينها ترجيعاً شديداً .

(حلّمْتُ البعير) إذا نزعت عنه الحلمة . ثم يقال حلّمت فلاناً إذا داريته ليسكن ، وتتمكن منه تمكنك من البعير إذا سكنته بنزع القراد عنه .

قال تعالى : « وأرسلنا السماء عليهم مدراراً » وأصله من الدَّر أي اللبن ، ويستعار ذلك للمطر استعارة أسماء البعير وأوصافه ، فقيل لله دره .

(ذروة السَّنام) أعلاه وكذا ذراه . ومنه قيل أنا في ذُراك أي في أعلى مكان من جنابك .

قال تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » أى ملقحات للشجر ، وأصل الالقاح للناقة .

(أرحتُ الابل) أى أرجعتها إلى مُراحها . ثم قيل أرحت إليه حقه .

(شردَ البعيرُ) ندّ ، ثم جاء فى اللغة بعد ذلك من ذلك التشريد ، وفلان طريد شريد .

(حلب فلان الدهرَ أشطُره) أى خبر ضروبه فمر به خيره وشره وشدته ورخاؤه ، وذلك من حلب جميع أخلاف الناقة ، فان كل خلفين منها شطْر .

(أطلقتُ البعير) من عقاله خلّيته عنه ، ثم قيل طلَقتْ المرأة نحو خلّيتُها فهى طالِق ، أى مخلاة عن عقدة النكاح .

وأظهر ما يشاهد هذا النوع فى الأحاديث . لأن اللغة كغيرها من الكائنات لا يحدث شىء منها تاما كاملا من أول وهلة ، بل هى خاضعة لقانون النشوء والترقى ، وسنة الخلق والتدرج . فلما بعث الرسول صلوات الله عليه ، واشتدت حاجته للارشاد ، وضرب الأمثال ، وجد أن خير سبيل لذلك هو أن يخاطب القوم بما ألفوه . ويتكىء فى تفهيمهم على ما اعتادوه ، فاستمد كثيراً من تشبيهاته من الابل ، واعتمد عليها فى تقريب المعانى إلى أذهانهم ، وتوصيل بعيد الأفكار إلى رءوسهم . من ذلك قوله عليه السلام : « قد أناخت بكم الشُّرُف الجون » يعنى الفتن المتوقعة . وهذه القول مجاز حيث شبهت الفتن بالنوق المسنات لجلالة خطبها واستفحال أمرها . فالشُّرُف جمع شارف أو شارفة ، وهى الناقة المسنة . والعرب يشبهون كثيراً بها قال الكميت الأسدى يصف حرباً :

مبسورةٌ شـــارفٌ مُصَرَّمةٌ
يحلبها الصاب حين تحتلبه[1]

(الاسلام ذَلول لا يركب إلا ذَلولا) المراد أن الاسلام سهل القياد لمن اقتاده وطىء الظهر لمن اقتعده ، لين لمن أراد تطبيقه ، فيه يسر لمن رغب فى اتباعه ؛ فهو كالبعير الذلول الذى يسهل قياده ويطوع زمامه . وقوله عليه السلام (لا يركب إلا ذلولا) أى لا يستجيب من الناس إلا من لانت للدين عرائكه ، وقربت عليه مآخذه ، وطاعت نفسه باحتمال أعبائه والصبر على لأوائه .

(لكل شىء سنام ، وسنام القرآن سورة البقرة) ، المراد أنها أعلى القرآن وأشرفه ، كما أن أعلى ما فى البعير سنامه وذروته .

(إن الاسلام بدأ جَذَعا ، ثم ثنياً ، ثم رباعياً ، ثم سديساً ، ثم بازلا ، وما بعد البزول إلا النقصان) ، والمراد تمثيل الاسلام فى تنقل أحواله وتغاير أوصافه بولد الناقة ينتقل فى أسنانه فيكون أول أمره جَذَعا ، ثم ثنياً ، ثم رباعياً ، ثم سديساً ، ثم بازلا ، وهى سن التمام ، وما بعدها إلى النقصان . ومدار المعنى على أن الاسلام بدأ فى غاية الصغر ، ثم انتهى إلى غاية الكبر على تدريج ما بين البازل والجذع .

(إن المؤمن كالبعير الأنف) يعنى أنه هين لين المقاد .

(الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة) ، يعنى أن المرضىّ من الناس فى عزة وجوده وندرة الحصول عليه كالنجيب من الابل القوى على الأحمال والأسفار الذى لا يوجد فى كثير من الابل .

ورد فى الصحيحين من أبى هريرة قال : « جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن إن امرأتى ولدت غلاما أسود . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : هل فيها من أورق ؟ قال : إن فيها لورقا . قال : فأنى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعه عِرق . قال : وهذا عسى أن يكون نزعه عرق » .

أما الأورق فهو الذى فيه سواد ليس بصاف وهو

(١) المصرمة الناقة يقطع طباها فلا يخرج اللبن ليكون ذلك أقوى لها . يقال : بسرت الناقة وابتسرت إذا حمل عليها الفحل .

نماذج بشرية :

بيتريس Beatrice

سنة ١٢٦٥ — سنة ١٢٩٠

في عهد الشباب Vita Nova

« عندما نسمو من مظاهر الجمال الدنيا إلى الجمال الكامل نلمح ضياءه ، نحس أننا قد دنونا من الحب . وفي الحق ما الحب إلا شوط نبدأه مما فوق هذه الأرض من جمال ، والبصر منعقد بالجمال الطلق ما نزال نرتفع إليه درجة فدرجة على طول السلم : من جمال الأجسام إلى جمال المشاعر ، ومن جمال المشاعر إلى جمال الأفكار ، حتى نصل إلى المعرفة المطلقة التي هي إدراك الجمال الطلق . إدراك ذلك المثال الخالد الذي تمنح مشاهدته الحياة قيمتها » .

بذا يتحدث سقراط في مائدة أفلاطون عن مراحل الحب الذي هو سعي وراء الكمال ، وإليه وصل « دانت » Dante يقوده جمال « بيتريس » ولكن ترى أحقيقة ما يقول سقراط ، أم هو أفلاطون ذلك الحالم الأبدي يرنح بؤس الحياة في أنسجة جميلة من الخيال ؟ ثم ما بال دانت ، وقد رأى في النفس البشرية « حلقة تجمع فيها النزوات بين البكاء والابتسام » يثبت على حب تلك الفتاة الرائعة ، فاذا هي تستحيل رمزاً للايمان ، وإذا هي تلوح له في الجنة ، وقد انتشر من حولها ما تشع من ضياء هي منه كالطائر من العش ؟ .

يا عجبا ! فتاة صغيرة ترسل ابتسامتها إلى هذا القلب النبيل ، فترتد الابتسامة شعراً كم هز من نفوس وأتى البلى على الابتسامة وخلد الشعر ! أكذب إذاً أننا « أمواج إن تسترح تمت » ؟ وقد سكن دانت إلى قلب بيتريس يغمره ضياؤه ، فاذا به قبس من شعاعها ؛ ولكن

الرمادي اللون . والمراد بالعرق هنا الأصل من النسب ؛ ومعنى نزعه أشبهه واجتذبه إليه وأظهر لونه عليه . فأنت ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يرد الرجل إلى صواب من الرأي . وأن يجعله يقلع عن عادة نفي الولد بمجرد الأمارات الضعيفة ، كما كانت عادة الجاهلية ، لجأ إلى الابل فاستمد منها بيانه . واقتبس منها برهانه ، وجعلها أساساً عليه يبنى ، ونموذجا عليه يقاس . فسأله عن ألوان الابل ، لأن الحيوانات تجرى طباع بعضها على مشاكلة بعض في اللون والخلقة ؛ وقد يندر منها شيء لعارض ؛ فكذلك الآدمي يختلف بحسب نوادر الطباع ونوازع العروق

وقال عليه السلام : « العين حق تدخل الجمل القِدْر والرجل القبر » .

وقال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقلة ، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت » .

فتراه قد شبه حافظ القرآن الذي حافظ على دراسته ودأب على تلاوته بصاحب الابل المشدودة بالعقال خيفة الشراد ؛ والحكمة في تخصيصها بالذكر لأنها أكثر الحيوانات التي تعرفها العرب حق المعرفة ، ولأنها أشد الحيوان الإنسي نفوراً ، والحصول عليها بعد نفورها أمر عسير غير يسير . أرأيت كيف استخدم الرسول صلوات الله عليه ما هو معلوم للوصول إلى ما هو مجهول . واستغل البيئة وما يحيط بها في التأديب والارشاد ؟ وهذا أحدث أنواع التربية ، والقواعد النفسية .

وهكذا كان النبي يعرف للابل فضلها ، وهو خبير باستخدامها واستغلالها ، حتى نهى عن سبها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الابل ، فان فيها رقوء الدم ومهر الكريمة » وقال : « الابل عز لأهلها » .

عبد الوهاب حمودة

آه ! لقد دفع دانت ثمن هذا السكون الذي لم يركن إليه إلا منهكا ، وقد ألقته أمواج الحياة إلى شاطىء الذل ، ولكم استشعر من ألم « في أن يرقى سلماً إلى الغير ، ولكم وجد من مرارة فيما قدم إليـه من خبز » ، ولكم التمس عن محنته عزاءً في ابتسامة بياتريس تطالعـه من غفوة الأحلام فيصوغ ابتسامتها جمالاً فيه أعز نشوة ، نشوة الخلق .

وقد ولدت بيتريس مع دانت سنة ١٢٦٥ بمدينة فلورانس مهد كل فن جميل ، إذ أكبر الظن أن أحد أبناء الشاعر قد كشف القناع عن حقيقتها التاريخية ، عند ما أخبرنا أنها بنت فولكو بورتنارى Folco Portinari أحد أغنياء المدينة إذ ذاك ، ورآها الشاعر لأول مرة في حياته وهما في التاسعة من عمرهما ، ومنذ ذلك اليوم لم تفارق نفسه ، وعنها تحدث أجمل الحديث في مجموعة من الشـعر والنثر « عهد الشباب » Vita Nova حيث التمس لما قال من شعر مناسبات يقدم لها نثراً ، فاذا نحن أمام قصة اختلط فيها الأدب بالحياة كما اختلطا بنفس دانت ، التي اهتزت لكل شعور ، واتسعت لكل معرفة . قال : « رأيتها في ثوب أحمر جليلة متواضعة ، وقد علق حزامها الثوب فيما ينم عن طفولة خالصة ، فاهتزت في قباب قلبي الخفية روح الحيـاة ، وسرت تلك الهزة العنيفة بأوعية دمي ما دق منها وما جل ، وصاحت بي روح الحيـاة : ها هو إله أقوى منك سلطانا ، ها هو قادم ، وإنه لمخضعك .

ومنذ ذلك الحين مازج الحب نفسي التي أضحت أسيرة له ، وزاد من سلطانه ما منحه خيالي من قوة ، حتى لم أستطع إلا أن أذعن له في كل أمر ، ولكم أمرني أن ألتمس هذا الملك — ملك الشباب — ولكم عدوت في الطرقات وأنا بعدُ غض الإهاب خلف تلك الحسناء ، ولكم رأيتها قادمة وفيها من الجلال والنبل ما يحق معه أن نقول فيها ما قال هوميروس : « في الحق أنها لا تلوح بنت بشر ، بل بنت إله » .

ولكن من يدرينا « وحسن في عين كل من تود » أن بيتريس كانت على ما وصف دانت ؟ ولم لا ننصت إلى بوكاشيو عند ما يقول عنها : « كانت جميلة حتى تسبي النفوس — جميلة بطفولتها ، وبما امتزج فيها من جلال ودعة ، نحس في حديثها وفي طباعها من الوقار والتواضع ما لا يتفق عادة للأطفـال ، وفي ملامح وجهها رقة وانسجام . ولقد اجتمع لها من الجمال والسحر ما حمل الكثيرين على الاعتقاد بأنها ملك لا بشر » .

وبالرغم مما كان بين أسرة بيتريس وأسرة دانت اليجيري Alighieri من صداقة قديمة يزعم الشاعر أنه لم ير فتاته إلا بعد تسع سنوات أخرى ، حتى لكأن هذا الرقم ميزان حياتها . ولقد كان لكل حياة في ذلك العهد ميزان ، والرقم تسع أسه ثلاث رمز الثالوث المقدس مما ينبىء بما ستصير إليه تلك الفتاة — رآها هذه المرة في ثوب أبيض ، وهي مارة بإحدى الطرق ، وإلى مكانه اتجهت ببصرها وعلى شفتيهـا ابتسامة ، وتلقى الشاعر ابتسامتها بقلب خاشع ، وكأن الابتسامة فيض من رضا الله .

وعاد دانت إلى منزله حيث خلا بنفسه كما يخلو عادة مثله ممن حرمتهم الأقدار عطف أمهاتهم منذ الصغر . وهل استطاع أحد يوماً ما أن يجد في زوجة الأب ما يفقد بفقد أمه ؟ وطاردت دانت ابتسامة الفتـاة يراها في أحلام يقظته ، كما تمشى ببصره في ظلام الليل ، حتى نحل جسمه ، وشحب لونه ، وأخذ النـاس يسألونه ما به ، وللحب أمارات لا تكذب ، وسألوه : لمن يحمل هذا الحب الذي أضناه ؟ فلم يحر جوابا ، إلا أن تكون نظرة حائرة يصعدها فيهم ، ثم يولي هاربا ، وعلى شفتيه ابتسامة تترقرق .

وجرت الألسنة بما كان من أمر حبه ، وود الشاعر

لو خدع من حوله عن حقيقة ما يشعر ، فتراه طوراً « كالمعدم يتظاهر بالمرح كي يوارى عن الناس ما به من ألم » وطوراً يصطنع ما اصطنع الشعراء من قبله في مشارق الأرض ومغاربها من تقاليد الغزل ، فيتغنى بغير من يحب دفعاً للريبة ، ولم لا ؟ ألم تقل نعم يوماً لعمر بن أبي ربيعة :

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وكان على دانت أن يسلك هذا السبيل . والتاريخ يحدثنا أن بيتريس كانت متزوجة بالفعل من سيمون دى باردى Simon dei Bardi سنة ١٢٨٥ ، وكان دانت على الراجح قد خطب زوجته جما دوناتى Gema Donati ونحن عندئذ في القرون الوسطى ، وبالرغم من ذلك لم يستطع دانت أن يصرف قلبه عن تلك الفتاة .

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ولكن ترى لِمَ لم يتزوج دانت من بيتريس ؟ ذلك ما لا يعلمه إلا الله . ولكنا نعلم أن دانت لم يقف عند حبه لبيتريس ؛ ولقد كان هذا الحب منذ نشأته شبه تقديس ، وكانت له مغامرات غلى بها دمه ، فأطلقت لسانه بغير صيحة وبخاصة في غرامه المبرح بامرأة يسميها Pietra أى « الصخرة » . ومن عجب أن نستمع إليه يوماً يشكو من أن تلك المرأة « الصخرة » قد استقرت برأسه « كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها » ، ولكم ألم لهذا الحب العنيف حتى آثره أن يكون « موضع رحمة » . ومن يدرينا ؟ لعله لم يصب التوفيق في حبه لبيتريس ، فالتمس منه بديلا ، فكان كما يجرى المثل (كالمستجير من الرمضاء بالنار) ، وإلى هذا تشير بعض أشعاره . ألم يقل يوماً : « ما تزال صورة تلك الفتاة متربعة بقمة أفكارى حيث قادها الحب ، وما يحزنها ما أنا فيه من ألم ، وإنها لمغتبطة ضاحكة . ترفع إلىّ بصرها يدعو روحى إلى الرحيل قائلا : إليك عنى ! إليك عنى ! بهذا ينطق موضع رغباتى فيحز الألم في نفسى ، وإن تكن وطأته قد أخذت تخف ، إذ أن إحساسى قد أنهك وأوشك أن يصل إلى نهاية قدرته على الألم . عند ما لاحت لى تلك الفتاة كنت غض الطفولة — بهذا تحدثنى ذاكرتى التى أخذت تمحى صفحاتها . ومنذ ذلك اليوم ما أزال أقاسى آلام الشهداء ، حتى لكأن صوتها الذى انطلق إلى فؤادى قد أمسك قواى عن النمو » .

وعلى من يصدق هذا القول إن لم يكن على بياتريس ؟ ترى إذاً أشقى دانت بحبه ، لبياتريس حتى إذ ماتت سنة ١٢٩٠ طهر الموت حبه فاستحالت الفتاة ذلك الملاك الذى هدى الشاعر سبيل الكمال ؟

ذلك ما لا نستطيع أن نجزم به ، وإن كان فى شعر دانت ما يرجحه ، ولكنا نعلم عن يقين أن دانت قد تخبط فى شهوات الحب ، كما تخبط فى شهوات السياسة حتى شقيت حياته ؛ وإلى هذا يشير فى أول « جحيمه » عند ما يقول : « كنت فى منتصف الحياة وإذا بى وسط غابة مظلمة ، وقد ضللت الطريق . آه . ما أشقه على النفس أن تقول ماذا كانت تلك الغابة التى تجدد ذكرها آلامى ، وما أستطيع أن أقول كيف دلفت إليها ، ولقد كنت عندئذ فى نوم عميق فحدت عن سواء السبيل » .

ولقد أنبته بياتريس لضلاله هذا أعنف تأنيب عند ما لاحت له ، على حافة الأعراف قبل أن تقوده إلى الجنة

وفى الحق أن نفس دانت كانت نفساً عنيفة صاخبة ، وفى الحق أنه قد انغمس فى الحياة ، بل لقد بلغ من عنفه يوماً أن صاح فى شعره وهو يشكو قسوة امرأة : « آه ! ليتنى أستطيع أن أمسك بتلك الضفائر الشقر التى صاغها الحب حلقات ذهبية ألتوى بها حنقى . إذاً لعرفت كيف أنتقم لنفسى ولأمسكت بتلك السياط التى طالما ألهبتنى ، ولبقيت

بين يدي من انبثاق الفجر إلى أن تدق نواقيس المساء ؛ ولن أستشعر عندئذ رحمة ، بل سأكون كصب يلعب . وما دام الحب لا يمسك من أن يسوطني بها فإني لا أنتقم منها مرة وألف مرة ؟ وأما أعينها التي ترسل إلى قلبي هذه النار التي تحرقه ، فسوف أحدق فيها عندئذ من قرب وأطيل التحديق جزاء لها على الفرار مني ، ولن أزال بها حتى يجتمع فيها الحب والاستسلام » .

ولكنه رغم كل مقاصرته التي مزقت نفسه لم ينس يوماً « بيتريس » بل ظل وفياً لحبها ، وإن يكن أكبر الظن أن سنة ١٢٨٥ — سنة زواج بيتريس — كانت بدأ لمناصراته ، إذ أن ذلك مما يتمشى وطبائع البشر . ألست ترى أن ألماً قوياً أو حزناً ملازماً خليقان بأن يعطيا في النفس كل قيادة ؟ ونحن نعلم أن دانت لم يتزوج إلا بعد وفاة بيتريس .

ثم ظل دانت معلقاً بابتسامة فتاته يستلهمها الشعر وكأنها ما تزال عذراء ، ولم لا ؟ ألم يتغزل يوما قيس بن الرقيات بأم البنين ، رغم ما كان لتلك السيدة الجليلة من وقار ؟ ثم ألم يتغزل الماجن عمر بن أبي ربيعة بسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ولبابة بنت عبد الله بن عباس ، بل وبأخت الخليفة عبد الملك بن مروان وبينته ؟ وما دام التغزل عفيفاً فما الذي يمنع دانت من أن يتسقط الشعر من شفاه بيتريس ؟ وإن لم يكن الأمر على تلك البساطة ، فلقد يضطر شاعرنا — عملا بما يشبه وصية نعم إلى عمر — إلى أن يتغزل بغيرها تقية ، وتخشى الفتاة منه الروق من حبها فتنضب ، وتأبى أن تعود إلى محبته إن لقيته بسبيل أو « يقول في شعر جميل ، إن تغزله بغيرها لم يكن إلا صرفاً لألسنة السوء ورداً لأعين الرقباء » .

وتلك ولا ريب تقاليد أدبية كم أفسدت على الشعر غايته ، وما كان لنفس قوية كنفس دانت أن تقف عندها . وإنه ليذهب يوما إلى حفل يلتقي به بياتريس على غير توقع ، فيلتي قناع الأدب المصطنع :

« لم أكد أدخل حتى أحسست بهزة عنيفة بجانب صدري الأيسر ، وسرت الهزة إلى كل جسمي ، فاستندت إلى الجدار ، وخشيت أن يفطن أحد إلى ما عراني ، فرفعت بصري إلى السيدات المجتمعات ، وإذا بالبصر يستقر ببياتريس ، فتخاذلت قواي حتى لكأني فقدت الحياة إلا من عيني »

ولم يتب من أحد ما أصابه ، وتغامز به الحضور ، فولى هارباً إلى منزله يغلق بابه ، ثم يسلم عينيه الدموع ، وانحلت أزمة نفسه عن سلسلة من القصائد الصغيرة (Sonnets) كم تغنى بمقطوعاتها شاعر البلاد :

« ما أكاد أراك أيتها اللؤلؤة الجميلة حتى تخمد في نفسي كل قدرة على الكفاح ، وما دنوت منك إلا صاح بي الحب : إلى الفرار ، إلى الفرار ، إن كنت تخشى الموت . ويتم وجهي من لون نفسي ، وقد تخاذلت قواي ، فالتمست لها سنداً . . . على أن سخريتك قد قتلت في نفسي ذلك الضعف الذي ينشر فوق عيني تلك السحابة الحزينة حزن الموت » .

ويلقى دانت سيدات المدينة وقد عرفن سر نفسه ، فيقلن له وعلى شفاههن ابتسامة ساخرة قولاً أشبه ما يكون بما قالته نساء العرب يوماً لجميل :

ويقلن إنك قد رضيت بباطل
منها فهل لك في اجتناب الباطل

فيجيب دانت إنه كان يريد أن يقف حياته على سعادتها ذاتت ، وإذاً فلينصرف إلى الإشادة بها ما رددت أنفاسه :

« الآن وقد اتجهت رغبة السماء إلى فتاتي ، يودي أن أحدثكن عن بعض ما لها من فضل . على كل سيدة تريد أن يكسوها الجلال أن تذهب معها ، ما تكاد تخطو حتى يجمد

الحب القلوب الفاسدة فتموت فيها كل رغبة سيئة ، وما يرتفع إليها بصر حتى ينقى أو يرتد نبيلا ، وأما أولئك الذين هم من السمو بحيث يستطيعون أن يرفعوا إليها بصراً فأولئك هم الذين ينفذون إلى ما فى نفسها من جمال ؛ وما إن تبتسم لهم حتى ينتشر الرضا فى نفوسهم ، ويعمر الخير قلوبهم ، فينسوا ألم ما أصابهم من جراح ، وإن لتلك الفتاة لنعمة خصها بها الله ، نعمة تمنع من يتجه إليه حديثها عن أن يضل سواء السبيل » .

وهكذا استحالت بياتريس فى نفس دانت رمزاً للكمال وسبيلا إليه ، حتى لكأنها فكرة أكثر منها إنساناً حياً . ومن لا يحس أننا نرقى الآن سلم افلاطون ، ولم يعد فى الفتاة جسم يرغب ، بل جمال روح يستجلى ، وما تعلق بها بصر إلا ارتفعت به إلى عالم المثل حيث يختلط الجمال والخير والمعرفة ، وأى غرابة فى ذلك وقد بصر برينتو لاتينى Brunetto Latini — ذلك الأستاذ الجليل الذى لم ينس له دانتى فضله ، فتحدث عنه فى الكوميديا بقلب كله خشوع — تلميذه بأسرار فلسفة أفلاطون . ثم ألسنا الآن بأزاء تقاليد الفروسية كما عرفتها القرون الوسطى ، عند ما كان الفارس الحق هو من يتخذ له سيدة يحبها فى خفاء حباً أشبه ما يكون بالعبادة ، حباً يستلهمه البطولة كما يتلقى عنه وحى الشعر ؟ وسيان بعد ذلك أرغبت السيدة فى حبه أم لم ترغب ؛ بل سيان أكانت حقيقة أم من خلق الخيال ، بل أى سيدة تستطيع أن تسقط شهوات النفوس نظراتها لتحل محلها نور الايمان يهدى إلى الكمال ، إن لم تكن العذراء التى اختلطت مبادئها فى نفس دانت بحب بياتريس . وهكذا اجتمعت فى فتاتنا كل تيارات الروح التى شاعت فى القرون الوسطى ، فتركزت فى نفس دانت التى تمثل ذلك العهد فى أعمق مظاهره حتى لكأنها نقطة الانقلاب بين عالمين .

ومع ذلك يموت أبو بياتريس ، وها دانتى يحزن لحزنها ، ويود أن لو اتجه إليها بقلبه يشاطرها آلامها ؛ ولكن كيف السبيل ، ولم تدع ألسنة الناس إليها سبيلا ؟ ليس له إلا أن يستفسر عائداتها عما صارت إليه ، وقد أضنتها الأحزان ، وحزن دانت لحزنها حتى مرض ؛ وفيما هو يهذى يوماً رأى فيما يشبه أحلام اليقظة أن بياتريس قد لحقت بأبيها

« ولم تكد تلك السيدة تنتقل من عالمنا حتى لاحت لى المدينة وكأنها قد تيتمت بموتها ، وكأنى يومئذ أصيح بأمراء الأرض كما صاح جيرمى بالكتاب المقدس . كيف للمدينة أن تحيا بدونها » .

وماتت بالفعل بياتريس ، وهى فى ريعان الشباب سنة ١٢٩٠ فى الخامسة والعشرين من عمرها ، « ماتت لأن الجنة كانت بحاجة إليها لتضمها إلى ما تحوى من حور » ماتت ، ولكنها بقيت حية بقلب دانتى ، بل لربما ازدادت بموتها حياة ، وقد حطم الموت ما كان يقل من حماسته لها أو ينقص من أجنحة خياله ، وأخذ دانت يتعهد ذكراها ، ولكم جنبته تلك الذكرى من عثرات . ألم ير يوماً بأحد المنازل ساهم الفكر حزين النفس ، وإذا بامرأة جميلة تشبه بياتريس تنظر إليه من نافذتها ، وفى نظرتها حنو ضعفت له نفسه حتى أوشك أن يتردى فى حبها لو لا أن لاح له شبح بياتريس

« كان الوقت أصيلا . . . ولاحت لى بياتريس الخالدة فى ثوبها الأحمر الذى رأيتها فيه قديما طفلة عند ما وقع عليها بصرى لأول مرة ، وما كدت أتجه إليها بفكرى حتى عادت إلى ذكرياتها ، فهب الندم بنفسى إلجاماً ، وولت من تلك الرغبة الأثيمة التى أوشكت أن تضل بى عن سبيل الهدى ، ومنذ ذلك الحين لم تعرف أفكارى غير بياتريس لها مستقراً » .

على أن الأقدار لم تشأ أن تهدأ لدانتى نفس ، وكأنه

قد حاول أن يملأ ما تركته بياتريس فى حياته من فراغ ، فأخذ يتردد على صالونات فلورنسا يقاسمها فيها ما استطاع حتى عاف هذا العبث الباطل ، فانصرف إلى السياسة ابتداءً من سنة ١٢٩٥ ، وكانت إيطاليا فى ذلك الحين منقسمة إلى حزبين كبيرين حزب الجيلان Gibelins وهم جماعة الأشراف الحريصين على المحافظة على النظام الإقطاعى يعتقدون أن أسسه لن تثبت ما لم يؤيدها الأمبراطور بسلطانه ؛ ثم حزب الجلف Guelfes وهم رجال الطبقة الوسطى الذين يقاومون على حرية المدن وحرية الأفراد ، ويرون فى بسط نفوذ البابا ما يحقق آمالهم السياسية . وكان دانتى من أتباع هذا الحزب الأخير ؛ ولكن الأمر لم يكد يستتب للجلف بعد هزيمة أعدائهم حتى انقسم الحزب المنتصر شطرين : بيض ، وسود ، وأخذت شهوات النفوس تلعب دورها ودارت معها المكائد ، فانطوى السود تحت لواء البابا ، واتهموا البيض أعداءهم بموالاة الامبراطور ، وانتصر السود فى المعركة ، فشتتوا شمل البيض ، ومن بينهم دانت ، إذ حكموا عليه بالنفى سنتين فى ٢٧ يناير سنة ١٣٠٢ ، وبغرامة قدرها خمسة آلاف جنيه ، بل عادوا فى ١٠ مارس من نفس السنة فاستبدلوا حكمهم هذا بحكم أقسى ، يقضى بنفى دانت نفياً أبدياً ، بل بإعدامه حرقاً إن وقع بين أيديهم ؛ وكان دانت إذ ذاك لحسن الحظ بعيداً عن فلورنسا . فأفلت من الموت ، ولكنه لم يفلت من النفى الذى شقى به شقاءً يكاد يعدل الموت .

وأخذ دانت يجوب بقاع إيطاليا يحسن وفادته قوم ويتنكر له آخرون ، وقد أمل يوما أن يكوّن مع من نفى معه حزباً يتمكنون بقوته من العودة إلى مدينتهم العزيزة ؛ ولكنه نظر فإذا بشهوات النفوس تفسد ما يدبرون فانفصل عنهم ، وقد انعقد عزمه على أن يكوّن على حد قوله « حزباً من نفسه » ؛ وتقاذفته أحداث الحياة ، وكلما ازدادت به عبثاً ازداد استعصاما ، حتى تركزت قواه متبلورة حول شبح بياتريس يتخذ منه أنيساً لوحدته ؛ ولكنه أحس أنه أضعف من أن يستطيع التغنى بما وصلت إليه من مراتب الكمال ، فأمسك لسانه وأخذ فى الدرس يوسع به من آفاق نفسه ويشحذ من مشاعر قلبه

« لقد رأيت فيما يشبه أحلام اليقظة من خوارق الأمور ما حملنى على الإمساك عن التحدث بذكرى ذلك الملك المقدس ، حتى أصبح به جديراً ، فأخذت نفسى بالدرس ما استطعت ، وهى فى السماء شهيدة بصدق ما أقول . ولو أن رحمة الله مدت من حياتى لقلت فيها ما لم يقله فى مثلها أحد من العالمين ، وبعدئذ لتتحقق إرادة الله ، فأرتفع إلى جوار تلك السيدة ، إلى جوار القديسة بياتريس التى تنعم اليوم بمشاهدة وجه ربها الخالد أبد الآبدين » .

وتحدث بالفعل دانت عن بياتريس فى الكوميديا الالهية التى رآها فى أحلامه فأنبأنا بها ، وقد أخذ يعد لكتابتها عدته . ولقد كانت بياتريس من الرفق به بحيث أرسلت إليه فرجيل يستله من وسط تلك الغابة المظلمة ، غابة الضلال التى تعثرت بها خطاه ليقوده إلى رحلة طويلة خلال جهنم ، ثم خلال المطهر الذى لاحت على حافته بياتريس نفسها تقود الشاعر خلال الجنة التى لم يكن لنفس وثنية كنفس فرجيل أن تلج رحابها .

محمد مندور
مدرس بكلية الآداب

سلامة القس

للأستاذ علي أحمد باكثير

[كان عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار شاباً تقياً طاهراً متعبداً . وفي يوم من الأيام رأى في المنام أنه دخل الجنة ، وأوشك أن يخرج منها إجابة لإغراء امرأة ذات صوت جميل ، وقد قص عبد الرحمن هذا الحلم الذي أزعجه على صديقه أبي الوفاء ، فهدأ من روعه . وإنه لمنصرف إلى داره إذ سمع صوتاً جميلاً يغني شعراً هو صوت سلامة جارية ابن سهيل التي اشتراها من أبي الوفاء ، فتبين مصدر الصوت فإذا به دار ابن سهيل . وفيما هو يمر بالدار بعد ذلك بأيام سمع نفس الصوت ثانيا ، ولمحه ابن سهيل فنزل إليه ودعاه وأكرم وفادته ، وأمر جاريته بالغناء فغنت ، ثم دعاها أن تمثل على عبد الرحمن ، فما رآها عبد الرحمن حتى راعه جمالها ، وأحبها ، ونقل بعض الناس نبأ ذلك إلى أبي الوفاء فلامه ذلك . ولكن عبد الرحمن كشف له عن دخيلة نفسه . وقد عرف ابن سهيل أمر هذا الحب ، فحاول أن يهب سلامة لعبد الرحمن ، ولكنه رفض ذلك . وبينا ابن سهيل وعبد الرحمن وسلامة يتسامرون ذات يوم بدار الأول ، إذ أقبل رسول يطلب ابن سهيل للإقالة والمثول لدى القاضي ، فاستأذن من عبد الرحمن وسلامة ، ولما انصرف عنهما أخذا يتحدثان عن حاله وأنه وشيك الإفلاس ، وعرض عبد الرحمن على سلامة أن يبيع مالا له ليشتريها ثم يتزوجها ويشتغل بالتجارة ، وأنشد عبد الرحمن شعراً أعجب سلامة فأعطته العود وقامت لاجئة إلى داخل الدار] .

وقف عبد الرحمن يتأمل هذا التحول العظيم في حياته ، والفرق الشاسع بين ماضيه وحاضره ، فانتهى به هذا التأمل إلى ذلك اليوم الذي ذهب فيه ليعود أبا الوفاء ، فسمع في طريقه ذلك الصوت الجميل من دار ابن سهيل ففتن به ، فكان ذلك الغناء أصل ما جاء بعده من البلاء . ثم عاد عبد الرحمن فسأل نفسه : ما ذنبه فيما حدث ؟ أفي الحق أن يلام على أن ذهب لزيارة صديق له ، فسمع في طريقه صوتاً فتنه ، فاستوقفه على غير قصد منه ، فاجتباها صاحب الدار غرة نفذ منها إليه ، وملك بها مذهبه عليه ، واضطره بذلك إلى دخول منزله ، فكان ما كان ؟ أكان في وسعه أن يهرب من هذا القضاء الذي حم عليه ، لو أن ذلك كان في إمكانه لقد كان . ألم يعصم نفسه بالتقوى لما راودته سلامة عن نفسه ؟ ألم يعص فيها الهوى حين أشرف به على الهلاك الأكبر ؟ ألم يدس على الشهوة التي كانت تتأجج في صدره مخافة ربه ؟ بلى . إنه فعل ذلك لأن ذلك كان فيما يملك . أما افتتانه بجمال صوتها وغرامه بها ، فكانا فيما لا يملك ، فأولى ألا يؤاخذه الله به وأن يتجاوز له عنه .

ثم ما هذه المحنة التي بلي بها ؟ أشر أريد به ، أم أراد به ربه رشداً ؟ أحق أن ماضيه خير من حاضره ؟ أليس من الجائز أن يكون حاضره خيراً من ماضيه ؟ ليوازن بينهما في شيء شيء ليرى أيهما الراجح : كان في ماضيه خالي البال راضي النفس مستريح الفكر ؛ فما خلو البال ؟ أليس معنى من معاني الخواء والتعطل ؟ وما رضى النفس ؟ أليس مظهراً من مظاهر إخلادها إلى ما هي فيه من النقص ووقوفها عن الحركة المادية إلى الكمال ؟ وما راحة الفكر ؟ أليس قصوره وعجزه عن أداء ما خلق له من السبح في عجائب الخلق وآيات الخالق .

كان في ماضيه يخشى الله ويتقيه ، ويبكي في صلاته وقيامه ، فهل ذهبت عنه خشية الله وتقواه ؟ أليست خشيته اليوم وقد حفت به الشهوات ، وتبرجت له الدنيا ، أعظم من خشيته أمس حين لم يكن في متقلب عيشه ما يخشى الله فيه ؟ وهل رقأ دمعه إذا أجنه الليل وقام في سكونه يناجي الله ؟ أليس بكاؤه اليوم أغزر من بكائه أمس ؟ ألم يصر قلبه أرق وحنينه أصدق وشعوره أعمق

وكان زاهداً فى الدنيا معرضاً عن باطلها وغرورها؟ ولكن أين زهدٌ مِنْ زهد؟ أين زهد الخبير بالدنيا، المتمرّس بآفاتها، من زهد الجاهل بها، البعيد عنها؟ هو اليوم يغشى السوق، ويشتغل بالتجارة، ويتقى الله فى ذلك كله، فكيف يكون له فضل الأمانة والصدق فى المعاملة لو لم يقع فيما وقع فيه؟

أما مجالسته لأصحاب اللهو والغناء، فلم يتصل منهم إلا بابن سهيل؛ وابن سهيل رجل سرىّ طروب، ولكنه على طربه متعفف عامر القلب بالإيمان، قوّام بالصلاة، لا يكاد يتخلف يوما عن شهود الجماعة فى المسجد. وإذا ما هل شهر رمضان انقطع عن اللهو وتفرغ للعبادة والصدقة، حتى إذا كانت العشر الأواخر منه لزم المسجد واعتكف فيه بياض نهاره، وأحيا لياليها صلاة وقرآنا، وهو بَعْدُ عطوفٌ على فقراء مكة وذوى الحاجة من أهلها ينفق عليهم فى السرّ أكثر مما ينفق عليهم علانية.

والغناء الذى أغرم به عبد الرحمن ما هو وما أثره فيه؟ ألم يُفِدْ منه ترقيقاً لقلبه وتلطيفاً لحسه؟ ألم يقتبس منه تلك الروعة التى يقوم بها للصلاة، فإذا به يشعر كأنه روح قد تفتّقت من رقّ الجسد، وارتفعت عن الأرض، فهامت فى السماء، واتصلت بالملأ الأعلى؟ ألم يأخذ عنه تلك الروعة التى يقرأ بها القرآن، فإذا عوالم من المعانى تتكشف لقلبه، وإذا أبواب من المعرفة وألوان من الشعور، وأطياف من الفكر، وإذا الكون كتاب يتلى، وإذا النظام الذى تقوم عليه السماوات والأرضون لحنٌ أزلىّ خالد؟

واستمر عبدالرحمن على هذا النحو، يوازن بين حاضره وماضيه فيجد الرجحان لحاضره، أو يميل قلبه إلى ترجيحه فيصدّقه عقله؛ فأحس عند ذلك بطمأنينة تنزل فى قلبه، وشعر كأن شيئاً نفيساً أوشك أن يضيع منه فاسترده. وعاد له خيال سلاّمة باسمة متطلقة كما رآها لأول مرة، فحنّ إليها، واستيقظت أمانيه، وطفقت أحلامه تتراقص فى عينه؟

ولكنه تذكر ذنبها غداة اليوم، فاشمأز منها، وأشاح بوجهه من خيالها؛ إلا أنّ خاطراً فى قلبه انتدب للدفاع عنها دونه من حيث لا يشعر هو، فعرض عليه صورتها وهى تقول له: يا عبد الرحمن إنى أحبك، فيجيبها هو بمثل قولها، فتقول له: وأشتهى أن أضع فمى على فمك، فيقول لها هو مثل ما قالت، فتقول له: فما يمنعك؟ فوالله إنّ المكان لخال؟ فيذكّرها هو بشهود الله، فتكفّ وتبكى ندماً واستغفاراً. فماذا فى هذا؟ أفى الحق أن يكون ذنبها فيه أعظم من ذنبه؟ أليس هو الذى دفعها إلى هذا الموقف إذ ألهب شعورها بشعره، وأثار كامن وجدها برقيق غزله، وفتنها بما أودع فى أبياته من روحه؟ وقد كانت أحبّتْهُ فاعترفت له به، وقالت له، وقال لها، فلما ذكّرها الله تذكّرت وندمت على ما كان منها. أفيحق له أن يطالبها بأكثر من هذا الذى صنعته؟ إنها كغيرها ليست معصومة من الذنب، وقد أذنبت فاستغفرت، ومن يدرى؟ لعل الله غفر لها ذنبها فيما دعته إليه من الاثم، ولم يغفر له ذنبه فيما فتنها وحملها على ما صنعت. أفيغفر لنفسه إذاً ما لم يغفر الله من ذنبه، ويؤاخذها بما غفر الله من ذنبها؟ إن هذا إذاً لظلم عظيم!

وأفاق عبد الرحمن من خواطره هذه حين ذكر صلاة العصر، فنهض ونظر فى الظل، فعرف أن وقتها قد حان أو كاد، فقام فتوضأ وأخذ زينته، وخرج من بيته يقصد المسجد، وقد اعتزم فى نفسه أمراً، وصمم على أن يسعى فى بيع ضيعته بالوادى فيقدم ثمنها لابن سهيل ليبيع له سلاّمة ويستأنيه فيما يبقى عليه من الثمن ليقضيه له أقساطاً، يجمعها مما يعود عليه من عمله فى التجارة؛ وابن سهيل قد عرض عليه سلاّمة ليهبها له، فلن يعزّ عليه أن يجيبه إلى هذا الطلب ويقبل منه هذه التسوية على علاتها.

(يتبع) **علي أحمد باكثير**

على هامش الأسبوع

لصاحب الإمضاء

حزازة رمضان :

عاد رمضان على الرحب والسعة ، ولكن تجددت بعودته تلك الحزازة التي تتجدد بعودته كل عام . تلك الحزازة التي تتكرر في العام الواحد ثلاث مرات ، مرة عند بدء الصيام ، ومرة عند حلول عيد الفطر ، ثم ثالثة عند اقتراب عيد الأضحى : تلك حزازة القمر .

يقول الفلكيون تغرب الشمس اليوم في الساعة السادسة ، ثم يتلوها القمر فيغرب بعدها بست دقائق ، فغداً عند الفلكيين أول الشهر العربي . فهو رمضان ، أي غداً أول الصيام . أو فهو شوال ، أي غداً أول الإفطار وعيد المسلمين . أو فهو ذو الحجة ، أي بعد عشرة أيام يكون عيد الأضحى .

ويقول الدينيون لا صوم إلا عند رؤيته ، ورؤيته رأي العين . وقد تصيب الرؤية وقد لا تصيب . وهي أحياناً قد تتعذر بغشاء على السماء أو غشاء على الأرض . وفي الخطأ والتعذر يقرر الدينيون خلاف ما يقرره الفلكيون . والدينيون يدّعون الكلام باسم الدين . والفلكيون يدّعون الكلام باسم العلم . وإذاً يقع التضارب بين الدين ، ولو ظاهراً ، وبين العلم . وما وقع في القرن العشرين تضارب بين دين وعلم إلا خسر الدين خسارة كبرى . ومن أوكد العجب أن يقع اشتجار كهذا بين العلم وبين تفكير إسلامي ، وهو الدين الذي لا تفتأ صفحات قرآنه تحرض التفكير الحر والتبصر الطليق في ملكوت السماوات والأرض .

كثيرة تحت كل معروفات العلم حقائق ثوابت . وفي العلم أمور كثيرة تجلس على درجات متفاوتة بين الظن واليقين . وحقائق الفلك المحسوبة تجلس على القمة من هذه الدرجات . وليس الرجل في حاجة إلى علم الفلك للإيمان بهذا ، فكفى الرجلَ العادي سبباً إلى الإيمان تلك النبوءاتُ العديدة التي يأتي بها علم الفلك فلا تكذّب الحوادث واحدة منها . وفي مسألة الغروب والشروق بخاصة يتنبأ الفلك بميعادها قبل حدوثها بسنوات عديدة ، فتجيء الشمس والقمر وسائر الكواكب مصدقةً كأنما كانت هي والفلكيّ على ميعاد .

على أني لا أدري كيف يأذن رجال الدين والمتزعموه في أمر الصلاة بمعايير يأبون استخدامها في أمر الصيام . إن الصلوات تُؤدّى بمواعيد « النتائج » . والأذانُ يؤذّن بمواعيد « النتائج » . و« النتائج » من حساب الفلكيين . و« النتائج » فيها حساب الشمس كما فيها حساب القمر . فكيف يؤمن قوم ببعض كتاب ، ثم يكفرون ببعضه . كيف يؤمنون بالفلكيين إذا هم حسبوا للشمس ، ثم يكفرون بهم إذا هم حسبوا للقمر ، في حين أن الأرقام والأرصاد التي تحكي من هذه هي التي تحكي من هذا ، والرجال هم الرجال ؟

ودعنا من هذا المنطق المقلوب ، وانظر للأمر من وجهة الدعاية . فأي دعاية للدين هذه وأي جناية على الدين أشهد الله أنه لم يكن هو من جُناتها .

الأمم تنفق الملايين في تعزيز كرامتها وترويج سمعتها . ومن كرامة الأمة كرامة دينها . ومن سمعة الأمة سمعة دينها . ونحن لا نروّج هذه السمعة ، بل نحن لا نحققها ، وإنما نصمها بوصمة من الرجعيّة ، ثم نحتفل بهذه الوصمة في موكب جلّل تحوطه الجند وتحفّه المهابة ، ثم نسوق هذا الموكب إلى أكبر محكمة دينية لتقضي في قضية قضى فيها العلماء « الكافرون » منذ قرون

تقسيط الأفراك :

أزمة الحاجات الحاضرة ، إن لبست عليها الحوادث

مرة ، ثبت عليها الحكومة والشعب مرات . وإذا قلنا الحكومة لم نقصد حكومة اليوم تخصيصاً ، وإنما الحكومة المتصلة منذ قامت الحرب وإن تضمنت حكومات ، بل والحكومات التي قبل الحرب ، منذ أن أنذر النذير بقرب وقوع الحرب ، وهو نذير سبق الحرب الحاضرة بأربع سنوات أو خمس . وإذا قلنا الشعب فإنا نقصد بالتخصيص ممثليه الحاضرين والغابرين منذ أن جاءت النذر باحتمال وقوع الحرب كذلك .

كان في مُكنة البلاد توفير الحاجات من محصولات وغير محصولات . كان في مكنة أي رجل مسئول ضعيف الخيال أن يدرك أن الحرب قائمة لا محالة . فلما قامت كانت في مكنة رجل أضعف خيالا أن يدرك أن إيطاليا ستدخل الحرب لا محالة ، وأنها ستميل حيث مالت ، وأن البحار التي بقيت مفتوحة وإيطاليا دولة « غير محاربة » ، إنما كانت مفتوحة إلى أجل ، ومع هذا لم نفعل شيئاً ، فضيعنا فرصاً ثمينة نقاسي اليوم تضييعها . الحرب كانت قائمة لا محالة ، والبحار كانت ستسد لا محالة ، فواجب السياسي البصير الحري ، كان يقضي باستيراد كل ما يمكن من حاجات البلاد قبل وقوع الحرب ، وإذ وقعت فقبل اشتدادها . ومن أول هذه الحاجات السماد . فقلة السماد في العام المنصرم ، بل قصر الأبصار لدى الساسة ، ضيّع غلة البلاد ضياعا كبيراً . وكالسماد الملبوسات والمركوبات والأدوية وسائر الحاجات . فإن قيل لم يكن لدى الأمة مال عند ذلك ، فقد كان فيما لديها من الاحتياطي مفزع تفزع إليه . فإن منعت السياسة وضغوط التيارات من هذا ، فالذي حلّل القرض اليوم كان في استطاعته تحليله بالأمس .

كذلك كان في طوق الرجال أن يدركوا أن سوق القطن لا شك كاسدة ، فيقيدوا أنفسهم مختارين بقيد يصنعونه من حديد أسوان الذي لم يكن ، بدل قيد من حديد صنعوه في شيفيلد . وأسوان ، ليت الذي كان من أمرها ما كان ، إذاً لكان منها اليوم السماد والحديد . بل ليت الذي زعموه من سرقة في أمرها وقع ، فانتفع السارق بألوف وانتفعت الأمة بالملايين .

على أنه لا نفع في تلاوم على ماض ، فلنتوجه إلى المستقبل ، ولنقدر أمورنا فيه انتظاراً لأيام أشد ضيقاً . فأمريكا صائرة إلى الحرب لا محالة ، وبدخولها سينقطع كثير من القليل الباقي الذي يرد إلينا منها . فهل ننتهز الفترة التي تتدحرج فيها أمريكا إلى الحرب فنضع أمورنا حيث يجب أن تكون ؟

إن أول ما يحتاجه الناس الطعام ثم اللباس ، ومهما قيل من أن مصر بلد الخيرات والبركات ، فقد دلت الحوادث على أنها قد تكون بلد الجوع والعرى ، على الأقل جوع الفقير وعريه ، حتى والذي فوق الفقير . والبلاد سائرة إلى تقييد كل شيء وتقسيطه ، فبهذا وحده يمتنع الاختزان ، وبهذا وحده تفسد حيل التجار في الحرب بالبضائع والأقوات ، وبهذا وحده يُحمَى قليل المال من كثيره ، ويتحقق شيء من عدل المجتمع لأفراد المجتمع وطبقات المجتمع .

والتقسيط العادل لا يمكن إقحامه إقحاما إلا على مجتمع منظم ، فيه كل مستهلك مسجَّل ، وكل منتج مسجل ، وكل وسيط أو تاجر مسجل ، وفيه إدارات وآلات لحصر الأقوات والملبوسات وسائر الحاجات . فهل أعددنا كل هذا ، أم نحن في انتظار الواقعة ، حتى إذا وقعت اختلط الحابل بالنابل ، كما حدث في تقسيط البترول ؟ إن الحكومة البصيرة هي التي تعمل لغدها ، ولو للغد البعيد ، وفي تجنيد المدنيين امتحان ترحب به الأمة ، ولو لم يكن منه إلا تعويدها النظام ، والنظام الصارم الذي يأتلف والزمان الصارم .

بين مساء السبت وصباح الأحد :

بذكرى حديث التقسيط وما لا بد أن يسبقه من

تنظيم ، بذلك الحادث العظيم الهيّن الذي امتُحن به الانجليز منذ أربعة أشهر .

ففي يوم السبت ، في الحادي والثلاثين من يوليو الماضي ، امتلأت الدكاكين والمخازن الكبرى بجمهور الناس في لندن وغير لندن من المدن الكبيرة والصغيرة ، واشترى الناس ما رأوا شراءه ، ورفضوا ما رأوا رفضه .

وجاءت الساعة الواحدة ، من يوم السبت ، فغلّقت المخازن أبوابها ، وخرج الجمهور راضياً عما أصابه وراضياً عما تشكك فيه تخلّفه ، لعلمه أن ما لا يصاب اليوم قد يصاب غداً . ولم يخطر في خاطر أحد أن ما لا يصاب اليوم قد لا يصاب أبداً . حتى التجار لم يوجسوا خيفة ، لأن الذين بيّتوا الأمر بيتوه وأحكموا تبييته فكان سراً خبيئاً لم يطلع عليه إلا عدد قلائل هم الذين نظّموه ، حتى لقد وصفوه ، لما أحاطوه به من حيطة ، بأنه سرّ من أسرار الدولة التاريخية الكبرى .

وفي صباح اليوم التالي ، في صبيحة الأحد أول يونيه ، والمخازن مغلقة ، صدر إعلان من وزارة التجارة هذا عنوانه « تقسيط الملابس والأقمشة وما تلبس الأرجل ابتداءً من أول يونيه عام ١٩٤١ » .

وتلا العنوان أحكام كثيرة طويلة صدّروها بالذي يلي :

« في البلاد كفاية من كل شيء إذا نحن تقاسمناه ، وتقاسمناه سوياً . إن التقسيط rationing سبيل القسمة العادلة . والقسمة العادلة ضرورة لازمة إذا ما تحوّل العمّال إلى إنتاج القنابل والمدافع والطيارات بدَل الفساتين والبذل والأحذية . والقسمة العادلة ضرورة لازمة إذا ما ركبتْ سفننا البحار ، فركبت وركوبها الأخطار وفضّلت أن تجلب لنا الذخيرة والطعام على أن تجلب لنا القطن والصوف . والقسمة العادلة ضرورة لازمة إذا ما أدّى تحرّك السكان والهجرة إلى زيادة المطلوب في جهة صار بها ازدحام وكثرة ، وإلى نقصه في جهة صار بها تخلخل وقلّة . ولتمنع الأمة أن تقسيط الحاجات شيء ، ونقص الحاجات شيء غيره . إن التقسيط أي القسمة العادلة هو الطريقة المثلى لمنع الحاجات أنْ تنقص دون أن تتدخل في إنتاجنا الحربيّ الكامل » .

وفي هذا الإعلان خصّوا كل إنسان بست وستين تذكرة ينفق منها طول العام . والتذكرة الواحدة تأذن الرجل بشراء ياقة أو منديلين . والتذكرتان تأذنان له بشراء كوفية أو قفاز . والثلاث تأذن بزوج من الشرابات ، والأربع بزوج من الشباشب أو قميص أو سروال أو صديري . وهلم جراً . والبدلة الكاملة ٢٥ تذكرة ، ١٢ للجاكتة و ٥ للصديري و ٨ للبنطلون (ومعذرة أهل اللغة ! وهل كان لنا غير هذه التعابير من سبيل ؟) . ومثل هذا قُدّرت ملابس النساء والأطفال . وللرجل مطلق الحرية أن يشترى بدلتين ، ولكن هذه تستغرق ٥٠ تذكرة من الست والستين التي لعامه . وللمرأة أن تشترى ستة فساتين في العام ، ولكن هذه تستغرق كل تذاكرها ، فالفستان بإحدى عشرة تذكرة .

ولا تقيد وحدةُ التذاكر وحدة في الأثمان . فالتسع التذاكر تشترى الحذاء الذي ثمنه ربع جنيه أو الذي ثمنه جنيهان . فالفقير يأخذ حاجته والغني يأخذ حاجته بقدر واحد ، ولكن من الصنف الذي اعتاده .

وعلى صرامة هذا التقسيط ، وعلى شدة مباغتته الشعب ، فقد سار العمل به من يوم تطبيقه في سهولة سير الآلة الضخمة تمدّدت تروسها وكثر زيتها .

واقترن نشر هذا الاعلان في الجرائد في صباح الأحد باعلان آخر : إنه في الساعة التاسعة من نفس الصباح سيتحدث وزير التجارة المستر أوليفار ليتلتون إلى الشعب في أمر هذا التقسيط . والمستر ليتلتون هو الوزير البريطاني الذي يقيم بين ظهرانينا اليوم وكيلا للوزارة البريطانية في الشرق الأوسط ، وهو صاحب هذا النظام وكاتم سره ومنشيه .

أب حائر:

جاءني الخطاب الآتي ، وجاءني من مثله آخر . قال صاحبه الفاضل بعد ديباجة كريمة .

« . . . فترى ياسيدي من هذا أني حائر بين استكمال تعليم ولدي بعد شهادة الثقافة ، وهو يستنزف كل ما عندي من المال ، وبين أن أقف به عند هذا الحد وأنفق مالي الباقي على تعليم بنتي الصغيرتين . إني أقول لنفسي أحياناً إن الخير في استكمال تربية ابني لأنه أكبر أولادي ، فاذا ضمنت له كسب الرزق قام من بعدي بحمل عبء البنات ، ولكنه سيكون عبئاً ثقيلا لأنهما تكونان غير متعلمتين فغير قادرتين على الكسب ، والزواج أمره موكول إلى الله . ولكن أي شيء أعلمه إياه يكون فيه ضمان الرزق ، وأنا لا أستطيع النفقة مدة طويلة ، والذين يستطيعون النفقة مدة طويلة لا يجدون الأرزاق . فهل تتكرم يا سيدي باختيار مدرسة تؤدي به إلى احتمال الكسب بعد نحو ٣ سنوات على الأكثر . أم ترى أن الأفضل أن أصرف همي إلى البنات وتعليمهن تعليما يتكسبن منه . وإذاً فأين أرسلهن ، فالمدارس كثيرة ، ولكن لا علم لي بقيمها ، ولا واسطة لي أستعين بها في طلب النصيحة من هذه المدارس ، وهم مشغولون في هذه الأيام بالدخول . . »

وقد قصدت من عرض هذا الكتاب على القراء أن أعرض صورة من حال أب هي صورة من حالات آباء كثيرين .

هذا أب حائر يريد أن يستهدي السبيل لتعلم أبنائه ولا يجد هادياً ، يريد استنصاحاً ولا يجد ناصحاً . وقد نجد في دروب الحياة الكثيرة مكاتب استعلامات في أمور دون تربية الأبناء خطراً . أفما كان يجدر بوزارة المعارف أن تنشيء مكتب استعلام يذهب إليه هؤلاء الحائرون لاستجلاء ما انبهم عليهم من أمور أبنائهم .

ويكون على رأس هذا المكتب رجل ناضج تقلب في مناصب التعليم تقلباً كثيراً ، وخبرها خبرة طويلة ، وانتفع من خبرته فيها . ويكون فوق هذا رجلا ذا أسرة ، عرف معنى البيت ومعنى النفقة فيه ، وعرف معنى الابن والابنة وشرب في سبيل أبنائه وبناته كؤوس الحياة الحلوة وكؤوسها المرة . يكون رجلا قد اهتز قلبه فرحاً مرة أو مراراً لخبر سيق إليه بنجاح ولد أو بنت أو أولاد وبنات . ويكون رجلا وقف قلبه أو كاد لخبر سيق إليه بخيبة بنت أو ولد أو بنات وأولاد . رجل كهذا على رأس مكتب استعلام كالذي نصف ، تقام له ولو خيمة في حديقة وزارة المعارف في موسم دخول المدارس وانفضاضها يستوجب من الجمهور البائس الفقير شكر البائس الفقير ، وهو لعمري شكر وفير كثير .

(ز)

مأمورية كوم امبو القضائية

إعلان بيع عقار أول بعد التقرير بالزيادة

في قضية البيع الجبري رقم ٣٩٠ سنة ١٩٤١ كوم امبو إنه في يوم الثلاثاء ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ افرنكي صباحا وما بعدها بأودة المزايدات بسراي مأمورية كوم امبو القضائية الأهلية .

سيباع علناً العقار الآتي بيانه بعد المبلغ إلى عمر محمود حسن قرط واحمد محمود حسن قرط من الحرزة التجارية تبع بنبان قبلي مركز ومديرية أسوان وفاء لسداد مبلغ ٧٦٨ قرش صاغ ونصف قيمة الدين المحكوم به والمصاريف وما يستجد منها والفوائد وبثمن أساسي قدره ١١٠٠ قرش صاغ وبيان العقار كالآتي . عبارة عن أطيان زراعية كائنة بزمام ناحية بنبان قبلي مركز ومديرية أسوان :

١٢ ط بحوض البركة نمرة ١٦ ص ١ مكرر الحد القبلي احمد محمود حسن قرط بباقي الجزء بطول ٣/٤ ٧٨ قصبة والحد الشرقي باقي الجبل ضمن القطعة نمرة ١ مكرر بطول ٣/٤ ٣ قصبة والحد البحري باقي الجبل ملك الورثة بطول ٣/٤ ٧٨ قصبة والحد الغربي فاصل عبد حسن عالم نمرة ٩٨ قسم ثان بطول ٣/٤ ٣ قصبة .

١٢ ط فقط اثنى عشر قيراط أطيان لا غير .

وهذا البيع بناء على طلب الشيخ ابراهيم احمد محمود حسن قرط المزارع من بنبان قبلي المقرر بالزيادة بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٩٤١ .

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من محكمة مأمورية كوم امبو القضائية الأهلية بتاريخ ٢١ / ١ / ١٩٤١ ومسجل بدفتر الرهون وحقوق الامتياز بمحكمة قنا الابتدائية الأهلية تحت رقم ١٤٤ بتاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٤١ بالصحائف نمرة ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ وقد كان تحدد للبيع يوم ١٣ مايو سنة ١٩٤١ ورسى المزاد على طالب البيع عبد الرازق محمد عمر التاجر بأسوان في ٢٠ / ٥ / ١٩٤١ فلما تقرر بالزيادة تحدد للبيع أخيراً اليوم المحدد عاليه وحكم نزع الملكية وكافة الأوراق المتعلقة بالبيع موضوعة بقلم كتاب المأمورية تحت طلب من يريد الاطلاع عليها .

فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان الموضحين عاليه للمزايدة والشترى فأوناً

كاتب البيوع

من الأدب النسائي :

فى ظلال الذكريات

فى هذه الأيام التى تمر متثاقلة مظلمة كأنها ساعات الانتظار يشعر الانسان كأنه يجتاز صحراء قاحلة لا ظل فيها ولا ماء ... !

إن الجو مشبع رائحة (البارود) ، ولا حديث للصحف إلا الحرب وأخبار الحرب ؛ فلا يكاد الانسان يمسك بالصحيفة حتى تصدمه أرقام الضحايا وآثار التخريب . كأنما جن الانسان فراح يدمر كل ما أبدع ، ويحطم كل ما صنع ، وكأنما غلبت عليه صفة الوحوش ، فراح يفتك ويلغ فى الدماء ، دماء أخيه الانسان .. ! هنالك يشعر الانسان بانقباض قاتل وسأم مميت ...

أين تلك الباقات الفكرية الجميلة التى كانت تزين الصحف فى أيام السلم ، والتى كانت تعتبر أبدع غذاء روحى ؟ أين تلك الزهور التى كانت تقتطف من رياض المعانى يانعة ناضرة تعطر الجو الأدبى وتنعش الأرواح بذلك الشذى السحرى العجيب ؟ ؟

أين ذلك الأدب العاطفى الذى كان ينبعث من الوجدان فيفعل بالنفوس فعل السحر فى رقيق المشاعر وصقل العقول ؟

والأدب النسائى الرقيق أين ذهب فلم يعد له وجود ؟

لقد كان لنا فى الماضى القريب ثروة غنية من الأقلام النسائية البارعة ، ولكنها كلها قد اختفت من الميدان ، حتى من المجلات الأدبيـــة نفسها . فما هو السر فى ذلك الاختفاء ؟ !

لقد كان للكاتبة القديرة الآنسة (مى زيادة) — أتم الله عليها نعمته — نفحات فكرية هى السحر الحلال . وكانت السيدة الشاعرة الفاضلة (منيرة توفيق) أطال الله حياتها ، تتحفنا فى الوقت بعد الوقت بنفثاتها الشعرية الرائعة ، فتحرك فينا مكامن الوجدان ، وتبعث فى النفوس لذة ونشوة ، وتلعب بأوتار القلوب بنغماتها الشعرية الرقيقة التعبير ، وكان ذلك أيام محنتها يوم لسعتها الغيرة بجحيمها الذى لا يطاق .

والسيدة منيرة ثابت — أجمل الله عزاءها فى أعز حبيب فقدته فى هذه الأيام — كانت لها هى الأخرى نفحات وجولات . لقد اختفت من الميدان مرة واحدة . وكنا إلى وقت قريب نقرأ بعض القطع الأدبية الممتعة للكاتبة الفاضلة (الزهرة) ، والكاتبة الفاضلة (سهير القلماوى) ، ووداد سكاكينى ، وإيمى خير ، وجميلة العلايلى وغيرهن ، ولكن أصواتهن جميعاً قد تلاشت ، كأنما قد غابت — لا قدر الله — من الوجود .

أفترى الحياة عبست حتى ضنت على الناس بتلك النفحات الذهبية التى كانوا يجدون فيها بعض العزاء ؟

إنى أهيب بحاملات الأقلام أن يعدن مرة أخرى إلى الكتابة ، وإشباع شهوة الحس ، وتغذية الأرواح من جديد ...

إنها لجريمة كبرى فى حق النهضة الأدبية فى مصر إن هى خلت من المرأة التى تعتبر بحق مصدر العواطف ، ومنبع الشعور الدقيق الحساس .

لقد ظن الناس أن السر فى احتجاب الكاتبات عن ميدان الأدب أن الرجال هم الذين أغلقوا الباب فى وجوههن ؛ ولكن ذلك غير صحيح ، وإنما الحقيقة أن الكاتبة العصرية لا تقدر أن لها شعباً من المقول عليها أن تقدم له الغذاء وتمده بثمار قريحتها ، بعكس أختها الغربية ، فإنها لا تقل عن الرجال شغفاً بالانتاج الأدبى الرفيع ..

إنى أقطع على نفسى عهداً لا أتحلل منه ، هو أنى سأحاول على قدر طاقتى ، وبقدر ما يسمح لى وقتى الذى أقضيه فى معالجة المرضى فى دنيا الآلام ، أن أقدم من ثمار عقلى أسبوعياً لقراء (الثقافة) ، وأعتقد أن زميلاتى لن يتأخرن عنى فى هذا المضمار ...

مع مقدمة كتاب

يشرح الأستاذ محمد فريد أبو حديد في مقدمة قصته الرائعة « زنوبيا » التي أخرجتها مكتبة النهضة المصرية ، أسباب تأخر فن القصة في الأدب العربي ؛ فيقول إنه ليس راجعاً إلى قلة استعداد الأدباء لهذا اللون من الأدب ، وإنما هناك أسباب أخرى أهمها فيما يرى أن المجتمع الشرقي كان إلى عهد قريب « لا يعرف اسم المرأة إلا من وراء ستار » ، وثاني هذه الأسباب أن حياتنا العامة كانت « لا تزال خافية تحت ضباب السيطرة والاستبداد » .

ثم يشرح ذلك فيقول :

« فلم يكن الفنان ليستطيع أن يرسم صورة تضم في شخوصها امرأة ، وما كان الشعب ليقدر صورة يرى فيها المرأة ، لأنه بغير شك يدرك أنها صورة مزورة لا تمثل حقيقة . وكانت سيطرة الطبقات من جهة أخرى تحول بين الشعب وبين ملاقاة الحياة في معانيها العالية ؛ فما كانت الحياة لعامة الشعب إلا سعياً وراء القوت أو تداريا من وطأة الحكم » .

وفي هذين السببين اللذين يسوقهما الأستاذ فريد تكمن حقاً علة تأخر القصة في الأدب من الوصول إلى المكانة اللائقة بها بين ألوان الأدب .

ويلازم التوفيق الأستاذ فريد حين يهيب بالقصصيين أن يوجهوا أنظارهم صوب تراث الشرق ، حيث لا تزال كنوز رائعة مدخرة « تنتظر أن تخرج إلى النور » . ذلك أن قصته زنوبيا تحمل برهان هذه الدعوة ، فقد استلهمها من التاريخ ، وأفاض عليها من خياله وعطفه معاً ، فجاءت برهاناً على أننا — بعكس ما زعم البعض — من أغنى الأمم تراثاً يلهم القصصي ، ولا تحتاج إلا إلى جهد المفكر وخياله ، لكي نعيد صور التاريخ حية فياضة بالحركة والنشاط ، كأبهى ما تكون الصور جمالا وحيوية .

إن العالم الآن لفي أشد الحاجة إلى النفحات الأدبية الرقيقة ، فهي له كالنسمات في اليوم القائظ ، وكجرعة الماء في تيه الصحراء . . .

إن سجل الذكريات لحافل بأسماء كانت في مقدمة حملة الأقلام ، وإنها لأيام سعيدة تلك التي مضت ولم يعد لنا منها غير الذكريات . إني أرجو ، بل وألح في الرجاء ، أن يتفضل أستاذنا الجليل موجه الجيل الأستاذ أحمد أمين بك ، فيفتح باباً في (الثقافة) الحبيبة للأدب النسائي الرفيع ، حتى لا تحتج الكاتبات بأن الباب مغلق وأنهن مظلومات ! !

وأخيراً لتعتبر هذه الكلمة كتمهيد لكلمات سأقدمها إن شاء الله تعالى أسبوعياً (للثقافة) تحت عنوان « في ظلال الذكريات » ؛ ولن يحول بيني — إن شاء الله — وبين هذا الواجب الأدبي ما أنا فيه من عناية بالأجسام ، بل لا بد لي كذلك من العناية بالأرواح . . .

أما بعد ، فإني أعيد الرجاء مرة ثانية لمجلة « الثقافة » أن تتفضل بفتح هذا الباب وتخصص له ولو صفحتين من صفحاتها تتبارى فيهما أقلام الكاتبات على أن يكون الانتاج العقلي الذي يقدم لهاتين الصفحتين من النوع الذي يتفق ومكانة الثقافة في عالم الأدب ، وليس من النوع الرخيص !

ومن الآن حتى تتحقق هذه الرغبة ، أقدم للجميع خالص التحيات ؛ وإلى اللقاء في الأسبوع القادم إن شاء الله .

نعيمة محمد وصفي

(الثقافة) : والمجلة عند ظن الكاتبة الفاضلة ؛ فستفتح المجلة منذ العدد القادم صفحة نسائية ، تتبارى فيها أقلام الكاتبات الأديبات .

التجديد والتقليد

يا بني الشعر جددوا — عاجز من يقلد
ليس للفن غاية — فاعرفوا الحق واشهدوا
اتركوا النجم خلفكم — فهي أنأى وأبعد
غاية ما وراءها — لأولى العزم مقصد
إملأوا الأرض نضرة — وانظروا كيف تسعد
هي للحسن معرض — وهي للفن معهد
أشرقوا، ثم أشرقوا — كنزكم ليس ينفد
هو كنز مبارك — دائم النفع سرمد

* * *

صور طال عهدها — كل يوم تردد
ومعانٍ كأنها — في الأساطير تخلد
عذبت، فهي تشتكي — وأولو الأمر حشّد
أهي جانٍ مكبل — أم أسير مصفد؟
يخلق اليوم ردها — ثم يأتي بها الغد
ثم لا شيء غيرها — فهي هم مجدد

* * *

يا بني الشعر ويحكم — ذلك الهزل والدد
موطن العجز والونى — موطن ليس يحمد
إن ركدتم فعصركم — عاصف ليس يركد
إرحموا الفن، واذكروا — حقه حيث يوأد
هو روح مطهر — في السموات يولد
يتلقاه منشد — من بنيها، فتنشد
قلم عنده فم — ويد عندها يد
كلما حفه السنا — قال جبريل: غردوا
أخذ الله عهده — والنبيون سجد
قال: كن لي، ولا تخف — إن تحداك معتد
أنت مني رسالة — فضلها ليس يجحد
يوجد البر كله — والتقى حيث توجد
هذب الناس واهدهم — سبل الخير يهتدوا
وارصد الأمر واحترس — فالشياطين رصّد
حد عليهم سبيلهم — وارمهم إن تمردوا
قال: يا رب أنت لي — أنت نعم المسدد
بك أمضي إلى التي — هي أهدى وأرشد
ربنا الله وحده — هو أعلى وأمجد
ليس للخلق غيره — من إله فيعبد
رحم الله أمة — في الأباطيل تزهد
تجعل الفن سلّما — فيه ترقى وتصعد
أعظم الفخر عندها — عبقري مخلد

أحمد محرم

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٤٥ | الثلاثاء ١٦ من رمضان سنة ١٣٦٠ — ٧ من أكتوبر سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العــــــدد

الجستـــــــابو

أعماله ، وكيف تؤدى داخل ألمانيا وخارجها

[مترجمة عن النشرة ٣٦ من سلسلة نشرات أكسفورد من الشؤون العالمية . وكاتبها السير جيلز من رجال القانون الذين درسوا النازية ، وأحاطوا بمراميها ودقائق إجراآتها .]

حدد قانون سنة ١٩٣٦ الشهير عمل الجستابو كما يلى :

« واجب البوليس السرى للدولة هو اكتشاف كل ما تحشده الجماعات من قوى تهدد الدولة ، ومقاومة هذه القوى الخطرة ، وعليه أن يجمع نتائج مباحثه فى هذا الصدد ويقدر قيمتها وأهميتها ويبلغ الحكومة وجميع السلطات كل ما وصل إلى علمه من أدلة . أما الحالات الفردية فرئيس البوليس السرى يقرر بالاتفاق مع وزير الداخلية أيها تجب إحالته على البوليس السرى للدولة » .

ويصح أن نشير هنا إلى تعريف « البوليس السياسى » كما ورد فى أهم كتاب فى الموضوع وهو : « البوليس السياسى النازى هو الأداة الرئيسية لقوة الدولة ، وهو نظام ابتكره رجال التشكيلات الحزبية لضمان حماية الأمة والحزب والدولة ، وتقدمها جميعاً من الناحيتين السياسية والفلسفية . والطريق الذى يسلكه لذلك هو تحطيم كل مقاومة تظهر فى الميدان السياسى والفلسفى تقوم بها أية قوة أو هيئة معادية للدولة . فبوليسنا السياسى يمتد سلطانه إلى مدى بعيد ، لأن نفوذه قوى وسلطته لا حد لها » .

ولما كان من الأهمية بمكان عظيم أن يعتنق كل فرد من الأفراد مبدأ النازية وحده ، فالجستابو يراقب بعين يقظة الصحافة والهيئات الدينية على اختلاف طوائفها ،

والأعضاء السابقين الماسونية أو للأحزاب السياسية . وإذا كان لا بد من عدم السماح لأية معارضة للحكومة بالظهور ، فإن البوليس يراقب مراقبة دقيقة كل شخص تحدثه نفسه بأن يثير في الناس الامتعاض والسخط بانتقاداته وتذمراته ، مهما ضاقت الدائرة التي فيها ينثر بذور المعارضة .

ولما كانت الحركة التي شنتها ألمانيا قبل نشوب الحرب الحالية بزمن طويل ، ونشأت ثمارها بقوة من أجل مضاعفة الانتاج القومي حتى تكون ألمانيا كل حاجاتها بنفسها — لما كانت جهودها في هذه الحركة لا يصح بأية حال من الأحوال أن يعترض سيرها أي عائق ، فقد أخذ البوليس على نفسه أن يبحث عن الذين تحدثهم أنفسهم بانتهاز الفرص للحصول على أرباح فاحشة ، وعن الذين يخالفون القواعد والنظم التي وضعت لمراقبة الأغذية وغيرها من المواد الضرورية ، ولاحكام مراقبة توزيعها ، وكذلك عن الأشخاص الذين يرتكبون الجرائم التي تؤدي إلى تخريب المصانع ، وتعطيل الانتاج ، وشل الحركة الاقتصادية .

أما كيفية التصرف مع هؤلاء المذنبين فأمره متروك لتقدير رجال البوليس الذين لم يقيموا إلا حداً واهياً يفصل بين تعمد إحداث الفوضى الاقتصادية وبين الاهمال البسيط ، ولذلك كان رجال الجستابو إذا وقعت حادثة ما في أحد المصانع ، واعتقدوا بأن سببها لا يرجع إلى إهمال في تنفيذ قواعد الأمن العادية ، بل إلى تعمد إعاقة المجهود القومية ، فان مثل هذا الاعتقاد كان يحمل رجال البوليس على اتخاذ أشد الاجراءات ضد مرتكب الخطأ ، وتقويمهم راضية مطمئنة ، ولا يجرؤ أحد على أن يجابههم بضرورة إجراء تحقيق دقيق ، أو أن يصر على فحص الأدلة على هدوء نية المتهم ، أو أن يطالبهم بالأخذ بمبادئ العدالة التي تقضي بسماع دفاع المتهم عن نفسه .

وعلى الرغم من أن المحاكم العادية أن تقضي بعقوبة الذين يخالفون قواعد توزيع الأطعمة وغيرها ، فإن البوليس السري كان يحاكم المخالفين بنفسه إذا تراءى له ذلك . وكثيراً ما سمعنا وقرأنا في الصحف أن الجستابو قد أرسل إلى معسكرات الاعتقال بعض رجال الأعمال الذين ارتكبوا مثل تلك المخالفات ، وكذلك بعض مدرسي المدارس وأساتذة الجامعات الذين تفوهوا في أثناء دروسهم بعبارات لم ترق في نظر البوليس ، ولم يرق لصدورها منهم .

وعلاوة على ذلك فإن البوليس السري أن يقبض على الأشخاص ، لا لمظنة ارتكاب أي ذنب ، وإنما لاعتقاده بأنه قد تكون لديهم معلومات قيمة تعينه على أداء مهمته ، وهو يستعمل هذا الحق دائماً ، فاذا اشتبه مثلا في أن عمالا معينين في أحد المصانع يقومون بحركة من شأنها الاخلال بالنظام والخروج على قواعده ، فإن البوليس لا يتردد في القبض على زملائهم ، لعله يستطيع أن ينتزع منهم بالرضى أو بالاكراه معلومات عن زعماء تلك الحركة . بل إنه حدث مرة أن محاكمة أحد المتهمين لم تكن تسير كما يشتهي البوليس . فلم يتردد في أن يقبض على محامي المتهم ، على أمل أن ينتزع منه — بشيء من التهديد أو الارهاب — أدلة كافية ضد موكله تؤدي إلى الحكم عليه .

وإذا تذكرنا أن هذه الأمثلة إن هي إلا حوادث فردية صغيرة تافهة ، وأن التقارير عن نشاط البوليس السري وأعماله المهمة بحق قلما تتسرب إلى الصحف ، وأن ذلك النشاط تقوم به قوة يبلغ عدد أفرادها عدة مئات من الآلاف ، يعاونها جيش جرار من المخبرين المنتشرين في العمارات والمعامل والورش والمصانع والمدارس الخ — إذا تذكرنا ذلك كله اتضح لنا اتساع مدى نشاط هذه الهيئة ، والأثر العظيم الذي لا بد أن يكون لها في الحياة اليومية للأمة الألمانية ؟ فالبوليس هناك تهديد مستمر ، وسيف مسلول على الدوام فوق الرءوس ، لا يحس بشدة

وطأته على حقيقتها إلا الذين عاشوا فى ألمانيا النازية ؛ فالشعور الذى يتولد عند سكان تلك البلاد هو الفزع والخوف والذعر الشديد المستمر من الجاسوسية التى تعمها.

كيف يؤدى رجال الجستابو وظيفتهم ؟

وإذ كانت أعمال البوليس السرى لا تقبل النقض بواسطة المحاكم ، فان لهذا البوليس تمام الحرية فى اختيار أساليبه فى العمل ، وله سلطة واسعة فى الاجراآت ، مثل إصدار الأوامر إلى أقسام البوليس الأخرى ، وتفتيش المساكن ، ونفى الناس من بعض المناطق ، ومصادرة الرخص أو إلغائها الخ . والواقع أن للبوليس السرى أيضاً أن يحكم بالعقوبة الكبرى (عقوبة الاعدام) وإن كان حكام ألمانيا قد تحاشوا النص على هذه العقوبة فى النشرات والقوانين التى يصدرونها ، لكن حوادث الاعدام معروفة بالفعل ، لا داخل معسكرات الاعتقال وحدها ، بل خارجها أيضاً ، وهذا أمر طبيعى ما دامت أوامر هتلر ورجاله تمضى بلا منازع .

وللجستابو أنواع ثلاثة من الاجراآت ، وهى : التحذير والحجز الاحتياطى والزج فى معسكرات الاعتقال .

أما التحذيرات فتصدر بكثرة ، فيستدعى الشخص المراد تحذيره إلى أقرب مكتب من مكاتب البوليس السرى ، ويفهم أن بعض نواحى حياته قد تكشفت للبوليس ولم ترقه ، وأن تكرار ظهورها سيكون له أسوأ النتائج وأخطرها ؛ كما يحدث أحياناً عند محاكمة أحد المتهمين أن يستدعى محامى الدفاع عنه ، ويفهم أن بعض العبارات التى ذكرت فى المحكمة دفاعاً عن موكله سببت امتعاضاً ، وأن الاصرار على عدم مراعاة هذا التحذير قد يؤدى به إلى معسكر الاعتقال .

وأما الحجز الاحتياطى فقد كان فى الأصل معناه أنه على الرغم من أن الشخص المقبوض عليه لم يرتكب إثماً إلا أن سلوكه قد آثار عامة الشعب ضده بحيث لم يكن فى استطاعة البوليس حمايته إلا بحجزه فى البوليس . لكن هذه القاعدة لم تراع بعد إنشاء الحكومة النازية لأن هذه الوسيلة من القبض على المذنبين كانت وسيلة مريحة للبوليس تمكنه من مضايقة المعارضين للنظام النازى ، ولذا لقيت ارتياحا من رؤسائه وتأييداً ، وأسبغ على الحجز الاحتياطى معنى جديد ، وهو أن هذا القبض على الأشخاص لا يحدث على سبيل حمايتهم هم ، وإنما بقصد حماية الدولة من أضرار نشاطهم السياسى ، وقد تعلم رجال الحكومة أيام أن كانوا لا يزالون يجاهدون ضد الجمهورية الوطنية أساليب الفرار من الوقوع تحت طائلة العقاب والاستخفاف بالحكومة ، بل وأساليب مضايقتها ، ووضع رجالها فى أخطر المراكز . وقد استخدموا تجاربهم هذه فى الحيلولة دون استخدام أى إنسان لتلك الأساليب التى كانوا يرجون فيها هم أنفسهم فيما مضى ، والدافعى تلق فى أيامهم الآن من البوليس كل شدة وقمع .

أما الاجراء الثالث للبوليس السرى ، والذى يخشاه الألمان أشد خشية فهو معسكرات الاعتقال التى لا يعلم عددها على التحقيق ، وإن عرف أن أحدها مخصص للنساء . وليس هنا مجال وصف الفظائع التى تجرى فى تلك الأماكن التى يصح تسميتها عصائد الموت ، والتى تقع فيها حوادث من القسوة فوق ما يتصوره العقل ، وقد تضمن الكتاب الأبيض الانجليزى الذى أشرنا إليه فى المقال السابق كثيراً من تفاصيلها .

وأعظم هذه السجون الجستابية شهرة هو «داركلمبيا» فى برلين حيث يحجز الرجال والنساء فى غرف انفرادية ينتظرون المحاكمة بالطرق العادية أو بالطرق الخاصة ، تلك المحاكمة التى قد لا تحدث مطلقاً . وهناك أفراد يرسلون إلى هذه الدار ليوزعوا فيها على معسكرات الاعتقال الأخرى . والسعداء الذين يطلق سراحهم من هذه الدور عددهم قليل جداً .

وإرسال الشخص إلى معسكر الاعتقال يعتبر على الدوام تقريباً عقوبة سياسية تنزل بالفرد بغير محاكمة ،

وتنفذ عليه إلى أجل غير محدود . وبهذه الطريقة يعاقب الأفراد والجماعات عقوبات تأديبية أو على سبيل الاقتصاص، كما حدث لآلاف من اليهود عقب قتل الدكتور فوم رات، وإن كانت الشواهد الكثيرة تدل على أن تدبيرات تلك الاعتقالات قد اتخذت قبل ذلك بزمن طويل، وأن مسألة القتل هذه قد اتخذت نكتة أو بمثابة عذر ظاهرى فقط يستند عليه لتبرير تلك المظالم .

وعلاوة على ذلك فإن البوليس السرى يعتقل فى تلك المعسكرات الأشخاص الذين يخشى منهم الضرر إذا خلوا مطلق السراح، وهو يلجأ إلى هذا الاجراء عادة كمقدمة للحركات الكبيرة التى تزمع الحكومة القيام بها، والتى لها أهمية سياسية .

وليس هناك علاج لهاتين الصورتين من الحد من الحرية الشخصية إلا من طريق التظلم، وهو ما لا ترضى عنه الحكومة ولا تشجعه بتاتاً ؛ فقد حدث مثلا أن اعتقل الجستابو عقب مظاهرات تشيكوسلوفا كيا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٩ مقدار ١٢٠٠ شخص ، وعقب على إعلانه اعتقالهم بما يأتى : « لقد تسلمت السلطات فى الأيام الأخيرة عدة استفهامات وشكايات، وأنها تعلن أن مثل هذه الطلبات عديم الفائدة بتاتاً ولن تجد لها مجيباً » .

ويحدث أحياناً أن يقبض على الأشخاص ويزج بهم فى معسكرات الاعتقال عقب خروجهم من المحكمة بعد تبرئتها لهم مما وجه إليهم من تهم ، أو عقب خروجهم من السجون بعد قضاء المدة المحكوم عليهم بها إذا كانت هذه المدة فى نظر الجستابو أقل مما يجب ، وإن كانت الحوادث التى من النوع الأخير قليلة . وقد روى أن بعض المحامين عن المتهمين كان ينصح لهم بالاعتراف وإن كذبا حتى لا تبرئهم المحكمة فيقبض عليهم ثانية .

الجستابو والمحاكم :

يلاحظ أن السلطات القضائية العادية تقوم بواجباتها جنباً إلى جنب مع سلطة الجستابو ، حتى إنها تنظر فى بعض القضايا التى هى من صميم المخالفات النازية البحتة، كقلب العار الجنسى والاستماع إلى الاذاعات الأجنبية والتلكؤ فى تأدية الواجبات القومية ، حيث كان ينتظر الحكم على مرتكبيها بالزج فوراً فى معسكر الاعتقال . ومن المستحيل أن نستشف مبدأ متبعاً فى إحالة القضايا على هذه السلطة أو تلك .

كذلك يوجد فى ألمانيا مجالس تأديبية عدة يحاكم أمامها أعضاء بعض الهيئات أو الاقطاعيات ؛ ومن ثم لا بد من أن يجول بالخاطر التساؤل عما يحدو زعماء الرخ الثالث لأن يلجأوا إلى ذلك الترف من المحاكمات والإجراءات القضائية العادية وتحت تصرفهم إجراءات أسهل منها لمحاكمة المخالفين ؟ لهذا السؤال عدة إجابات : أولها حكم العادة القوى، وذلك لأن ألمانيا كانت قبل الحكم النازى تتمتع بادارة قضائية بارعة النظام ما كان يحدى النازيين شيئاً إلغاؤها أو تعطيلها ، ولذلك فضلوا بقاءها لتأدية وظيفتها مع تطعيمها بالتدريج بقضاة مشبعين بالروح النازية ، ووجدوا من الخير لهم أن تقوم المحاكم بالفصل فى القضايا الكثيرة العدد البعيدة عن السياسة ، وبالتالى عن دائرة نفوذ البوليس السرى واهتمامه ، وإن كانت عبارة « البعيدة عن السياسة » تحتاج إلى تعليق لأن المحيط السياسى عند تفوذه متغلغلا فى جميع مرافق ألمانيا النازية كما قدمنا ؛ ولكن الواقع أن زعماء النازيين قصدوا أن يتركوا لهذه المحاكم جميع القضايا العادية والسياسية التى يكون فيها الذنب أو المذنب تافهاً لا يستحق اهتمام الجستابو .

وهناك نوع آخر من القضايا الهامة الشهيرة التى تدخل بطبيعتها تحت كلا النوعين من المحاكمات آثر الجستابو أن يدع الفصل فيها المحاكم العادية لأغراض خاصة ، منها تهيئة الأذهان لسياسة تنتوى الحكومة انتهاجها أو حملة تزمع القيام بها ، فتكون المحاكمة وسيلة التأثير فى الرأى العام وكسب تعضيده للحكومة فى سياستها أو حملتها ؛ ومثال ذلك مقاومة الحكومة الألمانية للشيوعيين ، وحملتها

على الكنيسة ورجالها وإثارة شعور الجمهور ضد بريطانيا .

ثم إن هذه المحاكمات العلنية تعتبر في ذاتها مظاهرات يتجلى فيها للشعب سلطان الحكومة النازية وتوقع الرعب في نفوس مشاهديها من الألمان والأجانب على السواء . على أن بعض هذه المحاكمات قد دلت على أن الجستابو لا يحقق أغراضه على الدوام ولا يفوز بما يشتهيه من أحكام ، على الرغم مما يبذله من جهود في سبيل التأثير على المحكمة ، لكن هناك حدوداً لا يتعداها القضاة في بعض الأحيان ، وفي مثل هذه الحالات لا يتحرج الجستابو من التدخل مرة ثانية ، وإعادة القبض على الأشخاص بعد تبرئة المحكمة لهم .

وهناك حالات أخرى لا عداد لها فيها يقبض البوليس السرى على أناس لمجرد الشبهات ، وهو يعلم أنه إذا قدمهم إلى أشد القضاة تحمساً للنازية فلن يدينهم ، هذا إلى أن الخصوم السياسيين الحقيقيين للنازية على جانب عظيم من الصلابة وقوة الشخصية ، وكثيراً ما يكونون من التحمس لمبادئهم والتعصب لها بحيث لا ينفع وعيد ولا تهديد في حملهم على الاعتراف بخطيئاتهم ، ففي مثل هذه الحالات يفضل رجال البوليس السرى أن يبتعدوا عن المحاكم العادية ، وأن يتولوا بأنفسهم إصدار الأحكام على خصومهم هؤلاء .

ويقول الدكتور بست في هذا الصدد ، وهو من الرجال الذين وصلوا إلى أعلى المراكز ولهم كعب عال في تنظيمات البوليس السرى — يقول : إن قانون الجنايات العادى غير صالح لكبح جماح التعصب وإحباط المؤامرات السرية التي لا تفتأ أعداء النازية يدبرونها ؛ ذلك لأن القواعد القانونية تبصّر من يريدون ارتكاب مثل هذه الجرائم بالأساليب التي تمكنهم من تحاشى الوقوع تحت طائلة القانون ، كما تبصرهم بما يبيحه القانون من إجراآت ، وبما يمنحهم من حريات ، وهذه الحريات ينبغى ألا يمكن عدو الدولة من أن يظفر بها . فالجستابو

إذاً لا يحتمل أن تعترض سيره المباحثات القانونية . إنه يسبغ على نفسه صفة الجيش ، والجيش لا يطيق أن تعترضه قواعد قانونية فيما يتخذه من أساليب وما يضعه من خطط لكسب الموقعة .

وأخيراً هناك سبب وجيه آخر لاتجاه البوليس السرى إلى محاكمة بعض المخالفين من وراء الأبواب المقفلة والسجون الموصدة ، وفي غياهب المسكرات والمعتقلات ؛ ذلك أنه كما يقول شفيدر : إذا تصادم البوليس مع المعارضة ، ولا سيما ما يتصل منها بتنظيمات دولية ، فإن إجراآته في محاربتها تكون أحق بالثناء وأجدر بالتقدير ، كلما استطاع أن يخفيها من الجمهور ، حتى لا يحس بهذا العراك القوى ، وينصرف إلى أعماله هادئاً ، دون أن يشعر أن حكومته مهددة بمعارضة قوية . ومن ثم كان من الحكمة في نظرهم أن يظل عدد المذنبين أو المشتبه فيهم الذين تتسرب أسماؤهم إلى الجمهور محدوداً بقدر الامكان .

أعمال الجستابو خارج ألمانيا :

إن الدور الذى يلعبه الجستابو في تزكية سياسة دولته والدعوة لها وإذاعتها ، يزداد وضوحاً بنوع خاص في نشاطه خارج ألمانيا . ولعل الحصول على أدلة تبرز آثار مجهوده في هذه الناحية أصعب منه في أية ناحية أخرى من نواحى نشاط الجستابو المتشعبة . وتنزع بعض الصحف غير الألمانية إلى وصف كل نازى خارج ألمانيا يسعى جهده للدعاية لها بأنه من رجال الجستابو ، لكن معظم الدلائل تشير إلى أن خطة ألمانيا خارجها تقضى — كما هي خطتها داخلها — بالفصل التام بين أعمال البوليس السرى السياسى وبين أعمال الدعاية العادية لمصالح النازية ولإذاعة تعاليمها .

ثم إنه على الرغم من تعاون رجال الجستابو مع المخبرين البحريين والحربيين ، فما لا شك فيه أن أعمال البوليس السرى خارج الحدود الألمانية أوسع مدى وأعمق غوراً من أعمال أولئك المخبرين .

فى الخارج يكون البوليس السرى بمثابة الأداة للسياسة الألمانية الخارجية ، وبهذه الصفة يبدو أن عليه واجبين سياسيين : هما جمع المعلومات ، وإثارة الفتن ؛ ففيما يتعلق بالواجب الأول يجمع الجستابو كل ما يستطيع جمعه مما يختص بجميع النواحى التى قد تهم الحكومة الألمانية معرفتها من تقرير خططها السياسية فى ميدان الشئون الخارجية ؛ ومثال ذلك المسائل المتصلة بالسياسة المالية العليا ودوائر الأعمال الكبرى فى الدول الأخرى ، وصلة دوائر الأعمال بالسياسة ، والعلاقات بين الأجناس المختلفة فى كل مملكة ، سواء أكانت هذه العلاقات دولية أم اقتصادية ، وكذلك التعليم ؛ وبالجملة لا تكاد توجد ناحية من النواحى لا يهتم بها رجال البوليس السرى الألمانى فى الخارج ، كما أن عليهم أن يكونوا بمثابة الظل لدعاة الألمان المقيمين فى الخارج للتأكد من أن جواسيس النازى لا يُساومون .

وأخيراً يدخل فى نطاق واجبات البوليس السرى الألمانى إعداد قوائم سوداء بأسماء الرجال البارزين المناهضين للنازية من أبناء البلاد الخارجية ، لاتخاذ الاجراءآت ضدهم إذا سنحت الفرصة . ولا تقتصر إثارة الفتن على الدعاية السياسية العادية ، وإنما تشمل تنظيم مراكز المعارضة ضد الحكومات ، وهى المراكز المعروفة الآن بالطابور الخامس ، وتستغل الحصانة السياسية غالبا لإخفاء مجهودات الجستابو فى هذا الميدان ، ولمعاونته على أداء مهمته .

ولا يستطيع البوليس السرى الألمانى بطبيعة الحال أن يتخذ خارج ألمانيا إجراءآت تعسفية بصفة رسمية ، وإنما يلجأ إلى الرشوة والارهاب والوعود للتأثير فى أعمال المصالح الحكومية فى البلاد التى يعمل فيها ، وفى إحداث ضغط اقتصادى على بعض الشركات أو رجال الأعمال . وقد حدث أكثر من مرة أن استدرج هؤلاء الدعاة الألمانيون بعض الأشخاص إلى بلاد ألمانية ليستطيعوا محاسبتهم الحساب العسير المطلوب .

وقد أماطت الحوادث الأخيرة اللثام عن أعمال البوليس السرى الألمانى فى البلاد الخارجية ، فقد سمعنا كيف دخلت القوات الألمانية المسلحة إلى الدنمرك والنرويج وشقت طريقها بسهولة فى مدن المملكتين ، كما سمعنا عن قائد ألمانى أسر فى هولندا فى مبدأ الحرب ، ووجدت فى حيازته قائمة بأسماء الأشخاص الذين يتحتم إعدامهم بمجرد استيلائه على بعض المناطق ، وكل هذا من استعدادات البوليس السرى الألمانى . هذا إلى أنه بمجرد استيلاء القوى الألمانية المسلحة على بلد من البلاد ، فان الجستابو يتبع هذه القوى لينفذ فى هذا البلد أوامر الريخ وقوانينه .

ولكى يسبغ الريخ الثالث على أعماله وتصرفاته مسحة من القانونية والاحترام أصدر أخيرا قانوناً يقضى بتطبيق قانون العقوبات الألمانى على المذنبين من الألمان وغيرهم على السواء خارج ألمانيا ، ويدخل فى قائمة الذنوب المقصودة فى هذا القانون سلسلة طويلة تتدرج من الخيانة العظمى ضد الريخ إلى التفوه بعبارات التجريح أو التحريض ضد الشخصيات البارزة فى الحكومة الألمانية أو فى الحزب النازى . وبهذه الوسيلة يغتصب الريخ حق التشريع والقضاء من البلاد الأجنبية ، ويمد البوليس السرى وأعوانه بسلطة تنفيذية عليها مسحة قانونية ، ويزيد فى هيبة الريخ وسلطانه .

الخلاصة :

من كل ما سبق يتضح أن الجستابو ليس مجرد إدارة لتنظيم أعمال المخبرين السريين تسرى عليها قوانين البلاد ، وليست لها سلطة تنفيذية ، وإنما هو نظام محكم للبوليس السرى الألمانى ، يتمتع بحصانة تامة ومناعة مطلقة ، تحمى كل أعماله وتصرفاته من أية مؤاخذة أو نقد . كما يتمتع بقسط عظيم من الاشراف على المصالح الادارية ومراقبتها . حتى لتكاد علاقته بها تصير علاقة رياسة ، وهو مستقل عن كل رقابة تشريعية ، ويباشر سلطته الواسعة بما يكتسبه

التقليم والتطعيم (فى اللغة)

للأستاذ أحمد أمين بك

ما قلنـاه من إجراء العمليتين فى الأدب يصدق تمام الصدق على اللغة ، فاللغة العربية تحتاج إلى تقليم وتطعيم .

ذلك أن اللغـة عرض من أعراض الأمة تتقدم بتقدمها وتنحط بانحطاطها ؛ فلغة العرب فى الجاهلية كانت تكفى لحاجاتهم القليلة ومنازع نفوسهم المحدودة وشؤونهم الاجتماعية الأولية . فلما جاء الاسلام لم ير اللغة الجاهلية كافية له ، فنماها من ناحيتين : من ناحية استعمال الكلمات الجاهلية فى معان جديدة لم تكن تستعمل فيها من قبل ، ومن ناحية تعريب كلمات من لغات أخرى ، وهكذا كان الشأن فى العصر الأموى والعصر العباسى ؛ ولو أحصينا مفردات اللغة فى هذه العصـــور المختلفة لوجدناها قليلة نسبياً فى الجاهلية كثيرة فى صدر الاسلام كثيرة جداً فى العصر العباسى ؛ وليس الأمر فى ذلك مقصوراً على مفردات اللغة وعدد كلماتها ، بل نجد كلمات ماتت بموت مدلولها فى الجاهلية وكلمات ظلت حيـة فى العصور المختلفة لحاجة الأمة إليها .

كانت إذاً عملية التقليم والتطعيم مستمرة فى هذه العصور ، تحكم بالاعدام على الألفاظ التى لا تحتاج إليها أو التى تستثقلها ، وتقتبس من العبرية والسريانية والهيروغليفية والحبشـية والفارسية واليونانية واللاتينية وغيرها ألفاظاً جديدة حسبما تدعو إليه الحياة اليومية الواقعية .

متى تعد اللغة راقية وافية ؟

عندى أن مقياس ذلك شيئان أساسيان :

(١) أن تكون فى طبيعة اللغة مرونة من اشتقاق وارتجال ووضع ومجاز ونقل من لغـة أخرى وهكذا تمكّن أصحابها من أن يقلّبوا الكلمات ويصوغوها حسب تعدد المعانى وتغيراتها الدقيقة .

(٢) أن تسد حاجة المتكلمين بها وتوفر ما وصلت إليه أممها من علوم وفنون ، وتعبر عما يشعرون به ويفكرون فيه فى شمول ودقة وإحكام ، ولكن بشرط

من قوة عن طريق كثرة عدده ، وتغلغله فى كل مكان ، ووجود جيش لا عداد له من المخبرين تحت تصرفه .

ويجب أن نذكر فى آخر الأمر أن جميع أفراد هذه القوة أى رجال الجستابو قد أشبعوا روح الحزب النازى ، وكذلك صفوة رجاله الذين تتألف منهم تشكيلاته القوية (S. S.) ، ويعتبرون حراس الأمة والدولة الألمانية ، والأمناء على سلامتها ، وليسوا رجال بوليس عادى يعمل لتنفيذ القانون وتوطيد النظام ، وإنما هم باعتراف الجميع جنود شديدو التعصب لسياسة النازيين ، يدافعون بكل قوتهم عن النازية الحزبية ، ويذودون عن حياضها داخل حدود وطنهم وفى جميع أنحاء العالم .

أن تكون الأمة بلغت مبلغاً كبيراً في الحضارة ؛ أما إذا كانت الأمة أولية ولغتها مثلها أولية فلا يكون لعدها راقية أن تسد حاجتها .

ويخيل إلىّ أن الشرط الأول يجعلنا نعد اللغة راقية ، والشرط الثاني يجعلها وافية ، وهما معاً يجعلانها راقية وافية .

واللغة العربية — في ضوء هذا الذي ذكرنا — راقية بعروتها التامة ، غير وافية الآن ، لأنها لا تطابق بينها وبين حاجاتنا ، ولا تسد كل ما وصل إليه العلم والفن والفكر من إنتاج ؛ فالعلماء والفنانون لا يجدون فيها كفايتهم ، والصناع والعمال لا يعبرون بها عما في أيديهم ، والمفكرون يتعثرون في التعبير بها عن بعض أفكارهم .

وإذ كانت اللغة العربية بطبيعتها راقية كان العيب ليس عيباً ذاتياً فيها ، وإنما عيبها عيب القائمين عليها المصرفين لزمامها المالكين لقيادتها .

ولا بد — لعلاجها — من هاتين العمليتين : « التقليم والتطعيم » .

فأما التقليم فإن معاجمنا مملوءة بكلمات لا حاجة لنا بها ومترادفات كثيرة للشيء الواحد يكفينا بعضها ، والزمن قد فعل فعله للمقول فأهمل كلمات كثيرة لم يستعملها الكتاب ولا الشعراء ولا المؤلفون ولا المتحدثون فيما يفتنجون ، ولم يشعروا يوماً ما بحاجتهم إليها لغناء غيرها عنها ، أو لا نعدام مدلولها في حياتهم اليومية .

والسبب في هذه الكثرة البالغة المتجاوزة الحد في متن اللغة أن اللغة العربية كانت لغة قبائل متعددة ، لكل قبيلة ألفاظها وتراكيبها في حدودها المعقولة وحاجاتها المتداولة ؛ فجاء العلماء في آخر العصر الأموي وصدر العصر العباسي فجمعوا ما وصلوا إليه من كل هذه اللغات من غير تفريق ولا تمييز ، ومن غير أن يفردوا كل قبيلة بألفاظها ، فكان لنا من ذلك كله ثروة كبيرة لا حاجة لنا بها إلا في شرح ما ورد من هذه القبائل من أدب ؛ أما حياتنا اليومية وتفكيرنا وأدواتنا فليست تحتاج إلى شيء كثير من هذا الترادف .

ومما يؤسف له أن هؤلاء العلماء عنوا في عملهم بالجمع ، ولم يعنوا بجانب ذلك بالاختيار ، مع أن الاختيار عمل لا يقل شأناً عن عملية الجمع .

وأكثر من هذا داعياً للأسف أنهم قصروا جمعهم على اللغات الممعنة في جزيرة العرب البعيدة عن الحضارة كتميم وقيس وأسد وهذيل ، ولم يرضوا أن يأخذوا شيئاً من المتاخمين لأهل الحضر لفساد لغتهم في زعمهم ، مع أنهم لو أخذوا عنهم لأمدونا بألفاظ كثيرة نحن أحوج إليها في حضارتنا ؛ فقالوا لا نأخذ من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر ، ولا من قضاعة وغسان لمجاورتهم أهل الشام ، ولا من تغلب لمجاورتهم سكان الجزيرة ، ولا من اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ؛ وتفرغوا فقط لجمع لغة العرب الصرفة المنزهة عن الاختلاط ؛ وهي وجهة نظر قد تكون صحيحة لو أنهم لم يقتصروا عليها ، وجمعوا معها اللغات المتاخمة ، لأنها أغنى وأوفر وأقرب لسد حاجة المدنية والحضارة .

أرادوا — لقصر نظرهم — أن يقتصر الناس على استعمال الألفاظ العربية الصحيحة المستعملة في جزيرة العرب ، وفاتهم أن هذا مستحيل ، وأن الناس بعد مدنيتهم لا تكفيهم لغة بداوتهم ، كما لا يكفي ثوب الطفل لجسم الرجل .

ولذلك اضطر المؤلفون والأدباء والكتاب والمتحدثون ألا يخضعوا لحكمهم ، وأن يستعملوا الكلمات غير العربية سداً لحاجتهم ، وطبقاً لمقتضيات أحوالهم ؛ واضطر أصحاب المعاجم أن يدخلوا في معاجمهم الكلمات الأعجمية المعربة

والمصطلحات العلمية المستحدثة ، كما فعل صاحب القاموس المحيط ، فقد تضخم معجمه بهذا كله ، وكما فعل أكثر منه صاحب تاج العروس في شرح القاموس .

* * *

عملية التقليم هذه تتطلب أن نستبعد الألفاظ التي لسنا في حاجة إليها ، وأن نخلي مكانها لما نحتاج إليه ؛ فليس فخر اللغة أن يكون فيها ثمانون اسما للعسل ، وخمسون للأسد ، وأربعمائة للداهية الخ . بل يكفي من كل ذلك أربعة ألفاظ أو خمسة ، ثم نفسح المجال لأسماء المخترعات الحديثة والمصطلحات الجديدة . نعم يجب أن تكون هناك معاجم تحوى كل ما أثر عن العرب ، ولكنها تكون معاجم تاريخية يرجع إليها الخاصة ، أما المعاجم التعليمية التي تكون بأيدي جمهور الناس فيقتصر فيها على الكلمات الحية .

لقد قالوا إن كتاب الصحاح اشتمل على أربعين ألف مادة ، والقاموس على ستين ألفاً ، ولسان العرب على ثمانين ألفا ، فما أحوجنا إلى إماتة نصف هذا العدد على الأقل ، لنحيي مكانه ما نحن في حاجة إلى إحيائه .

ثم هذه المعاجم اللغوية محتاجة أيضا إلى تقليم من نوع آخر ، وهو كثرة ما ورد فيها من تخريف يفسد العقل ، ففيها — مثلا — أن : « القاف جبل محيط بالأرض أو من زمرد ، وما من بلد إلا وفيه عرق منه » ، وفيها : « أن الهرمين بناءان أزليان بمصر بناهما ادريس عليه السلام أو بناهما سنان بن المشلشل ، أو بناهما الأوائل لما علموا بالطوفان من جهة النجوم ، وفيهما كل طب وسحر وطلسم » وفيها « أن أبا عروة رجل كان يصيح بالأسد فيموت فيشق بطنه فيوجد قلبه قد زال عن موضعه » ، إلى كثير من أمثال هذا الهذيان .

كل هذا يجب أن يقلم ، ويقلم أيضا التفسير الذي كان جاريا على ما كان معروفا أيام المعاجم القديمة ثم تغير بتقدم العلوم ، فتفسير الكسوف والخسوف والظواهر الطبيعية والنبات والحيوان وما إلى ذلك كله يجب أن يكون حسبما وصل إليه العلم الحديث ، لا حسب ما كان معروفا في العهد القديم .

لسنا في حاجة إلى أن يكون للأسد خمسون اسما وللعسل ثمانون وللسيف أكثر من ذلك ، إنما نحن في أشد الحاجة إلى أن يكون لكل شيء تقع عليه حواسنا وكل معنى تصل إليه عقولنا اسم نصطلح عليه ونتبادل به التعبير عنه ، ولا يكون ذلك إلا بإغفال كثير مما ورد في المعاجم مما لا نحسه ولا نحتاج إليه ، ولا يمس شيئا من حياتنا الواقعية .

فإذا أعدمنا هذا الذي لا نحتاج إليه فتلك عملية التقليم ، ثم تأتي بعد ذلك عملية التطعيم بأن نملأ المكان الذي فرغ من إزالة الألفاظ الميتة باستعمال كلمات للدلالة على كل شيء نحسه أو نشعر به أو نفكر فيه ، إما بالتعريب أو الوضع أو توسيع معاني الكلمات القديمة .

وهذا ما فعلته الأمم الحية كلها ، وفعله العرب أنفسهم والمستعربون الأولون . لقد كانوا يأكلون الثريد والضيرة ثم صاروا يأكلون الفالوذج والسكباج والكباب ، فلما أكلوها عربوا أسماءها وأدخلوها في لغتهم ؛ وكانوا يسمعون الصَّنْج والمزمار ، فصاروا يسمعون الناي والقانون والبربط ، فلما سمعوها عربوها ؛ وكانوا يسكنون في الخيام ، فصاروا يسكنون الدور مزينة بالفسيفساء والقاشاني ، فلما استعملوها عربوها ؛ وما كانوا يعرفون علماً ، ثم عرفوه ، فواجهوا مصطلحات العلوم من جبر وهندسة ومنطق وطب وفلسفة ، فرنوا لها وتغلبوا على صعوبتها ، وجعلوا لكل شيء لفظاً منقولاً أو مرتجلاً أو مشتقاً ، فكانت لغتهم تطابق معيشتهم .

أفليس غريباً بعد ذلك أن نجمد على ما وصلوا إليه

مع أن المدنية والحضارة والعلم والصناعة ووسائل المعيشة لم تقف حيث وقفوا، ونمت أضعاف ما كانت؟

أخطر خطأ في هذا الباب اعتقادنا أن اللغة مقدسة، فنعبدها ونجلها، ولا ندخل عليها تغييراً ولا تبديلا، مع أن اللغة خادمتنا وليست سيدتنا ولا إلهنا، هي التي تخضع لنا، لا نحن الذين نخضع لها، هي عرض من أعراض حياتنا كالثوب نلبسه والمتاع نستخدمه والبيت نسكنه، وكل شيء من ذلك يجب أن يخضع لظروفنا ومقتضيات أحوالنا؛ يغير الثوب حسب تغير الجسم، ويبدل بناء البيت حسبما تتطلبه راحتنا، ويصلح المتاع حسب موقفه منا؛ وهكذا اللغة هي آلة خادمة ذليلة للتعبير عما في نفوسنا، نملكها ولا تملكنا، ونقدسنا ولا نقدسها، ويجب أن تموت أجزاؤها وتحيي أجزاؤها وتخلق أجزاؤها حسب حاجتنا، وأن تتشكل لنا لا أن نتشكل لها، وإلا كانت لغة أثرية لا لغة حية.

إن كانت اللغة غير مقدسة فماجمها غير مقدسة، يجب أن تخضع لكل تقدم علمي نصل إليه؛ فتعريف الألفاظ يجب أن يكون حسبما أقره العلم الحديث، واللفظ إذا استعمله جيلنا ولم يكن في المعاجم وجاريا على النمط العربي يجب أن يدوّن فيها، ولا يحتج بأنه غير موجود في المعاجم القديمة، ولا نصغي إلى هؤلاء المتزمتين الذين يصرخون دائماً في وجهنا: «إن هذا ليس في القاموس» كأن القاموس كتاب منزل يتعبد به — إن هذا النمط من القول شل للفكر وعقدة في اللسان وتعويق للأقلام، وحرام ما نحن فيه من ضياع أوقات المدرسين والمفتشين في الجدال في أن هذه الكلمة في المعجم أو ليست فيه، وفي سبيل ذلك تضيع قيمة المعاني والأفكار والأساليب، ولا يلتفت إلا إلى أن الكلمة في القاموس أو ليست فيه.

كم أعمار ضاعت في هذا الباب على غير جدوى، وكم صحائف سودت في هذا الموضوع من غير طائل، وكل هذا مبني على هذا الخطأ في تقديس اللغة.

ما يضرنا أن نستعمل تعبير «من جديد» إذا استسغناه ولو لم يرد في المعاجم؟ وما يضرنا استعمال كلمة «هنـاء» إذا أقرها أدباؤنا ولو لم توجد في المعاجم؟ ولماذا نقحم في الاجابة إذا قال قائل إنها وردت في كتاب «العمدة» أو في مقدمة ابن خلدون، ولا يكون لنا الحق الذي كان لابن رشيق وابن خلدون؟.

لقد ظنوا أن «القاموس» نص على كل لفظ عربي، فما لم يوجد فيه فليس بعربي، وهذا غير صحيح مطلقاً، فهو لم يذكر «الرحمن الرحيم» في رحم، وقال: «الشنار أقبح العيب والعار»، ولم يذكر العار في مادته، وقال في أول كتابه: «الحمد لله منطق البلغاء باللُّغَى في البوادي». ولم يذكر في مادة لغة أنها تجمع على لُغَى، وقال في الخطبة أيضاً: «فصرفت صَوْبَ هذا القصد عناني» ولم يذكر في مادة صوب أن من معانيها الجهة، إلى كثير من أمثال ذلك.

وهبْ أن العرب لم ينطقوا بها، فلماذا لا ننطق بها نحن إذا جرت على أساليب العرب وأوزانها وأصولها.

كل ما في الأمر أن المسألة لا يصح أن تكون فوضى ينطق كل من شاء بما شاء. وإلا انقلبت الحرية إلى عكس المراد منها؛ فاللغة مواضعات ووسيلة للتفاهم في حدود معقولة؛ إنما الواجب أن يكون في الأمة متخصصون مرنون أحرار عالمون بالعربية وأسرارها مطلعون على حاجة الأمة ومطالبها اللغوية، يوسعون على الناس في كلامهم وفق أسس اللغة ويضعون لها ما هي في حاجة إليه.

وهذا هو عمل المجامع اللغوية لو أنها قامت بواجبها.

أحمد أمين

الإعداد للحياة

استأذن ودخل مكتبي ، ثم حيا وجلس ، وقد كان في الثانية والعشرين من عمره ، تخرج في المدارس الثانوية ورفض كل الرفض أن يدخل المدارس العالية ، لأنه كره أن يطيل حياته المدرسية ، وهو يتوق إلى ما يظنه حياة حرة بعيدة عن قيود المدرسة والدرس .

قال : أنت رجل حر الفكر ، تكتب في الحياة الاجتماعية كثيراً ، وتحمل في كتاباتك على الجيل الذي يتسلط على أقدار مصر الآن ، ثم أنت تعطف على الجيل الناشيء ، تقف في صفه تطلب له الحرية في العمل والتفكير ، وتنتصف له من الجيل المتقدم عليه . والآن قد حضرت إليك لتنصفني من أبي ، فهو رجل رجعي ، يكره المجازفة والمخاطرة ، نشأ على نوع معين من الحياة ، ولا يريد أن يحيد عنه ، ثم هو في نفس الوقت لا يسمح لنا أن نجرب ضرباً آخر قد يصلح لنا ، وإن كان لا يصلح له .

قلت : ما هو سبب النزاع بينك وبين أبيك وأنا أضمن لك أني أقف في صفك متى كان الحق معك ؛ فأبوك صديقي ولي عليه نفوذ ، فماذا تروم منه ؟

قال : طلبت إليه أن يعطيني خمسمائة جنيه لأفتح بها متجراً لبيع الأدوات المدرسية فرفض ، وأصر على الرفض وأصررت على مشروعي ؛ فتحرجت الأمور بيننا لدرجة أني لا أطيق العيش تحت سقف واحد معه .

قلت : وماذا تصنع بالخمسمائة جنيه لو نزل والدك على رأيك وسمح لك بها ؟

قال : أشترى بها أدوات مدرسية .

قلت : هذا كلام لا يصلح للتجارة ؛ فالتجارة تتعامل بالوحدات ، بالأعداد والأرقام ، أما الكلام العائم فشيء بعيد عنها . فما هو إذاً مشروعك بالضبط ؟

قال : أبتاع ورقاً وكراسات وأقلاماً وما أشبه .

قلت : كم قلما يلزمك لمتجرك ؟ وكم كراسة ؟ وما ثمنها عند الشراء وما ثمنها عند البيع ؟

قال : شيء غريب ! ما هذا الكلام ؟ كل متاجر الأدوات المدرسية بها أقلام وأوراق وكتب وكراسات ، ومتجري سيصبح واحداً منها ، فيه ما في غيره مما يحتاجه طلبة المدارس .

قلت : صف لي متجرك كما تتخيله ، واشرح لي الخطة التي اعتزمت السير عليها . وبمعنى آخر : افرض أن في جيبك الآن خمسمائة جنيه ؛ وأنك ستخرج من هنا مباشرة إلى السوق لتعمل ما تريد ، فابسط أمامي خط سيرك خطوة لخطوة .

قال : أستأجر مكاناً لتجارتي .

قلت : أين ؟

قال : في أي حي ، إذ أن كل الأحياء لدي سواء .

قلت : وبعد ؟

قال : أبتاع أدوات

قلت : ما عددها وما مقدارها بالجنيه ؟

قال : لا أعلم عددها ، وإنما أبتاع بما يساوي ٢٠٠ — ٣٠٠ — ٤٠٠ جنيه .

قلت : ثم ؟

قال : ثم أعين موظفاً لساعدني .

قلت : يساعدك في ماذا ؟

قال : في البيع يا أخي .

قلت : وهل أنت واثق أن حركة البيع في متجرك تستلزم جهود شابين ؟

قال : ولماذا لا ؟ ألا يوجد في بعض المتاجر اثنان وثلاثة من الموظفين ؟

قلت : بل أكثر من ذلك فى أحايين كثيرة .

قال : أنت إذاً موافق على أن يعطيني أبى هذا المبلغ .

قلت : لا . لا أوافق على هذا بحال من الأحوال ، بل إنى أنصح لوالدك أن يمتنع عن إعطائك جنيهاً واحداً لصرفه فى هذا الباب ، فأنت لا تفهم فى التجارة ، ولا تريد أن تحمل نفسك مشقة البحث ؛ وغاية ما وصل إليه بحثك فى هذا البـاب هو صورة استقرت فى ذهنك أعجبتك فأردت أن تصل إليها بأقرب الطرق دون عنـاء أو مشقة ، ودون مجهود تبذله فى هذا السبيل — هذا الوضع الذى أعجبك ، وهذه الصورة التى راقت لك فأردت تحقيقها على حساب والدك ، هى صورة شاب يلبس بذلة نظيفة مرتبة وينضد شعره ويضع فيه الروائح والعطور ، ويجلس إلى مكتب عليـه آلة التليفون ، وأمامه شاب موظف ، أو ربما فتاة تجلس إلى الخزينة ، ثم تناول السلع للشـارين إن تصادف وجودهم بالمتجر . وبعبارة أخرى : حلمت أنك رجل كبير عنـده موظفون وإدارة ومحل تجارى محترم ، فتملك هذا الحلم مشاعرك وأردت تحقيقه على أهون السبل ، فذهبت إلى والدك تطالب إليه أن يحقق لك أحلامك . أما أن تبـدأ بداية متواضعة ، تعمل بنفسـك على تحقيق هـذا الحلم الجميل ، فتجاهد وتناضل وتجوع وتتعب وتسهر على العمل له ، تلبس له الخرق البالية ، فتنظف المتجر بنفسـك وترتب السلع فيه وتنفض منها الغبار فيدخل إلى حلقك وخياشيمك فى سبيل تحقيق آمالك ، فهذا شيء لا قبل لك به ، ولا يتفق مع مزاجك . والواقع أنك لا تهوى العمل والجد ، وإنما تهوى المظاهر واللهو ؛ وهذه خصال لا يستطيع إنسان عاقل أن يعينك على تحقيقها . ناهيك بمبلغ خمسمائة جنيـه تصرف فى عبث لا طائل تحته .

خرج من مكتبى غير راض عن تفكيرى ، وتركنى غير راض عن مدارسنا .

لقد طالبنا بتغيير المناهج فى مدارسنا تغييراً أساسياً ، فتنقلب فيـه الأوضاع رأساً على عقب ، وتطلق فيه الحرية للنشـاط الفكرى والبدنى ، وتوثق فيه الصلة بين المواد الدرسية والحياة الاجتماعية بجميع مناحيها ، حتى يخرج الطالب منها وهو عارف بضروب هذه الحياة فيهجم عليها كأنه لم يفارقها لحظة واحدة . أما هذا الذى يدرسه الطلبة فى المدارس ، وما يشقون لتحصيـله ويسهرون الليالى فى مقارفته ، فشيء لا قيمة له عندنا ، ولا فائدة فيه لأولادنا .

نقول هذا القول لرجال وزارة المعـارف فيعجبون ويتهمون قائله بطائفـة من التهم ، بعضها مستتر وراء الألفاظ ، وبعضها صريح لا يحتاج إلى بحث أو استنتاج ، ثم يقولون : ماذا تريد أن تحذف من هذه المواد — أتريد حذف الرياضيات ، وهى جهود عقليـة تشحذ الفكر وتنمى الاستنباط والاستنتاج ، وتعين على الذكاء وتساعد على الدقة فى التعبير وفى البرهان ؟ أم تريد أن تحذف التـاريخ ، وفيه عبر وعظات ، وفيه حياة شعوب ودول يعين الاطلاع عليها الشعوب والأفراد على الحياة العادية من يوم إلى يوم ؟ أم تريد حذف الجغرافية ، وهى لازمة لدراسة إقليمنا الذى نعيش فيه ، جوه وهوائه ومائه ، وعلاقته بالدول المجاورة له والبعيدة عنه ، والمسالك البحرية والأرضية للتجارة بينها جميعاً ، وأنواع السلع التى تنتجها أو تستهلكها ، وكيف تكون تجارة بغير جغرافية ؟ وهكذا إلى آخر هذه الحجج التى لا تقنع ولا تفيد .

نحن لا ننكر أن المعلومات شيء نافع فى ذاته ، وأنه لا اعتراض لدينا على أن يعرف الصبى ما يستطيع أن يعرف ويجمع من المعلومات ما وسعه أن يجمع ، إذ أن المعارف هى ميدان النشـاط للعقل الانسانى ، ولا يصح أن يغلق هذا الميـدان دون عقول الشباب فى هذا البلد ؛ ولـكنه ميدان واسع الأطراف إلى درجة لا يتصورها العقل ؛

فتراث المعارف تراث ضخم يملأ السكون من أقصاه إلى أقصاه ، بينما الحياة اليومية فى بيئة معينة تتطلب معارف ومعلومات معينة ، بدونها يشعر الفرد أنه غريب عن هذه البيئة بعيد عنها ، لا تربطه بها صلة من الصلات . فماذا يفيد الطفل المصرى لو عرف ما تنتجه الصين وما تستهلكه البرازيل ، وأنهار هذه وموانىء تلك ، وجو هذه وأمطار تلك ، ودورات المياه والرياح ، وتعاقب الفصول ، إلى آخر هذه المعلومات ، بينما هو لا يعرف كم بيضة بالقرش ، وماذا يبيع الناس فى حى البغالة ، وماذا يشترون من سوق البلح ، وأين هو خان الخليلى ، وماذا يصنع الناس هنالك ؟ ماذا ينفعه التاريخ وهو لا يعلم كيف يعيش مع رفاقه فيتعاون معهم فى إدارة شئونهم ، يخضع حيث يجب الخضوع لقراراتهم ، ويعترض حين يجوز الاعتراض أو يجب ؟ ماذا تنفعه الجغرافية والمعلومات التجارية التى يحصل عليها من دراستها ، بينما هو لا يستطيع — إن أراد — أن يتكسب قرشاً واحداً عن طريق عمل من الأعمال التجارية ، لا بل لا يعرف الخطوات الأولى الضرورية لإنشاء المتاجر .

فرق بين أن يتعلم الطفل الحقائق والمعلومات عن طريق نشاطه فى حياته اليومية ، وبين أن يتعلمها مجردة عن كل علاقة بهذه الحياة . فرق بين أن يتعلم الحساب مثلاً عن طريق حوض ملء من الماء تصب فيه حنفية قدراً منه فى الدقيقة وتفرغ بالوعة قدراً آخر ، ويطلب إلى الطفل أن يحدد الزمن الذى يملأ فيه الحوض أو يفرغ ما فيه من ماء . نقول فرق بين هذا الشىء الذى لا يراه أحد فى حياته العادية ولا يمارسه إلا المجانين ، وبين أن يعرف الطفل قواعد الحساب عن طريق الأخذ والعطاء العادى ، أو عن طريق التعامل الفعلى بينه وبين الناس فى بيئة طبيعية كما يفعل جميع الأحياء من متعلمين وغير متعلمين على السواء . ولا نظن أن إنساناً عادى الذكاء فى البلاد المصرية ينقصه من قواعد الحساب القدر الضرورى له الذى يعينه على تصريف شئونه كما يشاء .

ليست المعلومات والمعارف شيئاً نحمل أطفالنا على الحصول عليه بكل الطرق حملا ، ونكلفهم به تكليفاً ، لا يجب أن يشقوا فى مفارقته لأنه فى ذاته شىء جميل ، فكم من جميل لا يجب أن نرهق أنفسنا به . لا نظن أن إنساناً يجب أن يطالب بالحصول على المعلومات لأنها معلومات ، فلسنا نطالبهم مثلا بأن يتعلموا كيف يبنون بيوت الأسكيمو ، أو عشش سكان أواسط أفريقيا ، أو عادات الدببة فى القطب ، كيف تأكل وتنام ، ومن أين تأكل وأين تنام ، ولا نطالبهم أن يعرفوا الأبعاد بين الكواكب والشموس والنجوم ، وكيف تقاس ، وكيف يقيسونها بأنفسهم . لا نطالبهم بهذا أو ما يشبهه ، وإن كانت هذه وأمثالها معلومات ومعارف ، وجميل بنا أن نعرفها وأن نعلمها لهم .

يجب أن يكون أساس التعليم الحياة ، يجب أن تكون المدارس وسيلة من وسائل العيش ، يعيش فيها الطالب وينشط كما يعيش وينشط فى البيئة الصالحة السليمة ، وبعد ذلك — لا قبله — تتوافر فيها المعارف والمعلومات التى يحتاج إليها الواحد منهم عند ما يتطلب النشاط منه الحصول عليها لا قبل ذلك ، ولا نكلف الطالب بأن يأخذ منها إلا ما يشعر أنه لازم له فى ضروب النشاط الذى يضطلع به فى ذلك الحين بعينه . أما تحديد المعلومات والمعارف ، وتعيين مقاديرها وأنواعها والكتب التى تؤخذ منها ، قبل أن يدخل الطفل المدرسة ، فقلب للأوضاع الطبيعية للأشياء ، شأننا فى هذا شأن الوالد الذى يصر على تفصيل طفله على قدر الملابس الموجودة ، فيقصر ذراعيه ويمط قدميه حتى يستوى جسمه لهذه الملابس .

ووزارة المعارف تفصل عقول أولادنا على ما عندها من معلومات ومعارف .

يعقوب فام

بين ماكسيم جوركى ولينين

من علامات العصر الحاضر وخصائص تفكيره اتجاه الكتاب الخالقين وممثلي الثقافة الحديثة إلى معالجة الشؤون الاجتماعية والخوض فى المشكلات العملية والانحياز إلى أحد معسكرات المذاهب السياسية المتطاحنة ؛ وفى الماضى القريب كانت مسألة تقسيم الكتاب والمفكرين تبعاً لرأيهم فى نظام الحكم والمبدأ السياسى الذى يؤثرونه ويناضلون عنه ، تكاد تكون وهماً من الأوهام ومذهباً خاطئاً من مذاهب النقد والتحليل ؛ والأمة الوحيدة التى كانت تخرج على هذه القاعدة وتشذ عن تلك السنة هى الأمة الروسية ؛ فقد كان المألوف عند الروسيين أن يعبر الشعراء والكتاب والنقاد عن ميولهم السياسية ونزعاتهم الحزبية ؛ ومنذ أوائل القرن التاسع عشر لم يستطع أكثر كتاب روسيا الفرار من مواجهة مشكلاتها الاجتماعية وأزماتها السياسية ؛ وقد كان اسكندر بوتكين كبير شعراء الروس ضالعاً فى ثورة ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، وأعدم الشاعر رايلييف لأنه كان من جناتها ؛ وقد آزر الثائرين رجال الأدب وزهرة المفكرين . وكتاب «مذكرات صياد» الذى وضعه الكاتب الروائى العظيم إيفان ترجنيف كان يعد من الحوادث الاجتماعية الهامة التى أثارت الضمائر وهزت النفوس ، وكانت عاملا من عوامل تحرير الفلاحين ورفع نير العبودية عن كواهلهم . وآراء طولسطوى فى التقليل جهد الطاقة من سلطة الحكومة ونبذه لسلطان الكنيسة ودفاعه عن الطبقات المظلومة ، جعله قوة هائلة فى روسيا ، مؤيدة للتعاليم الثورية ؛ وقد مرت بالأدب الروسى فترات متقطعة كان يؤثر فيها القيم الفنية والأدب الخالص ، ويضعهما فوق سائر القيم ؛ ولكنه فى اتجاهه العام وحركاته الشاملة كان يقترب على الدوام من النقد الاجتماعى والنزعات السياسية ، وكان يروق الشعراء والروائيين والقاصين أن يلتمسوا الموضوعات التى تنطوى على تحد للسلطة ومناوأة لتقاليد المجتمع ونقد للأحوال العامة .

وليس فى مستطاعنا أن نقدر مدى تعمق هذه الاتجاهات الأدبية عند الروسيين إذا أغفلنا الاشارة إلى حقائق حياتهم وحوادث تاريخهم ؛ ولروسيا ظروفها الخاصة وملابساتها الاجتماعية ، ونظمها السياسية والمدنية التى تسوغ هذا الاتجاه وتبين ضرورته وخضوعه لمنطق الحوادث ؛ فقد كان نظام روسيا الاجتماعى فى القرن التاسع عشر فريداً عجيباً بين النظم الأوربية لأنه كان قائماً على بقاء العبودية ، ولما ألغيت العبودية وعطلت أحكامها ظل هذا النظام الاجتماعى مرتكزاً على الاحتفاظ بالحكم الأوتوقراطى المطلق ؛ ومن ثم كانت الحياة الأدبية والنزعات الفكرية ثورة على هذا الجمود ومقاومة لهذا الطغيان الذى كاد يمحو الحياة ويشل القوى ؛ وكان لزاماً على الكتاب والمفكرين والمصلحين أن يتعاونوا على مكافحة الخرافات والجهل والاضطهاد والقسوة ، وأن يعملوا على تأكيد القيم الانسانية والمثل الأخلاقية فى مثل ذلك الجو الخانق والسجن المطبق الذى شيدته يد الاستبداد . وقد كان بعض القياصرة الروس يبدأ بداية حسنة مبشرة ، ويعد المستنيرين بالاصلاح والحرية ، ولكن سرعان ما كان يخلف الظن ويخيب الأمل ؛ وقد تلطفت القيصرة كاترين الثانية لفولتير والانسيكلوبيديين ، ولكن هذه الطفيدة النجيبة المجددة كانت تخمد الثورات بقسوة وعنف ، ولم تكن فى إهمال حقوق الشعب وإهدار كرامته أحسن حالا من غيرها ؛ وكذلك كان حفيدها الاسكندر الأول ،

فقد تنفذ للاعاريب، وتحمس في أوائل حكمه للاصلاح، وأفضى به الأمر في النهاية إلى ترك زمام الأمور في يد الرجعي الرهيب اركشايف. وقد ظلت الرقابة على الصحف والمجلات والمعاهد والجامعات وبرامج التعليم قائمة في روسيا طوال القرن التاسع عشر، وكان نظام الجاسوسية من الدقة والاتقان بحيث لا تخفى عليه خافية ولا تفوته حركة.

وكانت النتيجة المحتومة لهذا الضغط البالغ والحجر الشديد أن يضطلع الكتاب الخالقون والشعراء الفنانون بنقد الأحوال الحاضرة وتناول الشؤون الاجتماعية وتصوير النزعات الراهنة وحقائق الحياة الواقعة.

ومن أشهر كتاب روسيا في هذا المجال وأسبقهم في هذا الميدان الكاتب الكبير ماكسيم جوركي الذي ولد سنة ١٨٦٨ وتوفي سنة ١٩٣٦، وقد كان في سنواته الأخيرة في طليعة الشخصيات البارزة المحترمة في روسيا الشيوعية، بل كان يعد في نظر قومه بطلاً من أبطال الجهاد يحفه الاجلال والتعظيم! وقد غير البلاشفة اسم مدينة نجني نوفجورود التي ولد فيها جوركي، وكانت مسرح ذكرياته وقصصه، وسموها «مدينة جوركي». فكانت المصانع ودور التعليم وأندية العمال تتبارى جميعها في حمل اسمه والعناية بأدبه. وكانت فكرة نشوء فن جديد وثقافة مجتمع لا تتفاوت فيه الطبقات ولا تتباين الأقدار تستمد منه الوحي وتلتمس عنده العون والتأييد! وكان الكتاب الناشئون يفخرون بأنهم مدينون لتشجيعه، وأنهم يحيكون على منواله ويذهبون في الأدب مذهبه.

وقد ناصر جوركي الثورة الروسية منذ بدايتها، وكان من حملة أعلامها والدافعين عنها، وكانت له علاقات بأقطابها البارزين، ولا سيما زعيمها الأكبر لينين، وقد عاونهم بقلمه وأيدهم برأيه، وناضل عن الاشتراكية الشيوعية، وتصدى لخصومها يسفه آراءهم ويفند حججهم، وكان نقد الثقافة البورجوازية وإبراز عيوبها من الموضوعات القريبة من نفسه الحبيبة إلى قلبه.

ولم يكن الرجل داعية من الدعاة، كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما كان صاحب عقيدة ورب فكرة، وكان يعتقد اعتقاداً عميقاً مخلصاً أن الشيوعية هي طريق الخلاص وباب النجاة، وأن لا سبيل إلى استنقاذ روسيا من الخرافات والأوهام، وبعثها من الجمود والفتور المستولي عليها إلا بالشيوعية.

وقد نبغ جوركي من صميم الشعب الروسي، ونشأ نشأة عجيبة قليلة الأمثال، فقد كان أبوه إسكافاً، ومات وهو لم يبلغ الرابعة من عمره، وكفله جده وأرسله إلى المدرسة مدة أشهر قلائل، ولم يمكنه فقره من إبقائه في المدرسة، واضطر جوركي إلى العمل في سن مبكرة، فاشتغل في حانوت صانع أحذية، وفي الثانية عشرة من عمره فر من منزل جده وأخذ يضرب في الأرضين ويتقلب في شتى البلاد، واشتغل مرة بإحدى البواخر يغسل الأواني والصحاف، وكان طاهي الباخرة رجلا ضخماً عملاقاً له مشاركة في الأدب وميل إلى القراءة والاطلاع، وكان يقول لجوركي إن القراءة هي ألذ المتع وأبقى المسرات، وقد أثرت كلمات هذا الطاهي الأديب في نفس جوركي الفتية المتطلعة، ثم عاد إلى جده، ولكن سرعان ما اعتراه الملل، ونبا به المقام، فعاد يكدح في طلب الرزق، ويطوف في البلاد، وجاب إقليم الفلجا، ووصل إلى ضفاف بحر الخزر، وكان يعمل بهمة وعزيمة، ولكنه كان يبيت أكثر لياليه خاوي الوفاض قد طواه الجوع وتلقفه السير.

وقد حاول وهو في قازان — وكان في الخامسة عشرة من عمره — أن يلتحق بإحدى المدارس، ولكنه وجد حملا

فى محل خباز ، ولم يلبث أن تركه واشتغل بستانياً ، ثم منشداً فى إحدى الكنائس ، ورافقه بعد ذلك أن يعمل مع صائدى الأسماك فى استراخان ، واشتغل مرة حارساً ليلياً بالسكة الحديدية .

وقد كان جوركى رجلا كبير النفس واسع الأمل ، فلم يسخط الحظ ، ولم يتملكه اليأس ، ولم ين عن إدمان التحصيل واستيعاب التجارب واختزان المؤثرات ، وقد مكنه ذلك من أن يلمس قلب الشعب ، ويفهم حاجات الطبقات الفقيرة ، وألف هواه بهواهم ، وعقد المودة الدائمة بينه وبينهم ؛ وقد كانت معايشته لهذه الأصناف المختلفة من الناس ودراسته لهذه الأنماط العديدة من الأخلاق من دواعى استثارة عبقريته ، ومن العوامل التى خلقت منه كاتباً فريد الطابع فذ الشخصية .

وشرع يكتب بعض القصص القصيرة فصادفت إقبالا ورحبت به المجلات الأدبية . وفى سنة ١٨٩٨ ظهرت له مجموعة من القصص فى مجلدين لقيت رواجا . وفى مدى عام أو عامين أصبح ذلك الصعلوك الشارد الجوّال الذى تقاذفته البلاد ، ولفظته مختلف المهن ، فى طليعة كتاب روسيا ، وترامت شهرته ، وعظم تأثيره حتى قرن اسمه باسم أديب روسيا العظيم طولسطوى والروائى الكبير شيكوف .

وقد وصل جوركى إلى أوج شهرته عند تمثيل روايته « فى الأعماق » سنة ١٩٠٢ بمسرح موسكو ، وقد انضم إلى معسكر الماركسيين واشترك فى تحرير مجلاتهم ، وقد عطلت المجلة لأنها نشرت له قصيدة تنبأ فيها بالثورة القادمة ، وقبض عليه ونفى إلى مجهل ، وألغى انتخابه لأكاديمية العلوم ، فاستقال منها شيكوف وكورلنكو احتجاجا على ذلك ، وعمل جوركى مع الثائرين الناقمين وحضر مؤتمراتهم .

وفى أيام اشتداد الثورة الروسية استطاع جوركى بجاهه ومكانته عند زعماء الثورة أن ينقذ الكثيرين من الكتاب والمستنيرين من مخالب الموت وبراثن الفقر ، وحاول جهده أن يلطف من ميول الثورة الحاطمة ، ويخفض من غلوائها ، وقد نفعته فى ذلك السبيل صداقته المتينة لزعيم الثورة وكبير رجالها « لينين » . وليس غريباً أن تنشأ بين هذين الرجلين النادرين تلك الصداقة المتينة والتقدير المتبادل ، فقد كان لينين مفكرا ممتازاً وعالما واسع الاطلاع ، قبل أن يكون زعيما سياسياً وثائراً هادما ، وكان يعرف جوركى وإخلاصه وحسن بلائه ؛ وكان جوركى يسمع من لينين قبل أن يراه ويعجب بشخصيته ، وقد رآه أول مرة فى لندن عند حضوره مؤتمر حزب العمال الروسى الديمقراطى الاشتراكى ، الذى عقد سنة ١٩٠٧ ، ولما التقيا صافحه لينين وحياه تحية حارة وفرح به فرحة الأديب بالأديب ، وقال له فى عرض الحديث : « أعتقد أنك من هواة النضال ، وستدور فى المؤتمر معارك تروقك » ، وقد حضر هذا المؤتمر كثيرون من الزعماء والقادة ، بينهم بليكانوف وتومسكى ومارتوف وروزا لوكسمبرج ؛ وقد وصف لنا جوركى لينين عندما جاء دوره فى الخطابة فقال : « أسرع فلاديمير إلى منصة الخطابة ، وصاح بصوته المنبعث من الحلق : (أيها الرفاق) ، وبدا لى فى بادئ الأمر أنه لا يحسن الخطابة ، ولا يجيد الإلقاء ، ولكن ما هى إلا لحظة حتى استغرقنى حديثه ، وغمرنى تياره ، ولأول مرة فى حياتى أسمع مشكلات السياسة الصعبة المعقدة تعرض بأسلوب يسهل حزنها ، ويجلو دياجيرها ، ولم أشعر بأنه يبذل فى ذلك جهدا ، أو يعانى مشقة ، وأنه يحاول أن يتخير الألفاظ المنمقة والتراكيب البليغة الطنانة ، وكانت كل كلمة من كلماته واضحة المخرج جلية المعنى ناصعة الدلالة . ومن الصعب أن أنقل إلى القارئ ما تركه فى نفسى من أثر . . وخيل إلىّ أنه يزن كل لفظة ، ويقدر وقعها ، وأنه يتقصى

تقفات خصومه ويتتبعها ، ويردها كَلَمْى جريحة بحجج دامغة تؤيد حق العمال فى أن يسلكوا طريقهم دون أن يسيروا خلف البورجوازية الحرة ويتعلقوا بذيلها . . . . ووحدة حديثه واتساقه وقوته واتجاهه المباشر ووقائه بالغرض ومظهره على المنصة ، كل ذلك فى مجموعه كان قطعة بديعة من الفن الكلاسيكى ؛ وقد كانت خطبته أقل طولا من خطب غيره من الخطباء الذين سبقوه ، ولكن تأثيره فى النفوس كان أعظم وأبق ؛ ولم يكن هذا شعورى وحدى ، فقد سمعت صوتاً يهمس خلفى : «لقد قال شيئاً» وكان لا يصل إلى النتائج التى ينتهى اليها بكلفة وتمحل ، ولكنها كانت كأنها تنمو من تلقاء نفسها ، وتبدو كأنها شيء لا مناص منه ولا سبيل إلى غيره . . . » .

ويصف لنا جوركى عطف لينين الجم على العمال وفرط عنايته بشؤونهم وبالغ اهتمامه بتفقد أحوالهم ، وينقل جوركى عن أحد العمال أنه قال فى الموازنة بين لينين وبليكانوف زعيم المنشفيك : « بليكانوف يشعرك على الدوام بأنه يلق عليك درساً ، ويشرف عليك من حالق ، ولكن لينين يشعرك بأنه الزعيم الحق والرفيق » .

وقد لاحظ جوركى أن لينين كان يتخفف من الطعام ، وكان قليل العناية بنفسه ، موجهاً اهتمامه جميعه إلى العمال ، وقد سأل مرة جوركى أحد هؤلاء العمال : « ما هى أبرز صفات لينين ؟ » فأجابه العامل : « البساطة ، إنه بسيط مثل الحق نفسه » .

وقبل الحرب الكبرى السابقة بأعوام قال لينين لجوركى فى أحد أحاديثه : « الحرب قادمة وليس لنا منها معدى ولا مذهب ، وقد وصل عالم الرأسمالية إلى درجة الاختمار المعفن ، ولقد تسممت عقول الناس بعقاقير الوطنية والمغالاة فى النعرة القومية ، وأكبر ظنى أننا سنرى حرباً أوربية عامة ، وسوف لا تجد الطبقات الفقيرة القدرة على اجتناب هذه المجزرة ، وكيف السبيل إلى ذلك ؟ هل يستطيع عمال أوربا الاضراب ؟ إنهم لم يُنَظموا بعد التنظيم الكافى ، وينقصهم الشعور بأنفسهم باعتبارهم طبقة متحدة ، وليس فى وسعنا ساسة عمليين أن نعتمد على ذلك . . . » .

ثم التفت لينين إلى جوركى واسترسل قائلا : « فكر فى هذا ملياً ، واعجب لقوم متخومين يدفعون بقوم جياع مهازيل إلى محاربة بعضهم البعض ، أرأيت جريمة أدل على الغباء والحماقة ، وأشد نكراً وفظاعة ؟ وسيدفع العمال ثمناً غالياً ، ولكنهم سيفوزون فى النهاية ، وهذه هى إرادة التاريخ »

وكان لينين رجلا صبوراً مجرباً ، يعرف كيف يتلق الضربات ويثبت للنوازل ، قال مرة لجوركى : « من الخير أن نلق الفشل بالفكاهة والابتسام ، والفكاهة صفة باهرة ، والحياة مضحكة بمقدار ما هى محزنة » .

ولينين بلا ريب من أعظم شخصيات العصر الحديث ؛ وقد أحبه قوم حتى العبادة ، وكرهه قوم حتى ودوا لو أنهم يستطيعون رجمه بالأحجار ، وقد أثر فى تاريخ العالم تأثيراً بعيد المدى ، وكانت عقليته عقلية غير عادية ، وقد كون آراءه السياسية فى صدر حياته ، ولما تبلورت تلك الآراء لم يتحول عنها ؛ وكان يغير الأسلوب ولكن الهدف الذى كان يرى إليه ظل واحداً ، وكان عقله فى صميمه عقل متعصب يعتقد أنه قد عرف الحق واهتدى إلى سبيله . وكان كتاب « رأس المال » الذى وضعه كارل ماركس إنجيله ومصحفه ، وكان مع ثقته بنفسه واعتداده بآرائه لا يشمخ ولا يتكبر ، قال جوركى فى ذكرياته عنه : « لا أستطيع أن أتصور رجلا غيره قد بز الناس وسبقهم وأناف عليهم ، وبقى بعد ذلك مطَّرِحاً لأهوائه بريئاً من الطموح ، لا يعنى بغير مصلحة الشعب ، ولا يفكر فى غير نفعه والنهوض به ؛ ولقد كان فى شخصيته سحر يجذب نحوه قلوب العمال ويسيطر على عواطفهم ، وكانت

له ضحكة صافية خلابة صادرة من أعماق القلب ، ضحكة رجل قد عرف سخافة البشر السمجة البغيضة ، ودجل الأذكياء وتقلبهم وبهلوانياتهم . وأصبح يجد متعة وروحا في بساطة السلبي القلب الخالص الطوية .

ويقول جوركي في تبرير الشدة التي لجأ إليها لينين لحماية النظام الذي وضع أساسه : « إن واجب قوة الشعب المخلصين لما يخرج من طوق البشر في الصعوبة ، والزعيم الذي لا يكون طاغية إلى حد ما من المحال وجوده . وقد قتل كثيرون في عهد لينين ، ولكن لولا هذا القمع لأصبحت المقاومة التي لقيها النظام الجديد أوسع نطاقا وأقوى عزما وأشد خطراً ؛ وعلاوة على ذلك فإن علينا أن نقيم وزناً لهذه الحقيقة ، وهي أن تقدم الحضارة قد قلل من قيمة الحياة الانسانية ؛ وبما يثبت هذه الحقيقة في الحياة الأوربية المعاصرة تقدم فن إبادة الناس واستساغة هذا العمل » .

وفي موضع آخر من ذكرياته عن لينين يقول : « لقد طالما أفاض القائلون وأسهب الكاتبون في رمي لينين بالقسوة والفظاظة ، وليس من أربي أن أقف ذلك الموقف المضحك الخالي من التبصر ، وهو أن أحاول تفنيد الأقاويل الكاذبة ، أو أن أرد على الشتائم والنمائم ، فإني أعلم أن الكذب والتنقص وتشويه السمعة من الأساليب المتبعة في السياسات البورجوازية الحقيرة ، ومن المتعذر أن نجد رجلا عظيما في العصر الحاضر لم يقذف بالأوحال ، وهذا من الأمور المعروفة المألوفة ؛ وفضلا عن ذلك فإن هناك ميلا في نفوس الناس إلى إنزال العظماء من مستواهم الرفيع وغمط حقوقهم . . . . . ولقد كان فلاديمير لينين يعرف أكثر من أي إنسان كيف يمنع الناس من البقاء على أسلوب الحياة الذي تعودوه وألفوه ، وكراهة عالم البورجوازية له كراهة عارية مكشوفة » .

وحادثه جوركي مرة عن قسوة الأساليب الثورية ، فقال له لينين غاضباً : « ماذا تريد بذلك ؟ هل من الميسور أن نتصرف تصرفاً إنسانياً رحبا في معركة منقطعة النظير في هولها وضراوتها ؟ وأين يكون مكان رقة القلب وكرم الأخلاق في مثل هذه المعركة ؟ لقد حاصرتنا أوربا من جميع النواحي وحرمتنا من معاونة الناطقين علينا في أوربا ، وكانت الحركة المناوئة للثورة تطالعنا من شتى الجهات ، فماذا تريد ؟ ألسنا على حق ؟ ألم يكن من واجبنا أن نجاهد ونقاوم ؟ وما هو المعيار الذي نرجع إليه في تقدير الضربات اللازمة والضربات غير اللازمة في الحرب والصراع ؟ »

ويحدثنا جوركي في ذكرياته عن مضاء عزيمة لينين ، وقوة إرادته وقسوته على نفسه ، ففي أيام المجاعة كان يقف عن تناول الطعام الذي يرسله إليه الجنود والزارعون ، وكان يوزع ما يرسل إليه من الدقيق والسكر والزبد على المرضى والضعفاء من الرفقاء .

ولما لاحظ اعتلال صحة جوركي نصح له بالسفر خارج روسيا ، وألح عليه في ذلك ، ولم تنسه الواجبات الضخمة الملقاة على عاتقه السؤال عن صديقه القديم وزميله في الجهاد ، والعناية بأخباره .

وقد ختم جوركي ذكرياته القيمة النفيسة عن لينين بهذه الكلمات التي أختم بها المقال : « لقد مات فلاديمير لينين . ولكن ورثة فكره وإرادته لا يزالون أحياء . وهم يتمون عمله ، ويكملون ما بدأه ، وعمله أكثر الأعمال انتصاراً في تاريخ البشرية » .

هذا ما قاله جوركي . ولكن هذا العمل يجتاز الآن محنة قاسية ويمر بتجربة شديدة . أتراه يتغلب عليها ، ويسمو فوقها ؟ هذا ما سيتكفل بالاجابة عنه الأشهر أو الأعوام القلائل القادمة .

علي أدهم

من بدائع الفنون الإسلامية :

إبريق من البرونز

ينسب للخليفة الأموى مروان بن محمد

فى دار الآثار العربية بالقاهرة تحفة جميلة من البرونز ينسبها معظم علماء الآثار إلى الخليفة الأموى مروان الثانى ، بدون دليل قوى ، اللهم إلا أنها وجدت بمصر فى المكان الذى قتل فيه هذا الخليفة بعد ضياع ملكه . والحق أن مثل هذه النسبة كانت جديرة بأن تثير بين الاخصائيين جدلا طويلا ، ولكنها مرت بسلام ، لأن جمال هذه التحفة وإبداع شكلها يجعلانها ملكية من كل الوجوه .

ولهذه التحفة تاريخ عجيب ، فان إحدى البعثات الأثرية الألمانية كانت تعمل بين عامى ١٩٠١ و١٩٠٦ فى إقليم أبى صير الملق «بوصير» بالفيوم لحساب لجنة البردى ببرلين والجمعية الشرقية الألمانية ؛ وكان الميدان الذى اختارته لحفائرها مقابر قديمة ، كان أهل هذا الاقليم يستعملونها منذ عصر ما قبل التاريخ إلى بداية العصر الاسلامى . وأعظم ما كانت تنشده هذه البعثة الأثرية هو ورق البردى ذو الكتابات التاريخية الثمينة ؛ ولكنها عثرت سنة ١٩٠٣ فى أنقاض مقبرة من بداية العصر الاسلامى ، يقال إنها مدفن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية[1] ، على إبريقين وإناءين من البرونز ، يعلوها صدأ شديد . وقسمت هذه المجموعة بين مصلحة الآثار المصرية والبعثة الأثرية الأجنبية ، حسب القواعد التى كانت متبعة فى ذلك الوقت ، عند الإذن للبعثات الأجنبية بالحفر ، على أن تأخذ نصف ما تعثر عليه من التحف والآثار ، وكان الأبريق الذى نحن بصدده اليوم من نصيب مصلحة الآثار المصرية ، وذلك بفضل الصدأ الشديد الذى كان يعلوه ويغطى ما عليه من النقوش الجميلة ، ولا سيما أن هذه البعثة الأثرية لم تكن تنشد التحف الاسلامية ، ولم يكن بين أعضائها إخصائيون فى الفنون الاسلامية أو الساسانية ... وإلا لفطنت لعظيم شأن هذه التحفة من الوجهتين الأثرية والفنية ، ولكان مصير هذه التحفة متحف برلين .... كما قدر لرأس نفرتيتى !! .

ثم حدث أن رأى الأستاذ الدكتور زره Sarre صورة هذا الأبريق فنشرها سنة ١٩٢٢ فى كتابه من الفن الايرانى القديم F. Sarre : Die Kunst des Alten Persien (اللوحة رقم ١٣٧) وذكر أنها ساسانية الطراز متأثرة ببعض الأساليب الفنية الهلينية ، وأنها من صناعة شمالى إيران أو إقليم القوقاز . كما أشار (فى صفحة ٦٤) إلى أن الابريق والاناءين اللذين كشفا مع هذه التحفة فى أبى صير الملق ترجع ثلاثتها إلى العصر الاسلامى بل الراجح أنها من عهد الدولة الطولونية .

وفى سنة ١٩٢٩ نشر الدكتور زره Sarre فى الكتاب السنوى للمتاحف البروسية Jahrbuch der preussischen Kunstsammlungen مقالا عن التحف الأربع التى كشفت فى أبى صير الملق : الأبريق الذى نحن بصدده الآن ، وإبريق آخر أبسط فى الهيئة ، ولا زخارف عليه ، وإناءان بدون أى رسوم أو زخارف . ورجح الدكتور زره أن هذه التحف كلها من مقتنيات الخليفة الأموى مروان بن محمد ، أخفاها أتباعه الأوفياء حتى لا تقع فى أيدى أعدائه .

وطبيعى أن اهتزت الأوساط العلمية فى القاهرة لهذه

(١) راجع F. Sarre : Die Bronzekanne des Kalifen Marwan II im Arabischen Museum in Kairo (Ars Islamica Band 1 ص ١٠

النظرية ، وقرّ الرأى على أن ينقــل الابريق الثمين من المتحف المصرى إلى دار الآثار العربية[1] حيث عولج صدؤه بالأدوية الكيمياوية الخاصة ، فزال الصدأ وكشف النقاب من الزخارف البديعة التى يراها القارىء فى الصور التى ننشرها هنا ، والتى تجعل هذا الابريق أجمل ما نعرفه من الأباريق الساسانية وأدقها صنعا ، سواء أصحت نسبته إلى مروان بن محمد أم لم تصح .

وارتفاع هذه التحفة ٤١ سنتيمتراً وقطرها ٢٨ ، ولها قاعدة مستديرة ومنخفضة ودقيقة الشكل ، وفوقها بدن كروى تتصل به كتف مدرجة تنتهى برقبة اسطوانية ، جزؤها السفلى مخرّم ، وباقيها مزخرف برسوم محفورة ، قوامها دوائر ووريدات صغيرة متماسة ، وفيه عصابة مستديرة ذات زخارف بارزة (انظر شكل ١) .

وللابريق مقبض يخرج من منتصف البدن ، ويرتفع موازياً الرقبة ثم يلتوى فى أعلاه ، ويتوج بحلية من رسوم ورق الأكانتس . وهذا المقبض مزين فى جانبيه بصفين من الحليات تشبه الأحجار الثمينة ، وبرسم فرع نباتى بينهما ، يذكر برسوم شجرة الحياة عند الايرانيين ، وبالرسوم التى نراها على بعض الأعمدة والتيجان فى «طاق بستان»[1] (شكل ٢) .



(شكل ١) الابريق المنسوب لمروان بن محمد



(شكل ٢) صورة أخرى للابريق

(١) انظر G. Wiet: L. Exposition persane de 1931 ص ١٣

(١) انظر F. Sarre : Die Kunst des Alten Persien اللوحات رقم ٩٠ و ٩٢ و ٩٣ .

أما الصنبور فقناة تخرج من بدن الأبريق تحت الكتف وتنصب في تمثال ديك كبير مبسوط الجناحين ومشدود الجسم ، لا يقل جمالا في ذاته عن أبدع التماثيل الصغيرة التي صنعها الفنانون الايرانيون في العصر الساساني . والمعروف أن الديك كان له شأن عظيم في الديانة الزرادشتية كمؤذن بانبلاج الضوء وظهور الشمس ؛ وإنما نجد رسمه على السكة الكيانية والساسانية وعلى المنسوجات والتحف المعدنية الساسانية ، كما نجده بعد ذلك في زخارف الخزف العباسي والفاطمي .

على أن أبدع زخارف الابريق على الاطلاق ، هي الرسوم المحفورة على بدنه . وقوامها ستة عقود متصلة ، تحت كل منها عمودان وفوقه شبه هلال فيه دوائر صغيرة



(شكل ٣)
صورة مكبرة لأحد العقود على بدن الابريق

(انظر الأشكال رقم ٣ و٤ و٥) . وتحت العقود وريدات زخرفية تعلو رسوم طيور وحيوانات وأشجار ونباتات ، نعرفها في سائر التحف الساسانية .



(شكل ٤)
رسم الزخارف في أحد العقود على بدن الابريق



(شكل ٥)
رسم الزخارف في أحد العقود على بدن الابريق

ويبدو للدكتور زر" ، أن بعض أجزاء الرسوم في هذا الابريق كان مطعما بالأحجار النفيسة أو المينا ، فالمثلثات التي تعلو أعمدة العقود والوريدات على جانبي المقبض وفي عصابة الرقبة ، كلها غائرة قليلا حتى ليرجح عنده أنها كانت مغطاة بمواد زجاجية أو أحجار نفيسة . ولكننا لا نوافقه على هذا الرأى ، لأن مثل هذا الترصيع كان

ســــــلامة القَس

للأستاذ على أحمد باكثير

(تابع ما نشر فى العدد الماضى)

انقطع عبد الرحمن بضعة أيام عن زيارة ابن سهيل كان فى خلالها مجتهداً فى السعى لبيع ضيعته ، حتى ذهب إليه ذات عشية ، وكانت الشمس قد مالت للغروب ، واكتست الدنيا حلة ذهبية من الأصيل ، كأنها تقول لعبد الرحمن ، وهو يرى لون الذهب فى كل شىء تقع عينه عليه : « ما أقلَّ ما تحمِلُ من هذا فى صرَّتك ! »

خف ابن سهيل وانطلق فرحاً لما استُؤذِنَ لعبد الرحمن عليه بعد غيبة أيام رآها أطول من حقيقتها ، لما حدث له فيها من أمور كبيرة جعلته يودع عهداً ويستقبل عهداً ، فما إن رأى عبد الرحمن حتى عانقه عناقاً حاراً عجب له عبد الرحمن ، إذ لم يألف من صديقه مثل هذا من قبل ، ولم تكن المدة التى غابها عنه من الطول بحيث تقتضى مثل هذه التحية البالغة عند اللقاء ، ولكنه لم يسعه إلا أن جامل صديقه ، فقابل عناقه بعناق مثله . ولو أن ابن سهيل نظر فى عينى عبد الرحمن إذ ذاك لرأى فيهما دلائل الاستغراب والتساؤل ، ولكنه كان من الشوق والفرحة بلقاء عبد الرحمن بحيث لم تكن له معهما فرصة لملاحظة ما تتركه تحيته من الأثر فى صديقه ، فقد اندفع فى ذلك اندفاع الشقيق إلى شقيقه بعد غيبة حلت فى أثنائها كارثة بأحد من يعز عليهما ، فاعتنقا متواسيين !

فأجابه عبد الرحمن قائلا :

— كنت مشغولاً يا ابن سهيل .

فسأله ابن سهيل سؤال العاتب :

— أى شغل يا عبد الرحمن ؟

فقال له :

— بعت مالى الذى ورثته عن أبى بالوادى .

فعجب ابن سهيل ولم يفهم ماذا حمل صديقه على بيع ضيعته التى يعيش منها ، فقال وقد أخذته الدهشة :

— بعته ؟

نادراً جداً فى الفن الساسانى ؛ بل إن ذيوعه اقترن فى القرنين الماضيين بانحطاط الذوق الفنى والميل إلى الألوان البراقة والنظر إلى القيمة المادية فى التحف والأعلاق ، مما نراه واضحاً فى معظم التحف الإيرانية فى القرن الماضى .

وبعد فإن فى بعض المتاحف الأوربية ، ولا سيما متحف الهرميتاج بمدينة لينينغراد ، أباريق تشبه التحفة التى نحن بصددها الآن(1) ، ولكنها لا توازيها فى إناقة الشكل ودقة الزخارف وجمال الرسوم ، مما جعل علماء الآثار لا يعترضون على ما ذهب إليه الدكتور زره من نسبتها إلى آخر خلفاء بنى أمية ، على الرغم من أنه لم يؤيد هذا الزعم بأى دليل يمكن الاطمئنان إليه .

على أن هذه التحفة التى ترجع إلى القرن الأول الهجرى تمثل عصر الانتقال من الفنون الساسانية إلى الفنون الإسلامية ، وإن تكن لا تزال محتفظ بطابعها الساسانى ، وتذكر بما بلغه الفنانون الإيرانيون وتلاميذهم من إتقان فى صناعة المعادن .

زكى محمد حسن

(1) انظر H. Glück und Diez : Die Kunst des Islam ص ٤٤٢ و F. Sarre : Die Kunst des Alten Persien : اللوحة رقم ١٣٦ .

فقال عبد الرحمن والخجل يعقد لسانه :

— نعم . . . وهذا ثمنــه أتيتك به (وأشار إلى صرة وضعها أمامه) ، فهل لك أن تبيعني سلامة يا ابن سهيل ؟

فشعر ابن سهيل كأن خنجراً شُكّ في صدره ، فتحامل على نفسه من الألم ، فقد أحس في تلك اللحظة بعظم المحنة التي نزلت به من الحجر على أمواله ، حين رأى عبد الرحمن وقد باع ماله وأتاه يستعين به في سلامة ، فلم يقدر على أن يحقق له أمله ، ولكنه تجلد ، واصطنع الهدوء وقال :

— أبيعك سلامة ؟ كيف يا عبد الرحمن ! . . إنها قد بيعت أمس لرجل من المدينة من آل رمانة وسيتسلمها عشية غد .

فانتفض عبد الرحمن وقال غاضباً — وكأنه لم يصدق ما سمع :

— أو قد فعلتها يا ابن سهيل ؟

فأجابه ابن سهيل بلهجة تسيل حناناً ورقة :

— لست أنا الذي بعتها يا ابن أبي عمار ، وإنما باعها عني القـاضي . . . لعلك لم تعلم أنهم حجروا على حجر تفليس ، وقوموا كل ما أملك ، حتى هذا القصر الذي أسكنه ، ليقسم على دائني .

وتوقف هنيهة ثم قال :

— ولقد توسلت إليهم أن يتركوا لي سلامة ، فلم يفعلوا .

فوجم عبد الرحمن لحظة ذهب فيها فكره كل مذهب ، ثم قال :

— أليس في وسعك أن تحمل القـاضي على أن يبيعها لي ؟

فقال ابن سهيل :

— لا أحسب الرجل المدني يا عبد الرحمن يتنازل عن صفقته ، فهو من عشاق الغناء ، وقد سمع بأنها تجيده فأغلى ثمنها حتى دفع فيها تسعمائة دينار ، فكم عندك من المال ؟

فأجابه عبد الرحمن بصوت خافض :

— مائتان وخمسون ديناراً .

فتنهد ابن سهيل قائلا :

— ياليتك ياعبد الرحمن قبلت هبتي إذ عرضتها عليك .

فقال عبد الرحمن :

— يا ليت ذلك كان . والله ما منعني من قبول ذلك إلا أنك كريم ، وقد بلغني أنك قد وقعت في ضيق ، فلم أشأ أن أرزأك في مالك . والله إني لأحبها حباً قاتلا كبدي ، وما منعني أن أشكو بثي إليك إلا حيائي منك .

فاغرورقت عينا ابن سهيل بالدمع وقال :

— إن لهذه الجارية نفاسة عندي ، وقد رأيت كلفك بها وكلفها بك ، فأحببت أن أوثرك بهـا على نفسي ، ولا أكتمك يا عبد الرحمن أني قد كنت أشعر أنهم سيحجرون علي يوماً ما ، ولكني ما كنت أظن أن الحجر سَيُمضَى على بهذه السرعة ، ولو قد علمت ذلك لأعتقت رقبتها فلا يجدون إليها سبيلا .

فبكى عبد الرحمن وقال بصوت تخنقه العبرة :

— ما أدري والله يا ابن سهيل أأبكي لمصابي أم أبكي لمصابك ؟

فقال ابن سهيل وقد مسح دمعة كبيرة تدحرجت على خده ، وتظاهر بالجلد والشدة :

— خفض عليك يا عبد الرحمن فسيجعل الله لك من العسر يسراً . إني أكبر سناً منك ، وقد بلوت من هذا ما بلوت ، فوجدت أن لكل شيء نهاية . . . حتى هـذا الحب الذي يفلق الكبد ويحرق حجاب القلب نهايته السلوان .

فقال عبد الرحمن وقد ظهرت عليه دلائل العزم :

— لقد علمت أنى لن أسلوها ما حييت ، ولكنى سأعتصم بالصبر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . فهل لك أن تجيبنى إلى رجاء لا يثقل عليك إن شاء الله .

قال ابن سهيل :

— اطلب ماشئت ، فوالله لا أمنعك شيئاً أقدر عليه .

فتناول عبد الرحمن الصرة فقدمها إليه قائلاً :

— اقبل هذه منى لتستعين بها على بعض شؤونك ، حتى يجعل الله لك من ضيقك مخرجاً .

قال ابن سهيل بلهجة حازمة :

— أما هـذا يا عبد الرحمن فلا ، إنك لأحوج إليها منى .

— كلا يا ابن سهيل ، إنى فى غنى عنهـا ، فإنى أكسب من عملى فى السوق ما يزيد على حاجتى .

— منذ كم عملت فى السوق يا عبد الرحمن ؟

— منذ عرفتكم يا آل سهيل .

فابتسم ابن سهيل ابتسامة يخالطها الأسى وقال :

— إنك لأكرم منى يا عبد الرحمن . عرضتُ عليك بعض مالى فامتنعتَ ، أفلا أمتنع أنا وقد عرضتَ علىّ كل مالك ؟

فتنهد عبد الرحمن قائلا :

— إن الدنيا كلها لا تساوى سلامة فى عينى !

قال ابن سهيل :

— فما الذى منعك من قبولها إذ عرضت عليك ؟

فقال عبد الرحمن ، وكأنما اقتلعها من قلبه :

— الشقوة التى غلبت علىّ !

سكت ابن سهيل لحظة ، كأنه يفكر فيما عرضه عليه عبد الرحمن ، ثم قال :

— لا يا ابن أبى عمار . . . أمسك عليك مالك ، فلو قبضته منك لاستحقه الدائنون . . . وبعد فإنى أشكرك وأعرف لك فضلك .

فتأوه عبد الرحمن وقال : وا رحمتاه لك يا ابن سهيل ! كان لهذه الكلمة وقعها عند ابن سهيل ، فعادت له رقته ، وغلب عليه البكاء وهو يقول :

— الله لى ولك يا عبد الرحمن ! إنى والله ما آسف على شىء فاتنى من هذه الدنيا إلا أن فى مكة بيوتاً لأرامل ويتامى لا عائل لهم وكنت أنفق عليهم ، فما أدرى والله ماذا يكون حالهم بعدى !

فقال عبد الرحمن :

— ما أكرمك يا ابن سهيل . . . ما ينبغى لكريم مثلك أن لا يكون عنده مال ينفق منه .

وأحب ابن سهيل أن يصرف الكلام عن نفسـه ، وتذكر سلامة ، وقدر فى نفسه أن عبد الرحمن كان يريد السؤال عنها فمنعه الحياء وحال الوقف دون ذلك ، فابتدأ الحديث عنها قائلا :

— ألا تحب أن ترى سلامة قبل رحيلها يا عبد الرحمن؟

فخفق قلب عبد الرحمن ، وقال والحياء يعقد لسانه :

— بلى يا ابن سهيل .

— إذاً فأتنا غداً فى الصباح لنتغدى معاً ونقضى يوماً سعيداً .

وكأن عبد الرحمن استبعد هذا الموعد ، فهو يريد أن يراها فى تلك السـاعة ، وليس فى وسعه أن ينتظر إلى الغد ، وخيل إليه أن غداً جد بعيد ، وخشى أن تجد أمور تحول دون رؤيتها ، فقال :

— شكراً لك يا ابن سهيل . سآتى غداً إن شاء الله ، ولكن أين سلامة الآن ؟

فأجابه ابن سهيل :

— أحسبها ذهبت لتودع صواحبها ومعارفها . . . أتحب أن تنتظرها حتى تعود ؟

فاستحيا عبد الرحمن أن يقول له نعم — وكان يوده ذلك — وتذكر صلاة المغرب ، فقال :

— لا يا ابن سهيل ! بل تأذن لى بالانصراف .

قال ابن سهيل :

— على أن تأتينا غداً .

قال عبد الرحمن :

— إن شاء الله .

الفصل الحادى عشر

خرج عبد الرحمن من عند ابن سهيل فقصد تواً إلى المسجد فصلى المغرب ، ثم طاف بالكعبة ما شاء الله أن يطوف ، وهو فى ذلك شارد اللب ذاهل الحس ، تجىء به الخواطر وتذهب ، كأنما قد ألقى منها فى بحر لجى متلاطم عبابه وتصطخب أمواجه ، فهو منها فى كَبَد ترفعه موجة وتهبط به أخرى ، ويرى الناس يقومون ويقعدون ، ويطوفون ويصلون ، وكأنه يرى أخيلة تتراقص أمامه ، وأشباحاً تضطرب من حوله ؛ ويتصفح وجوههم فينكرها ولا يكاد يعرف فيها وجهاً ؛ ويعود إلى نفسه فيتحسس جسمه كأنه يشك فى موقفه ذاك ويريد أن يتبين : أحى هو يضطرب بين الأحياء ، أم ميت قد بعث مع الأموات فى يوم الحساب ؟

نسى عبد الرحمن فى ذلك الموقف كل شىء ، وشك فى كل شىء ، وشعر بالخوف والاستيحاش من كل شىء ، فكأنما خرج من هذا العالم إلى عالم جديد لا صلة له به ، ولا عهد له به من قبل . أهذا هو المسجد الحرام الذى كان يغشاه صباح مساء منذ عقل نفسه ؟ أهذه هى الكعبة التى يصلى إليها ويطوف بها ويدعو أمامها مراراً كل يوم ؟ أهو عبد الرحمن بن أبى عمار الذى لقبه أهل مكة بالقس ؟ أفى يقظة هو أم نائم تتلاعب برأسه الأحلام ؟ وينظر إلى الصرة التى يحملها معه فلا يدرى ما هى ولماذا يحملها ويحتفظ بها ؛ ويسمع أذان العشاء فلا يعى منه إلا ما يعيه المجهّد من حديث القوم قد غلبه النعاس بينهم .

وأقيمت الصلاة فقام مع القائمين ، وصلى مع المصلين ، ثم خرج من المسجد مع الخارجين ، وحملته قدماه من حيث لا يشعر إلى حيث انتهى إلى باب داره ففتح الباب ثم أغلقه عليه وصعد إلى غرفته ورمى بنفسه على فراشه فوقع جنبه على الصرة التى كان يحملها فى يده ، فأحس بألم شديد أيقظه من غمرته ، فجعل يبحث عن مصدر الألم فوجد الصرة فرفعها ونظر إليها مليًّا فتذكّر . . .

تذكر الضيمة وكيف باعها ولِمَ باعها ، وتذكر سلامة وكيف عزّت عليه ويئس منها ، وكان يراها إلى أمس القريب أملا سهل التحقيق دانى المجتنى لو توقفه بكرم ابن سهيل وعطفه عليه وحبه لمساعدته . ولكن وَيْحَ ابن سهيل ! لقد حُجِر عليه بالتفليس وبيعت أملاكه وأمواله ، ولم يبقوا حتى على قصره الذى يقيم فيه ، وجاريته التى يؤثرها ، فأصبح بعد ذلك الثراء الواسع والنعمة السابغة والموائد المنصوبة للضيوف والمجالس العامرة بالأنس والغناء والندماء من المغنين والشعراء ، فقيراً لا يملك أن يسعد صديقاً عزيزاً عليه ، أو ينفق على أهل بيت أخنى الزمان عليهم .

(يتبع) على أحمد باكثير

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	قرش	
لستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	الطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ مليم قرش صاغ

على هامش الأسبوع

لصاحب الامضاء

مرتبات الموظفين :

قررت اللجنة الوزارية ، وأمَّن على قرارها مجلس الوزراء ، أن يُمنح صغار الموظفين والعمال علاوة مقدارها عشرة في المائة من المرتبات التي لا تزيد على عشرة جنيهات . وقد اتضح للجنة أن هذه العلاوة ستكلف خزانة الدولة مليوناً ومائة ألف من الجنيهات .

وبعملية حسابية بسيطة يتراءى لنا أن هذه المرتبات التي ستُزاد تبلغ أحد عشر مليوناً من الجنيهات . وميزانية الباب الأول كله ، وهي مرتبات الموظفين أجمعين ، تبلغ ستة عشر مليوناً . وكان بودّنا أن نعلم كم تكلّف هذه العلاوة لو أنها امتدت إلى المرتبات التي لا تزيد على العشرين ، ثم التي لا تزيد على الثلاثين ، وهلم جراً ، لنستطيع أن نحسب منها كم مرتبات هذه الفئات ، إذاً انتبين لنا ، كما تبين المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا في زمان مضى ، أن صغار الموظفين ، والفئة الدنيا من متوسطيهم ، تستغرق الجانب العظيم الأعظم من مرتبات الوظائف . وأن الذين عالجوا ويعالجون الأزمات المالية فيما مضى وفيما يستقبل من الأيام ، إذا هم اعتمدوا في موازناتهم على إنقاص هذه المرتبات ، اعتمدوا على مورد لا يدرّ عليهم إلا قليلا ، وأقل جداً مما أمّلوا .

فهذه الأحد عشر مليوناً كيف يمكن إنقاصها ؟ أبإنقاص مرتب ذي التسعة الجنيهات وذي الخمسة وذي الثلاثة ؟ وقد يكون رجلا فرداً يعول أفراداً . أم بإقالة بعض هذا العدد الوفير ، فإلقائهم ومن يعولونهم بغتة في الطريق العام ، ليجوعوا على جوانبه أو يستجدوا أكف الناس . ثم الملايين الأخرى التي تلي هذه ، والتي هي مرتبات ذوي العشرة والعشرين من الجنيهات والذين بينهما ، كيف يمكن انتقاصها ، وهذه العشرة والعشرون لا تكاد تفي لهؤلاء ومن يعولونهم إلا بالكفاف من عيشة الانسان الدنيّ الذي لا يطلب إلى جانب القوت البسيط والملبس البسيط والسكن البسيط إلا شيئاً من النظافة يسبغها على هذه الضرورات الثلاث ليستطيع أن يميّز بين نفسه وبعض البهائم ، وإلا شيئاً من التعليم الأدنى يشتريه لبنيه ليدفع به عنهم أضرار الجهل المطبق ، وليكسبهم به آلة يرجو أن تنفعهم في صيد أرزاقهم من موارد عكرة زاد عكرها على الأيام لكثرة وارديها ؟

إن مسألة الموظفين ، أو على الأدق الأضبط مسألة مرتباتهم ، قد حُلّت ، حلتها الظروف الطارئة . فنفقة المعيشة زادت نحواً من ٥٠٪ عما كانت ، فكأنما أنقصت المرتبات جميعاً ثلثاً فصارت ثلثين ؛ فالذي مرتبه ٣٠ جنيها صار وكأنما مرتبه ٢٠ جنيهاً ، والذي مرتبه عشرون صار وكأنما مرتبه ١٣⅓ جنيهاً . فالحديث في هذه المسألة حديث في غير أوانه .

إنما الذي نريده أنه إذا أثيرت هذه المسألة مرة أخرى ، يجب أن تثار ومعها أرقامها . إن المسألة اقتصادية بحتة ، والمسائل الاقتصادية لا تحل فيكون حلها موفقاً إلا في جوّ الأرقام الباردة ، وهي لا تحل في جو ساخن من الصرخات والعواطف والشهوات . على أني أعد من يريد أن يهاجم الموظفين لحاجات في النفس ، أني كفيل بأن أدلّه على ثغرات عدّة ، كلها قائلة ، لا تتصل بمرتبات الأكثرية منهم بقدر ما تتصل بأعمالهم وواجباتهم ، والفروض التي يجب عليهم أداؤها للأمة عوضاً من هذه المرتبات .

بين الموظف والعامل :

على أن المفكر لا يستطيع أن يذكر الموظف دون أن

يذكر معه الفلاح والصانع . وهما الفئتان الأخريان الكبيرتان اللتان تأكلان من سواعدهما . وهما لا شك المنتجان الأولان في اقتصاد هذه الأمة وفي اقتصاد كل أمة . فأجور هاتين الطائفتين في مصر هي دون كرامة الانسان الدنيا ، بل هي في أكثر الأحوال قد تنزل عن حاجات الانسان الفطرى ، وهنا يهول القارئ فرقُ ما بين الموظفين في عمومهم والفلاحين والصناع في عمومهم ، فيثب سريعاً إلى الحل السريع الآتي : أن لا علاج إلا بالأخذ من هذا وإعطاء هذا . وهو حل سهل . أحسن ما به سهولته ، والسهولة لها إغراؤها لاسيما إذا استمدت سندها من قواعد الحساب الأولى . فالصانع والفلاح لديهما شيء ناقص ، فهما يمثلان عملية طرح ، والموظف عنده شيء زائد ، فهو يمثل عملية جمع . وقد علمنا الحساب أن الشيء الناقص إذا ضُمّ إلى الزائد أنتج تعادلا . ونسى أن هذا التعادل أيضاً في حاجة إلى أرقام ، فعشرة زائدة لا تعدل ألفاً ناقصة أبداً .

وأكثر من يغرى بهذا الحل ، وأكثر من يلهج به فئة الملاك الكبيرين . ومن هؤلاء صاحب دولة ، صار حديث الموظفين داءً له في كل مناسبة ، يصرخ به كما يصرخ صاحب الدمّل في المكان الحرج كلما جلس . ومن هؤلاء أيضاً أستاذ في الجامعة نشر منذ حين دعوة في جريدة يطلب بها تخفيض مرتبات الموظفين ، وهو الموظف ، ثلاثين أو أربعين في المائة . فكانت تضحية منه كبيرة حمل لها صكاً ضخماً ، كُتب على ظاهره أجمل معاني الوطنية وأسمى المعاني الانسانية ، ولكنه على ضخامته لم يستطع أن يخفى وراءه ثروة شخصية هائلة تتضاءل إلى جانبها مرتبات الوزراء .

بين المزارع والمالك :

فأكثر من يفزع إلى هذا الحل مموّلون كثيرو المال إذا تبصر المتبصر في أمرهم شق عليه أن لا يستنتج أنهم إنما يريدون بهذا تحويل التيار عن ذواتهم ومن إخوانهم من الأثرياء . فإن صح هذا فلا لوم عليهم ولا ملامة ، فإنما يدفعون عن أنفسهم في معترك لا تزال قوى الجهالة الغاشمة تتدافع فيه .

على أن حَدَب هذه الفئة على الفلاح والصانع كان مقبولا مستورا ، ما جرى هذا الحدب في حدود طبيعية معتدلة . ولكن الظروف الأخيرة أتاحت لكثير من المموّلين الأعاظم أن يصعدوا إلى خشبة المسرح التي نصبتها أزمة القطن الماضية ، فيمثلوا أدواراً ما كانت لتلبس إلا فلاحاً فقيراً ، وأن يسكبوا في هذه الأدوار دموعاً ما كانت تسكبها إلا عين فلاح له في البؤس نسب قديم . فنادوا وصرخوا من أجل الفلاح . وأعولوا وولولوا من أجل الفلاح ، حتى علاقات الإله الكبرى ممّا شرد من أقلامهم المحترقة فشاطت أو كادت من أجل الفلاح . ولكن هذا الغلو أفسد الرواية على المتفرجين فتسرب الشك إلى قلوبهم ، وزاد في تشككهم تلك الأيدى المقبوضة ، إذ خالوا ظلما أن بها ما لو قُرّب إلى عين تمساح لجرى دمعه ، وفاتهم أنها إنما قُبضت بحكم العادة ، فهي كانت مقبوضة قبل الصعود إلى المسرح ، وهي ظلت مقبوضة بعد النزول عن المسرح . والفلاح الأجير الفقير ظل برغم ارتفاع السعر هو هو الفلاح الأجير الذي يأخذ الثلاثة القروش عن عمل يومه الطويل — برغم رفع السعرين ، سعر القطن وسعر الذرة ، وذلك إنتاجه وهذا غذاؤه . ولم يفكر أحد من الممثلين ولا من المتفرجين أن يذهب بالرواية إلى نتيجتها اللازمة ، فيضيف إليها فصلا يكون الخاتمة ، يأتلف وسائر فصولها ، فصلاً يتضمن تشريعاً لحد أدنى لأجر الفلاح ، يجبر الملاك على أدائه له من شقاء يومه .

كلنا فقير :

ولا يظنن ظانّ أني بهذا أريد أن تُحمّل محنة الفلاح والصانع على قفا الموظف بعد أن أوحيت إلى القارئ بأن

فقد الموظف لا يتسع لها . فأما في أمر المول أطلب الأرقام كما طلبتها في أمر الموظف ، وأغلب الظن أن في هذه ، كما في تلك ، ستخيّب الأرقامُ الرجاء .

إننا في هذا البلد ، في أوضاعه الحاضرة ، كأننا فقير . وأخذ القليل من هذا لاعطائه لهذا يسكّن لا شك آلاما واجبٌ تسكينها ، ولكنه لا يزيد في ثروة الأمة شيئاً .

إن أحاديث القوم عامة ، في البرلمانات وفي المقاهي والندوات كلها تدور حيث تدور فيما يسمونه بالسياسة على أحاديث عدة لو حللتها لرددتها إلى موضوع واحد ، هو إعادة توزيع هذا القليل الذي للأمة على زيد وعمر وخالد ؛ فقوم يريدونه لزيد أولاً ، ثم لعمرو وخالد ؛ وقوم يرون أن يكون لعمرو أولاً ، ثم لخالد ، ثم زيد . والمجموع هو هو ، لا زاد ولا نقص . ويحتج هذا لزيد وتكون حجته النامقة . ويحتج هذا لعمرو وتكون حجته الدامغة ، ولا يكاد يفطن أحد إلى أن العلة ليست في « كيف نقسّم » ولكن في « قلة ما نقسم » . إن الحصير الذي يتسع لخمسة قد يتسع لستة إذا هم تقاصروا ، وقد يتسع لسبعة إذا هم تقاصروا وتكوّروا ، ولكنه لا يتسع لعشرة مهما تقاصروا وتكوّروا .

زيد الشاعباً لا استريحوا :

وكذلك الحكومات . اقرأوا برامجها يوم تتولى الأحكام : حفر ترع . ردم مستنقعات . بناء مستشفيات . ماء صالح للشرب . رقيّ بالتعليم . توسيع للجيش ، إلى آخر ما هنالك من أمور ألفها السمع طويلا حتى صارت كأنها بعض التعاويذ . وكل هذه أبواب للنفقة . واختلاف البرلمان فيها إنما هو اختلاف في التقسيم والتوزيع . ثم تتقرّى أبواب الانتاج ، أبوابَ جمع هذا الذي يتقسم ويتوزع ، فلا تجد إلا أبواباً قديمة كلاسيكية ، من ضريبة جمرك وضريبة إنتاج وضريبة عقار وما إليها . ثم إذا خرجت هذه الحكومات في برامجها إلى الكلام من ثروة الأمة ، وعدت وعوداً عامة عائمة من الأخذ في زيادة الثروة . ويدور العام فالعام ، والثروة لا تزيد أبداً ، فإن زادت قليلا فبغير أيدي الصميميين من أبناء الأمة ، ولغير أفواههم ، وبالأخص وفي الأكثر لغير مجهود مباشر من مجهودات الحكومات والبرلمانات .

الحزب الاشتراكي الجديد :

وتحدثوا عن تأسيس حزب جديد . ونشرت مجلةٌ زميلةٌ ما اقترحوا لهذا الحزب من مبادىء . وتحدثت هذه المبادىء عن أمور كثيرة ، إدارية وسياسية ، داخلية وخارجية . أما الاقتصاد فلم تمسه إلا في موضعين : أحدهما « تعزيز الدمقراطية السياسية بدمقراطية اقتصادية » . وثانيهما « تقديم الخبز والعلم لكل فرد وتأمينه ضد التعطل والمرض والشيخوخة والاصابات » . وكلاهما يتعلق بتقسيم الثروة ، كيف يكون ولن تكون . وليس في هذه المبادىء مبدأ واحد يحدثنا من هذه الثروة نفسها كيف تكون .

إن الاشتراكية معنى جميل في بلد ثراؤه عظيم ، وفقره عظيم . وهي في بلد هذا حاله عملية تقليم فتطعيم . أما في مصر ، وثروتها هي ما نعلم ، وثروتها في الوضع الذي نعلم ، وسياستها العملية تتجه الوجهات التي ألفناها وعرفناها وأنفُ النظريات راغم ، لا تكون الاشتراكية فيه تقليما فتطعيما ، بل تقليما فتعقيما في كل ما يختص بنا نحن السادة المصريين .

ومع كل هذا فرحبا بحزب الاشتراك إذا سبقه أو تتوأم له حزب إنتاج . ويكون لحزب الاشتراك أنثيات الأدمغة في مصر . ويكون لحزب الانتاج ذكورها . لأن الحزب الأول حزب نفقة والنفقة هينة ، وهي من شأن النساء . ولأن الحزب الثاني حزب كسب ، والكسب عنت ومشقة ، وهما من شأن الرجال . (ن)

قصة صينية:

آباء وأمهـــات

للكاتبة الأمريكية بيرل بك Pearl S. Buck

في ذلك الطرف من الأرض الجافة التي ترتفع عن فيضان الماء ممتدة من الأفق إلى الأفق ، أكواماً مما يلوح كأنه حطام . وبكل كومة بضعة مقاعد خشبية ، ومنضدة خشنة الصنع ، وصوان صغير ، وقدر حديدية فوق قاعدة مفرقعة من الفخار قد كساها الدخان بالسواد .

ولكن القدر باردة ، ولقد ظلت باردة لأسابيع خلت ، فما من وقود يشعل تحتها . . . لقد أخذ الفيضان كل شيء !

وكل كومة من تلك الأكوام هي كل ما تخلف من بيت ومزرعة . وأما الباقي فإنه يرقد تحت ماء الفيضان ، حيث ترقد أيضاً المحاصيل التي زرعت ولم تحصد قط !

وحول كل كومة من بقايا الأمتعة جماعة من الناس : رجل وامرأة وأطفال ، وربما زادوا شيخاً أو امرأة عجوزاً ، وإن كان لا يوجد من هؤلاء إلا القليل ؛ حتى لتتألف الجماعات في أغلب الأحيان من أب وأم وأطفالهما ؛ على أن هنالك نوعاً من النزاع الخفي متصلاً بين الآباء والأمهات ، وإلا فصمت مروع . ولكن ، فيم النزاع يا ترى ؟

ها هو أب ، فلاح شاب ، يصوب نظرات عابسة إلى زوجه الشابة ، لا بد أنهما زوجا صغيرين ؛ فبالرغم من أن كل أولئك الأطفال الخمسة أطفالهما ، فإن الطفل الأكبر لا يعدو الثامنة ، والأب لا يزيد على السادسة أو السابعة والعشرين . أما الأم فتبدو أصغر من ذلك .

والأب أسمر اللون قوي البنية ، وإن كان يبدو الآن شديد النحول ؛ ولكنه رجل من أولئك الذين تراهم في الريف حيثما ذهبت ، رجل يحب أرضه ويعتز بحرث حقوله ، وبأكوام حبوبه الصفراء ، وبطيبات ما ينتج . يعتز بها جميعاً لأنها ثمرة جهده ، فهو فخور بأن يكون قوياً مدبراً . ثم هو طيب الوجه ، حتى الآن وهو عابس ، وإن بدت عليه أمارات الجد والصرامة إلى حد ما ، أما عيناه فصريحتان ، وإن امتلأتا باليأس .

والأم لا تنظر إليه إلا خفية ثم تتحول عنه مسرعة ، لقد كانت فتاة قروية حسناء مستديرة الوجنتين ، طليقة القدمين ، ذات جسم قوي حسن التكوين ، لولا نحافة طارئة . ولكن عينيها غائرتان ، وشعرها الأسود متلبد ، قد شعثته الرياح ، إذ أنها لم تمشطه منذ أيام ، وشفتاها جافتان رماديتا اللون ، وإن كانت لا تفتأ تبللهما بلسانها .

إنها في شغل دائم ! . . . فهي تراقب الأطفال باستمرار ؛ واثنان منهم لا يفارقانها أبداً : أحدهما إلى ثديها الذي لم يعد سوى قطعة من الجلد المتجعد ، ولكنه ذلك المخلوق الشاحب الصغير الذي تضمه فيسكن إليه رغم أنه خاو ، ثم يئن زمناً في خفوت . والطفل الآخر بنت صغيرة ، لها من العمر عامان ، مخلوق صغير ذابل يظل في صمت تام ، وقد لزم السكون بين ذراعي أمه . أما الأطفال الثلاثة الآخرون فلا يتحركون كثيراً ؛ ولكن عندما يفلت أحدهم قليلا ، أو يذهب نحو حافة الماء ، يعلو صياح الأم ، ثم لا تهدأ حتى ترى الأطفال جميعاً قريباً من يديها .

وهذا القلق أخص ما ينتابها بالليل ، إذ تضع كل الأطفال حولها ولا تكاد تنام على الاطلاق .

عشرات المرات تفزع من نعاسها ، وتمر بيديها مسرعة على الأطفال ، هل هم جميعاً تحسبهم هناك ؟ . . . أين الطفلة الأخرى ؟ آه ! ها هي ذي ! إنهم هنا . ولو بدرت من الأب مجرد حركة لصاحت محتدة : « ماذا تصنع ؟ ماذا جرى ؟ » ، وأحياناً ينفجر الأب في لعنة

مرة عليها . فتدرك السبب ولكنها لا تجيب بلفظ ، بل تدنى الأطفال منها ، وتمدهم مرة بعد مرة فى الظلام .

وعند ما يأتى الصباح تحاول أن تحدث مرحا كأن لديها طعاما كثيراً تجهزه ، فتأخذ قليلا من ماء النهر البارد وتمزجه فى جزء قليل مما بقى من الدقيق ، محاولة أن تقول فى ابتهاج : « حقاً أن الباقى من الدقيق أكثر مما كنت أتوقع ! إن لدينا ما يكفى عدة أيام » .

وهى أبداً حريصة على أن تدبر للأب النصيب الأوفى ، وأما ولداها الكبيران فتسكت صياحهما فى فزع ، وهى تعاود النظر إلى الرجل الذى يحدق فيهم جميعاً باكتئاب دون أن يقول شيئاً .

أما نصيبها فأقل الأنصبة ، وإن كانت تتعمد رفع صوتها أثناء رشفها له . وإذا استطاعت فإنها لا تطعم شيئاً ، مدعية أنها غير جائعة أو أنها تحس ألماً داخلياً ، وإذا أمكنها أن تكف لحظة عند ما يدير الرجل ظهره ، فإنها تطعم طفلتيها الصغيرتين فى خفاء وسرعة .

ولكن الأب لا يخدع ، إذ يزأر صائحاً فى وجهها إذا رأى ما صنعت : « لن أدعك تموتين جوعا ولو كان فى موتك حياة لإحدى هاتين » . ثم لا يطمئن حتى يراها ترفع قدحها إلى شفتيها ، فتمص ما فى القدح فى رشفات صغيرة مقتضبة لتوهم أن نصيبها أكبر .

وبالرغم من كل ما تبذل من جهد فإن الرجل يعلم قلة ذخيرتهم ، ويعلم كيف يصيح الأطفال طلباً للطعام . إنهم لا يعبأون دائماً بتهدئة أمهم لهم ، فينفجر الولدان أحيانا معولين . لقد كانا من قبل ممتلئين متوردين ، وكان لهما كل ما يبغيان من طعام . أما الآن فلا يدركان كيف أن الماء قد طغى وغمر الأرض على تلك الحال ؛ وبدا لهما أن أباهما لا بد أن يلتمس مخرجا . أما هو فيذهب حينئذ ويجلس إلى حافة الماء ، ويضع يديه على أذنيه بينما يعول الصبيان .

فى تلك الأوقات يتجلى الفزع على وجه الأم ، فترجو ولديها هامسة : « لا تسوقا أباكما إلى اليأس ! اهدءا ! اهدءا ! » وما إن يريا وجهها حتى يتملكهما الخوف فيصمتا شاعرين بالخطر دون أن يعلما حقيقته .

وهكذا يستمر الصراع الخفى المروع بين الأب والأم ، فكل يوم ينقص الدقيق فى السلة بينما الفيضان لا ينحسر ، وفى كل ليلة تمد الأم أطفالها فى الظلام .

ولكنها لا تستطيع أن تظل بغير نوم إلى الأبد ، فتجىء ليلة يغلب النوم — على غير وعى منها — جسمها المضنى على الجوع ، فتنام وذراعاها مبسوطتان على الأطفال ، ولكنها لا تنتبه حين يتحرك الأب ويهمس للبنتين الصغيرتين الصامتتين ، فتتبعانه فى اطمئنان لمسافة قصيرة ، يعود منها متعثراً بمفرده بعد لحظة ، ويرقد فى الظلام ، ثم يزفر زفرة عميقة أو زفرتين تنبعثان منه كالأنين .

وفى الفجر الأشهب تستيقظ الأم فجأة ، فإذا هى فى فزع حين تدرك — حتى قبل أن تستيقظ — أنها كانت نائمة . إنها تتحسس أطفالها . . . أين الأخريان ؟ . . . ثم تصرخ وتقفز بقدميها شاعرة بقوة جنونية ، إنها تهرع إلى زوجها وتمسكه وتصيح فى وجهه : « أين الطفلتان ؟ » . . . ها هو يجلس القرفصاء على الأرض ، ركبتاه إلى أعلى ورأسه على ركبتيه . . . إنه لا يجيب .

الأم فى غير وعيها . . . إنها تبكى فى حرقة ، وتهز الرجل من كتفيه وتصرخ فى وجهه : « إنى أمهم ! إنى أمهم » .

فيوقظ صياحها كل فرد فى ذلك المأوى البائس ، ولكن ما من صوت لمتكلم . . . كل إنسان يعرف كنه ذلك النزاع ، فقد كان مثله فى كل مكان .

وتنفجر الأم فى أنات مروعة ، ثم تقول فى شبه حشرجة : « أيعقل أن تأتى أم أمراً مثل هذا ؟ ! ! إنهم الآباء ، فحسب الذين لا يحبون أبناءهم ، ويضنون

عليهم بقليل من الطعام » .

وحينئذ فقط ينطق الرجل الواجم ، إذ يرفع رأسه من فوق ركبتيه وينظر إلى المرأة في غبش الفجر وهو يتمتم :

« أتظنين أني لم أكن أحبهم ؟ ! ! ! » ثم يدير رأسه جانباً ، ويقول ثانياً بعد حين : « لن يقاسوا ألم الجوع بعد اليوم ! » .

وحتى الأم ينعقد لسانها ، حين ترى وجهه الملتوى من الألم .

ملكة عبد العزيز

أنباء وآراء

الحلف العربي

أهدى صاحب السعادة فؤاد أباظه باشا إلى هذه المجلة مقاله القيم في الحلف العربي وخلاصته :

« أن المرحلة الأولى لبرنامج التحالف هي أن تترك لمصر الفرصة لتقوية نفسها ومعاونتها في تكوين اتحاد لأمم وادي النيل — فإذا تم لها تحقيق هذه الأمنية فستجد من معاونة انجلترا لها ما يساعدها على تأليف اتحاد عربي شرقي إسلامي — أعني تأليف اتحاد مكون من الدول الواقعة في الشرق — كفلسطين وسوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق وبلاد العرب السعودية وباقي الشعوب التي تقطن في شبه جزيرة العرب ، وكذلك إيران وأفغانستان وتركيا . ومن المأمول أن ينضم بعد ذلك في القريب العاجل إن شاء الله إلى هذا الاتحاد سائر الشعوب العربية الواقعة في الغرب — وهي ليبيا « طرابلس » وتونس والجزائر والمغرب الأقصى .

وقد كانت هذه الآراء وأشباهها معدودة قبل هذه الأيام من الأوهام ، ولكنها أصبحت بعد تصريح المستر ايدن وزير خارجية بريطانيا في شهر يونيو من عام ١٩٤١ في تكوين اتحاد عربي ميسورة التحقيق متى تضافرت الجهود وحسنت النيات .

حول مقال « اتجاهات الأدب الحديث »

حضرة صاحب العزة رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء .

بعد التحية . قرأت في عدد الثقافة الأخير تحت عنوان « اتجاهات الأدب الحديث » قول الكاتب : إن شوقي بك أبدع فيما أبدع وزناً مخترعاً يتمثل في قصيدته :

مال واحتجب وادعى الغضب

والحقيقة أن شوقي بك لم يكن إلا نحا كما البارودي في هذا الوزن في قصيدته التي مطلعها :

امْلَأِ القَدَحْ واعْصِ مَنْ نَصَحْ

وتقبلوا عزتكم فائق الاحترام .

محمد فؤاد ابراهيم

مجهود ثلاثين عاما

منذ ثلاثين عاما ترك الدكتور جورج شيفيلد أوليفر عمله الناجح كطبيب ذائع الشهرة في الولايات المتحدة ، واتجه صوب الأبحاث الكيميائية المتصلة بالزراعة ، معلناً أنه سيخصص أبحاثه للكشف عن مهمة الديدان في الانتاج الزراعي .

ومنذ شهرين فقط أعلن الدكتور شيفيلد أنه يستطيع أن يؤكد أنه ما من اختراع وصل إليه الانسان يستطيع أن يقوم بعمل دودة الأرض في الانتاج الزراعي . وأنه بغير المساعدة التي تقدمها دودة الأرض سواء للتربة أو لجذور النبات وعملية النمو فان الزراعة تصبح عملا شاقاً كثير النفقات وربما غير مجد بالمرة .

أما الطريقة التي أثبت بها الدكتور شيفيلد نظريته هذه فهي أنه استأجر مزارع واسعة وزرع فيها شتى أنواع الأشجار والأزهار والنباتات ، وقد راعى أن يزرع من كل نوع زوجا واحداً على طريقة واحدة ، إلا أنه

زرع أحد النوعين فى قطعة من الأرض أخلاها من الديدان خلواً تاماً والآخر فى تربة عادية تتخللها ديدان الأرض، ثم ترك لهذا التباين فى طريقة الانتاج أن يكشف من الفرق، فكانت النتيجة فى الأشجار مثلا أن الشجرة التى نمت فى تربة تتخللها الديدان بلغت فى خلال ستة أشهر ضعف حجم الشجرة التى نمت فى أرض خالية من الديدان، رغم استعمال وسائل الكيمياء الحديثة فيها، ولم تكن الضخامة هى الفارق الوحيد، بل ظهرت على الأولى النضارة والقوة والصلابة، على حين بدت مظاهر الشجرة الثانية من الضعف والهزال. ولم تتغير هذه النتيجة فى كل عمليات الانبات التى أجراها الدكتور شيفيلد.

أما العمل الذى يقوم به الدكتور شيفيلد اليوم بعد وصوله إلى هذه النتائج فهو كما صرح به: تقسيم أنواع الديدان بحسب أنواع النبات وعمل تجارب للكشف عن أصلح أنواع الديدان لكل نبات أو زهر، ثم الكشف عن الطرق الممكن إجراؤها للإكثار من نوع معين من الديدان.

فى ميادين العلم

توصل العلماء منذ سنوات إلى تركيب نوع من الفيتامينات المهمة تركيباً كيميائياً أطلق عليه اسم «الثيامين». وهذا المركب الجديد لا يختلف فى لونه وشكله عن ملح الطعام النقى الذى نطلق عليه «ملح السفرة». وكانت تكاليف إعداد الأوقية الواحدة منه أول ما توصل إليه هى ٥٠٠٠ من الجنيهات فأمكن اليوم أن تختصر تكاليف الأوقية إلى سبعة جنيهات، ويطمع العلماء أن يصلوا بها إلى نصف جنيه فى وقت قصير.

والثيامين هو التركيب الكيميائى لفيتامين ب ١، وهو مادة بيضاء متبلورة تستخرج من القطران؛ وأول من توصل إلى استنباطه الدكتور ر. ويليامز من معامل بل بنيويورك عام ١٩٣٦. ويعد العلماء اكتشافه أكبر ثورة فى نظام التغذية، إذ أنه ينبئ بغذاء جديد يوفر الصحة والنشاط لمن يقومون بأعمال شاقة، فمن وظائف فيتامين ب ١ تقوية الجهاز العصبى والمساعدة على النمو وصيانة الشهية، وهو يضاف إلى الدقيق العادى فيحيله إلى غذاء لاغنى عنه لبعث النشاط والتقوية.

وما يفكر فيه العلماء الآن هو الوسائل التى يمكن بها جعل الثيامين سهل التحضير وفى متناول الجميع، فإذا تم ذلك — وقد تحققت أول خطواته فى إنجلترا فى خلال الشهر الماضى حين أعلن من «دقيق محصن» سيوزع فى أنحاء الجزيرة لمقاومة الاقتصاد فى الأطعمة ولزيادة طاقة النشاط فى الكفاح الحالى — فهو لا شك بدء انقلاب جديد فى التغذية، ذلك أن الدقيق المحصن المشار إليه ليس إلا الدقيق المحتوى على الثيامين.

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين. مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٤٩ — الثلاثاء ١٥ من شوال سنة ١٣٦٠ — ٤ من نوفمبر سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

صور قضائية :

خصـــومة الأقارب

للقاضى الفاضل صاحب الإمضاء

جعلت دأبى فى كل ما يعرض علىّ من نزاع مدنىّ أن أبدأ بمحاولة التوفيق بين الطرفين ، لعلى أوفق فى إبرام صلح يسوى ما بينهما من منازعات . وكنتُ مهما بذلتُ فى هـذا السبيل من وقت أعتقدُ أنى أنا الرابح بحسم النزاع على هذه الصورة . لأن القضية التى تنتهى صلحاً لا تعود فى الغالب إلى المحكمة مرة أخرى ، ولأن الصلح ليست له عقابيل مثل تلك التى تتركها الأحكام القضائية عادة . إذ أن من يصدر عليه حكم قضائى يخرج من المحكمة وفى نفسه مرارة الهزيمة ، فتدعوه غريزة العناد إلى أن يطعن فى هذا الحكم . وما أكثر ما رسمته القوانين من طرق الطعن فى الأحكام . . .

فإن الحكم إن صدر « غيابياً » كان لمن صـدر عليه حق « المعارضة » فيه . .

وإن صدر « حضورياً » قابلاً للاستئناف كان له حق « استئنافه » . . .

وإن كان فى الحكم الاستئنافى أو غيره وجه « لالتماس إعادة النظر » فيه رفع عنه « التماساً » . . .

ثم هو من بعد كل ذلك قد يعاود طرح النزاع أمام

القضاء فى صورة ثانية وثالثة ورابعة ، حتى يستنفد كل ما للنزاع القائم من وجوه .

فاذا ما أصبح الحكم نهائياً ، وجاء أوان تنفيذه ، انفتحت أمام الطاعن آفاق جديدة للمماطلة والمماحكة ؛ وذلك بأن « يستشكل » فى تنفيذ الحكم ، ويكون هـذا « الاشكال » بدعوى جديدة ترفع إلى القاضى ليفصل فيها . . .

وقد جرى بعض هواة هذا النوع من النضال على أن يسخروا « أجنبياً » ليعترض طريق المحضر الذى يقوم بتنفيذ الحكم . وبذلك ينتقل النزاع من ساحة القضاء الأهلى إلى ساحة القضاء المختلط — كل ذلك لأن من صدر عليه الحكم لم يقبله ولم يسلم بآثاره .

وهنا يتجلى الفرق واضحاً بين إنهاء الخصومة « صلحاً » وبين إنهائها « قضاءً » .

* * *

ولقد لاحظت أنه مهما يكن النزاع فى أوله مستعصياً . ومهما تكن نيات الخصوم فى بدء الأمر سلبية متوترة ، فان اصطناع شيء من الصبر ، والدخول بين الطرفين بشيء من الكلام اللين ، وعرض بعض الحلول التى يراعى فيها التوفيق بين المصلحتين ، كثيراً ما كان يؤدى إلى عقد الصلح المنشود ، ويخرج كل فريق راضياً عن خصمه وعن نفسه ؛ اللهم إلا إذا كان هذا النزاع بين أفراد أسرة واحدة ، فهنا كنت أجد أكثر الشقة فى التوفيق . وكانت معظم محاولاتى تصاب بالفشل الذريع ، حتى كاد يستقر بى الرأى يوما من الأيام أن لا أحاول التوفيق قط فى منازعات الأقارب والأصهار ، لكثرة ما بذلت فيها من وقت مضاع ، وما لاقيت فيها من عنت مرهق ، وفشل مطبق .

* * *

وإن أنس لا أنس يوما عرضت فيه علىّ قضية أسرة تركية ، توفى عائلها عن مال موقوف ، وعن أطفال صغار . فتعينت أمهم وصية عليهم ، وبقيت تشرف على شئونهم حتى بلغ أحد أولادها سن الرشد ؛ فبدأ يطعن على تصرفاتها فى مال الوقف ، ويشكو منها كوصية على باقى إخوته . وظل ينازعها فى هذه الوصاية حتى توصل إلى استصدار قرار من المجلس الحسبى بإقامته هو وصياً على إخوته القصر بدلا منها .

وعند ذلك دخل معها فى نزاع طويل على حساب الوقف وغلته ، وما استولت عليه منها لنفسها ، وما أدته إلى المستحقين . فلما عرضت علىّ الدعوى ، شق على نفسى أن أرى هذه الخصومة تقوم بين أم وولدها .

ونازعتنى نفسى إلى فكرة التوفيق بينهما ، فأجلت القضية لآخر الجلسة لأسعى فيها بالصلح بين الطرفين فى غرفتى الخاصة . . .

وأذكر مع الحسرة والندم الشديد أنى على الرغم من طول جلسة ذلك اليوم ، وشدة ما عانيت من الجهد فى نظر قضاياها ، قد طوعت لى نفسى أن أقضى بين هؤلاء القوم ساعة أخرى من الزمن فى عرض الحلول ، وبذل الاقتراحات دون أن أجد عند أى الطرفين أدنى استعداد لقبول شيء من كل هذا الذى كنت أعصر ذهنى فى تقديمه لهما .

وما راعنى آخر الأمر إلا الوالدة وهى تضرب بقبضة يدها على مكتبى قائلة فى لهجة حازمة :

— أفندم ! الخشب خشب ، والرخام رخام !

فسألتها : ماذا تعنى ؟ . . .

قالت : أنت تستطيع أن تدق مسماراً فى قطعة من الخشب ، ولكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك فى قطعة من الرخام ، فلا تحاول أن تدخل فى رأس واحد منا

فكرة قبول شيء من هذا الصلح الذى تعرضه

قلت : لا فُضَّ فوك يا سيدتى ! فانى لم أكن أعلم حتى هذه اللحظة أن رأس حضرتك الكريم ، ورأس نجلك العزيز قد جبلا من الرخام !

وأصدرت حكمى فى نزاعهما — ولم يستغرق منى ذلك أكثر من خمس دقائق هى التى حررت فيها أسبابى ، فان الحق كان واضحاً فى جانب ابنها ، ولكنى كنت أستحى أن أخذلها أمامه بحكم يجعل يده فوق يدها ، وهى أمه التى حملته ووضعته ونشأته .

***

على أن كل هـذا الحديث الذى سقته بين يدى القـارئ ، ليس إلا مقدمة للحالة الغريبة التى أردت أن أعرضها عليه اليوم ، والتى أثارت فى ذهنى كل هذه الخواطر :

فقد تقدم إلىّ منذ أمد قريب فى جلسة الجنح اثنان ، كلاهما يتهم الآخر بأنه بصق فى وجهه ، وصفعه فى الطريق العام . . .

وأخـذتُ فى مناقشتهما ، فتجلى لى من أمرهما ما يدعو إلى أشد العجب ، حتى لقد عدت إلى منزلى ظهراً فطرحت أمرهما على صغارى باعتبار أنه (أحجية) أريد منهم حلها . قلت :

١ — إذا قيل لكم إن اثنين تباصقا وتصـافعا فى الطريق ، فكم تقدرون أن تكون سن الواحد منهما ؟

قالوا : هذان طفلان — ولا شك — عبثان !

قلت : صفر من عشرة : فان هذين الاثنين كانا رجلين فى الحلقة الخامسة من عمرهما ، ولعل واحداً منهما كان فى الحلقة السادسة أيضاً .

٢ — ثم قلت : وماذا تقدرون أن يكون مركزهما الاجتماعى ؟

قالوا : صعلوكان أمرهما هين ولا شك على نفسيهما وعلى الناس !

قلت : صفر آخر من عشرة : فانهما كانا مهندساً وجيهاً ومعلماً أنيقاً !

٣ — ثم قلت : وماذا تقدرون أن تكون صلة بعضهما ببعض ؟

قالوا : عدوان لدودان ، تأصلت العداوة فى صـدور أجدادهما ، فورثها منهم الحَفَدَة !

قلت : أصبح الصفر مكعباً ، فهما أخوان نشآ فى بيت واحد وبيئة واحدة !

قالوا : إن كانا أخوين فلا بد أن يكونا غير شقيقين !

قلت : وهذا صفر رابع تطوقتم به . فوالله لقد كانا شقيقين أبوهما واحد وأمهما واحدة !

قالوا : فنبئنا إذاً بسبب شجارهما ، فقد أعيانا الحدس فى شأنهما !

قلت : إن لهما أباً شيخاً كبيراً يمتلك حوالى ثلاثين فداناً ، فضعفت حواسه ، وتطلع أولاده — وهو ما زال حياً يرزق — إلى « تركته » . فطلبت إحدى بناته توقيع الحجر عليه ، ورفعت طلبهـا إلى المجلس الحسبى ، فعين المهندس قيما على والده ، لأنه كان أكبر أبنائه . وعادت البنت فطلبت إلى المجلس أن يقرر لها من مال أبيها نفقة تعيش منها ، فقرر المجلس نفقة لها ولأمها ولبعض إخوتها ممن تجب على الأب نفقتهم ، وكان ذلك بموافقة القيم ، فلم يرض صاحبنا « المعلم » من هذا القرار ، لأنه رأى مال أبيه يتسرب عن طريقه إلى بعض أفراد الأسرة دون بعض ، ففكر فى طريقة يوقف بها تنفيذه ، وهداه تفكيره — سامحه الله — إلى أن ينكر قيام الزوجية بين أمه وأبيه . ومن شأن هذا الطعن أن يعطل تنفيذ القرار السابق ريثما يتم التحقيق فيه . وقد تقدم الأخ « المعلم » فعلا بهذا الطعن للمجلس ، وتحددت جلسة للنظر فيه ،

التقليم والتطعيم
فى القانون

عقد الأستاذ الجليل أحمد بك أمين فصلين ماتعين أفرد الكلام فيهما على عمليتى التقليم والتطعيم فى الأدب أولاً وفى اللغة ثانياً . فهل لمجلة « الثقافة » أن تفسح صدرها لكلمة على « التقليم والتطعيم فى القانون » ؟

إن القوانين مقياس رقى كل أمة ، ومرآة تنعكس فيها مدنية الشعوب وحضارة الأمم . فالقوانين إذا دقت نصوصها وعالجت أحكامها مختلف الأمراض الاجتماعية ، فردعت المجرم ، وأنصفت المظلوم ، وردت إلى كل ذى حق حقه ، كانت الأمة التى تتمتع بمثل هذه القوانين أمة بلغت من المدنية شأواً كبيراً . أما إذا عاب قوانينها قصور ، وردت المظلوم على أعقابه دون نصفة ، أو فرّ المجرم من العقاب من ثغرة فى نصوصها ، كانت الأمة التى تقنع بمثل هذه القوانين أمة لا يرجى منها ارتقاء أو تقدم .

وليست القوانين مجرد نصوص تتقابل فتتفق ، فرب قانون صدر فى عصر أو لبلد فوافقت أحكامه أهله ، إذا طبق فى عصر آخر أو نقل إلى غير هذا البلد باء بالفشل المبين ؛ فلكل عصر ضروراته ، ولكل بلد عرفه وعاداته .

ومهمة الشارع فى بلده مهمة البستانى فى بستانه : هذا يقلم ما ذبل من أزهار وما جف من أغصان ، ليقوى أصلها الصالح ، أو يطعم الشجرة والورد ليحسن ثمارها ويعطر عبيره ، وذاك يقلم ما بلى من نصوص ، فيعدل معوجها ، ويقوم أودها ، أو يطعم المواد ويغذيها ليتناول مدلولها كل حالة وكل حاجة . لذلك وجب أن تكون للقوانين مرونة تساعدها على التطور ومجاراة الرقى ، أما إذا تحجرت وجمدت وقفت عثرة وعقبة .

وصال فيها الأخوان وجالا ، وأدلى كل واحد منهما بما عنده من الأسانيد . وكان المعلم هو الفائز فى هذه الحلبة ، لأنه حصل على قرار من المجلس بالتأجيل للتحقق من صحة هذا الطعن . فأسرها له أخوه « المهندس » ، وغادر الطرفان قاعة الجلسة ، وانتهيا إلى الطريق ، وفى صدر المهندس من الحقد على أخيه ما فيه . فما خلا به رأى أن يرد عليه تحيته التى وجهها إلى والدته أمام المجلس ، إذ أنكر زوجيتها لوالده بأن بصق فى وجهه ، ومد يده إليه فصفعه على خده .

فما كان من المعلم إلا أن كال لأخيه الأكبر بصقة ببصقة وصفعة بصفعة ، وتكاثر الناس حولهما ، ودخلوا بينهما ، فحالوا دون استرسالهما فى هذا التعدى الشائن ولكنهما أصرا على الذهاب إلى القسم ، حيث شكا كل واحد منهما أخاه بأنه بصق فى وجهه وصفعه . وهكذا انتهت إلى محكمتى تلك المعركة التى بدأت مناوشتها فى قاعة المجلس الحسبى ، ودارت رحاها فى الطريق العام .

قال الولد الأكبر عقب هذا الايضاح :

— قبح الله المال ! إنه ما دخل بين اثنين إلا أفسد عليهما صلاتهما ، حتى ولو كانا أخوين !

وقال الخبيث الصغير :

— الذى أراه أنا أنه لو كانت الوالدة أحسنت تربية هذا « المعلم » أيام كان بين يديها صغيراً ، لما سولت له نفسه أن يجحد أمومتها وهو كبير !

أما أنا فلم أعلق بشىء ، ولكن سانحة مرت بخاطرى : وهى أن أول نزاع وقع على ظهر الأرض كان ذلك الذى حدث بين قابيل وهابيل . .

غفر الله لأولهما . . . وعلى ثانيهما السلام !

ع . ج

فهذه القوانين المصرية وضعت نصوصها المعمول بها أمام المحاكم المختلطة في سنة ١٨٧٥ — أي منذ ٦٦ سنة — والمعمول بها أمام المحاكم الأهلية في سنة ١٨٨٣ — أي منذ ٥٨ سنة — والمعمول بها أمام المحاكم الشرعية في سنة ١٨٩٧ — أي منذ ٤٥ سنة . فقوانيننا مضت أحكامها لنصف قرن مضى أو يزيد ، دون أن تعدل أو تهذب ، أو بعبارة أخرى دون أن تقلم أو تطعم — إلا في النادر — فبقيت كما هي جامدة ، والفلك يدور دورته ، والبلد يتطور ، والناس يتقدمون .

لذلك أصبحت القوانين المصرية في حاجة إلى التقليم والتطعيم .

***

أما التقليم فعلى نوعين : شكلا وموضوعاً .

أما الشكل فباستبدال الألفاظ البالية غير العربية والتراكيب الركيكة بكلمات وجمل عربية صحيحة .

فهذا القانون المدنى الأهلى نص فى المادة ١٢٤ منه على أنه « إذا كان التعهد به عبارة عن مبلغ من الدراهم . . . » مع أن الدرهم عملة انقرضت من عهد العرب ، وهى كلمة يونانية معربة مشتقة من كلمة (Drachma) وكانت تساوى خمسين دانقاً ، وأول من ضربها عمر بن الخطاب فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة . وكذلك نصت المادتان ٥ و ٤١١ من قانون المرافعات الأهلى على غرامة « مائة قرش ديوانى » مع أنه اصطلاح يرجع عهده إلى أيام كانت مصر فيها تابعة لتركيا .

ونصت المادة ١٣٥ مدنى على أن « لا يكون الاكراه موجباً لبطلان المشارطة إلا إذا كان شديداً بحيث يحصل منه تأثير لذوى التمييز . . . » فلماذا لا تستبدل هذه الجملة الأخيرة بتركيب أصح كأن يقال مثلا « بحيث يؤثر فى شخص مميز » .

وبعدها مباشرة نجد المادة ١٣٦ تنص على أن « التدليس موجب لعدم صحة الرضا إذا كان رضا المتعاقدين مترتباً على الحيل المستعملة له من المتعاقد الآخر بحيث لولاها لما رضى » . والأصح أن يقال : « يفسد التدليس الرضا إذا كانت الحيل المستعملة ضد المتعاقد من الخطر بحيث أنه لولاها لما رضى » .

وفى المادة ١٥٠ نص الشارع على أن « كل فعل نشأ عنه ضرر للغير يوجب ملزومية فاعله بتعويض الضرر . . . » أليس أخف على السمع وأقرب إلى الصواب أن يقال : « كل من تسبب فى إضرار شخص يلزم بتعويض الضرر » .

ونصت المادة ٣٣٣ على أنه « يجوز للمحكمة أن تعطى لأسباب قوية ميعاداً للمشترى لدفع الثمن مع وضع المبيع تحت الحجز عند الاقتضاء » وعبارة « تحت الحجز » لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى النص الفرنسى ، ومنه تبين أن نية الشارع كانت « تحت الحراسة القضائية » .

ومثل القانون المدنى قانون المرافعات . فقد حشيت مواده بفاحش أغلاط النحو والصرف :

فقد نصت المواد ٧ و ٨ و ١٩ من قانون المرافعات الأهلى ودكريتو ٤ يونيه سنة ١٨٩١ على « مدير الأقاليم » و « نظار الدواوين العمومية » و « نظار الدوائر » و « وكيل الحضرة الخديوية » و « سردار الجيش » و « ممالك الدولة العلية » وهذه كلها أسماء ووظائف وبلاد لا وجود لها الآن .

ونصت الفقرة الخامسة من المادة ٨ على « القطر المصرى » . وكلمة « قطر » معناها الناحية أو الجانب ، وفيها معنى التبعية إلى دولة أخرى . وهى إن شاعت أيام تبعية مصر إلى تركيا فلا يصح استعمالها بعد إعلان استقلالنا . وأجدر بنا أن نستبدلها بكلمة « الدولة

المصرية » أو « المملكة المصرية » .

ونصت المادة ١٧ على أنه « يزاد على الميعاد يوم لكل مسافة ثمانية ساعات . . . » وصوابها « ثماني ساعات » ثم ذكرت « الخصم الصادر له التنبيه » بدل « المعلن إليه » .

وقالت المادة ١٨ : « يصير امتداد الميعاد إلى اليوم الذي بعده » بدل أن تقول « يمد الميعاد إلى اليوم التالي » .

وأرادت المادة ١٩ أن تقول « موانيء الشرق » « ميناءات الشرق » .

وذكرت المادة ٢٣ « مصاريف المرافعات » وهي تعني « مصاريف الاجراآت » .

وذكرت الفقرة الرابعة من المادة ٢٦ « خصائص قاضي الأمور الجزئية » والصحيح « اختصاصه » .

وقالت المادة ٢٨ « الأخصام » وصوابه « الخصوم » ومنه : (وعند الله تجتمع الخصوم) ، ويقولون « خزينة المحكمة » وصوابها « خزانة » وجمعها « خزائن » وقد جاء في التنزيل : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي » ، وجاء في سورة المنافقين : « ولله خزائن السموات والأرض » .

وذكرت الفقرة الثالثة من المادة ٣٤ « شركات السيكورتاه » والصواب « شركات التأمين » كما نصت الفقرة السادسة منها على أنه « يجوز لمن طلب بدعوى كونه ضامنا أن يطلب رؤية الدعوى عليه » وصواب هذه الجملة الأعجمية « يجوز للضامن أن يطلب نظر الدعوى في مواجهته » .

ونصت المادة ٦٨ على « المصالحة بين الأخصام » بدل « الصلح بين الخصوم » .

ونصت المواد ٨٠ و ٨٢ من قانون المرافعات و ٤٢ من قانون تحقيق الجنايات على « جدول خصوصي » و « نظام عمومي » و « نائب عمومي » بدل من « جدول خاص » و « نظام عام » و « نائب عام » .

ونصت المادة ٨٠ مرافعات على « الدعاوى الغير مستعجلة » بدل « الدعاوى غير المستعجلة » كما نصت على أن مثل هذه الدعاوى « يجرى قيدها » بدل « تقيد » .

ونصت المادتان ١٠٦ و ١٥٧ على « دفتر الجلسة » والجلسة ليس لها دفتر بل لها « محضر » .

ونصت المواد ٢٢٣ إلى ٢٤٤ على « مأمورية أهل الخبرة » بدل « مهمة الخبراء » .

وجاء عنوان الفصل الثالث من الباب الثامن من الكتاب الأول « في التماس إعادة الحكم بالمحكمة التي أصدرته » سبع كلمات بدل ثلاث « التماس إعادة النظر » .

وأخيراً يقع نظرك في كل صفحة من كتب الفقه ، وفي كل سطر من أحكام المحاكم على كلمة « مشرّع » مع أن صوابه « شارع » . فيقال شرع لهم شرعا أي سنّ فهو شارع ، وماسنه مشروع . وأما شرّع فمعناها بيّن ، يقال شرّع وأشرع الطريق أي بيّنه ، وشرّع فلاناً في الماء خوّضه .

ومثل القانون المدني وقانون المرافعات قانون تحقيق الجنايات . فقد نصت المادة ٨ منه على « مشاهدة الجاني متلبساً بالجناية . . . » مع أن المجرم لا يكون متلبّساً بالجريمة ، بل الجريمة هي التي يكون متلبّساً بها .

على أن قانون تحقيق الجنايات نفسه لا ينطبق اسمه على مسماه فكان أصح أن يطلق عليه اسم « قانون تحقيق الجرائم » لأنه يشمل المخالفات والجنح والجنايات ، ولم تقتصر أحكامه على الجنايات فحسب .

هذا من الأغلاط اللفظية والعربية . وناهيك بأغلاط الترجمة . فمثلا ترجم الشارع المادة ٥٤ « جنسية المتوفى » بـ « الملة التابع لها المتوفى »

وترجم في المادة ٢٧٣ من قانون العقوبات الأهلي

« بلاغ الزوج » بـ « دعوى الزوج » .

وترجم في المادة ٢٧٥ منه « الشريك في الزنا » بكلمة « الزانى » فخلط بين أحكام الفاعل الأصلي وأحكام الاشتراك .

هذا عن التعليم في شكل القوانين . أما عن هذه العملية من جهة الموضوع فهى تتناول حكم المادة لا نصها ، ومعناها لا مبناها .

ومن ذلك أن قانون المرافعات وضع أحكاماً غريبة جداً في تقدير المسافة — سواء في داخل الدولة أو في خارجها — وهى إن كانت تساير العصر الذى وضعت فيه إلا أنها لا تتفق مع سهولة طرق المواصلات وسرعتها في أيامنا هذه .

فمثلا نصت المادة ١٧ على احتساب ميعاد المسافة باعتبار يوم عن كل ثمانى ساعات سيراً (في الأهلى) أو ٤٠ كيلو متراً (في المختلط) وعن كل ما يزيد من الكسور على خمس ساعات أو ٢٥ كيلو متراً . وإذا كان السير بالسكة الحديدية فينقص الميعاد إلى النصف . وعلى هذا يكون ميعاد المسافة بين الاسكندرية والقاهرة ثلاثة أيام باعتبار يومين عن كل ١٦٠ كيلومتراً ويوم ثالث عن الجزء الباقى من المسافة الزائدة على خمسين كيلومتراً .

أما الأشخاص المقيمون خارج الدولة فينطبق عليهم حكم المادة ١٩ التى تنص على أنه يحسب الميعاد باعتبار ستين يوماً بالنسبة إلى تركيا وبلاد سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ومائة وثمانين يوما لبلاد أوربا الأخرى وموانى الشرق لغاية ميناء يوقوهاما ، وثلاثمائة وستين يوما للبلاد الأخرى . فتأمل !

وكما أن قانون المرافعات ينص على مواعيد طويلة يجب تقصيرها ، كذلك ينص على مواعيد قصيرة يجب مدها .

فالمادة ٥٧٦ منه تنص على أنه يجوز المشترى الراسى عليه المزاد أن يقرر في قلم الكتاب أنه اشترى لذمة شخص آخر في خلال أربع وعشرين ساعة من إيقاع البيع ، مع أن المادة ٦٥٨ المقابلة لها في القانون المختلط تمهله ثلاثة أيام .

ولعل أظرف ما في القوانين من مضحكات — وكم في مصر من مضحكات ، ولكنه . . . — ما نصت عليه المادة ١٤ من الملحق الثالث من ملاحق قوانين الجيش الصادرة في سنة ١٩١٥ من أنه « إذا رغب أحد الضباط الذين لا يعرفون الكتابة والقراءة أن يتقدم للامتحان لترقيته . . . . . فيستصدر ترخيصاً من سردار الجيش ، وعند الامتحان التحريرى يضم إليه « كاتب — يكون ملكياً متى أمكن — وهذا الكاتب يكتب أجوبة الضابط كلمة بكلمة بحسب ما يمليها عليه » ! فهل يسوغ أن تبقى مثل هذه المخلفات من عهد الأمية والجهل والحماية ، ونحن نريد لمصر نهضة مزدهرة ؟

* * *

أما عملية التطعيم فتنحصر في إيجاد أحكام وترتيب نصوص الحالات التى خلا القانون من بيان حكمها . وفي طليعة هذه الحالات حكم الملكية الأدبية والفنية والصناعية والعلمية .

فقد نصت المادة ١٢ من القانون المدنى الأهلى على أنه « يكون الحكم فيما يتعلق بحقوق المؤلف في ملكية مؤلفاته وحقوق الصانع في ملكية مصنوعاته على حسب القانون المخصوص لذلك » وقد انقضت ثمانية وخمسون عاماً على وضع هذا النص ولم يصدر القانون المنشود حتى الآن !

كذلك من المسائل التى تتطلب نصوصاً صريحة في القانون :

— النص في قوانين الأحوال الشخصية على جواز

الحجر على المقتّر إذ تحجر قلبه وقست نفسه وشح على أقربائه، وذلك أسوة بجواز الحجر على البذر والسفيه، إذ أن الاثنين لا يحسنان التصرف في أموالها ولا إدارة شؤونهما.

— النص في قانون العقوبات على وجوب اعتبار الصورية جريمة، وجعل حكمها حكم النصب، وعلى وجه أخص النص على اعتبار تغيير الدين أو المذهب أو الملة تخلصاً من زوجة أو فراراً من حكم نفقة جريمة تقع تحت طائلة قانون العقوبات.

— النص في قانون المرافعات على جواز الحكم بشطب العبارات الجارحة بالقضاة والمحامين والمتقاضين وغيرهم من المذكرات والأحكام. والنص على اعتبار الحكم حضورياً بالنسبة إلى الخصم الذي أعلن شخصياً بورقة التكليف بالحضور، ولو غاب يوم الجلسة. والنص على إعطاء الدائن العادي حق طلب توقيع الحجز التحفظي على منقولات مدينه، إذا كان بيده سند ولو عرفياً أو بغير سند بعد الحصول على إذن القاضي (أسوة بالمالك المؤجر).

— النص في القانون المدني على تخويل القاضي حق إصدار أمره — والدعوى مطروحة أمامه — باتخاذ الوسائل المؤقتة (كتعيين حارس مطلقاً والأمر بعدم تصرف المدعى عليه في أملاكه) ضماناً لسهولة تنفيذ الأحكام. والنص على جواز أخذ اختصاص على أملاك المدين بناءً على محاضر تحقيق أو دلائل قوية، ولو لم يكن بيد الدائن حكم قضائي. والنص على جواز طلب إشهار إفلاس المدين إذا كان مليئاً، ولكنه تعمد عدم الدفع للاضرار بدائنه، وتعيين مصف يتولى إدارة أملاكه وتسديد ديون الدائنين (أسوة بالتاجر).

— النص في قانون تحقيق الجنايات على جواز رفع جنحة مباشرة على من أدى يميناً حاسمة كاذبة أسوة بمن يؤدي يميناً متممة كاذبة. والنص على الفصل بين سلطة الاتهام وسلطة التحقيق بجعل الاتهام وتحريك الدعوى العمومية من اختصاص النيابة، في حين يعهد التحقيق إلى أحد رجال القضاء، حتى لا يتأثر المحقق من خضوعه إلى سلطة تنفيذية، ووضع أحكام صريحة في قيمة إرشاد الكلاب البوليسية على المجرمين.

— النص في لائحة ترتيب المحاكم الشرعية على عدم جواز إقامة شخص مقيم في الخارج ناظراً على وقف، إذ أن مثله لا يمكن أن يدير شؤون الوقف إدارة حسنة. وكذلك النص فيها على اعتبار تحليل الدم دليلاً قاطعاً لنفي البنوة، إذا ثبت من التحليل أن دم الطفل من فصيلة تخالف دم الأم أو دم الأب الذي يراد نسبة الولد إليه.

* * *

إلى هنا تقف بنا الجولة في حديقة القانون، وقد اقتطفنا منها طائفة من الأمثلة، بعضها يتطلب تقليما وبعضها يستلزم تطعيما، حتى يتفتح الزهر ويؤتي الشجر أكله، إلى أن يتاح للبلاد توحيد قوانينها وتوحيد قضائها، وهذا لعمري يكون خير تقليم وخير تطعيم.

جميل خانكي

نظرة فى كتب النحو

للأستاذ طه الراوى

[الأستاذ طه الراوى ، علم من أعلام اللغة والأدب فى العراق ، وأستاذ محقق ، عرفه كثير من أدباء البلاد العربيـة . لم يرد بغداد من يمتّ إلى الأدب بصلة ، إلا مت إليه الأستاذ الراوى بصلات من علمه وأدبه ، وخلقه الكريم .

والأستاذ أبحاث قيمة فى اللغة والنحو ، نشر بعضها فى مجلة المجمع العلمى العربى . وقد أرسل إلينا هذا البحث المختصر الذى ننشره اليوم شاكرين له ، راجين أن تتوالى علينا مقالاته] .

لا نريد فى هـذا المقام أن نمعن فى الاستقراء والاستقصاء . وكل ما نرمى إليه أن نلقى نظرة عجلى على جمهرة الكتب التى اتخذ منها المعاصرون مناهج لدراسة النحو فى المدرسة القديمة أو الحديثة ، ونشير إلى بعض العاهات التى منيت بها ، وغضت من شأنها فى أنظار أبناء العصر ، بل قللت الانتفاع بها إلا بعد الجد والكد والاسراف فى الوقت . ويمكن إجمال البارز من تلك العاهات فى النقاط التالية:

١ — الايجاز الشحيح إلى حـد الاخلال بالمقصود ولا سيما فى المتون التى وضعها المتأخرون ، وفى مقدمتهم الإمامان أبو عمر عثمان بن الحاجب ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك . وقد تبارى المؤلفون فى هذا الشأن ولا تبارى الفرسان فى مضمار الرهان يشبعون المعانى ويجيعون الألفاظ حتى تصاب بالهزال والبهر ، فلا تقوى على حمل ما أثقلت به من المعانى ، فتحور إلى طلاسم ومعميات يتعذر على الطلبة الاستقلال بحل رموزها إلا بعد الفزع إلى الشارح ، ويتعسر على هؤلاء الكشف عن غوامضها إلا بعد الرجوع إلى الشروح والحواشى والتعاليق . وقد نعى العلامة ابن خلدون على القوم طريقتهم هذه ، وأفرد لذلك فصلاً خاصاً فى مقدمة تاريخه قال فيه : « وهو فساد فى التعليم ، وفيه إخلال فى التحصيل » وقال : « قصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها » .

ومسألة الحفظ هـذه كانت أولى الغايات وآخرها فى هذه المعضلة ، يجورون على العبارة كل الجور فى التقتير والتقدير ليسهل على الحافظة ازدرادها ، وفاتهم أن العلوم إنما تطلب لتفهم وترسخ ملكاتها فى العقول : وأما الحفظ المجرد عن الفهم بل الهضم فإنه أكبر من نفعه ، وضرره فى الذهن لا يقل عن الاضرار التى تصيب المعدة من جرّاء الأطعمة التى تدهدى فيهـا من غير مضغ وتحليل . وإن استظهار الألفاظ قبل تحديد معانيها الصحيحة فى الذهن تحديداً واضحاً يلجئ الذهن — بعد الحيرة — إلى خلق معانى لها قد تكون قصية عن المقصود ، ولكنها تأخذ فى الذهن مكانها وتستعصى فيه ، ويعسر بعد ذلك على المعانى الصحيحة زحزحتها واحتلال مكانها ، فيحصل من هذا التدافع فوضى ذهنية يستعصى على أطبّة النفوس استئصالها .

ولهذا نرى علماء النفس يشدّدون النكير على من يعلّم الطفل لفظاً قبل تحديد معناه فى ذهنه تحديداً واضحاً ، ويستعينون على ذلك بالمحسوسات أو ما يقرب منها . ومن ثم ذهب بعض الأعلام من أوّلينا إلى أنه لا ينبغى أن يؤخذ الاحداث بحفظ القرآن الكريم إلاّ بعد أن يستعدّوا لفهمه بتقديم دراسات أخرى . قال أبو بكر بن العربى : « يا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم » وقد استحسن العلامة ابن خلدون هذا المذهب وإن اعتذر لتطبيقه بحكم العادة .

٢ — عـدم التدرج فى ترتيب المسائل ورصف

القواعد ، فتراهم كثيراً يستعينون بالمجهول لايضاح مجهول مثله ، فيقولون — مثلا — « المعرب هو المركب الذي لم يشبه مبنى الأصل » مع أن الطالب لم يعرف المبنى المطلق فضلا عن مبنى الأصل . وإذا سأل عن المبنى قيل له : « هو المركب الذي أشبه مبنى الأصل » . ويقولون — مثلا — « الرفع علم الفاعلية ، والنصب علم المفعولية ، والجر علم الاضافة . . . » مع أن الطالب لم يعرف شيئاً بعد من أمر الفاعلية والمفعولية والاضافة ، ومعرفة ذلك كله تتوقف على ذكر الكثير من الفصول والأبواب .

وهكذا يجد الطالب نفسه تجاه مجهولات تتكاثر وتتكاثف ، وغوامض تتراص وتتراكب ، فلا يقوى على تذليلها إلا إذا رزق صبراً رصيناً ، وقيض الله له شيخاً بارعاً يعرض أمامه سلسلة من المقدمات كثيرة الحلقات ، ثم لا يصل إلى المقصود إلا بعد جهد جهيد .

ولا ينكر أن بعض المؤلفين انتبه لهذا الأمر وحاول التسهيل على المبتدئين ، فلا ينتقل إلى مجهول — غالباً — إلا بعد أن يمهد له بمعلومات أو يوضحه عن قرب ليصل بالطالب إلى غرضه من أقصر الطرق وأسهلها ؛ ويذكر في مقدمة هؤلاء الأستاذ أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي صاحب المقدمة المعروفة بالآجرومية ، فانه اقتصر فيها على اللباب وقلل من استعمال المجهولات في إيضاح المجهولات ، ذكر بعض الأبحاث بأكثر من أسلوب لترسيخها في الفهم ، ومشى في كثير من المسائل على مذهب الكوفية — مع أنه مرجوح عند المغاربة والمشارقة من نحاة عصره — تسهيلا على المبتدئين من المتعلمين ، لأن مذهب الكوفية في هذه المسائل أقرب تناولا إلى أذهانهم من مذهب البصرية .

ولكن الشراح والمحشين لم يأبهوا لهذه المزايا ولا حسبوا لها حساباً ، فأحاطوها بما ذهب بفوائدها وعفّى على آثارها من غوامض المسائل وغريب المباحث .

أذكر أنني في مفتتح دراستي العربية أخذت هذه المقدمة (الآجرومية) وجلست إلى الشيخ لأقرأ ، فقال لي : إن المتن المجرّد من الاعراب لا يفيدك الفائدة المطلوبة ، وأخرج لي نسخة مخطوطة تشتمل الصفحة منها على أسطر قليلة ذات كلمات متباعدة ، موشحة بتعاليق كثيرة ، على أوضاع خاصة وبأشكال مختلفة ، فأعطانيها واندفع يسرد لي معنى البسملة بكلام طويل عريض لم أفهم منه إلا القليل ، وأمرني باستظهار إعرابها : « الباء حرف جر . واسم اسم مجرور بالباء وعلامة جره كسرة ظاهرة في آخره ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أبتدئ أو ابتدائي ، وهو مضاف ولفظ الجلالة مضاف إليه وهو مجرور بالاضافة » الخ . وكان اليوم الثاني ، وكان الموضوع (الكلام) فاندفع يشرح لي معناه عند اللغويين والفقهاء والمتكلمين ثم النحويين بكلام مَرّ عليّ أكثره ، ثم أمرني باستظهار الكلام بتعريفه وإعرابه : « الكلام مبتدأ مرفوع بالابتداء — على الأصح — وعلامة رفعه ضمة ظاهرة في آخره (هو) ضمير فصل لا محل له من الاعراب » الخ .

وهكذا وجدتني تجاه عباب زاخر بمصطلحات لا أعرف لها أولا ولا آخراً . الحرف ، الاسم ، الجر ، المجرور ، المتعلق ، المحذوف ، المضاف ، المضاف إليه ، الاضافة ، النعت ، التبعية ، المبتدأ ، الابتداء ، الرفع ، المرفوع ، ضمير الفصل ، الاعراب .. الخ . ألفاظ اشتغل ذهني في أن يفرض لها معاني ، فأخذ يصوغ ويكسر ، وبعد جهد جاهد لم يحصل إلا على الجمجمة والترجيم . ففزعت إلى شرح أستعين به فوقع في يدي شرح الشيخ خالد الأزهري ، ونظرت فيه ، وإذا بي تجاه مشاكل جديدة : جنس ، فصل ، وضع نوعي ، وضع شخصي ، إلى أشياء من هذا القبيل ، لا يدركها إلا من ضرب

بينهم في العربية وعلوم أخرى . وبالأخير هدانى التسآل إلى شيخ نبيه ، فأرشدنى إلى الاقتصار على فهم الفن وحده ، ثم الرجوع إلى شرح مختصر مقصور على إيضاح المراد بأسهل العبارات . والذى يظهر لنا أن الكثير من تلك المؤلفات وضعها مؤلفوها لتلاميذهم وكانوا يقدرونها على استعدادهم ومؤهلاتهم تقديراً ، فإذا أراد آخرون لم تتوفر فيهم تلك المؤهلات أن يقتطفوا مثل ما اقتطف أولئك من ثمارها أعياهم ذلك .

وما قولك أن جمهرة المؤلفين في هذا الشأن من المعاصرين — على شدة عنايتهم في صقل مؤلفاتهم — ذهلوا عن هذا الأصل ، فوقعوا في المحظور التعليمى الذى وقع فيه من سبقهم ، مع أنهم وضعوا كتبهم لتلاميذ لم تكن حصة العربية من وقتهم وعنايتهم إلا ضئيلة ، فكان عليهم ألا يدخروا وسعاً في التهذيب وحسن الترتيب والتبويب . تجدهم يقولون — في مبادئ كتبهم مثلا — « الفعل المتعدى هو الذى ينصب المفعول به . والفعل المعلوم هو الذى يذكر فاعله » مع أن الطالب لم يعرف بعد شيئا من أمر : النصب ، والمفعول به ، والفاعل ، وتفهيمها يتوقف على دراسة أبواب لم تزل مفقودة في ناصية المستقبل .

يقال : ما العمل والأمر يقضى بإيضاح تلك المسائل ، والإيضاح يتوقف على الاستعانة بهذه المصطلحات ، وإن لم يجر ذكرها بعد . فالجواب أنه لا يجوز التعرض لإيضاح مسألة ما إلا بعد إعداد العدة لها . وتوضيح العناصر اللازمة لإيضاحها قبل الإقدام عليه . فلا يبحث عن المتعدى واللازم مثلا إلا بعد معرفة النصب والمفاعيل ، ولا عن المعلوم والمجهول ، إلا بعد معرفة الفاعل وما ينوب عنه .

وبالجملة فإنه لا تجوز الاستنارة بمجهول لمعرفة مجهول آخر ، بل يجب أن تكون الاستنارة بالمعلومات وحدها .

٣ — الخلط بين مسائل هذا العلم ومسائل من علوم أخرى لا تمس الحاجة إليها ، وليس في مقدور الطالب إساغتها وإدراك ما وراءها ؛ وهـذا ديدن المتأخرين من الشراح والمحشين . مثال ذلك قول الشيخ خالد الأزهرى في شرحه على الآجرومية : « والصحيح أن الكلام موضوع بالوضع النوعى » ، ومن أين للمبتدئ أن يدرك مسألة كهذه عجز فحول علماء الوضع والأصول عن حلها حلاً نهائياً ، ويقول الشيخ المذكور في شرح أزهريته : « والمفرد ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف ، لأنه لا يخلو إما أن يستقل بالمفهومية أولاً . الثانى الحرف ، والأول إما أن يدل بهيئته على أحد الأزمنة الثلاثة أولاً ، الثانى الاسم والأول الفعل . والمراد حقيقى يمنع الجمع والخلو ، وقد علم بذلك حد كل واحد منها للإحاطة بالمشترك وهو الجنس ، وما به يمتاز كل واحد عن الآخر وهو الفصل » اهـ بحروفه . وهو كما ترى كلام مغلق لا يعقله إلا من ضرب في علم المنطق بنصيب ، وأنى للطالب المبتدئ ذلك ؟ وفي مثل هذا الموطن يقول شارح القطر : « قال علماء هذا الفن تتبعوا كلام العرب » . . الخ فينطلق المحشى يشرح لفظ العرب واشتقاقه ، وجموعه ، ومن هم العرب وأقسامهم . . . الخ ، مما لا مساس له في الموضوع . ويأتى ذلك الشارح في باب العطف بشاهد على أن حتى لا تفيد الترتيب ، وهو الحديث المأثور : « كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكسل » ، فينطلق المحشى يوضح حقيقة القضاء والقدر وما بينهما من فرق أو عدمه ، ويسرد في ذلك آراء المتكلمين من أهل المذاهب المختلفة . وأمثلة هذا أكثر من أن يحاط بها .

٤ — عدم الموازنة بين مقدرة الطالب وما يحشد له من عويص المسائل ومهلها ، فإنك إذا تصفحت مبادئ

الكتب التي وضعها المتأخرون للمبتدئين من المتعلمين نجد فيها معضلات المسائل محشورة إلى جانب السهل منها .

٥ — حشد القيود الكثيرة ، والرموز العديدة ، في العبارة القصيرة ، ولا سيما في التعاريف ، مما يتعسر بل يتعذر على الطالب تقلية تلك القيود واستخلاص المراد من كل منها .

٦ — المناقشة على الألفاظ مما لا يعود إلى جوهر العلم بفائدة ، وهذا أمر عمت به البلوى في معظم كتب المتأخرين « لمَ قدم هذه الكلمة وأخر تلك ، ولمَ استعمل هذه الصيغة ولم يستعمل تلك ، ولمَ استعمل هذه اللفظة دون تلك ، ولمَ ولمَ ؟ » .

٧ — التوسع في النظريات التي لا يجتني الطالب من ورائها فائدة عملية ، مثل تنازعهم على إعراب جمع المذكر السالم هل هو بالحرف أو بالحركة المقدرة ، وكذلك أقوالهم في إعراب الأسماء الخمسة أو الستة ، فقد ارتقت الآراء في ذلك إلى نحو العشرين ، وتنازعهم هل المضاف إلى ياء المتكلم مجرور بالكسرة المقدرة أو الظاهرة ، وأمثال ذلك كثير مما ينبغي أن يكون محله المطولات من كتب القوم دون المختصرات التي توضع للمبتدئين من الطلبة .

٨ — الاعتماد على الأمثلة الجافة المكررة ، وإهمال المهم من الشواهد التي هي مادة الكلام وعمدة التكلم ؛ ولذلك نجد أن كتب ابن هشام من أنفع الكتب المصنفة في هذا الشأن في هذه الناحية لما تشتمل عليه من الآيات الكثيرة والأحاديث البليغة ، والأمثال السائرة والأبيات المختارة . وأبعد الكتب عن هذه الطريقة كتب الأعاجم مثل الإظهار للبركوي ، وشرح الملا جامي على الكافية ، ولذلك نجدها قليلة الجدوى يقرؤها الطالب وكأنه لم يقرأها . وللشواهد أثر بليغ في تكوين ملكة البلاغة عند الطالب ، ولذلك نجد كتب الأقدمين غاصة بها ، وأقرب مثال في ذلك كتاب سيبويه ، فإنه يشتمل على أكثر من ألف بيت من الشعر ، وعلى مئات الآيات والأمثال وعيون الأقوال .

وهذه كتب الشواهد بين أيدينا نستمد منها الكثير من الفوائد . ولقد كتب أحد علماء المائة الثامنة شرحاً ممتعاً على كافية ابن الحاجب شحنه بالشواهد والفوائد ، فجاء الشيخ عبد القادر البغدادي وشرح تلك الشواهد في كتابه المسمى (خزانة الأدب) شحنها بالفوائد الأدبية والفرائد اللغوية والنوادر النحوية والصرفية إلى غير ذلك مما يسمو بالطالب إلى المستوى الرفيع .

وقد عانى بعض المعاصرين التأليف في هذا العلم ، وحاولوا تجريد مؤلفاتهم من العاهات التي ينوء بها بعض الكتب المتداولة فيه ، ولكن أكثرهم وقف دون الغاية وعجز عن إتمام المعالجة ، ولا تزال الهمم مصروفة إلى معالجة هذه الناحية ، وعلى الله قصد السبيل .

(بغداد) طه الراوي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	الطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الملحقة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

أعيان الجيل

[لون من ألوان الأدب يوشك أن ينقرض ...]

للأستاذ محمد سعيد العريان

... انفضَّ المجلس أو كاد ، وأخذ السامرون ينسلّون واحداً واحداً ومَثنى مثنى ، وخلا المكان إلاّ واحداً هنا وواحداً هناك ، وإلا صَدَى تلك المناقشات الحامية التي كانت تتجاوب بها جدران الغرفة الفسيحة منذ قريب !

ورحت أستعيد في خيالي صورة هذه الجلسة الممتعة الفريدة ، وما ضمَّت من ذوي القوة والجاه والنفوذ في دوائر الفن والأدب ، ودوائر العلم والمال ، ودوائر الرأي والسياسة ؛ فإذا الصور تتزاحم في رأسي ، وإذا الذكريات تنثال على خاطري ، وإذا سؤالٌ يتردّد على شفتيّ :

« هل بلغتْ الأمة العربية في يوم من أيامها من الغِنَى بالرجال ما بلغت اليوم ؟ » .

أعني : هل اجتمع لها قبل اليوم في جيل واحد من ذوي الأخطار والمواهب ما اجتمع لها اليوم ؟

ولست أحب أن يسبق إلى وهم أحد أني أزعم أن الأمة العربية اليوم أرقى منها في كل ما مضى من عصور التاريخ ؛ فذلك وهم لا يستند إلى برهان صحيح ؛ على أنه مع ذلك ليس هناك تناقض البتة بين هذا الذي أنكره وذاك الذي أدّعيه ؛ فلقد تكون أمة من الأمم غنية بالرجال ذوي الأخطار والمواهب إلى درجة لا يسبقها فيها سابق ، وهي مع ذلك متخلّفة في ميدان الحضارة ؛ وعلى العكس من ذلك قد تكون الأمةُ هالةً في تاريخ الجيل نُضجاً وتفوقاً ، ولا يشتهر فيها مع ذلك عظيم مبرِّز متفرِّد !

بل إني لأزعم أن الأمة في أوّل خُطاها إلى التاريخ تكون أغنى بالرجال المبرِّزين ، من الأمة التي بلغت آخر الشوط وانتهت إلى الغاية . . .

وأعود ثانية إلى سؤالي .

. . . ولست أغلو في القول ، أو أتحيّف الحقيقة ، لو قلت إن الأمة العربية اليوم لم يجتمع لها في جيل واحد من تاريخها الطويل ما يجتمع لها اليوم من ذوي الكفايات البارزة والمواهب الفذة ؛ فحيثما نظر الناظر ، هنا أو هناك ، لمحت لعينيه أضواء باهرة لرجال ذوي أخطار لم يجتمع مثلهم في زمانٍ في مكانٍ على طول تاريخ الأمة العربية الحافل !

هذه الصور اللامعة لهؤلاء الزعماء والقادة ، ماذا يدّخر التاريخ منها في يومه لغده ؟

أعني : هذه الصور التي نراها لزعمائنا وقادتنا ، وهذه الأحاديث التي نتناقلها عنهم في مجالسنا وسهراتنا ، وتلك المفارقات التي تتفق لهم في حياتهم فتُضحكنا منهم أو تضحكنا لهم ، وتلك الخَبِيئات الخاصة التي يخبئونها في بيوتهم وبين خاصتهم ، فيتكشّفون لأنفسهم وتتكشف لنا أنفسهم ؛ وتلك المآثر ، أو البواذل ، التي نشارك الفضوليين في تتبّعها والبحث عن حوافزها وملابساتها ، فنعرف منها ما نرويه ونتحدث به في مجالسنا . . .

. . . هذه ، وهذه ، وتلك ، وأولئك — ماذا يعرف عنها التاريخ في غد ؟

ماذا يعرف طالب الأدب بعد خمسين سنة من « طه حسين » إلا كُتب « طه حسين » ؟ وماذا يعرف من العقاد إلا كتب العقاد ؟ وماذا يعرف عن فلان وفلان إلا كتبَ فلان وفلان ؟

وماذا تُغني كتبُ الشاعر أو الأديب في دراسة الشاعر أو الأديب ، إذا كانت حياتهما الخاصة سراً في ضمير التاريخ ؟

ماذا يكتب مؤرّخو الأدب اليوم عن المنفلوطي ، والمويلحي ، والرصفي ؟ وعن الكاظمي ، وحافظ ، وشوقي ؟

هل تراهم يكتبون عنه إلا : وُلد سنة كذا ، ومات سنة كذا ؛ وقال . . . . ، ثم قال . . . . ؟

وأين هذا من حياة المنفلوطي ، والمويلحي ، والرصفي ؛ وحياة الكاظمي ، وحافظ ، وشوقي ؟

أين حياتهم الخاصة ؟ أين صلاتهم بالناس ؟ أين مغرمهم ومغانمهم ؟ أين تقلّبُ أحداث الحياة بهم ؟ أين ما أحبوا وما كرهوا ؟ أين ما خلعوا وما لبسوا ؟ أين ما لقوا في حياتهم من أزمات ؟ أين ما اعترض سبيلهم من عقبات ؟

هل يغني عن كل أولئك في دراسة الشاعر أو الأديب أن يُعرف يوم مولده ويوم وفاته ، وما كتب ونظم من شعر ونثر ؟

لقد حاولنا منذ سنوات أن نقيم للمتنبي مهرجاناً نجدّد فيه أدبه ونخلّد ذكره ، لمرور ألف سنة على مهلكه ؛ والمتنبي شاعر الأمة العربية كلها غير منازَع ؛ ولكن أساتذتنا وأدباءنا وأهل البحث والنظر منا لم يتفق منهم اثنان على نسب المتنبي ومَنشئه ؛ فقال واحد : هو لقيط دعيّ ، وقال آخر : هو شريف علوي ، وقال ثالث : . . . . . .

. . . وبكينا واستبكينا ، وقلنا : ما كان أغفلهم في عصور الجهل والانحطاط عن القيام بحق العلم ، إذ غفلوا عن تدوين تاريخ المعاصرين من الأعيان والأدباء ! . . .

فأين ما دوّنّا نحن ، في عصر العلم والنور ، من تاريخ هذا الجيل الذي نعيش فيه ؟

* * *

على أن السابقين من أدبائنا كانت لهم عناية بهذا الفن معدومة النظير ، ولا أحسب أمة من الأمم قد اجتمع لها في « تاريخ الرجال » ما اجتمع للأمة العربية ، حتى إن لكل طائفة من الناس معجماً يثبت من تاريخهم ما يرون الحاجة إليه ؛ فثمة الكتب الكثيرة في طبقات الصحابة ، وطبقات الرواة ، وطبقات الفقهاء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الشعراء ، وطبقات الأطباء ، إلى عشرات وعشرات من هذا الباب .

ثم انظر « وفيات الأعيان » و « معجم الأدباء » وما تسلسل منهما واتفق عليهما من كتب التراجم العامة التي جمعت فأوعت من تاريخ الأعيان والأدباء وذوي الشهرة والامتياز .

والحق الذي لا جدال فيه أن « عصور الجهل والانحطاط » كانت أكثر منا عناية بحق التاريخ ؛ وإذا كان مؤلفونا القدماء قد أغفلوا أشياء لها أثر في الدراسات الجديدة لم يكن مقدوراً عند القدماء ، فإنه من الغبن أن نفرض على جيل من الناس أسلوباً من التفكير لم تكن عقولهم مهيأة لاستقباله ؛ فلا على القدماء ما أغفلوا من أشياء كانوا يجهلون قدرها ؛ ولكن ما عذرنا نحن اليوم ؟

أليس عجيباً أن يكون هذا الفن العظيم — فن التراجم — موضع عناية علمائنا ومؤرخينا منذ المائة الثانية للهجرة إلى أمس القريب ، ثم لايوشك أن ينقرض إلا في هذا الجيل الذي يزعم أهله أنهم قد بلغوا من الإيمان بالحق منزلةً تسمح لهم أن يعرضوا الموتى عراة على أعين الناس في صناديق من زجاج !

أليس يدعو إلى الدهشة أن يتسلسل هذا الفن منذ المائة الثانية ، يبني لاحق على سابق ، ويزيد في السلسلة حلقة بعد حلقة ، حتى إذا انتهى إلينا لم نجد من مظاهر العناية به في عصرنا إلا كتابين : نشر أحدهما المرحوم تيمور باشا ، يترجم فيه بضعة عشر من خلائه وصفوته

ورواد مجلسه ؛ وطوى الثاني المرحوم عبد الوهاب النجار على فنونه وألوانه !

على أن ثمة كتباً عدة من إنشاء هـذا الجيل الترجمة حياة بعض المعاصرين ؛ فهنـاك « حياة الرافعي » ، ومذكرات الجزري من سعد ، وسعد زغلول للعقاد ، وكتاب شكيب أرسلان في شوقي ، وكتاب ميخائيل نعيمة في جبران ؛ وهناك مذكرات شفيق باشا ، و « في المرآة » للبشري ، وغيرها .

ولـكن هذه كلها تراجم آحاد لا تغني كبير غناء في التعريف بأعيان هذا الجيل !

* * *

هاأنذا أعرض طائفتين من أعيـان هذا الجيل بأسمائهم : أما إحداهما فقد انطوى تاريخها على الأرض منذ حين ، ولـكن صداها ما يزال يرن في آذان المشرقين ؛ وأما الأخرى فـا تزال بين سمع الدنيا وبصرها مكافحة دائبة . . .

. . . هاأنذا أعرض هاتين الطائفتين ثم أسأل : ماذا يعرف النـاس عنهم ويتحدثون به في مجالسهم وأندية سمرهم ؟ ثم ماذا يعرف التاريخ ويأثر من هذه الأحاديث ؟

ماذا يعرف النـاس عن الـكاظمي ، والزهاوي ، وحفني ناصف ، وإمام العبد ؛ وعن طاهر الجزائري ، والشنقيطي ، والرصفي ، واليازجي ؛ ثم من الخانجي ، والحلبي ، وزيدان ، ومترى ، وسركيس ؟

أليس هؤلاء أساطين من دعائم القوة الأدبية في هذا الجيل ؟

بلى ، وقد كانوا أحياءً معاصرين ، وكان لهم أخبار ونوادر ، ومفارقات وأقاصيص ، ومآثر ومباذل ، يتداولها السامرون للّهو والتسلية ، وإن لها لشأناً حين يقتضينا حق الأدب أن ندرس تاريخ هذا الجيل ودعائمه والمؤثرات فيه ؛ فماذا نقول يومئذ ؟

إن الذي ينبغي أن نقوله يومئذ قد بدأ يتسرب من أيدينا ويتبخر من رءوسنا ، لأنه تاريخ غير مكتوب ؛ فهل بقي بعدُ إلا الـكتاب والديوان ؟ . . . ولـكن أين الرجل ؟ . . . أين الانسان الذي يكشف لي عن معاني الـكتاب ومعاني الديوان ؟

وا أسفا ! لقد مات الشعر والشاعر ؛ فما هنا شعر يترجم عن عاطفة ، ولـكنه صدى لحن خافت تحمله الريح إلى مكان سحيق !

هذه طائفة قد طواها جيلها في مدارج النسيان ، وليس بيننا وبين ماضيهـا القريب إلا سنوات ، وأما الطائفة الأخرى . . .

ها نحن أولاء ما نزال نعيش في الأحياء ، وما زال حديثنا رطباً على شفاه الناس يترجم عن معانينا ويكشف عن ذات أنفسنا ، وما زالت حياتنا حادثةً تتراءى على أعين الناس فيعرفون عنا ما لا نكاد نعرف ؛ وما زلنا إلى ذلك ننتج شعراً ونثراً يتفهمهما الناس على ضوء ما يعرفونه أو يعرفون عنا ؛ ولـكننا غداً تاريخٌ من التاريخ ، فمن لي بأن يعرفني القارئ غداً عرفاناً تتراءى به قلباً لقلب ، وتتكاشف نفساً لنفس ، فيقرأ آثاري الأدبية — بعدي — وكأني جالس إليـه أحدثه حديثي وأبثه نجواي ، وبيني وبينه اختلاجةُ العاطفة ونبض الشعور ؟

من لي بأن يقرأ الناس غداً كتاب « الأيام » فيعرفوا مؤلفه وصاحبَ خبره ؛ ويقرءوا « سارة » فيعرفوا عاشقها وصاحب نجواها ؛ ويطالعوا « أغاني الـكوخ » فيعرفوا شاعرها وأين وقع أغانيه ؟

* * *

ولست أعني رجال الأدب حَسْبُ حين أتحدث عن أعيان الجيل ؛ فقد قلت في صدر هذا الحديث : إن الأمة العربية لم يجتمع لها في يوم من أيامها ما اجتمع لها اليوم

نسائيات:

فى ظلال الذكريات

ما كنت أحسب يوم أن أهبت بالكاتبة المبدعة « مى » أن تعود من جديد إلى ميدان الابداع الفكرى ، فى أول مقال كتبته تحت هذا العنوان على صفحات هذه المجلة — ما كنت أحسب يوما أن الموت يناديها ، وأنها ستلبى النداء؟!

وما دار بخلدى أن روض الأدب ستقفر جنباته من نغمات البلبل الصداح الذى طالما أطرب العقول والأرواح ، وهو يغرد بأناشيد البيان السحرى ، الذى أسلم قياده للخيال « مى » ، وامتازت به حتى احتلت الذروة ، لا فى الشرق وحده ، ولكن فى الغرب كذلك ...

لقد عرفت (مى) سر البسمات والدموع ، وتغلغلت فى حنايا الضلوع ، وهتكت بأشعة عقلها أسرار النفوس ، فانعكست خفايا البشرية على مرآة عقلها ، فجلت لنا أدق الصور بأرق أسلوب وأمتن تعبير !!

كم تاهت أعواد المنابر ببيان الآنسة « مى » ، وكم ازدانت صدور الصحف بقلائد دررها الفكرية الغالية ! وكم أذكت قرائح ، وحركت عقولا ، ودفعت بجملة أقلام إلى اقتحام ميدان الجد والنضال ؟!

إن الثغرة الفكرية الهائلة التى خلقتها « مى » بموتها فى الشرق العربى لن تسد ، لأن الدنيا القادرة أضن وأشح ما تكون بسد الثغرات .... !!

وهل تنسى العقول الممتازة أدب (مى) وقد كان رمز السمو ومن ينبوع الوجدان ؟؟

لقد كانت تلك النابغة فلتة الزمن ، ومفخرة من مفاخر النهضة الأدبية فى مصر ، وكانت دوحة فينانة فى روضة الأدب ، وكانت بطلة جبارة فى ميدان الفكر السليم ...

لقد ماتت فى عمر الزهور ، بعد أن عطرت أرجاء من ذوى القوة والجاه والنفوذ فى دوائر الفن والأدب ، ودوائر العلم والمال ، ودوائر الرأى والسياسة ؛ وسينطوى هذا الجيل فى مدارج النسيان كما انطوى جيل سبق ، فلا يكاد التاريخ يذكر شيئاً بعد عن فلان وفلان وفلان ، وإنهم اليوم ليُسْألون عن التاريخ ما يقول !

ولعله من العجيب أن يكون إغفال الأدباء هذا الباب فى الوقت الذى بدأت فيه القصة تأخذ مكانها فى الأدب الجديد ، وبدأ الناس يُقبلون عليها ، وبدأ الكتاب يجوّدونها ويفتنّون فيها .

والقصة والترجمة الشخصية صنوان ، بل لونان على مائدة ، تهفو النفس إلى كليهما على قدر مشترك ؛ وبينهما من التشابه ما يكمّل من أحدهما نقص الآخر ؛ ويكاد الفرق يكون معدوما بين القصة التاريخية فى بعض صورها وبين الترجمة الشخصية ؛ ولقد يعمد القاص الفنان إلى خبر تافه فى ترجمة إنسان فيتخذه نواة يغشّى منها قصة تصيح لها الدنيا ؛ ولقد يعمد المؤرخ الصادق الحس إلى قصة من قصص التاريخ فيتخذها مصباحا بهديه ورائداً يذلل له سبيله .

فكيف وقع — والصلة بين هذين الفنين هى ما ذكرت — أن ينشط أحدهما ويخمل الآخر ؟ ما سببه وما علاجه ؟ ...

أما سبب ذلك وعلاجه فلعلى أعود إليه فى مقال تال إن شاء الله .

محمد سعيد العريان

الشرق بنفحاتها الوجدانية ، وأعلت النفوس بسكر حلاوة أسلوبها ، ورقة تعبيرها ؛ ثم غابت من دنيا الناس كما تغيب أطياف الحبيبين عقب الأحلام . . .

لقد فارقت شعبها المخلص الوفي على غير ميعاد ؛ فتركت الغصة للقلوب ، واحترق الثكل بنار الفراق ، وتجرع لوعة البين .

ما أقسى موت البطل وهو في حومة المعركة ! وما أقل نصيب حملة الأقلام في مصر !

إن النهاية المحزنة التي تنتظرنا لتثير الشجن ، وتصبغ الدنيا بلون السواد .

لقد سبق (مي) عائشة التيمورية وباحثة البادية ، فهل خلدتهما مصر بإطلاق اسميهما على شارعين ؟

وهذه (مي زيادة) وقد كانت شهرتها في عالم الفكر ملء الأسماع والقلوب ، فماذا سيكون نصيبها من التخليد من أبناء مصر والشام ؟

لا شيء غير كلمات تسطر ، وخطب تقال ، ثم تنطوي ذكرى (مي) كما انطوت ذكريات من سبقتها إلى دار الخلود والجزاء !

ترى ماذا كان الحال لو أن الآنسة (مي) لم تكن تملك تلك الثروة التي جرت عليها ونصبت حولها شباك الغدر والكيد وهي تقاسي نوبات الأمراض ؟

ترى ماذا عساه أن يكون حالها لو أنها كانت معدمة لا تملك غير سن القلم والعقل الجبار ، وقد قعد بها المرض كل هذه المدة ؟

أتراها كانت تستجدي الأكف ، وهي تلك الأبية الأنوف ؟

لقد لطف الله بها رحمها الله ، إذ سخر لها المال عند اعتلال الصحة ، وجنبها بذلك ذل الفقر ومحنة الفاقة بجانب آلام المرض ومخالب الأسقام ...

لقد تركت « مي » العالم وهو أتون من نار . تركت العالم وشياطين الحرب والدمار ترقص رقصاتها النارية على أنين الجرحى وحشرجة الأموات . . .

ذهبت إلى جوار ربها راضية مرضية قبل أن تشهد المجازر البشرية تقترب من الشرق الوديع ، فأراحها الله من شهود الأوصال والأشلاء . ! !

في ذمة الله يا أبلغ كاتبة عاشت في كنف العفاف وفي ظل الفضيلة ، وسمت بعاطفتها من مواطن الزلل والسقوط . في ذمة الله يا خير من حملت القلم ، فلم تستخدمه إلا فيما يرتفع بالانسان عن الدنايا والصغار . في ذمة الله يا خير من تحكمت في المعاني وملكت ناصية البيان ، فكانت نعم الخطيبة المفوهة ونعم الكاتبة التي يفخر بها القرطاس . في ذمة الله يا ربيبة الشرف وأبر بنات وادي النيل بوادي النيل . سيذكرك التاريخ يوم تنشر صفحات من عشن للفضيلة والعفاف . . . ستظل سيرة حياتك الحافلة نبراساً يضيء للفتيات طريق الطهر والخلود .

إيه يا دنيا ؟ ! إنك تعطين اليوم لتسلبي في الغد ، وتضنين على الناس بخدام الانسانية ومبدعي الشعوب . إنك دار فناء برغم ما نعزي به أنفسنا بعبارات بقاء الذكرى والخلود . ! !

إنه ليشق علي أن أضع القلم وأطوي الصفحة وأنا لم أصل في رثائك يا ربة البيان إلى بعض ما كنت أريد ! ولكن ما حيلتي والأيام الحالكة السواد تأبى إلا أن تقيد الأقلام وتكبلها بالأغلال والقيود . . .

أما بعد فهذا جهد المقل . ولو كان الأمر بيدي يا أختاه لملأت في رثائك صفحات ، ولكن ما فائدة ما يقال في دنيا الفناء وقد من الله عليك بانتقالك إلى دار البقاء ؟

ألا فليهدأ رفاتك الكريم في عالم الراحة الأبدية والهدوء الذي لا يعلوه صخب ولا ضجيج . ولتمطر قبرك نفحات الرحمة . . . ولك الدعوات الصالحات من أختك .

نعمة محمد وصفي

نقد وتعقيب :

عوامل خفيـــــة

وجه الحركة النسائية فى الغرب

هذا هو عنوان المقال الذى نشر فى مجلة « الثقافة » الغراء للكاتبة القديرة الآنسة عائشة عبد الرحمن .

وقد بدت لى بعض الملاحظات على فكرة المقال على وجه العموم ، وأخرى على بعض التفصيلات فيه على وجه الخصوص ؛ ثم رأيت أن أذكر ذلك لها بإخلاص فى هذا المقال ، لعل أخطأت الفهم فترد فى إلى الصواب ، أو لعلنا اختلفنا فى وجهة النظر فنتقارب حتى نلتقى . . .

فكرة المقال عند الأخت الكريمة ، أن الأغراض السياسية هى التى أرجعت المرأة إلى البيت لتزود البلاد بجيش من الأطفال يعبأ للمد عند ما يدوى النداء . . .

وأن الأغراض الاقتصادية هى التى أخرجتها منه بعد ذلك إلى المصانع والمزارع والمتاجر ، لتحل محل الرجل الذى ذهب إلى الميدان بعد أن دوى النداء . . .

وأن القادة والزعماء حينما أرجعوها إلى البيت بداعى الفطرة والأنوثة والأمومة لم يكونوا صادقين ، ولم يكن غرضهم إعفاءها من مشقة العمل ولا ظفرها بحياة هادئة كريمة ، كشأنهم عند ما عادوا فأخرجوها . . .

هذه هى الفكرة . . . فهل هذا هو الواقع . . . ؟

إنى أخالفها فى ذلك . . . ! والواقع فيما أرى أن أولئك القادة حينما فكروا فى النهوض بقومهم ، رأوا أن ذلك لا يتم إلا بالحد من كثير من الحريات التى أعطيت للأمة بسخاء ، فلم يحسن أفرادها شيئاً من التصرف بها ، وضيعوها فى الأهواء الجامحة ، بدل أن يدخروها للأفكار الطامحة . . .

وتم لهم ذلك بالفعل ، فسيطروا على الحرية ولم يطلقوها إلا بحساب ، فتسنى لهم السير نحو الهدف الذى جعلوه نصب أعينهم ، فى جو من الهدوء والسرعة والنظام . . . !

وأكاد أجزم بأن هذا هو الأساس الأول الذى يجب أن تبنى عليه كل نهضة موفقة ، ما لم تنحرف فيما بعد عن الوضع الممهد المنتج .

وقد كانت حرية المرأة فى مقدمة هذه الحريات الجامحة التى حدوا من نشاطها ، لأنها أم الشعب ومربيته الأولى قبل أن تربيهم المدارس فى الصغر ، وقبل أن تربيهم الحوادث فى الكبر . . .

هذه الأم لم تقنع بالوضع الذى وضعتها فيه الطبيعة . فباعدت الشقة بينها وبين الأمومة ، رغبة فى العلم حتى تقطع معظم مراحله ، ثم رغبة فى الكسب لتستغل ذلك العلم كما يستغله الرجل ، وماهى برجل .

وكانت النتيجة أن منعها العلم عن حياة البيت المبكرة ، عند ما بلغت السن التى مكنتها الطبيعة فيها من إنجاب الطفل وهيأتها له ، كما منعها الكسب من التضحية بالحياة المتشابهة التى عرفتها فيه ، من أجل الحياة الغامضة التى لم تجربها فى غيره بالزواج ، وما يترتب عليه من تغيير فى الروح والجسد ، وما يلابسه من سعادة وشقاء لا بد من ترادفهما فى حياة كل فرد . . .

ورغبتها فى الكسب هذه أدخلتها فى مأزق حرج سياجه المادة ، جعل عُبّاد الذهب يستغلونها أشنع استغلال ، ليحصلوا على أكبر نصيب من إنتاجها ويمنحوها بأقل نصيب من أجرها ومجهودها . . !

ثم بالغوا فى عبادة ذلك الصنم ، فسجدوا له سجدة هائلة ، سوت التائر من عيونهم بالتالى ، من أنوفهم ، فلم يعد لديهم نظر ، ولم يبق عندهم شم . . . لأنهم استردوا من المرأة المسكينة باليمين ما أعطوها إياه بالشمال . . . !

فماذا صنعوا . . . ؟ وكيف تم لهم ذلك . . . ؟

ألقوا لها ألواناً من الثياب والألبسة . . . !

وركبوا لها أخلاطاً من الأصباغ والزينة . . . !

وفننوا لها أشكالا من اللهو والعبث ... !

هكذا صنعوا ... ثم أقاموها هي بنفسها – أيام لهم الأمر – جابية للضرائب التي فرضها عليهم صنم المادة ، فكانت أمينة عليها كل الأمانة ، حريصة كل الحرص ، مخلصة كل الاخلاص . . لا هوادة عندها في طلب ، ولا رحمة بإنسان !

ومن هنا بدأ يختل التوازن .. وسار كل شيء في غير مجراه الطبيعي ، ففسد العالم ، وانحلت العرى ، وضعفت الأخلاق ، وضاقت الصدور ، وشكا الناس ...

ولم يكن بد من قيام الزعماء وتدارك الخطر قبل أن ينهار المجتمع ... ! وقام الزعماء بالفعل ، وتولوا الأمر ، وبحثوا عن الداء ... فوجدوه في كثير من هذه الحريات الكاذبة ... فضيقوا عليها الخناق ، وأقاموا لها المعالم والحدود ! ثم رأوا أن شر هذه الحريات ما خرج بالمرأة عن طبيعتها . فقالوا لها : إلى البيت ... ثم إلى الزوج ... ثم إلى الطفل .

إلى وظيفتك في الحياة ... إلى ما خلقت من أجله للرجل ، حيث العرش الذي لا ينازعك فيه منازع ... !

وهكذا عادت المرأة إلى البيت على أيدي القادة ذوي الحزم في كل أمة شاء لها الله أن تنهض ، وأن تفيق من سباتها ... !

فهل من العدل أن نرميهم بعد ذلك بأنهم لم يريدوا لها ما هي أهله من الراحة والهدوء ... وأنهم لم يريدوا إلا تزويد بلادهم بجيش من الأطفال يعدونه للغد ؟

ليس ذلك من العدل فيما أعتقد . وذلك لأسباب :

أولها : أنه ليس بينهم من جاء من غير امرأة هي أمه ، وليس منهم من ليست له امرأة هي قرينته أو قريبته أو صديقته ، حتى نتصور تجردهم من الرحمة بهن إلى هذا الحد الذي وصفتهم به الأخت الكريمة عفا الله عنها ... !

والثاني : أنه لم توجد إلى الآن طريقة معروفة لتوفير الخصب في إنتاج الجنس الآخر الذي يصح تعبئته للحرب ، حتى نعتقد أنهم لم يعودوا بهن إلى البيت إلا لذلك ... !

والثالث : أنه على فرض رغبتهم في إنتاج الأطفال ليدافعوا بهم عن الوطن في المستقبل – إذا أرادوا ذلك – فأي خطأ فيه وأي حيدة عن الصواب ... ؟

والرابع : أنه مما لا ينكر اتصافهم بحب الخير لأوطانهم ، والوطن في كل زمان ومكان قائم على الرجال والنساء ، فهم بلا شك يريدون الخير للجنسين على حد سواء ... !

والخامس : أنه حينما أدخل هؤلاء الزعماء المرأة بيتها لما أدخلوها إياه من أجله ... ماذا فعلوا بالرجل ؟ لقد أعدوه للنزال والنضال ! ثم حينما عادوا فأخرجوها منه .. أين ذهبوا به ؟ لقد أرسلوه إلى الميدان ، حيث القنابل والنيران ! فأيهما كان إعفاؤه من المشقة أعظم وأتم ؟ وأيهما كان أظفر من صاحبه بالحياة الهادئة بالنسبة للآخر ؟ إنها المرأة بلا جدال !

والسادس : أن إرجاع المرأة إلى البيت في أيام السلم لم يكن مقصوراً على الرغبة في إنتاجها الأطفال وتفرغها لذلك .. بل أريد به إنتاج الرجل قبل كل شيء ، وإبعادها عنه نوعاً من الإبعاد ، ليتفرغ هو أيضاً لما إنتاجه وقف عليه !

والسابع : أن إخراجها من البيت في أيام الحرب إلى المصانع والمزارع ، لم يكن إلا رحمة بها ، وإحساناً إليها ، حتى لا تتخذ البيت مبدأ لتوازي قلبها الرقيق ، وشعورها المرهف ، تقرب فيه أنواعاً من الألم والدموع ، وأنواعاً من الذعر والقنوط ... وذلك مما يفت في عضد الرجل ، ويقربه من الدمار ، الذي إن ذهب به إلى الموت الكريم ، فإنه باق لديها مع العيش الذميم ... !

بقيت كلمة !

فالذي يخيل إليّ أن الأخت الفضلى لم تقصد إلى

كتابة هذا المقال بالذات ، إلا لتخلص منه إلى المقال الذي وعدت به عن العوامل التي توجه المرأة عندنا في الشرق . وعسى أن توفق في دراسته والإفاضة فيه مع الالمام بنواحيه . . . فانى أشعر بأنها لم تشبع القول في مقالها عن الغرب . . . وربما كان شعوري هذا مرجعه إلى أنى أحب أن أستكثر من آثارها القيّمة وأطمع منها راغباً في المزيد . وفقها الله وزادها من فضله !

وفاء لطفى

رأى ورأى

في عدد ١٤٢ نقلت الثقافة الاجابات التي أجاب بها نفرٌ من كتاب الأمريكان عن سؤال وجهته إحدى الصحف الأمريكية إليهم وهو : « بين الكتب التي تحظى بالشهرة العالمية والمجد الأدبي مؤلفات لا تستحق ما نالته من السمعة ، سواء في ذلك المؤلفات الحديثة والقديمة ؛ فما هو الكتاب الذي تختار ، ليحمل لقب أسوأ كتاب في العالم ؟ » .

وكان أول هذه الاجابات — كما نقلتها الثقافة — إجابة وينفرد ارنست جارسون . وقد رشّح الكاتب في إجابته الكوميديا الالهية لدانتي لتحمل لقب « أسوأ كتاب في العالم » . ولا ريب أن هذا الرأى قد صدم الكثيرين من المؤمنين بعبقرية دانتي ، كما صدم منذ عام ونيف مثلُ هذا الرأى نفراً من شباب القدس المثقف ؛ وذلك أن جمعية الشبان المسيحية في القدس كلّفت كاتب هذه السطور أن يختار له موضعاً يحدّث فيه شبّان الجمعية ، فاختار أن يحدثهم في موضوع « وهم وأسبابه » . وفي خلال الحديث أشرت إشارة عابرة إلى شاعر من الشعراء العالميين ينال — في رأيي — من الشهرة الأدبية فوق ما يستحقُّ ، ولم أذكر اسم الشاعر تصريحاً يومئذ ، إنما لُمحت إليه تلميحاً . وجاءني بعد حين نفرٌ من الشبان وطلبوا أن أسمى هذا الشاعر العالمي الذي لا يستأهل المنزلة العالمية التي يحتلها في ثبت الخالدين . ولم أشأ أول الأمر أن أسمى لهم هذا الشاعر ، وقلت : إنى لم أشر إليه وأنا أقصد ذمه وانتقاصه بالذات ، إنما أشرت إليه كمثال من الأمثلة العديدة التي تبين لنا كيف تتحكم الأوهام الموروثة في عقول الناس ، وتحملهم على تقدير الأشياء والأشخاص — في أحوال كثيرة — تقديراً زائداً أو ناقصاً ، كما قد تسعد الظروف أو لا تسعد . إلا أن أصحابنا ألحوا وألحفوا ورجوا ، حتى ذكرت لهم اسم دانتي . . . ولقد كان ما قدرت ففغروا أفواههم مستغربين مستريبين ، ثم انطلقوا يحاجّون ويلاجّون ساعة طويلة ، وافترقنا وكلٌ منهم مصرٌ على رأيه إلا القليل ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل مضى نفر منهم يشيعون ويشنعون أن فلاناً لم يقل كيت وكيت إلا لغرض في نفسه . ولما بلغني خبر ما أخذوا على عاتقهم أن يشيعوا ويشنعوا قلت : سبحان الله ! ألا نستطيع أن نرى الرأى لم يجر في سبيل مطروق إلا وينسب إلينا الغرض أو التحكم أو حب الاغراب أو خلافها مما يحلو للمشنعين أن يشنعوا ؟ !

هذا رأى الأمس . أما رأى اليوم ، كما يرى القارئ ، فهو رأى الكاتب الأميركي ، فهل يقوم أصحابنا بالأمس لو أتيح لهم الاطلاع على رأى هذا الكاتب الأميركي ، ويقولون : إنه الكاتب المغرض الذي لا يتوخى الحق ولا يتحرى الانصاف ؟ أو يقولون : إن المرء قد يأتي بالفكر الطريف وهو لا يقصد التحكم ولا التهجم ولا الاغراب ؟ !

فوضى الطبع والنشر وجنايتها على الأدب العربي

بين يدى وأنا أكتب هذه الكلمة كتابان ومقال عن كتاب في صحيفة . أما الكتابان فهما الجزء الأول

من العقد الفريد كما أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وديوان أبي نواس كما أخرجته إحدى المطابع (مطبعة حجازي في القاهرة عام ١٩٣٧) . وأما المقال فهو تلك التحية العاطرة التي وجهها من الثقافة الراوي الكبير الأستاذ محمود تيمور إلى الأستاذين طه حسين وعبد الوهاب عزام ، وإلى أصحاب مطبعة المعارف الذين تعاونوا تعاوناً صادقاً على إخراج كتاب « كليلة ودمنة » في طبعة جديدة ، بلغت شأواً بعيداً في أناقة الطبع وجودة الورق ودقة الضبط والتحقيق . وليس الكتاب بين يدي لأرى بعيني إلى أي حد بلغ الإعجاز في طبعه ، فأدعه وأعود إلى الكتابين اللذين أرى أمامي الآن . أما العقد كما خلصته لنا لجنة التأليف من سخافة الطبع وغثاثة الورق وشناعة التحريف والتصحيف ، فقد خرج من مطبعة اللجنة كأحسن ما أخرجت مطابعنا الحديثة كتاباً ، وإننا لنرتقب الأجزاء الباقية بشوق أشد مما ارتقبنا هذا الجزء الأول ، وذلك أننا نعلم الآن علم اليقين أي شيء نرتقب . وأما الكتاب الآخر ، وهو ديوان أبي نواس ، فأنا أتصفحه الآن كيفما اتفق ، وأجد حيث فتحت ما يأتي :

نجد في أعلى الصفحة الثالثة والخامسة والستين ، حيث فتحت ، هذه الشطرة : « من كف مضمر الزنار معتدل » وواضح أن الأصل « منضمر » بدل « مضمر » ، فالوزن والمعنى يقتضيان ذلك .

وفي هذه الصفحة أيضاً هذا البيت :

حاك أبيع بهـا وشياً وحلتها

بدائع الزهر من مثنى ومن وحـد

ولا ريب أن هذه « الأبيع » هي الربيع بعينه .

وفي الصفحة عينها ثالثة الأثافي ورابعتها ، ففيها هذه الشطرة : « فذلك وابه ليل ودأبي » .

ولن تصيب لها معنى إلا إذا جعلتها : « فذلك دأبه ليل ودأبي » .

هذا في صفحة واحدة فما بالك بكل ما في الديوان ؟

ولا تقع على هذا في كتاب دون كتاب ، إنما أنت واقع عليه في أكثر ما بين أيدينا من كتبنا القديمة ، وعلة هذا أنه لم ترسم إلى الآن سياسة واضحة حازمة لنشر أدبنا القديم . وإنه ليخيل إلي أنه يستطيع كل من يشاء أن يطبع ما يشاء من الكتب القديمة دون أن يجد حسيباً ولا رقيباً ، فهل مثل هذا يجري في مطابع الغرب أم شيء خلافه ؟ إني أنظر في الطبعات المتعددة للكتاب الواحد يطبع في الغرب ، فلا أكاد أقع في الكتاب كله على الغلطة الواحدة من الأغلاط المطبعية . فإما أن هناك هيئات مركزية تشرف على إعادة طبع هذه الكتب القديمة التي مات عنها أصحابها ، فلا يستطيعون أن يدفعوا الأذى عنها ، فيوكل أمر طبعها إلى هـذه الهيئات ، وهي في معظم الأحوال هيئات قديرة محترمة ، وإما أن جميع الطابعين والناشرين هناك بلغوا من سمو الثقافة والشعور بالمسئولية حداً لا يحتاجون معه إلى رقابة . والذي أتمناه — ما دام كثيرون من الناشرين عندنا على أضأل حظ من الثقافة والشعور بالمسؤولية — أن تتفق جميع الحكومات العربية على تنظيم شؤون الطباعة والنشر ، فلا تسمح إلا للهيئات المحترمة بطبع الكتب القديمة ، والإشراف على تصحيح ما تحفل به الطبعات السابقة ، والمخطوطات التي لم تطبع ، من أغلاط . بهذا ، وبهذا وحده نستطيع أن نحبب أدبنا القديم إلى الناشئة ، ونخلص الكثرة الكاثرة منه مما تحفل به من ضروب التحريف وسخافة الورق وغثاثة الشرح والتعليق ، وإذا قيل : ليس كل قارىء يستطيع أن يبتاع الطبعات الدقيقة الأنيقة لما يصرف عليها من جهد وعناء ومال . أجيب : إنه بالإمكان أن يطبع الكتاب الواحد الطبعة الأنيقة الدقيقة ، ويقتنيها القارىء الثري ، ثم تطبع منه الطبعة الرخيصة الصحيحة ، ويقتنيها القارىء الفقير ومتوسط الحال ، كما يفعل الغربيون في طبعاتهم المتعددة للكتاب الواحد .

(شرق الأردن) ع . ا

زنوبيــــا

للأستاذ أحمد أمين بك

عنى الأستاذ محمد فريد أبو حديد باختيار اللوحات التاريخية يتتبع دقائقها ويتبين معالمها ، ويصوغ منها روايات قيمة تجمع بين لذة القصص وفائدة التاريخ ، فى أسلوب شائق سهل خفيف على النفس ؛ فخطا بذلك خطوة موفقة فى ناحية هامة من نواحى الأدب العربى ، بعد الخطى التى خطاها من قبل جرجى بك زيدان .

فبدأ الأستاذ فريد عمله بابنة الملوك ، تصور عصر المماليك فى مصر ، وأتبعها بقصة حرب البسوس ، ثم الملك الضليل ، ثم هذه الرواية التى نحن بصددها وهى زنوبيا .

وقد كان فى كل من هــذه القصص بحيا فى أشخاصها ، ويتقمص أرواحها ، وينبض قلبه بأحداثها ؛ فنبض قلب القراء من نبض قلبه ، وعاشوا فى عالم قصته من جنس عيشته .

وزنوبيا شخصية محيرة حقاً ، عجيبة حقاً : هى من جنس النساء التى سمح بها التاريخ على ندرة ، تخضع لها الرجال ، وأكسبت قومها عزة وفخراً لم يكسبهما قومهم كثير من الملوك ؛ وهى أغمض من قريناتها أمثال كليوباتره ، لتوغل بلادها فى الصحراء ، ولأنها من قوم لم يتحضروا تحضر الفرس والرومان والمصريين ، حتى يدون مؤرخوهم أحداثها وأعمالها فى دقة وتفصيل .

لقد روى العرب أحاديث كثيرة عن الزباء ، والاسم قريب الشبه بزنوبيا ، ومؤرخو الفرنج لم يعرفوا غير زنوبيا ملكة تدمر ، ومؤرخو العرب لم يعرفوا غير الزباء ملكة تدمر ؛ والاسمان متقاربان فى النطق ، وعلمان على ملكة تدمر ؛ وما روى العرب عنها من حيث أحداثها وزمانها غير ما رواه الفرنج ، وتاريخ هذه الملكة وأحداثها حسب الرواية العربية غيرها حسب الرواية الافرنجية .

وبعيد جداً أن يعنى العرب بأحداث الزباء ملكة تدمر المغمورة ، ولا يعنوا بأحداث زنوبيا ملكة تدمر المشهورة .

فمؤرخو الفرنج اعتمدوا على النصوص اليونانية والرومانية والنقوش التى عثروا عليها فى تدمر ، واستطاعوا أن يحلوا رموزها ، ويقرأوا لغتها . وتتلخص فى أن تدمر كانت مدينة عظيمة التجارة ؛ وقد أزهر تجارتها موقعها وسطاً بين مملكتى الفرس والرومان ، وكانت مستقلة ؛ ثم كان من أمر سابور ملك الفرس أن أسر « والاريانوس » ملك الرومان ، فأراد ابنه جاليتوس الذى ورث مملكته أن يأخذ من سابور ثأره ، فساعده على ذلك رئيس تدمر ، واسمه أذينة ، وزحف بجيشه على سابور وهزمه ، فقلده جاليتوس ملك الروم على تدمر ، وذلك سنة ٢٦٤ ميلادية ، ثم مات أذينة عن ابن صغير اسمه وهب اللات ، أى هبة اللات . ولما كان وهب حديث السن ، تولت أمه زنوبيا الوصاية عليه ، وكانت فريدة عصرها حسناً وعقلا وبأساً ، ومدت سلطانها على الشام وبعض نواحى مصر ، ثم تغيرت العلاقات بينها وبين « أورليان » ملك الرومان ، فجرد لها جيشاً حاربها ، وكسر جيوشها مرتين ، ثم حاصرها فى مدينة تدمر إلى أن أسرت ونفيت فى مصيف « تيبور » ، وقال بعض المؤرخين إنها عكفت فى هذا البلد على تهذيب أولادها ، وزوجت بناتها من أعيان الرومان .

وإن الكتابة التدمرية تنص على أن اسمها الأصلى « بنت زباى » ، وقد حرفها اليونان إلى زنوبيا .

وأما العرب فرووا أنه كان فى أيام جذيمة الأبرش بن مالك اللخمى رجل اسمه عمرو بن الظَّرب من نسل أذينة ، وكان ملكاً على الجزيرة والفرات ومشارف الشام ، وجرى

بينه وبين جذيمة حروب ، فانتصر عليه جذيمة وقتله ، وشتت شمل قومه . ولكنهم لم يلبثوا أن جمعوا جموعهم ، وملكوا عليهم الزباء بنت عمرو ، ولما مات جذيمة خلفه عمرو بن عدى ، فأراد قتل الزباء ، فاستدعى قصيراً وأعمل الحيلة لجدع أنفه وزعم للزباء أن عمرو بن عدى هو الذى جدعه ، فأنست به وقربته إليها ، ودلته على أسرارها ؛ فحمل ذلك إلى عمرو ، فركب عمرو فى ألفى دارع مختبئين فى الغرائر ، وتقدم قصير يسبق الابل ، ودخل المملكة بالغرائر ، فخرج رجال عمرو منها وأعملوا سيوفهم فى أهل تدمر ، فهربت الزباء ، فاستقبلها عمرو ، فمصت خاتمها المسموم ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو » ، وماتت .

هذه هى الرواية العربية على اختلاف قليل فى بعض الروايات فى التفاصيل .

شغلت هذه المفارقات بين الرواية العربية والغربية الباحثين . فهل زنوبيا هى الزباء ؟ قال المستشرق الانجليزى رد هوس : إنها غيرها ، وألف فى ذلك رسالة سماها (Were Zenubia & Zebba'u Identical?). وذهب الأب سفستيان رنزفال إلى أنها هى ، وكتب فى ذلك مقالات متتابعة فى السنة الأولى من مجلة المشرق . وكذلك رأى الأستاذ جويدى . وذهب الأستاذ فريد إلى أن زنوبيا كانت حفيدة للزباء لأن تاريخ الأحداث فى الأدبين العربى والغربى مختلف .

وعندى أن هذا لا يكفى أن يكون سبباً ، وأرجح اتحادهما وتحريف الزباء من زنوبيا . فكم من أعلام غربية صاغتها العرب صياغة جديدة طوعاً لألسنتها ، والفرق قريب جداً بين زنوبيا والزباء وزينب وبنت زباى ؛ ومما يساعد على هذا الاتحاد فى موقع الحوادث وهو تدمر . والاتحاد فى أن زنوبيا بنت مدينة على الفرات ؛ وهذا ما يرويه الفرنج والعرب معاً .

أما تلاعب العرب بالحوادث فمدرهم فيه أن الحوادث حدثت قبل الاسلام بنحو ثلاثة قرون . والرواية تنتقل شفوياً من غير تقييد ولا كتابة ، وكلما مر الزمان مسخت الأحداث وحورت . ومما يدل على وضع الحادثة ما ورد فيها من أمثال عربية مثل « لأمر ما جدع قصير أنفه » و « بيدى لا بيد عمرو » وشعر « ما للجمال مشيها وئيداً » ونحو ذلك ، كأنهم ظنوا أن أهل هذه البلاد فى ذلك العصر كانوا يتكلمون اللغة العربية القرشية المعروفة عند مجىء الاسلام ، مع أن الثابت تاريخياً وعلمياً أن تدمر وما حولها كانت مسكونة بالأنباط من شمال الحجاز إلى نواحى دمشق ، والانباط كانوا يكتبون بالنبطية ، وهى نوع من اللغة الارامية لا تزال منقوشة على آثار تدمر إلى الآن ، وقد حلها المستشرقون وأمكنهم قراءتها وحل رموزها ، ولم تكن الحروف العربية المعروفة قد استنبطت بعد . وكذلك كان سكان العراق والجزيرة يكتبون الأرامية الشرقية ؛ وكل الكتابات التى عثر عليها فى تلك المناطق تخالف فى قراءتها وكتابتها اللغة العربية المعروفة قبل الاسلام فى جزيرة العرب ؛ فالأمثال والأشعار التى وردت فى هذه القصة مع صبها فى القالب العربى الاسلامى دليل وضعها .

* * *

لقد كانت زنوبيا مثقفة ثقافة واسعة ، وفى بلاطها كثير من أدباء الرومان وفلاسفتهم ، وكانت تعرف اللغات المصرية واليونانية واللاتينية ، وانتسبت إلى كليوباتره المصرية ، وكانت بلادها ساحة للديانات الثلاث الوثنية واليهودية والنصرانية ، وكثر الجدل الدينى فى أيامها ، وأخيراً ادعت كل طائفة أن زنوبيا كانت تدين بدينها .

* * *

وغريب مع كل هذه العظمة والثقافة والملك أن يهمل العرب شأنها ، فلم يعرفوا عنها إلا هذه القصة الموضوعة ، ولم تستقل شخصيتها ولا بلادها فى الأدب العربى ؛ وكل ما أعرفه مما ذكره العرب أن النابغة الذبيانى زعم أن الجن هم الذين بنوا تدمر لسليمان إذ يقول :

إلا سليمان إذ قال الإله له

قم فى البرية فاحددها عن الفند

وخيِّر الجن أنى قد أذنت لهم

يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وبعد ذلك رووا أن أوس بن ثعلبة التيمى فى أيام يزيد بن معاوية زار تدمر ورأى من نقوشها وصورها صورة جاريتين منقوشة على قبرهما فقال :

فتاتى أهل تدمر خبرانى ألما تسأما طول القيام

قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وشبب ابن الحاجب بهما فقال :

أتدمر صورتاك هما لقلبى غرام ليس يشبهه غرام

وجاء المتنبى فذكر أن اسمها تدمر مشتق من الدمار ، إذ يقول :

وليس بغير تدمر مستغاث وتدمر كاسمها لهم دمار

وأما القصص اللطيف حول تدمر والزباء ، فلم نعثر فى الأدب العربى منه على شىء . فاذا جاء اليوم الأستاذ فريد فأحيا ذكرى هذه الملكة العظيمة ، وأثار الكلام حولها وأمتع القراء بها ، فله فضل السبق وشكر المجيد .

أحمد أمين

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

تيمور بك :

أهدانى تيمور بك على عادته الكريمة كتابه الجديد ، وهو يتضمن ثلاث مسرحيات من فصل واحد هى : الصعلوك وأبو شوشة والموكب . وهى مكتوبة باللغة الدارجة المصرية . ولعلها أول كتاب أخرجه الكاتب بهذه اللغة ؛ وهو لا شك أول كتاب أقرأه بهذه اللغة . لذلك تهيّبته أول الأمر واستبقيته لصبيحة طويلة تتسع للذى حسبته سيضيع من الوقت فى فك رموزها واستجلاء إملائها ؛ ولكنى فرغت من قراءته ، من قراءة الروايات الثلاث التى تضمنها ، فى دون الساعتين . ولو كان قرأها غيرى لفرغ منها فى ساعة فما دونها . عندئذ تبينتُ أن الإملاء غير المألوف الذى تُكتَب به الدارجة يُهدِّئ من سرعة القارئ حقاً . ولكنى تبينت إلى جانب هذا أن ألفة القارئ للتعبيرات تَزيد من تلك السرعة حتى تَعدل بهذه الزيادة بطءَ الإملاء وتفوته . وقد قالوا ، وحقاً قالوا ، إن القارئ لا يقرأ اللغة حروفاً ، وإنما يقرأها كلمات . وفى هذا الإملاء الدارج كنت أحسبنى أقرأها جملا .

وقد كنت قرأت لتيمور بك روايات أخرى وجدتها كلها خفيفة الروح ، حلوة المذاق ، يتحلّب لها الريق ولا تتعسر بها معدة ، فهو يطبخها من أخف الأطعمة وزناً وأقلها كثافة وأيسرها هضماً ، فإذا تناولتها جرت من قناتك مجرى الماء سهولةً ، فلا تُحس بها غيرَ نفحة شهية طيبة فى الأنف ، ومذاقٍ حلوٍ خاطف على اللسان .

وما إن فرغتُ من مسرحياته الثلاث هذه ، حتى وقع فى نفسى أنها أشهى وأحلى ، وأن الزيادة فى هذا الاشتهاء وهذا الاحتلاء إنما كانت لعاميّتها أيضاً . ولا يسوءنّ قولى هذا أحداً .

بين الدارجة والفصحى :

إن اللغة العربية الفصحى لغة الأدب الرفيع ، ولغة المعانى السامية ؛ لغة التفصيل العميق إن أردنا تفصيلا ، ولغة الإجمال المعجز إن أردنا إجمالا ؛ لغة المراثى الفجعة والمدائح المبدعة ؛ لغة الحب الباكى والحب الضاحك على السواء ؛ لغة الهمّة الشمّاء والعزة القعساء ؛ لغة رفض الظلم وتأبى الضيم ؛ لغة تأبى العار وتُجير الجار وتحمى الذمار ؛ لغة جمعت بين جلدتيها مجد الانسان وحكمة الزمان .

واللغة العامية لغة البيت ، ولغة المدرسة ، ولغة الأسواق ؛ وكفاها بهذا نعتاً .

إن حياة المصرى ، بسبب اختلاف اللغتين ، حياتان متمايزتان . حياة تتصل بالكتب وما تتضمنه الكتب من علم وأدب وفن ، أعنى حياة تتصل بجانب العيش الأعقد ، بجانبه الأسمى والأمجد ، وهذا الجانب وسيلته اللغة الفصحى . وحياة تتصل بالمأكول والمشروب والملبوس ، وتتصل بالمعاملات فى الطرقات وغير الطرقات ، أعنى حياة تتصل بجانب العيش الأبسط ، بجانبه الأحطّ الأخفض ، وهذا الجانب وسيلته اللغة الدارجة .

وإن كانت اللغة الدارجة قد قصرت من الفصحى فى سموّ المجال الذى تعمل فيه ، والأغراض التى تعمل لها ، فقد فاتتها فيما تستهلك من أوقات الناس وما تستغرق من عقول الناس . وإذا نحن اعتبرنا أعداد هؤلاء الناس ، رجحت العامية رجحانا مبيناً ، وشالت الفصحى شولاناً فاضحاً . وإن كان الكيف خيراً من الكمّ ، فهذا لا يكون والكيفُ بالغُ القلة ، والكمُّ بالغُ الكثرة . وإذا نحن اعتبرنا كيفَ الفصحى ، وكمَّ الدارجة ، لقلنا إن لغة

المصريين التي تشكّل حاضرهم، وستبقى رغمهم مستقبلهم هي اللغة الدارجة.

إن اللغة الفصحى لغة نحصّلها بالتعليم، والتعليم تطبّع؛ واللغة الدارجة لغة نحصّلها بالنشأة، فهي لغة الطبع؛ لهذا كانت أكثر امتزاجاً بدمائنا، وأخف وقراً في آذاننا، وألطف مدخلا إلى قلوبنا. وإذا أنا قلت قلوبنا فإنما أعني قلوب هذه الأمة بملايينها الخمسة عشر، لا تلك الآلاف التي اتخذت من الأدب صناعة، أو من التأدّب عادة. فالدارجة لها الأثر الأول لدى هذه الملايين، ولها المكان الأول في مزاجهم؛ وللفصحى المكان الثاني. وأنا في كل هذا إنما أصف ما هو كائن، لا ما يجب أن يكون.

ومن وصفِ ما هو كائن أيضاً أن اللغة العامية، في القرنين الماضيين، أو في الثلاثة الماضية، خطت نحو الفصحى خطوات واسعة ضيقت البرزخ الذي بينهما تضييقاً يُذكر. فعابر الطريق منا يسمع اليوم من أطفال الشوارع، ومن العمال والصنّاع حتى وبعض الزرّاع، ألفاظاً عربية، واستشهادات أدبية، لم يكن يسمعها في الزمن الغابر. وسبب هذا لا شك انتشار التعليم لا سيما في المدن. وسيزداد هذا البرزخ بانتشار التعليم ضيقاً، ولكن لن يُقدَّر للعامية أن تقطع البرزخ كله وحدها، فهي قد تقطع ربعه، وهي قد تقطع ثلثه، وعلى الفصحى أن تقترب من ناحيتها أيضاً، ربعاً أو ثلثاً.

جماعة المزمّتين :

ولكن هذا لن يكون ما دام السلطان في اللغة لجماعة المزمّتين، لجماعة الأرزريين؛ للفئة التي تقول هذا ورد في كلام العرب وهذا لم يرد؛ للفئة التي تمنع حتى المقيس من القياس إن لم يكن قد سُمِع في كلام العرب؛ للفئة التي تأبى على لغتنا الدارجة أن تنتسب في أصولها إلى لغة العرب، وعلى ألسنتنا أن تكون شرائح مقدودة من لسان العرب؛ للفئة التي تعيش في الماضي وحده، و تَنعَم بنعيم الماضي وحده، وتتطاول إليه برءوسها ولا تبالي ما تقسّمت هذه الرءوسُ لسانَم الماضي رغبةً ماطرةً أن تكون الأرجل في وحل الحاضر وطينه. تلك الطائفة التي لا ترى اللغة إلا بيت شعر يُنشَد، أو منطوق حكمة يُتمثَّل بها، وتنسى أن اللغة تجرى في مرافق الناس جريان الدم في أجسادهم، وتشتجر وصوالح الحياة كاشتجار النحو ومذاهبه في رءوس النحاة أو أشد اشتجاراً.

بطء النهضة :

على أن القافلة تسير على رغم الأنواء والأعاصير، فقد دخلت الفصحى ألفاظٌ لم تكن منها، أو هي لم تكن كذلك في حسبان الغلاة. ودخلتها تعبيرات ليس فيها الحوشية السكافية التي يأنس بها الغلاة، ولا التجهم السكاكي الذي تنبسط له أسارير الغلاة. وإن يكن جنى الغلاة شيئاً فما ذلك إلا التقصير الخطى وتحكيم السير على السائرين. ثم جنوا بطء النهضة التي بدأت والتي هي سائرة إلى غايتها المقدورة؛ وقد كان هذا بطأ تتسع له الصدور لو أنه وقع في زمان يُبطئ، وبين أحداث تُمهِل، إذاً لتناخذلوا الأمور تجرى في أعنتها، ودعوا الطبيعة تتطبّع على سجيّتها. ولكن الزمن جرى بالعالم في القرون الثلاثة الماضية ثلاثمائة عام هي أشبه — بالأثر العظيم الذي أحدثته — أن تكون ألفا؛ وجرى بمصر وأشباه مصر في القرون الثلاثة الماضية ثلاثمائة عام هي أشبه — بالأثر القليل الذي أحدثته — أن تكون مائة فما دون المائة. فالبطء بعد هذا التباطؤ البالغ لا يكون تسكعاً وتنطعاً، بل يكون إجراماً، لا في دائرة اللغة وحدها، بل في كل دائرة من دوائر النهضة الحاضرة. إننا في حال من التقهقر يشبه أن يكون يأساً. حال لا يتسع للهزل ولا يتسع للجهل، ولا يتسع لتلك الأناة

التي يفرضها علينا المتحفظون . إن البيت الذي نعيش فيه ، وعشنا فيه تلك الأجيال الماضية الطويلة الجيدة ، بيتٌ عميق الأساس عريض البناء واسع الأبهاء مديد الفناء ، جميل عتيق ، يأتلف وما اعتدناه في الزمن العتيق من عادات وما تطلبناه حينذاك من حاجات . ولكنا في الزمن الحديث استبدلنا عادات بعادات ، وحاجات بحاجات . وكل الذي نريده بهذا البيت إنما هو إبدال حائط بحائط ، وبهو ببهو ، وتوسيعٌ هنا وتقصير هناك ، والبيت هو البيت ، والأساس هو الأساس . فالذي يقاوم حتى هذا الاعتدال إنما يدعو النفوس إلى ثورة تذهب بالبيت من جداره ؛ ثورة تضيع معها حرمة الماضي ، وإعزاز الماضي ، وجمال الماضي ؛ فالماضي عزيز جميل ما استمدَّ الناس منه الحياة ، وهو بشع قبيح ما استمدَّ الناس منه الفقر والذل والفناء .

عيّ اللغويين :

إن اللغة العربية التي كانت تعيش في الناس قبل ألف عام فما فوق الألف لا يمكن أن تعيش اليوم في الناس كما هي بعد هذه القرون المترامية . ودليلنا على هذا أنه ما من لغة في الأرض عاشت هذا العمر الطويل دون قلب وتبديل . بهذا جرت سنّة الله في لغات الناس كما جرت سنّته في الناس والأشياء على السواء . والذي يغالب سنّة الله لن يجد من نفسه عوناً إذا فاته عون الله . ودليلنا فوقَ هذا أنه رغم الجهود الهائل الذي بذله المجتهدون في تعلم اللغة في هذا القرن الحاضر لا تكاد تجد من الرجال عشرة يستطيعون أن يتحدثوا لك باللغة العربية سليمةً صحيحة مشكولة كما كان يتحدث بها الأعراب في الزمان البعيد الأول . هذا إذا تحدثوا لك في شئون نظرية أو مواضيع أدبية أو فلسفية مما تمرنوا عليه بالدراسة ؛ فإذا أنت خرجت بهذه العشرة إلى الأسواق ، أو ذهبت بهم إلى منازلهم ، وطلبت إليهم أن يتحدثوا لك فيما حولهم من أشياء أو ما يجرى هنالك كل يوم من شئون ، لم تجد أعيا منهم ولا أعسر لساناً ، وإن حدّثك في هذه الشئون متشدّق متحذلق متفيهق فيهم ، حدثك بلغة القمطر والمهمة والاجانة والنفّاطة والثريا والمشجب والقرطف والنوفلة والاردية والبشن والنوىّ والطنزر والأسكفّة والأصر والراشن والجناز ؛ وهو يعنى بهذه في غير مؤاخذة أن يحدثك من الدولاب والورشة والطشت والقبة والنجفة والشكير والبطانية واللاّحة والماسورة والدش والمضيفة والقبلة والعتبة والجرك والبقشيش والترام . وأرجو أن أكون قد أصبت في ترتيب سردها ، فليس لديك أيها القارئ ، وأنت المثقف ، من وسيلة في الدلالة عليها عند الخطأ إلا عدُّها .

اللغة سلعة في سوق حرّة :

تلك الأحاجى لا يمكن أن تُحيي من لغة أبداً ، ولا تحبب في لغة أبداً ، بل هي تكرّه في اللغة واللغويين . وليست اللغة قانوناً يطبّق بحكم عسكرى ، بل هي كالسلعة في سوق حرة ، يُقبل عليها من يُقبل ، وينصرف عنها من ينصرف . والآن آن للغويين أن ينظروا في سلعهم أيها نفق وأيها كسد . آن لهم أن راجعوا حسابهم كما راجع التجار ، لينظروا كم كسبوا وكم خسروا . ولا يقولنّ أحد ما للغة والتجارة ؟ فكل شيء في هذا العصر الحديث ، الذى لا يُمهل غفلانَ ، يخضع رغمه لقانون الربح والخسران ، إلا أن يكون ذمة أو ذماراً ، أو عقيدة من العقائد ، أو ديناً من الأديان . وسيجد هؤلاء إن فتّشوا دفاترهم أنه لم يُفِد من تجارتهم غير نفر قليل بالغ القلة ، إذا انتسب عدده إلى عديد الأمة أنتج كسراً تطلّب بسطُه الواحدُ مقاما ذا عشرات كثيرة . فإن كان هذا كل أملهم في الكسب ، إن كانت كل غايتهم أن يحتَرِفوا ذلك الكلام الطريف النادر في

أدمغة قليلة كما تُختزَن التحف الثمينة في صناديق الزجاج بالمتاحف ، فليس لأحد عليهم من تثريب ما وجدوا الأدمغة الراضية أن تكون زجاجاً تبرق من ورائه تحف الماضي العتيق .

ولكن ما لهذا خُلقت اللغات . وإن جاز في الماضي أن يحتكر اللغةَ أقوام ، فما يجوز هذا في الحاضر وما هو بممكن بعد اليوم أبداً . فكل المبادىء السائدة اليوم ، من ديمقراطية ، أو شيوعية ، أو نازية تأبى الاحتكار ، وكلها تجعل من حق الفرد أن يتعلَّم ، ولا تعليم إلا بلغة مكتوبة منطوقة ؛ فتعميم التعليم لابد من تعميم لغة واحدة تأتلف ومزاج الناس ، والناس عامة ، وتدخل في مقدور الناس ، والناس عامة ؛ وما تلك اللغة التي يعرضها اللغويون بهذه اللغة الواحدة المطلوبة التي تأتلف بالمزاج وتدخل في المقدور .

لغة المستقبل :

إن اللغة العربية القديمة لغة كريمة عزيزة علينا ، وفيها من اللفظ الجميل والأسلوب الرائع والمعنى الخالب ما يروع اللغاتِ قديمَها والحديث . ومع هذا ففيها معايب كل قديم . واللغة العامية لغة ورثت لنا من ظلمات ماضينا القريب ، وخلصت لنا من بين رُكامه وحُطامه ، وهو ماضٍ ليس العلم من محصوله ، ولا الأدب من نتاجه ، حتى ولا الكرامة والعزة من سماته ؛ واللغة التي تفتتق منها من طرازه . ومعنى هذا أن لغة العرب الأقدمين لغة لا يمكن إحياؤها على ما كانت لكي تشمل كل هذا القطر وحتى ينطق بها كل هؤلاء الملايين في عصر هذه النهضة الحاضرة التي لا بد فيها من تعميم التعليم وتوحيده وتوحيد لسانه ؛ ولا اللغة الدارجة مُغنية في ذلك غناءً كافياً مرضياً . وعلى هذا فليس للأمة إلا خطة من خطتين : أولاهما أن تتوزّع مناشطها على لغاتٍ أشتاتٍ كما هي الحال الآن ، فتستقلُّ الفصحى بالشعر والأدب ، وتستقل الدارجة بالوجوه اليومية العملية من الحياة ، ثم يكون للغات الأجنبية العلوم والفنون وكل شيء ذي بال من خلْق المدنية الحديثة . وثانية الخطتين تَنْشِئة لغة جديدة تكون وسطاً بين العامية والفصحى ، يؤخذ لها من أصول هذه وأصول تلك ، ويراعى في اختيار هذه الأصول أنها ستَرْكب ألسنةَ العامة ، ألسنة الشعب ، والشعبِ كله ، في زمن ستكون فيه الأمة غير هذه الأمة ، والحال غير هذه الحال .

ولا سبيل إلى هذا إلا برفع الحجر عن اللغة العامية ، وفك الوثاق الذي هي فيه ، وإعطائها صوتاً في مداولات اللغويين ، صوتَ أصيلٍ لا صوت دخيل ، صوتاً كالصوت الذي يُعطى للفيروزابادي والمصباح ولسان العرب وسائر المراجع والقواميس . فاللفظ العربي إن جاز أن يكون دليله ما خُطَّ على الأوراق ، فأَحْرِ به أن يكون دليله ما انحدرت به الألسنة على تتابع القرون . وعلى هذا فكل لفظ عاميّ فاؤه وعينه ولامه في اللغة يجب أن يعود إلى حظيرة اللغة ، إلى بيت أهله وعشيرته محتفلاً به مكرَّماً بعد أن ظل طريداً كل هذه السنين . حتى والذي لا أصل له في اللغة يجب كذلك أن يدخل فيها ما انسجم جَرْسه وجرسها ، واندغم أسلوبه في أسلوبها . وعلى هذا فالطربوش والزرّ والمجباغ والياقة والزرار والشُّراب والجزمة والشبشب والمركوب والبلغة وما إليها تدخل جميعها في اللغة . والشباك والضرفة والشيش والأُكرة تكون جميعها من اللغة . والطوب والدبش والمونة والجير من اللغة . والكنبة والبُساط والدُّلاب والكَرّاس والشنطة والبفطة والعلبة والكهربة والبرزة من اللغة . والحلّة والكَزْرُونة والدُّقية والبشنة والسَّبت والفوطة والشوكة والشُّربة والعيش والغموس من اللغة . والمِراية والبُدْرة والفرشة

من اللغة ، إلى غير هذا مما يُتعِب عدُّه ويُجهد استقصاؤه . فإن قيل لنا : ولكن الفصحى تقول مرآة ، قلنا والمراية لغة . وإن قالوا : وهي تقول الوعة ، قلنا والبلاّعة أيضاً لغة . وإن قالوا : وهي تقول الفنجان والملعقة ، قلنا والفنجال والملقة لغة . كذلك يكون من اللغة المرجوّة المَبْرد والمَصق والمَشبك والمَسطرة والمَريلة ، فإذا اعترض معترض بأن اسم الآلة وزنه مِفعل بكسر الميم ، قلنا ولكنها هكذا في لغة المصريين ، كما نقول إن كذا هكذا في لغة حِمْير وتميم . لقد أجازت الفصحى للمعنى الواحد ألفاظاً عدّة أسموها بالترادفات ، وأجازت للفظ الواحد صوراً عدّة ومنطوقات شتى ، كلها في الواقع ليست إلا لغات قبائل متعددة جُمعت في لغة واحدة . أفلا يَعدل المصريون قبيلة واحدة من تلك القبائل فيكون بين دفتي هذه اللغة مكان محترم للصُّور التي بها ينطقون .

والجزيرة والشام والعراق وفلسطين ، والسودان وأمم المغرب أجمعين ، لم لا يكون للدارج على ألسنتهم مثل هذا المكان في اللغة المرجوّة التي ستكون ؟ أفلا يعدل الشام هُذَيلا ؟ أفلا يعدل العراق قضاعة ؟ والسودان ألا يعدل طيئاً أو أسداً ؟ . والجل والجبل والوادى إذا كان لها في اللغة من المترادفات عشرات ، كلها تدخل أبواب اللغة غيرَ مستأذِنات ولا مستنكَرات ، فما بالنا لا نقبل الدارج على ألسنة هذه الأمم العربية الحاضرة حتى لو تعدّد اللفظ وترادف . وهي أمم حيّة لم تَبِد بعدُ ، ولن تَبيد ما جرت في سيل الزمان الجارى ، وتأقلمتْ في اختلاف الأرض والبيئة كما يتأقلم النبات والحيوان .

وغير هذا يوجد بين اللغة الفصحى واللغة الدارجة فروق هي في حد ذاتها قليلة القيمة ، ولكن شيوع الفرق الواحد منها في اللغتين شيوعا شاملا يباعد ما بينهما شكلا وظاهراً تباعداً بالغاً لا يتناسب مطلقاً مع قيمة هذا الفرق الواحد أبداً . نضرب لذلك مثلاً حرف القاف ، فهذا الحرف يُرقَّق في عامية المصريين وغير المصريين فيصير ألِفاً . فالطاقة والقلقلة والقيام والقعود والقبو والقرفة والقلب والقالب والخندق والصندوق والقدم والدقيق إلى سائر ما في اللغة من كلمات ذات قافات ، كل هذه تُشلَّخ من عربيتها لأن قافها قُلبت ألفاً ، ومع هذا تأذن في اللغة بعجعجة قضاعة وطُمْطُمانية حِمْيرَ (وقد نطق بها رسول الله) وفحفحة هُذَيل وعَنعنة تميم وكشكشة أسد ، وكل هذه إبدالات حروف بحروف . ولا تزال في أعراب الصعيد وغير الصعيد أقوام حفظتْ لسانها الأولَ وظلّت تنطق القاف جيما ، فتقول جال وجُلت والصندوج والدجيج . ونسمعها فتطرب لجرْسها آذاننا ، ومع هذا ترفضها ألسنتنا وأقلامنا . ولو أنك قارنت ما بين القاف والجيم والألف لوجدتَ — ووجدتْ معك سائر الأمم — أن الألف أخفّ جرساً وأندى في الحلق مخرجاً .

وهناك أمور أخرى تتعلّق باللفظ لا بد أن تتنازل عنها الفصحى ثمناً للوحدة المطلوبة . وهناك ضرائب أخرى تتعلق بالصرف والنحو لا بد أن تؤديها الفصحى عربونا على التفاهم المنشود . وهي لا بد ستؤديها على الزمن عن طَواعية لأن ربحها من هذا التفاهم سيكون في جملته أكبر من ربح الدارجة . فهي حقاً ستخسر لفظاً هنا ولفظاً هناك ، وستخسر حرفا هنا وحرفا هناك ، وستخسر منطقاً هنا ومنطقاً هناك ؛ وقد تعرب مبنياً أو تبنى معربا ، وقد تُدغم مفكوكا أو تفكّ مُدغَما ، ولكنها ستربح ملايين الأدمغة ، وستدخل ملايين الرءوس فتطبع بطابعها كل فكرة تدور بهذه الرءوس ، وستركب ملايين الألسنة فتخرج من طريقها من سجن المداد ووحشة الأوراق إلى أنس البيت وفسحة الأسواق .

ثم القرآن :

ثم ثم القرآن . هـذا الكتاب الكريم الذى لا يتحرّج الرجعيون أن يرفعوه إلى صدورهم يستجنّون به ويتدرّأون كلما تعرّض لهم متعرض أو حزَبهم من أمرهم حازب . هذا الكتاب العزيز الذى لكل مسلم ، بل كل عربى فيه نصيب ، تمصّر أو تطربش أو تبرنط . هذا الكتاب الذى دفع الرجعية فى عهد الجاهلية ، وسيظل يدفعها أينا وُجدت ، وفى أى عهد كانت . هذا الكليم الجميل اللطيف الذى يجرى فى الأذن مجرى النسْم ، ويقع فى القلب موقع القطر البارد فى حلق المحرور الصادى . هذا الكتاب الأقدس سيكون مورداً يرده الباحثون فى استنباط كل لفظ يُستحدث ومعنى يُجتلَى وقاعدة تستوضح ، ويكون فوق الموارد جميعها . وما ذاك لقدسيّته فحسب ، ولا لأن هذه القدسية تضمن له البقاء ما بقى الناس ، ولا لأنه سند المسلمين فيا يصدرون عنه وما يَردون ، ولكن كذلك لأنه من الوجهة اللغوية الكتاب العربى الأول الذى تأثرت به اللغة وكُتّاب اللغة فى كل العهود ، ولأن جرسه ولفظه وأسلوبه قد اعتادتها جميعاً كل الآذان العربية حتى على اختلاف الأديان . فالقرآن له فى تكييف الذوق اللغوىّ العام نصيب لا يُجارَى ، حتى ذوق العامة الذين يسمعونه ولا يقرأونه ، وأنصاف العامة الذين يقرأونه ولا يفقهونه . ولن نجد فى القرآن لفظاً مما يريد أن يفرضه علينا الثلاثة المتقعرون . لن نجد فيه الجمّاز والأرزيز ، ولن نجد فيه القرطف والإجّانة والقشيز . وإن كسبت اللغة المرجوّة من القرآن شيئاً ، فسيكسب القرآن والدين بهذه اللغة أشياء لم يكونا ليكسباها فى الوضع الحاضر من لغة فصحى كائنة هى أبعد ما تكون عن جمهور الناس ، ولغة عامية كائنة هى أبعد ما تكون عن القرآن . سيكسبان الناس . سيكسبان كل الناس بتعميم التعليم وبتوحيد التعليم ، وتوحيده بهذه اللغة ، هذا التوحيد الذى لا يمكن ولا يكون إلا بمثل هذه اللغة . سيكسبان خاصّة الناس وهم القلة ، وسيكسبان عامّة الناس وهم الكثرة ؛ تلك الكثرة الأعز عند الله لأنها الكثرة الأحوج إلى عون الله ، تلك الكثرة التى لازمها الجهل فلازمها الحرمان كل هذه القرون من دنيا ودين .

أحمد زكى

إعلان بيع

المرة ثانية فى القضية نمرة ٣٠٥٨ سنة ١٩٤١

إنه فى يوم الأحد ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بجلسة البيوع والمزايدات سيباع بطريق المزاد العلنى الأطيان الآتى بيانها بعد المملوكة إلى ابراهيم افندى حسن عبد الباقى المقيم بمصر شبين الكوم والمحكوم بنزع ملكيتها بتاريخ ١٥ يوليه سنة ١٩٤١ والحكم مسجل بمحكمة شبين الكوم الكلية الأهلية بتاريخ ١٦ يوليه سنة ١٩٤١ صحيفتى ٢٧٦ و ٢٧٧ جزء ثانى وفاء لمبلغ ٦٠ جنيه و ٤٥٠ مليم خلاف ما يستجد من المصاريف والملحقات ويبيعه بثمن أساسى قدره ٦٤ جنيه بعد تنقيص الخمس وهـذا بيان العقار :

١ ف فدان واحـد مشاعا فى ١ ف و ١٢ ط و ١٠ س بجزيرة الحجر القطعة رقم ٢٠١ بحوض ما كف نمرة ٥ جزاير فصل ثانى محدودين البحرى أملاك أميرية والغربى ورثة عثمان عنتر والقبلى جمعية فليش أميرية والشرقى عبد العزيز غباشى وآخرين هذا المسطح وارد بمقر الساحة الحديث باسم ابراهيم افندى حسن عبد الباقى لا مسر ويتبع هذا المسطح حق ارتفاق ٦ ط من ٢٤ ط فى الوابور الارتوازى الواقع بالقطعة نمرة ١٨٥ بحوض ما كف نمرة ٥ جزاير فصل ثانى بناحية جزيرة الحجر

وهذا البيع كطلب الست بهاء سالم عبد الباقى بمنزل نمرة ٦ بشارع الترعة البولاقية بمصر ومحلها المختار بشبين الكوم مكتب حضرة الأستاذ اسحق ميخائيل المحامى

فعلى من له رغبة فى الشراء الحضور فى الزمان والمكان المبين آنفاً للمزايدة . وشروط البيع والأوراق مودعة بقلم الدعوى لمن يريد الاطلاع عليها ؟

كاتب البيوع

أنباء وآراء

نطق الملك

كانت كلمة المليك الخالدة في شأن مشكلة التموين هي حادث الأسبوع ، أو أجل أحاديثه مغزى وأعظمها . وكانت حكما صائباً في قضية من أهم قضايا هذا الوطن ، حين صرح بأنه «من العار أن تكون مصر بلاداً زراعية ثم لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها في قوتها الضروري» .

ذلك النطق هو فصل الخطاب في مشكلة التموين . فأزمة المواد الغذائية في مصر إما أن تكون أزمة مفتعلة منشؤها جشع المتحكمين في الأسواق ، وإما أن تكون ظروف خاصة تعود كما صرح دولة رئيس الوزراء إلى عوامل الجو في موسم القمح الماضي أولاً ، وإلى التهافت على زراعة القطن ثانياً .

ولسنا بسبيل التعرض للأسباب التي يتهافت الزارع من أجلها على زراعة القطن . إنما نحب هنا أن نظهر الغبطة بتصريح المليك السامي ، فهو قد سجل في مغزاه حق الفلاح المصري — أو الزارع المصري — كأهم عنصر من عناصر النشاط في هذا البلد . وحبذا لو عمل الجميع على تحقيق ما ينطوي عليه النطق الملكي من عناية بعماد الثروة وطابعها في هذه البلاد .

سموم المستقبل

في مقال كتبه السنُر ملتون برور من آرائه في الأسس التي سيقوم عليها الصلح المقبل ، يعالج الكاتب موضوعاً هاماً هو مدى ما يفيده العالم من تجنب أخطاء صلح فرساي . فهو يرجو ، إذا ما تم النصر للديمقراطية ، أن يتعلم درس فرساي ، إذ أثبت الوقت والاحداث معاً خطأ فرض غرامات مالية على شعوب أنهكتها الحروب ؛ فلا معنى لأن يعرض الصلح القادم لأي عقوبة مالية على الدول المهزومة . ويصف الكاتب مثل هذه العقوبات بأنها « كوضع القط في حجرة مقفلة ثم إلهابه بالسوط ، ومطالبته بعد ذلك بالرضوخ » .

ويرى السنُر ملتون أن ذلك لا يمنع من الاصرار على نزع سلاح المعتدي ، على أن يكون نزع السلاح الحقيقي الذي تستحيل معه العودة إلى التسلح المتضخم ، كما حدث بعد الحرب الماضية ، إذ جردت ألمانيا من سلاحها ولم يفطن القائمون على تنفيذ الصلح إلى ما أخفي من أسلحة وذخيرة ، ولا إلى قدرة الصناعة على العودة إلى إنتاج الأسلحة ثانياً . فمصانع كروب مثلاً التي حولت إلى مصانع لانتاج السلع التجارية ظلت قدرة على إنتاج الذخائر والأسلحة .

ويقول السنُر ملتون : إن من السهل اتخاذ الضمانات الفنية اللازمة التي تجعل مثل هذه المصانع عاجزة عن إنتاج الأسلحة . فمصانع المستقبل يجب أن تكون على صورة تحول بينها وبين إنتاج المواد الحربية ، ولا بد من وجود لجنة عالية دائمة تراقب تنفيذ الصلح وتشرف على الصناعة في الدول التي يشملها ميثاق السلام .

ويعرج الكاتب بعد ذلك على نظم الحكم في الدول الكبرى ، فيقرر أنه لا بد في السلم القادم أن تسود ديمقراطية ينال فيها الجمهور العادي نصيباً أكبر في إدارة

شئون البلاد . ويجب أن يضمن السلم القادم مثل هذه الديمقراطية لكل الأمم حتى المغلوبة منها .

ويتطرق الكاتب إلى ضرورة إعادة النظر فى القوانين الداخلية فى الأمم التجارية ليخلص من ذلك إلى رأيه فى أن مهمة القائمين على وضع صلح المستقبل ستكون أشق بكثير من مهمة الذين يديرون دفة الحرب حتى النصر

قلوب جديدة

هذا هو العنوان الذى اختارته مجلة أمريكية لتتحدث عن الاختراع الجديد للدكتور جون . هـ . جيبون من معمل أبحاث الجراحة بجامعة بنسلفانيا .

أما هذا الاختراع فهو قلب ورئتان من الصلب ، توصل هذا العالم إلى صنعهما وتحسينهما حتى أمكن الاستعاضة بهما عن القلب الحقيقى لمدة طويلة ، وأجريت التجارب عليهما فى كثير من الحيوانات كالقطط ، واستطاعت قطة منها أن تلد وهى مزودة بهذا الاختراع الجديد .

ولا يرى الطبيب الذى اخترع هذا الجهاز إلى أن يحله محل القلب الطبيعى ، وإنما يرى أنه يحل كثيراً من مشاكل الطب ، ويذلل كثيراً من العقبات التى تعترض من يعالجون أمراض القلب . ذلك أنه يرى أن هذا الجهاز بقيامه بمهمة القلب والرئتين يسهل على الطبيب إجراء العمليات الجراحية اللازمة للمرضى والتى يتحتم فيها مس القلب دون التعرض لخطر توقفه عن الحركة ، فيستطيع الطبيب أن يوقف حركة القلب لمدة قد تزيد عن عشرين دقيقة يمكنه فى خلالها مزاولة عمله ، كإخراج رصاصة أو ملافاة طعنة عميقة أو إزالة اضطراب فى أجزاء القلب . وفى خلال هذه المدة تكون الدورة الدموية مستمرة فى عملها خلال هذا القلب الصناعى خارج جسد المريض .

ويقدر الدكتور جون جيبون أن هذا الجهاز الجديد لم يصل بعد إلى درجة الكمال ، وأن هناك أخطاراً غير منظورة قد تحدث أثناء استعماله ، ولكنه مع ذلك يؤمل أن يستطيع التغلب على هذه الأخطار والوصول بجهازه إلى درجة من الكمال تجعل استعماله أكثر احتمالا للنجاح وأقل تعرضاً للفشل .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٥٢ — الثلاثاء ٦ من ذي القعدة سنة ١٣٦٠ — ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الزحف على القـــوقاز

للدكتور محمد عوض محمد

دخلت الحرب الروسية شهرها السادس ، ومد الشتاء إلى ميادين القتال ، يداً جافة عجفاء ، حادة الأظافر ؛ فبسطت عليها غطاء من الجليد والجَـمَـد . وبعثت فوقها رياحا شمالية قطبية قارصة ، يكاد زمهريرها يقطع الوجوه ؛ وأخذ الألمان يجمعون أغطية الصوف من المنازل ، ومعاطف الفرو من النساء ، لكي تدفئها الجنود .

واستطال الليل ، وانكمش النهار حتى أصبح ولم يبق منه سوى سويعات قلائل في كل يوم . والشمس ضعيفة هزيلة ، مائلة أبداً إلى الأفق الجنوبي ، يحجبها السحاب ويخفي وجهها الغمام . فلا تكاد الجنود أن تحس من حرارتها وشعاعها ودفئها شيئاً .

وسهول روسيا واسعة فسيحة ، تزأر في أرجائها الريح القارصة ، دون أن يكون هناك جبلٌ يعصم ، أو ركن يُؤْوَى إليه . وقد خرّب الروس في تراجعهم ما وسعهم تخريبه من المدن والمساكن ، في إقليم قليل المدن والمساكن . . . وحشرت الجموع الهائلة في العراء وسط الثلج والجمد والز... ر . لكي يقتل بعضها بعضاً ، وتسفك على هذا الجليد البارد دماء بشرية حارة .

وتوهم كثير من الناس أن قدوم الشتاء الروسي سيخفف من حدة الحرب، ويضطر الجيوش لأن ترابط في أماكنها، وتحتفر الخنادق، وتقيم الاستحكامات؛ ويكتفي كل فريق بأن يدفع غائلة الفريق الآخر، فلا تدبر الخطط لهجمات جديدة أو غزوات واسعة النطاق.

وفي الميدان الشمالي — حيث الشتاء أشد قسوة، والليل أكثر طولا منه في أي جزء آخر من الميدان — هدأت المعارك فعلا بين القوات الروسية والفنلندية. وكذلك خفّت شدة القتال في إقليم العاصمة الشمالية لينتجراد؛ ولكن فيما عدا هذين من الميادين لا تزال الجيوش النازية تقوم بهجمات متتالية لم يضعف الشتاء من حدتها وشدتها.

في أوائل شهر أكتوبر خطب زعيم ألمانيا معلناً نبأ هجوم عنيف ستكون له نتائج حاسمة. وظهر بعد ذلك أن هذا الهجوم هو الذي وجه نحو موسكو، وقد دام زهاء ستة أسابيع ثم هدأ قليلا؛ وبالرغم من قسوة الأحوال الجوية فإن هجوماً جديداً قد بدأ في الميدان الأوسط منذ أسبوع. ويزعم الناس أن هذه هي المحاولة الأخيرة قبل اشتداد الشتاء، للاستيلاء على العاصمة، وإيجاد مأوى للجنود الألمان.

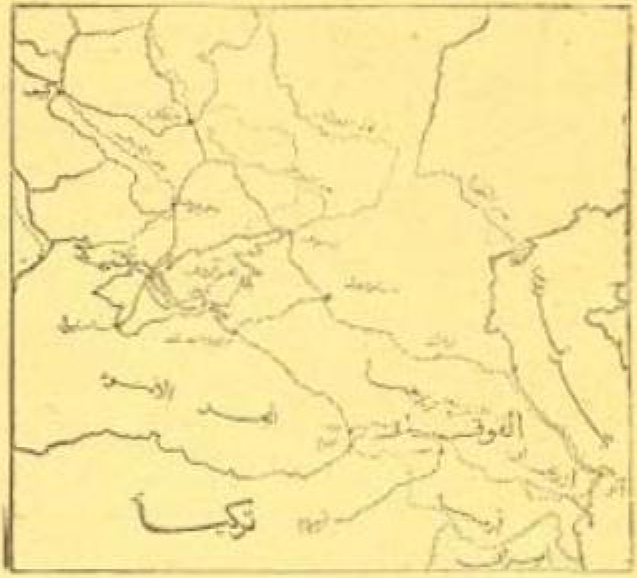
على أن أكبر الميادين خطراً هو من غير شك الميدان الجنوبي. فإذا كان الاستيلاء على موسكو يكسب الألمان فوزاً معنوياً، ويُنيلهم مدينة واسعة يديرون منها دفة القتال، فإن هذه المزايا قليلة إذا قيست إلى الفوائد العديدة التي يجنيها الألمان من بسط نفوذهم على القوقاز — . . والأحوال الجوية هنا أقل قسوة وشدة منها في الشمال، والنهار أطول. ومياه البحر الأسود لا تتجمد على السواحل سوى بضعة أسابيع. ومن الممكن تحطيم الثلج بواسطة سفن معدة إعداداً خاصاً لهذا الغرض.

ومن الجائز أن تهدأ الحرب في الميدان الأوسط بعد مدة وجيزة. ولكن الراجح أنها لن تخف حدتها في الميدان الجنوبي.

زحف الألمان على أوكرانيا واستولوا عليها في شهر سبتمبر الماضي. ولكنهم وقفوا وحلفاؤهم على أبواب أودسا، وعلى باب شبه جزيرة القرم، وأخذوا يهاجمون مدينة روستوف، وهي مفتاح القوقاز الحقيقي، فردوا عنها مراراً؛ وطال وقوفهم أمامها، مع أنها واقعة على الضفة اليمنى لنهر الدون، أي في الناحية الألمانية بالنسبة للنهر. ثم رأت القيادة الألمانية أن تهاجم القوقاز من طريقين لا من طريق واحد: أحدهما طريق روستوف والثاني طريق القرم. ووقف الروس عدة أسابيع على باب برزخ بريكوب، يدفعون الألمان ويردونهم عن القرم. وانقضت الأسابيع دون أن تستطيع الجيوش الألمانية أن تعدو البرزخ، حتى اضطرت الدعاية الألمانية لأن تعتذر عن هذا التخلف بما مست إليه الحاجة من الاستعدادات؛ وكانت من غير شك استعدادات عظيمة. انتهت باقتحام البرزخ في منتصف الشهر الماضي، وانقسمت القوات الروسية شطرين، أحدهما يدافع عن سباستوبول، والآخر يحول دون تقدم الجيوش الألمانية نحو كرش.

إن الدفاع الحقيقي عن القرم لا بد أن يحدث في برزخ بريكوب. وبعد تدفق القوات الألمانية إلى شبه الجزيرة، بات أمر الاستيلاء عليها كاملا مرهوناً بالزمن. وقد سقطت بلدة كرش منذ بضعة أيام في أيدي الألمان. ووصلت جيوشهم إلى البوغاز الضيق الذي يفصل القرم عن القوقاز، ويصل بحر أزوف بالبحر الأسود. ولا يزيد اتساعه عن خمسة أميال في أضيق جزء منه. وقد يطول حصار سباستوبول أو لا يطول. ولكنها لم تعد اليوم ذات خطر

كبير ، فقد ناخرها الأسطول الروسي ، منذ بات ميناؤها عرضة لقنابل العدو وطائراته المنقضة . وسواء أطال حصار سباستوبول أم قصر ، فان هذا لن يمنع الألمان من المضي في خطتهم من الهجوم على القوقاز عن طريقين أحدهما طريق روستوف ، والآخر طريق كرش .



وطريق بوغاز كرش تكتنفه صعوبات كثيرة . فليست إقامة جسر عرضه خمسة أميال لكي تعبر عليه الدبابات والسيارات بالأمر اليسير . وليس للمحور أسطول ذو شأن في البحر الأسود يعاونهم في هذا العبور . ولقد يظن البعض أن الألمان سيطيرون إلى القوقاز ، لكي ينزلوا به كما نزلوا بكريد ، وليس بين الحالين شبه كثير . ولئن استطاع الألمان أن يعبروا البوغاز إلى الشاطئ الشرقي ، فانهم سيضطرون إلى محاربة الروس وطردهم إلى البحر . وإمداداتهم لا بد أن تحمل إليهم عبر هذا البوغاز . وقد تعود الناس من القيادة الألمانية أن تعد لكل زحف ما يتطلبه من عدة . ولكننا لا نستطيع أن نتكهن بالخطة التي ستتبعها القيادة الألمانية في الهجوم على القوقاز عن طريق بوغاز كرش . ومهما يكن من شيء، فان القرم أفادت الزحف الألماني على القوقاز فائدة جليلة بأن يسرت لها إقليماً تقيم فيه مطارات شديدة القرب من القوقاز ، ومن مسالك السفن في البحر الأسود .

والراجح أن ألمانيا لن تحاول الهجوم المزمع عبر بوغاز كرش ، حتى يتم لها الاستيلاء على رستوف ، وعبور نهر الدون عند مصبه ؛ فاذا تقدمت في هذا السبيل بعض التقدم ، فهنالك تجيء المحاولة الأخرى للشق الآخر من المقراض . ومهما يكن من شيء فان الزحف من كرش يتطلب من غير شك استعدادات كثيرة من طراز خاص ؛ ولا بد — كما أفهمتنا الدعاية الألمانية — من انقضاء بعض الوقت حتى تتم هذه الاستعدادات . وفي هذه الفترة تهاجم روستوف بكل ما للألمان من حول وطول .

* * *

إن الاستيلاء على القوقاز غنيمة ليس مثلها غنيمة ، وهنالك فوائد ست على الأقل كلها ذو شأن جليل ، وخطر عظيم .

(١) الفائدة الأولى : الثروة المعدنية العظيمة . فها هنا ينابيع البترول ، التي ليس لها في العالم القديم نظير ؛ وهنا مناجم المنجنيز — التي تفوق بإنتاجها جميع مناجم العالم . والمنجنيز مادة ثمينة ، وحسبنا أن نعلم أنها هي التي تضاف إلى الحديد لكي تجعل منه الصلب الشديد الذي يستطيع مقاومة القذائف الشديدة التدمير . والبترول أعظم خطراً لأنه روح الحرب ، ودمها وغذاؤها . وقد شن الألمان على روسيا حرباً شعواء في ميدان طوله ألفان من الأميال ، وهي تبتلع من البترول ، جديده وقديمه ، وطارفه وتليده ، آلاف الأطنان في كل يوم . وليس يعلم أحد على وجه

لتحقيق ما ادخره الألمان من هذا السائل الثمين . ولكن المعروف أن الهالك منه أكثر من الناتج . وأن لا بد المدخر منه أن يسد الثغرة التي تزداد اتساعاً في كل يوم . والاستيلاء على آبار القوقاز يفي بحاجة الألمان من البترول وفاء تاماً . بقدر ما يحرم الروس هذا المورد العظيم .

على أن الوصول إلى آبار البترول ليس بالأمر اليسير . وهنالك آبار في الجزء الشمالي من القوقاز حول بلدة جرزني ، ولكن الشطر الأعظم من البترول الروسي واقع في إقليم باكو ، في الطرف الشرقي من جبال القوقاز على بحر قزوين .

تمتد سلسلة جبال القوقاز من بوغاز كرش في الشمال الغربي ، إلى بلدة باكو في الجنوب الشرقي ؛ ويبلغ طولها ألفاً وثلثمائة من الكيلو مترات ، متصلة القمم وعرة المسالك ، سمكها يزيد في كثير من المواضع على مائة كيلو متر ، وترتفع رءوسها في الفضاء إلى أربعة آلاف من الأمتار ، وقد تزيد على هذا الارتفاع . لا تخترقها السكك الحديدية إلا من أطرافها الشرقية أو الغربية . ولا تجتازها طرق من الشمال إلى الجنوب ، اللهم إلا الطريق الشديد الوعورة ، الذي يصل فلاديقوقاز شمالاً ببلدة تفليس جنوباً ، وليس هنالك طرق أخرى ، ولا بد لمن يبغي الاستيلاء التام على القوقاز أن يجتاز البلاد من أطرافها الشرقية أو الغربية ؛ وليس هذا بالأمر السهل . فان الجبال تمتد إلى البحرين الأسود وقزوين ، وليس بين الجبال والساحل سوى ممر ضيق في كثير من المواضع ، حتى لا يكاد يفصل بين الجبل والبحر شيء . ولا بد من اقتحام هذين الطريقين الشرقي والغربي للوصول إلى باكو على بحر الخزر ، أو باطوم على البحر الأسود .

والذين يعرفون شيئاً عن الجغرافيا العربية يذكرون أن الفرس قد بنوا ثغراً على بحر قزوين بالقرب من بلدة دربند (شمال باكو بنحو مائتين وخمسين ميلاً) وسموه باب الأبواب ، واستطاعوا أن يسدوا بهذا الباب الطريق أمام الشعوب البربرية التي تزحف من الشمال .

فالوصول إلى باكو وباطوم تحول دونه عقبات ليس من السهل إخضاعها وتذليلها .

(٢) الفائدة الثانية لهذا الغزو قطع الصلات بين موسكو العاصمة وبين الجنوب . ومن هذا الطريق تجيء الامدادات بطريق إيران وخليج العجم . والخط الحديدي المباشر بين القوقاز وموسكو يخترق رستوف ويتجه شمالا نحو العاصمة ؛ فاذا سقطت رستوف في أيدي الألمان لم يكن بد من اتخاذ طريق طويل — غير مباشر — يدور حول نهر الدون من الشرق ، حتى يصل إلى العاصمة . فاذا اتسع ميدان الحرب في القوقاز ، فقد تنقطع المواصلات تماماً بين بلاد القوقاز وموسكو .

(٣) والثالثة : حرمان الأسطول الروسي في البحر الأسود من موانئ تؤويه وتمده . إن حصار سباستوبول حرم هذا الأسطول مرفأه الأكبر ، وموئله الأول . ولا بد للأسطول اليوم أن يقنع باستخدام ميناء باطوم ، ونوفوروسسك ، وكلاهما لا يكاد يقارن بسباستوبول . فاذا فقد الروس السيطرة على سواحل البحر الأسود بقي الأسطول الروسي من غير ملجأ أو مأوى .

(٤) الفائدة الرابعة ، التي يجنيها الألمان من توغلهم في القوقاز ، أنهم يستطيعون بالزحف شرقاً أن يقطعوا جيش القوقاز عن جيش الشمال ، وأن يصلوا إلى مصب نهر الفلجا ، وبهذا يأخذون القوات الروسية من الجنوب إلى جانب مهاجمتهم من الغرب .

(٥) والخامسة أن الاستيلاء على القوقاز يباعد بين تركيا وروسيا . فتصبح الأولى وقد أحدق بها الألمان من

ضحيـــــة

للأستاذ أحمد أمين بك

حدثني صديق قال :

— اعتدتُ يوم الجمعة في الشتاء أن أخرج من بيتي قبل طلوع الشمس إلى جبل المقطم ، أنفض من نفسي ضوضاء الأسبوع ، وملل العمل الراتب ، وسآمة الحديث المعاد ، وأهرب من جو القاهرة المسمم ، وأريح أعصابي من مطالب البيت وتكاليف المهنة ، وأفر من الانسان المتوحش لأستأنس بالطبيعة الطاهرة ، وأكرم نفسي بالعزلة من الناس ، وأمتع جسمي بالحركة العنيفة ، فقد خلق من طينة لا تصح إلا بالإهانة .

واعتدت أن أنوّع الطرق ، وأخالف بين الجبال ، فمرة أختار الجبال والوديان مما يلي حلوان ، وأحياناً جبال المعادي ووديانها ، وأحياناً العباسية وما إليها .

ففي ذات يوم اخترت العباسية وتغلغلت في جبالها ووهادها ، أعلو أكمة وأهبط وادياً ، وأتخذ مسيري صوب الأزهر ، حتى حان الظهر ، ونال مني التعب ؛ فبحثت عن مكان أتفيأ ظلاله ، وأنعم بنسيمه ، وأطل منه على الدنيا الفانية وما فيها حتى وجدته .

واستمتعت بيوم دافئ جميل ، وعزلة مريحة ، فلم أصادف منذ خرجت من القاهرة إنساناً ؛ وخلعت قميصي وحططت مخلاتي وألقيت عصاي وجلست ، وكان الجوع قد بلغ مني مبلغه ، فأخذت أخرج ما حملت ، هذه « زمزمية » ماء ، وهذه شطائر بعضها باللحم وبعضها بالجبن ، وهذا عدد من الليمون الحلو لا بأس به ، وهذه عقل صغيرة من القصب ، وهذا كل ما معي ، فصففتها أمامي وتغزلت فيها ، وجرى لها لعابي ، وأعددت نفسي لأكلة شهية بعد سير طويل .

ثلاث جهات . فاذا أريد « الضغط » على تركيا لكي تتبع خطة خاصة مماثلة لألمانيا ، فان اقتراب الألمان من حدودها الشرقية يزيد مركزها حرجاً وصعوبة .

(٦) والسادسة وهي لا تقل خطراً عن سوابقها أن ألمانيا تستطيع بعد اجتياز القوقاز أن تهدد إيران ، والشرق الأوسط والهند . وينفتح أمامها طريق برى لمهاجمة بريطانيا .

فلقد حالت السيادة البريطانية في البحر ، دون اشتباك جدي بين قوات المحور والقوات البريطانية . ما عدا الميدان الليبي ، الذي لا بد للفريقين أن ينقلا إليه الجنود والمعدات الحربية . أما الميدان القوقازي ، فانه يكون قريباً من ألمانيا ، شديد البعد من الجزر البريطانية . ولهذا نرى اهتمام بريطانيا عظيماً بميدان القوقاز ، وبما يدور فيه من حرب ، ولن تألو جهداً في إمداد القوات الروسية فيه بما تحتاجه من سلاح وعدة حربية . بل لقد دار على الألسنة أن بريطانيا تنوي الاشتراك الفعلي في حرب القوقاز إذا اتسع ميدانها ؛ وأيد هذا الزعم ما هو معلوم من اتصال القيادة الروسية بالقيادة البريطانية في الهند .

على أن هذه التطورات كلها — على فرض توفيق الألمان فيها ، ستستغرق زمناً ليس بالقليل . وقد يضطر الألمان إذا عبروا نهر الدون ، أن يستمروا في زحفهم شرقاً إلى نهر الفلجا ، قبل أن يزحفوا جنوباً نحو القوقاز .

ومهما يكن من شيء فلا بد أن يظل الميدان الجنوبي في الحرب الروسية أخطر الميادين في هذا الشتاء . وإذا قدر للميادين الأخرى أن تنعم بشيء من الهدوء النسبي فان الحرب في الجنوب لن تتمتع بهدوء كثير .

محمد عوض محمد

فلم أشعر إلا وشبح يبدو من بعيد ، لم أتبينه أول الأمر ، ثم ظهر أنه إنسان ، ثم ظهر أنه يقصدنى ، وأخذتْ مظاهره وملامحه تبدو شيئاً فشيئاً .

جفّ اللعاب من فمى ، ونسيت منظر الأكل لمنظره ، وحلّ الخوف محل لذة النهم ، وذكرت قول القائل :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

ويلاه من الانسان ! هو كالموت لا بد منه ، وكظلام الليل لا بد أن يلفك ، ولا مهرب منه إلا إليه .

لكنه إنسان عجيب حقاً ، ليس كـكل الناس الذين رأيتهم ، أبيض البشرة بياض الأجنبى ، ويلبس جلباباً أزرق كلبس البلدى ، ملامح وجهه وزرقة عينيه وشكل رأسه واصفرار شعره دلالة على أنه أوربى صميم ، وطاقية رأسه الشبكة وحفاء قدمه المتربة دلالة على أنه مصرى بائس فقير .

هذا لغز معقد ! وقد كنت تركت عقلى الذى يحاول حل الألغاز فى القاهرة ، وأتيت هنا بشعورى وعواطفى وروحانيتى الفطرية ، فلأسرع الآن فى استرداد عقلى القاهرى لأحاول به حلّ هذا الإشكال .

— سلام عليكم .

— عليكم السلام ورحمة الله . هل تتفضل وتأكل معى ؟

— لا بأس .

وأخذ يلتهم الأكل بنهم أشد من نهمى ، فأسفت لقلة زادى ، وتركت له عن أكثر ما معى .

واعتذر عن نهمه فى أكله بأنه قضى يوما كاملاً لم يذق فيه طعاما .

— لماذا ؟

— لأنى لم أجد عملا ، ولم أجد مالا .

— ماذا كنت تعمل قبل اليوم ؟

— خادما فى قهوة بالجبة ، وما عملك أنت ؟

— مدرس فى مدرسة عالية .

— إذاً اتفقنا .

— كيف اتفقنا ؟

— هى كلمة خرجت من فمى ولا معنى لها .

— ما بالك ؟

— خرجت اليوم من القاهرة لأستريح من عناء التفكير .

— هل أنت مصرى ؟

— ألفت فى القاهرة زمناً طويلا .

— وما وطنك الأصلى ، ولم قدمت ؟

وبدأ يتكلم ، ولكن أصابته حبسة :

— أنا . أنا . أنا أتيت اليوم من القاهرة وكفى .

وعلت وجهه الأبيض — المشرب بحمرة ، فى الاصل ، والمشرب بصفرة الآن من الجوع — حمرة الخجل ، وظهر لى أنه يحمل بين جنبيه سراً دفيناً يجرح عزته ؛ فحبست نفسى من الاستقصاء ، وكلمته فى الجو والجبل ، والمسافة بيننا وبين القاهرة ؛ وأتى موعد الرحيل فسلمت عليه ، وأخذتنى الشفقة فتركت له عنوانى إذا احتاجنى ، ومشيت .

لم يفارقنى التفكير فى هذا المنظر الغريب ، ولا هذا اللغز العجيب الذى لازمنى من وقت أن وقع بصرى عليه ؛ وكل ما حدث بعدُ لم يكشف سراً ولم يلهمنى حلاً ، بل زاد اللغز تعقيداً ؛ فهو أيضاً عينك الشطيرة كالأوربى المثقف فى ظرف ولباقة ، ويأكلها أكل المصرى البائس الفقير فى نهم وشراهة ، عقليته عقلية مثقف ، ومنظره منظر جاهل ؛ وهو يتكلم كمصرى ،

وإذا سألته : أمصري هو ؟ عرَّض ولم يصرِّح ، وجمجم ولم يبن ، واكتفى بأنه أتى من القاهرة . لو كان جاسوساً فلِمَ يجوع ولم يخجل ؟ ولو كان غير جاسوس وكان أوربيًّا فلِمَ يجمجم ؟

لمن الله الانسان ومناظره ؟ لقد أردت الهرب منه فلحقني ، وأردت البعد عن مشاكله فوقعت فيها ، وأردت الأنس بالطبيعة على طهارتها فأصبت بالطبيعة مدنسة .

جال هذا وأكثر منه في نفسي حتى وصلت إلى بيتي ، وشغلتني دنياي عن التفكير في هذا المخلوق العجيب ، فأنا بين مطالب أسرة وتحضير درس وإلقائه وغير ذلك من الشؤون .

***

وفيما أنا عصر يوم في بيتي ، منصرفاً لبعض أمري ، إذا بالجرس يدق ، وفتحت الباب فإذا به صاحبنا :

— السلام عليكم .

— عليكم السلام .

وفرحت بمجيئه ، ولكن لنفسي لا له ، فقد خطر لي أني سأكشف السر الذي حيرني ، وأقف على حقيقة نفسه وجلية أمره .

ولم آنف أن أجلسه على كرسي مجنح في غرفة استقبالي ، ولو كان حافياً وفي جلباب أزرق ، وقد تعلمت من حديثه السابق ألا أجرحه بسؤاله المباشر من موضع سره ؛ فحدثته في كل شيء يخطر ببالي إلا ما يتصل به ، وأمرت أثناء الحديث أن يهيأ له أكل شهي دسم ، لا من جنس الشطائر الجافة التي التقمناها في الجبل ، فأكل بنفس النهم الذي أعهده ، واستزدته حتى لم يبق عنده مكان للمزيد . وأهل بيتي وأولادي وخدمي يعجبون من هذا المنظر الغريب ، ومن تفاهة ملبس الضيف وشدة عنايتي به . وبعد الفراغ من القهوة استأذن لينصرف ، فأذنت له ومنحته ما استطعت ؛ وقبل أن ينصرف وضع يده في جيبه ، وأخرج كراسة طلب مني أن أقرأها وأدبر علاجاً لما فيها .

ولا أكتمك أني فرحت بها فرح الطفل بفتح صندوق البخت ، أو فرح الفتاة بهدية مغلقة أتت إليها ممن تحب ؛ فأخذتها وتسللت إلى غرفة مكتبي ، وأغلقتها عليّ ، وأضأت المصباح ، وجعلت ألتهم ما فيها التهام صاحبنا الأكل ، وما زلت بها حتى أتممتها ، فأخذني منها كل العجب . فماذا هي ؟

هي يوميات لهذا الشاب منظمة مرتبة ، ذكر فيها أهم ما استرعى نظره في دقة وإحكام .

إنه شاب هولاندي ، تخرج من جامعة هولاندية ، وتخصص لدراسة اللغات الشرقية والدراسات الاسلامية ، ورأت جامعته نبوغه وجده ، فمنحته مكافأة دراسية ، وإجازة طويلة يقضيها في بلد عربي إسلامي ، ليتقن العربية والاسلاميات ، فلم يجد لذلك خيراً من القاهرة .

فحضر إليها ، وسكن في حي مصري ، في القشية ، ولبس جبة وقفطاناً وعمامة ومركوباً أحمر ، ليتسنى له في يسر حضور دروس الأزهر ، وجد في الدراسة ، واختلف إلى المشايخ يحضر دروسهم ويتفهم كتبهم ، وانتهز كل فرصة يتقن فيها الكلام العربي الفصيح واللغة العامية الدارجة ، فجلس مع العامة ، وتحدث إلى الناس ، وإلى الباعة ، وغشي الأسواق .

وفي كل شهر كان يكتب تقريراً مفصلا بما حصّله وما عمله وما أتقنه ، والجامعة من جانبها تمده كل شهر بما ينفقه من سعة .

ثم خطرت له فكرة نبيلة جليلة ، هي أن يدرس الحالة الاجتماعية بمصر بجانب دراسته اللغوية والعلمية ،

فوضع لذلك برنامجه الدقيق ، فغشي مجالس الذكر ، وحضر الصلوات في المسجد ، وشاهد أسواق البيع والشراء ، وحضر الولائم والجنائز وما إلى ذلك .

وأخيراً رأى أن يشاهد مجالس اللهو ، ولكن هذه كان لا بد له فيها من مرشد خبير ! وكان من بدء دراسته قد عرف « كُتُبياً » يتاجر في الكتب القديمة ، فيشتري منه الكتب بثمن رخيص ، ويلتهمها قراءة ودرساً ، فتوثقت الصلة بينهما ؛ وكان هذا الكتبي داعراً عربيداً ، عليما بأماكن اللهو ، خبيراً بمجالس الحظ ، فأفضى إليه صاحبنا بمكنونه ، فهش له وبش ، وقال له : « على الخبير سقطت » .

فما زال يتنقل به من ملهى إلى ملهى حتى كان آخر المطاف « غرزة الحشيش » ، دخلها مع صاحبه الكتبي ؛ وأداه حب استكشافه ألا يكتفي بمنظر الحشاشين و « جوزتهم » وطريقة تعاطيهم ، بل أراد أن يجرب تجربتهم ويختبر فعل الحشيش في نفوسهم ، فدخن معهم ، وسمع لفكاهاتهم وتنادرهم ، ولكنه شرق وسعل ، ولم يجد في نفسه أثرا بالغاً كما كان يسمع عن الحشيش ، فشكا ذلك لصاحبه ، فقال له — في خبث ودهاء — إن ذلك لا يتم إلا بالتعود والتكرار . فاستمع لنصيحته وعاد وكرر ، فرأى — كما يقول — أن أعصابه تخدرت ، وتتابعت الصور على ذهنه ، وغاب عن الزمان والمكان ؛ وأحياناً كانت تتراءى له صور مرعبة مفزعة ، كأن يرتمي من جبل ، أو تتخلخل الأرض تحت قدميه ؛ وأحياناً صور مفرحة منعشة سارة كأنه في جنة النعيم . وبعد أن أفاق أحس بشهوة شديدة للطعام ، فأكل كل ما قدم إليه في شراهة ، ونام نوما حالما لذيذا .

ولزمته العادة ، وخضع لحكم « الكيف » ، فإذا هو حشاش لا يطيق صبرا عن الحشيش ، ولا يستطيع أن يعيش ليلة من غير أن يحشش .

قال : وقد شعرت بضعف حيويتي وسقوط نفسي ، وميلي إلى الكسل والخمول ، وفتور في قوى عقلي وسوء تقديري للأمور .

قال صاحبي : وإلى هنا انتهت يوميات صاحبنا ؛ وبقي الفصل الأخير من الرواية لم أتبينه مما كتبه : كيف وصل إلى ما شاهدت من حالته ، فتشوقت إلى أن أراه ليتم لي روايته .

فأتاني بعد أيام ، فاستقبلته ونفسي مغمورة أسفاً وعطفاً وإشفاقاً ، وسألته عما حدث له بعدُ .

فقال : لم أجد بعدُ لنفسي ميلا إلى قراءة أو درس ، ولا إلى أي عمل ، ولم أكتب لجامعتي حرفاً ، وانقطعت أخباري عنها ، فقطعت ما كانت تمدني به من مال ؛ وضاقت بي السبل ، ولم أجد موردا أقتات منه ، ولم يرشدني صاحبي الكتبي إلى أي عمل أعمله ، ولم أعد أعبأ بنظافة ملبس ولا حسن مظهر ، وتخاذلت قواي وفقدت كرامتي ؛ فعرضت نفسي على من يستخدمني ، وأخيرا لم أجد إلا عملا في قهوة ، وبعد مدة وجدتني لا أصلح حتى لهذا العمل ؛ وخرجت هائما على وجهي في الجبل يوم قابلتك !

ثم بكى ، وما أشد وقع بكاء الرجال على نفسي !

فكرت طويلا فيما أستطيع أن أعمله لإنقاذ إنسانية ضالة معذبة ، وزهرة كانت يانعة فذبلت وجفت وسقطت .

فهداني التفكير إلى أن أذهب به إلى من يعني بأمر الهولنديين ، وكان يستطيع أن يهتدي بنفسه إلى ذلك لولا أنه سلب قدرة التفكير وقوة الإرادة ؛ فشرحت لهم حاله ، وتفاهمت معهم أن يسفروه إلى بلده ، فرحبوا بالفكرة ونفذوها . ثم انقطعت عني أخباره ، ولم أدر — بعدُ — من أمره شيئاً .

أحمد أمين

الأمير تميم بن المعز

[كتبت من قبل كلمة فى الثقافة عنوانها "بين ابن المعتز وابن المعز" وذكرت طرفاً من مناقضة الأمير تميم لعبد الله ابن المعتز فى الاحتجاج لخلافة العباسيين والاشادة بفضلهم . فاستحسن بعض القراء أن أعرف بابن المعز بعض التعريف لأنه ليس له نباهة ابن المعتز بين الأدباء ، بل يكاد يجهله بعض المتأدبين فى عصرنا . فاستجبت الرجاء بهذه كلمات أريد بها التعريف بالأمير الشاعر ، لا النقد والتعمق فى درس شعره وبيان طريقته]

— ١ —

قامت الخلافة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٩٧ هـ إذ بويع أول خلفائهم عبيد الله المهدى فى رقّادة من مدن القيروان . وقد توالى على الخلافة من بعده القائم بالله فالمنصور بالله فالمعز لدين الله أبو تميم معدّ ، تولى الخلافة سنة ٣٤١ هـ .

وقد امتد سلطان الفاطميين فى المغرب واتسعت دولتهم ، حتى فتحوا مصر سنة ٣٥٨ وأسسوا المدينة القاهرة ، فاتخذها المعز دار الخلافة . ثم امتد سلطانهم على الحجاز والشام .

— ٢ —

كان من أولاد المعز نزار وتميم ؛ ولأمر ما اختار الفاطميون أسماءً عربية جاهلية ، مثل معد ونزار وتميم ؟ هل فعلوا هذا مبالغة فى الانتساب إلى العرب والاعتزاز بالعروبة ، بعد أن طعن فى أنسابهم الطاعنون ورموهم بأنهم أدعياء فى آل البيت وفى العرب ؟

تولى نزار بن المعز الخلافة بعد أبيه سنة ٣٦٥ وتلقب العزيز بالله . واستمرت خلافته إلى أن توفى سنة ٣٨٦ . ويقول بعض المؤرخين إن تميما كان أحق بالخلافة ، وفُضّل أخوه عليه . وإن صح ما رواه ابن خلكان أن تميما ولد سنة ٣٣٧ فنزار أسن منه وأحق بولاية العهد . وفى ديوان تميم قصائد كثيرة يمدح فيها أخاه ويبالغ فى مدحه ، ولكن هذه القصائد وقصائد أخرى فى الديوان تشتمل على أبيات تنم عن شكاة فى سريرة الشاعر ، وحزن طوى نفسه عليه مما حرم الخلافة ، كما تنم عن اتهامه بأنه كان ناقماً على أخيه خلافته ، وكأن مبالغته فى مدح أخيه كانت لردّ هذه التهمة أحياناً . ومن الأبيات التى تنم عن تهم ووشايات بين ابنى المعز تميم ونزار :

فلا يشمتن الحاسدون ببغيهم
فعزّى من عز العزيز مركّب

إمامٌ له من كل نفس مراقب
وفى كل أرض عقد عزّ ومقنب

محبتــه حتم على كل مسلم
وطاعته فرض من الله موجَب

واستمع إلى قوله يخاطب أخاه العزيز بالله :

وما لى لا أحوى بك العزّ والغنى
وأنت على كل الأمور قدير ؟

وكيف أخاف الحاسدين وبغيهم
وأنت عليهم لى يد وأمــير

كلانا ، لأصل واحد ولوالد ،
إذا ما دعانا الانتســاب ، نصير

فلا نفس منّى ناصحاً وابن والد
ووالدة ما فيـــه عنك نفور

يودّ بأن تبقى عزيزاً مسلّما
ويفديك من صرف الردى ويُجير

— ٣ —

ولد تميم ، فيما روى ابن خلكان ، سنة ٣٣٧ فى خلافة جده المنصور ، فكانت سنه حينما رحل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ خمسا وعشرين سنة ، وتوفى فى خلافة أخيه العزيز بالله سنة ٣٧٤ وسنه سبع وثلاثون سنة ، ودفن فى القصر بجانب أبيه .

وكان شاعراً فاضلا ظريفاً لين الجانب ، وهو شاعر البيت الفاطمى ، كما كان ابن المعتز شاعر البيت العباسى . وكان ابنُ المعز يكلف بمنافسة ابن المعتز ، وقد نقض عليه قصيدته التى فضل فيها العباسيين على العلويين .

كان الأمير تميم شاعراً مكثراً ، ينظم الشعر فى فنون شتى ، وكثيراً ما وصف مناظر الطبيعة وبدائع الصناعة ، وصوّر كثيراً من وجوه المعيشة المصرية فى عصره .

وقد مُهدت له سبل النعيم واللهو ، واجتمعت أسباب العزة والفخر : نسبٌ عربىٌ قرشىٌ علوىٌ ، ومُلك تمتد بين المحيط الأطلسى والعراق ، وخلافة بلغت درجة التقديس ؛ فأبان من هذا كله فى شعره ، ثم أعرب عما أوحت إليه معيشته الترفة ومكانته العالية ، وصوّر ما عرضته مصر والنيل من مناظر ذات بهجة وأحداث وغير : فى السفر والحضر ، واللهو والجد ، والشدة والرخاء .

وقد جاء أحد علماء الهند إلى مصر بنسخة من ديوان الأمير تميم . وهو الآن يطبع فى دار الكتب . وسيطلع قراء العربية فيه على صور شتى من الأدب العربى عامة والأدب المصرى خاصة ، ويجد مؤرخ الأدب العربى المصرىّ بهذا الديوان ثروة يزيدها على ما عرف من الشعر المصرى قبل تميم وبعده ، فيتصل بعض الاتصال ما تقطّع من تاريخ هذا الأدب ، وينتظم بعض الانتظام ما انفرط من عقده .

وسيأنس القارئُ المصرى بقصائد فى صفة النيل وأصقاع مصرية ، ومشاهد معروفة فى مصر اليوم ، وأخرى يحدّث بها التاريخ . ويظفر المعنىّ بالأدب العربىّ بقصائد تفيض بالعزة العربية ، وتصوّر همم سادة العرب التى عهدها فى شعر ابن المعتز وأبى فراس والشريف الرضى . وما أشد حاجتنا إلى الخلق المتين ، يصوّره شعر بليغ فاض عن أنفس كريمة أبيّة .

فأما فخر تميم بنفسه واعتداده بمزاياه فيتجلى فى كثير من صفحات الديوان كقوله :

ليس من ساد عن وراثة جدّ
ويحظ من الحظوظ متاح
يستحق الثنا ويستوجب الشكر
ويحوى مدائح المُدّاح
إنما السيد المعلّى المفدّى   من علا بالعلى صدورَ الرماح
وروى ليل كل خطب بهيم   بذكاء أضوا من الإصباح
واقتنى العزّ بالظبى والعوالى
واشترى الحمد بالندى والسماح
فكذا تُجتنَى المكارم والمجد   ويستبعد العدو اللاحى
لا كمن قد جرى برجل سواه
وسما طائراً بغير جناح
لا ألفت العلى ولا ألفتنى   إن توشحت دونها بوشاح
أو ترفهت أو تشاغلت عنها   بأباطيل قينة أو براح

إلى أن يقول :

أنا فرد النهى وربّ المعالى   وحسام الكفاح يوم الكفاح
أنا مفتاح قُفل كل نوال   يوم يغدو الندى بلا مفتاح
أنا كالجد فى الأمور إذا ما   كان غيرى فيهن مثل المُزاح
لا كراض من العلى بادّعاء   وبعرض مجرّح مستباح
فسَل المجد عن صباحى وليلى   ومقيلى وغدوتى ورواحى
هل يسرّ العلى مقالى وفعلى
وارتياحى لكسبها ، واقتراحى
هاكها كالصهيل فى حلبة الفخر
إذا كان غيرها كالنُباح

ويقول فى همته وصبره على الخطوب ، وترفعه عن الدنايا ، وخوضه الأهوال إلى آماله :

وإنى لآتى كلّ خطب بمهجة
يهون عليها منه ما يتصعّب
وأستصحب الأهوال فى كل موطن
ويُمزَج لى السمُّ الزعاف فأشرب

وأغيضى على مثل الأسنّة صابراً
ولو شئت لم أصبر وللسيف مضرب
واسمت بإقبال — وإن سرّ — فارحاً
ولا من محبب يعجب الناس أعجب
فانى بلوت الدهر ثم علمته وجربت مالم يلق قبلى مجرّب

إلى أن يقول:

أأسأل حظاً من لئيم ومُقرف
وأخضع للنكس البخيل وأطلب
وأترك بيض الهند وهى شوافع
إذا جردت فى حاجة لا تخيّب
وما لى أخاف الحـادثات كأننى
جهول بأن الموت ما منه مهرب
إذا لم أرد ورد المنايا مخاطراً
بنفسى فلا جُنّبت ما أتجنّب

وهذه أبيات تبين عن بعض معانى المتنبى وألفاظه . والأمير تميم أدرك عصر المتنبى وعاش فى مجده وصيته ، ولا ريب أن مصر كانت لا تزال تتحدث عن أبى الطيب ، وتتذاكر شعره ، وقد تركها أبو الطيب قبل مجىء المعز وأولاده إليها باحدى عشرة سنة :

خليلى ما فى أكؤس الراح راحتى
ولا فى القـانى لذتى حين تطرب
ولكننى للمجـد أرتاح والعُلَى
وللجود والإعطاء أصبو وأطرب
وللحلم يوم البطش منى حيّة
وللحفظ يوم الغدر منى تغضّب
ومَن بين جنبيه كنفسى وهمتى
يروح له فوق الكواكب موكب

وأما فخره ببيته ومبالغته فى مدحه ، فيظهر فى قصائد الفخر ، ومدائح أبيه وأخيه ، يقول فى مدح العزيز :

فيا ابن الذين استُنبط الوحى منهم
وأضحى بهم وجه الزمان ينير
ويا ابن الملوك الشم من آل هاشم
ومن طاب منهم طاهر وضمير
لك الأوّل العالى الزكى الذى انتهى
به المجـد يوما والأوائل زور
إذا عدّ قوم للفخار عشـيرة
غدا لك من آل النبى عشير

وفى قصيدة أخرى :

إنك من معشرهمُ جمعوا شمل المعالى ودوّخوا البشرا
لم يألف الدينُ غيرهم نفراً له ولم يرض غيرَهم زمرا

وأحياناً يفخر ببيته على العباسيين ، ويجادلهم فى الخلافة ، ويشيد بمآثر العلويين ، ويبين فضلهم على بنى عمومتهم . وله فى هذا قصيدة معروفة ينقض بها قصيدة لابن المعتز .

ويقصد أحياناً إلى بنى أمية فيذكر مساوئهم ، ويهدى الشتائم إلى القائمين بالملك منهم فى الأندلس وإلى أسلافهم .

وهو يغلو أحياناً فى مدح الخلفاء الفاطميين اتباعاً لمذهب الشيعة الاسماعيلية ، ولكنه لا يبلغ فى هذا مبلغ ابن هانئ الأندلسى . كقوله فى مدح العزيز بالله :

يا صفوة الله من بريّته ومنّ علمائه الذى ظهرا

وقوله :

أنت السمّى المرجّى قبل مولده
والخامس القائم المذكور فى الكتب

ولكن غلوّ تميم فى آل البيت وهجاءه خصومهم لم يورطه فى ذمّ الصحابة ؛ تورّع عن هذا كما تورع الشريف الرضىّ . وهذا شاهد بكرم النفس ، والتنزه عن هذه الدنايا والمآثم .

ولتميم كما للشريف الرضى ، مراث فى آل البيت ، منها قصيدته التى أولها :

نأت بعد ما بان العزاءُ سُعاد
فحشو جفون المقلتين سهاد
فليت فؤادى للظعائن مَربع
وليت دموعى للخليط مزاد

الزواج بين الانكليز والمصريين

كان الانكليز آخر الشعوب التي اختلطت بالمصريين اختلاط زواج ، ولذا يصعب تحديد أثر هذا الاختلاط الاجتماعي بين الشعبين تحديداً كاملاً ، إذ لا يتعدى تاريخ أول زواج بين الشعبين الأربعين عاماً إلا في النادر .

ولقد كان ذهاب الطلبة المصريين إلى أوربا وتثقفهم بالثقافة الأوربية ، وافتراق الشقة بذلك بين عقليتهم وعقلية بناتنا من أكبر أسباب هذا التزاوج . فلقد جرت العادة أن يذهب الطلبة إلى انكلترا بعد انتهاء دراستهم العالية في مصر ، أي أنهم يكونون في سن زواج ؛ فليس من غير الطبيعي إذاً أن يقع الشاب المصري في حب فتاة إنكليزية ، وأن ينتهي هذا الحب في الكثير من الأحوال برجوع الفتاة معه إلى مصر .

وأول ما يلاحظ عن هذه الطبقة أن التعليم ودين الزوجة وتقاليدها ، كل هذا لا يسمح بتعدد الزوجات في الأسرة ، وليس هذا غير طبيعي ، فان عادة تعدد الزوجات كانت دائماً مرذولة بين طبقاتنا المصرية المهذبة . وليس هناك سبب يدعو للحكم بأن التزوج بين المصريين والانكليز غير ناجح جنسياً أو اجتماعياً ؛ فصحة الأطفال تبدو جيدة ، ومستواهم العقلي لا يقل أبداً عن مستوى الأطفال الخالصي المصرية إن كان بيننا من تخلص مصريته . ونسبة الطلاق والافتراق في الطبقة المختلطة ليست أكبر منها في نظيرتها في الطبقة الانكليزية الخالصة أو في الطبقة المصرية ، خصوصاً هذه الأيام .

وعند حضورهن إلى مصر تختار الزوجات الانكليزيات الأحياء التي يكون فيها أسر انكليزية مصرية ؛ وهذا طبيعي ، لأن عدم معرفة اللغة لا يسمح لهن بالسكنى مع أهل الزوج ، أو بالاختلاط مع معارف أزواجهن ممن لا يعرفن الانكليزية . ونتيجة ذلك الاختيار أن هذه الطبقة تقطن في أحياء خاصة بها مثل مصر الجديدة والزمالك .

وبمرور الزمن يتعلم الكثير من الزوجات الانكليزيات اللغة العربية وقليل منهن يجدنها إجادة لا تكاد تلحظ معها في حديثهن لكنة أجنبية .

والزوجة الانكليزية في أول عهدها بمصر لا تقدر على تحمل صيفنا عاماً بعد عام بغير أن يؤثر الحر أثراً سيئاً في صحتها ؛ أضف إلى ذلك حبها لوطنها وشوقها إلى أهلها ؛ ولذا يجتهد الأزواج أن يصحبوا نساءهم إلى انكلترا كل عامين أو ثلاثة ، خصوصاً في أيام شبابهم ؛ ثم يقل السفر

نأوا بعد ما ألقت مكائدها النوى

وفرّت بهم دار وصح وداد

وقد تؤمن الأحداث من حيث تتقى

ويبعد نجح الأمر حين يراد

ويبين في بعض شعره عن طمعه في الاستيلاء على العراق وإزالة الخلافة العباسية .

يقول لرجل ودعه قاصداً نحو بغداد :

أيها المزجي مطيته إذ حداه الشوق والذكر

نحو بغداد يؤرقه دلج الرحال والبكر

عج على ماء الفرات وقف كوقوف الصب يعتذر

عن مشوق نحوه قلق ما له عن ذكره صدر

فهناك الدهر مقتبل والصبا ريان ينعصر

يا ربى القاطول[1] لا بعدت عنك بي الأيام والقدر

كل ما في الناس من أمل لك أطويه وأدخر

وقريب أن يزورك بي ظفر ما مثله ظفر

ثم يصفو في ذراك لنا طيب عيش ما به كدر

(الكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

(١) القاطول نهر بسامرا وكانت إذ ذاك دار الخلفاء العباسيين

بتقادم الحياة الزوجية ، وتضعف علاقة المرأة بأهلها وحبها لوطنها القديم ، فتستقر فى مصر وتألفها .

ولا تتعدى معرفة الأطفال بأسر أمهاتهم أشهر هذه الزيارة التى تأخذهم فيها الأم إلى انكلترا ؛ ولذا يندر أن يعرف الطفل أسرة أمه معرفة جيدة إلا فى ظروف خاصة ، كأن يرسل الأب ابنه للتعليم فى انكلترا . ومما يلفت النظر أن أغلب أولاد هذه الطبقة هم أكثر شبهاً بآبائهم منهم بأمهاتهم ؛ ولا أدرى إن كانت ملاحظتى هذه عامة أو ما حكم قانون الوراثة فيها ؛ وربما كان الخلف الأول فى الأسرة يشبه الأب ، والخلف الأخير يشبه الأم ، أى أنه إذا كان عند الانسان أربعة أولاد ، فالاحتمال أن يشبه الولدان الأول والثانى أباهما ، ثم الثالث والرابع أمهما ؛ ولما كانت أكثرية الأمهات الانكليزيات هذه الأيام يحددن عدد الأولاد ، ولا يسمحن لأنفسهن بأكثر من ولد أو اثنين ، فيكون من الطبيعى أن تشبه الأولاد آباءهم .

وأولاد هذه الطبقة من مجتمعنا ينشأون بطبيعة الحال بلغتين منذ الصغر . وتكون لغتهم الانكليزية إلى حوالى سن العاشرة أقوى من لغتهم العربية ، وهذا أيضاً طبيعى ، لأن تلقين الحديث من وظيفة الأم .

والأب يتكاسل فى تعليم ابنه اللغة العربية ، ظناً منه أن الزمن والبيئة كفيلان بسد النقص ، والواقع يؤيد هذا الظن ؛ فالأطفال إلى سن العاشرة ضعاف فى اللغة العربية ، ثم هم يتساوون ببقية طلبة المدارس المصرية حوالى سن الرابعة عشرة ، إلا فى أحوال يؤسف لها يتولد فيها فى الطفل احتقار للغته .

وبعض الزيارات لبيوت هذه الطبقة يكفى ليقنع الباحث أن بيوتهم فى مستواها المعيشى أعلى من المستوى المصرى العادى ؛ فأطفالهم أنظف وأكثر تعوداً على النظام ، ومطابخهم أكثر ترتيباً ، وطعامهم أبسط وأصح من الطعام المصرى ، وحياتهم المنزلية وسعادتهم مستقلة عن المقاهى العامة .

وما يميز الانكليز من حب النوادى والرياضة والغرام بالرحلات والحدائق يميز أيضاً هذه الطبقة . فأنا أعرف الكثير من الأسر الانكليزية المصرية ممن يتركون القاهرة يوى الخميس والجمعة إلى رحلات فى الصحراء أو فى الريف حيث يقضون أيام راحتهم .

وأغلب هذه الأسر ينتسبون إلى النوادى الرياضية الاجتماعية ، والكثير منهم حدائق جميلة يعتنون بزراعتها وتنسيقها ، حتى يعزى الكثير من اهتمام المصريين بتربية الزهور وعرضها سنوياً إلى أفراد هذه الطبقة .

ولأن أطفال الأسر المصرية الانكليزية يتعلمون لغة أمهاتهم من الصغر كتابة وقراءة ، قد أتيح لهم من موارد الثقافة والتسلية ما لم يتح للطفل المصرى الخالص ؛ فاللغة العربية فيها قليل جداً من الكتب التى تصلح لقراءة الأطفال ، واللغة الانكليزية غنية من هذه الناحية ، لهذا يتيسر لمن يعرفها من الأطفال قراءة كتب مثل (Hans Anderson), (Alice In Wonder Land.) و (ألف ليلة وليلة) .

ومن الغريب أن « ألف ليلة وليلة » لم ينقح ويهذب بعد فى اللغة الأصلية بما يناسب الأطفال ، مع أنه ترجم إلى أغلب اللغات الأوربية وهذب بما يناسب الصغار . وليس من المبالغة أن أقول إنه لا يكاد يوجد طفل فى انكلترا لا يعرف بعضاً من قصص «ألف ليلة وليلة» .

والمتيسرات من الأمهات يزودن أطفالهن باسطوانات أغانى ونظم وموسيقى انكليزية مما يؤلف عادة للصغار ؛ فينشأ هؤلاء بذوق غربى فى الموسيقى مع ذوقهم الشرقى ؛ وبعض أولاد هذه الطبقة يجيدون بعد نشأتهم الغناء والموسيقى الأوربية إجادة تكفيهم أن يظهروا فى المنتديات الموسيقية العامة فى أوربا .

ثم إن ثقافة الأولاد الانكليزية بعد سن الطفولة تترتب على مبلغ ثقافة أمهاتهم ؛ فنهم من يكون اطلاعه الأدبي في سن الثامنة عشرة مثلا مساوياً لاطلاع الولد الانكليزي قرينه ، ومنهم من ينصرف إلى قراءة القصص البوليسية ، فتقل بطبيعة الحال ثقافته ، ولكن الجميع يتساوون في تفوقهم في اللغة الانكليزية أيام الدراسة .

فلو أدركنا أن ثلث وقت مذاكرة الطالب المصري يذهب في محاولة اقتناء اللغة الأجنبية ، وأن النتيجة بعد هذا المجهود غير مرضية كل الرضا لقدرنا ميزة أولاد هذه الطبقة أيام دراستهم على أقرانهم في المدارس .

ومن الطريف في هذا الشأن أن صبياً أعرفه كان يبدو لأمه الانكليزية كل ليلة أخطاء مدرس اللغة الانكليزية في المدرسة الابتدائية التي كان بها .

ولا عجب أن فاقت معرفة أمثال هؤلاء الصبيان بالانكليزية معرفة المدرس المصري .

وبعض الأمهات الانكليزيات يعتنقن دين أزواجهن ، ولكنهن يحتفظن بأعيادهن الخاصة ويحتفلن بها ، خصوصاً عيد الميلاد الذي هو عيد أطفال وعيد رأس السنة ، وهو عيد الكبار .

لم أتعرض هنا لزواج الانجليز بالمصريات ، لأنه نادر ، فالدين يمنع المسلمة من الزواج بغير من هو من دينها ، وإخواننا الأقباط محافظون ، لهم تقاليدهم ؛ ولكن الحب يتحدى الدين والتقاليد أحياناً ، فأنا أعرف أكثر من مصرية مسلمة تزوجت بإنكليزي ، وفي كل الأحوال التي أعرفها يتدين الزوج رسمياً بدين الزوجة وتأخذ هي جنسيته على ما يقتضيه القانون الدولي .

وقد تلزم دواعي كسب العيش الرجل بالسفر إلى بلاده فتصحبه الزوجة المصرية الأصل ، ويكون شأنها هناك شأن أختها الانكليزية في مصر ، أي وحشة وعدم استقرار وحنين إلى أهلها يغالبها حبها لزوجها وأولادها ثم اعتياد واستقرار وألفة للوطن الثاني .

وأولاد هذه الفئة تنشأ بطبيعة الحال إنكليزية الجنسية ، ولا أعرف من بينهم ممن نشأوا في إنكلترا من يعرف العربية ، ولكن من يمكث منهم في مصر يجيدونها ، بل قد يقتصرون عليها ويتناسون الانكليزية .

ومعاملة الزوجات الانكليزيات الخادم أرحم وأرق من معاملة الطبقة المصرية المماثلة ؛ فالسيدة الانكليزية إن سألت خادمها فمن فضلك ، وإن أدى ما طلبت شكرته ، وهي لا توقف عمله لتطلب منه كوب ماء أو كتاباً من غرفة مجاورة ، بل تقوم هي بكل هذه الأعمال الشخصية ، كما أنها تساعده في الطبيخ وأعمال البيت .

وهي تتعلم من الخادم أول لغتها العربية ، وهن يسمين هذه اللغة (Kitchen Arabic) أي عربي المطبخ ، وبعضهن يقتصرن عليه .

وكثير من هاته الزوجات يشتركن في الأعمال الاجتماعية المصرية كإنشاء جمعيات الاحسان ، وعمل ملابس لتوزيعها على الفقراء ، وتعليم النساء المصريات من صديقاتهن غزل الصوف ، وعمل الشورابات والقمصان ؛ فمن هذه الجهة هن مراكز ثقافة انكليزية في البيئة التي يعشن فيها .

هذا وصف مجمل لأثر التزاوج بين الانكليزيات والمصريين في مصر ، وقد يبدو هذا الأثر ضئيلا ، إذ لا يتجاوز عدد الزوجات الانكليزيات بيننا بضع مئات ، ولكن في ظني أن أولاد الزواج الخليط سوف يكون لهم يوماً ما شأن خطير في مصر ، وأهميتهم متمثلة في قدرتهم من الصغر على فهم الثقافة الأوربية وعلى التذوق في الموسيقى والأدب والفن بالذوقين المصري والغربي تذوقاً يسهل معه المقارنة والفهم والنقد والابتكار .

فالشباب المصرى الذى تعلم فى أوربا بضع سنين ذهب إليها فى سن متأخرة ، وقضى فيها وقتاً قصيراً ، ولا يتيسر فى هذه الظروف فهم الثقافة الأوربية فهماً كاملا يؤدى إلى الاصلاح والابتكار الذى نحن فى أشد الحاجة إليه .

فمصر تنتظر إذاً أن ينشأ من هـذه البيئة الخليطة أدباء المستقبل وفنانوه ، وتنتظر منهم أن يبتكروا فى الفن والأدب ما ابتكره أدباء روسيا وفنانوها ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . فروسيا لم يكن لها أدب ولا موسيقى ولا فنون تذكر قبل ذلك القرن ، ونهضتها فى كل هـذا قامت على أكتاف نشء كان بعضه نتيجة الزواج بين الروس والفرنسيين .

هذا النشء تعلم فى فرنسا وفهم أدبها وفنها كما فهم ذلك الفرنسيون ، ثم رجع إلى بلاده وابتكر لها أدباً ومسرحا وموسيقى كانت فى فنها فرنسية وفى روحها روسية . وبلغت روسيا فى كل هذه الفنون الجميلة الذروة فى أقل من نصف قرن .

والقارئ يعرف كيف أن الأدب الروسى ترجم بعد وقت قصير من ظهوره وازدهاره إلى أغلب اللغات الأوربية والشرقية . ثم كيف أن الموسيقى الروسية أصبحت بعد النصف الأول من القرن التاسع عشر موسيقى عالمية ترتقى مكاناً بين الموسيقات الشعبية لا يقل من مكان الموسيقى الايطالية أو الألمانية .

فهل يأتى علينا نحن المصريين يوم نساهم فيه فى ثقافات العالم وفنونه وموسيقاه ؟ هل يأتى يوم يباهى فيه المصرى والمتكلم بالعربية عامة ، فيقول هذه موسيقى مصرية أو عربية أو عراقية ، وهذا تصوير سورى ، وذاك أدب تونسى ، وهكذا ؟ . .

نحن نأمل فى اختيارنا من الثقافات الغربية أن يكون رائدنا الفهم الصحيح والذوق الصحيح ، وألا ننقل لمجرد النقل ، وأن يبرز جيل يأتى بعدنا هذا التقليد ، فيبتكر لنفسه ، ويستقل بثقافته وفنونه .

ودور الابتكار لن يأتى من الطريق الذى نسلكه اليوم ، أى من مجرد الأخذ عن الأدب الغربى والفنون الغربية ، ولا بمجرد ترقيع أدبنا وفنوننا ، كالنحت والرسم والبناء ، بغير انسجام ولا تناسق ؛ وهو لن يكون أيضا بأن يدرس المصرى أولاً فنه وأدبه ثم فن الغرب وأدبه ، بل العكس ، لأن هذه القيم الثقافية هى قيم ذوقية محضة ، والمبدأ النفسى فى الذوق هو أن يتعلم الدارس أولاً الشىء الصحيح أو الأقرب إلى الصحة ، ثم يدرس بعد ذلك الخطأ أو ما يراد إصلاحه ، حتى لا يؤثر الشاذ فى ذوقه تأثيراً سيئاً يتلف عليه بعض فهمه ، ويضعف من موهبته الناقدة .

م . م

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	الطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ مليم

الفن والشخصية

للأستاذ محمد سعيد العريان

لو أن مريضاً ذهب منذ خمسين سنة إلى طبيب يشكو الصداع والأرق ، فسأله : من أي البلاد أنت ؟ ومع مَنْ تعيش ؟ وكم تربح من عملك ؟ لكان هذا الطبيب ، في نظر مريضه ، فضوليًّا غاية الفضول ، لأنه يحشر نفسه فيما لا يعنيه ، ويسأل عما لا يهمه أن يعرف !

ولو أن باحثاً من أهل الأدب في القرن الماضي أراد أن يدرس شعر شاعر أو فنَّ كاتب ، فراح يسأل : هل عاش ذلك الشاعر أو الكاتب متزوِّجاً أو عزَبا ؟ وهل كان يعيش في سعة من الرزق أو في ضيق وعسر ؟ لكان مكانُ هذا الباحث من الفضول هو مكان ذلك الطبيب !

ولكن طبيب اليوم يسأل عما لا يخطر في بال المريض أن يسأل عنه نفسه ؛ والباحث الأديب يحاول اليوم أن يعرف من حياة صاحبه الذي يدرس فنه ما لا يحاول غيره أن يعرفه ؛ لأن طبيب اليوم وأديب اليوم يعرفان من الصلة بين الشخصية والفن ما لم يكن يعرف طبيب الأمس وأديب الأمس ؛ فما يتأتى لواحد منهما أن يحكم حكمه ويقرر نتيجته في قضية من قضايا الطب أو من قضايا الأدب ، إلاَّ أن يعرف ظروفها وملابساتها ؛ حتى القاضي : قد يصدر حكمين مختلفين في جريمة واحدة ، مستنداً في حكمه إلى قانون واحد ، لأن إحدى القضيتين تختلف ظروفها ومسبِّباتها عن القضية الأخرى ؛ وما دامت النفوس تختلف في مقدار التأثير والتأثر ، فلا بدَّ أن يختلف الحكم على الأثر الناتج عن كل منها وإن اتحد ظاهرُه في رأي العين .

وقديماً قال علماء البلاغة : إن الكلام المطابق لمقتضى الحال لا يُسمَّى بليغاً إلا إذا صدر ممن يعني أن يطابق كلامُه مقتضى الحال ، فان جاء كذلك عفواً وبلا قصد فلا بلاغة فيه وإن جاء على ما تقتضي قوانينُ البلاغة . أليس علماءُ البلاغة يقرّرون بذلك الصلةَ بين الأثر والمؤثِّر ، أو بين الفنّ والشخصية ؟

إذا تقرَّرت هذه القاعدة ، وهي مقررة نافذة ، وجب أن نسأل : هل تجرى أحكامنا الأدبية فيما ندرس من آثار الكتاب والشعراء الذين سبقونا بجيل أو جيلين — على قاعدةٍ مضبوطة وأساس ثابت ؟

أما أنا فأزعم أن كل أحكامنا في هذا الباب هي أقرب إلى الحدس والتخمين ، لأنها لا تقوم على الموازنة الصحيحة بين شخصية الفنّان وفنّه ؛ إذ كان عِلْمُنا بحياة من ندرس آثارهم من هؤلاء الكتاب والشعراء لا يتجاوز تاريخ مولده ، وتاريخ وفاته والعصر الذي عاش فيه ؛ وحتى ذلك العصر لا نعرف له صورة حية في أخبار ناسه وتاريخ رجاله ؛ فمن أين لنا أن نحكم على تلك الآثار وليس بين أيدينا من وسائل الحكم إلا فنٌّ مجرَّدٌ من شخصية صاحبه ومن المؤثرات الحقيقية « الخاصة » التي عملتْ في إنشائه وتكوينه ؟

ها نحن أولاء نتكلم منذ ثلث قرن عن قاسم أمين ، ودعوة قاسم أمين ، وكتاب قاسم أمين ؛ فأى الباحثين الذين قالوا فأكثروا حدَّثنا عن شخصية قاسم أمين الخاصة ، في أهله وصحبه ، وفي عمله وفراغه ، وفي جِدِّه وعَبثه ؛ لنعرف من جملة ذلك ، المؤثراتِ التي دفعته إلى هذه الدعوة الجريئة التي نشاهد اليوم من آثارها ما نشاهد ونتوقَّع ما نتوقَّع ؟

هل كان الرجل شقياً في بيته أو سعيدا ؟ وهل كان صاحب إيمان وفكر ورويّة ، أو صاحبَ هوًى واندفاع وطيش ؟ . . . ثم ما كانت تسليته في فراغه ؟ أكان

قارئاً أم رحّالة ؟ وكان لاعبَ شطرنج أو لاعبَ نَرْد ؟ وكان يؤمن « بالحظ » أو كان يؤمن « بالعمل والجزاء » ؟

هذه مقدِّماتٌ لا بدّ منهـا لنعرف أكان قاسم أمين في دعوته « مصلحاً » دعا دعوته رغبةً في الخير العام ، أو « مقامراً » رمى رميته ولا يعنيه ما تكون النتيجة ؟

هذا المثلُ الذي سُقْته عن قاسم أمين له نظائرُ كثيرة في كل ما نتحدث به عن أعيان هـذا الجيل والجيل الذي سبق ؛ وإن البـاحث في غد لحريٌّ بأن يقع في الحيرة والضلال حين لا يجد بين يديه من وسائل الحكم إلا نثر الناثر أو شعر الشاعر ، ثم لا شيء بعد ذلك ؛ وإننا لأسعدُ حظًّا فيما ندرس من آثار أدبائنا القُدماء ، إذ تركت لنا معاصروهم من أخبارهم الخاصة فيما أنشئوا من كتب التراجم ما فيه بعض الغَنَاء والفائدة ؛ وإننا مع ذلك لنتجنى على هؤلاء بعض ما فينا وترميهم بالقصور والتقصير !

* * *

لقد غيَّب الموتُ في هذا العام طائفةً غير قليلة من أدبائنا وكُتّابنا وذوي القدر والخطر بيننا ؛ فمات محمد مسعود ، وعبد الوهاب النجار ، والصحاف المجوز ، ومىّ زيادة ، ونخرى أبو السعود ، وإبرهيم أدهم ؛ فماذا بقى من هؤلاء الذين ماتوا إلا لوعةً في قلوب الخاصة ، وذكرى خافتة في قلوب العامة ، وكتاباً أو كتباً في معارض الزجاج على أبواب المكتبات ؟ ثم ماذا يبقى منهم في غدٍ لمن يريد أن يبحث ويدرس ويتعقب الأسباب إلى نتائجها ؟

وللناس في مجالسهم الخاصة أحاديث عن محمد مسعود ، وعبد الوهاب النجار ، والصحاف المجوز ، ومىّ زيادة ، وفلان وفلان ؛ ولكن إلى كم تبقى هذه الأحاديث ؟ وما مبلغها من الصدق والكذب ؟ وما أثرها فيما أنشئوا وكتبوا ؟

سأتناول طرفاً واحداً من هذه الأحاديث ، فأعرضه للبحث والنظر . . .

. . . لقد كانت « مى » أديبة من أديبات الشرق ، بل كانت في الذروة من أديبات الشرق ؛ وإن لها لمذهباً في البيان تُعرف به وتتميَّز ، ولها مساربُ من الفكر لا يَهتدى إليها غيرُها من أهل البيان والنظر ، ولها آثار أدبية يقف الفكر عند كل أثر منها وقفة إجلال وبهر . . .

ذلك حقٌّ لا ريب فيه .

وكان لها مجلس في كل « ثلاثاء » ، هو ندوة الأدب ومجمع أهل الشعر والبيان ، يتنادَوْن إليه من أقطار المدينة يلتمسون مادة الشعر وجِلاء الخاطر وصقال النفس ؛ فما أحدٌ من رُوّاد مجلسها إلا لها أثر في نفسه ونفحةٌ في ضميره وهمسةٌ في وجدانه ونغمة في شعره . . .

وذلك حق أيضاً .

وهى فتاةٌ عذراء ، لم تخلع ولم تلبس إلا لمرآتها ، وإنها لذاتُ مال وجمال ، ترنو إليها العيون ، وتخفق حولها القلوب . . .

وذلك أيضاً حق .

ويقال : لقد كان الرافعي يحبها وتحبه ، وإن بينهما لرسائل . ويقال : بل كانت تحب داود بركات ويحبها ، وإن له في قلبها لمكاناً وإن لها . ويقال : بل كان هواها مع جبران في وطنه ومُهاجَره ، وإنها لتبدو في أدبه متبرِّجةً سافرةً وإنه . ويقال : بل كانت هى وإسماعيل صبرى قلباً لقلب ونغمة تجاوب نغمة . وكان من رُوّاد مجلسها لطفى السيد ، ومصطفى عبد الرازق ، وخليل ثابت ، وفلان وفلان !

هذه ، وهذا ، وهؤلاء — إنهم أعيان الجيل وأدباء العصر ؛ وما منهم إلا له بيانٌ وفكر ، وكتابٌ وشعر ، وصوتٌ يرنّ في مسمع التاريخ ؛ فماذا يعرف التاريخ من شأنهم وشأنها ، وأثرهم وأثرها ، فيما كتبتْ وكتبوا ؟

أُترى الناس في غدٍ يعرفون ميّ في كتابها وحده وقد جهلوا خبرها؟ أم تُراهم يعرفون فلاناً وفلاناً في كتابيهما إذا لم يعرفوا الروح التي ألهمتْ، والقلب الذي أوحى؟

وأيّ حبٍّ كان حبُّها؟ وأيّ عاطفةٍ كانت تختلج في نفسها؟ ولماذا بقيت عذراء وقد جاوزت الأربعين؟

وهل كان جنونها جنوناً أو حيلةَ طامع؟ وهل كان عزوفها من الناس في أخرياتها حِرصَ الحريص أو جُبنَ الخائف؟ وأين مظاهر ذلك كله فيما كتبتْ وخطبتْ، وفيما ألّفتْ ونشرتْ؟

أرأيتَ إلى التمثال القائم في الميدان تشخص إليه العيون؟ فَلْيَبْقَيَنَّ صانعُه في نحته وصقله ما يبقى! فما هو بقادر على أن يبعث في النفس رهبته، إلا أن يجعل له عيناً تنظر ولساناً ينطق؛ وهيهات!

وما الفنّ مجرّداً من شخصية فنّانِهِ إلا حجر من الحجر كالتمثال القائم في الميدان!

***

قال صاحبُنا في المجلس الحافل بصفوة أهلِ الفكر والبيان: لقد قرأتُ شعر بيرون منذ حداثتي، فإنه ليجري في دمي وفي أعصابي وينبض به قلبي؛ وما زال هذا مكانَ بيرون في نفسي حتى قرأتُ «حياة بيرون»، فإذا كل شيء في نفسي قد حال وتبدّل، فما هو شعرُ شاعر، ولكنه سفاهة داعر وهذيان مخمور!...

وإن بيرون لشاعرٌ في الصّدر من شعرائهم. ولعل صاحبنا لو عرف حياته قبل أن يقرأ شعره لكان رأيُه أولاً هو رأيَه أخيرا، ولما نقص عنده شيئاً من قدره؛ ولكنه عرف الفنّ قبل أن يعرفَ فنّانه، فتصوّرتْ صورتُه في وهمه غيرَ ما هي في حقيقتها؛ فلما قابل الأصلَ بالمثال حطّم رأساً في رأس وأسقط الاثنين من حسابه!

كذلك قلنا وما نزال نقول: إن الشعر هو الشاعر، وإن الفنّ هو الفنان؛ ولكننا نكاد ننكر في هذا الجيل أثر دراسة الشخصيات في دراسة الأدب، فما لنا عنايةٌ بأدب التراجم ولا له نصيب من مجهودنا الأدبي في هذا الجيل، فلماذا؟

لماذا؟... سؤال سألتُه منذ أسابيع [1]، وما أزال أردّده؛ أهو طابع السرعة في أدب العصر الذي يأكل ناسُه وهم ماشون في الطريق؟ أم النفاق الاجتماعي الذي يفرض علينا أن تكون لنا حياتان عامةٌ وخاصة؟ أم هي جناية الصحافة على الأدب؟ أم هي الثقلة وقصر النظر؟ أم هو الجحود ونكران الجميل؟ أم هو كل ذلك إلى أشياء غير ذلك؟

سؤال ينتظر الجواب، وفي النفس بقية من الحديث

محمد سعيد العريان

(١) انظر مقالنا «أعيان الجيل»، العدد ١٤٩، ص ١٣

الخديو إسماعيل

شخصية ساحرة

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

ما من رجل يشتهر في الناس أمره ، ويشيع في شيء من الأشياء ذكره ، إلا تطلعت النفوس إلى رؤيته ، وسعى إلى شهوده من استطاع السبيل إليه ، فإذا تعذر ذلك لسبب من الأسباب ، كبعد الشقة في المكان ، أو تقدم صاحب الشهرة في الزمان ، لم يفتأ الناس يستخبرون عن أوصافه من رآه أو ادعى لهم رؤيته ، فإذا لم يجدوا ما ينقع الغلة ويشبع الرغبة ، رجعوا إلى وهمهم في هذه المهمة ، فلا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال ، حتى يتصوروا على وجه من الوجوه هيئته ، ويتمثلوا لعين خيالهم سحنته وشارته .

ومن ثمة المثابة التي نجدها في صحافة اليوم من إيفاد المصورين إلى رجال الساعة لنقل صورهم والتعريف بأشخاصهم . فضلا عن عناية الطابعين لأسفار التاريخ والسير — بعد أن كثرت الطباعة عندنا — بأظهارنا على التصاوير والتماثيل لمن ذكروا أخبارهم وترجموا لهم . فإذا لم يك تصاوير وتماثيل ، عمدوا إلى ما يخيله الرسامون فأضافوه إلى ما وصفه الواصفون . وذلك كله كيما يتمثلهم هيئة وجسماً من عرفوهم سيرة واسماً .

وهذه الحال دليل على ما هو مركب في الطبع من ربط الظاهر بالباطن ، وعلى أن القائلين بالفراسة يصدرون عن نزعة في أصل الفطرة . وإليك نصيحة الشاعر ابن الرومي :

وإذا ما تخاير الناس غابت
عنك ، فاستخبر الوجوه الوضاء

هذا وجه من فضول الناس واهتمامهم ؛ والوجه الآخر



الأمير إسماعيل

هو تطلعهم إلى الحياة الخاصة للمرء وما يجري فيها مما لا يعني غيره . ونحن الأحياء نستكره هذا من إخواننا وجيراننا ، ولكننا نتلقف ما يروى من هذا القبيل عن مشاهير التاريخ ، حتى لننسى غير قليل من المواقف العظام والأحداث الجسام ، ولا ننسى ما نقرؤه أو نسمعه من مشية هذا العظيم وشدة على يد من يصافحهم ، وعن ضحكته المرسلة الطلقة وتدقيقه في المواعيد ، وعن علاقته بأصدقائه وأواصره بخدمه ومعاملته لأهل بيته ، وسائر نوادره ومتصرفاته ، وكل ما اتصل بخاصة شئونه ونواحي معيشته اليومية ، ومألوف عاداته وأخلاقه الشخصية .

ولا شك عندنا في أن فطرة الناس صادقة هنا أيضاً . وذلك أن التصرفات العامة هي في الغالب الأعم إملاء الظروف اللازمة ونتيجة حتمية لمقدمات سابقة . والحكم الذي يقوم على العمل الظاهر وحده حكم ناقص إن لم يكن خاطئاً . ومن ثمة كانت بعض السمات في حياة العظيم الخاصة أدل عليه مما يكون قد جاء على يديه في حياته العامة .

وحسبنا هذا تقدمة للكلام على شخصية الخديو إسماعيل الساحرة .

***

كان الخديو إسماعيل ربعة القامة ، ممتلئ الجسم ، وثيق البنية ، حسن الملامح ، متناسب تقاطيع الوجه ، عريض الجبهة ، كث اللحية والشارب والحاجبين ، ولشعره ولا سيما حاجبيه حمرة العسجد ولمعته ، وفي أذنيه بسطة وغلظ ، جميل الثغر ممتلئ الشفتين بالقوة الحسية ، وعلى سماته المعبرة الحركة مخايل اليقظة والفطانة ، وقد اكتسى محياه من إسبال جفنيه لرمد كان في صباه مسحة لطيفة من التفكير . وكان يكسر على جفنه الأيسر خاصة ، فإذا أنعمت أطبقه ، وأشخص عينه اليمنى إلى محدثه يديرها فيه كأنما يعجمه وينقب من النفذ إلى قرارته . وعلى عكس ذلك إن هو أنشأ يتكلم ، فإنه يميل برأسه ناحية ، ويغضي عينه اليمنى ويحدق باليسرى تحديقاً رائماً يتوقد بحدة الفهم والذكاء . وفي ذلك جرى قول بعضهم : « إن الخديو يسمع بعين ، ويتكلم بالأخرى » . فلما بلغه ذلك قال : « وإني لأفكر بالاثنتين معاً » .

ولم يتغير من صورة إسماعيل في الكبر إلا زيادة السمن ، فصارت لمشيته هزة ، وبقيت يده كعهدها في حس المصافحين له جاسية صلبة . وكانت له مهابة لا تزايله ، وهي مهابة لا يفرضها فرضاً ، ولكنها تأخذك شيئاً فشيئاً — مهابة رقيقة رائعة .

وكان إسماعيل صادق الفراسة في الرجال ، نافذ البصيرة فيما يعرض من الأمور والأحوال ، لا يخطئ حدسه إلا أن يريده لغاية في نفسه .

وكان إحدى الكبر في الحيلة والدهاء ، سعياً وراء الاستقلال بحوزته عن الدولة العلية ، والتسيير دفته في تيارات السياسة العليا بين سائر دول أوربة العظمى ، وهي متعارضة الأهواء متنافسة ، ثم — وذلك الأشد الأنكى — وهي متفقة المآرب متألبة .

على أن موهبة إسماعيل العليا ومعجزته الكبرى هي شخصيته الساحرة . ولا يعرف التاريخ واحداً من هذا المديد الذي لا آخر له اتصل به بعض الوقت ، أو لقيه لحظة في إحدى المناسبات العامة ، أو قابله على موعد مقابلة خاصة ، إلا فتنه إسماعيل وأخذه بسحره واجتذبه إلى حبه واستولى لوقته على لبه .

ولبيان بعض السر في هذه الفتنة ، نقول إن إسماعيل كان ذا نظر وفراسة ، يقرأ في لمحات من يجالسه ، ويتوسمه من حركاته ، ويتلقفه من لحن كلامه ، حتى يتعرف طبيعته ويتشربها ، ويستشف مساربها ويتبطنها ، ومن ثمة يدخل إلى نفس جليسه من مداخلها ويضرب على وتيرتها . فلا عجب إن رأينا جميع من اتصلوا به يثنون عليه وهم أشتات ، ويعلن كل من محاسنه غير ما يعلن الآخر . فهو مثلاً عند البعض عنوان الكياسة وحسن الدخول ولطف الوسيلة مع رقة الشمائل وظرف المصانعة وبراعة المؤانسة . وهو عند البعض مثال لرجل الأعمال يتوخى الوضوح ويتوجه رأساً إلى الغرض .

ومن ذلك ما اتفق ذات مرة في شأن تأسيس بعض شركات السكر ، إذ تقدم فريقان : فريق من الفرنسيين ، وآخر من منشستر . فأما الأولون الفرنسيون فاستغرقت المفاوضة معهم أياماً ، وقد خلبهم وأخذ بعقولهم ما طفق يبديه الخديو من سعة الاحاطة بجملة الأمر وتفاصيله ، وما كان يبذل من عناية واهتمام في تمحيص مقترحاتهم وعروضهم في أخفى جزئياتها وأدق دقائقها . وأما الفريق الثاني البريطاني فقد أبرم إسماعيل الاتفاق معهم في بضع ساعات ، وخرج رجال منشستر وهم يقولون عنه إنه أذكى من لقوه خارج بلادهم من رجال المال والأعمال .

فلما أوقفه أحد المتصلين به من الأجانب عما أحدثه في الفريقين من طيب الأثر مع اختلافه ، أبرقت عينه التي يتحدث بها وقال مبتسماً :

« من الناس من يمتطي صهوة الجواد ، ومنهم من يركب حماراً ، ومنهم من يعتلي جملاً ، ولكل مطية

من هذه المطايا حركة تخالف الأخرى . والفارس الفارس من يحسن ركوبها جميعاً » .

ويروى كذلك عن الخديو إسماعيل أنه فى سياق حديث له من حاجته إلى إيفاد مندوبين فى بعض المهام إلى أوربا ، قد أظهر الأسف لأنه لم يجد من يوجهه إلى باريس . « فهذا نوبار يصلح للأستانة لأنه قادر على التزيد والمبالغة ، وشريف يصلح لانجلترا ، فهو يحب الرماية والصيد . ولكنه لا هذا ولا ذاك بالذى ينفق فى فرنسا . إذ لا مندوحة عن نسج أرق من هذين ليكون اللباس المناسب لباريس » .

وندع الآن هذه الصفة — صفة النظر والفراسة — التى هى فى عالم السحر الاسماعيلى بمثابة المدخل ، لننتقل إلى غيرها ، فنتحدث — قدر الاستطاعة — عن سحر حديثه .

كان إسماعيل واسع المعارف ، وقد أفاد الشىء الكثير فى سياحاته . وكان مغرى بدراسة الأشخاص وتقصى الأمور ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال . ويضاف إلى ما قدمناه أن ذاكرته كانت عجيبة فى الاستذكار والحفظ . والأمثلة على ذلك أيضاً كثيرة : منها أنه كان فى حديث مع البعض فى شأن قناة السويس ، وجرى ذكر المفاوضات الأولى لها ، فخالفه فى بعض تفاصيلها ، فأورد الخديو مما علق بحافظته نحو عشرين سطراً من مستند لا يعتبر من الوثائق الهامة ، وكان تلقاه منذ ما لا يقل من عشرة أعوام . فاستأذنه محدثه فى تدوين ما ألقاه له . فلما رجع بعدها إلى المستندات ألفى الأمر كما ذكر له .

كما أنه كان ذا بديهة صادقة فى الفكاهة ، وكان فى ذلك خفيف الروح لطيف الهزل مهذب اللسان . من ذلك أنه جرت بينه وبين أحد قناصل الدول وحشة ، فتطوع من أهل مودتهما من أصلح بينهما . وكانت للقنصل زوجة نهمة تعاف مؤاكلتها لما تظهر من الجد فى الأكل وسرعة الابتلاع . فلما وقع الصلح أرسل الخديو على سبيل الايذان به والاحتفال له سواراً بديعاً إلى قرينة القنصل ، فلما خوطب فى نفاسة الهدية كان جوابه للسائل المتعجب : « لم يكن أمامى إلا هذا أو دعوتهما إلى وليمة . وإنى — يا عزيزى ! — لأوثر الحرب على رؤية هذه المرأة وهى تأكل ! » .



الخديو إسماعيل فى حلة التشريف الكبرى

وهذه البديهة السريعة الحاضرة لم تفارق إسماعيل حتى فى إبان الأزمة العصيبة التى ائتمرت الدول فيها على المطالبة بخلعه ، ولم يسفر فيها لجميل مساعيه السياسية وجليل شفاعاته المالية فى دار الخلافة أثرٌ يعول عليه أو خيرٌ يطمأن إليه .

فنى الليلة السابقة لعزله جاءه المستر لاسيل القنصل العام للدولة البريطانية والمسيو تريكو القنصل العام لدولة فرنسا يعاودان الكلام ليحملاه على خلع نفسه عن العرش واستخلاف ابنه توفيق عليه . وكان إسماعيل قد ناط أمله بالأستانة . فأعاد عليهما القول بأنه لا يملك من الأمر شيئاً إلا بموافقة الباب العالى . فهتف المسيو تريكو على عادته عالى الصوت صخاباً : « إنك تصرفتَ عشرين مرة على خلاف رغبة السلطان » . ومع ما فى هذا القول من الصدق فان إسماعيل كان يعرف الرجل الذى أمامه ، فبادره على الفور : « أتحداك أن تذكر هنا مثلا واحداً » . ولما كان

حضور الذهن آخر ما يتصف به المسيو نُريكو فإنه أسقط في يده وأُرْتج عليه . فتدخل المسيو لاسال بدوره في أدب ولطف : « ولكن — ياصاحب السمو ! — أليس يجمل بكم إظهار بعض الاستقلال عن الأستانة ، فقد يغرّر بكم الباب العالى » . فأجابه إسماعيل في مزح هادئ مؤثر : « إذا كان مرادك — ياسيدى العزيز ! — أن يكون أول ما أصطنع فيه استقلالى هو التنازل عن ملكى كله ، فأنى لا أكاد أرى وجه المنفعة فيما تدعو إليه من استقلال » .

وأظهر ما كانت تتجلى هذه الروح حين كان يخلو عن بأعنه ويطمئن له بثقته ويأنس بناحيته . فأن الخديو إسماعيل إذ ذاك كان يتبسط في الحديث ، فيورد الملح مما وجد في طبائع الناس وسير الحوادث ، وهو مستقر على الصفة الوثيرة يريح ساقه ، أو متمش يدرج في الحجرة جيئة وذهاباً ، ويزيد من وقع الكلام بما يبديه من حركة وإشارة . وكذلك يزجى السويعات القلائل التي يسمح لنفسه فيها بالراحة والاستجمام . ولم يكن الخديو فيما يرويه يصدر عن حزازة يتشفى منها بالمزاح ، بل كان ذلك فيض الفؤاد الذكى والملكة الناقدة والنفس الطروب .

وكان إسماعيل ممتلئ الصوت ، خلاب المنطق . وكان رشيق العبارة يخلع على معانيه حتى الطروق منها حسناً علك القلوب ويسترق الأفهام . وهو يجيد الفرنسية وبها أكثر حديثه . وقد حدثنا من استقبلهم من الكتاب الفرنسيين أنه قد يتلكأ بادئ الأمر وكأنما لا يسعفه اللفظ ، حتى إذا نشط وهزته من الحديث شجونه ، وبخاصة إذا تناول غرضاً من الأغراض التي لها موضع في نفسه ، فإنه لا يلبث أن يفيض في بيانه ويتدفق الكلام تدفق اليعبوب على لسانه . والمسائل التي رددها كثيرة وخطيرة : منها قلة الأيدى العاملة وكيفية الاعتياض منها في بلد يستورد الفحم بالثمن الباهظ ؟ السبب في بخس قيمة القمح المصرى في الأسواق الأوربية ؟ ومن أين تأتى تلك الحرافة في الطعم وهذه الرائحة المسكة التي له ؟ وهل مرجع هذا العيب إلى طريقة الفلاحين في الدراس ، أو هي طبيعة التربة التي لا فوسفات فيها ؟ وهل يصلح لنا استيراد الأسمدة ، وما أصلح أنواعها ؟ كذلك الآفات التي تفتك بالقطن والسبيل إلى علاجها ؟ ثم محصول قصب السكر فإنه جيد وفير ، ولكن السكر المستخرج منه لا يعدو أنه متوسط ، فكيف تعليل ذلك ؟ وهلا يوجد في أوربة أو غيرها زراعات يصح في مصر اقتباسها ويرجى من ورائها الخير والربح ؟ وما العلاج لهذا الانحطاط في صفات الحيوان ، وهذا الفساد المتطرق إلى النبات ؟ وهل ما يطعمه الأهالى واف بصلاح بنيتهم وجبر قوتهم ؟ وما هو نصيب المساوئ الحكومية في فقر الأمة وسوء الحال ؟

بهذا الاهتمام الحق وهذه الصراحة النادرة كان يتحدث إسماعيل . فهو عليم كل العلم بما هو واقع . بل إن نظره كان يمتد إلى ما وراء الواقع الحاضر ، فتراه يقول وهو يطمئن المسيو دى ليسبس على حسن نيته نحو مشروعه : « إنى يا مسيو دى ليسبس لا أكون خليقاً بولاية مصر إن لم أكن أشد منك تعصباً لإنجاز قناة السويس ، ولكن همى أن تكون القناة لمصر ، لا مصر للقناة » .

وكان الخديو إسماعيل يشفع كلامه بابتسامة من ابتساماته المشرقة ، فتلين أمامه الطباع ، وترتفع له حجاب الأسماع ، فاذا ما يقوله يدخل الآذان بلا استئذان ، ويفعل في الألباب فعل السحر .

وإلى هذا رقة حاشية وظرف شمائل وأدب جم . وهذه الصفات المأنوسة يلمسها كل من لاقاه أول ما يلقاه . ويبلغ من أثرها أنك لا تقرأ لكاتب من زوار مصر الأجانب تعرض لوصف الخديو إلا ضمنها ذلك مهما أوجز كلامه وغالب افتتانه .

والآن ندخل في غمرة أخرى من فيض ذلك السحر ، غمرة ذاهبة الغور لم تقف عند ساحل : وهى كرم الخديو إسماعيل وخطل يديه بالنوال وكثرة بذله الأموال .

والعجيب أن الأمير إسماعيل قبل ولايته العرش كان إلى ما عرف عنه من الجد فى مزاولة الأعمال معروفاً بالحرص فى تدبير المال والقصد فى الانفاق ، وكان من أثر هذا فى إدارة شئون أملاكه وحسن القيام عليها أن جاءت أطيانه فى الصعيد بضعف محصولها من قصب السكر ، كما زاد معمل السكر الذى أنشأه عنـدها فى توفير الأرباح ، فعظمت بذلك ثروته ، فاذا الذى تراه جعل الأمير المقتصد والياً معطاءً كثير البذل ؟

إن هذا العجب لا يلبث أن يبطل ، حين نذكر أن إسماعيل كان خاف صدق لجده العظيم محمد على ، ينزع نزعته ويصدر من عزيمته فى طلب العظمة للملك . فتراه منذ اليوم الأول من ولايته يعمل على أن يضفى على مصر مخايل العظمة ، لا يعرف فى ذلك أناة ولا صبراً . وإذا كان جده قد أراد الاستقلال بملكه وتوسيع رقعته بحد السيف عنوةً ، فحرمته من ثمرة انتصاره الدولُ الأوروبية ، فان حفيده إسماعيل يسعى سعيه ويعالج مطلبه ، ولكنه يفعل ذلك لا بقوة السيف هذه المرة بل بسلطان المال .

فهذا هو يبذل المال ذات اليمين جملاً من الذهب عظيمة ، وهدايا فاخرة ، وأعلاقاً نفيسة ، للخليفة العثمانى وللصدر الأعظم والوزراء ورجال المابين وموظفى الديوان ، ليحصل من الباب العالى على مقومات الاستقلال من ألقاب وحقوق وراثة وغيرها للثغور والأصقاع اللازمة .

ثم هو يبذل مثل هذا ذات الشمال ليكسب عطف الدول الأوروبية . وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام معرض باريس الدولى عام ١٨٦٧ . فقد زاره فيمن زاره من ذوى التيجان إمبراطورا الروسيا والنمسا ، وملكا روسيا وإيطاليا ، والسلطان العثمانى خليفة الاسلام ، وولى عهد الإمبراطورية البريطانية ، وغيرهم من الأمراء والأقيال . ومع هذا فلم تقم الصحف الباريزية لواحد من هؤلاء بمثل الحفاوة التى استقبلت بها خديو مصر ، فقد صدحت جميعها بالتهليل له والهتاف باسمه ، وفاضت أعمدتها بالتعريف به والاطناب فى وصفه ، والاشادة بمساعيه وإظهار محامده . ولقد أظهر إسماعيل من سمة البذل والبذخ فى هذه الزيارة ما أحله فى المنزلة الرفيعة بين ملوك أوربة ، وما جعل أهل الغرب يتمثلون منه فى رأى العين وحقيقة الواقع سلطاناً من سلاطين الشرق الذين قرءوا عنهم فى أساطير « ألف ليلة وليلة » .

فلما انتهى العمل فى حفر قناة السويس ، ولم يبق إلا الاحتفال بفتحها ، وقرر الخديو السفر لدعوة الملوك ، كان استقباله فى كل بلاط استقبال ملك عظيم بالغاً غاية الرعاية والتكريم . وتعمد الخديو ألا يقصد تركيا قبل الجميع ، كما تجنب فى العواصم التى زارها مقابلة السفراء العثمانيين ، حتى يتقرر فى الأذهان أنه سيد أمره لا تابع لمتبوع .

وفى حفلة افتتاح القناة ، ضرب إسماعيل المثال الذى ليس قبله ولا بعده مثال ، على حبه الشرق للعظمة ، وارتخاصه فى سبيلها كل نفيس وغال ، وفرط اعتماده على استمالة أوربة بمظاهر الكرم والحفاوة . ففعل ما يخطر وما لا يخطر فى بال ، وأقام فى لحظة من الزمن كل ما يرد على الوهم ويعلق به الخيال ، حتى سحر الوافدين من بلاد الغرب ذات الشوكة والثروة والسلطان الواسع ، وأخذ منهم بالألباب وأدخل عليهم الابتهاج . وحسب إسماعيل شاهداً على حفاوته أن هتفت إمبراطورة فرنسا الجميلة : « إستقبالٌ رائع ! لم أر فى حياتى حفاوة أجمل من هذه ! » .

وإذا كان إسماعيل قد أنفق فى زيارته لمعرض باريس بضعة ملايين من الفرنكات واستحدث بعض الديون ، فانه تكلف أضعاف ذلك فى توفير أسباب البهجة والأبهة فى حفلات القناة وما اتصل بها من مظاهر ومنشئات . ولقد بسط الخديو رواق ضيافته إلى ألوف من الضيوف ليسوا كلهم من الأعلام المتازين ، أياماً عدة يقضونها فى مصر على نفقته ، ويشمل ذلك تذاكر قدومهم وإيابهم فى

الدرجة الأولى ، ومقامهم وطعامهم وأجور خدمهم وانتقالهم مزودين بالأدلاء والتراجمة للتفرج على المدن والآثار في السكك الحديدية وفي البواخر النيلية ؛ وبالجملة لم يكن لهذه الألوف أن ينفقوا من حر مالهم قلساً واحداً من يوم يغادرون بلادهم إلى يوم يعودون .

ولقد وفق الخديو بسحر كرمه وبذله الأموال إلى تحقيق حلمه بالاستقلال — وإن تكن قد شاءت المقادير والديون أن يخرج من سيطرة الباب العالي إلى الوقوع من الدول الغربية تحت سيطرتها المالية ثم السياسية .

على أنه مهما قيل في تعليل « سحر إسماعيل » ، فإنه يبقى في آخر الأمر بقية بغير تعليل ، وذلك ما يسمونه « الجاذبية » و « قوة المغنطيسية » .

ولقد كان المتصلون به يحاورون ، ويخجلون من أنفسهم أحياناً ، حين يجدون أنهم ينسون معه ما قدموا من أجله ، ويذهلون عما ينتوه من نية واعتزموه من أمر ؛ فهم لا يملكون في حضرته إلا أن يتجددوا له وينحازوا لرأيه .

ومما روى في ذلك ، أن أحد القناصل كان إذا قابل الخديو في أمر من الأمور انتهى بأن يوافقه على كل ما يقول ، فإذا خرج من عنده وخلا بنفسه ليكتب إلى حكومته قدح فيه وأساء القول في حقه . وكان الخديو إسماعيل يردد متعجباً : لماذا يقول الشيء في وجهي ، ويقول غيره من ورائي ؟

فسأله سائل : أثم تكلموه سموكم في ذلك ؟

فضحك إسماعيل :

« أي والله ! عشرين مرة ! وهو يقول في كل مرة إنه أخطأ في كتابة الرسالة ، وسيعقبها بما يصلحها في الرسالة التالية ، وفي التالية يزيد الطين بلة . فماذا تراني أعمل ؛ أتراني أكون حاضراً أيضاً وقت كتابة رسائله ؟ »

وكان عزاء الواحد من هؤلاء أنه يرى غيره يتورط في ذات الورطة ويقع في عين الحيرة . فلا جرم يعذر ضعفه ويطيب نفسه علمه أنه ليس المسحور وحده . ولا غضاضة ما دام المسحورون بإسماعيل كثيرين .

* * *

وجملة القول في الخديو إسماعيل أنه كان من أقدر الرجال وأعلام همة ، شديد التعلق بالحضارة الغربية ، متوقد الروح بالطموح المأثور من جد الأسرة المحمدية . ومهما قال القائلون له أو عليه ، فإنه كان مستولياً على أمده ، متقدماً على زمنه ، وإن مصر الحديثة مدينة له بمعظم ما فيها من معالم المدنية .

عبد الرحمن صدقي

محكمة أبو قرقاص الأهلية

إعلان بيع عقار

إنه في يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤١ الساعة ٨ ونصف أفرنكي صباحاً وما بعدها بسراي المحكمة سيباع بالمزاد العلني ٤ ط شيوعاً في ٢٢ س و ١٤ ط و ١ ف حسب المبين بالعريضة أطيان زراعية كائنة بزمام ناحية البرجا مركز أبو قرقاص مديرية المنيا بحوض تركة الحاج سليمان نمرة ١٨ شس ٨ حدها البحري طريق الشمال عمومي بطول ١٠ قصبة والقبلي بعضه سكة زراعية وبعضه مسقة فاصلة القطعة نمرة ١٠ بحوضه بطول $\frac{3}{4}$ ٣٨ قصبة والغربي بعضه فاصل القطعة نمرة ٩ بحوضه وبعضه فرع احمد بحسريه بطول $\frac{3}{4}$ ٤٦ قصبة والشرقي ناحية بني عبيد بطول $\frac{3}{4}$ ٢١ قصبة ملك سليمان محمد حسن من البرجا مركز أبو قرقاص : —

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٠ في القضية رقم ٢١٢٨ سنة ١٩٤٠ ومسجل بقلم كتاب محكمة المنيا الكلية في ٣٠ منه ٦٣١ وفاء لمبلغ ١١ جنيه و ٩٦٠ مليم والمصاريف وما يستجد منها حتى تمام السداد وذلك بثمن أساسي قدره ١٠ جنيه و ٤٨٦ مليم بعد تنقيص خمس الثمن بجلسة ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤١ : —

وهذا البيع بطلب حضرة دكروري افندي احمد دكروري من ذوي الأملاك بعتوت بتوكيل الأستاذ عبد الباقي دكروري المحامي بالمنيا وشروط البيع وحكم المديونية وباقي الأوراق مودعة بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها

فعلى راغب الشراء الحضور للمزايدة والمشترى

كاتب البيوع

سانحات — خواطر :

في سجن الوحدة

ما أقسى حياة السجين ! إنه يشرف على الحرية من خلال قضبان من حديد ، وقد انقبضت عليها يداه فلا سبيل إلى انتثائها والتوائها . . . إنه يعيش وحيداً يقضي سحابة يومه عاملا تحت حر القيظ أو زمهرير البرد ، ثم يعود وفي نفسه من الثورة والتمرد ما لو وُزّع على الأنام جميعاً لكفاهم وفاض ، ثم إذا به يقضي الليل كله وحيداً إلا من خياله ، فيذكر أول ما يذكر زوجه وبنيه فيشعر بحنين يدفع بالدموع إلى عينيه ، ثم يتدرج به هذا الحنين شيئاً فشيئاً إلى البكاء . . . حتى ذلك المخلوق الذي يقتل دون أن يختلج في عينيه هدب أو ينبض في جسده عرق ، يكون أمام ذكرى بنيه كالطفل الرضيع لا حول له ولا قوة . . . ذلك الثائر القاسي الذي لا تحرك قلبه صرخات فريسة تعاني العذاب ، يبكي إذا ما تناهى إلى سمعه بكاء طفل له ، فإنه على ما به من قسوة وجمود عاطفة لم يتجرد بعد من حنان الأبوة وحدبها .

ما أقسى حياة السجين حينما تمس أذنيه ضحكات العالم ويخالط أفكاره عجيج الحياة وصخبها ! هذا العجيج وذلك الصخب هما عنده أحلى وأعذب من موسيقى حلوة رائعة ! لأنهما يذكرانه بأن هناك وراء هذه الجدران المحكمة والنوافذ المغلقة ، وراء هذا البؤس والشقاء ، دنيا حافلة بالنضرة والنعيم ، فياضة بالمنى ، زاخرة بالأماني والآمال ! ! هذا العجيج وذلك الصخب يبعثان في نفسه الميتة الأمل في آخر حدود قوته فتتشبث أنفاسه الضيقة بخيوط الحياة الواهية في قوة وعزم !

ولكن مالي والسجين ؟ وما له كان أول ما خطر ببالي هذا الصباح ؟ ذاك لأن حياتي كحياته ، غير أن حياته لا يتخللها الخداع والمراآة ، فكل الناس يعلم أنه شقي بائس ، وكل الناس يعلم أنه سجين تعس . أما أنا فحتم على أن أبدو كمن يحمل هناء العالم كله ولا نصيب لي منه . . . قد ضجر البدر ومل نجواي وضجت النجوم من طول شكواي . ووالله إن حياتي لأشق من حياة السجين ، لأني ولم أقترف إثماً ولا جريرة ، حرمت ضوء النهار وأشعة الشمس ، فلا أراها إلا من خلال قضبان كقضبان السجن . فوا خالقي إني لأحسد ذلك البائس الذي لا يكاد قميصه المهلهل يستر جسده ، أحسد تمتعه بالحياة على النحو الذي يريده . هو ينطلق في طريقه هائماً على وجهه يفترش الأرض ويلتحف السماء . . . هو أول ما يتلقى قبلة الشمس عند بزوغها وآخر من يسعى لوداعها . . . هو يتنسم هواءً طلقاً غير محصور ، بينما نحن توصد من دونه الأبواب . . . فما الذي يشكوه إذاً ؟ الجوع ؟ ولِمَ يجوع ؟ وأمامه الأشجار يقتطف من ثمارها الدانية ما يمسك عليه رمقه ، أمامه الكون الساحر يملأ منه عينيه . إنه يأخذ من الحياة اللب ، بينما نحن نحتفظ منها بالقشور . ما أجمل لفظ الحرية ! وما أحلى وقعه على النفس ! ! أي الطيور يروقنا منظره أكثر : أهذه الحبيسة في الأقفاص أم تلك الطليقة في السماء ؟ أي الورود أطول عمراً وأشد تأثيراً وسحراً : أهذه المرصوصة في الأواني أم تلك التي يحتلّ بها الفضاء ؟

أنا وحيدة ، وقلبي وحيد لا يكاد يصبو إلى ما تصبو إليه قلوب الناس عادة ، حتى يصطدم بالحقائق فينكمش ، وتقصيه كبرياء النفس عن متع الحياة وملاذ العيش .

إنه يعيش في عالم موبوء مثقل بالخطايا والآثام ! . . إنه يعيش في عالم قوامه الكذب والرياء والخداع ! . . إنه يعيش في عالم ما كان له أن يعيش فيه لولا آدم وحواء . . .

أنا أريد أن أنسى كل هذا لكي أستطيع أن أعيش ، فكيف السبيل إلى هذا النسيان ؟ وكيف أطمع في رحمة الأيام وقلبي لا يرحمني ؟ إنه يتمرد عليّ ، ويطالبني بحقه في هذه الحياة . . . إنه قد سئم الأوجاع والأسقام . . . سئم

الأحزان والآلام ... سئم الوحدة وراح يناضل فى ميدان الحياة ... ولكنه وا أسفاه ! كان غافلا ثم عاد فاصطدم بالحقيقة فجأة . لقد شاب مع الزمن !! تنكر للهوى وما عرفه قط أبداً ، ولا مسه سحره العجيب . ولقد قالوا : إن الحب عاطفة تسعد وتشقى ، وتعطى وتأخذ ، وإن لسهام « كيوبيد » طعنات هى طوراً رفيقة ، تمس شغاف القلب مسا ناعماً رفيقاً ، فتحمل أوتاره الثملة بخمرة الهوى إلى النفس المدلهة أسمى العواطف وأرق المشاعر وأعذب الآمال . وهى تارة توخزه وخزاً أليماً موجعاً ، وتضربه فى مقتل منه ضربات قاسيات قاتلات ، فتتقد فى النفس جذوة اليأس مختلطة بحمى الحرمان ، ويندلع منها لهيب الرغبة ... واليأس والحرمان والرغبة عوامل إذا اتحدت أرهقت النفوس ، وقضت عليها القضاء المبرم . ولكن : أين نحن من الحب ؟ إن الحب لا ينبت إلا فى مراتعه ، حيث الحقول الناضرة ، والفضاء الوسيع ، وحيث الطبيعة الرائعة تهيج فى النفوس الفتية عواطف الشباب الثائرة . هنالك فى ظلال وارفة ، أو على حافة غدير زلال ، تتفتح القلوب الصغيرة الساذجة لأحلى عاطفة وأعذب حديث ، وتخفق الأفئدة الغضة الصافية ، وتشرق الوجوه الناضرة الباسمة ، وتضطرم النفوس البريئة الوادعة ، لأول لفظ من ألفاظ الهوى العذرى يهمس به فتى أو فتاة ، وهما متقاربان كتباعدين على بساط من سندس أخضر بديع ، تجوس خلاله أيديهما الصغيرة بحثته فى اضطراب حبيب ، يشغلان به نفسيهما عن كل ما فى الوجود ، يتبادلان النظر فى خجل وحياء فطرى ، فى صدريهما كلمات وكلمات وأحاديث وأحاديث ، وهما صامتان ، يقدمان فيحجمان ، ثم يخرجان من صدريهما زفرات يضطرب لها من حولها الهواء ، وترتمد من فوقهما النجوم ، فلا يقومان حتى يسمعا ترنيمة الفجر فى صياح ديك ، وربما بزوغ الشمس فى وجه الغدير ، وانشاط الصبح فى شقشقة عصفور ، فيمسيان ، هو إلى عمله فى الحقل ، وهى إلى عملها فى الكوخ الصغير ، ويقضيان النهار كله يتهيآن لحديث الليل ، ويقولان ويرددان ، هو سيقول ، وهى ستقول ؛ ثم يأتى المساء ويجلسان ، هو إليها وهى إليه ، فلا يقول ولا تقول ، وتروح أيديهما الصغيرة تجوس خلال السندس الأخضر تعبث به فى حيرة واضطراب .

هنالك فى البادية مرتع آخر من مراتع الحب ، حيث الرمال الحارة الناعمة تجرى بها الريح فتهمس همس المحبين ، وتتناغى تناغى العاشقين . . . حيث الإبل والخراف ، وأسراب الغزلان ، وحداء العذارى من الفتيات .

وراء القطيع فتى ذو قيثارة يوقع عليها توقيع الحزين ، ممشوق القد ، رائع القسمات ، على وجهه سمات من هدوء تكلفه ليقهر به عواطف الشباب المتدفقة الثائرة ؛ فى نظراته عزم وقوة ، وفى حركاته إرادة وجبروت ، يرتدى ثوباً طويلا فضفاضاً وعباءة واسعة ، وعلى رأسه قلنسوة يطفر من تحتها شعره الأسود الفاحم ، فيتناثر على جبينه الوضاء فى فوضى أخاذة ساحرة ، ومن يمينه على بعد خطوات قصار تمشى عذراء حسناء ، منكسة الرأس فى إطراقة طويلة ، تسوس الخراف بعصاها الصغيرة ، وبين الحين والحين تختلس إلى فتاها نظرة خاطفة من بين أهدابها الوطف . . . والقطيع من أمامها ينساب على نغم قيثارة الفتى ، ثاغياً فى عذوبة دونها عذوبة موسيقى الملأ كله .

هنالك يترعرع نبت الحب ، يحمل على شجيراته فى عناية ورفق أزهار الطهر والنقاء ، يغذيه عفاف العذارى ووفاء الفتيان .

هنالك ينمو الحب بين الفتى والفتاة ، فيرعيانه وليداً ، ويهدهدانه صبياً ، ويدللانه فتى يافعاً .

فى مراتعه ينمو الحب ، فأين نحن من الحب ؟ أين ؟

(س)

على هامش الأسبوع

لصاحب الإمضاء

يوم الاثنين :

في الساعة الواحدة بعد الظهر دق التليفون ، فإذا به صديق يتكلم ، يذكرني باجتماع يكون في الساعة الخامسة من ذلك اليوم .

الصديق : نعم أنا أعرف أنك لا تزال تذكر ، ولكني خشيت أن تستبعد الرجوع إلى القاهرة بعد رواحك واستقرارك .

أنا : وأنا كذلك خشيت هذا واحتطت له ، فلن أروّح اليوم ، وسأقضي ما بعد الظهر في المدينة . وعلى كل حال فاليوم يوم الاثنين ، والفول والعدس لا يستأهلان هذا الرواح الطويل ، ولا أظن عدس بيتنا خيراً من عدس المطاعم .

الصديق : أي عدس وأي فول ؟! إلينا إلينا يا رجل ، فلدينا من الدجاج نماذج كَثُر دهنها وطاب طعمها ، وهي من تنشئة أيدينا وتربية بيتنا .

أنا : ولكن الدجاج قد حُرّم اليوم كاللحم تماما .

صديق : تعال أولاً ، ثم حدثني حديث الحرام والحلال على نفحتها الشهية في الأنف ، ورخاوتها الحلوة تحت الأسنان . صدقني إنها شهية لذيذة .

أنا : وهي لا شك ألذ في يوم الحرمان . ولكنها خيانة عظمى تلك التي تستهوينا إليها يا صديق .

وتضاحكنا وانقطع الحديث .

وجاء المساء ، وكان الاجتماع . وخرجت من بعده مع صديق آخر لم أكن رأيته من زمن . فقلت له : مِلْ بنا إلى مكان من أمكنة الشاي ، إلا أن تكون تحس الجوع ، فأميلُ معك إلى أحد المطاعم . فقال : ما بي من جوع ، ولكن معدتي ثقل . قلت : أنا عاذرك ، وهل أثقلُ من العدس والفول ؟ قال : قُلْ وهل أثقل من البط والحمام ؟ قلت : وكيف كان ذلك ؟ قال : أربع بطات وعشرة أزواج من الحمام بعث بها إلينا نسيبي من الريف لنستعين بها على اليوم الأول من امتناع اللحوم . قلت : وما تصنعان بالأربعة والعشرة وأنتما اثنان ؟ قال : والله ما أدري . وقد رأيت أن أدعوكم إلى الغداء معنا ، فقالت زوجتي إنها دعوةٌ إلى استهلاك ما عجزنا عن استهلاكه ، فهي ليست من الكرم في شيء ، ولا من الأدب في شيء . قلت : وأين البقية التي قدّر لها الله السلامة ؟ قال : في الثلاجة تنتظر حتفها يوم الخميس .

واليوم فقط ذكر لي صديق كريم ثالث ، أن الجزار بالقهم بعد ظهر الأربعاء برجل خروف ، ومعها رسالة : أنه إنما أرسلها لأنه لن يبيع اللحم غداً ، ولأن دكاكين الجزارين ستكون كلها مُغلقة .

ليس فيمن ذكرت من إخوان نقص في ثقافة ، ولا قصور في ذكاء ، ولا ريبة في وطنية . وليس فيهم نهم ، وليس فيهم كَلَب ، وليس فيهم تزاحم إذا مُدّت الموائد وكُشفت الصحاف ، وأخذت مباهجُها بالعيون وروائحُها بالأنوف . وليسوا هم فيما صنعوا إلا ككثير غيرهم ممن لم أذكر . وإن فيمن أغفلت لقوما كثيرين لو أن الفرص أتاحت لهم ما أتاحت لإخواننا الأولين لتركوا الخير القادم يمر إلى بيوتهم على إغماضة من عين ترى وكأنها لا ترى . حتى إذا جاءهم في الصحون ، فذلك الأمرُ الواقع الذي لا مفرّ منه ولا مندوحة عنه .

ليت شعري كيف جاءنا هذا الجمود الخلقي وقلة الاكتراث بالأوامر والنواهي إذا هي اتصلت بالنظام العام ؟

في زمان مضى كان الجمهور يركب الترام وهو كارهٌ لأربابه . وكان في الكمسارية تذمّر من هؤلاء الأرباب ،

أولاً لأنهم كانوا ينتقصون أجورهم انتقاصاً شائناً ، وثانياً لأنهم كانوا يستعينون عليهم برؤساء ليسوا من أوطانهم تخلت قلوبهم من رحمة ذوى الأوطان . وبلغ هذا التذمر فيهم حد الغضب ، فشايعهم الناس . وزاد فى تشيعهم عطفهم أن القرش الذى يدفعونه يخرج أكثره وراء الحدود . فكان الرجل الراكب يتعمد أن ينقد الكمسارى قرشه ، ولا يأخذ تذكرته ، وهو مطمئن لما يفعل ، متيقظ تماماً للذى يفعل ، ويفعل هذا جهاراً على ابتسامة الجار الراكب ، وهى ابتسامة التشجيع والرضا .

فاذا وقعت الواقعة وانكشف أمر هذا المفتش فأراد أن يضبط المتلبس أخذته الجمهور إثخاناً يتعلم من بعده أن الحلم سيد الأخلاق . ثم كان أن نال العمال مطالبهم من الأجور ، وأبدل رؤساؤهم برؤساء من أهلهم وعشيرتهم ، فاستقامت الأمور ، ورجع الجمهور عن تلك الوصمة التى اتصم بها الخُلُق العام زماناً ، وأصبح الراكب يحس أنه يدفع القرش طوعاً ويأخذ التذكرة فرضاً ، لعلمه أن المال صائر أكثره إلى غذاء هذا الذى يسوق وهذا الذى يزمر وإلى من فوقهم من رقباء ، ثم مشاهم فى السحنة واللسان .

ولم تكن ثورة الناس على الترام وأربابه فى ذلك الزمان الغابر إلا مظهراً من ثورة عامة مكظومة فى قلوب الناس على كل شىء عام ، استحلوا معها أموراً كثيرة ما كان ليستحلها رجل مدنى فى بيئة مدنية حياتها متصلة بالنظام وركائزها مربوط بالقوانين .

وإنى لأحس خشية أن يكون المزاج العام الذى أوحى إلى الجمهور أن يتنكب الصواب فى أمر الترام فى ذلك الزمان ، هو نفس المزاج الذى أورثه هذا التفريط فى أمر اللحوم وأشباه اللحوم فى هذا الزمن الحاضر ، على اختلاف المثلين وتباين الظرفين . ولست أقول إن هناك ثورة ، أو حتى إن هناك ميلاً قليلاً للثورة . ولكن هناك سخط تام ، وقرف عام ، وفتور عام ، يجعل الناس لا يفعلون ما فيه الصالح العام إلا بقانون يبرم ، فان هو أبرم أطاعوه إطاعة المغصوب ، وأطاعوه ما ظلت الرقابة قائمة ، فان تراخت تراخى الناس . وأحسب أن كثيراً من الناس يلغ بهم السأم أنهم إذ يعصون الأوامر لا يعصونها عن عمد ، بل هم يقعون فى العصيان عن غفلة وقلة مبالاة ، فاذا نبهتهم لم يمتنوا أن يبينوا أين هم من القانون ، فاذا ناقشتهم أعطوك ما تريد حباً للنزاع وكراهة للنقاش فى موضوع كريه .

وقد تعاون على خلق هذا المزاج عوامل كثيرة ليست كلها من خلق هذه الحرب الحاضرة ، بل إن أصول هذه العوامل يمتد أكثرها إلى ما قبل الحرب ، إلى العقدين الماضيين ، ففيها جربت مصر أول حياة عامة لها فى عهد استقلالها . ومن المؤسف أن نقول إن ما جرى فى هاتين العشرتين من السنوات أورث الناس اليأس والقنوط .

مجلس الشيوخ :

ولسنا فى سبيل تعداد هذه العوامل ، ولكن يكفينا اليوم أن نذكر ما جرى فى مجلس الشيوخ فى الأسبوع الماضى مثلا صغيراً لما نريد ، لا يتسامى إلى كبائر الأمثال .

فالذى جرى فى هذا المجلس لا يمكن أن يزيد ما فى قلوب الناس من حب ، وإن زاد فهو لن يزيده كثيراً . مجلس كان مكوناً من أغلبية وفدية كبرى ، فعمل أولو الأمر على إنقاص هذه الأغلبية الوفدية ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً رائع النتيجة مشكوك الوسيلة . ولم يكفهم ذلك حتى عادوا ينتقصون الوفدية فى مكتب المجلس كذلك . ولسنا ندرى ماذا جرى بالكمال والتمام ، ولكنا ندرى أن مناورات جرت لا تمت إلى الحياة الديمقراطية الصريحة فى شىء ، انسحب بسببها الوفديون فأرجئ اجتماع المجلس

أسبوعاً . فأمثال هذه الحوادث تُذاع في الأمة وتنتشر بين الناس ، فلا تنشر بينهم إلا نوعاً من السخط اليابس ، وإلا نوعاً من الابتسام لا يحمده مثيروه . ومثل هذا الخصام لا يمكن أن يزيد في استقرار الحياة النيابية في قلوب الناس ، لا سيما إذا هو صدر من مجلس تتمثل فيه عقول الأمة الراجحة وحنكتها التي صقلتها السنون .

إن الناس يعرفون ، والحكومة تعرف ، والنواب والشيوخ يعرفون ، أن الأغلبية الكبرى في البلد الآن وفدية لا محالة ، فما هذا النزاع في داخل مجلس الشيوخ على منصب أو منصبين للوفديين يتألف بقبولهما مكتب لا يمكن أن يؤثر في سير مجلس أ كثريته لغير الوفديين ؟ إن الحنكة السياسية تقضي بأن لا يثار هذا الخلاف ، لأن في إثارته إثارة لمعنى التمثيل كله ، وهي إثارة تخسر فيها الأوضاع القائمة خسراناً مبيناً .

لقد كان خيراً للروح الديمقراطية أن يقال للوفديين صراحة : أنتم تمثلون الأغلبية ، ولكنا لا نريد الأغلبية لكيت وكيت . إذاً لوقع هذا من الناس موقع الصراحة الألمية ، وهي أشق لنفوسهم من المظاهر الزائفة والمداورة المقيمة .

حزب الأحرار :

كذلك ليس مما يزيد في احترام الأحزاب هذا الذي نسمع أنه يجري اليوم في حزب الأحرار الدستوريين . فرئيسهم رجل له مكانة غير مشكوك فيها ، وله تاريخ مجيد لا يُنسى ، ولكنه مريض ، وقد استقال لمرضه ، واحتفظ به الحزب شهوراً رغم إلحاحه في استقالته . والسبب الظاهر في هذا الالحاح أنهم يعتزون برئيسهم فلا يريدون أن يتركوه ، ولكن السبب الباطن في هذا الالحاح أن الخلاف واقع بينهم على من يخلفه . ثم ظهرت استقالات واختلافات دلت على أن الأشخاص في الأحزاب هم كل شيء ، فهؤلاء المكان الأول ، والمبادئ — إن تكن هناك مبادئ مرسومة — المكان الثاني .

إن المعروف أن الأشخاص في الأحزاب هم الذين يلدون المبادئ ، ويفسرون المبادئ ، ويطبقون المبادئ ، ولا ينسون في كل هذا مصالحهم ، ولا يفترون يربطون هذه المبادئ بمستقبلهم ، فان أثقلته هذه المبادئ خففوا عنه بقطع الحبل الذي يربطه بها . كلنا يعرف هذا . وكل متصل بحزب يدرك هذا . ولكن ليس من الصالح العام نشر هذا في الناس . فالناس لا بد أن يتعلموا أن السيطرة للمبادئ ، وأن الحزب إذا تحرك فانما يتحرك للمبادئ وبالمبادئ ، وأنه إذا قدّمت أشخاص ، فهي لا تقدّم للحمها وشحمها ، ولكن للمبادئ التي تقمصتها فبهرت بنورها الروحي ظلمة اللحم والعظام . هذا ماتقضي الحكمة السياسية أن يتلقنه الناس ، فعندئذ يسلس قيادهم ، ويسهل صعبهم ، ويلين جامدهم ، وتكثر ضحاياهم على مذابح الأوطان .

لقد كان لحزب الأحرار غناء عن كل هذا الذي جرى . كان في وسعهم أن يتدبروا أمرهم بالحكمة ، فلا يتمهلوا ، ولا يتريثوا ، ولا يطاولوا فيه الزمن فيخرج حتى يصير مُضغة في أفواه الناس . كان في وسعهم أن يواجهوا الأزمة منذ مات رئيسهم الأول ، ويفرّجوها في وقتها وعند إبّانها ، فما كان من تفريجها أن يلتجئوا إلى رجل جليل ، ولكنه شيخ عليل ، لا يمكن أن تضطلع أ كتافه الضيقة بأحمال السياسة في هذا العصر الحديث العنيف . ولقد رأى كل بصير بالسياسة عندئذ أن حزب الأحرار لم يرد بترئيسه هذا الشيخ النابه إلا تفادياً لاصطدام لم يكن عنه مندوحة . فهم كسبوا بهذا وقتاً أحْرِ به أن يكون خسارة ؛ فالعقدة التي كانت غير محبوكة زادها الزمن احبا كا ، وزادها الشدّ انعقاداً ، فلم يبق إلا قطعها . وسبيل القطع واضحة بيّنة إذا

الزهرة الباكية

أهذى دموعُ الطلِّ ، أم هاجكِ الهوى
فأنتِ لفقدِ الإلفِ تبكينَ من وجدِ ؟
فديتكِ ، لولا الزَّهرُ ما اشتاقَ عاشقٌ
ولا ذاقَ ما يُدمى الجفونَ من السهد
هو الحبُّ فى دنيا منَ الفنِّ غضةٍ
تهيمُ بما تخفى من الحسنِ ، أو تُبدى
تطـيرُ بها الأرواحُ فوضى ، وإنما
تطـيرُ وراء الدَّهرِ فى عالمِ الخلد
سمعتكِ إذ مرَّ النسـيمُ مُسلِّماً
تقولينَ : مَن أغراكَ بالهجرِ والصدِّ ؟
وأبصرتُ منكِ الدَّمعَ ، ينظمه الأسى
فينظمُ عَلَى سِمطٍ ، وعِقـدٌ عَلَى عِقد
عذرتُكِ ، ما بُعْـدُ الأليفِ بهيِّنٍ
وإنى رأيتُ الموتَ مُتَّقًى منَ البُعْد
خُذى من دُمُوعى ما استطعتِ ، فإنَّ بى
رَسِيسَ هوًى يزدادُ وَقْدًا عَلَى وَقْد
كِلانا مُصابٌ ، غـيرَ أنِّى إذا الهوى
ألحَّ عَلَى المحزون ، واسْتَنْبَتُّهُ جُهدى
سأجعلُ أنفاسَ النسـيمِ رسالةً
تزيدكِ يا ليـلاىَ وُدًّا عَلَى وُدِّ
إذا ما سَرَى يُهـدى إليكِ تحيتى
فمن عبق الريحان ، أو نضرة الورد
ليعـلمَ أنى قد وَفيتُ على النوى
بما لكِ عندى من ذمامٍ ، ومن عهد

***

أعندكِ يا (ليـلاى) من لاعج الجوى
ومن لوعة الشـوق المبرِّحِ ما عندى ؟
أتبكينَ مثلى ؟! لا — دعينى : فإننى
رضيتُ بأن ألقى صُرُوفَ الهوى وحدى
بربِّكِ ما هذا الجمـالُ الذى أرى
أليسَ لهُ فيما ترى العينُ منْ حدِّ ؟
معانيه تـستعصى للدى ، وفنونُهُ
أوابدُ ، تستعصى على (الشاعرِ الفرد)
أحبُّكِ ، فازدادى على الدَّهرِ بهجةً
وزيدى (نبىَّ الشعرِ) مجداً على مجد

أحمد محرم

تخلصت النبات وذكر الوطن ساعة من الزمان . فليس بين الأحرار كثير يخال الناسُ فيهم مخايل الرآسة . والرآسة لا تكون بالسن . ولا تكون بهذا النظام الذى يتقدم الوزراء على مقتضاه إلى المآدب وفى الاحتفالات . والرئيس لا بد أن يكون ذا ثقافة عالية ، وذا ماض نظيف ، ورأى حصيف ، وذا بديهة حاضرة ، ولا بد أن يكون ذا خلق كريم ، وله قسط من الحب عند الناس . وبهذا يضيق الجبار ، فلا يكون إلا بين اثنين . فإذا قلنا إنه يُشترط كذلك فى الرئيس أن يكون ذا قلم سيال ولسان ذرب جوال ، انتفى الشك ووضح اليقين . ثم للزمن بعد هذا أن ينسج حول رأس الرئيس العتيد تلك الهالة التى تتأطر بها رءوس الزعماء .

(ز)

أنباء وآراء

جماعة تيسير الحج

بعثت إلينا الجماعة بواسطة وكيلها الأستاذ محمد الشافعي المدرس أنها على استعداد لارشاد من يريدون الحج إلى بيت الله الحرام في كل ما يتطلبه الحج من حاجات السفر والانتقال ، وزيارة المواضع الهامة في البقاع الطاهرة .

وقد خصصت لذلك يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع فيما بين الساعة الرابعة والسادسة مساء عقرها بشارع رفعت رقم ٣٧ بشبرا مصر .

فعلى من يهمهم هذا التطوع الديني الاتجاه إلى الجماعة .

الشرق بعد الحرب

في مقال نشرته مجلة اليكتشر زبوست عن التطورات المنتظرة بعد الحرب الحاضرة يعرض الكاتب لموقف الشرق من الحرب ، وما يمكن تحقيقه من آماله لو انتصرت الديمقراطية ؛ وهو في ذلك لا يخرج عما رددته أقلام الكتاب منذ قيام هذه الحرب ؛ إنما الجديد في هذا المقال هو ما يصرح به الكاتب من وجوب وصول الأمم الشرقية بنفسها إلى الوضع الذي ترضاه لنفسها بعد الحرب ، فهو يقول : « إن الديمقراطية تدرك عن يقين مدى ما تفيده من صلات وثيقة مع الشرق المتحد الموحد الاهداف ، والعالم بثقافتيه الشرقية والغربية يستطيع أن يخطو نحو السلام وخير الانسانية أكثر مما يستطيع الغرب وحده والشرق وحده السير كل منهما نحو هدف وإن كان واحداً .

ولئن كان الكاتب لم يشر بالذات إلى الوحدة العربية أو الحلف العربي ، فهو بلا شك يشير إلى أهمية هذه الوحدة حين يتحدث عن الشرق المتحد . ولعل في حديثه ما يقطع بأهمية البحث في مدى الحلف أو الوحدة ، وفي الأسس التي يجب أن تقوم عليها هذه الوحدة إن كان من الرأي أن تقوم .

قيصر والصحافة

احتفل العالم فى العام الماضى بمرور خمسمائة عام على اختراع الطباعة ، فأقيمت فى انجلترا وأمريكا بضعة معارض لفن الطباعة كان أهمها معرض نيويورك لما احتواه من عرض لخطوات الطباعة إلى اليوم .

وقد كتب الأستاذ إيجون لارسون أخيراً فى إحدى المجلات الانجليزية يطلب إلى العالم أن يحتفل بمرور ألفى عام على أول صحيفة وأول صحفى فى العالم ، ويقصد بذلك يوليوس قيصر ، فيقول : « قد يبدو ذلك مجافياً للمنطق ولكنه حقيقة تاريخية ، فقد كان يوليوس قيصر أول من أنشأ صحيفة ، وقد كشفت أعمال التنقيب فى أوستيا أنتيكا ، ميناء روما القديمة ، عن بضعة أقراص ولوحات هى أجزاء من صحيفة أنباء الدولة التى كان يصدرها قيصر ، ويرجع عهدها بالضبط إلى عام ٥٩ قبل الميلاد ، أى منذ ألفى عام تماماً .

أما محرر هذه الصحيفة فقد كان قيصر نفسه ، وكان ينشر منها طبعتان : الأولى هى Acta Senatus أو تقارير البرلمان ، والثانية هى Act Diurna أو الأنباء اليومية ثم أضيفت إليها طبعة ثالثة هى Annales Maximi أو الأخبار الدينية ، وكان يحررها رجال الدين .

ويقول المستر لارسون إن الرومانيين كانوا يجدون فى هذه الصحيفة مثل ما يجده القراء اليوم ، فهى تحوى أنباء الحوادث الحربية والسياسية وأنباء محلية وتقارير عن الطقس والمجتمع ، وقصصاً بوليسية وقضائية ، وحوادث وطرائف ! ! !

وكان الرومانيون يعنون كل صباح بمطالعة هذه الصحيفة وهى معلقة على الجدران ؛ وبمرور الأيام زادت الحاجة إلى صحيفة أخرى ، حتى كان أول صحفى من الشعب عرفه العالم رجل يدعى سالوست ، أنشأ صحيفة على غرار صحيفة قيصر ، قد يدهش القارئ إذا عرف أنه كان يطبع منها بضعة آلاف من النسخ كل أربعاء ، يقوم بنقلها إلى أنحاء الامبراطورية عماله ، وقد نشأت نتيجة ذلك لأول مرة فى التاريخ مهنة جديدة هى العمل الصحفى .

مقتبسة عن « بازاد »

محكمة ملوى الأهلية

إعلان بيع عقار فى القضية نمرة ٣٨٣٢ سنة ١٩٣٨

إنه فى يوم السبت ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤١ — ٢ ذو الحجة سنة ١٣٦٠ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بأودة المزايدات بسراى المحكمة .

سيباع بطريق المزاد العلنى العقار الآتى بيانه ملك عليه إسماعيل حمد من تنده . وهذا العقار كائن بناحية تنده مركز ملوى مديرية أسيوط .

س متر

٨١ ١١٩ بدائر الناحية نمرة ٣٠ ضمن ٢٣ بزمام تنده مركز ملوى عبارة عن حصة قدرها الثلث مشاع فى منزل مساحته ٤٥ س و ٣٠٩ متر وحدودها كالآتى :

الحد البحرى جاب الله مبارك ضمن القطعة بطول ٣٠ س و ٢٣ متر والغربى بعضه حارة بطول ٥٠ س و ٢ متر وبعضه ورثة على جاب الله ضمن القطعة نمرة ٢٣ بطول ٢٠ س و ١٣ متر والقبلى عبد الحليم موسى وآخرين ضمن القطعة نمرة ٢٣ بطول ٥٠ س و ٢٠ متر والشرقى حارة ضمن القطعة نمرة ٢٣ بحوضه بطول ٦٠ س و ١٦ متر .

س متر

٨١ ١١٩ الجملة فقط مائة وتسعة عشر متراً مربعاً وواحد وثمانين ديسمتر مربعة لا غير

وهذا البيع بناء على طلب الحكومة المصرية النائب عنها حضرة صاحب العزة مدير أسيوط المتخذ له محلا مختاراً قسم قضايا وزارة المالية بشارع الدواوين بالقاهرة .

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٩ ومسجل بقلم كتاب محكمة المنيا الابتدائية الأهلية فى أول يناير سنة ١٩٤٠ تحت نمرة ١٢٩ وفاء لمبلغ ٤٠٧ مليم و ٢٧ جنيه سبعة وعشرين جنيها وأربعمائة وسبعة مليم وما استحد ويستجد من الفوائد والمصاريف وسيكون البيع قسما واحداً بثمن أساسى قدره ٣٩٦ مليم و ٣ جنيه بعد التبخيس الحاصل بجلسة ٧ / ٦ سنة ١٩٤١ .

وشروط البيع وباقى الأوراق مودعة بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها . فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان المحددين أعلاه للمزايدة والشراء وفقا للقانون .

كاتب البيوع

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٢٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٥٣ — الثلاثاء ١٣ من ذي القعدة سنة ١٣٦٠ — ٢ من ديسمبر سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العدد

الحرب في لوبيه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في مثل هذا الوقت من العام الماضي ، قام الجنرال ويفل بهجومه الشهير على لوبيه ، فقضى في أسابيع قلائل على جيش المارشال جراسياني — الذي كان قد بدأ غزو مصر بالفعل وتقدم حتى وصل إلى سيدي براني — واستولى على ولاية برقة كلها حتى بنغازي ؛ وظُن يومئذ أن الخطر على مصر من الغرب قد انتهى ، واتجهت الأنظار صوب الشرق ترتقب الخطر من هذه الناحية .

ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى وقعت الكارثة في شهر أبريل ، واستطاعت قوات المحور التي أعيد تنظيمها ، وعززت ببعض الفرق المدرعة الألمانية التي جازت إلى لوبية من طريق المياه التونسية ، أن تنتهز فرصة اشتغال القوات الأمبراطورية في الحملة اليونانية ، وأن تسترد برقة من الانكليز بهجوم فجائي سريع لم يحسب حسابه ، ولم يقف هجومها إلا بعد أن توغلت في الأراضي المصرية إلى ما بعد السلوم ؛ ولم يستطع الانكليز أن يحتفظوا من برقة إلا بثغر طبرق في الشمال ، وواحة جغبوب في الجنوب .

ومنذ إبريل ، والمناوشات سجال بين الفريقين على

حدود مصر الغربية ، والطائرات البريطانية تضرب مواقع الألمان والايطاليين على طول الساحل باستمرار ، وطائرات المحور ترد بالاغارة على الثغور والمدن المصرية ، وحامية طبرق محصورة تمون من البحر ، والأسطول البريطاني يتجول في مياه البحر الأبيض الوسطى يتعقب القوافل البحرية الايطالية القادمة إلى لوبية ويفتك بها ، ويعرقل بذلك تموين قوات المحور وإمدادها .

وتطورت حوادث الحرب الأوربية في تلك الأثناء تطوراً سريعاً ، فغزت الجيوش الألمانية روسيا منذ أواخر يونيه ، وتوغلت فيها مساحات شاسعة ، ولكنها لقيت من الروس أعنف مقاومة ، وصمدت الجيوش الروسية أمام موسكو ولننجراد إلى الآن ؛ بيد أنها واصلت تقهقرها في الجنوب ، حتى وصل الألمان إلى مصب نهر الدون ، وأصبحوا على أبواب القوقاز ؛ ووقعت من جهة أخرى تطورات هامة في الشرق الأوسط ، فاستولى الحلفاء على سوريا ، واحتلوا إيران ، واستطاعوا بذلك أن يفتتحوا طرقاً جديدة لامداد روسيا بمعاونة أمريكا من الجنوب ، وأن ينشئوا جبهة دفاعية متصلة من الهند إلى سوريا وفلسطين .

***

وكان من المتوقع ، مذ نشبت الحرب الألمانية الروسية أن يحاول الانكليز خلق جبهة ثانية لمقاتلة قوات المحور ؛ وقد أشار إلى ذلك الرفيق ستالين في خطابه الذي ألقاه أخيراً في عيد الثورة البلشفية ؛ ولما لم يكن من الميسور أن يكون هذا الميدان الجديد في أوربا ، فقد كانت الأنظار تتجه في ذلك إلى لوبية ، حيث تستطيع القوات البريطانية أن تتصل بقوات العدو مباشرة ؛ وكان نشاط الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط لمطاردة القوافل البحرية الايطالية ، وتكرر الغارات العنيفة من جانب الطائرات البريطانية على بنغازي وطرابلس وعلى جميع قواعد المحور في لوبية ، في المدة الأخيرة ، مما ينذر بأن الهجوم البريطاني أضحى وشيك الوقوع .

ووقع الهجوم البريطاني أخيراً ، بعد أن وضعت خططه وتفاصيله منذ أشهر ، كما صرح بذلك مستر تشرشل وأعدت له العدد الكافية من العتاد والدبابات والطائرات وكان الهجوم من المفاجأة والعنف بحيث استطاعت القوات البريطانية أن تشطر القوات الألمانية والايطالية في عدة مواضع ، وأن تحصر القسم الأكبر منها في المثلث الواقع بين سيدي عمر والبحر شرقاً ، وطبرق غرباً ؛ وأن تستولي بسرعة على حصن كابوتزو ، والبردية ، وجبوت وسيدي رزق الواقعة جنوبي طبرق على قيد أميال قليلة منها ؛ وخرجت حمية طبرق المحصورة وتقدمت أيضاً نحو الجنوب لتتصل القوات البريطانيــة الرئيسية ، وقد وقع هذا الاتصال ا ل بعد جهود عنيفة ، وتم بذلك تطويق القسم الأكبر من القوات الألمــانية ؛ وما زالت فصائل الدبابات والقوى المدرعة من الجانبين تشتبك في معركة هائلة في منطقــة سيدي رزق ، يستعر لظاها منذ بضعة أيام ، ولم تتضح نتائجها النهائية بعد . وقد فهمنا من بيان مستر تشرشل في مجلس العموم ، وكذلك من تعليقات الدوائر والصحف البريطانية ، أن الغرض من الهجوم الحالي هو قبل كل شيء القضاء على القوات الألمانية المدرعة ؛ ومن ثم كانت المعارك التي تدور رحاها بين القوات المدرعة من الجانبين ، وهي معارك يتكبد الفريقان فيها باعترافهما خسائر شديدة .

على أنه يبدو من الأنباء الأخيرة أن كفة القوات البريطانية قد أخذت في الرجحان ؛ وأن الهجوم البريطاني تشتد وطأته ويتسع مداه ، بالرغم من مقاومة الألمــان العنيفة ؛ وهنالك ما يدل على تصميم القوات البريطانية على

أن تحقق مهمتها مهما كلفها الثمن ، وهى بلا ريب فى مركز يفضل مركز العدو من وجوه كثيرة ؛ فهى على مقربة من قواعد تموينها ، ومن الممكن أن تعزز فى كل وقت ، وأن تمد بما تحتاج إليه من العتاد والوقود ، خصوصاً بعد أن فك حصار طبرق ، وأصبح من الميسور أن تستعمل قاعدة للامداد والتموين مباشرة من البحر ؛ هـذا إلى ما أثبته سـلاح الطيران البريطانى من تفوقه الحلى على قوة الطيران الألمانى التى فقدت الآن معظم قواعدها ؛ أما الألمـان فمن المتعذر عليهم أن يجلبوا إمدادات جديدة بغير طريق الجو ، وهى وسيلة قاصرة غير ناجعة خصوصاً فيما يتعلق بالقوات المدرعة ؛ والحرب الروسية تستغرق كل قوى الألمان وكل جهودهم ؛ ومتى استطاعت القوات البريطانية أن تقضى على مقاومة الألمان الحالية وهى مقاومة أخذت تخبو جذوتها فقد فتحت أمامها أبواب لوبيه كلها ، وأضحى أمر القوى الايطالية الباقية هيناً لا يقتضى كبير عناء .

* *

ومن الواضح أن نجاح الحملة اللوبية تترتب عليه نتائج هامة ، سواء من الناحيتين العسكرية والسياسية ، ولاسيما فيما يتعلق بمصر ، التى هى فى الواقع محور الصراع الحالى ؛ فقد عقدت دولتا المحور النية على غزو مصر منذ دخلت إيطاليا الحرب ، وحاولتا هـذا الغزو مرتين : الأولى حينما اجتاز جيش المارشال جراسيانى حدود مصر الغربية فى شهر سبتمبر من العام الماضى ووصل الى سيدى برانى ، والثانية حينما تقدمت القوات المدرعة الالمانيـة صوب الحدود المصرية فى إبريل الماضى ؛ ولم يكن ثمة شك فى أن نجاح قوات المحور فى هذه المحاولة يغدو ضربة خطيرة تصيب مواصـلات الامبراطورية البريطانيـة فى الصميم ، وتحدث ثغرة عميقة فى خط الدفاع الامبراطورى ، وتفتح لقوى المحور مجـالاً واسـعاً للعمل فى الشرق الأوسط ، كما أنها تعرض مصر والأمم العربية للسقوط فى قبضة المحور . أما القضـاء على قوات المحور فى لوبيه فانه يترتب عليه ما يأتى :

أولاً — تأمين مصر من خطر الغزو من ناحية الغرب ؛ وتدعيم سـلامتها وتأمين قناة السويس ، وطريق البحر الأحمر ، وتعزيز خط الدفاع الامبراطورى فى الشرق الأوسط ؛ والتقليل من خطر الغارات الجوية على مصر ، وذلك بالقضاء على قواعد العدو الجوية القريبة منها .

ثانيا — أن ضياع لوبيه وهى آخر قاعدة للمحور فى شمال أفريقية يمكن الأسطول البريطانى من بسط سيادته على أواسط البحر الابيض المتوسط ، وهى المنطقة الخطرة الوحيدة التى تعترض القوافل الانكليزية البحرية فى هذا البحر ، وبذلك تتحسن المواصلات البحرية بين جبل طارق والاسكندرية ؛ وقد يكون لذلك أثره فى تحسن أحوال التموين والتبـادل التجارى فى مصر والشرق الأدنى .

ثالثا — أن حصول الانكليز فى لوبيه على قواعد ومطارات قريبة من شواطىء إيطاليا الجنوبية ، يمكن سلاح الطيران البريطانى من ضرب الثغور والمدن الايطالية ضرباً شديداً متواصلاً ، وقد يعزز مشاريع الغزو الانكليزية لصقلية أو سردانيه مثلاً ؛ هـذا الى حصول الاسطول البريطانى على قواعد ومرافىء حسنة فى بنغازى وطرابلس .

رابعاً — أن القضـاء على قوات المحور فى لوبيه يكون ضربة شديدة لهيبة ألمانيا العسكرية ، لها أثرها فى العالم كله ؛ هذا إلى أن وصول القوات البريطانيـة إلى تونس ، يكشف مؤخرة أفريقية الشمالية الفرنسية ، ويؤثر فى موقف حكومة فيشى تأثيراً واضحاً ؛ فاما أن يقنعها

بخطر الخضوع المطلق لمطالب الالمان ، فتتذرع بشيء من الشجاعة والحزم ، حرصا على سلامة الأملاك الفرنسية ؟ وإما أن ترتمي نهائياً في أحضان الألمان بفكرة أن تعاونها المطلق مع ألمانيا هو وحده الكفيل بإنقاذ أفريقية الشمالية من الوقوع في يد الفرنسيين الاحرار .

هذه هي الآثار المحتملة التي يمكن أن تترتب على نجاح الحملة البريطانيـة في لوبيه ، وعلى انهيار قوى المحور في هذا الميدان . ولا ريب أن هذه الآثار أشد ما تكون اتصالاً بسلامة مصر وأمنها وطمأنينتها ؛ بيد أنه لا ريب أيضا في أن هذا النجاح يتعدى أثره في نفس الوقت إلى الموقف في الشرق الأدنى كله ، بل قد يتعدى إلى التأثير في الميدان الروسي نفسه . ذلك أن المفهوم أن القوات البريطانية متى أتمت مهمتها في لوبيه بنجاح ، فإنه يمكن نقل جانب كبير منها إلى الشرق الأوسط ، لتعزيز خط الدفاع الجنوبي فيما بين إيران وسوريا ؛ فإذا تطورت الحرب الروسية في الميدان الجنوبي ، واتسع مدى الهجوم على القوقاز ، وإذا وقع هجوم لجانبي من الالمان على تركيا ، وقومت تركيا هـذا الاعتداء ، فمن الممكن أن تغدو هـذه القوات الامبراطورية عاملا هاما في تطور الحوادث في هذا الميدان ، ومن الممكن عندئذ أن يمد الانكليز حلفاءهم الروس أو الترك بمعاونات قيمـة من الرجال والعتاد والطائرات .

على أن ذلك كله يتوقف بالطبع على نتائج المعارك المنيفة التي ما زالت تضطرم في الصحراء اللوبيـة حتى كتابة هذه السطور .

محمد عبد الله عنان

على هامش الأسبوع

لصوص ولصوص

لصاحب الإمضاء

من الفلاسفة فئة ترى أن الخُلُق سلعة كالسلع ، تُشترى وتُباع ، فإن أحجم محجمٌ عن بيع سلعته ، فذلك أن الثمن الذي يُقدَّر لها لم يبلغه عَرضُ العارضين . وكما أن للسلع رُتَباً ومقامات ، ولها أسواقاً وأسواقاً ، أسواقاً تباع فيها أقة السمك بقروش ، وأسواقاً تباع فيها الأسهم والسندات من الجنيهات بالألوف والألوف ، فكذلك السلعة الخلقية تباع بقرش على دِكّة القهوة وعند قِدرة الفول ، وتباع بالمئات والآلاف عند بار النادي وعلى أرائك الصالون . وقد ذهب هؤلاء الفلاسفة الشكاكون إلى القول بأن العِرض نفسه ، وكلّ عِرض ، سلعة محتملة ، لا يحول دون تداولها إلا إغلاء الثمن إغلاءً كافياً . وهم يحتجون لذلك بأن الإباء مع شدة الأغراء نادر في الناس ندرةً أغرتْ بها القصّاصين ، فلولا هذه الندرة ما اهتم بها القصّاص ، ولا جعل من موضوعها موضوع بطولة وحديث رواية .

وزادوا فقالوا إن الفضيحة التي يخشاها المفضوح من صفقته يهوّن من خشيتها أن يكون في الناس تسامح وسعة في الادراك ، وأن يكون في الصفقة هامش عريض يقوم بنفقات الدعاية التي تشق الجوّ وتذهب بالضباب ، ثم هي تعقد الألسنة وتكمّ الصُّحُف زمناً ، ثم هي تُنطقها بعد ذلك بالحمد ، وتُلهج ألسنتها بالثناء ، فتأخذ تفتّش في الماضي القريب والبعيد تبحث عن بصيص من عبقرية أو قبس من ذكاء ، وهي لن تعدم في مفضوح الأمس بصيصاً من عبقرية أو قبساً من ذكاء ، فتظل تقوم على هذا البصيص تنفخ فيه حتى يملأ الأرض بالضياء ، فإذا صاحبه يحتل من منتديات الأمم صدورها ، ومن أفراحها وأتراحها موضع الرعاية والترحاب منها ، ومن مجالس الحلّ والعقد فيها صفوفها الأولى . وقد تأزّم الأزمات فلا يجدون لتفريجها فيّاً غيره ، فيضمونه هو وأضرابه عند مفاتيح الحركة والسكون منها . وكل هذا من نتيجة تلك الصفقة الرابحة الأولى . وهو في مكانه الجديد يكون أقدر على خلق الصفقات ، وأقوى على إنجاحها ، وأكثر عوناً على السير بها في الظلام ؛ وعمّال الليل كثيرون ، لأن أجر الليل أضعاف أجر النهار . ويزيد طبل الدعاية إغراقاً لأصوات الأزاميل والمطارق التي تعمل في الخزائن . ومن هؤلاء العباقرة قوم أتقنوا صنعة العناكب ، فهم يمجّون الخيوط دقيقة رقيقة ، حريريّة ، لا تكاد توقظ حساً ، أو تنبّه لمساً . وهم ينسجونها حولهم أشكالاً سداسية جميلة ، يصطادون بها كل فحل فخم من فحول الأمم ، فيصبح هذا الفتل الواهي وهو بما استمسك أقوى المعاقل وأكبرها منعة ، وأعزها مأخذاً ومنالا . فكلما أراده نائلٌ بسوء وجد الأمة وسمعتها قد تورّطت فيه ، فتعز عليه تلك الكرامة أن تُتنبّع والعناكبُ تحت النعال .

إن هذا الرأي الذي يقول بالإحجام كلما تورّطت كرامة الأمم رأي من أخطر الآراء . أولاً لأن فيه تمسّحاً بهذه الكرامة الثانية ، فهو لذلك يدخل مدخلاً سهلاً على الأكرمين من الأحرار . وثانياً لأنه أكبر خُدعة تُخدَع بها الأمم ، والمتورطون وأصدقاؤهم هم لا شك أصحاب هذه الخدعة وخالقوها . وثالثاً لأنه ما في الأمم من رجل أو رجال بلغوا من الضخامة مبلغاً ملؤوا به أرجاءها وشغلوا به كل رحابها حتى كانوها أو كانتهم ، وحتى يقال إن وصمتهم هي وصمتها ، وإن وصمتها هي وصمتهم . ورابعاً لأن تستّر الأمة على أمثال هؤلاء إنما هو تستّر على كبائر منكرة لا يكون من ورائه إلا انتشارها كالذي يخفي النار إبّان الحريق ، أو كالرجل الذي يستر على زوجه خشيةَ الفضيحة ، وهو لا يجني من ستره

إلا أن تفوح الرائحة، فتملأ خياشيم الناس إلا خيشومه الذي أحكم سده.

لقد كثرت هذه الكبائر من الأكابر، حتى إذا وقع فيها بعض الأصاغر لم يدر قائل ماذا يقول.

هذا العامل الشقي، عامل المتحف المصري، أغراه بريق أربعين رطلاً من الذهب، فلم يجد في نفسه قوة على دفع إغرائها، فهوى حيث كان يهوى رجال أكثر منه مالاً وأكبر جاهاً وأطرى جانباً وأرخص يداً وأملأ عيناً بمتع الحياة. رجل أجرته في العام خمسون جنيهاً، كيف لا تغريه مائة من الخمسينات هي أجرته في مائة عام، وضعوها وراء باب لا يقرع فاتحه إن أراد فتحه إلى فن أو صناعة، وإنما يكفيه لكسره قوة البهيم. وليس لهذا العامل في فقره من سمعة يخشى ضياعها. وليس له من التثقف ما يدرك به مقدار ما يجني حتى هذه الجريمة، إن صح أنه أجرمها، قد فعلها على ما روى الرواة على أسلوب لا حذق فيه ولا لباقة. فإن هو عوقب فبعض عقابه سيكون بأنه لم يكن لصاً حاذقاً. وليس هذا العامل من الأمة في شيء، فهو لن يورط شرفها؛ من أجل هذا لم يضن أحد بشرفه، ومن أجل هذا فضحوا أمره فضحاً، ونشروه تفصيلاً، حتى ما يكاد أحد ينتظر حكم الحاكم ليعلم حكمها فيه. وهكذا لا يكون من الفقر إلا الجهل، ولا من الفقر والجهل معاً إلا الجريمة التي لا ناصر لها ولا معين.

وليست هذه أول مرة يحتل فيها المتحف بأخباره الرائعة محلاً مختاراً من أحاديث الناس. ولكن هذه المرة هي المرة الأولى التي تتواضع فيها أحاديثه فتهبط إلى مستوى العمال.

وقال قوم إن هذا الجرم الذي أجرموه جنحة أقصى عقوبتها ثلاث سنين، وهذا لا يمكن أن يتناسب وموضوع الجريمة، فلا بد من تعديل القانون الذي يسوي بين سارق بقرة وسارق تراث الفراعنة ومجد القرون. وحقاً قالوا، ولكن من الحق أيضاً أنه لا بد من سن قانون يسوي بين السرقة يأتيها ذو الجلباب الأزرق، والسرقة يأتيها ذو السترة السوداء والحماغ الأبيض؛ على إن صح أن تكون العقوبة على قدر المسروق وجب أن تكون العقوبة على قدر السارق، فإن هي كانت على قدر السارق وقدر المسروق معاً فاتت الأقدار عن طوق الأحكام وضاقت الأعمار عن استيعاب العقوبة.

إن ما سرقه السارق من الذهب يبلغ نحواً من تسعة وثلاثين رطلاً من الذهب، أو هي تزيد حتى تكاد تبلغ الأربعين. وهي تتألف من ثلاثة عقود وست أساور وأختام وملحقات. وقد شاء الحظ الطيب أن يستردها البوليس إلا نحواً من سبعة أرطال. وهذه السبعة الأرطال — إن صح ما قيل — لا شك أن الرجل خبأها حتى يخرج من السجن، إن صح أن الجريمة جريمته وأن هذه ستكون عقوبته. ورغم التهديد والاغراء — إن صح أنه كان هناك تهديد وكان إغراء — صمت الرجل عن الجريمة صمتاً وأنكرها إنكاراً. وبعد البصمة التي وجدها البوليس وقيل إنها بصمة الرجل لم يكن بالمحقق في إلحاحه على الرجل من حاجة إلا أن يدله على موضع السبعة الباقية من الذهب. والرجل على بساطته لا شك أدرك بفطنته حقيقة الموقف إدراكا. فهذه السبعة سوف لا يكون له ذخر في الحياة سواها. ولعله في جهالته يدرك أنه بعد أن يكفر عن فعلته ستكون له هذه السبعة ملكا خالصاً، كما كانت ملكا خالصاً لغيره تلك العمائر الشاهقة التي تملأ عين القانون في وضح النهار، أو تلك العزب الفسيحة التي تتمطى باسمة هازئة على أرض مصر الوسيمة تحت أنف القانون وهو راغم.

إن المسكين لا يدري أن بؤس الفقراء الذي لازمهم في عيشهم يلاحقهم كذلك في جرائمهم، وأن التشبه بالعظماء، تطاول لا تؤمن عاقبته، وأن خير الناس من عرف قدر نفسه فأتى الجريمة على مقدارها. (ت)

قيثار مغترب

بشر فارس

من مجموعة قصص مهيأة للطبع عنوانها « سوء تفاهم » . تجرى القصيدة على وزن وضعه الشاعر : فاعلاتن مفاعلتن .

نوحُ قيثارٍ مغتربِ
سلسلُ الوجدِ بالطربِ
حبَسَ الأمسَ في وترٍ
جُنَّ من جَسِّ مدَّكرٍ

حبس الأمس في وترٍ
واردٌ هبَّ كالشررِ
من أساطير كالشهبِ
رقصت في دجى الحقبِ

سلسلُ الوجدِ بالطربِ
نَغَضُ نوباتٍ منجذبِ
شَغَلَ العجزَ بالسفرِ
علّقَ القلبَ بالخطرِ

جُن من جَسِّ مدكرٍ
وترٌ رقَّ للحَصَرِ
وانصبابِ الهوى اللجبِ
في شرايينِ ملتهبِ
نوحُ قيثارٍ مغتربِ

الطفل المريض

نم يا بنيّ . كفاكَ تصرخ . ما بجسمك ؟
ما تشتكي . أفديكَ . ما أودى بنومك ؟
حتّام أنتَ مسهّدٌ ترنو لأمّك !
يا ويل أمّك من ضنًا يعثو بجسمك .
لم يُبقِ منك على الليالي غيرَ رسمك .

نم يا بنيّ كفاكَ تسفح عبرتيا
كالسهم صوتُك نافذٌ في مسمعيا
من وجنتيك سرى الشحوب لوجنتيا
لو كنتُ أملك دفع سقمك يا بنيّا
لبذلتُ روحي دونه أو مُقلتيا .

نم يا بنيّ كفاكَ من أجل عويلا
فلعلّني أرتاح من همّي قليلا
لم أغفُ منذ وقت يا كبدي عليلا
قلبي أحسُّ به جريحاً أو قتيلا
ومدامعي مخنوقةٌ تبغي سبيلا

نم يا بنيّ . كفاكَ في تمرى الشرورا
الليلُ يملأ مهجتي رعباً نكيرا
والريحُ قد جنّتْ فما تألوا زئيرا
وهواجسي دهمتْ فؤادي والضميرا
عبثاً أهزُّ إليكَ يا روحي السريرا .

نم يا بنيّ . كفاكَ سهدي واكتيادي
من بات مثلك ساهراً قلق الفؤاد ؟
فوق الفراش كأنه فوق القتاد
عيناه داميتان من طول السهاد
وبصدره أتون نارٍ في اتقاد

نم يا بنيّ . كفاكَ ثم أسلو كروبي
عيناكَ غائمتان في نَفَقٍ عجيب
شفتاكَ راجفتان من ألمٍ مذيب
وعلى جبينك ما بقلبي من لهيب
نم يا بنيّ رعاكَ علّامُ الغيوب .

(حمص — سوريا) هاشم الموصلي

أول مجلة مصرية

للأستاذ أحمد أمين بك

كانت ساعات ممتعة تلك التي قضيتها وأمامي ثمانية مجلدات من أول مجلة عربية علمية أدبية مصرية (١)، أتصفحها وأقرأ بعض مقالاتها، وأقارن بين أعدادها .

فمنذ إحدى وسبعين سنة ، في عهد الخديو إسماعيل كان على باشا مبارك « مدير ديوان عموم المدارس » ، وهذا كان اللقب الذي حل محله فيما بعد ناظر المدارس فناظر المعارف فوزير المعارف .

وكان « رفاعة بك رافع الطهطاوى » « ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس » ، وقبل ذلك بسنوات كانت قد نشطت حركة المدارس والمكاتب وفتحها ، وأقبل عليها المتعلمون ، فرأى القائمون بالأمر أن تصدر إدارة المدارس « مجلة » تشد أزر هذه الحركة ، وتعمل على نشر التعليم ؛ فأنشئوا مجلة أسموها « روضة المدارس المصرية » وقد صدر أول عدد منها يوم السبت ١٥ محرم سنة ١٢٨٧ هجرية ، الموافقة سنة ١٨٧٠ ميلادية ، واختاروا لها رمزاً جملة كتب عليها دواة غمست فيها ريشة تستملى منها ، وحولها قوسان من غصون الشجر ، وطبع تحت الاسم هذان البيتان في كل عدد :

تعلَّم العلم واقرأ ... تحُزْ فخار النبوة
فالله قال ليحيى ... خذ الكتاب بقوة

ونجد فيها أنها « تحت نظارة رفاعة بك » ، أى كما نعبر نحن اليوم « مدير المجلة » ، وأن « مباشر تحريرها » على فهمى بك ابن رفاعة بك ، أى أنه رئيس تحريرها ؛ وكان على فهمى هذا مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، وجعلوها تظهر كل أسبوعين ، وكانت تخرج في ١٦ صفحة من حجم الكتاب المتوسط — وجعلوا اشتراكها ص/٦ ٧٧ قرشاً ، ولعلهم اختاروا هذا الرقم لأنه يساوى « البنتو » وهي عملة مشهورة كانت في ذلك العصر ؛ ولم يسموا هذا « اشتراكا » كما نسميه نحن ، بل قالوا « ثمن ترتيبها » كذا ، وطبعوها بمطبعة « جرنال وادى النيل » بباب الشعرية .

وافتتحوها بمقال يبين الغرض منها ، فقالوا : « إن جل مرغوب ديوان المدارس المصرية ، اعتماداً على مساعدة العناية الخديوية ، تعميم العلوم وتتميم المعارف ، وانتشار الفنون وإكثار اللطائف ، ومداولتها بين جميع أبناء الوطن ، وتسويتهم في الورود على مستعذب هذا المشرع الحسن ... بحيث تكون فيها الفوائد متنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة ، أقرب تناولا للطالع المستفيد ، وأسهل مأخذا لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة ، واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنخرط في سلك مستحسن الأساليب » .

وقد ذكرت أنها لا تتعرض للسياسة ولا للإدارة ، وأنه مما سيعينها على أداء غرضها ما أنشىء من دار الكتب بجانبها « تقتطف الأزاهر عن مكامنها ، وتلتقط الجواهر من معادنها » — وأن سعادة مدير المدارس (وهو على باشا مبارك) « جعلها ملحوظة بنظر نظارته ، لا يندرج فيها شيء إلا بإشارته ، ومنحها الرئاسة التشريفية والإدارة العملية » .

ثم قدر القائمون عليها أن ستكون لها أبواب مختلفة ، فجعلوا على كل باب مشرفا يحرر فيه ويراقب ما يأتي منه .

فعلى باشا مبارك عليه وصف البحار العمومية ، وذكر متعلقاتها وأحوالها الكلية والجزئية .

(١) ظهر قبلها مجلات خاصة كاليعسوب في الطب .

وعبد الله بك فكرى العلوم العربية والفنون الأدبية ، وذكر أساليب العرب فى النظم والنثر .

ومسيو « بروكش » ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم عليه مسائل التاريخ القديم والحديث .

وإسماعيل بك الفلكى الفلكيات .

ومحمد أفندى قدرى (وهو الذى صار بعدُ محمد باشا قدرى مؤلف كتب الفقه المشهورة) منه الجغرافية والأخلاق والعوائد والمعاملات والاعتقادات .

ومحمد أفندى بدر علم الأبدان .

ومحمد أفندى ندا النبات .

والشيخ عثمان مُدُوخ (وكان سورى الأصل) عليه غرائب النوادر والفكاهات والمضحكات والألغاز .

وعلى فهمى رفاعة رئيس التحرير عليه الكلام فى تخطيط مصر القاهرة ومقارنة جديدها بقديمها .

وعلى خوجات المدارس جميعها المشاركة فى تحرير باب العلوم الرياضية .

وخرج العدد الأول كنموذج ، ففيه مقال لعلى باشا مبارك فى إنشاء دار الكتب الخديوية ، وخبر عن إيفاد بعثة من عشرة من نجباء التلامذة إلى إيطاليا « لتعلم الادارة الملكية » وذكر أسمائهم ، ثم فائدة جليلة عن سكان أقسام الدنيا ، فقصيدتان فى تهنئة الخديو إسماعيل بالعام الجديد ، إحداهما لصالح مجدى بك ، والأخرى للتلميذ الأديب أحمد أفندى نظمى ، ثم ملحتان إحداهما فى السريرة الحسنة والسريرة السيئة ، والأخرى فى صاحب هرة ، وبذلك انتهى العدد .

وصدرت تباعا تجرى فيها أقلام الكتاب والعلماء من مصريين ، وأجانب تترجم مقالاتهم إلى اللغة العربية .

وفى العدد الثالث تنبهوا إلى ضرورة فهرس فى أول العدد يبين المقالات وأصحابها ، وابتكروا طريقة نشر كتب تنشر بالمجلة تباعا ، فيلحق بها ملزمة أو أكثر من كتاب أو أكثر . وكان من المساهمين فى تحريرها بعض علماء الأزهر كالشيخ حسونة النواوى ، والشيخ سليم القلعاوى ، والشيخ حسين المرصفى ؛ ومشهورو الأدباء كصالح بك مجدى وعبد الله بك فكرى وبعض التلاميذ . وتنشر فيها الخطب التى تقال فى حفلات الامتحانات العمومية ، وتقارير إصلاح التعليم ، ومقالات خوجات المدارس فى العلوم الرياضية والطبيعية والكيمياوية الخ .

ومن العدد الثالث زادت صفحاتها إلى ٢٠ ثم ٢٢ ثم ٢٤ .

وحدث فى العام الثانى من حياة المجلة أن قررت وزارة المعارف إعطاء دروس للثقافة العامة تلقى من مشهورى العلماء فى دار العلوم ، يحضرها كل من أراد ، وكانت دار العلوم إذ ذاك فى درب الجماميز .

فالشيخ حسين المرصفى يلقى محاضرتين كل أسبوع فى علوم الأدب ، وإسماعيل بك الفلكى فى علم الفلك ، ومسيو ويدال فن السكك الحديدية باللغة الفرنسية ، وفرانس بك فن الأبنية ، ومسيو بروكش للتاريخ العام ، الخ .

فكان هذا المشروع الجليل مادة صالحة جليلة لتغذية المجلة ، فكان ينشر فيها خلاصة بعض هذه الدروس .

وفى السنة الرابعة من المجلة يخرج العدد السابع فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ لا يحمل اسم رفاعة بك ، إذ كان قد توفاه الله ، فنشرت المجلة ما رثته به الوقائع المصرية ، ويكتفى بذكر « مباشر التحرير » على فهمى رفاعة ، ثم يتحول النص إلى أنها « تحت إدارة ناظر الروضة ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاعة بك » وتضعف بعض الشيء فى عهد الابن ، إذ لم يكن له من

الشخصية الملقبة ما للأب ، فيقل ما يرد من الأقلام المشهورة ، ولكن تستمر وتستمر إلى السنة الثامنة ، فيخرج العدد السادس عشر في آخر شعبان سنة ١٢٩٤ وليس فيه إلا خطب افتتاحية وختامية قيلت في المدارس والمكاتب الأهلية ؛ ولما بلغت من الضعف إلى هذا الحد أسلمت روحها لخالقها .

لقد كانت هذه المجلات الثمانية معرضاً جميلا يمثل للناظر كيف كانت الأقلام تجرى في هذا العصر ، وبأى أسلوب تكتب ، وبأى عقلية تفكر ، وإلى أى حد بلغ مجهود القوم ونشاطهم العلمي والأدبي ، وما الموضوعات التي كانوا يحبونها ويتذوقونها ، وكيف كان عقلاء مصر أمثال على مبارك ورفاعة وعبد الله فكرى وصالح مجدى ومحمد قدرى وأمثالهم حركة دائبة لا تعرف الكلل في تنظيم المدارس والمكاتب وتغذيتها بالكتب تؤلف وتترجم ، وبالحفلات تقام وبالمجدين النابغين يشجعون ويكافئون ، وبالمحاضرات العامة تلقى على الجمهور ، وبهذه المجلة تسجل النشاط وتبعث الشوق .

وهى من ناحية أخرى صورة لحالة النظم والنثر في ذلك العصر يبعث من مرقده ، فيتملق السير ويتعثر بالسجع وبالاستعارة المتكلفة ، ثم يحاول أن يتحرر من قيوده ، فيقطع في ذلك شوطا لا بأس به .

والقوم يواجهون المصطلحات العلمية في العلوم على اختلافها ، ويكلفون ترجمة الكتب الأجنبية والمحاضرات التي يلقيها الأساتذة الأوربيون ، فيجدون في وضع الكلمات العربية التي تقابلها ، أو يستعملون الكلمات الأجنبية مصوغة صوغا يستسيغه اللسان العربي .

ثم هى تقوم بنشر ما يهم المدارس من الأخبار ، فتنشر أسماء النابغين ، وتنشر التقارير الواردة من طلبة البعثة ، فتنشر أن « عثمان غالب » مثلا من تلاميذ مونبليه « أخذ في أول السنة الأخيرة درجة المسرورية » ، ومحمد علوى « تحصل في أول امتحان آخر السنة على درجة مسرورية جيدة زائدة وهو نبيه » .

وتنشر أسماء من تفوقوا واستحقوا مكافآت ونوعها ، وتقتبس من تقارير التعليم والمكتبات في الممالك الأجنبية ، الخ .

ثم نرى ألفاظا كثيرة في طور التكوّن ، كما رأينا في « درجة المسرورية » ، و « ثمن ترتيبها » بدل « قيمة اشتراكها » ؛ ومثل ذلك في مصطلحات العلوم ، وبعض هذه الألفاظ أقر وبعضها عدل .

وعلى المجلة فهـذا وأكثر منه موضع لدراسات قيمة في نواح متعددة .

أحمد أمين

صور قضائية :

إلهـــام ...

للقاضي الفاضل صاحب الإمضاء

من الصناعات ما لا يحتاج فيه صاحبه لغير الأدوات المادية التي يباشر بها عمله ، ومنها ما لا بد فيها إلى جانب هذه الأدوات المادية من أداة روحية قد لا يصلح العمل إطلاقاً بغيرها ؛ وهذه الأداة الأخيرة هي « الإلهام » .

فالحلاق مثلا لا يحتاج في تزيين الرأس الذي يقع بين يديه إلا لمشطه ومقصه وما إلى ذلك . ويصعب على المرء أن يتصور بعد ذلك كيف يمكن أن يكون للالهام أي دخل في العمل الذي يجريه مثل هذا (الصانع) على (سلعته) .

والبنّاء الذي يستلم « تصميم » الدار من المهندس ليتولى إقامتها لا يحتاج في عمله إلا إلى الحجر والمدر والجير والرمل وما إلى ذلك . ومن الصعب أن يتصور الانسان أن هذا البنّاء قد يستلهم في عمله أية قوة أخرى خلاف هذه القوى المادية المحدودة .

أما الفنان الذي يتولى وضع النماذج المختلفة لتصفيف شعر السيدات مثلا ، فانه يستطيع بقلمه وأوراقه أن يملأ الدنيا من هذه النماذج . ولكنه لا يكون فناناً ممتازاً إلا إذا اهتدى في عمله – عن طريق الالهام – إلى نماذج جذابة تسر الأنظار وتستهوى الأفئدة .

وكذلك المهندس الذي يشتغل بعمل (التصميمات) ، فان حاجته إلى الالهام في عمله أشد منها إلى زواياه ومساطره وباقي أدواته الهندسية .

بل لقد يقع أحياناً أن يحرم الرجل من كل ما يحتاج إليه في صناعته من المؤهلات الفنية . ومع ذلك فانه يبرز في هذه الصناعة ، ويطير صيته بفضل ما أوتى من قوة الالهام .

وبين زعماء النهضات القومية أناس قد بدءوا حياتهم السياسية وهم من حيث مؤهلاتهم العلمية أميون لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ومن حيث مؤهلاتهم الفنية لعل بعضهم كان تاجراً ، ولعل بعضهم لم يكن شيئاً مذكوراً لا في التجارة ولا في غيرها ، ومع ذلك فقد اعتُبروا بحق من واضعي أسس النهضات في بلادهم ؛ وذلك بفضل ما أوتوا من قوة الالهام ؛ تلك القوة التي تجعل صاحبها يرى من حقائق الحاضر ما لا يراه غيره ، ويدرك من أسرار المستقبل ما لا يستطيع أن يدركه سواه ، فيضع خطط الاصلاح يستلهمها من وحيه الخاص ، ثم يقوم على تنفيذها بطريقته الخاصة أيضاً ، فلا يكون نصيبها على يديه إلا النجاح والتوفيق .

* *

وليس الالهام من مواهب الساسة والفنانين وحدهم ، فان ذوى الصناعات المادية لا يصيبون عادة في عملهم من التوفيق إلا بقدر ما يحبوهم به الله من هذه القوة – قوة الالهام – ولعل رجال الطب يأتون في مقدمة أصحاب هذه الصناعات . . .

فان الظاهرة الواحدة تبدو على المريض قد تكون عرضاً مشتركا بين عدد من الأمراض يحدثه كل واحد منها ؛ ولا يستطيع أن يجزم رجل الطب أي هذه الأمراض هو الذي يواجهه . فلو أنه دعى إلى علاج مريض فرأى عليه هذه الظاهرة ولم يسعفه إلهامه بحقيقة المرض لظل يتخبط مع مريضه بين صنوف العلاج المختلفة ، وقد يكون في ذلك هلاك المريض ، بدل أن يكون فيه شفاؤه .

ولست أستطيع أن أخوض في هذا الحديث دون أن

تطفو على ذاكرتى صورة حادث طريف وقع لى منذ أمد بعيد ، ولكنه ما زال حياً فى رأسى كما لو كان قد وقع بالأمس . . .

ذلك أنى عند ما رزقت طفلى الأول كنت كثير الكلف به — شأن معظم الآباء — ولكنى مهما بالغت فى تصوير حالى معه ، فانه لا يمكن أن يقاس فى شىء إلى جانب ما كانت تبديه أمه نحوه من الاهتمام ، فقد بلغ من اشتغالها بأمره أنها كانت هى التى تباشر بشخصها كافة شئونه ، ولا تكاد تترك لخادمه إلا أن تجلس إزاءه إذا هو نام . . . أما طعامه فهى التى تهيئه له بيديها ، وأما لباسه فهى التى تنزعه عنه ، وهى التى تضعه عليه ، وأما حمّامه فهى التى تعده ، وهى التى تقوم به ؛ فاذا لم يكن يشغلها من أمره شىء من هذا القبيل جملته بين يديها ثم راحت تتأمل ملامحه ، وتفحص أذنيه ، وتقلب جفنيه ، وتخرج لسانه ، وتدلك بطنه ، ولا تترك فى جسمه صغيرة ولا كبيرة إلا أحاطت بها ، وقارنتها بما كانت عليه فى أمسه ، وترقبت ماذا ستئول إليه فى غده .

وحدث أن عدت من عملى ذات يوم فى موعدى للغداء ، فرأيتها وحدها وعيناها تنمان عن قرب عهدها بالبكاء ، ووجدت طفلنا فى مهده يغط فى نومه بجانبها ؛ فوقع فى روعى أن الطفل أصيب بكارثة ، فأسرعت إليه ، ولكنها أشارت إلىّ أن دعه ، فاستفسرتها الأمر ، فمدت يدها إلى غطائه وكشفت عن فخذه ، وأشارت إلى حيث تلتقى فخذه ببطنه ، فنظرت فلم أر شيئاً ، فأخذتْ إصبعى ووضعتها على شىء أحسست به كالعقدة الصغيرة فى مكان أعرف عنه أنه محل عادة بأمثال هذه العقد ؛ فسألتها : وماذا فى وجود مثل هذه العقدة بهذا المكان ؟ فقالت : إن هذه العقدة لم يكن لها وجود بالأمس ، وإنها طارئة ، وإنها قد تكون لهذا السبب شيئاً زائداً فى الجسم يدعو إلى الاستئصال . . .

ولم تكد تصل فى شرحها إلى هذا الحد حتى أجهشت بالبكاء ، وعادت إلى ما كانت فيه قبل وصولى إشفاقاً على هذا الجسم المريض والاهاب الرقيق أن يتناوله مبضع الجراح . وأقول الحق — لقد كادت تسرى عدواها إلىّ فأحسست بالدموع تتجمع فى عينى ثم توشك أن تسيل ويفلت زمامها من جفنى . ولكنى تصنعت الثبات وعبأت أناتى وجلدى ، وبلعت ما تجمع فى مآقىّ من الدمع ؛ وأقبلت عليها أطمئنها وأستأنيها ريثما نزور أحد الأطباء ، لنبكى معاً إذا دعت الحال ، أو لنضحك معاً من هذا الوهم الذى لا أساس له .

ولم يكن لنا علم سابق بأى شىء عن المرض أو عن الأطباء ، فقد كانت صحتنا والحمد لله بنجاة من هذه المحن . ولم نكن بعد قد اضطرتنا الظروف إلى حفظ أرقام تلفوناتهم جميعاً — على اختلاف اختصاصاتهم — كما نفعل الآن . ولذلك حرنا إلى من نذهب بالغلام . وأخيراً قلت نذهب به إلى أشهر طبيب فى مصر ما دام المريض أعز مريض علينا فى العالم ، وكان هذا الطبيب جراحاً ، ومع ذيوع صيته فاننا لم نكن نعلم أين مكان (عيادته) ، فجعلنا نبعث الرسل إلى الجيران وأصحاب المحلات القريبة من منزلنا حتى اهتدينا إلى مكانه ، فجئنا بمركبة وركبناها ، وطلبنا إلى السائق أن يذهب بنا إلى (عيادة) ذلك الطبيب ، وكان هذا وحده يغنينا عن سؤال الجيران ، لو كنا نعقل ولم يذهب فكرنا بدداً إزاء هذا « الحادث الخطير » .

ودخلنا العيادة والطبيب يوشك أن يغادرها ، فتوسلنا إليه أن يبقى دقائق أخرى كى « يكشف » على طفلنا ، لأن الحالة تستدعى السرعة ولا تحتمل التريث ، وكان الرجل كريماً ، فاستجاب لتوسلاتنا ، وقبض جفنه الباهظ ، ثم بدأ يفحص الصبى ويتحسسه بأصابعه ، ويثنى ساقه

ويبسطها ، وأخيراً طلب إلينا أن نحمل الغلام يبكي لينظر كيف تتأثر المقدة بهذا البكاء . . . . وأنزل الله سكينته على قلب الصبي ، فلم تسهل علينا إثارته ؛ وكان يكفيه أن يشير إليه الانسان بأصبعه محذراً ، فلم يكفه في هذا الموقف أن أرفع في وجهه كلتا يدى مهدداً ؛ وكان يكفيه أن أرفع صوتي في مخاطبته ، فلم يكفه الآن أن أتطاول عليه بالشتم والسب . . . وأخيراً لم أجد بداً من أن أقفأ عيني بيدى فأضربه لغير سبب ، إلا أن أيسر على هذا الطبيب عمله ، فبكى الطفل وعلا صياحه ، وانتهز الطبيب الفرصة وأوسعه تحسيساً ولمساً وتحبيصاً . ولكن الله لم يفتح عليه بشيء في أمر المرض ، فتخلص منا بقوله : إن هذه الحالة لا يمكن « تشخيصها » اليوم ، ولذلك يستحسن أن نمر بعيادته بعد خمسة عشر يوما ، لعل المرض يكون قد تطور إلى صورة أخرى يمكن الاستدلال بها عليه ! وخرجنا نجرر أذيال الكآبة ، وأمامنا ظلال سحابة طولها خمسة عشر يوما ، قضى علينا ذلك الطبيب العبقري أن نمضي ساعاتها في قلق وجزع وانتظار . . . .

وقضينا ليلتنا فعلاً في هم مقيم ، ونحن من غموض الحالة نسبح في بحار واسعة من أقبح الاحتمالات التي خلقتها فكرنا المحموم ؛ وما إن طلع علينا النهار حتى عاودنا السؤال عمن يمكن أن نقصد إليه بفتاتا من الأطباء الآخرين ، فلم نجد لنا مرشدا . وكان لي قريب طبيب ، قلت لعل الخير في أن نقصد إليه عسى الله أن يفتح عليه بما لم يفتح به على صاحبنا الأول . ولم يتقدم النهار ساعات حتى كنا في قاعة انتظار هذا الطبيب القريب ، وكان من رجال « المسالك البولية » ، فاستبشرت خيرا ، وقلت لعل في قرب تلك المقدة من مسالك ولدى ما يقرب أمر مرضه إلى ذهن هذا الطبيب . وقام أخونا وقعد ، واعتدل وانحنى ، وفحص بيديه وأصابعه وأذنيه ، ثم استوى في مقعده ، واضطجع وهو يقول إنه يشتبه في أن تكون الحالة حالة « فتق مختنق » ، ولم أكن أنا أدرى ما هو الفتق على سبيل الدقة ، وبالتبعية لم أكن أدرى كيف يتنفس أو لماذا يختنق ، ولا كنت أدرى ما العمل لاسعافه في نوبة اختناقه . ولذلك أدهشني أن أرى زوجتي تبادر بالبكاء ، كأنما كانت تعلم هي من قبل ما أخبرنا به الطبيب فيما بعد من أن الفتق المختنق يقتضي إجراء عملية جراحية يشق فيها البطن ، وقد تقطع بعض الأمعاء ، وما إلى ذلك مما لا شأن لنا الآن بالخوض فيه .

وخرجنا من عند هذا الطبيب نحتضن ولدنا ونحوطه بأذرعنا ، كما لو كنا نخشى أن يراه معنا رجال البوليس في الطريق فيأخذوه منا قسرا ليقطعوا له (فتقه المختنق) كأنما هذا الفتق شيء يمس سلامة الناس ، أو هو شيء يخالف النظام العام !

وبلغنا منزلنا وعلينا من الكآبة والانقباض أعباء ثقال ، وصادفنا صاحب هذا المنزل لدى الباب وكان رجلا مسناً نعامله كأنه والد لنا ، وربما كأننا أبناء له ! فهاله ما رآنا عليه من الكمد والحزن ، وسألنا عن شأننا ، فأفضينا إليه به ، فأشار علينا بالذهاب إلى طبيب ثالث ، أسماه لنا ، وقال إنه يثق في نفاذ بصيرته ، وإنه من الأطباء (اللهميين) الذين يحالفهم التوفيق في نظرهم إلى الأمور .

فلم نبطئ في اتباع مشورته ، وعدنا أدراجنا إلى الطريق ، وقصدنا من فورنا إلى هذا الطبيب الجديد ، وعرضنا عليه فتانا ، وقصصنا عليه قصتنا ؛ فأخذ يسخر منا ومن تلك الصور التي صورها لنا وهمنا ، وأمرنا أن نرجع بطفلنا إلى منزلنا من غير دواء ولا علاج ، وأن لا نعود فنشغل أنفسنا به إلى هذا الحد الذي أخرج الأمور عن طبيعتها . فلم أتمالك نفسي أن أعرض عليه في حنق مكظوم :

— وهل من طبيعة الأمور أن تظهر على أجسام الأصحاء من الأطفال أمثال هذه العقد حتى تريد منا أن نترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى دون أن نهتم لها ؟!

فقال : إن هذا المعنى بالذات هو الذى قصدت إليه !

فنظرت إليه مشدوهاً ولم أتكلم .

ولكنه هو استمر فى حديثه قائلا :

— إن هذا الذى تسمونه عقدة لا هو بالعقدة ولا هو بالفتق ، ولكنه (خصية) معلقة ما تزال فى طريقها إلى مقرها الأخير فى (الصفن) . ومن الأطفال من يولد وخصيتاه فى صفنهما ، ومنهم من يولد وخصيتاه معلقتان فى أسفل البطن ، ثم تسقطان إلى مكانهما مع الزمن . ومنهم ولد كا هذا الذى سقطت إحدى خصيته وبقيت الأخرى معلقة فى بطنه . ثم ها هى الآن فى طريقها إلى مكانها الطبيعى . فدعوا المقادير تجرى فى أعنتها ، ولا تكثروا من التفكير فى شأن طفلكما فتروه وقد أحاطته أوهامكما بالعقد من كل جانب .

وغلب علينا الفرح إزاء هذا البيان ، فطغى على ما كان يخالجنا من الخجل ، وعلى ما أبديناه من جهل وتسرع . وخرجنا تلمع أعيننا ببريق الابتهاج ، وتعمر قلوبنا وجيب الغبطة والانشراح .

وقد كان ما توقعه الطبيب . واستقرت (الأمور) فى مواضعها الطبيعية بعد ذلك بأيام . وهكذا أنار الالهام طريقاً طال تخبطنا فى ظلماته ، نحن الذين لم نتعلم الطب ، وغيرنا أيضاً من الذين تعلموه وتبحروا فيه .

* * *

وأخيراً . . .

فإن من المهن التى لا بد لصاحبها من شىء من هذا الالهام مهنة القضاء . وإنه لمن العبث أن يعتمد القاضى فى عمله على مجرد علمه الواسع وإلمامه بأصول القوانين وضوابط تطبيقها . وفى القضاة اليوم رجال يرفعهم أصحابهم أنهم فى الطليعة من حيث علمهم وسعة اطلاعهم ، وأنهم إذا جلسوا للبحث فى مبدأ من المبادىء القانونية فاضوا وتبحروا ، واستعرضوا ما قاله الأئمة وما قضت به المحاكم العليا ، حتى إذا ما وقعت لهم قضية غامضة يتطلب بحثها شيئاً من هذا النور السماوى الذى يكشف عن الخفايا ، وينير الطريق أمام الباحثين ، انبهم عليهم الأمر واستعصى البحث ، وتشعب بهم الرأى ، ولم يجدهم علمهم وسعة اطلاعهم شيئاً . ولعل هذا العلم والاطلاع الواسع بالذات كان سبباً فى بلبلة أفكارهم ، وباعثاً على اضطرابهم وتخبطهم فى استنتاجاتهم واستقرائهم .

ومن القضايا التى يكاد يقتصر فيها عمل القاضى على استنزال الوحى من السماء ، واستجداء الالهام من ملائكة الرحمة ، تلك القضايا التى يجد نفسه فيها مضطراً إلى تحقيقها بسماع شهود الطرفين : شهود المدعى الذين يؤيدون دعواه ، وشهود المدعى عليه الذين ينكرونها . فإنى لا أذكر أن أكثر من قضية واحدة فى كل عشر قضايا أفاد فيها هذا التحقيق ، ورجحت فيها أقوال شهود أحد الطرفين على أقوال شهود الطرف الآخر ؛ أما فى سائر القضايا فإن النزاع يكون مثلا على زراعة قائمة فى أحد الحقول . فيأتى مدعى ملكية هذه الزراعة بشهود يشهدون على أنه هو الزارع لها والباذر لحبها ، ويأتى فى نفس الوقت شهود المدعى عليه ، فيقسمون بالله أيضاً أنهم سيشهدون بالحق ؛ ثم يقولون إن هذا المدعى عليه وحده هو الذى زرعها ، واستأجر حقلها ، وروى أرضها وتعهد نبتها . . . ويكون العمدة وبعض أعيان القرية فى جانب . . ويكون دلال المساحة وبعض شيوخ البلد فى الجانب الآخر . . . وفى مثل هذه المواقف لا تنفع قوانين الدنيا كلها مجتمعة فى كشف الحقيقة ، ولا يجدى كل ما حصلته الصدور من العلم بقدر ما تجدى ومضة من

الالهام يستطيع القاضي على هداها أن يميز الخبيث من الطيب، وأن يفرق بين الحق والباطل.

وهذه الحال — مع الأسف الشديد — هي من المآسي الخلقية في هذه البلاد. فإن الأيمان فقدت عند معظم الناس حرمتها. والصدق ضاعت عند أكثر الناس قداسته. واكتسبت النفوس ضراوة عجيبة على الكذب؛ وبلغ الأمر ببعض الناس أن احترفوه احترافاً، فكانت صناعتهم التي يلتمسون خبزهم من ورائها هي شهادة الزور في دور القضاء وافتراء الأكاذيب على أصحاب الحقوق.

* * *

وليس الالهام من الأدوات التي يحتاج إليها القاضي وحده. فإن وكيل النيابة يشترك مع القاضي في حاجته إلى هذا القبس الالهي الذي يضيء له الطريق ويكشف له ما يكون بين يديه من المعميات. وأكثر ما يتجلى ذلك عند قيام وكلاء النيابة بعمل المعاينات. و«المعاينة» — في اصطلاحهم — هي انتقال وكيل النيابة الذي يقوم بتحقيق الحوادث الجنائية إلى المكان الذي وقعت فيه الجريمة، وإثبات ما يرى فائدة في إثباته: أولا من حيث أشخاص المصابين والجناة، وما على ملابسهم وأجسادهم من الآثار التي لها مساس بالجريمة، كأن يثبت المحقق في «جناية القتل» مثلا ما بجسم القتيل من الاصابات، وما قد يكون بادياً على جسم القاتل من آثار المقاومة أثناء مقارفة جريمته ونحو ذلك، وأن يثبت أيضاً ما وجد بملابس القتيل والقاتل من هذه الآثار، بعد أن يصف هذه الملابس إجمالا قطعة قطعة، ومدى تأثر كل قطعة منها بالجريمة موضوع التحقيق؛ ثم ينتقل من ذلك ثانياً إلى وصف مكان وقوع الجريمة، والاشارة إلى كل ما في ذلك المكان مما له مساس بالجريمة؛ فإن كان هذا المكان غرفة قام بوصف ما فيها من الأثاث إجمالا، وموضع الجثة من هذا الأثاث. وإن كان المكان حقلا أشار إلى قرب موضع الجريمة أو بعده عن الطريق العام، وإلى ما يشتمل عليه المكان من آثار الأقدام أو غيرها، ونحو ذلك مما قد يرغب القاضي في المستقبل أن يعرفه، ومما قد يبدو عند القيام بعمل المعاينة أمراً عادياً لا حاجة بالمحقق إلى إثباته أو الاهتمام به. وهنا ميدان الالهام ومجاله؛ فإن ما يبدو تافهاً أمام النظر العادي قد يرى فيه المحقق الملهم ضالته المنشودة؛ والهنة الصغيرة التي لا يحفل بها عامة الناس قد تكون في ذاتها مفتاح القضية إذا ما فطن إليها المحقق الموفق.

ولعل في المثل التالي الذي أسوقه بين يدي القارئ ما يوضح هذا المعنى.

* * *

فقد حدث منذ سنوات أن وقعت في صحراء الهرم جناية قتل لم يصل إلى علم البوليس من أمرها إلا أن هناك جثة لشاب في حوالي العشرين من عمره ملقاة في عرض الصحراء، وليس بالجثة آثار ظاهرة تدل على سبب الوفاة. فانتقل رجال البوليس إلى مكان الجثة وأخطرت النيابة بالحادث، فأسرع إلى مكانه أيضاً وكيل النيابة المسئول عن ضبط وقائع تلك المنطقة، ووقف الطرفان مبهوتين لحظة إزاء هذا اللغز المطروح بين أيديهم. فقد جرت العادة في أمثال هذا المقام أن يبدأ المحققون عملهم بسؤال الأشخاص المجاورين لمحل الحادث، ويظلون يجمعون كلمة من هنا وكلمة من هناك، إلى أن يفتح الله عليهم بما يهديهم في طريقهم، أو بما يوحي إليهم بالاتجاه السليم في تحقيقهم. ولكن محل هذا الحادث كان قاعاً صفصفاً لا زرع فيه ولا ضرع، ولا حابل فيه ولا نابل. فالجثة ملقاة فوق حصباء المكان كأنها حجر من تلك الحجارة الكبيرة الكثيرة المنتشرة في جوانبه، وليس

يحيط بها غير ذلك إلا عود جاف مما تقذف به الريح فى يوم عاصف . أو زجاجة فارغة عز على حاملها أن تظل فى حقيبته بعد أن نهل ماءها أو احتسى شرابها ، أو علبة فارغة من صفيح ، أو خرقة بالية من قماش ، أو وريقة من جريدة حال لونها بفعل الشمس والهواء . أو نحو ذلك مما يعرفه كل من يرتاد مثل هذه الأماكن ؛ فما جدوى بعض هذه الأشياء — أو ما جدواها كلها فى كشف أسرار تلك الجثة التى استلقت بينها تنافس أبا الهول فى ربضته الأزلية وصمته العميق ؟

وقد يكون من الممكن أن تكون الجثة لشاب تردى مثلا فى حفرة لم يفطن إليها ، فيكون موته بالقضاء والقدر . ولا يكون محل لبحث البوليس ولا لتحقيق النيابة ، أو تكون لشاب وافاه الأجل المحتوم فى هذا المكان المنفرد بسبب هبوط فى قلبه أو (نقطة) فى مخه ، أو نحو ذلك من أسباب الموت الفاجئ الذى لا ينطوى على جريمة ولا يستدعى اهتمام رجال الأمن ؛ ولكن الذى حدث أن وكيل النيابة تبين فى وجه القتيل آثاراً لا تخطئ فى أن الوفاة كانت نتيجة الخنق وكتم النفس ؛ فانتفى كل أمل فى نجدة القضاء والقدر ، وبرز وجه الجريمة سافراً واضحاً ، ولم يبق بد من مداومة البحث لمعرفة القتيل أولا ثم لمعرفة الجانى الذى قتله ثانياً .

ونبش رجال البوليس جيوب القتيل ، وقلبوا جلد طربوشه ، وخلعوا حذاءه وجوربه ، لعلهم يعثرون على ما يكشف عن شخصيته ، وذهبت محاولاتهم أدراج الرياح . وقاسوا المسافات التى تفصل بين الجثة وبين مواطن العمران فى الأماكن التى تحيط بها ، ولكن الأرقام لم تكشف لهم عن سر ولم تنته بهم إلى رأى . وعادوا إلى الجثة يفحصون آثار الخنق على عنقها وحولها . وآثار المقاومة فى راحتيها وعلى معصميها ، فلم يزدهم ذلك علماً بشىء جديد عن صاحب هذه الآثار .

وكان وكيل النيابة فى خلال ذلك يحوم حول الجثة ويرى ببصره فى كل ما يحيط بها ، إلى أن لمح قصاصة صغيرة من الورق الأصفر يعبث بها هواء المكان ، فهى تارة قريبة وتارة بعيدة ، طوراً تخفق بجوار نعل أحد رجال البوليس ، وطوراً تصفق فوق صخرة من صخور المكان ، فمال عليها والتقطها فإذا هى من نوع ذلك الورق الذى يستعمله البدالون عادة فى لف بضائعهم الرخيصة ، وإذا عليها أرقام وبعض كلمات باللغة الرومية لم يفهمها وكيل النيابة فى حينها ؛ ولكن قبسا من ذلك الالهام السماوى أضاء فى نفسه ، فقصد من توه إلى فم القتيل وشمه فإذا رائحة الخمر تنبعث منه . فأبرقت أساريره وأحس كأنما انفتحت فى وجهه الأبواب المغلقة . وانجابت عن عينيه الغشاوات القاتمة ، وطلب أن يأتيه البوليس بجميع البدالين الأروام الذين فى تلك الجهة . فلما أقبلوا عرض عليهم تلك الوريقة ، فعرفها أحدهم وقال إنه هو الذى كتبها وإنها تشتمل على حساب بضاعة اشتراها منه ثلاثة شبان فى ضحى ذلك اليوم ، وأنه كان من بين ما اشتروه زجاجة من الخمر لفها البدال صدفة فى ورقة الحساب . ولما عرض عليه القتيل عرفه وقال إنه واحد منهم ، وقد استطاع هذا الرومى أن يعطى أوصافاً دقيقة لزميلى القتيل ، فكان من شأن ذلك أن وضع رجال البوليس يدهم على الحلقة الأولى من سلسلة تحرياتهم التى انتهت بكشف غوامض تلك الجناية والقبض فيها على الجانين .

وكان مفتاح كل هذا التوفيق تلك الوريقة الصغيرة التى (ألهم) وكيل النيابة (إلهاماً) أن يلتقطها لعلها تدل على شىء والتى لم يكن من الممكن أن يدور فى خلد أى إنسان عادى أنها فى وسط ركام الحصى والصفيح والزجاج الذى يحيط بها تمتاز بأنها وثيقة الحادث ودليل الاتهام .

ح . ج

خواطر

في موقف الأوتوبيس :

أقبل الناس من دور أعمالهم إلى حيث تبدأ السيارة العامة التي تحملهم إلى منازلهم . وتباطأت عن الحضور زمناً ازدادت فيه جموعهم . ثم لاحت من بعد فاشرأبّت أعناق وبرزت أكتاف وسواعد ، ثم وافت حيث تقف فلم يمهلها جمهور المنتظرين حتى تفرغ حملها ، بل سارعوا إليها يتدافعون بالصدور والمناكب ، وغفل كل عن جاره وتخطى المتخلف من كان أمامه ، وشغل كل بنفسه فلم يبال في سبيل الوصول إلى مدخل السيارة أن يدفع شيخاً أو يصدم سيدة أو يدوس طفلاً ، واكتظ بابها الصغير بجموع المزاحمين من الصاعدين والهابطين ، واشتد تضاغط هؤلاء وهؤلاء على غير ترتيب أو نظام ، ومضى زمن غير يسير قبل أن يبلغ كل منهم مأمنه ، بعد أن أبلى في معركة الصعود أو الهبوط بلاء شديداً ، تصبب فيه عرقه ورضت عظامه وتهدلت ملابسه . وانجلت الوقعة عن ركوب أكثر المنتظرين ، ولم يبق خارج السيارة غيري أنا وصاحبي وشيخ ضعيف وسيدة معها طفلان .

والتفت إليّ صاحبي — وكنت قد حملته على ألا يخوض غمار الزحام مع الخائضين — وقال لي : « هذا دأبك أبداً . تفر من الزحام وترضى بالتخلف . وهل ما رأيت إلا صورة مصغرة من معارك الحياة التي لا يفوز فيها إلا الأسرع الأسبق ؟ »

قلت : صدقت . هي صورة من حياتنا العامة المختلة التي تجري أمورها بلا ضابط ولا نظام ، والتي تبدد فيها الجهود من غير اقتضاء ، والتي يفوز فيها الأنانيون الذين لا يبالون في سبيل بلوغ مآربهم أن يتخطوا رقاب الناس ، وأن يتقدموا من هو أحق منهم بالسبق من غير تورع أو حياء .

رحم الله يا صديقي عهداً كان العرف فيه في هذه البلاد أن يجمح الفرد من أنانيته في كل مجتمع عام ، وأن يجامل مسايره ويؤثره بالتقدم إذا انتهى بهم المسير إلى مضيق لا يتسع لأكثر من واحد ، وأن يتلطف في سفره ، فيعرض على الوافدين عليه أطيب الأماكن قبل أن يتمكن من مقعده ، وأن يحتمل المشاق في سبيل إراحة الضعيف وإكرام الغريب . أين هذا العهد مما نحن فيه حيث تتبدى في كل اجتماع أنانية سافرة ، لا ترعى مجاملة ولا تحس فيها لباقة ، ولا تلمح فيها أثراً من المروءة .

قد تقول إنها طبيعة الزمن الذي يغلّب دواعي العمل والسرعة على اعتبارات المروءة والانسانية . وليت شعري فيم العجلة إن صح أن في هذا التزاحم كسباً للوقت ؟ وما أعظم ما يخسره المجتمع إذا قيس إلى ما يكسبه أفراده بهذا التقاطع والاندفاع وراء نزعاتهم الفردية .

أرأيتك لو أن هذا الجمع المتكاثر نظم نفسه صفاً صفاً ، ووقف كل حسب ترتيب حضوره ، ولزم مكانه في هدوء لا يعدو على من قبله ، ولا يحيف عليه من أتى بعده ، وانتظروا جميعاً حتى يهبط النازلون ثم صعدوا بلا جلبة حسب مواقفهم الأسبق فالذي يليه ! أكنت ترى هذا التدافع والتضاغط ، وتعطل حركة الدخول والخروج زمناً غير يسير ؟ وهل كان يتخلف بعد ذلك إلا الأخيرون من المنتظرين ، وهم الذين يجب عدلا بحكم تأخرهم في الحضور أن يتخلفوا وينتظروا المركبة الثانية ؟ وهل كنت تجد مع هذا النظام شكوى من ضعيف أو عاجز ، أو ترى روح المقت والكراهية التي تبدو من بعض الناس لبعض بسبب هذه الأنانية السافرة التي يتخطى فيها القوي رقاب

الضعيف ، ويسبق الخشن الجاف للمهذب الرقيق الطبع ؟

ثم عد بنا إلى شئوننا العامة جميعاً ، وتخيل معي ماذا يكون الحال لو أننا طبقنا هذه القاعدة عليها جميعاً ، وخاصة على الأمور التي يكثر حولها التزاحم والتنافس . ماذا يكون الحال لو التزمنا الترتيب الدوري في مقابلاتنا ومعاملاتنا والتعيين والترقية في وظائفنا وقبول الطلبة في مدارسنا وما إلى ذلك ؟ ألا تحس معي أن مثل هذا النظام من شأنه أن يشيع روح الطمأنينة والثقة بين الناس ، ومن شأنه أن يريح فريقاً كبيراً منهم من تلمس وسائل كريهة لتنكب طريق العدالة في سبيل الحصول على رغباتهم ، ويزيل كثيراً من أسباب الجفاء التي تقوم بين الناس بسبب تنافس غير شريف ؟

ليتنا يا صديقي نطبق في حياتنا الاجتماعية ما طبقناه بنجاح في شراء تذاكر السكة الحديدية من نوافذ محطاتها

الإيحاء والدعاية :

قيل إن أستاذاً من أساتذة الطب في إحدى الكليات بأمريكا أجرى على تلاميذ فصله ، وعددهم ثلاثون ، التجربة الآتية :

قال لهم إنه سيجيئهم في الغد بثلاثين قارورة من الماء ، وضع في خمس عشرة منها قليلا من سم خاص لن يكون وراءه كبير أذى لصحتهم ، وكل ما يحدثه في شاربه نوع معين من الحمى يزول أثرها بعد ثلاثة أيام ؛ فقبل الطلبة أن تجرى عليهم التجربة . وأخذ الأستاذ يشرح لهم أعراض تلك الحمى وما يصحبها من آلام في مواضع معينة من الجسم ، وكيف تسير درجة الحرارة خلال أيامها الثلاثة من ارتفاع وهبوط . وفي غد ذلك اليوم شربوا جميعاً كئوسهم الثلاثين ، وكان أن نقلوا جميعاً بعد ذلك إلى المستشفى ، حيث ظهرت عليهم جميعاً الأعراض التي شرحها الأستاذ ، وأحسوا كلهم الآلام في المواضع التي بينها ، وسارت درجة الحرارة على الوجه الذي ذكره . ولم يكن بالكؤوس الثلاثين شيء سوى الماء القراح !

وقديماً روت الكتب لنا قصة الملك الذي كان يشكو السمن المفرط ، وتلمس لدى المتطببين ما يخفف عنه بعض حمله من الدهن ، وأعياهم الوسيلة لذلك ، حتى اهتدى بعضهم إلى حيلة ذهنية فعلت ما لم تفعله العقاقير ، فأوهم الملك أنه نظر في النجوم فوجد أن الملك يموت في وقت معين حدده له ؛ وكان ما أصاب الملك من الغم بهذا البلاء القريب الوقوع كافياً لأن يورثه الهزال ، ثم صارحه بعد ذلك بأنه إنما احتال بالإيحاء على ما أعجزه بالطب ، وأنه ما كان له ولا لمخلوق سواه أن يعلم ما غيبه الله .

وعجيب هذا الإيحاء وانفعال الناس له وجمودهم عن ربط النتائج التي يصلون إليها بالمقدمات الناقصة التي يتسلسلون لها ! ولكن هي الطبيعة البشرية بها مسارب ضعيفة يستطيع الماهر أن يدخل منها إلى أعماق النفوس ويؤثر ما لا يؤثره المنطق الواضح والإقناع الصحيح .

وأساليب الدعاية التي يعمد إليها المتحاربون في هذه الأيام تستخدم هذا السلاح بمهارة فيما يسمونه بحرب الأعصاب ، فهي تتخير الظروف الملائمة وتنتفع من بعض الحوادث في شن غارات نفسية تحطم الأعصاب الضعيفة وتوحي لها بالانهزام وعدم جدوى المقاومة .

وهذا الامتحان القاسي لا يجتازه من الأمم إلا ذوات العزم والصبر . وصدق المارشال فوش في كلمته المأثورة : « إن الأمم لا يهزمها عدوها حتى تهزم هي نفسها » .

فيجان :

وعلى ذكر كلمة المارشال فوش يسوقنا إلى الحديث إلى ابنه الروحى « فيجان » وموقفه فى هذه الحرب ، وما آل إليه حاله أخيراً ، فقد سمعنا أنه عزل من مركزه فى المغرب الأقصى ، وقيل إنه اعتقل .

وقد كان فيجان رئيس أركان حرب المارشال فوش ، وكان له نصيب عظيم فى الانتصارات التى أحرزها المارشال سنة ١٩١٨ . وأعارته الحكومة الفرنسية لحكومة بولاندا فى حربها مع روسيا ، فكان مدبر موقعة وارسو الظافرة ؛ وقد أوصى فوش بأنه كلما حزب فرنسا أمر من الأمور فعليها أن تعتمد على فيجان .

ولما بدا عجز الجنرال جاملان وجموده أمام الغزاة فى نتوء سيدان ، كان من الطبيعى أن تتجه فرنسا إلى فيجان وتستدعيه لإنقاذ فرنسا . ولكنه أثبت أنه لم يكن خيراً من سابقه كفاية ومهارة ، وأنه زاد عليه تشبعاً بروح الهزيمة .

وليس من شك أن فيجان كان فى سنة ١٩١٨ رجلا كفئاً لعمله الذى كان يقوم به كرئيس أركان حرب المارشال فوش ؛ ولكن المزايا التى تبرز صاحبها فى عمل رئيس أركان الحرب ليست وحدها بالمزايا التى تؤهله لتولى القيادة العامة فى الحرب . والحرب فى سنة ١٩١٨ تعد ألعوبة بالقياس إلى الحرب سنة ١٩٤٠ وقد كان فيجان أستاذاً فى الحرب على الأساليب القديمة ، ولكنه لم يدرك الأساليب الحديثة تمام الادراك . وقد يكون فيجان خيراً من جاملان من حيث اقتناعه بضرورة المرونة فى الحركات الحربية ، ولكنه إذا قيس إلى « كيتل » قائد الألمان لم يكن شيئاً . لقد أدخل الألمان فناً حربياً حديثاً أو إن شئت فقل إنهم ساروا بما اكتسبوه من خبرة فى سنة ١٩١٨ إلى غايتها . فأدركوا حق الادراك قيمة الدبابة والطيارة فى الحرب ؛ ولكن رجال الحرب الفرنسيين لم يستطيعوا أن يدركوا قيمة الحرب الميكانيكية ولا أن يعدوا أنفسهم لما تتطلبه .

أما روح الهزيمة التى كانت تملأ نفس فيجان فتتجلى فى تعليقه على دعوة رينو له من سوريا لانقاذ فرنسا ، فقد قال : « لقد استدعيت بعد الأوان بشهرين » ومن قبل ذكر فى مذكرة له عن الميدان بعد زيارته أنه لا ينظر للأمور نظرة تفاؤل ، وأنه يحس عجز فرنسا عن مقاومة الفاتح . وليس لنا إلا أن نستعيد تصريح فوش الذى يقول فيه إن المعارك إنما تكسب أو تخسر فى العقول والأرواح ، وأن كسب الحرب لا يتحقق إلا باستشمار ثقة بالنصر وإيمان بالتغلب على العدو .

ومع أن التاريخ سيسجل لفيجان وطنيته وبلاءه فى الحرب العظمى الماضية ، فما لا شك فيه أنه سيعد من الرجال المسئولين عن هزيمة فرنسا فى هذه الحرب .

محمد عبد الواحد خلاف

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

فرويد والحرب

للأستاذ علي أدهم

سيجموند فرويد عالم نفسي كبير ومفكر موهوب ، بل هو في رأي العلامة ما كدوجال — أحد نقاده ومنافسيه — أعظم عالم نفسي عرفته الدنيا منذ عهد أرسطو ، وقد ولد فرويد في سنة ١٨٥٦ ، ولا مفر لمفكر من أن يتأثر بوحي بيئته وإلهامات عصره . والفترة التي بدأت تتكون فيها آراء فرويد ، وتتعين اتجاهاته ، وتتكشف خصائص تفكيره ، كانت فترة سريان الأفكار الحرة التي سادت في أواخر القرن التاسع عشر من ناحية ، ومن ناحية أخرى فترة قيام الشركات التجارية الضخمة والمشروعات الاقتصادية الجريئة ، وانتشار أساليب الاحتكار على مدى واسع ، واشتداد المنافسة بين الدول على استغلال الأسواق واستيراد الخامات وتوزيع الإنتاج . ويسمي غلاة الاشتراكيين هذه الفترة : « الطور الأخير من أطوار النظام الرأسمالي » . وكان العلماء في هذه الفترة الدقيقة مأخوذين بحضارة العصر اللامعة ، مؤمنين بتقدم العلم ، يرودون آفاق المعرفة في ثقة واطمئنان ، غير ملتفتين إلى ما كان ينساق إليه العالم من مسالك وعرة ، وما كان يتراكم نحوه من ظلمات مدلهمة ، ولا إلى ما كان يختبئ وراء استتباب الأمن واستقرار السلام من نزعات جامحة ، وأهواء متراكبة ، وعوامل اضطرابات ، وبواعث فتن وهزاهز ؛ فلما استوفى النزاع أطواره ، وانتهى إلى غايته ، وزج بالعالم في أتون الحرب الكبرى السالفة ، استفاق العلماء من أحلامهم ، وأخذوا يفركون عيونهم ، ويتحدثون عن تقشع أوهامهم ، واستشعروا أنهم أسرفوا في نسيان غريزة الكفاح ، وهي غريزة موصولة بالفطرة الانسانية ملازمة لها في شتى استحالاتها ومختلف مظاهرها ، وأخذوا يعجبون كيف غاب عنهم أمرها حتى أخذتهم على غرة ، وكادت تهدم ما بنوا وتفسد ما استصلحوا .

ومن بين هؤلاء العلماء العلامة فرويد ، فقد كتب في سنة ١٩١٥ يقول [١] : « إننا مضطرون إلى أن نعتقد أنه لم تكن ثمة حادثة أشد هدماً وتحطيماً للكثير مما هو قيم ونفيس في ثروة الانسانية العامة ، ولا أكثر تضليلا وإفساداً للكثيرين من أرجح الناس عقلا وأثقبهم رأياً ، ولا أقوى استنزالا لأسمى ما نعرف من مستواه الرفيع ، وقد أخذ العلم يفقد نزاهته البريئة من الأهواء النقية من الشوائب ، وشرع سدنته والحقد حشو نفوسهم يستمدون منه أسلحة يستعينون بها على هزيمة العدو وتخضيد شوكته . وعلماء الأنثروبولوجي قد سبقوا إلى إعلان أن الخصم وضيع الجنس منحدر إلى التدهور . وبدأ علماء النفس ينشرون رسائل يحللون فيها اختلال عقلية العدو وسقم نفسه ... إلى أنتوي في هذه الرسالة أن أفرق بين نوعين من العوامل القوية في الاضطراب الفكري الذي يستشعره غير المحاربين ، وهما زوال الوهم الذي سببته هذه الحرب ، وموقفنا المتغير إزاء فكرة الموت .

« وعند ما أتحدث عن زوال الوهم ، وتهتك ستره ، وانجلاء أكرائه ، يعرف كل إنسان ما أعني ، ولا حاجة بي إلى أن أصطنع رقة العاطفة ، وفي مستطاعنا أن ندرك ضرورة الشقاء الحيوية والنفسية في اقتصاديات الحياة ، ولا يمنعنا ذلك من كراهة الحرب وذمها ، والتبرم بأساليبها وأغراضها ، وأن نستشرف في شوق ولهفة العصر الذي تبطل فيه الحروب ، وينحسم شرها . وحقيقة أننا كنا نسر في أنفسنا أن الحروب لا ينتهي عهدها ما دامت الأمم تعيش في أحوال متباينة ، وما دامت حياة الفرد

١) راجع ما كتبه في كتاب Civilization, War and Death

مختلفة القيمة في الأمم المتنوعة ، وما دامت الأحقاد التي تفصم ما بينها من عرى وتفسد العلاقات الحسنة صادرة عن قوى غريزية في العقل ؛ ولكننا برغم ذلك أرخينا لأنفسنا عنان الأمل ، وطاب بأوهامنا أن الأمم البيضاء العظيمة التي تولت قيادة النوع الانساني ، والتي أصبح لها مصالح في نواحي المعمور ، والتي كان لقواها الخالقة أجل أثر في تقدمنا الصناعي وسيطرتنا على الطبيعة وفي محصولنا العلمي والفني — أقول طاب بأوهامنا أن مثل هذه الأمم لا بد أن توفق في ابتكار أسلوب آخر لفض الخلافات ، وعلاج تصادم المصالح ، وتعارض المآرب والغايات ؛ وفي نطاق كل أمة من هذه الأمم ، وداخل حدودها ، تسود معايير راقية من العادات يمتثل لها الأفراد ، ويحرصون عليها ، وعليهم أن يستمسكوا بها ، ويعتصموا بحبالها ، إذا تطلعوا إلى المشاركة في امتيازات المجتمع ، وهذه الفرائض والسنن — وهي في الغالب عنيفة صارمة — تضطر الفرد إلى أن يبذل مجهوداً كبيراً في ضبط النفس وكبح الغرائز والامساك عن تلبية مطالبها وإشباع نهمتها ، وهي على وجه التخصيص تحظر عليه الانتفاع بالفوائد العظيمة التي تعود عليه من ممارسة الكذب واللجوء إلى الغش والخداع في المنافسة القائمة بينه وبين مواطنيه ؛ وتعتبر الدول المتحضرة هذه المعايير المقبولة أساس وجودها ، وهي تنذر بصارم العقاب كل من تمتد يده إليها بسوء ، بل هي تضيق ذرعاً عن يجترئ على تناولها بالبحث أو النقد ؛ وكان المفروض يقتضي أن تحترم الدولة نفسها هذه المعايير ، ولا تفكر في الخروج عليها والاستهانة بها ، وقد سلمت بأنها قوام المجتمع ؛ ولكن ثارت الحرب واندلع لهيبها ، تلك الحرب التي رفضنا أن نعتقد بها ، فزالت الغشاوة عن أبصارنا ؛ وهي إن لم تكن أكثر سفكا للدماء وإمعاناً في التدمير والخراب من الحروب السالفة بسبب زيادة أسلحة الهجوم والدفاع في الكمال والنمو ، فإنها لا تقل عنها فظاعة ونكراً ، وقد عبثت بأوضاع القانون الدولي الذي فرضت الدول على نفسها احترامه في إبان السلام ، وتجاهلت حقوق الجرحى وامتيازات الخدمة الطبية ، والتفريق بين المدنيين والمحاربين ، وحقوق الملكية الفردية ، وقد وطئت في ثورة غضبها وعرواء جنونها كل ما صادفته في سبيلها ، حتى كأن لم يبق أمل في المستقبل للإرادة الخيرة بين الناس ، وقد قطعت كل الأواصر بين الأمم المتطاحنة إلى حد ينذر بأنها ستخلف في النفوس من الحقد والمرارة ما يجعل تجديد الصلات واستئناف العلاقات أمراً غير ميسور ردحاً من الزمن . والأمم المتحاربة تستبيح لنفسها كل محظور ، وترتضي كل عمل من أعمال القسوة خليق بأن يلوث سمعة الفرد ، ويلحق به العار الدائم ؛ وهي لا تكتفي باستعمال الخداع المباح ، بل تلجأ إلى الكذب الصراح المتعمد والغش والتدليس ، وتطالب أفراد الشعب بالخضوع التام والتضحية الكاملة ؛ وفي الوقت نفسه تعاملهم معاملة الأطفال القاصرين وتكتم عنهم الحقائق ، وتضن عليهم بالأخبار ، وتفرض عليهم الرقابة ، وتنكث العهود المبرمة بينها وبين غيرها من الدول ، وتنقض الاتفاقات والمعاهدات ، وتكشف عن رغبتها في السلب والنهب ، وشهوتها إلى القوة والنفوذ ، وعلى الفرد أن يقر ذلك ويجيزه باسم الوطنية » .

ويسترسل فرويد قائلاً — وكأنه كان ينحى على نفسه باللائمة — « إننا نرحب بالأوهام لأنها تجنبنا الأزمات العصبية ، وتذلل لنا سبل المسرات ، فلا ينبغي أن نشكو إذا عارضتها الحقيقة ، فانهار بناؤها وذهبت بدداً » .

ويكفي هذا القدر الذي نقلته عن العلامة فرويد لتوضيح ما أثارته الحرب السالفة في نفسه من خواطر وشجون وآراء وتأملات ، وقد هزت بناء أفكاره ، وحملته يعيد النظر في أعطاف نظرياته ، ونقلته إلى مرحلة جديدة من مراحل التفكير ، ووثقت العلاقات بينه

وبين المذهب الحيوى ، وقربته من آراء شبيهة بآراء ما وراء الطبيعة .

ويبدو الفرق بين هاتين المرحلتين من مراحل تفكيره فى نقد فرويد لتلميذيه « يونج » و « ادلر » ، فهو يرفض نزعة يونج الصوفية ، ويعترض على تفسيره الظاهر النفسية تفسيراً دينياً بدلا من أن يفسر الدين من الناحية النفسية ، ويتمسك بمادبته ، ويؤكد أن « غرض العلم هو أن يصل إلى التجاوب مع الحقيقة ، أى مع ما هو موجود فى خارج نفوسنا وما هو مستقل عنا ، وقد علمتنا التجربة أنه حاسم فى تحقيق رغباتنا أو مقاومتها وإحباط مساعانا ، وهذا التجاوب مع العالم الواقعى الخارجى هو ما نسميه الحق » .

وينكر فرويد كذلك على ادلر رأيه فى العجز عن معرفة العالم الموضوعى وإصراره على نسبية الحق ، وعطفه على الرأى القائل بأن علينا أن نحتفظ بالاعتقاد الذى يمكننا من أن نلائم بين أنفسنا وبين الواقع كما نجده ؛ وهو يتهم هذا الرأى بالرجعية ومسايرته للآراء التى تعمل على مقاومة العلم .

وقد نشأ فرويد فى عصر ازدهار المادية الآلية التى غلبت على أواخر القرن التاسع عشر ، وظل وفياً لها إلى ما قبل الحرب الكبرى ، وعادى فى سبيلها تلميذيه السابقين المذكورين ، ولكنه اضطر بعد ذلك إلى الانحراف عنها إلى حد ما ، واقترب من المذهب الحيوى ، والمذهب الحيوى يوافق المادية الآلية فى مقدماتها ؛ ولكنه يحاول بعد ذلك أن يحل مشكلاته بإضافة قوى حيوية جديدة ، وقد اقترب فرويد من هذا المذهب تحت تأثير صدمة الحرب الكبرى السالفة .

وقد تأثر فرويد بالحرب تأثر رجل كان فى الواقع مخدوعاً بانتشار المبادئ الحرة دون أن يلتفت إلى النزعات الاستعمارية واستفحال نقائض النظام الرأسمالى ، وقد استطاع أن يحتفظ خلالها بتوازنه ورَزانة تفكيره ، وأخذ مذهبه ينحو نحواً جديداً يتسع لتفسير هذه الحرب الفاجئة .

لقد بدأ فرويد تفكيره بفرض كانت تسلم به أكثر المذاهب الاجتماعية ونظريات علم الحياة ، وهو أن كل أفراد النوع الانسانى — وهم يشتركون فى ذلك مع صور الحياة الأخرى جميعها — تحركها دافعان داخليان ، هذان الدافعان هما دافع المحافظة على الذات ، ودافع المحافظة على النوع ؛ ومن ثم قسم الغرائز الانسانية إلى شعبتين رئيسيتين ، غرائز الأنانية التى تقصد إلى المحافظة على الذات ، والغرائز الجنسية التى تقصد إلى المحافظة على النوع . ونشبت الحرب فواجهت علماء النفس حالات غريبة لم تخطر لهم ببال ؛ فقد شاهدوا الفرد وهو يعمل على تحطيم نفسه وإزهاق روحه ، ولا يترفق لها ، وتأملوا الشعوب وهى تعمل برمتها على إبادة نفسها وإهلاك حضارتها ، وأثبتت لهم المشاهدات العديدة ، والحوادث المتلاحقة ، أن الانسان لا يتريث فى الاقدام على الموت والالقاء بنفسه إلى التهلكة ، وأن الشعوب لا تتردد فى خوض الحرب ، والاستهداف للإبادة والاستئصال ، فكيف تتغلَّبُ على أمرها غريزة المحافظة على الذات وهى قوام كل شىء فى الحياة ؟

تلقاء هذه المشكلة لم يحاول فرويد أن يفسر لنفسه كيف اشتعلت الحرب ، والمقدمات التى أدت إلى قيامها ، واكتفى بأن يحاول أن يفهم كيف يميل الناس إلى الحرب وقد انطلقت من عقالها وثارت ثائرتها .

وقد اعترضته فى بادئ الأمر عقبات ، فإن الغرائز تشمل دوافع الأنانية وفى الغريزة الجنسية بواعث السادية ، ولكن ذلك كان لا يكفى لتفسير الحرب وتعليل وقوعها ؛

فأخذ فرويد يتجه إلى تأكيد الجانب السيء مما يعتقد أنه هو الطبيعة الانسانية فقال : « إننا قد انسقنا إلى اعتبار الطبيعة الانسانية أحسن حالا مما هي عليه في الواقع ؛ وفي حركة التقدم الانساني يستحيل الكثير من الدوافع السيئة دوافع صالحة ، وتنقلب الأنانية الذاتية إلى ضرب من ضروب حب التضحية ، ولكن بعض التجارب تعكس عمل الحضارة فتحدث ارتداداً إلى الغرائز الأولى »

ويقول فرويد بعد ذلك : « إن تأثيرات الحرب هي إحدى تلك القوى التي تفضي إلى مثل هذا الارتداد » .

ولكن كيف تحدث الحرب ؟ يرى فرويد أن الحرب تأتي من الخارج وأنها لا تفسر في حدود علم النفس ، وأن تبعتها تقع على كاهل الدولة ، ويخرج هنا فرويد من نطاق التفسير الفردي إلى تأمل القوى الاجتماعية المتمثلة في الدولة .

وكان فرويد يفصل ويفرق بين الغرائز الجنسية وغرائز الأنانية والذاتية ، ولكن البحث أثبت أن الانسان في طفولته الباكرة تتجه فيه غريزة الحب الجنسي إلى نفسه ، وتنحصر في ذاته ، ولا يكون هناك فرق بين الطاقة التي تستعمل في المسائل الجنسية ، والطاقة التي تستعمل في المحافظة على الذات بعد اجتياز هذه المرحلة . ومرحلة الطفولة من هذه الناحية — على حد تعبير علماء التحليل النفسي — مرحلة نرجسية Narcissistic ، أي يحب فيها الانسان ذاته ، وحب النفس هو التئام الذات والغرائز الجنسية وتوحدهما ، والحب الذي كان متجهاً إلى النفس يمكن أن يتجه إلى الأشياء الخارجة عنها ، ويمكن أن يرتد إلى النفس . ويرى فرويد أنه ما دام الحب الذي يتجه إلى الأشياء مصدره حب « الانا » فإن حب « الانا » ، وحب الأشياء إذاً من طبيعة واحدة ، وعنصر واحد ، ولا داعي للتفريق بينهما ، ويستطيع الانسان أن يلقى اصطلاح « الليبدو » أو يعبر عنه بالطاقة النفسية على وجه العموم .

وهكذا امتزجت الغرائز الجنسية وغرائز الأنانية ، وتسربت كل منهما في الأخرى ، وأصبحنا ما يسميه فرويد « غريزة الحياة » التي تنشد اللذة وتتجنب الألم ؛ ولكن الكثير من المظاهر لا يتسق مع هذه النظرية ، ولا يجعلنا نؤمن بشمولها وقدرتها على تفسير كل شيء ؛ وكان أشد ما استرعى نظر فرويد إلى ذلك تلك الأحلام الرهيبة التي كانت تراود الجنود وتتمثل لهم فيها تجاربهم القاسية في ميدان القتال ؛ فقد رأى فرويد أن تفسير أمثال هذه الأحلام بأنها « تحقيق رغبات » تفسير غير مقنع .

أمثال هذه المظاهر وما يقاربها مثل مظاهر السادية ، أو الميل إلى إيلام النفس ، ومظاهر السازوكية ، أو الميل إلى إيلام الغير — جعلت فرويد يلتمس تفسيراً آخر ويبحث عن نظرية جديدة شاملة ؛ وقد انتهى إلى وجود ميل داخلي في جميع الأشياء الحية إلى استعادة حالة سابقة للوجود مناقضة للذة ، وقد تناول هذه الموضوع في رسالته الشهيرة المسماة « ما وراء نظرية اللذة[١] » . وكان للآراء التي بسطها في هذه الرسالة تأثير كبير على اتجاهاته الفكرية التالية .

وعند فرويد أنه ما دامت الحياة في الماضي السحيق قد انبعثت في المادة غير الحية بطريقة ليس من الممكن تصورها ، فتمشيا مع نظريته يرى أن غريزة مستحدثة قد وثبت معها إلى الوجود ، غرضها إلغاء الحياة والعودة إلى الحالة غير العضوية للأشياء ؛ وإذا استوضحنا في هذه الغريزة الدافع إلى إبادة النفس أمكننا أن نعرف أن هذه الغريزة هي « غريزة الموت » البادية في كل عملية حيوية .

(١) Beyond the Pleasure Principle .

وهناك إذاً دافعان غريزيان هامان : أحدهما يعمل على المحافظة على الذات والنوع ، ويسمى «غريزة الحياة» ، والآخر يعمل على إتلاف النفس وهدم الحياة ، ويسمى «غريزة الموت» . وتعاون هاتين القوتين ينتج مظهر الحياة التي يتناولها الموت بعد ذلك .

ولكن ما علاقة ذلك بالحرب ؟

غريزة الموت هي في بادئ الأمر وقبل كل شيء موجهة إلى النفس ، ولكن هذه الغريزة الحاطمة المبيدة تقاوم وتعارض غريزة المحافظة على الذات ، وتحت تأثير هذه المقاومة تنحرف عن هدفها الأصلي إلى الخارج ، وعند ما يحدث ذلك تقع حوادث الاعتداء الجنسي أو السادية ؛ ولا يقتصر الأمر على ذلك ، فقد تحدث اعتداءات أخرى غير جنسية ، وهذه الاعتداءات مشتقة من نبعة غريزة الموت .

وهذا هو أساس التفسير النفسي لمسألة الحرب وما إليها من المظاهر الاجتماعية الشاذة الذي يقدمه لنا فرويد ؛ فالفرد لا يتخذ الفرد الآخر وسيلة لاشباع شهوته فحسب ، بل يتخذه كذلك وسيلة لاشباع ميله إلى العدوان ، ويستغل جهده بغير مثوبة ، وينتهب ما علكه ، ويستذله ويتنكل به ، ويسفك دمه ، وكذلك الأمم .

ويعزو فرويد الحرب السالفة إلى تقدم الأسلحة « لأن الناس على الدوام تضع القوى الجديدة المكتسبة تحت تصرف ميلهم إلى الاعتداء » وقد اعتقد فرويد أنه بذلك قد حل مشكلة الحرب ورفع النقاب عن وجهها .

ويحاول فرويد أن يوضح أنه قد انساق إلى تصور غريزة الموت بدوافع فكرية يستمدها علم الحياة فيقول : « واستمساكي بفرض وجود غريزة الاعتداء والابادة في الانسان ليس سببه ماتعلمته من التاريخ أو تجربتي للحياة ؛ وإنما سببه اعتبارات عامة انسقت إليها عند ما حاولت أن أقدر أهمية مظهر السادية والمازوكية » .

ولكن مع ذلك فإن هذا المظهر ظل ماثلا حيال عينيه سنوات طويلة دون أن يوحي إليه هذا الحل ويتأدى به إلى هذه النتيجة .

والحقيقة أن تكوين فكرة « غريزة الموت » واعتبارها علامة من علامات الطبيعة الانسانية ، وخليقة من خلائق الانسان ، من الانتاجات العقلية التي أكرتها ظروف العالم الاقتصادية وأزماته المستحكمة في رأس فرويد ؛ ومعناها أن فرويد انتقل من فكرة امتناع الحرب — أو على الأقل إغفالها وإسقاطها من حسابه — إلى فكرة أن الحرب ضربة لازم ولا سبيل إلى علاجها وتجنبها .

وقد ألقت هذه الفكرة ظلا من الكآبة على فرويد . والمجتمع الذي يقوم على أساس غريزة مثل غريزة الموت هو بلا ريب مجتمع غير مستقر الدعائم ، وقد يوفق المجتمع في كبت ميلنا الداخلي الصميم إلى التعدي على الغير ، وهو الواجب إذا كان لا بد من بقاء المجتمع ؛ ولكن غريزة الاعتداء سترتد في هذه الحالة إلى صميم النفس وحي السريرة ، وتزيد شعورنا بالجريمة إلى حد لا يطاق ولا يمكن الصبر عليه ؛ فالمجتمع إذاً بين نارين عظيمتين وخطرين هائلين ، خطر كبت الميل إلى الاعتداء وتقوية الشعور بالخطيئة ، وخطر انطلاق غريزة الاعتداء والتخريب ؛ وهو موقف محير حقاً ، لأن الناس لكي لا يشتد شعورهم بالخطيئة يلزم أن يكره بعضهم بعضاً ، ويتنكلوا بغيرهم من الناس ، ويذيقوه ألوان العذاب ، ويفتنوا في ذلك تبعاً لارتقاء أسلحة الحرب وتقدم وسائل التدمير والتخريب .

ولكن هذه الغريزة النزاعة إلى الاعتداء ، والمقاومة للحضارة والتي تهدد النوع الانساني بالابادة والهلاك ألا يمكن أن يتقي شرها وتوجه إلى شيء آخر لتتلهى به وتدفع عن العالم شر غوائلها ؟

هنا يلوذ فرويد بعقيدته العلمية . ولا يقدم لنا حلا ،

ولا ينصح لنا بعلاج ، ولكن إذا سلمنا مع فرويد بوجود هذه الغريزة — ولم نقبلها على أنها أسطورة من الأساطير — فهل من المتعذر أن نظن بأن هناك طرائق للتسامي بهذه الغريزة ، وتحويلها إلى اتجاهات نافعة ومجهودات غير محطمة ، أو إيجاد أهداف يصرف إليها الانسان ميله إلى العدوان والايذاء ؟

ومن المحتمل أن تكون غريزة الموت التي أحرزت فرويد وقراءه مجرد استنتاج انتهى إليه فرويد تحت تأثير مراقبة سلوك الانسان في ظروف اجتماعية شاذة متحرجة ، تقتضي التعديل والتبديل ، مثل الظروف التي يعانيها العالم في المرحلة الراهنة من مراحل الحضارة ؟ وهذا السلوك مرتبط بالإطار الاجتماعي الذي وجد الانسان نفسه في داخله ؟ وقد لا يكون من الصواب أن نستخلص من ذلك أن هذه هي طبيعة الانسان في كل العصور وخليقته الخالدة التي لا تتغير .

ودوافع الانسان ورغباته وبواعثه تتلون بلون البيئة ، وتتأثر بالعوامل الاجتماعية السائدة ، والأمر يقتضي أن ننظر إلى الغرائز والحركات والدوافع والحرضات في ضوء النظام الاجتماعي الغالب ، وفي ظلال العلاقات الاجتماعية المسيطرة ، وطالما أكدت الحياة نفسها وقاومت القوى المحطمة للحضارة المبيدة للنوع البشري . وتغيير الوسط الاجتماعي أو تحسين العلاقات الانسانية جدير بأن يطامن النزعات الشريرة ، ويصلح الكثير من العيوب ، وإذا لم نكن من الآملين في مستقبل الانسانية ، فما أخلقنا أن لا نكون من المتعصبين في الاستمساك بالأفكار السيئة عن طبيعة الانسان والتوائه وفساد غرائزه ؟ وهذا العصر بجميع ما ينطوي عليه من حوادث وأفكار لم يخرج عن كونه طوراً من أطوار المجتمع المتقلب ودوراً من أدوار الحضارة وصفحة من صفحات التاريخ .

علي أدهم

من حديث الشعر

للأستاذ أحمد الزين

مجلس ينتظم كلَّ ليلة جمعة في دار لجنة التأليف ، يعدّ بحق من أغنى مجالس القاهرة وأثراها برجال العلم والأدب ، وأساطين الاجتماع والسياسة ، وقادة الفكر والمعرفة .

ولستُ أغلو إن زعمتُ صادقاً أنه قلما انتظم مجلسٌ في هذا البلد ما انتظم هذا المجلس من هؤلاء الصفوة الأفذاذ ؛ فني مصر أفذاذ ، ولكن لا تعرف لهم مجالس تنتظمهم ، وفيها مجالس ، ولكن لا يُعرف أنها تنتظم أفذاذاً .

وفوق ذلك فهو من أزخر هذه المجتمعات وأوفرها حظاً من المناقشات المفيدة ، والآراء السديدة ، وما يتناوله الأصدقاء فيه من الأحاديث القديمة والجديدة التي تلقح الأذهان العقيمة ، وتفتح سبل المعرفة لذوى البصائر المحجوبة ؛ فاذا شهدتَ هذا الحفل وكنتَ قد وهبك الله حُسنَ استماعٍ وتتبعٍ لما يقال ، وقوّةَ وعيٍ واستذكارٍ لما تسمع ، ودقّةَ فهمٍ لما تعي ، وجودةَ هضمٍ لما تفهم ، ولطف اختيارٍ مما يجتمع لديك من ذلك ، ثم وُهبت إلى ذلك ثروةً من البيان ، وسَعةً في العبارة عما تريد تأديته إلى الناس من تلك الأحاديث ، وبراعةً في تنسيق ما وعيتَ من تلك الأفكار والآراء ، استطعت أن تُخرج من ذلك للناس في كل أسبوع رسالة ممتعة غاية الإمتاع ، ثريّةً بشتى الأحاديث والآراء في مختلف العلوم والفنون ، ثم استطعت بعد عدّة أعوام أن تجمع من تلك الرسائل دائرةَ معارف ضخمة ، جامعة لأكثر ما يهمّ العلماء والباحثين ، ممثّلةً أصدق تمثيل أكثرَ مناحي التفكير الأدبي المصري في عصرنا الحاضر ، مرتبة حسب الليالي التي جرت فيها تلك الأحاديث ترتيبَ أبي حيّان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) .

ولعلك تكون قد رأيت بعض تلك الصُّوَر الرائعة التي افتنّت في إحكامها وإبداعها براعةُ الأستاذ الكبير والكاتب القدير الأستاذ أحمد أمين بك ، فقد لخص للقراء سلسلةً من تلك الأحاديث التي دارت في هذا المجلس وأودع فيها من دقة تصويره ما زاد القراءَ شوقاً وتطلُّعاً إلى المزيد منها .

وهأنذا بعد استئذانه أسوق إلى القرّاء حديثاً جرى في الشعر والشعراء في ذلك المجلس ، أثاره عالمٌ فاضل معروف بصدق نظره ، وعُمق تفكيره ، وسَعة ثقافته ، ومشاركة في الفن كبيرة ، لولا أنّ ضبابةً خفيفةً من عواطفه تعترض في جوّ حديثه فتحُول بين الناظر وبين شُعاعِ فِكرِه الثاقب ؛ وأصدقاؤه الذين يعرفون ذلك عنه يجتهدون في تنحية تلك الضّبابة ما استطاعوا ، أو يصعدون بأفهامهم فوقها ، ويستجلُون شعاعَ فِكرِه الباهر مجرّداً عمّا يحجبه .

ذَكَر هذا العالم الفاضل لورد بيرون الشاعر الانجليزى المعروف ، وحكى طرفاً من مساويه ونقائصه وقلّة اكتراثه بأوضاع المجتمع وقيودِه ، ثم عقّب على ذلك بقوله : إنّ نقائص هذا الشاعر قد محت من نفسى كلَّ ما لشعره من محاسن ، وصرفتْنى عن الفيّ في قراءته . ثم دفعته كراهيتُه لناحية من نواحى بيرون إلى الزراية على الشعر وأهله ، فوصَف الشعر — بل وصَمه — بأنه لغوٌ سرطانيّ .

فقال الدكتور زكى بك : وما رأيك فى شكسبير ؟ فأثنى عليه وأطال فى الثناء حتّى أفرط . فقال زكى بك : فأنت تُناقض نفسك فى وصفك الشعرَ بما سبق .

فقال الأستاذ أحمد أمين بك : إنّ ذلك ليس مما يقتضيه العدل ، بل العدل أن يُنظر إلى مواهب المرء

ومثالبه كلّ منهما على حدة ، فأيهما كانت الراجحة هومل المرء بمقتضاها ، وليس من الانصاف فى شىء أن تغطى مثالب المرء مواهبه ، وما يدرينا ؟ لعل وجود بعض المثالب يكون سبباً فى وجود بعض المواهب ونموّها ؛ وضرب مثلا لذلك بشاراً وأبا نواس ومسلم بن الوليد وغيرهم من الشعراء ؛ قال ذلك وشرحه شرحاً مسهباً فى أسلوب ساحر ، وصوت عذب ، ومنطق سليم .

فقال أستاذ آخر من المجلس لا يقل عن صاحبه العاطفىّ دقة نظر وعمق تفكير وسعة ثقافة وغزارة مادة ، لولا ما يمزج به حديثه من دعابة ظريفة تحسن إلى تفكيره أحياناً فتوضحه وتجعله مقبولا ، وتسىء إليه حيناً فتصرفه عن اتجاهه الصحيح أو تصرف سامعيه عن فهمه ؛ قال : إن الشعر من الفنون الكمالية التى تعد من ترف الحياة ، ولا يلجأ إليه إلا كل لاه أو عابث قد تعطل ، وفرغ من جميع شواغل الحياة كما فرغت منه ، إما بتحقق جميع ما يأمل من نعيم وغبطة ، وإما باليأس والاستراحة إلى يأسه ؛ أين هذا الفن من صنع الدبابات والطائرات والسفن الحربية ، وما إلى ذلك من الأمور التى تحفظ للأمة عزها وشرفها ؟ قال ذلك فى لهجة خطابية بارعة ، يلجأ إليها من فاته التأثير بآرائه ، فيستعين على ذلك بإلقائه . ولم يكد يفرغ الأستاذ من دعواه تلك حتى حميت المناقشة ، واشتد الجدل بين الجلساء .

وقال الدكتور زكى بك — وهو كنز ضخم قد ملئ بذخائر المواهب النفيسة التى يستغرق إجمالها للقارئ فصلا طويل الذيول ، بله تفصيلها .

قال : إذا كان الشعر ترجمة عن الشعور الذى هو من القوى الأساسية فى الانسان ، فكيف يعتبر من ترف الحياة ، ويعدّ المجيد لهذه الترجمة لاهياً عابثاً ؟ هذا حيف ؛ وأما قولك : إن الشعر لا يلجأ إليه إلا من فرغت أوقاته من شواغل الحياة ، فكل علم ، بل كل عمل يحتاج إتقانه وإجادته إلى مثل هذا الفراغ والخلو من شواغل الحياة ، وليس الشعر وحده هو المحتاج إلى ذلك الفراغ .

وأما مقارنة الشعر وغيره من الفنون بصنع الدبابات والطيارات وما إليهما ؛ فذلك شاهد للشعر لا عليه ، فانه لم يدفع الدول إلى الإكثار من هذه الصناعات والافتنان فى أنواعها غير عواطف وطنية ، وأحاسيس قومية ، أو عقائد قد اقتنع أصحابها بصلاحيتها ، وأرادوا نشرها أو الدفاع عنها ، وهذه بلا شك من أسمى معانى الشعر ، لرجوعها كلها إلى الشعور والعاطفة .

قال ذلك فى بيان مشرق ولسان طلق ومنطق ذلق . والدكتور زكى بك يحسن الاستماع لمن يناظره ، ما رأيته مرة عاجل مناظره دون إتمام حديثه ، أو حال بينه وبين توضيح ما يريد ، بل ينصت إليه إنصات متيقظ إلى جميع مواضع الضعف فى حديثه ، حتى إذا فرغ نفذ إليه من تلك المواضع ، فلا يرجع حتى يرى حجج خصمه صرعى فى ميدان المناظرة .

فقال الأستاذ أحمد أمين بك : إن فى المرء قوى ثلاثاً : قوة العقل ، والمخ موضعها ، وقوة الشعور ، وهى التى يُرمز إليها بالقلب ، وقوة الارادة ، وموضعها الجوارح ؛ فمتى غلبت على امرئ إحدى هذه القوى وُسم بها ، ونُعت بنعوتها ؛ وعلى هذا فالشاعر قد غلبت عليه قوة الشعور فصار بها شاعراً .

وأقول تكميلا لكلام الأستاذ أحمد أمين بك : إنه قد تتداخل إحدى القوتين الأوليين فى الأخرى كما نرى فى شعر الحكمة ونحوه ، فانه مزيج من قوة العقل والشعور معاً .

وإلى هنا انقطع الحديث فى الشعر والشعراء ، وانتهى بتسليم المخالفين ، والسلام الدائم بين الجالسين ؛ وكانت ليلة ، وكان مجلس ، وكان حديث .

أحمد الزين

قصـــــة زنوبيا

عرض وتحليل

أذكر أنى قرأت مقالاً لكاتب أمريكى رفى به السر ريدر هجارد منذ سنوات عرض فيه لحياة الأديب الخاصة ؛ فقال ما معناه : « . . . وما من شك أن شخصية (عائشة) التى عاشت فى مجموعة من روايات هجارد قد لازمته إلى حد بعيد ، ولا بد أن النقاد واجدون فى حياة القصصى البارع آثار هذه المرأة الخالدة فى كل ناحية من نواحى تفكيره ؛ بل ربما كشفوا من قصتها معه هو ، عوالم لا تقل اتساعاً ورحابة عن تلك العوالم التى خلقها فى قصصه » .

مرت بخاطرى هذه العبارة وأنا أنهيا الكتابة عن قصة زنوبيا للأستاذ محمد فريد أبو حديد ؛ وبعد أن عشت فترة هنيئة مع الملكة العظيمة ، أتبع خطواتها فى منازل الحكم ، وأسير فى ركابها وهى تدير حياة السلطان ، ثم أعود معها إلى حيث تخلع التاج وتكشف عن نفسها ، نفس المرأة الجميلة العاشقة .

مرت هذه العبارة بخاطرى فسألت نفسى : ترى أهذه زنوبيا التى عاشت حقاً حقبة من الزمان ؟ أم هى أخرى تربت فى خيال الكاتب ، وسيطرت على إحساسه فولاها عرش تدمر ، وبنى من أجلها عالماً يفيض بالحياة ، تتحرك شخوصه فى نظام دقيق !

أغلب الظن أن زنوبيا التى عاشت حقاً قد بعثت ، وأغلب الظن أن البعث — وهو حياة جديدة — قد أخذ من الحياة الأولى مقوماتها وخطوطها ، ثم مضى عواده الجديدة من خيال وعاطفة ومعرفة فى طريقه . وأحسب أن زنوبيا التى بعثت تستطيع أن تعيش وحدها ، وإلى أمد بعيد ، دون أن تحتاج إلى عون زنوبيا القديمة . ذلك أن هذه التى بعثت فيها من الحياة ما يغنيها عن الذكريات ، أو عن تلك التى توشك أن تصبح ذكريات .

لعله من العبث أن أحاول عرض قصة يستغرق سردها ثلثمائة وخمسين صفحة . كما أنه من العبث أن أبذل جهداً ضائعاً فألخص أحداثها . ذلك أنها عرض لحياة طويلة مليئة بالأحداث ، وقد تكون هذه الناحية من عمل المؤلف ، ناحية التاريخ ، هى أقل النواحى جهداً ، وأضعفها دلالة على مدى ما فى القصة من جمال ، وإنما أنا بسبيل عرض عمل فنى ، والناحية الفنية فى هذه القصة ، أو أظهر نواحيها الفنية ، إنما هو رسم الشخصيات ، وتلك الألوان التى يصطبغ بها جو القصة ؛ فالقصة لا تحدث فى مكان واحد ، وإنما تتنقل أحداثها من الحضر إلى البادية ، ومن القصر إلى الصحراء ، ومن مجالس اللهو إلى جلسات الفكر والحكمة ، ومن الليالى الوادعة إلى المعارك الدامية . وشخصياتها تنتقل من أمة إلى أمة ، ومن بر إلى بحر . فمدى نجاح المؤلف رهين أولا وقبل شىء بمدى اللوحات التى يصورها قلمه ، ليبعث فى نفوسنا الاحساس بالجو الذى تدور فيه الوقائع أو ينتقل إليه المشهد ؛ وشأن المؤلف فى ذلك شأن المخرج والممثل معاً ، هو حلقة اتصال بين الشخصية والجمهور ، عليهما يتوقف ضعف هذا الأثر أو شدته .

أما الشخصيات فى قصة زنوبيا فأهمها كما يبدو من الاسم زنوبيا نفسها ؛ ثم يلى زنوبيا شخصية الحكيم لونجين ، ويأتى بعد ذلك على الترتيب فى الأهمية لبس جارية زنوبيا ، وأذينة الملك ، وحسان الفارس ، وحبيب لبس أولا ثم زوجها بعد ذلك ، ويلى ذلك شخصيات عارضة تمر بأحداثها فهى رهينة بها لا تتعداها .

وهذه زنوبيا كما رسمها الأستاذ فريد !

ملكة كثير ما تكون الملكات صورة ؛ فهى تطالعنا إلى جانب زوجها فى موكب الصيد ، فلا تكاد تعلق بها أبصارنا حتى تتعلق بها ونشفق من فراقها ، فهى تراها الملكة فى مجالس الحكم إلى جانب زوجها تدير شئون

الحديث وتفهم عن الرجال أكثر مما تم عنه مظاهرهم ؛ فهى لا ترضى من الملك أبهته ، بل تحمل إلى جانب ذلك أعباءه . إنها لتنصح بالصواب حين يعرض أمر من أمور الملك ، فاذا ما ارتطمت الأحداث ونأى زوجها أصبحت وحدها أمام ذلك العباب تشق أمواجه بأكف فى نعومة الأنوثة وقوة الرجولة . وتقسو عليها الأقدار فتضعها عند أقسى موضع يوضع فيه الرجال ؛ فهى إذا ما احتدم القتال تمتطى صهوة جوادها لتقف إلى جوار ابنها تحمل السيف لتناضل عن المجد والوطن معاً . ثم ! ثم ينتهى بها المؤلف إلى صورة الملكة لعلها من أروع صور الملكات ، صورة الملكة الكبيرة التى تتابع عليها أحداث الزمن فتقع فى الأسر ، الملكة الأسيرة التى تنهى قداستها عدوها المنتصر من أن ينال منها ، فيحنى الرأس أمامها .

هذه الملكة نفسها تنطوى على امرأة أخرى رسمها المؤلف . امرأة جميلة عاشقة ، امرأة تحب زوجها ، وتحس الحب فى نفسها ، وتلمسه فى غيرها ، تلمسه من لبس جاريتها ، فتحنو عليه وترعاه ، وترجو وتعمل على أن يمضى هذا الحب إلى نهاية كل حب موفق ، بل تصبح هذه النهاية أمنية غالية تتمناها على زوجها حين يصفو بها الوقت .

امرأة تحس باحساسات المرأة ، فهى تغار من جارية ، حتى لتكاد تأكلها نار الغيرة ، وهى ترى انصراف زوجها عنها إلى شهدناز جارية سابور ملك فارس التى كانت نفسها بعض سباياه فى الحرب ، وهى تكتم آلامها وتنطوى على نفسها ، ولا تجد السلوى إلا عند المجانز ، وفى التبرزة مثلهن ، ولكنها امرأة ممتازة ، فهى تتبرز مع فيلسوف ؛ والسلوى عندها بحث مشاكل الحياة والعقل والوجود مع معلمها الفيلسوف .

ولن تبهرك صورة زنوبيا وحدها ، فهناك غيرها ، هناك صورة لونجين ، العقل والقلب معاً ، الفيلسوف البعيد النظر كما يبدو أول الأمر ، والعاشق المتيم الذى يعرف أنه قد أنزل حبه بواد غير ذى زرع ، أو على الأصح بواد مزروع لا مجال فيه لنبت آخر ، إنه يحب الملكة ، فيغالب هذا الحب ويكبحه . ويرضى فى غرامه بأقل مما رضى به جميل بثينة ! إنه رضى بأن يحب وحده . رضى بأن يعيش فى وادى الحرمان المحرق المقفر طالما يجاوره جنته ! إنه مثلها يجد عن شئون القلب عزاء فى شئون العقل ، حتى إذا ما تسورت الآلام على حبيبته حياتها دفع حياته قرباناً لهذه الآلام ، ومضى وحبه بين جنبيه لا يحس به إلا هو ، وإلا ... أخيراً من أحبها فى صمت وجلد ، تلك التى ما رأت فى غمرة حبها قلبه ، وإنما رأته فقط حين افتقدت الحب وفقدت الجاه !

أما لبس الجارية فصورة للعذراء التى تحتاج للايمان فتجده فى الدين ، وتجد عند الدين الحب ، فتصرفه إلى من يشاركها الايمان ، ويصبغ الدين حياتها شأن المؤمنين بعقيدة جديدة ، فترى فيه كل شىء ، بل وترى عنده لكل مشكلة علاجاً ولكل داء دواء ، حتى لتنصح الملكة بالانجيل كلما أشكل عليها أمر من أمور الدنيا . وعلى طرازها الفتى الفارس حسان ، صورة الشاب القوى المتوفز الذى تحد من نزاوته نزعة دينية فتحيله إلى ملاك جرىء ! !

وهذا أذينة آخر الأمر ، أذينة الملك الجاهلى فى أروع صور الجاهلية وأدقها : شجاعة متهورة تلمحها حين يذهب للصيد وحين يذهب للحرب ، وإفراط فى كل شىء . فى قوة حبه الملكة لا تجد أشد منه عشقاً ولا أكثر حناناً ، وفى مجالس شرابه تلعب به الخمر فلا يعى ما يقول وما يفعل ، وإفراط فى النقمة حتى ليحيد من الملكة إلى جارية تمج من تصوير المؤلف لها أنها المرأة فى صورة جسد وغريزة ، أو المرأة مجردة من كل شىء إلا غريزة الخضوع .

هذا الافراط فى حياة الملك يصوره المؤلف تصويراً دقيقاً حتى لا نكاد نفجع فيه كما فجعت زنوبيا ، حين

يطيح رأسه بضربة من سيف ابن أخيه . وهو صورة الحياة الجاهلية التي كان لا بد للأديان من أن تحد منها وتوجهها ، ولا بد للاسلام بوجه خاص أن ينزل في جزيرة العرب لينظم منها . ومن ثم فلهذه الصورة قيمة خاصة في تصوير فضائل الجاهلية أو رذائلها على حد سواء .

ذلك عرض يسير لشخصيات هــذه القصة ، وقفت فيه عندما رسمه المؤلف لم أتجاوزه وبقيت بعد ذلك قصة الجو الذي يشع في أنحاء الأحداث ويتكيف بالمواقف . فقد وصف المؤلف قصور الملوك ورمال الصحراء ، وقد أعانته في أداء هذه المهمة ثقافة واسعة إلى جانب الخيال الخصب بلا شك ، وقد صور كذلك ملابس الملكة وملابس الملك ، وألوانها وقاعات القصر ، وأثاثها ، ثم دلف إلى الاسكندرية فأشار بإشارة رقيقـة إلى أعقاب مدينة البطالسة ، والتقت عند قلمه في كل ذلك ريشة الفنان وعدسة المصور ؛ وبذلك تم للقصة توفر عناصر القصة التاريخية من خيال دقيق حــذر وأسلوب طلي وثقافة مسعفة .

وبعد ، فما أنا بالمؤرخ حتى أعرض لناحية التاريخ في القصة ، وأتحرى تسلسل الحوادث على ما روى ؛ ولئن كنت مؤرخاً فما أحسبني أيضاً محتفلا بهذه الناحية ، ذلك أنها كما قدمت في أول حــديثي ، أقل النواحي دلالة على قيمة القصة وقدرها الفني الصحيح ، وإن طلب إلى التاريخ أن يكون ينبوعاً للقصة فما يطلب إلى القصة أن تتخذ من التاريخ مجرى تلتزم حدوده ولا تخرج عن شاطئيه . ويحسب الأستاذ فريد أن جلى هــذه الجوهرة وصاغها في أسلوبه وأفاض عليها من خياله . ويحسب القارئ أن يقتنع بالعرض الذي قدمته ويلتمس عند القصة نفسها ما هو أجل من العرض وأغنى .

صلاح الدين ذهني

محكمة مصر الابتدائية الأهلية

إعلان بيع عقار

نشره في القضيتين المدنيتين رقم ١٥١٠ سنة ١٩٣٣ و رقم ١٦٥٦ سنة ١٩٣٤

إنه في يوم الثلاثاء ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤١ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بسراي المحكمة بباب الخلق

سيباع بطريق المزاد العلني العقار الآتي بيانه بعد ملك الأسطى محمد أحمد الحلاق بشارع خان جعفر بمنزله رقم ٦ بعطفة الحسيني بدرب السمط قسم الجمالية بمصر وهذا البيع بناء على طلب الست سلومة هانم محمد عبد الوهاب القيمة بشارع الدرسة بمنزل الخصافي قسم الجمالية وعلها المختار مكتب الأستاذ عزيز عبد النور المحامي بشارع محمد علي رقم ١٤٧ مصر

وبناء على طلب الست نبوية محمد علي القيمة بشارع عزطة الشيخ مبارك ملك عثمان الصيق بحسوار الشيخ مبارك قسم مصر القديمة (طالبة البيع الثانية المنضمة)

وهذا البيع نفاذاً لحكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٤/١٠/١٩٣٣ ومسجل بقلم كتابها في ١٧ منه رقم ١٢٩٦ وفاء لمبلغ ٣٣ جنيه و ٢٣٠ مليم والمصاريف والملحقات

ونفاذاً لحكم نزع الملكية الصادر من محكمة الوايلي الأهلية بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٩٣٤ ومسجل بمحكمة مصر الأهليـة في ٦/٦/٩٣٤ رقم ١٠٢٢ وفاء لمبلغ ١٠ جنيه و ٢٠٠ مليم والملحقات في القضية المدنية رقم ١٦٥٦ سنة ٩٣٤ الوايلي المنضمة للقضية الأولى باتفاق الطرفين القائلين بأن العقار في القضيتين واحد

بيان العقار

١٢ ط الى عشر قراطاً في كامل أرض وبناء المنزل رقم ٦ بعطفة الحسيني بدرب السمط شياخة قصر الشوق قسم الجمالية محافظة مصر المكون من أربعة أدوار وحدوده كالآتي :—

البحري ورثة إبراهيم الحكيم وطوله ٨ متر و ٢٠ س

والشرقي بعضه ملك الجار وباقيه عطفة الحسيني وهو مكون من ثلاثة مستقيمات تبتدئ من بحري القبلي بطول ٢ متر و ٧٠ س ثم يغرب بطول ٣ متر و ٥٠ س ثم يقبل بطول ٨ متر و ٩٠ س

والقبلي محمد أحمد إبراهيم بطول ٧ متر و ٥٠ س

والغربي ضريح الشيخ الطبلاوي وفاطمة محمد وهو مكون من ثلاثة مستقيمات تبتدئ من قبلي لبحري بطول ٤ متر و ٧٥ س ثم يشرق بطول ٣ متر و ٢٠ س ثم يبحر بطول ٦ متر و ٦٠ س

ومسطح أرض ذلك ١٠٢ متر و ٦٥ س مربعاً

وسيكون البيع بثمن أساسي قدره ٦٤ جنيه والمصاريف وشروط البيع مودعة بقلم كتاب المحكمة لمن يرغب في الاطلاع عليها فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان الموضحين بعاليه

كاتب البيوع

ســـــلامة القَس

للأستاذ علي أحمد باكثير

وإذ لم يبق دون المدينة إلا يوم واحد اعتزلا الركب وانفردا عنه بذلوليهما يستعجلان الطريق. ولاحت لهما معالم المدينة فلم يتمالكا دمعهما فرحاً، واستيقظت فيهما ذكريات الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه وجهادهم في سبيل الله حتى ظهر دينه على الدين كله.

وأقبل أُحُد يتهادى! فتهلل قلباهما له، وروى ابن سهيل لصديقه قوله عليه الصلاة والسلام في أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه».

فأخذت عبد الرحمن سورة من الطرب كأنه لم يسمع هذا الحديث إلا تلك الساعة من ابن سهيل وما كان الأمر كذلك وإنما أثار الحديث ساعتئذ في نفس عبد الرحمن شيئاً لم يكن يثيره من قبل فكأنه جديداً عليه وليس بجديد. فقد شعر عبد الرحمن في تلك الساعة كأن أحداً ليس جبلا من صخر أصم، ولكنه مخلوق حي يتنفس ويشعر ... ... ويحب!

ذكر عبد الرحمن الحب فذكر سلامة ونظر إلى الجبل الحبيب فود لو استطاع فاحتضنه! وجاشت نفسه بصور من الماضي وعاها قلبه وقصر عنها عقله ولسانه! هذا جبل يحنو على المدينة ويرعاها كأن الله أقامه ليحرسها، وفي المدينة محمد حبيب الله وحبيب المؤمنين، وفي المدينة شخص آخر يحب عبد الرحمن ويحبه عبد الرحمن ... فيا أيها الجبل الحاني على المدينة ما أحناك علينا! وما أحبنا إليك وأحبك إلينا!

وأخذا يسيران على مهل بين النخيل والزروع في ضاحية المدينة كالمشفقين على ذلك الطريق الوادع بين الماء والظل أن يقصر أمده، أو كالمتهيبين دخول مدينة الرسول!

حتى إذا أشرفا على الديار خفق قلباهما، ونظر كلاهما إلى الآخر كأنه يقول له: ها نحن أولاء قد وصلنا.

وتنهد عبد الرحمن وقال: ما رأيت المدينة يوما ما أجمل منها اليوم!

فقال ابن سهيل: لا تقل هذا ويلك من طيبة، فهي أبداً جميلة!

فقال عبد الرحمن: صدقت يا ابن سهيل، ولكني لا أدري لماذا أراها اليوم آنس مما كنت أراها من قبل.

فابتسم ابن سهيل وقال له: ألأن فيها سلامة؟

فسكت عبد الرحمن هنيهة ثم أشار إلى الجانب الغربي من المدينة وقال: إني أجد نفسها من هذا الجانب!

قال ابن سهيل: أبشر يا عبد الرحمن فستراها قريباً.

فاندفع عبد الرحمن يقول: وافرحتاه! ليت شعري أتعود إلينا سلامة؟ أيرضى مولاها أن يبيعها لنا؟

فقال ابن سهيل: لم لا ونحن عارضون عليه ضعف المال الذي اشتراها منا به؟ وقد بلغني بعد أن من دأب هذا الرجل أن يشتري الجواري فيعلمهن الغناء حتى إذا برعن فيه باعهن بأثمان كبيرة.

ودخلا باب المدينة، وأخذا يجولان في شوارعها حتى وقفا على دار ابن أبي عتيق، فنزلا عن ذلوليهما، واستأذنا عليه، فخرج لهما رجل كهل حسن الهيئة، فما إن رأى ابن سهيل حتى اندفع إليه يعانقه قائلا: أهلا بابن سهيل، مرحباً بالصديق الكريم! ثم صافح عبد الرحمن وقال لابن سهيل: من هذا الشريف الذي معك؟

قال ابن سهيل: هذا صديقي عبد الرحمن بن أبي عمار.

قال ابن أبي عتيق: القس! أهلا بك وبه ... هيا بنا إلى المنزل.

فقال ابن سهيل: لا نريد أن نثقل عليك يا ابن أبي عتيق.

قال ابن أبي عتيق: لا والله لا تنزلان إلا عندي.

قال ابن سهيل: شكراً يا ابن أبي عتيق ... ألا تدلنا على دار ابن رمانة؟

قال ابن أبي عتيق: لعلكما تريدان أن تريا سلامة؟

قال ابن سهيل: هو ذاك.

فقال ابن أبي عتيق: إذاً تذهب معاً لسماعها في مجلسها بعد العصر.

فاعترض ابن سهيل قائلا: ولكنا لم ندع إلى هذا المجلس فلن نحضره.

فقال ابن أبي عتيق: إنه مجلس يحضره من شاء من أهل المدينة بغير دعوة.

قال ابن سهيل: كيف ذاك؟

فأجابه ابن أبي عتيق قائلا: إن ابن رمانة رجل تاجر يحب المال، فهو يعقد لجاريته مجلسا في كل أسبوع يحضره من يشاء ليشتهر أمرها فيبيعها لمن يغلي له الثمن.

فخفق قلب عبد الرحمن عند سماع هذا، وبرقت أسارير وجهه ولم يتمالك أن قال: إذاً فهو يريد بيعها؟

قال ابن أبي عتيق: لا شك ... وهذا أسلوبه في التجارة...

ونظر إلى ابن سهيل قائلا: كأني بك جئت تسترجعها يا ابن سهيل.

قال ابن سهيل: ذلك ما جئنا من أجله.

فعز هذا على ابن أبي عتيق، إذ كان قد سمع بما بعث الخليفة لشراء سلامة، ولكنه آثر أن لا يفاجئ صديقه بهذا النبأ، وأن يتركه حتى يعلم ذلك بنفسه من ابن رمانة، فقال: أما والله إنها لجوهرة لا تصلح إلا لك!

قال ابن سهيل: ألا نذهب إليه الآن لنكلمه في شأنها؟

قال ابن أبي عتيق: لا ... ليس الآن ... حتى تستريحا وتزيلا عنكما غبار السفر، فإذا كان العصر شهدتما مجلسها فقابلتما ابن رمانة.

قال ابن سهيل: ولكني لا أريد أن يعرفنا أحد في المجلس.

قال ابن أبي عتيق: لكما علي ذلك فاعتمدا علي.

وأمر ابن أبي عتيق غلمانه بإدخال خرجيهما، والدابة

يراجليهما ؟ ودخل بهما المنزل ، فتغديا وصليا الظهر واستراحا ، حتى إذا كان العصر اغتسلا وخرجا مع ابن أبي عتيق إلى المسجد ، فشهدوا الجماعة ثم خرجوا يقصدون دار ابن رمانة .

وأشرفوا عليها فإذا دار كبيرة تحيط بها حديقة غناء ، وإذا فناء واسع تحت الدار قد نصب في وسطه حجاب كثيف يجلس في جانب منه الرجال ، وفي الجانب الآخر النساء ، يأتين إليه من باب خاص بهن .

وكانت سلامة قاعدة على كرسي موضوع بين الجانبين ، بحيث يراها الرجال والنساء وعليها حلة لازوردية ، وأمامها منضدة تضع عليها العود والشراب . وكان الناس قد دخلوا أفواجاً فقعدوا على الأرض المفروشة بالطنافس ، وغص المكان بالحاضرين ، ولا سيما جانب الرجال .

وبدأت سلامة تعالج عودها وتشد ما ارتخى من أوتاره .

وكانت امرأة تقول لأخرى جاءت وجلست بجانبها : أهلا بك يا عافية ! ما جاء بك ؟ إني لم أرك هنا قبل اليوم !

فأجابتها صاحبتها بلهجة شاكية : لا تسأليني يا خديجة ... جاء بي هنا ما جاء بك ... لقد تزوج بعلي امرأة أخرى وهجرني فجئت أتسلى بغناء سلامة !

فقالت المرأة : أيهجرك بعد ذلك الحب كله ؟

فتنهدت صاحبتها وقالت : هذه قسمتي يا خديجة !

وكان رجل من الحاضرين يكلم صاحبه ويقول له : حقاً والله إن سلامة لنعمة من الله على أهل طيبة ... إنها تسلي همومهم وأحزانهم .

فقال له صاحبه : لكنها لن تدوم لنا ... لقد بلغني أن رسل يزيد بن عبد الملك قد جاءوا لشرائها من ابن رمانة .

فقال الرجل : لا حقق الله ما تقول .

قال صاحبه : إني سمعت ذلك من بعض الرجال الذين لهم صلة وثيقة بابن رمانة .

وكانت سلامة قد بدأت تغني ، فسكت الناس كأنما على رءوسهم الطير يستمعون إليها وهي تقول :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر ؟
وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر ؟
ألا ليت أني حين سارت بها النوى
جليس لسلمى كلما عج مزهر

ودخل ابن أبي عتيق وصاحباه في تلك اللحظة ، فجلسوا في أخريات الناس ، وذلك عند ما كانت سلامة تقول :

فيا راكباً إمّا بلغتَ لطيبة وشمّك واديها الأغرُّ المنور
فقلْ رَبوةٌ والرأتحة عاشق له في مغانيها من الإنس جؤذر !

فهمس ابن سهيل لعبد الرحمن قائلا : إنها أبياتك يا قس .

فقال عبد الرحمن : بأبي هي وأمي !

فأسر إليهما ابن أبي عتيق قائلا : إنها مولعة بهذه الأبيات تغنيها دائماً ، وهي أحب أغانيها إلى أهل المدينة .

وغنت سلامة وقد خالط صوتها البكاء :

أقول لقلبي كلما زاد شجوه ألامَ يهيجك الأسى والتذكر ؟

تصبَّر ، فصاح القلب : هيهات ، إنه بصير فما يجدي على الصبر ؟

فطفق النساء يبكين وتعالى النحيب من جانبهن .

وغلب عبد الرحمن الوجدُ حتى كاد يغشى عليه ، فأخذ ابن سهيل يسنده أن يقع على الأرض وهو يقول له همساً : تجلد يا عبد الرحمن ولا تفضحنا في الناس ، انهم بدأوا ينظرون إلينا .

وغنت سلامة بصوت قد براه النحيب فكاد يبيد :

غدا الزاد يا عيني من نور وجهها فما لكما فيه سوى اليوم منظر !
غداً تصبحان اليوم حول تلفت فيبكي ويطفئ الدمع المتفجر !
ترجعان في وجه الحبيبة نظرة ومن دون مثواها نجود وأغوار !

ولم يقو عبد الرحمن على احتمال ما به ، فشهق شهقة لفتت أنظار الناس إليه وهو يبكي ويتضرع ، وقد ثقل على ساعد ابن سهيل حتى كاد يرضه ، واحمر وجهه وجحظت عيناه ، وأخذتا تميلان إلى مصدر الصوت . فما إن أعادت سلامة قوله :

غدا الزاد يا عيني من نور وجهها فما لكما فيه سوى اليوم منظر !

حتى استوى على ركبتيه متطاولا وجعل يحدق في وجه سلامة وعيناه زائغتان ، فلمحته سلامة فعرفت وجهه ، وعرفت ابن سهيل إلى جانبه والتقت عيناه بعينيها ، فوقع عبد الرحمن على الأرض مغشياً عليه .

فقال ابن سهيل : أسرع يا ابن أبي عتيق لنحمله إلى المنزل .

فنهض ابن أبي عتيق مع ابن سهيل فحملا صديقهما الشاب وخرجا به والناس ينظرون إليهما .

وتغير وجه سلامة وارتعشت أطرافها وأحست كأن الأرض تدور بها ، فأشفقت أن يراها الناس كذلك ، أو أن يغشى عليها في النادي ، فقامت من كرسيها ودخلت باب الدار مسرعة .

واضطرب المجلس وسأل الناس بعضهم بعضاً عن الحادث حتى ارتفع اللغط .

ورؤي صاحب الدار يجري منطلقاً في إثر ابن أبي عتيق وابن سهيل حتى أدركهما عند باب الحديقة فاستوقفهما وقال لهما : هلما به إلى الدار لنعالجه

فأجابه ابن أبي عتيق قائلا : سنعالجه في دارنا

فتشبث بهما ابن رمانة قائلا : لا والله لا أدعكما تخرجان به من هنا فيقضي في الطريق .

فما كان منهما إلا أن نزلا على رأيه فقاداه إلى الدار من طريق آخر

وانفض الناس منصرفين ، وأخذ الرجال يخرجون من أبوابهم والنساء من أبوابهن وهم يتساءلون عن الحادث ، ويروي بعضهم لبعض ما رآه أو ما سمعه :

— إنه القس عاشق سلامة

— القس الذي سميت سلامة به ؟

— نعم هو .

— ويحه ما أتعس حاله !

— جاءوه مغشياً عليه .

— أما رأيت سلامة كيف اضطربت لما رأته ؟

— نعم ، انها هي الأخرى تحبه !

(يتبع) علي أحمد باكثير

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة
AL-THAQAFA

الإدارة: ٩ شارع السكرماني عابدين — القاهرة — تليفون رقم: ٤٢٩٩٤ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٥٥ — الثلاثاء ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٦٠ — ١٦ من ديسمبر سنة ١٩٤١ — السنة الثالثة

فهرس العدد

الحرب تعم كوكب الأرض

للدكتور محمد عوض محمد

زال عن المحيط الهادى هدوؤه . . .

لقد كانت السحب القاتمة تتشاء منذ زمن طويل ، ولكن الأمل كان يلعب بالنفوس ويُطمع محبي السلم أن ستنجاب تلك الغمة ، ويصفو الهواء ، وتدين الشهوات لحكم العقل ، فتحقن الدماء ، وتطمئن القلوب .

كان هذا أملا خائباً وطمعاً فى محال ، فلم يلبث الجو أن ازداد اكفهراراً ، وامتلأ بالصواعق المدمرة ، وأخذ التخريب والهلاك ينزل بالمحيط الهادى فى قلبه ، وفى سواحله شرقيها وغربيها ، وفى لمحة الطرف عمت الحرب كوكبنا الشقى التعس ، وهرب الأمن من البقية الباقية من أركانه التى كانت تنعم بالأمن .

فى اليوم السابع من هذا الشهر أعلنت اليابان لجاءة على الولايات الأمريكية المتحدة ، وعلى دولة بريطانيا حرباً صريحة جريئة ، لم تحاول فيها أن تفعل كما فعلت ألمانيا فى زحفها على بولونيا ، تاركة للدول الأخرى أن تتحمل تبعة إعلان الحرب ، وكان بوسع اليابان أن تكتفى بالزحف على سيام ، تاركة الرأى الأمريكى مشتتاً منقسماً ، والفرصة سانحة لأنصار العزلة أن يرفعوا عقائرهم بأن سيام لا تعنيهم ، وأن الدم الأمريكى أغلى وأعز من أن يبذل من أجل سيام .

بيد أن اليابان لم تفعل شيئاً من ذلك ، بل فضلت أن تكون البادئة بإعلان الحرب ، وبسفك الدم الأمريكي الثمين فجأة ومن غير إنذار ، ومهدت لضربتها المفاجئة بإرسال وفد إلى حكومة واشنطن لكى يفاوض ، ويطيل المفاوضة ، ويراوغ ما وسعته المراوغة ، وأخذت المقترحات ترسل بالبرق إلى طوكيو ، لكى تدرس على مهل وتفحص بتدبر وإمعان ، وكان ختام تلك الرسائل رسالة جليلة هى آخر ما يلجأ إليه فى مثل تلك الظروف — بعث بها زعيم أمريكا روزفلت إلى جلالة الميكادو عاهل اليابان العظيم ، يناشده فيها السلم وحقن الدماء ، ولم تكد هذه الرسالة تصل إلى يد جلالته ، حتى كانت السفن الأمريكية تتلقى القذائف المدمرة من الجو ، وأرواح أمريكية عديدة تلقى حتفها ... وفى جزر هاواى وحدها — وبينها وبين اليابان ثلاثة آلاف وأربعمائة ميل ! — لقى ألف وخمسمائة من السكان حتفهم فى يوم وبعض يوم ، وأصيب مثل هذا العدد بجراح بليغة ، وقد بدأ هذا العدوان العنيف ، والأمريكيون يعلمون علم اليقين أن ليس بينهم وبين اليابان حرب ، ولذلك ناموا ملء جفونهم ، حتى أيقظهم وقع القنابل تحمل الموت والدمار .

* * *

إن خير وسيلة تمكننا من فهم هذه الحوادث المفظعة ، أن نلم إلمامة قصيرة بمركز كل من الدول الكبرى فى المحيط الهادى ، وعلاقة بعضها ببعض .

لقد كانت اليابان إلى منتصف القرن الماضى دولة ذات نظام إقطاعى ، منطوية على نفسها ، ليس بينها وبين العالم الخارجى صلة ، وتجارتها الخارجية توشك ألا يكون لها وجود .

وفى عام ١٨٥٣ وصل إلى المياه اليابانية كبير من رجال البحرية الأمريكية يدعى القومادور برى ، والتمس الاذن بأن ينزل إلى البر ، لكى يسلم رسالة من رئيس الولايات المتحدة إلى جلالة الامبراطور . وبعد أن سلم الرسالة ودع وانصرف ، واعداً بأن يعود بعد مضى عام كامل ، لكى يتلقى الرد من حكومة جلالته . وقد عاد فى عام ١٨٥٤ ، واستطاع أن يعقد معاهدة تجارية تخول السفن الأمريكية الحق بأن ترسو فى بعض الموانى اليابانية ، فتشترى منها ما تحتاجه من بضاعة ومؤن . وأن تقوم بالتجارة فى الحدود التى تضعها الحكومة اليابانية .

فتحت هذه المعاهدة لليابان باباً خرجت به من عزلتها ، وأخذت تزداد اتصالا بالعالم الخارجى ، وشرعت فى نهضتها الاقتصادية الحديثة ، فبنت الطرق الحديدية ، وأنشأت حكماً نيابياً ، وأخذت تقلد الغربيين فى أساليب تقدمهم . فلم تلبث أن ارتقت صناعاتها وتجارتها ، وأخذت سفنها تجتاز المحيطات ، وأرسلت مندوبيها وبعثاتها إلى جميع أنحاء العالم . وكانت نهضتها السريعة موضع إعجاب عام . ولكنها لم تكتف بالنهوض الاقتصادى والاجتماعى ، بل أخذت فى إبان نهوضها تفكر فى التوسع وضم أقطار جديدة .

تتألف بلاد اليابان الأصلية من جزيرتين كبيرتين ، يزو فى الشمال وهندو فى الجنوب . والأخيرة أكبر وأجل خطراً من الأولى . وهنالك جزر أخرى أقل حجماً وخطراً ، أهمها الجزر الجنوبية الملاصقة لهندو . بدأت اليابان توسعها فى الأراضى ، بأن طلبت وأخذت من روسيا جزر كوريل — وهى جزر ممتدة من شمالى اليابان إلى شبه جزيرة كمشتكا فى الطرف الشرقى من سيبيريا — وذلك فى مقابل تنازل اليابان عن حقها فى جزيرة سخالين . وكان ذلك فى عام ١٨٧٥ .

وفى العام التالى مباشرة استولت اليابان عنوة على جزر أخرى جنوبى الجزر اليابانية ، وهى جزائر لوتشو

التابعة للصين . وكان من الواضح أن الصين في حالة من الضعف السياسي والحربي بحيث لا تستطيع لأعدائها دفعاً . ولذلك شنت اليابان حربها الأولى على الصين في عام ١٨٩٤ ، وبواسطة هذه الحرب استولت اليابان على كوريا ، وجزيرة فرموزا الغنية ...

وتم لها ذلك في عام ١٨٩٥ ، وهي سنة هامة في تاريخ اليابان ، فإن بسط نفوذها على كوريا قد أخرج اليابان من كونها مجرد دولة بحرية في جزيرة ، وجعل منها دولة من دول القارة ، تلاصق حدودها سيبريا الروسية ، ومنشوريا ، التي للروس فيها نفوذ كبير .

أما استيلاء اليابان على جزيرة فرموزا فقد قربها من جزر الفلبين ، إذ ليس بين الاثنتين سوى ثلثمائة من الكيلومترات ، بل إن هنالك جزراً صغيرة تنتمي إلى الفلبين ، ليس بينها وبين فرموزا سوى مائة واحدة من الكيلومترات .

كان احتلال اليابان لكوريا نذيرا الشر بينها وبين روسيا ، فاشتعلت الحرب بينهما عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ، وانتهت بانتصار اليابان ، وعقد الصلح على أن يكون لليابان النصف الجنوبي من جزيرة سخالين ، وأن تنسحب الجنود الروس من منشوريا ، وتعترف بالنفوذ الياباني في كوريا .

ودخلت اليابان الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء ، فاستطاعت أن تستولي على مجموعات من الجزر التابعة لألمانيا في المحيط الهادي ، وعلى مستعمرة ألمانية على سواحل الصين ، ثم أخذت تمعن في توغلها السياسي والاقتصادي في بلاد الصين ؛ والدول الكبرى في شغل بالحرب الطاحنة ، وليس بينهم من يرغب في إثارة مشكلة جديدة في الشرق الأقصى .

وكانت أكثر الدول تألماً لمسلك اليابان دولة الولايات المتحدة الأمريكية ، التي آلمها أن ترى اليابان لا تشترك في الحرب الكبرى إلا بالاستيلاء على ممتلكات ألمانيا ، وانتهاز فرصة اشتغال حلفائها بالحرب ، لتوسيع نفوذها في الصين .

ولا بد لنا هنا أن نلقي نظرة إلى الجانب الشرقي من المحيط الهادي ، ولنستوضح الصلات التي تربط الولايات المتحدة بالشرق الأقصى .

ليس بين أيدينا أقل دليل على أن الولايات المتحدة مطامع استعمارية في شرق آسيا . وقد استولت بعد حربها مع أسبانيا على جزر الفلبين في عام ١٨٩٩ . وبعد ذلك لم تزل تمشي معها بالتدريج في الحكم الذاتي حتى منحتها الاستقلال التام منذ بضعة أعوام .

على أن للولايات المتحدة مصالح تجارية خطيرة في الصين وفي جزر الهند الشرقية . وقد رأت أمريكا أن خطة اليابان ترمي صراحة إلى الاستئثار بتجارة الشرق الأقصى ، وإلى بسط نفوذها على جميع أقطاره ؛ وأن اليابان تتخذ في سياستها هذه أساليب خالية من كل مجاملة ، وأنها لو تركت تمضي في خطتها الأسيوية فإن أمريكا لن تلبث حتى تبعد إبعاداً تاماً من الشرق الأقصى .

إن بين أمريكا وبين سواحل آسيا مسافات شاسعة ؛ فبينها وبين الصين ما يزيد على خمسة آلاف من الأميال . وبينها وبين جزر الفلبين مثل هذه المسافة . ولم يكن بد من أن تكون لها محطات لتموين سفنها التي تخترق المحيط الهادي . وأهم الجزر التي تعتمد عليها الولايات المتحدة في هذا هي جزر هاواي ، التي تبعد عن سان فرنسسكو بألفي ميل ، وجزيرة جوام الصغيرة الواقعة شرق الفلبين بنحو ألف وخمسمائة من الأميال . وقد استطاعت اليابان باحتلال الجزر التي كانت من قبل تابعة لألمانيا أن يكون لها ممتلكات في شمال جزيرة جوام وفي جنوبها . وهي بهذا

تهدد الطريق البحرى من أمريكا إلى آسيا تهديداً واضحاً .

ولهذا لم تكد الحرب الكبرى تضع أوزارها وتعقد معاهدات الصلح عام ١٩١٩ ، حتى دعت أمريكا الدول ذات المصالح الهامة فى المحيط الهادى إلى مؤتمر عقد فى وشنطن ، اتخذت فيه قرارات خطيرة ، أهمها : المحافظة على سياسة « الباب المفتوح » للتجارة فى الصين . والمحافظة على السلم والحالة السائدة فى الشرق الأقصى . وألا تقوم اليابان بتسليح الجزر التى آلت إليها فى المحيط الهادى . وفى هذه المعاهدة أيضاً اتفقت الدول الثلاث أمريكا وبريطانيا واليابان على أن تكون قوتها البحرية فى البوارج المدرعة بنسبة ٥ : ٥ : ٣ على التوالى . وقد قبلت اليابان هذه الشروط جميعاً وهى تنوى أن تنتظر ، وأن تتربص حتى تسنح لها فرصة لتحقيق مأربها الذى أصبح مقرراً ثابتاً ، وهو التوغل فى الصين ، وإبعاد كل دولة أخرى غير اليابان عن الشرق الأقصى .

واتباعاً لهذه السياسة أغارت اليابان على منشوريا واستولت عليها فى عام ١٩٣٢ ، وقد رأت بين الدول الكبرى تخاذلا ، ونزوعاً إلى اتباع سياسة السلم والمداراة ، وقد اتضح لها عجز تلك الدول عن أن تتفق على سياسة مشتركة ؛ فان الحكومات والرأى العام فى بريطانيا وأمريكا ينفر أشد النفور من المغامرة فى حرب جديدة . وروسيا تعانى من عداوة ألمانيا النازية ، ومن نفور الدول الرأسمالية ما يجعلها عاجزة بمفردها عن مناوأة اليابان مناوأة جدية ، ورأت أن الحليف الطبيعى الذى تستطيع أن تجنى من محالفته فائدة قيمة هو ألمانيا وإيطاليا ، فانضمت إلى الميثاق الناهض للشيوعية .

ومنذ نحو خمس سنوات زحفت اليابان على الصين ، وأخذت تتوغل فى أرجائها ، وأغارت عليها من الشمال ومن الوسط والجنوب ، حتى استولت على جميع الولايات الصينية الشرقية ؛ وهى أغنى الولايات ، وأكثرها ازدحاما بالسكان .

حدث هذا كله دون أن تحرك الولايات الأمريكية ساكناً ، وقد بذلت بعض المساعدة للصين ، وفعلت بريطانيا وروسيا مثل هذا ، ولكن ظل الصينيون وحدهم فى الميدان يجالدون هذا العدو القوى المنيف خمس سنوات .

ثم بدأت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ . وبين ألمانيا وروسيا محالفة صداقة وعدم اعتداء أدهشت اليابان ؛ فإن صديقتها قد حالفت عدوتها فلم يكن بد من الانتظار ، والمضى فى حرب الصين ، والتربص للفرص السانحة .

وقد سنحت الفرصة الأولى يوم استطاعت اليابان أن تنتزع من فرنسا المغلوبة حق الدفاع عن الهند الصينية . وقد أكسبها هذا الاتفاق حق احتلال هذه البلاد العظيمة الثروة ، كما أكسبها موقعاً حربياً جليل الفائدة للاغارة على سيام وبرما ، وبلاد الملايو ، وجزر الهند الشرقية .

بفضل الاستيلاء على الهند الصينية ، أصبحت اليابان مسيطرة على جميع سواحل شرق آسيا ، ماعدا سواحل سيبريا التابعة لروسيا . وباحتلالها لجنوب الصين ، واستيلائها السهل على سيام ، بات فى وسعها أن تحشد قواتها كلها فى أمكنة يسهل منها الإغارة على أعدائها .

ومع أن الزعيم هتلر حليف اليابان ، خطب يوم الخميس الماضى خطبة عنيفة ، خصص الجزء الأكبر منها للطعن فى روسيا وفى حكومتها . فان اليابان لم تعلن الحرب على روسيا ، مع أن ألمانيا وإيطاليا أعلنتا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية من أجل اليابان .

ولعل السبب الأكبر فى ذلك أن اليابان لا ترى فائدة كبيرة من الاغارة على روسيا فى الوقت الحاضر .

(البقية على صفحة ٣٠)

يوسف الكيمياوى

للأستاذ أحمد أمين بك

العهد عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون ، الجالس على عرش مصر والشام ، والمستبد الذى ترجف منه قلوب الولاة والأمراء ، والقوى بجيشه ومؤامراته فتخطب وده الدول المجاورة ، والقابض بيده على زمام الأمور كلها ، فترفع إليه كل يوم التقارير عن العمال والولاة ، والحركات والتدبيرات ، والدخل والخرج ، فلا يفوته منها شيء .

والسنة سنة ٧٣١ هجرية ، وقد أصبح المال معبود هذا السلطان ، لأنه محتاج إليه فى أبهته وعظمته ، وبذخه وترفه ، وجواسيسه وأتباعه ، وزوجاته الكثيرات ، وجواريه المعددات ، وبيوته الكثيرة ، ونفقاته الضخمة وعماراته ، وشروره وخيراته ؛ فإن لم يحصل على المال حلالاً فليحصل عليه حراما ، وليتعرف أحوال رجاله ومقدار ثروتهم ومخبأ كنوزهم ، وليتلمس لهم العثرات بالحق وبالباطل حتى يستبيح مصادرتهم واستحواذ أموالهم ، ووضع يده على ثرواتهم .

وهؤلاء الأمراء على دين ملوكهم يفعلون بالشعب ما يفعله السلطان الناصر بهم ، فيقتنون من الفقراء ، ويسرقون من البؤساء ، ويجمعون ما يصل إلى أيديهم ؛ ثم يصادر السلطان ما تعبوا فى جمعه ، وتحيلوا فى الاستيلاء عليه ، جزاءً وفاقاً .

هذا « سلار » يتولى نيابة السلطنة إحدى عشرة سنة ، ثم يموت ، فينصب الحساب فى إحصاء تركته ، هذه صناديق مصفحة مملوءة بفصوص الياقوت والماس وعين الهر ، وهذه صناديق تظهر فى اليوم الأول فيها مائتا ألف دينار وأربعمائة ألف درهم ، وهذه ضياع لا حصر لها ، وهذه الخيول والجمال والمراكب والعبيد والجوارى والأغنام والأبقار مما لا يحصيه عد ، وكل يوم تظهر له مخابئ جديدة فيها كنوز جديدة ، من أين أتى بهذا كله ؟ من الشعب ، من الظلم .

ويأتى السلطان فيسمع بثروته فيجرى لها لعابه ، ويقبض عليه ويسجنه ويجيعه حتى يأكل نعاله ، ثم يموت جائعاً فيستولى السلطان على ثروته ، وتنتهى الرواية ! وهذه صور تتكرر كل يوم ، ورواية تمثل فى كل إقليم .

المال — المال — كلمة سحرية تصدر عنها الأعمال ، وتتكيف بها السياسة ، ويحلم بها كل وال وأمير وسلطان .

فى هذا الجو يظهر « يوسف النصرانى الشامى » ، الفقير المسكين ، فيضع خطته المحكمة فى هدوء . إن الناس يعبدون المال فليستعبدهم هو بشبح المال ، يظهره ويخفيه ، ويطمعهم ويؤيسهم ، ويلعب بعقولهم لعب المال بهم . إن لمعان الذهب يخلب لبهم فليلعب بلمعانه ، وإن أملهم فى الغنى يفسد منطقهم وحكمتهم فليلعب بأملهم .

ولكن قد تقف نصرانيتك حائلا بينك وبينهم ، فيرتابون فى أمرك ولا يطمئنون إليك اطمئنانهم إلى أهل دينهم ، فالعب بدينك لعبك بالذهب ، وتظاهر بالإسلام وبالصلاح وبالتقوى ، فالغاية تبرر الوسيلة .

تنقّل فى بلاد الشام متفرساً فى أمرائها ، باحثاً عن فريسة يصيدها ، حتى وصل إلى « صفد » وأميرها يومئذ الأمير « بهادر » فوجده الفريسة .

قال : إنى أرى السعد فى طلعتك ، والغنى مكتوباً على جبينك ؛ وقد جئت إليك لأملأ خزائنك ذهباً وفضة ، وقد أنفقت عمرى فى طلب الاكسير حتى وجدته ، إن الفلزات واحدة فى نوعها ، والاختلاف الذى بينها ليس فى ماهيتها وإنما هو فى أعراضها ، وكل شيئين تحت

نوع واحد اختلفا بمرض فإنه يمكن انتقال كل واحد منهما إلى الآخر ، فالذهب والفضة والحديد والرصاص متحدة النوع مختلفة المرض ، فلو أخذنا حديداً أو رصاصاً ونقصنا بعض عناصره وزدنا بعض عناصره تكون من ذلك الذهب لا محالة ؛ وقد وصلت إلى الاكسير الذى يقمل ذلك بعد عناء ، فأنى أطبخ الرصاص أو النحاس بطريقة خاصة أرشدنى إليها العلم والتجارب الطويلة ، ثم أضيف إليه من هـذا الاكسير الذى يمتاز به الذهب عن النحاس أو الرصاص ، فاذا الذائب ذهب ، وما يوجد بالطبيعة يوجد مثله بالصناعة ، فالطبيعة تخرج الذهب من العناصر الأخرى بحرارتها ومزجها ، وهذا هو ما أعمل بصناعتى :

وقد ظفرتُ بمـا لم يؤتَـهُ مَلِكٌ

لا المنذران ولا كسرى بن ساسان

ولا ابن هنـد ولا النعمان صاحبه

ولا ابن ذى يزن فى رأس غُمْدان

وستكون إن شاء الله بهذا أغنى الأغنياء وأعظم العظماء ، تقتنى من المال ما أردت ، وتسود على الأمم بما شئت وكيف شئت .

ومع هذا كله فان لم تقتنع بالنطق فاقتنع بالتجربة .

فأتى له « بهادر » بقليل من الرصاص ، وأفرد له غرفة يجرى عليها تجاربه ، فأشعل النار وطبخ ثم أشعل وطبخ ، وأخرج حُقًّا فيه إكسير وأضافه ، فاذا المزيج ذهب .

جُن جنون الأمير « بهادر » وغنى الأمانى وسبح فى الأحلام وجمع ليوسف الكيمياوى كثيراً من النحاس والرصاص ، وأعطاه كثيراً من الأموال لينفق منها على إحالة هذه المعادن ذهباً خالصاً ؛ ولكنه تعلل مرة بفساد الاكسير ومرة بخطأ التجارب ، وأخيراً غافل صاحبه وفر إلى دمشق ، وأراد أن يمثل مع واليها الرواية التى مثلها أمام « بهادر » ، ولكن ساء حظه فعلم بأمره فأراد قتله .

وهنا أدته حيلته أن يملأ دمشق ضوضاء وجلبة ، وأنه يريد السلطان حتى يملأ خزائنه ذهباً وفضة ، وتحدث الناس به بين مصدق ومكذب ، ولم يجرؤ نائب دمشق على قتله بعد أن ذكر اسم السلطان ورسالته إليه ، وانتقل خبره من دمشق إلى مصر ، وإذا بالبريد يأتى من السلطان إلى دمشق فى طلب يوسف الكيمياوى .

دخل يوسف إلى مصر فى السابع عشر من رمضان ، فأنزله السلطان فى بيت أمير ، وأجرى عليه الرزق الوفير ، ورتب له عدة من الخدم يتولون أمره حتى يختبر صدقه ، فطلب يوسف أنواعاً من الآلات ورسمها وبالغ فى تركيبها وتعقيدها ، فصنعت له ، وحدد يوم التجربة ، فاحتفل به السلطان وشكل مجلساً لحق لامتحانه . هذا ناظر الجيش ، وهؤلاء عدة من الأمراء ، وهذا نقيب الصاغة ومعه جمع من الصياغ . وأوقدت النار وأحضرت الآلات ، وطلب يوسف نحاساً وقصديراً وفضة ، فوضعها فى بوتقة ووضعها على نار حامية حتى ذاب الجميع ، فأخرج من جرابه إكسيراً وضعه على الخليط الذائب ، وصبر عليه برهة ثم أنزل البوتقة من على النار ، فأفرغوا ما فيها فاذا سبيكة من ذهب كأجود ما يكون ، زنتها ألف مثقال ، وامتحنها شيوخ الصاغة ، فأفتوا بأنها ذهب خالص لا شبهة فيه .

سر السلطان بذلك سروراً عظيما ودهش الحاضرون ؛ وأنعم السلطان عليه بهذه الألف من الذهب ، وبالغ فى إكرامه وأركبه فرساً سلطانياً مسرجا ملجما بحرير ، ومنّى نفسه أن هذا الكيمياوى سيجعل له كل حديد مصر ونحاسها وقصديرها ذهباً .

وما هي إلا ساعة حتى انتشر الخبر في المدينة أن قد ظهر رجل عجيب يحيل كل شيء ذهباً بإذن الله ، فما هو إلا أن تقدم له قطعة من حديد ، أو إناء من نحاس ، أو كتلة من رصاص حتى يعزّم عليهـا ويجعلها ذهباً خالصاً . وما قد قتل الفقر وذهب البؤس ، وسيسيل الذهب في مصر سيلا ويتدفق أنهاراً ، وسوف لا يكون بعد اليوم فقير ولا مسكين . وكان أحرص الناس — أول الأمر — على أن يفتنوا الحاشية ، فقد قدموا المال الكثير ليوسف ، وقدموا له النحاس الكثير والحديد الكثير ليقلبـه لهم ذهباً ، وهو يلعب بهم ويستخف عقولهم ، ويضحك على هذا بجزء من الذهب مما سلبه من ذاك ، وهكذا .

وأراد السلطان أن يستوثق من الأمر مرة أخرى ، فأجرى يوسف أمامه التجربة ثانية ، فأخرج له سبيكة ذهبية كالأولى كاد يطير بها فرحا .

وتدفق على يوسف المال من كل جانب ، وعاش عيشة البذخ والترف ، وأفرط في اللهو ، ومرت عليه أيام سرور ومتعة لا ينعم بمثلها إلا القليل

والسلطان يستحضره بالليل ويناجيه ، ويعرض عليه المشروعات الضخمة التي ينوي القيام بها من وراء الذهب المصنوع ، ويوسف يسايره ويجبك له خياله .

والنـاس يأتون إلى يوسف يعرضون عليه الأموال والحديد والقصدير ، وهو يعدهم ويمنّيهم .

وأخيراً قابل السلطان وقال له : إن الاكسير قد فرغ .

السلطان — إذاً فاصنع غيره .

يوسف — إنه مركب من نبات وأعشاب لا تنبت في مصر ، وإنما تنبت في الكرك .

— سمها لي وصفها أبعث بالبريد من يحضرها .

— إنها سر أخذت على الله عهداً ألا أذيعه ، وإذا أذعته فسد الأمر عليّ وعليك ، إذ يستطيع كل إنسان بعدُ أن يحصل على الاكسير فيحصل على الذهب ، وهو أمر حرصت أن يكون لك وحدك ، وسر اخترت أن أخصك به ، فأنت ولي الأمر ، وهو في يدك مصلحة ، وفي يد غيرك مفسدة .

— فما العمل ؟

— تأذن لي أن أسافر إلى الكرك وأستحضر منه قدراً كبيراً صالحاً لتنفيذ مشروعاتك الضخمة .

أذن له السلطان ، إذ لم ير بداً من ذلك ، وأركبه البريد وأوصى به خيراً حيثما حل ، وأمر الولاة أن يمدوه بالمال الذي يريد .

ها هو ذا يوسف ينتقل من بلد إلى بلد ، والكرم يتدفق عليه ، إذ هو ضيف السلطان ومحبيـه ومأمله ، حتى إذا وصل إلى غزة وأقام بهـا أياما ، غافل من معه و« تمّم الفتلة »[1] واختفى ، ثم يبحثون عنه ويبحثون ، فلا يقفون له على أثر .

وتبخر الآمال وتنهار القصور التي شيدت في الخيال .

وفي يوم من أيام ذي الحجة من هذا العام يعثر عليه مختفياً في أخميم ؛ وإذا كل أعماله نصب واحتيال ، وإذا بالناس كبيرهم وصغيرهم يستكشفون أنهم مغفلون ، وإذا بالسلطان يحكم عليه أن يُسمّر ثم يشهّر على جمل .

وإذا بالستار يسدل .

أحمد أمين

(١) هذا تعبير عامي طريف ليس أدق منه في التعبير عن هذا المعنى في مثل هذا الموقف ، لأن معناه « هرب في نصب واحتيال » وأصله — كما يروون — أن سلطاناً سمع بمهارة نصاب محتال ، فاستدعاه وقال له : إني أجزل لك العطاء إن أمكنك أن تنصب عليّ . فقال له : أعطني ألفاً أشتري بها « عدة النصب » ، فأعطاه وأمر من يلازمه حتى لا يهرب ، ثم حضر بعد مدة بعدته وأدواته ، ونصب السلطان سرادقا ودعا إليـه من يشاهد نصب النصاب . وكان مما أحضره النصاب بكرة خيط كبيرة ، فتقدم إلى السلطان وقال له : أمسك هذا الطرف وأنا أتمم الفتلة لألعب بها لعبتي . فأمسك السلطان طرفها ، وأخذ النصاب يتمم الفتلة ويتراجع رويداً رويداً حتى اختفى عن الأنظار ، وبحثوا عنه فلم يجدوه . وبذلك تمت لعبته . ومن هنا اخترعوا هذا التعبير (تمم الفتلة) !

في الأدب النظري :

الأبوة في الأدب

عاطفة الأمومة من أشد العواطف الكمينة في النفس ، وهي تتصل بغريزة فطرية أولى تبعث الانسان إلى كثير من أعمال البر . ويذهب علماء النفس المحدثون إلى أن الأمومة غريزة تشيع في كل أنواع الحيوان ، وأنه لولاها لما أشفقت بصغارها ، ولما حاطتها بألوان من الرعاية ؛ وأنت ترى ذلك ظاهراً في الطير التي تحنو على أفراخها ، وتراه في بعض أنواع الحيوان العليا ، ومنها من تحمل صغارها مدة شهور لا تكاد تفارقها حتى تبلغ من العمر حداً يخوّل لها أن تستقل بنفسها ، فتتقلب وحدها في أنحاء الأرض .

ويذهب بعض علماء الأخلاق إلى أن غريزة الأمومة هي الأصل الخلقي لكل فضيلة ، فالأم دائماً تحاول أن تبذل رعايتها لأبنائها : الأم هي التي تذود عنهم إذا تهددهم السوء ، والأم هي التي تجدّ لهم في طلب القوت وابتناء البيت . والأمومة هي المحور الذي تلتف حوله الميول الخلقية الخارجة عن نفس الانسان . ذلك بأن علم الأخلاق ما زال يفرق بين الأثرة وبين الإيثار ، بين الأنانية وبين الانسانية ، بين حب النفس وبين حب الغير . والخلق الكريم هو السبيل القاصد بين النزعتين ؛ فلا تقوم فضيلة إلا إذا نشأ في نفس الإنسان وازع يوحي إليه بالعمل على إسعاد الغير . ويتمثل هذا الإيثار — أو قل هذه الغيرية — في غريزة الأمومة ؛ فالأم تعطف على ولدها ولا تسعد إلا بسعادته ، ولا تطمئن إلا لاطمئنانه ؛ وغريزة الأمومة تستجيب دائماً إذا أثارتها عوامل الضعف أو الفقر أو المسكنة ؛ فهي تثار عند الإنسان إذا التقى بأفراد أو جماعات يشيع فيهم واحد من تلك العوامل ، ولو لم يكن بينهم وبين الإنسان صلة من وشائج القربى ولا علائق النسب .

والذي قيل من الأمومة يثبت على الأبوة في كثير من مظاهرها ، فان الذكر والأنثى قد اشتركا منذ القدم في رعاية الصغار ، ولأنهما قد تمرسا بأعمال الحماية والعناية والعطف ؛ فقد انتقلت عاطفة الأمومة من الأنثى إلى الذكر ؛ ولذلك كانت الأبوة مصدراً من مصادر البر عند الذكر ، كما كانت الأمومة عند الأنثى ؛ لكن للعلاقة بين الرجل وبين المرأة حديثاً طويلا آخر ، فان المشاركة في رعاية الولد ، والتفاني في تنشئته ، والعمل على إسعاده ، كل ذلك قد أضفى على الزواج لوناً من ألوان القداسة ؛ وحق لنا أن نقول إن الأمومة نبع انبثقت منه الأبوة والبنوة والأخوة والتعاطف الجنسي وكل علائق الأسرة التي كانت عند كثير من علماء الاجتماع الخلية الأولى لتكوين مجتمع إنساني .

على أن الأبوة قد أصبحت في تاريخ الإنسان أبعد مدى وأعمق أثراً من الأمومة نفسها ؛ ذلك بأن الآباء قد استكثروا من السلطان ، فكان رب الأسرة دائماً هو الذي يمثل الحكومة الفطرية الأولى ، وكانت المجتمعات تعنو للأب أكثر مما كانت تعنو للأم ، وكان رب الأسرة حاكمها ومشرعها وقاضيها ؛ فإذا كانت الغريزة الأصيلة في الواقع هي غريزة الأمومة فان عاطفة الأبوة قد انتُزعت منها واشتُقت من أصلها ، فأصبح لها أكبر الوزن في تاريخ المجتمع . لكننا إذا نحن ذكرنا الأبوة وما حاطها به العرف من مظاهر الاحترام والتقديس ، فيجب علينا أن نذكر أن الأمومة فطرة جبل عليها الانسان والحيوان ، وأن الأبوة لم ترد على أن كانت عاطفة موروثة تفرعت من هذه الفطرة الأولى .

وليس يعنينا فى هـذا المقام إلا أن نرى بعض آثار الأمومة والأبوة فى الأدب ؛ فقد كانت علائق الانسان بأبيه وأمه وأبنائه بعض ما عالجت آداب الأمم فى عصورها القديمة والحديثة . دفع الأدباء والشعراء إلى ذلك ما تبينوه من نتائج هذه النزعات الدافعة ؛ بل لعلنا إذا نحن تعمقنا البحث فى الأديان القديمة رأينا لهذه العلائق أشد الأثر فى تكوين العقائد . ولأن الأدب تعبير عما يندفع فى نفس الانسان وتصوير للتجارب التى يتمرس بها ، فقد كان لابد لمثل هذه العواطف القوية أن تبرز فى آيات الأدب ، وأن تكوّن لها طابعاً خاصاً ، وأن تؤلف نموذجاً ينتقل فى المسرحيات من جيل إلى جيل .

* * *

إن أجلّ قصة فى الأساطير المصرية الأولى هى قصة أوزيريس وإزيس . وقد كان أوزيريس إله الخير وكانت إزيس زوجه البرّة الوفية . وكان حوريس ابنهما يمثل الفضيلة عند المصريين القدماء . وقد كان لأوزيريس أخ اسمه سِيتْ أو تيفون يمثل الشر فى أرذل معانيه ، وكان بين أوزيريس وبين سيتْ كفاح طويل ينتهى بمقتل أوزيريس . لكن عاطفة البنوة تجتمع فى حوريس لأنه يشنّ حرباً شعواء على قاتل أبيه ، يتفانى فيها جيوش هذا وذاك ، وتنتهى بتقسيم مصر بينهما واحد فى الشمال والآخر فى الجنوب .

وأنت ترى الأبوة ممثلةً فى القصص القديم الذى سلم لنا من عصور الاغريق والرومان . ففى الأساطير التى تحدرت إلينا أن بريام Priam ملك تروادة قد خاض نيران الأعداء كى يحمل جثة ابنه هكتور . وكذلك فعل إينياس حينما حمل أباه « أنشيزيس » على ظهره من بين نيران تروادة . ففى الالياذة وفى الاينياد صور خـلابة لعواطف الأبوة والبنوة ، لكن علائق الأسرة قد تمثلت أكثر ما تمثلت على المسرح الاغريقى ؛ حتى لقد ذهب أرسطو إلى أن الفاجعة ينبغى أن تتناول الحوادث التى تقع بين الآباء والأمهات والأبناء . ونظرة عجلى إلى مسرحيات سوفوكليز تفتنك عما ذهب إليه أرسطو . وقد أصبحت « أوديب ملكا » و « إلكترا » مثلين لعلائق الأبوة والأمومة والأخوة . ومآسى سوفوكليز جميعاً تدور حول محبة الأبناء والآباء ، وتدور ، فى أحيان حول كيد الأمهات وقسوة الآباء ، لكن هذا هو الشذوذ الذى من أجله تؤلف الفاجعة [1] .

وهذا العنصر الأساسى من عناصر الأدب نراه مرة أخرى فى الأدب الفارسى . وفى الشاهنامة قصة عن زهراب ورستم ينبغى أن نقف حيالها لندرس الأبوة والبنوة فى وقت معاً ؛ وقد كان رستم سيد أبطال الفرس ، وقد تغنى أعماله المجيدة مؤلف الشاهنامة الفردوسى . فهو يقطع فى مرة بادية تكاد تكون سُعاراً من الجحيم ويلاقى فيها وحشاً ضارياً ما يلبث حتى يرديه . وهو يقتحم فى مرة أخرى معقلا من معاقل الشياطين وينتزع قلب أكبرهم من بين جنبيه ليبرئ به ضريراً .

لكننا نلتقى برستم بعد ذلك وهو فى أشد حالات الوجد والحزن . فقد قُدِّر عليه أن يلتقى بابنه فى ميدان النزال ، وقُضى عليه أن يطعنه طعنة نجلاء من غير أن يعلم من أمره شيئاً . ويتبين أية فعلة قد فعل فيبكى ويهيل على رأسه التراب ويعفر الرمل وينتزع شعر رأسه ، وما يزال ابنه يطامن من لجيعته حتى يسلم الابن الروحَ ، ويتفرق الجيشان وأعلام الموت ترفرف فوق رءوس الأجناد .

أليس فيما كتبه المصريون القدماء ، وما كتبه الاغريق والرومان والفرس ما يمس الشعور الدفين

(١) اقرأ فى ذلك « من الأدب التمثيلى اليونانى » للدكتور طه حسين بك .

عند كل واحد منا ؟ إن القارئ لمثل هذه الفواجع ليكاد يبكي . ولكن إن هذا لهو الأدب . لأنه أدب مأخوذ من أغوار النفس . ليس كل هذا أدباً ذاتياً ، بل هو موضوعي عام . لكنه على الرغم من ذلك يتصل بمشاعرنا الخاصة ، ويحرك العواطف عندنا ، وهذا أعلى مراتب الأدب .

***

وفي مآسي شيكسبير ماذا نرى ؟ لقد كان لا بد لشيكسبير أن يعالج الأبوة في مسرحياته ، لأنه كان متأثراً بمسرحيات الاغريق ، ولأنه فوق ذلك لم يترك عاطفة شديدة مثل هذه حتى عالجها . لكننا لا نرى إلا آثاراً قليلة للأمومة في بعض ما كتب ؛ ولعل أبلغ مثل لقوة الأمومة يطالعنا في رواية كريولانس ؛ فان هذا القائد الروماني كان قد غضب على أهل روما ، فقاد جيشاً عرمرما ليدك به المدينة دكاً . لكن أمه فولمنيا وزوجه وأولاده خرجوا إليه جميعاً يستعطفونه ، وما زالت به أمه حتى ثنته عن عزمه ، فارتد من أسوار المدينة وهو محنق كظيم .

لكن شيكسبير قد عالج الأبوة والبنوة في اثنتين من كبرى مآسيه : أما أولاهما فهي « هاملت » ، وأما ثانيتهما فهي « الملك لير » . وتختلف علائق البنوة في إحداهما عن الأخرى . أما في « هاملت » فان الأمير لا يكاد يفكر إلا في شيء واحد ، هو الانتقام من قاتل أبيه . وفي هاملت نرى الحنو البنوي يطغى على كل خالجة من خوالج النفس ، فهي قصة من قصص الأبوة وهي قصة أيضاً من قصص الأخذ بالثأر والانتقام البطيء .

أما « الملك لير » فهي لفحة من الكفران بالنعمة ونفحة من الحب البنوي في وقت معاً . فقد كان للملك لير ثلاث بنات ، خدعه من اثنتين منهن القول المعسول ، فاقتسمتا ملكه وهو حي . أما ثالثتهن فانها لم تحسن التملق إليه ، فخرجت من بلاده مغضوباً عليها ، ثم انقلبت ابنتاه الأوليان فنبذتاه في العراء وسط عاصفة هوجاء ؛ وسمعت ثالثتهن بذلك فآوت أباها وأقامت على أختيها حرباً عواناً ؛ ويتمثل في مثل هذه القصة العقوق البنوي من جانب وحب الآباء من جانب آخر . وتنتهي المأساة بذلك الشعور من البوار الذي يميز خواتم المآسي عند شيكسبير .

***

وكذلك نرى أن العلاقة بين الابن والأب كانت دائماً تستثير شاعرية الشعراء وخيال الكتاب المسرحيين ، وقد كانت مثل هذه العلاقة موضوعاً تناوله الشعر الغنائي أيضاً ، لكن هذا حديث يطول . وحسبنا أن نتبين هذه العلاقة في الشعر العربي في مقال آخر .

(بني سويف) **أحمد فاكي**

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

***

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

بعد عشرة أعوام

كان الزمان مساء الخميس من شهر مارس سنة ١٩٣٥ . وموجة الدفء تسرى فى هيكل الشتاء المتجمد سريان رنوة الحنان فى عين الحسناء المتكبرة ، وكان مسرح حديقة الأزبكية مكتظاً ببعض طلاب مدرسة الخديوية ، اختارتهم المدرسة لمشاهدة تمثيل رواية كليوبطره ، وكان جابر رشدى يرى المسرح لأول مرة فى حياته ، وكان مقعده الرابع من الصف الثالث من الصفوف الأمامية ، فجلس مسروراً وفخوراً — لا لحسن موقع مقعده فحسب — ولكن لأنه صادف أن لبس البنطلون الطويل لأول مرة كذلك فى ذلك المساء ، وكان يقول لمن حوله بثقة : إنه من غرائب المصادفات حقاً أن يجلس فى نفس الصف الذى يجلس فيه عادة كلما ذهب إلى مسرح الحديقة مع والده ! . . . ولبث المكان يضج بالصراخ والتنادى والضحك والنكات الهامسة يقذف بها التلاميذ ؛ ولكن ما كاد الجرس يرن والمكان يظلم حتى سكتت الأصوات واشرأبت الأعناق ؛ ثم رفع الستار وبدأ التمثيل بين الاهتمام والشغف إلى أن انتهى الفصل الأول وهبط الستار ، فضج المكان بالتصفيق ؛ صفقت الأيدى الصغيرة حتى أدماها التصفيق ، ثم عاود أصحابها أحاديثهم وعبثهم . وكان يجلس إلى يسار جابر رشدى فتى يدعى الحديدى ، له تجارب فى اللهو والغزل على حداثة سنه ، ومعدود من رواد دور التمثيل ، وقد قرأ فى وجوه من حوله آى الإعجاب والانبساط فأكرم نفسه عن مشاركة السذج والأغرار عواطفهم ، وقال بلهجة الناقد : « لا تعجبنى هذه الرواية ، والحق أن أجمل ما فيها هى كليوبطره نفسها أعنى سوسن جوهر » فلاح الرضا فى وجه جابر وقال بإعجاب : « سوسن جوهر ، ما أجملها . ما أفتنها ! » فنظر إليه الحديدى نظر الخبير إلى الغشيم وقال : « ليست كما تتصور يا هذا ، ولكنها على كل حال جديرة بالإعجاب ، لأنها تبدو كاليافعة وهى فى الحقيقة فى نهاية الحلقة الرابعة » فلاذ جابر بالصمت دهشة ، وكبر عليه الأمر ، وكان فى حال يرثى لها ، لأن كليوبطره حين أبدت محاسن وجهها ومفاتن جسمها ورنت بعينيها وتثنت بعطفيها ونفثت سحر الحديث وحلو الكلام فتنت إمبراطور الرومان على المسرح وسحرت المسكين جابر رشدى فى الصف الثالث ؛ لبث طوال مدة التمثيل يصعد إليها بصره فى ذهول ابن أربعة عشر ، يتجلى له حسن باهر لأول مرة . وكانت سوسن جوهر تبدو فى اللباس الملكى آية فى الحسن المنغمر بنور المسرح البهيج ، نقية اللون والثغر ، ضامرة البطن ، رشيقة القوام ، مرتوية الساقين فاتنة الرنوات ، سوداء الشعر ، عذبة الصوت ، حلوة النبرات ، لم يسمع كصوتها ولا فى سجع الأغانى ، فتساءل حيران مغرماً : « أإنسان هذه المخلوقة البديعة أم ملاك كريم ؟ . . . هل يمكن أن يخفق قلبها بالحب ؟ وأن تهيم بإنسان كما يهيم الناس بها ؟ » ورغب أن يعطف سؤاله إلى الحديدى ، ولكنه أشفق من تهكمه ، وتعوذ بحمى الصمت حتى فارق المسرح سليب اللب فقيد القلب ، مشرد الخيال ، ثائر النفس ، مصدع الصدر ، يعالج أنفاس الحب الأولى . وثقلت عليه الحياة خارج المسرح حيث لا سوسن ولا كليوبطره ، فبدا البيت بارداً والمدرسة سمجة ، وكبر عليه أن ينظر إلى وجه هذا أو ذاك من البشر بعد أن قبست عيناه نوراً من جبين سوسن الشرق ، فأحس تمرداً وثورة ، ونازعه قلبه إلى النسيم العبق والستائر المخملية الحمراء والنور البهيج ، وجعل يتنهد قائلاً : متى يأتى يوم الخميس ؟ . ولم يكن فى وسعه أن يذهب إلى المسرح أكثر من مرة فى الشهر ، ولكن صورتها لم تفارقه قط ، كانت تثوى فى قلبه

ووجدانه ، وتلوح فى خياله أبهى مما تطمع فيه أية حسناء ؛ وتابع ما يكتب عنها فى المجلات ، واقتطع الصور التى تنشر لها ، جاعلا منها نماذج لقلبه المفتون ، وعاش فى دنيا خيال وفتنه وإبداع دعائمهـا خفقة القلب الأولى ونشوة اليفاعة ويقظة الخيال وتوثب العاطفة وطهارة القلب ، فراح ضحيتها جيماً واعتله المرض الذى لا شفاء منه ؛ وكان يسائل نفسه محزوناً مكتئباً : ما معنى هذا الحب الذى أغرق فيه ؟ . . ما جدواه ؟ . . . وما عسى أن تكون غايته ؟ . . وما من أمل أعلل به نفسى ، وما من سبيل إلى أن تعلم أن فى صدرى قلباً لها يأتكل ويحترق ؟ . . . أما لعذابى هذا من ختام ؟ . . وأما لدمعى من كفاف ؟ » .

وبلغ به اليأس أن جعل يفكر فى الانتحار ، ولكنه لم يُطل مداومة التفكير فيه ، إذ خطر له خاطر سعيد هبط على قلبه كالوحى ، فأشرق الأمل بمقدمه . قال لنفسه : إنى لم أجاوز الرابعة عشرة ، وسوسن تعتلى قمة الأربعين ؛ وكلما أضفت عاماً أوغلت قدمى فى بساتين الصبا وهبطت هى درجات نحو وادى الشيخوخة ، وسأناهز العشرين حين تتصف بها الحلقة الخامسة ، ولن أرضى باليأس فى ذلك العهد القادم ، ولا بأس أن أمد حبل انتظارى لعلى أجد فى الخامسة والعشرين أو ما بعد ذلك متنفساً لصدرى ورواءً لسقامى ، وهل تزهد امرأة فى الخمسين فى شاب ابن خمس وعشرين يتوسل إليها لشدة حبه وشبابه وعذاب الإعدام ؟! واطمأن إلى منطقه وحببه إليه الأمل فداخلته رقة وقوة وطابت له الحياة .

وتوالت السنون فحصل على البكالوريا والتحق بالزراعة العليا ، ولبث قانعاً من لذة الدنيا بمشاهدتها بضع ساعات كل شهر ، حتى كانت سنة ١٩٢٩ فأعلنت المجلات المسرحية أن فرقة سوسن جوهر ستقوم برحلة فنية فى البلاد الشقيقة ، فجزع جابر جزعاً شديداً ، وأيقن أنه سيحرم لذته الوحيدة أشهراً طوالاً ؛ ولكن بعد انقضاء زمن الرحلة نشرت المجلات خبراً مؤداه أن سوسن جوهر تعتزل التمثيل إلى حين لتعمل فى السينما ، فكانت القارعة ، وبلغ منه الحزن مبلغاً جنونياً أضناه وعناه وكربه ؛ ولكنه لم يستسلم لليأس ، وبات على أمل أن يراها يوماً فى السينما أو أن ينازعها الشوق إلى المسرح فتعود إليه ؛ نعم ما دامت تعمر الدنيا بحسنها فما ينبغى له أن يقنط ؛ ولكنه لم يستطع أن يقاوم وحشة مخيفة تجثم على صدره ، فكأنه كان يعيش فى قبر مهجور .

وجاءت سنة ١٩٣٢ فحصل على دبلوم الزراعة وعمل مهندساً زراعياً فى أدفينا . . . . وحمل معه إلى مقر عمله ما سماه « متحف سوسن » . وهو صوان صغير أنيق يحتوى مجموعة صورها المختارة من الصحف والمقالات ، والنبذات التى نشرت عنها فى المناسبات المختلفة ، وكراسة ضخمة أرخت حبه يوماً بعد يوم ، وسطرت تاريخ هواه وآلام قلبه ، غير مبقية على زفرة أو أنة حتى الدموع استقرت فى أماكنها بين الأسطر وعلى الكلمات ؛ واحتفظ كذلك فيه بالبذلة التى كان يرتديها يوم رآها لأول مرة فى مسرح الأزبكية ، لم يهملها لتقادمها ، وقد لفت جسمه مساء نفذ إلى صدره أول شعاع للحب ؛ وكان يثوب إلى هذا المتحف كلما نازعته إليها نفسه أو لجّ به الشوق ؛ فلم يفارق جوها ودنياها ، ولبث خياله غارقاً فى أحلامها وأوهامها . ومضت الأيام يحث بعضها البعض وهو يتصبر ويتجلد ، ويتملص من مخالب اليأس ، حتى كان عام ١٩٣٥ ، وشاء الله أن يكافئ ذلك الأمل اللحوح ، فظهر إعلان فى المجلات يبشر بعودة سوسن جوهر إلى عالم الفن وافتتاحها صالة للرقص والغناء . فلم تهتز نفس فى مصر كما اهتزت نفس مهندس أدفينا الزراعى ، ولقد ثبتت عيناه على الإعلان فى ذهول ثم فى إشراق وفرح ،

ثم فى اضطراب وجنون ، ثم تنهد من أعماق صدره وقال وعيناه تغرورقان : « جاء يومى بعد تصبر عشرة أعوام » ، وحشا حافظته بالنقود التى أعدها لذلك اليوم السعيد ، وسافر إلى القاهرة يود لو يندفع القطار بقوة فرحه . .

واستقبل المساء على تمام الأهبة ، حليق الذقن ، أنيق الملبس ، عامر الجيب ، ومضى إلى الصالة كالحالم ، ووجد الجمهور يدخلها زرافات ضاحكة عابثة ، فدخل مع الداخلين ، ولكن كان وجلا متهيباً حائراً متسائلا : ترى ماذا هو فاعل ؟ وعلى أى وجه تنتهى مخاطرته ؟ ورأى مائدة خالية قريباً من المقصف فقصد إليها وجلس ، وألقى على المكان نظرة شاملة . كانت تمثل رواية هزلية من فصل واحد فلم يلق إليها بالا ، وكانت جماعة من الراقصات يجالسن بعض الشبان ويشاربنهم ، فلم تعجبه مداعبتهن ولا توددهن ، وتساءل متأففاً : هل يدعو سوسن كما يدعو الشبان الراقصات ؟ . . ولكنه لا يريد ثمناً لشراب يقدمه ، ولكن ثمن الحب الأمين والصبر الجميل . إنه ما أعد العدة فى أحلامه للقاء يتم فى صالة . وانقبض صدره وأحس وحشة وكآبة ، وأيقظه من غيبوبته صوت ينادى النادل وراءه مباشرة ، فأوشك أن يلتفت إليه ، ولكنه جمد وخفق قلبه خفقة عنيفة كاد لها يتصدع ، إنه الصوت الرخيم العذب ، الذى لبث يتجاوب فى قرارة نفسه عشرة أعوام ، صوت كابوبايره جاءه من حيث لم يتوقع . . وحنت حواسه وجوارحه جميعاً إلى الوراء ، ولكنه لم يبد حراكا من هول المباغتة والصوت ، وثورة الوجدان ، وكان يجلس أمامه حول مائدة عامرة بالكؤوس المترعة جماعة من أعيان الريف كما يدل مظهرهم ، فاتجه واحد منهم إلى التى وقفت وراءه ، وأحنى رأسه ثم دعاها إلى الجلوس . . . فاشتد وجيب قلبه وهو يوشك أن يراها بعد صبر عشرة أعوام وآلام مائة وعشرين شهراً . وصوب نحوها ناظريه فى تهيب وهيام . رأى القادمة تسير فى تبختر الأوزة ، عبلة القوام ، لفاء الساقين ، رابية الكفل ، ذهبية الشعر ، ذهبية الأسنان ، فاضحة التبرج ، تتردد فى عينيها نظرة إغراء وخبث ؛ فالتفت إلى الوراء سريعاً فلم ير سوى بعض الرجال ؛ فعاد إلى المرأة ، وقد تبدل من هيامه حيرة وانزعاجاً وذعراً . أين كابوبايره ؟ أين الملاحة والرشاقة والفتنة ؟ من هذه المرأة المتبذلة الفاجرة ؟ رباه ! . . هذا الصوت لا يخطئ ، وهو الذى حافظ على بهائه القديم دون ما عداه ! . . وهذه الملامح ملامح سوسن على تغيرها وبشاعتها ؛ فكيف حدث كل هذا ؟ وكيف لم يشعر به قلبه المرهف المغرم ؟ رباه ! إنها تجارى الراقصات فى تبذلهن وفى إغراءاتهن الوقحة ، وفى مداعباتهن المكشوفة ! أين هذا من حوار كابوبايره الفتان وهواها الخالد ، وسحرها الذى لا يقاوم ؟ . . لقد انهار كل شىء كأنما دكته قنبلة عاتية وتركت فى أثره خرائب لها فى صدره صدى وحشة وفى قلبه حسرة ولوعة ! ودنا النادل منه فأومأ إليه وأشار إلى المرأة وسأله بصوت خافت : « من هذه ؟ » فقال الرجل منكراً : « كيف لا تعرفها ؟ هى سوسن جوهر » ، فغض طرفه وأحس رغبة إلى البكاء ؛ بل إلى الصراخ والعويل ، ولكن ماذا يجديه هذا ؟ . . لقد انتهى كل شىء . . !

ومضى الليل مع هذا فى الصالة غائباً عما حوله ، يرمق سوسن — سواء فى مجلسها أو على خشبة المسرح — بنظرات حائرة يائسة ، وكان يحاول — مستعيناً بخياله وأمله ورغبته — أن يجد فيها حبيبته فلم يفلح . وعند منتصف الليل رآها تغادر الصالة من الباب الخلفى متأبطة ذراع رجل طويل القامة مفتول الشارب ، يرتدى

بين المجلة والقراء

سيدى الأستاذ العميد .

طالعتُ ما كتبتَه فى « الثقافة » رداً على استفسارى المقنَّع الذى لم أفصح فيه عن مذهب من المذاهب ، حتى لا أتهم بأنى أعرض أموراً فيها « تضليل للجمهور » .

فأبيتَ يا سيدى مدفوعاً بالفكرة القديمة المهيمنة عليك إلا أن تسفر ، غير ناظر إلى أن هذا الجمهور الذى تخاف عليه التضليل ، قد ينساق أيضاً وراء الفكرة الخاطئة إذا هاجم مهاجم الفكرة الحديثة دون تمحيص ، وهذا هو الذى كنت أتحاشاه ، حتى لا يندفع أحدنا فى « تضليل الجمهور » بحسن نية دون شك . ولئن كان سيدى أدرك أنى أعتب عليه من طرف خفى ، فما كان أحراه أن يرد أيضاً من طرف خفى ، فيبتعد كلانا عن التجنى فى المناقشة ، سواء أكان على زميله أم على الجمهور .

وأرى سيدى العميد يقول : « إن هذه الموضوعات لا تزال فى طور البحث ، ولم ينصف منها ما صح وما لم يصح ، فعرضها على الجمهور على أنها حقائق ثابتة فيه تضليل للجمهور » . وأقسم قسما لا حانثاً فيه ولا آثماً أن مكتبة سيدى العميد ، وهى المكتبة العامرة الزاخرة ، تكاد تكون خالية من قسم يحوى الكتب القيمة الجامعية التى تبحث فى الموضوع ، والتى تكون قد صفت منه ما صح وما لم يصح . ولا أكون قد تجنيت على سيدى إذا قلت له إنه أسرف فى هذا القول إسراف الهاجم ولم يمسك إمساك الباحث الحايد ، وهو ما كان يجب أن يكونه . وإلا فمن أين جاء لسيدى أن البحوث فى العلم الروحى الحديث لم تسفر عن نتيجة حاسمة يؤمن بها العلم ؟ وما هو البرهان الذى يطلبه سيدى من اعتراف العلم بهذه البحوث ، إذا لم يكن هذا البرهان هو مصنفات الأساتذة الجامعيين المعاصرين وغير المعاصرين ، ومدونات جمعيات البحوث النفسية فى أوربا وأمريكا ؟ وماذا يريد من العلم أكثر من اعتراف عدة جامعات به ، من بينها جامعة كمبردج التى أنشأت له منذ أكثر من سنتين تلمذة ودراسة ؟ وماذا يريد من اعتراف العلم إذا كان جمهور من غلاة العلماء المعارضين للعلم الروحى ، قد ألفوا فيه مصنفات هى من عيون العلم والأدب ؟ أستطيع أن أذكر لسيدى أسماء من يزيدون على مائتين من أساتذة الجامعات ، وحوالى خمسمائة كتاب فى العلم الروحى الحديث . وآخر ما وصلنى

معطفاً وجلباباً وطربوشاً طويلا ، لدرجة تلفت النظر كأنه من رجال البوليس السرى ، وكان على مقربة منه بائع أمتن جوال ، فأومأ إلى رفيق الراقصة وسأله بسذاجة : « من الرجل ؟ . . » فنظر إليه البائع بغرابة وإنكار ، ثم أحنى رأسه حتى تقوس قفاه وصفع نفسه ثلاثاً وضحك ضحكة بشعة . واتجه بصر الشاب نحو المرآة ، وتنهد قائلا من قلب مكلوم : « الوداع يا سوسن . . الوداع إلى الأبد ! . . »

***

وعاد إلى أدفينا متصدع الرأس محطم القلب ، وثبت فى نيته أن يحرق متحف الحب على أثر وصوله ؛ ولكنه ما كاد يرى الصور التى طالما ألهمت قلبه الحب والعطف والحنين ، والكراسة التى اشتملت على ذكريات عشر سنين من الهيام وأثر الدموع بين الأسطر ، حتى عدل عن عزمه وقال لنفسه متأثراً : « كلا لن يزول هذا الأثر ، فاحراقه إحراق لأجل عهد يضوع منه مسك الشباب . . فليبق متحف الحب وليكن حباً بغير حبيبة . . »

ثم بسط كراسة الذكريات بين يديه وأضاف إليها بضعة أسطر ، كانت ختام تاريخ الحب والوهم . .

نجيب محفوظ

في هذا الصدد كتاب لعالم السيكولوجي الأمريكي الطائر الصيت الدكتور هيروارد كارنجتون ، الذي كان فيما مضى أحد محكمي لجنة مجلة « سينتفك أمريكان » في مباراتها المزمنة ؛ واسم هذا الكتاب « بحوث معملية في الظواهر الروحية » ، وفيه كثير من الأجهزة الدقيقة ، والتجارب المتقنة — الفاشلة والناجحة في شتى نواحي هذا العلم — مع تعليقات عليها .

لقد أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التي يرأسها سيدي العميد ، في سلسلة « خلاصة العلم الحديث » كتاب « فلسفة المحدثين والمعاصرين » . وقد سرد هذا الكتاب آراء كثيرين من أساطين الفلسفة أمثال دويش ووليم جيمس وبروض وغيرهم . والظاهر أن سيدي العميد لم يقرأ آراء هؤلاء وغيرهم في العلم الروحي الحديث ، والأخير منهم هو الذي يشرف على الدراسة الروحية التي أنشأتها كيمبردج في كلية ترنتي . ويسرني أن يعلم سيدي أن كيمبردج في سبيل التشجيع على الاقبال على هذه الدراسة تمنح كل طالب يقع عليه الاختيار ثلثمائة جنيه في العام .

ليت شعري : هل يساعد هؤلاء كلهم ومعهم جامعة كيمبردج وغيرها على تضليل الجمهور قبل أن تسفر البحوث « عن نتيجة حاسمة يؤمن بها العلم » ؟ وهل تساعد جرائد « التيمس » و « صنداي تيمس » و « صنداي جرافيك » و « بكتشر بوست » و « سايكك نيوز » و « لايت » و « توورلدز » و « روكاين إيجل » و « سايكك سايس » و « سايكك ورلد » وعشرات المجلات والصحف الأخرى على نشر « التخريف » بين الشعوب الناطقة بالانجليزية أم ماذا ؟ وليلاحظ سيدي أن الخرافات في بلاد الغرب لا تقل عنها في بلاد الشرق . وأود من قلبي لو تبلغ « الثقافة » مبلغ هذه الجرائد في المنزلة وفي الذيوع والانتشار . ولئن ضنت « الثقافة » بوحي سيدي العميد وتنفيذاً لرغبته في حماية الجمهور من التضليل المزعوم الذي « لا تؤمن مغبته » فأحجمت عن نشر ما يزين في الواقع أركان فلسفتنا الحاضرة ، ففي مصر غيرها من الجرائد والمجلات ، وبارك الله الروحية والروحيين في جرائدنا ومجلاتنا الغراء : « المصري » و « الوفد المصري » و « المقطم » و « الأهرام » و « الدستور » و « الهلال » و « المقتطف » و « الشعلة » و « الاثنين » و « المصور » و « المزرعة » و « مجلة الأزهر » فقد أفسحت صدرها للبحوث والمناقشات الروحية . ولا أظن أن هذه الصحف كلها أو بعضها أقل منزلة وذيوعاً من « الثقافة » الغراء .

ولقد قال سيدي قبيل ختام تعليقه كلمة حق وإنصاف أحمده عليها ، وهي « إذا أبت الجامعات ذلك لم تكن منصفة » . وإني جد مستمسك بهذه الكلمة . لقد وسعت كلية العلوم بالجامعة صدرها ، فألقيت فيها بدعوة من الجمعية العلمية فيها محاضرة عن « عالم الروح والعلم الحديث » ولم يوجه إليها أي اعتراض من جانب حضرات الأساتذة الذين شرفوني بالاستماع إليها . فهل تفسح كلية الآداب صدرها ، على الرغم من أن البحث في الروح يستلزم شقاً من العلوم البعيدة عن دراسة الآداب ؟ إني على استعداد لأن يساجلني سيدي العميد ومعه من شاء من حضرات الأساتذة مساجلة جامعية علنية . وحري بكلية الآداب وقد أقرت « فلسفة الموت » أن تبحث في « حقيقة الحياة بعد الموت » تلك الحياة التي بشرت بها الأديان على اختلاف أزمانها ، وأن يكون البحث على أساس علمي تجريبي ، فقد شبعنا من فلسفة الكلام .

وختم سيدي تعليقه بذكر واجب القادة ، وهو منهم بالطبع ، في حماية الجمهور ، وضرب مثلاً « منعهم عرض روايات السينما المثيرة والروايات التي تدعو إلى فكرة باطلة

ولو فى نظرهم » . ولم تفتنى طرافة عبارة « ولو فى نظرهم » فذكرنى هذا بالاتجاه الروحى البادى فى التأليف السينمائى أخيراً ، وأقصد بالاتجاه الروحى عرض قضايا العلم الروحى الحديث فى قالب روائى سينمائى . وقد حدث أن تقدم بعض المخرجين فى لندن برواية اسمها Spellbound أى المسحور ، إلى قسم مراقبة الأشرطة لفحصها ثم استصدار الاذن بعرضها . وكان ذلك فى يناير الماضى ، فأبت المراقبة إباحة العرض إلا بعد موافقة الروحيين غير المخرفين بالطبع حتى لا يكون فيها مساس بهم وبهذا العلم الروحى الحديث ! ! وفعلا تقدم العالم الكاتب الأديب الخطيب الوسيط الروحى الذائع الصيت هانن سوافر ، وقد كان محرراً فى التيمس ثم فى الديلى هرالد ، وكم دافع بقلمه عن القضية المصرية ، وطلب إباحة عرض هذه الرواية . ولم يكتف بذلك ، بل ظهر على الشريط يقدم الرواية للجمهور فى كلمة بليغة . وعرضت هذه الرواية فى سينما بيكاديلى بافلون بلندن ثلاثة شهور متتالية . وقد نراها قريباً فى دور السينما هنا فى القاهرة .

وقد يكون من غريب المصادفات أو من تهكم الأقدار أن يصلنى أمس فقط فى البريد الخارجى الجزء الرابع من كتالوج شركة بوست بكتشرز الأمريكية للأشرطة السينمائية الناطقة مقاس ١٦ مليمتراً لسنة ١٩٤٢ ، فاذا بى أراه يعلن عن شريط جديد عنوانه « عودة شاندو » ، ورأيت فى الاعلان عن هذا الشريط وصفاً غريباً انتهى بلفت الأنظار إلى « انتصار القوة الروحية على شرور السحر الأسود » . ومن مناظر هذا الشريط فى الاعلان صورة تمثل استحضار الأرواح فى البلورة ، وهذه طريقة أخرى للشريط السينمائى الأثيرى الذى سبق لى أن ذكرت عنه شيئاً فى جريدة « المصرى » فى أكتوبر الماضى ، وقد تحدثت عنه كذلك فى مقال « الاسراء والمعراج » سالف الذكر . وقد نرى شريط « عودة شاندو » يعرض فى القاهرة كذلك ، وكل ما نرجوه أن تحمى الجماهير مما قد يكون فيه من « التخريف » الذى يحاربه القادة ! !

وبعد فإلى هنا أقف بملاحظاتى على تعليق سيدى العميد . وهى ملاحظات يمليها على واجب البحث العلمى النزه عن الهوى . ولعل سيدى لا يضيق صدره بها فيأمر بنشرها إنصافاً لحق المناقشة الحرة ، وله تحيتى واحترامى .

٩ / ١٢ / ١٩٤١ **أحمد فهمى أبو الخير**

مدير إدارة السينما بوزارة المعارف

الثقافة : ننشر هذا المقال عملاً بمبدأ حرية الرأى . وليس للثقافة ما ترد به على حضرته أكثر من رجائها إياه أن يعيد قراءة المقال الذى كتبناه فى هدوء واطمئنان .

حول لصوص ولصوص :

قرأت فى آخر عدد من الثقافة ذلك المقال الرائع ، الذى تسمى كاتبه بحرف « ز » ، وجعل عنوانه « لصوص ولصوص » ؛ فأعجبت بمعانى المقال إعجابى بمبانيه ، وأكبرت أدب الكاتب .

وفى معرض الغرض رمى إليه ، قد تذكرت بيتين للشاعر الفرنسى الأوحد فى نوعه « لافونتين » ، كنت قد ترجمتهما بالحرف إلى لغتنا العربية ، ووفقت إلى نظمهما بيتين كما هما فى الأصل :

ما بين لصوص ولصوص — فرق فى الأعلى والأدنى
لصغارهم «الشنق» المزرى — وكبارهم الشرفُ الأسنى

ومن الاطلاع عليهما يتبين أن الأيام تدور دورتها ، ولكن يبقى من حقيقتها أن قسمة الناس ضيزى ، وأن عدلهم بمقياسين وميزانين فى كل آن وأين .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام — المخلص

خليل مطران

الخيال الكاذب!

[مترجمة عن الإنجليزية]

كانت المرأة تسير فى طريقها إلى منزلها وهى تتمتم : « الصفح ! الصفح ! ماذا يفيد كلام القس عن الصفح ؟ كيف يمكننى أن أصفح ؟ إن هذا يعنى أن المرء قد فقد عقله ، وأن الذاكرة لا تعى حوادث الماضى ولا تحمل من ذكرياته شيئاً . إن هذا لا يكون بغير عقل جديد ، كيف يكون الصفح ممكناً إذا كان النسيان مستحيلا ؟ » .

كانت والدة بيرو — هكذا كانوا يدعونها فى القرية ، وكانت هى فخوراً بذلك — مائدة من الكنيسة ، وقد اعترفت للقس فى الصباح أنها كلما رأت مرجريت أرملة سكرتير المجلس المحلى ، تولاها شعور غريب وملكها الغيظ ، كانت تشعر برغبة جنونية فى الفتك بها ، عقاباً على ما أنزلته بها من مصائب فى الماضى .

أبدى القس دهشته فى ألم ، وعجب للعداء المستحكم بين المرأتين ، ألا زالت تذكر ذلك الماضى البعيد ؟ ألا تزال مشاحنات الطفولة مع بنات جنسها عالقة بذهنها ؟ أفلا تقنع نفسها بالنسيان والصفح عن غريمتها القديمة بدلاً من التحدث عن كيف أفسدت عليها حياتها ؟ كان الأحرى بها أن تنسى وتصفح ؛ ولكن والدة بيرو أحست أنها لم تقدر على هذا . إنها لم تكن مجرد مشاحنة بين البنات أصبحت فى حكم النسية كما يقول القس ، لقد أفسدت عليها حياتها إلى الأبد .

كان حلماً بالحب كتمته طويلا ، وتحقق حلمها ، كانت القرية كلها تعرف مقدار سعادتها ، وكانوا يحسدونها على تلك السعادة . وتبددت كل الشكوك ؛ لم يكن حبهما تشوبه شائبة ؛ كانت الحياة رائعة ، والشمس دافئة ، والربيع غنى بزهوره ، والطيور تغرد على أغصانها ونسيم الليل هادئ عليل . كان إيمانها بالحياة وعما بعد الحياة غيره الآن . إنها تذكر ذلك الوقت ، ويخيل إليها أنها كانت فى عالم آخر . ثم ما لبثت مرجريت أن قلبت آمالها رأساً على عقب ، ماذا فعلت مع خطيب زميلتها فى الطفولة ؟ بأى وسيلة أمكنها أن تجذبه إليها بتلك السرعة ، وتستبقيه لنفسها مدى الحياة ؟ كيف جعلته يتنحى عن وعده ويهجر الفتاة التى أقسم على حبها إلى الأبد ؟ أصبح الخجل المؤلم والشعور بالذلة ملازمين المسكينة ؛ إنها تذكر كل شىء ، كأن الأمر لم يعد ابن البارحة .

ولقد مرت بها تجارب كثيرة بعد ذلك : فذاقت مرارة الحياة ، ولكن الله حباها أمومة سعيدة . كان ولدها بيرو الذكى الجد يرفه عنها ويجلب لها السرور دائماً ، ومع ذلك لم يكن هناك من شىء ليسد تلك الثلمة أو يخفف من شعورها بالذلة والألم الممض .

لقد أصبحت مرجريت أرملة ، ومع ذلك لم يكن هذا فى نظر والدة بيرو عقاباً كافياً ؛ كانت تشعر أن مرجريت لم تحب الرجل الذى تنازعتا من أجله كما كانت تحبه هى لو كان لها ؛ ولما مات الرجل لم تكن لجيمة مرجريت فيه لتعادل الصدمة التى تلقتها والدة بيرو عند ما فقدت حبه . وعلى هذا ترى ماذا كان شعورها عند ما مر نعش الرجل الذى لو كان لها لأحبته إلى الأبد ؟ هل اغرورقت عيناها بالدموع ، هل تولاها الفزع والهلع ؟ إنها كانت تنظر من النافذة بعيون جافة ، لم ترتعش ، ولم تقشعر ؛ والواقع أنها كانت مسرورة (وهذه حقيقة لا تعترف بها حتى لنفسها) ، لتعلم أنه قد مات ، وانتزع من بين يدى عدوتها . وتجهمت لها الحياة مرة أخرى ؛ ولعل القدر أبى إلا معاقبتها على أفكارها الآثمة ، فانتزع منها أكثر مما انتزع من الأخرى . إن مرجريت فقدت زوجاً لم تكن

لتحبه . أما هي ، فما هو القدر يسطو على ابنها العزيز بيرو ، إنه ذاهب إلى النار ، إلى الحرب . إن وحيدها ذاهب إلى ميدان القتال . أما الأخرى فبسبب أنها أرملة فهي تنعم بقرب ابنها .

مرت والدة بيرو على منزل مرجريت ، كما تفعل كل يوم في طريقها من الكنيسة إلى المنزل . وفي القرى الصغيرة تعلق الذكريات بحياة الناس أكثر من المدن ؛ فالحياة تسير على وتيرة واحدة لا سبيل إلى تجنبها ، وهذا لا يساعد على اندمال الجرح بفعل النسيان . إن العين تقع على الشيء أكثر من مرة ، والفكر يتكرر ، كل يوم يمر يزداد الشعور بالحب أو بالكراهية .

ألقت والدة بيرو نظرة سريعة على باب غريمتها . كانت هناك حركة غير عادية في حجرة الدور الأرضي . لقد كانت مرجريت مشغولة بترتيب بعض الثياب في حقيبة ، ومضت والدة بيرو في طريقها كمن لا يعنيها الأمر ؛ ولكن الواقع أنها ألقت نظرة سريعة ، بدافع من فضولها لتعرف من الذاهب . لقد كان من الجلي أن هناك من يستعد للرحيل . وبعد قليل اكتشفت الأمر : إنها سمعت الصيدلي يخبر الحلاق أنه في مساء اليوم السابق وصلت الأوامر بالتلغراف لابن مرجريت بأن يقدم نفسه في الحال للسلطة العسكرية المحلية . قال الحلاق وقد أدهشه الخبر : « حتى ولو كان الابن الوحيد لأرملة ؟ » فأجاب الصيدلي باقتضاب : « الأحوال الاستثنائية تستلزم إجراآت استثنائية » . لم تطرب والدة بيرو لسماع تلك الأخبار . قد يكون هذا بتأثير كلمات القس ، لقد بدأت تشعر بأثر تلك الكلمات ولو أنها لم تكن ترغب في سماعها . ولأول مرة من يوم أن طلع نجمها السيء ، أمكنها أن تشعر نحو غريمتها شعوراً غير الحقد والمرارة . فهتفت : « يا لها من مسكينة » إنه حزن رهيب يثير عطف كل من قاساه بنفسه ، وهي تعرف ذلك جيداً . إنه أشد الاحزان جميعاً ! خوف مروع ، وشكوك ممضة . والهلع الشديد من تصور ما قد يحدث بسبب الألم ، وكأنما النكبة قد وقعت فعلا .

وكان أن رحل ابن مرجريت ، وخدعت أمه نفسها بتصورها أنه إنما ذهب للكشف عليه فقط . انتظرت أياماً دون جدوى ، ثم جاءتها الأخبار بأن ابنها قد التحق بفرقته . وبعد مضى ثلاثة أسابيع تسلمت والدة بيرو خطاباً من ابنها يقول فيه : « إن ابن مرجريت قد التحق بنفس الفرقة التي هو فيها ، ولما كانا ابنى قرية واحدة فان الصداقة قد توطدت بينهما .

ذهبت المرأة للقس وقدمت له الخطاب ، وطلبت منه أن يطلع مرجريت عليه . تأثر القس وابتسم . لقد بدأت تنسى ، ومن ثم تصفح . ولم تصدق مرجريت والدة بيرو ، ولكنها لما قرأت الخطاب وضح لها كل شيء . ابنان نشأت بينهما الصداقة وهما في خطر متماثل ، وأمان تقاطعتا لتنافسهما في حب رجل واحد . سألها القس : « هل لديك ما أقوله لها ؟ » فأجابت : « بلغها جزيل شكرى وليبارك الله الابنين » .

ومن ذلك اليوم زالت الكراهة من نفس الغريمتين . لم تكن الواحدة لتحيي الأخرى إذا قابلتها مصادفة في الطريق ، ولكنها كانت تسألها عن أخبار ابنها ، وتقابل إجابتها بالشكر . وكانتا ترتقبان اليوم ، ولم يكن ببعيد ، حين يعود ابناهما لقضاء الاجازة . كانتا تشعران أنهما ستتصالحان يوماً ما ، بفضل ولديهما ، في شعور واحد بالألم والشك ، وتلتقى الأيدى التي طالما حاربت في الصغر لاقتطاف زهرة السعادة . كانتا تنتظران هذا ، ولكن لم تتحدثا عنه . كانت الواحدة تشعر أنها تدنو من الأخرى ، ولكنها لم تقدم — بسبب شعور غريب بالخجل — مع

أنها تعلم أنها ستفعله فيما بعد .

ولكن الولدين لم يحضرا . لقد أوقفت كل الاجازات بالنسبة للحالة الحربية ، لم يكن من الممكن أن يغادر رجل خندقه قبل أن تنجلي المعركة .

وأخيراً جاء إلى مرجريت خطاب من ابنها جاء فيه : « لقد حانت ساعة العمل . إما أن يحركونا أو نحركهم ، لقد تعاهدت أنا وبيرو على أن نظل سوياً مهما حدث . لا تقلق » تبع هذا الخطاب صمت قاتل ، صمت تعرفه النفوس التي مر بها مثل هذا الألم الصامت . كيف تستفسران ؟ كيف تعرفان مجرى الحوادث ؟ شعرتا أنهما أمام تمثال صامت ، عبثاً تحاولان أن تفوزا منه بشيء ، حتى يصدى أصواتهما المتوسلة .

أصبحت المرأتان متلازمتين ، كانت الواحدة تجري وراء الأخرى . لم تكونا سوى شك واحد في قلبين ، آلام واحدة في جسمين ، أشباح لا روح فيها . كان الحاضر الرهيب ماثلاً أمامهما ، أكثر غموضاً من المستقبل الذي لم ينبثق فجره بعد . هل لقي الولدان حتفهما ؟ هل سيظل مكانهما على المائدة خالياً إلى الأبد ؟ أو هل تفاجأ الأم المعذبة بصوت جميل ينادي : أماه ! أماه !

وصلتهما برقيتان : بيرو مفقود ، وابن مرجريت مفقود ، وهكذا تجدد الشك القاتل . الأمان شريكتان في الحزن ، وهكذا أصبحتا صديقتين . أما سكان القرية فقد بدأوا ينسون ، وكان الولدان في اعتقادهم في عداد الأموات . وما فائدة القلق بالأمل الكاذب ؟ لقد مرت شهور ، ولو كان الابنان على قيد الحياة ما شق عليهما أن يرسلا أخبارهما حتى عن طريق الأسرى والجرحى . على أن الأمين لم تفقدا الأمل ، ولم يكن في إمكانهما أن تستسلما لليأس طالما كانتا على قيد الحياة ؛ وكانت الواحدة تقص على الأخرى قصصاً غريبة عن اختفاء رجال اعتبروا في عداد الأموات ، ولكنهم ظهروا فجأة . وكانت الأخرى تصدق ، ولم تكن لتقوى على عدم التصديق .

ولكن كل أم كانت حزينة على نفسها أكثر من الأخرى . عندما تفكر في عودة ابن زميلتها دون ابنها ، تنبعث من أعماق قلبها غيرة قاتلة . ولولا أن فاجعتهما كانت واحدة ، لتولدت البغضاء بينهما من جديد . ورغم أنهما انقطعتا عن عد السنين والشهور ، إلا أنهما انتظرتا . .

وأخيراً انتهت الحرب ، وعاد الجنود والأسرى ، وانبعث الأمل في صدري المرأتين مرة أخرى . وتجدد الشك وتجدد الاستفسار دون جدوى . وأخيراً تجدد الصمت القاتل مرة أخرى .

انبثق شعاع جديد من الأمل . حمل جثمان الجندي المجهول بكل إجلال واحترام إلى العاصمة . كل أم لم تعرف مصير ابنها ، عرفت في الجندي المجهول ولدها . كانت كل أم تحمل في قلبها اليقين أن الجندي الذي مات تلك الموتة الشريفة ، لابد أن يكون ابنها ، وفي هذا تخفيف للمصاب .

كانت كل أم تشعر أن الجندي المجهول ، وهو يحمل إلى مقره الأخير بفخار ، لابد أن يكون ابنها ، وكانت تعتقد أن الأخرى تقاسي آلام الوهم .

كانت ترى ابنها في شخص الجندي المجهول ، يحتفل به احتفالا شعبياً ، فكانت تعزي الأخرى في ابنها المفقود ! ! ! كانت تعطف على الأخرى إلى أقصى حد . لم تذرفا الدمع لحزنهما المشترك ، كانت تعتقد أن مصاب زميلتها لن يعوض ، بينما مصابها هي قد خفف عنها ، ولم تفكر في غير تعزية الأخرى .

وهكذا فرق بينهما التنافس في الحب ، ثم جمع بينهما الحزن المشترك ، ولعب الخبال دوره في تعزيز الصداقة بينهما . . .

محمود عمرو

من هنا وهناك

السؤال رقم ١ : لماذا يعترينا دوار إذا نظرنا إلى الأرض من ارتفاع شاهق ؟

الجواب : لا بد للاجابة عن هذا السؤال من شرح نظرية الاتزان . والاتزان قسمان : اتزان جسمي واتزان عقلي . فالجسم يتزن إذا كان مركز ثقله يقع داخل محيط الشكل المستوى الناشيء عن نقطة ملامسته مع القاعدة التي يرتكز عليها ، وهذا ما يسمى بالاتزان الجسمي .

أما العقلي فيتوقف على عمل العقل الطبيعي ؛ فاذا اختل هذا العمل لسبب ما (كما في حالة السكر الشديد مثلا) اختل معه توازن العقل . ولاشك أنه يوجد هناك ارتباط محسوس بين هذين النوعين من الاتزان ، فاذا فقد الاتزان العقلي لشخص ما فقد أيضاً اتزانه الجسمي ، فيترنح يميناً وشمالا ، وربما سقط .

ولهذا إذا صعد الانسان إلى قمة جبل ، أو نظر من فوق بناء شاهق إلى الأرض ، اعترته نوبة خوف من السقوط تفقده توازنه العقلي ، فينشأ عن ذلك الدوار الذي يشعر به . وكذلك أيضاً حالة شخص يسير في ظلام حالك ، فانه يفقده توازنه العقلي الناشيء من عدم توازن حواسه ، يترنح ويبسط ذراعيه ليتحاشى تصادمه بحاجز ما ، ولو كان في مكان خال .

السؤال رقم ٢ : لماذا يمكننا النظر من خلف لوح من الزجاج ولا يمكننا من خلف لوح من الصاج ؟

الجواب : تتكون كافة الأجسام من أجزاء صغيرة جداً لا يمكن أن تراها العين المجردة ، تعرف علمياً بالجزيئات ؛ فالجزيء هو أصغر جزء من المادة يوجد على حالة انفراد وتتضح فيه خواص تلك المادة .

وكل جسم مكوّن من آلاف وآلاف من تلك الجزيئات . ففي حالة الزجاج تبعد الجزيئات عن بعضها مسافات بحيث إنها تسمح لأشعة الضوء أن تنفذ منها وتتخللها . أما في باقي الأجسام الصلبة كالحديد والصاج مثلا فإن جزيئاتها تقف في سبيل الأشعة الضوئية وتعكسها فلا يتخلل منها شيء .

وبناءً على هذه النظرية استعملت أشعة X التي أدت للعلم وللإنسانية خدمات لا يحصى لها عد .

فوجات تلك الأشعة قصيرة جداً ، وتقل بكثير عن المسافات التي بين الجزيئات بحيث إنها إذا سلطت على جسم ما نفذت ومهدت لها فيه طريقاً

وبالاختصار يمكن تقسيم الأجسام إلى قسمين : أجسام شفافة ومنها غالبية السوائل ، وأجسام غير شفافة وهي الأجسام الصلبة . وقد وصف العلماء الزجاج بأنه شبيه بسائل متبلور .

السؤال رقم ٣ : لماذا نتثاءب ونعطس ؟

الجواب : يتثاءب الانسان إذا كان تعباً أو على وشك النوم . وتعليل ذلك أنه لا يستنشق كمية كافية من الهواء ، لاعطاء الدم ما يتطلبه من الأوكسيجين . ويوجد في الجسم عصب متصل بالمخ دقيق الحساسية للتغيرات التي تطرأ على الدم . فعندما يجد أن التنفس ليس طبيعياً ، وأن الدم يحتاج إلى كميات أوفر من الأوكسيجين ، يحملنا على أن نتثاءب فنأخذ بذلك حاجتنا .

والتثاؤب هو عبارة عن أخذ نفس عميق من الهواء ؛ فاذا لاحظنا أن شخصاً يتثاءب كثيراً ، كان ذلك دليلا كافياً على أن تنفسه ليس طبيعياً ، وأنه في احتياج إلى راحة .

أما العطس فإنه ينشأ من تهيج المجاري التنفسية ، ويكون غالباً في الأنف ؛ تهيج أعصاب الأنف ، إذا لامسها جسم غريب عنها ، كذرة من الذرات السابحة في الجو ، وينشأ من ذلك العطس حتى تخرج تلك الذرة وينظف بذلك مجرى العصب .

محمد أحمد أمين

كيف تمضي وقت فراغك ؟

المنبه الكهربائي

مقدمة :

كثيراً ما يحتاج الانسان إلى منبه يدق دقات عالية لمدة طويلة ؛ وللحصول على ذلك يحول المنبه العادى إلى آخر كهربائى ، وذلك بجعله يوصل – بطريقة أوتوماتيكية – الدائرة الكهربائية لجرس كهربائى ، وهذا الأخير يستمر فى الرنين إلى حين استعمال مفتاح كهربائى يفصله من الدائرة ويوقف عمله .

ويمكن لأى شخص عنده مبادئ الصناعة اليدوية أن ينفذ هذه العملية بمنزله ، وترتيب المجموعة على قاعدة واحدة كما هو مبين فى الصورة الفوتوغرافية شكل (١) :



شكل نمرة ١

ويمكن تعليق هذه المجموعة على الحائط أو وضعها على طاولة بجوار السرير ، ويمكن أيضاً وضع المفتاح الكهربائى إما مع المجموعة وإما فى أى مكان آخر حسب الطلب ؛ على أنه يستحسن وضعه بالقرب من السرير أو تحت الوسادة إذا كان الغرض منه إيقاظ شخص نائم ، وبذلك يسهل استعماله .

الأدوات اللازمة :

١ – منبه عادى به مفتاح ملء الجرس من النوع الثابت (فى ظهر المنبه) وليس من النوع ذى المفصلة كما هو واضح فى الصورة .

٢ – قطعة من لوح نحاس أصفر حوالى ٣ بوصة × ٢ بوصة × ١/١٦ من البوصة .

٣ – جرس كهربائى كالمستعمل فى المنزل ، (٤ ، ٨ فولت) .

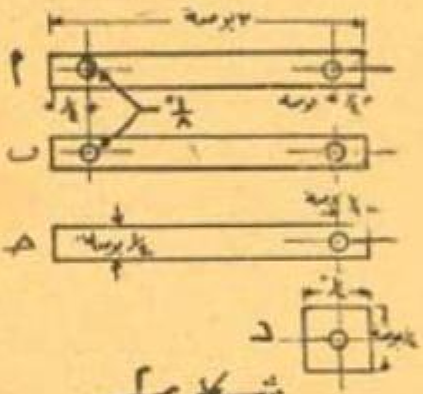
٤ – بطارية جافة تكفى لتشغيل الجرس الكهربائى .

٥ – قطعتان من الخشب مقاس ٩ × ٧,٥ × ١/٢ بوصة .

الجهاز الأوتوماتيكى :

حيث إن الجهاز الأوتوماتيكى المطلوب لهذه المجموعة هو أصعب جزء فيها ، فسنبدأ بشرحه أولاً :

يتكون هذا الجهاز من ثلاث قطع من النحاس الأصفر ٣ × ١/٢ × ١/١٦ بوصة ، وقطعة رابعة من نفس نوع النحاس مقاسها ١/٢ × ١/٢ بوصة ، وسمكها ١/١٦ بوصة ، كما هو موضح فى شكل (٢) . القطعتان « ا » و « ب » بهما ثقبان قطر كل منهما ١/٨ بوصة ، وعلى بعد ١/٤ بوصة من طرف كل من القطعتين . أما القطعة « حـ » فبها ثقب واحد قطره ١/٨ بوصة أيضاً ، وعلى بعد ١/٤ بوصة من أحد طرفيها . وأما القطعة الرابعة « د » فربعة الشكل وبها ثقب فى وسطها قطره ١/٨ بوصة كذلك .

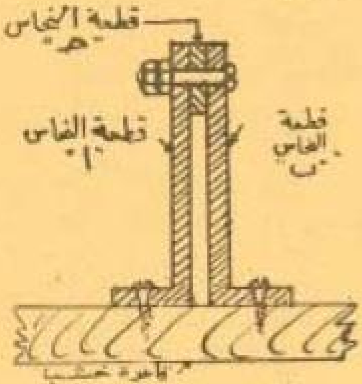


شكل ٢

طريقة التنفيذ :

١ — جهز القطع النحاسية كالمقاسات المبينة فى شكل (٢) .

٢ — إثن القطعتين « ا » ، « ب » على بعد نصف بوصة من أحد طرفيها إلى زاوية قائمة ، ثم ثبتها فى القاعدة الخشبية بواسطة مسارين (برمة خشابى) ، على أن يكون الجزء الأطول هو العمودى على القاعدة الخشبية ، وأن تكون المسافة بين الجزءين العموديين حوالى ٢٫٥ ملليمتر ، انظر شكل (٣) .



شكل نمرة ٣

٣ — ضع القطعة النحاسية الثالثة « حـ » بين القطعتين « ا » ، « ب » ، وثبت القطع الثلاث مع بعضها بمسمار مقلوظ وصامولتين إحداهما تستعمل كترباس للأخرى ، مع ملاحظة عدم ربط الصامولة الأولى جيداً ، بل اترك « خلخلة » بسيطة تسمح لتحرك القطعة « حـ » بسهولة بين القطعتين « ا » ، « ب » .

٤ — ثبت القطعة الرابعة « د » على القاعدة الخشبية فى مكان مناسب ، بحيث إنه عند سقوط القطعة « حـ » (ويستحسن أن نسميها هنا الذراع) إلى الأسفل تسقط مباشرة على القطعة « د » ويحدث بينهما التماس بعيداً عن رأس المسمار المستعمل لتثبيتها بالقاعدة الخشبية .

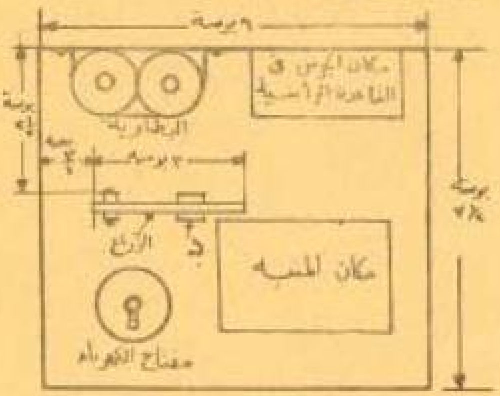
٥ — خذ قطعتين من السلك المعزول (كردون مثلا) طول كل منهما حوالى ٣٠ سنتيمتراً .

٦ — وصل القطعة (السلك) الأولى بإحدى القطعتين النحاس « ا » أو « ب » ، ثم وصل القطعة (السلك) الأخرى بقطعة النحاس « د » .

ملحوظة — للحصول على توصيل جيد بين السلك والقطع النحاسية ، ضع طرف السلك بعد نزع الغطاء النازل من عليه تحت رأس المسمار المستعمل لتثبيت القطع النحاسية بالقاعدة الخشبية ، ولزيادة التأكد ضع وردة نحاس تحت رأس المسمار .

٧ — ثبت القطعة الخشبية الرأسية (الظهر) بالقاعدة الخشبية الأفقية بواسطة مسارين بورمة (خشابى) على بعد ٣ بوصات من بعضهما .

٨ — ثبت الجرس الكهربائى بأعلى الطرف الأيمن للقطعة الخشبية الرأسية ، وبجواره البطارية ، كما هو مبين فى الشكل (٤) ، مع ملاحظة تثبيت البطارية بواسطة قفيز (من الصاج) أو ما شابه ذلك .



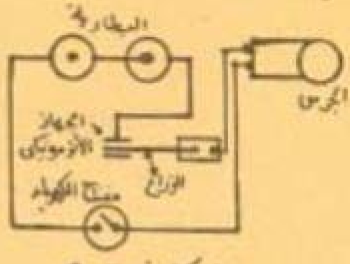
شكل نمرة ٤

توصيل الأسلاك :

١ — وصل أحد السلكين السابق ذكرهما بأحد قطبى الجرس .

٢ — وصل السلك الآخر بالبطارية كما فى شكل (٥)

٣ — وصل قطب الجرس الآخر وقطب البطارية بالمفتاح الكهربائي .



شكل نمرة ٥

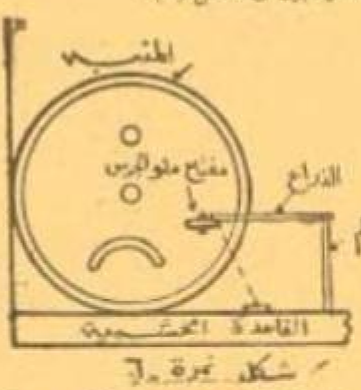
ملحوظة : — المفتاح الكهربائي كما سبق الشرح ، إما أن يكون مفتاحاً عادياً كما في الرسم ، أو من النوع المسمى (كمثرى) ، إذا كان مرغوباً وضعه تحت الوسادة مثلا . وفي هذه الحالة يجب إطالة الأسلاك حسب الطلب مع تثبيتها جيداً بالقاعدة الخشبية تلافيا لنزعها بالشد .

طريقة التشغيل :

١ — املأ المنبه واضبطه على الوقت المطلوب أن يدق عنده الجرس .

٢ — وصل مفتاح الكهرباء .

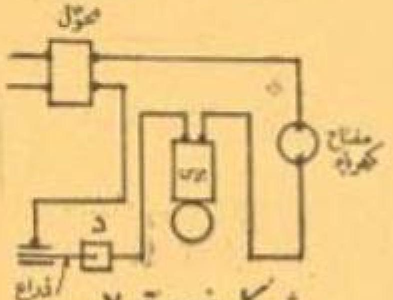
٣ — ضع ذراع الجهاز الأوتوماتيكي على مفتاح ملء الجرس كما هو مبين في شكل (٦) .



شكل نمرة ٦

٤ — ارفع شاكوش الجرس حيث أصبح غير لازم .

عندما يبدأ المنبه في الرنين كالمعتاد يدور مفتاح الملء في الجهة العكسية فيتسبب سقوط ذراع الجهاز الأوتوماتيكي إلى الأسفل ، وبذلك يتم التماس بينه وبين قطعة النحاس « د » فتتم دائرة الجرس الكهربائية ، ويبدأ في الرنين ويستمر كذلك إلى أن يفصل مفتاح الكهرباء فتقطع الدائرة الكهربائية ، وبذلك يبطل رنين الجرس .



شكل نمرة ٧

ملحوظة : — يمكن استعمال جرس المنزل لتلافي شراء بطارية خصيصاً لهذه المجموعة ، وفي هذه الحالة تلغى القطعة الخشبية الرأسية ، وتكون المجموعة عبارة عن قطعة الخشب الأفقية فقط عاملها من الأجهزة ، ويمكن توصيل الجهاز بأسلاك الكهرباء كما هو مبين في شكل (٧) .

عبد القادر القبّاري

حفلة شاى !

بقلم الأستاذ محمود تيمور

أشخاص الرواية :

صابر بك : صاحب الدعوة ، وزوج فكرية هانم . عمره ٣٠ سنة .
فكرية هانم : زوجة صابر بك . عمرها ٢٥ سنة .
الأستاذ فرغلى : من الدخلاء على الصحافة والمدعين للأدب . عمره ٤٠ سنة
بدر بك : أرستقراطى ، يتظاهر بحب الرياضة ، زوج عنايات هانم . عمره ٣٥ سنة .
عنايات هانم : زوجة بدر بك . من رواد الجمعيات . عمرها ٢٨ سنة .
خليل باشا : رجل دجال ، منتحل لقب الباشوية . عمره ٦٠ سنة .
زكيطة هانم بهجت : رمز الأرستقراطية المتكلفة . عمرها ٦٢ سنة .
فطومة : خادمة بمنزل صابر بك .
نبهان : فراش بمنزل صابر بك .
الفصل جمهورية منغوزا .
عدة عشر تقريباً : يحضرون حفلة الشاى ، ممثلين صامتين .

(ترفع الستارة عن بهو بمنزل صابر بك . فى صدر البهو مائدة شاى كبيرة . فى أحد جوانب البهو خزانة تحوى كتباً مجلدة تجليداً أنيقاً . فى البهو طرف عصرية ثمينة . معلق على الحائط بعض صور من الفن الحديث . المظاهر كلها تدل على أن أصحاب المنزل ممن يأخذون بالمدنية الحديثة فى كثير من المغالاة . فى البهو آلة تليفون وفونوغراف ...)

فكرية هانم : (من الخارج) ألم تنتهى بعد يا بنت . ؟ شبكى الثوب جيداً ... على ظهرى ... بسرعة . . !

(تدخل فكرية هانم وهى مندفعة تلبس حلة السهرة . لم تنته بعد من ارتدائها . تظهر خلفها فطومة ...)

فطومة : حالاً يا سيدتى ... ! (تحاول تزرير الثوب فلا تستطيع ؛ لعدم استقرار سيدتها فى مكان واحد ...)

فكرية هانم : (ناظرة إلى مائدة الشاى) لم يخطئ ظنى ...

يا نبهان ... يا نبهان ... ! !

(تنادى الفراش) .

(يدخل زوجها صابر بك . وهو بحلة السهرة «سموكن» . ولم يتم ارتداءها بعد . بيده صورة من الفن الحديث) .

صابر بك : (لفكرية هانم) لم تخبرينى كيف أعلق هذه الصورة ؟

فكرية هانم : (لصابر بك) ثم ماذا يا صابر ؟ إلى متى تصدع رأسى بهذه الصورة . . . ؟

صابر بك : لا أعرف كيف أعلقها . . . لا أكاد أميز بين أعلاها وأسفلها . . . .

فكرية هانم : (تضحك بسخرية) حضرتك لا تميز بين أعلاها وأسفلها ؟ طبعاً ؛ لأنك ذكى جداً . قلت لك إنك تصدع رأسى . . . !

صابر بك : وكيف أصدع رأسك ؟ ألست أنت التى اشتريتها أمس ودفعت ثمنها أربعين جنيهاً ؟ يا ناس . ! ندفع أربعين جنيهاً فى صورة لا ندرى كيف نعلقها . . !

(فكرية هانم غير منتبهة إلى كلامه ، تحدق فى مائدة الشاى . . . تنظر إلى الأطباق والشوك والسكاكين . لا تستقر فيها فى مكان واحد . فطومة مهتمة بتزرير الثوب . ولكنها لا تستطيع أن تتم عملها ؛ لأن سيدتها فى حركة دائبة ....)

فكرية هانم : (لصابر بك) تفرج يا سيدى . . . وانظر شغل نبهان الفراش ... صنيعتك ...

(تصيح بأعلى صوتها مهتاجة) :

يا نبهان ... يا نبهان ... تعال هنا حالاً . . . ! (لصابر

بك ..) وتعطيه جنيهين راتباً .. ؟ إنه فى نظرى لا يساوى قرشين اثنين ....!!

(تعود إلى الصباح وهى ما زالت فى اهتياجها ....)

نعمان ... نعمان سأسوّدُ عيشتك ...

صابر بك : أخبرينى ماذا فعل ؟ ...

فكرية هانم : أخبرك ؟ ... ألا ترى ؟ ! (تشير إلى الزهريات ....)

صابر بك : صحيح لم أنتبه لذلك ...

فكرية هانم : طبعى لم تنتبه لذلك ! ! وهل أنت معنا فى شىء ؟

صابر بك : ماذا تقصدين بكلامك هذا ؟

فكرية هانم : طولَ النهار زَرْزَةٌ فى التليفون مع أصحابك ! ! ؟ ...

صابر بك : زَرْزة فى التليفون ؟ عندى أشغال ... ليست أحاديثى عبثاً ... !

فكرية هانم : وأين أشغالك هذه ؟ إنك تضيع الوقت سدى ... الأولى بك أن تتعلم ركوب الدراجة ، ولا تخجلنا أمام خلق الله ... ! !

صابر بك : ما هذا الكلام ؟

فكرية هانم : كلام فى الصميم ... حضرتك رئيس جمعية أنصار الدراجة ، وتقيم حفلة لتكريم قنصل جمهورية مندوزا ، رئيس جمعية أنصار الدراجة فى بلده ... كل هذا ولم أرك مرة تركبُ الدرّاجة ... !

صابر بك : كنت أركبها وأنا صغير ... ولكن لسنا الآن فى مُشكلة الدراجة ، نحن فى صدد هذه الصورة . نريد أن نعرفَ كيف نعلّقها ...

فكرية هانم : أوه ! لن نفرغَ من هذه الصورة اليوم ... ! (تعود إلى الصباح) : يا نعمان ... ! يا نعمان ! سترى كيف أصنعُ بك ... ! (تلتفت إلى فطومة) : اترك ظهرى ... ! من العسير أن يعتمد الانسان عليك فى شىء ...

فطومة : ... لو تعتدلين قليلا يا سيّدتى ... ؟ !

فكرية هانم : اخْرَسى . امشى ... اُخْرُجى حالاً ... !!

(يدق جرس التليفون) : هيه ... وأيضاً التليفون ؟ ... لقد تحطّم رأسى ... !

(تسير جيئة وذهاباً فى حالة عصبية) .

صابر بك : (يهرع إلى التليفون) آلو ... آلو ... نعم هنا ... الأستاذ فرغلى ؟ أراك قد تأخرت كثيراً ! ... ليس هناك مانع . لا تتأخر ! آه ، صحيح ... انتظر قليلاً ...

(وهو ممسك بسماعة التليفون يشير إلى فكرية هانم فتقترب منه ، يتكلم بصوت منخفض ....) :

الأستاذ فرغلى يستفهم عن زىّ الحفلة ؟

فكرية هانم : ولماذا لم تخبره ؟

صابر بك : بأى شىء أخبره ؟!

فكرية هانم : بالطبع « سموكن » ... لا يمكن خلاف « السموكن » .

صابر بك : قد لا يكون عنده « سموكن » ! ... إنه أديبٌ رقيقُ الحال ... !

فكرية هانم : (بصراخ) سبحان الله يا صابر ... ! لا أقبل فى حفلتى إلا من يرتدى « السموكن » .

صابر بك : اخفضى صوتك حتى لا يُسمع .

فكرية هانم : أريد فضيحتى أمامَ المدعوّين ... ؟

صابر بك : (فى التليفون) سؤالك عجيب جدا يا أستاذ فرغلى ... ! ألا تعرف أن جميع المدعوين سيلبسون « سموكن » ؟ لا يفوتك أن ...

فكرية هانم (تجذب السماعة من زوجها وتتكلم مع

الأستاذ فرغلي (في التليفون) : يا فرغلي أفندي سيحضر حفلتنا وزراء، ووكلاء وزارات، وأعضاء من «البرلمان»، ونخبة من الشخصيات البارزة من الجاليات الأجنبية ... وكنى ... !

(تضج الساعة بشدة ... !)

(يدخل نعمان الفراش وهو منكمش خائف ... ! !)

فكرية هانم : أهلاً وسهلاً ... أين كنت يا سعادة البك ... ؟ لقد تمزق حلقي من النداء ... !

نعمان : والله يا أفندم كنت ..

فكرية هانم : أنا أعرف أين كنت ... اليوم يومُ السباق ... أليس كذلك ... ؟

(يقع بصرها على حذائه) : ما هذا الحذاء القذر الذي تلبسه ؟ !

نعمان : مقطع بجريفن الأصلي يا أفندم ... !

فكرية هانم : جريفن في عينك ... استبدل به حذاءً آخر يتناسب مع حفلتنا ... ألا يكفيك أننا نشتري لك القفاطين ؟ ... ولكن ما الفائدة ونقودك ضائعة في السباق ؟ ... ولم نسمع أنك كسبت مرة واحدة ... !

نعمان : كل الناس تراهن في السباق يا أفندم ... ! !

فكرية هانم : نعم . نعم . وخصوصاً المفلسين أمثالك ... ما هذا الذي يطلُّ من جيبك ؟ (مشيرة إلى جيب نعمان ومخاطبة صابر بك ...) انظر جرائد السباق التي يحشو بها جيبه ... ! ! (صابر بك يأخذ الجرائد من جيب نعمان ، ويلقي نظرة خاطفة ، فيلفت نظره علامات بالخط الأحمر بجوار اسم حصان ...)

صابر بك (لنعمان) : الله ! ... هل راهنت على « برقوق » ؟ !

نعمان : سيكون الأولَ اليومَ يا سعادة البك ... !

صابر بك : رجل مغفل ... الأول اليوم هو «ثعبان».

فكرية هانم : بكل تأكيد ... ثعبان ! !

نعمان : ثعبان نال حظه وا كتفى ... والحظ اليوم لبرقوق ...

فكرية هانم : (هامسة لصابر بك) بكم راهنت اليوم على ثعبان ؟

صابر بك : بعشرين جنيهاً ... سيراهن لي بها بدر بك ... إنه اليوم هناك مع زوجته عنايات كما تعلمين ... لقد وعدني أنه سيحضرُ إلينا بعد انتهاء دَوْر السباق .

فكرية هانم : ومن نصح لك بالمراهنة على ثعبان ؟

صابر بك : فرغلي ...

فكرية هانم : فرغلي ؟ ! ...

صابر بك : إنه أعظم شخصية تفهم في السباق ... !

نعمان : والله يا سعادة البك إن المكسب اليوم لبرقوق !

فكرية هانم : اخرس ... كن في عملك ... تعال ... انظر ما الذي فعلته في ترتيب المائدة ! حضرتك فراش من الدرجة الأولى ؟ ! في البيت أم في السباق ؟ !

(يتقدم نعمان في حذر وخوف نحو مائدة الشاي .

فكرية هانم تشير إلى الزهريات ...) ما هذه ؟

نعمان : زهريات يا أفندم ؟

فكرية هانم : وماذا فيها ؟ !

نعمان : ورد وقرنفل ونخبة من مختلف الزهور ...

فكرية هانم : (لصابر بك) أتسمع ؟ إن دي يقول ؟ !

صابر بك : (لنعمان) نخبة من مختلف الزهور ؟ ! ماذا تظننا يا رجل ؟ ...

فكرية هانم : (لصابر بك) تأمل جيداً وأخبرني ... أينَ هو انسجام الألوان بين هذه الزهور ؟

صابر بك : (يحدق طويلا في الزهريات ثم يهوش رأسه ، يلتفت إلى فكرية هانم متكلفا الحماسة ...) تناسق الألوان مفقودٌ البتّة . (يلتفت إلى نعمان)

في ... بليه ... لم . لم . يا رجل ... الأستاذ فرغلي هو الذي سيرتب الزهريات ، وينسّق فيها الأزهار ... (يخرج نعمان بالزهريات) .

فكرية هانم : فرغلي ؟ ماله وهذا ؟

صابر بك : إنه من رجال الصحافة ومن أكبر الفنانين في هذا البلد . فمن يحسن تنسيق الزهر غيره ؟ ولكن ما هي حكاية رفوف التي تشغل بال نعمان ... ؟

فكرية هانم : لا أدري ... !

صابر بك : (وهو ناظر إلى جرائد السباق ...) مستحيل أن يربح رفوف ... ما هذا الكلام ؟ أنا مستعد أن أراهنك على أن ثعبان هو الفائز اليوم !

فكرية هانم : (تنظر في ساعة يدها) يا للمصيبة ! ! لم يبق على الموعد غير ربع ساعة . وحتى الآن لم ألبس ! صدعت رأسي برفوق وثعبان (تصرخ) : يا فطومة ... يا فطومة ! ... صبراً . صبراً ... ! يا ملعونة (لصابر بك) ألا ترى كيف تركتني وهربت ولم تزرر لي الثوب بعد ؟ (تخرج مهتاجة) .

صابر بك : (وهو ناظر إلى جرائد السباق ...) مستحيل . مستحيل . . ! ما هذا الكلام ... ؟ (ثم يرمي بالجرائد جانباً ، ويمسك بالصورة ثانياً . ويجيل بقلبها بين يديه . يحاول عبثاً أن يميز بين أعلاها وأسفلها . بعد قليل يدخل (خليل باشا) متأنقاً إناقة رخيصة تظهر منها صعلكته . يرتدي (الردنجوت) وله شوارب غزيرة . يدخل وهو يبحث في جيوب (الصديري) وفي محفظة نقوده ، وخلفه نعمان ...)

صابر بك : (يلحظ خليل باشا ، فيتقدم إليه مسلماً) أهلا ومهلا سعادة الباشا ... لا مؤاخذة إذا قابلتك في هذه الهيئة ... حتى الآن لم أستكمل ارتداء ملابسي ...

خليل باشا : تمتع بكامل حريتك يا حبيبي ! !

(يسلم كل منهما على الآخر ... خليل باشا يقول لنعمان الفراش ، وهو دائم البحث في جيبه وفي محفظة نقوده) : ليس معي نقود فضية يا نعمان ! كله ورق كبير !

(يقول لصابر بك) حقاً شيء يضايق ! لقد أنفقت كل ما معي من النقود الفضية ، وأريد أن أدفع أجرة السيارة ، وليس مع السائق بقية ورقة ذات خمسة جنيهات

صابر بك : آه ... الأمر هين ... (يسأل نعمان) كم يطلب السائق ؟

نعمان : ستة وأربعين قرشاً يا أفندم ... !

(صابر بك ينظر إلى الباشا لحظة فيجده قد تركه وذهب في اتجاه مائدة الشاي . صابر بك يعطي نعمان النقود ... نعمان يخرج ...)

خليل باشا : أتراني حضرت قبل الموعد ؟

صابر بك : كلا يا باشا ...

خليل باشا : أموعد الحفلة الساعة الرابعة أم الرابعة والنصف ؟

صابر بك : الكلفة مرفوعة يا باشا ... تفضل . تفضل .. ! (يذهب صابر بك إلى النافذة ويصيح منادياً الفراش ...) يا نعمان ... بعد أن تدفع أجرة السيارة ، أحضر معك الصديري والسترة ، وبقية الملابس . . على عجل ...

(خليل باشا يغتنم فرصة ابتعاد صابر بك ، فيقصد إلى مائدة الشاي ، ويختلس شطيرة (ساندوتش) ويقضم منها . يعود « صابر بك » ويقول له :

سعادتك منا يا باشا ... لا تؤاخذني إذا أكملت ارتداء ملابسي أمامك ؟ !

خليل باشا : (وهو يزدرد الشطيرة) قلت لك تمتع بكامل حريتك (تعجبه الشطيرة التي أكلها فيلتفت ثانية إلى مائدة الشاي ... ويتأمل محتوياتها ، وخصوصاً طبق الشطائر ، ثم يجمع شجاعته ويتناول قطعة أخرى منها ، ويلتهمها وهو يقول) : شاكر لكم حسن عنايتكم بي !

(لها بقية) محمود تيمور

على هامش الأســـبوع

فجيعة الدنيا فى سلمها ، شر من فجيعتها فى حربها

للدكتور أحمد زكى بك

فى زحمة الأخبار الحاضرة ، وفى اختلاط هذه الأنباء التى تملأ الأثير ، والتى كانت تأتينا من ناحية أو ناحيتين فصارت بامتداد الحرب تُطبق علينا من جهاتنا الأربع ؛ وفى امتزاج العواطف وتباين النزعات ، وفى ثوران العقول وفوران القلوب ، وددتُ لو استطاع المرء أحياناً أن يستقل بنفسه عن النـاس ، ويحمل عقله بعيداً عن الحوادث ، ويلجأ بقلبه إلى ركن بعيد ساكن ، لا تصله الأصوات الصاخبة ، ولا تناله المؤثرات الحاضرة ، ثم يأخذ يجترّ فى هدوء وسلام على خضرة الحقل البعيد الوادع ، وفى شعاع الشمس المصفر الصامت ، ما كان وماء واحتواه . وهو واجد لا شك فى هذا لذةً من ألم ، وسلاماً من قلق ، وراحة من تعب واشتغال بال . على شريطة أن لا يأخذ معه إلى هذا الحقل البعيد الوادع شيئاً مما حصّله فى حياته من حب أو بغض ، أو ميل إلى هذا الشيء وانحراف عن هذه الأشياء ، وأن ينسى نفسه ، فلا يكون إلا فكراً من غير جسم ، وإلا حاضراً لا ماضى له ولا مستقبل . فإن هو فعل — إن هو استطاع أن يفعل — لم يجد فى كل هذه الحوادث التى تنتاب الأمم إلا ظواهر كالتى تعترى الأرض التى هم عليها : زلازلُ فانفجار ، فطوفان ماء واندلاع نار ، وخَسْم فى الأرض ورجوم فى السماء ، حتى يَظن من فيها أن ليس ليومها غدٌ ولا لليلها صباح ، ثم ينحسر كل هذا ، وتشرق الشمس ، بلهاء البين ، على سماء صافية ، وأمواج ليّنة ، وأرض فى وجهها خدوش لا يراها إلا الناظر القريب . والحياة الانسانية التى كادت تنطق بتحطّم الشامل ، بق من مشاعلها وحدات تضمن استمرار الحياة وتكاثرها من جديد ، والحياة كالنار تتكاثر من الشرر القليل .

هكذا يجد المتجرِّد الحياةَ ، وهكذا يجب أن يبصر أحداثها ؛ ولكن من ذا الذى يستطيع أن يتجرّد من نفسه ، وأن يتجرّد من حاضره ومستقبله ، بَلهَ أمسه .

إن هذه الحرب القائمة ليست أول حرب وقعت على هذه الكرة ، وليس هؤلاء الذين يُقتلون فى الهواء ، وعلى أديم الثرى ، وفى أعماق الماء ، بأول ناس عرفوا طعم الموت فى ساحات الوغى ؛ ولن تكون هذه الحرب آخر الحروب ، ولا هؤلاء الناس آخر من يموتون ؛ والناس يموتون فُرادَى فى السلم فلا يأسى لهم إلا ذووهم ؛ فاذا ماتوا جماعات كان حريًّا أن يَعُمّ الأسى عليهم بعد أن تخصّص ، ولكنه هو هو فى مقداره ذلك الأسى الذى كان لا بد متفرقاً على شتى البقاع وشتيت الأزمان .

إن الانسان فى غبائه لا تكفيه هذه الأرض فى كل هذا الخصب ومع كل هذا الثراء ، وهى تضيق به فيفيض عنها ، وكان لا بد لهذا الفضل الزائد من قارض يقرضه ، فتأتى الحرب تنقص الناس من أطرافهم ، حتى إذا سوّتْ بين الأرض وما عليها ، ضمّ القـارضُ ما انفرج من مـقراضه ، وطواه حتى يكون طلب جديد ، وما موعد هذا بالموعد البعيد .

فى الحرب المـاضية ، منذ ربع قرن ، مرّت بالعالم أيام أقتم من أيامنا الحاضرة وأظلم ، اختلت فيها النظم المدنية ، وتمشقت فيها مجلات الحياة الانسانية فتعطلت آلاتها من السير فى أكثر المرافق وأكثر البلاد . وحبْلُ النصر تجاذبته الأقوام ، فآناً مال إلى اليمين ، وآناً مال إلى الشمال ، وآناً غنى حتى حسب الحاسب أن لا يكون له شمال ، وآناً أشمل حتى حسب الحاسب أن لا يكون له يمين ؛ ثم انقلب الميزان فجأة وعلى غير حسبان ، وانكفأ انكفاءة لم يكن بعدها من رجوع . فاذا أمم

تفوز بالنصر وأمم تبوء بالخسران . ورجع المنصور والخاسر كلاهما وفى جرابه ، وفى جدول حسابه ، ملايين من الأنفس بين مقتول ومخنوق ومجروح . وكان القوم تواضعوا على شروط عشرة وأربعة ، وضعها الفيلسوف أبو موسى أساساً لتفاهم الشعوب ؛ فكان كالأشعرىّ سلامةَ نية وبياضَ طويّة ، ومات منها بحسرة ليست مثلَها كلُّ الحسرات .

إن الانسان ، وكلُّ إنسان من أى جنس كان ، حيوانٌ نَكِدٌ جبّار ، لايعرف الصحة إلا فى المرض ، ولا يذكر الله إلا فى الغرق ، فاذا هو صحَّ أكل الأرض وشرب البحار ، وإذا هو نجا كفر بالله ورسله الأبرار وملائكته الأطهار .

إن خيبة الانسانية فى انتصارها ، شر من خيبتها فى اندحارها . وهؤلاء الساسة الذين ظنوا أن الدهاء خير من الصدق ، وهؤلاء الآخرون الذين قادوا الناس فلم يقوَوا على كبح جماحهم ، فاكتسحتهم الجموع ، فرضوا من الرآسة بأن يطفوا على قمة السيل الجارف — كل هؤلاء تبينوا الآن أن ذكاءهم كان ذكاءً قصير الأمد ، وأن الناس إنْ خُدعوا سنوات فلن يخدعوا أحقاباً ، وأن الداهى من خديعةٍ كافرٌ شديد الكفر ، جاحدٌ شديد الجحود . كذلك هم تبينوا أن قادة الشعوب خيرها غير السائر ، وشرها المزّقة الذين يتجرون فى عواطف الأمم ، ويحرصون كل الحرص على إرضاء الشعوب بالحق حيناً وبالباطل أحياناً .

لقد سنحت للعالم فى العام الثامن عشر من هذا القرن الحاضر فرصة ما كان أولاه بانتهازها ، فرصة ركع فيها المغلوب واستقام الغالب ، فكان للغالب أن يفعل بالمغلوب ما يشاء ، بل أن يفعل بالدنيا ما يشاء ، وكان فى مقدور الغالب أن يستنير بنور الانسانية ، وهو نور رقيق لطيف من نور الله ، وكان فى مقدوره أن يستنصح حكمة القرون العشرين الماضية ، وهى من حكمة الله ، وكان فى مقدوره أن ينسى حيناً ما فى القلوب عند ذلك من إحن وحزازات وأن يسمو على ما بها من جروح داميات مؤلمات ، وأن يذكر أنه لم يكن وحدَه صاحبَ المجروح ، وأنه لم يكن وحدَه صاحبَ الدم المسفوح . ولكنه لم يفعل . وأذِنَ للدم اللاتينى أن يغلى ما وسِعه الغليان ، وأن يفور ما أمدّه الفوران ، وأن يُرغى ويُزبد حتى لم تكد السلم أن تكون أمناً ، ولا الهدنة أن تكون سلاماً ، ولا العهد المقطوع أن يكون طاقة ، فصار طوقاً . وأراد الأحزمون حزْمَ الأمور بالاحتكام ، فأنشأوا جمعية للأمم تعلقت بها آمال الأضعفين حيناً ، فاذا بها صالة هائلة ، واسعة الفناء عالية البناء ، لا تُسمع فيها الأصوات إلا على قدر الحناجر ؛ ثم صارت بعد ذلك نَدِياً للأثرياء والمقرَّبين .

إن الصدمة التى صدمت البشرية فى خيبة هذه الجمعية كانت صدمة من تلك الصدمات التى لا يفوق منها المصدوم إلا وهو أشد انتباهاً وأرهف حساً ؛ من أجل هذا صحا المصدومون فيها فتركوا أبوابها هائمين يطلبون النجاة حيث تكون ، وأنَّى تكون ، وحيث قد تكون أو لا تكون .

إن هذه الحرب قامت قيامتها منذ عامين ، ولكن تاريخها كُتِب قبل ذلك بعشرين عاماً . كُتِبَتْ أول صفحة منه فى فرساى ، وكان لكل أمة سطر فيها ، فكان للطليانية سطر ، وللانجليزية سطر ، واليابانية سطر ، وكان لمن عدا هؤلاء من الأمم كسور وأنصاف سطور ، وكان للفرنسية فيها أسطر عدة . ثم كان لكل عام بعد ذلك من هذا التاريخ صفحة ، كُتِبَتْ بمداداتٍ مختلفة ، ذات ألوان شتى ، لأنها صنعت فى عواصم شتى ، فظهرت الصفحات فى غير انسجامها الأول وفى

غير لونها الواحد . وساح المداد السكسوني على المداد اللاتيني ، فارتطما ، فكان منهما مزيج لا هو بالأحمر القاني ، ولا هو بالأزرق السماوي ؛ فضج السكسوني من هذا الحال ، وكان في الشعوب المجتمعة أقربها إلى رحمة ، وأرغبها ما سمح الزمان والمكان في نَصَفة ؛ ولكن مال عليه أخوه اللاتيني بكأسين أترعتا من خير ما أنتجت البلاد وعتقت ، والسكسوني في قلبه ركن داف تعود إليه الصداقات القديمة إذا عزها استدفاء . فلم تلبث أن رأينا الكأسين تتقارعان ، والكفين تتصافحان . وكان من ذلك « الأتنات » l'entente . ثم رأينا المدادين من بعد ذلك يلتقيان أحياناً ويفترقان أحياناً . وجرت السنون هكذا بغير خطة مرسومة ، ولغير غاية معلومة ؛ ولكنها غاية مقدورة محتومة .

إن لجيمة الدنيا في سلمها شر من لجيمتها في حربها . فالحرب صراع بين قوات ، والسلم صراع بين عقول ، فان عجزت العقول عن تدارك الأمور ، تداركتها قوة — مهما بُث فيها من علم ، وتخللها من حذق — ليست إلا من قُوى البهائم . وما حال دنيا يحتكم في أمورها إلى أنياب ذئاب ومخالب آساد وسموم أساود ؟

لقد أذاع عاهل أمريكا منذ يومين على قومه خطاباً . أذاعه من حجرته وبجوار موقده . وأعلن فيه قيام الحرب بين الولايات المتحدة وبين اليابان . وقد تضمن هذا الخطاب كثيراً من الانذار والتحذير ، وكثيراً من الحزم والعزم ، وكثيراً من الآمال والأهداف ، ولكن لم يعجبني من هذا الخطاب شيء كما أعجبني ختامه ، قال : «سنكسب الحرب ، وسنكسب السلم التي تجيء بعدها» . وكسْبُ الحرب رجاء خطير ، ولكن أخطر منه كسب السلم التي تجيء بعدها ، ولو لم يكن للحرب كاسب .

احمد زكي

الحرب تعم كوكب الأرض

(بقية المنشور على صفحة ٤)

ولعلها رأت أن الأوفق لها أن تأخذ أعداءها واحداً بعد الآخر على الطريقة النازية ، ولو كان من الممكن أن تفصل بين حربها مع الولايات المتحدة وبريطانيا لفعلت . وفوق هذا فان من مصلحة اليابان ألا تدخل في حرب مع روسيا في الوقت الحاضر ، لأن هذا سيؤدي إلى أن تتخذ أمريكا من شواطئ سيبريا قواعد لطائراتها تستطيع منها أن تضرب بلاد اليابان مباشرة ، بدلا من أن تغير على بلاد أجنبية خاضعة لليابان .

وكان من الجائز أن تكون روسيا هي البادئة باعلان الحرب على اليابان ، ولكن هذا لن يتم إلا بتحالف تام بين أمريكا وروسيا ، وقد لا يكون الرأي العام في أمريكا معداً إعداداً تاماً لهذه الخطوة ؛ وفوق هذا فمن الجائز أن يكون انهماك روسيا في الحرب بميدانها الغربي شاغلا لها من التورط في حرب جديدة في جهات نائية سحيقة ؛ ومع أن الشتاء القارس قد هدأت بسببه الحرب الروسية الألمانية بعض الهدوء ، فان نقل الجنود والذخيرة إلى الميدان السيبيري ليس بالشيء اليسير .

وهكذا نرى اليابان وروسيا — ألد أعدائها في الشرق الأقصى — في حالة سلم ، وهي في حرب طاحنة مع دول تعد من أغنى وأقوى دول العالم . . . وفي هذه الحرب التي شنتها اليابان بجرأة وعنف تتمتع الأمبراطورية اليابانية بمركز جغرافي ممتاز ؛ ذلك أن أرضها ، ومصادر تموينها وقواعدها قريبة من ميادين القتال ، بقدر بعد هذه الميادين عن مراكز الأمداد الرئيسية في بريطانيا وأمريكا . ولهذا لم يكن بد أن تسفر الجولة الأولى في هذا الصراع الهائل عن بعض الفوز للقوات اليابانية .

محمد عوض محمد

حقائق عن الجيش الروسى

تبدأ الخدمة العسكرية فى الجيش الروسى من سن الحادية والعشرين ، وكل فرد مجبر على أن يلتحق بالخدمة العسكرية فى هذه السن ، ويكون قد أعد قبل ذلك خلال عامين كاملين لهذه الخدمة ، فهى فى الواقع تبدأ فى سن التاسعة عشرة .

ويفرض نظام التعليم على الذكور والاناث معاً أن يتموا دراسات عسكرية نظرية لا بد منها لاتمام تعليمهم . ولا قيمة للعنصر الاجتماعى فى الاجبار على الخدمة العسكرية ، فكل فرد من أى جنس مرغم على هذه الخدمة . ومدتها عامان فى الجيش وثلاثة أعوام فى السلاح الجوى وأربعة فى الأسطول . وتمد السلطات الحربية الروسية كل الشعب من المحاربين ، ففى حالة الحرب لا يصبح الجيش الأحمر وحده فى الخدمة ، بل كل الأفراد من الجنسين يشتركون فى الحرب ، فالدولة كلها تقوم بالخدمة العسكرية ؛ وبسبيل تحقيق هذا النظام تتصل كل أنحاء روسيا بشبكة من المعاهد العسكرية ومعسكرات التدريب للبالغين ، وأرقام الملتحقين بهذه المعاهد أرقام غير مألوفة ، فكل معهد لا يدرب أقل من خمسين ألفاً ! !

وفى عام ١٩٣٩ كان عدد المدارس الحربية ٦٣ مدرسة لتخريج الضباط البريين و٣٢ مدرسة للطيران عدد طلابها ٢٠٫٠٠٠ ، علاوة على ١٤ معهداً للدراسات العسكرية العليا وست كليات حربية ملحقة بالجامعات بها حوالى ٢٠٫٠٠٠ طالب يدرسون بالنهار و١٥ ألفاً يدرسون بالليل .

وإلى جانب هذا النظام يقوم نظام آخر هو نظام الدورات التعليمية ، وهى تنقسم قسمين : الأول تستغرق الدورة فيه عاماً كاملا ، والثانى نصف عام ، ويتلقى الطلاب فى هذه الدورة العلوم العسكرية بمحض اختيارهم ، وينالون شهادة بإتمام الدورة ، ولا يقل من يتخرجون من هذه الدورات عن عدة مئات من الآلاف سنوياً ! !

[ملخصة عن إمباير ريفيو]

يرحمك الله يا يوسف ...

جاءنا وقد تم طبع المجلة نعى رجل من أكرم أبناء مصر وأعز خدامها ، المغفور له الأستاذ يوسف أحمد الجندى ، عضو الوفد المصرى ، وعضو مجلس الشيوخ ؛ فاهتزت القلوب لنعيه وامتلأت أسى .

فقد كان الفقيد العزيز مثلا سامياً فى صدق الوطنية ، وصفاء السريرة ، وثبات الإيمان ؛ فى شجاعة لا يعتريها تردد ، وعفة فى القول والفكر لا تشوبها شائبة . عاش ما عاش جندياً مجاهداً فى سبيل مصر والعروبة ، لم يظهر فى ميدان جهاده إلا أسمى ما يكنه الجندى الباسل من عواطف النبل والشهامة ، حتى كان خصومه فى الميدان أول من يشهد بطهارته وسمو شمائله .

كان جهاده لمصر والعروبة ، وكل همه متجهاً إلى خير مصر والعروبة ، لا يحمل فى أشد حالات نضاله غلاً ، ولا يضمر حقداً ، إذ كان يجاهد ناظراً إلى ذلك الضوء السامى الذى يهتدى به أولو البصائر الشفافة والضمائر الصافية .

كان الفقيد كل هذا ، وكان فوق كل هذا . فهو جدير أن يحزن عليه كل مصرى ، وكل عربى ، وأن يبعث إليه أنفاساً تحمل الرحمة إلى مثواه الطيب فى رمال مصر الطاهرة .



ولكن "الثقافة" إذ تنعاه إلى قرائها ، لا تنسى أن تذكر أنه كان من كرام أصدقائها ، وخيار أصحابها ، فقد كان فى صدر الرعيل الأول من أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الذين كان لهم السبق إلى إنشائها أيام كانوا يجتمعون وهم طلاب علم فى حدائق قصر النيل فى إهاب جديد من الشباب والعزيمة ، ليضعوا لها قانونها ، ويبنوا أول الحجارة فى أساسها . وبقى ما عاش على حبه لها ، واهتمامه بأمورها ؛ لم تلهه عنها شواغله الكثيرة فى ميدان جهاده الفسيح .

يرحمك الله يا يوسف ، ويتزلك منازل الشهداء والقديسين .

***

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٣٦٩

العدد ١٥٦ | الثلاثاء ٥ من ذى الحجة سنة ١٣٦٠ — ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

يوسف الجندى الصديق

كانت الروضة مزدهرة باسمة تغمرها الشمس بشعاعها الصافى ، وكان النسيم الوديع يملأ الصدر حياة وأملا ، وكانت العيون تقع على لون البحر الأزرق ولون السماء اللازوردية ، فتشع فى القلب معانى الصفاء ، فتمزج طهرا أمام البصر بطهر فى أعماق الصدر . وهناك فى ثغر الاسكندرية الأنيق عرفت يوسف فى مطلع الحياة فى مدة الدراسة الثانوية ، وما إن عرفته حتى سرت بيننا ألفة الصبا الساذجة ، فاذا نحن صديقان كأنما ننتمى لأب وأم ، فكانت المدرسة لنا بيتا ، وكان أهل كل منا أهلا لصاحبه ، وكان اسم يوسف فى بيتى حبيبا كما يكون اسم الأخ الشقيق .

فكان العام يمر فى الدرس المتواصل وليس فيه مواقف تهز النفس إلا فى ساعتين : ساعة نبكى إذ نفارق الأهل لكى نسافر إلى المدرسة ، وساعة نبكى إذ يفارق أحدنا الآخر فى آخر العام عائدا إلى أهله .

وانتهت الدراسة الثانوية ، وتشعبت بنا طرق الدراسة العليا ، ولكن يوسف الصديق بقى حيث كان ؛ فلم تزل الحياة تجمعنا خارج معاهد العلم ، وقد نما الادراك وصلب العود ، واتسع الأفق ، فوجدنا فى مطامح الحياة العامة ما اجتمعت عليه عواطفنا المتلائمة ومبادئنا المتحدة ؛ فما زلنا على ذلك حتى صار يوسف جزءاً متمماً فى الحياة ، يتلفت إليه القلب كلما أحس وحشة ، ويتجه إليه الرجاء كلما لاح فى سبيل الحياة ما يدعو إلى اتجاه الهمة نحو غاية .

ثم أقبل صيف الحياة بعد الربيع فإذا يوسف شجرة

ناضجة ظليلة الأغصان ، تحمل أطيب الثمار ، فكان قرة العين وسلاما للقلب ، وعونا على الخير ، ومنبعاً للمكارم . وكان الصيف يتقدم بأيامه ، فلم نحس إقبال الخريف ، وإن كان بعض أشجار الصيف قد أدركه من حولنا الذبول . ثم إذا بي أرى ذلك العود النامي ينهصر فجأة ، ولم تمسه بعد يد الخريف التي تذوي من لمسها الغصون . فواحر قلباه ! لم أملك النفس إذ جاءني منعاه لكي أفكر في الحياة بعده ، فقد كان النبأ الفاجع صدمة أذهلت النفس ، وشردت الفكر ، فساقني الحزن في سبيله حتى لم أتبين كيف يكون اليوم ، أو كيف يصبح الغد . وحجب الجوى الخاطف أفق المستقبل ، فلم أفكر إذ سمعت نعيه كيف أقضي ما بقي من الأيام في وحشة منه . ثم تكشف المستقبل رويدا من خلال الأستار المسدلة ، فواحر قلباه ! كيف تكون الحياة إذا تلفت حولي فوجدت مكان يوسف خاليا بين الأصدقاء .

لن أتحدث عن يوسف عضو الوفد المصري ، ولا عن يوسف عضو مجلس الشيوخ ، فقد عرفه الناس في لفتاته وولائه ، وفي قوة نفسه ونبل خلقه ، وفي اضطلاعه بالأمانة وحمله على النفس في أداء الواجب ، وقد سمع الناس صوته المدوي الذي يتردد فيه الاخلاص ، وأدركوا معنى حجته التي رن فيها الصدق والوطنية . قد عرفوا ذلك كله وسمعوه ، فما بي من حاجة إلى أن أتحدث عنه ، وإن كان للتحدث أن يعيده للذكرى فهناك من هم أولى مني بإثباته وأقدر فيه على الوفاء بحقه . وحسبي أن أحاول التخفيف من لواعج حزني عليه بتذكر بعض ما أحطت به عنه في لمحات من الحياة لا تزال باقية في أعماق الذكرى ، أحتفظ بها كما يحتفظ السائح بصور عزيزة عليه تعيد له ذكرى لحظات سعيدة مرت به يدخرها لعلها تكون له عزاء في أوقات الحزن أو الوحشة ، أو لعلها تعيد صدره الكئيب أنفاسا تفرج بعض كربته .

منذ نحو خمسة وثلاثين عاماً اهتزت مصر كلها إذ مات مصطفى كامل زعيم الحركة الوطنية عند ذلك ، وكان الحزن الذي شمل الشباب لا يحده من قيود الاعتبار ما يخفف وقدته . فتدفقت العيون بالدمع ، وخيم على القلوب حزن يشبه اليأس ، وكان حزن يوسف عليه مثل حزن إخوانه فياضاً مندفعاً عنيفاً ، ولكن معنى جديداً لا أزال أذكره إلى اليوم نبت في قلبه منذ ذلك الحين كأنه كان ثمرة ذلك الحزن المستعر ! وقد أفضى إلي يوماً في بعض حديثه بذلك المعنى الذي وقع في قلبه ، إذ سألني في سذاجة الصبا وطموح الشباب الأول : « لم لا نتعاهد على أن نمضي في سبيل مصطفى كامل إذا ما بلغنا مرتبة الرجال ؟ ألا يكون ذلك تخليداً لروح الفقيد الذي نبكيه ؟ » . وتعاهدنا على ذلك في جد بقسم من الأيمان المقدسة . ثم تقدمت بنا الأيام وانزوت ذكرى هذا العهد في أعماق الصدر ، ومضى يوسف في حياته وهو في كل خطوة يحقق جانباً من العهد الذي أقسم عليه .

عرف يوسف الطالب بين إخوانه بسلاسة القلم وقوة العاطفة ، يسكب عواطف قلبه في رسائل تتقد وطنية وحماسة ، فإذا تكلم في موطن أنصتت له القلوب واستعذبت وقع كلماته البسيطة التي لا تكلف فيها ، ورنة صوته المتحمس ، بل لقد كانت له لثغة بالراء تكسب ذلك الصوت قوة من معنى الاخلاص الذي تنم عنه ، وإني إن أسفت على شيء فإني آسف لأني اضطررت بعد سنوات إلى أن أحرق رزمة من رسائله الفياضة التي كنت أحتفظ بها ، وإنما أحرقتها خوفاً عليه من عاديات الطاغية (فليدس) الذي قضى في مصر سنين عديدة يهدد الأبرياء بجواسيسه وطغيانه . فقد سمعت يوماً أن ذلك الشبح المخيف سيبعث أعوانه إلى داري لعله يجد فيها وسيلة إلى فريسة ، فأسرعت أول كل شيء إلى تلك الرسائل فأحرقتها حتى لا يجد على صديقي سبيلا .

وكان يوسف يجمع إلى عواطف هذه الوطنية المتقدة في صدره نبلا طبيعياً لا تكلف فيه ، وقد ظهر ذلك النبل في حياته العامة وتحدث الناس بما عرفوه فيه ، إذ هو ملء الحياة في ميادين السياسة المضطربة ، ولكني لا أزال أذكر مثلا من ذلك النبل منذ كان يوسف شاباً في أول عهده بالحياة ؛ ويلذ لي أن أذكره ، ففيه آية تدل على تغلغل ذلك النبل في طبعه .

فقد أسس مع بعض إخوانه شركة مالية هو أمين صندوقها وروحها ومحركها ، وكانت دفاتر هذه الشركة ووثائقها كلها عنده ، ومن بينها صكوك التجار الذين كانوا يتجرون بأموال الشركة . وفي ذات يوم جاءه نبأ بأن أعوان فليدس سيهبطون على بيته بعد قليل ، فكان أول خاطر خطر له أن يمزق تلك الدفاتر وما فيها من أوراق لأنه كان يعلم أن كتابة أسماء أصحابه في دفاتر كافية لأن تكون عند ذلك الطاغية برهاناً لا يقبل الشك على أنهم يدبرون سوءاً في الخفاء . وبالغ في الاحتياط فألقى بتلك الأوراق الممزقة حيث لا يستطاع استرجاعها . فلما مضت العاصفة وخرج أعوان الطاغية من داره على غير طائل أدرك ذلك الصديق الأمين أنه قد أودى ببرهانه قبل التجار ، كما ضيع حساب أصحابه من الشركاء ، فكانت حيرة شديدة لم يجد منها مخرجاً إلا أن يحمل الأمانة وحده واضطلع بحمل الوفاء بعد أن ضاعت الأموال التي لم يجد عليها برهاناً . فأعاد إلى شركائه مالهم من الأنصباء إلا من كان منهم على علم بالحقيقة فأبى أن يزيد في إجهاده ، وكان هؤلاء قلة من الشركاء .

وإني لأذكر يوماً أني كنت لا أزال طالباً بمدرسة المعلمين وكان هو طالباً بمدرسة الحقوق . فجاءني يوماً زائراً على عادته وجلس على (كنبة) من تلك الكنبات العتيقة التي كانت من قبل شائعة في البيوت ، وجلس يحدثني حديثه العذب المملوء بأحلى الآمال ، إلى أن قال : « وماذا ترى لو ألفنا جمعية نتعاون فيها على التأليف والترجمة لتكون وسيلة إلى نهضة فكرية تعقب حركة تساعد على ما نرجوه من الآمال » ؟ وكان هذا أول عهدي بالفكرة التي أنتجت فيما بعد لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد أن تحدرت السيول من قلوب عامرة أخرى ، فاجتمعت السيول جميعاً في واد طاهر . نسأل الله أن يزيدها طهراً وبركة .

وأذكر يوماً من أيام الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ، إذ جاءني يوسف في منزلي ليلا ، وكنت مدرساً في إحدى المدارس الأهلية وأقيم في السكاكيني . وكانت البلاد كلها في وثبتها الهائلة النبيلة ، فعلمت منه أنه قد جاء لائذاً بالقاهرة وهو طريد ، بعد أن كان منه في بلده ما كان . ولكنه لم يبال الخطر المحدق به ، ولم يرض أن يقعد من الجهاد مع علمه بشدة الطلب من خلفه ، فكان يتخذ الليل ستاراً يختفي في نضاله ، حتى انجلت الظلمة بعد حين ، وهدأ الجو فترة ، وانفرجت الكربة الأولى من كرب الجهاد .

ومضى في حياته السياسية بعد ذلك ثابت العقيدة إلى آخر أيامه ، لم يتزعزع يوما عن إيمانه ، ولم يتزلزل عن مبادئه التي تغلغلت في أعماق صدره منذ أيام الشباب . وكان في شدة إيمانه لا يعرف العدوان ، ولا يضمر الكراهة لأحد من معارضيه ، وإن كان من ألد خصومه في رأيه ؛ وهكذا يكون الإيمان الثابت إذا ارتكز على نفس صافية .

ولكم كنت أراه في جهاده يقسو على نفسه فأشفق عليه وأخشى عواقب الجهد فيه ، وكم أفضيت له بإشفاقي فما كنت أجد منه غير تلك البسمة الوديعة التي تعودتها منه وهو يقول :

« ما أنا إلا جندي . وهل يتراخى الجندي في الميدان ؟ »

ومضى في سبيله لا يتردد حتى هوى في ميدان الجهاد شهيداً .

وإني اليوم أنظر إلى الأفق الذي خلفته ورائي من بعد تلك السنين الطويلة ، ثم أنظر اليوم إلى الأفق الذي حولي ، والحوادث في الفضاء تضطرب ، فأناجي نفسي :

« لقد أوفيت يا يوسف بعهدك الذي قطعته صبياً، وحققت أملك الذي كنت تطمح إليه فتياً. وإن كنت عوجلت العاجل قد جمعت أملك وصحبك ووطنك فقد بررت وطنك وأديت واجبك. عليك سلام الله ورحمته ما شاء أن يترحم، وجزاك الله عن بلادك جزاء الأبرار.

أي صديقي! سأقضي سائر الحياة ألتفت إلى موضعك وأفتقدك. أستلهم روحك لعلها تسددني، وأستضيء بالشعلة المقدسة التي رفعتها لعلها تهديني، وعزاءً إلى بنيك وآلك، وعزاءً إلى شركائك الذين قاسمتهم النضال، وعزاءً إلى خلصائك وإخوانك الذين محضت لهم المودة، وعزاءً إلى خصومك الذين سيفتقدونك بفقدك، ولا زلت حياً في قلب صديقك الحزين.

محمد فريد أبو حديد

في الأدب المقارن:

الأبوة في الأدب

حاولنا في مقال سالف أن نبحث عاطفة الأبوة، ورأيناها ظاهرة في وجوه عدة من أدب المصريين القدماء والاغريق والفرس، وفي الأدب الحديث عند شكسبير. ونحن نحاول اليوم أن نتأثر هذه العاطفة في أدب العرب.

والأدب العربي مملوء بالقصص، لكنه يخلو من الملاحم والمسرحيات. لذلك نستطيع أن نطلع على تلك العاطفة في الشعر الغنائي الذي يمثل الأدب العربي القديم والحديث، وفي القصص القديم الذي سلم لنا من عصور البداوة.

والقبيلة العربية كانت هي الوحدة التي تميز هذه العصور. ورب القبيلة كان دائماً هو الحاكم الأعلى والمشرع الأكبر. وكان لعلائق الدم كل الوزن في حياة مثل هذا المجتمع. بل لقد كان القضاء الأعلى يرتكز على الأخذ بالثأر، والمطالبة بدية القتيل. لذلك امتلأ الشعر العربي بالتحدث عن علائق الأبوة والبنوة والأخوة. والغريب في كل ذلك أنه لم يكن للأمومة وزن، لأن مكان الأب كان قد طغى على مكان الأم.

وفي قصص العرب الكثير من أخبار الحرب. ولعله لم تشن حرب واحدة إلا كان الأب أو الابن هو الذي أثارها. فإذا قتل في قبيلة شيخ أو غلام كان على ابن الشيخ أو أبي الغلام أن يثأر. وتنشب بعد ذلك حرب تطول ثم تطول حتى تتفانى فيها القبائل، وفي هذا الصراع الذي يكافح فيه الأبطالُ الأبطالَ كان الشعر يسيل فيضاً من أفئدة الشعراء. وحرب البسوس من أكبر الحروب التي شنت، والشعر الذي قاله فيها الحارث بن عباد من أجل ما تحويه كتب الأدب العربي. وأجلُّ هذا الشعر هو الذي قاله الحارث حينما سمع بمقتل ابنه بجير. فقد قالوا إنه لما بلغ الحارثَ قتل ابنه قال: « نعم القتيل قتيلاً أصلح الله به بين ابني وائل » فقيل له: إن مهلهلاً أجهز عليه بنعل كليب وهو يقول: « بؤ بشسع نعل كليب »! فغضب الحارث وقال وهو يتجهز لقتال المهلهل أبياته المشهورة التي أولها:

قرِّبا مربط النعامة مني
لقحتْ حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله
وإني بحرِّها اليوم صالِ
لا بُجير أغنى قتيلاً ولا رهطُ
كليبٍ تزاجروا عن ضلال
يا بجيرَ الخيرات لا صلح حتى
أملأ السهل من رءوس الرجال

بل لقد كان شعور النجدة بين الأخ وأخيه وبين الابن وأبيه، هو الذي يمثل العصبية البدوية في بلاد

العرب . وقد نُقل عن دريد بن الصمة أنه كان له أخ اسمه عبد الله . وكان دريد وعبد الله قد أغارا على بني غطفان ، واستاقا إبلهم ، ونزلا في بعض الطريق ليقتسما الغنيمة ؛ فأدركهما قوم من بني غطفان وقتلوا عبد الله . وأراد دريد إنقاذه فلم يُغنِ عنه ، وبقي حياته حزيناً يرثيه حتى لامته في ذلك امرأته فطلقها .

ومما قاله دريد في أخيه هذه الأبيات الصافية الحارة :

دعاني أخي والخيل بيني وبينه
فلما دعاني لم يجدني بِقُعْدَدِ
أخ أرضعتني أمه من لبانها
بثدي صفاء بيننا لم يُجَدَّدِ
فجئت إليه والرماح تنوشه
كوقع الصياصي في النسيج الممدد
وكنت كذات البوّ ريعت فأقبلت
إلى قِطَع من جلد بَوٍّ مجلّد
فطاعنت عنه الخيل حتى تبددت
وحتى علاني حالك اللون أسودِ
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه
ويعلم أن المرء غير مخلد

والذي قاله الحارث بن عباد في بجير ، والذي قاله دريد ابن الصمة في أخيه عبد الله ، كان يعبر عن عاطفة من عواطف النفس ، مازالت تقيم لنا نماذج في شعر الجاهلية والاسلام . وقد كونت مراثي الأبناء والأخوة أمثلة لشعور السامي ، يأخذك منها صدق المعنى وإخلاص الروح . ولست أريد أن أحدثك عما قالته الخنساء في رثاء أخيها صخر فذلك مشهور ، ولكن انظر إلى ما قاله أبو ذؤيب الهذلي في أولاده الخمسة ، وكانوا قد هاجروا إلى مصر فهلكوا جميعاً في عام واحد :

أودى بني فأعقبوني حسرة   عند الرقاد وعبرة لا تقلع
فالعين بعدهم كأن حداقها   كحلت بشوك فهي عور تدمع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب   وإخال أني لاحق مستتبع
سبقوا هوىً وأعنقوا لهواهم
فتُخرّموا ولكل جنب مصرع

وقد رزئ ابن الرومي بموت أولاده الثلاثة : تخطفهم الموت واحداً بعد الآخر ، فكان له في كل واحد منهم شعر يعبر عن ألمه الدفين . وقد فجع أول ما فجع في أوسطهم محمد ، فنظم فيه داليته المشهورة التي يقول منها :

توخّى حمام الموت أوسط صبيتي
فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير في لمحاته
وآنست من أفعاله آية الرشد

وهو يصف محمداً في مرضه فيقول : —

لقد قل بين المهد واللحد لبثه
فلم ينس عهد المهد أو ضم في اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله
إلى صفرة الجاديّ من حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه
ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

وهو يرى أخويه يلعبان فيهيجان حزنه الدفين ، وهو يتفجع من كل ما يرى ويسمع ، فيخاطب محمداً ذاكراً أخويه :

محمد ما شيء توهم سلوة   لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما
يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا
فؤادي بمثل النار من غير ما عمد
فما فيهما لي سلوة بل حزازة
يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

***

على أن التفجيع على الأبناء، لم يأت في معرض رثائهم فحسب .

بل قلما نرى رثاء شاعر لزوجه إلا ذكر أبناءه وتفجع عليهم . ذلك بأن الارتباط بين الرجل والمرأة كان دائماً يتمثل في ذريتهما ، ولأن ضعف الأبناء بعد موت أمهاتهم معنى شعري يزيد في حزن النفس ويهيج الألم فيها . واقرأ هذه الأبيات التي نظمها محمد بن عبد الملك الزيات في رثاء زوجه ، وسترى أنه ذكر ابنه ووصف حاله ليرثي زوجه ويتفجع عليها :

ألا من رأى الطفلَ المفارقَ أمَّه
بعيد الكرى عيناه تنسكبان ؟
رأى كل أم وابنها غيرَ أمه — يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تُجنُّه
بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحياني إن بكيت فإنما — أداوي بهذا الدمع ما تريان
فهبني عزمت الصبر عنها لأنني
جليد ، فمن بالصبر لابن ثمان ؟

لكن هذه العلاقة بين الرجل والمرأة وأبنائهما لم تأت في معرض الرثاء فحسب . ولعلك ترى معي جمال هذه العاطفة التي قالها ابن دراج القسطلي ، فقد قال قصيدة يصف وداعه لزوجه وولده الصغير ، وهي من أجمل الشعر العربي ، لما يتسلسل في أبياتها من معاني الرحمة ومن آيات الحب والحنان :

ولما تدانت للوداع وقد هفا — بصبري منها أنَّة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى — وفي المهد مبغوم النداء صغير
عييٌّ بمرجوع الجواب ، ولفظه
بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت — له أذرع محفوفة ونحور
وطار جناح البين بي وهفت بها
جوانح من ذعر الفراق تطير

* * *

وكان لا بد لشعراء العرب أن يذكروا العقوق البنوي ! وما دام هناك أبناء وآباء ، فلا بد أن يكون هناك كفر بأنعم أولئك أو هؤلاء ، وقد سالت قصيدة في ذلك مما قاله أمية بن أبي الصلت يتحدث فيها عما كان يعانيه في تربية ابنه ، ويذكر فيها عقوقه وكفرانه ، ومنها :

غذوتك مولوداً ومُنْتُك يافعاً
تُعلُّ بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت
لشكواك إلا ساهراً أتململ

. . . .

فلما بلغت السن والغاية التي
إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة — كأنك أنت المنعم المتفضل

ومن أبلغ ما قيل في هذا المعنى ما قاله الدينوري وهو يشكو ولده :

ربيته وهو فرخ لا نهوض له — ولا شكير ولا ريش يواريه
حتى إذا ارتاش واشتدت قوادمه
وقد رأى أنه آنت خوافيه
مدَّ الجناحين مدّاً ثم هزهما — وطار عني فقلبي فيه ما فيه

* * *

أما في العصر الحديث ، فإنك ترى مثل هذا الشعر الذي ذكرت لك . وللبارودي قصيدتان : إحداهما في رثاء ولده علي ، والأخرى في رثاء أبيه ، وكذلك ترى أن علائق الرحمة بين الأبناء والآباء قد كونت جانباً كريماً من إنتاجنا الأدبي .

(بني سويف) أحمد فاكي

العصر والبيئة في الأدب والتاريخ

للأستاذ محمد سعيد العريان

من القواعد التي لا تكاد تقبل الجدل ، أن الأديب وعصره هما صورتان تعبّر كل منهما عن الأخرى تعبيراً ما ، فبينهما من التشابه ما بين الأثر والمؤثر ، وبينهما من التفاعل ما بين مادتين من مواد الكيمياء ينتج من تشابك عناصرهما مادةٌ ثالثة تخرج فيها خصائص المادتين كلتيهما .

بل ، وإن القاعدة لأعمّ من ذلك ، فليس هو الأديبَ وحده ، ولكن كل ذي فنٍّ في فنه ، وكل ذي رأي في رأيه ، وكل مبرّز في ناحية من نواحي النشاط — هو صورة من عصره ، وتعبير عن حياته ، ولون من ألوان بيئته .

ومن هنا كان فرضاً على كل من يحاول أن يدرس أديباً من الأدباء ، أو حادثة من التاريخ ، أن يعرف العصر الذي نشأ فيه الأديب أو حدثت الحادثة ؛ وإن ذلك ليدعونا إلى السؤال عن معنى « العصر » : أهو التاريخ « العام » الذي تناول حياة الأمة كلها ، أم هو المؤثرات « الخاصة » التي أدّبت الأديب وأحدثت الحادثة ؟ ...

... وسؤال آخر عن معنى « التاريخ » : أهو الحادثة أم هو الناس ؟ ...

لقد غبر مؤرّخو العرب زماناً لا يعرفون التاريخ إلا أنه تأريخ وفَيات الأعيان ، أو تاريخ ولاية الأمراء وعزلهم ؛ انصرفوا همُّهم إلى ذلك واتخذوه غرضاً . أما ما سوى ذلك من أحداث الحياة ووقائع التاريخ فهو تتبع واستطراد . ثم نجمت طائفةٌ أخرى فرتّبوا التاريخ فصولا على الحوادث لا على الرجال ولا على السنين ، وسلكوا سبيلا ما نزال نسلكه ، على تفاوتٍ بيننا وبينهم بتفاوت ما بين زمانٍ وزمان .

ولست أرى رأيَ أولئك ولا رأى هؤلاء ؛ فليس التاريخ عندي هو حادثةً حدثتْ ، ولا هو ولاية أمير وعزل أمير ؛ لا ، ولا وهو وفَيات الأعيان ومواليدهم ؛ ولكنه هو الناس ...

لأهل التاريخ ما يرون في معنى التاريخ ، فليس لي أن أقتحم عليهم ؛ وإنما لي من التاريخ معناه الأدبي وحسب ؛ والتاريخ عندي — بهذا المعنى — هو الناس ؛ هو الأفراد الذين ينتظمهم معنى الجيل ؛ فهو السوقيّ كيف يبيع ويشتري ، والنادل في القهوة والمطعم كيف يسمع ويجيب ، وبيّاع النصيب في محاط الترام وعلى أبواب المساجد ... وهو شرطيّ المرور ، وبواب العمارة ، وخادم الدار ؛ وهو زوجي وولدي ، وزملائي في الديوان ، وسُمّاري في القهوة ؛ ثم هو طعامي وشرابي ، ورياضتي وعملي ، وفراشي الذي يؤويني ، ووسائل لهوي في فراغي ... إلى أشياء وأشياء هي منا وإن بعدت عنا ، وهي ذات الأثر كلّ الأثر في حياتنا ، وهي العصر والتاريخ والبيئة : تعبر تعبيرها الصادق عن حياتنا ، وتؤثر أثرها للتتبع في فنوننا ، وتبني وتهدم في نظام حياتنا أكثر مما تبني وتهدم أحداث السياسة ووقائع التاريخ العام .

هأنذا أضرب مثلا لثلاثة من شعراء هذا الجيل : شوقي ، وحافظ ، ومطران ...

لقد نشئوا وعاشوا في عصر واحد ، ومرّ بهم من أحداث التاريخ العام ما مرّ بكل « كائن حي » في هذه الأمة ؛ فشاهدوا عصر الخديوية ، وعهد الاحتلال ، ثم رأوا بواكير الاستقلال ، وأدركوا عصر الجمهورية التركية ، وكان كل منهم بالمنزلة التي تجعله فصلا في تاريخ هذه الحقبة السياسي ؛ فهل نرى أثر ذلك في فنهم متشابها ، وهل يغني عن دراستهم دراسة التاريخ العام في عصرهم ، فيزعم زاعم أن ذلك التاريخ هو تاريخهم ؟

ألا إن ذلك ليس شيئاً فى تاريخ شوقى وحافظ ومطران ، فإن لكل منهم تاريخاً غيره . فيما بلى وجد من ثيابه ، وفيما طاب وخبث من طعامه ، وفيمن خلع ولبس من خلانه ؛ وفى لياليهم العابسة والضاحكة ، وفى أسمارهم الرزينة والعابثة ، وفى صواكبهم الوطيئة والخشنة ؛ وبالجملة فتاريخ كل منهم هو « الناس » الذين عاش لهم وبهم ، وتقلب على عيونهم ، واستمع إلى أحاديثهم ، واستمتع أو استاء منهم ولهم ؛ فمن هم هؤلاء « الناس » لنعرف بهم ذلك « التاريخ » ؟

***

« الناس » بمعنى « التاريخ » فن لا وجود له فى أدب هذا الجيل ، وليس لنا به عناية ولا احتفال . ولعلى لا أكون غالياً إن زعمت أنه فن لا يلتفت إليه أحد من أدبائنا اليوم على شدة حاجتنا إليه فى كثير من دراساتنا فى الأدب والتاريخ

ولست أعنى بما أسميه « فن الناس » أدب التراجم العامة ، وإنما هو لون منه : اللون الذى ينقل إلينا صورة مع ناس العصر الذين نعاشرهم ونعايشهم ونبايعهم ونشاريهم على اختلاف مراتبهم فى الاجتماع وتأثيرهم فى الحياة ...

... اللون الذى يصور لنا « الناس » الذين منهم الزبال والشيال ومنهم الأمير والوزير .

هو الفن الذى يسجل للأجيال صورة كاملة من ناس هذا الجيل الذين برزت أسماؤهم لمن بارز فيها ، بروزاً سامياً ، أو بروزاً سافلا ، أو بروزاً شاذاً .

ليس وفاءً بحق التاريخ أن نقتصر فى التراجم السياسية على أسماء : سعد ، ورشدى ، وعدلى ؛ ولا نذكر معها أسماء : السيالوطى ، وبدر الدين ، وسليم زكى ، والطرابلسى ، وكوين بويد ...

وهل نستطيع أن نؤرخ الثورة المصرية تأريخاً حقاً من غير أن نذكر القاياتى ، وأبا شادى ، وبشير الشندى ، وعبد الحميد النحاس ، وبولس غبريال ، ومطلى سرجيوس؟

وليس وفاءً بحق الأدب أن نقتصر من أدباء الجيل على أسماء فلان وفلان وفلان ، إذا لم يكن معهم حام ، وعزام ، والخاجى ، وعبد الحميد الديب !

وماذا يعرف المؤرخ من حياتنا الاجتماعية فى غد إذا لم يعرف « الفيشاوى » ، ونادى العلم ، وقهوة الحلمية ؟

وأين من تراجم الأعيان : أبو طريفة ، والحلوجى ، والدهان ، والمجانى ، والعاصى ؛ إلى أسماء أخر لها شهرتها وأثرها ، وما منهم إلا له نادٍ يغص كل يوم بناس وناس من مختلف الطبقات لا يلتقون فى مكان ؟

***

وما هى القاهرة اليوم ، وماذا كانت قبل سنوات ثلاث ؟ ما لياليها وما أسمارها ؟

ماذا يعرف التاريخ عن صالة بيا ، وكازينو بديعة ، ومسرح الكسار ، وليالى منيرة ، وسهرات يوسف وهبى ، ومرقص أخوات رشدى ... ، وما أثر أولئك فى تلوين حياة القاهرة وتكوين نفوس شباب الجيل ؟

وماذا نطالع اليوم من وجوه فى نوادى : الشبان المسلمين ، والشبان المسيحيين ، والأهلى ، والترسانة ، والمعلمين ، ودار العلوم ، والبمكوكة ، وبيت الأمة ، ودار السياسة ، وندوة الرسالة ، ولجنة التأليف والترجمة ، إلى نوادٍ يقصر عنها الاحصاء ؟

وماذا يأثر التاريخ فى غد عن محجوب ثابت ، وحسن شاقى الجيزاوى ، وغلوش ؛ ومن أبى الوفا الشرقاوى ، والدجوى ، والزنكلونى ، والدسوقى العربى ؛ ثم من البابلى ، ونبهان الأعسر ، وعبد العزيز البشرى ، وحسن عبد القادر ، ولويس فانوس ؟

هؤلاء وأولئك وغيرهم ممن أعرف ومن لا أعرف ، سافلين عن ذلك وعالين ، هم تاريخنا وصورتنا ، ومجموع ما ينبغى أن يؤثر عنا ؛ وهم العصر والجيل والبيئة والزمان والمكان .

ليس التاريخ هو السياسة وأطوارها وما تُجِدّ من حوادث ، ولكنه هو هؤلاء الناس .

إن الحادثة ليست شيئاً في التاريخ إلا إذا كان معها ناسُها ، فهي بهم تاريخ وهم بها ؛ فإذا تجرَّدت الحادثة من مُحدثيها ، فما هي بشيء ، وليس فيها عظةٌ ولا معتبَر .

* * *

هل لي أن أقول بعد ما قدّمت : إننا لم نشرع بعدُ في تدوين تاريخنا ؛ وإن الباحث في آثارنا غداً لن يجد بين يديه من مقدمات الحكم ما يهيّئ له أن يحكم فيصيب !

لقد دعوت أدباءنا في بعض ما سبق من حديثي — إلى أن تكون لهم عناية بأدب التراجم ؛ لستُ أعني بذلك تراجم السادة والكبراء منا فحسب ؛ فليس أولئك كلَّ شيء في هذا الباب ؛ ولقد تكون ترجمة صعلوك بارز الشخصية والأثر أجدى على التاريخ والأدب من ترجمات ؛ فإن ترجمة السيّد العظيم قد تكون منفعتها له وحده وأثرها عائدٌ عليه وظاهرٌ فيه ؛ وترجمة « هؤلاء » هي صورة التاريخ وأدب الجيل ؛ لأنهم المؤثِّر العام الذي ينفعل به الزمان والمكان والحادثة ، وبهم يتأرَّخ التاريخ .

إنما أدعو إلى أن تكون لنا عناية عامة بالتعبير عن كل ما يحيط بنا من صور الحياة في هذا الجيل ، بتدوين تاريخ البارزين من أهله وحوادثهم وأيامهم ، أعياناً وسوقة ، وأمراءَ وصعاليك ؛ لا يعنينا في ذلك مكانةُ المترجَم الاجتماعية ، بل أثره في الجماعة ، وخصائصه في الحياة ، وصلته بالناس ، وانفعال البيئة به ؛ لنترك لمن بعدنا ديواناً يجمع تاريخ أعيان الجيل ، وتاريخ الجيل في أعيانه على اختلاف منازلهم الاجتماعية في ظاهر الحياة .

لست أريد كتاباً واحداً ينشئه كاتب واحد ، ولست أريدها تراجم كما تكتب لوحات الرخام على قبور الموتى ؛ فليس يتمّ تمام هذا الفن بكاتب وكتاب على ما تعوَّد الواصفون أن يصفوا ؛ وماذا تستطيع العينان أن تريا إلا ما أمامهما دون سائر الجهات الأربع ؟ ... أرأيتَ إلى السائحين في مصر يحمل كلٌّ منهم مصوِّرته في يده يختزن فيها ذكريات رحلته ، ويحبس التاريخ أن يفر ، ويقيّد الزمن أن يُفلت ؟ ... أرأيت صورة مما يرسم أحدهم تُغني عن صورة ؟ ... كذلك نريد أن يكون تاريخنا تحت أعيننا !

تُرى أكان القدماءُ أبصرَ منا بالحقيقة الأدبية العالية ، وأعمق غوراً في فهم الأدب والتاريخ حين جمعوا في كتبهم من أخبار الصعاليك والنَّوكى والشُّطّار والمجانين ما يقرؤه القارئُ من سواد الناس اليوم فيتعجب ويسخر ، ولا يملك إلا أن يضحك ، ويقرؤه الأديب والمؤرخ والعالم السلوكيّ ، فيستخرج الجدَّ من هزله والحقَّ من باطله ؟

أكان ذلك منهم لهو والترفيه والمراوحة بين الجد والهزل ، أم كان ذلك عندهم علماً من العلم وتاريخاً من التاريخ وفناً من فنون الأدب ؟

وحتى لو كان القصد كل القصد منه إلى الهزل والترفيه لكان فناً حقيقاً بالتدوين ؛ فكيف به وهو وسيلة من وسائل الحكم في التاريخ العام وفي أدب كل أديب وشعر كل شاعر ؟

كتب إليَّ صديقٌ شاكياً ، يقول إنه معنيٌّ بكتاب يؤلفه عن فكاهة حافظ ؛ وقد كان حافظ رحمه الله فكاهةً مصوَّرةً إنساناً ، فإن مزاحه وفكاهته لحديثٌ مشهور ، وخبر مأثور ، ونادرة على كل لسان ؛ ولكن الصديق لم يظفر — على طول ما تتبع واستقصى — بشيء يخف في الميزان أو يثقل ؛ ذلك وحافظ ما زال رطب الثرى ، وما زال كثير من خلطائه ، وصفوة أصحابه في الأحياء ، وما زال حديثه عطراً يأرج في كل مجلس ؛ فكيف لو انقضى هذا الجيل ؟ وأين منزلته من التاريخ مهما كانت منزلته في الحياة ؟

محمد سعيد العريان

رحلة الديستر Deister

لفلفريش بيتر شتورتس Sturz

[ولد ه . ب . شتورتس فى دارمشتات بألمانيا فى ١٦ فبراير ١٧٣٦ ؛ وتخرج من كلية الحقوق فى ألمانيا لقا ، سرعان ما اتخذه الوزير الدانيمركى الكونت برنشتورف كاتب سره ، ثم عين بعد ذلك سكرتيراً لمفوضية فى السلك السياسى الدانيمركى . ومات فى مدينة بريمن Bremen فى الثالثة والأربعين من عمره .

حياة قصيرة لم يلبث صاحبها أن ودعها ليلتمس بعد حين ، وليس . بل أدبه وإنتاجه بهذا النسيان من ذويه . أما هو فكان من أبرع كتاب القرن الثامن عشر بأسره ، ناثراً رائعاً فذاً فى نثره ، امتاز أسلوبه بالبلاغة والرشاقة والجلاء ، وكان من الناقمين على "ذرف الدموع فى ضوء القمر" ، "وتمريغ الشهوات النفسية الجامعة ، والساخرين من الشعراء الذين يرفعون لواء الشعر على أقاصيص القتل والمقاريت" .

والقصة التى نترجمها له حافلة بضروب البيان ، وقد تم ضربنا صفحا من كل ما يعقد بهجته بالنقل ، واجتزأنا منها بما يلى :]

قال لى السيد سيمون أخيراً وهو يحادثنى : إن ينبغى أن أظل فى بيتى سيداً فى كل شىء ، سيداً لا ينازع . وليس هذا منى صلفاً يا عزيزى شتورتس ، بل هذا مبدأى . — صدقنى إذا قلت لك إن خير النساء لتقع فريسة العجيب من الأهواء ، ويتملكها مس الوساوس والخارق إذا أنت لم ترضها على الطاعة .

قلت : أميسور هذا يا سيد سيمون ؟

قال : لكل شىء طريقته يا عزيزى شتورتس . فاذا أنت لم تشته شيئاً أو تعزف عنه إلا وامروفك واشمئزازك مبرر من سبب وجيه — وكثيراً ما هى الأسباب الوجيهة كما تعلم — لم تلبث المرأة أن تتعلم كيف تضع إرادة زوجها فوق كل إرادة ، وكيف تسلس له القياد .

فسكتُّ مأخوذاً ، أن كانت شجاعة السيد سيمون فى منزله موضع نظر ، وأن كان أدنى إلى هذه الشجاعة من أذهان الناس أن امرأته تحسن قياده ، كما لو كان مصفداً فى الأغلال لا مقوداً بخيط من حرير .

على أنى قلت فى نفسى : إنها الجرعة أن يبعث المرء بهذا الرضا — رضا السيد سيمون عن نفسه — وأن يبدد اعتداده فى قوته . ومع ذلك فقد بدر منى له قولى : إنه ليدخل فى وهم الناس أن ذا الحظوة عند السلطان يستلب إرادة السلطان ويبيعه إرادته ، وأن كل امرأة خلقت سائسة وقائدة .

فصاح السيد سيمون : هراء ! هذا رأى من لم يسبر غور المرأة ويجس مخابئها . أما من علم النواآت الخديعة فيها ، وخبر تيه غرورها . فهذا الذى ينصت حيث ينبغى الانصات ، ويسمع عندئذ دبيب النمل .

قلت : يا سيد سيمون ! يا عزيزى السيد سيمون ! ما تزال هنالك النواآت تخفى على الرجل الفطين .

* * *

ومضت أيام وذهبت أسأل عن صديقى سيمون ، فلقيت زوجه وحدها بالبيت . وهى امرأة بشوش أنيسة ، لا تعرف التصنع فى حديث أو سلوك . فاذا كانت مع ذلك تتصنع فلا بد أن يكون التصنع فى طبيعة النساء — قالت وهى تلقانى : جو بديع ! ووقت هو أفضل الأوقات لرحلة إلى هالربرونن Hallerbrunnen فانه ليقال إن تلك البقعة آية الجمال . ألك فى مصاحبتنا ؟

قلت : إذا أمكن ذلك غداً رافقتكم بكل سرور .

قالت : غداً ؟ حسناً ! فليكن ما شئت ؛ فكلما بكّرنا كان ذلك أصلح لنا ، فالجو قد يتغير .

قلت : وهل يرضى السيد سيمون أيضاً عن هذه الرحلة ؟

قالت (وهى تبتسم) : إن زوجى كما تعلم رجل طيب ،

لا يعنيني أمانة ريثة ، فاستعد أنت ! وسنركب في الساعة السادسة تماماً

هنا نوديت السيدة في بعض الشئون فجلست أنا في مكتب صديق . . . .

وانقضى نصف ساعة فإذا السيد سيمون يدخل ردهة البيت مع زوجه ولهما حوار بادى النشاط . وإذ كنت سمعت كلة ويستر فقد صححت لنفسي باستراق السمع لأستطلع ما يكون في الرحلة من أمر . وهاك أهم ما دار بينهما من حديث :

الزوجة : أنت محق يا عزيزى ! إنها مُضجرة تُدفع ثمنها غالياً . وتلك السيارة الجرداء ستتحكم بنا في الطريق ! والأكل والشرب كلاهما في طريقها غير سائغ . وليس في هذا سوى التعب والجهد ! ثم لا شيء آخر الأمر سوى الشجر . والشجر هنا موفور نستطيع رؤيته ! لكن السيد شتورتس حريص على هذه الرحلة كثيراً .

الزوج : إنى لا أبخل على أصدقائى بخدمة يطلبونها ، فقط يجب أن لا يطالبونى بأن أحجر نفسى من أجلهم . وخروجنا في هذه الرحلة لا يمكن أن يتم مع ذلك غداً ؛ فعندى أعمال ملحة ، فوق أنى أزهد في رحلة الجماعة . إن المرء لينشد فيها السرور ويسعى وراءه ، ثم لا يجده آخر الأمر إلا حين يفرغ منها . هنا يصيح كلنا متعباً : آه ما أشد سرورى بعودتى إلى بيتى ! ففيم إذاً كان خروجكن من البيت أيتها السيدات ؟

الزوجة : صدقت ، فهذا رأيي أيضاً . ولنضرب عنها صفحاً ! والسيد شتورتس إذا شاء أن يبحث عن جماعة أخرى . ولكن قف ! إن هذا الجو البديع خليق أن ينتفع به في خير من هذا . غداً أستطيع أن أفعل ما ابتغيت دهراً أنشده . هذه الحجرة ، حجرة الكتب أريد أن تُغسل وتُحك وتنظف مرة في العمر . كل شيء فيها يجب أن يقلب ليحل بها نظام معقول . وفي هذه الأيام يجف كل شيء سريعاً فلن يطول بك أمرها ، فتتخلص دفعة واحدة من هذه القمامة التي تفنى النفس .

الزوج : دورا ! ربك لا ! فهذا أيضاً مستحيل . إن هذه البلبلة وهذا الضجيج اللذين تنوين ، يؤذيانى كما تعلمين . فدعى هذا ليوم آخر . غداً يجب أن أعمل في حجرة الكتب .

الزوجة . أفلا تستطيع يا زوجى العزيز أن تجلس يومين اثنين في غرفة البواب ؟ إنى ليتولانى الخجل كلما دخل مكتبك رجل غريب . إن هذا كله تلقى تبعته على المرأة في البيت . فلننته في هذا الأمر الآن ما دام أنه لا بد من عمله في يوم من الأيام .

الزوج : حقاً ، وإنه لينبغى عمله . ولكن فقط حين لا أكون بالمنزل .

الزوجة : بهذا الاعتذار لبثت تحتجزنى أشهراً إلى الآن . لا تغضب يا زوجى العزيز ! إن هذه الفوضى تزرى بنا معاً . أفيوائم صحتك أو يشرح صدرك أن تعيش في اصطبل كهذا ؟ أيليق أن تقتاد أحداً إلى حجرة مكتبك وهي على هذه الحال من الرثاثة ؟ إنك أيضاً تحب أن تعيش في حجرة نظيفة ؛ فكيف بك إذا ألفيت هذه الشناعة قد انجلت دفعة واحدة ، وبات نسيم الربيع الشائق يتخلل غرفتك ويطهرها ؟

الزوج (بعد تفكير قليل) : اسمعى ! لقد خطر لى خاطر . ما دام شتورتس متلهفاً على هذه الرحلة ؛ فدعينا نذهب معاً إلى الدبستر ، ولك في غيبتى أن تحدثى بالبيت ما تشائين .

الزوجة : حسناً يا زوجى العزيز ! سافر مع شتورتس ، وانشدا ما شئتما من سرور ، فسأعد لكما كل شيء !

الزوج : لا يا سيدتى ، ما إلى هذا قصدت . إنى من

دونك معتقد ولا ريب كثيراً من راحة القلب . فلن أبرح هذا المكان إلا معك .

الزوجة : ألا يستطيع كاتبك في غيبتك أن يحمل باله إلى أوراقك فلا تعبث ، وأن يرفع الكتب ويعيدها بعد التنظيف مكانها ؟ ألازم وجودك لهذا ؟

الزوج : كلا يا طفلتي — ولكنك ستسافرين معنا .

الزوجة : زوجي العزيز !

الزوج : لستَ فيه ! معروف بمعروف . فما دمتِ قد رضيتِ بتنظيف المكتب فلترضي بالسفر إلى الدينستر .

الزوجة : لن أتشدد يا زوجي العزيز ! فرغباتك عندي أوامر مطاعة . سأوصي في الحال على السيارة .

هنا تعانق الزوجان ، وتسللت أنا من الباب الخلفي هابطاً السلم في خفوت .

وسافرنا معاً إلى الدينستر . وحدث ونحن نستقل السيارة أن ضغط السيد سيمون على يدي متودداً قائلا : إن هذا اليوم نحمده لي ؛ فامرأتي لم تكن راغبة في السفر قط ، لكنها تعرف كيف تطيع .

* * *

فكيف تنجح الزوجة الحكيمة في اقتياد زوجها العاقل إلى الدينستر كلما طاب لها ذلك ؟

إن مسرة التسلط ، وهو بغية النساء ، موضوع حياتهن الذي يشغلهن درسه ؛ والرجل العامل المتيح في هذه الحياة يرى في اقتيادهن إلى العرش داعياً للفخر .

ونحن الرجال لا يضيرنا أن نخون جنسنا هذه الخيانة ، فقد درجنا على المباهات بالرسميات والاعتياض من الحكم بمظاهر الحكم .

ولكن أمصابٌ حقاً أن تقودنا امرأة ، وأن نرى فيها القاضي الرقيق الحاشية الذي يفصل ويقضي ، بينما نحن نتردد ويجفونا الراحة ؟ وماذا في أن نجوب الحياة الشائكة في يد آمرة لينة ، إذ كنا من دونها خليقين أن نضل مع صواها السبيل . وهي بلا ريب سبيل وعرة تكتنفها المكاره ، وتسوق وسط الهوى .

إلى شتورنس (رسالة من امرأة لا يعرفها) :

رحلتك إلى الدينستر يا عزيزي شتورنس هي شر ما كتبت وأخبر ؛ فاذا كانت الصدفة قد أطلعتك على بعض الأسرار فمن خول تزولك أن ترتكب هذه الخيانة العظمى في حق العدو العام والسعادة المنزلية ؟ تستطيع داعماً بسياستك العليا أن تجعل من السلسلة الذهبية التي تحرك منها المرأة قلادة وسام تحمله ، أو أن تخدّر في المرأة الطيبة بحلو شمائلك ، أو أن تنيمها بمصباح العبس إلى كل مكان — لكنه أيجب من أجل ذلك أن تنزل أسهم الغير لتصعد أسهمك ؟

إنكم أيها الرجال تحصون علينا كل كلمة ، وتعسرونها على كل وجه ، وتخرجونها أبعد التخريج . ثم أنتم بعد هذا كله تجزوننا عليها ريبة مزدوجة وسوء ظن . إن أحداً لا يجرؤ الآن على الخروج من بيته مخافة أن يتهم بأنه ذاهب إلى الدينستر . والنساء المسكينات لا يجدن من عمل سوى تقديم الخفاف لأزواجهن وهن يتثاءبن .

ما بال الرجال ينزعون جميعاً إلى العناد والفضول والحذلقة ؟ إنهم يحكمون كما لو كانوا هم موزعي العقل والفهم على المعوزين فلا يدخلون في تفصيل ؟ وإن خير العروض وأغنى الفكر لا تلقى طريقها إلى مؤلفيهم وناشريهم إلا محلاة بالسكر ، منقوعة في العسل ، أو تعترض .

هكذا سارت الأمور إلى اليوم ياسيد شتورنس ، والناس لم ينظروا بعد في ورقهم ليروا ما يربح منه وما لا يربح . فماذا عساها أن نصبح وأنت تتسلل بمنظارك وراء المقاعد لتسلب اللاعب الشقي ما يمكن أن يرتجيه من حظ مشكوك فيه ؟

إن الدليل الذي سحبته على قصتك ، وكل ما ذكرت

عن التبع والاتباع وعلامة الانقياد ، ليس إلا ملطفاً لمساغ السم الذي نفثت ؟ فاذهب إلى (سفر) . فسيحذر كل أب أبناءه من هذه الهربات الشاذة . أما ما يرضي النساء فأن تصادر محبتك وتحرق . وخير البر عاجله !

إلى لويزه :

لقد حملت هذا الأمر على محمل الجد يا سيدتي وكدت تحركين ضميري . ذلك أني أكره أن يكون مقالي سبباً لافساد كل رحلة إلى الدبسفر . لكننا لم نخسر شيئاً فهدئي روعك . اتركي زوجك العزيز يعلن بك القانون كما يشاء إذا راقك أن تأخذيه في شيء بالعنف . فما تزال لك « لا » بكل ما فيها من عدم اكتراث و « نعم » الزاخرة بالأسى والحنين . لك القبلة المتعددة النواحي ، واللون الذي على وجنتيك تخلدين ! ولك الأهبة البارعة التي تستدرجين بها من تشائين إلى استكناهك ، لتباغتيه آخر الأمر بفرط ذكائك . وما ينفعك الصمت الناقد ، والابتسام المفحم ، والدمعة البليغة . فأنت تزن تفاهة الجناية التي اقترفت في حقك : مقال صغير من دائرة المعارف النسوية تمزقه اللاحق كل يوم . فلا ضير منه على راحتك ومليسك المنزلي فهما بخير . ورباطك الحريري أو سلسلتك الذهبية ما تزال متينة تحسن القياد .

لا تصلح هذه السلسلة سيدتي للقلادة وسام . ذلك أن الرجال في حملها سواء : الأمير والحجّام ؟ ولم يعد في حملها من أمد تكريم أو إكرام . أأنا سياسي يا لويزه ؟ صحيح أن إرادتي لا تعرف الصَّلَب . لكن سياستي كلها — وهذا أمر أنشدك فيه الكتمان — هي أن لا تكون لي إرادة . إني أسبح من دون مقاومة مع التيار ، وأستقل الزورق الذي تدير صديقتي دفته من دون سؤال . لكنك سيدة تحذقين السياسة ، فأنت تعرفين ما هي الأسهم : — لوددت أن أكون صديقك ! إن فهمك لن ينال منه أن يكون لك شارب . ولكن زوجك ؟ لقد أحسنت الأقدار ترتيب هذا أيضاً ، فحبذا زوج لا يذكر اسمه في البورصة على لسان ، لأنك تحسنين التجارة غاية الإحسان .

وأنت على كل حال تجيدين « تسكير » أفكارك و« تمسيلها » — ونحن نسمي هذا « حلوى السيدات » ونحب الحلوى كالأطفال ، ونحب أن نقاد مثلهم وتحكم . فليكن هذا بيننا يا لويزه على الدوام . لقد لقيت السيدة سيمون من بضعة أيام وبيدها الرباط الحريري ، فوشى لي زوجها الطيب وهو من تحت الرباط .

إن أحداً لا ينظر في الورق قط ليرى ما ربح منه وما لا يربح . لكنه حتى لو اختلسنا النظر لنعلم كم في يد جارتنا من الورق الرابح لم نفد من هذا شيئاً . إن الطبيعة قد خلطت الورق خلطاً يجر علينا الخسارة في الختام . هذا إذا كان من الخسارة يا سيدتي أن يقتاد المرء رغم أنفه إلى الدبسفر . ولا يغب عنك يا سيدتي مع ذلك أن هارز روين الكائنة بين جبال الدبسفر مكان بديع . صحيح أن له تماثيله : ينبوعه ومغاوزه وقطارته الصاعدة بالجبال ، وأن كثيراً فيه يبدو من الطبيعة وما هو من الطبيعة في شيء ، وأن الماء الساكن فيه قليل وإن كان في بعض مواضعه جد غزير .

لكن الوقت يمر فيه هيناً ليناً يزجيه خرير الغدير الرقيق ، وتحته في ظل الأغصان الهامسة صحبة الرفيق . وإنا لننسى فيه من فرط السرور بوجودنا هناك كيف انتقلنا إلى هناك . أدرنا إليه من طريق طويل أم قصدنا رأساً إليه . وما دمت سعيداً فقلما يهمني كيف بت هذا السعيد . فليفهم أحدنا الآخر يا لويزه ؛ أما آدابنا فليست من الهربات ، فهي في كل بلد من صنعه ونتاجه . ورب البريء لا يستحق أن يراق ، لأنه نفخ الروح في تلك الحكمة الذهبية : أطيعوا . . . أولي الأمر منكم .

محمود الدسوقي

الفن والمرأة :

«پومپادور» الحسناء

LA BELLE POMPADOUR

فى صباح صحو مشرق التقى ركب فى الغابة Forêt De Sénart يسير على رأسه الملك لويس الخامس عشر بين حاشيته من صفوة القوم ، للاشتراك معه فى نزهة الصيد ، وكانت مدام « لينورمان دى اتيول » Lenormand D'Etioles (مركيزة پومپادور فيما بعد) بين المدعوين تحظى لأول مرة برؤية الملك الذى صرعته سهام من عينيها بنظرة كانت الشكاة الأولى فى قصة تنبأ بها أحد العرافين لأمها وهى طفلة فى التاسعة من عمرها .

كانت مركيزة پومپادور ذات شخصية جذابة فاتنة ، تغمرها أنوثة متوقدة أشعلت فى القلوب ، وأسرت بعذوبتها عقول المقربين إليها من صفوة القوم وعباقرة المصورين فى عصرها . وظلت « پومپادور » طيلة حياتها لغزاً غامضاً ، فأذهلت العقول بسعة حيلتها ومهارتها فى اصطياد القلوب واكتساب مودة ومحبة كل من رآها أو سمع من حسنها النادر ورشاقتها الساحرة [1] .

أولعت « پومپادور » بالفنون الجميلة ، ومنها الرسم والتلوين ، كما كانت تنظم الأغانى الشعبية ، فقالت فى مطلع إحداها : « لن نلتقى بعد اليوم فى الغابة بعد أن قلموا أفنان أشجارها » .

وكان من آثار ولعها بالفنون أنها لم تقف عند حد فى تشجيعها للفنانين ، كما كان من أسعد أوقاتها أن تجلس أمام المصورين ليسجلوا ويشتهم صورتها [1] . وكأنها أرادت أن تتحدى فنونهم بجمالها وحسنها وظرفها ورقتها ؛ فلم تحرم مصوراً فى عصرها من جلسة يستمتع فيها برؤية جمالها الساحر الفاتن ، بينما تظل تحت تصرفه — تحضى رغبتها — كنموذج عليها أن تجلس أمامه وقتما شاء ، وأن تستريح وقتما شاء ، ولم يكن هذا الرضى من جانبها إلا بغية الحصول على صورتها التى كانت شديدة الافتتان بها ، والرغبة الكامنة فى قرارة نفسها لمعرفة سر جمالها ، ورشاقتها وظرفها الذى كان يتغنى به الشعراء والأدباء ، بعد أن أسر قلوب كثير من نبلاء القوم وأشرافهم . وزادها الغرور بجمالها إلى حد الاسراف حين صورها « لاتور » Latour المصور الفرنسى الذى نحا بفنه ناحية الكشف من الحقيقة ، وإثبات الأشكال برمتها . فأجاد تصوير الجمال المرتسم على ملامح وجه « پومپادور » النبيل الذى لم يكن ليهدأ تحت تأثير انفعالات نفسانية كثيراً ما كانت تعاودها . وصورها « وشيه » كالغزال الشارد فى جلسة رشيقة ، وجذعها ممتد فى ارتفاع إلى الأمام ، فى ثوب فضفاض وردى اللون . وصورها « فان لو » على لوحة تنبض شاعرية سامية ، فمثلها كى تبيع زهورها الندية فى وضع يكشف من دلال أنوثتها . ونظم « ڤولتير » Voltaire أنشودة

(١) ويقول فى وصفها الضابط « لوروا » Leroy أحد ضباط الصيد فى غابة « ڤيرساى » Versailles كانت « پومپادور » ذات جمال نادر وجاذبية قوية تنبض على شخصيتها الفاتنة ، وكان لها وجه بيضاوى مضيء مناسب لاعتدال قامتها ، وهى ليست بالقصيرة وشعرها يقرب من الأصفر الرمادى الفاتح وليس الذهبى ، وعيناها ليس لهما لون ثابت فيهما ضياء الأســـود وعذوبة الأزرق وفتور الرمادى ، تظللهما أهداب من لون شعرها ، وأنف جميل وفم فاتن عذب الابتسامة ، يفتر عن أسنان لؤلؤية ، وملامح وجهها كثيرة التغير والتأثر .

(١) وهم كثيرون ، نذكر منهم ناتيى Nattier ، بوشيه Boucher ، فرانسو جورن François Guérin ، فان لو Van Loo ، دروه Drouais ، لاتور Latour . وللأول الحظ فى تصويرها فى طفولتها المعروضة على ميدالية محفوظة الآن بمتحف قصر ڤيرساى ، وهى أول صورة رسمت لها .

تماثيله ، صور فيها جمالها وولعها بالفن فقال : « إن ذلك القدس بإيمبادور أحق من غيره ليرسم محاسن وجهك الفاتن ، فتلك هذه اليد الجميلة لا تحلى صياغة كل جميل مثلها » .

وقال « جول سوري » Jules Soury مؤرخ عصره في مذكراته عنها : « وكانت تشتد بها العلة فتضعف ويهزل جسمها وتنطفيء نضارتها ، وأصابها مرض الصدر الخبيث في إبان عزها وسلطانها ، فلم يحتمل جسمها مقاومة وطأة المرض مع متعة العز ، وما تتطلبه الحفلات الساهرة من جهد في تكلف السرور والبهجة ؛ فبدأ جمالها يذبل ، وجسمها يضمر يوماً بعد يوم ، ولم يبق منها سوى ظل لذكرى ذلك الجمال ؛ وكان لزاماً عليها أن تواصل انغماسها في الترف خشية أن تفقد مكانتها بجوار الملك فيستبدل بها إحدى منافساتها الكثيرات في قصره ، فلجأت إلى الساحيق والأصباغ لتكسب بشرة وجهها وجسمها النحيل نضارة المرأة الخلابة ، واستعملت في تزجيج حاجبيها وجفنيها رماداً أزرق سماوياً أو بنفسجي اللون ليكسب نظراتها سحرها وفتنتها وجاذبيتها التي لا تخطئ الرماية إلى صميم الأفئدة ، فتصيِّر من الرجال الغلاظ أطفالاً سذجاً في عشقهم وولعهم بأنوثتها التي كانت تمتحنها — كما قالت وصيفتها « دو هاوست » Du Hausset في مذكراتها عنها — باستعمال مركبات من مزيج الشكولاته والعنبر ومختلف العقاقير المثيرة للشعور والمنشطة للعواطف ؛ ولكن « بومبادور » قد فشلت في تجربتها القاسية بعد أن انطفأت جذوة أنوثتها تماماً ، وأصابت بشرة وجهها دوائر حمراء اللون .

وقال « أرسين هوسي » Arsène Houssayé : بدأ ذبول جمال بومبادور يظهر على شفتيها اللتين اعتادت القضم عليهما لإخفاء اضطرابها وقلق نفسيتها الثائرة الطموح .

وفي سن الثلاثين تلاشى آخر أثر لضوء تلك الابتسامة اللامعة التي امتازت بها شفتاها الرقيقتان ، فبدأت تصبغهما بطلاء أحمر وردي عقب كل أكلة أو قبلة .

ويعتبر المثال « كوستو » Guillaume Coustou أوفر الفنانين حظاً برؤية جمال « بومبادور » إذ كانت تفاجئه بزيارتها في مصنعه الذي شيدته له على نفقتها بين شجيرات البرتقال ، في بستانها الخاص في ضاحية « فرساي » ليصنع لها تمثالاً ، وسمحت له أن يأخذ من جمال جسمها ما يساعده على صنع تماثيل كثيرة عارية تمثل « دانى » Danei إلهة الجمال التي أوصته بصنعها لتحلى بها حدائق قلاعها وقصورها الواسعة . وكان من وراء هذه الزيارات المتعددة أن عشقها المثال عشقاً كاد أن يقتله ، وكان يشتد به الغرام حين يرى أمامه الملكة تكشف من كنز جمالها الساحر .

وفي ذات يوم بينما تتأهب بومبادور لمغادرة مصنع المثال ، ألفته يقترب منها فشردت منه ومدت إليه يدها ، ولكنه بدلاً من أن يقبل يدها طبع قبلة حارة طويلة على عنقها العاجي . ثم تراجع متأسفاً واعتذر كمن أخطأ عن غير قصد فالتفتت إليه متزمجة وقالت : هذا لا دخل له بيننا فارحل إذا كنت ستجد عذاباً في انتظار مودتي ، إن كرى قد هدأت واصفرّ لونها فعى تفنى ، ولا تحرق . . . . وداعاً كوستو .

وكان من نصيب الرسام « دروُوْه » F. H. Drouais أن يتم آخر صورة[1] لها (في شهر يونيو عام ١٧٦٣) قبيل وفاتها بما يقرب من عام ، وكانت تبلغ من العمر في ذلك الحين ٤٢ سنة . وهكذا استطاعت أن تترك للتاريخ مجموعة من الصور تمثلها في مختلف سني حياتها القصيرة .

ومن المصادفة الغريبة أن تموت « بومبادور » في

(١) بمتحف أورليانز Musée D'Orléans

حفلة شاى !

بقلم الأستاذ محمود تيمور

صابر بك : لا شكر على واجب يا باشا ... وهل تنسى دعوتك فى حفلة كهذه لتكريم قنصل جمهورية مندوزا ؟ ...

خليل باشا : لا . لا ... لست أقصد ذلك ... ولكنى أقصد أنكم تعرفون شغفى بشطائر الخيار ، ولذا لم تنسوا إحضارها فى الحفلة ...

صابر بك : (وهو متعجب من قول خليل باشا)

صحيح . صحيح يا باشا ... ! !

(يدخل نعمان الفراش حاملا ملابس « صابر بك » . سترة « سموكن » وصديرى ، ورباط رقبة ، وحذاء لامع ، يبدأ صابر بك يرتدى ملابسه أمام المرآة الماثلة فى البهو . نعمان يأخذ جرائد السباق ويقف مشغولا بطيها ووضعها

فى جيبه . خليل باشا يغتنم هذه الفرصة فيأكل ما لذ له وطاب من مائدة الشاى . الحديث يدور بينه وبين صابر بك ، على حين يكون الأول أمام مائدة الشاى والآخر أمام المرآة ...

خليل باشا : لا تخلو حفلة من حفلات الشاى التى أقيمها عندى من هذه الشطائر ... !

(ينهمك فى الأكل) .

صابر بك : (لخليل باشا بصوت مرتفع) لطيف جداً ...

(لنعمان بصوت خفيض) : رفوق ؟ ! ... رفوق فى عينك ... قل كلاماً آخر ... !

نعمان : والله يا سعادة البك رفوق هو الفائز ... !

صابر بك : (لنعمان) ثم ماذا يا سيد نعمان .

خليل باشا : (لصابر بك) لم تخبرنى بالعلاقة بينك وبين قنصل عام جمهورية مندوزا ... ؟ !

صابر بك : تعرف سعادتك أنى رئيس جمعية أنصار الدراجة ؟

خليل باشا : جمعية لها صيت بعيد ... لقد خدمتها خدمات عظيمة (يقول ذلك وهو مسترسل فى الأكل) .

صابر بك : عفواً يا باشا ! ! فى جمهورية مندوزا جمعية مشابهة لجمعيتنا هذه ...

خليل باشا : أنصار الدراجة أيضاً ؟

صابر بك : نعم أنصار الدراجة !

خليل باشا : عظيم ! ... عظيم ! ...

صابر بك : ذات مرة كنت مدعوا فى نادى القاهرة ، فى حفلة ساهرة من الحفلات الفخمة العظيمة ، فتعرفت مصادفة بقنصل جمهورية مندوزا ... كلة من هنا وكلة من هناك عرفت أنه رئيس جمعية أنصار الدراجة فى بلده ، وعرف أنى رئيس جمعية أنصار الدراجة هنا ...

خليل باشا : لطيف جداً ... إذاً لقد دعوتم كثيرين من الجاليات الأجنبية ! ! ...

نفس الشهر الذى ماتت فيه ثلاث محظيات للملك من قبلها وهن : ديان دى بواتيه Diane De poitiers ، جابريل داسترى G. D, Estrées ، مانتينو Maintenon

وفى هذا الشهر ينزل الثلج عادة بكثرة فى ضاحية فيرساى فيغطى قصورها وطرقاتها . وفى ١٥ أبريل عام ١٧٦٤ أطل الملك لويس الخامس عشر من نافذة قصره ليلقى نظرة الوداع على محظيته الجميلة وهى فى طريقها إلى مقرها الأخير ، وأشار إليها محدثاً من حوله من المحظيات ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة لا تخلو من حزن وألم :

« كنت أخشى ألا تلق المركيزة جواً جميلاً فى رحلتها الأخيرة ، وهذا ما أراه » .

محمد صبرى الجياضى

صابر بك : نخبة ممتازة ... ستري سعادتك الآن ...

(يدخل في هذه اللحظة الأستاذ فرغلي ، وهو مرتد حلة «سموكن» قديمة واسعة . وهنا يكون صابر بك قد انتهى من ارتداء ملابسه . يلتفت خليل باشا ليرى من القادم ، فيشاهد الأستاذ فرغلي . تصدر منه حركة امتعاض . يجلس وقد أدار ظهره للمتكلمين ...)

الأستاذ فرغلي : بو نجور سعادة البيه ! !

صابر بك : بونجور يا أستاذ ! ... ألا تعلم كم ربح ثعبان ؟ كم مكسب الريال للمراهنين عليه ؟ ؟

الأستاذ فرغلي : لا والله لا أعلم حتى الآن ... ولكن أعندك شك في أن الريال ربح عشرة ... ؟

صابر بك : (وهو يشير إلى نعمان) أخبر بذلك السيد نعمان ... !

الأستاذ فرغلي : اسمع يا نعمان ... عوضك على الله إن كنت راهنت على غير ثعبان ...

(تدخل في هذه اللحظة «فكرية هانم» كالزوبعة . فطومة خلفها تجتهد في اللحاق بها لترور لها الثوب . «فكرية هانم» متجهة نحو مائدة الشاي لا تأبه للأستاذ فرغلي ، ولكن عند ما يقع نظرها على خليل باشا تسلم عليه ...)

نعمان : (للأستاذ فرغلي جانباً) يا سعادة الأستاذ اسمع مني ... برقوق هو الفائز ...

الأستاذ فرغلي : بل ثعبان !

نعمان : لكني أقول برقوق !

الأستاذ فرغلي : ثعبان !

نعمان : برقوق !

الأستاذ فرغلي : ثعبان ... !

فكرية هانم : (لنعمان وقد سمعته) ثعبان يلدغك ... أين الزعريت يا مجنون ؟ ! !

نعمان : حالا يا أفندم ...

فكرية هانم : (لنعمان) حالا في عينك ... وماذا تنتظر ؟ ! (تلتفت إلى مائدة الشاي . نعمان يخرج وهو يردد كلة (برقوق) للأستاذ فرغلي بصوت منخفض . والأستاذ فرغلي يجيبه . يتلل صوته بكلمة ثعبان ... يختفي نعمان ...)

فكرية هانم : (تضرب صدرها بيدها) يا حسرتي ! أين ذهبت الشطائر ؟ ! (تلتفت على الفور للأستاذ فرغلي وتنظر إليه نظر اتهام واضح ...)

الأستاذ فرغلي : (لفكرية هانم) لا . لا . يا هانم ... هذه نظرة اتهام ... لقد حضرت هذه اللحظة !

فكرية هانم : حضرت هذه اللحظة ؟ حبيبك لا تجوز عليّ أبداً ... ! (ملتفتة إلى فطومة) فطومة ! فتشيه ... ! !

الأستاذ فرغلي : آه ... هذه إهانة أحتج عليها بشدة ! ! (فطومة تحجم قليلا .)

فكرية هانم : (لفطومة) أمرتك أن تفتشيه ... ! (فطومة تتقدم من فرغلي وتدس يديها في جيوبه ، ثم تخرج من هذه الجيوب بعض اللب ...)

فطومة : (ومن تُرى سيدتها اللب) ليس في جيبه سوى هذا اللب ... !

فكرية هانم : لقد حشا بطنه بالشطائر إذاً ! ؟

الأستاذ فرغلي : أقسم على ذلك بشرفي ... ! !

فكرية هانم : أجاءت العفاريت خطفت الشطائر وطارت بها إذاً ؟ ! (فطومة تبدأ تأكل من اللب .)

صابر بك (أمام النافذة يتفرج . يصرخ بغتة) : القنصل حضر ... القنصل حضر !

فكرية هانم : (تهرع إلى النافذة) القواص داخل من الباب ... يا للخجل ! ! لم أنته بعد من ارتداء

توبى ... (فطومة) كله منك ... !

(فكرية هانم تترك النافذة وتخرج مسرعة . فطومة خلفها . الأستاذ فرغلي يجرى وراء فطومة ويأخذ منها عنوة ما فى يدها من الحب .)

الأستاذ فرغلي : (لخليل باشا من بعيد) نهارك سعيد يا باشا ! !

خليل باشا : (يتظاهر بأنه لا يعرف الأستاذ فرغلي) نهارك سعيد ... !

الأستاذ فرغلي : (لخليل باشا) أظنك لا تذكر من أنا يا باشا ؟

خليل باشا : متأسف ... من تكون حضرتك ... ؟

(صابر بك فى أثناء ذلك يروح ويجيء فى الغرفة مهتماً بتنظيم أثاثها وصورها ، كذلك يعنى بمائدة الشاى . يفعل ذلك فى ارتباك ، استعداداً لاستقبال القنصل ...)

الأستاذ فرغلي : أنا فرغلي يا باشا صاحب جريدة « المقصلة » . ألا تذكر أنك كلفتنى توزيع اشتراكات لكتابك « مذكرات السلطان عبد الحميد » ... كتابك الوهمى الذى ألفته وطبعته فى عالم الخيال ... !

خليل باشا : الكتاب تحت الطبع ...

الأستاذ فرغلي : أوه ! منذ سنتين أو أكثر ونحن نسمع أنه تحت الطبع ... ؟ !

خليل باشا : وما ذا تقصد ؟ !

الأستاذ فرغلي : أظنك نسيت يا باشا أنى وزعت لك اشتراكات بجنيهين ... ؟ !

خليل باشا : وماذا حصل ؟ ... وهل هناك من ضرر ؟ !

الأستاذ فرغلي : وما ذا حصل ؟ المشتركون ازداد قلقهم ، فاستردوا نقودهم منى ودفعتها من جيبى ... معذورون بالطبع ما دام الكتاب لم يُخلق بعدُ ... !

خليل باشا : (يصيح فى وجهه) أنت رجل كذاب

الأستاذ فرغلي : (يصيح هو كذلك) وسعادتك رجل ...

صابر بك : ما هذه الضوضاء ؟

الأستاذ فرغلي : إنى أطالب بحقوق ... !

(تدخل فى هذه اللحظة فكرية هانم ، وقد أتمت زينتها ...)

خليل باشا : قلت لك سيظهر الكتاب قريباً ... !

الأستاذ فرغلي : يظهر أو لا يظهر أعطنى نقودى ...

فكرية هانم : (للأستاذ فرغلي) صه ! ما هذه الجلبة ؟ (لصابر بك) ألم يأت القنصل ؟

صابر بك : لا ، لم يأت بعد ...

فكرية هانم : (بغضب) إلى متى هذا التأخير ؟

الأستاذ فرغلي : (وقد أمسك خليل باشا من صدره) لا بد أن تدفع لى الجنيهين الآن ... !

فكرية هانم : ما هذا ؟ ... أنحن فى الشارع ؟ !

(تسمع جلبة من الخارج) لقد حضر ! ... لقد حضر ! ...

خليل باشا : (للأستاذ فرغلي) حقاً أنك من الرعاع !

الأستاذ فرغلي : (صائحاً فى خليل باشا) والله لن أتركك إلا بعد دفع الجنيهين ... !

فكرية هانم : (للأستاذ فرغلي فى رجاء وغيظ) أهذا وقت الحساب ؟ !

الأستاذ فرغلي : (وهو متشبث بخليل باشا) يا هانم لقد احتال على وأخذ منى جنيهين ...

خليل باشا : اخرس ! قطع لسانك ... !

الأستاذ فرغلي : بل قطع لسانك أنت ... !

فكرية هانم : (لصابر بك وهى مرتبكة لاستقبال القنصل) أى جنيهين ؟ ...

خليل باشا : حكاية قديمة عن اشتراكات لكتاب مذكرات السلطان عبد الحميد ...

(تزداد الجلبة وتقترب) .

الأستاذ فرغلي : (لخليل باشا) قلت لك هات الجنيهين !

فكرية هانم : (لصابر بك) أنْهِ هذا الموضوع وادفع له الجنيهين ... !

صابر بك : وما ذنبي أنا حتى أغرم الجنيهين ؟ !

(الجلبة تقترب . الأستاذ فرغلي وخليل باشا يتأهبان للمشاجرة .)

فكرية هانم : (في غيظ) أيعجبك هذا ؟ !

صابر بك : يا ناس ! هذا عيب ! القنصل حضر ! !

(الأستاذ فرغلي وخليل باشا يلتحمان في عراك . صابر بك يخرج من جيبه جنيهين ، ويسلمهما للأستاذ فرغلي ، فيترك خليل باشا . صابر بك يقول لهما) :

فليصلح كل منكما هندامه ... القنصل بالباب !

(خليل باشا والأستاذ فرغلي يصلحان ثيابهما .)

خليل باشا : (لصابر بك) شكراً يا صابر بك ... تأكد أن مبلغك محفوظ ... سأرده لك في أقرب فرصة

صابر بك : مفهوم ... مفهوم ... ! !

(الباب يفتح في هذه اللحظة ، فينحني الأربعة الموجودون في الغرفة إجلالا للقنصل ؛ فإذا القادم « بدر بك » . يدخل مرتدياً ملابس رياضية ذات ألوان صارخة ، واضعاً « المونوكل » على عينه اليسرى ، أما « عنايات هانم » زوجه ، فعلى أحدث زي . « بدر بك » و « عنايات هانم » يتشاحنان . . .)

بدر بك : (لعنايات هانم وهما داخلان) قلت لك إنك كنت تُغازلينه ... !

عنايات هانم : أغازله ؟ ! وهل مجرد كلامي مع أحد معناه أني أغازله ؟ رجل متأخر ... ! ! صحيح أنك رجعي ... ! !

(الأربعة يرفعون رءوسهم في دهشة ...)

فكرية هانم : وأين القنصل إذاً ؟ ...

صابر بك : (يهرع إلى النافذة) لا أحد هنا ...

(يسلم بعضهم على بعض . خليل باشا يتقدم من عنايات هانم وينحني أمامها في تخاذل مقبلا يدها ...)

بدر بك : ألم يحضر القنصل بعد ؟

صابر بك : لقد رأيت القواص بعيني داخلا من الباب (ينادي) : يا نعمان ... يا نعمان ... !

بدر بك : نعمان ؟ ! نعمان مشغول الآن ! !

صابر بك : فيم ؟ !

بدر بك : كان قد أعطاني ريالين ألعب له بهما « جاتيان » على رفوق ...

فكرية هانم : والنتيجة ؟

بدر بك : قبض مني الآن مكسبه ، أتدرون كم ؟ عشرون جنيهاً ... !

صابر بك : ونعمان ؟

بدر بك : نُسف نسفاً ! !

فكرية هانم : (لصابر بك) مشورة فرغلي أفندي ...

صابر بك : (يصيح منادياً من الباب) يا نعمان ... ! يا نعمان ... ! في أي داهية أنت ؟

نعمان : (من الخارج) حاضر ... !

(يدخل وهو في نشوة سرور)

أي خدمة يا أفندم ! !

فكرية هانم : (بغضب) أين القنصل ؟ ؟

نعمان : لقد حضر القواص الآن وقال : إن سعادة القنصل سيتأخر قليلا لأنهم طلبوه في القنصلية .

صابر بك : (ثائراً) طلبوه في القنصلية ؟ قطع عشرة أيام من مرتبك ... !

نعمان : وما ذنبي يا سعادة البك ... ؟

صابر بك : كلمة واحدة ... اخرج ...

فكرية هانم : (لنعمان) أين الوصيفات ؟ أما تستحي من نفسك ؟

نعمان : حاضر يا أفندم . حالا . (يخرج مهرولا) .

(لها بقية) محمود تيمور

من هنا وهناك

السؤال رقم ٤ : لماذا كان لنا عينان اثنتان ؟

منَّ الله علينا بعينين لكي نرى بهما الأشياء على طبيعتها الحقيقية ، وبذلك يمكننا المقارنة بين أطوالها وأحجامها وألوانها . ولكن ربما سأل سائل : « لماذا لم تخلق لنا عين واحدة كما خلق لنا أنف واحد وفم واحد ؟ »

وللاجابة عن هذا السؤال نفرض أن أمامنا جسما مجسما — أي أن له ثلاثة أبعاد في الفراغ وهي الطول والعرض والسمك أو الارتفاع ، كالكتاب مثلا . فاذا أغمضنا عينا — ولتكن اليمنى — ونظرنا إليه رأينا أن أطواله تختلف عما إذا كنا قد أغمضنا العين اليسرى . بل ربما أبصرنا جزءاً منه باليمنى لا يمكن أن نراه باليسرى إذا ظل الرأس في موضعه في الحالتين . فكأن كل عين تعطينا صورة مختلفة عن الأخرى .

ويجمع هاتين الصورتين — وهذه إحدى وظائف العقل — تتكون لدينا الصورة الحقيقية المجسمة للكتاب .

فمهما برع المصور أو الرسام فلا يمكنه أن يعطينا التأثير الصحيح أو الفكرة الكاملة عما يصوره أو يرسمه .

وقد فكر أحد العلماء في أمريكا أن يستفيد من هذه الخاصية ، فاخترع آلة تصوير للسينما تتكون من عدستين تبعدان عن بعضهما مسافة خمسة سنتيمترات ، وهي المسافة المتوسطة بين عينينا ، وبذلك أمكنه أخذ صورتين للمنظر الواحد تختلفان اختلافا يسيرا ، فتظهر إحداهما ما خفي من الأخرى . وقد ظهر الممثلون على الشاشة البيضاء كأنهم أشخاص على المسرح ، وسمي هذا الفلم « المجسم » وقد عُرض فيلمان من هذا النوع في القاهرة في العام الماضي .

أما الأفلام العادية فمأخوذة بآلة ذات عدسة واحدة كآلة التصوير ، فتظهر الأشياء على الشاشة كالصورة التي يترجمها العقل إذا نظرنا إليها بعين واحدة .

السؤال رقم ٥ : لماذا لا يمكننا أن نطير في الهواء بينما نستطيع أن نعوم في الماء ؟

يعتبر الطيران كالعوم سواءً بسواء . نزاح في الحالة الأولى كمية من الهواء المحيط بالجسم ، وفي الثانية كمية من الماء .

وتتكون معظم أجزاء جسم الانسان من ماء . أما الأجزاء الثقيلة الأخرى كالعظام مثلا فان كثافتها الكبيرة تعوَّض بالفراغ الذي يتخللها أو يحيط بها — كما في حالة الرئتين مثلا — بحيث تكون نسبة ثقلها إلى حجمها صغيرة . وبالمقارنة وجد أن الوزن الكلي لجسمنا يقل قليلا عن وزن حجم مساو له من الماء . ولذلك فانه يطفو دائما على السطح ، وقد وُجد أن كثافة ماء الأنهار تقل بنسبة ٢ ٪ عنها في البحار .

ولهذا السبب نعوم في البحر بسهولة أكثر مما لو كنا نعوم في النهر .

أما في حالة الطيران فان وزننا أكبر بكثير من وزن حجم من الهواء مساو لجسمنا . ولكي نطير يجب علينا أن نزيح كميات عظيمة من الهواء لنتحاشى السقوط ، فلكافة الطيور أجنحة قوية تزيح بواسطتها حجما من الهواء وزنه يوازي جسم الطائر .

ومن طريف ما يروى أن حاول أحد الفرنسيين أن يطير في الهواء فثبت في جسمه جناحين من الريش تحركهما آلة وضعها على ظهره ، فنجح إلى حد كبير في تجربته ، وارتفع عن سطح الأرض مسافة قدرها عشرة أمتار .

السؤال رقم ٦ : لماذا يرتفع سطح اللبن عندما يغلي ؟

عند ما يغلي سائل في وعاء تنفصل منه الغازات

بحث ببليوجرافى :

الفهرست لابن النديم

أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحق الوراق النديم البغدادى « ببليوجرافى » دقيق ، لخص فى كتابه الفهرست التراث الاسلامى فى صورة بهرت أهل الغرب . ونحن لا نعلم من حياته الشيء الكثير ؛ فلا نعلم بالضبط أين ولد ، ولا متى ولد ؛ غير أنه يمكننا أن نستنبط أنه ولد فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى حوالى عام ٣٢٥ هـ بين عامى (٩١٣ — ٩٣٦ م) ، إذ أنه ذكر[١] أنه تقابل مع أحد العلماء المكنى بأبى بكر البردعى عام ٣٤٠ هـ . ولا يمكننا معرفة هل هو بغدادى لمولده ، أو لطول مقامه ببغداد ، ولاشك أن مقامه بها كان طويلا ، فقد تعرف إلى أبى عبد الله محمد بن عمران بن موسى ابن سعيد المرزبانى ، والمعافى النهروانى القاضى أحد المتفقهين على مذهب أبى جعفر الطبرى ، ودرس على أبى سليمان المنطقى ، وكان صديقاً لأبى الخير الخمار أحد المشتغلين بالفلسفة فى عصره ، وكذلك يحيى بن عدى[٢]

(١) الفهرست (الطبعة الأوربية) ص ٢٣٧ .
(٢) الفهرست ص ١٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٥، ٢٦٤

أما صناعته فقد كان وراقاً يبيع الكتب . ويكشف لنا كتاب الفهرست عن صناعته هذه ، فهو ينقل عن كثير من وراقى[١] زمانه . ومن أمناء المكتبات أمثال أبى على بن سوار ، الكاتب الذى يقول عنه إنه محصل خزانة الوقف بالبصرة ، وكان محباً للعلوم شديد الشغف بها[٢] . ثم يعدد كثيراً من الكتب عن الصيد والسحر ، وغير ذلك من الكتب التى لا تهم العلماء ، والتى لاشك كانت موجودة بأسواق بغداد فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ويظهر مبلغ « الببليوجرافى » من خبرته بالخطوط المختلفة عند الأمم وتقديره للمخطوطات التى رآها بخطوط مشاهير الخطاطين . ونحن نلمس حسرته عندما يذكر لنا أن محمد بن الحسين — الذى يقول عنه إنه كان له خزانة كتب لم ير لأحد مثلها كثرة — قد عرض عليه قمطراً كبيراً به أوراق وجلود بخطوط الحسين والحسن ، وأمانات وعهود بخط أمير المؤمنين على ، وأوراق فى النحو واللغة والحديث بخطوط أبى عمرو بن العلاء ، والأصمعى وسفيان الثورى والأوزاعى — نلمس حسرته لأن هذه أدركها البلى ، وأن الزمان درسها وأحرقها[٣]

(١) الفهرست ص ٢٩٩ ، ٣٥٥ .
(٢) الفهرست ص ١٣٩ .
(٣) الفهرست ص ٤٠ — ٤١ .

الذائبة فيه ، وتفر إلى الجو فتخترقه وتتسرب إلى الفضاء من سطحه العلوى . فنرى مثلا أن الماء فى درجة الغليان يكون « فقاقيع » من الغازات ، تزداد كلما ازدادت درجة الحرارة وتخرج إلى الجو ، وبذلك ينقص حجمه تدريجيا .

أما اللبن فيتكون من عدة مركبات ، بعضها سائل والبعض الآخر صلب مذاب ، وتكون درجات غليان عناصره مختلفة ومتباينة .

فاللبن يحتوى على نسبة كبيرة من الماء ، وهى التى تغلى قبل بقية مركباته الأخرى ، وتلك المركبات أو بعضها تصنع طبقة كثيفة أو رقيقة على السطح الخارجى للبن ، تمنع تسرب غازات الماء إلى الخارج ، وتظل فيه لا تستطيع اختراق تلك الطبقة ؛ وعندما تتكاثر تلك الغازات ويكبر ضغطها تكون قوتها الكامنة كافية لرفع الطبقة ، وحينئذ « يفور » اللبن . ولكى نمنع ارتفاع سطح اللبن يجب علينا أن نمنع تكاثر غازات الماء ، وهذا يتأتى بالتقليب المستمر ، فنساعد بذلك على تسرب أكسيجين وايدروجين الماء ومنع تكون طبقة القشدة على السطح .

محمد أحمد أمين

ولا شك أن هذه عاطفة لا توجد إلا عند من أشرب دمه حب الـكتب كأداة لنقل العلم والأدب .

وكما لا نعلم سنة ميلاده بالضبط فنحن فى حيرة أيضاً من سنة وفاته ، فقد ذكر ابن حجر العسقلانى فى « لسان الميزان » أنه توفى عام ٣٨٨ هـ وذكر ابن النجار فى « ذيل تاريخ بغداد » أنه مات لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ هـ مع أننا نجد فى الفهرست [1] مؤلفين توفوا بعد هذا التاريخ أمثال أبى عبد الله الحسين بن على بن إبراهيم المعروف بالكاغدى المتوفى عام ٣٩٩ هـ . غير أن هناك رأياً يذهب إلى أن سنة الوفاة هذه إضافة ترك المؤلف لها بياضاً وأضيفت بعد وفاته ؛ ويشجع على الأخذ بهذا الرأى أن ابن النديم نفسه فى موضع بالفهرست [2] حينما يتكلم عن كتب الحسين بن على بن الحسن بن زيد يقول : « هذا ما رأيناه من كتبه ، وزعم بعض الزيدية أن له نحواً من مائة كتاب ، ولم نرها ، فإن رأى ناظر فى كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها إن شاء الله » . وقد جعلت هذه العبارة العلماء فريقين : فريق يقول بأن علماء مختلفين قد أضافوا على مر الأيام مادة إلى الفهرست . وفريق يقول إن الفهرست من موضع ابن النديم وحده ، وأن الاضافات إضافاة يسيرة فى سنى الوفاة ، ترك ابن النديم نفسه لها بياضاً فى نسخته الأصلية ؛ ولا أريد مناقشة هذين الرأيين فى هذا المقال .

كتاب الفهرست : ذكر ابن النديم فى مواضع مختلفة من الفهرست أنه ألفه عام ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) [3] أى أنه كتبه وهو فى الخمسين من عمره تقريباً وقبل وفاته بإحدى عشر سنة ، ولقد عرفه أهل الغرب منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، حيث نزحت مخطوطات له من مصر إلى باريس ، ثم من القسطنطينية إلى ليدن .

(١) الفهرست ص ١٧٤ .
(٢) الفهرست ص ١٩٣ .
(٣) الفهرست ص ٣٨ و ٨٧ .

وقد ظل ج فلوجل Gustav. Flügel بعد أن جمع مخطوطات له من فينا وباريس وليدن يعمل على نشره مدة خمسة وعشرين عاماً ، ولـكنه مات عام ١٨٧٠ م قبل أن يتم طبعه ، فقام بهذا العمل رودجر J. Roediger وملر Aug. Mueller ونشر الفهرست عامى ١٨٧١ و ١٨٧٢ م بعنوان :

Kitab Al Fihrist Mit Anmerkungen, Herausgegeben Von Gustarv Flügel, Nachdessen Tode besorgt von Johannes Roediger und August Mueller, Zwei Bande, 1872 .

وليس من شك فى أن هذا العمل كان فى القرن التاسع عشر فتحاً عظيما ، ولـكن المستشرق رتر H. Ritter تمكن من العثور فى مكتبة كوبريلى بالاستانة على المخطوطات الأصلية التى نقلت عنها المخطوطات التى اعتمد عليها فلوجل ، وبرهن على أن المخطوطات التى اعتمد عليها فلوجل أساس ضعيف للنشر ، ويجب الرجوع إلى الأصول التى عثر هو عليها .

اعتمد فلوجل على مخطوطات أهمها :

(١) مخطوط فينا ٣٣ Wien 33 والرمز له بالحرف هـ
(٢) مخطوط فينا ٣٤ Wien 34 والرمز له بالحرف ف
(٣) مخطوط باريس ١٤٠٠ Paris 1400 والرمز له بالحرف ص
(٤) مخطوط ليدن ٢٠ Leyden XX والرمز له بالحرف ل

برهن ريتر Ritter على أن المخطوط هـ منقول عن مخطوط كوبريلى ١١٣٤ Köprulu 1134 وأن المخطوط ف منقول من مخطوط كوبريلى ١١٣٥ Köprulu 1135 وأن المخطوط ص منقول عن جزء من مخطوط كوبريلى ١١٣٤ Köprulu 1134 وأن المخطوط ل هو كما ذكر فلوجل كمخطوط ف بالضبط (مخطوط فينا ٣٤) [1] .

(1) Hellmut Ritter : Zur überlieferung des Fihrist, Islam 17 P. 15—23, 1928

أما مخطوط كوبريلى ١١٣٥ فقد كتبه يوسف بن منصور فى ربيع الثانى من عام ٦٠٠ هـ . وفى المقدمة يتكلم المؤلف عن برنامجه فيقول : «هذا فهرست كتب العلوم القديمة من تصانيف اليونان والفرس والهند الموجود منها بلغة العرب ، وأخبار مصنفيها وأنسابهم وتاريخ موالدهم ومبلغ أعمارهم » الخ . ويحتوى هذا المخطوط على الأربع المقالات الأخيرة فقط من كتاب الفهرست ، ويسمى هذا النوع الضرب الصغير .

ولقد عثر ريتر على مخطوط شهيد على باشا ١٩٣٤ ، ولنرمز له بالحرف س ، واستنتج بموازنة هذا المخطوط بمخطوط كوبريلى ١١٣٤ (الذى هو أساس لمخطوط فينا ٣٣) أن كوبريلى هذا نقل عن س ، أى أن س هو الأصل ، ومعنى هـذا أن مخطوط فينا ٣٣ الذى اعتمد عليه فلوجل كتب عن مخطوط كوبريلى ١١٣٤ وأن مخطوط كوبريلى هذا كتب عن شهيد على باشا ١٩٣٤ .

وبما أن ريتر قد برهن على أن مخطوط فينا ٣٤ كتب عن مخطوط كوبريلى ١١٣٥ فحينئـذ وجدت أصول هذه المخطوطات جميعاً ، وهما شهيد على باشا ١٩٣٤ وكوبريلى ١١٣٥ ؛ وقد قارن ريتر مواضع مختلفة فى طبعة فلوجل بهذه الأصول فوجد بها أخطاءً كثيرة .

ومن ذلك نرى أنه من الواجب إعادة نشر كتاب الفهرست على ضوء هذه الأصول ، لا على مخطوطات فى الدرجة الثالثة أو الرابعة ، خصوصاً أن كتاب الفهرست مملوء بالأسماء العربيـة والأعجمية التى تحتاج إلى دقة وتمحيص .

وقبل أن أختم هذا المقال أود أن أشير إلى طبعـة ظهرت فى مصر عام ١٣٤٨ هـ نشرها الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ، وقد صدرت هذه الطبعة بمقالة شائقة عن حياة ابن النديم وفضل الفهرست ، بقلم أحد أساتذة الجامعة المصرية . وكنا نود أن يذكر لنا الناشر كما هى العـادة المخطوطات التى اعتمد عليها . وقد أضاف فى آخر الفهرست وكان يجب أن يكون فى أول المقالة الخامسة الجزء الذى نشره هوتسما [1] .

وذكر حضرة الأستاذ الجليل صـاحب المقدمة أن فلوجل اعتمد فى نشره كتاب الفهرست على نسخة فى مكتبة باريس ، ونسخة فى مكتبة كوبريلى بالاستانة ، ونسختين فى فينا ونسخة فى ليدن . ونحن نعلم أن فلوجل لم يعتمد مطلقاً على نسخة فى مكتبة كوبريلى ، إذ لو كان لذكرها فى ثبت مراجعه . ولنا رغبة فى أن تقوم لجنة التأليف والترجمة على نشر كتاب الفهرست ، الذى يعتبر بحق سجلاً للتراث الإسلامى » .

محمد أحمد حسين

(1) Th. Houtsma : Zum Kitab Al Fihrist. (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes) IV Band, 1890

نسائيات :

فى تعليم البنات

٤ — سباق وراء هدف :

أخذت الفتاة المصرية مكانها إلى جانب الفتى فى دور العلم ، تدرس ما يدرسه . واحتدم بينهما السباق ، وقد أرادت الفتاة أن تفوز بالسبق ، فكان لها ما أرادت .

وسجلت الأرقام تفوقها على الفتى فى ذلك الشوط المنيف .

فنى العام الدراسى الأخير (١٩٤٠ — ١٩٤١) كانت نسبة النجاح فى امتحان الدراسة التوجيهية بالمدارس الأميرية ٤٤٫٤٪ للبنات ، ٣٨٫٦ للبنين .

وفى المدارس الحرة ، كانت نسبة النجاح فى مدارس البنات ٣٢٪ وفى مدارس البنين ٢٨٪ .

وفى امتحان القسم الثانوى العام ، كانت نسبة النجاح فى مدارس البنات الأميرية ٥٥٫٤٪ وفى مدارس البنات الحرة ٤٢٪ — على حين كانت النسبة فى مدارس البنين ٢٧٫٦٪ .

وفى امتحان شهادة الدراسة الابتدائية ، كانت نسبة النجاح فى المدارس الأميرية ٨٣٫٥٪ للبنات ، ٧٣٫٣٪ للبنين . وفى المدارس غير الأميرية ٦٤٫٧٪ للبنات ، ٥٧٫١ للبنين .

أى أن البنات تفوقن على البنين فى كل مرحلة من مراحل التعليم ، وكان هذا التفوق فى المدارس الأميرية وغير الأميرية .

وقد اختلف القول فى تعليل هـذا التفوق ؛ فراقبة تعليم البنات تقول فى تقريرها السنوى الأخير : « فى اعتقادنا أن استمرار تفوق مدارس البنات مدة السنوات الخمس الأخيرة ، يرجع إلى ما تحاوله المراقبة العامة من تركيز الإشراف الفنى لتعرف مواضع الضعف وإصلاحه ، وفى اختيار ناظرات المدارس وإعطائهن شيئاً من الحرية فى العمل ، مع تحميلهن فى نفس الوقت مسئولية نتيجته فى مدارسهن » .

ويعلل الكثيرون هذا التفوق ، بانصراف الفتاة إلى التعليم ، واعتكافها فى البيت للدرس والتحصيل ، على حين يشغل الفتى بأمور أخرى غير الدراسة ، ويقضى أكثر وقته مع رفاقه خارج البيت منصرفاً عن الدرس . فهو مبعثر القوى موزع النشاط .

وإلى هـذا الرأى ذهب رجال مؤتمر التعليم الذى انعقد فى وزارة المعارف فى الصيف الماضى .

ويضيف البعض إلى ذلك أن الفتاة تندفع فى ميدان السباق ، مسوقة بعوامل ظاهرة وأخرى خفية ، تغريها بالسبق والتفوق ، فتعلم الفتى أمر عادى ، اعتادته الأجيال من قبلنا ، أما تعلم الفتاة فبدعة حديثة ظهرت عندنا فى القرن العشرين ؛ ومن ثم تعتبر الشهادة العلمية للفتاة نوعاً من الامتياز تدل به على بنات جيلها ، ونوعاً من الترف العقلى يجمل شخصيتها ، ويزيد فى مكانتها . أما الدرجة العلمية للفتى فأمر واجب لا بد منه ، وليس فيها شىء من الترف أو الامتياز .

إننا لا نزال نسمع فى أفقنا عبارة « أول فتاة تظفر بدرجة كذا » . وهذا يجعل للظفر العلمى للفتاة أهمية خاصة ليست للفتى ؛ وأحسب أن هذا التفاوت سوف يستغرق هذا الجيل كله ، ثم تصبح الدرجة العلمية للفتاة أمراً عادياً فى النظر العام ، كما هى بالنسبة للفتى .

* * *

أرادت الفتاة أن تفوز فى السباق ، فتم لها ما أرادت ؛ ولكنها لم تتوقف لحظة لتسأل عن الهدف الذى ترنو إليه . ولم تتمهل لتعرف الغاية التى تستشرف لها . أكانت غايتها المرجوة أن تقطع هذه المراحل واحدة بعد أخرى لتقف هناك فى آخر الشوط ؟

أكانت أمنيتها المبتغاة أن تظفر بشهادة من الدولة ،

تعترف لها فيها بأنها أتمت مرحلة بعينها من مراحل التعليم ؟

أكان هـدفها النشود أن تخرج إلى ميدان العمل لتحترف ؟

وهل كان شيء من هذا يمدها بالراحة والسـعادة والاستقرار ، بعد أن نال منها النضال وأجهدها السباق ؟

ذلك شيء لم يفكر فيه الذين وجهوا الفتاة ودفعوها إلى الميدان . وكذلك لم تفكر فيه الفتاة ...

أخذها دوار الاختلاط بالجمع ، وأدركتهـا حمى السباق ، فشغلت عن نفسها ، واندفعت لا تلوى على شيء

كان كل ما يعنيها ويشـغلها هو أن تفوز في ذلك السباق . وقد تم لها ما أرادت .

***

وفي آخر الشوط وقفت تستريح .

ومضت تفتقد نفسها التي شغلت عنها في المعركة . .

وراحت هذه النفس تناقشها الحساب : ماذا ربحت وماذا أضاعت ؟

فاذا بها قد ربحت السباق وخسرت نفسهـا . . .

أضاعتها في سباق لم تعرف له غاية ، ولم تتمثل له هدفا

وشقيت آخر الأمر ، حين عرفت المبادئ المثالية ، وشارفت المثل العليا . . . فصارت تنظر إلى أترابها في السن ، كما تنظر إلى عيال صغار .

وأصبحت تضيق بالناس ، وتستصغر من أمورهم ما يستعظمون .

وأصبح الناس كذلك يضيقون بها ، ويظنون بها الكبر والغرور والتعلق بالأوهام . . .

وهذه هي المحنة النفسـية التي تكابدها الفتاة في جيلنا هذا . .

هي غريبة عن الناس . . . وهي أبداً قلقة حائرة . .

لا يطمئن بها مكان على الأرض ، وليست تملك أن تعيش في السماء !

(كلية الآداب) عائشة عبد الرحمن

النـاس العمليون

إنهم يمثلون بحياتهم القصائد التي تنظمها .

ويقومون بالأمجاد التي ننشدها .

هم الزارعون المرابعون الذين يغرسون لنا أقواتنا وينتجون غلات الأرض .

هم الذين يسوقون القاطرات ويقتطعون الأحطاب .

هم الآباء الذين ينشئوننا ، والأمهات اللواتي يعطين دائماً دون أن يفكرن في الأخذ ، والبنات البارات اللواتي يؤازرنهن .

هم الذين يناضلون في صفوف القتـال الأمامية ، ويتحملون عثير الحرب الروحية والمادية .

هم الذين يطبقون بعملكم الحسن العظات التي ينادي بها من على المنابر .

هم الأنبياء والحكماء والمرشدون .

هم الذين يحفرون الترع ، ويمدون السكك الحديدية ، ويعبدون الطرق .

هم الذين يكدون في الأعمال الوضيعة ، ويعانون ألوان العذاب والأخطار ، ليحملوا أثقال البشرية ، ولننعم بالدعة والرفاهية .

هم الذين يبنون لنا المساكن لتحمينا من الزوابع وهوج الرياح وغارات الأحداث .

أيها النبي الحكيم الشـاعر : انظر كيف يمثل هؤلاء النـاس العمليون بحياتهم الموفورة جلائل الأعمال التي توحيها أنت إليهم ، وتكتبها على صفحات ذهبية من الوجود بحروف من نار !!

(الزهرة)

الخفاش

وكيف يشق طريقه فى الظلام

يعتقد بعض الناس أن الخفاش طائر ، وهو أبعد ما يكون من ذلك ، فهو يشبه الفأر لوناً وشكلا ، وله جسم صغير يغطيه الشعر ، شأنه فى ذلك شأن جميع الحيوانات ذات الثدى ، وذلك بخلاف الطيور التى يغطى جسمها الريش . والخفاش صغير الحجم قليل العضلات ، له زوجان من الأطراف يدان ورجلان ، وقد تحور اليدان إلى جناحين هما كل ما يملك الخفاش من حول ومن قوة ، فإذا أصيب أحدهما بضر كان فى ذلك نهايته . وهو يطير بجناحيه إلى مسافات بعيدة ، وربما فاق الطيور فى ذلك .

ويتكوّن الجناح من أصابع اليد ، فللخفاش خمس



ثلاثة أنواع لأجنحة : فالعلوى جناح الطائر الأولى المنقرض ، والأوسط لخفاش ، والسفلى لطائر ، وقد ظهر هيكل كل .

أصابع فى يده مثلنا ، لكن أربعاً منها قد امتدت بينما بقيت الأبهام على قصرها ، وامتد الجلد الذى يغطى الجسم إلى اليد والأصابع ، فصار غشاءً كبيراً تكون منه الجناح ، وامتد كذلك إلى القدمين والذيل ، فكون مساحة كبيرة تساعد الخفاش على الطيران لمسافات بعيدة . أما قدماه فلا تمكنانه من المشى ، وإذا اضطر الحيوان إلى ذلك زحف متعثراً على الأرض ، فكأنهما لم تخلقا فى الخفاش للسير ، بل ليثبت بهما نفسه ، ويعينه على ذلك أن أصابع قدميه مخلبية حادة ، يتعلق بها الحيوان على الأغصان أو الجدران أو ما شا كلها ، ويبقى جسمه متدلياً والرأس فى مقدمته ، وفى هذا الوضع المنعكس يجد الحيوان راحته ، فيلف جناحيه حول جسمه ، وبذلك يدثر نفسه بغطاء طبيعى ، ومن ثم كان فى غير حاجة إلى عش يأويه أو جحر يقيه قارس البرد وشديد الرياح .

ويأوى الخفاش الكهوف والمغارات والأشجار وكل مكان بعيد عن الضوضاء . وليس من الغريب أن يبقى مثل هذا الحيوان ، فيصارع من أجل البقاء ، ويتمتع بسلام دائم ؛ فليس فى جسمه مطمع يغرى الحيوانات الأخرى على افتراسه ، ومن وسائل الحماية التى أمدته الطبيعة بها ما ينبعث منه من رائحة نفاذة تنفر منه القريب والبعيد ، تلك الرائحة التى تفرزها غدد خاصة أودعها الله جسمه .

وتكاثره محدود ، فالأنثى تلد صغيرا أو صغيرين ، مرة واحدة كل عام ، وترضع الأم صغيرها بينما يتعلق بأمه ، فتطير به وهو على هذا الوضع من مكان إلى آخر ، ويعيش الخفاش عشرين عاماً ، وتزداد أعداده بسرعة كبيرة ، نظراً لقلة أعدائه من الحيوانات ؛ ففى أستراليا مثلا وصلت هذه الأعداد إلى حد أزعج السكان ، فاستنجدوا بعلماء الأحياء يبتغون عندهم الوسيلة إلى التخلص من هذا الوباء ، ولكن أنى لهم ذلك ؟



أنثى الخفاش وقد تعلق بها صغيرها وهي في وضع مقلوب وفي ذلك راحة الخفاش .

ويتغذى الخفاش على الحشرات والفواكه ، ومنه أنواع تعيش على دم الثدييات ، وتسمى مصاصات الدماء فتجد الواحد منها مزوداً بقواطع حادة كالأزميل ، يحدث بها جرحا في الفريسة فيسيل دمها فيمتصه ، ولبس لمصاص الدماء هذا أضراس لأنه يعيش على السوائل ، وهو ينتهز فرصة نوم الحيوان ليحدث فيه الجروح دون أن يشعر به إذ لا يسبب له أي ألم ، وبعد ذلك يلعق الدم الذي يسيل من الجرح ، فيخزنه في معدة أنبوبية طويلة ليقوم بهضمها بعد ذلك على مهل . وفي أواسط أفريقيا حيث



مصاص الدماء

يشتد الحر ، وتنام الزنوج في العراء ، يسطو مصاص الدماء على النائم ، فيحدث جرحا في الأنف أو الابهام ، لأنهما أظهر أجزاء الجسم وأبرزها منه ، ويستعين في أثناء امتصاصه الدم بالرفرفة بجناحيه ليحدث تياراً هوائيا ، يزيد النائم استغراقاً في نوم عميق .

والخفاش زوج من الأعين الضعيفة ، فهو يقضي وقته في الكهوف نهاراً ويسعى لغذائه ليلا ، ويجد طريقه في الظلام ، فهل تساعده عيناه على ذلك ؟

من المعروف أن أي عين لا يمكنها أن تبصر في الظلام الدامس ، وقد لوحظ أن الخفاش يطير في الكهوف المظلمة فلا يصطدم بجدرانها مطلقا ، وقد ثبت أنه لا يستعين في ذلك ببصره ، وتنحصر التجربة التي أثبت بها ذلك في أنهم أخذوا خفاشا وغطوا عينيه بغطاء غليظ لا ينفذ منه أي ضوء ، ووضعوا حواجز تعترض طريقه ، ومع ذلك لاحظوا أنه لم يصطدم مرة بحاجز منها . ولزيادة التأكد من أن الخفاش لا يعتمد على عينيه في طيرانه فقئت عيناه ثم وضع في غرفة امتدت بين جدرانها خيوط من الحرير ، فطار الخفاش بين هذه الخيوط وكأنه لم يفقد بصره ، ثم استبدلت بالخيوط الحريرية أسلاك ، فلم يصطدم الخفاش بها مرة واحدة ، بل ظل طائراً بمهارة لا تقل عن مهارته قبل أن تفقأ عيناه .

فعندئذ اتجه البحث إلى حاسة أخرى وهي السمع ، فأخذ خفاش وسدت أذناه بمادة كالجبس ، ثم ترك في نفس الغرفة ، واشتدما تحقق هذا الظن ، إذ لوحظ أن الخفاش يصطدم بالأسلاك ، وكانت نسبة اصطدامه ٧٥ مرة في كل مائة محاولة .

ومن الملاحظ دائما أننا إذا دخلنا كهفاً تسكنه الخفافيش فإنها تطير بين جدرانه محدثة صوتا ضعيفاً ، فهل لهذا الصوت علاقة بطيران الخفاش ؟

بقي هذا السر خفيا حتى اخترع الجهاز اللاسلكي الخاص باستقبال الاصوات وتكبيرها ! وسبب ذلك أن الأذن البشرية لا تقوى على تمييز الصوت الذي يزيد تردده على عشرين ألف ذبذبة في الثانية ، والخفاش يحدث

أصواتاً تزيد في ترددها على هذا الحد ؛ ومن ثم لم يستطع الانسان أن يشعر بها حتى سخر الجهاز اللاسلكي المشار إليه الذي يستقبل الأصوات ويكبرها .

واستخدم العلامة جلامبس جهازاً من هذا النوع في غرفة عازلة للصوت أي لا تنفذ خلالها الأصوات ، ووضع معه خفاشاً ، فلوحظ أنه لما بدأ الحيوان طيرانه ، أخذ الجهاز يذيع أصواتاً ذات تردد عال . وقد حاول جلامبس أن يبين العلاقة بين هذه الأصوات وبين اتخاذ الخفاش الطريق الصحيح ، فأخذ خفاشاً ووضعه في غرفة تمتد بين سقفها وأرضها أسلاك مشدودة ، وكان سمك السلك مليمتراً والبعد بين كل سلكين ثلاثون سنتيمترا ، وكان على الخفاش أن يمر بين هذه الأسلاك عند طيرانه ؛ وإذ كانت المسافة بين نهايتي الجناحين عند امتدادهما أثناء الطيران تبلغ أربعة وعشرين سنتيمترا ، فاننا نستطيع أن نتصور مقدار الدقة التي يجب أن يتوخاها الخفاش في طيرانه ليتمكن من المرور بين تلك الأسلاك ؛ وقد تمكن الخفاش طبعاً من أن يطير بين الأسلاك بسهولة ، وكانت نسبة تصادمه بها بمعدل ٢٥ مرة كل مائة محاولة .

بعد ذلك أخذت أنبوبتان مفتوحتا الطرفين ، ووضعت أنبوبة في كل من أذني الخفاش ، ثم ربط صيوان الأذن حول الأنبوبة ، حتى لا تنفذ الأصوات إلى الأذن إلا من خلال الأنبوبة ، وعند سد الأنبوبتين بسداد من القطن ، لم يحاول الخفاش أن يطير من مكانه ، بل بقي على الأرض محاولا أن يتخلص مما سد أذنيه ، وعندما اضطر إلى الطيران بقذفه في الهواء ، اصطدم بالأسلاك والجدران ثم سقط على الأرض ، وعندما أزيل سداد القطن طار الخفاش كعادته .

بقي بعد ذلك أن نتأكد من أثر الصوت الذي يحدثه الخفاش وكيف يرشده في طيرانه ؛ ولبحث هذه النقطة أخذ خفاش وكمم فوه ، وغطى بالكلودين حتى لايتمكن من إحداث أي صوت ، فلوحظ أنه يصطدم بمعدل ٦٥ مرة في كل مائة محاولة ، ولم يرسل جهاز التكبير أي صوت ، مما يبين العلاقة الوطيدة بين صوت الخفاش وطيرانه .

وقد شرحت حنجرة الخفاش ، فتبين أنها تحوي أوتاراً صوتية تتحكم فيها عضلات قوية تساعدها على إحداث أصوات ذات تردد عال تتفق مع ما يسجله جهاز الصوت .

وعلى ذلك نجد أن الخفاش يحدث صوتاً ينعكس على ما يصادفه من جدران ، فتستقبله أذنه وتعينه على معرفة بعد الحاجز . ورب قارىء يتساءل عما يحدث لو كان في الغرفة أكثر من خفاش واحد . والجواب على ذلك أنه لا يبعد أن يميز الخفاش أصواته كما تميز الأشخاص بين أصواتها .

محمد أحمد بيومي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

مى . . .

فى نفوس الحالمين ... ...

من هبات السماء كانت !
وكألق الضياء عاشت !
وبأشواق الإنسانية ترنمت !
ثم كشمس الربيع أفلت ... !
لكن لغير رجوع ... ... !

***

لم تكن جسماً كثيفاً ، وإنما جوهراً شفيفاً
جاءت إلى الأرض فلم تعجبها الأرض ...
ونظرت إلى الناس فلم يرقها الناس ...
ومشت فى حياتهم فشجاها اعتلالها
الجمود يعيش هنا ، والجهل يفرخ هناك ...
والخمود يرين هنا ، والفراغ يشيع هناك ...
والظلم يخيم هنا ، والبؤس يجثم هناك ...
والروح المصرى مطمور ...
مطمور تحت هذا الركام ...

***

وماذا تملك مطوقات السحر ... ؟
الغناء ؟
أجل . ما أروع الغناء !
إنه الحياة تدب فى الحطام ...
والبعث ينطق الجماد ...
والأمل ينهض العاثر
والعمل يملأ الفراغ ...
والأنس يطرد الوحشة ...
والنشاط يلهب الأجساد ...
والفرح ينضّر الحياة ...

***

لم تكن نغماً وإنما أنغاماً من النفوس ...
ولم تكن أفقاً وإنما عديداً من الآفاق
ولم تكن دنيا وإنما دنيات معطرات ...
بها للحالمين والأيقاظ ...
وللأشقياء والسعداء ...
وللرجال والنساء ... حتى الأطفال ... !

***

كانت توحى للشاعر فيترنم !
ولطالب المعرفة فيتفلسف ...
وللكاتب فيحلّق ... ...
ثم تهيب بالذليل فيشمخ ...
وبالجبان فيشجع ...
وبالضعيف فيعنف ... ...
ثم تتطلع للعانى فيثور على القيد ...
وللمدلج فيوغل فى السير ... !
وللحائر بين الشعاب فيهتدى ...
ثم تبسم لليائس فيرجو
وللعابس فيتهلل ...
وللشيق فيرضى ...
ثم آب الوحى والهيب
ورحل المتطلع والمبتسم
واستقرت بعده معانيه
تعيش وتعمل وتتكاثر ...

***

في طريق الحياة ينطلق الوافدون ...
ولكن ما أقل الانسانيين ...
الذين يقفون في الطريق رغم الزحام ...
فيغرسون على جانبيه الأشجار والأزهار
ويرفعون منه الصخور والأحجار ...
ويجملونه بالمصابيح والأنوار ...
ويقيمون فيه الديار تلو الديار ...
الديار التي يؤمها المدلجون
ويفيء إليها المهجرون ...
ويسعد بالدفء فيها المقرورون ...

* * *

وكانت «مي» ، هذا الصوت العلوي
كانت من أولئك الانسانيين ...
من الذين غنوا للحياة في فجرها ...
وهتفوا للربيع في مقدمه .
من الذين عاشوا للحق والانسانية
وأحبوا الجمال والحرية ...
من الذين طلكوا الأحزان
ومشوا على الأشواك
من الذين ازورّت الحياة عنهم في نهاية الطريق ...
فارتحلوا وفي نفوسهم شيء على الحياة ...

* * *

من هبات السماء كانت
وكالق الضياء عاشت
وبأشواق الانسانية ترنمت
ثم كشمس الربيع أفلت ...!
لكن لغير رجوع ...!

عبد العزيز عتيق

يا ثغر

يا ثغر هات تجملٍ ... وبالله لا تبخل
يا ثغر هات قبلة ... تزرى بخمر «الموزلي»
ما ذقت ما بعدها ... بغيرها لم أثمل
هات حبيبي لا تخف ... على الهوى توكل
لا إثم في الحب ولا ... فيه ركوب الخطل
ما الحب إلا آية ... من قبس الله العلي
بالله هات قبلة ... تحيي حطام هيكلي
يا ثغر أنت آية ... بلحظك المفضل
يا ثغر أنت فتنة ... بالكرز المخضل
قرب شفاهاً تجمها ... أقصى المنى والأمل
فهل علمت أنها ... قد خلقت للقبل

حسين شوقي

مع الكتب الجديدة

١ — النهضة الأوربية

قام بنشر هذا الكتاب بيت المقرب بمصر ، وقد ألفه سدنى دارك أحد كتاب الأنجليز الذين تمتاز أبحاثهم بالدقة والقصد ، وترجمه الأستاذ محمد بدران .

ويتناول هذا الكتاب دراسة تاريخية للنهضة ، أو عصر «الرينسانس» فى أوربا ، مع عرض للعوامل التى سبقت هذا العصر ، والتى أدت إليه ، والتطورات التى لازمته ؛ ثم نتائج هذه النهضة مع القصد فى بيان خيرها وشرها ، بحيث يعطى القارئ فكرة صحيحة من ذلك العصر من تاريخ أوربا .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى فصول تتناول فى كل منها خطوة من خطوات النهضة بالتدريج ، عارضا جهد كل من ساهم بنصيب فيها موجزاً آراءه وباسطاً آثاره ، وما ترتب على هذه الآثار من نتائج تتصل بالحالة السياسية أو الاجتماعية .

وقد وفق الأستاذ محمد بدران بحق فى ترجمة هذا الكتاب ترجمة دقيقة ، يبدو فيها أثر الجهد والعناية واضحاً جلياً .

ويقع هذا الكتاب فى ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط ، وقد قامت بطبعه مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، واختاره الأستاذ أحمد أمين بك ليكون من بين الكتب التى ينشرها بيت المقرب التابع للمعهد الخليق للأبحاث المقربية .

٢ — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر

وضع هذا البحث الأستاذ إبراهيم عبده بمعهد الصحافة . وقد درس فيه نشأة الطباعة والصحافة ، وتطورهما فى مصر خلال الحملة الفرنسية .

وقد قدم المؤلف بحثه بإثبات المراجع التى استعان بها ، كما عرض لتقسيم البحث متبعاً فى ذلك طرائق البحث العلمى الحديث . ويشتمل البحث على خمسة فصول درس فيها نشأة المطبعة الأولى فى عهد الحملة ثم التطور الذى طرأ عليها ، وظهور الصحافة بمصر نتيجة لقيام المطبعة العربية ، كما عرض لصدور قانون المطبوعات ، وتناول الصحف التى ظهرت بمصر لعهد الحملة ؛ وناقش ما يقال من وجود جريدة لهذا العهد تسمى « التنبيه » منكراً ظهور هذه الجريدة ، وإن كان قد سلم

بالمطبوعات التي اتخذت لاصدارها .

ويقع هـذا البحث الطريف في ١١٧ صفحة من القطع المتوسط ، وقد طبع بمطبعة التوكل وقام المؤلف على نشره .

٣ — المخبأ رقم ١٣

وهذه هي المسرحية الجديدة للأستاذ محمود تيمور ، يشهد ظهورها بنشاطه ومثابرته على الانتاج ، وهي كالمجموعة التي سبقتها باللغة العامية ، إلا أنها تمتاز بظاهرة جديدة ، فهي صدى الحرب أوالظروف الحاضرة ؛ وقد أخذ الكثيرون على كتابنا القصصيين أن أصداء الظروف الحاضرة لا تتجاوب فيما يكتبون ؛ وهذه القصة الجديدة تقطع الطريق على القائلين بذلك . وحبذا لو تجاوبت الأصداء فيما يكتبه بقية كتاب القصة .

وفي هذه المسرحية يتناول الأستاذ محمود تيمور مجموعة شخوص مصرية تمثل ألواناً من المجتمع في مصر ، ففيها السيد الأرستقراطي ، والسيدة الأرستقراطية ، وفيها الشاب المتعلم ، وفيها الفتى المهذار ، وفيها ماسح الأحذية والبائع الجوال ، والمرأة التي تمثل الطبقة الدنيا . وكل هذه الشخوص تلتقي في مخبأ حيث تدور حوادث القصة التي قد تعرض لها في وقت آخر .

وقد نُشِرَتْ هـذه القصة بين مطبوعات مجلة الحوادث ، وهي تقع في ثلاثة فصول يدور حوارها كله باللغة العامية .

٤ — أصول الطهي

أصدر هذا الكتاب الضخم الآنستان نظيره نقولا وبهيه عثمان . وقامت بطبعه مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . وتبلغ صفحاته ٩٥٠ صفحة من القطع الكبير ، فهو بذلك الأول من نوعه في المكتبة العربية .

ونظرة واحدة يلقيها القارئ على هذا الكتاب تكشف عما بذل فيه من مجهود ؛ فقد نسق تنسيقاً يدل على الذوق ، وشرحت فيه وسائل الطهي شرحاً مقترناً بالصور بجملة وافياً من الناحية العملية كرشد لربة البيت الحديث ، كما قُدِّم له بعرض بعض خطوات التدبير المنزلي وتنظيم المنزل عرضاً جيلاً .

ويباع هذا الكتاب في كافة المكاتب ، وقد قامت بنشره مؤلفتاه الفاضلتان .

صعوح

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثّقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٥٧ | الثلاثاء ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٦٠ — ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

حجـــة الوداع

للقاضى الفاضل صاحب الإمضاء

فى السنة العاشرة بعد الهجرة ، اعتزم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج من المدينة لأداء فريضة الحج ، وكان الإسلام قد عم جزيرة العرب ، ومن شاء الله من أهل اليمن ، وأذّن عليه السلام فى الناس بالحج فقدم المدينة بَشر كثير يريدون أن يأتموا به .

وفى يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة خرج النبى من المدينة متدهناً مترجلا ومعه أزواجه وأهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار . وبعد أن صلى العصر بذى الحُليفة ، دعا بالهدى فأشعره بيده فى جانبه الأيمن — (والهدى هو ما يهديه الحاج إلى مكة من الابل والبقر ونحوها . وطريقة الاشعار هى أن يقوم الانسان بشق جلدها فى جانبها أو أن يطعنها فى سنامها فى أحد الجانبين بمبضع حتى يظهر دمها . وذلك ليعرف أنها هدى) — وأمر صلى الله عليه وسلم من كان معه هدى أن يهلّ كما أهلّ . وسار وبين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله أمم كثيرة ، قيل فى تعدادهم أنهم بلغوا مائة وأربعة عشر ألفاً .

وطيبته زوجه عائشة رضى الله عنها لإحرامه بيدها ، كما أحرمت هى وتطيبت . وسار الحجيج من المدينة . فلما كان على ثلاث مراحل منها سال على وجه عائشة شىء من صفرة الزعفران الذى طيبت به رأسها ، فالتفت إليها النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « ما أحسن لونك الآن يا شُقيراء ! »

ولم يكن يمنعك النبي عليه الصلاة والسلام في مختلف المناسبات أن يحقق حبه لزوجه الصغيرة الحسناء ، حتى إنه في أيامه الأخيرة حين أخذه الصداع وغلبته الحمى ، وهو في بيت ميمونة ، رضي الله عنها ، نازعته نفسه إلى الثواء عند عائشة . ولكنه كان على عادته يأبى إلا أن يسوي بين نسائه . فكان يُحمل في ثوب ثم يطاف به على أزواجه حتى يَقسم لهن كما كان يقسم في صحته . وكان يقول : أين أنا غداً ؟ فيقولون : عند فلانة . فيقول: وأين أنا بعد غد ؟ فيقولون : عند فلانة . وعرف أزواجه رضوان الله عليهن أنه يريد عائشة فقلن : يا رسول الله . قد وهبنا أيامنا لأختنا عائشة . فخرج يخط رجلاه في الأرض لشدة ما يعانيه من الضعف حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها . فأقام عندها حتى توفي في حجرها وهو يسند رأسه إلى صدرها .

* * *

وكان أبو بكر رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : إن عندي بعيراً نحمل عليه زادنا . فأذن له النبي في ذلك . فكانت زاملة الرسول وأبي بكر واحدة . وأمر صلى الله عليه وسلم بزاد فجعل على بعير أبي بكر . وكان يتولى البعير غلام لأبي بكر يركبه مرحلة ويقوده مرحلة ، فلما كان بالأثاية عرّس الغلام وأناخ بعيره فغلبته عيناه ، فانطلق البعير يخبط كيف يشاء . وقام الغلام فلزم الطريق — طريق القافلة — يظن أن البعير سلكها وهو ينشده فلا يسمع له بذكر .

ونزل رسول الله بالعرج فجلس ، وأبو بكر إلى جانبه ، وعائشة إلى جنبه الآخر ، وأسماء بجنب أبي بكر ، رضوان الله عليهم ، وأقبل الغلام فقال له أبو بكر : أين بعيرك ؟ فقال : أضلني ! فقام إليه يضربه وهو يقول : بعير واحد يَضِلُّ عنك ؟ ! فجعل صلى الله عليه وسلم يبتسم ويقول : « ألا ترون إلى هذا المحرم وما يصنع ؟ »

وكان آل نضلة الأسلميون قد علموا أن زاملة الرسول قد ضلت ، فحملوا جفنة من حَيْس (وهو طعام مخلوط من التمر والدقيق والسمن) ، فأقبلوا بها حتى وضعوها بين يديه فقال : « هلم يا أبا بكر . فقد جاءك الله بغداء طيب ! »

وجعل أبو بكر يغتاظ على الغلام ، يريد أن يهم به ليضربه مرة أخرى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هون عليك . فإن الأمر ليس إليك ولا إلينا معك ! قد كان الغلام حريصاً ألا يضل بعيره . وفي هذا — وهو يشير إلى طعام نضلة — خلفٌ مما كان معه ....» فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله وأبو بكر ، وكل من كان يأكل مع رسول الله حتى شبعوا .

وعلم سعد بن عبادة بضياع زاملة النبي ، فأقبل ومعه ابنه قيس بن سعد بزاملة أخرى يريدان تقديمها إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ولكن الله كان قد رد على الرسول بعيره الضائع قبيل ذلك . فقال سعد : يا رسول الله ، بلغنا أن زاملتك أضلت الغلام . وهذه زاملة مكانها . فقال «قد جاء الله بزاملتنا ، فارجعا بزاملتكما . بارك الله عليكما ! أما يكفيك يا أبا ثابت ما تصنع بنا في ضيافتك منذ نزلنا المدينة ؟ » (يشير الرسول بذلك إلى ما كان من تفاني سعد في إكرامه ووفادته عند أول شخوصه إلى المدينة مهاجراً من مكة ، إذ كانت أول هدية أتته بعد دخوله المدينة قصعة مثرودة خبزاً وسمناً ولبناً ، جاءه بها زيد بن ثابت من عند أمه . ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة وفيها عراق لحم — وهي العظام إذا أخذ منها معظم اللحم وبقيت عليها لحوم رقيقة ، فتكسر وتطبخ . وكان العرب يأكلون ما بقي عليها من لحم دقيق ويتمششون العظام . وكان لحمها من أطيب اللحمان عندهم — وكذلك كان يحمل الرسول سيفاً اسمه « العضب » ، وهو السيف الذي كان

يحارب به في يوم بدر . وهذا « العضب » هو مما أهداه سعد أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

فقال سعد : يا رسول الله ! الناقة لله ولرسوله . والله يا رسول الله — الذى تأخذ من أموالنا أحب إلينا من الذى تدع . قال : صدقتم ! يا أبا ثابت أبشر فقد أفلحت ! إن الأخلاق بيد الله ، فمن شاء أن يمنحه منها خلقاً صالحاً منحه . ولقد منحك الله خلقاً صالحاً — يريد بذلك أن يزكى إليه ولده قيساً — (وليس فيما يحب الرجل أن يسمعه من عبارات الثناء ، أحلى من الثناء الذى يخلعه الناس على بنيه . فما بالك والرسول هو الذى يقدم هذا الثناء ؟

* *

وظل النبي في طريقه حتى دخل مكة . فلما رأى البيت رفع يديه قائلا : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة . وزد من عظّمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتعظيما وتكريما ومهابة وبراً » ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة . فلما انتهى إلى الركن استلمه وقال : « باسم الله . والله أكبر » واستلام الركن هو مسحه وتقبيله — وبعد الاستلام انتهى خلف المقام ، فصلى ركعتين قرأ فيهما : « قل يا أيها الكافرون » — و « قل هو الله أحد » ، ثم عاد إلى الركن فاستلمه ، ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى جواره ، فالتفت إليه قائلاً : « إنك رجل قوى . إن وجدت الركن خالياً فاستلمه . وإلا فلا تزاحم عليه فتؤذى ! »

فانظر إليه صلى الله عليه وسلم كيف كان رفيقاً بصحابه الضعفاء ، وكيف أن كل أعماله وأقواله كانت تنادى بأنه إنما بعث حقاً ليتمم مكارم الأخلاق .

ودخل الكعبة بعد ما خلع نعليه . فلما انتهى إلى بابها صلى ركعتين بين أسطوانتيها المقدمتين ، ثم خرج — وكان البيت على ستة أعمدة — وروى أنه دخل بعد ذلك على عائشة رضى الله عنها ، وهو حزين فقالت : مالك يا رسول الله ؟

قال : « فعلت اليوم أمراً ليتنى لم أكن فعلته ! دخلت البيت فعسى الرجل من أمتى لا يقدر أن يدخله فتكون فى نفسه حزازة ، وإنما أمرنا بالطواف ، ولم نؤمر بالدخول » .

وظل على ما كان به من الحزن والكآبة حتى وفق الله عائشة رضى الله عنها إلى التسرية عنه . وكان ما يلقاه الرسول صلوات الله عليه من عطف السيدة عائشة ومواساتها كفيلا بأن يمسح عنه آثار ما علق بنفسه من هذا الحرج .

وبعد أن أقام بمكة ثلاثة أيام سار إلى منى ، وكان بلال إلى جانبه وبيده عود عليه ثوب أو شيء يظله من الشمس ، فلما بلغ عرفة نزل بمكان يقال له نمرة ، وقد ضرب له فيها قبة من شعر ، وأقام أزواجه فى قباب من الخز ؛ فلما زالت الشمس أمر براحلته (القصواء) ، فرُحِلت برحل رث وقطيفة لا تساوى أربعة دراهم ؛ فلما توجه قال : « اللهم حجّةً لا رياء فيها ولا سمعة » وما كان لمثل رسول الله أن يفعل ما قد يفعله سواه ، لا يبتغى إلا أن يراه الناس أو يسمعوه ، فيحظى من وراء ذلك بمدح الناس إياه ولفت أنظارهم إلى نفسه .

وفى بطن عرفة قام رسول الله فخطب خطبته الشهيرة التى استهلها بقوله : « أيها الناس . إنى والله ما أدرى لعلى لا ألقاكم بمكانى هذا بعد يومكم هذا ! رحم الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ... » الخ .

وبعد يديه وهو واقف بعرفة ، ثم أقبل براحتيه على وجهه فقال : « إن أفضل دعائى ودعاء من كان قبلى من الأنبياء : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد . بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير » .

وظل على راحلته يدعو حتى غربت الشمس ، ونزل عليه وهو واقف بعرفة : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونى . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » . وكان هذا آخر ما نزل على النبى من آيات الكتابُ الكريم .

* * *

وأفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفات إلى منى ، من يمينه أبو سفيان بن حرب ، ومن يساره الحارث بن هشام ، وبين يديه يزيد ومعاوية ابنا أبى سفيان على فرسين ؛ فكان يسير العنق ، فاذا وجد فجوة نصّ (والعنق هو السير الهادى ، والنص هو السير السريع) وقال : « أيها الناس على رسلكم . عليكم بالسكينة . ليكف قويكم عن ضعيفكم ! »

ومن المعلوم أن الافاضة فى الحج هى اندفاع الناس بكثرة إلى منى منتشرين متفرقين بعد اجتماعهم فى عرفة .

* * *

ولما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى المنحر نحر بيده ثلاثاً وستين بدنة بالحربة ، ثم أعطى رجلا فنحر ما بقى . ثم أمر من كل بدنة نحرها ببضعة فجعلها جميعاً فى قدر ، فطبخه فأكل من لحمها وحسا من مرقها . وأمر علياً رضى الله عنه أن يتصدق بباقيها .

* * *

وبعد أن أتم النبى مناسك الحج انصرف راجعاً إلى المدينة ، وكانت عادته إذا قفل من حج أو عمرة أو غزوة ، فأوفى على ربوة أو مثلها أن يقف بها ، ويكبر ثلاثاً ، ثم يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير . آيبون تائبون . ساجدون عابدون . لربنا حامدون . صدق الله وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده . اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال . اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى خير ، مغفرة منك ورضواناً !

* * *

ولم يكد ينقضى على هذه الحجة شهران ، أو يزيد قليلا ، حتى ابتدأ مرض رسول الله ، فأخذته الحمى ، وغلظ صوته ، واشتد شكوه ، حتى لقد كان يغمر من شدة الوجع . وقيل إن داءه كان فى جنبه وإنه كان ينفث فى علته شيئاً يشبه نفث آكل الزبيب . ودخلت عليه أم بشر بن البراء فقالت : يا رسول الله . ما وجدت مثل هذه الحمى التى عليك على أحد ، فقال : « إنا يضاعف لنا البلاء ، كما يضاعف لنا الأجر ! »

* * *

وكان من خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنذره بموته قبل هذه الحجة حين أنزل عليه : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » . فانه قال بعدها عليه السلام : لقد نعيت إلى نفسى ! ثم خرج للحج وهو يحس أنها ستكون « حجة الوداع » .

* * *

اللهم اجعل ما نلقاه من الأذى فى هذه الدنيا كفارة لذنوبنا ، وألهمنا الصبر على بلائك ، وضاعف لنا الأجر عند جزائك .

ع . ج

حكم فى الجنحة رقم ٦٧٨ عسكرية الفيوم سنة ١٩٤١ ضد عبد الحفيظ تدبل حسن التاجر بالفيوم بحبسه شهر شغل وغرامة ألف قرش لبيعه ذرة بسعر يزيد على المقرر .

حياة اسكندر الأكبر
وغزو مصر

في سنة ٣٣٦ قبل ميلاد المسيح اغتال أحد الأشراف فيليب ملك مقدونيا والد إسكندر الأكبر ، طعنه بخنجر وهو يتهيأ لدخول أحد مسارح مدينة أوجيه Aegæ يوم الاحتفال بزواج بنته كليوباتره (أخت الاسكندر) ، بملك بلاد أبيروس[١] . وبموت فيليب وكان عمره ٤٧ سنة انتقل الملك إلى ابنه الاسكندر وكان قد حيا العشرين من عمره .

وقبل أن يستوى الاسكندر على عرش مقدونيا كان أبوه قد عني بتربيته تربية عالية ، واختار له أكبر فلاسفة اليونان : أرسطاطاليس الشهير الذى لا يزال اسمه يدوى في أرجاء المعمورة حتى اليوم على الرغم من مضى ألفى سنة على وفاته .

كان عمر الاسكندر ١٣ سنة لما تولى أرسطاطاليس تربيته في سنة ٣٤٣ قبل الميلاد . فكر الأستاذ في إبعاد تلميذه عن ملاهى بيللا Bella حاضرة مقدونيا وعن ملاذها ، واختار له مكاناً قصيا بلدة ميزا Mieza ، فيها لبث يعلمه ويربيه ثلاث سنوات كاملة . لقنه الأدب اليونانى ، فحفظ الاسكندر كثيراً من الشعر اليونانى ، ولا سيما الالياذة المشهورة . ولم ينقطع الاسكندر عن الدرس وأرسطاطاليس عن التدريس إلا في سنة ٣٤٠ لما اعتزم فيليب فتح بزنطة (القسطنطينية قديماً واستانبول حديثاً) فنصب ابنه الاسكندر قائمقام المملكة مدة غيابه ، وكان عمره لا يزيد على ١٦ سنة .

وفي مدة ولاية العهد شجر شقاق بين الاسكندر وأبيه مرتين :

المرة الأولى عندما فكر فيليب في الزواج من بنت مقدونية اسمها كليوباتره كانت آية في الجمال ، فظن الاسكندر — وظنت معه أمه أولمبياس Olympias أن فيليب ينوى أن يطلق والدة الاسكندر ، فغادرا مقدونيا وأقامت الأم في وطنها أبيروس وذهب هو إلى ألبانيا . إلا أن أهل الخير سعوا لإزالة سوء التفاهم بين الابن وأبيه فعاد الاسكندر إلى مقدونيا .

والمرة الثانية عندما عرض بيكسودادوس Pixodaros أمير كارى Carie[١] على فيليب عقد معاهدة دفاعية هجومية ، وليوثق أواصر المودة بينهما عرض عليه أن يزوجه من بنته . كره فيليب أن يصاهر تابعاً من أتباع الفرس ، واستحسن أن يزوج البنت من ابن له غير شرعى اسمه أرهيداوس Arrhidaios . فظن الاسكندر أن والده فضل عليه ابنه غير الشرعى ، وربما أوصى له بالملك من بعده ، وأسرع وطلب من أمير كارى أن يزوجه هو بنته . فلما اتصل الخبر بفيليب استدعى ابنه وأنبه ، وأفهمه أن فكرة تفضيل ابنه غير الشرعى عليه فكرة خاطئة . فاطمأن الاسكندر وعاد الوفاق بين الابن وأبيه .

استوى الاسكندر على عرش مقدونيا ، فبدأ حكمه بقمع الثورة التى شبت في بلاد اليونان بقصد التخلص من نير الحكم المقدونى ، وكان على رأس هذه الثورة ديموستين خطيب اليونان المشهور .

وبعد ما غزا الاسكندر بلاد اليونان وقمع الفتنة وجه همه إلى غزو تراقيا . فغزاها وواصل زحفه إلى أن وصل إلى نهر الدانوب ، وبعد ذلك أخضع البلاد الجنوبية التى منها الآن بلغاريا وألبانيا .

طار صيت الاسكندر ووصل إلى دارا ملك الفرس . فحرض الأغريق على أن يشقوا عصا الطاعة على الاسكندر ، وأمدهم بالمال الوفير لشراء الأسلحة والذخائر ولاستخدام أكبر عدد ممكن من الجند . ولتحقيق أغراضه رشا

(١) أبيروس Epire جنوب ألبانيا ، حيث توجد مقاطعة يانينا .

(١) هى الآن ولاية إيدين ، وكانت وقتئذ تحت حكم الفرس .

وديموستين بمبلغ ٦٠٫٠٠٠ جنيه ليغرى بينهم العداوة والبغضاء . ومن الحيل التي استعملها أنصار دارا لاثارة الفتنة والثورة أنهم أشاعوا أن الاسكندر قتل في معركة من المعارك التي خاض غمارها في بلغاريا وفي ألبانيا . إلا أنه عند ما اتصل بالاسكندر خبر الثورة غمز من الغيظ وطار إلى بلاد اليونان وانتقم من أهالي طيبة Thèbes — التي تزعمت هذه الثورة — فجدد دابرهم ودمر طيبة من أولها إلى آخرها وتركها خاوية على عروشها .



إسكندر الأكبر

ولما استتب له الأمر وجه همه إلى محاربة الفرس . وكان دارا قد بسط سلطانه على بلاد آسيا الصغرى بحذافيرها ، وكان له في البحر الأبيض أسطول قوى جداً يتألف من ٤٠٠ من الجوارى في البحر كالأعلام . وبسبب سيطرة دارا على البحار ما كان الاسكندر ولا غير الاسكندر يستطيع مناوأته في البحار ؛ ففكر الاسكندر في وسيلة بها يجعل هذا الأسطول الضخم سواء والعدم ، فهداه فكره الثاقب إلى الاستيلاء على شواطئ بلاد آسيا الصغرى وعلى جميع الثغور الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وكان معظم أهاليها من اليونانيين ، فاذا استولى عليها استحال على أسطول دارا أن يتموّن .

جمع اسكندر جيشاً يتألف من ٣٠٫٠٠٠ من صناديد المشاة و ٥٠٠٠ من أشد الفرسان بأساً ، وسار بهم لمقاتلة دارا ؛ وقد استصحب معه جمهرة من الفلاسفة ومن العلماء ومن الشعراء ومن المهندسين وصفوة رجال هذه الأمة لدرس أحوال البلاد التي نوى غزوها ، فكانت حملته عليها طابعان : طابع حربي (الفتح والغزو ومقاتلة الفرس) وطابع علمي (درس طبيعة البلاد واستكشاف أحوالها الزراعية والتجارية والصناعية والعلمية ، كما فعل نابليون من بعده عند ما غزا مصر) .

كانت سلطنة الفرس أكبر سلطنة في العالم ، تمتد حدودها من البحر الأبيض إلى الهند ، وكان على عرشها الملك دارا الثالث ، ومع سعة ملكه ووفرة موارده من مال ورجال فان الاسكندر لم يتردد لحظة في مقاتلته . تلاحم الجيشان — جيش اسكندر وجيش دارا — ثلاث مرات دارت الدائرة فيها كلها على دارا : الواقعة الأولى كانت في شهر مايو سنة ٣٣٤ قبل الميلاد على مقربة من ضفاف نهر جرانيكوس Le Granique (ويصب في بحر مرمرة بين قرة بيغا وبوزلكوى) وفيها انكسر جيش الفرس انكساراً شنيعاً ، وفر دارا وهو يتأوه ويتلوى ، وما كاد خبر انكساره يذاع في البلاد حتى سارعت بلاد آسيا الصغرى للاستسلام للاسكندر ومن ضمنها جميع المدن اليونانية التي كانت خاضعة للفرس .

وفي ربيع سنة ٣٣٣ زحف الاسكندر في قلب الأناضول ، فمر بانقرة ثم دخل كليكيا ، واستولى على مضيق جبال طوروس ، وواصل زحفه إلى أن دخل مدينة طرسوس ، ومنها استمر زاحفاً إلى أن علم أن دارا جمع جيشاً عرمرما في شمال سوريا على مسيرة يومين من مضيق بيلان (وهو المضيق الذى هزم فيه البطل إبراهيم باشا بن محمد على الكبير جيش السلطان محمود الثاني في ٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢) . التقى الجيشان في نوفمبر سنة ٣٣٣ على مقربة من إيسوس في جهة تعرف الآن باسم ارسلان بوغاز وطوراق

قلبه سى على شفق نهر بيناروس ؛ دارت رحى المعركة بأشد ما يكون من الهول رجت لها الأرض رجاً وفيها جرح الاسكندر فى فخذه . وقد أبدى الاسكندر فى هذه المعركة من البسالة والجرأة ما أدهش قواد الجيشين ، ولما هم الاسكندر بالكر على شخص دارا ، وآنس دارا الخطر المحدق به ألقى سلاحه ودروعه وملابسه وولى الأدبار ، فلما رأى الفرس أن ملكهم فر من الميدان ألقوا سلاحهم ولاذوا هم أيضاً بالفرار خاسئين . وقد غنم الاسكندر كل ما كان فى ميدان الفرس من ذخائر ومهمات وأسلحة ، وأسر أفراد عائلة دارا — أمه وزوجته وثلاثة من أولاده — وقد مثلوا أمامه أذلاء داخرين ، وظنوا فى بداية الأمر أن دارا قتل ، وأرادوا أن يقيموا له مأتماً ، إلا أن الاسكندر هدأ روعهم وأكد لهم أنه لم يقتل . كان الاسكندر على مسامتهم مقيتاً ، إلا أنه عاملهم معاملة الملوك حتى إنه لم يتطلع إلى ستاتيرا Statira زوجة دارا ولم يلامسها ، وقد كانت فلقة قمر مهفهفة لم تر عين مثلها حسناً وجمالا .

بعد تشتيت جيش دارا زحف الاسكندر شطر الجنوب ليستولى على جميع ثغور البحر الأبيض ، وفى الوقت نفسه أنفذ قائده الأكبر بارمينيون Parmenion إلى دمشق ليستولى على كنوز دارا قبل أن تتسرب أو تتبدد . وبالفعل دخل بارمينيون دمشق واستولى على كنوز دارا .

خضعت الموانى كلها للاسكندر ؛ فبدأت رواد وبيلوس (جبيل الآن) وصيدا بالتسليم ، أما صور فقاومت ، حاصرها الاسكندر فى يناير سنة ٣٣٢ ولما طالت مقاومتها هجم عليها وفتحها عنوة بعد حصار وقتال داما سبعة أشهر — من يناير سنة ٣٣٢ إلى أغسطس سنة ٣٣٢ — والحرب غول للنفوس ، فقد قتل الاسكندر من أهلها ٨٠٠٠ وأسر ٣٠٠٠٠ باعهم أرقاء عملا بسنة الحرب التى كانت متبعة فى ذلك الوقت عند قدماء اليونان .

وفى أثناء حصار صور أرسل دارا إلى الاسكندر وفداً ضم عشرة من ذوى قرابته حملوا إليه كتاباً يعرض عليه فيه مليون جنيه وعقد محالفة دفاعية هجومية ، والتنازل له عن جميع البلاد الواقعة غرب الفرات ، وليضمن له الوفاء عرض أن يزوجه من بنته ابراقه عنده . وليستسيغ الفرس التنازل عن هذه الأراضى الواسعة أذاع دارا أن هذه الأراضى ستكون مهر بنته . عقد الاسكندر مجلساً حربياً جمع جمجمة المقدونيين والأغريق ، وشاورهم فى الأمر ؛ ومن طريف ما يروى أنه لما جاء دور بارمينيون أجاب : « لو كنت الاسكندر لقبلت ما عرضه دارا » . فأجابه الاسكندر على الفور : « وأنا كذلك لو كنت بارمينيون . إلى سأقاتله حتى تضع الحرب أوزارها » .

بعد ما رفض الاسكندر ما عرضه دارا زحف نحو الجنوب دون أن يلاقى مقاومة تذكر ، إلى أن وصل إلى مدينة غزة ؛ وكانت قلعة حصينة قائدها خصى ذو بأس شديد اسمه باتيس Battis ، فلما طلب منه التسليم رفض ؛ حاصرها الاسكندر شهرين ، ثم استولى عليها عنوة ، وفى أثناء هجومه عليها أصابه فى كتفه شواظ من نار . وبعد الاستيلاء على غزة استأنف الاسكندر زحفه ، وبعد سبعة أيام وصل إلى الفرما Péluse أول حدود مصر ، وفيها وجد أسطوله ينتظره . فرحت مصر بحضور جيش الاسكندر ، لأن الفرس كانوا طردوا فرعون مصر نقتنب الثانى وأسرفوا فى الظلم والنهب والعبث والتخريب والتعذيب ، وسلبوا ما كان فى المعابد من كنوز وتحف وآثار ، وقتلوا العجل أبيس الذى كان يجله المصريون ويقدسونه . ولما بلغ الاسكندر منفيس تقدم حاكم مصر وسلمه القلعة كما سلمه الحامية والمال الذى كان فى الخزانة وقد قدر بمليون وستمائة ألف جنيه .

ومما سهل للاسكندر كسب عطف المصريين أنه أمر باحترام المعابد واحترام ديانة المصريين واحترام عقائدهم ، وأمر بتركهم وما يدينون ؛ وليستميلهم قدم القرابين والذبائح لمعبود المصريين ، كما قدم القربان للعجل أبيس ؛

وأمر بتعمير وتجديد معبد طوطمس الثالث بالكرنك ، ومعبد امينوفيس الثالث بالاقصر . ولما استتب له الأمر فى مصر أجلسه الكهنة على العرش فى معبد فتاح بمنفيس ، وعملوا له المراسيم الدينية المعتادة . ولما بايعه كبير الكهنة فرعوناً على مصر (ملكا على الوجه البحرى وملكا على الوجه القبلى ، ولقبوه بابن معبودهم رع ومحبوب معبودهم آمون) خر له الناس سجداً ، لأنه بوصف كونه ملكا على مصر وابن رع ومحبوب آمون حق له من القداسة ما كان لفراعنة مصر لدى السبعة الملايين من المصريين الذين كانوا يسكنون وادى النيل فى ذلك الوقت .

والذى سهل أيضاً للأسكندر كسب عطف المصريين أنه كان فى مصر جاليات يونانية كثيرة منتشرة فى كثير من أنحاء القطر المصرى ، وفدت عليها فى خلال القرن السابع قبل الميلاد ، وكان فيها من بلاد اليونان كثير ممن استقدمهم الفراعنة واستخدموهم جنوداً . وكان فيها فوق هذا وذاك مدينة يونانية بحتة ، هى نقراطيس (بجوار النبيرة وكوم جعيف مركز ايتاى البارود) أسسها اليونانيون فى عهد بسماتيك الأول فرعون مصر الذى طرد الغزاة وأعلن استقلال مصر . كما كانت توجد جالية يونانية كبيرة أيضاً فى منفيس عاصمة القطر .

وأعظم أثر خلد للأسكندر ذكراً سيبقى أبداً ، إنما هو تأسيس مدينة الاسكندرية . وقد بناها على مقربة من بلدة راكوتيس القديمة (بين جزيرة فاروس التى فيها فنار الاسكندرية ورأس التين الآن وبحيرة مريوط) ، وقد ندب الاسكندر أكبر مهندسيه — واسمه دينوكرات من أهالى جزيرة رودس — لتخطيط المدينة ، وتولى الاسكندر بنفسه تعيين مواقع الشوارع والمعابد والأسواق والملاهى ، ثم حصنها تحصينا قويا ، بدلالة وثيقة رسمية هيروغليفية عثر عليها حديثا ، يرجع عهدها إلى سنة ٣١١ قبل الميلاد ، ذكرت الاسكندرية وسمتها (قلعة ملك الوجهين القبلى والبحرى ابن رع ومحبوب آمون) إلى أن قيل فى هذه الوثيقة : (وهذه القلعة كانت على شاطىء بحر الروم ، وكان اسمها قديماً راكوتيس) وكان فى نية الاسكندر أن يتخذها عاصمة للملك ، وأن يجعلها مركزاً للتجارة بين آسيا وأوربا وأفريقيا . وقد بلغت عظمة الاسكندرية شأواً كبيرا عند ما اتخذها البطالسة عاصمة الديار المصرية ، وبقيت عاصمة الديار إلى أن جاء المعز لدين الله الفاطمى ، وأسس مدينة القاهرة من ألف سنة ، ونقل إليها مقر الخلافة .

ولتخطيط وتجميل مدينة الاسكندرية استقدم الاسكندر من بلاد اليونان كثيرا من المهندسين ومن المعماريين ومن الفنانين ومن مهرة الصناع ، وكل من له بسطة فى علم أو فن . وبينما كان الاسكندر يعمل فى تأسيس مدينة الاسكندرية ورد له نبأ استيلاء اسطوله على جزر الأرخبيل اليونانى مثل جزيرة تندوس Ténédos وجزيرة لسبوس Lesbos وجزيرة خيوس Chios وجزيرة كوس Cos ولما مثل أسرى جزيرة تيندوس أمامه أمر باعتقالهم وأرسلهم إلى أسوان فى جزيرة فيله .

استولى الاسكندر على مصر وكان عمره ٢٤ سنة فقط . أراد الاسكندر أن يزور واحة سيوة ليستوحى آمون معبود المصريين ، وليسمه الكهنة ابن آمون . سافر من راكوتيس فى محاذاة شاطىء البحر الأبيض ، وفى أثناء الرحلة التقى بوفود حضرت إليه من برقة (ليبيا) قدمت إليه هدايا كثيرة عربوناً لولائهم وإخلاصهم ، ودعته لزيارة ليبيا . ولما وصل إلى مدينة باريتونيوم (مرسى مطروح الآن ، والعرب يسمونها البرطون ، وهو تحريف لاسم باريتونيوم) اتجه جنوبا نحو واحة سيوه التى تبعد مسيرة ١٢ يوما . كانت الرحلة شاقة جدا ، وزادها مشقة نفاد الماء الذى جلبه الاسكندر على الجمال ، ومصادفة سفر الحملة فى الشهور الواقعة فى صميم الحر ، ثم هبوب عاصفة هوجاء من ريح سموم أثارت الرمال فى وجه الجند لدرجة يئسوا معها من النجاة . وبينما الاسكندر وجنوده

على هذه الحالة من اليأس ، وإذا بغرابين يظهران فى سماء الصحراء ، فاستبشر الاسكندر خيرا بظهورهما ، وأمر القافلة بالسير فى اتجاه الغرابين . ساروا حثيثا إلى أن رأوا على بعد أشجار النخيل والزيتون التى كانت بالواحة ، ولما دخلوها وجدوا عيون ماء وفيرة ، كما وجدوا بحيرات عدة . وبمجرد وصول الاسكندر قصد معبد آمون الذى كان قائما على ربوة اسمها الآن (بنورى) وكان معبد آمون سيوه فرعا من معبد آمون الكرنك .

راع الكهنة حضور الاسكندر المقدونى إلى واحة سيوه ، وراعهم تجشمه المشاق الهائلة للوصول إليها ، ولا سيما أنه لم يسبق أن فرعونا من فراعنة مصر حج إلى سيوه ؛ ولما رأى الكهنة الاسكندر وجنده هرولوا إليه واستقبلوه استقبالا رائعا ، وأدخلوه المعبد ، ثم تقدم إليه كبير الكهنة — وكان شيخا فانيا يجيد اللغة اليونانية — وأحضر معه المعبود آمون وحيا الاسكندر باسم (ابن آمون) ، ثم أدخله وحده داخل حجرة فى المعبد ؛ وفيها استوحى الاسكندر آمون رع ، فأوحى إليه بما أوحى ؛ وتقبل الاسكندر وحيه واستبشر ، وذاع خبر الوحى وطبق الآفاق ؛ واعتقد الناس أن الاله آمون أخذ ابنه الاسكندر فى رعايته وعنايته ؛ وكتب له النصر فى جميع فتوحاته وغزواته . وقد جاء المستقبل مصدقا ومؤيدا لنبوءة آمون ، مما حمل الاسكندر على أن يوصى بدفنه بعد موته فى واحة سيوه فى حضن أبيه المعبود آمون ؛ وقد كتب الاسكندر إلى أمه (أولمبياس) كتابا قص عليها فيه رحلته إلى واحة سيوه .

وبعد أن انتهت رحلة واحة سيوه زايلها الاسكندر إلى منفيس من طريق واحة قاره ومنخفض القطارة ، فوصل إليها بعد مسيرة ١٨ يوما ، وفيها وجد وفودا كثيرة وفدت من بلاد اليونان ومن تراقيا لتقدم له هدايا وشعائر الولاء والاخلاص . وقد أرسل إليه نائبه انتيباتير Antipater الذى أقامه مقامه فى مقدونيا ٤٠٠ من مشاة اليونان الصناديد و ٥٠٠ من فرسان تراقية البواسل .

وقد انتهز الاسكندر فرصة وجوده فى مصر وأرسل بعثة علمية إلى بلاد السودان لتكشف منابع النيل وتدرس أسباب فيضان النيل وتحاريقه . سافرت البعثة وبحثت وحققت ودققت ، فاهتدت إلى أن سبب فيضان النيل هبوط أمطار غزيرة فى بلاد الحبشة . وقد سر أرسطاطاليس بنتيجة أبحاث البعثة ، لأن علماء اليونان وغيرهم كانوا يجهلون سر هذه الظاهرة الطبيعية .

أقام الاسكندر فى مصر ستة أشهر وقبل أن يغادرها نصب اثنين من المصريين القيم على المصالح المدنية فى القطر ، ونصب يونانيا اسمه ابولونيس Appolonis حاكما على منطقة الحدود الغربية (ليبيا) ويونانيا مصريا من مدينة نقراطيس اسمه كليومين Cléomène على منطقة الحدود الشرقية (بلاد العرب) وعين اثنين من الضباط المقدونيين مساعدين للحاكمين المصريين .

ولما بارح الاسكندر مصر قصد توا فينيقيا (فلسطين الآن) وأقام فى صور . علم وهو فى صور أن دارا ملك الفرس يجهز جيشا عرمرما فى بابل ، قدره بعض المؤرخين بمليون جندى من المشاة وأربعين ألفا من الفرسان مزودين بمائتى مركبة حربية ، واختار لملاقاة الاسكندر سهول أربيل Arbèle على الضفة اليسرى من الدجلة . زحف الاسكندر بجيشه ومر ببلدة تزيب ثم بمدينة نينوى (أمام الموصل) واستمر زاحفا إلى أن التقى بجيش الفرس فى جوجاميل (شمال أربيل) ، وفى أول مايو سنة ٣٣١ قبل الميلاد نشبت المعركة بين الجيشين بأشد ما يكون من العنف والاستبسال ، ودكت منها الأرض دكا . ولما رأى دارا أن الاسكندر يتولى قيادة الفيلق الذى صوبه نحوه أوجس فى نفسه خيفة وفر من الميدان وترك جنوده أشتاتا ، فبطش بهم الاسكندر تلك البطشة الكبرى التى جعلتهم حصيدا خامدين .

(له بقية)

عزيز خانكى

الحـــرية

للشاعر الفرنسي أندريه شينيه

١٧٦٢ — ١٧٩٤

عاش شينيه إبان الثورة الفرنسية وقد هفت النفوس إلى الحرية تلتمس فيها غذاءً يصلح من فسادها ، فتتفتح لمعاني الخير والحق والجمال ؛ وولد لأب فرنسي وأم أغريقية ، فاجتمع إليه إحساس بجمال الطبيعة ، ويسر في فن الشعر ، وورث شينيه عن القرن الثامن عشر إيماناً بالعقل يحكمه فيما يعرض له ، فاذا بغير واحدة من قصائده عرض لفكرة أو أفكار في أسلوب سهل يصوغه صوراً فيوقظ تفكيرنا كما يستثير خيالنا ويمتع منا الحواس .

و « الحرية » قصيدة جميلة ساذجة ، تبصرنا بما ينزل الرق بالنفوس من خراب ، وما تنفث فيها الحرية من نبل ، في حوار شعري رائع ، بين راعي معز وراعي غنم . أولهما حر ، فهو سمح الخلق هادئ النفس كريم الطبع ، يهتز للحياة فتطرب حواسه بما في آيات الطبيعة من جمال . وثانيهما عبد قد ذهب الرق والظلم بما في نفسه من خير ؛ فلا الجمال يحركه ولا الأريحية تعرف إلى قلبه سبيلا ؛ وما ذنبه وقد سلبه القضاء أعز ما يملك البشر : سلبه الحرية التي تهب الحياة قيمتها ، كما سلبه كل ما على الأرض من خيرات يسخر في القيام عليها ، ثم يذهب جناها لسواه ، وكيف نطالب من نفس حرمت كل خير أن تمنح الخير غيرها أو تتمناه لسواها ، وأنى لنفس غشيها الظلم أن تبصر ما في الوجود من جمال ، أو تستشعر ما في الحياة من نعيم ؟ وهل يربطها بالوجود شيء ، وقد سيقت إليه كمتاع زجي ؟

وما يقوله الشاعر عن الرق يصح على ما سواه من أنواع الظلم التي تحطم النفوس فتهدر كل القيم ، وتتنكر للوطن إن لم تتنكر للوجود كافة !

قال الشاعر :

راعي المعز : أيها الراعي ، كيف أنت وما بك ، ما هذه الشعور السوداء التي نشرتها الآلهة فوق بصرك ؟

راعي الغنم : هيه ! نعم ! وأما أنت فذو شعر جميل أصفر ، أهذا ما تريد أن أعلم ! هيه ! نعم ! جبينك أوضح من جبيني ، ونظراتك أرق من نظراتي . . أليس كذلك ؟

راعي المعز : قل لي إذاً ، أمن هذه الجبال الموحشة أتيت ، من حيث لا تلقى أحداً سواك والسبيل وعرة مخيفة ؟

راعي الغنم : وأما أنت فتنعم بلا ريب بالمروج والغابات . وذلك في متناولك ، لك أن تجلس بين الحشائش المزهرة ، أما أنا فأواي الكهوف المقفرة حيث يطيب لي أن أجلس على الصخر حتى ينصرم ضوء النهار .

راعي المعز : ولكن إلهة الخصب « سيريس » قد أزرت بتلك الصخور لعنتها ، فهنالك تتدفق السيول حصباء جامحة قاتم الموج ، وقد أحرق لهيب الشمس أديم الصخر يكوى أرجل عابري السبيل الذين يخفون عنها . وقد عريت عن جميل الزهر وحلو الفاكهة ، فلا تجد بها البلابل من الظلال الوارفة ما تأوي إليه ، إلا أن تكون أشجار الزيتون المنتثرة على مسافات بعيدة ، وفي منظرها الجاف وقلة ما تعطيه من خيرات ما يزيد الجدب المحزن وضوحا . كيف تستطيع إذاً أن تجد بين تلك الصخور من الحشائش ما تتغذى به غنمك الجائعة ؟

راعي الغنم : وماذا يعنيني من أمر الغنم ؟ أهي لي ؟ ما أنا إلا عبد .

راعي المعز : لا أقل إذاً من أنك وجدت في ناي القاب ما تؤنس به وحشتك وسط جدب الصخور ، خذ . أما تريد هذا الناي ، لقد صنعته بيدي ، خذه ،

ولترسل أنفاسك فى غابه ، وغابه عذب الأغانى ، ولتسمعنا من النغمات ما تحاكى به تغريد الطيور .

راعى الغنم : لا ، احتفظ بعطاياك ، ما أريد أن أسمع إلا طيور الظلام من بوم وغربان ، وفى نعيبها بالغناء ما يكفينى ؛ وما أريد أن أحاكى غير ألحانها . . وأما نايك فأنا محطمه تحت أقدامى ، إنى لأبغض كل مسراتكم ، وقلبى لا يخفق لجمال الزهر ولا لرقة الندى ولا لزفرات البلابل العذبة . لقد أغلقت حواسى دون ذلك كله ، ألست عبداً ؟

راعى المعز : واحسرتاه ! إنك لجدير بالرحمة ، نعم ما أقسى الرق ! نعم ، لكل حى أن يخشى نيره ، ونيره ثقيل الحمل ، ما أتعس أن نعيش لغيرنا وقد سلبنا ذلك الغير كل شىء ! أيتها الحرية ، أيتها الحرية العزيزة ، أسدلى فوق جناحيك ، يا أم الفضائل يا أم الوطن .

راعى الغنم : أغرب عنى ، ما الفضائل وما الوطن إلا كلمات خاوية ، ثم إن فى حديثك ما يجرحنى ، وفى سعادتك الدعاة ما يحزننى ويثير حفيظتى ، بودى أن لو كنت مثلى عبداً .

راعى المعز : وأما أنا فاود أن أراك مثلى حراً سعيداً ؛ ولكن أما عند الآلهة من دواء لبلواك ؟ لدينا بلاسم عذبة ومياه صافية تسكن بها جراح النفوس ، لدينا من سحر الأغانى ما يجفف دمع الجفون .

راعى الغنم : لكم ذلك . وأما أنا فلا . ليس لى إلا الآلام . لقد حكم القضاء أن أكون عبدا ، ولا بد من نفاذ حكمه ، وإلى جوارى كلبى أسترقه بدورى حتى ترعده إشارتى ، وما لدى غيره ينتقم منه بأسى الصامت ما ينزل بى من آلام .

راعى المعز : وتلك الأرض التى منها صخرتنا ، وخصبها العذب ، أما تستطيع أن تشفى من آلامك ؟ انظر إلى جمالها المشرق . انظر إلى الصيف البهيج يتدفق نعمه وقد أقبل تسوقه أشعة الشمس ، يحنو على المروج فيانى من رداء الربيع الأخضر ، انظر إلى حبات المشمش وقد أخذت عذوبتها تزكو ولونها يصفو كعسل النحل ، انظر إلى زهر الخوخ البنفسجى وقد زين أشجاره معلناً ما سوف يتبعه من حلو الفاكهة . انظر إلى حقول الغلال وقد تكاثفت سنابلها فى غابات صفراء ، منتظرة مناجل الحصاد ؛ إن فى ذلك لحفلا نبيلا من آلهة الطبيعة . ها هى إلهة السلام وإلهة الخصب الصافيتا النظرات الهادئتا اللحاظ تخفقان إلينا ، وبجبينيهما سنابل وبأيديهما سنابل . وقد تبعتا آكار إله الأمل لتسكبا من القرن الذهبى مشرق الخيرات .

راعى الغنم : لا شك أنها تظهرك على مواقع أقدامها . أما أنا فما أستطيع أن أراها وعيناى عينا رق ، أرسل الطرف فلا أرى إلا أرضاً مجدبة مهلكة حلتها كارهاً على أن تدر الخير على غيرى . تحت الشمس المحرقة أكدح لأحصد ما يتغذى به غيرى وأنا أتضور جوعا ، وذلك كل ما أعرف من تلك الأرض ، حتى لكأنها لم تكن لى أمًّا كما كانت لكم ، بل زوجة أب ، بل والطبيعة كلها لبست أشد وقعاً على بصرى وألماً لنفسى من وادى الموت الذى تراه هنا والذى يملأك رعباً .

راعى المعز : وبهام غنمك وهمس ثغائها الرقيق الهادئ ، أما فى ذلك مايدخل السرور على نفسك الجامدة ؟ أما تطربك رؤية حملانك الوادعة النظرات ، كما تطربنى مداعبة صغار معزى ، وقد أخذت تمرح وتجرى مرسلة فى الهواء أصواتها الرقيقة ؟ لكم من مرة أراها تهرول فوق الندى ولامع الحشائش إلى جوار أمهاتها ، فأقفز معها فرحا طروبا .

راعى الغنم : المعز معزك ، وأما أنا فنصيبى من الحياة غير نصيبك ، فتلك الغنم هى مصدر بلواى ، أسرح بها مرتين فى النهار ، وكلما عدت وجدت سيدى فى انتظارى

والظنون تساوره وقد عز رضاه «لم يتم صوفها ، لقد ضوت أجسامها وتثاقلت خطاها و . . . و . . . » فلا شيء يروقه ، إذا سقط بها ذئب واختطف واحدة منها مولياً إلى الغابة ، فالذنب ذنبي ! لقد كان علي أن أتالب أنيابه الماضية ! بل من واجبي أن أستأنس الذئاب !! ثم ينهال على سباباً وتهديداً وسباباً وقسوة مبرحة يسميها عقاباً .

راعي المعز : لقد عهدت الآلهة رءوفة بالبريء ، فلم تهجر رحابها وفي رحابها نصر المستضعفين ، لم لا تأتي إلى مذابحها وقد حلتها الزهور فترقص معنا حولها وقد حملت إليها متواضع الهدايا ، قليلاً من حشائش المروج وزهر الغابات ، وأنت بذلك نائل عطف زيس وعرائس الطبيعة الرحيمة .

راعي الغنم : لا ! إن قلبي الحزين لا يعرف رقص الرعاة ولا ألعابهم ولا مسراتهم ، كل ذلك غريب عني . وفيم حديثك من الآلهة وهداياهم ، أو من عرائس الطبيعة ، وما عندي للآلهة ورد ولا ريحان ؟ إني أخشى آلهتك وقد رأيت رعدهم وبرقهم ، وهم الذين وضعوا بيدي الأصفاد .

راعي المعز : هه ، ولم لا تحب ؟ وأي ألم من يقوى على ابتسامة عذبة تبسمها عذراء يهواها القلب . . لقد أتيت أول أمس إلى حبيبتي مهدياً باكورة ما أنتجت معزي هذا العام ، ماعزاً صغيراً . تلقته وقد استحالت نظراتها رقة وجمالا ومحبة ، وأخذ صوتها نبرة .
لا أزال أحس بوقعها الجميل في نفسي !

راعي الغنم : وأي عذراء تقبل أن تنظر إلي ، أعندي من المعز ما أستطيع أن أقدم منه هدية مثلك ؟ وكل يوم سيدي الفظ الغليظ علافه في حرص يشح حتى ليثلج بعد قلبي عندما لا يطالبني بأكثر مما أعطاني . . نمزيس إلهة الانتقام ! أقسم أن لو أصبحت يوماً سيداً لأكونن قاسياً فظاً غليظاً ، ولأزلن الويل والثبور بأرقائي كما أزل بي هذا الرجل .

راعي المعز : وأما أنا فأستشهدكم آلهتي أن أكون رفيقاً حليماً بخدمي المخلصين ، وأن أرضي أماني نفوسهم ، حتى يشعروا بالسعادة ، فيحبوا سيدهم ، وحتى يرضوا عن الحياة ، فيباركوا يوم ولدوا .

راعي الغنم : وأما أنا فأصب اللعنة على تلك الساعة المشئومة التي أتيت فيها إلى هذه الحياة لأشقى بها ؛ لأكون تحت إمرة آخر يأمرني وينهاني ، وقد جردت من كل شيء ، واستحال علي أن أروق لأي إنسان ، والجوع يضويني ، وقد انصرف كدي وألمي إلى آخر يشبع به بطالته وكبرياءه .

راعي المعز : أيها الراعي اليائس ، إن في حزنك الشاكي ما يحمل الأسى إلى قلبي . انظر إلى هذه العنز ووليدها ، وفي بياضهما ما يشبه ما ادخرت لها من لبن ؛ هي لك ، خذها ، وإلى عناية الله ! ولتسأله أن يجعل في هذا القليل الذي أمنحك ما يمحو من ذاكرتك آثار آلامك ، وأن تجد في العناية بها ما يصرفك عن بلواك .

راعي الغنم : هاتها وعليك المنة ، وأنا أعلم أن في هديتك ما سينغص حياتي ، فسوف ينظر إليها سيدي شزراً منكراً أن يمنحني إياها مانح وهو الخبيث الحسود ؛ سيقول إني اختلست منه ثمن الأم وثمن وليدها ، وسيتذرع بتلك الدعوى ليسلبني إياها ، وهو سيدي به متلمساً للظلم كل عذر .

ومن عجب أن يحدثنا التاريخ عن موت هذا الشاعر العذب النغمات وهو في ريعان الشباب (في سن الثانية والثلاثين) ضحية لنفس الظلم ، إذ قاده زعماء عهد الإرهاب أثناء الثورة إلى المقصلة قبل انقضاء ذلك العهد بيومين اثنين ؛ وما شفع له دفاع عن الحرية ؛ ولا حرص على العدل ؛ فمات صائحاً وعينه على جبينه :

« آه ! سأموت وما تزال هنا أشياء » .

محمد مندور

٢ ـ أثر الإبل
فى الحياة العقلية عند العرب

قد بينا فى كلمتنا السابقة أثر الابل فى اللغة حقيقيها ومجازيها، مفردها ومركبها . والآن لنأخذ فى تبيان أثرها فى تسميتهم بأسمائهم ، وفى أعمالهم وأقسامهم ، وفى أمثالهم وحكمهم .

أما أثرها فى أسمائهم فقد يجد الباحث أمثلة كثيرة اشتقها العرب من الابل وما يمتّ إلى الابل بسبب . وصاغوا أسماءهم من ألفاظ وضعت أولاً على الابل واستعملت استعمالا خاصاً بها ، ثم نقلت بعد ذلك إلى التسمية .

من ذلك (مصعب) فاشتقاقه من الفحل من الابل يترك للضراب ولا يستعمل ، فيقولون فحل مُصْعَب وصَعْب ، وقد سمت العرب صَعْباً ومصعباً .

و (بَكر) اشتقاقه من البَكر وهو الفتىّ من الابل .

و (عقيل) من قولهم عقلت البعير أعقله فهو معقول وعقيل ، إذا ثنيت إحدى يديه ثم لززت الوظيف إلى العضد .

و (الأحب) وهو من ولد تيم بن مرة . فاشتقاقه من قولهم : أحب البعيرُ يُحب إحباباً ، إذا برك فلم يتحرك ، والإحباب فى الابل مثل الحِران فى الخيل .

وبنو خزيمة بن لؤى يعرفون بأمهم عائذة بنت الخمس ، والخمس ورد من أوراد الابل ، وهو أن ترد يوماً ثم ترعى ثلاثاً ثم تطلب الماء يوماً وترد فى اليوم الخامس .

ومن رجال بنى جُمح عثمان بن مظعون . واشتقاق مظعون من بعير مظعون إذا شُد عليه الظِّعان . والظِّعان حبل يشد به الهودج على البعير ، وبه سميت الظعينة . ولا تسمى المرأة ظعينة حتى تكون فى هودج ، ثم كثر ذلك فى كلامهم حتى لزم المرأة اسم الظعينة ، ومن ذلك قالوا ظعن القوم إذا ارتحلوا .

واشتقاق (خديجة) من قولهم خدجت الناقة وأخدجت إذا ألقت ولدها ناقص الخَلْق . ومنه الحديث « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خِداج » .

ومن رجالهم ربيعة بن مقروم الشاعر الجاهلى الاسلامى . فأما مقروم فاشتقاقه من قولهم قرمتُ البعير أقرمه إذا حززت أعلى أنفه ثم عطفت الجلدة حتى تجف فيقع الجرير عليها ، فالبعير مقروم . وأما القرم والقرم من الابل فالفحل الذى لا يحتمل ولا يركب والجمع قروم ، وبذلك سمى السيد قَرْماً .

ومن رجالهم (القُلاخ بن حزن) والقلاخ اشتقاقه من القلخ ، وهو أن يردد الفحل صوته فى جوفه ، يقال قلخ البعير يقلخ قَلْخاً .

ومن رجالهم (الحجاج بن علاط) وهو الذى جاء بفتح خيبر إلى مكة وأسلم . واشتقاق علاط من علطتُ البعيرَ أعلطه إذا وسمته فى عُرض خده أو فى عنقه .

ومن رجالهم صهيب بن سنان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعرف بصهيب الرومى ، وكانت له قدم فى الاسلام ، وأمره عمر رضى الله عنهما أن يصلى بالناس فى أيام الشورى حتى يجتمعوا على رجل .

وصهيب تصغير أصهب والصُّهبة من ألوان الابل بياض يعلوه شيء بالصُّفرة ؛ وبذلك سميت الخمر صهباء .

وغير ذلك من الأمثلة التى تشاهدها فى كتب اللغة وكتاب الاشتقاق لابن دريد والمخصص لابن سيده .

أما إذا أردنا الوقوف على سر هذه التسمية . فهو سر قائم على قانون ثابت وأسس واضحة بينة . فان لأسماء الأعلام تاريخاً طويلا فى علم العمران ، وهى تختلف صورة ومعنى باختلاف الأعصر وباختلاف الأمم . فلكل أمة تختلف التسمية فيها عما فى سواها ، وتختلف فى الأمة

الواحدة باختلاف أدوار تمدينها . على أنها فى كل دَوْر تقتبس مما يقع فى النفس موقع الاعتبار من الكائنات على اختلاف طبقاتها، فتختار من أسمائها ما يلائم عاداتها ومعتقداتها . فإذا تدينت انتسبت إلى الإله أو الآلهة، سواء أكانت تلك الآلهة أجراماً سماوية أم حيوانات أم أصناماً أم غير ذلك .

أما قبل التدين أو فى حال البداوة الخشنة فالغالب أن يختار الناس لأبنائهم أسماء ما يعجبون به أو يخافونه من الأجسام الطبيعية ولا سيما الحيوانات ؛ وذلك على ما يتوسمونه فى المولود من القوة أو الشجاعة أو الدهاء أو الدعة أو الخوف ، فيختارون اسم حيوان فيه مثل هذه الطباع ؛ فيسمون الرجل الشجاع بالأسد، والسريع الوثوب بالنمر ، ويسمون الفتاة اللطيفة بالغزال أو الحمامة، أو الجميلة بالبدر بل البدور .

فتسمية العرب رجالهم بأسماء الحيوانات أو أجزاء الحيوانات وما يتعلق بها أمر طبيعى لشدة إعجابهم بذلك الحيوان وتعلقهم به وحبهم له ومشاركته لهم فى حلهم وترحالهم ؛ فهى مصدر وحيهم ومهبط إلهامهم ومنبع اشتقاقهم ومعين استمدادهم .

ظل العرب على ذلك فى بداوتهم حتى تدينوا فتسموا بالأسماء الدينية . وقد جاء فى حديث مسلم : « إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » . ولما تمدينوا تسموا بأسماء الصنائع كالنحاس والكحال والنجار ؛ ولما ضعفت عصبية النسب عندهم تسموا بالنسبة إلى البلاد كالدمشقى والبغدادى والبصرى والبخارى .

وروى الجاحظ فى صدد التسمية رأياً لا بأس به وهو ليس ببعيد عما ذكرناه من قبل . . فقد ذكر فى الحيوان من الجزء الأول : « والعرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجُعَل وقرد على التفاؤل بذلك من الشدة والصلابة والبقاء والصبر . وقال آخر لو كان الرجل منهم إنما كان يسمى ابنه بحجر وجبل وكلب وحمار وثور وخنزير وجمل على هذا المعنى ، فهلا سمى ببرذون وبغل وعقاب وأشباه ذلك وهذه الأسماء من لغتهم ؟ قال الأول : إنما لم يكن ذلك لأنه لا يكاد يرى بغلا وبرذوناً ، ولعله لا يكون رآهما قط » .

أما الحديث عن أيمان العرب فى الجاهلية ، وتأثرها بالإبل فالأمر فيه هين يسير . من ذلك إقسامهم بقولهم : (لا والراقصات ببطن سَرّ) — وبطن سَر من نواحى مكة على ليلتين منها ، ويقال له سر الظهران فيه عيون كثيرة ونخل وجنز .

ومنه (لا والذى جلَّد الإبلَ جُلودَها) .

ومن هذا البـاب أيضاً وهو القسَم ما جاء دالا على التصميم إلى الأبد ، فهم يقولون فى ذلك :

(لا أفعل ما أبَسّ عبد بناقته) — والإبساس أن يقول عنـد الحلب بَس بَس ، وهو صويت الراعى يسكن به الناقة عند حلبها .

و (لا أفعل كذا حتى يَلِجَ الجملُ فى سَم الخياط) ، قال تعالى : « ولا يدخلون الجنـة حتى يلج الجمل فى سَم الخِياط » .

و (لا أفعل كذا ما أرزمت أمّ حائل) — أرزمت الناقة إذا حنت ، والحائل الأنثى من أولادها ، أى لا أفعل أبداً .

و (لا أفعل ذلك ما أطّت الإبل) — أطيطها حنينها — قال الأعشى :

ألستَ منتهيا عن نحت أثلتنا
ولستَ ضائرها ما أطت الإبل

و (لا أفعل ذلك ما حنّت النيب) . و (لا أفعل ذلك حتى يحن الضب فى أثر الإبل الصادرة) .

أما أمثالها المستقاة من الإبل ومعاطنها ، والنوق ومباركها ، والجمل وشقشقته ، والبعير وحقيقته ، فحدث

عنها ولا حرج ، فهي مبثوثة في مطاوي حديثهم ، وماثلة في خلال تراجم ، وهاك منها غيضاً من فيض ، وطلاًّ من وابل .

فإن الأمثال مرآة صافية لأخلاق الأمم وعاداتها ، وسجل صادق لميولها وعواطفها ، وصدى دقيق لبيئتها وألوان حياتها ، من ذلك :

(إن مما يُنبت الربيع ما يَقتل حَبَطاً أو يُلم) قاله عليه الصلاة والسلام في صفة الدنيا والحث على قلة الأخذ منها ، والقناعة بما يتيسر منها – والحبط انتفاخ البطن ، وهو أن تأكل الابل حتى تنتفخ بطونها ، فتكون عرضة للهلاك ، فهو مثل المفرط الجشع .

(إن تسلم الجِلّة فالنيب هَدَر) ، إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به ، فالجلة جمع جليل يعني العظام من الابل ، والنيب جمع ناب وهي الناقة المسنة .

(إنما يجزى الفتى ليس الجمل) يضرب في المكافأة ، أي إنما يجزيك من فيه إنسانية لا من فيه بهيمية .

(أنا جُذَيلها المحكك) الجذيل عود ينصب في مبارك الابل تتمرس به الابل الجربى وتتحكك . يريد أنه رجل يستشفى برأيه وعقله .

(أعطه رمته) الرمة قطعة من الحبل بالية . وأصل المثل أن رجلا دفع إلى رجل بعيراً بحبل في عنقه ، فقيل لكل من دفع شيئاً بجملته دفعه إليه برمته .

(إذا كنت في قوم فاحلبْ في إنائهم) يضربُ في الأمر بالموافقة .

(إذا جاء أجل البعير حام حول البئر) .

(توطن الابلُ وتمساق للمزى) أى أن الابل توطن نفسها على المكاره لقوتها ، وتساقها المزى لذلها وضعفها . يضرب للقوم تصيبهم المكاره فيوطنون أنفسهم عليها ويساقها جبناؤهم .

(الجمل من جوفه يجتر) يضرب لمن يأكل من كسبه

(جاءوا على بكرة أبيهم) أى جاءوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد .

والبكرة تأنيث البكر وهو الفتيّ من الابل .

(الجمل في شيء والجمّال في شيء)

(حرك لها حوارها تحنّ) الحوار ولد الناقة حتى يفصل ، فإذا فصل من أمه فهو فصيل ، والمعنى ذَكِّره ببعض أشجانه يهج لها ؛ وهذا المثل قاله عمرو بن العاص لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهل الشام ، يريد منه إظهار قميص عثمان الذى قتل فيه ولطخ بالدم .

(حبلكِ على غاربك) الغارب أعلى السنام . وأصله أن الناقة إذا رعت وعليها الخطام ألقى على غاربها ، لأنها إذا رأت الخطام لم يهنئها شيء .

(أشربُ من الهيم) هي الابل العطاش . قال الله تعالى : « فشاربون شرب الهيم » وهو جمع أهيم وهيماء ، من الهيام وهو أشد العطش .

(فتَل في ذروته) الذروة أعلى السنام ، وأصل فتل الذروة في البعير هو أن يخدعه صاحبه ويتلطف له بفتل أعالي سنامه حكاً ليسكن إليه فيتسلق عليه . ويروى من ابن الزبير أنه حين سأل عائشة الخروج إلى البصرة أبت عليه ، فما زال يفتل في الذروة والغارب حتى أجابته . ففتل في ذروته أى خادعه حتى أزاله من رأيه ؛ يضرب في الخداع والمكر .

(كذى العُر يُكوَى غيره وهو راتع) إن الابل إذا فشا فيها العر وهو قروح تخرج بمشافر الإبل أخذ بعير صحيح وكُوى بين أيدى الابل بحيث تنظر إليه ، فتبرأ كلها ، قال النابغة :

وكلفتنى ذنب امرئ وتركته
كذى العُر يكوَى غيره وهو راتع

(لا يُرَحِّلنْ رحلك من ليس معك) أى لا تستعن إلا بأهل ثقتك .

(وقع القوم فى سَلَى جمل)، السلى ما تلقيه الناقة إذا وضعت وهى جُليدة رقيقة يكون فيها الولد من المواشى، إن نزعت من وجه الفصيل ساعة يولد وإلا قتلته، وكذلك إذا انقطع السلى فى البطن. يضرب هذا المثل فى بلوغ الشدة منتهى غايتها. وذلك أن الجمل لا يكون له سلى، فأرادوا أنهم وقعوا فى شر لا مثيل له.

وبعد فهذا بحر لا ساحل له، ومَعين لا ينضب ماؤه غزارة وفيضاً.

والآن لننتقل إلى الكلام على أساطيرهم ومعتقداتهم القائمة على الإبل، وعاداتهم وأوابدهم المعقودة بالناقة وفصيلها والبعير وسليه.

ومن الضرورى لتفسير تلك الأساطير، والكشف عن سر تلك المعتقدات أن نقدم بين يديها تقدمة تلقى ضوءاً على أصل هذه الخرافات، ومنبع تلك الأباطيل من العادات.

تلك التقدمة هى الحديث عن مذهب الطُّوطَمية (Totemism). (الطوطم) يراد به كائنات تحترمها بعض القبائل الفطرية، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسمى طوطمه. وقد يكون (الطوطم أو الطوتم) حيواناً أو نباتاً أو غير ذلك، وهو يحمى صاحبه، وصاحبه يحترمه ويقدسه أو يعبده؛ وإذا كان حيواناً لا يقدم على قتله، أو نباتاً فلا يقطعه أو يأكله. ففى سينيغمبيا قبائل تنتسب إلى وحيد القرن — فرس البحر — أو إلى العقرب، أو إلى الثعبان؛ فكل من هذه الحيوانات يعد طوطماً للقبيلة التى تسمى باسمه، وهى تحترمه وتقدسه، فلا تؤذيه ولا تقتله.

ولا يقتصر احترامهم للطوتم على تحريم أكله أو إيصال الأذى إليه، بل كان بعضهم يحرم لمسه أو النظر إليه؛ ويؤمنون أن الطوتم لا يؤذى صاحبه. فالذين طوطمهم الحية مثلا لا يخافون لسعها، وعندهم أن الحية لا تلسعهم. وكذلك قبائل العقرب فى سينيغمبيا فهم على ثقة من أن العقرب تمر على جسم أحدهم ولا تؤذيه.

على أنهم لا يكتفون من الطوتم أن يكف أذاه عن أصحابه أو عباده، ولكنهم يتوقعون أن يحسن إليهم ويدافع عنهم، فتعتقد قبيلة الذئب أن الذئب تدافع عنها فى ساحة القتال.

ومما يتقربون به إلى الطوتم ابتغاء رضاه وحمايته أن يتشبهوا به، فيقلدوه بشكله ومظاهره، ويلبسوه جلده أو قسما من جلده، أو يتخذوا جزءاً منه ويعلقوه على أعناقهم أو أذرعهم على نحو التعاويذ فى الأمم الأخرى، فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوتم.

والطوطمية منتشرة الآن فى العالم المتوحش، فهى عامة بين قبائل أستراليا، وكثيرة الانتشار فى شمالى أمريكا وفى بناما، وللطوطمية شأن كبير فى أفريقيا، فإنها شائعة فى سينيغمبيا، وعلى شاطىء الذهب، ولها آثار فى مدغشقر. أما فى آسيا فلها أثر فى أواسط الهند بين بعض قبائل البنغال غير الآريين، وفى سيبيريا وبعض جهات الصين وجزائر المحيط، وأكثر هذه القبائل أدخلها العلماء فى الطوطمية من طريق القياس، لأنها تقدس بعض الحيوانات أو النباتات وإن لم تتسم بأسمائها.

والخلاصة أن الطوطمية تتلخص فيما يأتى:

١ — أن قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها، وتعتقد أنها متسلسلة منه وتتسمى باسمه.

٢ — أن كل قبيلة تقدس طوطمها أو تعبده.

٣ — تعتقد كل قبيلة أن طوطمها يحميها ويدافع عنها، أو هو على الأقل لا يؤذيها وإن كان الأذى طبعه.

فهذه المظاهر الطوطمية نرى كثيراً منها شائعاً عند عرب الجاهلية، فى صورة عادات تارة ومعتقدات أخرى، مما يحمل الباحث يميل إلى القول بأن العرب قد مسها طائف من هذا الدور الاجتماعى؛ فهى وإن

الخلق الجذاب

كيف تحتفظ بالأصدقاء؟

وكيف تتقي من يناصبونك العداء؟

أقوى عوامل النجاح في الحياة: أن تهتدي إلى سر الاحتفاظ بأصدقائك واستكثارهم. وأن تعرف كيف تتقي خصومك وتتفهم نياتهم.

وقد اهتدى خبراء الطبيعة البشرية الذين درسوها في عديد العصور والأقطار، وبين مختلف الأجناس والأعمار؛ إلى هذا السر الاجتماعي الخطير، وعبروا عنه بكلمتين: هما «الخلق الجذاب»، وجعلوا للخلق الجذاب ثلاثة أركان يقوم عليها، ولا ينهض إلا بها، وهي: الخيال الصادق، والكف عن إدانة الناس، والتحرز من التبرم والضجر.

وأول ما ينبغي للمعني بالنجاح في الحياة، الحريص على تحاشي الاصطدام بالناس، مع اجتذاب مودتهم ومجانبة أذاهم، أن يكون قادراً على فهم أصحابه وخصومه فهماً صحيحاً؛ وهذه القدرة التي نسميها «الخيال الصادق» هي تميمة ما جاورت قلب امرئ إلا وصلت بمكانته في قلوب الناس، من أصدقاء وأعداء، إلى المنزلة الرفيعة، وسمت بشخصه إلى المقام الموموق.

ودليل تمتعك بموهبة الخيال الصادق، قدرتك على أن تضع نفسك وضعاً فعلياً كاملا مخلصاً في مكان غيرك، مقتنعاً بأن هذه هي الوسيلة المثلى لتقليل الاحتكاك الاجتماعي الذي لا محل له ولا غناء فيه، وهي الدعامة المثلى لإقرار العلاقات البشرية في وضعها السليم.

ومع أنك لن تستطيع — وإن حرصت — أن تقضي على كل احتمال للاحتكاك، فإنك قادر لا محالة على تفادي الجانب الأكبر من دواعي الشحناء، وأسباب النزاع.

ذلك أن معظم ما نراه من مظاهر الجفاء والقسوة والصرامة في العلاقات بين الناس، إنما هي النتائج المرة

لم تتمسك بالطوطمية بحذافيرها أو تخضع خضوعاً كاملا لتقاليدها، فلا أقل من أن ريحاً من العدوى قد هبت عليها وتركت آثاراً بها تشاهد حتى الاسلام مما قضى على كثير منها وأبطل جل أساطيرها وعاداتها.

ولم يعد هذا غريباً ونحن نعلم أن أبا العلاء المعري — وهو في القرن الخامس الهجري — أخذ عن أهل الهند تحريم أكل الحيوان وما يخرج من الثمرات؛ وهذا أثر من آثار الطوطمية الهندية، فإن الهندوس في الهند يقدسون البقرة، ويعدون قتلها — بل مجرد ضربها — جرما لا يغتفر، بل إن العصيان الهندي الكبير الذي حدث في القرن التاسع عشر كان من أسبابه تلك (الخراطيش) التي أشيع أنها مطلية بمزيج من دهن البقر وشحم الخنزير. والبقر مقدس عند الهندوس، والخنزير نجس عند المسلمين؛ فامتنع كثير منهم عن استعماله، وثاروا وأهانوا ضباطهم. والهندوس يقدسون خمسة منتجات في البقرة: وهي اللبن والسلي واللبن المتجبن والروث والبول، بل هم يزعمون أن البقر ملائكة سخط الله عليها، فجعلها في الأرض، وكانوا يلطخون الأبدان بأخثائها ويغسلون الوجوه ببولها، ويتبركون بها في جميع أحوالهم.

وللعرب أوابد في جاهليتهم قائمة على الإبل يسهل تفسيرها ويعقل تعليلها إذا رددناها إلى مذهب الطوطمية. من ذلك:

البحيرة والسائبة والحامي وحبس البلايا وإغلاق الظهر والتعمية والتفقئة والتصفيق. كل هذا سنتحدث عنه في مقالنا التالي.

عبد الوهاب حمودة

للباشرة اضعف موهبة الخيال الصادق عند الأكثرين .

فإذا تعمــدت الاستزادة من قوة الخيال الصادق ، فتعودت وضع نفسك فى موضع الشخص الآخر ، كانت هذه الرياضة النبيلة قمينة أن تكشف لك من رأس الحكمة فى علاقاتك بالنـاس ، وأن تغرس فى صميم روحك النواة الزكية للشجرة المباركة التى من ثمراتها دماثة الأخلاق ولين العريكة ، ورقة الحاشية ، وبراعة الأسلوب ، واعتدال المزاج ، وحسن المعاملة .

وإنا لنضمن لك أن إخلاصك فى ترويض النفس على تنمية موهبة الخيال الصادق ، من شأنه أن ينير مذاق الحياة ولونها ، ويكفل أن يكون تأثير رياضتك فى الآخرين كالسحر أو أشد فعلا ، إذ سرعان ما يشعر صاحبك بأنك تفهمه ، فإذا تثبت من ذلك واطمأن إليه ، فأنت لا محالة صديقه الأول ، وصاحبه المفضل .

وما تأثير هذه الرياضة فى نفسك بأقل من تأثيرها فى سواك ، فإنك حين تفهم شخصاً ما ، وتتبين ظروفه ومتاعبه ورغباته ، لا تلبث أن تقدره حق قدره ، ولا تتمالك أن تحبه وتعطف عليه ، فإن لم تستطع فأنت قادر على الأقل أن لا تبغضه أو تناصبه العدوان .

وأنت تحبه لأنك حين تضع نفسك فى مكانه تصبح كشخصه ، بنصه وفصه ، فتنتحل له من المعاذير ما ينتحله هو لنفسه ؛ وعوضاً عن أن تحمل عليه تراك منضماً إلى صفه ، ويحلو بذلك مذاق الحياة ، ويصفو لونها ، وتقل شوائبها ، وتقوى بين الناس المودات ، وتتضاءل الخصومات وأسباب المشاحنات .

وأنت تستوحينا الطريقة العملية لتقوية هذه الموهبة السامية . وها نحن ندلك على الطريقة ، وهى كما سترى سهلة سائغة . سل نفسك :

بأى شىء يهتم صاحبى هذا ، فوق اهتمامه بسائر الأشياء ؟

ما هى أضعف نواحيه ؟

ما هى أقوى جوانبه ؟

ما هى فكرته عنى ؟

كيف أدخل السرور على نفسه ؟

أتراه متوعكا ؟

ماذا يضايقه ؟

فيم يفكر ؟

كيف أجامله ؟

كيف يكون شعورى لو أننى كنت فى موضعه ؟

ولسوف ترى موهبة الخيال الصادق تنمو بهذه الرياضة الروحية ، كما تقوى عضلات البدن وتنمو حين تروضها فترتاض لك ؛ ولسوف تلاحظ أيضاً أن هــذه الموهبة تضعف وتتضاءل حين تغفل عن تمرينها ، كضعف العضلات وجمودها ، بعد ترك تعهدها وطول ركودها .

ومهما تكن غايتك التى ترمى إليها من تنمية خيالك الصادق ، بوضع نفسك فى مكان صاحبك ، فإن النتائج الباهرة التى تصل إليها لن تكون محل شك أو موضع مناقشة .

وإنها النتائج صالحة لكل مجال ، فهى تكاد تقضى على الاحتكاك ، وهى تساعد قطعاً على التفاهم المتبادل ؛ وهى تؤدى حتما إلى فسحة الصدر ، واتساع الأفق ، ورجحان العقــل ؛ كما يؤدى عدم توافرها إلى زيادة الاحتكاك ، وتوسيع شقة الخلاف ، وانقباض الصدر ، وضيق الأفق ، ونقصان العقل .

ولا تسل من تأثير هذه الرياضة فى التعجيل بتحقيق آمالك ، أكثر من أية وسيلة أخرى تسخرها لقضاء حاجاتك ؛ فما كانت علومك وفنونك وشهاداتك ، ولا كان مالك وعقاراتك ، ولا كانت وظيفتك أو مكانتك الاجتماعية ، ومتانتك الخلقية ، لتغنى عنك شيئاً مذكورا ، ولو أصبت علم الأولين والآخرين ، واختزنت الملايين ، أو ارتفعت مكانتك الرسمية إلى عليين ، ما كانت هذه كلها لتغنى عنك إذا لم تدعمها موهبة الخيال الصادق ، التى

هي أقوى مسوك للنجاح ، وأجمع وسائلك للاغتراف من بهجة الحياة وحلاوتها .

وإنا لنذكر أننا كنا كلما تحدثنا إلى صديق عزيز ، في الذروة الباذخة من الجد ، والرتبة الفذة من العبقرية ، أنه كان يقول إذ يخالفنا في النتيجة المنطقية التي نستخلصها من مقدماتنا المساوية المسلم بها :

« إني لأحمد الله على كثير من المزايا ، ولكن الزية التي أحمده عليها قبل سواها ، أنني أستطيع أن أضع نفسي في محل خصمي القضائي أو الشخصي أو السياسي ، وأن أفكر وأنا في مكانه تفكيراً مخلصاً بعقله وعاطفته هو لا بعقلي وعاطفتي أنا ، وأن أصل من هذا الطريق إلى النتائج التي يصل إليها هو ، وأتعرف الوسائل التي يستخدمها هو ، فأتخذ عدتي لهذا كله ، وأستعد لقائه في أحسن أهبة » .

وليست أهمية الخيال الصادق محصورة إذاً في دائرة الصداقة والعلاقات الودية وحدها ، بل تتجاوزها إلى غير ميدان الصداقات والودات ؛ وهي في هذه الميادين الأخرى ضرورة لا غنى عنها ، فهي عظيمة الأثر في تقليل حدة الخصومات ، وتقريب وجهات النظر المتباعدة ؛ وهذا العظيم الذي حدثناك عنه يكاد يكون من أسعد الناس وأشدهم قدرة على التفاهم مع أصدقائه ؛ ولعله أكثر من ذلك براعة في التعامل مع خصومه

***

والآن فلنتقدم إلى الشطر الثاني من موضوعنا ، وهو الكف عن إدانة الناس . وإنا لنعرف من مطالعاتنا واختباراتنا أن معظم ما يعرض من الفتور بين الأصدقاء ، وما يثور من النزاع والصراع بين الخصوم والأعداء . إنما يرجع أكثر بواعثه إلى تأصل إدانة الآخرين والحكم عليهم في عادات هؤلاء الأصدقاء أو الخصوم على السواء .

فأنت تحكم على شخص بالصلف والكبرياء ، والأثرة والأنانية ، وتبني الحكم على أنك طالما جاملته في عديد المناسبات : توفي قريبه فشيعت جنازته ، وتزوجت أخته أو زفت ابنته فلم تدخر جهداً في معاونته ، توعك أو اعتكف فلازمته ، وما أزمع سفراً إلا ودعته ، أو عاد من سفر إلا استقبلته ، فإذا دعا إلى مائدته سارعت لتلبية دعوته ، والاقتباس بصحبته ، فانظر ماذا كان من أمره معي :

« توفي قريب لي من أبناء الأعمام الأشقاء ، فلم يكلف خاطره الحضور إلى السرادق ، وكان على قيد أمتار من داره ؛ وتزوجت ابنتي فما دعوته أشفق من أن يرد عدتي ، فأبرق مهنئاً ؛ واعتراني المرض العضال كاد يقضي على حياتي ، فظلت أغالبه شهرين بين الدار والمستشفى ، ولكنه ما حضر لعيادتي حتى كنت قد عوفيت وتسلمت عملي ؛ ولما احتفلت بالشفاء وزوال الداء ، دعوته إلى حفلة صفوة الأصدقاء ، وكان أول المدعوين ، فهلل وكبر ، وقال وكيف لا ألبي وهذا يوم طالما تمنيته وترقبته ؛ حتى إذا رفع الخوان ، وانصرف أكثر الاخوان ، أقبل الصديق الكريم يقول إنه حضر ليعتذر ، وهو مضطر إلى العودة أدراجه ، إذ ترك في سيارته من ينتظره للذهاب إلى موعد لا سبيل إلى إرجائه ؛ ! . . ثم سافرت إلى السودان ، وعدت من لبنان ، فلا والله ما وكل إصبعه بقرص التليفون بدوره خمس مرات ليسأل عن صحة سلامتي .

« أهذا بالله صديق ؛ أهذا إنسان ؛ أهو من بني آدم ؟ لقد صبرت وصابرت ، وصفحت وسامحت ، والتمست له الأعذار السنين الطوال ؛ أما اليوم فلا مودة ولا إخاء ، بل قطيعة وجفاء ، إلى آخر الدهر ، ونهاية العمر . إنه مخلوق غير قابل للاصلاح ، ولعله ناقص العقل مختل الأعصاب ، منحل الأخلاق ، تملك عليه الأنانية مسارب نفسه ، ويكاد يقتله الزهو والغرور ، في غير مبرر لزهو أو مسوغ لغرور » .

وأنت تسمع هذه القصة أو ما عاثلها مرتين فى كل يوم ، وأنت لا تكاد تصادف فى كلام الناس غير هذا النوع من الحكم على الناس ، والشكوى من أخلاق الناس ، والتنديد بخيانة الناس ؛ وإنها لعادة متأصلة ، يحسبها الكثيرون مستعصية الشفاء ، ممتنعة على كل دواء .

وكم من رجل خسر أخاه وصاحبه ، وكم من سيدة أضاعت زوجها ، أو فقدت أخلص صاحباتها تحت تأثير هذه العادة المتفشية ، عادة الحكم على الناس حكما انهائيا لا يقبل استئنافا ولا نقضاً ، ولا التماسا لإعادة نظر ، ولا هو حتى يحتمل العفو بحال من الأحوال .

وكم من حياة كدرت ، وسعادة رنقت ، ودنيا مشرقة انطفأ ضياؤها بسبب إدانة الناس والحكم عليهم .

ولكن كيف السبيل إلى الخلاص من هذه العادة ؟

سل نفسك : من أنا حتى أحكم ؟ ومن ذا وضعنى فوق منصة القضاء ، أصدر الأحكام على الأصدقاء والأعداء ؟ بل سل نفسك : هل سمعت كل الأدلة ، أو حتى جزءا من مائة جزء من مجموعها ؟ وهل ثمة احتمال لأن تصل بعلمك إلى هذه المرتبة من الاحاطة والالمام ؟

قل لها : أيتها النفس هلا تدبرت ما فى منظر الانسان الذى ينصب نفسه قاضيا ، يتبوأ الأرائك العالية ، يحكم على انسان آخر ؟ فهلا تدبرت ما فى هذا المنظر العجيب من سخرية تثير الرثاء ؟

قل لها : ليست الحكمة فى تحاشى إدانة الناس ، هى مجرد عدم التعرض لحكمهم عليك ، ولكن الحكمة كل الحكمة فى أن تحتفظ أنت بكياستك ولياقتك واحترامك لنفسك . ثم أى شىء هو أبعد عن اللياقة من تصرف من ينتحل لنفسه صفة ليست له ، ولا هى من اختصاصه ، فيحاكم الناس ويدينهم ؟

قل لنفسك : سأستطيع أن أدين غيرى ، حين أصل إلى مرتبة العلم بكل شىء ، ولن أبلغ هذه المنزلة لأنها صفات يتفرد بها الديان العادل .

ولن نتمكن من الكف عن إدانة الناس ، إلا باليقظة المستمرة ، والسيطرة المتواصلة على فلتات عقلنا الباطن وبوادره ، حتى ننجح فى تكوين عادة الكف عن إدانة الناس ، وهى من أنفع العادات لأنها تكفكف من غرب غرورنا ، وتزيد قلوبنا استمساكا بالتى هى أحسن ، وتنمى فينا المقدرة على أن نكون فى معاملاتنا ظرفاء لا متظرفين ، كرماء غير متكرمين ، ودعاء لا متنازلين ولا مدعين .

أما الركن الثالث من أركان الخلق الجذاب ، وهو التحرر من التبرم من الضجر ، فسنحاول أن نجعله موضوعا لبحثنا فى مقال تال إن شاء الله .

دكتور رياض شمس

الاشتراك فى الثقافة

عن نصف سنة ١٩٤٢

قرش

٣٠ فى مصر والسودان .

٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام .

٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد .

٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد .

ـــ

ثمن العدد ١ صاغ

٢٥ دسمبر

عيد الشمس والقمر :

اعتقد الأقدمون أن الشمس خلقت في يوم الانقلاب الشتوى ، حيث تبدأ سيطرتها (التي عثلها النهار) في الزيادة ، حتى تبلغ نهايتها العظمى في يوم الانقلاب الصيفى ، ثم تبدأ في النقصان حتى تبلغ نهايتها الدنيا في يوم الانقلاب الشتوى ، ثم تعود الشمس من جديد ، وبذلك تتم الشمس دورتها الحيوية المتجددة بين كل انقلابين شتويين . ولما كانت الشمس رمز الحيوية على هذه الأرض فقد احتفى بها القوم ، وأقاموا لها عيداً في يوم الانقلاب الشتوى ، حيث يقدمون القرابين ، شكراً على عودة المجلة الملتهبة .

واعتقد الأقدمون أيضاً أن الأرض ولدت القمر بدراً في يوم الاعتدال الربيعى ، وأن الخليقة بدأت أيضاً في مثل هـذا اليوم البهى ، حيث اجتمعت نضارة السنة الشمسية بنضارة الشهر القمرى ، واحتفى القوم بمثل هذا اليوم عيداً للقمر . ولما كان اتفاق النضارتين متعذراً في أغلب الأحيان ، فقد قربوا بين النضارتين ، فأحيوا العيد في يوم البدر الذى يلى يوم الاعتدال الربيعى مباشرة .

واحتفى القوم بهذين العيدين ، ولما كان عيد القمر يقع في أنضر أيام السنة ، فقد ثبت أقدامه ، واحتفلت به جميع الأمم القديمة ، وتعددت أسماؤه ، فسمى عيد القمر ، وعيد شم النسيم ، وعيد الربيع ، وعيد استر إلاهة الربيع ، وعيد الفصح ؛ أما عيد الشمس فلم تهتم به غير الأمم الشمالية ، وبعض الأمم الوسطى ، واستمروا على الاحتفال به في يوم الانقلاب الشتوى .

وقام القوم بتعيين مواعيد هذين العيدين بالوسائل الأولية التى كانت تحت أيديهم ، وربما كان عندهم من تقويم أولى بسيط ؛ واختلفت مواعيد هذه الأعياد بالنسبة لعدم دقة التقويم المستعمل . وفى سنة ٧٠٨ رومانية (٤٦ ق . م) جعل يوليوس قيصر التقويم الرومانى تقويماً شمسياً ، وقام الحاسبون بحساب الاعتدال الربيعى والانقلاب الصيفى والاعتدال الخريفى والانقلاب الشتوى ؛ فكان بناء على حسابهم وقتذاك فى ٢٥ مارس و ٢٤ يونيو و ٢٤ سبتمبر و ٢٥ ديسمبر . وبدأ القوم يحتفلون بعيد الربيع فى ٢٥ مارس ، وبعيد الشمس فى ٢٥ دسمبر ؛ ثم أخطأ الأحبار القائمون بتنفيذ التقويم ، فأضافوا اليوم الزائد فى السنة الكبيسة كل ثلاث سنوات عوضاً عن كل أربع سنوات ، حتى لحظ أغسطس أن الاعتدال الربيعى والانقلاب الشتوى فى سنة ٧٤٦ رومانية (٨ ق . م) حلا فى ٢٢ مارس و ٢٢ دسمبر ، بينما يحتفل بهما القوم فى ٢٥ مارس و٢٥ دسمبر ؛ فأمر بالرجوع إلى تقويم يوليوس وملاحظة الدورة الرباعية ؛ ولم يشأ أن يحمل الجمهور يشعر بأى تغيير ، بل يستمر على الاحتفال بيوميه المعهودين ، ولذلك قرر أن تكون السنين — ٧٤٩ (٥ ق . م) ، ٧٥٣ (١ ق . م) ، ٧٥٧ (٤ م) سنين بسيطة ، وأن تكون أول سنة كبيسة ٧٦١ (٨ م) ، وبذلك يتأخر الاعتدال الربيعى والانقلاب الشتوى إلى ٢٣ مارس و ٢٣ دسمبر فى سنة ٥ ق . م ، وإلى ٢٤ مارس و ٢٤ دسمبر فى سنة ١ ق . م ، وإلى ٢٥ مارس و ٢٥ دسمبر فى سنة ٤ م ، ويستمر على ذلك .

ثم اختلط الأمر على المسيحيين فى تعيين عيد الفصح ، واجتمع مجمع نيقية سنة ٤١ شهداء (٣٢٥ م) وقرر كيفية تعيين هذا العيد ؛ وقام الحاسبون بحساب الاعتدال الربيعى وقتذاك ، فوجدوه طبقاً لحسابهم فى ٢١ مارس ، وأعلن ذلك ، واتبعه القوم ؛ وبمرور الزمن أصبح ٢١ مارس

معتبراً يوم الاعتدال الربيعي ؛ ومع ذلك لم يفقد ٢٥ مارس ولا ٢٥ ديسمبر قيمتيهما عند غير المسيحيين ، بل وعند المسيحيين أنفسهم .

صدر المسيحية والأعياد :

ولد المسيح ، وكانت ولادته معجزة ، فاتهمت أمه ، فبرأها الله بمعجزات بينات ، فصدقها من صدق ، وكذبها من كذب . ولما كبر المسيح ، ودعا إلى الايمان ، تبعه من صفا قلبه ، وزالت الغشاوة عن بصيرته ، وتألب عليه الباقون ، شأنهم نحو كل مصلح يأتيهم بأمر جديد ؛ واضطهدوه ومن تبعه ، واستمروا في اضطهادهم ، حتى زين لهم الشيطان ، فتآمروا على صلبه في صبيحة عيد الفصح ، وكانت نتيجة هذه المؤامرة أن ترك المسيح هذه الدنيا ، وخلف وراءه تلاميذه ومريديه وأتباعه ، الذين اعتصموا بدينهم ، وتمسكوا بعقيدتهم . وما زادهم التعذيب والايذاء إلا إيماناً ، وهم على ربهم يتوكلون .

وخلا حزب المؤمنين من السطوة والنفوذ ، اللهم إلا من الايمان الصادق ، والعقيدة الثابتة . وتدرع الحزب الآخر بالسطوة والقوة ، والنفوذ والسلطان ، وتمكن بذلك من التنكيل بالحزب الأول تنكيلاً مادياً وتنكيلاً روحياً ، فنكل به مادياً عاقام به من تعذيب وإيذاء ، كلما سنحت الفرصة ، وواتت المناسبات ، ونكل به روحياً بما شنه من حرب الدعاية ، لجند دعاته ، فنشروا أسلحتهم المسمومة بما وضعوه من تشكيك في العقائد ، وتفسير يساعد على هذا التشكيك ، فأثر ذلك في ضعاف النفوس ، وتسرب منه الشريرون ، فجعلوه ستاراً احتموا خلفه ، في سبيل قضاء مصالحهم الشخصية ، وفي سبيل التمتع بالسلطة الدنيوية .

وطبيعي في هذه الظروف القاسية ، أن يقوم المؤمنون بتأدية فروضهم الدينية في معزل بعيداً عن الأنظار ، وأن يتفقوا فيما بينهم على أعياد يقيمونها ، تجمع شملهم روحياً ، وتذكرهم بمرشدهم الأعظم المسيح ، وطبيعي ألا يكون لهذه الأعياد أثر ذو بال في العالم الخارجي .

وتدور عجلة الزمن ، وتسدل في أثناء دورانها ستاراً شافياً من النسيان على بعض تفاصيل الأعياد ومواعيدها ، ثم تنتشر المسيحية من بلد إلى آخر ، وقد يحمل الدعاة مواعيد الأعياد وتفاصيل إحيائها منقوصة غير كاملة ، ويتدخل عامل بعد الشقة وصعوبة المواصلات في توضيح ما انبهم ، وتفسير ما غمض ، فيقوم القوم في جهتهم بالتوضيح والتفسير ، حسب رأيهم وحسب ما فهموه ، وقد يختلف هذا التفسير في بلد عنه في بلد آخر ، وبذلك تفترق الأعياد في مواعيدها أو في تفاصيلها .

وقد تختلط الأعياد القومية بالأعياد الدينية ، وإما تتفقان فيقوم القوم بإحياء هذه وإحياء تلك ، وإما تتصادمان وتتصارعان ، فتنتصر الأعياد الدينية ، وبذلك ينتهي أمر الأعياد القومية ، أو تنتصر الأعياد القومية فيسرع القوم في صبغ هذه الأعياد بالصبغة الدينية ليجنبوا هذا الانتصار .

وقد يحدث الاتصال بين هذه البلاد بعضها والبعض الآخر ، عن طريق التجارة أو الرحلات أو الغزوات ، فيجد القوم اختلافاً في أعيادهم ، فتنعقد المؤتمرات ، وتجتمع المجامع ، رغبة في التوفيق والتوحيد ، ثم تنفض هذه المجامع وتلك المؤتمرات عن اتفاق ، أو عن تأجيل في تلافي الخلاف ؛ وقد يعظم نفوذ إحدى الأمم ، وتنبسط سيطرتها ، ويكون لهذا النفوذ ولهذه السيطرة دخل كبير في جعل أعياد هذه الأمة أساساً صالحاً لاتفاق الأعياد عند باقي الأمم .

ويستمر الزمن في دورانه ، فتكتسب هذه الأعياد

صبغتها التي اصطبغت بها، وتفقد هذه الصبغةُ عرَضيها، وتصبح جوهراً، حتى إذا ما قام المؤرخون بالتحقيق والتدقيق، ورجعوا إلى مستنداتهم وأضابيرهم، انبهم عليهم الأمر، وأخذوا في التفسير والتوضيح طبقاً لأساليبهم العلمية، أو تأثراً بمعتقداتهم الدينية، أو اتجاهاً نحو الحدس والتخمين.

وعيد الميلاد من بين الأعياد التي حدث لها ما حدث.

عيد الميلاد:

لم يكن عيد الميلاد عيداً كنسياً في صدر المسيحية، ولم يعن به المسيحيون عنايتهم بعيد الفصح، جرياً وراء عادات قومهم، الذين لا يحتفلون بأعياد ميلادهم، وإنما يحتفلون بذكرى وفاة أعزائهم.

وقد ذكر Poly carp قبل سنة ١٦٠ م أن المسيح ولد في يوم الأحد يوم بدء الخليقة، وعمد في يوم الأربعاء يوم خلق الشمس، وهنا لم يرد ذكر للاحتفال بهذا أو ذاك، كما لم يرد موضع هذين اليومين بالنسبة للتقويم.

وذكر كليمنت سنة ٢٠٠ م أن علماء التاريخ اختلفوا في تعيين يوم الميلاد، فجعله بعضهم في ٢٥ بشنس (٢٠ مايو)، وجعله آخرون في ٢٤ برمودة أو ٢٥ منه (١٩ أبريل أو ٢٠ منه)، ورأى كليمنت أن الميلاد في ١٧ نوفمبر.

ووردت جملة ضمن رسالة سنة ٢٠٢ م تشير إلى أن المسيح ولد في يوم الأربعاء ٢٥ دسمبر، ولم يرد أى ذكر في هذه الرسالة للاحتفال بالميلاد أو اعتباره عيداً، على أن اعتباره عيداً يتنافى مع الآراء الأرثوذكسية وقتذاك.

وذكر أحد الكتاب في سنة ٢٤٣ م أن الميلاد كان في يوم الأربعاء ٢٨ مارس.

وفي سنة ٢٤٥ م شدد Origen اللائمة على فكرة الاحتفاظ بيوم عيد لميلاد المسيح كأنه أحد الملوك. ولم يتعرض مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م لعيد الميلاد، ويقول امبروز إنه حتى زمن البابا ليبريوس (٣٥٢ — ٣٥٦) كان عيد الميلاد في ٦ يناير.

وورد في تقويم فيلوكالوس سنة ٣٥٤ م أن المسيح ولد في الجمعة ٢٥ دسمبر سنة ١ م وفي يوم ١٥ من الشهر القمرى، ولم يرد في هذا التقويم أى ذكر للاحتفال به كيوم عيد. وفي سنة ٣٥٤ م أيضاً جعل اللاتين يوم الميلاد يوم الأربعاء يوم خلق الشمس، أى في ٢٥ دسمبر بدلا من ٦ يناير؛ ولذلك قامت قيامة السوريان والأرمن ضد الرومان، واتهموهم بعبادة الشمس لجعلهم يوم ٢٥ دسمبر عيداً للميلاد.

وفي سنة ٣٧٥ م أزاح ابيفانيوس عيد الغطاس إلى ٨ نوفمبر، وقال إن ٦ يناير هو عيد الميلاد. وفي سنة ٣٨٠ م أمر مجمع سرقسة بعدم إقامة الملاهى وحفلات الرقص لمدة ٢١ يوماً من ١٧ دسمبر لغاية ٦ يناير، وفي سنة ٣٨٥ م اعتبر ٦ يناير عيداً للميلاد في بيت لحم.

ويقول كريستوم سنة ٣٨٨ م إن عيد الميلاد في الغرب في ٢٥ دسمبر، ثم انتقل منهم إلى الشرق.

وفي سنة ٤٠٠ م صدر في روما مرسوم إمبراطورى أدخل فيه عيد الميلاد ضمن الأعياد التي تغلق فيها دور الملاهى، ولم يجعل عيد الميلاد عطلة لدور القضاء إلا في سنة ٥٣٤ م.

ويظهر أن نفوذ الرومان كأمة مسيحية أثر تأثيراً كبيراً، فثبت يوم ٢٥ دسمبر أقدامه كعيد للميلاد؛ ولكى يتفق أقباط مصر مع الرومان جعلوا عيد الميلاد في ٢٨ كيهك في السنة القبطية التي تقبل القسمة على ٤، وفي

٢٩ كيهك في السنين الأخرى .

وفي أواخر القرن السادس عشر الميلادي قام جريجوري بإصلاح التقويم الروماني ، وجعل اليوم الذي يلي يوم ٤ أكتوبر سنة ١٥٨١ يوم ١٥ منه أي بزيادة عشرة أيام ، وأن تكون السنين القرنية التي لا تقبل القسمة على ٤٠٠ سنين بسيطة ، وقد رفضت بعض الطوائف المسيحية ، ومنهم أقباط مصر ، هذا الاصلاح ؛ وعلى ذلك أصبح يوم ٢٨ كيهك أو ٢٩ منه يوافق يوم ٧ يناير في القرن الحالي ، بعد أن كان يوافق ٢٥ ديسمبر في القرن السادس عشر ، ويكون يوم ٧ يناير الذي يحتفل به الكنيسة الشرقية هو يوم ٢٥ ديسمبر بالتقويم اليولياني الذي كان سائراً قبل إصلاح جريجوري .

متى ولد المسيح :

طبقاً لما ذكره يوسف Josephus من أن المسيح ولد في حكم هيرود ، وأن هيرود مات والمسيح طفل ، تكون ولادة المسيح قبل ١٣ مارس سنة ٤ ق . م بأشهر .

ولكن في أي شهر ولد المسيح ؟ وفي أي يوم من هذا الشهر ؟ ليس لدينا معلومات واضحة عن هذا الموضوع . والآراء التي قيلت ، والآراء التي عثر عليها مكتوبة ، تضاربت بشكل غريب ! فبعضها يتناقض كلية مع الحساب ، والبعض الآخر يتفق مع الحساب في بعض التفاصيل ، ويتناقض معه في التفاصيل الأخرى ؛ وتنحى بعض الآراء ناحية تفسير الخلاف بجعل ميلاد المسيح جملة موالد ، ميلاد المسيح من النور ، وميلاد المسيح بالتجسيد وميلاد المسيح بالتعميد ، وميلاد المسيح بظهور براءة أمه حينما اتهمت بحمله ، وهكذا .

ويكون من الاحتياط الاكتفاء بالقول بأن المسيح ولد قبل ١٣ مارس سنة ٤ ق . م بأشهر

أما الاحتفال يوم ٢٥ مارس كعيد للبشارة (حينما بشر جبريل العذراء بحملها المسيح) ، وبيوم ٢٥ ديسمبر كعيد للميلاد ، فما هو إلى استمرار لعيدي الربيع والشتاء ، بعد أن صبغا بالصبغة الدينية .

وليس هناك مانع مطلقاً من أن تكون البشارة في ٢٥ مارس ، وأن يكون الميلاد في ٢٥ ديسمبر ، ويكون اتجاه المسيحيين نحو صبغ عيدي الربيع والشتاء بالصبغة الدينية ، ما هو إلا توفيق إلهي لوضع الشيء في محله . كما أنه ليس هناك مانع أيضاً من ألا تكون البشارة في ٢٥ مارس ، وألا يكون الميلاد في ٢٥ ديسمبر .

أما احتفال أقباط مصر بعيد البشارة في ٢٩ برمهات ، فما ذلك إلا لأنه كان موافقاً ٢٥ مارس وقتئذاك ، أما الآن يوافق ٧ أبريل ، كما وافق ٢٨ كيهك أو ٢٩ منه يوم ٧ يناير .

عبد الحميد الطفي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
مليم
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

حفـــلة شاى !

بقلم الأستاذ محمود تيمور

صابر بك : (للأستاذ فرغلى) وحضرتك تؤكد أن ريال ثعبان يكسب عشرة ؟ !

الأستاذ فرغلى : كان هذا رأى الجميع !

بدر بك : لقد كان ثعبان غير موفق اليوم ... !

فكرية هانم : (لعنايات هانم) ومن قابلك فى السباق ؟

عنايات هانم : أوه ! كثير جداً ! وزير جمهورية سان رعو القوض وقرينته ، وأحمد باشا الجمل وبنته الكبيرة ، ومراد بك بس ...

بدر بك : الذى كنت تتكلمين معه ساعات طوالا ...

عنايات هانم : وماذا فى ذلك ؟

بدر بك : أمور لا تليق ...

عنايات هانم : ولماذا رحبت أمس عند ما رقصت مع الأمير ستيفانوفتش الروسى فى حفلة روسيا البيضاء ؟ لم تحرك ساكناً !

بدر بك : الأمير ستيفانوفتش من النبلاء الكبار... شخصية ممتازة ...

خليل باشا : (لبدر بك) أتسمح لى يا بك بإبداء بعض ملاحظات على كلام سعادتك ؟

بدر بك : ملاحظات ؟ !

خليل باشا : كثير من الناس يقعون فى حبائل الأمير ستيفانوفتش ...

فكرية هانم : وكيف ؟ ...

خليل باشا : الأمير استيفانوفتش أكبر دجال فى العالم ... اسألنى عنه ... لدى من خباياه الشىء الكثير .

عنايات هانم : ما هذا الكلام ؟ ... غير ممكن ! ...

خليل باشا : وحياة رأسك يا هانم إن هذا الكلام صحيح ... !

(الأستاذ فرغلى ينصت باهتمام ، ثم يخرج من جيبه دفتراً وقلماً ...)

بدر بك (وهو يحكم وضع « المونوكل » على عينه ، يقول لخليل باشا) : لا . لا ... اكفى . كفى يا باشا ... ! ما هذا الكلام ؟ !

(التليفون يدق ، يذهب صابر بك ليتكلم .)

صابر بك : (فى التليفون) آلو ... آلو ... نعم هنا . نعم ... نعم ... !؟ عبد الغفور باشا وكيل الوزارة لن يحضر ويعتذر ؟ ! لماذا ؟ ... لعل المانع خير ! ؟

(يضع السماعة) .

فكرية هانم : (لصابر بك) وماذا يهمه ؟ ! ...

صابر بك : سيفتتح البناء الجديد لشركة الطوب ...

فكرية هانم : (لصابر بك) أو لم تكن تعرف أن اليوم موعد افتتاح البناء الجديد لشركة الطوب ؟

صابر بك : ومن أين لى علم بذلك ؟

فكرية هانم : طبعاً أنت خالى البال لغير هذا ... منذ الصباح وأنت ملازم جانب التليفون ... ثق أنى سأكسر هذا التليفون يوماً ، سترى ...

(الأستاذ فرغلى يجلس بجوار خليل باشا ... وبيده دفتره وقلمه ... كلاهما فى ناحية ، والآخرون فى ناحية أخرى ...)

الأستاذ فرغلى : (لخليل باشا) بالطبع سعادتك تعتبر مسألة اليوم منتهية ... ! ولست مستاءً منى ... ؟!

خليل باشا : (يضع ساقاً على ساق ، وينتفخ فى جلسته ...) كنت أستطيع إحالتك على النيابة لما صدر منك فى حقى . إنه قذف علنى ... !

الأستاذ فرغلى : لقد سويت المسألة على أى حال ...

خليل باشا : لأنى لا أرغب فى إيذائك ...

الأستاذ فرغلى : أنا شاكر فضلك ... أنت تعرف يا باشا أن الانسان كثيراً ما ينسى نفسه فى سورة غضبه ... ...

خليل باشا : المسألة فى حكم المنتهية على أى حال ...

الأستاذ فرغلى : وموضوع الأمير استيفانوفتش؟ ...

خليل باشا : ما خطبه ؟

الأستاذ فرغلى : أرجو منك الافضاء لى ببعض معلومات عنه ...

خليل باشـا : (يقهقه ثم يزداد انتفاخا ....) لامانع ... ا أكتب .... ! !

(خليل باشا يملى والأستاذ فرغلى يكتب)

بدر بك : (لصابر بك فى ناحية مع السيدتين ...) الوعد قد حلّ ولم يأت أحدٌ بعد ... !

صابر بك : سيحضرون بعد قليل ... أنسيت كيف نحافظ على مواعيدنا ... ؟

فكرية هانم : ما أشدّ خوفى على حفلتنا من افتتاح شركة الطوب !!!

عنايات هانم : ومن غريب المصادفات أيضا أن اليوم احتفال فى نادى القاهرة ... !

فكرية هانم : أهناك احتفالٌ فى نادى القاهرة اليوم ؟

صابر بك : هذا صحيح ... هناك احتفال اليوم ... !

فكرية هانم : ولِمَ لَمْ تقلْ لى من قبل حتى نتخذَ ترتيباً ملائماً ... ؟

الأستاذ فرغلى : (منهمكا يكتب) قبضتْ عليه الشرطة فى وارسو فى العام الماضى بتهمة اختلاس جواهرَ من مثرية أمريكية ! ؟

خليل باشا : (يملى على الأستاذ فرغلى وهو يكتب فى اهتمام .) وقد تمكن من الهرب وسافر إلى الأرجنتين ، حيث أقام حفـلةً كبيرة لمنكوبى الروس البيض استولى على إيرادها واختفى ... (للأستاذ فرغلى ...) ولـكن خبرنى ، أتنشر كلَّ هذا فى عدد الغد من مجلة المفصلة ... ؟؟

الأسـتاذ فرغلى : لا يا باشا ، سأقتصر على نشر خبر صغير .

خليل باشا : وماذا تقول ؟

الأستاذ فرغلى : جاءتنا والجريدة ماثلة للطبع أخبار طريفة عن الأمير استيفانوفتش الروسى ، تكشف الستار من شخصيته الغريبة ، سننشرها فى العدد الآتى من « المفصلة » ، فنلفت إليهـا أنظار القراء الـكرام ... (لخليل باشا) وأين يقيم الأمير الآن ... ؟

خليل باشا : بفندق سان جيمس (الجماعة الأخرى : جماعة صابر بك وبدر بك والسيدتين حول الصورة الزيتية التى دخل بها صابر بك ولم يعرف كيف يعلقها ...)

صابر بك : (للجماعة) أليست صورة بديعة ؟ !

بدر بك : بديعة جداً ! ؟

فكرية هانم : إحزر : كم تساوى ؟

بدر بك : عشرين ... ثلاثين ...

صابر بك : أربعين جنيهاً ...

عنايات هانم : تساوى ... إن إطارها وحده يستحق الأربعين ... إطار من الطراز البيزنطى .

بدر بك : بيزنطى ؟ ! ما هذا الجهل يا عنايات ؟ ... إنه إطار من طراز الرنيسانس ، وعليه مسـحة من الفن الجوتيك ... !

عنايات هانم : باسـلام ! ! أو تفهم أيضاً فى الاطارات ؟ ! ! ألا تكفينا عبقريتك فى كرة القدم والسباحة وركوب الخيل ؟ ! !

(يقلبون الصورة بين أيديهم ... لا يعرفون عاليها من سافلها ...)

بدر بك : من أين اشتريتم هذه الصورة ؟

صابر بك : من معرض « الفن المصرى » المقام فى «الكونتننتال» . لقد انتقتها «فكرية» ... !

بدر بك : (لفكرية) دائماً ذوقك سليم يا هانم ... أهنئك ... !

فكرية هانم : أشكرك يا بك ...

عنايات هانم : كان أمس آخر يوم فى معرض الفن المصرى .

فكرية هانم : أكنتِ هناك ؟

عنايات هانم : نعم ... آه يا فكرية ! لقد كان معرضاً لأزياء مدهشة . ألم ترى ثوب «عدلية» الأخير ؟

فكرية هانم : لا تعجبنى « عدلية » أصلا ... إن مظهرها كالرجل ...

عنايات هانم : (تضحك) والله صدقت ... وكانت «زكية هانم» تلبس سواراً يخطف العين ... !؟

فكرية هانم : إنها لا تستحقه ... شكلها كالبطة !؟

عنايات هانم : بطة ؟ ! ... قولى ضفدعة !

(يضجون بالضحك) .

(الأستاذ فرغلى يقوم إلى التليفون ...)

الأستاذ فرغلى : (فى التليفون يطلب رقماً) آلو ... آلو ... أوتيل سان جيمس ؟ هل الأمير استيفانوفتش موجود ؟ ... غير موجود ؟ ... من فضلك دعنى أتصل بسكرتيره ... ! السكرتير المصرى طبعاً ... هيه ؟ ... سكرتير الأمير ؟ ! الله ! ... أنت حافظ ؟ كيف حالك يا حافظ ؟ ! كم مضى عليك وأنت تشغل هذه الوظيفة ؟ اسمع ! عندى موضوع يتعلق بكم ... أريد مقابلة الأمير ! ضرورى ... غداً فى السابعة مساء ... وهو كذلك . إلى اللقاء ! (يضع السماعة) .

(بينما الأستاذ فرغلى يتكلم مع خليل باشا ، تكون الجماعة الأخرى : صابر بك وبدر بك وفكرية هانم وعنايات هانم منهمكة فى وضع الصورة على إفريز المدفأة ... كل واحد منهم يريد وضعها على حسب فكره ...)

خليل باشا : (لفرغلى) ولكنك ستفوز من هذه المسألة بمبلغ طيب !؟

الأستاذ فرغلى : ... مبلغ طيب ؟ لا ... إنها خدمة للجمهور لا أكثر ولا أقل ! ...

خليل باشا : (وقد بدأ يغضب) خدمة الجمهور ؟ ... مالى وللجمهور ؟ إنها غنيمة وأنا أطالب بنصيبى فيها ... !

الأستاذ فرغلى : هذه مسألة يمكن تسويتها ودياً ... وأهم منها تشوُّف الجمهور لحديث سعادتك الذى وعدت به « المقصلة » .

خليل باشا : أىّ حديث تريد ؟

الأستاذ فرغلى : حديث عن كتابك « مذكرات السلطان عبد الحميد » الذى تباشر طبعه الآن ...

خليل باشا : والذى سيصدر فى أثناء هذا العام ... !

الأستاذ فرغلى : فى أثناء هذا العام ؟ وماذا علينا لو حددنا الوعد ، فقلنا الشهر الآتى مثلا ... ! ؟

خليل باشا : إذا أسعفتنا المطبعة ، فأؤكد لك أن الكتاب يصدر بعد شهر ... !

الأستاذ فرغلى : وأيضاً أريد قائمة بالرتب والأوسمة التى حظيت بنيلها ، وكذلك دفاتر الاشتراك التى لم توزع ، فأنا على استعداد لتوزيعها إن أردت ...

خليل باشا : متشكر جداً يا أستاذ فرغلى ... متى تتكرم وتشرفنى لشرب القهوة وتجاذب أطراف الحديث ... ؟

الأستاذ فرغلى : بعد غد فى السادسة مساء !

خليل باشا : وهو كذلك ... على الرحب والسعة ... !

(يقومان معاً إلى المائدة التي عليها صندوق اللفائف ويتناول كل منهما لفافة . الأستاذ فرغلي يشعل عود الثقاب لخليل باشا بأدب جم ، فيقتبس النار للفافته في عظمة ظاهرة ... نعمان الفراش يدخل في خوف وحذر حاملا رزمة من الرسائل ...)

صابر بك : (لنعمان) هيه ... ما الذي معك ... ؟

نعمان : البريد يا أفندم ...!

صابر بك : البريد ؟ وهل الآن وقتُ توزيع ؟

فكرية هانم : مستحيل ... ! لا بد أن يكون البريد موجوداً منذ الصباح ، ولكن نعمان هو الذي نسى أن يحضره في حينه .

نعمان : ليس الذنب ذنبي ... ولكن عم سيد البواب أبقاه في حجرته .

صابر بك : (لنعمان) آه ... كل شيء يستوجب اللوم تتهم به عم سيد ... أنت بغير مسائلنا مشغول ...

(تتقدم فكرية هانم من نعمان ، وتأخذ منه الرسائل بغضب ... تبدأ في فضها . صابر بك يتم كلامه لنعمان) : مقطوع من مرتبك خمسة أيام أخرى !

نعمان : يا فندم ...

صابر بك : كلمة واحدة ... اخرج ... !

(يتجه نعمان نحو الباب ، يجرى خلفه الأستاذ فرغلي ويقفه ، يتحدث معه ... خليل باشا يبحث في الحجرة عن سيجار فلا يجده ، يبدى علامات الامتعاض)

(لها بقية) محمود تيمور

قصة مصرية

خروف العيد!

بقلم محمود عز الدين ذهني

هذه الأسرة ... ...

كانت عجباً بين الأسر .

ولدان لم يخلق الله مثلهما غباءً وجفوة خلق .

وفتاة هي إعجاز في الدمامة ، وآية في سلاطة اللسان .

وأم أجمع أهل الحي على أن زوجها من بين خلق الله سيدخل الجنة بغير حساب ولا سؤال ، إذ يكفيه أن يقول يوم الحشر : إنه عاش معها عشرين عاما ، لتغفر ذنوبه وتمحى سيئاته .

وكان هو يرعى هذا القطيع وحده ، دون أن يشكو أو يتضجر ، صابراً ساكناً كأشد ما يكون المؤمن صبراً على البلوى ، وإيماناً بعدالة السماء .

كان يعمل كاتباً بإحدى المصالح ، ويتقاضى مرتباً لا بأس به ، وكان لا يشرب مع الماء إلا تلك الألوان من مرارة العيش تسقيها له زوجته أولا ، ثم زوجته وأولاده ثانياً . ولكن مرتبه مع ذلك ظل دائماً مشكلة المشاكل ، فما يكاد أول الشهر يقبل حتى يتهيأ لساعات الحساب الطويلة تنهال عليه فيها الأسئلة طوراً والطلبات طوراً ؛ ولا يكاد المساء يقبل حتى يكون آخر ما يملك من مرتبه قد مضى بغير رجعة ، وبقيت له بعد ذلك الحسرة عليه ، وكلمات التأنيب المر من الزوجة تشكو مصيرها المظلم وحظها التعس ، ومن الأولاد يضجون بالشكوى من إهمالهم وعدم العناية بمطالبهم ، حتى الفتاة لم تكن ترضى ، فطالما تمتمت بألفاظ تنم عن التحقير لهذا الزمان ، الذي جعلها ابنة لهذا الرجل الذي لا يتسع مرتبه لشراء ثوب جديد كل شهر ، والذي اتسع مرتبه ذات مرة لشراء الثوب ، فهو عبرة العبر بين الآباء ، إذ يشترى لابنته ثوباً ولا يشترى معه حذاءً يلائمه ، وجورباً يخفى من سيقانها ما أفسدت الطبيعة .

كان يرعى هذا القطيع الضال وحده بلا نصير ولا معين ، لم تكن هناك أية بارقة أمل في ولديه ، فقد نشآ لا يبشران بخير ، ولا ينم وجهاهما عن فلاح ؛ فأكبرهما ما كاد يدخل في سلك التعليم حتى انهالت على أبيه الشكوى من كل جانب ؛ فالمدرسون يضجون من غبائه وشراسته ، وزملاؤه الصغار ليس منهم من لم تترك قطاطته أثراً في وجهه أو يديه أو ساقيه ، وناظرة الروضة لا يمضى أسبوع دون أن تستدعى الوالد لتأنيبه على تقصيره في رعاية ولده والعناية به . وما كان الوالد ليقصر أو يهمل . أما الولد الأصغر فقد كان سر أخيه ، ما كاد يخطو إلى روضة الأطفال حتى كان أخوه قد وصل إلى الدراسة الابتدائية ، وحتى كان يقيم المدرسة ويقعدها بما يثير من مشاحنات ومشكلات ، وحتى كانت الأخت تودع باب المدرسة غير مأسوف عليها إلى غير رجعة مشيعة بخطاب يؤهلها للبقاء إلى الأبد بين جدران سجن الأحداث ، لكي تقر في المنزل إلى جانب أمها هماً جديداً يثقل على أكتاف الأب المسكين .

ظل يرعى هذا القطيع أعواماً ، ساعات الراحة من هذا العناء هي ساعات عمله بعيداً عن المنزل ، هناك كان يتناسى إلى حد ما أن له زوجة وأولاداً ، وينصرف إلى عمله في جد ونشاط ، لا يتيح لنفسه لحظة راحة واحدة لئلا يذكر أن له زوجة وأولاداً . حتى إذا أقبلت ساعة الانصراف من العمل مضى إلى المنزل ، وذهنه يرسم لشقائه المقبل صورا رهيبة مفزعة . ولكن

صورة واحدة من هذه الصور لم تضارع الواقع هولا وبشاعة .

كان مثلا يتخيل أنه سيدخل المنزل فيجد الزوجة صارخة معولة تشكو شجارا نشب مع الجيران ، كانت فيه البريئة المضطهدة ، ويجد ابنه الأكبر جالسا إلى جوار أمه مطرودا من المدرسة لاعتدائه على زميل ، بينما يشكو الصغير ويبكي لجرح دام شج رأسه أصيب به وهو يتسلق إحدى مركبات الترام ، وعليه أن يحل هذه المشكلات ، وحده فيسوق الجيران أسرى حرب إلى زوجته يلتمسون منها الغفران ، ويعيد الابن إلى المدرسة معززاً مكرماً يسير في ركابه الناظر والمدرسون ويهتف باسمه التلاميذ ، ويشفي جراحات الابن الأصغر فيجعله لا يحس ألما ، ولا يتحسس جرحا ، فإن لم يفعل فهو ليس برجل ولا رب أسرة .

وكان الواقع دائماً يخيب هذه الأحلام ، فلا يجد مثلا إلا كارثة بسيطة ، فالأم لم تتشاجر ، ولا الابن طرد ، ولا الصغير جرح . كل ما حدث أن ابنته سبت زوجة الجار سباباً يقذف بها إلى أبواب المحاكم ، فلم يطق الزوج صبراً ، ولم تحاول الأم اعتذاراً ، ورفع الأمر إلى القضاء ، وعليه وحده أن ينتظر حكم القضاء .

وكانت مشكلة المشاكل في حياته دائما تلك الفترة التي تسبق الأعياد ، فما من فرد في أسرته إلا وله مطالب ؛ فالملابس الجديدة أمر لا مفر منه لكل واحد حتى الأم ؛ ولا بد من استنزال الرحمة على أجداث هؤلاء الأبطال الذين أنجبوا تلك الأم وتفننوا في إنجابها . ولا تنزل الرحمة إلا محمولة على أقراص الفطائر وأطباق الكعك ، ولا تعزز الرحمة إلا إذا غزر السمن وطاب الدقيق وحلا السكر وزاد القدر ؛ وليس أحق منه بعرفان قدر هؤلاء الأبطال واستنزال الرحمة عليهم ، وهو الذي اختصه الله دون عباده بنتاجهم البارع ...

فإذا كان عيد الأضحى فقد أضيفت إلى المطالب حاجة لا بد منها هي خروف العيد ، ولا بد أن يشرف المنزل قبل العيد بأسبوع ليملأ بصياحه أرجاء المنزل ، وليشعر من لا يشعر أن هناك خروفاً طويل القرن مثقلاً بالشحم واللحم ، غليظ الصوت والجثة ، وأن هذا الخروف في شقة السيدة المحترمة .

إنه ليحقق دائما هذه المطالب ، يحققها مهما تكلف من عناء ، ظل يحققها حتى حين تعددت أبواب الصرف وتنوعت بين تكاليف المنزل ومصروفات المدارس ، وحتى حين ارتفعت تكاليف العيش . جاء خروف العيد قبل العيد بأسبوع ، وقضى قبل العيد أيضاً .

خرج في الصباح وقد وعد بإحضاره ، وذهب إلى محل عمله حيث استأذن من رئيسه ، ومضى يذرع الشوارع باحثاً عن الخروف .

كان ما يملكه من حطام مرتبه جنيهين ونصف جنيه هي كل ما بقي له ، وكان قد عزم على أن يشتري الخروف في حدود جنيهين ، ويدخر النصف الباقي لما يجد من مطالب ، فأعياه البحث دون أن يصل إلى غرضه : خروف سمين زنار بجنيهين ! ترى أين يجد غرضه ؟

كلت أقدامه من السير ، وصدئت آذانه لكثرة ما سمع من سخرية البائعين وتسفيههم ، منهم من ينصحه في خبث أن يشتري زوجاً من الفراخ ، ومنهم من يسفهه لإقدامه على المساومة في ثمن خروف وهو لا يملك ما يشتري به عنزة مريضة ، ومنهم من يترفق به ويشفق عليه فينصحه بالعدول عن شراء خروف والاكتفاء بأرطال يسيرة من اللحم تسد حاجة الأسرة .

أرطال من اللحم ؟ وما الذي يبعث الصراخ في المنزل إن لم يشرف الخروف بجلده وصوفه ؟

لم يتردد عقله فى رفض هذا الاقتراح وشبح الزوجة أمام عينيه ، لذلك مضى فى بحثه ، وتكرر فشله ، وأعياه السير حتى وفق أخيراً .

كانت الشمس تميل نحو الغروب حين التقى عند ناصية شارع ضيق بتاجر بسوق خرافا تكاد ترى مثله من الإعياء ، فداعبه الأمل ، ولمحت عيناه من بينها خروفا قد استوفى ما افترض من شروط .

وتقدم إلى الرجل سائلا عن ثمنه ، وساومه الرجل فى دهاء لم يحس معه صاحبنا مدى تساهله ورغبته فى بيع الخروف ، فقد قبل أخيراً أن يبيعه إياه لقاء جنيهين ، واستراحت نفسه وهو يسير إلى المنزل وقد أرخى الليل أطراف أجنحته الشفافة وفى صحبته خروف العيد ، وكان سميناً يملأ عين الزوجة ، ضخماً يشبع بطون الأولاد ، عالى الصوت ...

سرعان ما ذكر ذلك . أهو عالى الصوت حقاً ؟

يالله ! لشد ما نسى ذلك ! كيف حدث ؟ إن الخروف لم يشرفه بعد بصوته الداوى ، كيف لم تتردد مأمأته إلى الآن ؟

أزعجته هذه الخواطر ، فنظر إلى صاحبه وهو يتبعه فى انكسار وذلة ، وكان هو أشد منه انكساراً .

وسأله أن يرسل صوته فرفض ، فربت على كتفه متوسلا فأصر صاحبنا على الرفض ، فلم يكن بد من الركل ، وركله بقدمه فلم يتأوه ، وأهوى عليه بالعصا فما اشتكى .

تضاربت فى رأسه الشكوك ، ترى أيكون صاحبنا أخرس لا ينطق ؟ أم ؟ أم هو صبور لا يشكو ؟

التقت العيون فى نظرة خاطفة ، حملت إلى نفسه معانى كثيرة غامضة ، كان أوضحها الصبر الذى يحتمل به ذلك الحيوان الأذى . إنه يصبر مثله فلا ينطلق لسانه . كل آيات الألم عنده دمعتان تترقرقان فى عينيه ولا تسقطان ، يلوحان تشفان من عينين مقروحتين أضناهما الألم .

وفيم هذا الشحم واللحم إذاً ؟

لشد ما استسخف هذا التساؤل وقد ارتد بصره إلى ذاته هو ، إنه يفيض أيضاً شحما ولحما ، إنه حين يترجرج جسمه كأنه قدر تفيض بسائل يغلى .

وفرغت خواطره ، وعاد إلى توسله وقد قارب المنزل . كان توسله إذ ذاك بغير العصا ، كان توسل صديق لصديق كادت عيناه أن تغرورقا بالدمع ، فرقّ الضعيف للضعيف . ونطق الخروف أخيراً .

أرسل صوتاً مبحوحا كأنه النحيب ، لا قوة فيه ولا نشاط ، فانخلع قلبه للفجيعة .

مثل هذا الجسم الضخم يرسل ذلك الأنين الضعيف ، وأين الصراخ الداوى ، والصوت الجبار ؟

وارتدت أفكاره إلى نفسه هو ، إذ ذكر أنه أيضاً على ضخامته بقى فى الحياة عشرين عاما ولا يملك صوتاً يجلجل يبعث الرعب ويعبر عن الغضب ...

واجتمعت الأسرة على طرق الباب تستقبل الأب الظافر يجر الأسلاب ؛ وكان المنظر رائعاً لم تملك معه الأم أن تخفى إعجابها بروعته ، فربتت على أكتاف الخروف فى تحفظ ، وأرسلت كلمة رضا مغتصبة ، كأنما تمن بها على متسول .

كان شارداً يفكر فى موضوع آخر أقلق باله .

لم لا يرسل الخروف صوته عاليا ؟ أمن مرض يشكوه هذا الاختناق فى صوته ، أم هو خجل الغريب ؟

ولكنه لم يصل إلى جواب ؛ فآثر السلامة واستكان إلى تجاهل مخاوفه .

ومضى اليوم الأول على الضيف العزيز ، ولم يؤنس البيت صوته .

وتفاقم الحال في اليوم التالي ، إذ أرسل صاحبنا أنه من ألمه أكرت البيت وأقلقت الأسرة وأقعدتها ، فأخذ الكل يوجهون اللوم إلى الأب وقد أحضر خروفاً حياً لا يثبت وجوده ولا يعلن عن شخصيته .

وجهد الرجل أن يقنعهم أنه إنما يدخر صوته ليوم الوقفة حتى يعلو على أصوات خرفان الجيران ، وأن للسمنة المفرطة أثراً في الكسل الذي يبقيه من بطء في حركته وارتخاء في أعضائه .

ومضت الأيام وأقبل يوم الوقفة ، وهبت الأسرة مذعورة تسمع نعي الخروف يردده الخادم في صراخ مزعج ، فانطلق الجمع كالسهم نحو سطح المنزل ، وإذا صاحبنا ممدد على الأرض جثة هامدة ، فوقفوا جامدين ينظرون إليه في حقد وغضب نظرات يشوبها الاشمئزاز من تلك الجيفة ، ومضت لحظات قبل أن ينصرفوا بعد توديعه وداعاً سيئاً .

مضوا جميعاً إلى السلم إلا الوالد . فقد تقدم في أسى وجهمة ، ومد يديه حتى لمستا رأس الخروف الميت ، فرفعه في بطء ، ونظر إلى عينيه ولا زالت الدمعتان تترقرقان في مآقيهما ، فانحدرت من عينيه دمعتان ، ولكنهما أيضاً لم تسقطا . ظلتا على حافتي عينيه كأنهما بلورتان تشدان من مشهد مؤلم . .

وهمست شفتاه وهو يضع رأسه ثانياً في رفق وحنان :

— لم تسرعت . أيها الصديق ؟

صلاح الدين ذهني

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين . مصر